شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح
نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

١ ـ ٢

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
خلوي: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٤٠٨
http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com

دار الكتاب العربي
بغداد - شارع المتنبي
تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الأول

١ - ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العَدْل. الحمد لله الذي تفرّد بالكمال، فكلُّ كاملٍ سواه منقوص، واستوعبَ عموم المحامد والممادح، فكلُّ ذي عموم عداه مخصوص، الذي وزّع مُنْفِساتِ نعمِه بين مَنْ يشاء من خَلْقه، واقتضت حكمتُه أن نافسَ الحاذِقَ في حِذْقه فاحتُسِب به عليه من رزقه، وزَوَى الدنيا عن الفضلاء فلم يأخذْها الشريفُ بشرفه، ولا السابق بسبْقه. وقدّم المفضولَ على الأفضل لمصلحة اقتضاها التكليف، واختَصّ الأفضلَ من جلائل المآثر ونفائس المفاخر بما يعظُم عن التشبيه، ويَجِلّ عن التكييف. وصلّى الله على رسوله محمد، الذي المكنّى عنه شُعاع من شمسه، وغصن من غَرْسه، وقوة من قُوَى نفسه، ومنسوب إليه نسبةَ الغدِ إلى يومه واليوم إلى أمسه، فما هما إلاّ سابق ولاحق، وقائد وسائق، وساكت وناطق، ومُجَلٌّ ومُصَلٌّ، سبقا لمحةَ البارق، وأنارا سُدْفة الغاسق، صلّى الله عليهما ما استُخْلِبَ خَبِيرٌ، وتناوح حِراء وثَبِير.

وبعد، فإنّ مراسمَ المولى الوزير الأعظم، الصاحب، الصدر الكبير المعظّم العالم العادل المظفّر المنصور المجاهد، المرابط، مؤيّد الدين عضد الإسلام، سيد وزراء الشرق والغرب، أبي طالب محمد بْنُ أحمد بن محمد العلقميّ، نصير أمير المؤمنين - أسبغ الله عليه من ملابس النعم أضفاها، وأحلّه من مراقب السعادة ومراتب السيادة أشرفَها وأعلاها - لما شرّفتْ عبدَ دولته، وربيبَ نعمته بالاهتمام بشرح «نهج البلاغة» - على صاحبه أفضل الصلوات، ولذكره أطيب التحيات - بادر إلى ذلك مبادرةَ مَنْ بعثه مِن قبلُ عزم، ثم حَمَله أمرٌ جَزْم، وشرع فيه بادِيَ الرأيِ شروع مختِصر، وعلى ذكْر الغريب والمعنى مقتِصر، ثم تعقّب الفِكر، فرأى أنّ هذه النُّغْبة[1] لا تَشفي أواماً[2]، ولا تزيد الحائمَ[3] إلا حِياماً، فتنكّب ذلك المسلك، ورفض ذلك المنهج، وبسط القول في شرحه بسطاً اشتمل على الغريب والمعاني وعلم البيان، وما عساه يشتبه ويُشكِل من الإعراب والتصريف، وأوْرَد في كلّ موضع ما يطابقه من النظائر والأشباه، نثراً ونظماً، وذكَر ما يتضمّنه من السِّيَر والوقائع والأحداث فصلاً فصلاً.

وأشار إلى ما ينطوي عليه من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة، ولوَّح إلى ما يستدعي الشرحُ ذكرهَ من الأنساب والأمثال والنّكت تلويحاتٍ لطيفة، ورصّعه من المواعظ

(١) النغبة: هي الجرعة. اللسان، مادة (نغب).
(٢) أواماً: الأوام هو العطش. اللسان، مادة (أوم).
(٣) الحائم: العَطِشُ: اللسان، مادة (حَوَمَ).

الزهدية، والزواجر الدينية، والحِكَم النفسية، والآداب الخلقية، المناسبة لِفقْرِه، والمشاكلة لِدُرره، والمنتظمة مع معانيه في سِمْط، والمتّسقة مع جواهره في لَطّ[1]، بما يهزَأ بشنوف النُّضَار، ويُخجِل قطع الرّوض غِبّ القِطار. وأوضحَ ما يوميء إليه من المسائل الفقهيّة، وبرهن على أنّ كثيراً من فصوله داخل في باب المعجزات المحمدية، لاشتمالها على الأخبار الغيبية، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية. وَبَيَّن من مقامات العارفين، التي يَرمِز إليها في كلامه ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يُدرِكه إلا الروحانيون المقرّبون.

وكشف عن مَقاصده عليه السلام في لفظة يرسلها، ومعضِلَةٍ يَكْنِي عنها، وغامضة يعرّض بها، وخفَايا يُجمجِم بذكرها، وهَناتٍ تجيش في صدره فينفُثُ بها نَفْثةَ المصدور، ومُرْمِضاتٍ[2] مؤلمات يشكُوها فيستريح بشكواها استراحةَ المكروب.

فخرج هذا الكتاب كتاباً كاملاً في فَنّه، واحداً بين أبناء جنسه، مُمْتِعاً بمحاسنه، جليلةً فوائدُه، شريفة مقاصدُه، عظيماً شأنه، عالية منزلته ومكانه، ولا عجب أن يُتقرّب بسيّد الكتُب إلى سيد الملوك، وبجامع الفضائل إلى جامع المناقب، وبواحد العصر إلى أوحد الدهر، فالأشياء بأمثالها أليق، وإلى أشكالها أقرب، وشِبْه الشيء إليه منجذِب، ونحوه دان ومقترب.

ولم يشرحْ هذا الكتاب قبلي ـ فيما أعلمه - إلا واحد، وهو سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه المعروف بالقُطْب الراونديّ، وكان من فقهاء الإمامية، ولم يكن من رجال هذا الكتاب، لاقتصاره مدَّةَ عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده، وأنّى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة، ويخوضَ في هذه العلوم المتشعبة! لا جَرمَ أنّ شرحه لا يخفى حالُه عن الذكيّ، وجَرَى الوادي فَطمّ على القَرِيّ. وقد تعرَّضتُ في هذا الشرح لمناقضته في مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها، وأعرضت عن كثير مما قاله، إذْ لم أر في ذكرِه ونقْضِه كبير فائدة.

وأنا قبل أن أشرعَ في الشرح أذكر أقوال أصحابِنا رحمهم الله في الإمامة والتفضيل والبُغاة والخوارج. ومُتْبِعٌ ذلك بذكر نسب أمير المؤمنين عليه السلام، ولمع يسيرة من فضائله، ثم أثلّث بذكر نسب الرضيّ أبي الحسن محمد بن الحسين الموسويّ رحمه الله، وبعض خصائصه ومناقبه. ثم أشرع في شرح خطبة «نهج البلاغة» التي هي من كلام الرضيّ أبي الحسن رحمه الله، فإذا انتهيت من ذلك كلّه ابتدأت بعون الله وتوفيقه في شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً فشيئاً.

---

(١) اللط: القلادة. اللسان، مادة (لطط).

(٢) الرمض: اشتداد غليان الجوف. القاموس المحيط، مادة (رمض).

ومن الله سبحانه استمدّ المعونة، واستدرّ أسباب العصمة، وأستميح غمائم الرحمة، وأمتري أخلاف البركة[1]، وأشيمُ بارق النماء والزيادة، فما المرجوّ إلاّ فضلُه، ولا المأمول إلا طَوْلُه، ولا الوثوق إلا برحمته، ولا السكون إلا إلى رأفته، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾[2]

القول في نسب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وذكر لُمَع يسيرة من فضائله

هو أبو الحسن عليّ بن أبي طالب - واسمه عبد مناف - بن عبد المطلب - واسمه شيبة - ابن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف بن قصيّ. الغالبُ عليه من الكنية عليه السلام أبو الحسن. وكان ابنه الحسن عليه السلام يدعوه في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا الحسين، ويدعوه الحسين عليه السلام أبا الحسن، ويدعوَان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أباهما، فلما تُوفِّيَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دعوَاه بأبيهما.

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا تراب، وَجَده نائماً في تراب، قد سقط عنه رداؤه، وأصاب التراب جَسَده، فجاء حتى جلس عند رأسه، وأيقظه، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له: «اجلس، إنّما أنت أبو تراب»[3]. فكانتْ من أحبّ كناه إليه صلوات الله عليه، وكان يفرح إذا دُعِيَ بها، وكانت تُرَغِّب بنو أمية خطباءها أن يسبُّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصةً له ووصْمة عليه، فكأنّما كسوْه بها الحَلْيَ والحُلل، كما قال الحسن البصريّ رحمه الله.

وكان اسمه الأول الذي سمّته به أمه حَيْدَرة، باسم أبيها أسد بن هاشم - والحيْدرة: الأسد - فغيّر أبوه اسمه، وسمّاه عليًّا.

وقيل: إن حيدرةَ اسمٌ كانت قريش تسمِّيه به. والقول الأول أصحّ، يدلّ عليه خبرُه يوم بَرز إليه مَرْحب، وارتجز عليه فقال:

أنـا الـذي سـمّـتْـنِـيَ أمّـي مَـرْحَـبـاً

فأجابه عليه السلام رجزاً:

أنـا الـذي سـمّـتـنِـيَ أمـي حَـيْـدَرَهْ

ورجَزُهما معاً مشهور منقول لا حاجة لنا الآن إلى ذكره.

---

(١) يتماتر: أي يتجاذب، اللسان، مادة (متر).

(٢) سورة الممتحنة، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: نوم الرجال في المسجد (٤٤١)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٩).

وتزعم الشيعة أنه خوطب في حياة رسول الله ﷺ بـ«أمير المؤمنين»، خاطَبه بذلك جِلّة المهاجرين والأنصار، ولـم يثبتْ ذلك في أخبار المحدّثين، إلا أنهم قد رووْا ما يُعطِي هذا المعنى، وإن لم يكن اللفظَ بعينه، وهو قول رسول الله ﷺ له: «أنت يَعْسُوب الدّين والمالُ يعسوب الظَّلَمة»[1]، وفي رواية أخرى: «هذا يعسوب المؤمنين، وقائد الغرّ المحجّلين». واليعسوب: ذَكرَ النَّحل وأميرها. روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانيُّ في «المسند»[2] في كتابه «فضائل الصحابة»، ورواهما أبو نُعَيم الحافظ في «حلية الأولياء»[3].

ودُعِي بعد وفاة رسول الله ﷺ بوصيّ رسول الله، لوصايته إليه بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ذلك، ولكن يقولون: إنها لم تكن وصيةً بالخلافة، بل بكثير من المتجددات بعده، أفضى بها إليه عليه السلام. وسنذكر طرفاً من هذا المعنى فيما بعد.

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ، أوّل هاشمية وَلَدَت لهاشميّ، كان عليّ عليه السلام أصْغرَ بنيها، وجعفر أسنّ منه بعشر سنين، وعقِيل أسنّ منه بعشر سنين، وطالب أسنّ من عَقِيل بعشر سنين، وفاطمة بنت أسد أمّهم جميعاً.

وأمّ فاطمة بنت أسد فاطمة بنت هرم بن رواحة بن حُجْر بن عبد بن مَعِيص ابن عامر بن لؤيّ. وأمها حديّة بنت وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر. وأمّها فاطمة بنت عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤيّ. وأمّها سلمى بنت عامر بن ربيعة بن هلال بن أُهَيْب بن ضبّة بن الحارث بن فهر. وأمها عاتكة بنت أبي هَمْهَمَة - واسمه عمرو بن عبد العزيّ - بن عامر بن عُمَيرة بن وديعة بن الحارث بن فِهْر، وأمّها تُماضر بنت عمرو بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي، وأمها حبيبة، وهي أمة الله بنت عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم بن قسيّ، وهو ثقيف. وأمّها فلانة بنت مخزوم بن أسامة بن ضبع بن وائلة بن نصر بن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو بن قَيْن بن فَهْم بن عمرو بن قيس بن عَيْلان بن مضر. وأمها رَيْطة بنت يسار بن مالك بن حُطَيْط بن جُشَم بن ثقيف. وأمها كلّة بنت حصين بن سعد بن بكر بن هوازن. وأمها حُبّي بنت الحارث ابن

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٨٤)، والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٤٧).
(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ) يشتمل على ثلاثين ألف حديث، وهو كتاب جليل من جملة أصول الإسلام. «كشف الظنون» (٢/ ١٦٨٠).
(٣) حلية الأولياء في الحديث: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة (٤٣٠هـ)، مجلد ضخم، وهو كتاب حسن معتبر يتضمن أسامي جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة الأعلام والمحققين والمتصوفة والنساك وبعض أحاديثهم وكلامهم. «كشف الظنون» (١/ ٦٨٩).

النابغة بن عميرة بن عوف بن نصر بن بكر بن هوازن. ذكر هذا النسب أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهاني في كتاب «مقاتل الطالبيين».

أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين، وكانت الحادية عشرة، وكان رسول الله ﷺ يكرمها ويعظّمها ويدعوها: «أمي»، وأوصتْ إليه حين حضرتْها الوفاة، فقَبِل وصيتَها، وصلّى عليها، ونَزَل في لَحدها، واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصَه، فقال له أصحابه: إنّا ما رأيناك صنعتَ يا رسول الله بأحد ما صنعتَ بها، فقال: «إنّه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرَّ بي منها، وإنما ألبستُها قميصي لتُكسَى من حُلَل الجنة، واضطجعتُ معها ليهونَ عليها ضغطةُ القبر»(١).

وفاطمة أوّل امرَأة بايعت رسول الله ﷺ من النساء.

وأمّ أبي طالب بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. وهي أم عبد الله، والد سيدنا رسول الله ﷺ، وأمّ الزبير بن عبد المطلب، وسائرُ ولد عبد المطلب بَعْدُ لأمهات شتى.

واختُلف في مولد عليّ عليه السلام أين كان؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة، والمحدّثون لا يعترفون بذلك(٢)، ويزعمون أنّ المولود في الكعبة حكِيم بن حِزام بن خويلد بن أسد بن عبد العُزّى بْنُ قصيّ.

واختلف في سنّه حين أظهر النبيّ ﷺ الدعوة، إذْ تكامل له صلوات الله عليه أربعون سنة، فالأشهرُ من الروايات أنه كان ابنَ عشر. وكثير من أصحابنا المتكلّمين يقولون: إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة، ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم البلخيّ وغيره من شيوخنا.

والأوّلون يقولون: إنّه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة، وهؤلاء يقولون: ابن ستّ وستين، والروايات في ذلك مختلفة. ومن الناس من يزعم أن سنّه كانت دون العشر، والأكثر الأظهر خلاف ذلك.

وذكر أحمد بن يحيى البلاذريّ وعليّ بن الحسين الأصفهاني أن قريشاً أصابتْها أزمة وقَحط، فقال رسول الله ﷺ لعمّيه، حمزة والعباس: «ألا نحمِل ثِقَلَ أبي طالب في هذا المَحْل!»، فجاؤوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولَده ليَكْفوه أمرهم، فقال: دَعُوا لي عَقِيلاً وخذوا

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٩٣٥).

(٢) روى ولادته في الكعبة الشبلنجي في نور الأبصار: ١٥٦، والمسعودي في المروج: ٢/ ٣٤٨، وسبط ابن الجوزي في التذكرة: ٢٠ وانظر تاريخ الخميس: ١/ ٢٧٩، وفرائد السمطين: ١/ ٤٢٦.

مَنْ شئتم ـ وكان شديد الحبّ لعَقِيل ـ فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ محمد ﷺ عليًا، وقال لهم: «قد اخترت ـ من اختاره الله لي عليكم ـ عليًا»، قالوا: فكان عليّ عليه السلام في حِجْر رسول الله ﷺ، منذ كان عمره ستّ سنين.

وكان ما يُسْدِي إليه صلواتُ الله عليه من إحسانه وشفقته وبِرّه وحسن تربيته، كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبي طالب به، حيث مات عبد المطلب وجَعَله في حِجْره. وهذا يطابق قوله عليه السلام: لقد عبدتُ الله قبل أنْ يعبدَه أحد من هذه الأمة سبع سنين، وقوله: كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً، ورسول الله ﷺ حينئذ صامت ما أُذِنَ له في الإنذار والتبليغ، وذلك لأنه إذا كان عمرُه يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسليمه إلى رسول الله ﷺ من أبيه وهو ابن ستّ، فقد صحّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين، وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان ذا تمييز، على أنّ عبادةَ مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب، واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئاً من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة، ومثلُ هذا موجود في الصبيان.

وقتِل عليه السلام ليلة الجمعة لثلاث عشرة بَقِين من شهر رمضان، سنة أربعين في رواية أبي عبد الرحمن السُّلمِيّ ـ وهي الرواية المشهورة ـ وفي رواية أبي مِخْنف أنها كانت لإحدى عشرة ليلةً بَقِين من شهر رمضان، وعليه الشيعةُ في زماننا.

والقول الأول أثبتُ عند المحدّثين، والليلة السابعة عشرة من شهر رمضان هي ليلة بدر، وقد كانت الروايات وردت أنه يقتل في ليلة بدر، عليه السلام. وقبره بالغَرِيّ.

وما يدّعيه أصحاب الحديث ـ من الاختلاف في قبره، وأنّه حُمِل إلى المدينة، أو أنّه دفِن في رحبة الجامع، أو عند باب قصر الإمارة، أو نَدّ البعير الذي حُمِل عليه فأخذتْه الأعراب ـ باطل كلّه، لا حقيقة له، وأولاده أعرفُ بقبره، وأولاد كلّ الناس أعرفُ بقبور آبائهم من الأجانب، وهذا القبر الذي زاره بنوه لما قَدِموا العراق، منهم جعفر بن محمد عليه السلام وغيرهُ من أكابرهم وأعيانهم.

وروي أبو الفرج في «مقاتل الطالبيين» بإسناد ذكره هناك أن الحسين عليه السلام لما سئل: أين دفنتم أمير المؤمنين؟ فقال: خرجنا به ليلاً من منزله بالكوفة، حتى مررنا به على مسجد الأشعث، حتى انتهينا به إلى الظَّهر بجنب الغَرِيّ.

وسنذكر خبر مقتله عليه السلام فيما بعد.

فأما فضائله عليه السلام، فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمُجُ معه التعرّض لذكرها، والتصدّي لتفصيلها، فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن

خاقان وزير المتوكل والمعتمد: رأيتُني فيما أتعاطى من وصف فضلك، كالمخبرِ عن ضَوْء النهار الباهر، والقمرِ الزاهر، الذي لا يخفى على الناظر، فأيقنت أنّي حيث انتهى بيَ القولُ منسوب إلى العجز، مقصّر عن الغاية، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبارَ عنك إلى علم الناس بك.

وأما أقولُ في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جَحْدُ مناقبه، ولا كتمانُ فضائله، فقد علمتَ أنه استولى بنو أميةَ على سلطان الإسلام في شرق الأرضِ وغربها، واجتهدوا بكلّ حيلة في إطفاء نوره، والتحريضِ عليه، ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعّدوا مادِحِيه، بل حبسوهم وقتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة، أو يرفع له ذكراً، حتى حظَروا أنْ يسمَّى أحد باسمه، فما زاده ذلك إلا رفعةً وسُمُوًّا، وكان كالمسك كلّما سُتِر انتشر عَرْفه، وكلّما كُتِم تَضوَّع نَشره، وكالشمس لا تُسْتَر بالراح، وكضوْء النهار إن حُجِبت عند عين واحدة، أدركته عيون كثيرة.

وما أقول في رجل تُعْزَى إليه كلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كل فِرْقة، وتتجاذبه كلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل ويَنبوعها، وأبو عُذْرِها، وسابق مضمارها، ومجلِّي حَلْبتها، كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى.

وقد عرفت أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلٰهيّ، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم. ومن كلامه عليه السلام اقتبس، وعنه نقل، وإليه انتهى، ومنه ابتدأ، فإنّ المعتزلة ـ الذين هم أهلُ التوحيد والعدْل، وأرباب النظر، ومنهم تعلّم الناس هذا الفن – تلامذتُه وأصحابه، لأنّ كَبيرَهم واصل بن عطاء تلميذُ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام. وأما الأشعريّة فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليّ بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعريّ، وهو تلميذ أبي عليّ الجُبّائيّ، وأبو عليّ أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعريّة ينتهون بآخَرَةٍ إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم، وهو عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر.

ومن العلوم علم الفقه، وهو عليه السلام أصله وأساسه، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه، ومستفيد من فقهه، أما أصحابُ أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة، وأما الشافعيّ فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعيّ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبي حينفة، وأبو حنيفة قرأ على

جعفر بن محمد عليه السلام، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام، وينتهي الأمر إلى عليّ عليه السلام. وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عِكْرمة، وقرأ عِكْرمة على عبد الله بن عباس، و قرأ عبد الله بن عباس على عليّ بن أبي طالب، وإن شئت فرددتَ إليه فقه الشافعيّ بقراءته على مالك كان لك ذلك، فهؤلاء الفقهاء الأربعة.

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر. وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا: عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس، وكلاهما أخذ عن عليّ عليه السلام. أما ابنُ عباس فظاهر، وأمّا عمر فقد عَرَف كلّ أحدٍ رجوعَه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلي غيره من الصحابة، وقولَه غير مرّة: «لولا عليٌّ لهلك عمر»[١]، وقوله: «لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن»[٢]، وقوله: «لا يُفتِيَنَّ أحد في المسجد وعليّ حاضر»[٣]، فقد عُرِف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه.

وقد روت العامة والخاصّة قوله صلى الله عليه وآله: «أقضاكم عليّ»[٤]، والقضاء هو الفقه، فهو إذاً أفقهُهُم. وروى الكلّ أيضاً أنّه عليه السلام قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً: «اللهمّ اهدِ قلبه وثبّت لسانه»[٥]، قال: فما شككتُ بعدها في قضاء بين اثنين، وهو عليه السلام الّذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر، وهو الذي أفتى في الحامل الزانية، وهو الذي قال في المنبريّة: صار ثُمُنها تُسْعاً. وهذه المسألة لو فكّر الفَرَضِيّ فيها فكراً طويلاً لاستَحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب، فما ظنّك بمن قاله بديهة، واقتضبه ارتجالاً!

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخِذَ، ومنه فُرّع. وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمتَ صحة ذلك، لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس، وقد علم الناس حالَ ابن عباس في ملازمته له، وانقطاعه إليه، وأنّه تلميذُه وخرّيجه. وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك؟ فقال: كنِسْبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط.

ومن العلوم علمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف، وقد عرفتَ أن أربابَ هذا الفنّ في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون، وعنده يقفون، وقد صرّح بذلك الشِّبْليّ، والجُنَيد، وسَرِيّ،

---

(١) ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص (١٦٢).
(٢) رواه الشبلنجي في نور الأبصار: ١٦١، وسبط ابن الجوزي في التذكرة: ١٣٧.
(٣) رواه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٤١/ ١٤١.
(٤) أخرجه البخاري موقوفاً إلى سيدنا عمر، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ (٤٤٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٥٨١).
(٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الأقضية، باب: كيف القضاء (٣٥٨٢)، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب: ذكر القضاة (٢٣١٠)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٤).

وأبو يزيد البِسْطاميّ، وأبو محفوظ معروف الكرخيّ، وغيرهم. ويكفيك دَلالة على ذلك الخِرْقة التي هي شعارهم إلى اليوم، وكونهم يُسنِدونها بإسناد متّصل إليه عليه السلام.

ومن العلوم علم النّحو والعربية، وقد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدعه وأنشأه، وأمْلَى على أبي الأسود الدؤلي جوامعَه وأصوله، من جملتها: الكلام كلّه ثلاثة أشياء: اسم وفعل وحرف، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات، لأن القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر، ولا تنهض بهذا الاستنباط.

وإن رجعت إلى الخصائص الخُلقيّة والفضائل النفسانية والدينية وجدتَه ابن جَلاها وطَلاّع ثناياها.

وأما الشجاعة فإنه أنسَى الناسَ فيها ذكر مَنْ كان قبله، ومحا اسمَ من يأتي بعده، ومقاماتُه في الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة، وهو الشجاع الذي ما فرّ قطّ، ولا ارتاع من كَتيبة، ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى ثانية، وفي الحديث: «كَانَتْ ضَرَباته وتراً»[1]. ولما دعا معاويةَ إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما، قال له عمرو: لقد أنصفك، فقال معاوية: ما غششتني منذ نصحتني إلا اليوم، أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرِق! أراك طمعت في إمارة الشام بعدي! وكانت العرب تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابلته، فأما قتلاه فافتخارُ رهطِهم بأنه عليه السلام قتَلهم أظهرُ وأكثر، قالت أخت عمرو ابن عبد وَدّ ترثيه:

لو كان قاتلُ عمرٍو غيرَ قَاتِلِهِ ... بكيتُه أبَداً ما دُمْتُ في الأبدِ

لكنَّ قاتِلَهُ مَنْ لا نظيرَ له ... وكان يُدْعَى أبوه بَيْضةَ البَلَدِ

وانتبه يوماً معاوية، فرأى عبد الله بن الزُّبير جالساً تحت رجليه على سريره فقعد، فقال له عبد الله يداعبه: يا أمير المؤمنين، لو شئت أن أفْتِك بك لفعلت، فقال: لقد شَجُعت بعدنا يا أبا بكر! قال: وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفتُ في الصف إزاء عليّ بن أبي طالب! قال: لا جَرَم، إنّه قتلك وأباك بيسرى يديه، وبقيتِ اليمنى فارغةً، يطلب مَنْ يقتله بها.

وجملة الأمر أن كلَّ شجاع في الدنيا إليه ينتهي، وباسمه ينادي في مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) انظر الصراط المستقيم للعاملي: ١/ ١٦١، وبحار الأنوار للمجلسي: ٤١/ ١٤٣.

وأما القوّة والأَيْد فبه يُضرب المثل فيهما، قال ابن قتيبة في «المعارف»(١): مَا صَارعَ أحداً قطّ إلا صرَعه. وهو الذي قَلع باب خَيْبَر، واجتمع عليه عُصبة من الناس ليقلِبوه فلم يقلبوه، وهو الذي اقتلع هُبَلَ من أعلى الكعبة وكان عظيماً جداً، وألقاه إلى الأرض. وهو الذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده بعد عَجْز الجيش كله عنها، وأنبط الماء من تحتها.

وأمّا السخاء والجود فحاله فيه ظاهرة، وكان يصوم ويَطْوِي ويُؤْثر بزاده، وفيه أنزل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾(٢). وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم، فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية، فأنزل فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾(٣).

وروي عنه أنّه كان يَسقِي بيده لنخْلِ قوم من يهود المدينة، حتى مَجَلَت يده، ويتصدق بالأجْرة، ويشدُّ على بطنه حجَراً.

وقال الشعبيّ وقد ذكره عَلَيْهِ السَّلَامُ: كان أسخَى الناس، كان على الخُلُق الذي يحبّه الله: السخاء والجود، ما قال: «لا» لسائل قطّ.

وقال عدوّه ومُبْغضِه الذي يجتهد في وَصْمِه وعيبه معاوية بن أبي سفيان لمِحْفَن بن أبي محْفَن الضبيّ لما قال له: جئتك مِنْ عند أبخل الناس، فقال: ويحك! كيف تقول إنّه أبخل الناس، لو مَلَك بيتاً من تِبْر وبيتاً من تِبْن لأنفد تِبْره قبل تِبْنِه.

وهو الذي كان يكنُس بيوت الأموال ويصلّي فيها. وهو الذي قال: يا صفراء، ويا بيضاء، غرّي غيري، وهو الذي لم يخلّف ميراثاً، وكانت الدنيا كلّها بيده إلاّ ما كان من الشام.

وأما الحلم والصفح فكان أحلمَ الناس عن ذَنْب، وأصفحَهم عن مسيء، وقد ظهر صحّة ما قلناه يومَ الجمل، حيث ظفرِ بمرْوان بن الحكم ـ وكان أعدَى الناس له، وأشدَّهم بغضاً ـ فصفح عنه.

وكان عبد الله بن الزّبير يشتِمه على رؤوس الأشهاد، وخطب يوم البصرة فقال: قد أتاكم

---

(١) المعارف في التاريخ: لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، المتوفى سنة (٢٦٧هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٧٢٤).

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.

الوَغْد اللئيم عليّ بن أبي طالب. وكان عليّ عليه السلام يقول: ما زال الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتى شبّ عبد الله، فظفر به يوم الجمل، فأخذه أسيراً، فصفح عنه، وقال: اذهب فلا أرَينَّك، لم يزده على ذلك.

وظفِر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة ـ وكان له عدوًّا - فأعرض عنه ولم يقلْ له شيئاً.

وقد علمتم ما كان من عائشة في أمره، فلما ظفِر بها أكرمها، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمهُنّ بالعمائم وقلّدهمّ بالسيوف، فلما كانت ببعض الطريق ذكرتْه بما لا يجوزُ أن يُذكَر به، وتأفّفت وقالت: هَتَك ستري برجاله وجنده الذين وكَلَهم بي. فلما وصلت المدينةَ ألقى النساء عمائمهنّ، وقلن لها: إنما نحن نسوة.

وحاربه أهل البصرة، وضربُوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف، وشتموه ولعنوه، فلما ظفر رفع السيف عنهم، ونادَى مناديه في أقطار العسكر: ألا لا يُتْبع مُولٍّ، ولا يُجهَزُ على جَرِيح، ولا يقُتَل مستأسر، ومَنْ ألقى سلاحه فهو آمن، ومن تحيّز إلى عسكر الإمام فهو آمن. ولم يأخذ أثقالَهم، ولا سبيَ ذراريَّهم، ولا غَنِم شيئاً من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو، وتقيّل سنةَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد، والإساءة لم تُنْسَ.

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء، وأحاطوا بشريعة الفرات، وقالت رؤساء الشام له: اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً، سألهم عليّ عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا لهم شِرْبَ الماء، فقالوا: لا والله، ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان، فلما رأى عليه السلام أنه الموتُ لا محالَة تقدّم بأصحابه، وحمل على عساكر معاوية حَمَلاتٍ كثيفة، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذَريع، سقطت منه الرؤوس والأيدي، وملكوا عليهم الماء، وصار أصحاب معاوية في الفَلاة، لا ماءَ لهم، فقال له أصحابه وشيعتُه: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك، ولا تَسقِهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب، فقال: لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، أفْسِحوا لهم عن بعض الشَّريعة، ففي حدّ السيف ما يغني عن ذلك. فهذه إن نَسَبْتَهَا إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالاً وحسناً، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلِقْ بمثلها أن تصدر عن مثله عليه السلام!

وأما الجهاد في سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنه سيّد المجاهدين، وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له! وقد عرفت أنّ أعظم غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّها نكاية في

المشركين بدر الكبرى، قُتِل فيها سبعون من المشركين، قَتَل عليّ نصفَهم، وقَتل المسلمون والملائكة النصف الآخر. وإذا رجعتَ إلى مغازي محمد بن عمر الواقديّ وتاريخ الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذُريّ وغيرهما علمت صحة ذلك، دعْ مَن قتله في غيرها كأحُد والخندق وغيرهما، وهذا الفصل لا معنى للإطناب فيه، لأنه من المعلومات الضرورية، كالعِلم بوجود مكّة ومصر ونحوهما.

وأمّا الفصاحةُ فهو عليه السلام إمام الفصحاء، وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين. ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة، قال عبد الحميد بن يحيى: حفظتُ سبعين خطبة من خطب الأصلع، ففاضت ثم فاضت. وقال ابن نُباتة: حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ عليّ بن أبي طالب.

ولما قال مِحْفن بن أبي مِحْفن لمعاوية: جئتك من عند أعْيَا الناس، قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس! فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره. ويكفي هذا الكتاب الذي نحن شارحوه دلالة على أنه لا يجارَي في الفصاحة، ولا يبارَي في البلاغة. وحسبك أنه لم يدوَّنْ لأحدٍ من فصحاء الصحابة العُشر ولا نصف العُشر مما دُوِّن له، وكفاك في هذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ في مدحه في كتاب «البيان والتبيين»[1] وفي غيره من كتبه.

وأما سجاحة الأخلاق، وبِشْر الوجه، وطلاقة المحيَّا والتبسم، فهو المضروبُ به المثل فيه، حتى عابه بذلك أعداؤه، قال عمرو بن العاص لأهل الشام: إنه ذو دُعابة شديدة. وقال عليّ عليه السلام في ذاك: عجباً لابن النابغة! يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة، وأنّي امرؤ تِلْعابة، أعافِس وأمارس. وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر بن الخطاب لقوله له لما عزم على استخلافه: لله أبوك لولا دُعابة فيك! إلا أن عمر اقتصر عليها، وعمرو زاد فيها وسمّجها.

قال صعصعة بن صُوحان وغيره من شيعته وأصحابه: كان فينا كأحدنا، لِين جانب، وشدّة تواضع، وسهولة قِياد، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه.

وقال معاوية لقيس بن سعد: رحِم الله أبا حسن، فلقد كان هشًا بشًا، ذا فُكاهة. قال قيس:

---

(١) «البيان والتبيين»: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المعتزلي، المتوفى سنة (٢٥٥هـ). «كشف الظنون» (١/ ٢٦٣).

نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزَحُ ويبتسم إلى أصحابه، وأراك تُسرّ حَسْواً في ارتِغاء، وتعيبه بذلك! أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيَبَ من ذي لِبْدتيْن قد مسّه الطَّوى، تلك هيبة التقوى، وليس كما يهابك طَغامُ أهل الشام.

وقد بقيَ هذا الخُلُق متوارَثاً متناقَلاً في محبّيه وأوليائه إلى الآن، كما بقيَ الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر، ومَنْ له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك.

وأمّا الزهد في الدنيا فهو سيّد الزهاد، وبدَل الأبدال، وإليه تشدُّ الرحال، وعنده تُنْفَضُ الأحلاس، ما شِبعَ من طعام قطّ. وكان أخشنَ الناس مأكلاً وملبساً، قال عبد الله بن أبي رافع: دخلت إليه يوم عيد، فقدّم جِراباً مختوماً، فوجدنا فيه خبزَ شعير يابساً مرضوضاً، فقُدّم فأكل، فقلت: يا أمير المؤمنين، فكيف تختِمه؟ قال: خفت هذين الولدين أن يُلتّاه بسمن أو زيت.

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى، ونعلاه من ليف. وكان يلبَس الكِرْباسَ الغليظ، فإذا وجد كمه طويلاً قطعه بشَفرة، ولم يخِطْه، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سَدًى لا لُحْمَة له. وكان يأتدم إذا ائتدم بخلّ أو بملح، فإن ترقّى عن ذلك فبعض نبات الأرض، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل. ولا يأكل اللحم إلاّ قليلاً، ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان. وكان مع ذلك أشدّ الناس قوّة وأعظمهم أيْداً، لا يُنقِض الجوع قُوّته، ولا يَخُوّن الإقلالُ مُنّته. وهو الذي طلّق الدنيا، وكانت الأموال تُجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام، فكان يفرّقها ويمزقها، ثم يقول:

هذا جَنَايَ وخِيارُه فيهْ ... إذْ كُلّ جانٍ يدُه إلى فيهْ

وأمّا العبادة فكان أعبدَ الناس وأكثرَهم صلاة وصوماً، ومنه تعلّم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد وقيام النافلة، وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على وِرده أن يُبْسَطُ له نِطعٌ بين الصفّين ليلة الهرِير، فيصلي عليه ورْدَه، والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صِماخيهِ يميناً وشمالاً، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرُغ من وظيفته! وما ظنك برجل كانت جبهته كثَفِنَة البعير لطول سجوده!

وأنت إذا تأمّلت دعواتِه ومناجاتِه، ووقفتَ على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله، وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته، والخشوع لعزّته واستخذاء له، عرفتَ ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أيّ قلبٍ خرجتْ، وعلى أيّ لسان جرت!

وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام ـ وكان الغايةَ في العبادة: أين عبادتك من عبادة جَدّك؟ قال: عبادتي عند عبادة جدّي كعبادة جدّي عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأمّا قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه في هذا الباب، اتفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أوّلُ مَنْ جَمَعه، نقلوا كلّهم أنّه تأخّر عن بيعة أبي بكر، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة، بل يقولون: تشاغل بجمع القرآن، فهذا يدلّ على أنه أوّلُ مَن جمع القرآن، لأنه لو كان مجموعاً في حياة رسول الله ﷺ لما احتاجَ إلى أن يتشاغل بجمعه بعد وفاته ﷺ. وإذا رجعتَ إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه، كأبي عمرو بن العلاء وعاصم ابن أبي النَّجود وغيرهما، لأنهم يرجعون إلى أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ القارىء، وأبو عبد الرحمن كان تلميذه، وعنه أخذ القرآن، فقد صار هذا الفنّ من الفنون التي تنتهي إليه أيضاً، مثل كثير مما سبق.

وأمّا الرأيُ والتدبير فكان من أسَدِّ الناس رأياً، وأصحِّهم تدبيراً، وهو الذي أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أنْ يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرْس بما أشار. وهو الذي أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها، ولو قبلها لم يحدُث عليه ما حدث. وإنّما قال أعداؤه: لا رأيَ له، لأنه كان متقيِّداً بالشريعة لا يرى خلافَها، ولا يعمل بما يقتضي الدِّينُ تحريمه. وقد قال عليه السلام: لولا الدينُ والتقى لكنتُ أدهى العرب. وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلِحُه ويستوفقه، سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم يكن، ولا ريب أنّ مَنْ يعمل بما يؤدّي إليه اجتهاده، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب، ومَن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتثار أقرب.

وأما السياسةُ فإنه كان شديدَ السياسة، خشِناً في ذات الله، لم يراقب ابنَ عمّه في عمل كان ولاّه إياه، ولا راقب أخاه عَقِيلاً في كلام جَبَهه به. وأحرق قوماً بالنار، ونقض دار مَصْقَلة بن هُبَيرة ودار جرير ابْنُ عبد الله البَجَليّ، وقطع جماعةً وصلب آخرين.

ومن جملة سياسته في حروبه أيام خلافته بالجمل وصِفّين والنهروان، وفي أقلّ القليل منها مقْنَع، فإنّ كلَّ سائس في الدنيا لم يبلغ فتكه وبطشه وانتقامه مبلغ العشر مِمّا فعل عليه السلام في هذه الحروب بيدِه وأعوانه.

فهذه هي خصائص البَشَر ومزاياهم قد أوضحنا أنه فيها الإمام المتبع فعلُه، والرئيس المقتفى أثره.

وما أقول في رجلٍ تحبّه أهلُ الذمة على تكذيبهم بالنبوّة، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة، وتصوّرُ ملوك الفرنج والروم صورتَه في بَيعها وبيوت عباداتها، حاملاً سيفَه،

مشمّراً لحربه، وتصوَّر ملوك الترك والدّيْلم صورته على أسيافها! كان على سيفِ عَضُد الدولة بن بُوَيْه وسيف أبيه ركن الدولة صورتُه، وكان على سيف إلب أرسلان وابنه مَلكشاه صورته، كأنهم يتفاءلون به النصر والظفر.

وما أقولُ في رجل أحبّ كلُّ واحدٍ أن يتكثّر به، وودّ كلُّ أحدٍ أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه، حتى الفتوّة التي أحسن ما قيل في حدّها ألاّ تستحسنَ من نفسك ما تستقبحه من غيرك، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه، وصنّفوا في ذلك كتباً، وجعلوا لذلك إسناداً أنهوْه إليه، وقصَروه عليه، وسَمَّوْه سيّدَ الفتيان، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المرويّ، أنه سُمِع من السماء يوم أُحُد:

لا سيفَ إلا ذو الفَقَا ... رِ ولا فَتَى إلا علي

وما أقول في رجل أبوه أبو طالب سيّد البطْحاء، وشيخ قريش، ورئيس مكة، قالوا: قلّ أنْ يسوَّد فقير وساد أبو طالب وهو فقير لاَ مال له، وكانت قريش تسميّه الشيخ.

وفي حديث عفيف الكنديّ، لما رأى النبيّ ﷺ يصلّي في مبدأ الدعوة، ومعه غلام وامرأة، قال: فقلت للعباس: أيّ شيء هذا؟ قال: هذا ابن أخي، يزعم أنّه رسولٌ من الله إلى الناس، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام ـ وهو ابن أخي أيضاً - وهذه الامرأة، وهي زوجته ـ قال: فقلتُ: ما الذي تقولونه أنتم؟ قال: ننتظر ما يفعل الشيخ - يعني أبا طالب. وأبو طالب هو الذي كَفَل رسول الله ﷺ صغيراً، وحماه وحاطه كبيراً، ومنعه من مشركي قريش، ولقِيَ لأجله عَنَتاً عظيماً، وقاسى بلاء شديداً، وصبرَ على نصره والقيام بأمره، وجاء في الخَبر أنّه لما توفّيَ أبو طالب أوحِي إليه عليه السلام وقيل له: اخرج منها، فقد مات ناصرك.

وله مع شرف هذه الأبوة أن ابن عمه محمد سيدُ الأولين والآخرين وأخاه جعفر ذو الجناحين، الذي قال له رسول الله ﷺ: «أشبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي»(١)، فمرّ يحجل فرحاً، وزوجته سيدة نساء العالمين، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنة، فآباؤه آباء رسول الله، وأمهاته أمهات رسول الله، وهو مسوط بلحمه ودمه، لم يفارقه منذ خلق الله آدم، إلى أن مات عبد المطلب بين الأخوين عبد الله وأبي طالب، وأمّهما واحدة، فكان منهما سيّدَ الناس، هذا الأول وهذا ا لتالي، وهذا المنذر وهذا الهادي!

وما أقول في رجل سَبَق الناس إلى الهدى، وآمن بالله وعبدَه. وكلّ من في الأرض يعبد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الصلح، باب: كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان (٢٧٠٠)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب جعفر بن أبي طالب (٣٧٦٥)، وأحمد في «مسنده» (٨٥٩).

الحجر، ويجحد الخالق، لم يسبِقْه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كلّ خير محمد رسول الله ﷺ.

ذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أوّل الناس اتباعاً لرسول الله ﷺ إيماناً به، ولم يخالف في ذلك إلا الأقلّون. وقد قال هو عليه السلام: أنا الصدّيق الأكبر، وأنا الفاروق الأول، أسلمت قبل إسلام الناس، وصلّيت قبل صلاتهم. ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحققّ ذلك وعلمه واضحاً. وإليه ذهب الواقديّ وابن جرير الطبريّ، وهو القول الذي رجحه ونصره صاحب كتاب «الاستيعاب»(١).

ولأنّا إنما نذكر في مقدمة هذا الكتاب جملةً من فضائله عَنّت بالعَرض لا بالقصد، وجب أن يختصر ونقتصر، فلو أردنا شرحَ مناقبه وخصائصه لاحتجْنا إلى كتاب مفرد يماثل حَجْم هذا بل يزيد عليه، وبالله التوفيق.

القول في نسب الرضي أبي الحسن رحمه الله وذكر طُرَف من خصائصه ومناقبه

هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى ابْنُ جعفر الصادق عليه السلام. مولده سنة تسع وخمسين وثلثمائة.

وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليلَ القدر، عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بني بُوَيْه، ولُقّب بالطاهر ذي المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطّاهر الأوحد، وولَى نقابة الطالبيّين خمس دفعات، ومات وهو متقلّدها بعد أن حالفته الأمراض، وذهب بصره، وتوفّيَ عن سبع وتسعين سنة، فإن مولده كان في سنة أربع وثلثمائة، وتوفِّيَ سنة أربعمائة. وقد ذكر ابنه الرضيّ أبو الحسن كمية عمره في قصيدته التي رثاه بها، وأولها:

وَسَمَتْكَ حَاليةُ الربيعِ المُرْهِمِ ... وسقتْكَ ساقيةُ الغَمَامِ المُرْزِمِ
سَبْعٌ وتسعون اهتبلْنَ لك الْعِدَا ... حتى مَضَوْا وغبرتَ غيرَ مذمَّم
لم يلحقوا فِيهَا بشأوكَ بَعْدَ مَا ... أَمَلُوا فعاقهمُ اعتراضُ الأزلم
إلا بقايا من غُبارك أصْبَحت ... غُصَصاً وأقذاءً لعينٍ أو فَمِ
إن يَتبعوا عَقِبَيْكَ في طلب العلا ... فالذئب يَعْسِل في طريق الضَّيْغَمِ

---

(١) «الاستيعاب في ذكر الأصحاب»: للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر القرطبي، المتوفى سنة (٤٦٣هـ)، وهو كتاب جليل القدر. كشف الظنون (١/ ٨١).

ودفن النقيب أبو أحمد أولاً في داره، ثم نقل منها إلى مشهد الحسين عليه السلام . وهو الذي كان السفيرَ بين الخلفاء وبين الملوك من بني بُوَيه والأمراء من بني حَمْدان وغيرهم وكان مبارَك الغرّة ميمونَ النّقيبة، مَهيباً نبيلاً، ما شرع في إصلاح أمر فاسد إلا وصَلَح على يديه، وانتظم بحسن سفارته، وبركة هِمتّه، وحسنِ تدبيره ووساطته. ولاستعظام عَضد الدولة أمرَه، وامتلاءِ صدرِه وعينه به حين قدم العراق ما قبض عليه وحَمَله إلى القلعة بفارس، فلم يزل بها إلى أن مات عضد الدولة، فأطلقه شرفُ الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة، واستصحبه في جملته حيث قدم إلى بغداد، وملك الحضرة. ولما توفّيَ عضد الدولة ببغداد كان عمرُ الرضيّ أبي الحسن أربع عشرة سنة، فكتب إلى أبيه وهو معتقَل بالقلعة بشِيراز:

أبْلِغَا عَنّيَ الحسينَ أَلُوكاً ... أنّ ذا الطود بَعْدَ عَهْدِكَ ساخاً
والشِّهابَ الّذي اصطليتَ لظاه ... عَكَسَتْ ضوءَهُ الخطوبُ فَبَاخا
والفَنِيقَ الَّذِي تَذَرّع طول الْـ ... أرضِ خوّى به الرّدَى وأناخا
إن يَرِدْ موردَ القذى وهو راضٍ ... فبما يكرع الزلال النُّقاخا
والعُقَاب الشَّغْواءَ أهبطها النِّيـ ... ـقُ وقد أرْعَتِ النجوم صِمَاخا
أعجلَتها المنونُ عنّا ولكن ... خلّفت في ديارنا أفراخاً
وعلى ذاك فالزمانُ بهمْ عا ... دَ غُلاماً من بعد ما كان شاخا

وأمّ الرضيّ أبي الحسن فاطمة بنت الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الأصمّ، صاحب الدَّيْلم، وهو أبو محمد الحسن بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن عمر بن عليّ ابن أبي طالب عليهم السلام. شيخ الطالبيّين وعالمهم وزاهدهم، وأديبهم وشاعرهم، ملكَ بلادَ الديْلم والجَبَل، ويلقّب بالناصر للحقّ، جرتْ له حروب عظيمة مع السامانيّة، وتوفّيَ بطَبرِستان سنة أربع وثلاثمائة، وسنة تسع وسبعون سنة. وانتصب في منصِبه الحسن بن القاسم بن الحسين الحسَنيّ، ويلقّب بالداعي إلى الحق.

وهي أمّ أخيه أبي القاسم عليّ المرتضى أيضاً.

وحفظ الرضيّ رحمه الله القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة في مدّة يسيرة، وعَرَف من الفقه والفرائض طَرَفاً قويًّا. وكان رحمه الله عالماً أديباً، وشاعراً مُفْلِقاً، فصيحَ النظم، ضخم الألفاظ، قادراً على القريض، متصرّفاً في فنونه، إنْ قَصَد الرِّقة في النسيب أتى بالعجَب العُجاب، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى بما لا يُشَقُّ فيه غباره، وإن قصَدَ في المرائي جاء سابقاً والشعراء منقطِعٌ أنفاسها على أثره. وكان مع هذا مترسّلاً ذا كتابة قوية. وكان عفيفاً شريف النفس، عاليَ الهمّة، ملتزماً بالدّين وقوانينه، ولم يقبل من أحدٍ صلةً

ولا جائزة، حتى إنه ردّ صِلات أبيه، وناهيك بذلك شرفَ نفسٍ، وشدّة ظَلَف. فأمّا بنو بُويَه فإنهم اجتهدوا على قَبوله صِلاتهم فلم يَقْبَل.

وكان يرضى بالإكرام وصيانة الْجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب. وكان الطائع أكثرَ ميلاً إليه من القادر، وكان هو أشدّ حبًا وأكثر ولاءً للطائع منه للقادر، وهو القائل للقادر في قصيدته التي مدحه بها، منها:

عَطْفاً أميرَ المؤمنين فَإنَّنا ... فِي دَوْحَةِ ٱلْعَلْيَاءِ لاَ نَتَفَرَّق
ما بيننا يوم الفَخارِ تفاوتٌ ... أبداً كِلانا في المعالِي مُعْرِقُ
إلا الخلافةَ شَرَّفتكَ فإنَّنِي ... أنَا عاطِلٌ منها وأنتَ مطوَّقُ

فيقال: إنّ القادر قال له: على رغم أنفِ الشريف!

وذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزيّ في التاريخ في وفاة الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبريّ الفقيه المالكّي، قال: كان شيخَ الشهود المعدَّلين ببغداد ومتقدِّمَهم، وسمع الحديثَ الكثير، وكان كريماً مُفْضِلاً على أهل العلم، قال: وعليه قرأ الشريف الرضيّ رحمه الله القرآن وهو شاب حَدَث السنّ، فقال له يوماً: أيّها الشريف، أين مقامك؟ قال: في دار أبي بباب مُحَوَّل، فقال: مثلك لا يقُيم بدار أبيه، قد نَحلْتُك داري بالكَرْخ، المعروفة بدار البركة. فامتنع الرضيّ من قبولها وقال له: لم أقبلْ من أبي قطّ شيئاً، فقال: إن حقّي عليك أعظمُ من حقّ أبيك عليك، لأني حفّظتك كتاب الله تعالى. فقبِلها.

وكان الرضيّ لعلو همّته تنازِعُه نفسُه إلى أمورٍ عظيمة يجيش بها خطاره، وينظِمُها في شعره، ولا يجد من الدهر عليها مساعدة، فيذوب كمداً، ويفنى وجداً، حتى توفّيَ ولم يبلغ غَرَضاً.

فمن ذلك قوله:

مَا أنَا لِلْعَلْيَاء إنْ لم يَكُن ... مِنْ وَلَدِي ما كان مَن وَالِدِي
وَلاَ مَشَتْ بي الخيلُ إنْ لم أطأ ... سريرَ هذا الأصْيَدِ الماجِدِ

ومنه قوله:

مَتَى ترانِي مُشِيحاً في أوائِلِهِمْ ... يَطْفُو بيَ النَّقْعُ أحياناً ويخفيني
لَتَنْظُرَنّي مُشِيحاً في أوائلها ... يغيب بِي النقع أحياناً ويُبْدِيني
لا تعرفونيَ إلا بالطّعان وقَدْ ... أضحى لِثَامِي مَعْصُوباً بِعِرْنيني

ومنه قوله يعني نفسه:

فوا عَجَبا مما يَظُنّ محمدٌ ... وللظَنُّ في بعض المواطن غَدّارُ
يؤمّل أنّ الملكَ طوعُ يمينه ... ومِنْ دون ما يرجو المقدِّرُ أقدار

لـئـن هـو أغـفـى لـلـخـلافـة لِـمّـةً ... لـهـا طُـررٌ فـوق الـجـبـيـن وإطـرارُ
ورام الـعـلا بـالـشِّـعـرِ والـشَّـعـر دائـبـاً ... فـفـي الـنـاس شُـعْـرٌ خـامـلـون وشُـعَّـارُ
وإنـــي أرى زنـــداً تـــواتـــر قَـــدْحُـــه ... ويُـوشـك يـومـاً أنْ تـكـونَ لـه نـارُ

ومنه قوله:

لا هَـمَّ قَـلْـبـي بِـرُكُـوبِ الـعُـلاَ ... يَـومـاً ولا بُـلَّـتْ يَـدِي بـالـسَّـمـاحْ
إنْ لـم أنـلـهـا بـاشـتـراطٍ كـمـا ... شـئـتُ عـلـى بـيـضِ الظُّبي وَاقْـتِـراحْ
أفُـوزُ مِـنْـهـا بـالـلُّـبَـابِ الَّـذِي ... يُـغْـنِـي الأمـانـي نَـيْـلُـه والـصُّـرَاحْ
فَـمَـا الَّـذِي يُـقْـعِـدُنِـي عَـنْ مَـدًى ... مـا هـو بـالـبَـسْـل ولا بـالـلَّـقـاحْ
يَـطْـمَـحُ مـنَ لاَ مَـجْـدَ يَـسْـمُـو بِـهِ ... إنِّـي إذاً أعْـذَرُ عـنـد الـطِّـمَـاحْ
أمَـا فـتًـى نـال الْـمُـنـى فـاشـتـفـى ... أو بـطـلٌ ذاق الـرّدى فـاسـتـراحْ!

وفي هذه القصيدة ما هو أخشَنُ مسًّا، وأعظم نكاية، ولكنّا عدلنا عنه وتخطّيناه، كراهية لذكره. وفي شعره الكثير الواسع من هذا النّمط.

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب له صديقاً، وبينهما لُحمة الأدب ووشائجه، ومراسلات ومكاتبات بالشعر، فكتب الصابي إلى الرضيّ في هذا النَّمط:

أبـا حَـسَـنٍ لـي فـي الـرِّجـال فِـرَاسـةٌ ... تَـعَـوَّدْتُ مِـنْـهَـا أن تـقـول فـتـصـدُقَـا
وَقَـدْ خـبّـرتْـنِـي عَـنْـكَ أنَّـكَ مَـاجِـدٌ ... سَـتَـرْقَـى إلـى الـعـلـيـاء أبْـعَـدَ مُـرْتَـقَـيَ
فـوفَّـيْـتُـك الـتـعـظـيـمَ قَـبْـلَ أوانِـه ... وقـلـتُ: أطـال الله لِـلـسَّـيـد الْـبَـقَـا
وأضْـمَـرْتُ مـنـه لـفـظـة لـم أبُـحْ بـهـا ... إلـى أن أرى إظـهـارهـا لِـيَ مَـطْـلَـقَـا
فـإن مِـتّ أو إن عـشـتُ فـاذكـر بِـشـارتـي ... وأوجِـبْ بـهـا حَـقًّـا عـلـيـك مُـحَـقَّـقـاً
وكـن لـيَ فـي الأولاد والأهـلِ حـافـظـاً ... إذا ما اطمأنَّ الجنبُ في مَضْجَعِ الْبَقَا

فكتب إليه الرضيّ جواباً عن ذلك قصيدةً، أولها:

سَـنَـنْـتَ لـهـذا الـرُّمـح غَـرْبـاً مُـذَلَّـقَـا ... وأجْـرَيْـتَ فـي ذَا الـهُـنْـدُوانـيّ رَوْنَـقَـا
وَسـوّمْـتَ ذا الـطِّـرفَ الـجـوادَ وإنّـمـا ... شَـرَعْـتَ لَـهُ نَـهْـجـاً فَـخَـبَّ وَأعْـنَـقَـا

وهي قصيدة طويلة ثابتة في ديوانه، يَعِدُ فيها نفسَه، ويَعِدُ الصابىء أيضاً ببلوغ آماله، إن ساعد الدهرُ وتمّ المرام. وهذه الأبياتُ أنكرها الصابي لما شاعث، وقال: إني عملتها في أبي الحسن عليّ بن عبد العزيز بن حاجب النعمان، كاتبُ الطائع، وما كان الأمرُ كما ادّعاه، ولكنه خاف على نفسه.

وذكر أبو الحسن الصابي وابنُه غرس النعمة محمد في تاريخهما أنّ القادِر بالله عقد مجلساً أحضر فيه الطاهر أبا أحمد الموسويّ وابنه أبا القاسم المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء، وأبرز إليهم أبيات الرضيّ أبي الحسن التي أولها:

مَا مُقَامِي عَلَى ٱلْهَوَانِ وَعِنْدِي ... مِقْوَلٌ صَارِمٌ وأنْفٌ حَمِيُّ
وإباءٌ مُحَلِّقٌ بي عَنِ الضَّيْـ ... ـمِ كما زَاغَ طَائِرٌ وَحْشِيُّ
أيُّ عُذْرٍ له إلى المجد إن ... ذلّ غلامٌ في غِمْدِهِ المَشْرَفيُّ
أحْمِلُ الضّيم في بلادِ الأعادي ... وبمصرَ الخليفةُ العَلَوِيُّ
مَنْ أبوه أبي ومولاه مولا ... يَ إذا ضامني البعيدُ القَصِيُّ
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِه سيّدا النّا ... سِ جميعاً: محمدٌ وعَلِيُّ

وقال القادر للنقيب أبي أحمد: قل لولدك محمد: أيُّ هوانٍ قد أقام عليه عندنا! وأيُّ ضَيْم لَقِيَ من جهتنا! وأيّ ذلّ أصابه في مملكتنا! وما الذي يعمل معه صاحبُ مصر لو مضى إليه؟ أكان يُصْنَعُ إليه أكثرَ من صنيعنا؟ ألم نولّه النِّقابة! ألم نولّه المظالم! ألم نستخلفه على الحرَمين والحجاز وجعلناه أميرَ الحَجِيج! فهل كان يحصُل له من صاحب مصر أكثرُ من هذا! ما نظنّه كان يكون ـ لو حصل عنده ـ إلا واحداً من أبناء الطالبيِّين بمصر. فقال النقيب أبو أحمد: أمّا هذا الشعر فمّما لم نسمعه منه، ولا رأيناه بخطّه، ولا يبعد أنْ يكونَ بعض أعدائه نَحَله إياه، وعَزَاه إليه، فقال القادر: إن كان كذلك، فلتكتب الآن محضراً يتضمّن القَدْح في أنساب ولاة مصر، ويكتب محمد خطّه فيه. فكتَب محضراً بذلك، شَهِد فيه جميعُ مَنْ حضر المجلس، منهم النقيب أبو أحمد، وابنه المرتضَى، وحُمِل المحضر إلى الرضيّ ليكتب خطّه فيه، حَمَله أبوه وأخوه، فامتنع من سطر خطّه، وقال: لا أكتب، وأخاف دعاة صاحب مصر، وأنكر الشعر، وكَتَبَ خطّه، وأقسم فيه أنه ليس بشعره، وأنه لا يعرفه. فأجبره أبوه على أن يكتب خطّه في المحضر، فلم يفعل، وقال: أخافُ دعاةَ المصريين وغِيلَتَهم لي، فإنهم معروفونَ بذلك، فقال أبوه: يا عجباه! أتخافُ مَنْ بينك وبينه ستمائة فرسخ، ولا تخاف مَنْ بينك وبينه مائة ذراع! وحلف ألاّ يكلمه، وكذلك المرتضَى، فَعَلا ذلك تقيّةً وخوفاً من القادر، وتسكيناً له. ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضمره، وبعد ذلك بأيام صَرَفه عن النِّقابة، وولاها محمد بن عمر النهر سابسي.

وقرأت بخطّ محمد بن إدريس الحليّ الفقيه الإماميّ، قال: حكى أبو حامد أحمد بن محمد الإسفَرايينيّ الفقيه الشافعيّ، قال: كنتُ يوماً عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة، وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضيّ أبو الحسن، فأعظمه وأجلّه ورفع من

منزلته، وخلّى ما كان بيده من الرّقاع والقصص، وأقبلَ عليه يحادثه إلى أن انصرف، ثم دخل بعد ذلك المرتضَى أبو القاسم رحمه الله، فلم يعظّمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغَل عنه برقاع يقرؤها، وتوقيعات يُوقّع بها، فجلس قليلاً، وسأله أمراً فقضاه، ثم انصرف.

قال أبو حامد: فتقدّمتُ إليه وقلت له: أصلح الله الوزير! هذا المرتضَى هو الفقيه المتكلّم صاحب الفنون، وهو الأمثل والأفضل منهما، وإنما أبو الحسن شاعر. قال: فقال لي: إذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتُك عن هذه المسألة.

قال: وكنت مجمعاً على الانصراف، فجاءني أمْرٌ لم يكن في الحساب، فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناس واحداً فواحداً، فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحجّابه، دعا بالطعام، فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكثرُ غلمانه، ولم يبق عنده غيري قال لخادم: هات الكتابين اللذيْن دفعتهما إليك منذ أيام، وأمرتُك أن تجعلَهما في السَّفَط الفلانيّ. فأحضرَهما، فقال: هذا كتاب الرضيّ، اتصل بي أنه قد ولد له ولد، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار، وقلت له: هذه للقابلة، فقد جرتِ العادة أن يحمِل الأصدقاء إلى أخِلاّئهم وذوي مودّتهم مثلَ هذا في مثل هذه الحال، فردّها وكتب إليّ هذا الكتاب فاقرأه. قال: فقرأته، وهو اعتذار عن الرّد، وفي جُملته: إننا أهلَ بيت لا نُطلع على أحوالنا قابلةً غريبة، وإنما عجائزنا يتولّيْن هذا الأمرَ من نسائنا، ولسن ممّن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صِلَة، قال: فَهذا هذا.

وأما المرتضَى فإنّا كنا قد وزّعنا وقسّطنا على الأملاك ببادوريا تقسيطاً نصرفه في حَفْر فُوّهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب مِلْكاً للشريف المرتضَى بالناحية المعروفة بالدّاهرية من التقسيط عشرون درهماً، ثَمَنُها دينار واحد، قد كتب إليّ منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب، فاقرأه. فقرأته، وهو أكثر من مائة سَطْر، يتضّمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم المذكورة عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه.

قال فخر الملك: فأيُّهما تَرى أوْلَى بالتعظيم والتّبْجيل؟ هذا العالم المتكلّم الفقيه الأوحد ونفسُه هذه النفس، أم ذلك الذي لم يُشْهَرْ إلا بالشعر خاصّة، ونفسُه تلك النفس! فقلت: وفّق الله تعالى سيدَنا الوزير، فما زال موفّقاً، والله ما وضع سيدنا الوزير الأمرَ إلا في موضعه، ولا أحلّه إلا في محلّه. وقمت فانصرفت.

وتوفيّ الرضيّ رحمه الله في المحرّم من سنة أربع وأربعمائة، وحضر الوزير فخرُ الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازتَه والصلاة عليه، ودفن في داره بمسجد الأنباريّين بالكَرْخ، ومضى أخوه المرتضَى من جَزَعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام، لأنه

لم يستطع أن ينظُرَ إلى تابوته ودفنه، وصلّى عليه فخرُ الملك أبو غالب، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمي، فألزمه بالعوْد إلى داره.

ومما رثاه أخوه المرتضى الأبيات المشهورة التي من جملتها:

يا للرّجال لِفَجْعَةٍ جذَمَتْ يدي ... وودت لو ذهبتْ عليّ براسي
ما زلتُ آبى وِرْدَها حتى أتتْ ... فحسوْتُها في بعض ما أنا حَاسي
ومَطَلْتُهَا زمناً فَلَمَّا صمّمت ... لم يَثنها مَطْلِي وطولُ مِكاسي
لله عُمْرك من قصير طاهرٍ ... ولربّ عُمْرٍ طال بالأدناس!

وحدثني فخار بن معدّ العلويّ الموسويّ رحمه الله، قال: رأى المفيد أبو عبد الله محمد بن النعمان الفقيهُ الإمام في منامه كأن فاطمة بنت رسول الله ﷺ دخلت عليه وهو في مسجده بالكَرْخ، ومعها ولداها: الحسن والحسين عليهما السلام، صغيرين، فسلّمتهما إليه، وقالت له: علِّمهما الفقه. فانتبه متعجباً من ذلك، فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريها، وبين يديها ابناها: محمد الرضيّ وعليّ المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها، فقالت له: أيها الشيخ، هذان ولدَاي قد أحضرتُهما لتعلِّمهما الفقه، فبكى أبو عبد الله وقصّ عليها المنام، وتولّى تعليمهما الفقه، وأنعم الله عليهما، وفتحَ لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باقٍ ما بَقِي الدهر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القول في شرح خطبة نهج البلاغة

قال الرضيّ رحمه الله: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيم أمّا بعدَ حَمْدِ الله الَّذي جَعَلَ الحمدَ ثمناً لنعمائِه، ومَعاذاً مِنْ بَلائِه، ووَسيلاً إلى جنانِه، وسَبَباً لزيادَة إحسانه. والصَّلاةُ على رسُوله نبيّ الرَّحْمة، وإمام الأئمة، وسِرَاجِ الأمّة، المنتجب مِنْ طينة الكَرَم، وسُلالةِ المجْد الأقدَمِ، ومَغْرِس الفَخار المُعْرِق، وفَرْع العلاء المُثْمر المورِق، وعلى أهلِ بيته مصابيح الظُّلَم، وعِصَم الأمَم، ومَنَار الدِّين الوَاضِحَة، ومثاقيلِ الفَضْل الرَّاجِحَة. فصلّى الله عليهم أجْمَعينَ، صَلاَةً تكونُ إزاءً لِفَضْلِهِمْ، ومُكافَأةً لِعَمَلِهِمْ، وكِفاءً لِطيب أصْلِهِمْ وفَرْعِهِمْ، ما أنار فَجْرٌ طَالعٌ، وخَوَى نَجْمٌ سَاطِعٌ.

الشرح: اعلم أني لا أتعرّض في هذا الشرح للكلام فيما قد فرغ منه أئمةُ العربية، ولا لتفسير ما هو ظاهر مكشوف، كما فعل القُطْب الرّاونديّ، فإنه شَرَع أولاً في تفسير قوله: «أمّا بعد»، ثم قال: هذا هو فصل الخطاب، ثم ذكر ما معنى الفصل، وأطال فيه، وقسّمه أقساماً، يشرح ما قد فرّع له منه، ثم شرح الشرح. وكذلك أخذ يفسّر قوله: «من بلائِه»، وقوله: «إلى جِنَانه»، وقوله: «وسبباً»، وقوله: «المجد»، وقوله: «الأقدم»، وهذا كلّه إطالة وتضييعٌ للزّمان من غير فائدة، ولو أخذنا بشرحِ مثل ذلك لوجب أن نشرح لفظة «أما» المفتوحة، وأنْ نذكر الفصل بينها وبين «إمّا» المكسورة، ونذكر: هل المكسورة من حُرُوفِ العطف أو لا؟ ففيه خلاف، ونذكر هل المفتوحة مركبة أو مفردة؟ ومهملة أو عاملة؟ ونفسّر معنى قول الشاعر:

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا كُنْتَ ذا نفرٍ ... فإن قومِيَ لَمْ تأكُلْهُمُ الضَّبُعُ

بالفتح، ونذكر «بَعْدُ» لم ضُمّت إذا قطعت عن الإضافة؟ ولم فتحت ها هنا حيث أضيفت؟ ونخرج عن المعنى الذي قصدناه من موضوع الكتاب إلى فنون أخرى قد أحكمها أربابُها.

ونبتدىء الآن فنقول: قال لي إمام من أئمة اللغة في زماننا: هو الفِخار، بكسر الفاء، قال: وهذا مما يغلَط فيه الخاصّة فيفتحونها، وهو غير جائز، لأنه مصدر «فاخر»، وفاعَل يجيء مصدره على «فِعال» بالكسر لا غير، نحو: قاتلت قِتالاً، ونازلت نزالاً، وخاصمت خِصاماً، وكافحت كِفاحاً، وصارعت صِراعاً. وعندي أنه لا يبعد أن تكون الكلمة مفتوحة الفاء، وتكون مصدر «فَخَر» لا مصدر «فاخر»، فقد جاء مصدر الثلاثيّ - إذا كان عينه أو لامه حرف حلْق -

على «فَعال»، بالفتح، نحو سَمَح سَماحاً، وذهب ذَهاباً، اللهمّ إلا أن يُنقل ذلك عن شيخ أو كتاب موثوق به نقلاً صريحا، فتزول الشبهة. والعِصَم: جمع عِصْمة، وهو ما يعتصم به. والمنار: الأعلام، واحدها مَنارة، بفتح الميم. والمثاقيل: جمع مثقال، وهو مقدار وَزْن الشيء، تقول: مثقال حبّة، ومثقال قِيراط، ومثقال دينار، وليس كما تظنه العامة أنه اسم للدينار خاصة، فقوله: «مثاقيل الفضل»، أي زِنات الفضل، وهذا من باب الاستعارة. وقوله: «تكون إزاءً لفضلهم»، أي مقابلة له. ومكافأة بالهمز، من كافأته أي جازيته، وكِفاء، بالهمز والمد، أي نظيراً. وخوى النجم، أي سقط. وطينة الكرَم، أصله. وسلالة المجد فرعه. والوَسيل: جمع وسيلة وهو ما يُتقرَّب به، ولو قال: «وسَبيلاً إلى جِنانه» لكان حسناً، وإنما قصد الإغراب، على أنا قد قرأناه كذلك في بعض النسخ. وقوله: «ومكافأة لعملهم» إنْ أراد أن يجعله قرينة «الفضلهم» كان مستقبَحاً عند مَنْ يريد البديع، لأنّ الأولى ساكنة الأوسط، والأخرى متحرّكة الأوسط، وأمّا من لا يقصد البديع كالكلام القديم فليس بمستقبَح. وإن لم يُرِدْ أن يجعلَها قرينة بل جعلها من حشو السجعة الثانية، وجعل القرينة «وأصلهم»، فهو جائز، إلا أن السجعة الثانية تطول جدًا. ولو قال عِوَض «العمَلهم»، «لِفعْلهم» لكان حسناً.

قال الرضي رحمه الله: فإني كنتُ في عُنْفوان السنّ، وغضاضة الغُصْن، ابتدأتُ تأليفَ كتابٍ في خَصائِصِ الأئمة عليهم السلام، يَشْتَمِل على محاسِن أَخبارِهِمْ، وجواهِر كَلاَمِهِمْ، حَدَاني عَلَيْه غرضٌ ذكرتُه في صَدْر الكتاب، وجعلتُه أمَام الكلام. وفرغْتُ من الخصائص التي تَخُصّ أميرَ المؤمنين عليًّا، صلواتُ الله عليه، وعاقَتْ عن إتمامِ بقيَّة الكتابِ مُحاجزاتُ الأيام، ومُمَاطَلاَتُ الزّمان. وكنتُ قد بَوَّبْتُ ما خرج من ذلك أبواباً، وفَصّلتُه فصولاً، فجاء في آخِرِها فَصْلٌ يتضمّن محاسنَ ما نُقل عنه عليه السلام، من الْكَلاَم القَصِير، في المواعِظِ والحِكَمِ والأمثال والآداب، دُونَ الخُطَبِ الطّويلة، والكُتبِ المبْسُوطة، فاستحسنَ جماعةٌ من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدّم ذكره، معْجَبين ببدائعِهِ، ومتعجّبين من نواصِعه، وسألوني عِندَ ذلك أنْ أبدأ بتأليف كتابٍ يحتوي على مُخْتَارِ كلامِ أمير المؤمنين عليه السلام في جميعِ فُنونه، ومتشعِّبات غُصونه، من خُطَبٍ وكُتب، ومواعظَ وأدبٍ، علماً أنّ ذلك يتضمّن من عَجَائب الْبَلاغةِ، وغَرَائبِ الفَصَاحَةِ، وجواهِرِ العربية، وثواقبِ الكَلِم الدينية والدُّنياوِيَّة، ما لا يوجدُ مجتمعاً في كلام، ولا جموع الأطراف في كتابٍ، إذْ كانَ أميرُ المؤمنين عليه السلام مَشْرَع الْفَصَاحَة ومَورِدَها، ومَنْشَأ الْبَلاغَةِ ومَوْلِدها، ومنه عليه السلام ظهر مَكْنُونُها، وعنه أخِذَتْ قوانينُها، وعلى أمثلتِه حَذَا كلّ قائِلٍ خطيبٍ، وبكلامِه استعانَ كلّ واعِظٍ بليغ، ومع ذَلك فقد سَبَق وقصّروا، وتَقَدّم وتأخروا، لأنّ كلامَه عليه السلام الكلامُ الذي عليه مَسْحةٌ من العلم الألهيّ، وفيه عَبقَةٌ من الكلام النبوي.

الشرح: عُنفوان السنّ: أوّلها. ومُحاجزات الأيام: ممانعاتها. ومُماطلات الزمان: مدافعاته.

وقوله: «معجَبين» ثم قال: و«متعجّبين»، فـ«معجَبين» من قولك: أعجِب فلان برأيه وبنفسه فهو معجَب بهما، والاسم العُجْب بالضم، ولا يكون ذلك إلا في المستحسَن، و«متعجّبين» من قولك: تعجّبت من كذا، والاسم العَجَب. وقد يكون في الشيء يُسحسن ويُستقبح ويُتهوّل منه ويستغرب، ومراده هنا التهوُّل والاستغراب، ومن ذلك قول أبي تمام:

أَبْدَتْ أَسًى إِذْ رَأَتْنِي مُخْلِسَ القَصَبِ   وآلَ ما كانَ من عُجْبٍ إلى عَجَبِ

يريد أنها كانت معجبَة به أيام الشبيبة لحسنه، فلما شاب انقلب ذلك العُجْب عَجَباً، إما استقباحاً له أو تهوّلاً منه واستغراباً. وفي بعض الروايات: «معجّبين ببدائعه»، أي أنهم يعجّبون غيرهم والنواصع: الخالصة. ثواقب الكلم: مضيئاتها، ومنه الشهاب الثاقب. وحذا كلّ قائل: اقتفى واتّبع وقوله: «مَسْحة» يقولون: على فلان مَسْحة من جمال، مثل قولك: شيء، وكأنه ها هنا يريد ضوءاً وصِقالاً. وقوله: «عَبْقة»، أي رائحة، ولو قال عِوض «العلم الإلٰهي»: «الكتاب الإلٰهي» لكان أحسن.

قال الرضي رحمه الله:

فأجَبْتُهم إلى الابتداءِ بِذَلِكَ، عالماً بما فيه من عَظِيمَ النَّفْعِ، وَمَنْشُور الذِّكْرِ، وَمَذْخُورِ الأجْرِ. واعتمدتُ بِهِ أن أبيّن مِنْ عظيم قَدْر أمير المؤمنين عليه السلام في هذِهِ الْفَضِيلَة، مُضافةً إلى المحاسنِ الدَّثِرة، والفَضائل الجمّة، وأنّه انفَرَدَ ببلوغ غايَتِها عن جَميع السَّلَفِ الأوَّلِينَ، الَّذِين إنّما يُؤثَرُ عَنهُمْ مِنهَا القليلُ النَّادِرُ، والشَّاذّ الشارِدُ، فأمّا كلامُه عليه السلام فهو الْبَحْرُ الَّذي لا يُساجَل، والجمّ الذي لا يُحَافَل، وأردتُ أن يسوغَ لِي التمثُّل في الافتخارِ بِهِ صلواتُ الله عليه بقول الفَرَزْدَق:

أُولئكَ آبائي فجِئْنِي بمثْلِهِمْ   إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

الشرح: المحاسن الدَّثِرَة: الكثيرة، مالٌ دَثِر، أي كثير، والجمّة مثلُه. ويؤثر عنهم، أي يحكَى وينقل، قلتُه آثر، أي حاكياً. ولا يساجَل، أي لا يكاثَر، أصلُه من النزْع بالسَّجْل، وهو الدّلو المليء، قال:

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَاجِداً   يَمْلأ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

ويروى: «ويساحَل»، بالحاء، من ساحل البحر وهو طرَفه، أي لا يشابه في بُعْد ساحِله. ولا يحافَل، أي لا يفاخَر بالكثرة، أصلُه من الحفْل، وهو الامتلاء، والمحافلة: المفاخرة بالامتلاء، ضرع حافل، أي ممتلىء.

والفرزدق، همّام بن غالب بن صعصعة التميميّ. ومن هذه الأبيات:

ومنّا الّذي اختيرَ الرجالَ سَمَاحَةً ... وجُوداً إذا هبّ الرياحُ الزعازعُ
ومنّا الّذي أحيَا الوئيدَ وغالبٌ ... وعَمْرٌو، ومنّا حاجِبٌ والأقارعُ
ومنّا الذي قاد الجِيادَ على الوجا ... بنجْرَان حتَّى صبَّحته الترائعُ
ومنّا الذي أعطى الرَّسُولُ عَطيّةً ... أسارى تميمٍ والعيونُ هوامعُ

الترائع: الكرام من الخيل. يعني غزاة الأقرع بن حابس قبل الإسلام بني تَغْلِب بنَجْران، وهو الذي أعطاه الرسولُ يوم حُنَين أسارى تميم.

ومنّا غداةَ الرَّوْع فرسانُ غارةٍ ... إذا مَنَعَتْ بعد الزِّجاج الأشاجِعُ
ومنّا خطيب لا يعاب وحَامِلٌ ... أغرّ إذا التفّتْ عليهِ المجامعُ

أي إذا مُدّت الأصابع بعد الزِّجاج إتماماً لها لأنها رماح قصيرة. وحامل، أي حاملٌ للدِّيات.

أولئكَ آبائِي فجِئْنِي بمِثْلِهِمْ ... إذَا جَمعتْنا يَا جَريرُ المجامعُ
بهم أعتلى ما حَمّلتنيه دارمٌ ... وَأصْرَعُ أقراني الّذِين أصَارعُ
أخَذْنَا بآفاقِ السَّمَاءِ عليكُمُ ... لَنَا قمرَاها والنُّجومُ الطَّوالعُ
فَوَا عجباً حتى كُلَيْبٌ تَسبُّني ... كأنّ أبَاهَا نَهْشَلٌ أو مُجاشعُ!

قال الرضي رحمه الله:

ورأيت كلامَه عليه السلام يدورُ على أقطاب ثلاثة: أوّلها الخُطَب والأوامِر، وثانِيها الكُتُب والرَّسَائلُ، وثَالِثُها الحِكَم والمواعظ، فأجْمَعْتُ بتوفِيقِ الله سُبْحَانَهُ على الابْتِداءِ باخْتِيارِ مَحَاسِنِ الخُطَبِ، ثُمَّ مَحَاسِنِ الكُتُبِ، ثم محاسِن الحِكَم والأدَبِ، مُفرِداً لكلّ صِنْفٍ من ذلك باباً، ومفصِّلاً فيه أوراقاً، ليكونَ مقدّمة لاستدراكِ مَا عَسَاهُ يشذُّ عَنّي عاجِلاً، ويَقَعُ إليّ آجلاً. وإذا جاء شيءٌ من كلامِهِ الخَارِجِ في أثناء حِوارٍ، أو جوابِ سؤالٍ، أو غرضٍ آخرَ من الأغراض في غَيْر الأنحاء التي ذكرتُها، وقرَّرْتُ القاعدةَ عليها، نَسَبْتُه إلى ألْيَق الأبوابِ بِهِ، وأشدِّها ملامحةً لغَرَضِهِ. وربما جاء فيما أختارُه من ذلك فصولٌ غيرُ مُتّسقة، ومَحَاسنُ كَلِمٍ غَيْرُ مُنتظمة، لأنّي أوردُ النُّكَت واللُّمَعَ، ولا أقصِد التَّاليَ والنَّسَقَ.

الشرح: قوله: «أجمعت على الابتداء»، أي عزمت. وقال القُطب الراونديّ: تقديره: أجمعتُ عازماً على الابتداء، قال: لأنه لا يقالُ إلا أجمعت الأمرَ، ولا يقال: أجمعتُ على الأمر، قال سبحانه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾(١).

هذا الذي ذكره الرَّاونديّ خلاف نصّ أهل اللغة، قالوا: أجمعتُ الأمرَ، وعلى الأمر، كلّه جائز، نصّ صاحب «الصِّحاح» على ذلك.

والمحاسن: جمع حَسَن، على غير قياس، كما قالوا: الملامح والمذاكر، ومثله المقابح والحِوار، بكسر الحاء: مصدر حاورتُه، أي خاطبته، والأنحاء: الوجوه والمقاصد. وأشدّها مُلامحة لغرضه، أي أشدّها إبصاراً له ونظراً إليه، من لمحت الشيءَ، وهذه استعارة. يقال: هذا الكلام يَلمح الكلامَ الفلانيّ، أي يُشابهه، كأنّ ذلك الكلام يُلْمَحُ ويُبصَر من هذا الكلام.

قال الرضيّ رحمه الله:

ومِنْ عجائِبه عليه السلام الّتي انفرد بها، وأمِنَ المشاركةَ فيها، أنّ كلامَه الواردَ في الزّهد والمواعظ، والتّذكير والزّواجر، إذا تأمّله المتأمّل، وفكّر فيه المُفكّر، وخلَع من قلبِه أنّهُ كلامُ مثلِه، ممّن عَظُم قَدْرُه ونفذَ أمرُه، وأحاطَ بالرّقاب مُلْكه، لم يعترضْه الشكّ في أنّه كلامُ مَنْ لا حظّ له في غيرِ الزّهَادة، ولا شُغْلَ له بغيره العِبَادة، قد قَبَع في كِسْر بيتٍ، أو انقطع إلى سَفْح جبلٍ، لا يَسْمعُ إلا حسَّه، ولا يَرى إلا نفسَه، ولا يكادُ يوقِن بأنّه كلامُ مَنْ يَنْغَمِس في الحرب، مُصْلِتاً سيفَه، فيَقُطُّ الرّقابَ، ويُجَدِّلُ الأبطالَ، ويعودُ به يَنْطُفُ دماً، ويقطُر مُهَجاً، وهو مع تلك الحالِ زاهدُ الزّهاد، وبَدَلُ الأبدال. وهذِهِ من فضائله العجيبة، وخَصائصه اللّطيفة، التي جَمَع بها بين الأضْداد، وألّف بين الأشتَات، وكثيراً ما أذاكِرُ الإخوان بها، وأستخرجُ عَجبُهم منها، وهي موضع العِبْرَة بها، والفِكْرَة فيها.

الشرح: قَبع القُنْفذ يَقْبَع قُبوعاً، إذا أدخل رأسَه في جلده، وكذلك الرّجل إذا أدخل رأسه في قميصه، وكلّ مَنِ انزوى في جُحْر أو مكان ضَيّق فقد قَبَع. وكِسْر البيت: جانب الخِباء. وسفح الجبل: أسفله، وأصلُه حيث يَسْفَحُ فيه الماء. ويقطّ الرقاب: يقطعها عَرْضاً - لا طولاً كما قاله الرَّاونديّ - وإنما ذاك القَدّ، قددته طولاً، وقططتُه عرضاً. قال ابن فارس صاحب «المجمل»: قال ابنُ عائشة: كانتْ ضربات عليّ عليه السلام في الحرب أبكاراً، إن اعْتلى قَدّ، وإن اعترض قَطّ.

(١) سورة يونس، الآية: ٧١.

ويُجَدِّل الأبطال: يُلقِيهم على الجَدالة، وهي وجهُ الأرض. وينطُف دماً: يقطر. والأبدال: قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم، إذا مات أحدُهم أبدَل الله مكانه آخر، قد وَرَدَ ذلك في كثير من كُتب الحديث.

كان أمير المؤمنين عليه السلام ذا أخلاقٍ متضادّة:

فمنها ما قد ذكره الرضي رحمه الله، وهو موضع التعجب، لأنّ الغالبَ على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أنْ يكونوا ذَوِي قلوب قاسية، وفَتْكٍ وتمرُّد وجَبَريّة، والغالب على أهل الزهد ورفض الدنيا وهِجرانِ ملاذّها والاشتغالِ بمواعظ الناس وتخويفهم المعادَ وتذكيرهم الموتَ، أن يكونوا ذوِي رقّة ولين، وضَعْف قلْب، وخَوَرِ طَبْع، وهاتان حالتان متضادتان، وقد اجتمعتا له عليه السلام.

ومنها أنّ الغالبَ على ذوي الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوِي أخلاق سَبُعيّة، وطِباع حوشيّة، وغرائز وحشيَّة، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذَوِي انقباض في الأخلاق، وعُبوس في الوجوه، ونِفار من الناس واستيحاش، وأمير المؤمنين عليه السلام كان أشجعَ الناس وأعظمَهم إراقة للدم، وأزهد الناس وأبعدَهم عن ملاذّ الدنيا، وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأيام الله ومَثُلاته، وأشدّهم اجتهاداً في العبادة وآداباً لنفسه في المعاملة. وكان مع ذلك ألطفَ العالم أخلاقاً، وأسفرَهم وجهاً، وأكثرهم بِشراً، وأوفاهم هشاشة، وأبعدَهم عن انقباض موحِش، أو خُلُق نافر، أو تجهّم مباعِد، أو غِلْظة وفظاظة تَنفِر معهما نفس، أو يتكدّر معهما قلْب. حتى عِيب بالدُّعابة، ولمّا لم يجدوا فيه مغمزاً ولا مطعناً تعلّقوا بها، واعتمدوا في التنفير عنه عليها.

«وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارُها»

وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة.

ومنها أنّ الغالب على شرفاء الناس ومَنْ هو من أهلِ بيت السيادة والرياسة أن يكونَ ذا كِبْرٍ وتيهٍ وتعظّم وتغطْرُس، خصوصاً إذا أضيف إلى شَرَفِهِ من جهة النسب شرفُه من جهات أخرى، وكان أميرُ المؤمنين عليه السلام في مُصاصِ الشرف ومعدنه ومعانيه، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرفُ خلق الله نسباً بعد ابن عمّه صلوات الله عليه، وقد حَصَل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرة متعددة، قد ذكرنا بعضها، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير، وألينهم عَريكة، وأسمحَهم خُلُقاً، وأبعدَهم عن الكِبْر، وأعرفهم بحقّ، وكانت حاله هذه في كِلاَ زمَانَيْه: زمان خلافته، والزمان الذي قبله، لم تغيِّره الإمْرة، ولا أحالت خُلُقَه الرياسة، وكيف تُحيل الرياسة خُلُقَه وما زال رئيساً! وكيف تُغَيِّر الإمْرة سَجيّته وما برح أميراً لم يستفِدْ بالخلافة شرفاً، ولا اكتسبَ بها زينة! بل هو كما قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل، ذكر ذلك

الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزيّ في تاريخه المعروف «بالمنتظم»[1] تذاكروا عند أحمد خلافةَ أبي بكر وعليّ وقالوا فأكثروا، فرفع رأسه إليهم، وقال: قد أكثرتُم! إنّ عليًا لم تزِنْه الخلافة، ولكنه زانها. وهذا الكلام دالّ بفحواه ومفهومه على أنّ غيرَه ازدان بالخلافة وتمّمَتْ نقصَه، وأن عليًا عليه السلام لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتممَّ بالخلافة، وكانت الخلافة ذات نقص في نفسها، فتمّ نقصها بولايته إياها.

ومنها أنّ الغالب على ذوي الشجاعة وقتل الأنفس وإراقَة الدماء أنْ يكونوا قليلي الصفح، بعيدي العفو، لأن أكبادَهم واغرة، وقلوبَهم ملتهبة، والقوة الغضبية عندهم شديدة، وقد علمتَ حال أمير المؤمنين عليه السلام في كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح، ومغالبة هوى النفس، وقد رأيتَ فعلهِ يوم الجمل، ولقد أحسن مِهْيار في قوله:

حَتّى إذا دَارَتْ رَحى بَغْيِهِمْ ... عليهمْ وسبقَ السيفُ العذَلْ
عاذوا بعفو ماجدٍ معوّدٍ ... للعفو حَمّالٍ لهمْ على العِلَلْ
فَنَجّت البُقْيا عليهم مَنْ نجا ... وأكلَ الحديدُ مِنْهم مَنْ أكَلْ
أطّتْ بهم أرحامُهمْ فلم يُطعْ ... ثائرة الغَيْظ ولم يشفِ الغُلَلْ

ومنها أنّا ما رأينا شجاعاً جواداً قط، كان عبد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبخَلَ الناس، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً، قال له عمر: لو وُلِّيتَها لظلْتَ تُلاَطمُ الناس في البطْحَاء على الصّاع والمُدّ. وأراد عليّ عليه السلام أنْ يحجُر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال، فاحتال لنفسه، فشارك الزُّبير في أمواله وتجاراته، فقال عليه السلام: أما إنَّه قد لاذ بملاذ، ولم يحجُر عليه. وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً، أمسك عن الإنفاق حتى خَلّف من الأموال ما لا يأتي عليه الحصْر. وكان عبدُ الملك شجاعاً وكان شحيحاً، يُضرب به المثل في الشحّ، وسمي رَشْح الحجر لبخله. وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام في الشّجاعة والسخاء كيف هي، وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام.

قال الرضيّ رحمه الله:

وربّما جاء في أثناء هذا الاختيار اللفظُ المردّد، والمعنى المكرّر، والعُذْر في ذلك أنّ رواياتِ كلامه تختلفُ اختلافاً شديداً، فربّما اتّفق الكلامُ المختارُ في روايةٍ فَنُقِلَ على وجهه،

(١) «المنتظم في تاريخ الأمم»: لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي البغدادي، المتوفى سنة (٥٩٧هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٨٥٠).

ثم وُجِد بعد ذلك في روايةٍ أخرى موضوعاً غير وضعِه الأوّل، إمّا بزيادة مختارة، أو بلفظٍ أحسنَ عبارة، فتقتضي الحالُ أن يُعاد، استظهاراً للاختيار، وغَيْرةً على عقائل الكلام. وربّما بَعُدَ العهد أيضاً بما اختير أوّلاً، فأعيد بعضُه سهواً ونسياناً، لا قَصْداً أو اعتماداً. ولا أدّعِي مع ذلك أنني أحِيطُ بأقطارِ جميع كلامِه عليه السلام، حتى لا يشِذّ عنّي منه شاذّ، ولا يندّ نادّ، بل لا أبعِد أن يكون القاصِرُ عنّي فوق الواقع إليّ، والحاصلُ في رِبْقتي دونَ الخارج من يديّ، وما عليّ إلا بذلُ الجهد، وبلاغةُ الوسع، وعلى الله سبحانه نَهْج السبيل، وإرشاد الدليل.

ورأيتُ من بعدُ تسميةَ هذا الكتاب بـ «نهج البلاغة»، إذْ كان يَفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرّب عليه طِلابَها، وفيه حاجةُ العالِم والمتعلّم، وبُغية البِليغ والزّاهد، ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التّوحيد والعدل، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شَبَه الخلْق، ما هو بِلال كلّ غُلّة، وشِفاء كُلّ عِلّة، وجِلاء كلّ شبهة. ومِنَ الله استمدّ التوفيق والعِصْمة، وأتنجزُ التّسديد والمعونة، واستعيذه من خطأ الجَنان قبل خطأ اللّسان، ومِنْ زَلّة الكلِم قبل زلّة القَدَمِ، وهُوَ حَسْبِي ونِعْمَ ٱلْوَكِيلُ.

الشرح: في أثناء هذا الاختيار: تضاعيفه، واحدها ثِنْي كعِذْق وأعذاق. والغَيْرة، بالفتح والكسر خطأ. وعقائل الكلام: كرائمه، وعَقِيلة الحيّ: كريمتُه، وكذلك عقيلة الذّوْد. والأقطار: الجوانب، واحدها قُطْر. والنادّ: المنفرد، ندّ البعير يَنِدّ. الرِّبقة: عُروة الحبل يجعل فيها رأس البهيمة. وقوله: «وعلى الله نهج السبيل»، أي إبانته وإيضاحه، نهجت له نهجاً. وأما اسم الكتاب فـ «نهج البلاغة»، والنهج هنا ليس بمصدر، بل هو اسم للطريق الواضح نفسه. والطّلاب، بكسر الطاء: الطلب. والبُغية: ما يُبتغى. وبلال كلّ غُلة، بكسر الباء: ما يُبَلّ به الصدى، ومنه قوله: انضحوا الرّحم ببِلالها، أيّ صلوها بصلتها وندّوها، قال أوس:

كأنّي حَلَوْتُ الشِّعر حين مدحتُه ... صَفا صَخْرَةٍ صَمّاء يَبْسٍ بِلالُها

وإنما استعاذ من خطأ الجَنان قبل خطأ اللسان، لأنّ خطأ الجَنان أعظم وأفحشُ من خطأ اللسان، ألا ترى أنّ اعتقاد الكُفْر بالقلب أعظم عقاباً من أن يكفرُ الإنسان بلسانه وهو غير معتقد للكفر بقلبه، وإنما استعاذ من زَلّة الكَلِم قبل زلّة القَدَم، لأنه أراد زلّة القدم الحقيقية، ولا ريب انّ زلة القدم أهونُ وأسهل، لأن العاثر يستقيل من عثرته، وذَا الزلّة تَجِدُهُ ينهض من صَرْعته، وأما الزلّة باللسان فقد لا تستقال عَثْرَتُها، ولا يَنْهض صريعُها، وطالما كانت لا شَوَى لها، قال أبو تمام:

يَا زَلّةً ما وُقيتم شَرَّ مَصْرَعِها ... وزَلّة الرأي تُنسِي زَلّةَ القَدَمِ

باب الخطب والأوامر

قال الرضي رحمه الله:

باب المختار من خطب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأوامره

ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب، في المقامات المحضورة والمواقف المذكورة، والخطوب الواردة.

الشرح: المقامات: جمع مَقامة، وقد تكون المقامة المجلس والنادي الذي يجتمع إليه الناس، وقد يكون اسماً للجماعة، والأول أليق هاهنا بقوله: «المحضورة»، أي التي قد حضرها الناس.

ومنذ الآن نبتدىء بشرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ونجعل ترجمة الفصل الذي نروم شرحه «الأصل» فإذا أنهيناه قلنا: «الشرح»، فذكرنا ما عندنا فيه، وبالله التوفيق.

١ - فمن خطبة له عليه السلام
يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ ٱلْقَائِلُونَ، وَلاَ يُحْصِي نَعْمَاءَهُ ٱلْعَادُّونَ، وَلاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ ٱلْمُجْتَهِدُونَ، ٱلَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ ٱلْفِطَنِ. ٱلَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلاَ وَقْتٌ مَعْدُودٌ. وَلاَ أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَ ٱلْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ ٱلرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُورِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ.

الشرح: الّذي عليه أكثر الأدباء والمتكلّمين أنّ الحمد والمدح أخَوَان، لا فَرْق بينهما، تقول: حَمِدتُ زيداً على إنعامه، ومدحته على إنعامه، وحَمِدته على شجاعته، ومَدَحته على شجاعته، فهما سواء، يدخلان فيما كان من فعل الإنسان، وفيما ليس من فعله، كما ذكرناه من المثالين، فأمّا الشكر فأخصُّ من المدح، لأنه لا يكون إلاّ على النعمة خاصّة، ولا يكون إلا صادراً من مُنعَم عليه، فلا يجوز عندهم أن يقال: شكر زيد عمراً لنعمةٍ أنعمها عمرو على إنسان غير زيد.

إن قيل: الاستعمال خلاف ذلك، لأنهم يقولون: حضرنا عند فلان فوجدناه يشكر الأمير

على معروفه عند زيد، قيل: ذلك إنما يصحّ إذا كان إنعام الأمير على زيد أوجبَ سرور فلان، فيكون شكرُ إنعام الأمير على زيد شكراً على السرور الداخل على قلبه بالإنعام على زيد، وتكون لفظة «زيد» التي استعيرت ظاهراً لاستناد الشكر إلى مسمّاها كناية لا حقيقة، ويكون ذلك الشكر شكراً باعتبار السّرور المذكور، ومدحاً باعتبار آخر، وهو المناداة على ذلك الجميل والثناء الواقع بجنسه.

ثم إنّ هؤلاء المتكلمين الّذين حكيْنا قولَهم يزعمون أنّ الحمد والمدح والشكر لا يكون إلا باللسان مع انطواء القلب على الثناء والتعظيم، فإن استعمِل شيء من ذلك في الأفعال بالجوارح كان مجازاً. وبقيَ البحث عن اشتراطهم مطابقة القلب للسان، فإنّ الاستعمال لا يساعدهم، لأن أهلَ الاصطلاح يقولون لمن مدح غيره، أو شكره رياء وسمعة: إنه قد مدحه وشكره وإن كان منافقاً عندهم. ونظير هذا الموضع الإيمان، فإن أكثرَ المتكلّمين لا يُطلقونه على مجرد النطق اللسانيّ، بل يشترطون فيه الاعتقاد القلبيّ، فأما أن يقصروا به عليه كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الأشعرية والإمامية، أو تؤخذ معه أمور أخرى وهي فعل الواجب وتجنّب القبيح كما هو مذهب المعتزلة، ولا يخالف جمهورَ المتكلمين في هذه المسألة إلا الكرّامية فإنّ المنافق عندهم يسمى مؤمناً، ونَظروا إلى مجرد الظاهر، فجعلوا النطق اللسانيّ وحده إيماناً.

والمِدْحة: هيئة المدح، كالرِّكْبة، هيئة الركوب، والجِلْسة هيئة الجلوس، والمعنى مطروق جداً، ومنه في الكتاب العزيز كثير، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1] وفي الأثر النبويّ: «لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك»[2]، وقال الكتّاب من ذلك ما يطول ذكره، فمن جيّد ذلك قول بعضهم: الحمدُ لله على نِعَمه التي منها إقدارُنا على الاجتهاد في حَمْدها، وإن عجزنا عن إحصائها وعدّها. وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد:

فـمـا بَـلَـغَـتْ كَـفُّ امـرىءٍ مـتـنـاولٍ ... بـهـا الـمـجدَ إلا والّـذي نِـلْـتَ أطـولُ

ولا حَبَّر الـمـثـنُون في الـقـول مِـدْحـةً ... وإن أطْـنَـبُـوا إلا وَمَـا فِـيـكَ أفـضـلُ

ومن مستحسَنِ ما وقفتُ عليه من تعظيم البارىء عزّ جلالُه بلفظ «الحمد» قولُ بعض الفضلاء في خطبة أرجوزة علمية:

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (٣٤٩٣)، والنسائي، كتاب: الطهارة، باب: ترك الوضوء مما مسّ الرجل امرأته من غير شهوة (١٦٩)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: في الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٩).

الحمدُ لله بِقَدْرِ الله لا قدرِ وُسْعِ العبدِ ذِي التَّناهي
والحمدُ لله الّذِي برهانُهُ أن ليسَ شأنٌ ليس فيه شَأنُهُ
والحمد لله الذي مَنْ يُنْكِرُهْ فإنما يُنْكِرُ مَنْ يُصَوِّرُهْ

وأما قوله: «الذي لا يدركه»، فيريد أنّ هَمِم النُّظار وأصحاب الفكر وإن عَلَتْ وبَعُدت فإنها لا تدركه تعالى، ولا تحيط به. وهذا حق، لأنّ كلَّ متصوَّر فلا بُدّ أن يكون محسوساً، أو متخيَّلاً، أو موجوداً من فطرة النَّفْس، والاستقراء يَشْهد بذلك. مثال المحسوس السّوَاد والحموضة، مثال المتخيَّل إنْسان يطير، أو بحر من دم. مثال الموجود من فطرة النّفس تصوّر الألم واللذة. ولّما كان الباريء سبحانه خارجاً عن هذا أجمع لم يكن متصوراً.

فأما قوله: «الذي ليس لصفته حد محدود»، فإنه يعني بصفته هاهنا كُنْهَهَ وحقيقته، يقول: ليس لكنهه حدّ فيعرف بذلك الحدّ قياساً على الأشياء المحدودة، لأنه ليس بمركّب، وكلّ محدود مركب.

ثم قال: «ولا نعت موجود» أي ولا يدرك بالرسم، كما تُدْرَكُ الأشياء برسومها، وهو أن تعرف بلازم من لوازمها، وصفة من صفاتها.

ثم قال: «ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود»، فيه إشارة إلى الردّ على من قال: إنّا نعلم كنَه الباريء سبحانه لا في هذه الدنيا بل في الآخرة، فإن القائلين برؤيته في الآخرة يقولون: إنّا نعرف حينئذ كُنْهَه، فهو عليه السلام ردّ قولهم، وقال: إنه لا وقتَ أبداً على الإطلاق تُعرَف فيه حقيقته وكنهه، لا الآن ولا بعد الآن، وهو الحقّ؛ لأنا لو رأيناه في الآخرة وعرفنا كنهَه لتشخّص تشخصاً يمنع من حمله على كثيرين، ولا يُتصوّر أن يتشخّص هذا التشخص إلا ما يُشار إلى جهته، ولا جهةَ له سبحانه. وقد شرحت هذا الموضع في كتابي المعروف بـ «زيادات النَّقْضين»، وبينت أنّ الرؤية المنزهة عن الكيفية التي يزعمها أصحاب الأشعريّ لا بدّ فيها من إثبات الجهة، وأنها لا تجري مجرى العلم، لأن العلم لا يُشخِّص المعلوم، والرؤية تشخّص المرئيّ، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخِّص ذا جهة.

واعلم أن نفيَ الإحاطة مذكور في الكتاب العزيز في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾(١)، ومنها قوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(٢)، وقال بعض الصحابة: العجز عن دَرْك الإدراك إدراك، وقد غلا محمد بن هانيء فقال في ممدوحه المعزّ أبي تميم معد بن المنصور العلوي:

أتْبَعْتُه فِكْرِي حتى إذا بلغتْ غاياتِها بين تَصْوِيبٍ وتَصْعِيد

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الملك، الآية: ٤.

رَأَيْتُ موضعَ بُرْهَانٍ يلُوحُ وَمَا   رأيتُ مَوْضَع تَكْييفٍ وَتَحْدِيدِ

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى، ولا يليق بالمخلوق.

فأما قوله: «فطر الخلائق...» إلى آخر الفصل، فهو تقسيم مشتقٌّ من الكتاب العزيز، فقوله: «فَطَر الخلائق بقدرته» من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[1]، وقوله: «ونَشَر الرياح برحمته» من قوله: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[2].

وقوله: «ووتَّد بالصخور مَيَدان أرضه»، من قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[3] والمَيَدان: التحرّك والتموّج.

فأما القطب الرّاونديّ رحمه الله فإنه قال: إنه عليه السلام أخبرَ عن نفسه بأول هذا الفصل أنه يحمَد الله، وذلك من ظاهر كلامه، ثم أمرَ غيره من فحوى كلامه أن يحمَد الله، وأخبرَ عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته، وأنّه يجب على المكلّفين ثبوتُهم عليه ما بَقُوا، ولو قال: «أحمد الله» لم يعلم منه جميع ذلك. ثم قال: والحمدُ أعمّ من الشكر، والله أخصُّ من الإله. قال: فأما قوله: «الذي لا يبلغ مدحته القائلون»، فإنه أظهرَ العجز عن القيام بواجب مدائحه، فكيف بمحامده! والمعنى أنّ الحمد كل الحمد ثابت للمعبود الذي حَقّت العبادةُ له في الأزَل، واستحقّها حين خلق الخلق، وأنعم بأصول النِّعم التي يستحق بها العبادة.

ولقائل أن يقول: إنه ليس في فحوى كلامه أنه أمرَ غيرَه أن يحمد الله، وليس يُفهم من قول بعض رعيّة المِلك لغيره منهم: العظمة والجلال لهذا الملك أنه قد أمرهم بتعظيمه وإجلاله. ولا أيضاً في الكلام ما يدلّ على أنه ثابت على ذلك مدة حياته، وأنه يجب على المكلّفين ثبوتهم عليه ما بقُوا.

ولا أعلم كيف قد وقع ذلك للراونديّ! فإنْ زعم أنّ العقل يقتضي ذلك فحق، ولكن ليس مستفاداً من الكلام، وهو أنّه قال: إن ذلك موجود في الكلام.

فأما قوله: لو كان قال: أحمدُ الله لم يعلم منه جميع ذلك، فإنه لا فرق في انتفاء دلالة «أحمد الله» على ذلك ودلالة «الحمد لله»، وهما سواء في أنّهما لا يدلاّن على شيء من أحوال غير القائل، فضلاً عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه في حقّ غير القائل.

وأما قوله: الله أخصّ من الإله، فإن أراد في أصل اللغة، فلا فرق، بل الله هو الإله وفُخّم

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٣) سورة النبأ، الآية: ٧.

بعد حذف الهمزة، هذا قول كافة البصريين، وإن أراد أنّ أهلَ الجاهلية كانوا يُطلِقون على الأصنام لفظة «الآلهة»، ولا يسمُّونها «الله» فحقّ، وذلك عائد إلى عرفهم واصطلاحهم، لا إلى أصل اللغة والاشتقاق، ألاَ ترى أنّ الدابة في العرف لا تطلق على القملة، وإن كانت في أصل اللغة دابة!.

فأما قوله: قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائحه فكيف بمحامده! فكلام يقتضي أنّ المدح غير الحمد، ونحن لا نعرف فرقاً بينهما. وأيضاً فإنّ الكلامَ لا يقتضي العجز عن القيام بالواجب، لا من الممادح ولا من المحامد، ولا فيه تعرّض لذكر الوجوب، وإنما نَفى أن يبلغ القائلون مدحته، لم يقل غير ذلك.

وأما قوله: الذي حقت العبادة له في الأزل واستحقّها حين خلق الخلق، وأنعم بأصول النعم، فكلام ظاهره متناقض، لأنه إذا كان إنما استحقّها حين خلق الخلق، فكيف يقال: إنه استحقها في الأزَل! وهل يكون في الأزَل مخلوق ليستحقّ عليه العبادة!

واعلم أنّ المتكلمين لا يُطلقون على الباريء سبحانه أنه معبود في الأزل أو مستحق للعبادة في الأزل إلا بالقوة لا بالفعل، لأنّه ليس في الأزل مكلّف يعبده تعالى، ولا أنعم على أحد في الأزل بنعمة يستحق بها العبادة، حتى إنهم قالوا في الأثر الوارد: «يا قديم الإحسان»: إن معناه أنّ إحسانه متقادِم العهد، لا أنّه قديم حقيقة، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾(١)، أي الذي قد توالت عليه الأزمنة المتطاولة.

ثم قال الراوندي: والحمد والمدح يكونان بالقول وبالفعل، والألف واللام في «القائلون» لتعريف الجنس، كمثلهما في الحمد. والبلوغ: المشارَفة، يقال: بلغتُ المكان إذا أشرفتُ عليه، وإذا لم تشرف على حمده تعالى بالقول فكيف توصل إليه بالفعل والإله: مصدر بمعنى المألُوه.

ولقائل أن يقول: الذي سمعناه أنّ التعظيم يكون بالقول والفعل وبترك القول والفعل، قالوا: فمن قال لغيره: يا عالم فقد عظّمه ومَنْ قام لغيره فقد عظّمه، ومن ترك مدّ رجله بحضرة غيره فقد عظّمه، ومَنْ كفّ غَرْب لسانه عن غيره فقد عظّمه. وكذلك الاستخفاف والإهانة تكون بالقول والفعل وبتركهما حسب ما قدمنا ذكره في التعظيم.

فأما الحمدُ والمدح فلا وجه لكونهما بالفعل، وأما قوله: إنّ اللام في «القائلون» لتعريف

(١) سورة يس، الآية: ٣٩.

الجنس، كما أنها في الحمد كذلك فعجيب، لأنّها للاستغراق في «القائلون» لا شبهة في ذلك كالمؤمنين والمشركين، ولا يتمّ المعنى إلا به، لأنه للمبالغة، بل الحقّ المحض أنه لا يبلغ مدحته كلّ القائلين بأسرهم. وجَعْل اللاّم للجنس ينقص عن هذا المعنى إن أراد بالجنس المعهود، وإن أرادَ الجنسيَّة العامة، فلا نزاع بيننا وبينه، إلا أن قوله: «كما أنها في الحمد كذلك» يمنع من أن يحمل كلامه على المحمل الصحيح، لأنها ليست في الحمد للاستغراق، يبيّن ذلك أنها لو كانت للاستغراق لما جاز أنْ يُحمَد رسول الله ﷺ ولا غيره من الناس، وهذا باطل.

وأيضاً فإنها لفظ واحد مفرد معرّف بلام الجنس، والأصل في مثل ذلك أن يفيد الجنسية المطلقة، ولا يفيد الاستغراق، فإن جاء منه شيء للاستغراق، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]، وأهلك الناسَ الدِّرهمُ والدينار، فمجاز، والحقيقة ما ذكرناه. فأما قوله: البلوغ المشارفة، يقال: بلغتُ المكان إذا أشرفتَ عليه. فالأجود أن يقول: قالوا: بلغتُ المكان، إذا شارفتَه، وبين قولنا: «شارفته»، و«أشرفت عليه» فرق.

وأما قوله: «وإذا لم يشرف على حمده بالقول فكيف يوصل إليه بالفعل!»، فكلام مبنيّ على أنّ الحمد قد يكون بالفعل، وهو خلاف ما يقوله أرباب هذه الصناعة.

وقوله: والإله مصدر بمعنى المألوه كلام طريف، أمّا أوّلاً، فإنه ليس بمصدر، بل هو اسم، كجَارَ للضبع وسِرار للشهر، وهو اسم جنس كالرّجل والفرس، يقع على كل معبود بحقّ أو باطل، ثم غلَب على المعبود بالحقّ، كالنجم اسم لكلّ كوكب ثم غلب على الثريا، والسّنَة: اسم لكل عام ثم غلب على عام القَحْط. وأظنه رحمه الله لما رآه «فِعالا» ظن أنه مصدر كالحِصاد والجِذاذ وغيرهما. وأما ثانياً، فلأن المألوه صيغة «مفعول» وليست صيغة مصدر إلا في ألفاظ نادرة، كقولهم: «ليس له معقول ولا مجلود»، ولم يسمع «مألوه» في اللغة، لأنه قد جاء: ألِهَ الرجل إذا دهِش وتحيَّر، وهو فعل لازم لا يبنى منه «مفعول».

ثم قال الراونديّ: وفي قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2]. بلفظ الإفراد، وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يحصي نعماءه، العادّون» بلفظ الجمع سرٌّ عجيب؛ لأنه تعالى أراد أنّ نعمةً واحدة من نِعَمه لا يمكن العباد عدّ وجوه كونها نعمة، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أن أصول نعمه لا تحصى لكثرتها، فكيف تعدُّ وجوه فروع نعمائه! وكذلك في

(١) سورة العصر، الآية: ٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

كون الآية واردة بلفظة «إن» الشرطية، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام على صيغة الخبر، تحته لطيفة عجيبة، لأنه سبحانه يريد أنكم إنْ أردتم أن تعدُّوا نِعمه لم تقدروا على حصرها، وعليّ عليه السلام أخبر أنه قد أنعم النظر، فعلم أن أحداً لا يمكنه حصرُ نِعَمِه تعالى.

ولقائل أن يقول: الصحيح أنّ المفهوم من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ الْجنس، كما يقول القائل: أنا لا أجحد إحسانك إليّ، وامتنانك عليّ، ولا يقصد بذلك إحساناً واحداً، بل جنس الإحسان.

وما ذكره من الفرْق بين كلام الباريء وكلام أمير المؤمنين عليه السلام غيرُ بَيِّن، فإنه لو قال تعالى: وإن تعدوا نعم الله، وقال عليه السلام: ولا يحصي نعمته العادّون، لكان كلّ واحد منهما سادًّا مسدّ الآخر.

أما اللطيفة الثانية فغير ظاهرة أيضاً ولا مليحة، لأنه لو انعكس الأمر، فكان القرآن بصيغة الخبر وكلام عليّ عليه السلام بصيغة الشرط، لكان مناسباً أيضاً، حسب مناسبته، والحالُ بعكس ذلك، اللهم إلا أنْ تكون قرينة السجعة من كلام عليّ عليه السلام تنبو عن لفظة الشرط، وإلا فمتى حَذَفتَ القرينة السجعيّةَ عن وهمك لم تجد فرقاً [illegible] التعجرُف الداعي إلى ارتكاب هذه الدعاوى المنكرة.

ثم قال الراوندي: إنه لو قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الذي [illegible] تعدّه الحاسبون» لم تحصل المبالغة التي أرادها بعبارته، لأنّ اشتقاق الحساب من الحِسبان، وهو الظن. قال: وأمّا اشتقاق العدد فمن العِدّ، وهو الماء الذي له مادّة، والإحصاء: الإطاقة، أحصيته، أي أطقته، فتقدير الكلام: لا يطيق عدّ نعمائه العادّون، ومعنى ذلك أنّ مدائحه تعالى لا يُشرِف على ذكرها الأنبياء والمرسلون، لأنها أكثرُ من أن تعدّها الملائكةُ المقرّبون، والكرام الكاتبون.

ولقائل أن يقول: أمّا الحساب فليس مشتقاً من الحِسبان بمعنى الظنّ، كما توهّمه، بل هو أصل برأسه، الا ترى أنّ أحدَهما حَسِبت أحْسَب، والآخر حَسِبْت أحْسُبَ وأحسَب بالفتح والضم، وهو من الألفاظ الأربعة التي جاءت شاذة. وأيضاً فإن «حسَبت» بمعنى ظننت يتعدى إلى مفعولين لا يجوزالاقتصارُ على أحدهما، و«حَسِبت» من العدد يتعدى إلى مفعول واحد. ثم يقال له: وَهَبْ أنّ «الحاسبين» لو قالها مشتقةً من الظنّ لم تحصل المبالغة، بل المبالغة كادت تكون أكثر، لأن النعم التي لا يحصرها الظانّ بظنونه أكثر من النعم التي لا يعدّها العالم بعلومه.

وأمّا قوله: العدَد مشتق من العِدّ، وهو الماء الذي له مادّةٌ، فليس كذلك، بل هما أصلان.

وأيضاً لو كان أحدهما مشتقاً من الآخر لوجب أنْ يكون العِدّ مشتقاً من العدد، لأن المصادر هي الأصول التي يقع الاشتقاق منها، سواء أكان المشتق فعلاً أو اسماً، ألا تراهم قالوا في كتب الاشتقاق: إنّ الضَّرْب: الرجل الخفيف، مشتق من الضَّرْب، أي السير في الأرض للابتغاء، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾[1]، فجعل الاسم منقولاً ومشتقًا من المصدر.

وأمّا الإحصاء فهو الحصر والعَدّ وليس هو الإطاقة كما ذكَر، لا يقال: أحصيت الحجر، أي أطقت حمله.

وأمّا ما قال إنه معنى الكلمة فطريف، لأنّه عليه السلام لم يذكر الأنبياء ولا الملائكة، لا مطابقة ولا تضمّناً ولا التزاماً، وأي حاجة إلى هذا التقدير الطريف الذي لا يشعر الكلام به! ومراده عليه السلام، وهو أنّ نعمه جلّتْ لكثرتها أنْ يُحصيهَا عادّ ما، هو نفيٌ لمطلق العادّين من غير تعرض لعادّ مخصوص.

قالَ الراوَنديّ: فأمّا قوله: «لا يدرِكه بُعْد الهمم»، فالإدراك هو الرؤية والنَّيل والإصابة، ومعنى الكلام: الحمد لله الذي ليس بجسم ولا عَرَض، إذ لو كان أحدَهما لرآه الراؤون إذا أصابوه، وإنما خَصّ «بُعْد الهمم» بإسناد نفي الإدراك «وغوْص الفِطَن» بإسناد نفي النَّيل لغرض صحيح، وذلك أن الثَّنويّةَ يقولون بقدم النور والظلمة، ويثبتون النّور جهة العلوّ والظلمة جهة السُّفْل، ويقولون: إنّ العالم ممتزج منهما، فردّ عليه السلام عليهم بما معناه: إنّ النور والظلمة جسمان، والأجسام محدَثة، والباريء تعالى قديم.

ولقائل أن يقول: إنه لم يَجْرِ للرؤية ذكر في الكلام، لأنه عليه السلام لم يقل: الذي لا تدركه العيون ولا الحواسّ، وإنما قال: «لا يدركه بُعْدُ الهمم»، وهذا يدلّ على أنّه إنما أراد أن العقول لا تحيط بكنهه وحقيقته. وأيضاً فلو سلمنا أنه إنما نفى الرؤية، لكان لمحاجّ أن يحاجّه فيقول له: هبْ أنّ الأمر كما تزعم، ألست تريدُ بيانَ الأمر الذي لأجله خصّص بُعْد الهمم بنفي الإدراك، وخَصص غَوْصَ الفِطن بنفي النَّيل! وقلت: إنما قُسّمَ هذا التقسيم لغرض صحيح، وما رَأيناك أوضحت هذا الغرض، وإنما حكيت مذهب الثَّنويّة، وليس يدلُّ مذهبهم على وجوب تخصيص بُعْد الهمم بنفي الإدراك دون نفي النَّيل، ولا يوجب تخصيص غَوْص الفطن بنفي النَّيل دون نفي الإدراك، وأكثر ما في حكاية مذهبهم أنهم يزعمون أن إلَهَي العالَم: النور والظلمة، وهما جسمان، وأمير المؤمنين عليه السلام يقول: لو كان صانع العالم جسماً لَرُئيَ، وحيث لم يُرَ لم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

يكن جسماً، أيّ شيء في هذا مما يدلّ على وجوب ذلك التقسيم والتخصيص الذي زعمتَ أنه إنما خصصّه وقسّمه لغرض صحيح!

ثم قال الراوندي: ويجوز أن يقال: البعدُ والغوص مصدران هاهنا بمعنى الفاعل، كقولهم: فلان عَدْل، أي عادل، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾(١)، أي غائراً، فيكون المعنى: لا يدركه العالم البعيد الهمم فكيف الجاهل! ويكون المقصد بذلك الردّ على من قال: إن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربّه ليلة الإسراء، وإن يونس عليه السلام رأى ربّه ليلة هبوطه إلى قعر البحر.

ولقائل أن يقول: إن المصدر الذي جاء بمعنى الفاعل ألفاظ معدودة، لا يجوز القياس عليها، ولو جاز لما كان المصدر هاهنا بمعنى الفاعل، لأنه مصدر مضاف، والمصدر المضاف لا يكون بمعنى الفاعل. ولو جاز أن يكون المصدر المضاف بمعنى الفاعل لم يجز أن يُحْمَل كلامه عليه السلام على الردّ على من أثبت أن الباريء سبحانه مرئيّ، لأنه ليس في الكلام نفي الرؤية أصلاً، وإنما غَرَضُ الكلام نفي معقوليّته سبحانه، وإن الأفكار والأنظار لا تحيط بكنهه، ولا تتعقّل خصوصية ذاته، جَلَّتْ عظمته!

ثم قال الراوندي: فأما قوله: «الذي ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود»، فالوقت: تحرّك الفلك ودَوَرانه على وجه، والأجل: مدّة الشيء، ومعنى الكلام أنّ شكري لله تعالى متجدّد عند تجدّد كلّ ساعة، ولهذا أبدل هذه الجملة من الجملة التي قبلها وهي الثانية، كما أبدل الثانية من الأولى.

ولقائل أن يقول: الوقت عند أهل النظر مقدار حركة الفَلَك، لا نفس حركته، والأجل ليس مطلق الوقت، ألاَ تراهم يقولون: جئتك وقتَ العصر، ولا يقولون: أجَلَ العصر! والأجَل عندهم هو الوقت الذي يعلم الله تعالى أن حياة الحيوان تبطُل فيه، مأخوذ من أجَل الدَّيْن، وهو الوقت الذي يحلّ قضاؤه فيه.

فأما قوله: ومعنى الكلام أنّ شكري متجدّد لله تعالى في كلّ وقت، ففاسد، ولا ذِكْرَ في هذه الألفاظ للشكر، ولا أعلم من أين خطر هذا للراونديّ! وظنّه أن هذه الجمل من باب البدل غلط، لأنها صفات، كلّ واحدة منها صفة بعد أخرى، كما تقول: مررت بزيد العالم، الظريف، الشاعر.

(١) سورة الملك، الآية: ٣٠.

قال الراوندي: فأما قوله: «الذي ليس لصفته حدّ»، فظاهره إثبات الصفة له سبحانه، وأصحابنا لا يثبتون لله سبحانه صفة، كما يثبتها الأشعرية، لكنّهم يجعلونه على حال، أو يجعلونه متميزاً بذاته، فأمير المؤمنين عليه السلام بظاهر كلامه - وإن أثبت له صفة - إلا أنّ من له أنسٌ بكلام العرب يعلم أنه ليس بإثبات على الحقيقة. وقد سألني سائل فقال: هاهنا كلمتان، إحداهما كفر، والأخرى ليست بكفر، وهما: لله تعالى شريك غير بصير. ليس شريك الله تعالى بصيراً، فأيهما كلمة الكفر؟ فقلت له: القضية الثانية، وهي «ليس شريك الله تعالى بصيراً» كُفر، لأنها تتضمّن إثباتَ الشريك، وأمّا الكلمة الأخرى، فيكون معناها لله شريك غير بصير؟ بهمزة الاستفهام المقدّرة المحذوفة.

ثم أخذ في كلام طويل يبحث فيه عن الصفة والمعنى، ويُبطِل مذهب الأشعريّة بمايقوله المتكلمون من أصحابنا، وأخذ في توحيد الصفة: لِمَ جاء وكيف يدلّ نفي الصفة الواحدة على نفي مطلق الصفات؟ وانتقل من ذلك إلى الكلام في الصفة الخامسة التي أثبتها أبو هاشم، ثم خرج إلى مذهب أبي الحسين، وأطال جدًّا فيما لا حاجة إليه.

ولقائل أن يقول: الأمر أسهلُ مما تظنّ، فإنا قد بيّنّا أنّ مراده نفي الإحاطة بكنهه، وأيضاً يمكن أن يجعل الصفة هاهنا قول الواصف، فيكون المعنى: لا ينتهي الواصف إلى حدّ إلاّ وهو قاصر عن النعت، لجلالته وعظمته، جلّت قدرته.

فأما القضيتّان اللتان سأله السائل عنهما فالصواب غير ما أجاب به فيهما، وهو أن القضيّة الأولى كفر، لأنها صريحة في إثبات الشريك، والثانية لا تقتضي ذلك، لأنه قد ينفي قول الشريك بصيراً على أحد وجهين، إما لأن هناك شريكاً لكنّه غير بصير، لأن الشريك غير موجود، وإذا لم يكن موجوداً لم يكن بصيراً، فإذا كان هذا الاعتبار الثاني مراداً لم يكن كفراً، وصار كالأثر المنقول: «كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لا تؤثر هفواته»، أيَ لم يكن فيه هفوات فتؤثر وتحكى، وليس أنه كان المراد في مجلسه هفوات إلا أنها لم تؤثر.

قال الراونديّ: فإن قيل: تركيب هذه الجملة يدلّ على أنه تعالى فَطَر الخليقة قبل خَلْق السمٰوات والأرض.

قلنا: قد اختُلف في ذلك فقيل: أوّل ما يحسن منه تعالى خلقه ذاتاً حيّة، يخلق فيها شهوةً لمدرك تدركه فتلتذّ به، ولهذا قيل: تقديم خَلْق الجماد على خلق الحيوان عبث وقبيح. وقيل: لا مانع من تقديم خلق الجماد إذا عُلم أنّ عِلم بعض المكلّفين فيما بعد بخَلْقِه قَبْلَه لطف له.

ولقائل أن يقول: أمّا إلى حيث انتهى به الشرح فليس في الكلام تركيب يدلّ على أنّه تعالى

فطر خَلْقه قبل خَلْق السمٰوات والأرض. وإنما قد يُوهم تأمّل كلامه عليه السلام فيما بعد شيئاً من ذلك، لما قال: «ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء»، على أنا إذا تأملنا لم نجد في كلامه عليه السلام ما يدلّ على تقديم خَلْق الحيوان، لأنه قبل أنْ يذكر خلق السماء لم يذكر إلا أنه فَطَر الخلائق. وتارة قال: «أنشأ الخلق»، ودلّ كلامه أيضاً على أنه نشر الرياح، وأنه خلق الأرض وهي مضطربة فأرساها بالجبال، كلّ هذا يدلّ عليه كلامه، وهو مقدّم في كلامه على فَتْق الهواء والفضاء وخلق السماء، فأما تقديم خلق الحيوان أو تأخيره فلم يتعرض كلامه عليه السلام له، فلا معنى لجواب الراونديّ وذِكْره ما يذكره المتكلّمون من أنه هل يحسن تقديم خلق الجماد على الحيوان أم لا!

الأصل: أَوَّلُ ٱلدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وكمالُ مَعْرِفَتِهِ ٱلتَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ ٱلتَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وكمالُ تَوْحِيدِهِ ٱلْإِخْلاَصُ لَهُ، وكمالُ ٱلْإِخلاَصِ لَهُ نَفْيُ ٱلصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غيرُ ٱلْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ ٱلصِّفَةِ. فَمَنْ وَصَفَ ٱللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَن قَرَنَهُ فقدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فقد جزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فقدْ جَهِلَه، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، ومن حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: «فِيمَ» فقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: «عَلاَمَ» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ.

الشرح: إنما قال عليه السلام: «أول الدين معرفته»، لأن التقليد باطل، وأوّل الواجبات الدينية المعرفة. ويمكن أن يقول قائل: ألستُم تقولون في علم الكلام: أول الواجبات النظرُ في طريق معرفة الله تعالى، وتارة تقولون: القصد إلى النظر؟ فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام؟!

وجوابه أن النَّظر والقصد إلى النظر إنما وجبا بالعَرَض لا بالذات، لأنهما وُصْلة إلى المعرفة، والمعرفة هي المقصود بالوجوب، وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد: أول واجب مقصود بذاته من الدين معرفةُ الباريء سبحانه، فلا تناقضَ بين كلامه وبين آراء المتكلمين.

وأما قوله: «وكمال معرفته التصديق به»، فلأنّ معرفتَه قد تكون ناقصة، وقد تكون غير ناقصة، فالمعرفة الناقصة هي المعرفة بأن للعالَم صانعاً غيرَ العالم، وذلك باعتبار أن الممكنَ لا بد له من مؤثر، فمن علم هذا فقط عَلِم الله تعالى ولكنّ علماً ناقصاً، وأما المعرفة التي ليست ناقصة فإنْ تعلم أن ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات، والخارجُ عن كلّ الممكنات ليس بممكن، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود، فمن عَلِم أنّ للعالم مؤثراً واجبَ

الوجود فقد عرفه عرفاناً أكملَ من عرفان أن للعالم مؤثّراً فقط، وهذا الأمر الزائد هو المكنّى عنه بالتصديق به، لأن أخصّ ما يمتاز به الباريء عن مخلوقاته هو وجوب الوجود.

وأما قولُهُ عليه السلام: «وكمال التصديق به توحيدُه»، فلأن مَنْ علم أنه تعالى واجبُ الوجود مصدّق بالباريء سبحانه، لكن ذلك التصديق قد يكون ناقصاً، وقد يكون غير ناقص، فالتصديق الناقص أن يقتصر على أن يعلم أنه واجبُ الوجود فقط، والتصديق الذي هو أكمل من ذلك وأتمّ هو العلمُ بتوحيده سبحانه، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين، لأن فرض واجبَي الوجود يُفْضِي إلى عموم وجوبِ الوجود لهما وامتياز كلٍّ واحد منهما بأمر غير الوجوب المشترك، وذلك يُفضي إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجِبَي الوجود، فمن علم الباريء سبحانه واحداً، أي لا واجب الوجود إلا هو يكون أكملَ تصديقاً ممن لم يعلم ذلك، وإنما اقتصر على أن صانع العالم واجب الوجود فقط.

وأما قوله: «وكمال توحيده الإخلاصُ له»، فالمراد بالإخلاص له هاهنا هو نَفْيُ الجسميّة والعَرَضيّة ولوازمهما عنه، لأن الجسم مركب، وكل مركب ممكِن، وواجب الوجود ليس بممكن. وأيضاً فكل عَرَضٍ مفتقِر، وواجب الوجود غير مفتقر، فواجب الوجود ليس بِعَرَض. وأيضاً فكل جِرْم محدث، وواجب الوجود ليس بمحدَث، فواجب الوجود ليس بجرم. وأيضاً فكل حاصل في الجهة، إما جِرْم أو عَرَض، وواجب الوجود ليس بِجرْم ولا عرَض، فلا يكون حاصلاً في جهة، فمن عرف وحدانية الباريء ولم يعرف هذه الأمور كان توحيده ناقصاً، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانيته تعالى فهو المخلص في عِرْفانه جلّ اسمه، ومعرفته تكون أتمّ وأكمل.

وأما قوله: «وكمالُ الإخلاص له نَفْيُ الصفات عنه»، فهو تصريحٌ بالتوْحيد الذي تذهب إليه المعتزلة، وهو نفيُ المعاني القديمة التي تُثْبِتها الأشعرية وغيرهم، قال عليه السلام: «لشهادة كلِّ صفة أنّها غيرُ الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنه غر الصفة»، وهذا هو دليل المعتزلة بعينِه، قالوا: لو كان عالماً بمعنى قديم، لكان ذلك المعنى إمّا هو أو غيره، أو ليس هو ولا غيره والأول باطل، لأنا نعقل ذاته قبل أن نعقِل أو نتصوّر له علماً، والمتصوَّر مُغايِرٌ لما ليس بمتصوَّر. والثالث باطل أيضاً، لأنّ إثبات شيئين: أحدهما ليس هو الآخر ولا غيره، معلوم فسادُه ببديهة العقل، فتعيّن القسم الثاني وهو مُحال، أما أوّلاً فبإجماع أهلِ الملّة، وأما ثانياً فلما سبق من أن وجوب الوجود لا يجوز أنْ يكون لشيئين، فإذا عرفْتَ هذا فاعرف أنّ الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصاً وقد لا يكون، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده، وأنه واحد ليس بجسم ولا عَرَض، ولا يصحّ عليه ما يصحّ على الأجسام والأعراض. والإخلاص التامّ هو العلم بأنّه لا تقوم به المعاني القديمة، مضافاً إلى تلك العلوم السابقة، وحينئذ تتم المعرفة وتكمل.

ثم أكّد أميرُ المؤمنين عليه السلام هذه الإشارات الإلهية بقوله: «فمَنْ وَصَف الله سبحانه فقد قَرَنه»، وهذا حقّ، لأنّ الموصوفَ يقارن الصفة، والصفة تقارنه.

قال: «ومن قرنه فقد ثنّاه»، وهذا حقّ، لأنه قد أثبت قديمين، وذلك محض التثنية.

قال: «ومن ثنّاه فقد جَزّأه»، وهذا حقّ، لأنه إذا أطلق لفظة الله تعالى على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللفظ وفائدته متجزئة، كإطلاق لفظ «الأسود» على الذات التي حلّها سواد.

قال: «ومن جَزّأه فقد جهله»، وهذا حقّ، لأنّ الجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به.

قال: «ومن أشار إليه فقد حَدّه»، وهذا حقّ، لأنّ كلَّ مشارٍ إليه فهو محدود، لأنّ المشار إليه لا بدّ أن يكون في جهة مخصوصة، وكلّ ما هو في جهة فله حدّ وحدود، أي أقطار وأطراف.

قال: «ومَنْ حدّه فقد عدّه»، أي جعله من الأشياء المحدثة، وهذا حقّ، لأنّ كلّ محدود معدود في الذوات المحدَثة.

قال: «ومن قال: فِيمَ؟ فقد ضمّنه»، وهذا حقّ، لأن مَنْ تصوّر أنه في شيء فقد جعله إما جسماً مستَتِراً في مكان، أو عرَضاً سارياً في محلّ، والمكان متضمّن للتّمكن، والمحلّ متضمّن للعرَض.

قال: «ومن قال: علامَ؟ فقد أخلَى منه»، وهذا حقّ، لأن مَنْ تصوّر أنه تعالى على العرش، أو على الكرسيّ، فقد أخلى منه غير ذلك الموضع. وأصحاب تلك المقالة يمتنِعون من ذلك، ومرادُه عليه السلام إظهار تناقض أقوالهم، وإلاّ فلو قالوا: هب أنّا قد أخلَيْنا منه غير ذلك الموضع أيّ محذور يلزمنا؟ فإذا قيل لهم: لو خلا منه موضع دون موضع لكان جسماً، ولزم حدوثه، قالوا: لزوم الحدوث والجِسْمية إنّما هو من حصوله في الجهة لا من خلوّ بعض الجهات عنه، وأنتم إنما احتججتُم علينا بمجرّد بعض الجهات منه، فظهر أنّ توجيه الكلام عليهم إنّما هو إلزام لهم، لا استدلال على فساد قولهم.

فأمّا القطب الراونديّ فإنه قال في معنى قوله: «نفيُ الصفات عنه»: أي صفات المخلوقين، قال: لأنه تعالى عالم قادر، وله بذلك صفات، فكيف يجوز أن يقال: لا صفة له!

وأيضاً فإنه عليه السلام قد أثبت لله تعالى صفةً أوّلاً، حيث قال: «الذي ليس لصفته حد محدود»، فوجب أنْ يُحمل كلامه على ما يتنزّه عن المناقضة.

وأيضاً فإنه قد قال فيما بعدُ في صفة الملائكة: «إنهم لا يَصِفون الله تعالى بصفات المصنوعين»، فوجب أن يحمل قوله الآن: «وكمالُ توحيده نفي الصفات عنه» على صفات المخلوقين، حملاً للمطلق على المقيَّد.

ولقائل أن يقول: لو أراد نفيَ صفات المخلوقين عنه لم يستدلّ على ذلك بدليل الغيريّة، وهو قوله: «الشهادة كل صفة أنها غيرُ الموصوف»، لأن هذا الاستدلال لا ينطبق على دَعْوَى أنه غير موصوف بصفات المخلوقين، بل كان ينبغي أن يستدلّ بأن صفات المخلوقين من لوازم الجسمية والعَرَضيّة، والباريء ليس بجسم ولا عَرَض، ونحن قد بينا أن مراده عليه السلام إبطال القول بالمعاني القديمة، وهي المسماة بالصفات في الاصطلاح القديم، ولهذا يسمَّى أصحاب المعاني بالصفاتية. فأما كونه قادراً وعالماً فأصحابها أصحاب الأحوال، وقد بينا أن مراده عليه السلام بقوله: «ليس لصفته حدّ محدود»، أي لكنهه وحقيقته، وأما كون الملائكة لا تصف الباريء بصفات المصنوعين فلا يقتضي أن يُحْمَلَ كل موضوع فيه ذكر الصفات على صفات المصنوعين، لأجل تقييد ذلك في ذكر الملائكة، وأين هذا من باب حمل المطلق على المقيّد! لاسيما وقد ثبت أن التعليل والاستدلال يقضي ألا يكون المراد صفات المخلوقين.

وقد تكلّف الراونديّ لتطبيق تعليله عليه السلام نفيَ الصفات عنه بقوله: «الشهادة كلّ صفة أنها غيرُ الموصوف»، بكلام عجيب، وأنا أحكي ألفاظَه لتعلم، قال: معنى هذا التعليل أنّ الفعل في الشاهد لا يشابه الفاعل، والفاعل غيرُ الفعل، لأن ما يوصف به الغير إنما هو الفعل أو معنى الفعل، كالضّارب والفَهِم، فإن الفهم والضرب كلاهما فعل، والموصوف بهما فاعل، والدليل لا يختلف شاهداً وغائباً، فإذا كان تعالى قديماً وهذه الأجسام محدثة كانت معدومة ثم وجدت، يدلّ على أنها غيرُ الموصوف بأنه خالقها ومدبّرها.

انقضى كلامه. وحكايته تُغْني عن الرّد عليه.

ثم قال: «الأوّل» على وزن «أفعل» يستوي فيه المذكر والمؤنث، إذا لم يكن فيه الألف واللام، فإذا كانا فيه قيل للمؤنث: «الأولى».

وهذا غير صحيح؛ لأنه يقال: كلّمت فُضْلاهنّ، وليس فيه ألف ولام، وكان ينبغي أن يقول إذا كان منكراً مصحوباً بمن استوى المذكر والمؤنث في لفظ «أفعل»، تقول: زيد أفضل من عمرو، وهند أحسن من دعد.

الأصل: كائنٌ لا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لاَ عَنْ عَدَمٍ، مَع كلِّ شَيءٍ لا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كلِّ شَيءٍ لا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لا بمَعْنَى ٱلحَرَكاتِ وَٱلآلَةِ، بَصِيرٌ، إِذْ لا مَنْظُورَ إِلَيهِ مِنْ خَلْقِهِ،

مُتَوَحِّدٌ، إذْ لا سكَنَ يَستَأنِسُ بِهِ، وَلا يَستَوْحِشُ لِفَقْدِهِ. أنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلاَ رَوِيَّةٍ أجالَها، ولاَ تَجرِبَةٍ اسْتَفَادَها، وَلاَ حَرَكةٍ أحْدَثَهَا، ولا هَمامَةِ نَفْسٍ اضْطرَب فِيها. أَحَالَ الأَشْياءَ لِأَوْقاتها، ولأَمَ بيْنَ مُختَلِفَاتها، وَغَرَّزَ غَرَائِزَها، وَأَلْزَمَها أَشْباحَها، عَالِماً بِهَا قبلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطاً بحُدُودِهَا وَانْتِهائِهَا، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وأَحْنَائِهَا.

الشرح: قوله عليه السلام: «كائن»، وإن كان في الاصطلاح العرفيّ مقولاً على ما ينزَّه الباريء عنه، فمراده به المفهوم اللغويّ، وهو اسم فاعل من «كان»، بمعنى وجد، كأنّه قال: موجود غير محدَث.

فإن قيل: فقد قال بعده: «موجود لا عن عدَم» فلا يبقى بين الكلمتين فرق.

قيل: بينهما فرق، ومراده بالموجود لا عن عدم هاهنا وجوب وجوده ونفيُ إمكانه؛ لأنّ مَنْ أثبت قديماً ممكناً، فإنه وإن نفي حدوثَه الزمانيّ فلم ينفِ حدوثَه الذاتيّ، وأمير المؤمنين عليه السلام نفى عن الباريء تعالى في الكلمة الأولى الحدوثَ الزمانيّ، ونفى عنه في الكلمة الثانية الذاتيّ. وقولنا في الممكن: إنّه موجود من عدم، صحيح عند التأمّل، لا بمعنى أنّ عدمه سابق له زماناً، بل سابق لوجوده ذاتاً، لأن الممكن يستحقّ من ذاته أنّه لا يستحق الوجود من ذاته.

وأما قوله: «مع كلّ شيء لا بمقارنة»، فمراده بذلك أنّه يعلم الجزئيات والكلّيات، كما قال سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(١).

وأما قوله: «وغيرُ كلّ شيءٍ لا بمزايلة» فحقّ؛ لأنّ الغَيْرين في الشاهد هما ما زايلَ أحدُهما الآخر وباينه بمكان أو زمان، والباريء سبحانه يباين الموجودات مباينة منزّهة عن المكان والزمان، فصدَق عليه أنّه غير كلّ شيء لا بمزايلة.

وأمّا قوله: «فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة»، فحقّ، لأن فعله اختراع، والحكماء يقولون: إبداع، ومعنى الكلمتين واحد، وهو أنه يفعل لا بالحركة والآلة كما يفعل الواحد منّا، ولا يوجِد شيئاً من شيء.

وأما قوله: «بصير، إذ لا منظورَ إليه من خَلْقه»، فهو حقيقةُ مذهب أبي هاشم رحمه الله وأصحابه؛ لأنهم يُطلقون عليه في الأزَل أنّه سميع بصير، وليس هناك مسموع ولا مُبصَر، ومعنى ذلك كونه بحالٍ يصحّ منه إدراك المسموعات والمبصَرات إذا وجدت، وذلك يرجع إلى كونه حيًّا لا آفة به، ولا يُطلقون عليه أنه سامع مبصر في الأزَل؛ لأنّ السامع المبصر هو المدرك بالفعل لا بالقوّة.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٧.

وأما قوله: «متوحّد، إذْ لا سَكَنَ يَستأنس به، ويستوحش لفقده»، ف- «إذ» هاهنا ظرف، ومعنى الكلام أنَّ العادة والعرف إطلاق «متوحّد» على من قد كان له من يستأنس بقربه ويستوحش ببعده، فانفرد عنه، والباريء سبحانه يطلق عليه أنّه متوحِّد في الأزل ولا موجود سواه، وإذا صَدَق سَلْب الموجودات كلّها في الأَزَل صدق سلبُ ما يؤنِس أو يوحِش، فتوحّده سبحانه بخلاف توحّد غيره.

وأما قوله عليه السلام: «أنشأ الخلق إنشاءاً، وابتدأه ابتداءاً»، فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء، كقوله سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾(١). وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(٢).

وقوله: «بلا رَوِيَّةٍ أجالها»، فالرويّة الفِكْرة، وأجالها: ردّدها، ومن رواه: «أحالها» بالحاء، أراد صرفها. وقوله: «ولا تجربةٍ استفادها»، أي لم يكن قد خلق من قبلُ أجساماً فحصَلت له التجربة التي أعانته على خَلْق هذه الأجسام.

وقوله: «ولا حركة أحدثها»، فيه ردّ على الكرّاميّة الذين يقولون: إنّه إذا أراد أنْ يخلُق شيئاً مبايناً عنه أحدث في ذاته حادثاً يسمّى الإحداث، فوقع ذلك الشيء المباين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً.

وقوله: «ولا هَمامة نفس اضطرب فيها»، فيه ردٌّ على المجوس والثَّنَوِيّة القائلين بالهمامة، ولهم فيها خَبْط طويل يذكره أصحاب المقالات، وهذا يدل على صحة ما يقال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدّمين والمتأخرين، ويعلم العلوم كلّها، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام.

وأما قوله: «أحال الأشياء لأوقاتها»، فمن روَاها: «أَحَلّ الأشياء لأوقاتها»، فمعناه: جعل محلّ كلّ شيء ووقْته كمحلّ الديْن. ومن رواها: «أحال» فهو من قولك: حال في مَتْن فرسه، أي وثب، وأحاله غيرهُ، أي: أوْثَبَه على متْن الفرس، عدّاه بالهمزة، وكأنّه لما أقرّ الأشياء في أحيانها وأوقاتها صار كمن أحال غيرَه على فرسه.

وقوله «ولاءم بين مختلفاتها»، أي جعل المختلفات ملتئِمات، كما قَرَن النفس الروحانيةَ بالجسد الترابيّ، جلّت عظمتُه!

وقوله: «وغرّز غرائزها»، المرويّ بالتشديد، والغريزة: الطبيعة، وجَمْعها غرائز، وقوله: «غرّزها»، أي جعلها غرائز، كما قيل: سبحان من ضوّأ الأضواء!. ويجوز أنْ يكون من غرزتُ الإبرة بمعنى غرست. وقد رأيناه في بعض النسخ بالتخفيف.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٥. (٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

وقوله: «وألزمها أشباحها»، الضمير المنصوب في «ألزمها» عائد إلى الغرائز، أي ألزم الغرائز أشباحَها، أي أشخاصها، جمع شَبَح، وهذا حقّ، لأن كلاً مطبوع على غريزة لازمة، فالشجاع لا يكون جباناً، والبخيل لا يكون جواداً، وكذلك كلّ الغرائز لازمة لا تنتقل.

وقوله: «عالماً بها قبل ابتدائها»، إشارة إلى أنّه عالم بالأشياء فيما لم يزَل.

وقوله: «محيطاً بحدودها وانتهائها» أي بأطرافها ونهاياتها.

وقوله: «عارفاً بقرائنها وأحنائها»، القرائن: جمع قرونة، وهي النفس. والأحناء: الجوانب، جمع حِنْو، يقول: إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التي ألزمها أشباحَها، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلّقة بها والصادرة عنها.

فأمّا القطب الراونديّ فإنه قال: معنى قوله عليه السلام: «كائن لا عن حَدث، موجود لا عن عَدَم»، أنه لم يزل موجوداً، ولا يزال موجوداً، فهو باقٍ أبداً كما كان موجوداً أوّلاً، وهذا ليس بجيّد؛ لأنّ اللفظ لا يدلّ على ذلك ولا فيه تعرّض بالبقاء فيما لا يزال.

وقال أيضاً: قوله عليه السلام: «لا يستوحش»، كلام مستأنف. ولقائل أن يقول: كيف يكون كلاماً مستأنفاً، والهاء «في فقده» ترجع إلى «السكن» المذكور أولاً!

وقال أيضاً: يُقال: ماله في الأمر هِمَّة ولا هَمامة، أي لا يهُمّ به، والهمامة: التردّد، كالعزم. ولقائل أن يقول: العزم هو إرادة جازمة حَصَلت بعد التردّد، فبطل قوله: إنّ الهمامة هي نفس التردد كالعزم. وأيضاً فقد بيّنا مراده عليه السلام بالهمامة، حكى زُرْقان في كتاب «المقالات»، وأبو عيسى الوراق، والحسن بن موسى، وذكره شيخنا أبو القاسم البلْخِيّ في كتابه في «المقالات» أيضاً عن الثنوية: أنّ النور الأعظم اضطربت عزائمه وإرادته في غزو الظُّلمة والإغارة عليها، فخرجت من ذاته قطعة - وهي الهَمامة المضطربة في نفسه - فخالطت الظلمةَ غازية لها، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم، وحالت بينها وبينه، وخرجت هَمامة الظلمة غازية للنور الأعظم، فاقتطعها النور الأعظم عن الظلمة، ومزجها بأجزائه، وامتزجت هَمامة النور بأجزاء الظلمة أيضاً، ثم ما زالت الهَمامتان تتقاربان وتتدانيان وهما ممتزجتان بأجزاء هذا وهذا، حتى انبنى منهما هذا العالَم المحسوس. ولهم في الهَمامة كلام مشهور، وهي لفظة اصطلحوا عليها، واللغة العربية ما عرفنا فيها استعمال الهمامة بمعنى الهِمَّة، والذي عرفناه الهِمّة والهَمَّة - بالكسر والفتح - والمَهَمّة، وتقول: لا هَمامِ لي بهذا الأمر، مبنيّ على الكسر كقَطامِ، ولكنّها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها.

الأصل: ثُمَّ أَنشَأَ سُبْحَانَهُ فَتْقَ ٱلْأَجْوَاءِ، وَشَقَّ ٱلْأَرْجَاءِ، وَسَكَائِكَ ٱلْهَوَاءِ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلاطِماً تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِماً زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ ٱلرِّيحِ العَاصِفَةِ، وَٱلزَّعْزَعِ ٱلْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَنَهَا إِلَى حَدِّهِ، ٱلْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ، وَالمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وَأَدَامَ مُرَبَّها، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا، فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ المَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ ٱلْبِحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقَاءِ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ، تَرُدُّ أَوَّلَهُ عَلَى آخِرِهِ، وَسَاجِيَهُ عَلَى مَائِرِهِ، حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوٍّ مُنْفَهِقٍ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ، جَعَلَ سُفْلاَهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُها، وَلاَ دِسَارٍ يَنْتَظِمُها. ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ.

الشرح: لسائل أن يسأل فيقول: ظاهرُ هذا الكلام أنّه سبحانه خلق الفضاء والسمٰوات بعد خَلْق كلّ شيء، لأنه قد قال قبل: «فَطَرَ الخلائق، ونشر الرياح، ووتّد الأرض بالجبال»، ثم عاد فقال: أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً»، وهو الآن يقول: «ثم أنشأ سبحانه فَتْق الأجواء»، ولفظة «ثمّ» للتراخي!.

فالجواب أن قوله: «ثم» هو تعقيب وتراخٍ، لا في مخلوقات الباريء سبحانه، بل في كلامه عليه السلام، كأنه يقول: ثم أقول الآن بعد قوليَ المتقدم: إنه تعالى أنشأ فتق الأجواء. ويمكن أن يقال: إن لفظة «ثم» هاهنا تُعْطِي معنى الجمع المطلق كالواو، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾(١).

واعلم أنّ كلام أميرِ المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يشتمل على مباحث:

منها: أنّ ظاهرَ لفظه أنّ الفضاء الّذي هو الفراغ الذي يحصل فيه الأجسام خلقَه الله تعالى ولم يكن من قبل، وهذا يقتضي كون الفضاء شيئاً، لأن المخلوق لا يكون عَدَماً محضاً. وليس ذلك ببعيد، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام. ومنهم من جعله مجرّداً.

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٢.

فإن قيل: هذا الكلام يُشعِر بأن خلْق الأجسام في العدم المحض قبل خلق الفضاء ليس بممكن، وهذا ينافي العقل!.

قيل: بل هذا هو محض مذهب الحكماء، فإنهم يقولون: إنه لا يمكن وجودُ جسم ولا حركةُ جسم خارجَ الفلك الأقصى، وليس ذلك إلا لاستحالة وجود الأجسام وحركتها، إلا في الفضاء.

ومنها: أن الباريء - سبحانه - خلق في الفضاء الذي أوجده ماء جعله على متْن الريح، فاستقلّ عليها، وثبت وصارت مكاناً له، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحاً أخرى سلّطها عليه، فموَّجته تمويجاً شديداً حتى ارتفع، فخلق منه السموات. وهذا أيضاً قد قاله قوم من الحكماء، ومن جملتهم تاليسَ الإسكندرانيّ، وزعم أن الماء أصل كل العناصر، لأنه إذا انجمد صار أرضاً، وإذا لَطُف صار هواء، والهواء يستحيل ناراً، لأنّ النار صفوة الهواء.

ويقال: إن في التوراة في أول السِّفر الأول كلاماً يناسب هذا، وهو أنّ الله تعالى خالق جوهراً، فنظر إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء، ثم ارتفع من ذلك الماء بخارٌ كالدخان، فخلق منه السمٰوات، وظهر على وجه ذلك الماء زَبَد، فخلق منه الأرض، ثم أرساها بالجبال.

ومنها: أنّ السماء الدنيا مَوْج مكفوف، بخلاف السمٰوات الفوقانية. وهذا أيضاً قول قد ذهب إليه قوم، واستدلُّوا عليه بما نُشاهده من حركة الكواكب المتحيّرة وارتعادها في مرأى العين واضطرابها، قالوا: لأن المتحيّرة متحركة في أفلاكها، ونحن نشاهدها بالحسّ البَصريّ، وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشفافة، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد الجسم السائر في الماء، وما ذاك إلا لأنّ السماء الدنيا ماء متموّج، فارتعاد الكواكب المشاهدة حسًّا إنّما هو بحسب ارتعاد أجزاء الفَلك الأدنى. قالوا: فأمّا الكواكب الثابتة فإنّا لم نشاهدها كذلك، لأنّها ليست بمتحرّكة، وأمّا القمر وإن كان في السماء الدنيا، إلا أنّ فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانية، وليس بماء متموّج كالفلك الممثل التحتانيّ. وكذلك القولُ في الشمس.

ومنها: أنّ الكواكب في قوله: «ثم زيّنها بزينة الكواكب» أين هي؟ فإن اللفظ محتمِل، وينبغي أن يتقدّم على ذلك بحثٌ في أصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾[1]!

فنقول: إنّ ظاهرَ هذا اللفظ أنّ الكواكبَ في السماء الدنيا، وأنها جعلت فيها حراسة للشياطين من استراق السمع، فمن دنا منهم لذلك رُجِم بشهاب، وهذا هو الذي يقتضيه ظاهر

(١) سورة الصافات، الآيات: ٦، ٧.

اللفظ. ومذهب الحكماء أنّ السماء الدنيا ليس فيها إلا القمر وحدَه، وعندهم أن الشهبَ المنقضّة هي آثار تظهر في الفَلَك الأثيريّ الناريّ الذي تحت فلك القمر، والكواكبُ لا ينقضّ منها شيء، والواجبُ التصديق بما في ظاهر لفظ الكتاب العزيز، وأنْ يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام على مطابقته، فيكونَ الضميرُ في قوله: «زينها» راجعاً إلى «سفلاهنّ»، التي قال: «إنها مَوْج مكفوف»، ويكون الضمير في قوله: «وَأجْرَى فيها» راجعاً إلى جملة السمٰوات، إذا وافقنا الحكماء في أنّ الشمس في السماء الرابعة.

ومنها: أنّ ظاهرَ الكلام يقتضي أنّ خلْق السموات بعد خلق الأرض، ألا تراه كيف لم يتعرّضْ فيه لكيفية خلق الأرض أصلاً. وهذا قولٌ قد ذهب إليه جماعة من أهل المِلّةِ، واستدلّوا عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، ثم قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾(٢).

ومنها: أن الهاء في قوله: «فرفعه في هواءٍ منفتق» والهاء في قوله: «فسوّى منه سبعَ سموات» إلى ماذا ترجع؟ فإنّ آخر المذكورات قبلها «الزَّبد». وهل يجوز أن تكون السموات مخلوقة من زَبَد الماء؟ الحقّ أنّ الضمائر ترجع إلى الماء الذي عبّ عبابُه، لا إلى الزّبد، فإنّ أحداً لم يذهب إلى أنّ السماء مخلوقة من زَبَد الماء، وإنما قالوا: إنّها مخلوقة من بُخاره.

ومنها: أنْ يقال إن الباريء سبحانه قادر على خلْق الأشياء إبداعاً واختراعاً، فما الذي اقتضى أنه خلق المخلوقات على هذا الترتيب؟ وهلاّ أوجدها إيجاد الماء الذي ابتدعه أوّلاً من غير شيء!

فيقال في جواب ذلك على طريق أصحابنا: لعلّ إخبارَه للمكلّفين بذلك على هذا الترتيب يكون لطفاً بهم، ولا يجوز الإخبار منه تعالى إلاّ والمخبر عنه مطابق للإخبار.

فهذا حظّ المباحث المعنوية من هذا الفصل.

ثم نشرع في تفسير ألفاظه:

أمّا الأجواء فجمع جَوّ، والجوّ هنا الفضاء العالي بين السماء والأرض. والأرجاء: الجوانب، واحدها رَجا مثل عصا. والسكائك: جمع سُكاكة، وهي أعلى الفضاء، كما قالوا: ذُؤابة وذوائب. والتيّار: الموج، والمتراكم: الذي بعضُه فوق بعض. والزّخّار: الذي يَزْخَر، أي يمتدّ ويرتفع. والريح الزعْزع: الشديد الهبوب، وكذلك القاصفة، كأنها تُهلِك الناس بشدّة

(١) سورة فصلت، الآية: ٩.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

هبوبها. ومعنى قوله: «فأمرها بردّه»، أي بمنعه عن الهبوط، لأنّ الماء ثقيل، ومن شأن الثقيل الهُوِيّ. ومعنى قوله: «وسلّطها على شدّه» أي على وثاقه، كأنه سبحانه لما سلّط الريح على منعه من الهبوط، فكأنه قد شدّه بها وأوثقه ومنعه من الحركة. ومعنى قوله: «وقرنها إلى حَدّه»، أي جعلها مكاناً له، أي جعل حدّ الماء المذكور - وهو سطحه الأسفل - مما ساطح الريح التي تحمله وتُقِلّه. والفتيق: المفتوق المنبسط. والدفيق: المدفوق. «واعتقَم مَهَبّهاَ»، أي: جعل هُبوبَها عقيماً، والريح العقيم: التي لا تُلْقِحُ سحاباً ولا شجراً، وكذلك كانت تلك الريح المشار إليها، لأنّه سبحانه إنما خلقها لتمويج الماء فقط. وأدام مُرَبّها، أي ملازمتها، أربّ بالمكان مثل ألبَّ به، أي لازمه.

ومعنى قوله: «وعَصفت به عَصْفَها بالفضاء»، فيه معنى لطيف، يقول: إنّ الريح إذا عصفت بالفضاء الذي لا أجسام فيه كان عصفُها شديداً لعدم المانع، وهذه الريح عصفت بذلك الماء العظيم عصفاً شديداً، كأنها تعصِفُ في فضاء لا ممانع لها فيه من الأجسام.

والساجي: الساكن. والمائر: الذي يذهب ويجيء. وعبّ عُبَابه: أي ارتفع أعلاه. ورُكامه: ثَبجه وهِضبُه. والجوّ المنفهق: المفتوح الواسع. والموج المكفوف: الممنوع من السَّيَلان. وعَمدٍ يَدْعمُها: يكون لها دِعامة. والدِّسار: واحد الدُّسُر وهي المسامير.

والثواقب النَّيِّرة: المشرِقة. وسراجاً مستطيراً، أي منتشر الضوء، يقال: قد استطار الفجر، أي انتشر ضوءه. ورقيم مائر، أي لوح متحرّك، سُمّي الفلك رقيماً تشبيهاً باللوح؛ لأنه مسطّح.

فأمّا القطبُ الراونديّ فقال: إنّه عليه السلام ذكَر قبل هذه الكلمات أنه أنشأ حيواناً له أعضاء وأحناء، ثم ذكر هاهنا أنه فتق السماء، وميّز بعضها عن بعض، ثم ذكر أنَّ بين كلّ سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وهي سبع سمٰوات، وكذلك بين كل أرض وأرض، وهي سبع أيضاً. وروى حديث البقرة التي تحمل الملك الحامل للعرش، والصخرة التي تحمل البقرة، والحوت الذي يحمل الصخرة.

ولقائل أن يقول: إنّه عليه السلام لم يذكر فيما تقدم أنَّ الله تعالى خَلق حيواناً ذا أعضاء، ولا قوله الآن: «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء»، هو معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[1]، ألا تراه كيف صرّح عليه السلام بأن الباريء سبحانه خلق الهواء الذي هو الفضاء، وعبَّر عن ذلك بقوله: «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء»، وليس فتقُ الأجواء هو فتق السماء!.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

فإن قلتَ: فكيف يمكن التطبيق بين كلامه عَلَيْتَلِاْ وبين الآية؟

قلتُ: إنه تعالى لما سلّط الريح على الماء فعصفتْ به، حتى جعلته بخاراً وزَبَداً، وخلق من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض، كان فاتقاً لهما من شيء واحد، وهو الماء.

فأما حديثُ البعد بين السمٰوات وكونه مسيرةَ خمسمائة عام بين كلّ سماء وسماء، فقد ورد وروداً لم يُوثَق به، وأكثر الناس على خلاف ذلك. وكونُ الأرض سبعاً أيضاً خلافُ ما يقوله جمهور العقلاء، وليس في القرآن العزيز ما يدلّ على تعدد الأرض إلا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[1]، وقد أوّلوه على الأقاليم السبعة. وحديث الصخرة والحوت والبقرة من الخرافات في غالب الظنّ، والصحيح أنَّ الله تعالى يُمْسِك الكلّ بغير واسطة جسم آخر.

ثم قال الراوندي: السَّكائك: جمعُ سُكاك، وهذا غير جائز؛ لأن «فُعالا» لا يجمع على «فعائل»، وإنما هو جمع سُكَاكة، ذكر ذلك الجوهريّ.

ثم قال: «وسلّطها على شَدّه»، الشدّ: العذو. ولا يجوز حمل الشدّ هاهنا على العَدْو، لأنه لا معنى له، والصحيح ما ذكرناه.

وقال في تفسير قوله عَلَيْتَلِاْ: «جعل سُفلاهنّ موجاً مكفوفاً»، أراد تشبيهَها بالموج لصفائها واعتلائها. فيقال له: إنَّ الموجَ ليس بعالٍ ليشبَّه به الجسم العالي، وأما صفاؤه فإن كلَّ السمٰوات صافية، فلماذا خَصَّ سُفلاهنَّ بذلك!؟

ثم قال: ويمكن أن تكون السماء السُّفْلى قد كانت أوّل ما وجدت موجاً ثم عَقَدها. يقال له: والسموات الأخَر كذلك كانت، فلماذا خصَّ السُّفْلى بذلك؟!

ثم قال: الريح الأولى غير الريح الثانية؛ لأنَّ إحداهما معرِفة والأخرى نكرة، وهذا مثل قوله: صم اليوم، صم يوماً، فإنه يقتضي يومين.

يقال له: ليست المغايرة بينهما مستفادة من مجرّد التعريف والتنكير؛ لأنه لو كان قال عَلَيْتَلِاْ: «وحمله على متن ريح عاصفة وزعزع قاصفة» لكانت الريحان: الأولى والثانية منكّرتين معاً، وهما متغايرتان، وإنما علمنا تغايرَهما؛ لأنَّ إحداهما تحت الماء والأخرى فوقه، والجسم الواحد لا يكون في جهتين.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

الأصل: ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلْعُلاَ، فَمَلأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لاَ يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لاَ يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لاَ يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لاَ يَسْأَمُونَ، لاَ يَغْشَاهُمْ نَوْمُ ٱلْعُيُونِ، وَلاَ سَهْوُ ٱلْعُقُولِ، وَلاَ فَتْرَةُ ٱلْأَبْدَانِ، وَلاَ غَفْلَةُ ٱلنِّسْيَانِ.

وَمِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَىٰ رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَٱلسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلثَّابِتَةُ فِي ٱلْأَرَضِينَ ٱلسُّفْلَىٰ أَقْدَامُهُمْ، وَٱلْمَارِقَةُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ٱلْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَٱلْخَارِجَةُ مِنَ ٱلْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَٱلْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ ٱلْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ ٱلْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ ٱلْقُدْرَةِ، لاَ يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلاَ يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ ٱلْمَصْنُوعِينَ، وَلاَ يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ، وَلاَ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ.

رأي المعتزلة في الملائكة

الشرح: المَلَكُ عند المعتزلة حيوان نوريّ، فمنه شفّاف عادم اللون كالهواء، ومنه ملوّن بلون الشمس. والملائكة عندهم قادرون عالمون أحياء بعلوم وقُدَر وحياة، كالواحد منّا، ومكلّفون كالواحد منا، إلا أنهم معصومون. ولهم في كيفية تكليفهم كلام، لأنّ التكليف مبنيّ على الشهوة.

وفي كيفيّة خَلْق الشهوة فيهم نظر، وليس هذا الكتاب موضوعاً للبحث في ذلك.

وقد جعلهم عليه السلام في هذا الفصل أربعة أقسام:

القسم الأول: أرباب العبادة، فمنهم مَنْ هو ساجد أبداً لم يقم من سجوده ليركع، ومنهم من هو راكع أبداً لم ينتصِب قَطّ، ومنهم الصافّون في الصلاة بين يديْ خالقهم لا يتزايلون، ومنهم المسبّحون الذين لا يملّون التسبيح والتحميد له سبحانه.

والقسم الثاني: السُّفراء بينه تعالى وبين المكلّفين من البشر بتحمّل الوحي الإلهيّ إلى الرسل، والمختلفون بقضائه وأمره إلى أهل الأرض.

والقسم الثالث ضربان: أحدهما حَفَظة العباد كالكرام الكاتبين، وكالملائكة الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات، ولولا ذلك لكان العَطَب أكثرَ من السلامة وثانيهما سَدَنة الجِنان.

القسم الرابع: حَمَلة العرش.

ويجب أن يكون الضمير في «دونه» - وهو الهاء - راجعاً إلى العرش لا إلى الباريء سبحانه. وكذلك الهاء في قوله: «تحته». ويجب أن تكون الإشارة بقوله: «وبين مَنْ دونهم» إلى الملائكة الذين دون هؤلاء في الرتبة.

فأما ألفاظ الفصل فكلها غنيّة عن التفسير إلا يسيراً، كالسَّدنة جمع سادِن وهو الخادم، والمارق: الخارج. وتلفّعت بالثوب، أي التحفت به.

وأما القطب الراونديّ فجعل الأمناءَ على الوحي وحفظَة العباد وسدَنة الجنان قسماً واحداً، فأعاد الأقسام الأربعة إلى ثلاثة. وليسَ بجيّد؛ لأنه قال: «ومنهم الحفظة»، فلفظة «ومنهم» تقتضي كونَ الأقسام أربعة، لأنه بها فصَّل بين الأقسام.

وقال أيضاً: معنى قوله عليه السلام: «لا يغشاهم نوم العيون» يقتضي أنَّ لهم نوماً قليلاً لا يُغفلهم عن ذكر الله سبحانه، فأما الباريء سبحانه فإنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم أصلاً، مع أنه حيٌّ، وهذه هي المدحة العظمى.

ولقائل أن يقول: لو ناموا قليلاً لكانوا زمانَ ذلك النوم - وإن قلَّ - غافلين عن ذكر الله سبحانه، لأنَّ الجمع بين النوم وبين الذكر مستحيل.

والصحيح أنَّ المَلك لا يجوز عليه النوم، كما لا يجوز عليه الأكل والشرب، لأنَّ النوم من توابع المِزاج، والمَلك لا مِزاج له. وأما مدحُ الباريء بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم فخارج عن هذا الباب؛ لأنه تعالى يستحيل عليه النوم استحالة ذاتية، لا يجوز تبدّلها، والملك يجوز أن يخرج عن كونه مَلَكاً، بأنْ يخلق في أجزاء جسمه رُطوبة ويبوسة، وحرارة وبرودة يحصل من اجتماعها مِزاج، ويتبع ذلك المِزاج النوم. فاستحالة النوم عليه إنما هي ما دام مَلَكاً، فهو كقولك: الماء بارد، أي ما دام ماء، لأنه يمكن أن يستحيل هواء ثم ناراً، فلا يكون بارداً؛ لأنه ليس حينئذ ماء. والباريء جلّت عظمته يستحيل على ذاته أن يتغيّر، فاستحال عليه النوم استحالةً مطلقة، مع أنه حيّ، ومن هذا إنشاء التمدّح. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنَّ الله خلق الخلْق أربعة أصناف: الملائكة، والشياطين، والجِنّ، والإنس. ثم جعل الأصناف الأربعة عشرة أجزاء، فتسعة منها الملائكة وجزء واحد الشياطين والجنّ والإنس، ثم جعل هؤلاء الثلاثةَ عشرةَ أجزاء، فتسعة منها الشياطين وجزء واحد الجن والإنس، ثم جعل الجنَّ والإنس عشرة أجزاء، فتسعة منها الجنّ وجزء واحد الإنس».

وفي الحديث الصحيح: إن الملائكة كانت تصافح عمران بن الحصين وتزوره، ثم افتقدها، فقال: يا رسول الله، إن رجالاً كانوا يأتونني لم أر أحسنَ وجوهاً، ولا أطيب أرواحاً منهم، ثم انقطعوا. فقال عليه السلام: «أصابك جُرح فكنت تكتمه»؟ فقال: أجل، قال: «ثم أظهرتَه»؟ قال: أجل، قال: «أمَا لو أقمت على كِتْمانه لزارتك الملائكة إلى أن تموت»، وكان هذا الجُرح أصابه في سبيل الله.

وقال سعيد بن المسيّب وغيره: الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث، ولا يتوالدون ولا يأكلون

ولا يشربون، والجنّ يتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون، والشياطين ذكور وإناث ويتوالدون، ولا يموتون حتى يموت إبليس.

وقال النبي ﷺ في رواية أبي ذرّ: «إنّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئطّ فما فيها موضع شبر إلا وفيه مَلك قائم أو راكع أو ساجد واضع جبهته لله. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الفلوات تجأرون إلى الله. والله لوددت أني كنت شجرة تُعْضَد»[١].

قلت: ويُوشك هذه الكلمة الأخيرة أن تكون قول أبي ذرّ.

واتفق أهلُ الكتب على أنّ رؤساء الملائكة وأعيانَهم أربعة: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، وهو مَلَك الموت. وقالوا: إن إسرافيلَ صاحب الصُّور وإليه النفخة. وإن ميكائيل صاحب النبات والمطر. وإن عزرائيل على أرواح الحيوانات. وإن جبرائيل على جنود السموات والأرض كلّها، وإليه تدبير الرياح، وهو ينزل إليهم كلهم بما يؤمرون به.

وروى أنسُ بن مالك أنه قيل لرسول الله ﷺ: ما هؤلاء الذين استثنى بهم في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢]. فقال: «جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، فيقول الله عز وجل لعزرائيل: يا ملكَ الموت، من بقي؟ - وهو سبحانه أعلم - فيقول: سبحانك ربّي ذا الجلال والإكرام! بقيَ جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، فيقول: يا ملك الموت، خذ نفس إسرافيل، فيقعُ في صورته التي خُلق عليها كأعظم ما يكون من الأطواد، ثم يقول: - وهو أعلم - مَن بقي يا ملكَ الموت؟ فيقول: سبحانك ربّي يا ذا الجلال والإكرام! جبرائيل وميكائيل ومَلَك الموت، فيقول: خذ نفس ميكائيل، فيقع في صورته التي خُلِق عليها، وهي أعظم ما يكون من خَلْق إسرافيل بأضعافٍ مضاعفة. ثم يقول سبحانه: يا ملكَ الموت، مَنْ بقيَ؟ فيقول: سبحانك ربّي ذا الجلال والإكرام: جبرائيل، ومَلَك الموت، فيقول تعالى: يا ملك الموت، مت فيموت، ويبقى جبرائيل - وهو من الله تعالى بالمكان الذي ذكر لكم - فيقول الله: يا جبرائيل، إنه لا بدّ من أن يموت أحدنا، فيقع جبرائيل ساجداً يخفِق بجناحيه، يقول: سبحانك ربّي وبحمدك! أنت الدائم القائم الذي لا يموت، وجبرائيل الهالك الميّت الفاني، فيقبض الله روحَه، فيقع على ميكائيل وإسرافيل، وإنّ فَضْل خلقِه على خلقهما كفضل الطَّوْد العظيم على الظَّرِب من الظِّراب»[٣].

---

(١) أخرج بنحوه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً» (٢٣١٢)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الحزن والبكاء (٤١٩٠).

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) الظِّراب: الروابي الصغار. اللسان، مادة (ظرب).

وفي الأحاديث الصحيحة أنّ جبرائيل كان يأتي رسول الله ﷺ على صورة دِحْية الكَلِبيّ، وأنّه كان يوم بدر على فرس اسمه حيزوم، وإنه سُمِع ذلك اليوم صوته: أَقْدِمْ حَيْزوم.

والكَروبيّون عند أهلِ الملّة سادة الملائكة، كجبرائيل وميكائيل. وعند الفلاسفة أنّ سادة الملائكة هم الروحانيّون - يعنون العقول الفعالة وهي المفارقة للعالم الجسماني المسلوبة التعلُّق به، لا بالحوْل ولا بالتدّبير. وأما الكَرُوبيُّون فدون الروحانيين في المرتبة وهي أنفس الأفلاك المدبّرة لها، الجارية منها مجرى نفوسنا مع أجسامنا.

ثم هي على قسمين: قسم أشرف وأعلى من القسم الآخر، فالقسم الأشرف ما كان نَفْساً ناطقة غير حالّة في جِرْم الفلك، كأنفسنا بالنسبة إلى أبداننا. والقسم الثاني ما كان حالاً في جِرْم الفَلَك، ويجري ذلك مجرى القُوَى التي في أبداننا، كالحسّ المُشْترك والقوة الباصرة.

الأصل: منها في صفة خلق آدم عليه السلام: ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَه مِنْ حَزْنِ ٱلْأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِها، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاَطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ، وَوُصُولٍ وَأَعْضَاءٍ، وَفُصُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى ٱسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ.

ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا من رُوحِهِ فتمثّلتْ إنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُها، وَفِكَرٍ يَتَصَرّفُ بِهَا، وَجَوارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ، وَٱلْأَذْوَاقِ وَٱلْمَشَامِّ، وَٱلْأَلْوَانِ وَٱلْأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ ٱلْأَلْوَانِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ، وَٱلْأَشْبَاهِ ٱلْمُؤْتَلِفَةِ، وَٱلْأَضْدَادِ ٱلْمُتَعَادِيَةِ، وَٱلْأَخْلاَطِ ٱلْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْبَرْدِ، وَٱلْبِلَّةِ وَٱلْجُمودِ، وَالمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ.

وَٱسْتَأْدَى ٱللهُ سُبْحانَهُ ٱلْمَلاَئِكَةَ وَدِيعتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلْأَذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَٱلْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ لَهُم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[1] وَقَبِيلَهُ، ٱعْتَرَتْهُمُ ٱلْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَٱسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ ٱللهُ النَّظِرَةَ ٱسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٢) سورة صَ، الآيتان: ٨٠، ٨١.

الشرح: الحَزْن: ما غلُظ من الأرض. وسَبَخُها: ما ملُح منها. وسنّها بالماء، أي مَلسها، قال:

ثـم خَـاصَـرتُـهـا إلى الـقُـبَّـةِ الْـخَـضْـ ـراءِ تَـمْـشِـي فـي مَـرْمَـرٍ مَـسْـنُـونِ

أي مملّس. ولاَطها، من قولهم: لُطتُ الحوضَ بالطين، أي ملطته وطيّنته به. والبَلّة بفتح الباء، من البَلل. ولَزَبت، بفتح الزاي، أي التصقت وثبتت. فجبَل منها، أي خلق. والأحناء: الجوانب، جمع حِنْو. وأصلَدها: جعلها صَلْداً، أي صُلْباً متيناً. وصلصلت: يبست، وهو الصلصال. ويختدمها: يجعلها في مآربه وأوطاره كالخدَم الذين تستعملهم وتستخدمهم. واستأدَى الملائكة وديعته: طلب منهم أداءها. والخنوع: الخضوع. والشِّقوة، بكسر الشين، وفي الكتاب العزيز، ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾[1]. واستوهَنوا: عدّوه واهناً ضعيفاً. والنَّظِرة، بفتح النون وكسر الظاء: الإمهال والتأخير.

فأما معاني الفصل فظاهرة، وفيه مع ذلك مباحث:

منها أن يقال: اللام في قوله: «الوقت معدود» بماذا تتعلق؟

والجواب، أنّها تتعلق بمحذوف، تقديره: «حتى صلصلت كائنة لوقت»، فيكون الجار والمجرور في موضع الحال، ويكون معنى الكلام أنّه أصلَدها حتى يبست وجفّت معدّة لوقت معلوم، فنفخ حينئذ روحَه فيها. ويمكن أن تكون اللام متعلقة بقوله، «فجبَل» أي جَبَل وخَلَق من الأرض هذه الجثّة لوقت، أي لأجل وقت معلوم، وهو يوم القيامة.

ومنها أن يقال: لماذا قال: «مِنْ حَزْن الأرض وسَهْلها، وعَذْبها وسَبخها»؟ والجواب، أن المراد من ذلك أن يكون الإنسانُ مركّباً من طباع مختلفة، وفيه استعداد للخير والشرّ، والحسْن والقبح.

ومنها أن يقال: لماذا أخّر نفخَ الروح في جثة آدم مدة طويلة، فقد قيل: إنه بقي طيناً تشاهده الملائكة أربعين سنة، ولا يعلمون ما المراد به؟

والجواب، يجوز أن يكون في ذلك لطف للملائكة؛ لأنهم تذهب ظنونهم في ذلك كلّ مذهب، فصار كإنزال المتشابهات الذي تحصل به رياضة الأذهان وتخريجها، وفي ضمن ذلك يكون اللطف. ويجوز أن يكون في إخبار ذرّية آدم بذلك فيما بعد لطف بهم، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلا إذا كان المخبَر عنه حقّاً.

ومنها أن يقال: ما المعنيّ بقوله: «ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ»؟

الجوابُ، أنّ النفس لما كانت جوهراً مجرّداً، لا متحيزة ولا حالّة في المتحيّز حَسُن لذلك

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٦.

نسبتها إلى الباريء؛ لأنها أقرب إلى الانتساب إليه من الجثمانيات. ويمكن أيضاً أن تكونَ لشرفها مضافة إليه، كما يقال: بيت الله للكعبة، وأما النفخ فعبارة عن إفاضة النفس على الجسد، ولما كان نفخ الريح في الوعاء عبارة عن إدخال الريح إلى جوفه، وكان الإحياء عبارةً عن إفاضة النفس على الجسد، ويستلزم ذلك حلولَ القُوَى والأرواح في الجثة باطناً وظاهراً، سُمِّي ذلك نفخاً مجازاً.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله: «معجوناً بطينةِ الألوان المختلفة»؟

الجواب، أنه عليه السلام قد فَسّر ذلك بقوله: «من الحرّ والبرد، والبَلّة والجمود»، يعني الرطوبة واليبوسة، ومراده بذلك المزاج الذي هو كيفية واحدة حاصلة من كيفيات مختلفة، قد انكسر بعضها ببعض. وقوله: «معجوناً» صفة «إنساناً». والألوان المختلفة، يعني الضروبَ والفنون، كما تقول: في الدار ألوان من الفاكهة.

ومنها أن يقال: ما المعنّى بقوله: «واستأدى الملائكة وديعته لديهم»؟ وكيف كان هذا العهدُ والوصية بينه وبينهم؟

الجواب، أن العهد والوصيةَ هو قوله تعالى لهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

ومنها أن يقال: كيف كانت شُبهة إبليس وأصحابه في التعزّز بخلقة النار؟

الجواب، لما كانت النار مشرِقة بالذات والأرض مظلمة، وكانت النار أشبهَ بالنور، والنور أشبه بالمجردات، جعل إبليسُ ذلك حجة احتجّ بها في شَرَف عنصرِه على عُنْصر آدم عليه السلام، ولأنّ النار أقربُ إلى الفَلَك من الأرض، وكلّ شيء كان أقربَ إلى الفلك مَن غيره كان أشرفَ، والباريء تعالى لم يعتبر ذلك، وفَعَل سبحانه ما يعلم أنه المصلحة والصواب.

ومنها أن يقال: كيف يجوز السجود لغير الله تعالى؟

والجواب، أنه قيل: إنّ السجود لم يكن إلا لله تعالى، وإنما كان آدم عليه السلام قِبْلة. ويمكن أن يقالَ: إن السجود لله على وجه العبادة، ولغيره على وجه التّكرمة، كما سجد أبو يوسف وإخوته له. ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات في حسن ذلك وقبحه.

---

(١) سورة صٓ، الآيتان: ٧١، ٧٢.

ومنها أن يقال: كيف جاز على ما تعتقدونه من حِكْمة الباريء أن يسلّط إبليس على المكلّفين، أليس هذا هو الاستفساد الذي تأبَوْنه وتمنعونه!

والجواب، أما الشيخ أبو عليّ رحمه الله فيقول: حدُّ المفسدة ما وقع عند الفساد، ولولاه لم يقع مع تمكّن المكلّف من الفعل في الحالَيْن، ومَنْ فسد بدعاء إبليس لم يتحقق فيه هذا الحدّ، لأن الله تعالى عَلم أن كُلّ من فسد عند دعائه، فإنه يفسد، ولو لم يَدْعُه.

وأما أبو هاشم رحمه الله، فيحدّ المفسدة بهذا الحدّ أيضاً، ويقول: إن في الإتيان بالطاعة مع دعاء إبليس إلى القبيح مشقّةً زائدة على مشقة الإتيان بها، لو لم يدع إبليس إلى القبيح، فصار الإتيان بها مع اعتبار دعاء إبليس إلى خلافها خارجاً عن الحدّ المذكور، وداخلاً في حَيّز التمكُّن الذي لو فرضنا ارتفاعَه لما صحّ من المكلّف الإتيانُ بالفعل، ونحن قلنا في الحدّ مع تمكّن المكلّف من الإتيان بالفعل في الحالَيْن.

ومنها أن يقال: كيف جازَ للحكيم سبحانه أن يقول لإبليس: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[1] إلى يوم القيامة! وهذا إغراء بالقبيح، وأنتم تمنعون أن يقول الحكيم لزيد: أنت لا تموت إلى سنة، بل إلى شَهر أو يوم واحد، لما فيه من الإغراء بالقبيح، والعزم على التوبة قبل انقضاء الأمد.

والجواب، أنّ أصحابنا قالوا: إنّ الباريء تعالى لم يقل لإبليس: إني مُنظِرُك إلى يوم القيامة، وإنما قال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[2]، وهو عبارة عن وقت موته واخترامه، وكل مكلّف من الإنس والجنّ مُنْظَر إلى يوم الوقت المعلوم على هذا التفسير، وإذا كان كذلك لم يكن إبليس عالماً أنه يبقى لا محالة، فلم يكن في ذلك إغراء له بالقبيح.

فإن قلت: فما معنى قوله عليه السلام: «وإنجازاً لِلْعِدَة»؟ أليس معنى ذلك أنه قد كان وَعَده أن يُبقِيَه إلى يوم القيامة!

قلت: إنما وعده الإنظار، ويمكن أن يكون إلى يوم القيامة وإلى غيره من الأوقات، ولم يبين له، فهو تعالى أنجز له وعده في الإنظار المطلق، وما من وقت إلا ويجوز فيه أن يُخترم إبليس فلا يحصل الإغراء بالقبيح. وهذا الكلام عندنا ضعيف، ولنا فيه نظر مذكور في كتبنا الكلاميّة.

---

(١) سورة صَ، الآية: ٨٠.

(٢) سورة صَ، الآية: ٨١.

الأصل: ثُمَّ أَسْكَنَ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ ٱلْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ ٱلْأَبْرَارِ، فَبَاعَ ٱلْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَٱلْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَٱسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً، وَبِالاغْتِرَازِ نَدَماً.

ثُمَّ بَسَطَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ ٱلْمَرَدَّ إلى جَنَّتِهِ، فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ ٱلْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ ٱلذُّرِّيَّةِ.

الشرح: أما الألفاظ فظاهرة، والمعاني أظهر، وفيها ما يُسأل عنه.

فمنها أن يقال: الفاء في قوله عليه السلام: «فأهبطه»، تقتضي أن تكون التوبة على آدم قبل هبوطه من الجنة.

والجواب، أن ذلك أحد قولَي المفسرين، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾[1]، فجعل الهبوط بعد قبول التوبة.

ومنها أن يقال: إذا كان تعالى قد طَرَدَ إبليس من الجنة لما أبَى السجود، فكيف توصّل إلى آدم وهو في الجنة حتى استنزله عنها بتحسين أكل الشجرة له!

الجواب، أنه يجوز أن يكون إنما مُنِع من دخول الجنة على وجه التقريب والإكرام، كدخول الملائكة، ولم يمنع من دخولها على غير ذلك الوجه. وقيل: إنه دخل في جوف الحية، كما ورد في التفسير.

ومنها أن يقال: كيف اشتبه على آدم الحال في الشجرة المنهيّ عنها فخالف النهي!

الجواب، أنه قيل له: لا تقربا هذه الشجرة، وأريد بذلك نوع الشجرة، فحمل آدم النهيَ على الشّخص، وأكل من شجرة أخرى من نوعها.

ومنها أن يقال: هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدم عليه السلام، وهو قوله: «فباع اليقين بشكِّه، والعزيمة بوهْنه»، فما قولكم في ذلك؟

الجواب، أما أصحابنا فإنهم لا يمتنعون من إطلاق العصيان عليه، ويقولون: إنها كانت صغيرة، وعندهم أن الصغائر جائزة على الأنبياء عليهم السلام. وأما الإمامية فيقولون: إن النهيَ كان نهيَ تنزيه لا نهي تحريم، لأنهم لا يجيزون على الأنبياء الغلط والخطأ، لا كبيراً ولا صغيراً، وظواهرُهذه الألفاظ تشهد بخلاف قولهم.

---

(١) سورة طه، الآيات: ١٢١ - ١٢٣.

واعلم أن الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان، فذهب أهلُ الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أن مبدأ البشر هو آدم، الأبُ الأوّل عليه السلام. وأكثر ما في القرآن العزيز من قصة آدم مطابق لما في التوراة.

وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك:

أما الفلاسفة، فإنهم زعموا أنه لا أوّل لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع.

وأما الهند، فمنْ كان منهم على رأي الفلاسفة فقوله ما ذكرناه. ومَنْ لم يكن منهم على رأي الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يُثبت آدم، ويقول: إنّ الله تعالى خلَق الأفلاك وخلَق فيها طباعاً محرِّكة لها بذاتها، فلما تحرّكت - وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء - كانت تلك الأجسام على طبيعةٍ واحدة، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلَكية، فكان القريب من الفَلك المتحرّك أسخنَ وألطف، والبعيدُ أبرد وأكثف. ثم اختلطت العناصِر، وتكوّنت منها المركّبات، ومنها تكوّن نوع البشر كما يتكوّن الدود في الفاكهة واللحم، والبقّ في البطائح والمواضع العفنة، ثم تكوّن بعضُ البشر من بعض بالتوالد، وصار ذلك قانوناً مستمرًّا، ونُسِيَ التخليق الأول الذي كان بالتولّد. ومن الممكن أن يكون بعضُ البشر في بعض الأراضي القاصية مخلوقاً بالتولُّد، وإنما انقطع التولّد، لأنّ الطبيعةَ إذا وجدت للتكوّن طريقاً استغنت به عن طريق ثان.

وأما المجوس فلا يعرفون آدم، ولا نوحاً، ولا ساماً، ولا حاماً، ولا يافث. وأوّلُ متكوّن عندهم من البشر البشريّ المسمى «كَيُومَرْث»، ولقبه «كوشاه»، أي ملك الجبل، لأن «كو» هو الجبل بالفَهْلويّة، وكان هذا البشر في الجبال. ومنهم من يسميه «كلشاه» أي ملك الطين، و«كل» اسم الطّين، لأنه لم يكن حينئذ بشر ليملكهم.

وقيل: تفسير «كيومرث»: حيّ ناطق ميت. قالوا: وكان قد رزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأُغْمِيَ عليه، ويزعمون أنَّ مبدأ تكوّنه وحدوثه أنّ يزدان - وهو الصانع الأوّل عندهم - أفكر في أمر أهرِمن، - وهو الشيطان عندهم - فكرةً أوجبت أنْ عرق جبينه، فمسح العرق ورمى به، فصار منه كُيومَرث. ولهم خَبْط طَويل في كيفية تكوّن «أهرِمن» من فكرة «يزدان» أو من إعجابه بنفسه، أو من توحّشه، وبينهم خلاف في قِدَم «أهرمن»، وحدوثه لا يليق شرحه بهذا الموضع.

ثم اختلفوا في مدة بقاء كَيُومرث في الوجود، فقال الأكثرون: ثلاثون سنة. وقال الأقلون: أربعون سنة. وقال قوم منهم: إن كَيُومرث مكث في الجنة التي في السماء ثلاثة آلاف سنة، وهي: ألف الحَمَل، وألف الثور، وألف الجوزاء. ثُم أُهبط إلى الأرض فكان بها آمناً مطمئناً ثلاثة آلاف سنة أخرى، وهي: ألف السرطان، وألف الأسد، وألف السنبلة.

ثم مكث بعد ذلك ثلاثين أو أربعين سنة في حَرْب وخصام بينه وبين أهرمن حتى هلك.

واختلفوا في كيفية هلاكه، مع اتفاقهم على أنه هلك قتلاً، فالأكثرون قالوا: إنه قتل ابناً لأهرمن يُسَمَّى خزورَة، فاستغاث أهرِمن منه إلى يزدان، فلم يجد بدّاً من أن يقاصّه به حفظاً للعهود التي بينه وبين أهرِمن، فقتله بابن أهرِمن. وقال قوم: بل قتله أهرِمن في صراع كان بينهما، قهره فيه أهرِمن، وعلاه وأكَلَه.

وذكروا في كيفية ذلك الصراع أن كُيومرث كان هو القاهر لأهرمن في باديء الحال، وأنه ركبه وجعل يطوف به في العالم إلى أن سأله أهرمن: أيّ الأشياء أخوف له وأهولها عنده؟ فقال له: باب جهنم، فلما بلغ به أهرِمن إليها جمح به حتى سقط من فوقه، ولم يستمسك، فعلاه وسأله عن أيّ الجهات يبتديء به في الأكل، فقال: من جهة الرِّجْل لأكون ناظراً إلى حُسْن العالم مدة ما، فابتدأه أهرِمن فأكله من عند رأسه، فبلغ إلى موضع الخصيّ وأوعية المنيّ من الصلب، فقطر من كُيومرث قطرتا نُطْفة على الأرض، فنَبت منهما رِيباستان في جبل بإصْطَخر يعرف بجبل دام داذ، ثم ظهرت على تينك الرِّيباستين الأعضاء البشرية في أول الشهر التاسع، وتمت في آخره، فتصوّر منهما بَشَران: ذكر وأنثى، وهما «ميشي»، «وميشانه»، وهما بمنزلة آدم وحوّاء عند الملّيّين. ويقال لهما أيضاً: «ملهى» و«ملهيانه»، ويسمّيهما مجوس خوارزم: «مرد» و«مردانه»، وزعموا أنهما مكثا خمسين سنة مستغنيين عن الطعام والشراب، متنعمين غير متأذِّيَيْن بشيء إلى أن ظهر لهما أهرمن في صورة شيخ كبير، فحملهما على التناول من فواكه الأشجار وأكل منها، وهما يبصرانه شيخاً، فعاد شاباً، فأكلا منها حينئذٍ، فوقعا في البلايا والشرور، وظهر فيهما الحِرْص حتى تزاوجا، وولد لهما ولد فأكلاه حِرصاً، ثم ألقى الله تعالى في قلوبهما رأفةً، فولد لهما بعد ذلك ستةُ أبطن، كل بطن ذكَر وأنثى، وأسماؤهم في كتاب أبستا - وهو الكتاب الذي جاء به زرادشت - معروفة، ثم كان في البطن السابع «سيامك» و«فرواك»، فتزاوجا، فولد لهما الملك المشهور الذي لم يعرف قبله ملك وهو «أوشَهنج»، وهو الذي خلف جدّه كيومرث، وعقد له التاج، وجلس على السرير، وبني مدينتيْ بابل والسوس.

فهذا ما يذكره المجوس في مبدأ الخلق.

وكان في المسلمين - ممّن يرمى بالزندقة - مَنْ يذهب إلى تصويب إبليس في الامتناع من السجود، ويفضلّه على آدم، وهو بشار بن برد المرعّث، ومن الشعر المنسوب إليه:

النَّارُ مُشْرِقَةٌ والأرضُ مظلِمَةٌ ... والنَّارُ معبودة مذ كانتِ النَّارُ

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغَزّالي الواعظ، أخو أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزّالي الفقيه الشافعيّ، قاصّا لطيفاً وواعظاً مفوّهاً، وهو من خُراسان من مدينة طُوس،

وقدم إلى بغداد، ووعظ بها، وسلك في وعظه مسلكاً منكراً، لأنه كان يتعصب لإبليس، ويقول: إنه سيد الموحدين، وقال يوماً على المنبر: من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق، أُمِر أن يسجد لغير سيّده فأبى:

وَلَسْتُ بِضَارعٍ إلا إليكُمْ ... وأما غيرُكم حَاشَا وَكَلاَّ

وقال مرة أخرى: لما قال له موسى: «أرني» فقال: «لن» قال: هذا شغلك، تصطفي آدم ثم تسوّد وجهه، وتخرجه من الجنة، وتدعوني إلى الطّور، ثم تُشمت بي الأعداء هذا عملك بالأحباب، فكيف تصنع بالأعداء!

وقال مرة أخرى وقد ذكر إبليس على المِنْبر: لم يدر ذلك المسكينُ أنّ أظافير القضاء إذا حكّت أدمَتْ، ، وأنّ قِسيّ القدَر إذا رَمَتْ أصمت. ثم قال: لسان حال آدم ينشد في قصته وقصة إبليس:

وَكُنْتُ وليلَى في صُعُودٍ من الْهَوَى ... فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ

وقال مرّة أخرى: التقى موسى وإبليس عند عَقَبة الطور، فقال موسى: يا إبليس، لِمَ لم تسجد لآدمَ؟ فقال: كلاّ، ما كنت لأسجدَ لبشر، كيف أوحّده ثم ألتفتُ إلى غيره! ولكنك أنت يا موسى سألتَ رؤيته ثم نظرت إلى الجبل، فأنا أصدق منك في التوحيد.

وكان هذا النَّمَط في كلامه يَنْفق على أهل بغداد، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير. وحكى عنه أبو الفرج بن الجوزيّ في «التاريخ» أنه قال على المنبر: معاشرَ الناس، إني كنتُ دائماً أدعوكم إلى الله، وأنا اليوم أحذِّركم منه، والله ما شُدّت الزنانير إلا في حبّه، ولا أُدّيت الجِزْيَة إلا في عشقه.

وقال أيضاً: إن رجلاً يهودياً أدخل عليه ليُسْلم على يده، فقال له: لا تُسْلم، فقال له الناس: كيف تمنعه من الإسلام! فقال: احملوه إلى أبي حامد - يعني أخاه - ليعلمه «لا»: لا المنافقين. ثم قال: ويحكم أتظنون أن قوله: «لا إله إلا الله» منشورُ ولايته! ذا منشور عزله. وهذا نوع تعرفه الصوفية بالغلوّ والشَّطْح.

ويروى عن أبي يزيد البِسْطاميّ منه كثير.

ومما يتعلّق بما نحن فيه ما رووْه عنه من قوله:

فَمَنْ آدمُ في البَيْنِ ... وَمَنْ إبليسُ لولا كا!
فَتَنْتَ الكلّ والكلّ ... مع الفِتْنَةِ يهواكا

ويقال: أوّل مَنْ قاس إبليس، فأخطأ في القياس وهلك بخطئه. ويقال: إنّ أولَ حميّة وعصبية ظهرت عصبيةُ إبليس وحميته.

فإن قيل: فما قول شيوخكم في الجنَّة والنار؟ فإنّ المشهور عنهم أنهما لم يُخلقا وسيخلقان عند قيام الأجسام، وقد دلّ القرآن العزيز، ونطق كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل بأنّ آدم كان في الجنة وأخرج منها.

قيل: قد اختلف شيوخُنا رحمهم الله في هذه المسألة، فمن ذهب منهم إلى أنهما غير مخلوقتين الآن يقول: قد ثبتَ بدليل السمع أن سائر الأجسام تُعدَم ولا يبقى في الوجود إلا ذات الله تعالى، بدليل قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾(١)، وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾(٢)، فلما كان «أوّلاً» بمعنى أنه لا جسم في الوجود معه في الأزَل وجب أن يكون «آخراً»، بمعنى أنه لا يبقى في الوجود جسم من الأجسام معه فيما لا يزال، وبآيات كثيرة أخرى. وإذا كان لا بدّ من عدم سائر الأجسام لم يكنْ في خَلْق الجنة والنار قبل أوقات الجزاء فائدة، لأنه لا بدّ أن يفْنيهما مع الأجسام التي تَفنى يوم القيامة، فلا يبقى مع خلقهما من قبل معنى. ويَحْمِلون الآيات التي دلّت على كون آدم عليه السلام كان في الجنة وأخرج منها، على بستان من بساتين الدنيا. قالوا: والهبوط لا يدلّ على كونهما في السماء لجواز أنْ يكون في الأرض، إلا أنهما في موضع مرتفع عن سائر الأرض.

وأما غير هؤلاء من شيوخنا فقالوا: إنهما مخلوقتان الآن، واعترفوا بأن آدم كان في جنة الجزاء والثواب، وقالوا: لا يبعد أن يكون في إخبار المكلّفين بوجود الجنة والنار لطف لهم في التكليف، وإنما يحسن الإخبار بذلك إذا كان صدقاً، وإنما يكون صدقاً إذا كان خَبَره على ما هو عليه.

آدم والملائكة أيها أفضل

فإن قيل: فما الذي يقوله شيوخكم في آدم والملائكة: أيّهما أفضل؟

قيل: لا خلاف بين شيوخنا رحمهم الله أن الملائكة أفضلُ مِن آدم ومن جميع الأنبياء عليهم السلام، ولو لم يدلّ على ذلك إلا قوله تعالى في هذه القصة: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(٣)، لكفي.

وقد احتجّ أصحابنا أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٤)، وهذا كما تقول: لا يستنكف الوزير أنْ يعظّمني ويرفع من منزلتي ولا المَلك أيضاً. فإن هذا يقتضي كونَ الملك أرفع منزلة من الوزير. وكذلك قوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، يقتضي كونهم أرفع منزلة من عيسى.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

ومما احتجُوا به قولُهُمْ: إنه تعالى لما ذكر جبريل ومحمداً عليهما السلام في معرض المدح، مدح جبريل عليه السلام بأعظم مما مدح به محمداً عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾(١). فالمَديح الأول لجبريل والثاني لمحمد صلى الله عليه وآله، ولا يخفى تفاوتُ ما بين المدحين.

فإن قيل: فهل كان إبليسُ من الملائكة أم من نوع آخر؟ قيل: قد اختُلف في ذلك فمن قال: إنه من الملائكة احتجّ بالاستثناء في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾(٢)، وقال: إنّ الاستثناء من غير الجنس خلاف الأصل. ومن قال: إنه لم يكنْ منهم احتجّ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(٣).

وأجاب الأولون عن هذا فقالوا: إنّ الملائكة يُطلق عليهم لفظ الجنّ لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين. وقالوا: قد ورد ذلك في القرآن أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾(٤)، والجنة ها هنا هم الملائكة، لأنهم قالوا: إن الملائكة بناتُ الله، بدليل قوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾(٥)، وكتُب التفسير تشتمل من هذا على ما لا نرى الإطالة بذكره.

فأما القطب الراونديّ فقال في هذين الفصلين في تفسير ألفاظهما اللغوية: العذْب من الأرض ما يُنبِت، والسّبَخ: ما لا ينبت، وهذا غير صحيح، لأن السبّخ يُنْبِت النخل، فيلزم أن يكون عَذْباً على تفسيره!

وقال: فجَبَل منها صورة، أي خلق خلْقاً عظيماً. ولفظة «جَبَل» في اللغة تدلّ على «خَلق» سواء كان المخلوقُ عظيماً أو غير عظيم.

وقال: الوصول: جمع وُصْل، وهو العضو، وكلّ شيء اتصل بشيء فما بينهما وُصلة. والفصول: جمع فَصل وهو الشيء المنفصل، وما عرفنا في كتب اللغة أنّ الوُصل هو العضو، ولا قيل هذا.

وقوله بعد ذلك: وكلّ شيء اتصل بشيء فيما بينهما وصلة لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير.

---

(١) سورة التكوير، الآيات: ١٩ - ٢٤.
(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١٥٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٤٠.

والصحيح أنّ مراده عليه السلام أظهرُ من أن يُتَكَلَّف له هذا التكلُّف، ومراده عليه السلام أنّ تلك الصورَة ذاتُ أعضاء متصلة كعظم الساق أو عظم الساعد، وذاتُ أعضاء منفصلة في الحقيقة، وإن كانت متصلة بروابط خارجة عن ذواتها كاتصال الساعد بالمِرْفق واتصال الساق بالفَخذ.

ثم قال: يقال: استخدمته لنفسي ولغيري، اختدمته لنفسي خاصّة، وهذا مما لم أعرفه، ولعله نقله من كتاب.

ثم قال: والإذعان: الانقياد، والخنوع: الخضوع، وإنما كرّر الخنوع بعد الإذعان لأن الأول يُفيد أنهم أمِروا بالخضوع له في السجود، والثاني يفيد ثباتَهم على الخضوع لتكرمته أبداً.

ولقائل أن يقول: إنّه لم يكرر لفظة «الخنوع»، وإنما ذكر أولاً الإذعان، وهو الانقياد والطاعة، ومعناه أنهم سجدوا، ثم ذكر الخنوع الذي معناه الخضوع، وهو يعطي معنى غيرَ المعنى الأول، لأنه ليس كلُّ ساجدٍ خاضعاً بقلبه، فقد يكون ساجداً بظاهره دون باطنه. وقول الراونديّ: أفاد بالثاني ثباتَهم على الخضوع له لتكرمته أبداً تفسير لا يدلّ عليه اللفظ، ولا معنى الكلام.

ثم قال: قبيلُ إبليس نسلُه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾[1]، وكل جيل من الإنس والجنّ قبيل. والصحيح أنّ قبيلَه نوعه، كما أن البشر قبيل كل بشريّ، سواء كانوا من ولده أو لم يكونوا. وقد قيل أيضاً: كلّ جماعة قبيل وإن اختلفوا، نحو أن يكون بعضهم رُوماً وبعضهم زَنجاً، وبعضهم عَرَباً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ لا يدلّ على أنهم نسلُه.

وقوله بعد: «وكلُّ جيل من الإنس والجن قَبيل» ينقضُ دعواه أن قبيلَه لا يكون إلا نسله.

ثم تكلّم في المعاني فقال: إن القياس الذي قاسه إبليس كان باطلاً، لأنه ادّعى أن النارَ أشرفُ من الأرض، والأمر بالعكس، لأنّ كلّ ما يدخل إلى النار ينقص، وكلّ ما يدخل التراب يزيد. وهذا عجيب! فإنّا نرى الحيواناتِ الميتة إذا دُفنت في الأرض تنقص أجسامها، وكذلك الأشجار المدفونة في الأرض، على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار والبالي بالتراب لم تعدم أجزاؤه ولا بعضُها، وإنّما استحالت إلى صور أخرى.

ثم قال: ولما علمنا أنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح، علمنا أن آدم كان أفضل من الملائكة في ذلك الوقت وفيما بعده.

ولقائل أن يقول: أليس قد سَجَد يعقوب ليوسفَ عليه السلام! أفيدلّ ذلك على أنّ يوسف أفضلُ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

من يعقوب! ولا يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾(١)، لا يدلّ على سجود الوالدين، فلعلّ الضميرَ يرجع إلى الإخوة خاصة، لأنّا نقول: هذا الاحتمال مدفوع بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾(٢)، وهو كناية عن الوالدين.

وأيضاً قد بينّا أنّ السجود إنما كان لله سبحانه، وأنّ آدم كان قِبلة، والقِبْلة لا تكون أفضلَ من الساجد إليها، ألا ترى أن الكعبة ليست أفضلَ من النبيّ عليه السلام!

الأصل: وَٱصْطَفَىٰ سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَىٰ ٱلْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَىٰ تَبْلِيغِ ٱلرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ ٱللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ، وَٱتَّخَذُوا ٱلأَنْدَادَ مَعَهُ، وَٱجْتَالَتْهُمُ ٱلشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَٱقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ ٱلْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ ٱلْمَقْدِرَةِ، مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَآجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يُخْلِ ٱللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لاَزِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لاَ تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلاَ كَثْرَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ.

الشرح: اجتالتهم الشياطين: أدارتهم، تقول: اجتال فلان فلاناً، واجتاله عن كذا وعلى كذا، أي أداره عليه، كأنه يصرِّفه تارة هكذا وتارة هكذا، يُحَسِّن له فعلَه، ويُغْريه به.

وقال الراونديّ: اجتالتهم: عَدَلت بهم، وليس بشيء.

وقوله عليه السلام: «واتَر إليهم أنبياءه»، أي بعثهم وبيْن كل نبيَّيْن فترة، وهذا مما تغلّط فيه العامة فتظنّه كما ظنّ الراونديّ أنّ المرادَ به المرادفة والمتابعة. والأوصاب: الأمراض. والغابر: الباقي.

ويُسأل في هذا الفصل عن أشياء:

منها، عن قوله عليه السلام: «أخذَ على الوَحْي ميثاقهم».

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤.

والجواب، أنّ المراد أخَذ على أداء الوحي ميثاقَهم، وذلك أنّ كلَّ رسول أرسِل فمأخوذٌ عليه أداءُ الرسالة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾(١).

ومنها أن يقال: ما معنى قوله عليه السلام: «ليستأدُوهم ميثاقَ فِطرَته»؟ هل هذا إشارة إلى ما يقوله أهل الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾(٢)؟

والجواب، أنه لا حاجة في تفسير هذه اللفظة إلى تصحيح ذلك الخبر، ومرادُه عليه السلام بهذا اللفظ أنّه لمّا كانت المعرفة به تعالى وأدلة التوحيد والعدل مركوزةً في العقول، أرسلَ سبحانه الأنبياء أو بعضهم، ليؤكدوا ذلك المركوزَ في العقول. وهذه هي الفطرةُ المشار إليها بقوله عليه السلام: «كلّ مولود يُولَد على الفطرة»(٣).

ومنها أن يقال: إلى ماذا يشير بقوله: «أو حُجّة لازمة»؟ هل هو إشارة إلى ما يقوله الإمامية، من أنه لا بُدّ في كلّ زمان من وجود إمام معصوم؟

الجواب، أنّهم يفسرون هذه اللفظة بذلك ويمكن أن يكونَ المراد بها حُجّة العقل.

وأما القطب الراونديّ، فقال في قوله عليه السلام: «واصطفى سبحانه من وَلده أنبياء»: الولَد يقال على الواحد والجمع، لأنه مصدر في الأصل، وليس بصحيح، لأنّ الماضيَ «فَعَل» بالفتح، والمفتوح لا يأتي مصدرُه بالفتح، ولكنّ «فعلاً» مصدر «فَعِل» بالكسر، كقولك: وَلِهْتُ عليه وَلَهاً، ووَحِمَت المرأةُ وَحَماً.

ثم قال: إن الله تعالى بعث يونس قبل نوح، وهذا خلاف إجماع المفسرين وأصحاب السِّيَر.

ثم قال: وكلُّ واحد من الرسل والأئمة كان يقوم بالأمر، ولا يردعُه عن ذلك قلة عدد أوليائه، ولا كثرةُ عدد أعدائه، فيقال له: هذا خلاف قولك في الأئمة المعصومين، فإنّك تجيز عليهم التقيّة وتركَ القيام بالأمر إذا كثُرت أعداؤهم.

وقال في تفسير قوله عليه السلام: «مِنْ سابق سُمّي له مَنْ بعده، أو غابرٍ عَرّفه مَنْ قبله»: كان من ألطاف الأنبياء المتقدمين وأوصيائهم، أن يعرفوا الأنبياء المتأخرين وأوصياءهم، فعرّفهم الله تعالى ذلك، وكان من اللطف بالمتأخرين وأوصيائهم أن يعرفوا أحوالَ المتقدمين من الأنبياء والأوصياء، فعرّفهم الله تعالى ذلك أيضاً، فتمَّ اللطف لجميعهم.

ولقائل أن يقول: لو كان عليه السلام قال: «أو غابر عرَف من قبله» لكان هذا التفسير مطابقاً،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧. (٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ٢٣٣، وأخرجه أبو داود في سننه رقم/ ٤٧١٥.

ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك، وإنما قال: «عرّفه مَنْ قبله» وليس هذا التفسير مطابقاً لقوله: «عرّفه». والصحيح أنّ المراد به: من نبيّ سابق عرّف مَنْ يأتي بعده من الأنبياء، أي عرّفه الله تعالى ذلك، أو نبيّ نصَّ عليه مَنْ قبله، وبشّر به كبشارة الأنبياء بمحمد عليه السلام.

الأصل: عَلَىٰ ذَلِكَ نَسَلَتِ ٱلْقُرُونُ، وَمَضَتِ ٱلدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ ٱلآبَاءُ، وَخَلَفَتِ ٱلأَبْنَاءُ، إِلَىٰ أَنْ بَعَثَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لإِنْجَازِ عِدَتِهِ، وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَأْخُوذاً عَلَى ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ، كَرِيماً مِيلاَدُهُ، وَأَهْلُ ٱلأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي ٱسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ ٱلضَّلاَلَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ ٱلْجَهَالَةِ.

ثُمَّ ٱخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ لِقَاءَهُ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ، وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ ٱلدُّنْيَا، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ ٱلْبَلْوَىٰ، فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً، وَخَلَّفَ فِيكُمْ مَا خَلَّفَتِ ٱلأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِها - إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلاً بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ.

ولاَ عَلَمٍ قَائِمٍ - كِتَابَ رَبِّكُمْ، مُبَيِّناً حَلاَلَهُ وَحَرَامَهُ، وفَرَائِضَهُ وفَضَائِلَهُ، وَنَاسِخَهُ ومَنْسُوخَهُ، ورُخَصَهُ وعَزَائِمَهُ، وخَاصَّهُ وعَامَّهُ، وعِبَرَهُ وأَمْثَالَهُ، وَمُرْسَلَهُ ومَحْدُودَهُ، ومُحْكَمَهُ ومُتَشَابِهَهُ، مُفَسِّراً جُمَلَهُ، ومُبَيِّناً غَوامِضَهُ، بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، ومُوَسَّعٍ عَلَى ٱلْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وبَيْنَ مُثْبَتٍ فِي ٱلْكِتَابِ فَرْضُهُ، ومَعْلُومٍ فِي ٱلسُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَواجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، ومُرَخَّصٍ فِي ٱلْكِتَابِ تَرْكُهُ، وبَيْنَ وَاجِبٍ لِوَقْتِهِ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ. ومُبَايَنٌ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ. وبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ، ومُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ.

الشرح: قوله عليه السلام: «نَسَلت القرون»، ولدت. والهاء في قوله: «لإنجاز عِدَته» راجعة إلى الباريء سبحانه. والهاء في قوله: «وإتمام نبوته»، راجعة إلى محمد صلى الله عليه وآله. وقوله: «مأخوذ على النبيين ميثاقه»، قيل: لم يكن نبيّ قطُّ إلا وبُشّر بمبعث محمد صلى الله عليه وآله، وأخِذ عليه تعظيمه، وإن كان بعدُ لم يوجد.

فأما قوله: «وأهل الأرض يومئذ مِللٌ متفرّقة»، فإن العلماء يذكرون أن النبيّ صلى الله عليه وآله بُعث والناس أصناف شتى في أديانهم: يهود، ونصارى، ومجوس، وصابئون، وعَبَدة أصنام، وفلاسفة، وزنادقة.

أديان العرب وفرقه في الجاهلية

فأما الأمة التي بُعِثَ محمد ﷺ فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتى، فمنهم معطّلة، ومنهم غيرُ معطلّة.

فأما المعطلّة منهم، فبعضُهم أنكر الخالق والبعث والإعادة، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾(١)، فجعلوا الجامعَ لهم الطَّبْع، والمهلِك لهم الدهر. وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعثَ، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٢). ومنهم مَنْ أقرّ بالخالق ونوعٍ من الإعادة، وأنكروا الرّسلَ وعبدوا الأصنام، وزعموا أنها شفعاء عند الله في الآخرة، وحجّوا لها، ونحروا لها الهدْيَ، وقرّبوا لها القُرْبان، وحلّلوا وحَرّموا، وهم جمهور العرب، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾(٣).

فمن نطق شعره بإنكار البعث بعضُهم يرثي قتلى بدر:

فَمَاذَا بِالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ الْفِتْيَانِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ!
ومَاذَا بِالْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ ... مِنَ الشِّيزَى تُكَلَّلُ بِالسَّنَامِ
أيخبرنا ٱبنُ كبشة أن سَنَحْيَا ... وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْداءٍ وَهَامِ!
إذَا ما الرأسُ زالَ بِمنكِبَيْهِ ... فقد شَبِعَ الأنيسُ مِنَ الطَّعامِ
أيقتُلني إذا ما كُنتُ حَيًّا ... وَيُحْيِيني إذْ رَمَّتْ عِظَامِي!

وكان من العرب مَن يعتقد التناسخ وتنقُّل الأرواح في الأجساد، ومن هؤلاء أربابُ الهامة، التي قال عليه السلام عنهم: «لا عَدْوَى ولا هامة ولا صَفَر»(٤). وقال ذو الأصبع:

يا عَمْرُو إلاّ تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي ... أَضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ ٱلْهامَةُ ٱسْقُونِي

وقالوا: إنّ ليلى الأخيليّة لما سلّمت على قبر تَوْبة بن الحُميِّر خرج إليها هامة من القبر صائحة، أفزعت ناقتها، فوقصت بها فماتت، وكان ذلك تصديق قوله:

وَلَوْ أنَّ لَيْلَى الأخيليَّةَ سَلَّمَتْ ... عَلَيَّ ودُوني جَنْدَلٌ وَصَفائِحُ
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشاشة أو زَقَا ... إليها صدًى مَنْ جانِبِ القبرصائحُ

وكان تَوْبةُ وليلى في أيام بني أميّة.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤. (٢) سورة يس، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ٣٢٨، وأخرجه أبو داود في سننه رقم: ٣٩١١.

وكانوا في عبادة الأصنام مختلفين، فمنهم مَنْ يجعلها مشارِكة للباريء تعالى، ويُطلِق عليها لفظة الشّريك، ومن ذلك قولهم في التلبية: لبَّيْك اللهمّ لبَّيْك، لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَك. ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[(١)].

وكان في العرب مشبّهة ومجسِّمة، منهم أميّة بن أبي الصّلت، وهو القائل:

مِنْ فَوْقِ عَرْشٍ جَالِسٍ قَدْ حَطَّ رِجْـ ـلَيْـه إلـى كُـرْسِيِّـه الـمـنـصـوبِ

وكان جمهورهم عبَدةَ الأصنام، فكانَ وَدّ لكَلْبٍ بدُومة الجندل، وسُواع لِهُذَيْل، ونَسْر لِحِمْيرَ، ويَغُوث لهمْدَان، واللّات لثَقِيف بالطائف، والعُزّى لكِنانة وقُريش وبعض بني سُلَيْم، ومناة لغَسّان والأوْس والخزرج، وكان هُبَل لقريش خاصة على ظهر الكعبة، وأساف ونائلة على الصَّفا والمرْوة. وكان في العرب مَنْ يميل إلى اليهودية، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن، ومنهم نصارى كبني تَغْلِب والعِباديّين رهط عَديّ بن زيد، ونصارى نَجْران، ومنهم مَنْ كان يميل إلى الصابئة ويقول بالنجوم والأنواء.

فأمّا الذين ليسوا بمعطّلة من العرب فالقليل منهم، وهم المتألّهون أصحابُ الورَع والتحرّج عن القبائح، كعبد الله وعبد المطلب وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل، وقُسّ بن ساعدة الإياديّ، وعامر بن الظَّرِب العَدْوانيّ، وجماعة غير هؤلاء.

وغرضنا من هذا الفَصْل بيان قوله عليه السلام: «بينَ مشبّه لله بخلقه أو مُلْحِدٍ في اسمه» إلى غير ذلك، وقد ظهر بما شرحناه.

ثم ذكر عليه السلام أن محمداً صلى الله عليه وآله خَلّف في الأمة بعده كتاب الله تعالى طريقاً واضحاً، وعَلَماً قائماً، والعلم المنار يُهتدى به.

ثم قَسّم ما بيّنه عليه السلام في الكتاب أقساماً:

فمنها حلاله وحرامه، فالحلالُ كالنّكاح، والحرام كالزنا.

ومنها فضائله وفرائضه، فالفضائل النوافل، أي هي فضلة غير واجبة كركعتي الصبح وغيرهما، والفرائض كفريضة الصبح.

وقال الرّاونديّ: الفضائل ها هنا: جمع فضيلة، وهي الدرجة الرفيعة، وليس بصحيح ألا تراه كيف جعل الفرائض في مقابلتها وقسيماً لها، فدلّ ذلك على أنه أراد النوافل!

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

ومنها ناسخه ومنسوخه، فالناسخ كقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، والمنسوخ كقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[2].

ومنها رُخصه وعزائمه، فالرخص كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾[3] والعزائم كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[4].

ومنها خاصّه وعامه، فالخاصّ كقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾[5]، والعام كالألفاظ الدالة على الأحكام العامة لسائر المكلفين كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾[6]. ويمكن أن يراد بالخاصّ العمومات التي يُراد بها الخصوص كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[7]، وبالعام ما ليس مخصوصاً، بل هو على عمومه كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[8].

ومنها عِبَرُهُ وأمثالُهُ، فالعبر كقصة أصحاب الفيل، وكالآيات التي تتضمّن النَّكال والعذابَ النازل بأمم الأنبياء من قبل، والأمثال كقوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[9].

ومنها مرسله محدوده، وهو عبارة عن المطلق والمقيَّد، وسمِّي المقيد محدوداً وهي لفظة فصيحة جدًّا، كقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[10]، وقال في موضع آخر: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[11].

ومنها محكمه ومتشابهه، فمحكَمه كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[12]، والمتشابه كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[13].

ثم قسم عليه السلام الكتاب قسمة ثانية، فقال: إنّ منه ما لا يسع أحداً جهله ومنه ما يسع الناس جهله، مثال الأول قوله: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[14]، ومثال الثاني: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[15] ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾[16].

ثم قال: ومنه ما حكمه مذكور في الكتاب منسوخ بالسُّنة، وما حكمه مذكور في السّنّة

(١) سورة التوبة، الآية: ٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١١٠.
(٧) سورة النمل، الآية: ٢٣.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٩) سورة البقرة، الآية: ١٧.
(١٠) سورة المجادلة، الآية: ٣.
(١١) سورة النساء، الآية: ٩٢.
(١٢) سورة الإخلاص، الآية: ١.
(١٣) سورة القيامة، الآية: ٢٣.
(١٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(١٥) سورة مريم، الآية: ١.
(١٦) سورة الشورى، الآيتان: ١، ٢.

منسوخ بالكتاب، مثال الأول قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾[١]، نسخ بما سنّه عليه السلام من رجْم الزاني المحصَن. ومثال الثاني صوم يوم عاشوراء، كان واجباً بالسّنّة ثم نسخه صوم شهر رمضان الواجب بنصّ الكتاب.

ثم قال: «وبين واجبٍ بوقته، وزائل في مستقبله»، يريد الواجبات المؤقتة كصلاة الجمعة، فإنها تجب في وقت مخصوص، ويسقط وجوبها في مستقبل ذلك الوقت.

ثم قال عليه السلام: «ومباين بين محارمه»، الواجب أن يكون «ومباينٌ» بالرّفع لا بالجرّ، فإنه ليس معطوفاً على ما قبله، ألا ترى أنّ جميع ما قبله يستدعي الشيء وضدَّه، أو الشيء ونقيضه، وقوله: «ومباين بيْن محارمه» لا نقيض ولا ضدّ له، لأنه ليس القرآن العزيز على قسمين: أحدهما مباين بين محارمه والآخر غير مباين، فإنّ ذلك لا يجوز، فوجب رفع «مباين»، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف. ثم فسّر ما معنى المباينة بين محارمه، فقال: إن محارمَه تنقسم إلى كبيرة وصغيرة، فالكبيرة أوعد سبحانه عليها بالعقاب، والصغيرة مغفورة، وهذا نصّ مذهب المعتزلة في الوعيد.

ثم عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة، ورجع إلى تقسيم الكتاب فقال: «وبين مقبول في أدناه، وموسّع في أقصاه»، كقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[٢].

فإنّ القليل من القرآن مقبول، والكثير منه موسّع مرخَّص في تركه.

الأصل: وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ ٱلْحَرَامِ، ٱلَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وُرُودَ ٱلأَنْعَامِ، وَيَوْلَهُونَ إِلَيْهِ وَلَهَ ٱلْحَمَامِ. وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلاَمَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ. وَٱخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلاَئِكَتِهِ ٱلْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ، يُحْرِزُونَ ٱلأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ، وَيَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ. جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلاَمِ عَلَماً، وَلِلْعَائِذِينَ حَرَماً، وَفَرَضَ حَقَّهُ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

الشرح: الوَله: شدة الوجْد، حتى يكاد العقل يذهب، ولَهَ الرجل يَوْلَهُ ولَهاً. ومن روى: «يألهون إليه وُلوه الحمام» فسّره بشيء آخر، وهو: يعكُفون عليه عُكوف الحمام. وأصل «أَلَه» عبَد، ومنه الإِله، أي المعبود. ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة له لملازمته والانقطاع إليه قيل: أَلَه فلان إلى كذا، أي عكَف عليه كأنه يعبده. ولا يجوز أن يقال: «يألهون إليه» في هذا الموضع بمعنى «يَوْلَهون»، وأنَّ أصل الهمزة الواو كما فسره الراونديّ، لأن «فعولاً» لا يجوز أن يكون مصدراً من فَعِلت بالكسر، ولو كان «يألهون» هو «يَوْلَهون»، كان أصله «أله» بالكسر، فلم يجز أن يقول: «ولوه الحمام»، وأما على ما فسّرناه نحن فلا يمتنع أن يكونَ الولوه مصدراً، لأن «أَلَه» مفتوح، فصار كقولك: دخل دخولاً. وباقي الفصل غنيّ عن التفسير.

جاء في الخبر الصحيح أنّ في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضُّراح، وأنّ هذا البيت تحته على خط مستقيم، وأنّه المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾[1]، أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده، وفي الحديث: إن آدم لما قضى مناسكه، وطاف بالبيت لقيتْه الملائكة، فقالت: يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفيْ عام[2].

قال مجاهد: إنّ الحاج إذا قدموا مكّة استقبلتْهم الملائكة، فسلّموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقاً.

من سنة السلف أن يستقبلوا الحاج، ويقبّلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنّسوا بالذنوب والآثام.

وفي الحديث: «إن الله تعالى قد وَعَد هذا البيت أن يحجّه في كلّ سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا أتمّهم الله بالملائكة، وإنّ الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة، وكلّ مَنْ حجّها متعلّق بأستارها يسعوْن حولها، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها»[3].

وفي الحديث: «إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها إلا الوقوف بعرفة»[4]. وَفيه: «أعظم الناس ذنباً مَنْ وقف بعرَفة فظن أن الله لا يغفر له».

عمر بن ذرّ الهمدانيّ: لما قضَى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة وقال مودِّعاً للبيت: ما زلنا

---

(١) سورة الطور، الآية: ٤.

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٣٦٦/٢، وأخرجه الشافعي في كتاب الأم: ١٥٤.

(٣) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٧٣٠)، وقال: ذكره في الإحياء، قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(٤) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٧٨٤)، وقال: كذا في الإحياء قال مخرجه العراقي لم أجد له أصلاً.

نحلّ إليك عُرْوة، ونشدّ إليك أخرى، ونصعد لك أكمة، ونهبط أخرى، وتخفضنا أرض، وترفعنا أخرى، حتى أتيناك. فليت شعري بم يكون مُنصَرَفُنا؟ أبذنب مغفور، فأعظِمْ بها من نعمة! أم بعملِ مردودٍ فأعظم بها من مصيبة! فيا مَنْ له خرجنا، وإليه قصدنا، وبحرَمِه أنخنا، ارحم. يا معطيَ الوفد بِفنائك، فقد أتيناك بها معرّاة جُلودها، ذابلةً أسنمتها، نَقِبَةً أخفافها. وإنّ أعظم الرزية أن نرجع وقد اكتنفتنا الخيبة. اللهمّ وإن للزّائرين حقًّا فاجعل حَقّنا عليك غفرانَ ذنوبنا، فإنّك جواد كريم، ماجدٌ لا ينقصك نائل، ولا يبخّلك سائل.

ابن جريج: ما ظننت أنّ الله ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة، حتى كنتُ باليمن، فسمعتُ مُنشداً يُنشد قوله:

بِـالله قُـولاَ لَـهُ فِـي غَـيْـرِ مَـعْـتَـبَـةٍ ... مَاذَا أَرَدْتَ بِطُولِ الْمُكْثِ فِي ٱلْيَمَنِ!
إنْ كنتَ حاولتَ دنيا أو ظَفِرْتَ بِهَا ... فـمـا أَخَـذْتَ بِـتَـرْكِ الـحجِّ مِـنْ ثَـمَـنِ!

فحرّكني ذلك على ترك اليمن، والخروج إلى مكّة، فخرجت فحججْت.

سمع أبو حازم امرأة حاجة ترفثُ في كلامها، فقال: يا أمة الله، ألست حاجة! ألا تتّقين الله! فسفرَت عن وجه صَبيح، ثم قالت له: أنا من اللواتي قال فيهنّ العرْجيّ:

أماطَتْ كِسَاءَ ٱلْخَزِّ عَنْ حُرِّ وجِهِهَا ... وردَّتْ عـلـى الـخـدَّيْـنِ بُـرْداً مـهـلـهـلاَ
مِن اللاءِ لـم يَـحْـجُـجْـنَ يَـبْـغِـينَ حِـسْـبَـةً ... وَلَـكِـنْ لِـيَـقْـتُـلْـنَ الـبـريءَ الـمـغـفَّـلاَ

فقال أبو حازم: فأنا أسأل الله ألاّ يعذّب هذا الوجه بالنار، فبلغ ذلك سعيد بن المسيّب، فقال: رحم الله أبا حازم! لو كان من عُبّاد العراق، لقال لها: اعزُبي يا عدوّة الله! ولكنه ظَرْفُ نُسّاك الحجاز.

واعْلم أنّ قوماً من أرباب علم البيان عابوا السَّجع، وأدخلوا خطبَ أمير المؤمنين عليه السلام في جملة ما عابوه، لأنه يقصِد فيها السجع، وقالوا: إنّ الخطبَ الخاليةَ من السَّجْع والقرائن والفواصل، هي خطبُ العرب، وهي المستحسَنة الخالية من التكلّف، كخطبة النبيّ صلى الله عليه وآله في حِجّة الوداع، وهي:

الحمد لله، نحمَده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيّئات أعمالنا. مَنْ يهدِ الله فلا مضلّ له ومَنْ يُضلِل الله فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

أوصِيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثّكم على العمل بطاعته، وأستفتح الله بالذي هو خير. أما بعدُ، أيّها الناس، اسمعوا منّي أبيّن لكم، فإنّي لا أدري، لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا.

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوْا ربكم، كحرْمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هلْ بلّغت؟ اللهم اشهد.

مَنْ كانتْ عنده أمانة فلْيؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ ربا الجاهلية موضوع، وأوّل رِباً أبدأ به ربا العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأولُ دم أبدأ به دم آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعة غير السِّدانة والسِّقاية. والعَمْد قَوَدٌ، وشِبْه العَمْد ما قُتِل بالعصا والحجَر، فيه مائة بعير، فمن ازداد فهو من الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد بأرضكم هذه، ولكنّه قد رضِيَ أن يُطاع فيما سوى ذلك فيما تحتقرون من أعمالكم.

أيّها الناس، إنما النّسِيء زيادة في الكفر، يُضَلُّ به الذين كفروا، يحلّونه عاماً، ويحرّمونه عاماً، وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰواتِ وَالأرض، وإن عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض، منها أربعةٌ حُرم، ثلاثة متواليات وواحد فَرد: ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب، الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هلْ بلّغت!

أيّها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكن عليهنّ حقًّا، فعليهنّ ألا يوطِئْن فرُشَكم غيركم، ولا يُدْخِلْن بيوتَكم أحداً تكرهونه إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فَعَلْنَ فقد أذِن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم كسوتهنّ ورزقهنّ بالمعروف، فإنما النّساء عندكم عَوانٍ لا يملكْن لأنفسهنّ شيئاً، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصُوا بهنّ خيراً.

أيّها النّاس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرىء مالُ أخيه إلا على طيب نفس. ألا هل بلغت اللهم اشهد!

ألا لا تَرْجعوا بعدي كفّاراً يضربُ بعضكم رقاب بعض، فإنّي قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تَضلّوا، كتاب الله ربكم. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس، إنّ ربّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيٍّ على عجميّ فضل إلا بالتقوى، ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائب.

أيها الناس، إن الله قَسَم لكلّ وارث نصيبَه من الميراث، ولا تجوز وصية في أكثرَ من الثلث، والولدُ للفراش وللعاهر الحجَر. من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غيرَ مواليه فهو ملعون، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلاً. والسلام عليكم ورحمة الله عليكم[1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/١٨٦.

واعلم أن السجعَ لو كان عيباً لكان كلام الله سبحانه معيباً لأنه مسجوع، كلّه ذو فواصلَ وقرائن، ويكفي هذا القدر وحده مبطلاً لمذهب هؤلاء. فأما خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذاتَ سجع، فإنّ أكثر خطبه مسجوع، كقوله: إنّ مع العزّ ذُلاً وإنّ مع الحياة موتاً، وإنّ مع الدنيا آخرة، وإنّ لكل شيء حساباً، ولكلّ حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، وإنّ على كل شيء رقيباً، وأنه لابد لك من قرين يُدفن معك هو حي وأنت ميت، فإنْ كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك، ولا تبعث إلا معه، ولا تُسأل إلا عنه، فلا تجعلْه إلا صالحاً فإنه إن صَلَح أنست به، وإن فَسد لم تستوحش إلاّ منه، وهو عملك.

فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه، وكذلك خطبه الطّوال كلها. وأما كلامه القصير، فإنه غير مسجوع، لأنه لا يحتمل السجع، وكذلك القصير من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

فأما قولهم: إنّ السجع يدلّ على التكلّف، فإنّ المذموم هو التكلّف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين، فأمّا التكلّف المستحسن، فأيّ عيب فيه! ألا تَرى أنّ الشعرَ نفسَه لا بد فيه من تكلُّف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعَن فيه بذلك!

واحتجّ عائبو السجع بقوله عليه السلام لبعضهم منكِراً عليه: «أسَجْعاً كسجع الكهان!»، ولولا أنّ السجعَ منكَر لما أنكر عليه السلام سجعَ الكُهّان وأمثاله. فيقال لهم: إنما أنكر عليه السلام السجع الذي يسجع الكهّان أمثاله، لا السجعَ على الإطلاق، وصورة الواقعة أنه عليه السلام أمر في الجنين بغُرّة، فقال قائل: أأدِي مَنْ لا شَرِب ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ، ومثل هذا يُطَلّ! فأنكر عليه السلام ذلك، لأنّ الكهان كانوا يحكمون في الجاهلية بألفاظ مسجوعة كقولهم: حبة بُرّ، في إحليل مُهْر. وقولهم: عبد المسيح، على جمل مُشِيح، لرؤيا المؤبذان، وارتجاس الإيوان، ونحو ذلك من كلامهم. وكان عليه السلام قد أبطل الكهانة والتنجيمَ والسحر، ونهى عنها، فلما سمع كلامَ ذلك القائل أعاد الإنكار، ومراده به تأكيدُ تحريم العمل على أقوال الكهنة. ولو كان عليه السلام قد أنكر السجعَ لما قاله، وقد بيّنا أنّ كثيراً من كلامه مسجوع، وذكرنا خطبته.

ومن كلامه عليه السلام المسجوع خبرُ ابن مسعود رحمه الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «استحيوا من الله حق الحياء»، فقلنا: إن لنستحيي يا رسول الله من الله تعالى، فقال: «ليس ذلك ما أمرتُكم به، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعَى، والبطن وما حَوَى، وتذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة تَرك زينة الحياة الدنيا[1].

ومن ذلك كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أولَ قدومه إليها: «أيُّها الناس أفشوا السلام، وأطعِموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير: ١/ ١٧٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ١٣٣٤، وأخرجه الترمذي في سننه رقم: ١٩١٦.

وعَوّذَ الحسن عليه السلام، فقال: «أعيذك من الهامّة، والسامّة، وكل عين لامّة»، وإنما أراد «ملمّة»، فقال: «لامّة»[1] لأجل السجع.

وكذلك قوله: «ارجعن مأزورات، غيرَ مأجورات»، وإنما هو «موزورات»، بالواو.

٢ - ومن خطبة له عليه السلام بعد انصرافه من صفين

صِفّين: اسم الأرض التي كانت فيها الحرب، والنون فيها أصليّة، ذكرَ ذلك صاحب «الصّحاح»، فوزنُها على هذا «فِعّيل» كفسّيق، وخمّير، وصِرّيع، وظِلّيم، وضلّيل.

فإن قيل: فاشتقاقه مماذا يكون؟

قيل: لو كان اسماً لحيوان لأمكن أن يكونَ من صَفَنَ الفرسُ - إذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر - يَصْفِن بالكسر، صُفوناً. أو من صَفَن القوم، إذا صفُّوا أقدامهم لا يخرج بعضها من بعض.

فإن قيل: أيمكنُ أن يُشتقّ من ذلك وهو اسم أرض؟

قيل: يمكن على تعسّف، وهو أن تكونَ تلك الأرض لمّا كانت مما تَصفِن فيها الخيل، أو تصطفّ فيها الأقدام، سميت صِفّين.

فإن قيل: أيمكن أن تكون النونُ زائدةً مع الياء، كما هما في «غِسْلين» و«عِفْرين»؟

قيل: لو جاء في الأصل «صِفّ»، بكسر الصاد لأمكن أن تُتوهمّ الزيادة، كالزيادة في غِسْل، وهو ما يُغتَسل به، نحو الخِطْميّ وغيره، فقيل: غِسْلين، لما يسيل من صديد أهل النار ودمائهم، وكالزيادة في عِفْر وهو الخبيث الداهي، فقيل: عِفْرين، لمأسدة بعينها. وقيل: عفريت للداهية، هكذا ذكروه.

ولقائل أن يقول لهم: أليس قد قالوا للأسد: عَفَرْنَي، بفتح العين، وأصله العِفْر، بالكسر، فقد بان أنهم لم يراعُوا في اشتقاقهم وتصريف كلامهم الحركةَ المخصوصة، وإنما يراعون الحرف، ولا كلّ الحروف، بل الأصلي منها، فغير ممتنع على هذا عندنا أن تكون الياء والنون زائدتين في «صِفّين».

وصفّين: اسم غير منصرف للتأنيث والتعريف، قال:

إنّي أدِينُ بما دَانَ الوصيُّ بِهِ ... يوم الخُرَيْبة مِنْ قَتْل المُحِلّينا[2]

(١) ذكره الجوهري في الصحاح: ١/ ١٠.

(٢) الخريبة: محلة من محال البصرة، ينسب إليها خلق كثير. اللسان، مادة (خرب).

وبـالـذي دَان يـومَ الـنَّـهْـرِ دِنْـتُ بِـهِ ... وشَـاركَـتْ كَـفُّـهُ كَـفِّـي بِـصـفِّـيـنَـا
تـلـكَ الـدِّمـاء مـعـاً يـا ربِّ فـي عُـنُـقـي ... ثـم اسـقـنِـي مِـثْـلَـهـا آمِـيـنَ آمِـيـنَـا

الأصل: أَحْمَدُهُ ٱسْتِتْمَاماً لِنِعْمَتِهِ، وَٱسْتِسْلاَماً لِعِزَّتِهِ، وَاسْتِعْصَاماً مِنْ مَعْصِيَتِهِ. وَأَسْتَعِينُهُ فَاقَةً إِلَىٰ كِفَايَتِهِ، إِنَّهُ لاَ يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ، وَلا يَئِلُ مَنْ عَادَاهُ، وَلاَ يَفْتَقِرُ مَنْ كَفَاهُ، فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ، وأَفْضَلُ ما خُزِنَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ الله وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلاصُها، مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً مَا أَبْقَانَا، وَنَدَّخِرُها لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا، فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ ٱلْإِيمَانِ، وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ، وَمَرْضَاةُ الرَّحْمٰنِ، وَمَدْحَرَةُ ٱلشَّيْطَانِ.

الشرح: وأل، أي نجا، يئِل. والمُصاص: خالص الشيء. والفاقة: الحاجة والفقر.

الأهاويل: جمع أهوال، والأهوال: جمع هَوْل، فهو جمع الجمع، كما قالوا: أنعام وأناعيم. وقيل: أهاويل أصله تهاويل، وهي ما يهولك من شيء، أي يروعك، وإن جاز هذا فهو بعيد، لأن التاء قلّ أن تبدلَ همزة. والعزيمة: النية المقطوع عليها. ومدحرة الشيطان، أي تدحَره، أي تبعده وتطرده.

وقوله عليه السلام: «استتماماً»، و«استسلاماً»، و«استعصاماً»، من لطيف الكناية وبديعها، فسبحان مَن خصّه بالفضائل التي لا تنتهي ألسنةُ الفصحاء إلى وصفها، وجعله إمام كلّ ذي علم، وقدوة كلّ صاحب خِصّيصَة!

وقوله: «فإنه أرجح»، الهاء عائدة إلى ما دلّ عليه قوله: «أحمده»، يعني الحمد، والفعل يدلّ على المصدر، وترجع الضمائر إليه كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ﴾[1] وهو ضمير البخل الذي دلّ عليه قوله: ﴿يَبْخَلُونَ﴾[2].

لزوم ما لا يلزم أحد أناع البديع

وقوله عليه السلام: «وُزِن وخُزِن»، بلزوم الزاي، من الباب المسمّى لزوم ما لا يلزم، وهو أحد أنواع البديع، وذلك أن تكون الحروف التي قبل الفَاصلَة حرفاً واحداً، هذا في المنثور، وأما في المنظوم فأن تتساوى الحروف التي قبل الرويّ مع كونها ليست بواجبة التساوي، مثال ذلك قول بعض شعراء الحماسة:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

بَيْضَاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأدقَّها وأجَلَّها
حَجَبَتْ تحيَّتَها فقلتُ لصاحبي ... ما كَانَ أكثرَها لَنَا وأقلَّهَا
وإذا وَجَدْتُ لها وَسَاوِسَ سَلْوةٍ ... شَفَعَ الضَّميرُ إلى الفؤادِ فَسَلَّهَا

ألا تراه كيف قد لَزِم اللام الأولى من اللامين ٱللَّذَيْن صارا حرفاً مشدّداً! فالثاني منهما هو الرويّ، واللام الأول الذي قبله التزام ما لا يلزم، فلو قال في القصيدة: وصلها، وقبلها، وفعلها، لجاز.

واحترزنا نحن بقولنا: «مع كونها ليست بواجبة التساوي» عن قول الراجز، وهو من شعر الحماسة أيضاً:

وَفَيْشَةٍ ليسَتْ كهذي الْفَيْشِ ... قَدْ مُلِئَتْ مِن نَزَقٍ وَطَيْشِ
إذا بَدَتْ قلتَ أميرَ الجيشِ ... مَنْ ذَاقَها يعرف طَعْمَ العَيْشِ

فإنّ لزوم الياء قبل حرف الرويّ ليس من هذا الباب، لأنه لزوم واجب، ألا ترى أنه لو قال في هذا الرجز: البطْش والفَرْش والعَرْش لم يجز، لأن الرِّدف[1] لا يجوز أن يكون حرفاً خارجاً عن حروف العلة. وقد جاء من اللزوم في الكتاب العزيز مواضع ليست بكثيرة، فمنها قوله سبحانه: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾[3]، وقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾[5]، وقوله: ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾[6]، وقوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾[7]، وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾[8]، والظاهر أن ذلك غير مقصود قصدُه.

ومما ورد منه في كلام العرب أنّ لَقيط بن زُرارة تزوّج ابنة قيس بن خالد الشيبانيّ فأحبّته، فلما قُتِل عنها تزوّجت غيره، فكانت تذكر لقيطاً، فسألها عن حُبِّها له، فقالت: أذكُره وقد خرج تارة في يوم دَجْن، وقد تطيّب وشرب الخمر، وطَرد بقراً، فصرع بعضها، ثم جاءني وبه نَضْحُ دمٍ وعبير، فضمني ضَمَّة، وشمني شمة، فليتني كنت مِتُّ ثمّة.

---

(١) الرِّدف: كل قافية اجتمع في آخرها ساكنان، اللسان، مادة (ردف).
(٢) سورة مريم، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٣) سورة قٓ، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٤) سورة العلق، الآيتان: ١، ٢.
(٥) سورة الطور، الآيتان: ١، ٢.
(٦) سورة الطور، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٧) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٨) سورة الأنفال، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

وقد صنع أبو العلاء المعري كتاباً في اللزوم[١] من نظمه، فأتى فيه بالجيد والرديء، وأكثره متكلّف، ومن جيده قوله:

لاَ تَطْلُبَنَّ بآلَةٍ لك حَالَةً ... قَلَمُ البليغِ بغيرِ حظٍّ مِغْزَلُ
سَكَنَ السِّماكانِ[٢] السماءَ كِلاَهما ... هذا له رمحٌ وهذا أعْزَلُ

الأصل: وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ ٱلْمَشْهُورِ، وَٱلْعَلَمِ ٱلْمَأْثُورِ، وَٱلْكِتَابِ ٱلْمَسْطُورِ، وَٱلنُّورِ ٱلسَّاطِعِ، وَٱلضِّيَاءِ ٱللامِعِ، وَٱلأَمْرِ ٱلصَّادِعِ، إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ.
وَٱحْتِجَاجاً بِٱلْبَيِّنَاتِ، وتَحْذيراً بِٱلآيَاتِ، وتَخْوِيفاً بِٱلْمَثُلاَتِ، وَٱلنَّاسُ فِي فِتَنٍ ٱنْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ ٱلدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي ٱلْيَقِينِ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ، وَتَشَتَّتَ ٱلأَمْرُ، وضَاقَ ٱلْمَخْرَجُ، وعَمِيَ ٱلْمَصْدَرُ، فَٱلْهُدَى خَامِلٌ، وَٱلْعَمَى شَامِلٌ. عُصِيَ الرَّحْمٰنُ، ونُصِرَ الشَّيْطَانُ، وخُذِلَ الإِيمَانُ، فَٱنْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، ودَرَسَتْ سُبُلُهُ، وعَفَتْ شُرُكُهُ. أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلاَمُهُ، وقَامَ لِوَاؤُهُ. فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلاَفِها، وقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَ تَائِهُونَ حَائِرُونَ، جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ وشَرِّ جِيرانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عالمها مُلْجَمٌ، وجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ.

الشرح: قوله عليه السلام: «والعلَم المأثور»، يجوز أن يكون عَنَى به القرآن، لأن المأثورِ المحكيّ، والعلَم ما يُهتدَى به، والمتكلّمون يسمون المعجزات أعلاماً. ويجوز أن يريد به أحد معجزاته غير القرآن، فإنها كثيرة ومأثورة، ويؤكد هذا قولُه بعد: «والكتاب المسطور»، فدلّ على تغايُرهما، ومن يذهب إلى الأول يقول: المراد بهما واحد، والثانية توكيدُ الأولى على قاعدة الخطابة والكتابة.

والصادع: الظاهر الجليّ، قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[٣]، أي أظهره ولا تُخفِه. والمَثلات، بفتح الميم وضم الثاء: العقوبات، جمع مَثُلَه، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾[٤].

---

(١) لزوم ما لا يلزم: منظومة لأبي العلاء أحمد بن عبد الله المعري المتوفى سنة (٤٤٩هـ). «كشف الظنون» (٢/١٥٤٨).
(٢) السماكان: نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل والآخر السماك الرامح. اللسان، مادة (سمك).
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٤.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٦.

وانجذم: انقطع. والسَّواري: جمع سارية، وهي الدِّعامةُ يدعم بها السّقف. والنَّجْر: الأصل، ومثله النِّجار. وانهارَت: تساقطت. والشُّرُك: الطرائق، جمع شِراك. والأخفاف للإبل، والأظلاف للبقر والمعِز.

وقال الراونديّ في تفسير قوله: «خير دار، وشرّ جيران»: خير دار: الكوفة. وقيل: الشام، لأنها الأرض المقدسة، وأهلها شرّ جيران، يعني أصحابَ معاوية. وعلى التفسير الأول يعني أصحابه عليه السلام.

قال: وقوله: «نومهم سهود»، يعني أصحابَ معاوية لا ينامون طول الليل، بل يرتّبون أمرَه. وإن كان وصفاً لأصحابه عليه السلام بالكوفة - وهو الأقرب - فالمعنى أنهم خائفون يسهرون ويبكون لقلة موافقتهم إياه، وهذا شكاية منه عليه السلام لهم.

وكحلهم دموع، أي نفاقاً، فإنه إذا تم نفاقُ المرءِ مَلك عينيه.

ولقائل أن يقول: لم يجر فيما تقدم ذكر أصحابه عليه السلام ولا أصحاب معاوية، والكلام كلّه في وصف أهل الجاهلية قبل مبعث محمد صلى الله عليه وآله ثم لا يخفى ما في هذا التفسير من الركاكة والفجاجة، وهو أن يريد بقوله: «نومهم سهود»، أنهم طوال الليل يرتّبون أمر معاوية، لا ينامون، وأن يريد بذلك أن أصحابه يبكون من خوف معاوية وعساكره، أو أنهم يبكون نفاقاً، والأمر أقرب من أن يُتَمحّل له مثل هذا.

ونحن نقول: إنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية، وقوله: «في خير دار» يعني مكة، و«شرّ جيران»، يعني قريشاً، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله حين حَكَى بالمدينة حالةً كانت في مبدأ البعثة، فقال: «كنت في خير دار» و«شرّ جيران»[1]. ثم حكى عليه السلام ما جرى له مع عُقْبة بن أبي مُعَيْط، والحديث مشهور.

وقوله: «نومهم سهود، وكحلهم دموع» مثل أن يقول: جودهم بخل، وأمنهم خوف، أي لو استماحهم محمد عليه السلام النومَ لجادوا عليه بالسهود عوضاً عنه، ولو استجداهم الكُحْل لكان كحلهم الذي يصلونه به الدموع.

ثم قال: «بأرض عالمها مُلْجَم»، أي من عرف صدق محمد صلى الله عليه وآله وآمن به في تقيّة وخوف «وجاهلها مكرَم»، أي مَنْ جحد نبوّته وكَذّبه في عز ومنعة. وهذا ظاهر.

(١) رواه البزواري في شرح الأسماء الحسنى: ٢/ ٣٢.

الأصل: ومنها - ويعني آل النبي صلى الله عليه وآله:

هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجأُ أمْرِهِ، وَعَيْبَةُ عِلْمِهِ، ومَوْئِلُ حُكْمِهِ، وكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجبَالُ دِينِهِ. بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرائِصِه.

الشرح: اللجأ: ما تلتجيء إليه، كالوزَر ما تعتصم به. والموئل: ما ترجع إليه، يقول: إن أمر النبي صلى الله عليه وآله - أي شأنه - ملتجيء إليهم، وعلمه مودَع عندهم، كالثوب يودَع العيبة[1].

وحُكْمه - أي شرَعه - يرجع ويؤول إليهم. وكتبه - يعني القرآن والسنة - عندهم، فهم كالكهوف له، لاحتوائهم عليه. وهم جبال دينه لا يتحلحلون عن الدين، أو أن الدين ثابت بوجودهم، كما أنّ الأرض ثابتة بالجبال، ولولا الجبال لمادتْ بأهلها.

والهاء في «ظهره» ترجع إلى الدين، وكذلك الهاء في «فرائصه» والفرائص: جمع فَرِيصة، وهي اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال تُرْعَد من الدابة.

الأصل: ومنها في المنافقين: **زَرَعُوا الفُجُور، وَسَقَوْهُ الغُرُورَ، وحَصَدُوا الثُّبُورَ، لاَ يُقَاسُ بآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلاَ يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً. هُمْ أَسَاسُ ٱلدِّينِ، وَعِمَادُ ٱلْيَقِينِ، إليهم يَفِيءُ الغَالِي، وبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلاَيةِ، وَفيهِمْ ٱلْوَصِيَّةُ وَٱلوِرَاثَةُ. الآنَ إِذْ رَجَعَ ٱلحقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ.**

الشرح: جعل ما فعلوه من القَبيح بمنزلة زَرْع زرعوه، ثم سقوْه، فالذي زرعوه الفجور، ثم سقوْه بالغرور، والاستعارة واقعة موقِعَها، لأن تماديَهم وما سكنت إليه نفوسهم من الإمهال، هو الذي أوجَب استمرارهم على القبائح التي واقعوها، فكان ذلك كما يُسقى الزرع، ويربّى بالماء ويستحفظ.

ثم قال: «وحصدوا الثبور»، أي كانت نتيجة ذلك الزرع والسقي حصادَ ما هو الهلاك والعطب.

(١) العيبة: وعاء من أدم يكون فيها المتاع. اللسان، مادة (عيب).

وإشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضيّ رحمه الله، وإنما هي إشارة إلى مَنْ تغلّب عليه، وجَحد حقه كمعاوية وغيره. ولعل الرضيّ رحمه الله تعالى عرَف ذلك وكنّى عنه.

ثم عاد إلى الثناء على آل محمد ﷺ، فقال: «هم أصول الدين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحَق التالي»، جعلهم كمِقْنب يسير في فلاة، فالغالي منه أي الفارط المتقدم، الذي قد غلا في سيره يرجع إلى ذلك المِقْنب[1] إذا خاف عدوًّا، ومن قد تخلف عن ذلك المِقْنب فصار تالياً له يلتحق به إذا أشفَق من أن يُتخطّف.

ثم ذكر خصائص حق الولاية: الإمْرة، فأما الإماميّة فيقولون: أراد نصّ النبي ﷺ عليه وعلى أولاده. ونحن نقول: لهم خصائص حق ولاية الرسول ﷺ على الخلق.

ثم قال عليه السلام: «وفيهم الوصية والوراثة»، أما الوصيَّة فلا ريبَ عندنا أنّ علياً عليه السلام كان وصيّ رسول الله ﷺ، وإنْ خالف في ذلك مَنْ هو منسوب عندنا إلى العناد، ولسنا نعني بالوصية النصَّ والخلافة، ولكن أموراً أخرى لعلّها - إذا لُمِحت - أشرفُ وأجلّ.

وأما الوراثة فالإمامية يحمِلونها على ميراث المال والخلافة، ونحن نحملها على وراثة العلم.

ثم ذكر عليه السلام أنّ الحق رجع الآن إلى أهله، وهذا يقتضي أن يكونَ فيما قبل في غير أهله، ونحن نتأوّل ذلك على غير ما تذكره الإمامية، ونقول: إنّه عليه السلام كان أوْلى بالأمر وأحقّ، لا على وجه النصّ، بل على وجه الأفضليّة، فإنه أفضلُ البشر بعد رسول الله ﷺ، وأحقُّ بالخلافة من جميع المسلمين، لكنه ترك حقَّه لما علمه من المصلحة، وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام، وانتشار الكلمة، لحسد العرب له، وضِغْنهم عليه. وجائز لمن كان أوْلى بشيء فتركه ثم استرجعه أن يقول: «قد رجع الأمر إلى أهله».

وأما قوله: «وانتقل إلى منتَقَله»، ففيه مضاف محذوف، تقديره: «إلى موضع منتقله»، والمنتقَل بفتح القاف: مصدر بمعنى الانتقال، كقولك: لي في هذا الأمر مضطرَب، أي اضطراب، قال:

قَدْ كَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي ٱلْأَرْضِ ذاتِ الطُّول والعَرْضِ

وتقول: ما معتقدك؟ أي ما اعتقادك. قد رجع الأمر إلى نصابه، وإلى الموضع الذي هو على الحقيقة الموضعُ الذي يجب أن يكون انتقالُه إليه.

فإن قيل: ما معنى قوله عليه السلام: «لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً»؟

---

(١) المقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المائة تجتمع للغارة، ا هـ القاموس، مادة (قنب) والمعجم الوسيط (٣/ ٧٦١).

قيل: لا شبهةَ أن المنعِم أعلى وأشرفُ من المنعَم عليه، ولا ريب أنّ محمداً صلى الله عليه وآله وأهله الأدْنَيْن من بني هاشم - لا سيما عليًا عليه السلام - أنعموا على الخلْق كافة بنعمة لا يقدّر قدرها، وهي الدعاء إلى الإسلام والهداية إليه، فمحمد صلى الله عليه وآله وإن كان هَدَى الخلق بالدعوة التي قام بها بلسانه ويده، ونصرة الله تعالى له بملائكته وتأييده، وهو السيّد المتبوع، والمصطفى المتنجَب الواجب الطاعة، إلا أنّ لعلّي عليه السلام من الهداية أيضاً - وإن كان ثانياً لأوّل، ومصلّياً على إثر سابق - ما لا يُجحد، ولو لم يكن إلا جهادُه بالسيف أولاً وثانياً، وما كان بين الجهادَيْن من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى ما لم تكن له فاهمة ولا متصوّرة، لكفى في وجوب حَقّه، وسبوغ نعمته عليه السلام.

فإن قيل: لا ريب في أنّ كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه، فأيّ نعمة له عليهم؟ قيل: نعمتان: الأولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون، فإنّ من أنصفَ علم أنّه لولا سيف عليّ عليه السلام لاصطلم المشركون، من أشار إليه وغيرهم من المسلمين، وقد علمتَ آثاره في بدر، وأحد، والخندق، وخَيْبر، وحُنَين، وأنّ الشرك فيها فَغَرفاه، فلولا أن سدّه بسيفه لألْتَهم المسلمين كافة - والثانية علومه التي لولاها لحُكِمَ بغير الصواب في كثير من الأحكام، وقد اعترف عمر له بذلك، والخبر مشهور: «لولا عَلِيٌّ لهلك عمر».

ويمكن أن يخرّج كلامه على وجه آخر، وذلك أنّ العرب تفضّل القبيلة التي منها الرئيس الأعظم على سائر القبائل، وتفضّل الأدنى منه نسباً، فالأدنى على سائر آحاد تلك القبيلة، فإنّ بني دارم يفتخرون بحاجب وإخوته، وبزُرارة أبيهم على سائر بني تميم، ويسوغ للواحد من أبناء بني دارم أن يقول: لا يقاسُ ببني دارم أحد من بني تميم، ولا يستوى بهم مَنْ جرت رياستهم عليه أبداً، ويعني بذلك أنّ واحداً من بني دارم قد رأس على بني تميم، فكذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله رئيسَ الكلّ، والمنعِمَ على الكلّ، جاز لواحد من بني هاشم، لا سيما مثل عليّ عليه السلام أن يقول هذه الكلمات.

واعلم أنّ علياً عليه السلام كان يدّعي التقدّمَ على الكلّ، والشرف على الكلّ، والنعمةَ على الكلّ، بابن عمه صلى الله عليه وآله، وبنفسه، وبأبيه أبي طالب، فإنّ من قرأ علوم السِّيَر عرف أنّ الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئاً مذكوراً.

وليس لقائل أن يقول: كيف يقال هذا في دِينٍ تكفّل الله تعالى بإظهاره، سواء كان أبو طالب موجوداً أو معدوماً! لأنا نقول: فينبغي على هذا ألاّ يُمدح رسول الله صلى الله عليه وآله. ولا يقال: إنه هدى الناس من الضلالة، وأنقذهم من الجهالة، وإنّ له حقاً على المسلمين. وإنّه لولاه لمَا عُبِد الله تعالى في الأرض، وألا يمدح أبو بكر، ولا يقال: إن له أثراً في الإسلام، وإن عبد الرحمن وسعداً وطلحة وعثمان وغيرهم من الأولين في الدين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله لاتباعه له، وإنّ له

يداً غير مجحودة في الإنفاق واشتراء المعذّبين وإعتاقهم، وإنّه لولاه لاستمرت الرِّدة بعد الوفاة، وظهرت دعوة مُسيلمة وطُليحة، وإنه لولا عمر لما كانت الفتوح، ولا جُهّزت الجيوش، ولا قَوِي أمر الدين بعد ضعفه، ولا انتشرتْ الدعوةُ بعد خمولها.

فإن قلتم في كل ذلك: إنّ هؤلاء يُحمدون ويُثنَى عليهم، لأن الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم، ووفّقهم لها، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى، وهؤلاء آلة مستعملة، ووسائط تجري الأفعال على أيديها، فحمدُهم والثناء عليهم، والاعتراف لهم إنما هو باعتبار ذلك.

قيل: لكم في شأن أبي طالب مثله.

واعلم أنّ هذه الكلمات، وهي قوله عليه السلام: «الآن إذ رجع الحق إلى أهله...»، إلى آخرها يبعدُ عندي أن تكون مقولة عقِيب انصرافه عليه السلام من صِفِّين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطربَ الأمر، منتشرَ الحبل، بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وما تمَّ لمعاويةَ عليه من الاستظهار، وما شاهد في عسكره من الخذلان. وهذه الكلمات لا تقال في مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تكونَ قيلت في ابتداء بَيْعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأنّ الرضيّ رحمه الله تعالى نقل ما وجد، وحكى ما سمع، والغلط من غيره والوهم سابق له. وما ذكرناه واضح.

أشعار وأراجيز في الوصاية

ومما رويناه من الشعر المقول في صدر الإسلام المتضمّن كونه عليه السلام وصيّ رسول الله قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

وَمِـنّـا عـلـيّ ذاك صـاحـبُ خَـيْـبَـرٍ ... وَصَاحِبُ بَدْرٍ يوم سالتْ كتائبُهْ

وَصيُّ الـنـبـيّ الـمـصـطـفَى وابنُ عَمِّه ... فَـمَـنْ ذا يـدانِـيـهِ ومَـنْ ذَا يُـقَـارِبُـهْ!

وقال عبد الرحمن بن جُعَيل:

لـعَـمْـرِي لَـقَـدْ بـايـعـتُـمُ ذا حـفـيـظةٍ(١) ... على الدِّين، معروفَ العفافِ مُوفَّقَا

عـلـيًّا وصـيّ الـمـصـطـفَى وابـنَ عـمِّـه ... وأوّلَ مَـنْ صَـلّـى أخـا الـدِّيـنِ والـتُّـقَـى

وقال أبو الهيثم بن التَّيِّهان - وكان بدريًّا:

قـل لـلـزبـيـرِ وقـلْ لـطـلـحـة إنّـنـا ... نـحـنُ الـذيـن شـعـارنـا الأنـصـارُ

نَـحْـنُ الـذيـن رأتْ قـريـشٌ فِـعْـلَـنَـا ... يـوم الـقَـلِـيـب أولـئـكَ الـكـفـارُ

---

(١) الحَفيظة: الغضب لحرمة تنتهك. اللسان، مادة (حفظ).

كـنّـا شـعـارَ[١] نـبـيّـنـا ودثـارَه   يَـفْـدِيـهِ مـنّـا الـرُّوح والأبـصـارُ
إنّ الـوصـيّ إمـامُـنـا ووليُّـنـا   بَـرِحَ الـخـفـاءُ وبـاحـتِ الأسـرار

وقال عمر بن حارثة الأنصاريّ، وكان مع محمد بن الحنفيّة يوم الجمل، وقد لامه أبوه عليه السلام لما أمره بالحملة فتقاعس:

أبـا حـسـنٍ أنـت فـصـل الأمـور   يـبَـيـن بِـكَ الـحِـلُّ والـمَـحْـرمُ
جـمـعـتَ الـرجـال عـلـى رَايـةٍ   بـهـا ابـنُـكَ يـوم الـوغـى مُـقْـحَـمُ
ولـم يـنـكـص الـمـرءُ مـن خِـيـفـةٍ   ولـكـن تـوالـتْ لـه أسـهـم
فـقـال رويـداً ولا تَـعْـجَـلُـوا   فـإنّـي إذا رشـقـوا مُـقْـدِمُ
فـأعـجـلـتـه والـفـتـى مـجـمـعٌ   بـمـا يـكـره الـوَجِـل الـمـحـجِـمُ
سـمـيّ الـنـبـيّ وشـبـه الـوصـيّ   ورايـتُـه لـونـهـا الـعَـنْـدَمُ[٢]

وقال رجل من الأزد يوم الجمل:

هـذا عـلـيّ وهـو الـوصـيُّ   آخـاه يـومَ الـنَّـجْـوَةِ الـنَّـبـيُّ
وقـال هـذا بـعـديَ الـولـيُّ   وَعَـاهُ واعٍ ونـسِـيَ الـشـقـيُّ

وخرج يوم الجمل غُلام من بني ضَبّة شاب مُعْلِم من عسكر عائشة، وهو يقول:

نَـحْـنُ بَـنِـي ضَـبَّـة أعـداءُ عَـلِـي   ذَاكَ الّـذِي يُـعْـرَفُ قِـدْمـاً بـالـوصِـي
وَفَـارِس الـخـيـل عـلـى عـهـد الـنـبـي   مـا أنـا عـن فـضـل عـلـيٍّ بـالـعَـمِـي
لـكـنّـنـي أنـعَـى ابـنَ عـفّـانَ الـتَّـقِـي   إنّ الـولـيَّ طـالـبٌ ثـأرَ الـوَلِـي

وقال سعيد بن قيس الهمْدانيّ يوم الجمل - وكان في عسكر علي عليه السلام:

أَيَّـةُ حَـرْبٍ أُضـرِمَـتْ نِـيـرَانُـهَـا   وَكُـسِّـرَتْ يَـوْمَ الـوَغَـى مُـرَّانُـهَـا[٣]
قُـلْ لِـلْـوَصِـيّ أَقْـبَـلَـتْ قَـحْـطَـانُـهـا   فَـادْعُ بِـهَـا تَـكْـفِـيـكَـهَـا هَـمْـدَانُـهَـا
هُـمُ بَـنُـوهَـا وَهُـمُ إِخْـوَانُـهَـا

وقال زياد بن لبيد الأنصاريّ يوم الجمل - وكان من أصحاب علي عليه السلام:

كَـيْـفَ تَـرى الأنـصـارَ فِـي يَـوْمِ الْـكَـلَـبْ   إنّـا إنـاسٌ لاَ نُـبَـالِـي مَـنْ عَـطِـبْ
وَلا نُـبَـالِـي فِـي الـوَصـيّ مَـنْ غَـضِـبْ   وإنّـمـا الأنـصـار جِـدٌّ لا لَـعِـبْ

---

(١) الشِّعَار: الخاصة والبطانة، الدثار: الثوب الذي فوق الشعار. اللسان، مادة (شعر).
(٢) العندم: شجر أحمر. اللسان، مادة (عندم).
(٣) المران: الرماح الصلبة للّدنة. اللسان، مادة (مرن).

هَـذَا عَـلِـيٌّ وابـنُ عـبـد الـمـطّـلِـبْ　　نـنـصـره الـيـوم عَـلَـى مَـنْ قَـدْ كَـذَبْ
مَنْ يَكْسِب البغيَ فبئسما اكْتَسَبْ

وقال حُجْر بن عديّ الكِنْديّ في ذلك اليوم أيضاً:

يَـا رَبَّـنـا سَـلِّـمْ لَـنَـا عَـلِـيّـا　　سَـلِّـم لَـنَـا الْـمُـبَـارَكَ الْـمُـضِـيَّـا
الـمـؤمـنَ الـمـوحِّـد الـتـقـيّـا　　لا خَـطِـلَ الـرأيِ وَلاَ غَـوِيّـا
بَـلْ هَـادِيـاً مـوفَّـقـاً مَـهْـدِيّـا　　واحْـفَـظْـهُ رَبِّـي واحـفـظِ الـنَّـبِـيَّـا
فِـيـهِ فَـقَـدْ كَـانَ لَـهُ ولـيّـا　　ثـم ارتـضـاه بـعـدَهُ وَصِـيّـا

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصاريّ، ذو الشهادتين - وكانَ بدْريًّا - في يوم الجمل أيضاً:

لـيـس بـيـن الأنـصـار فـي جَـحْـمَـةِ الـحر　　ب وبـيـن الـعُـداة إلا الـطـعـانُ
وقـراع الـكُـمـاةِ بـالـقُـضُـبِ الـبيـ　　ـضِ إذا مـا تَـحَـطَّـمَ الـمُـرّانُ
فـادعـهـا تـسـتـجِـبْ فـلـيـس مـن الـخـز　　رجِ والأوس يـا عـلـيّ جَـبَـانُ
يـا وصـيّ الـنـبـيّ قـد أجـلـت الـحـر　　بُ الأعـادِي وسـارَتِ الأظْـعـانُ
وَاسْـتَـقَـامَـتْ لَـكَ الأمُـور سِـوى الـشـ　　ـام وفـي الـشـام يـظـهـر الإذعَـانُ
حَـسْـبُـهُـمْ مـا رَأوْا وَحَـسْـبُـك مِـنّـا　　هَـكَـذَا نَـحْـنُ حَـيْـثُ كُـنّـا وَكَـانُـوا

وقال خزيمة أيضاً في يوم الجمل:

أعـائـشَ خَـلّـي عَـنْ عـلـيٍّ وعَـيْـبِـهِ　　بـمـا لـيـس فـيـه إنّـمـا أنـتِ والِـدَه
وصـيّ رسـول الله مِـنْ دُون أهـلـه　　وأنـتِ عَـلَـى مَـا كَـانَ مـنْ ذَاكَ شَـاهِـدَهْ
وَحَـسْـبُـكِ مِـنْـه بـعـضُ مـا تـعـلـمـيـنَـهُ　　ويَـكْـفِـيـكِ لـو لـم تـعـلـمـي غـيرُ واحـدهْ
إذا قِـيـلَ مَـاذَا عِـبْـتِ مِـنْـهُ رَمَـيـتِـهِ　　بـخـذل ابـن عَـفّـانٍ ومـا تـلـك آبِـدَهْ(١)
وَلَـيْـسَ سَـمَـاءُ الله قـاطـرةً دمـاً　　لِـذَاكَ وَمَـا الأرْضُ الْـفَـضَـاءُ بـمـائِـدَهْ

وقال ابن بديل بن ورقاء الخُزاعيّ يوم الجمل أيضاً:

يَا قَوْمُ لِلْخُطّةِ العُظْمَى الّتي حَدَثَتْ　　حرب الوصيّ وما للحرب مِنْ آسِي
الفاصلُ الحكَمَ بالتقوى إذا ضربت　　تلك القبائلُ أخْمَاساً لأسْدَاسِ

وقال عمرو بن أُحَيْحَة يوم الجمل في خطبة الحسن بن عليّ عليه السلام بعد خطبة عبد الله بن الزُّبير:

حَـسَـنَ الـخـيـر يـا شَـبِـيـهَ أبِـيـهِ　　قُـمْـتَ فـيـنـا مـقـام خَـيْـر خَـطِـيـبِ

(١) الآبدة: الداهية. اللسان، مادة (أبد).

قُمْتَ بالخطبة الَّتي صَدَعَ اللَّـ ـه بِهَا عَنْ أبِيكَ أهلَ العيوب
وكشفت القناع فاتَّضح الأمْـ ـر وأصْلَحْتَ فاسداتِ القُلُوبِ
لَسْتَ كابنِ الزُّبَيْرِ لَجْلَجَ في القَوْ لِ وَطَاطا عِنَانَ فَسْلٍ مُرِيبِ[1]
وأبى الله أن يقوم بما قا مَ به ابنُ الوصِيِّ وابنُ النَّجِيبِ
إنّ شَخْصاً بَيْنَ النَّبِيِّ - لك الخيـ ـرُ - وبين الوصيِّ غَيْرُ مَشُوبِ

وقال زَحْر بن قيس الجعفيّ يوم الجمل أيضاً:

أضْرِبُكُمْ حَتَّى تُقِرُّوا لعلِي خَيْرِ قُرَيْشٍ كلِّها بَعْدَ النَّبِي
مَنْ زَانَهُ الله وَسَمَّاه الوَصِي إن الوَلِيّ حافظٌ ظَهْرَ الولِي
كما الغويّ تابعٌ أمْرَ الغَوِي

ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مِخْنف لوط بن يحيى في كتاب وقعة الجمل. وأبو مِخْنف من المحدّثين، وممن يرى صحة الإمامة بالاختيار، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها.

ومما رويناه من أشعار صِفِّين التي تتضمن تسميتَه عليه السلام بالوصيّ ما ذكره نصر بن مزاحم بن يسار المِنقريّ في كتاب صِفّين، وهو من رجال الحديث. قال نصر بن مُزَاحم: قال زَحْر بن قيس الجعفيّ:

فَصَلَّى الإلَهُ عَلَى أحْمَدٍ رَسُولِ الْمَلِيكِ تمام النِّعَمْ
رَسُولِ المليك وَمَنْ بَعْدِهِ خليفتنا القائم المدَّعَمْ
عَلِيًّا عَنَيْتُ وصيَّ النبيّ نُجَالِدُ عَنْهُ غُواةَ الأمَمْ

قال نصر: ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس:

أتانا الرَّسُولُ رَسُولُ الإمام فَسُرَّ بمقدَمِهِ الْمُسْلِمُونَا
رَسُولُ الوصيّ وصيّ النبيّ له السَّبْقُ والفضل في المؤمنينا

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً:

أتانا الرَّسُولُ رسول الوصيّ عليّ المهذَّبُ من هَاشِمِ
وزيرُ النبيّ وذو صِهْرِه وَخَيْرُ البريَّةِ والعالَمِ

(١) الفَسْل: الرّذِل النذل الذي لا مروءة له ولا جلده. اللسان، مادة (فسل).

قال نَصْر بن مُزاحم: من شعر أمير المؤمنين عليه السلام في صِفّين:

يا عَجَبا لقَدْ سمِعْتُ مُنْكَرَا ... كِذْباً عَلَى الله يُشِيبُ الشَّعَرَا
ما كانَ يَرْضَى أحْمَدٌ لو أُخبرا ... أن يَقْرِنُوا وصيَّه والأبْتَرَا
شاني الرسول واللعينَ الأخزرا ... إني إذا الموتُ دَنا وحضرا
شَمَّرْتُ ثَوْبي وَدعوتُ قَنْبَرا: ... قَدِّمْ لِوائي لا تؤخِّرْ حَذَرَا
لاَ يَدْفَعُ الحِذارُ ما قدْ قُدِّرَا ... لو أن عندِي يا ابن حَرْبٍ جَعْفَرا
أو حمزة القَرْمَ الهُمام الأزْهرَا ... رأت قريش نَجْمَ ليلٍ ظُهْرا

وقال جرير بن عبد الله البَجَليّ: كتب بهذا الشعر إلى شُرَحبيل بن السِّمط الكنديّ، رئيس اليمانية من أصحاب معاوية:

نَصَحْتُك يا بن السِّمط لا تَتبع الهوى ... فما لك في الدّنْيَا من الدِّين مِنْ بَدلْ
وَلاَتَكُ كالمُجْرَى إلَى شَرّ غايةٍ ... فقد خُرِق السِّرْبَالُ واستَنْوَق الجملْ
مقالُ ابن هند في عليّ عضيهةٌ[1] ... ولَلّهُ في صدْرِ ابن أبي طالبٍ أجَلّ
وَمَا كَانَ إلاّ لاَزِماً قَعْرَ بيتِه ... إلى أنْ أتى عثمان في بيته الأجلْ
وصيّ رسول الله مِنْ دُونِ أهلِه ... وفارسه الحامِي بِهِ يُضْرَبُ المثلْ

وقال النعمان بن عجلان الأنصاري:

كيف التفرُّقُ والوصيُّ إمامُنا ... لا كيف إلاّ حَيْرَةً وتخاذُلا
لا تغبِنُنَّ عقولَكُم، لا خَيْر فِي ... مَنْ لم يكن عند البلابل[2] عاقِلاً
وذرُوا معاويةَ الغويَّ وتابِعوا ... دينَ الوصيّ لتحمَدوه آجلاً

وقال عبد الرحمن بن ذُؤَيب الأسلميّ:

ألا أبلغْ معاويةَ بْنَ حَرْبٍ ... فَمَالَكَ لا تَهَشُّ إلَى الضِّرَابِ!
فإنْ تَسْلَمْ وتَبْقَ الدَّهْرَ يوماً ... نَزُرْكَ بجحفلٍ عَدَد التّراب
يقودهُم الوصيُّ إليك حَتّى ... يردّك عن ضلالٍ وارتيابِ

وقال المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب:

يَا عُصْبَةَ الموتِ صَبْراً لا يهولُكُمْ ... جيشُ ابنِ حَرْبٍ فإنّ الحقَّ قَدْ ظَهَرا
وأيقِنوا أنّ مَن أضحى يُخالفُكم ... أضحَى شَقِيًا وأمْسَى نفْسَه خَسِرا

---

(١) العضيهة: الإفك والبهتان والنميمة. اللسان، مادة (عضه).

(٢) البلابل: شدة الهم والوسواس في الصدور وحديث النفس. اللسان، مادة (بلل).

فيكم وصيّ رسول الله قائدُكُم ... وصهرُه وكتابُ الله قد نُشِرا

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب:

وصيّ رسول الله من دُونِ أهْلِهِ ... وَفَارِسُهُ إن قيل هَلْ مِنْ مُنَازِلِ!

فَدُونَكَهُ إنْ كُنْتَ تَبْغِي مهاجِراً ... أشمّ كنَصْل السَّيْفِ غَيْرَ حَلاحِلِ[1]

والأشعار التي تتضمن هذه اللفْظة كثيرة جدًا، ولكنا ذكرنا منها ها هنا بعض ما قيلَ في هذين الحِزبين، فأما ما عداهما فإنه يجلّ عن الحصر، ويعظُم عن الإحصاء والعَدّ، ولولا خوف الملالة والإضجار، لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة.

٣ - ومن خطبة له وهي المعروفة بالشقشقية

الأصل: أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ٱبنُ أبي قُحَافَةَ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ ٱلْقُطْبِ مِنَ ٱلرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي ٱلسَّيْلُ، وَلاَ يَرْقَى إِلَيَّ ٱلطَّيْرُ. فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشحاً، وَطَفِقْتُ أرتئي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فيهَا الكَبِيرُ، وَيَشِيبُ فيهَا ٱلصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فيهَا مُؤْمِنٌ حَتى يَلْقَى رَبَّه، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِي ٱلْعَيْنِ قَذًى، وَفي الحَلْقِ شَجاً. أَرَى تُرَاثي نَهْباً.

الشرح: سدلت دونها ثوباً، أي أرخيتُ، يقول: ضربتُ بيني وبينها حجاباً، فِعْلَ الزاهد فيها، الراغب عنها. وطويتُ عنها كشحاً، أي قطعتها وصرمتها، وهو مثل، قالوا: لأن مَنْ كان إلى جانبك الأيمن مائلاً فطويت كشحكَ الأيسر فقد مِلْتَ عنه، والكشح: ما بين الخاصرة والجنب. وعندي أنهم أرادوا غير ذلك، وهو أنّ من أجاع نفسَه فقد طوى كشحه، كما أنّ مَنْ أكل وشبع فقد ملأ كشحَه، فكأنه أراد أني أجعتُ نفسي عنها، ولم ألقمها. واليد الجذاء بالدال المهملة، وبالذال المعجمة، والحاء المهملة مع الذال المعجمة، كلّه بمعنى المقطوعة. والطَّخْية: قطعة من الغيم والسحاب. وقوله: «عمياء»، تأكيد الظلام الحال واسودادها، يقولون: مفازة عمياء، أي يعمى فيها الدليل. ويكدح: يسعى ويكدّ مع مشقة، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾[2]. وهاتا، بمعنى هذه، «ها» للتنبيه، و«تا» للإشارة، ومعنى «تا» ذي، وهذا أحجى من كذا أي ألیق بالحجا، وهو العقل.

(١) حَلاحل: جمع حُلاحل وهو الرجل المحلحل. اللسان، مادة (حلل).
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

وفي هذا الفصل من باب البديع في علم البيان عشرة ألفاظ:

أولها: قوله: «لقد تقمّصها»، أي جعلها كالقميص مشتملة عليه، والضمير للخلافة، ولم يذكرْها للعلم بها، كقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾[١]، وكقوله: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾[٢]، وكقول حاتم:

أمَـاوِيَّ مـا يُـغْـنِـي الـثـراءُ عَـنِ الْـفَـتَـى ... إذَا حَشْرَجَتْ يوماً وَضَاقَ بها الصَّدْرُ

وهذه اللفظة مأخوذة من كتاب الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[٣] وقول النابغة:

تَـسَرْبَـلَ سِـرْبَـالاً مِـنَ الـنَّـصْـرِ وارْتَـدى ... عَلَيْه بِعَضْبٍ في الْكَرِيهةِ قاصِلِ[٤]

الثانية: قوله: «ينحدر عني السيل»، يعني رفعة منزلته عليه السلام، كأنه في ذروة جبل أو يَفَاع مشرف، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان[٥]، قال الهذليّ:

وعَـيـطـاء يَـكْـثُـر فـيـهـا الـزلـيـلُ ... ويـنـحـدِرُ الـسَّـيْـلُ عـنـهـا انْـحـدَاراً

الثالثة: قوله عليه السلام: «ولا يَرْقَى إليّ الطير»، هذه أعظمُ في الرفعة والعلوّ من التي قبلها، لأنّ السيل ينحدر عن الرابية والهضْبة، وأما تعذّرُ رقيّ الطير فربما يكون للقِلال الشاهقة جدًا، بل ما هو أعلى من قِلال الجبال، كأنه يقول: إني لعلوّ منزلتي كمن في السماء التي يستَحيل أن يَرْقَى الطير إليها، قال أبو الطيب:

فـوْقَ الـسَّـمـاءِ وفَـوْقَ مـا طَـلَـبُـوا ... فـإذَا أرادوا غـايَـةً نَـزلُـوا

وقال حبيب:

مَـكَـارِمُ لَـجَّـتْ فـي عُـلُـوٍّ كـأنـمـا ... تـحـاوِلُ ثـأراً عِـنْـدَ بـعـضِ الْـكَـوَاكِـبِ

الرابعة: قوله: «سدلت دونها ثوباً»، قد ذكرناه.

الخامسة: قوله «وطويت عنها كشحاً» قد ذكرناه أيضاً.

السادسة: قوله: «أصُولُ بيدٍ جَذّاء»، قد ذكرناه.

السابعة: قوله: «أصْبِر على طَخْية عمياء» قد ذكرناه أيضاً.

الثامنة: قوله: «وفي العين قذى»، أي صبرت على مض-ض كما يصبر الأرمد.

التاسعة: قوله: «وفي الحلْق شَجاً» وهو ما يعترض في الحلْق. أي كما يصبر من غَصَّ بأمرٍ فهو يكابد الخَنْق.

العاشرة: قوله: «أرى تُراثي نَهْباً»، كنى عن الخلافة بالتراث، وهو الموروث من المال.

---

(١) سورة صٓ، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الرحمٰن، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

(٤) قاصل: قصاع. اللسان، مادة (قصل).

(٥) الغيطان: الأرض المنخفضة. اللسان، مادة (غوط).

فأما قوله عليه السلام: «إن محلّي منها محلّ القُطْب من الرحا»، فليس من هذا النَّمط الذي نحن فيه، ولكنه تشبيه محض، خارج من باب الاستعارة والتوسع، يقول: كما أنّ الرحا لا تدور إلا على القُطْب، ودورانُها بغير قُطْب لا ثمرة له ولا فائدة فيه، كذلك نِسْبتي إلى الخلافة، فإنها لا تقوم إلا بي، ولا يدور أمرُها إلا عليّ.

هكذا فسروه. وعندي أنه أراد أمراً آخر، وهو أني من الخلافة في الصميم، وفي وَسَطها وبُحْبُوحَتِها، كما أن القطب وسط دائرة الرحا، قال الراجز:

علـى قِلاَصٍ مثل خِيطان السَّلَمْ ... إذا قَـطَـعْـن عـلـمـاً بَـدَا عَـلَـمْ

حتى أنخناها إلى باب الحَكَمْ ... خليفةِ الحجّاج غير المتّهمْ

في سُرّة المجد وبُحْبُوحِ الكَرَمْ

وقال أمية بن أبي الصّلت لعبد الله بن جُدْعان:

فحللتَ منها بالبطا ... حِ وحَلَّ غَيْرُكَ بالظَّوَاهِرْ

وأما قوله: «يَهْرم فيها الكبير، ويَشيب فيها الصغير» فيمكن أنْ يكونَ من باب الحقائق، ويمكن أن يكون من باب المجازات والاستعارات، أما الأول فإنه يعني به طولَ مدة ولاية المتقدّمين عليه، فإنها مدة يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير.

وأما الثاني فإنه يعني بذلك صعوبةَ تلك الأيام، حتى إنّ الكبير من الناس يكاد يَهْرَم لصعوبتها، والصغير يشيب من أهوالها، كقولهم: هذا أمر يَشيب له الوليد، وإن لم يَشِب على الحقيقة.

واعلم أنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، وتقديره: ولا يرقى إليّ الطير، فطفقت أرتئي بين كذا وكذا، فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى فسدلْت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، ثم «فصبرت وفي العين قذى»، إلى آخر القصة، لأنه لا يجوز أن يسدل دونها ثوباً ويطوي عنها كشحاً، ثم يَطفِق يرتئي بين أنْ ينابذهم أو يصبر، ألا ترى أنه إذا سَدَل دونها ثوباً، وطوى عنها كشحاً فقد تركها وصرمها، ومن يتركْ ويَصرمْ لا يرتئي في المنابذة! والتقديم والتأخير طريق لاحب[1]، وسبيل مَهْيع[2] في لغة العرب، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ قَيِّمًا﴾[3]، أي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً، ولم يجعل له عوجاً، وهذا كثير.

وقوله عليه السلام: «حتى يَلْقى ربّهْ» بالوقف والإسكان، كما جاءت به الرّواية في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[4] بالوقف أيضاً.

---

(١) لاحب: الطريق الواسع المنقاد الذي لا ينقطع. اللسان، مادة (لحب).

(٢) مهيع: واضح واسع بيّن. اللسان، مادة (هيَع).

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ١، ٢. (٤) سورة البينة، الآية: ٨.

التعريف بأبي بكر

ابن أبي قحافة المشار إليه، هو أبو بكر، واسمه القديم عبد الكعبة، فسمّاه رسول الله ﷺ عبدَ الله. واختلفوا في «عَتيق»، فقيل: كان اسمَه في الجاهلية، وقيل: بل سماه به رسول الله ﷺ. واسم أبي قُحافة عثمان، وهو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيم بن مرّة بْنُ كعب بن لُؤيّ بن غالب. وأمه ابنة عمّ أبيه، وهي أمّ الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد. أسلم أبو قحافة يوم الفتح، ، جاء به ابنُه أبو بكر إلى النبيّ ﷺ، وهو شيخ كبير رأسه كالثَّغامة البيضاء، فأسلم، فقال رسول الله ﷺ: «غيّروا شَيبته»[1].

وولِي ابنُه الخلافة وهو حيّ منقطع في بيته، مكفوف عاجز عن الحركة، فسمع ضوضاءَ الناس، فقال، ما الخبر؟ فقالوا: وليَ ابنُك الخلافة، فقال: رضيتْ بنو عبد مناف بذلك؟ قالوا: نعم، قال: اللهمّ لا مانعَ لما أعطيت، ولا معطيَ لما منعتَ.

ولم يل الخلافةَ مَنْ أبوه حيّ إلا أبو بكر وأبو بكر عبد الكريم الطائع لله، وَلِيَ الأمرَ وأبوه المطيع حيّ، خلع نفَسه من الخلافة، وعهِد بها إلى ابنه. وكان المنصورُ يسمِّي عبدَ الله بن الحسن بن الحسن أبا قُحافة تهكّماً به، لأن ابنَه محمداً ادّعى الخلافة وأبوه حيّ.

ومات أبو بكر وأبو قُحافة حَيّ، فسمِع الأصوات فسأل، فقيل: مات ابنُك، فقال: رزء جليل. وتوفّي أبو قحافة في أيام عمر في سنة أربع عشرة للهجرة، وعمره سبع وتسعون سنة، وهي السنة التي توفي فيها نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم.

إن قيل: بيّنوا لنا ما عندكم في هذا الكلام؟ أليس صريحهُ دالاً على تظليم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر! فما قولُكم في ذلك؟ إن حكمتُم عليهم بذلك فقد طَعنتم فيهم، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم في المتظلّم المتكلّم عليهم!

قيل: أما الإماميّة من الشيعة فتُجري هذه الألفاظَ على ظواهرها، وتذهبُ إلى أنّ النبيّ ﷺ نصَّ على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه غُصِب حقّه.

وأما أصحابُنا رحمهم الله، فلهم أن يقولوا: إنه لما كان أميرُ المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحقّ، وعُدِل عنه إلى مَنْ لا يساويه في فضل، ولا يوازيه في جهاد وعِلْم، ولا يماثله في سُؤدد وشرف - ساغَ إطلاقُ هذه الألفاظ، وإن كان من وُسِم بالخلافة قبله عَدْلاً تقياً، وكانت

(١) ذكره الصيداوي في «معجم الشيوخ» ص (٢٢٩).

بيعتُه بيعةً صحيحة، الا ترى أنّ البلد قد يكون فيه فقيهان، أحدُهما أعلمُ من الآخر بطبقاتٍ كثيرة، فيَجعل السلطان الأنقصَ عِلْماً منهما قاضياً، فيتوجَّد الأعلم ويتألّم، وينفُث أحياناً بالشَّكْوى، ولا يكون ذلك طعناً في القاضي ولا تفسيقاً له، ولا حُكْماً منه بأنه غير صالح، بل للعدول عن الأحقّ والأوْلى! وهذا أمر مركوز في طباع البشر، ومجبول في أصل الغريزة والفطرة، فأصحابُنا رحمهم الله، لما أحسنُوا الظنّ بالصحابة - وحَمَلوا ما وقع منهم على وجه الصواب، وأنّهم نظروا إلى مصلحة الإسلام، وخافوا فتنةً لا تقتصر على ذهاب الخِلافة فقطْ، بل وتُفضي إلى ذهاب النبوّة والملّة، فعدَلوا عن الأفضل الأشرف الأحقّ، إلى فاضلٍ آخر دونه، فعقدوا له - احتاجوا إلى تأويل هذه الألفاظ الصادرة عمَّن يعتقدونه في الجلالة والرفعة قريباً من منزلة النبوة، فتأوّلوها بهذا التأويل، وحملوها على التألّم للعدول عن الأوْلى.

وليس هذا بأبْعَد من تأويل الإماميّة قولَه تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[1]، وقولهم: معنى «عصى» أنّه عَدَل عن الأوْلى، لأنَّ الأمر بترك أكل الشجرة كان أمراً على سبيل الندب، فلما تركه آدم، كان تاركاً للأفضل والأوْلى، فسمي عاصياً باعتبار مخالفة الأوْلى، وحملوا «غَوَى» على «خاب» لا على الغواية بمعنى الضلال. ومعلوم أنّ تأويلَ كلام أمير المؤمنين عليه السلام وحَمْلَه على أنه شكا من تركهم الأوْلى أحسنُ من حَمْل قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ على أنه تَرَك الأوْلى.

إن قيل: لا تخلو الصحابة إمّا أن تكون عدلت عن الأفضل لعلّة ومانع في الأفضل أو لا لمانع، فإنْ كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى، فيكون باطلاً، وإن كان لمانع - وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة، وكَوْن الناس كانوا يبغضون علياً عليه السلام ويحسدونه - فقد كان يجب أن يَعْذِرَهم أميرُ المؤمنين عليه السلام في العدول عنه، ويعلم أنّ العقد لغيره هو المصلحة للإسلام، فكيف حَسُن منه أن يشكوَهم بعد ذلك، ويتوجّد عليهم!

وأيضاً، فما معنى قوله: «فطفِقْت أرتئي بين أن أصول بيد جَذّاء»، على ما تأوّلتم به كلامه، فإنّ تارك الأوْلَى لا يُصال عليه بالحرب!

قيل: يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلِبْ على ظنه ما غَلب على ظنون الصحابة من الشَّغْب وثَوَران الفتنة، والظنونُ تختلف باختلاف الأمارات، فربّ إنسان يغلب على ظنّه أمر يغلب على ظن غيره خلافُه. وأما قوله: «أرتئي بين أنْ أصول»، فيجوز أن يكون لم يَعْنِ به صِيالَ الحرب، بل صيال الجدَل والمناظرة، يبيِّن ذلك أنّه لو كان جادلهم وأظهر ما في نفسه لهم، فربما خَصموه بأن يقولوا له: قد غلب على ظُنوننا أنّ الفساد يعظُم ويتفاقم إن وَليت

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.

الأمر، ولا يجوز مع غَلَبة ظنوننا لذلك أنْ نسلِّم الأمر إليك، فهو عليه السلام قال: طفقت أرتئي بين أن أذكر لهم فضائلي عليهم، وأحاجّهم بها، فيجيبوني بهذا الضّرب من الجواب - الذي تصير حُجّتي به جَذّاء مقطوعة، ولا قدرةَ لي على تشييدها ونصرتها - وبين أنْ أصبِر على ما مُنيت به، ودُفِعْت إليه.

إن قيل: إذا كان عليه السلام لم يغلبْ على ظنّه وجودُ العلة والمانع فيه، وقد استراب الصحابةَ وشكاهم لعدُولهم عن الأفضل الذي لا علّة فيه عنده فقد سلّمتُم أنّه ظَلَم الصحابة، ونسبهم إلى غصب حَقِّه، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمَهم لمخالفة النص؟ وكيف هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النصّ، ووقعتم في نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأوْلى من غير علّة في الأوْلى، ومعلوم أن مخافة الأوْلى من غير علة في الأوْلى كتارك النصّ، لأنّ العقد في كلا الموضعين يكون فاسداً!

قيل: الفرق بين الأمرين ظاهر، لأنه عليه السلام لو نَسَبهم إلى مخالفة النصّ لوجب وجودُ النصّ، ولو كان النصُّ موجوداً لكانوا فُسّاقاً أو كفاراً لمخالفته، وأمّا إذا نَسَبهم إلى ترك الأوْلى من غيرِ علّة في الأوْلى، فقد نسبهم إلى أمر يدّعون فيه خلاف ما يدّعي عليه السلام، وأحد الأمرين لازم، وهو إما أن يكون ظنهم صحيحاً أو غير صحيح، فإن كان ظنّهم هو الصحيح فلا كلام في المسألة، وإن لم يكن ظنُّهم صحيحاً كانوا كالمجتهد إذا ظن وأخطأ فإنه معذور، ومخالفةُ النصّ أمرٌ خارج عن هذا الباب، لأنّ مخالِفَه غير معذور بحال، فافترق المحملان.

تأمير أسامة بن زيد

لما مرض رسول الله صلى الله عليه وآله مرضَ الموت، دعا أسامةَ بن زيد بن حارثة، فقال: سرْ إلى مقتَل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد ولّيتُك على هذا الجيش، وإن أظفرَك الله بالعدوّ، فأقلل اللّبْث، وبثّ العيون، وقدّم الطلائع. فلم يبقَ أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان في ذلك الجيش، منهم أبو بكر وعُمر، فتكلّم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلامَ على جِلّة المهاجرين والأنصار! فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك، وخرجَ عاصباً رأسه، فصعِد المنبر وعليه قَطيفة فقال: «أيها الناس، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة! لئن طعنتم في تأميري أسامة، فقد طعنتم في تأميري أباه مِنْ قبله، وأيمُ الله إن كان لخليقا بالإمارة، وابنُه من بعده لخليق بها، وإنهما لمن أحبِّ الناس إليّ، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم». ثم نزل ودخل بيته، وجاء المسلمون يودّعون رسول الله صلى الله عليه وآله، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجُرْف.

وثَقِل رسول الله صلى الله عليه وآله، واشتدّ ما يجده، فأرسل بعضَ نسائه إلى أسامة وبعض مَنْ كان معه، يُعلمونهم ذلك، فدخل أسامة من معسكره - والنبيّ صلى الله عليه وآله مغمور، وهو اليوم الذي

لَدّوهُ[١] فيه - فتطأطأ أسامة عليه فقبّله، ورسول الله ﷺ قد أسكت فهو لا يتكلّم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة، كالداعي له، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره، والتوجّه لما بعثه فيه، فرجع أسامة إلى عسكره. ثم أرسل نساء رسول الله ﷺ إلى أسامة يأمُرْنه بالدخول، ويقُلْن إن رسول الله ﷺ قد أصبح بارئاً، فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول فوجَد رسول الله ﷺ مُفيقاً، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ، وقال: «اغدُ على بركة الله»، وجعل يقول: «أنفذوا بعث أسامة»[٢]، ويكرّر ذلك، فودّع رسول الله ﷺ، وخرج ومعه أبو بكر وعمر، فلما ركب جاءه رسول أمّ أيمن، فقال: إن رسول الله ﷺ يموت، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فانتهوْا إلى رسول الله ﷺ حين زالت الشمس من هذا اليوم، وهو يوم الاثنين، وقد مات واللّواء مع بُرَيْدة بن الحُصَيب، فدخل باللّواء فركَزه عند باب رسول الله ﷺ وهو مُغْلق، وعليّ عليه السلام وبعض بني هاشم مشتغلون بإعداد جهازه وغَسْله، فقال العباس لعليّ - وهما في الدار: امْدُدْ يدَك أبايْعك فيقول الناس: عمّ رسول الله بايع ابنَ عمّ رسول الله، فلا يختلف عليك اثنان، فقال له: أوَ يطمعُ يا عمّ فيها طامع غيري! قال: ستعلم، فلم يلبثا أنْ جاءتهما الأخبار بأنّ الأنصار أقعدتْ سعداً لتُبايَعه، وأنّ عمر جاء بأبي بكر فبايَعه، وسبق الأنصارَ البَيْعة، فندم عليٌّ عليه السلام على تفريطه في أمر البيعة وتقاعده عنها، وأنشده العباس قول دُرَيد:

أَمَرْتُهُمُ أمري بمُنعرَجِ اللِّوَى ... فلم يستبينُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الغدِ[٣]

وتزعُم الشيعةُ أنّ رسول الله ﷺ كان يعلَمُ موته، وأنه سيَّر أبا بكر وعمر في بعث أسامة لتخلُوَ دارُ الهجرة منهما، فيصفُوَ الأمرُ لعليّ عليه السلام، ويبايعَه من تَخَلّف من المسلمين بالمدينة على سكونٍ وطمأنينة، فإذا جاءهما الخبر بموت رسول الله ﷺ وبيعة الناس لعليّ عليه السلام بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعدَ، لأنّ العرب كانت تلتزم بإتمام تلك البيْعة، ويُحتاجُ في نقضها إلى حروب شديدة، فلم يتمّ له ما قَدّر، وتثاقل أسامة بالجيش أياماً، مع شدّة حثّ رسول الله ﷺ على نفوذه وخروجه بالجيش، حتى مات ﷺ وهما بالمدينة، فسبقا عليًّا إلى البيعة وجَرى ما جرى.

وهذا عندي غير منقدح، لأنه إن كان ﷺ يعلم موتَه، فهو أيضاً يعلم أنّ أبا بكر سيلي الخلافة، وما يعلمه لا يحترِس منه، وإنما يتمّ هذا ويصحّ إذا فرضنا أنه عليه السلام كان يظنّ موتَه ولا يعلمه حقيقة، ويظنّ أن أبا بكر وعمر يتمالآن على ابن عمه، ويخاف وقوع ذلك منهما ولا

---

(١) لدوه: أي سقوه الدواء في أحد شقي فمه. اللسان، مادة (لدد).
(٢) أخرجه أسامة في «مسنده» (١).
(٣) أخرجه السيد مرتضى العسكري في أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ٧٨.

يعلمه حقيقة، فيجوز إن كانت الحال هكذا أن ينقدح هذا التوهّم، ويتطرق هذا الظنّ، كالواحد منا له ولدان، يخاف من أحدهما أن يتغلّب بعد موته على جميع ماله، ولا يوصِل أخاه إلى شيء من حقه، فإنه قد يخطر له عند مرضه الذي يتخوّف أن يموتَ فيه أن يأمر الولد المخوف جانبه بالسفر إلى بلد بعيد في تجارة يسلمها إليه، يجعل ذلك طريقاً إلى دفع تغلّبه على الولد الآخر.

الأصل: حَتَّىٰ مَضَىٰ ٱلْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَىٰ بِهَا إِلَىٰ ٱبْنِ ٱلْخَطَّابِ بَعْدَهُ.

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَاعَجَبا! بَيْنَاهُوَ يَسْتَقِيلُها فِي حَيَاتِهِ، إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ! لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةٍ خَشْنَاءَ يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ ٱلْعِثَارُ فِيهَا، وَٱلاعْتِذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ ٱلنَّاسُ لَعَمْرُ ٱللهِ بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّنٍ وَاعْتِرَاضٍ، فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ ٱلْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ ٱلْمِحْنَةِ.

الشرح: مضى لسبيله: مات، والسّبيل الطريق، وتقديره: مضى على سبيله، وتجيء اللاّم بمعنى «على» كقوله:

فَخَرَّ صَرِيعاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ

وقوله: فأدلَى بها» من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾(١) أي تدفعوها إليهم رِشْوَة، وأصله من أدليت الدّلو في البئر، أرسلتَها.

فإن قلت: فإن أبا بكر إنّما دفعها إلى عمر حين مات، ولا معنى للرّشوة عند الموت! قلت: لما كان عليه السلام يَرَى أنّ العدول بها عنه إلى غيره إخراج لها إلى غير جهة الاستحقاق شبّه ذلك بإدلاء الإنسان بمالِه إلى الحاكم، فإنه إخراج للمال إلى غير وجهه، فكان ذلك من باب الاستعارة.

أبو بكر يعهد بالخلافة إلى عمر

وابن الخطاب هو أبو حفص عُمَر الفاروق، وأبوه الخطّاب بن نُفَيْل بن عبد العُزّى بن رياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزَاح بن عديّ بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب. وأم عمر حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

لما احتُضر أبو بكر، قال للكاتب اكتب: هذا ما عهد عبد الله بن عثمان، آخِرَ عهده بالدنيا وأوّلَ عهده بالآخرة، في الساعة التي يبرّ فيها الفاجر، ويُسْلِم فيها الكافر. ثم أغمي عليه فكتب الكاتب: عمر بْنُ الخطاب، ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ ما كتبت، فقرأ وذكر اسم عمر، فقال: أنّى لك هذا! قال: ما كنت لتعدُوَه، فقال: أصبت، ثم قال: أتمّ كتابك، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب: وذلك حيث أجال رأيه وأعمل فكره، فرأى أنّ هذا الأمر لا يصلح آخرهُ إلا بما يصلح به أوله، ولا يحتمله إلا أفضلُ العرب مقدرة، وأملَكُهم لنفسه، وأشدّهم في حال الشدة، وأسلسهُم في حال اللين، وأعلمهم برأي ذوي الرأي، لا يتشاغل بما لا يعنيه، ولا يحزَن لما لم ينزل به، ولا يستحيي من التعلّم، ولا يتحيّر عند البديهة، قويّ على الأمور، لا يجوز بشيء منها حدّهِ عدواناً ولا تقصيراً، يرصدُ لما هو آت عَتاده من الحذر.

فلما فرغ من الكتاب، دخل عليه قوم من الصحابة، منهم طلحة، فقال له: ما أنت قائل لربّك غداً، وقد ولّيْتَ علينا فظًّا غليظاً، تفرَق منه النفوس، وتنفضّ عنه القلوب!

فقال أبو بكر: أسندوني - وكان مستلقياً - فأسندوه، فقال لطلحة: أبالله تخوّفني! إذا قال لي ذلك غداً قلت له: ولّيتُ عليهم خيرَ أهلك.

ويقال: أصدقُ الناسِ فِراسة ثلاثة: العزيز في قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(١)، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها في موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾(٢)، وأبو بكر في عمر.

وروَى كثير من الناس أنّ أبا بكر لما نَزَل به الموت دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبِرْني عن عمر، فقال: إنه أفضلُ من رأيك [فيه] إلا أنّ فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذاك لأنّه يراني رقيقاً، ولو قد أفضَى الأمرُ إليه لترك كثيراً مما هو عليه، وقد رمقتُه إذا أنا غضبتُ على رجل أراني الرِّضا عنه، وإذا لنتُ له أراني الشدة عليه. ثم دعا عثمان بن عَفّان، فقال: أخبِرْني عن عمر، فقال: سريرتُه خير من علانيته، وليس فينا مثله. فقال لهما: لا تذكُرا مما قلتُ لكما شيئاً، ولو تركتُ عمر لما عدوتُك يا عثمان، والخيرة لك ألاّ تلِيَ من أمورهم شيئاً، ولوددت أني كنت من أموركم خِلْواً، وكنت فيمن مضى من سَلَفِكم. ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر، فقال: إنه بلغني أنّك يا خليفةَ رسول الله استخلفتَ على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت غداً لاقٍ ربك، فيسألك عن رعيتك! فقال

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة القصص، الآية: ٢٦.

أبو بكر: أجلسوني، ثم قال: أبالله تخوفني! إذا لقيتُ ربي فسألني، قلتُ: استخلفتُ عليهم خَيْرَ أهلك. فقال طلحة: أعمر خيرُ الناس يا خليفةَ رسول الله! فاشتدّ غضبه، وقال: إي والله، هو خيرهم وأنت شرّهم. أما والله لو ولّيتُك لجعلتَ أنفك في قفَاك، ولرفعتَ نفسك فوق قدرها، حتى يكون الله هو الذي يضعها! أتيتَني وقد دَلَكت عينك، تريد أن تفتنني عن ديني، وتُزيلَني عن رأيي! قُمْ لا أقام الله رِجْلَيْك! أما والله لئن عِشتُ فُواق ناقة[١]، وبلغني أنك غمصتَه فيها، أو ذكرته بسوء، لألحقنّك بمحمضات قُنّة[٢]، حيث كنتم تُسقَون ولا تَرْوَوْن، وتَرْعَوْن ولا تشبعون، وأنتم بذلك بَجِحون راضون! فقام طلحة فخرج[٣].

أحضر أبو بكر عثمان - وهو يجود بنفسه - فأمره أن يكتب عهداً، وقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد عبد الله بن عثمان إلى المسلمين. أمّا بعد، ثم أغمي عليه، وكتب عثمان: قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب. وأفاق أبو بكر، فقال: اقرأ فقرأه، فكبّر أبو بكر، وسرّ، وقال: أراك خِفْتَ أن يختلف الناس إن متّ في غشيتي! قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله. ثم أتمَّ العهد، وأمر أن يُقرأ على الناس فقرىء عليهم. ثم أوصى عمر، فقال له: إنّ لله حقًّا بالليل لا يقبَلُه في النهار، وحقًّا في النهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبلُ نافلة ما لم تؤدَّ الفريضة، وإنما ثقلت موازين مَن اتّبع الحق مع ثقله عليه، وإنما خفّت موازين من اتّبع الباطل لخفّته عليه، إنما أنزِلت آية الرخاء مع آية الشدّة، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنّى فيها على الله ما ليس له، ولئلاّ يرهب رهبة يلقي فيها بيده، فإن حفظتَ وصيتي، فلا يكن غائبٌ أحبّ إليك من الموت ولستَ معجزَه.

ثم توفي أبو بكر.

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه، فقال: إني لأرجو أن أموت في يومي هذا فلا تُمْسِينَّ حتى تندب الناس مع المثنّى بن حارثة، وإن تأخرتُ إلى الليل فلا تصبِحَنَّ حتى تندب الناس معه، ولا تَشغلنّكم مصيبة عن دينكم، وقد رأيتَني متوفّى رسول الله ﷺ كيف صنعت.

وتوفِّيَ أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة.

---

(١) فواق الناقة: ذلك أنها تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب. اللسان، مادة (فوق).
(٢) القنة: ضرب من الأودية. أو الجبل الصغير السهل. اللسان، مادة (قنن).
(٣) رواه المجلسي في بحار الأنوار: ٣٠/ ٥٢١، والمرندي في مجمع النورين: ١٩٨.

وأما البيت الذي تمثل به عليه السلام، فإنه للأعشى الكبير، أعشى قيس. وهو أبو بصير ميمون بن قيس بن جَنْدل، من القصيدة التي قالها في منافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل، وأولها:

عَلْقَمُ ما أنتَ إلى عامرِ ... الناقضِ الأوْتارِ والوَاتِرِ

يقول فيها:

وَقَدْ أُسَلِّي الهمَّ إذْ يَعْتَرِي ... بجَسْرَةٍ دَوْسَرَةٍ عَاقِرِ[(١)]

زَيَّافةٍ بالرَّحْلِ خَطَّارَةٍ ... تُلْوِي بِشَرْخَيْ مَيْسَةٍ قاتِرِ

شرْخا الرَّحل: مقدّمه ومؤخره، والمَيْس: شجر يتخذ منه الرّحال، ورحل قاتر: جيّد الوقوع على ظهر البعير.

شَتَّانَ ما يَوْمي عَلَى كُورِها ... وَيومُ حَيَّانَ أخي جَابِرِ

أرْمي بِهَا البَيْدَاء إذ هَجَّرتْ ... وأنت بين القَرْوِ والعاصِرِ

في مِجْدَلٍ شُيِّدَ بُنْيانُه ... يَزِلّ عنهُ ظُفُرُ الطَّائِرِ

تقول: شتّان ما هما، وشتّان هما، ولا يجوز: شتّان ما بينهما، إلا على قول ضعيف. وشتّان: أصله شتت، كوشكّان ذا خروجاً، من وَشُك. وحيّان وجابر ابنا السَّمين الحنفيّان، وكان حيّان صاحبَ شراب ومعاقرة خمر، وكان نديم الأعشى، وكان أخوه جابر أصغر سنًّا منه، فيقال: إن حيّان قال للأعشى: نسبتني إلى أخي، وهو أصغرُ سِنًّا منّي! فقال: إنّ الرويّ اضطرني إلى ذلك، فقال: والله لا نازعتُك كأساً أبداً ما عشت. يقول: شتان يومي وأنا في الهاجرة والرمضاء، أسيرُ على كور هذه الناقة ويوم حَيّان وهو في سَكْرة الشراب، ناعم البال، مرفّه من الأكدار والمشاقّ. والقَرْو: شبه حوض، يتّخذ من جِذْع أو من شجر يُنْبذ فيه، والعاصِر: الذي يعتصر العنب. والمجْدَل: الحِصْن المنيع.

وشبيه بهذا المعنى قول الفضل بن الربيع في أيام فتنة الأمين يذكر حاله وحال أخيه المأمون: إنما نحن شَعب من أصل، إن قَوِيَ قوينا، وإن ضَعُف ضعفنا، وإنَّ هذا الرجل قد ألقي بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء، ويُقْدِم على الرؤيا، قد أمكن أهلَ الخسارة واللهو من سمعه، فهم يمنُّونه الظفر، ويَعدونه عُقَب الأيام، والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل، ينام نوم الظَّرِبان، وينتبه انتباه الذئب، هَمّه بطنُه وفرْجه، لا يفكّر في زوال نعمة، ولا يُرَوّى في إمضاء رأي ولا مكيدة قد شمّر له عبد الله عن ساقه، وفوّق إليه أسدَّ سِهامه، يرميه

---

(١) الدوسرة: الضخمة الشديدة. اللسان، مادة (دسر).

على بعد الدار بالحتف النافذ، والموت القاصد، قد عَبَّأ له المنايا على متون الخيل، وناط له البلايا بأسنّة الرماح وشِفار السيوف، فهو كما قال الشاعر:

لشتّان ما بيني وبين ابن خالد | أميّة في الرزق الذي الله يقسِمُ
يقارع أتراك ابن خاقانَ ليلَهُ | إلى أن يَرَى الإصباحَ لا يتلعثم
وآخذها حمراء كالمسك ريحُها | لها أرجٌ مِنْ دَنِّها يُتَنَسَّمُ
فيُضبح من طُول الطِّراد وَجِسْمُهُ | نحيلٌ وأُضحِي في النَّعيم أُصَمِّمُ[1]

وأمية المذكور في هذا الشعر، هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أميّة بن عبد شمس، كان والي خراسان، وحارب الترك. والشعر للبَعِيث.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: شتّان بين يومي في الخلافة مع ما انتقض علَيّ من الأمر ومُنِيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة، وبين يوم عمر حيثُ وليها على قاعدة ممهّدة، وأركان ثابتة، وسكون شامل، فانتظم أمرُه، واطرد حاله، وسكنت أيامه.

قوله عليه السلام: «فيا عجباً» أصله «فياعجبي»، كقولك: يا غلامي، ثم قلبوا الياء ألفاً، فقالوا: يا عجباً، كقولهم: يا غلاماً، فإن وقفت وقفت على هاء السكت، فقلت: يا عجباه! ويا غلاماه! قال: العجب منه وهو يستقيل المسلمين من الخلافة أيام حياته، فيقول: أقيلوني ثم يعقدها عند وفاته لآخر، وهذا يناقض الزهد فيها والاستقالة منها. وقال شاعر من شعراء الشِّيعة:

حَمَلُوها يومَ السَّقيفَةِ أوزا | راً تخفُّ الجبال وَهيَ ثِقَالُ
ثم جاؤوا من بَعْدِهَا يستقيلو | نَ، وهيهاتَ عثرة لا تقالُ!

وقد اختلف الرواة في هذه اللفظة، فكثير من الناس رواها: «أقيلوني فلست بخيركم»، ومن الناس من أنكر هذه اللفظة ولم يروها، وإنما روى قوله: «وليتكم ولست بخيركم». واحتجّ بذلك من لم يشترط الأفضليّة في الإمامة. ومن رواها اعتذر لأبي بكر فقال: إنما قال: أقيلوني، ليثوّر ما في نفوس الناس من بيعته، ويَخْبُر ما عندهم من ولايته، فيعلم مريدهم وكارههم، ومحبّهم ومبغضهم، فلما رأى النفوسَ إليه ساكنة، والقلوب لبيعته مذعنة، استمرّ على إمارته، وحكَم حكم الخلفاء في رعيته، ولم يكن مُنْكَراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته.

قالوا: وقد جرى مثلُ ذلك لعليٍّ عليه السلام، فإنه قال للناس بعد قتل عثمان: دَعوني والتمسوا

---

(١) الطراد: طراد الفرسان: أن يحمل بعضهم على بعض في الحرب وغيرها. اللسان، مادة (طرد).

غيري، فأنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً. وقال لهم: اتركوني، فأنا كأحدكم، بل أنا أسْمَعُكم وأطْوَعُكُمْ لِمَنْ وليتموه أمركم[1]. فأبوا عليه وبايعوه، فكرهها أوّلاً، ثم عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته.

قالت الإمامية: هذا غير لازم، والفرق بين الموضعين ظاهر، لأنّ عليًّا عليه السلام لم يقل: إنّي لا أصلح، ولكنه كره الفتنة، وأبو بكر قال كلاماً معناه: إني لا أصلح لها، لقوله: «لست بخيركم»، ومَنْ نفى عن نفسه صلاحيّته للإمامة، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره.

واعلم أنّ الكلام في هذا الموضع مبنيّ على أنّ الأفضلية هل هي شرط في الإمامة أم لا؟ وقد تكلّمنا في شرح «الغرر» لشيخنا أبي الحسين رحمه الله تعالى في هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب.

وقوله عليه السلام: «الشدّ ما تشطّرا ضرعيها»، شدّ، أصله «شدد»، كقولك: حبّ في «حبّذا» أصله حَبُب، ومعنى «شدّ» صار شديداً جدًّا، ومعنى «حبّ» صار حبيباً، قال البحتريّ:

شَدّ ما أغريَتْ ظَلُومُ بهَجْرِي ... بَعْدَ وَجْدِي بها وَغُلَّةِ صَدْرِي

وللناقة أربعة أخلاف: خِلْفان قادمانِ وخِلْفان آخران، وكلّ اثنين منهما شطر. وتَشطّراً ضَرْعيها اقتسما فائدتهما ونفعهما. والضمير للخلافة، وسَمّى القادمَيْن معاً ضَرْعاً، وسَمَّى الآخرين مَعاً ضَرْعاً لمّا كانا - لتجاورهما، ولكونهما لا يُحْلَبَان إلاّ معاً - كشيء واحد.

قوله عليه السلام: «فجعلها في حَوزَة خشناء»، أي في جهة صعبة المرام، شديدة الشَّكيمة. والكَلْم: الجرح.

وقوله: «يغلُظ»، من الناس مَنْ قال: كيف قال: «يغلظ كَلْمها»، والكَلْم لا يوصف بالغِلَظ! وهذا قلّة فَهْم بالفصاحة، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب بالغِلظ، فقال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[2] أي متضاعف، لأن الغليظ من الأجسام هو ما كَثُف وجسم، فكان أجزاؤه وجواهره متضاعفة، فلما كان العذاب - أعاذنا الله منه - متضاعفاً، سُمِّيَ غليظاً، وكذلك الجُرح إذا أمعن وعَمُق، فكأنّه قد تضاعف وصار جُروحاً، فسمي غليظاً.

إن قيل: قد قال عليه السلام «في حَوْزَةٍ خَشْناء» فوصفها بالخشونة، فكيف أعاد ذكر الخشونة ثانية فقال: «يَخْشُنُ مَسُّها»!

قيل: الاعتبار مختلف، لأن مراده بقوله: «في حوزة خشناء» أي لا يُنال ما عندها ولا يرام، يقال: إنّ فلاناً لخشِن الجانب ووعر الجانب، ومراده بقوله: «يَخشُنُ مَسُّها»، أي تؤذي

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٤٥٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٨.

وتضرّ وتنكىء[1] مَنْ يمسّها، يصف جفاء أخلاق الوالي المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته.

قوله عليه السلام: «ويكثر العِثار فيها، والاعتذار منها»، يقول: ليست هذه الجهة جَدَداً مَهْيَعاً، بل هي كطريق كثير الحجارة، لا يزال الماشي فيه عاثراً.

وأما «منها» في قوله عليه السلام: «والاعتذار منها»، فيمكن أن تكون «مِنْ» على أصلها، يعني أنّ عمر كان كثيراً ما يحكُم بالأمر ثم ينقضُه، ويفتي بالفُتْيا ثم يرجع عنها، ويعتذر مما أفتى به أولاً. ويمكن أن تكون «من» ها هنا للتعليل والسَّببية، أي ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها، قال:

أمِنْ رَسْمِ دارٍ مَرْبَعٌ وَمَصِيفُ لِعَيْنَيْك مِنْ مَاءِ الشُّؤونِ وَكِيفُ![2]

أي لأجل أنْ رسم المربع والمصيف هذه الدار وكَف دمعُ عينيك!

والصَّعْبة من النوق: ما لم تُرْكَبُ ولم تُرَضْ، إنْ أشنَق لها راكبها بالزمام خرم أنفها، وإن أسلس زمامها تقحّم في المهالك فألقته في مَهْواة أو ماء أو نار، أو نَدّت فلم تقف حتى تُردِيَه عنها فَهلك.

وأشنَقَ الرَّجلُ ناقَته، إذا كفّها بالزمام، وهو راكبها، واللغة المشهورة شَنَق، ثلاثية. وفي الحديث: إنّ طلحةَ أنشِد قصيدةً فما زال شانقاً راحلته، حتى كتبت له. وأشْنَق البعيرُ نفسه، إذا رفع رأسه، يتعدّى ولا يتعدى، وأصله من الشِّناق، وهو خيطٌ يُشَدُّ به فَمُ القِرْبة.

وقال الرضيُّ أبو الحسن رحمه الله تعالى: إنما قال عليه السلام: أشنَقَ لها، ولم يقل: «أشنقها»، لأنه جعل ذلك في مقابلة قوله: «أسلس لها» وهذا حسن، فإنّهم إذا قصدوا الازدواج في الخطابة فعلوا مثل هذا، قالوا: الغدايا والعشايا، والأصل الغَدوَات جمع غُدوة. وقال صلى الله عليه وآله: «ارجِعْن مأزورات غير مأجورات»[3]، وأصله «موزورات» بالواو، لأنه من الوِزْر.

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى: ومما يشهد على أنّ أشْنَقَ بمعنى «شَنَق» قولُ عديّ بن زيد العِبادي:

سَاءَهَا ما لها تَبيَّنَ في الأيْدِي وإشْنَاقُها إلى الأعنَاقِ

قلت: «تبيّنَ» في هذا البيت فعل ماض تَبيَّن تبيّناً يتبينُ، واللام في «لها» تتعلق بـ «تَبيّنَ». يقول: ظهر لها ما في أيدينا فساءها.

وهذا البيت من قصيدة أولها:

---

(١) نكئت: أي أُصِبتَ بوجع. اللسان، مادة (نكأ).
(٢) وكف: أي سال. اللسان، مادة (وكف).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٤/ ٧٧.

لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ غيرِ وَجْهِ المسبَّحِ الخَلاقِ

وقد كان زارته بنيّة له صغيرة اسمها هند، وهو في الحبس - حبس النعمان - ويداه مغلولتان إلى عنقه، فأنكرت ذلك، وقالت: ما هذا الذي في يدك وعنقك يا أبت! وبكت، فقال هذا الشعر. وقبل هذا البيت:

وَلَقَدْ غَمَّنِي زِيَارَةُ ذِي قُرْ بَى صَغِيرٍ لِقُرْبِنَا مُشْتَاقِ

سَاءَهَا مَا لَهَا تَبَيَّن في الأيْـ ـدِي وإشْنَاقُهَا إلى الأعْنَاقِ

أي ساءها ما ظهر لها من ذلك. ويروى: «ساءها ما بنا تبيّن» أي ما بان وظهر، ويروى «ما بنا تبيّنُ» بالرفع على أنّه مضارع.

ويروى «إشناقُها» بالرفع عطفاً على «ما»، التي هي بمعنى الذي، وهي فاعلة. ويروى بالجرّ عطفاً على «الأيدي».

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى أيضاً: ويروى أن رسول الله ﷺ خطب الناس وهو على ناقة قد شَنَق لها وهي تَقْصَعُ بجِرّتها[1].

قلت: الجِرّة: ما يعلو من الجوفِ وتجترّه الإبل، والدِّرة: ما يسفل. وتَقْصَعُ بها: تدفع، وقد كان للرضيّ رحمه الله تعالى إذا كانت الرواية قد وردت هكذا أن يحتجّ بها على جواز «أشنق لها»، فإن الفعل في الخبر قد عُدّيَ باللام لا بنفسه.

قوله عليه السلام: «فمنِيَ النَّاسُ» أي بُلِيَ الناس، قال:

مُنِيتُ بِزَمَّرْدَةٍ كالعَصَا

والخَبْط: السَّيْر على غير جَادّة، والشِّماس: النِّفار. والتلوّن: التبدُّل. والاعتراض: السَّيرُ لا على خط مستقيم، كأنّه يسير عَرَضاً في غضون سيره طولاً، وإنما يفعلُ ذلك البعير الجامح الخابط. وبعيرٌ عُرُضِيّ: يعترض في مسيره، لأنه لم يتمّ رياضته، وفي فلان عُرْضِيّة، أي عَجْرفة وصُعوبة.

نبذة من أخبار عمر بن الخطاب

وكان عمر بن الخطّاب صعباً، عظيم الهيْبة شديد السياسة، لا يُحابِي أحداً، ولا يراقب شريفاً ولا مشروفاً. وكان أكابر الصحابة يتحامَوْن ويتفادَوْن من لقائه، كان أبو سفيان بن حَرْب في مجلس عمر، وهناك زياد ابن سُمَيّة وكثير من الصحابة، فتكلّم زياد فأحسن - وهو يومئذ غلام - فقال عليّ عليه السلام - وكان حاضراً - لأبي سفيان وهو إلى جانبه: لله هذا الغلام، لو كان

(١) القصع: شدة المضغ. اللسان، مادة (قصع).

قرشيًا لساق العرب بعصاه! فقال له أبو سفيان: أما والله لو عرفتَ أباه لعرفت أنه من خير أهلك، قال: ومَنْ أبوه؟ قال: أنا وضعتُه والله في رَحِم أمّه، فقال عليّ عليه السلام: فما يمنعُك من استلحاقه؟ قال: أخاف هذا العَيْر الجالس أن يخرّق عليّ إهابي! وقيل لابن عباس لما أظهر قوله في العَوْل[1] بعد موت عمر - ولم يكن قبل يظهره: هلاَّ قلت هذا وعمرُ حيّ؟ قال: هِبْته، وكان امرأ مهاباً.

واستدعَى عمر امرأة ليسألها عن أمر - وكانت حاملاً - فلِشدّة هيبته ألقت ما في بطنها، فأجهضت به جنيناً ميتاً، فاستفتى عمر أكابر الصحابة في ذلك، فقالوا: لا شيء عليك، إنما أنت مؤدِّب، فقال له عليّ عليه السلام: إن كانوا راقَبوك فقد غَشُّوك، وإن كان هذا جُهْد رأيهم فقد أخطؤوا، عليك غُرّة - يعني عتق رقبة - فرجع عمرُ والصحابة إلى قوله[2].

وعمر هو الذي شدّ بَيْعَة أبي بكر ووقَم[3] المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لمّا جرّده، ودفع في صدر المقداد، ووطيء في السقيفة سَعْد بن عبادة، وقال: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً! وحطّم أنف الحُباب بن المنذر الذي قال يوم السَّقيفة: أنا جُذَيلُها المحكَّك[4]، وعُذَيْقُها[5] المرجّب. وتوعَّد مَنْ لجأ إلى دار فاطمة عليها السلام من الهاشميين، وأخرجهم منها. ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمْر، ولا قامت له قائمة.

وهو الذي ساسَ العمال وأخذ أموالَهم في خلافته، وذلك من أحسن السياسات.

وروى الزبيرُ بن بكار، قال: لما قلّد عمر عمرو بن العاص مصر، بلغَه أنّه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت، فكتب إليه، أما بعد: فقد ظهرَ لي مِنْ مالك ما لم يكن في رزقك، ولا كان لك مال قَبْل أنْ أستعمِلَك، فأنّى لك هذا! فوالله لو لم يهمّني في ذات الله إلا من اختان في مال الله، لكثر همّي، وانتثر أمري، ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منك، ولكنّي قلّدتك رجاء غنائك، فاكتب إليّ من أين لك هذا المال، وعجِّلْ.

فكتب إليه عمرو: أمّا بعد، فقد فهمت كتابَ أمير المؤمنين، فأمّا ما ظهر لي من مال، فإنا قدِمْنا بلاداً رخيصةَ الأسعار، كثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا في الفضول التي اتصل بأمير المؤمنين نبؤها، ووالله لو كانت خيانتُك حلالاً ما خنتُك، وقد ائتمنتَني، فإنّ لنا أحساباً إذا

---

(١) الميل في الحكم إلى الجور. اللسان، مادة (عول).
(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٦/ ١١٩.
(٣) وقم: وقمه: أذله وقهره. وقيل: رده أقبح الرد. اللسان، مادة (وقم).
(٤) الجذيل المحكك: عود ينصب للإبل الجربى تحتك به فتشتفي. اللسان، مادة (جذل).
(٥) عذيقها: العطق: النخلة بحملها، عُذَيق: تصغير لها وهو تصغير تعظيم. اللسان، مادة (عذق).

رجعنا إليها أغنتْنا عن خيانتك. وذكرت أنّ عندك من المهاجرين الأولين مَنْ هو خير منّي، فإذا كان ذاك فوالله ما دَقَقْتُ لك يا أمير المؤمنين باباً، ولا فتحت لك قُفْلاً.

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني لستُ من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام في شيء، ولكنّكم معشرَ الأمراء قعدتم على عيون الأموال، ولن تعدِموا عُذْراً، وإنما تأكلون النّار، وتتعجّلون العار، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة، فسلِّم إليه شطر مالك.

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاماً ودعاه فلم يأكل، وقال: هذه تقدمة الشرّ، ولو جئتني بطعام الضيف لأكلت، فنحِّ عنّي طعامك، وأحضِرْ لي مالك، فأحضره، فأخذ شَطْرَه. فلما رأى عمرو كثرةَ ما أخذ منه، قال: لعن الله زماناً صرتُ فيه عاملاً لعمر، والله لقد رأيتُ عمر وأباه على كلّ واحد منهما عباءة قَطَوانيّة لا تجاوز مأبِض ركبتيه، وعلى عنقه حُزْمة حَطب، والعاص بن وائل في مُزَرَّراتِ الدِّيباج. فقال محمد: إيهاً عنك يا عمرو! فعمرُ والله خير منك، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار، ولولا الإسلام لألفِيت معتلقاً شاة، يسرّك غزرها، ويسوءُك بكُوؤها. قال: صدقت فاكتم عليّ، قال: أفعل.

قال الربيع بن زياد الحارثيّ: كنتُ عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحْرين فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله، وأنْ يستخلفوا جميعاً. فلما قدِمْنا المدينةَ أتيت يَرْفأ حاجب عمر، فقلت: يا يرفأ، مسترشد وابنُ سبيل! أيّ الهيآت أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عمّاله؟ فأومأ إليّ بالخُشونة، فاتخذت خُفّيْن مُطارَقين، ولبست جُبّة صوف ولُثْتُ عمامتي على رأسي، ثم دخلنا على عمر فصفّنا بين يديه، فصعّد بصره فينا وصوّب، فلم تأخذْ عينُه أحداً غيري، فدَعاني، فقال: مَنْ أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثيّ، قال: وما تتولّى من أعمالنا؟ قلت: البحرين، قال: كم تُرزَق؟ قلت: ألفاً، قال: كثير، فما تصنع به؟ قلت: أتقوّت منه شيئاً، وأعود بباقيه على أقاربَ لي، فما فضلَ منهم فعلى فقراء المسلمين، قال: لا بأس، ارجع إلى موضعك. فرجعت إلى موضعي مِن الصفّ، فصعّد فينا وصوّب، فلم تقع عينُه إلا عليّ فدعاني، فقال: كم سنُّك؟ قلت: خمس وأربعون، فقال: الآن حيث استحْكمت! ثم دعا بالطعام، وأصحابي حديثٌ عهدهم بلين العيش، وقد تجوّعت له، فأتى بخبز يابس وأكسار بعير، فجعل أصحابي يعافُون ذلك، وجعلت آكل فأجيد، وأنا أنظر إليه، وهو يلحظني من بينهم، ثم سبقتْ مِنّي كلمة تمنيت لها أنّي سُخت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدْت إلى طعامٍ ألينَ من هذا! فزجرني، ثم قال: كيف قلت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أن تنظُرَ إلى قوتك من الطحين فيخبز قبل إرادتِك إياه بيوم،

ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتُؤتَى بالخبز ليناً، وباللحم غَريضاً[١]. فسكّنَ من غَرْبه[٢]، وقال: أها هنا غُرْت! قلت: نعم، فقال: يا ربيع، إنّا لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صَلائق وسبائك وصِنَاب[٣]، ولكنّي رأيتُ الله نَعَى على قوم شهواتهم، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[٤]، ثم أمر أبا موسى بإقراري، وأن يستبدِلَ بأصحابي.

أسلم عمر بعد جماعة من الناس، وكان سبب إسلامه أنّ أخته وبعلَها أسلما سرًّا من عمر، فدخل إليهما خَبّاب بن الأرَتّ، يعلّمهما الدِّين خفية، فوشَى بهم واشٍ إلى عمر، فجاء دارَ أخته، فتوارى خَبّاب منه داخلَ البيت، فقال عمر: ما هذِهِ الهينمةُ عندكم؟ قالت أخته: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال: أراكما قد صَبَوْتما! قال خَتَنُه: أرأيت إن كان هو الحقّ! فوثب عليه عمر فوطِئه وطئاً شديداً، فجاءت أخته فدفعته عنه، فنفحها بيده، فدَميَ وجهها، ثم ندِم ورقّ، وجلس واجماً، فخرج إليه خَبَّاب فقال: أبشِرْ يا عمر، فإني أرجُو أن تكون دعوة رسول الله لك الليلة، فإنه لم يزل يدعُو منذ الليلة: «اللّهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام»[٥].

قال: فانطلق عمرُ متقلّداً سَيْفَه حتى أتى إلى الدار التي فيها رسول الله ﷺ يومئذ، وهي الدّار التي في أصل الصّفا، وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من المسلمين، فوجِلَ القومُ من عمر إلا حمزة فإنه قال: قد جاءنا عمر، فإنْ يُرد الله به خيراً يَهْده، وإنْ يُرِدْ غير ذلك كان قتلُه علينا هيّناً - والنبيّ ﷺ داخل الدار يوحَي إليه - فسمِع كلامهم، فخرج حتى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: «ما أنت بمنتهٍ يا عمر حتى يُنزِل الله بك من الخِزْي والنَّكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة. اللهمّ هذا عمر، اللهم أعزّ الإسلام بعمر»، فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله[٦].

مرّ يوماً عمر في بعض شوارع المدينة فناداه إنسان: ما أراك إلا تستعملُ عمالك، وتعهد إليهم العهود، وترى أن ذلك قد أجزاك. كلاّ والله، إنّك المأخوذ بهم إن لم تتعهَّدهم، قال: ما ذاك؟ قال: عياض بن غَنْم يلبس الليّنَ، ويأكل الطيّب، ويفعل كذا وكذا. قال: أساعٍ؟ قال: بل

---

(١) الغريض: الطري من اللحم والماء واللبن والتمر. اللسان، مادة (غرض).
(٢) الغرب: النشاط والتمادي. اللسان، مادة (غرب).
(٣) الصناب: الخردل بالزبيب. اللسان، مادة (صنب).
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.
(٥) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: في مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٨١)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل عمر (١٠٥)، وأحمد في «مسنده» (٥٦٦٣).
(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٦٩.

مؤدٍّ ما عليه، فقال لمحمد بن مسلمة: الحقْ بعياض بن غَنْم فأتني به كما تجده، فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض - وهو أمير على حِمْص - وإذا عليه بوّاب، فقال له: قل لعياض: على بابك رجل يريد أن يلْقاك، قال: ما تقول؟ قال: قل له ما أقول لك، فقام كالمعجَب فأخبره، فعرف عياض أنه أمْرٌ حدَث، فخرج فإذا محمد بن مسلمة، فأدخله، فرأى على عياض قميصاً رقيقاً، ورداء ليّناً، فقال: إنّ أمير المؤمنين أمرني ألاّ أفارقك حتى آتيَه بك كما أجدك. فأقدمه على عمر وأخبره أنّه وجده في عيش ناعم. فأمر له بعصا وكساء، وقال: اذهب بهذه الغَنَم، فأحسن رعيَها، فقال: الموت أهْوَنُ من ذلك، فقال: كذبت، ولقد كان ترك ما كنتَ عليه أهونَ عليك من ذلك. فساق الغنم بعصاه، والكساء في عنقه، فلما بُعد ردَّه، وقال: أرأيت إن رددتُك إلى عملك أتصنع خيراً؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين، لا يبلغُك منّي بعدها ما تكرَهُ. فردّه إلى عمله، فلم يبلغْه عنه بعدها ما ينقِمه عليه.

كان الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ يأتون الشجرة التي كانت بيعةُ الرضوان تحتَها فيصلّون عندها، فقال عمر: أراكم أيّها الناس رجعتم إلى العُزّى! ألا لا أوتَى منذ اليوم بأحدٍ عاد لمثلها إلا قتلتُه بالسيف كما يُقتل المرتدّ، ثم أمر بها فقِطعت.

لما مات رسول الله ﷺ، وشاع بين الناس موتُه، طاف عمر على الناس قائلاً: إنه لم يمتْ، ولكنه غاب عنا كما غاب موسى عن قومه، وليرجعنّ فليقطّعَنّ أيديَ رجال وأرجلَهم يزعمون أنّه مات. فجعل لا يمرّ بأحد يقول إنه مات إلا ويخبطه ويتوعّده، حتى جاء أبو بكر، فقال: أيها الناس، مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد ربّ محمد فإنه حيّ لم يمت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾(١)، قالوا: فوالله لكأنَّ الناس ما سمعوا هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. وقال عمر: لما سمعته يتلوها هَوَيْتُ إلى الأرض، وعلمتُ أن رسولَ الله قد مات.

لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته، كان في عسكره أبو قَتادة الأنصاريّ، فركب فرسه، والتحق بأبي بكر، وحلف ألاّ يسيرَ في جيش تحت لواء خالد أبداً، فقصّ على أبي بكر القصّة، فقال أبو بكر: لقد فتنتِ الغنائمُ العرب، وترك خالد ما أمر به، فقال عمر: إنّ عليك أن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

تُقيده بمالك، فسكت أبو بكر، وقدم خالد فدخل المسجد وعليه ثياب قد صِدئَت من الحديد، وفي عمامته ثلاثة أسهم، فلما رآه عمر قال: أرياءً يا عدو الله! عدوْتَ على رجل من المسلمين ونكحت امرأته، أما والله إن أمكنني الله منك لأرجمنّك، ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها - وخالد ساكت لا يردّ عليه، ظناً أنّ ذلك عن أمر أبي بكر ورأيه - فلما دخل إلى أبي بكر وحدّثه، صدّقه فيما حكاه وقبِل عذره. فكان عمر يحرّض أبا بكر على خالد ويُشير عليه أن يقتص منه بدم مالك، فقال أبو بكر: إيها يا عمر! ما هو بأوّل مَنْ أخطأ، فارفع لسانَك عنه. ثم وَدَى[1] مالكاً من بيت مال المسلمين[2].

لما صالح خالد أهلَ اليمامة وكتب بينه وبينهم كتاب الصلح، ، وتزوّج ابنة مُجّاعة بن مُرَارة الحنفيّ، وصل إليه كتاب أبي بكر: لعمري يا ابن أمّ خالد، إنّك لفارغ حتى تَزَوّج النساء، وحَوْل حجرتك دماء المسلمين لم تجفّ بعد... في كلام أغلظ له فيه، فقال خالد: هذا الكتاب ليس من عمل أبي بكر، هذا عمل الأعيسر - يعني عمر.

عزل عمر خالداً عن إمارة حِمْص في سنة سبع عشرة، وأقامه للناس، وعقله بعمامته، ونزع قلنسوته عن رأسه وقال: أعلمْني، من أين لك هذا المال؟ وذلك أنه أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف درهم، فقال: من الأنفال والسُّهمان،فقال: لا والله، لا تعمل لي عملاً بعد اليوم، وشاطره ماله، وكتب إلى الأمصار بعزله، وقال: إنّ الناس فُتنوا به، فخفت أن يوكِلوا إليه، وأحببت أن يعلموا أنَّ الله هو الصانع.

لما أُسِر الهُرْمزان حُمِل إلى عمر منْ تُسْتَر إلى المدينة، ومعه رجال منَ المسلمين، منهم الأحنف بْنُ قيس، وأنس بن مالك، فأدخلوه المدينة في هيئته وتاجه وكِسْوته، فوجدوا عمر نائماً في جانب المسجد، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه، فقال الهُرْمزان: وأين عمر؟ قالوا: ها هو ذا، قال: أين حرسُه؟ قالوا: لا حاجبَ له ولا حارس. قال: فينبغي أن يكون هذا نبيّاً، قالوا: إنه يعمل بعمل الأنبياء. واستيقظ عمر، فقال: الهرمزان؟ فقالوا: نعم، قال: لا أكلمه أو لا يبقى عليه من حِلْيته شيء، فرمَوْا ما عليه، وألبسوه ثوباً صفيقاً، فلما كلمه عمر، أمر أبا طلحة أن ينتضِيَ سيفه ويقوم على رأسه، ففعل. ثم قال له: ما عذرُك في نقض الصلح ونكث

(١) أي أعطى ديته. اللسان، مادة (ودي).
(٢) رواه المجلسي في البحار: ٣٠/ ٤٨٦.

العهد؟ - وقد كان الهرمزان صالح أوّلاً، ثم نقض وغدر - فقال: أخبرك، قال: قل، قال: وأنا شديد العَطَش! فاسقني ثم أخبرك. فأُحِضر له ماء، فلما تناوله جَعَلَتْ يده تُرْعَد، قال: ما شأنُك؟ قال: أخاف أن أمدّ عنقي وأنا أشرب فيقتلَني سيفك. قال: لا بأس عليك حتى تشرب، فألقى الإناء عن يده، فقال: ما بالك؟ أعيدوا عليه الماء، ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش، قال: إنّك قد أمّنْتني، قال: كذبت! قال: لم أكذب، قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين، قال: ويحك يا أنس! أنا أؤمّن قاتل مجزأة بن ثور والبَراء بن مالك! والله لتَأتينّي بالمخرج أو لأعاقبنَّك، قال: أنت يا أمير المؤمنين قلت: لا بأس عليك حتى تشرب. وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس، فقال للهُرمزان: ويحك! أتخدعُني! والله لأقتلنَّك إلا أن تُسْلِم، ثم أومأ إلى أبي طلحةِ، فقال الهرمزان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فأمّنه وأنزله المدينة.

سأل عمر عمرو بن معديكرب عن السلاح فقال له: ما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك، قال فالنَّبل؟ قال: رسل المنايا، تخطيء وتُصيب، قال فالدرع؟ قال: مَشْغلة للفارس، متعبة للراجل، وإنها مع ذلك لحِصْن حصين، قال فالتُّرس؟ قال: هو المِجَنّ، وعليه تدور الدوائر، قال: فالسيف؟ قال: هناك قارعت أمُّك الهبل، قال: بل أمّك، قال: والحُمّى أضرَعتني لك.

وأولُ مَنْ ضرب عمر بالدِّرة أمَّ فروة بنت أبي قُحافة، مات أبو بكر فناح النساء عليه، وفيهنّ أخته أم فروة، فنهاهنّ عمر مراراً، وهنّ يعاوِدْن، فأخرج أمّ فروة من بينهنّ، وعَلاَها بالدِّرة، فهربْنَ وتفرّقن.

كان يقال: درّة عمر أهْيَبُ من سيف الحجّاج. وفي الصحيح: إن نسوةً كنّ عند رسول الله ﷺ قد كثر لَغَطُهنَّ، فجاء عمر فهربْنَ هيبة له، فقال لهنّ: يا عُديّات أنفسِهن، أتَهبْنَني ولا تهبْنَ رسول الله! قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظّ[1].

وكان عمر يُفتِي كثيراً بالحُكم ثم ينقضُه، ويفتي بضدّه وخلافه، قضى في الجَدّ مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة، ثم خاف من الحُكم في هذه المسألة فقال: مَنْ أراد أن يتقحّم جراثيم جهنم فليقُلْ في الجَدّ برأيه.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده (٣٢٩٤)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر (٢٣٩٧).

وقال مرة: لا يبلغني أنّ امرأة تجاوز صداقُها صداقَ نساء النبيّ إلا ارتجعت ذلك منها، فقالت له امرأة: ما جعل الله لك ذلك، إنه تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(١)، فقال: كلّ الناس أفقهُ من عُمر، حتى ربّات الحجال! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت، فاضلتْ إمامكم ففَضلتْه!

ومرّ يوماً بشابّ من فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاه، فجَدَح له ماء بعسَل فلم يشربه، وقال: إنّ الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة، اقرأ ما قبلها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾(٢)، فقال عمر: كلّ الناس أفقه من عمر!

وقيل: إن عمر كان يَعُسّ بالليل، فسمِعَ صوتَ رجل وامرأة في بيت، فارتاب فتسوَّر الحائط، فوجد امرأة ورجلاً، وعندهما زِقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أكنت ترى أن الله يستُرك وأنت على معصيته! قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾(٣)، وقد تجسّست. وقال: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾(٤) وقد تسوّرت، وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟﴾(٥)، وما سلّمت!

وقال: مُتعتان كانَتا على عهد رسول الله وأنا محرِّمهما، ومعاقِب عليهما: متعة النساء ومتعة الحجّ. وهذا الكلام وإن كان ظاهرُه منكَراً فله عندنا مخرج وتأويل، وقد ذكره أصحابنا الفقهاء في كتبهم.

وكان في أخلاق عمر وألفاظه جَفاء، وعُنْجُهية ظاهرة، يحسبه السامع لها أنه أراد بها ما لم يكنْ قد أراد، ويتوهَّم من تُحْكَى له أنه قصد بها ظاهراً ما لم يقصده، فمنها الكلمة التي قالها في مرض رسول الله ﷺ. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها! ولكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفظ منها. وكان الأحسنُ أن يقول: «مغمور» أو «مغلوب بالمرض»، وحاشاهُ أن يعني بها غير ذلك!

ولجفاة الأعراب من هذا الفنّ كثير، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابياً يقول في سنة قَحط:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٥) سورة النور، الآية: ٦١.

رَبَّ العِبَادِ مَا لَنَا وَمَالَكَا قَدْ كُنْتَ تَسقينا فما بدَا لكا!
أنزِل عَلَيْنَا القَطْرَ لاَ أبا لكا

فقال سليمان: أشهد أنه لا أبَ له ولا صاحبة ولا ولد، فأخرجه أحسن مخرَج.

وعلى نحو هذا يُحتمل كلامه في صُلْح الحديبية لما قال للنبي ﷺ: ألم تَقُلْ لنا: ستدخلونها! في ألفاظ نَكْرَه حكايتها، حتى شكاه النبي ﷺ إلى أبي بكر، وحتى قال له أبو بكر: الزَمْ بِغَرْزِه، فوالله إنه لَرسول الله.

وعمر هو الذي أغلَظ على جَبَلَة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة، بل مفارقة دار الإسلام كلّها، وعاد مرتدًّا داخلاً في دين النصرانية، لأجل لطمة لُطِمها. وقال جَبَلة بعد ارتداده متندِّماً على ما فعل:

تَنَصَّرَتِ الأشرافُ مِنْ أجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيها لَوْ صَبَرْتُ لَها ضَرَرْ!
فَيالَيْتَ أمّي لم تَلِدْني وَلَيْتَنِي رَجَعْتُ إلى القولِ الّذي قاله عُمَرْ

الأصل: حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ، جَعَلَهَا فِي ستَّة زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَالله وَلِلشُورَى! مَتَىٰ ٱعْتَرَضَ ٱلرَّيْبُ فِيَّ مَعَ ٱلْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظائِرِ! لكنّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طارُوا، فَصَغا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ، ومَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ، مَعَ هَنٍ وَهَنٍ.

الشرح: اللام في «يالله» مفتوحة، واللام في «ولِلشورى» مكسورة، لأن الأولى للمدعوّ، والثانية للمدعو إليه، قال:

يا لَلرِّجال لِيومِ الأربِعاء أما ينفكّ يُحدِث لي بَعْد النُّهي طَرَبا!

اللام في «للرجال» مفتوحة، وفي «ليوم» مكسورة. وأسفّ الرجل، إذا دخل في الأمر الدنيء، أصله من «أسفّ الطائر» إذا دنا من الأرض في طيرانه. والضغن: الحقد.

وقوله «مع هنٍ وهنٍ»، أي مع أمور يكنى عنها ولا يصرّح بذكرها، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشرّ، قال:

عَلَى هَنَوَاتٍ شَرُّها مُتَتابِعُ

يقول عليه السلام: إنّ عمر لما طُعن جعل الخلافة في ستّة، هو عليه السلام أحدهم، ثم تعجب من ذلك، فقال: متى اعترض الشك فيّ مع أبي بكر، حتى أقرن بسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأمثالهما! لكنّي طلبت الأمر وهو موسوم بالأصاغر منهم، كما طلبته أولاً

وهو موسوم بأكابرهم، أي هو حقّي فلا أستنكف من طلبه، إن كان المنازع فيه جليل القدر أو صغير المنزلة. وصغا الرجل بمعنى مال، الصَّغْو: الميل، بالفتح والكسر.

ما هي قصة الشورى؟

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤة، وعَلم أنّه ميت، استشار فيمن يولّيه الأمر بعده، فأُشير عليه بابنه عبد الله، فقال: لاها الله إذاً! لا يلِيها رجلان من وَلَد الخطاب! حسب عمر ما حُمِّل! حَسْبُ عمر ما احتقب[1]، لاها الله! لا أتحملها حياً وميتاً! ثم قال: إن رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وقد رأيتُ أن أجعلَها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم. ثم قال: إن أسْتَخْلِف فقد استخلف مَنْ هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترُك فقد تَرَكَ من هو خير مني - يعني رسول الله ﷺ - ثم قال: ادعُوهم لي، فدعوْهم، فدخلوا عليه وهو مُلْقًى على فراشه يجود بنفسه.

فنظر إليهم، فقال: أكلّكُم يطمعُ في الخلافة بعدي! فوَجَموا، فقال لهم ثانية، فأجابه الزُّبير وقال: وما الذي يُبعدنا منها! وليتَها أنتَ فقمتَ بها، ولسْنا دونَك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة.

قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ: والله لولا عِلْمه أنّ عمر يموت في مجلسه ذلك لم يُقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة، ولا أن يَنْبِس منه بلفظة.

فقال عمر: أفلا أخبرُكم عن أنفُسِكم! قال: قل، فإنا لو استعفيناك لم تُعفنا، فقال: أما أنت يا زبير فَوَعِق[2] لَقِس، مؤمن الرضا، كافر الغضب، يوماً إنسان، ويوماً شيطان، ولعلها لو أفضتْ إليك ظَلْتَ يومَك تُلاطم بالبطحاء على مُدٍّ من شعير! أفرأيتَ إن أفضت إليك! فليت شِعْري، مَنْ يكون للناس يومَ تكون شيطاناً، ومنْ يكون يومَ تغضب! وما كانَ الله ليجمع لك أمر هذه الأمة، وأنت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحة - وكان له مبغِضاً منذ قال لأبي بكر يوم وفاته ما قال في عمر - فقال له: أقول أم أسكت؟ قال: قل، فإنك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما إني أعرفك منذ أصيبتْ إصبعك يوم أُحُد والبَأْو[3] الذي حدث لك، ولقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أُنزِلت آية الحجاب.

---

(١) احتقب: أي احتمل. اللسان، مادة (حقب).
(٢) الوعق: الذي يضجر ويتبرم مع كثرة صخب وسوء خلق. اللسان، مادة (وعق).
(٣) البَأْو: الكبر والفخر. اللسان، مادة (بأي).

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى: الكلمة المذكورة أنّ طلحة لما أنزلَتْ آية الحجاب قال بمحضر ممَّنْ نقل عنه إلى رسول الله ﷺ: ما الذي يغنيه حجابهنّ اليوم! وسيموت غَدا فننكِحُهُنّ. قال أبو عثمان أيضاً: لو قال لعمر قائل: أنت قلت: إن رسول الله ﷺ مات وهو راض عن الستة، فكيف تَقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطاً عليك للكلمة التي قلتَها! لكان قد رماه بمشاقصه[1]، ولكن مَن الذي كان يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا، فكيف هذا!

قال: ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال: إنما أنت صاحبُ مِقْنَب[2] من هذه المقانب، تقاتل به، وصاحب قَنَص وقَوْس وأسهم، وما زُهْرة والخلافة وأمور الناس!

ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف، فقال: وأما أنت يا عبد الرحمن، فلو وُزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانُك به، ولكن ليس يَصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك، وما زهرة وهذا الأمر!

ثم أقبل على عليّ عليه السلام، فقال: لله أنت لولا دُعابة فيك! أما والله لئن وليتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح، والمحجّة البيضاء.

ثم أقبل على عثمان، فقال: هيهاً إليك! كأني بك قد قلدتْك قريش هذا الأمر لحبِّها إياك، فحملتَ بني أمية وبني أبي مُعَيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذُؤبان العرب، فذبحوك على فراشك ذبحاً. والله لئن فعلوا لتفعلنّ، ولئن فعلت ليفعلُنّ. ثم أخذ بناصيته، فقال: فإذا كان ذلك فاذكر قولي، فإنه كائن.

ذكر هذا الخبر كلّه شيخنا أبو عثمان في كتاب «السُّفيانية»، وذكره جماعة غيره في باب فراسة عمر. وذكر أبو عثمان في هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال: وَرَوى معمر بن سليمان التيميّ عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس، قال: سمعت عمرَ بن الخطاب يقول لأهل الشورى: إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم، غَلَبَكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان. وكان معاوية حينئذ أمير الشام.

ثم رجع بنا الكلام إلى تمام قصة الشورى. ثم قال: ادعوا إليّ أبا طلحة الأنصاريّ، فدعَوه له فقال: انظر يا أبا طلحة، إذا عدتم من حُفْرتي، فكن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله، وأجمعهم في بيت، وقفْ بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتّفق خمسة وأبَى واحد فاضرب عنقه، وإن

---

(١) المشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. اللسان، مادة (شقص).

(٢) المقنب من الخيل: ما بين الثلاثين إلى الأربعين وقيل: زهاء ثلثمائة. اللسان، مادة (قنب).

اتفق أربعة وأبَى اثنان فاضرب أعناقهما، وإن اتّفق ثلاثة وخالف ثلاثة، فانظر الثلاثة التي فيها عبد الرحمن، فارجع إلى ما قد اتفقتْ عليه، فإن أصرّت الثلاثة الأخرى على خِلافها فاضرب أعناقها، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمرٍ، فاضرب أعناق السّتّة، ودع المسلمين يختاروا لأنفُسِهم.

فلما دُفِن عمر، جَمَعهم أبو طلحة، ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار، حاملي سيوفهم، ثم تكلّم القوم وتنازعوا، فأوّلُ ما عمل طلحةُ أنّه أشهدَهم على نفسه أنّه قد وهب حقه من الشورى لعثمان، وذلك لعلمه أنّ الناسَ لا يعدِلون به عليًّا وعثمان، وأن الخلافة لا تخلُص له وهذان موجودان، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعافَ جانب عليّ عليه السلام، بهبَة أمر لا انتفاعَ له به، ولا تمكُّن له منه.

فقال الزبيرُ في معارضته: وأنا أشهدكم على نفسي أنّي قد وهبتُ حقّي من الشورى لعليّ، وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى عليًّا قد ضَعُف وانخزل بهبَةِ طلحة حقَّه لعثمان، دخلته حميَّة النَسَب، لأنه ابن عمة أمير المؤمنين عليه السلام، وهي صفيّة بنت عبد المطلب، وأبو طالب خالُه. وإنّما مال طلحةُ إلى عثمان لانحرافه عن عليّ عليه السلام، باعتبار أنّه تَيميّ، وابنُ عمّ أبي بكر الصديق، وقد كان حصلَ في نفوس بني هاشم من بني تَيم حَنَق شديد لأجْل الخلافة، وكذلك صار في صدور تَيم على بني هاشم، وهذا أمرٌ مركوز في طبيعة البَشر، وخصوصاً طينة العرب وطباعها، والتجربة إلى الآن تحقق ذلك، فبقيَ من الستة أربعة.

فقال سعد بن أبي وقّاص، وأنا قد وهبتُ حقِّي من الشورى لابن عَمّي عبد الرحمن - وذلك لأنّهما من بني زُهْرة، ولعلم سعد أنّ الأمرَ لا يتمّ له - فلما لم يبقَ إلاّ الثلاثة. قال عبد الرحمن لعليّ وعثمان: أيّكما يُخرج نفسَه من الخلافة، ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين؟ فلم يتكلّم منهما أحد، فقال عبد الرحمن: أشهدُكم أنّني قد أخرجتُ نفسي مِن الخلافة على أنْ أختار أحدَهما، فأمسكا. فبدأ بعليّ عليه السلام، وقال له: أبايعك على كتاب الله، وسنة رسول الله، وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر. فقال: بل على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاد رأيي. فعدل عنه إلى عثمان، فعرض ذلك عليه، فقال: نعم، فعاد إلى عليّ عليه السلام، فأعاد قوله، فعَل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً، فلما رأى أنّ علياً غيرُ راجع عَمّا قاله، وأنّ عثمان يُنعِم له بالإجابة، صفَق على يد عثمان، وقال: السلامُ عليك يا أمير المؤمنين، فيقال: إن علياً عليه السلام قال له: والله ما فعلتَها إلا لأنّك رجوتَ منه ما رجَا صاحبُكما من صاحبه، دقّ الله بينكما عِطْرَ مَنْشِم[1].

---

(١) مَنْشِم: امرأة عطارة من همدان كانوا إذا تطيبوا من ريحها اشتدت الحرب، فصارت مثلاً في الشر. اللسان، مادة (نشم).

قيل: ففسد بعد ذلك بين عثمان وعبد الرحمن، فلم يكلِّم أحدُهما صاحبَه حتى مات عبد الرحمن(١).

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل:

أما قوله عليه السلام: «فصغا رجل منهم لضِغْنه»، فإنه يعني طلحة. وقال القطب الراونديّ: يعني سعدَ بن أبي وقّاص، لأنّ علياً عليه السلام قتلَ أباه يوم بدر. وهذا خطأ فإن أباه أبو وقّاص، واسمه مالك ابنُ أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالب، مات في الجاهلية حَتْف أنفِه.

وأما قوله، «ومال الآخرُ لِصهْره» يعني عبدَ الرحمن مال إلى عثمان، لأنّ أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبي معيط كانت تحتَه، وأمّ كلثوم هذه هي أخت عثمان مِن أمّه أرْوَى بنت كُرَيز.

وروى القُطْب الراونديّ أنّ عمر لما قال: كونوا مع الثّلاثة التي عبد الرحمن فيها، قال ابن عباس لعليّ عليه السلام: ذهبَ الأمرُ مِنّا، الرجلُ يريد أن يكون الأمر في عثمان. فقال عليّ عليه السلام: وأنا أعلمُ ذلك، ولكنّي أدخل معهم في الشورى، لأنّ عمر قد أهّلَني الآن للخلافة، وكان قبل ذلك يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ النبوّة والإمامةَ لا يجتمعان في بيت»، فأنا أدخل في ذلك لأظهِر للناس مناقضة فعله لروايته.

الذي ذكره الروانديّ غير معروف، ولم ينقُلْ عمر هذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنّه قال لعبد الله بن عباس يوماً: يا عبد الله، ما تقول منع قومكم منكم؟ قال: لا أعلم يا أمير المؤمنين، قال: اللهم غفراً! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فتذهبون في السماء بُذّخاً وشُمّخاً، لعلكم تقولون: إن أبا بكر أراد الإمْرَة عليكم وهَضَمكم! كلاّ، لكنّه حضره أمر لم يكن عنده أحزمَ مما فعل، ولولا رأيُ أبي بكر فيّ بعد موته لأعاد أمرَكم إليكم، ولو فعل ما هنأكم مع قومكم، إنّهم لينظرون إليكم نظر الثّوْر إلى جازره.

فأما الرواية التي جاءت بأنّ طلحة لم يكن حاضراً يوم الشورى، فإن صحّتْ فذُو الضّغن هو سعد ابنُ أبي وقاص، لأن أمه حَمْنَة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، والضغينة التي عنده على عليّ عليه السلام من قِبَل أخواله الذين قتل صناديدَهم، وتقلّد دماءهم، ولم يُعرفْ أن عليًا عليه السلام قَتَل أحداً من بني زُهْرة ليُنْسَب الضّغن إليه.

---

(١) رواه المفيد في الإرشاد: ١/ ٢٨٧، والمجلسي في البحار: ٣١/ ٣٥٨ - ٤٠٠، والأميني في الغدير: ٩/ ٨٨.

وهذه الرواية هي التي اختارها أبو جعفر محمد بن جريرالطبريّ صاحب «التاريخ» قال[1]: لمّا طُعن عمر قيل له: لو استخلفت. يا أمير المؤمنين! فقال: من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدَة حَيًّا لاستخلفته وقلت لربي لو سألني: سمعتُ نبيّك يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة»[2] ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حَيًّا لاستخلفته، وقلت لربّي إن سألني: سمعتُ نبيَّك عليه السلام يقول: «إنّ سالماً شديدُ الحبّ لله»[3]، فقال له رجل: وَلِّ عبد الله بن عمر، فقال: قاتَلك الله! والله ما الله أردتَ بهذا الأمر! [ويحك!] كيف أستخلفُ رجلاً عجز عن طلاق امرأته! لا أَرَبَ لعمر في خلافتكم، ما حِمدْتُها فأرغبَ فيها لأحد من أهل بيتي، إن تك خيراً فقد أصبنا منه، وإن تَكُ شرًّا يُصرفَ عنّا. حسبُ آلِ عمر أنْ يحاسبَ منهم [رجل] واحد، ويُسأل عن أمر أمة محمد.

فخرج الناس من عنده، ثم راحوا إليه فقالوا له: لو عهدتَ عهداً! قال: قد كنتُ أجمعتُ بعد مقالتي [لكم] أنْ أولِّيَ أمرَكم رجلاً هو أحراكم أن يحمِلكم على الحق - وأشار إلى عليّ عليه السلام - فرهِقَتْني غشية، فرأيت رجلاً يدخل جنّة [قد غرسها] فجعل يقطف كلَّ غضّة ويانعة، فيضمّها إليه، ويصيرها تحته، فخفت أن أتحمّلَها حيًّا وميتاً، وعلمت أنّ الله غالب أمره عليكم بالرهط الذي قال رسول الله عنهم: إنّهم من أهل الجنة، ثم ذكر خمسة: عليًّا، وعثمان، وعبد الرحمن، والزبير، وسعداً.

قال: ولم يذكر في هذا المجلس طلحة، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة.

ثم قال لهم: انهضُوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها، ووضع رأسَه وقد نزفه الدم، فقال العباس لعليّ عليه السلام: لا تدخلْ معهم، وارفع نفسَك عنهم، قال: إنّي أكره الخلاف، قال: إذنْ ترى ما تكره، فدخلوا الحجرة فتناجوْا حتى ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: إنَّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد، ففيم هذا اللغَط! وانتبه عمر، وسمِع الأصوات، فقال: ليُصلِّ بالناس صُهيب، ولا يأتينَّ اليوم الرابع من يوم موتي إلا وعليكم أمير، وليحضر عبدُ الله بن عمر مشيراً وليس له شيء من الأمر، وطلحة بن عبيد الله شريككم في الأمر، فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمرَكم، وإلا فأرضُوه، ومَنْ لي برضا طلحة! فقال سعد: أنا لك به، ولن يخالف إن شاء الله تعالى.

---

(١) تاريخ الطبري: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ) وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم. «كشف الظنون» (١/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: قصة أهل نجران (٤٣٨٠)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي عبيدة الجراح (٢٤١٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٧٧)، وأبو بكر الشيباني في «الآحاد والمثاني» (٣١١).

ثم ذكر وصيّتَه لأبي طلحة الأنصاريّ وما خصّ به عبد الرحمن بن عوف من كَوْن الحق في الفئة التي هُوَ فيها وأمْرَه بقتل من يخالف، ثم خرج الناسُ فقال عليّ عليه السلام لقوم معه من بني هاشم: إنْ أُطِيعَ فيكم قومُكم من قريش لم تؤمَّروا أبداً.

وقال للعباس: عُدِل بالأمر عني يا عمّ. قال: وما علمك؟ قال: قُرن بي عثمان. وقال عمر: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالفُ ابنَ عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان، فيولّيها أحدهما الآخر، فلو كان الآخران مَعِي لم يُغْنِيا شيئاً. فقال العباس: لم أدفعك إلى شيء إلاّ رجعت إليّ مستأخراً بما أكره، أشرتُ عليك عِند مرض رسول الله صلى الله عليه وآله أنْ تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيت، وأشرت عليك عند وفاته أنْ تعاجل البَيْعة فأبيت، وقد أشرتُ عليك حينَ سمّاك عمر في الشورى اليوم أن ترفَع نفسك عنها، ولا تدخل معهم فيها فأبيت، فاحفظ عني واحدة، كلّما عرض عليك القوم الأمر فقل: لا، إلا أن يولّوك. واعلم أنّ هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرُك، وايم الله لا تناله إلا بشرّ لا ينفع معه خير. فقال عليه السلام: أما إنّي أعلم أنهم سيولّون عثمان، وليحدِثنّ البدع والإحداث، ولئن بقي لأذكرنّك، وإن قتل أو مات ليتداولنّهَا بنو أمية بينهم، وإن كنت حيًّا لتجدنّي حيث تكرهون، ثم تمثل:

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ عَشِيَّةً ... غَدَوْنَ خِفافاً يبتدِرْنَ المحصَّبَا[1]

ليَخْتَلِبن رهطُ ابن يعمرَ غدوة ... نجيعاً بنو الشُّدَّاخ وِرْداً مُصلّباً[2]

قال: ثم التفتَ فرأى أبا طلحة الأنصاريّ، فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لا تُرَع أبا حسن. فلما مات عمر ودُفِن وخَلَوْا بأنفسهم للمشاورة في الأمر، وقام أبو طلحة يحجُبهم بباب البيت، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، فجلسا بالباب، فحصَبهما سعد وأقامهما، وقال: إنما تريدان أن تقولا حَضَرْنا وكُنّا في أصحاب الشورى.

فتنافس القومُ في الأمر وكَثُر بينهم الكلام، فقال أبو طلحة: أنا كنتُ لأنْ تدافعوها أخوفَ مني عليكم أن تنافسوها! أما والّذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي وقفت لكم، فاصنعوا ما بدا لكم!

قال: ثم إنّ عبد الرحمن قال لابن عمه سعد بن أبي وقاص: إني قد كرهتُها، وسأخلع نفسي منها، لأني رأيت الليلة رَوْضَةً خضراء كثيرة العُشْب، فدخل فحل ما رأيت أكرم منه، فمرّ كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها، لم يعرّج، ودخل بعير يتلوه تابع أثره، حتى

(١) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى. اللسان، مادة (حصب).

(٢) النجيع: هو الدم. قيل: هو دم الجوف خاصة. اللسان، مادة (نجع).

خرج منها. ثم دخل فَحْل عقبريّ يجرّ خِطامه، ومضى قصد الأولَين، ثم دخل بعير رابع، فوقع في الروضة يرتَع ويخضم. ولا والله لا أكون الرابع، وإن أحداً لا يقوم مقام أبي بكر وعمر فيرضى الناس عنه.

ثم ذكر خَلْعَ عبد الرحمن نفسَه من الأمر، على أن يولّيَها أفضَلهم في نفسه، وأن عثمان أجاب إلى ذلك، وأن علياً عليه السلام سكت، فلما روجع رضي على موثقٍ أعطاه عبد الرحمن، أن يؤثر الحق، ولا يتبع الهوى، ولا يخصّ ذا رحم، ولا يألو الأمة نصحاً، وأن عبد الرحمن ردّد القول بين عليٍّ وعثمان متلوِّماً، وأنه خلا بسعد تارة، وبالمسوَر بن مخرمة الزهريّ تارة أخرى، وأجال فِكْرَه، وأعمل نظره، ووقف موقفَ الحائر بينهما. قال: قال عليٌّ عليه السلام لسعد بن أبي وقاص: يا سعد، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾(١)، أسألك برحِم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وبِرَحم عَمّي حمزة منك، ألاَّ تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً.

قلت: رحِمُ حمزة من سعد، هي أنّ أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زُهرة، وهي أيضاً أم المقوَّم وحَجْفل - واسمه المغيرة - والغيداق أبناء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، هؤلاء الأربعة بَنُو عبد المطلب من هالة، وهالة هذه هي عمة سعد بن أبي وقاص، فحمزة إذَنْ ابن عمة سعد، وسعد ابن خال حمزة -.

قال أبو جعفر: فلما أتى اليومُ الثالث جَمَعهم عبد الرحمن، واجتمع الناس كافة، فقال عبد الرحمن: أيُها الناس، أشيروا عليّ في هذين الرجلين. فقال عمّار بن ياسر: إن أردتَ ألاّ يختلف الناس، فبايعْ عليًّا عليه السلام، فقال المقداد: صدق عمار، وإن بايعتَ عليا سمعْنا وأطعنا. فقال عبد الله بن أبي سَرْح: إن أردتَ ألاّ تختلف قريشٌ، فبايعْ عثمان. وقال عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ: صدق، إن بايعت عثمنا سمعنا وأطعنا. فشتم عَمَّارٌ ابنَ أبي سَرْح، وقال له: مَتى كنت تنصح الإسلام!

فتكلّم بنو هاشم وبنو أمية، وقام عمار، فقال: أيّها الناس، إن الله أكرمَكم بنبيّه، وأعزّكم بدينه، فإلى متى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم! فقال رجل من بني مخزوم: لقد عَدَوْتَ طورَك يا ابن سمَيّة، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها! فقال سعد: يا عبدَ الرحمن، افرُغ من أمرك قبل أن يفتتِن الناس. فحينئذ عَرَض عبد الرحمن على عليّ عليه السلام العملَ بسيرة الشيخين، فقال: بل أجتهد برأيي. فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال: نعم. فقال عليّ عليه السلام: ليس هذا بأوّلِ يوم تَظاهرتُم فيه علينا، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(٢)، والله ما ولّيتَه الأمرَ إلا ليردّه إليك، والله كلّ يوم في شأن.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٨.

فقال عبد الرحمن: لا تجعلنَّ على نفسك سبيلاً يا عليّ - يعني أمْرَ عمر أبا طلحة أن يضرب عُنُقَ المخالف - فقام عليّ عليه السلام فخرج، وقال: سيبلغ الكتابُ أجلَه، فقال عمّار: يا عبد الرحمن، أما والله لقد تركتَه، وإنّه من الذين يقضون بالحق وبه كانوا يعدلون. فقال المقدادُ: تالله ما رأيتُ مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم، واعجباً لقريش! لقد تركتْ رجلاً ما أقولُ ولا أعلم أن أحداً أقْضَى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه! أما والله لو أجد أعواناً! فقال عبد الرحمن: اتّقِ الله يا مقداد، فإني خائف عليك الفتنة.

وقال عليّ عليه السلام: إني لأعلمُ ما في أنفسهم، إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر في صلاح شأنها، فتقول: إنْ وَلِيَ الأمرَ بنو هاشم لم يخرج منهم أبداً، وما كان في غيرهم فهو متداول في بطون قريش.

قال: وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان فتلكّأ ساعة، ثم بايع.

وروى أبو جعفر رواية أخرى أطالها، وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم، وذكر كلاماً قاله عليّ عليه السلام في ذلك اليوم، وهو:

الحمدُ لله الذي اختار محمداً منا نبيًا، وابتَعثه إلينا رسولاً، فنحنُ أهل بيت النبوّة ومعدن الحكمة، أمانٌ لأهل الأرض، ونجاةٌ لمن طلب، إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه، وإن نمنعه نركبْ أعجاز الإبل وإن طال السُّرَى، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجالدْنا عليه حتى نموت. لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقٍّ وصلة رَحِم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اسمعوا كلامي، وعُوا منطقي، عسى أن تروْا هذا الأمر بعد هذا الجمع تُنْتَضى فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى لا يكون لكم جماعة، وحتى يكون بعضُكم أئمةً لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة(١).

قلت: وقد ذكر الهروي في كتاب «الجمع بين الغريبين» قوله: «وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل»، وفسّره على وجهين:

أحدهما: أنّ منْ ركب عَجُز البعير يعاني مشقة، ويقاسي جهداً، فكأنّه قال: وإن نمنَعه نصبرْ على المشقة، كما يصبر عليها راكبُ عجزُ البعير.

والوجه الثاني أنه أراد: نتبع غيرنا، كما أنّ راكبَ عجز البعير يكون رَديفاً لمن هو أمامه، فكأنه قال: وإن نمنعه نتأخر ونتبع غيرنا كما يتأخر راكب البعير.

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ٣/ ٣٠٠.

وقال أبو هلال العسكريّ في كتاب «الأوائل»[1]: استجيبت دعوة عليّ عليه السلام في عثمان وعبد الرحمن، فما ماتا إلا متهاجرين متعاديين. أرسل عبد الرحمن إلى عثمان يعاتبه وقال لرسوله: قل له: لقد وليتُك ما وليتك من أمر الناس، وإن لي لأموراً ما هي لك: شهدتُ بدراً وما شهدتَها، وشهدتُ بَيْعةَ الرضوان وما شهدتَها، وفررتَ يوم أُحُد وصبرتُ، فقال عثمان لرسوله: قل له: أمّا يومَ بدْر فإن رسول الله صلى الله عليه وآله رَدّني إلى ابنته لِما بها من المرض، وقد كنتُ خرجتُ للذي خرجتَ له، ولقيتُه عند منصرفه، فبشّرني بأجرٍ مثل أجوركم، وأعطاني سهماً مثل سهامكم. وأما بَيْعة الرضوان فإنّه صلى الله عليه بعثني أستأذن قريشاً في دخوله إلى مكة، فلما قيل له: إني قُتلت، بايع المسلمين على الموت لِما سمعه عني، وقال: إن كان حيًّا فأنا أبايع عنه، وصَفَق بإحدى يديه على الأخرى، وقال: يساري خير من يمين عثمان، فيدُك أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه وآله! وأما صبرُك يوم أُحُد وفِراري، فلقد كان ذلك، فأنزل الله تعالى العفوَ عني في كتابه، فعيّرتَني بذنب غفره الله لي، ونسيت من ذنوبك ما لا تَدْرِي أغفر لك أم لم يغفر!

لما بنى عثمان قصره طَمار بالزوراء[2]، وصنع طعاماً كثيراً، ودعا الناس إليه، كان فيهم عبد الرحمن، فلما نظر للبناء والطعام قال: يا ابنَ عفان، لقد صدّقنا عليك ما كنا نكذّب فيك، وإني أستعيذ بالله من بيعتك. فغضب عثمان، وقال: أخرجه عني يا غلام، فأخرجوه، وأمر الناس ألا يجالسوه، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابنُ عباس، كان يأتيه فيتعلّم منه القرآن والفرائض. ومرض عبد الرحمن فعاده عثمان وكلمه فلم يكلّمه حتى مات.

الأصل: إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ.

الشرح: نافجاً حِضنيه: رافعاً لهما، والحِضن: ما بين الإبط والكشح، يقال للمتكبر: جاء نافجاً حِضنيه، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاماً: جاء نافجاً حِضنيه، ومراده عليه السلام هذا الثاني. والنّثيل: الروث. والمعتَلف: موضع العلف، يريد أنّ همّه الأكل والرجيع، وهذا من مِمِضّ الذم[3]، وأشدُّ من قول الحُطيئة الذي قيل: إنه أهجى بيت للعرب:

(١) الأوائل: لأبي هلال حسن بن عبد الله العسكري، المتوفى سنة (٣٩٥هـ)، وهو أول من صنف فيه، وهو رسالة مختصرة «كشف الظنون» (١/ ١٩٩).

(٢) مدينة الزوراء: ببغداد في الجانب الشرقي سميت زوراء لا زورار قبلتها. اللسان، مادة (زوَر).

(٣) ممض الذم: الذم المؤلم. القاموس، مادة (مضّ).

دَعِ ٱلْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَٱقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكاسِي

والخَضم: أكلٌ بكلِّ الفم، وضدّه القضم، وهو الأكل بأطراف الأسنان. وقيل: الخَضم أكلُ الشيء الرَّطب، والقَضْمُ أكْلُ الشيء اليابس، والمراد على التفسيرين لا يختلف، وهو أنّهم على قَدَم عظيمة من النَّهَم وشدّة الأكل وامتلاء الأفواه. وقال أبو ذرّ رحمه الله تعالى عن بني أمية: يخضَمون ونقضَم، والموعد الله. والماضي «خَضِمْتَ» بالكسر، ومثله قَضِمْت.

والنِّبتة، بكسر النون كالنبات، تقول: نَبتَ الرطب نباتاً ونِبْتة. وانتكث فتلُه: انتقض، وهذه استعارة. وأجهز عليه عمله: تمم قتله. يقال: أجهزتُ على الجريح، مثل ذَفَفْتُ، إذا أتممتَ قَتله وكَبَتْ به بِطنته، كبا الجواد، إذا سقط لوجهه. والبِطنة: الإسراف في الشِّبَع.

نبذة من اخبار عثمان بن عفان

وثالث القوم هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، كُنْيته أبو عمرو، وأمه أرْوَى بنت كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر له، وصحّتْ فيه فِراسة عمر، فإنه أوطأ بني أمية رقابَ الناس، وولاّهم الوِلايات وأقطعهم القطائع، وافتُتِحَتْ إفريقيّة في أيامه، فأخذ الخُمس كلَّه فوهبه لمروان، فقال عبد الرحمن بن حنبل الجمحيّ:

أحْلِفُ بالله رَبِّ الأنَا ... م مَا تَرَكَ الله شَيْئاً سُدَى
ولكِن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلَى بك أو تبتلى
فإنّ الأمِينَيْنِ قَدْ بَيَّنَا ... مَنَارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ ٱلْهُدَى
فما أخذا درهماً غِيلَةً ... ولا جَعَلاَ دِرْهَماً في هَوى
وَأَعْطَيْتَ مَرْوَانَ خُمْسَ ٱلْبِلاَدِ ... فَهَيْهَاتَ سَعْيُكَ مِمَّنْ سَعَى!

الأمينان: أبو بكر وعمر.

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسِيد صِلَة، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

وأعاد الحكَم بن أبي العاص، بعد أن كان رسول الله ﷺ قد سَيَّره ثم لم يردّه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدّق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارثَ بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فَدَك، وقد كانتْ فاطمةُ عليها السلام طلبتْها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليه، تارةً بالميراث، وتارة بالنِّحلة[1] فدُفِعت عنها.

---

(١) النحْلة: الهبة أو الدين. اللسان، مادة (نحل).

وحَمى المراعيَ حول المدينة كلَّها من مواشي المسلمين كلِّهم إلا عن بني أميَّة.

وأعطى عبدَ الله بن أبي سَرْح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقيّة بالمغرب - وهي من طرابلس الغرب إلى طَنْجة - من غير أنْ يَشْرَكه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وَصَلْتُ رَحِمِي! قال: لا، ولكن أبكي لأنّي أظنّك أنّك أخذتَ هذا المال عِوضاً عما كنتَ أنفقتَه في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ. والله لو أعطيتَ مروان مائة درهم لكان كثيراً، فقال: ألقِ المفاتيح يا ابن أرقم، فإنا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسَّمها كلَّها في بني أميّة. وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صَرْفه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضمّ إلى هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون، كتسيير أبي ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرّبَذة، وضَرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود وردّ المظالم، وكفّ الأيدي العادية، والانتصاب لسياسة الرعيّة، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين، واجتمع عليه كثير من أهل المدينة مع القوم الذين وصلوا من مصر لتعديد أحداثه عليه فقتلوه.

وقد أجاب أصحابُنا عن المطاعن في عثمانَ بأجوبة مشهورة مذكورة في كتبهم. والذي نقول نحن: إنّها وإن كانت أحداثاً، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذي يستباح به دمه، وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصلحوه لها، ولا يعجَلوا بقتله، وأمير المؤمنين عليه السلام أبرأ النّاس من دمه، وقد صرّح بذلك في كثير من كلامه، من ذلك قوله عليه السلام: والله ما قتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله[1].

وصدق صلوات الله عليه.

الأصل: فَما رَاعَنِي إلاَّ وَٱلنَّاسُ إِلَيَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جانِب، حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ ٱلْحَسَنانِ، وَشُقَّ عِطْفايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ ٱلْغَنَم. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَىٰ، وفَسَقَ آخَرُونَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلاَمَ اللهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره: ١٧/ ١٦٤، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير: ٧/ ٦٨.

﴿ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]، بَلَى وَٱللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ ٱلدُّنْيا فِي أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُها.

الشرح: عُرْف الضَّبع ثخين، ويضرب به المثل في الازدحام. وينثالون: يتتابعون مزدحمين. والحَسَنان: الحسن والحسين عليهما السلام. والعِطْفان: الجانبان من المنكب إلى الورِك، ويروى «عطافي»، والعطاف: الرداء وهو أشبه بالحال، إلا أن الرواية الأولى أشهر، والمعنى خُدش جانباي لِشدّة الاصطكاك منهم والزحام.

وقال القطب الراونديّ: الحسنان: إبهاما الرجل، وهذا لا أعرفه.

وقوله: «كربيضة الغنم» أي كالقِطْعة الرابضة من الغنم، يصف شِدّة ازدحامهم حوله وجثومَهم بين يديه.

وقال القطب الراونديّ: يصف بلادَتهم ونقصان عقولهم، لأنّ الغنَم توصف بقلّة الفطنة. وهذا التفسير بعيد وغير مناسب للحال.

فأما الطائفة النّاكثة، فهم أصحابُ الجمل، وأما الطائفة الفاسقة فأصحاب صِفّين. وسماهم رسول الله ﷺ القاسِطين. وأما الطائفة المارقة فأصحاب النّهْرَوان، وأشرنا نحن بقولنا: سماهم رسول الله ﷺ القاسطين إلى قوله عليه السلام: «ستقاتلُ بعدي الناكثين، والقاسطين والمارقين»[٢]. وهذا الخبر من دلائل نبوّته صلوات الله عليه، لأنه إخبار صريح بالغيب، لا يحتملُ التمويهَ والتدليس كما تحتمله الأخبار المجمَلة، وصدَّق قوله عليه السلام: «والمارقين»، قوله أولاً في الخوارج: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة»[٣]، وصدق قوله عليه السلام «الناكثين» كونهم نكثوا البيعة باديء بدء، وقد كان عليه السلام يتلُو وقت مبايعتهم له: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٤].

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٧٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٠٤٩)، و«الأوسط» (٨٤٣٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٩).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٢٦١٠)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٣).
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠.

وأما أصحاب صفين، فإنهم عند أصحابنا رحمهم الله مخلّدون في النار لفِسْقهم، فصحّ فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[1].

وقوله عليه السلام: «حليت الدنيا في أعينهم» تقول: حلا الشيء في فمي يحلُو، وحليَ لعيني يَحْلَى. والزبرج: الزينةُ من وَشْيٍ أو غيره، ويقال: الزبرج: الذهب.

فأما الآية فنحن نذكر بعض ما فيها، فنقول: إنه تعالى لم يعلّق الوعدَ بترك العلوّ في الأرض والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[2]، علّق الوعيد بالركون إليهم والميل معهم، وهذا شديد في الوعيد.

ويروى عن أميرِ المؤمنين عليه السلام أنه قال: إنّ الرجل ليعجِبه أن يكون شِراك نعله أحسنَ من شِراك نعل صاحبه فيدخل تحت هذه الآية. ويقال: إن عمر بن عبد العزيز كان يردّدها حتى قُبِض.

الأصل: أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، ومَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاَّ يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ، وَلاَ سَغَبِ مَظْلُومٍ، لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ.

الشرح: فَلَقَ الحبة، من قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[3]. والنَّسمة: كلّ ذي رُوح من البشر خاصة.

قوله: «لولا حضور الحاضر»، يمكن أن يريدَ به لولا حضور البيعة، فإنها بعد عقدها تتعين المحاماة عنها، ويمكن أن يريد بالحاضر مَنْ حَضَره من الجيش الذين يستعين بهم على الحرب. والكِظّة بكسر الكاف: ما يعتري الإنسان مِن الثِّقل والكَرْب عند الامتلاء من الطعام. والسَّغَب: الجوع. وقولهم: قد ألقى فلان حبل فلان على غاربه، أي تركه هَمَلاً يسرح حيث يشاء من غير وازع ولا مانع، والفقهاء يذكرون هذه اللفظة في كنايات الطلاق. وعَفْطَة عنز: ما تنثره من أنفها، عفَطت تعفِط بالكسر، وأكثر ما يستعمل ذلك في النعجة، فأمّا العنْز فالمستعمل الأشهر فيها «النفطة» بالنون، ويقولون: ماله عافط ولا نافط، أي نعجة ولا عنز. فإن قيل:

(١) سورة هود، الآية: ١١٣.
(٢) سورة الجن، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

أيجوز أن يقال العفطة ها هنا الحبقة؟ فإن ذلك يقال في العنز خاصة، عَفَطتْ تعفط. قيل: ذلك جائز، إلا أن الأحسن والأليق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام التفسير الأول، فإن جلالته وسؤدده تقتضي أن يكون ذاك أراد لا الثاني. فإن صحّ أنه لا يقال في العَطْسة عَفْطة إلا للنعجة. قلنا: إنه استعمله في العنز مجازاً.

يقول عليه السلام: لولا وجود مَنْ ينصرني - لا كما كانت الحال عليها أوّلاً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّي لم أكن حينئذ واجداً للناصر مع كوني مكلّفاً ألاّ أمكِّن الظالم من ظلمه - لتركت الخلافة، ولرفضتها الآن كما رفضتها قبل، ولوجدتم هذه الدنيا عندي أهون من عَطْسة عنز، وهذا إشارة إلى ما يقوله أصحابنا من وجوب النهي عن المنكر عند التمكن.

الأصل: قَالُوا: وَقَام إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا ٱلْمَوْضِعِ مِن خُطْبَتِهِ، فَنَاوَلَهُ كِتَاباً فَأَقْبَلَ ينظر فِيهِ، فلمّا فرغ من قراءته قَالَ لَهُ ٱبْنُ عباس رضي الله عنهما: يَا أمير ٱلْمُؤْمِنِينَ، لَوِ اطَّردتْ مَقَالَتُكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ! فَقَالَ: هَيْهَاتَ يا ابن عباسٍ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ.

قَالَ ابن عبّاسٍ: فَوَالله مَا أَسِفْتُ عَلَى كَلاَمٍ قطُّ كَأَسَفِي عَلَى هَذَا ٱلْكَلاَمِ أَلا يَكُونَ أَمِيرُ ٱلْمُؤمنين بلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ.

قوله عليه السلام فِي هَذِهِ ٱلْخُطْبَةِ: «كَرَاكِبِ ٱلصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ وَإِنْ اسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ» يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا شَدَّدَ عَلَيْهَ فِي جَذْبِ ٱلزِّمامِ وَهِيَ تُنَازِعُهُ رَأْسَهَا خَرَمَ أَنْفَهَا، وَإِنْ ارْخَى لَهَا مَعَ صُعُوبَتِهَا تَقَحَّمَتْ بِهِ فَلَمْ يَمْلِكْهَا. يُقَالُ: أَشْنَقَ ٱلنَّاقَةَ إِذَا جَذَبَ رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ فَرَفَعَهُ، وَشَنَقَهَا أَيْضاً، ذَكَرَ ذَلِكَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ فِي «إِصْلاَحِ ٱلْمَنْطِقِ». وَإِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ: «أَشْنَقَ لَهَا» وَلَمْ يَقُلْ «أَشْنَقَهَا» لأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: «أَسْلَسَ لَهَا»، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ رَفَعَ لَهَا رَأْسَهَا بِالزِّمَامِ يعني أَمْسَكَهُ عَلَيْهَا. وَفِي ٱلْحَدِيثِ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله خَطَبَ عَلَى نَاقة وَقَدْ شَنَقَ لَهَا فَهِيَ تَقْصَعُ بِجِرَّتِهَا(١).

وَمِن ٱلشَّاهِد عَلَى أَنَّ «أَشْنَقَ» بِمَعْنَى شَنَقَ قَوْلُ عديِّ بن زَيْدٍ ٱلْعبَادِيّ:

سَاءَهَا مَا لَهَا تَبَيَّنَ فِي ٱلأيْـ ـدِي وَإِشْنَاقُهَا إِلَى ٱلأَعْنَاقِ

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٠٦٧)، وأحمد في «مسنده» (١٥٤٥٦).

الشرح: سميَ السواد سواداً لخضرته بالزروع والأشجار والنخل، والعرب تسمى الأخضر أسود، قال سبحانه: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾(١) يريد الخضرة. وقوله: «لو اطّردت مقالتك»، أي أتبعتَ الأوّلَ قولاً ثانياً! من قولهم اطّرد النهر، إذا تتابع جريهُ.

وقوله: «من حيث أفضيت» أصل أفضى خرجَ إلى الفضاء، فكأنه شبّهه عليه السلام حيث سكت عما كان يقوله، بمن خرج من خبَاء أو جدار إلى فضاء من الأرض، وذلك لأنّ النفس والقُوى والهمة عند ارتجال الخطب والأشعار تجتمع إلى القلب، فإذا قُطع الإنسان وفرغ، تفرقت وخرجت عن حجر الاجتماع واستراحت. والشّقشقة، بالكسر فيهما: شيء يُخرجه البعير من فيه إذا هاج، وإذا قالوا للخطيب: ذو شقشقة فإنما شبّهوه بالفحل. والهدير: صوتها.

وأما قول ابن عباس: «ما أسِفْت على كلام..» إلى آخره، فحدثني شيخي أبو الخير مصدّق بن شبيب الواسطيّ في سنة ثلاث وستمائة، قال قرأتُ على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة، فلما انتهيتُ إلى هذا الموضع، قال لي: لو سمعتُ ابن عباس يقول هذا لقلت له: وهل بَقِيَ في نفس ابن عمك أمرٌ لم يبلغه في هذه الخطبة لتتأسف ألا يكون بلغ من كلامه ما أراد! والله ما رجع عن الأولين ولا عن الآخرين، ولا بَقي في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال مصدّق: وكان ابن الخشاب صاحبَ دعابة وهزل. قال: فقلت له: أتقول إنها منحولة! فقال: لا والله، وإني لأعلم أنها كلامه، كما أعلم أنك مصدّق. قال: فقلت له: إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضيّ رحمه الله تعالى. فقال: أنى للرضيّ ولغير الرضيّ هذا النَّفَس وهذا الأسلوب! قد وقفنا على رسائل الرضيّ، وعرفنا طريقته وفَنّه في الكلام المنثور، وما يقع مع هذا الكلام في خَلٍّ ولا خَمْر. ثم قال: والله لقد وقفتُ على هذه الخطبة في كتب صُنِّفت قبل أن يخلق الرضيّ بمائتي سنة، ولقد وجدتُها مسطورة بخطوط أعرفها، وأعرف خطوط مَنْ هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيبُ أبو أحمد والد الرَضيّ.

قلت: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخيّ إمام البغداديين من المعتزلة، وكان في دولة المقتدر قبل أن يُخلق الرضيّ بمدة طويلة. ووجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بنِ قِبّة أحد متكلّمي الإمامية وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب «الإنصاف». وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى، ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضيّ رحمه الله تعالى موجوداً.

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٦٤.

٤ - ومن خطبة له عليه السلام في هداية الناس وكمال يقينه

الأصل: بِنَا ٱهْتَدَيْتُمْ فِي ٱلظَّلْمَاءِ، وَتَسَنَّمْتُم ٱلعَلْيَاء. وَبِنَا ٱنْفَجَرْتُمْ عَنِ ٱلسِّرَار. وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ ٱلوَاعِيَةَ، وَكَيْفَ يُرَاعِي ٱلنَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْه ٱلصَّيْحَةُ! رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ ٱلْخَفَقَانُ.

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ ٱلغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ ٱلْمُغْتَرِّينَ، سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ ٱلدِّينِ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ ٱلنِّيَّةِ.

أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ ٱلحَقِّ فِي جَوَادِّ ٱلمَضَلَّةِ، حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلاَ دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلاَ تُمِيهُونَ. ٱلْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ ٱلعَجْمَاءَ ذَاتَ ٱلْبَيَانِ.

عَزَبَ رَأْيُ ٱمْرِيءٍ تَخَلَّفَ عَنِّي، مَا شَكَكْتُ فِي ٱلْحَقِّ مُذْ أُرِيتُه.

لَمْ يُوجِسْ مُوسَى خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ ٱلْجُهَّالِ وَدُوَلِ ٱلضَّلاَلِ. ٱلْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ. مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ.

الشرح: هذه الكلمات والأمثال ملتقَطة من خطبة طويلة منسوبة إليه عليه السلام، قد زاد فيها قوم أشياء حملتْهم عليها أهواؤهم، لا توافق ألفاظُها طريقته عليه السلام في الخطب، ولا تناسب فصاحتُها فصاحتَه، ولا حاجة إلى ذكرها فهي شهيرة. ونحن نشرح هذه الألفاظ، لأنها كلامُه عليه السلام، لا يشكّ في ذلك مَنْ له ذوق ونقد ومعرفة بمذاهب الخطباء والفصحاء في خُطَبهم ورسائلهم، ولأنّ الرواية لها كثيرة، ولأن الرضيّ رحمة الله تعالى عليه قد التقَطها ونسبَها إليه عليه السلام، وصحّحها وحذف ما عداها.

وأما قوله عليه السلام: «بنا اهتديتم في الظُّلماء»، فيعني بالظلماء الجهالة، وتَسَنَّمتم العلياء: ركبتم سنامها، وهذه استعارة.

قوله: «وبنا انفجرتم عن السِّرار»، أي دخلتم في الفَجْر، والسِّرار: الليلة والليلتان يستتر فيهما القمر في آخر الشهر فلا يظهر. وروى «أفجرتم»، وهو أفصح وأصحّ، لأن «انفعل» لا يكون إلا مطاوع «فعل»، نحو كسرته فانكسر، وحطمته فانحطم، إلا ما شذَّ من قولهم: أغلق الباب فانغلق وأزعجته فانزعج. وأيضاً فإنه لا يقع إلا حيث يكون علاج وتأثير، نحو انكسر وانحطم، ولهذا قالوا: إن قولهم: انعدم خطأ، وأما «أفعل» فيجيء لصيرورة الشيء على حال وأمر، نحو أغدَّ البعير، أي صار ذا غُدَّة، وأجرَب الرجل، إذا صار ذا إبلٍ جَرْبى، وغير ذلك. فأفجرتم، أي صرتم ذوي فجر.

وأما «عن» في قوله: «عن السرار» فهي للمجاوزة على حقيقة معناها الأصليّ، أي منتقلين عن السرار ومتجاوزين له.

وقوله عليه السلام: «وقر سمع» هذا دعاء على السمع الذي لم يفقه الواعية بالثّقل والصَّمَم، وقِرت أُذُنُ زيد، بضم الواو فهي موقورة، والوَقْر، بالفتح: الثّقَل في الأذن، وَقِرَتْ أذنُه - بفتح الواو وكسر القاف - تَوْقَر وَقْراً أي صَمّت، والمصدر في هذا الموضع جاء بالسّكون، وهو شاذّ، وقياسه التحريك بالفتح، نحو ورِم وَرَماً. والوَاعية: الصارخة، من الوُعاء، وهو الجَلَبة والأصوات، والمراد العبر والمواعظ.

قوله: «كيف يُرَاعِي النبأة»، هذا مثل آخر، يقول: كيف يلاحظ ويراعي العِبَر الضعيفة مَنْ لم ينتفع بالعِبَر الجليّة الظاهرة، بل فسد عندها، وشبّه ذلك بمن أصَمَّتْهُ الصَّيْحة القوية، فإنّه محال أن يراعي بعد ذلك الصوت الضعيف. والنبأة: هي الصوت الخفيّ.

فإن قيل: هذا يخالف قولكم: إنّ الاستفساد لا يجوز على الحكيم سبحانه، فإنّ كلامه عليه السلام صريح في أنّ بعض المكلّفين يفسد عند العبر والمواعظ.

قيل: إن لفظة «أفعل» قد تأتي لوجود الشيء على صفة، نحو أحمدته، إذا أصبته محموداً. وقالوا: أَحْيَيْتُ الأرض، إذا وجدتّها حية النبات، فقوله: «أَصَمَّتْهُ الصيحة»، ليس معناه أنّ الصيحة كانت علّة لصممه، بل معناه صادفته أصمَّ، وبهذا تأول أصحابنا قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(١).

قوله: «رُبط جَنَان لم يفارقْه الخَفَقان»، هذا مثل آخر، وهو دعاء لقلب لا يزال خائفاً من الله يخفُق بالثبوت والاستمساك.

قوله: «ما زلت أنتظر بكم»، يقول: كنت مترقباً غدرَكم متفرّساً فيكم الغَرَر، وهو الغفلة.

وقيل: إنّ هذه الخطبة خَطَبها بعد مقتل طلحة والزبير، مخاطباً بها، لهما ولغيرهما من أمثالهما، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر، بعد قَتْل من قريش: «يا عُتْبة بنَ ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا عمرو بن هشام»(٢)، وهم جِيَف منتنة قد جُرّوا إلى القَلِيب.

قوله: «سَترني عنكم»، هذا يحتمل وجوهاً، أوضحها أنّ إظهارَكم شعار الإسلام عصمكم منّي مع علمي بنفاقكم، وإنما أبصرت نفاقكم وبواطنكم الخبيثة بصِدْقِ نِيَّتي. كما يقال: المؤمن يُبْصر بنور الله. ويحتمل أن يريد: سترني عنكم جلبابُ ديني، ومنعني أن أعرّفكم نفسي وما أقدر عليه من عَسْفكم، كما تقول لمن استهان بحقّك: أنت لا تعرفُني ولو شئت لعرّفْتك نفسي.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٩٧٦)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٥).

وفسّر القُطْب الراونديّ قوله عليه السلام: «وبَصَّرنيكمْ صدقُ النية»، قال: معناه أنّكم إذا صدقتم نياتكم، ونظرتم بأعين لم تطرَفْ بالحسد والغشّ وأنصفتُموني، أبصرتم عظيمَ منزلتي.

وهذا ليس بجيّد، لأنه لو كان هو المراد لقال: وبصّركم إيّاي صدقُ النية، ولم يقل ذلك، وإنما قال: «بَصَّرنيكم»، فجعل صدقَ النيّة مبصِّراً له لا لهم. وأيضاً فإنّه حكم بأنّ صدقَ النية هو علّة التبصير، وأعداؤه لم يكن فيهم صادق النية، وظاهر الكلام الحكْم والقطع، لا التعليق بالشرط.

قوله: «أقمت لكم على سنَن الحق»، يقال: تنحّ عن سَنَن الطريق وسُنن الطريق بفتح السين وضمها، فالأول مفرد والثاني جمع سُنّة، وهي جادّة الطريق والواضح منها. وأرض مَضَلّة ومَضِلّة، بفتح الضادِ وكسرها: يضلّ سالكها. وأماهَ المحتفِر يميه، أنبط الماء. يقول: فعلتُ من إرشادكم وأمرِكم بالمعروف ونهيكم عن المنكر ما يجب على مثلي، فوقفت لكم على جادّة الحق ومنهجه، حيث طرُق الضلال كثيرة مختلفة من سائر جهاتي، وأنتم تائهون فيها تلتقون، ولا دليل لكم، وتحتفرون لتجدوا ماء تنقعون به غُلّتكم فلا تظفرون بالماء، وهذه كلُّها استعارات.

قوله: «اليوم أنطق»، هذا مثَلٌ آخر. والعجْماء: التي لا نطق لها، وهذا إشارة إلى الرموز التي تضمّنها هذه الخطبة، يقول: هي خفية غامضة، وهي مع غموضها جليّة لأولى الألباب، فكأنها تنطق كما ينطق ذوو الألسنة، كما قيل: ما الأمور الصامتة الناطقة؟ فقيل: الدلائل المخبرة والعبَر الواعظة. وفي الأثر: سل الأرضَ: مَنْ شقَّ أنهارك، وأخرج ثمارَك؟ فإن لم تُجبك حواراً، أجابتْك اعتباراً.

قوله: «عزبَ رأيُ امريءِ تخلف عَنِّي» هذا كلام آخر، عزب، أي بعد، والعازب: البعيد. ويحتمل أن يكونَ هذا الكلام إخباراً وأن يكون دعاء، كما أنّ قوله تعالى: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[1] يحتمل الأمرين.

قوله: «ما شكَكْتُ في الحق مذ رأيته»، هذا كلام آخر، يقول: معارفي ثابتة لا يتطرّق إليها الشكّ والشبهة.

قوله: «لم يوجس موسى»، هذا كلام شريف جدًّا، يقول: إن موسى لما أوجسَ الخيفة، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[2]، لم يكن ذلك الخوفُ على نفسه، وإنما خاف من الفتنة والشُّبْهة الداخلة على المكلّفين عند إلقاء السحرة عصيَّهم، فخيِّل إليه من سحرهم أنّها تسعى، وكذلك أنا لا أخافُ على نفسي من الأعداء الذين نَصَبُوا ليَ الحبائل،

(١) سورة النساء، الآية: ٩٠. (٢) سورة طه، الآية: ٦٧.

وأرصدوا ليَ المكائد، وسعّروا عليّ نيران الحرب، وإنما أخاف أن يفتّتن المكلّفون بشُبهم وتمويهاتهم، فتقوى دولةُ الضلال، وتغلب كلمة الجهال.

قوله: «اليوم تواقفنا»، القاف قبل الفاء، تواقّف القوم على الطريق، أي وقفوا كلّهم عليها، يقول: اليوم اتّضح الحق والباطل، وعرفناهما نحن وأنتم.

قوله: «مَنْ وثِق بماء لم يظمأ»، الظمأ الذي يكون عند عدم الثقة بالماء وليس يريد النفيَ المطلق، لأن الواثق بالماء قد يظمأ، ولكن لا يكون عطشه على حدّ العطش الكائن عند عدم الماء، وعدم الوثوق بوجوده، وهذا كقول أبي الطيب:

وما صَبابَةُ مُشْتاقٍ عَلى أَمَلٍ مِنَ اللِّقاءِ كَمُشْتاقٍ بِلاَ أَمَلِ

والصائم في شهر رمضان يُصبح جائعاً تنازعه نفسه إلى الغِذاء، وفي أيام الفِطْر لا يجد تلك المنازعة في مثل ذلك الوقت، لأنّ الصائم ممنوع، والنفس تحرِصُ على طلب ما مُنعت منه، يقول: إن وثقتم بي وسكنتم إلى قولي كنتم أبعدَ عن الضَّلال وأقربَ إلى اليقين وثَلَج النفس، كمن وثِق بأنّ الماء في إداوته، يكون عن الظمأ وخوف الهلاك من العطش أبعدَ مِمّن لم يثقْ بذلك.

٥ - ومن كلام له عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة

الأصل: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ ٱلْفِتَنِ بِسُفُنِ ٱلنَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ ٱلْمُنَافَرَةِ، وضَعُوا تِيجَانَ ٱلْمُفَاخَرَةِ. أفلح مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ ٱسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ. مَاءٌ آجِنٌ، ولُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا. ومُجْتَنِي ٱلثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ، فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى ٱلْمُلْكِ، وإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ ٱلْمَوْتِ.

هَيْهَاتَ بَعْدَ ٱللَّتَيَّا والَّتِي! وَٱللهِ لاَبْنُ أَبي طَالِبٍ آنَسُ بالْمَوْتِ مِنَ ٱلطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ ٱنْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاَضْطَرَبْتُمْ ٱضْطِرَابَ ٱلْأَرْشِيَةِ فِي ٱلطَّوِيِّ ٱلْبَعِيدَةِ.

الشرح: المفاخرة: أن يذكر كلّ واحد من الرجُلين مفاخره وفضائله وقديمه، ثم يتحاكما إلى ثالث. والماء الآجن: المتغيِّر الفاسد، أجَنَ الماء، بفتح الجيم، يأجِن ويأجُن، بالكسر والضم. والإيناع: إدراكُ الثمرة. واللّتيا: تصغير التي، كما أن اللّذيا تصغير الذي.

واندمجت: انطويت. والطوِيّ: البئر المطويّة بالحجارة. يقول: تخلّصُوا عن الفتنة وانْجُوا منها بالمتاركة والمسالمة والعدول عن المنافرة والمفاخرة.

أفلح مَنْ نهض بجناح، أي مات، شبَّه الميّت المفارقَ للدنيا بطائر نهضَ عن الأرض بجناحه. ويحتمل أن يريد بذلك: أفلح مَن اعتزل هذا العالم، وساح في الأرض منقطعاً عن تكاليف الدنيا. ويحتمل أيضاً أن يريد: أفلح مَنْ نهض في طلب الرياسة بناصر ينصره، وأعوان يجاهدون بين يديه، وعلى التقادير كلّها تنطبق اللفظةُ الثانية، وهي قوله: «أو استسلم فأراح»، أي أراح نفسه باستسلامه.

ثم قال: الإمْرَة على الناس وخيمة العاقبة، ذات مشقّة في العاجلة، فهي في عاجلها كالماء الآجن يجدُ شاربه مَشقّة، وفي آجلها كاللقمة التي تَحْدُث عن أكلها الغُصّة. ويَغَصّ مفتوح حرف المضارعة ومفتوح الغين، أصله: «غَصِصْت» بالكسر. ويحتمل أن يكون الأمران معاً للعاجلة، لأن الغَصَص في أول البلع، كما أن ألم شرب الماء الآجن يحدث في أول الشرب. ويجوز ألاّ يكون عَنَى الإمْرة المطلقة، بل هي الإمْرة المخصوصة، يعني بيعةَ السقيفة.

ثم أخذ في الاعتذار عن الإمساك وترك المنازعة، فقال: مجتنِي الثمرة قبل أن تُدْرِك لا ينتفع بما اجتناه، كمن زرع في غير أرضه، ولا ينتفع بذلك الزرع، يريد أنّه ليس هذا الوقت هو الوقت الذي يَسُوغ لي فيه طلب الأمر، وأنّه لم يَأْن بعد.

ثم قال: قد حَصَلْت بين حالين، إن قلتُ، قال الناس: حَرَص على المُلْك، وإن لم أقل، قالوا: جَزِع من الموت.

قال: هيهات، استبعاداً لظنّهم فيه الجزع. ثم قال: «اللّتيا والّتي»، أي: أبَعْد اللّتيا والتي أجزع! أبَعْدَ أن قاسيتُ الأهوال الكبار والصغار، ومُنِيت بكل داهية عظيمة وصغيرة! فاللّتيّا للصغيرة والّتي للكبيرة.

ذكر أنّ أُنْسَه بالموت كأُنسِ الطفل بثدي أمه، وأنّه انطوى على علم هو ممتنع لموجبه من المنازعة، وأنّ ذلك العلم لا يُباح به، ولو باح به لاضطرب سامعوه كاضطراب الأرشِية - وهي الحبال - في البئر البعيدة القعر، وهذا إشارة إلى الوصيّةِ التي خُصَّ بها عليه السلام. إنه قد كان من جملتها الأمر بترك النزاع في مبدأ الاختلاف عليه[1].

---

(١) ولعله الجراب الثالث من العلم الذي ورثه أبو هريرة والذي اختصه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه الكرام وآل بيته الأطهار. ولعله جوهر العلم الذي أشار إليه سيدنا الإمام علي زين العابدين بقوله:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثن

والله أعلم.

أقسام الاستعارات

واعلم أن أحسنَ الاستعارات ما تضمّن مناسبةً بين المستعار والمستعار منه، كهذه الاستعارات، فإنّ قوله عليه السلام: «شُقُّوا أمواجَ الفِتَن بسفُن النجاة» من هذا النوع، وذلك لأن الفتن قد تتضاعف وتترادف، فحسُنَ تشبيهها بأمواج البحر المضطربة. ولما كانت السفن الحقيقيّة تنجّي من أمواج البحر، حَسُن أن يستعار لفظُ السُّفن لما ينجّي من الفِتن. وكذلك قوله: «وضعوا تيجان المفاخرة»، لأنّ التاج لما كان مما يعظُم به قَدْر الإنسان استعاره لما يتعظّم به الإنسان من الافتخار وذكر القديم وكذلك استعارة النهوض بالجناح لمن اعتزل الناس، كأنه لما نفض يديه عنهم صار كالطائر الذي ينهض من الأرض بجناحيه.

وفي الاستعارات ما هو خارج عن هذا النوع، وهو مستقبح، وذلك كقول أبي نواس:

بُحّ صَوْتُ المالِ مِمّا ... مِنْكَ يَبْكي وَيَنُوحُ

وكذلك قوله:

مَا لرجْلِ المال أضحتْ ... تَشْتَكي مِنْكَ الكَلاَلاَ

وقول أبي تمام:

وكَمْ أحْرَزَتْ مِنْكُمْ على قُبْحِ قَدّها ... صرُوفُ النَّوى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَن القَدِّ

وكقوله:

بلَوْنَاكَ، أمَا كَعْبُ عِرْضِكَ في العلا ... فَعَالٍ، ولكن خدّ مالك أسْفَلُ

فإنه لا مناسبة بين الرِّجْل والمال، ولا بين الصوت والمال، ولا معنى لتصييره للنّوى قدّاً، ولا للعِرْض كعباً، ولا للمال خدّاً.

وقريب منه أيضاً قوله:

لاَ تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلاَمِ فَإِنّني ... صَبٌّ قَدِ ٱسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بكائِي

ويقال: إن مَخْلَداً الموصلّي بعث إليه بقارورة يسأله أن يبعث له فيها قليلاً من ماء الملام، فقال لصاحبه: قل له يبعثُ إليّ بريشة من جَناح الذّل لأستخرج بها من القارورة ما أبعثه إليه.

وهذا ظلم من أبي تمام لمخلَد، وما الأمرانِ سواء، لأنّ الطائر إذا أعيا وتعب ذلّ وخفض جناحيه، وكذلك الإنسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلاً، ويدُه جناحه، فذاك هو الذي حَسّن قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾[1] ألا ترى أنه لو قال: واخفضْ لهما ساق الذّل، أو بطن الذُّلّ لم يكنْ مستحسناً!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

ومن الاستعارة المستحسنة في الكلام المنثور، ما اختاره قُدامة بن جعفر في كتاب «الخراج» نحو قول أبي الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة في جوابه لأبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله، لما كتب بإنفاذ ابنته قَطْر الندى التي تزوّجها المعتضد، وذلك قول ابن ثوابة هذا: وأمّا الوديعةُ فهي منزلة ما انتقَل من شِمالك إلى يمينك، عنايةً بها وحِياطة لها، ورعايةً لمودتك فيها.

وقال ابنُ ثوابة لمّا كتب هذا الكتاب لأبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد: والله إنّ تسميتي إياها بالوديعة نصفُ البلاغة.

وذكر أحمدُ بن يوسف الكاتب رجلاً خلا بالمأمون، فقال: ما زال يفتِلُه في الذّرْوة والغارِب حتى لفَتَه عَن رأيه.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلّي: النبيذ قَيْد الحديث.

وذكر بعضهم رجلاً فذمَّه، فقال: هو أمْلس ليسَ فيه مستقرٌّ لخير ولا شر.

ورَضيَ بعض الرؤساء عن رجل من موجِدة، ثم أقبل يوبّخه عليها، فقال: إنْ رأيت ألاّ تخدش وجهَ رضاك بالتوبيخ فافعل.

وقال بعض الأعراب: خرجنا في ليلةٍ حِنْدس[1]، قد ألقتْ على الأرض أكارِعَها، فمحت صورة الأبدان، فما كنّا نتعارف إلا بالآذان.

وغزت حنيفة نُميراً، فأتبعتْهم نُمير فأتوْا عليهم، فقيل لرجل منهم: كيف صنع قومُك؟ قال: اتّبعوهم والله، وقد أحْقبُوا كل جُمَالِيّة خَيْفَانة، فما زالوا يخصِفُون آثار المطيّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم، فجعلوا المُرّان أرشيةَ الموت، فاستقوْا بها أرواحهم.

ومن كلامٍ لعبد الله بن المعتزّ، يصف القلم: يخدُم الإرادَة، ولا يملّ الاستزادة، ويسكُت واقفاً، وينطقُ سائراً، على أرضٍ بياضها مظلم، وسوادُها مضيء.

فأمّا القطب الراونديّ فقال: قوله عَلَيْتَلِا: «شُقّوا أمواج الفتن بسفُن النجاة» معناه: كونوا مع أهل البيت لأنّهم سفن النجاة، لقوله عَلَيْتَلِا: «مثلُ أهل بيتي كسفينة نوح، مَنْ ركبها نجا، ومَنْ تخلّف عنها غَرق»[2].

(١) ليلة حندس: أي مظلمة. القاموس، مادة (حندس).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٣٩٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٣٧٢).

ولقائل أن يقول: لا شبهةَ أنّ أهلَ البيت سفُنُ النّجاة، ولكنّهم لم يُرادوا هاهنا بهذه اللفظة، لأنّه لو كان ذلك هو المراد، لكان قد أمر أبا سفيان والعباس بالكون مع أهل البيت، ومرادُه الآن ينقُض ذلك، لأنّه يأمر بالتقيّة وإظهار اتباع الذين عُقِد لهم الأمر، ويروى أنّ الاستسلام هو المتعيّن، فالذي ظنّه الراونديّ لا يحتمله الكلامُ ولا يناسبه.

وقال أيضاً: التعريجُ على الشيء: الإقامة عليه، يقال: عرَّج فلان على المنزل، إذا حبس نفسه عليه، فالتقدير: عَرِّجوا على الاستقامة منصرِفين عن المنافرة.

ولقائل أن يقول: التعريج يُعَدّى تارة بـ«عن» وتارة بـ«على»، فإذا عدّيته بعن أردت التجنّب والرفض، وإذا عدّيته بـ«على» أردت المقام والوقوف، وكلامه عليه السلام معدّى بـ«عن». قال: «وعرّجوا عن طريق المنافرة».

وقال أيضاً: «آنس بالموت» أي أسَرُّ به، وليس بتفسير صحيح، بل هو من الأنس ضدّ الوحشة.

من احق بالخلافة بعد النبي؟

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، واشتغل عليّ عليه السلام بغسله ودفنه، وبُويع أبو بكر، خلا الزبير وأبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعبّاس وعليّ عليه السلام لإجالة الرّأي، وتكلّموا بكلام يقتضي الاستنهاضَ والتهييج، فقال العباس رضي الله عنه: قد سمعنا قولَكم فلا لِقِلّة نستعين بكم، ولا لِظنّةٍ نترك آراءكم، فأمهلونا نراجع الفكر، فإن يَكنْ لنا من الإثم مخرج يصرّ بنا وبهم الحقّ صَرِير الجُدْجُد[1]، ونبسط إلى المجد أكفًّا لا نقبضُها أو نبلغَ المدى، وإن تكن الأخرى، فلا لِقلّة في العدد ولا لوَهَنٍ في الأيْد، والله لولا أن الإسلام قَيّد الفتك، لَتَدكْدَكت جنادل صخر يسمع اصطكاكها من المحل العليّ.

فحلّ علي عليه السلام حَبْوته[2]، وقال: الصَّبْر حلم، والتقوى دين، والحجّة محمد، والطريق الصراط. أيها الناس شُقّوا أمواج الفتن.. الخطبة. ثم نهض فدخل إلى منزله وافترق القوم.

وقال البَراء بن عازب: لم أزل لبني هاشم محبًّا، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله خِفْتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العَجُول، مع ما في نفسي

(١) الجُدجُد: حيوان كالجراد يصوت بالليل. اللسان، مادة (جدد).
(٢) الحبوة: أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما مع ظهره ويشده عليهما. وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب، اللسان، مادة (حبو).

من الحُزن لوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فكنت أتردّد إلى بني هاشم وهم عند النبي صلى الله عليه وآله في الحجرة، وأتفقّد وجوهَ قريش، فإنّي كذلك إذْ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائل يقول: القومُ في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بُويع أبو بكر، فلم ألبث، وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة، وهو محتجزون بالأزر الصنعانيّة لا يمرُّون بأحد إلا خبطوه، وقدّموه فمدُّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أو أبى، فأنكرتُ عقلي، وخرجت أشتدُّ حتى انتهيتُ إلى بني هاشم، والباب مغلق، فضربت عليهم الباب ضرباً عنيفاً، وقلت: قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قُحافة. فقال العباس: تَرِبَتْ أيديكم إلى آخر الدهر، أما إنّي قد أمرتُكم فعصيتُموني: فمكثتُ أكابِد ما في نفسي، ورأيت في الليل المِقْداد وسلمان وأبا ذَرّ وعبادة بن الصامت وأبا الهيثم بن التَّيِّهان وحُذَيفة وعَمّاراً، وهم يريدون أن يُعِيدوا الأمْرَ شورى بين المهاجرين.

وبلغ ذلك أبا بكر وعمر، فأرسلا إلى أبي عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة، فسألاهما عن الرأي، فقال المغيرة: الرأيُ أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولولده في هذه الإمْرة نصيباً، ليقطعوا بذلك ناحية عليّ بن أبي طالب.

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة، حتى دَخلوا على العباس، وذلك في الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فحمِد أبو بكر الله وأثنى عليه، وقال:

إن الله ابتعث لكم محمداً صلى الله عليه وآله نبيًّا، وللمؤمنين وليًّا، فمنّ عليهم بكونه بين ظَهْرانيهم، حتى اختار له ما عنده، فخلَّى على الناس أمورَهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين، فاختاروني عليهم والياً، ولأمورهم راعياً، فتولّيت ذلك، وما أخاف بعوْنِ الله وتسديده وَهْناً ولا حَيْرة ولا جبناً، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أنيب. وما أنفكُّ يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامّة المسلمين، يتخذكم لجأ فتكونون حصنه المنيع، وخطبه البديع، فإمّا دخلتم فيما دخل فيه الناس، أو صرفتموهم عَمّا مالوا إليه. فقد جئناك، ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً، ولمن بعدك من عقبك، إذ كنت عمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومكان أهلِك، ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم. وعلى رِسْلِكُم بني هاشم، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله منّا ومنكم.

فاعترض كلامه عمر، وخرج إلى مذهبه في الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته، فقال: إي والله. وأخرى: إنّا لم نأتكم حاجةً إليكم، ولكنْ كرهنا أن يكونَ الطعنُ فيما اجتمع عليه المسلمون منكم، فيتفاقمَ الخطب بكم وبهم. فانظروا لأنفسكم ولعامّتهم. ثم سكت.

فتكلم العباس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ الله ابتعث محمداً نبيًّا كما وصفت، ووليًّا للمؤمنين، فمنّ الله به على أمته حتى اختار له ما عنده، فخلّى الناس على أمرهم ليختاروا لأنفسهم، مصيبين للحقّ، مائلين عن زَيْغ الهوى، فإن كنت برسول الله طلبت فحقّنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم، ما تقدّمنا في أمركم فرَطاً، ولا حللنا وسطاً، ولا نزحنا شَحَطاً، فإن كان هذا الأمرُ يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين. وما أبعد قولك: إنّهم طعنوا من قولك إنهم مالوا إليك! وأما ما بذلْت لنا، فإن يكنْ حَقّك أعطيْتناه فأمْسِكه عليك، وإن يكن حقَّ المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه، وإن يكن حقًّا لم نرض لك ببعضه دون بعض. وما أقول هذا أروم صُرفَك عمّا دخلتَ فيه، ولكن للحجّة نصيبها من البيان. وأما قولُك: إن رسول الله ﷺ منّا ومنكم، فإنّ رسول الله ﷺ من شجرة نحن أغصانها، وأنتُم جيرانها. وأما قولك يا عمر: إنّك تخاف الناس علينا، فهذا الذي قدمتموه أوَّل ذلك، وبالله المستعان.

لما اجتمع المهاجرون على بَيْعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: أما والله إني لأرَى عجاجة لا يطفئها إلا الدم، يا لَعبد مناف، فيم أبو بكر من أمركم! أين المستضعفان؟ أين الأذلّان؟ يعني علياً والعباس. ما بالُ هذا الأمر في أقلّ حيّ من قريش. ثم قال لعليّ: ابسط يدك أبايعك، فوالله إن شئت لأملأنّها على أبي فصيل - يعني أبا بكر - خَيْلاً ورَجلاً. فامتنع عليه عليّ عليه السلام، فلما يئس منه قام عنه وهو ينشد شعر المتلمّس:

وَلاَ يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرادُ بِهِ … إلاّ ٱلأذلاّنِ، عَيْرُ الحيّ والْوتِدُ

هذا على الخَسْفِ مربوط برُمَّتِهِ … وَذَا يُشَجُّ فلا يَرْثِي لهُ أحَدُ

قيل لأبي قُحافة يوم ولي الأمرَ ابنُه: قد ولي ابنك الخلافة، فقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾(١)، ثم قال: لم ولّوه؟ قالوا: لسنّه، قال: أنا أسنّ منه.

نازع أبو سفيان أبا بكر في أمر فأغلظ له أبو بكر، فقال له أبو قحافة: يا بنيّ، أتقول هذا لأبي سُفيان شيخِ البطحاء! قال: إن الله تعالى رَفع بالإسلام بيوتاً، ووضع بيوتاً، فكان ممّا رفع بيتُك يا أبت، ومما وضع بيتُ أبي سفيان.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

٦ - ومن كلام له لما أشير عليه بالا يتبع طلحة والزبير ولا يُرْصد لهما القتال

الأصل: وَٱللهِ لاَ أَكُونُ كَالضَّبُعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ ٱللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُهَا، ولَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُدْبِرَ عَنْهُ، وَبِالسَّامِعِ ٱلْمُطِيعِ العَاصِيَ ٱلْمُرِيبَ أَبداً، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي، فَوَٱللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ ٱللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَوْمِ ٱلنَّاسِ هَذَا.

الشرح: يقال: أرصد له بشرّ، أي أعدّ له وهيأه، وفي الحديث: «إلاّ أنْ أرصُدَه لِدَيْنٍ عليّ»[(١)].
واللَّدْم: صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الأرض ضرباً ليس بشديد.

ولما شرح الراونديّ هذه اللفظات، قال: وفي الحديث: «والله لا أكون مثل الضَّبُع تسمَعُ اللَّدْم حتى تخرج فتُصاد»[(٢)]، وقد كان - سامحه الله - وقت تصنيفه الشّرح ينظر في «صحاح الجوهريّ»[(٣)] وينقل مِنها، فنقل هذا الحديث ظنًّا منه أنه حديث عن رسول الله ﷺ، وليس كما ظنّ، بل الحديث الذي أشار إليه الجوهريُّ هو حديث عليّ عليه السلام الذي نحن بصدد تفسيره.

ويختلها راصدها: يخدعها مترقبها، ختلتُ فلاناً: خدعتَه. ورصدته: ترقبته. ومستأثَراً عليّ، أي مستبَدًّا دوني بالأمر، والاسم الأثرَة، وفي الحديث: إنّه ﷺ، قال للأنصار: «ستلقوْن بعدي أثْرَة، فإذا كان ذلك فاصبروا حتى تَرِدُوا عَلَيّ الحوض»[(٤)]. والعرب تقول في رموزها وأمثالها: أحمق من الضبُع، ويزعمون أنّ الصائد يدخل عليها وِجَارَها، فيقول لها: أطرقي أمّ طُرَيْق، خامري أمّ عامر، ويكرر ذلك عليها مراراً. معنى أطرِقي أمَّ طُرَيْق طأطِئي رأسك، وكناها أمَّ طُرَيْقٍ لكثرة إطراقها، على «فُعَيْل» كَالقُبَيْط للناطف، والعُلَيْق لنبْت. ومعنى

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: مت أجاب بلبيك وسعديك (٦٢٦٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩١).
(٢) ذكره ابن منظور في لسان العرب: ١٢/ ٥٣٩.
(٣) «الصحاح في اللغة»: للإمام أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، المتوفى سنة (٣٩٣هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٠٧١).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان (٤٣٣٠)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١).

«خامري» الزمي وجَارك واستتري فيه، خامر الرجلُ منزلَه إذا لزمه. قالوا: فتلجأ إلى أقصى مغارها وَتَتَقَبَّض، فيقول: أمّ عامر ليْست في وِجارها، أم عامر نائمة، فتمدّ يديْها ورجليها وتستلقي، فيدخل عليها فيوثقها، وهو يقول لها: أبشري أمّ عامر بِكُمّ الرجال، أبشري أم عامر بشاءٍ هزلي، وجرادٍ عَظْلي، أي يركب بعضه بعضاً، فتشدّ عراقيبَها فلا تتحرك، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها، قال الكميت:

فــعْــلَ الــمُــقــرَّة لــلــمــقــا ... لــةِ خَــامِــري يــا أمّ عــامِــرْ

وقال الشَّنْفَرَى:

لاَ تَــقْــبُــرُونِــي إن قَــبْــرِي مُــحَــرّمٌ ... عَــلــيــكــمْ ولــكِــنْ خــامــري أمَّ عــامــرِ
إذا ما مضى رأسي وفي الرأس أكثري ... وغُـودِرَ عِـنْـدَ الـمـلـتـقـى ثَـمّ سـائـري
هـنـالـك لا أرجُـو حـيـاةً تَـسـرُّنـي ... سَجِيسَ الليالي مُبسَلاً بالجرائرِ[1]

أوصاهم ألاّ يدفنوه إذا قُتل، وقال: اجعلوني أُكُلاً للسباع، كالشيء الذي يرغّبُ به الضَّبع في الخروج، وتقدير الكلام: لا تقبروني ولكن اجعلوني كالتي يقال لها: خامرِي أمّ عامر، وهي الضبُع، فإنها لا تقبَر. ويمكن أن يقالَ أيضاً: أراد لا تقبروني واجعلوني فَريسة للتي يقال لها: خامري أم عامر، لأنها تأكل الجيفَ وأشلاء القتلى والموتى.

وقال أبو عبيدة: يأتي الصائد فَيضرِب بعقِبه الأرض عند باب مَغارها ضرباً خفيفاً، وذلك هو اللَّدْم، ويقول: خامري أم عامر، مراراً، بصوت ليس بشديد، فتنام على ذلك، فيدخل إليها، فيجعل الحَبل في عرقوبها ويجرّها فيخرجها. يقول: لا أقعدُ عن الحربِ والانتصار لنفسي وسلطاني، فيكون حالي مع القوم المشار إليهم حال الضَّبُع مع صائدها، فأكون قد أسلمتُ نفسي، فعْلَ العاجز الأحمق، ولكنّي أحارب مَنْ عصاني بمن أطاعني حتى أموت،، ثم عقّب ذلك بقوله: إن الاستئثار عليّ والتغلّب أمر لم يتجدّد الآن، ولكنه كان منذ قبض رسول الله ﷺ.

وطلحة هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. أبوه ابن عَمّ أبي بكر، وأمه الصَّعبة بنت الحضرميّ، وكانت قبل أن تكون عند عبيد الله تحت أبي سفيان صخر بْن حرب، فطلّقها ثم تبعتْها نفسُه، فقال فيها شعراً أوله:

وإنّــي وصَــعْــبَــةَ فــيــمــا أرَى ... بَــعــيــدانِ والــوُدُّ وُدٌّ قــريــبُ

في أبيات مشهورة. وطلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحدُ أصحاب الشورى،

(١) سجيس الليالي: أي أبداً. اللسان، مادة (سجس).

وكان له في الدِّفاع عن رسول الله ﷺ يوم أُحُد أثر عظيم، وشَلّت بعضُ أصابعه يومئذٍ وقى رسول الله ﷺ بيده من سيوف المشركين، وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «اليوم أَوْجَب طلحة الجنة»(١).

والزّبير هو أبو عبد الله الزُّبَيْر بن العوام بن خُويلدٍ بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ، أمه صفيّة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عمة رسول الله ﷺ، وهو أحد العشرة أيضاً، وأحدُ الستّة، وممن ثبّت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد وأبلى بلاء حسناً، وقال النبي ﷺ: «لكل نبيّ حواريّ وحواريِّي الزبير»(٢). والحواريّ: الخالصة، تقول: فلان خاصة فلان، وخُلْصانه وحواريّه، أي شديد الاختصاص به والاستخلاص له.

طارق بن شهاب يستقبل علياً عليه السلام

خرج طارق بن شهاب الأحمسيّ يستقبل علياً عليه السلام، وقد صار بالرَّبذَة طالباً عائشة وأصحابها، وكان طارق من صحابة عليّ عليه السلام وشيعته، قال: فسألتُ عنه قبل أن ألقاه: ما أقدمه؟ فقيل: خالفه طلحة والزبير وعائشة فأتوا البصرة، فقلت في نفسي: إنّها الحرب! أفأقاتل أمَّ المؤمنين، وحواريّ رسول الله ﷺ! إنّ هذا لعظيم، ثم قلت: أأدعُ عليًا، وهو أوّلُ المؤمنين إيماناً بالله وابنُ عمّ رسول الله ﷺ ووصيه! هذا أعظم. ثم أتيتُه فسلّمتُ عليه، ثم جلست إليه، فقصَّ عليّ قصة القوم وقصّته، ثم صلى بنا الظهر، فلما انفتل جاءه الحسن ابنُه عليه السلام، فبكى بين يديه، قال: ما بالك؟ قال: أبكي لقتلك غداً بمَضِيعة ولا ناصر لك. أما إني أمرتك فعصيتَني، ثم أمرتُك فعصيتَني. فقال عليه السلام: لا تزال تخنُّ خنين الأمَة! ما الذي أمرتَني به فعصيتُك! قال: أمرتُك حين أحاط الناس بعثمان أن تعتزل، فإنّ الناس إذا قتلوه طلبوك أينما كنت حتى يبايعوك، فلم تفعل. ثم أمرتُك لما قُتل عثمان ألاّ توافقَهم على البيْعة حتى يجتمعَ الناس ويأتيَك وفودُ العرب فلم تفعل. ثم خالفك هؤلاء القوم، فأمرتُك ألا تخرج من المدينة، وأن تدَعَهم وشأنهم، فإن اجتمعتْ عليك الأمّة فذاك، وإلاّ رضيتَ بقضاء الله. فقال عليه السلام: والله لا أكون كالضَّبُع تنام على اللّدْم حتى يدخلَ إليها طالبها فيعلّق الحبل برجلها، ويقول لها: دَبابِ دَبابِ، حتى يُقْطع عُرقُوبها... وذكر تمام الفصل. فكان طارق بن شهاب يبكي إذا ذكر هذا الحديث. دَبَاب: اسم الضَّبع، مبني على الكسر كبرَاحِ اسم للشمس.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب باب: مناقب طلحة بن عبيد الله (٣٧٣٨)، وأحمد في «مسنده» (١٤٢٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الطليعة (٢٨٤٦)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: ومن فضائل طلحة والزبير (٢٤١٥).

٧ – ومن خطبة له عليه السلام في ذم أتباع الشيطان

الأصل: اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مِلاَكاً، وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً، فَبَاضَ وَفَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ، وَدَبَّ وَدَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ، فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، ونَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ، فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، وَنَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ.

الشرح: يجوز أن يكون أشْرَاكاً، جمع شريك، كشريف وأشراف. ويجوز أن يكون جمع شَرَك، كَجَبَل وأجبال، والمعنى بالاعتبارين مختلف.

وباض وفرّخ في صدورهم، استعارة للوسوسة والإغواء، ومرادُه طولُ مكثه وإقامته عليهم، لأن الطائر لا يبيض ويفرّخ إلا في الأعشاش التي هي وطنه ومسكنه. ودبّ ودرج في حُجورهم، أي ربّوا الباطل كما يربّى الوالدان الولد في حجورهما. ثم ذكر أنّه لشدة اتحاده بهم وامتزاجه صار كمن ينظر بأعينهم، وينطق بألسنتِهم، أي صار الاثنان كالواحد، قال أبو الطيّب:

ما الخِلّ إلاّ مَنْ أودّ بقلبِه … وأرَى بطَرْفٍ لا يَرَى بِسَوائِهِ

وقال آخر:

كُنّا من المساعدَهْ … نَحْيا بِرُوحٍ واحدهْ

وقال آخر:

جُبِلَتْ نَفسُك في نفسي كما … تُجبَلُ الخمرَة بالماء الزلالِ

فإذا مَسَّكَ شيءٌ مَسّني … فإذا أنتَ أنا في كلّ حالِ

والخَطَل: القول الفاسد. ويجوز: أشرَكه الشيطان في سلطانه، بالهمزة، وشرِكه أيضاً، وبغير الهمزة أفصح.

٨ – ومن كلام له عليه السلام يعني به الزبير في حال اقتضت ذلك

الأصل: يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيجَةَ. فَلْيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ، وَإِلاَّ فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ.

الشرح: الوليجة: البطانة، والأمر يُسَرّ ويكتَم، قال الله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[1]. كان الزبير يقول: بايعتُ بيدي لا بقلبي، وكان يدّعي تارة أنّه أكرِه، ويدّعي تارة أنه ورَّى في البيعة تورية، ونَوَى دخيلة، وأتى بمعاريض لا تُحمل على ظاهرها، فقال عليه السلام: هذا الكلام إقرارٌ منه بالبيعة وادعاء أمر آخر لم يُقِمْ عليه دليلاً، ولم ينصب له برهاناً، فإمّا أن يقيم دليلاً على فساد البيعة الظاهرة، وأنها غير لازمة له، وإمّا أن يعاود طاعته.

قال عليّ عليه السلام للزّبير يوم بايعه: إنّي لخائف أن تغدِر بي وتنكث بيعتي، قال: لا تخافنّ، فإنّ ذلك لا يكون مني أبداً، فقال عليه السلام: فلي الله عليك بذلك راعٍ وكفيل. قال: نعم، الله لك عليّ بذلك راعٍ وكفيل.

طلحة والزبير ينكثان البيعة

لما بويع عليٌّ عليه السلام كتب إلى معاوية: أمّا بعدُ، فإنّ الناس قتلوا عثمان عَنْ غير مشورة منّي، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع، فإذا أتاك كتابي فبايع لي، وأوفِدْ إليّ أشراف أهل الشام قِبَلك.

فلما قدم رسولُه على معاوية، وقرأ كتابه، بعث رجلاً من بني عُمَيْس، وكتب معه كتاباً إلى الزبير بْنُ العوام، وفيه:

بسم الله لرحمن الرحيم. لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان:

سلام عليك، أمّا بعد، فإني قد بايعتُ لكَ أهل الشام، فأجابوا واستوسقوا[2] كما يستوسق الجَلَب، فدونك الكوفة والبَصْرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنّه لا شيء بعد هذين المِصْرَيْن، وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظْهِرا الطلب بدم عثمان، وادْعُوَا الناس إلى ذلك، وليَكُنْ منكما الجِدّ والتشمير، أظفركما الله، وخذل مناوِئكما!

فلما وصل هذا الكتابُ إلى الزُّبير سُرّ به، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه، فلم يشكّا في النُّصح لهما من قِبَل معاوية، وأجمعا عند ذلك على خِلاف عليّ عليه السلام.

جاء الزبيرُ وطلحة إلى عليّ عليه السلام بعد البيعة بأيام، فقالا له: يا أمير المؤمنين، قد رأيتَ ما كنّا فيه من الجَفْوة في ولاية عثمان كلّها، وعِلَمْتَ رأيَ عثمان كان في بني أمية، وقد ولاّك الله

(١) سورة التوبة، الآية: ١٦.
(٢) استوسقوا: أجمعوا. اللسان، مادة (وسق).

الخلافةَ مِنْ بعده، فولّنا بعضَ أعمالك، فقال لهما: أرضيا بقسْم الله لكما، حتى أرى رأيي، واعلما أنّي لا أشرك في أمانتي إلاّ من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلَته.

فانصرفا عنه وقد دَخَلهما اليأس، فاستأذَنَاه في العمرة.

طلب طلحة والزبير من علي عَلَيْتَلِا أن يولّيهما المِصْرين: البصرة والكوفة، فقال: حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبة، فقال له: أرى أن تولّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ما تَرَى؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الكوفة والبصرة عَيْن الخلافة، وبهما كنوزُ الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمتَ، ولستُ آمنهما إن وليتَهُما أنْ يُحْدِثا أمراً. فأخذ عليّ عَلَيْتَلِا برأي ابن عباس. وقد كان استشار المغيرة أيضاً في أمر معاوية، فقال له: أرى إقرارَه على الشام، وأن تبعثَ إليه بعده إلى أن يسكنَ شَغْبُ الناس، ولك بعدُ رأيك. فلم يأخذ برأيه.

فقال المغيرة بعد ذلك: والله ما نصحتُه قبلها، ولا أنصحه بَعْدَها ما بقيت.

دخل الزبير وطلحة على عليّ عَلَيْتَلِا، فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرةَ تريدان، فحَلفا له بالله أنّهما ما يريدان غيرَ العمرة، فقال لهما: ما العمرةَ تريدان، وإنما تريدان الغَدْرة ونكْث البَيْعة، فحلفا بالله ما الخلافَ عليه ولا نكْث بيعةٍ يريدان، وما رأيُهما غير العمرة. قال لهما: فأعِيدا البيعةَ لي ثانية، فأعاداها بأشدِّ ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذِن لهما، فلما خرجا من عنده، قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونَهما إلا في فتنة يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمرْ بردِّهما عليك، قال: لِيَقْضِيَ الله أمراً كان مفعولاً.

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكّة لم يلقيَا أحداً إلا وقالا له: ليس لعليّ في أعناقنا بَيْعة، وإنما بايعناه مكرَهين. فبلغ علياً عَلَيْتَلِا قولهما، فقال: أبعدهما الله وأغرب دارهما! أما والله لقد علمتُ أنّهما سيقتُلان أنفسَهما أخبث مقتل، ويأتيان مَنْ وردا عليه بأشأم يوم، والله ما العُمْرةَ يريدان، ولقد أتياني بوجهَيْ فاجريْن، ورجعا بوجْهَيْ غادرين ناكثيْن، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلا في كَتيبة خَشْناء، يقتُلان فيها أنفسهما، فُبعداً لهما وسحقاً[1]!

وذكر أبو مخنف في «كتاب الجمل» أنّ عليًا عَلَيْتَلِا خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البَصْرة، فقال: أيّها الناس، إنّ عائشة سارت إلى البصرة، ومعها طلحة

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/٦.

والزبير، وكلٌّ منهما يرى الأمرَ له دون صاحبه، أما طلحةُ فابنُ عمِّها، وأما الزبير فَخَتَنُها، والله لو ظفروا بما أرادوا - ولن ينالوا ذلك أبداً - ليضربَنَّ أحدُهما عنقَ صاحبه بعد تنازع منهما شديد. والله إنّ راكبةَ الجمل الأحمر ما تقطَع عقبة ولا تحلُّ عُقْدة إلا في معصية الله وسَخَطه، حتى تورِدَ نفسها ومَنْ معها موارد الهلكة، أي والله لَيُقْتَلَنّ ثلثهم، وليهربنّ ثلثهم: وليتوبنّ ثلثهم، وإنها التي تنبَحُها كلاب الحوْأب[1]، وإنّهما ليعلمان أنّهما مخطئان. وربّ عالم قتله جهلُه، ومعه علمه لا ينفعه، وحسبنا الله ونعم الوكيل! فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية، أين المحتسبون؟ أين المؤمنون؟ مالي ولقريش! أما والله لقد قتلتهم كافرين، ولأقتلنّهم مفتونين! وما لنا إلى عائشة من ذَنْب إلاّ أنا أدخلناها في حَيِّزنا. والله لأبْقَرنّ الباطل، حتى يَظهر الحقُّ من خاصِرته، فقل لقريشٍ فتلضجّ ضجيجَها. ثم نزل.

بَرَزَ عليّ عليه السلام يوم الجمل، ونادى بالزُّبير: يا أبا عبد الله، مراراً، فخرج الزبير، فتقاربا حتى اختلفتْ أعناقُ خيلهما، فقال له عليّ عليه السلام: إنّما دعوتُك لأذكِّرك حديثاً قاله لِي ولك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتذكر يَوْم رآك وأنت معتنِقي، فقال لك: «أتحبه»؟ قلت: ومالي لا أحبه وهو أخي وابن خالي! فقال: «أما إنّك ستحاربه وأنت ظالم له»[2]. فاسترجع الزبير، وقال: أذكرتَني ما أنسانيه الدّهر، ورجع إلى صفوفه. فقال له عبد الله ابنه: لقد رجعتَ إلينا بغير الوجه الذي فارقتنا به! فقال: أذكَرني عليّ حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحارِبُه أبداً، وإني لراجع وتارككم منذ اليوم. فقال له عبد الله: ما أراك إلا جبُنت عن سيوف بني عبد المطلب، إنّها لسيوف حِداد، تحملها فتية أنجاد، فقال الزبير: ويلك! أتهيجُني على حَرْبه! أما إني قد حلفت ألا أحاربَه، قال: كَفِّرْ عن يمينك، لا تتحدث نساء قريش أنك جبنت، وما كنت جباناً، فقال الزبير: غلامي مكْحولٌ حرّ كفارة عن يميني، ثم أنصلَ سِنان رمحه، وحمل على عسكر عليّ عليه السلام برُمْح لا سنان له، فقال علي عليه السلام: أفرِجوا له، فإنه مُحْرَج، ثم عاد إلى أصحابه، ثم حمل ثانية، ثم ثالثة، ثم قال لابنه: أجبنا ويلك ترى! فقال: لقد أعذرت.

لما أذكر عليّ عليه السلام الزبيرَ بما أذكره به ورجع الزبير، قال:

نَادَى عَلِيٌّ بِأمْرٍ لَسْتُ أُنكِرُه ... وَكَانَ عمر أبيك الخير مُذْحِينِ
فَقُلْتُ حسبك منْ عَذْلٍ أبا حَسَنٍ ... بَعْضُ الذي قلتَ مُنذ اليوم يَكْفِينِي

---

(١) الحوأب: ماء بين البصرة ومكة. اللسان، مادة (حأب).

(٢) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣١٦٥١)، وعزاه للبيهقي في «الدلائل».

تَرْكُ الأمور الّتي تُخشى مَغَبَّتُها ... والله أمثلُ في الدّنيا وفي الدين
فَاخترْتُ عاراً على نارٍ مؤجّجة ... أنى يقومُ لَهَا خَلْقٌ مِنَ الطِّين!

لمّا خرج عليّ عليه السلام لطلب الزبير خرج حاسراً، وخرج إليه الزبير دارعاً مُدَجَّجاً، فقال للزبير: يا أبا عبدِ الله، قد لَعَمْرِي أعدَدْت سلاحاً، وحبذا فهل أعددت عند الله عذراً؟ فقال الزبير: إنَّ مردَّنا إلى الله، قل عليٌّ عليه السلام: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، ثم أذكره الخبر، فلما كَرّ الزبيرُ راجعاً إلى أصحابه نادماً واجماً، رجع عليٌّ عليه السلام إلى أصحابه جذِلاً مسروراً، فقال له أصحابه: يا أميرَ المؤمنين، تبرز إلى الزبير حاسراً، وهو شاكٍ في السلاح، وأنت تعرف شجاعته! قال: إنّه ليس بقاتلي، إنّما يَقْتلني رجل خامل الذكر، ضئيل النسب، غيلةً في غير مأقِطِ حرب[2]، ولا معركة رجال، وَيْلُمّه أشقى البشر! ليودّنّ أنّ أمه هبِلت به! أما إنه وأحمر ثمود لمقرونان في قَرَن.

لمّا انصرف الزبير عن حَرْب عليّ عليه السلام مَرّ بوادي السباع، والأحنف بن قيس هناك في جمع من بني تميم قد اعتزل الفريقين، فأخبِر الأحنف بمرور الزُّبير، فقال رافعاً صوته: ما أصنع بالزبير! لفّ غارّيْن من المسلمين، حتى أخذت السيوفُ منهما مآخذها، انسلّ وتركهم. أما إنّه لخليق بالقتل، قتله الله! فاتبعه عمرو بن جُرْموز - وكان فاتكاً - فلما قَرُب منه وقف الزبير، وقال: ما شأنك؟ قال: جئت لأسألَك عن أمر الناس، قال الزبير: إني تركتُهم قياماً في الرُّكَب، يضرب بعضُهم وجهَ بعض بالسيف. فسار ابن جُرموز معه، وكلٌّ واحد منهما يتّقي الآخر. فلما حضرت الصلاة، قال الزبير: يا هذا، إنّا نريد أن نصلّيَ.

فقال ابن جرْمرز: وأنا أريد ذلك، فقال الزبير: فتؤمّني وأؤمّنك؟ قالَ: نعم، فثنى الزبير رجلَه، وأخذ وضوءه. فلما قام إلى الصلاة شد ابن جُرموز عليه فقتله، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه، وحثاً عليه تراباً يسيراً، ورجع إلى الأحنف، فأخبره، فقال: والله ما أدري أسأت أم أحسنت؟ اذهب إلى عليّ عليه السلام فأخْبره، فجاء إلى عليّ عليه السلام، فقال للآذن: قل له: عمرو بن جُرْموز بالباب ومعه رأسُ الزبير وسيفُه، فأدخله. وفي كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بل بالسيف، فقال له: وأنت قتلتَه؟ قال: نعم، قال: والله ما كان ابنُ صفيّة جباناً ولا لئيماً، ولكن الحيْن ومصارع السوء، ثم قال: ناولني سيفه، فناوله فهزّه، وقال: سيف طالما جَلَى به الكَرْبَ

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٥.
(٢) مأقط: المضيق في الحرب أو الموضع الذي يقتلون فيه. اللسان، مادة (أقط).

عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال ابنُ جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «بَشِّر قاتل ابن صفيّة بالنار»[1]، فخرج ابن جُرْموز خائباً، وقال:

أتيتُ عليًّا برأس الزّبيرِ ... أبْغي بِهِ عِنْدَهُ الزُّلْفَهْ
فَبَشَّر بالنَّارِ يَوْمَ الحسابِ ... فبئسَتْ بِشارةُ ذي التُّحْفَهْ
فقلتُ له إنّ قتل الزّبيْر ... لولا رضاك من الْكُلْفَهْ
فإنْ ترض ذاك فمنك الرّضا ... وإلا فَدُونَكَ لي حَلْفَهْ
وَرَبِّ المحلِّين والمحرمينَ ... وَرَبِّ الجماعةِ والأُلْفَهْ
لَسِيّانِ عِندِيَ قتلُ الزبيرِ ... وضرطة عنزٍ بذي الْجُحْفَهْ

ثم خرج ابن جُرموز على عليّ عليه السلام مع أهل النهر، فقتله معهم فيمن قتل.

٩ - ومن كلام له عليه السلام في صفة قوم أرعدوا وفشلهم في ذلك

الأصل: وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا، ومَعَ هَذَيْنِ ٱلأَمْرَيْنِ ٱلْفَشَلُ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حتى نُوقِعَ، وَلاَ نُسِيلُ حَتى نُمْطِرَ.

الشرح: أرعد الرجل وأبرق، إذا أوعد وتهدّد، وكان الأصمعيُّ ينكره، ويزعم أنه لا يقال إلا رعد وبرق، ولما احْتُجّ عليه ببيت الكُميت:

أرْعِدْ وَأَبْرِقْ يا يزيد فما وَعيدُك لي بِضَائرْ

قال: الكميتُ قرويٌّ لا يُحتجّ بقوله.

وكلام أميرِ المؤمنين عليه السلام حُجّة دالة على بطلان قول الأصمعيُّ. والفَشَل: الجبْن والْخَور.

وقوله: «ولا نسيلُ حتى نُمْطر»، كلمة فصيحة، يقول: إنَّ أصحاب الجمل في وعيدهم وإجلابهم بمنزلة مَنْ يدّعي أنه يحدث السيل قبل إحداث المطر، وهذا محال، لأنَّ السَّيل إنما يكون من المطر، فكيف يسبق المطر! وأمّا نحن فإنا لا ندَّعي ذلك، وإنما نُجْرِي الأمور على حقائقها، فإنْ كان منّا مطر كان منّا سيل، وإذا أوقعنا بخصمنا أوعدْنا حينئذ بالإيقاع به غيرَه من خصومنا.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم السُّنّة (٦٤٤)، والبيهقي في الاعتقاد ص (٣٧٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٨٦).

وقوله عليه السلام: «ومع هذين الأمرين الفَشَل» معنًى حسَن، لأنَّ الغالبَ من الجبناء كثرة الضوضاء والجلَبة يوم الحرب، كما أنَّ الغالبَ من الشجعان الصمت والسكون.

وسمع أبو طاهر الْجَنّابيّ ضوضاءَ عسكر المقتدر بالله ودَبادِبَهُمْ وبُوقاتهم، وهو في ألف وخمسمائة، وعسكر المقتدر في عشرين ألفاً، مقدّمهم يوسف بن أبي الساج، فقال لبعض أصحابه: ما هذا الزَّجَل؟ قال: فَشل، قال: أجَل.

ويقال: إنه ما رُئِيَ جيش كجيش أبي طاهر، ما كان يسمع لهم صوت، حتى إنَّ الخيل لم تكن لها حَمْحَمة، فرشقَ عسكرُ ابن أبي الساج القَرَامِطةَ بالسّهام المسمُومة، فجرح منهم أكثر من خمسمائة إنْسان.

وكان أبو طاهر في عمارية له، فنزل وركب فرساً وحمل بنفسه ومعه أصحابه حملة على عسكر ابن أبي الساج، فكسروه وفلّوه وخلصوا إلى يوسف فأسروه، وتقطّع عسكره بعد أن أتى بالقتل على كثير منهم، وكان ذلك في سنة خمس عشرة وثلثمائة.

ومن أمثالهم: الصدقُ ينبيء عنك لا الوعيد.

١٠ - ومن خطبة له عليه السلام يوعد قوماً

الأصل: أَلاَ وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ، وَٱسْتَجْلَبَ خَيْلَهُ وَرَجْلِهِ، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي، مَا لَبَّسْتُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَلاَ لُبِّسَ عَلَيَّ. وَٱيْمُ ٱللهِ لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ، لاَ يَصْدُرون عَنْهُ، وَلاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

الشرح: يمكن أن يَعْنِيَ بالشيطان الشيطانَ الحقيقيَّ، ويمكن أن يَعْني به معاوية، فإن عَنَىَ معاوية، فقوله: «قد جمع حزبه، واستجلب خيله ورجْله» كلام جارٍ على حقائقه، وإن عَنى به الشيطان، كان ذلك من باب الاستعارة، ومأخوذاً من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[1]، والرَّجل: جمع راجل، كالشَّرْب، جمع شارب، والرَّكْب: جمع راكب.

قوله: «وإنَّ معي لَبَصيرتي»، يريد أنَّ البصيرةَ التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لم تتغيَّر.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

وقوله: «ما لبّست» تقسيم جيّد، لأنَّ كل ضالّ عن الهداية، فإمّا أن يضلّ من تلقاء نفسه، أو بإضلال غيره له.

وقوله: «لأفرِطَنّ» من رواها بفتح الهمزة، فأصله «فَرَطَ» ثلاثيّ، يقال: فَرَطَ زيد القوم أي سبقهم، ورجل فَرَطٌ: يسبِق القوم إلى البئر، فيهيّيء لهم الأرْشية والدِّلاء، ومنه قوله ﷺ: «أنا فرطُكم على الحوض»[1]، ويكون تقدير الكلام: وايمُ الله لأفرِطَنّ لهم إلى حوض، فلما حذف الجارّ عدّي الفعل بنفسه، فنصب، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾[2]، وتكون اللام في «لهم» إمّا لامَ التعدية، كقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] أي ويؤمن المؤمنين، أو تكون لام التعليل، أي لأجلهم. ومن رواها «لأفرِطَنّ» بضم الهمزة، فهو من أفرط المزادة، أي ملأها.

والماتح: المستقِي، متَح يمتَح، بالفتح، والمايح، بالياء: الذي ينزل إلى البئر فيملأ الدلو.

وقيل لأبي عليّ رحمه الله: ما الفرق بين الماتح والمايح؟ فقال: هما كإعجامهما، يعني أنَّ التاء بنقطتين من فوق، وكذلك الماتح لأنه المستقي، فهو فوق البئر، والياء بنقطتين من تحت، وكذلك المايح لأنه تحت في الماء الذي في البئر يملأ الدلاء.

ومعنى قوله: «أنا ماتحه»، أنا خبير به، كما يقول مَنْ يدّعي معرفة الدار: أنا باني هذه الدار، والكلام استعارة، يقول: لأملأنّ لهم حِياض الحرب التي هي دُرْبَتي وعادتي، أو لأسْبِقَنّهم إلى حياض حرب أنا متدرِّب بِهَا، مجرِّب لها، إذا وردوها لا يصدُرون عنها.

يعني قتَلهم وإزهاق أنفسهم، وَمَنْ فرَّ منهم لا يعود إليها. ومن هذا اللفظ قول الشاعر:

مَخَضْتُ بِدَلْوِهِ حتّى تَحَسّى ... ذَنُوبَ الشَرِّ مَلْأَى أو قُرابا

---

١١ - ومن كلام له عليه السلام

لابنه محمد بن الحنفيّة لما أعطاه الراية يوم الجمل

الأصل: تَزُولُ الجِبَالُ وَلا تَزُلْ، عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ، أَعِرِ الله جُمْجُمَتَكَ، تِدْ فِي الأَرْضِ قَدَمَكَ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى القَوْمِ، وَغُضَّ بَصَرَكَ، وَٱعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٥٩٦)، ومسلم، كتاب: القضاء، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٨٩).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦١.

الشرح: قوله: «تَزُولُ الجِبالُ ولاَ تَزُل»، خبر فيه معنى الشرط، تقديره: إن زالتِ الجِبالُ فلا تَزُل أنتَ، والمراد المبالغة. في أخبار صِفّين أن بَنِي عُكْلٍ - وكانوا مع أهل الشّام - حملوا في يوم من أيام صِفِّين، خرجوا وعقلوا أنفسَهم بعمائمهم، وتحالفوا أنّا لاَ نفِرّ حتى يفرّ هذا «الحَكَر»، بالكاف، قالوا: لأن عُكْلاً تبدل الجيم كافاً.

والناجِذُ: أقصى الأضراس. وتِدْ، أمر من وتَد قَدَمه في الأرض، أي أثبِتْها فيه كالوتِد. ولا تَنَاقُضَ بين قوله: «ارم ببصرك» وقوله: «غُضَّ بَصَرَكَ»، وذلك لأنه في الأولى أمرَه أن يفتح عينَه ويرفع طَرْفَه، ويحدّق إلى أقاصي القوم بَبَصره، فِعْلَ الشجاعِ المِقدَام غير المكترث ولا المبالي، لأنّ الجبانَ تضعُف نفسه ويخفُق قلبُه فيقصر بصره، ولاَ يرتفِع طَرْفه، ولا يمتدّ عنقه، ويكونُ ناكسَ الرأس، غضيضَ الطرف. وفي الثانية أمرَه أن يَغُضَّ بصرَه عن بَريق سيوفهم ولمعانِ دروعهم، لئلا يبرُق بصرُه، ويدهش ويستشعر خوفاً. وتقديرُ الكلام «واحمل» وحذف ذلك للعلم به، فكأنه قال: إذا عزمت على الحملة وصممت، فغُضّ حينئذ بصرَك واحمل، وكن كالعَشْوَاء[1] التي تخبِط ما أمامها ولا تبالي.

وقوله: «عضّ على ناجِذك»، قالوا: إنّ العاضّ على نواجِذه ينبو السيف عن دِماغه، لأنّ عظام الرأس تشتدّ وتصلب، وقد جاء في كلامه عليه السلام هذا مشروحاً في موضع آخر، وهو قوله: «وعَضّوا على النواجذ، فإنه أنبَى للصوارم عن الهام». ويحتمل أن يريد به شِدّة الحنَق، قالوا: فلان يحرِقُ عَلَيّ الأرّم، يريدون شدة الغيظ، والحرْق: صريف الأسنان وصوتها، والأرّم: الأضراس.

وقوله: «أعِرِ الله جُمجمتك»، معناه ابْذُلها في طاعة الله. ويمكن أن يقال: إن ذلك إشعارٌ له أنّه لا يُقتل في تلك الحرب، لأن العاريّة مردودة، ولو قال له: بعِ الله جُمجمتَك، لكان ذلك إشعاراً له بالشهادة فيها.

وأخذ يزيد بن المهلّب هذه اللفظة فخطب أصحابَه بواسط، فقال: إنّي قد أسمع قول الرعاع: جاء مَسْلَمة، وجاء العباس، وجاء أهل الشام، ومَنْ أهلُ الشام! والله ما هم إلا تسعة أسياف، سبعة منها معي، واثنان عليّ، وأما مَسلمة فجرادة صفراء، وأما العباس فنسطوس بن نسطوس، أتاكم في برابرة وصقالبة وجَرامقة وجراجمة وأقباط وأنباط وأخلاط، إنما أقبل إليكم الفلاحون وأوباش كأشلاء اللحم. والله ما لقُوا قطّ كحديدكم وعديدكم، أعيروني سواعدكم ساعة تصفِقون بها خراطيمهم، فإنما هي غَدْوة أو رَوْحة، حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين.

---

(١) الناقة العشواء: التي لا تبصر فهي تضرب بيديها كل ما مرت به وهو مثل يضرب للذي يركب رأسه ولا يهتم. اللسان، مادة (عشا).

من صفات الشجاع قولهم: فلان مغامِر، وفلان غَشَمْشَم، أي لا يبصرُ ما بين يديه في الحرب، وذلك لشدة تقحّمه وركوبه المهلكة، وقلّة نظره في العاقبة، وهذا هو معنى قوله عليه السلام لمحمد: «غُضّ بصرك».

وحشي يقتل حمزة

وكان حمزة بن عبد المطلب مغامِراً غَشَمْشَما لا يبصِرُ أمامه، قال جُبَير بن مُطْعِم بن عديّ بن نوفل بْنُ عبد مناف لعبده وحشيّ يوم أُحُد: وَيْلَكَ! إن عليًّا قتل عَمّي طُعَيمة سيّد البطحاء يوم بدر، فإن قتلتَه اليوم فأنت حُرّ، وإن قتلتَ محمداً فأنت حُرّ، وإن قتلت حمزة فأنت حرّ، فلا أحَد يَعدِل عمّي إلاّ هؤلاء. فقال: أمّا محمد فإن أصحابه دونَه، ولن يُسلِموه، ولا أراني أصِلُ إليه، وأما عليّ فرجُلٌ حذِر مَرِس، كثير الالتفات في الحرب لا أستطيع قتلَه، ولكن سأقتل لك حمزة، فإنه رجل لا يبصر أمامه في الحرب، فوقف لحمزة حتى إذا حاذاه زَرقه[1] بالحرْبة كما تَزْرق الحبشة بحرابها، فقتله.

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايتَهَ إلى محمد ابنه عليه السلام، وقد استوتِ الصفوف، وقال له: احمِل، فتوقّف قليلاً، فقال له: احمل، فقال: يا أمير المؤمنين، أما ترى السّهام كأنّها شآبيبُ المطر! فدفع في صدره، فقال: أدركك عِرْق من أمّك، ثم أخذ الرّاية فهزّها، ثم قال:

اطعَنْ بها طعن أبيك تُحْمَدِ لا خير في الحرْبِ إذا لم تُوقَدِ
بالْمَشْرفيّ والقَنا المسَدّدِ[2]

ثم حمل وحمل الناس خلْفه، فطحن عسكر البصرة.

قيل لمحمد: لِمَ يُغرّرُ بك أبوك في الحرْب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنّهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيْه بيمينه.

كان عليّ عليه السلام يقذِفُ بمحمد في مهالك الحرب، ويكُفّ حَسنا وحُسيناً عنها.

ومن كلامه في يوم صِفّين: امْلِكُوا عنّي هذين الفتَيَيْن، أخاف أن ينقطِع بهما نسلُ رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) زرقه بالرمح: إذا طعنه أو رماه به. اللسان، مادة (زرق).
(٢) القنا: الرمح. اللسان، مادة (قنا).

أمّ محمد رضي الله عنه خَوْلة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بْنُ الدُّوَل بن حَنيفة بن لُجيم بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل.

واختُلِف في أمرها، فقال قوم: إنّها سبِيّة من سبايا الرِّدة، قوتل أهلُها على يد خالد بن الوليد في أيام أبي بكر، لمّا منع كثيرٌ من العرب الزكاة، وارتدّتْ بنو حنيفة، وادّعَتْ نبوّة مُسَيْلمة، وإن أبا بكر دفعها إلى عليّ عليه السلام من سَهْمه في المغنم.

وقال قوم، منهم أبو الحسن علي بن محمد بن سيف المدائنيّ: هي سبيَّة في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: بعثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عليًا إلى اليمن، فأصاب خَوْلة في بني زُبَيْد، وقد ارتدُّوا مع عمرو بن معدي كرب، وكانت زُبَيْد سَبَتْها من بني حَنيفة في غارة لهم عليهم، فصارت في سَهْم عليّ عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنْ ولدتْ منك غلاماً فسمِّه باسمي، وكنِّه بكنيتي، فولدتْ له بعد موت فاطمة عليها السلام محمداً، فكنّاه أبا القاسم.

وقال قوم، وهم المحققون، وقولهم الأظهر: إنّ بني أسدٍ أغارت على بني حَنِيفة في خلافة أبي بكر الصدّيق، فسبوْا خَوْلة بنت جعفر، وقدِموا بها المدينة فباعوها من عليّ عليه السلام، وبلغ قومَها خَبرُها، فقدِموا المدينة على عليّ عليه السلام، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم، فأعتقها ومهرها وتزوّجها، فولدت له محمداً، فكنّاه أبا القاسم.

وهذا القول، هو اختيار أحمد بن يحيى البلاذُري في كتابه المعروف بـ«تاريخ الأشراف».

لما تقاعس محمد يوم الجمل عن الحمْلة، وحمل عليّ عليه السلام بالراية، فضعضَع أركان عسكر الجَمل، دفع إليه الراية، وقال: امْحُ الأولى بالأخرى، وهذه الأنصار معك. وضمّ إليه خُزَيمة بن ثابت ذا الشهادتين، في جَمْع من الأنصار، كثير منهم من أهل بدر، فحمل حَمَلات كثيرة، أزالَ بها القومَ عن مواقفهم وأبلَى بلاء حسناً. فقال خزيمة بن ثابت لعليّ عليه السلام: أما إنه لو كان غيرُ محمد اليوم لافتضح، ولئن كنت خِفْتَ عليه الحين وهو بينك وبينَ حمزة وجعفر لما خِفْناه عليه، وإنْ كنتَ أردتَ أن تعلّمه الطعان فطالما عُلّمته الرجال.

وقالت الأنصار: يا أمير المؤمنين، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدّمنا على محمد أحداً من العرب. فقال علي عليه السلام: أين النّجم من الشمس والقمر! أما إنّه قد أغنى وأبلى، وله فضله، ولا ينقص فضلَ صاحبيه عليه، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنّا والله لا نجعله كالحسن والحسين، ولا نظلمهما له، ولا نظلمه - لفضلهما عليه - حقّه، فقال عليّ عليه السلام: أين يقع ابني من ابنيْ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله!

فقال خُزَيمة بن ثابت فيه:

محمدُ مَا في عُودك اليوم وَصْمَة ... ولا كُنْتَ في الحرْب الضَّرُوس مُعَرِّداً

أبوك الذي لم يركب الخيلَ مثلُه — عليّ، وسمّاك النبيُّ محمداً
فلو كان حقاً من أبيك خليفةٌ — لكنت، ولكن ذاك مالا يرى بَدَا
وأنت بحمد الله أطولُ غالبٍ — لساناً، وأنداها بما ملكتْ يدا
وأقربُها من كلّ خيرٍ تريدُه — قُرَيْشٌ وأوفاها بما قال مَوْعدا
وأطعنُهم صدرَ الكميّ برمحه — وأكساهُمُ للهامِ عَضباً مُهَنَّدا
سوى أخويْكَ السيِّدين، كلاهما — إمام الورى والداعيانِ إلى الهدى
أبى الله أن يعطي عدوَّك مقعداً — من الأرض أو في الأوج مَرْقًى ومصعدا

١٢ - ومن كلام له عليه السلام لما أظفره الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال علي عليه السلام

الأصل: أَهَوَى أَخِيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ شَهِدَنَا، وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هٰذَا قَوْمٌ فِي أَصْلاَبِ ٱلرِّجَالِ، وَأَرْحَامِ ٱلنِّسَاءِ، سَيَرْعَفُ بِهِمُ ٱلزَّمَانُ، وَيَقْوَى بِهِمْ ٱلإِيمَانُ.

الشرح: يرعَفُ بهم الزمان: يوجِدهم ويخرجهم، كما يرعَف الإنسان بالدم الذي يخرجه من أنفه، قال الشاعر:

وما رَعَف الزمان بمثل عمرو — ولا تَلِدُ النساء له ضريباً

والمعنى مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لعثمان - ولم يكن شهد بدراً، تخلّفَ على رُقَيّة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا مرِضت مرضَ موتها -: «لقد كنتَ شاهداً وإن كنت غائباً، لك أجرك وسهمك».

علي ويوم الجمل

قال الكلبيّ: قلت لأبي صالح: كيف لم يضع عليّ عليه السلام السيفَ في أهل البصرة يوم الجمل بعد ظفره؟ قال: سار فيهم بالصفح والمنّ الذي سار به رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل مكة يوم الفتح، فإنه أراد أن يستعرضَهم بالسيف، ثم منّ عليهم، وكان يحب أن يهديَهم الله.

قال فِطر بن خليفة: ما دخلتُ دار الوليد بالكوفة التي فيها القصّارُون إلا وذكرت بأصواتهم وقعَ السيوف يومَ الجمل.

حرب بن جَيهان الْجُعْفيّ: لقد رأيتُ الرماح يوم الجمل قد أشرعَها الرجال بعضهم في صدر بعض، كأنّها آجامُ القصب، لو شاءت الرجال أن تمشيَ عليها لمشتْ، ولقد صَدَقونا القتال حتى ما ظننت أن ينهزموا، وما رأيت يوماً قطّ أشبهَ بيوم الجمل من يوم جَلُولاء الوقيعة.

الأصبغ بن نُباتة: لما انهزم أهلُ البصرة ركب عليّ عليه السلام بَغْلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشَّهْباء، وكانت باقية عنده، وسار في القتلى يستعرضهم، فمرّ بكعب بن سور القاضي، قاضي البصرة، وهو قتيل، فقال: أجلسوه، فأجلِس، فقال له: وَيْلُمِّكَ كعب بن سور! لقد كان لك عِلْم لو نَفَعَك! ولكنّ الشيطانَ أضلّك فأزلّك، فعجّلك إلى النار، أرسلوه. ثم مر بطلحة بن عبيد الله قتيلاً، فقال: أجلسوه، فأجلِسَ - قال أبو مخنف في كتابه: فقال: وَيْلُمِّكَ طلحة! لقد كان لك قَدَم لو نفعك! ولكن الشيطان أضلك فأزلك فعجلك إلى النار.

وأما أصحابُنا فيروُون غير ذلك، يروون أنه عليه السلام قال له لما أجلسوه: أعزِزْ عليّ أبا محمد أن أراك معفّراً تحت نجوم السماء وفي بطن هذا الوادي! أَبَعْدَ جهادك في الله، وذبّك عن رسول الله صلى الله عليه وآله! فجاء إليه إنسان فقال: أشهد يا أمير المؤمنين، لقد مررتُ عليه بعد أن أصابه السهمُ وهو صريع، فصاح بي، فقال: مِنْ أصحابِ مَن أنت؟ فقلت: من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: امدُد يَدك لأبايع لأمير المؤمنين عليه السلام، فمددت إليه يدي فبايعني لك. فقال عليّ عليه السلام: أبى الله أن يدخُلَ طلحة الجنةَ إلا وبيعتي في عنقه.

ثم مرّ بعبد الله بن خلف الخزاعيّ، وكان عليه السلام قتَله بيده مبارزة، وكان رئيس أهل البصرة، فقال: أجلسوه، فأجلِس، فقال: الويل لك يا ابن خَلف! لقد عانيت أمراً عظيماً.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: ومرّ عليه السلام بعبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد، فقال: أجلسوه، فأجلس، فقال: هذا يعسوبُ قريش، هذا اللّباب الْمحضُ من بني عبد مناف. ثم قال: شفيتُ نفسي، وقتلتُ معشري، إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي! قتلتُ الصناديد من بني عبد مناف، وأفلتني الأعيارُ من بني جُمَح. فقال له قائل: لشدّ ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين! قال: إنّه قام عنّي وعنه نسوةٌ لم يقمْن عنك.

قال أبو الأسود الدؤليّ: لما ظهر عليٌّ عليه السلام يومَ الجمل، دخل بيت المال بالبصرة في ناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم، فلما رأى كثرةَ ما فيه، قال: غُرّي غيري... مراراً. ثم نظر إلى المال، وصعّد فيه بَصره وصَوّب، وقال: اقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة، فقسم بينهم، فلا والذي بعث محمداً بالحق ما نقصَ درهماً ولا زاد درهماً، كأنّه كان يعرف مبلغه ومقداره، وكان ستة آلاف ألف درهم، والناس اثنا عشر ألفاً.

حَبّة العُرَنيّ، قَسّم عليّ عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة، وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم، فجاءه إنسان لم يحضر الوقعة، فقال: يا أمير المؤمنين، كنتُ شاهداً معك بقلبي، وإن غاب عنك جسمي، فأعطني من الفيء شيئاً فدفع إليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم، ولم يصب من الفيء شيئاً.

اتفقت الرواة كلها على أنّه عليه السلام قَبض ما وجد في عسكر الجمل من سلاح ودابّة ومملوك ومتاع وعُروض، فقسّمه بين أصحابه، وأنهم قالوا له: اقسِمْ بيننا أهلَ البصرة فاجعلهم رقيقاً، فقال: لا، فقالوا: فكيف تُحِل لنا دماءهم وتحرِّم علينا سَبْيَهم! فقال: كيف يحلّ لكم ذرّية ضعيفة في دار هجرة وإسلام! أما ما أجْلَب به القومُ في معسكرهم عليكم فهو لكم مَغْنم، وأما ما وارت الدّور وأُغلِقَتْ عليه الأبواب فهو لأهله، ولا نصيب لكم في شيء منه، فلما أكثروا عليه قال: فأقرِعوا على عائشة، لأدفعها إلى مَنْ تصيبه القُرْعة! فقالوا: نستغفر الله يا أمير المؤمنين! ثم انصرفوا.

---

١٣ - ومن كلام له عليه السلام في ذم أهل البصرة

الأصل: كُنْتُمْ جُنْدَ ٱلْمَرْأَةِ، وَأَتْبَاعَ ٱلْبَهِيمَةِ. رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلاَقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، وَٱلْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ، وَالشاخِصُ عنكُمْ مُتَدَارَكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ، كَأني بِمَسْجِدِكُم كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، قَدْ بَعَثَ الله عَلَيْهَا ٱلْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا، وَغَرِّقَ مَنْ فِي ضِمْنِها.

وفي رواية: وَايْمُ الله، لَتُغْرَقَنَّ بَلْدَتُكُمْ، حَتَّىٰ كَأني أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجُؤْجُؤِ سَفِينَةٍ، أَوْ نَعَامَةٍ جَاثِمَةٍ.

وفي رواية: كَجُؤْجُؤِ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ.

وفي رواية أخرى: بِلاَدُكُمْ أَنْتَنُ بِلاَدِ الله تُرْبةً، أَقْرَبُهَا مِنَ ٱلْمَاءِ، وأَبْعَدُهَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ، وَبِهَا تِسْعَةُ أَعْشَارِ ٱلشَّرِّ. ٱلْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ، وَٱلْخَارِجُ بِعَفْوِ ٱلله.

كَأني أَنْظُرُ إِلَى قَرْيَتِكُمْ هَذِهِ قَدْ طَبَّقَهَا ٱلْمَاءُ، حَتى مَا يُرَى مِنْهَا إِلاَّ شُرَفُ ٱلْمَسْجِدِ، كَأَنَّهُ جُؤْجُؤُ طَيْرٍ فِي لُجَّةِ بَحْرٍ.

الشرح: قوله: «وأتباع البهيمة»، يعني الجمل، وكان جمل عائشة راية عسكر البصرة، قُتِلوا دونه كما تُقْتَل الرجال تحت راياتها.

وقوله: «أخلاقكم دقاق»، يصفهم باللؤم، وفي الحديث أنّ رجلاً قال له: يا رسول الله إني أحبُّ أن أنكح فلانة، إلا أن في أخلاق أهلها دِقة، فقال له: «إياك وخَضْراء الدِّمن، إياك والمرأة الحسناء في مَنْبت السوء»(١).

قوله: «وعهدكم شقاق» يصفهم بالغدر، يقول: عهدكم وذمتكم لاَ يوثق بها، بل هي وإن كانت في الصورة عهد أو ذمّة، فإنها في المعنى خلاف وعداوة.

قوله: «وماؤكم زعاق»، أي مِلْح، وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تُذّم به المدينة، كما قال:

بلاد بها الحُمَّى وأسْدُ عَرِينَةٍ ... وفيها المعلّى يعتدِي ويَجُورُ
فإني لِمَنْ قَدْ حَلَّ فِيهَا لَرَاحِمٌ ... وإني لمن لَمْ يأتِها لَنَذِيرُ

ولا ذنب لأهلها في أنّها بلاد الحميّ والسباع.

ثم وصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتَهَن بذنبه، لأنه إما أن يشاركهم في الذنوب أو يراها فلا ينكِرُها، ومذهب أصحابِنا أنه لا تجوز الإقامة في دار الفسق، كما لا تجوز الإقامة في دار الكفر.

والجؤجؤ: عَظْم الصدر، وجؤجؤ السفينة: صدرها.

فأما إخباره عليه السلام أنّ البَصْرة تغرَق عدا المسجدَ الجامع بها، فقد رأيتُ مَنْ يذكر أنّ كتب الملاحم تدلّ على أنّ البصرة تَهْلِك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها.

والصحيح أن المخبَر به قد وقع، فإنَّ البصرة غرقت مرتين، مرة في أيام القادر بالله، ومرة في أيام القائم بأمر الله، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطائر، حَسَب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السّنام، وخرِبت دورها، وغرق كلّ ما في ضِمْنها، وهلك كثير من أهلها.

وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة، يتناقلها خلَفهم عن سلفهم.

---

(١) أخرجه الشهاب في «مسنده» (٩٥٧)، والديلمي في «مسنده الفردوس (١٥٣٧)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٨٥٥) وعزاه للدارقطني في الأفراد، والرامهرمزي، والعسكري في الأمثال، وابن عدي.

أشعار وأراجيز في يوم الجمل

قال أبو الحسن علي بن محمد بن سيف المدائنيّ ومحمد بن عمر الواقديّ: ما حُفِظ رَجَز قطّ أكثر من رَجزَ قيل يوم الجمل، وأكثره لبَني ضبّة والأزْد، الذين كانوا حول الجمل يحامون عنه، ولقد كانت الرؤوس تُنْدَر عن الكواهل، والأيدي تَطِيحُ من المعاصم وأقتاب البطن تندِلق من الأجواف، وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل، حتى لقد صرخ عليه السلام بأعلى صوته: ويلكم اعقِروا الجمل فإنه شيطان! ثم قال: اعقِروه وإلا فَنِيَت العرب. لا يزال السيفُ قائماً وراكعاً حتى يهوِي هذا البعيرُ إلى الأرض، فصمدوا له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد، فلما برك كانت الهزيمة.

ومن الأراجيز المحفوظة يوم الجمل لعسكر البصرة قول بعضهم:

نَحنُ - بني ضَبّة - أصحابُ الجَملْ ... نُنازِلُ الموتَ إذا ألْمَوْتُ نَزَلْ
نَنْعَي ابن عفان بأطراف الأسَلْ ... ردّوا علينا شيخنا ثُمَّ بَجَلْ
الموت أحْلَى عندنا من العَسَلْ ... لا عار في الموت إذا حانَ الأجَلْ
إنّ علياً هو من شرّ البَدَلْ ... إن تعدلوا بشيْخِنا لا يُعتدلْ
أينَ الوِهَادُ وشماريخُ القُلَل[1]

فأجابه رجل من عسكر الكوفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام:

نحن قتلنا نَعْثَلاً فيمن قُتِلْ ... أكثرَ من أكثرَ فيه أو أقَلْ
أنّي يُرَدُّ نَعْثَلٌ وقد قَحَلْ ... نَحْنُ ضَرَبْنَا وَسْطَه حتّى انْجدَلْ
لِحُكْمِهُ حُكْمُ الطواغِيت الأوَلْ ... آثرَ بالفيء وَجَافَى في العملْ
فأبدل الله بِهِ خيرَ بَدَلْ ... إني امرؤ مستقدِم غيرُ وَكِلْ
مشمِّر للحربِ مَعْروف بَطَلْ

ومن أراجيز أهل البصرة:

يأيها الجند الصليب الإيمانْ ... قوموا قياماً واستغيثوا الرحمنْ
إني أتاني خَبَرٌ ذو ألوانْ ... أنّ عليًّا قتل ابنَ عفانْ
ردّوا إلينا شَيْخَنَا كما كانْ ... يا ربّ وابعثْ ناصراً لعثمانْ
يَقْتُلُهُم بقوّةٍ وَسلْطانْ

---

(١) الوهاد: جمع وهدة، وهي المطمئن من الأرض والمكان المنخفض كأنه حفرة. اللسان، مادة (وهد). والقلل: جمع قلة وهي أعلى الجبل. اللسان، مادة (قلل).

فأجابه رجل من عسكر الكوفة:

أَبَتْ سُيوفُ مَذْحِجٍ وَهَمْدَانْ ... بأنْ تَرُدَّ نَعْثَلاً كَمَا كَانْ
خلْقاً سويًّا بعد خلقِ الرَّحْمَنْ ... وَقَدْ قضى بالحُكْمِ حكْمِ الشَّيْطَانْ
وفارق الحقَّ ونورَ الفُرْقَانْ ... فذاقَ كأْسَ المَوْتِ شُرْبَ الظَّمآنْ

ومن الرجز المشهور المقول يوم الجمل، قاله أهل البصرة:

يا أمَّنا عائشُ لا تُراعي ... كلُّ بنيك بطل المِصاعِ[1]
يَنْعَى ابنَ عفان إليكِ ناعِ ... كعب بن سور كاشف القِنَاعِ
فارضيْ بنَصْر السيّدِ المطاع ... والأزْدُ فيها كَرَمُ الطّبَاعِ

ومنه قول بعضهم:

يا أمّنا يَكْفيكِ منّا دنوهْ ... لن يؤخذ الدهرَ الخِطامُ عَنْوَهْ
وحولكِ اليوم رجالٌ شَنْوَهْ ... وحيّ هَمْدانَ رِجَالُ الهَبْوَهْ
والمالكيون القليلو الكَبْوَهْ ... والأزدُ حَيٌّ ليس فيهمْ نَبْوَهْ

قالوا: وخرجَ من أهل البصرة شيخ صَبيحُ الوجه، نبيل، عليه جُبّة وَشْيٍ، يحضّ الناس على الحرب، ويقول:

يَا مَعْشَرَ الأزْدِ عَليكُمْ أمّكُمْ ... فإنّها صلاتُكُمْ وَصَوْمُكُمْ
والحرْمَةُ العُظمى الّتي تَعُمُّكُمْ ... فأحضروها جِدّكُمْ وَحَزمَكُمْ
لاَ يَغْلِبَنْ سُمُّ العدوّ سُمَّكُمْ ... إن العَدوّ إن عَلاَكُمْ زَمَّكُمْ
وَخَصّكُم بجَوْرِه وَعَمَّكُمْ ... لا تُفْضحوا اليوم فداكم قَوْمكُمْ

قال المدائنيّ والواقدي: وهذا الرَّجَز يصدّق الرواية أن الزبير وطلْحة قاما في الناس، فقالا: إنّ عليًّا إن يظفر فهو فناؤكم يا أهل البصرة، فاحموا حقيقَتكم، فإنَه لا يُبْقى حُرْمة إلا انتهكها، ولا حريماً إلا هَتكه، ولا ذرِّية إلا قتلها، ولا ذواتِ خِدْرٍ إلا سبَاهُنّ، فقاتلوا مقاتَلة مَنْ يحمى عن حريمه، ويختار الموت على الفضيحة يراها في أهله.

وقال أبو مِخْنَف: لم يقل أحد من رُجّاز البصرة قولاً كان أحبّ إلى أهل الجمل من قول هذا الشيخ، استقتل الناس عند قوله، وثبتوا حول الجمل، وانتدبوا، فخرج عوف بن قَطَن الضَّبيّ، وهو ينادي: ليس لعثمان ثأر إلا عليّ بن أبي طالب وولده، فأخذ خِطام الجمل، وقال:

---

(١) المصاع: المقاتلة والمجالدة بالسيوف. اللسان، مادة (مصع).

يــا أمُّ خَــلاَ مِــنِّــي الــوَطَــنْ لا أبتغي القبْرَ ولا أبغى الكَفَنْ
من ها هنا محشر عوفِ بن قَطَنْ إن فاتنا اليوم عليّ فالغَبَنْ
أو فاتَنَا ابناهُ حسين وحسنْ إذاً أمُتْ بطول هَمٌ وَحَزَنْ

ثم تقدم، فضرب بسيفه حتى قتل.

وتناول عبد الله بن أبْزى خِطام الجمل، وكان كلّ من أراد الجدّ في الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدّم إلى الجمل فيأخذ بخِطامه، ثم شدّ على عسكر عليّ عليه السلام، وقال:

أضـرِبُـهُـمْ وَلاَ أرَى أبا حَسَنْ ها إنّ هذا حَزَنٌ مِنَ الحَزَنْ

فشدّ عليه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح فطعنه فقتله، وقال: قد رأيت أبا حسن، فكيف رأيته! وترك الرمح فيه. وأخذت عائشة كفًّا من حصًى، فحصَبتْ به أصحابَ عليّ عليه السلام، وصاحت بأعلى صوتها: شاهت الوجوه! كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله يومَ حُنَين، فقال لها قائل: وما رميتِ إذْ رَمَيْتِ ولكنّ الشيطان رمى. وزحف عليّ عليه السلام نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار، وحوله بنوه: حسن وحسين ومحمد عليهم السلام، ودفَع الراية إلى محمد، وقال: أقْدِم بها حتى تركُزها في عين الجمل، ولا تقفَنّ دونه. فتقدّم محمد، فرَشَقَتْه السهام، فقال لأصحابه: رويداً حتى تنفَد سهامُهم، فلم يبق لهم إلاّ رَشْقة أو رَشقتان. فأنفذا إليه عليّ عليه السلام يستحثّه، ويأمرُه بالمناجزة، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خَلْفه، فوضع يده اليسرى على مَنْكِبه الأيمن، وقال له: أقدِمْ لا أمّ لك! فكان محمد رضي الله عنه إذا ذكر ذلك بعدُ يبكي، ويقول: لكأنّي أجد ريحَ نفَسِه في قفاي، والله لا أنسى أبداً. ثم أدركتْ عليًّا عليه السلام رِقّة على ولده، فتناول الرايةَ منه بيده اليسرى، وذو الفَقَار مشهور في يُمْنى يَديه، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل، ثم رجع وقد انحنَى سيفُه، فأقامه بركبته. فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمّار: نحن نكفيك يا أمير المؤمنين.

فلم يجب أحداً منهم ولا ردَّ إليهم بصرَه، وظل ينحَطُ ويزأر زئيرَ الأسد، حتى فَرِق مَنْ حوله. وتبادروه، وإنّه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة، لا يبصر مَنْ حوله، ولا يردُّ حِواراً، ثم دفع الراية إلى ابنه محمد، ثم حمل حمله ثانية وحده، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قُدُماً قُدُماً، والرجال تفرّ من بين يديه، وتنحاز عنه يَمْنَةً وَيَسْرَةً، حتى خَضَبَ الأرضَ بدماء القتلى، ثم رجع وقد انحنى سيفُه، فأقامه بركبته، فاعصوصَب به أصحابُه، وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام، وقالوا: إنّك إن تُصَبْ يذهب الدين، فأمسِك ونحن نكفيك. فقال: والله ما أريد بما ترون إلاّ وجه الله والدار الآخرة. ثم قال لمحمد ابنه: هكذا تصنع يا ابن الحنفيّة، فقال الناس: مَن الذي يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين!

ومن كلماته الفصيحة عليه السلام في يوم الجمل، ما رواه الكلبيّ عن رجل من الأنصار قال: بينا

أنا واقف في أوّل الصفوف يوم الجمل، إذ جاء عليّ عليه السلام فانحرفتُ إليه فقال: أين مَثْرَى القوم؟ فقلت: ها هنا - نحو عائشة.

قال الكلبيّ: يريد أينَ عددهُم؟ وأين جمهورهم وكثرتهم؟ والمال الثريّ على «فعيل» هو الكثير، ومنه رجل ثَرْوَان، وامرأة ثروَى، وتصغيرها ثُرَيَّا. والصدقة مثراة للمال، أي مكثّرة له.

قال أبو مخْنَف: وبعث عليّ عليه السلام إلى الأشتر: أن احْمِل على ميسرتهِمْ، فحمل عليها وفيها هلال بن وكيع، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتل هلال، قتله الأشتر، فمالت الميسرة إلى عائشةَ فلاذوا بها، وعظْمهم بنو ضَبّة وبنو عَدِيّ، ثم عطفتْ الأزْد وضَبّة وناجية وباهلة إلى الجمل، فأحاطوا به، واقتتل الناس حوله قتالاً شديداً، وقُتِل كعب بن سور قاضي البصرة، جاءه سهم غَرْب[1] فقتله وخِطام الجمل في يده، ثم قُتل عمرو بن يثربيّ الضّبّي، وكان فارسَ أصحَاب الجمل وشجاعَهم، بعد أن قتل كثيراً من أصحاب علي عليه السلام.

قالوا: كان عَمْرو أخذ بخِطام الجمل، فدفعه إلى ابنه، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه عِلباء بن الهيثم السّدوسيّ، فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه هند بن عمرو الجمليّ فقتله عمرو، ثم دعا إلى البراز، فقال زيد بن صُوحان العبدِيّ لعليّ عليه السلام: يا أميرَ المؤمنين، إنّي رأيت يداً أشرفت عليّ من السماء وهي تقول: هلمّ إلينا، وأنا خارج إلى ابن يثربيّ، فإذا قتلني فادفِنّي بدمي ولا تُغسّلْنِي، فإني مخاصم عند ربّي، ثم خرج فقتله عمرو، ثم رجع إلى خِطام الجمل مرتجزاً يقول:

أردَيْتُ عِلْباءَ وهِنْداً في طَلَقْ ... ثم ابنَ صُوحان خَضيباً في عَلَقْ
قَدْ سَبَقَ اليومَ لنا ما قد سَبَقْ ... والوِتْرُ مِنّا في عديٍّ ذي الفَرَقْ
والأشتر الغاوي وعمرو بن الحَمِق ... والفارس المُعْلِم في الحرْبِ الحَنِقْ
ذاك الذي في الحادثات لم يُطَقْ ... أعني عليًّا ليته فِينَا مِزَقْ

قال: قوله: «والوتْر منا في عديّ» يعني عديّ بن حاتم الطائيّ، وكان من أشدّ الناس على عثمانَ، ومن أشدّهم جهاداً مع عليّ عليه السلام. ثم ترك ابنُ يثربيّ الخِطام، وخرج يطلب المبارزة، فاختُلف في قاتله، فقال قوم: إن عمّار بن ياسر خرج إليه والناس يسترجعون له، لأنه كان أضعفَ مَنْ برز إليه يومئذ. أقصرُهم سيفاً، وأقصفُهم رمحاً، وأحمشُهم ساقاً، حمالة سيفه من نِسْعة الرَّحْل، وذُباب سيفه قريب من إبطه. فاختلفا ضربتين، فنشب سيف ابن يثربيّ في حَجَفَة[2] عمّار، فضربه عمّار على رأسه فصرعه، ثم أخذ برِجله يسحبه حتى انتهى به إلى

(١) سهم غرْب: أي لا يدري راميه. القاموس مادة (غرب).

(٢) الحجفة: التّرس. القاموس مادة (حجف).

عليّ عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، اسْتَبْقِنِي أجاهد بين يديك، وأقتل منهم مثل من قتلتُ مِنكم. فقال له عليّ عليه السلام: أبَعد زيد وهند وعلباء أستبقيك! لاهاً لله إذاً! قال: فأدنِني منك أسارّك، قال له: أنت متمرّد، وقد أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بالمتمرّدين، وذكَرك فيهم. فقال: أما والله لو وصلتُ إليكَ لعضضتُ أنفك عضّةً أبَنْتُه منك.

فأمر به عليّ عليه السلام فضربَتْ عنقه.

وقال قم: إن عمراً لما قَتَل مَنْ قتل، وأراد أن يخرج لطلب البراز، قال للأزد: يا معشر الأزد، إنكم قوم لكم حياء وبأس، وإني قد وَتَرْت القوم، وهم قاتليّ، وهذه أمّكم نَصْرُها دَيْن، وخِذْلانها عقوق، ولست أخشى أن أقتل حتى أصرَع، فإن صرعت فاستنقذوني. فقالت له الأزْد: ما في هذا الجمع أحد نخافه عليك إلا الأشتر، قال: فإياه أخاف.

قال أبو مِخنف: فقيّضه الله له، وقد أُعْلِما جميعاً، فارتجز الأشتر:

إنّـي إذا مـا الـحـربُ أبـدتْ نـابَـهـا   وأغْـلَـقَـتْ يـومَ الـوغَـى أبـوابَـهـا
ومَـزَّقَـتْ مـن حَـنَـقٍ أثْـوَابَـهـا   كـنّـا قُـدَامـاهـا ولا أذنـابَـهـا
لـيـس الـعـدوُّ دونـنـا أصـحـابَـهـا   مَـنْ هـابـهـا الـيـوم فـلـن أهـابَـهـا
لا طـعـنَـهـا أخـشـى ولا ضِـرَابَـهـا

ثم حمل عليه فطعنه فصرعه، وحامت عنه الأزْد فاستنقذوه، فوثب وهو وقِيذٌ[1] ثقيل، فلم يستطع أن يدفَع عن نفسه، واستعرضه عبدُ الرحمن بن طود البكريّ، فطعنه فصرعه ثانية، ووثب عليه رجل من سَدوس، فأخذه مسحوباً برجله حتى أتى به عليًا عليه السلام، فناشده الله وقال: يا أميرَ المؤمنين، اعفُ عَنّي، فإنّ العرب لم تزل قائلةً عنك: إنك لم تُجْهِزْ على جريح قَطّ. فأطلقه، وقال: اذهبْ حيث شئت، فجاء إلى أصحابه وهو لما به. حضره الموت، فقالوا له: دمُك عند أيّ الناس؟ فقال: أما الأشتر فلَقِيَني وأنا كالمُهر الأرِن، فعلاً حدُّه حَدِّي، ولقيت رجلاً يبتغي له عشرة أمثالي. وأما البكريّ فلقيَني، وأنا لما بي، وكان يبتغي لي عشرة أمثاله، وتولّى أسرِي أضعفُ القوم، وصاحبي الأشتر.

قال أبو مِخْنف: فلما انكشفت الحرب، شكرت أبنةُ عمرو بن يثربيّ الأزْد، وعابت قومها، فقالت:

يَـا ضَـبُّ إنّـكِ قَـدْ فُـجِـعْـتِ بـفـارسٍ   حَـامـي الـحـقـيـقَـةِ قـاتِـلِ الأقـرانِ
عـمـرو بـن يـثـربٍ الّـذي فُـجـعـتْ بـه   كـلّ الـقـبـائـل مـن بـنـي عَـدْنـانِ
لـم يَـحْـمِـه وسط الـعَـجـاجَـة قـومُـه   وَحَـنَـتْ عـلـيـهِ الأزد، أزد عُـمـانِ

(١) الوقيذ: الشديد المرض الذي قد أشرف على الموت. اللسان، مادة (وقذ).

فـلـهـمْ عـلـيّ بـذاكَ حـادِثُ نـعـمَـةٍ ... ولـحُـبِّـهـمْ أحـبـبـتُ كـلَّ يـمـانِ
لَـوْ كَـانَ يَـدْفَـعُ عَـنْ مَـنـيَّـةِ هَـالِـكٍ ... طـولُ الأكُـفِّ بـذابِـلِ الـمُـرّانِ[1]
أو معشرٌ وصلوا الخُطَا بسيوفهمْ ... وَسطَ العَجَاجَة والحتوفُ دَوانِ
مَـا نـيـلَ عَـمْـرٌ والـحـوادث جَـمّـةٌ ... حـتـى يُـنـال الـنـجـم والـقَـمـرانِ
لـو غَـيـرُ الأشـتَـرِ نَـالَـهُ لـنـدبـتُـه ... ويـكـيـتُـه مـا دامَ هَـضْـبُ أبـانِ
لَـكِـنَّـه مَـنْ لا يُـعَـابُ بِـقَـتْـلـه ... أسـد الأسـود وفـارسُ الـفُـرْسَـانِ

قال أبو مخْنف: وبَلغنا أنّ عبد الرحمن بن طود البكريّ قال لقومه: أنا والله قتلت عمْراً، وإنّ الأشتر كان بَعْدِي وأنا أمامه في الصعاليك، فطعنت عمراً طعنة لم أحسب أنها تُجعل للأشتر دوني، وإنما الأشتر ذو حظّ في الحرب، وإنّه ليعلم أنه كان خَلْفي، ولكن أبى الناس إلا أنه صاحبه، ولا أرى أن أكون خصم العامة، وإن الأشتر لأهْلٌ ألا ينازَع. فلما بلغ الأشترَ قولُه قال: أما والله لولا أني أطفأت جَمْرَته عنه ما دنا منه، وما صاحبه غيري، وإنّ الصَّيْد لمن وَقَذه. فقال عبد الرحمن: لا أنازع فيه، ما القول إلا ما قاله، وأنَّى لي أن أخالف الناس!

قال: وخرج عبد الله بن خلَف الخُزاعيّ، وهو رئيس البصرة، وأكثر أهلها مالاً وضياعاً، فطلب البِراز، وسأل ألاّ يخرج إليه إلا عليّ عليه السلام، وارتجز فقال:

أبـا تـرابٍ أدْنُ مِـنّـي فِـتْـرَا ... فـإنّـنـي دانٍ إلـيـك شِـبْـرَا
وإنّ فـي صَـدْرِي عـلـيـك غِـمْـرَا

فخرج إليه عليّ عليه السلام، فلم يُمْهِلْه أن ضَرَبه، ففلق هامته.

قالوا: استدار الجملُ كما تدور الرّحا، وتكاثفت الرجال من حوله، واشتد رُغاؤه، واشتدّ زحام الناس عليه، ونادى الحُتات المجاشعيّ: أيها الناس، أمّكم أمّكم! واختلط الناس فضرب بعضُهم بعضاً، وتقصّد أهلُ الكوفَة قصْد الجمل، والرجال دونه كالجبال، كلّما خفّ قوم جاء أضعافهم. فنادى عليّ عليه السلام: ويحكم! ارْشُقوا الجمل بالنَّبل، اعقِروه لعنه الله! فرُشِق بالسهام، فلم يبقَ فيه موضع إلا أصابه النَّبْل، وكان مجفّفاً[2] فتعلّقت السهام به، فصار

(١) المران: الرماح الصلبة اللدنة، واحدتها مرانة. اللسان، مادة (مرن).
(٢) فرس مجفّف: عليه تجفاف، والتجفاف: ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح. اللسان، مادة (جفف).

كالقنفذ، ونادت الأزد وضَبّة: يا لثارات عثمان! فاتّخذوها شعاراً، ونادى أصحاب عليّ عليه السلام: يا محمد! فاتخذوها شعاراً، واختلط الفريقان، ونادى عليّ عليه السلام بشعار رسول الله صلى الله عليه وآله: يا منصور أمِتْ. وهذا في اليوم الثاني من أيام الجمل، فلما دعا بها تزلزلت أقدامُ القوم، وذلك وقت العصر، بعد أن كانت الحرب من وقت الفجر.

قال الواقديّ: وقد رُوِيَ أن شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم «حمّ لا ينصرون. اللهم انصرنا على القوم الناكثين» ثم تحاجز الفريقان، والقَتْل فاشٍ فيهما، إلاّ أنّه في أهل البصرة أكثر، وأمارات النصر لائحة لعسكر الكوفة، ثم توافقوا في اليوم الثالث، فبرز أوّلَ الناس عبد الله بن الزبير، ودعا إلى المَبارزة، فبرز إليه الأشتر، فقالت عائشة: مَنْ برز إلى عبد الله؟ قالوا: الأشتر، فقالت: وَاثُكْلَ أسماء! فضربَ كلٌّ منهما صاحبَه فجرحه، ثم اعتنقا، فصرع الأشتر عبدَ الله، وقعدَ على صدره، واختلط الفريقان: هؤلاء لينقذوا عبد الله، وهؤلاء ليُعينوا الأشتر. وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام لم يَطْعَم - وهذه عادته في الحرب - وكان أيضاً شيخاً عاليَ السنّ، فجعل عبد الله ينادي:

اقتلوني ومالِكاً

فلو قال: «اقتلوني والأشتر» لقتلوهما، إلا أنّ أكثرَ من كان يمرّ بهما لا يعرفهما، لكثرة مَنْ وقع في المعركة صَرْعى بعضُهم فوق بعض، وأفلت ابن الزبير مِنْ تحته ولم يكد، فذلك قول الأشتر:

أعَائِشُ لولا أنّني كُنْتُ طَاوِياً ... ثلاثاً لألْفَيتِ ابنَ أُختِكِ هَالِكَا
غَداة ينادي والرِّجالُ تحوزُهُ ... بأضعف صوت: أقتُلُوني ومالكاً!
فلَمْ يعرِفُوه إذ دعاهم وغَمّهُ ... خِدَبٌّ[1] عليه في العَجَاجَة بارِكا
فنجّاه منّي أكلُه وشبابه ... وأنّيَ شَيْخٌ لم أكن متماسكاً

وروى أبو مخْنف عن الأصبغ بن نُباتة، قال: دخل عمّار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشتر على عائشة بعد انقضاء أمر الجمل، فقالت عائشة: يا عمّار، مَنْ معك؟ قال: الأشتر. فقالت: يا مالك، أنت الذي صنعتَ بابن أختي ما صنعت؟ قال: نعم، ولولا أنّي كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرَحْتُ أمة محمد منه، فقالت: أما علمتَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا يحلّ دم

(١) الخِدَبُّ: الشيخ، والعظيم. القاموس، مادة (خدب).

مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة: كفر بعد إيمان، أو زناً بعد إحصان، أو قتل نفس بغير حق»[١]! فقال الأشتر: عَلَى بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أمّ المؤمنين، وأيمُ الله ما خانني سيفي قبلها، ولقد أقسمت ألا يصحبَني بعدها.

قال أبو مخنف: ففي ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذي ذكرناه:

وَقَالَتْ على أيّ الخصال صرعْتَه ... بقتلٍ أتى، أم رِدّةٍ لا أبا لكا!
أم المحصَن الزّاني الذي حَلّ قتلُه ... فقلت لها لا بُدّ من بعض ذلكا

قال أبو مِخنف: وانتهى الحارث بن زهير الأزديّ من أصحاب عليّ عليه السلام إلى الجمل، ورجل آخذ بخِطامه، لا يدنو منه أحد إلا قتله، فلما رآه الحارث بن زهير مشى إليه بالسيف وارتجز، فقال لعائشة:

يا أمّنا أعقّ أمٍّ نَعْلَمُ ... والأمّ تغذو وُلْدَهَا وَتَرْحَمُ
أما ترين كم شجاعٍ يُكْلَمُ! ... وتُخْتلَى هَامتهُ والمِعصمُ!

فاختلف هو والرجل ضربتين، فكلاهما أثخن صاحبه.

قال جندب بن عبد الله الأزديّ: فجئت حتى وقفت عليهما وهما يفحصان بأرجلهما حتى ماتا. قال: فأتيتُ عائشة بعد ذلك أسلّم عليها بالمدينة، فقالت: مَنْ أنت؟ قلت: رجل من أهل الكوفة، قالت: هل شَهِدْتَنا يوم البصرة؟ قلت: نعم، قالت: مع أيّ الفريقين؟ قلت: مع عليّ، قالت: هل سمعتَ مقالة الذي قال:

يا أمّنا أعقّ أمٍّ نَعْلَمُ

قلت: نعم، وأعرفه، قالت: ومن هو؟ قلت: ابن عَمّ لي، قالت: وما فعل؟ قلت: قُتل عند الجمل، وقُتل قاتله، قال: فبكت حتى ظننت والله أنها لا تسكت، ثم قالت: لوددت والله أنني كنت مِتّ قبل ذلك اليوم بعشرين سنة.

قالوا: وخرج رجل من عسكر البصرة يعرف بخبّاب بن عمرو الراسبيّ، فارتجز فقال:

أَضْرِبُهُمْ وَلَوْ أرى عَلِيّاً ... عَمَّمْتُه أبيضَ مَشْرَفِيّا
أريح منه مَعْشَراً غويّاً

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث (٢١٥٨)، والنسائي، كتاب: تحريم الدم، باب: منه (٣٩٦٨).

فصمد عليه الأشتر فقتله:

ثم تقدّم عبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس وهو من أشراف قريش - وكان اسم سيفه «ولول» - فارتجز، فقال:

أنَا ابْنُ عَتَّابٍ وَسَيْفِي وَلْوَلْ ... والموتُ دون الْجَمَلِ المجلَّلْ

فحمل عليه الأشتر فقتله. ثم خرج عبد الله بن حكيم بن حزام من بني أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ، من أشراف قريش أيضاً، فارتجز وطلب المبارزة، فخرج إليه الأشتر فضربه على رأسه فصرعه، ثم قام فنجا بنفسه.

قالوا: أخذ خِطام الجمل سبعون من قريش، قُتلوا كلّهم، ولم يكن يأخذ بخِطام الجمل أحدٌ إلا سالت نفسه، أو قطعت يده. وجاءت بنو ناجية فأخذوا بخِطام الجمل، ولم يكنْ يأخذ الخطامَ أحد إلا سألت عائشة: من هذا؟ فسألت عنهم، فقيل: بنو ناجية، فقالت عائشة: صبراً يا بني ناجية، فإني أعرف فيكم شمائل قريش. قالوا: وبنو ناجية مطعون في نسبهم إلى قريش، فقتلوا حولها جميعاً.

قال أبو مخنف: وحدثنا إسحاق بن راشد عن عبد الله بن الزبير، قال: أمسيتُ يوم الجمل وبي سبعة وثلاثون جُرحاً، من ضربة وطعنة ورَمْية، وما رأيتُ مثلَ يوم الجمل قط، ما كان الفريقان إلاّ كالجبلين لا يزولان.

قال أبو مخْنف: وقام رجل إلى علي عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، أيّ فتنة أعظم من هذه؟ إن البَدْرِيّة ليمشي بعضها إلى بعض بالسيف، فقال عليّ عليه السلام: ويحك! أتكون فتنة أنا أميرها وقائدها! والّذي بعث محمداً بالحق وكرّم وجهه، ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتَ، ولا ضَلَلْتُ ولا ضُلَّ بي، ولا زَلَلْتُ ولا زُلّ بي، وإني لَعلي بيّنة من رَبّي، بيّنها الله لرسوله، وبيّنها رسوله لي، وسأدْعَى يوم القيامة ولا ذَنْب لي، ولو كان لي ذنب لَكَفّر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم[1].

قال أبو مخنف: وحدّثنا مسلم الأعور عن حَبّة العُرَنيّ قال: فلما رأى علي عليه السلام أن الموتَ عند الجمل، وأنه ما دام قائماً فالحرب لاتُطفأ، وضع سيفه على عاتقه، وعطف نحوه، وأمر أصحابه بذلك، ومشى نحوه والخِطام مع بني ضبّة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، واستحرَّ القَتْل في بني ضَبّة، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وخَلَص عليّ عليه السلام في جماعة من النَّخع وهَمْدان إلى الجمل، فقال لرجل من النَّخع اسمه بُجَير: دُوْنَكَ الجمل يا بُجير، فضرب عَجُز الجمل بسيفه فوقع لجنبه، وضرب بجِرانه الأرض، وعجّ عجيجاً لم يُسْمع بأشدَّ منه، فما هو إلا أنْ صُرِع

(١) أخرجه أحمد الرحماني في الإمام علي: ٦٢٧.

الجمل حتى فرّت الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب، واحتُملتْ عائشة بهودجها، فحُملتْ إلى دار عبد الله بن خلَف، وأمر عليّ عليه السلام بالجمل أنْ يُحرَق ثم يذَرّى في الريح. وقال عليه السلام: لعنه الله من دابّة! فما أشبَهه بعجل بني إسرائيل، ثم قرأ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾(١).

١٤ – ومن كلام له عليه السلام في ذم أهل البصرة أيضاً

الأصل: أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ ٱلْمَاءِ، بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ. خَفّتْ عُقُولُكُمْ، وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ، فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنابِلٍ، وَأُكْلَةٌ لآكِلٍ، وفَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ.

الشرح: الغَرَض: ما يُنصَب ليُرمى بالسهام. والنّابل: ذو النَّبل. والأُكلة، بضم الهمزة: المأكول. وفريسة الأسد: ما يفترسه.

وسِفَه فلان، بالكسر، أي صار سفيها، وسَفُه بالضم أيضاً. فإذا قلت: سَفِه فلان رأيَه أو حلمَه أو نفسَه، لم تَقل إلا بالكسر، لأنّ «فَعُل» بالضم لا يتعدّى. وقولهم: سَفِه فلان نفسَه، وغَبِن رأيَهُ، وبَطِر عيشَه، وألِمَ بطنَه، ورفِق حالَه، ورَشِد أمرَه، كان الأصل فيه كله: سَفِهَتْ نفس زيد فلما حوّل الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بالمفعوليّة. هذا مذهب البصريين والكسائيّ من الكوفيين.

وقال الفرّاء: لما حُوّل الفعل إلى الرجل خرج ما بعده مفسّراً ليدلّ على أن السفاهة فيه، وكان حكمه أن يكون: سَفِه زيدٌ نفساً، لأنّ المفسّر لا يكون إلاّ نكرة، ولكنه ترك على إضافته، ونُصِب كنصب النكرة، تشبيهاً بها.

ويجوز عند البصريين والكِسائيّ تقديمُ المنصوب، كما يجوز: ضرب غلامَه زيدٌ، وعند الفرّاء لا يجوز تقديمه، لأن المفسّر لا يتقدّم.

فأمّا قوله: «أرضُكم قريبة من الماء، بعيدة من السماء» فقدقدّمنا معنى قوله «قريبة من الماء» وذكرنا غَرَقها من بحر فارس دَفْعتين، ومراده عليه السلام بقوله: «قريبة من الماء»، أي قريبة من الغَرَق بالماء. وأما «بعيدة من السماء»، فإنّ أربابَ علم الهيئة وصناعة التّنجيم يذكرون أنّ أبعد موضع في الأرض عن السماء الأُبُلّة، وذلك موافق لقوله عليه السلام.

---

(١) سورة طه، الآية: ٩٧.

ومعنى البعد عن السماء ها هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدلّ النهار والبقاع، والبلاد تختلف في ذلك. وقد دلّت الأرصاد والآلات النّجُوميّة على أن أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدّل النهار هو الأُبُلّة، والأبلّة هي قصبة البصرة.

وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب، ولا تهتدي إليه، وهو مخصوص بالمدقّقين من الحكماء. وهذا من أسراره وغرائبه البديعة.

١٥ - ومن كلام له عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان رضي الله عنه

الأصل: وَٱلله لَوْ وَجَدْتُه قدْ تُزُوِّجَ بِهِ النساءُ، وَمُلِكَ بِهِ ٱلْإِمَاءُ، لَرَدَدْتُه، فَإِنَّ فِي ٱلْعَدْلِ سَعَةً. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ ٱلْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عليهِ أَضْيَقُ.

الشرح: القطائع: ما يُقطِعه الإمام بعضَ الرعيّة من أرض بيت المال ذاتِ الخراج، ويُسقِط عنه خراجَه، ويجعلُ عليه ضريبة يسيرة عوضاً عن الخراج. وقد كان عثمان أقطع كثيراً من بني أميّة وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة، وقد كان عمرُ أقطع قطائع، ولكن لأربابه الغَناء في الحرب والآثار المشهورة في الجهاد، فَعَلَ ذلك ثَمَناً عمّا بذلوه من مُهَجِهم في طاعة الله سبحانه، وعثمان أقطع القطائع صلةً لرَحِمِه، وميلاً إلى أصحابه، عن غير عناء في الحرب ولا أثر.

وهذه الخطبة ذَكَرَها الكلبيّ مرويّةً مرفوعةً إلى أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ علياً عليه السلام خَطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة، فقال:

ألا إنّ كل قطيعَةٍ أقطعها عُثْمان، وكلَّ مال أعْطَاهُ من مال الله، فهو مَرْدُود في بيت المال، فإنّ الحقَّ القديم لا يُبطله شيء، ولو وجدتُه وقد تُزُوِّج به النساء، وفُرِّق في البلدان، لرددته إلى حاله، فإنّ في العدل سعة، ومَنْ ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق.

وتفسيرُ هذا الكلام أنّ الوالِيَ إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في العدل، فهي في الجوْر أضيق عليه، لأنّ الجائر في مَظِنّة أن يُمْنع ويُصَدّ عن جوره.

قال الكلبيّ: ثم أمر عليه السلام بكلّ سلاح وُجِد لعثمان في داره مما تقوّى به على المسلمين فقبض، وأمر بقبْضِ نجائب كانت في داره من إبل الصدقة، فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه،

وأمَر ألاّ يعرض لسلاح وُجد له لم يقاتل به المسلمون، وبالكفّ عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره، وأمر أن تُرتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أُصيبت أو أصيب أصحابها.

فبلغ ذلك عَمْرو بن العاص، وكان بأيْلة من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع، إذ قَشَرَك ابن أبي طالب من كلِّ مال تملكه كما تُقْشَر عن العصا لِحاها.

وقال الوليد بن عُقْبة - وهو أخو عثمان من أمه - يذكر قبضَ عليٍّ عليه السلام نجائبَ عثمان وسيفَه وسلاحه:

بَنِي هاشِمٍ رُدُّوا سلاح ابنِ أُختِكُمْ ... وَلاَ تُنْهِبُوه لاَ تَحِلُّ مَنَاهِبُهْ
بَنِي هاشمٍ كيف الهوادةُ بيننا ... وعِنْدَ عليٍّ دِرْعُهُ وَنَجَائِبُهْ!
بَنِي هاشمٍ كيف التَّودّدُ مِنْكُمُ ... وَبَزُّ ابنِ أرْوَى فيكُمُ وحَرَائبُهْ!
بني هاشم إلاّ تردُّوا فإنّنا ... سواء علينا قاتلاه وسالبُه
بني هاشم إنّا وما كان مِنْكُمُ ... كصَدْعِ الصَّفا لا يشعَب الصَّدْعَ شاعِبُهْ
قَتَلْتُمْ أخِي كَيْما تَكُونُوا مَكانَهُ ... كما غَدرتْ يوماً بِكِسْرَى مَرَازِبُهْ[1]

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب بأبياتٍ طويلة من جملتها:

فَلاَ تَسْأَلُونا سَيْفَكُمْ إنَّ سَيْفَكُمْ ... أُضِيعَ وألْقَاهُ لَدَى الرَّوْعِ صاحِبُهْ
وَشَبَّهْتَه كِسرَى وقد كان مثله ... شبيهاً بكِسْرى هَدْيُه وَضَرَائِبُهْ

أي كان كافراً كما كان كسرى كافراً.

وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشعر يقول: لعن الله الوليد! هو الذي فَرّق بين بني عبد مناف بهذا الشعر!

١٦ - ومن خطبة له عليه السلام لما بويع بالمدينة

الأصل: ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. إنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلاَتِ، حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ. أَلاَ وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ

(١) المرازبة: واحدة مَرْزُبان، وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك، فارسي معرب. اللسان، مادة (رزب).

بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً، ولَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً، ولَتُسَاطُنَّ سَوْطَ القِدْرِ، حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ، وأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا، وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا. وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً، وَلا كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا المَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ.

أَلاَ وَإِنَّ الخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ.

أَلاَ وَإِنَّ التقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ، حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا، فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ.

حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ البَاطِلُ لَقَدِيماً فَعلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ، وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ.

قال الرضيّ: وأقول: إنَّ في هذا الكلام الأدْنَى من مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ مَا لا تَبْلُغُهُ مَواقِعُ الاسْتِحْسَانِ. وَإِنَّ حَظَّ العَجَبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ حَظِّ العُجْبِ بِهِ، وَفِيه مَعَ الحَالِ الَّتِي وَصَفْنَا زَوَائِدُ مِنَ الفَصَاحَةِ لاَ يَقُومُ بِهَا لِسَانٌ، وَلاَ يَطَّلِعُ فَجَّها إِنْسَان، وَلاَ يَعْرِفُ مَا أَقُولُ إِلاَّ مَنْ ضَرَبَ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ بِحَقٍّ، وَجَرَى فِيهَا عَلَى عِرْقٍ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾[1].

ومن هذه الخطبة: شُغِلَ مَنِ الجنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ. سَاعٍ سَرِيعٌ نَجا، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى.

اَلْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَاب وَآثَارُ النُّبُوَّةِ، وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ.

هَلَكَ مَنِ ادَّعَى، وَخَابَ مَنِ افْتَرى.

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلحَقِّ هَلَكَ عِنْدَ جَهَلَةِ النَّاسِ. وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ.

لاَ يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ، وَلاَ يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ، فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ ورَائِكُمْ، وَلا يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَلُمْ لاَئِمٌ إِلا نَفْسَهُ.

الشرح: الذِّمّة: العقد والعهد، يقول: هذا الدَّيْن في ذمّتي، كقولك: في عنقي، وهما كناية عن الالتزام والضمان والتقلّد. والزّعيم: الكفيل، ومخرج الكلام لهم فخرج الترغيب في

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

سماع ما يقوله، كما يقول المتهمّ المهْتَمّ بإيضاح أمر لقوم لهم: أنا المَدْرِكُ المتقلّد بصدْق ما أقوله لكم. وصرّحت: كشَفَتْ. والعِبَر: جمع عِبْرَة، وهي الموعظة. والمَثُلات: العقوبات. وحَجَزه: منعه.

وقوله: «لَتُبَلْبَلُنّ» أيْ لَتُخَلْطُنَّ، تبلبلت الألسن، أي اختلطت. «ولَتُغَرْبَلُنّ»، يجوز أن يكون من الغِرْبال الذي يُغَرْبَلُ به الدّقيق، ويجوز أن يكون من غَرْبَلْتُ اللحم، أي قطعته. فإنْ كان الأول كان له معنيان: أحدهماالاختلاط، كالتَّبَلْبُل، لأن غربلة الدقيق تخلط بعضَه ببعض. والثاني أن يريدَ بذلك أنه يسْتَخْلِصُ الصالح منكم من الفاسد، ويَتَمَيَّز كما يُتَمَيَّز الدقيق عند الغَرْبلة من نُخالته.

وتقول: ما عصيت فلاناً وَشْمة، أي كلمة. وحِصان شَموس: يمنع ظهره، شَمَس الفرسُ، بالفتح، وبه شِماس. وأمِرَ الباطل: كَثُرَ.

وقوله: «لقديماً فعل»، أي لقديماً فعل الباطل ذلك، ونَسَب الفعل إلى الباطل مجازاً. ويجوز أن يكون «فعل» بمعنى «انفعل» كقوله:

قَـدْ جَـبَـرَ الـدِّيـنَ الإلٰـهُ فَـجَـبَـرْ

أي فانْجَبر. والسِّنْخ: الأصل، وقوله: «سِنْخ أصل» كقوله:

إذا حَـاصَ عَـيْـنَـيْـهِ كَـرَى ٱلـنَّـوْمِ

وفي بعض الروايات: «من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس»، والتأويل مختلف، فمراده على الرواية الأولى - وهي الصحيحة - مَنْ كاشف الحقّ مخاصماً له هَلَك، وهي كلمة جارية مَجْرَى المثل. ومراده على الرواية: الثانية: مَنْ أبدى صفحته لنُصْرَة الحق غَلَبَه أهلُ الجهل - لأنّهم العامّة، وفيهم الكثرة - فهلك.

وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها، قد رواها الناس كلّهم، وفيها زيادات حذفها الرضيّ، إمّا اختصاراً أو خوفاً من إيحاش السامعين، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» على وجهها، ورواها عن أبي عُبيدة مَعْمَر بن المُثنّى.

قال: أوّل خطبة خطبها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بالمدينة في خلافته حمِد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال:

«ألا لاَ يُرْعِيَنَّ مُرْعٍ إلاّ على نفسه. شُغِل مَنِ الجنّة والنارُ أمامه. ساعٍ مجتهد [يَنجو]، وطالب يرجو، ومقصِّر في النار، ثلاثة واثنان: مَلَكٌ طار بجناحَيْه، ونبيٌّ أخذ الله بيده، لا سادس. هَلَكَ من ادَّعَى، ورَدِيَ من اقتحم. اليمين والشّمال مَضَلّة، والوسْطَى الجادّة، منهج عليه باقي الكتاب والسُّنّة وآثار النبوة. إن الله داوَى هذه الأمّة بدواءيْن: السوْط والسّيْف، لا

هَوَادة عند الإمام فيهما. اسْتَتِرُوا في بيُوتكم، وأصْلِحُوا ذات بينكم، والتَّوْبَةُ منْ وَرَائكم. من أبْدَى صفحتَه للحقِّ هلك. قد كانتْ [لكم] أمور [مِلْتُمْ فيها عليّ مَيْلَة] لم تكونوا عندي فيها محمودين [ولا مُصيبين]. أما إنّي لو أشاء لقلتُ، عفا الله عمّا سلف. سبق الرَّجلان وقام الثالث كالغرابه هِمَّتهُ بَطنه. ويحَهُ لو قُصَّ جَناحاه، وقُطع رأسه لكان خيراً له!

انظروا فإن أنكَرْتم فأنكِروا، وإنْ عرفتم فآزروا. حَقٌّ وباطل، ولكلٌّ أهل.

ولئن أمِرَ الباطلُ لقديماً فَعَل، ولئن قلّ الحق لَرُبّما ولَعَلّ، وَقلَّما أدبر شيء فأقبل. ولئن رَجَعَتْ إليكم أمورُكم إنكم لسُعداء، وإني لأخشَى أن تكونوا في فَتْرةٍ، وما علينا إلاّ الاجتهاد».

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى: وقال أبو عبيدة: وزاد فيها في رواية جعفر بن محمد عليه السلام عن آبائه عليهم السلام:

«ألا إنّ أبرار عِتْرَتي، وأطايبَ أرُومَتي، أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً. ألاَ وإنّا أهل بيت مِنْ علْم الله علمْنا، وبحُكْم الله حَكَمْنَا، ومِنْ قولٍ صادق سَمِعْنا، فإن تَتَّبِعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، وإنْ لم تفعلوا يُهْلِكْكُم الله بأيدينا. ومعنا رايةُ الحق، مَنْ تبعها لَحِق، ومَنْ تأخر عنها غَرِق. ألا وبنا يُدْرَكُ تِرَةُ كل مؤمن، وبنا تخلع رِبقْة الذلّ عن أعناقكم وبنا فُتِح لا بكم، ومنا يُخْتَمُ لاَ بِكُمْ»(١).

قوله: «لا يُرْعِيَنّ» أي لا يبقينّ، أرعيتُ عليه، أي أبقيت، يقول: مَنْ أبقى على الناس فإنما أبقى على نفسه. والهوادة: الرفق والصلح، وأصله اللينُ. والتهويد: المشي رويداً، وفي الحديث: «أسرعوا المشيَ في الجنازة ولا تهوّدوا كما تهوّد أهل الكتاب»(٢). وآزرتُ زيداً: أعَنْتُه. التِّرة: والوتْر. والرِّبقة: الحبل يُجعل في عنق الشاة. وَردِيَ: هلك، من الرَّدَى، كقولك: عَمِيَ من العَمَى، وشجِيَ من الشَّجَى.

وقولُه: «شُغِلَ مَنِ الجنة والنار أمامه»، يريدُ به أنّ مَنْ كانت هاتان الداران أمامه لَفِي شُغل عن أمور الدنيا إن كان رشيداً.

وقوله: «ساعٍ مجتهد» إلى قوله: «لا سادس» كلام تقديره: المكلّفون على خمسة أقسام:

---

(١) أخرجه القاضي النعمان في شرح الأخبار: ٣/ ٥٦٢.

(٢) أخرج الشطر الأول منه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: السرعة بالجنازة (١٣١٥)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: الإسراع بالجنازة (٩٤٤)، وأخرجه بلفظ المؤلف ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٤٨٠)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٢٤٨).

ساع مجتهد، وطالب راجٍ، ومقصّر هالك. ثم قال: ثلاثة، أي فهؤلاء ثلاثة أقسام، وهذا ينظر إلى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١)، ثم ذكر القسمين: الرابع والخامس، فقال: هما مَلَك طار بجناحيه، ونبيّ أخذ الله بيده، يريد عِصْمَة هذين النوعين من القبيح، ثم قال: «لا سادس»، أي لم يبق في المكلّفين قسم سادس. وهذا يقتضِي أنّ العِصْمة ليست إلاّ للأنبياء والملائكة، ولو كان الإمام يجب أن يكون معصوماً لكان قسماً سادساً، فإذن قد شهد هذا الكلام بصحة ما تقوله المعتزلةُ في نفي اشتراط العصمة في الإمامة، اللهم إلاّ أنْ يُجعل الإمام المعصوم داخلاً في القسم الأول، وهو الساعي المجتهد. وفيه بُعْد وَضعْف.

وقوله: «هلك مَنِ ادَّعى، وَرَدِيَ مَنِ اقتَحَم»، يريد هلَك مِنِ ادّعى وكذب، لا بدّ من تقدير ذلك، لأنّ الدعوى تعمُّ الصِّدق والكذب، وكأنّه يقول: هلَكَ منِ ادّعى الإمامة، وَرَدِي مَن اقتحمها وَوَلَجَهَا عن غير استحقاق، لأنّ كلامه عليه السلام في هذه الخطبة، كلّه كنايات عن الإمامة لا عن غيرها.

وقوله: «اليمين والشمال»، مثال لأنّ السالك الطريق ٱلْمَنْهَجَ اللاحب ناجٍ، والعادل عنها يميناً وشمالاً مُعرِّض للخطر.

ونحو هذا الكلام ما رُوِي عن عمر، أنّه لما صدر عن مِنًى في السنة التي قتل فيها، كَوَّم كَوْمةً من البَطْحَاء فقام عليها، فخطب الناس، فقال: أيّها الناس، قد سُنّت لكم السّنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتُركتُم على الواضحة، إلاّ أن تميلوا بالناس يميناً وشمالاً، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾(٢)، ثم قال: ألا إنّهما نَجْدا الخير والشرّ، فما جعل نجدَ الشرّ أحبَّ إليكم من نَجْد الخير.

وقوله: «إن الله دَاوَى هذه الأمّة بدواءين» كلام شريف، وعلى منواله نسج الحجّاج وزياد كلامَهما المذكور فيه السوط والسيف. فمن ذلك قول الحجّاج:

مَنْ أعياه داؤه فعليّ دواؤه، ومن استبطأ أجلَه فعليّ أن أعجّله، ومن استثقلَ رأسَه وضعت عنه ثِقْلَهُ، ومَن استطال ماضيَ عمره قصّرتُ عليه باقيه. إنّ للشيطان طَيْفاً، وإن للسلطان سيفاً، فمن سَقِمت سريرتُه، صحّتْ عقوبته، ومَنْ وَضَعه ذنْبه، رفعه صَلْبُه، ومَنْ لم تسعه العافية، لم تَضِقْ عنه الهلَكة، ومَنْ سبقته بادرةُ فمِه، سَبَق بدنَه سفكُ دمه. إني لأُنذِر ثم لا أُنظِر، وأُحذّر ثم لا أعذِر، وأتوعّد ثم لا أغفِر، إنما أفسدكم ترقيقُ وُلاتكم. ومَنِ استرخى لَبَبُهُ(٣)، ساء أدبُه. إن

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٢) سورة البلد، الآيات: ٨ - ١٠.
(٣) اللبب: المنحر. القاموس مادة (لبب).

الحزْمَ والعزْم سَلَباني سوطي، وجعلا سوطي سيفي، فقائمهُ في يَدِي، ونِجَادُه في عُنقي، وذُبَابه قِلادةٌ لِمَنْ عَصَاني. والله لا آمرُ أحداً أن يخرُج من باب من أبواب المَسجد فيخرجَ من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه.

ومن ذلك قولُ زياد:

إنما هو زَجْر بالقول، ثم ضَرْب بالسّوط، ثم الثالثة التي لا شَوَى[1] لها. فلا يكونَنّ لسانُ أحدِكم شَفْرَةً تجري على أوْداجه، وليعلمْ إذا خلا بنفسه أنّي قد حملتُ سيفي بيده، فإن شَهَرَه لم أغمِدْه، وإن أغمده لم أشهره.

وقوله عليه السلام: «كالغراب» يعني الحرصَ والجشع، والغراب يقع على الجيفة، ويقع على التمرة، ويقع على الحبّة، وفي الأمثال: «أجشع من غراب»، و«أحرص من غراب».

وقوله: «ويحَه لو قُصّ»، يريد لو كان قُتِل أو مات قبل أن يتلبّس بالخلافة لكان خيراً له من أن يعيش ويدخل فيها. ثم قال لهم: أفكروا فيما قد قلت، فإن كان منكَراً فأنكرِوه، وإن كان حقًّا فأعينوا عليه.

وقوله: «استتروا في بيوتكم» نهيٌ لهم عن العصبيّة والاجتماع والتحزّب، فقد كان قوم بعد قتل عثمان تكلّموا في قتله من شيعة بني أمية بالمدينة.

وأما قوله: «قد كانت أمور لم تكونوا عندي فيها محمودين»، فمراده أمرُ عثمان وتقديمه في الخلافة عليه. ومن الناس مَنْ يَحمِلُ ذلك على خلافة الشيخين أيضاً. ويبعدُ عندِي أن يكونَ أراده، لأنّ المدة قد كانت طالتْ، ولم يَبْقَ مَنْ يعاتبه ليقول: قد كانت أمور لم تكونوا عندي فيها محمودين، فإنّ هذا الكلام يُشعر بمعاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم. وأمّا بيعة عثمان، ثم ما جرى بينه وبين عثمان من منازعاتٍ طويلة، وغضب تارة، وصُلْحٍ أخرى، ومراسلات خشنة ولطيفة، وكون الناس بالمدينة كانوا حزبيْن وفئتين: إحداهما معه عليه السلام، والأخرى مع عثمان، فإنّ صَرْف الكلام إلى ما قلناه بهذا الاعتبار أليق.

ولسنا نمنع من أن يكون في كلامه عليه السلام الكثير من التوجّد والتألّم لصرْف الخلافة بعد وفاة الرسول الله صلى الله عليه وآله عنه، وإنما كلامنا الآن في هذه اللفظات التي في هذه الخطبة، على أنّ قوله عليه السلام: «سبق الرجُلان» والاقتصار على ذلك فيه كفاية في انحرافه عنهما.

وأما قوله: «حق وباطل...» إلى آخر الفصل، فمعناه كلّ أمر فهو إمّا حقّ وإمّا باطل، ولكلّ واحدٍ من هذيْن أهلٌ، وما زال أهل الباطل أكثرَ من أهل الحق، ولئن كان الحق قليلاً لربّما كَثُر، ولعله ينتصر أهلُه.

---

(١) الشّوَى: الشيء الهين اليسير. اللسان، مادة (شوي).

ثم قال على سبيل التضجر بنفسه: «وقلّما أدبَر شيء فأقبل»، استبعد عليه السلام أن تعود دولة قوم بعد زوالها عنهم، وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر في قوله:

وَقَالُوا يَعُودُ الماءُ في النّهرِ بعد ما ... ذَوَى نبت جَنْبَيْهِ وَجَفَّ المَشارِعُ

فقلتُ إلى أن يرجع النهرُ جارياً ... ويُعشب جَنْبَاهُ تَموتُ الضفادِعُ

ثم قال: «ولئن رجعت عليكم أموركم» أي إن ساعدني الوقت، وتمكنت من أن أحكم فيكم بحكم الله تعالى ورسوله، وعادت إليكم أيام شبيهة بأيام رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيرةٌ مماثلة لسيرته في أصحابه، إنكم لَسُعداء.

ثم قال: «وإني لأخشى أن تكونوا في فترة»، الفترةُ هي الأزمنة التي بين الأنبياء إذا انقطعت الرسل فيها، كالفَتْرة التي بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله، لأنه لم يكن بينهما نبيّ، بخلاف المدة التي كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام، لأنه بُعِث فيها أنبياء كثيرون، فيقول عليه السلام: إنّي لَأخشى ألاّ أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم، فتكونوا كالأمم الذين في أزمنة الفَتْرة لا يرجعون إلى نبيٍّ يشافههم بالشرائع والأحكام، وكأنه عليه السلام قد كان يعلم أنّ الأمر سيضطرب عليه.

ثم قال: «وما علينا إلا الاجتهاد»، يقول: أنا أعمل ما يجب عليّ من الاجتهاد في القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين، فإنْ تمّ ما أريده فذاك، وإلا كنت قد أعذَرْتُ.

وأما التتِمّة المروية عن جعفر بن محمد عليه السلام فواضحة الألفاظ، وقوله في آخرها: «وبنا تُختم لا بِكُم» إشارة إلى المهديّ الذي يظهر في آخر الزمان. وأكثر المحدّثين على أنه من وَلَد فاطمة عليها السلام. وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه، وقد صرّحوا بذكره في كتبهم، واعترف به شيوخهم، إلا أنه عندنا لم يُخْلَقْ بعد، وسيخلق.

وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضاً.

وروى قاضي القضاة رحمه الله تعالى عن كافِي الكفاة أبي القاسم إسماعيل بن عَبّاد رحمه الله بإسناد متصل بعليّ عليه السلام أنّه ذكر المهديّ، وقال: إنه من ولد الحسين عليه السلام، وذكر حِليتَه، فقال رجل، أجْلَى الجبين، أقنى الأنف، ضخم البطن، أزيل الفَخِذين، أبلج الثنايا، بفخذه اليمنى شامة..

وذكر هذا الحديث بعينه عبد الله بن قتيبة في كتاب «غريب الحديث»[1].

---

(١) «غريب الحديث»: لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفي سنة (٢٦٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٢٠٤).

١٧ - ومن كلام له عليه السلام
في صفة من يتصدّى للحكم بين الأمّة وليس لذلك بأهل

الأصل: إِنَّ أَبْغَضَ ٱلْخَلاَئِقِ إِلَى الله تعالى رَجُلاَنِ: رَجُلٌ وَكَلَهُ ٱللهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ، مَشْغُوفٌ بِكَلاَمِ بِدْعَةٍ، وَدُعَاءِ ضَلاَلَةٍ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنِ ٱفْتَتَنَ بِهِ، ضَالٌّ عَنْ هُدَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، مُضِلٌّ لِمَنِ ٱقْتَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ. حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ، رَهْنٌ بخطيئته.

وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً، مُوضِعٌ في جُهَّالِ ٱلأُمَّةِ، عَادٍ فِي أَغْبَاشِ ٱلْفِتْنَةِ، عَمٍ بِمَا فِي عَقْدِ ٱلْهُدْنَةِ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِماً، وَلَيْسَ بِهِ. بكَّرَ فاسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعٍ، مَا قَلَّ مِنْهُ خَيرٌ مِمَّا كَثُرَ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ، وَاكْتَنَزَ مِنْ غَيرِ طائلٍ. جلَسَ بَينَ النَّاسِ قَاضِياً، ضَامِناً لِتَخْلِيصِ ما ٱلْتَبَسَ عَلَى غَيْرِهِ. فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ، هَيَّأَ لَهَا حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأْيِهِ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ. فَهُوَ مِنْ لَبْسِ ٱلشُّبُهَاتِ فِي مِثْلِ نَسْجِ ٱلْعَنْكَبُوتِ، لاَ يَدْرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ، فإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخْطَأَ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجا أَنْ يكُونَ قَدْ أَصَابَ. جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالاَتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَوَاتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى العِلْمِ بِضِرْسٍ قاطِعٍ. يُذْرِي الرِّوَايَاتِ إِذْرَاءَ الرِّيحِ الهَشِيمِ، لا مَلِيءٌ والله بإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، ولا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوِّضَ إِلَيْهِ. لا يَحْسِبُ العِلْمَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ، ولا يَرَى أَنَّ مِنْ وَرَاءِ مَا بَلَغَ مَذْهَباً لِغَيْرِهِ، وإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ اكْتَتَمَ بِهِ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ ٱلدِّمَاءُ، وَتعجُّ مِنْهُ ٱلْمَوَارِيثُ إلى الله مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً، ويَمُوتُونَ ضُلاَّلاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ، ولا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً، ولا أغْلَى ثَمَناً مِنَ الكِتابِ إِذَا حُرِفَ عَنْ مَوَاضِعِه، ولا عِنْدَهُمْ أَنْكرُ مِنَ المَعْرُوفِ، ولا أَعْرَفُ مِنَ المُنْكَرِ.

الشرح: وكله إلى نفسه: تركه ونفسَه، وكلْتُه وكْلا ووُكولاً. والجائر: الضّال العادل عن الطريق. وقَمَش جهلاً: جمعه. ومُوضِع: مسرع، أوضع البعيرُ: أسرع، وأوضعه راكبُه، فهو مُوضِعٌ به، أي أسرَع به.

وأغباش الفتنة: ظُلمها، الواحدة غَبَش، وأغباش الليل: بقايا ظُلمته، ومنه الحديث في صلاة الصبح: «والنّساء ملتفّعات بمُرُوطِهِنّ ما يُعرَفْن من الغَبَش»[1] والماء الآجن: الفاسد.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، وقت الفجر (٥٧٨)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب والتبكير بالصبح (٦٤٥).

وأكثر، كقولك: «استكثر»، ويروى: «اكتنز»، أي اتخذ العلم كنزاً.

والتخليص: التبيين، وهو والتلخيص متقاربان، ولعلّهما شيء واحد من المقلوب.

والمبهمات: المشكلات، وإنّما قيل لها مُبْهَمة، لأنّها أُبْهِمَت عن البيان، كأنها أصمِتَتْ فلم يُجْعَلْ عليها دليل ولا إليها سبيل، أو جُعِل عليها دليل وإليها سبيل، إلا أنّه متعسّر مستَصعَب، ولهذا قيل لما لا ينطق من الحيوان: بَهيمة، وقيل للمصمَت اللّون الذي لا شِيَةَ[1] فيه: بَهيم.

وقوله: «حشواً رثًّا» كلام مخرجه الذمّ، والرثّ: الخَلِق، ضدّ الجديد.

وقوله: «حشواً»، يعني كثيراً لا فائدة فيه. وعاشٍ: خابطٌ في ظلام وقوله: «لم يَعضّ» يريد أنه لم يُتقِنْ ولم يُحكم الأمور، فيكون بمنزلة من يَعضُّ بالنّاجذ، وهو آخر الأضراس وإنما يطلع إذا استحكمت شبيبةُ الإنسان واشتدّتْ مِرّته، ولذلك يدعوه العوامّ ضِرْس الحِلْم، كأنّ الحِلْم يأتي مع طلوعه، ويَذْهب نَزَق الصِّبا، ويقولون: رجلٌ مُنَجَّذ، أي مجرّب مُحْكَم، كأنه قد عضّ على ناجذه وكَمَل عقلُه[2].

وقوله: «يُذْرِي الرّوايات» هكذا أكثر النسخ، وأكثر الروايات «يُذْرِي» من «أَذْرَى» رباعياً، وقد أوضحه قوله: «إذْرَاء الريح»، يقال: طعنه فأذْراه، أي ألقاه، وأذريتُ الحَبّ للزرع، أي ألقيته، فكأنّه يقول: يُلْقِي الروايات كما يُلْقِي الإنسان الشيء على الأرض، والأجود الأصحّ الرواية الأخرى: «يَذْرُو الرّواياتِ ذَرْوَ الريح الهشيم»، وهكذا ذكر ابن قتيبة في «غريب الحديث» لمّا ذكر هذه الخطبة عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[3]، والهشيم: ما يبس من النَّبْت وتفتّت.

قوله: «لا مليء»، أي لا قيّم به، وفلان غنيّ مليء، أي ثقة بيّن الملأ والملاء، بالمد. وفي كتاب ابن قتيبة تتمة هذا الكلام: «ولا أهل لما قُرِّظ به»، قال: أي ليس بمستحِقٌ للمدح الذي مُدح به. والذي رواه ابن قتيبة من تمام كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو الصَحيح الجيّد، لأنّه يُستقبَح في العربية أن تقول: لا زيدَ قائم، حتى تقول: ولا عمرو، أو تقول: ولا قاعد، فقوله عليه السلام: «لا مليء» أي لا هُوَ مليء، وهذا يستدعي «لا» ثانية، ولا يحسن الاقتصار على الأولى.

وقوله عليه السلام: «اكتتم به» أي كتمه وستره. وقوله: «تصرخُ منه وتَعجّ». العجّ: رفع الصوت، وهذا من بابَ الاستعارة.

---

(١) الشية: سواد في بياض أو بياض في سواد. اللسان، مادة (وشي).

(٢) والعامة في زماننا يطلقون عليه «ضرس العقل» موافقة لهذه التفسيرات!..

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

وفي كثير من النسخ: «إلى الله أشكو»، فمن روى ذلك وقف على «المواريث، ومن روى الرواية الأولى وَقَف على قوله: «إلى الله» ويكون قوله: «من معشر» من تمام صفات ذلك الحاكم، أي هو من معشرٍ صفتهم كذا.

وأبْوَرَ «أفعل» من البُور: الفاسد، بارَ الشيءُ، أي فسد، وبارت السلعة، أي كسدت ولم تنفُق، وهو المراد ها هنا، وأصله الفساد أيضاً.

إن قيل: بيِّنوا الفرْق بين الرَّجُلين اللذيْن أحدهما وكَلَه الله إلى نفسه، والآخر رجل قمش جهلاً، فإنّهما في الظاهر واحد.

قيل: أمّا الرجلِ الأوّل، فهو الضالّ في أصول العقائد، كالمشبِّه والمجبِر ونحوهما، ألا تراه كيف قال: «مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة»، وهذا يُشعر بما قلناه، من أنّ مرادَه به المتكلّم في أصول الدين، وهو ضالّ عنِ الحقّ، ولهذا قال: إنّه فتنة لمن افتتن به ضالّ عن هُدَى مَنْ قبله، مضلّ لمن يجيء بعده. وأما الرجل الثاني فهو المتفقّه في فروع الشَّرْعيات، وليس بأهل لذلك، كفقهاء السوء، ألا تراه كيف يقول: جلس بين الناس قاضياً.

وقال أيضاً: «تصرُخ من جور قضائه الدماء، وتَعجّ منه المواريث».

فإن قيل: ما معنى قوله في الرَّجُل الأول: «رَهْن بخطيئته»؟ قيل: لأنه إن كان ضالاً في دعوته مُضلاً لمن اتّبعه، فقد حمل خطاياه وخطايا غيره، فهو رَهْن بالخطيئتين معاً، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾(١).

إن قيل: ما معنى قوله «عم بما في عقد الهدنة»؟ قيل: الهدنة أصلُها في اللغة السّكون، يقال: هَدَنَ إذا سكن، ومعنى الكلام أنّه لا يعرف ما في الفتنة من الشّرّ، ولا ما في السكون والمصالحة من الخير.

ويروى: «بما في غَيْب الهدنة»، أي في طيِّها وفي ضمنها. ويروى: «غارّ في أغباش الفتنة»، أي غافل ذو غِرّة.

وروي: «من جمعٍ» بالتنوين فتكون «ما» على هذا اسماً موصولاً، وهي وصلتها في موضع جرٍّ لأنها صفة «جمعٍ»، ومن لم يرو التنوين في «جمع» حذف الموصوف، تقديره: مِنْ جمع شيء ما قلّ منه خيرٌ مما كَثُر، فتكون «ما» مصدرية، وتقدير الكلام: قلّتُه خيرٌ من كثرته، ويكون موضع ذلك جراً أيضاً بالصفة.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.

١٨ - ومن كلام له عليه السلام في ذم اختلاف العلماء في الفُتيا

الأصل: تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ ٱلْأَحْكَامِ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ، ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلاَفِ قوله، ثُمَّ يَجْتَمِعُ القُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي ٱسْتَقْضَاهُمْ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلٰهُهُمْ وَاحِدٌ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ.

أَفَأَمَرَهُمُ ٱللهُ تَعَالَى بالاخْتِلاَفِ فَأَطَاعُوهُ! أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ! أَمْ أَنْزَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً نَاقِصاً فاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى! أَمْ أَنْزَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ دِيناً تامًّا فَقَصَّرَ الرَّسُولُ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدائِهِ، وَٱللهُ سُبْحانَهُ يَقُولُ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، وَفِيهِ تِبْيان كُلِّ شَيْءٍ. وَذَكَرَ أَنَّ الكِتابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَنَّهُ لاَ اخْتِلاَفَ فِيهِ، فَقالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

وَإِنَّ ٱلْقُرْآنَ ظاهِرُهُ أَنِيقٌ، وَباطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلاَ تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُماتُ إِلاَّ بِهِ.

الشرح: الأنيق: المعجِب، وآنقني الشيء، أي أعجبني، يقول: لا ينبغي أن يُحمَل جميعُ ما في الكتاب العزيز على ظاهره، فكم من ظاهرٍ فيه غيرُ مرادٍ، بل المراد به أمر آخر باطن، والمراد الردّ على أهل الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وإفسادُ قول من قال: كلّ مجتهد مصيب، وتلخيص الاحتجاج من خمسة أوجه:

الأوّل: أنّه لَمّا كان الإلٰه سبحانه واحداً، والرسول صلى الله عليه وآله واحداً والكتاب واحداً، وجب أن يكونَ الحُكْم في الواقعة واحداً، كالمَلِك الذي يُرسِل إلى رعيّتِه رسولاً بكتابٍ يأمرهم فيه بأوامرَ يقتضيها مُلْكه وإمْرَتُه، فإنه لا يجوز أن تتناقض أوامره، ولو تناقضتْ لنُسِبَ إلى السَّفَه والجهل.

الثاني: لا يخلو الاختلافُ الَّذي ذهب إليه المجتهدون، إمّا أن يكونَ مأموراً به أو منهيًّا عنه، والأوّل باطل، لأنه ليس في الكتاب والسنّة ما يمكِّن الخصم أن يتعلّق به في كَوْن الاختلاف مأموراً به. والثاني حَقّ، ويلزم منه تحريم الاختلاف.

الثالث: إمّا أن يكونَ دينُ الإسلام ناقصاً أو تامًّا، فإن كان الأول كان الله سبحانه قد

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

استعان بالمكلّفين على إتمام شريعةٍ ناقصة أرسَل بها رسوله، إمّا استعانةً على سبيل النيابة عنه، أو على سبيل المشاركة له، وكلاهما كفر. وإن كان الثاني، فإمّا أن يكون الله تعالى أنزلَ الشرع تامًّا فقصّر الرسولُ عن تبليغه، أو يكونَ الرسولُ قد أبلغه على تمامه وكماله، فإنْ كان الأوّل فهو كُفر أيضاً، وإنْ كان الثاني فقد بَطَل الاجتهاد، لأنّ الاجتهاد إنما يكون فيما لم يتبين، فأمّا ما قد بُيّن فلا مجال للاجتهاد فيه.

الرابع: الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(١)، وقوله، ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣)، فهذه الآيات دالّة على اشتمال الكتاب العزيز على جميع الأحكام، فكلّ ما ليس في الكتاب وجب ألاّ يكون في الشرع.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٤)، فجُعل الاختلافُ دليلاً على أنّه ليس من عند الله، لكنه من عند الله سبحانه بالأدلّة القاطعة الدّالة على صحة النبوّة، فوجب ألاّ يكون فيه اختلاف.

واعْلم أنّ هذه الوجوه هي الّتي يتعلق بها الإماميّة ونُفاةُ القياس والاجتهاد في الشرعيّات وقد تكلّم عليها أصحابُنا في كُتُبِهم، وقالوا: إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان يجتهد ويَقيس، وادَّعَوْا إجْمَاعَ الصحابة على صحة الاجتهاد والقياس، ودفعوا صحّةَ هذا الكلام المنسوب في هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقالوا: إنّه من رواية الإماميّة، وهو معارَض بما ترويه الزَّيْدية عنه وعن أبنائه عليهم السلام في صحة القياس والاجتهاد، ومخالطة الزيدية لأئمة أهل البيت عليهم السلام كمخالطة الإمامية لهم، ومعرفتهم بأقوالهم وأحوالهم ومذاهبهم كمعرفة الإماميّة، لا فرق بين الفئتين في ذلك. والزيدية قاطِبَةً جاروديّتها وصالِحيّتها تقول بالقياس والاجتهاد، وينقلون في ذلك نصوصاً عن أهل البيت عليهم السلام. وإذا تعارضت الروايتان تساقطتا، وعدْنَا إلى الأدلة المذكورة في هذه المسألة. وقد تكلّمتُ في «اعتبار الذريعة» للمرتضى على احتجاجه في إبطال القياس والاجتهاد بما ليس هذا موضع ذكره.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

١٩ – ومن كلام له عليه السلام، قاله للأشعث بن قيس، وهو على منبر الكوفة يخطب، فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، هذه عليك لا لك، فخَفَض إليه بصره عليه السلام، ثم قال

الأصل: وَمَا يُدْرِيكَ مَا عَلَيَّ مِمَّا لِي! عَلَيْكَ لَعْنَةُ ٱللهِ وَلَعْنَةُ ٱللَّاعِنِينَ، حَائِكٌ ٱبْنُ حَائِكٍ، مُنَافِقٌ ٱبْنُ كَافِرٍ. وَٱللهِ لَقَدْ أَسَرَكَ ٱلْكُفْرُ مَرَّةً وَٱلْإِسْلاَمُ أُخْرَى، فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلاَ حَسَبُكَ. وَإِنَّ ٱمْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ ٱلسَّيْفَ، وَسَاقَ إِلَيْهِمِ ٱلْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ ٱلْأَقْرَبُ، وَلاَ يَأْمَنَهُ ٱلْأَبْعَدُ.

قال الرضي رحمه الله: يرِيدُ عليهِ ٱلسَّلاَمُ أَنَّهُ أُسِرَ في ٱلْكُفرِ مرَّةً وفي ٱلْإِسْلامِ مرَّة.

وأَمَّا قَوْلُهُ عليه ٱلسَّلام: «دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ ٱلسَّيْفَ»، فَأَرَاد به حَدِيثاً كَانَ لِلأشْعَثِ مع خالد بن الوليد باليمامةِ، غرَّ فِيهِ قومَهُ، ومكر بِهِمْ، حَتّى أَوْقَعَ بهم خالدٌ، وكان قَوْمُهُ بَعْدَ ذلك يُسَمُّونَهُ عُرْف النَّارِ، وَهُوَ ٱسْمٌ لِلْغَادر عندهم.

الشرح: خفَض إليه بصره: طأطأه. وقوله: «فما فداك»، لا يريد به الفِداء الحقيقيّ، فإنّ الأشعث فُدي في الجاهلية بفداء يضرب به المثل، فقال: «أغلى فداء من الأشعث»، وسنذكره، وإنما يريد: ما دفع عنك الأسر مالُك ولا حسَبُك. ويمقته: يبغضه، والمقت: البُغض.

من أخبار الأشعث بن قيس

اسم الأشعث معدِي كرب، وأبوه قيس الأشجّ - سمي الأشَجّ، لأنه شُجّ في بعض حروبهم - ابن معدِي كرب بن معاوية بن معدِي كرب بن معاوية بن جَبَلة بن عبد العُزّى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن ثَوْر بن مُرتِّع بن معاوية بن كِنْدَة بن عُفَيْر بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد.

وأمّ الأشعث كبشة بنت يزيد بن شُرَحْبيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور(١) الملك.

كان الأشعث أبداً أشعثَ الرأس، فسمِّيَ الأشعث، وغلب عليه حتى نُسِي اسمه، ولعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يقول أعشى هَمْدان:

---

(١) لعلها المغصوب الملك؟!!. . .

يا ابنَ الأشجِّ قريعِ كِنْـ ـدَةَ لا أُبالي فيكَ عَتْبَا
أنتَ الرئيسُ ابنُ الرئيـ ـسِ وأنت أغلَى النَّاسِ كَعْبَا

وتزوج رسول الله ﷺ قُتَيلَة أخت الأشعث، فتوفِّيَ قبل أنْ تصل إليه.

فأما الأسر الذي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه في الجاهلية فقد ذكره ابن الكلبيّ في «جمهرة النسب»، فقال: إنّ مُراداً لما قتلتْ قيساً الأشجَّ، خرج الأشعث طالباً بثأره، فخرجت كندة مُتساندين على ثلاثة ألوية: على أحد الألوية كَبْس بن هانيء بن شُرَحْبِيل بن الحارث بن عديّ بن ربيعة بن معاوية الأكرمين - ويعرف هانيء بالمطّلِع، لأنّه كان يغزو فيقول: اطّلَعْتُ بني فلان، فسمِّي المُطّلِع. وعلى أحدها القَشْعَم أبو جَبْر بن يزيد الأرقم. وعلى أحدها الأشعث، فأخطؤوا مُراداً، ولم يَقَعوا عليهم، ووقعوا على بني الحارث بن كعب، فقتِل كَبْس والقَشْعم أبو جَبْر، وأسِر الأشعث، ففُدِي بثلاثة آلاف بعير، لم يُفْدَ بها عربيّ بعده ولا قبله، فقال في ذلك عمرو بن معدي كربَ الزُّبَيدِيّ:

فَكَانَ فِداؤُهُ أَلْفَيْ بَعيرٍ وَأَلْفاً مِن طريفاتٍ وَتُلْدِ

وأما الأسر الثاني في الإسلام، فإنّ رسول الله ﷺ لما قَدِمَتْ كنْدة حُجّاجاً قبل الهجرة، عرض رسول الله ﷺ نفسَه عليهم، كما كان يعرِضُ نفسَه على أحياء العرب، فدفعه بنو وَليعَةَ من بني عمرو بن معاوية ولم يقبلوه، فلما هاجر ﷺ وتمهدت دعوتُه، وجاءته وفود العرب، جاءه وفد كِنْدة، فيهم الأشعث وبنو وَليعة، فأسلموا، فأطعم رسول الله ﷺ بني وَليعة طُعْمة من صدقات حَضْرَمَوْت، وكان قد استعمل على حَضْرَموت زياد بن لَبيد البياضيّ الأنصاريّ، فدفعها زياد إليهم، فأبَوْا أخذها، وقالوا: لا ظَهْر لنا، فابعث بها إلى بلادنا على ظَهْرٍ من عندك، فأبى زياد، وحَدَث بينهم وبين زياد شرّ كاد يكون حرباً، فرجع منهم قول إلى رسول الله ﷺ، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكوهم.

وفي هذه الوَقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ، قال لبني وَليعة: «لَتَنْتَهُنّ يا بني وليعة، أو لأبعثَنّ عليكم رجلاً عَدِيل نفسي، يقتُل مُقاتِلَتكم، ويَسْبي ذراريكم»[1]. قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، وجعلت أنصِب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد علي عليه السلام، وقال: «هو هذا».

ثم كتب لهم رسول الله ﷺ إلى زياد، فوصلوا إليه بالكتاب وقد تُوفِّي رسول الله ﷺ، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب، فارتدّتْ بنو وليعة، وغَنّتْ بَغاياهم، وخَضَبنَ له أيديَهُنَّ.

وقال محمد بن حبيب: كان إسلام بني وَليعة ضعيفاً، وكان رسول الله ﷺ يعلَم ذلك

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٣٦٩).

منهم. ولما حجّ رسول الله ﷺ حِجَّة الوداع، وانتهى إلى فَم الشّعب دخل أسامة بْنُ زيد ليبول، فانتظره رسول الله ﷺ - وكان أسامةُ أسْوَد أفْطَس - فَقال بنو وَلِيعةَ: هذا الحبشيّ حَبَسنا! فكانت الرّدة في أنفسهم.

قال أبو جعفر محمد بن جرير: فأمَّر أبو بكر زياداً على حَضْرَموت، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم، فبايعوه إلا بني وليعة، فلما خرج ليقْبِض الصّدقات من بني عمرو بن معاوية، أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشيْطان بن حُجْر - وكانت صَفِّية نفيسة، اسمها شذرة - فمنعه الغلام عنها. وقال: خذ غيرَها، فأبى زياد ذلك ولجّ، فاستغاث شَيْطان بأخيه العَدّاء بن حُجْر، فقال لزياد: دَعْها وخذ غيرها، فأبى زياد ذلك، وَلَجّ الغلامان في أخذها، ولجّ زياد وقال لهما: لا تكونن شذرة عليكما كالبَسُوس، فهتف الغلامان: يا لَعمرو! أنُضام ونُضطهد! إنّ الذليل مَنْ أُكِلَ في داره. وهتفا بمسروق بن معدي كرب، فقال مسروق لزياد: أطلقها، فأبى، فقال مسروق:

يُطْلِقُها شَيْخٌ بخَدَّيْه الشَّيْبْ   مُلَمَّعٌ فيه كَتَلْمِيعِ الثَّوْبْ
ماضٍ على الرَّيْبِ إذا كان الرَّيْبْ

ثم قام فأطلقها، فاجتمع إلى زياد بن لَبِيد أصحابُه، واجتمع بنو وليعة، وأظهروا أمرَهم، فبَيّتَهم زياد وهم غارّون، فقتل منهم جمعاً كثيراً، ونهب وسبَى، ولحقَ فَلُّهم بالأشعث بن قيس، فاستنصروه فقال: لا أنصركم حتى تملّكُوني عَليكم. فملّكوه وتوّجوه كما يتوَّجُ الملك من قحطان. فخرج إلى زياد في جَمْعٍ كثيف، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية وهو على صنعاء أن يسيرَ بمَنْ معه إلى زياد، فاستخْلَف على صنعاء، وسار إلى زياد، فلقوا الأشعث، فهزموه وقُتِل مسروق، ولجأ الأشعث والباقون إلى الحصن المعروف بالنُّجَيْر. فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى ضَعُفوا، ونزل الأشعث ليلاً إلى المهاجر وزياد، فسألهما الأمانَ على نفسه حتى يقدَما به على أبي بكر فيرى فيه رأيَه، على أن يفتح لهم الحِصْن ويُسْلم إليهم مَنْ فيه.

وقيل: بل كان في الأمان عشرة من أهل الأشعث.

فأمّناه وأمضيا شَرْطَه، ففتح لهم الحصن، فدخلوه واستنزلوا كلَّ مَنْ فيه، وأخذوا أسلحتهم، وقالوا للأشعث: اعزل العَشَرَة، فعزلهم، فتركوهم وقتلوا الباقين - وكانوا ثمانمائة - وقطعوا أيدي النّساء اللواتي شَمِتْن برسول الله ﷺ، وحملوا الأشعثَ إلى أبي بكر مُوثَقاً في الحديد هو والعشرة، فعفا عنه وعنهم، وزوّجه أختَه أمّ فروة بنت أبي قُحافة - وكانت عمياء - فولدت للأشعث محمداً وإسماعيل وإسحاق.

وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة، فما مَرّ بذات أربع إلا عَقَرها، وقال للناس: هذه وليمة البِناء، وثمن كلّ عَقِيرة في مالي. فدفع أثمانَها إلى أربابها.

قال أبو جعفر محمد بن جرير في التاريخ: وكان المسلمون يلْعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وسبايا قومه، وسمّاه نساءُ قومه عُرْفَ النار، وهو اسم للغادر عندهم.

وهذا عندي هو الوجه، وهو أصحّ مما ذكره الرضيّ رحمه الله تعالى من قوله في تفسير قول أمير المؤمنين: «وإن امرأ دلَّ على قومه السيف»: إنه أراد به حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غَرّ فيه قومه، ومكر بهم حتى قتلهم، فإنّا لم نعرف في التواريخ أن الأشعث جَرَى له باليمامة مع خالد هذا ولا شبهه، وأين كِندة واليمامة! كِنْدة باليمن، واليمامة لبني حنيفة، ولا أعلم من أين نَقَل الرضيّ رحمه الله تعالى هذا!

فأما الكلام الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام قاله على مِنْبر الكوفة فاعترضه فيه الأشعث، فإنّ عليًا عليه السلام قام إليه - وهو يخطُب، ويذكر أمرَ الحكَمَيْن - رجل من أصحابه، بعد أن انقضى أمرُ الخوارج، فقال له: نهيتَنا عن الحكومة ثم أمرتَنا بها، فما ندري أيّ الأمرين أرْشَد! فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى، وقال: هذا جزاء من تَرَك العُقْدة. وكان مرادُه عليه السلام: هذا جزاؤكم إذْ تركتُم الرأيَ والحزم، واضْرَرْتم على إجابة القوم إلى التحكيم، فظنّ الأشعث أنّه أراد: هذا جزائي حيثُ تركت الرأي والحزم وحكمت، لأنّ هذه اللفظة محتملة، ألا ترى أنّ الرئيس إذا شَغَب عليه جُنده وطلبوا منه اعتماد أمرٍ ليس بصواب، فوافقهم تسكيناً لشَغَبهم لا استصلاحاً لرأيهم، ثم ندِموا بعد ذلك، قد يقول: هذا جزاء مَنْ ترك الرأي، وخالف وجْه الحزم، ويعني بذلك أصحابَه، وقد يقوله يعني به نفسَه حيث وافقهم أمير المؤمنين عليه السلام، إنما عَنَى ما ذكرناه دون ما خَطر للأشعث، فلما قال له: هذه عليك لا لك، قال له: وما يدريك ما عليّ مما لي، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين!

وكان الأشعثُ من المنافقين في خلافة عليّ عليه السلام، وهو في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، كما كان عبد الله بن أبي بن سَلُول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كلّ واحد منهما رأسُ النفاق في زمانه.

وأما قوله عليه السلام للأشعث: «حائك ابن حائك»، فإن أهل اليمن يعيَّرون بالحياكة، وليس هذا مما يَخُصُّ الأشعث.

ومن كلام خالد بن صفوان: ما أقول في قوم ليس فيهم إلا حائك بُرْد، أو دابغ جِلْد، أو سائس قِرْد، ملكتهم امرأة، وأغرقتهم فأرة، ودلّ عليهم هُدْهُد!

---

٢٠ - ومن خطبة له عليه السلام في تهويل ما بعد الموت وتعظيمه

الأصل: فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ، لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ.

وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ، وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ، وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فيه مُزْدَجَر، وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلاَّ الْبَشَر.

الشرح: الوهَل: الخوف، وهِلَ الرجل يَوْهَل.

و«ما» في قوله: «ما يُطْرَحُ» مصدرية، تقديره: «وقريب طَرْح الحجاب»، يعني رفعَه بالموت.

وهذا الكلامُ يدلّ على صِحّة القول بعذاب القبر، وأصحابنا كلُّهم يذهبون إليه، وإن شنّع عليهم أعداؤهم من الأشعريّة وغيرهم بجحده.

وذكر قاضي القضاء رحمه الله تعالى: أنه لم يعرف معتزليًا نفَى عذابَ القبر، لا من متقدّميهم ولا من متأخّريهم، قال: وإنّما نفاه ضِرار بن عمرة، لمخالطته لأصحابنا وأخذه عن شيوخنا، ما نُسِب قوله إليهم[1].

ويمكن أن يقول قائل: هذا الكلام لا يدلّ على صحّة القول بعذاب القبر، لجواز أن يعني بمعاينة من قد مات، ما يشهده المحتضَر من الحالة الدالّة على السعادة أو الشقاوة، فقد جاء في الخبر: «لا يموت امرُؤ حتى يعلَم مصيره، هل هو إلى الجنّة أم إلى النار»[2]. ويمكن أن يعني به ما يعانيه المحتضَر من ملك الموت وهَوْل قدومه. ويمكن أن يعني به ما كان عليه السلام يقوله عن نفسه: إنه لا يموت ميّت حتى يشاهدَه عليه السلام حاضراً عنده. والشيعة تذهب إلى هذا القول وتعتقدُه، وتروى عنه عليه السلام شعراً قاله للحارث الأعور الهَمْدانيّ:

يا حارِ هَمْدانَ مَنْ يَمُتْ يَرَني ... من مؤمنٍ أو منافقٍ قُبُلاَ
يَعْرِفُني طرفُهُ وأعرِفُهُ ... بِعَيْنِهِ واسمِهِ وَمَا فَعَلاَ
أقول لِلنّار وهي توقد للـ ... ـعَرْضِ ذَرِيهِ لاَ تَقْرَبِي الرَّجُلا
ذَرِيهِ لا تقربيه إنَّ لَهُ ... حَبْلاً بحَبْلِ الوصيِّ مُتَّصِلاَ

---

(١) لعل المناسب في السباق أن يقول: «فنسب قوله إليهم» بدلاً ن «ما نسب قوله إليهم».
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٢٤).

وَأَنْتَ يا حارِ إن تمتْ ترني فلا تخف عثرةً ولا زللا
أسقيكَ من باردٍ على ظمإٍ تخاله في الحلاوةِ العَسَلا

وليس هذا بمنكَر، إن صحّ أنّه عليه السلام قاله عن نفسه، ففي الكتابِ العزيزِ ما يدلّ على أنّ أهل الكتاب لا يموت منهم ميّت حتى يصدّق بعيسى بن مريم عليه السلام، وذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾(١)، قال كثيرٌ من المفسرين: معنى ذلك أنّ كلَّ ميت من اليهود وغيرهم من أهل الكتب السالفة إذا احتُضِر رأى المسيح عيسى عنده، فيصدّق به مَنْ لم يكن في أوقاتِ التكليف مصدِّقاً به(٢).

وشبيه بقول عليه السلام: «لو عاينتم ما عاينَ مَنْ مات قبلكم» قولُ أبي حازم لسليمان بن عبد الملك في كلام يعظه به: إنّ آباءك ابتزُّوا هذا الأمر من غير مشورة، ثم ماتوا، فلو علمت ما قالوا وما قيل لهم! فقيل: إنه بكى حتى سَقَط.

٢١ - ومن خطبة له عليه السلام في موعظة الناس

الأصل: فَإِنَّ ٱلْغَايَةَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ وَرَاءَكُم السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ.
تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ.

قال الرضي رحمه الله: أقول: إنَّ هذا الكَلاَمَ لوْ وُزن بَعْدَ كلام ٱلله سُبْحَانه، وَبَعْد كَلامِ رَسُولِ الله صَلَّى ٱلله عَلَيْهِ وَآلِهِ بِكُلِّ كَلاَمٍ لَمَالَ بِهِ رَاجِحاً، وَبَرَّزَ عَلَيْهِ سَابِقاً.

فَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَم: «تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا»، فَمَا سُمِعَ كَلاَمٌ أَقَلُّ مِنه مَسْمُوعاً وَلاَ أَكْثَرُ مَحْصولاً، وَمَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا مِنْ كَلِمَةٍ! وَأَنْقَعَ نُطْفَتَهَا مِنْ حِكْمَةٍ! وَقَدْ نَبَّهْنَا في كتاب «الخَصَائِص» عَلَى عِظَم قَدْرِهَا، وَشَرَف جَوْهَرِهَا.

الشرح: غاية المكلّفين هي الثواب أو العقاب، فيحتمل أن يكونَ أراد ذلك، ويحتمِل أن يكون أراد بالغاية الموت، وإنما جعل ذلك أمامنا، لأنّ الإنسان كالسائر إلى الموت أو كالسائر إلى الجزاء، فهما أمامه، أي بين يديه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٢) لم تلمح الآية بنسبة شيء من السلطة على «عذاب النار عن من يؤمن بعيسى من أهل الكتاب كما يفهم من الأبيات أعلاه»! أقول: في الآية على رجوع عيسى في آخر الزمان فيؤمن به من لم يكن آمن به.

ثم قال: «وإن وراءكم الساعةَ تحدوكم» أي تسوقكم، وإنّما جعلها وراءنا، لأنها إذا وُجدت ساقت الناس إلى موقف الجزاءِ كما يسوقُ الراعي الإبل، فلما كانت سائقةً لنا، كانت كالشيء يحفِزُ الإنسان من خَلْفه، ويحرّكه من ورائه، إلى جهة ما بين يديه.

ولا يجوز أن يقال: إنّما سماها «وراءنا»، لأنها تكون بعد موتنا وخروجنا من الدنيا، وذلك أنّ الثواب والعقاب هذا شأنُهما، وقد جعلهما أمامنا.

وأما القطب الراونديّ، فإنه قال: معنى قوله: «فإنّ الغاية أمامكم»، يعني أنّ الجنة والنار خَلْفكم. ومعنى قوله: «وراءكم الساعة» أي قدّامكم.

ولقائل أن يقول: أما الوراء بمعنى القدّام فقد ورَد، ولكن ما ورد «أمام» بمعنى «خلف»، ولا سمعنا ذلك.

وأما قوله: «تخففوا تلحَقوا»، فأصله: الرجل يسعى وهو غير مُثْقَل بما يحمله، يكون أجْدَر أن يلحَق الذين سبقوه، ومثله قوله: «نجا المخفّفون».

وقوله عليه السلام: «فإنما ينتَظر بأوّلكم آخركم»، يريد: إنّما يُنتظر ببعث الذين ماتوا في أوّل الدهر مجيءُ مَنْ يخلقون ويموتون في آخره، كأمير يريد إعطاءَ جنده إذا تكامل عرضُهم، إنما يعطِي الأول منهم إذا انتهى عَرْض الأخير. وهذا كلام فصيح جداً. والغَوْر: العمق. والنّطفة: ما صفا من الماء، وما أنقع هذا الماء! أي ما أرواه للعطش!

٢٢ – ومن خطبة له عليه السلام بعدما اتهموه بقتل عثمان

الأصل: أَلاَ وَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَه، وَٱسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ ٱلْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ ٱلْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ.

وَٱللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلاَ جعلوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هم تَركُوه، وَدَماً هُمْ سَفَكُوه، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِن كَانُوا وَلُوهُ دُونِي، فَمَا التَّبِعَةُ إِلاَّ عِنْدَهُمْ. وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمًّا قد فَطَمَتْ، وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ.

يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعا! وَإِلاَمَ أُجِيب! وَإِنِّي لرَاضٍ بِحُجَّةِ ٱللهِ عَلَيْهِمْ، وَعِلْمِهِ فِيهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْف، وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَنَاصِراً لِلْحَقِّ!

وَمِنَ ٱلْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ، وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلاَدِ. هَبِلَتْهُمُ ٱلْهَبُول! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ. وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي، وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي.

الشرح: يروى: «ذَمَر» بالتخفيف، و«ذمّر» بالتشديد، وأصله الحضّ والحثّ، والتشديد دليل على التكثير.

واستجلب جَلَبه، الجَلب بفتح اللام: ما يُجلب، كما يقال: جَمَع جَمْعَه. ويروى: «جُلْبَه» و«جِلْبَه»، وهما بمعنًى، وهو السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه. أي جمع قوماً كالجَهام[1] الذي لا نفع فيه. وروي: «ليعودَ الجَوْرِ إلى قِطابه»، والقِطاب: مِزاج الخمر بالماء، أي ليعود الجوْر ممتزِجاً بالعدل كما كان. ويجوز أن يعنِيَ بالقطاب قِطاب الجيْب، وهو مدخل الرأس فيه، أي ليعودَ الجوْر إلى لباسه وثوبه.

وقال الراونديّ: قِطابه: أصله، وليس ذلك بمعروف في اللّغة.

ورُوِيَ «الباطلَ» بالنصب، على أن يكون «يرجع» متعدياً، تقول: رجعت زيداً إلى كذا، والمعنى: ويردّ الجورُ الباطل إلى أوطانه.

وقال الراونديّ: «يعود» أيضاً مثل «يرجع»، يكون لازماً ومتعدياً، وأجاز نصب «الجوْر» به، وهذا غير صحيح، لأن «عاد» لم يأت متعدياً، وإنما يعدّى بالهمزة.

والنَّصَف: الذي يُنصِف.

وقال الراونديّ: النَّصَف: النَّصَفة، والمعنى لا يحتمله، لأنه لا معنى لقوله: ولا جعَلوا بيني وبينهم إنصافاً، بل المعنى: لم يجعلوا ذا إنصاف بيني وبينهم.

يرتضعون أمًّا قد فَطَمت، يقول: يطلبون الشيء بعد فواته، لأنّ الأم إذا فَطَمت ولدها فقد انقضى إرضاعها.

وقوله: «يا خيبة الداعي»، ها هنا كالنداء في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[2]، وقوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾[3] أي يا خيبة احضري فهذا أوانك!

وكلامُه في هذه الخطبة مع أصحاب الجمل، والداعي هو أحدُ الثلاثة: الرجلان والمرأة. ثم قال على سبيل الاستصغار لهم، والاستحقار: «مَنْ دَعَا! وإلى ماذا أجيب!» أي أحقِرْ بقومٍ دعاهم هذا الداعي! وأقْبِحْ بالأمر الذي أجابوه إليه، فما أفحشه وأرذله!

وقال الراونديّ: يا خيبة الداعي، تقديره: يا هؤلاء، فحذف المنادَى، ثم قال: خَيْبة الداعي، أيْ خاب الداعي خيبةً. وهذا ارتكاب ضرورة لا حاجةَ إليها، وإنما يُحذف المنادَى في المواضع التي دَلّ الدّليلُ فيها على الحذف، كقوله:

يا فَانْظُرَا أَيْمنَ الْوَادِي على إِضَمِ

---

(١) الجَهام: بالفتح، السحاب الذي لا ماء فيه. اللسان، مادة (جهم).

(٢) سورة يَس، الآية: ٣٠. (٣) سورة الأنعام، الآية: ٣١.

وأيضاً، فإنّ المصدر الذي لا عامَل فيه غير جائزٍ حذفُ عامله، وتقدير حذفه تقديرُ ما لا دليلَ عليه. وهَبِلته أمه، بكسر الباء: ثَكِلته.

وقوله: «لقد كنتُ وما أُهدَّد بالحرب»، معناه: ما زلتُ لا أُهَدَّد بالحرب، والواو زائدة. وهذه كلمة فصيحة كثيراً ما تستعملها العرب. وقد ورد في القرآن العزيز «كان» بمعنى «ما زال» في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1] ونحو ذلك من الآي، معنى ذلك: لم يزل الله عليماً حكيماً. والذي تأوّله المرتضى رحمه الله تعالى في «تكملة الغرر والدرر» كلام متكلّف، والوجه الصحيح ما ذكرناه.

وهذه الخطبة ليست من خُطَب صِفّين كما ذكره الراونديُّ، بل من خُطَب الجمل، وقد ذكَر كثيراً منها أبو مِخْنف رحمه الله تعالى، قال: حدّثنا مسافِر بن عفيف بن أبي الأخنس قال: لما رجعتْ رُسُل عليّ عليه السلام من عند طلحة والزّبير وعائشة يُؤذِنُونه بالحرْب، قام فحمِد الله وأثنى عليه، وصلّى على رسوله صلى الله عليه، ثم قال:

أيُّها النّاس، إنّي قد راقبتُ هؤلاء القوم كي يرعَوُوا أو يرجعوا، ووبّختُهم بنَكْثهم، وعرّفتهم بَغْيَهُمْ فلم يستحيُوا، وقد بعثوا إليّ أن أبرُز للطعان، واصبر للجِلاد، وإنما تُمنِّيك نفسك أماني الباطل، وتَعِدُك الغرور. ألا هَبِلَتْهم الهَبول، لقد كنت وما أُهَدّدُ بالحرب، ولا أُرَهَّبُ بالضرب! ولقد أنصفَ القارةَ مَنْ راماها، فليُرعِدُوا وليُبْرِقوا، فقد رأوْني قديماً، وعرفُوا نِكايتي، فكيف رأوْني! أنا أبو الحسن، الذي فلَلْتُ حدَّ المشركين، وفرّقْتُ جماعتهم، وبذلك القلب ألقَى عدوّي اليوم، وإنّي لعلى ما وعدني ربِّي من النصر والتأييد، وعلى يقينٍ من أمري، وفي غير شُبهة من ديني.

أيها الناس، إن الموت لا يفوتُه المقيم، ولا يُعْجِزه الهارب، ليس عَن الموت مَحيد ولا محيص، مَنْ لم يُقْتَلْ مات.

إنّ أفضلَ الموت القتل، والذي نفس عليّ بيده لألْفُ ضربة بالسيف أهونُ من موتةٍ واحدة على الفراش. اللّهمّ إنّ طلحة نكث بَيْعتي، وألّبَ عَلَى عثمان حتى قتله، ثم عَضَهني به ورماني.

اللهم فلا تمهِلْه. اللهم إنّ الزبير قطع رَحِمِي، ونكث بَيْعتي، وظاهَر عَلَيّ عدوّي، فاكفِنِيه اليوم بما شئت[2]. ثم نزل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٠.

(٢) أخرجه الشيخ جعفر النقدي في الأنوار العلوية: ٢٠٩.

خطبة علي عليه السلام في المدينة

واعلم أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام وكلام أصحابه وعمّاله في واقعة الجمل، كلّه يدورُ على هذه المعاني التي اشتملت عليها ألفاظُ هذا الفصل، فمن ذلك الخطبةُ التي رواها أبو الحسن عليّ بن محمد المدائنيّ، عن عبد الله بن جُنَادة، قال: قدِمْتُ من الحجاز أريد العِراق، في أوّلِ إمارة عليّ عليه السلام، فمررت بمكة، فاعتمرت، ثم قدِمْتُ المدينة، فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ نودي: الصّلاة جامعة، فاجتمع الناس، وخرج عليّ عليه السلام متقلّداً سيفَه، فشخَصت الأبصارُ نحوه، فحمِد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله، ثم قال:

أما بعد، فإنّه لما قَبَض الله نبيّه صلى الله عليه وآله، قلنا: نحن أهلُه وورثته وعِترته، وأولياؤه دون الناس، لا ينازِعُنا سلطانَه أحد، ولا يطمع في حقّنا طامع، إذ انبرى لنا قومُنا فغصبونا سلطان نبيّنا، فصارتِ الإمْرة لغيرنا. وصرنا سوقة، يطمع فينا الضعيف، ويتعزّز علينا الذليل، فَبَكتِ الأعينِ مِنّا لذلك، وخَشِنَتِ الصدور، وجزِعت النفوس. وايمُ الله لولا مخافة الفُرْقة بين المسلمين، وأن يعودَ الكفر، ويبورَ الدين، لكنّا على غير ما كنّا لهم عليه، فولي الأمْرَ ولاة لم يألُو[1] الناسَ خيراً، ثم استخرجتموني أيها الناس من بيتي، فبايعتموني على شَيْنٍ مِنّي لأمرِكم، وفِراسة تَصْدُقني ما في قلوب كثير منكم، وبايعني هَذان الرجلان في أوّل مَنْ بايع، تعلمون ذلك، وقد نكثا وغَدَرا، ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرّقا جماعتكُم، ويُلقِيا بأسَكم بينكم. اللهم فخذْهما بما عمِلا أخذةً رابية، ولا تنعَش لهما صَرْعة، ولا تُقِلْ لِهما عَثْرة، ولا تمهِلْهما فُواقاً[2]، فإنّهما يطلبان حقاً تركاه، ودماً سفكاه. اللهم إنّي أقتضيك وعدَكَ، فإنّك قلتَ وقولُك الحق: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[3] اللهمّ فأنجِزْ لي موعدَك، ولا تكِلْني إلى نفسي، إنّك على كلّ شيء قدير. ثم نزل.

خطبته عليه السلام عند مسيره إلى البصرة

وروى الكلبيّ قال: لما أراد عليّ عليه السلام المسيرَ إلى البصرة، قام فخطب النّاس، فقال بعد أنْ حَمِد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله:

إنّ الله لما قبض نبيّه، استأثرتْ علينا قريش بالأمر، ودفعتْنا عَنْ حَقٍّ نحن أحقُّ به من الناس كافّة، فرأيت أنّ الصّبر على ذلك أفضلُ من تفريق كلمة المسلمين، وسَفْكِ دمائهم. والنّاس

---

(١) في مطلع الخطبة ما يشير إلى أنها كانت في المدينة وفي آخرها ما يفيد بأنها بعد موقعة الجمل فليحرر!.

(٢) الفواق: ما بين الحلبتين، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع. القاموس، مادة (فوق).

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٠.

حديثو عهد بالإسلام، والدين يُمْخَضُ مَخضَ الوطْب[١]، يُفسِدُه أدنى وَهَن، ويعكسه أقلّ خُلف. فولِّي الأمرَ قوم لم يألوا في أمرهم اجتهاداً، ثم انتقلوا إلى دار الجزاء، والله وليّ تمحيص سيئاتهم، والعفوِ عن هفواتهم. فما بالُ طلحة والزبير، وليسا من هذا الأمر بسبيل! لم يصبرا عليّ حولاً ولا شهْراً حتى وَثَبا ومَرَقا، ونازعاني أمراً لم يجعل الله لهما إليه سبيلاً، بعد أن بايعا طائعين غيرَ مكرهين، ويرتضِعَانِ أُمّا قد فَطَمت، ويُحيِيان بِدْعةً قد أميتت. أدمَ عثمان زعما! والله ما التَّبِعةُ إلا عندهم وفيهم، وإنّ أعظم حُجَّتهم لعلَى أنفِسهم، وأنا راضٍ بحجّة الله عليهم وعمله فيهم، فإنْ فاءا وأنابا فحظَّهما أحرزا، وأنفَسَهما غَنِما، وأعظِمْ بها غنيمة! وإنْ أبَيَا أعطيتُهما حدّ السيف، وكفى به ناصراً لحقّ، وشافياً لباطل. ثم نزل.

خطبته عليه السلام بذي قار

وروى أبو مِخْنف عن زيد بن صُوحان، قال»: شَهِدتُ علياً عليه السلام بذي قار، وهو معتمّ بعمامة سَوْداء، ملتفّ بساجٍ يخطب، فقال في خطبة:

الحمد لله على كلّ أمر وحال، في الغدوّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه، ابتعثه رحمةً للعباد، وحياةً للبلاد، حين امتلأت الأرض فتنة، واضطرب حبلُها، وعُبِد الشيطان في أكنافها، واشتمل عدوّ الله إبليسُ على عقائد أهلها، فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي أطفأ الله به نِيرانَها، وأخمدَ به شرارها، ونزع به أوتادَها، وأقام به مَيْلَها، إمام الهُدى، والنبيّ المصطفى، صلى الله عليه وسلم. فلقدْ صَدَعَ بما أُمِرَ به، وبلّغ رسالات ربّه، فأصلَح الله به ذاتَ البيْن، وآمَن به السُّبُلَ، وحقَنَ به الدماء، وألّف به بين ذَوِي الضّغائن الواغِرة في الصدور، حتى أتاه اليقينُ، ثم قَبَضه الله إليه حَميداً. ثم استخلف الناسُ أبا بكر، فلم يألُ جُهْدَه، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم يألُ جُهدَه، ثم استخلف الناس عثمان، فنال منكم ونِلْتُمْ منه، حتى إذا كان من أمره ما كان، أتيتُموني لتبايِعُوني، لا حاجةَ لي في ذلك، ودخلتُ منزلي، فاستخرجْتُموني فقبَضْتُ يدِي فبسطتموها، وتداكَكْتم عليّ، حتى ظننتُ أنكم قاتليّ، وأن بعضَكم قاتلُ بعض، فبايعتموني وأنا غيرُ مسرور بذلك ولا جَذِل.

وقد علم الله سبحانه أني كنتُ كارهاً للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولقد سمعتُه يقول: «ما من والٍ يَلِي شيئاً من أمْرِ أمّتي إلا أُتِيَ به يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه على رؤوس الخلائق، ثم يُنشَر كتابه، فإن كان عادلاً نجا، وإن كان جائراً هَوَى»[٢]، حتى اجتمع عليّ

---

(١) الوطب: سِقاء اللبن. اللسان، مادة (وطب).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٠٦٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٢٧٥)، والدرامي، كتاب: السير، باب: في التشديد في الإمارة (٢٥١٥).

مَلؤكم، وبايعني طلحة والزبير، وأنا أعرفُ الغَدْرَ في أوجههما، والنَّكْث في أعينهما، ثم استأذنا في العُمْرة، فأعلمتُهما أن ليس العمرةَ يريدان، فسارا إلى مكّة واستخفّا عائشة وخدعاها، وشخص معهما أبناءُ الطُّلَقاء، فقدِموا البصرة، فقتَلوا بها المسلمين، وفعلوا المنكر. ويا عجَبا لاستقامتِهما لأبي بكر وعمر وبَغْيهما عليّ! وهما يعلمان أنّي لست دون أحَدِهما، ولو شئت أن أقول لقلت، ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدَعهُما فيه، فكتَماه عَنّي، وخرجا يُوهمان الطَّغَام أنّهما يطلبان بدم عثمان، والله ما أنكرا عليّ منكَراً، ولا جعلاً بيني وبينهم نصفاً، وإنّ دم عثمان لمعصوبٌ بهما، ومطلوب منهما. يا خَيْبة الدّاعي! إلامَ دَعا! وبماذا أجيبَ؟ والله إنّهما لعلَى ضلالَةٍ صمّاء، وجهالة عمياء، وإنّ الشيطان قد ذَمَر[1] لهما حِزْبه، واستجلب منهما خَيْله ورَجْله، ليعيدَ الجوْرَ إلى أوطانه، ويرُدّ الباطل إلى نصابه.

ثم رفع يديه، فقال: اللهمّ إنّ طلحة والزّبيْر قطعاني، وظلماني، وألّبا عليّ، ونكثا بيعتي، فاحلُلْ ما عقدا، وانكُثْ ما أبرما، ولا تغفر لهما أبداً، وأرهما المساءَة فيما عمِلا وأمّلا[2]!

قال أبو مِخْنف: فقام إليه الأشتر فقال:

الحمد لله الذي منّ علينا فأفضَل، وأحسن إلينا فأجَمل، قد سَمِعْنا كلامَك يا أمير المؤمنين، ولقد أصبت ووفّقت، وأنت ابن عمّ نبينا وصهره ووصيّه، وأوّل مصدّق به، ومصلّ معه، شهدتَ مشاهدَه كلَّها، فكان لك الفضلُ فيها على جميع الأمة، فمن اتبّعك أصاب حَظّه واستبشرَ بفَلَجِه، ومَنْ عصاك، ورغِب عنك، فإلى أمّه الهاوية! لعمري يا أمير المؤمنين ما أمرُ طلحة والزبير وعائشة علينا بمُخيل، ولقد دخل الرجلان فيما دخلا فيه، وفارقا على غير حَدَث أحدثْت، ولا جوْر صنعت، فإن زعما أنّهما يطلبان بدم عثمان فليُقِيدا من أنفسهما فإنهما أولُ من ألّبَ عليه وأغرَى الناسَ بدمه، وأُشْهِدُ الله، لئن لم يدخلا فيما خرجا منه لَنُلْحِقَنَّهُما بعثمان، فإنّ سيوفَنا في عواتقنا، وقلوبَنا في صدورنا، ونحن اليوم كما كنّا أمس. ثم قعد.

٢٣ - ومن خطبة له عليه السلام في قسمة الأرزاق بين الناس

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ كَقَطْرِ ٱلْمَطَرِ إلى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فإِن رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ، فَلاَ

(١) الذمر: اللوم والحض معاً. اللسان، مادة (ذمر).
(٢) أخرجه الشيخ المحمود في نهج السعادة: ١/ ٢٨٠.

تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً، فَإِنَّ ٱلْمَرْءَ ٱلْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ، كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ ٱلْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بِهَا الْمَغْرَمُ. وَكَذَلِكَ ٱلْمَرْءُ ٱلْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ الله إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ، إِمَّا دَاعِيَ ٱلله فَمَا عِنْدَ ٱلله خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزقَ ٱلله، فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ.

إنّ ٱلْمَالَ وَٱلْبَنِينَ حَرْثُ ٱلدُّنْيَا، وَٱلْعَمَلَ ٱلصَّالِحَ حَرْثُ ٱلآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا الله تعالى لِأَقْوَامٍ، فَاحْذَرُوا مِنَ الله مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ، وَاعْمَلُوا في غَيْرِ رِيَاءٍ وَلاَ سُمْعَةٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ الله يَكِلْهُ ٱلله إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ الله مَنَازِلَ ٱلشُّهَدَاءِ، وَمُعَايَشَةَ السُّعَدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ ٱلأَنْبِيَاءِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مالٍ عَنْ عَشيرَتِهِ وَدِفاعِهِم عنهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ، وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إن نَزَلَتْ بِهِ، وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ يَجْعَلُهُ ٱلله لِلْمَرْءِ في النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ ٱلْمَالِ يُوَرِّثُهُ غَيْرَهُ.

ومنها: أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ ٱلْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا ٱلْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ، وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ. وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِه، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عنهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ.

وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ ٱلْمَوَدَّةَ.

قال الرضي رحمه الله:

أقُولُ: الغَفِيرَةُ ها هنا ٱلزِّيادَةُ وَٱلْكثرَةُ، مِنْ قَوْلِهِمْ للجمع الكثيرِ: ٱلْجَمُّ الغفير، وَٱلجمّاءُ الغَفِير. وَيُرْوى: «عَفْوَةً مِنْ أهلٍ أوْ مال»، وَالعَفْوَةُ: ٱلْخِيار من الشيْءِ، يقال: اكلْتُ عَفْوةَ الطعام، أي خِيَارَه.

وَما أحْسنَ المعنى الذِي أرَادهُ عليه السلام بِقولِهِ: «من يَقْبِضْ يدهُ عَنْ عَشِيرته...» إلى تمام الكلام، فإنَّ ٱلْمُمْسِك خَيْرَهُ عَن عَشِيرَتِهِ، إنما يُمْسِكُ نَفْعَ يَدٍ واحدةٍ، فإذا احْتاجَ إِلَى نُصْرَتِهِمْ وَاضْطَرَّ إلى مرافَدَتِهِمْ، قعَدُوا عن نصرِهِ، وَتَثَاقَلُوا عن صَوْته، فَمُنِع تَرَافُدَ الأيدي الكثيرةِ وَتَنَاهُضَ الأقدامِ ٱلْجَمّةِ.

الشرح: الفالج: الظافر الفائز، فَلَج يَفْلُج، بالضم، وفي المثل: «مَنْ يأت الحكَم وحده يَفْلُج».

والياسر: الذي يلعب بالقداح، واليَسَر مثله، والجمع أيسار. وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: كالياسر الفالج، أي كاللاعب بالقِداح المحظوظ منها، وهو من باب تقديم الصفة على الموصوف، كقوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(١)، وحَسّن ذلك ها هنا أنّ اللفظتين صفتان، وإن كانت إحداهما مرتبةً على الأخرى.

وقوله: «ليست بتعذير»، أي لَيست بذات تعذير، أي تقصير، فحذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ﴾(٢) أي ذي النّار.

وقوله: «هم أعظم الناس حَيْطة» كَبَيْعَة، أي رعاية وكلاءة، ويروى، «حِيطة»، كفِيبة، وهي مصدر حاط أي تحنّناً وتعطفاً.

والخصاصة: الفقر، يقول: القضاءُ والقَدر ينزلانِ من السماء إلى الأرض كقطْر المطر، أي مبثوث في جميع أقطار الأرض إلى كلّ نفس بما قُسِم لها من زيادة أو نقصان، في المال والعمر والجاه والولد وغير ذلك. فإذا رَأى أحدُكم لأخيه زيادة في رزق أو عمر أو ولد وغير ذلك، فلا يكونَنّ ذلك له فِتْنَةً تُفْضِي به إلى الحسد، فإنّ الإنسان المسلم إذا كان غيرَ مُواقِعٍ لدناءة وقبيح يَسْتحيي من ذكره بين الناس، ويخشع إذا قرِّع به، ويغري لئام الناس بهَتْك ستره به، كاللاعب بالقِداح، المحظوظ منها، ينتظر أول فَوْزَة وغلبَة من قِدَاحه، تجْلب له نفعاً، وتدفع عنه ضرّاً، كذلك مَنْ وصفْنا حالَه، يصبِر وينتظر إحدى الحسنيين، إمّا أنْ يدعُوَه الله فيقبضَه إليه، ويستأثِرَ به، فالذي عند الله خير له. وإما أنْ يُنْسَأ في أجَله، فيرزقه الله أهلاً ومالاً، فيصبحَ وقد اجتمع له ذلك مع حسَبَه ودينه ومروءته المحفوظة عليه.

ثم قال: «المال والبنون حرث الدنيا»، وهو من قوله سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٣)، ومن قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(٤).

قال: وقد يجمعهما الله لأقوام، فإنّه تعالى قد يرزقُ الرجل الصالح مالاً وبنين، فتجتمعُ له الدنيا والآخرة.

ثم قال: «فاحذروا من الله ما حذّركم من نفسه»، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿فَاتَّقُونِ﴾(٥)، وقال: ﴿فَارْهَبُونِ﴾(٦)، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾(٧)، وغير ذلك من آيات التحذير.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٧.
(٢) سورة البروج، الآيتان: ٤، ٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٤١.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

ثم قال: ولتكن التقْوى منكم أقصى نهايات جهدكم، لا ذات تقصيركم، فإنّ العمل القاصر قاصر الثواب، قاصر المنزلة.

النهي عن الحسد

واعلم أن مصدرَ هذا الكلام النهي عن الحسد، وهو من أقبح الأخلاق المذمومة. وروى ابن مسعود عن النبيّ ﷺ: «ألا لا تعادُوا نَعم الله»، قيل: يا رسول الله، ومن الذي يعادِي نعم الله؟ قال: «الذين يحسدون الناس»[١].

وكان ابن عمر يقول: تعوّذوا بالله من قَدَرٍ وافق إرادةَ حسود.

قيل لأرسطو: ما بالُ الحسود أشدّ غمّا من المكروب؟ قال: لأنه يأخذ نصيبَه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمُّه بسرور الناس.

وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإنّ كلّ ذي نعمة محسود»[٢].

وقال منصور الفقيه:

مُنَافَسَةُ ٱلْفَتَى فِيمَا يَزُولُ ... عَلَى نُقْصَانِ هِمَّتِهِ دَلِيلُ
وَمُخْتَارُ ٱلْقَلِيلِ أقلُّ مِنْه ... وَكُلُّ فوائِدِ الدُّنْيَا قَلِيلُ

ومن الكلام المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام: لله درّ الحسد! ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتَله.

ومن كلام عثمان بن عفان: يكفيك من انتقامك من الحاسد أنّه يغتمّ وقتَ سرورك.

وقال مالك بن دينار: شهادة القرّاء مقبولة في كلّ شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنّهم أشدُّ تحاسداً من السُّوس في الوبَر.

وقال أبو تمّام:

وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ، أتَاحَ لَهُ لِسَانَ حَسُودِ
لولا ٱشْتِعَالُ النَّارِ فيما جَاوَرَتْ ... مَا كَان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ ٱلْعُودِ
لَوْلاَ مُحَاذَرَةُ ٱلْعَوَاقِبِ لمْ تَزَلْ ... للحاسِدِ النُّعْمَى عَلَى ٱلْمَحْسُودِ

وتذاكَر قوم من ظرفاء البَصْرة الحسَد، فقال رجل منهم: إنّ النّاس ربّما حسدوا على

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٢٥١) موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٩٤)، و«الأوسط» (٢٤٥٥)، و«الصغير» (١١٨٦)، ومسند الشاميين (٤٠٨)، والروياني في «مسنده» (١٤٤٩)، والشهاب في «مسنده» (٧٠٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٥٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٦٩).

الصَّلب، فأنكروا ذلك، ثم جاءهم بعد ذلك بأيام، فقال: إنّ الخليفة قد أمر بصلْب الأحنف بن قيس، ومالك بن مِسْمَع، وحَمْدان الحجّام، فقالوا: هذا الخبيثُ يُصْلَب مع هذين الرئيسين! فقال: ألم أقُلْ لكم إنّ الناس يحسُدون على الصَّلب!

وروَى أنس بن مالك مرفوعاً: «إنّ الحسَد يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطب»[1]. وفي الكتب القديمة: يقول الله عز وجل: الحاسِد عدوّ نعمتي، متسخط لفعلي، غير راضٍ بقسمتي.

وقال الأصمعيّ: رأيتُ أعرابيًّا قد بلغ مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطولَ عمرَك! فقال: تركتُ الحسَد فبقِيت.

وقال بعضهم: ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد.

قال الشاعر:

تـراهُ كـأنَّ الله يـجـدَعُ أنـفَـه ... وأذْنيـه إنْ مـولاه ثـابَ إلـى وَفْـرِ

وقال آخر:

قُـلْ لـلـحسُـود إذَا تـنَـفَّـس ضِـغْـنُـهُ ... يـا ظـالِـمـاً وَكـأنَّـهُ مَـظْـلُـومُ!

ومن كلام الحكماء: إيّاك والحسَد، فإنّه يَبِينُ فيك ولا يَبِين في المحسود.

ومن كلامهم: من دناءة الْحَاسِدِ أنّه يبدأ بالأقرب فالأقرب.

وقيل لبعضهم: لزمتَ الباديةَ، وتركت قومَكَ وبلدك! قال: وهل بقيَ إلا حاسدُ نِعْمة، أو شامتٌ بمصيبة!

بينا عبد الملك بن صالحٍ يسيرُ مع الرّشيد في موكبه، إذ هتف هاتف: يا أمير المؤمنين، طأطِيء من إشرافه، وقَصِّر منْ عِنَانه، واشْدُدْ من شِكاله - وكان عبدُ الملك متّهماً عند الرشيد بالطَّمَع في الخلافة - فقال الرّشيد: ما يقول هذا؟ فقال عبدُ الملك: مقالُ حاسد ودسيسُ حاقدٍ يا أمير المؤمنين. قال: قد صدقت، نقصَ القومُ وفضلتَهم، وتخلّفوا وسبقتَهم، حتى برز شأوُك، وقَصّر عنك غيرك، ففي صدورهم جمراتُ التخلُّف، وحزازاتُ التبلّد. قال عبد الملك: فأضرِمْها يا أمير المؤمنين عليهم بالمزيد.

وقال الشاعر:

يَا طَالِبَ الْعَيْش في أمْنٍ وَفي دَعَةٍ ... مَـحْـضـاً بِـلاَ كَـدَرٍ، صَـفْـواً بِـلاَ رَنَـقِ
خَـلِّـصْ فُـؤَادك مِـنْ غِـلٍّ وَمِـنْ حَـسَـدٍ ... فالغِلّ في الْقَلْبِ مثلُ الغُلِّ في الْعُنُقِ

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الحسد (٤٩٠٢)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الحسد (٤٢١٠).

ومن كلام عبد الله بن المعتز: إذا زال المحسودُ عليه، علمتَ أنّ الحاسد كان يحسدُ على غير شيء.

ومن كلامه: الحاسدُ مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملِكه.

ومن كلامه: لا راحةَ لحاسد، ولا حَياةَ لحريص.

ومن كلامه: الميت يقلّ الحسدُ له، ويكثر الكذِبُ عليه.

ومن كلامه: ماذلّ قوم حتى ضَعفُوا، وما ضَعفُوا حتى تفرّقوا، وما تفرّقوا حتى اختلفوا، وما اختلفوا حتّى تباغضوا، وما تباغضوا حتى تحاسدوا، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض.

وقال الشاعر:

إنْ يَحْسُدُوني فَإنّي غَيْرُ لائِمِهِمْ ... قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أهلِ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدوا
فَدَامَ لي وَلَهُمْ مَا بي وَمَا بِهِمُ ... وَماتَ أكْثَرُنا غَيظاً بِمَا يَجِدُ

ومن كلامهم: ما خلا جَسَدٌ عن حسد.

وحدُّ الحَسد هو أن تغتاظَ مما رُزِقَه غيرُك، وتودّ أنه زال عنه وصار إليك. والغبطة: ألاّ تغتاظ ولا تودّ زوالَه عنه، وإنما تودّ أن تُرْزَقَ مِثْله، وليست الغبطة بمذمومة.

وقال الشاعر:

حَسَدُوا الْفَتَى إذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالْكُلُّ أعْداءٌ لَهُ وَخُصُومُ
كَضَرَائِرِ الْحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَداً وَبَغْياً - إنَّه لَدَمِيمُ

الأمر بالصبر وانتظار الفرج

واعلم أنه عليه السلام بعد أن نهى عن الحَسَد أمر بالصبر وانتظار الفرَج مَن الله، إما بموتٍ مريح، أو بظفرٍ بالمطلوب. والصبرُ من المقامات الشريفة، وقد وَرَدت فيه آثارٌ كثيرة، روى عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّ الصبر نصفُ الإيمان، واليقين الإيمان كلّه»[1].

وقالت عائشة: لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً.

وقال عليّ عليه السلام: الصَّبر إمّا صبر على المصيبة، أو على الطاعة، أو عن المعصية[2]، وهذا القسم الثالث أعلَى درجةً من القسمَيْن الأوّلَين.

(١) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١٥٨)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٨٤١).
(٢) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٢٨٥.

وعنه عليه السلام: الحياء زينة، والتقوى كرم، وخير المراكب مركب الصبر[١].

وعنه عليه السلام: القناعة سيفٌ لا ينبُو، والصبر مَطِيَّةٌ لا تكبو، وأفضل العدّة الصبرُ على الشدّة[٢].

قال الحسن عليه السلام: جَرّبْنا وجَرّب المجرّبون، فلم نرَ شيئاً أنفعَ وِجداناً، ولا أضرّ فِقداناً من الصبر، تُدَاوَى به الأمور، ولا يداوى هُوَ بغيره.

وقال سعيد بن حُمَيد الكاتب:

لاَ تَـعْـتِـبَـنَّ عَـلَـى ٱلـنَّـوَائِـبْ ... فَـالـدَّهْـرُ يُـرْغِـمُ كـلَّ عَـاتِـبْ
وَاصْـبِـرْ عَـلَـى حَـدَثَـانِـهِ ... إنّ الأمـورَ لـهـا عَـوَاقِـبْ
كَـمْ نِـعْـمَـةٍ مَـطْـوِيَّـةٍ ... لَـكَ بَـيْـنَ أثـنـاءِ الـنَّـوَائِـبْ
وَمَـسَـرَّةٍ قَـدْ أَقْـبَـلَـتْ ... مِـنْ حَـيْـثُ تَـنْـتَـظِـرُ ٱلْـمَـصَـائِـبْ

ومن كلامهم: الصّبر مُرّ، لا يتجَرّعه إلا حُرّ.

قال أعرابيّ: كُنْ حُلْوَ الصَّبْر عنْدَ مَرارة النَّازلة.

وقال كسرى لِبُزُرْجُمِهر: ما علامةُ الظفر بالأمور المطلوبة المستصعبةَ؟ قال: ملازمة الطّلب، والمحافظة على الصبْر، وكتمان السر.

وقال الأحنف بن قيس: لست حليماً، إنّما أنا صبور، فأفادني الصبر صِفَتي بالحلْم.

وسئل عليّ عليه السلام: أيّ شيء أقربُ إلى الكفر؟ قال: ذو فاقة لا صبر له[٣].

ومن كلامه عليه السلام: الصبْر يُناضِل الحدَثان[٤]، والجوع من أعوان الزمان[٥].

وقال أعشى هَمْدَان:

إنْ نِـلْـتُ لـم أفْـرَحْ بـشـيءٍ نِـلْـتُـهُ ... وإذا سُـبِـقْـتُ بـه فَـلا أتـلـهّـف
وَمَتَـى تُـصِـبْـك مـن الـحـوادثِ نَـكْـبَـةٌ ... فـاصْـبِـرْ فـكـلّ غَـيَـابَـةٍ تَـتَـكَـشَّـفُ

والأمر يذكر بالأمر، وهذا البيت هو الذي قاله له الحجّاج يوم قَتله، ذكر ذلك أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباريّ في «الأمالي» قال: لمّا أُتِي الحجاجُ بأعشى هَمْدان أسيراً،

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ٣/ ١٢٠ رقم: ٥٧٦٧.
(٢) أخرجه المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٢٨٥.
(٣) أخرجه المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٢٨٥.
(٤) الحدثان: نوائب الدهر. اللسان، مادة (حدث).
(٥) أخرجه المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٢٨٥.

وقد كان خرج مع ابن الأشعث، قال له: يا ابن اللخْناء! أنت القائل لِعدوّ الرحمن - يعني عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث:

يا ابنَ الأشجِّ قريع كِنْـ ـدَةَ لا أبالي فيك عتباً
أنت الرئيس ابنُ الرئيـ ـسِ، وأنتَ أعلى النّاسِ كَعْبَا
نُبِّئتُ حجاج بن يوسـ ـفَ خَرّ مِنْ زَلَقٍ فَتَبّا
فَانْهَضْ هُدِيتَ لَعَلَّهُ يَجْلُو بك الرَّحْمٰنُ كَرْبا
وابعث عطيةَ في الحرُو ب يكبّهنّ عليه كَبّاً

ثم قال: عبد الرحِم خَرّ من زَلَقٍ فتبّ، وخسر وانكبّ، وما لقيَ ما أحبّ. ورفع بها صوته، واهتز مَنكِباه، ودرّ وَدَجاه[1]، واحمرّت عيناه، ولم يبق في المجلس إلا من هابه، فقال: أيها الأمير، وأنا القائل:

أبى الله إلاّ أنْ يُتَمِّمَ نُورَهُ وَيُطْفِيءَ نَارَ ٱلْكَافِرِينَ فتخمُدا
ويُنزِلَ ذُلاًّ بالعراق وأهله كما نقضوا العهدَ الوثيقَ المؤكّدا
وما لَبِثَ الحجّاج أنْ سَلّ سيفَه علينا، فَوَلّى جَمْعُنَا وتبدَّدا

فالتفت الحجّاج إلى مَنْ حضر، فقال: ما تقولون؟ قالوا: لقد أحسن أيها الأمير، ومَحَا بآخر قوله أولَهُ، فليَسعْه حِلْمُك. فقال: لاها الله! إنه لم يُرِدْ ما ظننتم، وإنما أراد تحريضَ أصحابه، ثم قال له: ويلك! ألست القائل:

إنْ نِلْتُ لَمْ أفرَحْ بشيءٍ نِلْتُهُ وإذا سُبِقْتُ بِهِ فَلاَ أتَلَهَّفُ
وَمَتَى تُصِبْكَ مِنَ الحَوادِثِ نَكْبَةٌ فاصْبِرْ، فَكُلُّ غَيَابَةٍ تَتَكَشَّفُ

أما والله لَتُظْلِمَنَّ عليك غَيَابَةٌ لا تنكشِف أبداً، ألست القائل في عبد الرحمن:

وإذا سألتَ المجدَ أين مَحَلّهُ فالمجدُ بَيْنَ محمدٍ وسَعِيدِ
بَيْنَ الأشَجِّ وَبَيْنَ قَيْسٍ نَازِلٌ بَخْ بَخْ لِوالِدِه وللمولودِ

والله لا يُبَخْبِخُ بعدها أبداً: يا حرسيّ اضرب عُنُقَه.

ومما جاء في الصبر قيل للأحنف: إنك شيخٌ ضعيف، وإنّ الصيام يَهُدّك. فقال: إني أعدّه لشرِّ يوم طويل، وإنّ الصبرَ على طاعة الله أهونُ من الصبر على عذاب الله.

(١) الودجان: عرقان متصلان من الرأس إلى السحر. اللسان، مادة (ودج).

ومن كلامه: مَنْ لم يَصْبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلمات. ربّ غيظٍ قد تجرّعتُه مخافة ما هو أشدّ منه.

يونس بن عبيد: لو أُمِرنا بالجَزَع لصبرنا.

ابن السّماك: المصيبة واحدة، فإن جزع صاحبُها منها صارت اثنتين. يعني: فقد المصاب وفقد الثواب.

الحارث بن أسد المحاسبيّ: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

جابر بن عبد الله: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: «الصبر والسماحة»[1].

وقال العتابيّ:

اصْبِرْ إذَا بَدَهَتْكَ نَائِبَةٌ ... مَا عَالَ مُنْقَطِعٌ إلى الصَّبْرِ
الصَّبْرُ أوْلَى مَا اعْتَصَمْتَ بِهِ ... وَلَنِعْمَ حَشْوُ جَوانِحِ الصَّدْرِ

ومن كلام عليّ عليه السلام: الصّبر مفتاح الظّفر، والتوكّل على الله رسول الفَرَج[2].

ومن كلامه عليه السلام: انتظارُ الفَرَج بالصَّبْرِ عبادة[3].

أكْثَم بن صَيْفيّ: الصبرُ على جُرَعِ الحِمَام[4] أعذب من جَنَا النَّدَم.

ومن كلام بعض الزهّاد: واصْبر عَلَى عملٍ لا غَناء بك عن ثوابه، واصبْر عن عَملٍ لا صَبْر على عقابكَ به.

وكتب ابنُ العميد: أقرأ في الصَّبْرِ سُوَراً، ولا أقرأ في الجزع آية. وأحفَظُ في التماسك والتجلُّد قصائد، ولا أحفَظُ في التهافُت قافية.

وقال الشاعر:

وَيَوْمٍ كَيَوْمِ الْبَعْثِ مَا فِيهِ حَاكِمٌ ... وَلاَ عَاصِمٌ إلاَّ قَنـاً وَدُرُوعُ
حَبَسْتُ بِهِ نَفْسِي عَلَى مَوْقِفِ الرَّدَى ... حِفَاظاً وَأطْرَافُ الرِّمَاحِ شُرُوعُ
وَمَا يَسْتَوِي عِنْدَ ٱلْمُلِمّاتِ إنْ عَرَتْ ... صَبُورٌ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَجَزُوعُ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٩٤٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٨٥٤)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٣٠٠)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٤٨٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠١٤).

(٢) أخرجه المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٢٨٤.

(٣) أخرجه ابن سلامة في مسند الشهاب: ١/ ٦٢.

(٤) الحِمَام: قضاء الموت وقدره. القاموس، مادة (حمم).

أبو حية النّميريّ:

إنّـي رَأَيْـتُ وَفِـي ٱلأَيّـام تَـجْـرِبَـةٌ ... لِـلـصَّـبْـرِ عَـاقِـبَـةٌ مـحـمـودةَ ٱلأَثَـرِ

وَقَـلَّ مَـنْ جَـدَّ فِـي أَمْـرٍ يُـحَـاوِلُـهُ ... وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلاّ فَازَ بالظَّفَرِ

ووصف الحسنُ البصريّ علياً عليه السلام، فقال: كان لا يَجْهَلُ، وإنْ جُهِلَ عَلَيْهِ حَلُم. وَلاَ يَظْلِمُ، وَإنْ ظلِم غَفَر. ولاَ يَبْخَلُ، وإنْ بَخِلَتِ الدّنيا عليه صَبَر.

عبد العزيز بن زُرارَةَ الكلابيّ:

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهْرِ أطْوَاراً عَلَى طُرُقٍ ... شَتَّى فَقَاسَيْتُ مِنْهُ ٱلْحُلْوَ وَٱلْبَشِعَا

كُـلاًّ بَـلَـوْتُ فَـلاَ الـنَّـعْـمَـاءُ تُـبْـطِـرُنِـي ... وَلاَ تَـخَـشَّـعْـتُ مِن لأوائها جَزَعَـا[1]

لاَ يَـمْـلأُ ٱلأَمْـرُ صَـدْرِي قَـبْـلَ مَـوْقِـعِـهِ ... وَلاَ يَـضِـيـقُ بِـهِ صَـدْرِي إذا وَقَـعَـا

ومن كلام بعضهم: مَن تَبَصّر تَصَبّر. الصّبْر يفسحُ الفُرَج، ويفتح المرتَتج[2]. المحْنة إذا تُلُقِّيت بالرّضا والصّبْر كانت نعمةً دائمة، والنّعمة إذا خلت من الشُّكْر كانت مِحْنَةً لازمة.

قيل لأبي مسلم صاحب الدولة. بِمَ أصَبْتَ ما أصَبْتَ؟ قال: ارْتَدَيْتُ بالصبّر، واتزّرت بالكِتْمان، وحالفتُ الحزم، وخالفْتُ الهوى، ولم أجعل العدوّ صديقاً، ولا الصديقَ عدوّاً.

منصور النّمَريّ في الرّشيد.

وَلَـيْـسَ لأعْـبَـاءِ الأُمُـورِ إذَا عَـرَتْ ... بِـمـكْـتَـرِثٍ لـكِـنْ لَـهُـنَّ صَـبُـورُ

يُرَى ساكِنَ الأطْرافِ باسِطَ وَجْهِهِ ... يُـرِيـكَ الـهُـوَيْـنَـى والأمُـور تَـطِـيـرُ

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: أوصيكم بخمس لو ضربْتُم إليهنّ آباطَ الإبل كانت لذلك أهلاً: لا يرجُوَنّ أحدُكُم إلاّ ربّه، ولا يخافَنّ إلا ذَنْبَه، ولا يَسْتَحِيَنّ إذا سئلَ عَمّالاً يَعلم أنْ يقولَ لا أعلم، ولا يستحيي إذا جهل أمراً أن يتعلّمه، وعليْكُم بالصّبر، فإنّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجَسد، فكما لا خَيْرَ في جَسَدٍ لا رأس له، لا خيرَ في إيمانٍ لا صَبْر معه.

وعنه عليه السلام: لا يعدَم الصبُّور الظَّفَر، وإن طال به الزمان[3].

نهشل بن حَرِّيّ:

ويـوم كـأنّ الـمـصـطـلـيـنَ بـحـرّهِ ... وإنْ لم يكنْ جَمْراً قيامٌ على جَمْرِ

صَـبَـرْنـا لَـهُ حَـتّـى تـجـلّـى وإنّـمـا ... تُـفَـرَّجُ أيـامُ الـكَـرِيـهَـة بِـالـصَّـبْـرِ

---

(١) اللأواء: الشدة وضيق المعيشة. اللسان، مادة (لأي).

(٢) المرتَتج: المغلق. القاموس مادة (رتج).

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٨٦/ ٩٥.

عليّ عليه السلام: اطرَحْ عنك وارداتِ الهموم بعزائم الصَّبْر وحسن اليقين[١].

وعنه عليه السلام: وإن كنت جازعاً على ما تَفَلّتَ من يديْك، فاجزَعْ عَلَى كلّ ما لم يصل إليك[٢]!

وفي كتابه عليه السلام الذي كتبه إلى عَقِيل أخيه: ولا تحسبَنّ ابن أمّك - ولو أسلمه الناس - متضرّعاً متخشعاً، ولا مقرّاً للضيم واهناً، ولا سَلِسَ الزمام للقائد، ولا وطىء الظّهر للراكب، ولكنه كما قال أخو بني سُلَيْم:

فإنْ تَسْألِينِي كَيْفَ أنْتَ فإنّنِي ... صَبُورٌ على رَيْبِ الزّمانِ صَلِيبُ
يَعِزّ عليّ أن تُرَى بِي كآبَةٌ ... فَيَشْمَتَ عَادٍ أو يُساءَ حبيبُ

النهي عن الرياء والكذب

واعلم أنه عليه السلام، بعد أنْ أمَرنا بالصَّبر، نهى عن الريّاء في العمل، والرّياءُ في العمل منهيٌّ عنه، بل العملُ ذو الرّياء ليس بعملٍ على الحقيقة، لأنه يُقصَدْ به وجه الله تعالى. وأصحابُنا المتكلّمون يقولون: ينبغي أن يعلم المكلّف الواجبَ لأنه واجب، ويجتنبَ القبيح لأنه قبيح، ولا يفعل الطاعة ويترك المعصية رغبةً في الثواب، وخوفاً من العقابِ، فإنّ ذلك يُخْرج عَمَلَه من أن يكون طريقاً إلى الثواب، وشبّهوه بالاعتذار في الشيء، فإنّ مَنْ يعتذِرُ إليك من ذنبٍ خوفاً أن تعاقِبَه على ذلك الذنب، ولا نَدَماً على القبيح الذي سبق منه، لا يكون عُذْرُه مقبولاً، ولا ذنبُه عندك مغفوراً. وهذا مقامٌ جليل لا يصِلُ إليه إلا الأفراد من ألوف الألوف. وقد جاء في الآثار من النّهي عن الرياء والسمعة كثيرٌ، روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «يُؤتَى في يوم القيامة بالرّجل قد عَمل أعمال الخير كجبال - أو قال: كجبال تِهامة - وله خطيئة واحدة، فيقال: إنما عَمِلْتَها لِيُقال عنك، فقد قيل، وذاك ثوابُك وهذه خطيئتك، أدخِلوه بها إلى جهنم»[٣].

وقال عليه السلام: «ليست الصلاة قيامَك وقعودَك، إنّما الصلاة إخلاصُك، وأنْ تُريدَ بها الله وحده»[٤].

وقال حبيب الفارسيّ: لو أنّ الله تعالى أقامني يوم القيامة وقال: هل تعدّ سجدةً سَجدتَ ليس للشيطان فيها نصيب لم أقدِرْ على ذلك.

توصّل عبدُ الله بن الزُّبير إلى امرأة عبد الله بن عمر - وهي أخت المختار بن أبي عُبيد

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ١٦/ ١٨٠.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٤/ ٢١١.
(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٨٧٥).
(٤) أخرجه محمدي الريشهري في ميزان الحكمة: ١/ ٧٥٧.

الثَّقفيّ - في أنْ تُكلّم بعلَها عبدَ الله بن عمر أن يبايعَه. فكلّمته في ذلك، وذكرتْ صلاتَه وقيامه وصيامه، فقال لها: أما رأيتِ البغَلات الشُّهب التي كُنّا نراها تحت معاوية بالحِجْر إذا قدم مكة؟ قالت: بلى، قال: فإياها يطلب ابنُ الزّبير بصومه وصلاته!

وفي الخبر المرفوع: «إنّ أخوف ما أخاف على أمّتي الرياء في العمل، ألا وإنّ الرياء في العمل هو الشرْكُ الخفِيّ»(١):

صَلّى وَصَامَ لأمْرٍ كان يَطْلُبُهُ ... حَتّى حَوَاهُ فَلاَ صَلّى وَلاَ صَامَا

أهمية العشيرة والقبيلة والتقوى بهما

ثم إنه عليه السلام بعد نهيه عن الرياء وطلب السمعة، أمر بالاعتضاد بالعشيرة والتكثّر بالقبيلة، فإنّ الإنسان لا يَستغني عنهم وإن كان ذا مال، وقد قالت الشعراء في هذا المعنى كثيراً، فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة:

إذَا المَرْءُ لم يَغْضَبْ لَهُ حين يَغْضَبُ ... فَوَارِسُ إن قيل ارْكَبُوا الموتَ يَرْكَبُوا
ولم يَحْبُه بالنّصْرِ قَوْمٌ أعِزّةٌ ... مَقَاحِيمُ فِي الأمْرِ الَّذِي يُتَهَيَّبُ
تَهَضّمَهُ أدْنَى العُدَاةِ فَلَمْ يَزَلْ ... وإنْ كان عِضًّا بالظّلامَةِ يُضْرَبُ
فَآخِ لحال السّلم مَنْ شِئْتَ واعْلَمَنْ ... بِأنْ سِوَى مَوْلاَكَ في الحَرْب أجْنَبُ
وَمَوْلاَكَ مَوْلاَكَ الَّذِي إنْ دَعَوْتَه ... أجَابَكَ طَوْعاً والدِّمَاء تَصَبَّبُ
فَلاَ تَخْذُلِ المَوْلَى وإنْ كان ظَالِماً ... فإنَّ بِهِ تُثْأَى الأمُورُ وتُرْأَبُ(٢)

ومن شعر الحماسة أيضاً:

أفِيقُوا بَنِي حَزْنٍ وأهْوَاؤُنَا مَعاً ... وَأرْحَامُنَا مَوْصُولَةٌ لَمْ تُقَضَّبِ(٣)
لَعَمْرِي لرهطُ المَرْءِ خَيْرُ بَقِيَّةٍ ... عَلَيْهِ وإنْ عالَوْا بِهِ كُلَّ مَرْكَبِ
إذا كُنْتَ في قوم وأمّك مِنْهُمُ ... لَتُعْزَى إليهمْ في خَبِيثٍ وَطَيِّبِ
وإنْ حَدّثَتْكَ النَّفْسُ أنّك قادِرٌ ... على مَا حَوَتْ أيْدِي الرِّجالِ فَكَذِّبِ

ومن شعر الحماسة أيضاً:

لَعمرُكَ ما أنْصَفْتَنِي حين سُمْتَنِي ... هَوَاكَ مَعَ المَوْلَى وأنْ لا هَوَى لِيَا
إذا ظُلِمَ المولى فَزِعْتُ لِظُلْمِهِ ... فحرّقَ أحشائِي وَهَرَّتْ كِلاَبِيَا(٤)

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٧٩٣٦).
(٢) تثأى الأمور: تفسد. اللسان، مادة (ثأي). وترأب: تصلح. اللسان، مادة (رأب).
(٣) القضب: القطع. القاموس، مادة (قضب).
(٤) هرير الكلب: صوته وهو دون النباح من قلة صبره على البرد. اللسان، مادة (هرر).

ومن شعر الحماسة أيضاً:

وَمَا كُنْتُ أَبْغِي العمَّ يَمْشِي على شفاً ... وإنْ بَلَغَتْنِي مِنْ أَذَاهُ الْجَنَادِعُ[1]

ولكنْ أَوَاسِيهِ وأنسَى ذُنُوبَهُ ... لِتَرْجِعَهُ يوماً إليَّ الرَّوَاجِعُ

وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلٍّ وسُوءِ صَنِيعَةٍ ... مُناواةُ ذِي القُرْبى وأنْ قِيلَ قاطِعُ

ومن شعر الحماسة أيضاً:

ألاَ هَلْ أَتَى الأنصارَ أنّ ابنَ بَحْدَلٍ ... حُمَيْداً شَفَى كَلْباً فَقَرَّتْ عيُونُهَا

فإنّا وَكَلْباً كالْيَدَيْنِ مَتى تَقَعْ ... شِمَالُكَ في الهيْجَا تُعِنْها يَمِينُها

ومن شعر الحماسة أيضاً:

أخوكَ أخُوكَ مَنْ يَنأى وَتَدْنُو ... مَوَدَّتُهُ وإنْ دُعِيَ اسْتَجابا

إذا حارَبْتَ حارَبَ مَنْ تُعادِي ... وَزَادَ عَنَاؤه مِنْكَ اقْتِرَابا

يُواسِي فِي كريهَتِهِ وَيَدْنُو ... إذَا ما مُضْلِعُ الْحَدَثانِ نَابَا

في الصدق والأريحية

ثم إنه عليه السلام ذكَر أنّ لسانَ الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورِّثه غيرَه. ولسانُ الصّدق هو أن يُذكَرَ الإنسانُ بالخير ويُثنَى عليه به، قال سبحانه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[2].

وقد ورد في هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قولُ عمر لابنة هَرِم: ما الذي أعطى أبوك زهيراً؟ أعطاه مالاً يَفْنى، وثياباً تَبْلى. قال، لكن ما أعطاكم زُهير لا يُبْليه الدّهر، ولا يُفْنِيه الزمان.

ومن شعر الحماسة أيضاً:

إذا أنْتَ أعْطِيتَ الغنى ثُمّ لم تَجُدْ ... بِفَضْلِ الْغِنَى أُلْفِيتَ مَالَكَ حامدُ

وقلَّ غَناءً عنك مالٌ جمعتَه ... إذا كان ميراثاً وواراكَ لاَحِدُ

وقال يزيد بن المهلّب: المال والحياة أحبُّ شيء إلى الإنسان، والثناءُ الحسَنُ أحبّ إليّ منهما، ولو أني أعطِيتُ ما لم يُعْطَهُ أحدٌ لأحببتُ أن يكون لي أُذُنٌ أسمع بها ما يقال فيّ غداً وقد مِتُّ كريماً.

---

(١) الجنادع: الواحدة جندعة، وهو مادبّ من الشر. اللسان، مادة (جندع).

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

وحكي أبو عثمان الجاحظ عن إبراهيم السنديّ، قال: قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجُوهها - كان لا يجفّ لِبْدُه ولا يستريح قَلمُه، ولا تسْكُن حركته في طلب حوائج الناس، وإدخال السرور على قلوبهم، والرِّفقِ على ضعفائهم، وكان عفيفَ الطُّعمة. خبِّرني عَمّا هَوّن عليك النَّصَبَ، وقَوّاكَ على التّعب؟ فقال: قد والله سمعتُ غِناء الأطيار بالأسحار، على أغصانِ الأشجار، وسمعتُ خَفْقَ الأوتارِ، وتجاوُبَ العُودِ والمِزْمار، فما طربتُ من صوتٍ قطّ طَرَبي من ثناء حَسَن على رجل محسِن، فقلت: لله أبوك! فلقد مُلِئت كَرَما.

وقال حاتم:

أمَـاوِيّ إنْ يُـصْـبِـحْ صَـدَايَ بِـقَـفْـرَةٍ ... مِـنَ ٱلأرْضِ لا مـاءٌ لـديّ ولا خَـمْـرُ
تَـرَيْ أنّ مـا أنـفـقـتُ لـم يـكُ ضَـرَّنِي ... وأنّ يـدي مـمـا بـخـلْـتُ بـه صِـفْـرُ
أماوِيّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِها الصَّدْرُ

بعض المحدثين:

مَـنِ اشْـتَـرَى بِـمـالِـهِ ... حُـسْـنَ الـثَّـنـاء غُـبِـنَـا
أفْـقَـرَهُ سَـمَـاحُـهُ ... وذلـك الـفـقـر الـغـنَـى

ومن أمثال الفرس: كلّ ما يُؤكل يتَن، وكلّ ما يُوهَب يأرَج[1].

وقال أبو الطيّب:

ذِكْرُ الـفَـتَـى عُـمْـرُه الـثّـاني وَحاجَـتُـهُ ... مـا قـاتَـهُ وَفُـضُـولُ الْـعَـيْـشِ أشْـغَـالُ

في صلة الرحم

ثم إنه عَلَيْتَلِلاً بعد أن قَرّظ الثناءَ والذِّكْر الجميل، وفضّله على المال، أمر بمواساة الأهل، وصلة الرحم، وإنْ قَلّ ما يواسي به، فقال: «ألا لا يعدِلَنّ أحدُكم عن القرابة...»، إلى آخر الفصل، وقد قال الناس في هذا المعنى فأكثروا.

فمن ذلك قول زهير:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

وقال عثمان: إنّ عمر كان يمنع أقرباءه ابتغاء وجه الله، وأنا أعطيتُهم ابتغاء وجه الله، ولن تروْا مثل عمر.

(١) الأرج: والأريج: توهج ريح الطيب. القاموس، مادة (أرج).

أبو هريرة مرفوعاً: «الرحِمُ مشتقّة من الرحمٰن، والرحمٰن اسم من أسماء الله العظمى، قال الله لها: من وصلك وصلتُه، وَمَنْ قطعك قطعته»(١).

وفي الحديث المشهور: «صلة الرحم تزيد في العمر»(٢).

وقال طَرَفة يهجو إنساناً بأنّه يصل الأباعد ويقطع الأقارب:

وأنتَ على الأدنى شَمالٌ عَرِيّةٌ ... شاميةٌ تَزْوِي الوجوه بليلُ(٣)
وأنتَ على الأقصى صَباً غَيْرُ قَرّةٍ ... تَذاءب مِنْها مَزْرَعٌ وَمَسِيلُ(٤)

ومن شعر الحماسة:

لَهُمْ جُلُّ مالي إنْ تَتابَعَ لي غِنًى ... وإنْ قَلَّ مَالي لا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا
وَلا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدا

٢٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الحث على قتال الخوارج

الأصل: **وَلَعَمْرِي ما عَلَيّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خالَفَ الْحَقَّ، وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إدْهَانٍ وَلا إيهَان. فَاتَّقُوا ٱللهَ عِبَادَ ٱللهِ، وَفِرُّوا إِلَى ٱللهِ مِنَ ٱللهِ، وَٱمْضُوا في الذِي نَهَجَهُ لَكُم، وقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعليٌّ ضَامِنٌ لِفَلجِكُمْ آجِلاً إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً.**

الشرح: الإدهان: المصانعة والمنافقة، قال سبحانه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

والإيهان: مصدر أوهنتُه، أي أضعفته، ويجوز وهنته، بحذف الهمزة. ونَهَجه: أوضَحه وجعلَه نَهْجاً، أي طريقاً بيّنا. وعَصَبه بكم: ناطه بكم وجعله كالعِصابة التي تشدّ بها الرأس. والفَلْج: الفوز والظفر.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب من وصل وصله الله (٥٩٨٨)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٤).

(٢) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: الأدب، باب: من بسط في الرزق بصلة الرحم (٥٩٨٥)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في تعليم النسب (١٩٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٨٦٥١).

(٣) الشمال: الريح التي تهب من ناحية القطب. اللسان، مادة (شمل).

(٤) الصبا: ريح ومهبها المستوي أن تهب من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، وهي تقابل الدبور. اللسان، مادة (صبو).

وقوله: «وخابط الغيّ» كأنّه جعله والغيّ متخابِطَيْن، يخبِط أحدهما في الآخر، وذلك أشدّ مبالغة من أن تقول: خَبَط في الغَيّ، لأنّ من يَخْبِط ويَخْبِطه غيره يكون أشدّ اضطراباً ممن يخبِط ولا يخبطه غَيْرُه. وقوله: «وفِرّوا إلى الله من الله»، أي اهربوا إلى رحمة الله من عذابه. وقد نظر الفرزدق إلى هذا فقال:

إلَـيْـكَ فَـرَرْتُ مِـنْـكَ وَمِـنْ زِيَـادٍ وَلَـمْ أَحْـسِـبْ دَمِـي لَـكُـمُ حَـلاَلاَ

٢٥ – ومن خطبة له عليه السلام وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْران، لمّا غلب عليهما بسر بن أرطاة، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بِتَثاقُل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي، فقال:

الأصل: مَا هِيَ إلاَّ الْكُوفَةُ أَقْبِضُهَا وَأَبْسُطُهَا، إنْ لَمْ يَكُنْ إلاّ أَنْتِ تَهُبُّ أَعَاصِيرُكِ فَقَبَّحَكِ ٱللهُ! وتمثل بقول الشاعر:

لَـعَـمْـرُ أَبِـيكَ الْـخَـيْـرِ يَـا عَـمْـرُو إنَّـنِـي عَـلَـى وَضَـرٍ مِـنْ ذَا الْإنَـاءِ قَـلِـيـلِ

ثم قال عليه السلام: أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ ٱطَّلَعَ اليَمَنَ، وَإني وَٱللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤلاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ باجْتِماعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إمَامَهُمْ في ٱلْبَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِم الأمَانَةَ إلى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاَحِهِمْ في بِلادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوِ ٱئْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاَقَتِهِ.

ٱللَّهُم إنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّوني، وسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُوني، فَأَبْدِلْني بِهِمْ خَيْراً مِنْهَمْ وَأَبْدِلْهُمْ بي شَرًّا مِنّي! ٱللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كما يُمَاثُ الْمِلْحُ في ٱلْمَاءِ. أَمَا وَٱللهِ لَوَدَدْتُ أَنَّ لي بِكُمْ أَلْفَ فارِسٍ مِنْ بَني فِرَاسِ بنِ غَنْمٍ:

هُـنَـالِـكَ لَـوْ دَعَـوْتَ أَتَـاكَ مِـنْـهُـمْ فَـوَارِسُ مِـثْـلُ أَرْمِـيَـةِ ٱلْـحَـمِـيـمِ

ثم نزل عليه السلام من المنبر: قال الرضي رحمه الله:

أقُولُ: الأرْمِيَةُ جمع رَمِيّ، وهو السحابُ. والحميمُ ها هنا: وقتُ الصَّيفِ، وإنما خصَّ الشاعر سحابَ الصيفِ بالذِّكر لأنه أشدُّ جفُولاً، وأسرعُ خُفُوقاً، لأنه لا ماءَ فيه، وإنما يكون

السحابُ ثَقِيلَ السَّيْرِ لامْتِلائِهِ بالماءِ، وذلك لا يكون في الأكثرِ إلا زمانَ الشّتاءِ، وإنما أراد الشاعر وصفَهُمْ بالسُّرْعةِ إذا دُعُوا، والإغاثةِ إذا آسْتُغِيثُوا، والدليل على ذلك قوله:

هُـنَـا لِـكَ لَـوْ دَعَـوْتَ أَتَـاكَ مِـنْـهُـمْ

الشرح: تواترت عليه الأخبار، مثل ترادفَتْ وتواصلت. ومن الناس من يطعَن في هذا، ويقول: التواتر لا يكونُ إلا مع فترات بين أوقات الإتيان، ومنه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾(١)، ليس المراد أنهم مترادفون، بل بين كلّ نبيّيْن فترة، قالوا: وأصل «تترى» من الواو، واشتقاقها من «الوِتر»، وهو الفرد: وعدّوا هذا الموضع مما تغلَط فيه الخاصة.

من أخبار معاوية بن أبي سفيان

ومعاوية هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صَخْر بن حَرْب بن أميّة بن عَبْد شمس بن عبد مناف بن قُصَيّ.

وأمُّه هِنْد بنت عُتْبة بن رَبِيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصيّ. وهي أم أخيه عُتْبة بن أبي سفيان. فأما يَزيد بن أبي سفيان، ومحمد بن أبي سفيان، وَعَنْبسة بن أبي سُفْيان، وحَنْظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن أبي سُفْيان، فمن أمّهات شتى.

وأبو سفيان هو الذي قاد قُرِيشاً في حُرُوبها إلى النّبي ﷺ، وهو رئيس بني عبد شمس بعد قَتْل عُتْبة بن ربيعة بِبَدْر، ذاك صاحب العِير، وهذا صاحب النّفير، وبهما يضرب المثل، فيقال للخامل: «لا في العير ولا في النفير».

وروى الزُّبَيْر بن بَكّار أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيّام عبد الملك، فقال: لقد هممتُ اليوم يا أخي أن أفتِكَ بالوليد بن عبد الملك، قال: بئسما هَمَمْتَ به في ابن أمير المؤمنين، وولّيّ عهد المسلمين! فما ذاك؟ قال: إنّ خيلي مرّت به فعبِثَ بها وأصغرني، فقال خالد: أنا أكفيك، فدخل على عبد الملك والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الوليد مرّت به خيل ابن عَمّه عبد الله، فعبث بها وأصغره - وكان عبدُ الملك مطرِقاً -، فرفع رأسه، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٢)، فقال خالد: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾(٣)، فقال عبد الملك: أفي عبدِ الله تكلّمني! والله لقد دخل أمس عليّ فما أقام لسانَه

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤٤.
(٢) سورة النمل، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

لحناً! قال خالد: أفعَلَى الْوليد تعوّل يا أمير المؤمنين! قال عبد الملك: إن كانَ الوليدُ يلحن فإنّ أخاه سليمان لا. فقال خالد: وإن كان عبدُ الله يلحَن، فإنّ أخاه خالداً لا، فالتفت الوليدُ إلى خالد وقال له: اسكتْ ويحَكَ! فوالله ما تُعَدّ في العير ولا في النَّفِير، فقال: اسمع يا أميرَ المؤمنين، ثم التفت إلى الوليد، فقال له: وَيْحكَ! فمن صاحبُ العِير والنّفير غيرُ جدّيَّ أبي سفيان صَاحبِ العير، وجدِّي عُتْبَةَ صاحب النفير! ولكن لو قلت: غُنَيْمات وحُبَيْلات والطائف، ورحم الله عثمان»، لقلنا: صَدَقْت.

وهذا مِنَ الكلام المستَحْسَن، والألفاظ الفصيحة، والجوابات المسكتة، وإنما كان أبو سُفْيان صاحبَ العِير، لأنّه هو الذي قدِم بالعيرِ التي رام رسول الله ﷺ وأصحابه أن يعترضوها، وكانت قادمةً من الشام إلى مكة تحمل العِطْر والبُرّ، فنذِر بهم أبو سفيان، فضرب وجُوه العِير إلى البحر، فساحَل بها حتى أنقذها منهم، وكانتْ وقعة بدر العظمى لأجلها، لأن قريشاً أتاهم النذير بحالها، وبخروج النبي صلى الله عليه وآله بأصحابه من المدينة في طلبها، لينفروا، وكان رئيسُ الجيش النافر لحمايتها عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس جدّ معاوية لأمه.

وأما «غُنيمات وحُبَيْلات. . .» إلى آخر الكلام، فإنّ رسول الله ﷺ لما طرد الحكَم ابْنَ أبي العاص إلى الطائف لأمور نَقَمَها عليه، أقام بالطّائف في حُبْلة ابتاعها - وهي الكَرْمة - وكان يرعى غُنَيْمات اتخذها، يشرب من لبنها. فلما وَلِيَ أبو بكر، شفع إليه عثمان في أنْ يَرُدَّه، فلم يفعل، فلما وليَ عمر شفَع إليه أيضاً فلم يَفْعل، فلما وَلِيَ هو الأمر ردّه. والحكَم جَدُّ عبد الملك، فعيّرهم خالد بن يزيد به.

وبنو أمية صِنْفان: الأعياص والعنابس، فالأعياص: العاص، وأبو العاص، والعِيص، وأبو العِيص، والعَنَابس: حرب، وأبو حرب، وسفيان، وأبو سفيان. فبنو مروانَ وعثمان من الأعْياص، ومعاوية وابنه من العَنابسَ، ولكلّ واحد من الصِّنفين المذكورين وشيعتهم كلام طويل، واختلاف شديد في تفضيل بعضهم على بعض.

وكانت هند تذكر في مكة بفجور وعُهْر(١).

---

(١) أورد المفسرون في كلامهم عن تفسير آية بيعة النساء من سورة الممتحنة عند قوله: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قولها متعجبة سبحان الله وهل تزني الحرة؟! فلا يذهبن الخلاف السياسي بنا إلى حد قبول روايات واهية لأنها توافق هو أنا في ذم خصومنا فهذا يبعدنا عن الموضوعية.

وقال الزمخشري في كتاب «ربيع الأبرار»(١): كان معاوية يُعْزى إلى أربعة: إلى مسافر بن أبي عمرو، وإلى عُمارة بن الوليد بن المغيرة، وإلى العباس بن عبد المطلب، وإلى الصبّاح، مُغنٍّ كان لعُمارة بن الوليد. قال: وقد كان أبو سفيان دَمِيماً قصيراً، وكان الصبّاح عَسِيفاً(٢) لأبي سفيان، شابًا وسيماً، فدعته هند إلى نفسها فغشِيَها.

وقالوا: إنّ عُتْبة بن أبي سفيان من الصبّاح أيضاً، وقالوا: إنها كرهت أن تَضعه في منزلها، فخرجت إلى أَجْيَاد، فوضعته هناك. وفي هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجاة بين المسلمين والمشركين في حياة رسول الله ﷺ قبل عام الفتح:

لِمَنِ الصَّبِيّ بِجانب البَطْحا ... في التُّرْبِ مُلْقًى غَيْرَ ذي مَهْدِ

نَجَلَتْ بِهِ بَيْضَاءُ آنِسَةٌ ... مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ صَلْتَةُ الْخَدِّ

والذين نزّهوا هنداً عن هذا القذف رووا غير هذا. فروى أبو عُبيدة معمر بن المثنّى أن هنداً كانت تحت الفاكه بن المغيرة المخزوميّ، وكان له بيتُ ضيافة يَغْشاه النّاس، فيدخلونه من غير إذْن، فخلا ذلك البيتُ يوماً، فاضطجع فيه الفاكه وهند، ثم قام الفاكه وترك هنداً في البيت لأمر عرض له، ثم عاد إلى البيت، فإذا رجل قد خرج من البيت، فأقبل إلى هند فرَكَلَها برجله، وقال: مَنِ الّذي كان عندكِ؟ فقالت: لم يكن عندي أحد، وإنما كنت نائمة. فقال: الحقِي بأهلك، فقامت من فورها إلى أهلها، فتكلّم الناس في ذلك، فقال لها عُتْبة أبوها: يا بنيّة، إنّ الناس قد أكثروا في أمرك، فأخبريني بقصتك على الصحة، فإن كان لكِ ذنب دسستُ إلى الفاكه مَنْ يقتله، فتنقطع عنك القالة. فحلفتْ أنها لا تعرف لنفسها جُرْما، وإنه لكاذب عليها. فقال عتبة للفاكه: إنك قد رميتَ ابنتي بأمر عظيم، فهل لك أن تحاكِمَني إلى بعض الكهنة؟ فخرج الفاكِه في جماعة من بني مخزوم، وخرج عُتْبة في جماعة من بني عبد مناف، وأخرج معه هنداً ونسوة معها، فلما شارفوا بلادَ الكاهن تغيَّرت حالُ هند، وتنكّر أمرها، واختطف لونُها. فرأى ذلك أبوها، فقال لها: إني أرى ما بكِ، وما ذاك إلا لمكروه عندك! فهلاّ كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرُنا! قالت: يا أبتِ، إنّ الذي رأيتَ مني ليس لمكروه عندي، ولكني أعلم أنّكم تأتون بَشراً يخطيء ويصيب، ولا آمن أن يَسِمني مِيَسماً يكون عليّ عاراً عند نساء مكة. قال لها: فإني سأمتحنه قبل المسألة بأمر. ثم صَفَر بفرس له فأدلى، ثم أخذ حَبّة بُرٍّ فأدخلها في إحليله، وشدّه بسير وتركه، حتى إذا وردوا على الكاهن أكرمَهم ونحر لهم، فقال عتبة: إنا قد جئناك لأمر، وقد خبأتُ لك خبيئاً أختبِرُك به، فانظر ما هو؟ فقال: ثمرة في كَمَرة، فقال: أبْيَنُ

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار في المحاضرات»: لأبي القاسم محمود بن عمر جار الله العلامة الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ). «كشف الظنون» (٨٣٢٨).

(٢) العسيف: العبد والأجير. اللسان، مادة (عسف).

من هذا، قال: حَبّة بُرّ، في إحليل مهر، قال: صدقت، انظر الآن في أمر هؤلاء النسوة. فجعل يدنُو من واحدة واحدة منهنّ، ويقول: انهضي، حتى صار إلى هند، فضرب على كَتفها، وقال: انهضي غيرَ رَقْحاء ولا زانية، ولتلدِنّ مَلِكاً يقال له معاوية. فوثب إليها الفاكِه، فأخذها بيده وقال: قومي إلى بيتك، فَجذبت يدَها من يده، وقالت: إليكَ عنّي، فوالله لا كان منك، ولا كان إلا من غيرك! فتزوجها أبو سفيان بن حرب.

الرقحاء: البغيّ التي تكتسِب بالفجور، والرِّقاحة: التجارة.

ووليَ معاوية اثنتين وأربعين سنة منها اثنتان وعشرون سنة وليَ فيها إمارَة الشام منذ مات أخوه يزيد بْنُ أبي سفيان، بعد خمس سنين من خلافة عمر، إلى أن قتل أمير المؤمنين علي عليه السلام في سنة أربعين. ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات في سنة ستين.

ومرّ به إنسان وهو غلام يلعب مع الغلمان، فقال: إني أظنّ هذا الغلام سيسودُ قومَه، فقالت هند: ثَكِلْتُه إن كان لا يسود إلا قومَه!

ولم يزل معاويةُ ذا همّة عالية، يطلب معالَي الأمور، ويرشّح نفسَه للرياسة، وكان أحدَ كتّاب رسول الله صلى الله عليه وآله. واختُلف في كتابته له كيف كانَتْ، فالّذي عليه المحقّقون من أهل السيرة أنّ الوحيَ كان يكتبه عليّ عليه السلام وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وأن حنظلة بن الربيع التيميّ ومعاوية بْنُ أبي سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل، ويكتبان حوائجه بين يديه، ويكتبان ما يُجْبَى من أموال الصدقات وما يُقْسَم في أربابها.

وكان معاوية على أسّ(١) الدهر مُبغِضاً لعليّ عليه السلام، شديد الانحراف عنه، وكيف لا يُبغضه وقد قتل أخاه حَنْظلة يوم بدر، وخالَه الوليد بن عتبة، وشرِكَ عمّه في جده وَهو عُتْبة - أو في عمه، وهو شيبة، على اختلاف الرواية - وقتل من بني عمه عبد شمس نفراً كثيراً من أعيانهم وأماثلهم، ثم جَاءت الطامّة الكبرى واقعة عثمان، فنسبها كلّها إليه بشبهة إمساكه عنه، وانضواء كثير من قَتَلته إليه عليه السلام، فتأكّدت البِغْضة، وثارت الأحقاد، وتذكّرت تلك التِّرات(٢) الأولى، حتى أفضى الأمرُ إلى ما أفْضى إليه.

وقد كان معاوية، مع عِظَم قَدْرِ عليّ عليه السلام في النفوس، واعترافِ العرب بشجاعته، وأنّه

---

(١) الأسّ: أصل البناء، وأصل كل شيء، وكان ذلك على أسّ الدهر: أي على قدمه ووجهه. القاموس. مادة (أسس).

(٢) الترات: جمع ترة، وهي الثأر أو الظلم فيه. القاموس، مادة (وتر).

البطل الذي لا يُقامُ له، يتهدده - وعثمان بعدُ حيّ - بالحرب والمنابذة، ويراسله من الشام رسائلَ خشنة، حتى قال له في وجهه ما رواه أبو هلال العسكري في كتاب «الأوائل»(١)، قال:

قدم معاوية المدينة قدمة أيام عُثْمان في أواخر خلافته، فجلس عثمان يوماً للناس، فاعتذر من أمور نُقِمَتْ عليه، فقال: إن رسول الله ﷺ قَبِل توبة الكافر، وإني رددتُ الحَكَم عَمّي لأنه تاب، فقبِلت توبتَه، ولو كان بينه وبين أبي بكر وعمر من الرَّحم ما بيني وبينه لآوياه. فأمّا ما نقَمتم عليَّ أنّي أعطيتُ من مال الله، فإنّ الأمر إليّ، أحكُم في هذا المال بما أراه صلاحاً للأمة، وإلا فلماذا كنت خليفة! فقطع عليه الكلامَ معاوية وقال للمسلمين الحاضرين عنده: أيّها المهاجِرون، قد علمتم أنّه ليس منكم رجل إلاّ وقد كان قبل الإسلام مغموراً في قومه، تُقطعُ الأمور من دونه، حتى بعث الله رسوله فسبقتم إليه، وأبطأ عنه أهلُ الشرف والرياسة، فسُدْتُم بالسّبق لا بغيره، حتى إنه ليقال اليوم: رهط فلان، وآل فلان، ولم يكونوا قبلُ شيئاً مذكوراً، وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم، فإنْ تركتم شيخنا هذا يموت على فِراشه وإلا خرج منكم، ولا ينفعكم سبقُكم وهجرتكم.

فقال له عليّ عليه السلام: ما أنت وهذا يا ابن اللَّخْناء! فقال معاوية: مهلاً يا أبا الحسن عن ذكر أمّي، فما كانت بأخسّ نسائكم، ولقد صافحها رسول الله ﷺ يوم أسلَمَتْ ولم يصافح امرأةً غيرَها(٢)، أما لو قالها غيرُك! فنهض عليّ عليه السلام ليخرج مُغْضَباً، فقال عثمان: اجلس، فقال له: لا أجلس، فقال: عزمت عليكَ لتجلسنّ، فأبى وولّى، فأخذ عُثمان طرفَ ردائه فَترك الرداء في يده وخرج، فأتبعه عثمان بصرَه، فقال: والله لا تصِلُ إليك ولا إلى أحد من ولدك.

قال أسامة بن زيد: كُنتُ حاضراً هذا المجلس، فعجبْتُ في نفسي من تألّي عثمان، فذكرته لسعد بْنُ أبي وقّاص، فقال: لا تعجب، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينالُها عليّ ولا ولده»(٣).

قال أسامة: فإنّي في الغد لَفِي المسجد، وعليّ وطلحة والزبير وجماعة من المهاجرين جُلوس، إذ جاء معاوية، فتآمروا بينهم ألاّ يوسّعوا له، فجاء حتى جلس بين أيديهم، فقال: أتدرون لماذا جئت؟ قالوا: لا، قال: إني أقسِم بالله إن لم تتركوا شيخَكم يموت على فراشه لا أعطيكم إلا هذا السيف! ثم قام فخرج.

---

(١) الأوائل: لأبي هلال حسن بن عبد الله العسكري، المتوفي سنة (٣٩٥هـ)، وهو أول من صنف فيه. «كشف الظنون» (١/ ١٩٩).
(٢) الوارد أنه ﷺ يوم البيعة النساء قال: «لا أصافح النساء» فيمكن أنه صافحها من وراء الثوب.
(٣) لم أجده.

فقال عليّ عليه السلام: لقد كنت أحسِب أنّ عند هذا شيئاً، فقال له طلحة: وأيّ شيء يكون عنده أعظم مما قال! قاتله الله! لقد رَمَى الْغَرَض فأصاب، والله ما سمعتَ يا أبا الحسن كلمةً هي أملأ لصدرك منها.

ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا رحمهم الله، يُرْمى بالزندقة.

وقد ذكرنا في نقض «السفيانية» على شيخنا أبي عثمان الجاحظ ما رواه أصحابه في كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد والتعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله، وما تظاهر به من الجبر والإرجاء، ولو لم يكن شيء من ذلك، لكان في محاربته الإمام ما يكفي في فساد حاله، لاسيما على قواعد أصحابنا، وكونهم بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار والخلود فيها إن لم تكفرها التوبة.

بسر بن أرطاة ونسبه

وأمّا بُسْر بن أرطاة، فهو بُسر بن أرطاة - وقيل ابن أبي أرطاة - بن عويمر بن عمران بن الحُلَيس بن سيّار بن نزار بن معِيص بن عامر بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

بعثَه معاوية إلى اليمن في جيش كثيف، وأمره أن يقتل كلَّ مَنْ كان في طاعة عليّ عليه السلام، فقتل خلْقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابنيْ عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكانا غلامين صغيريْن، فقالت أمهما ترثيهما.

يا مَنْ أحَسّ بُنَيَّيّ اللّذَيْن هُمَا كالدرتين تَشَظّى عَنهُمَا الصَدَفُ

في أبيات مشهورة.

اخبار عبيد الله بن العباس

وكان عبيد الله عاملَ عليّ عليه السلام على اليمن، وهو عبيد الله بن العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ. أمه وأم إخوته عبد الله وقُثَم ومعبد وعبد الرحمن، لبابة بنت الحارث بن حَزْن، من بني عامر بن صعصعة. ومات عبيد الله بالمدينة، وكان جواداً، وأعقب، ومن أولاده: قُثَم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ولاّه أبو جعفر المنصور المدينة، وكان جواداً ممدوحاً، وله يقول ابن المولَى:

أُغفِيتِ مِنْ كُورٍ وَمِنْ رِحْلَةٍ يا ناقُ إنْ أدنَيْتِنِي مِنْ قُثَمْ

فِي وَجْهِهِ نورٌ وفي باعِهِ طُولٌ وفي العِرْنِينِ مِنْهُ شَمَمْ

ويقال: ما رُئي قبور إخوة أكثر تباعُداً من قبور بني العباس رحمه الله تعالى: قبر عبد الله

بالطائف، وقبر عبيد الله بالمدينة، وقبر قُثَم بسمَرْقَنْد، وقبر عبد الرحمن بالشام، وقبر مَعْبد بإفريقيَة.

ثم نعود إلى شرح الخطبة:

الأعاصير: جمع إعصار، وهي الريح المستديرة على نفسها، قال الله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾(١).

والوضَرُ: بقيّة الدَّسَم في الإناء. وقد اطّلع اليمن، أي غشِيَهَا وغزاها وأغار عليها.

وقوله: سَيُدالون منكم»، أي يَغْلُبونكم وتكون لهم الدولة عليكم. وماث زيد الملح في الماء: أذابه.

وبنو فِراس بن غَنْمْ بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حيٌّ مشهور بالشجاعة، منهم علقمة بن فِراس، وهو جِذْل الطِّعان. ومنهم رَبيعة بن مكدَّم بن حُرْثان بن جَذِيمة بن علقمة بن فِراس، الشجاع المشهور، حامي الظُّعُن حيًّا وميتاً، ولم يحم الحريم وهو ميت أحدٌ غيره، عرضَ له فُرْسان من بني سُلَيم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وَحْدَه، فطاعنهم، فرماه نُبَيْشَة بن حبيب بسَهْم أصاب قَلْبه، فنصب رمحه في الأرض. واعتمد عليه وهو ثابت في سَرْجه لم يَزُلْ ولم يمل. وأشار إلى الظعائن بالرّواح، فسِرْن حتى بَلَغْنَ بيوت الحيّ، وبنو سُليم قِيام إزاءَه لا يُقْدِمون عليه، ويظنونه حَيًّا، حتى قال قائل منهم: إني لا أراه إلاّ ميتاً ولو كان حيًّا لتحرك، إنّه والله لماثل راتب علي هيئة واحدة، لا يرفع يَده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدِم أحد منهم على الدنوّ منه، حتى رموْا فرسَه بسهم، فشبّ من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الظعائن.

وقال الشاعر:

لاَ يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةُ بنُ مُكَدَّمٍ ... وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذَنُوبِ(٢)

نَفَرَتْ قَلُوصِي مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ ٱلْيَدَيْنِ وَهُوبِ

لاَ تَنْفِري يَا نَاقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ ... شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُروبِ

لَوْلاَ السِّفَارُ وَبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ ... لتركتُهَا تَجْثُو عَلَى ٱلْعُرْقُوبِ

نِعْمَ ٱلْفَتَى أدّى نُبَيْشَةُ بِزَّهُ ... يَوْمَ ٱللِّقاءِ نُبيشةُ بن حَبيبِ

وقوله عليه السلام: «ما هيَ إلا الكوفة»، أي ما مَلْكَتِي إلا الكوفة. أقبضها وأبسطها، أي أتصرّف فيها كما يتصرّف الإنسان في ثوبه، يقبضه ويبسطه كما يريد.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

(٢) الذَّنوب: الدّلو. القاموس، مادة (ذنب).

ثم قال على طريق صرف الخِطاب: «فإن لم تكوني إلا أنت»، خرج من الغَيْبة إلى خطاب الحاضر، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾(1) يقول: إن لم يكنْ لي من الدنيا مُلْك إلا مُلْك الكوفةِ ذاتِ الفِتن، والآراءِ المختلفة، فأبعدها الله!

وشبّه ما كان يحدُث من أهلها من الاختلاف والشِّقاق بالأعاصير، لإثارتها التراب وإفسادها الأرض. ثم ذكر عِلّة إدالة أهل الشام من أهل العراق، وهي اجتماعُ كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم، وأداؤهم الأمانة وإصلاحهم بلادهم.

عصيان أهل العراق على الأمراء

وقال أبو عثمان الجاحظ: العِلّة في عِصْيانِ أهلِ العراق على الأُمراء وطاعة أهل الشام أنّ أهلَ العراق أهلُ نظرٍ وذوو فِطَن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبَحْث يكون الطعن والقَدْح والترجيحُ بين الرجال، والتمييزُ بين الرؤساء، وإظهارُ عيوب الأمراء. وأهلُ الشام ذَوُو بلادة وتقليدٍ وجمود على رأي واحد، لا يروْن النظر، ولا يسألون عن مغيَّب الأحوال.

وما زال العراق موصوفاً أهلُه بقلّة الطاعة، وبالشقاق على أولي الرئاسة.

ومن كلام الحجّاج:

يا أهلَ العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساويء الأخلاق! أمَا والله لألحُوَنَّكُمْ لَحْوَ العصا، ولأعْصِبَنّكُمْ عَصْبَ السَّلَم، ولأضرِبَنّكُمْ ضَرْب غرائب الإبل، إنّي أسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يُراد به الترغيب، ولكنّه تكبير التّرْهيب. ألاَ إنّها عجاجة تَحْتَها قَصْفٌ، يا بني اللَّكِيعة، وعبيدَ العصا، وأبناء الإماء! إنّما مَثَلِي وَمَثَلُكم كما قال ابنُ بَرّاقة:

وَكُنْتُ إذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ ... فَهَلْ أنَا فِي ذَا يَالَهَمْدَانَ ظَالِمُ!

مَتَى تَجْمَعِ ٱلْقَلْبَ ٱلذَّكِيَّ وَصَارِماً ... وَأَنْفاً حَمِيًّا تَجْتَنِبكَ ٱلْمَظَالِمُ

والله لا تَقْرَع عَصاً عَصاً إلا جعلتها كأمْسِ الذّاهب.

وكانت هذه الخطبة عَقيب سماعه تكبيراً مُنكَراً في شوارع الكوفة، فأشفق من الفتنة.

---

(1) سورة الفاتحة، الآيات: ٢ - ٥.

ومما خطب به في ذم أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم(١):

يا أهلَ العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، إنّ الشيطان اسْتَبْطَنَكُم، فخالط اللّحم والدم. والعَصَب، والمسامع والأطراف والأعضاء والشّغاف، ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصْماخ، ثم ارتفع فعشّش، ثم باض ففرّخ، فحشاكُمْ نِفاقاً وشقاقاً، وملأكُمْ غَدْراً وخلافاً، اتخذتموه دليلاً تَتّبعُونه، وقائداً تُطِيعونه، ومؤامَراً تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظُكم وَاقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يعصمكم ميثاق! أَلَسْتُم أصحابي بالأهواز، حيث رُمْتُم المكْر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أنَّ الله يخذُل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرْفي، وأنتم تتسلّلون لِواذاً(٢)، وتنهزمون سراعاً! ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية! بها كان فشَلُكم وكَسَلُكم وتخاذُلُكم وتنازُعكم، وبراءةُ اللهِ منكم، ونكُولُ وليّكم عنكم، إِذْ وَلّيْتُم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النّوازع إلى أعْطانها(٣)، لا يسأل المرءُ عن أخيه، ولا يَلْوِي الأبُ على بنيه لمّا عضّكم السِّلاح، وقَصَمَتْكُمْ الرماح. ثم يوم دَيْر الجماجم، وما يوم دَيْر الجماجم! بها كانت المعارك والملاحم، بِضَرْبٍ يزيل الهامَ(٤) عَنْ مقيله، ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليله.

يا أهلَ العِراق، يا أهلَ الشّقاق والنّفاق! الكَفَرات بعد الفَجَرات، والغَدَرات بعد الخَتَرَات(٥)، والنَّزوة بعد النَّزَوَات! إن بعثتكم إلى ثغوركم غَلَلْتُم وخُنْتُم، وإن أَمِنْتُم أَرْجَفْتُم، وإن خِفْتُم نافقتم. لا تذكُرون حَسَنة، ولا تَشْكُرون نعمة.

هل اسْتَخَفّكُم ناكث، أو اسْتَغْوَاكُم غاو، أو استفزّكم عاص، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع إلا اتّبعتموه وآويتموه، ونصرتموه وزكّيتموه!

يا أهلَ العِراق، هل شغبَ شاغب، أو نعبَ ناعب، أو زَفَر كاذب، إلاّ كُنْتُم أشياعه وأتباعه، وحماتَه وأنصاره!

يا أهل العراق، ألم تزجرْكم المواعظ! ألم تُنَبِّهْكم الوقائع! ألم تردغكم الحوادث! ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر، فقال:

---

(١) وقعة دير الجماجم، بين الحجاج وابن الأشعث، ودير الجماجم بظاهر الكونة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك إلى البصرة، وإنما سميت بهذا الاسم لأن بني تميم وذبيان لما واقعت بني عامر وانتصرت بنو عامر وكثر القتلى في بني تميم بنوا بجماجمهم هذا الدير شكلاً على ظفرهم «معجم البلدان» (٢/ ٥٠٤).

(٢) تتسللون لواذاً: أي يلوذ بعضكم ببعض ويستتر. اللسان، مادة (لوذ).

(٣) الأعطان: جمع عطن، وهو مبرك الإبل حول الحوض. اللسان، مادة (عطن).

(٤) الهام: جمع هامة وهي الرأس. اللسان، مادة (هوم).

(٥) الختر: شبيه بالخديعة والغدر، وقيل: هو أسوأ الغدر وأقبحه. اللسان، مادة (ختر).

يا أهلَ الشام: إنما أنا لكم كالظَّليم الرامح عن فِراخه، ينفي عنها القَذَر ويباعد عنها الحجَر، ويُكِنّها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرُسها من الذئاب!

يا أهل الشام، أنتم الجُنَّةُ والرداء، وأنتم العُدّة والحذاء.

ثم نزل.

ومن خطبة له في هذا المعنى وقد أراد الحجّ:

يا أهل الكوفة، إنّي أريد الحجَّ وقد استخلفتُ عليكم ابني محمداً، وأوصيته بخلاف وصية رسول الله ﷺ في الأنصار، فإنه أمر أن يقبلَ من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، وإني قد أوصيتُه إلاّ يقبلَ من مُحْسِنكم، ولا يتجاوزَ عن مُسيئكمْ. ألا وإنّكُمْ سَتقولون بعدي: لا أَحْسَنَ الله لَهُ الصَّحَابة! ألا وإنّي مُعَجِّلٌ لَكُم الجواب: لاَ أَحْسَنَ الله لكُم ٱلْخِلاَفَةَ!

ومن خطبة له في هذا المعنى:

يا أهل الكوفة، إن الفتنة تُلْقَحُ بالنَّجْوى، وتُنْتَجُ بالشكْوى، وتُحْصَدُ بِالسّيفِ، أما والله إن أبغضتموني لا تضرُّوني، وإن أحببتموني لا تنفعوني! وما أنا بالمستوحِش لعداوتكم، ولا المستريحِ إلى مودتكم، زعمتم أني ساحر وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾(١)، وقد أفلحتُ. وزَعَمتم أني أعلَمُ الاسمَ الأكبر، فلمَ تقاتلون مَنْ يعلم ما لا تعلمون!

ثم التفت إلى أهل الشام فقال:

لَأزواجُكُمْ أطيبُ من المِسْك، ولَأبناؤكُم آنسُ بالقلب من الولد، وما أنتمَ إلا كما قال أخو ذُبيان:

إذا حَـاوَلْـتَ فـي أَسَـدٍ فـجـوراً ... فـإنّـي لَـسْـتُ مِـنْـكَ وَلَـسْـتَ مِـنّـي
هُـمُ دِرْعِـي الَّـتِـي اسـتـلأْمْـتُ فـيـهَـا ... إلـى يـومِ الـنِّـسَـارِ وَهُـمْ مِـجـنِّـي

ثم قال:

بلْ أنتم يا أهل الشام، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾(٢).

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١٧١- ١٧٣.

وخطب مرة بعد موت أخيه وابنه قال:

بلغني أنكُمْ تَقُولُون: يموتُ الحجاج، ومات الحجاج! فَمَهْ! وما كان ماذا! والله ما أرجو الخيرَ كلّه إلا بعد الموت! وما رضِيَ الله البقاءَ إلاّ لأهونِ المخلوقينَ عليه إبليس، ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝﴾[1]. ثم قال: يا أهل العراق، أتيتُكُمْ وأنا ذو لِمَّةٍ وافرة أرْفُلُ فيها، فما زال بي شِقَاقُكُمْ وعصيانُكُمْ حتى حَصّ شعري. ثم كشف رأسه وهو أصلع، وقال:

مَــنْ يَــكُ ذا لِــمَّــةٍ يُــكَــشِّــفُــهَــا ... فــإنّــنِــي غَــيْــرُ ضَــائِــرِي زَعَــرِي[2]

لا يــمــنــع الــمــرءَ أن يــســودَ وأنْ ... يــضــرب بــالــسّــيــف - قِــلّــةُ الــشَّــعَــرِ

فأمّا قوله عليه السلام: «اللّهمّ أبدِلني بهمْ خيراً منهم، وأبْدِلهم بي شرًّا مِنّي»، ولا خيْرَ فيهم ولا شرَّ فيه عليه السلام، فإن «أفعل» ها هنا بمنزلته في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3]، وبمنزلته في قوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾[4].

ويحتمل أن يكون الذي تمنّاه عليه السلام من إبداله بهم خيراً منهم قوماً صالحين ينصرونه ويوفّقون لطاعته.

ويحتمل أن يريد بذلك ما بعد الموت من مرافقة النبي صلى الله عليه وآله.

وقال القطبُ الراونديّ: بنو فراس بن غَنم هم الروم. وليس بجيّد، والصحيح ما ذكرناه.

والبيت المتمثّل به أخيراً لأبي جُنْدَب الهذلي، وأول الأبيات:

ألا يــا أمَّ زِنْــبَــاعٍ أقِــيــمِــي ... صُــدُورَ الْــعِــيــسِ نَــحْــو بــنــي تَــمِــيــم

وهذه الخطبة، خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد فراغه من صفين، وانقضاء أمر الحكمين والخوارج، وهي من أواخر خطبه عليه السلام.

تم الجزء الأول من شرح نهج البلاغة بحمد الله ومنّه،

والحمد لله وحده العزيز، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) الزَّعَرُ: قلة الشعر. اللسان، مادة (زعر).

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ١٥.

شرح نهج البلاغة

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تسريح بسر بن ارطأة إلى الحجاز

فأمّا خبرُ بُسْرِ بن أرطاة العامريّ، من بني عامر بن لؤي بن غالب، وبَعْثُ معاوية له ليُغير على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، وما عَمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذي هاج معاوية على تسريح بُسْر بن أرطاة - ويقال ابن أبي أرْطاة - إلى الحجاز واليمن، أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يُعْظِمون قتلَه، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلّي عليه السلام على ما في أنفسهم، وعاملُ عليّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عُبيد الله بن عباس وعامله على الجند سعيد بن نِمْران.

فلمّا اختلف الناسُ على عليّ عليه السلام بالعِراق، وقُتِل محمد بن أبي بكْر بمصر، وكَثُرتْ غاراتُ أهلِ الشام، تكلّموا ودعوْا إلى الطلّب بدم عثمان، فبلغ ذلك عُبيدَ الله بن عبّاس، فأرسل إلى ناسٍ من وجوههم، فقال: ما هذا الذي بلغني عنكم؟ قالوا: إنّا لم نَزَلْ نُنْكر قتل عثمان، ونرى مُجاهدة من سَعَى عليه. فحبسهم، فكتبوا إلى مَن بالجَنَد من أصحابهم، فثاروا بسعيد بن نِمْران، فأخرجوه من الجَنَد، وأظهروا أمرَهم، وخرج إليهم مَنْ كان بصَنْعاء، وانضمّ إليهم كلّ مَنْ كان على رأيهم، ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم، إرادةَ أن يمنعوا الصدّقة، والتقى عُبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْرًن، ومعهما شيعة عليّ عليه السلام، فقال ابنُ عباس لابن نِمْران: والله لقد اجتمع هؤلاء، وإنهم لنا لمقاربون، وإن قاتلناهم لا نعلم على مَنْ تكون الدائرة، فهَلُمَّ لنكتبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام بخبرهم وقَدْحهم، وبمنزلهم الذي هُم به.

فكتبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أمّا بعدُ فإنّا نخبر أمير المؤمنين، أنّ شيعةَ عثمان وثبوا بنا، وأظهروا أنّ معاوية قد شَيَّد أمرَه، واتسق له أكثرُ الناس، وأنّا سِرْنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومَنْ كان على طاعته، وأنّ ذلك أحْمَشَهم وألّبهم، فعبّؤوا لنا، وتداعَوْا علينا مِن كلّ أوْب، ونصرَهم علينا مَنْ لم يكن له رأي فيهم، إرادةَ أن يمنَع حقَّ الله المفروضَ عليه، وليس يمنعُنا من مُناجزتهم إلا انتظارُ أمرِ أمير المؤمنين، أدام الله عزّه وأيّده، وقضى له بالأقدار الصالحة في جميع أموره. والسّلام.

فلما وصل كتابهما، ساء عليًّا عليه السلام وأغضبه، وكتب إليهما:

من عليّ أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران: سلامٌ الله عليكما، فإني أحمَدُ إليكما الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد، فإنّه أتاني كتابُكما تذكُران فيه خروجَ هذه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تسريح بسر بن ارطأة إلى الحجاز

فأمّا خبرُ بُسْرِ بن أرطاة العامريّ، من بني عامر بن لؤي بن غالب، وبَعْثُ معاوية له ليُغيرَ على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، وما عَمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذي هاج معاوية على تسريح بُسْر بن أرطاة - ويقال ابن أبي أرْطاة - إلى الحجاز واليمن، أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يُعْظِمون قتلَه، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلّي عليه السلام على ما في أنفسهم، وعاملُ عليّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عُبيد الله بن عباس وعامله على الجند سعيد بن نِمْران.

فلمّا اختلف الناسُ على عليّ عليه السلام بالعِراق، وقُتِل محمد بن أبي بكْر بمصر، وكَثُرت غاراتُ أهلِ الشام، تكلّموا ودعوْا إلى الطلّب بدم عثمان، فبلغ ذلك عُبيدَ الله بن عبّاس، فأرسل إلى ناسٍ من وجوههم، فقال: ما هذا الذي بلغني عنكم؟ قالوا: إنّا لم نَزَلْ نُنْكر قتل عثمان، ونرى مُجاهدة من سَعَى عليه. فحبسهم، فكتبوا إلى مَن بالجَنَد من أصحابهم، فثاروا بسعيد بن نِمْران، فأخرجوه من الجَنَد، وأظهروا أمرَهم، وخرج إليهم مَنْ كان بصَنْعاء، وانضمّ إليهم كلّ مَنْ كان على رأيهم، ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم، إرادةَ أن يمنعوا الصدّقة، والتقى عُبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْرُن، ومعهما شيعة عليّ عليه السلام، فقال ابنُ عباس لابن نِمْران: والله لقد اجتمع هؤلاء، وإنهم لنا لمقاربون، وإن قاتلناهم لا نعلم على مَنْ تكون الدائرة، فَهلُمّ لنكتبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام بخبرهم وقَدْحهم، وبمنزلهم الذي هُم به.

فكتبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أمّا بعدُ فإنّا نخبر أمير المؤمنين، أنّ شيعةَ عثمان وثبوا بنا، وأظهروا أنّ معاوية قد شَيَّد أمرَه، واتسق له أكثرُ الناس، وأنّا سِرْنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومَنْ كان على طاعته، وأنّ ذلك أحْمَشَهم وألَبهم، فعبّؤوا لنا، وتداعَوْا علينا مِن كلّ أوْب، ونصرَهم علينا مَنْ لم يكن له رأي فيهم، إرادةَ أن يمنَع حقَّ الله المفروضَ عليه، وليس يمنعُنا من مُناجزتهم إلا انتظارُ أمرِ أمير المؤمنين، أدام الله عزّه وأيّده، وقضى له بالأقدار الصالحة في جميع أموره. والسّلام.

فلما وصل كتابهما، ساء عليًا عليه السلام وأغضبه، وكتب إليهما:

من عليّ أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران: سلامٌ الله عليكما، فإني أحمَدُ إليكما الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد، فإنّه أتاني كتابُكما تذكُران فيه خروجَ هذه

الخارجة، وتعظمان مِن شأنها صغيراً، وتُكَثّران من عددها قليلاً، وقد علمتُ أنّ نَخْبَ أفئدتكما، وصِغرَ أنفسكما، وشَتات رأيكما، وسوءَ تدبيركما، هو الذي أفسد عليكما مَن لم يكن عليكما فاسداً، وقرّاً عليكمَا من كان عن لقائكما جَباناً، فإذا قدم رسولي عليكما، فامْضِيا إلى القوم حتى تقرآ عليهم كتابي إليهم، وتدعوَاهم إلى حظهم وتقوى رَبِّهم، فإن أجابوا حَمِدنا الله وقَبِلناهم، وإنْ حارَبوا استعنّا بالله عليهم، ونابذناهم على سواء، إن الله لا يحبّ الخائنين.

قالوا: وقال عليّ عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبيّ: ألاَ ترى إلى ما صَنَع قومُك! فقال: إنّ ظني يا أمير المؤمنين بقومي لَحَسَنٌ في طاعتك، فإن شئتَ خرجتُ إليهم فكُفِيتَهم، وإن شئتَ كتبتَ إليهم فتنظر ما يجيبونك. فكتب عليّ عليه السلام إليهم:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين، إلى من شاقّ وغَدَر من أهل الجَنَد وصنعاء. أما بعد، فإنّي أحمدُ الله الّذي لا إله إلا هو، الذي لا يُعقّب له حكم، ولا يُرَدّ له قضاء، ولا يردّ بأسُه عن القوم المجرمين.

وقد بلَغني تجرُّؤكم وشِقاقُكم وإعراضُكم عن دينكم، بعد الطاعة وإعطاء البيْعة، فسألتُ أهلَ الدّين الخالص، والورَع الصادق، واللّبّ الراجح، عن بَدْء مَحركِكم، وما نويتم به، وما أحْمَشكم له، فحُدّثت عن ذلك بما لم أرَ لكم في شيء منه عُذْراً مبيناً، ولا مقالاً جميلاً، ولا حُجّة ظاهرة، فإذا أتاكم رسولي فتفرقوا وانصرِفوا إلى رحالكم أعفُ عنكم، وأصفحْ عن جالهكم، وأحفظْ قاصيَكم، وأعملْ فيكم بحكم الكتاب، فإن لم تفعلوا، فاستعدّوا لقدوم جيشٍ جَمّ الفرسان، عظيم الأركان، يقصد لمن طَغَى وعَصَى، فتُطحَنوا كطحن الرّحا، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربّك بظلام للعبيد.

ووجه الكتاب مع رجل من هَمْدان، فقدِم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خَيْر، فقال لهم: إنّي تركت أميرَ المؤمنين يريد أن يوجّه إليكم يزيدَ بن قيس الأرْحبيَّ في جيش كثيف، فلم يمنْعه إلا انتظارُ جوابكم. فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عَزَل عنّا هذين المرجلين: عُبيدَ الله وسعيداً.

فرجع الهمْدانيّ من عندهم إلى عليّ عليه السلام فأخبره خبر القوم.

قالوا: وكتبتْ تلك العصابة حين جاءها كتاب عليّ عليه السلام إلى معاوية يخبرونه، وكتبوا في كتابهم:

مُعَاوِيَ إلاّ تُسرعِ السيرَ نَحْوَنَا نبايعْ عليًّا أو يزيدَ اليمانِيَا

فلما قدِم كتابهم، دعا بُسْرَ بن أبي أرطاة - وكان قاسيَ القلب فَظّاً سفَّاكاً للدماء، لا رأفةَ عنده ولا رحمة - فأمرَه أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكّة حتى ينتهيَ إلى اليمن، وقال له: لا تنزِلْ على بلدٍ أهلُه على طاعةِ عليّ، إلا بسطتَ عليهم لسانَك، حتى يَرَوْا أنهم لا نجاءَ لَهم،

وأنّك محيط بهم. ثم اكفُفْ عنهم، وادعُهم إلى البيْعة لي، فمنْ أبى فاقتُله، واقتلْ شِيعةَ عليّ حيث كانوا[1].

وروى إبراهيم بن هلال الثقفيّ في كتاب «الغارات» عن يزيد بن جابر الأزديّ، قال:

سمعت عبد الرحمن بن مَسعدة الفزاريّ يحدّث في خلافة عبد الملك، قال: لما دخلتْ سنة أربعين، تحدّث الناس بالشام أنّ عليًا عليه السلام يستنِفرُ النّاس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أنْ قَدْ اختلفتْ أهواؤهم، ووقعت الفُرقة بينهم، قال: فقمت في نَفَرٍ من أهل الشام إلى الوليد بن عُقْبة، فقلنا له: إنّ الناس لا يشكّون في اختلاف الناس على عليّ عليه السلام بالعراق، فادخلْ إلى صاحبك فمرْه فليسِرْ بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرّقهم، أو يصلُحَ لصاحِبهم ما قد فسد عليه من أمره. فقال: بلَى، لقد قاولته في ذلك وراجعته عاتبته، حتى لقد برِم بي، واستثقل طَلْعتي، وايمُ الله على ذلك ما أدع أنْ أبلّغه ما مشيْتم إليّ فيه.

فدخل عليه فخَبره بمجيئنا إليه، ومقالتنا له، فأذن لنا، فدخلْنا عليه، فقال: ما هذا الخبرُ الذي جاءني به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبرٌ في الناس سائر، فشمّرْ للحرب، وناهِض الأعداء، واهتبِل الفرصة[2]، واغتنم الغِرّة، فإنك لا تدري متى تقدرُ على عدوّك على مثل حالِهم التي هم عليها، وأن تسير إلى عدوّك أعزُّ لك من أن يسيرُوا إليك. واعلم والله أنّه لولا تفرّق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغنِي عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحتَجْ إلى ذلك منكم أدْعُكم. إنّ هؤلاء الذين تذكُرون تفرّقَهم على صاحبهم، واختلافَ أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكونَ أطمعُ في استئصالِهم واجتياحهم، وأنْ أسيرَ إليهم مخاطراً بجنْدي، لا أدري عليّ تكونُ الدائرة أم لي! فإيّاكم واستبطائي، فإني آخذُ بهم في وجهٍ هو أرفقُ بكم، وأبلغُ في هَلَكَتِهم. قد شَنَنْتُ عليهم الغارات من كلّ جانب، فخَيلي مرةً بالجزيرة، ومرة بالحجاز، وقد فتح الله بين ذلك مصر، فأعزّ بفتحها وليّنا، وأذلّ به عدوَّنا، فأشرافُ أهل العراق لما يرون من حُسْن صنيع الله لنا، يأتوننا على قَلائِصهم في كلّ الأيام، وهذا مما يزيدكم الله به وينَقصهم، ويقوّيكم ويُضعفهم، ويُعِزُّكم ويذلُّهم، فاصبروا ولا تعجلوا، فإنّي لو رأيت فرصتي لاهتبلْتُها.

فخرجنا من عنده ونحن نعرف الفَضْل فيما ذكر، فجلسنا ناحيةً، وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بُسر بن أبي أرطاة، فبعثه في ثلاثة آلاف، وقال: سِرْ حتى تمرّ بالمدينة، فاطرد

---

(١) أنظر الغارات: ٢/ ٥٩٨.

(٢) اهتبل الفرصة: أي اغتنمها. اللسان، مادة (هبل).

الناس، وأخِفْ مَنْ مررت به، وانهبْ أموال كلِّ مَنْ أصبت له مالاً، ممّن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلتَ المدينة، فأرِهم أنّك تريد أنفسَهم، وأخبرْهم أنه لا براءةَ لهم عندك ولا عذر، حتى إذا ظنّوا أنّك موقعٌ بهم فاكفف عنهم، ثم سِرْ حتى تدخل مكة، ولا تعرِضْ فيها لأحد، وأرْهِب الناسَ عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شُرُداً، حتى تأتي صنعاء والجنَد، فإنّ لنا بهما شيعة، وقد جاءني كتابهم.

فخرج بُسْر في ذلك البعْث، حتى أتى دير مروان، فعرضهم فسقط منهم أربعمائة، فمضى في ألفيْن وستمائة، فقال الوليد بن عُقْبة: أشرْنا على معاوية برأينا أن يسيرَ إلى الكوفة، فبعث الجيشَ إلى المدينة، فمثلنا ومثَله، كما قال الأول: أُرِيهَا السُّها وتُرِيني القمَرْ.

فبلغ ذلك معاوية، فغضب وقال: والله لقد هممتُ بمساءة هذا الأحمق الذي لا يُحِسن التدبير، ولا يدرِي سياسة الأمور. ثم كفّ عنه.

قلت: الوليد كان لشِدّة بغضه عليًّا عليه السلام القديم التالد، لا يرى الأناة في حَرْبه، ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده، ولا يشفِي غيظَه ولا يُبرِد حزازاتِ قلبه، إلا باستئصاله نفسِه بالجيوش، وتسييرها إلى دار مُلْكه، وسرير خلافته، وهي الكوفة، وأن يكون معاوية بنفسه هو والذي يسير بالجيوش إليه، ليكونَ ذلك أبلغَ في هلاك عليّ عليه السلام، واجتثاث أصل سلطانه. ومعاوية كان يرى غيرَ هذا الرأي، ويعلم أنّ السيرَ بالجيش للقاء عليّ عليه السلام خطَر عظيمٌ، فاقتضت المصلحةُ عنده وما يغلِبُ على ظَنّه من حُسْن التدبير، أن يثبُت بمركزه بالشام في جمهور جَيْشه، ويسرِّب الغارات على أعمال عليّ عليه السلام وبلاده، فتجوس خلال الديار وتضعفها، فإذا أضعفتْها أضعفتْ بيْضة ملك عليّ عليه السلام، لأن ضعف الأطراف يُوجب ضعف البَيْضة، وإذا أضعِفت البيضةُ كان على بلوغ إرادته، والمسير حينئذ - إن استصوب المسير - أقدرَ.

ولا يلام الوليد على ما في نفسه، فإنَّ عليًّا عليه السلام قتل أباه عُقْبة بن أبي مُعيط صَبْراً[1] يوم بدر، وسُمّي الفاسقَ بعد ذلك في القرآن، لنزاع وقع بينه وبينه، ثم جلده الحدّ في خلافة عثمان، وعزله عن الكوفة، وكان عاملها. وببعض هذا عند العرب أربابِ الدّين والتّقى تُسْتَحَلُّ المحارم، وتُستباح الدماء، ولا تبقى مراقبة في شفاء الغيظ لدين ولا لعقاب ولا لثواب، فكيف الوليد المشتمل على الفسوق والفجور، مجاهراً بذلك! وكان من المؤلفة قلوبهم، مطعوناً في نسبه، مرميًّا بالإلحاد والزندقة.

---

(١) الصبر: نصب الإنسان للقتل. اللسان، مادة (صبر)ج واصطبر: أي اقتص.

قال إبراهيم بن هلال: روى عَوانة عن الكلبيّ ولوط بن يحيى أن بُسراً لما أسْقَط مَن أسقط من جيشه، سار بمن تخلّف معه، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبلَ أهلِ ذلك الماء فركبوها، وقادوا خيولهم حتى يرِدُوا الماء لآخر، فيردّون تلك الأبل، ويركبون إبل هؤلاء، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة.

قال: وقد روي أنّ قُضاعة استقبلتهم، ينحَرُون لهم الجُزُر، حتى دخلوا المدينة. قال: فدخلوها، وعامل عليّ عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصاريُّ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج عنها هارباً، ودخل بُسْر المدينة، فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ وتوعدهم، وقال: شاهت الوجوه! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾(١)، وقد أوقع الله تعالى ذلك المثلَ بكم وجعلكم أهله، كان بلدُكم مهاجرَ النبي صلى الله عليه ومُنْزَله، وفيه قبره ومنازل الخلفاءِ من بعده، فلم تشكروا نعمةَ ربّكم، ولم ترعَوْا حَقّ نبيكم، وقُتِل خليفة الله بين أظهركم، فكنتم بين قاتلٍ وخاذِل، ومتربّص وشامت، إن كانت للمؤمنين، قلتم: ألم نكن معكم! وإن كان للكافرين نصيب، قلتم: ألم نستحوذْ عليكم ونمنعكم من المؤمنين! ثم شتم الأنصار، فقال: يا معشرَ اليهود وأبناء العبيد: بني زُرَيق، وبني النجار، وبني سَلِمة، وبني عبد الأشهل، أما والله لأوقعنّ بكم وقعة تَشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان، أما والله لأدعنّكم أحاديثَ كالأمم السالفة.

فتهددهم حتى خاف الناسُ أن يوقِع بهم، ففزعوا إلى حُويطِب بن عبد العُزّى - ويقال إنه زوْج أمّه - فصعِد إليه المنبر، فناشده، وقال: عِترتك وأنصار رسول الله، ولَيْسُوا بقتَلة عثمان، فلم يزل به حتى سكن، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه. ونزل فأحرقَ دوراً كثيرة، منها دار زُرارة بن حَرون، أحد بني عمرو بن عوف، ودار رفاعة بن رافع الزُّرَقِيّ، ودار أبي أيوب الأنصاريّ. وتفقد جابر بن عبد الله، فقال: ما لي لا أرى جابراً يا بني سلمة! لا أمان لكم عندي، أو تأتوني بجابر، فعاذ جابر بأم سلمة رضي الله عنها، فأرسلت إلى بُسر بن أرطاة، فقال: لا أؤمّنه حتى يبايع، فقالت له أم سَلمة: اذهب فبايع، وقالت لابنها عمر: اذهب فبايع، فذهبا فبايعاه.

قال إبراهيم: وروى الوليد بن كثير عن وهب بن كَيْسان، قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاريّ يقول: لمّا خِفْتُ بُسْراً وتواريت عنه، قال لقوم: لا أمانَ لكم عندي حتى يحضر جابر، فأتوني وقالوا: نَنشُدك الله لما انطلقْت معنا فبايعتَ، فحقنتَ دمك ودماء قومك، فإنك إن لم تفعلْ قتلتَ مُقاتلينا، وسبيْت ذرارينا. فاستنظرتُهم الليل، فلما أمسيت دخلت على أمّ

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

سلمة فأخبرْتها الخبر، فقالت: يا بنيّ، انطلق فبايع، احقِنْ دَمك ودماء قومك، فإني قد أمرت ابنَ أخي أن يذهبَ فيبايع، وإني لأعلم أنها بيعة ضلالة.

قال إبراهيم: فأقام بُسْر بالمدينة أياماً ثم قال لهم: إني قد عَفَوْت عنكم، وإن لم تكونوا لذلك بأهل، ما قومٌ قتِلَ إمامُهم بين ظَهْرانِيهِم بأهلٍ أن يُكَفَّ عنهم العذاب، ولئن نالكم العفو مني في الدنيا، إني لأرجو ألا تنالكم رحمة الله عز وجل في الآخرة، وقد استخلفتُ عليكم أبا هريرة، فإياكم وخلافه. ثم خرج إلى مكة.

قال إبراهيم: روى الوليد بن هشام، قال: أقبل بُسْر، فدخل المدينة، فصعِد مِنْبَر الرسول ﷺ، ثم قال: يا أهلَ المدينة، خَضَبتم لِحَاكم، وقتلتم عثمان مخضوباً، والله لا أدَعُ في المسجد مخضوباً إلا قتلتُه، ثم قال لأصحابه: خذُوا بأبواب المسجد - وهو يريد أن يستعرِضهم - فقام إليه عبد الله بن الزُّبير وأبو قيس أحد بني عامر بن لؤيّ، فطلبا إليه حتى كفّ عنهم. وخرج إلى مكة، فلما قرب منها هرب قُثَمُ بن العباس - وكان عاملَ عليّ عليه السلام - ودخلَها بُسْر، فشتم أهلَ مكة وأنّبهم. ثم خرج عنها، واستعمل عليها شَيْبَة بن عثمان.

قال إبراهيم: وقد روى عَوانة عن الكلبي أن بُسْراً لما خرج من المدينة إلى مكة قتل في طريقه رجالاً، وأخذ أموالاً، وبلغ أهلَ مكة خبرُه، فتنحّى عنها عامّةُ أهلها، وتراضَى الناس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قُثم بن العباس عنها، وخرج إلى بُسر قوم من قريش، فتلقَّوْه، فشتمهم، ثم قال: أمَا والله لو تُرِكت ورأيي فيكم لتركتُكم وما فيكم روح تمشي على الأرض. فقالوا: نَنْشُدُك الله في أهلك وعِتْرتك! فسكت ثم دخل وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، ثم خطبهم، فقال:

الحمدُ لله الذي أعزّ دعوتنا، وجَمع ألفتنا، وأذلّ عَدُوَّنا بالقتل والتشرِيد، هذا ابنُ أبي طالب بناحية العراق في ضَنْك وضِيق، قد ابتلاه الله بخطيئته، وأسلمه بجَريرته[1]، فتفرّق عنه أصحابُه ناقمين عليه، وولَى الأمرَ معاويةُ الطالبُ بدم عثمان، فبايعوا ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً. فبايَعوا.

وتفقّدَ سعيدَ بن العاص فطَلبه فلم يجده، وأقام أياماً ثم خطبهم فقال:

يا أهلَ مكة، إني قد صفحت عنكم، فإياكم والخلاف، فوالله إنْ فعلتم لأقصِدَنّ منكم إلى التي تُبير الأصل، وتحرُب المال، وتخرُب الديار.

---

(١) الجريرة: الذنب والجناية يجنيها الرجل. اللسان، مادة (جرر).

ثم خرج إلى الطائف، فكتب إليه المغيرة بن شعبة حين خرج من مكة إليها:

أما بعد، فقد بلَغني مسيرُك إلى الحجاز، ونزولُك مكة، وشِدّتُك على المريب، وعفوُك عن المسيء، وإكرامُك لأولي النّهَى، فحَمدتُ رأيَك في ذلك، فدُمْ على صالحِ ما كنتَ عليه، فإنّ الله عزَّ وجلّ لن يزيد بالخير أهلَه إلاّ خيراً، جعلنا الله وإيّاك من الآمرين بالمعروف، والقاصِدين إلى الحقّ، والذاكرين الله كثيراً.

قال: ووجّه رجلاً من قريش إلى تَبالة، وبها قوم من شيعة عليّ عليه السلام، وأمره بقتلهم. فأخذهم، وكُلّم فيهم وقيل له: هؤلاء قومُك، فكفَّ عنهم حتى نأتيَك بكتابٍ من بُسْر بأمانهم، فحبسهم. وخرج منيع الباهليّ من عندهم إلى بُسر وهو بالطائف يستشفع إليه فيهم، فتحمّل عليه بقوم من الطائف، فكلّموه فيهم، وسألوه الكتاب بإطلاقهم، فوعدهم ومَطَلهم بالكتاب حتى ظن أنه قد قتلهم القرشيّ المبعوث لقتلهم، وأن كتابه لا يصل إليهم حتى يُقتلوا. ثم كتب لهم، فأتى مَنِيع منزله، وكان قد نزل على امرأة بالطائف ورَحْله عندها، فلم يجدها في منزلها، فوطِيء على ناقته برِدائه، وركب فسار يومَ الجمعة وليلة السبت لم ينزل عن راحلته قطّ، فأتاهم ضحوة، وقد أخرِج القومُ ليقتلوا، واستبطيء كتاب بُسر فيهم، فقدِّم رجل منهم فضربه رجلٌ من أهل الشام، فانقطع سيفه، فقال الشاميّون بعضهم لبعض: شَمّسوا سيوفكم حتى تلين فهزُّوها. وتبصّر منيع الباهلي بريقَ السيوف، فألمع بثوبه، فقال القوم: هذا راكب عنده خير، فكفُّوا، وقام به بعيره فنزل عنه، وجاء على رجليه يشتّد فدفع الكتاب إليهم فأطلِقوا. وكان الرجل المقدّم - الذي ضرِب بالسيف فانكسر السيف - أخاه.

قال إبراهيم: وروي عليّ بن مجاهد، عن ابن إسحاق أنّ أهلَ مكة لما بلغهم ما صنع بُسر، خافوه وهربوا، فخرج ابنا عبيد الله بن العباس، وهما سليمان وداود، وأمهما جُوَيْرِيَةَ بنة خالد بن قَرَظ الكنانية، وتُكنَى أمّ حكيم، وهم حلفاء بني زُهرة - وهما غلامان - مع أهل مكة، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضرميّ - وميمون هذا هو أخو العَلاء بن الحَضرمي - وهجم عليهما بسر، فأخذهما وذبحهما، فقالت أمهما:

هَا مَنْ أحس بابنيّ اللّذَيْن هما ... كالدّرتيْن تَشَظّى عنهما الصَّدَفُ[1]

هَا مَنْ أحس بابنيّ اللّذَين هما ... سمعِي وقلبي، فقلبي اليومَ مُختَطَفُ

هَا مَنْ أحس بابنيّ اللّذين هما ... مُخّ العِظامِ، فمخّي اليومَ مزدهَفُ

نُبّئتُ بسراً وما صدّقتُ ما زعموا ... من قَوْلِهِمْ ومن الإفكِ الذي اقْتَرَفُوا

أنْحى على وَدَجَيْ ابنيَّ مُرهَفةً ... مشحوذةً، وكذاكَ الإثمُ يُقتَرَفُ

(١) الصدف: المحار وفيه يكون اللؤلؤ، وصدف الدرة غشاؤها. اللسان، مادة (صدف).

مـن دَلَّ والـهـة حَـرّى مُـسَـلَّـبـةً   على صبيّينِ ضلاّ إذ مضى السلف

وقد روي أن اسَمهما قُثَم وعبد الرحمن. ورُوِي أنهما ضلاّ في أخوالهما من بني كنانة. وروي أن بُسْراً إنّما قتلهما باليمن، وأنهما ذبحا على دَرَج صنعاء.

وروى عبد الملك بن نوفل بن مُساحق عن أبيه، أنّ بُسْراً لما دخل الطائف، وقد كلّمه المغيرة، قال له: لقد صدقتَني ونصحتَني، فبات بها وخرج منها، وشيّعه المغيرة ساعة، ثم ودّعه وانصرف عنه، فخرَج حتى مَرّ ببني كنانة، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأمّهما. فلما انتهى بُسْر إليهم، طلبهما، فدخل رجل من بني كنانة - وكان أبوهما أوصاه بهما - فأخذ السيف من بيته وخرج، فقال له بُسْر: ثكلتْكَ أمّك! والله ما كنا أردنا قَتْلك، فلمَ عرّضت نَفسك للقتل! قال: أُقتلُ دون جارِي أعذَرُ لِي عند الله والناس. ثم شدّ على أصحاب بُسر بالسيف حاسراً، وهو يرتجز:

آلـيـتُ لا يـمـنـع حـافـاتِ الـدّارْ   ولا يـمـوت مـصـلِـتـاً دُونَ الـجـارْ

إلاّ فـتـى أرْوَعُ غـيـر غَـدّارْ

فضارب بسيفه حتى قُتل، ثم قُدِّم الغلامان فقتلا. فخرج نسوة من بني كنانة، فقالت امرأة منهنّ: هذه الرجال يقتلها، فما بال الولدان! والله ما كانوا يقتَلون في جاهلية ولا إسلام، والله إنّ سلطاناً لا يشتدّ إلا بقتل الضَرَع الضعيف، والشيخ الكبير، ورفع الرحمة، وقطع الأرحام لَسُلطان سوء، فقال بُسْر: والله لَهممتُ أن أضعَ فيكنّ السيف، قالت: والله إنه لأحَبُّ إليّ إن فعلت!

قال إبراهيم: وخرج بُسر من الطائف، فأتى نَجْران، فقتل عبد الله بن عبد المدان وابنه مالكاً - وكان عبد الله هذا صهراً لعبيد الله بن العباس - ثم جمعهم وقام فيهم، وقال: يا أهلَ نجران، يا معشرَ النصارى وإخوان القرود: أما والله إنْ بلغني عنكم ما أكرَه لأعودَنّ عليكم بالتي تقطع النَّسْل، وتُهلِكُ الحرث، وتخرّب الديار!

وتهدّدهم طويلاً، ثم سار حتى بلغ أرْحَب، فَقَتل أبا كرِب - وكان يتشيّع - ويقال: إنه سيّد مَنْ كان بالبادية من هَمْدان، فقدمه فقتله[1].

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران، وقد استخلف عبيدُ الله عليها عَمْرو بن أراكة الثقفيّ، فمنع بُسْراً من دخولها وقاتله، فقتله بُسْر، ودخل صنعاء، فقتل

(١) أنظر الغارات: ٢/٦١٧.

منها قوماً، وأتاه وفْدُ مأرِب فقتلهم، فلم ينجُ منهم إلا رجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: «أنعى قتلانا، شيوخاً وشُبّاناً».

قال إبراهيم: وهذه الأبيات المشهورة لعبد الله بن أراكة الثقفي، يرثي بها ابنه عمراً:

لَعَمْرِي لقد أرْدَى ابنُ أرْطَاةَ فَارِساً   بصنعاء كاللّيْث الهِزَبْر أبي الأجْرِ
تَعَزَّ فإن كان البكا ردّ هالكاً   على أحد، فاجهَد بُكَاك على عمرو
ولا تَبْكِ مَيْتاً بعد مَيْتٍ أجنّه   عليّ وعباسٌ وآلُ أبِي بَكْرِ

قال: وروى نُمَيْر بن وَعْلَة، عن أبي وَدّاك، قال كُنتُ عندَ عليّ عليه السلام لمّا قدم عليه سعيد بن نِمْران الكوفة، فعتب عليه وعلى عبيد الله ألاّ يكونا قاتلا بُسراً، فقال سعيد: قد والله قاتلت، ولكنّ ابن عباس خَذَلني وأبى أن يقاتل، ولَقَدْ خلوتُ به حين دنا منّا بُسْر، فقلت: إنّ ابنَ عمك لا يرضى منّي ومنك بدون الجِدّ في قتالهم، قال: لا والله ما لنا بهم طاقة ولا يَدَان، فقمت في الناس، فحمَدت الله ثم قلت: ياأهل اليمن، مَنْ كان في طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فإليّ إليّ فأجابني منهم عِصابة، فاستقدمت بهم، فقاتلت قتالاً ضعيفاً، وتفرّق الناس عنّي وانصرفت.

قال: ثم خرج بُسر من صنعاء، فأتى أهل جَيْشَان - وهم شيعة لعليّ عليه السلام - فقاتلهم وقاتلوه، فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، ثم رجع إلى صنعاء، فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس، لأنّ ابني عبيد الله بن العباس كانا مستترين في بيت امرأة من أبنائهم، تعرف بابنة بُزُرْج.

وقال الكلبيّ وأبو مِخْنف: فندب عليّ عليه السلام أصحابَه لبعث سرّية في إثر بُسْر، فتثاقلوا، وأجابه جارية بن قُدامة السعديّ، فبعثه في ألفين، فشخَص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدِم اليمن، وسأل عن بُسْر فقيل: أخذ في بلاد بني تميم، فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بُسراً مسيرُ جارية، فانحدر إلى اليمامة، وأغذّ جارية بن قدامة السير، ما يلتِفت إلى مدينة مرّ بها ولا أهل حصن، ولا يعرّج على شيء إلاّ أن يُرْمِل[1] بعضُ أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته، أو يسقط بعير رجل أو تَحفَى دابته، فيأمر أصحابه بأن يُعْقِبوه، حتى انتهوْا إلى أرض اليمن، فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال، واتّبعهم شيعة عليّ عليه السلام، وتداعَتْ عليهم من كلّ جانب، وأصابوا منهم، وصَمَدَ[2] نحو بُسْر، وبسْر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة أخرى، حتى أخرجه من أعمال عليّ عليه السلام كلّها.

(١) أرمل: أي نفد زاده. اللسان، مادة (رمل).
(٢) صمد: قصدوا اعتمد. اللسان، مادة (صمد).

فلما فعل به ذلك، أقام جارية بحرْس نحواً من شهر، حتى استراح وأراحَ أصحابه، ووثب الناس ببُسْر في طريقه لما انصرف من بين يدي جارية، لسوء سيرته وفظاظته وظلمه وغَشْمه وأصاب بنو تميم ثِقْلاً من ثقله في بلاده وصحبه إلى معاوية ليبايعه على الطاعة ابنُ مَجّاعة رئيس اليمامة، فلما وصل بُسر إلى معاوية قال: يا أميرَ المؤمنين، هذا ابن مجّاعة قد أتيتُك به فاقتله، فقال معاوية: تركتَه لم تقتله، ثم جئتني به فقلت اقتله! لا لعمري لا أقتله. ثم بايعه ووصله، وأعاده إلى قومه.

وقال بُسر: أحمدَ الله يا أمير المؤمنين أني سرت في هذا الجيش أقتل عدوّك ذاهباً جائياً لم يُنْكَب رجل منهم نكبة، فقال معاوية: الله قد فعل ذلك لا أنت.

وكان الذي قتلَ بسرٌ في وجهه ذلك ثلاثين ألفاً، وحرّق قوماً بالنار، فقال يزيد بن مفرّغ:

تَعَلَّقَ مِنْ أسْمَاء مَا قَدْ تَعَلَّقَا ... ومثلُ الذي لاقى من الشوق أرّقا
سقي هَزِمُ الأرعاد منبعِج الكُلَى ... منازلَها من مَسْرُقَانَ فَسُرَّقا
إلى الشَّرف الأعلى إلى رَامَهُرْمُزٍ ... إلى قَرَيَات الشَّيْخِ من نهر أرْبَقا
إلى دشتِ بارِين إلى الشَّطّ كُلِّه ... إلى مجمع السُّلاَّن من بطن دَوْرَقا
إلى حيث يُرْفا من دُجَيْلٍ سفينَةُ ... إلى مجمع النهرين حيثُ تفرّقا
إلى حيث سار المرء بُسرٌ بجيشِه ... فقتَّل بُسْرٌ ما استطاع وحَرّقا

وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: اجتمع عُبيد الله بن العباس وبُسر بن أرطاة يوماً عند معاوية بعد صلح الحَسن عليه السلام، فقال له ابن عباس: أنت أمرتَ اللعين السيّيء الفَدْمَ أن يقتل ابنيّ؟ فقال: ما أمرتُه بذلك، ولوددت أنه لم يكن قَتَلهما، فغضب بُسْر ونزع سيفه فألقاه وقال لمعاوية: اقبِض سيفَك، قلّدتَنيه وأمرتَني أن أخبِط به الناس ففعلت، حتى إذا بلغتُ ما أردتَ قلت: لم أهْوَ ولم آمُر! فقال: خذْ سيفَك إليك، فلَعَمْرِي إنك ضعيف مائق[1] حين تُلقِي السيفَ بين يديّ رجلٍ من بني عبد مناف، قد قتلتَ أمسِ ابنيْه.

فقال له عبيد الله: أتحسبني يا معاويةُ قاتلاً بُسراً بأحد ابنيّ! هو أحقر وألأم من ذلك، ولكنّي والله لا أرى لي مَقْنَعاً، ولا أدرِك ثأراً إلا أن أصيب بهما يزيدَ وعبد الله.

فتبسّم معاوية وقال: وما ذنبُ معاوية وابنَي معاوية! والله ما علمتُ ولا أمرتُ، ولا رضِيت ولا هَوِيت. واحتمَلها منه لشرفه وسؤدده.

---

(١) المائق: الهالك حمقاً وغباوة. اللسان، مادة (موق).

قال: ودعا عليّ عليه السلام على بُسْر فقال: اللهم إنّ بُسْراً باع دينَه بالدنيا، وانتهك محارمَك، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجرٍ آثرَ عنده مِمّا عندك. اللهمّ فلا تُمِتْه حتى تَسْلُبَه عقلَه، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار. اللهمّ ٱلعن بُسْراً وعمراً ومعاوية، ولْيَحُلّ عليهم غضبُك، ولتنزل بهم نِقْمَتُك، وليصِبْهم بأسُك ورِجْزُك الذي لا تردّه عن القوم المجرمين.

فلم يلبثْ بُسْرٌ بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقلُه. فكان يهذِي بالسّيف، ويقول: أعطُوني سيفاً أقتلْ به، لا يزال يردد ذلك حتى اتُّخِذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المِرْفقة[1]، فلا يزال بضربُها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قلت: كان مُسلم بن عُقْبة ليزيد وما عمِل بالمدينة في وقعة الحرّة كما كان بُسر لمعاوية وما عمل في الحجاز واليمن، ومن أشبه أباه فما ظلم.

نَـبْـنِـي كَـمَـا كَـانَـتْ أوائِـلُـنَـا تَـبْـنِـي وَنَـفْـعَـلُ مِـثْـلَ مَـا فَـعَـلُـوا

٢٦ - ومن خطبة له عليه السلام: في ذم من بايعه بشروط

الأصل: إنَّ ٱللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ نَذِيراً لِلْعَالَمِين، وَأَمِيناً عَلَى ٱلتَّنْزِيلِ، وَأَنْتُم مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَار، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ ٱلْكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ ٱلْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ. ٱلْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ.

الشرح: يجوز أن يعني بقوله: «بين حجَارة خُشْن، وحَيّات صُمّ» الحقيقةَ لا المجاز، وذلك أنّ الباديةَ بالحجاز ونجْد وتِهامة وغيرها من أرض العرب ذاتُ حيّاتٍ وحجارة خُشْن، وقد يعني بالحجارة الخُشْن الجبال أيضاً أو الأصنام، فيكونُ داخلاً في قِسْم الحقيقة إذا فرضناه مُراداً، ويكون المعنيّ بذلك وصفَ ما كانوا عليه من البؤس وشَظَف العيشة وسوء الاختيار في العبادة، فأبدلهم الله تعالى بذلك الرِّيف ولين المهاد وعبادةَ من يستحقّ العبادة.

ويجوز أن يعني به المجاز، وهو الأحسن، يقال للأعداء حَيّات. والحيّة الصماء أدْهَى من التي ليست بصمّاء، لأنّها لا تنزجر بالصوت. ويقال للعدوّ أيضاً: إنه لحجر خَشِن المسّ، إذا كان ألدّ الخصام.

(١) المرفقة: المتكأ والمخدة. اللسان، مادة (رفق).

والجَشِب من الطعام: الغليظُ الخَشِن.

وقال أبو البَختريّ وهب بن وهب القاضي: كنتُ عند الرشيد يوماً، واستدعى ماءً مبرّداً بالثلج، فلم يوجد في الخزانة ثلج، فاعتذِر إليه بذلك، وأحضِر إليه ماءٌ غير مثلوج، فضرب وجهَ الغلام بالكُوز، واستشاط غضباً، فقلت له: أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمِن؟ فقال: قل، قلت: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كان من الغِيَرَ بالأمس - يعني زوال دَوْلة بني أميّة - والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها، والحزْم ألاّ تعوّد نفسَك الترفّه والنعمة، بل تأكل اللّيّن والجَشِب، وتلبس الناعم والخشِن، وتشرب الحارّ والقارّ، فنفحني بيده، وقال: لا والله، لا أذهب إلى ما تذهب إليه، بل ألبسُ النعمة ما لبِستْني، فإذا نابتْ نَوْبة الدّهر عدت إلى نِصَاب غير خَوّار[1].

وقوله: «والآثام بكم معصوبة»، استعارة، كأنها مشدودة إليهم.

وعنى بقوله: «تسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم» ما كانوا عليه في الجاهلية من الغارات والحروب.

الأصل: ومنها: فَنَظَرْتُ فَإذا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إلاَّ أَهْلَ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْت، وَأَغْضَيْتُ عَلَى ٱلْقَذَى، وَشَرِبْتُ عَلَى ٱلشَّجَى، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ ٱلْكَظَم، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ ٱلْعَلْقَم.

الشرح: الكَظَم، بفتح الظاء: مخرَج النَّفَس، والجمع أكْظام وضَنِنْت، بالكسر: بخلت. وأغضيت على كذا: غضَضت طرفي، والشَّجَى: ما يعترض في الحلق.

اختلاف الروايات في قصة السقيفة

اختلفت الروايات في قِصّة السَّقِيفة، فالذي تقوله الشيعة - وقد قال قوم من المحدِّثين بعضه ورووا كثيراً منه - أنّ علياً عليه السلام امتنع من البَيْعة حتى أخرج كُرْهاً، وأنّ الزّبيرَ بن العوام امتنع من البَيْعة وقال: لا أبايع إلا عليًا عليه السلام، وكذلك أبو سفيان بن حرب، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميّة بْنُ عبد شمس، والعبّاس بن عبد المطلب وبنوه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وجميعُ بني هاشم. وقالوا: إنّ الزُّبَير شَهَر سيفَه، فلما جاء عمر ومعه جماعة من الأنصار وغيرهم، قال في جملة ما قال: خُذُوا سيفَ هذا فاضربوا به الحَجر. ويقال: إنّه أخذ

(١) الخوار: الضعيف الذي لا بقاء له على الشدة. اللسان، مادة (خور).

السيّف من يد الزبير فضرب به حَجراً فكسره، وساقهم كلَّهم بين يديه إلى أبي بكر، فحملَهم على بيعتِه ولم يتخلف إلا عليّ عليه السلام وحدَه، فإنّه اعتصم ببيت فاطمة عليها السلام، فتحامَوْا إخراجه منه قَسْراً، وقامت فاطمة عليها السلام إلى باب البيت فأسمعت مَنْ جاء يطلبُه، فتفرقوا وعلموا أنّه بمفرده لا يضرّ شيئاً، فتركوه

وقيل: إنهم أخرجوه فيمن أخرج وحمل إلى أبي بكر فبايعه. وقد روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري كثيراً من هذا.

فأمّا حديث التّحريق وما جرى مجراه من الأمور الفظيعة، وقول مَنْ قال إنّهم أخذوا عليًّا عليه السلام يُقادُ بعمامته والناس حوله، فأمْرٌ بعيدٌ، والشّيعة تنفرد به، على أنّ جماعة من أهل الحديث قد رووْا نحوه، وسنذكر ذلك.

وقال أبو جعفر: إنّ الأنصار لَمّا فاتّها ما طلبت من الخلافة، قالت - أو قال بعضها: لا نبايع إلا علياً. وذكر نحو هذا عليّ بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلّي. في تاريخه.

فأمّا قولُه: «لم يكن لي معين إلا أهل بيتي فضنِنْتُ بهم عن الموت» فقولٌ ما زال عليّ عليه السلام يقوله، ولقد قاله عَقِيبَ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: لَوْ وَجدْتُ أربعين ذوي عزم!

ذكر ذلك نصر بن مُزاحم في كتاب «صفين»، وذكره كثير من أرباب السيرة.

وأما الذي يقوله جمهور المحدّثين وأعيانهم، فإنّه عليه السلام امتنع من البيعة ستة أشهر، ولزم بيتَه، فلم يبايع حتى ماتت فاطمة عليها السلام، فلما ماتت بايع طوْعاً.

وفي صحيحيْ مسلم والبخاريّ: كانت وجوه الناس إليه وفاطمة باقية بعدُ، فلما ماتت فاطمة عليها السلام انصرفت وجوه الناس عنه، وخرَج من بيته فبايع أبا بكر، وكانت مدةُ بقائها بعد أبيها عليه الصلاة والسلام ستة أشهر[1].

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال لي عبد الرحمن بن عوف، وقد حَجَجْنا مع عمر: شهدت اليومَ أمير المؤمنين عليه السلام بِمنًى، وقال له رجلٌ: إنّي سمعتُ فلاناً يقول: لو قد مات عمر لبايعت فلاناً، فقال عمر: إني لقائم العشيةَ في الناس أحذِّرهم هؤلاء الرهْطَ الّذين يريدون أن يغتصبوا الناسَ أمرَهم. قال عبد الرحمن: فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الموسمَ يجمع رَعاع الناس وغَوْغاءهم، وهم الذين يقربون من مجلسك ويغلبون عليه، وأخاف أن تقولَ مقالة لا يَعونها، ولا يحفظونها فيطيروا

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٥٥، وصحيح مسلم: ٣/ ١٣٨.

بها، ولكن أمهلْ حتى تقدَم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله، فتقول ما قلت متمكِّناً، فيسمعوا مقالتك. فقال: والله لأقومَنّ بها أولَ مَقامٍ أقومُه بالمدينة[١].

قال ابن عباس: فلما قدمناها، هجَّرتُ يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن، فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال بعد أن ذكر الرَّجْم وحدّ الزنا: إنه بلَغني أنّ قائلاً منكم يقول: لو مات أميرُ المؤمنين بايعت فلاناً، فلا يغرّنّ امرأ أن يقول: إنّ بيعةَ أبي بكر كانت فَلْتَةً، فلقد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرّها، وليس فيكم مَنْ تُقَطَّع إليه الأعناقُ كأبي بكر، وإنّه كان من خبَرنا حين توفي رسول الله ﷺ. أن عليًا والزبير تخلّفاً عنا في بيت فاطمة ومَنْ معهما، وتخلّفت عَنّا الأنصار، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت له: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار. فانطلقنا نحوهم، فلقِيَنا رجُلان صالحان من الأنصار قد شهدا بدراً: أحدهما عويم بن ساعدة، والثاني مَعْن بن عديّ، فقالا لنا: ارجعوا فاقضوا أمرَكم بينكم، فأتينا الأنصار، وهم مجتمعون في سَقيفة بني ساعدة، وبين أظهرهم رجل مُزَمّل، فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة وجِع. فقام رجل منهم، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: أما بعدُ، فنحن الأنصار، وكتِيبة الإسلام وأنتم يا معشر قريش رَهْطُ نبيّنا، قد دفّت إلينا دافّة[٢] من قومكم، فإذا أنتم تريدون أن تغصبونا الأمر.

فلما سكت، وكنت قد زوَّرت في نفسي مقالة أقولها بين يدي أبي بكر، فلما ذهبت أتكلم، قال أبو بكر: عَلَي رِسْلك! فقام فحمِد الله وأثنى عليه، فما ترك شيئاً كنت زَوّرت في نفسي إلا جاء به أو بأحسنَ منه، وقال: يا معشرَ الأنصار، إنكم لا تَذْكرون فضلاً إلاّ وأنتم له أهل، وإنّ العربَ لا تعرِف هذا الأمر إلا لقريشٍ، أوسطِ العرب داراً ونسباً، وقد رَضِيتُ لكم أحدَ هذيْن الرجلين - وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح - والله ما كرِهْتُ من كلامه غيرَها، إنْ كنتُ لأُقَدَّم فتضربُ عُنقي فيما لا يقرّبني إلى إثم، أحبّ إليّ من أن أؤمَّر على قوم فِيهم أبو بكر.

فلما قضى أبو بكر كلامه، قامَ رجل من الأنصار، فقال: أنا جُذَيْلُها المحكّك[٣]، وعُذَيْقُها[٤] المرجّب، منا أمير ومنكم أمير.

وارتفعت الأصوات واللّغط، فلما خِفْتُ الاختلاف، قلتُ لأبي بكر: ابْسُط يدك أبايِعك، فبَسط يده فبايعتُه وبايعه الناس، ثم نزَوْنا على سعد بن عبادة، فقال قائلهم: قتلتم سعداً! فقلت:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ١٣٧.
(٢) الدافة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد. اللسان. مادة (دفق).
(٣) الحذيل المحكك: الأصل من الشجرة تحتك به الإبل الجرباء فتشتفي به، اللسان، مادة (جذل).
(٤) عُذيق: تصغيراً لعذق، وهو تصغير تعظيم، والعطق النخلة بحملها، اللسان، مادة (عذق).

اقتلوه قتله الله، وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوَى من بيعة أبي بكر، خشِيت إنْ فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدِثوا بعدنا بيعة، فإما أنْ نبايِعَهم على ما لا نرضى، أو نخالفَهم فيكون فساد.

هذا حديث مُتّفَق عليه من أهل السيْرة، وقد وردت الروايات فيه بزيادات، روى المدائنيّ قال: لما أخذ أبو بكر بيدِ عمر وأبي عبيدة وقال للناس: قد رضيت لكم أحدَ هذين الرجلين، قال أبو عبيدة لعمر: امْدُدْ يدَك نبايِعك، فقال عمر: مالك في الإسلام فَهَّةٌ[1] غيرها. أتقول هذا وأبو بكر حاضر! ثم قال للناس: أيّكم يَطِيب نفساً أنْ يتقدمَ قدمين قدّمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة؟ رضيَك رسول الله صلى الله عليه لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا! ثم مدّ يدَه إلى أبي بكر فبايعه.

وهذه الرواية هي التي ذكرها قاضي القضاة رحمه الله تعالى في كتاب «المغني».

وقال الواقديّ في روايته في حكاية كلام عمر: والله لأنْ أقدّم فأنحَرَ كما يُنْحَر البعير، أحبُّ إليّ من أن أتقدّم على أبي بكر.

وقال شيخُنا أبو القاسم البلخيّ: قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: إنَّ الرجل الذي قال: لو قد مات عمرُ لبايعت فلاناً، عمارُ بن ياسر، قال: لو قد مات عمر لبايعت عليًّا عليه السلام. فهذا القولُ هو الذي هاج عمرَ أنْ خطب بما خطب به.

وقال غيره من أهل الحديث: إنّما كان المعزوم على بيعته لو مات عمر، طلحة بن عبيد الله.

فأما حديث الفَلْتة، فقد كان سبق مِنْ عمر أن قال: إنّ بيعةَ أبي بكر كانت فَلْتة وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه.

وهذا الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف فيه حديث الفَلْتة، ولكنه منسُوق على ما قاله أولاً، ألا تراه يقول: فلا يغرّنّ امْرَأً أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتة، فلقد كانت كذلك، فهذا يُشعر بأنه قد كان قال مِنْ قبل: إنّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتة.

وقد أكثر الناس في حديث الفَلْتة، وذكرها شيوخنا المتكلّمون، فقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى: الفلتة ليست الزلّةَ والخطيئة، بل هي البَغْتة، وما وقع فجأة من غير رويّة ولا مشاورة، واستشهد بقول الشاعر:

مَنْ يأمَنِ الحَدَثان بَعْدَ صُبَيْرَةَ القرشيّ ماتَا ... سَبَقَتْ مَنيّتُهُ ٱلْمَشِيبَ وكانَ مِيتَتُه افْتِلاَتَا

يعني بَغْتة.

وقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى: ذكر الرّياشيّ أن العرب تسمّي آخر يوم من شوّال فَلْتَةً، من حيث إنّ كلّ مَنْ لم يُدرك ثأره فيه فاتَه، لأنهم كانوا إذا دخلوا في الأشهر الحُرُم لا

(١) الفهة: مثل السقطة والجهلة ونحوها. اللسان، مادة (فهه).

يطلبون الثأر، وذو القعدة من الأشهر الحرم، فسمَّوْا ذلك اليوم فَلْتة، لأنهم إذا أدركوا فيه ثأرهم، فقد أدركوا ما كان يفوتهم. فأراد عمرُ أنّ بيعة أبي بكر تَدَارَكها بعد أن كادت تفوت.

وقوله: «وقى الله شرّها» دليل على تصويب البَيْعة، لأن المراد بذلك أنّ الله تعالى دفع شرّ الاختلاف فيها.

فأمّا قوله: «فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»، فالمراد مَنْ عاد إلى أن يُبَايع من غير مُشاورة ولا عدد يُثبت صحة البيعة به، ولا ضرورة داعية إلى البَيْعة، ثم بسط يده على المسلمين يدخلهم في البيعة قهراً، فاقتلوه.

قال قاضي القضاة رحمه الله تعالى: وهل يشكّ أحدٌ في تعظيم عمرَ لأبي بكر وطاعته إياه! ومعلوم ضرورةً من حالِ عمر إعظامُه له، والقول بإمامته والرّضا بالبيعة والثناء عليه، فكيف يجوز أن يترك ما يُعلم ضرورة لقولٍ محتَمل ذي وجوه وتأويلات! وكيف يجوز أن تحمَل هذه اللفظة من عمر على الذمّ والتَّخطئة وسوء القول!

واعلم أنّ هذه اللفظة من عمر مناسِبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ما جَبَله الله تعالى عليه من غِلَظ الطينة وجفاء الطبيعة، ولا حيلَة له فيها، لأنه مجبُولٌ عليها لا يستطيع تغييرَها، ولا ريب عندنا أنه كان يتعاطَى أنْ يتلطّف، وأن يُخرجَ ألفاظه مخارج حسنة لطيفة، فينزع به الطبع الجاسي، والغريزة الغليظة، إلى أمثال هذه اللفظات، ولا يقصد بها سوءاً، ولا يريد بها ذمّاً ولا تخطئة، كما قدّمنا من قبلُ في اللفظةِ التي قالها في مرض رسول الله ﷺ، وكاللفظات التي قالها عام الحديبية وغير ذلك، والله تعالى لا يجازي المكلّف إلا بما نَواه، ولقد كانت نيتُه من أطهرِ النيّات وأخلصها لله سبحانه وللمسلمين ومَن أنصف عَلم أنّ هذا الكلام حقّ، وأنّه يُغني عن تأويل شيخنا أبي عليّ.

ونحن من بعدُ نذكر ما قاله المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب «الشافي» لما تكلم في هذا الموضع، قال: أمّا ما ادعِي من العلم الضروري برضا عمر ببيعة أبي بكر وإمامته، فالمعلوم ضرورةً بلا شبهة أنّه كان راضياً بإمامته، وليس كلّ مَنْ رضِيَ شيئاً كان متديّناً به، معتقداً لصوابه، فإنّ كثيراً من الناس يرضوْن بأشياء من حيث كانت دافعةً لما هو أضرُّ منها، وإن كانوا لا يروْنَها صواباً، ولو ملكوا الاختيار لاختاروا غيرَها، وقد علمنا أنّ معاوية كان راضياً ببيعة يزيد وولاية العهد له من بعده، ولم يكن متديّناً بذلك ومعتقداً صحته، وإنما رضي عمر ببيعة أبي بكر، من حيث كانت حاجزةً عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ولو ملك الاختيارَ لكان مصير الأمرِ إليه أسرّ في نفسه، وأقرّ لعينه. وإن ادّعى أنّ المعلوم ضرورةً تديّنُ عمر بإمامة أبي بكر، وأنّه أوْلى بالإمامة منه، فهذا مدفوع أشدّ دفع، مع أنه قد كان يبدر من عمر في وقتٍ بعد آخر ما يدلُّ على ما أوردناه. روى الهيثم بن عديّ عن عبد الله بن عياش الهمْدانيّ عن سعيد بن جُبير، قال:

ذُكر أبو بكر وعمر عند عبد الله بن عمر، فقال رجل: كانا والله شمسيْ هذه الأمة ونورَيْها، فقال ابن عمر: ما يُدْرِيك؟ قال الرجل: أو ليسَ قد ائتلفا! قال ابن عمر: بل اختلفا لو كنتم تعلمون! أشهدُ أنّي كنتُ عند أبي يوماً، وقد أمرني أن أحبس الناس عنه، فاستأذن عليه عبدُ الرحمن بن أبي بكر فقال عمر: دويبّة سوء، ولهو خيرٌ من أبيه، فأوحشني ذلك منه، فقلت: يا أبت، عبد الرحمن خير من أبيه! فقال: ومَنْ ليس بخير من أبيه لا أم لك! ائذن لعبد الرحمن، فدخل عليه فكلّمه في الحُطيئة الشاعر أنْ يرضى عنه - وقد كان عمر حبسه في شعر قاله - فقال عمر: إنّ في الحطيئة أوَداً فدعْني أقوّمه بطول حبسه، فألحّ عليه عبد الرحمن وأبَى عمر، فخرج عبد الرحمن، فأقبلَ عليّ أبي وقال: أفي غفلة أنت إلى يومك هذا عَمّا كان من تقدّم أحيمِق بني تَيْم عليّ وظلمه لي! فقلت: لا علم لي بما كان من ذلك، قال: يابُنَي فما عسيت أن تعلم؟ فقلت: والله لَهُوَ أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم، قال: إنَّ ذلك لكذلك على رغم أبيك وسُخْطه، قلت: يا أبت، أفلا تجلّي عن فعله بموقفٍ في الناس تُبيِّن ذلك لهم؟ قال: وكيف لي بذلك مع ما ذكرتَ أنّه أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم! إذن يُرْضَخ رأس أبيك بالجندل[1]. قال ابنُ عمر: ثم تجاسر والله فجَسر، فما دارت الجمعة حتى قام خطيباً في الناس، فقال: أيّها الناس، إنّ بيعةَ أبي بكر كانت فَلْتة وقى الله شرَّها، فَمنْ دعاكم إلى مثلها فاقتلوه[2].

وروي الهيثم بن عديّ، عن مجالد بن سعيد، قال: غَدَوْتُ يوماً إلى الشعبيّ وأنا أريد أن أسأله عن شيء بلغَني عن ابن مسعود أنه كان يقوله، فأتيتُه وهو في مسجد حَيِّه وفي المسجد قوم ينتظرونه، فخرج فتعرّفت إليه، وقلت: أصلحك الله! كان ابن مسعود يقول: ما كنت محدّثاً قوماً حديثاً لا تبلُغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، قال: نعم، كان ابن مسعود يقول ذلك، وكان ابن عباس يقوله أيضاً - وكان عند ابن عباس دفائنُ علم يعطيها أهلَها، ويصرِفها عن غيرهم - فبينا نحن كذلك إذا أقبل رجل من الأزد، فجلس إلينا، فأخذنا في ذكر أبي بكر وعمر، فضحك الشعبيّ وقال: لقد كان في صدر عمر ضِبٌّ[3] على أبي بكر، فقال الأزديّ: والله ما رأينا ولا سمعنا برجل قطّ كان أسلسَ قياداً لرجل، ولا أقْوَلَ فيه بالجميل من عمر في أبي بكر، فأقبل عليّ الشعبيّ وقال: هذا مما سألتَ عنه، ثم أقبل على الرّجل وقال: يا أخا الأزْد، فكيف تصنع بالفَلْتَة التي وقى الله شرّها! أترى عدوًّا يقول في عدوٍّ يريد أن يهدم ما بني لنفسه في الناس أكثر من قول عمر في أبي بكر! فقال الرجل:
٨٩ سبحان الله! أنت تقول ذلك يا أبا عمرو! فقال الشعبيّ: أنا أقوله، قاله عمر بن الخطاب

---

(١) الجندل: الحجارة. اللسان، مادة (جندل).

(٢) أنظر البحار: ٣٠/ ٤٤٨، وعمر بن الخطاب للبكري: ٢٠٣.

(٣) الضِّب: الغيظ والحقد. اللسان، مادة (ضبب).

على رؤوس الأشهاد، فلُمْه أو دَعْ. فنهض الرجل مُغضَباً وهو يُهَمْهِم في الكلام بشيء لم أفهمه. قال مجالد: فقلت للشعبيّ: ما أحسِب هذا الرجل إلا سينقل عنك هذا الكلام إلى الناس ويَبُثّه فيهم! قال: إذَنْ والله لا أحفِلُ به، وشيء لم يحفِلْ به عمر حين قام على رؤوس الأشهاد من المهاجرين والأنصار أحفل به أنا! أذيعوه أنتم عنّي أيضاً مابدا لَكُمْ.

وروى شريك بن عبد الله النّخعيّ، عن محمد بن عمرو بن مُرّة عن أبيه، عن عبد الله بن سلمة، عن أبي موسى الأشعريّ، قال: حججتُ مع عمر، فلما نزلْنا وعُظْم الناس خرجت من رَحْلي أريده، فلقيَني المغيرة بن شعبة، فرافقني، ثم قال: أين تريد؟ فقلت: أميرَ المؤمنين، فهل لكَ؟ قال: نعم، فانطلقنا نريد رَحْل عمر، فإنّا لَفِي طريقنا إذ ذكرْنا تولّيَ عمر وقيامَه بما هو فيه، وحياطتَه على الإسلام، ونهوضَه بما قِبَله من ذلك، ثم خرجنا إلى ذكر أبي بكر، فقلت للمغيرة: يا لك الخير! لقد كان أبو بكر مسدَّداً في عمر، لكأنه ينظر إلى قيامه من بعد، وجِدّه واجتهاده وغَنائه في الإسلام، فقال المغيرة: لقد كان ذلك، وإن كان قوم كرهوا ولاية عمر ليزووها عنه، وما كان لهم في ذلك من حظّ، فقلت له: لا أبالك! ومَنِ القوم الذين كرهوا ذلك لعمر؟ فقال المغيرة: لله أنت! كأنك لا تعرف هذا الحيّ من قريش وما خُصّوا به من الحسد! فوالله لو كان هذا الحسدُ يُدرَك بحسابٍ لكان لقريش تسعة أعشاره وللناس كلّهم عشر، فقلت: مه يا مغيرة! فإن قريشاً بانتْ بفضلها على الناس. فلم نزل في مثل ذلك حتى انتهينا إلى رَحْل عمر فلم نجده، فسألنا عنه فقيل: قد خرج آنفاً، فمضيْنا نقفو أثره حتى دخلْنا المسجد، فإذا عمر يطوف بالبيت، فطفْنا معه، فلما فرغ دخل بيني وبين المغيرة، فتوكأ على المغيرة وقال: مِنْ أين جئتما؟ فقلنا: خرجنا نريدك يا أميرَ المؤمنين، فأتينا رَحْلك فقيل لنا: خرج إلى المسجد، فاتّبعناك. فقال: أتْبَعكما الخير، ثم نظر المغيرةُ إليّ وتبسم، فرمقَه عمر، فقال: مم تبسَّمْتَ أيها العبد! فقال: مِنْ حديث كنت أنا وأبو موسى فيه آنفاً في طريقنا إليك، قال: وما ذاك الحديث؟ فقصَصْنا عليه الخبر حتى بلغْنا ذِكْر حَسَد قريش، وذكر مَنْ أراد صرف أبي بكر عن استخلاف عمر، فتنفس الصُّعَداء ثم قال: ثكلَتْك أمّك يا مغيرة! وما تسعة أعشار الحسد! بل وتسعة أعشار العشر، وفي النّاس كُلِّهم عشر العشر، بل وقريش شركاؤهم أيضاً فيه! وسكت مليًا وهو يتهادى بيننا، ثم قال: ألا أخبركُما بأحْسَد قريش كلها؟ قلنا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: وعليكما ثيابكما؟ قلنا: نعم، قال: وكيف بذلك وأنتما ملبَسان ثيابكما! قلنا يا أمير المؤمنين، وما بالُ الثياب! قال: خوف الإذاعة منها، قلنا له: أتخاف الإذاعة من الثياب أنت، وأنت من ملبِس الثياب أخوف! وما الثياب أردت! قال: هو ذاك، ثم انطلق وانطلقنا معه حتى انتهينا إلى رَحْله، فخلّى أيديَنا من يده، ثم قال: لا تَرِيما[1]، ودخل، فقلت للمغيرة: لا أبالك!

(١) لا تريما: لا تبرحا. اللسان، مادة (ريم).

لقد عثرنا بكلامنا معه، وما كنّا فيه، وما نراه حبَسنا إلا ليذاكرنا إياها، قال: فإنّا لكذلك إذ أخرج إذْنَه إلينا، فقال: ادخلا، فدخلنا فوجدناه مستلقياً على بَرْذَعة بِرَحْل، فلما رآنا تمثّل بقول كعب بن زهير:

لاَ تُـفْـشِ سِـرَّك إلاَّ عِـنْـدَ ذِي ثِـقَـةٍ　　　أوْلَى وأفضـل ما اسْتَوْدَعْتَ أسْرَاراً

صـدراً رحيـبـاً وقَلْبـاً واسعـاً قَـمِـنـاً　　　ألاّ تـخـافَ مـتـى أودعْـت إظـهـاراً

فعلمنا أنّه يريد أن نضمن له كتمانَ حديثه، فقلت أنا له: يا أميرَ المؤمنين، الزمْنَا وخُصّنا وصِلْنا، قال: بماذا يا أخا الأشعرين؟ فقلت: بإفشاء سرّك وأن تَشْرَكنافي همّتك فنعم المستشار نحنُ لك! قال: إنّكما كذلك، فاسألا عَمّا بدا لكما، ثم قام إلى الباب ليُغلقه، فإذا الآذن الذي أذن لنا عليه في الحجرة، فقال: امضِ عنّا لا أمّ لك! فخرج وأغلق الباب خَلْفه، ثم أقبل علينا، فجلس معنا، وقال: سَلاَ تُخَبرا، قلنا: نريد أن يخبرنا أمير المؤمنين بأحْسَد قريش، الذي لم يأمن ثيابنا على ذكره لنا، فقال: سألتُما عن مُعْضِلة، وسأخبركما فلْيكن عندكما في ذِمّةٍ منيعة وحرزٍ ما بقيت، فإذا مِتّ فشأنكما وما شئتما من إظهار أو كتمان. قلنا: فإنّ لك عندنا ذلك.

قال أبو موسى: وأنا أقول في نفسي: ما يريد إلا الذين كرهوا استخلاف أبي بكر له كطلحة وغيره، فإنهم قالوا لأبي بكر: أتستخلف علينا فظًّا غليظاً! وإذا هو يذهبُ إلى غير ما في نفسي، فعاد إلى التنفّس، ثم قال: مَنْ تَرَيانه؟ قلنا: والله ما ندري إلا ظنًّا! قال: ومَنْ تَظُنّان؟ قلنا: عساك تريد القوم الذين أرادوا أبا بكر على صَرْفه هذا الأمر عنك، قال: كلاّ والله! بل كان أبو بكر أعقَّ، وهو الذي سألتما عنه، كان والله أحْسَد قريشٍ كلّها. ثم أطرق طويلاً، فنظر المغيرة إليّ ونظرتُ إليه، وأطرقْنا مليًّا لإطراقه، وطال السكوت منّا ومنه، حتى ظننا أنه قد ندِم على ما بدا منه. ثم قال: والهفاه على ضئيل بني تيم بن مرة! لقد تقدّمني ظالماً، وخرج إليّ منها آثماً، فقال المغيرة: أمّا تقدمُه عليك يا أميرَ المؤمنين ظالماً فقد عرفناه، كيف خرج إليك منها آثماً؟ قال: ذاك لأنه لم يخرج إليّ منها إلا بعد يأس منها، أما والله لو كنت أطعتُ يزيد بن الخطاب وأصحابَه لم يتلَمّظ[١] من حلاوتها بشيء أبداً، ولكني قدّمت وأخّرت، وصعّدت وصوّبت، ونقَضْت وأبرمت، فلم أجد إلا الإغضاء على ما نشب به منا، والتلهفّ على نفسي، وأمّلت إنَابته ورجوعَه، فوالله ما فعل حتى نَغَر[٢] بها بَشَماً.

قال المغيرة: فما منعك منها يا أمير المؤمنين، وقد عرّضك لها يوم السقيفة بدعائك إليها! ثم أنت الآن تنِقم وتتأسّف. قال: ثكِلَتْك أمّك يا مغيرة! إني كنت لَأعدُّك من دُهاة العرب،

---

(١) التلمظ: تلتذوق. اللسان، مادة (لمظ).

(٢) النغِر: المغتاظ الذي يغلي جوفه. اللسان، مادة (نغر). بشماً: البشم، السآمة. القاموس، مادة (بشم).

كأنّك كنت غائباً عمّا هناك! إن الرجل ماكَرني فماكرتُه، وألْفاني أحْذَرَ من قطاة[1]، إنه لما رأى شَغَفَ الناس به، وإقبالَهم بوجوههم عليه، أيقن أنهم لا يريدون به بدلاً، فأحبّ لَمّا رأى من حرص الناس عليه، وميلهم إليه أن يعلم ما عندي، وهل تنازعني نفسي إليها؟ وأحبّ أن يبلوَني بإطماعي فيها، والتعريض لي بها، وقد علم وعلمتُ لو قبلتُ ما عرضه عليّ، لم يجب الناس إلى ذلك، فألفَاني قائماً على إخمصي مستوفزاً حذِراً، ولو أجبتُه إلى قبولها لم يسلّم الناس إليّ ذلك، واختبأها ضِغنا عليّ في قَلْبِه، ولم آمن غائلته ولو بعد حين، مع ما بدا لي من كراهة الناس لي، أما سمعت نداءهم من كلّ ناحية عند عَرْضها عليّ: لا نريد سواك يا أبا بكر، أنت لها! فرددتُها إليه عند ذلك، فلقد رأيته التمع وجهُه لذلك سروراً. ولقد عاتبني مَرّة على كلام بلغَه عنّي، وذلك لما قُدِم عليه بالأشعث أسيراً، فمنّ عليه وأطلقه وزوّجه أخته أم فَرْوة، فقلت للأشعث وهو قاعد بين يديه: يا عدوّ الله، أكفرت بعد إسلامك، وارتددت ناكصاً على عِقَبيك! فنظر إليّ نظراً علمت أنه يريد أن يكلّمني بكلام في نفسه، ثم لقِيَني بعد ذلك في سِكَك المدينة، فقال لي: أنت صاحبُ الكلام يا ابن الخطاب؟ فقلت: نعم يا عدوّ الله، ولك عندي شرّ من ذلك، فقال: بئس الجزاء هذا لي منك! قلت: وعلام تريد منّي حُسْن الجزاء؟ قال: لأنَفتِي لك من اتّباع هذا الرجل، والله ما جرّأني على الخلاف عليه إلا تقدّمه عليك، وتخلّفك عنها. ولو كنتَ صاحبَها لما رأيتَ مني خلافاً عليك. قلت: لقد كان ذلك، فما تأمر الآن؟ قال: إنه ليس بوقت أمر بل وقت صبر، ومضى ومضيت. ولقي الأشعث الزِّبْرقان بن بدر فذكر له ما جرى بيني وبينه، فنقل ذلك إلى أبي بكر، فأرسل إليّ بعتاب مؤلم، فأرسلت إليه: أما والله لَتَكُفَنّ أو لأقولنّ كلمة بالغة بي وبك في الناس، تحملها الركبان حيث ساروا، وإن شئتَ استدمنا ما نحن فيه عفواً، فقال: بل نستديمه، وإنها لصائرة إليك بعد أيام، فظننت أنه لا يأتي عليه جمعة حتى يردّها عليّ، فتغافل، والله ما ذاكرني بعد ذلك حرفاً حتى هلك.

ولقد مَدّ في أمَدها عاضًا على نواجذه حتى حضره الموت، وأيِسَ منها فكان منه ما رأيتما، فاكتما ما قلت لكما عن الناس كافة وعن بني هاشم خاصة، وليَكُن منكما بحيث أمرتكما. قوما إذا شئتما على بركة الله. فقمنا ونحن نعجب من قوله، فوالله ما أفشينا سرّه حتى هلك.

قال المرتضى: وليس في طَعْن عمرَ على أبي بكر ما يؤدّي إلى فساد خلافتِه، إذْ له أن يُثْبِت إمامةَ نفسه بالإجماع، لا بنصّ أبي بكر عليه. وأما الفلْتة فإنها وإن كانت محتمِلةً للبغْته كما قاله أبو عليّ رحمه الله تعالى، إلا أن قوله: «وقى الله شرّها» يخصصها بأنّ مخرَجها مخرج الذمّ. وكذلك قوله: «فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»، وقوله: المراد وقى الله شرّ الاختلاف فيها، عدولٌ

(١) القطاة: طائر معروف، وهو شديد الحذرَ. اللسان، مادة (قطا).

عن الظاهر، لأنّ الشرَّ في الكلام مضاف إليها دون غيرها. وأبعدُ من هذا التأويل قوله: إن المراد مَنْ عاد إلى مثلها من غير ضرورة وأكْرَهَ المسلمين عليها فاقتلوه، لأن ما جرى هذا المجرى لا يكون مِثْلاً لبيعة أبي بكر عندهم، لأنّ كلّ ذلك ما جرى فيها على مذاهبهم، وقد كان يجب على هذا أن يقول: فمن عاد إلى خلافها فاقتلوه.

وليس له أن يقول: إنما أراد بالمِثْل وَجْهاً واحداً، وهو وقوعها من غير مشاورة، لأن ذلك إنما تمّ في أبي بكر خاصة بظهور أمره واشتهار فضله. ولأنهم بادروا إلى العَقْد خوفاً من الفتنة ما اتفق لأبي بكر، فلا يستحقّ قتلاً ولا ذمًّا، على أنّ قوله: «مِثْلها» يقتضي وقوعًا على الوجه الذي وقعت عليه، فكيف يكون ما وقع من غير مشاورة لضرورة داعية وأسباب موجبة مِثْلاً لما وقع بلا مشاورة، ومن غير ضرورة ولا أسباب! والذي رواه عن أهل اللغة من أنّ آخر يوم من شوال يسمَّى فَلْتة من حيث إنّ من لم يدرك فيه الثار فإنه قول لا نعرفه، والذي نعرفه أنّهم يسمون الليلة التي ينقضي بها آخرُ الْحُرُم ويتم فلتة، وهي آخر ليلة من ليالي الشهر، لأنه ربما رأى الهلالَ قوم لتسع وعشرين ولم يبصره الباقون، فيغير هؤلاء على أولئك وهم غارّون، فلهذا سُمِّيت تلك الليلة فَلْتة، على أنا قد بيّنا أنّ مجموعَ الكلام يقتضي ما ذكرناه من المعنى، لو سُلِّم له ما رواه عن أهل اللغة في احتمال هذه اللفظة.

قال: وقد ذكر صاحب كتاب «العين» أنّ الفلْتة الأمرُ الذي يقع على غير إحْكام، فقد صحّ أنّها موضوعة في اللغة لهذا، وإن جاز ألا تختصّ به، بل تكون لفظة مشتركة.

وبعد، فلو كان عمر لم يُرِدْ بقوله توهينَ بيعة أبي بكر، بل أراد ما ظنه المخالفون، لكان ذلك عائداً عليه بالنقص، لأنه وضع كلامه في غير موضعه، وأراد شيئاً فعبّر عن خلافه، فليس يَخْرج هذا الخبر من أن يكن طعناً على أبي بكر، إلاّ بأن يكون طعناً على عمر.

واعلم أنّه لا يبعد أن يقال: إنّ الرضا والسخط، والحبّ والبغْض، وما شاكل ذلك، من الأخلاق النفسانية وإن كانت أموراً باطنة، فإنها قد تُعْلَم ويضطر الحاضرون إلى تحصيلها بقرائنِ أحوال تفيدهم العلم الضروريّ، كما يُعْلَم خوف الخائف وسرور المبتهج. وقد يكون الإنسان عاشقاً لآخر فيعلم المخالطون لهما ضرورةً أنه يَعْشَقُه، لما يشاهدونه من قرائن الأحوال، وكذلك يُعلم من قرائن أحوال العابد المجتهد في العبادة، وصوم الهواجر وملازمة الأوراد وسهر الليل، أنه يتدين بذلك. فغيرُ منكر أن يقول قاضي القضاة رحمه الله تعالى: إنّ المعلوم ضرورةً من حالِ عمر تعظيم أبي بكر ورضاه بخلافته وتديّنه بذلك، فالذي اعترضه رحمه الله تعالى به غيرُ وارد عليه.

وأما الأخبار التي رواها عن عمر فأخبار غريبة، ما رأيناها في الكتب المدوّنة، وما وقفنا عليها إلا من كتاب المرتضى، وكتاب آخر يعرف بكتاب «المسترشد» لمحمد بن جرير الطبريّ -

وليس هو محمد ابن جرير صاحب «التاريخ»، بل هو من رجال الشيعة - وأظنّ أنّ أمه من بني جرير من مدينة آمُل طَبَرِستان، وبنو جرير الآمليّون شيعة مستهترون بالتشيّع، فنسِب إلى أخواله، ويدلّ على ذلك شعر مرويٌّ له وهو:

بآمُلَ مولِدِي وبنو جَريرٍ ... فأخوالي، ويَحْكي المرءُ خالَهْ

فَمَنْ يَكُ رافضيًّا عن أبيهِ ... فإنّي رافضيّ عن كَلالَهْ

وأنت تعلم حال الأخبار الغريبة التي لا توجد في الكتب المدونة كيف هي؟ فأما إنكارُه ما ذكره شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى من أنّ الفلْتة هي آخر يوم من شوال، وقوله: إنّا لا نعرفه، فليس الأمر كذلك بل هو تفسير صحيح، ذكره الجوهريّ في كتاب «الصحاح» قال: الفلتة آخر ليلة من كل شهر، ويقال: هي آخر يوم من الشهر الذي بعده الشهر الحرام. وهذا يدلّ على أن آخر يوم من شوال يسمى فَلْتة، وكذلك آخر يوم من جمادى الآخرة، وإنّما التفسيرُ الذي ذكره المرتضى غيرُ معروف عند أهل اللغة.

وأما ما ذكره من إفساد حَمْلِ الفلتة في الخبرِ على هذه الوجوه المتأوّلة فجيّد، إلا أنّ الإنصاف أنَّ عمرَ لم يخرِج الكلام مخرج الذمّ لأمر أبي بكر، وإنما أراد باللفظة محض حقيقتها في اللغة، ذكر صاحب «الصحاح» أن الفلتةَ الأمر الذي يُعمل فجأة من غير تردد ولا تدبّر، وهكذا كانت بيعة أبي بكر، لأنّ الأمر لم يكن فيها شورى بين المسلمين، وإنما وقعت بغتة لم تمحَّصْ فيها الآراء، ولم يتَناظر فيها الرجال، وكانت كالشيء المستلَب المنتَهب، وكان عمر يخاف أن يموت عن غير وصيّة، أو يُقتل قتلاً فيبايَع أحد من المسلمين بغتة كبيعة أبي بكر، فخطب بما خطب به، وقال معتذراً: ألاَ إنه ليس فيكم مَنْ تُقطع إليه الأعناق كأبي بكر!

وأيضاً قول المرتضى: قد يتّفق من ظهورِ فضل غير أبي بكر وخوف الفتنة مثل ما اتفق لأبي بكر، فلا يستحق القتل، فإنّ لقائل أن يقول: إنّ عمر لم يخاطب بهذا إلا أهلَ عصره، وكان هو رحمه الله يذهبُ إلى أنه ليس فيهم كأبي بكر، ولا من يُحتمل له أن يبايع فَلْتة كما احتمِل ذلك لأبي بكر، فإن اتفق أن يكون في عصرٍ آخر بعد عصره مَنْ يظهر فضله، ويكون في زمانه كأبي بكر في زمانه فهو غيرُ داخلٍ في نهي عمر وتحريمه.

واعلم أن الشيعة لم تسلّم لعمر أن بيعة أبي بكر كانت فَلْتة، قال محمد بن هانيء المغربيّ:

وَلَكِنّ أمراً كانَ أُبْرِمَ بينهمْ ... وإن قال قوم فَلْتَةٌ غَيْرُ مُبْرَمِ

وقال آخر:

زعموها فَلْتَةً فاجِئَةً ... لا وَرَبِّ البيت والرُّكْن المشيدِ

إنما كانتْ أموراً نُسِجَتْ ... بينهم أسبابُها نَسْجَ البُرود

وروى أبو جعفر أيضاً في التاريخ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبِض اجتمعت الأنصار في سَقِيفة بني ساعدة، وأخرجوا سعد بن عبادة، ليولّوه الخلافة، وكان مريضاً، فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه، ثم ترادّوا الكلام فقالوا: فإنْ أبَى المهاجرون، وقالوا: نحن أولياؤه وعِتْرته؟ فقال قوم من الأنصار: نقولُ: مِنّا أمير ومنكم أمير، فقال سعد: فهذا أول الوَهَن! وسمِع عمر الخبر فأتى منزل رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيه أبو بكر، فأرسل إليه أن اخرج إليّ، فأرسل: إني مشغول، فأرسل إليه عمر أن اخرج، فقد حدث أمر لا بدَّ أن تحضُرَه، فخرج فأعلمه الخبر، فمضيا مسرعيْن نحوهم، ومعهما أبو عُبيدة، فتكلّم أبو بكر، فذكر قُرْبَ المهاجرين من رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّهم أولياؤه وعِتْرته، ثم قال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نفتاتُ عليكم بمشورة، ولا نقضِي دونكم الأمور.

فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال:

يا معشرَ الأنصار املِكوا عليكم أمرَكم، فإنّ الناس في ظلّكم، ولن يجترىء مجترىء على خِلافكم، ولا يَصدُرُ أحد إلا عن رأيكم. أنتم أهل العِزّة والمَنعة، وأولو العَدَد والكثرة، وذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، فلا تختلِفوا فتفسد عليكم أمورُكم، فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير(١).

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع سَيْفانِ في غِمْد، والله لا ترضى العرب أن تؤمّرَكم ونبيُّها من غيركم، ولا تمتنع العربُ أن تولّيَ أمرَها مَنْ كانت النبّوة منهم، مَنْ ينازعنا سلطان محمد، ونحن أولياؤه وعشيرته!

فقال الحُبَاب بن المنذر:

يا معشرَ الأنصار، املِكوا أيديَكم، ولا تسمعوا مقالَةَ هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم فأجلُوهم من هذه البلاد، فأنتم أحقُّ بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدّين، أنا جُذَيْلُها المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجّب، أنا أبو شِبْل في عرّيسَة الأسد، والله إن شئتم لَنُعِيدَنّها جَذَعة.

فقال عمر: إذن يقتلَك الله، قال: بل إياك يقتل.

فقال أبو عبيدة: يا معشرَ الأنصار، إنّكم أولُ مَنْ نصر وآزر، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيّر.

فقام بشير بن سعد، والد النعمان بن بشير فقال: يا معشرَ الأنصار، ألا إن محمداً من قريش، وقومُه أوْلى به، وايمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر.

---

(١) أنظر البحار: ٢٨/ ٣٢٥.

فقال أبو بكر: هذا عمر وأبو عبيدة بايعوا أيَّهما شئتم، فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين، وخليفة رسول الله ﷺ - وهي أفضلُ الدين - ابسط يَدَكَ. فلمّا بسط يدَه ليبايعاه سبَقَهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحُباب بن المنذر: يا بَشير، عَقِقْتَ عقاقِ[١]! أنَفِسْت على ابن عَمّك الإمارة!

فقال أسيد بن حُضَيْر رئيس الأوس لأصحابه: والله لئنْ لم تبايعوا ليكوننَّ للخزرج عليكم الفَضيلةُ أبداً. فقاموا فبايعوا أبا بكر.

فانكسر على سعد بن عبادة والخزرج ما اجتمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر مِنْ كلِّ جانب، ثم حُمِل سعد بن عبادة إلى داره، فبقي أياماً، وأرسل إليه أبو بكر ليبايع، فقال: لا والله حتى أرمِيَكم بما في كنانتي، وأخضِّب سِنان رمحي، وأضربَ بسيفي ما أطاعني، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن تبعَني، ولو اجتمع معكم الجنّ والإنسُ ما بايعتكم حتى أُعرَض على ربّي.

فقال عمر: لا تدعْه حتى يبايع، فقال بشير بن سعد: إنه قد لجّ، وليس بمبايع لكم حتى يُقتل، وليس بمقتول حتى يُقتلَ معه أهله وطائفة من عشيرته، ولا يضرّكم تركه، إنما هو رجل واحد، فتركوه.

وجاءت أسلم فبايعت، فقوِيَ بهم جانب أبي بكر، وبايعه الناس.

وفي كتب غريب الحديث في تتمة كلام عمر: فأيّما رجل بايع رجلاً بغير مشورة من الناس فلا يؤمّر واحد منهما تَغِرّةً أن يقتلا.

قالوا: غرّر تغريراً وتَغِرّة. كما قالوا: حلّل تحليلاً وتَحِلّة، وعلّل تعليلاً وتَعِلّة، وانتصب «تغرّة» ها هنا لأنه مفعول له، ومعنى الكلام أنه إذا بايع واحد لآخر بغتةً عن غير شورى، فلا يؤمّر واحد منهما، لأنهما قد غررا بأنفسهما تَغِرّةً، وعرّضاهما لأن تُقتلا.

وروى جميع أصحاب السيرة أن رسول الله ﷺ لما توفّيَ كان أبو بكر في منزله بالسُّنْح[٢]، فقام عمر بن الخطاب فقال: ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يظهر دينُه على الدِّين كله، ولَيَرْجعنّ، فَليُقطعنَّ أيديَ رجال وأرجلهم مِمّن أرْجَف[٣] بموته، لا أسمع

---

(١) عاققت فلاناً عقاقاً: إذا خالفته. اللسان، مادة (عقق).
(٢) السنح: موضع بعوالي المدينة فيه منازل بني الحرث بن الخزرج اللسان، مادة (سنح).
(٣) أرجف القوم: إذا خاضوا في ذكر الفتن والأخبار السيئة. اللسان، مادة (رجف).

رجلاً يقول: مات رسول الله إلا ضربته بسيفي. فجاء أبو بكر وكشَف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: بأبي وأمي! طِبْتَ حيًّا وَمَيتاً، والله لا يذيقك الله الموتَتَيْن أبداً، ثم خرج والناس حول عمر، وهو يقول لهم: إنه لم يمت، ويحلف، فقال له: أيّها الحالف، على رِسْلك! ثم قال: مَنْ كان يعبد محمّداً فإن محمّداً قد مات ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، وقال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[2]، قال عمر: فوالله ما ملكتُ نفسي حيث سمعتُها أن سقطتُ إلى الأرض، وعلمتُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد مات.

وقد تكلّمت الشّيعة في هذا الموضع، وقالوا: إنه بلغ من قلّة عِلْمه أنّه لم يعلم أن الموتَ يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه أسوة الأنبياء في ذلك، وقال: لما تلا أبو بكر الآيات، أيقنتُ الآن بوفاته. كأنّي لم أسمع هذه الآية، فلو كان يحفظ القرآن أو يتفكر فيه، ما قال ذلك، ومَنْ هذه حاله لا يجوز أن يكون إماماً.

وأجاب قاضي القضاة رحمه الله تعالى في «المغني» عن هذا فقال: إنّ عمر لم يمنع من جواز موته عليه السلام، ولا نَفَى كونه ممكناً، ولكنه تأوّل في ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[3]، وقال: كيف يموت ولم يظهَر صلوات الله عليه على الدين كُلِّه! فقال أبو بكر: إذا ظهر دينُه فقد ظهر هو، وسيظر دينُه بعد وفاته.

فحمَل عمر قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ على تأخّر الموت، لا على نفيه بالكلية، قال: ولا يجب فيمن ذَهل عن بعض أحكام القرآن ألاّ يحفظَ القرآن، لأن الأمر لو كان كذلك لوجب ألاّ يحفظ القرآن إلا من عرف جميع أحكامه، على أنّ حفظَ جميع القرآن غير واجب، ولا يقدح الإخلال به في الفضل.

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب «الشافي» هذا الكلام، فقال: لا يخلُو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال والاعتقاد أنْ الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه، أو يكون منكِراً لموته في تلك الحال من حيث لم يظهر على الدين كلّه، فإن كان الأوّل فهو مما لا يجوز خلاف عاقل فيه، والعلم بجواز الموت على جميع البشر ضروريّ. وليس يحتاج في حصول هذا العلم إلى تلاوة الآيات التي تلاها أبو بكر. وإنْ كان الثاني، فأوّل ما فيه أنّ هذا الاختلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر عليه من قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾[4]، لأن عمر لم ينكِر على هذا الوجه جوازَ الموت عليه وصحتَه، وإنما

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

خالف في وقته. فكان يجب أن يقول لأبي بكر: وأيّ حجة في هذه الآيات عليّ! فإني لم أمنع جوازَ موته، وإنما منعتُ وقوع موته الآن، وجوزته في المستقبل، والآيات إنما تدل على جواز الموت فَقَطْ، لا على تخصيصه بحال معينة.

وبعد، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على عُمر من بين سائر الخلْق! ومن أين زعم أنه سيعود فيقطع أيديَ رجال وأرجلَهم! وكيف لم يحصل له من اليقين لمّا رأى من الواعية[1] وكآبة الخلْق وإغلاق الباب وصُراخ النساء ما يدفع به ذلك الوهْم والشبهة البعيدة، فلم يحتج إلى موقِّف!

وبعد، فيجب إن كانت هذه شبهته أن يقول في مرض النبي ﷺ - وقد رأى جَزَع أهلِه وخوفهم عليه الموت، وقولَ أسامة صاحب الجيش -: لم أكنْ لأرحلَ وأنت هكذا وأسأل عنك الرُّكْب، يا هؤلاء لا تخافوا ولا تجزعوا، ولا تخفْ أنت يا أسامة، فإنّ رسول الله ﷺ لا يموت الآن لأنّه لم يَظْهر على الدين كلّه.

وبعد، فليس هذا من أحكام الكتاب التي يُعْذَر من لا يعرفها على ما ظنّ المعتذِر له.

ونحن نقول: إنّ عمر كان أجلَّ قدراً من أن يعتقد ما ظهر عنه في هذه الواقعة، ولكنه لما علم أنّ رسول الله ﷺ قد مات، خاف من وقوع فتنة في الإمامة، وتقلّب أقوام عليها، إمّا من الأنصار أو غيرهم، وخاف أيضاً من حدوث رِدّة، ورجوع عن الإسلام، فإنّه كان ضعيفاً بعد لم يتمكّن، وخاف من تِراتٍ تُشَنّ، ودماء تراق، فإنّ أكثرَ العرب كان موتوراً في حياة رسول الله ﷺ لِقَتل مَنْ قَتَل أصحابُه منهم، وفي مثل ذلك الحال تنتهز الفرصة، وتُهْتَبَلُ الغِرّة[2]، فاقتضت المصلحة عنده تسكينَ الناس بأنْ أظهر ما أظهره من كونِ رسول الله ﷺ لم يمت، وأوقَع تلك الشبهةَ في قلوبهم، فكسر بها شِرَّةَ كثير منهم، وظنوها حقًّا، فثناهم بذلك عن حادث يُحدثونه، تخيّلاً منهم أنّ رسول الله ﷺ ما مات، وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه، وهكذا كان عمر يقول لهم: إنّه قد غاب عنكم كما غاب موسى عن قومه، وليعودَنّ فليقطّعنّ أيديَ قوم أرجفوا بموته.

ومثلُ هذا الكلام يقع في الوهْم، فيصدّ عن كثير من العزم، ألا ترى أنّ المِلك إذا مات في مدينة وقع فيها في أكثر الأمر نهب وفساد وتحريق، وكلّ مَنْ في نفسه حِقْد على آخر بلَغ منه

---

(١) الواعية: الصراخ على الميت ونعيه. اللسان، مادة (وعي).
(٢) الغرة: الخديعة. اللسان، مادة (غرر).

غرضه، إمّا بقتلٍ أو جرح أو نهب مال، إلى أن تتمهّد قاعدةُ الملِك الذي يَلِي بعده، فإذا كان في المدينة وزير حازم الرأي، كتم موت الملك، وسجن قوماً ممن أرجف نداء بموته، وأقام فيهم السياسة، وأشاع أن المِلك حيّ، وأنّ أوامره وكتبه نافذة، ولا يزال يلزم ذلك الناموس إلى أن يمهّد قاعدة الملك للوالي بعده، وكذلك عمر أظهر ما أظهر حِراسة للدين والدولة، إلى أن جاء أبو بكر - وكان غائباً بالسُّنْح، وهو منزل بعيد عن المدينة - فلما اجتمع بأبي بكر قوِيَ به جاشُه، واشتدّ به أزره، وعَظُم طاعة الناس له وميلهم إليه، فسكت حينئذٍ عن تلك الدعوى التي كان ادّعاها، لأنه قد أمِنَ بحضور أبي بكر من خَطْبٍ يحدث، أو فساد يتجدّد، وكان أبو بكر محبّباً إلى الناس، لا سيّما المهاجرين.

ويجوز عند الشيعة وعند أصحابنا أيضاً أن يقول الإنسان كلاماً ظاهر الكذب على جهة المعاريض، فلا وَصْمَةَ على عمر إذا كان حَلَف أنّ رسول الله ﷺ لم يُمتْ، ولا وَصْمَةَ عليه في قوله بعد حضور أبي بكر وتلاوة ما تلا: كأني لم أسمعها، أو قد تيقنت الآن وفاته ﷺ، لأنه أراد بهذا القول الأخير تشييدَ القول الأول، وكان هو الصواب، وكان من سيّء الرأي وقبيحه أن يقولَ: إنّما قلتهُ تسكيناً لكم، ولم أقله عن اعتقاد، فالذي بَدَأ به حَسن وصواب، والذي ختم به أحسن وأصوَب.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب «السقِيفة» عن عمر بن شبّة، عن محمد بن منصور، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، قال: كان النبي ﷺ قد بعثَ أبا سفيان ساعياً، فرجع من سِعايته وقد مات رسول الله ﷺ، فلقيَه قوم - فسألهم، فقالوا: مات رسول الله ﷺ، فقال: مَنْ وليَ بعده؟ قيل: أبو بكر، قال: أبو فَصِيل! قالوا: نعم، قال: فما فعل المستضعفان: عليّ والعباس! أما والّذي نفسي بيده لأرفعنّ لهما من أعضادهما.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وذكر الراوي - وهو جعفر بن سليمان - أنّ أبا سفيانَ قال شيئاً آخر لم تحفظه الرواة، فلما قدم المدينة قال: إنّي لأرى عَجاجة لا يطفئها إلا الدم! قال: فكلّم عمرُ أبا بكر، فقال: إنّ أبا سُفيان قد قَدِم، وإنا لا نأمن شرّه، فدَعْ له ما في يده، فتركه فرضيَ.

وروى أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان قال لما بويع عثمان: كان هذا الأمر في تَيم، وأنّى لتَيم هذا الأمر! ثم صار إلى عديّ فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقرّ الأمر قراره، فتلقفوها تلقّفَ الكرة.

قال أحمد بن عبد العزيز: وحدّثني المغيرة بن محمد المهلّبيّ قال: ذاكرت إسماعيل بن

إسحاق القاضي بهذا الحديث، وأنّ أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت! أنفق ولا تكنْ كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدانِ الكُرة، فوالله ما من جَنّة ولا نار – وكان الزّبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعْزُب، فقال: يا بنيّ أها هنا أحدا! قال الزبير: نعم والله لا كتمتُها عليك – قال: فقال إسماعيل: هذا باطل. قلت: وكيف ذلك؟ قال: ما أنكِر هذا من أبي سفيان، ولكن أنكِر أن يكون سَمِعه عثمان، ولم يضرب عنقه.

وروى أحمد بن عبد العزيز، قال: جاء أبو سفيان إلى عليّ عليه السلام، فقال: ولّيتم على هذا الأمر أذلّ بيت في قريش، أما والله لئن شئت لأملأنّها على أبي فصِيل خيلاً ورجلاً، فقال عليّ عليه السلام: طالما غششتَ الإسلام وأهلَه فما ضررتَهُم شيئاً! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك، لولا أنّا رأينا أبا بكر لها أهلاً، لما تركناه.

وروى أحمد بن عبد العزيز، قال: لما بويع لأبي بكر كان الزبير والمقداد يختلفان في جماعة من الناس إلى عليّ وهو في بيت فاطمة، فيتشاورون ويتراجعون أمورهم، فخرج عمر حتى دخل على فاطمة عليها السلام، وقال: يا ابنة رسول الله، ما من أحد من الخلْق أحبّ إلينا من أبيك، وما من أحد أحبّ منك بعد أبيك، وايمُ الله ماذاك بمانعي إن اجتمع هؤلاء النَّفر عندك أنْ آمرَ بتحريق البيت عليهم. فلما خرج عمر جاؤوها، فقالت: تعلَمون أنّ عمر جاءني، وحلف لي بالله إن عُدتم لَيحرقَنّ عليكم البيت، وايمُ الله ليمضينّ لما حَلَفَ له، فانصرفوا عنا راشدين. فلم يرجعوا إلى بيتها، وذهبوا فبايعوا لأبي بكر.

وروى أحمد – وروى المبرّد في «الكامل» صدر هذا الخبر – عن عبد الرحمن بن عوف، قال: دخلتُ على أبي بكر أعودُه في مرضه الذي مات فيه، فسلّمت، وسألته: كيف به؟ فاستوى جالساً، فقلت: لقد أصبحت بحمد الله بارئاً، فقال: أما إنّي على ما تَرى لِوَجِع، وجعلتم لي معشر المهاجرين شغلاً مع وجَعِي، وجعلت لكم عهداً مني من بعدي، واخترت لكم خيرَكم في نفسي، فكلّكم وَرِم لذلك أنفُه رجاء أن يكون الأمر له، ورأيتم الدنيا قد أقبلت، والله لتتَّخِذُنّ ستورَ الحرير ونضائد الديباج[1]، وتألمون ضجائع الصوف الأذربيّ، كأنّ أحدَكم على حَسَك السَّعْدَان. والله لأنْ يقدَّم أحدكم فتضربَ عنقه في غير حَدّ خَيْرٌ له من أن يَسْبَح في غمرة الدنيا، وإنكم غداً لأوّل ضالّ بالناس يجورون عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هاديَ الطريق جُرْتَ، إنما هو البَجْر أو الفَجْر. فقال له عبد الرحمن: لا تُكْثر على ما بك فَيهيضَك، والله ما أردتَ إلا خيراً، وإن صاحبَك لذو خير، وما الناس إلا رجلان: رجل رأى ما رأيت، فلا خلاف عليك

(١) الديباج: ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير. المعجم الوسيط، مادة (دبج).

منه، ورجل رأى غيرَ ذلك، وإنما يشير عليك برأيه. فسكنَ وسكتَ هُنَيهةً، فقال عبدُ الرحمن: ما أرى بك بأساً والحمد لله، فلا تأسَ على الدنيا، فوالله إن علمْنَاك إلا صالحاً مصلحاً. فقال: أما إني لا آسَى إلا على ثلاث فعلتُهنّ، ودِدت أنّي لـم أفعلْنّ، وثلاث لـم أفعلهنّ ودِدْت أني فعلتهُنّ، وثلاث ودِدت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنهنّ:

فأما الثلاث التي فعلتُها وودِدت أنّي لم أكن فعلتُها: فودِدْت أني لم أكنْ كشفتُ عن بيت فـاطمة وتركتُه ولـو أُغلِق على حَرْب، وودِدْت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمْرَ في عُنق أحد الرجلين: عمر أو أبي عبيدة، فكان أميراً وكنت وزيراً، وودِدت أني إذ أتيت بالفُجَاءة لم أكن أحرقته، وكنت قتلته بالحديد أو أطلقته.

وأما الثلاث التي تركتها ووَدِدْت أني فعلتها: فوددت أنّي يوم أتيت بالأشعث كنت ضربت عنقه، فإنه يخيل إليّ أنه لا يرى شرًّا إلا أعان عليه، ووددت أنّي حيث وجّهت خالداً إلى أهل الردّة أقمت بذي القصّة، فإن ظَفِر المسلمون وإلا كنتُ رِدْءًا لَهُم، وودِدت حيث وجهت خالداً إلى الشام كنت وجهت عمر إلى العراق، فأكون قد بسطْتُ كلتا يديّ: اليمين والشمال في سبيل الله.

وأما الثلاث اللواتي ودِدت أنّي كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنهنّ: فوددت أنّي سألته فيمن هذا الأمر، فكنا لا ننازعه أهلَه، ووددت أني كنت سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ وودت أنّي سألته عن ميراث العمّة وابنة الأخت، فإنّ في نفسي منهما حاجة[1].

ومن كتاب معاوية المشهور إلى عليّ عليه السلام:

وأعهدك أمس تحملُ قعيدةَ بيتِك ليلاً على حمار ويَدَاكَ في يدي ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق، فلم تَدَع أحداً من أهل بَدْر والسوابقِ إلا دعوتَهم إلى نفسك، ومشيت إليهم بامرأتك، وأدلَيْت إليهم بابنيك، واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلا أربعة أو خمسة، ولعَمْري لو كنت محقًّا لأجابوك، ولكنك ادّعيتَ باطلاً، وقلت ما لا تعرف، ورُمْتَ ما لا يُدرَك، ومهما نسيتُ فلا أنسى قولك لأبي سفيان، لمّا حرّكك وهَيّجك: لو وجدتُ أربعين ذوِي عزم منهم لناهضتُ القوم، فما يوم المسلمين منك بواحد، ولاَ بغْيُك على الخلفاء بطريف ولا مستبدَع.

وسنذكر تمام هذا الكتاب وأوله عند انتهائنا إلى كتب عليّ عليه السلام.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ عن أبي المنذر وهشام بن محمد بن السّائب عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: كان بين العباس وعليّ مباعدة، فلقيَ ابنُ عباس

---

(١) رواه الذهبي في التاريخ: ٣/ ١١٧ - ١١٨، والمتقي الهندي في الكنز رقم ١٤١١٣، والهيثمي في المجمع: ٥/ ٣٦٧، والمسعودي في المروج: ٢/ ٣٠١.

عليًا، فقال: إن كان لك في النَّظَر إلى عمك حاجة فَأْته، وما أراك تَلْقاه بعدها. فوجَمَ لها وقال. تقدمْني واستأذن، فتقدمتُه واستأذنت له، فأذِن فدخلَ، فاعتنق كلّ واحد منهما صَاحبَه، وأقبل عليّ عليه السلام على يده ورجله يقبّلهما، ويقول: يا عمّ، ارضَ عني رضيَ الله عنك، قال: قد رضيتُ عنك.

ثم قال: يا ابنَ أخي، قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل، ورأيت في عاقبتها ما كرهت، وهانذا أشير عليك برأيٍ رابعٍ، فإن قبلتَه، وإلاّ نالك ما نالك مما كان قبله. قال: وما ذاك يا عم؟ قال: أشرتُ عليك في مرض رسول الله صلى الله عليه وآله أن تسأله، فإن كان الأمر فينا أعطاناه، وإن كان غيرنا أوصى بنا. فقلت: أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده، فمضت تلك. فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة، فدعوْناك إلى أن نبايعَكَ، وقلت لك: ابسُط يدك أبايعك، ويبايعك هذا الشيخ، فإنا إن بَايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك أحد من قريش، وإذا بايعتْك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب، فقلتَ: لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه وآله شُغْل، وهذا الأمر فليس نخشى عليه، فلم نَلْبَثْ أن سمعنا التكبيرَ من سقيفة بني ساعدة، فقلت: ما هذا؟ قلتُ: ما دعوناك إليه فأبيت، قلت: سبحان الله! أو يكون هذا! قلتُ: نعم. قلتَ: أفلا يردّ؟ قلتُ لك: وهل رُدّ مثلُ هذا قَطّ! ثم أشرتُ عليك حين طُعِن عمر فقلت: لا تُدْخِلْ نفسَك في الشورى، فإنك إن اعتزلتهم قدّموك، وإن ساويتَهم تقدّموك، فدخلتَ معهم فكان ما رأيت.

ثم أنا الآن أشير عليك برأيٍ رابع، فإن قبلتَه وإلاّ نالك ما نالك ممّا كان قبله، إني أرى أنّ هذا الرجل - يعني عثمان - قد أخذ في أمور، والله لكأنّي بالعرب قد سارت إليه حتى يُنْحَر في بيته كما يُنْحَرُ الجمل. والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة ألزمك الناس به، وإذا كان ذلك لم تنلْ من الأمر شيئاً إلا من بعد شرٍّ لا خير معه.

قال عبد الله بن عباس: فلما كان يوم الجمل عَرَضْت له - وقد قُتل طلحة، وقد أكثر أهل الكوفة في سَبِّه وغَمْصِه - فقال عليّ عليه السلام: أما والله لئن قالوا ذلك، لقد كان كما قال أخو جُعفيّ:

فَتًى كَانَ يُدْنِيه الْغِنى مِنْ صَدِيقِهِ ... إذَا مَا هُو اسْتَغْنَى ويُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

ثم قال: والله لكأنّ عَمّي كان ينظر من وراء سِتْرٍ رَقيق، والله ما نلتُ من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شرٍّ لا خيرَ معه.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، عن حُباب بن يزيد، عن جرير بن المغيرة أنّ سَلْمَان والزّبير والأنصار كان هواهم أن يُبايعوا عليًا عليه السلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله. فلما بُويع أبو بكر، قال سلمان: أصبتم الخِبْرَة وأخطأتم المَعْدِن.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدثنا عليّ بن أبي هاشم، قال: حدّثنا عمرو بن ثابت، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: قال سلمان يومئذ: أصبتم ذا السنّ منكم، وأخطأتم أهلَ بيت نبيّكم، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان، ولأكلتموها رغداً.

قال أبو بكر: وأخبرنا عمر بن شبّة، قال: حدّثني محمد بن يحيى، قال: حدثنا غسّان بن عبد الحميد، قال: لمّا أكثر الناس في تخلُّف عليّ عليه السلام عن بيعة أبي بكر، واشتدّ أبو بكر وعمر عليه في ذلك، خرجتْ أم مِسْطح بن أثاثة، فوقفتْ عند القبر، وقالت:

كانتْ أمورٌ وأنباءٌ وهَنْبَثَةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تَكثُرِ الخُطَبُ
إنّا فَقَدْناك فَقْدَ الأرضِ وَابِلَها ... واختلّ قومُك فاشهَدْهُمْ ولا تَغِبِ

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا إبراهيم بن المنذر، عن ابن وهب، عن ابن لَهِيعة، عن أبي الأسود، قال: غضب رجالٌ من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة، وغضب عليّ والزبير، فدخَلا بيت فاطمة عليها السلام، معهما السلاح، فجاء عمر في عصابة، منهم أُسَيْد بن حُضَير وسلَمة بن سَلاَمة بن وَقش - وهما من بني عبد الأشهل - فصاحت فاطمة عليها السلام، وناشدتْهم الله. فأخذوا سيفيْ عليّ والزبير، فضربوا بهما الجدار حتى كسروهما، ثم أخرجهما عمر يَسُوقهما حتى بايعا، ثم قام أبو بكر فخطب الناس، واعتذر إليهم، وقال: إن بيعتي كانت فَلْتَة وقى الله شرّها، وخشيتُ الفتنة، وايمُ الله ما حرَصت عليها يوماً قطّ، ولقد قُلِّدت أمراً عظيماً مالي به طاقة ولا يدان، ولوَدِدْتُ أنّ أقوى الناس عليه مكاني. وجعل يعتذر إليهم، فقبل المهاجرون عذرَه. وقال عليّ والزبير: ما غَضِبْنا إلا في المشورة، وإنا لَنَرَى أبا بكر أحقّ الناس بها، إنه لصاحبُ الغار، وإنا لنعرف له سِنّه، ولقد أمّره رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاة بالناس وهو حيّ.

قال أبو بكر - وقد روي بإسناد آخر ذكره، أنّ ثابت بن قيس بن شمّاس كان مع الجماعة الذين حَضَرُوا مع عمر في بيت فاطمة عليها السلام، وثابت هذا أخو بني الحارث بن الخزرج.

وروي أيضاً أن محمد بن مسلَمة كان معهم، وأن محمداً هو الذي كسر سيف الزبير.

قال أبو بكر: وحدثني يعقوب بن شَيْبة، عن أحمد بن أيوب، عن إبراهيم بن سعد، عن ابن إسحاق، عن الزّهريّ، عن عبد الله بن عباس، قال: خرج عليّ عليه السلام على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضِه، فقال له الناس: كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله يا أبا حسن؟ قال: أصبَح بحمد الله بارئاً، قال: فأخذ العباس بيد عليّ، ثم قال: يا عليّ، أنت عبد العصا بعد ثلاث، أحِلف لقد رأيتُ الموتَ في وجهه - وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب - فانطلِقْ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فاذكر له هذا الأمر، إن كان فينا أعْلَمَنا، وإن كان في غيرنا أوصَى

بنا. فقال: لا أفعل، والله إن منعناه اليوم لا يؤتيناه الناسُ بعده، قال: فتُوفّيَ رسول الله ذلك اليوم.

وقال أبو بكر: حدّثني المغيرة بن محمد المهلبيّ من حفظه وعمر بن شَبّة من كتابه، بإسنادٍ رفعه إلى أبي سعيد الخُدْريّ، قال: سمعت البَرَاء بن عازب يقول: لم أزلْ لبني هاشم محبًّا، فلما قُبِض رسول الله ﷺ تخوّفتُ أن تَتمالأ قريْشُ على إخراج هذا الأمر عن بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الوَالهَ العَجُول.

ثم ذكر ما قد ذكرناه نحن في أول هذا الكتاب في شرح قوله ﷺ: «أما والله لقد تَقَمّصها فلان»، وزاد فيه في هذه الرواية: فمكثتُ أكابد ما في نفسي، فلما كان بليل، خرجت إلى المسجد، فلما صرت فيه تذكّرت أنّي كنت أسمعُ هَمْهَمة رسول الله ﷺ بالقرآن، فامتنعتُ من مكاني، فخرجت إلى الفضاء، فضاء بني بَيَاضة، وأجد نفراً يتناجوْن، فلما دنوتُ منهم سَكَتُوا، فانصرفت عنهم، فعرفوني وما أعرفهم، فدعوْني إليهم فأتيتُهم، فأجد المقدادَ بن الأسود وعبادة بن الصامت، وسلْمان الفارسيّ، وأبا ذرّ، وحُذيفة، وأبا الهَيْثم بن التيّهان، وإذا حُذَيفة يقول لهم: والله ليكونَنّ ما أخبرتُكم به، والله ما كَذَبت ولا كُذِبت، وإذا القوم يريدون أن يُعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين.

ثم قال: ائتوا أبيَّ بن كعب، فقد علم كما علمت. قال: فانطلقنا إلى أبيّ، فضربنا عليه بابه، حتى صار خلف الباب، فقال: من أنتم؟ فكلّمه المقداد، فقال: ما حاجتكم؟ فقال له: افتح عليك بَابَك، فإنّ الأمر أعظم من أن يُجْرَى من وراء حجاب، قال: ما أنا بفاتح بابي، وقد عرفتُ ما جئتم له، كأنكم أردتم النظر في هذا العقد. فقلنا: نعم، فقال: أفيكم حُذيفَة؟ فقلنا: نعم، قال: فالقول ما قال، وبالله ما أفْتَح عني بابي حتى يُجْرى على ما هي جارية، ولَما يكون بعدها شَرٌّ منها، وإلى الله المشتكَى!

قال: وبلغ الخبرُ أبا بكر وعمر، فأرسلا إلى أبي عُبيدة والمغيرة بن شُعْبة، فسألاهما عن الرأي، فقال المغيرة: أن تَلْقَوْا العباس فتجعلوا له في هذا الأمر نصيباً فيكون له ولِعقبه، فتقطعوا به من ناحية عليٍّ، ويكون لكم حُجّةٌ عند الناس على عليّ، إذا مال معكم العباس.

فانطلقوا حتى دخلوا على العبّاس في الليلة الثانية من وفاة رسول الله ﷺ. ثم ذكر خطبة أبي بكر وكلام عمر وما أجابهما العباس به، وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب في الجزء الأول.

وروى أبو بكر، قال: أخبرنا أحمد بن إسحاق بن صالح، قال: حدثنا عبد الله بن عمر، عن حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد، قال: لما تُوَفِّيَ النبي ﷺ اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة، فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عُبيدة، فقال الحُباب بن

المنذر: منّا أمير ومنكم أمير، إنّا والله مَا نَنفس هذا الأمر عليكم أيّها الرهْط، ولكنا نخاف أن يَلِيَه بعدكم مَنْ قتلْنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم، فقال عمر بن الخطاب: إذا كان ذلك قمت إن استطعت. فتكلّم أبو بكر فقال: نحن الأمراء وأنتم الوزراءُ، والأمر بيننا نصفان كشِقّ الأُبْلُمة[1]. فبويع، وكان أول من بايعه بشير بن سعد والد النعمان بن بشير.

فلما اجتمع الناس على أبي بكر قَسّم قَسْماً بين نساءِ المهاجرين والأنصار، فبعث إلى امرأة من بني عديّ بن النجار قَسْمَهَا مع زيد بن ثابت، فقالت: ما هذا؟ قال: قَسْمٌ قَسَمه أبو بكر للنساء، قالت: أتراشونني عن ديني! والله لا أقبل منه شيئاً. فردّته عليه.

قلت: قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلويّ الحسينيّ المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة رحمه الله تعالى في سنة عشر وستمائة من كتاب السَّقِيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهريّ، قال: لقد صدقتْ فِراسة الحُباب، فإنّ الذي خافه وقع يوم الحَرّة وأُخِذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر. ثم قال لي رحمه الله تعالى: ومن هذا خاف أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذُرّيته وأهله، فإنه كان عليه السلام قد وَتَر الناس، وعلم أنّه إن مات وترك ابنته وولدها سُوقة ورعيّة تحت أيدي الولاة، كانوا بعرَض خطر عظيم، فما زال يقرّر لابن عمه قاعدة الأمر بعده، حفظاً لدمه ودماء أهل بيته، فإنّهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقربَ إلى الصِّيانة والعصمة مما إذا كانوا سوقة تحتَ يد وَالٍ من غيرهم، فلم يساعده القضاء والقَدَر، وكان من الأمر ما كان. ثم أفضى أمر ذرّيته فيما بعد إلى ما قد علمت.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: حدّثني يعقوب بن شيبة بإسناد رفعه إلى طلحة بن مصرّف، قال: قلت لهذيل بن شُرَحبيل: إن الناس يقولون: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى إلى عليّ عليه السلام، فقال: أبو بكر يتأمّر على وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! ودُّ أبو بكر أنه وجد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهداً فخزم أنفه بخزامه.

قلت: هذا الحديث قد خَرّجه الشيخان: محمد بن إسماعيل البخاريّ ومسلم بن الحجاج القُشَيريّ في صحيحيهما عن طلحة بن مصرّف، قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى: أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: لا، قلت: فكيف كُتِب على المسلمين الوصيّة أو كيف أُمِر بالوصية ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله. قال طلحة: ثم قال ابن أوفى: ما كان أبو بكر يتأمّر على وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودّ أبو بكر أنه وَجد مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهداً، فخزم أنفه بخزامه»[2].

---

(١) الأبلمة: خوصة المقل، والخوصة الورقة. اللسان، مادة (بلم).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الوصايا، باب: الوصايا (٢٧٤٠)، ومسلم في كتاب: الوصية بأن ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٤)، والترمذي في كتاب: الوصايا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، =

وروى الشيخان في الصحيحين عن عائشة أنه ذُكِر عندها أن رسول الله ﷺ أوصى، قالت: ومتى أوصى؟ ومن يقول ذلك! قيل: إنهم يقولون، قالت: مَنْ يقوله؟ لقد دعا بِطسْت ليبول، وإنه بين سَحْري ونَحْري فانخنث، في صدري فمات وما شعَرت[١].

وفي الصحيحين أيضاً، خرّجاه معاً عن ابن عباس، أنّه كان يقول: يوم الخميس، وما يوم الخميس! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى، فقلنا: يا ابنَ عباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وَجَعُه، فقال: ائتوني بكتاب أكتبُه لكم لا تضلّوا بعدي أبداً. فتنازعوا، فقال: إنه لا ينبغي عندي تنازُع، فقال قائل: ما شأنه؟ أهَجَر؟ استفهموه. فذهبوا يعيدون عليه، فقال: دعوني، والذي أنا فيه خير من الذي أنتم فيه، ثم أمَر بثلاثة أشياء، فقال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجِيزُهم، وسئل ابن عباس عن الثالثة، فقال: إمّا ألاّ يكون تكلّم بها، وإمّا أن يكون قالها فنسِيت[٢].

وفي الصحيحين أيضاً خرّجاه معاً عن ابن عباس رحمه الله تعالى، قال: لما احتُضِر رسول الله ﷺ، وفي البيت رجالٌ منهم عمر بن الخطاب، قال النبي ﷺ: هلمّ أكتبْ لكم كتاباً لا تضِلّونَ بعده، فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجَع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول: قَرِّبُوا إليه يكتبْ لكم كتاباً لن تضلُّوا بعده، ومنهم من يقول: القول ما قاله عمر، فلما أكثروا اللّغط والاختلاف عنده ﷺ قال لهم: قوموا، فقاموا، فكان ابن عباس يقول: إن الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لكم ذلك الكتاب.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ: وحدثني أحمد بن إسحاق بن صالح، قال: حدثني عبد الله بن عمر بن معاذ، عن ابن عون، قال: حدثني رجل من زُرَيق أنّ عمر كان يومئذ

= باب: ما جاء أن النبي ﷺ لم يوص (٢١١٩)، والنسائي في كتاب: الوصايا، باب هل أوصى النبي ﷺ (٣٦٢٠)، وابن ماجه في كتاب الوصايا، باب: هب أوصَى رسول الله (٢٦٩٦) وأحمد في كتاب: أول مسند الكوفيين، باب: بقية حديث عبد الله بن أبي أوفى عن النبي ﷺ (١٨٦٤٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٩)، والنسائي في كتاب الطهارة باب: البول في الطست (٣٣)، ومسلم في كتاب: الوصية باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه وابن ماجه في كتاب ما جاء في الجنائز باب: ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ (١٦٢٦).

(٢) أخرج البخاري نحوه في كتاب العلم، باب: كتابة العلم، (١١٤) ومسلم في كتاب: الوصية، باب: لمن ليس له شيء يوصي به (١٦٣٧)، وأحمد في كتاب ومن مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن العباس (١٩٣٦).

- قال: يعني يوم بويع أبو بكر - محتجِزاً يهروِل بين يدي أبي بكر، ويقول: ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر. قال: فجاء أبو بكر حتى جلس على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أمّا بعد، فإنّي ولِّيتُكم ولست بخيركم، ولكنه نزل القرآن، وسُنّت السنن، وعلمنا فتعلمنا أنّ أكيس الكَيْس التقي، وأحمق الحمْق الفجور. وإن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بالحقّ، وأضعفَكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحق. أيها النّاس إنّما أنا متبّع ولست بمبتدع، إذا أحسنتُ فأعينوني، وإذا زُغْت فقوّموني.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدثنا أحمد بن معاوية، قال: حدّثني النضْر بن شُمَيل، قال: حدثنا محمد بن عمرو، عن سلمة بن عبد الرحمن، قال: لما جلس أبو بكر على المِنْبر، كان عليّ عليه السلام والزبير وناسٌ من بني هاشم في بيت فاطمة، فجاء عمر إليهم، فقال: والّذِي نفسي بيده لَتَخرُجُنّ إلى البَيْعة أو لَأُحْرِقَنّ البيت عليكم! فخرج الزبير مُصْلِتاً سيفه، فاعتنقه رجل من الأنصار وزياد بن لَبِيد. فبدر السيف، فصاح به أبو بكر وهو على المنبر: اضرِبْ به الحجر، فدق به. قال أبو عمرو بن حماس: فلقد رأيت الحجَر فيه تلك الضربة، ويقال: هذه ضربةُ سَيف الزبير. ثم قال أبو بكر: دعوهم فسيأتي الله بهم، قال: فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه.

قال أبو بكر: وقد رُوِي في رواية أخرى أنّ سعد بن أبي وقّاص، كان معهم في بيت فاطمة عليها السلام والمقداد بن الأسود أيضاً، وأنهم اجتمعوا على أن يبايعوا عليًا عليه السلام، فأتاهم عمر ليَحرِق عليهم البيت، فخرج إليه الزُّبَير بالسيف، وخرجت فاطمة عليها السلام تبكي وتصيح، فنُهنهتْ من الناس، وقالوا: ليس عندنا معصية، ولا خلاف في خير اجتمع عليه الناس، وإنما اجتمعنا لنؤلِّف القرآن في مصحف واحد. ثم بايعوا أبا بكر، فاستمرّ الأمرُ واطمأنّ الناس.

قال أبو بكر: حدَّثنا أبو زيد عمر بن شَبّة، قال: أخبرنا أبو بكر الباهليّ، قال: حدثنا إسماعيل بن مجالد، عن الشعبيّ، قال: سأل أبو بكر فقال: أين الزبير؟ فقيل: عند عليّ وقد تقلّد سيفه، فقال: قم يا عمر، قم يا خالد بن الوليد، انطلقا حتى تأتياني بهما، فانطلقا، فدخل عمر، وقام خالد على باب البيت من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ فقال: نبايع عليًا، فاخترطه عمر فضرب به حجراً فكسره، ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه، وقال: يا خالد دونَكَه فأمسكه، ثم قال لعليّ: قم فبايع لأبي بكر، فتلكّأ واحتبس، فأخذ بيده، وقال: قم، فأبى أن يقومَ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير فأخرجه، ورأت فاطمةُ ما صنِع بهما، فقامت على باب الحجرة، وقالت: يا أبا بكر، ما أسرع ما أغرْتُم على أهلِ بيت رسول الله! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله. قال: فمشى إليها أبو بكر بعد ذلك وشفَع لعمر، وطلب إليها فرضيت عنه.

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو زيد، قال: حدثنا محمد بن حاتم، قال: حدثنا الحراميّ، قال: حدثنا الحسين بن زيد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: مرّ عمر بعليّ وعنده ابنُ عباس بفِناء داره، فسلّم فسألاه: أين تريد؟ فقال: مالي بيَنْبُع، قال: عليّ: أفلا نصل جناحَك ونقوم معك؟ فقال: بلى، فقال لابن عباس: قم معه، قال: فشبّك أصابعه في أصابعي، ومضى حتى إذا خَلّفنا البقيع، قال: يا ابن عباس، أما والله إن كان صاحبُك هذا أوْلى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلاّ أنّا خفناه على اثنتين. قال ابن عباس: فجاء بمنطق لم أجد بُدًّا معه من مسألته عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما هما؟ قال: خشيناه على حداثة سِنّه وحبّه بني عبد المطلب.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو زيد، قال: حدثنا هارون بن عمر، بإسناد رفعه إلى ابن عباس رحمه الله تعالى، قال: تفرّق الناس ليلة الجابية عن عمر، فسار كلّ واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر تلك الليلة في مسيرنا، فحادثتُه، فشكا إليّ تخلُّف عليّ عنه. فقلت: ألم يعتذر إليك؟ قال: بلى، فقلت: هو ما أعتذر به، قال: يا ابن عباس، إنّ أولَ من رَيَّثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة، قلت: لم ذاك يا أمير المؤمنين؟ ألم نُنِلْهُمْ خيراً؟ قال: بلى، ولكنهم لو فعلوا لكنتم عليهم جَحْفاً جَحْفاً.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد العزيز بن الخطاب، قال: حدثنا عليّ بن هشام، مرفوعاً إلى عاصم بن عمرو بن قتادة، قال: لقِيَ عليّ عليه السلام عمر، فقال له عليّ عليه السلام: أنشُدك الله، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك؟ قال: أما صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فسأخلعها من عنقي إلى عُنُقك، فقال: جَدَع الله أنف مَنْ يُنقذك منها! لا ولكن جلعني الله علَماً، فإذا قمتُ فمن خالَفني ضَلّ.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، عن هارون بن عمر، عن محمد بن سعيد بن الفضل عن أبيه، عن الحارث بن كعب، عن عبد الله بن أبي أوفَى الخُزاعيّ، قال: كان خالد بن سعيد بن العاص مِنْ عُمّال رسول الله صلى الله عليه وآله على اليَمن، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله جاء المدينة، وقد بايع الناس أبا بكر، فاحتبس عن أبي بكر فلم يبايعه أياماً، وقد بايع الناس، وأتى بني هاشم، فقال: أنتم الظهر والبطن، والشّعار دون الدثار، والعصا دون اللّحا، فإذا رضيتم رضينا، وإذا سخطتم سخطنا. حدّثوني إن كنتم قد بايعتمْ هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: على برد ورِضاً من جماعتكم؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أرضى وأبايع إذا بايعتم. أما والله يا بني هاشم، إنك الطّوال الشجر الطيبو الثمر. ثم إنه بايع أبا بكر، وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها، وضغنها عليه عمر، فلما ولاه أبو بكر الجند الذي استنفر إلى الشام، قال له عمر: أتولّي خالداً وقد حَبسَ عليك بيعته، وقال لبني هاشم ما قال، وقد جاء بوَرِق من اليمن وعبيد وحُبْشان ودُروع ورماح! ما أرى

أن تولّيه، وما آمن خلافه. فانصرف عنه أبو بكر، وولّى أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان وشُرَحْبيل بن حَسَنَة.

واعلم أن الآثار والأخبار في هذا الباب كثيرة جدًّا، ومَنْ تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نصّ صريح ومقطوع به لا تختلِجه الشكوك، ولا تَتطرّق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرسول الله صلى الله عليه وسلم نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام نصًّا صريحاً جلياً ليس بنصّ يوم الغدير، ولا خبر المنزِلة، ولا ما شابههما من الأخبار الواردة من طرق العامة وغيرها، بل نصّ عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين، وأمر المسلمين أن يسلّموا عليه بذلك، فسلّموا عليه بها، وصَرح لهم في كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده، وأمرهم بالسمع والطاعة له. ولا ريب أنّ المنصف إذا سمع ما جرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم قطعاً أنّه لم يكن هذا النصّ، ولكن قد سبق إلى النفوس والعقول أنّه قد كان هناك تعريض وتلويح، وكناية وقول غير صريح، وحكم غير مبتوت، ولعله صلى الله عليه وسلم كان يصدّه عن التصريح بذلك أمرٌ يعلمه، ومصلحة يراعيها، أو وقوف مع إذن الله تعالى في ذلك.

فأما امتناع عليّ عليه السلام من البيعة حتى أخرِج على الوجه الذي أخرج عليه، فقد ذكره المحدّثون ورواه أهل السير وقد ذكرنا ما قاله الجوهري في هذا الباب، وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين، وقد ذكر غيرُه من هذا النحو ما لا يحصى كثرة.

فأما الأمور الشنيعة السمتهجَنة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام، وأنه ضربها بالسوط فصار في عَضُدها كالدُّملج[1] وبقي أثره إلى أن ماتت، وأن عمر أضغطها بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه يا رسول الله! وألقت جنيناً ميتاً، وجُعل في عنق عليّ عليه السلام حَبلٌ يقاد به وهو يُعتَل، وفاطمة خلفه تصرخ وتنادي بالويل والثبور، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان، وأنّ علياً لما أحضِر سألوه البيعة فامتنع، فتُهدِّد بالقتل، فقال: إذن تقتلون عبد الله وأخا رسول الله! فقالوا: أما عبدُ اللهْ فنعم، وأما أخو رسول الله فلا، وأنه طعن فيهم في أوجههم بالنِّفاق، وسطر صحيفة الغدر التي اجتمعوا عليها، وبأنهم أرادوا أن ينفِّروا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، فكلّه لا أصل له عند أصحابنا، ولا يُثبته أحد منهم، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله.

---

(١) الدملج: سوار يحيط بالعضد. المعجم الوسيط، مادة (دملج).

الأصل: ومنها: وَلَمْ يُبَايِعْ حتّى شَرَطَ أنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى ٱلْبَيْعَةِ ثَمَناً. فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ البَائِعِ، وَخَزِيَتْ أمانَةُ المُبْتَاعِ! فَخُذُوا لِلحَرْبِ أُهبَتَهَ، وَأعِدُّوا لَها عُدَّتَها، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا، وَعَلاَ سَنَاهَا. وَٱسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ، فإنَّهُ أَدْعَى إلى النَّصْر.

الشرح: هذا فصل من كلام يذكر فيه عليه السلام عمرو بن العاص. وقوله: «فلا ظفِرتْ يد البائع» يعني معاوية. وقوله: «وخزِيَتْ أمانة المبتاع» يعني عمراً، وخزيت، أي خسرت وهانت. وفي أكثر النسخ: «فلا ظفرت يد المبايع»، بميم المفاعلة، والظاهر ما رويناه.

وفي بعض النسخ «فإنه أحزم للنصر»، من حَزَمْتُ الشيء إذا شددتَه، كأنه يشدّ النصر ويوثّقه، والرواية التي ذكرناها أحسن.

والأهبة: العدّة. وضبّ لظاها استعارة، وأصله صعود طرف النار الأعلى. والسنا بالقصر: الضوء. واستشعروا الصبر: اتخذوه شعاراً، والشّعار: ما يلي الجسد من الثياب، وهو ألزم الثياب للجسد، يقول: لازموا الصبر كما يلزم الإنسان ثوبَه الذي يلي جِلْدَه لا بدّ له منه، وقد يستغني عن غيره من الثياب.

كتاب علي إلى معاوية وعمرو بن العاص

لما نزل عليّ عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البَصْرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه إلى البَيْعة، أرسل فيه جرير بن عبد الله البَجَليّ. فقدِم عليه به الشام. فقرأه واغتمّ بما فيه، وذهبت به أفكاره كلّ مذهب، وطاول جريراً بالجواب عن الكتاب، حتّى كلّم قوماً من أهل الشام في الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثّقوا له، وأحبّ الزيادة في الاستظهار، فاستشار أخاه عتبة بن أبي سفيان، فقال له: استعِنْ بعمرو بن العاص، فإنّه من قد علمتَ في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمْرِك أشدّ اعتزالاً، إلا أن يثمّن له دينُه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية:

أما بعد، فإنه كان من أمر عليّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مَرْوان بن الحكم في نَفَر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة عليّ، وقد حبستُ نفسي عليك، فأقبِلْ أذاكرك أموراً لا تعدَم صلاح مَغَبّتها، إن شاء الله فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه: عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وهو عنك راض، والخليفتان من بعده، وقُتِل عثمان وأنت عنه غائب، فقَرّ في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية، على دنيا قليلة

أوشكتما أن تهلِكا، فتَسْتَويا في عقابها. وقال محمد: أرى أنّك شيخ قريش، وصاحبُ أمرِها، وإن تصرّم هذا الأمر وأنت فيه غافل تصاغَرَ أمرُك، فالحق بجماعة أهل الشام، وكن يداً من أيديها، طالباً بدم عثمان، فإنه سيقوم بذلك بنو أميّة.

فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله، فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأنت يا محمد فأمرتَني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر. فلما جَنّة الليل رفع صوته وأهله يسمعون، فقال:

تَطَاوَلَ لَيْلِ بِالْهُمُومِ الطَّوَارِقِ ... وَخَوْفِ التي تجلُو وجوهَ العوائِق
وإنّ ابنَ هند سالني أنْ أزورَه ... وتلك الّتي فِيهَا بنات البوائِقِ
أتاه جَريرٌ من عليٍّ بخُطّةٍ ... أمَرَّتْ عليه العيش ذاتِ مضائِق
فإنْ نَال منّي ما يؤمّلُ رَدّه ... وإن لم ينلْه ذلّ ذل المطابِق
فوالله ما أدري وَمَا كُنتُ هَكَذَا ... أكونُ وَمَهْمَا قادَني فهو سَابقِي
أخادِعُه إنّ الخداعَ دنيّةٌ ... أم أعطِيه من نَفْسِي نصيحةَ وامِق
أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحةٌ ... لشيخ يخاف الموتَ في كلّ شَارِقِ
وقد قال عبدُ الله قولاً تعلّقت ... بِهِ النفس إن لم تقتِطعنِي عَوَائِقي
وَخَالَفَهُ فيهِ أخوهُ محمدٌ ... وإني لصُلْبُ العود عِنْدَ الحقائِق

فقال عبد الله: رحل الشيخ. ودعا عمرو غلامه وَرْدان - وكان داهياً مارداً - فقال: ارحَلْ يا وَرْدان، ثم قال: احْطُطْ يا وردان، ثم قال: ارحَلْ يا وردان، احْطُط يا وردان. فقال له وردان: خلطت أبا عبد الله! أما إنك إن شئت أنبأتُك بما في قلبك، قال: هات ويحك! قال: اعتركت الدّنيا والآخرة على قلبك، فقلت: عليّ معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدّنيا بغير آخرة، وليس في الدّنيا عِوَضٌ من الآخرة، وأنت واقف بينهما، قال: قاتلك الله! ما أخطأتَ ما في قلبي، فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتِك، فإن ظهر أهلُ الدين عشت في عَفْو دينهم، وإن ظهر أهلُ الدنيا لم يستغنُوا عنك. قال: الآن لما أشهرت العرب سيري إلى معاوية! فارتحل وهو يقول:

يَا قَاتَلَ الله وَرْدانا وَقَدْحَتَهُ ... أبْدَى لَعَمْرُكَ مَا فِي النَّفْسِ وردانُ
لَمّا تَعرَّضَت الدُّنْيَا عَرَضْتُ لَهَا ... بحرصِ نَفْسي وفي الأطباع إدْهَانُ
نَفسٌ تَعِفُّ وأخرَى الحِرْصُ يَغْلِبُهَا ... والمرء يأكل تِبْناً وَهو غَرْثَانُ(١)
أمّا عليٌّ فدِينٌ ليسَ يَشْرَكُهُ ... دُنْيَا، وذاك له دنيا وسُلْطَانُ

(١) غرثان: جائع. القاموس، مادة (غرث).

فاخْتَرْتُ مِنْ طَمَعِي دُنْيَا عَلَى بَصَرٍ ... وَمَا مَعِي بِالَّذِي أَخْتَارُ بُرْهَانُ
إنّي لأعرِف ما فيها وأُبْصِرُه ... وفيّ أيضاً لما أهواه ألوانُ
لكنّ نفسِي تحبُّ العيش في شَرَفٍ ... وليس يرضى بذلّ العيشِ إنْسَانُ

فسار حتى قدم على معاوية، وعرَف حاجة معاوية إليه، فباعده من نفسه، وكايد كلّ واحد منهما صاحبه.

فقال له معاوية يوم دخل عليه: أباعبد الله، طرقتْنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها وِرْد ولا صَدَر، قال: وما ذاك؟ قال: منها أنّ محمد بن أبي حُذَيفة كَسَر سِجْن مصر فخرج هو وأصحابه، وهو من آفات هذا الدين. ومنها أنّ قيصر زَحَف بجماعة الرّوم ليغلِبَ على الشام. ومنها أن علياً نزل الكوفة، وتهيّأ للمسير إلينا.

فقال عمرو: ليس كلّ ما ذكرتَ عظيماً، أما ابنُ أبي حُذيفة، فما يتعاظمُك من رجل خرج في أشباهه أن تبعثَ إليه رجلاً يقتله أو يأتيك به، وإنْ قاتل لم يضرّك! وأما قيصر فأهدِ له الوصائفَ وآنية الذهب والفضة، وسلْه الموادعة فإنّه إليها سريع. وأمّا عليّ فلا والله يا معاوية ما يسوّي العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء، وإنّ له في الحرب لحظًّ ما هو لأحد من قريش، وإنه لصاحبُ ما هو فيه إلا أن تظلمه. هكذا في رواية نصر بن مزاحم عن محمد بن عبيد الله.

وروى نصر أيضاً عن عمر بن سعد قال: قال معاوية لعمرو: يا أبا عبد الله، إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشقّ عصا المسلمين، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة، وفَرَّق الجماعة وقطَع الرّحِم، فقال عمرو: مَنْ هو؟ قال: عليّ، قال: والله يا معاوية ما أنت وعليّ بحملَي بعير، ليس لكَ هِجْرتُه ولا سابقته، ولا صحبته ولا جهاده، ولا فقهه ولا علمه. ووالله إنّ له مع ذلك لحَظًّا في الحرب ليس لأحد غيره، ولكنّي قد تعوّدت من الله تعالى إحساناً وبلاء جميلاً، فما تجعل لي إنْ شايعتُك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغَرر[1] والخطر؟ قال: حُكْمَك، قال: مصر طُعْمة، فتلكأ عليه معاوية.

قال نصر: وفي حديث غير عمر بن سعد: فقال له معاوية: يا أبا عبدِ الله، إني أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنّك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا، فقال عمرو: دَعْني عنك، فقال معاوية: إني لو شئت أنْ أمنّيك وأخدعَك لفعلت، قال عمرو: لا، لَعَمْرُ الله ما مثلي يُخدع، لَأنا أكْيَسُ من ذلك، قال معاوية: ادْنُ مني أسارّك، فدنا منه عمرو ليسارّه، فعضّ معاوية أذنه، وقال: هذه خدعة! هل ترى في البيت أحداً؟ ليس غيري وغيرك.

---

(١) غرر بنفسه وماله: عرضهما للهَلَكَة من غير أن يعرف. اللسان، مادة (غرر).

قلت: قال شيخنا أبو القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى: قول عمرو له: «دعْني عنك» كناية عن الإلحاد، بل تصريح به، أي دَعْ هذا الكلام، لا أصل له، فإنّ اعتقاد الآخرة، وأنّها لاتباع بعرَض الدنيا من الخرافات.

وقال رحمه الله تعالى: وما زال عمرو بن العاص مُلْحداً، وما تردّد قطُّ في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السِّرار المرويّ، وأن معاوية عضّ أذن عمرو، أين هذا من سيرة عمر؟ وأين هذا من أخلاق عليّ عليه السلام وشدته في ذات الله، وهما مع ذلك يعيبانه بالدّعابة!

قال نصر: فأنشأ عمرو يقول:

مُعَاوِيَ لاَ أُعْطِيكَ دِينِي وَلَم أَنَلْ ... بِهِ مِنْكَ دُنْيَا فانْظُرنْ كَيْفَ تَصْنَعُ
فَإنْ تُعْطِنِي مِصْراً فَأَرْبِحْ بِصفْقَةٍ ... أخذتَ بها شيخاً يَضُرُّ وَيَنْفَعُ
وَما الدِّينُ والدنيا سواء وإنّني ... لآخذ ما تعطي وَرَأْسِي مُقَنَّعُ
وَلَكِنَّنِي أُغْضِي الجُفُون وَإنّني ... لَأخدعُ نفسي، والمخادِعُ يُخْدَعُ
وَأُعْطِيك أمْراً فِيهِ لِلْمُلْكِ قُوّةٌ ... وَأُلْفَى بهِ إن زلّتِ النعل أصْرَعُ
وتمنعُنِي مِصْراً وليست بِرَغْبَةٍ ... وإني بِذَا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: كانت مصر في نفس عمرو بن العاص، لأنه هو الذي فَتحها في سنة تسعَ عشرةَ من الهجرة في خلافة عمر، فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه، وهذا معنى قوله:

وإنّي بذا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ

قال نصر: فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، أما تعلم أن مصر مثل العراق! قال: بلى، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت عليًّا على العراق.

قال: وقد كان أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى عليّ عليه السلام.

فلما حضر عُتْبة بن أبي سفيان قال لمعاوية: أما ترضى أن تشتريَ عَمْراً بمصر إن هي صفت لك! ليتك لا تُغَلب على الشام. فقال معاوية: يا عتْبة، بِتْ عندنا الليلة، فلما جنّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية، وقال:

أيّها المانِعُ سَيْفاً لم يُهَزّ ... إنّما مِلْتَ عَلَى خَزٍّ وَقَزّ
إنما أنت خروف ماثلٌ ... بين ضَرْعَيْنِ وَصُوفٍ لم يُجزّ

أعـطِ عَـمْـراً إن عَـمْـراً تَـارك | دينَـه الـيـوم لـدنـيـا لـم تُـحَـزْ
يـا لـك الـخـيـرُ فـخـذْ مِـنْ دَرِّهِ | شَـخْـبَـهُ الأوّلَ وابْـعِـدْ مـا غَـرَزْ
واسْـحَـبِ الـذَّيـلَ وَبـادِرْ فُـوقَـهَـا | وانـتـهـزْهـا إنّ عـمـراً يُـنْـتَـهَـزْ
أعـطـه مِـصْـراً وزده مـثـلَـهـا | إنـمـا مـصـر لـمـن عـزَّ فـبـزّ
وَاتْـرُكِ الْـحِـرْصَ عَـلَـيْـهـا ضَـلَّـةً | وَاشْـبُـبِ الـنَّـارَ لـمـقـرورٍ يَـكِـزّ
إنّ مـصـراً لـعـلـيٍّ أوْ لَـنَـا | يَـغْـلِـبُ الـيـوم عـلـيـهـا مَـنْ عَـجَـزْ

قال: فلما سمع معاويةُ قولَ عُتْبَة، أرسل إلى عمرو، فأعطاه مصر، فقال عمرو: لي الله عليك بذلك شاهد؟ قال: نعم، لك الله عليّ بذلك إن فتح الله علينا الكوفة، فقال عمرو: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(١).

فخرج عمرو من عنده، فقال له ابناه: ما صنعتَ؟ قال: أعطانا مصر طعمة، قالا: وما مصر في مُلْك العرب! قال: لا أشبع الله بطونكما إن لم تُشبعكما [مصر].

قال: وكتب معاوية له بمصر كتابه، وكتب: «على ألاّ ينقُضَ شرط طاعةً»، فكتب عمرو: «على ألاّ تنقض طاعةٌ شرطاً». فكايد كلّ واحد منهما صاحبه.

قلت: قد ذكر هذا اللفظ أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتابه «الكامل» ولم يفسره، وتفسيره أنّ معاوية قال للكتاب: «اكتب على ألاّ ينقضَ شرط طاعةً»، يريد أخذَ إقرار عمرو له أنه قد بايعه على الطاعة بيعة مطلقة غير مشروطة بشيء، وهذه مكايدة له، لأنه لو كتب ذلك لكان لمعاوية أن يرجع في إعطائه مصر، ولم يكن لعمرو أن يرجع عن طاعته، ويحتجّ عليه برجوعه عن إعطائه مصر، لأنّ مقتضى المشارطة المذكورة، أنّ طاعة معاوية واجبة عليه مطلقاً، سواء أكانت مصر مسلمّة إليه أم لا.

فلما انتبه عمرو إلى هذه المكيدة منع الكاتب من أن يكتب ذلك، وقال: بل اكتب: «على ألا تنقض طاعةٌ شرطاً»، يريد أخذَ إقرار معاوية له بأنّه إذا كان أطاعه لا تنقض طاعته إياه ما شارطه عليه من تسليم مصر إليه. وهذا أيضاً مكايدة من عمرو لمعاوية، ومنْع له من أن يغدر بما أعطاه من مصر.

قال نصر: وكان لعمرو بن العاص عمّ(٢) من بني سَهْم، أريبٌ(٣)، فلما جاء عمرو بالكتاب

(١) سورة القصص، الآية: ٢٨.
(٢) لعله ابن عم وليس عماً ويصح أن يكون ابن أخ كما يفهم من الحوار التالي بينهما، فليحرر.
(٣) الأريب: العاقل. اللسان، مادة (أرب).

مسروراً عَجِب الفتى، وقال: ألا تخبرني يا عمرو، بأيّ رأي تعيش في قريش! أعْطَيْتَ دِينَك وتمنّيت دنيا غيرك! أترى أهلَ مصر - وهم قتلة عثمان - يدفعونها إلى معاوية وعليّ حيّ! وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدّمه في الكتاب؟ فقال عمرو: يا بن أخي، إن الأمر لله دون عليّ ومعاوية، فقال الفتى:

ألا يا هندُ أختَ بني زيادِ ... رُمِي عمرو بداهية البلادِ
رُمِي عمرو بأعْورَ عبشميٍّ ... بعيد القَعْر مخشيّ الكِيَادِ
لَهُ خُدَعٌ يَحار العقْل مِنْها ... مزخرفةٌ صوائدُ للفُؤادِ
فشرّطَ في الكِتَاب عَلَيْهِ حَرْفاً ... يناديه بِخُدْعَتِه المنادِي
وأثبتَ مثْلَه عمرو عليهِ ... كِلاَ المرأين حَيّةُ بطن وادِ
ألا يا عَمْرُو ما أحرزْتَ مِصْراً ... ولا ملتَ الغَداة إلى الرّشادِ
أبِعْتَ الديّن بالدنيا خَسَاراً ... فأنت بذاك من شَرّ العِبادِ
فلو كنتَ الغداة أخذْتَ مصراً ... ولكن دونها خَرْطُ القَتَادِ
وفَدتَ إلى معاوية بن حرب ... فكنتَ بها كوافدِ قَوْمِ عادِ
وأعطيتَ الذي أعطيت منها ... بِطِرْسٍ فيه نَضْحٌ من مدادِ
ألم تعرف أبا حسنٍ عليًّا ... وما نالت يداه من الأعادي
عدلتَ به معاوية بن حرب ... فيا بُعْدَ البياضِ من السَّوادِ!
ويا بُعْدَ الأصابع من سُهَيْلٍ ... ويا بُعْد الصلاح من الفسادِ!
أتأمن أن تدَال على خِدَبٌ ... يحثُّ الخيل بالأسَل الحِداد[١]
ينادي بالنِّزَال وأنت منه ... قَريبٌ فانظرَنْ مَنْ ذا تعادي

فقال عمرو: يا بن أخي، لو كنتُ عند عليّ لوسعني، ولكني الآن عند معاوية. قال الفتى: إنك لو لم تُرِدْ معاوية لم يرِدْك، ولكنّك تريد دنياه، وهو يريد دينَك. وبلغ معاويةَ قولُ الفتى فطلبه، فهرب فلحق بعليّ عليه السلام، فحدثه أمره فسُرَّ به وقَرّبه.

قال: وغضب مروان وقال: ما بالي لا أُشترَى [كما اشترِيَ عمرو]! فقال معاوية: إنما يُشترى الرجال لك. فلما بلغ علياً عليه السلام ما صنع معاوية قال:

يا عجباً لقد سمعت مُنْكراً ... كِذْباً على الله يُشِيبُ الشَّعَرا
يسترقُ السَّمعَ ويُعشِي البصرا ... ما كان يَرضى أحمدُ لو أخبِرا

(١) الخِدَب: العظيم الجافي. اللسان مادة (خدب).

أن يـقـرنـوا وَصِيَّـه والأبـتـرا شانِي الرسول واللعينَ الأخزرا
كِلاهُمَا في جُنْدِهِ قَدْ عَسْكَرَا قد باع هذا دِينَه فأفجرا
مَنْ ذا بدُنْيا بيعَهُ قد خسِرا شَمَّرْتُ ثوبِي ودعوت قَنْبَرا
قَدِّمْ لوائِي لا تؤخِّرْ حَذَرَا لا يدفع الحِذَارُ ما قَدْ قُدِّرا
لَمَّا رأيتُ الموتَ مَوْتاً أحْمَرا عَبَّأتُ هَمْدان وَعَبُّوا حِمْيَرا
حيٌّ يَمانٍ يُعْظِمُونَ الخطرا قِرْنٌ إذا ناطَحَ قِرْناً كَسَرَا
قل لابن حرب لا تدبَّ الْخَمَرَا أرْوِدْ قَليلاً أُبْدِ مِنْك الضَّجَرَا[1]
لا تحسبنِّي يا بنَ هِنْد غَمَرَا وسَلْ بِنَا بَدْراً مَعاً وَخَيْبَرَا
يَوْمَ جَعَلْنَاكُمْ ببدْرٍ جَزَرَاً لو أنّ عِنْدي يا بنَ هند جَعْفراً
أو حمزَةَ القَرْمَ الهمام الأزهَرا رأت قريش نجم لَيْلٍ ظُهُرا

قال نصر: فلما كتب الكتاب، قال معاوية لعمرو: ما ترى الآن؟ قال: أمضِ الرأي الأول. فبعث مالك بن هبيرة الكنديّ في طلب محمد بن أبي حُذيفة، فأدركه فقتله، وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه، ثم قال: ما ترى في عليّ؟ قال: [أرى فيه خيراً]، إنه قد أتاك في طلب البَيْعة خيرُ أهل العراق، ومن عند خير الناس في أنفس الناس، ودعواك أهلَ الشام إلى رد هذه البيعة خطر شديد، ورأس أهل الشام شُرَحْبِيل بن السِّمط الكِنديّ، وهو عدوّ لجرير المرسَل إليك، فابعث إليه ووطّن له ثقاتك، فَلْيُفْشُو في الناس أنّ علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل رضا عند شُرَحْبِيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحبّ، وإن تعلقَتْ بقلب شُرَحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً.

فكتب إلى شُرحبيل: إن جرير بن عبد الله قَدِم علينا من عند عليّ بن أبي طالب بأمر مفظِع، فاقْدَم.

ودعا معاوية يزيدَ بن أسد، وبُسر بن أرطاة، وعمرو بن سفيان، ومخارق بن الحارث الزّبيديّ، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعد الطائي - وهؤلاء رؤوس قحطان واليمن، وكانوا ثقاتِ معاويةَ وخاصته وبني عمّ شُرَحْبيل بن السِّمط - فأمرهم أن يلقوْه ويُخبروه أنّ علياً قتل عثمان. فلما قدم كتابُ معاوية على شُرَحْبيل وهو بحِمِص، استشار أهلَ اليمن فاختلفوا عليه، فقام إليه عبد الرحمن بن غَنْم الأزديّ - وهو صاحبُ معاذ بن جبل وخَتَنُه، وكان أفقهَ أهل الشام - فقال: يا شُرَحْبيل بن السِّمط، إن الله لم يَزَلْ يزيدُك خيراً منذ هاجرت إلى اليوم، وإنه

(١) الخَمَر: ما واراك من الشجر والجبال ونحوه. اللسان مادة (خمر).

لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس، وإنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم. إنه قد أُلقِيَ إلى معاوية أنّ علياً قتل عثمان، ولهذا يريدك، فإن كان قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار، وهم الحكّام على الناس، وإن لم يكن قتله، فعلامَ تصدّق معاوية عليه! لا تُهلِكَنّ نفسك وقومك، فإن كرهت أن يذهب بحظّها جرير، فسِرْ إلى عليّ، فبايعه عن شامك وقومك فأبى شُرَحْبيل إلا أن يسير إلى معاوية، فكتب إليه عياض الثّمالي - وكان ناسكاً:

يا شرْحُ يا بن السِّمط إنك بالغٌ ... بودِّ عليٍّ ما تريدُ من الأمرِ
وَيا شُرْحُ إن الشام شامُك ما بها ... سواكَ فَدَعْ عنك المضلّل من فِهْر
فإنّ ابنَ هند ناصبٌ لك خُدْعَةً ... تكونُ علينا مثل راغيةِ الْبَكْرِ[1]
فإن نال ما يَرجُو بنا كان مُلْكنا ... هنيئاً له، والحربُ قاصمة الظهرِ
فلا تَبْغِيَنْ حَرْبَ العراق فإنّها ... تحرِّم أطهارَ النِّساء من الذُّعْرِ
وإنّ عليًّا خيرُ مَنْ وطِيء الثرى ... من الهاشميين المداريك للوِتْرِ
له في رِقابِ النَّاسِ عهدٌ وذِمّةٌ ... كعهدِ أبي حفصٍ وعهد أبي بكرِ
فبايع ولا ترجع على العَقْبِ كافراً ... أعيذك بالله العزيز من الكفرا!
ولا تسمَعَنْ قولَ الطغاة فإنهمْ ... يريدون أن يُلقوك في لجّة البَحْرِ
وَماذا عَلَيْهِمْ أن تُطاعِنَ دونهمْ ... عليًّا بأطْرَافِ المثقَّفَةِ السُّمْرِ
فإن غَلَبُوا كانوا علينا أئمّةً ... وكنا بحمْدِ الله مِنْ وَلَدِ الطُّهْرِ
وإنْ غُلِبُوا لَمْ يَصْلَ بالخَطْبِ غَيْرُنا ... وكان عليٌّ حَرْبَنَا آخِرَ الدَّهْرِ
يهونُ عَلَى عُلْيَا لؤيِّ بن غالب ... دماء بني قحطان في ملكهم تَجْرِي
فدعْ عنك عثمان بن عفان إنّما - ... لك الخير - لا تدري بأنك لا تدري
على أيِّ حال كان مصرعُ جنبه ... فلا تَسْمَعَنْ قولَ الأُعَيْوِرِ أو عمرو

قال: فلما قدِم شُرَحبيلِ على معاوية، أمر الناس أن يتلقّوه ويعظّموه، فلما دخل على معاوية، تكلّم معاوية فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا شُرَحبيل، إن جريرَ بن عبد الله قدِم علينا يدعونا إلى بَيْعة عليّ، وعليّ خير الناس، لولا أنه قتل عثمان بن عفان، وقد حبسْتُ نفسي عليك، وإنما أنا رجل من أهل الشام، أرضى ما رضُوا وأكره ما كرهوا.

فقال شُرَحبيل: أخرجُ فأنظر. فلقيه هؤلاء النفر الموطّئون له، فكلّهم أخبره أنّ علياً قتل عثمان، فرجع مغضباً إلى معاوية فقال: يا معاوية، أبى الناس إلا أن علياً قتل عثمان، والله إن

---

(١) الراغية: الناقة، والرغاء صوتها. اللسان، مادة (رغو).

بايعتَ له لنخرجنّك من شامِنا أو لنقتلنّك. فقال معاوية: ما كنتُ لأخالِف عليكم، ما أنا إلا رجل من أهل الشام. قال: فَرُدَّ هذا الرجل إلى صاحبه إذن. فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق، وأن الشام كله مع شرحبيل، وكتب إلى عليّ عليه السلام ما سنُورده فيما بعد، إن شاء الله تعالى.

٢٧ - ومن خطبة له عليه السلام في الحث على الجهاد وذم القاعدين

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْجَنَّةِ، فَتَحَهُ ٱللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ ٱلتَّقْوَى، وَدِرْعُ ٱللهِ ٱلْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ ٱلْوَثِيقَةُ. فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ ٱللهُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ، وَشَمِلَهُ ٱلْبَلاَءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَٱلْقَمَاءَةِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالإِسْهَابِ، وَأُدِيلَ ٱلْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ ٱلْجِهَادِ، وَسِيمَ ٱلْخَسْفَ، وَمُنِعَ ٱلنَّصَفَ.

أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِرًّا وَإِعْلاَناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: ٱغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ ما غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ، حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ ٱلْغَارَاتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ ٱلأَوْطَانُ.

فَهٰذَا أَخُو غَامِدٍ، قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ ٱلأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ ٱلْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ٱلرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ وَٱلأُخْرَى ٱلْمُعَاهِدَةِ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا، وَقَلاَئِدَهَا وَرُعُثَهَا، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالاسْتِرْجَاعِ وَٱلاسْتِرْحَامِ. ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا وَافِرِينَ، مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً!

فَيَا عَجَبَا عَجَباً، واللهِ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ، وَيَجْلِبُ ٱلْهَمَّ، مِنَ ٱجْتِمَاعِ هَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى، يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى ٱللهُ وَتَرْضَوْنَ!

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ في أَيَّامِ ٱلحَرِّ قُلْتُمْ: هٰذِهِ حَمَارَّةُ ٱلْقَيْظِ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا ٱلحَرُّ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلشِّتَاءِ قُلْتُمْ هٰذِهِ صَبَارَّةُ ٱلْقُرِّ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا ٱلْبَرْدُ، كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ ٱلحَرِّ وَٱلْقُرِّ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ ٱلحَرِّ وَٱلْقُرِّ تَفِرُّونَ، فَأَنْتُمْ وَٱللهِ مِنَ ٱلسَّيْفِ أَفَرُّ!

يَا أَشْبَاهَ ٱلرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ ٱلأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ

أَرْكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُم مَعْرِفَةً - وَٱللهِ - جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً. قَاتَلَكُمُ ٱللهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ ٱلتَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَٱلْخِذْلاَنِ، حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ لله أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مُقَاماً مِنِّي! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ ٱلْعِشْرِينَ، وِهٰأَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى ٱلسِّتِّينَ! وَلَكِنْ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ!

الشرح: هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام، قد ذكرها كثير من الناس، ورواها أبو العباس المبرّد في أول «الكامل»، وأسقط من هذه الرواية ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال في أولها:

«إنه انتهى إلى عليّ عليه السلام أنّ خيلاً وردت الأنبار لمعاوية، فقتلوا عاملاً له يقال له: حسّان بن حسان، فخرج مغضباً يُجُرّ رداءه، حتى أتى النُّخيلة، واتّبعه الناسُ، فرقِيَ رُبَاوَة[1] من الأرض، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله، ثم قال: أما بعد فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله الذلّ وسيما الخَسْفِ».

وقال في شرح ذلك: قوله: «وسيما الخسفِ»، هكذا حدّثونا به، وأظنّه «سِيمَ الخسفَ»، من قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]. وقال فإن نَصرنا ما سمعناه، «فسيما الخسف»، تأويله علامة الخسف، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾[3]، وقال: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾[4]، وسيما مقصور، وفي معناه «سيمياء» ممدود، قال الشاعر:

غُـلاَمٌ رَمَـاهُ الله بـالْـحُـسْـنِ يـافـعـاً   لَـهُ سِـيـمِـيَـاءُ لاَ تَـشُـقّ عَـلَـى ٱلْـبَـصَـرْ

ونحن نقول: إنّ السماع الذي حكاه أبو العباس مرضيّ، والصحيح ما تضمّنه «نهج البلاغة» وهو «سِيم الخسفَ» فعل ما لم يسمّ فاعله، و«الخسفَ» منصوب، لأنه مفعول، وتأويله: أولِيَ الخسفَ وكلّف إياه، والخسف: الذلّ والمشقة.

وأيضاً فإن في «نهج البلاغة» لا يمكن أنْ يكون إلا كما اخترناه، لأنه بين أفعال متعددة بُنيت للمفعول به، وهي: «دُيِّث» و«ضُرِبَ» و«أُديل» و«مُنِع»، ولا يمكن أن يكون ما بين هذه الأفعال معطوفاً عليها إلا مثلُها، ولا يجوز أن يكون اسماً.

وأما قوله عليه السلام: «وهو لباس التقوى»، فهو لفظة مأخوذة من الكتاب العزيز، قال الله سبحانه: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[5].

---

(١) الرباوة: ما ارتفع من الأرض. القاموس، مادة (ربو).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٩.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الرحمٰن، الآية: ٤١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

والجُنّة: ما يُجْتَنّ به، أي يستتر، كالدّرع والحَجَفة.

وتركه رغبة عنه، أي زهداً فيه، رغبت عن كذا، ضدّ رغبت في كذا.

ودُيِّث بالصغار، أي ذُلّل، بعير مُدَيّث، أي مُذَلّل، ومنه الدَّيُّوث: الذي لا غَيْرة له، كأنّه قد ذُلّل حتى صار كذلك.

والصَّغار: الذل والضيم.

والقَماء، بالمد: مصدر قَمُؤ الرجل قَماء وقَماءة، أي صار قميئاً، وهو الصغير الذليل، فأمّا قَمَأ، بفتح الميم فمعناه سَمن، ومصدره القُمُوء والقموءة.

وروى الراونديّ: «وديِّث بالصغار والقما»، بالقصر، وهو غير معروف.

وقوله عليه السلام: «وضُرِب على قلبه بالإسهاب»، فالإسهاب ها هنا هو ذهاب العقل، ويمكن أن يكون من الإسهاب الذي هو كثرة الكلام، كأنه عوقب بأن يكثر كلامه فيما لا فائدة تحته.

قوله: «وأديل الحق منه بتضييع الجهاد»، قد يظنّ ظان أنه يريد عليه السلام: وأدِيلَ الحق منه بأن أضِيعَ جهادُه، كالباءات المتقدمة، وهي قوله: «ودُيِّث بالصغار»، و«ضُرِب على قلبه بالإسهاب». وليس كما ظنّ، بل المراد: وأدِيل الحقّ منه لأجل تضييعه الجهاد، فالباء ها هنا للسببية، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾[1].

والنَّصَف: الإنصاف وعُقْر دارهم، بالضم: أصل دارهم، والعُقْر: الأصل، ومنه العَقَال للنخل، كأنه أصل المال. وتواكلتم، من وَكَلْتُ الأمرَ إليك ووكلتَه إليّ، أي لم يتولّه أحد منّا، ولكن أحال به كلّ واحد على الآخر، ومنه رجل وَكِل، أي عاجز يكلُ أمرَه إلى غيره، وكذلك وُكَلَة.

وتخاذلتم، من الخِذْلان.

وَشُنّت عليكم الغارات: فُرّقت، وما كان من ذلك متفرّقاً نحو إرسال الماء على الوَجْه دَفْعة بعد دفعة، فهو بالشين المعجمة، وما كان أرسالاً غيرَ متفرّق، فهو بالسين المهملة، ويجوز شَنّ الغارة وأشنّها.

والمسالح: جمع مَسْلحة، وهي كالثغر والمرقَب، وفي الحديث: «كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العُذَيب»[2]. والمعاهِدة: ذات العَهْد، وهي الذمّيّة. والحِجْل: الخَلْخال، ومن هذا قيل للفرس محجّل، وسمّي القيد حِجْلاً، لأنّه يكون مكان الخلخال. ورُعُثها: ومن هذا قيل

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣٨٧).

للفرس محجّل، وسمّي القيد حِجْلاً، لأنه يكون مكان الخلخال. ورُعُثها: شُنُوفها، جمع رِعاث بكسر الراء، ورِعاث: جمع رَعْثة، فالأول مثلُ خِمار وخُمُر، والثاني مثل جَفْنة وجِفَان. والقُلُب: جمعُ قُلْب، وهو السوار المصمَت. والاسترجاع، قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]. والاسترحام: أن تناشدَه الرحم. وانصرفوا وافرين، أي تامّين، وَفُر الشيء نفسُه أي تَمّ فهو وافر، ووَفرْتُ الشيء، متعدّ، أي أتممته.

وفي رواية المبرّد «موفورين»، قال: من الوفْر، أي لم يُنَلْ أحد منهم بأن يُرْزَأ في بدن أو مال.

وفي رواية المبرد أيضاً: «فتواكلْتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظِهرياً»، قال: أي رميتُم به وراء ظهوركم، أي لم تلتفتوا إليه، يقال في المثل: لا تجعَلْ حاجتي منك بظَهْر، أي لا تطرحها غيرَ ناظر إليها، قال الفرزدق:

تَمِيمُ بنَ مُرٍّ لا تكونَنَّ حاجَتِي ... بِظَهْرٍ ولا يعْيَا عَلَيْكَ جَوابُها

والكلْم: الجراح. وفي رواية المبرد أيضاً: «مات من دون هذا أسفاً»، والأسف: التحسر. وفي رواية المبرد أيضاً: «من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم»، أي من تعاونهم وتظاهرهم. وفي رواية المبرد أيضاً: «وَفَشلكم عن حقكم»، الفشل: الجبن والنُّكولُ عن الشيء. فقبحاً لكم وَتَرْحاً، دعاء بأن ينحّيَهم الله عن الخير، وأن يخزيهم ويسوءهم.

والغَرَض: الهدف. وحَمَارّة القيظ، بتشديد الراء: شدّةُ حَرّه. وَيُسَبِّخ عَنّا الحرّ، أي يخفّ، وفي الحديث أنّ عائشة أكثرت من الدعاء على سارق سرق منها شيئاً، فقال لها النبي ﷺ: «لا تُسَبِّخي عنه بدعائك»[2].

وصبارّة الشتاء، بتشديد الراء: شدّة برده، ولم يرو المبرّد هذه اللفظة، وروي: «إذا قلتُ لكم اغزُوهم في الشتاء قلتم هذا أوان قَرّ وصِرّ، وإن قلتُ لكم اغزُوهم في الصيف قلتم هذه حَمَارّة القيظ أنظِرْنا ينصرمْ عَنّا الحر». الصِّر: شدّة البرد قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾[3].

ولم يروِ المبرّد: «حُلوم الأطفال»، وروي عِوَضها: «يا طَغَام الأحلام»، وقال: الطّغام: من لا معرفة عنده، ومنه قولهم: «طغام أهل الشام».

وربّات الحجال: النساء، [والحِجال] جمع حَجَلة، وهي بيت يزيّن بالستور والثياب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: باقي المسند السابق (٢٤٥٣١)، وأبو داود في كتاب: الأدب، باب: فيمن دعا على من ظلمه (٤٩٠٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

والأسرّة والسّدَم: الحزن والغيظ. والقَيْح ما يكون في القُرْحة من صديدها. وشحنتم: ملأتم.

والنُّغَب: جمع نَغْبة وهي الجَرْعة. والتَّهمام، بفتح التاء: الهمّ، وكذلك كلّ «تَفْعال»، كالترداد، والتّكرار، والتَّجوال، إلا التِّبيان والتِّلقاء، فإنهما بالكسر.

وأنفاساً، أي جَرْعة بعد جَرْعة، يقال: اكرع في الإناء نَفَسين أو ثلاثة.

وذَرّفت على الستين، أي زدت. ورواها المبرد: «نَيّفت».

وروى المبرّد في آخرها: فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال: يا أمير المؤمنين، إني وأخي هذا، كما قال الله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾(١)، فمرنا بأمرك، فوالله لننتهينّ إليه ولو حال بيننا وبينه جَمْر الغضا وشوك القتاد(٢). فدعا لهما بخير وقال: وأين تقعان مما أريد! ثم نزل.

كلام لابن نباتة نسج فيه على منوال كلام علي عليه السلام في الجهاد

واعلم أنّ التحريضَ على الجهاد والحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثروا، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فمن جيّد ذلك ما قاله ابنُ نُباتة الخطيب:

أيّها الناس، إلى كم تَسْمعون الذِّكر فلا تَعُون، وإلى كم تُقرعون بالزَّجْر فلا تُقْلِعون! كأنّ أسماعَكم تمجُّ ودائع الوعظ، وكأن قلوبكم استكبارٌ عن الحِفْظ، وعدوّكم يعمل في دِياركم عَمَلَه، ويبلغ بتخلُّفكم عن جهاده أمله، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه، وندبَكم الرّحمن إلى حقِّه فخالفتموه، وهذه البهائمُ تناضلُ عن ذِمَارها(٣)، وهذه الطير تموت حَمِيّة دون أوكارها، بلا كتاب أنزل عليها، ولا رسولٍ أرْسِل إليها. وأنتم أهلُ العقول والأفهام، وأهلُ الشرائع والأحكام، تَنِدّون من عدوّكم نَدِيد الأبل، وتدّرِعون له مدارع العجز والفَشَل، وأنتم والله أوْلى بالغزو إليهم، وأحرى بالمُغار عليهم، لأنكم أمناء الله على كتابه، والمصدّقون بعقابه وثوابه خصّكم الله بالنجدة والباس، وجعلكم خيرَ أمّة أخرِجَتْ للناس، فأين حَمِيّة الإيمان؟ وأين بصيرةُ الإيقان؟ وأين الإشفاق من لهب النيران؟ وأين الثقة بضمان الرحمن؟ فقد قال الله عز وجل في القرآن: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾(٤)، فاشترط عليكم التقوى والصبر، وضَمِن لكم المعونةَ والنصر، أفتتّهِمُونه في ضَمانه! أم تشكُّون في عدله وإحسانه! فسابقوا رحمَكم الله إلى

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٥.

(٢) القَتاد: شجر صلب له شوك كالإبر. القاموس، مادة (قتد).

(٣) ذمار الرجل: هو كل ما يلزمه حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضيعه لزمه اللوم. اللسان، مادة (ذمر).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

الجهاد بقلوب نَقيّة، ونفوسٍ أبيّة، وأعمال رضيّة، ووجوه مُضيئة، وخذوا بعزائم التّشمير، واكشفوا عن رؤوسكم عارَ التقصير، وهَبوا نفوسَكم لمن هو أمْلَكُ بها منكم، ولاَ تركنوا إلى الجزَع فإنه لا يدفع الموت عنكم، ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[1]. فالجهادَ الجهادَ أيها الموقِنُون، والظفرَ الظفرَ أيها الصابرون! والجنة الجنة أيّها الراغبون! والنّارَ النارَ أيها الراهبون! فإن الجهاد أثبتُ قواعدِ الأيمان، وأوسعُ أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجِنان، وإنّ مَنْ ناصح الله لبَيْنَ منزلتيْن مرغوبٍ فيهما، مجمَع على تفضيلهما: إما السعادة بالظفَّرَ في العاجل، وإما الفوز بالشهادة في الآجل، وأكرهُ المنزلتين إليكم أعظمُهما نعمةً عليكم، فانصروا الله فإنّ نَصرَه حِرْزٌ من الهلكات حريز، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

هذا آخر خطبة ابن نُباتة، فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الإنصاف، تجدها بالنسبة إليها كمخنّث بالنّسبة إلى فحل، أو كسيْفٍ من رصَاص بالإضافة إلى سيف من حديد. وانظُر ما عليها من أثر التّوليد وشَيْن التكلّف وفجَاجَة كثير من الألفاظِ، ألا ترى إلى فجاجة قوله: «كأن أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ، وكأنّ قلوبكم بها استكبار عن الحفظ»! وكذلك ليس يخفى نزول قوله: «تنِدُّون من عدوّكم نديد الإبل، وتدَّرعون له مدارع العجز والفشل».

وفيها كثير من هذا الجنس، إذا تأمله الخبير عرفه، ومع هذا فهي مسروقة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ألا ترى أن قوله عليه السلام، «أما بعد، فإن الجهادَ باب من أبواب الجنة»، قد سرقه ابن نُباتة. فقال: «فإنّ الجهاد أثبتُ قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان»! وقوله عليه السلام: «مِن اجتماع هؤلاء على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم»، سرقه أيضاً، فقال: «صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه، ونَدَبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه». وقوله عليه السلام «قد دعوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم...» إلى آخره، سرقه أيضاً فقال: «كم تسمعون الذِّكر فلا تعُون! وتقرَّعون فلا تقلِعون»! وقوله عليه السلام «حتى شُنّتْ عليكُم الغارات، وملكت عليكم الأوطان»، سرقه أيضاً وقال: «وعدوّكم يعمل في دياركم عمله، ويبلغ بتخلّفكم عن جهاده أمله». وأما باقي خطبة ابن نُباتة فمسروق من خُطَب لأمير المؤمنين عليه السلام أُخَرَ، سيأتي ذكرها.

واعلم أني أضرِب لك مثلاً تتّخذه دستوراً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وكلام الكتّاب والخطباء بعده كابن نُباتة والصابي وغيرهما، انظر نسبةَ شعر أبي تمام والبحتريّ وأبي نواس ومسلم، إلى شعر امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى، هل إذا تأمّلت أشعار هؤلاء وأشعار

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

هؤلاء، تجد نفسك حاكمةً بتساوي القبيلين أو بتفضيل أبي نواس وأصحابه عليهم؟ ما أظنّ أنّ ذلك مما تقوله أنت ولا قاله غيرك، ولا يقوله إلا مَنْ لا يعرف علم البيان، وماهية الفصاحة، وكُنْه البلاغة، وفضيلة المطبوع على المصنوع، ومزيّة المتقدم على المتأخر، فإذا أقررت من نفسك بالفرْق والفضل، وعرفت فضل الفاضل ونقص الناقص، فاعلم أنّ نسبة كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هؤلاء هذه النسبة، بل أظهر، لأنك تجدُ في شعر امرىء القيس وأصحابه من التّعجرُف والكلام الحُوشِيّ، واللفظ الغريب المستكرَه شيئاً كثيراً، ولا تجد من ذلك من كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً، وأكثرُ فساد الكلام ونزوله إنما هو باستعمال ذلك.

فإن شئت أن تزدادَ استبصاراً، فانظر القرآن العزيز - واعلم أنّ الناسَ قد اتفقوا على أنه في أعلى طبقات الفصاحة - وتأمّلْه تأملاً شافياً، وانظر إلى ما خُصَّ به من مزية الفصاحة والبعد عن التقعير والتقعيب والكلام الوحشيّ الغريب، وانظر كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّك تجدُه مشتقًّا من ألفاظه، ومقتَضَباً[١] من معانيه ومذاهبه، ومحذوًّا به حذْوَه، ومسلوكاً به في منهاجه، فهو وإن لم يكن نظيراً ولا ندّاً، يصلُح أن يقال إنه ليس بعده كلامٌ أفصح منه ولا أجزل، ولاأعلى ولا أفخم ولا أنبل، إلا أنْ يكونَ كلام ابن عمه صلى الله عليه وآله، وهذا أمر لا يعلمه إلا مَنْ ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر، بل ولا لانتقاد الذهب، ولكل صناعة أهل، ولكل عمل رجال.

ومن خطب ابن نُباتة التي يحرّض فيها على الجهاد

«ألا وإنّ الجهاد كنزٌ وفّر الله منه أقسامكم، وحِرْزٌ طَهّر الله به أجسامكم، وعزٌّ أظهرَ الله به إسلامَكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم، فانفروا رحمكم الله جميعاً وثُباتٍ[٢]، وشُنّوا على أعدائكم الغارات، وتمسكوا بعِصَم الإقدام ومعاقل الثّبات، وَأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النّيات، فإنه والله ما غُزِي قوم في عُقْر دارهم إلا ذَلّوا، ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلّوا. واعلموا أنّه لا يصلح الجهادُ بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدّموا مجاهدةَ القلوب، قبل مشاهدةِ الحروب، ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر، فإنها من أنفس العدد والذخائر، واعتاضوا من حياة لابدّ من فنائها، بالحياة التي لا ريب في بقائها، وكونوا ممن أطاع الله وشمّر في مرضاته، وسابِقوا بالجهاد إلى تملك جَنّاته، فإن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال، وتشييده إنفاق الأموال، وساحتُه زحف

---

(١) اقتضبه: اقتطعه من الشيء. اللسان، مادة (قضب).

(٢) ثبات: جمع ثبة وهي العصبة من الفرسان. اللسان، مادة (ثبو).

الرجال، وطريقه غمغمة الأبطال، ومفتاحه الثبات في معترك القتال، ومدخله من مشرعةِ الصوارم والنبال».

فلينظر الناظر في هذا الكلام، فإنه وإن كانَ قد أخذ من صناعة البديع بنصيب، إلا أنّه في حضيض الأرض وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في أَوْج السماء، فإنه لا ينكَر لزومُه فيه لما لا يلزمه اقتداراً وقوة وكتابة، نحو قوله: «كنز» فإنّه بإزاء «حرز» و«عز»، وقوله: «مشاهدة» بإزاء قوله: «مجاهدة»، «ومغالبة» بإزاء «محاربة»، و«حدوده» بإزاء «تشييده»، لكن مثله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام كدارمبنّية من اللبِن والطين، مموّهة الجدران بالنقوش والتصاوير، مزخرفة بالذهب من فوق الجِصّ والإسفيداج، بالقياس إلى دار مبنيّة بالصخر الأصمّ الصّلْد، المسبوك بينه عمد الرصاص والنحاس المذاب، وهي مكشوفة غير مموَّهة ولا مزخرفة. فإن بين هاتين الدارين بَوْناً بعيداً، وفرقاً عظيماً، وانظر قوله: «ما غُزِيَ قوم في عُقْر دارهم إلا ذلّوا»، كيف تَصِيحُ من بين الخطبة صياحاً، وتنادي على نفسها نداء فصيحاً، وتُعْلِم سامعَها أنها ليست من المعدن الذي خرج باقي الكلام منه، ولا من الخاطر الذي صدر ذلك السجع عنه، ولعمر الله لقَد جَمّلت الخطبةَ وحسَّنَتْها وزانتها، وما مثلُها فيها إلا كآية من الكتاب العزيزُ يتمثّل بها في رسالة أو خطبة، فإنها تكون كاللؤلؤة المضيئة تُزْهِر وتنير، وتقوم بنفسها وتكتسي الرسالة بها رونقاً، وتكتسب بها ديباجة.

وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر إلى السجعة الثانية التي تكلّفها ليوازنها بها، وهي قوله: «ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلّوا»، فإنك إذا نظرت إليها وجدت عليها من التكلّف والغثاثة ما يقوّي عندك صدق ما قلتُه لك.

على أنّ في كلام ابن نُباتة في هذا الفصل ما ليس بجيّد، وهو قوله: وحرز طهَّر الله به أجسامكم» فإنه لا يقال في الحرز: إنه يُطهِّر الأجسام، ولو قال عوض «طَهَّر»: حَصّن الله به أجسامكم، لكان أليق، لكنه أراد أن يقول: «طَهّر» ليكون بإزاء «وفَر» وبإزاء «أظهر»، فأدّاه حبُّ التقابلُ إلى ما ليس بجيّد.

كتائب سفيان الغامدي في الأنبار

فأما أخو غامد الذي وردتْ خيله الأنبار، فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامديّ، وغامد قبيلة من اليمن، وهي من الأزد، أزد شنوءة. واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن عبد الله بْنُ مالك بن نصر بن الأزد. وسُمّي غامداً لأنه كان بين قومه شرّ فأصلحه وتغمّدهم بذلك.

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب «الغارات» عن أبي الكنود،

قال: حدثني سفيان بن عوف الغامديّ، قال: دعاني معاوية، فقال: إني باعثُك في جيش كثيفٍ، ذي أداةٍ وجَلادة، فالزم لي جانب الفُرات، حتى تمرّ بهِيت[١] فتقطعَها، فإن وجدت بها جنداً فأغِرْ عليهم، وإلا فامضِ حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامضِ حتى تُوغل في المدائن، ثم أقبل إليّ واتق أن تقرُب الكوفة. واعلم أنّك إن أغرتَ على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغَرْت على الكوفة، إنّ هذه الغارات يا سُفيان على أهل العراق تُرَعِّبُ قلوبَهم، وتُفْرِح كلَّ مَنْ له فينا هوًى منهم، وتدعو إلينا كلَّ من خاف الدوائر، فاقتل مَنْ لقيتَه ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كلَّ ما مررت به من القرى، واحرَب الأموال، فإنّ حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب.

قال: فخرجتُ من عنده فعسكرت، وقام معاوية في الناس فخطَبهم، فقال: أيّها الناسُ، انتدِبوا مع سفيان بن عوف فإنّه وجه عظيم فيه أجر، سريعة فيه أوْبتكم إن شاء الله. ثم نزل.

قال: فوالّذي لا إلٰه غيره ما مرَّتْ ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف، ثم لزمت شاطيء الفرات، فأغذَذْتُ السير حتى أمُرَّ بهِيت، فبلغهم أنّي قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عَرِيب[٢]، كأنّها لم تُحْلَلْ قطّ، فوطئتُها حتى أمرَّ بصندوداء، ففرّوا فلم ألق بها أحداً، فأمِضي حتى أفتتحَ الأنبار، وقد نَذِرُوا بي، فخرجَ صاحب المسْلَحة إليّ، فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية، فقلت لهم: أخبروني، كم بالأنبار من أصحاب علي عليه السلام؟ قالوا: عدّة رجال المسلَحة خمسمائة، ولكنهم قد تبدّدُوا ورجعوا إلى الكوفة، ولا ندري الذي يكون فيها، قد يكون مائتي رجل، فنزلت فكتّبتُ أصحابي كتائب، ثم أخذتُ أبعثهم إليه كتيبةً بعد كتيبة فيقاتلهم والله ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقّة، فلما رأيتُ ذلك أنزلتُ إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتُهم الخيل، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها الرجال تمشي، لم يكن شيء حتى تفرّقوا، وقُتِل صاحبهم في نحوٍ من ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال، ثم انصرفت، فوالله ما غزوتُ غزاةً كانت أسلَم ولا أقرّ للعيون، ولا أسرّ للنفوس منها. وبلَغَني والله أنها أرعبتِ الناس، فلما عدت إلى معاوية، حدثته الحديث على وجهه، فقال: كنتَ عند ظنّي بك، لا تنزل في بلد من بُلداني إلا قضيتَ فيه مثل ما يقضِي فيه أميرُه، وإن أحببت توليتَه ولّيتُك، وليس لأحد من خلْق الله عليك أمر دوني.

قال: فوالله ما لبثنا إلا يسيراً، حتى رأيت رجالَ أهلِ العراق يأتونَنا على الإبل هُرَّاباً من عسكر عليّ عليه السلام.

---

(١) هيت: موضع على شاطىء الفرات. اللسان مادة (هيت).

(٢) عريب: رجل. القاموس، مادة (عرب).

قال إبرهيم: كان اسم عامل عليّ عَلَيْتَلِا على مسلحة الأنبار أشرس بن حَسّان البكريّ.

وروى إبراهيم عن عبد الله بن قيس، عن حبيب بن عفيف، قال: كنتُ مع أشرس بن حَسّان البكريّ بالأنبار على مسلحتها، إذ صَبّحنا سُفيان بن عَوْف في كتائب تلمعُ الأبصارُ منها، فهالُونا والله، وعلِمْنا إذْ رأيناهم أنّه ليس لنا طاقة بهم ولا يَد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرّقْنا فلم يلقهمْ نصفُنا، وايمُ الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم، حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1]. ثم قال لنا: مَنْ كان لا يريد لقاء الله، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية ما دمنا نقاتِلهم، فإنّ قتالَنا إياهُمْ شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار، ثم نزل في ثلاثين رجُلاً، فهممت بالنزول معه، ثم أبتْ نفسي، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله، وانصرفنا نحن منهزمين.

قال إبراهيم: وقَدِم عِلْج من أهل الأنبار على عليّ عَلَيْتَلِا، فأخبره الخبر، فصعِد المنبر فخطب الناس، وقال:

إنّ أخاكم البكريّ قد أصيب بالأنبار، وهو معتَزّ لا يخاف ما كان، واختار ما عند الله على الدنيا، فانتدبوا إليهم حتى تلاقُوهم، فإن أصبتم منهم طرفاً أنْكَلْتُموهم[2] عن العراق أبداً ما بقُوا.

ثم سكت عنهم رَجَاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينبِس أحدٌ منهم بكلمة، فلما رأى صَمْتَهم نزل، وخرج يمشي راجلاً حتى أتى النُّخَيْلة، والناس يمشون خَلْفَه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: ارجع يا أميرَ المؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تَكفونني ولا تَكفُون أنفسكم! فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو واجم كئيب، ودعا سعيد بن قيس الهمْدانيّ، فبعثه من النُّخَيلة في ثمانية آلاف، وذلك أنه أخبر أن القوم جاؤوا في جمع كثيف.

فخرج سعيد بن قيس على شاطيء الفُرات في طلب سفيان بن عوف، حتى إذا بلغ عانات، سرّح أمامه هانيء بن الخطاب الهمْدانيّ، فاتّبع آثارهم حتى دخل أدانِيَ أرض قِنّسرين وقد فاتوه، فانصرف.

قال: ولبث عليّ عَلَيْتَلِا، تُرى فيه الكآبة والحزن، حتى قدم عليه سعيد بن قيس، وكان تلك

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٢) أنكل: أنكلته إذا دفعته. اللسان، مادة (نكل).

الأيام عليلاً، فلم يَقْوَ على القيام في الناس بما يريده من القول، فجلس بباب السُّدَّة التي تصل إلى المسجد، ومعه ابناه حسن وحسين عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر، ودعا سعداً مولاه، فدفع إليه الكتاب، وأمره أن يقرأه على الناس، فقام سعد بحيث يستمع عليّ عليه السلام صوتَه، ويسمع ما يردّ الناس عليه، ثم قرأ هذه الخطبة التي نحن في شرحها.

وذكر أنّ القائم إليه، العارض نفسَه عليه جندَب بن عفيف الأزديّ، هو وابن أخ له يقال له: عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف.

قال: ثم أمر الحارث الأعور الهمدانيّ، فنادى في الناس: أين مَنْ يَشْتري نفسَه لربه ويبيع دنياه بآخرته؟ أصبحوا غداً بالرُّحبة إن شاء الله، ولا يحضُر إلا صادق النّيّة في السير معنا، والجهاد لعدوّنا فأصبح وليس بالرّحبة إلا دُون ثلاثمائة، فلما عرضهم، قال: لو كانوا ألفاً كان لي فيهم رأي.

وأتاه قوم يعتذرون، فقال: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾(١)، وتخلّف المكذّبون، ومكث أياماً بادياً حزنه شديد الكآبة، ثم جمع الناس فخطبهم فقال: أما بعد، أيّها الناس، فوالله لأهلُ مصركم في الأمصار أكثرُ من الأنصار في العرب، وما كانوا يوم أعطَوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلّغ رسالات ربّه إلا قبيلتين، قريباً مولدهما، ما هما بأقدَمِ العرب ميلاداً، ولا بأكثرهم عدداً. فلما آووا النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتْهم العرب عن قوس واحدة، فتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم القبائل قبيلةً بعد قبيلة، فتجرّدُوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين اليهود من الحِلْف، ونصبوا لأهل نجد وتِهامة وأهل مكة واليمامة، وأهل الحَزْن والسهل، وأقاموا قَناة الدين، وصبروا تحت حَماس الجلاد، حتى دانت العرب لرسول الله صلى الله عليه وآله، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عزّ وجل إليه، وأنتم اليوم في الناس أكثر من أولئك ذلك الزمان في العرب.

فقام إليه رجُل آدمُ طُوال، فقال: ما أنت بمحمد، ولا نحن بأولئك الذين ذكرتَ، فقال عليه السلام: أحسِن سَمْعاً تُحسِنْ إجابة! ثكلَتْكم الثّواكل! ما تزيدونني إلا غَمّا! هل أخبرتُكم أنّي محمد، وأنكم الأنصار! إنما ضربت لكم مثلاً، وإنما أرجو أن تَتَأسَّوْا بهم.

ثم قام رجل آخر، فقال: ما أحوجَ أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النَّهْرَوَان. ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغطوا، وقام رجل منهم فقال بأعلى صوته: استبان فَقْدُ الأشتر على أهل العراق! أشهد لو كان حَيًّا لقلّ اللَّغَط، ولعلم كلّ امرىء ما يقول.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٠.

فقال عليّ عليه السلام: هبِلتكم الهوابل! أنا أوْجَبُ عليكم حقاً من الأشتر، وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم!

فقام حُجر بن عديّ الكنديّ وسعيد بن قيس الهَمْدَانيّ، فقالا: لا يُسُوْك الله يا أمير المؤمنين، مُرْنَا بأمرك نتبعه، فوالله ما نُعظِم جَزَعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنا إن قُتِلتْ في طاعتك، فقال: تجهَّزوا للمسير إلى عدوّنا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا عليّ برجل صَلِيب ناصح، يحشر الناس من السّواد. فقال له سعيد بن قيس: يا أمير المؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقِل بن قيس التميمي، قال: نعم.

ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام.

٢٨ – ومن خطبة له عليه السلام في الحث على التزود للآخرة

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلاعٍ، أَلاَ وَإِنَّ ٱلْيَوْمَ ٱلْمِضْمَارَ، وَغَداً ٱلسِّبَاقَ، وَٱلسَّبَقَةُ ٱلْجَنَّةُ وَٱلْغَايَةُ ٱلنَّارُ.

أَفَلاَ تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ! أَلاَ عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ!

أَلاَ وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ، مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ.

أَلاَ فَاعْمَلُوا فِي ٱلرَّغْبَةِ، كَمَا تَعْمَلُونَ فِي ٱلرَّهْبَةِ.

أَلاَ وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلاَ كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا.

أَلاَ وَإِنَّهُ مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ ٱلْحَقُّ يَضُرُّهُ ٱلْبَاطِلُ، وَمَنْ لاَ يَسْتَقِيمُ بِهِ ٱلْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ ٱلضَّلاَلُ إِلَى ٱلرَّدَى.

أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى ٱلزَّادِ، وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ ٱتِّبَاعُ ٱلْهَوَى وَطُولُ ٱلأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِي ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً.

قال الرضي رحمه الله: وَأَقُولُ: إِنَّهُ لَو كَانَ كلامٌ يَأْخذ بِالأعنَاقِ إِلَى ٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا، وَيَضْطَرُّ إِلَى عَمَلِ ٱلآخِرَةِ لَكَانَ هَذَا ٱلْكَلاَمَ. وَكَفَى بِهِ قَاطِعاً لِعَلاَئِقِ ٱلآمال، وَقَادِحاً زِنَادَ ٱلاتِّعَاظِ وَٱلازْدِجار. ومن أَعْجَبِهِ قوله عَلَيهِ السَّلاَم: «أَلاَ وَإِنَّ ٱلْيَوْمَ ٱلْمِضْمَارَ وَغَداً ٱلسِّبَاقَ،

وَالسَّبَقَةُ ٱلْجَنَّةُ وَٱلْغَايَةُ النَّار»، فَإِنَّ فِيهِ مَعَ فَخَامَةِ ٱللَّفْظِ، وَعِظَمِ قَدْرِ ٱلْمَعْنَى، وَصَادِقِ التَّمْثِيلِ، وَوَاقِعِ التَّشْبِيهِ، سِرًّا عَجِيباً، وَمَعْنًى لَطِيفاً، وَهُوَ قَوْلُه عَلَيْهِ السَّلاَمُ «وَالسَّبَقَةُ ٱلْجَنَّةُ وَٱلْغَايَةُ النَّار»، فَخَالَفَ بَيْنَ ٱللَّفْظَيْنِ لاخْتِلاَفِ ٱلْمَعْنَيَيْنِ، وَلَمْ يَقُلْ «السَّبَقَةُ النَّارُ» كَمَا قَالَ: «السَّبَقَةُ ٱلْجَنَّةُ» لِأَنَّ ٱلاسْتِبَاقَ إِنَّمَا يَكُونُ إِلَى أَمْرٍ مَحْبُوبٍ وَغرَضٍ مَطْلُوبٍ، وَهَذِهِ صِفَةُ ٱلْجَنَّةِ، وَلَيْسَ هذا المعْنَى موجُوداً في النَّار، نَعُوذُ بالله مِنْهَا! فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَقُولَ: «والسَّبَقَةُ النَّارُ» بلْ قال: «وَٱلْغَايَةُ النَّار»، لِأَنَّ الغايَةَ قَدْ يَنْتَهِي إِليهَا مَنْ لاَ يَسُرُّهُ الانْتِهَاءُ إِلَيْهَا، وَمَنْ يَسُرُّهُ ذَلِكَ فَصَلَحَ أَنْ يُعَبَّرَ بِهَا عَنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مَعاً، فَهِيَ فِي هَذَا ٱلْمَوْضِعِ كَالْمَصِيرِ وَٱلْمَالِ، قَالَ ٱلله تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1]، وَلاَ يَجُوزُ فِي هَذَا ٱلْمَوْضِعِ أَنْ يُقَال: فَإِنَّ «سَبَقَتَكُمْ إِلى النَّارِ». فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فَبَاطِنُهُ عَجِيب، وَغَوْرُهُ بَعِيدٌ لَطِيفٌ، وَكَذٰلِكَ أَكْثَرُ كَلاَمِهِ عَلَيهِ السَّلاَم.

وَفي بَعْضِ النُّسَخِ، وَقَدْ جَاءَ في رِوَايَةٍ أُخْرَى «وَالسُّبْقَةُ ٱلْجَنَّةُ» بضمّ السّين، والسُّبْقَةُ عِنْدَهُمْ: ٱسْمٌ لِمَا يُجْعَلُ لِلسَّابِقِ، إِذَا سَبَقَ مِنْ مال أَوْ عَرَضٍ، وَالْمَعْنَيان مُتَقَارِبَانِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لاَ يَكُونُ جَزَاءً عَلَى فِعْلِ ٱلْأَمْرِ ٱلْمَحْمُود.

الشرح: آذنت: أعلمت. والمضمار، منصوب، لأنّه اسم «إنّ». واليوم ظرف، وموضعه رفع، لأنّه خبر «إن»، وظرف الزمان يجوز أن يكون خبراً عن الحدَث، والمضمار: وهو الزمان الذي تضمّر فيه الخيل للسباق، والضّمْر: الهزال وخفة اللّحم. وإعراب قوله: «وغداً السباق»، على هذا الوجه أيضاً.

ويجوز الرّفع في الموضعين على أن تجعلهما خبر «إنّ» بأنفسهما.

وقوله عليه السلام: «ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه» أخذه ابن نُباتة مصالتةً، فقال في بعض خطبه: «ألا عاملٌ لنفسه قبل حلول رَمْسِه».

قوله: «ألا فاعملوا في الرغبة»، يقول: لا ريب أنّ أحدَكم إذا مسّه الضُّر من مرض شديد، أو خوف مُقْلِق، من عدوّ قاهر، فإنه يكون شديد الإخلاص والعبادة، وهذه حال من يخاف الغرق في سفينة تتلاعب بها الأمواج، فهو عليه السلام أمر بأن يكون المكلّف عاملاً أيام عدم الخوف، مثل عمله وإخلاصه وانقطاعه إلى الله أيام هذه العوارض.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٠.

قوله: «لم أر كالجنة نام طالبها»، يقول: إنّ مِن أعجب العجائب من يؤمن بالجنة كيف يطلبها وينام! ومن أعجب العجائب من يوقن بالنار، كيف لا يهرب منها وينام! أي لا ينبغي أن ينام طالب هذه ولا الهارب من هذه.

وقد فسر الرضيّ رحمه الله تعالى معنى قوله: «والسبَقة الجنة».

من مواعظ الصالحين

ونحن نورد في هذا الفصل نكتاً من مواعظ الصالحين يرحمهم الله، تناسب هذا المأخذ. فمما يؤثر عن أبي حازم الأعرج - كان في أيام بني أمية - قوله لعمر بن عبد العزيز، وقد قال له: يا أبا حازم، إنّي أخافُ الله مما دخلتُ فيه، فقال: لست أخاف عليك أن تخاف، وإنما أخاف عليك ألاّ تخاف.

وقيل له: كيف يكون الناسُ يوم القيامة؟ قال: أما العاصي فآبقٌ قُدِم به على مولاه، وأما المطيع فغائب قَدِم على أهله.

ومن كلامه: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما أمسِ فلا يجدون لذته، ولا أجد شدّتَه، وأما غداً فإني وإياهم منه على خطر، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون!

ومن كلامه: إذا تتابعتْ عليك نِعَمُ ربك وأنت تعصيه فاحْذَره.

وقال له سليمان بن عبد الملك: عِظْني، فقال: عَظِّم ربَّك أن يراك حيث نَهاك، أو يفقِدك حيث أمرك.

وقيل له: ما مالك؟ قال: شيئان لا عُدْم[1] بي معهما: الرضا عن الله، والغنى عن الناس.

ومن كلامه: عجباً لقوم يعملون لدارٍ يَرْحلون عنها كلّ يوم مرحلة، ويتركون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كلّ يوم مرحلة!

ومن كلامه: إن عوفينا من شرّ ما أعطانا، لم يضرّنا فَقْدُ ما زُويَ عنا.

ومن كلامه: نحن لا نريد أن نموتَ حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت.

ولما ثُقِلَ عبدُ الملك رأى غسالاً يلوِي بيده ثوباً، فقال: وددت أني كنت غسالاً مثل هذا، أعيش بما أكتسب يوماً فيوماً، فذكِرَ ذلك لأبي حازم، فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنَّوْن ما نحن فيه، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

---

(١) العُدْم: أعْدَمَ عُدْماً: افتقر وصار ذا عدم.

ومن كلام غيره من الصالحين: دخل سالم بن عبد الله بن عمر على هشام بن عبد الملك في الكَعبة، فكلمه هشام، ثم قال له: سَلْ حاجَتك، قال: معاذ الله أن أسأل في بيت الله غيرَ الله.

وقيل لرابعة القَيْسِيّة: لو كلّمتِ أهلَكِ أن يشترُوا لك خادماً يكفيك مؤنة بيتك! قالت: إنّي لأستحيي أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها، فكيف مَنْ لا يملِكها!

وقال بكر بن عبد الله: أطفئوا نارَ الغضب بذكْر نار جهنم

عامر بن عبد القيس: الدنيا والدة للموت، ناقضة للمبْرم، مرتجعة للعطية، وكلّ مَنْ فيها يجري إلى ما لا يدري، وكلّ مستقرّ فيها غير راضٍ بها، وذلك شهيد على أنّها ليست بدار قرار.

باع عتبة بن عبد الله بن مسعود أرضاً له بثمانين ألفاً، فتصدّق بها، فقيل له: لو جعلتَ هذا المال أو بعضه ذُخراً لولدك! قال: بل أجعل هذا المال ذُخراً لي، وأجعل الله تعالى ذُخراً لولدي.

رأى إياس بن قتادة شيبةً في لحيته، فقال: أرى الموت يطلُبني، وأراني لا أفوته. فلزم بيتَه وترك الاكتساب. فقال له أهله: تموت هُزالاً! قال: لأن أموتَ مؤمناً مهزولاً أحبُّ إليّ من أعيش مُنافقاً سميناً.

بكر بن عبد الله المزنيّ: ما الدّنيا ليت شعري! أمّا ما مَضَى منها فحُلْم، وأما ما بقي فأمانيّ!

مُورّق العجليّ: خَيْرٌ من العُجْبِ بالطاعة ألاّ تأتيَ بالطاعة.

ومن كلامه: ضاحِكٌ معترف بذنبه، خير من باكٍ مُدِلٌ على ربه.

ومن كلامه: أوحى الله إلى الدنيا: مَنْ خَدَمني فاخدُميه، ومن خَدَمك فاستخدميه.

قيل لرابعة: هل عَمِلْتِ عملاً ترين أنّه يُقبل منك؟ قالت: إن كان فخوفي أنْ يُرَدَّ عليّ.

نظر حبيب إلى مالك بن دينار، وهو يقسّم صدقته علانية، فقال: يا أخيَ، إنّ الكنوز لتُسْتَر، فما بال هذا يجْهَرُ به!

قال عمرو بن عُبيد للمنصور: إن الله أعطاك الدنيا بأسْرِها، فاشتر نفسك منه ببعضها، وإن هذا الذي أصبح اليوم في يدك لو كان مما يبقى على الناس لبقي في يد مَنْ كان قبلك، ولم يصر إليك، فاحذَرْ ليلة تمخّض بيوم لا ترى بعده إلا يوم القيامة. فبكى المنصور، وقال: يا أبا عثمان، سلْ حاجة، قال: حاجتي ألا تعطيَني حتى أسألك، ولا تدْعني حتى أجيئك، قال: إذن لا نلتقي أبداً، قال: فذاك أريد.

كان يقال: الدّنيا جاهلة، ومِنْ جَهْلها، أنّها لا تعطي أحداً ما يستحقّه، إما أن تزيدَه، وإما أن تَنْقُصه.

قيل لخالد بن صفوان: مَنْ أبلغُ الناس؟ قال: الحسنَ، لقوله: فضح الموتُ الدنيا.

قيل لبعض الزهاد: كيف سُخْط نفسك على الدنيا؟ قال: أيقنت أني خارج منها كرهاً، فأحببت أن أخرُج منها طوعاً.

مرّ إبراهيم بن أدهم بباب أبي جعفر المنصور، فنظر السلاح والحرس، فقال: المريب خائف.

قيل لزاهد: ما أصبرَك على الوحدة! قال، كلاّ أنا أجالسُ ربّي، إذا شئت أن يناجيَني قرأت كتابَه، وإذا شئت أن أناجيَه صلّيت.

كان يقال: خف الله لقدرته عليك، واستحِ منه لقربه منك.

قال الرشيد للفُضَيل بن عياض: ما أزهدك! قال: أنت يا هارون أزهَدُ مني، لأنّي زَهِدتُ في دنيا فانية، وزهدتَ في آخرةٍ باقية.

وقال الفُضَيل: يا ربّي، إني لأستحيي أن أقول: توكّلت عليك، لو توكلت عليك ما خفتُ إلا منك، ولا رجوتُ إلا إيّاك.

عوتب بعض الزهاد عَلَى كثرة التصدق بماله، فقال: لو أراد رجل أن ينتقل من دارٍ إلى دارٍ، ما أظنّه كان يترك في الدار الأولى شيئاً!

قال بعض الملوك لبعض الزهّاد: ما لك لا تغشى بابي وأنت عَبْدي! قال: لو علمتَ أيها الملك، لعلمتَ أنّك عبدُ عبدي، لأنّي أملِك الهوى والهوى يملِكك.

دخل متظلّم على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، اذكر يوم الأذان، قال: وما يومُ الأذان؟ قال: اليوم الذي قال تعالى فيه: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١)، فبكى سليمان وأزال ظلامته.

سئل الفُضَيل بن عياض عن الزّهد، فقال: يجمعه حرفان في كتاب الله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(٢).

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرشيد: ما يمرُّ يومٌ من نعيمك إلا ويمرُّ يوم من بؤسي، وكلاهما إلى نفادٍ.

قيل لحاتم الأصمّ: علام بنيتَ أمرَك؟ قال: على أربع خصال: علمتُ أنّ رزقي لا يأكله غيري فلم أهتمّ به، وعلمت أنّ عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أنّ الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره، وعلمت أنّي بعين الله في كلّ حال فاستحييت منه.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٤. (٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

نظر بعضُ الصالحين إلى رجل يفحُش في قوله، فقال: يا هذا إنما تُملي على حافِظيك كتاباً إلى ربك، فانظر ما تودعه.

كان يقال: مثلُ الدنيا والآخرة مثل ضَرّتَين لبعلٍ واحد، إنْ أرضى هذه أسخط الأخرى.

قيل لبعضهم: ما مَثَلُ الدنيا؟ قال، هي أقلّ من أن يكون لها مَثَل.

دخل لصّ على بعض الزهاد الصالحين، فلم يَر في داره شيئاً، فقال له: يا هذا، أين متاعك؟ قال: حوّلته إلى الدار الأخرى.

قيل للربيع بن خيثم: يا ربيعُ، ما نراك تذُمّ أحداً! فقال: ما أنا عن نفسي براض، فأتحوّل من ذمّي إلى ذَمّ الناس، إنّ الناس خافوا الله على ذنوب العباد وأمِنوه على ذنوبهم.

قال عيسى بن موسى لأبي شيبة القاضي: لم لا تأتينا؟ قال: إن قرّبتَني فتنتَني، وإنْ أقصيتَني أحزنتَني، وليس عندي ما أخافك عليه، ولا عندك ما أرجوك له.

من كلام بعض الزهاد: تأمَّل ذا الغنى، ما أشدّ نَصَبه، وأقل راحتَه، وأخسّ من ماله حظَّه، وأشدّ من الأيام حذره! هو بين سلطانٍ يتهضّمه[1]، وعدوٌ يبغي عليه، وحقوق تلزمه، وأكفاءٍ يحسدونه، وولد يودّ فراقَه، قد بعث عليه غناه من سلطانه العَنت، ومن أكفائه الحسَد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الذمّ، ومن الولد الملالة.

ومن كلام سُفْيانَ الثوري: يا ابن آدم، جوارحك سلاح الله عليك، بأيّها شاء قَتَلك.

ميمون بن مهران في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، قال: إنها لتعزية للمظلوم، ووعيد للظالم.

دخل عبد الوارث بن سعيد على مريضٍ يعوده، فقال له: ما نمتُ منذ أربعين ليلة، فقال: يا هذا، أحصيت ليالي البلاء، فهل أحصيت ليالي الرخاء!

بعضُهم: واعجباه لمن يفرح بالدنيا، فإنما هي عقوبة ذنب!

ابن السّماك: خَفِ الله حَتّى كأنّك لم تُطِعْه قطّ، وارْجُه حتى كأنك لم تعصه قَطّ. بعضهم: العلماء أطبّاء هذا الخلْق، والدنيا داء هذا الخلق، فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبريء غيره!

قيل لمحمد بن واسع: فلان زاهد، قال: وما قَدْر الدنيا حتى يُحْمَدَ مَنْ يزهد فيها؟ رُئِيَ عبد الله بن المبارك واقفاً بين مقبرة ومَزْبلة، فقيل له: ما أوقفك؟ قال: أنا بين كنزيْن من كنوز الدنيا فيهما عِبْرة: هذا كنز الأموال، وهذا كنز الرجال.

---

(١) تهضمه: ظلمه وغصبه وقهره. اللسان، مادة (هضم).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

قيل لبعضهم: أتعبتَ نفسك، فقال: راحتَها أطلب.

دخل الأسكندرُ مدينة فتحها، فسأل عمّن بقي من أولاد الملوك بها، فقيل: رجل يسكن المقابر، فدعا به، فقال: ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر؟ فقال: أحببت أن أميّز بين عظام الملوك، وعظام عبيدهم، فوجدتها سواء. فقال: هل لك أن تتبعني فأحييَ شرفك وشرف آبائك، إن كانت لك همة! قال: همّتي عظيمة، قال: وما همتُك؟ قال: حياةٌ لا موت معها، وشباب لا هرم معه، وغنى لا فقر معه، وسرور لا مكروه معه، فقال: ليس هذا عندي، قال: فدعْني ألتمسه ممن هو عنده.

مات ابنٌ لعمر بن ذرّ، فقال: لقد شغلني الحزنُ لك يا بنيّ عن الحزن عليك.

كان يقال: مِنْ هَوَان الدنيا على الله ألا يُعْصَى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها.

ومن كلام عبد الله بن شداد: أرى دواعي الموت لا تُقلع، وأرى مَنْ مَضَى لا يرجع، فلا تزهدنّ في معروف، فإن الدّهر ذو صروف. كم من راغب قد كان مرغوباً إليه! والزمانُ ذُو ألوان، من يصحب الزمان يَرَ الهوان، وإن غُلِبتَ يوماً على المال فلا تُغْلَبَنَّ على الحيلة على كلّ حال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقلَّ ما تكون في الباطن مَالاً.

كان يقال: إن مما يعجّل الله تعالى عقوبتَه: الأمانة تُخان، والإحسان يُكْفَر، والرّحم تقطع، والبغي على الناس.

الربيع بن خيثم: لو كانت الذنوب تفوح روائحُها لم يجلس أحد إلى أحد.

قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ قال: آسفاً على أمسي، كارهاً ليومي، متَّهِماً لغدي.

وقيل لآخر: لم تركت الدنيا؟ قال: أنِفْتُ مِنْ قليلها، وأنِفَ منّي كثيرُها. وهذا كما قال بعضهم، وقد قيل له: لم لا تقول الشعر، قال. يأباني جَيِّده، وآبى رديئه.

بعض الصالحين: لو أنزل الله تعالى كِتَاباً: «إني معذِّب رجلاً واحداً»، خِفْتُ أن أكونه، أو إنه راحم رجلاً واحداً، لرجوت أن أكونه.

مطرّف بن الشِّخّير: خير الأمور أوساطها، وشر السير الحَقْحَقة. وهذا الكلام قد روي مرفوعاً(١).

يحيى بن معاذ: إن لله عليك نعمتين: في السراء التذكّر، وفي الضّراء التصبّر، فكن في السرّاء عبداً شكوراً، وفي الضّراء حرّاً صبوراً.

دخل ابن السّماك على الرّشيد، فقال له: عِظْني، ثم دعا بماءٍ ليشربه، فقال له ناشدتُك الله،

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء»، (١٢٤٧)، وقال: قال ابن الغرس ضعيف.

لو منَعك الله من شربه ما كنت فاعلاً؟ قال: كنت أفتديه بنصف ملكي. قال: فاشربه، فلما شرب، قال: ناشدتك الله! لو منعك الله من خروجه ما كنت فاعلاً؟ قال: كنت أفتدِيه بنصف ملكي، قال: إنّ مُلْكاً يُفْتدى به شربة ماء، لخَليق ألاّ ينافَس عليه.

قال المنصور لعمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى: عِظْني، قال: بما رأيتُ أم بما سمعتُ؟ قال: بما رأيتَ. قال: رأيتُ عمر بن عبد العزيز، وقد مات، فخَلف أحد عشر ابناً، وبلغتْ تركتُه سبعة عشر ديناراً، كُفّن منها بخمسة دنانير، واشتريَ موضع قبره بدينارَيْن، وأصاب كلّ واحد من ولده دونَ الدينار. ثم رأيتُ هشام بن عبد الملك، وقد مات وخلَّف عشرة ذكور، فأصاب كلّ واحد من ولده ألف ألف دينار. ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز، قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله، ورأيت رجلاً من ولد هشام، يسأل الناس ليتصدقوا عليه.

حسان بن أبي سنان: ما شيء أهونُ من وَرَعٍ، إذا رابك شيء فدَعْه.

مورِّق العِجْليّ: لقد سألت الله حاجة أربعين سنة، ما قضاها ولا يئست منها، قيل: وما هي؟ قال: تَرْك ما لا يعنيني.

قَتادة: إنّ الله ليُعطِي العبد على نِيّة الآخرة ما يسأله من الدنيا، ولا يعطيه على نية الدنيا إلا الدنيا.

من كلام محمد بن واسع: ليس في النار عذابٌ أشدّ على أهلها من علمهم بأنه ليس لكربهم تنفيس، ولا لضيقتهم ترفيه، ولا لعذابهم غاية، وليس في الجنّة نعيم أبلغُ من علم أهلها بأن ذلك الملك لا يزول عنهم.

قال بعض الملوك لبعض الزّهاد: اذمُم لي الدنيا، قال: أيّها الملك، هي الآخذة لما تُعطِي، المورّثة بعد ذلك الندم، السّالبة ما تكسو، المورّثة بعد ذلك الفضوح، تسدّ بالأراذل مكان الأفاضل، وبالعجزة مكان الحَزَمة، تجد في كلٍّ من كلٍّ خلَفا، وترضَى بكلٍّ من كلٍّ بدلاً، تُسْكِن دارَ كل قَرْنٍ قرناً، وتُطعِم سُؤْر كلٍّ قوم قوماً.

ومن كلام الحجاج - وكان مع غَشْمِه وإلحاده واعظاً بليغاً مفوَّهاً - خطب فقال: اللهمّ أرني الغيّ غيًّا فأتجنّبَه، وأرني الهدى هدًى فأتبّعَه، ولا تكلْني إلى نفسي فأضلَّ ضلالاً بعيداً، والله ما أحبّ أن ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه، ولَمَا بقيَ منها أشبه بما مضى من الماء بالماء.

وقال مالك بن دينار: غَدَوْتُ إلى الجمعة، فجلست قريباً من المنبر، فصعَدِ الحجّاج، فَسَمعته يقول: امرؤٌ زَوّرَ عمله، امرؤ حاسب نفسه، امرؤ فكّر فيما يقرؤه في صحيفته، ويراه في ميزانه، امرؤ كان عند قلبه زاجر، وعند هَمّه آمر، امرُؤ أخذ بعنان قلبه، كما يأخذ الرجل بخِطَام

جمله، فإن قاده إلى طاعة الله تَبِعه، وإن قاده إلى معصية الله كَفّه، إننا والله ما خلِقنا للفناء، وإنّما خلقنا للبقاء، وإنما ننتقل من دار إلى دار.

وخطب يوماً، فقال: إن الله أمرَنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤونة الدنيا، فليتَه كفانا مؤونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا. فقال الحَسَنُ: ضالّة المؤمن خرجتْ من قلب المنافق.

ومن الكلام المنسوب إليه - وأكثرُ الناس يروونه عن أمير المؤمنين عليه السلام: أيّها الناس، اقدعوا(١) هذه الأنفس، فإنها أسأل شيء إذا أعطِيَت، وأبخل لشيء إذا سُئِلَتْ، فرَحِم الله امرأ جعل لنفسه خِطاماً وزماماً، فقادها بخِطامها إلى طاعة الله، وعَطَفها بزمامها عن معصية الله، فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسرَ من الصبر على عذاب الله.

ومن كلامه: إن امرأ أتَتْ عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربَّه، ويستغفر من ذنبه، ويفكِّر في معاده، لجدير أن يطول حُزْنه، ويتضاعف أسفُه. إن الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء، ولا فناء لما كتب عليه البقاء، فلا يغرّنّكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقْهَرُوا طولَ الأمل بقصَر الأجل.

ونقلت من «أمالي» أبي أحمدَ العسكريّ رحمه الله تعالى، قال: خطب الحجاج يوماً، فقال: أيّها الناس، قد أصبحتُم في أجلٍ منقوص، وعمل محفوظ. ربّ دائب مُضِيعٌ وساعٍ لغيره. والموت في أعقابكم، والنار بين أيديكم، والجنة أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غنَاكم لفقركم، ومّما في أيديكم لما بين أيديكم، فكأن ما قد مضَى من الدّنيا لم يكن، وكأن الأموات لم يكونوا أحياءً، وكلّ ما ترَوْنه فإنّه ذاهب. هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة، ثم طلعت على قبورهم! أين الملوكُ الأولون! أين الجبابرةُ المتكبّرون! المحاسبُ الله، والصِّراط منصوب، وجهنم تَزْفِرُ وتتوقَّد، وأهل الجنة يَنْعَمُون، هم في روضة يُحْبَرُون(٢)، جعلنا الله وإيّاكم من الذين، ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(٣).

قال: فكان الحسن رحمه الله تعالى يقول: ألا تعجبون من هذا الفاجر! يَرْقَى عَتَبات المِنْبر فيتكلّم بكلام الأنبياء، وينزل فيفتِك فتكَ الجبّارين، يوافق الله في قوله، ويخالفه في فعله!

(١) القدع: الكف والمنع، اللسان، مادة (قدع).
(٢) يحبرون: أي يُسَرُّن. اللسان، مادة (حبر).
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.

في الكلام على المقابلة

وأما ما ذكره الرضيّ رحمه الله تعالى من المقابلة بين السَّبَقَة والغاية، فنكتة جيّدة من علم البيان، ونحن نذكر فيها أبحاثاً نافعة، فنقول:

إمّا أنّ يُقابلَ الشيءُ ضدَّه أو ما ليس بضدّه.

فالأول كالسواد والبياض، وهو قسمان:

أحدهما: مقابِلُه في اللفظ والمعنى.

أما الأول، فكقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[1]، فالضَّحِك ضدّ البكاء، والقليل ضدّ الكثير. وكذلك قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2]. ومن كلام النبي ﷺ: «خير المالِ عينٌ ساهرة لعين نائمة»[3]. ومن كلام أيد المؤمنين عليه السلام لعثمان: إن الحقّ ثقيلٌ مريء، وإن الباطل خفف وبيء، وأنت رجل إن صُدقْتَ سَخِطت، وإن كُذِبت رَضِيت.

وكذلك قوله عليه السلام لما قالت الخوارج: لا حكمَ إلا الله: «كلمة حق أريد بها باطل».

وقال الحجاج لسعيد بن جُبَير لما أراد قتله: ما اسمُك؟ فقال: سعيد بنُ جُبَير، فقال: بل شَقِيّ بن كُسَير.

وقال ابن الأثير في كتابه المسمى بـ«المثل السائر»: إن هذا النوع من المقابلة غيرُ مختصٌ بلغة العرب، فإنه لما مات قُباذ أحد ملوك الفرس، قال وزيره: حرّكنا بسكونه.

وفي أول كتاب الفصول لبقراط في الطبّ: العمر قصير والصناعة طويلة، وهذا الكتاب على لغة اليونان.

قلت: أيّ حاجة به إلى هذا التكلّف! وهل هذه الدعوى من الأمور التي جوز أن يعترِيَ الشكّ والشبهة فيها، ليأتيَ بحكاية مواضع من غير كلام العرب يحتجّ بها! أليس كلّ قبيلة وكلّ أمّة لها لغة تختص بها! أليس الألفاظ دلالاتٍ على ما في الأنفس من المعاني! فإذا خطر في النفْس كلام يتضمّن أمريْن ضدّين فلا بد لصاحب ذلك الخاطر - سواء أكان عربياً أم فارسيًا أم زِنْجيًا أم حبشيًا - أن ينطق بلفظ يدل على تلك المعاني المتضادة، وهذا أمر يعمّ العقلاء كلّهم،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٢. (٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٢٠٥)، وابن الأثير في «النهاية»، مادة (عين).

على أنَّ تلك اللفظة التي قالها، ما قيلت في موت قُباذ، وإنما قيلت في موت الإسكندر، لما تكلّمت الحكماء وهم حول تابوته بما تكلّموا به من الحِكَم.

ومما جاء من هذا القسم من المقابلة في الكتاب العزيز قوله تعالى في صفة الواقعة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾(١)، لأنها تخفض العاصين، وترفع المطيعين.

وقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾(٢).

وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٣).

ومن هذا الباب قول النبيّ ﷺ للأنصار: «إنّكم لتَكثُرون عند الفَزع وتَقِلّون عند الطّمع»(٤).

ومما جاء من ذلك في الشعر قول الفرزدق يهجو قبيلة جرير:

يَسْتَيْقِظُون إلى نَهِيقِ حَمِيرِهِم ... وَتَنَامُ أعْيُنُهِمْ عَنِ ٱلأوْتَارِ

وقال آخر:

فَلاَ ٱلْجُودُ يُفْنِي المالَ وَالجدُّ مُقْبِلٌ ... وَلاَ ٱلْبُخْلُ يُبقي المَالَ والجَدّ مُدْبِرُ

وقال أبو تمام:

ما إنْ تَرَى الأحْسَابَ بِيضاً وُضَحاً ... إلاّ بِحيثُ تَرَى المنايا سُودَا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضاً:

شَرَفٌ عَلَى أولَي الزَّمَانِ وإنَّمَا ... خَلَقُ المَنَاسِبِ ما يكونُ جَدِيدَا

وأما القسم الثاني من القسم الأول، وهو مقابلةُ الشيء بضدّه بالمعنى لا باللفظ، فكقول المقنّع الكنْدِيّ:

لَهُمْ جُلُّ مَا لِي إنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى ... وإنْ قَلَّ مَالِي لاَ أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا

فقوله: «إن تتابع لي غنًى» في قوّة قوله: «إن كَثُر مالي»، والكثرة ضدّ القلة، فهو إذنْ مقابل بالمعنى لا باللفظ بعينه.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣. (٢) سورة الحديد، الآية: ١٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٤) أخرجه القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٢٤٧)، والمباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٧٧)، وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٢٠٥).

ومن هذا الباب قول البحتريّ:

تَقيّضُ لي مِنْ حَيْثُ لا أعلمُ النّوَى ... وَيَسْرِي إليّ الشوقُ مِنْ حَيْثُ أعْلَم

فقوله: «لا أعلم» ليس ضدًا لقوله: «أعلم»، لكنّه نقيضٌ له، وفي قوّة قوله: «أجهل»، والجهل ضدّ العلم.

ومن لطيف ما وقعت المقابلة به من هذا النوع قولُ أبي تمام:

مَهَا الوحشِ إلاّ أنّ هَاتَا أوانِسٌ ... قَنا الخَطِّ[1] إلا أنّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

فقابل بين «هاتا» وبين «تلك»، وهي مقابلةٌ معنوية لا لفظية، لأنّ «هاتا» للحاضرة، و«تلك» للغائبة، والحضور ضدّ الغيبة.

وأما مقابلة الشيء لما بضدّه، فإمّا أن يكون مِثْلاً أو مخالفاً.

والأوّل على ضربيْن: مقابلة المفرد بالمفرد، ومقابلة الجملة بالجملة.

مثال مقابلة المفرد بالمفرد قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾[3]، هكذا قال نصر الله بن الأثير.

قال: وهذا مراعى في القرآن الكريم إذا كان جواباً كما تقدم من الآيتين، وكقوله ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[4]، وقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾[5].

قال: وقد كان يجوز أن يقول: «من كفر فعليه ذنبُه»، لكنّ الأحسن هو إعادة اللفظ، فأما إذا كان غير جواب لم تَلزم فيه هذه المراعاة اللفظّية، بل قد تقابَل اللفظةُ بلفظة تفيد معناها، وإن لم تكن هي بعينها، نحو قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[6]، فقال: «يفعلون» ولم يقل «يعملون».

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ﴾[7]، ولم يقل: «قالوا لا تفزع».

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[8]، ولم يقل: «كنتم تخوضون وتلعبون».

قال: ونحو ذلك من الأبيات الشّعرية قولُ أبي تمّام:

---

(١) الخط: الوجه الحسن. اللسان، مادة (خطط).
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٩.
(٣) سورة النمل، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الروم، الآية: ٤٤.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٧٠.
(٧) سورة صَ، الآية: ٢٢.
(٨) سورة التوبة، الآية: ٦٥.

بَسَطَ الرَّجَاءُ لَنَا بِرَغْمِ نَوائِبٍ   كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصَارِعُ الآمَالِ

فقال: «الآمال» عوَض «الرجاء»، قال أبو الطيب:

إنِّي لأعْلَمُ واللَّبِيبُ خَبِيرُ   أنّ الحياةَ - وإن حَرَصْتَ - غُرُورُ

فقال: «خبير» ولم يقل: «عليم».

قال: وإنما حَسُن ذلك، لأنّه لَيس بجواب، وإنما هو كلام مبتدأ.

قلت: الصحيح أنّ هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(١) وما شابهها ليست من باب المقابلة التي نحن في ذكرها، وأنّها نوع آخر، ولو سُمِّيَت: المماثلة أو المكافأة لكنا أولى، والدليل على ذلك أنّ هذا الرجل حَدّ المقابلة أوّل الباب الذي ذُكِر هذا البحث فيه، فقال: إنّها ضدُّ التجنيس، لأن التجنيس أن يكونَ اللفظُ واحداً مختلف المعنى، وهذه لابد أن تتضمّن معنيين ضدين، وإن كان التضادّ مأخوذاً في حدّها، فقد خرجت هذه الآيات من باب المقابلة، وكانت نوعاً آخر.

وأيضاً فإنّ قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾(٢) ليس من سِلْك الآيات الأخرى، لأنه بالواو والآيات الأخرى، بالفاء، والفاء جواب، والواو ليست بجواب.

وأيضاً، فإنّا إذا تأملنا القرآن العزيز لم نجد ما ذكره هذا الرجل مطّرداً، قال تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾(٣)، فلم يقل في الثانية: «وأمّا من جاءك يسعى وهو فقير».

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾(٤)، فقابل بين «أعطى» و«بخل» ولم يقابِلْ بين «اتقى» و«استغنى»، ومثل هذا في القرآن العزيز كثير، وأكثر من الكثير.

وقد بانَ الآن أنّ التقسيمَ الأوّل فاسد، وأنه لا مقابلة إلا بين الأضداد وما يجري مجراها.

وأمّا مقابلةُ الجملة بالجملة في تقابل المتماثليْن، فإنه إذا كانتْ إحداهما في معنى الأخرى وقعت المقابلة، والأغلب أن تُقابَل الجملةُ الماضية بالماضية، والمستقبَلةُ بالمستقبَلة.

وقد تُقابَل الجملة الماضية بالمستقبلة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾(٥)، فإنّ هذا تقابل من جهة المعنى، لأنّه لو كان من جهة اللفظ لقال: «وإن اهتديت فإنّما أهتدي لها».

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.
(٢) سورة النمل، الآية: ٥٠.
(٣) سورة عبس، الآيات: ٥ - ١٠.
(٤) سورة الليل، الآيات: ٥ - ١٠.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٢٥٠.

ووجه التقابُل المعنويّ، هو أن كلّ ما على النفس فهو بها، أعني كلّ ما هو عليها وبالٌ وضرر فهو منها وبسببها، لأنها الأمّارة بالسوء، وكلّ ما لها مما ينفعها فهو بهداية ربِّها وتوفيقه لها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[1]، فإنه لم يراع التقابُلَ اللفظيّ، ولو راعاه لقال: والنهار ليبصروا فيه، وإنّما المراعاة لجانب المعنى، لأنّ معنى «مبصراً» ليبصروا فيه طرق التقلّب في الحاجات.

وأما مقابلةُ المخالف، فهو على وجهين:

أحدهما: أن يكون بين المقابِل والمقابَل نوع مناسبة وتقابُل، كقول القائل:

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهل الظُّلْمِ مَغْفِرَةً   ومِنْ إساءة أهْل السُّوء إحْسَانَا

فقابل الظلم بالمغفرة، وهي مخالفة له، لَيست مثله ولا ضدّه، وإنما الظلم ضدّ العدل، إلا أنّه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حَسُنت المقابلة بينها وبين الظلم، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]، فإنّ الرحمةَ ليستْ ضِدٌّ للشدّة، وإنما ضدّ الشدة اللين، إلا أنّه لما كانت الرحمة سبباً للّين حَسُنت المقابلة بينها وبين الشدّة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟﴾[3]، فإنّ المصيبة أخصُّ من السّيئة، فالتقابل ها هنا من جهة العموم والخصوص.

الوجه الثاني: ما كان بين المقابِل والمقابَل بُعْد، وذلك مما لا يحسُن استعماله، كقول امرأة من العرب لابنها، وقد تزوج بامرأة غير محمودة:

تَرَبَّصْ بِهَا ٱلأَيَّامَ عَلَّ صُرُوفَهَا   سَتَرْمِي بِهَا فِي جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ
فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَنَاهُ إِلٰهُهُ   بِمَذْمُومَةِ الأَخْلَاقِ واسِعَةِ الْحِرِ

فـ «مذمومة» ليست في مقابلة «واسعة»، ولو كانت قالت: «بضيّقة الأخلاق»، كانت المقابلة صحيحة، والشعر مستقيماً. وكذلك قول المتنبي:

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إذَا لم تُرِدْ بِهَا   سُرورَ مُحبٍّ أوْ مَسَاءَة مُجْرِمِ!

فالمقابلة الصحيحة بين المحبّ والمبغض، لا بين المحبّ والمجرم.

قلت: إنّ لقائلٍ أن يقول: هلاّ قلت في هذا ما قلت في السيئة والمصيبة! ألستَ القائل: إن التقابُلَ حَسَنٌ بين المصيبة والسيئة، لكنه تقابُل العموم والخصوص! وهذا الموضع مثله أيضاً، لأنّ كل مبغض لك مجرم إليك، لأنّ مجرد البغضة جُرْم، ففيهما عموم وخصوص.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٠.

بل لقائل أن يقول: كلّ مُجْرِمٍ مُبْغِض، وكلّ مُبْغِض مُجْرم، وهذا صحيح مطّرد.

٢٩ – ومن خطبة له عليه السلام في ذم المتخاذلين

الأصل: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، ٱلْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُم، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلاَمُكُمْ يُوهِي ٱلصُّمَّ ٱلصِّلاَبَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ ٱلأَعْدَاءَ.

تَقُولُونَ فِي ٱلْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلاَ ٱسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ. أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ، دِفَاعُ ذِي ٱلدَّيْنِ المَطُول.

لاَ يَمْنَعُ الضَّيْمَ ٱلذَّلِيلُ، وَلاَ يُدْرَكُ ٱلْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ.

أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ! وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ! ٱلْمَغْرُورُ وَٱللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَٱللهِ بِالسَّهْمِ الأَخْيَب، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ.

أَصْبَحْتُ وَٱللهِ لاَ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاَ أَطْمَعُ في نَصْرِكُمْ، وَلاَ أُوعِدُ ٱلْعَدُوَّ بِكُمْ.

مَا بَالُكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ ٱلْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ.

أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ، وَطَمَعاً في غَيْرِ حَقٍّ!

الشرح: حِيدي حَيَادِ، كلمة يقولها الهارب الفارّ، وهي نظيرة قولهم: «فيحي فَياحِ»، أي اتّسعي، وصَمّي صَمامِ، للداهية. وأصلُه من حاد عن الشيء، أي انحرفَ، وحَيَادِ، مبنيّة على الكسر، وكذلك ما كان من بابها، نحو قولهم: بَدَارِ، أي ليأخذْ كلّ واحدٍ قِرْنه. وقولهم: خَراجِ في لعبة للصبيان، أي اخرجوا.

والباء في قوله: «بأضاليل» متعلقة بـ«أعاليل» نفسها، أي يتعلّلون بالأضاليل التي لا جَدْوى لها.

والسَّهم الأفْوَق: المكسور الفُوق، وهو مَدْخَل الوتَر. والناصل: الذي لا نَصْل فيه، يخاطبهم فيقول لهم: أبدانكم مجتمعة وأهواؤكم مختلفة، متكلّمون بما هو في الشدّة والقوة يُوهِي الجبال الصّمّ الصلْبة، وعند الحرب يظهر أنّ ذلك الكلام لم يكن له ثمرة.

تقولون في المجالس كَيْتَ وكَيْت، أي سنفعل وسنفعل، وكَيْت وكَيْت كناية عن الحديث، كما كُنِيَ بفلان عن العلَم، ولا تستعمل إلا مكرّرة، وهما مخفّفان من «كَيّة» وقد استعملتْ على

الأصل، وهي مبنية على الفتح. وقد رَوَى أئمة العربية فيها الضمّ والكَسر أيضاً.

فإذا جاء القتال فررتم وقلتم: الفِرارَ الفِرارَ.

ثم أخذ في الشكوى، فقال: مَنْ دعاكم لم تعزّ دعوتُه، ومَنْ قاساكم لم يسترِحْ قلبُهُ. دأبُكم التعلّل بالأمور الباطلة، والأمانيّ الكاذبة. وسألتموني الإرْجاءَ وتأخُّر الحرب كمن يمطُل بدَيْن لازِمٍ له. والضَّيْم لا يدفعه الذليل، ولا يدرَك الحقّ إلا بالجِدّ فيه والاجتهاد وعدم الانكماش.

وباقي الفصل ظاهر المعنى.

وقوله: «القوم رجال أمثالكم» مثل قول الشاعر:

قَاتِلُوا القَومَ يا خُزَاعَ وَلاَ يَدْخُلْكُمْ من قتالِهِمْ فَشَلُ
القَومُ أمثالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ في الرّأسِ لا يُنْشَرون إن قُتِلوا

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام في غارة الضحاك بن قيس، ونحن نقصُّها هنا:

من أخبار الضحاك بن قيس

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفيّ في كتاب «الغارات» قال: كانت غارة الضّحاك بن قيس بعد الحكَمَيْن، وقبل قتال النَّهْرَوَان، وذلك أنّ معاوية لَمّا بلغه أنّ عليًّا عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلاً، هاله ذلك، فخرَج من دِمَشْق معسكراً، وبعث إلى كُور الشام، فصاح بها: إنّ عليًّا قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخة واحدة، فقرِئَتْ على الناس:

أمّا بعد، فإنّا كنا كتبْنا كتاباً بيننا وبين عليّ، وشرطْنَا فيه شروطاً، وحكَّمْنا رجُلين يحكُمان علينا وعليه بحُكْم الكتاب لا يعدُوَانه، وجعلْنا عهدَ الله وميثاقَه على مَنْ نكث العهد ولم يُمْضِ الحُكْم، وإنّ حَكَمِي الذّي كنت حكّمْتُه أثبتني، وإنّ حكَمه خلعه، وقد أقبل إليكم ظالماً، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾(١)، تجهّزوا للحرب بأحسن الجِهاز، وأعدّوا آلة القتال، وأقبِلوا خِفافاً وثقالاً يَسّرنا الله وإياكم لصالح الأعمال! فاجتمع إليه الناس من كلّ كُورة وأرادوا المسيرَ إلى صِفّين، فاستشارهم، وقال: إنّ عليًّا قد خرج من الكوفة، وعَهْد العاهد به أنّه فارق النُّخَيْلة.

فقال حبيب بن مسلمة: فإنّي أرى أن نخرج حتى ننزل منزلنا الذي كنّا فيه، فإنّه منزل مبارك، وقد متّعنا الله به وأعطانا من عدوّنا فيه النَّصَف.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

وقال عمرو بن العاص: إني أرى لك أن تسيرَ بالجنود حتى تُوغِلَها في سلطانهم من أرض الجزيرة، فإنّ ذلك أقوى لجندك، وأذلُّ لأهْلِ حَرْبِك. فقال معاوية: والله إني لأعرف أنّ الذي تقول كما تقول، ولكن الناس لا يطيقُون ذلك. قال عمرو: إنها أرضٌ رفيقة، فقال معاوية: إنّ جهدَ الناس أن يَبْلُغوا منزلهم الذي كانوا به - يعني صِفّين.

فمكثوا يجيلون الرأيَ يومين أو ثلاثة، حتى قدِمت عليهم عيونُهم أن عليًا اختلف عليه أصحابُه ففارقته منهم فرقة أنكرت أمرَ الحُكومة، وأنه قد رجع عنكم إليهم. فكَبّر الناس سُروراً لانصرافه عنهم، وما ألقى الله عز وجل من الخلاف بينهم. فلم يَزَلْ معاوية مُعَسْكِراً في مكانه، منتظراً لما يكون من عليّ وأصحابه، وهل يُقبل بالناس أم لا؟ فما برِح حتى جاء الخبر أن عليًا قد قَتَل أولئك الخوارج، وأنّه أراد بعد قتلهم أن يُقبل بالناس، وأنهم استنظروه ودافعوه. فسرّ بذلك هو ومَن قِبَله من الناس.

قال ورَوى ابنُ أبي سيف، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن عبد الرحمن بن مسعدة الفزاريّ، قال: جاءنا كتاب عُمارة بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط، وكان بالكوفة مقيماً، ونحن معسكرون مع معاوية، نتخوف أن يفرُغ عليٌ من الخوارج ثم يُقبل إلينا، ونحن نقول: إن أقبَلَ إلينا كان أفضلُ المكانِ الذي نستقبله به المكانَ الذي لقيناه فيه العام الماضي. فكان في كتاب عُمارة بن عُقْبة:

أما بعد، فإنّ عليًا خرج عليه قرّاء أصحابه ونُسّاكهم، فخرج إليهم فقتلهم، وقد فسد عليه جندُه وأهلُ مصره، ووقعت بينهم العداوة، وتفرّقوا أشدّ الفرقة، وأحببت إعلامَك لتحمَد الله، والسلام.

قال عبد الرحمن بن مَسْعدة: فقرأه معاوية على وجه أخيه عُتْبة، وعلى الوليد بن عُقْبة، وعلى أبي الأعور السُّلَمِيّ، ثم نظر إلى أخيه عُتبة وإلى الوليد بن عُقبة، وقال للوليد: لقد رَضِيَ أخوك أن يكونَ لنا عيناً. فضحِك الوليد وقال: إنّ في ذلك أيضاً لَنَفْعاً.

وروى أبو جعفر الطبريّ، قال: كان عُمَارة مُقِيماً بالكوفة بعد قَتْل عثمان، لم يهجْه عليّ عليه السلام ولم يَذْعَرْه، وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سرًّا.

ومن شعر الوليد لأخيه عُمارة يحرّضُه:

إنْ يَكُ ظَنِّي في عُمَارَةَ صَادِقاً ... يَنَمْ ثُمّ لا يطلُبْ بذَحْلٍ ولا وِتْرِ
يَبِيتُ وأوتارُ ابن عَفّانَ عِنْدَهُ ... مُخَيِّمَةٌ بين الخَوَرْنَقِ فالقَصْرِ
تَمَشّ رَخِيَّ البال مُسْتَشْزِرَ القُوَى[1] ... كأنّكَ لَمْ تَسْمَعْ بقتلِ أبي عَمْرِو
ألاَ إنَّ خيرَ النّاسِ بعد ثَلاثَةٍ ... قتيلُ التُّجِيبيّ الّذي جَاءَ مِنْ مِصْرِ

(١) الشزر: الشدة. اللسان، مادة (شزر).

قال: فأجابه الفضل بن العباس بن عتبة:

أتطلبُ ثأراً لستَ منه ولا لَهُ ... وما لابنِ ذَكْوانَ الصَّفُوريّ والوِتْرِ
كما افتخرتْ بنتُ الحِمار بأمّها ... وتنسى أباها إذا تَسامى أولو الفَخْرِ
ألا إنَّ خيرَ النَّاس بعد نبيهمْ ... وصيُّ النبي المصطفى عند ذِي الذِّكْرِ
وأوّلُ مَنْ صَلّى وصِنْوُ نبيِّه ... وأولُ مَنْ أردى الغُواةَ لدى بَدْرِ

أما معنى قوله: «وما لابن ذكوان الصَّفُوريّ»، فإنَّ الوليدَ، هو ابن عُقْبة بن أبي مُعَيْط بن أبي عمرو، واسمه ذَكْوان بن أمية بن عبد شمس. وقد ذكَر جماعة من النسّابين أنّ ذكوان كان مولًى لأمية بن عبد شمس، فتبناه وكنّاه أبا عمرو، فبنُوه مَوالٍ وليسوا من بني أميّة لِصُلْبه. والصَّفوري: منسوب إلى صَفُّورِيّة، قرية من قرى الروم.

قال إبراهيم بن هلال الثقفي: فعند ذلك دعا معاوية الضّحّاك بن قيس الفِهْريّ، وقال له: سِرْ حتى تمرَّ بناحية الكوفة وترتفعَ عنها ما استطعت، فمَنْ وجدْتَه من الأعراب في طاعة عليّ فَاغِرْ عليه، وإن وَجَدْتَ له مَسْلَحَةً أو خيلاً فأغِرْ عليها، وإذا أصبحتَ في بلدة فأمْسِ في أخرى، ولا تُقيمنّ لخيلٍ بلغك أنّها قد سُرّحت إليك لتلقاها فتقاتلها. فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقْبَل الضّحاك، فنهب الأموال وقتل مَنْ لَقِي من الأعراب، حتى مر بالثَّعْلَبيّة[1] فأغار على الحاجّ، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقَي عمرو بن عُمَيس بن مسعود الهُذَليّ، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله ﷺ، فقتله في طريق الحاجّ عند القُطْقُطانة[2]. وقتلَ معه ناساً من أصحابه.

قال: فروى إبراهيم بن مبارك البجَلِيّ عن أبيه، عن بكر بن عيسى، عن أبي رَوْق، قال: حدّثني أبي، قال: سمعت عليًا عليه السلام، وقد خرج إلى الناس، وهو يقول على المِنْبر:

يا أهْلَ الكوفة، أخرُجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس، وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طَرَف، أخرجوا فقاتلوا عدوّكم، وامنعوا حريمَكم إن كنتم فاعلين.

فردّوا عليه ردًّا ضعيفاً، ورأى منهم عَجْزاً وفَشَلاً، فقال: والله لودِدت أنّ لي بكلّ ثمانية منكم رجلاً منهم! ويحكم اخرجوا معي، ثم فرّوا عَنّي ما بدا لكم، فوالله ما أكره لقاء ربّي على نيّتي وبصيرتي، وفي ذلك رَوْح لي عظيم، وفرَج من مناجاتكم ومقاساتكم. ثم نزل.

---

(١) موضع بطريق مكة. اللسان، مادة (ثعلب).
(٢) القطقطانة: قيل موضع قرب الكوفة. اللسان، مادة (قطط).

فخرج يمشي حتى بلغ الغَريَّيْنِ، ثم دعا حُجْر بن عديّ الكِنْديّ، فعقَد له على أربعة آلاف.

وروى محمد بن يعقوب الكُلَيْنِيّ، قال: استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناسَ عَقِيبَ غارة الضحاك بن قيس الفهريّ على أطراف أعماله، فتقاعدُوا عنه، فخطبهم فقال: ما عزَّتْ دعوةُ مَنْ دعاكم، ولا استراح قلبُ مَنْ قاساكم... الفصل إلى آخره.

قال إبراهيم الثقفيّ: فخرج حُجْر بن عديّ حتى مَرَّ بالسّماوة - وهي أرض كلْب - فلقيَ بها امرأ القيس بن عديّ بن أوْس بن جابر بن كعب بن عُلَيم الكلْبيّ - وهم أصهارُ الحسين بن عليّ بن أبي طالبِ عليه السلام - فكانوا أدِلاّءه في الطريق وعلى المياه، فلم يزل مُغِذًّا[١] في أثر الضحّاك، حتى لقيَه بناحية تَدْمُر، فواقعه فاقتتلوا ساعة، فقتِل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً، وقُتِل من أصحاب حُجر رجلان، وحجز الليل بينهم. فمضى الضّحاك، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثراً. وكان الضّحاك يقول بعد: أنا ابنُ قيس، أنا أبو أنيس! أنا قاتل عمروِ بن عُمَيْس.

قال: وكتب في أثر هذه الوقعة عَقِيل بن أبي طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام، حين بلغه خِذْلان أهل الكوفة، وتقاعدهم به:

لعبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام من عَقيل بن أبي طالب. سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنّ الله حارِسُك من كلّ سوء، وعاصِمُك من كلّ مكروه، وعلى كلّ حال، إنّي قد خرجت إلى مكة معتمراً، فلقيت عبدَ الله بن سعد بن أبي سَرْح في نحو من أربعين شابًا من أبناء الطُّلقَاء، فعرفتُ المنكرَ في وجوههم، فقلت: إلى أين يا أبناءَ الشانئين! أبمعاوية تلحقون! عداوة والله منكم قديماً غيرُ مستنكَرة، تريدُون بها إطفاءَ نور الله، وتبديل أمره. فأسمَعني القومُ وأسمعتُهم، فلما قدِمْتُ مكة، سمعت أهلَها يتحدثون أنّ الضّحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء، ثم انكفأ راجعاً سالماً. فأفٍّ لحياةٍ في دهر جَرّأ عليك الضّحاك! وما الضحاك! فَقْعٌ بقَرْقر[٢]! وقد توهّمت حيث بلغني ذلك أنّ شيعتَك وأنصارك خذلوك فاكتب إليّ يا ابن أميّ برأيك، فإن كنتَ الموتَ تريد، تحمّلت إليك ببني أخيك، وولد أبيك، فعِشْنَا معك ما عشت، ومِتْنَا معك إذا متَّ، فوالله ما أحِبّ أن أبقى في الدنيا بعدك فُوَاقاً.

(١) غذّ: أي أسرع. المعجم الوسيط، مادة (غذّ).

(٢) فقع: نوع رديء من الكمأة، يشبّه به الرجل الذليل لأن الدواب تنجله بأرجلها. اللسان، مادة (فقعَ).

وأقسم بالأعزّ الأجَلّ، إنّ عيشاً نعيشُه بعدك في الحياة لغيرُ هنيء ولا مريء ولا نجيع، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه عليه السلام: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين: إلى عَقيل بن أبي طالب. سلام الله عليك، فإنّي أحمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد: كلأنا الله وإياك كلاءة مَنْ يخشاه بالغيب، إنه حميد مجيد. قد وصل إليّ كتابُك مع عبد الرحمن بن عبيد الأزديّ، تذكر فيه أنّك لقيت عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح مقبلاً من قُدَيْد[1] في نحو من أربعين فارساً من أبناء الطُّلقاء، متوجِّهين إلى جهةِ الغرب. وإنّ ابن أبي سَرْح طالما كاد الله ورسوله وكتابه، وصدَّ عن سبيله وبغاها عِوَجاً، فدع ابنَ أبي سرح، ودعْ عَنْكَ قريشاً، وخلِّهم وتَرْكاضَهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق ألا وإنّ العرب قد أجمعتْ على حربِ أخيك اليوم إجماعَها على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله قبل اليوم، فأصبحوا قد جهلوا حقّه، وجحدوا فضله، وبادروه العداوة، ونصبوا له الحرب، وجهدوا عليه كلّ الجهد، وجرُّوا إليه جيش الأحزاب. اللهمّ فاجز قريشاً عنّي الجوازي! فقد قَطَعَتْ رَحِمي، وتظاهرَتْ عليّ، ودفعتني عن حَقّي، وسلبتني سلطانَ ابن أمّي، وسلّمت ذلك إلى مَنْ ليس مثلي في قرابتي من الرسول، وسابقتي في الإسلام! إلاّ أنْ يَدّعي مدّعٍ ما لا أعرفه، ولا أظنّ الله يعرفه، والحمد لله على كل حال.

فأما ما ذكرتَه من غارة الضّحاك على أهل الحيرة، فهو أقلّ وأزلّ[2] من أن يلّم بهاأو يدنُو منها، ولكنّه قد كان أقبَل في جريدة خيل، فأخذ على السمَّاوة، حتى مرّ بواقِصة وشَرَاف والقُطْقُطانة، مما والَى ذلك الصُّقْع، فوجهت إليه جنداً كثيفاً من المسلمين، فلما بلغه ذلك فرّ هارباً، فاتَّبعوه فلحقوه ببعض الطريق وقد أمعن، وكان ذلك حين طَفَلت الشمس للإياب، فتناوشوا القتال قليلاً كلاً ولا[3]، فلم يصبر لوقع المشرفيّة، وولّى هارباً، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلاً، ونجا جَرِيضاً بعد ما أخذ منه بالمخنَّق، فلأياً بلأيٍ ما نجا. فأمّا ما سألتني أنْ أكتبَ لك برأيي فيما أنا فيه، فإنّ رأيي جهادُ المحِلّين حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرةُ الناس معي عِزّة، ولا تفرُّقُهم عنّي وَحشة، لأنني محقّ والله مع المحقّ، ووالله ما أكره الموت على الحقّ وما الخيرُ كلُّه إلا بعد الموت لمن كان محقًّا.

---

(١) قُدَيْد: اسم ماء، وقال ابن الأثير هو موضع بين مكة والمدينة. اللسان، مادة (قدد).

(٢) لعلها و«أذل» ليتناسب السياق.

(٣) تستخدم العرب هذه اللفظة المكونة من لا مكررة للدلالة على قلة المدة في تنفيذ عمل ما. اللسان. مادة (لا).

وأما ما عرضت به من مَسِيرك إليّ ببنيك وبني أبيك فلا حاجة لي في ذلك، فأقمْ راشداً محموداً، فوالله ما أحبّ أن تهلِكوا معي إن هلكت، ولا تحسَبَنّ ابنَ أمك - ولو أسلمه الناس - متخشّعاً ولا متضرعاً، إنه لكما قال أخو بني سُلَيْم:

فإنْ تسأليني كيفَ أنتَ فإنّني ... صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزمان صَليبُ
يَعِزّ عَلَيّ أن تُرَى بي كآبةٌ ... فيشمتَ عادٍ أو يُساء حَبِيبُ

قال إبراهيم بن هلال الثقفيّ: وذكر محمد بن مخنف أنّه سمع الضّحّاك بن قيس بعد ذلك بزمان يخطُب على مِنْبر الكوفة، وقد كان بلَغه أنّ قوماً من أهلها يَشْتِمون عثمان ويبرؤون منه، قال: فسمعتُه يقول: بلغني أنّ رجالاً منكم ضُلاّلاً يشتِمون أئمة الهدى، ويعيبون أسلافَنا الصالحين، أما والّذي ليس له نِدٌّ ولا شريك، لئن لم تنتهوا عَمّا يبلُغني عنكم، لأضَعَنّ فيكم سيف زياد، ثم لا تجِدونني ضعيف السَّوْرة، ولا كليلَ الشَّفْرة. أما إني لصاحبُكم الّذي أغرتُ على بلادكم، فكنتُ أوّلَ مَنْ غزاها في الإسلام، وشرب من ماء الثَّعْلَبيّة ومن شاطيء الفرات، أعاقِبُ مَنْ شِئت، وأعفو عمن شئت، لقد ذعَرتُ المخدَّرَاتِ في خُدورِهِنّ، وإن كانت المرأة ليبكي ابنُها فلا تُرْهِبُه ولا تسكّته إلا بذكر اسمي. فاتّقوا الله يا أهلَ العراق، أنا الضّحاك بن قيس، أنا أبو أنَيس، أنا قاتل عمرو بن عُميس!

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد، فقال: صدقَ الأمير وأحسن القول، ما أعرَفَنا والله بما ذكرت! ولقد لَقِيناك بغربيّ تَدْمُر، فوجدناك شجاعاً مجرّباً صبوراً. ثم جلس وقال: أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أوّل ما قَدِم! وايمُ الله لأذكِّرنّه أبغضَ مواطنه إليه. قال: فسكتَ الضحاك قليلاً، وكأنّه خَزِيَ واستحيا، ثم قال: نعم كان ذلك اليوم! فآخذه بكلام ثقيل، ثم نزل.

قال محمد بن مِخْنف: فقلت لعبد الرحمن بن عبيد - أو قيل له: لقد اجترأتَ حين تُذَكِّره هذا اليوم، وتُخبره أنّك كنت فيمن لقيَه! فقال: لَنْ يُصِيبنَا إلاّ ما كتبَ الله لنا.

قال: وسأل الضّحاك عبدَ الرحمن بن عبيد حين قدم الكوفة، فقال: لقد رأيتُ منكم بغربي تَدْمُر رجلاً ما كنت أرى أنّ في الناس مثلَه، حمل علينا، فما كذب حتى ضرب الكتيبة التي أنا فيها، فلما ذهب ليولّي حملت عليه، فطعنتُه، فوقع ثم قام فلم يضرّه شيئاً، ثم لم يلبث أنْ حَمَل علينا في الكتيبة التي أنا فيها، فصرع رجلاً ثم ذهب لينصرف، فحملتُ عليه فضربته على رأسه بالسيف، فخيِّل إليّ أنّ سيفي قد ثبت في عَظْم رأسه فضربني، فوالله ما صنع سيفُه شيئاً، ثم ذهب فظننت أنّه لن يعود، فوالله ما راعني إلا وقد عصب رأسه بعمامة، ثم أقبل نحونا فقلت: ثكِلَتك أمُّك! أما نهتك الأولَيان عن الإقدام علينا! قال: إنهما لم تَنْهَيَاني، إنما أحتسب هذا في سبيل الله. ثم حمل ليطعنّني، فطعنتُه وحمل أصحابُه علينا، فانفصلنا، وحال الليل بيننا، فقال

له عبد الرحمن: هذا يوم شَهده هذا - يعني ربيعة بن ماجد - وهو فارس الحيّ، وما أظنه يخفى أمرُ هذا الرجل. فقال له: أتعرفُه؟ قال: نعم، قال: مَنْ هو؟ قال: أنا، قال: فأرِني الضربة التي برأسك، فأراه فإذا هي ضَرْبَةٌ قَدْ بَرَتِ العظم[1] مُنكَرة، فقال له: فما رأيُك اليوم؟ أهو كرأيك يومئذ! قال: رأيي اليوم رأيُ الجماعة، قال: فما عليكم من بأس، أنتم آمنون ما لم تُظْهِرُوا خلافاً، ولكن العَجَب كيف نجوت من زياد لم يقتلك فيمن قتل، أو يُسيّرك فيمن سيَّر! فقال: أما التسيير فقد سَيّرني، وأما القتل فقد عافانا الله منه[2]!

قال إبراهيم الثَّقفي: وأصاب الضّحاكَ في هَرَبه من حُجْر عطش شديد، وذلك لأنّ الجمل الذي كان عليه ماؤه ضلّ فعطش، وخَفَق برأسه خَفْقتين لنُعاسٍ أصابه، فترك الطريق وانتبه، وليس معه إلا نفر يسير من أصحابه، وليس منهم أحد معه ماء، فبعث رجالاً منهم في جانب يلتمسون الماء ولا أنيس، فكان الضحاك بعد ذلك يحكي، قال: فرأيت جادّة فلزمتها، فسمعت قائلاً يقول:

دَعَانِي الْهَوَى فازْدَدْتُ شوْقاً وربَّما ... دَعاني الهوَى مِنْ سَاعَةٍ فأجيبُ
وَأَرَّقَنِي بَعْدَ المنامِ وَرُبَّما ... أرِقْتُ لساري الهمّ حين يؤوب
فإن أكُ قَدْ أَحْبَبْتُكُمْ ورأيتُكُمْ ... فإني بدَارَيْ عامِرٍ لَغَرِيبُ

قال: وأشرف عليّ رجل، فقلت: يا عبد الله، اسقني ماء، فقال: لا والله، حتى تعطيَني ثمنه، قلت: وما ثمنُه! قال: ديتُك، قلت: أما تَرَى عليك من الحقّ أن تقْرِيَ الضيف، فتطعمَه وتسقيه! قال: ربّما فعلنا وربما بخلنا، قال: فقلت: والله ما أراك فعلت خيراً قطّ، اسقني، قال: ما أطيق، قلت: فإنّي أحسِنُ إليك وأكسوك، قال: لا والله لا أنقص شَرْبةً من مائة دينار، فقلت له: وَيْحَك! اسقِني! فقال: وَيْحَك! أعطني، قلت: لا والله ما هيَ معي، ولكنّك تسقيني، ثم تنطلق معي أعطيكَها، قال: لا والله، قلت: اسقني وأرهَنُك فرسي حتى أوفّيَكَها، قال: نعم، ثم خرج بين يدي واتبعته، فأشرفنا على أخْبِية وناس على ماء فقال لي: مكانَك حتى آتيكَ. فقلت: بل أجيء معك، قال: وساءه حيث رأيت الناس والماء، فذهب يشتدّ حتى دخل بيتاً، ثم جاء بماء في إناء، فقال: اشرَبْ، فقلت: لا حاجةَ لي فيه. ثم دنوت من القوم، فقلت: اسقوني ماء، فقال شيخ لابنته: اسقيه، فقامت ابنتُه فجاءت بماء ولبن، فقال ذلك الرجل: نَجّيتك من العطش، وتذهب بحقي! والله لا أفارقك حتى أستوفِيَ منك حَقِّي، فقلت:

(١) برت: أهزلت وأضعفت. اللسان، مادة (بريَ).
(٢) أنظر الغارات: ٢/ ٤٤٠.

اجلس حتى أوفّيَك. فجلس: فنزلت فأخذت الماء واللبن من يد الفتاة، فشربت واجتمع إليّ أهلُ الماء، فقلت لهم: هذا ألأم الناس! فعل بي كذا وكذا! وهذا الشيخ خيرٌ منه وأسدى، استسقيتُه فلم يكلّمني وأمر ابنته فسقتْني، وهو الآن يُلزمني بمائة دينار فشتمه أهل الحيّ، ووقعوا به، ولم يكن بأسرع من أن لحِقني قوم من أصحابي، فسلّموا عليّ بالإمْرة، فارتاب الرجل وجزع، وذهب يريد أن يقوم، فقلت: والله لا تبرح حتى أوفّيَك المائة، فجلس ما يدري ما الذي أريد به! فلما كثُر جندِي عندي سرّحت إلى ثَقَلي[1]، فأتيت به، ثم أمرت بالرجل فجلِد مائة جلدة، ودعوتُ الشيخ وابنته فأمرتُ لهما بمائة دينار وكسوتهما، وكسوت أهلَ الماء ثوباً ثوباً، وحرمتُه. فقال أهل الماء: كان أيها الأمير أهلاً لذلك. وكنتَ لما أتيت من خير أهلاً.

فلما رجعتُ إلى معاوية، وحدّثته عَجِب، وقال: لقد رأيتَ في سفرك هذا عجباً.

ويَذكُر أهلُ النَّسب أن قيساً أبا الضحاك بن قيس كان يبيع عَسَب الفحول[2] في الجاهلية.

ورووا أن عَقِيلاً رحمه الله تعالى، قدِم على أمير المؤمنين، فوجده جالساً في صحن المسجد بالكوفة، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته - وكان عَقِيل قد كُفّ بصره - فقال: وعليك السلام يا أبا يزيد، ثم التفت إلى ابنه الحسن عليه السلام، فقال: قم فأنْزل عَمّك، فقام فأنزله، ثم عاد فقال: اذهب فاشترِ لعمّك قميصاً جديداً، ورداء جديداً وإزاراً جديداً ونعلاً جديداً، فذهب فاشترى له، فغدا عَقِيل على عليّ عليه السلام في الثّياب، فقال: السلام عليك يا أميرَ المؤمنين، قال: وعليك السلام يا أبا يزيد، قال: يا أمير المؤمنين، ما أراك أصَبْتَ من الدنيا شيئاً، وإني لا ترضى نفسي من خلافتك بما رضيتَ به لنفسك، فقال: يا أبا يزيد، يخرج عطائي فأدفعه إليك.

فلما ارتحل عن أمير المؤمنين عليه السلام أتى معاويةَ فنُصبت له كراسيُّه، وأجلَس جلساءه حوله، فلما وَردَ عليه أمر له بمائة ألف فقبَضها، ثم غدا عليه يوماً بعد ذلك، وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، وبيعة الحسن لمعاوية، وجلساء معاوية حوله، فقال: يا أبا يزيد، أخبرْني عن عسكري وعسكر أخيك، فقد وردتَ عليهما، قال: أخْبِرك، مررت والله بعسكر أخي، فإذا ليلٌ كليل رسول الله صلى الله عليه وآله، ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله، إلاّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم، ما رأيتُ إلا مصلياً، ولا سمِعت إلا قارئاً، ومررت بعسكرك، فاستقبلني قومٌ من المنافقين مِمن نفر برسول الله ليلة العقبة، ثم قال: مَنْ هذا عن يمينك يا معاوية؟ قال: هذا عمرو بن العاص،

---

(١) الثَقَل: المتاع. أو الشيء النفيس الخطير. المعجم، مادة (ثقل).

(٢) عسَب: عسب الفحل ضرابه، أي ماء ضرابه. اللسان، مادة (عسب).

قال: هذا الذي اختصم فيه ستة نفر، فغلب عليه جَزّار قريش! فمن الآخر؟ قال: الضحاك بن قيس الفِهْري قال: أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس؟ فمن هذا الآخر؟ قال: أبو موسى الأشعري، قال: هذا ابنُ السَّرَّاقة، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه، علم أنه إن استخبره عن نفسه، قال فيه سوءاً، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من السوء، فيذهب بذلك غضبُ جلسائه، قال: يا أبا يزيد، فما تقول فيّ؟ قال: دعني من هذا! قال: لتقولَنّ، قال: أتعرف حمامة؟ قال: ومَنْ حمامة يا أبا يزيد؟ قال: قد أخبرتُك، ثم قام فمضى، فأرسل معاوية إلى النسابة، فدعاه، فقال: مَنْ حمامة؟ قال: ولي الأمان؟ قال: نعم، قال: حمامةُ جدتك أم أبي سفيان، كانت بَغِيًّا في الجاهلية صاحبة راية، فقال معاوية لجلسائه: قد ساويتُكم وزدت عليكم فلا تغضبوا(١).

٣٠ - ومن خطبة له عليه السلام في معنى قتل عثمان

الأصل: لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَه مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي: وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَه، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَة، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الجَزَع، وَلله حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ.

الشرح: هذا الكلام بظاهره يقتضي أنّه ما أمر بقتله، ولا نهى عنه، فيكون دمُه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها، ولا ينهى عنها. غير أنه لا يجوز أنْ يحمل الكلام على ظاهره، لما ثبت من عِصْمة دم عثمان. وأيضاً فقد ثبت في السِّير والأخبار أنه كان عليه السلام ينهَى الناس عن قَتْله، فإذن يجب أن يُحمَل لفظ النهي على المنع كما يقال: الأمير ينهى عن نهب أموال الرعيّة، أي يمنع، وحينئذ يستقيم الكلام، لأنه عيله السلام ما أمر بقتِله ولا منع عن قتله، وإنما كان ينهى عنه باللسان ولا يمنع عنه باليد.

فإن قيل: فالنّهيُ عن المنكَر واجب فهلاّ منعَ مِنْ قتله باليد؟

قيل: إنما يجب المنع باليد عن المنكر إذا كان حسناً، وإنما يكون الإنكار حسناً إذا لم يغلب على ظنّ الناهي عن المنكَر أن نهيَه لا يؤثر، فإن غَلب على ظنّه أن نهيَه لا يؤثر قَبُح إنكار

(١) أنظر الغارات للثقفي: ١/ ٦٥، والبحار للمجلسي: ٣٣/ ٢٠٠.

وإيثاره اليومَ أهلَ الذنوب ... ورَفعِ القِصاصِ عن القاتلينا

إذا سِيلَ عَنهُ حذا شبهةً ... وَعَمّى الجوابَ عَلَى السائلينا

فليس براضٍ وَلاَ ساخِطٍ ... ولا في النُّهاةِ وَلاَ الآمرينا

وَلاَ هُوَ سَاءَ وَلاَ سَرَّهُ ... وَلاَ بُدّ مِنْ بَعْضِ ذَا أنْ يَكُونا

وهذا شعر خبيث مُنْكَر، ومقصد عميق، وما قال هذا الشعر إلا بعد أن نُقِل إلى أهل الشام كلامٌ كثيرٌ لأمير المؤمنين عليه السلام في عثمان يجري هذا المجرى، نحو قوله: ما سرّني وَلاَ ساءني. وقيل له: أرضِيتَ بقتله؟ فقال: لم أرضَ، فقيل له: أسخِطْتَ قتلَه؟ فقال: لم أسخط. وقوله تارة: الله قتله وأنا معه، وقوله تارة أخرى: ما قتلت عثمان ولا مالأتُ في قتله. وقوله تارة أخرى: كنتُ رجلاً من المسلمين أوردتُ إذْ أوْرَدُوا، وأصدرت إذْ أصدروا.

---

(١) المآصر: واحدها مأصِر. وهو محبس يمد على طريق أو نهر يؤصر به السفن والسابلة أي يحبس لتؤخذ منهم العشور. اللسان، مادة (أصر).

(٢) المكس: الجباية أو الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار. المعجم. الوسيط، مادة (مكس).

(٣) القتاد: نبات صلب له شوك كالإبر من الفصيلة القرنية. المعجم الوسيط، مادة (قتد).

ولكل شيء من كلامه إذا صحّ عنه تأويل يعرفه أولو الألباب.

فأمّا قوله: «غير أنّ مَنْ نصره»، فكلام معناه أنّ خاذِليه كانوا خيراً من ناصريه، لأنّ الذين نصروه كان أكثرُهم فُسّاقاً، كمرْوان بن الحكم وأضرابه، وخذله المهاجرون والأنصار.

فأما قوله: «وأنا جامع لكم أمره...» إلى آخر الفصل، فمعناه أنه فَعَل ما لا يجوز، وفعلتم ما لا يجوز، أما هو فاستأثر فأساء الأثرة، أي استبدّ بالأمور فأساء في الاستبداد، وأما أنتم فجزِعتم مما فعل أي حزنتم فأسأتم الجزع، لأنكم قتلتموه، وقد كان الواجب عليه أن يرجع عن استئثاره، وكان الواجب عليكم ألاّ تجعلوا جزاءه عمّا أذنب القتل، بل الخلع والحبس وترتيب غيره في الإمامة.

ثم قال: ولله حُكْم سيحكم به فيه وفيكم.

المؤرخون يروون أخبار مقتل عثمان

ويجب أن نذكُر في هذا الموضع ابتداءَ اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتِل.

وأصحّ ما ذكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطّبري في «التاريخ»[(1)].

وخلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نَقِمَها النّاس عليه، من تأمير بني أميّة، ولا سيّما الفساقُ منهم وأربابُ السَّفَه وقلّة الدّين، وإخراجِ مال الفيء إليهم، وما جرى في أمر عَمّار وأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود، وغير ذلك من الأمور التي جرتْ في أواخر خلافته. ثم اتفق أنّ الوليد بن عُقْبة لمّا كان عاملَه على الكوفة وشُهد عليه بشرْب الخمر، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه، فقدم سعيد الكوفة، واستخلَص من أهلها قوماً يسمرُون عنده، فقال سعيد يوماً: إنّ السواد بستان لقُرَيْش وبني أمية. فقال الأشتر النَّخعيّ: وتزعمُ أنّ السوادَ الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك! فقال صاحب شُرطته: أتردّ على الأمير مقالته! وأغلظ له، فقال الأشتر لمن كان حوله من النَّخَع وغيرهم من أشراف الكوفة: ألا تسمعون! فوثبوا عليه بحضْرَة سعيد فوطِئُوه وطأً عنيفاً، وجَرُّوا برجْله، فغلُظ ذلك على سعيد، وأبعد سُمّارَه فلم يأذن بعدُ لهم، فجعلوا يشتِمون سعيداً في مجالسهم، ثم تعدّوا ذلك إلى شتم عثمان، واجتمع إليهم ناس كثير، حتى غلُظ أمرُهم، فكتبَ سعيد إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه أن يسيّرَهم إلى الشام، لئلا يُفْسِدوا أهلَ الكوفة، وكتب إلى معاوية وهو والي الشام: إنّ نفراً من أهل الكوفة قد هَمُّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتُهم إليك، فانههَم، فإن آنستَ منهم رُشْداً فأحسن إليهم، واردُدْهم إلى بلادهم.

---

(١) تاريخ الطبري: للإمام أب جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ)، وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم. «كشف الظنون» (١/ ٢٩٧).

فلما قدموا على معاوية - وكانوا: الأشتر، ومالك بن كعب الأرْحَبي، والأسود بن يزيد النَّخَعيّ، وعلقمة بن قيس النخعيّ، وصعصعة بن صُوحان العبديّ، وغيرهم - جمعَهم يوماً، وقال لهم: إنّكم قوم من العَرب، ذوو أسنان وألسِنة، وقد أدركتم بالإسلام شَرَفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مواريثهم، وقد بلغني أنكم ذممتم قريشاً، ونِقمتم على الولاة فيها، ولولا قريشٌ لكنتُمْ أذِلّة، إنّ أئمتَكُم لكُم جُنَّة، فلاَ تفَرَّقُوا عن جُنّتكم، إنّ أئمتكم لَيَصبرُون لكم على الجوْر، ويحتملون منكم العِتاب، والله لتنتهُنّ أو ليبتلينَّكُم الله بمن يسومُكم الخسف، ولا يحمَدكم على الصبر، ثم تكونون شركاءهم جررتم على الرعية حياتكُم، وبعد وفاتكم.

فقال له صعصعة بن صُوحان: أمّا قريش فإنها لم تكن أكثرَ العرب ولا أمنَعها في الجاهلية، وإنّ غيرَها من العرب لأكثرُ منها كان وأمنع.

فقال معاوية: إنك لخطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً، وقد عرفتُكم الآن، وعلمتُ أنّ الذي أغراكم قلةُ العقول. أعَظُمُ عليكم أمر الإسلام فتُذكُرني الجاهلية! أخزَى الله قوماً عظّموا أمرَكُمْ! افقهوا عَنّي ولا أظنكم تفقهون، إنّ قريشاً لم تعِزّ في جاهلية ولا إسلام إلا بالله وحده، لم تكن بأكثرِ العرب ولا أشدِّها، ولكنّهم كانوا أكرمَهم أحساباً، وأمحضَهم أنساباً، وأكمَلهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية - والناس يأكل بعضُهم بعضاً - إلا بالله، فبوّاهم حَرَماً آمناً يُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حوله هل تعرفون عرباً أو عجماً، أو سوداً أو حمراً إلا وقد أصابهم الدهر في بلدهم وحرمهم، إلاّ ما كان من قريش، فإنه لم يُرِدْهم أحدٌ من الناس بكيد إلا جعل الله خدّه الأسفل، حتى أراد الله تعالى أن يستنقِذ مَنْ أكرمه باتباع دينه من هوان الدنيا، وسوء مردّ الآخرة، فارتضى لذلك خَيْرَ خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً، وكان خيارُهم قريشاً. ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعلَ هذه الخلافة فيهم، فلا يصلُح الأمرُ إلا بهم، وقد كان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه! أفّ لك ولأصحابك! أما أنتَ يا صعصعة، فإنّ قريتَك شرُّ القرى، أنتَنُها نَبْتاً وأعمقُها وادياً، وألأمها جيراناً، وأعرفها بالشّر، لم يسكنها شريف قطّ ولا وضيع إلا سُبّ بها، نُزَّاع الأمم وعبيد فارس. وأنت شرّ قومك. أحين أبرزك الإسلام، وخلَطك بالناس، أقبلت تبغِي دينَ الله عوجاً، وتنزع إلى الغواية! إنه لن يضرّ ذلك قريشاً ولا يضعهم، ولا يمنعهم من تأدية ما عليهم، إنّ الشيطانَ عنكم لَغير غافل، قد عرَفكم بالشرّ، فأغراكم بالناس، وهو صارعكم، وإنّكم لا تُدْرِكون بالشرّ أمراً إلا فُتِح عليكم شرّ منه وأخزى. قد أذنتُ لكم فاذهبوا حيث شئتم، لا ينفع الله بكم أحداً أبداً ولا يضرّه، ولستم برجال منفعة ولا مضرّة، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتَكُم ولا تُبطِرَنّكم النعمة، فإن البَطَر لا يجرّ خيراً. اذهبوا حيث شئتم، فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

وكَتَبَ إلى عثمان: إنه قَدم عليّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا

يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة، والله مبتليهم ثم فاضحهم، وليسوا بالذينَ تخاف نكايتَهم، وليسوا بأكثرَ ممن له شَغَب ونكير. ثم أخرجهم من الشام.

وروى أبو الحسن المدائنيّ أنه كان لهم مع معاوية بالشام مجالس طالت فيها المحاورات والمخاطبات بينهم، وأنّ معاوية قال لهم في جملة ما قاله: إنّ قريشاً قد عرفتْ أنّ أبا سفيان كان أكرمَها وابنَ أكرمِها، إلاّ ما جعل الله لنبيه ﷺ، فإنّه انتجبه[1] وأكرمه، ولو أنّ أبا سفيان ولد الناس كلَّهم لكانوا حلماء.

فقال له صعصعة بن صُوحان: كذبت! قد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان! مَن خَلَقه الله بيده، ونَفَخ فيه من روحه، وأمرَ الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البرّ والفاجر، والكيّس والأحمق.

قال: ومن المجالس التي دارت بينهم أن معاوية قال لهم: أيّها القومُ ردُّوا خيراً أو اسكتوا، وتفكّروا وانظروا فيما ينفعكم والمسلمين، فاطلبوه وأطيعوني.

فقال له صعصعة: لستَ بأهل ذلك، ولا كرامةَ لك أنْ تُطاع في معصية الله.

فقال: إنّ أوّلَ كلام ابتدأتُ به أن أمرتُكم بتقوى الله وطاعة رسوله، وأنْ تعتصِموا بحبل الله جميعاً ولاَ تَفرّقوا.

فقالوا: بل أمرتَ بالفُرْقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ.

فقال: إن كنتُ فعلتُ فإني الآن أتوب، وآمرُكم بتقوى الله وطاعته، ولزوم الجماعة، وأنْ توقِّروا أئمتكم وتُطيعوهم.

فقال صعصعة: إن كنت تبتَ فإنا نأمرُك أن تعتزِل عملك فإنّ في المسلمين مَنْ هو أحقُّ به منك، ممّن كان أبوه أحسنَ أثراً في الإسلام من أبيك، وهو أحسنُ قَدَماً في الإسلام منك.

فقال معاوية: إنّ لِي في الإسلام لَقَدَماً، وإن كان غيري أحسنَ قَدَماً منيّ، لكنّه ليس في زماني أحد أقْوَى على ما أنا فيه منّي، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك، فلو كان غيري أقوى منّي لم يكن عند عمر هَوادة لي ولا لغيري، ولم أحدِث ما ينبغي له أنْ أعتزِل عملِي، فلو رأى ذلك أميرُ المؤمنين لكتب إليّ [بخطّ يده] فاعتزلت عمله، فمهلاً فإنّ في دون ما أنتم فيه ما يأمرُ فيه الشيطان وينهَى. ولَعَمري لو كانت الأمور تُقْضَى على رأيكم وأهوائكم ما استقام الأمر

---

(١) النجيب من الرجال الكريم الحسيب. اللسان، مادة (نجب).

لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، فعاودوا الخيرَ وقولوه، فإنّ الله ذو سَطَوات، وإني خائف عليكم أن تَتَتابعوا إلى مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن. فيُحِلّكم ذلك دار الهون في العاجل والآجل.

فوثبوا على معاوية فأخذوا برأسه ولحيته فقال: مه! إنّ هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهلُ الشام ما صنعتم بي [وأنا إمامهم] ما ملكتُ أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلَعَمْري إنّ صنيعَكم يُشبِه بعضُه بعضاً.

ثم قام من عندهم، وكتب إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه أنْ رُدّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة. فردّهم، فأطلقوا ألسنتهم في ذمّه وذمّ عثمان وعيبهما. فكتب إليه عثمان أن يسيّرَهم إلى حِمْص، إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فسيّرهم إليها.

وروي الواقديّ، قال: لما سِيرَ بالنفَر الذين طردهم عثمان عن الكوفة إلى حِمْص - وهم: الأشتر، وثابت بن قيس الهمْدانيّ، وكُمَيل بن زياد النَّخَعيّ، وزيد بن صُوحان، وأخوه صعصعة، وجندَب بن زهير الغامديّ، وجندب بن كعب الأزْدِيّ وعروة بن الجَعْد، وعمرو بن الحمِق الخزاعيّ، وابن الكَوّاء - جمعهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، بعد أن أنزلهم أياماً، وفرض لهم طعاماً، ثم قال لهم يا بني الشَّيْطان، لا مرحباً بكم ولا أهلاً، قد رجع الشيطان محسوراً. وأنتم بَعْدُ في بساط ضلالكم وغَيّكم! جزى الله عبد الرحمن إنْ لم يؤذِكم! يا معشر مَنْ لا أدري أعرب هم أم عجم! أتراكم تقولون لي ما قلتم لمعاوية! أنا ابن خالد بن الوليد! أنا ابن مَنْ عَجَمَتْه العاجمات، أنا ابن فاقيء عين الرِّدّة، والله يا ابن صُوحان لأطيرنّ بك طَيْرَة بعيدة المهوَى إن بلَغني أنّ أحداً ممّن معي دق أنفك فأقنعت راسك.

قال: فأقاموا عنده شهراً، كلّما ركب أمشاهم معه، ويقول لصعصعة: يا بن الخطيئة، إنّ مَنْ لم يُصلحْه الخيرُ أصلَحه الشرّ، ما لك لا تقول كما كنتَ تقول لسعيد ومعاوية! فيقولون: سنتوب إلى الله، أقِلْنا أقالك الله! فما زال ذاك دأبه ودأبهم، حتى قال: تاب الله عليكم. فكتب إلى عثمان يسترضيه عنهم، ويسأله فيهم، فردّهم إلى الكوفة.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ رحمه الله تعالى: ثم إنّ سعيد بن العاص قَدِم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته. فلمّا دخل المدينة اجتمع قومٌ من الصحابة، فذكروا سعيداً وأعماله، وذكروا قَرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين، وعابوا أفعالَ عثمان، فأرسلوا إليه عامرَ بن عبد القيس - وكان متألّهاً، واسم أبيه عبد الله، وهو من تميم، ثم من بني العَنْبَر -

فدخلَ على عثمان، فقال له: إنّ ناساً من الصحابة اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد رَكِبْتَ أموراً عِظاماً، فاتّقِ الله وتبْ إليه. فقال عثمان: انظروا إلى هذا، تزعم الناس أنّه قاريء، ثم هو يجيء إليّ فيكلّمني فيما لا يعلمه! والله ما تدرِي أين الله! فقال عامر: بلَى والله إني لأدرِي أنَّ الله لَبِالْمِرصاد.

فأخرجه عثمان، وأرسل إلى عبد الله بن سعْد بن سَرْح(١)، وإلى معاوية وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر - وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم - فشاورهم، وقال: إنّ لكلِّ أميرٍ وزراء ونصحاء، وإنكم وزرائي ونُصَحائي وأهلُ ثقتي، وقد صنع الناسُ ما قد رأيتم، وطلبوا إليّ أنْ أعزِلَ عُمّالي وأن أرجعَ عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدُوا رأيَكم.

فقال عبد الله بن عامر: أرَى لَكَ يا أمير المؤمنين أن تَشْغَلَهم عنك بالجهاد حتى يَذِلُّوا لك، ولا تكون همّةُ أحدِهم إلاّ في نفسه، وما هو فيه من دَبَر دابته وقَمَل فَرْوته.

وقال سعيد بن العاص: احْسِم عنك الداء واقطَعْ عنك الذي تخاف، إنّ لكلّ قوم قادة مَتى يَهْلِكوا يتفرَّقوا ولا يجتمعْ لهم أمرٌ.

فقال عثمان: إنّ هذا لهو الرأيُ لولا ما فيه.

وقال معاوية: أشيرُ عليك أن تأمُرَ أمراء الأجْناد، فيكفِيَكَ كلّ رجل منهم ما قِبَله، فأنا أكفيكَ أهلَ الشام.

وقال عبد الله بن سعد: إنّ الناسَ أهلُ طَمَع، فأعِطهِمْ مِنْ هذا المال تعطِفْ عليك قلوبهم.

فقال عمرو بن العاص: يا أميرَ المؤمنين، إنك قد ركِبْتَ الناس ببني أمية، فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدِلْ أو اعتزِل، فإن أبيتَ فاعزِمْ عزماً، وامض قُدُماً.

فقال له عثمان: ما لكَ قَمِلَ فَرْوُك! أهذا بجدٍّ منك!

فسكت عمرو حتى تفرّقوا، ثم قال: والله يا أميرَ المؤمنين، لأنْتَ أكرمُ عليّ من ذلك، ولكنّي علمت أن بالباب مَنْ يبلّغ الناس قول كلِّ رجل مِنّا فأردت أن يبلُغَهم قولي، فيثقوا بي، فأقود إليك خيراً، وأدفع عنك شرًّا.

فردّ عثمان عُمّاله إلى أعمالهم، وأمرهم بتجهيز النّاس في البُعوث، وعَزَم على أن يحرِمَهم أعطياتهم ليُطيعوه، وردّ سعيدَ بن العاص إلى الكوفة، فتلقاه أهلها بالجرَعَة(٢) - وكانوا قد

---

(١) هو ابن أبي السرح كما ورد في مواضع أخرى عديدة، خلافاً للأصل.

(٢) الجرعة: اسم موضع بالكوفة كان فيه فتنة في زمن عثمان بن عفان. اللسان، مادة (جرع).

كرِهوا إمارته، وذمّوا سيرتَه - فقالوا له: ارجع إلى صاحبك، فلا حاجة لنا فيك. فهمّ بأن يَمضِيَ لوجْهه ولا يرجع، فكثُر الناس عليه، فقال له قائل: ما هذا! أتردّ السيلَ عن أدراجه! والله لا يُسَكِّن الغوغاء إلا المَشرفيّة، ويوشِكُ أنْ تُنتَضى[١] بعد اليوم، ثمّ يتمنّوْن ما هم اليوم فيه فلا يردّ عليهم. فارجع إلى المدينة، فإنّ الكوفة ليست لك بدار.

فرجع إلى عثمان، فأخبره بما فعلوا. فأنفذَ أبا موسى الأشعريّ أميراً على الكوفة، وكتب إليهم: أما بعد، فقد أرسلتُ إليكم أبا موسى الأشعريّ أميراً، وأعفيتُكم من سعيد، ووالله لأفوّضنكم عِرْضي، ولأبذلَنّ لكم صَبْرِي، ولأستصلِحَنكم جَهْدي، فلا تَدَعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصَى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لاَ يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، لأكونَ فيه عندما أحببتُم وكرهتِم، حتى لا يكونَ لكم على الله حجة، والله لَنصبرَنّ كما أمِرْنا، وسيجزي الله الصابرين.

قال أبو جعفر: فلمّا دخلت سنةُ خمسٍ وثلاثين، تكاتَب أعداءُ عثمان وبني أمية في البلاد، وحَرّض بعضُهم بعضاً عَلَى خَلع عثمان عن الخلافة، وعَزْل عمّاله عن الأمصار، واتصل ذلك بعثمان، فكتب إلى أهل الأمصار:

أمّا بعد، فإنه رُفِع إليّ أنّ أقواماً منكم يَشْتِمهم عمّالي ويضربونهم، فمنْ أصابه شيء من ذلك فلْيوافِ الموسمَ بمكة، فلْيأخذ بحقّه منّي أو من عمّالي فإني قد استقدمتُهم، أو تصدقّوا فإن الله يجزي المتصدقين.

ثم كاتب عمّاله واستقدَمهم، فلما قَدِموا عليه جَمَعهم، وقال: ما شِكايةُ الناس منكم؟ إنّي لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يُعْصَبُ هذا الأمرُ إلا بي. فقالوا له: والله ما صدَق مَنْ رفَعَ إليك ولا برّ، ولا نعلم لِهذا الأمر أصلاً. فقال عثمان: فأشيروا عليّ، فقال سعيد بن العاص: هذه أمورٌ مصنوعة تُلقَى في السرّ فيَتَحدّث بها الناس، ودواءُ ذلك السيف.

وقال عبدُ الله بن سعد: خُذْ من النّاس الذي عليهم إذا أعطيتَهم الذي لهم.

وقال معاوية: الرأيُ حسنُ الأدب.

وقال عمرو بن العاص: أرى لك أن تَلْزَم طريق صاحبيْك، فتلينَ [في] موضع اللين، وتشتدّ [في] موضع الشدة.

فقال عثمان: قد سمعتُ ما قلتم، إنّ الأمرَ الذي يُخاف على هذه الأمة كائن لا بُدّ منه، وإنّ

---

(١) النضيضة: المطر الخفيف الضعيف. اللسان، مادة (نضض).

بابه الذي يُغلَق عليه لَيُفتَحَنّ، فكفكفوهم باللين والمدارة إلا في حدود الله، فقد عَلِم الله أنّي لم آلُ الناسَ خيراً، وإن رَحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكْها! سكّنوا النّاسَ وهبوا لهم حقوقَهم، فإذا تُعوطيت حقوقُ الله فلا تدهنوا فيها.

ثم نفرَ فقدِم المدينة، فدعا عليًّا وطلحةَ والزبير، فحضروا وعنده معاوية، فسكت عثمان ولم يتكلّم، وتكلّم معاوية، فحمِد الله، وقال:

أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخِيرتُه من خَلْقه، وولاةُ أمرِ هذه الأمة، لا يطمع فيه أحدٌ غيرُكم، اخترتم صاحبَكم عن غير غَلَبة ولا طمع، وقد كَبِر وولّى عمرُه، فلو انتظرتُم به الهرَم كان قريباً، مع أني أرجو أن يكونَ أكرم على الله أن يبلّغه ذلك، وقد فَشَتْ مقالةٌ خِفْتُها عليكم، فما عِبْتم فيه من شيء فهذه يَدي لكم به رَهْناً، فلا تُطمِعوا النّاسَ في أمرِكم، فوالله إن أطمَعْتُوهم لا رأيتُم أبداً منها إلا إدباراً.

فقال عليّ عليه السلام: وما لَك وذاك لا أمّ لك! فقال: دعْ أمّي فإنّها ليست بشر أمّهاتكم، قد أسلمت وبايعت النبيّ ﷺ، وأجِبْني عمّا أقول لك.

فقال عثمان: صدق ابنُ أخي، أنا أخبركم عَنّي وعَمّا وَليت، إن صاحبيّ اللّذيْن كانا قلبي، ظَلَما أنفسَهما ومَنْ كان منهما بسبيل احتساباً. وإنّ رسول الله ﷺ كان يعطي قَرَابته، وأنا في رهطٍ أهل عَيْلة وقلّة معاش، فبسطتُ يدي في شيء من ذلك لما أقومُ به فيه، فإن رأيتُم ذلك خطأً فرُدّوه، فأمري لأمركم تَبَع.

قالوا: أصبتَ وأحسنتَ، إنّك أعطيت عبدَ الله بن خالد بن أُسَيد خمسين ألفاً، وأعطيتَ مَرْوانَ خمسة عشر ألفًا، فاستعِدْها منهما. فاستعادها، فخرجوا راضين.

قال أبو جعفر: وقال معاويةُ لعثمان: اخرُج معي إلى الشّام، فإنّهم على الطاعة قبل أن يهجُم عليك ما لا قِبَل لك به، فقال: لا أبيعُ جوارَ رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه [قطع] خيط عنقي. قال: فأبعثُ إليك جنْداً من الشام يُقيم معك لنائبة إن نابت [المدينة أو إياك]. فقال: لا أضيّقُ على جيران رسول الله ﷺ، فقال: والله لَتُغْتَالَنّ، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل.

قال أبو جعفر: وخرج معاوية من عند عثمان، فمرّ على نَفر من المهاجرين، فيهم عليّ عليه السلام وطلحة والزبير، وعَلَى معاويةَ ثيابُ سفره، وهو خارج إلى الشام، فقام عليهم، فقال: إنكم تعلَمون أن هذا الأمرَ كان الناس يتغالَبون عليه، حتى بعث الله نبيَّه، فتفاضلوا

بالسَّابقة والقُدْمة والجهاد، فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم، والنّاسُ لهم تَبَع، وإن طلبوا الدّنيا بالتغالُب سُلِبوا ذلك، وردّه الله إلى غيرهم، وإن الله على البَدَل لقادر. وإني قد خلّفت فيكم شيخنا فاستوصوا به خيراً وكانفوه[1]، تكونوا أسعد منه بذلك. ثم ودّعهم ومضى. فقال عليّ عليه السلام: كنت أرى في هذا خيراً. فقال الزبير: والله ما كان أعظَم قطّ في صدرك وصدورنا منه اليوم.

قلت: مِنْ هذا اليوم أنشبَ معاوية أظفارَه في الخلافة، لأنه غلب على ظَنّه قتلُ عثمان، ورأى أنّ الشام بيده، وأن أهلَها يطيعونه، وأنَّ له حجّة يحتجّ بها عليهم، ويجعلُها ذريعةً إلى غرضه، وهي قتلُ عثمان إذا قُتِل، وأنّه ليس في أمراء عثمان أقوى منه ولا أقدر على تدبير الجيوش، واستمالة العرب، فبنَى أمرَه من هذا اليوم على الطَّمع في الخلافة. ألا ترى إلى قوله لصعصعة من قبل: إنّه ليس أحد أقوَى منّي على الإمارة، وإن عمر استعملَني ورضيَ سيرتي! أوَ لا ترى إلى قوله للمهاجرين الأولين: إن شرعتم في أَخْذِها بالتغالُب، وملتم على هذا الشيخ، أخرجها الله منكم إلى غيركم وهو على الاستبدالِ قادر، وإنما كان يعني نفسَه، وهو يَكْني عنها، ولهذا تربّص[2] بنصرة عثمان لما استنصره ولم يبعث إليه أحداً[3].

وروى محمد بن عمر الواقديّ رحمه الله تعالى، قال: لما أجلَب الناسُ عَلَى عثمان، وكَثُرت القالة فيه، خرج ناس من مِصْر، منهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلويّ، وكنانة بن بِشْر اللّيثي، وسُودان بن حُمْران السَّكُونيّ، وقتيرة بن وهب السَّكْسَكِيّ، وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقيّ، وكانوا في ألفين. وخرج ناس من الكوفة، منهم زيد بن صُوحان العبدي، ومالك الأشتر النَّخعيّ، وزياد بن النضْر الحارثي، وعبد الله بن الأصم الغامدِيّ، في ألفين. وخرج ناسٌ من أهل البصرة، منهم حُكَيم بن جَبَلة العبْدِيّ، وجماعة من أمرائهم، وعليهم حُرقُوص بن زهير السّعديّ، وذلك في شوال من سنة خمس وثلاثين، وأظهروا أنّهم يُريدون الحج. فلما كانوا من المدينة عَلَى ثلاث، تقدّم أهلُ البصرة، فنزلوا ذا خُشُب - وكان هواهم في طلحة - وتقدم أهلُ الكوفة، فنزلوا الأعوَص - وكان هواهم في الزبير - وجاء أهلُ مصر فنزلوا المرْوَة -

---

(١) كنفه: حفظه وأعانه، وأحاط به. اللسان، مادة (كنف).
(٢) ربَض: ربضت الشاة إذا بركت. اللسان، مادة (ربض).
(٣) لا أدري كيف يطرح المؤلف هذا الرأي علماً بأنه نقل من سطور قليلة عرض معاوية نصره عثمان بشتى الوسائل الممكنة من ترك جند يحرسونه، أو نقله إلى الشام حيث الأنصار المحبون وعثمان لأمر أراده الله رفض كل ذلك.

وكان هواهم في عليّ عليه السلام - ودخل ناسٌ منهم إلى المدينة يَخْبُرون ما في قلوب الناس لعثمان، فلَقُوا جماعةً من المهاجرين والأنصار، ولقوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنما نريد الحجّ، ونستعفِي من عمالنا.

ثم لقيَ جماعة من المصريين عليًا عليه السلام، وهو متقلّد سيفَه عند أحجار الزَّيْت، فسلموا عليه، وعَرَضوا عليه أمرَهم، فصاح بهم وطردهم، وقال: لقد عَلِم الصالحون أن جَيْش المرْوَة وذي خُشُب والأعوص مَلْعونون على لسانِ محمد صلى الله عليه وسلم. فانصرفوا عنه.

وأتى البصريون طلحةَ، فقال لهم مثلَ ذلك، وأتى الكوفيون الزبيرَ، فقال لهم مثلَ ذلك. فتفرّقوا وخرجوا عن المدينة إلى أصحابهم.

فلما أمِنَ أهلُ المدينة منهم واطمأنُّوا إلى رُجُوعهم لم يشعروا إلاّ والتكبيرُ في نواحي المدينة، وقد نزلوها، وأحاطوا بعثمان، ونادى منادِيهم: يا أهلَ المدينة، مَنْ كَفَّ يده عن الحرب فهو آمن. فحصَرُوه في منزله، إلاّ أنّهم لم يمنعوا الناسَ من كلامه ولقائِه، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين، وسألوهم: ما شأنُهم؟ فقالوا: لا حاجةَ لنا في هذا الرجل، لِيَعْتَزِلْنا لنُولّيَ غيرهَ، لم يزيدوهم على ذلك.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار، يستنجدُهم ويأمرُهم بتعجيل الشُّخوص إليه للمنع عنه، ويعرِّفُهم ما النّاس فيه. فخرج أهل الأمصار على الصَّعْب والذَّلول، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهريّ، وبعث عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح معاوية بن حُدَيج، وخرج من الكوفة القَعْقاع بن عمرو، بعثه أبو موسى.

وقام بالكوفة نفرٌ يحرّضون الناسَ على نَصْر عثمان وإعانة أهل المدينة، منهم عُقْبة بن عمر، وعبد الله بن أبي أوْفى، وحنظلةُ الكاتب، وكلّ هؤلاء من الصحابة، ومن التابعين مَسْروق، والأسود، وشُرَيح، وغيرهم.

وقام بالبصرة عِمران بن الحُصين وأنس بن مالك، وغيرهما من الصحابة. ومن التابعين كعب بن سُور، وهَرِم بن حَيّان وغيرهما.

وقام بالشام ومصر جماعة من الصحابة والتابعين.

وخَرج عثمان يوم الجمعة، فصلى بالناس، وقام على المنبر، فقال: يا هؤلاء، الله الله، فوالله إن أهلَ المدينة يَعْلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فامحوا الخطأ بالصواب.

فقام محمد بن مَسْلَمة الأنصاريّ، فقال: نعم أنا أعلم ذلك، فأقعده حُكَيْم بن جَبَلة. وقام زيد بن ثابت فأقعده قُتيرة بن وهب. وثار القوم فحصَبُوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صُرِع عن المنبر مغشياً عليه، فأدخِل دارَه، واستقتل نفر من أهل المدينة

مع عثمان، منهم سعد بن أبي وَقّاص، والحسن بن عليّ عليه السلام، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة، فأرسل إليهم عثمان: عزمت عليكم أن تنصرفوا، فانصرفوا.

وأقبلَ علي وطلحة والزّبير، فدخلوا على عثمان يعودونه من صَرْعَتِه، ويشكون إليه ما يجدُون لأجله، وعند عثمان نفر من بني أميّة، منهم مَرْوان بن الحكم، فقالوا لعليّ عليه السلام: أهلكتَنا وصنعت هذا الذي صنعت! والله إن بلغتَ هذا الأمر الذي تريده لنُمِرَّنّ عليك الدنيا، فقام مغضَباً، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم.

ــــــــــ

وروي الواقديّ، قال: صلى عثمان بعدما وثبوا به في المسجد شهراً كاملاً، ثم منعوه الصلاة، وصلّى بالنّاس أميرُهم الغافقيّ.

وروى المدائنيّ، قال: كان عثمان محصوراً محاطاً به، وهو يصلّي بالناس في المسجد، وأهلُ مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خَلْفه، وهم أدقّ في عينه من التراب.

ــــــــــ

قال أبو جعفر في التاريخ: ثم إنّ أهل المدينة تفرّقوا عنه، ولزِموا بيوتَهم، لا يخرج أحد منهم إلا بسيفِه يمتنع به، فكان حصاره أربعين يوماً.

وروى الكلبيّ والواقديّ والمدائنيّ أنّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حُذيفة كانا بمصر يحرّضان الناس على عثمان، فسار محمد بن أبي بكر مع مَنْ سار إلى عثمان، وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر، ثم غلَب عليها لما سار عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح عامل عثمان عنها إلى المدينة في أثر المصريين، بإذن عثمان له، فلما كان بأيْلة، بلغه أنّ المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول، وأنّ محمد بن أبي حذيفة قد غلب على مصر، فعاد عبد الله إلى مصر، فمُنع عنها، فأتى فلسطين، فأقام بها حتى قُتِل عثمان.

وروى الكلبيّ، قال: بعث عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح رسولاً من مصر إلى عثمان يخبره بنهوض مَنْ نَهَضَ من مصر إليه، وأنهم قد أظهروا العُمْرة، وقصدُهم خَلْعُه أو قتله، فخطب عثمان الناس، وأعلمهم حالهم، وقال: إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عُمْري، والله إن فارقتُهم ليتمنَّيَنّ كلٌّ منهم أنّ عمري كان طال عليهم مكان كلّ يوم سَنَة، مما يرون من الدماء المسفوكة والإحَن والأثَرة الظاهرة، والأحكام المغيرة.

ــــــــــ

وروى أبو جعفر، قال: كان عمرو بن العاص ممن يحرّض على عثمان ويُغري به، ولقد

خطب عثمان يوماً في أواخر خلافته، فصاح به عمرو بن العاص: اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك، فتب إلى الله نَتُبْ. فناداه عثمان: وإنك ها هنا يا ابن النابغة! قَمِلَتْ والله جُبّتُك منذ نزعتُك عن العمل. فنودي من ناحية أخرى: تب إلى الله. ونودي من أخرى مثل ذلك، فرفع يديْه إلى السماء، وقال: اللّهمّ إني أول التائبين. ثم نزل.

وروى أبو جعفر، قال: كان عمرو بن العاص شديدَ التحريض والتأليب على عثمان، وكان يقول: والله إن كنتُ لألْقَى الراعي فأحرّضه على عثمان، فضلاً عن الرؤساء والوجوه. فلما سُعِّرَ الشرّ بالمدينة، خرج إلى منزله بفلسطين، فبينا هو بقصره ومعه ابناه: عبد الله ومحمد، وعندهم سَلاَمة بن روح الجُذاميّ، إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان، فقال: محصور، فقال عمرو: أنا أبو عبد الله! قد يضرِط العَيْر والمكواة في النار. ثمّ مرّ بهم راكب آخر، فسألوه، فقال: قُتِل عثمان فقال عمرو: أنا أبو عبد الله، إذا نكأتُ قَرْحَةً أدميتُها. فقال سلامة بن روْح: يا معشرَ قريش، إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه، فقال: نعم أردنا أن يخرُجَ الحقّ من خَاصِرَةِ الباطل، ليكون الناس في الأمر شَرَعاً سواء.

وروى أبو جعفر، قال: لما نزل القوم ذا خُشُب يريدون قتلَ عثمان إن لم ينزِعْ عمّا يكرهون، وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل عليّ عليه السلام، فدخل وقال: يا ابنَ عَمّ، إنّ قرابتي قَريبة، ولي عليك حَقّ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مُصَبِّحِيّ، ولك عند الناس قَدْر، وهمْ يسمعون منك، وأحبُّ أنْ تركب إليهم فتردّهم عنّي، فإنّ في دخولهم عليّ وهْناً لأمري، وجُرْأةً عليّ. فقال عليه السلام: عَلَى أي شيء أردّهم؟ قال: على أنْ أصيرَ إلى ما أشرتَ به، ورأيته لي. فقال عليّ عليه السلام: إني قد كلّمتك مَرة بعد أخْرَى، فكل ذلك تخرج وتقول، وتَعِد ثم ترجع! وهذا من فعل مَرْوان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتَهم وعصيتَني! قال عثمان: فإني أعصيهم وأطيعُك.

فأمر عليّ عليه السلام الناسَ أن يركبوا معه، فركب ثلاثون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأبو جَهْم العدويّ، وجُبَير بن مُطعِم، وحَكِيم بن حِزام، ومَرْوان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد.

ومن الأنصار أبو أسَيْد الساعديّ، وزيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وغيرهم.

فأتوا المصريّين فكلموهم، فكان الذي يكلّمهم عليّ ومحمد بن مَسْلمة، فسمعوا منهما، ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر، ورجع عليّ عليه السلام حتى دخل على عثمان، فأشار عليه أن

يتكلم بكلام يسمعه الناسُ منه، ليسكنوا إلى ما يعدهم به من النزوع. وقال له: إنّ البلاد قد تمخضَت عليك، ولا آمن أن يجيء رَكْب من جهة أخرى، فتقول لي: يا عليّ، اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتَني قد قطعتُ رحمك، واستخففت بحقك.

فخرج عثمان، فخطب الخطبة التي نزَع فيها، وأعطى الناس من نفسه التوبة، وقال لهم: أنا أولُ مَن اتعظ، وأستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه، فمثْلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافُكم فليروْا رأيهم، وليذكر كلّ واحد ظُلامته، لأكشفها، وحاجته لأقضيَها، فوالله لئن ردني الحقُّ عبداً لأستنّ بسنة العبيد، ولأذلّنّ ذُلّ العبيد، وما عن الله مذهب إلا إليه، والله لأعْطِيَنكم الرضا، ولأنحّيَنّ مرْوَانَ وذويه، ولا أحتجب عنكم.

فرَقَّ الناسُ له وبَكَوْا حتى خَضّلُوا لحاهم، وبكى هو أيضاً، فلما نزل وجد مَرْوان وسعيداً ونفراً من بني أمية في منزله قعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته، ولكنها بلغتْهم، فلما جلس، قال مَرْوان: يا أمير المؤمنين، أأتكلم أم أسكتُ؟ فقالت نائلة بنةُ الفَرافصة امرأة عثمان: لا بل تسكت، فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها. فقال لها مَرْوان: وما أنت وذاك! والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضّأ! فقالت: مهلاً يا مَرْوان عن ذكر أبي إلا بخير، والله لولا أنّ أباك عمّ عثمان، وأنه يناله غَمّه وعيبه، لأخبرتُك مِنْ أمره بما لا أكذب فيه عليه.

فأعرض عنه عثمان، ثم عاد فقال: يا أميرَ المؤمنين، أأتكلّم أم أسكت؟ فقال: تكلم، فقال: بأبي أنت وأمّي! والله لَوَدِدْتُ أنّ مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع، فكنتُ أوّلَ مَنْ رَضِيَ بها وأعان عليها، ولكنّك قلت ما قلت، وقد بلغ الحزَامُ الطُّبَيين[1]، وجاوز السّيلُ الزُّبَى، وحين أعطى الخُطةَ الذليلة الذليل، والله لإقامةٌ على خَطِيئة تستغفر الله منها، أجملُ من توبة تُخوَّف عليها، ما زدتَ على أن جَرَّأت عليك الناس.

فقال عثمان: قد كان من قَوْلي ما كان، وإنّ الفائِت لا يُرَدّ، ولم آلُ خيراً.

فقال مروان: إنّ الناس قد اجتمعوا ببابك أمثالَ الجبال، قال: ما شأنهم؟ قال: أنتَ دعوتهم إلى نفسك، فهذا يذكر مظلمة، وهذا يطلب مالاً، وهذا يسأل نزع عامل من عُمّالك عنه، وهذا ما جَنَيْت عَلَى خلافتك، ولو استمسكتَ وصبرت كانَ خيراً لك. قال: فاخرُجْ أنت إلى الناس فكلّمهم فإنّي أستحيي أنْ أكلّمهم وأردَّهم.

فخرج مَرْوانُ إلى الناس، وقد رَكِبَ بعضُهم بعضاً، فقال: ما شأنُكم؟ قد اجتمعتُم كأنّكم

---

(١) الطبي: حلمات الضرع التي فيها اللبن، وقولهم بلغ الحزام الطبيين كناية عن المبالغة في تجاوز حد الشر والأذى، لأن الحزام إذا انتهى إلى الطبيين فقد انتهى إلى أبعد غاياته. اللسان، مادة (طبي).

جئتم لنهْب، شاهت الوجوه! أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اعزُبوا عَنّا، والله إن رُمْتُمونا لَنُمِرَّنّ عليكم ما حَلا، ولنُحِلَّنّ بكم ما لا يسركم، ولا تحمدوا فيه غِبّ رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله غيرُ مغلوبين على ما في أيدينا.

فرجع الناس خائبين يشتِمون عثمان ومَرْوان، وأتى بعضُهم عليًا عليه السلام فأخبره الخبر، فأقبل عليّ عليه السلام عَلَى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزّهريّ، فقال: أحَضرتَ خطبة عثمان؟ قال: نعم، قال: أحَضرتَ مقالة مروان للناس؟ قال: نعم، فقال: أي عبادَ الله، يالله للمسلمين! إنّي قعدتُ في بيتي، قال لي: تركتَني وخذلتني! وإن تكلّمت فبلّغت له ما يريد، جاء مَرْوان فتلعّب به حتى قد صار سِيَقةً له، يسوقه حيث يشاء، بعد كِبَر السنّ وصحبته الرسول صلى الله عليه وآله. وقام مغضباً من فَوْرِه حتى دخل عَلَى عثمان، فقال له: أما يرضي مَرْوان منك إلاّ أن يحرفك عن دينك وعَقْلك! فأنتَ معه كجمل الظّعينة، يُقاد حيث يُسارُ به، والله ما مرْوان بذي رأيٍ في دينه ولا عقله، وإني لأراه يُورِدك ثم لا يُصْدِرك، وما أنا عائدٌ بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أفسدتَ شرفَك، وغُلبت عَلَى رأيك. ثم نَهَض.

فدخلت نائلة بنت الفَرافصة، فقالت: قد سمعتُ قول عليّ لك، وإنه ليس براجعٍ إليك ولا معاود لَك، وقد أطعتَ مَرْوان يقودُك حيث يشاء. قال: فما أصنعُ؟ قالت: تَتّقِي اللهَ وتتّبع سنة صاحبيك، فإنّك متى أطعتَ مَرْوان قَتَلَك، وليس لمرْوان عند الناس قَدْر ولا هيْبة ولا محبّة، وإنما تركك الناس لمكانه، وإنما رجع عنك أهلُ مصر لقول عليّ، فأرسِلْ إليه فاستصلِحْه، فإنّ له عند الناس قَدَماً، وإنّه لا يُعصى.

فأرسل إلى عليّ فلم يأته وقال: قد أعلمتُه أنّي غير عائد.

قال أبو جعفر: فجاء عثمانُ إلى عليّ بمنزله ليلاً، فاعتذرَ إليه، ووعد من نفسه الجميل، وقال: إني فاعل، وإني غير فاعل، فقال له عليّ عليه السلام: أبعْدَ ما تكلّمت على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله، وأعطيتَ من نفسك، ثم دخلتَ بيتك، وخرج مَرْوان إلى النّاس يشتِمهم على بابك! فخرج عثمان من عنده، وهو يقول: خذلتَني يا أبا الحسن! وجَرّأت الناس عَلَيّ! فقال عليّ عليه السلام: والله إني لأكثرُ الناس ذَبًّا عنك، ولكنّي كلّما جئتُ بشيء أظنه لك رضاً، جاء مَرْوان بغيره فسمعت قوله، وتركتَ قولي.

ولم يغْدُ عليّ إلى نَصْر عثمان، إلى أن مُنِع الماء لمّا اشتد الحِصار عليه، فغضب عليّ من ذلك غضباً شديداً، وقال لطلحة: أدخِلوا عليه الرَّوايا، فكره طلحة ذلك وساءه، فلم يزل عليّ عليه السلام حتى أدخل الماء إليه.

وروى أبو جعفر أيضاً أنّ عليًّا عليه السلام كان في ماله بخيبر لَمّا حُصِر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون عَلَى طلحة، وكان لطلحةَ في حصار عثمان أثر، فلما قَدِم عليّ عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أما بَعْد، فإن لي حقَّ الإسلام وحقّ الإخاء والقرابة والصِّهر، ولو لم يَكُن من ذلك شيء وكنّا في جاهلية، لكن عاراً عَلَى بني عبد مناف أن يبتزّ بنو تَيْم أمرَهم - يعني طلحة - فقال له عليّ: أنا أكفيك، فاذهب أنت.

ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد، فتوكأ على يده حتى دخل دار طَلحة وهي مملوءة من الناس، فقال له: يا طلحة، ما هذا الأمر الذي صنعتَ بعثمان؟ فقال: يا أبا حسن، أبعد أن مَسّ الحزام الطُّبْيَيْن! فانصرف عليّ عليه السلام حتى أتى بيتَ المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسَر الباب، وفرّق ما فيه على النّاس، فانصرف الناس من عند طلحة حتى بَقِيَ وحده، وسُرّ عثمان بذلك، وجاء طلحة فدخل على عثمان، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّي أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائباً، فقال: والله ما جئتَ تائباً ولكن جئت مغلوباً، الله حسيبُك يا طلحة!

قال أبو جعفر: كان عثمان مستضعَفاً، طمع فيه الناس، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بني أمية عليه، وكان ابتداء الجرأة عليه أنّ إبلاً من إبل الصَّدَقة قُدِم بها عليه، فوهبها لبعض ولد الحَكَم بن أبي العاص، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عَوْف، فأخذها وقسّمها بين الناس وعثمان في داره، فكان ذلك أوّل وَهَن دخل على خلافة عثمان.

وقيل: بل كان أول وَهَنٍ دخل عليه، أن عثمان مَرّ بجبلة بن عمرو الساعديّ، وهو في نادي قومه، وفي يده جامعة[1]، فسلّم، فردّ القوم عليه، فقال جَبَلة: لِمَ تردُّون على رَجُل فعل كذا وفعل كذا؟ ثم قال لعثمان: والله لأطرحَنّ هذه الجامعة في عُنُقك أو لتتركنّ بِطانَتك هذه الخبيثة، مروان وابن عامر وابن أبي سَرْح، فمنهم مَنْ نَزَل القرآن بذمّه، ومنهم من أباح رسول الله صلى الله عليه وآله دمَه.

وقيل: إنه خَطَب يوماً وبيده عصا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها، فأخذها جَهْجاه الغِفاريّ من يده، وكسرها على ركْبته، فلما تكاثرتْ أحداثه، وتكاثر طمعُ الناس فيه، كتب جَمْعٌ من أهل المدينة من الصّحابة وغيرهم إلى مَنْ بالآفاق: إن كنتم تُريدون الجهاد، فهلُمّوا إلينا فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم فاخلعوه، فاختلفتْ عليه القلوب، وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة حتى حدث ما حدث.

---

(١) الجامعة: الغِل؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق. اللسان، مادة (جمع).

وروي الواقديّ والمدائنيّ وابن الكلبيّ وغيرهم، وذكره أبو جعفر في التاريخ، وذكره غيرهُ من جميع المؤرخين: أن علياً عليه السلام لما ردّ المصريّين، رَجعوا بعد ثلاثة أيام، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رَصاص، وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف بالبُوَيْب على بعير من إبل الصدقة، ففتشنا متاعه، لأنا استربْنا أمره، فوجدنا فيه هذه الصحيفة، مضمونها أمْرُ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بجلْد عبد الرحمن بن عُدَيس وعمرو بن الحمِق، وحَلْق رؤوسهما ولحاهما وحبْسهما، وصلب قوم آخرين من أهل مصر.

وقيل: إنّ الذي أخِذَتْ منه الصحيفة أبو الأعور السلميّ، وإنهم لما رأوه وسألوه عن مسيره، وهل معه كتاب؟ فقال: لا، فسألوه: في أي شيء هو؟ فتغير كلامه، فأخذوه وفتشوه وأخذوا الكتاب منه، وعادوا إلى المدينة. وجاء الناس إلى عليّ عليه السلام، وسألوه أن يدخل إلى عثمان فيسأله عن هذه الحال، فقام فجاء إليه فسأله، فأقسم بالله ما كتبتُه ولا علمتُه، ولا أمرت به، فقال محمد بن مسلمة: صدق، هذا من عَمَلِ مَرْوان، فقال: لا أدري - وكان أهل مصر حضوراً - فقالوا: أفيجتَرأ عليك ويبعَثُ غلامُك على جمل من إبل الصدقة، وينقش على خاتمك، ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة، وأنت لا تَدري! قال: نعم، قالوا: إنّك إمّا صادق أو كاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحقَقْتَ الخلع، لما أمرتَ به من قتلنا وعقوبتنا بغير حقّ، وإن كنتَ صادقاً فقد استحقَقْت الخلع، لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك، وخبث بِطانتك، ولا ينبغي لنا أن نتركَ هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته، فاخلع نفسك منه. فقال: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله، ولكِنّي أتوب وأنزع، قالوا: لو كان هذا أوّل ذنب تبت منه لقبلنا، ولكنّا رأيناك تتوب ثم تعود، ولسنَا بمنصرفينَ حتى نخلعَك أو نقتلك أو تلحق أرواحُنا بالله، وإن منعك أصحابُك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال: أمّا أنْ أبرأ من خلافة الله فالقتلُ أحبُ إليّ من ذلك! وأما قتالُكم مَنْ يمنعُ عَني، فإني لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتَلكم فبغير أمري قاتَل، ولو أردتُ قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا عليّ أو لحقتُ ببعض الأطراف. وكثرت الأصوات واللغط، فقام عليّ فأخرج أهل مصر معه، وخرج إلى منزله.

قال أبو جعفر: وكتبَ عُثمان إلى معاويةَ وابنِ عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم، ويأمر بالعَجَل والبِدار وإرسال الجنود إليه، فتربّص به معاوية، فقام في أهل الشام يزيد بن أسد القَسْرِي جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق، فتبِعه خَلْقٌ كثير، فسار بهم إلى عثمان، فلما كانوا بوادي القُرَى بلَغهم قتلُ عثمان، فرجعوا.

وقيل: بل أشخص معاويةُ من الشّام حبيبَ بن مسلمة الفِهريّ، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السُّلَميّ، فلما وصلو الرَّبذة، ونزلت مقدمتهم الموضع المسمى صِراراً بناحية المدينة،

أتاهم قتلُ عثمان، فرجعوا. وكان عثمان قد استشار نُصَحاءه في أمره، فأشاروا أن يرسل إلى عليّ عليه السلام، يطلب إليه أن يردّ الناس ويعطيَهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى تأتيه الأمداد، فقال: إنّهم لا يقبلون التعليل، وقد كان منّي في المرأة الأولى ما كان، فقال مَرْوان: أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك، فإنهم قوم قد بغوْا عليك، ولا عهد لهم.

فدعا علياً عليه السلام، وقال له: قد تَرى ما كان من الناس، ولستُ آمنهُم على دمي، فارددْهم عَنّي، فإني أُعْطِيهم ما يُريدون من الحق من نفسي ومن غيري.

فقال عليّ: إن الناسَ إلى عَدْلِك أحوجُ منهم إلى قتلك، وإنهم لا يرضوْن إلا بالرضا، وقد كنتَ أعطيتَهم مِنْ قبلُ عهداً فلم تف به، فلا تغرّر في هذه المرة، فإني معطيهم عنك الحقّ، قال: أعطِهم فوالله لأفِيَنّ لهم.

فخرج عليّ عليه السلام إلى الناس، فقال: إنّكم إنما تطلبون الحقّ وقد أُعطِيتموه، وإنه منصِفكم من نفسه، فسأله الناس أن يستوثقَ لهم، وقالوا: إنا لا نرضى بقول دون فعل، فدخل عليه فأعلمه، فقال: اضرب بيني وبين الناس أجلاً، فإني لا أقدر على تبديل ما كرهوا في يوم واحد، فقال عليّ عليه السلام: أما ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه، وأما ما غاب فأجلُه وصولُ أمرِك، قال: نعم، فأجّلْني فيما بالمدينة ثلاثة أيام. فأجابه إلى ذلك، وكتب بينه وبين الناس كتاباً على ردّ كلِّ مظلمة، وعزل كلّ عامل كرهوه. فكفَّ الناس عنه، وجعل يتأهّب سراً للقتال، ويستعدّ بالسلاح، واتّخذ جُنداً، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغيّر شيئاً ثار به الناسُ، وخرج قوم إلى مَنْ بذي خُشُب من المصريين، فأعلموهم الحال، فقدموا المدينة، وتكاثر الناس عليه، وطلبوا منه عَزْل عماله وردّ مظالمهم، فكان جوابُه لهم: إني إن كنت أستعمِل مَنْ تريدون لا مَنْ أريد، فلست إذن في شيء من الخلافة، والأمر أمرُكم فقالوا: والله لتفعلَنّ أو لتُخلعنّ أو لنقتلنّك. فأبى عليهم وقال: لا أنزع سِرْبالاً سربلنيه الله. فحصروه وضيّقوا الحصار عليه.

وروى أبو جعفر: لما اشتدّ على عثمان الحِصار، أشرفَ على الناس، فقال: يأهل المدينة، أستودِعكم الله وأسأله أن يُحْسِن عليكم الخلافة من بعدي، ثم قال: أنشُدكم الله، هل تعلمون أنكم دعوتُم الله عند مصاب عُمَر أنْ يختار لكم ويَجمعكم على خيركم! أفتقولون: إن الله لم يستجِبْ لكم، وهُنْتم عليه، وأنتم أهلُ حَقّه وأنصار نبيّه، أم تقولون: هان على الله دينُه فلمْ يبالِ من وَلّى، والدين لم يتفرّق أهله بعدا! أم تقولون: لم يكنْ أخذ عن مشورة، إنّما كان مكابرة، فوكل الله الأمة - إذ عَصَتْه ولم يتشاوروا في الإمامة - إلى أنفسها! أم تقولون: إن الله لم يَعْلَمْ عاقبة أمري! فمهلاً مهلاً! لا تقتلوني، وإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة: زان بعد إحصان، أو كافر

بعد إيمان، أو قاتل نفس بغير حق. أمّا إنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لا يرفعه الله عنكم أبداً. فقالوا: أما ما ذكرت من استخارَة الناس بعد عمر، فإن كلّ ما يصنعه الله الخِيرة، ولكنّ الله جعلَك بليّة ابتَلى بها عبادَه، ولقد كانت لك قَدم وسابقة، وكنتَ أهلاً للولاية، ولكن أحدثتَ ما تعلُمه، ولا نترك اليوم إقامَة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً. وأما قولك: لا يحلّ إلا بإحدى ثلاث: فإنّا نجد في كتاب الله إباحة دم غير الثلاثة: دم مَنْ سَعَى في الأرض بالفساد، ودَمِ مَنْ بغى ثم قاتل على بغيه، ودَم مَنْ حال دون شيء من الحقّ ومنعه وقاتل دونه، وقد بغيتَ ومَنَعْت الحقّ، وحُلْتَ دونه، وكابرت عليه، ولم تُقِد من نفسك مَنْ ظلمته، ولا مِنْ عُمّالك، وقد تمسّكت بالإمارة علينا. والذين يقومون دونك ويمنعونك، إنما يمنعونك ويقاتلوننا لتسميتك بالإمارة، فلو خلعت نفسَك لانصرفوا عن القتالِ معك.

فسكت عثمانُ ولزم الدّار، وأمر أهلَ المدينة بالرجوع، وأقسم عليهم فرجعوا، إلا الحسن بن عليّ، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن الزُّبَير وأشباهاً لهم، وكانت مدة الحصار اربعين يوماً.

قال أبو جعفر: ثم إنّ محاصرِي عثمان أشفقوا مِنْ وصول أجْنَاد من الشام والبصرة تمنعه، فحالُوا بَيْن عثمان وبين الناس، ومنعوه كلّ شيء حتى الماء، فأرسل عثمان سِرًّا إلى عليّ عليه السلام، وإلى أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله أنهم قد مَنعونا الماء، فإنْ قدرتُم أنْ تُرسلوا إلينا ماء فافعلوا. فجاء عليّ عليه السلام في الغَلَس وأمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان، فوقف عليّ عليه السلام على الناس فوعظهم، وقال: أيها الناس، إنّ الذي تفعلون لا يشبه أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين، إنّ فارس والروم لتأسِر فتُطْعِم وتَسْقِي، فالله الله! لا تقطُعوا الماء عن الرجل، فأغلظوا له وقالوا: لا نَعَم ولا نعْمَة عين. فلما رأى منهم الجِدّ نزعَ عمامته عن رأسه، ورمى بها إلى دار عثمان، يُعلِمه أنّه قد نهض وعاد.

وأما أمّ حبيبة - وكانت مشتملة على إداوة - فَضربوا وجه بَغْلَتها، فقالت: إنّ وصايا أيتام بني أمية عند هذا الرجل، فأحببتُ أن أسأله عنها لئلا تَهْلِك أموالُ اليتامى، فشتموها، وقالوا: أنت كاذبة، وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فَنَفَرَت وكادت تسقط عنها، فتلقاها الناس فحملوها إلى منزلها.

وروى أبو جعفر، قال: أشرف عثمان عليهم يوماً، فقال: أنشُدُكم الله، هل تعلمون أنّي اشتريتُ بئر رُومة بمالي، أستعذب بها، وجعلت رِشائي فيها كرجل من المسلمين! قالوا: نعم،

قال: فَلِم تمنعونني أنْ أشرَب منها حتى أفطِرَ على ماء البحر! ثم قال: أنشُدُكم الله، هل تَعْلَمُون أنّي اشتريتُ أرضَ كذا، فزدتُها في المسجد؟ قالوا: نعم، قال: فهل علمتُم أنّ أحداً مُنِع أن يُصَلِّيَ فيه قبلي!

وروى أبو جعفر عن عبد الله بن عَيّاش بن أبي رَبيعة المخزوميّ، قال: دخلتُ على عثمان، فأخذ بيدي فأسمعني كلامَ مَنْ على بابه من الناس، فمنهم مَنْ يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم مَنْ يقول: لا تَعجلوا، فعساه ينزع ويراجع، فبينا نحن إذ مر طلحة، فقام إليه ابنُ عُدَيس البلَوِيّ، فناجاه، ثم رجع ابنُ عُدَيس، فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل إلى عثمان، ولا يخرج من عنده، قال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة، اللهمّ اكفِنِي طَلْحة، فإنه حَمَل هؤلاء القوم وألّبَهُم عليّ، والله إني لأرجو أن يكونَ مِنْها صِفراً، وأن يُسفَكَ دمه! قال: فأردت أن أخرج، فمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر، فتركوني أخرج.

قال أبو جعفر: فلما طال الأمرُ وعلم المصريون أنّهم قد أجرموا إليه جرماً كجُرم القتل، وأنّه لا فرقَ بَيْن قتله وبين ما أتوْا إليه، وخافوا على نفوسهم مِنْ تَركه حَيًّا، راموا الدخولَ عليه من باب داره، فأغلقوا الباب، ومانَعهم الحسنُ بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومَرْوان، وسعيد بن العاص، وجماعة معهم من أبناء الأنصار، فزجَرَهم عثمان، وقال: أنتم في حِلٍّ من نُصْرتي، فأبَوا ولم يرجعوا.

وقام رجل من أسْلَم يقال له نِيَار بن عياض - وكان من الصَّحابة - فنادى عثمان، وأمره أن يخلَعَ نفسه، فبينا هو يُناشِده ويسومُه خَلْع نَفسه، رماه كَثِير بن الصَّلْت الكِنْدِيّ - وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار - بسهْم فقتله، فصاح المصريون وغيرهم عند ذلك: ادفعوا إلينا قاتلَ ابن عياض لنقتله به، فقال عثمان: لم أكن لأدفعَ إليكم رجلاً نَصَرني وأنتم تريدون قتلي! فثاروا إلى الباب، فأغلِق دونهم، فجاءوا بنار فأحرقوه وأحرقوا السَّقِيفة التي عليه، فقال لمن عنده من أنصاره: إنّ رسول الله ﷺ عَهد إليّ عَهْداً فأنا صابر عليهِ، فأحَرّج على رجل يقاتل دوني! ثم قال للحسن: إنّ أباك الآن لَفِي أمر عظيم مِنْ أجلك، فاخرج إليه، أقسمت عليك لَما خرجت إليه! فلم يفعل، ووقف محامياً عنه.

وخرج مروان بسيفه يجالد الناس، فضَرَبه رَجل من بني لَيْث على رقبته، فأثبته وقطع إحدى عِلْبَاويه[1]، فعاش مَرْوان بعد ذلك أوْقَص[2]، وقام إليه عُبيْد بن رفاعة الزُّرَقيّ ليُذَفِّف عليه،

---

(١) علباوية: العلباء عصب العنق وهما علباوان يميناً وشمالاً بينهما منبت العنق. اللسان، مادة (علب).
(٢) أوقص: الوقص. قصر العنق كأنما ردّ في الصدر. اللسان، مادة (وقص).

فقامت دونه فاطمة أمّ إبراهيم بن عديّ - وكانت أرضعت مروان وأرضعت له - فقالت له: إن كنت تُريد قتلَه فقد قُتِل، وإن كنت إنّما تريد أن تتلعَّب بلحمه فأقبح بذلك! فتركه، فخَلّصته وأدخلته بيتها، فعرف لها بنوه ذلك بعد، واستعملوا ابنها إبراهيم، وكان له منهم خاصة.

وقُتِلَ المغيرة بن الأخنس بن شَرِيق، وهو يحامِي عن عثمان بالسيف، واقتحَم القوم الدّار، ودخل كثير منهم الدُّور المجاورة لها، وتسوّروا من دار عمرو بن حزم إليها حتى ملؤوها، وغلب النّاس على عثمان وندَبوا رجلاً لقتله، فدخل إليه البيت، فقال له: اخلعها ونَدَعك، فقال: ويحك! والله ما كشفتُ عن امرأةٍ في جاهلية ولا إسلام، ولا تغيّنت ولا تمنّيت، ولا وضعت يميني على عَوْرتي مذ بايعت رسول الله، ولست بخالع قميصاً كسانيه الله، حتى يكرم أهل السعادة، ويهين أهل الشقاوة.

فخرجَ عنه فقالوا له: ما صنعت؟ قال: إنّي لم أستحلّ قتله، فأدخلوا إليه رجلاً من الصحابة، فقال له: لستَ بصاحبي، إن النبي ﷺ دَعَا لك أن يحفَظك يوم كذا، ولن تضِيع، فرجع عنه.

فأدخلوا إليه رجلاً من قريش، فقال له: إن رسول الله ﷺ استغفر لك يوم كذا، فلن تُقارِف دماً حراماً، فرجع عنه.

فدخل عليه محمد بن أبي بكر، فال له عثمان: ويحك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جُرْم إلا أني أخذت حقَّ الله منك؟ فأخذ محمد بلحيته، وقال: أخزاك الله يا نعثل! قال: لست بنعثل، ولكني عثمان وأمير المؤمنين، فقال: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان! فقال عثمان: يا ابن أخي، دَعْها من يدك، فما كان أبوك ليقبِض عليها، فقال: لو عملتَ ما عملت في حياة أبي لقبض عليها، والذي أريد بك أشدُّ من قبضي عليها، فقال: أستنصر الله عليك وأستعين به، فتركه وخرج.

وقيل: بل طَعن جبينه بِمشْقَصٍ كان في يده، فثار سُودان بن حُمران، وأبو حرب الغافقيّ وقُتيرة بن وهب السَّكْسَكِيّ، فضربه الغافقيّ بعمود كان في يده، وضرب المصحف برجله - وكان في حجره - فنزل بين يديه وسال عليه الدمُ. وجاء سُودان ليضربه بالسيف، فأكبّتْ عليه امرأته نائله بنت الفَرافصة الكلْبية، واتّقت السيف بيدها وهي تَصْرخُ، فنفح أصابعها فأطنّها، فولّت، فغمز بعضهم أوراكها، وقال: إنّها لكبيرة العجُز، وضرب سُودان عثمان فقتله.

وقيل: بل قتَلَه كنانة بن بشر التُّجِيبيّ وقيل: بل قتيرة بن وهب. ودخل غلمان عثمان ومواليه، فضرَب أحدُهم عنقَ سودان فقتله، فوثب قُتَيرة بن وهب على ذلك الغلام فقتله، فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله، ونهبت دار عثمان، وأخذ ما على نسائه وما كان في بيت المال، وكان فيه غِرارتان دراهم. ووثب عمرو بن الحمِق على صَدْر عثمان وبه رَمق فطعنه تِسْع

طعنات، وقال: أما ثلاثٌ منها فإني طعنتهنّ لله تعالى، وأما سِتّ منها فلِمَا كان في صدري عليه. وأرادُوا قَطْعَ رأسه، فوقعت عليه زوجتاه: نائلة بنت الفَرافصة وأمّ البنين، ابنة عُيينة بن حِصْن الفَزاريّ، فصِحْن وضربن الوجوه، فقال ابن عُدَيس: اتركُوه، وأقبل عمير بن ضابيء البُرْجُميّ فوثب عليه، فكسر ضِلعين من أضلاعه، وقال له: سجنت أبي حتى مات في السجن! وكان قتله يوم الثامن عَشَر من ذي الحِجّة من سنة خمس وثلاثين. وقيل: بل في أيام التشريق، وكان عمره ستاً وثمانين سنة.

قال أبو جعفر: وبقيَ عثمان ثلاثة أيام لا يدفَن. ثم إنّ حَكِيم بن حزام وجُبَير بن مُطْعِم كلما علياً عليه السلام في أن يأذن في دفنِه ففعل، فلما سمع الناس بذلك قَعَد له قوم في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله، ومعهم الحسن بن عليّ وابن الزُّبَير، وأبو جَهم بن حُذيفة بين المغرب والعشاء، فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة، يعرف بَحشّ كوكب وهو خارج البَقِيع، فصلّوا عليه. وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه، فأرسل عليّ عليه السلام، فمنَعَ مَنْ رجم سريره، وكفّ الذين راموا مَنْع الصلاة عليه، ودفن في حَشّ كوكب، فلما ظهر مُعاوية على الأمر، أمر بذلك الحائط فهُدِم، وأدخِل في البَقِيع، وأمر الناس أن يدفِنُوا موتاهم حولِ قبره، حتّى اتصل بمقابر المسلمين بالبقيع.

وقيل: إن عثمان لم يغسَّل، وإنه كُفّن في ثيابه التي قتل فيها.

قال أبو جعفر: ورويَ عن عامر الشعبيّ أنّه قال: ما قُتِل عمر بن الخطاب حتى ملّته قريش واستطالت خلافته، وقد كان يعلم فتنتَهم، فحصرهم في المدينة وقال لهم: إنّ أخوَف ما أخاف على هذه الأمّة انتشارُكم في البلاد. وإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو، فيقول: إنّ لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكفيك، وهو خير لك من غَزْوك اليوم، وخيرٌ لك من الغَزْو ألا ترى الدنيا ولا تراك. فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكّة، فلما وليَ عثمان الخلافة خلّى عنهم فانتشروا في البلاد، وخالطهم الناس، وأفضى الأمر إلى ما أفضى إليه، وكان عثمان أحبَّ إلى الرعيّة من عمر.

قال أبو جعفر: وكان أوّلَ منكَر ظهر بالمدينة في خلافة عثمان حين فاضت الدنيا على العرب والمسلمين طيرانُ الحمام والمسابقة بها، والرمي عن الجُلاهقات(١) - وهي قسيّ البندق - فاستعمل عثمان عليها رجلاً من بني ليث في سنة ثمانٍ من خلافته، فقصّ الطيور وكسر الْجُلاَهقات.

---

(١) الجلاهقة: الطين المدور المدملق. اللسان، مادة (جلهق).

وروى أبو جعفر، قال: سأل رجل سعيدَ بن المسيّب عن محمد بن أبي حُذيفة: ما دعاه إلى الخروج على عثمان؟ فقال: كان يتيماً في حجْر عثمان، وكان واليَ أيتام أهل بيته ومحتمِل كَلِّهم، فسأل عثمانَ العمل، فقال: يا بنّي لو كنت رِضاً لاستعملتُك، قال: فَأذَنْ لي فأخرج فأطلب الرزق، قال: اذهب حيث شئت، وجهّزه من عنده، وحمله وأعطاه، فلما وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه، لأنّه منعه الإمارة. فقيل له: فعمّار بن ياسر؟ قال: كان بينه وبين العباس بن عُتْبة بن أبي لهب كلام فضربَهما عثمان، فأورث ذلك تعادياً بين عَمّار وعثمان. وقد كان تَقَاذفا قَبْلَ ذلك.

قال أبو جعفر: وسئل سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر: ما دعاه إلى ركوب عثمان؟ فقال: لزِمَه حَقٌّ، فأخذ عثمان من ظهره، فغضب، وغرَّه أقوام فطمِع، لأنه كان من الإسلام بمكان، وكانت له دالّة، فصار مذمّماً بعد أنْ كان محمَّداً، وكان كعب بن ذي الحَبكة النهديّ يلعب بالنِّير نجات بالكوفة، فكتب عثمان إلى الوليد أن يوجعه ضرباً، فضربه وسيّره إلى دُنْباوَنْد.

وكان ممّن خرج إليه وسار إليه، وحُبس ضابيء بن الحارث البُرْجُمِيّ، لأنه هجا قوماً فنسبهم إلى أنَّ كَلْبَهُمْ يأتي أمّهم، فقال لهم:

فَـأُمَّـكُـمُ لاَ تَـتْـرُكُـوهـا وَكَـلْـبَـكُـمْ ... فَـإِنَّ عُـقُـوقَ الـوالـديـن كَـبِـيـرُ

فاستعدَوْا عليه عثمان، فحبسه فمات في السجن، فلذلك حَقَد ابنه عُمَير عليه وكسر أضلاعه بعد قتله.

قال أبو جعفر: وكان لعثمان عَلَى طلْحة بن عُبيد الله خمسون ألفاً، فقال طلحة له يوماً: قد تهيأ مالُك فاقبضه، فقال: هو لك معونة على مروءتك، فلما حُصِر عثمان، قال عليّ عليه السلام لطلحة: أنْشُدك الله إلا كففْتَ عن عثمان! فقال: لا والله حتى تُعْطِيَ بنو أمية الحقَّ من أنفسها. فكان عليّ عليه السلام يقول: لحا الله ابن الصّعبة! أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به ما فعل!

---

٣١ - من كلام له عليه السلام لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته

الأصل: لاَ تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّك إنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَه، يَرْكَبُ الصَعْبَ وَيَقُولُ: هُوَ الذلُول، وَلَكِن اَلْقَ الزُّبَيْرَ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً، فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالحِجَازِ، وَأَنْكَرْتَنِي بِالعِرَاق، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا!

قال الرضي رحمه الله: وهو عليه السلام أَوّلُ مَنْ سُمِعت منه هذه الكلمة - أعْني: «فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا».

الشرح: ليستفيئه إلى طاعته، أي يسترجعه، فاء، أي رجع، ومنه سُمِّيَ الفيء للظلّ بعد الزوال.

وجاء في رواية: «فإنك إن تَلْقَه تُلْفِه» أي تجده، ألفيتُه على كذا، أي وجدتُه.

وعاقصاً قَرْنه، أي قد عَطَفه، تَيس أعقص، أي قد التوى قرناه على أذنيْه، والفعل فيه عَقَص الثور قرنه، بالفتح. وقال القطب الراونديّ: عَقِص، بالكسر، وليس بصحيح، وإنّما يقال: عَقِص الرجلُ، بالكسر، إذا شحّ وساء خلقه، فهو عقِص.

وقوله: «يركب الصَّعْب»، أي يستهين بالمستصعَب من الأمور، يصفه بشَراسة الخُلُق والبَأْو[1]، وكذلك كان طلحة، وقد وصَفَه عمر بذلك. ويقال: إنّ طلحة أحدَثَ يومُ أُحُدٍ عنده كِبْراً شديداً لم يكن، وذاك لأنه أغْنَى في ذلك اليوم، وأبلى بلاءً حسناً.

والعريكة ها هنا: الطبيعة، يقال: فلان لَيِّن العريكة، إذا كان سَلِساً.

وقال الراونديّ: العريكة: بقية السَّنَام، ولقد صدق، ولكن ليس هذا موضع ذاك.

وقوله عليه السلام لابن عباس: «قل له يقول لك ابن خالك» لطيف جداً، وهو من باب الاستمالة والإذْكار بالنَّسب والرحِم، ألا تَرَى أنّ له في القلْب من الموقع الدّاعي إلى الانقياد ما ليس لقوله: «يقول لك أمير المؤمنين»! ومن هذا الباب قوله تعالى في ذكر موسى وهارون: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾[2]، لما رأى هارون غضب موسى واحتدامه، شرع معه في الاستمالة والملاطفة، فقال له: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾، وأذكرَه حقَّ الأخوّة، وذلك أدعَى إلى عَطْفِه عليه من أن يقول له: «يا موسى»، أو «يأيها النبيّ».

فأمّا قولُه: «فما عَدَا مما بدا»، فعدَا بمعنى صَرَف، قال الشاعر:

وإنّـي عَـدَانـي أن أزُورَك مُـحـكَـمٌ ... مَتَى مَا أُحَرِّكْ فيـه سَاقَيَّ يَصخَبِ

و«من» ها هنا بمعنى «عن»، وقد جاءت في كثير من كلامهم كذلك، قال ابنُ قتيبة في «أدب الكاتب»: قالوا: حدّثني فلان من فلان، أي عن فلان، ولهيْت من كذا، أي عنه، ويصير ترتيبُ الكلام وتقديره: فما صرَفك عَمّا بدا منك! أي ظَهَر، والمعنى: ما الّذي صدَّك عن طاعتي بعد

---

(١) العظمة والافتخار والتكبر. اللسان، مادة (بأي).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

إظهارك لها! وَحَذْفُ الضميرِ المفعول المنصوب كثير جداً، كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾(١)، أي أرسلناه، ولا بدّ من تقديره، كي لا يبقى الموصولُ بلا عائد.

وقال القطب الراونديّ: قوله: «فما عَدَا مِمّا بَدَا» له معنَيان، أحدهما: ما الّذي منعك ممّا كان قد بَدَا منك من البَيْعة قبل هذه الحالة؟ والثاني: ما الّذِي عاقك؟ ويكون المفعول الثاني ل- «عدا» محذوفاً، يدلّ عليه الكلام، أي ما عداك! يريد ما شغلك وما منعك ممّا كان بَدَا لك مِنْ نُصْرَتي! من البَدا الذي يبدُو للإنسان. ولقائل أن يقول: ليس في الوجه الثاني زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة، أما إنه ليس فيه زيادة، فلأنه فَسَّر في الوجه الأول «عدا» بمعنى منع، ثم فسّره في الوجه الثاني بمعنى عاقَ، وفسر عاق بمنع وشغل، فصار «عدا» في الوجه الثاني مِثْلَ «عدا» في الوجه الأول.

وقوله: «ممّا كان بدا منك»، فَسّره في الأول والثاني بتفسير واحد، فلم يبق بين الوجهين تفاوت. وأما الزيادة الفاسدة فظنّه أنّ «عدا» يتعدى إلى مفعولين، وأنّه قد حذف الثاني، وهذا غير صحيح، لأنّ «عدا» ليس من الأفعال التي تتعدّى إلى مفعولين بإجماع النحاة، ومن العجَب تفسيره المفعول الثاني المحذوف على زعْمه بقوله: أي ما عَداك، وهذا المفعول المحذوف ها هنا هو مفعول «عدا» الذي لا مفعول لها غيره، فلا يجوز أن يقال إنه أول ولا ثان.

ثم حكى القطب الراونديّ حكاية معناها أن صفية بنت عبد المطلب أعتقت عبيداً، ثم ماتت، ثم مات العبيد ولم يخلّفوا وارثاً إلا مواليَهم، وطلب عليّ عليه السلام ميراثَ العبيد بحقّ التعصيب، وطلَبه الزبير بحق الإرْثِ من أمه. وتحاكما إلى عمر، فقضى عمر بالميراث للزبير.

قال القطب الراونديّ رحمه الله تعالى، حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: هذا خلافُ الشَّرْع، لأنّ وَلاَء مُعْتَق المرأة - إذا كانت ميّتة - يكونُ لعَصَبَتِها، وهم العاقلة، لا لأولادها.

قلت: هذه المسألة مختلَف فيها بين الإمامية، فأبو عبد الله بن النعمان المعروف بالمُفيد، يقول: إنّ الولاء لولدها، ولا يُصحِّح هذا الخبرَ، ويطعَن في راوِيه، وغيرهُ من فقهاء الإمامية كأبي جعفر الطوسيّ ومن قال بقوله يذهبون إلى أنّ الولاء لعَصبتها لا لولدها، ويصحّحون الخبر، ويزعمون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام سكَت ولم ينازِع، على قاعدته في التّقيّة، واستعمال المجامَلة مع القوم.

فأمّا مذاهبُ الفقهاء غير الإماميّة فإنها متفقة على أنّ الولاءَ للولَد لا للعَصَبة، كما هو قولُ المفيد رحمه الله تعالى.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.

وروى جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه عن جَدّه، عليهم السلام، قال: سألتُ ابنَ عباس رضي الله عنه عن ذلك، فقال: إنّي قد أتيت الزُّبيرَ، فقلتُ له، فقال: قل له: إني أريد ما تريد - كأنه يقول: الملك - لم يَزِدْني على ذلك. فرجعت إلى عليّ عليه السلام فأخبرته.

وروى محمد بن إسحاق والكلبيّ، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قلت الكلمة للزُّبير فلم يزدني على أن قال: قُلْ له:

إنّـا مـع الـخـوْفِ الـشـديـد لَـنـطـمَـعُ

قال: وسئل ابنُ عباس عَمّا يَعْنِي بقوله هذا، فقال: يقول: إنّا على الخوف لنطمع أن نَلِيَ من الأمر ما وليتم.

وقد فسره قومٌ تفسيراً آخر، وقالوا: أراد: إنّا مع الخوف من الله لنَطمع أن يُغفر لنا هذا الذنب.

قلت: وعلى كلا التفسيرينْ لم يحصل جواب المسألة.

من أخبار عبد الله بن الزبير وأبيه

كان عبدُ الله بن الزبير هو الذي يصلّي بالنّاس في أيام الجمل، لأنّ طلحة والزبير تَدافعا الصلاة، فأمرت عائشة عبد الله أن يصلّيَ قطعاً لمنازعتهما، فإن ظهروا كان الأمر إلى عائشة، تستخلف مَنْ شاءت.

وكان عبدُ الله بن الزُّبير يَدّعي أنه أحقُّ بالخلافة من أبيه ومن طلحة، ويزعم أنّ عثمان يوم الدار أوصى بها إليه.

واختلفت الرواية في كيفية السَّلام على الزبير وطلحة، فرُوِيَ أنه كان يسلِّم على الزبير وحدَه بالإمْرة، فيقال: السّلام عليك أيّها الأمير، لأن عائشةَ ولّته أمْرَ الحرب.

ورُوِي أنه كان يسلِّم على كلّ واحدٍ منهما بذلك.

لما نزل عليّ عليه السلام بالبصرة ووقف جيشُه بإزاء جيش عائشة قال الزبير: والله ما كان أمرٌ قَطّ إلا عرفتُ أين أضعُ قَدَميّ فيه إلا هذا الأمرَ، فإني لا أدري: أمقبِلٌ أنا فيه أم مُدْبِر! فقال له ابنُه عبدُ الله: كَلاّ ولكنّك فَرِقْتَ سيوفَ ابن أبي طالب، وعرفتَ أنّ الموت الناقع تحت راياته. فقال الزبير: ما لك أخزَاك الله من ولد! ما أشأمك!

كان أميرُ المؤمنين عليه السلام، يقول: ما زال الزُّبَيْر مِنّا أهلَ البيت، حتى شبّ ابنُه عبدُ الله.

برزَ عليّ عليه السلام بينَ الصّفين حاسراً، وقال: لِيَبْرُزْ إليّ الزبير، فبرز إليه مُدَجَّجاً، فقيل لعائشة: قد بَرَز الزُّبير إلى عليّ عليه السلام، فصاحَتْ: وازبيراه! فقيل لها: لا بأسَ عليه منه، إنه

حاسر والزبير دارع - فقال له: ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحة وليتُماه، وإنّما نَوْبَتُك من ذلك أن تُقِيدَ به نَفْسَك وتُسَلِّمها إلى وَرَثته، ثم قال: نَشَدْتُك الله! أتذكُر يومَ مررتَ بي ورسول الله ﷺ متكيء على يدِك، وهو جاء من بني عَمرو بن عَوْف، فسَلّم عَلَيّ وضحِك في وجهي، فضحكتُ إليه، لم أزِدْهُ على ذلك، فقلتَ: لا يتركُ ابنُ أبي طالب يا رسول الله زَهْوَه! فقال لك: «مَهْ إنّه ليس بذي زَهْو، أمَا إنّك ستقاتله وأنت له ظالم»[1]! فاسترجَع الزبير وقال: لقد كان ذلك، ولكنّ الدهْرَ أنسانيه، ولأنْصَرِفَنّ عنك، فرجع، فأعْتَقَ عبدَه سرجِس تَحَلُّلاً من يمين لزمْته في القتال، ثم أتى عائشة، فقال لها: إني ما وقفت موقِفاً قَطّ، ولا شهدتُ حَرْباً إلا ولي فيه رأيٌ وبصيرة إلا هذه الحرب، وإني لَعَلَى شَكٍّ من أمري، وما أكاد أبصر موضع قدمي. فقالت له: يا أبا عبد الله، أظنك فَرِقتَ سيوفَ ابن أبي طالب، إنّها والله سيوف حِداد، مُعَدَّة للجلاد، تحملها فتية أنجاد، ولئن فَرِقْتَها لقد فرِقَها الرجال قَبْلَك، قال: كلاّ، ولكنّه ما قلتُ لكِ. ثم انصرف.

وروى فَرْوَة بن الحارث التميميّ، قال: كنتُ فيمن اعتزل عن الحرب بوادي السِّباع مع الأحنف بن قيس، وخرج ابنُ عمٍّ لي يقال له الجَوْن، مع عسكر البصرة، فنهيتُه، فقال: لا أرغبُ بنفسِي عَنْ نُصْرَة أمّ المؤمنين وحواريّ رسول الله. فخرج معهم، وإنّي لجالس مع الأحنف، يستنبيءُ الأخبار، إذا بالجون بن قَتادة، ابن عميّ مُقْبِلاً، فقمتُ إليه واعتنقتُه، وسألتُه عن الخبرِ، فقال: أخبرُك العَجَب، خرجت وأنا لا أريد أن أبرحَ الحرب حتى يحكم الله بين الفريقين، فبينا أنا واقف مع الزُّبَير، إذا جاءه رجل فقال: أبْشِرْ أيّها الأمير، فإنّ عليًّا لَمّا رأى ما أعدّ الله له من هذا الجَمْع، نكَصَ على عَقِبيْه، وتفرّق عنه أصحابه. وأتاه آخر، فقال له مثل ذلك، فقال الزُّبَير: ويحكُم! أبو حسن يرجع! والله لو لم يجدْ إلاّ العَرْفج لدبّ إلينا[2] فيه. ثم أقبل رجل آخر، فقال: أيّها الأمير، إنّ نفراً من أصحاب عليّ فارقوه ليدخلوا معنا، منهم عَمّار ابن ياسر، فقال الزبير: كلا وربِّ الكعبة، إنَّ عمَّاراً لا يفارقه أبداً، فقال الرجل: بَلَى والله، مراراً.

فلمّا رأى الزُّبير أنَّ الرجلَ ليس براجع عن قوله، بعث معه رجلاً آخر، وقال: اذْهَبا فانظرا، فعادا وقالا: إنَّ عَمّاراً قد أتاك رسولاً من عند صاحبه، قال جوْن: فسمعتُ والله الزبير يقول: وانْقِطَاع ظهراه! واجَدْع أنفاه! واسواد وجهاه! ويكرّر ذلك مِراراً، ثم أخذته رِعْدة شديدة، فقلت: والله إنّ الزبير ليس بَجبَان، وإنّه لمِنْ فُرْسان قريش المذكورين، وإنّ لهذا الكلام لشأناً،

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ١١/١٩٦ ح: ٣١٢٠٢.

(٢) العرفج: ضرب من النبات، سهلي سريع الإنقياد. اللسان، مادة (عرفج).

ولا أريد أن أشهدَا مشهدَ يقول أميرهُ هذه المقالة، فرجعتُ إليكم، فلم يكن إلا قليلٌ حتى مرّ الزبير بنا مُتارِكاً للقوم، فأتبعه عمير بن جُرْموز فقتله.

أكثرُ الروايات على أنَّ ابن جُرْموز قُتِل مع أصحاب النهر، وجاء في بعضها أنه عاش إلى أيّام ولاية مُصْعَبِ بن الزبير العراق، وأنّه لما قدم مصعب البصرة خافه ابن جَرْموز فهرب، فقال مصعب: لِيَظْهر سالماً، وليأخُذْ عطَاء موفوراً، أيَظُن أني أقتله بأبي عبد الله وأجعله فداء له! فكان هذا من الكِبْر المستحسَن.

كان ابن جُرْموزٍ يدعو لدنياه، فقيل له: هلا دعوتَ لآخرتك! فقال: أيِسْتُ من الجنّة.

الزبير أوّلُ مَنْ شهرَ سيفَه في سبيل الله، قيل له في أول الدعوة: قد قُتِل رسول الله، فخرج وهو غلام يسعى بسيفه مشهوراً.

وروى الزّبير بن بكار في «الموفقيّات» قال: لما سارَ عليّ عليه السلام إلى البصرة، بعثَ ابن عباس فقال: ائت الزّبير، فاقرأ عليه السلام، وقل له: يا أبا عبد الله، كيف عرفتَنا بالمدينة وأنكرتَنا بالبصرة! فقال ابنُ عباس: أفلا آتي طلحة؟ قال: لا، إذاً تجِده عاقصاً قَرْنه في حَزِن[1]، يقول: هذا سهل.

قال: فأتيتُ الزبير، فوجدته في بيت يتروّح في يوم حارٍّ وعبد الله ابنه عنده، فقال: مرحباً بك يا ابن لُبابة! أجئت زائراً أم سفيراً؟ قلت: كلاً، إنّ ابن خالِك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: يا أبا عبد الله، كيف عرفتنا بالمدينة، وأنكرتنا بالبصرة! فقال:

عَلِقْتُهُمْ أني خُلِقْتُ عُصْبَهْ قَتادةً تعلّقت بِنُشْبَهْ

لنْ أدَعَهم حتى أؤلّف بينهم! قال: فأردت مِنه جواباً غيرَ ذلك، فقال لي ابنُه عبد الله: قل له: بيننا وبينك دَمُ خليفة ووصيّة خليفة، واجتماع اثنين، وانفرادُ واحد، وأمّ مبرورة، ومشاورة العشيرة. قال: فعلمتُ أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب، فرجعت إلى عليّ عليه السلام فأخبرته.

قال الزبير بنُ بكار: هذا الحديث كان يرويه عمّي مصعب، ثم تركه، وقال: إني رأيت جَدّي أبا عبد الله الزُّبير بن العوّام في المنام، وهو يعتذر من يوم الجَمل، فقلت له: كيف تعتذِرُ منه، وأنت القائل:

عَلِقْتهمْ أني خُلِقْتُ عُصْبَهْ قتادةً تعلّقتْ بِنُشبهْ

لن أدعَهم حتى أؤلف بينهم! فقال: لم أقله.

---

(١) الرجل العقِص الألولى الصعب الأخلاق. اللسان، مادة (عقص).

في الكلام على الاستدراج

واعلم أن في علم البيان باباً يسمى باب الخداع والاستدراج، يناسب ما يذكره فيه علماء البيان قولَ أمير المؤمنين عليه السلام: «يقول لك ابنُ خالك: عرفْتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق»!

قالوا: ومن ذلك قولُ الله تعالى حكايةً عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(١)، فإنّه أخذ معهم في الاحتجاج بطريق التقسيم، فقال: هذا الرجلُ إما أن يكون كاذباً فكَذِبُه يعودُ عليه ولا يتعدّاه وإمّا أن يكون صادقاً فيصيبَكُم بعضُ ما يعِدُكم به، ولم يقل: «كلّ ما يَعِدُكم به» مخادعةً لهم وتلطّفاً، واستمالةً لقلوبهم كي لا ينفِروا منه لو أغلظ في القول، وأظهرَ لهم أنه يهضمه بعضَ حقّه.

وكذلك تقديمُ قِسْم الكذب على قسم الصدق، كأنه رَشَاهم ذلك، وجعله برْطِيلاً لهم، ليطمئنّوا إلى نصحه.

ومن ذلك قول إبراهيم على ما حكاه تعالى عنه في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾(٢)، فطلب منه في مبدأ الأمر السَّببَ في عبادته الصنم والعلّة لذلك، ونبّهه على أنّ عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً قبيحة، ثم لم يقل له: إنّي قد تبحّرت في العلوم، بل قال له: قد حَصَل عندي نوعٌ من العلم لم يحصل عندك. وهذا من باب الأدب في الخطاب، ثم نَبّهه على أنّ الشيطانَ عاصٍ لله، فلا يجوز اتّباعه، ثم خوّفه من عذاب الله إن اتّبع الشيطان، وخاطَبه في جميع ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، استعطافاً واستدراجاً، كقول عليّ عليه السلام: «يقول لك ابنُ خالك»، فلم يُجِبْه أبوه إلى ما أراد، ولا قال له: «يا بنيّ» بل قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾(٣)، فخاطبه بالاسم، وأتاه بهمزة الاستفهام المتضمّنة للإنكار، ثم توعّده فقال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾(٤).

قالوا: ومن هذا الباب ما رُوي أنّ الحسينَ بن عليّ عليه السلام كلّم معاوية في أمر ابنه يَزِيد، ونهاه عَنْ أن يَعْهَد إليه، فأبى عليه معاوية حتى أغضَب كلٌّ واحد منهما صاحبَه، فقال الحسين عليه السلام في غضون كلامه: أبي خيرٌ من أبيه وأمّي خيرٌ من أمّه، فقال معاوية: يا ابن

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٣) سورة مريم، الآيات: ٤٢ - ٤٥.
(٤) سورة مريم، الآية: ٤٦.

أخي، أمّا أمُك فخيرٌ من أمّه، وكيف تُقَاس امرأةٌ من كَلْب بابنةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم! وأما أبوه فحاكَم أباك إلى الله تعالى، فحكَم لأبيه على أبيك.

قالوا: وهذا من باب الاستدراج اللطيف، لأن معاويةَ علم أنّه إنْ أجابه بجواب يتضمّن الدعْوى لكونه خيراً من عليّ عليه السلام لم يلتفِتْ أحدٌ إليه، ولم يكن له كلام يتعلّق به، لأن آثارَ عليّ عليه السلام في الإسلام، وشرفَه وفضيلته تَجِلّ أن يُقاس بها أحدٌ، فعدَلَ عن ذكر ذلك إلى التعلّق بما تعلّق به، فكان الفَلَج له.

ذكر هذا الخبر نصرُ الله بن الأثير في كتابة المسمى بـ «المثل السائر»[١] في باب الاستدراج.

وعندي أن هذا خارج عن باب الاستدراج، وأنّه من باب الجوابات الإقناعيّة التي تسمِّيها الحكماء الجَدَليّات والخَطابيات، وهي أجوبة إذا بحث عنها لم يكن وراءها تحقيق، وكانت ببادىء النظر مُسْكِتةً للخَصْم، صالحة لمصادمته في مقام المجادلة.

ومثل ذلك قولُ معاوية لأهل الشام حيث التحق به عَقيل بنُ أبي طالب: يأهلَ الشام، ما ظنُّكم برجل لم يصلح لأخيه!

وقوله لأهل الشام: إنّ أبا لهب المذموم في القرآن باسمه عمّ عليّ بن أبي طالب. فارتاع أهل الشام لذلك، وشتموا عليًا ولَعنوه.

ومن ذلك قول عمر يوم السَّقيفة: أيكُم يَطيبُ نَفْساً أن يتقدّم قَدَمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم!

ومن ذلك قول عليّ عليه السلام مجيباً لمن سأله: كم بينَ السماء والأرض؟ فقال: دَعْوة مستجابة.

وجوابه أيضاً لمن قال له: كم بين المشرق والمغرب؟ فقال: مسيرة يوم للشمس.

ومن ذلك قول أبي بكر - وقد قال له عمر: أَقِدْ خالداً بمالك بن نُوَيْرة -: سيف الله فلا أغمِده.

وكقوله - وقد أشير عليه أيضاً بأن يُقيد من بعض أمرائه -: أنا أقيد من وَزَعَةِ[٢] الله! ذكر ذلك صاحب «الصحاح»[٣] في باب «وزع».

والجوابات الإقناعية كثيرة، ولعلّها جمهورُ ما يتداوله النّاس، ويُسْكِتُ به بعضهم بعضاً.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لضياء الدين نصر الله بن محمد صاين الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري، المتوفى سنة (٦٣٧هـ). «كشف الظنون» (٢/١٥٨٦).

(٢) الوزعة: الأعوان، يكفون الناس عن التعدي والشر والفساد. اللسان، مادة (وزع).

(٣) الصحاح في اللغة»: للإمام أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، المتوفى سنة (٣٩٢هـ). «كشف الظنون» (١/ ١٠٧١).

٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام في جور الزمان

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُود، وَزَمَنٍ شَدِيدٍ، يُعَدُّ فيهِ ٱلْمُحْسِنُ مُسِيئاً، وَيَزْدَادُ ٱلظَّالِمُ فيه عُتُوًّا، لاَ نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلاَ نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا، وَلاَ نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا. وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ:

مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَمْنَعُهُ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلاَلَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِه.

وَمِنْهُمْ ٱلْمُصْلِتُ بِسَيْفِهِ، وَٱلْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَٱلْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، قَدْ أَشْرَط نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ، لِحُطَام يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُه، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُه، وَلَبِئْسَ ٱلْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى ٱلدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ ٱللهِ عِوَضاً!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ ٱلدُّنْيَا بِعَمَلِ ٱلآخِرَةِ، وَلاَ يَطْلُبُ ٱلآخِرَةَ بِعَمَلِ ٱلدُّنْيَا، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ، وَٱتَّخَذَ سِتْرَ ٱللهِ ذَرِيعَةً إِلَى ٱلْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ ٱلْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ، وَٱنْقِطَاعُ سَبَبِهِ، فَقَصَرَتْهُ ٱلْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ ٱلْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ ٱلزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلاَ مَغْدًى.

وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ ٱلْمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ ٱلْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلاَنَ مُوجَعٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَشَمِلَتْهُمُ ٱلذِّلَّةُ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَة، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَة، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا.

فَلْتَكُنِ ٱلدنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ القَرَظِ، وَقُرَاضَةِ ٱلْجَلَمِ. وَٱتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ.

قال الرضي رحمه الله: وهذه الخُطبَةُ رُبَّمَا نسبها من لا عِلْمَ له إلى معاوِية، وَهِيَ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الَّذِي لاَ يُشكُّ فِيه وأين الذَّهبُ من الرَّغام! وأين العذْبُ منَ

الأَجَاجُ! وَقد دَلّ على ذلك الدَّليلُ الخِرّيت[1]، ونقدهُ النَّاقِدُ البَصِيرُ، عَمْرُو بن بحرٍ الجاحِظ، فإنهُ ذكر هذه الخطبة في كتاب «البيان والتبيين» وذكرَ من نَسَبَهَا إلى مُعَاوية. ثمَّ تكلّم من بعدها بكلام في معناها، جملته أنه قال: وهذا الكلام بكلام عليٍّ عليه السلام أشبهُ وَبمذهبهِ في تصنيف النَّاسِ وفي الإخبَارِ عَمَّا هُمْ عليهِ من القَهْرِ وَالإذْلالِ، ومن التقيَّةِ والخوْفِ أَلْيقُ. قَالَ: ومتى وجدنا معاويةَ في حال من الأحوال يسلُكُ في كلامه مسلك الزُّهَّاد، ومذاهبَ العُبَّاد!

الشرح: دهر عَنود: جائر، عَنَد عن الطريق، يعنُد بالضم، أي عَدَل وجار. ويمكن أن يكون من عَنَدَ يَعْنِد بالكسر، أي خالف وردّ الحق وهو يعرفه، إلاّ أنّ اسم الفاعل المشهور في ذلك عاند وعَنيد، وأما عَنُود فهو اسم الفاعل، من عَنَد يعنُد بالضم.

قوله: «وزمن شديد»، أي بخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[2]، أي وإنّه لبخيل لأجل حُبّ الخير، والخير: المال. وقد روي: «وزمن كنود» وهو الكفور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾[3]. والقارعة: الخطب الذي يَقْرَع، أي يصيب.

قوله: «ونضيض وفره»، أي قلّة ماله، وكان الأصل «ونضاضة وفْره» ليكون المصدرُ في مقابلة المصدر الأول، وهو «كلالة حَدّه»، لكنه أخرجَه على باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، كقولهم: عليه سَحْقُ عمامة، وجَرْد قَطِيفة، وأخلاق ثياب.

قوله: «والمجلِب بخيله ورجِله»، المجلِب: اسم فاعل من أجلَب عليهم، أي أعان عليهم. والرَّجْل: جمع راجل، كالرَّكْب جمع راكب، والشَّرْب جمع شارب، وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[4].

وأشرط نفسه، أي هَيّأها وأعدّها للفساد في الأرض.

وأوبق دينه: أهلَكه. والحُطام: المال، وأصله ما تكسّرَ من اليَبيس. ينتهزه: يختلسه.

والمِقْنَب: خيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين.

ويَفْرَعُه: يعلوه. وطامَن من شخصه، أي خَفَض. وقارب مِنْ خَطْوه: لم يسرع ومشى رويداً.

---

(١) الخريت: الدليل الحاذق بالدلالة. اللسان، مادة (خرت).

(٢) سورة العاديات، الآية: ٨.

(٣) سورة العاديات، الآية: ٦.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

وشمّر من ثوبه: قَصّره. وزخرف من نفسه: حَسَّن ونمّق وزين، والزّخرف: الذهب في الأصل.

وضُؤولة نفسه: حقارتها. والنادّ: المنفرد. والمكْعوم، من كعمت البعير، إذا شددتَ فمه. والأجاجُ: الملح.

وأفواههم ضامزة، بالزاي، أي ساكنة، قال بشر بن أبي خازم:

لَـقَـدْ ضَـمَـزَتْ بِـجـرَّتـهـا سُـلَـيْـمٌ مَـخَـافَـتَـنَـا كـمـا ضَـمَـزَ الْـحِـمَـارُ

والقرظ: ورَق السَّلَم، يُدْبَغ به، وحُثالتُه: ما يسقط منه.

والجلَم: المقصّ تُجزّ به أوبارُ الإبل. وقراضته: ما يقع من قَرْضه وقطعه.

فإن قيل: بيّنوا لنا تفصيل هذه الأقسام الأربعة.

قيل: القسم الأول مَنْ يقعدُ به عن طلب الإمْرة قلة ماله وحقارتُه في نفسه.

والقسم الثاني: مَنْ يُشَمّر ويطلب الإمارة ويُفْسد في الأرض ويكاشف.

والقسم الثالث: مَنْ يُظْهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا.

والقسم الرابع: مَنْ لا مال له أصلاً، ولا يكاشف، ويطلب المُلْك ولا يطلب الدنْيا بالرياء والناموس، بل تنقطِع أسبابُه كلُّها فيخلُد إلى القناعة، ويتحلّى بحلْية الزّهادة في اللّذات الدنيوية، لا طلباً للدنيا بل عَجْزاً عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة.

فإن قيل: فها هنا قسم خامس، قد ذكره عليه السلام، وهم الأبرار الأتقياء الّذين أراقَ دموعَهم خوفُ الآخرة.

قيل: إنّه عليه السلام إنما قال: «إنّ الناس على أربعة أصناف»، وعَنَى بهم مَنْ عَدَا المتقين، ولهذا قال لما انقضى التقسيم: «وبقي رجال غضّ أبصارَهم ذِكْرُ المرجع»، فأبان بذلك عن أنّ هؤلاء خارجون عن الأقسام الأربعة.

في ذم الرياء والشهرة

واعلم أنّ هذه الخطبة تتضمّن الذمّ لكثير لمن يَدّعِي الآخرة من أهل زماننا، وهم أهلُ الرّياء والنّفاق، ولابُسو الصوف والثّياب المرقوعة لغير وجه الله.

وقد وردَ في ذمّ الرياء شيء كثير، وقد ذكرنا بعضَ ذلك فيما تقدّم.

ومن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[١].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[٣].

ومن الأخبار النبويّة قوله ﷺ، وقد سأله رجل: يا رسولَ الله، فيم النجاة؟ فقال: «ألاّ تعمَل بطاعة الله وتريد بها الناس».

وفي الحديث: «مَنْ رَاءَى الله به، ومَنْ سمّع سمَّع الله به»[٤].

وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول للملائكة: إنّ هذا العمل لم يردْ صاحبهُ به وجْهِي، فاجعلوه في سجّينٍ»[٥].

وقال ﷺ: «إنّ أخوف ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصغر»، قالوا: وما الشركُ الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياءُ، يقول الله تعالى إذا جازى العبَادَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم في الدنيا، فاطلبوا جزاءكم منهم»[٦].

وفي حديث شَدَّاد بن أوْس: رأيتُ النبيّ ﷺ يبكي، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ فقال: «إنّي تخوّفت على أمتي الشرك، أمَا إنّهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً، ولكنهم يراؤون بأعمالهم»[٧].

ورأى عمرُ رجلاً يتخشّع، ويُطَأطِيء رقَبَته في مِشْيته، فقال له: يا صاحبَ الرَّقبة، ارفع رقَبَتك، ليس الخشوع في الرقاب.

ورأى أبو أمامة رجلاً في المسجد يبكي في سجوده، فقال له: أنت أنت لو كان هذا في بيتك!

وقال عليّ عليه السلام: للمرائي أربع علامات: يكسلُ إذا كان وحدَه، وينْشَط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثنيَ عليه، وينقُص منه إذا لم يُثْنَ عليه.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠. (٢) سورة الإنسان، الآية: ٩.
(٣) سورة الماعون، الآيات: ٥ - ٧.
(٤) أخرجه مسلم نحوه في كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٦)، وأخرج الدارمي نحوه أيضاً، كتاب الرقائق، باب: من راءى الله به (٢٧٤٨).
(٥) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٧٥٠٨) ونسبه لابن المبارك.
(٦) أخرجه أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، باب: حديث محمود بن لبيد، (٢٣١١٩).
(٧) أخرجه أحمد، في كتاب: مسند الشاميين، باب: حديث شداد بن أوس (١٦٦٧١).

وقال رجل لعبادة بن الصّامت: أقاتِل بسيفي في سبيل الله أريد به وجهَه ومَحْمَدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات، كل ذلك يقول: لا شيء لك! ثم قال في الثالثة: يقول الله تعالى: أنا أغني الأغنياء عن الشرك[1]. . . الحديث.

وضرب عُمر رجلاً بالدِّرَّة، ثم ظهر له أنّه لم يأتِ جُرْماً، فقال له: اقتصّ مني، فقال: بل أدَعُها لله ولك، قال: ما صنعتَ شيئاً، إما أن تدَعها لي فأعرف ذلك لك، أو تَدَعها لله وحده.

وقال الحسن، لقدْ صحبتُ أقواماً، إن كان أحدُهم لَتَعْرِضُ له الكلمة لو نطق بها لنفعتْه ونفعت أصحابه، ما يمنعه منها إلا مخافةُ الشهرة، وإنْ كان أحدُهم ليمرّ فيرَى الأذى على الطريق فما يمنعه أن ينحّيَه إلا مخافة الشهرة.

وقال الفُضَيْل: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون.

وقال عِكْرمة: إن الله تعالى يُعطِي العبد على نِيّته ما لا يُعطيه على عمله، لأنّ النية لا رياء فيها.

وقال الحسن: المرائي يريد أن يَغْلِبَ قَدَرَ الله تعالى، هو رجل سَوْء، يريد أن يقول الناس: هذا صالح، وكيف يقولون وقد حلَّ من ربه محلّ الأردئاء، فلا بدَّ لقلوب المؤمنين أن تعرفَه.

وقال قَتادة: إذا راءى العبدُ، قال الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدِي يستهزيء بي.

وقال الفُضَيْل: مَنْ أراد أنْ ينظُر مُرائياً فلينظر إليّ.

وقال محمد بن المبارك الصُّوريّ: أظْهِر السمْت بالليل، فإنه أشرفُ من سمْتِك بالنهار، فإنّ سَمْت النهار للمخلوقين، وسَمْت الليل لربّ العالمين.

وقال إبراهيمُ بن أدْهَم: ما صدق الله مَنْ أحبّ أن يَشْتهر.

ومن الكلام المعزوّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام: إذا كان يومُ صوم أحدكم فَلْيَدْهُنْ رأسَه ولحيته، وليمسَحْ شفتيه، لئلا يعلم الناس أنه صائم. وإذا أعطَى بيمينه، فليُخْفِ عن شماله، وإذا صلّى فلْيُرْخِ سِتْر بابه، فإنّ الله يَقْسِم الثناء كما يَقْسِم الرزق.

ومن كلام بعض الصالحين: آخرُ ما يخرج من رُؤوس الصدِّيقين حبُّ الرياسة.

وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «بحسْب المرء من الشرّ - إلاّ مَنْ عَصمه

---

(١) أخرج مسلم نحوه في كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥)، وابن ماجه في كتاب: الزهد باب: الرياء والسمعة (٤٢٠٢).

الله من السوء - أن يُشِيرَ الناسُ إليه بالأصابع في دينه ودنياه، إنّ الله لا ينظر إلى صُوَركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

وقال عليّ عليه السلام: تَبَذَّلْ لا تشتهرْ، ولا ترفَعْ شخْصَك لتُذكَر بعلم، واسكُتْ واصمت تَسْلم، تَسُرّ الأبرار، وتَغِظ الفجار.

وكان خالد بن مَعْدان إذا كثُرَت حَلْقتُه قام مخافة الشهرة.

ورأى طلحة بن مصرِّف قوماً يَمْشون معه نحو عشرة، فقال: فَرَاش نار، وذِبّان طمع.

وقال سليمان بن حَنْظلة: بينا نحنُ حواليْ أبيّ بن كعب نمشي، إذ رآه عُمر فعلاه بالدِّرة، وقال له: انظُرْ مَنْ حولك! إنّ الذي أنت فيه ذِلّة للتابع، فتنة للمتبوع.

وخرج عبد الله بن مسعود من منزله، فاتبعه قوم، فالتفت إليهم وقال: عَلاَم تتبعونني؟ فوالله لو تعلمون مِنّي ما أُغْلِقُ عليه بابي لما تَبِعني منكم اثنان.

وقال الحسن: خفْقُ النّعال حولَ الرّجال مما يُثَبِّت عليهم قلوبَ الحمْقَى.

وروي أنّ رجلاً صَحِبَ الحسن في طَريق، فلما فارقه قال: أوصني رَحِمك الله! قال: إن استطعتَ أن تَعرِفَ ولا تُعْرَف، وتَمشِيَ ولا يُمْشَىَ إليك، وتَسْأل ولا تُسْأل، فافعل.

وخرج أيوب السَّخْتِيَانيّ في سَفَر، فشيّعه قوم، فقال: لولا أنّي أعلمُ أنّ الله يعلم مِنْ قلبي أنّي لهذا كاره، لَخَشيتُ المقْتَ من الله.

وعوتب أيّوب على تطويلِ قَميصه، فقال: إنّ الشهرة كانت فيما مضَى في طوله، وهي اليومَ في قِصَره.

وقال بعضهم: كنت مع أبي قُلابة، إذْ دخل رجل عليه كِساء، فقال: إياكم وهذا الحمار النّاهق - يشير به إلى طالب شهرة.

وقال رجل لبِشْر بن الحارث: أوصِني، فقال: أَخمِل ذِكْرَك، وَطيِّب مَطْعمك.

وكان حَوْشب يبكي ويقول: بلَغ اسمِي المسجد الجامع.

وقال بشر: ما أعرِف رجلاً أحبّ أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس.

(١) أخرج مسلم نحوه في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله، (٢٥٦٤)، وأخرج ابن ماجه نحو شطره الثاني أيضاً (إن الله لا . . .) في كتاب الزهد، باب: القناعة (٤١٤٣).

فهذه الآثار قليل مما ورد عن الصالحين رحمهم الله في ذم الرياء وكون الشهرة طريقاً إلى الفتنة.

وقد صرح أميرُ المؤمنين عليه السلام في مَدْح الأبرار - وهم القسم الخامس - بمدح الخمول، فقال: «قد أخملتْهم التَّقيّة» - يعني الخوف.

وقد ورد في الأخبار والآثار شيء كثير في مَدْح الخمول.

قال رسول الله ﷺ: «ربّ أشْعَثَ أغْبَر ذي طِمْرَيْن لا يؤْبَهُ له، لو أقْسَم على الله لأبرَّ قَسَمه»[1]. وفي رواية ابن مسعود: «ربّ ذِي طِمْرَين لا يُؤبَه له، ولو سأل الجنَّة لأعْطيها».

وفي الحديث أيضاً عنه ﷺ: «ألا أدلّكم على أهل الجنة؟ كلُّ ضعيف مستضعَف، لو أقْسَم على الله لأبرّه، ألا أدُلُّكم على أهل النار؟ كلّ متكبِّر جَوّاظ»[2].

وعنه ﷺ وسلم: «إنّ أهلَ الجنّة الشُّعْثُ الغُبْر، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذَنْ لهم، وإذا خَطَبوا لم يُنْكَحوا، وإذا قالوا لم يُنْصَتْ لهم، حوائج أحدهم تَتَلَجْلَجُ في صدره، لو قُسِمَ نورهم يوم القيامة على الناس لوسعهم»[3].

وروي أنّ عمر دخل المسجد، فإذا بمعاذ بن جَبل يَبْكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال: ما يبكِيك؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ اليَسيرَ من الرياء لِشرْكٌ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقَدُوا، وإذا حَضروا لم يُعْرَفوا، قلوبُهُم مصابيح الهدَى، يَنْجُون من كلّ غبراءَ مُظْلِمة»[4].

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيعَ العلم، مصابيح الهُدَى، أحْلاسَ البيوت. سُرُجَ الليل، جُدُدَ القلوب، خُلْقَانَ الثِّياب، تُعْرَفون عند أهل السماء، وتَخْفَوْن عند أهل الأرض.

---

(١) أخرج الترمذي نحوه، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: مناقب البراء بن مالك (٣٨٥٤)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: من لا يؤبه له (٤١١٥)، وأحمد كتاب باقي مسند الأنصار، باب حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ (٢٢٩٤٧).

(٢) أخرج بنحوه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: عتك بعد ذلك زنيم (٤٩١٨)، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها، الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٣)، والترمذي في كتاب: صفة جهنم عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء أن أكثر أهل الناء النساء (٢٦٠٥).

(٣) رواه الريشهري في ميزان الحكمة رقم ٥٦٢.

(٤) أخرج ابن ماجه نحوه في كتاب: الفتن باب: من ترجى له السلامة من الفتن (٣٩٨٩).

وفي حديث أبي أمامة، يرفعه: «قال الله تعالى: إنّ أغبَط أوليائي لَعبدٌ مؤمن، خفيف الحاذِ، ذو حظٍّ من صلاة، وقد أحسنَ عبادة ربِّه، وأطاعه في السرّ، وكان غامضاً في الناس، لا يُشار إليه بالأصابع»[١].

وفي الحديث: «السعيد من خَمَلَ صيتُه، وقلّ تُراثه، وسَهُلت منيَّته، وقَلّت بواكيه»[٢].

وقال الفُضَيل: رُوي لي أن الله تعالى يقول في بعض ما يمنّ به على عبده: ألم أنعم عليك! ألم أسترك! ألم أُخمِل ذكرك!

وكان الخليل بن أحمد يقول في دعائه: اللّهم اجْعلْني عندك من أرْفَع خَلْقك، واجعلني عِنْد نفسي في أوْضَع خَلْقك، واجْعلْني عِنْدَ الناس من أوْسَطِ خلقك.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرّت عيني ليلة قَطّ في الدنيا إلا مرّة، بتُّ ليلة في بعض مساجد قُرَى الشام، وكان بي علّة البطن، فجرّني المؤذن بِرِجْلي حتى أخرجني من المسجد.

وقال الفُضَيْل: إن قَدَرْتَ على ألا تُعرف، فافْعل، وما عليك ألا تعرف! وما عليك ألاّ يُثْنَى عليك! وما عليك أن تكونَ مذموماً عند الناس، إذا كنت محموداً عند الله تعالى!

فإن قيل: فما قولُك في شهرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأكابر الفقهاء المجتهدين؟ قيل: إنّ المذمومَ طلبُ الشهرة، فأمّا وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم، بل لا بُدّ من وجود إنسان يَشتهر أمره، فإنّ بطريقه يَنْصلِح العالم، ومثال ذلك الغرقَى الذين بينهم غريقٌ ضعيف، الأوْلى به ألاّ يعرفه أحد منهم، لئلا يتعلق به فيهلك ويهلِكوا معه، فإن كان بينهم سابح قويّ مشهور بالقوّة، فالأولى ألاّ يكون مجهولاً، بل ينبغي أن يُعرف ليتعلّقوا به، فينجُو هو ويتخلّصوا من الغرق بطريقه.

٣٣ - ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة

الأصل: قال عبد الله بنُ العباس: دخلت على أمير المؤمنين بذي قَار وهو يخصِف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمةَ لها، فقال: والله لَهِيَ أحبُّ إليّ من إمْرَتكم، إلا أن أقيم حقًّا، أو أدفعَ باطلاً، ثم خرج فخطب الناس فقال:

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٧)، وأحمد في مسنده (٢١٦٦٣).

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتاباً وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ ٱلنَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ، وَٱطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ.

أَما وَٱللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا، حَتَّى وَلَّتْ بِحَذَافِيرِها، مَا ضعفت وَلاَ جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا، فَلأَنْقُبَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ ٱلْحَقّ مِنْ جَنْبِه.

مَا لِي وَلِقُرَيْش! وَٱللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِين، وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمْ ٱلْيَوْمَ. وَٱللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلاَّ أَنَّ ٱللهَ ٱخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا، فَكَانُوا كَمَا قَالَ ٱلأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ ٱلْمَحْضَ صَابِحاً ... وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ ٱلْبُجْرَا
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ ٱلْعَلاَءَ وَلَمْ تَكُنْ ... عَلِيًّا، وَحُطْنَا حَوْلَكَ ٱلْجُرْدَ وَٱلسُّمْرَا

الشرح: ذو قَار: موضع قريبٌ من البَصرة، وهو المكان الذي كانت فيه الحربُ بين العرب والفرس، ونُصِرت العرب على الفرس قبل الإسلام.

ويخصِف نعله، أي يَخرزها.

وبوّأهم محَلّتهم: أسكنهم مَنْزَلهم، أي ضرب النّاس بسيفه على الإسلام حتى أوصلهم إليه، ومثله «وبلّغهم منجاتهم» إلا أن في هذه الفاصلة ذكر النّجاة مصرّحاً به.

فاستقامتْ قناتُهم: استقاموا على الإسلام، أي كانت قناتهم معوجّة فاستقامت.

واطمأنت صَفاتُهم، كانت متقلقلة متزلزلة، فاطمأنّت واستقرّت.

وهذه كلّها استعارات.

ثم أقسم أنّه كان في ساقتها حتى تولّتْ بحذافيرها، الأصل في «ساقتها» أن يكون جمع سائق كحائِض وحاضة، وحائك وحاكة، ثم استعلمت لفظة «الساقة» للأخير، لأن السائق إنما يكون في آخر الرّكْب أو الجيش.

وشبّه عليه السلام أمرَ الجاهلية، إمّا بعَجاجة ثائرة، أو بكتيبة مُقْبلة للحرب، فقال: إنّي طردتُها فولّت بين يديّ، ولم أزل في ساقتها أنا أطرُدها وهي تنطرد أمامي، حتى تولّتْ بأسْرِها ولم يبق منها شيء، ما عجزْت عنها، ولا جَبُنْت منها.

ثم قال: وإنّ مسيري هذا لِمِثْلِها، فَلأَنقُبَنّ الباطل، كأنه جعل الباطل كشيء قد اشتمل على

الحق، واحتوَى عليه، وصار الحقُّ في طَيّه، كالشيء الكامن المستتِر فيه، فأقسم لينقبنّ ذلك الباطل إلى أن يخرُج الحقُّ من جنبه.

وهذا من باب الاستعارة أيضاً.

ثم قال: «لقدْ قاتلتُ قريشاً كافرين، وَلأقاتلنَّهُم مفتونين»، لأنّ الباغيَ على الإمام مفتون فاسق.

وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا: إنّ أصحاب صِفِّين والجمل ليسوا بكفار، خلافاً للإمامية، فإنهم يزعمون أنهم كفار.

حذيفة بن اليمان وخبر يوم ذي قار

روى أبو مِخْنف عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن زيد بن عليّ، عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع عليّ عليه السلام ذا قار، قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ! فقال: والله لَيأتينّي منهم ستة آلاف وخمسمائةٍ وستون رجلاً، لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلَني والله من ذلك شكٌّ شديد في قوله، وقلت في نفسي: والله إن قدِمُوا لأعُدّنّهم.

قال أبو مِخْنف: فحدث ابن إسحاق، عن عمه عبد الرحمن بن يسار، قال: نفَر إلى عليّ عليه السلام إلى ذِي قار من الكوفة في البحر والبرّ ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلاً، أقام عليّ بذي قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله.

قال: فلما سار بهم منقلة[1]، قال ابنُ عباس: والله لأعُدّنّهم، فإن كانوا كما قال، وإلا أتممتُهم من غيرهم، فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتُهم فوالله ما وجدتُهم يزيدون رجلاً، ولا ينقصون رجلاً، فقلت: الله أكبر! صدق الله ورسوله! ثم سرنا.

قال أبو مِخْنف: ولما بلغ حُذَيفةَ بن اليمَان أنّ علياً قد قَدِم ذا قار، واستنفرَ الناس، دعا أصحابه فوعظهم وذكّرهم الله وزهدهم في الدنيا، ورغّبهم في الآخرة، وقال لهم: الحقُوا بأمير المؤمنين ووصيّ سيد المرسلين، فإنّ من الحقّ أنْ تنصروه، وهذا الحسن ابنُه وعمّار قد قدما الكوفة يستنفران الناس، فانفِروا.

قال: فنفر أصحابُ حذيفة إلى أمير المؤمنين، ومكث حُذَيفة بعد ذلك خمس عشرة ليلة، وتوفي رحمه الله تعالى:

---

(١) المنقلة: المرحلة من مراحل السفر. اللسان، مادة (نقل).

قال أبو مُخنف: وقال هاشم بن عُتْبة المِرْقال، يذكُر نفورهم إلى عليٍّ عليه السلام:

وَسِرْنَا إلى خَيْرِ البَرِيَّة كُلِّهَا عَلَى عِلْمِنَا أنّا إلَى الله نَرْجِعُ
نُوَقِّرُهُ في فَضْلِهِ ونُجِلُّهُ وفي الله ما نَرْجُو وما نتوقَّعُ
وَنَخْصِفُ أخفافَ المطِيّ عَلَى الوجا[1] وَفي الله ما نُزْجِي وَفي الله نُوضِعُ
دَلَفْنَا بجَمْعٍ آثرُوا الحقَّ والهُدَى إلى ذِي تُقًى في نَصْرِه نَتَسَرَّعُ
نكافحُ عنه والسُّيُوفُ شهيرةٌ تصافح أعناقَ الرِّجال فتقطعُ

قال أبو مخنف: فلما قدم أهلُ الكوفة على عليّ عليه السلام، سلّموا عليه، وقالوا الحمدُ لله يا أمير المؤمنين الّذي اختصّنا بموازرتك، وأكرَمنا بنُصرتك، قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين، فمرْنا بأمرك.

قال: فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال:

مرحباً بأهل الكوفة، بيوتاتِ العرب ووجُوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدِّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولأهل بيته، ولذلك بعثتُ إليكم واستصرختُكم عند نَقْضِ طلحة والزبير بَيْعتي، عن غَيْر جَوْرٍ مني ولا حَدَثٍ، ولَعمري لو لم تنصرُوني يا أهلَ الكوفة، لرجوت أن يكفِيَني الله غوغاء الناس، وطَغَام أهل البصرة، مع أنّ عامَّة مَنْ بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها، ورغبوا عنها.

فقام رؤوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر، فأمرهم بالرحيل إلى البصرة.

٣٤ - ومن خطبة له عليه السلام في استنفار الناس إلى أهلِ الشام

الأصل: أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ. أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ عِوَضاً، وَبِالذلِّ مِنَ العِزِّ خَلَفاً! إذَا دَعَوْتُكُمْ إلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ المَوْتِ فِي غَمْرَةٍ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ.

يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حِوَارِي فَتَعْمَهُونَ، فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ، فَأَنْتُمْ لاَ تَعْقِلُونَ.

مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلاَ زَوَافِرَ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إلَيْكُمْ مَا أَنْتُمْ إلاَّ كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ.

(١) الوجا: الحفا، أو أشد منه. القاموس، مادة (وجي).

لَبِئْسَ لَعَمْرُ الله سَعْرُ نَارِ ٱلْحَرْبِ أَنْتُمْ! تُكَادُونَ وَلاَ تَكِيدُونَ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلاَ تَمْتَعِضُونَ، لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُون. غُلِبَ وَٱللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ!

وَٱيْمُ ٱللهِ، إِنِّي لأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ ٱلْوَغَى، وَٱسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طالب ٱنْفِرَاجَ الرَّأْس.

وَٱللهِ إِنَّ ٱمْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ، يَعْرُقُ لَحْمَه، وَيَهْشِمُ عَظْمَه، وَيَفْرِي جِلْدَهُ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِه.

أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ، فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِك ضَرْبٌ بِالمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ ٱلْهَام، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَٱلأَقْدَام، وَيَفْعَلُ ٱللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيْكُم حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُم، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي المَشْهَدِ وَالمَغِيبِ، وَٱلإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ.

الشرح: أفٍّ لكم: كلمة استقذار ومَهانة، وفيها لغات. ويرتج: يغلَق. والحِوار: المحاورة والمخاطبة. وتَعْمَهون، من العَمَه وهو التحيّر والتردد، الماضي عَمِه بالكسر.

وقوله: «دارت أعينكم» من قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾(١)، ومن قوله: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾(٢).

وقلوبكم مألوسة، من الألْس، بسكون اللام، وهو الجنون واختلاط العقل.

قوله: «مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي» كلمة تقال للأبد، تقول: لا أفعلُه سَجِيسَ اللَّيالي، وسَجيسَ عُجَيْس، وسَجِيسَ الأوْجَسِ، معنى ذلك كله الدهر، والزمان، وأبداً.

قوله: «ما أنتم بركنٍ يُمَالُ بكم»، أي لستم بركن يُسْتَنَد إليكم، ويُمال على العدوّ بعزّكم وقوّتكم.

قوله: «ولا زوافر عزّ»، جمع زافرة، وزافرة الرجل: أنصاره وعشيرته، ويجوز أن يكون زَوافِر عِزّ، أي حوامل عِزّ، زفرتُ الجملَ أزفره زفراً، أي حمّلته.

(١) سورة محمد، الآية: ٢٠. (٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

قوله: «سُعْر نار الحرب» جمع ساعر، كقولك: قوم كُظَّمٌ للغيظ، جمع كاظم، وتمتعضون: تأنفون وتَغْضَبُون. وحَمِس الوَغَى، اشتدّ، وأصلُ الوغَى الصوت والجَلَبة، ثم سُميّت الحربُ نفسها وَغى، لما فيها من الأصوات والجَلَبة. واستحرّ الموت، أي اشتدّ.

وقوله: «انفرجتم انفراج الرأس»، أي كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يَمْنَةً ونصفه شَامَةً. والمشرفيَّة: السيوف المنسوبة إلى مَشارِف، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف، ولا يقال: مشارفيّ، كما لا يقال: جعافريّ، لمن ينسب إلى جعافر.

وفراش الهام: العظام الخفيفة تلي القَحْف.

وقال الرّاونديّ في تفسير قوله «انفراج الرأس» أراد به انفرجْتُمْ عَنّي رأساً، أي قطعاً، وعرّفه بالألف واللام، وهذا غير صحيح لأنّ «رأساً» لا يعرّف. قال: وله تفسير آخر، أن يكون المعنى انفراج رأس من أدنى رأسه إلى غيره، ثم حرّف رأسه عنه.

وهذا أيضاً غيرُ صحيح، لأنّه لا خُصوصيّة للرأس في ذلك، فإنّ اليدَ والرِّجْل إذا أدنيتَهما من شخص، ثم حرّفتهما عنه فقد انفرج ما بين ذلك العضو وبينه، فأيّ معنى لتخصيص الرأس بالذِّكر!

فأما قوله: «أنت فكن ذاك» فإنه إنّما خاطب مَنْ يمكِّن عدوَّه من نفسه كائناً مَنْ كان، غير معيَّن ولا مخصَّص، ولكن الرواية وردت بأنه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فإنه روي أنه قال له عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم: هلاَّ فَعَلْتَ فِعْل ابن عفان! فقال له: «إنّ فعل ابن عفان لمخزاة على مَن لا دين له، ولا وثيقَة معه، إنّ امرأ أمكن عدوّه من نفسه يهشِمُ عظمه، ويفري جلده، لضعِيفٌ رأيه مَأفُونٌ عقله. أنت فكن ذاك إن أحببتَ، فأما أنا فدُون أن أعطِيَ ذاك ضَرْبٌ بالمشرفيّة.... » الفصل.

ويمكن أن تكون الرواية صحيحة، والخطاب عام لكلِّ من أمكن من نفسه، فلا منافاة بينهما.

وقد نظمتُ أنا هذه الألفاظ في أبيات كتبتها إلى صاحب لي في ضمن مكتوب اقتضاها، وهي:

إنّ امْــرَأً أمْــكَــنَ مِــن نَــفْــسِــهِ ... عَــدُوّه يَــجْــدَعُ آرَابَــهُ
لاَ يَـدْفَـعُ الـضَّـيْـمَ ولا يـنـكـرُ الـذّ ... لّ ولا يُـخـصِـنُ جِـلْـبَابَـهُ
لَـفَـائـلٌ[1] الـرأيِ ضَـعِـيـفُ الـقُـوَى ... قَـدْ صـرم الـخِـذْلانُ أسْـبَـابَـهُ
أنْـت فـكُـن ذاكَ فـإنّـي امـرؤ ... لاَ يَـرْهَـبُ الـخـطْـبَ إذا نَـابَـهُ

---

(١) فَال رأيه: أخطأ وضعف. فيل.

إنْ قـال دَهْـرٌ لـم يُـطِـعْ أو شَـحـا ... لـه فَـمٌ أدْرَدَ أنْـيَـابَـهُ
أوْ سَامَه الخَسْفَ أبَى وَانتَضَى ... دُونَ مَرام الخسْف قِرْضَابَهُ[1]
أخْزَرُ عضْبَانُ شَدِيد السَّطَا ... يَقْدِرُ أنْ يَتْرُكَ مَا رَابَهُ

خَطَب أميرُ المؤمنين عَلَيْهِ السَّلامُ بهذه الخطبة، بعد فَراغِه من أمْرِ الخوارج، وقد كان قام بالنَّهروان، فحمِدَ الله وأثنى عليه، وقال:

أمّا بعد، فإنّ الله قد أحسنَ نصرَكم، فتوجَّهوا من فَوْركم هذا إلى عَدُوِّكم من أهل الشام.

فقاموا إليه، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، نَفِدت نِبالُنا، وكَلّت سيوفُنا، وانصلتَتْ أسِنَّةُ رماحنا، وعاد أكثرها قِصَداً. ارجع بنا إلى مِصْرنا، نستعدّ بأحسن عُدّتنا، ولعلّ أميرَ المؤمنين يزيد في عَددِنا مثل مَنْ هَلَك مِنّا، فإنّه أقوى لنا على عدونا.

فكان جوابه عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾[2].

فتلكّئوا عليه، وقالوا إن البردَ شديد.

فقال: إنّهم يَجدون البَرْد كما تَجدُون. فتلكؤوا وأبَوْا، فقال: أفٍّ لكم! إنها سُنّة جرت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾[3].

فقام منهم ناس فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، الجِراحُ فاشية في النّاس - وكانَ أهلُ النَّهْرَوان قد أكثروا الجِراح في عسكر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلامُ - فارجع إلى الكوفة، فأقم بها أياماً ثم أخرج، خار الله لك! فرجَع إلى الكُوفة عَنْ غير رضا.

أول خطبة لعلي عَلَيْهِ السَّلامُ بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج

وروى نصر بن مزاحم، عن عمر بن سعد، عن نُمير بن وَعْلة، عن أبي وَدّاك، قال: لما كره القومُ المسيرَ إلى الشام عَقيب واقعة النهروان، أقبل بهم أمير المؤمنين، فأنزلهم النُّخيلة، وأمرَ الناس أن يَلْزَموا معسكرهم، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلُّوا زيارةَ النساء وأبنائهم، حتى يسيرَ بهم إلى عَدُوّهم، وكان ذلك هو الرأي لو فعلوه، لكنهم لم يفعلوا، وأقبلوا يتسللون ويدخلُون الكوفة. فتركوه عَلَيْهِ السَّلامُ وما معه من النّاس إلا رجالٌ من وجوههم قليل، وبقِيَ المعسكر خالياً، فلا مَنْ دخل الكوفة خرج إليه، ولا مَنْ أقام معه صَبَر. فلما رأى ذلك دخل الكوفة.

---

(١) القِرضاب: السيف القاطع. قرضب.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

قال نصر بن مزاحم: فخطب النّاس بالكوفة، وهي أولُ خطبة خطبها بعد قدومه من حرب الخوارج، فقال:

أيّها الناس، استعدُّوا لقتال عدوّ فِي جهادهم القربةُ إلى الله عزّ وجَلّ، ودَرْكُ الوسيلة عنده، قوم حيارَى عن الحقّ لا يُبصرونه، مُوزَعِين[1] بالجوْر والظلم لا يعدلون به، جفاة عن الكتاب، نُكُبٌ عن الدِّين، يَعْمَهُون في الطغيان، ويتسكّعون في غمرة الضلال، فأعِدّوا لهمْ ما استطعتُم من قُوّة ومن رباط الخيل، وتوكّلوا على الله، وكفى بالله وكيلاً.

قال: فلم ينفِرُوا ولم يُنْشَروا، فتركهم أياماً، ثم خطبهم، فقال: أفٌ لكم! لقد سئمتُ عتابَكم. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً... الفصل الذي شرحناه آنفاً إلى آخره. وزاد فيه: «أنتم أسودُ الشّرى في الدَّعة[2]، وثعالبُ رَوّاغة حين البأس. إنَّ أخا الحرْب اليقظان، ألاَ إنّ المغلوبَ مقهور ومسلوب».

وروى الأعمش عن الحَكم بن عتيبة، عن قيس بن أبي حازم، قال: سمعتُ عليًا عليه السلام على مِنْبَر الكوفة، وهو يقول:

يا أبناء المهاجرين، انفروا إلى أئمة الكُفْر، وبقية الأحزاب، وأولياء الشيطان. انفِرُوا إلى مَنْ يقاتل على دم حَمّال الخطايا، فوالله الّذي فَلق الحبّة، وبرأ النَّسَمة، إنّه ليَحْمِل خطاياهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئاً.

قلت: هذا قيس بن أبي حازم، وهو الذي روى حديث: «إنّكم لترون رَبّكُم يوم القيامة، كما ترون القمرَ ليلة البَدْر لا تُضامون في رؤيته»[3]. وقد طعن مشايخنا المتكلّمون فيه، وقالوا: إنه فاسق، ولا تُقبَلُ روايته، لأنه قال: إنّي سمعت علياً يخطُب على منبر الكوفة، ويقول: انفِروا إلى بقية الأحزاب، فأبغضتُه، ودخل بُغْضُه في قلبي، ومن يُبْغِضْ علياً عليه السلام لا تُقبَلْ روايته.

فإن قيل: فما يَقُول مشايخكم في قوله عليه السلام: «انفروا إلى مَنْ يُقاتل على دَمِ حَمّال الخطايا»؟ أليس هذا طَعْناً منه عليه السلام في عُثمان!

(١) مُوزَعين بالجور والظلم: مولعين به، والوزوع: الولوع. اللسان، مادة (وزع).

(٢) الدعة: الخفض في العيش والراحة. اللسان، مادة (ودع).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة الفجر (٥٧٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

قيل: الأشهرُ الأكثرُ في الرواية صَدْر الحديث، وأما عَجُز الحديث فليس بمشهور تلك الشهرة، وإن صحَّ حملْناه على أنه أراد به معاوية، وسمّى ناصريه مقاتلين على دمه، لأنهم يُحامون عن دمه، ومَنْ حَامَى عن دَمه إنسان فقد قاتل عليه.

وروى أبو نُعَيْم الحافظ، قال: حدّثنا أبو عاصم الثقفي، قال. جاءت امرأة من بني عَبْس إلى عليّ عليه السلام، وهو يخطب بهذه الخُطْبة على مِنْبَر الكوفة، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، ثلاثٌ بَلْبَلْنَ القلوبَ عليك، قال: وما هُنّ ويحك! قالت: رِضاكَ بالقَضِيّة، وأخذُك بالدنِيّة، وجَزَعُك عِنْد البَلِيّة. فقال: إنّما أنتِ امرأة، فاذْهَبي فاجلسي على ذَيْلك، فقالت: لا والله ما من جلوس إلا تحت ظلال السيوف.

وروى عمرو بن شمر الجُعْفيّ، عن جابر، عن رُفَيْع بن فرقد البَجَليّ، قال: سمعتُ علياً عليه السلام، يقول:

يأهلَ الكوفة، لقد ضرَبْتُكُم بالدِّرَّة التي أعِظُ بها السفهاء فما أراكم تنتهون! ولقد ضَرَبْتُكُمْ بالسِّيَاط التي أقيم بها الحدودَ، فما أراكم تَرْعَوُون! فلم يبق إلا أنْ أضرِبَكم بسيفي، وإنّي لأعلمُ ما يُقَوِّمُكُمْ، ولكنّي لا أحبُّ أنْ ألِيَ ذلك منكم. واعجباً لَكُم ولأهل الشام! أميرُهم يَعْصِي الله وهم يطيعونه، وأميرُكُم يطيع الله وأنتم تَعْصُونه! والله لو ضربتُ خَيْشُومَ المؤمِن بسيْفي هذا على أن يُبْغِضَني ما أبغضني، ولو سُقْتُ الدّنيا بحذافيرها إلى الكافر لما أحبّني، وذلك أنه قضى ما قضى على لسان النبيّ الأميّ أنّه لا يُبْغِضُني مؤمن، ولا يُحبّني كافر، وقد خاب مَنْ حَمَل ظُلْماً. والله لَتَصْبِرُنّ يأهل الكوفةِ على قتال عدوِّكم أو لَيُسَلِّطَنّ الله عليكم قوماً أنتم أولى بالحق منهم فليعذبُنَّكم! أفمِنْ قتلة بالسيف تحيدون إلى مَوْتَةٍ على الفراش! والله لَمَوْتَةٌ على الفِرَاش أشدُّ من ضَرْبة ألْفِ سيف.

قلت: ما أحسن قول أبي العيناء، وقد قال له المتوكل: إلى متى تمدح الناس وتهجوهم! فقال: ما أحسنوا وأساءوا. وهذا أميرُ المؤمنين عليه السلام، وهو سَيّدُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يمدح الكوفة وأهلها عقيبَ الانتصار على أصحاب الجمل، بما قد ذكرنا بعضَه وسنذكر باقيَه، مَدْحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر، ويقول للكوفة عند نظره إليها: أهلاً بك وبأهلِك! ما أرادَكِ جَبّارٌ بكيْدٍ إلا قَصَمَه الله. ويُثْني عليها وعلى أهلِها حَسَبَ ذمّه للبَصْرة وعيبه لها ودعائِه عليها وعلى أهلها، فلما خَذَله أهلُ الكوفة يومَ التحكيم، وتقاعدوا عن نَصْرِه على أهل الشام، وخرجَ منهم الخوارج، ومَرَق منهم المُرّاق، ثم استنفرَهم بَعْدُ فلم ينفروا، واستصْرَخهم فلم يُصرِخوا، ورأى منهم دلائلَ الوَهَن وأمارات الفشل، انقلبَ ذلك المدح ذمًّا، وذلك الثناء استزادةً وتقريعاً وتهجيناً. وهذا أمرٌ مركوز في طبيعة البشر، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كذلك، والقرآن العزيز أيضاً كذلك، أثنى على الأنصار لمّا نَهَضُوا، وذمّهم لما قعدوا في غزاة تبوك، فقال: ﴿فَرِحَ

﴿الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١] الآيات، إلى أن رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي عن رسول الله ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾[٢] الآية.

نبذ من فضائل الإمام علي عليه السلام

روى علي بن محمد بن أبي سيف المدائنيّ[٣] عن فُضَيل بن الجَعْد، قال: آكدُ الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْرُ المال، فإنه لم يكُنْ يُفَضِّلُ شريفاً على مشروف، ولا عربيًّا على عَجَميّ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية، فشكا عليّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أميرَ المؤمنين، إنّا قاتلنا أهل البَصْرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة، ورأيُ الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، وتعادَوْا وضعفتَ النّية، وقلّ العدد، وأنت تأخُذُهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق وتُنْصِف الوضيع من الشريف، فليس للشريف عندك فَضْلُ منْزِلَةٍ على الوضيع، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به، واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدنيا، وقَلّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يَجْتوي[٤] الحقّ ويشتري الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تَبْذُلِ المال يا أميرَ المؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال، وتَصْفُ نصيحتُهم لك، وتَسْتَخْلِصْ وُدّهم، صنع الله لك يا أمير المؤمنين! وكبَت أعداءك، وفضّ جمعهم، وأوهن كيدَهم، وشتّت أمورَهم، إنه بما يعلمون خبير.

فقال عليّ عليه السلام: أمّا ما ذكرت من عَمَلنا وسِيرتنا بالعَدْل، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥]، وأنا من أن أكون مُقَصِّراً فيما ذكرتَ أخوَفُ.

وأما ما ذكرت من أنّ الحق ثَقُل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنّهم لم يُفارقونا من

(١) سورة التوبة، الآية: ٨١. (٢) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

(٣) هذا أمر لا يوافق عليه ابن أبي الحديد على اطلاقه فلا يصح نسبه ما هو مركوز في طبيعة البسر - حسب تعبيره - إلى الرسول الله صلى الله عليه وآله أو إلى القرآن العزيز فيما ظاهره رجوع عن أمر أو رد فعل عاطفي فهذا يتنزه عنه القرآن العزيز والرسول الموحى إليه وما جاء ظاهره موهماً فليحرر على هذا الأصل.

(٤) يجتوي الحق: يكرهه. القاموس مادة (جوي).

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

جَوْر، ولا لجؤوا إذ فارقونا إلى عَدْل، ولم يتلمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كأن قد فارقوها، لَيُسْأَلُنَّ يوم القيامة: أللدنيا أرادوا أم لله عملوا؟

وأمّا مَا ذكرْتَ من بَذْل الأموال واصطناع الرجال، فإنّه لا يَسَعُنا أن نؤتيَ امرأً من الفيء أكثر مَن حقّه، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1] وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وحْدَه، فكثّره بعد القلة، وأعزَّ فئته بعد الذِلّة، وإنْ يُرِدِ الله أنْ يولِيَنا هذا الأمر يَذلّل لنا صَعْبَه، ويُسَهِّل لنا حَزْنه، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عز وجل رضاً، وأنت من آمنِ الناسِ عندي، وأنصحِهم لي، وأوْثقِهم في نفسي إنْ شاء الله.

وذكر الشّعبيّ، قال: دخلت الرُّحبة بالكوفة - وأنا غلام - في غلمان، فإذا أنا بعليّ عليه السلام قائماً على صُبرتين من ذهب وفضة، ومعه مِخْفَقَةٌ، وهو يطرد الناس بمِخْفَقته ثم يرجع إلى المال فيقسّمه بين الناس، حتى لم يبق منه شيء، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً ولا كثيراً. فرجعت إلى أبي فقلت له: لقد رأيتُ اليوم خَيْرَ النّاس أو أحْمَق النّاس، قال: مَنْ هُوَ يا بُنَيّ، قلت: عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، رأيتُه يصنع كذا، فقصصت عليه، فبكَى، وقال: يا بنيّ، بل رأيتَ خيرَ النّاس.

وروى محمد بن فُضَيْل عن هارون بن عنترة، عن زاذان، قال: انطلقتُ مع قَنْبَر غلام عليّ عليه السلام، فإذا هو يقول: قم يا أمير المؤمنين، فقد خَبَأت لك خبيئاً، قال: وما هو ويحك! قال: قُمْ معي، فانطلق به إلى بيته، وإذا بغرَارة مملوءة من جَامَاتٍ ذهباً وفضة، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتُك لا تتركُ شيئاً إلا قَسَمْتَه، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال، فقال عليّ عليه السلام: ويحك يا قَنْبر! لقد أحببتَ أن تُدْخِل بَيتي ناراً عظيمة. ثم سلّ سيفَه وضربه ضَرَبات كثيرة، فانتثرتْ من بين إناء مقطوع نصفه، وآخر ثلثه، ونحو ذلك، ثم دعا بالناس، فقال: اقسِموه بالحصَص، ثم قام إلى بيت المال، فقسّم ما وَجدَ فيه، ثم رأى في البيت إبَراً وَمَسالّ، فقال: وَلْتَقْسِموا هذا، فقالوا: لا حاجة لنا فيه - وقد كان عليّ عليه السلام يأخُذُ من كلّ عامل مما يَعْمَل - فضحك، وقال: لَيُؤْخَذَنّ شَرُّه مع خيره.

وروى عبدُ الرّحمن بن عَجْلان، قال: كانَ عليّ عليه السلام يَقْسم بين النّاس الأبزارَ والحُرْف[2] والكمُّون، وكذا وكذا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) الحُرف: بالضم حب الرشاد. القاموس، مادة (حرف).

وروى مجمع التيميّ، قال: كان عليّ عليه السلام يكنس بيتَ المال كلّ جُمْعة، ويصلّي فيه ركعتين، ويقول: ليشهَدْ لي يوم القيامة.

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كُلَيب الجَرْميّ، عن أبيه، قال: شهدتُ عليًّا عليه السلام وقَدْ جاءه مال من الجَبَل، فقام وقمنا معه، وجاء الناس يزدحمون، فأخذ حِبالاً فوصلها بيده، وعقَد بعضَها إلى بعض، ثم أدارَها حول المال، وقال: لا أحِلّ لأحَدٍ أن يجاوز هذا الحبْل، قال: فقعد الناسُ كلُّهم من وراء الحبل، ودخل هو، فقال: أين رؤوسُ الأسْبَاع؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعاً - فجعلوا يحمِلون هذه الجُوالق إلى هذه الجُوالق، وهذا إلى هذا، حتى استوت القِسْمة سبعة أجزاء، ووُجد مع المتاع رغيف، فقال: اكسروه سَبْعَ كِسَر، وضعوا على كل جزءٍ كِسْرة، ثم قال:

هَــذَا جَـنَـــايَ وَخِـيَـــارُهُ فِـيـــهِ إذْ كُــلّ جَـــانٍ يَـــدُه إلَـــى فِـــيـــهِ

ثم أقرع عليها ودفعها إلى رؤوس الأسباع، فجعل كلّ رجل منهم يدعو قومَه فيحملون الجَواليق.

وروى مُجَمِّع، عن أبي رَجَاء، قال: أخرج عليّ عليه السلام سيفاً إلى السُّوق، فقال: مَنْ يشتري مِنّي هذا؟ فوالذي نفسُ عليٍّ بيده، لو كان عندي ثمن إزار ما بعتُه، فقلت له: أنا أبِيعُك إزاراً وأنسئُك ثمنَه إلى عطائك، فدفعتُ إليه إزاراً إلى عطائه، فلما قبض عطاءه دفع إليّ ثمن الإزار.

وروى هارون بن سعيد، قال: قال عبدُ الله بن جَعفر بن أبي طالب لعليّ عليه السلام: يا أميرَ المؤمنين، لو أمرتَ لي بمعونةٍ أو نفقة! فوالله ما لي نفقة إلاّ أن أبيعَ دابَّتي، فقال: لا والله ما أجدُ لك شيئاً إلاّ أن تأمُرَ عمّك أن يسرقَ فيعطيَك.

وروى بكر بن عيسى، قال: كانَ عليّ عليه السلام يقول: يا أهلَ الكوفة، إذا أنا خرجتُ من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي فلان، فأنا خائن فكانتْ نفقتُه تأتيه من غَلّتِه بالمدينة بينبع، وكان يُطعم الناسَ منها الخبز واللحم، ويأكل هو الثَّريد بالزيت.

وروى أبو إسحاق الهمْدانيّ أنّ امرأتين أتَتا عليًّا عليه السلام: إحداهما من العرب والأخرى من الموالي، فسألتاه، فدفع إليهما دراهمَ وطعاماً بالسَّواء، فقالت إحداهما: إنّي امرأة من العرب، وهذه من العجم، فقال: إني والله لا أجدُ لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق.

وروى معاوية بن عَمّار عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: ما اعتَلَج على عليّ عليه السلام أمران في ذات الله، إلا أخذ بأشدّهما، ولقد علمتم أنّه كان يأكل - يا أهل الكوفة - عندكم من ماله بالمدينة، وأنْ كان ليأخذُ السَّويق فيجعلُه في جراب، ويختم عليه مخافة أن يُزاد عليه من غيره، وَمَنْ كان أزهد في الدنيا من عليّ عليه السلام!

وروى النَّضر بن منصور، عن عُقْبة بن علقمة، قال: دخلتُ على عليّ عَلَيْتَلاِ، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتْنِي حُموضته، وكِسَرٌ يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكلُ مثل هذا! فقال لي: يا أبا الجَنُوب، كان رسول الله يأكل أيْبَس من هذا، ويلبَسُ أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإنْ أنا لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به.

وروى عمران بن مسلمة، عن سُوَيْد بن عَلْقمة، قال: دخلت على عليّ عَلَيْتَلاِ بالكوفة، فإذا بين يديه قَعْب لبن أجدُ ريحه من شدة حموضته، وفي يده رغيف، ترى قُشار الشّعير على وجهه وهو يكسره، ويستعين أحياناً برُكْبته، وإذا جاريتُه فِضّة قائمة عَلَى رأسه، فقلت: يا فضّة، أما تتّقون الله في هذا الشيخ! ألا نخَلتم دقيقه؟ فقالت: إنّا نكره أن نؤجَر وَيَأْثَم، نحن قد أخذ علينا ألاّ ننخلَ له دقيقاً ما صَحِبْناه - قال: وعليّ عَلَيْتَلاِ لا يسمع ما تقول - فالتفت إليها فقال: ما تقولين؟ قالت: سَلْه، فقال لي: ما قلتَ لها؟ قال: فقلت إني قلت لها: لو نَخَلتم دقيقه! فبكى، ثم قال: بأبي وأمّي مَنْ لم يشبع ثلاثاً متوالية [من] خبز برّ حتى فارق الدنيا، ولم يَنْخُل دقيقه! قال: يعني رسول الله ﷺ.

وروى يُوسف بن يعقوب، عن صالح بيّاع الأكسية، أنَّ جَدَّته لقيتْ عليًا عَلَيْتَلاِ بالكوفة، ومعه تمرٌ يحمِله، فسّمت عليه، وقالت له: اعطِني يا أمير المؤمنين هذا التمر أحمِله عنك إلى بيتك، فقال: أبو العيال أحقُّ بحمْله، قالت: ثم قال لي: ألا تأكلين منه؟ فقلت: لا أريد، قالت: فانطلَق به إلى منزله ثم رجع مُرْتَدياً بتلك الشَّملة، وفيها قشور التمر، فصلّى بالناس فيها الجمعة.

وروى محمد بن فُضَيْل بن غَزْوَان، قال: قيل لعليّ عَلَيْتَلاِ: كم تتصدّق! كم تُخْرِجُ مالك! ألا تُمْسِكُ! قال: إني والله لو أعلم أنّ الله تعالى قَبِلَ مِنّي فرضاً واحداً لأمسكت، ولكني والله ما أدري، أقبل مِنّي سبحانه شيئاً أم لا!

روى عَنْبَسة العابد، عن عبد الله بن الحسين بن الحسن، قال: أعتق عليّ عَلَيْتَلاِ في حياة رسول الله ﷺ ألفَ مملوك مما مَجَلت[1] يداه، وعرق جبينه، ولقد وَلِيَ الخلافةَ، وأتته الأموال، فما كان حَلْواه إلا التمر، ولا ثيابه إلا الكرابيس[2].

وروى العوام بن حَوْشب، عن أبي صادق، قال: تزوّج علي عَلَيْتَلاِ ليلَىٰ بنت مسعود النهشليّة، فضربت له في داره حَجَلة، فجاء فهتكها، وقال: حَسْبُ أهل عليّ ما هم فيه!

---

(١) مجلت يده: نفطت من العمل فمرنت. القاموس، مادة (مجل).

(٢) الكرباس: ثوب من القطن الأبيض، فارسي معرب. القاموس، مادة (كربس).

وروى حاتم بن إسماعيل المدنيّ، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: ابتاعَ عليّ عليه السلام في خلافته قميصاً سَمِلاً بأربعة دراهم، ثم دعا الخيّاط، فمدَّ كُمَّ القميص، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع.

وإنما ذكرنا هذه الأخبار والروايات - وإن كانت خارجة عن مقصد الفصل - لأن الحال اقتضى ذكرها، من حيث أردنا أن نبيّن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكنْ يذهب في خلافته مذهَب الملوك الذين يُصانِعون بالأموال ويصرّفونها في مصالح ملكهم وملاذّ أنفسهم، وأنه لم يكنْ من أهل الدنيا، وإنما كان رجلاً متألّهاً صاحب حَقّ، لا يريد بالله ورسوله بدلاً.

وروى عليّ بن محمد بن أبي يوسف المدائنيُّ أنّ طائفة من أصحاب عليّ عليه السلام مَشَوْا إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعْطِ هذه الأموال وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل مَنْ تخاف خلافَه من الناس وفِراره، وإنما قالوا له ذلك لِمَا كان معاوية يَصْنَع في المال، فقال لهم: أتأمُرونّني أن أطلبَ النَّصْر بالجوْر! لا والله لا أفعلُ ما طلعتْ شمس، وما لاح في السماء نجْم، والله لو كان المالُ لي لواسيتُ بينهم، فكيف وإنما هي أموالُهم! ثم سكت طويلاً واجماً، ثم قال: الأمرُ أسرعُ من ذلك، قالها ثلاثاً.

٣٥ - ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم

الأصل: ٱلحَمْدُ لله وَإِنْ أَتَى ٱلدَّهْرُ بِٱلْخَطْبِ ٱلْفَادِحِ، وَٱلْحَدَثِ ٱلْجَلِيلِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ ٱلنَّاصِحِ ٱلشَّفِيقِ ٱلْعَالِمِ ٱلْمُجَرِّبِ، تُورِثُ ٱلْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ ٱلنَّدَامَةَ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ ٱلْمُخَالِفِينَ ٱلْجُفَاةِ، وَٱلْمُنَابِذِينَ ٱلْعُصَاةِ، حَتَّى ٱرْتَابَ ٱلنَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ ٱلزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ ٱللِّوَى   فَلَمْ تَسْتَبِينُوا ٱلنُّصْحَ إلاّ ضُحَى ٱلْغَدِ

الشرح: الخطب الفادح: الثقيل. ونخَلْت لكم، أي أخلصْتُه، من نَخَلْتُ الدقيق بالمُنخُل.

وقوله: «الحمد لله وإن أتى الدهر»، أي أحمده على كلّ حال من السَّرّاء والضراء. وقوله: «لو كان يطاع لقصير أمر»، فهو قصير صاحب جَذِيمة، وحديثه مع جَذِيمة ومع الزّباء مشهور، فضرب المثل لكلّ ناصح يُعصى بقصير.

وقوله: «حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضنّ الزند بقَدْحه»، يشير إلى نفسه، يقول: خالفتموني حتى ظننت أن النصح الذي نصحتكم به غيرُ نصح، لإطباقكم وإجماعكم على خلافي، وهذا حقّ، لأن ذا الرأي الصواب إذا كثر مخالفوه يَشُكّ في نفسه.

وأما ضَنّ الزّند بقَدْحه، فمعناه أنّه لم يقدح لي بعد ذلك رأي صالح، لشدّة ما لقيت منكم من الإباء والخلاف والعصيان، وهذا أيضاً حقّ، لأنّ المشير الناصح إذا اتُّهم واستُغِشّ عَمِيَ قلبُه وفسد رأيُه.

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دُرَيْد بن الصِّمة، والأبيات مذكورة في الحماسة، وأولها:

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ ... وَرَهْطِ بَنِي السَّوْدَاءِ والقومُ شُهَّدي
فقلت لهم ظُنّوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَراتُهُمُ في الفارسيّ المسَرَّدِ[1]
أَمَرْتُهُمُ أمْرِي بِمُنعَرَجِ اللِّوى ... فلم يَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلاّ ضُحَى الْغَدِ
وَمَا أَنَا إلاّ مِنْ غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيّةُ أرْشُدِ

وهذه الألفاظ من خطبة خطب بها عَلَيْتَلِا بعد خديعة ابن العاص لأبي موسى وافتراقهما، وقَبْلَ وقْعة النَّهْرَوان.

التحكيم وظهور الخوارج

ويَجِبُ أن نذكُر في هذا الفصل أمْرَ التحكيم، كيف كان، وما الّذي دعا إليه! فنقول:

إنّ الذي دَعا إليه طَلبُ أهل الشام له، واعتصامُهم به من سيوفِ أهلِ العراق، فقد كانت أماراتُ القهر والغلَبَة لاحتْ، ودلائل النّصر والظفَر وضحت، فعدلَ أهلُ الشام عن القِراع إلى الخِداع، وكان ذلك برأي عمرو بن العاص.

وهذه الحالُ وقعتْ عَقِيب ليلة الهَرِير، وهي الليلةُ العظيمة التي يُضرب بها المثل.

ونحن نذكر ما أورده نصر بن مُزَاحِمْ في كتاب صِفّين[2] في هذا المعنى، فهو ثِقَة ثَبْت، صحيح النقل، غير منسوب إلى هوّى ولا إدْغال، وهو من رجال أصحاب الحديث.

---

(١) السرد: اسم جامع للدروع. المعجم الوسيط، مادة (سرد).

(٢) وقعة صفين: لنصر بن مزاحم بن سيار المنقري الكوفي المؤرخ، المتوفى سنة (٢١٢هـ)، الأعلام للزركلي (٨/ ٢٨).

قال نصر: حدّثنا عمرو بن شَمِر، قال: حدثني أبو ضِرار، قال: حدّثني عمّار بن ربيعة، قال: غَلَّس عليّ عليه السلام بالناس صَلاة الغداة يوم الثلاثاء، عاشرَ شهر ربيع الأول، سنة سبع وثلاثين - وقيل: عاشر شهر صفر - ثم زحف إلى أهلِ الشام بعسكر العراق، والناسُ على راياتهم وأعلامهم، وزَحَف إليهم أهلُ الشام، وقد كانت الحرب أكَلت الفريقين، ولكنَّها في أهل الشام أشدُّ نِكاية، وأعظم وَقْعاً، فقد ملُّوا الحربَ، وكرهوا القتال، وتضعضعت أركانهم.

قال: فخرج رجلٌ من أهلِ العراق، على فرس كُمُيْت ذَنوبٍ، عليه السّلاحُ لا يُرى منه إلا عيناه، وبيده الرُّمح. فجعل يضرب رؤوسَ أهلِ العراق بالقناة، ويقول: سوُّوا صفوفَكم رحمكم الله! حتّى إذا عدّلَ الصّفوف والرايات، استقبلهم بوجهه، وولّى أهلَ الشام ظهره، ثم حمِد الله وأثنى عليه، وقال:

الحمدُ لله الّذي جعل فينا ابنَ عَمِّ نبيّه، أقدمَهم هجرة، وأوّلَهم إسلاماً، سيفٌ من سيوف الله على أعدائه، فانظروا إذا حَمِيَ الوطِيس، وثار القَتام، وتكسَّر المُرّان، وجالت الخيلُ بالأبطال، فلا أسمعُ إلاّ غمغمة أو همهمة، فاتّبعوني وكونوا في أثري.

ثم حمل على أهل الشام فكسر فيهم رمحه، ثم رجع فإذا هو الأشتر.

قال: وخرج رجلٌ من أهلِ الشام، فنادَى بين الصَّفَّيْن: يا أبا الحسن، يا عليّ، ابرُز إليّ. فخرج إليه عليّ عليه السلام، حتى اختلفتْ أعناقُ دابتيْهما بين الصّفّين، فقال: إنّ لك يا عليّ لَقَدماً في الإسلام والهجرة، فهل لكَ في أمر أعرِضُه عليك، يكون فيه حَقْنُ هذه الدماء، وتأخّر هذه الحروب، حتى ترى رأيك؟ قال: وما هو؟ قال: ترجع إلى عِرَاقِك، فنخلّيَ بينك وبين العراق، ونرجع نحنُ إلى شامنا فتُخلّيَ بيننا وبين الشام.

فقال علي عليه السلام: قد عرفتُ ما عرضت، إن هذه لنصيحةٌ وشفقة، ولقد أهَمَّني هذا الأمر وأسهرني، وضربتُ أنفَه وعينه فلم أجِدْ إلا القتال أو الكفرَ بما أنزل الله على محمد. إن الله تعالى ذِكْرُه لم يرضَ من أوليائه أن يُعْصَى في الأرض وهم سكوت مُذْعنون، لا يأمرون بمعروف، ولا ينهوْن عن منكر، فوجدتُ القتالَ أهونَ عليّ من معالجة في الأغلال في جهنم.

قال: فرجع الرّجلُ وهو يسترجع، وزحف النّاس بعضُهم إلى بعض فاتّموا بالنَّبْل والحجارة حتى فَنِيتْ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسّرت واندقّت. ثم مشى القومُ بعضُهم إلى بعض بالسيوف وعُمُد الحديد، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض، لَهو أشدُّ هولاً في صدور الرجال من الصَّواعق، ومن جبال تِهامَة يدكّ بعضُها بعضاً، وانكسفت الشمس بالنَّقْع، وثار القَتام والقَسْطل[1]، وضلَّت الألوية والرّايات، وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة

(١) القسطل: الغبار في الموقعة، المعجم الوسيط، مادة (قسطل).

والميسرة، فيأمر كلَّ قبيلة أو كَتيبة من القرّاء بالإقدام على التي تليها، فاجتلَدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد، من صلاة الغَداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل، لم يصلّوا لله صلاةً. فلم يزل الأشتر يفعلُ ذلك حتى أصبح والمعركة خَلْف ظهره، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم، وتلك الليلة وهي ليلة الهرير المشهورة. وكان الأشترُ في ميمَنة الناس وابنُ عباس في الميسَرة، وعليّ عليه السلام في القَلْب، والناس يقتتلون.

ثم استمرّ القتالُ من نصف اللّيلِ الثاني إلى ارتفاع الضُّحى، والأشتر يقول لأصحابه: وهو يزحَفُ بهم نحو أهلَ الشام: ازحَفُوا قِيدَ رمحي هذا، ويُلْقي رمَحه، فإذا فعلوا ذلك، قال: ازحفوا قَابَ هذا القوس، فإذا فعلوا ذلك سألهم مثل ذلك، حتى ملّ أكثرُ الناس من الإقدام، فلمّا رأى ذلك قال: أعيذكم بالله أن تَرْضعُوا الغنم سائر اليوم. ثم دعا بفرسه، وركَز رايته - وكانت مع حيّان بن هوذة النَّخَعِيّ - وسار بين الكتائب، وهو يقول: ألا مَنْ يشترِي نفسه لله ويقاتل مع الأشتر، حتى يظهر أو يَلْحَق بالله! فلا يزالُ الرجلُ من الناس يخرج إليه فيقاتل معه.

قال نصر: وحدّثني عمرو قال: حدثني أبو ضرار، قال: حدّثني عمّار بن ربيعة، قال: مرّ بي الأشتر، فأقبلتُ معه حتى رجع إلى المكان الذي كان به، فقام في أصحابه، فقال شُدُّوا - فِداً لكم عَميّ وخالي - شدّة تُرضُون بها الله، وتعزّونَ بها الدين إذا أنا حملت فاحملوا ثم نَزل، وضرَب وَجْهَ دابتّه، وقال لصاحب رايته: أقْدِم فتقدّم بها، ثم شدّ على القوم، وشدَّ معه أصحابُه، فضرب أهلَ الشام حتى انتهى بهم إلى معسكَرهم، فقاتلوا عند المعسكَر قتالاً شديداً، وقُتِل صاحبُ رايتهم، وأخذ عليّ عليه السلام - لما رأى الظفر قد جاء من قِبَلِهِ - يَمدُّه بالرجال.

ورَوَى نصر عن رجاله، قال: لَمّا بلغ القومُ إلى ما بلغوا إليه، قام عليّ عليه السلام خطيباً، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، قد بلغ بكم الأمر وبعدوّكم ما قد رأيتم، ولم يبق منهم إلا آخر نَفَس، وإن الأمورَ إذا أقبلت اعتُبِر آخرُها بأوّلها، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغْنَا منهم ما بلغْنَا، وأنا غادٍ عليهم بالغَداة أحاكمهم إلى الله.

قال: فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمرو بن العاص، وقال: يا عمرو، إنما هي الليلة، حتى يغدُوَ عليّ علينا بالفَيْصَل، فما ترى؟

قال: إنّ رجالك لا يقومون لرجاله، ولستَ مِثلَه، هو يقاتُلك على أمر وأنت تقاتِلُه على غَيْره، أنت تريد البقاء، وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهلُ الشام لا يخافون عليًّا إن ظفر بهم، ولكِن ألْقِ إلى القوم أمراً إنْ قَبِلوا اختلفُوا، وإن ردّوه

اختلفوا، ادعُهم إلى كتاب الله حَكَماً فيما بينك وبينهم، فإنك بالغٌ به حاجتك في القوم، وإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه. فعرف معاوية ذلك وقال له: صدقت.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمر عن جابر بن عمير الأنصاريّ، قال: والله لكأنّي أسمع عليًّا يوم الهَرير، وذلك بعدما طحنت رَحا مَذْحِج، فيما بينها وبين عَكّ ولَخْم وجُذام والأشعريّين بأمر عظيم تشيبُ منه النواصي، حتى استقلّتِ الشمس، وقام قائم الظهر، وعليّ عليه السلام يقول لأصحابه: حَتّى متى نُخَلّي بين هذين الحيَّيْن! قد فَنِيَا وأنتم وقوف تنظرون! أما تخافُون مَقْتَ الله! ثم انفتل إلى القِبْلة، ورفع يديه إلى الله عزّ وجل، ونادى: يا ألله، يا رحْمَن، يا رحيم، يا واحد، يا أحد، يا صَمدا يا ألله، ياإله محمد، اللهم إليْك نُقِلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورُفِعت الأيدي، ومُدّت الأعناق، وشَخَصت الأبصار، وطُلِبت الحوائج! اللّهم إنّا نشكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرةَ عَدوّنا، وتشتّت أهوائنا، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(١) سيروا على بركة الله.

ثم نادى: لا إله إلا الله والله أكبر، كلمة التقوى.

قال: فلا والّذي بعث محمدًا بالحقّ نبيًّا، ما سمعنا رئيس قوم منذُ خلق الله السموات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب، إنه قتَلَ - فيما ذكر العادّون - زيادة على خمسمائة من أعلام العرب، يخرج بسيفه مُنْحنِياً، فيقول: معذرة إلى الله وإليكم من هذا. لقد هممت أن أفلقه، ولكن يحجزني عنه أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: «لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ»(٢). وأنا أقاتل به دونه صلى الله عليه وآله.

قال: فكنا نأخذه فنقوّمه، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصّف، فلا والله ما لَيْثٌ بأشَدّ نكاية منه في عدوّه، عليه السلام.

قال نصر: فحدثنا عمرو بن شَمرٍ، عن جابر، قال: سمعت تميم بن حُذَيْم، يقول: لما أصبحنا من ليلة الهرير، نظرنا فإذا أشباهُ الرايات، أمام أهل الشام في وسط الفَيْلق، حيال موقف علي ومعاوية، فلما أسفرْنا إذا هي المصاحف قد رُبِطت في أطراف الرّماح، وهي عظام

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٣٠٦٩) وقال: قال في المقاصد هو في أثر واه عن الحسن بن عرفة في جزئه الشهير عن محمد بن علي الباقر.

مصاحف العَسْكر، وقد شَدُّوا ثلاثة أرماح جميعاً، ورَبطوا عليها مصحف المسجد الأعظم، يمسكه عشرة رهط.

قال نصر: وقال أبو جعفر وأبو الطفيل: استقبَلوا علياً بمائة مصحف، ووضعوا مُجَنِّبة مائتي مصحف، فكان جميعها خمسمائة مصحف.

قال أبو جعفر: ثم قام الطفيل بن أدهم حيال عليّ عليه السلام، وقام أبو شريح الجذامِيّ حيال الميمنة، وقام ورقاء بن المعمّر حِيال الميسرة، ثم نادوا: يا معشَر العرب، الله الله في النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنِيتم! الله الله في دِينكم! هذا كتابُ الله بيننا وبينكم.

فقال عليّ عليه السلام: اللهم إنّك تعلم أنهم ما الكتابَ يريدون، فاحْكُمْ بيننا وبينهم إنك أنت الحكَم الحق المبين.

فاختلف أصحاب عليّ عليه السلام في الرأي، فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحلّ لنا الحرب، وقد دُعينا إلى حُكْم الكتاب، فعند ذلك بَطَلَت الحرب ووضعت أوزارها.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، قال: حدَّثنا أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين، قال: لما كانَ اليوم الأعظم، قال أصحابُ معاوية: والله لا نَبْرَحُ اليوم العَرْصَة[1] حَتّى نموتَ أو يُفتح لنا، وقال أصحاب عليّ عليه السلام: لا نبرَحُ اليوم العَرْصة حتى نموتَ أو يُفْتَح لنا، فبادروا القتال غُدْوَةً في يوم من أيام الشِّعْرى طويل، شديد الحرّ فترامَوْا حتى فَنِيت النّبال، وتطاعَنُوا حتّى تقصَّفَتِ الرماح، ثم نزل القومُ عن خُيُولهم، ومشى بعضُهم إلى بعض بالسيوفِ حتّى كُسِّرتْ جفونُها، وقام الفُرْسَان في الرُّكَب، ثم اضطربوا بالسُّيوف وبِعَمَدِ الحديد، فلم يَسمع السامعون إلا تغمْغُم القوم، وصليلَ الحديد في الهام، وتَكادُمَ الأفواه وكُسِفتِ الشمس، وثار القَتَام، وضَلَّتِ الألوية والرايات، ومرّتْ مواقيت أربعِ صلوات، ما يُسْجَد فيهنّ لله إلا تكبيراً، ونادتِ المشيَخةُ في تلك الغَمَرات: يا معشرَ العرب، الله الله في الحُرُماتِ من النّساء والبنات!

قال جابر: فبكى أبو جعفر وهو يحدِّثنا بهذا الحديث.

قال نصر: وأقبل الأشتَرُ عَلَى فَرسٍ كُمَيْتٍ مَحْذُوفٍ، وقد وَضع مِغْفَرَه على قَرَبُوس السَّرْج،

---

(١) العرصة: كل موضع واسع لا بناء فيه. اللسان، مادة (عرص).

وهو ينادي: اصبِروا يا معشرَ المؤمنين، فقد حَمِيَ الوطِيسُ، ورجعتِ الشمسُ من الكسوف، واشتدّ القتال، وأخذتِ السباعُ بعضُها بعضاً، فهم كما قال الشاعر:

مَضَتْ واسْتَأخَرَ القُرَعَاءُ عَنْهَا وَخُلِّيَ بَيْنَهُمْ إلاّ الوَرِيعُ

قال: يقول واحدٌ لصاحبه في تلك الحال: أيّ رجل هذا لو كانت له نية! فيقول له صاحبه: وأيّ نية أعظمُ من هذه ثَكِلَتْك أمّك وهبِلتك! إنّ رجُلاً كما تَرَى قد سَبَح في الدّم، وما أضجرتْه الحرب، وقد غَلَتْ هامُ الكُماة من الحرّ، وبلغت القلوبُ الحناجر، وهو كما تراه جَزَعاً يقول هذه المقالة! اللّهم لا تُبْقِنا بعد هذا!

قلت: لله أمّ قامت عن الأشتر! لو أنّ إنساناً يُقسِم أنّ الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجعَ منه إلا أستاذه عليه السلام لَمَا خشِيتُ عليه الإثم! ولله درّ القائل، وقد سُئِل عن الأشتر: ما أقول في رجُل هَزَمَتْ حياتُه أهلَ الشام، وهَزَم موتهُ أهلَ العراق!

وبحقٍّ ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: كان الأشترُ لي كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله.

قال نصر: ورَوَى الشّعبيّ عن صَعْصعة، قال: وقد كانَ الأشعثُ بن قيس بَدَر منه قَوْلٌ ليلة الهرير، نقله النّاقلون إلى معاوية، فاغتنمَه وبَنَى عليه تدبيرَه، وذلك أنّ الأشعث خطب أصحابَه من كندة تلك الليلة، فقال: الحمدُ لله، أحمَدُه وأستعينه، وأومِنُ به وأتوكّل عليه، وأستنصره واستغفره، وأستجِيرُه وأستهديه، وأستشيره وأستشهد به، فإنّ مَنْ هداه الله فلا مضلّ له، ومن يُضلِل الله فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوله صلى الله عليه وآله.

ثم قال: قد رأيتم يا معشرَ المسلمين ما قد كانَ في يومكم هذا الماضي، وما قد فَنِيَ فيه من العرب، فوالله لقد بَلَغْتُ من السِّنّ ما شاء الله أن أبلُغَ، فما رأيت مثلَ هذا اليوم قطّ. ألا فليبَلّغ الشاهدُ الغائب، إنا نحن إن تواقَفْنا غداً، إنه لفناء العرب وضَيْعة الحُرُمات! أما والله ما أقولُ هذه المقالَةَ جَزَعاً من الحرب، ولكنّي رجلٌ مُسِنٌ أخاف على النساء والذرارِيّ غداً إذا فَنِينا، اللّهم إنّك تعلم أنّي قد نظرتُ لقومي ولأهل ديني فلم آلُ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والرأيُ يُخطِيء ويُصيب، وإذا قَضَى الله أمراً أمْضَاه عَلَى ما أحبّ العباد أو كرهوا، أقولُ قولي هذا وأستغفر الله العظيمَ لي ولكم!

قال الشعبيّ: قال صَعْصة: فانطلقت عيونُ معاوية إليه بخطبة الأشعث، فقال: أصابَ وربِّ الكعبة! لَئِنْ نحن التقينا غداً لتَميلنّ[1] على ذَرَارِي أهلِ الشام ونسائهم، ولتميلَنّ فارسُ على

(١) فراغ في الأصل والسياق يقتضي كلمة «الروم».

ذراري أهل العراق ونسائهم! إنّما يبصر هذا ذَوُو الأحلام والنُّهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحفَ عَلَى أطراف القَنَا.

فثار أهل الشام في سَوَاد الليل ينادون عن قول معاوية وأمْرِه: يا أهلَ العِراق، مَنْ لذرارِينا إن قتلتمونا! ومَنْ لذرارِيكم إذا قَتلناكم! الله الله في البقية! وأصبَحُوا وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرّماح، وقد قلّدوها الخيل [والناس على الرايات قد اشتهوْا ما دُعوا إليه]، ومصحفُ دمشق الأعظم يحملُه عشرة رجال عَلَى رؤوس الرّماح، وهم ينادون: كتاب الله بيننا وبينكم.

وأقبل أبو الأعور السُّلميّ على بِرْذَونٍ أبيض، وقد وَضَع المصحفَ عَلَى رأسه، ينادي: يا أهلَ العِراق، كتاب الله بيننا وبينكم.

قال: فجاء عديّ بن حاتم الطائيّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنه لم يُصَبْ مِنّا عُصْبة إلا وقَدْ أصيبَ منهم مثلها، وكلٌّ مقروح، ولكنّا أمثلُ بقيةً منهم، وقد جَزِع القومُ، وليس بعد الجَزَع إلا ما نحبّ، فناجِزْهم[1].

وقام الأشتر، فقال: ياأميرَ المؤمنين، إنّ معاوية لا خَلف له من رجاله، ولكنْ بحمدِ الله لك الخَلَف، ولو كان له مثلُ رجالك لم يكن له مثلُ صَبْرِك ولا نصرك، فاقْرَعِ الحديدَ بالحديد، واستعِنْ بالله الحميد.

ثم قام عمرو بن الحمِق، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا والله ما أجَبْنَاك ولا نصرناك عَلَى الباطل، ولا أجَبْنا إلا الله، وَلا طَلَبْنا إلا الحقّ، ولو دعانا غيرُك إلى ما دعوتَنا إليه لاسْتَشْرَى فيه اللّجاج، وطالت فيه النَّجوى، وقد بلغ الحقُّ مقطَعه، وليس لنا مَعك رَأْيٌ.

فقام الأشعث بن قيس مُغْضَباً، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا لك اليوم عَلَى ما كنّا عليه أمس، وليس آخرُ أمرِنا كأوّله، وما من القوم أحدٌ أحْنَى عَلَى أهل العراق ولا أوتَر لأهلِ الشام مِنّي! فأجِب القوم إلى كتاب الله عزّ وجلّ، فإنّك أحقُّ به منهم، وقد أحبَّ الناسُ البقاء، وكرهوا القتال.

قال عليّ عليه السلام: هذا أمر يُنظر فيه.

فتنادى الناسُ من كلِّ جانب: الموادعة.

فقال عليّ عليه السلام: أيّها الناسُ، إنّي أحقُّ مَنْ أجاب إلى كتاب الله، ولكنَّ مُعاوية وعَمْرو بن العاص وابن أبي مُعيط وابن أبي سَرْح وابن مَسْلَمة ليسوا بأصحابِ دين ولا قرآن، إنّي أعرَفُ بهم منكم، صحبتُهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شرَّ صِغار، وشَرّ رجال. وَيْحَكم إنّها كلمة حَقّ

(١) المناجزة في الحرب: المبارزة والمقاتلة. اللسان، مادة (نجز).

يُراد بها باطل! إنّهم ما رفعوها، أنّهم يعرفونَها ويعملون بها، ولكنّها الخديعة والوَهن والمكيدة! أعيروني سواعدَكُم وجَمَاجمكم ساعة واحدة، فقد بَلغ الحقُّ مقطَعه، ولم يبق إلاّ أن يُقْطَع دابرُ الذين ظلموا.

فجاءه من أصحابه زُهاء عشرين ألفاً مُقنَّعِين في الحديد، شاكي السلاح، سُيُوفُهم عَلَى عواتقهم، و قد اسودّت جباههم من السُّجود، يتقدمهم مِسْعَر بن فَدَكيّ وزيد بن حُصين وعِصابة من القُرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوْه باسمه لا بإمْرَة المؤمنين: يا عليّ، أجبِ القوم إلى كتاب الله إذْ دُعيت إليه، وإلاّ قتلناك كما قَتلنا ابْنَ عفان، فوالله لنفعلنّها إن لم تُجبهم!

فقال لهم: وَيْحَكم! أنا أوّلُ مَنْ دعا إلى كتاب الله، وأوّلُ مَنْ أجاب إليه، وليس يحلّ لي، ولا يَسْعَني في ديني أن أُدعَى إلى كتاب الله فلا أقْبَلُه، إني إنما قاتلتُهم لِيَدِينوا بحكم القرآن، فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرَهم، ونقضُوا عهدَه، ونبذوا كِتابه، ولكّني قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم، وأنهم ليس العملَ بالقرآن يريدون. قالوا: فابْعث إلى الأشتر ليأتينّك، وقد كان الأشتر صبيحةَ ليلة الهرير أشرف على عَسْكر معاوية ليدخله.

قال نصر: فحدثني فُضَيل بن خَدِيج [عن رجل من النَّخَع] قال: سأل مصعب إبراهيم بن الأشتر عن الحال كيف كانت؟ فقال: كنت عند عليّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر ليأتيَه، وقد كان الأشتر أشرَف على مُعَسْكَر معاوية ليدخله، فأرسل إليه عليّ عليه السلام يزيدَ بن هانيء: أن ائتني، فأتاه فأبلغه، فقال الأشتر: ائته فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تُزِيلني عن موقفي، إنّي قد رجوت الفتح فلا تُعجِلْني. فرجعَ يزيد بن هانيء إلى عليّ عليه السلام فأخبره، فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفَع الرّهج[1]، وعَلت الأصوات من قِبَل الأشتر، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخِذْلان والإدبار على أهل الشام، فقال القوم لعليّ: والله ما نراك أمرتَه إلا بالقتال! قال: أرايتموني ساررت رسولي إليه! أليس إنما كلمته عَلى رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون! قالوا: فابْعَثْ إليه فليأتك، وإلا فوالله اعتزلناك! فقال: وَيحك يا يزيد! قل له: أقبِلْ إليّ، فإن الفتنة قد وقعت. فأتاه فأخبره، فقال الأشتر: أبرفْعِ هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننتُ أنّها حينَ رُفِعَتْ ستُوقع خلافاً وفرقة، إنها مشورة ابن النّابغة! ثم قال ليزيد بن هانيء: وَيحَك! ألا ترى إلى الفتح! ألا ترى إلى الفتح! الا تَرَى إلى الذي يَصْنَعُ الله لنا؟ أينبغي أن نَدَعَ هذا وننصرف عنه! فقال له يزيد: أتحبّ أنك ظَفِرتَ ها هنا وأنّ أميرَ المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يُفْرَجُ عنه، ويُسْلَم إلى عدوّه! قال: سُبحان الله! لا والله

---

(١) الرهج: الشغب. اللسان، مادة (رهج).

أحبُّ ذلك، قال: فإنّهم قد قالوا له، وحَلَفوا عليه، لَتُرْسِلَنّ إلى الأشتر فَلَيَأْتِيَنّك، أو لنقتُلَنّك بأسيافنا كماقَتَلْنا عثمان، أو لَنُسْلِمَنّك إلى عدوّك.

فأقبل الأشتَرُ حتّى انتهى إليهم، فصاحَ: يا أهلَ الذلّ والوهن، أحِينَ عَلَوتم القوم، وظنّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيها! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وتركوا سُنّةَ مَنْ أنزلت عليه، فلا تجيبوهم! أمهلوني فُوَاقاً فإني قد أحسستُ بالفتح، قالوا لا نمهِلك، قال: فأمهلوني عَدْوةَ الفَرس، فإني قد طمعْتُ في النصر، قالوا: إذَنْ ندخُلَ معك في خطيئتك.

قال: فحدِّثوني عنكم، وقد قُتِل أماثِلُكم، وبقِيَ أراذِلُكم، متى كنتم مُحِقّين! أحين كنتم تَقْتُلون أهلَ الشام! فأنتم الآن حين أمسكْتم عن قتالهم مبطلون! أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقّون! فقتلاكم إذَن لا تُنكرون فضلهم، وإنّهم خيرٌ منكم في النّار، قالوا: دَعْنَا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله ونَدَعُ قتالهم في الله، إنّا لسنا نطيعُك فاجتَنِبْنا، فقال: خُدِعتم والله فانخدعتم، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم، يا أصحاب الجِباه السود، كنّا نظنّ صلاتَكم زَهادةً في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله! فلا أرى فرارَكم إلا إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحاً يا أشباه النِّيب الجلاّلة[1]، ما أنتم برائين بعدها عِزًّا أبداً، فابْعَدُوا كما بعِدَ القومُ الظالمون.

فسَبُّوه وسبَّهم، وضربُوا بِسياطِهم وجهَ دابتّه، وضرب بسوطِه وجوه دوابِّهم، وصاح بهم عليّ عَلَيْتَلِا، فكَفّوا. وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، احمِل الصفَّ على الصفّ تَصْرَع القوم. فتصايحوا: إنّ أمير المؤمنين قد قَبِلَ الحكومة، ورَضِي بحكم القرآن. فقال الأشتر: إنْ كان أمير المؤمنين قد قَبِل ورضيَ، فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين، فأقبل الناسُ يقولون: قد رَضِيَ أميرُ المؤمنين، قد قَبِل أميرُ المؤمنين، وهو ساكت لا يَبِضّ بكلمة، مُطْرِقٌ إلى الأرض.

ثم قام فسكت النّاس كلهم، فقال: أيّها الناس، إنّ أمري لم يزَلْ معكم على ما أحبّ إلى أن أخذَتْ منكم الحرب، وقد والله أخذَتْ منكم وتركَتْ، وأخذَت من عدوّكم فلم تترك، وإنها فيهم أنكى وأنْهَك، ألاَ إني كنتُ أمسِ أميرَ المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهيًا، وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملَكم على ما تَكْرَهون. ثم قعد.

قال نصر: ثم تكلّم رؤساء القبائل، فكلٌّ قال ما يراه ويهواه، إمّا من الحرْب أو مِن السّلم، فقام كُردوس بن هانيء البكريّ فقال: أيّها الناس، إنّا والله ما تولَّيْنا معاويةَ منذ تبرّأنا منه، ولا تبرّأنا من عليّ منذ توليناه، وإنّ قتلانا لشهداء، وإن أحياءنا لأبرار، وإنّ علياً لَعلي بينة من ربه،

(١) النيب: الناقة المسنة. اللسان، مادة (نيب). الجلالة: الناقة الضخمة وقيل: المسنّة. اللسان، مادة (جلل).

وما أحدث إلا الإنصاف، فمن سلّم له نَجَا، ومن خالفه هلك. ثم قام شقيق بن ثور البكريّ، فقال: أيّها الناس، إنا دعونا أهلَ الشام إلى كتاب الله، فردوه علينا، فقاتلناهم عليه، وإنهم قد دعونا اليوم إليه، فإن رَدَدْناه عليهم حلّ لهم منّا ما حلّ لنا منهم، ولسنا نخاف أن يَحيفَ الله علينا ورسوله، ألا إنّ عليًّا ليس بالراجع الناكس، ولا الشاكّ الواقف، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلَتْنَا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلاّ في الموادعة.

قال نصر: ثم إنّ أهل الشام لما أبطأ عنهم عِلْمُ حالِ أهل العراق: هل أجابوا إلى الموادعة أم لا؟ جَزِعوا فقالوا: يا معاوية، ما نرى أهلَ العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه، فأعِدْها جَذَعة[1]، فإنّك قد غَمَرْت بدعائك القوم، وأطمعتَهم فيك.

فدعا معاوية عبد الله بن عَمْرو بن العاص، فأمَره أنْ يكلّم أهلَ العراق، ويستَعْلِم له، ما عندهم، فأقبل حتى إذا كان بين الصَّفَّيْن نادى: يا أهلَ العراق، أنا عبدُ الله بن عمرو بن العاص، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمورٌ للدين أو الدنيا فإن تكن للدِّين فقد والله أعْذَرْنا وأعذرتم، وإن تكنْ للدنيا فقد والله أسْرَفْنا وأسرفتم، وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله. فاغتنموا هذه الفُرْصة، عسى أن يعيش فيها المحترِف ويُنْسَى فيها القتيل، فإن بقاء المهلِك بعد الهالك قليل.

فأجابه سعد بن قيسٍ الهمْدَانيّ، فقال: أمّا بعدُ يا أهلَ الشام، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامَيْنا فيها على الدين والدنيا، وسمّيتُموها غَدْراً وسَرَفاً، وقد دعوتُمونا اليوم إلى ما قاتلناكم عليه أمس، ولم يكن ليرجعَ أهلُ العراق إلى عراقهم، وأهلُ الشام إلى شامهم، بأمرٍ أجمل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه، [فالأمر في أيدينا دونكم، وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم][2].

فقام النّاس إلى علي عليه السلام، فقالوا له: أجِبِ القوم إلى المحاكمة، قال: ونادى إنسان من أهل الشام في جوف الليل بشِعر سمعه الناسُ، وهو:

رُؤوسَ العِرَاق أجِيبُوا الدُّعَاءَ ... فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الشِّدَّهْ
وقَدْ أوْدَتِ الحربُ بالعَالَمِينَ ... وأهلِ الحفائظِ والنَّجْدَهْ
فَلَسْنَا وَلَسْتُم مِنَ المُشْرِكِينَ ... وَلاَ المُجْمِعِينَ عَلَى الرِّدَّهْ
وَلَكِنْ أناسٌ لَقُوا مِثْلَهُمْ ... لَنَا عِدَّةٌ وَلَكُمْ عِدَّهْ

---

(١) جذعة: أعدت الأمر جذعاً أي جديداً كما بدأ، وطفئت الحرب فأعيدت جذعةً أي أول ما يبتدأ فيها. اللسان، مادة (جذع).

(٢) في الأصل هامش على ما بين المعقوفتين بأنه منقول من كتاب «صفين».

[فَـقَـاتَـلَ كُـلٌّ عَـلَـى وَجْـهِـهِ   يُـقَـحِّـمُـهُ الـجِـدُّ والـحِـدَّهْ
فَـإِنْ تَـقْـبَـلُـوهَ فَـفِـيـهـا الْـبَـقَـاءُ   وَأَمْـنُ الْـفَـرِيـقَـيْـنِ وَالْـبَـلْـدَهْ
وَإِنْ تَـدْفَـعُـوهَ فَـفِـيـهـا الْـفَـنَـاءُ   وَكُـلُّ بَـلاَءٍ إِلَـى مُـدَّهْ
فحتَّى مَتَى مَخْضُ هَذَا السِّقاء   وَلاَ بُـدَّ أَنْ تَـخْـرُجَ الـزُّبْـدَهْ
ثَـلاثَـةُ رَهْـطٍ هُـمُ أَهْـلُـهـا   وَإِنْ يَـسْـكُـتُـوا تَـخْـمُـدِ الْـوَقْـدَهْ
سَعِيدُ بن قَيْسٍ وَكَبْشُ الْعِرَاقِ   وذاك الْـمُـسَـوَّدُ مِـنْ كِـنْـدَهْ

قال: فأمّا المسوَّد من كِنْدَة، وهو الأشعث، فإنه لم يرضَ بالسكوت، بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة. وأما كبش العِراق، وهو الأشتر، فلم يكن يَرَى إلاّ الحرب، ولكنه سكت على مَضَ-ضٍ. وأما سعيد بن قيس فكان تارة هكذا وتارة هكذا.

وذكر ابن ديزيل الهمْدانيّ في كتاب «صفّين» قال:

خرج عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية، فارتجز فخرج إليه جارية بن قدامة السعديّ، فارتجز أيضاً مجيباً له ثم اطّعَنَا فلم يصنعا شيئاً، وانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه، فقال عمرو بن العاص لعبد الرحمن: اقْحُم يا ابن سيفِ الله، فتقدم عبدُ الرحمن بلوائه، وتقدّم أصحابه، فأقبل عليّ عليه السلام عَلَى الأشتر، فقال له: قد بلغَ لواءُ معاوية حيث ترى، فدونَك القوم. فأخذ الأشتر لواء عليّ عليه السلام، وقال:

إنّـي أنـا الأشْـتَـرُ مـعـروف الـشَّـتَـرْ   إنّـي أنـا الأفـعـى الـعِـراقـيُّ الـذَّكَـرْ
لَـسْـتُ رَبِـيـعِـيًّـا ولَـسْـتُ مِـنْ مُـضَـرْ   لَـكِـنَّـنِـي مِـنْ مَـذْحِـجَ الـشُّـمِّ الـغُـرَرْ

فضارب القومَ حتّى ردّهم، فانتدَب له همام بن قَبِيصة الطائيّ - وكان مع معاوية - فشدَّ عليه في مَذْحِج، فانتصر عديُّ بن حاتم الطائيّ للأشتر، فحمل عليه في طَيِّىء، فاشتدّ القتال جدًّا، فدعا عليّ ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله فركِبَها، ثم تعصَّب بعمامة رسول الله، ونادى: أيّها الناس، مَنْ يَشري نفسه لله! إنّ هذا يومٌ له ما بعده، فانتدبَ معه ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً، فتقدّمهم عليّ عليه السلام، وقال:

دُبُّـوا دبـيـبَ الـنَّـمْـلِ لاَ تَـفـوتُـوا   وأَصْـبِـحـوا أمـرَكُـمُ أوْ بـيـتُـوا
حَـتَّـى تَـنَـالُـوا الـثَّـأْرَ أو تَـمُـوتـوا

وحمل الناسُ كلهم حَمْلةً واحدة، فلم يبق لأهل الشام صَفٌّ إلا أزالوه، حتى أفضَوْا إلى معاوية، فدعا معاوية بفرسه ليفرَّ عليه.

وكان معاوية بعد ذلك يحدّث فيقول: لَمّا وضعتُ رجلي في الرّكاب، ذكرت قول عَمرِو بن الإطنابة:

أَبَتْ لـي عِـفَّـتِـي وَأَبَـى بَـلاَئـي　　وَأَخْـذِي الْـحَـمْـدَ بـالـثمـن الـرَّبـيـحِ
وإِقْـدَامِـي عَـلَـى الـمـكـروهِ نـفْـسـي　　وَضَـرْبـي هَـامَـةَ الـبَـطَـلِ الـمُـشِـيـحِ
وَقَـوْلـي كُـلّـمَـا جَـشَـأَتْ وَجاشَـتْ[١]:　　مَـكَـانَـكِ تُـحْـمَـدِي أَوْ تَـسْـتَـرِيـحِي

فأخرجتُ رِجلي من الرّكاب وأقمت، ونظرت إلى عمرو فقلت له: اليومَ صَبْر وغداً فَخْر، فقال: صدقت.

قال إبراهيم بن ديزيل: روى عبدُ الله بن أبي بكر، عن عبد الرحمن بن حاطب، عن معاوية، قال: أخذتُ بمعْرَفةِ فَرَسي، ووضعت رِجْلِي في الركاب للهَرَب، حتى ذكرت شعرَ ابن الإطْنابة، فعدت إلى مقعدي، فأصبتُ خير الدُّنيا، وإني لَرَاجٍ أنْ أصيب خير الآخرة.

قال إبراهيم بن ديزيل: فكان ذلك يومَ الهرير، ثم رفعت المصاحف بعده.

وروى إبراهيم، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ربيعة بن لَقيط، قال: شَهِدْنا صِفّين، فمطرت السّماء علينا دماً عبيطاً[٢].

وقال: وفي حديث اللَّيث بن سعد أنْ كانوا لَيأخذونه بالصِّحاف والآنية. وفي حديث ابن لهيعة: حتى إنّ الصِّحاف والآنية لتمتليء ونُهَرِيقُها.

قال إبراهيم: وروى عبدُ الرحمن بن زياد، عن الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عمن حدثه ممن حضر صِفِّين أنهم مطروا دماً عبيطاً، فتلقّاه الناس بالقِصاع والآنية، وذلك في يوم الهرير، وفَزِع أهلُ الشام وهمُّوا أن يتفرّقوا، فقام عمرو بن العاص فيهم فقال: أيّها الناس، إنما هذه آيةٌ من آيات الله، فأصلح امرؤٌ ما بينه وبين الله، ثم لا عليه أن ينتطح هذان الجبلان، فأخذوا في القتال.

قال إبراهيم: وروى أبو عبد الله المكيّ، قال: حدثنا سُفيان بن عاصم بن كلَيب الحارثيّ عن أبيه، قال: أخبرني ابن عباس قال: لقد حدّثني معاوية أنّه كان يومئذ قد قرّب إليه فرساً أنثى، بعيدة البطن من الأرض، ليهرُب عليها، حتى أتاه آتٍ من أهل العراق، فقال له: إنّي تركتُ أصحاب عليٍّ في مثل ليلة الصَّدَر من مِنًى، فأقمت، قال: فقلنا له: فأخْبِرْنا مَنْ هو ذلك الرجل؟ فأبى وقال: لا أخبرُكم مَنْ هو.

---

(١) جشأت: جشأت نفسه. ارتفعت ونفضت إليه وجاشت من حزن أو فزع. اللسان، مادة (جشأ).
جاشت: جاشت النفس فاضت، وجاشت القدر إذا غلت. اللسان، مادة (جيش).

(٢) الدم العبيط: الدم الطري. اللسان، مادة (عبط).

قال نصر وإبراهيم أيضاً: وكتب معاويةُ إلى عليّ عليه السلام:

أما بعد، فإنّ هذا الأمْرَ قد طال بيننا وبينك، وكلٌّ واحدٍ منّا يرى أنه على الحق فيما يطلبُ من صاحبه، ولن يُعْطِيَ واحدٌ منّا الطاعة للآخر، وقد قُتِلَ فيما بيننا بشرٌ كثير، وأنا أتخوّف أن يكون ما بقِيَ أشدّ مما مضى، وإنّا سوف نُسْألُ عن ذلك الموطن، ولا يحاسَبُ [به] غيري وغيرُك، وقد دعوتُك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعُذْر، وبَراءة وصلاح للأمة، وحَقْن للدماء، وألفة للدِّين، وذهاب للضغائن والفِتن، أن نحكِّم بيني وبينكم حكَمَيْن مَرضيّيْن، أحدُهما من أصحابي، والآخر من أصحابك، فيحكمان بيننا بما أنزل الله، فهو خيرٌ لي ولك، وأقْطَع لهذه الفِتَن، فاتق الله فيمَا دُعِيت إليه، وارض بحُكْم القرآن إن كنت من أهله، والسلام.

فكتب إليه عليّ عليه السلام:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فإنّ أفضل ما شَغَل به المرءُ نفسه اتّباع ما حَسُن به فعلَه، واستوجب فضلَه، وسَلم من عيبه، وإنّ البغيَ والزورَ يُزريان بالمرء في دينه ودنياه، فاحذر الدنيا، فإنّه لا فرح في شيء وصلت إليه منها، ولقد علمتَ أنّك غيرُ مدركٍ ما قضى فواته، وقد رام قومٌ أمراً بغير الحقّ، وتأوّلوه على الله جَلّ وعَزّ، فأكذبَهم ومتّعهم قليلاً، ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ، فاحذَرْ يوماً يَغْتَبِط فيه مَنْ حَمِد عاقبة عَمَله، ويندَم فيه مَنْ أمكن الشيطانَ من قياده ولم يحادّه، وغَرَّتْه الدنيا واطمأنّ إليها. ثم إنّك قد دَعَوْتَني إلى حكم القرآن، ولقد علمتَ أنّك لستَ من أهلِ القرآن ولا حكمَه تريد، والله المستعان، فقد أجبنا القرآن إلى حكمه، ولسْنَا إياك أجَبْنَا، ومَنْ لم يرضَ بحُكْم القرآن فقد ضلّ ضلالاً بعيداً.

فكتب معاوية إلى عليّ عليه السلام:

أما بعدُ، عافانا الله وإيّاك، فقد آنَ لك أن تُجيب إلى ما فيه صلاحُنا وألفة بيننا، وقد فعلتُ الذي فعلتُ وأنا أعرفُ حَقّي، ولكني اشتريتُ بالعفو صلاحَ الأمة، ولم أُكثِر فرحاً بشيء جاء ولا ذهب، وإنّما أدخَلَني في هذا الأمر القيام بالحقّ فيما بين الباغي والمبغي عليه، والأمر بالمعروف والنّهي عن المُنْكَر، فدعوْت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك، فإنّه لا يجمعُنا وإياك إلا هو، نحيي ما أحيا القرآن، ونُميت ما أمات القرآن، والسلام.

قال نصر: فكتَب عليّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص، يعظه ويُرشده.

أما بعد، فإنّ الدنيا مَشْغَلة عَنْ غَيرِها، ولن يصيبَ صاحبُها منها شيئاً إلا فَتَحتْ له حِرْصاً يزيدُه فيها رغبة، ولن يستغني صاحبُها بما نَالَ عَمّا لم يبلُغ، ومِنْ وراء ذلك فراقُ ما جَمَع، والسعيدُ مَنْ وُعظ بغيره، فلا تُحْبِطْ أبا عبد الله أجْرَك، ولا تُجَار معاوية في باطله، والسلام.

فكتب إليه عمرو الجواب:

أما بعد أقول، فالذي فيه صلاحنا وألفتُنا الإنابةُ إلى الحق، وقد جعلْنا القرآن بيننا حكماً، وأجَبْنا إليه، فصبرَ الرّجلُ منّا نفسَه على ما حكم عليه القرآن، وعَذَره النّاسُ بعد المحاجزة، والسلام.

فكتب إليه عليّ عليه السلام:

أما بعدُ، فإنّ الذي أعجبَك من الدنيا مما نازعتْك إليه نفسُك، ووثقت به منها لمُنْقِلب عنك، ومفارقٌ لك، فلا تطمئنّ إلى الدنيا فإنّها غَرّارة، ولو اعتبرتَ بما مضى لحفِظْتَ ما بقي، وانتفعْتَ منها بما وعظت به. والسلام.

فأجابه عمرو:

أما بعد، فقد أنصفَ مَنْ جعل القرآن إماماً، ودعا الناس إلى أحكامه، فاصبِرْ أبا حسن، فإنّا غير مُنيليك إلا ما أنالك القرآن، والسلام.

قال نصر: وجاء الأشعث إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما أرى النّاس إلا قد رَضُوا، وسرَّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دَعَوْهم إليه من حكم القرآن، فإنْ شِئْتَ أتيتُ معاوية فسألتُه ما يريد، ونظرت ما الذي يسأل، قال: فأتِه إن شئت، فأتاه، فسأله: يا معاوية: لأيّ شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنَرْجع نحنُ وأنتم إلى ما أمر الله به فيها، فابعثوا رجلاً منكم تَرْضَوْن به، ونبعث منّا رجلاً، ونأخذ عليهما أن يَعْمَلا بما في كتاب الله ولا يَعْدُوانه، ثم نتَّبع ما اتفقا عليه. فقال الأشعث: هذا هو الحق.

وانصرف إلى عليّ عليه السلام، فأخبره، فبعث عليّ عليه السلام قُرّاءً من أهل العراق، وبعث معاوية قُرّاءً من أهل الشام، فاجتمعوا بين الصَّفّين، ومعهم المصحف، فنظروا فيه وتدارسوا واجتمعوا على أن يُحْيُوا ما أحيا القرآن، ويُميتوا ما أمات القرآن، ورجع كلُّ فريق إلى صاحبه، فقال أهلُ الشام: إنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: قد رَضِينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعريّ، فقال لهم عليّ عليه السلام: فإنّي لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أولّيه، فقال الأشعث وزيد بن حصين ومِسْعر بن فَدَكِيّ في عصابة من القراء: إنّا لا نرضى إلا به، فإنه قد كان حذَّرنا ما وقعنا فيه. فقال عليّ عليه السلام: فإنه ليس لي برضاً، وقد فارقني وخذّل الناس عنّي، وهرب مني حتى آمّنتُه بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أولّيه ذلك. قالوا: والله ما نُبالي، أكنت أنت أو ابن عباس! ولا نُريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواءٌ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر. قال عليّ عليه السلام: فإني أجعلُ الأشتر،

فقال الأشعث: وهل سَعّر الأرض علينا إلا الأشتر! وهل نحن إلا في حُكْم الأشتر! قال عليّ عليه السلام: وما حكمه؟ قال: حكمُه أن يضرب بعضُنا بعضاً بالسيف حتَّى يكون ما أردتَ وما أراد.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، عن أبي جعفر محمد بن عليّ، قال: لما أرادَ الناس عليًا أن يَضَع الحَكَمَيْن، قال لهم: إنّ معاوية لم يكُنِ لِيَضَعَ لهذا الأمر أحداً هو أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص، وإنّه لا يصلح للقرشيّ إلا مثله، فعليكم بعبد الله بن العباس فارمُوه به، فإن عَمْراً لا يَعْقِدُ عُقْدةً إلا حلّها عبد الله، ولا يحُلّ عُقدةً إلا عقدها، ولا يُبرمُ أمراً إلا نقضه، ولا يَنْقُضُ أمراً إلا أبرمه، فقال الأشعث: لا والله، لا يحكُم فينا مُضَرِيَّان حتَّى تقومَ الساعة، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذ جَعَلُوا رجلاً من مُضَر، فقال عليّ عليه السلام: إنّي أخافُ أن يُخدَعَ يمنيُّكم، فإنَّ عَمْراً ليس من الله في شيء إذا كانَ له في أمرٍ هوى. فقال الأشعث: والله لأنْ يحكما ببعض ما نكره، وأحدُهما من أهل اليَمن، أحبُّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبّ في حكْمهما وهما مُضَريّان.

قال: وذكر الشعبيّ أيضاً مثل ذلك.

قال نصر: فقال عليّ عليه السلام: قد أبيْتُم إلاّ أبا موسى! قالوا: نعم، قال: فاصنَعوا ما شئتم، فبعثوا إلى أبي موسى - وهو بأرضٍ من أرض الشام يقال لها عُرْض قد اعتزل القتال - فأتاه مولى له، فقال: إنّ الناس قد اصطلحوا، فقال: الحمد لله ربّ العالمين، قال: وقد جعلوك حكماً، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر عليّ عليه السلام، وجاء الأشتر علياً، فقال: يا أميرَ المؤمنين الزِّني[1] بعمرو بن العاص، فوالذي لا إله غيره، لئن ملأتُ عيني منه لأقتلنَّه. وجاء الأحنفُ بن قيس علياً، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّك قد رُميت بحجَر الأرض، ومَنْ حارَبَ الله ورسولَه أنفَ الإسلام، وإني قد عجمتُ[2] هذا الرجل - يعني أبا موسى - وحلبْتُ أشطُره، فوجدته كليلَ الشَّفْرة قريب القَعْر، وإنه لا يصلُح لهؤلاء القوم إلا رجلٌ يدنُو منهم حتّى يكونَ في أكفِّهم، ويتباعدُ منهم حتى يكونَ بمنزلة النَّجم منهم، فإن شِئْت أن تجعلَني حَكَماً فاجعلني، وإنْ شئت أن تجعلَني ثانياً أو ثالثاً، فإنّ عمراً لا يعقد عقدة إلا حللتُها، ولا يُحلّ عقدة إلا عقدتُ لك أشدَّ منها.

(١) الزّه: أي ألزمه. اللسان، مادة (لزز).

(٢) عجمت الرجل إذا خبرته. اللسان، مادة (عجم).

فعَرَض عليّ عليه السلام ذلك على الناس فأبوْه، وقالوا: لا يكونُ إلا أبا موسى.

قال نصر: مال الأحنف إلى علي عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إني خَيّرتُك يومَ الجمل أن آتيَك فيمنْ أطاعني، أو أكفّ عنك بني سعد، فقلت: كفّ قومك، فكَفى بكفّك نصيراً، فأقمتُ بأمرك، وإنّ عبد الله بن قيس رجل قد حلبتُ أشطره، فوجدتُه قريبَ القعر، كليلَ المُدْية، وهو رجلٌ يمانٍ وقومه مع معاوية، وقد رُمِيتَ بحجَر الأرض، وبمَنْ حارب الله ورسوله، وإنّ صاحب القوم مَنْ ينأى حتى يكونَ مع النجم، ويدنُو حتى يكون في أكُفّهم، فابعثني، فوالله لا يحلُّ عنك عقدةً إلا عقدتُ لك أشدّ منها، فإن قلت: إنّي لست من أصحاب رسول الله، فابعثْ رجلاً من أصحاب رسول الله، وابعثني معه.

فقال عليّ عليه السلام: إنّ القومَ أتوْني بعبد الله بن قيس مُبَرْنساً[1]، فقالوا: ابعث هذا، رَضِينا به والله بالغ أمره.

قال نصر: وروي أنّ ابن الكوّاء، قام إلى عليّ عليه السلام، فقال: هذا عبد الله بن قيْس وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحب مَقاسم أبي بكر وعامل عمر، وقد رضي به القوم، وعرضْنا عليهم ابنَ عباس، فزعموا أنه قريب القرابة منك، ظَنُون في أمرك.

فبلغ ذلك أهلَ الشام، فبعث أيمن بن خُرَيم الأسديّ، وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق:

لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ رَأيٌ يُعْصَمُونَ بِهِ ... من الضَّلاَلِ رَمَوْكُمْ بابْنِ عَبَّاسِ
لله دَرُّ أبِيهِ أيُّما رَجُلٍ ... مَا مِثْلُهُ لِفصَالِ الْخَطْبِ فِي النَّاسِ!
لَكِنْ رَموْكُمْ بِشَيْخٍ مِن ذَوِي يَمَنٍ ... لاَ يَهْتَدِي ضَرْبَ أخْمَاسٍ لأسداسِ
إنْ يَخْلُ عمرو بِهِ يَقْذِفْهُ في لُجَجٍ ... يَهْوِي به النَّجْمُ تَيْساً بين أتياسِ
أبْلِغ لديْكَ عليًّا غير عاتِبِهِ ... قولَ امرئٍ لا يرى بالحقّ من بَاسِ
ما الأشْعَرِيُّ بمأمونٍ أبا حَسَنٍ ... فاعْلم هُدِيتَ وليس العَجْزُ كالرَّاسِ
فاصْدِمْ بصاحِبك الأدنى زعيمَهُمُ ... إنّ ابن عَمِّكَ عباسٍ هو الآسى

فلما بلغَ الناسَ هذا الشعر، طارت أهواء قومٍ من أولياء عليّ عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس، وأبتِ القُرّاء إلا أبا موسى.

قال نصر: وكان أيمن بن خُرَيْم رجلاً عابداً مجتهداً، وقد كان معاوية جعل له فِلسطين، على أن يُتابعه ويشايعه على قتال عليّ عليه السلام، فقال أيمن، وبعث بها إليه:

---

(١) البرنس: كل ثوب رأسه منه ملتزق به. أو هو قلنسوة طويلة المعجم الوسيط، مادة (تبرنس).

وَلَسْتُ مُقَاتِلاً رجلاً يُصَلِّي عَلى سلطانِ آخَر مِنْ قُرَيْشِ
لَهُ سلطانُهُ وَعَلَيّ إثْمِي مَعاذَ الله مِن سَفَهٍ وَطَيْشِ
أأقْتُلُ مُسْلِماً فِي غَيْرِ جُرْمٍ فَلَيْسَ بنافِعِي مَا عِشْتُ عَيْشِي!

قال نصر: فلما رضِيَ أهلُ الشام بعمرو، وأهل العراق بأبي موسى، أخذوا في سَطْرِ كتاب الموادعة، وكانت صورته:

«هذا ما تقاضى عليه عليّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان». فقال معاوية: بئسَ الرجلُ أنا إن أقررتُ أنّه أمير المؤمنين ثمّ قاتلتُه! وقال عمرو: بل نكتُب اسمه واسم أبيه؟ إنما هو أميرُكم، فأما أميرنا فلا. فلما أُعِيد إليه الكتابُ أمرَ بمحْوِه، فقال الأحنف: لا تمحُ اسمَ أمير المؤمنين عنك، فإنَي أتخوّفُ إن محوتَها ألاّ ترجع إليك أبداً، فلا تمحُها. فقال عليّ عليه السلام: إنّ هذا اليوم كيوم الْحُدَيْبِيةِ حين كتب الكتّاب عن رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو، فقال سُهَيْل: لو أعلم أنّك رسول الله لم أقاتِلْك، ولم أخالِفْك، إني إذاً لظالم لك إن منعتُك أن تطوفَ ببيت الله الحرام وأنت رسوله، ولكن اكتب: «من محمد بن عبد الله»، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، إني لرسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ولن يمحوَ عنّي الرسالة كتابي لهم من محمد بن عبد الله، فاكتبها وامحُ ما أراد محوه، أمَا إنّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهَد»[1].

قال نصر: وقد رُوي أنّ عمرو بن العاص عاد بالكتاب إلى عليّ عليه السلام، فطلب منه أن يمحوَ اسمَه من إمْرَة المؤمنين فقصّ عليه وعلى مَنْ حضر قِصّةَ صلح الحديبية، قال: إنّ ذلك الكتاب أنا كتبتُه بيننا وبين المشركين، واليوم أكتُبه إلى أبنائهم، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله كتبه إلى آبائهم شِبْهاً ومِثْلاً، فقال عمرو: سبْحان الله! أتشبِّهنا بالكفار، ونحن مسلمون! فقال عليّ عليه السلام: يا ابن النابغة، ومتى لم تكنْ للكافرين وليًّا وللمسلمين عدوًّا! فقام عمرو، وقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلسٌ بعد اليوم. فقال عليّ: أمَا والله إني لأرجو أن يُظهر الله عليك وعلى أصحابك.

وجاءت عِصابة قد وضعتْ سيوفها على عواتقها، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، مُرْنا بما شئتَ، فقال لهم سهل بن حُنَيف: أيها الناس، اتّهموا رأيكم، فلقد شَهِدْنا صَلْحَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا.

وزاد إبراهيم بن ديزيل: لقَد رأيتُني يومَ أبي جَنْدَل - يعني الحديبية - ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه وآله لرددته، ثم لم نَرَ في ذلك الصلح إلا خيراً.

---

(١) أنظر المسترشد للطبري: ٣٩١، ووقعة صفين للمنقري: ٥٠٩.

قال نصر: وقد روى أبو إسحاق الشيبانيّ، قال: قرأتُ كتاب الصلح عند سعيد بن أبي بُردة في صحيفة صفراء، عليها خاتمان: خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها، على خاتم عليّ عليه السلام: «محمد رسول الله»، وعلى خاتم معاوية «محمد رسول الله». وقيل لعليّ عليه السلام، حين أراد أن يكتب الكتابَ بينه وبين معاوية وأهل الشام: أتُقِرّ أنهم مؤمنون مسلمون! فقال عليّ عليه السلام: ما أقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون، ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء، ويقرّ بما شاء لنفسه ولأصحابه، ويسمّي نفسَه بما شاء وأصحابه، فكتبوا:

هذا ما تقاضَى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليّ بن أبي طالب على أهل العراق ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين، إننا ننزل عند حُكْم الله تعالى وكتابه، ولا يجمع بيننا إلا إياه. وإن كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيَا القرآن، ونميت ما أمات القرآن، فإن وَجَد الحكَمان ذلك في كتاب الله اتبعاه، وإن لم يجداه أخَذا بالسنَّة العادلة غير المفرقة. والحكَمان: عَبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص. وقد أخذ الحَكَمانِ مِنْ عليّ ومعاوية ومن الجندَيْن أنّهما آمنانِ على أنفسهما وأموالهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار، وعلى الذي يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عَهْدُ الله أن يعملوا بما يقضيان عليه، مما وافق الكتاب والسُّنّة، وإن الأمْن والموادعة ووضع السلاح متفَق عليه بين الطائفتين، إلى أن يقَع الحكم، وعلى كلِّ واحد من الحَكَمين عَهْدُ الله، لَيحكُمَنَّ بين الأمة بالحق، لا بالهوى. وأجَلُ الموادعة سنة كاملة، فإن أحبَّ الحكَمان أن يُعجِّلا الحُكم عجَّلاه، وإن تُوفِّيَ أحدُهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً، لا يألو الحقّ والعدل، وإن تُوفِّيَ أحدُ الأميرين كان نَصْبُ غيره إلى أصحابه ممن يرضَوْن أمره، ويحمَدُون طريقته. اللهم إنّا نستنصرُكَ على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة، وأراد فيها إلحاداً وظلماً.

قال نصر: هذه رواية محمد بن عليّ بن الحسين والشعبيّ، وروى جابر عن زيد بن الحسن بن الحسن زيادات على هذه النسخة:

هذا ما تقاضَى عليه ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتُهما فيما تراضيا به من الحُكْم بكتاب الله وسنة رسوله، قضيّة عليّ على أهل العراق ومَنْ كان مِنْ شيعته مِنْ شاهد أو غائب، وقضيّة معاوية على أهل الشام ومَنْ كان من شيعته مِنْ شاهد أو غائب، إنّنا رضينا أن ننزل عند حُكم القرآن فيما حكَم، وأن نَقِفَ عند أمره فيما أمَر، فإنه لا يجمع بيننا إلا ذلك، وإنا جعلْنا كتاب الله سبحانه حَكَماً بيننا فيما اختلفنا فيه، من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا القرآن، ونميت ما أماته، على ذلك تقاضينا، وبه تراضينا. وإن علياً وشيعته رضُوا أن يبعثُوا عبدَ الله بن قيس ناظراً ومُحاكماً، ورضِيَ معاويةُ وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً

ومحاكماً، على أنّهم أخذُوا عليهما عهد الله وميثاقه، وأعظم ما أخذ الله على أحد مِنْ خَلْقه لَيَتّخِذانِ الكتاب إماماً فيما بعثا إليه، لا يعدُوَانه إلى غيره ما وجداه فيه مسطوراً، وما لم يجداه مسمًّى في الكتاب ردَّاه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله الجامعة، لا يتعمدان لها خلافاً، ولا يتّبعان هوى، ولا يدخلان في شبهة، وقد أخذ عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهدَ الله وميثاقه بالرِّضا بما حكَما به من كتاب الله وسنّة نبيه، وليس لهما أن ينقُضَا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره، وأنهما آمنان في حُكْمهما على دمائهما وأموالهما وأهلهما، ما لم يعدُوَا الحق، رضي بذلك راضٍ أو أنكره مُنْكِر. وإنّ الأمة أنصارٌ لهما على ما قَضَيَا به من العَدْل، فإن تُوفِّي أحدُ الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانَه رجلاً، لا يألون عن أهل المَعْدلة والإقساط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكْم بكتاب الله وسنة رسوله، وله مِثلُ شرط صاحبه، وإن مات أحد الأميرَيْن قبل القضاء، فلشيعته أن يولُّوا مكانه رجلاً يرضون عَدْله. وقد وقعت هذه القضيّة، ومعها الأمن والتفاوض، ووضع السلاح والسلام والموادعة، وعلى الحَكَمَيْن عهد الله وميثاقُه ألاّ يألوَا اجتهاداً، ولا يتعمَّدا جَوْراً، ولا يدخلا في شبهة، ولا يعدوَا حُكْم الكتاب، فإن لم يقبلا برئت الأمة من حُكْمهما، ولا عهد لهما ولا ذمة، وقد وجبت القضيّة على ماقد سُمِّيَ في هذا الكتاب، من مَواقع الشروط على الحَكَمَيْن والأميرين والفريقين، والله أقرب شهيداً، وأدنى حفيظاً. والناس آمنُون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مدّة الأجل، والسلاحُ موضوع، والسُّبل مخَلاة، والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمن، وللحكمَين أن ينزلا منزلاً عَدْلاً بين أهل العراق والشام، لا يحضرهما فيه إلا مَنْ أحبَّا عن ملإ منهما وتراضٍ، وإنّ المسلمين قد أجّلوا هذين القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وُجِّها له عَجّلاها، وإن أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فذلك إليهما، وإن هما لم يحكُما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين الفريقين، وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب، وهُمْ يَدٌ على مَنْ أراد فيه إلحاداً وظُلْماً، أو حاول له نَقْضاً. وشهد فيه من أصحاب عليّ عشرة، ومن أصحاب معاوية عشرة، وتاريخ كتابته لليلة بَقِيَتْ من صفر سنة سبع وثلاثين.

قال نصر: وحدثنا عَمْرو بن سعيد، قال: حدثُني أبو جَناب، عن ربيعة الجَرْميّ، قال: لما كتبت الصحيفة دُعِيَ لها الأشتر، ليشهدَ مع الشهود عليه، فقال: لاصحبتْني يميني ولا نفعني بعدَها الشّمال إن كُتِب لي في هذه الصحيفة اسم على صُلْح أو موادعة، أوَلَسْتُ على بينة من أمري ويقين من ضلالة عَدُوّي! أولستُمْ قد رأيتم الظَّفر إن لم تُجْمِعوا على الخَور! فقال له رجل

[من الناس]: والله ما رأيتُ ظَفَراً ولا خَوَراً، هلمّ فأشْهِدْ على نفِسك، وأقرِرْ بما كُتِب في هذه الصحيفة، فإنّه لا رغبة لك عن الناس. فقال: بلى والله، إنّ لي لرغبةً عنك في الدنيا للدنيا، وفي الآخرة للآخرة، ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت عندي بخير منهم، ولا أحرمَ دماً.

قال نصر بن مزاحم: الرجلُ هو الأشعث بن قيس، قال: فكانما قُصِع على أنه الحميم ثم قال: ولكنّي قد رضيتُ بما يرضى به أمير المؤمنين، ودخلتُ فيما دخلَ فيه، وخرجتُ مما خرجَ منه، فإنه لا يدخلُ إلا في الهدى والصواب.

قال نصر: فحدّثنا عمر بن سعد عن أبي جناب الكلبيّ عن إسماعيل بن شفيع عن سفيان بن سلمة، قال: فلما تمّ الكتاب وشهدتْ فيه الشهود، وتراضَى الناسُ خرج الأشعث، ومعه ناسٌ بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس، ويعرِضُها عليهم، فمرّ به على صفوف من أهل الشام، وهم على راياتهم، فأسمعهم إياه، فرضُوا به، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق، وهُمْ على راياتهم، فأسمعهم إياه، فرضوا به، حتى مرّ برايات عَنَزة، وكان مع عليّ عليه السلام من عَنَزة بصفِّين أربعة آلاف مجفَّف[1]، فلما مرّ بهم الأشعث يقرؤه عليهم، قال فَتَيان منهم: لا حكم إلا لله، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما، فقاتلا حتى قُتلا على باب رِواق معاوية - فهما أولُ مَنْ حكّم. واسماهما جَعْد ومَعْدان - ثم مرَّ بهما على مُراد، فقال صالح بن شقيق، وكان من رؤوسهم.

ما لعليٍّ في الدِّماء قَدْ حَكَمْ لو قاتل الأحزابَ يَوْماً ما ظَلَمْ

لا حكم إلا لله، ولو كره المشركون. ثم مرّ على رايات بني راسب، فقرأها عليهم، فقال رجل منهم: لا حُكم إلا لله، لا نرضى ولا نحكّم الرجال في دين الله. ثم مر على رايات تميم، فقرأها عليهم، فقال رجل منهم: لا حُكم إلا لله، يقضي بالحق وهو خير الفاصلين. فقال رجل منهم لآخر: أمّا هذا فقد طعن طعنةً نافذة. وخرج عروة بن أُديّة، أخو مرداس بن أدّية التميميّ، فقال: أتحكِّمُون الرجال في أمر الله لا حُكم إلا لله! فأين قتلانا يا أشعث! ثم شدّ بسيفه ليضرِب به الأشعث، فأخطأه، وضرب عَجُز دابته ضربة خفيفةً، فصاح به الناس: أن املك يدك، فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه، فمشى الأحنف إليه ومَعْقل بن قيس ومسْعَر بن فَدَكِيّ، ورجال من بني تميم، فتنصّلوا واعتذروا، فقبل منهم ذلك وانطلق إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام، وأهل العراق، فقالوا جميعاً: رضينا، حتى مَرَرْتُ برايات بني راسب، ونَبْذٍ من الناس سواهم، فقالوا: لا نرضَى، لا حُكم إلا لله فَمِلْ بأهل العراق وأهل الشام عليهم حَتى نقتُلهم. فقال عليّ عليه السلام: هل هي غيرُ رايةٍ أو رايتَين ونَبْذٍ من الناس؟ قال: لا، قال: فدعْهم.

---

(١) المجفف: ما جلل به الفرس من آلة أو سلاح يقيه الجراح، وقد يلبسه الإنسان أيضاً. اللسان، مادة (جفف).

قال نصر: فظَنَّ علي عليه السلام أنّهم قليلون لا يُعبأ بهم، فما راعهُ إلا نداءُ الناس من كلِّ جهة ومن كلِّ ناحية: لا حُكم إلا لله! الحكم لله يا عليّ لا لك! لا نَرْضَى بأنْ يُحَكِّم الرجالُ في دين الله. إن الله قد أمضى حُكْمَه في معاوية وأصحابه أن يُقتلوا أو يدخلوا تحت حُكْمنا عليهم، وقد كنّا زَلَلْنا وأخطأنا حين رضينا بالحكَمين، وقد بان لنا زلَلُنا وخطَؤنا فرجعنا إلى الله وتُبْنا، فارجع أنت يا عليّ كما رجعنا، وتب إلى الله كما تُبْنا، وإلا بَرِئْنا منك. فقال عليّ عليه السلام: ويْحَكُم! أبعدَ الرِّضا والميثاق والعهد نرجع! أليس الله تعالى قد قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1]، وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[2]! فأبى عليٌّ أن يرجع، وأبت الخوارجُ إلا تضليل التحكيم والطعن فيه، فبرئت من عليّ عليه السلام وبَرِيء عليّ عليه السلام منهم.

قال نصر: وقام إلى عليّ عليه السلام محمد بن جريش فقال: يا أمير المؤمنين، أمَا إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل! فوالله إني لأخاف أن يُورثَ ذلاً، فقال عليٌّ عليه السلام: أبعد أن كتبناه ننقضُه! إنّ هذا لا يَحِلّ.

قال نصر، وحدّثني عمر بن نمير بن وغلة، عن أبي الودّاك، قال: لما تداعَى النّاس إلى المصاحف، وكُتِبَتْ صحيفةُ الصلح والتحكيم، قال عليّ عليه السلام: إنّما فعلتُ ما فعلتُ لِمَا بدَا فيكم من الخَوَر والفَشَل عن الحرب، فجاءت إليه هَمْدان كأنها ركن حَصِير فيهم سعيد بن قيس وابنُه عبد الرحمن، غلام له ذؤابة فقال سعيد: هأنذا وقومي، لا نردّ أمرَك فقل ما شئتَ نعمله، فقال: أمَا لو كان هذا قبل سَطر الصحيفة لأزلتُهم عن عسكرهم، أو تنفردَ سالِفَتي[3] قبل ذلك، ولكن انصرفوا راشدين، فلعمري ما كنت لأعرِّض قبيلة واحدة للناس.

قال نصر: وروى الشعبيّ أنّ عليًّا عليه السلام، قال يوم صِفّين حين أقرّ الناس بالصلح: إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا ليُنيبوا إلى الحقّ، ولا ليُجِيبوا إلى كلمة سواء حتّى يُرْمَوا بالمناسر[4] تتبعها العساكر، وحتى يُرْجَمُوا بالكتائب تَقْفُوها الجلائب، وحتى يجرّ ببلادهم الخميسُ يَتْلوه الخميس، حتى يدعوا الخيول في نواحي أرضهم، وبأحناء مَسَاربهم ومسارحهم، حتى تشنّ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٣) سالفتي: السالفة أعلى العنق. وكنى بانفرادها عن الموت، لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت. اللسان، مادة (سلف).
(٤) المنسر: قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير. اللسان، مادة (نسر).

عليهم الغارات من كلّ فجّ، وحتى يَلْقاهم قومٌ صُدُقٌ صُبُرٌ، لا يزيدُهم هَلاكُ مَنْ هَلَك مِن قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلا جدّاً في طاعة الله، وحرْصاً على لقاء الله، ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأخوالنا وأعمامنا، لا يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومُضِيًّا على أمَضّ الألم، وجِدًّا على جهاد العدوّ، والاستقلال بمبارزة الأقران، ولقد كَانَ الرَّجُل مِنّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تَصَاول الفَحْلين، يتخالسان أنفسهما أيُّهما يسقِي صاحبَه كأس المنون، فمرة لنا من عدوّنا، ومرة لعدوّنا مِنّا، فلما رآنا الله صُدُقاً صُبراً أنزل بعدوّنا الكَبْت، وأنزلَ علينا النّصر، ولعمري لو كنّا نأتِي مثل الّذي أتيتم ما قام الدّين ولا عزّ الإسلام، [واسمُ الله لتحلبُنّها دماً، فاحفظوا ما أقول لكم](١).

وروى نصر عن عمرو بن شَمِر، عن فضيل بن خَديج، قال: قيل لعليّ عليه السلام لَمَّا كُتِبت الصحيفة: إنّ الأشتر لم يرضَ بما في الصحيفة، ولا يرى إلا قتالَ القوم، فقال عليّ عليه السلام: بَلَى إنَّ الأشتر لَيَرضَى إذا رضيتُ، وقد رضيتُ ورضيتم، ولا يصلحُ الرجوع بعد الرضا، ولا التبديلُ بعد الإقرار، إلا أن يُعصَى الله أو يتعدّى ما في كتابه. وأمّا الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه، فليس من أولئك ولا أعرفه على ذلك، وليت فيكم مثلَه اثنين، بل ليت فيكم مثلَه واحداً، يرى في عدوّي مثل رأيه، إذاً لَخفَّتْ مؤنتكم عليّ، ورجوت أن يستقيم لي بعض أوَدِكم(٢).

قال نصر: وروى أبو عبد الله زيد الأوْدِيّ أن رجلاً منهم يقال له عمرو بن أوْس، قاتل مع عليّ عليه السلام يوم صفّين، فأسَرَه معاويةُ في أسْرَى كثيرة، فقال له عمرو بن العاص: اقتُلْهم، فقال له عمرو بن أوس: لا تقتلني يا معاوية، فإنك خالي، فقامت إليه بنو أوْد فاستوهبوه، فقال: دَعُوه، فلعمري إن كان صادقاً فيما ادّعاه من خؤولتي إيّاه ليستغِنَينّ عن شفاعتكم، وإلا فشفاعتكم من ورائه، ثم استدناه، فقال: من أينَ أنا خالُك؟ فوالله ما بين بني عبد شمس وبين أود من مُصاهرة! قال: فإن أخبرتُك فعرفتَ فهو أمانٌ عندك؟ قال: نعم، قال: أليستْ أمّ حبيبة أختك أمَّ المؤمنين؟ فأنا ابنها وأنت أخوها، فأنت إذاً خالي. فقال معاوية: لله أبوه! أمَا كان في هؤلاء الأسْرَى مَنْ يَفْطُنِ إلى هذا غيره! ثم خلّى سبيله.

---

(١) تكملة من كتاب: «صفين».
(٢) الأود: العِوج. اللسان، مادة (أود).

وروى إبراهيم بن الحسين بن عليّ الكسائيّ المعروف بابن ديزيل الهمْدانيّ، في «كتاب صفين»، قال: حدّثنا عبد الله بن عمر، قال: حدّثنا عمرو بن محمد، قال: دعا معاويةُ بن أبي سُفيان عمرو بن العاص، ليبعثَه حكَماً، فجاء وهو متحزّم، عليه ثيابه وسيفه، وحوله أخوه وناس من قريش، فقال له معاوية: يا عمرو، إنّ أهلَ الكوفة أكرهُوا عليًا على أبي موسى وهو لا يريده، ونحن بك راضون، وقد ضُمّ إليك رجل طويل اللسان، كلِيل المُدْية، وله بعدُ حَظ من دِين، فإذا قال فدَعْه يقلْ، ثم قلْ فأوجز، واقطع المفصِل، ولا تَلْقه بكلّ رأيك، واعلم أنّ خبءَ الرأي زيادة في العقل، فإنْ خَوَّفك بأهلِ العراق فخوِّفه بأهل الشام، وإن خَوّفك بعليّ فخوفه بمعاوية، وإن خَوّفك بمصر فخوّفه باليمن، وإن أتاكَ بالتفصيلِ فأْتِه بالجُمل. فقال له عمرو: يا معاوية، أنت وعليّ رجُلا قريش، ولم تنلْ في حربك ما رجوت، ولم تأمن ما خفت، ذكرت أنّ لعبد الله دِيناً، وصاحبُ الدين منصور، وايمُ الله لأُفنيَنّ [عليه] عِلَله، ولأستخرِجنّ خَبْأه، ولكن إذا جاءني بالإيمان والهجرة ومناقب عليّ، ما عسِيتُ أن أقول! قال: قل ما ترى، فقال عمرو: وهل تَدَعُني وما أرى! وخرج مُغضَباً كأنه كره أن يُوصَى ثقةٌ بنفسه، وقال لأصحابه حين خرج: إنما أراد معاوية أن يصغِّر أمرَ أبي موسى، لأنّه علم أني خادعه غداً، فأحبّ أن يقول: إن عَمْراً لم يخدَعْ أريباً، فقد كدتُه بالخلاف عليه. وقال في ذلك:

يُشَجِّعني معاويةُ بن حَرْبٍ ... كأنّي للحوادثِ مستكينُ
وإنّي عَنْ معاويةٍ غنيٌّ ... بحمْدِ الله والله المعينُ
وهَوّن أمرَ عبد الله عَمْداً ... وقال له على ما كان دينُ
فقلتُ له ولم أردُدْ عَلَيْه ... مقالتَهُ وللشَّاكِي أنِينُ
ترى أهلَ العراق يَذُبّ عنهمْ ... وَعَنْ جيرانِهِمْ رَجُلٌ مَهِينُ!
فَلَوْ جهِلُوه لم يجهَل عليٌّ ... وغثّ القولِ يحمِلُه السَّمِينُ
ولكن خطبه فيهم عظيمٌ ... وفَضلُ المرء فيهمْ مُسْتَبِينُ
فإنْ أظْفَرْ فلم أظْفَرْ بِوَغْدٍ ... وإنْ يَظْفَرْ فقد قُطِعَ الْوَتِينُ[1]

فلما بلغ معاوية شعره، غضب من ذلك وقال: لولا مسيره لكان لي فيه رأي! فقال له عبد الرحمن بن أمّ الحكم: أمَا والله إنّ أمثاله في قريش لكثير، ولكنّك ألزمت نفسك الحاجة إليه، فألزمها الغَناء، فقال له معاوية: فأجبه عن شعره، فقال عبد الرحمن يعيِّره بفراره من عليّ يوم صِفّين:

ألاَ يا عمرو عمرو قَبِيل سَهْمٍ ... أمِنْ طِبّ أصابَكَ ذا الْجُنون!

---

(١) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. اللسان، مادة (وتن).

دع البغيَ الذي أصبحتَ فيه ... فإنّ البغيَ صاحبُه لَعِينُ
ألم تَهرُبْ بنفسِك من عليٍّ ... بصفّينٍ وأنت بِها ضَنِينُ
حِذاراً أنْ تلاقِيَكَ المنايا ... وكلّ فتًى سيُدرِكه المُنونُ
وَلَسْنَا غائبين عليك إلاّ ... لقولك إنّني لا أستَكِينُ

قال نصر: ثم إنّ الناس أقبلوا على قتْلاهم فدفنوهم، قال: وقد كان عمر بن الخطاب دعا في خلافته حابس بن سعد الطائيّ، فقال له: إنّي أريدُ أنْ أولّيك قضاء حِمْص، فكيف أنت صانع؟ قال: أجتهدُ رأيي وأستشير جلسائي، قال: فانطلِقْ إليها. فلم يمش إلا يسيراً حتى رجع، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّي رأيتُ رؤيا أحببتُ أنْ أقصّها عليك، قال: هاتِها، قال: رأيتُ كأنّ الشمس أقبلتْ من المشرق، ومعها جَمْع عظيم، وكأنّ القمر قد أقبل من المغرب ومعه جَمْع عظيم، فقال له عمر: مع أيّهما كنت؟ قال: كنتُ مع القمر، قال: كنتَ مع الآية الممحوّة، اذهب فلا والله لا تلِي لي عملاً، وردّه. فشهِد مع معاوية صِفّين، وكانتْ رايةُ طيّىء معه، فقتِل يومئذ، فمرّ به عديّ بن حاتم، ومعه ابنه زيد، فرآه قتيلاً، فقال له: يا أبتِ هذا والله خالي، قال: نعم، لعنَ الله خالك! فبئس والله المَضرع مصرعه! فوقف زيدٌ وقال: مَنْ قتل هذا الرجل؟ مراراً، فخرج إليه رجل من بكر بن وائل، طُوالٌ يخضِب، فقال: أنا قتلتُه، فقال له: كيف صنعتَ به؟ فجعل يخبره، فطعنه زيد بالرمح فقتله، وذلك بعد أن وضعت الحربُ أوزارها، فحمل عليه عديّ أبوه يسبُّه ويشتِم أمّه، ويقول: يا ابن المائقة، لستُ على دين محمد إن لم أدفعك إليهم، فضرب زيد فرسَه فلحِق بمعاوية، فأكرمه وحمله وأدنى مجلسَه، فرفع عديٌّ يديه فدعا عليه، وقال: اللهمّ إنّ زيداً قد فارق المسلمين، ولحِق بالملحدين، اللهم فارمِه بسهم من سهامك لا يُشوِي - أو قال لا يخطىء - فإنّ رَمْيَتَك لا تُنمِي[1]، والله لا أكلّمه من رأسي كلمة أبداً، ولا يُظِلّني وإياه سقف أبداً. وقال زيد في قتل البكري:

مَنْ مبلغٌ أبناءَ طَيٍّ بأنّني ... ثأرتُ بخالي ثُمّ لم أتأثّمِ
تركتُ أخا بكرٍ ينوء بصدرِهِ ... بصِفّينَ مخضوبَ الجبين من الدّم
وَذَكَّرَني ثأرِي غَدَاةَ رأيتُه ... فأوْجَرْتُه رُمحِي فَخَرّ على الفَمِ
لقد غادرَتْ أرماحُ بكرِ بن وائلِ ... قتيلاً عن الأهوال ليس بمُحْجِمِ
قتيلاً يظلّ الحيُّ يُثنون بعدَهُ ... عليه بأيدٍ مِنْ نداه وأنعُمِ
لَقَدْ فُجِعَتْ طيٌّ بحِلْمٍ ونائلٍ ... وصاحبِ غاراتٍ ونَهْبٍ مُقَسَّمِ
لقدْ كانَ خالِي ليسَ خالٌ كمِثْله ... دِفاعاً لِضَيْمٍ واحتمالاً لمغْرَمِ

(١) أنميتَ الصيد: إذا رميته ثم غاب عنك فيموت ولا تراه فتجده ميتاً. اللسان، مادة (نمي).

قال نصر: وروَى الشَّعبيّ، عن زياد بن النَّضر أنّ عليًا عليه السلام بعث أربعمائة، عليهم شُرَيح بن هانيء الحارثيّ، ومعه عبد الله بن عباس يصلّي بهم، [وَيَلِي أمورَهم]، ومعهم أبو موسى الأشعريّ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة، ثم إنهم خلَوْا بين الحكَمين، فكان رأيُ عبد الله بن قيس [أبو موسى] في عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان يقول: والله إن استطعت لأُحْيِيَنَّ سنة عمر.

قال نصر: وفي حديث محمد بن عبيد الله، عن الجرجانيّ قال: لما أراد أبو موسى المسيرَ قام إليه شُرَيْح بن هانيء، فأخذ بيده، وقال: يا أبا مُوسى، إنّك قد نُصِبْتَ لأمرٍ عظيم لا يُجْبَرُ صَدْعُه، ولا تُستقالُ فتنتُه، ومهما تَقُلْ من شيء عليك أو لَكَ، يَثْبتْ حقه وتُرَ صحّتُه وإنْ كان باطلاً، وإنه لا بقاءَ لأهل العراق إن ملكَهم معاوية، ولا بأس على أهل الشام إن ملكَهم عليّ، وقد كانت منك تَثْبيطةَ أيامَ الكوفة والجمل، فإن تشفعْها بمثلها يكن الظنُّ بك يقيناً، والرجاء منك يأساً، ثم قال له شُريح في ذلك:

أبـا مُـوسَـى رُمِـيـتَ بِـشَـرٍّ خَـصْـم ... فـلا تُـضِـعِ الـعِـراقَ فـدتْـك نَـفْـسِـي
وأعـطِ الـحـقَّ شَـامَـهُـمُ وخُـذْهُ ... فـإنّ الـيـوم فـي مَـهَـلٍ كـأمْـسِ
وإنّ غـداً يـجـيء بِـمَـا عَـلَـيْـهِ ... كـذاك الـدهـر مـن سَـعْـدٍ وَنَـحْـسِ
ولا يـخـدعْـك عـمـرٌو إنّ عـمـراً ... عـدُوّ الله مَـطْـلَـعَ كـلّ شـمـسِ
لَـهُ خُـدَعٌ يَـحَـارُ الـعـقـل مِـنْـهَـا ... مُـمَـوَّهـةٌ مُـزَخْـرَفَـةٌ بِـلَـبْـسِ
فـلا تَـجْـعـلْ مُـعـاويـةَ بـن حَـرْبٍ ... كـشَـيْـخ فـي الـحـوادثِ غَـيْـرِ نِـكْـسِ
هـداه الله لـلإسـلام فَـرْداً ... سـوى عِـرسِ الـنَّـبـيّ، وأيّ عِـرْس!

فقال أبو موسى: ما ينبغي لقومٍ اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً، أو أجرّ إليهم حقاً.

وروى المدائنيّ في «كتاب صِفِّين» قال: لما أجمعَ أهلُ العراق على طلب أبي موسى، وأحضروه للتّحكيم على كُرْهٍ من عليّ عليه السلام، أتاه عبدُ الله بن العباس، وعنده وجوهُ النّاس وأشرافهم، فقال له: يا أبا موسى، إنّ الناس لم يرضَوْا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضلٍ لا تشارَكُ فيه، وما أكثرَ أشباهَك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك، ولكنّ أهلَ العراق أبوْا إلاّ أن يكون الحكَم يمانياً، ورأوْا أنَّ معظمَ أهلِ الشام يمانٍ، وايمُ الله، إني لأظنّ ذلك شرًّا لك ولنا، فإنه قد ضُمّ إليك داهية العرب، وليس في معاوية خَلّة يستحِقّ بها الخِلافة، فإن تقذفْ بحقّك على باطله تدركْ حاجتَك منه، وإن يطمع باطلُه في حقّك يدرِكْ حاجتَه منك واعلم يا أبا موسى أنّ معاويةَ طليقُ الإسلام، وأنّ أباه رأسُ الأحزاب، وأنّه يدّعي الخلافةَ من غير مشورة ولا بَيْعة، فإنْ زعم لك أنّ عمر وعثمان استعملاه فلقد صدقَ، استعمله عمر وهو الوالي

عليه، بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي، ويُوجرُه[1] ما يكره، ثم استعلمه عثمان برأي عمر، وما أكثرَ من استعملا ممّن لم يدّعِ الخلافة. واعلم أنّ لعمرو مع كلّ شيء يسرُّك خبيئاً يسوءك، ومهما نسيتَ فلا تنسَ أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بَيْعة هدى، وأنّه لم يقاتِلْ إلا العاصين والناكثين.

فقال أبو موسى: رحمك الله! والله ما لي إمامٌ غير عليّ، وإني لواقف عندما رأى، وإنّ حق الله أحبُّ إليّ من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا إلا بالله.

وروى البلاذريّ في كتاب «أنساب الأشراف»[2]، قال: قيل لعبد الله بن عباس: ما منع عليًّا أن يبعثكَ مع عَمْرو يومَ التحكيم؟ فقال: منعه حاجِزُ القَدر، ومِحْنة الابتلاء، وقِصَر المدة، أما والله لو كنت، لقعدت على مَدارج أنْفَاسه، ناقضاً ما أبرم، ومبرماً ما نَقَض، أطير إذا أسَفَّ، وأسِفُّ إذا طار، ولكن قد سَبَقَ قَدَر، وبَقِيَ أسف، ومع اليوم غد، والآخرة خير لأمير المؤمنين.

وذكر البلاذُريّ أيضاً، قال: قام عمرو بن العاص بالموسم، فأطْرَى معاوية وبني أميّة، وتناول بني هاشم، وذكر مشاهِده بصِفّين ويوم أبي موسى، فقام إليه ابن عباس، فقال: يا عمرو، إنك بعتَ دينكَ من معاوية، فأعطيتَه ما في يدك، ومنّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذه منك فوق الذي أعطاك، وكان الّذي أخذتَ منه دون ما أعطيتَ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك، تتبّعك بالنّقض عليك والتعقّب لأمرك، ثم بالعزل لك، حتى لو أنّ نفسَك في يدك لأرسلتها. وذكرت يومك مع أبي موسى، فلا أراك فَخَرْت إلا بالغدر، ولا مُنيت إلاّ بالفجور والغِشّ. وذكرت مشاهدك بصِفّين، فوالله ما ثقلتْ علينا وطأتك، ولا نكأتْ فينا جرأتك، ولقد كنت فيها طويلَ اللسان، قصير البنان، آخرَ الحرب إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت لك يدانِ: يد لا تقبضها عن شرّ، ويد لا تبسطها إلى خير، ووجهان: وجه مؤنِس، ووجه مُوحِش، ولَعمري إنّ مَنْ باع دينه بدنيا غيره لحرِيّ حزنه على ما باع واشترى. أما إنّ لك بياناً ولكنْ فيكَ خطل، وإن لك لرأياً ولكن فيك فَشَل، وإنّ أصغرَ عيبٍ فيك لأعظمُ عيبٍ في غيرك.

---

(١) الوجر: أن تُوجَرَ الدواء في وسط الفم وتوجُّرَ: أي شربه كارهاً. اللسان، مادة (وجَر).

(٢) أنساب الأشراف: لأبي الحسين أحمد بن يحيى البلاذي، المتوفي سنة (٢٩٨)، وهو كتاب كبير، كثير الفائدة، كتب منه عرين مجلداً ولم يتم. «كشف الظنون» (١/ ١٧٩).

قال نصر: وكان النجاشيّ الشاعر صديقاً لأبي موسى، فكتب إليه يحذِّره من عمرو بن العاص:

يـؤمّـلُ أهـلُ الـشـام عَـمْـراً وإنَّـنِـي ... لآمـلُ عـبـدَ الله عـنـدَ الـحـقـائـق
وإنّ أبـا مـوسـى سـيُـدرِك حَـقّـنـا ... إذا ما رمى عَمْرا بإحدى البَوائِقِ
فـالله مـا يُـرْمَـى الـعِـراقُ وأهـلُـه ... بـه مـنـه إن لـم يَـرْمِـهِ بـالـصَّـواعِـق

فكتب إليه أبو موسى: إني لأرجو أن يَنْجَلِيَ هذا الأمرُ، وأنا فيه على رضا الله سبحانه.

قال نصر: ثم إن شريح بن هانيء جَهّز أبا موسى جهازاً حسناً، وعَظّم أمرَه في الناس ليشرُف في قومه، فقال الأعور الشَّنِّيُّ في ذلك يخاطب شُرَيحاً:

زَفَـفْـتَ ابْـنَ قَـيْـسٍ زِفَـافَ الـعـروسِ ... شُـرَيْـحُ إلـى دُومـة الْـجَـنْـدَلِ
وفـي زَفّـك الأشـعـريّ الـبـلاءُ ... وَمَـا يُـقْـضَ مِـنْ حَـادِثٍ يَـنْـزِلِ
ومـا الأشـعـريّ بـذي إرْبَـةٍ ... ولا صـاحـب الـخُـطّـة الْـفَـيْـصَـلِ
وَلاَ آخِـذاً حـظّ أهـل الـعـراقِ ... ولـو قـيـل هـا خُـذْهُ لـم يـفـعـلِ
يـحـاولُ عَـمْـراً وعـمـرٌو لـه ... خَـدَائِـعُ يـأتـي بـهـا مـن عَـلِـي
فـإن يـحـكُـمـا بـالـهُـدَى يُـتْـبَـعـا ... وإن يـحـكـمـا بـالـهـوى الأمْـيَـلِ
يـكُـونَـا كَـتَـيْـسَـيْـنِ فِـي قَـفْـرةٍ ... أكـيـلَـيْ نـقـيـفٍ مـن الـحـنـظـل(١)

فقال شريح: والله لقد تَعَجَّلَتْ رجالٌ مَساءتنا في أبي موسى، وطعنوا عليه بأسوأ الطّعن، وظنّوا فيه ما الله عَصَمه منه، إن شاء الله.

قال: وسار مع عمرو بن العاص شُرَحبيل بن السِّمط في خَيْل عظيمة، حتى إذا أَمِن عليه خيل أهل العراق ودّعه، ثم قال له: يا عمرو، إنّك رجلُ قريش، وإنّ معاوية لم يبعثْك إلا لعلمه أنّك لا تؤتَى مِن عجز ولا مكيدة، وقد عرفت أني وطّأتُ هذا الأمرَ لك ولصاحبك، فكنْ عند ظنّي بك. ثم انصرف وانصرف شُرَيح بن هانيء حين أمِنَ خيل أهلِ الشام على أبي موسى، وودّعه.

وكان آخر مَنْ ودَّعَ أبا موسى الأحنفُ بن قيس، أخذ بيده، ثم قال له: يا أبا موسى، اعرف خَطْبَ هذا الأمر، واعلم أنّ له ما بعده، وأنك إن أضعت العراق فلا عِراق، اتّق الله فإنها

---

(١) حنظل نقيف: أي منقوف، وهو أن جاني الحنظل ينقفها بظفر أي يضربها فإن صوتت علم أنها مدركة فاجتناها. اللسان، مادة (نقف).

تجمع لك دنياك وآخرتك، وإذا لقيت غداً عمْراً فلا تبدأه بالسلام، فإنها وإن كانت سُنّة إلا أنه ليس من أهلها، ولا تعطِه يدَك فإنه أمانة، وإيّاك أن يُقعِدك على صَدْر الفراش فإنها خُدعة، ولا تَلْقَهُ إلاّ وحده. واحذَرْ أن يكلِّمك في بيت فيه مخدع تُخبأ لك فيه الرجال والشهود. ثم أراد أن يُثَوِّرَ ما في نفسه لعليّ، فقال له: فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعليّ، فليختر أهلُ العراق من قريش الشام من شاؤوا، أو فليَخْتَر أهلُ الشام من قريش العراق من شاؤوا.

فقال أبو موسى: قد سمعتُ ما قلتَ، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن عليّ.

فرجع الأحنف إلى عليّ عليه السلام، فقال له: أخرَج أبو موسى والله زُبْدَةَ سِقائه في أول مَخْضه، لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكِر خَلْعك. فقال عليّ: الله غالب على أمره.

قال نصر: وشاع وفشا أمرُ الأحنف وأبي موسى في الناس، فبعث الصَّلَتانُ العبديّ وهو بالكوفة إلى دُومة الجندل بهذه الأبيات:

لَعَمْرُك لا أُلْفي مَدَى الدَّهر خالعاً ... عليًّا بقول الأشعريّ ولا عمرِو
فإن يحكما بالحقّ نقبلْه منهما ... وإلاّ أثرناها كراغيةِ البَكْرِ
ولسنا نقولُ الدّهرَ ذاك إليهما ... وفي ذاك لو قلناهُ قاصِمَةُ الظهرِ
ولكن نقول: الأمرُ والنهيُ كله ... إليه، وفي كَفَّيْه عاقبةُ الأمرِ
وما اليوم إلا مثل أمسِ وإنّنا ... لفي وشَلِ الضَّحْضاح[1] أو لجّة البَحْرِ

قال: فلما سمع النّاس قول الصَّلتان شحَذَهم ذلك على أبي موسى، واستبطأه القومُ وظَنُّوا به الظّنون، ومكَث الرَّجُلان بدُومة الجَنْدل لا يقولان شيئاً. وكان سعد بن أبي وقّاص قد اعتزَل عليًّا ومعاوية، ونزل على ماء لبني سُلَيْم بأرض البادية، يتشوّف الأخبار - وكان رجلاً له بأس ورأي ومكان في قُريش، ولم يكنْ له هوًى في عليّ ولا في معاوية - فأقبل راكبٌ يُوضِع من بعيد[2]، فإذا هو ابنه عمر، فقال له أبوه: مهيَم[3]؟ فقال: التقَى النّاس بصِفّين، فكان بينهم ما قد بلغَك حتى تفانَوْا. ثم حكّموا عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، وقد حضر ناسٌ من قريش عندهما، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أهل الشورى، ومن قال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «اتّقُوا دَعْوَته»، ولم تدخل في شيء مما تكره الأمة، فاحضُر دُومَةَ الجنْدَل، فإنّك صاحبها غداً. فقال: مهلاً يا عمر، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تكون بعدي فِتْنة، خيرُ

---

(١) وشل: الماء القليل. اللسان مادة (وشل).
(٢) يوضع: يسرع: اللسان، مادة (وضع).
(٣) مهيم: كلمة يستفهم بها، معناها: ما حالك وما أنك. اللسان، مادة (مهيم).

الناس فيها التقيّ الخَفِيّ»[1]، وهذا أمر لم أشهد أولَه، فلا أشهدُ آخرَه، ولو كنتُ غامساً يدي في هذا الأمر لغمستُها مع عليّ بن أبي طالب، وقد رأيتَ أباك كيف وهب حقّه من الشورى، وكَرِه الدّخول في الأمر. فارتحل عمر، وقد استبان له أمرُ أبيه.

قال نصر: وقد كان الأجنادُ أبطأتْ عَلَى معاوية، فبعث إلى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يُعينوه في حَرْبه: إنّ الحرب قد وضعتْ أوزارَها، والتقى هذان الرجلان في دُومةِ الجندل، فاقدَموا عليّ.

فأتاه عبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجَهْم بن حُذيفة العَدَوِيّ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزُّهريّ، وعبد الله بن صفوان الجُمَحِيُّ. وأتاه المغيرة بن شعبة - وكان مقيماً بالطائف لم يشهد الحرب - فقال له: يا مغيرة، ما ترى؟ قال: يا معاوية، لو وَسِعني أن أنصرَك لنصرتُك، ولكنْ عَلَيّ أن آتِيَك بأمر الرّجلَين. فرحل حتى أتى دُومةَ الجندل، فدخل عَلَى أبي موسى كالزائر له، فقال: يا أبا موسى، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمرَ وكره الدماء؟ قال: أولئك خيرُ النّاس، خَفّت ظهورُهم من دمائهم، وخَمَصت بطونهم من أموالهم. ثم أتى عمْراً، فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر، وكَره الدماء؟ قال: أولئك شِرار الناس، لم يعرفوا حَقًّا، ولم يُنكِروا باطلاً. فرجع المغيرةُ إلى معاوية، فقال له: قد ذُقْتُ الرّجُلَيْن، أمّا عبد الله بن قيس فخالعٌ صاحبَه، وجاعُلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهَوَاه [في] عبد الله بن عمر، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي تَعرف، وقد ظَنّ الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لا يرى أنّك أحقُّ بهذا الأمر منه.

قال نصر في حديث عمرو بن شَمِر، قال: أقبل أبو موسى على عمرو، فقال: يا عَمْرو، هل لك في أمرٍ هو للأمة صلاح، ولصلحاء الناس رضاً؟ نولِّي هذا الأمرَ عبد الله بن عمر بن الخطاب، الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة، ولا هذه الفرقة. قال: وكان عبد الله بن عمرو بن العاص وعبدُ الله بن الزبير قريبيْن يسمعان هذا الكلام، فقال عمرو: فأين أنت يا أبا موسى عن معاوية فأبى عليه أبو موسى، [قال: وشهدهم عبد الله بن هشام، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدويّ والمغيرة بن شعبة]، فقال عمرو: ألستَ تعلم أنّ عثمان قُتِل مظلوماً؟ قال: بلى، قال: اشهدوا، ثم قال: فما يمنعُك من معاوية وهو ولي عثمان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[2]؟ ثم إنّ بيتَ معاوية من قريش ما قد علمتَ، فإنْ خَشِيتَ أن يقول الناس: ولّى معاوية وليستْ له سابقة، فإنّ

(١) ذكر الشطر الأول منه المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣١١٢٥)، ونسبه لابن السجزي في الإبانة.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

لك حجّة، أن تقول: وجدته وليَّ عثمان الخليفة المظلوم، والطالبَ بدمه، الحسَنَ السياسة، الحسَنَ التدبير، وهو أخو أم حَبيبة أم المؤمنين، وزوْج النبي ﷺ، وقد صحبه، وهو أحد الصحابة. ثم عرّض له بالسلطان، فقال له: إن هو وَلِيَ الأمر أكرَمك كرامة لم يكرِمْك أحدٌ قطّ مثلها، فقال أبو موسى: اتّقِ الله يا عمرو! أمّا ما ذكرت من شرف معاوية، فإنّ هذا الأمر ليس على الشّرف يُوَلاَّه أهله، لو كان عَلَى الشرف كان أحقَّ الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصبّاح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أنّي لو كنت أعطيه أفضلَ قريش شرفاً لأعطيتُه عليَّ بن أبي طالب. وأمّا قولُك: إنّ معاوية وليّ عثمان فولّه هذا الأمر، فإني لم أكن أولّيه إياه لنسبتِه من عثمان، وأدَع المهاجرين الأولين، وأمّا تعريضُك لي بالإمْرة والسلطان، فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليتُه، وما كنت أرْتَشِي في الله، ولكنّك إن شئت أحيينا سُنّة عمر بن الخطاب.

قال نصر: وحدّثني عمر بن سعد عن أبي جناب أنّ أبا موسى قال غير مَرّة: والله إن استطعتُ لأحْيِيَنّ اسم عمر بن الخطاب، قال: فقال عمرو بن العاص: إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه، فما يمنعُك من ابني عبد الله، وأنت تعرفُ فضلَه وصلاحه! فقال: إنّ ابنَك لَرجُلُ صدق، ولكنّك قد غمستَه في هذه الفتنة.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن محمد بن إسحاق، عن نافع، قال: قال أبو موسى لعمرو: يا عمرو، إن شئت ولّينا هذا الأمر الطّيب بن الطّيب، عبدَ الله بن عمر، فقال له عمرو: يا أبا موسى، إن هذا الأمرَ لا يصلح له إلا رجل له ضِرْسٌ يأكل ويُطْعِم، وإنّ عبد الله ليس هناك.

قال نصر: وقد كان في أبي موسى غفلة، فقال ابنُ الزبير لابن عمر: اذْهب إلى عمرو بن العاص فارشُه، فقال ابن عمر: لا والله لا أرشُو عليها بشيء أبداً ما عشت، ولكنّه قال له: إنّ العربَ قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعتْ بالسيوف، وتطاعَنت بالرماح، فلا تردّهم في فتنة، واتق الله.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن أزهر العبسيّ عن النّضر بن صالح، قال: كنت مع شريح بن هانيء في غزوة سِجِسْتان، فحدثني أن عليًا عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص، وقال له: قُلْ لعمرو إذا لقيتَه: إنَّ عليًا يقول لك: إنَّ أفضلَ الخلق عند الله مَنْ كان العملُ بالحقّ أحبَّ إليه وإن نقَصه، وإنَّ أبعد الخلق من الله من كان العملُ بالباطل أحبَّ إليه وإن زاده، والله يا عمرو إنّك لتعلم أين موضعُ الحقّ، فلِمَ تتجاهل؟ أبأنْ أوتيت طمعاً يسيراً صرت لله ولأليائه عدوًّا! فكأنْ والله ما قد أوتيت قد زال عنك، فلا تكن للخائنين خصيماً، ولا للظالمين ظهيراً. أما إنّي أعلم أنَّ يومَك الذي أنت فيه نادم هو يومُ وفاتك، وسوف تتمنّى أنك لم تُظْهِر لي عداوة، ولم تأخذ على حكم الله رِشْوة. قال شريح: فأبلغتُه ذلك يوم لقيتُه، فتمعّر وجهه وقال: متى كنتُ قابلاً مشورة عليّ أو منيباً إلى رأيه، أو معتدًّا بأمره! فقلت: وما يمنعُك

يا ابنَ النابغة أن تقبلَ من مولاك وسيد المسلمين بعد نبِّيهم مشورتَه! لقد كان مَنْ هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه: فقال: إن مِثْلِي لا يكلِّم مثلَك، فقلت: بأيّ أبويك ترغَبُ عن كلامي! بأبيك الوَشِيظ[1] أم بأمّك النابغة! فقام من مكانه وقمت.

قال نصر: وروى أبو جناب الكلبيّ أن عمراً وأبا موسى لَمّا التقيا بدُومة الجَنْدل، أخذ عمرو يقدِّم أبا موسى في الكلام، ويقول: إنك صحِبْتَ رسول الله ﷺ قبلي، وأنت أكبر منّي سِنًّا، فتكلمْ أنت، ثم أتكلم أنا، فجعل ذلك سُنّة وعادة بينهما وإنما كان مكراً وخديعة واغترار له أن يقدّمه، فيبدأ بخلع عليّ ثم يرى رأيه.

وقال ابن ديزيل في «كتاب صفّين»: أعطاه عمرو صَدْر المجلس، وكان لا يتكلم قبله، وأعطاه التقدّم في الصلاة وفي الطعام، لا يأكل حتى يأكل، وإذا خاطبه فإنّما يخاطبه بأجَلّ الأسماء، ويقول له: يا صاحبَ رسول الله، حتى اطمأنّ إليه، وظَنّ أنه لا يغشّه.

قال نصر: فلما انمخضَتِ الزُّبدة بينهما، قال له عَمْرو: أخبرني ما رأيك يا أبا موسى؟ قال: أرى أن نخلع هذين الرجُليْن، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، يختارون من شاؤوا فقال عمرو: الرأي والله ما رأيت. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فتكلّم أبو موسى، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ رأيي ورأي عمرو قد اتفّق على أمرٍ نرجو أن يُصلح الله به شأنَ هذه الأمة، فقال عمرو: صدق، ثم قال له: تقدّم يا أبا موسى، فتكلّم، فقام ليتكلّم، فدعاه ابن عباس، فقال له: ويحك! والله إنّي لأظنّه خَدَعك، إن كنتُما قد اتفقْتُما على أمرٍ فقدّمه قبلَك ليتكلّم به ثم تكلّمْ أنت بعده، فإنّه رجل غَدّار، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرِّضا فيما بينك وبينه، فإذا قمتَ به في النّاس خالفك - وكان أبو موسى رجلاً مُغَفّلاً - فقال: إيهاً عنك إنّا قد اتفقنا!

فتقدم أبو موسى، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمرِ هذه الأمة، فلم نر شيئاً هو أصلحُ لأمرِها ولا ألمّ لَشَعثها[2] من الا تتبايَنَ أمورُها، وقد أجمع رأيي ورأيُ صاحبي على خَلْع عليّ ومعاوية، وأن يُستقبلَ هذا الأمر، فيكونَ شورى بينَ المسلمين، يولّون أمورَهم مَنْ أحبّوا، وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية، فاستقبِلوا أموركم، وولّوا مَنْ رأيتموه لهذا الأمر أهلا. ثم تنحى.

---

(١) الوشيظ: الدخيل في القوم ليس من صميمهم. اللسان، مادة (وشظ).
(٢) تشعث الشيء: تفرق. اللسان، مادة (شعث).

فقام عمرو بن العاص في مقامه: فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبَه، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه، وأثبِتُ صاحبي معاوية في الخلافة، فإنه وليّ عثمان، والطالب بدمِه، وأحقّ الناس بمقامه.

فقال له أبو موسى: ما لك لا وفّقك الله قد غدرت وفجرت! إنّما مثلُك ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[1]. فقال له عمرو: إنما مثلك ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[2].

وحمل شُريح بن هانيء على عمرو فقنّعه بالسوط، وحمل ابن عمرو على شُريح فقنّعه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهما، فكان شُريح يقول بعد ذلك: ما ندمتُ على شيء ندامتي ألا أكون ضربتُ عمراً بالسيف بدلَ السوط، أتى الدهر بما أتى به!

والتمس أصحابُ عليّ عليه السلام أبا موسى فركِب ناقته، ولحِق بمكة. وكان ابن عباس يقول: قَبح الله أبا موسى! لقد حذّرته وهديتُه إلى الرأي فما عَقَل. وكان أبو موسى يقول: لقد حَذّرني ابنُ عباس غَدْرَة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه، وظننت أنّه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة.

قال نصر: ورجع عمرٌو إلى منزله من دُومة الجنْدَل، فكتب إلى معاوية:

أَتَتْكَ الخِلافَةُ مَزْفُوفَةً ... هَنِيئاً مرِيئاً تُقِرّ العُيُونا
تُزَفُّ إليكَ زِفَافَ العروس ... بأَهْوَنَ مِنْ طَعْنِكَ الدَّارِعِينَا
وَمَا الأشْعَرِيُّ بِصَلْدِ الزِّنَادِ[3] ... ولا خامِلِ الذِّكْرِ في الأشْعَرِينا
وَلَكِنْ أتيحَتْ لهُ حَيَّةٌ ... يَظَلّ الشُّجَاعُ لَهَا مُسْتَكِيناً
فَقَالُوا وقلتُ وَكُنْتُ آمْرأً ... أُجَهْجِهُ بالخَصْمِ حَتَّى يَلِينا
فَخُذْهَا ابنَ هِنْدٍ عَلَى بُعْدِها ... فَقَدْ دَافَع الله ما تَحْذرُونا
وَقَدْ صَرَف الله عَنْ شَامِكُمْ ... عَدُوًّا مبيناً وَحَرْباً زَبُونا[4]

قال نصر: فقام سعد بن قيس الهمْدانيّ، وقال: والله لو اجتمعتُما على الهُدَى ما زدتمانا على ما نحن الآن عليه، وما ضلالُكما بلازم لنا، وما رجعتما إلا بما بَدَأتما به، وإنّا اليوم لَعلى ما كنا عليه أمس.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦. (٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٣) الزّناد: جمع زَند وهو موصل طرف الذراع بالكف. القاموس مادة (زند).

(٤) الزّبن: الدفع، وحرب زَبون: تزبن الناس أي تصدمهم وتدفعهم. اللسان، مادة (زبن).

وقام كُردوس بن هانيء مغضباً، فقال:

ألاَ ليت مَنْ يَرْضَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... بعمرٍو وعبد الله في لُجَّةِ الْبَحْرِ
رَضِينَا بِحُكْمِ الله لاَ حُكْمَ غَيْرُهُ ... وبالله رَبًّا والنبيّ وبالذِّكْرِ
وبالأصلَعِ الهادِي عَلِيٍّ إمامِنا ... رَضِينا بِذاكَ الشَّيْخ في العُسر واليُسْرِ
رَضِينا بِهِ حَيًّا ومَيْتاً، وإنَّهُ ... إمامُ هُدًى في الحكْمِ والنَّهْيِ والأمْرِ
فَمَنْ قَال لاَ قُلْنَا بَلَى إن أمرَهُ ... لأفْضَلُ ما نُعْطاهُ في ليلةِ القَدْرِ
وَما لابْنِ هِنْدٍ بَيْعَةٌ في رِقابِنَا ... وما بَيْنَنَا غَيْرُ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
وَضرْبٍ يُزِيلُ الهامَ عَنْ مُسْتَقَرِّه ... وَهَيْهَات هَيْهَات الرِّضا آخِر الدَّهْرِ!
أبت لِيَ أشياخُ الأراقمِ سُبَّةً[1] ... السَّبُّ بِها حَتَّى أُغَيَّبَ فِي ٱلْقَبْرِ

وتكلّم يزيد بن أَسَدٍ القسريّ - وهو مِن قوّاد معاوية - فقال: يأهل العراق، اتقوا الله، فإنّ أهونَ ما تردُّنا وإياكم إليه الحرب ما كنّا عليه بالأمس، وهو الفناء، وقد شَخصتِ الأبصارُ إلى الصّلح، وأشرفَتِ الأنفسُ على الفَناء، وأصبح كلّ امريء يبكي عَلَى قَتيل، ما لكم رضيتم بأوّلِ أمرِ صاحبكم وكرهتم آخره! إنّه ليس لكم وحدَكم الرّضا.

قال: وقال بعض الأشعريّين لأبي موسى:

أبا مُوسَى خُدِعْتَ وَكُنْتَ شَيْخاً ... قَرِيبَ ٱلْقَعْرِ مَذْهُوشَ ٱلجَنَانِ
رَمَى عمرٌو صَفَاتَكَ يا بنَ قَيْس ... بأمْرٍ لا تَنُوءُ به اليَدَانِ
وَقَدْ كُنَّا نُجَمْجِمُ عَنْ ظُنونٍ[2] ... فَصرَّحَتِ الظُّنُون عن العِيانِ
فَعَضَّ الكفَّ مِنْ نَدَمٍ وَمَاذَا ... يردّ عليك عَضُّكَ بالبَنَانِ!

قال: وَشَمِتَ أهلُ الشام بأهْلِ العراق. وقال كَعْبُ بن جُعَيل شاعرُ معاوية:

كأنَّ أبا موسى عَشِيَّةَ أذْرُحٍ ... يطُوفُ بلقمانَ الحكِيم يُوارِبُهْ
وَلَمَّا تلاقَوْا في تُرَاثِ محمَّدٍ ... نَمَتْ بابن هِنْدٍ في قُرَيْشٍ مَناسِبُهْ
سَعَى بابن عَفَّانٍ لِيُدْرِكَ ثَأْرَهُ ... وَأوْلَى عِبادِ الله بالثَّأْرِ طالِبُهْ
وَقَدْ غَشِيَتْنَا في الزُّبَيْرِ غَضاضَةٌ ... وَطَلْحَةُ إذْ قَامَتْ عَلَيْهِ نَوادِبُهْ
فَرَدَّ ابنُ هِنْدٍ مُلْكَهُ في نِصَابِهِ ... وَمَنْ غالَبَ الأقْدارَ فالله غالِبُهْ

---

(١) السبّة: العار. اللسان، مادة (سبب).
(٢) الظُّنون: جمع ظن، وهو شك ويقين إلا أنه ليس بيقين عيان، إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا تدبر. اللسان، مادة (ظنن).

وَمَا لابنِ هِنْدٍ من لؤيّ بن غالبٍ   نظيرٌ وإنْ جاشَتْ عَلَيْهِ أقَارِبُهْ
فَهَذَاكَ مُلْكُ الشَّامِ وافٍ سَنَامُهُ   وهَذَاكَ مُلْكُ القَوْمِ قدْ جُبَّ غَارِبُهْ[1]
يُحَاوِلُ عَبْدُ الله عَمْراً وإنَّهُ   لَيَضرِبُ في بَحْرٍ عَرِيضٍ مَذَاهِبُهْ
دَحَا دَحْوَةً في صَدْرِهِ فَهَوَتْ بِهِ   إلى أسْفَلِ الجبّ الظنون كَوَاذِبُهْ

قال نصر: وكان عليّ عليه السلام لما خدع عمرو أبا موسى بالكوفة، كان قد دَخلَها منتظراً ما يحكمُ به الحكّمان، فلما تَمّ على أبي موسى ما تَمّ من الحيلة، غَمّ ذلك عليّاً وساءه، ووَجَم له، وخطب الناس، فقال:

«الحمدُ لله إن أتى الدّهر بالخَطْب الفَادِح، والحدَث الجليل...» الخطبة التي ذكرها الرضيّ رحمه الله تعالى، وهي التي نحن في شرحها، وزاد في آخرها بعد الاستشهاد ببيت دُريد: «ألا إنّ هذيْن الرَّجُلين اللّذَيْن اخترتموهما قد نَبَذا حُكم الكتاب، وأحييَا ما أمات، واتَّبع كلّ واحدٍ منهما هواه، وحَكم بغير حُجَّة ولا بيّنة ولا سُنَّة ماضية، واختلفا فيما حكما، فكلاهما لم يُرْشِد الله. فاستعدوا للجهاد، تأهبوا للمسير، وأصبحوا في معسكركم يوم كذا».

قال نصر: فكان عليّ عليه السلام بعد الحكومة إذا صلى الغَدَاة والمغرب، وفرغ من الصّلاة وسلّم، قال: اللهمّ العن معاوية، وعمراً، وأبا موسى، وحبيب بن مسلمة، وعبدَ الرحمن بن خالد، والضحاكَ بن قيس، والوليدَ بن عُقْبة، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا صلّى لعن عليًّا، وحسناً، وحسيناً، وابنَ عباس، وقيس بن سعد بن عبادة، والأشتر.

وزاد ابن ديزيل في أصحاب معاوية أبا الأعور السُّلَميّ.

وروى ابن ديزيل أيضاً أن أبا مُوسى كتب من مكّة إلى عليّ عليه السلام: أمّا بعدُ، فإنّي قد بلغني أنك تلعنُني في الصّلاة ويؤمّن خَلْفَك الجاهلون، وإنّي أقول كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[2].

وروى ابن ديزيل، عن وَكِيع، عن فضل بن مرزوق، عن عطية، عن عبد الرحمن بن حَبيب، عن عليّ عليه السلام، أنه قال: «يؤتَى بِي وبمعاوية يوم القيامة، فنجيء ونختصم عند ذي العَرْش، فأيّنا فَلَج فَلَج أصحابُه».

---

(١) الغارب: أعلى مقدم السنام، وأعلى الظهر. اللسان، مادة (غرب).
(٢) سورة القصص، الآية: ١٧.

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن نافع القاريء، عن أبيه، قال: سئِل عليّ عليه السلام عن قَتْلى صفين، فقال: إنّما الحساب عليّ وعلى معاوية.

ورويِ أيضاً عن الأعمش، عن موسى بن طريق، عن عَبَاية، قال: سمعت عليًا عليه السلام، وهو يقول: أنا قسِيمُ النار، هذا لي وهذا لك.

وروِي أيضاً عن أبي سعيد الخُدْريّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، دَعْوتهما واحدة، فبينما هم كذلك مَرقَتْ منهم مارقة، يقتلهم أوْلى الطائفتين بالحقّ»[1].

قال إبراهيم بن ديزيل: وحدّثنا سعيد بن كَثير، عن عُفَيْر، قال: حدثنا ابن لَهيعة، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش الصَّنْعانيّ، قال: جئت إلى أبي سعيد الخُدْريّ، وقد عَمِيَ، فقلت: أخبرني عن هذه الخوارج، فقال: تأتوننا فنخبركم، ثم ترفعون ذلك إلى معاوية، فيبعث إلينا بالكلام الشديد! قال: قلت: أنا حنش، فقال: مرحباً بك يا حنش المصريّ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «يخرج ناس يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقِيَهم، يمرُقُون من الدِّين كما يمرُق السهم من الرميّة، ينظر أحدكم في نصله، فلا يرى شيئاً، فينظر في قُذَذه فلا يرى شيئاً، سبق الفرثَ والدم، يَصْلَي بقتالهم أوْلى الطائفتين بالله»، فقال حنش: فإن عليًا صَلِيَ بقتالهم، فقال أبو سعيد: وما يمنع عليًا أن يكون أولى الطائفتين بالله![2]

وذكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباريّ في أماليه، قال: قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: حضرتُ الحُكُومة، فلمّا كان يوم الفَصْل جاء عبد الله بن عباس، فقعد إلى جانب أبي موسى وقد نشر أُذُنَيْه، حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمتُ أن الأمر لا يتمّ لنا ما دام هناك، وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكِيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو و أبو موسى في الكلام، فكلّمت ابْن عباس كلمة استطعمتُه جوابها فلم يجب، فكلّمته أخرى فلم يُجب، فكلمته ثالثة، فقال: إني لفي شغل عن حِوارك الآن، فجبهته، وقلت: يا بَني هاشم، لا تتركون بأوكم[3] وكِبْركم أبداً! أما والله لولا مكانُ النبوّة لكان لي ولك شأن. قال: فحمِيَ وغضب، واضطرب فِكْرَه ورأيُه، وأسمعني كلاماً يسوء سماعه، فأعرضتُ عنه، وقمت

---

(١) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: الفتن، باب: خروج النار (٧١٢١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (٣٣٤٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٣).

(٣) البأو: الفخر والكبر والعظمة. اللسان، مادة (بأو).

فقعدتُ إلى جانب عَمْرو بن العاص، فقلت: قد كفيتك التَّقوالة، إني قد شغلت باله بما دار بيني وبينه، فأحْكم أنت أمرك. قال: فذُهِل والله ابن عباس عن الكلام الدائر بين الرَّجُلين، حتى قام أبو موسى، فخلع عليًّا.

وروى الزبير بن بكار في «الموفقيّات»[1]، ورواه جميع الناس ممن عُنِي بنقل الآثار والسِّيَر، عن الحسن البصريّ [قال]: أربع خصال كنّ في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة منهنّ لكانت مُوبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرَها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنَه يزيد، سِكِّيراً خِمِّيراً، يلبس الحرير ويَضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفِراش، وللعاهر الحَجَر»[2]، وقتله حُجْر بن عديّ وأصحابه، فياويله من حُجْر وأصحاب حُجْر!

وروى في «الموفقيات» أيضاً الخبر الذي رواه المدائني، وقد ذكرناه آنفاً من كلام ابن عباس لأبي موسى، وقوله: إن الناس لم يرتضوك لفضلٍ عندك لم تشارَك فيه... وذكر في آخره: فقال بعض شعراء قريش:

وَٱللهِ مَا كَلَّمَ الأقوامَ مِنْ بَشَرٍ ... بَعْدَ الْوَصِيّ عليّ كابنِ عَبّاسِ
أوْصَى ابنَ قَيْسٍ بأمْرٍ فيه عصمتُه ... لو كان فيها أبو موسى مِنَ النّاسِ
إنـي أخاف عليه مكرَ صاحِبِه ... أرْجُو رَجَاء مَخُوفٍ شِيبَ بالْيَاسِ

وذكر الزّبير أيضاً في «الموفَّقيات» أن يزيد بن حُجَيّة التيميّ، شهد الجمل وصِفّين ونَهْروان مع عليّ عليه السلام، ثم ولاّه الرَّيَّ ودَسْتَبَى، فسرَق من أموالهما، ولَحِق بمعاوية، وهجا عليًّا وأصحابَه، ومدح معاوية وأصحابه، فدعا عليه عليّ عليه السلام، ورفع أصحابُه أيديَهم فأمَّنوا، وكتب إليه رجل من بني عمه كتاباً يقبّح إليه ما صنع، وكان الكِتَاب شعراً، فكتب يزيد بن حُجَيّة إليه: لو كنتُ أقول شعراً لأجبتُك، ولكن قد كان منكم خلال ثلاث، لا ترَوْن معهنّ شيئاً مما تحبّون، أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام، حتى إذا دخلتم بلادَهم، وطعنتموهم بالرماح،

---

(١) «الموفقيات في الحديث»: للزبير بين بكار الأسدي، المتوفي سنة (٢٥٦هـ) «كشف الظنون» (٢/ ١٩١٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: التشبيهات (٢٠٥٣)، ومسلم، كتاب: الرضاع، باب: الولد للفراش وتوقي الشبهات (١٤٥٧).

وأذقتموهم ألم الجِراح، رفَعوا المصاحفَ فسخِرُوا منكم، وردّوكم عنهم، فوالله ووالله لا دخلتُموها بمثل تلك الشوكة والشّدة أبداً. والثانية أنّ القوم بعثوا حَكَماً، وبعثتم حكماً، فأمّا حكَمُهم فأثبتَهم، وأما حكمُكم فخلعكم، ورجع صاحبُهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين، ورجعتم متضاغنين. والثالثة أن قرّاءكم وفقهاءكم وفُرسانكم خالفوكم، فعدوْتم عليهم، فقتلتموهم. ثم كتب في آخر الكتاب بيتين لعفّان بن شُرَحبيل التميميّ:

أحببتُ أهلَ الشام مِنْ بَيْنَ المَلاَ ... وبكيتُ مِنْ أسفٍ عَلَى عُثمانِ
أرضاً مُقَدَّسة وقوماً منهمُ ... أهلُ اليقين وتابعوا الفُرْقَانِ

وذكر أبو أحمد العسكريّ في كتاب «الأمالي» أن سعدَ بن أبي وقّاص دخل على معاوية عام الجماعة، فلم يسلّم عليه بإمْرَةِ المؤمنين، فقال له معاوية: لو شئت أن تقولَ في سلامك غير هذا لقلت، فقال سعد: نحن المؤمنين ولم نؤمّرك، كأنك قد بهجْت بما أنت فيه يا معاوية! والله ما يسرّني ما أنت فيه وأنّي هَرَقْت المِحْجمة دم. قال: ولكنّي وابن عمّك علياً يا أبا إسحاق قد هَرَقْنا أكثر من محجمة ومحجمتين، هلمّ فاجلس مَعِي على السرير، فجلس معه، فذكر له معاوية اعتزالَه الحرب، يعاتبه، فقال سعد: إنّما كان مثلي ومثلُ الناس كقوم أصابتهم ظُلْمة، فقال واحد منهم لبعيره إخْ، فأناخ حتى أضاء له الطريق فقال معاوية: والله ياأبا إسحاق، ما في كتاب الله «إخ» وإنما فيه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(١) فوالله ما قاتلتَ الباغية ولا المبغيّ عليها. فأفحمه.

وزاد ابن ديزيل في هذا الخبر زيادة ذكرها في «كتاب صفين»، قال: سعد: أتأمرني أنْ أقاتِل رجلاً قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي»(٢)! فقال معاوية: مَنْ سمع هذا معك؟ قال: فلان وفلان وأمّ سلمة، فقال معاوية: لو كنتُ سمعتُ هذا لما قاتلته.

٣٦ - ومن خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النّهروان

الأصل: فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا ٱلْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلاَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ، قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ، وَٱحْتَبَلَكُمُ المِقْدَارُ.

وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ ٱلْحُكُومَةِ، فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ المُخَالِفِينَ المُنَابِذِين، حَتَّى صَرَفْتُ

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: ٥/ ٤٤ ح ٨١٣٨.

رَأْيِي إلى هَوَاكُمْ. وَأَنْتمْ مَعاشِرُ أَخِفَّارُ الهامِ، سُفَهاءُ الأحْلاَمِ، وَلَمْ آتِ - لا أَبَا لَكُمْ - بُجْراً، وَلاَ أَرَدْتُ بِكمْ ضُرًّا.

الشرح: الأهضام: جمع هَضْم، وهو المطمئنّ من الوادي. والغائط: ما سَفَل من الأرض. واختَبَلَكم المقدار: أوقعكم في الحِبَالة.

والبُجْر: الداهية والأمر العظيم. ويروى: «هُجْراً»، وهو المستقبَح من القول. ويروى «عُرًّا»، والعُرّ: قروح في مشافرِ الإبل، ويستعار للداهية.

الثواب لقاتلي الخوارج

قد تظافرت الأخبار حتى بلغت حدّ التواتر بما وعد الله تعالى قاتِلِي الخوارج من الثوابِ، على لسان رسوله ﷺ. وفي الصّحاح المتّفق عليها أنّ رسول الله ﷺ بينا هو يَقْسِم قَسْماً جاء رجل من بني تميم، يُدْعَى ذا الخُوَيْصِرة، فقال: اعدِلْ يا محمد، فقال عليه السلام: «قد عَدَلْتُ»، فقال له ثانية: اعدل يا محمد، فإنك لم تعدِل، فقال ﷺ. «وَيْلَكَ! ومَنْ يَعْدِل إذا لم أعدل!»، فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسولَ الله، ائذن لي أضربْ عُنُقَه، فقال: «دَعْه، فسيخرج من ضِئْضِيءِ[1] هذا قوم يَمْرُقُون من الدّين كما يَمْرُق السهم من الرمِيّة، ينظر أحدُكُم إلى نَصْلِه فلا يجدُ شيئاً، فينظر إلى نَضِيِّه فلا يجد شيئاً، ثم ينظر إلى القُذَذ فكذلك، سَبَق الفَرْثَ والدم، يخرجون على حين فُرْقة من النّاس، تُحْتَقَرُ صلاتُكُم في جَنْب صَلاتهم، وصومُكم عند صومهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيَهم. آيتهم رجلٌ أسود - أو قال: أدْعَج[2] - مُخْدَج اليد[3]، إحدى يديه كأنه ثديُ امرأة، أو بَضْعَةٌ[4] تَدَرْدر[5].

وفي بعض الصّحاح أنّ رسول الله ﷺ قال لأبي بَكْر، وقد غاب الرجُلِ عن عَيْنِه: قم إلى هذا فاقتلْه، فقام ثم عاد وقال: وجدتُه يصلّي، فقال لعمر مثلَ ذلك، فعاد وقال: وجدتُه يصلّي، فقال لعليّ عليه السلام مثل ذلك، فعاد فقال: لم أجده، فقال رسول الله ﷺ: «لو قُتِل هذا لكان أوّلَ فتنة وآخرها، أما إنه سيخرج من ضِئْضِيء هذا قوم...» الحديث[6].

---

(١) الضئضىء: الأصل والمعدن. اللسان، مادة (ضأضأ).
(٢) الأدعج: المظلم الأسود. اللسان، مادة (دعج).
(٣) مخدج اليد: أي ناقص اليد. اللسان، مادة (خدج).
(٤) البضعة: القطعة. اللسان، مادة (بضع).
(٥) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤).
(٦) انظر تخريج الحديث السابق.

وفي بعض الصّحاح: «يقتلهم أوْلى الفريقين بالحق»[(١)].

وفي مسند أحمد بن حنبل، عن مسروق، قال: قالت لي عائشة: إنّك من ولدي ومنْ أحبِّهم إليّ، فهل عندك علم من المخدّج؟ فقلت: نعم، قتله عليّ بن أبي طالب على نَهْر يقال لأعلاه تامَرّاً ولأسفله النّهروان، بين لخَاقيق وطَرْفاء، قالت: ابغِنِي على ذلك بيّنة، فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك، قال: فقلت لها: سألتُك بصاحب القبْر، ما الذي سمعتِ من رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم؟ فقالت: نعم سَمِعْتُه، يقول: «إنّهم شرّ الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلْق والخليقة، وأقربُهم عند الله وسيلة»[(٢)].

وفي «كتاب صِفّين» للواقديّ عن عليّ عليه السلام: لولا أن تبطَرُوا فتدَعُوا العمل، لحدّثتكم بما سبقَ على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله لمن قتل هؤلاء.

وفيه: قال عليّ عليه السلام: إذا حدّثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله فَلأن أخِرّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أكذِب على رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا حدّثتُكم فيما بيننا عن نفسي، فإنّ الحرب خُدْعة، وإنما أنا رجل محارب، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، قولُهم من خير أقوال أهل البرية، صلاتُهم أكثر من صلاتكم، وقراءتهم أكثر من قراءتكم، لا يجاوز إيمانُهم تراقيَهم - أو قال: حناجرهم - يمرُقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرمِيّة، فاقتلوهم، فإنّ قتلَهم أجر لمن قتلَهم يوم القيامة»[(٣)].

وفي «كتاب صفين» أيضاً للمدائنيّ عن مسروق، أنّ عائشة قالت له لما عرفت أنّ علياً عليه السلام قتل ذا الثُّدَيّة: لعن الله عمرو بن العاص! فإنه كتب إليّ يخبرني أنه قتله بالإسكندرية، ألا إنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: «يقتله خير أمتي من بعدي»[(٤)].

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «التاريخ» أنّ عليًا عليه السلام لما دخل الكوفة دخلها معه كثيرٌ من الخوارج، وتخلّف منهم بالنُّخَيْلة وغيرها خَلْق كثير لم يدخلوها، فدخل

(١) أنظر بحار الأنوار للمجلسي: ٢٣/ ٣٣٩.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، الخوارج باب: شر الخلق والخليقة (١٠٦٧).
(٣) انظر تخريج الحديث ما قبل السابق.
(٤) رواه النعماني في شرح الأخبار: ١/ ١٤٢، والمجلسي في البحار: ٣٣/ ٣٤٠.

حُرْقوص بن زُهَيْر السَّعْدي، وزُرْعة بن البُرْج الطائيّ - وهما من رؤوس الخوارج - على عليّ عليه السلام، فقال له حُرْقوص: تُبْ من خطيئتك، واخرُج بنا إلى معاوية نجاهده، فقال له عليّ عليه السلام: إني كنت نهيتُكم عن الحكومة فأبيتم، ثم الآن تجعلونها ذَنْباً! أما إنّها ليست بمعصية، ولكنّها عَجْز من الرأي، وضَعف في التدبير، وقد نهيتُكم عنه، فقال زُرْعة: أما والله لئِن لم تَتُبْ من تحكيمك الرجال لأقتلنّك أطلُبُ بذلك وجه الله ورضوانه، فقال عليّ عليه السلام: بؤساً لك ما أشقاك! كأنّي بك قتيلاً تَسْفِي عليك الرياح! قال زُرْعة: وَدِدْت أنه كان ذلك.

قال: وخرج عليّ عليه السلام يخطُب النّاسَ فصاحوا به من جَوانب المسجد: لا حُكْم إلا لله، وصاح به رَجُلٌ [منهم واضع إصبعه في أذنيه، فقال]: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]، فقال له عليّ عليه السلام: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2] [3].

وروى ابن ديزيل في كتاب «صفين» قال: كانت الخوارج في أوّل ما انصرفت عن رايات علي عليه السلام تُهدِّد الناس قتلاً، قال: فأتت طائفةٌ منهم على النّهر إلى جانب قَرية، فخرج منها رجل مذعُوراً آخذاً بثيابه، فأدركوه فقالوا له: رَعَبْنَاك؟ قال: أجل، فقالوا له: قد عرَفْناك، أنت عبد الله بن خبّاب، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: نعم، قالوا: فما سمعت من أبيك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قال ابن ديزيل: فحدّثهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ فتنةً جائية، القاعدُ فيها خير من القائم...»[4] الحديث.

وقال غيره: بل حدّثهم: «إنّ طائفة تمرُق من الدين كما يمرُق السَّهم مِن الرمِيّة، يقرؤون القرآن، صلاتهم أكثر من صلاتكم...»[5] الحديث فضربوا رأسَه، فسال دمُه في النهر، ما امذقرّ، (أي ما اختلط بالماء)، كأنّه شِرَاك، ثم دَعَوْا بجارية له حُبْلى فبَقَرُوا عمّا في بطنها.

وروى ابن ديزيل، قال: عَزَم عليّ عليه السلام على الخروج من الكُوفة إلى الحَرُورية، وكان في أصحابه منجِّم فقال له: يا أمير المؤمنين، لا تَسِر في هذه الساعة، وسِرْ على ثلاث ساعات مضيْن من النهار، فإنّك إنْ سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابَك أذى وضُرٌّ شديد، وإن

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٦٠.
(٣) أخرجه الطبري في تاريخه: ٦/ ٤٠، ٤١.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.

سِرْتَ في الساعة التي أمرتُك بها ظَفِرت وظهرت، وأصبْت ما طلبْتَ. فقال له عليّ عليه السلام: أتدرِي ما في بَطْن فَرسي هذه، أذكر هو أم أنثى؟ قال: إن حَسَبتُ عَلِمْت، فقال عليّ عليه السلام: مَنْ صدّقك بهذا فقد كذّب بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾(١)، ثم قال عليه السلام:

إن محمداً صلى الله عليه وآله ما كان يدّعي علم ما ادّعيت علمه، أتزعُم أنك تَهْدِي إلى الساعة التي يصيب النفعَ مَنْ سار فيها، وتصرِفُ عن الساعة التي يَحيق السوء بمن سار فيها! فَمَنْ صدّقك بهذا فقد استغنَى عن الاستعانة بالله جَلّ ذكره في صَرْف المكروه عنه. وينبغي للموقِن بأمْرِك أن يولّيك الحمد دونَ الله جلّ جلاله، لأنّك بزعمك هَدَيْته إلى الساعة التي يُصِيب النفعَ مَنْ سار فيها، وصرفتَه عن الساعة التي يَحِيق السوء بمَنْ سار فيها، فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضِدًّا ونِدًّا. اللهم لا طيرَ إلا طيرُك، ولا ضُرّ إلا ضُرّك، ولا إله غيرك. ثم قال: نخالف ونسيرُ في الساعة التي نهيتَنا عنها، ثم أقبل على الناس، فقال: أيّها النّاسُ، إياكم والتعلّم للنّجوم إلا ما يُهْتَدى به في ظُلُمات البر والبحر، إنما المنجّم كالكاهن، والكاهن كالكافر، والكافر في النار. أما والله لئن بَلَغني أنّك تعمل بالنّجوم لأخلدنّك السجنَ أبداً ما بقِيتُ، ولأحرِمنّك العطاءَ ما كان لي من سلطان.

ثم سار في الساعة التي نهاهُ عنها المنجِّم، فظفِرَ بأهل النّهر وظهر عليهم، ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرَنا بها المنجّم لقال الناس: سار في الساعة التي أمرَ بها المنجّم فظفِر وظهر، أما إنه ما كان لمحمد صلى الله عليه وآله منجّم، ولا لنا من بعده، حتى فتح الله علينا بلاد كِسْرَى وقَيْصر. أيها الناس، توكّلوا على الله وثِقُوا به، فإنه يكفي ممّن سواه.

قال: فروى مسلم الضّبي عن حَبّة العُرَنِيّ، قال: لما انتهينا إليهم رمَوْنا، فقلنا لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين قد رمَوْنا، فقال لنا: كُفّوا، ثم رمَونا، فقال لنا عليه السلام: كُفّوا، ثم الثالثة، فقال: الآن طابَ القتالُ، احملوا عليهم.

وروي أيضاً عن قَيْس بن سعد بن عبادة أنّ علياً عليه السلام لما انتهى إليهم، قال لهم: أقيدونا بدم عبد الله بن خَبّاب، فقالوا: كُلُّنا قتله، فقال: احملوا عليهم.

وذكر أبو هلال العسكريّ في كتابُ «الأوائل» أنّ أول من قال: «لا حُكم إلا لله»، عُرْوة بن حُدَير، قالها بصِفّين، وقيل: زيد بن عاصم المحارِبيّ. قال: وكان أميرُهم أوّلَ ما اعتزلوا ابنَ الكَوّاء، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبيّ - وكان أحَد الخطباء - فقال لهم عند بيعتهم إياه:

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

إيّاكم والرأيَ الفَطير(١)، والكلام القَضِيب(٢)، دعوا الرأي يَغِبُّ، فإن غُبُوبه يكشف للمرء عن قُضَته(٣)، وازدحام الجواب مَضِلّة للصواب، وليس الرأي بالارتجال، ولا الحزم بالاقتضاب، فلا تدعونّكم السلامة من خطأ مُوبِق، وغنيمة نلتموها من غير صواب إلى معاودته والتماس الربح من جهته. إنّ الرأي ليس بنَهْنِهيّ(٤)، ولا هو ما أعطتك البديهة، وإنّ خَمِيرَ الرأي خيرٌ من فطيره، ورب شيء غابُه خيرٌ من طَرِيئه، وتأخيرُه خير من تقديمه.

وذكر المدائنيّ في كتاب «الخوارج» قال: لما خرج عليٌّ عليه السلام إلى أهل النهر أقبلَ رجل من أصحابه ممن كان على مقدّمته يركُض، حتى انتهى إلى عليّ عليه السلام، فقال: البشرى يا أميرَ المؤمنين! قال: ما بُشراك؟ قال: إنّ القوم عَبروا النهر لَمّا بلغهم وصولُك، فأبْشِر، فقد منحك الله أكتافَهم، فقال له: آلله أنت رأيتَهم قد عبروا! قال: نعم، فأحلفه ثلاث مرات، في كلّها يقول: نعم، فقال عليّ عليه السلام: والله ما عَبَرَوه ولن يعبرُوه، وإن مصارعهم لَدُون النطفة، والذي فَلَق الحبّة، وبرأ النسمة، أقبل فارس آخر يركُض، فقال كقول الأول، فلم يكترث عليّ عليه السلام بقوله، وجاءت الفرسان تركض، كلّها تقول مثل ذلك، فقام عليّ عليه السلام فجالَ في متن فَرَسه. قال: فيقول شابّ من الناس: والله لأكونَن قريباً منه، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سِنانَ هذا الرمح في عينه، أيدّعي علم الغيب! فلما انتهى عليه السلام إلى النهر وجد القوم قد كَسَروا جفونَ سيوفهم، وعرقبُوا خيلهم، وجَثَوْا على رُكَبهم، وحكّموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زَجل فنزل ذلك الشابّ، فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنت شككتُ فيك آنفاً، وإن تائب إلى الله وإليك، فاغفر لي، فقال عليّ عليه السلام: إني الله هو الذي يغفر الذنوب، فاستغفره.

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في «الكامل»(٥) قال: لما واقفهم عليّ عليه السلام بالنّهروان، قال: لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم، فحمل منهم رجل على صفّ عليّ عليه السلام، فقتل منهم ثلاثة، ثم قال:

أَقْتُلُهُمْ وَلاَ أَرَى عَلِيّا ... ولو بدا أوجرتُه الخَطّيا

---

(١) الفطير: كل ما أعجل عن إدراكه. القاموس مادة (فطر).
(٢) اقتضاب الكلام: ارتجاله. اللسان، مادة (قضب).
(٣) عن قُضَته: عن عيبه. القاموس مادة (قضض).
(٤) النهنهة: الكف، تقول: نهنهت فلاناً إذا زَجَرته فتنهنه أي كففته فكف، اللسان، مادة (نهنه).
(٥) «الكامل في اللغة» لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

فخرج إليه عليّ عليه السلام فضربه، فقتله، فلما خالطه سيفُه، قال: يا حَبَّذا الرَّوْحة إلى الجنة! فقال عبد الله بن وهب: والله ما أدري إلى الجنة أم إلى النار! فقال رجل منهم من بني سَعْد: إنما حضرتُ اغتراراً بهذا الرجل - يعني عبد الله - وأراه قد شكَّ واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس، ومال ألفٌ منهم إلى جهة أبي أيّوب الأنصاري، وكان على ميمنة عليّ عليه السلام، فقال عليّ عليه السلام لأصحابه: احمِلوا عليهم، فوالله لا يُقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة. فحمل عليهم فطحنهم طحْناً، قُتِل من أصحابه عليه السلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية.

وذكر أبو العبّاس - وذكر غيره أيضاً - أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لما وجّه إليهم عبد الله بن عباس ليناظرَهم قال لهم: ما الذي نَقَمتم على أميرِ المؤمنين؟ قالوا له: قد كان للمؤمنين أميراً، فلما حكّم في دين الله خَرَج من الإيمان، فليتُبْ بعد إقراره بالكفر نَعُد إليه، قال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يَشُبْ إيمانَه بشكٍّ أنْ يُقِرَّ على نفسه بالكفر، قالوا: إنّه حكم، قال: إنّ الله أمر بالتّحكيم في قتل صَيْد، فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[1]، فكيف في إمامةٍ قد أشكلتْ على المسلمين! فقالوا: إنّه حُكِم عليه فلم يَرضَ، فقال إنّ الحكومة كالإمام، ومتى فَسق الإمام وَجَبت معصيتُه، وكذلك الحَكَمان لَمّا خالفا نُبِذَتْ أقاويلهما، قال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاجَ قريش حُجّة عليهم، فإنّ هذا من الذين قال الله فيهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[2]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[3].

قال أبو العباس: ويقالُ: إنّ أولَ مَنْ حكم عروة بن أُديَة - وأديّة جدّة له جاهلية - وهو عروة بن حُدَيْر، أحد بني ربيعة بن حنظلة. وقال قوم: أولُ من حكّم رجل من بني محارب بن خَصَفَة بن قَيْس بن عَيْلان، يقال له سعيد. ولم يختلفوا في اجتماعهم على عبد الله بن وهب الراسبيّ، وأنه امتنع عليهم، وأومأ إلى غيره فلم يقنعوا إلاّ به، فكان إمام القوم، وكان يُوصف برأي. فأما أولُ سيف سُلّ من سيوف الخوارج فسيف عُروة بن أُديّة، وذاك أنه أقبل على الأشعث، فقال له: ما هذه الدنيّة يا أشعث؟ وما هذا التحكيم؟ أشرطٌ أوثقُ من شَرط الله عزّ وجلّ! ثم شَهَر عليه السيفَ، والأشعثُ مولٍّ، فضرب به عَجُز بغلته.

قال أبو العباس: وعروة بن حُدَيْر هذا من النفر الذين نَجَوْا من حرب النَّهْروان، فلم يزل باقياً مدةً من أيام معاوية، ثم أُتِيَ به زياد ومعه مولى له، فسأله عن أبي بكر وعمر فقال: خيراً، فقال له: فما تقولُ في أمير المؤمنين عثمان وفي أبي تراب؟ فتولّى عثمانَ ست سنين من خلافته

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٥.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.
(٣) سورة مريم، الآية: ٩٧.

ثم شهد عليه بالكفر، وفعل في أمر عليّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكّم ثم شهد عليه بالكُفر، ثم سأله عن معاوية فسبّه سبّاً قبيحاً، ثم سأله عن نفسه، فقال له: أوّلك لِزِنْية وآخِرَكَ لِدَعْوة، وأنت بعدُ عاصٍ لربّك. فأمر به فضُربتْ عنقه، ثم دعا مولاه فقال له: صفْ لي أمورَه، قال: أأطنِب أم أختصر؟ قال: بل اختصر، قال: ما أتيتُه بطعام بنهار قطّ، ولا فرشت له فراشاً بليل قطّا

قال أبو العباس: وسبب تسميتهم الحَرورية أنّ علياً عليه السلام لما ناظرَهم بعد مناظرة ابن عباس إياهم، كان فيما قال لهم: ألا تعلمون أنّ هؤلاء القوم لما رفَعُوا المصاحف قلت لكم: إنّ هذه مكيدةٌ ووَهْن، وأنهم لو قصدوا إلى حُكْم المصاحف لأتوني، وسألوني التحكيم! أفتعلمون أنّ أحداً كان أكرهَ للتحكيم مني؟ قالوا: صدقت، قال: فهل تعلمون أنّكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه، فاشترطت أنّ حُكْمَهما نافذ ما حكّما بحكم الله، فمتى خالفاه، فأنا وأنتم من ذلك برآء، وأنتم تعلمون أنّ حُكْم الله لا يعدُوني؟ قالوا: اللهم نعم، قال: وكان معهم في ذلك الوقت ابن الكَوّاء، قال: وهذا من قَبْل أن يذبحوا عَبْد الله بن خَبّاب، وإنما ذبحوه في الفُرْقة الثانية بكَسْكر[1]، فقالوا له: حكّمت في دين الله برأينا ونحن مقرون بأنا كنا كَفَرْنا، ولكنا الآن تائبون فأقِرّ بمثل ما أقررنا به، وتُبْ ننهضْ معك إلى الشام، فقال: أما تعلمون أن الله تعالى قد أمر بالتحكيم في شِقاق بين الرجل وامرأته، فقال سبحانه: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[2]، وفي صيد أصيب كأرنب يساوي نصف درهم، فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[3]! فقالوا له: فإنّ عَمْراً لما أبى عليك أن تقول من كتابك: «هذا ما كتبه عبد الله عليّ أمير المؤمنين» محوت اسمَك من الخلافة، وكتبت: «عليّ بن أبي طالب»، فقد خلَعت نفسك، فقال: لي في رسول الله صلى الله عليه وآله أسوةٌ حين أبَى عليه سُهَيل بن عمرو أن يكتب: «هذا كتاب كتبه محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسُهيل بن عمرو»، وقال له: لو أقررتُ بأنّك رسولُ الله ما خالفتُك، ولكنّي أقدّمك لفضلك، فاكتب «محمد بن عبد الله»، فقال لي: يا عليّ، امحُ «رسول الله»، فقلت: يا رسول الله، لا تشجّعُني نفسي على محو اسمك من النبوة، قال: فقضى عليه، فمحاه بيده، ثم قال: «اكتب محمد بن عبد الله»، ثم تبسم إليّ وقال: يا عليّ، أما إنّك ستسام مثلها فتعطِي[4]، فرجع معه منهم ألفان من حَرُوراء وقد كانوا تجمّعوا بها، فقال لهم عليّ: مانسمّيكم؟ ثم قال: أنتم الحَرُورية، لاجتماعكم بَحرُوراء.

---

(١) كسكر: كورة قصبتها واسط. القاموس، مادة (كسكر).

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٥.   (٣) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٤) الكامل: ٥٤٠، وبحار الأنوار للعلامة المجلسي: ٣٣/ ٣٥٢.

وروى جميعُ أهل السِّير كافة أنّ علياً عليه السلام لما طَحن القوم طلب ذا الثُّدَية طلباً شديداً، وقلَب القتلَى ظَهْراً لبطن، فلم يقدر عليه، فساءه ذلك، وجعل يقول: والله ما كَذَبت ولا كُذِبْت، اطلبوا الرجل، وإنه لفي القوم، فلم يزل يتطلّبه حتى وجده، وهو رجل مُخْدَجُ اليد، كأنها ثديٌ في صدره.

وروى إبراهيم بن ديزيل في كتاب «صفين» عن الأعمش، عن زيد بن وهب، قال: لما شَجَرهم عليّ عليه السلام بالرّماح، قال: اطلبوا ذا الثُّدَيّة، وطلبوه طلباً شديداً، حتى وجدوه في وَهْدَةٍ[1] من الأرض تحت ناسٍ من القتلى، فأُتِيَ به، وإذا رَجَلٌ على ثَدْيه مثل سَبَلات السّنّور[2]، فكبّر عليّ عليه السلام، وكَبّر الناس معه سروراً بذلك.

وروى أيضاً عن مسلم الضّبيّ عن حَبّة العُرَنيّ، قال: كان رجلاً أسود مُنْتِن الريح، له ثدي كثدي المرأة، إذا مُدّت كانتْ بطول اليد الأخرى، وإذا تركت اجتمعت وتقلّصَتْ، وصارت كثدي المرأة، عليه شعرات مثل شواربِ الهرّة، فلما وجدوه قطعوا يده، ونصبوها على رُمْح. ثم جعل عليّ عليه السلام يُنادِي: صدق الله وبلّغ رسوله، لم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غَرَبت الشمس أو كادت.

وروى ابن دِيزيل أيضاً، قال: لما عِيلَ[3] صبر عليّ عليه السلام في طلب المخدَج، قال: ائتوني ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، فركبها واتبعه الناس، فرأى القتلَى، ويقول: اقلِبوا، فيَقلِبون قتيلاً عن قتيل، حتى استخرجوه، فسجد عليّ عليه السلام.

وروى كثير من الناس أنّه لما دعا بالبغلة ليركَبها، قال: ائتوني بها فإنها هادية، فوقفتْ به على المخدَج، فأخرجه من تحت قتلى كثيرين.

وروى العوّام بن حَوْشب عن أبيه، عن جدّه يزيد بن رُوَيم، قال: قال عليّ عليه السلام: يُقتَلُ اليوم أربعة آلاف من الخوارج، أحدهم ذو الثُّدَيّة، فلما طُحِن القومُ ورام استخراج ذِي الثُّدَيّة فأتبعه، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قَصَبة، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: اطرح على كلّ قتيل منهم قَصَبة، فلم أزل كذلك وأنا بين يديْه، وهو راكب خَلفي، والناس يتبعونه حتى بَقِيَت في يدي واحدة، فنظرت إليه وإذا وجهه أربَد، وإذا هو يقول: والله ما كَذَبت ولا كُذِبت، فإذا خريرُ ماء عند موضع دالية، فقال: فَتّش هذا ففتشته، فإذا قتيل قد صار في الماء، وإذا

---

(١) الوهدة: المطمئن من الأرض والمكان المنخفض كأنه حفرة. اللسان، مادة (وهد).
(٢) سبلة السنور: شاربه. اللسان، مادة (سبل).
(٣) عِيل صبره: غُلِب. القاموس، مادة (عيل).

رجلُه في يدي، فجذبتها، وقلت: هذه رِجْلُ إنسان، فنزل عن البغلة مسرعاً، فجذب الرِّجْلَ الأخرى، وجررناه حتى صار عَلَى التراب، فإذا هو المخدَج، فكبّر عليّ عَلَيْتَلِاْ بأعلى صوته، ثم سجد، فكبّر الناس كلهم.

وقد روى كثير من المحدّثين أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً: «إنّ منكم مَنْ يقاتل عَلَى تأويل القرآن، كما قاتلت عَلَى تنزيله»، فقال أبو بكر: أنَا يا رسول الله؟ فقال: «لا»، فقال عمر: أنا يا رسول الله؟ فقال: «لا، بل خاصف النعل»[1]، وأشار إلى عليّ عَلَيْتَلِاْ.

وقال أبو العباس في «الكامل»: يقال: إن أوّلَ مَنْ لَفظ بالحكُومة ولم يُشِدْ بها رجل من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرّ، من بني صَرِيم، يقال له الحجاج بن عبد الله، ويعرف بالبُرَك، وهو الذي ضرب آخراً معاوية عَلَى أَلْيَتِه، يقال: إنّه لما سمع بذكر الحكَمين، قال: أيحكُم أميرُ المؤمنين الرجالَ في دين الله! لا حُكْم إلا لله، فسمعه سامع، فقال: طَعَن والله فأنفذ.

قال أبو العباس: وأول من حكم بين الصّفين رجلٌ من بني يَشْكُر بن بكر بن وائل، كان من أصحاب عليّ عَلَيْتَلِاْ، فحمل عَلَى رجل منهم فقتله غِيلة، ثم مرق بين الصَّفّين يُحكم، وحمل عَلَى أصحاب معاوية، فكثروه، فرجع إلى ناحية عليّ عَلَيْتَلِاْ، فخرج إليه رجل من هَمْدان فقتله، فقال شاعر هَمْدان:

وَمَا كانَ أغْنَى اليَشْكُرِيُّ عن الَّتِي ... تَصَلَّى بها جَمْراً من النَّارِ حَامِيَا
غداة يُنادي والرماحُ تَنُوشُهُ ... خلعتُ عليّا ومعاويا

قال أبو العباس: وقد روى المحدّثون أن رجلاً تلا بحضرة عليّ عَلَيْتَلِاْ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾[2]، فقال عليّ عَلَيْتَلِاْ: أهلُ حَرُوراء منهم.

قال أبو العباس: ومن شعر أمير المؤمنين عَلَيْتَلِاْ الذي لا اختلافَ فيه أنه قاله: - وكان يردّده - أنهم لما ساموه أنّه يُقِرّ بالكفر، ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام، فقال: أبعدَ صحبة رسول الله ﷺ والتفقّه في الدين أرجع كافراً! ثم قال:

يا شاهدَ الله عَلَيَّ فاشهدِ ... أنّي عَلَى دِين النبيّ أحمدِ
مَنْ شكّ في الله فإنّي مُهتدِ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٥)، وأحمد في مسنده (١٠٨٩٦).

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

وذكر أبو العباس أيضاً في «الكامل» أن عليًا عليه السلام في أولِ خُروج القوم عليه، دعا صعصعة بن صُوحان العبديّ - وقد كان وجّهه إليهم - وزياد بن النّضر الحارثيّ، مع عبد الله بن عباس، فقال لصعصعة: بأيّ القوم رأيتَهم أشدّ إطاقة؟ قال: بيزيد بن قيس الأرحبيّ، فركِب عليّ عليه السلام إلى حَرُوراء، فجعل يتخلّلهم حتى صار إلى مَضْرِب يزيد بن قيس، فصلّى فيه ركعتين، ثم خرج فاتكأ على قوسه، وأقبل عَلَى الناس، فقال: هذا مَقَامٌ مَنْ فَلَج فيه فَلَجَ[1] يوم القيامة. ثم كلّمهم وناشدهم، فقالوا: إنّا أذنبْنا ذنباً عظيماً بالتّحكيم، وقد تُبْنا، فتب إلى الله كما تُبْنا نَعُدْ لك. فقال عليّ عليه السلام: أنا أستغفر الله من كلّ ذنب، فرجعوا معه وهم ستة آلاف، فلما استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ عليًا عليه السلام رجع عن التحكيم، ورآه ضلالاً، وقالوا: إنّما ينتظر أميرُ المؤمنين أن يسمَن الكُراع وتُجبَى الأموال، ثم ينهضُ بنا إلى الشام. فأتى الأشعثُ عليًا عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأيتَ الحكومة ضلالاً والإقامة عليها كفراً، فقام عليّ عليه السلام يخطب، فقال: مَنْ زعم أني رجعت عن الحُكومة فقد كَذَب، ومَنْ رآها ضَلالاً فقد ضلّ، فخرجت حينئذ الخوارجُ من المسجد فحكّمت.

قلت: كلّ فساد كانَ في خلافة عليّ عليه السلام، وكلّ اضطراب حَدَث فأصلُه الأشعث، ولولا محاقتَه[2] أمير المؤمنين عليه السلام في معنى الحكومة في هذه المرّة لم تكن حَرْبُ النّهرَوان، ولكان أميرُ المؤمنين عليه السلام ينهضُ بهم إلى معاوية، ويملك الشام، فإنه صلوات الله عليه حَاول أن يَسلُك معهم مسلك التّعرِيض والمواربة، وفي المَثل النبويّ صلوات الله على قائله: «الحرب خُدْعة»[3]، وذاك أنّهم قالوا له: تُبْ إلى الله مما فعلت، كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام، فقال لهم كلمة مجملة مُرْسلة يقولها الأنبياء والمعصومون، وهي قوله: «أستغفر الله من كلّ ذنب»، فرضُوا بها وعدّوها إجابةً لهم إلى سؤلهم، وصفَتْ له عليه السلام نيّاتُهم، واستخلصَ بها ضمائرَهم، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفْر أو ذنب، فلم يتركْه الأشعثُ، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال، وهاتكاً سِتْر التورية والكناية، ومُخرجاً لها من ظلمة الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسِد التدبير، ويُوغِر الصدور، ويعيد الفتنة، ولم يستفسرْه عليه السلام عنها إلا بحضور مَنْ لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دَخَن، ولا ترقيقاً عن صَبُوح، وألجاه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما فيه نفسه، ولا يترك الكلمة عَلَى احتمالها، ولا يطويها عَلَى غرّها، فخطب بما صَدَع به عن صورة ما عنده مجاهرة، فانتقض ما دبّره، وعادت الخوارج إلى شُبْهتها الأولى، وراجعوا التحكيم والمُروق، وهكذا الدول التي تظهر فيها

(١) الفلج: الظفر والفوز. اللسان، مادة (فلج).
(٢) حَاقَّه: أي خاصمه وادعى كل واحد مهما الحق، فإذا غلبه قيل حقّهُ. اللسان، مادة (حقق).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: ٤/ ٢٤، وأخرجه أحمد في مسنده: ٦/ ٣٨٧.

أمارات الانقضاء والزوال، يُتاحُ لها أمثال الأشعث من أولي الفساد في الأرض، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

قال أبو العباس: ثم مضى القومُ إلى النّهروان، وقد كانوا أرادوا المضيّ إلى المدائن، فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا في طريقهم مُسلماً ونصرانيًا، فقتلوا المسلَم لأنّه عندهم كافر: إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصَوْا بالنصرانيّ، وقالوا: احفظوا ذمّة نبيّكم.

قال أبو العباس: ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل في رُفْقةٍ فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرُّفقة: إنّ هذا ليس من شأنِكم، فاعتزلوا ودَعُوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العَطَب، فقالوا: شأنَك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابُك؟ فقال: قومٌ مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلامَ الله، ويفهموا حدوده، قالوا: قد أجَرْناكم، قال: فعلّمُونا، فجعلوا يعلّمُونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فامْضُوا مصاحَبِين، فقد صرتم إخواننا، فقال: بل تُبْلغُونا مأمننا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[2]، قال: فينظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن.

قال أبو العباس: ولقِيَهم عبد الله بن خَبّاب في عنقه مصحف، على حِمار، ومعه امرأته وهي حامل، فقالو له: إنّ هذا الذي في عُنُقك ليَأمرُنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيُوه، وما أماته فأميتوه، فوثب رجل منهم على رُطَبة سقطت من نَخْلة فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها تورُّعاً. وعرض لرجل منهم خِنْزيرٌ فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض، وأنكرُوا قتل الخِنزير، ثم قالوا لابن خَبَّاب: حَدِّثنا عن أبيك، فقال: إني سمعتُ أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بَدَنُه، يمسِي مؤمناً ويصبح كافراً، فكنْ عبد الله المقتول، ولا تكن القاتل»[3]، قالوا: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقولُ في عليّ قبل التحكيم، وفي عثمان في السنين الستّ الأخيرة؟ فأثنى خيراً، قالوا: فما تقولُ في عليّ بعد التحكيم والحُكومة؟ قال: إنّ علياً أعلم بالله وأشدُّ توقّياً على دينه، وأنفذُ بصيرة، فقالوا: إنّك لست تتّبع الهدى، إنما تتبعُ الرجال على أسمائهم، ثم قرّبوه إلى شاطيء النهر، فأضجعوه فذبحوه.

قال أبو العباس: وساوَمُوا رجلاً نصرانيًا بنخلة له، فقال: هي لكم، فقالوا: ما كنا لنأخذها

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢. (٢) سورة التوبة، الآية: ٦.
(٣) أخرجه البخاري بما معناه: ٤/ ٥١.

إلا بثمن، فقال: واعجباه! أتقتلون مثل عبد الله بن خبّاب، ولا تقبلون جَنًا نخلة إلا بثمن!

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنّى، قال: طُعن واحدٌ من الخوارج يوم النّهروان، فمشى في الرمح، وهو شاهر سيفه، إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله، وهو يقرأ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[1].

وروى أبو عبيدةَ أيضاً، قال: استنطقهم عليّ عليه السلام بقتل عبد الله بن خبّاب، فأقرّوا به، فقال: انفردوا كتائبَ لأسمع قولَكم كَتيبة كَتيبة، فتكتّبوا كَتائبَ، وأقرّت كلُّ كتيبة بمثل ما أقرّتْ به الأخرى، من قتل ابن خبّاب، وقالوا: ولنقتلنّك كما قتلناه، فقال عليّ: والله لو أقرَّ أهلُ الدنيا كلّهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلِهم به لقتلتهم، ثم التفت إلى أصحابه، فقال لهم: شدُّوا عليهم، فأنا أولُ من يشدّ عليهم. وحَمَل بذي الفقار حملةً منكرةً ثلاث مرات، كلّ حملةٍ يضرب به حتى يعوجَّ متْنُه، ثم يخرج فيسوِّيه بركبتيْه، ثم يحمل به حتى أفناهم.

وروى محمد بن حبيب، قال: خَطَب عليّ عليه السلام الخوارج يوم النّهر، فقال لهم: نحن أهلُ بيت النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلَف الملائكة، وعنصر الرحمة، ومعدِن العلم والحكمة، نحن أفق الحجاز، بنا يلحَق البطيء، وإلينا يرجع التائب، أيها القومُ، إني نذيرٌ لكم أن تُصبِحُوا صَرْعى بأهضام[2] هذا الوادي... إلى آخر الفصل.

٣٧ – ومن كلام له عليه السلام يجري مجرى الخطبة

الأصل: فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا، وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ ٱللهِ حِينَ وَقَفُوا. وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً، وَأَعْلاَهُمْ فَوْتاً، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا، وَٱسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا.

كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ ٱلْقَوَاصِف، وَلاَ تُزِيلُهُ ٱلْعَوَاصِفُ، لَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، ٱلذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ ٱلْحَقَّ لَهُ، وَٱلْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْه.

رَضِينَا عَنِ ٱللهِ قَضَاءَهُ، وَسَلَّمْنَاهُ للهِ أَمْرَهُ. أَتُرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم! وَٱللهِ لأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقه، فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ.

(١) سورة طه، الآية: ٨٤.

(٢) الأهضام: ما تطامَن من الأرض غاب، وأهضام الأودية أسافلها. اللسان، مادة (هضم).

فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي، فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَت بَيْعَتِي، وَإِذَا ٱلْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي.

الشرح: هذه فصول أربعة، لا يمتزج بعضُها ببعض، وكلّ كلام منها ينحُو به أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوه بالآخر، وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى التقطها من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام طويل منتشر، قاله بعد وقعة النَّهروان، ذكَر فيه حاله منذ توفيَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلى آخر وقت، فجعل الرضيّ رحمه الله تعالى ما التقطه منه سَرْداً، وصار عند السامع كأنه يقصد به مقصداً واحداً.

فالفصل الأول وهو من أول الكلام إلى قوله: «واستبددت برهانها»، يذكُر فيه مقاماتِه في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أيامَ أحداث عثمان، وكَوْن المهاجرين كلّهم لم ينكِروا ولم يُواجهوا عثمان بما كان يواجِههُ به وينهاه عنه، فهذا هو معنى قوله: «فقمت بالأمر حين فَشِلوا»، أي قمت بإنكار المنكر حين فشل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله عنه. والفَشَل: الخَورَ والجُبْن.

قال: «ونطقتُ حين تعتعوا»، يقال: تعتع فلان، إذا تردّد في كلامه من عِيّ أو حَصَر. قوله: «وتطلّعتُ حين تقبّعوا»، امرأةٌ طُلَعة قُبَعَة، تَطلع ثم تقبَع رأسها، أي تدخله كما يقبَعُ القنفذُ، يدخلُ برأسه في جلده، وقد تقبّع الرجُل، أي اختبأ، وضدّه تطلّع.

قوله: «وكنت أخفضَهم صوتاً، وأعلاهم فَوْتاً» يقول: علوتُهم وفتّهم وشأوتُهم سَبْقاً، وأنا مع ذلك خافِض الصوت، يشير إلى التواضع ونفي التكبّر.

وقوله: «فطرت بعنانها، واستبددت برهانها» يقول: سبقتهم، وهذا الكلامُ استعارة من مُسابقة خَيْل الحلْبة. واستبددت بالرهان، أي انفردت بالخَطَر الذي وقع التراهُنُ عليه.

الفصل الثاني فيه ذكر حالِهِ عليه السلام في الخِلافة بعد عثمان، يقول: كنتُ لمّا وَليتُ الأمر كالجبل لا تحرّكُه القواصِف، يعني الرياح الشديدة، ومثله العواصف.

والمهمز: موضع الهمز، وهو العيب، وكذاك المغمز.

ثم قال: «الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقويّ عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»، هذا آخر الفصل الثاني، يقول: الذليل المظلوم أقُوم بإعْزازه ونَصْره، وأقوي يدَه إلى أن آخذ الحقّ له، ثم يعود بعد ذلك إلى الحالة التي كان عليها قبل أن أقومَ بإعزازه ونصره، والقويّ الظالم أستضعِفه وأقهَرُه وأذلّه إلى أن آخذ الحقَّ منه، ثم يعود إلى الحالة التي كان عليها قَبل أن أهتضِمَه، لاستيفاء الحق.

الفصل الثالث من قوله: «رضينا عن الله قضاءه»، إلى قوله: «فَلا أكونُ أوّلَ مَنْ كذَب عليه»، هذا كلامٌ قاله عليه السلام لمّا تفرّس في قوم من عَسْكره أنّهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبيّ صلى الله عليه وآله من أخبار الملاَحِم والغائبات، وقد كان شكّ منهم جماعة في أقواله، ومنهم مَنْ واجهه بالشكّ والتهمة.

روى ابن هلال الثقفيّ في كتاب «الغارات» عن زكريا بن يحيى العطّار، عن فُضَيْل، عن محمد بن عليّ، لما قال علي عليه السلام: سَلُوني قَبْل أن تفِقدوني، فوالله لا تسألونني عن فئة تُضِلّ مائة، وتَهدِي مائةً إلا أنبأتكم بناعِقتها وسائقتها، قام إليه رجل فقال: أخبِرْني بما في رأسي ولِحْيَتي من طاقة شَعْر، فقال له علي عليه السلام: والله لقد حَدّثني خليلي أنّ على كلّ طاقة شَعْرٍ من رأسك مَلَكاً يلعنُك، وأنّ على كلّ طاقة شعر مِنْ لحيتك شيطاناً يُغويك، وأنّ في بيتك سَخْلاً يقتلُ ابنَ رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان ابنُه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو - وهو سنان بن أنس النَّخَعِيّ.

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثماليّ، عن سويد بن غفلة أنّ علياً عليه السلام، خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت مِنْبره، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّي مررتُ بوادي القُرى، فوجدتُ خالد بن عُرْفطة قد مات، فاستغفر له، فقال عليه السلام: والله ما مات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة، صاحب لوائه حبيب بن حِمار. فقام رجل آخر من تحت المِنْبر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنا حبيب بن حِمار، وإني لك شيعة ومحبّ، فقال: أنت حبيب بن حمار؟ قال: نعم، فقال له ثانية: والله إنّك لحبيب بن حمار؟ فقال: إي والله! قال: أما والله إنّك لحامِلُها ولتحمِلنّها، ولتدخُلَنّ بها من هذا الباب - وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة.

قال ثابت: فوالله ما مِتّ حتى رأيتُ ابنَ زياد، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن عليّ عليه السلام، وجعل خالد بن عُرْفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحبَ رايته، فدخل بها من باب الفيل.

وروى محمد بن إسماعيل بن عمرو البَجَليّ، قال: أخبرنا عمرو بن موسى الوجيهيّ، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، قال: قال علي عليه السلام على المنبر: مَا أحدٌ جرت عليه المواسي إلا وقد أنزل الله فيه قرآناً، فقام إليه رجل من مبغضيه فقال له: فما أنزل الله تعالى فيك؟ فقام الناس إليه يضربونه، فقال: دعوه، أتقرأ سورة هود؟ قال: نعم، فقرأ عليه السلام: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[1] ثم قال: الذي كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه وآله، والشاهد الذي يتلوه أنا.

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن بكير، عن حكيم بن جُبير، قال: خطب عليّ عليه السلام فقال في أثناء خطبته: «أنا عبدُ الله، وأخو رسوله، لا يقولها أحدٌ قبلي ولا بعدي إلا كذب، ورِثْتُ نبيَّ الرحمة، ونكَحْتُ سيدة نساء هذه الأمة، وأنا ختم الوصيين»(١).

فقال رجل من عَبْس: [و] مَنْ لا يحسِنُ أن يقول مثل هذا! فلم يرجع إلى أهله حتى جُنّ وصُرِع، فسألوهم: هل رأيتم به عَرَضاً قبل هذا؟ قالوا: ما رأينا به قبل هذا عَرَضاً.

وروى محمد بن جبلة الخيّاط، عن عِكْرمة، عن يزيد الأحمسيّ أن علياً عليه السلام كان جالساً في مسجد الكوفة، وبين يديه قوم منهم عمرو بن حُرَيث، إذ أقبلت امرأة مختمِرة لا تُعرف، فوقفت فقالت لعليّ عليه السلام: يا مَنْ قتل الرجال، وسفك الدماء وأيتمَ الصبيان، وأرمل النساء! فقال عليه السلام: وإنّها لهي هذه السَّلَقْلَقة الجلِعة المَجِعَةُ، وإنها لهي هذه، شبيهة الرجال والنساء، الّتي ما رأتْ دماً قط، قال: فولّت هاربة منكّسة رأسَها، فتبعها عمرو بن حريث، فلمّا صارت بالرَّحبة، قال لها: والله لقد سررتُ بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل، فادخِلي منزلي حتى أهبَ لك وأكسوَك، فلما دخلتْ منزلَه أمر جواريَه بتفتيشها وكشْفها ونَزْع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها، فبكتْ وسألته ألاّ يكشِفها، وقالت: أنا والله كما قال، لي رَكَب النساء، وأنثيانِ كأنثي الرجال، وما رأيت دماً قَطّ. فتركها وأخرجها. ثم جاء إلى عليّ عليه السلام فأخبره، فقال: إنّ خَليلي رسولَ الله صلى الله عليه وآله أخبرني بالمتمردين عليّ من الرجال والمتمرّدات من النساء إلى أن تقومَ الساعة.

قلت: السَّلْقلقَة: السَّليطة، وأصله من السَّلْق وهو الذئب، والسَّلْقة: الذئبة والجَلِعة المَجِعة: البذيئة اللسان. والرَّكَب: مَنبِت العانة.

وروى عثمان بن سعيد، عن شريك بن عبد الله، قال: لما بلغ عليًا عليه السلام أن الناسَ يتَهمونه فيما يذكره من تقديم النبيّ صلى الله عليه وآله وتفضيله [إياه] على النّاس، قال: أنشدُ الله مَنْ بَقِيَ ممّن لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع مقاله في يوم غَدِير خُمّ إلا قام فشهِد بما سمع، فقام ستة ممن عن يمينه، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وستة ممن على شماله من الصحابة أيضاً، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم، وهو رافع بيديْ عليّ عليه السلام: «مَنْ كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم والِ مَنْ والاه، وعاد من عاداه، انصُر مَنْ نصره، واخذُلَ مَنْ خذله، وأحبّ مَنْ أحبّه، وأبْغِضْ مَنْ أبغضه»(٢).

وروى عُثمان بن سعيد عن يحيى التَّيْميّ، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء، قال: قام

---

(١) أخرجه القطب الراوندي في الخرائج والجرائح: ١/ ٢٠٩.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ١١٨، وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير: ١/ ٦٥.

أعْشَى همْدان - وهو غلام يومئذٍ حَدَث - إلى عليّ عليه السلام، وهو يخطب ويذكُر الملاحم، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أشبه هذا الحديث بحديث خُرافة! فقال علي عليه السلام: إنْ كنتَ آثماً فيما قلتَ يا غلام، فرماك الله بغلام ثَقِيف، ثم سكت، فقام رجال فقالوا: ومَنْ غلامُ ثَقِيف يا أمير المؤمنين؟ قال: غلام يملِك بلدتَكُم هذه لا يتركُ لله حرمةً إلا انتهَكها، يضرب عُنُق هذا الغلام بسيفه، فقالوا: كم يملكُ يا أمير المؤمنين؟ قال: عشرين إن بلغها، قالوا: فيُقتَلُ قتلاً أم يموت موتاً؟ قال: بل يموتُ حَتْف أنفه بداء البَطْن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه.

قال إسماعيل بن رجاء: فوالله لقد رأيتُ بعيني أعْشَى باهلة، وقد أحضِر في جملة الأسرى الذين أسِروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجاج، فقرّعه ووبّخه، واستنشده شِعْرَه الذي يحرِّض فيه عبدَ الرحمن على الحرب، ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس.

وروى محمد بن علي الصوّاف، عن الحسين بن سفيان، عن أبيه، عن شَمير بن سَدِير الأزديّ، قال: قال عليّ عليه السلام لعمرو بن الحمِق الخُزاعيّ: أين نزلت يا عمرو؟ قال: في قومي، قال: لا تنزلنّ فيهم، قال: فأنزلُ في بني كِنانة جيراننا؟ قال: لا، قال: فأنزل في ثَقِيف؟ قال: فما تصنع بالمَعرّة والمجرة؟ قال: وما هما؟ قال: عُنُقان من نار، يخرجان من ظهر الكوفة، يأتي أحدهما على تميم وبكر بن وائل، فقلّما يُفلِت منه أحدٌ، ويأتي العنق الآخر، فيأخذ على الجانب الآخر من الكوفة، فقلَّ منْ يصيبُ منهم، إنما يدخل الدارَ فيحرِق البيتَ والبيتين. قال: فأين أنزِل؟ قال: انزِل في بني عمرو بن عامر، من الأزد - قال: فقال قوم حضروا هذا الكلام: ما نراه إلاّ كاهناً يتحدّث بحديث الكَهَنَة - فقال: يا عمرو، إنك المقتول بعدي، وإنّ رأسَك لمنقول، وهو أولُ رأسٍ ينقَل في الإسلام، والويل لقاتِلك! أما إنّك لا تنزِل بقوم إلا أسلموك برُمّتك، إلا هذا الحيّ من بني عمرو بن عامر من الأزْد، فإنّهم لن يُسلموك ولن يَخْذُلوك، قال: فوالله ما مضت إلا أيام حتى تنقل عمرو بن الحمِق في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب، خائفاً مذعوراً، حتى نزل في قومه من بني خُزاعة، فأسلموه، فقتِل وحُمِل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام، وهو أوّلُ رأس حُمِل في الإسلام من بلد إلى بلد.

وروى إبراهيم بن ميمون الأزديّ عن حَبّة العرنيّ، قال: كان جويرْية بن مِسهر العبديّ صالحاً، وكان لعلي بن أبي طالب صديقاً، وكان عليّ يحبُّه، ونظر يوماً إليه وهو يسير، فناداه: يا جويرية، الحَقْ بي، فإني إذا رأيتُك هَوِيتُك، قال إسماعيل بن أبان: فحدّثني الصبّاح، عن مسلم عن حَبّة العُرنيّ، قال: سرنا مع علي عليه السلام يوماً فالتفت فإذا جُويرية خَلْفه بعيداً، فناداه: يا جُويرِية، الحَقْ بي لا أبالك! ألا تعلم أنّي أهواك وأحِبّك! قال: فركَض نحوه، فقال له: إني محدِّثك بأمور فاحفظها، ثم اشتركا في الحديث سرّاً، فقال له جُويرية: يا أمير المؤمنين، إني

رجلٌ نسِيّ، فقال له: إني أعيدُ عليك الحديثَ لتحفظه، ثم قال له في آخر ما حدّثه إياه: يا جويرية، أحبِب حبيبنَا ما أحبَّنا، فإذا أبغضنا فأبغِضْه، وأبْغِض بغيضَنا ما أبغضَنا، فإذا أحبّنا فأحبّه.

قال: فكان ناسٌ ممن يشكّ في أمر علي عليه السلام يقولون: أتراه جعل جُويَرية وصيّه كما يدّعي هو من وصية رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: يقولون ذلك لشدّة اختصاصه له، حتى دخل على عليّ عليه السلام يوماً، وهو مضطجع، وعنده قوم من أصحابه، فناداه جويرية: أيّها النائم، استيقظ، فلَتُضْرَبنّ على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك، قال: فتبسم أميرُ المؤمنين عليه السلام، قال: وأحدّثك يا جويرية بأمرِك، أما والّذي نَفْسِي بيده لتُعتَلَنَّ إلى العَتُلّ الزنيم[1]، فليقطعنّ يدَك ورِجْلَك وليصلبنّك تحت جذع كافر، قال: فوالله ما مضت إلا أيّام على ذلك حتى أخذ زياد جُويرية، فقطع يدَه ورِجْلَه وصَلَبه إلى جانب جذع ابن مكعبر، وكان جِذْعاً طويلاً، فصلَبه على جِذْع قصير إلى جانبه.

وروى إبراهيم في كتاب «الغارات» عن أحمد بن الحسن المِيثميّ، قال: كان ميثم التمّار مولى عليّ بن أبي طالب عليه السلام عبداً لامرأة من بني أسد، فاشتراه عليّ عليه السلام منها وأعتقه، وقال له: ما اسمك؟ فقال: سالم، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني أنّ اسمَك الّذي سماك به أبوك في العجم «مِيثَم»، فقال: صدَق الله ورسوله، وصدقتَ يا أمير المؤمنين، فهو والله اسمي، قال: فارجع إلى اسمك، ودَعْ سالماً، فنحن نكنيك به، فكناه أبا سالم. قال: وقد كان قد أطلعه عليّ عليه السلام على علم كثير، وأسرار خفية من أسرار الوصية، فكان ميثم يحدّث ببعض ذلك، فيشكّ فيه قوم من أهل الكوفة، وينسُبون علياً عليه السلام في ذلك إلى المخرقة والإيهام والتدليس، حتى قال له يوماً بمحضَرٍ من خَلْق كثير من أصحابه، وفيهم الشاكّ والمخلِص: يا ميثم، إنك تُؤخَذ بعدي وتُصْلب، فإذا كان اليوم الثاني ابتدر مُنْخُراك وفمك دماً، حتى تُخضَب لحيتُك، فإذا كان اليومُ الثالث طعِنْت بحربة يُقضى عليك، فانتظِر ذلك. والمَوضع الذي تُصْلَب فيه على باب دار عمرو بن حريث، إنّك لَعاشِر عشرة أنت أقصرُهم خشبة، وأقربهم من المطهّرة - يعني الأرض - ولأرِينّك النَّخلة التي تُصْلَب على جِذعها، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين، وكان مِيثَم يأتيها، فيصلّي عندها، ويقول: بوركت مِنْ نخلة لكِ خُلِقتُ، ولِي نبتِّ، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل عليّ عليه السلام، حتى قُطِعت، فكان يَرْصُد جذعها، ويتعاهده ويتردّد إليه، ويبصره، وكان يَلْقَى عمرو بن حريث، فيقول له: إنّي مجاورُك فأحسِنْ جواري، فلا يعلم عمرو ما يريد، فيقول له: أتريدُ أن تشترِيَ دار ابن مسعود، أم دار ابن حكيم!

(١) العتل: الجافي الغليظ. اللسان، مادة (عتل). زنيم: قيل موسوم بالشر، والزنيم ولد العيهرة. اللسان، مادة (زنم).

قال: وحجّ في السَّنَة التي قتل فيها، فدخل على أمّ سلمة رضي الله عنه، فقالت له: مَنْ أنت! قال: عِراقيّ، فاستنسبَتْه، فذكر لها أنه مولى عليّ بن أبي طالب، فقالت: أنت يثم، قال: بل أنا مِيثم، فقالت: سبحان الله! والله لربّما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي بك عليًا في جوف الليل، فسألها عن الحسين بن عليّ، فقالت: هو في حائط له، قال: أخبريه أنّي قد أحببتُ السّلام عليه، ونحن ملتقُون عند ربّ العالمين، إن شاء الله، ولا أقدر اليوم على لقائه، وأريد الرجوع، فدعتْ بطيب فطيَّبت لحيته، فقال لها: أما إنها ستخضب بدم، فقالت: مَن أنباك هذا؟ قال: أنبأني سيدي، فبكت أمُّ سلمة، وقالت له: إنه ليس بسيّدك وحدَك، هو سيّدي وسيد المسلمين، ثم ودّعته.

فقدم الكوفة، فأُخِذ وأدخِلَ على عُبيد الله بن زياد. وقيل له: هذا كان من آثرِ النّاس عند أبي تراب، قال: وَيْحكم! هذا الأعجميّ! قالوا: نعم، فقال له عبيد الله: أين ربُّك؟ قال: بالمرصاد، قال: قد بلغني اختصاص أبي تراب لك، قال: قد كان بعضُ ذلك، فما تريد؟ قال: وإنه ليقال إنّه قد أخبرك بما سَيَلْقاك، قال: نعم، إنّه أخبرني، قال: ما الذي أخبرك أني صانع بك؟ قال: أخبرني أنّك تصلُبني عاشر عشرة وأنا أقصرُهم خشبة، وأقربهم من المطهرة، قال: لأخالفنّه، قال: ويحك! كيف تخالفُه، إنما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأخبر رسول الله عن جبرائيل، وأخبر جبرائيل عن الله، فكيف تخالف هؤلاء! أما والله لقد عرفتُ الموضع الذي أُصْلَب فيه أين هو من الكوفة؟ وإنّي لأوّل خَلق الله ألجم في الإسلام بلجامٍ كما يُلْجَم الخيل. فحبسه وحبس معه المختار بن أبي عبيدة الثقفي، فقال مِيثَم للمختار - وهما في حبس ابن زياد: إنّك تُفْلِت وتخرج ثائراً بدم الحسين عليه السلام، فتقتل هذا الجبّار الذي نحن في سجنه، وتطأ بقدمك هذه على جَبْهته وخَدَّيه. فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتلَه طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد، يأمره بتخلية سبيله، وذاك أن أخته كانت، تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب، فسألتْ بعلَها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع، فأمضى شفاعته، وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد، فوافى البريد، وقد أخرج ليضرب عنقه، فأطلق. وأما مِيثم فأخرج بعده لِيُصْلَب، وقال عبيد الله: لأمْضِيَنَّ حكْم أبي تراب فيه، فلقيَه رجل، فقال له: ما كان أغناك عن هذا يا ميثم؟ فتبسم، وقال: لها خلقتُ، ولي غُذِيتُ، فلما رُفِع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث، فقال عمرو: لقد كان يقول لي: إني مجاورك، فكان يأمر جاريته كلَّ عشية أن تكنُس تحت خشبته وترشّه، وتجمّر بالمجمر تحته، فجعل ميثم يحدّث بفضائل بني هاشم، ومخازي بني أميّة، وهو مصلوب على الخشبة، فقيل لابن زياد: قد فضحكم هذا العبد، فقال: ألجموه، فألجِم، فكان أول خَلق الله ألجِم في الإسلام. فلما كان في اليوم الثاني فاضت مُنخراه وفمه دماً، فلما كان في اليوم الثالث طُعِن بحربة فمات.

وكان قَتْلُ ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام.

قال إبراهيم: وحدّثني إبراهيم بن العباس النَّهْدِيّ، حدثني مبارك البَجَلّي، عن أبي بكر بن عياش، قال: حدثني المجالد، عن الشّعبي، عن زياد بن النضر الحارثيّ، قال: كنتُ عند زياد، وقد أتي برشيد الهجَريّ - وكان من خَواصّ أصحاب عليّ عليه السلام - فقال له زياد: ما قال خليلُك لك إنّا فاعلون بك؟ قال: تَقْطعُون يديّ ورِجْليّ، وتصلُبونني، فقال زياد: أمَا والله كَذّبنّ حديثه، خلّوا سبيلَه، فلما أراد أن يخرُج قال: ردُّوه، لا نجد شيئاً أصلحَ مما قال لك صاحبُك، إنّك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت، اقطعوا يديْه ورجْليْه، فقطَعوا يديه ورجلْيه، وهو يتكلّم، فقال: اصلُبوه خَنقاً في عُنُقه، فقال رشيد: قد بقي لِي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانَه، فلما أخرجوا لسانه ليُقطع قال: نَفّسُوا عَني أتكلم كلمة واحدة، فنفّسوا عنه، فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين، أخبرَني بقطع لساني. فقطعوا لسانه وصلبوه.

وروى أبو داود الطّيَالسيّ، عن سليمان بن رُزيق، عن عبد العزيز بن صُهيب، قال: حدثني أبو العالية، قال: حدّثني مزرع صاحبُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: لَيُقبِلَنّ جيشٌ حتى إذا كانوا بالبيداء، خُسِف بهم. قال أبو العالية: فقلت له: إنّك لَتحدّثُني بالغيب! فقال: احفَظْ ما أقوله لك، فإنما حدَّثني به الثّقة عليّ بن أبي طالب. وحدثني أيضاً شيئاً آخر: لَيُؤخَذَنّ رجل فليقتلنّ ولَيُصْلَبَنّ بين شُرْفتيْن من شُرَف المسجد، فقلت له: إنّك لَتُحدّثُني بالغيب! فقال: احفَظْ ما أقول لك، قال أبو العالية: فوالله ما أتَتْ علينا جُمعة حتى أُخذ مزرع، فقتل وصُلِب بين شرفتين من شُرَف المسْجِد.

قلت: حديث الخَسْف بالجيش قد خرّجه البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يَعُوذ قومٌ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِف بهم»، فقلت: يا رسولَ الله، لعلّ فيهم المكرَه أو الكاره، فقال: «يُخْسَف بهم، ولكن يحشرون» - أو قال: يُبْعَثون على نياتهم يوم القيامة»[1].

قال: فسئِل أبو جعفر محمد بن علي: أهي بيداء من الأرض؟ فقال: كَلاّ والله إنها بيداء المدينة. أخرج البخاري بعضه وأخرج مسلم الباقي.

ورو محمد بن موسى العَنَزَيّ، قال: كان مالك بن ضَمْرة الرؤاسيّ من أصحاب عليّ عليه السلام، وممن استبطن من جهته علماً كثيراً، وكان أيضاً قد صَحِب أبا ذَرّ، فأخذ من

(١) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: ما ذكر في أسواق (٢١١٨)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٤).

علمه، وكان يقول في أيام بني أمية: اللّهم لا تجعلني أشقَى الثلاثة، فيقال له: وما الثلاثة؟ فيقول: رجلٌ يرمَي من فوق طَمارٍ(١)، ورجل تُقطعُ يداه ورجلاه ولسانه ويصلب، ورجل يموت على فراشه. فكان من الناس مَن يهزأ به، ويقول: هذا من أكاذيب أبي تراب.

قال: وكان الذي رُمِي به من طَمارٍ هانيء بن عُرْوة، والذي قُطِع وصلب رشيد الهجريّ، ومَات مالك على فراشه.

الفصل الرابع وهو من قوله: «فنظرت في أمري. . .» إلى آخر الكلام، هذه كلمات مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه كان معهوداً إليه ألا ينازِعَ في الأمر، ولا يثيرَ فتنة، بل يطلبه بالرفق، فإن حَصَل له وإلا أمسك.

هكذا كان يقول عليه السلام، وقوله الحق، وتأويلُ هذه الكلمات: فنظرت فإذا طاعتِي لرسول الله صلى الله عليه وآله، أي وجوب طاعتي، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه.

قد سَبَقَت بيعتي للقوم، أي وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ، ووجوب امتثالي أمرَه سابقٌ على بَيْعَتَي للقوم، فلا سبيل لي إلى الامتناع من البَيْعة، لأنه صلى الله عليه وآله أمرَني بها.

وإذا الميثاق في عُنُقي لغيري، أي رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ عليّ الميثاق بترك الشِّقاق والمنازعة، فلم يحلّ لي أن أتعدّى أمرَه، أو أخالف نهيَه.

فإن قيل: فهذا تصريح بمذهب الإمامية.

قيل: ليس الأمر كذلك، بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديين، لأنّهم يزعمون أنه الأفضل والأحقّ بالإمامة، وأنّه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أنّ الأصلح للمكلّفين من تقديم المفضول عليه، لكان مَنْ تقدّم عليه هالكاً، فرسول الله صلى الله عليه وآله أخبره أن الإمامة حقّه، وأنه أولى بها من الناس أجمعين، وأعلمه أن في تقديم غيره وصَبْره على التأخّر عنها مصلحةً للدين راجعة إلى المكلّفين، وأنّه يجب عليه أن يُمسك عن طلبها، ويُغْضِي(٢) عنها لمن هو دون مَرْتَبته، فامتثل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يخرِجه تقدّم مَنْ تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحقّ. وقد صرّح شيخنا أبو القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى بهذا، وصرّح به تلامذتُه، وقالوا: لو نازع عَقِيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وسلّ سيفه لحكمْنا بهلاك كلّ من خالفه وتقدّم عليه كما حكمنا بهلاك مَنْ نازعه حين أظهر نفسه، ولكنّه مالك الأمر، وصاحب الخلافة،

---

(١) طمار: اسم للمكان المرتفع. اللسان، مادة (طمر).

(٢) يغضي: يسكت. اللسان، مادة (غضا).

إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق مَنْ ينازعه فيها، وإذا أمسك عنها وجب علينا القولُ بعدالة مَنْ أغضى له عليها، وحكمه في ذلك حكُم رسول الله ﷺ، لأنه قد ثبت عنه في الأخبار الصحيحة أنه قال: «عليّ مع الحقّ، والحق مع عليّ يدور حيثما دار»[(١)]، وقال له غير مرة: «حربُك حربي وسِلْمك سِلْمي»[(٢)]. وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندي، وبه أقول.

٣٨ – ومن خطبة له عليه السلام في معنى الشبهة

الأصل: وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الحَقَّ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى. وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلاَلُ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى.

فَمَا يَنْجُو مِنَ المَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّه.

الشرح: هذان فصلان، أحدهما غير ملتئم مع الآخر، بل مبتور عنه، وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى كان يلتقط الكلام التقاطاً، ومراده أن يأتيَ بفصيح كلامِه عليه السلام، وما يجرِي مجرَى الخطابة والكتابة، فلهذا يقعُ في الفصل الواحد الكلامُ الذي لا يناسِبُ بعضُه بعضاً، وقد قال الرضيّ ذلك في خطبة الكتاب.

أما الفصل الأول فهو الكلام في الشُّبْهة، ولماذا سمِّيت شبهة، قال عليه السلام: «لأنّها تُشْبِه الحقّ»، وهذا هو محضُ ما يقوله المتكلّمون، ولهذا يسمّون ما يحتجّ به أهلُ الحقّ دليلاً، ويسمون ما يحتجّ به أهل الباطل شُبهة.

قال: «فأمّا أولياءُ الله فضياؤهم في حلّ الشبهة اليقين، ودليلُهم سَمْتُ الهُدى»، وهذا حقّ لأنَّ من اعتبر مقدّمات الشُّبْهَة، وراعى الأمور اليقينيّة، وطلَب المقدِّمات المعلومة قطعاً، انحلّت الشُّبْهة، وظهر له فسادها مِنْ أين هو؟ ثم قال: «وأما أعداءُ الله فدعاؤهم الضّلال، ودليلهم العَمَى، وهذا حقّ، لأن المبطِل ينظر في الشُّبْهة، لا نظر مَنْ راعى الأمور اليقينية، ويحلّل المقدمات إلى القضايا المعلومة، بل يَغْلِبُ عليه حبّ المذهب، وعصبية أسلافه، وإيثار نصره مَنْ قد ألزم بنصرته، فذاك هو العمى والضلال، اللّذان أشار أمير المؤمنين إليهما، فلا

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٥).

(٢) رواه الثقفي في الغارات: ١/ ٦٢، وابن بطريق في العمدة: ٢١٤، والمرتضى في الشيعة في أحاديث الفريقين: ٣٩.

تنحلّ الشبهة له، وتزداد عقيدته فساداً، وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية الكلامَ في توليد النظر للعلم، وأنه لا يولّد الجهل.

الفصل الثاني: قوله: «فما ينجُو من الموت مَنْ خافه، ولا يعطَى البقاءَ مَنْ أحبّه»، هذا كلام أجنبيّ عمّا تقدم، وهو مأخوذ مِن قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[1]، وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾[2]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

٣٩ - ومن خطبة له عليه السلام في ذم المتقاعدين عن القتال

الأصل: مُنِيتُ بِمَنْ لا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ، وَلاَ يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لاَ أَبَا لَكُمْ! مَا تَنْتَظِرُون بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ! أَقُومُ فِيكُمْ مستَصْرِخاً، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلاَ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاَ تُطِيعُونَ لِي أَمراً، حَتَّىٰ تكشِفَ ٱلْأُمورُ عَنْ عَوَاقِبِ المَسَاءَةِ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَأْرٌ، وَلاَ يُبْلَغُ بِكُم مَرَام. دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْأَسَرِّ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ ٱلنِّضْوِ ٱلْأَدْبَرِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.

قال الرضي رحمه الله: قوله عَليه السَّلام: «مُتَذَائِبٌ» أي مُضطَرِب، مِن قولهم: تَذَاءَبَتِ ٱلرِّيحُ، أيْ ٱضْطَرَبَ هُبُوبهَا، وَمِنه سُمِّيَ الذِّئْبُ ذِئْباً لِاضْطِرابِ مِشْيَته.

الشرح: مُنِيتُ، أي بُليتُ. وتُحْمِشُكم: تُغْضِبُكم، أحمشه أي أغضبه. والمستصرِخ: المستنصر. والمتغوّث: القائل: واغوثاه!

والجَرْجرة: صوت يردِّده البعير في حَنجَرته، وأكثرُ ما يكون ذلك عند الإعياء والتعب. والجمل الأسَرّ: الذي بِكِرْكِرَتِهِ دَبَرة. والنِّضو: البعير المهزول والأدْبَر: الذي به دَبَر، وهو المعقور من القَتَب وغيره.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤. (٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

هذا الكلام خَطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام في غارة النّعمان بن بشير الأنصاريّ على عَيْن التَّمْر.

ذكر صاحبُ «الغارات» أنّ النعمانَ بن بشير قَدِم هو وأبو هريرةَ على عليّ عليه السلام من عند معاوية، بعد أبي مسلم الخَوْلانيّ، يسألانه أن يدفع قَتلةَ عثمان إلى معاوية ليُقيدَهم بعثمان، لعلّ الحرب أنْ تُطفَأ، ويصطلح الناس، وإنما أراد معاويةُ أن يرجعَ مثلُ النّعمان وأبي هريرة من عند عليّ عليه السلام إلى الناس، وهمْ لمعاويةَ عاذِرون ولعليّ لائمون، وقد علِم معاوية أنّ عليًّا لا يدفع قَتلةَ عثمان إليه، فأراد أن يكون هٰذان يشهدان له عند أهل الشام بذلك، وأن يظهر عذره، فقال لهما: ائتيا عليًّا فانشُداه الله، وسَلاَه بالله لَمَا دفعَ إلينا قتلةَ عثمان، فإنّه قد آواهم ومنعهم، ثم لا حربَ بيننا وبينه، فإن أبى فكونوا شهداء الله عليه.

وأقبلا عَلَى الناس فأعلماهم ذلك، فأتيا إلى عليّ عليه السلام، فدخلا عليه، فقال له أبو هريرة: يا أبا حَسَن، إنّ الله قد جعل لك في الإسلام فضلاً وشرفاً، أنتَ ابنُ عمّ محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد بعثَنا إليك ابنُ عَمّك معاوية، يسألك أمراً تسكُن به هذه الحرب، ويُصلح الله تعالى ذاتَ البين، أن تدفع إليه قتلةَ عثمان ابن عمه، فيقتلَهم به، ويجمع الله تعالى أمرَك وأمره، ويصلح بينكم، وتَسْلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة. ثم تكلّم النعمانُ بنحوٍ من ذلك.

فقال لهما: دَعَا الكلام في هذا، حدِّثْني عنك يا نعمان، أنت أهدى قومك سبيلاً؟ يعني الأنصار، قال: لا، قال: فكلّ قومِك قد اتّبَعني إلاّ شُذّاذاً، منهم ثلاثة أو أربعة، أفتكون أنت من الشُذاذ! فقال النعمان: أصلَحك الله، إنّما جئتُ لأكونَ معك وألزمَك، وقد كان معاويةُ سألني أن أؤدِّيَ هذا الكلام، ورجوتُ أن يكونَ لي موقف أجتمِع فيه معك، وطمعتُ أن يُجْرِيَ الله تعالى بينكما صلحاً، فإذا كان غير ذلك رأيُك، فأنا مُلازمك وكائن معك.

فأما أبو هريرة فلحِق بالشام، وأقام النعمانُ عند عليّ عليه السلام، فأخبرَ أبو هريرة معاويةَ بالخبر، فأمره أن يُعلِم الناس، ففعل، وأقام النعمان بعدَه شهراً، ثم خرج فاراً من عليّ عليه السلام، حتى إذا مَرّ بعين التَّمْر أخذه مالك بن كعب الأرحبي - وكان عامل عليّ عليه السلام عليها - فأرادَ حبسه، وقال له: ما مرّ بك بيننا؟ قال: إنّما أنا رسولٌ بلّغتُ رسالةَ صاحبي، ثم انصرفت، فحبسه وقال: كما أنتَ، حتى أكتبَ إلى عليّ فيك. فناشده، وعَظُم عليه أن يكتبَ إلى عليّ فيه، فأرسل النعمانُ إلى قُرَظة بن كعب الأنصاريّ - وهو كاتب عين التَّمْر يجبِي خراجَها لعلّي عليه السلام - فجاءه مسرِعاً، فقال لمالك بن كعب: خلِّ سبيلَ ابن عمي، يرحمك الله! فقال: يا قَرَظَة، اتّق الله ولا تتكلّم في هذا، فإنه لو كان من عُبّاد الأنصار ونُسّاكهم لم يهرُب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين.

فلم يزلْ به يقسِم عليه حتى خلّى سبيلَه، وقال له: يا هذا، لك الأمان اليوم والليلة. وغداً،

والله إنْ أدركتُك بعدَها لأضربنّ عنقك، فخرج مسرعاً لا يلوي على شيء، وذهبتْ به راحلتُه، فلم يدرِ أين يتسكّعُ من الأرض ثلاثة أيام، لا يعلم أين هو! فكان النعمان يحدِّث بعد ذلك، يقول: والله ما علمتُ أين أنا، حتّى سمعت قول قائلة تقول وهي تطحَن:

شَـرِبْـتُ مـع الـجـوزاءِ كـأسـاً رَوِيّـةً　　　وَأُخْـرَى مع الشِّـعرى إذا ما اسْـتَقَـلَّـتِ
مُـعَـتّـقَـةً كـانـت قـريـشٌ تَـصُـونُـهـا　　　فـلـمّـا استحلُّوا قتلَ عثمانَ حلّتِ

فعلمتُ أني عند حيّ من أصحاب معاوية، وإذا الماء لبني القَيْن، فعلمت أني قد انتهيتُ إلى الماء.

ثم قَدِم على معاوية فخبَّره بما لَقِيَ، ولم يزل معه مصاحباً، لم يجاهِدْ علياً، ويتتبَّع قتلة عثمان، حتى غَزَا الضّحاكُ بنُ قيس أرضَ العراق، ثم انصرف إلى معاوية، وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة: أمَا من رجل أبعثُ به بجريدة خيل[1]، حتى يُغِيرَ على شاطيء الفرات، فإنّ الله يُرعِبُ بها أهلَ العراق! فقال له النعمان: فابْعثني، فإنّ لي في قتالهم نيّة وهوًى - وكان النعمان عثمانياً - قال: فانتدب على اسم الله، فانتدَبَ ونَدَب معه ألفي رجل، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات، وألاّ يُغير إلا على مَسْلَحة، وأن يعجّل الرجوع.

فأقبلَ النعمانُ بن بشير، حتى دنا من عين التَّمْر، ، وبها مالك بن كعب الأرحبيّ الذي جرى له معه ما جَرى، ومع مالك ألفُ رجل، وقد أذِن لهم، فرجعوا إلى الكوفة، فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها، فكتب مالك إلى عليّ عليه السلام: أما بعد، فإنّ النعمان بن بشير، قد نَزَل بي في جمع كَثِيف، فَرَ رأيَك، سدّدك الله تعالى وثبتك. والسلام.

فوصل الكتابُ إلى عليّ عليه السلام، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اخرجُوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخِيكم، فإنّ النعمان بن بشير قد نَزَل به في جمع من أهل الشام، ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم، لعلّ الله يقطعُ بكم من الكافرين طَرَفاً. ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسلَ إلى وُجُوههم وكُبَرائهم، فأمرَهم أن ينهضُوا ويحثّوا الناسَ على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أوْ دونها، فقام عليه السلام، فقال: ألا إني مُنيت بمنْ لا يطيع. . . الفصل الذي شرحناه إلى آخره، ثم نزل.

فدخل منزله، فقام عديّ بن حاتم، فقال: هذا والله الخِذلان، على هذا بايعْنا أميرَ المؤمنين! ثم دخلَ إليه فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ معي من طيّيء ألفَ رجل لا يعصونني، فإن شئتَ أن أسير بهم سرت. . قال: ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس ولكن

(١) جريدة الخيل: الخيل التي لم ينهض معها راجل، وقيل الجريدة: الجماعة من الخيل. وقيل: جريدة: أي خيار إشداداً. اللسان، مادة (جرد).

اخرج إلى النُّخَيلة فعكسر بهم. وفرض عليّ عليه السلام لكلّ رجل سبعمائة، فاجتمع إليه ألفُ فارس، عدا طَيّئاً أصحاب عديّ بن حاتم.

وورد عَلَى عليّ عليه السلام الخبرُ بهزيمة النّعمان بن بشير ونُصْرة مالك بن كعب، فقرأ الكتاب على أهل الكوفة، وحمِد الله وأثنى عليه، ثم نظر إليهم وقال: هذا بحمْدِ الله وذمّ أكثركم.

فأما خبرُ مالك بن كعب مع النعمان بن بشير، قال عبد الله بن حوزة الأزديّ: قال: كنتُ مع مالك بن كعب حين نزل بنا النعمان بن بشير، وهو في ألفين، وما نحن إلا مائة فقال لنا: قاتُلوهم في القرية، واجعلوا الجُدُر في ظهوركم، ولا تلقُوا بأيديكم إلى التهلكة، واعلموا أن الله تعالى ينصُر العشرة على المائة، والمائة على الألف، والقليل على الكثير. ثم قال: إنّ أقرب مَنْ ها هنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قَرَظة بن كعب ومِخْنَف بن سُلَيم، فاركض إليهما، فأعلمْهما حالنا، وقل لهما: فلينصُرانا ما استطاعا، فأقبلتُ أركض، وقد تركتُه وأصحابَه يرمون أصحابَ ابن بشير بالنَّبْل، فمررت بقَرَظة فاستصرختُه، فقال: أنا صاحبُ خراج، وليس عندي من أعِينه به. فمضيت إلى مِخْنَف بن سليم، فأخبرته الخَبر، فسرّح معي عبد الرحمن بن مخنف في خمسين رجلاً، وقاتل مالكُ بن كعب النعمانَ وأصحابه إلى العصر، فأتيناه وقد كسَر هو وأصحابُه جفونَ سيوفهم، واستقبلوا الموت، فلو أبطأنا عنهم هلكوا، فما هو إلا أنْ رآنا أهلُ الشام، وقد أقبلْنا عليهم، فأخذوا ينكُصون عنهم ويرتفعون، ورآنا مالكٌ وأصحابه، فشدّوا عليهم حتى دفعوهم عن القَرْية، فاستعرضناهم، فصرعنا منهم رجالاً ثلاثة، وارتفع القومُ عنا، وظنُّوا أنّ وراءنا مدداً، ولو ظنّوا أنه ليس غيرنا لأقبلوا علينا ولأهلكونا، وحال الليل بيننا وبينهم، فانصرفوا إلى أرضهم. وكتب مالك بن كعب إلى عليّ عليه السلام:

أما بعدُ، فإنّه نزل بنا النعمان بن بشير في جَمْع من أهل الشام، كالظاهر علينا، وكان عُظْم أصحابي متفرّقين، وكنّا للذي كان منهم آمنين، فخرجنا إليهم رجالاً مصلتين[1]، فقاتلناهم حتى المساء، واستصرخْنا مِخْنف بن سُليم، فبعث إلينا رجالاً من شيعة أمير المؤمنين وولده، فنعم الفتى ونعم الأنصار كانوا، فحملنا على عدوّنا وشددنا عليهم، فأنزل الله علينا نصرَه، وهزم عدوّه، وأعزّ جنده. والحمد لله رب العالمين، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

وروى محمد بن فرات الجَرْميّ، عن زيد بن علي عليه السلام، قال: قال عليّ عليه السلام في هذه

(١) الصلت: الرجل الصلب الماضي في أموره، خفيف الثياب. اللسان، مادة (صلت).

لبة: أيها الناس، إني دعوتكم إلى الحقّ فتوليتم عني، وضربتكم بالدّرّة فأعييتموني، أما إنه يكم بعدي ولاةٌ لا يرضوْن عنكم بذلك حتى يعذّبوكم بالسياط وبالحديد، فأمّا أنا فلا يكم بهما، إنه من عذّب الناس في الدنيا عذّبه الله في الآخرة، وآية ذلك أن يأتيكم صاحبُ ن، حتى يحلّ بين أظهركم، فيأخذ العمال وعمال العمال، رجل يقال له يوسف بن عمرو، وم عند ذلك رجل منّا أهلَ البيت، فانصروه فإنه داع إلى الحق.

قال: وكان الناس يتحدثون أن ذلك الرجل هو زيد عليه السلام.

٤٠ - ومن كلام له عليه السلام للخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم إلا لله» قال

الأصل: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطل، نَعَمْ إِنَّهُ لاَ حُكْمَ إِلاَّ لله، وَلَكِنَّ هَؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ. وَإِنَّهُ لاَ بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ ٱلْمُؤْمِن، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا ٱلْكَافِر، يُبَلِّغُ ٱلله فِيهَا ٱلأَجَل، وَيُجْمَعُ بِهِ ٱلْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ ٱلْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُل، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ بنَ ٱلْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ.

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال:

حُكْمَ ٱلله أَنْتَظِرُ فِيكُمْ.

وقال: أَمَّا ٱلإِمْرَةُ ٱلْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ، وَأَمَّا ٱلإِمْرَةُ ٱلْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُه، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُه.

الشرح: هذا نصٌّ صريح منه عليه السلام، بأنّ الإمامةَ واجبة، وقد اختلف الناس في هذه المسألة فقال المتكلّمون كافّة: الإمامة واجبة، إلاّ ما يحكَى عن أبي بكر الأصَمّ من قدماء اصحابنا أنها غيرُ واجبة، إذا تناصفت الأمة، ولم تتظالم.

وقال المتأخرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غيرُ مخالف لما عليه الأمة، لأنه إذا كان لا يجوز في العادة أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس يحكم بينهم، فقد قال بوجوب الرياسة على كلّ حال، اللّهم إلا أن يقول: إنه يجوز أن تَستقيم أمورُ الناس من دون رئيس، وهذا بعيد أن يقوله، فأما طريق وجوب الإمامة ما هي؟ فإن مشايخَنا البصريّين رحمهم الله يقولون: طريق وجوبها الشرع، وليس في العقل ما يدلّ على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى:

إنّ العقلَ يدلّ على وجوب الرياسة، وهو قول الإمامية، إلا أنّ الوجه الذي منه يوجب أصحابنا الرياسة غير الوجه الذي توجب الإمامية منه الرياسة، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرياسة عَلَى المكلّفين، من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية، ودفع مضارّ دنيوية. والإمامية يُوجبون الرياسة عَلَى الله تعالى، من حيث كان في الرياسة لُطْف وبعدٌ للمكلّفين عن مواقعة القبائح العقلية.

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابِق ما يقوله أصحابنا، ألاَ تراه كيف علّل قوله: «لا بدَّ للناس من أمير»، فقال في تعليله: «يُجمَع به الفيء، ويقاتَل به العدوّ وتُؤمَن به السُّبل، ويؤخذ للضعيف من القويّ»! وهذه كلّها من مصالح الدنيا.

فإنْ قيل: ذكرتم أنّ الناس كافّة قالوا بوجوب الإمام، فكيفَ يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنّهم يقولون: «لا إمرة»!

قيل: إنهم كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنّه لا حاجةَ إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عليهم عبدَ الله بن وهب الرّاسبيّ.

فإن قيل: فسّروا لنا ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام.

قيل: إنّ الألفاظَ كلّها ترجع إلى إمرة الفاجر.

قال: يعمل فيها المؤمن، أي ليست بمانعة للمؤمن من العمَل، لأنه يمكنه أن يصلّيَ ويصوم ويتصدّق، وإن كان الأمير فاجراً في نفسه.

ثم قال: «ويستمتع فيها الكافر» أي يتمتّع بمدته، كما قال سبحانه للكافرين: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[1].

ويبلّغ الله فيها الأجل، لأنّ إمارة الفاجر كإمارة البَرّ، في أنّ المدة المضروبة فيها تنتهي إلى الأجل المؤقت للإنسان.

ثم قال: «ويُجمَع به الفيء، ويُقاتَل به العدو، وتأمن به السبل، ويُؤخذ به للضّعيف من القويّ»، وهذا كلّه يمكن حصوله في إمارة الفاجر القويّ في نفسه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله ليؤيِّد هذا الدِّينَ بالرجُل الفاجر»[2]، وقد اتّفقت المعتزلة عَلَى أنّ أمراء بني أميّة كانوا فُجّاراً عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد. وكان الفيء يُجْمَع بهم، والبلاد تُفْتَح

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (٣٠٦٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١١).

في أيامهم، والثغورُ الإسلامية محصنة مَحُوطة، والسُّبُل آمنة، والضعيف منصور على القويّ الظالم، وما ضرّ فجورُهم شيئاً في هذه الأمور. ثم قال عليه السلام: فتكون هذه الأمور حاصلة إلى أن يستريحَ برّ بموته، أو يُستَرَاح من فاجر بموته أو عزله.

فأما الرواية الثانية، فإنّه قد جعل التقيّ يعمل فيها للإمرة البَرَّة خاصة.

وباقي الكلام غنيّ عن الشرح.

الخوارج: عودٌ على بدء

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدّث في كتاب «صِفّين»، عن عبد الرحمن بن زياد، عن خالد بن حميد المصريّ، عن عمر مولى غُفْرة، قال: لما رجع عليّ عليه السلام من صِفّين إلى الكوفة، أقام الخوارج حتى جَمُّوا[1]، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حَرُورَاء، فنادَوْا: لا حكْمَ إلا لله ولو كره المشركون، ألا إنّ عليًّا ومعاوية أشركا في حُكْم الله.

فأرسل عليّ عليه السلام إليهم عبدَ الله بن عباس، فنظر في أمرِهم وكلّمهم، ثم رجع إلى عليّ عليه السلام، فقال له: ما رأيت؟ فقال ابنُ عباس: والله ما أدرِي ما هم! فقال له عليّ عليه السلام: رأيتَهم منافقين؟ قال: والله ما سيماهُم بسِيما المنافقين، إنّ بينَ أعينهم لأثرَ السجود، وهم يتأوّلون القرآن. فقال عليّ عليه السلام: دَعُوهم ما لم يسفِكوا دماً، أو يغصِبوا مالاً، وأرسل إليهم: ما هذا الذي أحدثتم؟ وما تريدون؟ قالوا: نريد أن نخرُجَ نحن وأنت ومَنْ كان مَعَنَا بصِفّين ثلاث ليال، ونتُوب إلى الله من أمْرِ الحَكَمين، ثم نسير إلى معاوية، فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه. فقال عليّ عليه السلام: فهلا قلتم هذا حين بعثْنا الحَكَمين، وأخذنا منهم العهد، وأعطيناهُموه! ألا قلتم هذا حينئذ! قالوا: كنا قد طالت الحرب علينا، واشتدّ البأس، وكَثُر الجراح، وخلا الكُراع والسلاح، فقال لهم: أفحِين اشتدّ البأس عليكم، عاهدتم، فلما وجدتُم الجَمام قلتم: ننقضُ العهد! إنّ رسول الله كان يفي للمشركين، أفتأمُرونني بنقضِه!

فمكثوا مكانَهم لا يزالُ الواحد منهم يرجع إلى عليّ عليه السلام، ولا يزال الآخر يخرج من عند عليّ عليه السلام، فدخل واحد منهم عَلَى عليّ عليه السلام بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لا حُكم إلا لله ولو كره المشركون، فتلفّت الناس، فنادَى: لا حكم إلا لله ولو كره المتلفّتون، فرفع عليّ عليه السلام رأسَه إليه، فقال: لا حكم إلا لله ولو كره أبو حسن. فقال عليّ عليه السلام: إن أبا الحَسَن لا يكره أن يكون الحكم لله، ثم قال: حكم الله أنتظر فيكم، فقال له الناس: هلا مِلْتَ يا أمير المؤمنين عَلَى هؤلاء فأفنيتَهم! فقال: إنهم لا يفنوْن، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة.

(١) جموا أي كثروا. اللسان، مادة (جمم).

وروى أنَس بن عِياض المدنيّ، قال: حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، عن أبيه عن جَدّه، أنّ عليًّا عليه السلام كان يوماً يؤمّ الناس، وهو يجهَر بالقراءة، فجهر ابنُ الكوّاء من خلفه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١)، فلما جهر ابنُ الكوّاء وهو خلفه بها سكت عليّ، فلما أنهاها ابنُ الكواء عاد عليّ عليه السلام، فأتم قراءته، فلما شرع عليّ عليه السلام في القراءة أعاد ابن الكَوّاء الجهر بتلك الآية، فسكت عليّ، فلم يزالا كذلك يسكت هذا، ويقرأ ذاك مراراً، حتى قرأ عليّ عليه السلام: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾(٢)، فسكت ابن الكَوّاء، وعاد عليه السلام إلى قراءته.

٤١ - ومن خطبة له عليه السلام: في الوفاء والصدق

الأصل: إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْءَمُ الصِّدْقِ، وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ، وَما يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً، وَنَسَبَهم أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ.

مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ.

الشرح: يقال: هذا توءم هذا، وهذه توءمته، وهما توءمان، وإنما جُعل الوفاء توءم الصدق، لأنّ الوفاء صدقٌ في الحقيقة، ألاَ ترى أنّه قد عاهد عَلَى أمر وصدق فيه ولم يُخْلِف، وكأنهما أعمّ وأخصّ، وكل وفاءٍ صدق وليس كلّ صدقٍ وفاء، فإن امتنع من حيث الاصطلاح تسميةُ الوفاء صدقاً فلأمرٍ آخر، وهو أن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول، ولا يكون الصدق إلاّ في القول، لأنّه نوع من أنواع الخبر، والخبر قول.

ثم قال: «ولا أعلم جُنّة» أي درعاً. أوقَى منه، أي أشدّ وقاية وحفظاً، لأنّ الوفيّ محفوظ من الله، مشكور بين الناس.

ثم قال: «وما يغدر مَنْ عَلِمَ كيف المرجع»، أي مَنْ علم الآخرة وطوَى عليها عقيدته، منعه ذلك أن يغدِر، لأنّ الغدر يُحْبِط الإيمان.

ثمّ ذكر أنّ الناس في هذا الزمانِ ينسبون أصحاب الغدر إلى الكَيْس، وهو الفِطْنة والذكاء،

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٦٠.

فيقولون لمن يخدَع ويغدِر، ولأرباب الجريرة والمكْر: هؤلاء أذكياء أكياس، كما كانوا يقولون في عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وينسُبون أرباب ذلك إلى حسن الحيلة وصحة التدبير.

ثم قال: «ما لهم قاتلَهم الله»! دعاء عليهم.

ثم قال: قد يَرى الحوّل القلّبُ وجهَ الحيلة، ويمنعه عنها نهيُ الله تعالى عنها، وتحريمه بعد أن قَدَر عليها، وأمكنه. والحوّل القلّب: الذي قد تحوّل وتقلّب في الأمور وجَرّب، وحنّكته الخطوب والحوادث.

ثم قال: «وينتهز فُرصتها، أي يبادر إلى افتراصها ويغتنمها. مَنْ لا حريجة له في الدين، أي ليس بذي حَرَج، والتحرّج: التأثم والحريجة: التقوى، وهذه كانت سجيته عليه السلام وشيمته، مَلَك أهلُ الشام الماء عليه، والشريعة بصفّين، وأرادوا قتْلَه وقتلَ أهل العراق عطشاً، فضاربَهم على الشريعة حتى مَلَكها عليهم، وطردَهم عنها، فقال له أهل العراق: اقْتُلْهُم بسيوف العطش، وامنعهم الماء، وخذهم قَبْضاً بالأيدي، فقال: إنّ في حد السيف لغنًى عن ذلك، وإني لا أستحلّ منعَهم الماء. فأفرَجَ لهم عن الماء فوردوه، ثم قاسمهم الشريعة شَطرَيْن بينهم وبينه. وكان الأشتر يستأذنه أن يبيِّت[1] معاوية، فيقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى أن يُبَيَّتَ المشركون، وتوارث بنوه عليهم السلام هذا الخُلق الأبيّ.

أراد المضاءُ أن يُبَيِّت عيسى بن موسى فمنعه إبراهيم بن عبد الله.

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمد بن قحطبة مولى باهلة وكان قد وُلّيَ لأبي جعفر المنصور بعضَ أعمالٍ بفارس، فقال له: هل عندك مال! قال: لا، قال: آلله؟ قال: آلله. قال: خلُّوا سبيله، فخرج ابن قَحْطبة، وهو يقول بالفارسية: ليس هذا من رجال أبي جعفر. وقال لعبد الحميد بن لاحق: بلغني أن عندك مالاً للظلمة، يعني آل أبي أيوب الموريانيّ كاتب المنصور، فقال: ما لهم عندي مال، قال: تُقسم بالله! قال: نعم، فقال: إن ظهرَ لهم عندك مال لأعدّنك كذاباً.

وأرسل إلى طلحة الغدريّ - وكان للمنصور عنده مال -: بلغنا، أنّ عندك مالاً فأتِنا به، فقال: أجل، إنّ عندي مالاً، فإن أخذتَه مني أغرمَنيه أبو جعفر، فاضرب عنه.

وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة، وكان القوم أصحابَ دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنما يطلبونها ليقيمُوا عمود الدين بالإمرة فيها، فلم يستقم لهم، والدنيا إلى أهلها أميل.

---

(١) بيت: تبييت العدو: هو أن يقصد في الليل من غير أن يعلم، فيؤخذ بغتة. اللسان، مادة (بيت).

مدح الوفاء وذم الغدر

ومن الأخبار النبوية المرفوعة في ذم الغَدْر: «ذمة المسلمين واحدة، فإن جارت عليهم أمة منهم، فلا تَخْفِروا جوارها، فإنّ لكل غادر لواء يعرَف به يوم القيامة»(١).

وروى أبو هريرة، قال: مرّ رسول الله ﷺ برجل يبيع طعاماً فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره، فأمر أبا هريرة أن يدخِل فيه يدَه، فأدخلها فإذا هو مبلول، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من غشّ»(٢).

قال بعضُ الملوك لرسولٍ وردَ إليه من ملك آخر: أطلعْني على سِرّ صاحبك، فقال: أيها الملك، إنّا لا نستحسن الغدر، وإنه حُوّل ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض من قُبْحه، ولكان سماجة اسمه وبشاعة ذكره ناهيَيْن عنه.

مالك بن دينار، كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة.

وقّع جعفر بن يحيى على ظهر كتابٍ كتبه عليّ بن عيسى بن ماهان إلى الرشيد، يسعى فيه بالبرامكة، فدفعه الرشيدُ إلى جعفر، يمنّ به عليه، وقال: أجِبْه عنه، فكتب في ظاهره: حَبّب الله إليك الوفاء يا أخي فقد أبغضتَه، وبغّض إليك الغدَر فقد أحببتَه، إنّي نظرت إلى الأشياء حتى أجدَ لك فيها مشبهاً فلم أجد، فرجعت إليك، فشبهّتك بك، ولقد بَلَغَ من حسن ظنّك بالأيام أنْ أمّلْت السلامة مع البغي، وليس هذا من عاداتها. والسلام.

كان العهد في عيسى بن موسى بن محمد بعد المنصور بكتاب كَتَبه السفّاح، ، فلما طالت أيامُ المنصور، سامه أن يخلع نفسَه من العهد، ويقدّم محمداً المهديّ عليه، فكتب إليه عيسى:

بَدَتْ لِي أماراتٌ من الغَدْرِ شِمْتُها ... أرى ما بدا منها سَيُمطِرُكُمْ دَمَا
وَمَا يعلَمُ العالِي مَتَى هبطاتُه ... وإن سار في ريح الغُرورِ مُسَلّماً

---

(١) أخرج بنحو الشطر الأول منه البخاري، كتاب: الحج، باب: حرم المدينة (١٨٧٠)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة (١٣٧٠)، وأخرج الشطر الثاني منه البخاري). كتاب: الجزية، باب: تحريم القدر (١٧٣٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» (١٠٢)، والترمذي، كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية الغش في البيوع (١٣١٥)، وأبو داود، كتاب: البيوع، باب: النهي عن الغش (٣٤٥٢)، وابن ماجه، كتاب: التجارات، باب: النهي عن الغش (٢٢٢٤).

أبو هريرة يرفعه: «اللهمّ إني أعوذ بك من الجُوع فبئسَ الضّجيع، وأعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة!»[١].

وعنه مرفوعاً: «المكر والخديعة والخيانة في النار»[٢].

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب، عند زوال أمره: أرى أن تصير إلى هؤلاء، فلعلّك أن تنفَعني في مخلفي، فقال: وكيف لِي بعلْم الناس جميعاً أنّ هذا عن رأيك! إنّهم لَيقولون كلّهم: إني غَدَرْتُ بك، ثم أنشد:

وغَـــدْرِي ظـــاهـــرٌ لا شـــكّ فـيـــه ... لـمـبـصـره وعـذرِي بـالْـمَـغِـيـبِ

فلما ظفر به عبد الله بن عليّ، قَطَع يديه ورجْليه، ثم ضرب عُنقه.

كان يقال: لا يغدِر غادر إلاّ لصغر همّته عن الوفاء، واتّضاع قَدْره عن احتمال المكاره في جَنْب نَيْل المكارم.

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: الوفاء لأهل الغدر غَدْر، والغدرُ بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى.

قلت: هذا إنّما يريد به إذا كان بينهما عَهْد ومُشارطة، فغدَر أحد الفريقين، وخاس[٣] بشرْطه، فإنّ للآخر أن يغدر بشرطه أيضاً ولا يفي به.

ومن شعر الحماسة، واسم الشاعر العارق الطائيّ:

مَنْ مبلـغٌ عَـمْـرَو بـن هِـنْـدٍ رسـالـةً ... إذا استحقَبتْها العيسُ جَاءَتْ من البُعْدِ

أيـوعـدُنـي والـرّمْـلُ بـيـنـي وبـيـنَـه ... تـبـيَّـنْ رُويـداً مـا أُمـامَـةُ مـن هِـنْـدِ

ومِـنْ أجَـأ حَـوْلـي رِعـانٌ كـأنّـهـا ... قـنـابِـل خَـيْـلٍ من كُـمَـيْـتٍ ومِـنْ وَرْدِ

غـدرتَ بـأمـرٍ كـنـتَ أنـت اجْـتَـرَرْتَـنَـا ... إلـيـه وبـئـس الـشـيـمـةُ الـغدر بـالـعـهْـدِ

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من الجوع (٥٤٦٨)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: في الاستعاذة (١٥٤٧)، وابن ماجه، كتاب: الأطعمة، باب: التعوذ من الجوع (٣٣٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (١٦٥)، وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٧٨٢٠) وعزاه لأبي داود في المراسيل، وكذلك ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٩٢٣٣)، وعزاه لأبي داود في المراسيل.

(٣) خاس: خاس عهده إذا نقضه وخانه. اللسان، مادة (خيس).

قال أبو بكر الصديق: ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه كنّ عليه: البغي والنّكْث والمكر، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[1]، وقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[2]، وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[3].

٤٢ - ومن خطبة له عليه السلام: في اتباع الهوى وطول الأمل

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم اثنتان: اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَل، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَة.

أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ، اصْطَبَّهَا صَابُّهَا. أَلاَ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُون، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَل.

قال الرضي رحمه الله: أقول: الحَذَّاءُ: السَّريعة، ومن النَّاس من يَرْويه: «جَذَّاءَ» بالجيم والذَال، أي انْقَطع دَرُّها وَخَيْرُها.

الشرح: الصُّبابة: بقية الماء في الإناء. واصطبتها صابُّها، مثل قولك: أبقاها مُبقيها أو تركها تاركها، ونحو ذلك، يقول: أخوَف ما أخافه عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل، أما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، وهذا صحيح لا ريب فيه، لأنّ الهوى يُعمي البصيرة، وقد قيل: حُبّك الشيء يُعمي ويُصِمّ، ولهذا قال بعض الصالحين: رحِم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي، وذاك لأنّ الإنسان يحبُّ نفسَه، ومن أحبّ شيئاً عَمِيَ عن عيوبه، فلا يكاد الإنسانُ يلمح عيبَ نفسه، وقد قيل:

أَرَى كُـلّ إِنْسَـانٍ يَـرَى عَـيْـبَ غَـيْـرِه   وَيَـعْـمَـى عـن ٱلْـعَـيْـبِ الَّـذِي هُـوَ فِـيـهِ

فلهذا استعان الصالحون عَلَى معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم، علماً منهم أنّ هوى النفس لذاتِها يُعميها عن أن تُدرِك عيبَها، وما زال الهوى مُردياً قتّالاً، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[4]، وقال ﷺ: «ثلاثٌ مُهلكات: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى متّبَع، وإعجاب المرء بنفسه»[5].

(١) سورة يونس، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٤) سورة النازعات، الآية: ٤٠.
(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، والشهاب في «مسنده» (٣٢٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٥)، وابن المبارك في الزهد (١٢٣).

وأنت إذا تأملت هلاك مَنْ هلك من المتكلمين كالمجبرة والمرجِئة، مع ذكائهم وفطنتهم واشتغالهم بالعلوم، عرفت أنه لا سبب لهلاكهم إلا هوى الأنفس، وحبُّهم الانتصار للمذهب الذي قد ألفوه، وقد رأسوا بطريقه، وصارت لهم الأتباع والتلامذة، وأقبلت الدنيا عليهم، وعدّهم السلاطين علماء ورؤساء، فيكرهون نقض ذلك كلّه وإبطاله، ويحبون الانتصار لتلك المذاهب والآراء التي نشؤوا عليها، وعرفوا بها، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه بطريقها، ويخافون عار الانتقال عن المذهب، وأن يشتفيَ بهم الخصوم ويقرّعهم الأعداء، ومن أنصفَ علِم أنّ الذي ذكرناه حق. وأما طولُ الأمل فينسي الآخرة، وهذا حقّ، لأن الذهن إذا انصرف إلى الأمل، ومدّ الإنسان في مداه، فإنه لا يذكر الآخرة، بل يصير مستغرق الوقت بأحوال الدنيا، وما يرجو حصوله منها في مستقبل الزمان.

ومن كلام مِسْعر بن كِدام: كم مِن مُسْتَقبِل يوماً ليس يستكمِلُه، ومنتظرٍ غداً ليس من أجَلِه! ولو رأيتم الأجل ومسيرة أبغضتم الأملَ وغروره.

وكان يقال: تسويف الأمل غِرار، وتسويل المحال ضِرار.

ومن الشعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام:

غَـرّ جَـهُـولاً أمـلُـهْ ... يـمـوتُ مَـنْ جَـا أجـلُـهْ
وَمَـنْ دَنَـا مِـنْ حَـتْـفِـهِ ... لَـمْ تُـغْـنِ عَـنْـهُ حِـيَـلُـهْ
وَمَـا بَـقَـاءُ آخِـرٍ ... قَـدْ غَـابَ عَـنْـهُ أوّلُـهْ
والـمـرءُ لا يـصـحَـبُـه ... فـي الـقَـبْـرِ إلا عَـمَـلُـهْ

وقال أبو العتاهية:

لا تـأمَـنِ الـموتَ في لحظٍ وَلاَ نَفَسِ ... ولـو تـمَـنَّـعْـتَ بـالـحُـجّـاب والـحَـرَسِ
واعْـلَـمْ بـأنّ سِـهَـامَ الـموتِ قَـاصِـدَةٌ ... لِـكُـلّ مـدّرع مِـنّـا ومُـتَّـرِسِ
مـا بـالُ ديـنـك تَـرْضـى أن تُـدَنِّـسَـهُ ... وَثَوْبُ لُبْسِكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ!
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إنَّ السَّفِينَةَ لاَ تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ

ومن الحديث المرفوع: «أيها النّاس إنّ الأعمالَ تُطوَى، والأعمار تَفْنى، والأبدانَ تَبْلَى في الثرى، وإن الليل والنهار يتراكَضان تراكُضَ الفرقدين[1]، يقرّبان كلّ بعيد، ويُخْلِقان كل جديد، وفي ذلك ما ألْهَى عن الأمل، وأذكرك بحُلول الأجل»[2].

---

(١) الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان، ولكنهما يطوفان بالجدي. اللسان، مادة (فرقد).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة بتفاوت في المصنف: ٨/١٤٨، والمتقي الهندي في الكنز رقم ٤٤٢٠٨.

وقال بعض الصالحين: بقاؤك إلى فناء، ومناؤك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى.

وقال بعضهم: اغتنم تنفُّس الأجل، وإمكان العمل، واقطع ذِكْرَ المعاذير والعلَل، ودع تسويفَ الأماني والأمل، فإنك في نفسٍ معدود، وعمرٍ محدود، ليس بممدود.

وقال بعضهم: اعمل عَمل المرتحل، فإنّ حاديَ الموت يحدُوك ليوم لا يعدوك.

ثم قال عليه السلام: «ألا إن الدنيا قد أدبرت حذّاء» بالحاء والذال المعجمة، وهي السريعة، وقطاة حذّاء: خفت ريشُ ذَنَبها، وَرَجُل أحذّ، أي خفيف اليد، وقد رُوي، «قد أدبرت جذّاء» بالجيم، أي قد انقطع خَيْرُها ودَرّها.

ثم قال: إن كل ولد سيلْحَق بأمّه يوم القيامة، فكونوا من أبناء الآخرة لتلحقوا بها وتفوزوا، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فتلحقوا بها وتخسروا.

ثم قال: «اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»، وهذا من باب المقابلة في علم البيان.

٤٣ – ومن كلام له عليه السلام، وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام، بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجليّ

الأصل: إِنَّ ٱسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ ٱلشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلاَقٌ لِلشَّام، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ، وَلٰكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لاَ يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلاَّ مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً، وَٱلرَّأْيُ مَعَ ٱلْأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا، وَلا أَكْرَهُ لَكُمُ ٱلْإِعْدَادَ.

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا ٱلْأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ فِيهِ إِلاَّ ٱلْقِتَالَ أَوِ ٱلْكُفْرَ بِمَا جَاءَ به مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ.

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً، وَأَوْجَدَ النَّاس مَقَالاً فَقَالُوا، ثمّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا.

الشرح: أَرودوا، أي ارْفُقوا في السّير إرواداً، أي سار برِفْق، والأناة: التثبّت والتأنّي. ونهيه لهم عن الاستعداد، وقوله بعد: «ولا أكره لكم الإعداد» غيرُ متناقض، لأنه كَرِه منهم إظهار الاستعداد والجَهْر به، ولم يكره الإعداد في السرّ، وعلى وجه الخفاء والكتمان، ويمكن أن يقال إنّه كرِه استعداد نفسه، ولم يكره إعداد أصحابه، وهذان متغايران. وهذا الوجهُ اختاره القطب الراونديّ.

ولقائل أن يقول: التعليلُ الذي علّل به عليه السلام يقتضي كراهيَة الأمرين معاً، وهو أن يتّصل بأهل الشام الاستعداد فيرجعوا عن السّلم إلى الحرب، بل ينبغي أن تكونَ كراهته لإعداد جيشه وعسكره خيولَهم وآلات حربهم أَوْلَى، لأنّ شياع ذلك أعظمُ من شياع استعداده وحده، لأنه وحدَه يمكن أن يكتم استعداده، وأما استعداد العساكر العظيمة، فلا يمكن أن يُكتَم، فيكون اتّصالُه وانتقاله إلى أهل الشام أسرَع، فيكون إغلاق الشام عن باب خيرٍ إن أرادوه أقرب، والوجه في الجمع بين اللفظتين ما قدمناه

وأما قوله عليه السلام: «ضربت أنف هذا الأمر وعينَه»، فمثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء في البحث والتأمّل والفِكْر، وإنما خَصّ الأنف والعين، لأنهما صورة الوجه، والذي يتأمّل من الإنسان إنما هو وجهه.

وأما قوله: «ليس إلاّ القِتَالُ أو الكفر» فلأنّ النهيَ عن المنكَر واجبٌ على الإمام، ولا يجوز له الإقرار عليه، فإن تركَه فَسَق، ووجبَ عزلهُ عن الإمامة.

وقوله: «أو الكفر» من باب المبالغة، وإنما هو القتال أو الفِسْق، فسمّى الفِسْق كفراً تغليظاً وتشديداً في الزجر عنه.

وقوله عليه السلام: «أوجد النّاس مقالاً»، أيْ جعلَهم واجدين له.

وقال الراونديّ: أوجد هاهنا بمعنى «أغضب». وهذا غير صحيح، لأنه لا شيء ينصب به «مقالاً» إذا كان بمعنى «أغضب». والوالي المشار إليه عثمان.

ماذا قال قاضي القضاة

يجب أن نذكر ها هنا أحداثه، وما يقوله أصحابُنا في تأويلاتها، وما تكلّمَ به المرتضى في كتاب «الشافي» في هذا المعنى، فنقول:

إنّ قاضي القضاة رحمه الله تعالى، قال في «المغني» قبل الكلام في تفصيل هذه الأحداث كلاماً مجملاً، معناه أنّ كل مَنْ تثبت عدالته ووجب تولّيه إمّا على القطع وإمّا على الظاهر فغير جائزٍ أن يُعدَل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمرٍ متيقَّن يقتضي العدولَ عنها، يبيّن ذلك أنّ مَنْ شاهدناه على ما يوجب الظاهر تولّيه وتعظيمه يجب أن يبقَى فيه على هذه الطريقة، وإن غاب عَنّا. وقد عرفنا أنّهُ مع الغيبة يجوز أن يكون مستمرًا على حالته، ويجوز أن يكون منتقلاً، ولم يقدح هذا التجويز في وجوب ما ذكرناه.

ثم قال: فالحدث الذي يُوجِب الانتقال عن التعظيم والتولّي إذا كان من باب محتمَل لم يجز الانتقال لأجله. والأحوال المتقرّرة في النفوس بالعادات والأحوال المعروفة فيمن نتولاّه أقوى في باب الإمارة من الأمور المتجدّدة، فإنّ مثلَ فرقد السَّبَخيّ، ومالك بن دينار لو شوهدا

في دارٍ فيها منكَر لَقَوِيَ في الظّنّ حضورهما للتغيير والإنكار، أو على وجه الإكراه أو الغلط، ولو كان الحاضر هناك مَنْ عُلِم من حاله الاختلاط بالمنكر لجوّز حضوره للفساد، بل كان ذلك هو الظاهر من حاله.

ثم قال: واعلم أن الكلامَ فيما يُدّعى من الحدَث والتغيّر فيمن ثبت توليه، قد يكونُ من وجهين:

أحدُهما: هل علم بذلك أم لا؟

والثاني: أنّه مع يقين حصوله: هل هو حَدَثٌ يؤثّر في العدالة أم لا؟

ولا فرق بَيْن تجويز ألا يكون حدث أصلاً، وبين أن يعلم حدوثه ويجوز ألا يكون حدثاً.

ثم قال: كلّ محتمل لو أخبر الفاعل أنّه فعله على أحد الوجهين، وكان يغلِبُ على الظّن صدقه لوجب تصديقه، فإذا عرف من حاله المتقررة في النّفوس ما يطابق ذلك جَرَى مجرى الإقرار، بل ربما كان أقوى، ومتى لم نسلك هذه الطريقة في الأمور المشتبهة لم يصحّ في أكثر من نتولاّه ونعظّمه أن تسلم حاله عندنا، فإنّا لو رأينا من يُظَنّ به الخير يكلّم امرأة حسناء في الطريق لكان ذلك من باب المحتمل، فإذا كَانَ لو أخبر أنّها أخته أو امرأته لوجب ألا نحول عن توليه، فكذلك إذا كان قد تقدّم في النفّوس ستره وصلاحه، فالواجب أنْ نحمِلَه على هذا الوجه.

ثم قال: وقول الإمام له مزية في هذا الباب، لأنه آكد من غيره، وأمّا ما ينقل عن رسول الله ﷺ فإنه وإن لم يكن مقطوعاً به يؤثّر في هذا الباب، ويكون أقْوَى مما تقدّم.

ثم قال: وقد طعن الطاعنون فيه بأمور متنوعة مختلفة، ونحن نقدّم على تلك المطاعن كلاماً مُجملاً، يبين بطلانها على الجملة، ثم نتكلم عن تفصيلها.

قال: وذلك أنّ شيخنا أبا عليّ رحمه الله تعالى قد قال: لو كانت هذه الأحداث مما تُوجِبُ طعناً على الحقيقة، لوجب من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلاً يُنصَب للإمامة، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كموته، فإنه لا خلاف أنّه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه، أنّ الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه، فلما علمنا أنّ طلبَهم لإقامة إمام إنّما كان بعد قتله، ولم يكن من قبلُ والتمكن قائم، علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث.

قال: وليس لأحدٍ أن يقول: إنّهم لم يتمكّنوا من ذلك، لأنّ المتعالَم من حالهم أنّهم حصروه ومنعوه من التمكّن من نفسه، ومن التصرّف في سلطانه، خصوصاً والخصوم يدّعون أنّ الجميعَ كانوا على قول واحد في خَلْعه والبراءة منه.

قال: ومعلوم منْ حال هذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع في الأيام التي حوصر فيها

وقتِل، بل كانت تحصل من قَبْل حالاً بعد حال، فلو كان ذلك يُوجِب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الإنكارُ عليه، ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد، لأن أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحق من غيرهم.

قال: فقد كان يجبُ على طريقتهم أن تحصُل البراءَة والخَلعُ من أول الوقت الذي حَصَل منه ما أوجب ذلك، وألاّ ينتظر حصول غيره من الأحداث، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حدّ إلا وينتظر غيره.

ثم ذكر أنّ إمساكهم عن ذلك إذا تيقّنوا الأحداث منه يُوجب نسبةَ الجميع إلى الخطأ والضلال. ولا يمكنهم أن يقولوا: إنّ علمهم بذلك إنما حصل في الوقت الذي حُصِر ومُنِعَ لأنّ من جملة الأحداث التي يذكرونها ما تقدم عن هذه الحال، بل كلها أو جلّها تقدم هذا الوقت، وإنما يمكنهم أن يتعلّقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه من حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبي سَرْح بالقتل، وما أوجب كون ذلك حدثاً يوجِبُ كونَ غيره حدثاً، فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل، واحتمالُ المُتقدم للتأويل كاحتمال المتأخّر.

ثم قال: وبعد، فليس يخلُو مِنْ أن يَدّعوا أنّ طلب الخلع وقع من كلّ الأمة أو من بعضهم، فإن ادّعَوْا ذلك في بعض الأمة، فقد علمنا أنّ الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالُها بلا خلاف، لأنّ الخطأ جائز على بعض الأمة، وإن ادعَوْا في ذلك الإجماع لم يصح، لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومَنْ كان ينصره، ولا يمكن إخراجه من الإجماع، بأن يقال: إنه كان على باطل، لأن بالإجماع يتوصّل إلى ذلك، ولم يثبت.

ثم قال: على أنّ الظاهر من حال الصحابة أنّها كانت بين فريقين، أمّا مَنْ نصره، فقد رُوِي عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار: ائذن لنا بنصرك. وروي مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض، إلا أنه لو ضُيّق عليهم الأمر في الدفع ما قعدوا، بل المتعالَم من حالهم ذلك.

ثم ذكر ما رُوِي من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه، وأنه لما قُتِل لامَهما عليه السلام على وصول القوم إليه، ظناً منه أنهما قَصّرا.

وذكر أنّ أصحابَ الحديث يروون عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ستكونُ فتنة واختلاف، وإنّ عثمان وأصحابَه يومئذ على الهدى»[1]. وما رُوِيَ عن عائشة من قولها: «قُتِل والله مظلوماً»[2].

قال: ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث في ذلك، لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه، نحو

---

(١) أخرج الشطر الأول منه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء أنه تكون فتنة (٢١٩٤).
(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٣).

دعواهم أن جميعَ الصحابة كانوا عليه، لأنّ ذلك دعوى منهم، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد، وإذا تعارضت الروايات سقطت، ووجب الرجوع إلى ما ثبت من أحواله السليمة، ووجوب توليه.

قال: ولا يجوز أن يعدَل عن تعظيمه وصحّة إمامته بأمور محتمَلة، فلا شيء مما ذكروه إلا ويحتمل الوجه الصحيح.

ثم ذكر أنّ للإمام أن يجتهدَ برأيه في الأمور المنُوطة به، ويعمل فيها على غالب ظنه، وقد يكون مصيباً، وإن أفضتْ إلى عاقبة مذمومة.

فهذه جملة ما ذكره قاضي القضاة رحمه الله تعالى في «المغني» من الكلام إجمالاً في دفع ما يُتعلق به على عثمان من الأحداث.

رد المرتضى على قاضي القضاة

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في «الشافي» فقال:

أما قوله: «مَنْ تثبت عدالته ووجب توليه إمّا قطعاً أو على الظاهر، فغير جائز أن يُعَدل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقَّن»، فغير مسلّم لأن مَنْ نتولاّه على الظاهر، وثبتت عدالتُه عندنا من جهة غالب الظّنّ، يجب أن نرجع عن ولايته بما يقتضي غالبَ الظنّ دون اليقين، ولهذا يؤثّر في جَرْح الشهود وسقوط عدالتهم أقوالُ الجارحين، وإن كانت مظنونة غير معلومة. وما يظهر من أنفسهم من الأفعال التي لها ظاهر يُظَنّ معه القبيح بهم حتى نرجعَ عما كنا عليه من القول بعدالتهم، وإن لم يكن كلُّ ذلك متيقنًا، وإنما يصحّ ما ذكره فيمنْ ثبتتْ عدالته على القَطْع ووجب توليه على الباطن، فلا يجوز أن يؤثّر في حاله ما يقتضي الظّنّ، لأنّ الظنّ لا يقابل العلم، والدلالة لا تقابل الأمارة.

فإن قال: لم أرِدْ بقولي إلاّ بأمرٍ متيقَّن أن كونه حدَثاً متيقّن، وإنما أردت تَيقُّنَ وقوع الفعل نفسِه.

قلنا: الأمرَانِ سواء في تأثير غَلَبَة الظنّ فيهما، ولهذا يؤثّر في عدالة مَنْ تقدمتْ عدالته عندنا على سبيل الظنّ أقوالُ من يخبرنا عنه بارتكاب القبائح إذا كانوا عدولاً، وإن كانتْ أقوالهم لا تقتضِي اليقينَ، بل يحصل عندها غالبُ الظنّ. وكيف لا نرجع عن ولاية مَنْ توليناه على الظّاهر بوقوع أفعالٍ منه يقتضي ظاهرُها خلافَ الولاية، ونحن إنما قلنا بعدالته في الأصل على سبيل الظاهر! ومع التجويز لأن يكون ما وقع منه في الباطن قبيحاً لا يستحقّ به التولّي والتعظيم، ألا ترى أنّ مَنْ شاهدْناه يلزمُ مجالسَ العلم، ويكرّر تلاوة القرآن، ويُدْمِنُ الصلاة والصيام والحج، يجب أن نتولاّه ونعظّمه على الظاهر! وإن جوّزنا أن يكون جميعُ ما وقع منه مع خبث باطنه، وأن غرضه في فعله القبيح فلم نتولّه إلا على الظاهر. ومع التجويز، فكيف لا نرجع عن ولايته

بما يقابل هذه الطريقة! فأما مَنْ غاب عَنّا وتقدمت له أحوال تقتضي الولاية، فيجب أن نستمرّ على ولايته، وإن جوزْنا على الغيبة أن يكون منتقِلاً عن الأحوال الجميلة التي عهدناها منه، إلا أنّ هذا تجويز مَحْض لا ظاهر معه يقابل ما تقدّم من الظاهر الجميل، وهو بخلاف ما ذكرناه من مقابلة الظاهر للظاهر، وإن كان في كلّ واحد من الأمرين تجويز.

قال: وقد أصاب في قوله: «إنّ ما يحتمل لا ينتقل له عن التعظيم والتوليّ» إن أراد بالاحتمال ما لا ظاهر له، وأمّا ما له ظاهر ومع ذلك يجوز أن يكون الأمر فيه بخلاف ظاهره، فإنه لا يسمىّ محتملاً. وقد يكون مؤثراً فيما ثبت من التولي على الظاهر على ما ذكرناه.

قال: فأما قوله: «إنّ الأحوال المتقررة في النفوس بالعادات فيمن نتولاّه تؤثّر ما لا يؤثر غيرها، وتقتضي حَمْلَ أفعاله الصحّة والتأوّل له»، فلا شك أنّ ما ذكره مؤثّر وطريق قويّ إلى غلبة الظّنّ، إلا أنّه ليس يقتضي ما يتقرّر في نفوسنا لبعض مَنْ نتولاه على الظاهر أن نتأوّل كلّ ما يشاهَد منه من الأفعال التي لها ظاهر قبيح، ونحمِل الجميعَ على أجمل الوجوه، وإن كان بخلاف الظاهر، بل ربما تبين الأمرُ فيما يقع منه من الأفعال التي ظاهرُها القبيح إلى أن تؤثّر في أحواله المقرّرة، ونرجع بها عن ولايته، ولهذا نجد كثيراً من أهلِ العدَالة المتقرّرة لهم في النفوس، ينسلخون منها حتى يلحقوا بمن لا تثبت له في وقت من الأوقات عدالة، وإنما يكون ذلك بما يتوالى منهم ويتكرر من الأفعال القبيحة الظاهرة.

قال: فأمّا ما استشهد به من أنّ مثل مالك بن دينار لو شاهدناه في دارٍ فيها منكَر لقوِيَ في الظنّ حضورُه لأجل التغيير والإنكار، أو على وجه الإكراه والغلط وأنّ غيره يخالفه في هذا الباب، فصحيح لا يخالِف ما ذكرناه، لأنّ مثل مالك بن دينار ممّن تناصرتْ أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالاً بعد حال، لا يجوز أن يَقدَح فيه فعل له ظاهر قبيح، بل يجب لما تقدّم مِنْ حاله أن نتأوّل فعله، ونخرجَه عن ظاهره إلى أجمل وجوهه. وإنما وجب ذلك لأنّ الظنون المتقدمة أقوى وأولى بالترجيح والغلبة، فنجعلُها قاضية على الفعل والفعلين، ولهذا متى توالت منه الأفعال القبيحة الظاهرة وتكرّرت، قدحت في حاله، وأثرّت في ولايته، كيف لا يكون كذلك وطريق ولايته في الأصل هو الظنّ والظاهر، ولا بدّ مِنْ قدح الظاهر في الظاهر، وتأثير الظن في الظن على بعض الوجوه.

قال: فأما قوله: «فإنّ كلّ محتمل لو أخبرنا عنه وهو مما يغلب على الظنّ صدقه أنه فعله على أحد الوجهين، وجب تصديقُه، فمتى عرف من حاله المتقرّرة في النفوس ما يطابق ذلك، جَرَى مجرى الإخبار»، فأوّل ما فيه أنّ «المحتمَل» هو ما لا ظاهر له من الأفعال، والذي يكون جواز كونه قبيحاً كجواز كونه حسناً، ومثل هذا الفعل لا يقتضي ولاية ولا عداوة، وإنّما يقتضي الولاية ما له من الأفعال ظاهر جميل، ويقتضي العداوة ماله ظاهر قبيح.

فإن قال: أردتُ بالمحتمَل ماله ظاهر، لكنه يجوز أن يكونَ الأمر بخلاف ظاهره.

قيل له: ما ذكرتَه لا يسمى محتمَلاً، فإنْ كنت عنيتَه فقد وضعت العبارة في غير موضعها، ولا شكّ في أنّه إذا كان ممّن لو أخبرنا بأنه فعل الفعل على حد الوجهين لوجب تصديقُه، وحمل الفعل على خلاف ظاهره، فإنّ الواجب لما تقرّر له في النفوس أن يُتأوّل له ويعدل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل، إلا أنه متى توالتْ منه الأفعال التي لها ظواهر قبيحة، فلا بدّ أن تكون مؤثرة في تصديقه، متى خُبّرنا بأن غرضَه في الفعل خلاف ظاهره، كما تكون مانعة من الابتداء بالتأوّل.

وضربه المثل بأنّ من نراه يكلّم امرأة حسناء في الطريق إذا أخبر أنها أختُه أو امرأته في أنّ تصديقه واجب، ولو لم يخبر بذلك لحملنا كلامَه لها على أجمل الوجوه، لما تقدم له في النفوس - صحيح، إلا أنه لا بد من مراعاة ما تقدم ذكره، من أنه قد يقوَى الأمر لقوّة الأمارات والظواهر إلى حدٍّ لا يجوز معه تصديقه ولا التأول له، ولولا أنّ الأمر قد ينتهي إلى ذلك لما صحّ أن يخرج أحد عندنا من الولاية إلى العداوة، ولا من العدالة إلى خلافها، لأنّه لا شيء مما يفعله الفسّاق المتهتكون إلا ويجوز أن يكونَ له باطن بخلاف الظاهر، ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التجويز، يبين صحة ما ذكرناه أنّا لو رأينا من يُظنّ به الخير يكلّم امرأة حسناء في الطريق ويداعبها ويضاحِكها لظنّنا به الجميل مرة ومرات، ثم ينتهي الأمر إلى ألا نظنه. وكذلك لو شاهدناه ويحضَرته المنكَر، لحملْنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غير ذلك من الوجوه الجميلة. ثم لا بدّ من انتهاء الأمر إلى أن نظنّ به القبيح ولا نصدقه في كلامه.

قال: ثم نقول له: أخبِرنا عَمّن شاهدناه من بُعْد وهو مفترِش امرأة نعلم أنها ليست له بمحرَم، وأنّ لها في الحال زوجاً غيره، وهو ممن تقررت له في النفوس عدالةٌ متقدّمة، ماذا يجب أن نظنّ به؟ وهلْ نرجع بهذا الفعل عن ولايته، أم نحمله على أنه غالط ومتوهِّم أنّ المرأة زوجته، أو على أنه مكرَه على الفعل، أو غير ذلك من الوجوه الجميلة!

فإن قال: نرجع عن الولاية، اعترف بخلاف ما قصده في الكلام، وقيل له: أيّ فَرْق بين هذا الفعل وبين جميع ما عددناه من الأفعال وادّعيت أنّ الواجب أن نَعدل عن ظاهرها؟ وما جواز الجميل في ذلك إلا كجواز الجميل في هذا الفعل.

وإن قال: لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته، بل نؤوله على بعض الوجوه الجميلة.

قيل له: أرأيت لو تكرّر هذا الفعل وتَوالى هو وأمثاله حتى نشاهدَه حاضراً في دور القمار ومجالس اللهو واللعب ونراه يشرب الخمر بعينها، وكلّ هذا مما يجوز أن يكون عليه مكرَهاً وفي أنه القبيح بعينه غالطاً، أكان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها؟ فإن قال: نستمرّ ونتأوّل، ارتكب ما لا شبهة في فسادِهِ، وألزِم ما قد قدّمنا ذكره من أنه لا طريق إلى

الرجوع عن ولاية أحد، ولو شاهدنا منه أعظمَ المناكير. ووقف أيضاً على أن طريق الولاية المتقدمة إذا كان الظنّ دون القطع، فكيف لا نرجع عنها لمثل هذا الطريق، فلا بدّ إذنْ من الرجوع إلى ما بيناه وفصلناه في هذا الباب.

قال: فأمّا قوله: «إن قول الإمام له مزية، لأنه آكد من غيره» فلا معنى له، لأن قول الإمام على مذهبنا يجب أن يكون له مزية، من حيث كان معصوماً مأمون الباطن، وعلى مذهبه إنما تثبت ولايته بالظاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين، فأيّ مزية له في هذا الباب!

وقوله: «إن ما ينقل عن الرسول وإن لم يكن مقطوعاً عليه يؤثّر في هذا الباب، ويكون أقوى مما تقدم» غير صحيح على إطلاقه، لأن تأثيرَ ما ينقل إذا كان يقتضي غلبة الظنّ لا شبهة فيه، فأما تقويتُه على غيرهِ فلا وجه له، وقد كان يجب أن يبين من أي الوجوه يكون أقوى.

فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأول من كلام قاضي القضاة رحمه الله تعالى.

تم الجزء الثاني من شرح نهج البلاغة

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الجزء الأول

الجزء الثاني

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
خليوي: ٠٣/٩٤٢١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٤٠٨
http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com

دار الكتاب العربي
بغداد - شارع المتنبي
تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة السيد هبة الدين الحسيني
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
الكاظمية - العراق

شرح
نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق
محمد إبراهيم

المجلد الثاني
٣ - ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الكريم

واعلم أنّ الذي ذكره المرتَضى رحمه اللّه تعالى، وأورده على قاضي القضاة جَيّد ولازم، متى ادّعى قاضي القضاة أنّ العدالة إذا ثبتتْ ظنًّا أو قطعاً لم يجز العدُول عنها والتَبرُّؤ إلاّ بما يُوجِب القطع، ويُعْلَم به علماً يقينيًّا زوالُها، فأمّا إذا ادّعَى أنّ المعلوم لا يزول إلا بما يُوجب العلم، فلا يَرِدُ عليه ما ذكره المرتَضى رحمه اللّه تعالى.

وله أن يقول: قد ثَبتتْ بالإجماع إمامةُ عثمان، والإجماع دليل قطعيّ عند أصحابنا، وكلّ مَنْ ثبتتْ إمامتُه ثبتتْ عدالتُه بالطريق التي بها ثبتتْ إمامته، لأنه يجوز أن تكونَ إمامتُه معلومةً وشرائطها مظنونة، لأنّ الموقوفَ على المظنون مظنون، فتكون إمامتُه مظنونة، وقد فرضناها معلومة، وهذا خُلْف ومُحال. وإذا كانت عدالتُه معلومة لم يَجُز القولُ بانتفائها وزوالها إلاّ بأمر معلوم.

والأخبارُ التي رُوِيَتْ في أحداثه أخبارُ آحاد لا تفيد العلْم، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بها، فهذا الكلامُ إذا رُتِّب هذا الترتيب اندفعَ به ما اعترض به المرتَضى رحمه اللّه تعالى.

عود على بدء: بقية ردّ المرتضى

فأمّا كلامُ المرتَضى رحمه اللّه تعالى عَلى الفصل الثاني من كلام قاضي القضاة، وهو الفصلُ المحكيّ عن شيخنا أبي عليّ رحمه اللّه تعالى، فنحن نورده. قال رحمه اللّه تعالى:

أما قوله: لو كان ذُكِرَ من الأحداث قادِحاً لوجب من الوقت الذي ظهرت الأحداث فيه أن يطلبوا رجلاً ينصِبونه في الإمامة لأنّ ظهورَ الحدَث كموته، فلمّا رأيناهم طلبوا إماماً بعد قتله دلّ على بطلان ما أضافوه إليه من الأحداث. فليس بشيء معتَمد، لأنّ تلك الأحداثَ وإن كانت مزيلةً عندهم لإمامته، وفاسخةً لها، ومقتضيةً لأنْ يعقدوا لغيره الإمامة، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على أن يتفقوا على نصب غيره، مع تشبّثه بالأمر، خوفاً من الفتنة والتنازع والتجاذب، وأرادوا أن يخلعَ نفسَه، حتى تزولَ الشبهة، وينشَط مَنْ يصلُح للأمر لقبول العَقْد والتكفُّل بالأمر. وليس يجري ذلك مجرَى موته، لأنّ موته يَحْسِم الطمع في استمرار ولايته، ولا تبقى شبهة في خلوّ الزمان من إمام. وليس كذلك حَدَثه الذي يَسُوغ فيه التأويل عَلَى بُعْده، وتبقى معه الشّبهة في استمرار أمره. وليس نقول: إنهم لم يتمكنوا من ذلك كما سأل نفسَه، بل الوجه في عدولهم ما ذكرناه من إرادتهم حَسْمَ المواد وإزالة الشبهة وقطع أسباب الفتنة.

قال: فأمّا قوله: إنه معلوم من حال هذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع في الأيام التي حُصِر فيها وقُتِل، بل كانت تقعُ حالاً بعد حال، فلو كانت توجبُ الخلْع والبراءة، لما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه، ولكان المقيمون من الصحابة بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد، فلا شكّ أنّ الأحداثَ لم تحصُل في وقت واحد إلاّ أنه غيرُ منكَر أن يكونَ نكيرُهم إنّما تأخر لأنهم تأوّلوا ما ورد عليهم من أفعاله على أجمل الوجوه، حتى زاد الأمرُ وتفاقم، وبَعُدَ التأويل، وتعذّر التخريج، ولم يبق للظنّ الجميل طريق، فحينئذ أنكروا، وهذا مستمرّ عَلَى ما قدّمنا ذكره، من أنّ العدالة والطريقة الجميلة يتأوّل لها في الفعل والأفعال القليلة، بحسب ما تقدّم من حُسْن الظن به، ثم ينتهي الأمر بعد ذلك إلى بُعْدِ التأويل، والعمل على الظاهر القبيح.

قال: عَلى أنّ الوجهَ الصحيح في هذا الباب أنّ أهل الحقّ كانوا معتقدين بخلعه من أوّل حَدَث، بل معتقدين أنّ إمامته لم تثبت وقتاً من الأوقات، وإنما منعهم من إظهار ما في نفوسهم ما قدّمناه من أسباب الخوف والتَّقِيّة، لأن الاعتذارَ بالوجَل كان عامّاً، فلما تبيّنَ أمره حالاً بعد حال، وأعرضت الوجوهُ عنه، وقلّ العذارُ له، قوِيت الكلمة في خَلعه. وهذا إنما كان في آخر الأمر دونَ أوّلِهِ. فليس يقتضي الإمساك عنه إلى الوقت الذي وقع الكلام فيه نِسْبة الخطأ إلى الجميع، على ما ظنه.

قال: فأما دفعُهُ بأن تكون الأمّة أجمعت على خلعه بخروجه نفسه وخروج مَنْ كان في حيّزه عن القوم، فليس بشيء، لأنه إذا ثبتَ أنّ مَنْ عَداه وعَدَا عبيده والرُّهَيْطَ من فُجّار أهله وفُسّاقهم، كمرْوان ومَنْ جرى مجراه، كانوا مجمعين على خلعه، فلا شبهة في أنّ الحقّ في غير حيّزه؛ لأنه لا يجوز أن يكون هو المصيب، وجميعُ الأمة مبطل، وإنّما يدّعى أنّه على الحق لمن ينازع في إجماع مَنْ عداه، فأمّا مع التسليم لذلك، فليس يبقى شبهة، وما نجد مخالفينا يعتبرون في باب الإجماع بإجماع الشُّذَّاذ والنفر القليل الخارجين من الإجماع، الا ترى أنّهم لا يحفِلون بخلاف سعْدٍ وأهله وولده في بَيْعة أبي بكر لقلّتهم وكثرة مَنْ بإزائهم، ولذلك لا يعتدُّون بخلاف مَن امتنع من بَيْعة أمير المؤمنين عليه السلام، ويجعلُونَه شاذّاً، لا تأثير بخلافة، فكيف فارقوا هذه الطريقة في خَلْع عثمان! وهل هذا إلاّ تقلّب وَتَلَوّن!

قلت: أما إذا احتجّ أصحابُنا على إمامة أبي بكر بالإجماع، فاعتراض حُجّتهم بخلاف سعد وولده وأهله اعتراض جَيّد، وليس يقول أصحابنا في جوابه: هؤلاء شذّاذ فلا نحفِل بخلافهم، وإنما المعتبر بالكَثْرة التي بإزائهم. وكيف يقولون هذا، وحجّتهم الإجماع ولا إجماعَ! ولكنّهم يُجِيبون عن ذلك بأنّ سعداً مات في خلافة عمر، فلم يبق مَنْ يخالف في خلافة عمر، فانعقد الإجماع عليها، وبايع ولد سعد وأهله من قَبْل، وإذا صَحّت خلافة عمر صَحّت خلافة أبي

بكر، لأنها فرع عليها، ومحال أن يصحّ الفرع، ويكون الأصلُ فاسداً، فهكذا يجيب أصحابُنا عن الاعتراض بخلاف سعد إذا احتجّوا بالإجماع، فأمّا إذا احتجُّوا بالاختيار فلا يتوجّه نحوَهم الاعتراض بخلاف سعد وأهله وولده، لأنّه ليس من شرط ثبوت الإمامة بالاختيار إجماعُ الأمة على الاختيار، وإنما يكفي فيه بَيْعة خمسة من أهل الحلّ والعقد على الترتيب الذي يرتِّب أصحابُنا الدّلالة عليه، وبهذا الطريق يثبت عندهم إمامةُ عليّ عليه السلام، ولم يُحْفَل بخلاف معاوية وأهل الشام فيها.

قال رحمه اللّه تعالى: فأمّا قوله: إنّ الصحابة كانت بَيْن فريقين: مَنْ نصره كزيد بن ثابت وابن عمر وفلان وفلانَ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ولأنّه ما ضيّق عليهم الأمر في الدفع عنه، فعجيب، لأنّ الظاهر أنّ أنصاره هم الذين كانوا معه في الدار، يقاتلون عنه، ويدفعون الهاجمين عليه.

فأمّا مَنْ كان في منزله ما أغنى عنه فتيلاً، فلا يُعدّ ناصراً، وكيف يجوز ممّن أراد نُصرَته، وكان معتقِداً لصوابه، وخطأ المطالبين له بالخلع، أن يتوقّف عن النصرة طلباً لزوال العارض! وهلْ تُرادُ النّصرة إلاّ لدفع العارض، وبَعْد زواله لا حاجة إليها! وليس يحتاج في نصرته إلى أن يضيّق هو عليهم الأمر فيها، بل مَنْ كان معتقداً لها لا يحتاج حمله إلى إذنه فيها، ولا يُحْفَل بنهيه عنها؛ لأنّ المنكَر مما قد تقدّم أمر اللّه تعالى بالنهي عنه، فليس يحتاج في إنكاره إلى أمر غيره.

قال: فأمّا زيد بن ثابت، فقد رُوِي ميلُه إلى عثمان، وما يغني ذلك وبإزائه جميعُ المهاجرين والأنصار! ولميله إليه سبب معروف، فإن الواقدي روى في «كتاب الدّار» أنّ مَرْوان بن الحكم لما حُصِرَ عثمان الحصر الأخير أتى زيدَ بن ثابت فاستصحبَه إلى عائشة ليكلِّمها في هذا الأمر، فمضيا إليها وهي عازمة على الحجّ، فكلّماها في أن تُقيمَ وَتَذُبّ عنه، فأقبلتْ على زيد بن ثابت، فقالت: وما منعك يا بن ثابت ولك الأشاريف قد اقتطعكها عثمان، ولك كذا وكذا، وأعطاك عُثمان من بيت المال عشرة آلاف دينار! قال زيد: فلم أرْجعْ عليها حرفاً واحداً، وأشارت إلى مروان بالقيام، فقام مَرْوان وهو يقول:

حَرّق قَيْسٌ عَلَيَّ البلا ... دَ حتى إذا اضطرمَتْ أجذَما(١)

فنادتْه عائشة، وقد خرج من العتبة: يا بن الحكم، أعليّ تُمثِّل الأشعار! قد واللّه سمعتُ ما قلتَ، أتراني في شكّ من صاحبك! والذي نفسي بيده لوددت أنّه الآن في غِرارة من غرائري مَخيط عليه، فألقيه في البحر الأخضر، قال زيد بن ثابت: فخرجنا من عنْدها على اليأس منها.

(١) الإجذام: الإقلاع عن الشيء. اللسان، مادة (جذم).

ورَوى الواقديّ أن زيد بن ثابت اجتمع عليه عِصابة من الأنصار، وهو يدعوهم إلى نُصْرة عثمان فوقف عليه جَبَلة بن عمرو بن حَبّة المازنيّ، فقال له: وما يمنعُك يا زيدُ أن تذُبَّ عنه؟ أعطاك عشرة آلاف دينار وحدائق من نخل لم تَرِثْ عن أبيك مثل حديقة منها.

فأمّا ابنُ عمر فإنّ الواقديّ روَى أيضاً عنه أنه قال: واللّه ما كانَ فينا إلا خاذلٌ أو قاتل. والأمر على هذا أوضح من أنْ يخفى.

فأما ما ذكره من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسَن والحسين عليهما السلام، فإنما أنفذهما - إنْ كان أنفذَهما - ليمنعا من انتهاك حرِيمه وتعمّد قتله، ومنع حُرمِه ونسائه من الطعام والشراب، ولم يُنفذهما ليمنعا من مطالبته بالخلع، وكيف وهو عليه السلام مصرّح بأنّه يستحقّ بإحْداثه الخلْع، والقوم الذين سعَوْا في ذلك إليه كانوا يغدُون ويروحون، ومعلوم منه ضرورةً أنه كان مساعداً على خلْعه ونقض أمره، لا سيّما في المرة الأخيرة.

فأما ادعاؤه أنّه عليه السلام لَعَن قَتَلَته، فهو يعلم ما في هذا من الروايات المختلفة التي هي أظهر من هذه الرواية، وإن صحّت فيجوز أن تكونَ محمولة على لَعْنِ مَنْ قتله متعمِّداً قتله، قاصداً إليه، فإنّ ذلك لم يكن لهم.

فأما ادّعاؤه أنّ طلحة رجعَ لما ناشده عثمان يوم الدّار، فظاهرُ البطلان وغير معروفٍ في الرواية، والظاهر المعروف أنه لم يكن على عثمان أشدَّ من طلحة، ولا أغلظَ منه.

قال: ولو حكيْنا من كلامه فيه ما قد رُوي لأفنينا قِطْعة كثيرة من هذا الكتاب، وقد رُوِي أنّ عثمان كان يقول يوم الدار: اللهم اكفِني طلحة، ويكرّر ذلك، علْماً بأنّه أشدّ القوم عليه. ورُوِيَ أنّ طلحَة كانَ عليه يومَ الدار دِرْعٌ وهو يُرامي الناس، ولم ينزِعْ عن القتال حتى قتل الرّجُل.

فأما ادّعاؤه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ستكون فتنة، وإنّ عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى»[1]، فهو يعلم أنّ هذه الرواية الشاذّة لا تكون في مِقابلة المعلوم ضرورة من إجماع الأمة على خَلْعه وخَذْله، وكلام وجوه المهاجرين والأنصار فيه، وبإزاء هذه الرواية ما يملأ الطروس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وغيره، مما يتضمّن ما تضمّنَتْهُ. ولو كانت هذه الرواية معروفةً لكان عثمانُ أوْلى الناس بالاحتجاج بها يوم الدار، وقد احتجّ عليهم بكلّ غثّ وسمين، وقبل ذلك لما خُوصم وطولب بأنْ يخلع نفسه، ولاحتج بها عنه بعض أصحابه وأنصاره، وفي علمنا بأنّ شيئاً من ذلك لم يكُنْ، دلالة على أنّها مصنوعة موضوعة.

فأما ما رواه عن عائشة من قولها: «قُتِل واللّهِ مظلوماً» فأقوال عائشة فيه معروفة ومعلومة، وإخراجُها قميصَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي تقول: «هذا قميصه لم يَبْلَ، وقد أبْلَى عثمانُ سنّته»، إلى غير ذلك مما لا يُحصى كثرة.

---

(١) لم أجده.

فأما مدحُها له وثناؤُها عليه، فإنّما كانا عَقِيب عِلْمها بانتقال الأمر إلى مَن انتقل إليه، والسببُ فيه معروف، وقد وقفت عليه، وقُوبل بين كلامها فيه متقدماً ومتأخراً.

فأما قوله: لا يمتنع أن يتعلّق بأخبار الآحاد في ذلك؛ لأنّها في مقابلة ما يدّعونه مما طريقه أيضاً الآحاد، فواضح البطلان؛ لأن إطباق الصحابة وأهل المدينة - إلاّ مَنْ كان في الدار معه على خلافه، فإنهم كانوا بين مجاهد ومقاتل مبارز، وبين متقاعد خاذل - معلومٌ ضرورة لكلّ مَنْ سمع الأخبار، وكيف يدّعي أنّها من جهة الآحاد حتى يعارض بأخبار شاذة نادرة! وهل هذا إلاّ مكابرة ظاهرة!

فأمّا قوله: إنا لا نعدل عن ولايته بأمور محتَملة، فقد مضى الكلام في هذا المعنى، وقلنا إن المحتمل هو ما لا ظاهر له، ويتجاذبه أمور محتملة، فأمّا ما له ظاهر فلا يسمّى محتملاً وإن سماه بهذه التسمية، فقد بيّنّا أنّه مما يُعْدَل من أجله عن الولاية، وفصّلنا ذلك تفصيلاً بيّناً.

وأما قوله: إنّ للإمام أن يجتهد برأيه في الأمور المنُوطة به، ويكون مصيباً وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة، فأوّل ما فيه أنّه ليس للإمام ولا غيره أن يجتهد في الأحكام، ولا يجوز أن يعمل فيها إلا على النصّ، ثم إذا سلّمنا الاجتهاد، فلا شكّ أن هاهنا أموراً لا يسوغ فيها الاجتهاد، حتى يكون مَنْ خبّرنا عنه بأنه اجتهد فيها غير مصوّب، وتفصيل هذه الجملة يبيّن عند الكلام على ما تعاطاه من الأعذار عن إحداثه على جهة التفصيل.

قلت: الكلام في هذا الموضع على سبيل الاستقصاء إنما يكون في الكتب الكلاميّة المبسوطة في مسألة الإمامة، وليس هذا موضع ذاك، ولكن يكفي قاضي القضاء أن يقول: قد ثبت بالإجماع صحّة إمامة عثمان، فلا يجوز الرجوع عن هذا الإجماع إلا بإجماع معلوم على خَلْعه وإباحة قَتْله، ولم يُجمع المسلمون على ذلك؛ لأنّه قد كان بالمدينة مَنْ يُنْكر ذلك وإنْ قَلّوا، وقد كان أهلُ الأمصار يُنكرُون ذلك، كالشام والبَصْرة والحجاز واليمن ومكّة وخراسان، وكثير من أهل الكوفة، وهؤلاء مسلمون، فيجب أن تُعتبَر أقوالهم في الإجماع، فإذا لم يدخلوا فيمن أجْلَب عليه لم ينعقد الإجماع على خلعه ولا على إباحة دمه فوجب البقاءُ على ما اقتضاه الإجماع الأوّل.

المطاعن على عثمان والرد عليها

فأمّا الكلام في المطاعن المفصّلة التي طُعِن بها فيه، فنحن نذكرها، ونحكي ما ذكره قاضي القضاة وما اعترضه به المرتضى رحمه الله تعالى.

الطعن الأول: قال قاضي القضاة في «المغني»: فممّا طُعِن به عليه قولهم: إنّه ولّى أمورَ المسلمين مَنْ لا يصلحُ لذلك ولا يؤتَمن عليه، ومَنْ ظهر منه الفسق والفساد، ومَنْ لا علمَ عنده، مراعاة منه لحرمة القرابة، وعدولاً عن مراعاة حرمة الدّين والنظر للمسلمين، حتى ظهر

ذلك منه وتكرّر، وقد كان عمرُ حَذّره من ذلك، حيث وصفه بأنه كلِفٌ بأقاربه، وقال له: إذا وُلّيتَ هذا الأمرَ فلا تسلّط بني أبي مُعَيْطٍ على رقاب الناس. فوقع منه ما حذّره إياه، وعُوتب في ذلك فلم ينفع العتبُ، وذلك نحو استعماله الوليد بن عُقْبة، وتقليده إياه، حتى ظهر منه شربُ الخمر، واستعمالُه سعيد بن العاص حتى ظهرتْ منه الأمور التي عندها أخرجَه أهل الكوفة، وتوليتُه عبد الله بن أبي سَرْح، وعبد الله بن عامر بن كُريز، حتى رُوِي عنه في أمر ابن أبي سَرْح أنّه لما تظلّم منه أهلُ مصر وصَرَفه عنهم بمحمد بن أبي بكر كاتَبه بأنْ يستمر على ولايته، فأبطن خلافَ ما أظهر، فِعْلَ من غرضه خلاف الدين. ويقال: إنه كاتَبَه بقتل محمد بن أبي بكر وغيره ممّن يرِد عليه، وظفِر بذلك الكتاب، ولذلك عَظُم التظلّم من بعد، وكَثر الجمع، وكان سبب الحِصار والقتل، حتى كان من أمْرِ مَرْوان وتسلّطه عليه وعلى أموره ما قُتل بسببه، وذلك ظاهر لا يمكن دَفْعُه.

قال رحمه الله تعالى: وجوابُنا عن ذلك أن نقول: أمّا ما ذُكِر من توْليته مَنْ لا يجوز أن يُستعمل، فقد علمنا أنّه لا يمكنُ أنْ يُدّعى أنه حين استعملَهم عَلِمَ من أحوالهم خلافَ الستر والصلاح، لأنّ الذي ثبتَ عنهم من الأمور القَبيحة حدَث من بعد، ولا يمتنع كونُهم في الأوّل مستورين في الحقيقة أو مستورين عنده، وإنّما كان يجب تخطئته لو استعملهم، وهم في الحال لا يصلحون لذلك.

فإنْ قيل، فلمّا علم بحالهم كان يجب أن يعزلهم!

قيل: كذلك فَعَل، لأنه إنما استعمل الوليد بن عُقْبة قبل ظهور شرب الخمر عنه فلما شُهِد عليه بذلك جَلَده الحدّ وصرَفه. وقد رُوي مثلُه عن عمر، فإنّه ولّى قُدامة بن مَظْعون بعضَ أعماله، فشهِدوا عليه بشرب الخمر، أشخصه وجلَده الحدّ فإذا عُدّ ذلك في فضائل عمر لم يجز أن يعدّ ما ذكروه في الوليدِ من معايب عثمان. ويقال: إنّه لما أشخصه أقام عليه الحدّ بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد اعتذر من عَزْله سعد بن أبي وقّاص بالوليد، بأنّ سعداً شكاه أهلُ الكوفة، فأدّاه اجتهادُه إلى عزله بالوليد.

فأمّا سعيد بن العاص فإنه عزله عن الكوفة وولّى مكانه أبا موسى، وكذلك عبد الله بن أبي سَرْح عزله وولّى مكانه محمد بن أبي بكر، ولم يظهر له من مَرْوان ما يوجب أن يصرفَه عَمّا كان مستعملاً فيه، ولو كان ذلك طَعْناً لوجب مثلُه في كلّ مَنْ ولّى، وقد علمنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ولّى الوليد بن عُقْبة، فحدث منه ما حدث. وحَدَث من بعض أمراء أمير المؤمنين عليه السلام الخيانة، كالقَعْقاع بن شور، لأنه ولاه على مَيْسان فأخذ مالها ولحق بمعاوية، وكذلك فعل الأشعث بن قيس بمال أذْرَبيجان. وولّى أبا موسى الحُكْم، فكان منه ما كان، ولا

يجب أن يُعاب أحد بفعل غيره، وإذا لم يلحقه عيب في ابتداء ولايته فقد زال العيبُ فيما بعده.

وقولهم: إنّه قَسّم أكثر الولايات في أقاربه، وزال عن طريقة الاحتياط للمسلمين، وقد كان عمر حذّره من ذلك، فليس بعيب، لأن توليةَ الأقارب كتولية الأباعد، في أنّ يحسُن إذا كانوا على صفات مخصوصة. ولو قِيلَ إنّ تقديمهم أولى لم يمتنع، إذا كان المولّي لهم أشدّ تمكناً من عزلهم، والاستبدال بهم، وقد ولّى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن العباس البصرة، وعُبيد الله بن العباس اليمن، وقُثَم بن العباس مكّة، حتى قال مالك الأشتر عند ذلك: عَلَى ماذا قتلنا الشيخ أمس! فيما يُرْوَى، ولم يكن ذلك بعيب إذا أدّى ما وجب عليه في اجتهاده.

فأمّا قولهم: إنّه كتب إلى ابن أبي سَرْح حيث ولّى محمد بن أبي بكر بأنّه يقتلُه ويقتل أصحابه، فقد أنكرَ ذلك أشدّ إنكار، حتى حلف عليه، وبيّن أن الكتاب الذي ظهر ليس كتابه ولا الغلام غلامه ولا الراحلة راحلته، وكان في جُمْلة مَنْ خاطبه في ذلك أميرُ المؤمنين عليه السلام، فقبِل عذره. وذلك بيّن، لأنّ قول كلّ أحد مقبول في مثل ذلك، وقد علم أنّ الكتاب يجوز فيه التزوير، فهو بمنزلة الخبَر الذي يجوز فيه الكذب.

فإن قيل: فقد علم أنّ مروان هو الذي زَوّر الكتاب؛ لأنه هو الذي كان يكتب عنه، فهلاّ أقام فيه الحدّ!

قيل: ليس يجب بهذا القدر أن يُقْطَع على أنّ مروان هو الذي فعل ذلك؛ لأنّه وإن غلب ذلك في الظّنّ، فلا يجوز أن يحكم به، وقد كان القوم يسومونَه تسليمَ مروان إليهم، وذلك ظلم لأنّ الواجب على الإمام أن يُقيم الحدَّ على مَنْ يستحقه أو التأديب، ولا يحلّ له تسليمُه إلى غيره، فقد كان الواجب أن يُثبِتُوا عنده ما يوجب في مروان الحدّ والتأديب ليفعَله به، وكان إذا لم يفعل والحال هذه يستحق التعنيف، وقد ذكر الفقهاء في كتبهم أن الأمر بالقتل لا يوجب قوداً ولا دية ولا حدًّا، فلو ثبت في مَرْوان ما ذكروه لم يستحقّ القتل وإن استحق التعزير، لكنّه عدل عن تعزيره، لأنّه لم يثبت، وقد يجوز أن يكونَ عثمانُ ظنّ أنّ هذا الفِعل فعْل بعض من يعادي مَرْوان تقبيحاً لأمره، لأن ذلك يجوز، كما يجوز أن يكون من فعله، ولا يعلَم كيف كان اجتهاده وظنه! وبعد فإنّ هذا الحدَث من أجل ما نقَموا عليه، فإن كان شيء من ذلك يُوجب خَلْع عثمان وقتله، فليس إلاّ هذا، وقد علمنا أنّ هذا الأمرَ لو ثبت ما كان يُوجب القتل، لأنّ الأمر بالقتل لا يوجب القتل، سيما قَبْل وقوع القتل المأمور به، فنقول لهم: لو ثبت ذلك على عُثمان أكان يجبُ قتله! فلا يمكنهم ادّعاء ذلك؛ لأنه بخلاف الدّين، ولا بد أن يقولوا: إنّ قتلَهُ ظلم، وكذلك حَبْسُه في الدار، ومنعه من الماء، فقد كان يجب أن يدفع القوم عن كلّ ذلك، وأن يقال: إنّ من لم يدفعْهم وينكر عليهم يكون مخطئاً.

وفي القول بأنّ الصحابة اجتمعوا على ذلك كلّهم تخطئة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وآله، وذلك غير جائز، وقد عُلِم أيضاً أنّ المستحقّ للقتل والخلْع لا يحلّ أن يمنع الطعامَ والشرابَ، وعُلِم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يمنعْ أهل الشام من الماء في صِفّين، وقد تمكن من منعهم، وكلّ ذلك يدلُّ على كَوْن عثمان مظلوماً، وأنّ ذلك من صُنْع الجهّال، وأنّ أعيانَ الصحابة كانوا كارهين لذلك. وأيضاً فإنّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولّاه العوامُّ من الناس، ولا شبْهَة أنّ الذين أقدَموا على قتله كانوا بهذه الصّفة، وإذا صَحَّ أن قتله لم يكنْ لهم، فمنْعُهم والنّكِيرُ عليهم واجب.

وأيضاً فقد عُلم أنه لم يكن من عثمان ما يستحقّ به القتل، من كُفْرٍ بعد إيمان، أو زنًى بعد إحصان، أو قتلِ نفسٍ بغير حقّ، وأنه لو كان منه مَا يوجب القتل لكان الواجبُ أن يتولّاه الإمام، فقتلُه على كلّ حالٍ منكَر، وإنكارُ المنكرِ واجب.

وليس لأحدٍ أن يقولَ: إنّه أباح قتلَ نفسه، من حيث امتنع من دَفْع الظلم عنهم؛ لأنّه لم يمتنع من ذلك، بل أنصفهم، ونظر في حالهم، ولأنه لو لم يفعلْ ذلك لم يحلّ لهم قتلُه، لأنه إما يحلّ قتلُ الظالم إذا كان على وجه الدّفع، والمرويّ أنهم أحرقوا بابه، وهجموا عليه في منزله، وبَعجُوه بالسيف والمشاقِص[1]، وضربوا يَد زوجته لما وقعتْ عليه، وانتهبوا متاعَ داره، ومِثْلُ هذه القِتْلة لا تحلّ في الكافر والمرتَدّ، فكيف يُظنّ أنّ الصحابة لم ينكِرُوا ذلك، ولم يعدّوه ظلماً، حتى يقال إنّه مستحقٌّ من حيث لم يَدْفع القوم عنه! وقد تظاهَر الخبر بما جَرَى من تجمّع القوم عليه، وتوسّط أمير المؤمنين عليه السلام لأمرهم، وأنّه بذل لهم ما أرادوه، وأعتبهم وأشهدَ على نفسِه بذلك، وإن الكتاب الموجودَ بعد ذلك المتضمّن لقتل القوم، ووقف عليه - وممّن أوقفه عليه أمير المؤمنين عليه السلام - فحلفَ أنّه ما كتبه، ولا أمرَ به، فقال له: فمَنْ تتّهم؟ قال: ما أتّهم أحداً، وإنّ للناس لَحِيَلاً.

والرواية ظاهرة أيضاً بقوله: إن كنت أخطأتُ أو تعمّدت فإني تائبٍ ومستغفر، فكيف يجوز والحال هذه أن تُهتَك فيه حرمةُ الإسلام وحرمةُ البلد الحرام! ولا شبهةَ في أنّ القتل على وجه الغِيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل، فكيف فيمن لا يستحقّه! ولولا أنّه كان يمنع من محاربة القوم ظنًّا منه أنّ ذلك يؤدّي إلى القتل الذّريع لكَثُر أنصاره.

وقد جاء في الرواية أن الأنصارَ بدأت معونته ونُصرته، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد بعث إليه ابنه الحسن عليه السلام، فقال له: قل لأبيك فلْتأتني، فأراد أميرُ المؤمنين عليه السلام المسير إليه، فمنعَه من ذلك محمد ابنه، واستعان بالنّساء عليه، حتى جاء الصريخ بقتل عثمان، فمدّ يده إلى القبلة، وقال: اللّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. فإنْ قالوا: إنّهم اعتقدُوا أنه من المفسدين في الأرضِ، وأنّه داخل تحت آية المحاربين.

(١) المشاقص: جمع مشقص وهو السهم العريض النصل. اللسان، مادة (شقص).

قيل: فقد كان يجب أن يتولّى الإمام هذا الفعل؛ لأنّ ذلك يجري مجرى الحدّ، وكيف يُدّعى ذلك، والمشهور عنه أنه كان يمنع من مقاتلتهم، حتى رُوِي أنّه قال لعبيده ومواليه، وقد همّوا بالقتال: مَنْ أغمد سيفه فهو حُرّ! ولقد كان مؤثراً لنكير ذلك الأمر بما لا يؤدي إلى إراقة الدماء والفتْنة، ولذلك لم يستعِنْ بأصحاب الرسول الله صلى الله عليه وآله وإن كان لما اشتدّ الأمر أعانَه مَنْ أعان؛ لأنّ عند ذلك تَجِب النُّصْرة والمعونة، فحيث كانت الحال متماسكة، وكان ينهى عن إنجاده وإعانته بالحرب امتنعوا وتوقّفوا، وحيثُ اشتدّ الأمر أعانه ونصره مَنْ أدركه، دون من لم يغلِب ذلك في ظنه.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما قوله: لم يكن عالماً بحال الفَسَقة الذين ولّاهم قبل الولاية، فلا تعويلَ عليه، لأنّه لم يولِّ هؤلاء النَّفَر إلاّ وحالُهم مشهورة في الخلاعة والمجانة والتجرّم والتهتك، ولم يختلف اثنان في أنّ الوليد بن عُقْبة لم يستأنف التظاهر بشرب الخمر والاستخفاف بالدِّين على استقبال ولايته للكوفة، بل هذه كانت سنّتَه والعادة المعروفة منه، وكيف يخفَى عَلَى عثمان - وهو قريبه ولصيقهُ وأخوه لأمّه - مِنْ حاله ما لا يخفى عَلَى الأجانب الأباعد! ولهذا قال له سعد بن أبي وقاصٍ - في رواية الواقديّ، وقد دخل الكوفة -: يا أبا وهب، أمير أم زائر؟ قال: بل أمير، فقال سعد: ما أدري أحَمُقْتُ بعدك أم كِسْتَ بعدي! قال: ما حَمُقْتَ بعدي ولا كِسْتُ بعدك، ولكنّ القوم ملكوا فاستأثروا، فقال سعد: ما أَرَاكَ إلاّ صادقاً.

وفي رواية أبي مِخْنف لوط بن يحيى الأزديّ أنّ الوليد لما دخل الكوفة مَرَّ عَلَى مجلس عمرو بن زُرارة النَّخعيّ، فوقف، فقال عمرو: يا معشرَ بني أسد، بئسما استقبلَنا به أخوكم ابنُ عفّان! أمِنْ عدله أن ينزعَ عَنّا ابنَ أبي وقاص، الهيِّن الليِّن السّهل القريب، ويبعثَ بَدَله أخاه الوليد، الأحمق الماجن الفاجر قديماً وحديثاً! واستعظم الناسُ مقدَمه، وعَزْلَ سعد به، وقالوا: أراد عثمان كرامةَ أخيه بهوان أمّة محمد عليه السلام! وهذا تحقيقُ ما ذكرناه من أنّ حاله كانتْ مشهورة قبل الولاية، لا ريب فيها عند أحدٍ، فكيف يقال: إنه كان مستوراً حتى ظهر منه ما ظهر! وفي الوليد نزل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾(١)، فالمؤمن ها هنا أمير المؤمنين عليه السلام، والفاسق الوليد، على ما ذكره أهل التأويل. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾(٢)، والسبب في ذلك أنه كذب عَلَى بني المصطلق عند رسول الله صلى الله عليه وآله، وادّعى أنّهم

(١) سورة السجدة، الآية: (١٨).
(٢) سورة الحجرات، الآية: (٦).

منعوه الصَّدَقَة. ولو قصصنا مخازيَه المتقدّمة ومساوِيَهُ لطال بها الشرح.

وأما شربُهُ الخمر بالكوفة وسُكْره، حتى دخل عليه مَنْ دخل وأخذ خاتَمه من إصبعه، وهو لا يعلم، فظاهر، وقد سارت به الرّكبان. وكذلك كلامه في الصلاة، والتفاته إلى مَنْ يَقْتدي به فيها وهو سكران، وقوله لهم: أأزيدكم؟ فقالوا: لا، قد قَضَيْنا صلواتنا، حتى قال الحطيئة في ذلك:

شَـهِـدَ الْـحُـطَـيْـئَـةُ يَـوْمَ يَـلْـقَـىٰ رَبَّـهُ ... أنَّ الْـوَلِـيـدَ أحَـقُّ بـالْـعُـذْرِ
نَـادَى وَقَـدْ نَـفَـدَتْ صَـلَاتُـهُـمُ ... أأزيـدكـم - ثَـمِـلًا - ومـا يـدري
لِـيَـزِيـدَهُـم خَـيْـراً وَلَـوْ قَـبِـلُـوا ... مـنـه لـقـادهـمُ عـلـى عَـشْـرِ
فـأبـوْا أبـا وهـبٍ ولـو فـعـلـوا ... لـقـرنـتَ بـيـن الـشَّـفْـعِ والـوَتْـر
حَـبَـسُـوا عِـنَـانَـك إذا جـريـت ولـو ... خَـلُّـوْا عِـنـانـك لـم تَـزَلْ تـجـرِي

وقال فيه أيضاً:

تَـكَـلَّـمَ فـي الـصَّـلَاةِ وَزَادَ فِـيـهـا ... عَـلَانِـيَـةً وجـاهَـرَ بـالـنـفـاق
وَمَـجَّ الـخـمـرَ فِـي سَـنَـنِ الـمـصلّـى ... ونـادَى والـجـمـيـعُ إلـى افـتـراق
أزيـدكُـم عَـلَـى أن تَـحْـمَـدُونـي ... فـمـا لـكـمْ ومـا لـيَ مِـنْ خَـلَاقِ

وأما قوله: إنه جلَده الحدّ وعزله، فبعدَ أيّ شيء كان ذلك، ولم يعزله إلاّ بعد أن دافع ومانع، واحتجّ عنه وناضل! ولو لم يقهرْه أمير المؤمنين عليه السلام على رأيه لما عَزَله، ولا أمكن من جَلْده.

وقد روى الواقديّ أنّ عثمان لما جاءه الشهود يشهدون على الوليد بِشرْب الخمر أو عدهم وتهدّدهم.

قال الواقديّ: ويقال إنه ضربَ بعضَ الشهود أيضاً أسواطاً، فأتوْا أميرَ المؤمنين عليه السلام، فشكوْا إليه، فأتى عثمان، فقال: عطّلت الحدود، وضربت قوماً شهدوا على أخِيك، فقلّبْتَ الحُكْم، وقد قال لك عمر: لا تحملْ بني أمية وآل أبي مُعَيط على رقاب الناسِ! قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تعزِله ولا تولّيه شيئاً من أمور المسلمين، وأن تسأل عن الشهود، فإن لم يكونوا أهلَ ظِنّة ولا عداوة أقمت على صاحبك الحدّ، وتكلّم في مثل ذلك طلحة والزُّبير وعائشة، وقالوا أقوالاً شديدة، وأخذته الألسنُ من كلّ جانب، فحينئذ عَزَله، ومكّن من إقامة الحدّ عليه(١).

(١) انظر الغدير للعلامة الأميني: ٨/ ١٢٠.

وقد روى الواقديّ أنّ الشهود لما شَهدوا عليه في وجهه، وأراد عثمان أن يحدّه ألبسه جُبّة خزّ، وأدخله بيتاً، فجعل إذا بعث إليه رجلاً من قريش ليضربه، قال له الوليد: أنشدُك اللّه أن تقطع رحمي وتُغضب أمير المؤمنين! فلمّا رأى عليّ عليه السلام ذلك، أخذَ السوطَ ودخل عليه، فجلده به. فأيّ عذر لعثمان في عزله وجلْده بعد هذه الممانعة الطويلة، والمدافعة الشديدة!

وقصّة الوليد - مع السّاحر الذي كان يلعبُ بين يديه، ويغرّ الناس بمكْرِه وخديعته، وأن جُندَب بن عبد الله الأزديّ امتعض من ذلك ودخل عليه فقتله، وقال له: أحي نفسك إن كنت صادقاً، وأن الوليد أراد أن يقتل جُندباً بالساحر، حتى أنكر الأزدي ذلك عليه، فحبسه وطالَ حبسُه حتى هرب من السجن - معروفة مشهورة.

فإن قيل: فقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عُقْبة هذا صَدَقة بني المصْطَلق، وولّاه عمر صدقةَ تَغْلب، فكيف تدّعون أنّ حاله في أنّه لا يصلح للولاية ظاهرة!

قلنا: لا جَرَم، إنه غرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكَذَب على القوم حتى نزلت فيه الآية التي قدمنا ذكْرها، فعزله. وليس خَطْب ولاية الصدقة مثل خَطْب ولاية الكوفة، فأما عمر فإنه لما بلغه قوله:

إذا مـا شـددتُ الـرأس مـنـي بِـمِـشْـوَذٍ فـويـلَـكِ مـنـي تـغـلـبَ ابـنـة وائِـل[1]

عَزَله.

وأما عَزْلُ أمير المؤمنين عليه السلام بعضَ أمرائه لمَا ظهر من الحدَث كالقَعْقاع بن شُور وغيره، وكذلك عَزْلُ عُمر قدامةَ بن مظعون لما شُهِد عليه بشرْب الخمر، وجلده له، فإنه لا يشبِه ما تقدّم، لأن كلّ واحد ممن ذكرناه لم يولّ إلا مَنْ هو حَسَنُ الظاهر عنده وعند الناس، غير معروف باللعب ولا مشهور بالفساد. ثم لما ظهر منه ما ظَهر لم يحامِ عنه ولا كَذّب الشهودَ عليه وكَابَرهم، بل عزله مختاراً غير مضطرّ، وكلّ هذا لم يجرِ في أمراء عثمان، وقد بيّنا كيف كان عزل الوليد وإقامة الحدّ عليه.

فأمّا أبو موسى فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولّه الحُكْم مختاراً، لكنه غُلِب على رأيه وقُهِر عَلَى أمره، ولا رأيَ لمقهور.

فأمّا قوله: إن ولايةَ الأقارب كولاية الأباعد، بل الأقارب أوْلى، من حيث كان التمكّن من عزلهم أشدّ. وذكْر توليةِ أمير المؤمنين عليه السلام أولادَ العباس رحمه الله تعالى وغيرَهم - فليس بشيء، لأنّ عثمان لم يُنْقَمْ عليه توليةُ الأقارب من حيث كانوا أقاربَ، بل من حيث كانوا أهل بيت الظِّنَّة والتهمة، ولهذا حذّره عمرُ وأشعرَ بأنه يحمِلُهم عَلَى رقاب الناس. وأميرُ

(١) المشوذ: العمامة. القاموس، (مادة شوذ).

المؤمنين عليه السلام لم يولِّ مِنْ أقاربه متَّهماً ولا ظَنيناً، وحين أحسَّ من ابن العباس ببعض الرِّيبة لم يمهلْه ولا احتمله، وكاتَبه بما هو شائع ظاهر، ولو لم يَجِبْ على عثمان أن يعدِل عن ولاية أقاربه إلا من حيثُ جعل عمر ذلك سببَ عدوله عن النصّ عليه، وشرط عليه يوم الشورى ألاّ يحمل أقارِبَه عَلَى رقاب الناس، ولا يؤثِرَهم لمكان القرابة بما لا يُؤثِرُ به غيرَهم - لكان صارفاً قوياً، فضلاً عن أن ينضاف إلى ذلك ما انضاف من خِصَالهم الذميمة وطرائقهم القبيحة.

فأما سعيد بن أبي العاص، فإنّه قال في الكوفة: إنّما السوادُ بستانٌ لقريش، تأخذ منه ما شاءت وتترك، حتى قالوا له: أتجعلُ ما أفَاء الله علينا بستَاناً لك ولقومك! ونابذوه، وأفضَى الأمر إلى تسييره مَنْ سَيّر عن الكوفة، والقصة مشهورة، ثم انتهى الأمر إلى منع أهل الكوفة سعيداً من دخولها، وتكلّموا فيه وفي عثمان كلاماً ظاهراً، حتى كادوا يخلعون عثمان، فاضطُر حينئذٍ إلى إجابتهم إلى ولاية أبي موسى، فلم يصرف سعيداً مختاراً، بل ما صرفه جُمْلة، وإنما صرَفه أهلُ الكوفة عنهم.

فأما قوله: إنه أنكر الكتاب المتضّمن لقتل محمد بن أبي بكر وأصحابه، وحلَف على أنّ الكتاب ليس بكتابه، ولا الغلام غلامه، ولا الراحلة راحلته، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِل عذره، فأوّل ما فيه أنّه حكَى القصّة بخلاف ما جرت عليه، لأنّ جميعَ مَنْ يروِي هذه القصة ذكر أنّه اعترف بالخاتَم والغلام والرّاحلة، وإنما أنكر أن يكون أمرَ بالكتابة، لأنه روى أنّ القوم لما ظَفِروا بالكتاب قَدِموا المدينة، فجمعوا أمير المؤمنين عليه السلام وطلحة والزبير وسعداً وجماعة الأصحاب، ثم فكّوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبروهم بقصّة الغلام، فدخلوا على عثمان والكتاب مع أمير المؤمنين، فقال له: أهذا الغلامُ غلامك؟ قال: نعم، قال: والبعيرُ بعيرك؟ قال: نعم، قال: أفأنت كتبتَ هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله أنّه ما كتب الكتاب، ولا أمرَ به، فقال له: فالخاتم خاتمك؟ قال: نعم، قال: فكيف يخرجُ غلامُك على بعيرك بكتاب عليه خاتَمك، ولا تعلم به[1]!

وفي رواية أخرى أنّه لما وَاقَفه عليه، قال عثمان: أما الخطّ فخط كاتبي، وأما الخاتم فعلى خاتَمِي، قال: فمن تتّهم؟ قال: أتّهمك وأتّهم كاتبي، فخرج أمير المؤمنين عليه السلام مغضباً، وهو يقول: بل بأمرك، ولزِم داره، وبَعُد عن توسّط أمره، حتى جرى عليه ما جرى.

وأعجبُ الأمور قوله لأمير المؤمنين عليه السلام: «إني أتّهمُك» وتظاهرُه بذلك وتلّقيه إياه في وجهه بهذا القول، مع بعده من التهمة والظّنة في كلّ شيء، وفي أمره خاصة، فإنّ القوم في الدُّفعة الأولى أرادوا أن يعجّلوا له ما أخبروه، حتى قام أمير المؤمنين عليه السلام بأمره وتوسّط

(١) انظر الثقات لابن حبان: ٢/ ٢٥٩، وتاريخ المدينة لابن شبة: ٤/ ١١٦٠.

وأصلحه، وأشار عليه بأن يقارِبهم ويعينهم، حتى انصرفوا عنه، وهذا فعل النَّصِيح المشفق الحدِب[1] المتحنِّن، ولو كان عليه السلام - وحُوشِيَ من ذلك - متّهماً عليه لما كان للتهمة عليه مجال في أمر الكتاب خاصة، لأنّ الكِتَاب بخطّ عدوّه مرْوان، وفي يد غلام عثمان، ومحمول عَلَى بعيرِه، ومختوم بخاتَمه، فأيّ ظن تعلّق بأمير المؤمنين عليه السلام في هذا المكان، لولا العداوةُ وقِلّة الشكر للنعمة!

ولقد قال له المصريون لما جَحَد أن يكون الكتاب كتابَه شيئاً لا زيادة عليه في باب الحجّة؛ لأنّهم قالوا له: إذا كنتَ ما كتبتَ ولا أمرتَ به، فأنت ضعيف، من حيثُ تَمّ عليك أنْ يَكْتُبَ كاتبُك بما تختِمه بخاتَمك، ويُنفذه بيد غلامِك وعلى بعيرك بغير أمرك، ومَنْ تَمّ عليه ذلك لا يصلُح أن يكون والياً على أمور المسلمين. فاختلِعْ عن الخلافة على كلّ حال.

قال: ولقد كان يجب عَلَى صاحب «المغني» أن يستحيَ من قوله: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قَبِلَ عذرَه، وكيف يقبل عذْرَ مَنْ يتّهمه ويستغِشُّه، وهو له ناصح! وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد سماع هذا القول منه معروف.

وقوله: إنّ الكتاب يجوز فيه التزوير، ليس بشيء، لأنه لا يجوز التزويرُ في الكتاب والغلام والبعير، وهذه الأمور إذا انضاف بعضُها إلى بعض بَعُدَ فيها التزويرُ، وقد كان يجب عَلَى كل حالٍ أن يبحثَ عن القِصّة وعَمّن زَوّر الكِتاب، وأنفذ الرسولَ، ولا ينام على ذلك، حتى يَعْرِف من أين دُهِي، وكيف تمّت الحيلة عليه، فيحترِز من مثلها، ولا يُغضي عن ذلك إغضاء ساترٍ له، خائف من بحثه وكشفه.

فأما قوله: إنه وإن غلبَ عَلَى الظّن أنَّ مرْوان كتب الكتاب، فإنَّ الحكم بالظنّ لا يجوزُ، وتسليمه إلى القوم على ما سألوه إيّاه ظلم؛ لأنَّ الحدَّ والأدب إذا وجبَ عليه، فالإمام يُقيمه دونهم، فتعلُّلٌ بما لا يجدِي؛ لأنّا لا نعمل إلا على قوله في أنّه لم يعلم أنَّ مرْوان هو الذي كتب الكتاب، وإنما غلب على ظنّه، أما كان يستحقّ مروان بهذا الظنّ بعض التعنيف والزجر والتهديد! أو ما كان يجب مع وقوع التهمة عليه، وقوة الأمارات في أنّه جالب الفتنة وسببُ الفُرقة أن يُبْعِده عنه، ويطرُده مِن داره ويسلُبه ما كان يخصّه به من إكرامه! وما في هذه الأمور أظهر من أن ينبّه له.

فأما قوله: إنَّ الأمر بالقتل لا يوجب قَوَداً ولا دِيَةً، سيَّما قبل وقوع القتل المأمور به، فهب

---

(١) الحدِب: المشفق والمتعطف. اللسان، مادة (حدب).

أن ذلك على ما قال، أمَا أوجبَ الله تعالى على الأمر بقتل المسلمين تأديباً ولا تعزيراً ولا طرداً ولا إبعاداً!

وقوله: لم يثبت ذلك، قد مضى ما فيه، وبيّن أنه لم يستعمل فيه ما يجبُ استعماله من البحث والكشف، وتهديدِ المتّهم وطرْده وإبعاده والتبرُّؤ من التهمة بما يُتبرّأ به من مثلها.

فأما قوله: إن قتله ظلم وكذلك حبسُه في الدار، ومنعه من الماء، وأنه لو استحق القتل أو الخلع لا يحلّ أن يُمنَع الطعامَ والشراب، وقوله: إن من لم يدفع عن ذلك من الصّحابة يجب أن يكون مخطئاً، وقوله: إنَّ قتله لو وجب لم يَجُزْ أن يتولاّه العوامّ من الناس، فباطل؛ لأنَّ الذين قتلوه غيرُ منكرٍ أن يكونوا تعمّدُوا قتله، وإنما طالبوه بأنْ يخلَع نفسه لما ظهر لهم من إحْداثه، ويعتزل عن الأمر اعتزالاً يتمكّنون معه من إقامة غيره، فلجّ وصمّم على الامتناع، وأقام على أمرٍ واحد، فقصد القوم بحصْرِه أن يُلْجِئُوه إلى خلع نفسه، فاعتصَم بداره، واجتمع إليه نفر من أوْباش بني أميّة، يدفعون عنه، ويرمون مَنْ دنا إلى الدار، فانتهى الأمرُ إلى القتال بتدريج، ثم إلى القتل، ولم يكن القتال ولا القتل مقصوديْن في الأصل، وإنما أفضى الأمرُ إليهما على ترتيب، وجرى ذلك مجرى ظالم غلب إنساناً على رَحْله أو متاعِه، فالواجبُ على المغلوب أن يُمانعه ويدافعه ليخلُص مالُه من يده، ولا يقصد إلى إتلافه ولا قتله، فإنْ أفضى الأمرُ إلى ذلك بلا قصد كان معذوراً، وإنّما خاف القومُ - في التأني به، والصبر عليه، إلى أن يخلع نفسَه - من كُتُبِه التي طارت في الآفاق، يستنصر عليهم ويستقدِم الجيوش إليهم، ولم يأمنوا أن يَرِدَ بعض مَنْ يدفع عنه فيؤدّي ذلك إلى الفتنة الكبرى والبليّة العظمى.

وأما منع الماء والطعام فما فُعِل ذلك إلا تضييقاً عليه، ليخرُج ويَحوَج إلى الخلع الواجب عليه. وقد يُستعمل في الشريعة مثل ذلك فيمن لجأ إلى الحرمَ من ذوي الجنايات، وتعذّر إقامة الحدّ عليه لمكانِ الحرَم. على أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أنكر منعَ الماء والطعام، وأنفذ مَنْ مكّن مَنْ حَمَل ذلك؛ لأنّه قد كان في الدار من الحُرَم والنِّسوان والصبيان مَنْ لا يحلّ منعُه من الطعام والشراب. ولو كان حكم المطالبة بالخلع والتجمّع عليه والتضافر فيه حكم منْع الطعام والشراب في القُبح والمنكر لأنكره أميرُ المؤمنين عليه السلام، ومنَعَ منه كما منع من غيره، فقد رُوي عنه عليه السلام أنّه لما بلَغه أنَّ القوم قَدْ منعوا الدار من الماء، قال: لا أرى ذلك، إنَّ في الدار صبياناً وعِيالاً، لا أرى أن يُقتل هؤلاء عطشاً بُجرْم عثمان. فصرّح بالمعنى الذي ذكرناه، ومعلوم أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام ما أنكر المطالبة بالخلْع، بل كان مساعداً على ذلك ومشاوَراً فيه.

فأما قوله: إن قتل الظالم إنما يحلّ على سبيل الدفع، فقد بيّنا أنه لا ينكَر أن يكون قتْله وقع على ذلك الوجه؛ لأنه في تمسّكه بالولاية عليهم وهو لا يستحقها، في حكم الظالم لهم، فمدافعته واجبة.

وأما قصّة الكتاب الموجود، فلم يَحْكِها على الوجه، وقد شرحنا نحن الرواية الواردة بها.

وأما قوله: إنّه قال: إنْ كنتُ أخطأتُ أو تعمّدت، فإني تائب مستغفر، فقد أجابَهُ القوم عن هذا، وقالوا: هكذا قُلْتَ في المرّة الأولى، وخطبْتَ على المِنْبَر بالتوبة والاستغفار، ثم وجدْنا كتابَك بما يقتضي الإصرار على أقبح ما عتبنا منه، فكيفَ نثق بتوبتك واستغفارك!

فأما قوله: إنّ القتل على وجهِ الغِيلة لا يحلّ فيمن يستحقّ القتل، فكيف فيمن لا يستحقه! فقد بينا أنه لم يكن على سبيل الغِيلة، وأنه لا يمتنع أن يكونَ إنّما وقع على سبيل المدافعة.

فأمّا ادعاؤه أنّه مَنَع من نُصرته، وأقسم على عبيده بترْك القتال، فقد كان ذلك لَعَمْرِي في ابتداء الأمر ظنًّا منه أنّ الأمر ينصلِح، والقوم يرجعون عَمّا هَمّوا به، فلما اشتدّ الأمر، ووقع اليأس من الرجوع والنزوع، لم يمنع أحداً من نُصْرَته والمحاربة عنه، وكيف يمنع من ذلك، وقد بعث إلى أمير المؤمنين عليه السلام يستنصرُه ويستصرخه!

والّذي يدلّ على أنّه لم يمنع في الابتداء من محاربتهم إلا للوجه الذي ذكرناه دون غيره، أنّه لا خلافَ بين أهلِ الرواية في أنّ كتبه تفرّقت في الآفاق يستنصِرُ ويستدعِي الجيوش، فكيف يرغب عن نُصرة الحاضر مَنْ يستدعي نصرة الغائب!

فأما قوله: إنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أراد أن يأتِيهَ، حتى منعه ابنه محمد، فقولٌ بعيد مما جاءت به الرواية جدًّا، لأنه لا إشكالَ في أنّ أميرَ المؤمنين عليه السّلام لما واجهه عثمان بأنّه يتّهِمه ويستغِشّه، انصرف مغضَباً عامداً، على أنه لا يأتيه أبداً، قائلاً فيه ما يستحقّه من الأقوال.

فأما قوله في جواب سؤال مَنْ قال: إنّهم اعتقدوا فيه أنّه من المفسدين في الأرض، وأنّ آية المحاربة تتناوله، وأنّه قد كان يجب أن يتولى الإمام ذلك الفعل بنفسه، لأنّ ذلك يجري مجرى الحدّ، فطريف، لأنّ الإمام يتولّى ما يجري هذا المجرى إذا كان منصوباً ثابتاً، ولم يكن على مذهب القوم هناك إمامٌ يجوز أن يتولّى ما يجرِي مَجْرَى الحدود، ومتَى لم يكُنْ إمام يقوم بالدّفع عن الدين والذّبّ عن الأمّة، جاز أن تتولّى الأمّة ذلك بنفوسها.

قال: وما رأيتُ أعجبَ من ادّعاءِ مخالفينا أنّ أصحابَ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم كانُوا كارِهين لما جرى على عثمان، وأنّهم كانوا يعتقدونه منكراً وظُلْماً، وهذا يجري عند من تأمّله مجرَى دفع الضرورات قبل النظر في الأخبار، وسماع ما ورد من شَرْحِ هذه القصّة، لأنّه معلوم أنّ ما يكرهُه جميع الصحابة أو أكثرهم في دار عِزّهم، وبحيث ينفذُ أمرُهم ونهيهم لا يجوز أن يتمّ. ومعلوم أنّ نفراً من أهل مصر لا يجوز أن يقدَموا المدينة فيغلبوا جميعَ المسلمين على آرائهم، ويفعلوا بإمامهم ما يكرهونه بمرأى منهم ومسمع، وهذا معلومٌ بُطْلانه بالبداهة والضرورات قبل تصفح الأخبار وتأمّلها.

وقد رَوَى الواقِديّ عن ابن أبي الزّناد، عن أبي جعفر القاريّ مولى بني مخزوم، قال: كان المصرّيون الذي حَصَروا عثمان ستمائة، عليهم عبد الرحمن بن عديس البلويّ، وكنانة بن بشر الكِنْديّ، وعمرو بن الحِمق الخُزاعيّ. والذين قدموا المدينة من الكوفة مائتين، عليهم مالك الأشتر النَّخَعيّ. والذين قدِموا من البصرة مائة رجل، رئيسهم حكيم بن جبل العبديّ، وكان أصحابُ النبي ﷺ الذين خذلوه لا يروْن أنّ الأمر يبلغ به القتل، ولعمري لو قام بعضُهم فحثا الترابَ في وجوه أولئك لانصرفوا، وهذه الرواية تضمّنت من عدد القوم الوافدين في هذا الباب أكثر مما تضمّنه غيرها.

وروى شُعبَة بن الحجاج عن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، قال: قلت له: كيف لم يمنع أصحاب رسول الله ﷺ عَنْ عثمان؟ فقال: إنما قَتَله أصحابُ رسول الله ﷺ.

ورُوِيَ عن أبي سعيد الخُدرِيّ، أنه سُئِل عن مقتل عثمان: هل شَهِده أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، شهده ثمانمائة[1].

وكيف يقال: إن القوم كانوا كارهين، وهؤلاء المصريون كانوا يَغْدُون إلى كل واحد منهم، ويروحون ويشاورونه فيما يصنعونه! وهذا عبد الرحمن بن عوف وهو عاقِدُ الأمر لعثمان، وجالبه إليه، ومُصَيِّره في يده، يقول - على ما رواه الواقديّ، وقد ذُكِر له عثمانُ في مرضه الذي مات فيه -: عاجلوه قبل أن يتمادَى في ملكه، فبلغ ذلك عثمان فبعث إلى بئر كان عبد الرحمن يسقي منها نعَمَهُ، فمنع منها، ووصىٰ عبدُ الرحمن ألاّ يصلّي عليه عثمان، فصلّى عليه الزبير - أو سعد بن أبي وقّاص - وقد كان حَلَف لما تتابعتْ أحداثُ عثمان ألاّ يكلّمَه أبداً.

وروى الواقديّ، قال: لمّا تُوُفّي أبو ذرّ بالرّبذَة تذاكر أميرُ المؤمنين عليه السلام وعبدُ الرحمن فعلَ عثمان، فقال أمير المؤمنين عليه السلام له: هذا عملُك! فقال عبدُ الرحمن: فإذا شئت فخذ سيفَك وآخذُ سيفي، إنه خالف ما أعطاني.

فأما محمد بن مسلمة، فإنه أرسلَ إليه عثمان يقول له عند قدوم المصريينَ في الدُّفعة الثانية: أردُدْ عنّي، فقال: لا والله لا أكذبُ الله في سنة مرتين، وإنما عَنَى بذلك أنه كان أحدَ من كلَّم المصريين في الدفعة الأولى، وضمن لهم عن عثمان الرضا.

وفي رواية الواقديّ أنّ محمد بن مسلمة، كان يموت وعثمان محصور، فيقال له: عثمان مقتول، فيقول: هو قَتَلَ نفسه.

فأمّا كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام، وطلحة والزُّبير وعائشة، وجميع الصحابة واحداً واحداً، فلو تعاطيْنا ذكرَه لطال به الشَّرح، ومن أراد أن يقِفَ على أقوالهم مفصَّلة، وما صرَّحوا به من خَلْعه والإجلاب عليه، فعليْه بكتاب الواقديّ، فقد ذكرَ هو وغيرُه من ذلك ما لا زيادة عليه.

(١) رواه ابن شبه في تاريخ المدينة: ٤/ ١١٧٥.

الطعن الثاني: كونه ردّ الحكَم بن أبي العاص إلى المدينة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طَرَده، وامتنع أبو بكرٍ من ردّه، فصار بذلك مخالفاً للسنّة ولسيرة مَنْ تقدّمه، مدّعياً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعاملاً بدعواه من غير بيّنة.

قال قاضي القضاة رحمه الله: وجوابُنا عن ذلك أنّ المرويّ في الأخبار أنّه لما عُوتب في ذلك ذكر أنّه استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه، وإنما لم يقبل أبو بكر وعمر قوله لأنه شاهد واحد، وكذلك روى عنهما، فكأنهما جعلا ذلك بمنزلة الحُقوق التي تختصّ، فلم يقبلا فيه خَبَر الواحد، وأجرياه مَجْرى الشهادة، فلما صار الأمر إليه حكَم بعلمه، لأنّه للحاكِم أن يحكُم بعلمه في هذا الباب وفي غيره عند شيخينا، ولا يفصلان بين حدّ وحق، ولا بين أن يكون العلم قبل الولاية أو حال الولاية، ويقولان: إنه أقوى من البيّنة والإقرار.

وقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى: إنّه لا وجهَ يقطع به على كذب روايته في إذن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ردّه، ولا بدّ من تجويز كونه صادقاً، وفي تجويز ذلك كونه معذوراً.

فإن قيل: الحاكم إنما يحكم بعلْمه مع زوال التهمة، وقد كانت التهمة في ردّ الحكم قوية لقرابته!

قيل: الواجب على غيره ألاّ يتّهمه، إذا كان لفعله وجه يصحّ عليه، لأنه قد نصب منصباً يقتضي زوالَ التهمة عنه، وحَمْل أفعال على الصحّة، ومتى طرقنا عليه التهمة أدّى إلى بطلان كثير من الأحكام. وقد قال الشيخ أبو الحُسين الخيّاط رحمه اللّه تعالى: إنه لو لم يكن في ردّه إذن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجاز أن يكون طريقه الاجتهاد، لأن النفيَ إذا كان صلاحاً في الحال لا يمتنع أن يتغيّر حكمه باختلاف الأوقات وتغيّر حال المنفي، وإذا كان لأبي بكر أن يستردّ عمرَ من جيش أسامة للحاجة إليه - وإن كان قد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفوذه - من حيث تغيرت الحال، فغير ممتنع مثله في الحكم.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا، فقال: أمّا دعواه أنّ عثمان ادّعى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أذن في رَدّ الحَكَم فشيء لم يُسمع إلا من قاضي القضاة، ولا يُدْرَى من أين نقله، ولا في أيّ كتاب وجده! والذي رواه الناس كلّهم خلاف ذلك، روى الواقديّ من طرق مختلفة وغيره أنّ الحَكَم بن أبي العاص لما قدِم المدينة بعد الفتح، أخرجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف، وقال: لا تساكنّي في بلد أبداً، فجاءه عثمان فكلّمه فأبى، ثم كان أبي بكر مثل ذلك، ثم كان من عمر مثل ذلك، فلما قام عثمان أدخله ووصله وأكرمه، فمشى في ذلك عليّ والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن بن عوف وعمّار بن ياسر، حتى دخلوا على عثمان فقالوا له: إنك قد أدخلتَ هؤلاء القوم - يعنون الحَكَم ومن معه - وقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أخرجهم، وإنا نذكّرك الله والإسلام ومَعادك، فإن لك معاداً ومُنقَلباً، وقد أبت ذلك الولاةُ قبلك، ولم يطمع أحد أن

يكلّمها فيهم، وهذا شيء نخاف الله فيه عليك. فقال عثمان: إنّ قرابتَهم منّي ما تعلمون، وقد كان رسول الله ﷺ حيثُ كلّمته أطمَعني في أن يأذن لهم، وإنما أخرجهم لكلمةٍ بلغَته عن الحَكَم، ولم يضرّكم مكانهم شيئاً، وفي الناس مَنْ هو شرّ منهم. فقال عليّ عليه السلام: لا أجدُ شرًّا منه ولا منهم، ثم قال: هل تعلم عمر يقول: والله ليحملَنّ بني أبي مُعيط على رقاب الناس! والله إن فعل ليقتلُنّه، فقال عثمان: ما كان منكم أحد ليكون بينه وبينه من القرابة ما بيني وبينه، وينال من المقدرة ما نلت إلا قد كان سيُدخلُه، وفي الناس مَنْ هو شرّ منه. قال: فغضب عليّ عليه السلام، وقال: والله لتأتينّا بشرٍّ مِنْ هذا إن سلمت، وسترى يا عثمان غِبّ ما تفعله! ثم خرجوا من عنده.

وهذا كما ترى خلاف ما ادّعاه صاحب «المغني»؛ لأنّ الرجل لما احتفلَ ادّعى أنّ رسول الله ﷺ كان أطمَعه في ردّه، ثم صَرّح بأنّ رِعايته فيه القرابة هي الموجبة لردّه ومخالفة الرسول عليه السلام. وقد روى من طرق مختلفة أنّ عثمان لمّا كلم أبا بكر وعمر في ردّ الحَكَم أغلظا له وزبَراه[1]، وقال له عمر: يخرجه رسول الله ﷺ وتأمرني أن أدخله! والله لو أدخلته لم آمن أن يقول قائل: غيّر عهد رسول الله ﷺ، والله لأنْ أشقّ باثنتين كما تُشقّ الأبلُمة[2] أحبّ إليّ من أن أخالِف لرسول الله أمراً، وإياك يا بن عفان أن تعاوِدَني فيه بعد اليوم، وما رأينا عثمان قال في جواب هذا التعنيف والتوبيخ من أبي بكر وعمر: إنّ عندي عهداً من رسول الله ﷺ فيه، لا أستحقّ معه عتاباً ولا تهجيناً، وكيف تطيب نفس مُسلم موقّر لرسول الله ﷺ معظّم له أنْ يأتيَ إلى عدوّ رسول الله ﷺ، مصرّح بعداوته والوقيعة فيه، حتّى بلغ به الأمرُ إلى أنْ كان يحكي مِشْيَته، طردَه رسول الله، وأبعده ولعنه، حتى صار مشهوراً بأنه طرِيدُ رسول الله ﷺ، فيكرِمه ويردّه إلى حيث أخرج منه، ويصِلُه بالماء العظيم: إما من مال المسلمين أو مِنْ ماله! إنّ هذا لعظيم كبير قبل التصفّح والتأمّل والتعلّل بالتأويل الباطل!

فأمّا قولُ صاحب «المغني»: إنّ أبا بكر وعمر لم يقبلا قوله لأنّه شاهِد واحد، وجعلا ذلك بمنزلة الحقوق التي تخصّ، فأوّل ما فيه أنّه لم يشهدْ عندهما بشيء واحد في باب الحكم على ما رواه جميع الناس، ثم ليس هذا من باب الذي يُحتاج فيه إلى الشاهدَيْن، بل هو بمنزلة كلّ ما يقبَلُ فيه أخبارُ الآحاد. وكيف يجوز أن يُجرِيَ أبو بكر وعمر مَجرَى الحقوق ما ليس منها! وقوله: لا بدّ من تَجويز كونه صادقاً في روايته، لأنّ القطعَ على كذب روايته لا سبيل إليه ليس بشيء، لأنا قد بيّنا أنّه لم يَروِ عن الرسول ﷺ إذناً، إنما ادّعى أنه أطمَعه في ذلك. وإذا جوّزنا كونَه صادقاً في هذه الرواية، بل قطعنا على صدقه لم يكن معذوراً.

---

(١) زبره: نهاه وانتهره. اللسان، (مادة زبر).

(٢) الأبلمة: خوصة المقل. القاموس، مادة (بلم).

فأمّا قوله: الواجبُ على غيرِه ألاّ يتهِمَه إذا كان لفعله وجهٌ يصحّ عليه، لانتصابه منصباً يُزيل التهمة، فأوّل ما فيه أنّ الحاكِم لا يجوز أن يحكُم بعلمه مع التّهمة، والتّهمة قد تكون لها أمارات وعلامات، فما وقع منها عن أمارات وأسباب تتّهم في العادة كان مؤثراً، وما لم يكنْ كذلك فلا تأثيرَ له، والحكَم هو عمّ عثمان، وقريبه ونسيبه، ومن قد تكلّم في ردّه مرة بعد أخرى، ولوالٍ بعد والٍ، وهذه كلها أسباب التّهمة، فقد كان يجب أنْ يتجنّب الحكم بعلمه في هذا الباب خاصّة، لتطرّق التهمة إليه.

فأما ما حكاه عن أبي الحسين الخَيّاط من أنّ الرسولَ صلى الله عليه وآله لو لم يأذن في رَدّه لجاز أن يَرُدّه إذا أدّاه اجتهادُه إلى ذلك، لأنّ الأحوالَ قد تتغيّر - فظاهر البُطْلان -، لأن الرّسولَ عليه السلام إذا حَظر شيئاً أو أباحه لم يكن لأحدٍ أنْ يجتهد في إباحة المحظور أو حَظْر المباح، ومَنْ يجوّز الاجتهادَ في الشريعة لا يُقْدم على مثلِ هذا، لأنّه إنما يجوز عندهم فيما لا نصّ فيه. ولو سَوّغنا الاجتهادَ في مخالفة ما تناوله النصّ لم يؤمَن أن يؤدّي اجتهاد مجتهد إلى تحليل الخمر وإسقاط الصلاة، بأن تتغير الحال، وهذا هَدْمٌ للشريعة. فأما الاستشهاد باسترداد عمر من جيش أسامة فالكلام في الأمرين واحد.

الطعن الثالث: أنه كان يؤثر أهلَ بيتهِ بالأموال العظيمة التي هي عُدّة المسلمين، نحو ما رُوِي أنّه دفع إلى أربعة أنفسٍ من قريش زوّجهم بناتِه أربعمائة ألف دينار، وأعطى مَرْوان مائة ألف عند فتح إفريقيّة، ويروى خُمْس إفريقيّة، وغير ذلك، وهذا بخلاف سيرة مَنْ تقدمه في القِسْمة على النّاس بقدر الاستحقاق، وإيثار الأباعد على الأقارب.

قال قاضي القضاة: وجوابُنا عن ذلك أنّ من الظاهر المشهور أنّ عثمانَ كان عظيمَ اليَسار، كثير المال، فلا يمتنع أن يكون إنما أعطى أهلَ بيتِه من مالِه، وإذا احتمل ذلك وجب حملُه على الصحة.

وقد قال شيخُنا أبو عليّ رحمه الله تعالى: إنّ الذي رُوِي من دَفْعه إلى ثلاثة نفر من قريش زَوَّجهم بناتِه، إلى كلّ واحد منهم مائة ألف دينار، إنما هو من ماله، ولا رواية تصحّ أنه أعطاهم ذلك من بيت المال، ولو صحّ ذلك لكان لا يمتنع أن يكونَ أعطاهم من بيت المال ليردّ عِوَضه من ماله، لأنّ للإمام عند الحاجة أن يفعل ذلك، كما له أنْ يُقرض غيره.

وقال شيخُنا أبو عليّ أيضاً: إن ما رُوِيَ من دفعه خُمس إفريقيّة لَمّا فُتِحت إلى مروان، ليس بمحفوظٍ ولا منقول على وجهٍ يجب قبوله، وإنما يَرْويه مَنْ يقصد التشنيع. وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخياط: إن ابن أبي سَرْح لما غزا البحر، ومعه مَرْوان في الجيش، ففتَح الله عليهم،

وغنموا غنيمةً عظيمة، اشترى مَرْوان من ابن أبي سَرْح الخُمس بمائة ألف، وأعطاه أكثرها، ثم قَدِم على عثمان بشيراً بالفَتح، وقد كانتْ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش: فرأى عثمان أن يَهَب له ما بقَى عليه من المال، وللإمام فِعْلُ مثل ذلك، ترغيباً في مثل هذه الأمور.

قال: وهذا الصُّنْع كان منه في السّنَة الأولى من إمامته، ولم يبرأ أحد منه فيها، فلا وجهَ للتعلّق بذلك.

وذكر أبو الحسين الخياط أيضاً فيما أعطاه أقاربه أنّه وصلهم لحاجتهم، فلا يمتنع مثلُه في الإمام إذا رآه صلاحاً. وذكر في إقطاعه القطائع لبني أميّة، أنّ الأئمة قد تحصُل في أيديهم الضيّاع لا مالكَ لها، ويعلمون أنّها لا بدّ فيها ممّن يقوم بإصلاحها وعمارتها، ويؤدي عنها ما يجب من الحقّ، فله أن يصرف من ذلك إلى مَنْ يقوم به، وله أيضاً أن يهدّ بعضها على بعض بحسب ما يعلم من الصلاح والتألّف، وطريقُ ذلك الاجتهاد.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما قوله: يجوز أن يكون إنما أعطاهم من ماله، فالرواية بخلاف ذلك، وقد صرّح الرجلُ بأنّه كان يعطِي من بيت المال صلّة لرحمه، ولما عوتب على ذلك لم يعتذر عنه بهذا الضَّرْب من العذر، ولا قال: إنّ هذه العطايا من مالي، فلا اعتراضَ لأحد فيها. روَى الواقديّ بإسناده عن المِسْوَر بن عُتْبة، قال: سمعتُ عثمانَ يقول: إنّ أبا بكرٍ وعمر كانا يتأوّلان في هذا المال ظَلَف[1] أنفسهما وذَوِي أرحامهما، وإنّي تأوّلتُ فيها صِلَةَ رحمي.

ورُوِي عنه أيضاً أنه كان بحضرته زياد بن عبيد، مولى الحارث بن كَلَدة الثقفيّ، وقد بعث إليه أبو موسى بمالٍ عظيم من البَصْرة، فجعل عثمان يقسمه بين ولده وأهله بالصِّحاف، فبكى زياد، فقال: لا تبكِ، فإنّ عمر كان يمنع أهله وذوي قرابته ابتغاءَ وجه الله، وأنا أعطي أهلي وولدي وقرابتي ابتغاءَ وجه الله.

وقد رُوِي هذا المعنى عنه من عدة طرق بألفاظٍ مختلفة.

وروى الواقديّ أيضاً بإسناده، قال: قَدِمَتْ إبلٌ من إبل الصدقة على عثمان، فوهَبَها للحارث بن الحكَم بن أبي العاص.

وروى أبو مِخْنف والواقديّ أنّه ولّى الحكم بن أبي العاص صدقاتِ قُضاعة، فبلغت ثلاثمائة ألف فوَهَبها له حين أتاه بها.

---

(١) الظلف: الشدة والغلظ في المعيشة من ذلك. اللسان، مادة (ظلف).

وروى أبو مِخْنف والواقديّ أنّ الناس أنكروا على عثمان إعطاءَ سعيد بن العاص مائة ألف، وكلّمه عليّ والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن في ذلك، فقال: إن له قرابةً ورَحِماً، قالوا: فما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذَوُو رحم؟ فقال: إن أبا بكر وعمر كان يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا أحتسِبُ في إعطاء قرابتي، قالوا: فَهدْيُهما - والله - أحبُّ إلينا من هَدْيك.

وروى أبو مِخْنف أنّ عبد الله بن خالد بن أسِيد بن أبي العِيص بن أمية، قدم على عثمان من مكة، ومعه ناس، فأمر لعبد الله بثلاثمائة ألف، ولكلّ واحد من القوم بمائة ألف وصَكّ بذلك على عبد الله بن الأرقم - وكان خازنَ بيت المال - فاستكثره وردّ الصكّ به. ويقال: إنه سأل عثمان أن يكتبَ عليه بذلك كتاباً، فأبى وامتنع ابن الأرقَم أن يدفَع المال إلى القوم، فقال له عثمان: إنّما أنت خازن لنا، فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الأرقم: كنت أراني خازنَ المسلمين، وإنما خازنك غلامُك، والله لا أَلِي لك بيتَ المال أبداً، وجاء بالمفاتيح فعلّقها على المِنْبر، ويقال: بل ألقاها إلى عثمان، فرفعها إلى نائل مولاه.

وروى الواقديّ أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمِل من بيت مال المسلمين إلى عبد الله بن الأرقم في عَقِيب هذا الفعل ثلاثمائة ألف درهم، فلما دخل بها عليه، قال له: يا أبا محمد، إن أميرَ المؤمنين أرسل إليك يقول: إنا قد شغلناك عن التجارة، ولك ذَوو رحم أهلُ حاجة، ففرِّقْ هذا المال فيهم، واستعنْ به على عيالك، فقال عبد الله بن الأرقم: مالي إليه حاجة، وما عملت لأنْ يُثيبَني عثمان، والله إن كان هذا من بيت مال المسلمين ما بلغ قَدْرُ عملي أنْ أُعطي ثلاثمائة ألف، ولئن كان من مال عثمان ما أحبُّ أنْ أرزاه[1] من ماله شيئاً. وما في هذه الأمور أوضحُ من أن يشار إليه ويُنَبَّه عليه.

فأما قولُه: ولو صح أنه أعطاهم من بيت المال لجاز أن يكون ذلك على طريق القرْض، فليس بشيءٍ، لأنّ الروايات أولاً تخالف ما ذكره، وقد كان يجبُ لمّا نقم عليه وجوهُ الصحابة إعطاءَ أقاربه من بيت المال، أنْ يقول لهم: هذا على سبيل القَرْض، وأنا أردّ عِوَضه، ولا يقول ما تقدم ذكره، من أنّني أصِلُ به رَحِمِي، على أنّه ليس للإمام أن يقترِض من بيت مال المسلمين إلا ما ينْصَرِف في مصلحة لهم مهمّة، يعودُ عليهم نفعها، أو في سَدّ خَلّة وفاقة لا يتمكنون من القيام بالأمر معها: فأمّا أنْ يُقرِض المال ليتّسع به، ويُمرِّح فيه مترَفِي بني أمية وفُسّاقهم فلا أحدَ يجيز ذلك.

فأما قوله حاكياً عن أبي عليّ: إنّ دَفْعه خُمس إفريقيّة إلى مروان ليس بمحفوظ ولا منقول - فباطل -، لأنّ العلم بذلك يجري مجرى العلم بسائر ما تقدم، ومَنْ قرأ الأخبار علم ذلك على وجه لا يعترض فيه شكّ، كما يعلم نظائره.

---

(١) أرزأه من ماله: أصاب منه شيئاً. القاموس، مادة (رزأ).

روى الواقديّ عن أسامة بن زيد، عن نافع مولى الزبير، عن عبد الله بن الزبير، قال: أغزانا عثمان سنة سبع وعشرين إفريقيّة، فأصاب عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح غنائم جليلة، فأعطى عثمانُ مَرْوان بن الحكم تلك الغنائم. وهذا كما ترى يتضمّن الزيادة عن إعطاء الخمس، ويتجاوزه إلى إعطاء الأصل.

وروى الواقديّ، عن عبد الله بن جعفر، عن أم بكْر بنت المِسْوَر، قالت: لما بنى مَرْوانُ داره بالمدينة، دعا الناس إلى طعامه، وكان المِسْوَر ممّن دعاه، فقال مروان وهو يحدّثهم: والله ما أنفقتُ في داري هذا من مال المسلمين دِرْهمًا فما فوقه، فقال المِسْوَر: لو أكلتَ طعامك وسكتّ كان خيراً لك. لقد غزوْت معنا إفريقيّة، وإنك لأقلّنا مالاً ورقيقاً وأعواناً، وأخفُّنا ثَقَلا، فأعطاك ابنُ عمّكَ خُمْس إفريقيّة، وعملت على الصدقات، فأخذت أموال المسلمين.

وروى الكلبيّ عن أبيه، عن أبي مخنف أنّ مروان ابتاعَ خُمس إفريقيّة بمائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، وكلّم عثمان، فوهبها له، فأنكر الناس ذلك على عثمان. وهذا بعينه هو الذي اعترف به أبو الحسين الخياط واعتذر عنه بأنّ قلوب المسلمين تعلّقت بأمر ذلك الجيش، فرأى عثمان أن يهبَ لمروان ثُمن ما ابتاعه من الخُمْس لما جاءه بشيراً بالفتح على سبيل الترغيب. وهذا الاعتذار ليس بشيءٍ، لأنّ الذي رويناه من الأخبار في هذا الباب خالٍ من البشارة، وإنما يقتضي أنّه سأله تَرْكَ ذلك عليه، فتركه وابتدأ هو بصِلته، ولو أتى بشيراً بالفتح كما ادَّعَوْا لما جاز أن يترك عليه خمس الغنيمة العائدَ نفعُه على المسلمين؛ لأنّ تلك البشارة لا تبلغُ إلى أن يستحق البشير بها مائتي ألف درهم، ولا اجتهادَ في مثل هذا، ولا فرق بين من جَوّز أن يؤدّيَ الاجتهاد إلى مثله ومَنْ جَوّز أن يؤدّيَ الاجتهاد إلى دفع أصل الغنيمة إلى البشير بها، ومن ارتكب ذلك ألزم جوازَ أن يُؤدّيَ الاجتهاد إلى إعطاء هذا البشير جميعَ أموال المسلمين في الشرق والغرب.

فأمّا قوله: إنه وصَلَ بني عمّه لحاجتهم، ورأى في ذلك صلاحاً، فقد بيّنا أن صِلاته لهم كانت أكثرَ مما تقتضيه الخَلّة والحاجة، وأنّه كان يصلُ فيهم المياسيرَ. ثم الصلاحُ الذي زعم أنّه رآه: لا يخلُو إمّا أن يكون عائداً على المسلمين، أو على أقاربه، فإن كان على المسلمين فمعلومٌ ضرورةً أنّه لا صلاحَ لأحد من المسلمين في إعطاء مَرْوان مائتي ألف دينار، الحكَم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وابن أسِيد ثلاثمائة ألف درهم، إلى غير ما ذكرنا، بل على المسلمين في ذلك غاية الضرر. وإن أراد الصَّلاح الراجع إلى الأقارب فليس له أن يُصلِح أمرَ أقاربه بفساد أمر المسلمين، وينفعهم بما يضرّ به المسلمين.

وأما قوله: إنّ القطائعَ التي أقطَعها بني أميّة، إنما أقطعهم إياها لمصلحة تعودُ على المسلمين، لأنّ تلك الضياع كانت خَراباً لا عامر لها، فسلّمها إلى من يعمرّها ويؤدّي الحقّ

عنه، فأول ما فيه أنّه لو كان الأمر على ما ذكره، ولم تكن هذه القطائع على سبيل الصِّلة والمعونة لأقاربه لما خَفِيَ ذلك على الحاضرين، ولكانوا لا يعدّون ذلك من مثالبه، ولا يواقفونه عليه في جملة ما واقفوه عليه من إحداثه. ثم كان يجب لو فعلوا ذلك أن يكون جوابُه بخلاف ما روى من جوابه، لأنّه كان يجب أن يقول لهم: وأيّ منفعة في هذه القطائع عائدة على قَرابتي حتى تعدّوا ذلك من جملة صِلاتي لهم، وإيصالي المنافع إليهم! وإنما جعلتهم فيهما بمنزلة الأكَرة الذين يُنتفع بهم أكثر من انتفاعهم أنفسهم، وما كان يجب أن يقول ما تقدّمت روايته، من أني محتسِب في إعطاء قرابتي، وأن ذلك على سبيل الصلة لرحمي، إلى غير ذلك مما هو خالٍ من المعنى الذي ذكره.

الطعن الرابع: أنه حَمَى الحِمَى عن المسلمين، مع أن رسول الله ﷺ جعلَهم سواء في الماء والكلأ.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أنّه لم يحم الكلأ لنفسِه، ولا استأثر به، لكنّه حماه لإبل الصدقة التي منفعتُها تعود على المسلمين. وقد رُوي عنه هذا الكلام بعينه، وأنه قال: إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة، وقد أطلقته الآن، وأنا أستغفر الله، وليس في الاعتذار ما يزيد عن ذلك.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما أوّلاً فالمرويّ بخلاف ما ذكر، لأنّ الواقديّ روى بإسناده، قال: كان عثمان يحمي الرَّبَذَة والشرف والبقيع، فكان لا يدخل الحِمى بعير له ولا فرس، ولا لبني أمية حتى كان آخر الزمان، فكان يحمي الشَّرف لإبله وكانت ألفَ بعير، ولإبل الحكَم بن أبي العاص، ويحمي الرَّبذة لإبل الصدقة، ويحمي البَقِيع لخيل المسلمين وخيلِه وخَيْلِ بني أمية.

قال: على أنه لو كان إنّما حماه لإبل الصدقة لم يكنْ بذلك مصيباً: لأنّ الله تعالى ورسولَه أباحَا الكلأ، وجعلاه مشتركاً، فليس لأحدٍ أن يغيِّر هذه الإباحة. ولو كان في هذا الفعل مُصيباً، وأنه إنما حماه لمصلحة تعود على المسلمين لما جاز أن يستغفر الله منه ويعتذر؛ لأن الاعتذار إنما يكون من الخطأ دون الصواب.

الطعن الخامس: أنه أعطى من بيت مال الصدقة المقاتلة وغيرها، وذلك مما لا يحلّ في الدين.

قال قاضي القضاة: وجوابنا عن ذلك أنّه إنما جاز له ذلك لعلمه بحاجة المقاتلة، واستغناء

أهل الصدقة، ففعل ذلك عَلَى سبيل الإفراض، وقد فعل رسول الله ﷺ مثلَه، وللإمام في مثل هذه الأمور أن يفعل ما جرَى هذا المجرى، لأنّ عند الحاجة ربّما يجوز له أن يقترض من الناس، فأن يجوز له أن يتناول من مالٍ في يده ليردّ عوَضه من المال الآخر أوْلَى.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: إنّ المال الذي جعل الله تعالى له جهة مخصوصة، لا يجوز أن يُعدَل به عن جهته بالاجتهاد، ولو كانت المصلحة في ذلك موقوفة عَلَى الحاجة لشرَطها الله تعالى في هذا الحُكم؛ لأنه سبحانه أعلمُ بالمصالح واختلافها مِنّا، ولكان لا يجعل لأهل الصدقة منها القسْط مطلقاً.

وأما قوله: إنّ الرسول ﷺ فَعَل مثله، فهي دَعْوَى مجرّدة من برهان، وقد كان يجب أن يروي ما ذُكر في ذلك. وأما ذكره من الاقتراض، فأين كان عثمان عن هذا العذر لمّا وُوقف عليه!

الطعن السادس: أنّه ضرب عبدَ الله بن مسعود حتى كَسرَ بعض أضلاعه.

قال قاضي القضاة: قال شيخُنا أبو عليّ رحمه الله تعالى: لم يثبُتْ عندنا ولا صحّ عندنا ما يقال من طَعْنِ عبد الله عليه، وإكفاره له، والذي يصحّ من ذلك أنّ عبد الله كَرِه منه جمعَه الناسَ على قراءة زيد بن ثابت وإحراقَه المصَاحف، وثَقُل ذلك عليه كما يثقُل على الواحد مِنّا تقديمُ غيره عليه.

وقد قيل: إنّ بعضَ موالي عثمان ضربه لَمّا سمع منه الوقيعة في عثمان، ولو صحّ أنه أمَرَ بضربه لم يكن بأنْ يكون طعناً في عثمان بأوْلى من أن يكون طعناً في ابن مسعود، لأنّ للإمام تأديبَ غيره، وليس لغيره الوقيعةُ فيه إلا بعد البيان. وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخيّاط أنّ ابن مسعود إنما عابه لعزْله إياه، وقد رُوِي أنّ عثمان اعتذر إليه فلم يقبل عذرَه، ولما أحضره إليه عطاءه في مرضه، قال ابن مسعود: منعتَني إياه إذا كان ينفعُني، وجئتَني به عند الموت! لا أقبله. وأنه وسّط أم حبيبة زوج النبيّ ﷺ ليزيل ما في نفسه فلم يجب، وهذا يوجب ذمّ ابن مسعود إذ لم يقبل الندم، ويوجب براءة عثمان من هذا العيب، لو صحّ ما صحّ ما رووه من ضربه.

اعترض المرتضَى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: المعلوم المرويّ خلاف ما ذكره أبو عليّ، ولا يختلف أهلُ النقل في طعن ابن مسعود على عثمان، وقوله فيه أشدّ الأقوال

وأعظمها، والعلم بذلك كالعلم بكل ما يدّعي فيه الضرورة، وقد رَوَى كلّ مَنْ روَى السيرة من أصحاب الحديث على اختلاف طُرُقهم أنّ ابن مسعود كان يقول: ليتني وعثمان برملٍ عالِج يحثُو عَلَيّ وأحثو عليه حتى يموتَ الأعجز مني ومنه.

رووا أنه كان يطعن عليه، فيقال له: ألا خرجْتَ عليه، ليخرج معك! فيقولُ: لأن أزاوِلَ جَبلاً راسياً أحبُّ إليّ من أن أزاول مُلكاً مؤجلاً.

وكان يقول كلّ يوم جمعة بالكوفة جاهراً معلناً: «إنّ أصدقَ القول كتابُ الله، وأحسنَ الهدْى هدْيُ محمد، وشرّ الأمور محدَثاتها، وكلّ محدَث بِدْعة، وكل بِدْعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». وإنما كان يقول ذلك معرّضاً بعثمان، حتى غضِب الوليد بن عُقْبة من استمرار تعريضه، ونهاه عن خطبته هذه، فأبَى أن ينتهيَ، فكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان يستقدِمه عليه.

وروي أنّه لما خرج عبدُ الله بن مسعود إلى المدينة مزعَجاً عن الكوفة خرج الناس معه يشيّعونه، وقالوا له: يا أبا عبد الرحمن، ارجع، فوالله لا نوصله إليك أبداً، فإنا لا نأمنه عليك، فقال: أمر سيكون، ولا أحبّ أن أكون أوّلَ مَنْ فتحه.

وقد روى عنه أيضاً من طرق لا تحصى كثرةً أنه كان يقول: ما يزنُ عثمانُ عندَ الله جَناح ذباب، وتَعَاطِي ما رُوِيَ عنه في هذا الباب يطول، وهو أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد عليه، وإنه بلَغ من إصْرار عبد الله على مظاهرته بالعداوة أنْ قال لما حضره الموت: مَنْ يتقبَّلُ مِنّي وصيةً أوصِيه بها عَلَى ما فيها! فسكت القومُ، وعرفوا الذي يريد، فأعادها، فقال عمّار بن ياسر رحمه الله تعالى: أنا أقبلها، فقال ابن مسعود: ألا يصلّي عليّ عثمان، قال: ذلك لك، فيقال: إنه لما دُفِن جاء عثمانُ منكِراً لذلك، فقال له قائل: إن عماراً ولِّي الأمر، فقال لعمّار: ما حملك عَلَى أنْ لم تؤذِنّي؟ فقال: عهِد إليّ ألاّ أوذِنك، فوقف على قبره وأثنى عليه، ثم انصرف وهو يقول: رفعتم والله أيديَكم عن خَيْرِ مَنْ بَقِي، فتمثّل الزبير بقول الشاعر:

لَا أَلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الموتِ تَنْدُبُنِي وفي حياتيَ مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي

ولما مَرِض ابنُ مسعود مرضَه الذي مات فيه، أتاه عثمان عائداً، فقال: ما تشتكي؟ فقال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال الطبيبُ أمرضني، قال: أفلا آمر لك بعطائِك؟ قال: منعتَنيه وأنا محتاج إليه، وتُعطينيه وأنا مستغنٍ عنه! قال: يكونُ لولدك، قال: رزقهم على الله تعالى، قال: استغفِرْ لي يا أبا عبد الرحمن، قال: أسألُ الله أنْ يأخذَ لي منك حَقّي.

قال: وصاحبُ «المغني» قد حكَى بعض هذا الخبر في آخر الفصل الذي حكاه من كلامه، وقال: هذا يوجب ذَمّ ابن مسعود من حيث لم يقبل العذر وهذا منه طَرِيف، لأنّ مذهبَه لا يقتضي

قبولَ كلّ عذر ظاهر، وإنما يجب قبولُ العذر الصادق، الذي يغلب في الظن أن الباطن فيه كالظاهر، فمن أينَ لصاحب «المغني» أنّ اعتذار عثمانَ إلى ابن مسعود كان مستوفياً للشرائط التي يجب معها القبول وإذا جازَ ما ذكرناه لم يكن عَلَى ابن مسعود لومٌ في الامتناع من قبول عُذْره.

فأما قوله: إن عثمان لم يضر به، وإنما ضَرَبه بعضُ مواليه لما سمع وقيعتَه فيه، فالأمر بخلاف ذلك، وكلّ مَنْ قرأ الأخبار عَلم أنّ عثمان أمر بإخراجه عن المسجد على أعنَفِ الوجوه، وبأمْرِي جرى ما جرى عليه، ولو لم يكن بأمره ورضاه لوجب أن ينكر على مولاه كَسْر ضلعه، ويعتذر إلى مَنْ عاتبه على فعله بابن مسعود بأن يقول: إني لم آمر بذلك، ولا رضيته من فاعله، وقد أنكرت عليه فعله.

وفي علمنا بأنّ ذلك لم يكن دليلاً على ما قلنا، وقد روى الواقديّ بإسناده وغيرُه أنّ ابن مسعود لما استقدم المدينة، دخلها ليلة جمعة، فلما علم عثمانُ بدخوله، قال: أيّها الناس، إنه قد طرقكم الليلة دُوَيْبة، مَن تمشِي على طعامه يقيء ويسلح[١]. فقال ابن مسعود: لست كذلك، ولكنّني صاحب رسول الله ﷺ يومَ بدر، وصاحبُه يوم أُحُد، وصاحبُه يوم بيعة الرضوان، وصاحبُه يوم الخندق، وصاحبُه يوم حُنين. قال: وصاحت عائشة: يا عثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ! فقال عثمان: اسكتي ثم قال لعبد الله بن زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن عبد الْعزّى بن قصيّ: أخرِجْه إخراجاً عنيفاً، فأخذه ابنُ زمعة، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضِلَعاً من أضلاعه، فقال ابن مسعود: قتلني ابنُ زمعة الكافر بأمر عثمان.

وفي رواية أخرى إنّ ابنَ زمعة الذي فعل به ما فعل كان مولًى لعثمان أسود مُسَدَّماً[٢] طُوالاً. وفي رواية أخرى: إن فاعل ذلك يَحْمُوم مولى عثمان. وفي رواية، إنه لما احتمَله ليُخْرجه من المسجد ناداه عبد الله: أنشدك الله، ألاّ تخرجَني من مسجد خليلي ﷺ.

قال الرّاوي: فكأني أنظر إلى حُمُوشة[٣] ساقي عبد الله بن مسعود ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان حتى أُخرج من المسجد، وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «السّاقا ابن أمّ عبد أثقلُ في الميزان يوم القيامة من جبل أُحد»[٤].

---

(١) سلح: راث. المعجم الوسيط، مادة (سلح).

(٢) الفحل المسدم: الهائج والممنوع من الضّراب. اللسان، مادة (سدم).

(٣) حموشة الساق: دقتها. القاموس، مادة (حمش).

(٤) أخرج أحمد نحوه في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٢٢)، والطبراني (٨٤٥٣) والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٨٩).

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القُرظيّ أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطاً في دفنِه أبا ذَرّ. وهذه قصة أخرى، وذلك أن أبا ذرّ رحمه الله تعالى لما حضرتْه الوفاة بالرَّبذة، وليس معه إلا امرأته وغلامُه عَهِد إليهما أن غسِّلاني ثم كفِّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأوّل ركب يمرّون بكم قولوا لهم: هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دَفْنِه، فلما مات فعلوا ذلك، وأقبل ابنُ مسعود في ركب من العراق معتمرين، فلم يرعْهمُ إلا الجنازة على قارعة الطريق، قد كادت الإبل تطؤها، فقام إليهم العبد، فقال: هذا أبو ذَرّ صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فانهلّ ابنُ مسعود باكياً، وقال: صدق رسول الله ﷺ، قال له: «تمشي وحدَك، وتموت وحدَك، وتُبْعث وحدَك»[1]، ثم نزل هو وأصحابه، فواروْه.

قال: فأما قولُه إن ذلك ليس بأنْ يكون طعناً في عثمان بأولى من أنْ يكون طعناً في ابن مسعود، فواضح البطلان، وإنما كان طعناً في عثمان دون ابن مسعود، لأنه لا خلاف بين الأمة في طهارة ابن مسعود وفضله وإيمانه، ومدح رسول الله ﷺ، وثنائه عليه، وأنّه مات على الجُمْلة المحمودة منه، وفي جميع هذا خلاف بين المسلمين في عثمان.

فأما قوله: إن ابن مسعود كَرِه جَمْعَ عثمان النّاس على قراءة زيد، وإحراقَه المصاحف، فلا شك أنّ عبد الله كره ذلك، كما كرهه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وتكلّموا فيه، وقد ذكر الرواة كلامَ كل واحد منهم في ذلك مفصّلاً، وما كره عبد الله من ذلك إلا مكروهاً، وهو الذي يقول رسول الله ﷺ في حقه: «مَنْ سرّه أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[2]. ورُوِيَ عن ابن عباس رحمه الله تعالى أنه قال: «قراءة ابن أم عبد هي القراءة الأخيرة»[3]، إن رسول الله ﷺ كان يُعرَض عليه القرآن في كلّ سنة من شهر رمضان، فلما كان العام الذي تُوفِّي فيه عُرِض عليه دفعتين، فشهد عبد الله ما نُسِخ منه، وما صح فهي القراءة الأخيرة.

ورِوِيَ عن الأعمش، قال: قال ابن مسعود: لقد أخذتُ القرآن مِنْ فِي رسول الله ﷺ، سبعين سُورة، وإن زيد بن ثابت لغُلام في الكتّاب، له ذؤابة.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل عبد الله بن مسعود (١٣٨) وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي بكر الصديق (٣٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٦٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٩٤).

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٥٦٢).

فأما حكايتُه عن أبي الحسين الخياط أنّ ابن مسعود إنما عاب عثمان لعزله إياه، فعبد الله عِنْدَ كلِّ مَنْ عرفه بخلاف هذه الصورة، وأنه لم يكن ممّن يخرج على عثمان ويطعن في إمامته بأمرٍ يعود إلى منفعة الدنيا، وإن كان عزلُه بما لا شبهة فيه في دين ولا أمانة عيباً لا شكّ فيه.

الطعن السابع: أنه جمع الناس على قراءة زيد بن ثابت خاصة، وأحرق المصاحف، وأبطل ما لا شك أنه نزل من القرآن، وأنه مأخوذ عن الرسول ﷺ، ولو كان ذلك مما يسوغُ لسبق إليه رسول الله ﷺ، ولفعله أبو بكر وعمر.

قال قاضي القضاة: وجوابُنا عن ذلك أنّ الوجهَ في جمع القرآن على قراءة واحدة تحصينُ القرآن وضبطه، وقطع المنازعة والاختلافِ فيه. وقولهمْ: لو كان ذلك واجباً لفعله الرسول ﷺ غير لازم، لأنّ الإمام إذا فعله صار كأنّ الرسول ﷺ فعله، ولأنّ الأحوال في ذلك تختلف، وقد روي أنّ عمر كان عزم على ذلك فمات دونه. وليس لأحد أن يقول: إن إحراقه المصاحف استخفافٌ بالدين، وذلك لأنه إذا جاز من الرسول ﷺ أن يخرب المسجد الذي بُني ضراراً وكفراً، فغير ممتنع إحراق المصاحف.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: إن اختلاف الناس في القراءة ليس بموجب لما صنعه، لأنهم يروُون أنّ النبي ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، كلّها شافٍ كافٍ»[1]، فهذا الاختلاف عندهم في القرآن مباحٌ مسند عن الرسول الله ﷺ، فكيف يحظر عليهم عثمان من التوسّع في الحروف ما هو مباح! فلو كان في القراءة الواحدة تحصين القرآن كما ادّعى، لما أباح النبي ﷺ في الأصل إلا القراءة الواحدة، لأنه أعلم بوجوه المصالح من جميع أمته، من حيث كان مؤيّداً بالوحي، موفقاً في كلِّ ما يأتي ويَذَر. وليس له أن يقول: حَدَث من الاختلاف في أيام عثمان ما لم يكنْ في أيام الرسول ﷺ ولا ما أباحه، وذلك لأنّ الأمر لو كان على هذا لوجبَ أن ينهي عن القراءة الحادثة، والأمر المبتدع، ولا يحمله ما أحدث من القراءة على تحريم المتقدّم بلا شبهة.

وقوله: إن الإمام إذا فعل ذلك، فكأنّ الرسول ﷺ فَعَله تعلّل بالباطل، وكيف يكون كما ادّعى، وهذا الاختلاف بعينه قد كان موجوداً في أيام الرسول ﷺ، فلو كان سبب الانتشار الزيادة في القرآن، وفي قطعه تحصين له، لكان ﷺ بالنهي عن هذا الاختلاف أوْلى من غيره، اللهم إلا أن يقال: حدث اختلاف لم يكن، فقد قُلْنا فيه ما كفى.

---

(١) أخرج نحوه النسائي في الافتتاح، باب: جامع ما جاء في القرآن (٩٤٠)، وأبو داود في الصلاة، باب: أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٤٧٧)، وأحمد في أول مسند البصريين، باب: حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة (١٩٩١٢).

وأما قوله: إن عمر قد كان عزم على ذلك فمات دونه، فما سمعناه إلا منه، ولو فعل ذلك أيّ فاعل كان لكان مُنْكَراً.

فأما الاعتذار عن كون إحراق المصاحف لا يكون استخفافاً بالدين، بحمله إياه على تخريب مسجد الضِّرار، فبيْن الأمرين بَوْنٌ بعيد، لأنّ البنيان إنما يكون مسجداً وبيتاً لله تعالى بنية الباني وقصده، ولولا ذلك لم يكن بعضُ البنيان بأن يكون مسجداً أوْلى من بعض، ولما كان قصد الباني لذلك الموضع غير القُرْبة والعبادة، بل خلافُها وضدّها من الفساد والمكيدة. لم يكن في الحقيقة مسجداً، وإن سمي بذلك مجازاً على ظاهر الأمر، فهذُه لا حرجَ فيه، وليس كذلك ما بين الدَّفّتين، لأنه كلام الله تعالى الموقّر المعظّم، الذي يجب صيانته عن البِذلة والاستخفاف، فأيّ نسبَة بين الأمرين!

الطعن الثامن: أنه أقدم على عمار بن ياسر بالضّرب، حتى حَدَث به فَتْق، ولهذا صار أحد مَنْ ظاهر المتظّلمين من أهل الأمصار على قتله، وكان يقول: قتلناه كافراً.

قال قاضي القضاة: وقد أجاب شيخُنا أبو علي رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال: إنّ ضرب عمار غير ثابت، ولو ثبت أنّه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله لم يجب أن يكون طعناً عليه، لأنّ للإمام تأديبَ مَنْ يستحق التأديب. وممّا يبعد صحة ذلك أنّ عماراً لا يجوز أن يكفِّره، ولما يقعْ منه ما يستوجب به الكفر، لأن الذي يكفَّر به الكافر معلوم، ولأنه لو كان قد وقع ذلك لكان غيرُه من الصحابة أوْلى بذلك، ولوجب أن يجتمعوا على خَلْعه، ولوجب أن يكون قتله مباحاً لهم، بل كان يجب أن يقيموا إماماً ليقتله على ما قدمناه. وليس لأحدٍ أن يقول: إنما كَفّره عمار من حيث وَثَب على الخلافة، ولم يكن لها أهلاً، لأنّا قد بينّا القولَ في ذلك، ولأنّه كان منصوباً لأبي بكر وعمر على ما تقدّم، وقد بينا أنّ صحة إمامتهما تقتضي صحةَ إمامة عثمان.

وقد روى أن عماراً نازع الحسن بن علي عليهما السلام في أمر عثمان فقال عمار: قتِل عثمان كافراً، وقال الحسن عليه السلام: قتل مؤمناً، وتعلّق بعضهما ببعض، فصارا إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: ماذا تريد من ابن أخيك؟ فقال: إني قُلْتُ كذا، وقال كذا، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أتكفُر بربّ كان يؤمن به عثمان! فسكت عَمّار، وقد ذكر الشيخ أبو الحسين الخياط أن عثمان لما نُقِمَ عليه ضَرْبه عماراً احتجّ لنفسه، فقال: جاءني سعد وعَمّار، فأرسلا إليّ أن ائتنا، فإنّا نريد أن نذاكرك أشياءَ فعلتَها، فأرسلت إليهما: إني مشغول، فانصرفا، فموعدكما يوم كذا، فانصرف سعد وأبَى عمار أن ينصرف، فأعدت الرسولَ إليه فأبى أن ينصرف، فتناوله بغير أمري، ووالله ما أمرتُ به ولا رضيت، وها أنا، فليقتصّ مني.

قال: وهذا من أنصفِ قولٍ وأعدله.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال: أما الدفع لضرب عمار، فهو كالإنكار لطلوع الشمس ظهوراً وانتشاراً، وكلّ من قرأ الأخبار، وتصفّح السِّيَر، يعلم من هذا الأمر ما لا تثنيه عنه مكابرةٌ ولا مدافعةٌ، وهذا الفعل - أعني ضربَ عمار - لم تختلف الرواة فيه، وإنما اختلفوا في سببه، فروَى عباس بن هشام الكلبيّ عن أبي مِخْنف، في إسناده أنه كان في بيت المال بالمدينة سَفَط[1] فيه حُلِي وجوهر، فأخذ منه عثمان ما حَلّى به بعضَ أهله، فأظهر الناسُ الطعنَ عليه في ذلك، وكلّموه فيه بكلّ كلام شديد، حتى أغضبوه، فخطب فقال: لنأخذَنّ حاجتنا من هذا الفيء، وإن رَغِمَتْ به أنوف أقوام! فقال له عليٌّ عليه السلام: إذَنْ تُمنَعَ من ذلك، ويحالَ بينك وبينه، فقال عمار: أشهد أن أنفِي أوّلُ راغم من ذلك، فقال عثمان: أعليّ يا بن ياسر تجترىء! خذوه، فأخِذ، ودخل عثمان، فدعا به فضربه حتى غُشِي عليه، ثم أخرج فحمل حتى أُتِيَ به منزلَ أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب، فلما أفاق توضّأ وصلّى، وقال: الحمدُ لله، ليس هذا أول يوم أوذِينا في الله تعالى! فقال هشام بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ - وكان عمّار حليفاً لبني مخزوم -: يا عثمان، أمّا عليّ فاتقيتَه، وأما نحن فاجترأت علينا، وضربتَ أخانا حتى أشفَيْتَ[2] به على التلف، أما والله لئن مات لأقتلَنّ به رجلاً من بني أميّة عظيم الشأن! فقال عثمان: وإنّك لها هنا يا بن القَسْرِيّة، قال: فإنهما قَسْرِيتانِ - وكانت أم هشام وجدّته قَسْرِيتَين من بَجيلة - فشتمه عثمان، وأمرَ به فأخرج، فأتى به أمّ سلمة رضي الله تعالى عنها، فإذا هي قد غَضِبت لعمار، وبلغ عائشة رضي الله تعالى عنها ما صَنَع بعمار، فغضبتْ أيضاً، وأخرجت شَعْراً من شَعْر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونعلاً من نعاله، وثوباً من ثيابه، وقالت: ما أسرع ما تركتُم سُنّة نبيكم، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبْلَ بعدا!

وروى آخرون أن السببَ في ذلك أنّ عثمان مَرّ بقبرٍ جديد، فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن مسعود، فغضب عَلَى عمّار لكتمانِه إياه موتَه، إذ كان المتولّي للصلاة عليه، والقيام بشأنه، فعندها وطىء عثمان عَمّاراً حتى أصابه الفَتْق.

وروى آخرون أنّ المقداد وعمّاراً وطلحة والزبير وعِدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كَتَبُوا كتاباً عدّدوا فيه أحدَاث عثمان، وخَوّفوه به، وأعلموه أنّهم مُواثبوه إن لم يُقْلِع، فأخذ عمار الكتاب، فأتاه به. فقرأ منه صَدْراً، ثم قال له: أعليّ تقدمُ من بينهم! فقال: لأنّي أنصحهُم لك،

---

(١) السفط: كالجوالق أو كالقفة. القاموس، مادة (سفط).

(٢) أشفى على الشيء: أشرف عليه. اللسان، مادة (شفي).

قال: كذبت يا بن سُمّية! فقال: أنا والله ابن سُمَيّة، وابن ياسراً فأمر عثمان غِلْماناً له، فمدّوا بيديْه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه - وهي في الخفيّن - على مَذاكِيره، فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كَبِيراً فغُشِي عليه.

قال: فضرْبُ عمار عَلَى ما ترى غيره مختلف فيه بين الرواة، وإنما اختلفوا في سببه، والخبرُ الذي رواه صاحب «المغني»، وحكاه عن أبي الحسين الخياط ما نعرفه، وكتبُ السيرة المعلومة خالية منه ومن نظيره، وقد كان يجب أن يُضِيفه إلى الموضع الذي أخذ منه، فإنّ قوله وقول من أسند إليه ليس بحجة، ولو كان صحيحاً لكان يجب أن يقول بدل قوله: «ها أنا فليتقص مني» - إذا كان ما أَمرَ بذلك، ولا رضي عنه، وإنما ضربه الغلام الجاني - «فليقتصّ منه»، فإنّه أولى وأعدلَ.

وبعد، فلا تنافيَ بين الروايتين لو كان ما رواه معروفاً، لأنه يجوز أن يكونَ غلامه ضربه في حال، وضربه هو في حال أخرى، والروايات إذا لم تتعارضْ لم يجز إسقاط شيء منها.

فأما قوله: إن عمّاراً لا يجوز أن يكفّره، ولم يقع منه ما يوجب الكفر، فإنّ تكفِيرَ عمّار وغير عمّار له معروف، وقد جاءت به الروايات، وقد رُوِي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة أنّ عمّاراً كان يقول: ثلاثة يشهدون عَلَى عثمان بالكفر وأنا الرابع، وأنا شرّ الأربعة، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(1)، وأنا أشهد أنه قد حَكَم بغير ما أنزل الله.

وروي عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنّه قيل له: بأيّ شيء كفرّتم عثمان؟ فقال: بثلاث: جَعَل المالَ دُولةً بين الأغنياء، وجَعَل المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة مَنْ حارب الله ورسوله، وعَمِل بغير كتاب الله.

ورُوِيَ عن حُذَيفة أنّه كان يقول: ما في عثمان بحمد الله أشُكّ، ولكني أشُكّ في قاتله، لا أدري أكافر قتل كافراً، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قَتله، وهو أفضلُ المؤمنين إيماناً! فأمّا ما رَواه من منازعة الحسن عليه السلام عَمّاراً في ذلك، وترافعهما إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فهو أوّلاً غيرُ دافع لكوْن عمار مكفِّراً له، بل شاهد بذلك من قوله عليه السلام. ثم إنْ كان الخبر صحيحاً فالوجهُ فيه أنّ عمّاراً كان يعلم من لَحْن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وعَدوله عن أن يقضيَ بينهما بصريح من القول أنه متمسك بالتقيّة، فأمسك عمار متابعة لغرضه.

فأما قوله: لا يجوز أن يكفّره من حيث وثب على الخلافة، لأنّه كان مصوِّباً لأبي بكر وعمر لما تقدم من كلامه في ذلك، فإنا لا نسلم له أن عمّاراً كان مصوّباً لهما، وما تقدّم من كلامه قد تقدّم كلامنا عليه.

(1) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

فأما قوله عن أبي عليّ: إنه لو ثبت أنه ضربه للقول العظيم الذي كان يقوله فيه لم يكن طعناً، لأنّ للإمام تأديبَ من يستحق ذلك، فقد كان يجب أن يستوحش صاحب كتاب «المغني» أو من حكى كلامه من أبي عليّ وغيره من أن يعتذِر - من ضرب عمار ووقْذِه حتى لِحقه من الغَشْي ما تَرَك له الصلاة، ووطئه بالأقدام امتهاناً واستخفافاً - بشيءٍ من العذر، فلا عذر يُسمع من إيقاع نهاية المكروه بمن رُوِي أن النبي ﷺ قال فيه: «عمار جِلْدة ما بين العين والأنف ومتى تُنْكأ الجلدة يَدْمَ الأنف»[1]. وروي أنه قال ﷺ: «ما لهم ولعمار! يدعوهم إلى الجنة ويدعونَه إلى النار»[2]. وروى العوّام بن حَوْشب عن سلمة بن كُهَيل عن علقمة عن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله»[3]، وأيّ كلام غليظ سمعه عثمان من عَمّار يستحق به ذلك المكروه العظيم الذي يجاوز مقدار ما فرضه الله تعالى في الحدود! وإنما كان عمار وغيره أثبتُوا عليه أحدَاثه ومعايبه أحياناً على ما يظهر من سيِّىء أفعاله. وقد كان يجب عليه أحدُ أمرين: إما إن ينزع عَمّا يواقف عليه من تلك الأفعال، أو يبين منْ عذره عنها وبراءته منها ما يظهر ويشتهر، فإن أقام مقيم بعد ذلك على توبيخه وتفسيقه زجَره عن ذلك بوعْظٍ أو غيره، ولا يُقدم على ما يفعله الجبابرة والأكاسرة من شفاء الغيظ بغير ما أنزل الله تعالى وحَكم به.

الطعن التاسع: إقدامه على أبي ذَرّ مع تقدّمه في الإسلام، حتى سيّره إلى الرَّبَذة ونفاه، وقيل: إنه ضَرَبه.

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك: إنّ شيخنا أبا عليّ رحمه الله تعالى قال: إنّ الناس اختلفُوا في أمر أبي ذَرّ رحمه الله تعالى. ورُوِيَ أنه قيل لأبي ذَرّ: عثمانُ أنزلك الرَّبَذة؟ فقال: لا، بل اخترتُ لنفسِي ذلك.

ورُوِي أنّ معاوية كتب يشكُوه وهو بالشام، فكتب عثمان إليه أنْ صِرْ إلى المدينة، فلما صار إليها قال: ما أخرجَك إلى الشام؟ قال: لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغتْ عِمارةُ المدينة موضعَ كذا فاخرج عنها»[4]، فلذلك خرجتُ، فقال: فأيّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام؟ قال: الرَّبَذة، فقال: صِرْ إليها.

---

(١) انظر الغدير: ٩/ ١٦٣، وكشف الغمة: ١/ ٢٦٠.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٢٤٧) بلفظه، ونحوه البخاري في الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، وأحمد في مسند المكثرين باب: مسند أبي سعيد الخدري (١١٤٥١).
(٣) أخرجه أحمد في مسند الشاميين، باب: حديث خالد بن الوليد (١٦٣٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٨١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٦٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٥٢).
(٤) لم أجده.

قال: وإذا تكافأتِ الأخبارُ لم يكن لهم في ذلك حجّة، ولو ثبت ذلك لكان لا يمتنع أن يُخرجه إلى الرَّبذة لصلاح يرجع إلى الدين، فلا يكون ظُلْماً لأبي ذَرّ، بل يكون إشفاقاً عليه، وخوفاً من أن يناله من بعض أهل المدينة مكروه، فقد رُوِيَ أنه كان يُغلِظ في القول ويخشن الكلام، فيقول: لم يبقَ أصحابُ محمد على ما عَهد، ويُنَفِّر[1] بهذا القول، فرأى إخراجه أصلح لما يرجع إليه وإليهم وإلى الدين، وقد رُوِي أن عمر أخرَج عن المدينة نصرَ بن الحجاج لما خافَ ناحيته، وقد ندَب الله سبحانه إلى خفض الجناح للمؤمنين، وإلى القول الليّن للكافرين، وبيّن للرسول ﷺ أنه لو استعمل الفظاظة لانفضُّوا من حوله، فلما رأى عثمانُ من خُشونة كلام أبي ذَرّ، وما كان يُورِده مما يخشَى منه التنفير فَعَل ما فَعَل.

قال: وقد رُوِي عن زيد بن وهب، قال: قلتُ لأبي ذَرّ رحمه الله تعالى، وهو بالرَّبَذة: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: أخبِرُك، أني كنتُ بالشام في أيام معاوية، وقد ذكرت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[2]، فقال معاوية: هذه في أهل الكتاب، فقلت: هي فيهم وفينا، فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك، فكتب إليّ أن أقدم عَلَيَّ، فقدمت عليه، فانثال الناسُ إليّ كأنهم لم يعرفوني، فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيّرني وقال: انزِلْ حيث شئت، فنزلت الرَّبَذَة.

وقد ذكر الشيخُ أبو الحسين الخياط قريباً مما تقدّم، من أنّ إخراج أبي ذَرّ إلى الرَّبذة كان باختياره، وروى في ذلك خبراً، قال: وأقلُّ ما في ذلك أنْ تختلف الأخبار فتطرح، ويُرجع إلى الأمر الأوّل في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله.

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، فقال:

أمّا قول أبي عليّ إنّ الأخبار في سبب خروج أبي ذَرّ إلى الرَّبَذَة متكافئة، فمعاذ الله أن تتكافى في ذلك! بل المعروفُ والظاهر أنَّه نفاه أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية، ثم نفاه مِن المدينة إلى الرَّبَذَة. وقد رَوَى جميعُ أهلِ السِّيرَ عَلَى اختلاف طُرقِهم وأسانيدهم أنّ عثمانَ لما أعطى مَرْوان بن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث بن الحكَم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم، جعل أبو ذَرّ يقول: بشّر الكانزين بعذابٍ أليم، ويتلو قول الله تعالى: ﴿يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[3] فَرفع ذلك مَرْوان إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذَرّ نائلاً

(١) نَفَرَ: غلا جوفه، وتَنَفَّر بها تنفيراً: صاح بها. القاموس، مادة (نفر).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

مولاه: أن انْتَهِ عَمّا يبلغني عنك، فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعَيْب مَنْ ترك أمر الله! فوالله لأن أرْضِيَ الله بسخَط عثمان أحبّ إليّ وخيرٌ لي من أن أسْخِطَ الله برضاه. فأغضب عثمان ذلك وأحفظه فتصابر.

وقال يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذَ من المال، فإذا أيْسر قضى؟ فقال كعبُ الأحبار: لا بأسٍ بذلك، فقال له أبو ذَرّ: يا بن اليهوديين، أتعلّمنا ديننا! فقال عثمان: قد كثر أذاك لِي وتولُّعك بأصحابي، الحقّ بالشام. فأخرجه إليها، فكان أبو ذَرّ يُنكِر على معاوية أشياءَ يفعلها، فبعث إليه معاوية ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذَرّ: إنْ كانتْ هذه من عطائي الذي حرمتُمُونيه عامي هذا قبلتُها، وإن كانتْ صلةً فلا حاجة لي فيها، وردّها عليه.

وبنى معاوية الخضراء بدمشق، فقال أبو ذَرّ: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهو الإسراف.

وكان أبو ذَرّ رحمه الله تعالى يقول: والله لقدْ حدثَتْ أعمالٌ ما أعرِفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إني لأرَى حقاً يُطْفأ وباطلاً يُحْيا، وصادقاً مكذَّباً، وأثَرَة بغير تُقًى، وصالحاً مستأثَراً عليه، فقال حَبيب بن مسلمة الفِهْريّ لمعاوية: إن أبا ذَرّ لَمُفْسِدٌ عليكم الشام، فتداركْ أهلَه إن كانت لكم حاجة فيه. فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: أما بعد، فاحمل جُنْدباً إليّ على أغلظِ مَرْكب وأوعرِه، فوجّه به مع مَنْ سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلا قَتَب[1]، حتى قدِم به المدينة، وقد سقط لحمُ فَخِذَيْه من الجَهد، فلما قدم أبو ذرّ المدينة، بعث إليه عثمان أن الحقْ بأيّ أرضٍ شئت، فقال: بمكة؟ قال: لا، قال: فبيت المقدس؟ قال: لا، قال: فأحدُ المِصْريْن؟ قال: لا، ولكنّي مسيِّرُك إلى الرَّبَذة، فسيَّره إليها، فلم يزلْ بها حتى مات.

وفي رواية الواقديّ أنْ أبا ذَرّ لما دخل على عثمان، قال له: لا أنعَم الله بك عيناً يا جُنَيْدِب! فقال أبو ذَرّ: أنا جُنَيْدِب وَسمّاني رسول الله ﷺ عبدَ الله، فاخترتُ اسمَ رسول الله الذي سَمّاني به على اسمي، فقال عثمان: أنت الذي تزعمُ أنّا نقول إن يدَ الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء! فقال أبو ذَرّ: لو كنتم لا تزعمون لأنفقتم مالَ الله على عباده، ولكني أشهدُ لسمِعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا بلغ بَنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مالَ الله دولاً، وعبادَ الله خَوَلاً، ودينَ الله دَخَلا»[2]، فقال عثمان لِمَنْ حَضَره: أسمعتموها من نبيّ الله؟ فقالوا: ما سمعناه، فقال عثمان: ويلك يا أبا ذَرّ! أتكذِب على رسول الله! فقال أبو ذَرّ لِمَنْ

---

(١) القتب: الجاف البعير. اللسان، مادة (قتب).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٧٩)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١١٥٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٢٣).

حضر: أما تظنّون أني صدقتُ! قالوا: لا والله ما ندرِي، فقال عثمان: ادعُوا لي عليًا، فدعي، فلما جاء قال عثمان لأبي ذرّ: اقصُصْ عليه حديثك في بني أبي العاص، فحدّثه، فقال عثمان لعليّ: هل سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال عليّ ﷺ: لا، وقد صدق أبو ذرّ، قال عثمان: بمَ عرفتَ صِدْقه؟ قال: لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلّت الخضراءُ ولا أقلّت الغبراء من ذي لَهجةٍ أصدَق من أبي ذرّ»(١)، فقال جميعُ مَنْ حَضَر من أصحاب النبي ﷺ: لقد صدق أبو ذرّ، فقال أبو ذرّ: أحدّثُكم أني سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ ثم تتهمونني! ما كنت أظنّ أني أعيشُ حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد ﷺ!

وروى الواقديّ في خبر آخر بإسناده عن صَهْبان مولى الأسلميين، قال: رأيتُ أبا ذرّ يوم دُخِلَ به على عثمان، فقال له: أنتَ الذي فعلت وفعلت! فقال له أبو ذرّ: نصحتُكَ فاستغششتَني، ونصحتُ صاحبك فاستغشّني، فقال عثمان: كذبت، ولكنك تريد الفتنة وتحبّها، قد أنغَلْتَ الشامَ علينا، فقال له أبو ذرّ: اتبعْ سُنّة صاحِبَيْك، لا يكن لأحدٍ عليك كلام، قال عثمان: مالك ذلك لا أمّ لك! قال أبو ذرّ: والله ما وجدتُ لي عذراً إلا الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، فغضب عثمان وقال: أشيروا عَلَيّ في هذا الشيخ الكذاب، إمّا أن أضربَه أو أحبِسه أو أقتله، فإنه قَد فرّق جماعَة المسلمين، أو أنفيَه من أرض الإسلام. فتكلّم عليّ ﷺ - وكان حاضراً - وقال: أشيرُ عليك بما قاله مؤمنُ آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾(٢)، قال: فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ، لا أحبّ ذكره، وأجابه ﷺ بمثله، قال: ثمّ إن عثمانَ حَظَر على النّاس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ، أو يكلموه، فمكثَ كذلك أياماً، ثم أمرَ أن يؤتَى به، فلما أُتِيَ به وقف بين يديه، قال: ويحَك يا عثمان! أما رأيتَ رسول الله ﷺ ورأيت أبا بكر وعمر! هل رأيتَ هذا هديَهم! إنك لَتَبطِشُ بِي بَطْشَ جبار، فقال: اخرُج عَنّا من بلادنا، فقال أبو ذرّ: ما أبغض إليّ جوارك! فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئتَ، قال: فأخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ قال: حيث شئت، قال أبو ذرّ: فهو إذن التعرّب بعد الهجرة، أأخرُج إلى نجد؟ فقال عثمان: الشرف الأبعدُ أقصَى فأقصَى، أمض على وجهك هذا ولا تعدوَنّ الرَّبذة.

فخرج إليها.

وروى الواقديّ عن مالك بن أبي الرجال، عن موسى بن ميسرة أنّ أبا الأسود الدؤليّ،

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب أبي ذر (٣٨٠١)، وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أبي ذر (١٥٦) وأحمد في مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٤٨٣).

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٨.

قال: كنتُ أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خُروجه، فنزلت الرَّبذَة، فقلت له: ألا تخبرني؟ أخرجتَ من المدينة طائعاً أم أُخرجت مكرَهاً؟ فقال: كنت في ثَغر من ثغور المسلمين، أُغني عنهم، فأخرِجتُ إلى مدينة الرسول ﷺ، فقلت: أصحابي ودارُ هجرتي، فأخرِجت منها إلى ما ترى، ثم قال بينا أنا ذاتَ ليلة نائم في المسجد إذْ مَرَّ بي رسول الله ﷺ، فضربني برجْله وقال: «لا أراك نائماً في المسجد»، فقلت: بأبي أنت وأمي! غلبتْني عيني، فنمتُ فيه، فقال: «كيف تصنع إذا أخرجوك منه؟» فقلت: إذن ألحق بالشام، فإنها أرض مقدسة، وأرض بقية الإسلام، وأرض الجهاد، فقال: «فكيف تصنع إذا أخرجت منها؟» فقلت: أرجع إلى المسجد، قال: «فكيف تصنع إذا أخرجوك منه؟» قلت: آخذ سيفي فأضرب به، فقال ﷺ: «ألا أدلّك على خيرٍ من ذلك، انْسَقْ معهم حيث ساقوك، وتسمَعُ وتطيع»[1]، فسمعت وأطعت وأنا أسمع وأطيع، والله ليلقَيَنّ الله عثمان وهو آثم في جَنْبي.

وكان يقول بالرَّبذة: ما ترك الحقّ لي صديقاً. وكان يقول: فيها رَدَّني عثمانُ بعد الهجرة أعرابياً.

والأخبار في هذا الباب أكثر من أن تحصر وأوسع من أن نذكرها. وما يحمِلُ نفسَه على ادّعاء أنّ أبا ذرّ خرج مختاراً إلى الرَّبَذة إلا مكابر. ولسنا ننكِر أن يكون ما أورده صاحب كتاب «المغني» من أنه خرج مختاراً قد رُوِيَ، إلا أنه من الشاذّ النادر. وبإزاء هذه الرواية الفَذّة كلّ الروايات التي تتضمّن خلافها، ومن تصفّح الأخبار عَلم أنّها غير متكافِئة على ما ظنّ صاحب المغني، وكيف يجوز خروجُه عن اختيار! وإنما أشخِص من الشام على الوجه الذي أشخص عليه: من خشونة المركب وقُبح السَّيْر به للموجدة عليه. ثم لما قدِم مُنِع الناس من كلامه، وأغلظ له في القول، وكلّ هذا لا يشبه أن يكون خروجه إلى الرَّبَذة باختياره. وكيف يظنّ عاقل أنّ أبا ذرّ يختار الرَّبذة منزِلاً مع جَدْبها وقَحطها وبُعْدها عن الخيرات، ولم تكن بمنزِل مثله!.

فأما قوله: إنه أشفَق عليه من أن يناله بعضُ أهلِ المدينة بمكروه من حيث كان يُغلِظ لهم القول، فليس بشيءٍ، لأنه لم يكن في أهل المدينة إلا من كان راضياً بقوله، عاتباً بمثل عتْبه، إلاّ أنهم كانوا بين مجاهرٍ بما في نفسه، ومخفٍ ما عنده، وما في أهلِ المدينة إلاّ من رَثَى لأبي ذرّ مما حدَث عليه، ومن استفظعه، ومَنْ رجع إلى كتب السيرة عرف ما ذكرناه.

فأما قوله: إن عمر أخرَج من المدينة نصر بن حجاج، فيا بُعْدَ ما بين الأمرين! وما كنّا نظنّ أن أحداً يسوِّي بين أبي ذَرّ وهو وَجْهُ الصحابة وعينُهم، ومَنْ أجمع المسلمون على توقِيره

---

(١) أخرج نحوه أحمد في مسند القبائل، باب: من حديث أسماء بن يزيد (٢٧٠٤١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٢٣).

وتعظيمه، وأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) مدَحه من صِدْقِ اللّهجَة بما لم يمدح به أحداً، وبين نصر بن الحجّاج الحَدَث الذي كان خاف عمر من افتتان النساء بشبابه، ولا حَظّ له في فَضْلٍ ولا دين! على أنّ عمر قد ذُمّ بإخراجه نَصْر بن الحجاج من غير ذنب كان منه، فإذا كان مَنْ أخرج نصر بن حجاج مذموماً، فكيف مَنْ أخرج أبا ذرّ!

فأما قوله: إنّ الله تعالى والرسول قد نَدَبا إلى خفض الجناح، ولين القول للمؤمن والكافر، فهو كما قال، إلا أنّ هذا أدب كان ينبغي أن يتأدّب به عثمان في أبي ذرّ، ولا يقابله بالتكذيب، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وآله على صِدْقه، ولا يسمعه مكروهَ الكلام، فإنّما نصح له، وأهدى إليه عيوبَه، وعاتبه على ما لو نزع عنه لكان خَيْراً له في الدنيا والآخرة.

الطعن العاشر: تعطيلُه الحدّ الواجب على عُبَيد الله بن عمر بن الخطاب، فإنه قَتَل الهُرْمُزان مُسْلِماً فلم يَقُدْه به، وقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يطلُبه لذلك.

قال قاضي القضاة في الجواب عن ذلك: إنّ شيخنا أبا عليّ رحمه الله تعالى قال: إنّه لم يكن للهُرْمزان وليّ يطلب بدمه، والإمام وليّ مَنْ لا وليّ له، وللوليّ أن يعفوَ كما له أنْ يقتُل، وقد رُوِيَ أنّه سأل المسلمين أن يعفوا عنه، فأجابوا عنه إلى ذلك.

قال: وإنما أراد عثمانُ بالعفو عنه ما يعودُ إلى عزّ الدين، لأنّه خاف أن يبلغ العدوَّ قتلُه، فقال: قَتَلوا إمامهم وقتلوا ولَدَه ولا يعرفون الحال في ذلك فيكون فيه شماتة، وقد قال الشيخُ أبو الحسين الخيّاط: إن عامّة المهاجرين أجمعُوا على أنّه لا يُقاد بالهُرمزان، وقالوا لعثمان: هذا دم سُفِك في غير ولايتك، وليس له وليّ يطلب به، وأمْرُهُ إلى الإمام، فاقْبَل منه الديّة، فذلك صلاح للمسلمين.

قال: ولم يثبت أنّ أميرَ المؤمنين (عليه السلام) كان يطلبُه ليقتلَه بالهُرْمزان، لأنّه لا يجوز قتلُ مَنْ عفا عنه وليّ المقتول، وإنما كان يطلبه ليضعَ من قدره، ويصغِّر من شأنه.

قال: ويجوز أن يكون ما رُوِي عن عليّ (عليه السلام) من أنه قال: لو كنتُ بَدَل عثمان لقتلته، يعني أنه كان يرى ذلك أقوى في الاجتهاد، وأقرب إلى التشدد في...

اعترض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام، قال:

أما قوله: لم يكن للهُرْمزان وليّ يطلب بدمه، فالإمام يكون وليّه، وله أن يعفوَ عنه، كما له أن يقتصّ، فليس بمعتَمد، لأنّ الهرمزان رجلٌ من أهل فارس، ولم يكن له وليّ حاضر يطالب بدمه، وقد كان الواجب أن يبذُل الإنصاف لأوليائه ويؤمنُوا مَتَى حضروا، حتى إنه لو كان له

وليّ يريد المطالبة حضر وطالب. ثم لو لم يكن له وليّ لم يكنْ عثمان وليّ دمه، لأنه قتِل في أيام عمر، فصار عمر وليّ دمه، وقد أوصى عمر على ما جاءت به الروايات الظاهرة بقتْل ابنه عبيد الله إن لم تقم البيّنة العادلة على الهُرْمزان وجُفَينة، أنهما أمرا أبا لؤلؤة غلامَ المغيرة بن شعبة بقتله، وكانت وصيته بذلك إلى أهل الشورى، فقال: أيُّكم ولّي هذا الأمر فلْيفعل كذا وكذا مما ذكرناه، فلما مات عُمَر، طلب المسلمون إلى عثمان إمضاء الوصيّة في عبيد الله بن عمر، فدافع عن ذلك وعلّلهم، ولو كان هو وليّ الدم على ما ذكروا لم يكن له أن يعفوَ وأن يُبطِل حدًّا من حدود الله تعالى، وأيّ شماتة للعدوّ في إقامة حدّ من حدود الله تعالى! وإنما الشماتةُ كلّها من أعداء الإسلام في تعطيل الحدود. وأيّ حَرَجَ في الجمْع بين قَتْل الإمام وابنه، حتّى يقال: كُرِه أن ينتشر الخبرُ بأنّ الإمام وابنَه قُتلا، وإنّما قُتِل أحدُهما ظلماً، والآخر عَدْلاً، أو أحدهما بغير أمرِ الله، والآخر بأمره سبحانه!

وقد روى زياد بن عبد الله البَكائيّ عن محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام أتى عثمان بعدما استخلف، فكلّمه في عُبيد الله ولم يكلِّمْه أحدٌ غيره، فقال: اقْتُلْ هذا الفاسقَ الخبيث الذي قتل أميراً مسلماً، فقال عثمان: قَتَلوا أباه بالأمس، وأقتله اليوم! وإنما هو رجلٌ من أهل الأرض، فلما أبىٰ عليه مَرّ عُبيد الله على عليّ عليه السلام، فقال له: إيهِ يا فساق! أما والله لئن ظفرتُ بك يوماً من الدهر لأضرِبَنّ عنقَك، فلذلك خرج مع معاوية عليه[١].

وروى القنّاد، عن الحسن بن عيسى بن زيد، عن أبيه، أنّ المسلمين لما قال عثمان: إنّي قد عفوتُ عن عبيد الله بن عمر، قالوا: ليس لك أن تَعفوَ عنه، قال: بلى إنه ليس لجُفينة والهُرْمَزان قرابة من أهل الإسلام، وأنا وليّ أمر المسلمين، وأنا أولى بهما، وقد عفوتُ، فقال عليّ عليه السلام: إنه ليس كما تقول، إنما أنت في أمرهما بمنزلة أقصَى المسلمين، إنه قَتَلهما في إمرة غيرك، وقد حَكم الوالي الذي قُتِلا في إمارته بقتله، ولو كان قَتَلهما في إمارتك لم يكن لك العفو عنه، فاتق الله، فإنّ الله سائلُك عن هذا! فلما رأى عثمان أنّ المسلمينَ قد أبوْا إلا قتلَ عبيد الله، أمره فارتحل إلى الكوفة، وأقطعه بها داراً وأرضاً، وهي التي يقال لها: كُوَيْفة ابن عمر، فعظُم ذلك عند المسلمين وأكبروه، وكثر كلامهم فيه.

ورويَ عن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: أمسى عثمان يَوْمَ ولّي حتى نَقَموا عليه في أمر عبيد الله بن عمر، حيث لم يقتله بالهُرمزان[٢].

فأما قوله: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يطلبه ليقتلَه، بل ليضَع من قَدْره، فهو بخلاف ما صرّح به عليه السلام من أنّه إن تمكن ليَضرِبنّ عنقه.

---

(١) انظر مجمع النورين للمرندي: ٢٣٥، والغدير للأميني: ٨/ ١٣٢.

(٢) رواه الدينوري في الأخبار الطوال: ١٦١.

وبعد: فإن وليّ الدم إذا عَفَا عنه على ما ادَّعَوْا لم يكن لأحدٍ أن يستخفّ به، ولا يضعَ من قدرِه كما ليس له أن يقتله.

وأما قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام لا يجوزُ أن يتوعّده مع عفو الإمام عنه، فإنما يكون صحيحاً لو كان ذلك العفو مؤثراً وقد بيّنا أنه غير مؤثر.

وأما قوله: يجوز أن يكون عليه السلام رأى أنّ قتله أقوى في الاجتهاد، وأقربُ إلى التشدد في دين الله، فلا شكّ أنه كذلك، وهذا بناءٌ منه على أنّ كلّ مجتهد مصيب، وقد بينا أنّ الأمر بخلاف ذلك وإذا كان اجتهاد أمير المؤمنين عليه السلام يقتضِي قتلَه، فهو الذي لا يسوغُ خلافُه.

الطعن الحادي عشر: وهو إجماليّ، قالوا: وجدنا أحوالَ الصحابة دالّةً على تصديقهم المطاعِنَ فيه، وبراءتهم منه، والدليل على ذلك أنّهم تركوه بعد قتلِه ثلاثة أيام لم يدفنوه، ولا انكروا على مَنْ أجلب عليه من أهل الأمصار، بل أسلموه ولم يدفعوا عنه، ولكنهم أعانوا عليه، ولم يمنعوا من حَضره ولا من مَنْع الماء عنه، ولا من قَتْلِه، مع تمكّنهم من خلاف ذلك، وهذا ما أقوى الدّلائل على ما قلْناه. ولو لم يدلّ على أمره عندهم إلا ما روي عن عليّ عليه السلام أنه قال: الله قتله وأنّه كان في أصحابه عليه السلام مَنْ يصرّح بأنّه قتل عثمان، ومع ذلك لا يُقيدهم بل ولا ينكر عليهم، وكان أهلُ الشام يصرِّحون بأنّ مع أمير المؤمنين قتلةَ عثمان، ويجعلون ذلك مِنْ أوكد الشبه، ولا ينكَر ذلك عليهم، مع أنّا نعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو أراد أن يتعاضَد هو وأصحابهُ على المنع عنه لما وقع في حَقّه ما وقع، فصار كَفُّه وكفُّ غيره عن ذلك من أدلّ الدلائل على أنّهم صدّقوا عليه ما نسب إليه من الأحداث، وأنهم لم يقبلوا منه ما جعله عذراً.

وأجاب قاضي القضاة عن هذا، فقال:

أما تركُه بعد القتل ثلاثة أيام لم يدفن عليه فليس بثابت، ولو صحّ لكان طعناً على مَنْ لَزمه القيامُ به، وقد قال شيخنا أبو عَلِيّ رحمه الله تعالى: إنّه لا يمتنع أن يشتغِلوا بإبرام البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام خَوْفاً على الإسلام من الفتنة، فيؤخروا دفْنه.

قال: وبعيدٌ مع حضورِ قريش وقبائل العرب وسائر بني أمية ومواليهم أن يُترَك عثمان ولا يُدفَن هذه المدة، وبعيدٌ أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام لا يتقدّم بدفنه، ولو مات في جواره يهوديّ أو نصرانيّ ولم يكن له مَنْ يواريه ما تركه أمير المؤمنين ألاّ يدفن، فكيف يجوز مثل ذلك في عُثْمان، وقد رُوِيَ أنه دفن في تلك الليلة، وهذا هو الأولى.

فأمّا التعلّق بأنّ الصحابة لم تنكر على القوم، ولا دفعتْ عنه، فقد سبق القول في ذلك، والصحيحُ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه تبرّأ من قَتْل عثمان، ولَعَن قتلته في البرّ والبحر والسّهل

ى، وإنما كان يجري من جيشه هذا القول منه على جهة المجاز، لأنّا نعلمُ أنّ جميعَ مَنْ
ول: نحن قتلناه لم يقتُله، لأن في الخبر أنّ العدد الكثير كانوا يصرِّحُون بذلك، والذين
عليه وقتلوه اثنان أو ثلاثة، وإنما كانوا يقصدون بهذا القول، أي أحسبوا أنّا قتلناه فما
رذلك أنّ الإمام هو الذي يقول بأمر القَوَد، وليس للخارج عليه أنْ يطالب بذلك، ولم
أمير المؤمنين عليه السلام أن يقتُلَ قَتَلَته لو عَرَفهم ببينّة أو إقرار، وميَّزهم من غيرهم إلا عندَ
ولّي الدم، والذين كانوا أولياء الدّم لم يكونوا يطالبونه، ولا كانتْ صفتهم صفة مَنْ
، لأنهم كانوا كلّهم أو بعضهم يدّعون أنّ علياً عليه السلام ليس بإمام، ولا يحلّ لوليّ الدم مع
اعتقاد أنّ يطالب القَوَد، فلذلك لم يقتلهم عليه السلام، هذا لو صحّ أنه كان يميزهم، فكيف
غير صحيح.

ا ما رُوِيَ عنه من قوله عليه السلام: «قتله اللّه وأنا معه»! فإنْ صحّ فمعناه مستقيم، يريد أنّ الله
سيُميتني وسائر العباد.

قال سائلاً نفسه: كيف يقول ذلك وعثمان ماتَ مقتولاً من جهة المكلّفين! وأجاب بأنّه
ى، فالإماتة من قِبَل الله تعالى. ويجوز أنْ يكون ما ناله من الجراح لا يوجِبُ انتفاء الحياة
لة، فإذا مات صحّت الإماتة على طريق الحقيقة.

رض المرتضى رحمه الله تعالى هذا الكلام فقال:

تضعيفُه أن يكونَ عثمانُ تُرِك بعد القَتْل ثلاثة أيام لم يُدْفن، فليس بحجة، لأنّ ذلك قد
ماعةُ الرواة، وليس يخالف في مثله أحدٌ يعرَف بالرواية، وقد ذكر ذلك الواقديّ وغيره،
نّ أهل المدينة مَنَعُوا الصلاة عليه، حتى حُمِل بين المغرب والعَتمة، ولم يشهد جَنازته
ان وثلاثة من مواليه، ولما أحسُّوا بذلك رَمَوْهُ بالحجارة وذكروه بأسوأ الذِّكر، ولم يقع
من دفنه إلا بعد أن أنكر أمير المؤمنين عليه السلام المنع من دَفْنه، وأمر أهله بتولّي ذلك منه.

ا قوله: إنّ ذلك إن صحّ كان طعناً على مَنْ لزمه القيامُ بأمره، فليس الأمرُ على ما ظنه،
ن طعناً على عثمان من حيث لا يجوز أن يمنَع أهل المدينة - وفيها وجوهُ الصحابة - من
صلاة عليه إلا لاعتقادٍ قبيح، أو لأنّ أكثرَهم وجُمهورهم يعتقد ذلك، وهذا طعن لا
ه، واستبعاد صاحب «المغني» لذلك، مع ظهور الرواية به لا يلتفت إليه، فأما أميرُ
ن عليه السلام واستبعاد صاحب «المغني» منه ألاّ يتقدم بدفنه، فقد بيَّنا أنّه تقدم بذلك بعد
ة ومراوضة. وأعجب من كلّ شيء قولُ صاحب «المغني»: إنهم أخّروا دفنه تشاغلاً
لأمير المؤمنين عليه السلام، وأي شُغل في البيعة لأمير المؤمنين يمنع من دَفْنه، والدفْن فرضٌ

على الكفاية، لو قام به البعضُ وتشاغل الباقون بالبيْعة لجاز! وليس الدّفْنُ ولا البيعة أيضاً مفتقرة إلى تشاغل جميع أهل المدينة بها.

فأما قوله: إنّه قد رُوِيَ أنّ عثمان دُفِن تلك الليلة، فما تُعرَفُ هذه الرواية، وقد كان يجب أن يُسندها ويَعزُوَها إلى راويها، أو الكتاب الذي أخذها منه، فالذي ظَهر في الرواية هو ما ذكرناه.

فأمّا إحالته على ما تقدّم في معنى الإنكارِ من الصّحابة على القوم المجْلِبين على عثمان فقد سبق القول ذلك.

فأما روايته عن أمير المؤمنين عليه السلام تبرؤه من قَتْل عثمان، ولعنَه قتَلتَه في البَرّ والبحر، والسهل والجبل، فلا شكّ في أنّه عليه السلام كان بريئاً من قَتْله، وقد روى عنه عليه السلام أنه قال: والله ما قتلتُ عثمان، ولا مالأت في قتله، والممالأة هي المعاونة والموازرة، وقد صدق عليه السلام في أنّه ما قَتلَ ولا وَازر على القتل.

فأما لعنُه قَتَلته فضعيف في الرواية، وإن كان قد رُوِي، فأظهر منه ما رواه الواقديّ، عن الحكَم بن الصَّلْت، عن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه، قال: رأيتُ عليًّا عليه السلام على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وآله حِينَ قُتِل، وهو يقول: ما أحببتُ قَتله ولا كرهتُه، ولا أمرت به، ولا نهيْت عنه.

وقد روى محمد بن سعد، عن عَفّان بن جرير بن بشير، عن أبي جَلْدة، أنّه سمع عليًّا عليه السلام يقول وهو يخطب، فذكر عثمان، وقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما قتلتُه ولا مالأتُ على قتله ولا ساءَني.

وروى ابن بشير، عن عُبيدة السلمانيّ، قال: سمعت عليًّا عليه السلام يقول: مَنْ كان سائلي عن دم عثمان، فإنّ الله قَتَله وأنا معه. وقد رُوِيَ هذا اللفظ من طُرق كثيرة.

وقد روى شعبة عن أبي حمزة الضّبعي، قال: قلتُ لابن عباس: إنّ أبي أخبرني أنّه سمع عليًّا، يقول: ألَا مَنْ كان سائلي عن دم عثمان، فإنّ الله قتله وأنا معه - فقال: صدق أبوك، هل تَدري ما معنى قوله! إنما عَنَى: الله قتله وأنا مع الله.

قال: فإن قيل: كيف يصحّ الجمع بين معاني هذه الأخبار؟

قلنا: لا تنافيَ بينها؛ لأنه عليه السلام تبرأ من مباشرة قتله والمؤازرة عليه، ثم قال: ما أمرتُ بذلك ولا نهيتُ عنه، يريد أنّ قاتِليه لم يرجِعُوا إليّ، ولم يكن منّي قول في ذلك بأمرٍ ولا نهي. فأما قوله: «الله قتله وأنا معه»، فيجوز أن يكون المراد به: الله حَكَم بقتله وأوجبه وأنا كذلك، لأنّ من المعلوم أنّ الله تعالى لم يقتله على الحقيقة، فإضافة القتل إليه لا تكون إلا بمعنى الْحُكْم والرِّضا، وليس يمتنع أنْ يكونَ مِمّا حكم الله تعالى به ما لم يتولّه بنفسه، ولا آزر عليه، ولا شايع فيه.

فإن قال قائل: هذا ينافي ما رُوِي عنه من قوله: «ما أحببت قتلَه، ولا كرهتُه»، وكيف يكون مِنْ حُكْم الله وحكمه أن يُقتل وهو لا يحبّ قَتْله!

قلنا: يجوز أن يريد بقوله: «ما أحببت قتله ولا كرهته» أنّ ذلك لم يكن مني على سبيل التفصيل، ولا خطر لي ببال وإن كان على سبيل الجُملة يجبّ قتل مَنْ غلب المسلمين على أمورهم، وطالبوه بأن يعتزل؛ لأنه مستَوْلٍ عليهمْ بغير حقّ فامتنع من ذلك، ويكون فائدة هذا الكلام التّبرؤ من مباشرة قتله، والأمر به على سبيل التفصيل أو النهي عنه. ويجوز أنْ يريد أنّني ما أحببتُ قتله إن كانوا تعمّدوا القتل، ولم يقع على سبيل الممانعة وهو غير مقصود. ويريد بقوله: «ما كرهتُه» أنّي لم أكرهه على كل حال، ومن كلّ وجه.

فأما لعنه قَتَلتَه فقد بيّنا أنّه ليس بظاهر ظهور ما ذكرناه، وإن صَحّ فهو مشروط بوقوع القتل على الوجه بَشير التُّجِيبيّ، وسُودان بن حمران المراديّ، وما منهما من كان غرضه صحيحاً في لقتل، ولا له أن يقدم عليه، فهو ملعون به. فأما محمد بن أبي بكر فما تولىٰ قتله، وإنما روي نه لما جثا بين يديه قابضاً على لحيته قال له: يا بن أخي، دَعْ لحيتي، فإن أباك لو كان حيًّا لم مقعد مني هذا المقْعد، فقال محمد: إن أبي لو كان حيًّا ثم يراك تفعل ما تفعل لأنكره عليك، م وجأه بجماعة قِدَاح كانت في يده فحَزّت في جِلْده ولم تَقْطَع، وبادره مَنْ ذكرناه في قتله بما كان فيه قتلُه.

فأما تأويله قول أمير المؤمنين عَلَيْتَلِا: «قتلَه الله وأنا معه»، على أنّ المراد به، والله أماته وسَيُميتني فبعيد من الصواب، لأن لفظة «أنا» لا تكونُ كناية عن المفعول، وإنما تكون كناية عن لفاعل، ولو أراد ما ذكره لكان يقول: «وإياي معه»، وليس له أن يقول: إنّنا نجعل قوله: «وأنا معه» مبتدأ محذوف الخبر، ويكون تقدير الكلام: «وأنا معه مقتول»، وذلك لأنّ هذا ترك لظاهر وإحالة على ما ليس فيه، والكلام إذا أمكن حملُه على معنى يستقلّ ظاهرُه به من غير قدير وحذف كان أوْلى مما يتعلق بمحذوف، على أنّهم إذا جَعَلوه مبتدأ وقدّروا خَبراً لم يكونوا أنْ يقدّروا ما يوافق مذهبَهم بأوْلى من تقدير خلافه، ويجعل بدلاً من لفظة «المقتول» المحذوفة فظة «مُعين» أو «ظهير». وإذا تكافأ القولان في التقدير وتعارضا سَقَطا، ووجب الرجوع إلى ظاهر الخبر، على أنّ عثمان مضى مقتولاً، فكيف يقال: إن الله تعالى أماته، والقتل كافٍ في نتفاء الحياة، وليس يحتاج معه إلى نافٍ للحياة يسمى موتاً.

وقول صاحب «المغني»: يجوز أن يكون ما ناله من الجراح لا يوجب انتفاء الحياة، ليس شيء، لأنّ المرويّ أنه ضُرِب على رأسه بعمود عظيم من حديد، وأنّ أحدَ قتلته قال: جلست على صدره فوجأته تسع طعنات، علمت أنه مات في ثلاث، ووجأته السّتّ الأُخَر لما كان في نفسي عليه من الحَنَق.

وبعد: فإذا كان جائزاً، فمن أين عَلِمَه أمير المؤمنين عليه السلام حتى يقول: إن الله أماته؟ وإنّ الحياة لم تَنْتَفِ بما فعله القاتلون، وإنما انتفت بشيء زاد على فعلهم من قِبَل الله تعالى مِمّا لا يعلمه على سبيل التفصيل إلاّ علاّمُ الغُيوب سبحانه.

والجوابُ عن هذه المطاعن على وجهين، إجمالاً وتفصيلاً:

أما الوجه الإجماليّ، فهو أننا لا نُنكر أنّ عثمان أحداثاً أنكرَها كثيرٌ من المسلمين، ولكنّا ندّعي مع ذلك أنّها لم تبلغْ درجة الفِسْق، ولا أحبَطَتْ ثوابَه وأنّها من الصغائر التي وقعت مكفَّرة، وذلك لأنّا قد علمنا أنه مغفور له، وأنه مِنْ أهل الجنة لثلاثة أوجه:

أحدُها: أنّه من أهلِ بَدْر، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ٱلّمع على أهل بَدْر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»[1]، ولا يقال: إن عثمانَ لم يشهَدْ بدْراً، لأنا نقول: صدقتم، إنه لم يشهدها، ولكنه تخلف على رقية بنت رسول الله ﷺ بالمدينة لمرضها، وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره باتفاق سائر الناس.

وثانيها: أنه من أهل بَيْعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[2]. ولا يقال: إنه لم يشهد البَيْعة تحت الشجرة، لأنّا نقول: صدقتم، إنه لم يشهدها، ولكنه كان رسول الله ﷺ أرسَله إلى أهل مكة، ولأجله كانت بيعةُ الرضوان، حيث أُرْجِفَ بأن قريشاً قتلتْ عثمان، فقال رسول الله ﷺ: «إن كانوا قَتَلُوه، لأضرمَنّها عليهم ناراً»[3]، ثم جلس تحت الشجرة، وبايع الناسَ على الموت، ثم قال: «إن كان عثمان حياً فأنا أبايع عنه»[4]، فصفح بشماله على يمينه، وقال: «شمالي خير من يمين عثمان» روى ذلك جميعُ أرباب أهل السيرة متفقاً عليه.

وثالثها: أنه من جملة العشرة الذين تظاهرت الأخبار بأنهم مَن أهل الجَنّة.

وإذا كانت الوجوهُ الثلاثة دالةً على أنه مغفور له، وأن الله تعالى قد رَضِيَ عنه، وهو من أهل الجنّة، بطل أن يكونَ فاسقاً، لأن الفاسق يخرُج عندنا من الإيمان، ويُحْبَط ثوابه، ويُحْكم له بالنار ولا يُغفر له، ولا يُرضَى عنه، ولا يَرَى الجنة ولا يدخلها، فاقتضت هذه الوجوه

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (٢٤٩٤)، والترمذي في تفسير القرآن، باب: سورة الممتحنة (٣٣٠٥) وأبو داود في الجهاد باب: حكم الجاسوس إذا كان مسلماً (٢٦٥٠).

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٨.

(٣) لم أجده.

(٤) لم أجده.

الصحيحة الثابتة أنْ يُحكَم بأنّ كلّ ما وقع منه فهو من باب الصّغائر المكفَّرة، توفيقاً بين هذه الوجوه، وبين روايات الأحداث المذكورة.

وأما الوجه التفصيليّ فهو مذكور في كتب أصحابنا المطوّلة في الإمامة، فلْيُطْلَبْ من مَظانّه، فإنهم قد استقصَوْا في الجواب عن هذه المطاعن استقصاءً لا مزيد عليه.

أخبار جرير بن عبد الله البجلي وبيعته لعلي عليه السلام

فأما خبر جرير بن عبد الله البَجَلِيّ، وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاوية، فنحن نذكره نقلاً من «كتاب صِفّين» لنصر بن مُزاحم بن بَشّار المِنْقريّ، ونذكر حالَ أميرِ المؤمنين عليه السلام منذ قَدِمِ الكوفة بعد وقعة الجمل، ومراسلته معاوية وغيره، ومراسلة معاوية له ولغيره، وما كان من ذلك في مبدأ حالتهما إلى أن سار عليٌّ عليه السلام إلى صفين.

قال نصر: حدّثني محمد بن عُبيد الله عن الجرجانيّ، قال: لما قَدِم عليّ عليه السلام الكوفة بعد انقضاء أمْرِ الجمل، كاتَب العمّال، فكتب إلى جرير بن عبد الله البَجليّ مع زَحْر بن قيس الجُعْفيّ - وكان جرير عاملاً لعثمان على ثغر هَمَذان -:

أما بعد، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[1]. وإني أخبرك عن نبإِ مَنْ سرنا إليه من جُموع طلحة والزبير، عند نكْثِهم بيعتي، وما صنعوا بعاملي عثمان بن حُنَيْف. إنّي نهضت من المدينة بالمهاجرين والأنصار، حتى إذا كنت بالعُذَيْب بعثتُ إلى أهل الكوفة الحسنَ بن عليّ، وعبدَ الله بن عباس، وعَمّار بن ياسر، وقيس بن عبادة، فاستنفرتُهم فأجابوا، فسِرْت بهم حتى نزلت بظهر البصرة، فأعذرت في الدعاء وأقَلْتُ العَثْرة، وناشدتهم عَهْدَ بيعتهم، فأبَوْا إلا قتالي، فاستعنتُ الله عليهم، فقتِل مَنْ قتل، وولّوا مدبرين إلى مصرهم، وسألوني ما كنتُ دعوتهم إليه قبل اللقاء، فقبِلت العافية، ورفعتُ السيف، واستعملت عليهم عبدَ الله بن العباس، وسرتُ إلى الكُوفة، وقد بعثت إليك زَحْر بن قيس، فاسأله عَمّا بدا لك. والسلام.

قال: فلما قرأ جريرٌ الكتاب، قام فقال: أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو المأمون على الدِّين والدنيا، وقد كان من أمْرِه وأمر عدوّه ما نَحْمَدُ الله عليه، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، ولو جُعِل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقَّهم بها. ألا وإنّ البقاء في الجماعة، والفناء في الفرقة، وإن علياً حاملُكم على الحق ما استقمتم، فإنْ ملتم أقام ميْلَكم. فقال الناس: سمعاً وطاعة، رضينا رضينا.

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

فكتب جرير إلى عليّ عليه السلام جواب كتابه بالطاعة.

قال نصر: كان مع عليّ رجل من طيىء، ابن أخت لجرير، فَحمّل زُحر بن قيس شعراً له إلى خاله جرير، وهو:

جَريرَ بن عبدِ الله لا تردُدِ الهدَى ... وبايع عليًّا إنني لك ناصِحُ
فإنّ عليًّا خيرُ مَنْ وطِىءَ الحَصا ... سوى أحمدٍ، والموت غادٍ ورائحُ
وَدَعْ عنك قولَ النّاكثين فإنما ... أولاك - أبا عَمْرٍو - كلابٌ نوابح
وبايِعْ إذا بايعتَه بنصيحةٍ ... وَلَا يَكُ مِنْها في ضَميرك قَادِحُ
فإنك إنْ تطلُبْ بها الدين تُعْطَهُ ... وإن تطلب الدنيا فإنك رَابحُ
وإن قلتَ عثمان بن عفان حَقُّه ... عليّ عظيمٌ والشّكُورُ مُناصِحُ
فحقُّ عليٍّ إذ وَلِيكَ كَحَقِّهِ ... وشكرك ما أوليتَ في النّاسِ صَالِحُ
وإن قلت لا أرضى عليًّا إمَامَنا ... فدعْ عنك بحراً ضلَّ فيه السوابحُ
أبى الله إلا أنهُ خيرُ دَهْره ... وأفضل مَنْ ضُمّتْ عَلَيْهِ الأباطحُ

قال نصر: ثم إن جريراً قام في أهل هَمَذان خطيباً، فقال: الحمد لله الذي اختار لنفسه الحمد، وتولّاه دون خَلْقه، لا شرِيكَ له في الحمد، ولا نظير له في المجْد، ولا إله إلا الله وَحْدَه، الدائم القائم، إله السماء والأرض، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالنور الواضح، والحق الناطق، داعياً إلى الخير، وقائداً إلى الهُدَى؛ ثم قال: أيّها الناس، إنّ علياً قد كتبَ إليكم كتاباً لا يقال بعده إلا رجيعٌ من القول، ولكنّ لا بدّ من ردّ الكلام. إن الناس بايعوا علياً بالمدينة عَنْ غير محاباة له ببيْعتهم، لعلمه بكتاب الله وسنن الحق، وإنّ طلحة والزُّبيرَ نقضا بيعتَه على غيرِ محاباة حدثتْ، وألّبا عليه الناس، ثم لم يرضيَا حتى نَصَبا له الحرب، وأخرجا أمَّ المؤمنين، فلقيَهما فاعذر في الدعاء، وأحسن في البقيّة، وحَمَل الناس على ما يعرفون، فهذا عِيان ما غاب عنكم، وإن سألتم الزيادة زدناكم، ولا قوة إلا بالله، ثم قال:

أتانا كِتابُ عَليٍّ فَلَمْ ... نَرُدَّ الكتاب بأرْضِ العَجَمْ
وَلَمْ نَعْصِ ما فِيهِ لمّا أتى ... وَلَما نُذَمَّ وَلَمّا نُلَمْ
وَنَحْنُ ولاةٌ على ثَغْرِنَا ... نَضِيمُ العزيزَ ونَحْمِي الذِّمَمْ
نُسَاقِيهِمُ الموتَ عِنْدَ اللقاء ... بكأسِ المنايا ونَشْفِي القَرَمْ[1]
فصلّى الإلهُ على أحمدٍ ... رسول المليك تمام النِّعَمْ

(١) القرم: شدة شهوة اللحم. اللسان، مادة (قرم).

رســول الــمــلــيــك ومِــنْ بــعــده خــلــيــفــتــنــا الــقــائــم الــمــدَّعَــمْ
عَــلِــيًّــا عــنــيْــتُ وصــيَّ الــنــبــيِّ نُــجــالــدُ عــنــه غُــواةَ الأمَــمْ
لــه الــفَــضْــلُ والــسَّــبْــقُ والــمكــرُمــاتُ وبــيــت الــنــبــوَّة لا يُــهْــتَــضَــمْ

قال نصر: فسرّ الناسُ بخطبة جرير وشعره.

وقال ابن الأزور القَسْرِيّ في جرير يمدحه بذلك:

لَــعَــمْــرُ أبــيــكَ والأنــبــاء تَــنْــمِــي لَــقَــدْ جَــلّــى بــخــطــبــتِــهِ جَــرِيــرُ
وَقَــالَ مــقــالــةً جَــدَعَــتْ رِجَــالاً مــن الــحــيَّــيْــنِ خــطــبــهــمُ كَــبــيــرُ
بــدا بــك قــبــل أمــتــه عــلــيٌّ وَمُــخُّــكَ إنْ رَدَدْتَ الــحــقّ رِيــرُ(١)
أتــاك بــأمْــرِه زِحْــر بــن قَــيْــس وزَحْــرٌ بــالــتــي حَــدَثَــتْ خَــبِــيــرُ
فــكــنــتَ لــمــا أتــاك بــه ســمــيــعــاً وكــدت إلــيــه مــن فَــرَحٍ تــطــيــرُ
فــأنــت بــمــا ســعــدتَ بــه ولــيّ وأنــت لــمَــا تُــعــدّ لــه نــصِــيــرُ
وأحــرزتَ الــثّــواب ورُبَّ حــادٍ حَــدَا بــالــركــب لــيــس لــه بــعــيــرُ

بيعة الأشعث لعلي

قال نصر: وكتَب عليّ عليه السلام إلى الأشعث - وكان عامل عثمان على أذرَبيجَان - يدعُوه إلى البَيْعة والطاعة، وكتَب جرير بن عبد الله البجليّ إلى الأشعث، يحضّه على طاعة أمير المؤمنين عليه السلام، وقبولِ كتابه: أما بَعْد، فإني أتَتْنِي بَيْعة عليّ، فقبلتها ولم أجِدْ إلى دفعها سبيلاً، لأني نظرتُ فيما غابَ عَنّي من أمر عثمان، فلم أجدْه يلزمني، وقد شهد المهاجرون والأنصار فكان أوفقُ أمرهم فيه الوقوف، فاقْبَلْ بيعَته، فإنك لا تنقلِب إلى خير منه، واعلم أنّ بيعةَ عليّ خيرٌ من مَصَارع أهل البصرة. والسلام.

قال نصر: فقبل الأشعثُ البيعة، وسمِع وأطاع، وأقبل جريرٌ سائراً من ثَغْر هَمَذان حتى وَرَد عليٌّ عليه السلام والكوفة فبايعه، ودخل فيما دخل فيه الناس من طاعته ولزوم أمره.

بين علي عليه السلام ومعاوية

قال نصر: فلما أرادَ عليّ عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً، قال له جرير: ابعثني يا أمير المؤمنين إليه، فإنه لم يَزَلْ لي مُستخِصًا ووُدًا، آتيه فأدعوه على أنْ يسلّم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق، على أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عُمّالك، ما عمل بطاعة

(١) الرير: الذائب من المخ. القاموس، مادة (رير).

الله، واتبع ما في كتاب الله، وادعُوا أهلَ الشام إلى طاعتك وولايتك، فجلّهم قومي وأهلُ بلادي، وقد رجوت ألاّ يعصوني.

فقال له الأشتر: لا تبعثه ولا تصدِّقه، فوالله إني لأظنّ هواهُ هواهم، ونيّته نيتهم.

فقال له عليّ عليه السلام: دعْه حتى ننظر ما يرجع به إلينا فبعثه علي عليه السلام، وقال له عليه السلام حين أراد أن يبعثه: إنّ حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من أهل الرأي والدِّين مَنْ قد رأيت، وقد اخترتُك عليهم لقولِ رسول الله فيك: «إنّك من خير ذي يَمَن»[1]، ائت معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فانبِذْ إليه وأعلِمْه أنّي لا أرضى به أميراً، وأنّ العامّة لا ترضى به خليفة.

فانطلق جرير حتى أتى الشامَ، ونزل بمعاوية، فلما دخل عليه حَمِد الله وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد يا معاوية، فإنه قد اجتمع لابن عَمّك أهلُ الحرَمين، وأهلُ المِصْرين، وأهل الحجاز، وأهل اليمن، وأهل مِصْر، وأهل العَروض - والعَروض عُمَان - وأهلُ البحرين واليمامة، فلم يبق إلا هذه الحصون التي أنت فيها، لو سال عليها سيل من أوديته غرّقها، وقد أتيتُك أدعوك إلى ما يرشدُك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل. ودفع إليه كتابَ علي عليه السلام، وفيه:

أيما بعدُ، فإنّ بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام؛ لأنّه بايعني القومُ الذي بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، على ما بُويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يَرُدّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، إذا اجتمعوا عَلَى رجل فسمُّوْه إمامًا، وكان ذلك لله رضاً، فإن خرج من أمرهم خارج بطعْنٍ أو رغبة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبَى قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين، وولّاه الله ما تولّى، ويُصلِيه جهنّم وساءت مصيراً. وإنّ طلحةَ والزبير بَايعاني ثم نقضا بيْعتي، فكان نقضُهما كرِدّتهما، فجاهدتهما على ذلك، حتى جاء الحقّ، وظهر أمر الله وهم كارهون، فادخُلْ فيما دخل فيه المسلمون، فإنّ أحبّ الأمور إليّ فيك العافية، إلا أن تتعرّض للبلاء، فإن تعرّضت له قاتلتُك، واستعنت بالله عليك.

وقد أكثرتَ في قَتَلةِ عثمان، فادخُل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكِم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، فأمّا تلك التي تُريدها فخُدْعة الصبيّ عن اللبن. ولَعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدّني أبرّاً قريش من دم عثمان. واعلم أنّك من الطُّلَقاء الذين لا يحلّ لهم الخلافة، ولا تعرَض فيهم الشورى. وقد أرسلتُ إليك وإلى من قِبَلك جرير بن عبد الله البَجَليّ، وهو من أهل الإيمان والهِجْرة، فبايع، ولا قوة إلا بالله.

---

(١) أخرجه أحمد في أول مسند الكوفيين، باب: ومن حديث جرير بن عبد الله (١٨٦٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٠٥٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥٦٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٠٢).

فلما قرأ الكتاب، قام جرير فخطب، فقال:

الحمد لله المحمود بالعوائد، والمأمول منه الزوائد، المرتجَى منه الثواب، المستعان على النوائب، أحمَده وأستعينُه في الأمور التي تحيّرُ دونها الألباب، وتضمحلّ عندها الأسباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلّ شيء هالك إلا وجهه، له الحُكم وإليه تُرْجعون. وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أرسلَه بعد فَتْرَةٍ من الرّسل الماضية، والقرون الخالية، والأبدان البالية، والجبلّة الطاغية فبلّغ الرسالة، ونصَح للأمة، وأدّى الحق الذي استودعه الله، وأمره بأدائه إلى أمته ﷺ، من رسول ومبتَعث ومنتجَب.

أيّها الناس، إنّ أمرَ عثمان قد أعيا مَنْ شهده، فكيف بمن غاب عنه! وإنّ الناس بايعوا عليًّا غير واترٍ ولا موتور، وكان طلحة والزبير مِمّن بايعاه ثم نكثا بيعتُه على غير حَدَث، ألا وإنّ هذا الدين لا يحتمل الفِتَن، ألا وإن العرب لا تحتمل الفتن، وقد كانتْ بالبصرة أمس روعة ملحمة إن يَشْفَع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس. وقد بايعت الأمة عليًّا، ولو مُلّكنا واللّهِ الأمور، لم نختر لها غَيْره ومن خالف هذا استعتب فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس.

فإن قلت: استعملني عثمان ثم لم يعزلْني، فإن هذا قول لو جاز لم يقمّ لله دين، وكان لكل امرىءٍ ما في يديه، ولكنّ الله جعل للآخر من الولاة حَقّ الأول، وجعل الأمورَ موطأ ينسَخُ بعضُه بعضاً. ثم قعد.

قال نصر: فقال معاوية: انظر وتنظر واستطلع رأيَ أهل الشام.

فمضت أيام، وأمرَ معاوية منادياً ينادي: الصلاة جامعة! فلما اجتمع الناسُ صَعِد المنبر، ثم قال:

الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً، والشرائع للإيمان برهاناً، يتوقّد قَبَسُه في الأرض المقدّسة، جعلها الله محلّ الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلّهم أرضَ الشام، ورضِيَهم لها، ورضيها لهم، لما سبق في مكنون علمه مِنْ طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه، والقُوّام بأمره، والذّابّين عن دينه وحُرماته، ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً، وفي سبيل الخيرات أعلاماً، يردع الله بهم الناكثين، ويجمع بهم أُلفة المؤمنين، والله نستعين على ما تشعّب من أمر المسلمين بعد الالتئام، وتباعد بعد القرب. اللهم انصرْنا على أقوام يوقظون نائمَنا، ويُخيفون آمننا، ويريدُون إراقة دمائنا، وإخافة سُبُلنا. وقد علم الله أنا لا نريد لهمْ عِقاباً، ولا نهتك لهم حجاباً، ولا نوطئهم زلقًا، غير أنّ الله الحميد كَسَانا من الكرامة ثَوْباً لن ننزِعه طَوْعاً ما جاوَب الصَّدَى، وسقَط الندى، وعرِف الهدَى حملهم على ذلك البغيُ والحَسد، فنستعين بالله عليهم.

أيها الناس، قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم، وأني لم أقم رجلاً منكم على خَزاية قطّ، وأنّي وليّ عثمان، وقد قُتل مظلوماً، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[١]، وأنا أحبُّ أن تُعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان.

فقام أهل الشام بأجمعهم، فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأوثقوا له على أن يبذُلوا بين يديْه أموالهم وأنفسهم، حتى يدركوا بثاره أو تلتحق أرواحهم بالله.

قال نصر: فلما أمسى معاوية اغتمّ بما هو فيه، وجَنه الليل وعنده أهل بيته، فقال:

تَطَاوَلَ لَيْلِي واعْتَرَتْنِي وَسَاوِسِي ... لِآتٍ أتى بالتُّرَّهاتِ الْبَسَابِسِ[٢]
أتاني جريرٌ والحوادث جَمّةٌ ... بتلك التي فيها اجتداعُ المعاطسِ
أكايدُه والسيف بيني وبينَه ... ولست لأثوابِ الدنيء بَلَابِسِ
إنِ الشّامُ أعطتْ طاعةً يمنّيةً ... تواصَفَهَا أشْيَاخُها في المَجَالِسِ
فإنْ يَفعلُوا أصْدِمْ عليًّا بجبْهَةٍ ... تفتُّ عليه كلّ رطب ويابس
وإني لأرجو خير ما نال نائلٌ ... وما أنا مِنْ مُلْكِ العراق بآيس

قلت: الجبهة هاهنا: الخيل، ومنه قول النبي الله ﷺ: «ليس في الجبْهة صَدَقة»[٣]، أي زكاة.

قال نصر: فاستحثّه جرير بالبَيْعة، فقال: يا جرير، إنها ليست بخلْسة، وإنه أمر له ما بعده، فأبلِغني ريقي حتى أنظر، ودعا ثقاتِه، فأشار عليه أخوه بعمرو بن العاص، وقال له: إنه مَنْ قد عرفتَ، وقد اعتزل عثمانَ في حياته، وهو لأمرِك أشَدّ اعتزالاً إلا أن يثمّن له دينُه.

وقد ذكرنا فيما تقدّم خبر استدعائه عمراً، وما شرَط له من ولاية مصر، واستقدمِه شُرَحبيل بن السِّمط رئيس اليمنيّة وشيخها والمقدّم عليها، وتدسيس الرجال إليه يُغرونه بعليّ عليه السلام، ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان، حتى ملؤوا صدرَه وقلبه حقْداً وَتِرَة وإحْنة عَلَى عليّ عليه السلام وأصحابه بما لا حاجة إلى إعادته.

قال نصر: فحدّثني محمد بن عُبيد الله عن الجرجانيّ، قال:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

(٢) الترهات البسابس: هي الباطل. اللسان، مادة (بس).

(٣) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢/ ٩٤)، والبيهقي نحوه في «السنن الكبرى» (٧٢٠١).

جاء شُرَحْبِيل إلى حُصَين بن نُمير، فقال: ابعث إلى جرير فليأتنا، فبعث حُصين بن نمير إلى جرير: أن زُرْنا فعندنا شُرحبيل، فاجتمعا عند حصين، فتكلّم شرحبيل، فقال: يا جرير أتيتنا بأمل ملفّفٍ لِتُلْقِينَا في لَهَوَات الأسد، وأردتَ أن تَخلِطَ الشام بالعراق، وأطْريت عليًّا، وهو قاتل عثمان، والله سائِلك عَمَّا قلت يوم القيامة.

فأقبل عليه جريرٌ وقال: يا شُرَحبيل، أما قولك: إني جئت بأمر ملفّفٍ، فكيف يكون ملفّفاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقوتل على رَدّه طلحة والزبير!

وأمّا قولك: إني أُلقِيك في لَهَوات الأسد، ففي لَهَواتِها ألقيتَ نفسك.

وأما خلطُ أهلِ الشام بأهلِ العِراق، فخلطُهُما على حقّ خيرٌ مِنْ فُرقتهما على باطل.

وأما قولُك: إنّ عليًّا قَتَل عثمان، فوالله ما في يديك من ذلك إلا القذْف بالغَيْبِ مِنْ مكان بعيدٍ، ولكنكَ مِلْت إلى الدنيا، وشيء كان في نفسك على زمن سعد بن أبي وقّاص.

فبلَغ ما قالاه إلى معاوية، فبعث إلى جرير فزجرَه. قال نصر: وكُتِب إلى شرحبيل كتاب لا يعرف كاتبه فيه:

شُرَحبيل يا بنَ السِّمْط: لا تَتْبَع الهوَى ... فما لَكَ في الدُّنْيَا مِن الدِّين مِنْ بَدَلْ
وَلَا تَكُ كالمُجْرَى إلى شَرِّ غايَةٍ ... فَقَدْ خُرِّقَ السِّرْبالُ واسْتَنْوَقَ الجَمَلْ
وَقُلْ لابن حَرْب: مالك اليومَ خُلّةٌ ... تروم بها ما رُمْتَ واقْطَع لَهُ الأمل
شُرَحْبِيلُ: إنّ الحقّ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... فَكُنْ فيه مأمونَ الأديم من النَّغَلْ[1]
وَأرْوِدْ ولا تُفْرِطْ بشيء نخافُهُ ... عَلَيْكَ، ولا تَعْجَلْ، فلا خَيْرَ فِي الْعَجَلْ
مقالُ ابنَ هندٍ في عليّ عضيهةٌ ... ولله فِي صَدْرِ بن أبي طالبٍ أجَلْ[2]
وَمَا مِنْ عليّ في ابن عفان سَقْطَةٌ ... بقولٍ، ولا مالا عليه ولا قتلْ
وَمَا كانَ إلاّ لازماً قَعْرَ بَيْتِهِ ... إلى أن أتى عثمانَ في داره الأجَلْ
فَمَنْ قال قَوْلاً غيرَ هذا فحسبُه ... من الزُّور والبهتان بعضُ الذي احتَمَلْ
وصيّ رسول الله مِنْ دونِ أهلِه ... ومَنْ باسمِه في فَضْلِه يُضْرَبُ المثلْ

قال نصر: فلما قرأ شُرَحْبيل الكتاب ذُعِرَ وفكّر، وقال: هذه نصيحةٌ لي في ديني، ولا والله لا أعجَلِ في هذا الأمر بشيء وفي نفس منه حاجة، وكاد يحولُ عن نصر معاوية ويتوقف، فلّفق له معاوية الرجالَ يدخلون إليه ويخرجون، ويعظّمون عنده قتلَ عثمان، ويرمُون به عليًّا، ويقيمون الشهادة الباطلة، والكتبَ المختلفة حتى أعادوا رأيَه، وشَحَذوا عزمه.

(١) النَّغَل: فساد الأديم في دباغه إذا ترفت وتفتت. اللسان، مادة (نغل).
(٢) العضيهة: البهيتة، وهي الإفك والبهتان والنميمة. اللسان، مادة (عضه).

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد بإسناده قال: بعث معاوية إلى شُرَحْبِيل بن السِّمْط:

إنّه قد كان من إجابتك إلى الحقّ، وما وقع فيه أجرُك على الله، وقَبِله عنكَ صُلَحاء الناس ما علمت، وإنّ هذا الأمر الذي نحن فيه لا يتّم إلا برضا العامّة، فسِرْ في مدائن الشام، ونادِ فيهم بأنّ علياً قَتَل عثمان، وأنه يجب على المسلمين أن يطلبو بدمه.

فسار شُرَحبيل، فبدأ بأهل حِمْص، فقام فيهم خطيباً - وكان مأموناً في أهل الشام ناسكاً مُتألّهاً، فقال:

أيّها الناسُ، إن علياً قتل عثمان، فغضِب له قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فلقيهَم فهزم الجمع، وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام، وهو واضع سيفه على عاتقه، ثم خائض غمراتِ المَوت، حتى يأتيَكم أو يحدث الله أمراً، ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجِدّوا وانهضوا.

فأجابه الناس كلّهم إلا نُسّاكاً من أهل حِمْص، فإنهم قالوا له: بيوتُنا قبورنا ومساجدنا، وأنت أعلم بما ترى.

قال: وجعل شُرَحبيل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها، لا يأتي على قوم إلاّ قبِلوا ما أتاهم به، فبعث إليه النجاشيّ بن الحارث - وكان له صديقاً:

شُرَحْبِيلُ ما للدِّين فارقتَ ديننا ... ولكِنْ لبغض المالكيِّ جريرِ
وَشَحْنَاء دَبَّتْ بَيْنَ سعدٍ وبَيْنَهُ ... فأصبحتَ كالحادِي بغيرِ بَعيرِ
ومَا أنت إذ كانت بجيلة عاتبتْ ... قريشًا فيالله بُعْد نصيرِ
أتفصِل أمراً غِبْتَ عنه بشبهةٍ ... وقد حَارَ فيه عقلُ كلّ بَصيرِ
بِقَوْلِ رجالٍ لم يكونوا أئمةً ... ولا للتي لَقَّوْكَهَا بحضُورِ
وما قولُ قَومٍ غائبين تقاذفوا ... من الغيب ما دَلّاهُم بغرورِ
وتترك أنّ الناسَ أعطَوْ عهودهُم ... عليًّا على أنسٍ به وسرورِ
إذا قيل هاتُوا واحداً يقتدى به ... نظيراً له لم يُفصِحُوا بنظيرِ
لعلك أن تشقى الغداة بحربِه ... فليس الذي قد جئته بصغيرِ

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن نُمَيْر بن وعلة، عن الشَّعبيّ، أن شُرَحبيل بن السِّمْط بن الأسود بن جَبَلة الكنديّ دخل على معاوية، فقال له: أنت عاملُ أمير المؤمنين وابن عمّه، ونحن المؤمنون، فإن كنتَ رجلاً تُجاهِد علياً وقتلة عثمان حتى ندرِك ثأرنا أو تذهب أرواحُنا استعملناك علينا، وإلاّ عزلناك واستعملنا غيرَك ممن نريد، ثم جاهَدْنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلِك.

فقال جرير بن عبد الله - وكان حاضراً: - مهلاً يا شُرَحبيل، فإن الله قد حَقَن الدِّماء، ولَمّ الشعث، وجَمَع أمر الأمة، ودنَا من هذه الأمة سكون، فإياك أنْ تُفْسِد بين الناس، وأمسِكْ عن هذا القول قبل أن يشيعَ ويظهر عنك قولٌ لا تستطيع رَدّه، فقال: لا والله لا أسرّه أبداً. ثم قام فتكّلم به، فقال الناس: صدق صدق، القولُ ما قال، والرأي ما رأى. فأيس جرير عند ذلك مِنْ معاوية ومن عوامّ أهل الشام.

قال نصر، وحدثني محمد بن عبيد الله، عن الجرجانيّ، قال: كان معاوية قد أتى جريراً قبل ذلك في منزله، فقال له: يا جرير، إني قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية، فإذا حضرتْه الوفاة لم يجعلْ لأحد بعده في عنقي بيعة، أسلم له هذا الأمر، واكتب إليه بالخلافة. فقال جرير: اكتُب ما أردت أكتب معك.

فكتب معاوية بذلك إلى عليّ، فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير:

أما بعد، فإنما أراد معاوية ألاّ يكون لي في عنقه بَيْعة، وأن يختار من أمره ما أحبّ، وأراد أنْ يُرِيثَك ويُبْطئك حتى يذوقَ أهل الشام وإنّ المغيرة بن شعبة قد كان أشار عليّ أن أستعملَ معاوية على الشام، وأنا حينئذٍ بالمدينة، فأبيتُ ذلك عليه، ولم يكن ليراني أتخذ المضلّين عَضُداً، فإن بايَعك الرجل وإلاّ فأقبِل، والسلام.

قال نصر: وفشا كتابُ معاوية في العرب، فبعثَ إليه الوليد بن عُقْبة:

معاويَ إنّ الشامَ شامُك فاعتِصمْ ... بشامِك لا تُدْخِلْ عليكَ الأفاعيَا
وحام عليها بالصَّوَارم والقَنَا ... ولاتكُ مَوهونَ الذِّراعين وَانِيَا
وإنّ عليًّا ناظرٌ ما تجيُبه ... فَاهدِ له حَرْباً تُشِيب النَّواصِيَا
وإلاّ فسلِّم إنّ في السِّلم راحةً ... لمن لا يريدُ الحربَ فاخْتَرْ مُعاويا
وإنّ كتاباً يا بنَ حربٍ كتبتَه ... على طمع، يُزْجي إليك الدّواهيا
سألتَ عليًّا فيهِ مَا لَنْ تنالَه ... ولَوْ نلتَه لم يَبْقَ إلا لَياليا
وَسَوْفَ تَرَى منه الّتي ليس بعدها ... بقاءٌ، فلا تكثر عليك الأمانِيَا
أمِثْلَ عَلِيٍّ تعتريه بخُدْعَةٍ ... وقد كان ما جَرَّبْتَ من قبل كافيا!

قال: وكتب الوليد بن عُقْبة إلى معاوية أيضاً يُوقظه ويشير عليه بالحرب، وألا يكتب جواب جرير:

معاويَ إنّ المُلْك قد جُبَّ غاربُهْ وأنت بما في كفِّك اليومَ صاحِبُهْ
أتاك كتابٌ من عليٍّ بخُطّةٍ هي الفضلُ فاختَرْ سِلْمَةَ أو تُحَارِبُهْ
فلا ترجُ عند الواترين مَوَدَّةً ولا تأمَن اليومَ الّذي أنت رَاهِبُه
وحاربْه إن حاربْتَ حرب ابنِ حُرةٍ وإلاّ فَسِلْمٌ لا تدبّ عَقَارِبُه
فإنّ عليًّا غيرُ ساحب ذَيْلِهِ عَلَى خُدعةٍ ما سوَّغَ الماءَ شَارِبُهْ
وَلَا قابلٍ ما لا يريدُ وهذه يقوم بها يوماً عليه نوادبه
فَلَا تَدَعَنَّ الملكَ والأمرُ مُقبلٌ وتطلبَ ما أعيَت عليكَ مذاهبُهْ
فإنْ كنتَ تنوِي أنْ تُجِيب كِتابَه فَقُبِّحَ مُمْليه وَقُبِّحَ كاتِبُهْ
وإن كنتَ تَنْوي أن تردّ كِتَابه وأنت بأمرٍ لا محالةَ رَاكِبُهْ
فألْق إلى الحيّ اليمانينَ كِلْمَةً تنالُ بها الأمرَ الّذِي أنتَ طالِبُهْ
تقول: أميرُ المؤمنين أصابَهُ عدوٌّ ومالاهم عليه أقارِبُهْ
أفانِينُ مِنْهُمْ قائِلٌ وَمُحَرِّضٌ بلا تِرَةٍ كانتْ، وآخرُ سالِبُهْ[(١)]
وكنتُ أميراً قَبْلُ بالشام فيكمُ فحسبي وإياكم من الحق واجِبُهْ
فجيئوا، ومَنْ أرسَى ثَبِيراً مكانَه نُدافِع بحراً لا تُرَدّ غوارِبُهْ[(٢)]
فأقللْ وأكثِرْ ما لها اليوم صاحبٌ سواك، فصرِّحْ لستُ ممَّنْ تُوارِبُهْ

قال نصر: وخرج جرير يوماً يتجسّس الأخبار، فإذا هو بغلام يتغنّى على قَعود له، وهو يقول:

حُكَيْمٌ وَعَمَّارُ الشَّجَا ومحمدٌ واشترُ والمكشُوح جَرُّوا الدَّواهِيا
وقد كان فيها للزبير عجاجة وصاحبه الأدنى أثاروا السدواهيا
فأما عليّ فاستجارَ ببيته فلا آمرٌ فيها ولم يَكُ ناهِيا
فَقُلْ في جَمِيع النَّاسِ مَا شِئتَ بَعْدَهُ فلو قلت: أخطأ الناسُ لم تَكُ خَاطِيًا
وإن قلت: عُمّ القومُ فيهِ بفِتْنَة فحسْبُكَ منْ الّذي كانَ كافيا
فقولا لأصحابِ النبيّ محمدٍ وَخُصّا الرجالَ الأقربين الأدانِيَا:
أيُقتَلُ عثمان بن عفّان بَيْنَكُمْ عَلَى غَيْرِ شيء ليس إلاّ تعاميا
فلا نوم حتى نستبيحَ حَرِيمَكُمْ ونخضِبَ من أهلِ الشَّنَآنِ الْعَوالِيَا

---

(١) الترة: الظلم في الثأر. اللسان، مادة (وتر).

(٢) ثبير: جبل بمكة. اللسان، مادة (ثبر).

فقال جرير: يا بن أخي، مَنْ أنت؟ فقال: غلام من قريش، وأصلي من ثَقِيف، أنا ابن المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق، قُتِل أبي مع عثمان يوم الدّار. فعجب جريرٌ من شعره وقوله، وكتب بذلك إلى عليّ عليه السلام، فقال عليّ: والله ما أخطأ الغلام شيئاً.

قال نصر: وفي حديث صالح بن صَدقة، قال: أبطأ جريرٌ عند معاوية حتى اتّهمه النّاس، وقال عليّ عليه السلام: قد وقّتُ لجرير وقتاً لا يُقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً وأبطأ عَلَى عليّ حتى أيس منه.

قال: وفي حديث محمد وصالح بن صدقة، قالا: فكتب عليّ عليه السلام إلى جرير بعد ذلك:

إذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية عَلَى الفَصْل، ثم خَيّره وخذه بالجواب بين حربٍ مُخزية أو سلم مُحظية، فإنْ اختارَ الحرب فانبذ إليه، وإن اختار السّلم فخذه ببيعته. والسلام.

قال: فلما انتهى الكتابُ إلى جرير أتى معاوية، فأقرأه الكتاب، وقال له: يا معاوية، إنّه لا يطبع على قلب إلاّ بذنب، ولا يُشرَح صَدْر إلا بتوبة، ولا أظنّ قلبَك إلاّ مطبوعاً عليه، أراك قد وقفت بين الحقّ والباطل، كأنك تنتظر شيئاً في يد غيرك.

فقال معاوية: ألقاك بالفَصْل في أول مجلس إن شاء الله.

فلما بايع معاوية أهلُ الشام بعد أن ذاقهم، قال: يا جرير الحق بصاحبك، وكتب إليه بالحرْب، وكتب في أسفل الكتاب شعر كعب بن جُعَيل:

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ أهلَ العراقِ وَأَهْلُ العِراق لهم كارهونا

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدم.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتاب «الكامل»[1]: إن عليًا عليه السلام لما أراد أن يبعث جريراً إلى معاوية، قال: والله يا أميرَ المؤمنين ما أدّخِرُك من نُصْرَتي شيئاً، وما أطمع لك في معاوية. فقال عليّ عليه السلام: إنما قصدي حُجّة أقيمها عليه. فلما أتى جرير معاوية دافعه بالبيْعة، فقال له جرير: إنّ المنافقَ لا يصلّي حتى لا يجدَ مِنَ الصلاة بُدًّا. فقال معاوية: إنها ليست بخُدْعة الصبيّ عن اللّبن، فأبلِغني ريقي، إنه أمر له ما بعده.

قال: وكتب مع جرير إلى عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه إليه: من معاوية بن صَخْر إلى عليّ بن

(١) «الكامل في اللغة»: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي، المتوفى سنة (٣٨٥هـ)، «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

أبي طالب، أما بعد، فلعَمْرِي لو بايَعك القومُ الذين بايَعوك وأنت بريء من دم عثمان كنتَ كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنّك أغريتَ بعثمان المهاجرين، وخَذّلت عنه الأنصار، فأطاعَك الجاهلُ، وقَوِيَ بك الضعيف، وقد أبى أهلُ الشام إلاّ قتالك، حتى تدفَعَ إليهم قَتَلَة عثمان، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين، ولعمْرِي ليس حُجَجُكَ عليّ كحججك على طلحة والزبير؛ لأنهما بايعاك ولم أبايْعك، وما حجتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة، لأنّ أهلَ البصرة أطاعوك ولم يُطِعْك أهلُ الشام. فأمّا شرفك في الإسلام، وقرابتُك من النبي صلى الله عليه وآله وموضِعُك من قريش، فلست أدفعُه.

ثم كتب في آخر الكتاب شعرَ كعب بن جعيل الذي أوله:

أرَى الشَّامَ تَكرهُ أهلَ العراقِ وَأهلُ العراق لهمْ كارِهُونا

قال أبو العباس المبرّد رحمه الله تعالى: فكتب إليه عليّ عليه السلام جواباً عن كتابه هذا:

من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب:

أما بعد، فإنه أتاني منك كتابُ امرىء ليس له بَصَرٌ يهديه، ولا قائدٌ يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتّبعه، زعمتَ أنك إنما أفسَد عليك بَيْعتي خطيئتي في عثمان، ولعَمْرِي ما كنتُ إلا رجلاً من المهاجرين، أوردتُ كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمَعهم عَلَى الضلال، ولا ليضربهم بالعمَى. وبعد، فما أنت وعثمان! إنما أنتَ رجل من بني أميّة، وبنو عثمان أوْلَى بمطالبةِ دَمه، فإن زعمتَ أنك أقوى عَلَى ذلك، فادْخُل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القومَ إليّ. وأما تمييزُك بينكَ وبين طلحة والزبير، وبين أهل الشام وأهل البَصْرة، فلعمرِي ما الأمرُ فيما هناك إلا سواء، لأنها بيعة شاملة لا يستثنَى فيها الخيار، ولا يستأنف فيها النَّظَرة. وأمّا شَرَفِي في الإسلام وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله، وموضعي من قريش، فَلعمري لو استطعت دفعه لدفعته.

قال: ثم دعا النَّجاشيَّ أحد بني الحارث بن كعب، فقال له: إنَّ ابنَ جُعَيل شاعرُ أهل الشام، وأنت شاعر أهل العراق، فأجِبِ الرّجل. فقال: يا أميرَ المؤمنين، أسمعني قوله، قال: إذن أسمعك شِعْر شاعر، ثم أسمعه، فقال النجاشيُّ يجيبه:

دعاً يا مُعَاويَ ما لنْ يكونَا فَقَدْ حَقّق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهلِ العراقِ وأهلِ الحجاز فما تصنعونا!
عَلَى كل جَرْدَاء خَيْفَانَةٍ وَأشعَثَ نَهْدٍ يَسُرّ الْعُيُونا
عَلَيْها فَوارِسُ مخشيّةٌ كأسْد العَرين حَمَيْنَ العَرينا
يَرَوْنَ الطِّعَانَ خِلال العَجاج وَضَرْبَ الفوارسِ في النَّقْعِ دينا

هُمُ هَزَمُوا الجمعَ جَمْعَ الزُّبَيْرِ ... وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشَرَ النَّاكِثينَا
وآلوا يميناً عَلَى حَلْفَةٍ ... لِنُهْدِي إلى الشام حَرْباً زَبُوناً[1]
تُشِيبُ النَّواهِدَ قَبْلَ المشِيبِ ... وتُلْقِي الحواملُ مِنْها الجنِينَا
فإن تكرهوا المُلْكَ مُلْكَ العِرَاقِ ... فَقَدْ رَضِيَ القَوْمُ ما تكْرَهُونا
فقل للمضلّل مِنْ وَائِلٍ ... وَمَنْ جَعَلَ الْغَثَّ يوماً سَمِينا
جَعَلْتُمْ عَلِيًّا وَأشْيَاعَهُ ... نَظِيرَ ابْنِ هِنْدٍ، أَمَا تَسْتَحُونا!
إلى أفضلِ النّاس بعد الرسول ... وصِنْو الرسولِ مِنَ العالمينا
وَصِهْرِ الرسول وَمَنْ مِثْلُه ... إذا كانَ يومٌ يُشِيبُ القُرُونا!

قلت: أبيات كعب بن جُعيل خيرٌ من هذه الأبيات، وأخبث مقصداً وأدهى وأحسن.

وزاد نصر بن مزاحم في هذه الرسالة بعد قوله: «ولا ليضر بهم بالعمى»: «وما أَلَّبْت فتلزمني خطيئة الآمر، ولا قتلت فيجب عَلَيّ القصاص. وأما قولك إنّ أهل الشام هم الحكام عَلَى أهلِ الحجاز، فهات رجلاً من أهل الشام يقبل في الشورى، أو تحلُّ له الخلافة، فإنْ زعمتَ ذلك كَذّبَك المهاجرون والأنصار، وإلا أتيتُك به من قريش الحجاز. وأما وَلُوعك بي في أمر عثمان، فما قلت ذلك عن حقّ العيان، ولا يقين الخُبر.

وهذه الزيادة التي ذكرها نصر بن مزاحم تقتضي أنه كان في كتاب معاوية إليه عليه السلام أنّ أهل الشام هُم الحكام عَلَى أهل الحجاز، وما وجدنا هذا الكلام في كتابه.

متفرقات

وروى نصر بن مزاحم، قال: لما قُتِل عثمانُ ضَرَبت الرّكبان إلى الشام بقتله، فبينا معاوية يوماً إذا أقبل رجل متلّفف، فكشف عن وجهه، وقال لمعاوية: يا أمير المؤمنين، أتعرفني؟ قال: نعم، أنت الحجاج بن خزيمة بن الصّمة، فأين تريد؟ قال إليك القُربان، أنعَى ابن عفان، ثم قال:

إن بني عَمِّك عَبْد المطّلِبْ ... هُمْ قتلوا شيخكُمُ غَيْر كَذِبْ
وأنت أولَى الناس بالوثْبِ فثِبْ ... واغْضَبْ معاوي للإله واحتسبْ
وَسِرْ بنا سَيْرَ الجرير المتلئبّ ... وانْهَضْ بأهل الشام تَرْشُدْ وتُصِبْ
ثم أهْزُزِ الصَّعْدة للشأس الشَّغِبْ

قال: يعني عليًا عليه السلام.

---

(١) حرب زبون: يدفع بعضها بعضاً كثرة. القاموس، مادة (زبن).

قلت: المتلئبّ المستقيم المطّرد، يقال: هذا قِيَاسٌ متلئبّ، أي مستمرّ مطّرد. ويقال: مكان شَأس، أي غليظ صلب. والشَّغِب: الهائج للشرّ، ومن رواه: «للشاسي» بالياء فأصله «الشاصي» بالصاد، وهو المرتفع، يقال: شصا السحابُ إذا ارتفع، فأبدل الصاد سيناً، ومراده هنا نسبة عليّ عليه السلام إلى التيه والترفّع عن الناس.

قال نصر: فقال له معاوية: أفيك مَهَزّ؟ فقال: نعم، فقال أخْبِر الناس، فقال الحجاج: يا أميرَ المؤمنين - ولم يخاطَب معاويةُ بـ «أمير المؤمنين» قبلها - إنّي كنتُ فيمَنْ خرج مع يزيد بن أسدِ القَسْرِيّ، مغيثاً لعثمان، فقدمْتُ أنا وزفر بن الحارث، فلقِينَا رجلاً زعم أنه مِمّن قتل عثمان، فقتلْناه، وإني أخبرك يا أمير المؤمنين أنك لتَقوَى على عليّ بدون ما يقوَى به عليك، لأنّ معك قوماً لا يقولون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت، وإن مع عليّ قوماً يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليلٌ ممّن معك خيرٌ من كثير ممن معه. واعلمْ أنه لا يرضى عليّ إلا بالرضا، وأنّ رضاه سَخَطك، ولستَ وعليّ سواء، عليّ لا يرضى بالعراق دون الشام، أنت ترضى بالشام دون العراق.

قال نصر: فضاق معاوية صدراً بما أتاه، ونَدِم على خِذلان عثمان وقال:

أتانِيَ أمرٌ فيه للنفس غمّةٌ ... وفيه بكاءٌ للعيونِ طويل

وفيه فناءٌ شاملٌ وخزايةٌ ... وفيه اجتداع للأنوف أصيلُ

مصابُ أمير المؤمنين وهَدّةٌ ... تكاد لها صمّ الجبالِ تَزُولُ

فالله عَينا مَنْ رَأى مِثْلَ هالكٍ ... أصيبَ بِلا ذَنْبٍ وَذَاكَ جَلِيلُ!

تَدَاعَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ ... فَرِيقانِ مِنْهُمْ قَاتِلٌ وخَذُولُ

دَعَاهُمْ فَصَمّوا عنه عِنْدَ دُعَائِهِ ... وَذَاكَ عَلَى ما في النُّفُوس دَلِيلُ

نَدِمتُ على مَا كَان مِنْ تبعيَ الْهَوَى ... وقَصْرِيَ فيه حَسْرَةٌ وعويلُ

سَأبغِي أبا عمرو بكُلّ مُثقَّفٍ ... وبيضٍ لهَا في الدّارِعينَ صَلِيل

تركتُك للقومِ الذين هُمُ هُمُ ... شَجَاك فماذا بعد ذاك أقول!

فلستُ مقيماً ما حييتُ ببلدَةٍ ... أجرّ بها ذَيْلِي وأنت قتيل

فلا نوم حتى تُشْجَر الخيلُ بالقنا ... يُشفَى من القوم الغُواة غَلِيلُ

وَنَطْحَنَهُمْ طحنَ الرّحا بثفالها ... وَذَاكَ بما أسْدَوْا إليك قليل

فأمّا الّتي فيها مودّةُ بيننا ... فليس إليها مَا حَيِيتُ سَبِيل

سألقِحُها حَرباً عَوَاناً مُلِحّةً ... وإنّي بِهَا مِنْ عَامِنَا لَكَفِيلُ

قال نصر: وافتخَر الحجّاج على أهل الشام بما كان من تسليمه على معاوية بإمرة المؤمنين.

قال نصر: وحدثنا صالح بن صدقة، عن ابن إسحاق، عن خالد الخُزاعيّ وغيره ممن لا يُتّهَم، أن عثمان لما قُتِل وَأُتِيَ معاوية بكتاب علي عليه السلام بعزله عن الشام، صعِد المنبر ونادى في الناس أن يحضرُوا، فحضروا، فخطَبهم. فحمِد اللّهَ وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: يا أهلَ الشام، قد علمتم أني خليفةُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان، وقد قتِلَ وأنا ابن عمه ووليّه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾[1] وأنا أحبّ أن تُعلِمُوني ما في نفوسكم من قَتْل خليفتكم.

فقام مُرّة بن كعب، وفي المسجد يومئذٍ أربعمائة رجلٍ من أصحاب النبي الله صلى الله عليه وآله أو نحوها، فقال: والله لقد قمتُ مقامي هذا، وإنّي لأعلمُ أنّ فيكم مَنْ هو أقدم صحبةً لرسول الله صلى الله عليه وآله مِنّي ولكني شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله نصف النهار في يوم شديد الحر وهو يقول: «لتكونن فتنة حاضرة»[2] فمرّ رجل مُقَنّع، فقال رسول الله: «وهذا المقنع يومئذٍ على الهُدَى»، فقمت فأخذت بمنكبه، وحَسَرْتُ عن رأسه، فإذا عثمان، فأقبلتُ بوجهه على رسول الله صلى الله عليه وآله، وقلت: هذا يا رسول الله؟ فقال: «نعم».

فأصفق أهلُ الشام مع معاوية حينئذٍ، وبايعوه على الطلب بدم عثمان أميراً لا يطمع في الخلافة ثم الأمر شورى.

وروى إبراهيم بن الحسن بن دِيزيل في كتاب «صفين» عن أبي بكر بن عبد الله الهذليّ أن الوليد بن عقبة كتب إلى معاوية يستبطئه في الطلب بدم عثمان، ويحرضّه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة:

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ ... فإنّك مِنْ أخي ثقةٍ مُلِيمُ
قطعتَ الدهر كالسّدِم المعنّى ... تُهدّرُ في دمشقَ ولا تريمُ
فإنك والكتابَ إلى عليّ ... كدابغة وقد حَلِمَ الأديم
لك الويلاتُ أقحِمها عَلَيْهِم ... فخير الطالِبي التِّرةِ الغَشُومُ

قال: فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوْس بن حَجر:

وَمُسْتَعجِبٍ ممّا يَرَى مِنْ أناتِنَا ... وَلَوْ زَبَنَتْه الحرْب لَمْ يَتَرمْرَمِ[3]

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.
(٢) ذكره نعيم بن حماد في «الفتن» (٤٦١).
(٣) زبنته: صدمته. اللسان، مادة (زبن). ترمرم: حرك فاه للكلام. اللسان، مادة (رمم).

وروى ابن ديزيل قال: لما عَزَم عليّ عليه السلام على المسير إلى الشام، دعا رجلاً، فأمره أن يتجهّز ويسير إلى دمشق، فإذا دخلَ أناخَ راحلتَه بباب المسجد، ولا يُلْقِي من ثياب سفره شيئاً: فإن الناس إذا رأوه عليه آثار الغُرْبة سألوه، فليقل لهم: تركتُ عليًّا قد نَهَد إليكم بأهل العراق. فانظر ما يكون من أمرهم.

ففعل الرجل ذلك، فاجتمع الناس وسألوه، فقال لهم، فكثروا عليه يسألونه فأرسل إليه معاوية بالأعول السّلميّ يسأله، فأتاه فسأله، فقال له، فأتى معاوية فأخبره، فنادى: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب الناس، وقال لهم إنّ علياً قد نَهَد إليكم في أهل العِراق، فما ترون؟ فضربَ الناس بأذقانهم على صدورهم لا يتكلّمون، فقام ذو الكَلاعِ الحميريّ فقال: عليك أمْ رأيُ وعلينا أم فعالُ، وهي خمير.

فنزل، ونادَى في النّاس بالخروج إلى معسكرهم، وعاد إلى عليّ عليه السلام، فأخبره فنادى: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب الناس، فأخبرهم أنّه قَدِم عليه رسول كان بعثه إلى الشام، وأخبره أنّ معاوية قد نَهَد إلى العراق في أهل الشام، فما الرأي؟

قال: فاضطرب أهل المسجد، هذا يقول: الرأي كذا، وهذا يقول: الرأي كذا، وكَثُر اللّغط واللّجَب، لم يفهمْ عليّ عليه السلام من كلامهم شيئاً، ولم يَدْرِ المصيبَ من المخطىء، فنزل عن المِنبر، وهو يقول: إنّا لله وإنا إليه راجعون! ذهب بها ابن أكّالة الأكباد - يَعني معاوية.

وروى ابن ديزيل عن عُقْبة بن مكرّم، عن يونس بن بكير، عن الأعمش، قال: كان أبو مرْيم صديقاً لعليّ عليه السلام، فسمع بما كان فيه عليّ عليه السلام من اختلاف أصحابه عليه، فجاءه، فلم يَرُعْ علياً عليه السلام إلا وهو قائم على رأسه بالعِراق، فقال له: أبا مريم، ما جاء بك نحوي؟ قال: ما جاء بي غيرُك، عهدِي بك لو ولّيت أمرَ الأمة كفيتَهم، ثم سمعت بما أنت فيه من الاختلاف! فقال: يا أبا مريم، إني مُنِيتُ بِشرّار خَلْق الله، أريدُهم على الأمر الذي هو الرأي، فلا يتّبعونني.

وروى ابن ديزيل عن عبد الله بن عمر، عن زيد بن الحُباب، عن علاء بن جرير العنبريّ، عن الحكم بن عمير الثّماليّ - وكانت أمّه بنت أبي سفيان بن حرب - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه ذات يوم: «كيف بك يا أبا بكر إذا ولّيت؟» قال: لا يكونُ ذلك أبداً، قال: «فكيف بك يا عُمَر إذا وليت؟» فقال: آكل حَجَراً، لقد لقيت إذَنْ شرًّا، قال: «فكيف بك يا عثمان إذا ولّيت؟» قال: آكلُ وأُطعِم وأقسّم ولا أظلم، قال: «فكيف بك يا عليّ إذا وليت؟» قال: آكل

القوت وأحمي الجَمْرة، وأقسِّم التمرة، وأخفي الصورة - قال: أيّ العورة - فقال ﷺ: «أما إنكم كلّكم سَيَلِي وسيرى اللّه أعمالكم»، ثم قال: «يا معاوية، كيف بك إذا وليت؟» قال: الله ورسوله أعلم فقال: «أنت رأس الحُطم، ومفتاح الظلم، حصباً وحقباً، تتخذ الحسَن قبيحاً، والسيئة حسنة يربو فيها الصَّغير، ويهرَم فيها الكبير، أجلك يسير، وظلمك عظيم».

وروى ابن ديزيل أيضاً عن عمر بن عون، عن هشيم، عن أبي فلج، عن عمرو بن ميمون، قال: قال عبد الله بن مسعود: كيف أنتم إذا لَقِيتْكم فتنة يَهرَم فيها الكبير، ويربُو فيها الصغير، تجري بين الناس، ويتخذونها سُنّة، فإذا غُيِّرت قيل: هذا مُنكَر!

وروى ابن ديزيل، قال: حدثنا الحسَن بن الرّبيع البَجليّ، عن أبي إسحاق الفزاريّ عن حُمَيد الطويل، عن أنس بن مالك، في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝﴾(١). قال: أكرَم الله تعالى نبيَّه عليه السلام أن يريه في أمته ما يكره رفعه إليه، وبَقِيت النّقمة.

قال ابن ديزيل: حدثنا عبد الله بن عمر، قال: حدثنا عمرو بن محمد، قال: أخبرنا أسباط، عن السّدّي، عن أبي المِنْهال، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ وآله: «سألتُ ربّي لأمتي ثلاث خلال، فأعطاني اثنتّين، ومنعَني واحدة: سألتُه ألاّ تَكفُر أمتي صَفْقة واحدة فأعطانيها، وسألته ألاّ يعذبهم بما عذّب به الأمم قبلهم فأعطانيها، وسألته ألاّ يجعلَ بأسهم بينهم فمَنعنيها»(٢).

قال ابن ديزيل: وحدّثنا يحيى بن عبد اللّه الكرابيسيّ، قال: حدثنا أبو كُريب، قال: حدثنا أبو معاوية، عن عمار بن زُرَيق، عن عمّار الدُّهنّي، عن سالم بن أبي الجَعْد قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله بن مسعود، فقال: إنّ الله تعالى قد آمنَنَا أن يظلِمنا، ولم يؤمنّا أن يَفْتِننا، أرأيت إذا أنزِلتْ فتنة، كيف أصنع؟ فقال: عليك كتابَ الله تعالى، قال: أفرأيت إن جاء قومٌ كلّهم يدعو

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: (٤١، ٤٢).

(٢) أخرج نحوه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب: هلاك هذه الأمة بعضهم بعضاً (٢٨٩٠)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق يعد بن أبي وقاص (١٥١٩)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٢٢).

إلى كتاب الله تعالى؟ فقال ابنُ مسعود: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إذا اختلف النّاس كان ابن سُمَيّة مع الحقّ»[(١)]، يعني عمّاراً.

وروى ابن ديزيل، قال: حدثنا يحيى بن زكريا، قال: حدّثنا علي بن القاسم، عن سعيد بن طارق، عن عثمان بن القاسم، عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أدلّكم على ما إن تَساءلتم عليه لم تَهْلِكوا؟ إنّ وَلِيّكم اللّه، وإن إمامَكم عليّ بن أبي طالب، فناصحوه وصدّقوه، فإن جبريل أخبرني بذلك»[(٢)].

فإن قلت: هذا نصّ صريح في الإمامة، فما الذي تصنع المعتزلة بذلك؟ قلت: يجوز أن يريدَ أنّه أمامهم في الفتاوَى والأحكام الشرعيّة، لا في الخلافة وأيضاً فإنا قد شرحنا من قول شيوخِنا البغدادين ما محصّله: إنّ الإمامة كانت لعليّ عليه السلام إن رغب فيه ونازع عليها، وإن أقرّها في غيره وسكتَ عنها تولّينا ذلك الغير، وقلنا بصحة خلافته، وأميرُ المؤمنين عليه السلام لم ينازع الأئمة الثلاثة، ولا جَرّد السيف، ولا استنجد بالناس عليهم، فدلّ ذلك على إقراره لهم على ما كانوا فيه، فلذلك تولّيناهم، وقلنا فيهم بالطهارة والخيْر والصلاح، ولو حارَبَهم وجَرّد السيف عليهم، واستصرخ العرَب على حرْبهم لقلنا فيهم ما قلناه فيمن عامله هذه العاملة من التّفسيق والتضليل.

قال ابن ديزيل: وحدّثنا عمرو بن الربيع، قال: حدثنا السّريّ بن شيبان، عن عبد الكريم، أنّ عمر بن الخطاب قال لما طُعِن: يا أصحابَ محمد تناصحوا، فإنكم إن لم تفعلوا غَلَبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان.

قلت: إنّ محمد بن النعمان المعروف بالمُفيد أحد الإمامية قال في بعض كتبه: إنّما أراد عمر بهذا القول إغراءَ معاوية وعمرو بن العاص بطلب الخلافة وإطماعهما فيها؛ لأنّ معاوية كان عامله وأميره على الشام، وعمرو بن العاص عامله وأميره عَلَى مصر، وخاف أن يَضْعف عثمان عنها، وأن تَصير إلى عليّ عليه السلام، فألَقى هذا الكلمةَ إلى الناس لتنقل إليهما - وهما بمصر والشام - فيتغلبا عَلَى هَذَيْن الإقليمين إن أفضَتْ إلى عليّ عليه السلام.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٧١)، والديلمي في «الفردوس» (١٢٩١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٤٣).

(٢) رواه الطبري في المسترشد: ٦٣٢، والحسكاني في الشواهد: ٢/ ٢٢٥.

وهذا عندي من باب الاستنباطات التي يُوجبها الشنان والحَنَق[1]، وعمر كان أتقَى لله من أن يخطُر له هذا، ولكنه من فراسته الصادقة التي كان يعلم بها كثيراً من الأمور المستقبلة، كما قال عبد الله بن عباس في وصفه: والله ما كان أوس بن حَجَر عَنَى أحداً سواه بقوله:

الألـمـعـيّ الّـذِي يـظـنّ بـكَ الـظَّـنّ   كـأنْ قَـدْ رَأى وَقَـدْ سَـمِـعَـا

وروى ابن دِيزيل، عن عَفّان بن مسلم، عن وهب بن خالد، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي الأشعث، عن مُرة بن كعب، قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرّبها، فمرّ رجل قد تقنّع بثوبه، فقال ﷺ: «هذا وأصحابه يومئذٍ عَلَى الحق»، فقمت إليه فأخذت بمنكبه، فقلتُ: هو هذا؟ فقال: «نعم»، فإذا هو عثمان بن عفان[2].

قلت: هذا الحديث قد رواه كثيراً من محقّقي أصحاب الحديث، ورواه محمد بن إسماعيل البخاريّ في «تاريخه الكبير» بعدة روايات. وليس لقائل أن يقول: فهذا الحديث إذا صححتموه كان حُجّة للسّفيانية، لأنا نقول: الخبرُ يتضمن أن عثمانَ وأصحابه على الحقّ، وهذا مذهبنا؛ لأنا نذهب إلى أنّ عثمان قتل مظلوماً، وأنه وناصِرية يوم الدار عَلَى الحقّ، وأنّ القوم الذين قَتَلوه لم يكونوا عَلَى الحقّ، فأما معاويةُ وأهل الشام الذين حاربوا عليًّا عليه السلام بصِفّين فليسوا بداخلين في الخبر، ولا في ألفاظ الخبر لفظ عموم يتعلّق به، ألا تَرى أنّه ليس فيه كلّ مَنْ أظهر الانتصار لعثمان في حياته وبعد وفاته فهو عَلَى الحقّ، وإنّما خلاصته أنه ستقوم فِتْنة، يكون عثمان فيها وأصحابه الحقّ، ونحن لا نأبَى ذلك، بل هو مذهبنا.

وروى نصر بن مزاحم في كتاب «صفين»[3] قال: لما قَدم عبيدُ الله بن عمر بن الخطاب عَلَى معاوية بالشام، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: إنّ اللّه قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشّام بقودم عبيد الله بن عمر، وقد رأيتُ أن أقيمَه خطيباً يشهد عَلَى عليّ بقتل عثمان، وينالَ منه، فقال: الرأيّ ما رأيتَ، إليه، فأتاه، فقال له معاوية: يا بن أخي، إنّ لك اسمَ بيك فانظر بملء عينيك، وانطق بملء فيك، فأنت المأمون المصدّق، فاصعَدِ المِنبر واشتِم عليًّا، واشهد عليه أنّه قتل عثمان.

فقال: أيها الأمير، أما شتمُه، فإن أباه أبو طالب، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما

---

(١) الحنق: الغيظ. القاموس، مادة (حنق).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ٢٣٥. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٧/ ٤٨٧.

(٣) صفين: للإمام أبي الفضل نصر بن مزاحم بن سيار المنقري المؤرخ، المتوفى سنة (٢١٢هـ). الأعلام للزركلي (٨/ ٢٨).

عسى أن أقول في حسبه! وأمّا بأسُه فهو الشجاع المطرِق، وأما أيامُه فما قد عَرَفت، ولكني ملزِمُه دمَ عثمان، فقال عمرو بن العاص: قد وأبيك إذَنْ نكأْت القَرْحة[١].

فلما خرج عبيد الله بن عمر، قال معاوية: أما والله لولا قتلُه الهُرْمزان، ومخافتُهُ عليًّا عَلَى نفسه ما أتانا أبداً، ألا ترى إلى تقريظه عليًّا! فقال عمرو: يا معاوية إن لم تَغْلب فاخلُب، قال: وخرج حديثهما إلى عبيد الله، فلما قام خطيباً تكلّم بحاجته، فلما أنتهى إلى أمرِ عليّ أمسك ولم يقل شيئاً، فلما نزلت بعث إليه معاوية: يا بن أخي، إنك بين عِيّ وخيانة، فبعث إليه: إني كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان، وعرفت أنّ الناس محتملوها عنّي فتركتها.

قال: فهجَره معاوية واستخفّ به وفسّقه، فقال عبيد الله:

مُعَاوِيَ لم أحْرَضْ بخُطْبَةِ خاطبِ ... ولم أكُ عَيًّا في لُؤَيِّ بن غالِبِ
ولكنَّنِي زاولتُ نفساً أبيَّةً ... على قَذْفِ شيخٍ بالعراقين غائب
وقذفي عليًّا بابن عَفّانَ جَهْرَةً ... كِذابٌ، وما طِبِّي سَجَايا المُكاذِب
ولكنّه قد قرَّب القوم جُهدَه ... ودبّوا حواليْه دبيبَ العقاربِ
فَمَا قَالَ: أحْسَنتم ولا قد أسأتم ... وَأطْرَق إطراق الشُّجاع المواثب
فأمّا ابن عفانٍ فأشهَدُ أنه ... أصيبَ بريئاً لابساً ثوبَ تائبِ
وَقَدْ كانَ فيها للزبير عَجَاجَةٌ ... وطلحةُ فيها جاهدٌ غير لاعبِ
وَقَدْ أظْهَرَا مِنْ بَعْدِ ذَلك تَوْبَةً ... فياليت شِعْرِي ما هُما في العواقب!

قال: فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه، وقال: حسبي هذا منك.

وروى نصر، عن عبيد الله بن موسى، قال: سمعتُ سُفيان بن سعيد المعروف بسُفْيان الثوريّ، يقول: ما أشكّ أنّ طلحة والزبير بايعا عليًّا، وما نقما عليه جَوْراً في حُكْم ولا استئثاراً بفيء، وما قاتل عليًّا أحدٌ إلا وعليٌّ أولى بالحق منه.

وروى نصر بن مُزاحم أنّ علياً عليه السلام قدِم من البصرة في غُرّة شهر رجب من سنة ست وثلاثين إلى الكوفة، وأقام بها سبعة عشر شهراً، تجري الكُتب بينه وبين معاوية وعمرو بن العاص، حتى سار إلى الشام.

قال نصر: وقد رُوِي من طريق أبي الكَنود وغيرِه أنه قَدِم الكوفة بعد وقعة الجمل، لاثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من شهر رجب سنة ست وثلاثين.

---

(١) القرحة: الجراحة. اللسان، مادة (قرح).

قال نصر: فدخل الكوفةَ ومع أشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم، فاستقبله أهلُ الكوفة، وفيهم قرّاؤهم وأشرافُهم، فدعوْا له بالبَركة، وقالوا: يا أمير المؤمنين، أين تنزل؟ أتنزل القصر؟ قال: لا، ولكني أنزل الرّحبة، فنزلها وأقبل حتى دخل المسجدَ الأعظم، فصلّى فيه ركعتين، ثم صعِد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه وصلّى على رسوله، ثم قال:

أما بعد يا أهل الكوفة، فإنّ لكم في الإسلام فَضْلاً ما لم تبدّلوا وتغيّروا، دعوتُكم إلى الحق فأجبتم، وبدأتم بالمنكر فغيّرتم، ألا إنّ فضلكم فيما بينكم وبين اللّه، فأمّا في الأحكام والقَسْم فأنتم أسوة غيركم ممن أجابكم، ودخل فيما دخلتم فيه. ألا إنّ أخوفَ ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى، وطول الأمل، أما اتّباعُ الهوَى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنّ الدنيا قد ترَحّلَتْ مدبرة، وإن الآخرة قد تَرَحّلت مقبلة، ولكلّ واحدة متهماً بنون، فكونوا من أبناء الآخرة. اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، الحمد للهِ الّذِي نَصَر وليَّه، وخَذَل عدوّه، وأعزّ الصادق المحق، وأذلّ الناكِث المبطل.

عليكم بتقوَى الله وطاعة مَنْ أطاع اللّه من أهل بيت نبيّكم. الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المستحلّين المدّعين المقابلين إلينا، يتفضلون بفضلنا، ويجاحدوننا أمرَنا، وينازعوننا حقّنا، ويُبَاعدوننا عنه، فقد ذاقُوا وَبَال ما اجترحوا فسوف يلقوْن غيًّا. ألا إنه قد قَعَدَ عن نصْرَتي رجال منكم، وأنا عليهم عاتبٌ زارٍ[1]، فاهجرُوهم واسمعوهم ما يكرهون، حتى يُعتبُوا ليعرف بذلك حزبُ الله عند الفرقة.

فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي - وكان صاحبَ شُرطته - فقال: والله إني لأرى الهُجر وسماع المكروه لهم قليلاً، واللّه لو أمرتنا لنقتلّنهم. فقال علي عليه السلام: سبحان اللّه يا مالِ! جُزْت المَدَى، وعَدَوْت الحدّ، فأغرقت في النَّزْع. فقال: يا أمير المؤمنين، لَبَعْض الغَشْم أبلغُ في أمرٍ يَنُوبُك من مهادنة الأعادي، فقال عليّ عليه السلام: ليس هكذا قضى الله، يا مالِ، قال سبحانه: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[2] فما بالُ ذِكرِ الغَشْم! وقال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾[3]. والإسراف في القتل أن تقتل غيرَ قاتلك، فقد نهَى اللّه عنه، وذاك هو الغَشْم.

فقام إليه أبو بُرْدة بن عوْفٍ الأزديّ - وكان ممّن تخلّف عنه - فقال: يا أميرَ المؤمنين، أرأيت القَتْلى حول عائشة وطلحةَ والزبير، علام قُتِلوا؟ - أو قال: بم قتلوا؟ - فقال عليّ عليه السلام: قُتِلوا بما قَتَلُوا شِيعتي وعُمّالي، وقتلوا أخا ربيعة العَبديّ في عِصابة من المسلمين،

(١) زار: عاتب ساخط غير راض. اللسان، مادة (زري).
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

قالوا: إنّا لا ننكث كما نكثتم، ولا نَغْدِر كما غدرتم، فوثبوا عليهم فقتلوهم، فسألتهم أنْ يدفعوا إليّ قَتَلَة إخواني أقتلُهم بهم، ثم كتابُ اللّه حكمٌ بيني وبينهم، فأبوْا عليّ، وقاتلوني - وفي أعناقهم بَيْعتي، ودماء قريب من ألف رجل مِنْ شيعتي - فقتلتُهم، أفي شك أنتَ من ذلك! فقال: قد كنتُ في شَكّ، فأمّا الآن فقد عرَفْتُ، واستبان لي خطأ القوم، وإنك المهتدِي المصيب.

قال نصر: وكان أشياخ الحيّ يذكرون أنّه كان عُثمانيًا، وقد شَهِد على ذلك صِفّين مع عليّ عليه السلام، ولكِنّه بعدما رجع كان يكاتِبُ معاوية، فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعةً بالفلُّوجة، وكان عليه كريماً.

قال: ثم إنّ عليًّا عليه السلام تهيّأ لينزل، وقام رجالٌ ليتكلّموا، فلما رأوْه نَزل جلسوا وسكتوا.

قال: ونزل عليٌّ عليه السلام بالكوفة على جَعْدة بن هبيرة المخزوميّ.

قلت: جَعْدة ابن أخته أم هانىء بنت أبي طالب، كانت تحت هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، فأولدها جَعدة، وكان شريفاً.

قال نصر: ولما قدم عليٌّ عليه السلام إلى الكوفة نَزَل على باب المسجد، فدخل فصلّى، ثم تحوّل فجلس إليه الناس، فسأل عن رجل من الصحابة كان نزل الكوفة، فقال قائل: استأثر اللّه به، فقال عليّ عليه السلام: إن اللّه تبارك وتعالى لا يستأثر بأحد من خَلْقه، إنما أراد اللّه جلّ ذكره بالموت إعزازَ نفسه، وإذلالَ خَلْقه، وقرأ ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾(١)، قال نصر: فلما لحِقه عليه السلام ثَقَلُه قالوا: أَنَنْزِل القصر؟ فقال: قصر الخبال، لا تنزلوا فيه.

قال نصر: ودخل سليمان بن صُردَ الخُزاعيّ على عليّ عليه السلام، مرجِعَه من البَصْرة فعاتبه وعَذَله، وقال له: ارتبْتَ وتربّصت وراغوت، وقد كنتَ من أوثقِ الناس في نفسي، وأسرعهم فيما أظنّ إلى نُصْرتي، فما قَعَدَ بكَ عن أهل بيت نبيّك؟ وما زهدك في نصرتهم؟

فقال: يا أمير المؤمنين، لا تردّنّ الأمور على أعقابها، ولا تؤنّبْني بما مضى منها، واستبْقِ مودّتي تخلصْ لك نصيحتي، فقد بقيت أمورٌ تعرف فيها عدوَّك من وَليّك.

فسكتَ عنه، وجلس سليمانُ قليلاً، ثم نهض، فخرج إلى الحسن بن عليّ عليه السلام، وهو قاعد في باب المسجد، فقال: ألا أعجِّبُك من أمير المؤمنين، وما لقيتُ منه من التّوبيخ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

والتبكيت؟ فقال الحسن: إنما يعاتَبُ مَنْ تُرجى مودّته ونصيحتُه، فقال: لقد وَثَبَتْ أمور سَتُشْرَع فيها القَنا، وتُنتَضى فيها السيوف، ويحتاجُ فيها إلى أشباهي، فلا تستغِشّوا عَتْبي، ولا تتّهموا نصحي.

فقال الحسن: رحمك الله، ما أنتَ عندك بِظَنين.

قال نصر: ودخل عليه سعيد بن قيس الأزدِيّ، فسلّم عليه، فقال: وعليك السلام وإنّ كنتَ من المتربّصين! قال: حاش للّه يا أمير المؤمنين! فإني لست من أولئك. فقال: لعلّ اللّه فعل ذلك.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدّثنا يحيى بن سعيد، عن محمد بن مِخْنف، قال: دخلتُ مع أبي على عليّ عَلَيْتَكْلِا، مقدَمه من البصرة، وهو عام بلغتُ الحُلُم، فإذا بيت يديه رِجال يؤنّبهم، ويقول لهم: ما أبطأ بكم عنّي، وأنتم أشرافُ قومكم! واللّه إن كان من ضَعْف النّية وتقصير البصيرة إنكم لَبُور[١]، وإن كان من شَكٍّ في فضلي ومظاهرة عليّ، إنكم لعدوّ.

فقالوا: حاش للّه يا أمير المؤمنين! نحن سِلْمُك وحَرْب عدوّك. ثم اعتذر القوم فمنهم من ذَكَر عذراً ومنهم من اعتلّ بمرض، ومنهم من ذكر غيبة، فنظرت إليهم فعرفتهم، فإذا عبد الله المعتمّ العبسي، وحنظلة بن الرَّبيع التميميّ، وكلاهما كانت له صحبة، وإذا أبو بُرْدة بن عوف الأزديّ، وإذا غريب بن شُرَحبيل الهمداني.

قال: ونظر عليّ عَلَيْتَكْلِا إلى أبي، فقال: ولكن مِخْنف بن مسلم وقومه لم يتخلّفوا، ولم يكن مَثَلُهم كمثَل القوم الذي قال اللّه تعالى فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[٢].

قال نصر: ثم إن عليًا عَلَيْتَكْلِا مكث بالكوفة، فقال الشنّيّ في ذلك، شنّ بن عبد القيس:

قُلْ لِهَذا الإمَامِ قَدْ خَبَتِ الحَرْ ... بُ وتَمّتْ بِذلكَ النَّعْمَاءُ
وَفَرَغْنَا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَقَضَ العَهْدَ ... وبالشامِ حَيّةٌ صَمّاءُ
تَنْفُثُ السّمَّ ما لِمَنْ نَهشَتْه ... - فارْمِها قبل أن تَعَضّ - شِفاء
إنه والّذي يَحُجُّ لهُ النّا ... سُ ومِنْ دُونِ بَيْتِهِ البَيْدَاءُ

---

(١) بور: هلكى. اللسان، مادة (بور).
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

لَـضَـعـيـفُ الـنُّـخَـاع إنْ رُمِـي الـيـو ... مَ بـخـيـلٍ كـأنـهـا أشـلاءُ
تـتـبـارَى بـكـلّ أصـيـد كـالـفـحـ ... ـلِ بـكـفـيـهِ صَـعْـدةٌ سَـمْـراءُ
إنْ تَـذَرْهُ فـمـا مـعـاويـةُ الـدَّهْــ ... ـرَ بـمـعـطـيـكَ مـا أراكَ تَـشَـاءُ
وَلَـنَـيْـلُ الـسَّـمـاء أقـربُ مِـنْ ذا ... ك ونـجـمُ الـعَـيُّـوقِ والـعَـوَّاءُ[1]
فَـاعـدُ بـالـحَـدِّ والـحـديـدِ إلـيـهِـمْ ... لـيـسَ والـلّـهِ غـيـرَ ذاكَ دَوَاءُ[2]

قال نصر: وأتمّ عليّ عليه السلام صلاته يوم دخل الكوفة، فلما كانت الجمعة خطب الناس، فقال:

الحمدُ الله الذي أحمَده وأستعينه وأستهديه، وأعوذُ بالله من الضلالة، مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، انتجبه لأمره، واختصّه بنبوّته. أكرمُ خَلْقه عليه، وأحبُّهم إليه، فبلّغ رسالة ربّه، ونصح لأمته، وأدّى الذي عليه.

أوصِيكم بتقوى الله، فإنّ تقوى الله خيرُ ما تَواصَى به عبادُ الله، وأقربُه إلى رضوان الله، وخيرُه في عواقب الأمور عند الله، وبتقوى الله أُمِرْتُم، وللإحسان والطاعةِ خلقتم، فاحذروا من اللّه ما حذّركم من نفسه، فإنه حذّر بأساً شديداً، واخشوا خشية ليست بتعذير واعملوا في غير رياء ولا سُمْعة، فإنّه من عمل لغير الله وَكَله الله إلى ما عمل له، ومن عمل لله مخلصاً تولّى الله أجرَه. أشفقوا مِن عذاب الله، فإنه لم يخلّقكم عَبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سَدًى، قد سمّى آثاركم، وعلِم أعمالكم، وكتب آجالَكم، فلا تغترّوا بالدنيا فإنّها غرّارة لأهلها، مغرور مَنْ اغترّ بها، وإلى فَنَاءٍ ما هي، وإن الآخرة هي دارُ الحيوان لو كان يعلمون. أسأل الله منازلَ الشهداء، ومرافقةَ الأنبياء، ومعيشة السعداء، فإنما نحن به وله.

قال نصر: ثم استعمل علي عليه السلام العمّال وفرّقهم في البلاد، وكتب إلى معاوية مع جَرير بن عبد الله البَجليّ ما تقدم ذكره.

قال نصر: وقالَ معاوية لعمرو بن العاص، أيام كان جريرٌ عنده ينتظر جوابَه: إنّني قد رأيتُ أن نُلْقِيَ إلى أهل مكّة وأهلِ المدينة كتاباً، نذكر فيه أمْرَ عثمان، فإمّا أن ندرِك به حاجَتنا، أو نكفّ القوم عنا، فقال له عمرو: إنما تكتب إلى ثلاثة نفر: رجلٍ راضٍ بعليّ فلا يزيده كتابُك إلا بصيرة فيه، أو رجلٍ يهوَى عثمان، فلن يزيدَه كتابُك على ما هو عليه، أو رجلٍ معتزِلٍ، فلست في نفسه بأوثقَ من عليّ.

---

(١) العيّوق: نجم مضيء في طرق المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمه. اللسان، مادة (عوق).
(٢) العواء: منزل للقمر خمسة كواكب أو أربعة كأنها كتابة ألِف. القاموس، مادة (عوي).

قال: عليّ ذاك، فكتبا:

أما بعد، فإنه مهما غابَ عَنّا من الأمور فلم يغب عنّا أن علياً قتل عثمان، والدليلُ على ذلك مكانُ قتلته منه، وإنّما نطلب قتلته، حتى يُدفعوا إلينا، فنقْتُلهم بكتاب الله عَزّ وجلّ، فإن دفعهم عليّ إلينا كَفَفْنا عنه، وجعلناها شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب. فأمّا الخلافة فلسنا نطلُبها، فأعينونا على أمرِنا هذا، وانهضوا من ناحيتكم، فإنّ أيدينا وأيديَكم إذا اجتمعت على أمر واحد هاب عليّ ما هو فيه، والسلام.

فكتب إليهما عبد الله بن عمر:

أما بعدُ، فلعمري لقد أخطأتُما موضع النُّصرة وتناولتُماها من مكان بعيد، وما زاد الله من شكّ في هذا الأمر بكتابكما إلا شكًّا، وما أنتما والمشورة، وما أنتما والخلافة! أمّا أنتَ يا معاوية فطَليق، وأما أنت يا عمرو فظَنين، ألا فكفّا أنفسكما، فليس لكم فينا وليّ ولا نصير. والسلام.

قال نصر: وكتب رجل من الأنصار إليهما مع كتاب عبد الله بن عمر:

مُعَاوِيَ إنّ الحقَّ أبلجُ واضحٌ ... وليس بما رَبَّضتَ أنتَ ولا عَمْرُو
نصبتَ ابن عفانٍ لنا اليوم خُدْعة ... كما نُصِب الشيخان إذ قُضِيَ الأمر

- يعني طلحة والزبير رحمهما الله -

فَهَذَا كَهَذَاك البلا حَذْوَ نَعْلِه ... سواءً كَرَقْرَاقٍ يُغَرُّ به السَّفْرُ
رَمَيْتُم عَلِيًّا بالّذي لَا يَضِيرُهُ ... وإنْ عَظُمَتْ فيه المكيدةُ والمَكْرُ
وما ذنبُه إن نال عثمان معشرٌ ... أتوْه من الأحياء تجمعُهُمْ مِضَرُ
فثار إليه المسلمونَ بِبَيعةٍ ... علانيةٌ ما كان فيها لهم قسْرُ
وبَايعهُ الشَّيْخان ثم تحمّلَا ... إلى العُمْرَة العُظْمَى وبَاطِنُها الغَدْرُ
فكانَ الّذِي قد كان مما اقتصاصُه ... يطولُ، فيالله ما أحْدَثَ الدَّهر
وَمَا أنتُما والنَّصرَ مِنّا وأنتما ... بَعيثَا حُرُوب ما يبوخُ لها جَمْرُ[1]
وما أنتما لله دَرُّ أبيكُمَا ... وذِكْرَكما الشُّورَى وقد وَضَحَ الْفَجْرُ

قال نصر: وقام عديّ بن حاتم الطائيّ إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن عندي رجلاً لا يوازَى به رجل، وهو يريد أن يزورَ ابن عمّه حابس بن سَعْد الطائيّ بالشام، فلو أمرناه

(١) يبوخ: يسكن. اللسان، مادة (بوخ).

أن يلقَى معاوية لعلَّه أنْ يكسره ويكسر أهلَ الشام، فقال علي عليه السلام : نعم، فأمَره عديّ بذلك - وكان اسمُ الرجل خُفافَ بن عبد الله.

فقدم على ابن عمّه حابس بن سعد بالشام - وحابس سيد طَيِّىء بها - فحدث خُفاف حابساً أنه شهِد عثمان بالمدينة، وسار مع عليّ إلى الكوفة، وكان لخُفاف لسان وهيئة وشِعْر، فغدا حابس بخُفاف إلى معاوية، فقال: إنّ هذا ابنُ عمّ لي، قدم الكوفة مع عليّ، وشهد عثمان بالمدينة، وهو ثقة. فقال له معاوية: هات، حدّثنا عن عثمان، فقال: نعم حصره المكشوح وحُكّم فيه حُكيم، ووليه عمار، وتجرد في أمره ثلاثة نفر: عديّ بن حاتم والأشتر النخعيّ، وعمرو بن الحمق، وجدّ في أمره رَجُلان وطلحة والزُّبير، وأبرأ الناس منه عليّ. قال: ثم مَهْ، قال: ثم تهافَتَ الناس على عليّ بالبيعة تهافُتَ الفَراش، حتى ضاعت النعل وسقط الرّداء، ووُطِىءَ الشيخ. ولم يذكر عثمان ولم يُذكر له، ثم تهيّأ للمسير، وخفّ معه المهاجرون والأنصار، وكره القتال معه ثلاثة نفر: سعد بن مالك، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، فلم يتسكرِه أحداً، واستغنى بمن خَف معه عَمّن ثَقُل. ثم سار حتى أتى جبل طيىء، فأتته منّا جماعة كان ضارباً بهم الناس، حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه مسيرُ طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة، فسرح رجل إلى الكوفة يدعونهم، فأجابوا دعوته، فسار إلى البصرة، فإذا هي في كفّه، ثم قدم الكوفة فحمِل إليه الصبيّ، ودبّت إليه العجوز، وخرجت إليه العَرُوس فرحاً به وشوقاً إليه، وتركته وليس له همة إلا الشام.

فذعِر معاوية من قوله، وقال حابس: أيها الأمير، لقد أسمعني شعراً غيَّر به حالي في عثمان، وعظم به علياً عندي.

فقال معاوية: أسمعنيه يا خُفاف، فأنشده شعراً أوله:

قُلْتُ واللَّيْلُ سَاقِطُ الأكْنَافِ ... وَلِجَنْبِي عَنِ الْفِرَاشِ تَجَافِ

- يذكر فيه حال عثمان وقتله، وفيه إطالة عدلنا عن ذكره. . . ومن جملته:

قَدْ مَضَى مَا مَضَى وَمَرّ به الدّهْرُ ... كَما مَرّ ذاهبُ الأسْلَافِ

إنّني والّذي يَحُجُّ لَهُ النّا ... سُ على لُحُقِ البُطون عجافِ

تَتَبارَى مثل القِسِيّ من النَّبْعِ ... بشُعْثٍ مثل السِّهام نحافِ

ارهَب اليَوم إن أتاكم عليٌّ ... صيحةً مثل صَيْحَةِ الأحقافِ

إنه الليث غادياً وشُجاعٌ ... مُطْرِقٌ نافث بُسمّ زُعاف[1]

(١) سُمّ زعاف: قاتل. اللسان، مادة (زعف).

واضعُ السيفِ فوق عاتقة الأيـ حَمَن يَفْرِي به شؤون القِحَاف[1]
سَوَّمَ الخيلَ ثم قال لقوم بايعوه إلى الطعان خِفاف
استعدّوا لحربِ طاغية الشّا م فلَبّوه كاليدينِ اللطافِ
ثم قالوا أنتَ الجناح لك الرِّيـ شُ القُدامى ونحن منه الخوافي
فانظُر اليوم قبل بادرة القو م بسلمٍ تهم أم بخلاف

قال: فانكسر معاوية، وقال: يا حابس، إني لأظنّ هذا عَيْناً لعليّ، وأخرجه عنك لئلا يُفْسِد علينا أهل الشام.

قال نصر: وحدّثنا عطية بن غَنّي، عن زياد بن رستَم، قال: كتب معاوية إلى عبد الله بن عمر خاصّة، وإلى سعد بن أبي وقّاص، وإلى محمد بن مسلمة، دُونَ كتابه إلى أهل المدينة، فكان كتابه إلى عبد الله بن عمر:

أما بعد، فإنه لم يكن أحدٌ من قريش أحبَّ إليّ أن يجتمعَ عليه الناس بعد قتل عثمان منك، ثم ذكرتُ خَذْلك إياه، وطعَنك على أنصاره، فتغيّرتُ لك، وقد هَوّن ذلك عليّ خلافُك عَلَى عليّ، ومحا عنك بعضَ ما كان منكَ فأعِنّا - رحمك الله - عَلَى حقِّ هذا الخليفة المظلوم، فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكني أريدُها لك، فإن أبيتَ كانت شورى بين المسلمين.

فأجابه عبد الله بن عمر:

أمّا بعد، فإنّ الرأي الذي أطمعك فيّ، هو الذي صيّرك إلى ما صيّرك إليه، أترُك عَلِيًّا في المهاجرين والأنصار، وطلحة والزبير وعائشة أمّ المؤمنين، وأتّبعك! وأمّا زعمُك أني طعنتُ عَلَى عليّ، فَلعمري ما أنا كعليّ في الإيمان والهجرة، ومكانه من رسول الله ﷺ، ونكايته في المشركين، ولكنّي عهد إليّ في هذا الأمر عهدٌ، ففزعت فيه إلى الوقوف وقلت: إن كان هذا هُدًى ففضلٌ تركتُه، وإن كان ضلالاً فشرّ نجوت منه، فأغْنِ عَنّا نفسَك. والسلامَ.

قال: وكان كتاب معاوية إلى سعد:

أما بعدُ، فإنّ أحقّ الناس بنصر عثمان أهلُ الشورَى من قريش، الذين أثبتُوا حَقّه واختاروه على غيره، وقد نَصَرَه طلحة والزبير، وهما شريكان في الأمر، ونظيراك في الإسلام، وخَفّت لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهَنّ ما رضُوا، ولا تردّنّ ما قبلوا، فإنّا نردّها شورى بين المسلمين.

فأجابه سعد:

أما بعدُ، فإن عُمر لم يُدخِلْ في الشّورى إلاّ مَنْ تَحِلّ له الخلافةُ من قريش، فلم يكن أحد

---

(١) شؤون القحاف: الشُّعَب التي تجمع بين قبائل الرأس وهي أربعة شؤون. اللسان، مادة (شأن).

منا أحقّ بها من صاحبه إلاّ بإجماعنا عليه، ألا إن عليًا كان فيه ما فينا، ولم يكن فينا ما فيه، وهذا أمر قد كرهتُ أولَه، وكرهتُ آخره، فأما طلحةُ والزبير فلو لزما بيوتَهما لكان خيراً لهما، والله يغفر لأمّ المؤمنين ما أتت. والسلام.

قال: وكان كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة:

أما بعدُ، فإنّي لم أكتبْ إليك وأنا أرجو مبايعتَك، ولكني أردتُ أن أذكّرك النّعمةَ التي خرجتَ منها، والشكَّ الذي صرت إليه، إنك فارسُ الأنصار، وعُدّة المهاجرين، وقد ادّعيت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمراً لم تستطع إلا أن تمضيَ عليه، وهو أنّه نهاك عن قتال أهل القِبْلة، أفلا نهيتَ أهلَ القبلة عن قتال بعضهم بعضاً! فقد كان عليك أن تكرّه لهم ما كره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ألم تر عثمانَ وأهلَ الدار من أهل القبلة! فأما قومك فقد عَصَوُا الله، وخذلُوا عثمان، والله سائلهم وسائلك عما كان يوم القيامة. والسلام.

قال: فكتب إليه محمد بن مسلمة:

أما بعد، فقد اعتزلَ هذا الأمر مَنْ ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل الذي في يده، قد أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالذي هو كائن قبل أن يكون، فلما كان كسرتُ سيفي، وجلست في بيتي، واتّهمت الرأيَ على الدّين، إذ لم يصح لي معروف آمر به، ولا منكر أنهى عنه. وأمّا أنت فلعمرِي ما طلبت إلى الدنيا، ولا اتّبعت إلا الهوى وإن تنصر عثمان ميّتاً فقد خذلته حيًّا، والسلام.

جرير البجلي يفارق علياً عليه السلام

قد أتينا علَى ما أردنا ذكره من حال أمير المؤمنين عليه السلام، مذ قدم من حرب البصرة إلى الكوفة، وما جَرَى بينه وبين معاوية من المراسلات، وما جرى بين معاوية وبين غيره من الصحابة من الاستنجاد والاستصراخ، وما أجابوه به، ونحن نذكرُ الآن ما جرى لجرير بن عبد الله عند عَوْده إلى أمير المؤمنين من تهمة الشيعة له بممالأة معاوية عليهم، ومفارقته جنةَ أمير المؤمنين.

قال نصر بن مُزاحم: حدثنا صالح بن صدقة، بإسناده، قال: قال لما رجع جريرٌ إلى عليّ عليه السلام، كَثُر قول الناس في التّهمة لجرير في أمر معاوية، فاجتمع جريرٌ والأشتر عند عليّ عليه السلام، فقال الأشتر: أمَا والله يا أميرَ المؤمنين، أن لو كنت أرسلتَني إلى معاوية، لكنتُ خيراً لك من هذا الذي أرخَى خِنَاقة، وأقام عنده، حتى لم يدعْ بابا يرجُو فَتْحَه إلاّ فَتَحه، ولا بابا يخاف أمرَه إلاّ سدّه.

فقال جرير: لو كنتَ والله أتيتَهم لقتلوك - وخوّفه بعمرو، وذي الكَلاع، وحَوْشب - وقال: إنهم يزعمون أنك من قَتَلة عثمان.

فقال الأشتر: والله لو أتيتُهم يا جرير لم يُعيِني جوابها، ولم يثقل عليّ مَحْملُها، ولحملت معاوية على خُطة أعجِله فيها عن الفِكْر.

قال: فائْتِهِم إذاً. قال: الآن وقد أفسدتهم ووقَع بينهمُ الشرّ!

وروى نصر، عن نُمير بن وعلة، عن الشعبي قال: اجتمع جرير والأشتر عند عليّ عليه السلام، فقال الأشتر: أليس قد نهيتُك يا أميرَ المؤمنين أن تبعث جريراً، وأخبرتُك بعداوته وغشّه! وأقبل الأشتر يشتِمه، ويقول: يا أخا بَجِيلة، إنّ عثمان اشترى منك دينَك بهمَدان، والله ما أنت بأهلٍ أن تُترك تمشي فوق الأرض، إنما أتيتهم لتتَّخِذَ عندهم يداً بمسيرِك إليهم، ثم رجعتَ إلينا من عندهم، تهددنا بهم، وأنت والله منهم، ولا أرى سعيَك إلا لهم، لئن أطاعني فيك أميرُ المؤمنين لَيحبسنّك وأشباهك في حبس لا تخرجون منه حتى تَستَتِمّ هذه الأمور، ويُهلِك الله الظالمين.

قال جرير: وددت والله أن لَوْ كنتَ مكاني بُعِثْتَ، إذن والله لم ترجع.

قال: فلما سمع جرير مثل ذلك من قوله، فارقَ عليًا عليه السلام، فلحِق بقَرْ قِيسياء ولحق به ناس من قَسْر من قومه، فلم يشهد صِفّين من قَسْر غير تسعة عشر رجلاً، ولكن شهدها من أحمَس سبعمائة رجل.

قال نصر: وقال الأشتر فيما كان من تخويف من جرير إياه بعمرو وحوشب وذي الكلاع:

لعمرُك يا جريرُ لَقول عَمْرو ... وصاحبه معاويَ بالشام
وذي كَلَعٍ وحَوْشبَ ذي ظُلَيْم ... أخفُّ عَليَّ من رِيشِ النعام
إذَا اجتمعوا عَليّ فخلِّ عنهم ... وعن بازٍ مخالبُه دوامي
وَلَستُ بخائفٍ ما خوّفوني ... وكيف أخاف أحلام النيامِ!
وَهَمّهمُ الذي حامُوا عليهِ ... من الدّنيا، وهَمِّي مَا أمامي
وإنْ أسْلَمْ أعمّهُمُ بحربٍ ... يَشيب لهولها رأسُ الغلامِ
فإنْ أهْلِك فقد قدّمْتُ أمراً ... أفوز بفَلْجِه يَوْمَ الخِصامِ
وقد زادُوا عليّ وأوْعَدوني ... وَمَنْ ذا مات من خَوْفِ الكلام!

وذكر ابن قتيبة في «المعارف»(١)، أنّ جريراً قدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله سنة عشرٍ من الهجرة في شهر رمضان، فبايعه وأسلم، وكان جريرٌ صبيح الوجه جميلاً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كأنّ

(١) «المعارف في التاريخ»: للإمام ابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، المتوفى سنة (٢٦٧هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٧٢٤).

على وجهه مَسْحةَ ملك»[1]. وكان عمر يقول: جرير يوسف هذه الأمة. وكان طُوالاً يفتل في ذِرْوة البعير من طوله، وكانت نعله ذراعاً، وكان يخضب لحيته بالزعفران من اللّيل ويغسِلُها إذا أصبح، فتخرجُ مثلَ لون التِّبر. واعتزل عليًا عليه السلام ومعاوية، وأقام بالجزيرة ونواحِيها حتى توفّيَ بالشّراة سنة أربعٍ وخمسين في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة.

فأما نسبه فقد ذكره ابن الكلبيّ في «جَمهرة الأنساب»[2]، فقال: هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلب بن جُشَم بن عُويْف بن حرب بن عليّ بن مالك بن سعد بن بدير بن قَسْر واسمه مَلَكُ بن عبقر بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نَبْت بن زيد بن كَهْلان.

ويذكر أهل السِّيَر أن عليًا عليه السلام هدَم دار جرير ودور قوم ممّن خرج معه، حيث فارق عليًا عليه السلام، منهم أبو أراكة بن مالك بن عامر القَسْري، كان خَتنه على ابنته، وموضع داره بالكوفة كان يعرف بدار أبي أراكة قديماً، ولعله اليوم نُسِي ذلك الاسم.

٤٤ - ومن كلام له عليه السلام لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ إلى معاوية، وكان قد ابتاع سَبيَ بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام، فقال:

الأصل: قَبَحَ اللّهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ، فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ، حَتَّى بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وُفُورَه.

الشرح: خاس به يَخِيس ويخوس: أي غَدَرَ به، وخاسَ فلان بالعهد: أي نكَث. وقبَح الله فلاناً: أي نحاه عن الخَيْر، فهو مقبوح.

والتبكيت، كالتقريع والتعنيف. والوُفور. مصدر وَفَر المال: أي تَمّ، ويجيء متعدّياً. ويروى «موفوره»، والموفور: التامّ، وقد أخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

---

(١) أخرجه أحمد في أول مسند الكوفيين، باب: ومن حديث جرير بن عبد الله (١٨٩٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (١٠٥٣) والنسائي في «الكبرى» (٨٣٠٢).

(٢) «جمهرة الأنساب»: للإمام أبي محمد هشام بن محمد بن السائب الكلبي، المتوفى سنة (٢٠٤هـ). «كشف الظنون» (١/ ٦٠٥).

يَـا مَـنْ مَـدَحْـنَـاهُ فـأكْـذَبَـنَـا ... بِـفَـعـالـه وأثـابـنـا خَـجَـلا
بُـرداً قَـشِـيـبـاً مِـن مـدائِـحِـنـا ... سُـرْبِـلْـتَ فـارْدُدْه لَـنَـا سَـمَـلا[1]
إنّ الـتَّـجـارِب تـهـتِـك الـمـسـتورَ مِـنْ ... أبـنـائـهـا وتُـبَـهْـرِجُ الـرَّجُـلا[2]

من هم بنو ناجية؟

فأمّا القول في نَسَب بني ناجية، فإنّهم ينسبون أنفسَهم إلى سامة بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر بن في كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان. وقريش تدفعُهم عن هذا النسب، ويسمّونَهم بني ناجية - وهي أمهم، وهي امرأة سامة بن لؤي ابن غالب، ويقولون: إن سامة خرج إلى ناحية البحرين مُغاضِباً لأخيه كعب بن لؤيّ في مُماظّة[3] كانت بينهما، فطأطأت ناقتُه رأسَها لتأخذ العُشب، فعَلِق بِمِشْفَرها أفعى، ثم عطفت على قَتَبها فحكّته به، فدبّ الأفعى على القَتَب حتى نهش ساق سامة فقتله، فقال أخوه كعب بن لؤيّ يرثيه:

عَـيـنُ جُـودي لِـسـامـةَ بـنَ لُـؤَيٍّ ... عَـلِـقَـتْ سـاقَ سـامـةَ الْـعَـلاقَـةْ
رُبَّ كـأسٍ هَـرَقْـتَـهـا ابـنَ لُـؤَيٍّ ... حَـذَرَ الـمـوتِ لـم تَـكُـنْ مُـهَـرَاقَـةْ

قالوا: وكانت معه امرأتُه ناجية، فلما مات تزوّجَتْ رجلاً في البحرين، فولدت منه الحارث، ومات أبوه وهو صغير، فلما ترعرع طمِعت أمه أنْ تُلْحِقه بقريش، فأخبرتْه أنّه ابنُ سامة بن لؤي بن غالب، فرحل من البحرين إلى مكة ومعه أمه، فأخبر كعب بن لؤي أنه ابن أخيه سامة، فعرف كِعبٌ أمّه ناجية، فظنّ أنه صادق في دعواه، فقبِله ومكث عنده مدة، حتى قَدِم مكة ركبٌ من البحرين، فرأوا الحارث، فسلّموا عليه، وحادثوه، فسألهم كعب بن لؤي، من أين يعرفونه؟ فقالوا: هذا ابنُ رجلٍ من بلدنا يُعْرَف بفلان، وشرحوا له خَبَره، فنفاه كعب عن مكّة ونفى أمّه، فرجعا إلى البحرين، فكانا هناك، وتزوّج الحارث، فأعقب هذا العَقب.

وقال هؤلاء: إنه رَوَي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَمّي سامة لم يُعقِب»[4].

وزعم ابنُ الكلبيّ أن سامَةَ بن لؤيّ ولَد غالب بن سامة، والحارث بن سامة - وأم غالب بن سامة ناجية - ثم هَلَكَ سامة، فخلف عليها ابنُه الحارث بن سامة، نكاحَ مَقْت، ثم هلك ابنا

---

(١) السمل: الخَلِق من الثياب. اللسان، مادة (سمل).
(٢) تبهرج: تبيح. اللسان، مادة (بهرج).
(٣) المماظة: المخاصمة والمشاقّة. اللسان، مادة (مضظ).
(٤) رواه الثقفي في الغارات: ٢/ ٧٧٣. والزبيدي في تاج العروس: ٨/ ٣٥١.

سامة ولم يُعقبا، وإن قوماً من بني ناجية بن جَرْم بن ربّان بن عِلَاف، ادّعوا أنهم بنوا سامة بن لؤيّ، وأنّ أمهم ناجية هذه، ونسبوها هذا النسب، وانتموا إلى الحارث بن سامة، وهم الذين باعهم عليّ عليه السلام على مَصْقلة بن هُبيرة. وهذا هو قول الهيثم بن عديّ. كل هذا ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتاب «الأغاني الكبيرة»[1].

ووجدت أنا في «جمهرة النسب» لابن الكلبيّ كلاماً قد صرّح فيه بأنّ سامة بن لؤيّ أعقب، فقال: وَلَدَ سامة بن لؤيّ الحارث وأمه هند بنت تَيم - وغالب بن سامة - وأمه ناجية بنت جَرْم بن بابّان، من قُضاعة، فهلك غالب بعد أبيه، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فولد الحارث بن سامة لؤياً وعبيدة وربيعة وسعداً، وأمهم سَلْمى بنت تَيم بن شَيْبان بن محارب بن فهر وعبد البيت، وأمه نَاجية بنت جَرْب، خَلف عليها الحارث بعد أبيه بنكاح مَقْت، فهم الذين قتلهم عليّ عليه السلام.

قال أبو الفرج الأصفهاني: أما الزّبير بن بَكار، فإنه أدخلهم في قريش، وهم قريش العازبة، قال: وإنما سُمّوا العازبة، لأنهم عَزَبوا عن قومهم فنُسِبوا إلى أمهم ناجية بنت جَرْم بن رَبّان بن عِلاف، وهو أول من اتخذ الرّحال العِلافيّة، فنسبت إليه، واسم ناجية ليلى، وإنما سميت ناجية، لأنها سارت مع سَامَة في مفازة، فعطِشت، فاستسقته، فقال لها: الماء بين يديك، وهو يُريها السراب، حتى أتت إلى الماء فشَربت، فسميت ناجية.

قال أبو الفرج: وللزبير بن بكار في إدخالهم في قريش مذهب، وهو مخالفة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وميله إليهم، لإجماعهم على بُغضه عليه السلام، حسب المشهور المأثور من مذهب الزّبير في ذلك.

اخبار علي بن الجهم

ومن المنتسبين إلى سامة بن لؤيّ عليّ بن الجهم الشاعر، وهو عليّ بن الجَهم بن بدر بن جَهْم بن مسعود بن أسيد بن أذينة بن كَرّاز بن كعب بن جابر بن مالك بن عُتْبة بن الحارث بن عبد البيت بن سامة بن لؤيّ بن غالب.

هكذا ينسُب نفسَه، وكان مبغِضاً لعليّ عليه السلام، ينحو نحو مروان بن أبي حفصة في هجاء الطالبيّين وذمّ الشيعة، وهو القائل:

وَرَافِضَـةٍ تـقـول بِـشِـعْـبِ رَضْـوَى: إمـــام، خـــابَ ذلـــك مـــن إمـــام!

(١) «الأغاني»: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يؤلف مثله اتفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

إمــامٌ مــن لــه عــشـرون ألــفــاً مــن الأتــراك مُــشْـرَعــة الــسـهـام!

وقد هجاه أبو عبادة البحتريّ، فقال فيه:

إذا مـا حُـصِّـلَـتْ عُـلْـيـا قُـريـشٍ فَـلا فـي الـعِـيـر أنـتَ ولا الـنَّـفِـيـر
وَلَــوْ أعــطــاك رَبّــك مــا تــمــنّــى لــزاد الــخــلْــقَ فــي عِــظَـم الأيُـور
ومـا الـجَـهْـمُ بـنُ بَـدْرٍ حِـيـنَ يُـعْـزَى مــن الأقــمــار ثَــمّ ولا الــبُــدُور
عَـلام هـجـوتَ مـجـتـهـداً عَـلِـيّـا بِـمـا لَـفَّـقْـتَ مِـنْ كَـذِبٍ وَزُورِ!
أمَالَكَ فِي إسْتِكَ الْوَجْعَاءِ شُغْلٌ يـكـفُّـك عَـنْ أذى أهْـلِ الـقُـبُـورِ!

وسمع أبو العيناءِ عليّ بن الجهم يوماً يطعنُ على أمير المؤمنين، فقال له: أنا أدري لِم طعن على أمير المؤمنين! فقال: أتعني قصّة بَيْعة أهلي من مصقلة بن هُبيرة؟ قال: لا، أنت أوْضع من ذلك، ولكنّه عليه السلام قَتل الفاعل مِنْ قوم لوط، والمفعول به، وأنت أسفلهما.

ومن شعر عليّ بن الجهم لما حبسه المتوكل:

ألــمْ تَــرَ مُــظْــهِــرِيــنَ عَــلَــيّ عَــتْــبـاً وَهُــمْ بــالأمْــسِ إخْــوانُ الــصَّــفَـاءِ
فَــلَــمّــا أنْ بُــلِــيْــتُ غَــدَوْا وَراحُــوا عَــلَــيّ أشَــدَّ أسْــبَــاب الْــبَــلَاءِ
أبَــتْ أخــطــارُهــم أنْ يَــنْــصُــرونــي بــمــالٍ أو بــجــاهٍ أو ثَــرَاءِ
وخــافــوا أنْ يــقــال لــهــمْ: خَــذَلْــتـمْ صَــدِيــقــاً، فــادَّعَــوْا قِــدَمَ الــجــفــاءِ
تــضــافــرت الــروافــضُ والــنــصــارىٰ وأهــلُ الاعــتــزال عــلــى هــجــاء
وَعَــابُــونــي وَمَــا ذَنْــبِــي إلــيــهــمْ سِــوَى عِــلْــمِــي بــأولَادِ الــزّنَــاءِ

يعني بالروافض: نجاح بن مسلمة، والنصارى بَخْتيشُوع، وأهل الاعتزال علي بن يحيى بن منجِّم.

قال أبو الفَرج: وكان عليُّ بنُ الجهم من الحَشوِيّة، شديدَ النَّصْب عدوًّا للتوحيد والعدْل، فلما سَخِط المتوكّل على أحمد بن أبي دُوَاد وكفاه، شَمِت به عليّ بن الجهم، فهجاه، وقال فيه:

يَــا أحْــمَــدُ بْــنَ أبــي دُوَادٍ دعــوة بَــعَــثَــتْ عــلــيــكَ جَــنَــادِلاً وَحَــديــدا
مــا هــذه الــبِــدَعُ الــتــي ســمّــيْــتَــهــا - بالجهل منك - العدْلَ والتوحيدا
أفْــسَــدْتَ أمْــرَ الــدّيــن حــيــن وَلِــيــتَــهُ وَرَمَــيْــتَــه بــأبــي الــولــيــد ولــيــدا

- أبو الوليد بن أحمد بن أبي دواد، وكان رتّبه قاضياً -:

لا مُــحْــكَــمــاً جَــلْــداً ولا مُــسْــتَــطْــرَفــاً كَــهْــلاً ولا مُــسْــتَــحْــدَثــاً مَــحْــمُــودَا

شَـرهـاً إذا ذُكِـرَ الـمـكـارمُ والـعُـلَا ذَكَـرَ الـقَـلَايَـا مُـبْـدئـاً ومـعـيـدا
وَيَـوَدّ لـو مُـسِـخَـتْ ربـيـعـةُ كُـلُّـهَـا وَبـنـو إيـادٍ صَـحْـفَـةً وَثَـرِيـدَا
وإذا تَـرَبَّـعَ فـي الـمـجـالِـسِ خِـلْـتَـهُ ضَـبُـعـاً وَخِـلْـتَ بـنـي أبـيـه قُـرُودَا
وإذا تـبـسَّـمَ ضـاحِـكـاً شَـبَّـهْـتَـهُ شَـرِقـاً تَـعَـجَّـلَ شُـرْبَـهُ مَـزْدُودا
لَا أَصْـبَـحَـتْ بـالـخـيـرِ عَـيْـنٌ أَبْـصَـرَتْ تِـلْـكَ الـمـنَـاخِـرَ والـثَّـنـايـا الـسُّـودَا

وقال يهجوه لما فُلِج:

لَـمْ يَـبْـقَ مِـنْـكَ سَـوَى خـيـالـك لامـعـاً فَـوْقَ الـفِـرَاشِ مُـمَـهَّـداً بِـوِسَـادِ
فـرحـتْ بـمـصْـرَعـك الـبـرِيَّـةُ كُـلُّـهَـا مَـنْ كَـانَ مِـنْـهُـمْ مُـوقِـنـاً بـمـعَـادِ
كـم مـجـلـسٍ لـلّـه قَـدْ عَـطَّـلْـتَـهُ كـي لا يـحـدَّثَ فـيـه بـالإسْـنَـادِ
وَلَـكَـمْ مـصـابـيـحٍ لـنـا أطْـفَـأْتـهـا حَـتّـى نَـحِـيـدَ عـن الـطـريـق الـهـادي
ولـكـم كـريـمـةِ مَـعْـشَـرٍ أرمَـلْـتـهـا ومُـحـدّث أوثَـقْـتَ فـي الأقـيْـادِ
إنّ الأسـاري فـي الـسُّـجـون تَـفَـرَّجُـوا لـمّـا أتـتـكَ مَـواكِـبُ الـعُـوّادِ
وَغَـدَا لـمـصـرعـك الـطـبـيـبُ فـلـم يَـجِـدْ لـدواءِ دائِـكَ حِـيـلَـةَ الـمـرتـادِ
فـذقِ الـهـوانَ مـعـجَّـلا ومـؤجَّـلاً والـلّـه ربُّ الـعَـرْشِ بِـالْـمِـرصَـادِ
لا زال فَـالِـجُـك الّـذِي بـك دائـمـاً وفُـجِـعْـتَ قـبـل الـمـوت بـالأوْلادِ

وروى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب «الأغاني» في ترجمة مروان بن أبي حفصة الأصغر أنّ عليّ بن الجَهم خطب امرأة من قريش، فلم يزوّجوه، وبلغ المتوكلَ ذلك، فسألَ عن السبب، فحدِّث بقصة بني سامة بن لؤيّ، وأن أبا بكر وعمر لم يُدْخِلاهم في قريش، وأنّ عثمان أدخلهم فيها، وأنّ عليًا عليه السلام أخرجَهم منها، فارتدّوا، وأنّه قَتل من ارتدّ منهم، وسَبى بقيّتَهم، فباعهم من مَصْقلة بن هُبيرة، فضحك المتوكل، وبعث إلى عليّ بن الجَهْم فأحضره، وأخبره بما قال القوم، وكان فيهم مَرْوان بن أبي حفصة المكْنىٰ أبا السّمط وهو مَرْوان الأصغر، وكان المتوكّل يغريه بعليّ بن الجهم، ويضعه على هجائه وثَلْبِه، فيَضحك منهما، فقال مروان:

إنَّ جَـهْـمـاً حـيـن تَـنْـسُـبُـه لَـيْـسَ مِـنْ عُـجْـمٍ وَلَا عَـرَبِ
لَـجّ فـي شَـتْـمِـي بَـلَا سَـبَـبِ سـارِق لـلـشّـعـر والـنَّـسَـبِ
مِـنْ أنـاسٍ يـدّعـون أبـاً مَـالَـهُ فـي الـنّـاس مِـنْ عَـقِـبِ

فغضب عليّ بن الجهم، ولم يجبه، لأنه كان يستحقره، فأومأ إليه المتوكّلُ أن يزيده، فقال:

أألـتـم يـا بْـنَ جَـهْـمٍ مِـنْ قُـرَيْـشٍ وقـد بـاعـوكـمُ مـمّـن تُـريـدُ
أتـرجـو أن تـكـاثِـرَنـا جِـهـاراً بـأصْـلِـكُـمُ وقـد بـيـع الـجُـدُودُ

فلم يجبه ابن الجهم، فقال فيه أيضاً:

عـلـيّ تَـعَـرّضْـتَ لِـي ضَـلَّـةً ... لـجـهـلـك بـالـشّـعـر يـا مـائِـقُ[1]
تَـرُومُ قُـرَيْـشـاً وَأَنْـسَـابَـهـا ... وأنْـتَ لأنْـسَـابِـهَـا سَـارِقُ
فـإنْ كـان سـامـةُ جَـدًّا لَـكُـمْ ... فـأُمُّـك مِـنِّـي إذاً طَـالِـقُ

نسب مصقلة وخبر بني ناجية مع علي عليه السلام

فأمّا نَسَبُ مَصْقلة بن هُبيرة، فإنّ ابنَ الكلبي، قد ذكره في «جمهرة النسب» فقال: هو مَصْقلة بن هُبيرة بن شِبْل بن يثربيّ بن امرىء القيس بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شَيْبان بن ثعلبة بن عُكَابة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفْصَى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ بن عدنان.

وأما خبر بني ناجية مع أمير المؤمنين عليه السلام، فقد ذكره إبراهيم بن هلال الثّقفي في كتاب «الغارات» قال:

حدثني محمد بن عبد الله بن عثمان، عن نصر بن مزاحم، قال: حدثني عمر بن سعد، عمّن حدثه ممن أدرك أمْرَ بني ناجية، قال: لما بايع أهلُ البصرة عليًّا بعد الهزيمة، دخلوا في الطاعة غَيْرَ بني نَاجية، فإنهم عَسْكَرُوا، فبعث إليهم عليّ عليه السلام رجلاً من أصحابه في خيل ليقاتِلَهم، فأتاهم، فقال: ما بالُكم عسكرتم، وقد دخل الناس في الطاعة غيركم! فافترقوا ثلاث فرق: فرقة قالوا: كنّا نصارى فأسلمنا، ودخلنا فيما دخل الناس فيه من الفتْنة، ونحن نبايع كما بايع الناس فأمرهم فاعتزلوا. وفرقة قالوا: كنّا نصارى فلم نسلم، وخرجنا مع القوم الذي كانوا خَرَجوا، قهرونا فأخرجونا كَرْهاً، فخرجنا معهم فهُزِموا، فنحن ندخل فيما دخل الناس فيه، ونعطِيكم الجزية كما أعطيناهم، فقال: اعتزلوا فاعتزلوا. وفرقة قالوا: كُنّا نصارى فأسلمنا فلم يُعْجِبْنا الإسلام، فرجَعْنا إلى النصرانية، فنحن نعطِيكم الجزية كما أعطاكم النصارى. فقال لهم: توبوا وارجِعوا إلى الإسلام، فأبوا، فقتل مقاتلتهم وسَبَى ذراريّهم، وقدم بهم على عليّ عليه السلام[2].

اخبار الخريت بن راشد الناجي

قال ابن هلال الثقفيّ: وروى محمد بن عبد اللّه بن عثمان، عن أبي سيف، عن الحارث بن كعب الأزدّي، عن عَمّه عبد اللّه بن قُعَين الأزديّ، قال: كان الخِرِّيت بن راشد النّاجِيّ، أحد

(١) المائق: الأحمق الغبي. اللسان، مادة (موق).
(٢) رواه الثقفي في الغارات: ١/ ٣٣١.

بني ناجِيَة، قد شهد مع علي عليه السلام صِفّين، فجاء إلى عليّ عليه السلام بعد انقضاء صِفّين، وبعد تحكِيم الحَكَمين في ثلاثين من أصحابه، يمشي بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا والله لا أطِيعُ أمرَك، ولا أصلّي خَلْفَك، وإني غداً لمفارق لك. فقال له: ثَكِلَتْك أمّك! إذاً تنقض عهدَك، وتَعْصِي رَبّك، ولا تضرّ إلا نفسَك، أخبرْني لم تفعلُ ذلك! قال: لأنّك حكّمت في الكتاب، وضعُفت عن الحق إذا جَدّ الجدّ، وركنت إلى القوم الّذي ظلموا أنفسَهم، فأنا عليك رادّ، وعليهم ناقم، ولكم جميعاً مباين.

فقال له عليّ عليه السلام: وَيْحكَ! هلمّ إليّ أدارِسْك وأناظرك في السُّنن، وأفاتحْك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك، فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبْصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل، فقال الخرّيت: فإني غادٍ عليك غداً. فقال عليّ عليه السلام: اغْدُ ولا يستهوينّك الشيطان، ولا يتقحّمَنَّ بك رأيُ السوء، ولا يستخفنّك الجهلاء الذين لا يعلمون، فوالله إن استرشدتَني واستنصحتني وقبلت مِنّي لأهدينّك سبيل الرشاد.

فخرج الخرِّيت من عنده مُنصرفاً إلى أهله.

قال عبد الله بن قُعَين: فعجلت في أثره مُسْرِعاً، وكان لي من بني عَمّه صديق، فأردت أن ألْقَى ابنَ عمه في ذلك، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه، وأنْ يأمرَه بطاعة أمير المؤمنين ومُناصحته، ويخبره أنّ ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة.

قال: فخرجتُ حتى انتهيت إلى منزله - وقد سبقني - فقمت عند باب دار فيها رجال من أصحابه، لم يكونوا شهدوا معه دخوله على أمير المؤمنين عليه السلام، فوالله ما رَجَع ولا ندِم على ما قال لأمير المؤمنين وما رَدّ عليه، ولكنه قال لهم: يا هؤلاء، إنّني قد رأيت أنْ أفارِق هذا الرجل، وقد فارقته على أن أرجع إليه من غدٍ، ولا أرى إلا المفارقة، فقال له أكثرُ أصحابه: لا تفعلْ حتى تأتيَه، فإن أتاك بأمرٍ تعرفه قبلتَ منه، وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقة! قال لهم: نِعْمَ ما رأيتم، قال: فاستأذنت عليهم فأذنوا لي، فأقبلت على ابن عَمّه - وهو مدرك بن الريّان النّاجيّ، وكان من كُبراء العرب - فقلت له: إن لك عليّ حقًّا لإحسانك ووُدّك وحقّ المسلم على المسلم. إنّ ابن عمك كان منه ما قد ذُكِر لك، فاخلُ به فاردد عليه رأيَه وعظّم عليه ما أتى، واعلم أنّي خائف إن فارق أمير المؤمنين أن يقتلك ونفسه وعشيرته فقال: جزاك اللّه خيراً من أخ! إن أراد فراق أمير المؤمنين عليه السلام ففي ذلك هلاكه، وإن اختار مُناصحته والإقامة معه ففي ذلك حظه ورُشْده.

قال: فأردت الرجوعَ إلى عليّ عليه السلام، لأعلمه الذي كان، ثم أطمأننتُ إلى قول صاحبي، فرجعت إلى منزلي، فبتّ ثم أصبحت، فلما ارتفعَ النهارُ أتيتُ أمير المؤمنين عليه السلام، فجلست

عنده ساعة، وأنا أريدُ أنْ أحدِّثه بالذي كان على خَلْوة، فأطلتُ الجلوسَ، ولا يزدادُ الناس إلاّ كثرة، فدنَوْت منه، فجلست وراءه، فأصغى إليّ برأسه، فأخبرتُه بما سمعته من الخرِّيت، وما قلتُ لابن عمه وما ردّ عليّ، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: دَعْه، فإن قَبِل الحقَّ ورجع عرفنا له ذلك وقبلناه منه، فقلت: يا أميرَ المؤمنين فلمَ لا تأخذه الآن فتستوثِقَ منه؟ فقال: إنّا لو فعلنا هذا بكلّ مَنْ يُتّهم من الناس ملأنا السجون منهم، ولا أراني يسعُني الوثوب بالناس والحبس لهم وعقوبتهم حتى يُظهِروا لي الخلاف.

قال: فسكتُّ عنه وتنحّيت، فجلستُ مع أصحابي هُنيهة، فقال لي عَلَيْهِ السَّلَامُ: أُدن مِنّي، فدنوت، فقال لي مُسِرّاً: اذهب إلى منزل الرجل فاعلَمْ، ما فعل، فإنه قَلّ يومٌ لم يكن يأتيني فيه قبل هذه الساعة، فأتيتُ إلى منزله، فإذا ليس في منزله منهم ديّار، فدُرْتُ على أبواب دور أخرى، كان فيها طائفة من أصحابه، فإذا ليس فيها داعٍ ولا مجيب فأقبلتُ إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال لي حين رآني: أوَطنوا فأقاموا، أم جبنوا فظعنوا؟ قلت: لا بل ظَعَنوا، فقال: أبعدَهم اللّه كما بَعِدت ثمود! أما والله لو قد أُشرِعَتْ لهم الأسِنّة، وصُبّت على هامِهم السيوف لقد نَدِموا، إن الشيطان قد استهواهم وأضلّهم، وهو غداً متبرىء منهم، ومُخلٍّ عنهم. فقام إليه زياد بن خَصَفة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّه لو لم يكن من مَضَرّة هؤلاء إلاّ فراقُهم إيانا لم يعظُم فقدُهم علينا، فإنّهم قَلّما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا، وقَلّما ينقُصون من عددنا بخروجهم منّا، ولكنّا نخاف أن يُفْسِدوا علينا جماعة كثيرة ممّن يقدَمون عليهم من أهل طاعتك، فائذَن لي في اتّباعهم حتى أردّهم عليك إن شاء اللّه.

فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: فاخرُج في آثارهم راشداً، فلما ذهب ليخرج قال له: وهل تدرِي أين توجّه القوم؟ قال: لا والله، ولكنّي أخرج فأسأل وأتْبَعُ الأثر، فقال: أخرج رحمك اللّه حتى تنزل ديرْ أبي موسى ثم لا تبرحْ حتى يأتيَك أمري، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة، فإنّ عمالي ستكتب إليّ بذلك، وإن كانوا متفرقين مستخفِين فذلك أخفى لهم، وسأكتب إلى من حَوْلي من عُمّالي فيهم.

فكتب نسخةً واحدة وأخرجها إلى العمال:

من عبدِ الله علي أمير المؤمنين إلى من قُرِىء عليه كتابي هذا من العمال، أمّا بعد، فإن رجالاً لنا عندهم تبعة، خرجوا هُرّاباً نظنّهم خرجوا نحو بلادِ البصرة، فاسأل عنهم أهلَ بلادك، واجْعَل عليهم العيون في كلّ ناحية من أرْضك، ثم اكتب إليّ بما ينتهي إليك عنهم. والسلام.

فخرج زياد بن خَصَفة حتّى أتى داره، وجمع أصحابه فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال: يا معشرَ بكرْ بن وائل، إن أميرَ المؤمنين نَدَبني لأمرٍ من أموره مُهِمّ له، وأمرَني بالانكماش فيه بالعشيرة، حتى آتيَ أمره، وأنتم شيعتُه وأنصاره، وأوثق حَيّ من أحياء العرب في نفسه، فانتدِبوا

معي الساعة، وعَجّلوا. فوالله ما كان إلا ساعة حتى اجتمع إليه مائة وثلاثون رجلاً، فقال: اكتفينا لا نريد أكثر من هؤلاء، فخرج حتى قطع الجسْر، ثم أتى دير أبي موسى فنزله، فأقام به بقية يومها ذلك، ينتظر أمرَ أمير المؤمنين عليه السلام.

قال إبراهيم بن هلال: فحدّثني محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف، عن أبي الصّلت التيميّ، عن أبي سعد، عن عبد الله بن وأل التّيمي، قال: إنّي لعند أمير المؤمنين، إذا فيجٌ[1] قد جاءه يسعَى بكتاب مِنْ قَرَظة بن كعب بن عمرو والأنصاريّ - وكان أحدَ عماله - فيه:

لعبد الله علي أمير المؤمنين من قرظة بن كعب، سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فإني أخبرُ أميرَ المؤمنين، أن خيلاً مَرّتْ من قِبَل الكوفة متوجّهة نحو نِفّر وأنّ رجلاً من دهاقين أسفل الفرات قد أسلم وصلّى، يقال له زاذان فروخ، أقبل من عند أخوال له فلُقوه، فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر؟ قال: بل مسلم، قالوا: فما تقول في عليّ؟ قال: أقول فيه خيراً، أقول: إنه أمير المؤمنين عليه السلام وسيّد البشر ووصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله. فقالوا: كفرت يا عدوّ الله! ثم حملتْ عليه عصابة منهم، فقطّعوه بأسيافهم، وأخذوا معه رجلاً من أهل الذمة يهوديًا، فقالوا له: ما دينك؟ قال: يهوديّ، فقالوا: خَلُّوا سبيلَ هذا، لا سبيلَ لكم عليه، فأقبل إلينا ذلك الذّميّ، فأخبرنا الخبر، وقد سألت عنهم، فلم يخبرني أحد عنهم بشيء، فليكتبْ إليّ أمير المؤمنين فيهم برأيٍ أنتِه إليه، إن شاء الله.

أما بعد، فقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر العصابة التي مَرّت بعملك، فقتَلتِ البَرّ المسلم، وأمن عندهم المخالف المشرك، وإنّ أولئك قوم استهواهم الشيطان فضلُّوا، كالذين حسبوا ألاّ تكون فتنة فعُموا وصَمُّوا، فأسمعْ بهم وأبْصِرْ يوم تُخْبر أعمالهم! فالزم عَمَلك وأقبِلْ عَلَى خراجك، فإنّك كما ذكرت في طاعتك ونصيحتك، والسلام.

قال: فكتب عليّ عليه السلام إلى زياد بن خَصَفة، مع عبد الله بن وأل التيميّ، كتاباً نسخته:

أما بعد، فقد كنتُ أمرتك أن تنزل دَيْر أبي موسى حتى يأتيك أمري، وذلك أنّي لم أكن علمتُ أين توجّه القوم، وقد بلغني أنّهم أخذوا نحو قرية من قُرى السّواد، فاتّبع آثارهم وسلْ عنهم، فإنّهم قد قتلوا رجلاً من أهل السّواد مسلماً مُصَلّياً، فإذا أنتَ لحقتَ بهم فارددهم إليّ، فإنْ أبَوْا فناجِزْهم، واستعِنْ باللّه عليهم، فإنّهم قد فارقوا الحقّ، وسفكوا الدم الحرام، وأخافوا السبيل. والسلام.

---

(١) الفيج: رسول السلطان على رجله، فارسي معرب، وقيل: هو الذي يسعى بالكتب. اللسان، مادة (فيج).

قال عبد الله بن وأل: فأخذتُ الكتاب منه عليه السلام - وأنا يومئذٍ شابّ - فمضيت به غيرَ بعيد ثم رجعت إليه، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، ألا أمضي مع زياد بن خَصَفة إلى عدوّك، إذا دفعتُ إليه كتابك؟ فقال: يا بن أخي، افعل، فوالله إنّي لأرجو أن تكونَ من أعواني على الحقّ وأنصاري على القوم الظالمين قال: فوالله ما أحبّ أنّ لي بمقالتِه تلك حُمْرَ النَّعم، فقلت له: يا أميرَ المؤمنين، أنا والله كذلك مِن أولئك، أنا والله حيث تحبّ.

ثم مضيت إلى زياد بالكتاب، وأنا على فَرس رائع كريم، وعليّ السلاح، فقال لي زياد: يا ابن أخي، والله ما لي عنك من غنًى، وإني أحبُّ أن تكونَ معي في وجهي هذا، فقلت: إني قد استأذَنْتُ أمير المؤمنين في ذلك فأذِن لي، فَسُرَّ بذلك، ثم خرجنا حتّى أتينا الموضعَ الذي كانوا فيه، فسألنا عنهم، فقيل: أخذوا نحو المدائن فلحقْناهم، وهم نزول بالمدائن، وقد أقاموا بها يوماً وليلة، وقد استراحوا وعَلَفوا خيولهم، فهم جامّون مريحون، وأتيناهم وقد تقطّعنا ولغِبنا[1] ونصِبنا، فلما رأوْنا وثبوا على خيولهم، فاستووا عليها، فجئنا حتى انتهينا إليهم، فنادى الخرّيت بن راشد: يا عميان القلوب والأبصار، أمعَ الله وكتابه أنتم أم مع القوم الظالمين؟ فقال له زياد بن خَصَفة: بل مع الله وكتابه وسُنّة رسوله، ومع مَنِ الله ورسوله وكتابه آثَرُ عنده من الدنيا ثواباً ولو أنّها منذ يوم خلقت إلى يوم تَفْنى لآثر الله عليها. أيّها العُمْي الأبصار، الصمُّ الأسماع!

فقال الخِرّيت: فأخبرونا ما تريدون؟ فقال له زياد - وكان مجرّباً رَفِيقاً: قد ترى ما بنَا من النَّصَب واللّغوب، والذي جئنا له لا يصلح فيه الكلام عَلَانية على رؤوس أصحابك، ولكن تنزلون وننزل، ثم نخلو جميعاً، فنتذاكر أمرَنا وننظر فيه، فإن رأيتَ فيما جئنا له حظًّا لنفسك قبلته، وإن رأيت فيما أسمع منك أمراً أرجو فيه العافية لَنَا ولك لم أردّه عليك.

فقال الخرِّيت: انزل، فنزل، فأقبل إلينا زياد، فقال: انزلوا عَلَى هذا الماء، فأقبلنا انتهينا إلى الماء، فنزلنا به، فما هو إلاّ أنْ نزلنا فتفرقنا، فتحلَّقْنَا عشرة وتسعة وثمانية وسبعة، تضع كلُّ حلقة طعامها بين أيديها، لتأكل ثم تقوم إلى الماء فتشرب.

وقال لنا زياد: علّقوا على خيولكم، فعلّقنا عليها مخاليَها، ووقف زياد في خمسة فوارس، أحدُهم عبد الله بن وألٍ بيننا وبين القوم، وانطلق القوم فتنحّوْا، فنزلوا وأقبل إلينا زياد، فلما رأى تفرُّقنا وتحلّقنا، قال: سبحان الله! أنتم أصحاب حرب! والله لو أنّ هؤلاء جاؤكم الساعة على هذه الحالة ما أرادوا من غِرّتكم أفضلَ من أعمالكم التي أنتم عليها عجّلوا، قوموا إلى خيولكم. فأسرعنا فمنّا من يتوضأ، ومنا مَنْ يشرب، ومنّا مَنْ يسقي فرسَه، حتى إذا فرغنا من

---

(١) لغب: أعيا أشد الإعياء. القاموس، مادة (لغب).

ذلك أتينا زياداً، وإنّ في يده لَعَرْقاً ينهسُه، فنهس منه نهستين أو ثلاثة، ثم أتى بإداوة فيها ماء، فشرب ثم ألقى الْعَرْق من يده، وقال: يا هؤلاء، إنا قد لَقِينا العدوّ، وإنّ القوم لفي عُدّتكم، ولقد حَزَرتُهم فما أظنّ أحدَ الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر، فإنّي أرى أمركم وأمرهم سيصير إلى القتال، فإن كان ذلك فلا تكونوا أعجزَ الفريقين.

ثم قال: ليأخذْ كلُّ رجل منكم بعنان فرسه، فإذا دنوتُ منهم وكلّمت صاحبَهم، فإن تابَعني على ما أريد، وإلاّ فإذا دعوتُكم فاستَوُوا على مُتُون خيلكم، ثم أقبلوا معاً غيرَ متفرّقين. ثم استقدَم أمامنا وأنا معه، فسمعتُ رجلاً من القوم يقول: جاءكم القومُ وهم كالُّون مُعْيون، وأنتم جامُّون مُرِيحون، فتركتُموهم حتى نَزَلُوا فأكلوا وشرِبوا، وأراحوا دوابَّهم، هذا والله الرأي.

قال: ودعاء زيادٌ صاحبَهم الخِرّيت، فقال له: اعتزلْ ننظر في أمرنا، فأقبل إليه في خمسة نفر، فقلتُ لزياد: أدعو لك ثلاثةَ نَفَر من أصحابنا، حتى نَلْقاهم في عَدَدهم؟ فقال: ادع مَنْ أحببتَ. فعدوت له ثلاثة، فكنا خمسة وهم خمسة.

فقال له زياد: ما الذي نقمت على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا؟ فقال: لم أرض صاحبكم إماماً، ولم أرضَ بسيرتكم سيرة، فرأيتُ أنْ اعتزِل، وأكونَ مع مَنْ يدعو إلى الشورى بين الناس، فإذا اجتمع الناسُ على رجل هو لجميع الأمة رِضاً منتُ مع الناس. فقال زياد: ويحكَ! وهل يجتمع الناس على رجل يُداني عليًّا عالماً بالله وبكتابه وسنة رسوله، مع قرابتِه وسابقتِه في الإسلام! فقال الخِرّيت: هو ما أقول لك، فقال: ففيم قتلتم الرجل المسلم؟ فقال الخِرّيت: ما أنا قتلتُه، قتلْته طائفة من أصحابي، قال: فادفعهم إلينا قال: ما إلى ذلك من سبيل، قال: أو هكذا أنت فاعل! قال: هو ما تسمع.

قال: فدعوْنا أصحابنا، ودعا الخِرّيت أصحابَه، ثم اقتتلنا، فوالله ما رأيت قِتالاً مثله منذ خلقني الله، لقد تطاعَنّا بالرماح حتى لم يبقَ في أيدينا رُمْح، ثم اضطربنا بالسيوفِ حتى انحنت، وعُقِرت عامّة خيلنا وخَيْلهم، وكَثُرت الجِراح فيما بيننا وبينهم، وقُتِل مِنّا رجلان: مولىً لزياد كانت معه رايتُه يدعى سويداً، ورجل من الأبناء يدعى واقد بن بكْر، وصُرِع منهم خمسة نَفَر، وحالَ الليلُ بيننا وبينهم، وقد والله كرِهُونا وكرهناهم، وهَرُّونا[1] وهَرَرْنَاهم، وقد جرح زياد وجُرِحْت. ثم إنا بِتْنا في جانب وتنحَّوْا فمكثُوا ساعة من الليل ثم مضوْا، فذهبوا وأصبَحْنا، فوجدناهم قد ذهبوا، فوالله ما كرهنا ذلك، فمضينا حتى أتينا البَصْرة، وبلغنا أنّهم أتوا الأهْواز، فنزلوا في جانب منها، وتلاحقَ بهم ناسٌ من أصحابهم نحو مائتين كانوا معهم بالكوفة، لم يكن لهم من القوّة ما ينهضُون به معهم حين نَهَضوا، فاتبعوهم من بَعْد لحوقهم بالأهواز، فأقاموا معهم.

---

(١) هرَّه: كرهه. اللسان، مادة (هرر).

قال: وكتَب زياد بن خَصَفة إلى عليّ عليه السلام:

أما بعد، فإنا لقينا عدوّ الله النّاجيّ وأصحابه بالمدائن، فدعوناهم إلى الهُدَى والحقّ وكلمة السواء، فتولّوا عن الحقّ وأخذتهم العزة بالإثم، وزَيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل، فقصَدُونا وصَمدْنا صَمَدَهم، فاقتتلنا قتالاً شديداً ما بين قائم الظهر إلى أن دَلَكت الشمس، واستشهد منّا رجلان صالحان، وأصيب منهم خمسة نفر، وخَلّوْا لنا المعركة، وقد فشت فينا وفيهم الجراح. ثم إنّ القوم لمّا أدركوا الليل خَرَجوا من تحته متنكّرين إلى أرض الأهواز، وقد بلغني أنّهم نزلوا من الأهواز جانباً. ونحن بالبصرة نداوِي جِراحنا، وننتظر أمرَكَ رحمك الله. والسلام.

فلما أتاه الكتاب، قرأه على الناس، فقام إليه معقل بن قَيس الرّياحيّ، فقال: أصلحك الله يا أمير المؤمنين! إنما كان ينبغي أن يكونَ مكان كلّ رجل من هؤلاء الذين بعثتَهم في طلبهم عشرة من المسلمين، فإذا لحِقُوهم استأصلوا شأفتَهم[1]، وقطعوا دابرهُم، فأمّا أن تلقاهم بأعدادهم فلعمري ليصبرُنّ لهم، فإنّهم قوم عرَب، والعُدّة تصبر للعدّة، فيقاتلون كل القتال.

قال: فقال عليه السلام له: تجهَّزْ يا معقِل إليهم، ونَدَب معه ألفين من أهل الكوفة، فيهم يزيد بن معقِل، وكتب إلى عبد الله بن العباس بالبصرة رحمه الله تعالى:

أمّا بعد، فابعثْ رجلاً من قِبَلِك صَليباً شجاعاً، معروفاً بالصلاح في ألْفي رجل من أهل البَصْرة، فليتّبَع معقل بن قيس، فإذا خرجَ من أرض البَصْرة، فهو أميرُ أصحابه حتى يَلْقى معقِلاً، فإذا لَقيه فمعقل أميرُ الفريقين، فليسمعْ منه ولْيُطِعْه ولا يخالفه، ومُرْ زياد بن خَصَفة فليُقْبِلْ إلينا، فنعم المرء زياد، ونعم القَبِيلُ قبيله والسلام.

قال: وكتب عليه السلام إلى زياد بن خَصَفة:

أما بعد، فقد بلغني كتابُك، وفهمت ما ذكرت به الناجِيّ وأصحابه، الذيَن طَبَع اللّه على قلوبهم، وزَيّن لهم الشيطانُ أعمالهم، فهم حَيَارى عَمُون، يَحْسِبون أنّهم يُحْسِنون صُنْعاً، ووصفْتَ ما بلغ بك وبهم الأمر، فأما أنت وأصحابك فللّه سعيُكم وعليه جزاؤكم! وأيسرُ ثواب الله للمؤمن خَيرٌ له من الدنيا التي يُقبِل الجاهلون بأنفسهم عليها، فـ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]: وأما عدوّكم الذين لقِيتم فحسبُهم خروجهم من الهُدَى، وارتكاسُهم في الضّلالة، وردّهم الحقَّ، وجِماحُهم التّيه، فذرْهم وما يفترون، ودَعْهم في طُغيانهم يعمهون، فاسْمِع بهم وابصر، فكأنّك بهم عن قليل بين أسير

(١) الشأفة: الأصل. القاموس، مادة (شأف).

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦.

وقتِيل، فَاقْبِل إلينا أنت وأصحابُك مأجورين، فقد أطعتم وسمعتم، وأحسنتم البلاء. والسلام.

قال: ونزل الناجِيّ جانباً من الأهواز، واجتمع إليه علوجٌ كثير من أهلها، مِمّن أراد كَسْر الخراج ومن اللصوص، وطائفة أخرى من الأعراب ترى رأيه.

قال إبراهيم بن هلال: فحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني ابن أبي سيف، عن الحارث بن كَعْب، عن عبد الله بن قُعَين، قال: كنت أنا وأخي كَعْب بن قُعَين في ذلك الجيش مع مَعْقل بن قيس، فلما أراد الخروج أتى أميرَ المؤمنين عليه السلام يودّعه، فقال: يا معقل بن قيس، اتقِّ الله ما استطعت، فإنَّه وصية الله للمؤمنين، لا تَبْغِ على أهل القِبْلة، ولا تَظْلِمْ أهلَ الذِّمة ولا تكبّر، فإنّ اللّه لا يحبُّ المتكبّرين. فقال معقل: اللّه المستعان، فقال: خيرُ مستعان.

ثم قام فخرَج، وَخرجْنا معه، حتى نَزَل الأهواز، فأقمنا ننتظر بَعْثَ البصرة، فأبطأ علينا، فقام مَعْقِل فقال: أيُّها الناس، إنّا قد انتظرنا أهلَ البَصْرة، وقد أبطؤوا علينا، وليس بنا بحمد الله قِلّة ولا وَحْشة إلى الناس، فسيروا بنا إلى هذا العدوّ القليل الذَّليل، فإني أرجو أن ينصرَكم الله ويُهلكهم. فقام إليه أخي كعب بن قُعين فقال: أصبتَ إن شاء الله رأينا رأيك، وإني لأرجُوا أن ينصرنا الله عليهم، وإن كانت الأخرى، فإنّ في الموت على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا. فقال: سيروا على بركة الله. فسِرْنا، فوالله ما زال معقل بن قيس لي ولأخي مكرِماً واداً، ما يعدِلُ بنا أحداً من الجند، ولا يزال يقول لأخي: كيف قلت: إن في الموتِ على الحقّ لتعزيةً عن الدنيا! صدقت والله وأحسنت، ووفقت وفّقك الله قال: فوالله ما سِرْنا يومًا، وإذا بفيْج يشتدّ بصحيفة في يده.

من عبد الله بن عباس إلى مَعْقل بن قيس، أما بعد، فإنْ أدركَك رسولي بالمكان الذي كنتَ مقيماً به، أو أدركك وقد شَخَصْت منه، فلا تبرحَنّ من المكان الذي ينتهي إليك رسولي وأنت فيه، حتى يقدَم عليك بعثُنا الذي وجّهناه إليك، فقد وجّهْت إليك خالد بن معدان الطائِيّ، وهو من أهل الدّين والصلاح والنجدة، فاسمع منه واعرِف ذلك له إن شاء الله. والسلام.

قال: فقرأه معقِل بن قيس على أصحابه. فسرُّوا به، وحَمِدو الله، وقد كان ذلك الوجه هَالَهم. وأقمنا حتى قَدِم علينا خالد بن معدان الطائيّ، وجاءنا حتى دخَلَ على صاحبنا، فسلم عليه بالإمْرة، واجتمعنا جميعاً في عسكر واحد، ثم خرجنا إلى الناجيّ وأصحابه، فأخذوا يرتفعون نحو جِبال رَامَهُرْمُز، يريدون قلعة حصينة، وجاءنا أهلُ البلد، فأخبرونا بذلك، فخرجنا في آثارهم فلحقناهم، وقد دنَوْا من الجبل، فصففنا لهم، ثم أقبلنا نحوهم، فجعل مَعْقِل على ميمنته يزيد بن المعقل الأزديّ، وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبيّ، ووقف الخِرّيت بن راشد الناجِيّ بمن معه من العَرب، فكانوا ميمنة، وجعلَ أهلَ البلد والعلُوجَ ومَنْ أراد كسر الخراج وجماعة من الأكراد ميسرة.

قال: وسار فينا مَعْقِل يحرّضنا، ويقول: يا عباد الله، لا تبدؤوا القوم، وغُضُّوا الأبصار، وأقلّوا الكلام، ووطنوا أنفسكم على الطعن والضَّرْب، وأبشروا في قتالهم بالأجر العظيم، إنما تقاتلون مارقةً مَرَقَتْ وعلُوجاً منعوا الخراج، ولصوصاً وأكراداً، فما تنتظرون! فإذا حملتُ فشدّوا شِدّة رجل واحد.

قال: فمرّ في الصفّ يكلّمهم، يقول هذه المقالة، حتى إذا مَرّ بالناس كلّهم أقبل فوقف وسط الصفّ في القَلْب، ونظرنا إليه ما يصنع، فحرّك رأسَه تحرِيكتين، ثم حَمَل في الثالثة، وحَمَلْنا معه جميعاً، فوالله ما صَبَرُوا لنا ساعة حتى ولّوا وانهزموا، وقتلنا سبعين عَرَبيًّا من بني ناجية، ومن بعضٍ من اتّبعه من العرب، ونحو ثلاثمائة من العلُوج والأكراد.

قال كعب: ونظرتُ، فإذا صديقي مدرك بن الرّيان قتيلاً، وخرج الخِرّيت منهزماً، حتى لحق بِسيف من أسْياف البحر، وبها جماعةٌ من قومه كثير، فما زال يسيرُ فيهم ويدعوهم إلى خلاف عليّ عليه السلام، ويزّين لهم فِراقه، ويخبرهم أن الهُدَى في حربه ومخالفته، حتى اتّبعه منهم ناس كثير.

وأقام معقل بن قيس بأرض الأهواز، وكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالفَتْح، وكنت أنا الذي قَدِم بالكتاب عليه، وكان في الكتاب:

لعبد الله عليّ أمير المؤمنين، من مَعقل بن قيس. سلام عليك، فإني أحْمَد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعدُ، فإنّا لقِينا المارقين، وقد استظهروا علينا بالمشركين، فقتلنا منهم ناساً كثيراً ولم نَعْدُ فيهم سيرتك فلم نقتلْ منهم مُدْبِراً ولا أسيراً، ولم نُذَفِّفْ منهم على جريح، وقد نصرك الله والمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

قال: فلما قدمتُ بالكتاب على عليّ عليه السلام، قرأه على أصحاب، واستشارهم في الرأي، فاجتمع رأيُ عامتّهم على قول واحد. قالوا: نرى أنْ تكتُبَ إلى معقل بن قيس، يَتْبَع آثارهم، ولا يزال في طلبهم حتى يقتلَهم أو ينفيَهم من أرض الإسلام، فإنا لا نأمن أن يُفْسِدوا عليك الناس.

قال: فردّني إليه، وكتب معي:

أما بعد، فالحمدُ لله على تأييده أولياءه، وخَذْله أعداءه، جزاك الله والمسلمين خيراً، فقد أحسنتم البلاء، وقضيتم ما عليكم، فاسأل عن أخي بني ناجية، فإنْ بَلَغَك أنه استقرّ في بلدٍ من البلدان، فسِرْ إليه حتى تقتله أو تنفيَه، فإنّه لم يزل للمسلمين عدوًّا، وللفاسقين وليًّا، والسلام.

قال: فسأل مَعْقل عن مسيره والمكان الذي انتهى إليه، فنُبِّيء بمكان بسيف البحر بفارس، وأنه قد ردّ قومه عن طاعة عليّ عليه السلام، وأفسد مَنْ قِبَله من عبد القيس، ومَنْ والاهم من سائر العرب، وكان قومه قد منعوا الصدقة عام صِفّين، ومنعوها في ذلك العام أيضاً، فسار إليهم

معقِل بن قيس في ذلك الجيش من أهل الكوفة والبصرة، فأخذوا على أرض فارس، حتى انتهوْا إلى أسياف البحر، فلما سمع الخِرّيتُ بن راشد بمسيرِه، أقبل على من كان معه من أصحابه، مِمّن يرى رأيَ الخوارج، فأسَرّ إليهم: إني أرى رأيكم، وإن عليًّا ما كان ينبغي له أن يُحَكِّم الرجال في دين الله، وقال لمن يرى رأيَ عثمان وأصحابه: إنّا على رأيكم، وإنّ عثمان قُتِل مظلوماً معقولاً. وقال لمن منع الصَّدَقة: شُدّوا أيديكم على صداقتكم، ثم صِلُوا بها أرحامكم، وعودوا إن شئتم على فقرائكم، فأرضَى كلّ طائفة بضرب من القول، وكان فيهم نصارى كثير، وقد كانوا أسلموا، فلما رأوْا ذلك الاختلاف، قالوا: والله لَدِيننا الذي خرجنا منه خيرٌ وأهْدَى من دين هؤلاء الذين لا ينهاهم دينُهم عن سفك الدماء، وإخافة السُّبل، فرجعوا إلى دينهم.

فلقي الخرّيتُ أولئك، فقال: وَيْحكم! إنّه لا يُنْجِيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ولقتالهم، أتدرون ما حُكْم عليّ فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية؟ لا والله لا يسمعُ له قولاً، ولا يَرَى له عذراً، ولا يَقبل منه توبة، ولا يدعوه إليها، وإنّ حكمه فيه أن يُضْرَب عنقه ساعة يُسْتَمْكَن منه، فما زال حتى خَدَعهم وجاءهم مَنْ كان من بني ناجية في تلك الناحية ومن غيرهم، فاجتمع إليه ناس كثير، وكان مُنكراً داهياً.

قال: فلما رجع مَعْقَل، قرأ على أصحابه كتاباً من عليّ عليه السلام فيها:

مِن عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَنْ قُرِىءَ عليه كتابي هذا، مِنَ المسلمين والمؤمنين والمارقين والنصارى والمرتدين. سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وكتابه، والبعث بعد الموت وافياً بعهد الله، ولم يكن مِن الخائنين، أما بعدُ فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأنْ أعملَ فيكم بالحقّ وبما أمر الله تعالى في كتابه، فَمَنْ رجع منكم إلى رَحْله وكفّ يده، واعتزل هذا المارق الهالك المحارِب، الذي حارب الله ورسولهِ والمسلمين، وسعى في الأرض فساداً، فله الأمان على ماله ودمِه. ومَنْ تابعه على حربِنا والخروج من طاعتِنا، استعنّا بالله عليه، وجعلناه بيننا وبينه، وكفى بالله وليّاً. والسلام.

قال: فأخرج معقل رايةَ أمانٍ فنصبها، وقال: مَنْ أتاها مِنَ الناس فهو آمن إلا الخِرّيت وأصحابه الذين نابذوا أوّل مرة، فتفرق عن الخرّيت كلٌّ من كان معه مِن غير قومه، وعَبّأ معقل بن قيس أصحابه، ثم زحف بهم نحوه، وقد حَضَر مع الخِرّيت جميع قومه! مسلمهم ونَصرانيّهم، وما نعى الصدقة منهم، فجعل مسلميهم يَمْنة، والنصارى وما نعى الصدقة يَسْرة، وجعل يقول لقومه: امنعُوا اليوم حريمَكم، وقاتلوا عن نسائكم وأولادِكم، والله لئن ظهروا عليهم ليقتُلُنكم وليَسْلُبنكم.

فقال له رجل منْ قومه: هذا والله ما جرَّتْهُ علينا يدُك ولسانك، فقال لهم: قاتلوا فقد سبقَ السيفُ العذَل.

قال: وسار معقِل بن قيس يحرّض أصحابَه فيما بين الميمنة والميسرة، ويقول: أيّها الناس، ما تدرون ما سِيق إليكم في هذا الموقف ممن الأجر العظيم! إن الله ساقكم إلى قوم مَنَعُوا الصدقة، وارتدّوا عن الإسلام، ونكثوا البيعة ظلماً وعدواناً، إني شهيد لمن قُتِل منكم بالجنة، ومن عاش بأن الله يُقِرّ عينه بالفتح والغنيمة، ففعل ذلك حتى مَرّ بالناس أجمعين، ثم وقف في القَلْب برايته، وبعث إلى يزيد بن المعقل الأزديّ، وهو في الميمنة، أن أحمِلْ عليهم، فحمل، فثبتوا له، فقاتل طويلاً وقاتلوه، ثم رجع حتى وقف موقِفَه الذي كان فيه من الميمنة، ثم بعث إلى المنجاب بن راشد الضبيّ، وهو في الميسرة: أن أحْمِل عليهم، فحمل فثبتوا له، فقاتل طويلاً وقاتلوه، ثم رجع حتى وقف موقفه الذي كان في الميسرة، ثم بعث معقل إلى ميمنته وميسرته: إذا حملتُ فاحملوا جميعاً. ثم أجرى فرسَه وضربها، وحمل أصحابه، فصبروا لهم ساعة.

ثم إنّ النعمان بن صهبان الراسبيّ بَصُر بالخِرّيت، فحمل عليه، فصرَعه عن فرسه، ثم نزل إليه وقد جَرَحه، فاختلفا بينهما ضربتين، فقتله النعمان وقُتِل معه في المعركة سبعون ومائة، وذهب الباقون في الأرض يميناً وشمالاً، وبعث معقِل الخيل إلى رحالهم، فسبيَ من أدرك فيها رجالاً ونساءً وصبياناً، ثم نظر فيهم، فَمَنْ كان مسلماً خلاه وأخذ بيعتَه، وخلّى سبيل عيالِه، ومَنْ كان ارتدّ عن الإسلام عَرَض عليه الرجوعَ إلى الإسلام وإلاّ القتل، فأسلموا. فخلّى سبيلَهم، وسبيلَ عيالاتهم، إلا شيخاً منهم نصرانياً يقال له: الرماحس بن منصور، فإنه قال: والله ما زلت مصيباً من ديني دين الصدق، إلى دينكم، دينِ السوء، لا والله لا أَدَعُ ديني ولا أقرَبُ دينكم ما حييت.

فقدّمه معقِل فضرب عنقه، وجمع الناس، فقال: أدّوا ما عليكم في هذه السنين من الصَّدَقة، فأخذ من المسلمين عِقالين، وعَمَد إلى النصارى وعِيالاتهم فاحتملهم معه، وأقبل المسلمون الذين كانوا معهم يشيّعونهم، فأمر معقل يردّهم، فلما ذهبوا لينصرفوا، تصايَحوا ودعا الرجال والنساء بعضَهم إلى بعض.

أما بعد، فإني أخبر أميرَ المؤمنين عن جُنْده وعن عدوه أنّا دفعنا إلى عدونا بأسْياف البحر، فوجدْنا بها قبائل ذات حَدّ وعدد، وقد جمعوا لنا، فدعوناهم إلى الجماعة والطاعة، وإلى حُكْم الكتاب والسنة، وقرأنا عليهم كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، ورفعنا لهم راية أمان، فمالت إلينا طائفة منهم، وثبتت طائفة أخرى، فقبِلنا أمر التي أقبلت، وصمدنا إلى التي أدبرتْ، فضرب الله وجوههم، ونَصَرَنا عليهم، فأما مَنْ كان مسلماً، فإنّا مننّا عليه، وأخذنا بيعته لأمير المؤمنين، وأخذنا منهم الصدقة التي كانت عليهم، وأمّا مَنْ ارتدّ فعرَضْنا عليهم الرجوع إلى الإسلام، وإلا قتلناهم، فرجعوا إلى الإسلام، غيرَ رجل واحد فقتلناه، وأمّا النصارى، فإنّا سبيْناهم وأقبلنا

بهم، ليكونوا نكالاً لمن بعدهم من أهلِ الذّمة، كي لا يمنعوا الجزية، ولا يجترؤوا على قتال أهل القِبْلة، وهم للصَّغار والذلة أهلٌ. رحمك الله يا أمير المؤمنين، وعليك الصلاة والسلام، وأوجب لك جنات النعيم. والسلام.

قال: ثم أقبل الأساري حتى مرّ على مَصْقلة بن هُبيرة الشيبانيّ، وهو عامل لعليّ عليه السلام على أردَشير خُرّة وهم خمسمائة إنسان، فبكى إليه النساء والصبيان، وتصايح الرجال: يا أبا الفضل، يا حامل الثِّقَل، يا مُؤوي الضعيف، وفكاك العصاة، امنن علينا فاشترنا وأعتقنا. فقال مصقلة: أقسم باللّه لأتصدقَنّ عليهم، إن اللّه يجزي المتصدّقين. فبلغ قولُه معقلَ بن قيس، فقال: واللّه لو أعلمه قالها توجُّعاً لهم وإزراء عليّ لضربتُ عنقه، وإن كان في ذلك فناءُ بني تميم وبكر بن وائل.

ثم إن مصقلة بعث ذُهل بن الحارث الذهليّ إلى معقل، فقال: بعني نصارى ناجية، فقال: أبيعكهم بألف ألف درهم، فأبى عليه، فلم يزلْ يُراوده حتى باعه إياهم بخمسمائة ألف درهم، ودفعَهم إليه، وقال: عَجِّل بالمال إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال مصقلة: أنا باعث الآن بصَدْر منه، ثم أتبعك بصَدْرٍ آخر، ثم كذلك حتى لا يَبْقى منه شيء. وأقبل معقل إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فأخبره بما كان من الأمر، فقال له: أحسنَت وأصبت وَوُفقت.

وانتظر عليّ عليه السلام مصقلة أن يبعث بالمال، فأبطأ به. وبلغ عليًّا عليه السلام أنّ مصقلة خلّى الأسارى ولم يسألهم أن يُعينوه في فَكاك أنفسهم بشيء، فقال: ما أرى مصقلة إلا قد حمل حمالة، ولا أراكم إلا سترونه عَنْ قريب مُبَلْدَحاً[1]، ثم كتب إليه:

أما بعد، فإنّ من أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأعظم الغِشّ على أهل المِصْر غِشّ الإمام، وعندك من حَقّ المسلمين خمسمائة ألف درهم، فابعث بها إليّ حين يأتيك رسولي، وإلا فأقبِلْ إليّ حين تنظر في كتابي، فإني قد تقدّمت إلى رسولي ألاّ يدعَك ساعة واحدة تقيم بعد قدومه عليك، إلا أن تبعث بالمال. والسلام.

وكان الرسول أبو جُرّة الحنفيّ، فقال له أبو جُرّة: إن تبعث بهذا المال وإلا فاشخَصْ معي إلى أمير المؤمنين. فلما قرأ كتابه أقبل حتى نزل البَصرة، وكان العمال يحمِلون المال من كُور البصرة إلى ابن عباس، فيكونُ ابن عباس هو الذي يبعثُ به إلى أمير المؤمنين عليه السلام، ثم أقبل من البَصْرة حتى أتى علياً عليه السلام بالكوفة، فأقرّه أياماً لم يذكر له شيئاً، ثم سأله المال، فأدّى إليه مائتي ألف درهم، وعَجَز عن الباقي.

---

(١) بلدح الرجل: أعيا وبلّد. اللسان، مادة (بلدح).

قال: فروى ابن أبي سيف، عن أبي الصَّلت، عن ذَهل بن الحارث، قال دعاني مَصْقَلة إلى رَحْله، فقدَّم عشاء فطعمنا منه، ثم قال: والله إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يسألني هذا المال، ووالله ما أقدر عليه، فقلت له: لو شئت لم يمضِ عليك جُمعة حتى تجمعَ هذا المال، فقال: ما كنت لأحمّلها قومي، ولا أطلب فيها إلى أحد.

ثم قال: والله لو أن ابن هند مطالبي بها، أو ابن عفّان لتركها لي. ألم تر إلى عثمان كيف أعطى الأشعثَ مائة ألف درهم من خراج أذْرَبيجان في كل سنة! فقلت: إنّ هذا لا يَرى ذلك الرأي، وما هو بتارك لك شيئاً. فسكت ساعة، وسكتُّ عنه، فما مكث ليلة واحدة بعد هذا الكلام حتى لحق بمعاوية.

فبلغ ذلك عليًا عليه السلام فقال: ما له تَرَّحَهُ الله! فَعَلَ فِعْل السَّيّد وفرّ فرار العبد، وخان خيانة الفاجر، أما إنه لو أقام فَعَجز ما زدنا على حَبْسه، فإن وجدنا له شيئاً أخذناه، وإن لم نجد له مالاً تركناه. ثم سار عليٌّ عليه السلام إلى داره فهدمها.

وكان أخوه نعيم بن هبيرة الشيباني شيعةً لعلي عليه السلام، مناصحاً، فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من نصارى تَغْلِب، يقال له حُلْوان:

أما بعدُ، فإني كلمت معاوية فيك، فوعدَك الكرامة، ومَنّاك الإمارة، فأقبِل ساعة تلقى رسولي. والسلام.

فأخذه مالك بن كعب الأرحبيّ فسرح به إلى عليّ عليه السلام، فأخذ كتابه فقرأه ثم قدمه فقطع يده، فمات. وكتب نعيم إلى أخيه مصقلة شعراً لم يردّه عليه:

لا ترمينّ هَدَاك الله معترِضاً ... بالظنّ منك فما بالي وحُلْوانا
ذاكَ الحريصُ على ما نالَ من طَمَع ... وَهْوَ البعيدُ فَلَا يُورِثْك أحزانا
مَاذَا أرَدْت إلى إرسالِهِ سَفَهاً ... تَرْجُو سِقَاط امرىء لم يُلْفَ وَسْنَانَا
عَرَّضْتَه لِعَليٍّ إنه أسَدٌ ... يَمْشِي الْعِرَضْنَة مِنْ آسادِ خَفّانَا
قَدْ كُنْتَ في خَيْرِ مُصطافٍ وَمُرْتَبَع ... تَحْمِي العِرَاقَ وتُدْعَى خَيْرَ شَيْبَانَا
حَتّى تَقَحَّمْتَ أمراً كُنْتَ تكرهُهُ ... لِلرّاكِبينَ لَهُ سِرًّا وَإعْلَانَا
لَوْ كُنْتَ أدّيْتَ مال الله مصطبِراً ... للحقِ زَكَّيتَ أحْيَانَا ومَوْتَانَا
لَكِنْ لَحِقْتَ بأهْلِ الشّام ملتَمِساً ... فَضْلَ ابن هندٍ فَذَاكَ الرأيُ أشْجَانَا
فاليَوْمَ تقرَعُ سِنّ العَجْزِ من ندم ... مَاذَا تقولُ وقَدْ كَانَ الذين كانا!
أصْبَحْتَ تُبْغِضكَ الأحياءُ قاطبةً ... لم يَرْفَعِ اللّهُ بالعِصْيان إنسانا

فلما بلغ الكتاب إليه علم أنّ النصرانيّ قد هلك، ولم يلبَث التغْلِبيّون إلا قليلاً حتى بلغهم

هلاكُ صاحبهم، فأتوا مَصقَلة، فقالوا: أنت أهلكت صاحبنا، فإما أن تجيئنا به، وإما أن تَدِيَهُ، فقال: أما أنْ أجِيء به، فلست أستطيع ذلك، وأما أنْ أدِيَه فنعم، فوَداه.

قال إبراهيم: وحدثني ابن أبي سيف، عن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه، قال: قيل لعليّ عليه السلام حين هرب مَصْقَلة: اردد الذين سُبُوا ولم تستوف أثمانَهم في الرّقّ، فقال: ليس ذلك في القضاء بحق، قد عَتَقوا إذ أعتقهم الذي اشتراهم، وصار مالي ديناً على الذي اشتراهم.

وروى إبراهيم أيضاً، عن إبراهيم بن ميمون، عن عمرو بن القاسم بن حبيب التّمار، عن عمار الدُّهني، قال: لما هرب مصقلة قال أصحابُ عليّ عليه السلام له: يا أميرَ المؤمنين، فَيئنَا! قال: إنه قد صار علىَ غَريم من الغرماء، فاطلبوه.

وقال ظبيان بن عُمارة، أحد بني سعد بن زيد مناة في بني ناجية:

هَـلّا صَـبَـرْت لِـلْـقِـرَاعِ نـاجِـيَـا ... والـمـرْهَـفَـاتِ تَـخْـتَـلي الـهَـوادِيـا
والـطَّـعْـنِ فـي نُـحـوركـم تَـوَالـيـا ... وصـائـبـاتِ الأسـهـم الـقـواضـيـا

وقال ظَبْيان أيضاً:

ألا فـاصبرُوا لـلطعن والضَّرْب ناجيا ... ولـلـمرهـفَـات يـخـتـلـين الـهـوادِيـا
فَـقَـدْ صَـبّ ربُّ الـنـاس خِـزْياً عَـلَـيْـكُـمُ ... وَصَـيَّـرَكُـمْ مِـنْ بَـعْـدِ عِـزٍّ مـوالِـيـا
سَـمَـا لَـكُـمْ بـالـخَـيْـلِ جُـرْداً عـواديـا ... أخـو ثـقـة لا يـبـرح الـدهـر غـازيـا
فـصبّـحـكـمْ فـي رَحْـلِـكـم وخُـيـولـكـم ... بِـضَـرْبٍ يُـرى مـنـه الـمـدَجَّـجُ هـاوِيَـا
فَـأَصْـبَـحْـتُـمُ مـن بـعـد عِـزٍّ وكـثـرةٍ ... عـبـيدَ الـعـصـا لا تـمـنـعـون الـذَّرارِيَـا

قال إبراهيم بن هلال: وروى عبد الرحمن بن حبيب، عن أبيه، أنه لما بلغ عليًا عليه السلام مصابُ بني ناجية، وقتلُ صاحبهم، قال: هوتْ أمّه! ما كان أنقصَ عقله وأجرأه! إنه جاءني مرة فقال: إن في أصحابك رجالاً قد خشيت أن يفارقوك، فما ترى فيهم؟ فقلت: إني لا آخذُ على التّهمة، ولا أعاقِب على الظّن، ولا أقاتل إلاّ مَنْ خالفني وناصَبَني، وأظهر العداوة لي، ثم لست مقاتلَه حتى أدعوه وأعذِرَ إليه، فإن تاب ورجع قبلنا منه، وإن أبى إلا الاعتزامَ على حربنا استعنّا باللّه عليه، وناجزناه. فكفّ عني ما شاء الله، ثم جاءني مرة أخرىٰ فقال لي: إني قد خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي، إني سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتهما لم تفارقهما حتى تقتلَهما أو توثِقهما، فلا يزالان بمحبسك أبداً فقلت له: إني مستشيرُك فيهما، فماذا تأمرني به؟ قال: إني آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابَهما، فعلمتُ أنّه لا ورعَ له ولا عقل. فقلت له: واللّه ما أظنّ لك ورعاً ولا عقلاً، لقد كان ينبغي لك أنْ تعلم أني

لا أقتل مَنْ لم يقاتلني، ولم يظهر لي عداوته للذي كنت أعلمتُكه من رأيي، حيث جئتني في المرة الأولى، ولقد كان ينبغي لك لو أردت قتلهم أن تقول لي: اتقِ الله؛ بم تستحل قتلهم، ولم يقتلوا أحداً، ولم ينابذوك، ولم يخرجوا من طاعتك!

فأمّا ما يقوله الفقهاء في مثل هذا السَّبْي، فقبْل أن نذكر ذلك نقول: إنّ الروايةَ قد اختلفت في المرتدّين من بني ناجية، فالرواية الأولى التي رواها محمد بن عبد اللّه بن عثمان، عن نصر بن مزاحم، تتضمن أنّ الأمير الذي من قِبَل عليّ عليه السلام قتل مقاتلة المرتدين منهم بعد امتناعهم من العوْد إلى الإسلام، وسَبَى ذراريهم، فقدم بها على عليّ عليه السلام، فعلى هذه الرواية يكون الذين اشتراهم مَصْقَلة ذراريّ أهل الرِّدّة.

والرواية الثانية التي رواها محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف، تتضمّن أن معقِل بن قيس، الأمير من قِبَل علي عليه السلام لم يقتل من المرتدِّين من بني ناجية إلا رجلاً واحداً، وأمّا الباقون فرجعوا إلى الإسلام، والاسترقاقُ إنما كان للنصارى الذين ساعدوا في الحرب وَشَهروا السيف على جيش الإمام، وليسوا مرتدِّين، بل نصارى في الأصل، وهم الذين اشتراهم مَصْقلة.

فإن كانت الرواية الأولى هي الصحيحة ففيها إشكال، لأنّ المرتدّين لا يجوز عند الفقهاء استرقاقُهم، ولا أعرف خلافاً في هذه المسألة، ولا أظنّ الإماميّة أيضاً تخالف فيها، وإنما ذهب أبو حنيفة إلى أنّ المرأة المرتدّة إذا لحقت بدار الحرب جاز استرقاقُها، وسائر الفقهاء على خلافه، ولم يختلفوا في أنّ الذكور البالغين من المرتدّين لا يجوز استرقاقهم فلا أعلم كيف وقع استرقاق المرتدين من بني ناجية على هذه الرواية، على أني أرىٰ أن الرواية المذكورة لم يصرح بها في استرقاقهم، ، ولا بأنهم بيعوا على مَصْقلة، لأن لفظ الراوي: «فأبوا، فقتَل مقاتلتهم وسبي ذراريّهم فقدم بهم على عليّ عليه السلام»، وليس في الرواية ذكرَ استرقاقهم ولا بَيْعهم على مصقلة، بل فيها ما ينافي بَيْعهم على مصقلة. وهو قوله: «فقدم بهم على عليّ عليه السلام»، فإنّ مصقلة ابتاعَ السَّبْي من الطريق في أرْدَشِير خُرّة قبل قُدومه على عليّ عليه السلام، ولفظ الخبر: «فقدِم بهم على عليّ عليه السلام».

وإنما يبقى الإشكال على هذه الرواية أن يقال: إذا كان قد قدم بهم على عليّ عليه السلام، فمصقلة من اشترى! ولا يمكن دفع كون مصقلة اشترى قوماً في الجملة، فإن الخبر بذلك مشهور جداً يكاد يكون متواتراً.

فإن قيل: فما قولُكم فيما إذا ارتدّ البالغون من الرجال والنساء، ثم أولدوا ذرّية صغار بعد الرِّدّة، هل يجوز استرقاق الأولاد؟ فإن كان يجوز، فهلّا حملتم الخبر عليه!

قيل: إذا ارتدّ الزوجان فحملتْ منه في حال الردّة وأتت بولد كان محكوماً بكفره، لأنه ولد بين كافرين.

وهل يجوز استرقاقه؟ فيه للشافعيّ قولان، وأما أبو حنيفة فقال: إنْ ولد في دار الإسلام لم يجز استرقاقه، وإن وُلِد في دار الحرب جاز استرقاقُه، فإن كان استرقاقُ هؤلاء الذرية موافقاً لأحد قولَيِ الشافعي، فلعلّه ذاك.

وأما الرواية الثانية، فإن كانت هي الصحيحة - وهو الأولى - فالفقه في المسألة أن الذمّي إذا حارب المسلمين فقد نقضَ عهده، فصار كالمشركين الذين في دار الحرب، فإذا ظَفِر به الإمام جازَ استرقاقُه وبيُعه، وكذلك إذا امتنع من أداء الجِزْية أو امتنع من التزام أحكام الإسلام.

واختلف الفقهاء في أمور سبعة: هل ينتقضُ بها عهدهم، ويجوز استرقاقهم أم لا؟ وهي أن يزنيَ الذمّي بمسلمة، أو يصيبها باسم نكاح، أو يفتن مسلماً عن دينه، أو يقطع الطريق على المسلمين، أو يؤوي للكفار عيناً، أو يدلّ على عورات المسلمين، أو يقتل مسلماً.

فأصحاب الشافعيّ يقولون: إن شرط عليهم في عَقْد الذّمة الكفَّ عن ذلك، فهل ينقض عهدهم بفعله؟ فيه وجهان. وإن لم يشترط ذلك في عقد الذمّة، لم ينتقض عهدهم بذلك.

وقال الطحاويّ من أصحاب أبي حَنيفة: ينتقض عهدهم بذلك، سواء شورطوا عن الكفّ عنه في عقد الذّمة، أو لم يشارطوا عليه.

فنصارى بني ناجية على هذه الرواية قد انتقض عهدُهم بحرب المسلمين، فأبيحت دماؤهم، وجاز للإمام قتلهم وجاز له استرقاقهم كالمشركين الأصليين في دار الحرب، وأما استرقاق أبي بكر بن أبي قُحافة لأهل الرِّدة وسَبْيُهُ ذراريّهم، فإن صحّ كان مخالفاً لما يقول الفقهاء من تحريم استرقاق المرتدّين، إلا أن يقولوا إنه لم يَسْبِ المرتدّين، وإنما سَبَى مَنْ ساعدهم وأعانهم في الحرب من المشركين الأصليين. وفي هذا الموضع نظر.

٤٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الزهد وتعظيم الله

الأصل: ٱلْحَمْدُ لِلهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَلَا مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ، وَلَا مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ، وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ.

وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنِيَ لَهَا الْفَنَاءُ، وَلِأَهْلِهَا مِنْهَا الجَلاءُ، وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضِرةٌ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ، وَٱلْتَبَسَتْ بِقَلْبِ ٱلنَّاظِرِ. فَارْتَحِلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ ٱلزَّادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ ٱلْكَفَافِ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْبَلَاغِ.

الشرح: مُني لها الفناء، أي قُدّر. والجَلاء، بفتح الجيم: الخروج عن الوطن، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾[1].

وحلوة خَضِرة، مأخوذ من قول رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإنّ اللّه مستخلِفُكم فيها فناظر كيف تعلمون»[2].

والكَفاف من الرزق: قَدْر القُوت، وهو ما كَفَّ عن الناس، أي: أغنى.

والبلاغ والبُلْغة من العيش: ما يُتَبَلَّغُ به.

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمِلُ على فصلين من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: أحدُهما حَمْد الله والثناء عليه إلى قوله: «ولا تُفْقَدُ له نِعْمة». والفصل الثاني ذكر الدنيا إلى آخر الكلام. وأحدُهما غيرُ مختلط بالآخر ولا مَنْسُوق عليه، ولكنّ الرضيّ رحمه الله تعالى يلتقط كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام التقاطاً، ولا يقفُ مع الكلام المتوالي، لأن غرضَه ذكرُ فصاحتِه عليه السلام لا غير، ولو أتى بخُطَبِه كلِّها على وجهها لكانت أضعافَ كتابه الذي جَمَعه.

الموازنة والسجع

فأما الفصل الأول، فمشتملٌ من علم البيان على باب كبير يعرف بالموازنة، وذلك «غير مقنوط» فإن وازنه في الفقرة الثانية بقوله: «ولا مخلوّ». ألا ترى أنّ كلّ واحدة منهما على وزن «مفعول»، ثم قال في الفقرة الثالثة: «ولا مأيُوس»، فجاء بها عَلَى وزن «مفعول» أيضاً، ولم يمكنْه في الفقرة الرابعة ما أمكنه في الأولى، فقال: «ولا مستنكَف» فجاء به على وزن «مستفعل» وهو وإن كان خارجاً عن الوزن، فإنه غيرُ خارج عن المفعولية؛ لأن «مستفعل» «مفعول» في الحقيقة، كقولك: زيد مستحسَن، ألا ترى أنّ «مستحسناً» من استحسنه، فهو أيضاً غير خارج عن المفعولية.

ثم وازن عليه السلام بين قوله: «لا تبرح» وقوله: «لا تفقد»، وبين «رحمة» و «نعمة»، فأعطت هذه الموازنات الكلام من الطّلاوة والصنعة ما لا تجده عليه لو قال: «الحمد لله غير مخلوّ من نعمته، ولا مبعَد من رحمته»؛ لأنّ «مبعد» بوزن «مفعل»، وهو غير مطابق ولا مماثل لمفعول، بل هو بناء آخر.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٣.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٢)، والترمذي في الفتن، باب: ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١)، وابن ماجه في الفتن، باب: فتنة النساء (٤٠٠٠)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١٠٧٥٩).

وكذلك لو قال: «لا تزول منه رحمة»، فإنّ «تزول» ليست في المماثلة والموازنة لـ «تفقد» كـ «تبرح» ألا ترى أنها معتلة، وتلك صحيحة! وكذلك لو قال: «لا تبرح منه رحمة ولا يفقد له إنعام» فإن «إنعاماً» ليس في وزن «رحمة»، والموازنة مطلوبة في الكلام الذي يقصد فيه الفصاحة، لأجل الاعتدال الذي هو مطلوب الطبع في جميع الأشياء. والموازنة أعمّ من السّجع؛ لأن السجع تماثل أجزاء الفواصل لو أوردها على حرف واحد، نحو القريب، والغريب، والنسيب، وما أشبه ذلك. وأما الموازنة فنحو القريب والشديد، والجليل، وما كان على هذا الوزن وإن لم يكن الحرف الآخر بعينه واحداً، وكلّ سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً، ومثال الموازنة في الكتاب العزيز: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾، ثم قال: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، ثم قال: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ثم قال: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾[2] فهذه الموازنة.

ومما جاء من المثال في الشعر قوله:

بـاشـدّهِـمْ بَـأسـاً عَـلَـى أعْـدَائِـهِـمْ وَأعَـزِّهـم فَـقْـداً عَـلَـى الأصـحـاب

فقوله: «وأعزهم» بإزاء «أشدهم»، وقوله: «فقدا» بإزاء «بأساً».

والموازنة كثيرة في الكلام وهي في كتابه الله تعالى أكثر.

التحذير من مفاتن الدنيا

فأما الفصلُ الثاني فيشتمل على التحذير من الدنيا، وعلى الأمر بالقناعة، والرضا بالكفاف، فأما التحذيرُ من الدنيا فقد ذكرنا ونذكر منه ما يحضرنا، وأمّا القناعة فقد وَرَد فيها شيء كثير.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأخوين من الأنصار: «لا تيئسا من روح الله ما تَهَزْهَزَتْ رُؤوسكما، فإنّ أحدكم يولد لا قِشْرَ عليه، ثم يكسوه الله ويرزقه»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم - ويُعْزَى إلى أمير المؤمنين عليه السلام -: «القناعة كنز لا يَنْفَد»[4].

وما يقال إنه من كلام لقمان الحكيم: «كفى بالقناعة عزًّا، ويطيب النفس نعيماً» ومن كلام عيسى عليه السلام: اتخِذُوا البيوت منازلَ، والمساجد مساكن، وكلوا من بَقْل البريّة، واشربوا من

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١١٧، ١٨.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٨١ - ٨٤.

(٣) أخرج نحوه الطبراني في «الكبير» (٣٤٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٤٩)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١١٤٨).

(٤) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٨٨/٢) بلفظ: لا يفنى، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٩٠٠).

الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام. لعمري لقد انقطعتم إلى غير الله فما ضيّعكم، أفتخافون الضّيعة إذا انقطعتم إليه!

وفي بعض الكتب الإلٰهية القديمة: يقول الله تعالى: يا بن آدم، أتخاف أن أقتلك بطاعتي هَزلاً، وأنت تتفتق بمعصيتي سِمَناً!

قال أبو وائل: ذهبتُ أنا وصاحب لي إلى سَلمان الفارسيّ، فجلسنا عنده، فقال: لولا أنّ رسول الله ﷺ نهى عن التكلّف لتكلّفت لكم، ثم جاء بخبزٍ ومِلْح ساذج لا أبزار عليه، فقال صاحبي: لو كان لنا في مِلْحنا هذا سَعْتر[1]! فبعث سلمان بِمطْهَرته، فرهنها على سعتر، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنّعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعتَ بما رزقك لم تكن مِطْهرتي مرهونة!

عباد بن منصور: لقد كان بالبصرة مَنْ هو أفقهُ من عَمْرو بن عُبَيد وأفصح، ولكنه كان أصبَرهم عن الدينار والدرهم، فسادَ أهلَ البَصْرة.

قال خالد بن صفوان لعمرو بن عبيد: لم لا تأخذ مِنّي؟ فقال: لا يأخذُ أحدٌ من أحدٍ إلاّ ذل له، وأنا أكره أن أذِلّ لغير الله.

كان معاشُ عمرو بن عُبَيد من دارٍ وَرِثَها، كان يأخذ أجرتَها في كلّ شهر ديناراً واحداً فيتبلّغ به.

الخليل بن أحمد: كان الناس يكتسبُون الرّغائب بعلمِه، وهو بين أخصاص البَصْرة، لا يلتفت إلى الدنيا ولا يطلُبها.

وهب بنُ منبّه: أرْمَلْتُ مرّة حتى كدت أقنَط، فأتاني آتٍ في المنام ومعه شبه لوزة، فقال: افضُضْ، ففضضتها، فإذا حريرة فيها ثلاثة أسطر: لا ينبغي لمن عَقَل عن اللّه أمره، وعرف للّه عدله، أن يستبطيء اللّه في رزقه، فقنعت وصَبَرت، ثم أعطاني اللّه فأكثر.

قيل للحسن عليه السلام: إنّ أبا ذرّ كان يقول: الفقرُ أحبّ إليّ من الغنى، والسُّقم أحبّ إليّ من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذرّ، أما أنا فأقول: من اتّكل إلى حُسْنِ الاختيار من اللّه لم يتمنّ أنه في غير الحال التي اختارها اللّه له، لعمري يا بن آدم، الطير لا تأكل رَغَداً، ولا تخبأ لغد، وأنت تأكل رغداً، وتخبأ لغدٍ، فالطيرُ أحسنُ ظنّاً منك باللّه عزّ وجلّ.

حَبَس عمر بن عبد العزيز الغَذاء عن مَسْلَمة، حتى برّح به الجُوع، ثم دعا بسَوِيق فسقاه، فلما فَرَغ منه لم يقدِرْ على الأكل، فقال: يا مسلمة، إذا كفاك من الدّنيا ما رأيت، فعلامَ التهافت في النار!

(١) السعتر: نبت. اللسان، مادة (سعتر).

عبد الواحد بن زيد: ما أحسِب شيئاً من الأعمال يتقدَّم الصبر إلا الرضا والقناعة، ولا أعلم درجةً أرفع من الرضا، وهو رأس المحبّة.

قال ابن شُبْرُمة في محمد بن واسع: لو أنّ إنساناً اكتفى بالتراب لاكتفى به.

يقال من جملة ما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: قل لعبادِي المتسخِّطين لرزقي: إياكم أنْ أغْضَب فأبْسُطَ عليكم الدنيا.

كان لبعض الملوك نديم، فَسَكِر، ففاتَتْه الصلاة، فجاءت جارية له بجَمْرة نار، فوضعتْها على رجله، فانتبه مذعوراً، فقالت: إنك لم تصبر على نارَ الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة! فترك الدنيا وانقطع إلى العبادة، وقعد يبيع البقل، فدخل عليه الفُضَيل وابن عُيَيْنَة، فإذا تحت رأسه لِبنة، وليس تحتَ جَنْبِه حصير، فقالا له: إنا رَوَيْنا أنه لم يَدَعْ أحدٌ شيئاً لله إلا عَوّضه خيراً منه، فما عوّضك؟ قال: القناعة والرضا بما أنا فيه.

أصابت داود الطائيّ ضائقة شديدة، فجاء حماد بن أبي حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، فقال داود: هي لعَمْرِي من مال رجلٍ ما أقدِّم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه، ولو كنتُ قابلاً من أحد شيئاً لقبلتها إعظاماً للميت، وإيجاباً للحيّ، ولكني أحبُّ أن أعيشَ في عِزّ القناعة.

سفيان الثوريّ: ما أكلتُ طعام أحدٍ قَطّ إلا هُنْت عليه.

مِسْعر بن كِدَام: مَنْ صَبَر على الخلّ والبَقْل لم يُسْتَعْبَدْ.

فُضَيل: أصلُ الزهد الرضا بما رزقك الله، ألا تراه كيف يصنع بَعبْدِه ما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها! تطعِمه مَرّة خبيصاً، ومرة صَبِراً، تريد بذلك ما هو أصلح له.

المسيح عليه السلام: أنا الذي كببت الدنيا عَلَى وَجْهها، وقدرتها بقدرها، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يَخْرَب، وسادي الحجر، وفراشي المَدَر، وسراجي القَمر.

أمير المؤمنين عليه السلام: أكل تَمْرَ دَقَل، ثم شرب عليه ماء، ومسح بطنه، وقال: من أدخلْته بطنُه النار، فأبعده الله، ثم أنشد:

فـإنّـك إنْ أعْـطَـيْـتَ بَـطْـنَـك سُـؤْلَـهُ ... وَفَـرْجَـكَ نَـالا مُـنْـتَـهَـى الـذَّمّ أجْـمَـعَـا

في الحديث الصحيح المرفوع: «إن رُوح القُدُس نَفَث في رُوعي أنّه لن تموتَ نفس حتى تستكمل رزقَها، فأجملوا في الطَّلَب»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٦٩٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٣٣٢)، والبزار في «المسند» (٢٩١٤)، والبيهقي في «الشعب» (١١٨٥).

من كلام الحكماء: من ظفر بالقناعة فقد ظَفِر بالكيمياء الأعظم.

الحسن: الحريص الراغب، والقانع الزاهد، كلاهما مستوفٍ أجلَه، مستكمل أُكْلَه، غير مُزداد ولا منتقَصٍ مِمّا قُدِّر له، فعلام التقحّم في النار!

ابن مسعود، رفعه: «إنّه ليس أحد بأكْيَسٍ من أحد، قد كُتِب النصيب والأجل، وقُسِمَتْ المعيشة والعمل، والناس يجرُون منهما إلى منتهى معلوم».

المسيح عليه السلام: انظروا إلى طير السماء تغدُو وتروح، ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحرث ولا تحصُد والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أوسع بطوناً من الطير، فهذه الوحوش من البقر والحُمُر، لا تحرث ولا تحصد، والله يرزقها.

سويد بن غفلة: كان إذا قيل له: قد وَلِي فلان، يقول: حسبي كِسْرتي ومِلْحي.

وفد عروة بن أذينة. على هِشام بن عبد الملك فشكا إليه خَلّته، فقال له: ألست القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وما الإشراف من خُلُقِي ... أنّ الّذي هَوَ رِزْقِي سَوْفَ يأتِيني

أسعَى له فيعنّيني تَطَلُّبُه ... ولو قَعَدتُ أتاني لا يُعنّيني

فكيف خرجت من الحجاز إلى الشام تطلب الرزق! ثم اشتغل عنه، فخرج وقعد على ناقته ونَصّها راجعاً إلى الحجاز، فذكره هشام في الليل، فسأل عنه فقيل: إنه رَجَع إلى الحجاز، فتذمّر ونَدِم، وقال: رجل قال حِكْمة، ووفد عَلَيّ مستجدياً، فجبهته، ورددتُه! ثم وجّه إليه بألفيْ درهم، فجاء الرسول وهو بالمدينة، فدَفعها إليه، فقال له: قل لأمير المؤمنين، كيف رأيت! سعيتَ فأكْدَيْت، وقعدت في منزلي فأتاني رزقي.

عمر بن الخطاب: تعلّم أنّ الطمع فَقْر، وأن اليأس غنًى، ومن يئس من شيء استغنى عنه.

أهدي لرسول الله ﷺ طائران، فأكل أحدهما عشيّة، فلما أصبح طلب غداء، فأتته بعضُ أزواجه بالطائر الآخر، فقال: «ألم أنهك أن ترفعي شيئاً لغدٍ، فإنّ مَنْ خَلَق الغَدَ خلق رزقه»[1].

وفي الحديث المرفوع: «قد أفْلَح مَنْ رُزِق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه»[2].

من حكمة سليمان عليه السلام: قد جَرّبنا لِينَ العَيْش وشِدّته، فوجدنا أهناه أدناه.

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٤١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» نحوه (٣٤٤٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٢٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، باب: في الكفاف والطاعة (١٠٥٤)، والترمذي في «الزهد»، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٨) وأحمد في مسند المكثرين، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٥٣٦).

وهب، في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1]، قال: القناعة.

بعض حكماء الشعراء:

فَلَا تَجْزَعْ إذَا أَعْسَرْتَ يَوْماً ... فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الدَّهْرِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنّ الله أولَى بِالجَمِيلِ
وإن العُسْرَ يَتْبَعُهُ يَسَارٌ ... وقِيلُ الله أصْدَقُ كلّ قِيلِ
وَلَوْ أنَّ العُقُول تَجُرُّ رِزْقاً ... لَكَانَ المَالُ عِنْدَ ذَوِي العُقُولِ

عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «إنْ أردتِ اللّحُوق بي فيكفيك من الدنيا زادُ الراكب، ولا تُخلِقي ثوباً حتى تُرَقّعية، وإياك ومجالسة الأغنياء». يقال: إنّ جبرائيل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ بمفاتيح خزائن الدنيا، فقال: «لا حاجة لي فيها، بل جَوْعتان وشَبْعة»[2].

وُجِد مكتوباً على صخرة عادِيّة: يا بن آدم، لست ببالغ أمَلَك، ولا سابِقٍ أجلَك، ولا مغلوبٍ على رزق، ولا مرزوق ما ليس لك، فعلام تقتل نفسك!

الحسين بن الضحاك:

يَا رَوْحَ مَنْ عَظُمَتْ قَنَاعَتُه ... حَسَمَ المطامعَ مِنْ غَدٍ وَغَدِ
مَنْ لم يَكُنْ لِله مُتَّهِماً ... لَمْ يُمْسِ مُحْتَاجاً إلى أحَدِ

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: أتدرِي لمَ رزقتُ الأحمقَ؟ قال: لا، قال: ليعلم العاقلُ أنّ طلبَ الرزق ليس بالاحتيال.

قَنَط يوسف بن يعقوب عليه السلام في الجُبّ لجوعٍ اعتراه، فأوحى إليه: انظر إلى حائط البئر، فنَظَر فانفرج الحائط عن ذَرّةٍ على صخرة، معها طعامها، فقيل له: أتراني لا أغْفُلُ عن هذه الذّرّة، وأغفلُ عنك، وأنت نبيّ ابن نبيّ!

دخل عليّ عليه السلام المسجد، وقال لرجل: أمْسِكْ عليّ بغلتي، فخلع لجامها، وذهب به، فخرج عليّ عليه السلام بعد ما قَضَى صلاته. وبيده درهمان ليدَعهما إليه مكافأة له، فوجد البغلة عُطُلاً[3]، فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمَيْن، ليشتريَ بهما لجاماً، فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق، قد باعه الرجل بدرهمين، فأخذه بالدّرهمين وعاد إلى مولاه، فقال عليّ عليه السلام: «إنّ العبدَ ليحرِمُ نفسَه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزاد على ما قُدّر له.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) المروي: أجوع يوماً وأشبع يوماً، انظر البداية والنهاية: ٦/ ٣٢١.

(٣) الأعطال من الخيل والإبل: التي لا قلائد عليها ولا أرسان لها والتي لا سمة عليها. القاموس، مادة (عطل).

سليمان بن المهاجر البَجَلِيّ:

كَسَوْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ وَجْهِي فَصَانَهُ ... بِهِ اللهُ عَنْ غِشْيانِ كُلِّ بَخِيلِ
فَلَمْ يتبذّلني البخيلُ ولم أقُمْ ... عَلَى بابِهِ يَوْماً مقام ذَلِيل
وإنّ قليلاً يَستُر الوجهَ أن يُرَى ... إلى الناس مبذولاً لَغيرُ قليل

وقف بعض الملوك على سُقراط وهو في المشرَقة، فقال له: سَلْ حاجتَك، قال: حاجتي أن تُزيل عَنّي ظلَّك، فقد منعتَني الرِّفْق بالشمس، فأحضرَ له ذهباً وكُسوة دِيباج، فقال: إنه لا حاجةَ بسقراط إلى حجارة الأرض ولُعاب الدود، إنما حاجتُه إلى أمر يصحَبُه حيثما توجَّه.

صلّى معروف الكرخيّ خَلْف إمام، فلما انفتل سأل ذلك الإمام معروفاً: من أين تأكل؟ قال: اصْبِر عليّ حَتّى أعيدَ ما صليتُه خَلفك، قال: لماذا؟ قال: لأنّ مَنْ شَكّ في الرزق شكّ في الرازق، قال الشاعر:

وَلَا تُهلِكَنَّ النَّفْسَ وَجْداً وَحَسْرَةً ... عَلَى الشيءِ أسْدَاهُ لغيرِك قادِرُهُ
ولا تَيأسَنْ من صالحٍ أن تَنالَهُ ... وإنْ كان نهباً بَيْنَ أيدٍ تُبادِرُه
فإنّك لا تُعطِي امرأً حَظَّ نَفْسِهِ ... ولا تمنع الشّق الذي الغيثُ ناصِرُه

قال عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب عليه السلام: قد ملَلْتُ الناسَ، وأحببتُ أن ألحقَ بصاحبيّ، فقال: إن سَرّك اللُّحوق بهما فقصِّر أملَك، وكُلْ دون الشِّبَع، واخصِف النَّعْل وكن كَمِيش الإزار، مرقوع القميص، تلحق بهما.

وقال بعض شعراء العجم:

غَلَا السِّعْرُ في بغدادَ مِنْ بَعْدِ رُخْصِهِ ... وإنّيَ في الحالَيْن بالله واثِقُ
فلَسْتُ أخافُ الضِّيقَ واللّه واسِعٌ ... غِناهُ، ولا الحِرْمانَ والله رَازِقُ

قيل لعليّ عليه السلام: لو سُدّ على رَجُلٍ باب بيت وتُرِك فيه، من أين كان يأتيه رزقه؟ قال: مِنْ حيث كان يأتيه أجلُه.

قال بعض الشعراء:

صَبَرْتُ النفسَ لا أجزَ ... عُ من حادِثة الدهرِ
رأيتُ الرّزق لا يُكْسَـ ... ـبُ بالعُرْفِ ولا النُّكْرِ
ولا بالتّلفِ الأمْثَـ ... ـلِ أهلِ الفَضْلِ والذِّكْرِ
وَلَا بالسُّمُرِ اللُّذْنِ ... ولا بالخُذمِ البُتْرِ
وَلَا بِالْعَقْلِ والدِّينِ ... وَلَا الْجَاهِ وَلَا الْقَدْرِ

وَلَا يُــــدْرَكُ بـــالـــطَّــيْـــشِ   وَلَا الْـــجَـــهْـــلِ وَلَا الـــهَـــذْرِ
وَلَــكِـــنْ قِـــسَــمٌ تـــجْــرِي   بِـــمَـــا نَـــدْرِي وَلَا نَـــدْرِي

جاء فتح بن شَخْرف إلى منزله بعد العِشاء، فلم يجدْ عندهم ما يتعشّى به، ولا وَجَدَ دُهْناً للسراج وهم في الظلمة، فجلس ليلةً يبكي من الفرح، ويقول: بأيّ يد قد كانت منّي، بأيّ طاعةٍ تنعم عليّ بأن أترَك على مثل هذه الحال!

لقي هَرِم بن حَيّان أُوَيساً القَرنِيّ، فقال: السلام عليك يا أويسَ بن عامر! فقال: وعليك السّلام يا هَرِم بن حيّان، فقال هَرِم: أما إنّي عَرَفْتُك بالصّفة، فكيف عرفتني؟ قال: إنّ أرواح المؤمنين لتُشام كما تشام الخيل، فيعرف بعضُها بعضاً. قال: أوصِني، قال: عليك بسِيف البحر، قل: فمن أين المعاش؟ قال: أفّ لك! خالطت الشكّ الموعظة، أتفرّ إلى الله بدينك وتتهمه في رزقك!

منصور الفقيه:

الـــمَـــوْتُ أسْـــهَـــلُ عِـــنْـــدِي   بَـــيْـــن الـــقَـــنَـــا وَالأسِـــنَّـــهْ
والـــخَـــيْـــلُ تـــجـــرِي   سِـــراعـــاً مـــقـــطَّـــعـــاتِ الأعـــنَّـــهْ
مِـــنْ أن يـــكـــون لِـــنَـــذْلٍ   عَـــلَـــيَّ فَـــضْـــلٌ وَمِـــنَّـــهْ

أعرابيّ:

أتـيْـئـس أنْ يـقـارِنَـك الـنَّـجَـاحُ   فـأيـن الـلّـهُ والْـقَـدَرُ الـمُـتـاحُ

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: «إيّاك والطمع، فإنّه فقر حاضر، وعليك باليأس مِمّا في أيدِي الناس»[1].

حكيم: أحسنُ الأحوال حال يَغْبِطُكَ بها مَنْ دونك، ولا يحقِرُك لها مَن فوقك.

أبو العلاء المعريّ:

فإن كُنْتَ تَهْوَى العيش فابغِ توَسُّطاً   فعندَ التناهي يَقصُر المتطَاولُ
تُـوَقَّـى الـبدورُ الـنَّـقْصَ وَهْـيَ أهـلّـةٌ   ويُدرِكها النُّقصان، وهْيَ كَوامِلُ

خالد بن صفوان: كن أحسنَ ما تكون في الظاهر حالاً، أقلّ ما تكون في الباطن مآلاً، فإنّ الكريمَ مَنْ كَرُمت عند الحاجة خَلّته، واللئيم من لؤمت عند الفاقة طعمته.

شعر:

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣١٢)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (١٠١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٢١).

وَكَـمْ مَـلِـكٍ جـانـبـتُـه مِـنْ كَـرَاهَـةٍ لإغـلاقِ بـابٍ أو لِـتَـشْـدِيـد حـاجِـبِ
ولـي فـي غـنَـى نـفـسـي مَـرَادٌ ومـذهـبٌ إذا أُبْـهِـمَـتْ دُونـي وُجُـوهُ الـمـذاهـبُ

بعض الحكماء: ينبغي للعاقل أن يكون في دنياه كالمدعوّ إلى الوليمة، إن أتته صحفة تناولها، وإن جازته لم يرصدها ولم يطلبها.

٤٦ – ومن كلام له عليه السلام عند عزمه على المسير إلى الشام

الأصل: «اَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ ٱلْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ ٱلْمَنْظَرِ، فِي ٱلْأَهْلِ وَٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ. ٱللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ»(١)، وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، والمُسْتَصْحَبُ لا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً.

قال الرضيّ رحمه الله: وابْتداء هذا الكلام مرويٌّ عن رسو الله صلى الله عليه وآله، وَقَد قَفَّاه أَمِيرُ المؤمنينَ عليه السلام بأبلَغ كلامٍ، وتمَّمَهُ بأحسن تمَام، من قَوْله: «ولا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ»، إلى آخرِ الفصل.

الشرح: وَعْثاء السفَر: مشقّته، وأصل الوَعْث المكان السّهْل الكثير الدّهس، تَغِيبُ فيه الأقدام، ويشقّ على مَنْ يمشي فيه، أَوْعَثَ القوم، أيْ وقعوا في الوَعث. والكآبة: الحزن. والمنقلب، مصدر من انقلب منقلَباً، أي رَجَع، وسوء المنظر: قُبح المرأىٰ.

وصدر الكلام مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في المسانيد الصحيحة، وخَتَمه أميرُ المؤمنين عليه السلام وتمّمه يقول: «ولا يجمعهما غَيْرُك»، وهو الصحيح، لأنّ مَنْ يُسْتَصْحَبُ لا يكون مستخلَفاً، فإنه مستحيل أنْ يكونَ الشيء الواحد في المكانين مقيماً وسائراً، وإنما تصِحّ هذه القضية في الأجسام، لأنّ الجسم الواحد لا يكون في جهتين في وقتٍ واحد.

فأمّا ما ليس بجسم وهو الباريء سبحانه، فإنه في كلّ مكان، لا عَلَى معنى أنّ ذاتَه ليست مكانِيّة، وإنما المراد علمه وإحاطتُه ونفوذ حكمه وقضائه وقدرَه، فقد صدق عليه السلام أنه المستخلَف وأنه المستصحب، وأنّ الأمرَيْن مجتمعان له جلّ اسمه.

(١) أخرجه النسائي في الاستعاذة، باب: الاستعاذة من كآبة المنقلب (٥٥٠١)، وأبو داود في الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا سافر (٢٥٩٨)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: باقي المسند (٩٣١٦).

وهذا الدعاء دَعَا به أمير المؤمنين عليه السلام بعد وَضْعِ رجله في الركاب، من منزله بالكوفة متوجّهاً إلى الشام لحرب معاوية وأصحابه، ذكره نَصْر بن مزاحم في كتاب «صفين» وذكره غيره أيضاً من رواة السيرة.

ما قاله علي عليه السلام يوم خروجه من الكوفة

ال نصر: لما وضَعَ عليّ عليه السلام رِجْله في رِكاب دابّته يوم خرج من الكوفة إلى صِفّين، قال: بسم الله، فلّما جلس على ظهرها، قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1] اللّهمّ إنّي أعوذ بك من وَعْثاء السفَر... إلى آخر الفصل. وزاد فيه نصر: «ومِنَ الحَيْرَةِ بعد اليقين». قال: ثم خرج أمامه الحرّ بن سهم بن طَرِيف، وهو يرتجز ويقول:

يَا فَرَسِي سِيرِي وَأُمّي الشَّامَا ... وقَطِّعِي الحُزُونَ والأعلاما
ونَابِذِي مَنْ خَالَفَ الإمَاما ... إني لأرْجُو إنْ لَقِينَا العَامَا
جَمْعَ بَنِي أميّةَ الطَّغَامَا ... أن نقتل العاصِيَ والهُمَاما
وأن نُزِيلَ مِنْ رِجَالٍ هَامَا

قال: وقال حبيبُ بن مالك، وهو على شُرْطَة عليّ عليه السلام، وهو آخذٌ بِعنَان دابتّه: يا أمير المؤمنين، أتخرجُ بالمسلمِينَ فيُصيبوا أجْرَ الجهاد بالقتال، وتخلّفني بالكوفة لَحِشْرِ الرجال! فقال عليه السلام: إنّهم لَنْ يُصيبوا من الأجر شيئاً إلا كنتَ شريكَهم فيه، وأنت هَاهُنا أعظم غِناء عنهم منك لو كُنْتَ معهم. فخرج عليّ عليه السلام، حتى إذا حَاذَى الكوفة صلّى ركعتين[2].

قال: وحدّثنا عمرو بن خالد، عن أبي الحسين زيد بن عليّ عليه السلام، عن آبائه: أنّ علياً عليه السلام خرج وهو يريد صِفّين، حتى إذا قطع النَّهْر، أمر مناديَه، فنادى بالصلاة، فتقدّم فصلّى ركعتين، حتى إذا قضى الصلاة، أقبلَ على الناس بوجهه، فقال: أيّها الناس، ألا مَنْ كان مُشَيِّعاً أو مقيماً فليتمّ الصلاة، فإنا قوم سَفْر، ألا ومَنْ صَحِبَنا فلا يصومَنّ المفروض. والصلاة المفروضة ركعتان.

قال نصر: ثم خرج حتى نزل دير أبي موسى - وهو من الكوفة على فرسخين - فصلّى به العصر، فلما انصرف من الصلاة، قال: سبحان الله ذي الطَّوْل والنعم! سبحان الله ذي القدْرة والإفضال، أسأل الله الرِّضا بقضائه، والعملَ بطاعته، والإنابة إلى أمره، إنه سميع الدعاء.

قال نصر: ثم خَرَج عليه السلام حتى نزل على شاطىء نَرْس - بين موضع حَمّام أبي بُرْدة وحَمّام عمر - فصلّى بالناس المَغْرب، فلما انصرف، قال: الحمدُ لله الذي يُولِج اللَّيْل في النهار،

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) انظر وقعة صفين لابن مزاحم: ١٣٣.

ويولج النّهار في الليل، والحمد لله كلما وَقَبَ ليل وغَسَق، والحمدُ لله كُلَّما لاح نجم وخَفَق.

ثم أقام حتى صلى الغداة، ثم شخص حتى بلغ إلى قبة قُبِّين، وفيها نخل طُوال إلى جانب البيعة من وراء النهر، فلما رآها، قال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[1]. ثم أقحم دابته النهر، فعبر إلى تلك البيعة فنزلها، ومكث قَدْر الغداء.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن محمد بن مِخْنَف بن سليم قال: إنّي لأنظر إلى أبي وهو يساير عليًّا عليه السلام، وعليّ يقول له: إنّ بابل أرضٌ قد خُسِفَ بها، فحركْ دابتك لعلّنا نصلّي العصر خارجاً منها. فحرّك دابتّه، وحَرّك الناس دوابهم في أثره، فلما جاز جِسْر الفرات، نزلَ فصلّى بالناس العَصْر.

قال: حدثني عمر بن عبد اللّه بن يعلى بن مرة الثقفيّ، عن أبيه، عن عبد خَير، قال: كنت مع عليّ أسير في أرض بابل، قال: وحضرتِ الصلاة صلاة العصر، قال: فجعلنا لا نأتي مكاناً إلا رأيناه أفْيَحَ من الآخر، قال: حتى أتيْنا على مكانٍ أحسن ما رأينا، وقد كادت الشمسُ أن تغيب. قال: فنزل عليٌّ عليه السلام، فنزلت معه، قال: فدعا الله، فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر. قال: فصليت العصر، ثم غابت الشمس، ثم خرج حتى أتى دير كعب، ثم خرج منه فبات بساباط، فأتاه دهاقينها يعرضون عليه النُّزُل والطعام، فقال: لا، ليس ذلك لنا عليكم. فلما أصبح وهو بمُظْلم ساباط، قرأ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾[2].

قال نصر: وبلغ عمرو بن العاص مسيرُه فقال:

لَا تَحْسَبَنِّي يا عليٌّ غَافِلَا ... لأُورِدَنَّ الكُوفَةَ القَنَابِلَا
بِجَمْعِيَ العامَ وَجَمْعِي قَابِلَا

فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال:

لَأُورِدَنَّ العاصيَ ابنَ العَاصِي ... سَبْعِينَ ألفاً عَاقِدِي النَّوَاصِي
مُسْتَحْقِبِينَ حَلَقَ الدِّلَاصِ ... قَدْ جَنَبُوا الخَيْلَ مَعَ القِلَاصِ[3]
أُسُودَ غِيلٍ حِينَ لَا مَنَاصِ

علي عليه السلام في كربلاء: واهاً لكِ يا تربة

قال نصر: وحدثنا منصور بن سلام التميميّ، قال: حدّثنا حيان التَّيْميّ، عن أبي عبيدة، عن هرثمة بن سليم، قال: غزوْنا مع عَلَيّ عليه السلام صِفّين، فلما نزل بكَرْبَلاء صلّى بنا، فلما سلّم رفع إليه من تُربتها فشمّها، ثم قال: واهاً لك يا تُرْبة! ليُحشَرَنَّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب.

---

(١) سورة قٓ، الآية: ١٠.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٨.
(٣) الدلاص: الأملس. اللسان، مادة (دلص).

قال: فلما رجع هَرْثمة من غزاته إلى امرأته جَرْداء بنت سمير - وكانتْ من شيعة عليّ عليه السلام - حدّثها هرثمة فيما حدّث، فقال لها: ألا أعجّبُك من صديقك أبي حسن! قال: لما نزلْنا كَرْبلاء، وقد أخذ حَفْنَة مِنْ تربتها فشمّها، وقال: واهاً لك أيّتها التُّربة! ليُحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب». وما عِلْمه بالغيب؟ فقالت المرأة له: دَعْنا منك أيها الرجل، فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يَقُلْ إلا حقًّا.

قال: فلما بَعَث عُبيد الله بن زياد البَعْث الذي بَعَثه إلى الحسين عليه السلام، كنتُ في الخيل التي بَعَثَ إليهم، فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه، عَرَفْتُ المنزل الذي نَزلْنا فيه مع عليّ عليه السلام، والبُقْعة التي رفع إليه من تُرْبتها والقول الذي قاله، فكرِهْتُ مسيري، فأقبلت على فَرَسِي حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلّمت عليه، وحدّثته بالذي سمعت من أبيه في هذا المنزل، فقال الحسين: أمعنا أم علينا؟ فقلت: يا بن رسول الله، لا معك ولا عليك، تركتُ ولدي وعِيالي أخاف عليهم من ابن زياد، فقال الحسين عليه السلام: فولِّ هرباً حتى لا ترى مقتلنا، فوالّذي نفس حسين بيده لا يرى اليوم مقتلنا أحدٌ ثم لا يعينُنا إلا دخل النار.

قال: فأقبلتُ في الأرض أشتدّ هرباً، حتى خَفِيَ عليَّ مقتلهم.

قال نصر: وحدثنا مُصعب، قال: حدثنا الأجلح بن عبد الله الكِنديّ عن أبي جُحيفة، قال: جاء عُروة البارقيّ إلى سعد بن وهب، فسأله فقال: حديث حَدّثتناه عن عليّ بن أبي طالب، قال: نعم، بعثني مِخْنف بن سليم إلى عليّ عند توجّهه إلى صِفّين، فأتيته بكَرْبلَاء، فوجدته يُشير بيده، ويقول: هاهنا! فقال له رجل: وما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: ثَقَل لآل محمد ينزل هاهنا، فويل لهم منكم، وويل لكم منهم! فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تَقْتلونهم، وويلٌ لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار.

قال نصر: وقد روي هذا الكلام على وجه آخر، أنه عليه السلام قال: «فويلٌ لكم منهم، وويل لكم عليهم»، فقال الرجل أمّا «ويلٌ لنا منهم»، فقد عرفناه، فويل لنا عليهم، ما معناه! فقال: تَرَوْنَهم يُقتلون لا تستطيعون نُصْرتهم.

قال نصر: وحدثنا سعيد بن حكيم العبسيّ، عن الحسن بن كثير، عن أبيه، أنّ عليًّا عليه السلام أتى كَرْبلاء، فوقف بها، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، هذه كَرْبَلاء، فقال: «ذات كَرْب وبلاء»، ثم أومأ بيده إلى مكان، آخر، فقال: هاهنا مَرَاقُ دمائهم، ثم مضى إلى ساباط.

مفارقة علي عليه السلام والمسير إلى الشام

وينبغي أن نذكرها هنا ابتداء عزمه عَلَى مفارقة الكُوفة، والمسير إلى الشام وما خاطب به أصحابه، وما خاطبوه به، وما كاتب به العمال وكاتبوه جواباً عن كتبه، وجميع ذلك منقول من كتاب نَصْر بن مزاحم.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود، قال: لما أراد عليّ عليه السلام المسيرَ إلى الشام، دعا مَنْ كان معه من المهاجرين والأنصار، فجمعهم، ثم حَمِد الله وأثنى عليه، وقال: أما بَعْد، فإنّكم ميامين الرأي، مَراجيح الحِلْم، مبارَكو الأمر، ومقاويل بالحقّ، وقد عَزَمْنا عَلَى المسير إلى عَدُوّنا وعدوّكم، فأشيروا علينا برأيكم.

فقام هشام بن عتبة بن أبي وقاص، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعدُ يا أمير المؤمنين، فأنا بالقوم جِدّ خَبِير، هم لك ولأشياعك أعداء، وهم لمن يَطْلب حَرْثَ الدنيا أولياء، وهم مقاتلوك ومجادلوك الجُهال جَهْداً، مشاحَة على الدنيا، وضَنًّا بما في أيديهم منها، ليس لهم إرْبة غيرها، إلاّ ما يخدعون به الجُهال من طلب دم ابن عفّان، كذبوا ليس لدمه ينفِرون، ولكنّ الدنيا يطلبون، انهض بنا إليهم، فإن أجابوا إلى الحقّ فليس بعد الحقّ إلا الضلال، وإن أبَوْا إلا الشقاق فذاك ظنّي بهم، والله ما أراهم يُبايعون وقد بَقِيَ فيهم أحد ممّن يُطاع إذا نَهى، ويُسمع إذا أمَر.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الحارث بن حصيرة، عن عبد الرحمن بن عبيد عن أبي الكَنود أنّ عمار بن ياسر قام فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: يا أميرَ المؤمنين، إن استطعت ألاّ تُقِيم يوماً واحداً فافعل، اشخص بنا قبل استعار نار الفَجَرة، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، وادْعُهم إلى حَظّهم ورشدهم فإن قَبِلُو سَعِدُوا وإنْ أبَوْا إلّا حربَنا، فوالله إنّ سَفْكَ دمائهم، والجِدّ في جهادهم لَقُربة عند الله، وكرامة منه.

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، انْكَمِش بنا إلى عدوّنا ولا تعرّج، فوالله لَجاهدهم أحَبُّ إليّ من جهاد الترك والروم، لادهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان. إذا غَضِبُوا على رجل حَبَسوه وضربوه وحرموه وسيّروه، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال، ونحن لهم فيما يزعمون قَطِين - قال: يعني رقيق.

فقال أشياخ الأنصار، منهم خُزيمة بن ثابت وأبو أيوب وغيرهما: لِمَ تقدَّمْتَ أشياخَ قومك وبدأتَهم بالكلام يا قيس؟ فقال: أما إني عارف بفضلكم، معظّم لشأنكم، ولكنّي وجدتُ في نفسي الضِّغْن الذي في صدوركم جاش حين ذكرتِ الأحزاب.

فقال بعضهم لبعض: لِيَقمْ رجلٌ منكم فلْيُجبْ أميرَ المؤمنين عن جماعتكم، فقام سهل بن حُنَيف، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، نحن سِلْمٌ لمن سَالَمْتَ، وحَرْب لمن حاربت، ورأينا رأيُك، ونحن يمينُك، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة فتأمرَهم بالشُّخوص، وتخبرهم بما صنع لهم في ذلك من الفضل، فإنهم أهلُ البلد وهم الناس، فإن

استقاموا لك استقام لك الذي تُريد وتطلب، فأما نحن فليس عليك خلاف مِنّا، متى دعوتَنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك.

قال نصر: فحدّثنا عمر بن سعد، عن أبي مِخْنف، عن زكريا بن الحارث، عن أبي خُشيش، عن مَعبد، قال: قام عليٌ عليه السلام خطيباً علَى مِن منبره، فكنتُ تحت المنبر، اسمع تحريضه الناس وأمرَه لهم بالمسير إلى صِفّين لقتال أهل الشام، فسمعته يقول: سيروا إلى أعداء اللّه، سيروا إلى أعداء القرآن والسّنَن، سيروا إلى بقية الأحزاب وقَتَلة المهاجرين والأنصار. فقام رجل من بني فَزارة، فقال له: أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلَهم لك، كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلتهم! كلّا، ها اللّهِ إذاً لا نفعل ذلك.

فقام الأشتر، فقال: مَنْ هذا المارق؟

فهرب الفزاريّ، واشتدّ الناس عَلَى إثره، فلحِق في مكانٍ من السوق تُبَاع فيه البراذين، فوطؤه بأرجلهم، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قُتِل، فأتى عليّ عليه السلام، فقيل له: يا أمير المؤمنين، قُتِل الرجل، قال: ومَنْ قَتله؟ قالوا: قتلتْه هَمْدان ومعهم شَوْب من الناس، فقال: قتيلُ عِمِّيَّة، لا يُدْرَى مَنْ قتله! ديته من بيت مال المسلمين. فقال بعض بني تميم اللات بن ثعلبة:

أعـوذُ بـربِّـي أن تـكـونَ مَـنِـيَّـتـي ... كـمـا مَـاتَ فـي سُـوقِ الـبَـرَاذِيـنِ أرْبَـدَ
تَـعَـاوَرَه هَـمْـدانُ خَـفْـقَ نِـعَـالِـهِـمْ ... إذا رُفِـعَـتْ عـنـه يـدٌ وُضِـعَـتْ يَـدُ

فقام الأشتر، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يهدّنك ما رأيت، ولا يُؤيِسَنّكَ مِنْ نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقيّ الخائن، إنّ جميعَ مَنْ ترى من الناس شيعتُك، لا يرغبون بأنفسهم عن نفسك، ولا يحبّون البقاء بعدك، فإنْ شئت فسِرْ بنا إلى عدوّك، فوالله ما ينجو من الموت مَنْ خافه، ولا يعطَى البقاء مَنْ أحبّه، وإنا لَعَلَىٰ بَيّنة من رَبّنا، وإنّ أنفسَنا لن تَمُوت حتى يأتيَ أجلُها. وكيف لا نقاتلُ قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين، وقد وثبتْ عصابة منهم على طائفة من المسلمين بالأمس، وباعوا خَلاقهم بَعَرضٍ من الدنيا يسير!

فقال عليٌّ عليه السلام: الطريق مُشْتَرك، والناس في الحقّ سواء، ومَنِ اجتهد رأيه في نصيحة العامة فقد قضى ما عليه. ثم نزل فدخل منزله.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدثني أبو زهير العبسيّ، عن النضر بن صالح أن عبد اللّه بن المعتَمّ العبسيّ وحنظلة بن الربيع التميميّ، لما أمر عليٌّ عليه السلام الناس بالمسير إلى الشام دَخَلا عليه في رجال كثير من غَطفَان وبني تميم، فقال له حنظلة: يا أمير المؤمنين، إنا قَدْ

مشينا إليك في نَصِيحة فاقبلها، ورأينا لك رأياً فلا تردّنّه علينا، فإنّا نظرنا لك ولمن معك، أقِمْ وكاتِبْ هذا الرجل، ولا تعجَلْ إلى قتال أهل الشام، فإنا والله ما نَدْرِي ولا تدري لِمَنْ تكون الغَلَبة إذا الْتقيتم، ولا على مَنْ تكونُ الدَّبْرة!

وقال ابن المعتم مثل قوله، وتكلّم القوم الذين دخلوا معهما بمثل كلامِهما، فحمد علي عليه السلام الله وأثنى، ثم قال:

أما بعدُ فإن اللّه وارثُ العباد والبلاد، وربّ السموات السبع، والأرضين السبع، وإليه ترجعون، يؤتي المُلْك مَنْ يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويَعِزّ مَنْ يشاء، ويذِلّ من يشاء. أما الدَّبْرة، فإنّها على الضالّين العاصين ظفِروا أو ظُفِر بهم، وايمُ الله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

فقام إليه مَعْقِل بن قيس الرّياحيّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ هؤلاء واللّه ما آثروك بنُصْح، ولا دخلوا عليك إلا بِغشّ، فاحذرهم فإنهم أدنى العدّو.

وقال له مالك بن حبيب: إنه بلغني يا أميرَ المؤمنين أنّ حنظلة هذا يكاتِبُ معاوية، فادْفَعْه إلينا نحبِسْه حتى تنقضِيَ غَزاتك، وتنصرف.

وقام من بني عبس قائد بن بكير وعيّاش بن رَبيعة العبْسيّان، فقالا: يا أميرَ المؤمنين إنّ صاحبنَا عبد اللّه بن المعتم قد بلغنا أنّه يكاتب معاوية، فاحبِسْه أو مَكّنّا من حَبْسه، حتى تنقضِيَ غزاتك ثم تنصرف.

فقالا: هذا جزاء لمن نظر لكم، وأشار عليكم بالرأي فيما بينكم وبين عَدُوّكم.

فقال لهما عليّ عليه السلام: الله بيني وبينكم، وإليه أكِلُكُم، وبه أستظهرُ عليكم، اذهبوا حيث شئتم.

قال نصر: وبعث علي عليه السلام إلى حَنْظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب - وهو من الصحابة - فقال له: يا حنظلة، أنت عَلَيّ أم لي؟ فقال: لا لك ولا عليك. قال: فما تريد؟ قال: أشخص إلى الرُّها، فإنه فَرْج من الفروج، اصمِد له حتى ينقضِي هذا الأمر.

فغضب من قوله خيار بني عمرو بن تميم وهم رهطه، فقال: إنّكم والله لا تغرّوني من ديني، دعوني فأنا أعلم منكم، فقالوا: والله إنْ لم تخرج مع هذا الرجل لا ندعُ فُلانة تخرج معك - لأم ولده - ولا وَلَدَها، ولئن أردت ذلك لنقتلنّك.

فأعانه ناس من قومه واخترطوا سيوفهم، فقال: أجّلوني حتى أنظر. ودخل منزله وأغلق بابه، حتى إذا أمسى هرب إلى معاوية، وخرج من بعده إليه من قومه رجال كثير، وهرب ابن المعتم أيضاً، حتى أتى معاوية في أحد عشر رجلاً من قومه.

وأما حنظلة فخرج إلى معاوية في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه، لكِنّهما لم يقاتلا مع معاوية، واعتزلا الفريقين جميعاً.

وقال: وأمر عليٌّ عليه السلام بهدْم دار حنظلة، فهدمت، هَدَمها عريفُهم شبث بن رِبْعِيّ وبكر بن تميم. فقال حنظلة يهجوهما:

أيا راكباً إمّا عَرَضتَ فَبَلِّغَنْ ... مُغَلْغَلَةً عَنّي سَرَاةَ بني عَمْرو
فأوصِيكُم بالله والبِرّ والتقي ... ولا تنظروا في النّائِبات إلى بكْرِ
ولا شَبَثٍ ذي المَنْخَرَيْن كأنه ... أزبّ جِمالٍ قد رغا ليلة النّفْر

وقال أيضاً يحرّض معاوية بن أبي سفيان:

أبلغْ معاوية بن حَرْب خُطّةً ... ولكل سائلةٍ تَسِيلُ قرارُ
لَا تَقْبَلَنّ دَنِيّةً تَرْضَونَها ... في الأمر حتى تُقتلَ الأنصارُ
وَكَمَا تبوءُ دماؤُهُمْ بدمائِكُمْ ... وَكَمَا تُهدَّمُ بالدِّيار ديار
وتُرى نساؤهُمُ يَجلْنَ حَواسِراً ... ولهنّ من ثكل الرجال جُؤَار[1]

قال نصر: حدّثنا عمر بن سعد، عن سعد بن طريف، عن أبي المجاهد، عن المحلّ بن خليفة، قال: قام عديّ بن حاتم الطائيّ بين يدي عليٍّ عليه السلام، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: يا أمير المؤمنين، ما قلتَ إلا بعلم، ولا دعوتَ إلا إلى حقٍّ، ولا أمرتَ إلا بِرُشْدٍ، ولكنْ إذا رأيت أن تستأنيَ هؤلاء القوم وتستديمهم - حتى تأتيَهم كتُبك، ويَقْدَمَ عليهم رُسُلك - فعلت. فإن يقبلوا يُصيبوا رُشْدَهم، والعافية أوسعُ لنا ولهم، وإن يتمادَوْا في الشِّقاق ولا ينزِعوا عن الغيّ فسرْ إليهم. وقد قدّمنا إليهم العذر، ودَعَوْناهم إلى ما في أيدينا من الحق، فوالله لهم من الحق أبعد، وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم أمس بناحية البصرة لمّا دعوناهم إلى الحق فتركوه، ناوجْنَاهم بُرَاكاء[2] القتالِ، حتى بلغنا منهم ما نحب، وبلّغ الله منهم رضاه.

فقام زيد بن حُصين الطائيّ - وكان من أصحاب البرانس المجتهدين - فقال: الحمدُ لله حتى يرضى، ولا إله إلا الله ربنا، أما بعد: فوالله إنْ كنّا في شك من قتال مَنْ خالفنا، ولا تصلح لنا النّية في قتالهم حتى نستديمَهم ونستأنيَهم - ما الأعمال إلا في تَبَاب، ولا السعي إلا في ضلال، والله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[3]، إننا والله ما ارتبنا طَرْفة عين فيمن يتبعونه، فكيف باتباعِه القاسية قلوبهم، القليل من الإسلام حظُّهم، أعوانِ الظلْمة وأصحاب الجوْر والعدوان ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار، ولا التابعين بإحسان.

---

(١) الجؤار: رفع الصوت مع تضرع واستغاثة. اللسان، مادة (جأر).
(٢) البراكاء: سامة القتال. اللسان، مادة (برك). (٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

فقام رجل من طيّىء فقال: يا زيد بن حصين، أكلام سيدنا عديّ بن حاتم تُهَجِّن! فقال: زيد: ما أنتم بأعْرَف بحقِّ عدي منّي، ولكني لا أدَعُ القول بالحقّ وإن سَخِط الناس.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الحارث بن حصين قال: دخل أبو زينب بن عوف، عَلَى عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، لئن كنّا على الحق لأنت أهدانا سبيلاً، وأعظمُنا في الخير نصيباً، ولئن كنا على ضلال، إنّك لأثقَلنا ظهراً وأعظمنا وِزراً، قد أمرتنا بالمسير إلى هذا العدوّ، وقد قطعْنا ما بيننا وبينهم من الولاية، وأظهرْنا لهم العداوة، نريد بذلك ما يعلمه الله تعالى من طاعتك، أليس الذي نحن عليه هو الحقّ المبين، والذي عليه عَدُوُّنا هو الحوْب الكبير؟!

فقال عليه السلام: بَلَى، شهدت أنّك إنْ مضيت معنا ناصراً لدعوتنا، صحيح النية في نصرنا، قد قطعتَ منهم الولاية، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت، فإنك ولي الله، تَسْبَح في رضوانه، وتركُض في طاعته، فأبشر أبا زينب.

وقال له عمار بن ياسر: اثْبُت أبا زينب، ولا تشكّ في الأحزاب، أعداء اللّه ورسوله.

فقال أبو زينب: ما أحبّ أن لي شاهديْن من هذه الأمة شهدا لي عما سألت من هذا الأمر الذي أهمني مكانكما.

قال: وخرج عمار بن ياسر، وهو يقول:

سِيرُوا إلى الأحزَابِ أعداءِ النبيّ سِيرُوا فخيرُ النَّاس أتباعُ عليّ
هذا أوان طابَ سلُّ المشرَفيّ وقودُنا الخيلَ وَهَزُّ السَّمَهريّ

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن أبي رَوْق، قال: دخل يزيد بن قَيْس الأرحَبي عَلَى عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، نحنُ أولُوا جِهَازٍ وعَدّة، وأكثر الناس أهلَ قوّة، ومَنْ ليس به ضَعْف ولا عِلّة، فمرْ منادِيَك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنُّخَيْلة؛ فإنّ أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النّؤوم، ولا مَنْ إذا أمكنته الفرص أجّلها، واستشار فيها، ولا مَنْ يؤخّر عمل الحرب في اليوم لَغدٍ وبعد غَدٍ.

فقال زياد بن النّضر: لقد نصحَ لك يزيدُ بن قيس يا أمير المؤمنين، وقال ما يعرف، فتوكّل على اللّه، وثق به، واشخَصْ بنا إلى هذا العدوّ راشداً مُعاناً، فإن يُرِد اللهُ بهم خيراً لا يتركوك رغبة عنك إلى مَنْ ليس له مِثْلُ سابِقتك وقَدمِك، وإلا يُنيبوا ويقبلوا ويأبَوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هَيّناً، ونرجو أن يصرعهم الله مصارعَ إخوانهم بالأمس.

ثم قام عبدُ الله بن بُدَيلِ بن وَرْقاء الخُزاعيّ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ القوم لو كانوا اللهَ يريدون، ولله يعملون، ما خالفونا، ولكنّ القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة وحبًّا للأثَرَة،

وضَنًّا بسلطانهم، وكُرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم، وعلى إحَنٍ[1] في نفوسهم، وعداوة يجدُونها في صدورهم لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قَديمة، قتلتَ فيها آباءَهم وأعوانهم.

ثم التفت إلى الناس، فقال: كيف يُبايع معاوية عليًّا، وقد قَتَل أخاه حنظَلة، وخالَه الوليد، وجدّه عُتْبة في موقف واحد، واللّه ما أظنّهم يفعلون، ولن يستقيموا لكم دون أن تُقْصَفَ فيهم قَنَا المُرّان، وتقطع على هامهم السّيوف، وتنثَر حواجبهم بعَمَد الحديد، وتكون أمورٌ جمّة بين الفريقين.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد عن الحارث بن حصين عن عبد اللّه بن شَريك، قال: خرج حُجْر بن عديّ وعَمْرو بن الحَمِق، يُظهران البراءة من أهل الشام، فأرسل عليّ عليه السلام إليهما أنْ كُفّا عَمّا يبلُغني عنكما، فأتياه، فقالاً: يا أمير المؤمنين، ألسنا محقّين؟ قال: بلى، قالا: أو ليسُوا مُبطِلين؟ قال: بلى، قالا: فلم منعتّنا مِنْ شتِمهم؟ قال: كرهتُ لكم أن تكونوا لَعّانين شَتّامين تشتِمون وتتبرّؤون، ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم فقلتم: مِنْ سيرتِهم كذا وكذا، ومِنْ أعمالهم كذا وكذا، كان أصوبَ في القول، وأبلغَ في العذْر، وقلتم مكان لعْنكم إياهم، وبراءتِكم منهم: اللّهمّ أحقِنْ دماءَهم ودماءَنا، وأصلِح ذات بينهم وبيننا، واهْدِهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقَّ منهم مَنْ جَهِله، ويرعويَ عن الغيّ والعُدْوان مِنْهم من لَهِج به، لكانَ أحبَّ إليّ وخيراً لكم.

فقالا: يا أميرَ المؤمنين، نقبَلُ عِظَتك، ونتأدّب بأدبك.

قال نصر: وقال له عمرو بن الحمقِ يومئذٍ: والله يا أميرَ المؤمنين إنّي ما أحببتُك ولا بايعتُك عَلَى قَرابةٍ بيني وبينك، ولا إرادة مال تُؤتينيه، ولا التماسِ سلطان ترفع ذكرى به، ولكنّني أحببتك بخصال خمس: أنك ابنُ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، ووصيُّه، وأبو الذرّية التي بقيَتْ فينا من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأسبقُ الناس إلى الإسلام، وأعظمُ المهاجرين سَهْماً في الجهاد، فلو أنّي كُلِّفتُ نقلَ الجبالِ الرّواسي، ونزحَ البحور الطوامي، حتى يأتِي عليّ يومي في أمرٍ أقوّي به وليّك، وأهينُ عدوك، ما رأيت أنّي قد أدّيت فيه كلّ الذي يحقّ عليَّ من حقك.

فقال عليّ عليه السلام: اللهم نَوِّر قلبه بالتقى، واهده إلى صراطك المستقيم، ليتَ أنّ في جُنْدي مائة مثلك، فقال حُجْر: إذاً واللّه يا أميرَ المؤمنين، صَحّ جندُك، وقلّ فيهم مَنْ يغشّك.

قال نصر: وقام حجر بن عدي فقال: يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب وأهلها الذين نلقحها ونَنْتِجُها، قد ضارستْنا وضارسناها، ولنا أعوانٌ وعشيرةٌ ذات عدد ورأي مجرّب، وبأس محمود، وأزمّتُنا منقادة لك بالسمع والطاعة، فإن شرّقت شرّقنا. وإنْ غرّبت غرّبنا، وما أمرتَنا

(١) الإحن: الحقد، اللسان، مادة (أحن).

به من أمرٍ فعلنا. فقال عليّ عليه السلام: أكلّ قومك يرى مثلَ رأيك؟ قال: ما رأيتُ منهم إلا حُسْناً، وهذه يديّ عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة. فقال له عليّ عليه السلام خيراً.

قال نصر: حدّثنا عمر بن سعد، قال: كتب عليه السلام إلى عماله حينئذٍ يستفزُّهم، فكتب إلى مخنف بن سليم:

سلامٌ عليك، فإني أحْمَد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنّ جهاد مَنْ صَدَف عن الحقّ رغبة عنه، وعبّ في نُعاس العَمى والضلال، اختياراً له - فريضةٌ على العارفين. إنّ الله يَرْضَى عمّن أرضاه، ويسخَط عَلَى من عصاه، وإنا قد هممنا بالسَّيْر إلى هؤلاء القوم الذين عَمِلوا في عباد الله بغير ما أنزل الله، واستأثروا بالفيء، وعطّلوا الحُدود، وأماتوا الحقّ، وأظهروا في الأرض الفساد، واتخذوا الفاسقين وليجَةً من دون المؤمنين، فإذا وليٌّ لله أعظَمَ أحداثهم أبغضوه وأقصَوْه وحَرَموه، وإذا ظالم ساعدَهم عَلَى ظُلْمهم أحبوه، وأدنَوْه وبرّوه، فقد أصرّوا على الظُّلم، وأجمعوا على الخلاف، وقديماً ما صدُّوا عن الحق، وتعاونوا على الإثم، وكانوا ظالمين.

فإذا أُتيتَ بكتابي هذا، فاستخلِفْ على عَمَلِك أوثقَ أصحابك في نفسك، وأقبِلْ إلينا، لعلك تَلْقى معنا هذا العدوّ المُحِلّ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجامع الحَق، وتباين الباطل، فإنه لا غَنَاء بنا ولا بك عن أجر الجهاد، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة سبع وثلاثين.

قال: فاستعمل مِخْنف على أصبهان الحارث بن أبي الحارث بن الربيع، واستعمل عَلَى هَمَذان سعيد بن وهب، وكلاهما من قومه، وأقبل حتى شهد مع عليّ عليه السلام صفين.

قال نصر: وكتب عبدُ الله بن العباس من البصرة إلى عليّ عليه السلام يذكُر له اختلافَ أهل البصرة، فكتب إليه عليّ عليه السلام: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بنَ عباس.

أما بعدُ، فقد قَدِم عليّ رسولُك، وقرأتُ كتابَك، تذكُرُ فيه حالَ أهل البصرة واختلافَهم بعد انصرافي عنهم، وسأخبرك عن القوم، وهم بين مقيم لرغبة يرجوها، أو خائف مِنْ عُقوبة يخشاها، فأرْغِب راغبَهم بالعدل عليه، والإنصاف له والاحسان إليه، واحلُلْ عُقْدة الخوف عن قلوبهم، وانته إلى أمري ولا تعدُه، وأحسِنْ إلى هذا الحيّ من ربيعة وكلّ مَنْ قبلَك فأحسن إليه ما استطعت إن شاء الله.

قال نصر: وكتب إلى أمراء أعْمَاله كلّهم بنحو ما كتب به إلى مخنف بن سليم، وأقام ينتظرهم.

قال: فحدثنا عمر بن سعد، عن أبي رَوْق، قال: قال زياد بن النضر الحارِثيّ لعبد الله بن

بُديل: إن يومنَا اليوم عَصَبْصَب[١] ما يصبر عليه إلا كل مشيَّع القلب، الصادق النّية، رابط الجأش. وايم الله ما أظنّ ذلك اليوم يبقى منهم، ولا منا إلا الرُّذَال.

فقال عبد الله بن بُديل: أنَا والله أظنّ ذلك. فبلغ كلامُهما عليًّا عليه السلام، فقال لهما: ليكُنْ هذا الكلام مخزوناً في صُدُوركما لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع، إن الله كتبَ القتْل على قوم والموتَ على آخرين، وكلٌّ آتية منيَّته كما كتب الله له، فطوبى للمجاهدين في سبيله، والمقتولين في طاعته!

قال نصر: فلما سمع هاشم بن عُتْبة ما قالاه، أتى علياً عليه السلام، فقال: سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم، القاسية قلوبهم، الذين نبَذوا كتابَ اللّه وراء ظهورهم، وعَمِلوا في عباد اللّه بغير رضا اللّه، فأحلُّوا حرامه، وحرموا حلاله، واستوى بهم الشيطان، ووعدَهم الأباطيل، ومنّاهم الأمانيّ، حتى أزاغهم عن الهدى، وقَصَد بهم قَصْد الرّدَى، وحبّب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها، كرغبتنا في الآخرة وانتجاز مَوْعد ربنا. وأنت يا أمير المؤمنين أقربُ الناس مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله رحِمًا، وأفضلُ الناس سابقة وقَدَماً، وهمْ يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذي نعلم، ولكن كتِب عليهم الشقاء، ومالت بهم الأهواء، وكانوا ظالمين، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة، وقلوبنا منشرحةٌ لك ببذل النصيحة، وأنفسنا تنصُرك عَلَى مَنْ خالفك، وتولى الأمر دونك جَذِلةً، واللّه ما أحبّ أنّ لي ما على الأرض ممّا أقلّت، ولا ما تحت السماء ممّا أظلّت، وأني واليتُ عدواً لك، أو عاديتُ ولياً لك.

فقال عليه السلام: اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك، والمرافقة لنبيّك.

قال نصر: ثم إن علياً عليه السلام صَعِد المنبر فخطب الناس، ودعاهم إلى الجهاد، فبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم قال:

إن اللّه قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فأنصبوا أنفسكم في أداء حَقّه، وتنجزُوا موعوده، واعلموا أنّ اللّه جعل أمْرَاس[٢] الإسلام متينة، وعراه وثيقة، ثم جعل الطاعة حظَّ الأنفس ورضا الرب، وغنيمة الأكياس عند تفريط العجزة، وقد حُمِّلت أمر أسْودِها وأحمرها، ولا قوة إلا باللّه. ونحن سائرون إن شاء اللّه إلا من سَفِهَ نفسه، وتناول ما ليس له وما لا يدركه معاوية وجنده، الفئةِ الطاغية الباغية، يقودهم إبليس، ويُبرق لهم ببارق تسويفه، ويدلّيهم بغروره، وأنتم أعلم الناس بالحلال والحرام، فاستغنوا بما علمتم، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان وارضوا بما عنده من الأجر والكرامة، واعلموا أن المسلوب من سُلِب دينَه وأمانَته،

---

(١) يوم عصبصب: شديدة. اللسان، مادة (عصب).

(٢) الأمراس: جمع مَرَس، وهو جمع مرسة: وهي الحبل. القاموس، مادة (مرس).

والمغرور مَنْ آثر الضلالة على الهدى، فلا أعرفَنّ أحداً منكم تقاعَس عَنّي، وقال: في غيري كفاية، فإن الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل، ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضه يتهدم. ثم إني آمركم بالشدة في الأمر، والجهاد في سبيل الله، وَألاّ تغتابوا مسلماً، وانتظروا للنصر العاجل من الله إن شاء الله.

قال نصر: ثم قام ابنهُ الحسن بن عليّ عليهما السلام، فقال: الحمدُ لله لا إله غيرُه ولا شريك له.

ثم قال: إنّ مما عَظّم الله عليكم من حَقّه، وأسبَغ عليكم من نِعمه ما لا يحصى ذكره، ولا يؤدّى شكره، ولا يبلُغه قولٌ ولا صفة، ونحن إنما غضِبنا لله ولكمْ، إنه لم يجتمع قوم قطّ على أمرٍ واحد إلا اشتدّ أمرُهم، واستحكمت عُقْدتهم. فاحتشِدوا في قتال عدوّكم معاوية وجنوده، ولا تخاذلوا، فإنّ الخذلان يقطعُ نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسِنّة نخوة وعِصْمة، لم يتمنّع قوم قطّ إلا رفع الله عنهم العِلّة وكفاهم جوائح الذلة، وهداهم إلى معالم الملة، ثم أنشد:

والصُّلْحُ تأخُذُ منه ما رضيتَ   والحربُ يكفِيكَ من أنفاسها جُرَعُ

ثم قام الحسينُ بن عليّ عليه السلام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أهلَ الكوفة، أنتم الأحِبّة الكُرَماء، والشّعار دون الدِّثار، جِدُّوا في إطفاء ما دَثَر بينكم، وتسهيل ما توعّر عليكم. ألا إنّ الحرب شَرُّها ذَرِيع وطعمها فظيع، فمن أخذ لها أهْبَتها، واستعدّ لها عدّتها، ولم يألم كلُومَها قبل حلولها فذاك صاحبُها. ومَنْ عاجلها قبل أوانِ فُرْصَتِها، واستبصار سعيه فيها، فذاك قَمِنٌ ألاّ ينفع قومَه، وأن يُهلِك نفسَه، نسأل الله بقوته أن يَدْعمكم بالفيئة ثم نزل.

قال نصر: فأجاب عليًّا عليه السلام إلى السير جُلُّ الناس، إلا أنّ أصحابَ عبد الله بن مسعود أتوْه، فيهم عُبيدة السَّلْمانيّ وأصحابه، فقالوا له: إنا نخرج معكم، ولا نترك عسكرَكم ونعسكر على حِدَة، حتى ننظر في أمركم وأمر أهلِ الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحلّ له أو بَدَا لَنَا منه بَغْيٌ كُنّا عليه. فقال لهم عليٌّ عليه السلام: مَرْحَباً وأهلاً، هذا هو الفقهُ في الدين والعلْم بالسنّة، مَنْ لم يرضَ بهذا فهو خائن جبار.

وأتاه آخرُون من أصحاب عبد الله بن مسعود، منهم الربيع بن خُثَيْم، وهم يومئذٍ أربعمائة رجل، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إنّا قد شككنا في هذا القتال، على معرفتها بفضلك، ولا غَناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين عَمّن يقاتِلُ العدوّ، فولّنا بعض هذه الثغور نكمُن ثم نقاتل عن أهله، فوجّه عليّ عليه السلام بالربيع بن خَيْثم على ثغر الرّيّ، فكان أولُ لواء عَقَده عليه السلام بالكوفة لواء الربيع بن خَيْثَم.

قال نصر: وحدّثني عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد الله بن عَوْف بن الأحمر، أن علياً عليه السلام لم يبرح النُّخَيْلة، حتى قَدِم عليه ابنُ عباس بأهل البصرة. قال: وكان كتاب عليّ عليه السلام إلى ابن عباس:

أما بعدُ، فاشخَصْ إليّ بِمَنْ قِبَلَك من المسلمين والمؤمنين، وذكِّرهم بلائي عندهم، وعَفْوِي عنهم في الحرب، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفَضْل. والسلام.

قال: فلما وصلَ كتابُه إلى ابن عباس بالبصرة، قام في الناس، فقرأ عليهم الكتاب، وحَمِد الله وأثنى عليه، وقال:

أيّها الناس، استعدُّوا للشُّخُوص إلى إمامكم، وانفِروا خِفَافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فإنّكم تقاتلون المحلِّين القاسطين، الذين لا يقرؤون القرآن، ولا يعرفون حكم الكتاب، ولا يَدِينون دينَ الحق مع أميرِ المؤمنين، وابن عَمّ رسول الله، الآمرِ بالمعروف، والناهي عن المنكَر، والصادع بالحقّ والقَيِّم بالهدى، والحاكِم بحكم الكتاب، الذي لا يرتشِي في الحُكْم، ولا يُداهِن الفُجّار، ولا تأخذُه في الله لومةُ لائم.

فقام إليه الأحنفُ بن قيس، فقال: نعم والله لنجيبَنّك، ولنخرجَنّ معك على العُسْر واليسر، والرضا والكُرْه، نحتسب في ذلك الأجْر، ونأملُ به من الله العظيم حسنَ الثواب. وقام خالد بن المعمر السَّدُوسِيّ فقال: سمِعْنا وأطعنا، فمتى اسْتَنْفرْتَنَا نَفَرْنا، ومتى دعوتَنا أجبنا.

وقام عمرو بن مرجوم العبديُّ، فقال: وفَّقَ الله أميرَ المؤمنين، وجمع له أمرَ المسلمين، ولعن المحلّين القاسطين، لا يقرؤون القرآن، نحن والله عليهم حَنقون[1]، ولهم في الله مفارقون، فمتَى أردتَنا صحبكَ خيلُنا ورجالُنا إن شاء الله.

قال: وأجابَ الناسُ إلى المسير، ونَشطوا وخَفّوا، فاستعمل ابنُ عباس على البَصْرة أبا الأسود الدُّؤَليّ وخرج حتى قدم على عليّ عليه السلام بالنُّخَيْلة.

بين محمد بن أبي بكر ومعاوية

قال نصر: وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر، سلامٌ على أهل طاعة الله مِمّن هو سِلْم لأهل ولاية الله. أما بعد فإن الله بجلاله وعظمته وسلطانه وقدرته، خَلَق خَلْقاً بلا عَبَث ولا ضعف في قوته، لا حاجة به إلى خَلْقهم، ولكنه خَلَقهم عبيداً، وجعل منهم شقياً وسعيداً، وغيوياً ورشيداً، ثم اختارهم على عِلْمِه، فاصطفى وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وآله، فاختصّه برسالته، واختاره لوحيه، وائتمنه على أمره، وبعثه رسولاً مصدِّقاً لما بين يديه من الكتب، ودليلاً على الشرائع، فدعا إلى سبيل أمره بالحِكْمة والموعظة الحسنة، فكان أوّلَ مَنْ أجاب وأناب، وصدّق ووافق فأسلم وسلّم أخوه وابنُ عَمة - علي بن أبي طالب عليه السلام فصدّقة بالغيب

(١) الحنق: الغيظ. القاموس، مادة (حنق).

المكتوم، وآثره على كلّ حميم، ووقاه كلَّ هَوْل، وواساه بنفسه في كلّ خوف. فحارب حَرْبه، وسالم سِلْمه، فلم يبرَحْ مبتذِلاً لنفسه في ساعات الأزْل، ومقامات الرَّوْع، حتى بَرَّز سابقاً لا نظير له في جهاده، ولا مقاربَ له في فعله.

وقد رأيتُك تسامِيه وأنت أنت، وهو هو السابق المبرّز في كلّ خير، أوّلُ النَّاس إسلاماً، وأصدق الناس نِيّة، وأطيَبُ الناس ذُرّيّة، وأفضلُ الناس زَوْجَة، وخير الناس ابن عَمّ. وأنت اللعينُ ابن اللعين، لم تَزعلْ أنت وأبوك تَبْغِيان لدين اللّه الغوائل، وتجتهدان على إطفاء نور اللّه، وتجمَعان على ذلك الجموع، وتَبْذُلان فيه المال، وتحالفان في ذلك القبائل، عَلَى هذا مات أبوك، وعلى ذلك خَلَفْتَه والشاهدُ عليك بذلك مَنْ يأوي ويلجأ إليك من بقيّة الأحزاب ورؤوس النفاق والشقاق لرسول الله ﷺ.

والشاهد لعليّ مع فضله وسابقته القديمة أنصارُه الذين ذكرهم اللّه تعالى في القرآن، ففضلّهم وأثنى عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه كتائب وعصائب، يجالدون حولَه بأسيافهم، ويُهرَيقون دماءهم دونه، يرون الفضل في اتّباعه والشِّقَاق والعصيان في خلافه، فكيف - يا لك الويل - تعدِلُ نفسك بعليّ، وهو وارث رسول الله ﷺ ووصيه وأبو ولده، وأوّلُ النَّاسِ له اتباعاً، وآخرهم به عهداً، يخبرُه بسرِّه، ويُشرِكه في أمره، وأنت عدوّه وابن عدوّه، فتمتّع ما استطعتَ بباطِلك، وليمدد لك ابن العاص في غَوايتك، فكأن أجلَك قد انقَضى، وكيدك قد وَهَى، وسوف تستبين لمن تكون العاقبة العليا. واعلم أنّك إنما تكايد ربَّك الذي قد أمِنْتَ كيده، وأيسْتَ من روحه، وهُوَ لَكَ بالمْرصاد، وأنت منه في غرور. وباللّه وبأهل بيت رسوله عنك الغناء! والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه مُعاوية:

من معاوية بن أبي سفيان، إلى الزّاري على أبيه محمد بن أبي بكر. سلاِم على أهل طاعة اللّه، أما بعد، فقد أتاني كتابُك تذكر فيه ما اللّه أهلُه في قدرته وسلطانه، وما أصفَى به نَبِيّه مع كلام ألّفتَه ووضعته لرأيك فيه تضعيف، ولأبيك فيه تعنيف، ذكرتَ حقّ ابن أبي طالب وقديمَ سابقته، وقرابتَه من نبي ﷺ ونصرتَه له، ومواساته إياه في كلّ خوف وهَوْل، واحتجاجَك عليّ، وفخرك بفضل غيرِك لا بفضلك. فاحمد إلٰهاً صرف ذلك الفضل عنك، وجعله لغيرك، فقد كُنّا وأبوك معنا في حياة نبينا، نرى حقّ ابن أبي طالب لازِماً لنا، وفضله مبرزاً علينا. فلما اختار اللّه لنبيه ما عنده، وأتمّ له ما وَعَده، وأظهر دعوتَه، وأفلج حُجَّتَه، قبضه اللّه إليه، فكان أبوك وفاروقُه، أوّل من ابتزّه وخالفه، على ذلك اتّفقا واتسقا، ثم دعَوَاه إلى أنفسهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهمّا به الهموم، وأرادا به العظيم، فبايعهما وسلّم لهما، لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرّهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما. ثم أقاما بعدهما ثالثَهما

عثمان بن عفان، يهتدي بهديهما، ويسير بسيرتهما، فعبتَه أنت وصاحبُك، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، وبطنتُما وظهرتما، وكشفتما له عداوتكما وغِلَّكما، حتى بلغتما منه مناكما، فخذ حذرَك يا بن أبي بكر، فترى وبالَ أمرك، وقِسْ شبرَك بفترك، تقصُرْ عن أن تساويَ أو توازيَ مَنْ يَزِنُ الجبال حلمه، ولا تَلينَ على قَسْرٍ قَناتُه ولا يُدْرِك ذو مَدًى أناتَه، أبوك مَهَّدَ له مِهَادَة وبَنى مُلْكه وشاده، فإن يكنْ ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله، وإن يكن جَوْراً فأبوك أسّه ونحن شركاؤه، فبهَدْيِهِ أخذنا، وبفعله اقتدينا، رأينا أباك فَعل ما فعلَ، فاحتذَيْنا مثاله، واقتدينا بفعالِه، فعِبْ أباك بما بدا لك، أو دعْ. والسلام على من أنابَ، ورجع من غوايته وناب.

قال: وأمر عليٌّ عليه السلام الحارث الأعور أن ينادِيَ في الناس: اخرُجوا إلى معسكركم بالنُّخَيلة، فنادى الحارث في الناس بذلك، وبعث إلى مالك بن حبيب اليربوعيّ صاحب شرطته، يأمره أن يحشُر الناس إلى المعسكر، ودعا عُقْبة بن عمرو الأنصاريّ، فاستخلفه على الكوفة - وكان أصغر أصحاب العَقَبة السبعين - ثم خرج عليه السلام، وخرج الناس معه.

قال نصر: ودعا علي عليه السلام زياد بن النَّضر وشرح بن هانىء - وكانا على مَذْحِج والأشعريين - فقال: يا زياد، اتَّقِ اللّه في كل مُمْسىً ومُصْبَح، وخَفْ على نفسِك الدنيا الغَرور، ولا تأمنها على حال. واعلم أنك إن لم تَزَعْها(١) عن كثير مما تحبّ مخافة مَكْروهة، سَمَتْ بك الأهواء إلى كثير من الضَرر، فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي والظلم والعدوان، فإني قد وليتك هذا الجُند، فلا تستطيلنّ عليهم، إنّ خيرَكم عند اللّه أتقاكم، تعلّم من عالمهم، وعَلّم جاهلهم، واحلم عن سَفِيهِم، فإنك إنما تدرك الخير الحُلم وكَفّ الأذى والجهل.

فقال زياد: أوْصَيْتَ يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيّتك، مؤدياً لأرَبك، يَرَى الرُّشد في نفاذِ أمرك، والغَيّ في تضييع عهدك.

فأمرهما أن يأخذَا في طريق واحد ولا يختلفا، وبعثَهما في اثني عشر ألفاً على مقدمته، وكلٌّ واحد منهما على جماعة من ذلك الجيش، فأخذ شريح يعتزلُ بمن معه من أصحابه على حدَة، ولا يقرب زياداً، فكتب زياد إلى عليّ عليه السلام مع مَوْلىً له يقال له شوذب:

لعبد اللّه عليّ أمير المؤمنين، مِنْ زياد بن النَّضْر:

سلام عليك، فإني أحْمَد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنك ولَّيتني أمرَ الناس،

---

(١) تزعها: تكففها. القاموس، مادة (وزع).

وإن شُرَيحاً لا يرى لي عليه طاعة ولا حقاً، وذلك من فِعْله بين استخفاف بأمرك، وترك لعهدك، والسلام.

وكتب شريح بن هانىء إلى عليّ عليه السلام: لعبد اللّه علي أمير المؤمنين من شُرَيح بن هانىء، سلام عليك، فإني أحمد اللّه إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعدُ، فإنّ زياد بن النضر حين أشركتَه في أمرك، وولّيته جنداً من جنودك، طَغى واستكبر، ومال به العُجب والخُيَلاء والزَّهْو إلى ما لا يَرْضَى اللّه تعالى به من القَوْل والفعل، فإن رأى أميرُ المؤمنين عليه السلام أن يعزِلَه عَنّا ويبعث مكانه مَنْ يحبّ فليفعل، فإنا له كارهون.

والسلام فكتب عليّ عليه السلام إليهما: من عبد اللّه عليّ أمير المؤمنين إلى زياد بن النَّضْر وشُرَيح بن هانىء. سلامٌ عليكما، فإنّي أحمَد إليكما اللّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني قد وَلَّيتُ مقدّمتي زيادَ بن النضر، وأمّرتُه عليها، وشُرَيح بن هانىء عَلَى طائفة منها أمير، فإن انتهى جمعكما إلى بأس، فزياد بن النَّضْر عَلَى الناس كلِّهم، وإن افترقتما فكلُّ واحدٍ منكما أميرُ الطائفة التي ولّيناه أمرَها، واعلما أنّ مقدّمة القوم عيونُهم، وعيونُ المقدّمة طلائعهم، فإذا أنتما خَرَجْتُما من بلادكما فلا تسأما من تَوْجِيه الطّلائع، ومن نَفْضِ الشِّعاب والشّجر والخَمَر في كلّ جانب، كي لا يغترّكما عدوّ، أو يكون لهم كمين. ولا تسيّرَنَّ الكتائبَ والقبائل من لَدُنْ الصبَّاح إلى المساء إلا على تعبئة، فإنْ دهمَكم عدوّ أو غشيَكم مكروه، كنتم قد تقدمتم في التعبئة، فإذا نزلتم بعدوّ أو نزل بكم فليكنْ معسكرُكما في قُبُل الأشراف أو سِفاح الجبال وأثناء الأنهار، كيما يكون ذلك لكم رِدْاءً، وتكون مقاتلتكم من وَجْهٍ واحد أو اثنين، واجعلوا رقباءكما في صياصي الجبال وبأعالي الأشراف، ومناكب الأنهار يروْن لكم، كي لا يأتيكم عدوٌّ من مكان مخافةٍ أو أمن.

وإيّاكم والتفرّق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً، فإذا غشيَكم الليل فنزلتم فحِفّوا عسكرَكم بالرماح والتِّرَسة، ولتكنْ رماتكم من وراء تِرَسِكم ورماحكم يَلُونهم. وما أقُمتم فكذلك فافعلوا كي لا تصابَ لكم غَفْلة، ولا تُلْفَى لكم غِرّة، فما قوم يحفُّون عسكرَهم برماحهم وتِرَستهم من ليلٍ أو نهارٍ إلا كانوا كأنّهم في حصون. واحرُسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نَوْماً حتى تُصْبِحا إلا غِرَاراً أو مَضْمضة. ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبَكما حتى تنتهيا إلى عدوّكما، وليكن كلّ يوم عندي خبركما ورسولٌ مِنْ قِبَلِكما. فإني - ولا شيء إلا ما شاء اللّه - حثيثُ السَّيْر في أثرِكما. عليكما في جَرْيكما بالتُّؤَدة، وإياكما والعَجَلة، إلا أن تمكّنكما فرصة بعد الإعذار والحجّة، وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عَلَيْكُمَا إلا أن تُبدآ، أو يأتيَكما أمري، إن شاء اللّه.

قال نصر: وكتبَ عليّ عليه السلام إلى أمراء الأجناد - وكان قد قسّم عسكرَه أسْبَاعاً - فجعل

على كل سُبْع أميراً، فجعل سعد بن مسعود الثقفيّ على قَيْس وعبد القيس، ومعقِل بن قيس اليربوعيّ على تَميم وضَبّة والرِّباب وقريش وكنانة وأسد، ومِخْنف بن سُلَيم عَلَى الأزْد وبَجيلة وخَثْعم والأنصار وخُزاعة، وحُجْر بن عديّ الكنديّ على كِنْدة وحَضَرموت وقُضاعة، وزياد بن النَّضْر على مَذْحِج والأشعريين، وسعيدَ بن مُرجة الهمْدانيّ على هَمْدان ومَنْ معهم من حِمْير، وعديّ بن حاتم الطائيّ علي طيئ، تجمعهم الدعوة مع مَذْحِج، وتختلف الرايتان: راية مذحِج مع زياد بن النضر، وراية طَيّىء مع عديّ بن حاتم، هذه عساكر الكوفة. وأما عساكر البَصْرة فخالد بن معمر السّدوسيّ على بكر بن وائل، وعمرو بن مرجوم العبديّ على عبْد القيس، وابن شَيمان الأزديّ على الأزد، والأحنف على تَميم وضبّة والرِّباب، وشريك بن الأعور الحارثّ على أهل العالية.

أما بعد، فإني أبرَأ إليكم من مَعَرّة الجنود إلاّ من جوعة إلى شبعة، ومن فقر إلى غنًى، أو عمًى إلى هدًى، فإن ذلك عليهم. فأغرِبوا الناس عن الظلم والعُدْوان، وخذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى اللّه بها عَنّا فيردّ بها علينا وعليكم دعاءنا، فإنه تعالى يقول: ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُرْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[1].

وإن اللّه إذا مَقَت قوماً من السماء هلكوا في الأرض، فلا تألُوا أنفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة ولا دين اللّه قوة، وأبلوا في سبيله ما استوجب عليكم، فإنّ اللّه قد اصطنَع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا، وأن ننصُرَه ما بلغت قوتنا ولا قوة إلا باللّه.

قال: وكتب عليه السلام إلى جنوده يخبرهم بالّذي لهم وعليهم: أما بعد، فإنّ اللّه جعلكم في الحقّ جميعاً سواء، أسودكم وأحمركم، وجعلَكم من الوالي وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد، وبمنزلة الولد من الوالد، الذي لا يكفيه منعه إياهم طلب عدوّه والتهمة به، ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذي عليكم. فحقّكم عليهم إنصافكم والتعديل بينكم، والكفّ عن فيئكم، فإذا فعل معكم ذلك، وجبَتْ عليكم طاعته فيما وافق الحقّ، ونصرتُه والدفع عن سلطان اللّه، فإنكم وَزَعة[2] اللّه في الأرض، فكونوا له أعواناً، ولدينه أنصاراً، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، إن اللّه لا يحب المفسدين.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: حدّثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نُباتة، قال: قال عليّ عليه السلام: ما يقول الناس في هذا القبر؟ - وفي النُّخيلة، وبالنُّخَيلة قبر عظيم يدفن اليهود

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٢) الوزعة: الولاة المانعون من محارم الله. القاموس، مادة (وزع).

موتاهم حوله - فقال الحسن بن عليّ عليه السلام: يقولون هذا قبر هودٍ لما عصاه قومه، جاء فمات هاهنا، فقال: كذبوا، لأنا أعلم به منهم، هذا قبر يهودَا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، بِكْر يعقوب، ثم قال: أهاهنا أحد من مَهَرة؟ فأتِيَ بشيخ كبير، فقال: أين منزلُك؟ قال: على شاطىء البحر، قال: أين أنت من الجبل؟ قال: أنا قريب منه، قال: فما يقول قومك فيه؟ قال: يقولون: إن فيه قبرَ ساحر، قال: كذبوا، ذاك قبر هود النبيّ عليه السلام، وهذا قبر يهودا بن يعقوب. ثم قال عليه السلام: يُحشَر من ظهر الكوفة سبعون ألفاً على غُرّة الشمس، يدخلون الجنة بغير حساب.

قال نصر: فلما نَزَل عليّ عليه السلام النُّخَيْلة متوجّهاً إلى الشام، وبلغ معاويَة خبرُهُ، وهو يومئذٍ بدمشق، قد ألبَس منبر دمشق قميصَ عثمان مختضباً بالدم، وحول المِنْبر سبعون ألف شيخ يبكون حوله، لا تجفّ دموعهم عَلَى عثمان، خطبهم، وقال:

يا أهل الشام، قد كنتم تكذّبونني في عليّ، وقد استبان لكم أمرُه، واللّه ما قَتَل خليفَتَكم غيره وهو أمرَ بقتله، وألّب الناس عليه، وآوى قَتَلَتَهُ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه، وقد خرج بهم قاصداً بلادكم ودياركم لإبادتكم. يا أهل الشام، اللّه اللّه فيْ دم عثمان! فأنَا وليُّه وأحقّ مَنْ طلب بدمه، وقد جعل اللّه لوليّ المقتول ظلماً سلطاناً، فانصروا خليفتَكم المظلوم، فقد صنع القوم به ما تعلمون، قتلوه ظُلْماً وبغياً، وقد أمر اللّه تعالى بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر اللّه. ثم نزل. قال نصر: فأعطوه الطاعة وانقدوا له، وجمع إليه أطرافه، واستعد للقاء عليّ عليه السلام.

٤٧ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر الكوفة

الأصل: كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ، تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ، وَتُرْكَبِين بِالزَّلَازِلِ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءًا إِلاَّ ابْتَلَاهُ اللهُ بِشَاغِلٍ أو رماه بقاتل.

الشرح: عُكاظ: اسم سُوق للعرب بناحية مكة، كانوا يجتمعون بها في كلّ سنة، يقيمون شهراً ويتبايعون ويتناشدون شعراً ويتفاخرون، قال أبو ذُؤَيْب:

إذا بُنِيَ القِبابُ عَلَى عُكاظٍ وَقَامَ البَيْعُ وَاجْتَمَعَ الأُلُوفُ

فلما جاء الإسلام هدم ذلك، وأكثر ما كان يُباع الأديم بها، فنسب إليهما.

والأديم واحد والجمع أُدُم، كما قالوا: أفيق للجلد الذي لم تَتِمّ دباغته، وجمعه أُفُقٌ. وقد يجمع أدِيم على آدِمة، كما قالوا: رغيف وأرغفة.

والزلازل هاهنا: الأمور المزعجة، والخطوب المحرّكة.

وقوله عليه السلام: «تُمَدّين مَدّ الأديم»، استعارة لما ينالها من العَسْف والخبط.

وقوله: «تُعْرَكِين»، من عَرَكَتِ القومَ الحرب إذا مارستهم حتى أتعبَتهم.

الكوفة في نظر علي عليه السلام وجعفر بن محمد

وقد جاء في فضل الكوفة عن أهل البيت عليهم السلام شيء كثير، نحو قول أمير المؤمنين عليه السلام: نعمت المَدَرة.

وقوله عليه السلام: إنه يُحشر من ظهرها يوم القيامة سبعون ألفاً، وجوهُهم عَلَى صُورة القمر.

وقوله عليه السلام: هذه مدينتُنا ومَحلّتنا، ومقرّ شيعتنا.

وقوله جعفر بن محمد عليه السلام: اللهم ارْمِ من رَماها، وعادِ مَنْ عاداها.

وقوله عليه السلام: تربَةٌ تحِبُّنا ونُحبُّها.

فأمّا ما همّ به الملوك وأرباب السلطان فيها من السوء، ودفاع الله تعالى عنهم فكثير.

قال المنصور لجعفر بن محمد عليه السلام: إني قد هممتُ أن أبعثَ إلى الكوفة مَنْ ينقضُ منازِلَها، ويُجَمِّر نخلَها، ويستصفي أموالها، ويقتل أهل الرِّيبة منها، فأشِرْ عليّ. فقال: يا أمير المؤمنين، إن المرء ليقتدِي بسلَفه، ولك أسلاف ثلاثة: سليمان أُعْطِيَ فشكر، وأيوب ابتُلِيَ فصبر، ويوسف قَدَر فغفر، فاقتد بأيّهم شئت. فصمَت قليلاً، ثم قال: قد غفرت.

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزِيّ في كتاب «المنتظم»[1] أن زياداً لما حَصَبَهُ أهلُ الكوفة، وهو يخطب على المِنْبَر، قطع أيدي ثمانين منهم، وهمّ أن يخرّب دورَهم، ويُجَمِّر نخلهم، فجَمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرَّحبَة، يعرضهم على البراءة من عليّ عليه السلام، وعلم أنّهم سيمتنعون، فيحتجّ بذلك على استئصالهم، وإخراب بلَدهم.

قال عبد الرحمن بن السائب الأنصاريّ: فإني لَمَعَ نفرٍ من قومي، والناس يومئذٍ في أمر عظيم، إذْ هَوّمت تهويمةً، فرأيت شيئاً أقبل، طويل العنق، مثل عُنُق البعير أهدر أهدل، فقلت: ما أنت؟ فقال: أنا النَّقّاد ذو الرقبة، بُعِثت إلى صاحب هذا القصر، فاستيقظت فزعاً، فقلت لأصحابي: هل رأيتم ما رأيت؟ قالوا: لا، فأخبرتُهم، وخرج علينا خارج من القصر، فقال: انصرفوا، فإن الأمير يقول لكم: إني عنكم اليوم مشغول، وإذا بالطاعون قد ضربه، فكان

(١) «المنتظم في التاريخ الأمم»: لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي البغدادي، المتوفى سنة (٥٩٧هـ)، من الهجرة إلى الخلافة المستعين على ترتيب السنين. «كشف الظنون» (٢/ ١٨٥٠).

يقول: إنّي لأجِد في النِّصْف من جسدي حرّ النار حتى مات، فقال عبد الرحمن بن السائب:

مَا كَانَ مُنْتَهِياً عَمّا أرادَ بِنَا ... حَتّى تَنَاوَلَهُ النُّقّادُ ذُو الرَّقَبَةْ
فأثبت الشَّقّ منهُ ضربةٌ عَظُمَتْ ... كما تناول ظُلْماً صاحب الرَّحَبَةْ

قلت: قد يظن ظان أن قوله: «صاحب الرّحبة» يمكن أن يحتجّ به من قال: إنّ قبر أمير المؤمنين عليه السلام في رَحَبة المسجد بالكوفة، ولا حجة في ذلك، لأنّ أمير المؤمنين كان يجلس معظم زمانه في رَحَبة المسجد، يحكم بين الناس، فجاز أن ينسب إليه بهذا الاعتبار.

٤٨ - ومن خطبة له عليه السلام عند المسير إلى الشام

الأصل: الْحَمْدُ لِلّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ كُلَّمَا لاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الإِنْعَامِ، وَلَا مُكَافَأَ الإِفْضَالِ. أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي، وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمِلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ، مُوَاطِنِينَ أَكْنَافَ دَجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلى عَدُوِّكُمْ، وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ.

قال الرضيّ رحمه اللّه: يعني عليه السلام بالمِلْطاط هاهنا: السَّمْتَ الذِي أمَرَهم بلزومه، وهو شَاطِىء الفُرَات، ويقال ذَلكَ أيْضاً لِشَاطِىء البحر، وأصْله ما اسْتَوَى مِنَ الأرض، ويعني بالنُّطْفَةِ مَاء الفُرَات، وهو من غريب العِباراتِ وعجيبها.

الشرح: وقب الليل، أي دخل، قال اللّه تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[1]. وغسق، أي أظلم. وخفق النجم، أي غاب.

ومقدِّمة الجيش، بكسر الدال: أوله وما يتقدّم منه على جمهور العسكر، ومقدَّمة الإنسان، بفتح الدال: صدره. والمِلْطاط: حافّة الوادي وشَفِيرُه، وساحل البحر، قال رؤبة:

نَحْنُ جَمَعْنَا النَّاسَ بِالْمِلْطَاطِ

قال الأصمعيّ: يعني به ساحلَ البحر، وقول ابن مسعود: هذا المِلطاط طريق بقيّة المؤمنين، هُرّاباً من الدَّجال، يعني به شاطىء الفرات.

فأما قول الرضيّ رحمه اللّه تعالى: «الملطاط: السّمْت الذي أمرهم بلزومه وهو شاطىء

(١) سورة الفلق، الآية: ٣.

الفرات، ويقال ذلك لشاطىء البحر»، فلا معنى له، لأنه لا فرق بين شاطىء الفرات وشاطىء البحر، وكلاهما أمر واحد، وكان الواجب أن يقول: المِلْطاط: السمت في الأرض، ويقال أيضاً لشاطىء البحر.

والشِّرْذمة: نفر قليلون.

وموطنين أكناف دجلة، أي قد جعلوا أكنافها وَطَناً، [من] أوطنت البُقعة.

والأكناف: الجوانب، واحدها كَنَف. والأمداد جمع مدد، وهو ما يمدّ به الجيش تقويةً له.

وهذه الخطبة خطب بها أميرُ المؤمنين عليه السلام وهو بالنُّخَيلة خارجاً من الكوفة ومتوجِّهاً إلى صِفِّين لخمس بقين من شوال سنة سبع وثلاثين. وذكرها جماعة من أصحاب السير، وزادوا فيها: «وقد أمّرْتَ على المِصْر عُقْبة بن عمرو الأنصاريّ، ولم آلكم ولا نفسي، فإيّاكم والتخَلّف والتربّص، فإني قد خَلّفت مالك بن حبيب اليَربوعيّ، وأمرْتُه ألاّ يترك متخلّفاً إلا ألحقه بكم عاجلاً، إن شاء اللّه». وروى نصر بن مزاحم عوض قوله: «فأنهِضَهم معكم إلى عَدُوّكم» «فأنهِضَهُم معكم إلى عدو اللّه».

قال نصر: فقام إليه مَعْقل بن قيس الرّياحيّ، فقال: يا أمير المؤمنين، واللّه ما يتخلّف عنك إلاّ ظَنِين، ولا يتربَّصُ بك إلا منافق، فَمُرْ مالكَ بن حبيب فليضرِبْ أعناقَ المتخلّفين. فقال: قد أمَرْتُه بأمري، وليس بمقصّر إن شاء اللّه.

في الطريق إلى صفين

قال نصر بن مزاحم: ثم سار عليه السلام حتى انتهى إلى مدينة بَهُرَسِير، وإذا رجل من أصحابه يقال له حُرّ بن سهم بن طَريف، من بني ربيعة بن مالك، ينظر إلى آثار كسرى، ويتمثل بقول الأسود بن يَعْفُرُ:

جَـرَتِ الـرِّيـاحُ عـلـى مـحـلّ ديـارِهـمْ ... فـكـأنـمـا كـانـوا عـلـى مـيـعـادِ

فقال له عليه السلام: ألا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾(1)، إنّ هؤلاء كانوا وارثين فأصْبَحوا مورَّثين، ولم يشكروا النّعمة، فسلِبُوا دنياهم بالمعصية. إياكُم وكُفْرَ النّعم، لا تحلّ بكم النِّقم، انزلوا بهذه الفَجْوة.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن مسلم الأعور عن حبّة العُرَنيّ، قال: أمر عليّ عليه السلام الحارث الأعور، فصاح في أهل المدائن: مَنْ كان من المقاتلة فليوافِ أميرَ المؤمنين عليه السلام

(1) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ - ٢٩.

صلاةَ العصر. فوافوْه في تلك الساعة، فحمِد اللّه، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ، فإني قد تعجَّبْت مِنْ تخلّفكم عن دَعْوتكم، وانقطاعكم عن أهل مِصْركم في هذه المساكن الظالم أهلها، الهالك أكثر ساكنيها، لا معروف يأمرون به، ولا منكَر ينهوْن عنه.

قالوا: يا أميرَ المؤمنين، إنّا ننتظِر أمرَك، مُرْنا بما أحببت، فسارَ وخلَّف عليهم عديّ بن حاتم، فأقام عليهم ثلاثاً ثمّ خرج في ثمانمائة رجل منهم، وخلّف ابنه زيداً بعده، فَلحِقه في أربعمائة رجل منهم.

وجاء عليّ عليه السلام حتى مَر بالأنبار، فاستقبله بنو خُشْنُوشَك، دهاقينها.

- قال نصر: الكلمة فارسية، أصلها «خُشْ» أي الطيب -.

قال: فلما استقبلوه نزلوا عن خيولهم، ثم جاؤوا يشتدون معه، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه، فقال: ما هذه الدّوابّ التي معكم، وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟ قالوا: أمّا هذا الذي صنعنا فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء، وأمّا هذه البراذين فهدّية لك، وقد صنعنا للمسلمين طعاماً، وهيّأنا لدوابّكم عَلفاً كثيراً.

فقال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنّه فيكم خُلق تعظمون به الأمراء فواللّه ما ينفع ذلك الأمراء، وإنّكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابّكم هذه، فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا، فإنا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلا بثمن. قالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نقوّمه ثم نقبل ثمنه، قال: إذاً لا تقوّمونه قيمته، نحن نكتفي بما هو دونه. قالوا: يا أمير المؤمنين، فإنّ لنا من العرب مواليَ ومعارف، أتمنعنا أن نُهْدِيَ لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منا؟ فقال: كلُّ العرب لكمُ موالٍ، وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتَكم، وإن غَصَبكم أحد فأعلمونا. قالوا: يا أمير المؤمنين، إنّا نحب أن تُقْبَل هديتُنا وكرامتنا. قال: وَيْحَكم! فنحن أغْنى منكم. وتركهم وسار.

قال نصر: وحدثنا عبد العزيز بن سياه، قال: حدّثنا حبيب بن أبي ثابت، قال حدثنا أبو سعيد التيميّ المعروف بعَقِيصَي، قال: كُنّا مع عليّ عليه السلام في مسيره إلى الشام، حتى إذا كُنّا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد، عطش الناس واحتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا عليّ عليه السلام حتى أتى بنا إلى صخرة ضِرْس في الأرض، كأنّها رُبْضَةُ عنز، فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرِب الناس منه وارتوَوْا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلاً، قال عليه السلام: أمِنكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فانطلِقوا إليه، فانطلق مِنّا رجالٌ ركباناً ومشاة، فاقتصصنا الطريق إليه، حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شيء، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا

إلى دَيْر قريب مِنّا، فسألناهم: أين هذا الماء الذي عندكم؟ قالوا: ليس قُرْبنَا ماء، فقلنا: بلى إنّا شربنا منه، قالوا: أنتم شَرِبتم منه؟ قلنا: نعم، فقال صاحب الدَّيْر: واللّه ما بُنِيَ هذا الدير إلا بذلك الماء، وما استخرجه إلاّ نبيّ أو وصيّ نَبيّ.

قال نصر: ثم مضى عليه السلام، حتى نزل بأرضِ الجزيرة، فاستقبله بنو تَغْلِب والنَّمِر بن قاسط بَجَزُور، فقال عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبيّ: يا يزيد، قال: لَبيك يا أمير المؤمنين، قال: هؤلاء قومُك، من طعامهم فاطْعمَ، ومن شرابهم فأشرب.

قال: ثم سار حتى أتى الرَّقّة - وجلّ أهلها عثمانية، فَرّوا من الكوفة إلى معاوية - فأغلقوا أبوابَها دونه، وتحصّنوا، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسديّ في طاعة معاوية، وقد كان فارق علياً عليه السلام في نحو مائة رجل من بني أسد، ثم كاتب معاوية، وأقام الرَّقّة حتى لَحِق به سبعمائة رجل.

قال نصر: فروى حَبّة أن عليًا عليه السلام لما نزل على الرّقة، نزل بموضعٍ يقال له البَلِيخ على جانب الفرات، فنزل راهبٌ هناك من صَوْمعته، فقال لعليّ عليه السلام: إنّ عندنا كِتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحابُ عيسى ابن مريم، أعرضه عليك؟ قال: نعم فقرأ الراهب الكتاب:

بسم اللّه الرحمن الرحيم. الذي قضى فيما قضى، وسَطّر فيما كتب: أنه باعثٌ في الأمّيين رسولاً منهم، يعلّمهم الكتابَ والحكمة، ويدلّهم على سبيل اللّه، لا فظٌّ ولا غليظ، ولا صَخّابٌ في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، بل يعفُو ويصفح، أمّته الحمادون الذين يحمَدون اللّه على كل نَشز، وفي كل صَعود وهَبوط، تذِلّ ألسنتهم بالتكبير والتهليل والتسبيح، وينصرُه اللّه على من ناوأه، فإذا توفّاه اللّه، اختلفت أمتهُ من بعده، ثم اجتمعت، فلبثت ما شاء اللّه، ثم اختلفت، فيمرّ رجال من أمته بشاطىء هذا الفُرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضِي بالحقّ ولا يركُس[1] الحكم، الدنيا أهون عليه من الرّماد في يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شُرب الماء على الظمآن، يخاف اللّه في السرّ، وينصح له في العلانية، لا يخاف في اللّه لومةَ لائم، فمن أدرك ذلك النبيّ مِنْ أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومَنْ أدرك ذلك العبد الصالح فلينصرْه، فإنّ القتل معه شهادة.

ثم قال له: أنا مصاحبُك، فلا أفارقُك حتى يصيبَني ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال: الحمد للّه الذي لم أكُنْ عنده منسيًا، الحمد للّه ذكرني عنده في كُتُب الأبرار.

فمضى الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أمير المؤمنين ويتعشّى، حتى أصيب يوم صفين، فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام: اطلبوه، فلما وجدوه صلى عليه ودفنه. وقال: هذا مِنّا أهلَ البيت، واستغفر له مراراً.

---

(١) الركس: رد الشيء مقلوباً، وقلب أوله على آخره. القاموس، مادة (ركس).

روى هذا الخبر نصر بن مزاحم في كتاب «صفين» عن عرم بن سعد، عن مسلم الأعور، عن حبَّة العُرنيّ. ورواه أيضاً إبراهيم بن ديزيل الهمدانيّ، بهذا الإسناد عن حَبّة أيضاً في كتاب صفين.

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب، قال: حدّثني يحيى بن سليمان، قال: حدّثني يحيى بن عبد الملك بن حُميد بن عتيبة، عن أبيه، عن إسماعيل بن رَجاء، عن أبيه ومحمد بن فُضَيل، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رَجاء، عن أبي سَعِيد الخُدْرِيّ، رحمه اللّه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فانقطع شِسْعُ نعلِه، فألقاها إلى عليّ عليه السلام يُصلحها، ثم قال: «إنّ منكم مَنْ يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلتُ على تنزيله»، فقال أبو بكر الصديق: أنا هو يا رسول الله؟ فقال: «لا»، فقال عمر بن الخطاب: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكنه ذَاكُم خَاصِفُ النعل»[1] - ويَدُ عليّ عليه السلام على نَعْل النبيّ صلى الله عليه وآله يصلحها.

قال أبو سعيد: فأتيتُ عليًّا عليه السلام فبشّرته بذلك فلم يحفِل به، كأنه شيء قد كان علمه من قبل.

وروى ابن ديزيل في هذا الكتاب أيضاً، عن يحيى بن سليمان، عن إبراهيم الهَجَريّ، عن أبي صادق، قال: قَدِم علينا أبو أيوب الأنصاريّ العِراق، فأهْدَت له الأزد جُزراً، فبعثوها معي، فدخلت إليه فسلّمت عليه، وقلت له: يا أبا أيوب، قد كرَّمك اللّه عزّ وجلّ بصحبة نبيه ﷺ، ونزوله عليك، فمالي أراك تستقبل الناس بسيفك، تقاتلهم هؤلاء مرة وهؤلاء مرة! قال: إن رسول الله ﷺ عَهِد إلينا أن نقاتل مع عليّ الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين، فهذا وَجْهُنا إليهم - يعني معاوية وأصحابه - وعهد إلينا أن نقاتل معه المارقين، ولم أرهم بعد.

وروى ابن ديزيل أيضاً في هذا الكتاب، عن يحيى، عن يَعْلى بن عُبيد الحنفيّ، عن إسماعيل السّديّ، عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو في الحُجْرة يُوحَى إليه ونحن ننتظره حتى اشتدّ الحرّ، فجاء علي بن أبي طالب ومعه فاطمة وحسن وحسين عليهما السلام، فقعدوا في ظل حائط ينتظرونه، فلما خرج رسول الله ﷺ، رآهم فأتاهم وَوَقَفْنا نحن مكاننا، ثم جاء إلينا وهو يظلُّهم بثوبه، ممسكاً بطَرَف الثوب، وعليّ ممسِكٌ بطَرفِهِ الآخر، وهو

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٥)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١٠٨٩٦).

يقول: «اللهم إني أحبّهم، فأحبّهم، اللهم إني سِلْم لمن سالمَهم، وحرب لمن حاربهم»[١] قال: فقال ذلك ثلاث مرات.

قال إبراهيم في الكتاب المذكور: وحدثنا يحيى بن سليمان، قال: حدثنا ابن فُضَيل، قال: حدثنا الحسن بن الحكَم النَّخَعيّ، عن رباح بن الحارث النخعيّ، قال: كنت جالساً عند علي عليه السلام، إذ قَدِم عليه قوم متلثِّمون، فقالوا: السلام عليكَ يا مولانا، فقال لهم: أوَلستُم قوماً عَرَبًا! قالوا: بلى، ولكنّا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غَدير خُمّ: «مَنْ كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهم والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»[٢]، قال: فلقد رأيتُ علياً عليه السلام ضحك حتى بدت نواجذُه، ثم قال: أشهدوا.

ثم إنّ القومَ مضوْا إلى رحالهم فتبعتُهم، فقلت لرجل منهم: مَنِ القوم؟ قالوا: نحن رَهْطٌ من الأنصار، وذاك - يعنون رجلاً منهم - أبو أيوب، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فأتيته فصافَحته.

قال نصر: وحدثني عمر بن سعد، عن نمير بن وعلة، عن أبي الوَدّاك، أنّ عليًا عليه السلام بعث مِنَ المدائن مَعْقل بن قيس الرياحي، في ثلاث آلاف، وقال له: خُذْ عَلَى الموصل، ثم نَصِيبين، ثم القَني بالرَّقة، فإني موافيها. وسكّن الناس وأمِّنْهم، ولا تقاتل إلا مَنْ قاتلك، وسِر البَرْدَيْن[٣]، وغوِّرْ بالناس. أقم الليل، ورفِّه في السير، ولا تَسِرْ أوّل الليل، فإن اللّه جعله سكناً، أرحْ فيه بدنَك وجندكَ وظهرك، فإذا كان السَّحَر، أو حين يتبلج الفجر فسر.

فسار حتى أتى الحديثة - وهي إذ ذاك منزل الناس، وإنما بَنَى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان - فإذا بكبْشين ينتطحان، ومع معقل بن قيس رجل من خَثْعم يقال له شداد بن أبي ربيعة - قتِل بعد ذلك مع الحَرُوريَّة - فأخذ يقول: إيه، إيهِ! فقال معقِل: ما تقول؟ فجاء رجلان نحو الكبشين، فأخذ كلٌّ واحد منهما كبشاً وانصرفا، فقال الخثعميّ لمعقِل: لا تَغْلِبون ولا تُغْلَبون. فقال معقِل: من أين علمت؟ قال: أمَا أبصرت الكبْشين، أحدهما مشرّق والآخر مغرّب، التقيا فاقتتلا وانتطحا، فلم يزل كلّ واحد من مصاحبه منتصفاً، حتى أتى كلّ واحد منهما صاحبُه فانطلق به، فقال معقل: أو يكون خيراً مما تقول يا أخا خثعم! ثم مضى حتى وافى عليًا عليه السلام بالرّقة.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٠٣٠ - ٥٠٣١).
(٢) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٥٣) بلفظه والحاكم في «المستدرك» (٤٥٧٦)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٤٥) دون الزيادة: «وانصر من نصره، واخذل من خذله».
(٣) البردان: الظل والفيء. اللسان، مادة (برد).

قال نصر: وقالت طائفة من أصحاب عليّ عليه السلام له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى معاوية ومَنْ قِبَله من قومك، فإن الحجة لا تزداد عليهم بذلك إلا عظَماً. فكتب إليهم عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قِبَله من قريش:

سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنّ للّه عباداً آمنوا بالتنزيل، وعَرَفوا التأويل، وفَقُهوا في الدين، وبيّن الله فضلَهم في القرآن الحكيم، وأنتم في ذلك الزمان أعداء للرسول، تكذّبون بالكتاب، مجمعون على حرب المسلمين، من ثقفتُم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه، حتى أراد الله تعالى إعزازَ دينه، وإظهارَ أمره، فدخلت العرب في الدّين أفواجاً، وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً، فكنتم فيمن دخل في هذا الدين، إمّا رغبة وإما رهبة على حين فاز أهل السَّبْق بسبقهم، وفاز المهاجرون الأولون بفضْلِهم. ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين، ولا فضائلهم في الإسلام أن ينازعهم الأمرَ الذي هو أهلُه وأوْلَى به، فيجوز ويظلم، ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدرَه، ويعدو طورَه، ويُشْقِي نفسه بالتماس ما ليس بأهله، فإنّ أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربُها من الرسول، وأعلمُها بالكتاب، وأفقهُها في الدين، أوّلها إسلاماً، وأفضلها جهاداً، وأشدّها بما تحمله الأئمة من أمر الأمة اضطلاعاً. فاتقوا الله الذي ترجعون، ولا تَلْبِسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون.

واعلموا أنّ خيار عباد الله الذين يعملون بما يعلمون، وأنّ شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهلَ العلم، فإنّ للعالم بعلمه فضلاً، وإن الجاهلَ لا يزداد بمنازعته العالم إلا جهلاً. ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه، وحَقْن دماء هذه الأمة، فإن قبلتم أصبتُم رُشْدكم، واهتديتم لحظّكم، وإن أبيتم إلا الفرقة وشَقّ عصا هذه الأمة لم تزدادوا من الله إلا بعداً، ولا يزداد الربّ عليكم إلا سخطاً والسلام.

فكتب إليه معاوية جوابَ هذا الكتاب سطراً واحداً، وهو: أما بعد فإنه:

لَيْسَ بيني وبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابُ ... غَيْرَ طَعْنِ الكُلَى وضَرْبِ الرّقَابِ

فقال عليّ عليه السلام لما أتاه هذا الجواب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1].

قال نصر: وقال عليّ عليه السلام لأهل الرَّقة: جَسِّروا لي جسراً أعبرُ عليه من هذا المكان إلى الشام، فأبَوْا، وقد كانوا ضَمُّوا السفن إليهم، فنهض من عندهم ليعبرَ على جِسْر مَنْبِج، وخلّف عليهم الأشتر، فقال: يا أهلَ هذا الحصن، إني أقسم بالله إن مَضَى أمير المؤمنين عليه السلام ولم

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

تجسُّرونا له عند مدينتكم حتى يَعْبُرَ منها، لأجرِّدنّ فيكم السيف، فلأقتلَنّ مقاتلَكم، ولأُخرِبَنّ أرضكم، ولآخذنّ أموالكم.

فلقيَ بعضهم بعضاً، فقالوا: إنّ الأشتر يعفِي بما حلَف عليه، وإنما خلّفه عليّ عندنا ليأتيَنا بشرّ فبعثوا إليه: إنّا ناصبون لكم جِسراً، فأقبلوا. فأرسلو الأشتر إلى عليّ عليه السلام، فجاء، ونصبوا له الجسر، فعبر الأثقال والرجال، وأمر الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس: حتى لم يبق من الناس أحد إلا عَبر، ثم عبر آخر الناس رجلاً.

قال نصر: وازدحمت الخيلُ حين عَبرت، فسقطت قَلَنْسُوة عبد اللّه بن أبي الحصين، فنزل فأخذها، وركب، ثم سقطتْ قلنسوة عبد اللّه بن الحجاج، فنزل فأخذها، ثم ركب فقال لصاحبه:

فإنْ يَكُ ظَنُّ الزّاجري الطيرَ صادقاً ... كما زعموا، أُقتَلْ وشيكا وتُقتَل

فقال عبد اللّه بن أبي الحصين: ما شيء أحبّ إليّ مما ذكرت، فقتلا معاً يوم صفين.

قال نصر: فلما قطع عليّ عليه السلام الفُرات، دعا زياد بن النضر وشُرَيح بن هانىء فسرّحهما أمامه نحو معاوية، على حالهما الذي كانَا عليه حين خرجا من الكوفة، في اثني عشر ألفاً، وقد كانا حيث سرحهما من الكوفة مقدّمة له أخذاً على شاطىء الفرات من قِبَل البرّ، مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات، فبلغهم أخذُ عليّ عليه السلام طريقَ الجزيرة، وعلما أنّ معاوية قد أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقباله، فقالا: واللّه ما هذا برأي، أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر، وما لنا خيرٌ في أنّ نلقي جموعَ الشام في قلّة من العدد، منقطعين عن المدد. فذهبوا ليعبرُوا من عانات، فمنعهم أهلُها، وحبسوا عنهم السفن، فأقبلوا راجعين حتى عَبرُوا من هِيت، ولَحِقُوا علياً عليه السلام بقرية دون قِرْقِيسياً، فلما لحقوا علياً عليه السلام عَجِب، وقال: مقدّمتي تأتي من ورائي فقام له زياد وشُريح، وأخبراه بالرأي الذي رأيا. فقال: قد أصبتُما رُشدكما. فلما عَبَرُوا الفرات قدّمهما أمامه نحو معاوية، فلما انتهيا إلى معاوية، لقيَهما أبو الأعور السُّلمِيّ في جنود من أهل الشام، وهو على مقدّمة معاوية، فدعواه إلى الدُّخول في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام فأبى، فبعثوا إلى عليّ عليه السلام: إنّا قد لقينا أبا الأعور السلميّ بسور الروم في جند من أهل الشام، فدعوناه وأصحابه إلى الدخول في طاعتك، فأبَى علينا، فمرنا بأمرك.

فأرسل عليّ عليه السلام إلى الأشتر، فقال: يا مال، إن زياداً وشُريحاً أرسلا إليّ يعلمانِني أنهما لقيا أبا الأعور السلميّ في جند من أهل الشام بسور الروم، ونبّأني الرسول أنه تركهم متواقفين، فالنَّجاءَ النجاء إلى أصحابك، فإذا أتيتهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال إن لم يبدؤوك، والقهم واسمع منهم، ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم مرة بعد مرة، واجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شُرَيحاً، وقِفْ من أصحابك وسَطاً، ولا تدنُ منهم دنوَّ مَنْ يريد أن يُنشِب الحرب، ولا تتباعدْ عنهم تباعدَ مَنْ يهاب الناس، حتى

أقدم عليك، فإني حثيث السير إليك إن شاء الله.

قال: وكتب عليٌّ عليه السلام إليهما - وكان الرسول الحارث بن جمهان الجعفيّ أما بعد، فإني قد أمّرْتُ عليكما مالكاً، فاسمعا له وأطيعا أمره، وهو ممن لا يُخاف رهَقُه ولا سِقاطه[1]، ولا بُطؤه عَمّا الإسراع إليه أحزم، ولا إسراعُه إلى ما البطء عنه أمثل، وقد أمرتُه بمثل الذي أمرتكما، ألاّ يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم ويدعوهم، ويُعذِر إليهم إن شاء الله.

قال: فخرج الأشتر حتى قدِم على القوم، فاتبّع ما أمره به علي عليه السلام، وكفَّ عن القتال، فلم يزالوا متواقفين، حتى إذا كان عند المساء، حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة. ثم إن أهلَ الشام انصرفوا، ثم خرج هاشم بن عُتْبة في خيل ورجالٍ حَسَنٍ عُدّتها وعددها، فخرج إليهم أبو الأعور السلميّ، فاقتتلوا يومَهم ذلك، تحمل الخيلُ على الخيل، والرجالُ على الرجال، وصبرَ بعضُهم لبعض، ثم انصرفوا. وبكّر عليهم الأشتر، فقتِل من أهل الشام عبد الله بن المنذر التَّنُوخيّ، قتله ظَبْيان بن عُمارة التميميّ، وما هو يومئذٍ إلا فتى حديث السنّ. وإن كان الشاميّ لفارس أهلِ الشام، وأخذ الأشتر يقول: ويَحْكم أروني أبا الأعور!

ثم إن أبا الأعور دعا الناس، فرجعوا نحوه فوقف على تلّ من وراء المكان الذي كان فيه أوّلَ مرة، وجاء الأشتر حتى صَفّ أصحابه في المكان الذي كان فيه أبو الأعور أوّل مرة، فقال الأشتر لسنان بن مالك النّخعيّ. انطلق إلى أبي الأعور، فادعُه إلى المبارزة، فقال: إلى مبارزتي أم إلى مبارزتك؟ فقال: أوَلَوْ أمرتُك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم، والذي لا إله إلا هو، لو أمرتني أن اعترِضه صفَّهم بسيفي لفعلتُ حتى أضرِبَهُ بالسيف. فقال: يا بن أخي، أطال الله بقاءك، قد واللهِ ازددتُ فيك رغبة، لا أمرتُك بمبارزته، إنما أمرتُك أنْ تدعوَه لمبارزتي، فإنه لا يبارز - إن كان ذلك من شأنه - إلا ذوِي الأسنان والكفاءة والشرف، وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف، ولكنك حديثُ السنّ، وليس يبارز الأحداث، فاذهب فادعِه إلى مبارزتي.

فأتاهم فقال: أنا رسول فأمّنوني، فجاء حتى انتهى إلى أبي الأعور.

قال نصر: فحدثني عمر بن سعد، عن أبي زهير العبسيّ، عن صالح بن سنان، عن أبيه، قال: فقلت له: إن الأشتر يدعوك إلى المبارزة، قال: فسكت عني طويلاً، ثم قال: إنّ خفة الأشتر وسوءَ رأيه وهوانَه دعاه إلى إجلاء عمال عُثمان، وافترائه عليه، يقبّح محاسنه، ويجهل حقه، ويُظهر عداوته. ومن خفّة الأشتر وسوء رأيه أنّه سار إلى عثمان في داره وقراره، فقتَلَه فيمن قتله، وأصبح متّبعاً بدمه، لا حاجة لي في مبارزته.

فقلت: إنّك قد تكلّمت فاسمع حتى أجيبَك، فقال: لا حاجةَ لي في جوابك ولا الاستماع

(١) السقاط: الخطأ في الحساب والقول. القاموس، مادة (سقط).

منك، اذهب عَنّي، وصاح بي أصحابه فانصرفت عنه، ولو سمع لأسمعتُه عذرَ صاحبي وحجته. فرجعت إلى الأشتر، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة، فقال: لنفسه نظر.

قال: فتواقفنا، فإذا هم قد انصرفوا. قال: وصبّحنا عليّ عليه السلام غُدْوةً سائراً نحو معاوية، فإذا أبو الأعور قد سبق إلى سهولة الأرض وَسعَة المنزل، وشريعة الماء، مكانٍ أفيح، وكان أبو الأعور على مقدّمة معاوية، واسمه سفيان بن عمرو، وقد جعل على ساقته بُسْر بن أرطأة العامريّ، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وجعل على ميمنته حبيب بن مسلمة الفهريّ، وعلى رجّالته من الميمنة يزيد بن زَحْر الضّبيّ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعلى الرّجالة من الميسرة حابس بن سعيد الطائيّ، وعلى خيلِ دمشق الضَّحاك بن قيس الفهريّ، وعلى رَجّاله أهل دمشق يزيد بن أسد بن كُرْز البجليّ، وعلى أهل حِمْص ذا الكَلاع، وعلى أهل فلسطين مَسلمة بن مَخلد، وكان وصول علي عليه السلام إلى صِفّين لثمان بقين من المحرم من سنة سبع وثلاثين.

---

٤٩ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله تعالى وتحميده

الأصل: الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيّاتِ الأُمُور، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُور، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ، فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُه، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُه.

سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ، فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِه، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ.

لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِه، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُود، عَلَى إِقْرَار قَلْب ذِي الْجُحُود، تَعَالَى اللّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّا كَبِيراً!

الشرح: بطنتُ سرّ فلان، أي أخفيتُه. والأعلام: جمع علَم، وهو المنارُ يهتدى به، ثم جعل لكلّ ما دل على شيء، فقيل لمعجزات الأنبياء أعلام، لدلالتها على نبوّتهم.

وقوله عليه السلام: «أعلام الظهور»، أي الأدلة الظاهرة الواضحة.

وقوله فيما بعد: «أعلام الوجود» أي الأدلة الموجودة، والدلالة هي الوجود نفسه، وسيأتي شرح ذلك.

وقوله: «وامتنع على عين البصير»، يقوله: إنه سبحانه ليس بمرئيّ بالعين، ومع ذلك فلا يمكِنُ مَنْ لم يَرَهُ بعينه أن ينكره، لدلالة كلّ شيء عليه، بل لدلالته سبحانه على نفسه.

ثم قال: «ولا قلب من أثبته ببصره»، أي لا سبيل لمن أثبت وجودَه أن يحيطَ علماً بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته، أو أراد أنه لا تعلم حقيقة ذاته، كما قاله قوم من المحققين.

وقد روِي هذا الكلام على وجه آخر، قالوا في الخطبة: «فلا قَلْبُ مَنْ لم يَرَهُ ينكِره، ولا عينُ مَنْ أثبته تبصره»، وهذا غير محتاج إلى تفسير لوضوحه.

وقوله عليه السلام: «فلا استعلاؤه باعده»، أي ليس علوّه ولا قربه كما نعقله من العلوّ والقرب المكانيّين، بل هو علوّ وقرب خارج من ذلك، فليس علوّه يقتضي بُعدَه بالمكان عن الأجسام، ولا قربُه يقتضي مساواته إياها في الحاجة إلى المكان والجهة.

والباء في «به» متعلقة بـ «ساواهم»، معناه: ولا قربُه ساواهم به في الحاجة إلى المكان، أي: لم يقتض قربه مماثلة ومساواته إياهم في ذلك.

مباحث من العلم الإلهي

وهذا الفصل يشتمل على عدّة مباحث من العلم الإلٰهي:

أولها: كونه تعالى عالماً بالأمور الخفيّة. **والثاني**: كونه تعالى مدلولاً عليه بالأمور الظاهرة، يعني أفعاله. **والثالث**: أن هويّته تعالى غير معلومة للبشر. **والرابع**: نفي تشبيهه بشيء من مخلوقاته. **والخامس**: بيان أنّ الجاحد لإثباته مكابر بلسانه، وعارف به بقلبه.

ونحن نذكر القول في جميع ذلك على سبيل اقتصاص المذاهب والأقوال، ونحيل في البرهان على الحقّ من ذلك وبطلان شبَه المخالفين فيه، على ما هو مذكور في كتبنا الكلامية، إذ ليس هذا الكتاب موضوعاً لذلك، وإنْ كنّا قد لا نخلِي بعض فصوله من إشارة إلى الدليل موجَزة، وتلويح إلى الشبهة لطيف، فنقول: أمّا.

الفصل الأول
وهو الكلام في كونه تعالى عالماً بالأمور الخفية

فاعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال: «بَطَن خفِيّات الأمور» وهذا القدر من الكلام يقتضي كونه تعالى عالماً، يعلَم الأمورَ الخفية الباطنة، وهذا منقسم قسمين:

أحدهما: أن يعلم الأمور الخفية الحاضرة.

الثاني: أن يعلم الأمور الخفية المستقبلة.

والكلام من حيث إطلاقه يحتمل الأمرين، فنحمله عليهما معاً. فقد خالف في كلّ واحدة من المسألتين قوم، فمِنَ الناس مَنْ نَفَى كونه عالماً بالمستقبَلات، ومِنَ الناسَ مَنْ نفى كونه عالماً بالأمور الحاضرة، سواء كانت خفيّة أو ظاهرة، وهذا يقتضينا أن نشرحَ أقوال العقلاء في هذا المسائل، فنقول: إنَّ الناس فيها عَلَى أقوال:

القول الأول: قولُ جمهور المتكلّمين، وهو أنّ الباريء سبحانه يعلم كلّ معلوم: الماضي والحاضر والمستقبل، ظاهرها وباطنها، ومحسوسها وغير محسوسها، فهو تعالى العالم بما كان وما هو حاضر، وما سيكون وما لم يكنْ، أن لو كان كيف كان يكون، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1]، فهذا علم بأمرٍ مقدّر على تقدير وقوع أصله الذي قد علم أنه لا يكون.

القول الثاني: قولُ مَن زعم أنه تعالى لا يعلم الأمور المستقبَلة، وشبهُّوه بكونه مدركاً، قالوا: كما أنّه لا يدرك المستقبلات، فكذلك لا يعلم المستقبلات. وهو قول هِشام ابن الحكم.

القول الثالث: قولُ مَنْ زعم أنه لا يعلم الأمور الحاضرة، وهذا القول نقيض القول الثاني، وشبهوه بكونه قادراً، قالوا: كما أنه لا يقدِر على الموجود، فكذلك لا يعلم الموجود، ونسب ابن الراونديّ هذا القول إلى معَمر بن عبّاد، أحد شيوخنا، وأصحابُنا يكذّبونه في ذلك، ويدفعون الحكاية عنه.

القول الرابع: قول مَنْ زعم أنّه تعالى لا يعلم نفسَه خاصّة، ويعلم كل ما عدا ذاتِه، ونسب ابنُ الراونديّ هذه المقالة إلى مَعْمر أيضاً، وقال: إنه يقول: إن العالم غير المعلوم، والشيء لا يكون غير نفسه وأصحابنا يكذّبون ابن الراونديّ في هذه الحكاية وينزّهون معمراً عنها.

القول الخامس: قول من قال: إنه تعالى لم يكن فيما لم يزل عالماً بشيء أصلاً، وإنما أحدث لنفسه علماً علم به الأشياء، وهو قول جهم بن صفوان.

القول السادس: قول مَنْ قال إنه تعالى لا يعلم كلَّ المعلومات على تفاصيلها، وإنما يعلم ذلك إجمالاً وهؤلاء يسمون المسترسِليّة، لأنهم يقولون: يسترسِل علمه على المعلومات إجمالاً لا تفصيلاً، وهو مذهب الجُوَيْنيّ من متكلّمي الأشعريّة.

القول السابع: قول مَنْ قال إنه تعالى يعلم المعلومات المفصلة ما لم يُفضِ القولُ به إلى محال، وزعموا أن القول بأنّه يعلَم كلَّ شيء يُفضي إلى محال، وهو أنْ يعلم ويعلم أنه يعلم،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

وهلمّ جراً إلى ما لا نهاية له، وكذلك المحال لازم إذا قيل إنه يعلم الفروع، وفروع الفروع ولوازمها ولوازم لوازمها إلى ما لا نهاية له. قالوا: ومحال اجتماع كلّ هذه العلوم غير المتناهية في الوجود، وهذا مذهب أبي البركات البغداديّ صاحب المعتبر.

القول الثامن: قولُ مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم الشخصيّات الجزئية، وإنما يعلم الكليّات التي لا يجوز عليها التغيير، كالعلم بأنّ كل إنسان حيوان، ويعلم نفسه أيضاً، وهذا مذهب أرسطو وناصري قوله من الفلاسفة كابن سينا وغيره.

القول التاسع: قول مَنْ زعم أنه تعالى لا يعلم شيئاً أصلاً، لا كلياً ولا جزئياً، وإنما وجد العالم عنه لخصوصيّة ذاته فقطْ من غير أن يعلمه، كما أن المغناطيس يجذِب الحديد لقوّة فيه من غير أن يعلم بالجذب، وهذا قول قوم من قدماء الفلاسفة.

فهذا تفصيل المذاهب في هذه المسألة.

واعلم أن حجّة المتكلمين على كونه عالماً بكل شيء، إنما تتّضح بعد إثبات حدوث العالم، وأنه فعله بالاختيار، فحينئذٍ لا بدّ من كونه عالماً، لأنه لو لم يكن عالماً بشيءٍ أصلاً لما صحّ أن يحدث العالم على طريق الاختيار، لأنّ الإحداث على طريق الاختيار إنما يكون بالغرض والداعي، وذلك يقتضي كونه عالماً، فإذا ثبت أنّه عالم بشيء أفسدوا حينئذٍ أن يكون عالماً بمعنى اقتضى له العالمية، أو بأمر خارج عن ذاته، مختاراً كان أو غير مختار.

فحينئذٍ ثبت لهم أنه إنما علم لأنه هذه الذات المخصوصة لا لشيء أزيد منها، فإذا كان لهم ذلك وَجَب أن يكون عالماً بكل معلوم، لأنّ الأمر الذي أوجب كونَه عالماً بأمرٍ ما هو ذاته يوجب كونه عالماً بغيره من الأمور، لأنّ نسبة ذاته إلى الكلّ نسبة واحدة.

فأمّا الجواب عن شُبه المخالفين فمذكور في المواضع المختصّة بذلك، فليطلب من كتبنا الكلامية.

الفصل الثاني
في تفسير قوله عليه السلام: «ودلّت عليه أعلام الظهور»

فنقول: إنّ الذي يستدلّ به على إثبات الصانع يمكن أن يكون من وجهين، وكلاهما يصدق عليه أنه أعلام الظهور أحدهما الوجود والثاني الموجود.

أما الاستدلال عليه بالوجود نفسه فهي طريقة المدقّقين من الفلاسفة، فإنهم استدلّوا على أنّ مسمّى الوجود مشترك، وأنه زائد على ماهيّات الممكنات، وأنّ وجودَ الباريء لا يصحّ أن يكون زائداً على ماهيّته، فتكون ماهيّته وجوداً، ولا يجوز أن تكون ماهيته عارية عن الوجود، فلم يبقَ إلا أن تكون ماهيته هي الوجود نفسه، وأثبتوا وجوبَ ذلك الوجود، واستحالةَ تطرّق

العدم إليه بوجه ما، فلم يفتقروا في إثبات الباريء إلى تأمّل أمْر غير نفس الوجود.

وأمّا الاستدلالُ عليه بالموجود لا بالوجود نفسه، فهو الاستدلال عليه بأفعاله، وهي طريقة المتكلمين. قالوا: كلّ ما لم يُعْلَم بالبديهة ولا بالحسّ فإنما يُعلم بآثاره الصادرة عنه، والباريء تعالى كذلك، فالطريق إليه ليس إلا أفعالهُ: فاستدلّوا عليه بالعالَم، وقالوا تارة: العالم محدَث وكلّ محدَث له محدث. وقالوا تارة أخرى: العالَم ممكن، فله مؤثّر.

وقال ابن سينا: إنّ الطريقة الأولى وهي الاستدلال عليه بالوجود نفسه أعْلى وأشرف، لأنه لم يحتج فيها إلى الاحتجاج بأمر خارج عن ذاته، واستنبط آيةً من الكتاب العزيز في هذا المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

قال ابن سينا: أقول: إنّ هذا حُكْم لقوم - يعني المتكلمين وغيرهم، ممن يستدل عليه تعالى بأفعاله، وتمام الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

قال: هذا حكمُ الصِّدِّيقين الذين يستشهدون به لا عليه، يعني الذين استدلوا عليه بنفس الوجود، ولم يفتقروا إلى التعلق بأفعاله في إثباتِ ربوبيته.

الفصل الثالث
في أن هويته تعالى غير هوية البشر

وذلك معنى قوله عليه السلام: «وامتنعَ عَلَى عَيْنِ البصير»، وقوله: «ولا قلْبُ من أثبته يبصره»، وقوله: «ولم يُطْلع العقولَ على تحديد صفته»، فنقول: إنّ جمهورَ المتكلمين زعموا أن نعرف حقيقة ذات الإله، ولم يتحاشوا من القول بأنّه تعالى لا يعلم من ذاته إلا ما نعلمه نحن منها.

وذهب ضِرار بن عمرو: أنّ لِلّه تعالى ماهيةً لا يعلمها إلا هو، وهذا هو مذهب الفلاسفة. وقد حُكِيَ عن أبي حنيفة وأصحابه أيضاً، وهو الظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل.

الفصل الرابع
في نفي التشبيه عنه تعالى

وهو معنى قوله عليه السلام: «بعد وقرُب»، أي في حال واحدة، وذلك يقتضي نفيَ كونه تعالى جسماً؟ وكذلك قوله عليه السلام: «فلا استعلاؤه باعدَه، ولا قرُبه ساواهم في المكان به»، فنقول: إنّ مذهبَ جُمهور المتكلمين نفيُ التشبيه، وهذا القول يتنوّع أنواعاً:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

النوع الأول: نفي كونه تعالى جسماً مركباً، أو جوهراً فرداً غير مركب، والمراد بالجوهر هاهنا الجرم والحجم. وهو قول المعتزلة، وأكثر محققي المتكلّمين من سائر الفرق، وإليه ذهبت الفلاسفة أيضاً.

وقال قوم من مستضعفي المتكلّمين خلافَ ذلك، فذهب هشام بن الحكم إلى أنّه تعالى جسم مركب كهذه الأجسام، واختلفت الحكاية عنه، فروي عنه أنه قال: إنه يشبرُ نفسَه سبعة أشبار. وروي عنه أنه قال: إنه على هيئة السّبيكة. وروي عنه أنّه قال: إنّه على هيئة البِلّورة الصافية المستوِية الاستدارة من حيث أتيتَها رأيتَها على هيئة واحدة، وروي عنه أيضاً قال: إنه ذو صورة. وأصحابُه من الشيعة يدفعون اليومَ هذه الحكايات عنه، ويزعمون أنه لم يزِدْ على قوله: إنه جسم لا كالأجسام، وإنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه إثباته.

وصدّقوا عنه أنه كان يطلِق عليه كونَه نوراً، لقول الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾(١) وحكىَ عن محمد بن النعمان الأحول، المعروف بشيطان الطاق، وهشام بن سالم المعروف بالجُواليقيّ، وأبي مالك بن الحضرميّ، أنه نورٌ على صورة الإنسان، وأنكروا مع ذلك أنْ يكون جسماً، وهذه مناقضة ظاهرة.

وحُكِيَ عن علي بن ميثم مثله. وقد حكي عنه أنه كان يقول بالصورة والجسم.

وحكى عن مقاتل بن سليمان، وداود الجواربيّ، ونعيم بن حمّاد المصري، أنه في صورة الإنسان، وأنه لحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين، وهو مع ذلك لا يشبه غيره، ولا يشبهه غيره، وافقهم على ذلك جماعة من العامّة ومَنْ لا نظر له.

وحُكِيَ عن داود الجواربيّ أنّه قال: افعوني من الفرْج واللّحية وسلُوني عمّا وراء ذلك. وحكى عنه أنه قال: هو أجوف من فيه إلى صدره، وما سوى ذلك مصمت.

وحكى أبو عيسى الوراق أنّ هشام بن سالم الجواليقيّ كان يقول: إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالمؤانسة والخلْوة والمجالسة والمحادثة.

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(٢)، فقال: يُقْعَد معه عَلَى سريره ويغلفه بيده.

وقال بعضهم: سألت مُعاذاً العنبريّ، فقلت: أله وجه؟ فقال: نعم، حتى عددت جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن، واستحييت أن أذكر الفرْج، فأومأت بيدي إلى فَرْجي، فقال: نعم، فقلت أذكر أم أنثى؟ فقال: ذكر.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥٥.

ويقال: إنّ ابنَ خزيمة أشكل عليه القولُ في أنه: أذكر أم أنثى، فقال له بعض أصحابه: إنّ هذا مذكُورٌ في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾(١)، فقال: أفدتَ وأجدت، وأودعه كتابه.

ودخل إنسان على مُعاذ بن معاذ يوم عِيد، وبين يديه لحم في طَبيخ سِكْباج(٢)، فسأله عن الباريء تعالى في جملة ما سأله، فقال: هو واللّه مثلُ هذا الذي بين يديّ، لحم ودم.

وشهد بعضُ المعتزلة عند معاذ بن معاذ، فقال له: لقد هممتُ أنْ أسقِطك، لولا أني سمعتُك تلعن حمّاد بن سلمة، فقال: أمّا حماد فلم ألعنْه، ولكني ألعن من يقول: إنه سبحانه ينزل ليلةَ عرفة من السماء إلى الأرض على جمل أحمر في هَوْدج من ذهب، فإن كان حَمّاد يروي هذا أو يقوله فعليه لعنة اللّه. فقال: أخرجوه، فأخرج.

وقال بعضهم: خرجْنا يوم عيد إلى المصلّى، فإذا جماعة بين يدي أمير، والطبول تضرب والأعلام تخفِق فقال واحد مِنْ خلفنا: اللهم لا طَبْلَ إلا طبلُك، فقيل له: لا تقل هكذا، فليس اللّه تعالى طبل، فبكى، وقال: أرأيتم هو يجيء وحده ولا يُضرب بين يديه طَبْل، ولا ينصَب على رأسه عَلَم، فإذَنْ هو دون الأمير.

وروى بعضهم أنه تعالى أجْرَى خيلاً، فخلق نفسه من مثلها.

وروى قوم منهم أنه نظر في المرآة فرأى صورةَ نفسه، فخلق آدم عليها.

ورووا أنه يضحك حتى تبدو نواجذُه.

ورووا أنّه أمرد جَعْد قَطَطٌ(٣). في رجليه نعلان من ذَهب، وأنّه في روضة خضراء عَلَى كرسيّ تحمله الملائكة.

ورووا أنه يضع رجلاً على رِجْل، ويستلقي فإنّها جَلْسَةَ الربّ.

ورووْا أنه خَلَق الملائكة مِنْ زَغَبِ(٤) ذراعيه، وأنه اشتكى عينَه فعادتْه الملائكة وأنه يُتصوّر بصورة آدم ويحاسِب الناس في القيامة، وله حُجّاب من الملائكة يحجبُونه.

ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت ربي في أحسنِ صورة، فسألته عمّا يختلف فيه الملأ الأعلى، فوضع يدَه بين كتِفِيّ، فوجدت بَرْدَها، فعلمت ما اختلفوا فيه»(٥).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٢) السِّكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل. المعجم الوسيط، مادة (سكبج).

(٣) القطط: القصير الجعد من الشعر. القاموس، مادة (قطط).

(٤) الزغب: صغار الشعر والريش. القاموس، مادة (زغب).

(٥) أخرج الترمذي نحوه في تفسير القرآن، باب: ومن سورة صَ (٣٢٣٤)، وأحمد في أول مسند المدنيين أجمعين، باب: حديث بعض أصحاب رسول الله ﷺ (١٦١٨٥)، والدارمي في الرؤيا، باب: في رؤية الرب تعالى في النوم (٢١٤٩).

ورووا أنّه ينزل إلى السماء الدنيا في نصف شعبان، وأنه جالس على العرش قد فضل منه أربع أصابع من كل جانب. وأنه يأتي الناسَ يوم القيامة، فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: نعوذ باللّه منك، فيقول لهم: أفتعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة، فيكشف لهم عن ساقه، وقد تحوّل في الصورة التي يعرفونها، فيخرُّون له سجداً.

ورووا أنه يأتي في غَمام، فوقه هواء، وتحته هواء.

وكان بِطَبَرِسْتَان قاصّ من المشبّهة، يقصّ على الناس، فقال يوم في قَصَصه: إنّ يوم القيامة تجيء فاطمة بنت محمد، معها قميص الحسين ابنها تلتمس القِصاص من يزيدَ بن معاوية، فإذا رآها اللّه تعالى مِنْ بعيد، دعا يزيد وهو بين يديه، فقال له: ادخل تحت قوائم العرش، لا تظفرْ بك فاطمة، فيدخل ويختبىء، وتحضر فاطمة، فتتظلّم وتبكي، فيقول: سبحانه: انظري يا فاطمة إلى قدمي، ويخرجها إليها، وبه جُرْح من سهم نمرود، فيقول: هذا جرح نمرود في قدمي، وقد عفوت عنه، أفلا تعفين أنت عن يزيد! فتقول. هي: اشهد يا ربّ أني قد عفوت عنه.

وذهب بعضُ متكلِّمي المجسمّة إلى أنّ الباريء تعالى مركّب من أعضاء على حروف المعجم.

وقال بعضهم: إنه ينزل على حمار في صورة غلام أمرد، في رجليه نعلان من ذهب، وعَلَى وجهه فراش من ذهب يتطاير.

وقال بعضهم: إنه في صورة غلام أمْرَد صبيح الوجه، عليه كساء أسود ملتحف به.

وسمعت أنا في عصري هذا مَنْ قال في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[1]: إنهم قيام على رأسه بسيوفهم وأسلحتهم، فقال له آخر على سبيل التهكّم به: يحرسونه من المعتزلة أن يفتكوا به! فغضب وقال: هذا إلحاد.

ورووا أنّ النار تزفِر وتتغيّظ تغيظاً شديداً، فلا تسْكن حتى يضع قدمَه فيها، فتقول: قَطْ قطْ، أي: حسبي حسبي. ويرفعون هذا الخبر مسنداً. وقد ذكر شبيه به في الصّحاح.

وروي في الكتب الصّحاح أيضاً: «إنّ اللّه خَلَق آدم على صورته»[2]، وقيل: إن في التوراة نحو ذلك في السِّفْر الأول.

واعلم أنّ أهل التوحيد يتأولون ما يحتمِل التأويل من هذه الروايات على وجوه محتملة غير

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب: بدء السلام (٦٢٢٧)، ومسلم في البر والصلة، باب: النهي عن ضرب الوجه (٢٦١٢)، وأحمد في باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة.

مستبعدَة، وما لا يحتمل التأويل منها يقطعُون ببطلانه، وبأنه موضوع، وللاستقصاء في هذا المعنى موضعٌ غير هذا الموضع.

وحكى أبو إسحاق النظّام ومحمد بن عيسى برغوث أنّ قوماً قالوا: إنّه تعالى الفضاء نفسُه، وليس بجسم، لأنّ الجسم يحتاج إلى مكان ونفسه مكان الأشياء.

وقال بُرْغوث: وطائفة منهم يقولون: هو الفضاء نفسُه، وهو جسم تحلّ الأشياء فيه، وليس بذي غاية ولا نهاية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[1].

فأما مَنْ قال: إنّه جسم لا كالأجسام، على معنى أنّه بخلاف العَرَض الذي يستحيل أن يُتوهّم منه فعل، ونفوْا عنه معنى الْجِسْمِيّة، وإنما أطلقوا هذه اللفظة لمعنى أنّه شيء لا كالأشياء، وذات لا كالذوات، فأمْرُهم سهل، لأنّ خلافهم في العبارة، وهم: عليّ بن منصور، والسكاك، ويونس بن عبد الرحمن، والفضل بن شاذان، وكلّ هؤلاء من قُدَماء رجال الشيعة. وقد قال بهذا القول ابن كرّام وأصحابه، وقالوا: معنى قولنا فيه سبحانه إنه جسم: إنّه قائم بذاته لا بغيره.

والمتعصّبون لهشام بن الحكم من الشّيعة في وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتّجسيم المعنويّ، وإنما قال إنه جسم لا كالأجسام، بالمعنى الذي ذكرناه عن يونس والسكاك وغيرهما، وإن كان الحسن بن موسى النُّوبَخْتِيّ - وهو من فضلاء الشيعة - قد رُوي عنه التجسيم المَحْض في كتاب «الآراء والديانات»[2].

النوع الثاني: نفيُ الأعضاء والجوارح عنه سبحانه، فالذي يذهب إليه المعتزلة وسائر المحقّقين من المتكلّمين نُفي ذلك عنه، وقد تأوّلوا ما ورد في القرآن العزيز من ذلك، من نحو قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[4]. وغير ذلك، وحملوه على وجوه صحيحة جائزة في اللغة العربية.

وأطلقت الكرّامية عليه سبحانه لفظ «اليدين والوجه»، وقالوا: لا نتجاوز الإطلاق، ولا نفسر ذلك ولا نتأوله، وإنما نقتصر على إطلاق ما ورد به النصّ.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٢) الآراء والديانات: للحسن بن موسى بن الحسن بن محمد النوبختي الفلكي، المتوفى سنة (٣١٠هـ). «الأعلام» للزركلي (٢/ ٢٢٤).
(٣) سورة صٓ، الآية: ٧٥. (٤) سورة الزمر، الآية: ٥٦.

وأثبت الأشعريّ اليدين صفة قائمة بالباريء سبحانه، وكذلك الوجه من غير تجسيم.

وقالت المجسّمة: إنّ للّه تعالى يدَيْن، وهما عضوان له، وكذلك الوجه والعينين، وأثبتوا له رِجْلين قد فَضَلتا عن عرشه، وساقَيْن يكشف عنهما يوم القيامة، وقَدَماً يضعُهما في جهنم فتمتليء. وأثبتوا له ذلك معنًى لا لفظاً، وحقيقة لا مجازاً.

فأما أحمد بن حنبل فلم يثبت عنه تشبيه ولا تجسيم أصلاً، وإنما كان يقول بترك التأويل فقط، ويطلِق ما أطلقه الكتاب والسنّة، ولا يخوض في تأويله، ويقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١)، وأكثر المحصّلين من أصحابه على هذا القول.

النوع الثالث: نفي الجهة عنه سبحانه، فالذي يذهب إليه المعتزلة وجمهورُ المحّققين من المتكلّمين أنه سبحانه ليس في جهةٍ ولا مكان، وأنّ ذلك من توابع الجِسْمية أو العرضية اللاحقة بالجسيمة، فإذا انتفى عنه كونُه جسماً وكونه عَرَضاً لم يكن في جهة أصلاً، وإلى هذا القول يذهب الفلاسفة.

وذهبت الكَرامِية والحَشَوِيّة إلى أنّ اللّه تعالى في جهة فَوْق، وإليه ذهب هشام بن الحكم، وعليّ بن منصور، ويونس بن عبد الرحمن، وهشام بن سالم الجَواليقيّ، وكثير من أهل الحديث.

وذهب محمد بن الهيصَم، متكلّم الكرّامية إلى أنه تعالى ذاتٌ موجودة منفردة بنفسها عن سائر الموجودات، لا تحلّ شيئاً حلول الأعراض، ولا تمازج شيئاً ممازجة الأجسام بل هو مباينٌ للمخلوقين، إلا أنّه في جهة فَوْق، وبينه وبين العرش بعد لا يتناهَى.

هكذا يحكي المتكلمون عنه، ولم أره في شيء من تصانيفه وأحالوا ذلك، لأن ما لا يتناهَى لا يكون محصوراً بين حاصرين. وأنا استبعِد عنه هذه الحكاية، لأنّه كان أذْكى مِنْ أن يذهبَ عليه فساد هذا القول. وحقيقة مذهب مثبتي المكان أنه سبحانه متمكن على العرش كما يتمكن الملك على سريره، فقيل لبعض هؤلاء: أهو أكبرُ من العرش، أم أصغر، أم مساوٍ له؟ فقال: بل أكبر من العرش، فقيل له: فكيف يحمله؟ فقال: كما تحمِلُ رجلا الكركيّ جسمَ الكركيّ وجسمه أكبر من رجليه. ومنهم مَنْ يجعلُه مساوياً للعرش في المقدار، ولا يمتنع كثير منهم من إطلاق القول بأن أطرافه تفضُلُ عن العرش، وقد سمعت أنا مَنْ قال منهم: إنه مستوٍ على عرشه كما أن مستوٍ على هذه الدَّكة ورجلاه على الكرسِيّ الذي وسع السماوات والأرض، والكرسيّ تحت العرش، كما يجعله اليوم الناس تحت أسرتهم كراسيّ يستريحون بوضع أرجلهم عليها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

وقال هؤلاء كلُّهم: إنه تعالى ينزل ويصعَد حقيقة لا مجازاً، وإنه يتحرّك وينزل، فمن ذلك نزولُه إلى السماء الدنيا، كما ورد في الخبر، ومن ذلك إتيانُه ومجيئه، كما نطَق به الكتاب العزيز في قوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(١)، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(٢).

وأطلق ابن الهيصم عليه هذه الألفاظ اتباعاً لما ورد في الكتاب والسنة، وقال: لا أقول بمعانيها، ولا أعتقد حركته الحقيقية، وإنما أرسلها كما وردت. وأما غيره فاعتقد معانيها حقيقة.

وقال ابن الهيصم في كتاب «المقالات»: إن أكثر الحشويّة يُجيز عليه تعالى العدْوَ والهرولة.

وقال قوم منهم: إنّه تعالى يجوزُ أن ينزلَ فيطوف البلدان، ويدور في السِّكَك.

وقال بعض الأشعريّين: إنّ سائلاً سأل السّكّاك فقال: إذا أجزْتَ عليه الحركة، فهلا أجزتَ عليه أن يطفر! فقال: لا يجوز عليه الطّفْر، لأن الطّفْر إنما يكون فِراراً من ضدّ، أو اتصالاً بشكل. فقال له: فالحركة أيضاً كذلك! فلم يأت بفرق.

فأما القول بأنّه تعالى في كلّ مكان، فإنّ المعتزلةَ يقولن ذلك، وتريد به أنّه وإن لم يكن في مكان أصلاً، فإنه عالم بما في كلّ مكان، ومدبّر لما في كلّ مكان، وكأنه موجود في جميع الأمكنة لإحاطته بالجميع.

وقال قوم من قدماءِ الفلاسفة: إنّ الباريء تعالى روح شديد في غاية اللطافة، وفي غاية القوة، ينفذُ في كلّ العالم. وهؤلاء يطلقون عليه أنّه في كل مكانٍ حقيقة لا تأويلاً، ومِن هؤلاء من أوضحَ هذا القول، وقال: إنه تعالى سَارٍ في هذا العالم سرَيَان نفس الواحد مِنّا في بدنه، فكما أنّ كلّ بدن منا له نفس سارية فيه تدبره، كذلك الباريء سبحانه هو نفس العالم، وسارٍ في كل جزء من العالم، فهو إذاً في كلّ مكان بهذا الاعتبار؛ لأنّ النفس في كلّ جزء من البدن.

وحكى الحسن بن موسى النوبختيّ عن أهلِ الرِّواق من الفلاسفة أنّ الجوهرَ الإلهيّ سبحانَه رُوح ناريّ عقليّ، ليس له صورة، لكنّه قادر على أن يتصوّر بأيّ صورة شاء، ويتشبّه بالكلّ، وينفذ في الكلّ بذاته وقوته، لا بعلمه وتدبيره.

النوع الرابع: نفي كونه عَرَضاً حالاً في المحلّ، فالذي تذهب إليه المعتزلة وأكثر المسلمين والفلاسفة نفيُ ذلك القول باستحالته عليه سبحانه لوجوب وجوده، وكونِ كلّ حالٍ في الأجسام ممكناً بل حادثاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

وذهبت الحُلولية من أهل الملّة وغيرها، إلى أنه تعالى يحلّ في بعض الأجسام دون بعض كما يشاء سبحانه، وإلى هذا القول ذهب أكثر الغُلاة في أمير المؤمنين. ومنهم من قال بانتقاله من أمير المؤمنين عليه السلام إلى أولاده، ومنهم من قال بانتقاله من أولاده إلى قوم من شيعته وأوليائه واتبعهم على هذه المقالة قومٌ من المتصوّفة كالحلّاجِية والبِسْطامية وغيرهم.

وذهبت النّسْطُورية من النَّصارى إلى حلول الكَلِمة في بدن عيسى عليه السلام، كحلول السَّواد في الجسم. فأما اليعقوبية من النصارى فلا تثبت الحلول، وإنما تثبت الاتحاد بين الجوهر الإلهي والجوهر الجسماني وهو أشدُّ بُعْداً من الحُلول.

النوع الخامس: في نفي كونه تعالى محلًّا لشيء، ذهبت المعتزلة وأكثر أهل الملّة والفلاسفة إلى نفي ذلك، والقول باستحالته على ذاته سبحانه.

وذهبت الكرّامية إلى أنّ الحوادث تحلّ في ذاته، فإذا أحدث جسماً أحدث معنى حالاً في ذاته، وهو الإحداث، فحدثَ ذلك الجسم مقارناً لذلك المعنى أو عَقِيبه، قالوا: وذلك المعنى هو قول «كن» وهو المسمى خَلْقاً، والخلق غير المخلوق، قال اللّه تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾(١)، قالوا: لكنّه قد أشهدَنا ذواتها، فدلّ على أنّ خلقها غيرها.

وصرح ابن الهيّصم في كتاب «المقالات» بقيام الحوادث بذات الباري، فقال: إنه تعالى إذا أمرَ أو نهى، أو أراد شيئاً كان أمرُه ونهيه وإرادته كائنة بعد أنْ لم تكن، وهي قائمة به؛ لأنّ قوله منه يسمع، وكذلك إرادته منه توجد.

قال: وليس قيامُ الحوادث بذاته دليلاً على حدوثه، وإنما يدلّ على الحدوث تعاقب الأضاد التي لا يصحّ أن يتعطّل منها، والباري تعالى لا تَعاقب عليه الأضاد.

وذهب أبو البركات البغداديّ صاحب «المعتبر»(٢) إلى أنَّ الحوادث تقوم بذات الباريء سبحانه، وأنه لا يصحّ إثبات الإلٰهية إلا بذلك. وقال: إنّ المتكلّمين ينزهونه عن ذلك، والتنزيه عن هذا التنزيه هو الواجب.

وذهب أصحابُنا وأكثر المتكلّمين إلى أنّ ذلك لا يصحّ في حق واجب الوجود، وأنّه دليل على إمكان ذاته، بل على حدوثها. وأجازوا مع ذلك عليه أنْ يتجدّد له صفات - يعنون

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.

(٢) المعتبر في المنطق والحكمة: لأبي البركات هبة الله بن ملكا البغدادي، المتوفى سنة ٥٤٧هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٧٣١).

الأحوال لا المعاني - نحو كونه مدركاً بعد أنْ لم يكن. وكقول أبي الحسين: إنه يتجدّد له عالمية بما وجد، وكان من قبل عالماً بأنه سيوجد، وإحدَى هاتين الصفتين غير الأخرى.

قالوا: إن الصفاتِ والأحوال قيلٌ مفرد عن المعاني، والمحالُ إنما هو حلول المعاني في ذاته لا تجدّد الصفات لذاته. وللكلام في هذا الباب موضع هو أليَق به.

النوع السادس: في نفي اتحاده تعالى بغيره. ذهب أكثرُ العقلاء إلى استحالة ذلك، وذهبت اليعقوبيّة من النصارى إلى أنّ الكلمة اتّحدت بعيسى، فصارتْ جوهراً من جوهريْن: أحدهما إلهيّ، والآخر جسمانيّ. وقد أجاز الاتحاد في نفس الأمر لا في ذات الباريء قومٌ من قدماء الفلاسفة، منهم فرفريوس، وأجازه أيضاً. منهم من ذهب إلى أنّ النفس إنما تعقل المعقولات، لاتحادها بالجوْهر المفارق المفِيض للنفوس على الأبدان، وهو المسمى بالعقل الفعّال.

النوع السابع: في نفي الأعراض الجسمانيّة عنه من التّعب والاستراحة، والألم واللّذة، والغمّ والسرور، ونحو ذلك.

وذهب المعتزلةُ وأكثر العقلاء من أهلِ الملّة وغيرهم إلى نفي ذلك، والقول باستحالته عليه سبحانه.

وذهبت الفلاسفة إلى جواز اللّذة عليه، وقالوا: إنّه يلتذ بإدراك ذاته وكماله لأنّ إدراك الكمال هو اللّذة أو سبب اللذة، وهو تعالى أكمل الموجودات، وإدراكه أكمل الإدراكات، وإلى هذا القول ذهب محمد الغزاليّ من الأشعرية.

وحكى ابن الرّاونديّ عن الجاحظ أنّ أحد قدماء المعتزلة - ويعرف بأبي شعيب - وكان يجوّز عليه تعالى السرور والغمّ، والغَيْرة والأسف، ويذكر في ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أحد أغيرُ من الله»[1]، و«أنه تعالى يفرح بتوبة عبده ويسرّ بها»[2]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن، باب: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣] (٤٦٣٧)، ومسلم في التوبة، باب: غيرة الله تعالى (٢٧٦٠)، والترمذي في الدعوات، باب: منه (٣٥٣٠) دون قوله: «وأنه تعالى. . .» إلخ.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب: التوبة (٦٣٠٨) ومسلم في التوبة، باب: الحض على التوبة، (٢٦٧٥)، والترمذي في صفة القيامة، باب: منه (٢٤٩٨)، وابن ماجه في الزهد، باب: التوبة (٤٢٤٧).

ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[1]، وقال مقال المتحسر على الشيء: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[2]، وحُكِي عنه أيضاً أنه يُجوِّز عليه أن يتعب ويستريح، ويحتجّ بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[3].

وهذه الألفاظ كلّها عند أصحابنا متأوّلة محمولة على محامل صحيحة، تشتمل على شرحها الكتب المبسوطة.

النوع الثامن: في أنّه تعالى ليس بمتلوّن. لم يصرح أحد من العقلاء قاطبة بأن اللّه تعالى متلوّن، وإنما ذهب قوم من أهل التشبيه والتّجسيم إلى أنّه نور، فإذا أبصرته العيون وأدركته أبصرت شخصاً نُورانيًا مضيئاً، لم يزيدوا على ذلك، ولم يصرِّحوا بإثبات اللون بهذه العبارة، وإن كان كلّ مضيء ملوّناً.

النوع التاسع: في أنه تعالى لا يشتهِي ولا ينفِر. ذهب شيوخنا المتكلّمون إلى أنّه سبحانه لا يصحّ عليه الشهوة والنُّفرة، لأنهما إنما يصحّان على ما يقبل الزيادة والنقصان بطريق الاغتذاء، والنموّ، والباريء سبحانه وتعالى يتعالَى عن ذلك. وما عرفتُ لأحدٍ من الناس خلافاً في ذلك، اللهم إلا أنْ يطلق هاتان اللفظتان على مسمّى الإرادة والكراهيّة على سبيل المجاز.

النوع العاشر: في أنّ الباريء تعالى غير متناهي الذات. قالت المعتزلة: لما كان الباريء تعالى ليس بجسم ولا جسمانيّ، وكانت النهاية من لواحق الأشياء ذوات المقادِير، يقال: هذا الجسم متناوٍ، أي ذو طَرَفٍ.

قلنا: إن ذاتَ الباريء تعالى غيرُ متناهية، لا على معنى أنّ امتداد ذاته غير متناوٍ، فإنه سبحانه ليس بذي امتدادٍ، بل بمعنى أن الموضوع الذي يصدُق عليه النهاية ليس بمتحقّق في حقه سبحانه، فقلنا: إن ذاتَه غير متناهية، كما يقول المهندس: إنّ النقطة غير متناهية، لا على معنى أنّ لها امتداد غير متناوٍ، فإنها ليست بممتدّة أصلاً: بل على معنى أنّ الأمر الذي تصدُق عليه النهاية - وهو الامتداد - لا يصدق عليها، فإذن صدق عليها أنها غيرُ متناهيةٍ. وهذا قولُ الفلاسفة وأكثر المحققين.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.
(٢) سورة يّس، الآية: ٣٠.
(٣) سورة قّ، الآية: ٣٨.

وقالت الكرّامية: الباريء تعالى ذاتٌ واحدة منفردة عن العالَم قائمة بنفسها، مباينة للموجودات، متناهية في ذاتها، وإن كنا لا نطلق عليها هذا اللفظ لما فيه من إيهام انقطاع وجمودها، وتصرّم بقائها.

وأطلق هِشام بن الحكم وأصحابُه عليه تعالي القولَ بأنه متناهي الذات، غير متناهي القدرة.

وقال الجاحظ: إن لي قوماً زعموا أنه تعالى ذاهبٌ في الجهات الستّ، التي لا نهايةَ لها.

النوع الحادي عشر: في أنه تعالى لا تصحّ رؤيته. قالت المعتزلة: رؤية الباريء تعالى مستحيلة في الدنيا والآخرة، وإنما يصحّ أن يُرَى المقابل ذو الجهة.

وقالت الكرّامية والحنابلة والأشعريّة: تصح رؤيتُه ويُرى الآخرة، يراه المؤمنون، ثم اختلفوا، فقالت الكرّامية والحنابلة، يُرى في جهة فوق، وحكى عن مضر وكهمس وأحمد الجبيّ أنهم أجزوا رؤيتَه في الدّنيا، وملامسته ومصافحته، وزعموا أنّ المخلصين يعانقون متى شاؤوا، ويسمّون الحبيّة.

وحكى شيخنا أبو الحسين في «التصفّح»[1] عن أيوب السجستانيّ من المرجئة، أن الباريء تعالى تصحّ رؤيته ولمسه.

وذهب قوم إلى أنهم لا يزالون يروْن اللّه تعالى، وأن الناس كلّهم كافرهم ومؤمنهم يرونه، ولكن لا يعرفونه.

وقال مَنْ ترفّع عن هذه الطبقة منهم: لا يجوز أن يُرى بعين خلقت للفناء، وإنما يرى في الآخرة بعين خلقت للبقاء.

وقال كثير من هؤلاء: إن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربّه بعيني رأسِه ليلة المعراج.

وروَوْا عن كعب الأحبار أنّ اللّه تعالى قَسّم كلامه ورؤيتَه بين موسى ومحمد عليهما السلام.

وروَوْا عن المبارك بن فضالة أنّ الحسن كان يحلِف باللّه: قد رأى محمدٌ ربه.

وتعلق كثير منهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[2]، وقالوا: كلّمه موسى عليه السلام مرتين، ورآه محمد صلى الله عليه وآله مرتين.

---

(١) تصفح الأدلة في أصول الدين: لأبي الحسين محمد بن علي الطيب البصري، المتوفى سنة (٤٠٠هـ). «كشف الظنون» (١/ ٤١٣).

(٢) سورة النجم، الآية: ١٣.

وأنكر ابن الهيصم مع اعتقاده أقوال الكرامية ذلك، وقال: إنّ محمداً ﷺ لم يَرَهُ، ولكنه سوف يراه في الآخرة.

قال: وإلى هذا القول ذهبتْ عائشة وأبو ذَرّ وقَتادة، وقد روى مثله عن ابن عباس وابن مسعود.

واختلف من قال: إنه يُرى في الآخرة، هل يجوز أن يراه الكافر؟ فقال أكثرهم: إنّ الكفارَ لا يرونه، لأنّ رؤيته كرامة، والكافر لا كرامةَ له. وقالت السالمية وبعض الحشَويّة: إنّ الكفار يرونه يوم القيامة، وهو قول محمد بن إسحاق بن خزيمة، ذكر ذلك عنه محمد بن الهيصم.

فأما الأشعريّ وأصحابه، فإنهم لم يقولوا كما قال هؤلاء: إنه يُرى كما يُرى الواحد مِنّا بل قالوا: يُرى، وليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ولا شمالاً ولا أماماً ولا وراءً، ولا يرى كلُّه ولا بعضه، ولا هو في مقابَلة الرائي ولا منحرفاً عنه، ولا تصحّ الإشارة إليه إذا رُئِيَ، وهو مع ذلك يرى ويبصر. وأجازوا أيضاً عليه أن تُسمع ذاته، وأن تشمّ وتذاق وتحسّ، لا على طريق الاتصال، بل تتعلق هذه الإدراكات كلّها بذاته تعلُّقاً عارياً عن الاتصال.

وأنكرت الكرّامية ذلك ولم يُجيزوا عليه إلا إدراك البصر وحدَه، وناقضهم شيخنا أبو الحسين في «التصفّح» وألزمهم أحد أمرين: إما نفي الجميع أو إثبات إدراك من جميع الجهات، كما يقول الأشعرية.

وذهب ضرار بن عمرو، إلى أنّ اللّه تعالى يُرى يوم القيامة بحاسّة سادسة لا بهذا البصر. وقيل ذلك عن جماعة غيره.

وقال قوم: يجوز أن يحوّل اللّهُ تعالى قُوّة القلب إلى العين، فيُعلم اللّه تعالى بها، فيكون ذلك الإدراك علماً باعتبار أنه بقوّة القلب، ورؤية باعتبار أنّه قد وقع بالمعنى الحالّ في العيْن.

فهذه الأنواع الأحد عشر هي الأقوال والمذاهب التي يشتمل قوله عليه السلام بنفي التشبيه عليها. وسيأتي من كلامه عليه السلام في نفي التشبيه ما هو أشدّ تصريحاً من الألفاظ التي نحن في شرحها.

الفصل الخامس

في بيان أن الجاحد له مكابر بلسانه ومثبت له بقلبه

وهو معنى قوله عليه السلام: «فهو الذي تَشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الحجود».

لا شبهة في أنّ العلم بافتقار المتغيّر إلى المغيّر ضروريّ، والعلم بأنّ المتغير ليس هو المغيّر إما أن يكون ضرورياً أو قريباً من الضروريّ، فإذاً قد شهدت أعلام الوجود على أنّ الجاحد

لإثبات الصانع، إنما هو جاحد بلسانه لا بقلبه، لأنّ العقلاء لا يجحدون الأوليات بقلوبهم، وإن كابروا بألسنتهم. ولم يذهب أحدٌ من العقلاء إلى نفي الصانع سبحانه.

وأمّا القائلون بأنّ العالم وجد عن طبيعة، وأنّ الطبيعة هي المدبرّة له، والقائلون بتصادم الأجزاء في الخلاء الذي لا نهاية له، حتى حَصَل منها هذا العلم. والقائلون بأن أصل العالم وأساس بنيته هو النّور والظلمة، والقائلون بأنّ مبادىء العالم هي الأعداد المجردة، والقائلون بالهيُولى القديمة التي منها حَدَث العالم، والقائلون بِعشْق النفس للهَيْولَى حتى تكونت منها هذه الأجسام، فكل هؤلاء أثبتوا الصانع، وإنما اختلفوا في ماهيته وكيفية فعله.

وقال قاضي القضاة: إن أحداً من العقلاء لم يذهب إلى نفي الصانع للعالم بالكلية، ولكن قوماً من الورّاقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة، لم يذهب أحد إليها، وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه، ولا إليه للعالم ولا صانع أصلاً، وإنما هو هكذا ما زال، ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر.

قال: وأخذ ابن الراونّدي هذه المقالة فنصرَها في كتابه المعروف بكتاب «التاج» قال: فأما الفلاسفة القدماء والمتأخرون، فلم ينفوا الصانع، وإنما نفو كونَه فاعلاً بالاختيار، وتلك مسألة أخرى. قال: والقول بنفِي الصانع قريب من القول بالسَّفْسطة، بل هو هو بعينه، لأنّ من شَكّ في المحسوس أعذر ممّن قال: إن المتحركات تتحرك من غير محرك حَرّكها.

وقول قاضي القضاة، هذا هو محضُ كلام أمير المؤمنين عليه السلام وعينُه، وليس قول الجاحظ هو هذا؛ لأنّ الجاحظ يذهب إلى أنّ جميع المعارف والعلوم الإلهية ضرورية، ونحن ما ادّعينا في هذا المقام إلا أن العلم بإثبات الصانع فقط هو الضروري، فإين أحدُ القولين من الآخر؟!

٥٠ - ومن خطبة له عليه السلام: في وقوع الفتن

الأصل: إِنّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتّبَع، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَع، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللّه، وَيتَوَلّى عليهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلَى غَيْرِ دِينِ اللّه، فَلَوْ أَنَّ البَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ البَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِين، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِك يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِه، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللّهِ الْحُسْنَى.

الشرح: المرتاد: الطالب. والضِّغْث من الحشِيش: القبضة منه، قال الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾(١).

يقول عليه السلام: إنّ المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة التي يفتتِن الناس بها، أصلُها اتباع الأهواء، وابتداع الأحكام التي لم تعرف يخالف فيها الكتاب، وتحمل العصبيّة والهوى على تولّي أقوام قالوا بها، على غير وثيقة من الدّين. ومستندُ وقوع هذه الشبهات امتزاجُ الحقّ بالباطل في النظر الذي هو الطريق إلى استعلام المجهولات، فلو أن النظر تُخلّص مقدماته وترتّب قضاياه من قضايا باطلة، لكان الواقع عنه هو العلم المحض، وانقطع عنه ألسن المخالفين، وكذلك لو كان النظرُ تخلص مقدماته من قضايا صحيحة، بأن كان كله مبنياً على الفساد، لظهر فسادُه لطلبة الحقّ، وإنما يقع الاشتباه لامتزاج قضاياه الصادقة بالقضايا الكاذبة.

مثال ذلك احتجاجُ مَنْ أجاز الرؤية بأنّ الباريء تعالى ذاتٌ موجودة، وكلّ موجود يصحّ أن يُرَى، فإحدى المقدمتين حقّ، والأخرى باطل، فالتبس أمرُ النتيجة على كثير من الناس.

ومثال ما يكون المقدّمتان جميعاً باطلتين، قول قوم من الباطنية: الباريء لا موجود ولا معدوم، وكلّ ما لا يكون موجوداً ولا معدوماً يصحّ أن يكون حياً قادراً، فالباريء تعالى صحّ أن يكون حيًّا قادراً. فهاتان المقدمتان جميعاً باطلتان. لا جَرَم أنّ هذه المقالة مرغوبٌ عنها عند العقلاء.

ومثال ما تكون مقدّماته حقاً كلّها: العالم متغيّر، وكلّ متغيّر ممكن، فالعالم ممكن، فهذا مما لا خلافَ فيه بين العقلاء.

فإن قيل: فما معنى قوله عليه السلام: «فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجُو الّذين سبقتْ لهم من اللّه الحسنى»، أليسَ هذا إشعاراً بقول المجبِرة وتلويحاً به؟!

قيل: لا إشعار في ذلك بالجبْر، ومراده عليه السلام أنه إذا امتزج في النظر الحقّ بالباطل، وتركبت المقدمات من قضايا صحيحة وفاسدة تمكّن الشيطان من الإضلال والإغواء، ووسوس إلى المكلف، وخيّل له النتيجة الباطلة، وأماله إليها، وزيّنها عنده، بخلاف ما إذا كان المقدّمات حقاً كلّها، فإنه لا يقدِر الشيطانُ على أن يخيّل له ما يخالف العقل الصّريح، ولا يكون له مجال في تزيين الباطل عنده، إلا تَرَى أنّ الأوّليات لا سبيل للإنسان إلى جَحْدها وإنكارها، لا بتخييل الشيطان ولا بغير ذلك!

ومعنى قوله: «على أوليائه»، أي على مَنْ عنده استعداد للجهل، وتمرّن على اتباع الهوى،

(١) سورة صٓ، الآية: ٤٤.

وزهد تحقيق الأمور العقلية على وجهها، تقليداً للأسلاف، ومحبّةً لاتباع المذهب المألوف، فذاك هو الذي يستولي عليه الشيطان ويضلّه، وينجو الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى، وهم الذين يتبعون محض العقل، ولا يركنون إلى التقاليد، ويسلكون مسلك التحقيق، وينظرون النظر الدقيق، يجتهدون في البحث عن مقدمات أنظارهم، وليس في هذا الكلام تصريح بالجَبْر، ولا إشعار به على وجه من الوجوه، وهذا واضح.

وحَمل الراونديّ قوله عليه السلام: «فلو أنّ الباطل خَلَص...» إلى آخره، على أنّ المراد به نفي القياس في الشرع، قال: لأنّ القائسين يحملون المسكوت عنه على المنطوق، فيمتزج المجهول بالمعلوم، فيلتبس ويُظَنّ؛ لامتزاج بعضه ببعض حَقًّا، وهذا غير مستقيم، لأن لفظ الخطبة أنّ الحق يمتزِج بالباطل، وأصحاب القياس لا يسلمون أنّ استخراج العلّة من الحكم المعلوم باطل، بل يقولون إنه حقّ، وإن الدليلَ الدالّ على ورود العبارة بالقياس قد أمّنهم من كونه باطلاً.

واعلم أنّ هذا الكلامَ الذي قاله عليه السلام حقّ إذا تأملته، وإن لم تفسره على ما قدمناه من التفسير، فإنّ الذين ضلّوا من مقلّدة اليهود والنصارى وأرباب المقالات الفاسدة من أهل الملّة الإسلامية وغيرها، إنما ضلَّ أكثرهم بتقليد الأسلاف، ومَن يحسنُ الظنّ فيه من الرؤساء وأرباب المذاهب، وإنما قلّدهم الأتباع، لما شاهدوا من إصلاح ظواهرهم، ورفضهم الدنيا وزهدهم فيها، وإقبالهم على العبادة، وتمسكهم بالدِّين، وأمرهم بالمعروف ونهيِهم عن المنكر، وشدّتهم في ذات اللّه، وجهادهم في سبيله، وقوّتهم في مذاهبهم، وصلابتهم في عقائدهم، فاعتقد الأتباع والخلَف والقرون التي جاءت بعدهم أنّ هؤلاء يجب اتبّاعهم، وتحرُم مخالفتهم، وأنّ الحق معهم، وأنّ مخالِفَهُم مبتدع ضالّ، فقلدوهم في جميع ما نقل إليهم عنهم، ووقع الضلال والغلط بذلك؛ لأنّ الباطل استتر وانغمر بما مازجه من الحقّ الغالب الظاهر المشاهد عِياناً، أو الحكم الظاهر، ولولاه لما تروّج الباطل، ولا كان له قبول أصلاً.

٥١ - ومن كلام له عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابَه عليه السلام على شريعة الفرات بصِفّين ومنعوهم من الماء

الأصل: قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتَالَ، فَأَقِرُّوا عَلَى مَذَلَّةٍ، وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ، أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ، فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ، وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَةً مِنَ الْغُوَاةِ، وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاضَ الْمَنِيَّةِ.

الشرح: استطعموكم القِتال، كلمة مجازية، ومعناها: طلبوا القتال منكم، كأنه جعل القتال شيئاً يُستطعم، أي يُطلب أكله، وفي الحديث: «إذا استطعمكم الإمام فأطعموه»[1]، يعني إمام الصلاة، أي إذا أرتِجَ فاستفتحكم عليه. وتقول: فلان يستطعمني الحديث أي: يستدعيه مِنّي ويطلبه.

واللّمَمَة، بالتخفيف: جماعة قليلة.

وعَمّس عليهم الخبر، يجوز بالتشديد، ويجوز بالتخفيف، والتشديد يعطي الكثرة ويفيدها، ومعناه أبهم عليهم الخبر، وجعله مظلماً. ليلٌ عَمَاس، أي مظلم، وقد عمِس الليل نفسه بالكسر، إذا أظلم وعمّسه غيره، وعمّست عليه عَمْساً، إذا أريته أنّك لا تعرف الأمر وأنت به عارف.

والأغراض: جمع غَرَض وهو الهدف.

وقوله: «فأقرّوا على مذلّة وتأخير مَحلّة»، أي أثبتوا على الذلّ وتأخر المرتبة والمنزلة، أو فافعلوا كذا وكذا.

ونحو قوله عليه السلام: «فالموت في حياتكم مقهورين» قول أبي نصر بن نُباتة: والحسينُ الذي رأى الموت في الْعِزِّ حياة، والعيشَ في الذُّلِّ قَتْلاً. وقال التّهاميّ:

وَمَن فاته نَيلُ العُلا بعُلومِه ... وَأقلامِه فَلْيَبْغِها بِحُسامِهِ

فموتُ الفتى في العزّ مثلُ حياتِه ... وعِيشتُه في الذّلّ مثلُ حِمامِه

اشعار في الإباء والتحريض على الحرب

والأشعار في الإباء والأنَف من احتمال الضيْم والذلّ والتّحريض على الحرْب كثيرة ونحن نذكر منها ها هنا طَرَفاً، فمن ذلك قول عمرو بن بَرّاقة الهَمَدانيّ:

وَكَيْفَ ينامُ اللّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ ... حُسَامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللّهِ لا تأخذُونَها ... مراغَمَةً ما دامَ للسّيْفِ قائمُ

وَمَنْ يَطْلُبِ المالَ الممنَّع بالقَنا ... يَعِشْ ماجداً أو تخترِمْه الخوارم

ومثله:

ومن يطلبِ المال الممنَّعَ بالْقَنَا ... يَعِشْ مَاجِداً أو يُوذَ فيما يُمَارِسُ

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٥٥٨٣)، والدارقطني (١/ ٤٠٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/١٠٨).

وقال حرب بن مِشْعر:

عَطَفْتُ عَلَيْهِ المُهرَ عَطْفَةَ بَاسِلٍ ... كَمِيٍّ ومَنْ لَا يَظْلِم النَّاس يُظْلَمِ
فَأوجَرْتُهُ لَدْنَ الكُعُوبِ مُثَقَّفاً ... فخرّ صريعاً لليَدَيْنِ ولِلْفَمِ

وقال الحارث بن الأرقم:

وَمَا ضَاقَ صَدْرِي يَا سُلَيْمَى بِسُخْطِكُمْ ... وَلَكِنَّنِي فِي الحَادِثَاتِ صَلِيبُ
تَرُوكٌ لدارِ الخَسْفِ والضَّيْم، مِنْكِرٌ ... بَصِيرٌ بفعل المكرُمات أريبُ
إذَا سَامَنِي السُّلْطَانُ ذُلاً أبيتُهُ ... ولم أعطِ خَسْفاً مَا أقَامَ عَسِيبُ

وقال العباس بن مِرْداس السُّلِمَيّ:

بأبِي فَوارسَ لَا يَعْرَى صَوَاهِلُها ... أنْ يَقْبَلُوا الخَسْفَ مِنْ مَلْكٍ وإنْ عَظُما
لَا والسيوفُ بأيْدِينا مُجَرَّدَةً ... لَا كانَ مِنَّا غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنْهَزِما

وقال وهب بن الحارث:

لَا تحسبَنّي كَأقْوَامٍ عَبَثْتَ بِهِمْ ... لن يأنفُوا الذُّلَّ حتى تَأنَفَ الحُمُرُ
لا تُعلِقنِّي قذاةً لستُ فاعلَها ... واحذر شَبَاتِي فقِدْماً يَنْفَع الحذَرُ(١)
فقد عَلِمْتَ بأنّي غيرُ مُهْتَضَمٍ ... حَتَّى يلوحَ ببطنِ الرّاحَةِ الشَّعَرُ

وقال المسيّب بن عَلَس:

أبْلِغْ ضُبَيْعَةَ أنّ البِلا ... دَ فيها لذي قُوّةٍ مُغْضَبُ
وقَدْ يقعدُ القومُ في دارِهِمْ ... إذا لم يُضَامُوا وإنْ أجْدَبُوا
وَيَرْتَحِلُ القوم عِنْدَ الهَوَا ... ن عَنْ دارِهِمْ بَعْدَ مَا أخصَبُوا
وَقَدْ كَانَ سَامَةُ فِي قَوْمِهِ ... لَهُ مَطْعَمٌ وَلَهُ مَشْرَبُ
فَسَامُوهُ خَسْفاً فَلَمْ يَرْضَهُ ... وَفِي الأرْضِ عَنْ ضَيْمِهِمْ مَهْرَبُ

وقال آخر:

إنّ الهوانَ حِمَارُ القوم يَعْرِفُه ... والحرُّ ينكرهُ والرَّسْلَةُ الأجُدُ
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُ بِهِ ... إلا الأذَلّان غيرُ الحيّ وَالوتِدُ
هَذَا عَلَى الخسف مَشْدُودٌ بِرُمَّتِه ... وَذَا يُشَجُّ فَلَا يأوي له أحدُ
فإنْ أقمْتُمْ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِكم ... فإنّ رَحْلِي لَهُ والٍ وَمُعْتَمَدُ

---

(١) الشباة: طرف السيف وحدُّه. اللسان، مادة (شبو).

وفـي الـبـلاد إذا مـا خـفـتُ بـادرةً ... مـكـروهـةً عـن ولاة الـسَّـوْءِ مُـفْـتَـقَـدُ

وقال بعض بني أسد:

إنّـي امـرؤٌ مـن بـنـي خُـزَيـمـة لا ... أطـعـمُ خـسـفـاً لـنـاعِـب نَـعَـبـا
لـسـتُ بـمـعـطِ ظُـلامـةً أبـداً ... عُـجْـمـاً ولا أتّـقـي بـهـا عَـرَبـا

دخل مويلك السَّدوسيّ إلى البصرة يبيع إبلاً، فأخذ عامل الصدقة بعضها فخرج إلى البادية وقال:

نـاقُ إني أرَى الـمُـقَـامَ عـلـى الـضَّـيْـم ... عَـظِـيـمـاً فـي قُـبَّـةِ الإسْـلَامِ
قَـدْ أرانـي وَلِـي مِـن الْـعَـامِـلِ الـنِّـصْـ ... ـفُ بـحـدّ الـسِّـنَـان أوْ بـالـحُـسَـام

وقال يزيد بن مفرِّغ الحميري:

لا ذعـرتُ الـسَّـوامَ فـي فَـلَـقِ الـصُّـبْـ ... ـحِ مُـغِـيـراً وَلَا دُعِـيـتُ يَـزِيـدَا
يَـوْمَ أُعْـطَـى مِـنَ الْـمَـخَـافَـةِ ضَـيْـمـاً ... والـمـنـايـا يَـرْصُـدْنَـنـي أنْ أحِـيـدَا

وقال آخر:

لا تـحـسـبـنـي يـا أمـا ... مـة عـاجِـزاً دَنِـسـاً ثِـيَـابُـهْ
إنـي إذا خـفـتُ الـهـوا ... نَ مُـشَـيَّـعٌ ذُلُـلٌ رِكـابُـهْ

مثله قول عنترة:

ذُلُـلٌ رِكَـابـي حَـيْـثُ شـئـتُ مُـشـايـعي ... لُـبِّـي وأحْـفِـزُهُ بـرأيٍ مُـبْـرَمِ

وقال آخر:

أخَـشْـيَـةَ الـمـوتِ دَرّ دَرُّكُـمُ ... أعـطـيـتـم الـقـوم فـوقَ مـا سـألـوا
إنّـا لَـعَـمْـرُ الإلـه نـأبَـى الـذي قَـا ... لـوا وَلَـمَّـا تَـقَـصَّـفُ الأسَـلُ(١)
نَـقْـبَـلُ ضَـيْـمـاً وَنَـحْـنُ نَـعْـرِفُـهُ ... مـا دام مِـنَّ بِـظَـهْـرِهـا رَجُـلُ

وقال آخر:

وَرُبَّ يَـوْمٍ حَـبَـسْـتُ الـنَّـفْـسَ مُـكْـرَهَـةً ... فـيـه لأكْـبِـتَ أعـداءً أحَـاشِـيـهـا
آبـى وآنَـفُ مـن أشـيـاء آخُـذُهـا ... رَثّ الـقُـوى، وضعيفُ الـقومِ يُـعْـطِـيـهـا

مثله للشدّاخ:

أبَـيْـنَـا فـلا نُـعْـطِـي مـلـيـكـاً ظُـلَامَـةً ... ولا سُـوقـة إلا الـوَشِـيـج الـمـقَـوَّمـا
وإلا حُـسَـامـاً يَـبْـهَـرُ الـعَـيْـنَ لَـمْـحُـهُ ... كـصـاعـقـةٍ فـي عـارضٍ قـد تَـبَـسَّـمَـا

---

(١) الأسل: الرماح والنبل. القاموس، مادة (أسل).

من هم أباة الضيم؟

سيّد أهل الإباء، الذي علّم الناس الحميّة والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدّنيّة، أبو عبد اللّه الحسينُ بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام، عُرِض عليه الأمان وأصحابه، فأنِفَ من الذّلّ، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوعٍ من الهوان إن لم يقتُله، فاختار الموت على ذلك. وسمعت النقيب أبا زيد يحيى بن زيد العلَويّ البصريّ، يقول: كأنّ أبيات أبي تمام في محمد بن حُميد الطائيّ ما قيلت إلا في الحسين عليه السلام:

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ المَوتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ ... إليه الحفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعافُ الضَّيْمَ حتّى كأنّه ... هو الكفرُ يوم الرَّوْع أو دُونَهُ الكُفْرُ
فأثبتَ في مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ ... وقال لها: من تحت أخمَصك الحَشْرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما أتَى ... لَهَا اللّيْل إلا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

لما فَرّ أصحابُ مصعب عنه، وتخلّف في نفر يسير من أصحابه، كسر جَفنَ سيفِه، وأنشد:

فإنّ الأُلى بالطَّفِّ مِنْ آل هاشمٍ ... تَأسَّوْا فَسَنُّوا لِلْكِرَامِ التّآسِيَا

فعلم أصحابُه أنّه قد استقتل.

ومن كلام الحُسين عليه السلام يوم الطفّ، المنقول عنه، نقله عنه زينُ العابدين عليّ ابنُه عليه السلام: «ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ، قد خَيّرنا بين اثنتين: السّلة أو الذّلّة، وهيهات مِنّا الذلة! يأبى اللّه ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابتْ، وحُجُرٌ طَهُرت، وأنوفٌ حَمِيّة، ونفوس أبية».

وهذا نحو قول أبيه عليه السلام، وقد ذكرناه فيما تقدم: «إنّ امرأ أمكن عدوّاً من نفسه، يعرُق لحمه، ويفري جِلْده، ويهشِم عظمه، لعظيمٌ عجزهُ، ضعيف ما ضُمّت عليه جوانح صدره، فكن أنت ذاك إن شئت، فأما أنا فدون أن أعطِيَ ذلك ضربٌ بالمشرِفيّة تطير منه فَراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام».

وقال العباس بن مرداس السُّلميّ:

مقال امرئٍ يُهدي إليك نَصِيحَةً ... إذا معشرٌ جادوا بعرضِك فابْخَلِ
وإن بَوّؤوك منزلاً غير طائلٍ ... غليظاً فلا تنزل به وتحوّلِ
ولا تَطْعَمَنْ ما يعلِفونَك إنّهُمْ ... أتوْك على قُرْبَاهُمُ بالمثمّلِ[1]

(١) المثمّل: السمُّ المقوّى بالسلع وهو شجر مر. اللسان، مادة (ثمل).

أراكَ إذاً قد صرتَ للقوم ناصحاً ... يقال له بالغرب أدبِرْ وأقبِلِ
فخُذْها فليستْ للعزيز بخُطَّةٍ ... وَفِيهَا مقامٌ لامرئٍ مُتَذَلِّلِ

وله أيضاً:

فحاربْ فإنْ مولاك حارد نَصْرُهُ ... ففي السَّيْف مولى نصرُه لا يحاردُ[1]

وقال مالك بن حَرِيم الهمْدانيّ:

وَكُنْتُ إذا قومٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ ... فَهَلْ أنَا فِي ذَا يَالَ هَمْدَانَ ظَالِمُ!
متى تَجْمَع القَلْبَ الذَّكِيّ وَصَارِماً ... وَأنْفاً حَمِيًّا تجتنبك المظالمُ

وقال رُشَيْد بن رُمَيْض العنَزي:

باتوا نِياما وابنُ هند لم ينَمْ ... بَاتَ يُقاسيها غُلَامٌ كالزَّلَمْ[2]
خَدَلَّجُ السَّاقَيْن خَفَّاق القَدَم ... قد لَفَّها اللَّيلُ بِسَّواقٍ حُطَمْ[3]
ليس براعِي إبلٍ وَلَا غَنَمْ ... وَلَا بجزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

مَنْ يَلْقَنِي يُودِ كَمَا أوْدَتَ إرَمْ

وقال آخر:

وَلَسْتُ بمبتَاعِ الْحَيَاةِ بِسُبَّةٍ ... وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا
وَلَمَّا رأيتُ الودَّ ليسَ بنافعي ... عَمَدْتُ إلى أمرِ الَّذِي كانَ أحْزَمَا

ومن أباة الضيم يزيد بن المهلب، كان يزيد بن عبد الملك يشنؤه قبل خلافته، لأسباب ليس هذا موضع ذكرها، فلما أفضَتْ إليه الخلافة، خلعه يزيد بن المهلّب، ونزع يده من طاعته، وعلم أنّه إنْ ظَفِر به قتله وناله من الهوان ما القتل دونه، فدخل البصرة ومَلَكَها عَنْوةً، وحبس عديّ بن أرطاة عامل يزيد بن عبد الملك عليها، فسرّح إليه يزيد بن عبد المَلك جيشاً كثيفاً، ويشتمل على ثمانين ألفاً من أهل الشام والجزيرة، وبعث مع الجيش أخاه مَسْلَمَةَ بن عبد الملك، وكان أعرَف الناس بقيادة الجيوش وتدبيرها، وأيمن الناس نقيبةً في الحرب، وضمّ إليه ابنَ أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك، فسار يزيد بن المهلّب من البصرة، فقدِم واسطَ، فأقام بها أياماً، ثم سار عنها فنزل العَقْر، واشتملت جريدة جيشه على مائة وعشرين ألفاً، وقدِم مسلمة بجيوش الشام، فلما تراءى العسكران، وشبّت الحربُ، أمرَ مسلمة قائداً من

(١) حارد: متنحٌّ معتزل. القاموس، مادة (حرد).
(٢) الزَّلم: القدح الذي لا ريش عليه. اللسان، مادة (زلم).
(٣) خدلج الساقين: عظيمهما. اللسان، مادة (خدلج).

قُوّاده أن يحرق الجسور التي كان عَقَدها يزيد بن المهلّب فأحرقها، فلما رأى أهلُ العِراق الدخان قد علا انهزموا، فقيل ليزيد بن المهلّب: قد انهزم الناس، قال: ومِمّ انهزموا؟ هل كان قتال ينهزم الناس مِنْ مثله؟ فقيل له: إنّ مسلمة أحْرَق الجسور فلم يثبتوا، فقال: قبحهم اللّه! بقٌّ دُخّن عليه فطار! ثم وقف ومعه أصحاب، فقال: اضربوا وجوهَ المنهزمين، ففعلوا ذلك حتى كَثُروا عليه، واستقبله منهم أمثال الجبال، فقال: دعوهم قَبّحهم اللّه! غنمٌ عَدَا في نواحيها الذئب. وكان يزيد لا يحدّث نفسه بالفرار، وقد كان أتاه يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفيّ بواسط، فقال له:

فعِشْ مَلِكاً أو مُتْ كريماً فإن تَمُتْ وسيفك مشهور بكفّك تُعْذَرِ

فقال: ما شعرت، فقال:

إن بني مروان قد بادَ مُلكُهُمْ فإن كنت لم تشعر بذلك فاشْعُرِ

فقال: إما هذا فعسى. فلما رأى يزيد انهزام أصحابه، نزل عن فرسه، وكسر جَفْن سيفه واستقتَل، فأتاه آتٍ فقال: إن أخاك حبيباً قد قُتِل، فزاده ذلك بصيرة في توطينه نفسه على القتل، وقال: لا خير في العَيْش بعد حبيب، واللّه لقد كنت أبغَضُ الحياةَ بعد الهزيمة، وقد ازددتُ لها بغضاً، امضوا قُدُماً. فعلم أصحابه أنه مستميت، فتسلّل عنه مَنْ يكره القتال، وبَقِيَ معه جماعة خشية، فهو يتقدم كلما مرّ بخيلٍ كَشَفها، وهو يقصد مسلمة بن عبد الملك لا يريد غيره، فلما دنا منه، أدنَى مسلمةُ فرسَه ليركبَ، وحالت خيولُ أهل الشام بينهما، وعطفت على يزيد بن المهلب، فجالدهم بالسيف مصلتاً حتى قتل وحُمِل رأسه إلى مسلمة، وقتل معه أخوه محمد بن المهلب. وكان أخوهما المفضل بن المهلب يقاتل أهل الشام في جهة أخرى، ولا يعلَمُ بقتْل أخويه يزيد ومحمد، فأتاه أخوه عبد الملك بن المهلب، وقال له: ما تصنع وقد قتل يزيد ومحمد، وقبلهما قتل حبيب، وقد انهزم الناس!

وقد روى أنه لم يأته بالخَبرِ على وجهه، وخاف أن يخبره بذلك فيستقتل ويُقتل، فقال له: إنّ الأمير قد انحدر إلى واسط، فاقتصّ أثره، فانحدر المفضل حينئذٍ، فلما علم بقتل إخوته حَلَف ألا يكلم أخاه عبد الملك أبداً: وكانت عين المفضَّل قد أصيبت من قبل في حرب الخوارج، فقال: فضحني عبد الملك فضحه اللّه! ما عذري إذا رآني الناس فقالوا: شيخ أعور مهزوم، ألا صدقني فقتلت! ثم قال:

وَلَا خَيْرَ فِي طَعْنِ الصَّنَادِيدِ بِالْقَنَا وَلَا فِي لِقَاءِ النَّاسِ بَعْدَ يَزِيدِ

فلما اجتمع مَنْ بقي من آل المهلب بالبصرة بعد الكسرة، أخرجوا عديّ بن أرطاة أمير البصرة من الحبْس، فقتلوه وحملوا عيالهم في السفن البحرّية، ولجّجوا في البحر، فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك بعثا عليه قائد من قواده، فأدركهم في قَنْدَابيل، فحاربهم وحاربوه، وتقدّم

بنو المهلب بأسيافهم، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وهم: المفضّل بن المهلّب، وزياد بن المهلب، ومروان بن المهلب، وعبد الملك بن المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب، والمنهال بن أبي عُيينة بن المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قبِيصة بن المهلب. وحملت رؤوسهم إلى مسلمة بن عبد الملك، وفي أذن كلّ واحد منهم رقعة فيها اسمه، واستؤسر الباقون في الوقعة، فحمِلوا إلى يزيد بن عبد الملك بالشام، وهم أحدَ عشر رجلاً، فلما دخلوا عليه قام كُثَيِّر بن أبي جمعة، فأنشد:

حَلِيمٌ إذا مَا نَالَ عَاقَبَ مُجْمِلاً ... أشدَّ العقاب أو عفا لم يُثَرِّبِ

فعفْواً أميرَ المؤمنين وحِسْبَةً ... فَمَا تَأْتِهِ مِنْ صَالِحٍ لك يكتبِ

أساؤوا فإن تصفحْ فإنك قادرٌ ... وأفضل حلم حسبةً حلمُ مغضَبِ

فقال يزيد: أطّت[1] بك الرحم يا أبا صخر! لولا أنهم قَدَحوا في الملك لعفوت عنهم، ثم أمر بقتلهم فقتلوا، وبَقي منهم صبيّ صغير، فقال: اقتلوني فلست بصغير، فقال يزيد بن عبد الملك: انظروا هل أنبت! فقال: أنا أعلم بنفسي، قد احتلمتُ ووطئت النساء فاقتلوني، فلا خيرَ في العيش بعد أهلي! فأمر به فقتل.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنّى: وأسماء الأسارى الذين قتلوا صبراً - وهم أحد عشر مُهَلّبياً: المُعارك وعبد الله والمغيرة والمفضّل والمنجاب بنو يزيد بن المهلب. ودُريد والحجاج وغسان وشبيب والفضل بنو المفضل بن المهلب لصلبه. والفضل بن قبيصة بن المهلب. قال: ولم يبقَ بعد هذه الوقعة الثانية لأهل المهلّب باقية إلا أبو عيينة بن المهلب. وعمر بن يزيد بن المهلب، وعثمان بن المفضّل بن المهلب، فإنهم لحقوا بِرتْبيل، ثم أُمِنُوا بعد ذلك.

وقال الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى:

ألا لِلّهِ بادِرَةُ الطّلَابِ ... وعَزْمٌ لَا يُرَوَّعُ بالعِتَابِ

وكلّ مشمّر البُرْدَيْنِ يهوِي ... هُوِيّ المصلَتَات إلى الرقابِ

أعَاتِبُهُ عَلَى بُعْدِ التنائِي ... فيعذِلُنِي عَلَى قُرْبِ الإيَابِ

رأيتُ العَجْزَ يخضعُ لِليَّالِي ... ويرضى عن نوائِبها الغِضَابِ

وآمل أنْ تطاوِعَنِي الليالِي ... وينشب في المُنَى ظفري ونابي

ولولا صولة الأقْدَارِ دُونِي ... هَجَمْتُ عَلَى العُلَا مِنْ كُلّ بَابِ

---

(١) أطّت: صوتت. القاموس، مادة (أطط).

وقال أيضاً:

لا يُبذّ الهمومَ إلا غلامٌ ... يَركَبُ الهَوْلَ والحُسامُ رديفُ
ما يُذِلّ الزّمانُ الفقرِ حُرًّا ... كيفما كان فالشريفُ شَريفُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى:

وَلَستُ أضِلّ في طُرُقِ المَعالي ... وَنارُ العِزّ عَالَيةُ الشُّعَاعِ
وَدُونَ المَجْدِ رَأيٌ مُستَطِيلٌ ... وَبَاعٌ غَيْرُ مَجْبُوبِ الذِّرَاعِ
وَيُعْجِبُنِي البِعادُ كأنَّ قَلْبِي ... يحدّث عن عديّ بن الرِّقاعِ
فَرِدْ نِهْيَ العلاء بلا رقيبٍ ... وشمّر في الأمُورِ بِلَا نِزَاعِ
وَلَا تَغرُرْكَ قَعْقَعَةُ الأعادي ... فذاك الصَّخْرَ خَرٌّ من اليَفَاعِ(١)
وَنَحْنُ أحقُّ بالدُّنْيَا وَلَكِنْ ... تُخيّرتِ القَطوفُ عَلَى الوَسَاعِ

وقال حارثة بن بدر الغُداني:

أهانُ وأقصَى ثم ينتصحُونَني ... وَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْطِي نصيحتَه قَسْرَا
رأيت أكفّ المصلتين عليكمُ ... ملاءً وكفي من عطائكم وصفرا
مَتَى تسألوني مَا عَلَيَّ وَتَمْنَعُوا الـ ... ـذِي لِيَ، لا أستطيعُ في ذلكُمْ صَبْرا

وقال بعض الخوارج:

تُعَيّرُني بالحَربِ عِرْسي وما دَرَتْ ... بأنّي لها في كل ما أمَرَتْ ضِدّ
لَحَا اللّه قوماً يَقْعُدونَ وَعندَهُمْ ... سُيُوفٌ ولم يعصب بأيديهمُ قِدّ

وقال الأعشى:

أبا الموت خَشّتْنِي عِبَادٌ وإنّما ... رأيتُ منايا القوم يَسْعَى دليلها
وما موتة إنْ مِتّها غير عاجز ... بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غولُها

وقال آخر:

فلا أسمَعَنْ فيكم بأمر هَضيمةٍ ... وضيم ولا تسمع به هامتي بَعْدِي
فإنّ السنانَ يَرْكبُ المرءُ حَدّه ... من الضيّم، أو يعدُو على الأسَدِ الْوَرْدِ

ومثله:

إذا أنت لم تُنْصِفْ أخاك وَجَدْتَه ... على طرف الهِجْرانِ إن كانَ يَعْقلُ

---

(١) اليفاع: ما ارتفع من الأرض. اللسان، مادة (يفع).

وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أنْ تَضِيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَعْدِلُ

وقال آخر:

كَرِهُوا الموتَ فاسْتُبِيح حِمَاهُمُ ... وأقاموا فعلَ اللئيم الذَّليلِ

أمن الموت تهربون فإنّ الْـ ... ـموْتَ الذَّليل غيرُ جميلِ

وقال بشامة بن الغدير:

وإنّ الّتي سامَكُم قومَكُمْ ... هُمُ جعلُوها عليكم عُدُولا

أخِزْيُ الحياةِ وكُرْه الممات ... فكلًّا أراهُ طَعَاماً وَبِيلَا

فإن لم يكن غيرُ إحداهما ... فسيرُوا إلى الموت سَيْراً جميلا

وَلَا تَقْعُدوا وَبِكُمْ مِنّةٌ ... كَفَى بالحوادث للمرء غُولا

قال يزيد بن المهلّب في حرب جُرجان لأخيه أبي عيينة: ما أحسنُ منظرٍ رأيتَ في هذه الحرب؟ قال: سيف بن أبي سَبْرة وبيضته، وكان عبدُ الله بن أبي سَبْرة حَمل على غلام تركيّ قد أفرج الناس له، وصدوا عنه لبأسه وشجاعته، فتضاربا ضَرْبَتَيْن، فقتله ابن أبي سبرة بعد أن ضربه التركيّ في رأسه، فنشب سيفُه في بيضة ابن أبي سَبْرة، فعاد إلى الصفّ وسيفه مصبوغ بدم التركيّ وسيف التركي ناشب في بيضته كجزء منها يَلْمعَ، فقال الناس: هذا كوكب الذنب، وعجبوا من منظره.

وقال هُذْبة بن خَشْرم:

وإني إذا ما الموتُ لم يَكُ دُونَهُ ... قِدى الشبر أحمى الأنف أن أتأخَرَا

ولكنّني أُعْطِي الحفيظَة حَقَّهَا ... فأعرِفُ معروفاً وأنكر منكراً

وقال آخر:

إني أنا المرءُ لا يُغْضي عَلَى تِرَةٍ ... ولا يقَرّ على ضَيْم إذا غُشِما

ألقى المنيَة خَوْفاً أن يقال فتًى ... أمسى - وقد ثبت الصّفان - منهزماً

وقال آخر:

قَوّضْ خِيامَك والتمِسْ بَلَداً ... تنأى عن الغاشيك بالظّلْمِ

أو شُدّ شدة بَيْهَسٍ فعَسى ... أن يتّقُوك بصفحة السّلْمِ

استنصر سبيع بن الخطيم التيميّ من بني تيم اللات بن ثعلبة زيدَ الفوارس الضبيّ فنصره، فقالَ:

نَبّهتُ زيداً فلم أفزَعْ إلى وَكَلٍ ... رثُّ السلاح ولا في الحيّ مغمورِ
سَالَتْ عليهِ شِعَابُ الحيّ حين دَعَا ... أنصارَه بوجوهٍ كالدّنانيرِ

وقال أبو طالب بن عبد المطلب:

كذبتم وبيت اللّه نُخلِي مُحَمَّداً ... ولما نطاعِنْ دونه ونُناضلِ
وَنَنْصُره حتى نُصَرَّعَ حوله ... ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحلائلِ

لما برز عليّ وحمزةُ وعبيدة عليهم السلام يوم بَدْر إلى عُتْبة وشيبة والوليد، قَتَل عليّ عليه السلام الوليدَ، وقتل حمزةُ شيبة، على اختلاف في رواية ذلك: هل كان شيبة قرنَهُ أم عتبة؟ وتجالَد عُبيدة وعُتْبة بسيفهما، فجرحَ عُبيدة عُتْبة في رأسه، وقطع عُتبة ساق عُبَيدة، فكرّ عليّ وحمزة عليهما السلام على صاحبهما، فاستنقذاه من عُتْبة، وخبطاه بسيفيهما حتى قتلاه واحتملا صاحبَهما، فوضعاه بين يديْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العَرِيش، وهو يجود بنفسه، وإنّ مُخّ ساقِه لَيسِيلُ، فقال: يا رسول الله، لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أني أولى منه بقوله:

كَذَبْتُم وبيتِ اللّه نُخْلِي مُحَمَّداً ... وَلَمَّا نطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
وننصره حتى نصرَّعَ حولَه ... ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: «اللهم أنجِزْ لي ما وعدتَني! اللهمّ إن تهلِكْ هذه العصابة لا تُعبد في الأرض»(١).

لما قدم جيش الحَرّة إلى المدينة، وعلى الجيش مُسلم بن عقبة المريّ، أباح المدينة ثلاثاً، واستعرض أهلَها بالسيف جَزْراً كما يَجْزُرُ القصّاب الغنم، حتى ساخت الأقدام في الدّم، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذريّة أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كلّ من استبقاه من الصحابة والتابعين، وعلى أنّه عبدٍ قنّ لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية. هكذا كانت صورة المبايعة يوم الحَرّة، إلا عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام، فإنه أعظمه وأجلسه معه على سريره، وأخذ بيعته على أنّه أخو أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وابن عمه، دفعاً له عَمّا بايع عليه غيره، وكان ذلك بوصَاةٍ من يزيد بن معاوية له، فهرب عليّ بن عبد اللّه بن العباس رحمه الله

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)، والترمذي في تفسير القرآن باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨١)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (٢٠٨).

تعالى إلى أخواله من كِنْدة، فحمَوْه من مُسلم بن عقبة، وقالوا: لا يبايع ابنُ أختنا إلا على ما بايع عليه ابنُ عمه عليّ بن الحسين، فأبى مسلم بن عقبة ذلك، وقال: إني لم أفعل ما فعلت إلا بوصاةِ أمير المؤمنين، ولولا ذلك لقتلتُه، فإن أهل هذا البيت أجْدَرُ بالقتل، أو لأخذت بيعتَه على ما أخذتُ عليه بيعة غيره. وسَفَر السُّفراء بينه وبينهم، حتى وقع الاتفاق على أن يبايعَ ويقول: أنا أبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، وألتزم طاعته، ولا يقول غير ذلك. فقال عليّ بن عبد الله بن العباس:

أبـي الـعـبـاسُ رأسُ بـنـي قـصـيٍّ … وأخـوالِـي الـمُـلُـوك بَـنُـو وَلِـيـعَـةْ
هُـمُ مـنـعـوا ذِمـارِي يـوم جـاءت … كـتـائـبُ مُـسْـرِفٍ وَبَـنُـو الـلَّـكِـيـعَـةْ(١)
أراد بـيَ الـتـي لا عِـزَّ فـيـهـا … فـحـالـت دونـه أيـدٍ مَـنِـيـعَـةْ

مُسرِف كناية عن مُسلم، وأم عليّ بن عبد الله بن العباس زُرعة بنت مشرّح بن معدي كرَب بن وليعة بن شُرَحْبيل بن معاوية بنِ كِنْدة.

قال الحُصين بن الحِمام:

وَلَـسْـتُ بـمـبـتـاعِ الْـحَـيـاةِ بِـسُـبَّـةٍ … وَلَا مُـرْتَـقٍ مِـنْ خَـشْـيَـةِ الـموتِ سُـلَّـمَـا
تَـأَخَّـرْتُ أسـتـبـقـي الـحـيـاة فـلـم أجِـدْ … لـنـفـسِـي حـيـاةً مـثـلَ أن أتـقـدّمـا
فـلـسـنَـا عـلـى الأعـقـاب تـدْمَـى كـلـومُـنـا … ولـكـن عـلـى أقـدامِـنـا تَـقْـطُـر الـدِّمَـا
نُـفَـلِّـق هـامـاً مـن رجـالٍ أعـزَّةٍ … عـلـيـنـا، وهـمْ كـانُـوا أعـقّ وأظْـلَـمَـا
أبَـى لابـن سـلـمـى أنّـه غـيـرُ خـالـد … مُـلاقِـي الـمـنـايـا أيَّ صَـرْفٍ تَـيَـمَّـمَـا

ابن سلمى يعني نفسه، وسَلمى أمه.

وقال الطرمّاح بن حكيم:

وَمَـا مُـنِـعَـتْ دارٌ ولا عَـزَّ أهـلُـهـا … مِـنَ الـنَّـاسِ إلّا بـالْـقَـنَـا والـقَـنَـابـل

وقال آخر:

وإن الـتـي حـدثـتـهـا فـي أنـوفـنـا … وأعـنـاقـنـا مـن الأبـاء كـمـاهـيـا

وقال آخر:

فـإنْ تَـكُـنِ الأيـام فـيـنَـا تَـبَـدَّلَـتْ … بـبـؤسَـي ونُـعْـمـي والـحـوادِثُ تَـفْـعَـلُ
فَـمَـا لَـيَّـنَـتْ مِـنَّـا قَـنَـاةً صَـلِـيـبَـةً … وَلَا ذَلَّـلَـتْـنـا لـلـتـي لـيـس تـجـمـلُ

---

(١) الذمار: هو كل ما يلزم الرجل حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه وإن ضيعه لزمه اللوم. اللسان، مادة (ذمر).

وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نُفُوساً كَرِيمَةً ... تحمّل ما لا يستطاع فتحمِلُ

وقال آخر:

إذا جانبٌ أعياك فاعمِد لجانبٍ ... فإنك لاقٍ في البلاد معوّلَا

وقال أبو النشناش:

إذا المرء لم يَسْرَح سواماً ولم يُرِحْ ... سَوَاماً ولم تَعْطِف عَلَيْهِ أقارِبُهْ

فَلَلْمَوتُ خيرٌ للفتى من قُعودِهِ ... عديماً ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُهْ

ولم أرَ مثل الهمّ ضاجَعَهُ الفَتَى ... ولا كَسَوادِ الليل أخْفَقَ طالِبُهْ

فعِشْ معدِماً أو مُتْ كريماً فإنّني ... أرى الموت لا ينجُو من الموتِ هَارِبُهْ

وفد يحيى بن عُرْوة بن الزُّبير عَلَى عبد الملك، فجلس يوماً على بابه ينتظر إذنَه، فجرى ذكرُ عبد اللّه بن الزُّبير، فنال منه حاجب عبد الملك، فلطَم يحيى وجهَه حتى أدمَى أنفه، فدخل على عبد الملك ودمه يجري من أنفه، فقال: مَنْ ضربك؟ قال: يحيى بن عُرْوة، قال: أدخله - وكان عبد الملك متكئاً فجلس - فلما دخل قال: ما حملَك على ما صنعت بحاجبي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن عمّي عبد اللّه كان أحسنَ جواراً لعمتك منك لنا، واللّه إن كان ليوصي أهل ناحيته أن لا يسمعوها قذعاً[1]، ولا يذكركم عندها إلا بخير، وإن كان لَيقولُ لها: مَنْ سبّ أهلك فقد سبّ أهله، فأنا واللّه المعمّ المُخْوِل، تفرّقت العرب بين عَمّي وخالي، فكنت كما قال الأول:

يَدَاهُ أصابَتْ هذِهِ حَتْفَ هذِهِ ... فلم تجد الأخرى عليها مُقَدّما

فرجع عبد الملك إلى متكئِه، ولم يزل يُعرَف منه الزيادة في إكرام يحيى بعدها.

وأمّ يحيى هذه ابنة الحَكم بن أبي العاص عَمّة عبد الملك بن مروان.

وقال سعيد بن عمر الحرَشيّ أمير خراسان:

فلستُ لعامرٍ إنْ لَمْ تَرَوْني ... أمامَ الْخَيْلِ أطعَنُ بالعوالي وأضرِبُ هامةَ

وأضربُ هامةَ الجبّار مِنْهمْ ... بماضي الغرب حُودِثَ بالصقالِ

فما أنا في الحروب بمستكينٍ ... ولا أخشى مصاوَلَة الرجالِ

أبَى لي وَالِدي من كلّ ذم ... وخالِي حين يُذكَرُ خيرُ خالِ

---

(١) القذع: الفحش من الكلام الذي يقبح ذكره. اهـ لسان العرب، مادة (قذع).

قال عبد اللّه بن الزبير لما خطب حين أتاه نعي مُصْعَب: أما بعد، فإنه أتانا من العراق خَبَرٌ أفرحَنا وأحزننا، أتانا خبرُ قتل المصعَب، فأما الذي أحزنَنا فلوعة يجِدُها الحميم عند فراق حميمه ثم يرعوي بعدها ذو اللُّبّ إلى حسن الصبر وكرم العزاء.

وأما الذي أفْرَحَنا، فإنّ ذلك كان له شهادة، وكان وله خِيرة، إنا واللّه ما نموت حبَجاً[1] كما يموت آل أبي العاص، ما نموت إلا قتلاً قَعْصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف. فإنّ يهلك المصعب، فإن في آل الزبير لَخَلَفاً.

وخطب مرة أخرى فذكره فقال: لودِدْت واللّه أنّ الأرض قاءتْنِي عنده حين لفظ غُصَّتَه وقَضَى نَحْبَه.

شعر:

خُـذِيـه فَـجُـرِّيـه ضُـبَـاع وأبْـشِـرِي ... بلحم امرئٍ لم يشهدَ اليوم ناصرُهُ

وقال الشَدّاخ بن يعمُر الكِنانيّ:

قـاتِـلُـوا الـقـومَ يـا خُـزَاع ولا ... يَـدْخُـلْـكُـمْ مِـنْ قِـتَـالـهـمْ فَـشَـلُ
الـقـوم أمـثـالـكـم لَـهُـمْ شَـعَـرٌ ... فـي الـرأس لا يُـنـشـرون إنْ قُـتـلـوا

وقال يحيى بن منصور الحنفيّ:

ولـمـا نـأتْ عَـنّـا الـعـشـيـرةُ كـلـهـا ... أنَخْنا محالفنا السيوف على الدهرِ
فـمـا أسـلـمـتْـنـا عـنـد يـوم كـريـهـةٍ ... ولا نحن أغضينا الجُفُون على وِتْرِ

قيل لرجل شهد يوم الطّفّ مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلُتم ذريّة رسول الله ﷺ! فقال: عَضَضْتَ بالجنْدَل، إنك لو شِهدت ما شَهِدْنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عِصابة، أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطُم الفرسان يميناً وشمالاً، وتُلْقِي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائلها بينها وبين الوُرُود على حياض المنية، أو الاستيلاء على الملك، فلو كَفَفْنَا عنها رويداً لأتَتْ على نفوس العسكر بحذافيرها، فما كنا فاعلين لا أمّ لك!

السخاء من باب الشجاعة، من باب السخاء، لأنّ الشجاعة إنفاق العمر وبذلَه فكانت سخاء، والسخاء إقدام على إتلاف هو عَدِيل المهجة، فكان شجاعة.

(١) قال ابن الأثير: (الحبج بفتحتين هو أكل البعير لحاء العرفج ويسمن عليه وربما بَشَم فقتله) اهـ. لسان العرب، مادة (حبج).

أبو تمام في تفضيل الشجاعة على السخاء:

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إنما نفقاتُهُمْ ... مالٌ وقوم يُنْفِقُون نُفُوسا

قيل لشيخنا أبي عبد الله البصريّ رحمه الله تعالى: أتجد في النُّصوص ما يدلّ على تفضيل عليّ عليه السلام، بمعنى كثرة الثواب لا بمعنى كثرة مناقبه، فإنّ ذاك أمرٌ مفروغ منه؟ فذكر حديثَ الطائر المشويّ، وأنّ المحبّة من الله تعالى إرادة الثواب. فقيل له: قد سَبقك الشيخُ أبو عليّ رحمه الله تعالى إلى هذا، فهل تجد غير ذلك؟ قال نعم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾(١)، فإذا كان أصل المحبة لمن ثبت كثبوت البنيان المرصوص، فكل مَنْ زاد ثباته زادت المحبة له، ومعلوم أن عليًا عليه السلام ما فَرّ في زَحْفٍ قَطّ، وفرّ غيرُه في غيرِ موطن.

وقال أبو تمام:

السَّيْفُ أصْدَقُ أنباءً من الكُتبِ ... في حدّه الحَدّ بَيْنَ الجِدّ واللّعِبِ
بيضُ الصفَائحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ في ... مُتونِهِنَّ جِلَاء الشّكّ والرِّيَبِ
وَالْعِلْمُ في شُهُبِ الأرْمَاحِ لامعةً ... بين الخميسَيْنِ لا في السَّبْعةِ الشُّهُبِ

وقال أبو الطيب المتنّبي:

حَتّى رَجَعْتُ وَأقْلَامي قَوَائِلُ لي: ... المجدُ للسَّيْفِ لَيْسَ المجدُ لِلْقَلمِ
اكْتُبْ بِنَا أبداً بعد الكِتاب بِهِ ... فإنما نحن للأسْيافِ كالخَدَمِ
أسْمَعْتَني وَدَوائي ما أشَرْتُ بِه ... فإنْ غَفَلْتُ فَدائي قِلّةُ الفَهَمِ
مَنِ اقْتَضَى بسوى الهنديّ حاجَتَهُ ... أجاب كلَّ سؤالٍ عن «هَلٍ» بِلَمِ

قال عطاف بن محمد الألوسيّ:

أمكابدَ الزَّفَرَات موصَدة ... تلتذ خوف القطع بالشّلَلِ
صَرِّفْ هُمومَكَ تَنْتَدِبْ هِمَماً ... فالسُّكْرُ يُعْقِبُ نشوَة الثّمِلِ
ولِلَيْلةِ الميلادِ مَفْرَحَةٌ ... تُنسي الحواملَ أشهرَ الحَبَلِ
سِرْ في البِلَا تخوضها لُجَجاً ... فالدُّرّ ليس يُصابُ في الوَشَلِ

---

(١) سورة الصف، الآية: ٤.

واجعل لصبوَتِك الظُّبَا سَكَناً — والذور أكواراً على الإبلِ
والعيشُ والوطن المهد في — غَرَبِ الحُسَام وغَارِب الجملِ
واشْدُدْ عَلَيْكَ وَخُذْ إليك وَدَعْ — ضَعَةَ الخُمول وَفَتْرَةَ الْكَسَلِ
وَارْمِ العُدَاةَ بِكُلِّ صَائِبَةٍ — مَا الرَّمْيُ مَوْقُوفاً عَلَى ثُعَلِ
لَا تَحْسَبِ النَّكَبَات مَنقصةً — قَدْ يُستجادُ السَّيْفُ بالْفَلَلِ

وقال عُرْوة بن الورد:

لَحَا اللّهُ صُعلوكاً إذا جَنّ ليلُهُ — مُصَافي المُشَاشِ آلفاً كلَّ مَجْزرِ
يَعُدّ الغِنى مِنْ نَفْسه كلَّ ليلَةٍ — أصَابَ قِراها مِنْ صَدِيق مُيَسَّر
يَنَامُ عِشاءً ثمّ يُصْبِحُ نَاعِساً — يحُتّ الحَصَا مِنْ جَنْبِه المتعفرِ
يُعينُ نِسَاءَ الحيّ ما يَستَعِنَّهُ — وَيُمْسِي طَلِيحاً كالبعيرِ المحَسَّر
ولكنّ صُعْلُوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ — كَضَوْءِ شِهاب القابِس المُتَنوِّرِ[1]
مُطِلاً عَلَى أعْدَائِهِ يَزْجُرُونَه — بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المشَهَّر
وإن قَعَدُوا لا يأمنون اقترابَه — تَشَوُّفَ أهل الغائب المتنظَّرِ
فذلك إن يَلْقَ المنيّةَ يَلْقَهَا — حَميداً وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأجْدِر

وقال آخر:

ولستُ بمولى سَوْءَةٍ أُدَّعى لها — فإنّ لسوآتِ الأمور مَوالِيا
وسيان عِنْدِي انْ أمُوتَ وانْ أرَى — كَبَعضِ رجالٍ يُوطِنُونَ المخازيا
ولن يجِدَ النَّاسُ الصديقَ وَلَا العِدَا — أديمي إذا عَدّوا أدِيمَي وَاهِيا
وإنّ نِجَارِي بابن غَنْم مُخَالِفٌ — نجارَ لئام فابغني مِنْ وَرَائِيا[2]
وَلَسْتُ بِهَيّابٍ لِمَنْ لَا يَهابُني — وَلَسْتُ أرَى للمرءِ مَا لَا يَرَى لِيَا
إذا المرءُ لم يُحبِبْكَ إلّا تكرُّهاً — عِرَاضَ العَلُوقِ لم يكُنْ ذَاكَ باقِيا

(١) القابس: طالب النار. لسان العرب، مادة (قبس).
(٢) النِجّار والنُّجار: الأصل والحسب، واللسان، مادة (نجر).

نَهار بن توْسعة في يزيد بن المهلّب:

وَمَا كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ أميرٍ ... كما كُنَّا نُؤَمِّلُ مِنْ يزيدِ

فأخطأ ظَنُّنا فيه وقِدْماً ... زَهِدْنا في معاشرة الزَّهيدِ

إذا لم يعطِنا نَصَفاً أميرٌ ... مشينا نحو مَشْيَ الأسُودِ

كان هُذْبة اليشكريّ - وهو ابن عم شوذب الخارجيّ اليشكُرّي - شجاعاً مقداماً، وكان ابنُ عمه بِسْطام الملقب شوْذباً الخارج في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك، فأرسل إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً كثيفاً فحاربه، فانكشفت الخوارج، وثبتَ هُذْبة وأبَى الفرار، فقاتل حتى قُتل، فقال أيوب بن خوليّ يرثيه:

فَيَا هُذبَ لِلْهَيْجا وَيَا هُذبَ لِلنَّدىٰ ... وَيَا هُذبَ لِلْخَصْمِ الألَدِّ يُحَارِبُهْ

وَيَا هُذبَ كَمْ مِنْ مَلْحَمٍ قَدْ أجَبْتَهُ ... وَقَدْ أسْلَمَتْه لِلرِّمَاح كَتَائِبُهْ

تَزَوّدتَ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعاً وَمِغْفَراً ... وَعَضْباً حُسَاماً لم تخنك مَضَارِبُهْ

وَأجْرَدَ مَحْبُوكَ السَّراةِ كَأنَّه ... إذا انْفَضّ وافى الرِّيش حُجْنٌ مَخَالِبُهْ

كانت وصايا إبراهيم الإمام وكتبه تَرِدُ إلى أبي مسلم بخراسان: إن استطعت ألّا تَدَع بخُرسان أحداً يتكلّم بالعربية إلا وقتلته فافعل، وأيّما غلام بلغَ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله، وعليك بُمضَر، فإنهم العدُوّ القريب الدار، فأبِدْ خضرَاءهم، ولا تَدَعْ على الأرض منهم ديّاراً.

قال المتنبيّ:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرّفِيع مِنَ الأذى ... حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوانِبه الدَّمُ

وله:

وَمَنْ عَرَفَ الأيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا ... وَبِالنَّاسِ رَوّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ

فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إذَا ظَفِرُوا بِهِ ... وَلَا فِي الرَّدَى الجاري عَلَيْهِمْ بآثمِ

وقال المتنبي أيضاً:

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاطَّرِحِي ... حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاء والنَّعَمِ

إنْ لم أذَرْكِ عَلَى الأرْمَاح سائِلَةً ... فَلَا دُعِيتُ ابن أمّ المَجْدِ والكَرَمِ

ومن أباة الضيم قُتيبة بن مسلم الباهليّ أمير خراسان وما وراء النهر، لم يصنعْ أحدٌ صنيعه في فتح بلاد الترك، وكان الوليد بن عبد الملك أراد أن ينزع أخاه سليمان بن عبد الملك من العَهْد بعده، ويجعلَه في ابنه عبد العزيز بن الوليد، فأجابه إلى ذلك قُتيبة بن مسلم وجماعة من الأمراء، فلما مات الوليد قبل إتمام ذلك، وقام سليمان بالأمر بعده - وكان قتيبةُ أشدّ الناس في أمر سليمان وخلعِه عن العهد - علم أنه سيعزِل عن خراسان ويولّيها يزيدَ بن الملهبِ؛ لودٌ كان بينه وبين سليمان، فكتب قتيبة إليه كتاباً يهنته بالخلافة، ويذكُر بلاءَه وطاعتَه لعبد الملك وللوليد بعده، وأنه على مثل ذلك إن لم يعزله عن خُراسان، وكتب إليه كتاباً آخر يذكّره فيه بفتوحه وآثاره، ونكايتِه في الترك، وعِظَم قدره عند ملوكهم، وهيبة العجم والعرَب له وعِظَم صيته فيهم، ويذمّ آل المهلب، ويحلف له بالله: لئن استعملَ يزيد بن المهلب على خراسان ليخلعنّه، وليملأنّها عليه خيلاً ورَجلاً، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خَلع سليمان، وبعث بالكتُب الثلاثة مع رجل من قومه من باهلة يثق به، وقال له: ادْفَعْ الكتاب الأول إليه، فإن كان يزيدُ بن المهلب حاضراً عنده فقرأ الكتاب ثم دفعه إلى يزيد فادْفع إليه هذا الثاني، فإن قَرَأه وألقاه إليه أيضاً فادفع إليه الثالث، وإن قرأ الكتاب الأول ولم يدفعه إلى يزيد، فاحتبس الكتابين الآخريْن معك.

فقدِم الرسولُ على سليمان، ودخل عليه وعنده يزيد بن المهلّب، فدفع إليه الكتاب الأول الأول، فقرأ وألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتابَ الثاني، فقرأ وألقاه إلى يزيد أيضاً، فدفع إليه الكتاب الثالث، فقرأه وتغيّر لونه وطواه، وأمسكه بيده، وأمر بإنزال الرسول وإكرامه، ثم أحضره ليلاً، ودفع إليه جائزته، وأعطاه عَهْد قتيبة على خُراسان، وكان ذلك مكيدةً من سليمان يسكنه ليَطمئنّ ثم يعزله، وبعث مع رسوله رسولاً، فلما كان بحُلْوان بلغه خَلْعُ قتيبة سليمان بن عبد الملك، فرجع رسول سليمان إليه، فلما اختلفتِ العربُ على قتيبة حينَ أبدَى صفحته لسليمان، وخلع رِبْقَة الطاعة، بايعوا وكيعَ بن أبي سود التميمّ على إمارة خراسان، كانت أمراء القبائل قد تنكَّرَتْ لقتيبة لإذلاله إياهم، واستهانته بهم واستطالته عليهم، وكرِهوا إمارته، فكانت بيعة وكيع في أوّل الأمر سرًّا، ثم ظهر لقتيبة أمرُه، فأرسل إليه يدعوه، فوجده قد طلَا رِجْلَه بمَغْرة(١)، وعلّق في عنقه خَرَزاً، وعنده رجلاً يَرْقَيان رجلَه، فقال للرسول: قد ترى ما برجلي! فرجع وأخبر قتيبة، فأعاده إليه، فقال: قل له ليأتيني محمولاً، قال: لا أستطيع.

فقال قتيبة لصاحب شرطته: انطلق إلى وكيع فأتني به، فإن أبَى فاضربْ عنقَه، وائتني برأسه، ووجّه معه خيلاً. فقال وكيع لصاحب الشرطة: البَثْ قليلاً تلحق الكتائب، وقام فلبس سلاحه، ونادى في الناس فأتوه، فخرَج فتلقاه رجل، فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني أسد،

(١) المغرة: طين أحمر يصبغ به. اللسان، مادة (مغر).

فقال: ما اسمك؟ فقال ضِرْغام، فقال: ابن مَنْ؟ قال: ابن لَيْث، فتيمّن به وأعطاه رايته، وأتاه الناس أرسالاً من كل وجه، فتقدّم بهم، وهو يقول:

قَــرْمٌ إذا حُـــمِّـــلَ مَـــكْـــرُوهَـــةً   شَـدَّ الـشَّـرَاسِـيفَ لَـهَـا والـحَـزِيـمْ[1]

واجتمع إلى قتيبة أهلُه وثقاته، وأكثرُ العرب ألسنتُهم له وقلوبهم عليه. فأمر قتيبة رجلاً فنادى: أين بنو عامر؟ وقد كان قتيبة جَفَاهم في أيام سُلطانه - فقال له مَجْفر بن جزء الكلابيّ: نادِهم حيثُ وضعتَهم، فقال قتيبة: أنشدُكم اللّه والرحِم - وذاك لأن باهلة وعامراً من قيس عيلان - فقال مجفر: أنت قطعتَها، قال: فلكم العُتْبى، فقال مجفر: لا أقالنا اللّه إذاً، فقال قتيبة:

يَـا نَـفْـسُ صَـبْـراً عَـلَـى مَـا كَـانَ مِـنْ أَلَـمٍ   إذْ لـم أجِـدْ لِـفُـضُـول الـعـيـش أقْـرَانـا

ثم دعا ببرذون له مَدَرّب ليركَبه، فجعل يمنعه الركوب حتى أعيا. فلما رأى ذلك عاد إلى سريره فجلس، وقال: دعوه، فإنّ هذا أمرٌ يُراد. وجاء حيان النَّبَطيّ - وهو يومئذٍ أمير الموالي، وعدتهم سبعة آلاف، وكان واجداً على قُتيبة - فقال له عبد اللّه بن مسلم أخو قتيبة: احمل يا حيان، فقال: لم يأن بعد، فقال له: ناولْني قوسَك، فقال حيان: ليس هذا بيوم قوس. ثم قال حيان لابنه: إذ رأيتَني قد حوّلت قلنسوتي، ومضيتُ نحو عسكر وكيع، مالت الموالي معه بأسْرها، فبعث قتيبة أخاه صالح بن مسلم إلى الناس، فرماه رجلٌ من بني ضَبّة فأصاب رأسه، فحُمل إلى قتيبة ورأسه مائل، فوضَعه على مصلاّه، وجلس عند رأسه ساعة، وتهايج الناس، وأقبل عبد الرحمٰن بن مسلم أخو قتيبة نحوه فرماه الغوغاء وأهلُ السوق فقتلوه، وأشِير على قتيبة بالانصراف، فقال: الموتُ أهونُ من الفرار. وأحرق وكيع موضعاً كانت فيه إبل قُتيبة ودوابّه، وزحَفَ بمن معه حتى دنا منه، فقاتل دونه رجل من أهله قتالاً شديداً، فقال له قتيبة: انجُ بنفسِك، فإنّ مثلك يُضَنّ به عن القتل، قال: بئسما جَزَيْتُك به أيها الأمير إذاً، وقد أطعمتَني الجَرْدَق[2]، وألبستني النُّمرق. وتقدّم الناسُ حتى بلغوا فُسطاط قتيبة، فأشار عليه نُصحاؤه بالهرب، فقال: إذاً لست لمسلم بن عمرو! ثم خرَج إليهم بسيفِه يجالدهم، فجرح جراحات كثيرة، حتى ارتُثّ وسقط، فأكبّوا عليه، فاحتزُّوا رأسه، وقُتِل معه من إخوته عبد الرحمن، وعبد اللّه، وصالح، والحصين، وعبد الكريم، ومسلم، وقُتِل معه جماعة من أهلِه وعدّة مَنْ قتل معه من أهله وإخوته أحد عشر رجلاً. وصعد وكيع بن أبي أسود المنبر وأنشد:

مَـــنْ يَـــنِـــكِ الْـــعَـــيْـــرَ يَـــنِـــكْ نَـــيّـــاكـــا

---

(١) الشراسيف: جمع شرسوف، وهو غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف. اللسان، مادة (شرسف).

(٢) الجردق: الرغيف، فارسي معرب. اللسان، مادة (جردق).

إنّ قتيبة أراد قتلي، وأنا قتّال الأقران، ثم أنشد:

قَـدْ جَـرَّبُـونِـي ثُـمَّ جَـرَّبُـونِـي ... مِـنْ غَـلْـوَتَـيْـن وَمِـنَ الْـمِـئِـيـنِ

حَـتَّـى إذا شـبْـتُ وشَـيَّـبُـونِـي ... خَـلَّـوا عِـنـانـي ثـم سَـيَّـبُـونِـي

حَـذَارِ مـنـي وتـنـكَّـبـونِـي ... فـإنّـنـي رامٍ لِـمَـنْ يَـرْمِـيـنـي

ثم قال: أنا أبو مطرّف، يكررها مراراً، ثم قال:

أنـا ابـنُ خـنْـدِف تـنْـمِـيـنِـي قـبـائـلـهـا ... لـلـصّـالِـحـات وَعَـمِّـي قَـيْـسُ عَـيْـلَانـا

ثم أخذ بلحيته، وقال: إنّي لأقتلنّ ثم لأقتلنّ ولأصلبنّ ثم لأصلبنّ، إن مَرْزُبَانكُم هذا ابن الزانية، قد أغلَى أسعاركم، والله لَئِنْ لم يَصِرْ القفيز بأربعة دراهم لأصلبنّه، صّلوا على نبيكم.

ثم نزل وطلبَ رأس قتيبة وخاتمه، فقيل له: إن الأزد أخذته. فخرج مُشْهراً، وقال: والله الذي لا إله إلّا هوَ لا أبرحُ حتى أوتي بالرأس، أو يذهب رأسي معه، فقال له الحُصَين بن المنذر: يا أبا مطرّف فإنك تؤتَى به. ثم ذهب إلى الأزد، فأخذ الرأس وأتاه به، فسيَّره إلى سُليمان بن عبد الملك، فأدخِل عليه ومعه رؤوس إخوته وأهله، وعنده الهُذَيل بن زُفَر بن الحارث الكلابيّ، فقال: أساءك هذا يا هذيل؟ قال: لو ساءني لساء ناساً كثيراً. فقال سليمان: ما أردت هذا كلّه، وإنما قال سليمان ذلك للهُذيل؛ لأنّ قيس عَيْلان تجمع كِلَاباً وباهلة، قالوا: ما وَلِيَ خُراسان أحدٌ كقُتيبة بن مسلم، ولو كانت باهلة في الدناءة والضَّعة واللؤم إلى أقصى غاية، لكان لها بقتيبة الفَخْر على قبائل العرب.

قال رؤساء خراسان من العجم لما قتِل قتيبة: يا معشرَ العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان مِنّا ثم مات لجعلناه في تابوت، فكنّا نستفتح به إذا غَزَوْنا.

وقال الأصبهبذ: يا معشر العرب، قتلتم قُتيبة ويزيد بن المهلّب، لقد جئتم شيئاً إدًّا! فقيل له: أيُّهما كان أعظمَ عندكم وأهْيبَ؟ قال: لو قُتيبة بأقصى حُجْرةٍ في المغرب مكبّلاً بالحديد والقيود، ويزيد معنا في بلدنا والٍ علينا، لكان قتيبة أهيَبَ في صدورنا وأعظم.

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهليّ يرثي قُتيبة:

كـأنّ أبـا حـفـص قُـتـيـبـة لـم يَـسـرْ ... بجيـشٍ إلى جيـشٍ وَلَـمْ يَـعْـلُ مِـنْـبَـرا

وَلـم تَـخْـفِـق الـرّايـاتُ والـجيـش حَـوْلَـهُ ... صُفـوفـاً ولـم يشـهـد لـه الـنـاسُ عَـسْـكَـرا

دَعَـتْـهُ الـمـنـايـا فـاسـتـجـابَ لـربّـه ... وَرَاحَ إلـى الـجَـنّـات عَـفًّـا مُـطَـهَّـرَا

فَـمَـا رُزِىء الإسـلامُ بَـعْـدَ مـحـمـدٍ ... بـمـثْـلِ أبـي حَـفْـصٍ فَـبَـكِّـيـهِ عَـبْـهَـرَا

عَبْهر: أمّ ولد له.

وفي الحديث الصحيح: «إنّ من خَيْرِ النّاسِ رَجُلاً ممسكاً بِعنان فرسه في سبيل اللّه، كلّما سمع هَيْعَة طار إليها»(١).

كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد: واعلم أنّ عليك عُيوناً من اللّه تَرْعاك وتَراك، فإذا لقيت العدوَّ فاحرِص على الموت تُوهَبْ لك الحياة، ولا تغسِّل الشهداءَ من دمائهم، فإنّ دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة.

عمر: لا تزالون أصحّاء ما نزعتم ونزوتم. يريد: ما نزعتُم في القَوْس، ونزوتم على الخيل.

بعض الخوارج:

وَمَـنْ يَـخْـشَ أظـفـارَ الـمَـنـايا فـإنـنـا ... لَـبِسْـنـا لـهـنّ الـسابـغـاتِ مِـنَ الـصـبْـرِ

وإنّ كــريــةَ الــمــوت عــذبٌ مــذاقُــه ... إذا مـا مـزجـنـاه بـطـيـبٍ مِـنَ الـذِّكْـرِ

حضّ منصور بن عَمّار في قصصه على الغَزْو والجهاد، فطرِحَتْ في المجلس صُرّة فيها شيء، ففُتِحَتْ فإذا فيها ضفيرتا امرأة، وقد كتبت: رأيتُك يا بن عَمّار تحضّ على الجهاد، والله إني لا أملِك لنفسي مالاً، ولا أملك سوى ضفيرتيّ هاتين، وقد ألقيتُهما إليك، فتاللّه إلا جعلتَهما قَيْد فرسٍ غازٍ في سبيل الله، فلعل الله أنْ يرحَمني بذلك.

فارتجّ المجلس بالبكاء والضجيج.

لبعض شعراء العجم:

وَاسَــوءَتَــا لامْــرِىءٍ شَــبِــيــبَــتُــهُ ... فــي عُــنْــفُــوَانٍ وَمَــاؤُهُ خَــضِــلُ(٢)!

رَاضٍ بِــنَــزْرِ الــمــعــاشِ مُــضْــطَــهِــدٍ ... عَــلَــى تــراثِ الآبــاءِ يَــتَّــكِــلُ

لَا حَــفِــظَ الــلّــهُ ذَاكَ مِــنْ رَجُــلٍ ... وَلَا رَعَــاهُ مَــا أَطَــتِ الإِبِــلُ

كــلّا وَرَبّــي حَــتّــى تــكــون فــتًــى ... قــد نــهــكــتْــهُ الأســفــارُ والــرِّحَــلُ

مُــشَــمِّــراً يــطــلــبُ الــرِّيــاســة أوْ ... يُــضــرَبُ يَــومــاً بِــهُــلْــكــهِ الــمــثَــلُ

حَــتــى مَــتــى تــتــبــعُ الــرِّجــالَ وَلَا ... تُــتْــبَــعُ يــومــاً، لأمّــكَ الْــهَــبَــلُ!

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: فضل الجهاد والرباط (١٨٨٩)، وابن ماجه في الفتن، باب: العزلة (٣٩٧٧)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩٤٣٠).

(٢) خضل: نَدٍ يترشّش من نداه. اللسان، مادة (خضل).

عبد الله بن ثعلبة الأزدي:

فَلَئِن عَمِرْتُ لأشفينَّ ... النفس من تلك المساعي
ولأعلِمَنَّ البَطن ... أنَّ الزّادَ ليسَ بِمُسْتَطاعِ
أمّا النهارُ فَقَدْ ... أرَى قومي بمرقَبَةٍ يَفاعِ
في قَرّة هَلَكٍ وَشَوْ ... كٍ مثل أنيابِ الأفاعي
تَرِدُ السِّباعُ مَعِي فتحسبني ... السِّبَاعُ من السِّبَاعِ

مجير الجراد أبو حَنْبل حارثة بن مرّ الطائيّ، أجارَ جراداً نزل به ومنِعَ مِنْ صيده، حتى طار من أرضه، فسمِّي مجيرَ الجرادِ.

وقال هلال بن معاوية الطائيّ:

وبالجبلين لنا مَعْقِلٌ ... صَعَدْنا إلَيْهِ بِصُمِّ الصِّعَادِ
مَلَكْناهُ في أولَيَاتِ الزَّمَا ... ن مِنْ قَبْلِ نُوحٍ ومِنْ قبلِ عَادِ
وَمِنّا ابنُ مُرٍّ أبو حَنبَلٍ ... أجارَ من الناس رَجْلَ الجرَادِ
وَزَيْدٌ لنَا ولنا حاتمٌ ... غياث الورى في السِّنين الشداد

وقال يحيى بن منصور الحنفيّ:

وَلَمّا نَأتْ عَنّا العَشيرَةُ كُلُّهَا ... أنَخْنَا فَحَالَفنَا السُّيوفَ عَلَى الدَّهْرِ
فما أسلَمَتْنَا عِنْدَ يوم كريهةٍ ... وَلَا نحنُ أغْضَيْنَا الجُفُونَ عَلَى وِتْرِ

وقال آخر:

أرِقّ لأرْحَامٍ أرَاها قَرِيبَةً ... لحارِ بن كعب لا لَجرْمٍ وَرَاسِبِ
وإنا نَرَى أقدامَنَا في نعالهمْ ... وآنُفَنا بين اللِّحَى والحواجبِ
وإقدامنا يَوْمَ الوَغَى وإباءنا ... إذا ما أبَيْنا لا نُدِرّ لِعَاصِبِ

حاصرت الترك مدينة بَرْذعة من أعمال أذْرَبيجان في أيام هشام بن عبد الملك حصاراً شديداً، واستضعفتها وكادت تملكها، وتوجّه إليها لمعاونتها سعيد الحَرَشيّ من قِبَل هشام بن عبد الملك في جُيوش كثيفة، وعلم الترك بقربه منهم فخافوا، وأرسل سعيد واحداً من أصحابه إلى أهل بَرْذعة سِرًّا يعرّفهم وصوله، ويأمرهم بالصبر خوفاً ألّا يدركهم. فسار الرجلُ، ولقيه

قومٌ من الترك، فأخذُوه وسألوه عن حاله، فكتَمهم فعذّبوه، أخبرهم وصدقهم فقالوا: إن فَعَلْتَ ما نأمُرك به أطلقناك، وإلا قتلناك، فقال: ما تريدون؟ قالوا: أنت عارف بأصحابك ببرذَعة وهم يعرفونك، فإذا وصلتَ تحت السُّور فنادِهم: إنه ليس خَلْفي مَدَد، ولا من يكشف ما بِكُم، وإنما بُعثت جاسوساً. فأجابهم إلى ذلك، فلما صار تحت سورها، وقف حيث يسمع أهلُها كلامه، وقال لهم: أتعرفونني؟ قالوا: نعم، أنت فلان ابن فلان، قال: فإنّ سعيداً الحَرَشِيّ قد وصل إلى مكان كذا في مائة ألف سيف، وهو يأمرُكم بالصبر وحفظ البلد، وهو مصبِحكم أو ممسيّكم، فرفع أهل برذعة أصواتهم بالتكبير، وقتلت الترك ذلك الرجل، ورحلوا عنها ووصل سعيد فوجد أبوابها مفتوحة وأهلها سالمين.

وقال الراجز:

مَـنْ كـان يـنـوي أهـلَـه فـلا رَجَـعْ فـرّ مـن الـمـوت وفـي الـمـوتِ وَقَـعْ

أشرف معاوية يوماً فرأى عسكر عليّ عليه السلام بِصفّين فهاله، فقال: مَنْ طلب عظيماً خاطر بعظيمته.

وقال الكلحبة:

إذَا الـمـرْء لـم يَـغْـش الـمـكـارة أوشـكـت حِبالُ الـهـويـنَـى بـالـفـتـى أنْ تَـقَـطّـعـا(١)

ومن شعر الحماسة:

أقُـولُ لـهـا وَقَـدْ طَـارَتْ شَـعَـاعـاً مِـنَ الأبـطـالِ وَيْـحَـكِ لا تُـرَاعِـي
فـإنَّـكِ لَـوْ سَـألْـتِ بَـقَـاءَ يَـوْم عَـلَـى الأجـلِ الَّـذي لَـكِ لـم تُـطَـاعِـي
فـصـبـراً فـي مـجـالِ الْـمـوتِ صَـبْـراً فَـمَـا نَـيْـلُ الـخـلـودِ بِـمُـسْـتَـطَـاعِ
وَلَا ثَـوْبُ الـبـقـاءِ بـثَـوْبِ عِـزٍّ فـيـطـوَى عَـنْ أخـي الـخَـنَـعِ الـيـراع(٢)
سَـبـيـلُ الـمـوتِ غَـايَـةُ كـلّ حَـيٍّ فـداعـيـهِ لأهْـلِ الأرض دَاعِ
وَمَـنْ لا يُـغْـتَـبَـطْ يَـسْـأم وَيَـهْـرَمْ وَتُـسْـلِـمْـهُ الـمـنـون إلـى انـقـطـاعِ
ومـا لـلـمـرءِ خَـيْـرٌ فـي حـيـاةٍ إذا مَـا عُـدَّ مِـنْ سَـقَـطِ الـمـتَـاعِ

ومنه أيضاً:

وفـي الـشـرِّ نـجـاةٌ حـيـن لَا يُـنْـجِـيـك إحْـسَـانُ

---

(١) الهويني: الرفق والسكينة والوقار. اللسان، مادة (هون).

(٢) اليراع: الجان الذي لا عقل له ولا رأي. اللسان، مادة (يرع).

ومنه أيضاً:

وَلم نَدْر إنْ جِضْنا عَنِ الموت جَيْضةً ... كَمِ العمرُ باقٍ والمدى مُتطاولُ[1]

ومنه أيضاً:

وَلَا يكْشِفُ الغَماء إلا ابنُ حُرَّةٍ ... يَرَى غَمَرات الموتِ ثُمَّ يَزُورُها

ومنه أيضاً:

فَلَا تحسَبي أنّي تَخَشَعتُ بَعْدَكُمْ ... لِشيءٍ وَلَا أنّي مِنَ الموْتِ أفْرَقُ
وَلَا أنّ نَفسي يَزْدَهِيها وَعِيدكُمْ ... وَلَا أنّني بالمشي في القَيْدِ أخْرَقُ

ومنه أيضاً:

سَأغْسِلُ عَنّي العارَ بالسَّيْفِ جَالباً ... عَلَيَّ قضاءَ اللّهِ مَا كَان جالباً
وأذْهَلُ عن داري وأجْعَلُ هَدْمَها ... لِعِرْضِيَ مِنْ باقي المذمَّةِ حَاجِبَا
وَيَصْغُر في عيني تلادِي إذا انْثَنَتْ ... يميني بإدراك الّذي كنتُ طالباً
فإنْ تَهْدِمُوا بالغدرِ داري فإنّها ... تراثُ كريم لَا يُبَالي العواقِبَا
أخِي عَزَماتٍ لا يُطيع على الّذي ... يَهُمُّ به مِنْ مُقْطِعِ الأمر عاتِبا
إذا هَمّ ألقَى بين عينيهِ عزْمَهُ ... ونكبَ عن ذِكرِ العواقب جانِباً
فَيَا لَرِزَامٍ رَشّحُوا بِي مُقَدّماً ... إلى الموت خوّاضاً إليه السَّبَاسِبَا
إذا همّ لم تُرْدَعْ عَزِيمةُ هَمِّه ... ولم يأتِ ما يأتِي مِنْ الأمْرِ هَائِبَا
وَلَم يَسْتَشِرْ في أمره غَيْرَ نفسِه ... وَلَمْ يرضَ إلا قائم السيفِ صَاحبا

ومنه أيضاً:

هُمَا خُطّتَا إمّا إسارٌ وَمِنّةٌ ... وإما دمٌ، والقتلُ بالحَرّ أجدرُ

ومنه أيضاً:

وإنّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى القتل سُبّةً ... إذا مَا رَأتْهُ عامِرٌ وَسَلُولُ
يقصِّر حبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهُه آجالُهم فتطولُ
وَمَا مات منَّا سيدٌ حتفَ أنفِه ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حيثُ كان قَتِيلُ
تَسِيلُ عَلَى حدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنا ... وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ السُّيوفِ تَسِيلُ

ومنه أيضاً:

(١) جاض يجيض جيضاً: أي مال وحاد عنه. اللسان، مادة (جيض).

لَا يَرْكَنَنْ أحدٌ إلى الإحْجَام ... يَوْمَ الوَغى مُتَخَوِّفاً لِحَمام
فَلَقَدْ أرَانِي لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً ... مِنْ عَنْ يَمِيني تَارَةً وأمَامِي
حَتى خَضَبْتُ بما تحدَّر مِنْ دَمِي ... أكنافَ سَرْجِي أو عِنانَ لِجامِي
ثم انصرفتُ وقَدْ أصبْتُ ولم أُصَبْ ... جَذَعَ البَصيرَة قارِح الأقدام

ومنه أيضاً:

وإنّي لدَى الحربِ الضَروس موكّلٌ ... بإقدامِ نَفْسٍ لا أريدُ بقاءَها
متى يأتِ هذا الموت لا تُلْفَ حَاجَةٌ ... لنفسِيَ إلا قد قَضَيْتُ قَضَاءَها

كتب عبدُ الحميد بن يحيى عن مَرْوان بن محمد إلى أبي مسلم كتاباً، حُمِل على جَمَلٍ لعظَمه وكثرته. وقيل: إنّه لم يكن في الطول إلى هذه الغاية، وقد حُمِل على جمل تعظيماً لأمره وقال لمروان بن محمد: إنْ قرأه خالياً نَخِبَ[1] قلبه، وإن قرأه في ملأ من أصحابه ثبّطهم وخذلهم، فلما وصل إلى أبي مسلم أحرقه بالنار ولم يقرأه، وكتب على بياض كان على رأسه وأعاده إلى مروان:

مَحَا السيّفُ أسطارَ البلاغة وانتحتْ ... إليك ليوثُ الغاب من كلّ جانب
فإن تقدموا نُعْمِلْ سيوفاً شحيذةً ... يهون عليها العَتْبُ من كلّ عاتب

ويقال: إنّ أول الكتاب كان: لو أراد الله بالنملة صلاحاً لما أنبت لها جناحاً. وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سَيّار، وهو أول كتاب صَدَر عن أبي مُسلم إلى نَصْر، وذلك حين لبس السواد، وأعلن بالدّعوة في شهر رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة: أما بعد، فإن الله جلّ ثناؤه ذكر أقواماً فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[2].

فلما ورد الكتابُ إلى نصر تعاظَمه أمرُه، وكَسَر له إحْدَى عينيه، وقال: إنّ لهذا الكتاب لأخوات، وكتب إلى مَرْوان يستصرِخه، وإلى يزيد بن هبيرة يستنجِده، فقعدا عنه حتى أفضى ذلك إلى خروج الأمر عن بني عبد شمس.

الرَّضِيُّ الموسويّ رحمه الله تعالى:

---

(١) النخب: النزع، ونخب قلبه: جبن كأنه منتزع الفؤاد أي لا فؤاد له. اللسان، مادة (نخب).
(٢) سورة فاطر، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

سَأَمْضِي لِلَّتِي لا عيبَ فِيهَا ... وإنْ لم أستفِدْ إلا عناءَ
وأطلُبُ غايةً إنْ طوَّحَتْ بِي ... أصَابَتْ بِي الحِمامَ أو العَلَاءَ
نَمانِي مِنْ أباةِ الضيم آبٍ ... أفاضَ عليَّ تلك الكِبْرِيَاءَ
وَمِنَّا كُلّ أغْلبَ مُستميتٍ ... إذا أنستَ لَذَّتَه بالذلِّ قَاءَ
إذَا مَاضِيمَ نَمَّرَ صَفْحَتَيْه ... وَقَامَ عَلَى بَرَاثِنِهِ إبَاءَ
ونأبى أنْ يُنالَ النِّصْفُ مِنَّا ... وأنْ نُعطي مقارعَنا السَّواء
ولَوْ كان العِداءُ يسوغُ فينا ... لَمَا سُمْنا الورى إلّا العَدَاءِ

وله:

سَيُقطِعُكَ المهنّد ما تمّنى ... ويُعطيك المثقفُ ما تشاءُ
وما ينجي من الغَمَرات إلا ... طِعانٌ أو ضِرابٌ أو رِماء

ومن أهل الإباء الذين كرهو الدنّية واختاروا عليها المنيّة، عبدُ اللّه بن الزبير، تَفرّق عنه - لما حاربه الحجّاج بمكة، وحصره في الحرم - عامّة أصحابه، وخرج كثير منهم إلى الحجّاج في الأمان، حتى حَمْزَة وخُبَيْبٌ ابناه، فدخل عبد اللّه على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكانت قد كُفّ بصرُها، وهي عجوز كبيرة، فقال لها: خَذَلني النّاس حتى ولدي وأهلي، ولم يبقَ معي إلّا من ليس عنده من الدَّفع أكثرُ من ساعة، والقوم يُعطونني من الدّنيا ما سألتُ، فما رأيك؟ فقالت: أنت يا بنيّ أعلمُ بنفسك، إنْ كنت تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له، فقد قُتِل أكثرُ أصحابك، فلا تمكّن من رَقَبَتك يتلاعب بها غِلمانُ بني أميّة، وإن كنت إنما أردتَ الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكتَ نفسك، وأهلكت مَنْ قُتِل معك، وإن كنت قاتلتَ على الحقّ، فما وهنَ أصحابُك إلا ضعفت، فليس هذا فعلَ الأحرار ولا أهلِ الدين. وكم خلودك في الدّنيا! القتلُ أحسن.

فدنا عبد اللّه منها فقبَّل رأسها، وقال: هذا واللّه رأيي، واللّه ما ركنتُ إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ للّه تعالى عزّ وجلّ أنْ تُستَحلّ محارمُه، ولكنني أحببتُ أن أعلم رأيك، فقد زِدْتِني بصيرة، فانظري يا أماه، إني مقتول يومي هذا، فلا يشتدّ جَزَعُك، وسلّمي لأمر اللّه، فإنّ ابنَك لم يتعمَّدْ إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم اللّه، ولم يظلِمْ مسلماً ولا معاهَداً، ولا بلغني ظلمٌ عن عامل من عُمالي فرضيتُ به بل أنكرتُه، ولم يكن شيء عندي آثرَ من رضا اللّه، اللهمّ إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، أنتَ أعلم بي، ولكنّي أقولُه تعزيةً لأمي لتسلوَ عَنّي. فقالت: إنّي لأرجو من اللّه أن يكون عزائي فيك

حَسَناً إن تقدمتَني فاخرج لأنظُرَ إلى ماذا يصير أمرك؟ فقال: جَزَاك اللّه خيراً يا أمي! فلا تَدَعي الدّعاء لي حيًّا وميتاً. قالت: لا أدَعُه أبداً، فمن قُتِل على باطلٍ فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طولَ ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيبَ في الظلماء، وذلك الصوم في هواجِر مكة والمدينة، وبِرَّه بأبيه وبي، اللهمّ إني قد أسلمتُ لأمرك، ورضيتُ بما قضيت فيه، فأثِبْني عليه ثوابَ الصابرين.

وقد رُوِيَ في قصّة عبد اللّه مع أمّه أسماء رواية أخرى، أنّه لما دخل عليها وعليه الدِّرْع والمِغْفر - وهي عمياء لا تبصر - وقف فسلّم، ثم دنا فتناول يدَها فقبّلها، قالت: هذا ودَاع فلا تَبْعُد، فقال: نعم، إنما جئتُ مودِّعاً، إنّي لأرى هذا اليوم آخرَ أيامي من الدنيا، واعلمي يا أمي أني إذا قتلتُ فإنما أنا لحم لا يضرُّني ما صنع بي، فقالت: صدقت يا بنيّ، أقِمْ على بصيرتك، ولا تمكِّن ابن أبي عقيل مِنْك، ادنُ مني لأودّعك، فدنا منها فقبّلته وعانقته، فوجدت مسّ الدِّرْع، فقالت: ما هذا صنع من يريد ما تريد. فقال: إنما لبسته لأشدَّ منك، قالت: إنه لا يشدُّ مني، ثم انصرف عنها، وهو يقول:

إنـــي إذا أعــرفُ يَــوْمِــي أصــبــرُ ... إذْ بــعــضــهــم يــعــرف ثــم يــنــكِــرُ

وأقام أهلُ الشام على كل باب من أبواب الحرَم رجالاً وقائداً، فكان لأهلِ حمْص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهلِ دمشق باب بني شَيْبة، ولأهل الأردنّ باب الصّفا، ولأهل فلسطين باب جُمَح، ولأهل قِنّسْرِين باب بني سَهْم. وخرج ابنُ الزبير فمرة يحمل هاهنا ومرة يحملُ ها هنا، وكأنه أسد لا يُقدم عليه الرجال، وأرسلتْ إليه زوجته: أأخرج فأقاتل معك؟ فقال: لا، وأنشد:

كُــتِــبَ الْــقَــتْــل والــقِــتَــالُ عَــلَــيْــنــا ... وعَــلَــى الْــمُــحــصــنَــاتِ جَــرُّ الــذُّيــولِ

فلما كان الليل، قام يصلّي إلى قريب السَّحَر ثم أغفى محتبياً بحمائل سيفه، ثم قام فتوضأ وصلّى، وقرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1]، ثم قال بعد انقضاء صلاتِه: مَنْ كان عَنّي سائلاً فإني في الرَّعِيل الأول، ثم أنشد:

ولَــســـتُ بــمــبــتــاع الــحــيــاة بِــسُــبَّــةٍ ... ولا مــرتقٍ من خَشْيَـةِ الـموتِ سُلَّمَـا

ثم حَمَل حتى بلغ الحَجون، فرُمِيَ بآجرة، فأصابت وجهه فَدَمِي، فلما وجد سخونة الدم يسِيل على وجهه، أنشد:

وَلَــسْــنَـا عَــلَــى الأعْــقَــاب تَــدْمَــى كُــلُــومُــنا ... وَلَــكِــنْ عَــلَــى أقْــدَامِــنـا تَــقْــطُــر الــدِّمَـا

ثم حمل على أهل الشام فغاص فيهم، واعتوره بأسيافهم حتى سقط، وجاء الحجاج فوقف

(١) سورة القلم، الآية: ١.

عليه وهو ميت، ومعه طارق بن عمرو، فقال: ما ولدت النساء أذْكَر من هذا! وبعث برأسه إلى المدينة، فنُصب بها، ثم حمل إلى عبد الملك.

أبو الطيب المتنبي:

أطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ ... وحيداً وما قولِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ!
وأشْجَعُ مِنّي كلَّ يوم سَلَامَتِي ... وَمَا ثَبَتَتْ إلا وفي نفسها أمْرُ
تَمَرَّسْتُ بالآفاتِ حَتّى تركتُها ... تقولُ: أماتَ الموتُ؟ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ؟
وَأقْدَمْتُ إقدَام الأبيّ كأنّ لِي ... سِوَى مُهْجَتِي أو كان لِي عِنْدَهَا وِتْرُ
ذَرِ النَّفْسَ تأخذْ حَظَّها قَبْلَ بَينها ... فمفترِقٌ جاران دارهُمَا العمرُ!
ولا تحسَبنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَيْنَةً ... فما المجدُ إلا السَّيْفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ
وَتَضْرِيبُ هَامَاتِ الملوك وأنْ تُرَى ... لَكَ الهَبَواتُ السُّودُ والعسكر المَجْرُ
وتَرْكُكَ في الدُّنْيا دَوِيًّا كأنما ... تداوَلَ سَمْعَ المرءِ أنْمُلُهُ العَشْرُ

وقال أبو حيُّوس:

ولستُ كَمَنْ أخْنَى عَلَيْه زمانه ... فظلّ عَلَى أحداثِهِ يتعتَّبُ
تَلَذُّ لهُ الشكوى وإن لم يُفِدْ بِهَا ... صَلاحاً كما يلتذّ بالحَكّ أجْرَبُ
ولكنني أحمي ذِمارِي بعزمةٍ ... تنوبُ منابَ السَّيْفِ والسَّيْف مقضَبُ
وليس الفتى مَنْ لم تسم جسمَه الظُّبا ... ويُحَطّمُ فيهِ مِنْ قَنا الخط أكْعُبُ

وله أيضاً:

أخفَق المترَف الجنوحُ إلى الخَفْضِ ... وفاز المخاطرُ المِقْدَام
وإذا ما السُّيوف لم تشهد الحر ... بَ فسيّانِ صَارِمٌ وَكَهَامُ

وممن تَقَبَّل مذاهبَ الأسلاف في إباء الضيم وكراهية الذلّ، واختار القتلَ على ذلك وأن يموتَ كريماً، أبو الحسين زيد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، أمه أم ولد، وكان السببُ في خروجه وخلعه طاعةَ بني مروان، أنّه كان يخاصِم عبدَ الله بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام في صدقاتِ عليّ عليه السلام، هذا يخاصِم عن بني حسين، وهذا عن بني حسن، فتنازعا يوماً عند خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم أمير المدينة، فأغلظ كل واحدٍ منهما لصاحبه، فسرّ خالد بن عبد الملك بذلك، وأعجبه سِبابهما، وقال لهما حين

سكنا: اغدُوَا عليّ، فلستُ بابن عبد الملك إنْ لم أفصِلْ بينكما غداً، فباتت المدينة تَغْلِي كالمِرْجل، فمن قائل يقول: قال زيد كذا، وقائل يقول: قال عبد الله كذا. فلما كان الغد جلس خالد في المسجد، وجَمَع الناس، فمن بين شامتٍ، ومغموم. ودعا بهما وهو يحبّ أن يتشاتما، فذهب عبدُ الله يتكلّم، فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمد، أعتقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبداً، ثم أقبل على خالد، فقال له: أجَمْعتَ ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر، فقال خالد: أما لهذا السفيه أحدٌ يكلّمه!

فتكلّم رجل من الأنصار من آل عمرو بن حَزْم، فقال: يا بن أبي تراب، ويا بن حسين السفيه! أما تَرَى عليك لوالٍ حقاً ولا طاعة! فقال زيد: اسكت أيها القحطانيّ، فإنّا لا نجيب مثلَك، فقال الأنصارّي: ولم ترغبُ عني؟ فواللّه إنّي لخيرٌ منك، وأبي خير من أبيك، وأمّي خير من أمك! فتضاحك زيد، وقال: يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب، أفذهبت الأحساب؟ فتكلّم عبد اللّه بن واقد بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، فقال: كذبت أيها القحطانيّ، واللّه لَهُوَ خَيرٌ منك نفساً وأباً وأماً ومَحْتِداً، وتناوله بكلام كثير، وأخذ كفًّا من الحصا، فضرب به الأرض، وقال: إنه واللّه مالَنا على هذا من صبر. وقام.

فقام زيد أيضاً، وشخص من فوره إلى هشام بن عبد الملك، فجعل هِشامٌ لا يأذن له وزيد يرفع إليه القِصص، وكلّما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلِها: ارجعْ إلى أرضِك، فيقول زيد: واللّه لا أرجع إلى ابن الحارث أبداً. ثم أذن له بعد حَبْسٍ طويل وهشام في عِلّية له، فرقَى زيد إليها، وقد أمر هشام خادماً له أن يتبعه حيث لا يراه زيد، ويسمع ما يقول. فصعد زيد - وكان بادناً - فوقف في بعض الدرجة، فسمعَه الخادم، وهو يقول: ما أحبّ الحياة إلا مَن ذلّ! فأخبر الخادم هشاماً بذلك، فلما قعد زيد بين يدي هشام وحدّثه حلَف له على شيء، فقال هشام: لا أصدّقك، فقال زيد: إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه، قال له هشام: إنّه بلغني أنّك تذكر الخلافة وتتمنّاها، ولستَ هناك؛ لأنّك ابنُ أمة، فقال زيد: إنّ لك جواباً، قال: تكلّم، قال: إنه ليس أحد أوْلَى باللّه، ولا أرفعَ درجة عنده من نبيّ ابتعثه، وهو إسماعيل بن إبراهيم، وهو بن أمَة، قد اختاره اللّه لنبوّته، وأخرج منه خيرَ البَشَرِ، فقال هشام: فما يصنعُ أخوك البقرة؟ فغضب زيد، حتى كاد يخرج من إهابِه، ثم قال: سّماه رسول الله صلى الله عليه وآله الباقر وتسميه أنت البقرة! لشدَّ ما اختلفتما! لتخالفنّه في الآخرة، كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة، وترد النار.

فقال هشام: خُذُوا بيد هذا الأحمق المائق فأخرجوه، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه، فقال هشام: احمِلوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله، فقال زيد: واللّه لئن حملتَني إليه لا أجتمع أنا وأنت حَيّين، وليموتَنّ الأعجل مِنّا. فأخرج زيد وأشخص إلى المدينة، ومعه نفر يسيّرونه حتى

طردُوه عن حدود الشام، فلما فارقوه عدل إلى العراق، ودخل الكوفة، وبايعَ لنفسه، فأعطاه البيعة أكثر أهلها، والعاملُ عليها وعلى العراق يومئذٍ يوسف بن عمر الثقفيّ، فكان بينهما من الحرب ما هو مذكور في كتب التواريخ. وخذل أهلُ الكوفة زيداً، وتخلّف معه ممن تابعه نفر يسير، وأبلى بنفسه بلاءً حسناً وجهاداً عظيماً، حتى أتاه سَهْم غربٍ، فأصاب جانب جَبْهته اليُسرى، فثبت في دماغه، فحين نزع منه مات عليه السلام.

عنّف محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليه السلام زيداً لما خرج، وحذّره القتل، وقال له: إن أهل العراق خَذَلوا أباك عليًّا وحسناً وحسيناً عليهم السلام، وإنك مقتول، وإنهم خاذلوك، فلم يَثْنِ ذلك عَزْمه. وتمثّل:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الحُتُوف كأنّني ... أصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الحُتُوف بمعزلِ
فأجبتُها إنّ المنيّة منهلٌ ... لا بُدَّ أنْ أُسقَى بِذَاك المَنْهَلِ
إن المنيّة لو تمثّل مُثِّلَتْ ... مِثْلِي، إذا نزلوا بضَيْقِ المنزِلِ
فاقْنَيْ حَيَاءَكِ لا أبا لكِ واعلمي ... أنـي امـرؤ سـأموت إن لـم أُقتـلِ

العلويّ البصريّ صاحب الزّنج يقول:

وإذا تُنَازِعُنِي أقولُ لها قَرِي ... مَوْتُ الملوكِ عَلَى صُعُود المنْبَرِ
مَا قَدْ قَضَى سَيَكُونُ فاصطبِري له ... ولكِ الأمان مِنَ الّذِي لَمْ يُقْدَرِ

وقال أيضاً:

إنـي وقوميَ في أنسَابِ قَوْمِهِمُ ... كمسجدِ الخَيْف في بُحْبُوحة الخَيْفِ
ما عُلّق السيفُ مِنّا يا بن عاشرةٍ ... إلا وعزمتُه أمضَى من السَّيْفِ

بعض الطالبيين:

وإنّا لَتُصْبِحُ أسيافُنَا ... إذا ما انْتُضِين لِيَوْمٍ سَفُوكِ
مَنَابِرُهُنّ بطونُ الأكُفّ ... وأغمادُهُنّ رؤوس الملوكِ

بعض الخوارج يصف أصحابه:

وَهُم الأسودُ لَدَى العَرِينِ بَسَالَةً ... وَمِنَ الخُشُوعِ كَأنَّهُمْ أحْبَارُ
يَمضُون قد كَسَرُوا الجُفُون إلى الدعا ... مُتَبَسِّمِينَ وفِيهِمُ اسْتِبْشَارُ
فكأنما أعداؤهُمْ أحبابُهُمْ ... فَرَحاً إذا خَطَرَ القَنَا الخَطَّارُ
يَرِدُون حَوْمَاتِ الحِمام وإنّها ... تَاللّهِ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ لَصِغَارُ

وَلَقَدْ مَضَوْا وأنا الحبيبُ إليهمُ ... وهُمُ لديّ أحبّةٌ أبْرَارُ

قَدَرٌ يخلّفني ويُمْضِيهمْ به ... يا لهفَ كيف يفوتني المقدارا

وفي الحديث المرفوع «خُلُقان يحبّهما اللّه: الشجاعة والسخاء»[1].

كان بِشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه اللّه تعالى يقول بتفضيل عليّ عليه السلام ويقول: كان أشجَعهم وأسخاهم، ومنه سَرَى القولُ بالتفضيل إلى أصحابنا البغداديين قاطبة، وفي كثير من البصريين.

دخل النّضر بن راشد العبديّ على امرأته في حَرْب الترك بخُراسان في ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المريّ في خلافة هشام بن عبد الملك، والناس يقتتلون، فقال لها: كيف تكونين إذا أُتِيتِ بي في لِبْدٍ قتيلاً مُضَرَّجاً بالدماء؟ فشقّت جيبَها، ودعتْ بالويل، فقال: حسبك! لو أعولَتْ عَلَيّ كلّ أنثى لعصيتها شوقاً إلى الجنة، ثم خرج فقاتل حتى قُتل، وحمل إلى امرأته في لِبْد ودمه يقطر من خلاله.

قال أبوالطيب المتنبيّ:

إذَا غَامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ ... فَلَا تَقْنَعْ بما دُونَ النُّجُومِ

فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كَطَعْمِ الموتِ في أمْرٍ عَظيمِ

يَرى الجُبَنَاءُ أنّ الجُبْنَ حَزْمٌ ... وَتِلْكَ خَديعةُ الطَّبْعِ اللَّئيمِ

وكلّ شجاعةٍ في المرءِ تُغْنِي ... ولا مثلَ الشَّجَاعةِ في الحكيمِ

وقال:

إذا لم تجِدْ ما يَبتُرُ العُمْرَ قاعداً ... فقمْ واطلبِ الشيءَ الذي يَبْتُر العُمْرَا

وقال:

أهُمُّ بشيءٍ والليالي كأنّها ... تُطَارِدُني عن كونه وَأُطارِدُ

وَحِيداً من الخلّان في كلّ بَلْدَةٍ ... إذَا عَظُم المطلوبُ قَلّ المساعِدُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٦٥٩) بلفظ: «فالسخاء والسماحة» بدل قوله: «الشجاعة والسخاء».

قيل لأبي مسلم في أيام صباه: نراك تنظر إلى السماء كثيراً كأنّك تسترق السمع، أو تنتظر نزولَ الوحي! قال: لا، ولكن لي همة عالية، ونفس تتطّلع إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمَج والرَّعاع، وحال متناهية في الاتّضاع. قيل: فما الذي يَشفي علتَك، ويُرْوِي غُلتك؟ قال: الملْك، قيل: فاطلب الملك، قال: إن المُلْك لا يطلب هكذا. قيل: فما تصنع وأنت تذوب حَسَراً، وتموت كمداً؟ قال: سأجعل بعض عقلي جَهْلاً، وأطلب به ما لا يطلب إلا بالجهل، وأحرس بالباقي ما لا يحرس إلا بالعقل، فأعيش بين تدبيرِ ضِدَّيْن، فإن الخمول أخو العُدْم، والشهرة أخت الكون.

قال ابن حيُّوس:

أمواتُهُم بالذِّكْرِ كالأحياء ... ولحيِّهِمْ فَضلٌ عَلَى الأحْيَاءِ
نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ المروءة وامتَطوْا ... بالبأسِ ظَهْرَ العِزّة القَعْسَاءِ
والعزّ لا يَبْقَى لغير معوَّدٍ ... أن يكشف الغمّاء بالغَمّاءِ
لَا تحْسَبِ الضَّراء ضَرّاءً إذا ... أفْضَتْ بصاحِبها إلى السَّرّاءِ

وقال:

وهي الرياسةُ لا تبوحُ بسرِّها ... إلا لأرْوَعَ لا يُباح ذِمارُهُ[1]
يَحْمي حِمَاهُ قَلْبُه ولسانُهُ ... وتذودُ عنه يمينُه ويسارُهُ
لا العذل ناهِيه، ولا الحِرص الّذِي ... أَمَر النُّفُوس بِشُحِّها أمَّارُهُ
فليعلم الساعي ليبلغ ذَا المدى ... أنّ الطريق كثيرةٌ أخطارُه

كان ثابت قُطْنة في خيل عبد اللّه بن بِسْطام في فتح شكند من بلاد الترْك في أيام هشام بن عبد الملك، فاشتدّت شوكةُ الترك، وانحاز كثيرٌ من المسلمين واستؤسر منهم خَلق، فقال ثابت: واللّه لا ينظرُ إليَّ بنو أميّة غداً مشدوداً في الحديد، أطلُب الفداء، اللهمّ إنِّي كنتُ ضيف ابن بِسْطام البارحة، فاجعلني ضيفَك الليلة، ثم حمل وحمل معه جماعة، فكسرتْهم الترك، فرجع أصحابُه وثبت هو، فَرُمِيَ بِرْذَوْنُه فشبّ، وضربه فأقدم، فصرع ثابت وارْتُثَّ، فقال: اللهم إنّك استجبْتَ دعوتي وأنا الآن ضيفك، فاجْعَلْ قِرايَ الجنة، فنزل تركيّ فأجهز عليه.

قال يزيد بن المهلّب لابنه خالد، وقد أمره على جيش في حرب جرجان: يا بنّي، إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغْلَبَنَّ على الموت، وإياك أنْ أراك غداً عندي مهزوماً!

---

(١) الذِّمار: هو كل ما يلزم الرجل حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضيعه لزمه اللوم. اللسان، مادة (ذمر).

عن النبيّ ﷺ: «الخيرُ في السَّيْف، والخير مع السيف، الخير بالسيف»[1]، كما يقال: المنيّة ولا الدنيّة، والنار ولا العار، والسيف ولا الحيْف.

قال سيفُ بن ذي يَزَن لأنوشِرْوان حين أعانه بَوَهْرز الديلميّ ومن معه: أيها الملك، أين تقع ثلاثة آلاف من خمسين ألفاً؟ فقال: يا أعرابيّ، كثيرُ الحطَب يكفيه قليل النار.

لما حبَسَ مَرْوان بن محمد إبراهيم الإمام خرج أبو العباس السَّفاح، وأخوه أبو جعفر، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام، وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد اللّه وعبد الصمد أبناء عليّ بن عبد اللّه بن العباس، وعيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد اللّه بن العباس، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس من الحُمَيْمَة من أرض السَّراة، يطلبون الكوفة، وقد كان داود بن عليّ بن عبد اللّه بن العباس وابنُه موسى بن داود بالعراق، فخرجا يطلبان الشام، فتلّقاهما أبو العباس وأهلُ بيته بدُومة الجَندَل، فسألهم داودُ عن خروجهم، فأخبروه أنّهم يريدون الكوفة لَيظهُروا بها، ويَدْعُوا إلى البيعة لأبي العباس. فقال: يا أبا العباس، يظهر أمرك الآن بالكوفة، ومَرْوان بن محمد شيخ بني أمية بحرَّان مُطِلٌّ على العراق في جيوش أهل الشام والجزيرة، ويزيد بن عمر بن هبيرة شيخ العرب بالعِراق في فُرْسان العرب! فقال: يا عمّ مَنْ أحبَّ الحياة ذلّ، ثم تمثّل بقول الأعشى:

فما ميتة إن متُّها غَيْرَ عاجِزٍ ... بعارٍ إذا ما غالَتِ النَّفْسَ غُولُها

فقال داود لابنه موسى: صدقَ ابن عمّك، ارجع بنا معه، فإمّا أن نهلِك أو نموت كراماً.

وكان عيسى بن موسى: يقول بعد ذلك إذا ذكر خروجهم من الحُمَيْمَة يريدون الكوفة: إن ثلاثة عشر رجلاً خرجوا من ديارهم وأهلِيهم يطلبون ما طلْبنا لعظيمةٌ هِمَمُهم، كبيرة نفوسهم، شَديدة قلوبهم.

أبو الطيب المتنبي:

وإذا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً ... تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأجْسَامُ

وله:

إلى أيّ حينٍ أنت في زِيِّ مُحْرِمٍ ... وَحَتّى مَتى في شِقْوَةٍ وإلَى كَمِ!

(١) انظر تاريخ الطبري: ٥/ ٣٠١، وفتوح البلدان: ٢/ ٤١٤.

وإلّا تَمُتْ تحتَ السُّيوفِ مكَرَّماً … تَمُتْ وتقاسي الذُّلَّ غيرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ واثقاً باللّه وَثْبَةَ ماجِدٍ … يَرَى الموْتَ في الهيجا جَنَى النَّحْلِ في الْفَمِ

وقال آخر:

إنْ تَقْتُلُوني فآجالُ الرِّجالِ كَمَا … حُدِّثْتُ قَتْلٌ وما بالقَتْلِ مِنْ عَارِ
وإن سلِمْتُ لوقتٍ بعده فعسَى … وكلّ شيء إلى حَدٍّ ومِقْدَارِ

خطب الحجاجُ، فشكا سوءَ طاعة أهل العراق، فقام إليه جامع المحاربيّ، فقال: أيها الأمير، دَعْ ما يباعِدُهم منك إلى ما يقرِّبُهم إليك، والتمس العافية ممّن دونك تُعْطَها ممّن فوقك، فلو أحبُّوك لأطاعوك، إنهم ما شنؤوك[1] بنسبك ولا لبأوك، ولكن لإيقاعك بعْدَ وعيدِك، ووعيدِك بعد وَعْدِك.

فقال الحجاج: ما أراني أرُدّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف، فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لاَقى السيفَ ذهب الخيار، فقال الحجاج: الخيار يومئذٍ لله، فقال: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله، فقال: يا هناه، إيهاً فإنك من مُحارب، فقال جامع:

وَلِلحَرْبِ سُمِّينا فكُنّا محارباً … إذا ما الْقنا أمْسَى مِنع الطَّعْنِ أحْمَرا

ومن الشعر الجيد في تحسين الإباء والحميّة والتَّحْريض على النهوض والحرْب وطلب المُلْك والرياسة، قصيدة عُمارة اليمنيّ شاعر المصريين في فخر الدين توران شاه بن أيوب، التي يغريه فيها بالنُّهوض إلى اليمن، والاستيلاء على مُلْكها، وصادفت هذه القصيدة محلًا قابلاً، ومَلَك توران شاه اليمن بما هزّت هذه القصيدة من عطفه، وحركت منَ عزمه، وأولها:

العِلم مُذْ كانَ محتاجٌ إلى العَلَمِ … وَشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغْنِي عَنِ الْقَلَمِ
وَخَيْرُ خيلِكَ إنْ غامَرْتَ فِي شَرَفٍ … عَزْمٌ يفرّق بين السّاقِ والقَدَمِ
إنّ المعالي عَرُوسٌ غيرُ واصلةٍ … ما لم تخلّق رِدَاءيها بنضح دَمِ
تَرَى مسامِع فَخرِ الدِّينِ تَسْمَعُ ما … أمْلاهُ خاطرُ أفكارِي عَلَى قَلَمِي
فإنْ أصبتُ فلِي حظُّ المصيب وإنْ … أخطأت قَصْدَك فاعذِرْنِي وَلَا تَلُمِ
كم تترك البيضَ في الأجْفانِ طامئةً … إلى الموارِدِ في الأعناقِ والقِمَمِ

---

(١) شنأه: أبغضه. اللسان، مادة (شنأ).

ومقلةَ المجدِ نحو العزم شَاخِصَةً ... فاترك قعودك عن إدراكها وَقُم
فعمّك الملك المنصور سَوَّمَهَا ... من الفُرَاتِ إلى مصرٍ بلا سأمِ
واخلُقْ لنفسِك أمراً لا تضافُ به ... إلى سواك، وأورِ النار في العلَم
وانْهَ المشيرين إن لَجتْ نصيحتُهُمْ ... أو لا، فأنعم على العُمْيان بالصَّمَمِ
واعزِمْ وَصَمِّمْ فقد طالت وقد سَمُجَتْ ... قضيّة لفظتها السنُ الأمم
فربّ أمرٍ يَهَابُ النّاسُ غايتَهُ ... والأمرُ أهونُ فيه مِنْ يدٍ لِفَمِ
فكيف إن نهضتَ فيما هَممْتَ به ... أشدٌ تسير من الخَطّيّ في أجَم
لا يدرك المجدَ إلّا كلّ مقتحم ... في مَوْج ملتطمٍ أو فوج مُضْطَرِمِ
لا ينقض الخَطْوة الأولى بثانيةٍ ... ولا يفكّر في العُقْبَى مِنَ النَّدَمِ
كأنما السَّيْفُ أفتَاهُ بقتلِهِمُ ... في فَتْح مكّة حَلَّ القتل في الحرمِ
ولم يراعُوا لعثمانٍ ولا عمرٍ ... ولا الحُسَيْن ذمام الأشهرِ الحُرُمِ
فما ترومُ سوى فتحٍ صوارِمُه ... يُضحكْن في كلّ يومِ عابسَ الْبُهَمِ
حتى كأنّ لسان السَّيْف في يده ... يروي الشريعةَ عن عادٍ وعَنْ إرم
هذا ابن تومرتَ قد كانَتْ بدايته ... فيما يقول الورَى لحماً على وَضَم[1]
وقد ترّقى إلى أنْ صار طَالِعُهُ ... من الكواكب بالأنفاس والكظم
وكان أوّلُ هذا الدين مِنْ رجلٍ ... سعى إلى أن دَعَوْهُ سَيِّدَ الأمم

- كذب، لم يظهر الدين الحنيف المقدّس على الأديان بسعي البشر، بل بالتأييد الإلهي، والسر الربانيّ، صلوات الله وسلامه على القائم به، والمحتمّل له -:

والبدرُ يبدُو هلالاً ثم يكشف بالـ ... ـأنوارِ ما سترته شَمْلَة الظُّلَم
والغيثُ فَهْو كما قد قيل أوّله ... قَطْرٌ وبدء خراب السدّ بالعَرم
تَنْمُو قوى الشيء بالتَّدْريج إن رزقت ... لُطْفاً ويقوى شرارُ النار بالضَرَم
حاسِبْ ضميرَك عن رأي أتاكَ وَقُلْ ... نصيحة وَرَدَتْ من غيرِ مُتَّهَم
أقسمت ما أنتَ ممَّنْ جُلُّ همَّته ... ما راقَ من نعم أورَقَ مِنْ نِعم
وإنما أنت مرجوٌّ لواحدةٍ ... بنى بها الدهر مَجْداً غيرَ مُنْهَدِم
كأنني بالليالي وهي هاتِفَةٌ ... قد صمّ سمع رجال دُونَهَا وعَمِي
وبالعلا كلما لاقتك قائلة ... أهلاً بِمُنْشِرِ آمالي مِنَ الرِّمم

---

(١) الوَضَم: ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير. القاموس، مادة (وضم).

ومن أباة الضَّيْم الذين اختارُوا القتلَ على الأسر، والموت على الدنيّة، مُصْعب بن الزبير، كان أميرَ العراقين من قِبَل عبد الله بن الزبير، وكان قد كَسَر جيوش عبد الملك مِراراً، وأعياهُ أمره. فخرج إليه من الشام بنفسه، فليمَ في ذلك، وقيل له: إنّك تغرّر بنفسك وخلافتِك، فقال: إنه لا يقوم لحرْب مُصْعَب غيري، هذا أمر يحتاج إلى أن يقومَ به شجاع ذُو رأي، وربّما بعثت شجاعاً ولا رَأي له، أو ذا رَأيٍ ولا شجاعة عنده، وأنا بصير بالحرب، شجاع بالسيف. فلما أجمع على الخروج إلى حرب مُصْعب جاءته امرأته عاتِكة بنت يزيد بن معاوية، فالتزمتْه، وبكت لفراقه، وبكى جواريها حولها، فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جُمْعة! كأنه شاهد هذه الصورة حيث يقول:

إذَا هَـمّ بـالأعْـداءِ لَـمْ يَـثْـنِ عَـزْمَـهُ ... حَـصَـانٌ عَـلَـيْـهَـا نَـظْـمُ دُرٍّ يَـزِيـنُـهَـا

نَـهَـتْـهُ فَـلَـمَّـا لـم تـرَ الـنَّـهْـيَ عـاقَـهُ ... بَـكَـتْ فَـبَـكَـىٰ مـمّـا عَـرَاهـا قَـطِـيـنُـهـا

فسار عبدُ الملك حتّى إذا كان بمسْكِن من أرض العراق، وقد دنا منه عَسْكر مصعب، تقاعد بمُصعب أصحابُه وقُوّاده وخذلوه، فقال لابنه عيسى: الحق بمكة فانج بنفسك، وأخبر عَمّك عبد الله بما صنع أهلُ العراق بي، ودعني فإني مقتول، فقال: لا تتحدّث نساء قريش أني فررت عنك، ولكن أقاتل دونك حتى نقتل، فالفرار عار، ولا عار في القتل، ثم قاتل دونه حتى قُتل. وخفّ مَنْ يحامي عن مُصعب من أهل العراق، وأيقن بالقتل، فأنفذ عبد الملك إليه أخاه محمد بن مروان، فأعطاه الأمان وولاية العراقين أبداً ما دام حيًّا، وألفي ألف درهم صلة، فأبى وقال: إنّ مثلي لا ينصرف عن هذا المكان إلا غالباً أو مقتولاً، فشدّ عليه أهل الشام ورموْه بالنَّبْل فأثخنوه، وطعنه زائدة بن قيس بن قدامة السعديّ، ونادى: يالثارات المختار! فوقع إلى الأرض، فنزل إليه عبد الملك بن زياد بن ظَبْيان، فاحتزّ رأسه، وحمله إلى عبد الملك.

لما حُمِل رأسُ مصعب إلى عبد الملك بكى وقال: لقد كان أحبّ الناس إليّ وأشدّهم مودّة لي، ولكن الملك عقيم.

كتب مصعب إلى سُكَينة بنت الحسين عليه السلام، وكان زوجتَه لما شخص إلى حرب عبد الملك وهي بالكوفة بعد ليالٍ من فراقها:

وكـان عـزيـزاً أن أبـيـتَ وبـيـنـنـا ... حِجابٌ فقد أصبَحْتِ مِنّي عَلَى عَشْرِ

وأبـكـاهُـمَـا والـلّـه لـلـعـيـن فـاعـلـمِـي ... إذا ازددت مثليها فَصِرْتُ عَلَى شَهْرِ

وأنـكـى لـقـلـبِـي مـنـهُـمـا الـيـومَ أنّـنِـي ... أخـاف بـألّا نـلـتـقـي آخـر الـدهـرِ

ثم أرسل إليها وأشخصها، فشهدتْ معه حربَ عبد الملك، فدخل عليها يوم قُتِل، وقد نزع ثيابه ثم لَبِس غلالة، وتوشح بثوبٍ واحد، وهو محتضِنٌ سيفه، فعلمتْ أنه غيرُ راجع،

فصاحت: واحزناه عليك يا مصعب! فالتفت إليها، وقال: إنّ كل هذا في قلبك! قالت: وما أخفي أكثر. قال: لو كنت أعلم هذا لكان لي ولك شأن، ثم خرج فلم يرجع.

فقال عبد الملك يوماً لجلسائه: مَنْ أشجعُ الناس؟ فقالوا: قطريّ، شبيب، فلان وفلان، قال عبد الملك: بل رجل جَمَع بين سُكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وأمَة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وقُلابة ابنة زبّان بن أنيف الكلبيّ سيد العرب، ووليّ العراقين خمس سنين، فأصاب كذا وكذا ألف درهم، وأعطِي الأمان على ذلك كلّه وعلى ولايته وماله فأبى، ومشى بسيفِه إلى الموت حتى قُتِل، ذاك مصعب بن الزبير، لا مَنْ قطع الجسور مرة ها هنا ومرة ها هنا!

سُئِل سالم بن عبد الله بن عمر، أيّ ابنَي الزبير أشجع؟ فقال: كلاهما جاءه الموت، وهو ينظر إليه. لما وضِع رأس مصعب بين يدي عبد الملك أنشد:

لقد أرْدَى الفوارسُ يومَ حِسْيٍ ... غُلاماً غيرَ مَنّاعِ المتاعِ
ولا فرِحٍ بخيرٍ إنْ أتاه ... وَلَا هَلِعٍ من الحَدَثان لَاعِ
ولا وقافةٌ والخيل تَرْدِي ... ولا خالٍ كأُنبُوبِ اليَرَاعِ

كان ابن ظبيان يقول: ما نَدِمْتُ على شيء نَدَمي على ألّا أكونَ لمّا حمَلت إلى عبد الملك رأسَ مصعب فسجَد قتلتُه في سَجْدَته، فأكون قد قتلت مَلِكي العرب في يومٍ واحد.

قال رجل لعبد الله بن ظَبْيان: بماذا تحتجّ عند الله عزّ وجلّ غداً، وقد قتلتَ مصعباً؟ قال: إن تُركت أحتجّ كنت أخطبَ من صعصعة بن صوحان!

كان مصعب لما خرج إلى حرب عبد الملك سأل عن الحسين بن علي عليه السلام، وكيف كان قتله؟ فجعل عروة بن المغيرة يحدّث عن ذلك، فقال متمثلاً بقوله سليمان بن قتّة:

وإنّ الأُلَى بالطَّفّ من آل هاشمٍ ... تأَسَّوْا فَسَنُّوا للكرامِ التأَسِّيا

قال عُروة: فعلمت أن مصعباً لا يفرّ.

لما كان يوم السَّبَخة، وعسكر الحجاج بإزاء شَبيب، قال له الناس: أيّها الأمير، لو تنحيّت عن هذه السبخة، فإنها منتنة الريح! قال: ما تنحُونَني - والله - إليه أنتن، وهل ترك مصعب لكريم مَفَرًّا! ثم أنشد قول الكَلْحبَة:

إذَا المَرْءُ لَمْ يَغْشَى الْكَرِيهةَ أَوْشَكَتْ ... حِبَالُ الهُوَيْني بالفَتى أنْ تَقَطَّعا

وروى أبو الفرج في كتاب «الأغاني»: خطبة عبد الله بن الزبير في قتل مُصعب برواية هي

أتمّ مما ذكرناه نحن فيما تقدم، قال: لما أتى خبرُ المصعَب إلى مكة، أضرب عبد اللّه بن الزبير عن ذكره أياماً؛ حتى تحدث به جميعُ أهلِ مكة في الطريق، ثم صعد المنبر فجلس عليه مَليًا لا يتكلم، فنظر الناس إليه، وإن الكآبة على وجهه لبادية، وإنّ جبينه ليرشَح عرقاً، فقال واحد لآخر: ما له لا يتكلم؟ أتراه يهابُ النطق! فواللّه إنه لخطيب. فما تراه يهاب؟ قال: أراه يريد أن يذكر قتل المُصعب سيّد العرب، فهو يقطّع بذلك. فابتدأ فقال: الحمدُ لله الذي له الخلْق والأمر، ملِك الدنيا والآخرة، يعِزّ مَنْ يشاء، ويُذِلّ مَنْ يشاء، ألا إنّه لا يذِلّ مَنْ كان الحق معه وإن كان مفرداً ضعيفاً، ولا يعزّ من كان الباطل معه، وإن كان ذا عدد وكثرة. ثم قال: أتانا خبرٌ من العراق، بلد الغدر والشقاق، فساءنا وسرّنا، أتانا أن مُصعباً قتل رحمه اللّه، فأما الذي أحزننا من ذلك فإنّ لفراقِ الحميم لَذْعة ولوعة، يجدها حَمِيمُه عند المصيبة، ثم يرعوي ذو الرأي والدِّين إلى جميل الصبر، وأمّا الذي سَرّنا منه فأنَّ قتلَه كان له شهادة وإن الله جاعل لنا وله في ذلك الخيرة ألا إن أهل العراق باعوه بأقل الأثمان وأخسرها وأسلموه إسلام النَّعَم المخطمة فقتل، وإن قُتِل لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه، وكانوا الخيارَ الصالحين، وإنّا واللّه ما نموت حَتْف آنافنا، ما نموت إلا قتلاً قتلاً، وقَعْصاً قَعْصاً، بين قِصَد الرماح، وتحت ظلالِ السيوف، ليس كما تموت بنو مَرْوان، واللّه ما قتِل منهم رجل في جاهلية ولا إسلام، وإنما الدنيا عاريّة من الملِك القهار الذي لا يزول سلطانه، ولا يَبيد مُلْكه، فإن تقبل الدنيا عليّ لا آخذها أخذ اللئيم البَطِر، وإن تدبِرْ عَنّي لا أبكِي عليها بكاء الخرِف المُهْتَر. ثم نزل.

وقال الطِّرمّاح بن حَكيم، وكان يرى رأي الخوارج:

وإنـي لَـمُـقْـتـادٌ جَـوادِي فـقـاذفٌ ... به وَبِنَفْسي اليوم إحدى المتالفِ
لأكسِبَ مالاً أو أأوب إلى غِنًى ... مِنَ اللّه يكفيني عِداةَ الخلائِفِ
فيا ربّ إن حانت وفاتي فلا تكنْ ... على شَرْجَعٍ يُعلَى بخُضْرِ المطارفِ
ولكنّ قبري بطن نَسْرٍ مَقِيلُه ... بجوّ السماء في نسور عَوَاكِفِ
وأمسِي شهيداً ثاوياً في عِصابة ... يُصابون في فجٍّ من الأرض خائفِ
فوارسُ أشتاتٌ يؤلّف بينَهُمْ ... هُدَى اللّه نَزّالُون عِندَ المواقِف

قال ابن شُبْرُمة: مررت يوماً في بعض شوارع الكوفة، فإذا بنعشٍ حوله رجال، وعليه مُطرف خزّ أخضر، فسألت عنه فقيل: الطِّرِمّاح، فعلمت أنّ اللّه تعالى لم يَسْتَجِب له.

وقال محمد بن هانيء:

ولـم أجِـد الإنـسـانَ إلا ابـنَ سَـعْـيِـهِ ... فَـمنْ كَانَ أسْعَى كَانَ بالْمَجْد أجْدَرَا
وبـالـهـمّـة الـعـلـياءِ تَرْقَـى إلـى الـعُـلَا ... فَـمـن كَـانَ أعْـلـى هِـمَّـةً كَـانَ أظْـهَـرَا
وَلَـمْ يـتـأخَّـرْ مَـنْ أرَادَ تَـقـدُّمـاً ... وَلَـمْ يَـتَـقَـدَّمْ مَـنْ أرَادَ تَـأخُّـرا

الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى:

وَمَـنْ أخَّـرَتْـهُ نَـفْـسُـهُ مَـاتَ عَـاجِـزاً ... وَمَـنْ قَـدَّمَـتْـهُ نَـفْـسُـهُ مَـاتَ سَـيِّـدَا

وله رحمه الله:

مَـا مُـقـامِـي عَـلَـى الْـهَـوَانِ وَعِـنْـدِي ... مِـقْـوَلٌ صَـارِمٌ وَأنْـفٌ حَـمِـيُّ
وإبـاء مـحـلّـق بـي عَـنِ الـضَّـيْـ ... ـمِ كَـمَـا زَاغَ طَـائـرٌ وَحْـشِـيُّ

أبو الطيب المتنبّي:

تَـقُـولِـينَ مَا فِي النَّاسِ مِثْلُكَ عَاشِقٌ ... جِدِي مِثْلَ مَنْ أحببتُه تَجِدِي مثلِي
مـحبٌّ كَنَى بالبيض عَنْ مُرْهَفَاتِهِ ... وبالْحُسْنِ في أجسامِهِنَّ عَن الصَّقْلِ
وبالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ القنا غَيْر أنّني ... جَنَاهـا أحِبّائِي وأطرافُهَا رُسْلِي
عَدِمْتُ فؤاداً لـم يَبِتْ فيه فَضْلَةٌ ... لغيرِ ثنايا الْغُرِّ والحَدَقِ النُّجْلِ
تُـريـديـنَ إدراكَ الـمـعـالِـي رَخِـيـصَـةً ... وَلاَ بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

ابن الهبارية: الهِمَمُ الْعَلِيّة، والمهَجُ الأبية، تقرّب المنيّة، منك أو الأمنيّة.

أبو تمام:

فَـتَـى الـنَّـكَـبَـاتِ مَـنْ يـأوي إذا مَـا ... قَـطَـفْـنَ بِـهِ إلَـى خُـلُـقٍ وسَـاعِ
يُـثـيـرُ عَـجَـاجَـةً فِـي كُـلِّ فَـجٍ ... يَـهِـيـمُ بـهـا عَـدِيّ بـن الـرِّقَـاعِ
يَـخُـوضُ مَـعَ الـسِّـبَـاع الـمـاءَ حَـتَّـى ... لَـتَـحْـسِـبُـه الـسِّـبَـاعُ مـن الـسِّـبَـاعِ
فَـلَـبُّ الْـعَـزْمَ إن حـاولـتَ يـومـاً ... بـأنْ تَـسْـتَـطِـيـع غَـيْـرَ الـمـسـتـطـاعِ
فَـلَـمْ تَـرْكَـبْ كـنـاجـيـةِ الـمـهـارِي ... وَلَـمْ تُـرْكِـبْ هُـمُـومَـكَ كـالـزِّمَـاعِ

وله أيضاً:

إنّ خَـيْـراً مـمـا رأيـتُ مـن الـصَّـفْـ ... ـحِ عـن الـنَّـائِـبـات والإغْـمَـاضِ
غُـرْبَـةٌ تَـقْـتَـدِي بـغُـرْبـة قَـيْـ ... ـسِ بن زُهَيْرٍ والحارثِ بن مُضاضِ
غَـرَضَـيْ نَـكْـبَـتَـيـن مَـا فَـتَـلاَ رَأْ ... يـاً فـخـافـا عـلـيـه نَـكْـثَ انـتـقـاضِ

مَـنْ أبَـنَّ الـبُـيـوتَ أصـبـح فـي ثَـوْ ... بٍ مِـنَ الْـعَـيْـشِ لَـيْـسَ بـالْـفَـضْـفَـاضِ
صَـلَـتَـانٌ أعـداؤه حَـيْـثُ حَـلُّـوا ... فـي حـديـثٍ مـن ذِكْـرِهِ مُـسْـتَـفَـاضِ
وَالْـفَـتَـى مَـنْ تـعـرّقـتـه الـلَّـيـالِـي ... والـفـيـافي، كـالـحَـيَّـةِ الـنَّـضْـنَـاضِ[1]
كـلَّ يَـوْمٍ لـه بِـصَـرْفِ الـلَّـيـالِـي ... فَـتْـكَـةٌ مِـثْـلُ فَـتْـكَـةِ الـبَـرَّاضِ[2]

وله أيضاً:

إنْ تَـرَيْـنـي تَـرَيْ حُـسَـامـاً صَـقـيـلاً ... مَـشْـرَفِـيًّـا مِـنَ الـسُّـيُـوفِ الـحِـدَادِ
ثـانـيَ الـلَّـيْـلِ ثـالـث الـبِـيـد والـسَّـيْـ ... ـرِ نَـدِيـمَ الـنُّـجُـومِ تِـرْبَ الـسُّـهَـادِ

أخذ هذا اللفظ أبو عُبادة البحتريّ فقال:

يـا نـديـمـيّ بـالـسّـواجِـيـر مـن شَـمْـ ... ـس بـن عـمـرو وبُـحـتـر بـن عَـتـود
اطـلـبـا ثـالـثـاً سـواي فـإنّـي ... رابـعُ الـعِـيـس والـدُّجـى والـبِـيـدِ
لـسـتُ بـالـعـاجـز الـضّـعـيـف ولا الـقـا ... ئـل يـومـاً إنّ الـغِـنَـى بـالـجـدود
وإذا اسـتـصـعـبـتْ مـقـادةُ أمـرٍ ... سَـهَّـلَـتْـهُ أيـدي الـمـهـارِي الـقُـودِ

وقال الرضيّ رحمه الله تعالى:

ولـم أرَ كـالـرَّجـاء الـيَـومَ شَـيْـئـاً ... تَـذِلُّ لَـهُ الـجـمـاجـمُ والـرقـابُ
وَبَـعْـضُ الـعُـدْمِ مَـأْثُـرَةٌ وَفَـخْـرٌ ... وَبَـعْـضُ الـمـالِ مَـنْـقَـصـةٌ وَعَـابُ
بَـنَـانِـي والـعِـنَـانُ إذا نَـبَـتْ بِـي ... رُبَـا أرْضٍ، وَرِجْـلِـي والـرِّكَـابُ
وَقَـدْ عَـرَفَـتْ تَـوَقُّـلِـيَ[3] الـلَّـيَـالِـي ... كَـمَـا عَـرَفَـتْ تَـوَقُّـلِـيَ الـعِـقَـابُ
لأمْـنَـعَ جَـانِـبـاً وَأُفِـيـدَ عِـزًّا ... وَعِـزُّ الـمـوْتِ مَـا عَـزَّ الـجَـنَـابُ
إذا هَـوْلٌ دَعَـاكَ فَـلاَ تَـهَـبْـهُ ... فَـلَـمْ يَـبْـقَ الَّـذِيـنَ أبَـوْا وَهَـابُـوا
كُـلَـيْـبٌ عَـافَـصَـتْـهُ يَـدٌ وَأَوْدَى ... عُـتَـيْـبَـةَ يَـوْمَ أقْـعَـصَـهُ ذُؤابُ
سَـواءٌ مَـنْ أقـلَّ الـتُّـرْبَ مِـنَّـا ... وَمَـنْ وَارَى مَـعَـالِـمَـه الـتُّـرَابُ
وَإِنَّ مُـزايـلَ الـعَـيْـشِ اغْـتِـبَـاطـاً ... مُـسَـاوٍ لـلّـذيـن بَـقُـوا وَشَـابُـوا

---

(١) حية نضناض: تحرك لسانها، ويقال للقلق الذي لا يثبت في مكانه لشرته ونشاطه: كالحية نضناض. اللسان، مادة (نضض).
(٢) البرّاض: الذي يأكل كل شيء من ماله ويفسده. اللسان، مادة (برض).
(٣) التوقل: الإسراع في الصعود. اللسان، مادة (صعد).

وَأَوَّلُنَا الْعَنَاءُ إِذَا طَلَعْنَا ... إِلى الدنيا، وآخرُنا الذهابُ
إلى كم ذا التردّد في الأماني ... وكم يُلْوِي بِنَاظِرِيَ السَّرَابُ!
وَلاَ نَقْعٌ يُثَارُ وَلاَ قَتَامٌ[1] ... وَلاَ طَعْنٌ يُشَبُّ وَلاَ ضِرَابُ
وَلاَ خَيْلٌ مُعَقَّدةُ النَّواصِي ... يَمُوجُ عَلَى شَكَائِمِها[2] اللُّعابُ
عَلَيْهَا كُلُّ مُلْتَهِب الحوَاشِي ... يُصِيبُ مِن العَدُوِّ وَلاَ يُصَابُ
سَأَخْطُبُهَا بِحَدِّ السَّيْف فِعلاً ... إِذَا لَمْ يُغْنِ قَوْلٌ أو خِطَابُ
وَآخُذُها وإنْ رَغِمَتْ أنوفٌ ... مغالبةً وإنْ ذَلَّتْ رِقَابُ

قعد سليمان بن عبد الملك يَعْرِض وَيَفْرِض، فأقبل فتًى من بني عبس وَسِيم، فأعجبَه، فقال: ما اسمك؟ قال: سليمان، قال: ابن مَنْ؟ قال: ابنُ عبد الملك، فأعرض عنه، وجعل يَفْرِض لمن دونه، فعلم الفتى أنه كره موافقَة اسمِه واسم أبيه، فقال: يا أمير المؤمنين لا عدمتَ اسمك، ولا شَقِيَ اسمٌ يوافق اسمك! فافْرِضْ، فإنما أنا سيفٌ بيدك، إن ضربتَ به قطعت، وإن أمرتني أطعْت، وسَهْمٌ في كنانتك، أشتدّ إن أُرسِلْت، وأنفُذُ حيث وجِّهت. فقال له سليمان، وهو يَرُوزه ويختبره: ما قولك يا فتى، لو لقيتَ عدواً؟ قال: أقول: حسبي الله ونعم الوكيل. قال سليمان: أكنت مكتفِياً بهذا لو لقيت عدوّك دُون ضرب شديد! قال الفتى: إنما سألتَني يا أمير المؤمنين: ما أنت قائل فأخبرتك، ولو سألتني: ما أنتَ فاعل لأنبأتُك، إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيف حتى يتعقّف، ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصّف، ولعلمْتُ إن أَلِمْت فإنهم يألمون، ولرجوت من الله ما لا يرجون. فأعجب سليمان به وألحقه في العطاء بالأشراف، وتمثّل:

إذا ما اتّقى الله الفتى ثم لم يكُنْ ... عَلَى أهْلِهِ كَلاًّ فقد كَمَلَ الْفَتَى

السرّ تحت قوله: «ثم لم يكن على أهله كلاًّ»، يقال في المثل: «لا تكن كَلاًّ على أهلك فتهلك».

عديّ بن زيد:

فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إمّا هَلَكْنَا ... وَهلْ بالمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارُ!

(١) القتام: الغبار. اللسان، مادة (قتم).
(٢) الشكيم والشكيمة: في اللجام: الحديدة المترضة في فم الفرس التي فيها الفأس. اللسان، مادة (شكم).

الرضيّ الموسويّ رحمه الله تعالى:

إِذَا لَمْ يَكُنْ إلا الحِمَامُ فإنَّني ... سَأُكرِمُ نَفسِي عَنْ مَقَالِ اللَّوائِمِ
وَأَلْبَسُها حَمْراءَ تَضْفُو ذُيُولُهَا ... من الدم بُعْداً عنْ لِبَاسِ الْمَلاوِمِ
فَمِنْ قَبْلُ مَا اخْتَار ابنُ الأشعَثِ عَيْشَهُ ... عَلَى شَرَفٍ عَالٍ رفيع الدَّعائم
فطار ذَمِيماً قَدْ تقلّد عارَها ... بِشَرِّ جَنَاحٍ يومَ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ
وَجَاءَهُمُ يَجْرِي البَرِيدُ بِرأسِهِ ... وَلم يُغْنِ إيغالٌ به في الهزائم
وَقَدْ حاصَ مِنْ خَوْف الرَّدَى كل حَيْصَةٍ ... فلم ينجُ والأقدارُ ضَرْبَةَ لازِم
وَهَذا يزيد بنُ المهلّب نافَرَتْ ... به الذلَّ أعراقُ الجُدود الأكارِمِ
فَقَالَ وَقَدْ عَنّ الفِرارُ أو الرَّدَى: ... لحا الله أخزَى ذُكْرةً في المَوَاسِم
وَمَا غَمَرَاتُ الموتِ إلاّ انغِمَاسَةٌ ... ولا ذِي المنايا غيرُ تهويم نائم
رأى أنّ هذا السَّيْفَ أهونُ مَحْمَلاً ... من العارِ يَبْقَى وَسمُه في المخاطِمِ
وَما قَلَّدَ البِيضَ المباتيرَ عُنْقَهُ ... سوى الخوف مِنْ تقليدها بالأداهِمِ
فعافَ الدَّنايَا وامْتَطى المَوْتَ شَامخاً ... بمارنِ عِزٍّ لا يذلُّ لِخَاطِمِ
وقَدْ حَلَّقَتْ خَوْفَ الهوان بِمُصْعَبٍ ... قوادمُ آباءٍ كرام المقادِمِ
عَلَى حِينَ أعطَوْهُ الأمان فعافَهُ ... وَخُيِّرَ فاختارَ الرَّدى غيرَ نادِمِ
وَفي خِدْرِه غَرَّاءُ مِنْ آل طلحةٍ ... عَلاَقَةُ قَلْبٍ للنَّدِيمِ المُخَالِمِ[1]
تَحَبَّبُ أيّامَ الحياةِ وإنّها ... لأعْذَبُ مِنْ طَعْمِ الخلودِ لطاعِمِ
فَفَارَقَها والمُلْكَ لَمَّا رَآهما ... يَجُرَّانِ إذلال النُّفُوس الكَرائم
وَلَمَّا ألاحَ الحَوْفَزَانُ[2] مِن الرَّدَى ... حَذَاه المَخَازِي رُمْحُ قَيْس بن عاصِمِ
وَغادَرَها شَنْعَاء إنْ ذُكِرَتْ لَهُ ... مِنَ العارِ طَأطَأ رأسَ خَزيانَ وَاجِمِ
كذاك تُنِيبي بَعْدَ الفِرار أُمَيَّةٌ ... بِشِقْشِقَةٍ لَوْثَاءَ مِنْ آل دَارِمِ
وَحَلَّ لها سَلُّ الحُسَامِ ابنُ مَعْمَرٍ ... فَكَرَّ عَلَى أعقابِ نابٍ بصارم
يُرَدِّدُ ذِكْرِي كلُّ نَجْدٍ وَغائِرٍ ... وَأَلْجَمَ خوفي كلّ باغٍ وظالم

(١) المخالمة: المصادقة والمغازلة. اللسان، مادة (خلم).

(٢) الحوفزان: اسم رجل وهو الحارث بن شريك الشيباني، لقب بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حفزه بالرمح - أي طعنه - حين خاف أن يفوتخ فعرج من تلك الحفوة فسمي بتلك الحفزة حوفزاناً. اللسان، مادة (حفز).

وَهَدَّدَني الأعداءُ في المَهْدِ لم يَحِنْ ... نُهوضِي وَلَمْ تُقْطَعْ عقودُ تمائمي
وَعِنْدي يَومٌ لَوْ يَزِيدُ وَمُسْلِمٌ ... بَدَا لَهُمَا لاسْتَصْغرا يَوْمَ وَاقِمِ[1]
عَلَى العِزِّ مُتْ لا مِيتَةً مُسْتَكِينَةً ... تُزِيلُ عَنِ الدُّنْيَا بِشَمِّ المَرَاغِمِ
وَخَاطِرْ على الجُلَّى خِطارَ ابنِ حُرَّةٍ ... وإنْ زَاحَمَ الأمرُ العظيمُ فَزَاحِمِ

ومن أباةِ الضَيْمِ ومُؤْثِري الموت على الحياة الذليلة محمد وإبراهيم، ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. لما أحاطتْ عساكر عيسى بن موسى بمحمد وهو بالمدينة، قيل له: انجُ بنفسك، فإنّ لك خَيلاً مُضمَّرة ونجائب سابقة، فاقعد عليها، والتحق بمكة أو باليمن. قال: إني إذاً لعبد! وخرج إلى الحرب يباشرها بنفسه وبمواليه، فلما أمسى تلك الليلة وأيقن بالقتل، أشير عليه بالاستتار، فقال: إذَنْ يستعرض عيسى أهلَ المدينة بالسيف، فيكونُ لهم [يوم] كيوم الحرّة، لا والله لا أحفظُ نفسي بهلاك أهل المدينة، بل أجعل دمي دون دمائهم. فبذل له عيسى الأمانَ على نفسه وأهله وأمواله، فأبى ونَهَد إلى الناس بسيْفه، لا يقاربه أحد إلا قتله، لا والله ما يبقِي شيئاً، وإنّ أشبَه خَلْق الله به فيما ذُكِر هو حمزة بن عبد المطلب. ورَمَى بالسِّهام، ودَهَمته الخيل، فوقف إلى ناحية جِدارٍ، وتحاماه الناس فوجد الموت، فتحامل على سَيْفِه فكسره، فالزيديّة تزعم أنه كان سيفَ رسول الله صلى الله عليه وآله ذا الفقار.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتاب «مقاتل الطالبيين» أن محمداً عليه السلام، قال لأخته ذلك اليوم: إني في هذا اليوم على قِتال هؤلاء، فإن زالت الشمس، وأمطرت السماء فإني مقتول، وإن زالت الشمس ولم تُمْطر السماء، وهبّت الريح، فإني أظفر بالقوم، فأجّجي التّنانير، وهيّئي هذه الكتب - يعني كتب البيعة الواردة عليه من الآفاق - فإن زالت الشمس، ومطرت السماء فاطْرَحِي هذه الكتب في التنانير، فإن قدرتم على بَدَني فخذوه، وإن لم تقدروا على رأسي فخذوا سائر بدني، فأتُوا به ظُلّة بني بلية على مقدار أربعة أذرع أو خمسة منها، فاحفروا لي حفيرة، وادفنوني فيها. فمطرت السماء وقت الزوال، وقتل محمد عليه السلام، وكان عندهم مشهوراً أنّ آية قَتْل النفس الزكيّة أن يسيل دم بالمدينة حتى يدخل بيت عاتكة، فكانوا يعجبون كيف يسيل الدم حتى يدخل ذلك البيت! فأمطرت السماء ذلك اليوم، وسال الدم بالمطر حتى دخل بيت عاتِكة، وأخذ جسده، فحفِر له حفيرة في الموضع الذي حَدّه لهم، فوقعوا على صخرة فأخرجوها، فإذا فيها مكتوب: «هذا قبر الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام»، فقالت زينب أخت محمد عليه السلام: رحم الله أخي، كان أعلم حيث أوصى أن يدفن في هذا الموضع.

(١) واقم: أطم من آطام المدينة. اللسان، مادة (وقم).

وروى أبو الفرج، قال: قَدِم على المنصور قادم، هَرب محمد! فقال له: كَذَبْت! إنا أهلَ البيت لا نفرّ.

وأما إبراهيم عليه السلام، فروى أبو الفرج عن المفضّل بن محمد الضَّبيّ، قال: كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متوارياً عندي بالبَصْرة، وكنت أخرُج وأتركه، فقال لي: إذا خرجتَ ضاق صدري، فأخرج إليّ شيئاً من كتبك أتفرّج به، فأخرجت إليه كتباً من الشعر، فاختارَ منها القصائد السبعين التي صدَّرت بها كتاب «المفضليات»، ثم أتممت عليها باقيَ الكتاب.

فلما خرج خرجت معه، فلما صار بالمِرْبدِ، مرْبد سليمان بن عليّ، وقف عليهم، وأمّنهم واستَسْقَى ماء، فأُتِيَ به فشرب، فأخرِج إليه صبيان من صبيانهم فضمّهم إليه، وقال: هؤلاء والله مِنّا ونحن منهم، لحمنا ودمنا، ولكن آباءهم انْتَزَوْا على أمرنا، وابتَزُّوا حقوقنا، وسفكوا دماءنا، ثم تمثل:

مَهلاً بَني عَمِّنا ظلامَتَنا ... إنّ بنا سَورةً من الغَلَقِ[1]
لمثلكُمْ نَحمِلُ السيوفَ ولاَ ... تُغمَزُ أحسابُنَا مِنَ الرَّقَقِ
إنِّي لأنْمِي إذا انتميتُ إلى ... عِزٌّ عَزيزٍ وَمَعشَرٍ صُدُقِ
بِيضٍ سِبَاطٍ كأنّ أعيُنَهُمْ ... تُكحَلُ يومَ الهِيَاجِ بِالْعَلَقِ

فقلت له: ما أجودَ هذه الأبيات وأفحلها! فلِمَنْ هي؟ فقال: هذه يقولها ضِرار بن الخطّاب الفِهْريّ يومَ عبرَ الخندق على رسول الله صلى الله عليه وآله، وتمثل بها عليّ بن أبي طالب يوم صِفّين، والحسين يوم الطّفّ، وزيد بن علي يوم السَّبَخَة، ويحيى بن زيد يوم الجُوزجان، فتطيّرتُ له من تمثُّله بأبيات لم يتمثل بها أحد إلا قُتِل. ثم سرنا إلى باخمرَى، فلما قرب منها أتاه نعيُ أخيه محمد، فتغيّر لونه وجَرِض بريقه، ثم أجهش باكياً، وقال: اللهم إن كنت تعلَم أنّ محمداً خرج يطلب مرضاتك، ويؤثر أن تكون كلمتك العليا، وأمرُك المتّبع المطاع فاغفر له وارحمه، وارض عنه، واجعل ما نقلتَه إليه من الآخرة خيراً مما نقلتَه عنه من الدنيا، ثم انفجر باكياً ثم تمثّل:

أبا المُنازِل يا خيرَ الفوارس مَنْ ... يُفجَعْ بمثلك في الدّنيا فَقَدْ فُجِعا
الله يعلمُ أني لو خشِيتُهُم ... أو آنس القلبُ من خوفٍ لهم فَزَعا
لم يقتلوك ولم أُسلِم أخي لهُم ... حتّى نعيش جميعاً، أو نموت معاً

---

(١) الفلق: ضيق الصدر وقلة الصبر. اللسان، مادة (غلق).

قال المفضّل: فجعلت أعزّيه وأعاتبه على ما ظهر من جَزَعه، فقال: إني والله في هذا، كما قال دُرَيد بن الصِّمّة:

يقولُ ألا تَبْكي أخاكَ وقَدْ أرى مكانَ البُكا، لكن بُنيتُ على الصَّبْرِ
لمقتلِ عبد الله والهالكِ الّذي على الشَّرَف الأعلى قتيلِ أبي بكرِ
وعبد يغوث تحجل الطَّيْر حَوْلَهُ وجلّ مصاباً جَثْوُ قبرٍ على قبر
فإمّا ترينا لا تزال دماؤنا لدى واترٍ يَسْعَى بها آخرَ الدَّهر
فإنّا للَحْمُ السَّيف غَيْرَ نَكِيرةٍ ونُلْحِمهُ طوراً، وليس بذي نُكْرِ
يُغَار علينا واترين فيُشْتَفَى بنَا إنْ أصِبْنا أو نُغيرُ على وِتْرِ
بذاك قَسَمْنَا الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحنُ على شَطْرِ

قال المفضّل: ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثل الجراد، فتمثّل إبراهيم عليه السلام قوله:

إن يقتلوني لا تُصِبْ أرماحهمْ ثأري ويسعى القوم سَعْياً جاهِدَا
نبئت أنّ بني جَذيمة أجمعت أمراً تدبّره لتقتلَ خالدَا
أرمي الطريق وإن رُصِدْتُ بضيقِه وأنازِلُ البطَلَ الكَمِيّ الحارِدا

فقلت له: مَنْ يقول هذا الشعر يابن رسول الله؟ فقال: يقوله خالد بن جعفر بن كلاب يوم شِعْب جبَلة، وهذا اليوم الذي لقيَتْ فيه قيس تميماً. قال: وأقبلت عساكر أبي جعفر، فطعن رجلاً وطعنه آخر، فقلت له: أتُباشر القتال بنفسك! وإنما العسكر منوط بك، فقال: إليك يا أخا بني ضَبّة، فإني لكما قال عُويف القوافي:

ألَمّتْ سُعادُ وإلمامُها أحاديث نفسٍ وأحلامُهَا
مُحَجَّبةٌ من بَنِي مالك تَطَاوَلُ في المجدِ أعلامُها
وإنّ لنا أصلَ جُرثومَةٍ تَرُدُّ الحوادثَ أيامُها
تَرد الكتيبة مفلولةً بها أفْنُها وبها ذَامُها[1]

والتحمت الحرب واشتدّت، فقال: يا مفضّل، احكني بشيء، فذكرت أبياتاً لعويفِ القوافي لما كان ذكره هو من شعره، فأنشدته:

ألاَ أيُّها الناهِي فَزَارَةَ بَعْدَما أجدّتْ لسيرٍ، إنّما أنتَ ظَالِمُ
أبى كلُّ حُرٍّ أن يبيت بوَتْرِه وتمنع منه النوم إذ أنت نائمُ
أقول لفتيانٍ كرامٍ تَرَوّحُوا على الجُرْدِفي أفواهِهِنّ الشَّكَائِمُ

(١) الأفن: النقص، اللسان، مادة (أفن). والذام: العيب. اللسان، مادة (ذيم).

قفوا وقفةً من يحيَ لا يَخزَ بعدها ... وَمَنْ يُختَرمْ لا تتبعُهُ اللوائم

وهل أنت إن باعدتَ نفسك عنهمُ ... لتسلمَ فيما بعد ذلك سالمُ

فقال: أعد، وتبينت من وجهه أنه يستقتل، فانتهبت وقلت: أو غير ذلك؟ فقال: لا، بل أعد الأبيات، فأعدتها، فتمطّى في ركابَيْه فقطعهما، وحمل فغاب عنّي، وأتاه سهم عائر فقتله، وكان آخر عهدي به عليه السلام.

قلت: في هذا الخَبر ما يحتاج إلى تفسير، أما قوله:

إن بنا سورةً من الغَلَقِ

فالغلق: الضّجَر وضيق الصدر والحدّة، يقال: احتدّ فلان فنشب في حِدَّته وغلِق. والسَّوْرة: الوثوب، يقال: إن لغضبِه لسورة، وإنه لسوّار، أي وثّاب معربد. وسَوْرة الشراب: وثوبه في الرأس، وكذلك سَوْرة السمّ، وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه.

وأما قوله: «لمثلكم نحمل السيوف» فمعناه أنّ غيركم ليس بكفء لنا لنحمِل له السُّيُوفَ وإنما نحملها لكم، لأنّكم أكفاؤنا، فنحن نحاربكم على الملك والرياسة وإنْ كانت أحسابُنا واحدة، وهي شريفة لا مغمَز فيها.

والرَّقق، بفتح الراء: الضعف، ومنه قول الشاعر:

لم تلق في عظمها وَهْناً وَلَا رَقَقاً

وقوله:

تُكحَل يوم الهيَاج بالعلَقِ

فالعلَق الدم، يريد أنّ عيونَهم حُمْر لشدّة الغيظ والغضب، فكأنها كُحِلَتْ بالدم.

وقوله: «لكن بنيت على الصبر»، أي خُلقت وبنيت بِنْيَة تقتضي الصبر، والشرف الأعلى: العالي، وبنو أبي بكر بن كلاب، من قَيْس عيلان، ثم أحد بني عامر بن صعصعة.

وأما قوله:

إن يَقتُلوني لا تُصِب أرماحُهم

فمعناه أنّهم إن قتلوني ثم حاولوا أنْ يصيبوا رجلاً آخر مثلي يصلح أن يكون لي نظيراً، وأن يجعله دمه بَواء لدمي، وسَعَوا في ذلك سَعْياً جاهداً، فإنهم لم يجدوا ولم يقدروا عليه.

وقوله: «أرمي الطريق...» البيت، يقول: أسلك الطريق الضيّق، ولو جعل عَلَيّ فيه الرَّصَد لقتلي.

والحارد: المنفرد في شجاعته، الذي لا مثل له.

شريعة الفرات بين معاوية وعلي عليه السلام

فأما حديث الماء وغَلَبُ أصحابِ معاوية على شَرِيعة الفرات بصِفين، فنحن نذكره من كتاب «صفين» لنصر بن مزاحم.

قال نصر: كان أبو الأعور السُلميّ على مقدّمة معاوية، وكان قد نَاوَش مقدّمة عليّ عليه السلام وعليها الأشتر النّخَعِيّ مناوشةً ليست بالعظيمة، وقد ذكرنا ذلك فيما سَبَق من هذا الكتاب، وانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقُناصرين إلى جانب صِفّين، وساق الأشتر يتبعه، فوجده غالباً على الماء، وكان في أربعة آلافٍ من مستبصرِي أهل العراق، فصدَموا أبا الأعور وأزالوه عن الماء، فأقبل معاوية في جَميع الفَيْلق بقضّه وقَضِيضه[1]، فلما رآهم الأشتر انحاز إلى عليّ عليه السلام، وغلب معاويةُ وأهل الشام على الماء، وحالوا بين أهل العراق وبينه، وأقبل عليّ عليه السلام في جُموعه، فطلب موضعاً لعسكره، وأمرَ النّاسَ أن يضعوا أثقالهم، وهم أكثر من مائة ألف فارس، فلما نزلوا تسرّع فوارس من فوارس عليّ عليه السلام على خيولهم إلى جهة معاوية يتطاعنون ويرمون بالسهام، ومعاوية بَعْدُ لم ينزل، فناوشهم أهلُ الشام القتال، فاقتتلوا هَوِيًّا.

قال نصر: فحدّثني عمر بن سعد، عن سعد بن طَرِيف، عن الأصبغ بن نُباتة: فكتب معاوية إلى علي عليه السلام: عافانا الله وإياك.

ما أحسن العدلَ والإنصاف مِنْ عَمَلٍ ... وأقبحَ الطّيْش ثم النَّفْش في الرَّجُلِ

وكتب بعده:

اربِطْ حِمَارَكَ لا تنزِعْ سويتَه ... إذاً يُرَدَّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوبُ
ليست ترى السيِّدُ زيداً في نفوسهمُ ... كما يراه بنو كُوزٍ ومرهوب
إن تسألوا الحقّ نُعْطِ الحقّ سائلَه ... والدِّرْع مُحْقَبَةٌ والسَّيْف مقروبُ
أو تأنفونَ فإنّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ ... لا نطعَم الضيم إن السّمّ مشروب

فأمر عليٌّ عليه السلام أنْ يوزعَ الناس عن القتال، حتى أخذ أهل الشام مصافّهم ثم قال: أيُّها الناس، إنّ هذا موقفٌ، مَنْ نَطِف فيه نَطِف يوم القيامة، ومن فَلَج فيه فلجَ يوم القيامة، ثم قال لما رأى نزول معاوية بصفين:

لقد أتانا كاشراً عن نابِهِ ... يُهَمِّطُ النَّاسَ على اعتِزابِهِ[2]
فليأتِينَا الدَّهْرُ بما أتى بِهِ

(١) بقضه وقضيضه: أي بأجمعه. اللسان، مادة (قضض).
(٢) همط فلان الناس يهمطهم: ظلمهم حقهم. اللسان، مادة (همط).

قال نصر: وكتب علي عليه السلام إلى معاوية جواب كتابه، أما بعد:

فـإنّ لِـلْـحَـرْب عُـرامـاً شَـرَرا ... إنَّ عـلـيـهـا قـائـداً عَـشَـنْـزَرَا[1]
يُـنْـصِـفُ مَـنْ أَحْـجَـر أَوْ تَـنَـمَّـرا ... عَـلَـى نـواحِـيـهـا مِـزَجًّا زَمْـجَـرَا
إذا وَنَــيــن سَــاعَــةً تَــغَــشْــمَــرَا

وكتب بعده:

أَلَـمْ تَـرَ قَـوْمِـي إن دَعَـاهُـمْ أخـوهُـم ... أجابُوا، وإنْ يَغْضَبْ على الْقَوْمِ يَغْضَبُوا
هُـمُ حِـفظوا غيبي كـما كُـنْـتُ حافظاً ... لـقـوميَ أُخـرَى مـثـلـهـا إن يُـغَـيَّـبُـوا
بـنـو الـحـربِ لـم تـقـعـدْ بـهـم أمَّـهَـاتُـهُـمْ ... وآبـاؤهـمْ آبـاء صِـدْقٍ فـأَنْـجَـبُـوا

قال: قد تراجع النَّاس كلّ من الفريقين إلى معسكرهم، وذهب شبابٌ من الناس إلى أن يستقوا فمنعهم أهلُ الشام. قلت: في هذه الألفاظ ما ينبغي أن يشرح.

قوله: «فاقتتلوا هَوِيًّا»، بفتح الهاء، أي قطعة من الزمان، وذهب هَوِيٌّ من الليل، أي فريق منه. والنَّقْش: كثرة الكلام والدعاوي، وأصله من نفْش الصوف.

والسَّوِيّة: كساء محشوّ بثُمام[2] ونحوه، كالبرذعة. وكَرَب القَيْد، إذا ضيّقه على المقيّد، وقَيْد مكروب، أي ضيق. يقول: لا تنزع برذعة حمارك عنه واربطه وقَيّده، وإلا أعيد إليك وقيْده ضيّق. وهذا مثل ضَرَبه لعليّ عليه السلام، يأمره فيه بأن يردَعَ جيشه عن التسرّع والعجلة في الحرب.

وزيد المذكور في الشعر، هو زيد بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب بن بجالة بن ذُهْل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضَبّة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، وهو المعروف بزيد الخيل، وكان فارسهم. وبنو السِّيد من ضَبّة أيضاً وهم بنو السِّيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أدّ بن طابخة، إلى آخر النسب، وبنو السيد بنو عمّ زيد الفوارس، لأنه من بني ذُهل بن مالك، وهؤلاء بنو السِّيد بن مالك، وبينهم عداوة النسب، يقول: إن بني السِّيد لا يروْن زيداً في نفوسهم كما تراه أهله الأدْنَوْن منه نَسَباً، وهم بنو كوز وبنو مرهوب، فأما بنو كوز فإنهم بنو كُوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك. وأما بنو مَرْهوب، فإنّهم بنو مَرهوب بن عبيد بن هاجر بن كعب بن بجَالة بن ذُهْل بن مالك، يقول: نحن لا نعظم زيداً ولا نعتقد فيه من الفضيلة ما يعتقده أهله وبنو عمه الأدْنَوْن، والمثل لعليّ عليه السلام، أي نحن لا نرى في عليّ ما يراه أهلُ العراق من تعظيمه وتبجيله.

---

(١) العشنزر: الشديد الخلق العظيم من كل شيء. اللسان، مادة (عشزر).

(٢) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص. وربما حشي به وسدَّ به خصاص البيوت. اللسان، مادة (ثمم).

وقوله:

والـدِّرْعُ مُـحْـقَـبَـةٌ والـسَّـيـفُ مَـقْـرُوب

أي والدرع بحالها في حِقابها، وهو ما يشدّ به في غلافها، والسيف بحاله أي في قرابه، وهو جَفْنه، يقال: حقبت الدرعَ وقربت السيف، كلاهما ثلاثيان، يقول: إن سألتم الحق أعطيناكموه من غير حاجة إلى الحرب، بل نجيبكم إليه والدّروع بحالها لم تلبس، والسيوف في أجفانها لم تشهر. وأما إثبات النون في «تأنفون» فإنّ الأصوب حذفُها لعطف الكلمة على المجزوم قبلها، ولكنه استأنف ولم يعطف، كأنه قال: أو كنتم تأنفون، يقول: وإن أنِفْتم وأبيتم إلا الحرب، فإنا نأنف مثلكم أيضاً، لا نطعم الضيم ولا نقبله. ثم قال: إنّ السمّ مشروب، أي أنّ السمّ قد نشربه ولا نشرب الضيم، أي نختار الموت على الضيم والذلة. ويروي:

وإن أنـفـتـم فـإن مـعـشـر أُنُـفٌ ... لا نَـطْـعَـمُ الـضيـم إن الـضيّـمْ مرهـوب

والشعر لعبد الله بن عَنَمة الضبيّ، من بني السّيد، ومن جملته:

وقـد أرُوح أمـامَ الـحـيّ يـقـدُمـنـي ... صَـافِـي الأديم كُـمَـيْـت الـلَّـوْن مَـنْـسُوبُ

مُـحَـنَّـبٌ مـثـل شـاةِ الـرَّبْـلِ مُـحْـتَـفِـزٌ ... بـالـقُـصْـرَيَـيْـنِ عَـلَـى أولاه مَـصْـبُـوبُ[(١)]

يَـبُـذّ مـلـجَـمَـهُ هَـادٍ لـه تَـلَـعٌ ... كـأنـه مـن جُـذوع الـعـيـن مَـشْـذُوبُ[(٢)]

فـذاك ذُخـري إذا مـا خـيـلـهـمْ رَكَـضَـتْ ... إلـى الـمـثُـوِّبِ أو مـقـاء سُـرْحُـوبُ[(٣)]

فأما قوله عليه السلام: «هذا موقفٌ مَنْ نَطِف فيه نَطِف يوم القيامة»، أي مَنْ تلطخ فيه بعيب من فرار أو نكول عن العدوّ. يقال: نَطِف فلان بالكسر إذا تدنس بعيب. ونَطُف أيضاً إذا فسد، يقول: مَنْ فسدت حاله اليوم في هذا الجهاد فسدت حاله غداً عند الله.

قوله: «مَنْ فَلَج فيه» بفتح اللام، أي مَنْ ظهر وفاز، وكذلك يكون غداً عند الله، يقال، فَلَج زيدٌ على خصمه بالفتح، يفلُج، بضمّ اللام، أي ظهرتْ حجته عليه، وفي المثل: من يأت الحَكَم وحده يَفلُج.

قوله: «يهمّط الناس»، أي يقهرهم ويخبطهم، وأصله الأخذ بغير تقدير.

---

(١) محنب: التحنيب في الخيل بعد ما بين الرجلين من غير فحج وهو مدح، وقيل: اعوجاج في الساقين. اللسان، مادة (حنب). محتفز: أي تدفع الحزام بمرفقيها من شدة جريها، اللسان، مادة (حفز).

(٢) مشذوب: فرس مشذب: إذا كان طويلاً ليس بكثير اللحم، اللسان. مادة (شذب).

(٣) السرحوب: الطويل الحسن الجسم. اللسان، مادة (سرحب).

وقوله: «على اعتزابه» أي على بعده عن الإمارة والولاية على الناس. والعُرَام بالضم: الشَّرَاسة والهَوَج. والعشنزر: الشديد القويّ.

وأحجر: ظلم الناس حتى ألجأهم إلى أن دخلوا حجرهم أو بيوتهم. وتَنَمَّر، أي تنكر حتى صار كالنَّمر. يقول: هذا القائد الشديد القويّ ينصف مَنْ يظلم الناس ويتنكّر لهم، أي ينصف منه، فحذف حرف الجر كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾(١). أي من قومه. والمِزَجّ، بكسر الميم: السريع النفوذ، وأصله الرمح القصير، كالمِزَجّ، بكسر الميم: السريع النفوذ، وأصله الرمح القصير، كالمزْراق.

ورجل زمجر، أي مانع حوزته، والميم زائدة. ومن رواها «زَمْخَرا» بالخاء، عَنَى به المرتفع العالي الشأن، وجعل الميم زائدة أيضاً، من زَخَر الوادي، أي علا وارتفع.

وغَشْمَر السيل: أقبل، والغشْمرة: إثبات الأمر بغير تثبيت، يقول: إذا أبطأنَ ساقَهُنَّ سَوْقاً عنيفاً.

والأبيات البائية لربيعة بن مقروم الطائيّ.

قال نصر: حدّثنا عمر بن سعد، عن يوسف بن يزيد، عن عبد اللّه بن عوف بن الأحمر، قال: لما قدمْنا على معاوية وأهلِ الشام بصِفّين، وجَدْناهم قد نَزَلُوا منزِلاً اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً، وأخذوا الشَّريعة فهي في أيديهم، وقد صفّ عليها أبو الأعور الخيلَ والرَّجّالة، وقدم الرّامية ومعهم أصحابُ الرّماح والدَّرَق، وعلى رؤوسهم البِيض، وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء، ففزعْنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرناه بذلك، فدعا صَعْصَعةَ بن صُوحان فقال: ائت معاوية وقلْ له: إنا سِرْنا إليك مسيرَنا هذا وأنا كَرِهٌ لقتالكم قبل الإعذار إليكِم، وإنّك قدّمت خيلك، فقاتلتنا قبل أنْ نقاتلك، وبدأتنا بالحرب، ونحن مِمّن رأينا الكَفَّ حتى ندعوَك ونحتجّ عليك، وهذه أُخرَى قد فعلتموها، قد حُلْتُم بين النّاس وبين الماء، فخلّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له قدمتم له، وإن كان أحبَّ إليك أن ندع له، وندعَ الناس يقتتلون حتى يكونَ الغالب هو الشارب، فَعَلْنا.

فلما مضى صعصعة برسالتِه إلى معاوية، قال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فقال الوليد بن عُقْبة: أمنعهم الماء كما منعوه ابن عفان، حَصَرُوه أربعين يوماً يمنعونه بَرْد الماء ولين الطعام، اقتُلهم عطشاً، قتلهم اللّه!

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

وقال عمرو بن العاص: خَلِّ بين القوم وبين الماء، فإنهم لن يعطشوا وأنت رَيّان، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم. فأعاد الوليد مقالته.

وقال عبد الله بن سَعيد بن أبي سَرْح - وكان أخا عثمان من الرضاعة -: امنعْهم الماء إلى الليل، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، وكان رجوعُهم هزيمتهم، امنعهم الماء منعَهم الله يوم القيامة! فقال صعصعة بن صُوحان: إنما يمنعه الله يوم القيامة الفَجَرة الكَفرة، شَرَبة الخَمْر، ضَرْبك وضَرْب هذا الفاسق - يعني الوليد بن عقبة.

فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه، فقال معاوية: كُفّوا عن الرجل، فإنما هو رسول.

قال عبد الله بن عوف بن أحمر: إن صعصعة لمّا رجع إلينا حدّثنا بما قال معاوية، وما كان منه ومارَدّه عليه، قلنا: وما الذي ردّه عليك معاوية؟ قال: لما أردتُ الانصراف من عنده، قلت: ما ترد عليّ؟ قال: سيأتيكم رأيي، قال: فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والصُّفوف والخيل. فأرسل إلى أبي الأعور: امنعهم الماء، فازدلفنا والله إليهم فارتمينا واطّعنا بالرماح، واضطربنا بالسيوف، فطال ذلك بيننا وبينهم حتى صار الماء في أيدينا فقلنا: لا والله لا نسقِيهم. فأرسل إلينا عليّ عليه السلام أن خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى معسكركم، وخلُّوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم.

وروى نصر بن محمد بن عبد الله، قال قام ذلك اليوم رجل من أهل الشام من السَّكون، يعرف بالشّليل بن عمر إلى معاوية، فقال:

اسْمَعِ اليوم ما يَقُول الشَّلِيلُ ... إن قولي قولٌ له تأويلُ
امنعِ الماءَ من صِحابِ عليٍّ ... أن يذوقوه، فالذليل ذليلُ
واقْتُلِ القوم مِثْلَ ما قُتِل الشيـ ... ـخ صدًى فالقصاصُ أمرٌ جميل
إنّنا والذي تُساق له البُدْ ... نُ هَدَايَا كأنهنّ الفيُول
لو عَلِيٌّ وصحبه وردوا الما ... ء ذقتموه حتى تقولوا
قَدْ رَضِينا بأمرِكُمْ علينَا ... بَعْدَ ذاكَ الرِّضا جِلادٌ ثَقِيلُ
فامْنَعِ القوم ماءكُمْ، ليس لِلْقَوْ ... مِ بقاء وإن يكنْ فقليل

فقال معاوية: أمّا أنت فتدري ما تقول - وهو الرأي - ولكنّ عمراً لا يدري. فقال عمرو: خلِّ بينهم وبين الماء، فإن علياً لم يكن ليظمأ وأنت رَيّان، وفي يده أعنّة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت، وأنت تعلم أنّه الشجاع المُطْرق ومعه أهل العراق وأهل الحجاز، وقد سمعته أنا مراراً وهو يقول: لو استمكنْتُ من أربعين رجلاً يعني في الأمر الأول!

ورَوَى نَصر، قال: لما غَلَب أهلُ الشام على الفُرات، فرِحُوا بالغَلبة، وقال معاوية: يا أهلَ الشام، هذا والله أوّلُ الظَّفَر، لا سَقَاني الله ولا أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يُقْتَلوا بأجمعهم عليه. وتباشر أهلُ الشام، فقام إلى معاويةَ رجُلٌ من أهل الشام هَمْدانيّ، ناسِكٌ يتألّه ويكثر العبادة، يعرف بمعرّيّ بن أقبل، وكان صديقاً لعمرو بن العاص وأخاً له، فقال: يا معاوية، سبحان الله! لأنْ سبقتُمُ القومَ إلى الفرات فغلبتمُوهم عليه، تمنعونهم الماء! أمّا والله لو سبقُوكم إليه لسقوْكم منه. أليس أعظم ما تنالون من القوم أنْ تمنعوهم الفرات فينزلوا على فُرْضَةٍ أخرى ويجاوزوكم بما صنعتم! أما تعلمون أنّ فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف، ومَنْ لا ذنب له. هذا والله أول الجوْر! لقد شجّعتَ الجبان، ونَصَرْت المرتاب وحَمَلت من لا يريد قتالك على كتِفَيْك. فأغلظ له معاوية، وقال لعمرو: اكفِنِي صديقك. فأتاه عمرو فأغلظ له، فقال الهمدانيّ في ذلك شعراً:

لَعَمْرُ أبي معاويةَ بن حرْبٍ ... وعَمْرٍو، ما لدائهما دَوَاءُ
سِوَى طَعْنٍ يحارُ العقل فيهِ ... وضربٍ حين تختلِطُ الدِّمَاء
ولستُ بتابعٍ دينَ ابنِ هِنْدٍ ... طَوَالَ الدّهر ما أرْسَى حِرَاءُ
لَقَدْ ذهبَ العِتابُ فلا عتابٌ ... وَقَدْ ذهبَ الوَلَاءُ فلا وَلَاءُ
وقولي في حوادث كلُّ خَطبٍ: ... على عمرٍو وصاحبه العَفَاءُ
ألا لله دَرُّك يا ابنَ هندٍ ... لَقَدْ بَرِح الخفاءُ فَلَا خَفَاءُ!
أتحمون الفرات على رجالٍ ... وفي أيديهمُ الأسلُ الظِّمَاءُ
وَفي الأعناقِ أسْيَافُ حِدَادٌ ... كأنّ القومَ عِندَهُمُ نِسَاءُ
أترجُو أنْ يجاورُكُمْ عليّ ... بلَا ماءٍ وللأحزابِ ماءُ
دعاهم دعوةً فأجاب قومٌ ... كجُرْبِ الإبْل خالَطها الهِناءُ[1]

قال: ثم سار الهمدانيّ في سواد الليل حتى لحق بعليّ عليه السلام.

قال: ومكث أصحابُ علي عليه السلام بغير ماء، واغتمّ عليّ عليه السلام بما فيه أهل العراق:

قال نصر: وحدّثنا محمد بن عبد الله، عن الجرجانيّ، قال: لما اغتم عليّ بما فيه أهلُ العراق من العطش، خرج ليلاً قبل رايات مذحِج، فإذا رجل ينشد شعراً:

أيمنعُنا القومُ مَاء الفُراتِ ... وَفِينَا الرِّمَاحُ وَفينَا الحجف

(١) الهناء: ضرب من القطران، اللسان، مادة (هنا).

وَفِينَا الشَّوازِبُ مِثْلَ الْوَشِيجِ ... وَفِينَا السُّيُوفُ وَفِينَا الزَّغَفْ
وَفِينَا عَلِيٌّ لَهُ سَوْرَةٌ ... إذا خَوَّفُوهُ الرَّدَى لم يَخَفْ
ونحنُ الذين غداةَ الزُّبَيْر ... وَطَلْحَةَ خُضْنَا غِمَارَ التَّلَفْ
فما بالُنا أمسِ أُسْدَ العرينِ ... وما بالُنا اليومَ شَاءَ النَّجَفْ
فما لِلْعِرَاقِ وَمَا لِلْحِجَازِ ... سِوَى الشَّامِ خَصْمٌ فَصُكُّوا الهدَفْ
وَثُورُوا عَلَيْهم كَبُزْلِ الجِمَالِ ... دُوَيْنَ الذَّمِيل وَفَوْقَ القَطَفْ(١)
فإمَّا تَفُوزُوا بِمَاءِ الفُرَاتِ ... وَمِنَّا وَمِنْهُمْ عَلَيْهِ جِيَفْ
وإما تموتُوا عَلَى طَاعَةٍ ... تُحِلّ الجِنَانَ وَتَحْبُو الشرف
وإلّا فأنْتُمْ عَبِيدُ الْعَصَا ... وَعَبْدُ العَصَا مُسْتَذَلٌّ نَطِفْ

قال: فحرّك ذلك عليًا عليه السلام، ثم مضى إلى رايات كِنْدة، فإذا إنسانٌ يُنشِد إلى جانب منزل الأشعث، وهو يقول:

لَئِنْ لَمْ يُجَلِّ الأشعثُ اليومَ كُرْبَةً ... مِنَ الموتِ فيها للنفوسِ تعنّتُ
فنشربَ مِنْ ماءِ الفُراتِ بِسَيْفِهِ ... فَهَبْنَا أُناساً قَبْلَ ذاك فموّتوا
فإنْ أنتَ لم تجمَعْ لَنَا اليومَ أمْرَنَا ... وتَنْضُ التي فيهَا عَلَيْكَ المَذَلَّةُ
فَمنْ ذَا الَّذي تُثْنَى الخناصِرُ باسْمِهِ ... سِوَاكَ وَمَنْ هذا إليه التَّلَفُّتُ!
وَهَلْ مِنْ بقاءٍ بَعْدَ يوم وَلَيْلَةٍ ... نَظَلّ خُفوتاً وَالْعَدُوّ يُصَوِّتُ!
هَلُمّوا إلى مَاءِ الفُرَاتِ وَدُونَهُ ... صُدُورُ الْعَوَالي وَالصَّفيحُ المشتّتُ
وَأَنْتَ امرؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ يمنيَّةٍ ... وكلّ امرئٍ من سِنْخِهِ حِين يَنْبُتُ(٢)

قال: فلما سمع الأشعث قولَ الرجل، قام فأتى علياً عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أيمنعُنا القوم ماءَ الفُرات وأنت فينا، والسيوفُ في أيدينا! خلِّ عنّا وعن القوم، فوالله لا نرجعُ حتى نرِدَه أو نموت، وَمُرِ الأشترَ فليعلُ بخيله، ويقفَ حيث تأمره. فقال عليّ عليه السلام: ذلك إليكم.

فَرَجَعَ الأشعثُ فنادَى في النّاس: مَنْ كان يريد الماء أو الموت فميعاده موضع كذا، فإنّي

---

(١) بزل: بزل البعير فطرنا به أي انشق وذلك في السنة التاسعة، اللسان مادة (بزل)، الذميل: ضرب من سير الإبل وقيل هو السير اللين، اللسان، مادة (ذمل)، القطف: ضرب من مشي الخيل، والقطاف تقارب الخطو في سرعة، من القطف وهو القطع، اللسان، مادة (قطف).
(٢) السنخ: الأصل من كل شيء، اللسان العرب، مادة (سنخ).

ناهض. فأتاه اثنا عشر ألفاً من كِنْدة وأفناءِ قحْطان، واضعي سيوفهم على عواتقهم، فشدّ عليه سلاحه ونهضَ بهم، حتّى كاد يخالط أهل الشام، وجعل يُلْقي رمحه، ويقول لأصحابه: بأبي وأمّي أنتم! تقدموا إليهم قَابَ رُمْحِي هذا. فلم يزل ذلك دأبَه حتى خالط القوم، وحسر عن رأسه، ونادى: أنا الأشعث بن قيس! خَلُّوا عن الماء. فنادى أبو الأعور: أما والله حتى لا تأخذَنا وإياكم السيوفُ. فقال الأشعث: قد والله أظنّها دَنَتْ منّا ومنك. وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره عليّ، فبعث إليه الأشعث: أقحِم الخيلَ، فأقحمَها حتى وضعت سنابِكَها في الفرات، وأخذت أهلَ الشام السيوف، فولوا مدبرين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شِمْر، عن جابر، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن، قال: فنادى الأشعث عَمْرو بن العاص، فقال: ويحك يا بنَ العاص! خَلِّ بيننا وبين الماء، فوالله لئن لم تفعل لتأخذُنا وإياكم السيوف. فقال عمرو: والله لا نخلّي عنه حتى تأخذَنا السيوف وإياكم، فيعلَم ربُّنا أيّنا أصبرُ اليوم. فترجّل الأشعث والأشتر، وذَوُو البصائر من أصحاب عليّ عليه السلام، وترجَّل معهما اثنا عشر ألفاً، فحملوا على عمرو وأبي الأعور ومَنْ معهما من أهلِ الشام، فأزالوهم عن الماء، حتى غمست خيلُ عليّ عليه السلام سنابكَها في الماء.

قال نصر: فروى عمر بن سعد أنّ عليًا عليه السلام قال ذلك اليوم: هذا يوم نصرتم فيه بالحمِيّة.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: سمعت تميماً الناجيّ يقول: سمعت الأشعث يقول: حال عمرو بن العاص بيننا وبين الفُرات، فقلت له: ويحَك يا عمرو! أما والله إن كنتُ لأظنّ لك رأياً، فإذا أنت لا عَقْل لك. أتُرانا نخلّيك والماء، تَرِبَتْ يداك! أما علمْتَ أنّا معشر عرب ثكلتْك أمُّك وهبلتك! لقد رُمتَ أمراً عظيماً. فقال لي عمرو: أم والله لتعلَمنّ اليومَ أنّا سَنَفي بالعهد، ونُحْكِم العَقْد، ونلقاكم بصبرٍ وجِدّ. فنادى به الأشتَر: يا بنَ العاص، أمَا والله لقد نزلْنا هذه الفُرْضة، وإنا لنريد القتال على البصائر والدين، وما قِتالُنا سائر اليوم إلّا حميّة.

ثم كبَّر الأشتر وكبّرنا معه وحَمَلْنا، فما ثار الغُبار حتى انهزم أهل الشام.

قالوا: فَلقِيَ عَمْرو بن العاص بعد انقضاء صِفين الأشعث، فقال له: يا أخا كِنْدَة، أما والله لقد أبصرت صواب قولك يوم الماء، ولكن كُنْتَ مقهوراً على ذلك الرأي، فكابرتُك بالتهدّد والوعيد، والحرب خُدْعة.

قال نصر: ولقد كان من رأي عَمْرو التَّخلِيَةُ بين أهل العراق والماء. ورجع معاوية بأُخَرة إلى قوله بعد اختلاط القوم في الحرب، فإن عَمْراً - فيما روينا - أرسل إلى معاوية: أنْ خَلِّ بين

القوم وبين الماء، أترى القوم يموتون عطشاً وهم ينظرون إلى الماء! فأرسل معاوية إلى يزيد بن أسد القسريّ: أن خَلِّ بين القوم وبين الماء يا أبا عبد الله، فقال يزيد - وكان شديدَ العثمانية -: كَلّا والله لنقتلنّهم عطشاً كما قتلوا أمير المؤمنين.

قال: فحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: خطب عليٌّ عليه السلام يوم الماء فقال: «أمّا بعد، فإنّ القوم قد بَدَؤُوكم وفاتحوكم بالبغي، واستقبلوكم بالعدوان، وقد استطعموكم القتال حيث منعوكم الماء، فأقِرّوا على مذلّة وتأخير مهلة. . . . .»، الفصل إلى آخره.

قال نصر: وكان قد بلغَ أهلَ الشام أنّ علياً عليه السلام جعل للناس إن فتح الشام أن يَقْسِم بينهم التبر والذهب - وهمَا الأحمران - وأنْ يعطِيَ كلاً منهم خمسمائة كما أعطاهم بالبصرة، فنادى ذلك اليوم منادي أهل الشام: يا أهل العراق، لماذا نزلتم بعَجَاج من الأرض؟ نحن أزْدُ شَنُوءة لا أزْدُ عمان، يا أهل العراق:

لا خَـمْـسَ إلا جَـنْـدلُ الأحـرِّيـن   والـخـمـسُ قَـدْ تُـجـشِّـمُـكَ الأمَـرِّيْـن

قال نصر: فحدّثني عمرو بن شمر، عن إسماعيل السّديّ، عن بكر بن تغلب، قال: حدّثني مَن سَمع الأشعث يوم الفُرات - وقد كان له غَنَاء عظيم مِنْ أهل العراق، وقَتَل رجالاً من أهل الشام بيده، وهو يقول: واللّهِ إنْ كُنتُ لَكارِهاً قتال أهلِ الصلاة، ولكن معي مَنْ هو أقْدَمُ منّي في الإسلام، وأعلم بالكتاب والسّنة، فهو الّذي يَسْخَى بنفسه.

قال نصر: وحمل ظَبْيان بن عُمارة التميميّ على أهل الشام، وهو يقول:

هَـلْ لَـكَ يـا ظَـبْـيَـانُ مِـنْ بَـقَـاءِ   فـي سَـاكِـنـي الأرْضِ بِـغَـيْـرِ مـاءِ!

لَا وإلٰـــهِ الأرْضِ والـــسّـــمـــاءِ   فـاضْـرِبْ وُجُـوه الـغُـدُرِ الأعـداءِ

بـالـسَّـيْـف عِـنْـدَ حَـمَـسِ الـهـيْـجَـاءِ   حَـتـى يـجـيـبُـوك إلـى الـسَّـوَاءِ

قال: فَضَرَبَهُمْ والله حتى خَلّوْا له الماء.

قال نصر: ودعا الأشتر بالحارث بن همام النَّخعيّ، ثم الصُّهبانيّ، فأعطاه لواءه، وقال له: يا حارث، لولا أني أعلم أنّك تصبر عند الموت لأخذت لوائي منك، ولم أحْبُك بكرامتي، فقال: والله يا مالك لأسُرّنّك أو لأموتَنّ، فاتّبِعْني. ثمّ تقدّم باللواء وارتجز، فقال:

يَا أخَا الـخَيْراتِ يا خيْرَ النَّخَعْ   وَصَاحِبَ النَّصْر إذا عَمّ الفَزَعْ
وكاشِفَ الخَطْبِ إذا الأمرُ وَقَعْ   ما أنتَ في الحرْبِ العَوانِ بالجَذَعْ
قد جَزِعَ القومُ وعُمّوا بالجَزَعْ   وجُرِّعُوا الغيظ وغَصُّوا بالجُرَعْ
إنْ تَسقنا الماء فليست بالبِدَعْ   أو نعطش اليوم فجُند مُقتَطَعْ
مَا شِئتَ خُذْ مِنها وَمَا شِئتَ فَدَعْ

فقال الأشتر: اذنُ منّي يا حارث، فدنا منه فَقَبّل رأسه، فقال: لا يتبَعْ رأسَه اليومَ إلّا خَيْرٌ، ثم صاح الأشتر في أصحابه: فدتكُمْ نَفْسي، اشُدّوا شِدّة المحرَج الرّاجي للفرَج، فإذا نالتْكم الرماح فالتووا فيها، فإذا عضتْكُم السيوف فليعضّ الرجُلُ على نواجذه، فإنّه أشدّ لشؤون الرأس، ثم استقبْلُوا القوْمَ بِهَامِكم.

قال: وكان الأشتر يومئذٍ على فَرَس له مَحْذوف أدهم، كأنه حَلَك الغُراب، وقتل بيده مِنْ أهل الشام من فرسانهم وصناديدهم سبعة: صالح بن فيروز العكّيّ، ومالك بن أدهم السَّلْمانيّ، ورياح بن عَتِيك الغسانيّ، والأجلح بن منصور الكِنْديّ - وكان فارس أهل الشام - وإبراهيم بن وضّاح الجُمحِيّ، وزامل بن عبيد الحزاميّ، ومحمد بن روضة الجمحيّ.

قال نصر: فأول قتيل قتله الأشتر بيده ذلك اليوم صالح بن فيروز، ارتجز على الأشتر وقال له:

يا صَاحِبَ الطِّرْفِ الحصان الأدْهَمِ   أقدِمْ إذا شئت علَينا أقْدِمِ
أنا ابنُ ذي العِزّ وذِي التَّكَرّمِ   سَيّدُ عَكٍّ كُلّ عَكٍّ فاعلمِ

قال: وكان صالح مشهوراً بالشّدة والبأس، فارتجز عليه الأشتر، فقال له:

أنا ابنُ خير مَذْحِجٍ مركبَا   وخَيرُها نَفساً وأمّاً وأبَا
آليتُ لا أرجعُ حتى أضرِبَا   بسيفيَ المصقولِ ضَرباً مُعْجِبا

ثم شدّ عليه فقتله، فخرج إليه مالك بن أدهم السّلمانيّ - وهو من مشهوريهم أيضاً - فحمَلَ على الأشتر بالرمح، فلما رَهَقَه التوى الأشتر على فرسه ومارَ السنان فأخطأه، ثم استوى على فرسه، وشدّ على الشاميّ فقتله طعْناً بالرمح، ثم قتل بعده رياح بن عقيل وإبراهيم بن وضاح، ثم برز إليه زامل بن عَقِيل - وكان فارساً - فطعن الأشتر في موضع الجَوْشن[1] فصرَعه عن فرسه، ولم يصب مقتلاً، وشدّ عليه الأشتر بالسيف راجلاً فكشف قوائم فرسه، وارتجز عليه فقال:

---

(١) الجوشن: الصدر، وقال الجوهري الجوشن الدرع. اللسان، مادة (جشن).

لَا بُدّ مِنْ قتلي أو مِنْ قَتْلِكَا قتلتُ منكم أرْبَعاً من قبلكا
كلّهم كانُوا حُمَاةً مِثْلَكَا

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله، ثم خرج إليه محمد بن روضة، فقال وهو يضرب في أهل العراق ضَرْباً منكراً:

يَا سَاكِنِي الكُوفةِ يا أهْلَ الفتَنْ يا قاتِلي عُثْمانَ ذَاكَ المُؤْتَمَنْ
أورث قلبي قتلُه طُولَ الحَزَنْ أضربُكم وَلَا أرَى أبا حَسَنْ!

فشدّ عليه الأشتر فقتله، وقال:

لا يبعِد اللهُ سِوَى عُثْمَانَا وَأنْزَلَ الله بِكُمْ هَوَانَا
وَلَا يُسَلّي عَنْكُمْ الأحْزَانَا

ثم برز إليه الأجلح بن منصور الكِنديّ - وكان من شجعان العرب وفُرسانها - وهو على فرَس له اسمه لاحق، فلما استقبله الأشتر، كره لقاءه واستحيا أن يرجعَ عنه، فتضاربا بسيفيهما، فسبقه الأشتر بالضَّرْبة فقتله، فقالت أخته ترثيه:

ألا فابْكِي أخا ثِقَةٍ فقَدْ والله أبْكِينَا
لِقتلِ الْمَاجد القَمْقَا م لا مِثْلَ له فينا[1]
أتانَا اليومَ مقتلُه فقد جُزّتْ نَوَاصِينَا
كريمٌ الجِدُ الجَدّيْـ ـنِ يَشْفِي مِنْ أعادِينَا
شفانا الله من أهل الـ ـعراقِ فقد أبادُونَا
أمَا يخشَوْنَ رَبَّهُمُ ولَمْ يرعَوْا له دِينا!

قال: وبلَغ شعرُها عليًا عليه السلام، فقال: أما إنهُنَّ ليس بمَلْكهنّ ما رأيتم من الجزَع، أما إنهم قد أضرُّوا بنسائهم، فتركوهنّ أيامَى حَزَانى بائسات. قاتل الله معاوية! اللهم حَمّله آثامهم وأوْزَاراً وأثقالاً مع أثقاله! اللهم لا تعفُ عنه!.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبيّ، عن الحارث بن أدهم، وعن صعصعة، قال: أقبل الأشترُ يوم الماء، فضرب بسيفه جمهورَ أهل الشام حتى كشفهم عن الماء، وهو يقول:

---

(١) القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. اللسان، مادة (قمم).

لَا تَـذْكُـروا مَـا قَـدْ مَـضَـى وَفَـاتَـا وَالـلّـهِ رَبِّـي الـبـاعـثِ الأمْـوَاتَـا
مِـنْ بَـعْـدِ مـا صـاروا كَـذَا رُفَـاتَـا لأورِدَنّ خَـيْـلِـيَ الـفُـراتَـا
شُـعْـثَ الـنَّـواصِـي أو يـقـالَ مـاتـا

قال: وكان لواء الأشعث بن قيس مع معاوية بن الحارث، فقال له الأشعث: لله أبوك، ليست النَّخَع بخيرٍ مِنْ كِنْدة، قَدِّم لواءك فإنّ الحظّ لمن سبق. فتقدم لواء الأشعث، وحملت الرجال بعضُها على بعض، وحمل في ذلك اليوم أبو الأعور السلميّ، وحمل الأشترُ عليه، فلم ينتصف أحدُهما من صاحبه، وحمل شُرحبيل بن السِّمْط على الأشعث، فكانا كذلك، وحمل حَوْشب ذو ظليم على الأشعث أيضاً، وانفصلا ولم ينلْ أحدهما من صاحبه أمراً، فما زالوا كذلك حتى انكشفَ أهلُ الشام عن الماء، وملك أهلُ العراق المشرَعة.

قال نصر: فحدّثنا محمد بن عبد الله، عن الجرجاني، قال: قال عمرو بن العاص لمعاوية لما ملك أهلُ العراق الماء، ما ظنّك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتَهم أمس! أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه! ما أغنى عنك أن تكشِف لهم السوءة. فقال معاوية: دع عنك ما مضى، فما ظنّك بعليّ؟ قال: ظني أنه لا يستحلّ منك ما استحللت منه، وأنّ الذي جاء له غير الماء. قال: فقال له معاوية قولاً أغضبه، فقال عمر:

أمـرتُـك أمـراً فَـسَـخَّـفْـتَـهُ وخـالـفـنـي ابـن أبـي سَـرْحَـة
وأغـمـضـتَ فـي الـرّأيِ إغـمـاضـةً ولـم تَـرَ فـي الـحـرب كـالـفُـسْـحَـة
فـكـيـفَ رأيـت كِـبـاشَ الـعِـرَاقِ ألـم يـنـطـحُـوا جَـمْـعَـنَـا نـطْـحَـة!
فـإن يـنـطـحـونـا غـداً مـثـلـهـا نَـكُـنْ كـالـزبـيـريّ أو طـلْـحَـة
أظـنُّ لـهـا الـيـومَ مـا بـعـدَهـا ومـيـعـاد مـا بـيـنـنـا صُـبْـحَـة
وإن أخـروهـا لِـمَـا بَـعْـدَهـا فـقـد قَـدَّمُـوا الـخُـبـطَ والـنَّـفْـحَـة
وقـد شـرب الـقـومُ مـاء الـفـراتِ وَقَـلَّـدَكَ الأشـتـر الْـفَـضْـحَـة

قال نصر: فقال أصحاب عليٍّ عليه السلام له: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك. فقال: لا، خلّوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون، سنعرض عليهم كتابَ الله، وندعوهم إلى الهدى، فإن أجابوا وإلا ففي حَدِّ السيف ما يغني إن شاء الله.

قال: فوالله ما أمسى الناس حتى رأوا سُقاتهم وسقاةَ أهل الشام وَرواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء، ما يؤذي إنسانٌ إنساناً(١).

---

(١) انظر بحار الأنوار للمجلسي: ٣٢/ ٤٤٣.

٥٢ - ومن خطبة له عليه السلام، وقد تقدم مختارها برواية، ونذكر ما نذكره هنا برواية أخرى، لتغاير الروايتين

الأصل: أَلَا وَإِنَّ ٱلدُّنْيَا قَدْ تَصَرَّمَتْ وَآذَنَتْ بِانْقِضَاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَدْبَرَتْ حَذَّاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سُكَّانَهَا، وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا، وَقَدْ أَمَرَّ فِيهَا مَا كَانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلا سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ ٱلإِدَاوَةِ، أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ المَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَها الصَّدْيَانُ لَمْ يَنْقَعْ. فَأَزْمِعُوا عِبَادَ ٱللّهِ الرَّحِيلَ عَنْ هَذِهِ الدَّار المَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهَا ٱلزَّوَال، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا ٱلأَمَلِ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا ٱلأَمَدُ. فَوَاللّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الوُلَّهِ العِجَال، وَدَعَوْتُم بِهَدِيلِ ٱلْحَمَام، وَجَأَرْتُم جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَان، وَخَرَجْتُمْ إِلَى ٱللّهِ مِنَ ٱلأَمْوَالِ وَٱلأَوْلَادِ، التِمَاسَ القُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجةٍ عِنْدَهُ، أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُه، وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلاً فِيما أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ، وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ. وَبِاللّهِ لَوْ ٱنْمَاثَتْ قُلُوبُكُمْ ٱنْمِياثاً، وَسَالَتْ عُيونُكُمْ - مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ - دَماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي ٱلدُّنْيَا - مَا ٱلدُّنْيَا بَاقِيَةٌ - مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ - وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعُمَهُ عَلَيْكُم العِظَامِ، وَهُدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلإِيمَان.

الشرح: تصرّمت: انقطعت وفنيت، وآذنت بانقضاء: أعلَمت بذلك، آذنته بكذا، أي أعلمته.

وتنكّر معروفها: جُهِل منها ما كان معروفاً.

والحذّاء: السريعة الذهاب، ورحِم حذاء: مقطوعة غير موصولة. ومن رواه «جذّاء» بالجيم، أراد منقطعة الدَّرّ والخير.

وتحفز بالفناء سكانها: تُعجلهم وتسوقهم. وأمَرّ الشيء: صار مُرًّا. وكدر الماء، بكسر الدال، ويجوز كَدُر بضمها. والمصدر من الأوّل كَدَراً، ومن الثاني كُدُورة.

والسَّملة، بفتح الميم: البقيّة من الماء تَبقى في الإناء.

والمَقْلة، بفتح الميم وتسكين القاف: حصاة القَسْم التي تلقى في الماء ليعرف قَدْر ما يُسقى كلّ واحد منهم، وذلك عند قلة الماء في المفاوز، قال:

قَذَفُوا سَيِّدَهُمْ في ورطةٍ ... قَذْفَكَ المَقْلَةَ وَسْطَ المعتَرَكْ

والتمزّز: تمصّص الشراب قليلاً قليلاً. والصديان: العطشان.

ولم ينقع: لم يَرْوِ، وهذا يمكنُ أن يكونَ لازماً، ويمكن أن يكون متعدِّياً، تقول: نقع الرجل بالماء، أي روى وشفى غليله، ينقع. ونقع الماء الصدىَ ينقع، أي سكّنه.

فأزمعوا الرحيل، أي اعزموا عليه، يقال: أزمعت الأمر، ولا يجوز أزمعت على الأمر، وأجازه الفرّاء.

قوله: «المقدور على أهلها الزوال»، أي المكتوب، قال:

واعْــلــم بــأنّ ذَا الــجــلال قــد قَــدَرْ   في الـصـحـف الأولـى الـذي كـان سُـطِـرْ

أي كتب. والوُلّه العجال: النُّوق الوالهة الفاقدة أولادَها، الواحدة عَجُول، والوَلَه: ذهاب العقل وفُقد التمييز.

وهدِيل الحمام: صوت نوحه. والجؤار: صوت مرتفع، والمتبتِّل: المنقطع عن الدنيا. وانماث القلب، أي ذاب. وقوله: «ولو لم تبقوا شيئاً من جُهْدكم» اعتراض في الكلام.

وأنعمه، منصوب؛ لأنه مفعول «جزت».

وفي هذا الكلام تلويح وإشارة إلى مذهب البغداديّين من أصحابنا في أنّ الثواب على فعل الطاعة غير واجب، لأنه شكر النعمة، فلا يقتضي وجوبَ ثواب آخر، وهو قوله عليه السلام: «لو انماثت قلوبكم انمياثاً. . . .»، إلى آخر الفصل.

وأصحابنا البصريون لا يذهبون إلى ذلك، بل يقولون: إنّ الثواب واجب على الحكيم سبحانه لأنه قد كلّفنا ما يشقّ علينا، وتكليف المشاقّ كإنزال المشاقّ، فكما اقتضت الآلام والمشاقّ النازلة بنا من جهته سبحانه أعواضاً مستحقّة عليه تعالى عن إنزالها بنا؛ كذلك تقتضي التكليفات الشاقة ثواباً مستحَقًّا عليه تعالى عن إلزامه إيانا بها، قالوا: فأما ما سلف من نعمه علينا فهو تفضُّل منه تعالى، ولا يجوز في الحكمة أن يتفضّل الحكيم على غيره بأمر من الأمور ثم يُلزمه أفعالاً شاقة ويجعلها بإزاء ذلك التفضُّل، إلا إذا كان في تلك الأمور منافع عائدة على ذلك الحكيم، فكان ما سلَف من المنافع جارياً مجرى الأجرة، كمن يدفع درهماً إلى إنسان ليَخيط له ثوباً، والباريء تعالى منزَّه عن المنافع، ونعمه علينا منزهة أن تجري مجرى الأجرة على تكليفنا المشاقّ.

وأيضاً فقد يتساوى اثنان من الناس في النعم المنعَم بها عليهما، ويختلفان في التكاليف، فلو كان التكليف لأجل ما مضى من النعم لوجب أن يقدر بحسبها. فإن قيل: فعلَى ماذا يُحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه إشارة إلى مذهب البغداديين؟.

قيل: إنه عليه السلام لم يصرح بمذهب البغداديين، ولكنه قال: لو عبدتموه بأقصى ما ينتهي

الجُهْد إليه ما وّفيتم بشكر أنعمه، وهذا حقٌّ غيرُ مختلف فيه، لأنّ نعم الباريء تعالى لا تقوم العباد بشكرها، وإن بالغوا في عبادته والخضوع له والإخلاص في طاعته، ولا يقتضي صدق هذه القضية وصحتها صحةَ مذهب البغدادين في أنّ الثواب على الله تعالى غيرُ واجب، لأنّ التكليف إنما كان باعتبار أنه شكر النعمة السالفة.

أشعار في ذم الدنيا

فأما ما قاله الناس في ذمّ الدنيا وغرورها وحوادثها وخطوبها وتنكّرها لأهلها، والشكوى منها، والعتاب لها والموعظة بها، وتصرمها وتقلّبها فكثير، من ذلك قول بعضهم:

هيَ الدّنْيَا تَقُولُ بملءِ فِيهَا ... حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فلا يغرركُمُ حُسْنِ ابتسامي ... فَقَوْلِي مُضْحِكٌ والفعل مُبْكِ

وقال آخر:

تنحَّ عَنِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْلُبَنّها ... وَلَا تَخْطُبَنْ قتّالةً مَنْ تُنَاكِحُ
فَلَيْسَ يَفِي مَرْجُوُّهَا بِمَخُوفِها ... وَمَكْرُوهُهَا إمّا تأمّلْتَ راجِحُ
لَقَدْ قال فيها القائلون فأكْثَرُوا ... وَعِنْدِي لها وصفٌ لعَمْرُك صَالِحُ
سُلافٌ، قُصَاراها ذُعَافٌ، ومركبٌ ... شهيّ إذا استلذذته فهو جَامِحُ[1]
وَشَخصٌ جَمِيلٌ يُعْجِبُ النَّاسَ حُسْنُه ... ولكنْ له أفعالُ سُوء قبائح

وقال أبو الطيّب:

أبداً تَسْتَرِدُّ ما تَهَبُ الدُّنْيَا ... فَيَا لَيْتَ جُودَها كَانَ بُخْلَا
وَهِي مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَا ... تَحْفَظُ عَهْداً ولا تتمّم وَصْلَا
كلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْها عَلَيْهَا ... وبفكِّ اليدَيْنِ عَنْهَا تُخَلّى
شِيَمُ الغانِيَات فِيها ولا أدْ ... رِي لذا أنّثَ اسمَها الناس أم لا!

وقال آخر:

إنّما الدّنيا عَوَارٍ ... والعواري مُسْتَرَدّة
شدّة بعد رَخَاءٍ ... ورخاء بعد شِدّه

وقال محمد بن هانيء المغربيّ:

وَمَا النَّاسُ إلّا ظَاعِنٌ فَمُوَدِّعٌ ... وثاوٍ قريح الجفْنِ يَبْكِي لِرَاحِلِ

(١) الذعاف: السُّم. القاموس المحيط، مادة (ذعف).

فما الدهر إلا كالزمان الّذي مَضَى ... ولا نحنُ إلا كالقرُون الأوائل
نُسَاقُ من الدُّنيا إلى غير دائم ... ونبكي من الدنيَا على غيرِ طائلِ
فما عاجلٌ نرجوه إلّا كآجلٍ ... ولا آجلٌ نَخْشاهُ إلا كعاجلِ

قال ابن المظفّر المغربيّ:

دُنْيَاكَ دَارُ غُرورٍ ... ونعمة مستعارَهْ
ودَارُ أكْلٍ وَشُرْبٍ ... وَمَكْسَبٍ وَتِجَارَهْ
ورأس مالك نَفْسٌ ... فخف عليها الخسارهْ
ولا تَبِعْهَا بأكلٍ ... وطيب عَرْفٍ وشَارَهْ
فإن مُلْكَ سليما ... ن لا يفي بشَرارَهْ

وقال أبو العتاهية:

ألا إنّما التقوى هِيَ البرُّ والكَرَمْ ... وَحُبُّكَ للدُّنيا هو الْفَقْرُ والعَدَمْ
وَليس عَلَى عَبْد تَقِيٍّ غضاضَةٌ ... إذا صَحَّح التَّقْوى وإن حاك أو حَجَمْ

وقال أيضاً:

تَعلّقتَ بآمالٍ ... طوالٍ أيِّ آمالِ
وأقبلتَ على الدُّنْيَا ... مُلِحّاً أيَّ إقبالِ
أيا هَذَا تَجَهَّزْ لِـ ... فِراقِ الأهل والمال
فلا بدَّ مِنَ المَوْتِ ... عَلَى حالٍ مِنَ الحالِ

وقال أيضاً:

سَكَنٌ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ ... مَا بِهذَا يُؤذِنُ الزَّمَنُ!
نَحْنُ في دارٍ يُخَبِّرنا ... ببلاها ناطقٌ لَسِنُ
دَارُ سُوءٍ لم يدم فَرَحٌ ... لامرئٍ فيهَا وَلَا حَزَنُ
في سبيل الله أنفُسُنَا ... كُلّنا بالموتِ مُرْتَهَنُ
كلّ نفسٍ عِنْدَ مَوْتَتها ... حَظُّها مِنْ مالِها الكَفَنُ
إنّ مالَ المرء ليس له ... مِنْهُ إلا ذِكْرُهُ الحسنُ

وقال أيضاً:

ألَا إنَّنا كُلّنا بائِدُ ... وأيّ بني آدم خَالِدُ!

وَبَـدْؤُهُـمُ كَـانَ مِـنْ رَبِّـهِـمْ ... وَكُـلٌّ إلـى رَبِّـهِ عَـائِـدُ
فـواعـجـبًـا كـيـف يَـعْـصِـي الإلــ ... ـهَ أمْ كـيـف يَـجْـحَـدُهُ الـجـاحِـدُ
وفـي كـلّ شـيء لـه آيـةٌ ... تَـدُلّ عـلـى أنّـه الـواحِـدُ

وقال الرضي المُوسويّ:

يـا آمـنَ الأيـام بـادِرْ صَـرْفَـهَـا ... واعـلَـمْ بـأنّ الـطّـالِـبِـيـنَ حِـثـاثُ
خُذْ مِنْ تُراثِكَ مَا اسْتَطَعْتَ فإنَّمَا ... شُـرَكَـاؤكَ الأيـامُ والـوُرَّاثُ
لَـمْ يَـقْـضِ حَـقَّ الـمَـالِ إلّا مَـعْـشَـرٌ ... نَـظَـرُوا الـزَّمَـانَ يـعِـيـثُ فـيـه فَـعَـاثُـوا
تَـحـثـو عـلـى عَـيْـبِ الـغَـنـيِّ يَـدُ الـغِـنَـى ... وَالْـفـقْـرُ عَـنْ عَـيْـبِ الْـفَـتَـى بَـحَّـاثُ
الـمَـالُ مَـالُ الْـمَـرْءِ مـا بـلـغـت بـه ... الـشَّـهَـوَاتُ أو دُفِـعَـتْ بـه الأحـداثُ
مَـا كَـانَ مِـنْـهُ فَـاضِـلاً عَـنْ قُـوتِـهِ ... فـلـيـعـلـمـنّ بـأنّـه مِـيـرَاثُ
مـالـي إلـى الـدنـيـا الـدنّـيـة حـاجـةٌ ... فَـلْـيَـجْـنِ سـاحـرَ كـيـدهـا الـنَّـفَّـاثُ
طَـلَّـقْـتُـهـا ألْـفـاً لأحْـسِـمَ دَاءهـا ... وطـلاقُ مَـنْ عَـزَمَ الـطّـلَاقَ ثَـلَاثُ
وَثَـبَـاتُـهَـا مَـرْهُـوبَـةٌ، وَعِـدَاتُـهَـا ... مَـكْـذُوبَـةٌ، وحـبـالـهـا أنـكـاثُ
أمّ الـمـصـائـب لا تـزال تَـرُوعُـنَـا ... مِـنْـهَـا ذُكُـورُ حَـوادِثٍ وإنـاثُ
إنـي لأعـجـب لـلـذيـن تـمـسـكـوا ... بـحـبـائـل الـدنـيـا وهـن رثـاث
كـنـزوا الـكُـنـوز وأعـقـلـوا شـهـواتِـهـم ... فـالأرضُ تَـشْـبَـعُ والـبـطـونُ غِـرَاثُ
أتُـراهُـمُ لَـمْ يَـعْـلَـمُـوا أنّ الـتـقـى ... أزْوَادُنـا، وديـارنـا الأجْـدَاثُ!

وقال آخر:

هـذِهِ الـدنـيـا إذا صَـرَفَـتْ ... وَجْـهَـهـا لـم تـنـفـع الـحِـيَـلُ
وإذا مـا أقْـبَـلَـتْ لِـعَـمٍ ... بَـصَّـرَتْـهُ كَـيْـفَ يـفـتـعِـلُ
وإذا مـا أدْبَـرَتْ لِـذكِـي ... غَـابَ عَـنْـهُ الـسّـهْـلُ والـجـبَـلُ
فَـهْـيَ كـالـدُّولابِ دَائِـرَةٌ ... تَـرْتَـقِـي طَـوْراً وَتَـسْـتَـفِـلُ
فِـي زَمَـانٍ صَـارَ ثَـعْـلَـبُـهُ ... أسَـداً وَاسْـتَـذْأبَ الْـحَـمَـلُ
فـالـذُّنـابَـى فـيـه نـاصـيـةٌ ... والـنَّـواصِـي خُـشَّـعٌ ذُلُـلُ
فـاصْـبِـرِي يَـا نَـفْـسُ واحْـتَـمِـلِي ... إنّ نَـفْـسَ الـحـرّ تَـحْـتَـمِـلُ

وقال أبو الطيب:

نُـعِـدُّ الـمـشْـرَفـيَّـةَ والْـعَـوالِـي ... وتَـقْـتُـلُـنَـا الْـمَـنُـونُ بِـلا قِـتَـالِ

وَنَرْتَبِطُ ٱلسَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ ... وَما يُنجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ ٱلدُّنْيا قديماً ... وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إلى الْوِصَالِ!
نصيبُك في حياتك مِن حَبيبٍ ... نَصِيبُكَ في منامك مِنْ خيالِ
رَمَانِي الدَّهْرُ بالأرزاء حَتّى ... فُؤادِي في غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إذَا أصَابَتْنِي سِهَامٌ ... تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ
وَهَانَ فَمَا أبالي بالرَّزَايا ... لأنّي مَا ٱنْتَفَعْتُ بِأنْ أبَالِي
يُدَفَّنُ بَعْضُنَا بَعْضاً وَيَمْشِي ... أواخِرُنا عَلَى هَامِ الأوَالِي
وَكَمْ عَيْنٍ مُقَبَّلَةِ النَّواحِي ... كَحِيلٍ في الجنادلِ والرمالِ
وَمُغْضٍ كانَ لا يُغْضِي لخطبٍ ... وبالٍ كان يُفكِرُ في الهُزَالِ

وقال أبو العتاهية في أرجوزته المشهورة في ذم الدنيا وفيها أنواع مختلفة من الحكمة:

مَا زَالَتِ الدُّنْيَا لَنَا دَارَ أذَى ... ممزوجَةَ الصَّفْو بألْوانِ الْقَذَى
الخيرُ والشَّرُّ بِهَا أزْوَاجُ ... لِذَا نِتَاجٌ، ولذا نِتَاجُ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ ولَيْسَ مَحْضُ ... يَخْبُثُ بَعْضٌ ويَطِيبُ بَعْضُ
لِكُلِّ إنسانٍ طَبِيعَتَانِ ... خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ
والخيرُ والشَّرُّ إذا ما عُدّا ... بينهما بَونٌ بعيدٌ جِدّا
إنك لو تستنشق الشَّحِيحَا ... وجدته أنتن شيءٍ رِيحَا
حَسْبُك مِمَّا تَبْتَغِيهِ ٱلْقُوتُ ... مَا أكْثَرَ ٱلْقُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ!!
ٱلْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ ٱلْكَفَافَا ... مَنِ ٱتَّقَى ٱللّٰهُ رَجَا وخَافَا
هِيَ ٱلْمَقَادِيرُ فَلُمْنِي أوْ فَذَرْ ... إنْ كنتُ أخْطَأتُ فَمَا أخطا ٱلْقَدَرْ
لكلِّ ما يؤذِي وإنْ قلَّ ألَمْ ... ما أطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنَمْ!
ما انتفعَ المرءُ بمثلِ عَقْلِهِ ... وَخَيْرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فِعلِهِ
إنّ الفسادَ ضِدُّهُ الصلاحُ ... وربّ جِدٍّ جَرَّهُ المُزاحُ
مَنْ جَعَلَ النَّمام عَيْناً هَلَكَا ... مُبْلِغك الشرّ كباغِيهِ لَكَا
إنّ الشَّبَابَ وَٱلْفَرَاغَ وٱلجِدَهْ ... مَفْسَدَةٌ للمرء أيّ مَفْسَدَهْ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ ... قَدْ يُوهِنُ الرَّأيَ الأصيلَ شَكُّهُ
مَا عَيْشُ مَنْ آفَتُه بَقَاهُ ... نَغَّصَ عَيْشاً نَاعِماً فَنَاهُ

يَا رُبَّ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجُهْدِهِ ... قَدْ سَرَّنَا ٱللَّهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَلَا تَغِيبُ ... إِلَّا لأمْرٍ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لِكُلِّ شيءٍ قَدَرٌ وَجَوْهَرُ ... وَأَوْسَطٌ وَأَصْغَرٌ وَأَكْبَرُ
وَكُل شيء لاحقٌ بجوهرِهِ ... أصغَرُه متَّصِل بأكبَرِهِ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلٌّ مُمْتَزِجْ ... وَسَاوِسٌ فِي ٱلصَّدْرِ مِنْكَ تَعْتَلِجْ
عجِبتُ واستغرقني السُّكُوتُ ... حَتَّى كأنِّي حائرٌ مَبْهُوتُ
إذا قَضَى الله فكيف أَصْنَعُ ... والصَّمْتُ إن ضاق الكلامُ أوْسَعُ

وقال أيضاً:

كلٌّ عَلَى الدُّنْيَا لَهُ حِرْصُ ... والحادِثاتُ لَنَا بِهَا قَرْصُ
وكأنَّ مَنْ وارَوْه في جَدَثٍ ... لم يَبْدُ مِنْهُ لنَاظِرٍ شَخْصُ
يَهْوَى مِن الدّنيا زيادتَهَا ... وزيادةُ الدُّنيا هِي النَّقْصُ
لِيَدِ ٱلْمَنِيّة في تَلَطّفها ... عَنْ ذُخْرِ كلِّ نَفِيسةٍ فَحْصُ

وقال أيضاً:

أبْلَغَ الدَّهْرُ فِي مواعظِه بَلْ ... زادَ فِيهِنَّ لِي من الإبْلَاغِ
أيّ عَيْشٍ يكونُ أطيبَ من عيشٍ ... كَفاف قوتٍ بقَدْرِ الْبَلَاغِ
غصبتنيَ الأيّام أهْلِي ومالي ... وشبابي وصحتي وفَرَاغي
صَاحِبُ الْبَغْيِ لَيْس يَسْلَمُ مِنْهُ ... وَعَلَى نَفْسِهِ بَغَى كُلُّ باغ
رُبَّ ذِي نعمة تعرض مِنْهَا ... حائلٌ بينَهُ وَبَيْن المساغِ

وقال ابن المعتز:

حَمْداً لربِّي وَذمًّا للزَّمَانِ فَمَا ... أقلّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَسَرَّاتِي!
كفت يَدِي أملِي عن كلّ مُطّلَب ... وَأَغْلَقَتْ بَابَها مِنْ دُونِ حاجَاتي

وله أيضاً:

ألستَ ترى يا صاح ما أعجبَ الدَّهْرَا ... فَذَمًّا لَهُ، لَكِنَّ لِلْخالِقِ الشُّكْرَا
لَقَدْ حَبَّبَ الموتَ البقاءُ الَّذِي أرَى ... فَيَا حَبَّذَا مِنِّي لِمَنْ سَكَنَ ٱلْقَبْرَا
وَسُبْحانَ رَبي راضياً بقضائِه ... وَكانَ اتّقائي الشرّ يُغْرِي بِيَ الشّرّا

وله:

قُلْ لدنياك: قد تمكّنتِ منّي … فَافْعَلِي مَا أردتِ أن تفعلِي بي
واخرقي كيف شئت خَرْقَ جَهُولٍ … إن عندي لك اصطبارَ لَبِيب

وقال أبو العلاء المَعرّيّ:

والدهْرُ إبْرَامٌ ونَقْضٌ وتَفْـ … ـرِيق وَجَمْعٌ وَنَهَارٌ وَلَيْلْ
لو قال لي صاحبه سمّه … ما جزت عن ناجية أو بديلْ

وقال آخر:

والدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ … لا بُدَّ أنْ يُدْبِرَ أوْ يُقْبِلَا

وقال أبو الطيب:

فَما لي وللِدُّنْيا طلابي نجومُها … وَمَسْعَايَ مِنْهَا في شدوق الأَرَاقِمِ

وقال آخر:

لَعَمْرُك مَا الأيّام إلّا مُعارَةٌ … فما اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فتزوّدِ

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما الأيّام إلا كما ترى … رزيّة مالٍ، أو فِرَاقُ حَبِيب

الوزير المهلبيّ:

ألا مَوْتٌ يُباعُ فأشْتَرِيهِ … فَهَذا ٱلْعَيْشُ مَا لا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍّ … تصدّقَ بالمماتِ عَلَى أخِيهِ

وله:

أشْكُو إلَى الله أحْداثاً من الزَّمَنِ … يَبريننَني مثل بَرْي القِدح بالسَّفَنِ
لَمْ يَبْقَ بالعيشِ لي إلا مرارتُه … إذا تَذَوّقتُهُ، والحلْوَ مِنْه فَنِي
لا تَحْسَبَنْ نِعَماً سَرَّتْكَ صُحْبَتُها … إلا مفاتيحَ أبوابٍ من الْحَزَنِ

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

أَلَا أيُّها الدَّهْر الذي قَدْ مللتُه … سألتُك إلا ما سَلَلْتَ حَيَاتي
فقد وجلالِ الله حَبَّبْتَ جاهِداً … إلَيَّ - عَلَى كُرْه المماتِ - مَمَاتِي

وله:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الدَّهْرَ يَهْدِمَ ما بَنَى … وَيَسْلُبُ ما أعْطَى وَيُفْسِدُ ما أسْدَى
فَمَنْ سَرَّهُ ألّا يَرَى ما يَسُوءُهُ … فَلَا يَتَّخِذْ شيئاً يخافُ لَهُ فَقْدَا

البحتريّ:

كَأنَّ اللَّيالي أغْرِيتْ حَادِثَاتُها ... بِحُبِّ الَّذِي نأبَى، وبغضِ الَّذِي نَهْوَى
وَمَنْ عَرَفَ الأيّام لَمْ يَرَ خَفْضَها ... نعيماً ولم يعدُدْ مضرَّتها بَلْوَى

أبو بكر الخوارزميّ:

مَا أثْقَلَ الدَّهْرَ عَلَى مَنْ رَكِبَهْ
حَدَّثَنِي عَنْهُ لِسَانُ التَّجْرِبَهْ
لا تَشْكُرِ الدَّهْرَ لِخَيرٍ سَبَّبَهْ
فإنّه لم يتعمَّد بالهِبَهْ
وإنما أخطأ فِيكَ مَذْهَبَهْ
كالسَّيْلِ قَدْ يَسْقِي مَكاناً أخْرَبَهْ
والسُّمّ يَسْتَشْفِي به مَنْ شَرِبَهْ

وقال آخر:

يَسْعى الْفَتَى في صَلَاح الْعَيشِ مُجْتَهداً ... والدَّهْرُ مَا عَاشَ في إفْسادِهِ سَاعي

آخر:

يَغُرّ الْفَتَى مَرُّ الليالي سَلِيمَةً ... وَهُنَّ بِهِ عَمَّا قَلِيلٍ عَوائِرُ

آخر:

إذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ على أنَاسٍ ... كَلاكِلَهُ أناخَ بآخَرِينا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنا أفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينا

آخر:

قُلْ لِمَنْ أنْكَرَ حَالاً مُنْكَرَهْ ... وَرَأى مِنْ دَهْرِهِ مَا حَيَّرَهْ
لَيْسَ بالمنكَرِ ما أنكَرْتَهُ ... كُلُّ مَنْ عَاشَ رَأى مَا لَمْ يَرَهْ

ابن الروميّ:

سَكَنَ الزَّمانُ وَتَحتَ سَكْنَتِهِ ... دَفْعٌ مِنَ الحَرَكَاتِ والبَطْشِ
كَالأفْعَوَانِ تَرَاهُ مُنْبَطِحاً ... بالأرْضِ ثُمَّ يَثُورُ لِلنَّهْشِ

أبو الطيب:

إنَّا لَفِي زَمنٍ تَرْكُ الْقَبِيحِ بِهِ ... مِنْ أكْثَرِ النَّاسِ إحْسَانٌ وإجْمَالُ
ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُه الثَّاني وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أشْغَالُ

وقال آخر:

جَارَ الـزَّمَـانُ عَـلَـيْـنـا فِـي تَـصَـرُّفِهِ ... وأيُّ حُـرٍّ عَـلَـيْـهِ الـدَّهْـرُ لَـمْ يَـجُـرِ!
عِـنْـدِي مِـنَ الـدَّهْـر مـا لـو أن أيْـسَـرَهُ ... يُـلْـقَـى عَـلَـى الـفـلـكِ الـدَّوارِ لـم يَـدُرِ

آخر:

هَـذَا الـزَّمَـانُ الَّـذي كُـنَّـا نُـحـاذِرُه ... فِـيـمـا يـحـدِّث كـعْـبٌ وابـنُ مـسـعـودِ
إنْ دامَ هَـذا ولـم تـعـقـب لَـهُ غِـيَـرٌ ... لَـمْ يُـبْـكَ مَـيْـتٌ، وَلَـمْ يُـفْـرَحْ بـمـولـودِ

آخر:

يـا زَمَـانـاً ألْـبَـسَ الأحْـ ... ـرارَ ذُلًّا ومَـهَـانَـهْ
لَـسْـتَ عِـنْـدِي بِـزَمَـانٍ ... إنـمـا أنْـتَ زَمـانَـه
أجُـنُـونٌ مـا نـراه ... مِـنْـكَ يَـبْـدُو أمْ مَـجَـانَـهْ!

الرضيّ الموسويّ:

تَـأبَـى الـلَّـيـالـي أنْ تُـدِيـمـا ... بُـؤسـاً لَـخَـلْـقٍ أوْ نَـعِـيـمـا
والْـمَـرْءُ بـالإقْـبَـال يَـبْـ ... ـلُـغُ وادِعـاً خَـطَـراً جَـسِـيـمـا
فـإذا انْـقَـضَـى إقْـبَـالُـهُ ... رَجَـعَ الـشـفـيـعُ لَـهُ خَـصِـيـمـا
وَهُـوَ الـزَّمَـانُ إذَا نَـبَـا ... سَـلَـبَ الَّـذِي أعْـطَـى قَـدِيـمـا
كَـالـرِّيـحِ تَـرْجِـعُ عَـاصِـفـاً ... مِـنْ بَـعْـدِ مَـا بَـدَأَتْ نَـسِـيـمـا

أبو عثمان الخالديّ:

ألِـفْـتُ مِـنْ حَـادِثـاتِ الـدهْـرِ أكْـبَـرَهـا ... فَـمَـا أعـادي عَـلَـى أحـداثـهـا الـصُّـغَـرِ
تَـزِيـدُنـي قَـسْـوَةُ الأيـام طِـيـبَ نـثـاً ... كـأنَّـنـي الْـمِـسْـكُ بـيـن الـفِـهْـرِ والْـحَـجَـرِ

السريّ الرّفّاء:

تَـنَـكَّـدَ هـذا الـدَّهْـرُ فـيـمَـا يَـرُومُـهُ ... عَـلَـى أنَّـهُ فِـيـمَـا نُـحَـاذِرُهُ نَـدْبُ
فَـسَـيْـرُ الـذِي نَـرْجُـوهُ سَـيْـرٌ مـقـيَّـدٌ ... وَسـيْـر الَّـذي نَـخْـشَـى غَـوَائِـلَـهُ وَثْـبُ

ابن الروميّ:

ألَا إنَّ فـي الـدنْـيَـا عَـجَـائِـبَ جَـمَّـةً ... وَأعْـجَـبُـهـا ألَّا يَـشِـيـبَ وَلِـيـدُهَـا
إذا ذَلَّ فـي الـدُّنْـيَـا الأعـزّاء واكـتَـسَـتْ ... أذِلَّـتُـهـا عِـزًّا وسـاد مَـسُـودُهَـا
هُـنَـاكَ فَـلَا جَـادَتْ سـمـاءٌ بِـصَـوْبِـهـا ... وَلا أمْـرَعَـتْ أرضٌ، ولا اخْـضَـرَّ عُـودُهـا[1]

---

(١) المريع الخصيب. القاموس المحيط، مادة (مرع).

أرى النَّاسَ مَخْسُوفاً بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ — على الأرْضِ لَمْ يُقلبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُهَا
وَمَا الْخَسْفُ أن يُلْفَى أسافلُ بلدةٍ — أعَالِيَها بل أنْ يَسُودَ عَبِيدُهَا

السري الرفاء:

لَنا من الدَّهرِ خَصْمٌ لا نُطالِبُهُ — فما على الدَّهرِ لَوْ كَفَّتْ نوائبُهُ!
يَرْتَدُّ عَنْهُ جَرِيحاً مَنْ يُسالِمهُ — فكيْفَ يَسْلَمُ مِنْهُ مَنْ يحَارِبُهُ!
وَلَوْ أمِنْتُ الّذِي تجني أراقمُهُ — عليَّ هانَ الّذي تجنى عَقَارِبُهُ

أبو فراس بن حمدان:

تَصَفَّحْتُ أحْوَالَ الزَّمانِ وَلَمْ يَكُنْ — إلَى غَيْرِ شاكٍ للزَّمانِ وُصُولُ
أكلّ خليلٍ هكَذَا غَيْرُ منصِفٍ — وكلُّ زمانٍ بالكرام بخيلُ!

ابن الروميّ:

رَأيتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كلَّ وَغْدٍ — وَيخْفِضُ كلَّ ذِي شِيَم شَرِيفَهْ
كمثْلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَيٌّ — وَلَا يَنْفكّ تَطْفُو فيه جِيفَهْ
أو الميزان يخفِضُ كلّ وافٍ — وَيَرْفَعُ كلَّ ذي زِنَةٍ خَفِيفَهْ

ابن نُباتة:

وأصْغَرُ عيبٍ في زَمَانِك أنّه — به العِلْمُ جَهْلٌ، والعفافُ فُسُوقُ
وَكَيْفَ يُسَرّ الحرُّ فيه بمَطْلَبٍ — وما فيه شيء بالسرور حَقِيقُ!

أبو العتاهية:

لِتَجذِبُني يَدُ الدُّنيَا بِقُوَّتِها — إلى المنايا، وإنْ نَازَعْتُها رَسَنِي
لِلّهِ دُنيَا أناسٍ دائبينَ لَهَا — قَدْ ارْتَعَوْا في غِياض الغَيِّ والفِتَنِ
كسائماتٍ رواعٍ تبتغي سَمِناً — وَحَتْفُهَا لَوْ دَرَتْ فِي ذَلِكَ السِّمَنِ

وله أيضاً:

أنسَاك مَحْيَاك المماتا — فَطَلَبْتَ في الدُّنيا الثباتا
وَوَثِقْتَ بِالدُّنيَا وأنتَ — ترى جَمَاعتَها شَتَاتَا
وَعَزَمْتَ وَيْكَ عَلَى الحَيا — ةِ وَطُولِهَا عَزماً بَتَاتَا
يَا مَنْ رَأى أبَوَيْهِ - فِيمَنْ قَدْ — رَأى - كَانَا فَمَاتَا
هل فيهما لك عِبْرَةٌ — أم خِلْتَ أنّ لَكَ انفلاتَا!

ومـن الـذي طـلـب الـتّـفـلُّـ ... ـلـت مِـن مَـنِـيَّـتِـهِ فَـفَـاتَـا!
كـلٌّ تُـصَـبِّـحُـه الـمـنـيّـةُ ... أو تُـبَـيِّـتُـه بَـيَـاتَـا

وله:

أرى الـدُّنـيـا لِـمَـنْ هِـيَ فـي يَـدَيْـهِ ... عَـذَابـاً، كُـلَّـمَـا كَـثُـرت لَـدَيْـهِ
تُـهِـيـنُ الـمـكـرِمِـيـنَ لـهَـا بِـصُـغْـر ... وتُـكْـرِمُ كـلَّ مَـنْ هَـانَـتْ عَـلَـيْـهِ
إذا اسْـتَـغْـنَـيْـتَ عَـنْ شـيءٍ فَـدَعْـهُ ... وَخُـذْ مَـا أنْـتَ مـحْـتَـاج إلَـيْـهِ

وله:

أَلَـمْ تَـرَ رَيْـبَ الـدَّهْـرِ فـي كـلِّ سَـاعَـةٍ ... لَـهُ عَـارِض فـيـه الـمـنـيّـةُ تَـلْـمَـعُ
أيَـا بَـانـيَ الـدُّنْـيَـا لِـغَـيْـرِكَ تَـبْـتـنِـي ... وَيـا جَـامِـعَ الـدُّنْـيَـا لـغَـيْـرِكَ تَـجْـمـعُ
أرَى الْـمَـرْءَ وَثَّـابـاً عَـلَـى كـلِّ فُـرْصَـةٍ ... وَلِـلْـمَـرْءِ يـومـاً لَا مَـحَـالَـة مَـصْـرَعُ
يُـنـازِلُ مَـا لا يـمْـلـكُ الـمـلـكَ غَـيْـرُه ... مَتَى تَنْقَضِي حَاجَات مَنْ لَيْسَ يَشْبَع!
وأيّ امـرىء فـي غـايـةٍ لـيـس نـفـسـه ... إلـى غـايـةٍ أُخْـرَى سِـوَاهَـا تَـطَـلَّـع!

وله:

سَـلِ الأيّـامَ عَـنْ أُمـمٍ تَـقَـضَّـتْ ... سَـتُـخْـبِـرُكَ الـمَـعَـالِـمُ والـرُّسـوم
تَـرُومُ الْـخُـلْـدَ فـي دارِ الـتَّـفَـانـي ... وَكَـمْ قـدْ رَامَ قَـبْـلَـكَ مَـا تَـرُومُ!
لأمْـرٍ مَـا تَـصَـرَّمَـتِ الـلّـيَـالـي ... وأمـرٍ مـا تَـقَـلَّـبَـتِ الـنُّـجُـومُ
تَـنَـامُ وَلَـمْ تَـنَـمْ عَـنْـكَ الـمـنَـايَـا تَـنَـبَّـهْ ... لِـلْـمَـنِـيَّـةِ يـا نَـؤومُ
إلـى دَيّـانِ يَـوْمِ الـدِّيـن نَـمْـضِـي ... وَعِـنْـدَ الله تـجـتـمـع الْـخُـصُـومُ

حسبنا الله وحده، وصلواته على خيرته من خلقه سيدنا محمد وآله الطاهرين.

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

شرح نهج البلاغة

الجزء الرابع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل الحكيم، وصلى الله على رسوله الكريم

ومنها في ذكر يوم النحر وصفة الأضحية

الأصل: وَمِنْ تَمَامِ ٱلْأُضْحِيَةِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامَةُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ ٱلْأُذُنُ وَٱلْعَيْنُ سَلِمَتِ ٱلْأُضْحِيَةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عضباءَ القَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهَا إِلى ٱلْمَنْسَكِ.

قال الرضيّ رحمه الله: والمَنْسَكُ هاهنا: المَذْبَحُ.

الشرح: الأضحية: ما يذبح يوم النحر، وما يجري مجراه أيام التشريق من النَّعم. واستشراف أذنها: انتصابها وارتفاعها، أذن شَرْفاء أي منتصبة.

والعضباء: المَكسورة القرن. والتي تجرّ رجلها إلى المنْسَك، كناية عن العَرْجاء، ويجوز المِنسِك، بفتح السين وكسرها.

رأي الفقهاء في وجوب الأضحية

واختلف الفقهاء في وجُوب الأضحية، فقال أبو حنيفة: هي واجبة على المقِيمين من أهل الأمصار، ويعتبِر في وُجوبها النصاب، وبه قال مالك والثوريّ، إلا أن مالكاً لم يعتبر الإقامة.

وقال الشافعيّ: الأضحيّة سُنّة مؤكدة، وبه قال أبو يوسف ومحمد وأحمد.

واختلفوا في العَمْياء، هل تجزىء أم لا؟ فأكثر الفقهاء على أنّها لا تجزىء، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يقتضي ذلك، لأنه قال: إذا سلِمت العين سلمت الأضحية، فيقتضي أنّه إذا لم تسلم العين لم تسلم الأضحيّة. ومعنى انتفاء سلامة الأضحية انتفاء إجزائها.

وحكي عن بعض أهل الظاهر أنه قال: تُجزىء العمياء.

وقال محمد بن النعمان المعروف بالمفيد رضي الله تعالى عنه، أحد فقهاء الشيعة في كتابه المعروف «بالمقنعة» إنّ الصادق عليه السلام سُئِل عن الرّجل يُهْدِي الهدْيَ أو الأضحية وهي سمينة، فيصيبها مرض، أو تفقأ عينُها أو تنكسر، فتبلغ يوم النحر وهي حية، أتجزىء عنه؟ فقال: نعم[1].

---

(١) وسائل الشيعة: ١٤/ ١٣٥ رقم ١٨٨٠٦.

فأما الأذن، فقال أحمد: لا يجوز التضحية بمقطوعة الأذن، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي ذلك. وقال سائر الفقهاء. تجزىء إلا أنه مكروه.

وأما العضّباء، فأكثر الفقهاء على أنها تجزىء، إلا أنه مكروه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضِي ذلك، وكذلك الحكم في الجَلْحَاء، وهي التي لم يخلق لها قَرْن، والقَصْماء: وهي التي انكسر غلاف قَرْنها، والشرفاء: وهي التي انثقبتْ أذنها من الكيّ، والخرقاء: وهي التي شُقّت أذنها طولاً.

وقال مالك: إن كانت العَضْباء يخرج من قرنها دم لم تجزىء.

وقال أحمد والنَّخعيّ: لا تجوز التضحية بالعَضْباء.

فأما العرجاء التي كنى عنها بقوله: «تجر رجلَها إلى المنسَك»، فأكثر الفقهاء على أنها لا تجزيء، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي أنها تجزىء. وقد نقل أصحاب الشافعيّ عنه في أحد قوليه أنّ الأضحية إذا كانت مريضة مرضاً يسيراً أجزأت.

وقال الماورديّ من الشافعيّة في كتابه المعروف بـ«الحاوي»[1]: إن عجزت عن أن تجرّ رجلها خِلْقَةً أجزأت، وإن كان ذلك عن مرض لم تجزىء.

٥٣ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر البيعة

الأصل: فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ ٱلْإِبِلِ الهِيمِ يَوْمَ وِرْدِها، وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قاتِلِيَّ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ. وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا ٱلْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَه حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَما وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسلّم، فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ القِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ العِقَابِ، وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الآخِرَةِ.

الشرح: تَداكُّوا: ازدحموا. والهِيم: العِطاش. ويوم وِرْدها: يوم شربها الماء. والمثاني: الحِبال، جمع مَثناة ومِثناة بالفتح والكسر، وهو الحبل.

(١) «الحاوي الكبير في الفروع»: للقاضي أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري الشافعي، المتوفى سنة (٤٥٠هـ)، وهو كتاب عظيم في عشر مجلدات، ويقال: إنه ثلاثون مجلداً، لم يؤلف مثله في المذهب. «كشف الظنون» (١/ ٦٢٨).

وجهاد البُغاة واجب على الإمام، إذا وجد أنصاراً، فإذا أخلّ بذلك أخلّ بواجب، واستحقّ العقاب. فإن قيل: إنه عَلَيْتَلِا قال: «لم يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد ﷺ»، فكيف يكون تارك الواجِب جاحداً لما جاء به النبي ﷺ!

قيل: إنه في حكْم الجاحد، لأنه مخالف وعاصٍ، لا سيما على مذهبنا في أنّ تارك الواجب يخلدُ في النار وإن لم يجحد النبوة.

بيعة علي عَلَيْتَلِا

اختلف الناس في بيعة أمير المؤمنين عَلَيْتَلِا، فالذي أكثرُ الناس وجمهورُ أربابِ السِّيَرَ أنّ طلحة والزبير بايعاه طائعيْن غير مكرهيْن، ثم تغيّرت عزائمهما، وفسدت نيّاتهما، وغدرَا به.

وقال الزبيريون، منهم عبدُ الله بن مصعب، والزبير بن بكّار وشيعتهم ومَنْ وافق قولَهم من بني تَيْم بن مرة، أرباب العصبيّة لطلحة: إنهما بايعَا مكرهيْن، وإنّ الزبير كان يقول: بايعتُ واللُّج على قَفَيّ، واللُّجّ سيف الأشتر، وقفيّ لغة هُذَلِيّة، إذا أضافوا المقصور إلى أنفسهم قلبوا الألف ياء، وأدغموا إحدى الياءين في الأخرى، فيقولون: قد وافق ذلك هويّ، أي هَوَايَ، وهذه عصيّ، أي عصايَ.

وذكر صاحب كتاب «الأوائل»[1] أنّ الأشتر جاء إلى عليّ عَلَيْتَلِا حين قتل عثمان، فقال: قم فبايع الناس، فقد اجتمعوا لك، ورغِبُوا فيك، والله لئن نَكَلْت عنها لتعصِرَنّ عليها عينيك مرة رابعة، فجاء حتى دخل بئر سكن، واجتمع الناس، وحضر طلحة والزُّبَيْرُ، لا يشكّان أنّ الأمر شورى، فقال الأشتر: أتنتظرون أحداً! قم يا طلحة فبايع، فتقاعس، فقال: قم يا بن الصَّعْبة - وسلّ سيفه - فقام طلحة يجرّ رجله، حتى بايع، فقال قائل: أولُ مَنْ بايعه أشل! لا يتم أمره، ثم لا يتمّ، قال: قم يا زبير، والله لا ينازع أحد إلا وضربت قُرْطَه بهذا السيف، فقام الزبير فبايع، ثم انثال الناسُ عليه فبايعوا.

وقيل: أوّلُ مَنْ بايعه الأشتر، ألقى خَمِيصَةً كانت عليه، واخترطَ سيفه، وجذَب يد عليّ عَلَيْتَلِا فبايعه وقال للزبير وطلحة: قوما فبايعا، وإلا كنتما الليلة عند عثمان، فقاما يعثران في ثيابهما لا يرجوان نجاةً، حتى صَفَقَا بأيديهما على يده، ثم قام بعدهما البصريّون، وأولهم عبد الرحمن بن عدَيْس البَلويّ، فبايعوا. وقال له عبد الرحمن:

(١) «أوائل الأدلة في أصول الدين» للشيخ الإمام أبي القاسم عبيد الله بن أحمد البلخي المتوفى سنة (٣١٩هـ). «كشف الظنون» (١/ ٢٠٠).

خُذْهَا إليكَ واعْلَمَنْ أبا حَسَنْ أنّا نُمِرّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ

وقد ذكرنا نحن في شرح الفصل الذي فيه أن الزبير أقرّ بالبيعة، وادّعى الوليجة أن بيعة أمير المؤمنين لم تقع إلا عن رضا جميع أهل المدينة، أوّلهم طلحة والزبير، وذكرنا في ذلك ما يبطل رواية الزبير.

وذكر أبو مِخْنف في كتاب «الجمل»[1] أنّ الأنصار والمهاجرين اجتمعوا في مسجد رسول الله ﷺ، لينظروا مَنْ يولّونه أمرَهم، حتى غَصّ المسجدُ بأهله، فاتفق رأيُ عمار وأبي الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن عجلان وأبي أيوب خالد بن يزيد على إقعاد أمير المؤمنين عليه السلام في الخلافة، وكان أشدَّهم تهالكاً عليه عمّار، فقال لهم: أيها الأنصار، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه، وأنتم على شَرَف من الوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم، وإنّ علياً أوْلَى الناس بهذا الأمر، لفضله وسابقته، فقالوا: رضينا به حينئذٍ، وقالوا بأجمعهم لبقية الناس من الأنصار والمهاجرين: أيّها الناس، إنا لن نألوَكم خيراً وأنفسَنا إن شاء الله، وإن عليًّا مَنْ قد علمتم، وما نعرف مكانَ أحدٍ أحْمَل لهذا الأمر منه، ولا أوْلَى به. فقال الناس بأجمعهم: قد رضِينا، وهو عندنا ما ذكرتم وأفضل. وقاموا كلّهم، فأتوْا علياً عليه السلام، فاستخرجوه من داره، وسألوه بَسْط يده، فقَبَضها فتداكُّوا عليه تداكَّ الإبل الهِيم على وِرْدها، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضاً، فلما رأى منهم ما رأى، سألهم أن تكونَ بيعتُه في المسجد ظاهرة للناس. وقال: إن كرِهَني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر.

فنهض الناس معه حتى دخل المسجد، فكان أوّل من بايعه طلحة. فقال قبيصة بن ذؤيب الأسديّ: تخوفت ألّا يتم له أمرُه، لأنّ أوّل يد بايعته شَلّاء، ثم بايعه الزبير، وبايعه المسلمون بالمدينة إلا محمد بن مسلمة، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت، وعبد الله بن سلَام.

فأمر بإحضار عبد الله بن عمر، فقال له: بايع قال: لا أبايع حتى يبايعَ جَميعُ الناس، فقال له عليه السلام: فأعطني حَمِيلاً ألّا تبرح، قال: ولا أعطيك حَمِيلاً، فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين؟ إنّ هذا قد أمِنَ سوطك وسيفك، فدعْني أضرب عنقَه، فقال: لست أريد ذلك منه على كُرْه، خلّوا سبيله، فلما انصرف قال أمير المؤمنين: لقد كان صغيراً وهو سيء الخلق، وهو في كِبَره أسوأ خُلُقاً. ثم أتي بسعد بن أبي وقّاص، فقال له بايع، فقال: يا أبا الحسنِ خَلّني، فإذا لم يبق غيري بايعتُك، فوالله لا يأتيك مِنَ قِبَلِي أمر تكرهه أبداً، فقال: صدق، خلُّوا سبيلَه. ثم بعث إلى محمد بن مسلمة، فلما أتاه قال له: بايع، قال: إن رسول الله ﷺ أمرَني إذا اختلف

---

(١) «الجَمَل»: لأبي مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف إمامي من أهل الكوفة، عالم بالسير والأخبار، المتوفى سنة (١٥٧هـ). «الأعلام للزركلي» (٥/ ٢٤٥).

الناسُ وصاروا هكذا - وشبّك بين أصابعه - أن أخرج بسيفي فأضرب به عُرض أحد فإذا تقطّع أتيتُ منزلي، فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيَني يد خاطية، أو منّية قاضية. فقال له عليه السلام: فانطلق إذاً، فكن كما أمِرْت به.

ثم بعث إلى أسامة بن زيد، فلما جاء قال له: بايع، فقال: إني مولاك ولا خلاف مني عليك، وستأتيك بيعتي إذا سكن الناس. فأمره بالانصراف، ولم يبعث إلى أحد غيره.

وقيل له: ألا تبعث إلى حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن سلام! فقال: لا حاجةَ لنا فيمن لا حاجةَ له فينا.

فأما أصحابُنا فإنهم يذكرون في كُتُبهم أنّ هؤلاء الرّهط إنما اعتذروا بما اعتذروا به. لما ندبهم إلى الشخوصَ معه لحرب أصحاب الجمل، وأنهم لم يتخلفوا عن البَيْعة، وإنما تخلّفوا عن الحرب.

وروى شيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب «الغرر» أنهم لما اعتذروا إليه بهذه الأعذار، قال لهم: ما كلّ مفتون يعاتَب، أعندكم شكّ في بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فإذا بايعتم فقد قاتلتم. وأعفاهم من حضور الحرب.

فإن قيل: رويتم أنه قال: إن كَرِهَني رجل واحد من الناس لم أدخل في هذا الأمر، ثم رويتم أنّ جماعة من أعيان المسلمين كرهوا ولم يقف مع كراهتهم.

قيل: إنما مراده عليه السلام أنّه متى وقع الاختلاف قبل البيعة نفضتُ يدي عن الأمر ولم أدخل فيه، فأما إذا بويع ثم خالف ناس بعد البيعة، فلا يجوز له أن يرجع عن الأمر ويتركه؛ لأن الإمامة تثبت بالبيعة، وإذا ثبتت لم يجزْ له تركها.

وروى أبو مخنف عن ابن عباس، قال: لما دخل عليّ عليه السلام المسجدَ، وجاء الناس ليبايعوه خِفْتُ أن يتكلّم بعض أهل الشنآن لعليّ عليه السلام ممن قتل أباه أو أخاه، أو ذا قرابته في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، فيزهد عليّ في الأمر ويتركه، فكنت أرصُد ذلك وأتخوّفه، فلم يتكلم أحد حتى بايعه الناس كلهم راضين مسلمين غيرَ مكرهين.

لما بايع الناس علياً عليه السلام، وتخلّف عبد الله بن عمر، وكلّمه عليّ عليه السلام في البيعة فامتنع عليه، أتاه في اليوم الثاني، فقال: إني لك ناصح، إنّ بيعتّك لم يرض بها كلهم؛ فلو نظرت لدينك وردَدْت الأمر شورى بين المسلمين! فقال عليّ عليه السلام: ويحك! وهل ما كان عن طلب مني له! ألم يبلغْك صَنيعُهم؟ قم عَنّي يا أحمق، ما أنت وهذا الكلام! فلما خرج أتى علياً في اليوم الثالث آتٍ، فقال: إنّ ابن عمر قد خرج إلى مكة يفسد الناس عليك، فأمر بالبَعْث في

أثره، فجاءت أمُّ كلثوم ابنته، فسألته وضرعت إليه فيه، وقالت: يا أمير المؤمنين، إنما خرج إلى مكة ليقيم بها، وإنه ليس بصاحب سلطان ولا هو من رجال هذا الشأن، وطلبت إليه أن يقبل شفاعتها في أمره، لأنه ابنُ بعلها. فأجابها وكفَّ عن البَعثة إليه، وقال: دعوه وما أراده[1].

٥٤ – ومن كلام له عليه السلام وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

الأصل: أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ ٱلْمَوْتِ! فوالله مَا أُبَالِي، دَخَلتُ إِلَى ٱلْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ ٱلْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكًّا فِي أَهْلِ ٱلشَّامِ! فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ ٱلْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا.

الشرح: من رواه: «أكُلَّ ذلك» بالنصب فمفعول فعل مقدر، أي تفعل كلّ ذلك، وكراهية منصوب؛ لأنه مفعول له ومن رواه «أكُلُّ ذلك» بالرفع أجاز في «كراهية» الرفع والنصب، أما الرفع فإنه يجعل «كلّ» مبتدأ، وكراهية خبره، وأما النصب فيجعلها مفعولاً له كما قلنا في الرواية الأولى، ويجعل خبر المبتدأ محذوفاً، وتقديره: أكلّ هذا مفعول! أو تفعله كراهية للموت! ثم أقسم أنه لا يبالي أتعرَّض هو للموت حتى يموتَ، أم جاءه الموت ابتداء من غير أن يتعرّض له. وعشا إلى النار يَعْشُو: استدلّ عليها ببصر ضعيف، قال:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

وهذا الكلام استعارة، شبه مَنْ عساه يلحق به من أهل الشام بمن يعشو ليلاً إلى النار، وذلك لأن بصائرَ أهل الشام ضعيفة، فهم من الاهتداء بهداه عليه السلام كمن يعشُو ببصرٍ ضعيف إلى النار في الليل، قال: ذاك أحبّ إليّ من أن أقتلهم على ضلالهم، وإن كنتُ لو قتلتهم على هذه الحالة لباؤوا بآثامهم، أي رجعوا، قال سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾[2] أي ترجع.

بعض ما جاء من أخبار في يوم صفين

لما ملك أمير المؤمنين عليه السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة،

(١) انظر الغدير للأميني: ١٠/٢٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٩.

رجاء أن يعطفوا إليه، واستمالةً لقلوبهم وإظهاراً للمعدلة وحسن السيرة فيهم، مكث أياماً لا يُرسِل إلى معاوية، ولا يأتيه مِنْ عند معاويةَ أحدٌ، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقالوا: يا أميرَ المؤمنين، خَلَّفْنا ذراريَّنا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لنتَّخذها وطناً، ائذن لنا في القتال، فإنّ الناس قد قالوا. قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إنّ الناس يظنون أنكَ تكرهُ الحرب كراهيةً للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شكٍّ مِنْ قتال أهلِ الشام. فقال عليه السلام: وَمَتَى كنتُ كارهاً للحرب قطّ! إنّ من العجب حُبِّي لها غلاماً ويَفَعاً، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفادِ العمر وقرب الوقت! وأما شكّي في القوم فلو شككت فيهم لشككتُ في أهل البصرة، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعُني إلا القتال أو أن أعصيَ الله ورسوله، ولكني أستأني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي يوم خيبر: «لأنْ يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك مِمّا طلعت عليه الشمس»[1].

قال نصر بن مزاحم: حدثنا محمد بن عبيد الله عن الجرجانيّ، قال: فبعث عليّ عليه السلام إلى معاوية بشير بن عمرو بن مِحْصَن الأنصاريّ، وسعيد بن قَيْس الهمْدانِيّ وشَبَث بن الرِّبْعيّ التميميّ، فقال: ائتوا هذا الرجل، فادعوه إلى الله عز وجلّ، و إلى الطاعة والجماعة، وإلى اتباع أمر الله سبحانه. فقال له شَبَث: يا أمير المؤمنين، ألا تطمِعُه في سلطان تولّيه إياه، ومنزلةٍ يكون له بها أُثْرَة عندك إن هو بايعك؟ فقال: ائتوه الآن والقَوْه واحتجّوا عليه، وانظروا ما رأيُه في هذا.

فأتوه فدخلوا عليه، فحمِد أبو عمرو بن مِحْصَن الله وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد يا معاوية فإن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله مجازِيك بعمِلك ومحاسبُك بما قدّمَت يداك، وإنّني أنشدُك الله ألّا تفرّق جماعةَ هذه الأمة، وألّا تسفِك دماءها بينها. فقطع معاويةُ عليه الكلامَ وقال: فهّلا أوصيتَ صاحبك! فقال: سبحان الله! إنّ صاحبي لا يوصَى، إنّ صاحبي ليس مِثْلَك، صاحبي أحقّ الناس بهذا الأمر في الفضلِ والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول.. فقال معاوية: فتقول ماذا؟ قال: أدعوكَ إلى تقوى ربّك، وإجابة ابنِ

---

(١) أخرجه البخاري، في الجهاد والسير، باب: فضل من أسلم على يديه رجل (٣٠٠٩)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦)، وأبو داود في العلم، باب: فضل نشر العلم (٣٦٦١)، وأحمد في باقي مسند الأنصار، باب: حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي (٢٢٣١٤).

عمك إلى ما يدعُوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دينك، وخير لك في عاقبة أمرك. قال: ويُطَلّ دم عثمان! لا والرحمنِ لا أفعل ذلك أبداً.

فذهب سعيد بن قيس يتكلّم، فبدره شَبَث بن الرّبعي، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاوية، قد فهمتُ ما رَدَدْت على ابنِ مِحْصَن، إنه لا يخفى علينا ما تقرّ وما تطلب، إنك لا تجدُ شيئاً تستغوِي به الناس، ولا شيئاً تستميل به أهواءهم، وتستخلِص به طاعتهم إلا أن قُلْتَ لهم: قُتِل إمامُكم مظلوماً، فهلمُّوا نطلب بدمه، فاستجاب لك سفهاء طَغام رُذَال، وقد علمنا أنك أبطأتَ عنه بالنّصر، وأحببت له القتل، لهذه المنزلة التي تطلب، وربّ مبتغٍ أمراً، وطالبٍ له يحولُ الله دونه، وربّما أوتى المتمنّي أمنيّته، وربما لم يُؤتَّها، ووالله مَا لَكَ في واحدة منهما خير، والله لئن أخطأك ما ترجُوا إنك لَشرُّ العرب حالاً، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبُه حتّى تستحقَّ صَلَي النار، فاتق الله يا معاوية، ودَعْ ما أنتَ عليه، ولا تنازع الأمر أهلَه.

فحمِد معاوية الله وأثنى عليه، وقال:

أما بعد فإنّ أولَ ما عرفتُ به سفهك وخفّة حِلْمك قطْعُك على هذا الحسيب الشرِيف سيِّد قومه منطقه. ثم عتبتَ بعدُ فيما لا علم لك به، ولقد كَذَبْتَ ولَؤمت أيها الأعرابيّ الجِلْف الجافي في كلّ ما وصفت وذكرت. انصرفوا من عندي فإنّه ليس بيني وبينكم إلا السيف.

وغضب فخرج القوم وشَبَث يقول: أعلينا تُهوّل بالسيف! أما والله لنعجلَنّه إليك، فأتوا علياً عليه السلام، فأخبروه بالذي كان من قوله، وذلك في شهر ربيع الآخر.

قال نصر: وَخَرَجَ قراءُ أهلِ العِراق، وقراءُ أهل الشام فعسكروا ناحية صِفّين ثلاثين ألفاً.

قال: وعسكر عليٌّ عليه السلام على الماء، وعكسر معاوية فوقَه على الماء أيضاً، ومشت القُرّاء فيما بين عليٍّ عليه السلام ومعاوية، منهم عَبيدة السّلمانيّ، وعلقمة بن قَيْس النَّخعِيّ، وعبد الله بن عتبة، وعامر بن عبد القيس - وقد كان في بعض تلك السواحل - فانصرف إلى عسكر علي عليه السلام، فدخلوا على معاوية فقالوا: يا معاوية، ما الذي تطلب؟ قال: أطلب بدم عثمان، قالوا: ممّن تطلب بدم عثمان؟ قال: أطلبه من عليّ، قالوا: وعليّ قتله؟ قال: نعم هو قتله، وآوى قَتلته، فانصرفوا من عنده فدخلوا على عليّ عليه السلام، فقالوا: إن معاوية يزعُمُ أنك قتلت عثمان، قال: اللهمّ لكَذَب فيما قال، لم أقتله.

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه، فقال لهم: إنه إن لم يكن قَتَله بيده فقد أمر ومالأ، فرجعوا إلى عليّ فقالوا: إن معاوية يزعم أنّك إن لم تكن قتلتَ بيدك، فقد أمرت ومالأت على قَتْل عثمان، فقال: اللهم لَكَذَب فيما قال، فرجعوا إلى معاوية، فقالوا: إنَّ علياً يزعم أنَّهُ لم يفعل، فقال معاوية: إن كان صادِقاً فليُقِدْنا من قَتلةِ عثمان، فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه وعضَدُه

فرجعوا إلى عليّ عليه السلام، فقالوا: إنّ معاويةَ يقول لك: إنْ كنتَ صادقاً فادفع إلينا قَتَلة عثمان أو مكِّنّا منهم، فقال لهم: إنّ القوم تأوّلوا عليه القرآن، ووقعت الفرقة، فقتلوه في سلطان، وليس على ضَرْبهم قَوَد، فَخصمَ عليّ معاوية.

قلت: على ضَرْبهم هاهنا، على مثلهم، يقال: زيدٌ ضَرْب عمرو ومِنْ ضَرْبه، أي مِثله ومِنْ صِنْفه، ولا أدري لم عَدَل عليه السلام عن الحجّة بما هو أوضح من هذا الكلام، وهو أنْ يقول: إنّ الذين باشروا قتله بأيديهم كانوا اثنين وهما قُتيرة بن وهب وسُودان بن حُمران، وكلاهما قُتل يوم الدار، قَتلهما عبيد عثمان، والباقُون الذين هم جندِي وعَضُدي كما تزعمون، لم يقتلوا بأيديهم، وإنما أغْرَوْا به، وحصروه وأجْلَبُوا عليه، وهَجَمُوا على داره، كمحمد بن أبي بكر والأشتر وعمرو بن الحمِق وغيرهم، وليس على مثل هؤلاء قَوَد -.

قال نصر: فقال لهم معاوية: إنْ كان الأمرُ كما تزعمون، فلِمَ ابتزَّ الأمْرَ دوننا على غير مشورة مِنّا ولا ممن ها هنا معنا؟ فقال عليّ عليه السلام: إنّ الناس تَبَع المهاجرين والأنصار وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولاتهم وأمراء دينهم، فرضُوا بي وبايعوني، ولست أستحلّ أن أدع ضَرْب معاوية يحكُم بيده على الأمة ويركبهم ويشُقُّ عصاهم.

فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك، فقال: ليس كما يقول، فما بالُ مَنْ ها هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر ويؤامَرُوا فيه!

فانصرفوا إلى عليّ عليه السلام، فأخبروه بقوله: فقال: وَيْحكم! هذا للبدريّين دون الصحابة، ليس في الأرض بَدْرِيّ إلا وقَدْ بايعني وهو معي، أو قد قام ورَضِيَ، فلا يغرّنكم معاوية من أنفسكم ودينكم.

قال نصر: فتراسلوا بذلك ثلاثة أشهر: ربيع الآخر، وجُمَادَيَيْن، وهم مع ذلك يَفْزَعون الفَزْعة فيما بينهما، فيزحف بعضهم إلى بعض، وتحجز القرّاء بينهم.

قال: فزعوا في ثلاثة أشهر خمساً وثمانين فَزْعة، كلُّ فزعة يزْحَفُ بعضهم إلى بعض، وتحجز القراء بينهم لا يكون بينهم قتال.

قال نصر: وخرَج أبو أمامة الباهليّ وأبو الدرداء، فدخلا على معاوية - وكانا معه - فقالا: يا معاوية، علامَ تقاتل هذا الرجل؟ فوالله لهو أقْدَمُ منك إسلاماً، وأحقّ بهذا الأمر، وأقرب من رسول الله صلى الله عليه وآله، فعلام تقاتله؟ فقال: أقاتله على دَمِ عثمان، وأنه آوى قَتلته، فقولوا له: فَلْيُقِدْنا مِنْ قتلته وأنا أوّل من بايعه من أهل الشام.

فانطلقوا إلى عليّ عليه السلام فأخبروه بقول معاوية، فقال: إنما يطلب الذين تَرَوْن، فخرج

عشرون ألفاً أو أكثر متسربلين الحديد، لا يُرى منهم إلا الحَدَق، فقالوا: كُلّنا قتله، فإن شاؤوا فَلْيَرُوموا ذلك منّا. فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدَا شيئاً من القتال.

قال نصر: حتى إذا كان رجب، وخَشِي معاوية أن يتابع القرّاء عليًا عليه السلام، أخذ في المكْر، وأخذ يحتال للقراء لكيما يُحجموا ويكفُّوا حتى ينظروا.

قال: فكتب في سهم: مِنْ عبد الله الناصح، إني أخبركم أنّ معاوية يريد أن يُفَجِّر عليكم الفرات فيغرِقكم، فخذوا حذركم. ثم رمى بالسهم في عسكر عليّ عليه السلام، فوقع السهم في يَدِ رجل فقرأه ثم أقرأه صحبَه، فلما قرأه وقرأته الناس وأقرأه مَنْ أقبل وأدبر، قالوا: هذا أخ لَنَا ناصح، كتب إليكم يخبركم بما أراد معاوية، فلم يزل السَّهْم يُقرأ ويرتفع حتى رُفِع إلى عليّ عليه السلام، وقد بعث معاوية مائتي رجل من العَمَلة إلى عاقول من النهر، بأيديهم المرور والزُبُل يحفرون فيها بحيال عسكر عليّ عليه السلام. فقال عليّ عليه السلام: ويحكم! إن الذي يعالج معاوية لا يستقِيم له، ولا يقوى عليه، إنما يريد أن يُزِيلكم عن مكانكم، فانهوا عن ذلك، فقالوا له: لا نَدَعهم والله يحفِرون، فقال عليٌّ عليه السلام: لا تكونوا ضَعْفي، ويحكم! لا تغلبوني على رأيي. فقالوا: والله لنرتحلنّ، فإن شئت فارتحل، وإن شئت فأقم، فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم مليًّا، وارتحل عليٌّ عليه السلام في أخريات الناس، وهو يقول:

فَلَوْ أني أطِعْتُ عصمتُ قومي ... إلى ركن اليمامة أو شَمَامِ
ولكنّي متى أبرَمْتُ أمراً ... مُنيتُ بخُلْف آراءِ الطَّغَامِ

قال: وارتحل معاوية حتى نزل معسكر عليّ عليه السلام الذي كان فيه، فدعا عليّ عليه السلام الأشتر، فقال: ألم تغلبني على رأيي أنت والأشعث! فدونكما. فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين، سأداوي ما أفسدتُ اليوم من ذلك، فجمع كِنْدة فقال لهم: يا معشر كِنْدة، لا تفضحوني اليوم ولا تُخزوني، فإني إنما أقارع بكم أهل الشام، فخرجوا معه رجّالة يمشون، وبيده رمح له يلقيه على الأرض، ويقول: امشوا قِيد رمحي هذا، فيمشون، فلم يزل يَقِيس لهم الأرض برمحه، ويمشون معه رَجّالة حتى لَقِيَ معاويةَ وسط بني سُلَيْم واقفاً على الماء، وقد جاءه أداني عسكره، فاقتتلوا قتالاً شديداً على الماء ساعة، وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا، وأقبل الأشتر في خَيْل من أهل العراق، فحمل على معاوية، والأشعث يحارب في ناحية أخرى، فانحاز معاوية في بني سُليم، فردّ وجوه إبله قدر ثلاثة فراسخ، ثم نزل ووضع أهل الشام، والأشعث يهدِرُ ويقول: أرضيتك يا أمير المؤمنين! ثم تمثل بقول طَرَفة بن العبد:

فـفـداء لِبَني سَعْد عَلَى ... ما أصاب الناس من خَيْرٍ وَشَرّ
ما أقلّت قدماي إنّهم ... نِعَم الساعون في الحَيّ الشُّطُرْ
وَلَقَدْ كُنْتُ عليكم عاتباً ... فعقَبْتُم بذَنوب غَيْر مُرّ

كنت فيكم كالمغطّي رأسه فانجلَى اليوم قِناعي وَخُمُرْ
سادراً أحسب غيّي رَشَداً فتناهيتُ وقد صابت بِقُرّ[1]

وقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، قد غلب الله لك على الماء، فقال عليّ عليه السلام: أنتما كما قال الشاعر:

تلاقِينَ قَيْساً وأشياعَهُ فَيُوقد لِلْحَرْب نَاراً فَنَارَا
أخُو الحرب إن لَقِحَتْ بازِلاً سَمَا للعلا وأجلّ الخِطارا

قال نصر: فكان كلّ واحدٌ من عليّ ومعاوية يُخرج الرجلَ الشريفَ في جماعة، فيقاتل مثله، وكانوا يكرهون أن يتزاحفُوا بجميع الفَيْلق مخافة الاستئصال والهلاك، فاقتتل الناسُ ذَا الحجّة كلّه، فلما انقضَى تداعوْا إلى أن يكفّ بعضُهم عن بعض إلى أن ينقضيَ المحرّم، لعلّ الله أن يُجزِي صلحاً أو إجماعاً، فكفّ الناس في المحرّم بعضُهم عن بعض.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، عن أبي المجاهد عن المحلّ بن خليفة، قال: لما توادَعُوا في المحرّم، اختلفت الرسل فيما بين الرجلين رجاء الصُّلْح، فأرسل عليّ عليه السلام إلى معاوية عديّ بن حاتم الطائيّ وشَبَث بن رِبعيّ التميميّ ويزيد بن قَيْس وزياد بن خَصَفة، فلما دخلوا عليه، حَمِد الله تعالَى عديّ بن حاتم الطائيّ، وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإنّا أتيناك لندعوَك إلى أمرٍ يجمع الله فيه كلمتَنا وأمّتنا، ويحقِن به دماءَ المسلمين. ندعُوك إلى أفضلِ الناس سابقة، وأحسنِهم في الإسلام آثاراً، وقد اجتمع إليه الناس، وقد أرشدهم الله بالذي رَأَوْا وأتوا، فلم يبق أحدٌ غيرُك وغيرُ مَنْ معك، فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل.

فقال له معاوية: كأنّك إنما جئت مُهَدداً، ولم تأت مصلحاً! هيهات يا عديّ! إني لابنُ حرب! ما يُقعْقَعُ لي بالشّنان. أما والله إنك من المجلبين على عثمان، وإنّك لَمِن قتَله، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتُله الله.

فقال له شَبَث بن رِبعيّ وزياد بن خَصَفة، وتنازعا كلاماً واحداً: أتيناك فيما يصلِحنا وإياك، فأقبلتَ تضرب لنا الأمثال، دع ما لا ينفعُ من القول والفعل، وأجِبْنا فيما يعمّنا وإياك نفعُه.

وتكلّم يزيد بن قيس الأرحبيّ، فقال: إنا لم نأتِك إلا لنبلّغك ما بعثنا به إليك، ولِنُؤدّي عنك ما سمعنا منك، ولم نَدَعْ أن ننصح لك، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حُجّة، أو أنه راجع

---

(١) السادر: المتحيّر. القاموس المحيط، مادة (سدر).

بك إلى الألفة والجماعة إنّ صاحبَنا مَنْ قد عَرَفْتَ وعرف المسلمون فضلَه، ولا أظنه يخفى عليك، إنّ أهلَ الدين والفضل لا يعدِلُونك بعليّ، ولا يميّلون بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً، فإنا والله ما رأينا رجلاً قطّ أعملَ بالتقوى، ولا أزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلّها منه.

فحمد الله معاوية وأثنى عليه، وقال: أما بعد. فإنّكم دعوتم إلى الجماعة والطاعة، فأمّا الجماعة التي دعوتُم إليها فنِعِمّا هي! وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إنْ صاحبكم قتل خليفتنا، وفرّق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقَتَلَتَنا، وصاحبكم يزعُم أنه لم يقتلْه، فنحن لا نردّ ذلك عليه أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا! ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبكم، فليدفعْهم إلينا فلْنقتلهم به، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.

فقال له شَبَث بن رِبَعيّ: أيسرّك بالله يا معاوية أنْ أمكِنْت من عمار بن ياسر فقتلته! قال: وما يمنعُني من ذلك! والله لو أمكنني صاحبِكُم من ابن سُمَيّة ما قتلته بعثمان، ولكني كنت أقتلُه بنائل مولى عثمان!

فقال شَبث: وإلّه السماء ما عَدَلْتَ معدِلاً، ولا والذي لا إله إلا هو، لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تُنْدَرَ الهامُ عن كواهل الرجال، وتضيق الأرض والفضاء عليك برُحْبها.

فقال معاوية: إنه إذا كان ذلك كانت عليك أضيَق.

ثم رجع القوم عن معاوية، فبعث إلى زياد بن خَصَفة من بينهم، فأدخل عليه، فحمد معاوية الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا أخا ربيعة، فإن علياً قطع أرحامنا، وقتل إمامنا، وآوى قتلةَ صاحبنا، وإني أسألك النّصرة بأسرتك وعشيرتك، ولك عليّ عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أنْ أولّيك أيّ المصرين أحببت.

قال أبو المجاهد: فسمِعت زياد بن خَصفة يحدّث بهذا الحديث.

قال: فلما قضى معاوية كلامه، حَمِدت الله وأثنيت عليه، ثم قلت: أما بعدُ، فإني لَعَلَى بيّنةٍ من ربي وبما أنعم عَلَيّ، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، ثم قمت.

فقال معاوية لعمرو بن العاص - وكان إلى جانبه - ما لهم عَضَبهم الله ما قلبُهم إلا قلب رجل واحد!

قال نصر: وحدثنا سليمان بن أبي راشد، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكَنُود، قال: بعث معاوية حبيب بن مَسْلمة الفِهْريّ إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبعث معه شُرحبيل بن السِّمط ومعن بن يزيد بن الأخنس السُّلميّ، فدخلوا على عليّ عليه السلام فتكلم حبيب بن مسلمة، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال:

أما بعدُ فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً، يعمل بكتاب الله ويُنيب إلى أمر الله،

فاستثقلتم حياته، واستبطأتم وفاته. فعدوْتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلَة عثمان نقتلهم به، فإن قلت: إنك لم تقتله، فاعتزل أمرَ الناس، فيكونَ أمرُهم هذا شورى بينهم، يولِّي الناس أمرَهم مَنْ أجمع عليه رأيهم.

فقال له علي: وما أنت لا أمّ لك والولايةَ والعزل والدخول في هذا الأمر! اسكت فإنك لست هناك، ولا بأهلٍ لذاك! فقام حبيب بن مسلمة وقال: أما والله لترينّي حيثُ تكره. فقال عليه السلام: وما أنتَ! ولو أجلَبْت بخيْلك ورَجِلك. اذهب فصوّب وصعِّد ما بدا لك، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت!

فقال شُرَحْبِيل بن السِّمط: إنْ كلمتك، فلَعَمْرِي ما كلامي لك إلا نحو كلام صاحبي، فهل لي عندك جواب غير الجواب الذي أجبتَه به؟ فقال: نعم، قال: فقله، فحمد الله عليٌّ عليه السلام، وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإنّ الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه فأنقَذ به من الضّلالة، ونَعَش به من الهلكة، وجمع به بعد الفُرقة، ثم قَبَضه الله إليه، وقد أدّى ما عليه، فاستخلف النَّاس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فأحسَنا السيرة، وعَدَلا في الأمّة، ووجَدْنا عليهما أن تولَّيا الأمْر دوننا، ونحن آلُ الرسول، وأحقُّ بالأمر، فغفرنا ذلك لهما، ثم وَلِيَ أمرَ الناس عثمان، فعمِل بأشياء عابها الناس عليه، فسار إليه ناسٌ فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرَهم، فقالوا لي: بايع، فأبيْتُ عليهم، فقالوا لي: بايع، فإنّ الأمة لا تَرضَى إلا بك، وإنا نخاف إنْ لم تفعلْ أن يفترِق الناس، فبايعتُهم فلم يَرُعْني إلّا شقاق رجلين قد بايعا، وخلاف معاوية إياي الذي لم يجعل الله سابقة في الدين، ولا سلفَ صِدْق في الإسلام، طَلِيق ابن طليق، وحزب من الأحزاب، لم يَزَل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخَلا في الإسلام كارهين مكرهين، فيا عجباً لكم، ولإجلابكم معه، وانقيادكم له، وتدعون آل بيت نبيّكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا تعدِلوا بهم أحداً من الناس، إني أدعوكم إلى كتاب ربكم وسنة نبيكم، وإماتة الباطل، وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ولكلّ مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة.

فقال له شُرَحْبِيل ومَعْن بن يزيد: أتشهدُ أنّ عثمان قُتِل مظلوماً؟ فقال لهما: إنّي لا أقول ذلك، قالا: فمَنْ لم يشهد أنّ عثمان قتل مظلوماً، فنحن براء منه! ثم قاما فانصرفا. فقال علي عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾[1].

(١) سورة النمل، الآيتان: ٨٠، ٨١.

ثم أقبل على أصحابه، فقال: لا يَكن هؤلاء في ضلالتهم بأوْلَى بالجدّ منكم في حقكم وطاعة إمامكم. ثم مكث النَّاسُ متوادعين إلى انسلاخ المحرّم، فلما انسلخ المحرّم واستقبل الناس صَفَراً من سنة سبع وثلاثين، بعث عليّ عليه السلام نَفَراً من أصحابه، حتى إذا كانوا من معسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت، قام مَرْثَد بن الحارث الجُشَمِيّ، فنادى عند غروب الشمس: يا أهلَ الشام إنّ أميرَ المؤمنين علياً وأصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون لكم: إنّا لم نَكُفّ عَنْكُمْ شَكًّا في أمركم، ولا إبقاء عليكم، وإنما كَفَفْنا عنكم خروج المحرّم، وقد انسلخ، وإنا قد نَبَذْنا إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

قال: فتحاجز الناس وثارُوا إلى أمرائهم.

قال نصر: فأما رواية عمرو بن شَمَر، عن جابر، عن أبي الزبير أنّ نداء مَرثَد بن الحارث الجُشَميّ، كانت صورته: يا أهلَ الشام، ألَا إنّ أميرَ المؤمنين يقول لكم: إني قد استدمْتُكم واستأنَيْتُ بكم، لتراجِعوا الحقّ، وتُوبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، فلم تتناهَوْا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حَقّ، وإني قد نبذتُ إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

قال: فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم.

قال نصر: وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتّبان الكتائب، ويُعبّيَان العساكر، وأوقدُوا النيران، وجاؤوا بالشموع، وباتَ عليٌّ عليه السلام تلك الليلة كلّها، يعبّي الناس، ويُكتِّبُ الكتائب، ويدور في الناس ويحرِّضهم.

قال نصر: حدثنا عمر بن سعد، بإسناده عن عبد الله بن جُندب، عن أبيه أن عليًا عليه السلام كان يأمرنا في كل موطن لقينا معه عدوّه، فيقول:

لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم، فهيَ حُجّة أخرى لكم عليهم، فإذا قاتلتموهم فهزمتُموهم فلا تقتلوا مُدبِراً، ولا تُجهزوا على جَريح، ولا تكشفوا عَوْرة، ولا تُمَثّلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتِكوا سِتراً، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تَهيجوا امرأةً، وإنْ شَتَمْنَ أعراضكم، وتناوَلْنَ أمراءكم وصلحاءكم، فإنهنّ ضِعاف القوى والأنفس والعقول، ولقد كُنّا وإنا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وهن مشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعيَّر بها عَقِبه من بعده.

قال نصر: وحدثنا عمر سعد، عن إسماعيل بن يزيد - يعني ابن أبي خالد - عن أبي صادق، أنّ علياً عليه السلام حَرّض الناس في حروبه، فقال:

عبادَ الله، اتقوا الله وغُضّوا أبصاركم، واخفضُوا الأصوات، وأقلّوا الكلام، ووطّنوا أنفسكم عَلَى المنازلة والمجاولة والمبارزة والمعانقة، واثبتوا: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1] اللهم ألهِمْهم الصبر، وأنزِل عليهم النصر، وأعظِم لهم الأجر.

قال نصر: وكان ترتيب عسكر عليّ عليه السلام، بموجب ما رواه لنا عمرو بن شمر عن جابر، عن محمد بن علي، وزيد بن حسن، ومحمد بن عبد المطلب: أنّه جَعَلَ عَلَى الخيل عَمّار بن ياسر، وعلى الرجّالة عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخُزاعيّ، ودفع اللواء إلى هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص الزّهريّ، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس، وعَلَى الميسرة عبدَ الله بن العباس، وجعل عَلَى رَجّالة الميمنة سليمان بن صُرَد الخُزاعيّ، وعَلَى رَجّالة الميسرة الحارث بن مرة العبديّ، وجعل القَلْبَ مُضَر الكوفة والبصرة، وجعل عَلَى مَيمنة القلْب اليمن وعلى ميسرته ربيعة، وعقد ألوية القبائل، فأعطاها قوماً منهم بأعيانهم، وجعلهم رؤساءهم وأمراءهم، وجعل عَلَى قريش وأسد وكنانة عبدَ الله بن عباس، وعَلَى كِنْدة حُجْر بن عديّ الكنديّ، وعَلَى بَكْر البصرة الحُصين بن المنذر الرقاشيّ، وعَلَى تميم البصرة الأحنف بن قيس، وعَلَى خُزاعة عمرو بن الحمِق، وعَلَى بَكْر الكوفة نُعَيْم بن هُبيرة، وعَلَى سَعْد البصرة ورِبابها جارية بن قُدامة السعديّ، وعَلَى بَجِيلة رفاعة بن شدّاد، وعلى ذُهْل الكوفة رُوَيْماً الشيبانيّ - أو يزيد بن رُويم - وعلى عمرو البصرة وحَنْظَلتِها أعْيَن بن ضُبَيْعَة، وعلى قُضاعة وطيّىء عديّ بن حاتم الطائيّ، وعلى لهازم الكوفة عبد الله بن حَجَل العجْليّ، وعلى تميم الكوفة عُمير بن عطارد، وعلى الأزْد واليمن جُنْدَب بن زهير، وعلى ذُهْل البصرة خالد بن المعمَّر السّدوسيّ، وعلى عَمْرو الكوفة وحَنْظلتها شَبَث بن رِبْعيّ، وعلى هَمْدان سعيد بن قيس، وعلى لهازم البصرة حُرَيْث بن جابر الجُعفيّ، وعلى سعد الكوفة ورِبابها الطُّفَيل أبا صُرَيمة، وعَلَى مَذْحِج الأشتر بن الحارث النَّخَعيّ، وعَلَى عبد القيس الكوفة صَعْصعة بن صُوحان، وعَلَى عبد القيس البصرة عمرو بن حنظلة، وعَلَى قيس الكوفة عبد الله بن الطُّفَيْل البَكّائي، وعَلَى قريش البصرة الحارث بن نوفل الهاشميّ وعَلَى قيس البصرة قبيصة بن شدّاد الهلاليّ، وعَلَى اللفيف من القواصي القاسم بن حَنْظلة الجُهَنيّ.

وأما معاوية فاستعمل عَلَى الخيل عُبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعَلَى الرجّالة مسلم بن عقبة المَزنيّ، وجعل عَلَى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص، وعَلَى الميسرة حبيب بن مسلمة

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

الفهريّ، وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وجعل عَلَى أهل دمشق - وهم القلب - الضحاك بن قيس الفِهريّ، وعلى أهلِ حِمْص - وهم الميمنة - ذا الكَلاع الحميريّ، وعلى أهل قِنّسرين - وهم في الميمنة أيضاً - زُفَر بن الحارث الكلابيّ، وعلى أهل الأردن - وهم الميسرة - سفيان بن عمرو أبا الأعور السّلَميّ، وعلى أهلِ فلسطين - وهم في الميسرة أيضاً - مسلمة بن مَخْلد، وعلى رجّالة أهل دمشق بسر بن أبي أرضأة العامري بن لؤي بن غالب، وعلى رجالة أهل حمص حوشباً ذا ظليم، وعلى رجالة قيس طريف بن حابس الألهاني، وعلى رجالة الأردن عبد الرحمٰن بن قيس القيني، وعلى رجالة أهل فلسطين الحارث بن خالد الأزدي، وعلى رجالة قيس دمشق همام بن قَبيصة، وعلى قضاعة حِمْص وإيادها بلال بن أبي هُبيرة الأزديّ، وحاتم بن المعتمر الباهليّ، وعلى رجّالة الميمنة حابس بن سعيد الطائيّ، وعلى قُضاعة دمشق حَسّان بن بَحْدل الكلبيّ، وعلى قُضاعة عباد بن يزيد الكلبي، وعلى كِنْدة دمشق حسان بن حويّ السّكسكيّ، وعلى كِنْدة حِمْص يزيد بن هبيرة السَّكونيّ، وعلى سائر اليمن يزيد بن أسد البَجَليّ، وعلى حِمْيَر وحضرموت اليمان بن غفير وعلى قضاعة الأردنّ حبيس بن دُلجة القَيْنيّ، وعلى كنانة فلسطين شريكاً الكنانيّ، وعلى مذحِج الأردنّ المخارق بن الحارث الزبيدي، وعلى جذام فلسطين ولخمها ناتل بن قيس الجذامي، وعلى همدان الأردن حمزة بن مالك الهمداني، وعلى الخثعم بن عبد الله الخثعمي، وعلى غسان الأردف يزيد بن الحارث، وعلى جميع القواصي القعقاع بن أبرهة الكَلاعِيّ، أصيب في المبارزة أول يوم تراءت فيه الفئتان.

قال نصر: فأما رواية الشعبيّ التي رواها عنه إسماعيل بن أبي عُمَيرة، فإنّ علياً عليه السلام بعث على ميمنتِهِ عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقاء الخُزاعيّ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس، وعلى خيل الكوفة الأشتر، وعلى البصرة سهل بن حُنيف، وعلى رجّالة الكوفة عَمّار بن ياسر، وعلى رجّالة أهل البصرة قيس بن سعد - وكان قد أقبل من مصر إلى صِفّين - وجعل معه هاشم بن عُتبة، وجعل مسعود بن فدكي التميميّ على قراء أهل البصرة، وأما قرّاء أهل الكوفة فصاروا إلى عبد الله بن بُدَيل، وعمار بن ياسر.

قال نصر: وأما ترتيب عسكر الشام - فيما رواه لنا عمر بن سعد، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية - فإن معاوية بعث على ميمنته ذا الكَلاع، وعلى ميسرته حبيبَ بن مَسْلَمة الفِهْريّ، وعلى مقدّمته من يوم أقبل من دمشق أبا الأعور السّلَمِيّ، وكان على خَيْل دمشق كلّها عمرو بن العاص، ومعه خيول أهل الشام بأسرها، وجعل مسلم بن عُقْبة المُرّيّ على رجالة دمشق، والضحاك بن قيس على سائر الرجّالة بعد.

قال نصر: وتَبَايع رجال من أهل الشام على الموت وتحالفوا عليه وعَقَلوا أنفسهم بالعمائم، وكانوا صُفوفاً خمسة معقّلين، كانوا يخرجون فيصطفّون أحدَ عشر صفاً، ويخرجُ أهلُ العراق فيصطفُّون أحدَ عشر صفاً أيضاً.

قال نصر: فخرجوا أولَ يوم من صفر من سنة سبع وثلاثين، وهو يوم الأربعاء، فاقتتلوا، وعَلى مَنْ خرج يومئذٍ من أهل الكوفة الأشتر، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة فاقتتلوا قِتالاً شديداً جُلَّ النهار، ثم تراجعوا وقد انتصفَ بعضُهم من بعض. ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عُتْبة في خَيْل ورجال حَسَنٍ عددها وعُدّتها، فخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السُّلَميّ، فاقتتلوا يومهم ذلك، تحمِلُ الخيل على الخيل والرجال على الرجال. ثم انصرفوا وقد صَبَر القومُ بعضُهم لبعض، وخرج في اليوم الثالث عَمّار بن ياسر، وخرج إليه عمرو بن العاص، فاقتتل الناس كأشدّ قتال كان، وجعل عمّار يقول: يا أهل الشام، أتريدون أنْ تنظُروا إلى مَنْ عادى الله ورسوله وجاهدهما، وبغى على المسلمين، وظاهر المشركين. فلما أراد الله أنْ يُظهر دِينَه، وينصر رسوله أتى إلى النبيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، وهو والله فيما يرى راهبٌ غير راغب. ثم قبض الله ورسولَهُ، وإنا واللّهِ لنعرفه بعداوة المسلم، ومودّة المجرم! ألا وإنه معاوية، فقاتلوه والعنوه، فإنه ممّن يطفىء نور الله، ويظاهر أعداء الله.

قال: وكان مع عمَّار زيادُ بن النضر على الخيل، فأمره أن يحمل في الخيل، فحمل فصبروا له، وشَدّ عمار في الرَّجّالة، فأزال عمرو بن العاص عن مَوْقفه، وبارز يومئذٍ زياد بن النضر أخاً له من بني عامر يعرف بمعاوية بن عمرو العُقَيليّ، وأمهما هند الزبيديّة، فانصرف كلّ واحد منهما عن صاحبه بعد المبارزة سالماً، ورجع الناس يومهم ذلك.

قال نصر: وحدثني أبو عبد الرحمن المسعوديّ قال: حدثني يونس بن الأرقم، عَمّن حدثه من شيوخ بَكْر بن وائل، قال: كنا مع عليّ عليه السلام بصِفّين، فرفع عمرو بن العاص شُقّة خميصةٍ سوداء في رأس رُمْح، فقال ناس: هذا لواء عَقَده له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يزالُوا يتحدّثون حتى وصل ذلك إلى عليّ عليه السلام، فقال: أتدرُون ما أمرُ هذا اللواء! إنّ عدوّ الله عَمْراً أخرج له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الشُّقّة، فقال: مَنْ يأخذها بما فيها؟ فقال عمرو: وما فيها يا رسول الله؟ قال: «فيها ألّا تقاتل بها مسلماً، ولا تقرّبها من كافر»[1]، فأخذها، فقد والله قَرّبها من المشركين، وقاتل بها اليوم المسلمين، والّذي فَلَق الحبّة، وبرى النَّسَمة، ما أسلموا ولكنهم استسلموا وأسرُّوا الكفر، فلما وجدوا عليه أعواناً أظهروه.

---

(١) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٦٨).

وروى نصر، عن أبي عبد الرحمن المسعوديّ، عن يونس بن الأرقم، عن عوف بن عبد الله، عن عمرو بن هند البَجَليّ، عن أبيه، قال: لما نظر عليّ عليه السلام إلى رايات معاوية وأهل الشام، قال: والذي فلَقَ الحبّة، وبرأ النسمة، ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسرُّوا الكفر، فلما وجدوا عليه أعواناً، رجعوا إلى عَدَواتهم لنا، إلا أنّهم لم يتركوا الصلاة.

وروى نصر، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: لما كان قتال صِفّين، قال رجل لعمّار: يا أبا اليقظان، ألم يقل رسول الله ﷺ: «**قاتلوا الناس حتى يُسلموا، فإذا أسلموا عَصَموا منّي دماءهم وأموالهم**»[(١)]؟ قال: بلى، ولكن والله ما أسلموا، ولكن استسلموا، وأسرّوا الكفر حتى وَجَدُوا عليه أعواناً.

وروى نصر، عن عبد العزيز عن حبيب بن أبي ثابت، عن منذر الثوريّ، قال: قال محمد بن الحنفيّة: لما أتاهم رسول الله ﷺ مِنْ أعلى الوادي ومن أسفله، وملأ الأودية كتائب - يعني يوم فتح مكة - استسلموا حتى وجدوا أعواناً[(٢)].

وروى نصر، عن الحكم بن ظهير عن إسماعيل، عن الحسن، قال: وحدثنا الحكم أيضاً عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن زرّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطُب على مِنْبَري فاضربوا عنقه**»، فقال الحسن: فوالله ما فعلوا ولا أفلحوا[(٣)].

---

٥٥ - ومن كلام له عليه السلام يذكر حروبه مع الرسول

الأصل: وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللّهِ صَلَّى ٱللّهُ عَلَيْهِ وَسلّم، نَقْتُلُ آباءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً، وَمُضِيًّا عَلَى ٱللَّقَمِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ ٱلأَلَمِ، وَجِدًّا فِي جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ. وَلَقَدْ كَانَ ٱلرَّجُلِ مِنَّا وَٱلآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ

(١) أخرج نحوه البخاري في الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة (٢٥)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله (٢١)، والترمذي في التفسير، باب: سورة الغاشية (٣٣٤١)، والنسائي في الجهاد، باب: الجهاد (٣٩٧٥).
(٢) انظر وقعة صفين لابن مزاحم: ٢١٦.
(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٤٣).

تَصَاوُلَ ٱلْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا، أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا، وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى ٱللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا ٱلْكَبْتَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا ٱلنَّصْرَ، حَتَّى ٱسْتَقَرَّ ٱلْإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ، وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ.

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا ٱخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ. وَٱيْمُ ٱللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً، وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً!

الشرح: لَقَمُ الطريق: الجادّة الواضحة منها. والمَضَض: لذع الألم وبرحاؤه. والتَّصاول: أنْ يحمل كلُّ واحدٍ من القِرنين على صاحبه. والتخالس: التسالُب والانتهاب. والكبت: الإذلال. وجِران البعير: مقدّم عنقه. وتبوّأت المنزل: نزلته. ويقال لمن أسرف في الأمر: لَتحتلِبَنَّ دماً، وأصله الناقة يُفْرَط في حَلْبها فيحلب الحالب الدم.

وهذه ألفاظ مجازية من باب الاستعارة، وهي:

قوله: «استقرّ الإسلامُ ملقياً جِرانه»، أي ثابتاً متمكّناً، كالبعير يلقي جِرانه على الأرض.

وقوله: «متبوئاً أوطانه»، جعله كالجسم المستقرّ في وطنه ومكانه.

وقوله: «ما قام للدين عمود»، جعله كالبيت القائم على العُمُد.

وقوله: «ولا اخضرّ للإيمان عود»، جعله كالشّجرة ذات الفروع والأغصان.

فأما قتلهم الأقاربَ في ذات الله فكثير، قتلَ عليّ عليه السلام الجمَّ الغفير من بني عبد مناف وبني عبد الدار في يوم بَدْر وأُحُد، وهم عشيرته وبنو عَمّه، وقَتَل عمرُ بن الخطاب يومَ بَدْر خاله العاص بن هشام بن المغيرة، وقتل حمزةُ بن عبد المطلب شيبةَ بن ربيعة يوم بَدْر، وهو ابنُ عمه، لأنهما ابنا عبدِ مناف، ومثل ذلك كثير مذكور في كتب السيرة.

وأما كَوْنُ الرجل منهم وقِرْنه يتصاولان ويتخالسان، فإنّ الحال كذلك كانت، بارز عليّ عليه السلام الوليدَ بن عُتْبة، وبارز طلحةَ بن أبي طلحة، وبارز عمرو بن عبدوَدّ، وقتل هؤلاء الأقران مبارزة، وبَارَزَ كثيراً من الأبطالِ غيرهم وقَتَلهم، وبارز جماعةٌ من شُجْعان الصحابة جماعةً من المشركين، فمنهم مَنْ قُتِلَ، ومنهم مَنْ قَتَلَ وكتب المغازي تتضمّن تفصيل ذلك.

وهذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في قصة ابن الحضرميّ حيث قدم البَصْرة من قِبَل معاوية، واستنهض أميرُ المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى البصرة، فتقاعدوا.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب «الغارات»:

حدّثنا محمد بن يوسف، قال: حدثنا الحسن بن علي الزّعفرانيّ، عن محمد بن عبد الله بن

عثمان، عن ابن أبي سيف، عن يزيد بن حارثة الأزديّ، عن عمرو بن محصن، أن معاوية لما أصابَ محمد بن أبي بكْر بمصر وظهر عليها، دعا عبد الله بن عامر الحضرميّ، فقال له: سِرْ إلى البصرة، فإن جّل أهلها يروْن رأينا في عثمان، ويعظّمون قتلَه، وقد قُتِلوا في الطلب بدمِه، فهم موتورون حَنِقون[1] لما أصابهم، ودُّوا لو يجدون مَنْ يدعوهم ويجمعهم وينهض بهم في الطلب بدم عثمان، واحذرْ ربيعة، وأنزل في مُضَر، وتودّدِ الأزْد، فإنّ الأزْدَ كلَّها معك إلا قليلاً منهم، وإنهم إن شاء الله غيرُ مخالفيك.

فقال عبد الله بن الحضرميّ له: أنا سهمٌ في كنانتك، وأنا مَنْ قد جَرَّبت، وعدوّ أهل حربك، وظهيرك على قتلة عثمان، فوجِّهْنِي إليهم متى شئت. فقال: اخْرُج غداً إن شاء الله. فودّعه وخرج من عنده.

فلما كان الليل جَلس معاوية وأصحابه يتحدَّثون، فقال لهم معاوية: في أيّ منزل ينزل القمر الليلة؟ فقالوا: بسعد الذَّابح، فكرِه معاوية ذلك، وأرسل إليه ألاّ تبرح حتى يأتيَك أمري. فأقام.

ورأى معاوية أن يكتبَ إلى عمرو بن العاص وهو يومئذٍ بمصر، عاملُه عليها، يستطلع رأيه في ذلك، فكتب إليه، وقد كان تَسمَّى بإمْرة المؤمنين بعد يوم صِفِّين، وبعد تحكيم الحكمين:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص:

سلام عليك، أما بعد، فإني قد رأيتُ رأياً هممتُ بإمضائه، ولم يخذُلني عنه إلّا استطلاع رأيك، فإن توافِقْني أحَمد الله وأمضه، وإن تخالفني فإني أستخيرُ اللّهَ وأستهديه. إني نظرتُ في أمرِ أهل البصرة فوجدتُ معظَم أهلِها لنا وليّاً ولعليّ وشيعته عدوًّا، وقد أوقعَ بهم عليّ الوَقْعة التي علمت، فأحقاد تلك الدماء ثابتة في صدورهم لا تبرج ولا تريم، وقد علمتَ أنّ قتلَنا ابن أبي بكر، ووقعتنا بأهل مصر قد أطفأتْ نيران أصحاب عليّ في الآفاق، ورفعت رؤوس أشياعنا أينما كانوا من البلاد، وقد بلَغ مَنْ كان بالبصرة على مثلِ رأينا من ذلك ما بلغ الناس، وليس أحد ممّن يرى رأينا أكثرَ عدداً، ولا أضرّ خلافاً على عليّ من أولئك، فقد رأيتُ أن أبعث إليهم عبد الله بن عامر الحضرميّ، فينزل في مُضَر ويتودَّد الأزد، ويحذر ربيعة، ويبتغي دم ابن عفان، ويذكّرهم وقعة عليّ بهم، التي أهلكَتْ صالحي إخوانهم وآبائهم وأبنائهم. فقد رجوتُ عند ذلك أن يُفْسِدَ على عليّ وشيعته ذلك الفَرْج من الأرض، ومتى يُؤْتَوْا من خَلفهم وأمامهم يضلّ سعيهم، ويبطل كيدُهم. فهذا رأيي. فما رأيك؟ فلا تحبس رسولي إلا قَدْر مضيّ الساعة التي ينتظرُ فيها جواب كتابي هذا. أرشدنا الله وإياك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

---

(١) الحنق: شدة الاغتياظ. اللسان، مادة (حنق).

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية:

أما بعدُ، فقد بلغني رسولُك، وكتابك، فقرأته وفهمتُ رأيَك الذي رأيتَه، فعجبت له، وقلت: إنَّ الذي ألقاه في روعِك، وجعله في نفسك هو الثائر بابن عفان، والطالب بدمه، وإنه لم يك مِنْك ولا مِنَّا منذ نهضنا في هذه الحروب وبادينا أهلها، ولا رأى الناس رأياً أضرّ على عدوك. ولا أسرّ لوليّك مِنْ هذا الأمر الذي ألهمتَه فامض رأيَك مسدَّداً، فقد وَجَّهْتَ الصَّليب الأريب الناصح غير الظَّنين والسلام.

فلما جاءه كتاب عمرو دعا ابن الحَضْرميّ - وقد كان ظنّ حين تركه معاوية أياماً لا يأمرُه بالشخوص، أن معاوية قد رجع عن إشخاصه إلى ذلك الوجه - فقال: يابنَ الحضرميّ، سرّ على بركة الله إلى أهل البصرة فانزل في مُضَر، واحْذَرْ ربيعة، وتودّد الأزد، وانْعَ ابن عفان، وذكّرهم الوقَعة التي أهلكتْهم، ومَنِّ لمن سمع وأطاع دُنْيا لا تفنى، وأَثَرَةً لا يفقِدها حتى يفقدنا أو نفقده.

فودعه ثم خرج من عِنده، وقد دفع إليه كتاباً، وأمره إذا قدِم أن يقرأه على النّاس.

قال عمرو بن محصن: فكنتُ معه حين خرج، لما خرجْنا سرنا ما شاء الله أن نَسِير، فسنَحَ لنا ظبي أعْضب عن شمائلنا، فنظرت إليه، فوالله لرأيتُ الكراهيّة في وجهه، ثم مضينا حتى نزلنا البصرة في بني تميم، فسمعَ بقُدُومنا أهلُ البصرة، فجاءنا كلّ مَنْ يرى رأي عثمان، فاجتمع إلينا رؤوس أهلِها، فحمد الله ابنُ الحضرميّ وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، فإن إماكم إمام الهدى عثمان بن عَفّان، قتله عليّ بن أبي طالب ظُلْماً، فطلبتم بدمه، وقاتلتم مَنْ قَتَله، فجزاكم الله مِنْ أهل مصر خيراً، وقد أُصيبَ منكم الملأ الأخيار، وقد جاءكم الله بإخوان لكم، لهم بأسٌ يُتَّقَى، وعدد لا يُحصى، فَلَقوا عدوَّكم الذين قتلوكم، فبلغوا الغاية التي أرادوا صابرين، ورجعوا وقد نالوا ما طلبوا، فمالئوهم وساعدوهم، وتذكروا ثأرَكم لتَشفوا صِدوركم من عدوّكم.

فقام إليه الضحاك بن عبد الله الهلاليّ، فقال: قَبّح الله ما جئتنا به، وما دعوتنا إليه! جئتَنا والله بمثل ما جاء به صاحِباك طلحة والزبير، أتيَانا وقد بايَعنا علياً، واجتمعنا له، فكلمتنا واحدة ونحن على سبيل مستقيم، فدعوَانا إلى الفرقة، وقاما فينا بزُخرف القول، حتى ضربْنا بعضَنا ببعض عُدواناً وظُلْماً، فاقتتلنا على ذلك، وايمْ الله، ما سلِمْنا من عظيم وبال ذلك، ونحن الآن مجمعون على بَيْعة هذا العبد الصالح الذي أقال العَثْرة، وعفا عن المسيء وأخذ بيعة غائبنا وشاهدنا. أفتأمرنا الآن أن نختلع أسيافَنا من أغمادها، ثم يضرب بعضنا بعضاً، ليكون معاويةُ أميراً، وتكون له وزيراً، ونعدِل بهذا الأمر عن عليّ! والله لَيومٌ من أيام عليّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا، ما الدنيا باقية.

فقام عبد الله بن خازم السُّلَمِيّ، فقال للضحاك: اسكت، فلست بأهلٍ أنْ تتكلم في أمرِ العامة. ثم أقبل على ابن الحضرميّ، فقال: نحن يدُك وأنصارك، والقول ما قلت: وقد فهمنا عنك، فدعنا أنى شئت! فقال الضّحاك لابن خازم: يا بن السوداء: والله لا يعِزّ من نصرت، ولا يذِلّ بخذلانك مَنْ خذلت، فتشاتما.

قال صاحب كتاب الغارات: والضحاك هذا هو الذي يقول:

يا أيهذا السائلي عن نَسَبِي بين ثقيفٍ وهلال منصِبي
أمِّيَ أسماء وضَحّاكٌ أبي

قال: وهو القائل في بني العباس:

مَا وَلَدتْ من ناقة لفحلِ في جَبَلٍ نعلمُه وَسَهْلِ
كستة مِنْ بَطْن أم الفضلِ أكْرِمْ بها من كَهْلَةٍ وكَهْلِ
عمّ النبيّ المصطفى ذي الفضلِ وخاتم الأنبياء بعد الرُّسْلِ

قال: فقام عبدُ الرحمن بن عمير بن عثمان القرشيّ ثم التيميّ، فقال: عباد الله، إنا لم ندعوكم إلى الاختلاف والفُرقة، ولا نريد أنْ تقتتلوا ولا تتنابزوا، ولكنا إنّما ندعوكم إلى أنْ تجمَعُوا كلمتكم، وتوازروا إخوانكم الذين هم على رأيكم، وأنْ تَلُمُّوا شَعَثَكمْ وتُصلِحوا ذاتَ بينكم، فمهلاً مهلاً! رحمكم الله! استمعوا لهذا الكتاب، وأطيعوا الذي يقرأ عليكم.

ففضوا كتابَ معاوية وإذا فيه: مِنْ عبد الله معاوية أمير المؤمنين، إلى من قرىء كتاب هذا عليه من المؤمنين والمسلمين من أهل البصرة:

سلام عليكم. أما بعدُ، فإنّ سَفْك الدماء بغيرِ حلّها، وقتل النفوس التي حَرّم الله قتلها هلاكٌ موبق، وخسران مبين، لا يقبل الله مِمّن سَفَكها صَرْفاً ولا عَدْلاً، وقد رأيتُم رحِمكم الله آثار ابن عفّان وسيرتَه، وحُبّه للعافية، ومَعْدَلته، وسَدّه للثغور، وإعطاءه في الحقوق، وإنصافه للمظلوم، وحُبّه الضعيف، حتى توثّب عليه المتوثبون، وتظاهر عليه الظالمون، فقتلوه مسلماً محرماً، ظمآن صائماً، لم يسفِكْ فيهم دماً، ولم يقتُلْ منهم أحداً ولا يطلبونه بضربة سيف ولا سوطٍ، وإنما ندعوكم أيها المسلمون إلى الطلب بدمه، وإلى قتال مَنْ قتله، فإنا وإياكم على أمرِ هُدًى واضح، وسبيل مستقيم. إنكم إن جامعتمونا طفئت النائرة[1]، واجتمعت الكلمة، واستقام أمرُ هذه الأمة، وأقرّ الظالمون المتوثبون الذين قَتَلوا إمامهم بغير حق، فأخِذُوا بجرائرهم وما قَدّمت

---

(١) النائرة: نارت النائرة: أي هاجمت الحصائجة، اللسان، مادة (نار).

أيديهم. إنّ لكم أنْ أعمَل فيكم بالكتاب، وأنْ أعطيَكم في السَّنَة عطاءَيْن، ولا أحتمل فضلاً من فيئكم عنكم أبداً. فسارعوا إلى ما تُدْعون إليه رحمكم الله! وقد بعثتُ إليكم رجلاً من الصالحين، كان من أمناء خليفتكم المظلوم ابن عفان وعماله وأعوانه على الهدى والحق، جعلنا الله وإياكم ممّن يجيب إلى الحق ويعرفه، ويُنكِر الباطل ويَجْحَده، والسلام عليكم ورحمة الله.

قال: فلما قُرِىء عليهم الكتاب، قال معظمهم: سمعنا وأطعمنا.

قال: وروى محمد بن عبد الله بن عثمان، عن عليّ، عن أبي زهير، عن أبي مِنْقر الشيبانيّ، قال: قال الأحنف لما قرىء عليهم كتاب معاوية: أمّا أنا فلا ناقةَ لي في هذا ولا جَمَل. واعتزل أمرهم ذلك.

وقال عمرو بن مرجوم، من عبد القيس: أيّها الناس، الزموا طاعتكم، ولا تنكُلُوا بيعتَكم، فتقع بكم واقعة وتصيبكم قارعة، ولا يكن بعدها لكم بقيّة، ألّا إنّي قد نصحتُ لكم، ولكن لا تحبون الناصحين.

قال إبراهيم بن هلال: وروى محمد بن عبد الله عن ابن أبي سيف، عن الأسود بن قيس، عن ثعلبة بن عبّاد، أن الذي كان سَدَّدَ لمعاوية رأيه في تسريح ابن الحضرميّ كتاب كتبه إليه عبّاس بن ضحاك العبديّ، وهو ممن كان يرى رأي عثمان، ويخالف قومَه في حبهم عليًّا عليه السلام ونصرتهم إياه، وكان الكتاب:

أما بعد، فقد بلغنا وقعتُك بأهلِ مصر، الذين بَغَوْا على إمامهم، وقتلوا خليفتَهم طمَعاً وبَغْياً، فقرّت بذلك العيون، وشُفِيت بذلك النفوس، وبردت أفئدة أقوامٍ كانوا لقتل عثمان كارهين، ولعدوّه مفارقين، ولكن موالين، وبك راضين، فإن رَأيتَ أن تبعثَ إلينا أميراً طيباً ذكياً ذَا عَفاف ودين، إلى الطلب بدم عثمان فَعَلْت، فإني لا أخال الناس إلا مجمعين عليك، وإن ابن عباس غائب عن المصر. والسلام.

قال: فلما قرأ معاوية كتابه قال: لا عزمتُ رأياً سوى ما كتب به إليّ هذا، وكتَب إليه جوابه:

أما بعد، فقد قرأتُ كتابَك، فعرفت نصيحتَك، وقَبِلت مشورتك، رحمك الله وسددك، اثْبُتْ هداك الله على رأيك الرشيد، فكأنّك بالرجل الذي سألت قد أتاك، وكأنّك بالجيش قد أطلّ عليك فسررت وحيِيت، والسلام.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني علي بن أبي سيف عن أبي زهير قال: لما نزل ابن الحضرميّ في بني تميم أرسل إلى الرؤوس فأتوْه، فقال لهم: أجيبوني إلى الحقّ، وانصروني على هذا الأمر.

قال: وإنّ الأميرَ بالبصرة يومئذ زياد بن عبيد قد استخلفه عبد الله بن عباس، وقدم على عليّ عليه السلام إلى الكوفة يعزّيه عن محمد بن أبي بكر، قال: فقام إليه ابن ضَحّاك، فقال: إي والذي له أسعى، وإياه أخشى، لننصرنّك بأسيافنا وأيدينا.

وقام المثنّى بن مخرمة العبديّ فقال: لا والذي لا إله إلا هو، لئن لم ترجع إلى مكانك الذي أقبلت منه لنجاهدنّك بأسيافنا وأيدينا، ونبالنا وأسنّة رماحنا. نحن نَدَع ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وسيد المسلمين، وندخل في طاعة حزب من الأحزاب طاغ! والله لا يكون ذلك أبداً حتى نسيّر كتيبة، ونفلّق السيوف بالهام.

فأقبل ابنُ الحضرميّ على صَبْرة بن شَيْمان الأزديّ فقال: يا صَبْرة، أنت رأسُ قومك، وعظيمٌ من عظماء العرب، وأحد الطّلبة بدم عثمان، رأينا رأيُك، ورأيُك رأيُنا، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورأيت، فانصرني وكُنْ من دوني. فقال له: إن أنت أتيتَني فنزلت في داري نصرتّك ومنعتك. فقال: إنّ أمير المؤمنين معاوية أمرَني أنْ أنزل في قومه من مُضر، فقال: اتّبع ما أمرَك به.

وانصرف من عنده، وأقبل الناسُ إلى ابن الحُضْرميّ، وكثر تَبَعهُ، ففزع لذلك زياد وهَالَهُ وهو في دار الإمارة، فبعث إلى الحُضَين بن المنذر ومالك بن مِسْمَع، فدعاهما، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنكم أنصارُ أمير المؤمنين وشيعتُه وثقته، وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم، فأجيروني حتى يأتيَني أمْرُ أمير المؤمنين ورأيُه.

فأما مالك بن مسمع، فقال: هذا أمر فيه نَظَر، أرجع إلى مَنْ ورائي، وأنظر وأستشير في ذلك.

وأمّا الحضين بن المنذر فقال، نعم، نحن فاعلون، ولن نخذُلَك ولن نُسلِمك.

فلم يَرَ زياد من القوم ما يطمئنّ إليه، فبعث إلى صَبْرة بن شَيْمان الأزديّ، فقال: يابن شَيمان، أنت سيدُ قومك، وأحد عظماء هذا المِصْر، فإن يكن فيه أحدٌ هو أعظم أهله فأنت ذاك، أفلا تجيرني وتمنعُني، وتمنع بيتَ مال المسلمين! فإنما أنا أمين عليه. فقال: بَلى، إن تحمّلت حتى تنزِل في داري منعتُك، فقال: إني فاعل.

فارتحل ليلاً حتى نزل دار صَبْرة بن شَيْمان، وكتب إلى عبد الله بن عباس - ولم يكن معاوية ادّعى زياداً بعد، لأنه إنما ادّعاه بعد وفاة عليّ عليه السلام:

للأمير عبد الله بن عباس من زياد بن عبيد.

سلام عليك، أما بعدُ فإنّ عبد الله بن عامر بن الحضرميّ أقبل مِنْ قِبَل معاوية حتى نزل في بني تميم، ونَعى ابن عَفّان، ودعا إلى حرب، فبايَعه جُلُّ أهلِ البصرة، فلما رأيت ذلك استجرتُ بالأزد، بصَبْرَة بن شَيْمان وقومِه لنفسي ولبيت مال المسلمين، ورحلتُ من قصر الإمارة فنزلت فيهم، وإنّ الأزد معي، وشيعة أمير المؤمنين مِن فُرسان القبائل تختلف إليّ وشيعة عثمان تختلف إلى ابن الحضرميّ، والقصر خالٍ منّا ومنهم، فارفع ذلك إلى أمير المؤمنين، لِيَرَى فيه رأيه، وأعْجِل إليّ بالذي تَرى أن يكون منه فيه. والسلام عليك ورَحمة الله وبركاته.

قال: فرفع ذلك ابنُ عباس إلى عليّ عليه السلام، وشاع في الناس بالكوفة ما كان من ذلك، وكانتْ بنو تميم وقيس، ومَنْ يرى رأي عثمان قد أمرُوا ابن الحضرميّ أن يَسير إلى قصر الإمارة حين خَلّاه زياد، فلما تهيّأ لذلك ودعا أصحابَه، ركبت الأزد، وبعثت إليه وإليهم: إنا والله لا نَدَعكم تأتونَ القصر فتُنزلون فيه مَنْ لا نَرْضَى، ومَنْ نحن له كارهون، حتى يأتيَ رجل لنا ولكم رضا، فأبى أصحابُ ابن الحضرميّ إلا أنْ يسيروا إلى القصر، وأبت الأزد إلا أن يمنعوهم. فركب الأحنف، فقال لأصحاب ابنِ الحضرميّ: إنكم والله ما أنتم أحقّ بقصر الإمارة من القوم، وما لكم أن تؤمّروا عليهم مَنْ يكرهونه، فانصرفوا عنهم: ففعلوا، ثم جاء إلى الأزد، فقال: إنه لم يكن ما تكرهون، ولا يُؤتَى إلّا ما تُحِبّون، فانصرفوا رحمكم الله ففعلوا.

قال إبراهيم، وحدثنا محمد بن عبد الله بن أبي سيف، عن الكلبيّ، أنّ ابن الحضرميّ لما أتى البصرة، ودخلها نزل في بني تميم في دار سبيل، ودعا بني تميم وأخلاط مُضَر، فقال زياد لأبي الأسود الدؤليّ: أما ترى ما صَغَى أهلُ البصرة إلى معاوية، وما في الأزد لي مطمع، فقال: إن كنتَ تركتهم لم ينصروك، وإن أصبحت فيهم منعوك.

فخرج زيادٌ من ليلته، فأتى صَبْرة بن شَيْمان الحُدانيّ الأزديْ، فأجاره، وقال له حين أصبح: يا زياد، إنه ليس حسناً بنا أن تقيم فينا مختفياً أكثر من يومك هذا، فأعدّ له منبراً وسريراً في مسجد الحُدّان، وجعل له شُرَطاً، وصلى بهم الجمعة في مسجد الحُدّان.

وغلب ابنُ الحضرمي على ما يليه من البصرة وجَباها، وأجمعت الأزد على زياد، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا معشر الأزد، إنكم كنتم أعدائي فأصبحتم أوليائي، وأوْلى الناس بي. وإني لو كنت في بني تميم وابنُ الحضرميّ فيكم لم أطمعْ فيه أبداً وأنتم دونه، فلا يطمع ابنُ الحضرميّ فيّ وأنتم دوني، وليس ابنُ آكلةِ الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من أمير

المؤمنين في المهاجرين والأنصار، وقد أصبحت فيكم مضموناً، وأمانة مؤدَّاة، وقد رأينا وقْعَتَكم يوم الجمل، فاصبِروا مع الحقّ صبرَكم مع الباطل، فإنكم لا تُحْمَدون إلا على النجدة، ولا تُعْذرون على الجبن.

فقام شَيْمان أبو صبرة - ولم يكن شهد يوم الجمل، وكان غائباً - فقال: يا معشرَ الأزد، ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر، وقد كنتم أمس على عليّ عليه السلام، فكونوا اليوم له، واعلموا أنّ إسلامكم له ذلّ، وخذلانكم إياه عار، وأنتم حيٌّ مضماركم الصبر وعاقبتكم الوفاء، فإن سار القوم بصاحبهم فسِيرُوا بصاحبكم، وإن استمدُّوا معاوية، فاستمدّوا علياً عليه السلام، وإنْ وَادَعُوكم فوادِعُوهم.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: يا معشر الأزْد، إنا قلنا يومَ الجمل: نمنع مِصْرنا، ونطيع أُمّنا نطلب دم خليفتنا المظلوم، فجدّدنا في القتال، وأقمنا بعد انهزام الناس، حتى قُتِل منا مَنْ لا خير فينا بعده، وهذا زياد جاركم اليوم، والجار مضمون، ولسنا نخاف من عليّ ما نخاف من معاوية، فهَبُوا لنا أنفُسكم، وامنعوا جاركم أو فأبلِغوه مأمنه.

فقالت الأزد: إنما نحن لكم تبع فأجيروه. فضحك زياد، وقال: يا صبرة، أتخشون ألّا تقوموا لبني تميم! فقال صبرة: إن جاؤونا بالأحنف جئناهم بأبي صَبْرة، وإن جاؤونا بالحباب جئت أنا، وإن كان فيهم شباب كثير. فقال زياد: إنما كنت مازحاً.

فلما رأت بنو تميم أنّ الأزدَ قد قامت دون زياد بعثَتْ إليهم: أخرجوا صاحبكم ونحن نخرج صاحبنا، فأيّ الأميرين غلَبَ - عليّ أو معاوية - دخلنا في طاعته، ولا نهلِك عامّتنا.

فبعث إليهم أبو صبرة: إنما كان هذا يُرْجى عندنا قبل أن نجيره، ولعمري ما قَتْل زياد وإخراجه إلا سواء، وإنكم لتعلمون أنّا لم نُجِرْه إلا كرماً، فالهوا عن هذا.

قال: وروى أبو الكَنود أنَّ شَبث بن رِبعيّ قال لعليّ عليه السلام: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى هذا الحيّ من تميم، فادْعُهم إلى طاعتك، ولزوم بيعتك، ولا تسلّط عليهم أزْد عُمان البُعداء البُغضاء، فإن واحداً من قومك خيرٌ لك من عشرة من غيرهم.

فقال له مُخْنَف بن سليم الأزديّ: إن البعيد البغيض، من عَصَى الله وخالف أمير المؤمنين، وهم قومك، وإن الحبيب القريب مَنْ أطاع الله ونصر أمير المؤمنين وهم قومي، واحدُهم خيرٌ لأمير المؤمنين من عشرة من قومك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: مه! تناهوْا أيها الناس، وليردَعْكم الإسلام ووقارُه عن التباغي والتهاذي، ولتجتمِعْ كلمتكم، والْزَموا دينَ الله الذي لا يقبل من أحد غيره، وكلمة الإخلاص التي هي قوام الدين، وحجة الله على الكافرين، واذكروا إذ كنتم قليلاً من مشركين متباغضين

متفرّقين، فألّف بينكم بالإسلام فكثُرتم، واجتمعتم وتحاببتم. فلا تَفرّقوا بعد إذ اجتمعتم، ولا تتباغضوا بعد إذ تحاببتم، وإذا رأيتم الناس بينهم النّائرة وقد تداعَوا إلى العشائر والقبائل، فاقصِدوا لهامهم ووجوههم بالسَّيْف حتى يفزَعوا إلى الله، وإلى كتابه وسنة نبيّه، فأمّا تلك الحميّة من خَطَرات الشياطين فانتهوا عنها، لا أبا لكم تفلحوا وتنجحوا!.

ثم إنه عليه السلام دعا أعْيَن بن ضُبَيعة المجاشعيّ، وقال: يا أعْيَن، ألم يبلغك أن قومَك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرميّ بالبصره، يَدْعُون إلى فراقي وشقاقي ويساعدون الضُّلّال القاسطين عليّ!

فقال: لا تُسَأ يا أمير المؤمنين، ولا يكن ما تكره. ابعثني إليهم، فأنا لك زعيم بطاعتهم وتفريق جماعتهم، ونَفْي ابن الحضرميّ من البصرة أو قتله.

قال: فاخرج الساعة.

فخرج من عنده ومضى حتى قدم البصرة.

هذه رواية ابن هلال صاحب كتاب الغارات.

وروى الواقديّ أن علياً عليه السلام، استنفرَ بني تميم أياماً لينهض منهم إلى البصْرة مَنْ يكفيه أمرَ ابن الحضرميّ، ويردّ عادية بني تميم الذين أجاروه بها، فلم يُجِبه أحد، فخطبهم، وقال: أليس من العَجَب أن ينصرَني الأزد، وتخذُلَني مضر! وأعجب من ذلك تقاعدُ تميم الكوفة بي، وخلاف تميم البَصْرة عليّ، وأن أستنجد بطائفة منها، تشخص إلى إخوانها فتدعوهم إلى الرشاد، فإن أجابت وإلّا فالمنابذة والحرب. فكأني أخاطبُ صُمًّا بُكماً لا يفقهون حِواراً، ولا يجيبون نداء، كلُّ هذا جبناً عن البأس، وحُبًّا للحياة، لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتُل آباءنا وأبناءنا... الفصل إلى آخره.

قال: فقام إليه أعين بن ضُبَيعة المجاشعيّ، فقال: أنا - إنْ شاء الله - أكفيك يا أمير المؤمنين هذا الخَطْب، وأتكفَّلُ لك بقتل ابن الحضرميّ، أو إخراجه عن البصرة، فأمره بالتَّهَيُّؤ للشخوص، فشَخص حتى قدم البصرة[1].

قال إبراهيم بن هلال: فلما قدمها دخلَ على زياد وهو بالأزْد مقيم، فرحّب به وأجلسه إلى

(١) انظر الغارات: ٢/ ٣٩٧.

جانبه، فأخبره بما قال له عليّ عليه السلام، وما رَدّ عليه، وما الذي عليه رأيه، فإنه إذ يكلّمه جاءه كتاب من عليّ عليه السلام فيه:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن عبيد:

سلام عليك، أما بعد، فإني قد بعثت أعْين بن ضُبيعة، ليفرّق قومَه عن ابن الحضرميّ، فارقُبْ ما يكون منه، فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظنّ به، وكان في ذلك تفريق تلك الأوباش[1] فهو ما نحبّ، وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان، فانبذْ بمن أطاعك إلى مَنْ عصاك، فجاهدهم، فإن ظهرتَ فهو ما ظننت، وإلّا فطاوِلْهم وماطِلْهم، فكأنّ كتائب المسلمين قد أطلّت عليك، فقتّل الله المفسدين الظالمين، ونصر المؤمنين المحقّين، والسلام.

فلما قرأه زياد أقرأه أعين بن ضُبَيعة، فقال له: إني لأرجو أن يُكفَى هذا الأمر إن شاء الله. ثم خرج من عنده، فأتى رَحْله، فجمع إليه رجالاً من قومه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا قوم، على ماذا تقتُلون أنفسكم، وتُهْريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار! وإني والله ما جئتُكم حتّى عَبَّيْت إليكم الجنود، فإن تُنيبوا إلى الحقّ يقبل منكم، ويكفّ عنك وإن أبيتم فهو والله استئصالكم وبَوَاركم.

فقالوا: بل نسمع ونطيع. فقال: انهضوا الآن على بركة الله عزَّ وجل فنهض بهم إلى جماعة ابن الحضرميّ، فخرجوا إليه مع ابن الحضرميّ فصافّوه وواقفهم عامة يومه يُناشدهم الله، ويقول: يا قوم لا تنكثُوا بَيْعَتكم، ولا تخالفوا إمامَكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً، فقد رأيتم وجَرَّبتم كيفَ صنع الله بكم عند نَكْثكم بيعتكم وخلافِكم.. فكفُّوا عنه، ولم يكن بينه وبينهم قتال، وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه، فانصرف عنهم وهو منهم منتصف. فلما أوى إلى رحله تَبعه عشرة نفر يظنّ الناس أنّهم خوارج، فضربوه بأسيافهم وهو على فراشه، ولا يظن أنّ الذي كان يكون، فخرج يشتدّ عُرياناً، فلحقوه في الطريق فقتلوه، فأراد زياد أن يناهض ابنَ الحضرمي حين قتل أعين بجماعة مَنْ معه من الأزد وغيرهم من شيعة عليّ عليه السلام، فأرسل بنو تميم إلى الأزد، والله ما عرضْنا لجاركم إذ أجرتموه، ولا لمالٍ هُوَ لَهُ، ولا لأحدٍ ليس على رأينا، فما تريدون إلى حَرْبنا وإلى جارنا! فكأنّ الأزد عند ذلك كَرِهَتْ قتالهم.

فكتب زياد إلى عليّ عليه السلام: أما بعد يا أميرَ المؤمنين، فإن أعْيَن بن ضُبيعة قدِم علينا مِنْ قِبَلك بجدّ ومناصحة وصدق ويقين، فجمع إليه مَنْ أطاعه من عشيرته، فحثهم على الطاعة والجماعة، وحذّرهم الخلاف والفرقة، ثم نهض بمَنْ أقبل معه إلى مَنْ أدبر عنه، فواقفَهم عامَّة النهار، فهالَ أهلَ الخلاف تقدُّمُه، وتصدَّع عن ابن الحضرميّ كثير مِمَّن كان يريد نُصرته، فكان

---

(١) الأوباش من الناس الأخلاط، والضروب المتفرقون. اللسان، مادة (وبش).

كذلك حتى أمسى، فأتى في رَحْله فبيَّته نفر من هذه الخارجة المارقة، فأصيب رحمه الله تعالى، فأردتُ أن أناهضَ ابنَ الحضرمي عند ذلك، فحدث أمرٌ، قد أمرتُ صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين، وقد رأيتُ إنْ رأى أميرُ المؤمنين ما رأيت، أن يبعث إليهم جارية بن قُدامة، فإنه نافذ البصيرة، ومطاع في العشيرة، شديدٌ على عدوّ أمير المؤمنين، فإنْ يقدُم يفرِّق بينهم بإذن الله. والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما جاء الكتاب، دعا جارية بن قُدامة، فقال له: يابنَ قدامة، تمنع الأزد عاملي وبيت مالي، وتشاقّني مضر وتنابذني! وبنا ابتدأها الله تعالى بالكرامة، وعرَّفها الهدى، وتداعَوْا إلى المعشر الذينَ حادّوا الله ورسوله، وأرادوا إطفاء نور الله سبحانه، حتى علَتْ كلمة الله، وهلك الكافرون.

فقال: يا أمير المؤمنين، ابعثني إليهم، واستَعِنْ بالله عليهم. قال: قد بعثتك إليهم، واستعنت بالله عليهم.

قال إبراهيم: فحدثنا محمد بن عبد الله، قال: حدثني ابنُ أبي السيف، عن سليمان بن أبي راشد، عن كعب بن قُعين، قال خرجتُ مع جارية من الكوفة إلى البَصْرة في خمسين رجلاً من بني تميم، ما كان فيهم يمانيٌّ غيري، وكنتُ شديدَ التشيُّع، فقلت لجارية: إن شئتَ كنتُ معك، وإن شئت ملتُ إلى قومي! فقال: بل معي، فوالله لوَدِدْت أنّ الطير والبهائم تنصرُني عليهم، فضلاً عن الإنس.

قال: وروى كعب بن قعين أنّ عليًا عليه السلام كتب مع جارية كتاباً، وقال: اقرأه عَلَى أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخلنا البصرة، بدأ بزياد، فرحّب به وأجلَسه إلى جانبه، وناجاه ساعة وساءلَهُ، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أنْ قال: احذرْ على نفسك، واتَّقِ أنْ تَلْقَى ما لَقِي صاحبُك القادمُ قَبْلك.

وخرج جارية من عنده، فقام في الأزد، فقال: جزاكم الله من حَيٍّ خيراً! ما أعظم غَناءكم، وأحسنَ بلاءكم، وأطوعكم لأميركم! لقد عرفتم الحقَّ إذ ضَيَّعه مَن أنكره، ودَعَوْتم إلى الهدى إذ تركه مَنْ لم يعرفه. ثم قرأ عليهم وعلى مَنْ كان معه من شيعة عليٍّ عليه السلام وغيرهم - كتابَ علي عليه السلام، فإذا فيه:

من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى مَنْ قرىء عليه كتابي هذا من ساكِني البصرة من المؤمنين والمسلمين:

سلام عليكم، أما بعد فإنّ الله حَليم ذو أنَاةٍ، لا يَعْجَلُ بالعقوبة قَبْل البيّنة، ولا يؤخذ المذنب عند أول وَهْلة، ولكنه يقبل التوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة، ليكون أعظمَ للحجّة، وأبلغ في المعذرة، وقد كان من شقاق جُلّكم أيها الناس ما استحققتم أنْ تعاقَبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السَّيْف عن مُدْبركم، وقبلت من مُقْبلكم، وأخذت بيعتَكم، فإن تَفُوا ببَيعتي، وتقبلُوا نصيحتي، وتستقيموا على طاعتي، أعملْ فيكم بالكتاب والسنة وقَصْد الحق، وأقِمْ فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أنّ والياً بعد محمد ﷺ أعلمْ بذلك منّي، ولا أعمل بقولي. أقول قولي هذا صادقاً، غيرَ ذامٍّ لِمن مضَى، ولا منقصاً لأعمالهم، وإن خَبَطَتْ بكم الأهواء المُرْدِية، وسَفَهُ الرأي الجائر إلى منابذتي، تريدون خِلافي! فها أنا ذا قَرَّبْتُ جيادي، وَرَحَلْت ركابي، وايمْ الله لئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقِعَنّ بكم وَقْعَةً، لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلَعْقَة لاعق، وإني لظانّ ألّا تجعلوا - إن شاء الله - على أنفسكم سبيلاً. وقد قدّمت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم ولنْ أكتبَ إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتم نصيحتي، ونابذتُمُ رسولي، حتى أكونَ أنا الشَّاخص نحوكم، إن شاء الله تعالى. والسلام.

قال: فلما قرىء الكتاب على الناس قام صَبْرة بن شَيْمان، فقال: سمعنا وأطعنا، ونحن لمنْ حارب أمير المؤمنين حَرْب، ولمن سالم سِلْم، إن كَفَيْتَ يا جارية قومَك بقومك فذاك وإن أحببت أنْ ننصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه، ومضى نحو بني تميم.

فقام زياد في الأزد، فقال:

يا معشر الأزد، إنّ هؤلاء كانوا أمس سِلماً، فأصبحوا اليوم حرباً، وإنكم كنتم حَرْباً فأصبحتم سلماً، وإني والله ما اخترتكم إلا على التجربة، ولا أقمت فيكم إلا على الأمل، فما رضيتم أن أجرتموني، حتى نصبتم لي منبراً وسريراً، وجعلتم لي شُرَطاً وأعواناً، ومنادياً وجمعة، فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم، لا أُجْبيه اليوم، فإن لم أجبه اليوم أجْبِه غداً إن شاء الله. واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس عليًا، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة، وإنما أرسله عليٌّ ليصدَعَ أمرَ قومه، والله ما هو بالأمير المطاع، ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لكان لي تبعاً، وأنتم الهامةُ العظمى، والجَمْرة الحامية، فقدِّموه إلى قومه، فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبرة شَيْمان فقال: يا زياد، إني والله لو شهدتُ قومي يومَ الجمل، رجوتُ ألّا يقاتلوا علياً، وقد مضى الأمرُ بما فيه. وهو يوم بيوم، وأمْر بأمر، واللّهُ إلى الجزاء بالإحسان

أسرعُ منه إلى الجزاء بالسيّء، والتوبة مع الحقّ، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعوْنا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الأمور، ولكنها جماعة دماؤها حرام، وجرُوحها قصاص، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ.

فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظنّ في الناس مثل هذا.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: إنا والله ما أصِبْنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصِبْنا أمس يوم الجمل، وإنا لنرجو اليوم أن نُمَحّص ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين، وأمّا أنتَ يا زياد، فوالله ما أدركت أمَلك فينا، ولا أدركْنَا أملنا فيك دُون رَدّك إلى دارك، ونحن رادُوك إليها غداً إن شاء الله تعالى، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أوْلَى بك مِنّا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا، فقدّم هواك وأخّر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنفُر الحمّانيّ، فقال: أيّها الأمير، إنّك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سِرْ بنا إلى القوم إن شئت، وايمُ الله ما لقينا قوماً قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا، إلا ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأمّا جارية، فإنّه كلم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوباشٌ فناوشوه بعد أنْ شتموه وأسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزْد، يستصرِخهم، ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزْد بزياد، وخرج إليهم ابنُ الحضرميّ، وعلى خيله عبد الله بن خازم السُّلميّ، فاقتتلوا ساعة، وأقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعة عليّ عليه السلام، وصديقاً لجارية بن قدامة - فقال: ألا أقاتل معك عدوّك؟ فقال: بلى، فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضطروهم إلى دار سنبيل السعدي، فحصروا ابنَ الحضرميّ وحدُوه، فأتى رجل من بني تميم، ومعه عبد الله بن خازم السلميّ، فجاءت أمه وهي سوداء حبشية اسمها عجلى، فنادته، فأشرف عليها، فقالت: يا بُنيّ، انزل إليّ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قِناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت: والله لتنزلنّ أو لأتعرّينّ، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نَزَل، فذهبت به، وأحاط جارية وزياد بالدّار، وقال جارية: عليّ بالنار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنار في شيء، وهم قومُك وأنت أعلم، فحرّق جارية الدّار عليهم، فهلك ابنُ الحضرميّ في سبعين رجلاً، أحدهم عبد الرحمن بن عمير بن عثمان القرشي التيميّ، وسُمّيَ جارية منذ ذلك اليوم محرّقاً، وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة، ومعه بيت المال، وقالت له: هل بقي علينا مِنْ جوارك شيء؟ قال: لا، قالوا: فبرّئنا منه؟ فقال: نعم، فانصرفوا عنه، وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أما بعد، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرميّ بمن

نصره وأعانه من الأزد، ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقتِل ابنُ الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق بالنار، ومنهم من ألقى عليه جدار، ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه، ومنهم من قُتِل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل كتاب زياد قرأه عليّ عليه السلام على الناس، وكان زيد قد أنفذه مع ظَبْيان بن عُمارة، فسرّ علي عليه السلام بذلك وسُرّ أصحابه، وأثنى على جارية وعلى الأزد، وذمّ البصرة فقال: إنها أول القُرى خراباً، إما غرقاً وإما حرقاً، حتى يبقى مسجدها كجؤجؤ سفينة. ثم قال لظَبْيان: أين منزلك منها؟ فقال: مكان كذا، فقال: عليك بضواحيها.

وقال ابن العرندس الأزديّ يذكر تحريق ابن الحضرميّ، ويعيِّر تميماً بذلك:

رَدَدْنــــا زيـــاداً إلـــى دارِهِ ... وجـار تـمـيـم يـنـادي الـشَّـجَـبْ

لـحـا الله قـومـاً شَـوَوْا جـارهـم ... لَـعَـمْـرِي لبـئـس الـشَّـواء الـشُّـصُـبْ

يـنـادي الـخـنـاق وأبـنـاءهـا ... وقـد شَـيَّـطُـوا رأسَـهـا بـالـلَّـهَـبْ

والخناق لقب قوم بني تميم.

٥٦ - ومن كلام له عليه السلام لاصحابه يخبر عن رجل يامر بسبه

الأصل: أَما إِنَّه سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجلٌ رحْبُ الْبُلْعُوم، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لا يَجِدُ، فَاقْتُلوه - وَلَنْ تَقتُلوه. أَلَا وَإِنَّهُ سَيَأمُرُكُمْ بسبِّي والبَرَاءةِ مِنِّي، فأمَّا السَّبُ فَسُبُّونِي، فإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ وَلَكُمْ نَجاةٌ، وَأَمَّا البَرَاءةُ فَلَا تَتَبَرَّؤُوا مِنِّي، فإني وُلِدْتُ عَلَى الفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إلى ٱلْإِيمَانِ وَٱلْهِجْرَةِ.

الشرح: مُنْدَحق البطن: بارزها، والدَّحُوق من النوق: التي يخرج رَحِمها عند الولادة. وسيظهر: سيغلب. ورحب البُلعوم: واسعه.

وكثير من الناس يذهب إلى أنه عليه السلام عَنَى زياداً، وكثير منهم يقول: إنّه عَنَى الحجّاج. وقال قوم: إنه عَنَى المغيرة بن شعبة، والأشبه عندي أنه عَنَى معاوية، لأنه كان موصوفاً بالنَّهَم وكثرة الأكل، وكان بطيناً، يقعُد بطنُه إذا جلس على فَخُذَيه، وكان معاوية جواداً بالمال والصِّلات،

وبخيلاً على الطعام، يقال: إنه مازح أعرابياً على طعامه، وقد قُدّم بين يديه خروف، فأمعن الأعرابيّ في أكله، فقال له: ما ذنبه إليك، أنطحك أبوه؟ فقال الأعرابيّ: وما حُنُوُّك عليه؟ أأرضعْتك أمه!.

وقال لأعرابي يأكلُ بين يديه، وقد استعظم أكله: ألا أبغيك سِكّيناً؟ فقال: كلّ امرىء سِكّينُه في رَأْسِه، فقال: ما اسمُك؟ قال: لُقيم، قال: منها أُتيت.

كان معاوية يأكل فيكثر، ثم يقول: ارفعوا، فوالله ما شبِعت ولكن مَلِلْت وتعِبت.

تظاهرت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دَعَا عَلَى معاوية لَمَّا بعث إليه يستدعيه، فوجده يأكل، ثم بعث فوجده يأكل، فقال: «اللهم لا تُشبع بطنه»[1]، قال الشاعر:

وَصَاحِبٍ لِي بَطْنُه كَالْهَاوِيَهْ ... كَأَنَّ فِي أَحْشَائِهِ مُعَاوِيَهْ

وفي هذا الفصل مسائل:

الأولى: في تفسير قوله عليه السلام: «فاقتتلوا ولن تقتلوه» فنقول: إنه لا تنافيَ بين الأمر بالشيء والإخبار عن أنه لا يقع، كما أخبر الحكيم سبحانه عَنْ أنَّ أبا لَهب لا يؤمن وأمَره بالإيمان، وكما قال تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]، ثم قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾[3]، وأكثر التكليفات على هذا المِنْهاج.

أهل العدل والمجبرة وبعض المسائل الكلامية

واعلم أن أهل العدل والمجبرة لم يختلفوا في أنه تعالى قَدْ يأمر بما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عن أنه لا يقع، وإنما اختلفوا: هل يصحّ أن يريدَ ما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عنه أنه لا يقع؟ فقال أصحابنا: يصحّ ذلك، وقال المجبرة: لا يصحّ، لأنّ إرادة ما يعلم المريد أنه لا يقع قضية متناقضة، لأن تحت قولنا: «أراد» مفهوم أنّ ذلك المراد مما يمكن حصوله، لأنّ إرادة المحال ممتنعة. وتحت قولنا: «إنه يعلم أنه لا يقع» مفهوم أن ذلك المراد مما لا يمكن حصوله، لأنا قد فرضنا أنه لا يقع وما لا يقع لا يمكن حصولُه مع فرض كونه لا يقع، فقال لهم أصحابنا: هذا يلزمكم في الأمر، لأنّكم قد أجزتم أنْ يأمرَ بما يعلم أنّه لا يقع، فقالوا في الجواب: نحن عندنا أنه يأمر بما لا يريد، فإذا أمر بما يعلم أنه لا يقع، أو يخبر عن أنه لا

(١) أخرج نحوه مسلم في البر والصلة والآداب، باب: من لعنه النبي أو سبّه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك (٢٦٠٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٥.

يقع، كان ذلك الأمر أمراً عارياً عن الإرادة، والمحال إنما نشأ من إرادة ما علم المريد أنه لا يقع، وها هنا لا إرادة.

فقيل لهم: هب أنكم ذهبتم إلى أن الأمر قد يعْرَى من الإرادة مع كونه أمراً، ألستم تقولون: إن الأمر يدلّ على الطلب، والطلب شيء آخر غير الإرادة! وتقولون: إن ذلك الطلب قائم بذات الباريء، فنحن نُلْزِمكم في الطالب القائم بذات الباريء، الذي لا يجوز أن يَعْرَى الأمر منه ما ألزمتمونا في الإرادة.

ونقول لكم: كيف يجوز أن يطلب الطالب ما يعلم أنّه لا يقع! أليس تحت قولنا: طلب مفهوم، أن ذلك المطلوب مما يمكن وقوعه! فالحال في الطلب كالحال في الإرادة، حَذْو النّعل بالنّعل. ولنا في هذا الموضع أبحاث دقيقة ذكرناها في كتبنا الكلامية.

معاوية يأمر بسب علي عليه السلام

المسألة الثانية: في قوله عليه السلام: «يأمركم بسبّي والبراءة مني»، فنقول: إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ عليّ عليه السلام والبراءة منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة في أيام بني أمية إلى أنْ قام عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه فأزاله. وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللهم إنّ أبا تراب ألْحَد في دينك، وصدّ عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرّد في «الكامل»[1] أن خالد بن عبد الله القسريّ لمّا كان أمير العراق في خلافة هشام، كان يلعن عليًّا عليه السلام على المِنْبر، فيقول: اللهمّ الْعن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته، وأبا الحسن والحسين! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كَنَّيت!.

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بني أميّة قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنّك قد بلغتَ

(١) «الكامل في اللغة»: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، المتوفى سنة (٢٨٥)، «كشف الظنون» (١/ ١٣٨٢).

ما أمّلت، لو كففت عن لَعْن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربوَ عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً!.

وقال أبو عثمان أيضاً: وما كان عبد الملك - مع فَضْله وأناته وسَدَاده ورُجْحانه - ممن يخفى عليه فضلُ عليّ عليه السلام، وأنّ لعنه على رؤوس الأشهاد وفي أعطاف الخطب، وعلى صَهَوات المنابر مما يعود عليه نقصه، ويرجع إليه وهنه، لأنهما جميعاً من بني عبد مناف، والأصل واحد، والجرثومة منبت لهما، وشرف عليّ عليه السلام وفضله عائد عليه، ومحسوب له، ولكنه أراد تشييدَ الملك وتأكيدَ ما فعله الأسلاف، وأن يقرّر في أنفُس الناس أنّ بني هاشم لا حَظّ لهم في هذا الأمر، وأنّ سيّدَهم الذي به يصولون، وبفخره يفخرون، هذا حاله وهذا مقداره، فيكون مَنْ ينتمي إليه ويُدْلي به عن الأمر أبعد، وعن الوصول إليه أشْحَط وأنْزَحَ.

وروى أهل السِّيرة أن الوليد بن عبد الملك في خلافته ذكر علياً عليه السلام، فقال: «لعنه اللّهِ - بالجر - كان لص ابن لص».

فعجب الناس من لَحْنه فيما لا يلحن فيه أحد، ومِنْ نسبته علياً عليه السلام إلى اللصوصيّة وقالوا: ما ندري أيّهما أعجب! وكان الوليد لحّاناً.

وأمر المغيرة بن شعبة - وهو يومئذٍ أمير الكوفة مِنْ قِبَل معاوية - حُجْر بن عديّ أن يقوم في الناس، فليلعنَ علياً عليه السلام، فأبى ذلك، فتوعده، فقام فقال: أيّها الناس، إن أميركم أمرني أن ألعن علياً فالعنوه فقال أهل الكوفة: لعنه الله، وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد.

وأراد زياد أن يَعْرِض أهلَ الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه وأن يقْتُلَ كلَّ من امتنع من ذلك، ويُخرِّب منزله، فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون، فمات - لا رحمه الله - بعد ثلاثة أيام، وذلك في خلافة معاوية.

وكان الحجاج - لعنه الله - يلعنُ عليًا عليه السلام، ويأمر بلعنه. وقال له متعرّض به يوماً وهو راكب: أيها الأمير، أنّ أهلِي عَقّوني فسمّوني علياً، فغيِّرْ اسمي، وصلني بما أتبلّغ به فإني فقير. فقال: لِلُطف ما توصلت به قد سمّيْتُك كذا، ووليتك العمل الفلانيّ فاشْخَصْ إليه.

فأما عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فإنه قال: كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عُتبة بن مسعود، فمرَّ بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعنُ عليًا، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان وجئت إليه لأدرس عليه وِرْدي، فلما رآني قام فصلّى وأطالَ في الصلاة - شِبْه المعرِض عَنّي - حتى أحسست منه بذلك، فلما انفتل من صلاته كَلَح في وجْهي، فقلت له: ما بال الشيخ؟ فقال لي: يا بنيّ، أنت اللاعن عَليًّا منذ اليوم؟ قلت: نعم، قال: فمتى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر بعد أن رَضِيَ عنهم! فقلت: يا أبت، وهل كان عليّ من أهل

بدرا! فقال: ويحك! وهل كانت بدر كلُّها إلا له! فقلت: لا أعود، فقال: اللّهَ أنك لا تعود! قلت: نعم فلم ألعنه بعدها. ثم كنتُ أحضرُ تحت مِنْبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة - وهو حينئذٍ أمير المدينة - فكنت أسمع أبي يمر في خِطَبِه تهدِر شقاشقه، حتى يأتيَ إلى لعن عليّ عليه السلام فيجمْجِمُ، ويعرِض له من الفهاهة والحَصَر ما الله عالم به، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوماً: يا أبتِ، أنت أفصحُ الناس وأخطبهم، فما بالِي أراك أفصحَ خطيب يوم حَفْلك، حتى إذا مَرَرْتَ بلعْن هذا الرجل، صِرْتَ ألكن عليًّا!! فقال: يا بنيّ، إنّ مَنْ ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد. فوقرت كلمتُه في صدري، مع ما كان قاله لي معلمي أيام صِغَري، فأعطيت الله عهداً، لئن كان لي في هذا الأمر نصيب لأغيِّرنّه، فلما مَنّ الله عليّ بالخلافة أسقطت ذلك، وجعلت مكانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، وكتب به إلى الآفاق فصار سنّة.

وقال كثيّر بن عبد الرحمن يمدح عُمَرَ ويذكر قطعه السبَّ:

وَلِيت فلم تشتِم علياً ولم تُخِفْ ... بريّاً ولم تَقْبَلْ إسَاءَةَ مُجْرِمِ
وكفَّرت بالعفو الذنوب مع الّذِي ... اتيتَ فأضحى راضياً كلُّ مسلِمِ
ألا إنما يكفي الفَتَى بعد زَيْغهِ ... من الأَوَدِ البادي ثِقافُ المقوّمِ
وما زلتَ تَوّاقاً إلى كلِّ غايةٍ ... بلغت بها أعْلَى العَلاء المُقَدَّمِ
فلما أتاك الأمر عَفْواً ولم يكنْ ... لطالبِ دنيا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ
تركتَ الذي يَفْنَى لأنْ كانَ بائداً ... وآثرت ما يَبْقَى برأيٍ مصمّمِ

وقال الرضيّ أبو الحسن رحمه الله تعالى:

يَابنَ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ ٱلْعَـ ... ـيْنُ فتًى مِنْ أُمَيَّةٍ لَبَكَيْتُكْ
غيرَ أني أقول إنّكَ قَدْ طِبْـ ... ـتَ وإن لم يَطِبْ ولَمْ يَزْكُ بيتُكْ
أنتَ نزّهتَنا عن السبّ والقَذْ ... فِ، فلو أمكنَ الجزاء جَزَيْتُكْ
ولو انّي رأيت قبرك لاستَحْيـ ... ـيتُ مِنْ أن أرَى وَمَا حَيّيْتُكْ
وقليلٌ أنْ لو بَذَلْتُ دِماء الـ ... ـبُدن صِرْفاً على الذُّرا وَسَقَيْتُكْ
دَيْرَ سَمْعانَ: فيك مأوى أبي حفـ ... ـصٍ بودّي لو أنني آويتُكْ
دَيْرَ سَمْعَانَ، لا أغبَّك غيثٌ ... خَيْرُ مَيْتٍ من آل مَرْوَانَ مَيتُكْ

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

أنتَ بالذِّكرِ بَيْنَ عَيْنِي وَقَلْبِي ... إنْ تدانيتُ مِنْكَ أوْ إنْ نأيتُكْ
وإذا حرّكَ الحشا خاطرٌ منـ ... ـك توهّمتُ أنّني قد رأيتُكْ
وعجيبٌ أني قَليتُ بَنِي مَرْ ... وان طُرًّا وأنّني ما قليتُكْ
قرّب العدلُ منك لما نأى الجوْ ... رُ بهم فاجتويتُهمْ واجْتَبيتُكْ
فَلَوْ أنّي ملكتُ دفعاً لما نا ... بك من طارقِ الردى لَفَدَيتُكْ

روى ابن الكلبيّ، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن السائب، قال: قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هانىء، وهو رجل من بني أَوْد - حيّ من قَحْطان - وكان شريفاً في قومه، قد شهد مع الحجاج مشاهده كلّها، وكان من أنصاره وشيعته: والله ما كافأتك بعد! ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة سيّد بني فزارة: أنْ زَوِّجْ عبد الله بن هانىء بابنتك، فقال: لا والله ولا كرامة! فدعا بالسياط، فلما رأى الشرّ قال: نعم أزوّجه، ثم بعث إلى سعيد بن قيس الصمداني رئيس اليمانية: زوج ابنتك من عبد الله بن أود، فقال: ومَنْ أَوْد! لا والله لا أزوّجه ولا كرامة! فقال: عليّ بالسيف، فقال: دَعْنَي حتى أشاور أهلي، فشاورهم، فقالوا: زَوِّجه ولا تعرِّض نفسك لهذا الفاسق، فزوّجه. فقال الحجاج لعبد الله: قد زوَّجتُك بنت سيّد فزارة وبنت سَيّد همدان، وعظيم كهلان وما أَوْدٌ هناك فقال: لا تَقُل أصلح الله الأمير ذاك! فإنّ لنا مناقبَ ليست لأحدٍ من العرب، قال: وما هي؟ قال: ما سُبَّ أمير المؤمنين عبد الملك في نادٍ لنا قَطّ، قال: منقبة والله، قال: وشهد مِنّا صِفّين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، ما شهد منا مع أبي تراب إلا رجل واحد، وكان والله ما علمته امْرَاً سوء، قال: منقبة والله، قال: ومنّا نسوة نَذَرْن: إن قتل الحسين بن علي على أنْ تنحر كلّ واحدة عشر قلائص، ففعلن، قال: منقبة والله، قال: وما مِنّا رجل عُرِضَ عليه شتمُ أبي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيْه حسناً وحسيناً وأمهما فاطمة، قال: منقبة والله، قال: وما أحدٌ من العرب له من الصباحة والملاحة ما لنا، فضحك الحجاج، وقال: أما هذه يا أبا هانىء فدعها. وكان عبدُ الله دميماً شديد الأُدْمة مجدوراً، في رأسه عَجَر، مائل الشَّدق، أحوَل، قبيح الوجه، شديد الحوَل.

وكان عبد الله بن الزبير يُبْغض علياً عليه السلام، وينتقصه وينال من عِرْضه.

وروى عمر بن شبّه وابنُ الكلبيّ والواقديّ وغيرهم من رواة السير، أنه مكث أيام ادعائه الخلافة أربعين جمعة لا يصلّي فيها على النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال: لا يمنعني من ذِكْره إلا أن تشمَخ رجال بآنافها.

وفي رواية محمد بن حبيب وأبي عبيدة معمر بن المثنى: أنّ له أُهَيْلَ سوء يُنغِضون رؤوسهم عند ذكره.

وروى سعيد بن جُبير أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن عباس: ما حديثٌ أسمعه عنك؟ قال: وما هو؟ قال: تأنيبي وذمّي! فقال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بئس المرء المسلم يَشْبَع ويجوعُ جاره»[١]، فقال ابن الزبير: إني لأكتُم بغضَكم أهلَ هذا البيت منذ أربعين سنة، وذكر تمام الحديث.

وروى عمر بن شبّة أيضاً عن سعيد بن جُبير، قال: خطب عبدُ الله بن الزبير، فنال من عليّ عليه السلام، فبلغ ذلك محمد بن الحنفيّة، فجاء إليه وهو يخطُب، فوضِع له كرسيّ، فقطع عليه خطبتَه، وقال: يا معشرَ العرب، شاهت الوجوه! أيُنتقصُ عليّ وأنتم حضور! إنّ عليًّا كان يدَ الله على أعداء الله، وصاعقةً من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقّه، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه، وأضمروا له الشّنَف[٢] والحسد، وابن عمه ﷺ حيّ بعدُ لم يمت، فلما نقله الله إلى جواره، وأحبّ له ما عنده، أظهرتْ له رجال أحقادها، وشفَتْ أضغانها، فمنهم مَن ابتزّ حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطيل، فإن يكن لذرّيته وناصري دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفِر على أجسادهم، والأبدانُ منهم يومئذٍ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذلّ رقابهم، فيكون الله عزّ اسمُه قد عذّبَهُم بأيدينا وأخزاهم، ونصرنا عليهم، وشفَا صدورَنا منهم، إنه والله ما يشتم علياً إلا كافر يُسِرّ شتم رسول الله ﷺ ويخاف أن يبوحَ به، فيكني بشتم عليّ عليه السلام عنه. أما إنه قد تخطّت المنيّة منكم مَن امتدّ عمره، وسمع قولَ رسول الله ﷺ فيه: «**لا يحبّك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**»[٣]، فعاد ابنُ الزبير إلى خطبته، وقال: عذرتُ بني الفواطم يتكلّمون، فما بالِ ابن أم حنيفة! فقال محمد: يابن أمّ رُومان، وما لي لا أتكلم! وهل فاتني من الفواطم إلا واحدة! ولم يفتني فخرها، لأنها أمّ أخويّ أنا ابن فاطمة بنت عمران بن عائذ بنِ مخزوم، جدة رسولِ الله ﷺ، وأنا ابن فاطمة بنت أسد بن هاشم، كافلة رسول الله ﷺ، والقائمة مقام أمّه، أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركتُ في بني أسد بن عبد العزى عظماً إلا هشمته! ثم قام فانصرف.

---

١) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٢١٦٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦٩٩)، والطبراني في «الكبير» (٧٥١).

٢) الشنف شدة البغضة. اللسان، مادة (شنف).

٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٦)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين في الجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٧٣٣)، دون قوله: «وسيعلم... إلخ».

الأحاديث الموضوعة في ذمّ علي عليه السلام

وذكر شيخُنا أبو جعفر الإسكافيّ رحمه الله تعالى - وكان من المتحقّقين بموالاة عليّ عليه السلام، والمبالغين في تفضيله، وإن كان القولُ بالتَّفْضِيل عاماً شائعاً في البغداديين من أصحابنا كافة، إلا أنّ أبا جعفر أشدُّهم في ذلك قولاً، وأخلصهم فيه اعتقاداً - أن معاويةَ وضعَ قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ عليه السلام، تقتضي الطعنَ فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعلاً يُرْغَبُ في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير.

روى الزهريّ أن عروة بن الزبير حدّثه، قال: حدثتْني عائشة، قال: كنتُ عند رسول الله إذ أقبل العباس وعليّ، فقال: يا عائشة، إن هذين يموتان على غير ملّتي - أو قال ديني[1].

وروى عبد الرزاق عن معمر، قال: كان عند الزهريّ حديثان عن عُروة عن عائشة في عليّ عليه السلام، فسألتُه عنهما يوماً، فقال: ما تصنع بهما، وبحديثهما! الله أعلم بهما، إنّي لأتهمهما في بني هاشم.

قال: فأمّا الحديث الأول فقد ذكرناه، وأما الحديث الثاني فهو أن عُروة زعم أن عائشة حدثته، قالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبل العباس وعليّ، فقال: «يا عائشة، إن سَرّكِ أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا»، فنظرت، فإذا العباس وعليّ بن أبي طالب[2].

وأما عمرو بن العاص، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّ آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنّما وليّي الله وصالح المؤمنين**»[3].

وأما أبو هريرة، فروى عنه الحديث الذي معناه أن علياً عليه السلام خطب ابنة أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأسخطه، فخطب على المنبر، وقال: «**لاها الله لا تجتمع ابنة وليّ الله وابنة عدو الله أبي جهل! إنّ فاطمة بَضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها، فإن كان عليّ يريد ابنةَ أبي جهل**

(١) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٠/ ٤٠٢، والعسكري في أحاديث عائشة: ١/ ٣٧٤.
(٢) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٠/ ٤٠٢.
(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب: تبل الرحم ببلالها، ومسلم في الإيمان، باب: موالاة المؤمنين (٢١٥) دون قوله: «طالب».

فليفارق ابنتي، وليفعل ما يريد»[1]، أو كلاماً هذا معناه، والحديث مشهور من رواية الكرابيسيّ.

قلت: هذا الحديث أيضاً مخرج في صحيحي مسلم والبخاري عن المِسْوَر بن مخرمَة الزهريّ، وقد ذكره المرتَضى في كتابه «المسمى تَنْزيه الأنبياء والأئمة» وذكر أنه رواية حسين الكرابيسيّ، وأنه مشهور بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، وعدواتهم والمناصبة لهم، فلا تقبل روايتُه.

ولشياع هذا الخبر وانتشارِه ذكره مرْوان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها الرشيد، ويذكر فيها ولد فاطمة عليهم السلام ويُنْحِي عليهم، ويذمّهم، وقد بالغ حين ذمّ علياً عليه السلام ونال منه، وأولها:

سلام على جمل، وهيهات من جمل ... ويا حبّذا جملٌ وإن صَرَمَتْ حبلي

يقول فيها:

عليّ أبوكمْ كان أفضلَ منكمُ ... أباه ذوُو الشورى وكانوا ذَوِي الفَضْلِ
وساء رسولَ الله إذا ساء بنتَه ... بخِطْبته بنتَ اللعين أبي جهلِ
فذمَّ رسول الله صهر أبيكمُ ... على مِنْبَرٍ بالمنطق الصادع الفَصْلِ
وحكّم فيها حاكمين أبوكمُ ... هما خلعاه خَلْعَ ذِي النَّعْل للنعلِ
وقد باعها من بعده الحسنُ ابنُه ... فقد أبطلت دعواكمُ الرثّةُ الحبْلِ
وخلّيتمُوها وهي في غيرِ أهلها ... وطالبتُموها حين صارتْ إلى أهلِ

وقد رُوي هذا الخبر على وجوه مختلفة، وفيه زيادات متفاوتة، فمن الناس من يروي فيه: «مهما ذممنا من صهرٍ فإنا لم نذمَ صهر أبي العاص بن الربيع»، ومن الناس من يروي فيه: «ألا إن بني المغيرة أرسلوا إلى عليٍّ ليزوجوه كريمتهم...» وغير ذلك.

وعندي أن هذا الخبر لو صحّ لم يكن على أمير المؤمنين فيه غضاضة ولا قَدْح، لأنّ الأمة مجمعة على أنّه لو نكح ابنةَ أبي جهل، مضافاً إلى نكاح فاطمة عليها السلام لجاز، لأنه داخل تحت عموم الآية المبيحة للنساء الأربع، فابنةُ أبي جهل المشارُ إليها كانت مسلمة، لأنّ هذه

---

(١) أخرج نحوه البخاري في المناقب، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٤٩)، والترمذي في المناقب، باب: فضل فاطمة بنت محمد ﷺ (٣٨٦٧)، وأبو داود في النكاح، باب: ما يكره أن يجمع بينهن من النساء (٢٠٧١).

القصة كانت بعد فتح مكة، وإسلام أهلها طوعاً وكرهاً، ورواة الخبر موافقون على ذلك، فلم يبق إلا أنه إنْ كان هذا الخبر صحيحاً فإن رسول الله ﷺ لمّا رأى فاطمة عليها السلام قد غارت، وأدركها ما يدرِك النساء، عاتب علياً عليه السلام عتابَ الأهل، وكما يستثبت الوالد رأي الولد، ويستعطفه إلى رضا أهله وصلح زوجته. ولعلّ الواقع كان بعض هذا الكلام فحرِّف وزيد فيه. ولو تأملت أحوال النبي ﷺ مع زوجاته، وما كان يجري بينه وبينهنّ من الغضب تارة، والصلح أخرى، والسخط تارة والرضا أخرى، حتى بلغ الأمرُ إلى الطلاق مرة، وإلى الإيلاء مرة، وإلى الهَجْر والقطيعة مرة، وتدبرت ما ورد في الروايات الصحيحة مما كُنّ يلقَيْنَه عليه السلام به، ويُسْمِعْنه إياه، لعلمت أنّ الذي عاب الحسَدة والشانئون عليًّا عليه السلام به بالنسبة إلى تلك الأحوال قطرة من البحر المحيط، ولو لم يكن إلا قصة مارية وما جرى بين رسول الله ﷺ وبين تَيْنِك الامرأتين من الأحوال والأقوال، حتى أنزل فيهما قرآن يُتْلَى في المحاريب، ويكتَب في المصاحف، وقيل لهما ما لا يقال للإسكندر ملك الدنيا لو كان حياً، منابذاً الرسول ﷺ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[(1)]، ثم أردف بعد ذلك بالوعيد والتخويف: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾[(2)] الآيات بتمامها، ثم ضرب لهما مثلاً امرأة نوح وامرأة لوط اللتين خانتا بعلَيْهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وتمام الآية معلوم. فهل ما روي في الخبر مِنْ تَعَصُّب فاطمة على عليّ عليه السلام وغَيْرتها من تعريض بني المغيرة له بنكاح عقيلتهم، إذا قُويس إلى هذه الأحوال وغيره ممّا كان يجري إلّا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس! ولكنّ صاحب الهوى والعصبية لا علاج له.

ثم نعود إلى حكاية كلام شيخنا أبي جعفر الإسكافيّ رحمه الله تعالى. قال أبو جعفر: وروى الأعمش، قال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عامَ الجماعة، جاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة مَن استقبله من الناس جَثا على ركبتيه، ثم ضرب صَلْعته مراراً، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسله، وأحرق نفسي بالنار! والله لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ لكل نبيّ حَرَماً، وإنّ حَرَمي بالمدينة، ما بين عَيْر إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[(3)]، وأشهد بالله أن عليًّا أحدث فيها: فلما بلغ معاوية قولُه أجازه وأكرمه وولّاه إمارة المدينة.

قلت: أمّا قوله: «ما بين عَيْر إلى ثور»، فالظاهر أنّه غلط من الراوي، لأن ثوراً بمكة وهو

---

(1) سورة التحريم، الآية: ٤. (2) سورة التحريم، الآية: ٥.

(3) أخرجه البخاري في الفرائض، باب: من تبرأ من مواليه (٦٧٥٥)، ومسلم في العتق باب: تحريم تولي العتيق غير مواليه (١٣٧٠)، والترمذي في الولاء والهبة، باب: ما جاء فيمن تولى غير مواليه (٢١٢٧)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٦١٦).

جبل يقال له: ثَوْر أطحل، وفيه الغار الذي دخله النبي ﷺ وأبو بكر، وإنما قيل: «أطحل» لأن أطحل بن عبد مناف بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن عدنان كان يسكنه. وقيل: اسم الجبل أطْحَل، فأضيف «ثور» إليه، وهو ثور بن عبد مناف، والصواب: «ما بين عَيْر إلى أُحُد».

فأما قول أبي هريرة: «إنّ علياً عليه السلام أحدَث في المدينة»، فحاش لله! كان عليّ عليه السلام أتقى لله من ذلك، والله لقد نَصَر عثمان نصراً لو كان المحصورُ جعفر بن أبي طالب لم يبذُلْ له إلا مثله.

قال أبو جعفر: وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضيّ الرواية، ضربَه عمر بالدِّرة، قد أكثرتَ من الرواية وأحْرِ بك أن تكون كاذباً على رسول الله ﷺ!

وروى سفيان الثوريّ عن منصور، عن إبراهيم التيميّ، قال: كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلّا ما كانَ من ذِكْر جنة أو نار.

وروى أبو أسامة عن الأعمش، قال: كان إبراهيمُ صحيحَ الحديث، فكنتُ إذا سمعت الحديث أتيتُه فعرضتُه عليه، فأتيته يوماً بأحاديث من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، فقال: دعني من أبي هريرة، إنهم كانوا يتركون كثيراً من حديثه.

وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: ألا إنّ أكذبَ الناس - أو قال: أكذب الأحياء - على رسول الله ﷺ أبو هريرة الدَّوْسيّ.

وروى أبو يوسف، قال: قلت لأبي حنيفة: الخبر يجيء عن رسول الله ﷺ، يخالف قياسَنا ما تصنع به؟ قال: إذا جاءت به الرواة الثقاتُ عَمِلْنا به وتركنا الرأي، فقلت: ما تقول في رواية أبي بكر وعمر؟ فقل: ناهيك بهما! فقلت: عليّ وعثمان، قال: كذلك، فلما رآني أعُدّ الصحابة قال: والصحابةُ كلّهم عدول ما عدَا رجالاً، ثم عدّ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك.

وروى سُفيان الثوريّ، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن عمر بن عبد الغفار، أنّ أبا هريرة لما قدِم الكوفة مع معاوية، كان يجلس بالعشِيّات بباب كِنْدة، ويجلس الناس إليه، فجاء شابٌّ من الكوفة، فجلس إليه، فقال: يا أبا هريرة، أنشُدُك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ بن أبي طالب: «اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه»! فقال: اللهم نعم، قال: فأشهد بالله، لقد واليتَ عدوّه، وعاديت وليّه! ثم قام عنه.

وروت الرواة أنَّ أبا هريرة كان يؤاكل الصبيان في الطريق، ويلعب معهم، وكان يخطُب وهو أمير المدينة، فيقول: الحمد لله الذي جعل الدّين قياماً، وأبا هريرة إماماً، يُضحك الناس بذلك. وكان يمشي وهو أمير المدينة في السُّوق، فإذا انتهى إلى رجل يمشي أمامه، ضرب برجليه الأرض، ويقول: الطريق الطريق! قد جاء الأمير! يعني نفسه.

قلت قد ذكر ابن قتيبة هذا كله في كتاب «المعارف» في ترجمة أبي هريرة، وقوله فيه حجّة لأنه غيرُ متّهم عليه.

قال أبو جعفر: وكان المغيرة بن شعبة يلعَنُ علياً عليه السلام لعناً صريحاً على مِنْبر الكوفة، وكان بلغه عن عليّ عليه السلام في أيام عمر أنه قال: لئن رأيتُ المغيرة لأرجُمَنّه بأحجاره - يعني واقعة الزنى بالمرأة التي شهد عليه فيها أبو بكْرة، ونكَل زياد عن الشهادة - فكان يُبغضه لذلك ولغيره من أحوال اجتمعت في نفسه.

قال: وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الزَّمَع عند ذكر عليّ عليه السلام فيسبه ويضرب بإحدَى يديه على الأخرى، ويقول: وما يغني أنه لم يخالف إلى ما نُهي عنه، وقد أراق مِنْ دماء المسلمين ما أراق!.

قال: وقد كان في المحدّثين مَنْ يُبغضه عليه السلام، ويروي فيه الأحاديثَ المُنكرة، منهم حَريز بن عثمان، كان يُبغضه وينتقصه، ويروي فيه أخباراً مكذوبة. وقد روى المحدِّثون أنّ حَرِيزاً رئِيَ في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: كاد يغفر لي لولا بغض عليّ.

قلت: قد روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب «السقيفة» قال: حدثني أبو جعفر بن الجنيد، قال: حدثني إبراهيم بن الجنيد، قال: حدثني محفوظ بن المفضل بن عمر، قال: حدثني أبو البُهلول يوسف بن يعقوب، قال: حدثنا حمزة بن حسان - وكان مولّى لبني أمية، وكان مؤذّناً عشرين سنة، وحجّ غير حجة، وأثنى أبو البهلول عليه خيراً - قال: حضرت حَرِيز بن عثمان، وذكَر عليّ بن أبي طالب، فقال: ذاك الذي أحلّ حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى كاد يقع.

قال محفوظ: قلت ليحيى بن صالح الوُحاظيّ: قد رويت عن مشايخ مِنْ نظراء حَرِيز! فما بالك لم تحمِلْ عن حَرِيز! قال: إني أتيته فناولَني كتاباً، فإذا فيه: حدثني فلان عن فلان أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما حضرتْه الوفاة أوصى أن تُقطعَ يدُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فرددت الكتاب، ولم أستحل أنْ أكتب عنه شيئاً.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو جعفر، قال: حدّثني إبراهيم، قال: حدّثني محمد بن عاصم، صاحب الخانات، قال: قال لنا حريز بن عثمان: أنتم يا أهل العراق تحبُّون عليّ بن أبي طالب عليه السلام ونحن نبُغضه، قالوا: لم؟ قال: لأنه قتل أجدادي.

قال محمد بن عاصم: وكان حَرِيز بن عثمان نازلاً علينا.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: وكان المغيرة بن شعبة صاحبَ دنيا، يبيع دينه بالقليل النَّزر

منها ويُرضِي معاوية بذكر عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال يوماً في مجلس معاوية: إن علياً لم يُنْكِحْه رسولُ الله ابنته حبًّا، ولكنه أراد أن يكافىء بذلك إحسان أبي طالب إليه.

قال: وقد صح عندنا أن المغيرة لعنَه على منبر العراق مراتٍ لا تحصى، ويروى أنه لما مات ودفنُوه، أقبل رجل راكب ظَلِيماً، فوقف قريباً منه ثم قال:

أمِنْ رَسْمِ دارٍ من مغيرة تعرفُ ... عليها زواني الإنس والجن تَعْزِفُ

إنْ كنتَ قد لاقيتَ فِرْعَوْنَ بَعْدَنا ... وهامان فاعلم أن ذا العرش منصِفُ

قال: فطلبوه فغاب عنهم ولم يَرَوْا أحداً، فعلموا أنه من الجنّ.

قال: فأما مروان بن الحكم فأحقر وأقلّ من أن يذكر في الصحابة الذين قد غمصّناهم وأوضحنا سوء رأينا فيهم، لأنه كان مجاهراً بالإلحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطَّريدان اللعينان، كان أبوه عدوَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يحكِيه في مَشْيه، ويغمز عليه عينَه، ويُدْلِع له لسانه ويتهكم به، ويتهانَف عليه[1]، هذا وهو في قبضتِه وتحت يده، وفي دار دَعْوته بالمدينة، وهو يعلم أنه قادر على قتله أيّ وقت شاء من ليل أو نهار، فهل يكون هذا إلا من شانىء شديد البِغْضة، ومستحكم العدواة، حتى أفضى أمرُه إلى أن طرده رسول الله صلى الله عليه وآله عن المدينة، وسيّره إلى الطائف!

وأما مَرْوان ابنُه فأخبَثُ عقيدةَ، وأعظم إلحاداً وكفراً، وهو الذي خطب يوم وصل إليه رأس الحسين عليه السلام إلى المدينة، وهو يومئذٍ أميرها وقد حمل الرأس على يديه فقال:

يا حَبَّذا بردُك في اليَدَيْنِ ... وَحُمْرَةٌ تَجْرِي عَلَى الخَدَّيْنِ

كأنَّما بِتّ بمسجدين

ثم رمى بالرأس نحو قبر النبيّ، وقال يا محمد، يوم بيوم بدر. وهذا القول مشتق من الشعر الذي تمثّل به يزيد بن معاوية وهو شعر ابن الزِّبَعْرَى يوم وصل الرأس إليه.

والخبر مشهور.

قلت: هكذا قال شيخنا أبو جعفر، والصحيح أنّ مروان لم يكن أميرَ المدينة يومئذٍ بل كان أميرَها عمرو بن سعيد بن العاص، ولم يحمَل إليه الرأس، وإنما كتب إليه عُبيد الله بن زياد يبشّره بقتْل الحسين عليه السلام، فقرأ كتابه على المنبر، وأنشد الرجز المذكور، وأومأ إلى القبر قائلاً: يوم بيوم بَدْر، فأنكر عليه قوله قومٌ من الأنصار. ذكر ذلك أبو عُبيدة في كتاب «المثالب».

---

(١) تهانف به: تضاحك، والمهانفة الملاعبة أيضاً. اللسان، مادة (هنف).

قال: وروى الواقدي: أن معاوية لما عادَ من العراق إلى الشام بعد بَيْعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال: أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي: «**إنك ستلِي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة، فإن فيها الأبدال**»[1]، وقد اخترتكم، فالعنوا أبا تراب. فلعنوه، فلما كان من الغد كتب كتاباً، ثم جمعهم فقرأه عليهم، وفيه: هذا كتابٌ كتبه أمير المؤمنين معاوية، صاحب وحي الله الذي بعثَ محمداً نبياً، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فاصطفى له مِنْ أهله وزيراً كاتباً أميناً، فكان الوحي ينزلُ على محمد وأنا أكتبه، وهو لا يعلم ما أكتب، فلم يكن بيني وبين الله أحدٌ من خَلْقِه. فقال له الحاضرون كلهم: صدقت يا أمير المؤمنين.

قال أبو جعفر: وقد روى أن معاوية بذَل لِسَمُرة بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروى أن هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[2]، وأنّ الآية الثانية نَزلت في ابن مُلجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[3]، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل، وروى ذلك.

قال: وقد صحّ أنّ بني أميّة مَنَعُوا من إظهار فضائل عليّ عليه السلام، وعاقبوا على ذلك الراوي له، حتى إنّ الرجلَ إذا رَوَى عنه حديثاً لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدِّين لا يتجاسرُ على ذكر اسمه، فيقول: عن أبي زينب.

وروى عطاء، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: ودِدْتُ أن أترَك فأحدِّث بفضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوماً إلى الليل، وأنّ عُنُقي هذه ضربت بالسيف.

قال: فالأحاديث الواردة في فضله لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة النقل إلى غاية بعيدة، لا نقطع نقلُها للخوف والتقيّة من بني مروان مع طول المدّة، وشدة العداوة، ولولا أنّ لِلّه تعالى في هذا الرجل سرًّا يعلمه مَنْ يعلمه لم يُرْوَ في فضله حديث، ولا عُرِفَتْ له منقبة، ألا ترى أنّ رئيس قرية لو سخُط على واحد من أهلها، ومنع النّاسَ أن يذكروه بخيرٍ وصلاح لخمل ذكره، ونسي اسمه، وصار وهو موجود معدوماً، وهو حيٌّ ميتاً! هذه خلاصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر رحمه الله تعالى في هذا المعنى في كتاب التفضيل.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢١٥.
(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤، ٢٠٥.
(٣)سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

فصل في ذكر المنحرفين عن علي عليه السلام

وذكر جماعة من شيوخنا البغداديين أنّ عدة من الصحابة والتابعين والمحدّثين كانوا منحرفين عن عليّ عليه السلام، قائلين فيه السوء، ومنهم من كتم مناقبه وأعان أعداءه ميلاً مع الدنيا، وإيثاراً للعاجلة، فمنهم أنس بن مالك، ناشد عليّ عليه السلام الناسَ في رَحَبة القصر - أو قال رحبة الجامع بالكوفة -: أيّكم سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَنْ كنت مولاه فعليّ مولاه»[1]؟ فقام اثنا عشر رجلاً فشهدوا بها، وأنس بن مالك في القوم لم يقم، فقال له: يا أنس، ما يمنعك أن تقوم فتشهد، ولقد حضرتها! فقال: يا أمير المؤمنين، كبرتُ ونسيت، فقال: اللّهم إن كان كاذباً فارمه بها بيضاء لا تواريها العمامة. قال طلحة بن عمير: فوالله لقد رأيتُ الوَضَح به بعد ذلك أبيض بين عينيه. وروى عثمان بن مُطرِّف أنّ رجلاً سأل أنس بن مالك في آخر عمره عن عليّ بن أبي طالب، فقال: إني آليتُ ألّا أكتم حديثاً سئلت عنه في عليّ بعد يوم الرّحبة، ذاك رأسُ المتقين يوم القيامة، سمعته والله من نبيكم[2].

وروى أبو إسرائيل عن الحكم عن أبي سليمان المؤذن، أنّ علياً عليه السلام نَشَد الناس مَنْ سمع رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: «مَنْ كنت مولاه فعليّ مولاه»، فشهد له قوم، وأمسك زَيْد بن أرقم، فلم يَشْهَد - وكان يعلمها - فدعا عليّ عليه السلام عليه بذهاب البصر فعميَ، فكان يحدّث الناس بالحديث بعدما كُفَّ بصره.

قالوا: وكان الأشعث بن قيس الكنديّ وجرير بن عبد الله البَجَلِيّ يُبغضانه، وهدم عليّ عليه السلام دار جرير بن عبد الله. قال إسماعيل بن جرير: هدم عليّ دارَنا مرتينِ.

وروى الحارث بن حصين، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دفع إلى جرير بن عبد الله نَعْلَين من نعاله، وقال: «احتفظ بهما، فإن ذهابَهما ذهاب دينك»[3]، فلما كان يومُ الجمل ذهبت إحداهما، فلما أرسله عليّ عليه السلام إلى معاوية ذهبت الأخرى، ثم فارق علياً واعتزل الحرب.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٣)، وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١٢١)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٦٤٢).

(٢) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٧/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه الآمدي في المسح في وضوء الرسول: ١٤٥.

وروى أهل السيرة أنّ الأشعث خطب إلى عليّ عليه السلام ابنته، فزَبَرَه، وقال: يابن الحائك، أغرك ابنُ أبي قحافة!

وروى أبو بكر الهذليّ عن الزّهري، عن عبيد الله بن عديّ بن الخيار بن نوفل بن عبد مناف، قال: قام الأشعث إلى علي عليه السلام، فقال: إنّ الناس يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهِد إليك عَهْداً لم يعهده إلى غيرك، فقال: إنه عهد إليّ ما في قراب سيفي، لم يعهد إليّ غير ذلك. فقال الأشعث: هذه إن قلتها فهي عليك لا لك، دَعْها ترحل عنك، فقال له: وما علمك بما عليّ مما لي! منافق ابن كافر، حائك ابن حائك! إنّي لأجد منك بَنّة الغزل. ثم التفت إلى عبيد الله بن عدي بن الخيار، فقال: يا عبيد الله، إنك لتسمع خلافاً وترى عجباً، ثم أنشد.

أصبحت هُزْءًا لراعي الضأن أتبعُه ... ماذا يَريبك مني راعيَ الضّان!

وقد ذكرنا في بعض الروايات المتقدمات أنّ سبب قوله: «هذه عليك لا لك»، أمر آخر، والروايات تختلف. وروى يحيى بن عيسى الرمليّ، عن الأعمش: أن جريراً والأشعث خرجا إلى جبّان الكوفة، فمرّ بهما ضبّ يعدو، وهما في ذمّ عليّ عليه السلام، فنادياه: يا أبا حِسْل، هلم يدك نبايعك الخلافة، فبلغ عليًّا عليه السلام قولهما، فقال: أما إنهما يحشران يوم القيامة وإمامهما ضبّ.

وكان أبو مسعود الأنصاريّ منحرفاً عنه عليه السلام. روى شريك، عن عثمان ابن أبي زُرْعة، عن زيد بن وهب، قال: تذاكرنا القيام إذا مرّت الجنازة عند عليّ عليه السلام، فقال أبو مسعود الأنصاري: قد كنا نقوم، فقال عليّ عليه السلام: ذاك وأنتم يومئذٍ يهود.

وروى شعبة، عن عبيد بن الحسن، عن عبد الرحمن بن معقل، قال: حضرتُ علياً عليه السلام، وقد سأله رجل عن امرأة تُوفِّيَ عنها زوجها وهي حامل، فقال: تتربَّصُ أبْعَدَ الأجَلَيْن، فقال رجل: فإن أبا مسعود يقول: وضعها انقضاء عدّتها، فقال عليّ عليه السلام: إن فروجاً لا يعلم، فبلغ قوله أبا مسعود، فقال: بلى، والله إني لأعلم أنّ الآخر شرّ.

وروى المنهال، عن نعيم بن دجاجة، قال: كنت جالساً عند عليّ عليه السلام، وإذ جاء أبو مسعود، فقال عليّ عليه السلام: جاءكم فرّوج، فجاء فجلس، فقال له عليّ عليه السلام، بلَغني أنك تُفتي الناس، قال: نعم، وأخبرهم أن الآخر شرّ، قال: فهل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً؟ قال: نعم، سمعته يقول: «لا يأتي على الناس سنة مائة وعلى الأرض عين تطرف»[1]، قال:

---

(١) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين في الجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٧١٦)، بلفظ: «لا يأتي على الناس مائة سنة»، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٢٠).

أخطأت استُك الحفرة، وغلطت في أول ظنك، إنما عَنَى مَنْ حضره يومئذ، وهل الرخاء إلا بعد المائة!

وروى جماعة من أهل السِّيَر أن علياً عليه السلام كان يقول عن كعب الأحبار: إنه لكذّاب، وكان كعب منحرفاً عن عليّ عليه السلام. وكان النعمان بن بشير الأنصاريّ منحرفاً عنه، وعدوًّا له، خاض الدماء مع معاوية خوضاً، وكان من أمراء يزيد ابنه حتى قتل وهو على حاله.

وقد روى أنّ عمران بن الحصين كان من المنحرفين عنه عليه السلام، وأنّ علياً سيّره إلى المدائن، وذلك أنه كان يقول: إن مات عليّ فلا أدري ما موته، وإن قتل فعسى أنّي إن قتل رجوت له.

ومن الناس من يجعل عمران في الشيعة.

وكان سَمُرة بن جندب من شرطة زياد، روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن، قال: جاء رجل من أهل خُراسان إلى البصرة، فترك مالاً كان معه في بيت المال، وأخذ براءة، ثم دخل المسجد فصلّى ركعتين، فأخذه سَمُرة بن جُنْدَب، واتّهمه برأي الخوارج، فقدّمه فضرب عنقه، وهو يومئذٍ على شُرْطة زياد، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخط بيت المال، فقال أبو بَكْرة: يا سَمُرة، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾[1]! فقال: أخوك أمرني بذلك.

وروى الأعمش، عن أبي صالح، قال: قيل لنا: قد قَدِم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فأتيناه فإذا هو سَمُرة بن جَنْدَب، وإذا عند إحدى رجليه خَمْر، وعند الأخرى ثَلْج، فقلنا: ما هذا؟ قالوا: به النِّقْرس، وإذا قوم قد أتوه، فقالوا يا سَمُرة، ما تقول لربِّك غداً؟ تؤتى بالرجل فيقال لك: هو من الخوارج فتأمر بقتله، ثم تؤتى بآخر فيقال لك: ليس الذي قتلتَه بخارجيّ، ذاك فتى وجدناه ماضياً في حاجته، فشبّه علينا، وإنما الخارجيّ هَذا، فتأمر بقتل الثاني! فقال سَمُرة: وأيّ بأس في ذلك! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة، وإن كان من أهل النار مضى إلى النار!.

وروى واصل مولى أبي عيينة، عن جعفر بن محمد بن عليّ عليه السلام عن آبائه، قال: كان لسُمرة بن جُنْدَب نخل في بستان رجل من الأنصار، فكان يؤذيه، فشكا الأنصاريّ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعث إلى سَمُرة، فدعاه فقال له: بع نخلك من هذا، وخذ ثمنه، قال: لا

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ١٤، ١٥.

أفعل، قال: فخذ نخلاً مكان نخلك، قال: لا أفعل، قال: فاشترِ منه بستانه، قال: لا أفعل، قال: فاتركْ لي هذا النخل ولك الجنة، قال: لا أفعل، فقال ﷺ للأنصاري: «اذهب فاقطع نخله، فإنه لا حق له فيه»[(١)].

وروى شريك قال: أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجْر بن عدي، قال: قدمت المدينة فجلست إلى أبي هريرة، فقال: ممن أنت؟ قلت: من أهل البصرة، قال: ما فعل سَمُرة بن جندب؟ قلت: هوحيّ، قال: ما أحدٌ أحبّ إليّ طول حياة منه. قلت: ولم ذاك؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال لي وله ولحذيفة بن اليُمان: «آخركم موتاً في النار»[(٢)]، فسبَقنا حذيفة، وأنا الآن أتمنّى أنْ أسبِقَه، قال: فبقي سَمُرة بن جندب حتى شهد مقتل الحسين.

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام، قال: كان سَمُرة بن جندب أيام مسير الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرْطة عبيد الله زياد، وكان يحرِّض الناس على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله.

ومن المنحرفين عنه، المبغضين له عبد الله بن الزبير، وقد ذكرناه آنفاً، كان عليٌّ عليه السلام يقول: ما زال الزبير مِنّا أهلَ البيت حتى نشأ ابنُه عبد الله، فأفسده[(٣)].

وعبد الله هو الذي حَمَل الزبيرَ على الحرب، وهو الذي زيّن لعائشة مسيرَها إلى البصرة، وكان سبَّاباً فاحشاً، يُبغض بني هاشم، ويلعن ويسبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان عليٌّ عليه السلام يقنُت في صلاة الفجر وفي صلاة المغرب، ويلعن معاوية، وعَمْراً، والمغيرة، والوليد بن عقبة، وأبا الأعور، والضحاك بن قيس، وبُسْر بن أرطاة، وحبيب بن مسلمة، وأبا موسى الأشعري، ومَرْوان بن الحكم، وكان هؤلاء يقنُتون عليه ويلعنونه.

وروى شيخُنا أبو عبد الله البصريّ المتكلم رحمه الله تعالى، عن نصر بن عاصم اللّيْثي، عن أبيه، قال: أتيت مسجد رسول الله ﷺ، والناس يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله! فقلت: ما هذا؟ قالوا: معاوية قام الساعة، فأخذ بيد أبي سفيان، فخرجا من المسجد،

(١) أخرج البيهقي نحوه في «السنن الكبرى» (١١٥٥٦)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٢/ ٢٨٢).
(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٢٠٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٠).
(٣) أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة: ٣/ ١٦٢، وابن قتيبة في الإمامة السياسة: ١/ ٢٨.

فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله التابع والمتبوع، رب يوم لأمّتي من معاوية ذي الأستاه»[1]، قالوا: يعني الكبير العَجُز.

وقال: روى العلاء بن حريز القشيريّ أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية: «لتتخذَنّ يا معاوية البدْعة سنة، والقبح حسناً، أكلُك كثير، وظلمك عظيم»[2].

قال: وروى الحارث بن حَصِيرة، عن أبي صادق، عن ربيعة بن ناجذ، قال: قال عليٌّ عليه السلام: نحن وآل أبي سفيان قوم تعادَوْا في الأمر، والأمر يعود كما بدأ.

قلت: وقد ذكرنا نحن في تلخيص نقض «السفيانية» ما فيه كفاية في هذا الباب.

وروى صاحب كتاب الغارات عن أبي صادق، عن جُندب بن عبد الله، قال: ذُكِر المغيرة بن شُعبة عندَ عليّ عليه السلام وجدّه مع معاوية، قال: وما المغيرة! إنما كان إسلامه لفجّرةٍ وغَدْرة غدرها بنفر من قومه فتك بهم، وركبها منهم، فهرب منهم، فأتى النبي ﷺ كالعائذ بالإسلام، والله ما رأى أحدٌ عليه منذ ادّعى الإسلام خُضوعاً ولا خشوعاً، ألا وإنه يكون من ثَقِيف فراعنة قبل يوم القيامة يجانبون الحق، ويسعّرون نيران الحرب ويوازرون الظالمين، ألا إن ثقيفاً قوم غُدُر، لا يوفون بعهد، يبغضون العرب كأنهم ليسوا منهم، ولربَ صالح قد كان منهم فمنهم عروة بن مسعود وأبو عُبيد بن مسعود المستشهد يوم قُسّ النّاطف، وإن الصالح في ثقيف لَغريب.

قال شيخنا أبو القاسم البلخي: من المعلوم الذي لا ريبَ فيه لاشتهار الخبرِ به، وإطباق الناس عليه، أنّ الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط كان يُبغِض علياً ويشتِمه، وأنه هوَ الذي لَاحَاهُ في حياة رسول الله ﷺ ونابذه، وقال له: أنا أثبتُ منك جَناناً، وأحدّ سنَاناً، فقال له عليّ عليه السلام: اسكت يا فاسق، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[3] الآيات المتلوة، وسمّى الوليد بحسب ذلك في حياة رسول الله ﷺ الفاسق، فكان لا يُعْرَفُ إلا بالوليد الفاسق.

وهذه الآية من الآيات التي نزل فيها القرآن بموافقة عليّ عليه السلام، كما نزل في مواضع

(١) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٣/ ١٩١.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٣/ ١٩١.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٨.

بموافقة عمر، وسماه الله تعالى فاسقاً في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1]، وسبب نزولها مشهور، وهو كَذِبه على بني المصطلِق، وادّعاؤه أنّهم منعوا الزكاة وشهروا السيف، حتى أمر النبي صلى الله عليه وآله بالتجهّز للمسير إليهم، فأنزل الله تعالى في تكذيبه وبراءة ساحة القوم هذه الآية.

وكان الوليد مذموماً معيباً عند رسول الله صلى الله عليه وآله يشنؤه ويُعرِض عنه، وكان الوليد يُبغِض رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً ويشنؤه، وأبو عُقْبة بن أبي مُعيط هو العدوّ الأزرق بمكة، والذي كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله في نفسه وأهله، وأخباره في ذلك مشهورة، فلما ظفر به يوم بَدْر ضرب عنقَه. وورث ابنُه الوليد الشنآن والبغضة لمحمد وأهله، فلم يزل عليهما إلى أن مات.

قال الشيخ أبوَ القاسم: وهو أحد الصبية الذين قال أبو عُقْبة فيهم، وقد قُدّم ليُضرَب عنقه: مَنْ للصبية يا محمد؟ فقال: «النار، اضربوا عنقه».

قال: وللوليد شعر يقصد فيه الردّ على رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «**إن تولوها عليًّا، تجدوه هادياً مهدياً**»[2]. قال: وذلك أن علياً عليه السلام لما قتِل قصد بنوه أن يُخفُوا قَبره خوفاً من بني أمية أن يحدِثوا في قبره حَدَثاً، فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة - وهي ليلة دفعه - إيهاماتٍ مختلفة، فشدّوا على جمل تابوتاً موثَقاً بالحبال، يفوح منه روائح الكافور، وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل صحبة ثقاتهم، يُوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام، وأخرجوا بَغْلاً وعليه جِنازة مغطاة، يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عِدّة، منها بالمسجد، ومنها برحبة القصر، قصر الإمارة، ومنها في حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزوميّ، ومنها في أصل دار عبد الله بن يزيد القَسري بحذاء باب الورّاقين مما يلي قبلة المسجد، ومنها في الكُنَاسة، ومنها في الثّوِيّة، فعميَ عَلَى الناس موضع قبره، ولم يَعْلَم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواصّ المخلِصون من أصحابه، فإنهم خرجوا به عليه السلام وقت السَّحر في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوه على النَّجف، بالموضع المعروف بالغرِيّ، بوصاة منه عليه السلام إليهم في ذلك، وعهدٍ كان عهد به إليهم، وعميَ موضع قبره على الناس، واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافاً شديداً، وافترقت الأقوال في موضع قبره الشريف وتشعبت، وادَّعى قوم أنّ جماعة من طيّء وقعوا على جملٍ في تلك الليلة، وقد أضلّه أصحابه ببلادهم، وعليه صندوق، فظنُّوا فيه مالاً، فلما رأوا ما فيه خافوا أن يُطْلَبوا به، فدفنوا الصندوق بما فيه، ونحروا البعير وأكلوه، وشاع ذلك في بني أمية وشيعتهم، واعتقدوه حقاً، فقال الوليد بن عُقْبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٢) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٧٦.

فإن يك قَدْ ضَلّ البعير بحمله ... فَمَا كان مَهْدِيّاً ولا كان هادياً

وروى الشيخ أبو القاسم البلخيّ أيضاً، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبيّ، قال: مرَّ ناس بالحسن بن عليّ عليه السلام، وهم يريدون عيادَة الوليد بن عقبة، وهو في عِلّة له شديدة، فأتاه الحسن عليه السلام معهم عائداً، فقال للحسن: أتوب إلى الله تعالى مما كان بيني وبين جميع الناس، إلاّ ما كان بيني وبين أبيك، فإني لا أتوب منه.

قال شيخنا أبو القاسم البلخيّ: وأكّدَ بُغْضَه له ضربه إياه الحدّ في ولاية عثمان، وعزله عن الكوفة.

وقد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدّثين، على أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «لا يُبغضك إلا منافق، ولا يحبّك إلا مؤمن»[(١)].

قال: وروى حَبّة العُرَنيّ، عن عليّ عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل أخذ ميثاق كلّ مؤمن على حُبّي وميثاق كل منافق على بغضي، فلو ضربتُ وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني، ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبّني[(٢)].

وروى عبدالكريم بن هلال، عن أسلم المكيّ، عن أبي الطفيل، قال: سمعت علياً عليه السلام، وهو يقول: لو ضربتُ خياشيمَ المؤمن بالسيف ما أبغضني ولو نثرت على المنافق ذهباً وفضة ما أحبّني، إن الله أخذ ميثاق المؤمنين بحبّي، وميثاق المنافقين ببغضي، فلا يُبغضني مؤمن، ولا يحبُّني منافق أبداً[(٣)].

قال الشيخ أبو القاسم البلخيّ: وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة، قالوا: ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ببغض عليّ بن أبي طالب[(٤)].

ذكر إبراهيم بن هلال صاحب كتاب «الغارات» فيمن فارق علياً عليه السلام والتحق بمعاوية يزيد بن حُجَيّة التيميّ، من بني تيم بن ثعلبة بن بكر بن وائل، وكان عليه السلام قد استعملَه على الرَّيّ ودَسْتَبي، فكسرَ الخوارج، واحتجن المال لنفسه، فحبسه عليّ عليه السلام، وجعل معه سعداً مولاه، فقرّب يزيد ركائبه، وسعد نائم، فالتحق بمعاوية، وقال:

خَادَعَتُ سَعْداً وارْتَمَتْ بِي ركائبي ... إلى الشَّامِ واخْتَرْتُ الَّذِي هو أفْضَلُ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي بن أبي طالب من الإيمان (٧٨)، والنسائي، في كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٨).
(٢) انظر بشارة المصطفى: ١٧٢، وينابيع المودة: ١/ ١٥٢.
(٣) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٩/ ٢٩٥.
(٤) أخرجه المحب الطبري في ذخائر العقبى: ٩١، والحاكم في المستدرك: ٣/ ١٢٩.

وغـادرتُ سـعـداً نَـائـمـاً فـي عـبَـاءةٍ ... وسـعـدٌ غـلامٌ مُـسْـتَـهَـامٌ مُـضَـلَّـلُ

ثم خرج حتى أتى الرَّقة، وكذلك كان يصنع مَنْ يفارق علياً عليه السلام، يبدأ بالرَّقة حتى يستأذِن معاوية في القدوم عليه، وكانت الرَّقة والرُّها وقَرْقِيسِيا وحَرَّان من حَيِّز معاوية، وعليها الضحاك بن قيس، وكانت هِيت وعَانات ونصيبين ودارا وآمِد وسِنْجار من حَيِّز عليّ عليه السلام، وعليها الأشتر، وكانا يقتتلان في كل شهر.

وقال يزيد بن حُجَيَّة وهو بالرَّقة يهجو علياً عليه السلام:

يـا طـولَ لَـيْـلِـيَ بـالـرَّقَّـاتِ لَـمْ أَنَـمُ ... مِنْ غَيْرِ عِشْقٍ صَبَتْ نَفْسِي وَلَا سَقَمِ
لـكـنْ لـذكـرِ أمـورٍ جَـمَّـةٍ طَـرَقَـتْ ... أخشَى على الأصْلِ مِنْهَا زَلَّة القَدمِ
أخشى عَلِيًّا عليْهـم أن يكون لَهُمْ ... مثلَ العَقُور الذي عَفَّى عَلَى إرَمِ

وبعد ذلك ما لا نذكره.

قال إبراهيم بن هلال: وقد كان زياد بن خَصَفة التيميّ، قال لعليّ عليه السلام يوم هرب يزيد بن حُجَيّة: ابعثني يا أمير المؤمنين في أثره أردّه إليك. فبلغ قوله يزيد بن حُجَيّة، فقال في ذلك:

أبـلـغ زيـاداً أنّـنـي قـد كـفـيـتُـهُ ... أمـورِي وَخَـلّـيـت الّـذي هُـوَ عـاتِـبُـهْ
وَبَـابٌ شـديـدٌ مُـوثَـقٌ قـد فـتـحـتُـه ... عليك، وقد أعْيَتْ عَلَيْكَ مَذَاهِبُهْ
هُـبِلْتَ أمَا ترجو غنائي ومشهدِي ... إذِ الخصم لم يُوجَدْ لَهُ مَنْ يُجَاذِبُهْ!
فـأقـسِـمُ لـولا أنّ أمَّـكَ أمُّـنَـا ... وأنك مولّى ما طفِقْتُ أعاتِبُهْ
وأقسـم لـو أدركـتَـنِـي مَـا رَدَدْتَـنـي ... كلانا قد اصطفّت إليه جَلائِبُهْ

قال ابن هلال: وكتب إلى العراق شعراً يذمّ فيه علياً عليه السلام، ويخبره أنّه من أعدائه فدعا عليه وقال لأصحابه عَقِيبَ الصلاة: ارفعوا أيديَكم فادعُوا عليه، فدعا عليه وأمَّن أصحابُه.

قال أبو الصلت التيميّ: كان دعاؤه عليه: اللهمّ إن يزيد بن حُجَيّة هرب بمالِ المسلمين ولحق بالقوم الفاسقين، فاكفِنا مكره وكيدَه واجْزِه جزاء الظالمين.

قال: ورفع القومُ أيديَهم يُؤمِّنون، وكان في المسجد عِفاق بن شُرَحْبيل بن أبي رهم التَّيمّي شيخاً كبيراً، وكان يعدّ ممن شهد على حُجْر بن عديّ حتى قتله معاوية، فقال عِفاق: على مَن يدعو القوم؟ قالوا: على يزيد بن حُجَيّة، فقال: تربَتْ أيديكم! أعَلَى أشرافنا تدعُون! فقاموا إليه فضربوه حتى كاد يهلِك. وقام زياد بن خَصَفَة - وكان من شيعة عليّ عليه السلام - فقال: ادعوا ابن عَمّي، فقال عليّ عليه السلام: دعوا للرَّجُل ابن عمّه، فتركه الناس، فأخذ زياد بيده فأخرجه من المسجد، وجعل يمشي معه يمسح التراب عن وجهه، وعِفاق يقول: والله لا أحبّكم ما سعيت ومشيت، والله لا أحبكم ما اختلفت الدِّرّة والجِرّة، وزياد يقول: ذلك أضرّ لك، ذلك شَرٌّ لك.

وقال زياد بن خَصَفة يذكر ضرب الناس عِفاقاً:

دعوت عِفاقاً للهُدَى فاستغشَّنِي ... وولّى فَرِيًّا قولُه وَهُوَ مُغْضَبُ
ولولا دفاعي عن عِفَاقٍ ومشهدِي ... هوت بِعفاقٍ - عَوْضُ - عَنْقَاءُ مُغْرِبُ
أنبّئه أنّ الهدى في اتّباعنا ... فيأبى، ويُضْرِيه المراء فيشغَبُ
فإن لا يشايعنَا عِفاقٌ فإننا ... على الحق ما غنّى الحَمام المطرّبُ
سَيُغْنى الإله عن عِفاق وَسَعْيه ... إذا بعثت للناس جَأواء تُخْرَبُ
قبائل من حَيَّيْ معدّ ومثلُها ... يمانية لا تنثني حين تُنْدَبُ
لَهُمْ عَدَدٌ مثلُ التراب وطاعةٌ ... تودّ، وبأس في الوغى لا يؤنَّبُ

فقال له عِفاق: لو كنتُ شاعراً لأجبتك، ولكني أخبركم عن ثلاث خصال كنّ منكم، والله ما أرى أن تُصيبوا بعدهنّ شيئاً مما يسرّكم:

أمّا واحدة، فإنكم سرتُم إلى أهل الشام حتى إذا دخلتم عليهم بلادهم قاتلتموهم، فلما ظنّ القومُ أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف، فسخِروا بكم فردّوكم عنهم، فلا والله لا تدخلونها بمثل ذلك الجِدّ والحدّ والعدد الذي دخلتم به أبداً.

وأما الثانية، فإنكم بعثتم حَكَماً وبعث القوم حَكماً، فأما حكَمُكم فخلعكم، وأمّا حَكَمهم فأثبتهم، فرجع صاحبهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين، ورجعتم متلاعنين متباغضين، فوالله لا يزال القوم في عَلاء، ولا تزالون في سِفال.

وأما الثالثة، فإنه خالفكم قُرّاؤكم وفُرسانكم فعدَوْتُم عليهم فذبحتموهم بأيديكم، فوالله لا تزالون بعدها متضعضعين.

قال: وكان يمرّ عليهم بعد، فيقول: اللهم إني منهم بريء، ولابن عفان وليّ! فيقولون: اللهم إنّا لعلي أولياء، ومن ابن عفان برآء، ومنك يا عِفاق!.

قال: فأخذ لا يُقْلِع، فدعوا رجلاً منهم له سجاعة كسجاعة الكهان، فقالوا: ويحك! أما تكفِينا بسجْعك وخطبك هذا! فقال: كفيتكم، فمرَّ عِفاق عليهم، فقال كما كان يقول: فلم يمهله أن قال له: اللهم اقتُل عِفاقاً، فإنه أسرَّ نفاقاً، وأظهر شِقاقاً، وبيَّن فراقاً، وتلوّن أخلاقاً.

فقال عِفاق: وَيْحكم! من سَلّط عليّ هذا؟ قال: الله بعثني إليك، وسلّطني عليك لأقطع لسانك، وأنصِل سِنامك، وأطرد شيطانك.

قال: فلم يك يمرّ عليهم بعد، إنما يمرّ على مزَينة.

وممن فارقه عليه السلام عبد الله بن عبد الرحمن بن مسعود بن أوس بن إدريس بن مُعَتّب الثقفي،

شهد مع عليّ عليه السلام صفين، وكان في أول أمره مع معاوية، ثم صار إلى عليّ عليه السلام، ثم رجع بعد إلى معاوية، وكان عليّ عليه السلام يسميه الهجنّع، والهجنّع: الطويل.

ومنهم القعقاع بن شُور، استعمله عليٌّ عليه السلام على كَسْكَر، فنقم منه أموراً، منها أنه تزوّج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم، فهرب إلى معاوية.

ومنهم النجاشيّ الشاعر من بني الحارث بن كعب، كان شاعرَ أهل العراق بصفّين، وكان عليّ عليه السلام يأمره بمحاربة شعراء أهل الشام، مثل كَعْب بن جُعَيل وغيره، فشرب الخمر بالكوفة، فَحدّه عليّ عليه السلام، فغضب ولحق بمعاوية، وهجا علياً عليه السلام.

حدث ابن الكلبيّ عن عَوانة، قال: خرج النجاشيّ في أول يوم من شهر رمضان، فمرّ بأبي سَمَّال الأسديّ، وهو قاعد بفناء داره، فقال له: أين تريد؟ قال: أردت الكُناسة، فقال: هل لك في رؤوس وألَيات قد وُضِعت في التَّنُّور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وقد تهرّأت؟ قال: وَيْحك! في أول يوم من رمضان! قال: دعنا مما لا نَعرف، قال: ثم مه، قال: أسقيك من شراب كالوَرْس، يُطَيِّب النفس، ويجري في العِرْق، ويزيد في الطَّرَق، يهضم الطعام، ويُسَهِّل للفدْم[1] الكلام، فنزل، فتغدّيا، ثم أتاه بنبيذٍ فشرباه، فلما كان آخر النهار علت أصواتُهما، ولهما جارٌ من شيعة عليّ عليه السلام، فأتاه فأخبره بقصّتهما، فأرسل إليهما قوماً فأحاطوا بالدار، فأما أبو سمَّال فوثَب إلى دُور بني أسد فأفلت، وأخذ النجاشيّ فأتى عليه السلام به، فلما أصبح أقامه في سَراويله، فضربه ثمانين، ثم زاده عشرين سوطاً، فقال: يا أمير المؤمنين، أما الحدّ فقد عرفته، فما هذه العِلاوة؟ قال: لجراءتك على الله، وإفطارك في شهر رمضان. ثم أقامه في سرَوايله للناس، فجعل الصبيان يصيحون به: خَرِيَ النجاشيّ، خري النجاشي! وجعل يقول: كلّا إنها يمانية وِكاؤها شعر.

قال: ومرّ به هند بن عاصم السّلوليّ، فطرح عليه مُطرَفاً، فجعل الناس يمرّون به ويطرحون عليه المطارف، حتى اجتمعت عليه مطارف كثيرة، فمدح بني سَلُول فقال:

إذا الله حَيَّا صالحاً من عباده ... تقيًّا فحيّا الله هِنْدَ بْنَ عاصمِ
وكلّ سَلُوليٍّ إذا ما دعوتُه ... سريع إلى داعي العلا والمكارم
هم البيضُ أقداماً وديباجُ أوجهٍ ... جلوها إذا اسودّتْ وجوهُ الملائمِ

(١) الفدم من الناس: العيي عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم. اللسان، مادة (فدم).

ولا يأكل الكلب السّروق نعالَهُمْ ... ولا يبتغي المخَّ الذي في الجماجِمِ

ثم لحق معاوية، وهجا عليًّا عليه السلام، فقال:

ألَا مَنْ مبلغٌ عَنّي عَلِيًّا ... بأنّي قَدْ أمِنْتُ فلا أخَافُ

عَمِدْتُ لمستقرّ الحقّ لمّا ... رأيتُ أموركُمْ فيها اختِلافُ

وروى عبد الملك بن قُريب الأصمعيّ، عن ابن أبي الزّناد، قال: دخل النجاشيّ على معاوية، وقد أذن للناسَ عامة، فقال لحاجبه: ادعُ النجاشيّ، والنجاشيّ بين يديه، ولكن اقتحمته عينه، فقال: هأنذا النجاشيّ بين يديك يا أمير المؤمنين، إنّ الرجال ليست بأجسامها، إنّما لك من الرجل أصغراه: قلبه ولسانه، قال: ويحك! أنت القائل:

ونَجّى ابنَ حَرْبٍ سبحٌ ذو عُلالةٍ ... أجشّ هزيمٌ والرِّماحُ دَواني

إذا قلتُ أطراف الرماح تَنُوشَه ... مرَتْه بِهِ الساقان والقَدَمانِ

ثم ضرب بيده إلى ثَدْيه، فقال: ويحك! إنّ مثلي لا تعدُو به الخيل، فقال: يا أمير المؤمنين، إني لم أعْنِك، إنما عنيتُ عُتْبَة.

وروى صاحب كتاب «الغارات» أن علياً عليه السلام لما حدَّ النجاشيّ غضبت اليمانية لذلك، وكان أخصّهم به طارق بن عبد الله بن كعب النَّهْديّ، فدخل عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنّا نرى أنّ أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سِيّان في الجزاء، حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحارث، فأوغرتْ صدورنا، وشَتَّتَتَ أمورنا، وحملتَنا على الجادّة التي كنا نرى أن سبيل مَنْ ركبها النار. فقال عليّ عليه السلام: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(١)، يا أخا نَهْد، وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حُرمة من حُرَم الله، فأقمنا عليه حدًّا كان كفارته! إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٢) قال: فخرج طارق من عنده، فلقيه الأشتر، فقال: يا طارق، أنتَ القائل لأمير المؤمنين: «أوْغَرْتَ صدورَنا، وَشَتَّتَّ أمورنا»؟ قال طارق: نعم، أنا قائلها، قال: والله ما ذاك كما قلتَ، إنّ صدرَنا له لسَامِعة، وإن أمورنا له لجامعة. فغضب طارق وقال: ستعلم يا أشتر أنه غيرُ ما قلت، فلما جَنّه الليل هَمَس هو والنجاشيّ إلى معاوية، فلما قدما عليه، دخل آذنه فأخبره بقدومهما، وعنده وجوه أهل الشام، منهم عمرو بن مرة الجهنيّ وعمرو بن صيفيّ وغيرهما، فلما دخلا نظر إلى طارق، وقال: مرحباً بالمورِق غصنُه، والمعرِق أصلُه، المسوّد غير المسود، من رجل كانت منه هفوة ونبوة، باتّباعه صاحبَ الفتنة، ورأس الضلالة والشبهة، الذي اغترز في ركاب الفتنة حتى استوى على رَجْلها، ثم أوجف في عَشْوة

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.

ظُلْمتها وتيه ضلالتها، واتبعه رجرجة من الناس، وأشبابةٌ من الحُثالة لا أفئدة لهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(١).

فقام طارق، فقال: يا معاوية إني متكلّم فلا يسخطك، ثم قال: وهو متكىء على سيفه: إنّ المحمود على كلِّ حال ربٌّ علا فوق عباده، فهم منه بمنظر ومسمع، بعث فيهم رسولاً منهم، يتلو كتاباً لم يكن من قبله ولا يخطّه بيمينه، إذاً لارتاب المبطلون، فعليه السلام من رسولٍ كان بالمؤمنين برًّا رحيماً! أما بعد، فإنّ ما كنا نُوضِع فيما أوْضَعنا فيه بين يدي إمام تقيّ عادل، مع رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، أتقياء مرشدين، ما زالوا مناراً للهدى، ومعالم للدين، خلفاً عن سلف مهتدين، أهل دين لا دنيا، كلّ الخير فيهم، واتَّبعهم من الناس ملوك وأقيال، وأهلُ بيوتات وشرَف، ليسوا بناكثين ولا قاسطين، فلم يكن رغبةُ مَنْ رغب عنهم وعن صحبتهم إلا لمرارة الحقّ حيث جُرِّعُوها، ولوعورته حيث سلكوها، وغلبت عليهم دنيا مؤثَرة، وهو متّبع، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وقد فارق الإسلام قبلنا جَبَلَة بن الأيهم فرراً من الضيم، وأنَفاً من الذّلة، فلا تفخرَنّ يا معاوية، إن شَدَدْنا نحوك الرحال وأوْضعْنا إليك الركاب. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولجميع المسلمين.

فعظُم على معاوية ما سمعه وغضب، لكنه أمسك، وقال: يا عبد الله، إنا لم نُردْ بما قلناه أن نوردَك مَشْرَع ظمأ، ولا أن نُصدرك عن مَكْرَع رِيّ، ولكنّ القول قد يجري بصاحبه إلى غير ما ينطوي عليه من الفعل، ثم أجلسه معه على سريره، ودعا له بمقطّعات وَبُرود فصبّها عليه، وأقبل نحوه بوجهه يحدّثه حتى قام.

وقام معه عمرو بن مرة وعمرو بن صيفيّ الجهنيّان، فأقبلا عليه بأشدّ العتاب وأمضّه، يلومانه في خطبته، وما واجه به معاوية.

فقال طارق: والله ما قمت بما سمعتماه حتى خُيِّل لي أنّ بطن الأرض خير لي من ظهرها عند سماعي ما أظهرَ من العيب والنقص لمن هو خير منه في الدنيا والآخرة، وما زهَتْ به نفسُه، وملَكه عجبه، وعاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله واستنقَصهم، فقمت مقاماً أوجب الله عليّ فيه ألّا أقول إلّا حقاً، وأيّ خير فيمن لا ينظر ما يصير إليه غداً! فبَلغ عليًا عليه السلام قولُه، فقال: لو قُتل النهديّ يومئذٍ لقتل شهيداً.

وقال معاوية للهيثم بن الأسود أبي العُريان - وكان عُثمانياً، وكانت امرأته عَلَوِيّة الرأي،

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

تكتب بأخبار معاوية في أعنّة الخيل وتدفعُها إلى عسكر عليّ عليه السلام بصِفّين فيدفعونها إليه - فقال معاوية بعد التحكيم: يا هيثم، أهلُ العراق كانوا أنصحَ لعليّ في صِفّين أم أهل الشام لي؟ فقال: أهل العراق قبل أن يُضرَبوا بالبلاء كانوا أنصَح لصاحبهم، قال: كيف قلت ذلك؟ قال: لأنّ القوم ناصحوه على الدّين. وناصَحَك أهل الشام على الدنيا، وأهلُ الدين أصْبَرُ، وهم أهل بصيرة، وإنما أهل الدنيا أهلُ طمع، ثم والله ما لبث أهلُ العراق أنْ نبذُوا الدِّين وراء ظهورهم، ونظروا إلى الدنيا، فالتحقوا بك.

فقال معاوية: فما الذي ينفع الأشعثَ أن يقدَم علينا، فيطلب ما قِبَلنا؟ قال: إن الأشعث يكرِم نفسَه أن يكون رأساً في الحرب، وذَنَباً في الطمع.

ومن المفارقين لعليّ عليه السلام أخوه عَقِيل بن أبي طالب، قَدِمَ على أمير المؤمنين بالكوفة يسترفِدُه، فعرَض عليه عطاءه، فقال: إنما إريدُ من بيت المال، فقال: تقيم إلى يوم الجمعة، فلما صلّى عليه السلام الجمعة، قال له: ما تقولُ فيمن خان هؤلاء أجمعين؟ قال بئس الرجل! قال: فإنك أمرتَني أن أخونهم وأعطيَك، فلما خرج من عنده شخَص إلى معاوية، فأمر له يوم قدومه بمائة ألف درهم، وقال له: يا أبا يزيد، أنا خير لك أم عليّ؟ قال: وجدت عليًّا أنْظرَ لنفسه منهُ لي، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك.

وقال معاوية لعَقِيل: إنّ فيكم يا بني هاشم ليناً، قال: أجل إنّ فينا ليناً من غير ضعْف، وعِزًّا من غير عُنْف، وإن لينَكم يا معاوية غَدْر، وسلْمكم كُفْر. فقال معاوية: ولا كل هذا يا أبا يزيدا.

وقال الوليد بن عُقْبة لعقِيل في مجلس معاوية: غَلبك أخوك يا أبا يزيد على الثروة! قال: نعم، وسبقني وإياك إلى الجنة، قال: أما والله إن شِدْقَيْه لمضمومان من دم عثمان، فقال: وما أنتَ وقريش! والله ما أنتَ فينا إلا كنطيح التَيْس. فغضب الوليد وقال: والله لو أنّ أهل الأرض اشتركوا في قتله لأُرهِقُوا صَعُوداً، وإن أخاك لأشدّ هذه الأمة عذاباً، فقال: صه! والله إنا لنرغب بعبدٍ من عبيده عن صُحْبة أبيك عُقْبة بن أبي مُعَيط.

وقال معاوية يوماً - وعنده عَمْرو بن العاص، وقد أقبل عَقِيل: لأضحكنّك من عَقيل فلما سلّم قال معاوية: مرحباً برجل عمّه أبو لهب، فقال عَقِيل: وأهلاً برجل عَمْته: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ لَا فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾(١)، لأنّ امرأة أبي لهب أمّ جميل بنت حرب بن أمية.

(١) سورة المسد، الآيتان: ٤، ٥.

قال معاوية: يا أبا يزيد ما ظنّك بعمك أبي لهب! قال: إذا دخلت النارَ فَخُذ على يسارك تجدْه مفترشاً عَمّتك حمالةَ الحطب، أفناكحٌ في النار خيرٌ أم منكوح! قال: كلاهما شرّ، والله.

ومن فارقه عليه السلام حنظلة الكاتب، خرج هو وجرير بن عبد الله البَجَلِيّ من الكوفة إلى قرقيسيا، وقالا: لا نقيمُ ببلدة يُعاب فيها عثمان.

وممن فارقه وائل بن حجر الحضرميّ، وخبره مذكور في قصة بُسْر بن أرطاة.

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن إسماعيل بن حكيم، عن أبي مسعود الجريريّ، قال: كان ثلاثة من أهل البصرة يتواصُلون على بُغْض عليّ عليه السلام: مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخّير، والعلاء بن زياد، وعبد الله بن شقيق.

قال صاحب كتاب «الغارات»: وكان مطرِّف عابداً ناسكاً، وقد روى هشام بن حسان عن ابن سيرين: أن عمّار بن ياسر دخل على أبي مسعود وعنده ابن الشِّخّير، فذكر علياً بما لا يجوز أن يُذْكَر به، فقال عمار: يا فاسق وإنك لها هنا فقال أبو مسعود: أذكّرك الله يا أبا اليقظان في ضَيْفي!

قال: وأكثر مبغضيه عليه السلام أهل البصرة كانوا عثمانيّة، وكانت في أنفسهم أحقاد يوم الجمل، وكان هو عليه السلام قليل التألّف للناس، شديداً في دين الله، لا يبالي مع علمه بالدين، واتباعه الحقّ مَنْ سخط ومَنْ رضِيَ.

قال: وقد روى يونس بن أرقم، عن يزيد بن أرقم، عن أبي ناجية، مولى أم هانيء قال: كنت عندَ عليّ عليه السلام، فأتاه رجل عليه زِيُّ السَّفر. فقال: يا أمير المؤمنين، إني أتيتك من بلدة ما رأيت لك بها محبًّا، قال: منْ أين أتيتَ؟ قال: من البصرة، قال: أما إنهم لو يستطيعون أن يحبُّوني لأحبوني، إني وشيعتي في ميثاق الله لا يزاد فينا رجلٌ ولا ينقص إلى يوم القيامة.

وروى أبو غَسّان البصريّ، قال: بَنَى عبيد الله بن زياد أربعة مساجد بالبصرة تقوم على بغض عليّ بن أبي طالب والوقيعة فيه: مسجد بني عديّ، ومسجد بني مجاشع، ومسجد كان في العلّافين على فُرْضَة البصرة، ومسجد في الأزد.

ومما قيل عنه إنه يبغض عليًا عليه السلام ويذمّه، الحسن بن أبي الحسن البصريّ أبو سعيد، وروى عنه حماد بن سلمة أنه قال: لو كان عليّ يأكل الحَشَف[1] بالمدينة لكان خيراً له مما دخل فيه. ورواه عنه أنه كان من المخذّلين عن نصرته.

وروى عنه أن عليًا عليه السلام رآه وهو يتوضّأ للصلاة - وكان ذا وسوسة - فصبّ على أعضائه ماء كثيراً، فقال له: أرَقْتَ ماءً كثيراً يا حسن، فقال: ما أراق أمير المؤمنين من دماء المسلمين أكثر! قال: أو ساءك ذلك؟ قال: نعم. قال: فلا زلت مسوّاً.

قالوا: فما زال الحسن عابساً قاطعاً مهموماً إلى أن مات.

فأما أصحابنا فإنهم يدفعون ذلك عنه وينكِرونه ويقولون: إنه كان من مُحبّي عليّ بن أبي طالب عليه السلام والمعظّمين له.

وروى أبو عمر بن عبد البر المحدّث في كتابه المعروف: «الاستيعاب في معرفة الصحاب»[2] أنّ إنساناً سأل الحسن عن عليّ عليه السلام، فقال: كان والله سهماً صائباً من مرامي الله على عَدُوِّه، وربانيّ هذه الأمة وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله، لم يكن بالنُّؤَمة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسَّرُوقة لمال الله أعطى القرآنِ عزائمه ففازَ منه برياض مُونِقة، ذلك عليّ بن أبي طالب يالُكَعَ!.

وروى الواقديّ، قال: سئِل الحسنُ عن عليّ عليه السلام - وكان يظنّ به الانحراف عنها ولم يكن كما يظنّ - فقال: ما أقول فيمنْ جَمَع الخصال الأربع: ائتمانه على براءة، وما قال لَهُ الرسول في غزاة تَبُوك، فلو كان غير النبوّة شيء يفوته لاستثناه، وقول النبي صلى الله عليه وآله «الثَّقلان كتاب الله وعِتْرتي»[3]، وإنه لم يؤمّر عليه أمير قطّ وقد أُمّرت الأمراء على غيره.

وروى أبَان بنُ عياش، قال: سألتُ الحسن البصريّ عن عليّ عليه السلام، فقال: ما أقولُ فيه! كانت له السابقة، والفضل والعلْم والحكمة والفقه والرأي والصُّحبة والنَّجْدة والبلاء والزهد والقضاء والقرابة، إن عليًا كان في أمرِه عليًا، رحم الله عليًا، وصلى عليه! فقلت: يا أبا سعيد، أتقول: «صلّى عليه» لغير النبيّ! فقال: ترحّمْ على المسلمين إذا ذكّروا، وصلّ على النبيّ وعلى خير آله. فقلت: أهو خيرٌ مِنْ حمزة وجعفر؟ قال: نعم، قلت: وخيرٌ من فاطمة وابنيها؟ قال:

(١) الجشف: اليابس الفاسد من التمر، وقيل: الضعيف الذي لا نوء له كالشيص. اللسان، مادة (حشف).

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر المتوفى سنة (٤٦٣هـ). «كشف الظنون» (١/ ٨١).

(٣) أخرجه السيد شرف الدين في «أبو هريرة»: ١٢٣.

نعم، والله إنه خيرُ آل محمد كلِّهم، ومَنْ يَشُكّ أنّه خير منهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وأبوهما خير منهما»[١]! ولم يجرِ عليه اسمُ شِرْك، ولا شرب خمر، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام: «زوّجتُك خيرَ أمتي»[٢]، فلو كان في أمته خيرٌ منه لاستثناه، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بين أصحابِه، فآخى بين عليّ ونفسه، فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرُ الناس نفساً، وخيرُهم أخاً. فقلت: يا أبا سعيد، فما هذا الذي يقال عنك إنّك قلته في عليّ؟ فقال: يابن أخي، أحقِنُ دمي من هؤلاء الجبابرة، ولولا ذلك لشالَتْ بي الْخُشُب.

قال شيُخنا أبو جعفر الإسكافيّ رحمه الله تعالى، ووجدته أيضاً في كتاب «الغارات» لإبراهيم بن هلال الثقفي: وقد كان بالكوفة من فقهائها مَنْ يعادي علياً ويُبغضه، مع غَلبة التشيّع على الكوفة، فمنهم مرّةُ الهمدانيّ.

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن عن فِطْر بن خليفة، قال: سمعت مُرّة يقول: لَأنْ يكون عليٌّ جَملاً يَستَقِي عليه أهلُه خير له ممّا كان عليه.

وروى إسماعيل بن بَهرام، عن إسماعيل بن محمد، عن عمرو بن مرة، قال: قيل لمرّة الهْمدانيّ: كيف تخلّفْت عن عليّ؟ قال: سَبقَنا بحسناته، وابتُلِينا بسيئاته.

قال إسماعيل بن بَهْرَام: وقد روينا عنه أنه قال أشدَّ فُحْشاً من هذا، ولكنا نتورّع عن ذكره.

وروى الفضل بن دُكَين، عن الحسن بن صالح، قال: لم يصلِّ أبو صادق على مُرّة الهْمدانيّ.

قال الفضلُ بن دُكين: وسمعتُ أنّ أبا صادق قال في أيام حياة مُرّة: والله لا يظلّني وإياه سَقفُ بيتٍ أبداً.

قال: ولما مات لم يحضُره عمرو بن شُرَحبيل، قال: لا أحضُره لشيء كان في قلبه عَلَى عليّ بن أبي طالب.

قال إبراهيم بن هلال: فحدّثنا المسعوديّ، عن عبد الله بن نُمير بهذا الحديث. قال: ثم كان عبد الله بن نُمير يقول - وكذلك أنا، والله لو مات رجلٌ في نفسه شيء عَلَى عليّ عليه السلام لم أحضُره، ولم أصلّ عليه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ١١٨.
(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٣/ ٩٥.

ومنهم الأسود بن يزيد ومَسْروق بن الأجدع، روى سَلَمة بن كُهيل: أنّهما كانا يمشيان إلى بعض أزواج رسول الله ﷺ، فيقَعانِ في عليّ عليه السلام، فأمّا الأسود فمات عى ذلك، وأما مسروق فلم يمُتْ حتى كانَ لا يصلّي لله تعالى صلاةً إلا صلّى بعدها عَلَى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لحديث سمعه من عائشة في فضله.

وروى أبو نعيم الفضل بن دُكَين، عن عبد السلام بن حَرْب، عن ليث بن أبي سُلَيم، قال: كان مسروق يقول: كان عليّ كحاطب ليل، قال: فلم يمت مسروق حتى رجع عن رأيه هذا.

وروى سَلَمَة بن كُهَيْل، قال: دخلتُ أنا وزُبيد اليماميّ على امرأةِ مسروق بعد موته، نحدثتْنا، قالت: كان مسروق والأسود بن يزيد يُفْرطان في سبّ علي بن أبي طالب، ثم ما مات مسروق حتى سمعتُه يصلّي عليه، وأما الأسود فمضى لشأنه. قال: فسألناها: لم ذلك؟ قالت: شيء سمعه مِنْ عائشة تَرْويه عن النبيّ ﷺ فيمن أصابَ الخوارج.

وروى أبو نعيم، عن عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، قال: ثلاثة لا يؤمَنُون عَلَى عليّ بن أبي طالب، مسروق، ومُرّة، وشُريح.

وروى أنّ الشعبيّ رابعهم.

وروى عن هيثم، عن مجالد، عن الشعبيّ، أن مسروقاً ندِم عَلَى إبطائه عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وروى الأعمش، عن إبراهيم التّيميّ، قال: قال عليّ عليه السلام لشريح، وقد قضى قضيَّة نَقَم عليه أمرَها: والله لأنفينّك إلى بَانِقْيَا شهرين تقضي بين اليهود، قال: ثم قُتِلَ عليّ عليه السلام ومضى دهر، فلما قام المختار بن أبي عبيد قال لشُرَيح: ما قال لك أميرُ المؤمنين عليه السلام يوم كذا؟ قال: إنه قال لي كذا، قال: فلا والله لا تقعد، حتى تخرج إلى بانِقْيا تقضي بين اليهود. فسيّره إليها فقَضى بين اليهود شهرين.

منهم أبو وائل شقيق بن سلمة، كان عُثْمانياً يقع في عليّ عليه السلام، ويقال: إنه كانَ يرى رأيَ الخوارج، ولم يخْتلف في أنه خرج معهم، وأنّه عاد إلى عليّ عليه السلام مُنيباً مقلِعاً.

روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف، فخرج إلينا عليٌّ، فما زال يكلّمنا حتى رجع منا ألفان.

وروى صاحب كتاب «الغارات»، عن عثمان بن أبي شيبة، عن الفَضْل بن دُكَين، عن سفيان الثوريّ، قال: سمعت أبا وائل يقول: شهدت صِفّين وبئس الصّفوف كانت!

قال: وقد روى أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النَّجُود، قال: كان أبو وائل عثمانياً، وكان زِرُّ بن حُبَيش عَلَوِيًّا.

ومن المبغضين القالين: أبو بُرْدة بن أبي موسى الأشعريّ، ورِث البِغْضة له، لا عن كلالة.

وروى عبد الرحمن بن جُندَب، قال: قال أبو بُرْدة لزياد: أشهد أن حُجْر بن عديّ قد كفر بالله كفرة أصْلَع، قال عبد الرحمن: إنّما عَنَى بذلك نِسْبَة الكفر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لأنّه كان أصلع.

قال: وقد روى عبد الرحمن المسعوديّ، عن ابن عياش المنتوف، قال: رأيت أبا بُرْدة قال لأبي العادية الجُهنيّ قاتل عمار بن ياسر: أأنت قتلتَ عمار بن ياسر؟ قال: نعم، قال: ناولني يدَك، فقبَّلَها، وقال: لا تمسّك النار أبداً.

وروى أبو نُعيم عن هشام بن المغيرة، عن الغضبان بن يَزيد، قال: رأيت أبا بُرْدة قال لأبي العادية قاتلِ عمار بَن ياسر: مرحباً بأخي هاهنا! فأجلسه إلى جانبه.

ومن المنحرفين عنه عليه السلام أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ القاريء، روى صاحب كتاب «الغارات» عن عطاء بن السائب، قال: قال رجل لأبي عبد الرحمن السُّلميّ: أنْشُدُكَ بالله، إن سألتُك لتخبرنيّ؟ قال: نعم، فلما أكّد عليه قال: بالله هل أبغضتَ عليًا إلا يوم قسم المال في الكوفة فلم يصلْك ولا أهلَ بيتك منه بشيء! قال: أما إذْ أنشَدْتَني بالله، فلقد كان كذلك.

قال: وروى أبو عمر الضّرير، عن أبي عوانة، قال: كان بين عبد الرحمن بن عطية وبين أبي عبد الرحمن السُّلمِيّ شيء في أمر عليّ عليه السلام، فأقبل أبو عبد الرحمن على حَيّان فقال: هل تَدْرِي ما جَرّأ صاحبَك عَلَى الدماء؟ يعني علياً، قال: «وما جَرّأه لا أباً لغيرك! قال: حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١)، أو كلاماً هذا معناه.

وكان عبد الله بن عُكَيْم عُثمانياً، وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى عَلَوِيًا، فروى موسى الجهنيّ، عن ابنة عبد الله بن عُكَيْم، قالت: تحدثنا يوماً، فسمعت أبي يقول لعبد الرحمن: أما إن صاحبَك لو صَبَر لأتاه الناس.

وكان سهم بن طريف عُثمانيًا، وكان عليّ بن ربيعة عَلَوِيًّا، فضرب أمير الكوفة عَلَى الناس

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (٢٤٩٤).

بعثاً، وضرب عَلَى سهم بن طريف معهم، فقال سهم لعليّ بن ربيعة: اذهب إلى الأمير فكلِّمه في أمري ليُعْفِيَني، فأتى عليّ بن ربيعة الأمير، فقال: أصلحك الله! إن سهماً أعمى فأعْفِه، قال: قد أعفيتُه، فلما التقيا قال: قد أخبرت الأميرَ أنّك أعمى، وإنما عنيت عمى القلب.

وكان قيس بن أبي حازم يُبْغِض عليًا عليه السلام، روى وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: أتيت علياً عليه السلام ليكلم لي عثمان في حاجة، فأبى فأبغضتُه.

قلت: وشيوخنا المتكلّمون - رحمهم الله - يُسقِطون روايته عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنكم لترَوْنَ ربّكم كما ترَوْن القمر ليلة البدر»[1]، ويقولون: إنه كان يُبغِض علياً عليه السلام، فكان فاسقاً، ونقلوا عنه أنه قال: سمعت علياً عليه السلام يخطب على المنبر، ويقول: «انفروا إلى بقية الأحزاب»، فدخل بغضُه في قلبي.

وكان سعيد بن المسيّب منحرفاً عنه عليه السلام، وجبّهه عُمر بن عليّ عليه السلام في وجهه بكلام شديد.

روى عبد الرحمن بن الأسود، عن أبي داود الهمدانيّ، قال: شهدت سعيد بن المسيّب - وأقبل عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال له سعيد: يابن أخي، ما أراك تكثر غِشْيان مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله كما يفعل إخوتك وبنو أعمامك! فقال عمر: يابن المسيّب، أكلما دخلت المسجد أجيء فأشهِدَك! فقال سعيد: ما أحبّ أن تغضب، سمعت أباك يقول: إنّ لي من الله مقاماً لهو خيرٌ لبني عبد المطلب ممّا على الأرض من شيء. فقال عمر: وأنا سمعت أبي يقول: ما كلمة حكمة في قلب منافق فيخرج من الدنيا، حتى يتكلم بها. فقال سعيد: يابن أخي، جعلتَني منافقاً! قال: هو ما أقول لك. ثم انصرف.

وكان الزهريّ من المنحرفين عنه عليه السلام.

وروى جرير بن عبد الحميد، عن محمد بن شيبة، قال: شهدتُ مسجد المدينة، فإذا الزهريّ وعُروة بن الزبير جالسان يذكران علياً عليه السلام، فنالا منه، فبلغ ذلك عليّ بن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة الفجر (٥٧٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨١).

الحسين عليه السلام ، فجاء حتى وقف عليهما ، فقال: أمّا أنتَ يا عُروة، فإن أبي حاكم أباك إلى الله، فحكَم لأبي على أبيك، وأما أنت يا زهريّ، فلو كنتَ بمكة لأريتُك كِيرَ أبيك.

وقد روي من طرق كثيرة، أنّ عروة بن الزبير كان يقول: لم يكن أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عليه يزهو إلا عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد.

وروى عاصم بن أبي عامر البَجَليّ، عن يحيى بن عروة، قال: كان أبي إذا ذكَر علياً نال منه.

وقال لي مرّة: يا بني، والله ما أحجم الناسُ عنه إلا طلباً للدنيا، لقد بَعَثَ إليه أسامة بن زيد أن ابعثْ إليّ بعطائي، فوالله إنّك لتعلم أنك لو كنتَ في فم أسد لدخلتُ معك. فكتب إلي: إنّ هذا المال لمن جَاهد عليه، ولكنّ لي مالاً بالمدينة فأصِبْ منه ما شئت.

قال يحيى: فكنت أعجبُ من وصفه إياه بما وصفه به، ومن عيبه له وانحرافه عنه.

وكان زيد بن ثابت عُثمانياً شديداً في ذلك الوقت، وكان عمرو بن ثابت عثمانياً، من أعداء عليّ عليه السلام ومُبغضيه، وعمرو بن ثابت هو الذي روى عن أبي أيوب الأنصاريّ حديثَ: «ستة أيام من شوّال».

روي عن عمرو أنه كان يركب ويدور القرَى بالشام ويجمع أهلها، ويقول: أيّها الناس، إن علياً كان رجلاً منافقاً، أراد أن ينخس برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة، فالعنوه، فيلعنه أهلُ تلك القرية، ثم يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك، وكان في أيام معاوية.

وكان مكحولٌ من المبغضين له عليه السلام ، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحرّ، قال: لقيت مكحولاً، فإذا هو مطبوع - يعني مملوءاً - بغضاً لعليّ عليه السلام - فلم أزل به حتّى لان وسكن.

وروى المحدّثون عن حماد بن زيد، أنه قال: أرى أن أصحاب عليّ أشدُّ حباً له من أصحاب العِجْل لعجلهم. وهذا كلام شنيع.

وروى عن شبابة بن سوّار أنه ذكر عنده ولد عليّ عليه السلام ، وطلبهم الخلافة فقال: والله لا يصِلُون إليها أبداً، والله ما استقامت لعليّ، ولا فرح بها يوماً، فكيف تصير إلى ولده هيهات هيهات! لا والله لا يذوقُ طعمَ الخلافة مَنْ رضِيَ بقتل عثمان.

وقال شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ: كان أهلُ البصرة كلّهم يُبغضونه، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة، وأما أهلُ مكة فكلّهم كانوا يُبغضونه قاطبةً، وكانت قريش كلها على خلافه، وكان جُمهور الخلق مع بني أميّة عليه.

وروى عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي بكْرة، قال: سمعت علياً عليه السلام، وهو يقول: ما لقيَ أحدٌ من الناس ما لقيت! ثم بكى عليه السلام.

وروى الشعبيُّ، عن شريح بن هانىء، قال: قال عليّ عليه السلام: اللهم إنّي أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رَحِمِي، وأصغوا إنائي، وصَغَّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي[١].

وروى جابر عن أبي الطفيل، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: اللهم إنّي أستعديك على قريش، فإنهم قطعوا رحِمي، وغَصَبُوني حَقِّي، وأجمعوا على منازعتي أمراً كنت أولى به ثم قالوا: إنّ من الحق أن نأخذه، ومن الحق أن تَتركه.

وروى المسيّب بن نَجبة الفزاريّ، قال: قال عليٌّ عليه السلام: من وجدتموه من بني أميّة في ماء فغطُّوا على صِماخه، حتى يدخل الماء في فيه[٢].

وروى عمرو بن دينار، عن ابن أبي مُليكة، عن المِسْوَر بن مخرمة، قال: لقيَ عبد الرحمن بن عوف عمرَ بن الخطاب، فقال: ألم نكن نقرأ من جملة القرآن: قاتلوهم في آخر الأمر كما قاتلتموهم في أوله؟ قال: بلى، ولكن ذاك إذا كان الأمراء بني أمية والوزراء بني مخزوم!

وروى أبو عمر النّهديّ، قال: سمعت عليّ بن الحسين يقول: ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبُّنا.

وروى سفيان الثوريّ، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخْتريّ، قال: أثنى رَجلٌ على علي بن أبي طالب في وجهه - وكان يُبغضه - فقال علي: : أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك[٣].

وروى أبو غسان النهديّ، قال: دخل قوم من الشيعة على عليّ عليه السلام في الرّحبَة، وهو على حَصير خَلَق، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: حبُّك يا أمير المؤمنين، قال: أما إنه مَنْ أحبّني رآني حيث يحبّ أن يراني، ومن أبغضني رآني حيث يكره أن يراني، ثم قال: ما عَبَدَ اللّهَ أحدٌ قبلي

(١) انظر الإمامة السياسة لابن قتيبة: ١/ ١٧٦.
(٢) انظر الغارات للثقفي: ٢/ ٥٧١. .
(٣) أخرجه المجلسي في البحار: ١/ ٣٢٧.

إلا نبيه ﷺ، ولقد هَجَم أبو طالب علينا وأنا وهو ساجدان، فقال: أو فعلتموها! ثم قال لي وأنا غلام: وَيْحك، انصر ابنَ عمك! وَيْحك لا تخذُله، وجعل يحثّني على مؤازرته ومكانفته، فقال له رسول الله ﷺ: «أفلا تصلّي أنت معنا يا عمّ!» فقال: لا أفعل يابن أخي، لا تعلوني استي. ثم انصرف(١).

وروى جعفر بن الأحمر، عن مسلم الأعور، عن حبّة العُرَني، قال: قال عليٌّ عليه السلام: مَنْ أحبّني كان معي، أما أنكَ لو صُمْت الدهر كلَّه، وقمت الليل كله، ثم قُتِلت بين الصفا والمروة - أو قال بين الرُّكن والمقام - لما بعثك الله إلا مع هواك بالغاً ما بلغ، إنْ في جنة ففي جنة، وإن في نار ففي نار.

وروى جابر الجعفيّ، عن عليّ عليه السلام أنه قال: مَنْ أحبَّنا أهلَ البيت فليستعدّ عدة للبلاء(٢).

وروى أبو الأحوص، عن أبي حيّان عن عليّ عليه السلام: يهلِك فيّ رجلان، محبّ غالٍ، ومبغض قالٍ(٣).

وروى حماد بن صالح عن أيوب، عن كهمس، أنّ علياً عليه السلام قال: يهلك فيّ ثلاثة: اللاعن والمستمع المقرّ، وحامل الوِزرْ، وهو الملك المترّف، الذي يُتَقرّب إليه بلعنتي ويُبرأ عنده من ديني، ويُنتقص عنده حسبي، وإنما حَسَبي حسب رسول الله ﷺ، وديني دينه، وينجو فيّ ثلاثة: مَنْ أحبني، ومَنْ أحبّ محبّي، ومَنْ عادى عدوي، فمن أشرب قلبُه بغضي أو ألّب على بغضي، أو انتقصني، فلم يعلم أنّ الله عدوه وخصمه؟ والله عدو للكافرين(٤).

وروى محمد بن الصَّلْت، عن محمد بن الحنفيّة، قال: مَنْ أحبَّنا نفعه الله بحبّنا، ولو كان أسيراً بالدَّيْلم(٥).

وروى أبو صادق، عن ربيعة بن ناجد، عن عليّ عليه السلام، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنّ فيك لَشَبَهاً من عيسى ابن مريم، أحبّته النصارى حتى أنزلته بالمنزلة التي ليست له، وأبغضته اليهود حتى بهتَتْ أمّه»(٦).

ورَوَى صاحب كتاب «الغارات» حديثَ البراءة على غَيْرِ الوجه المذكور في كتاب «نَهج البلاغة»، قال: أخبرنا يوسف بن كليب المسعوديّ، عن يحيى بن سليمان العبديّ، عن أبي

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده: ٢٦.
(٢) انظر الغارات للثقفي: ٢/ ٥٨٨. (٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٩/ ٢٩٦٠.
(٥) انظر الغارات: ٢/ ٥٩٠.
(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة: ٤٧٠ رقم ١٠٠٣.

مريم الأنصاريّ، عن محمد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال: خطب عليٌّ عليه السلام على مِنبر الكوفة، فقال: سيُعرَض عليكم سَبّي، وستذبحون عليه، فإن عُرِض عليكم سَبّي فسُبّوني، وإن عرض عليكم البراءة مني، فإني على دين محمد صلى الله عليه وآله؟ ولم يقل: «فلا تَبرؤوا مني»[1].

وقال أيضاً: حدّثني أحمد بن مفضل، قال: حدثني الحسن بن صالح، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: قال عليّ عليه السلام: والله لتُذبحنّ على سبّي - وأشار بيده إلى حَلْقه - ثم قال: فإن أمَرُوكم بسبّي فسبُّوني، وإن أمرُوكم أن تبروا فإني على دين محمد صلى الله عليه وآله. ولم ينههم عن إظهار البراءة[2].

وروى شيخُنا أبو القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى، عن سلمة بن كُهيل، عن المسيّب بن نَجْبة، قال: بينا عليّ عليه السلام يخطُب إذ قام أعرابيّ، فصاح: وامظلمتاه! فاستدناه عليّ عليه السلام، فلما دنا قال له: إنما لك مظلمة واحدة، وأنا قد ظلمت عدد المدر والوبر وفي رواية عباد بن يعقوب، أنّه دعاه فقال له: وَيحك! وأنا والله مظلوم أيضاً، هاتِ فلنَدْعُ عَلَى مَنْ ظلمنَا.

وروى سَدِير الصيرفيّ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ، قال: اشتكى عليّ عليه السلام شَكاة، فعاده أبو بكر وعمر، وخرجا من عنده، فأتيا النبي صلى الله عليه وآله، فسألهما: «مِنْ أين جئتما»؟ قالا: عُدْنا عليًّا، قال: «كيف رأيتماه»؟ قال: رأيناه ويُخاف عليه مما به، فقال: «كلا إنه لن يموت حتى يُوسَع غدراً وبغياً، وليكوننّ في هذه الأمة عبرة يعتبر به الناس من بعده»[3].

وروى عثمان بن سعيد، عن عبد الله بن الغنويّ، أن علياً عليه السلام خطب بالرّحبة، فقال: أيها الناس، إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها! وربِّ السماء والأرض، إنّ من عهد النبيّ الأميّ إليّ: «إنّ الأمة ستغدر بك بعدي».

وروى هيثم بن بشير، عن إسماعيل بن سالم مثله، وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بلفظ أو قريب منه.

وروى أبو جعفر الإسكافي أيضاً أنّ النبي صلى الله عليه وآله دخل عَلَى فاطمة عليها السلام، فوجد عليًّا نائماً، فذهبت تنبّهه، فقال: «دعيه فربّ سهرٍ له بعدي طويل، ورب جفوة لأهل بيتي مِنْ أجله شديدة» فبكت، فقال: «لا تبكي فإنكما معي، وفي موقف الكرامة عندي»[4].

---

(١) أخرجه الثقفي في الغارات: ١/ ٨٥.
(٢) أخرجه النوري في مستدرك الوسائل: ١٢/ ٢٧١.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١/ ٣١٨.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ٦٥.

وروى الناس كافة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «هذا وليّي وأنا وليُّه عاديت مَنْ عاداه، وسالمت من سالمه»[١]، أو نحو هذا اللفظ.

وروى أيضاً محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «عدوك عدوّي وعدوّي عدوّ الله عزّ وجلّ»[٢].

وروى يونس بن حباب، عن أنس بن مالك، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ بن أبي طالب معنا، فمرنا بحديقة، فقال عليّ: يا رسول الله، ألا تَرَى ما أحسن هذه الحديقة! فقال: «إن حديقتك في الجنّة أحسن منها»، حتى مرزْنا بسبع حدائق، يقول عليّ ما قال، ويجيبه رسول الله صلى الله عليه وآله بما أجابه. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وقف فوقفنا، فوضع رأسه عَلَى رأس عليّ وبكى، قال عليّ: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «ضغائن في صدور قوم لا يُبدُونها لك حتى يفقدوني»، فقال: يا رسول الله، أفلا أضع سيفي عَلَى عاتقي فأبيدَ خضراءهم! قال: «بل تصبر»، قال: فإن صبرتُ! قال: «تلاقي جهداً»، قال: أفي سلامةٍ من ديني؟ قال: «نعم»، قال: فإذاً لا أبالي[٣].

وروى جابر الجعفيّ، عن محمد بن عليّ عليه السلام، قال: قال عليّ عليه السلام: ما رأيت منذ بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله رخاء، لقد أخافتْني قريش صغيراً، وأنصبتني كبيراً، حتى قبض الله رسوله، فكانت الطامّة الكبرى، والله المستعان على ما تصفون!.

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن الأعمش، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سيظهر عَلَى الناس رجل من أمتي، عظيم السرْم[٤]، واسع البُلعوم، يأكل ولا يشبع، يحمل وزرَ الثَّقَلين، يطلب الإمارة يوماً، فإذا أدركتموه فابقروا بطنَه، قال: وكان في يد رسول الله صلى الله عليه وآله قضيب، قد وضع طرفه في بطن معاوية[٥].

قلت: هذا الخبر مرفوع مناسب لما قاله عليّ عليه السلام في «نهج البلاغة»، ومؤكّد لاختيارنا أنّ المراد به معاوية، دون ما قاله كثير من الناس أنّه زياد والمغيرة.

وروى جعفر بن سليمان الضبعيّ، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدريّ قال: ذكَر رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً لعليّ ما يلقى بعدَه من العَنت فأطال، فقال له عليه السلام: أنشدك الله

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٥/١٠٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢١٨٣).
(٢) أخرجه الشيخ النمازي في مستدرك سفينة البحار ٧/ ٣٨٣.
(٣) أخرجه الشيخ عبد الله الحسن في المناظرات في الإمامة: ٤٧.
(٤) السرم: الدبر. اللسان، مادة (سرم).
(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢١٧.

والرَّحَم يا رسول الله لما دعوت الله أن يقبِضني إليه قبلك! قال: كيف أسأله في أجلٍ مؤجّل! قال: يا رسول الله، فعلام أقاتل مَنْ أمَرتني بقتاله؟ قال: «عَلَى الحدَث في الدين»[(١)].

وروى الأعمش، عن عمار الدُّهنّي، عن أبي صالح الحنفي، عن عليّ عليه السلام، قال: قال لنا يوماً: لقد رأيت الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، فشكوت إليه ما لقيتُ حتى بكيت، فقال لي: «انظر»، فنظرت فإذا جلاميد، وإذا رجلان مصفّدان - قال الأعمش: هما معاوية وعمرو بن العاص - قال: فجعلتُ أرضخُ رؤوسهما ثم تعود، ثم أرضخُ ثم تعود، حتى انتبهت.

وروى نحو هذا الحديث عمرو بن مُرّة، عن أبي عبد الله بن سلمة، عن عليّ عليه السلام، قال: رأيتُ الليلة رسول الله صلى الله عليه وآله، فشكوت إليه، فقال: هذه جهنّم فانظر مَنْ فيها، فإذا معاوية وعمرو بن العاص معلّقين بأرجلهما منكّسين، تُرْضَخ رؤوسهما بالحجارة - أو قال: تُشدَخ.

وروى قيس بن الربيع، عن يحيى بن هانيء المراديّ، عن رجل من قومه يقال له زياد بن فلان، قال: كنا في بيتٍ مع عليّ عليه السلام نحن شيعته وخواصّه، فالتفت فلم ينكرْ منّا أحداً، فقال: إن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم فيقطعون أيديكم ويسَمُلون أعينكم، فقال رجلٌ منّا: وأنت حيّ يا أمير المؤمنين؟ قال: أعاذني الله من ذلك، فالتفتَ فإذا واحدٌ يبكي، فقال له: يابنَ الحمقاء، أتريد اللذات في الدنيا والدرجات في الآخرة! إنما وعد الله الصابرين.

وروى زرارة بن أعين عن أبيه، عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام، قال: كان عليّ عليه السلام إذا صلى الفجر لم يزلْ معقّباً إلى أن تطلع الشمس، فإذا طلعت اجتمع إليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس، فيعلّمهم الفقه والقرآن، وكان له وقت يقوم فيه من مجلسه ذلك، فقام يوماً فمرّ برجل، فرماه بكلمة هُجْر - قال: لم يسمّه محمد بن عليّ عليه السلام - فرجع عَوْدَه على بدئه حتى صعِد المنبر، وأمر فنوديَ: الصلاة جامعة! فحمِد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ثم قال: أيّها الناس، إنه ليس شيء أحبّ إلى الله ولا أعَمّ نفعاً من حِلْم إمام وفقهه، ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضرراً من جهل إمام وخُرْقة، ألا وإنه مَنْ لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ، ألَا وإنه من أنصَف من نفسه لم يزِدْه الله إلا عزًّا ألَا وإنّ الذلّ في طاعة الله أقربُ إلى الله من التعزّز في معصيته. ثم قال: أين المتكلّم آنفاً؟ فلم يستطع الإنكار، فقال: هأنذا يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني لو أشاء لقلت، فقال: إن تعف وتصفح، فأنت أهل ذلك، قال: قد عفوت وصفحت، فقيل لمحمّد بن علي عليه السلام: ما أراد أن يقول؟ قال: أراد أن ينسبه.

وروى زرارة أيضاً، قال: قيل لجعفر بن محمد عليه السلام: إن قوماً ها هنا ينتقصون عليًّا عليه السلام، قال: بِمَ ينتقصونه لا أبالهم! وهل فيه موضع نقيصة! والله ما عَرَض لعليّ أمران قطّ

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ٧٩.

كلاهما لله طاعة إلا عمِل بأشدّهما وأشقّهما عليه، ولقد كان يعمل العمل كأنّه قائم بين الجنة والنار، ينظر إلى ثواب هؤلاء فيعمل له، وينظر إلى عقاب هؤلاء فيعمل له، وإن كان ليقوم إلى الصلاة، فإذا قال: وجَّهت وجهيَ تغيّر لونه، حتى يعرف ذلك في وجهه، ولقد أعتق ألف عبد من كدّ يده، كلّ منهم يعرق فيه جبينه، وتحفى فيه كفُّه، ولقد بُشِّرَ بعين نَبَعَتْ في ماله مثل عنق الجَزور، فقال: بشّر الوارث بِشرّ، ثم جعلها صدقة على الفقراء والمساكين وابن السبيل إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، ليصرف الله النار عن وجهه، ويصرف وجهه عن النار[(١)].

وروى القنّاد، عن أبي مريم الأنصاريّ، عن عليّ عليه السلام: لا يحبني كافر ولا ولد زنى.

وروى جعفر بن زياد، عن أبي هارون العبديّ، عن أبي سعيد الخدريّ، قال: كنا بنور إيماننا نحبّ عليّ بنَ أبي طالب عليه السلام، فمن أحبّه عرفنا أنه منا[(٢)].

سب علي عليه السلام عند الإكراه زكاة له

المسألة الثالثة: في معنَى قوله عليه السلام: «فسبّوني، فإنه لي زكاة، ولكم نجاة» فنقول: إنه أباح لهم سبَّه عند الإكراه، لأنّ الله تعالى قد أباح عند الإكراه التلفّظ بكلمة الكفر فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[(٣)]، والتلّفظ بكلمة الكفر أعظم من التلفظ بسبّ الإمام.

فأما قوله: «فإنه لي زكاة ولكم نجاة»، فمعناه أنكم تنجون من القتل إذا أظهرتم ذلك، ومعنى الزكاة يحتمل أمرين: أحدهما: ما ورد في الأخبار النبويةّ أن سبّ المؤمن زكاة له وزيادة في حسناته.

والثاني: أن يريد به أن سبَّهم لي لا ينقص في الدنيا مِنْ قدري، بل أزيد به شَرَفاً وعُلُوّ قدر، وشياع ذكر، وهكذا كان، فإن الله تعالى جعل الأسباب التي حاول أعداؤه بها الغضّ منه عللاً لانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها.

وقد لمح هذا المعنى أبو نصر بن نباتة، فقال للشريف الجليل محمد بن عمر العَلَويّ:

وأبوكَ الوصيّ أوّلُ من شادَ منارَ الهدى وصامَ وَصَلَّى

نشرت حبله قريش فأعطتْهُ إلى صُبْحَة القيامة فَتْلَا

واحتذيت أنا حذوه، فقلت لأبي المظفر هبة الله بن موسى الموسويّ رحمه الله تعالى: في قصيدة أذكر فيها أباه:

---

(١) أخرجه المجلسي في البحار: ٤٠/ ١١٤.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤٢/ ٣٣، والمجلسي في البحار: ٣٩/ ٢٩٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

أمّـك الـدرة الـتـي أنـجـبـت مـن جَـوْهَـرِالـمـجـدِ راضـيـاً مَـرْضِـيّـا
وأبـوك الإمـامُ مـوسـى كـظـيـم الـغـيـظِ حـتـى يُـعِـيـدَهُ مَـنْـسِـيّـا
وأبـوه تـاج الـهُـدَى جَـعْـفَـرُ الـصـا دق وَحْـيـاً عـن الـغُـيـوب وَحِـيّـا
وأبـوه مـحـمـد بـاقـرُ الـعِـلْـم مَـضَـى لَـنَـا هـادِيـاً مَـهْـدِيّـا
وأبـوه الـسـجـاد أتـقـى عـبـاد الـ لّـه لله مـخـلـصـاً ووفـيّـا
والـحـسـين الـذي تـخـير أنْ يَـقْـضِـي عَـزيـزاً ولا يـعـيـشَ دنِـيّـا
وأبـوه الـوصِـيّ أولُ مَـنْ طَـا فَ وَلَـبَّـى سَـبْـعـاً وسـاقَ الـهـدِيّـا
طـامَـنَـتْ مـجـده قـريـش فـأعـطـتْـهُ إلـى سـدْرَة الـسَّـمـاء رقـيّـا
أخْـمَـلَـتْ صـيـتَـه فَـطَـار إلـى أن مَـلأ الأفـقَ ضَـجَّـةً وَدَوِيّـا
وأبـو طـالـب كـفـيـلُ أبـي الـقـا سِـم كَـهْـلاً وَيَـافِـعـاً وَفَـتِـيّـا
وَلِـشَـيْـخِ الْـبَـطْـحَـاء تَـاجُ مَـعَـدٍّ شـيـبـةِ الـحـمْـدِ هـل عـلـمـت سَـمِـيّـا!
وأبـو عـمـر الـعُـلَا هَـاشِـمُ الـجـو دِ ومَـنْ مـثـلُ هـاشـم بَـشَـرِيّـا!
وأبـوه الـهـمـامُ عـبـد مـنـافٍ قُـلْ تـقُـلْ صـادقـاً وتُـبْـدِي بَـدِيّـا
ثـم زيـدٌ - أعـنـي قـصـيَّ الـذي لَـمْ يـك عـن ذِرْوَةِ الـعـلاءِ قَـصِـيّـا
نـسـبٌ إن تـلـفّـع الـمـحـضُ لِـفـاعـاً كـان الـسـلـيـبَ الـعَـرِيّـا
وإذا أظـلـمـت مُـنـاسـخـة الأنـ ـسـاب يـومـاً كـان الْـمُـنـيـر الـجَـلِـيّـا
يـا لـه مـجْـدَة عَـلَـى قَـدَمِ الـدَّهْـرِ وقـد يَـفْـضُـلُ الـعَـتِـيـقُ الـطَّـرِيّـا

وذكرنا ها هنا ما قبل المعنى وما بعده، لأنّ الشعر حديث، والحديث - كما قيل - يأخذ بعضه برقاب بعض، ولأنّ ما قبل المعنى وما بعده مكمّل له، وموضح مقصده.

فإن قلت: أيّ مناسبة بين لفظ «الزكاة» وانتشار الصيت والسّمع؟.

قلت: لأنّ الزكاة هي النماء والزيادة، ومنه سميت الصدقة المخصوصة زكاة لأنها تنمي المال المزكي، وانتشار الصيت نماء وزيادة.

معنى السب والبراءة

المسألة الرابعة: أن يقال: كيف قال عليه السلام: «فأمّا السَّبُّ فسُبّوني فإنه لي زكاة ولكم نجاة، وأما البراءة فلا تبرؤوا مني»؟ وأيّ فرق بين السبّ والبراءة؟ وكيف أجاز لهم السبّ ومنَعهم عن التبرّؤ، والسبّ أفحش من التبرّؤ.

والجواب، أما الذي يقوله أصحابنا في ذلك فإنه لا فرق عندهم بين سبّه والتبرّؤ منه، في

أنّهما حرام وفسق وكبيرة، وأنّ المكرَه عليهما يجوز له فعلُهما عند خَوْفه على نفسه، كما يجوز له إظهار كلمة الكفر عند الخوف.

ويجوز ألّا يفعلهما وإن قتل، إذا قصد بذلك إعزاز الدين، كما يجوز له أن يُسلم نفسه للقتل ولا يُظهر كلمة الكفر إعزازاً للدين، وإنما استفحش عليه السلام البراءة لأنّ هذه اللفظة ما وردت في القرآن العزيز إلا عن المشركين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[2]، فقد صارت بحسب العرْف الشرعيّ مطلَقة على المشركين خاصّة، فَإذَنْ يُحمل هذا النهي على تَرجيح تحريم لفظ البراءة على لفظ السبّ، وإن كان حكمهما واحداً، ألا ترى أنّ إلقاء المصحف في القذر أفحشُ من إلقاء المصحف في دَنَ الشراب، وإن كان جميعاً محرّمين، وكان حكمهما واحداً!

فأما الإمامية فتروي عنه عليه السلام أنه قال: إذا عُرِضتم على البراءة منّا فمدّوا الأعناق.

ويقولون: إنه لا يجوز التبرّؤ منه، وإن كان الحالف صادقاً، وإنّ عليه الكفارة.

ويقولون إنّ حكم البراءة من الله تعالى ومن الرسول ومنه عليه السلام، ومن أحد الأئمة عليهم السلام، حكم واحد.

ويقولون: إنّ الإكراه على السبّ يُبيح إظهاره، ولا يجوز الاستسلام للقتل معه، وأما الإكراه على البراءة، فإنه يجوز معه الاستسلام للقتل ويجوز أن يظهر التّبرّؤ، والأوْلى أن يستسلم للقتل.

علي عليه السلام يقول: إني وُلدت على الفطرة

المسألة الخامسة: أن يقال كيف عَلّل نهيَه لهم على البراءة منه عليه السلام، بقوله: «فإني ولدْت على الفطرة»، فإن هذا التعليل لا يختص به عليه السلام، لأن كلّ أحدٍ يولَد على الفطرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهوّدانه وينصرانه»**[3].

والجواب، أنه عليه السلام عَلّلَ نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل، وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة، ولم يعلل بآحاد هذا المجموع، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولَدْ في الجاهلية، لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل، والنبيّ صلى الله عليه وسلم أرسِل لأربعين سنة مضت من عام الفيل، وقد جاء في الأخبار الصحيحة

(١) سورة التوبة، الآية: ١. (٢) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

أنه ﷺ مكث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد، وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه السلام فحُكم تلك السنين العَشر حكم أيام رسالته ﷺ: فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولّي لتربيته مولود في أيام كأيام النبوّة، وليس بمولود في جاهلية محضة، ففارقت حالُه حال مَنْ يدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل. وقد روى أنّ السنَّةَ التي ولد فيها عليٌّ عليه السلام هي السنة التي بدىء فيها برسالة رسول الله ﷺ، فأُسمِع الهُتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً، ولم يخاطَب فيها بشيء. وهذه السَّنَة هي السنة التي ابتدأ بها بالتبتّل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة، وأنزل عليه الوحي، وكان رسول الله ﷺ يتيمّن بتلك السنة وبولادة عَليّ عليه السلام فيها، ويسمّها سنَة الخَير وسنة البركة، وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن منْ قبلها شاهد من ذلك شيئاً: «لقد وُلد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة»، وكان كما قال صلوات الله عليه، فإنه عليه السلام كان ناصره والمحاميَ عنه وكاشف الغمّاء عن وجهه، وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام، ورست دعائمه، وتمهّدت قواعده عليه السلام.

وفي المسألة تفسير آخر، وهو أن يعني بقوله عليه السلام: «فإني ولدتُ على الفطرة»، أي على الفِطرة التي لم تتغيّر ولم تَحُلْ، وذلك أن معنى قول النبي ﷺ: «كلّ مولودٍ يولد على الفِطرة» أنّ كلَّ مولود فإنّ الله تعالى قد هيّأه بالعقل الذي خلقه فيه وبصحّة الحواس والمشاعر لأنْ يعلَم التوحيد والعدْل، ولم يجعل فيه مانعاً يمنعه عن ذلك، ولكن التربية والعقيدة في الوالدين والإلْف لاعتقادهما وحسن الظنّ فيهما يصدّه عما فُطِر عليه، وأميرُ المؤمنين عليه السلام دون غيره، وُلِد على الفطرة التي لم تَحُلْ ولم يصدّ عن مقتضاها مانع، لا من جانب الأبوين ولا من جهة غيرهما، وغيره ولد على الفِطْرة، ولكنه حال عن مقتضاها، وزال عن موجبها.

ويمكن أن يفسر بأنه عليه السلام أراد بالفِطْرة العِصْمة، وأنّه منذ ولد لم يواقع قبيحاً، ولا كانَ كافراً طَرْفَة عين قطّ، ولا مخطئاً ولا غالطاً في شيء من الأشياء المتعلّقة بالدين. وهذا تفسير الإمامية.

المحققون من أهل السيرة: علي عليه السلام أول من أسلم

المسألة السادس: أن يقال: كيف قال: «وسبقتُ إلى الإيمان»، وقد قال قوم من الناس: إنّ أبا بكر سَبَقه، وقال قوم: إن زيد بن حارثة سبَقه؟.

والجواب، أنّ أكثر أهل الحديث وأكثر المحقّقين من أهل السيرة روَوْا أنه عليه السلام أوّل من أسلم، ونحن نذكر كلام أبي عمر يوسف بن عبد البرّ، المحدّث في كتابه المعروف «بالاستيعاب».

قال أبو عمر في ترجمة علي عليه السلام: المرويّ عن سلمان وأبي ذرّ والمقداد وخبّاب وأبي سعيد الخدريّ وزيد بن أسلم أن علياً عليه السلام أول من أسلم، وفضّله هؤلاء على غيره.

قال أبو عمر: وقال ابن إسحاق: أوّل من آمن بالله وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو قول ابن شهاب، إلا أنه قال: «من الرجال بعد خديجة».

قال أبو عمر: وحدّثنا أحمد بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن الفَضل، قال: حدثنا محمد بن جرير، قال: حدّثنا علي بن عبد الله الدِّهقان، قال: حدَّثنا محمد بن صالح، عن سماك بن حرب، عن عِكْرمة، عن ابن عباس، قال: لعليّ عليه السلام عليه السلام أربع خصال، ليست لأحد غيره: هو أوَّل عربيّ وعجميّ صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو الذي كان معه لواؤه كل زَحْف، وهو الذي صبر معه يوم فَرّ عنه غيره، وهو الذي غَسّله وأدخله قبره.

قال أبو عمر: ورُوِي عن سلمان الفارسيّ أنه قال: أوّل هذه الأمة ورُوداً على نبيّها صلى الله عليه وآله الحوضَ، أولها إسلاماً: عَلِيّ بن أبي طالب. وقد رُوِي هذا الحديث مرفوعاً عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: «أوّل هذه الأمة وروداً عَليّ الحوض أوّلُها إسلاماً: عَلِيّ بن أبي طالب».

قال أبو عمر: ورفعه أوْلى، لأن مثله لا يُدْرَك بالرأي.

قال أبو عمر: فأما إسناد المرفوع، فإن أحمد بن قاسم، قال: حدَّثنا قاسم بن أصبغ قال: حدَّثنا بن الحارث بن أبي أسامة، قال: حدثني يحيى بن هاشم، قال: حدثنا سفيان الثوريّ، عن سلمة بن كُهَيل، عن أبي صادق، عن حَنش بن المعتمِر، عن عُلَيم الكِنديّ، عن سلمان الفارسيّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوّلكم وارداً عَلَيّ الحوض أوّلُكم إسلاماً، عَليٌّ بن أبي طالب»[(١)].

قال أبو عمر: وروى أبو داود الطيالسيّ، قال: حدَّثنا أبو عوانة، عن أبي بَلْج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس أنه قال: أول مَنْ صلى مع النبي صلى الله عليه وآله بعد خديجة عَليٌّ بن أبي طالب[(٢)].

قال أبو عمرو: وحدَّثنا عبد الوارث بن سفيان، قال: حدثنا قاسم بن أصبَغ، قال: حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، قال: حدثنا الحسن بن حماد، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بَلْج عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس، قال: كان عَليٌّ أول من آمن من النّاس بعد خديجة.

قال أبو عمر: هذا الإسناد لا مطعن فيه لأحد، لصحته وثقة نَقَلَتِه، وقد عارض ما ذكرنا في

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٨/ ٢٣٩.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١٧٤).

باب أبي بكر الصديق، عن ابن عباس: والصحيح في أمر أبي بكر أنه أول مَنْ أظهر إسلامه، كذلك قاله مجاهد وغيره، قالوا: ومنعه قومه.

قال أبو عمر: اتفق ابنُ شهاب، وعليّ عليه السلام بن محمد بن عَقِيل، وقتادة، وابن إسحاق عَلَى أنَّ أول من أسلم من الرجال عليّ، واتفقوا على أن خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقه فيما جاء به، ثم عليٌّ بعدها.

وروي عن أبي رافع مثل ذلك.

قال أبو عمر: وحدّثنا عبد الوارث، قال: حدثنا قاسم، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا عبد السلام بن صالح، قال: حدَّثنا عبد العزيز بن محمد الدروارديّ، قال: حدثنا عُمر مولى غُفْرة، قال: سئل محمد بن كعب القرظيّ عن أول مَنْ أسلم: عليٌّ أم أبي بكر؟ فقال: سبحان الله! عَليٌّ أوّلُهما إسلاماً، وإنما شُبّه على الناس، لأنّ علياً أخفَى إسلامه من أبي طالب، وأسلم أبو بكر، فأظهر إسلامه.

قال أبو عمر: ولا شك عندنا أنّ علياً أوّلُهما إسلاماً، ذكر عبد الرزاق في جامعه، عن مَعْمر، عن قتادة، عن الحسن وغيره قالوا: أول مَنْ أسلم بعد خديجة علِيٌّ بن أبي طالب عليه السلام.

وروى معمر، عن عثمان الجزريّ، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، قال: أوَّل مَنْ أسلم عَليٌّ بن أبي طالب.

قال أبو عمر: وروى ابنُ فضيل عن الأجْلح، عن حَبّة بن جوين العُرنيّ، قال: سمعت علياً عليه السلام. يقول: لقد عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين.

قال أبو عمر: وروى شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن حبة العرني، قال: سمعت علياً يقول: أنا أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال أبو عمر: وقد روى سلم بن أبي الجعْد، قال: قلت لابن الحنفيّة: أبوَ بكر كان أولهما إسلاماً؟ قال: لا.

قال أبو عمر: وروى سالم المُلائيّ، عن أنس بن مالك، قال: استنبِيء النبي صلى الله عليه وآله يوم الإثنين، وصلَّى عليٌّ يوم الثلاثاء.

قال أبوعمر: وقال زيد بن أرقم: أوّلُ مَنْ آمن بالله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب.

قال: وقد روى حديث زيد بن أرقم من وجوه، ذكرها النسائي وأسْلم بن موسى وغيرهما، منها ما حدثنا به عبد الوارث، قال: حدثنا قاسم، قال: حدثنا أحمد بن زهير، قال: حدثنا عليّ بن الجعد، قال: حدثنا شعبة، قال: أخبرني عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا حمزة

الأنصاريّ قال: سمعت زيد بن أرقم يقول: أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب.

قال أبو عمر: وحدثنا عبد الوارث، حدثنا قاسم، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، حدثنا أبي، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، قال: حدثنا ابن إسحاق قال: حدثنا يحيى بن أبي الأشعث، عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكنديّ، عن أبيه، عن جدّه، قال: كنت امرأ تاجراً، فقدِمت الحجّ، فأتيت العبّاس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة - وكان امرأ تاجراً - فوالله إنّي لعنده بمنى. إذْ خرج رجل من خِباء قريب منه، فنظر إلى الشمس، فلما رآها قد مالت قام يصلّي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخِباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامتْ خلْفه تصلي، ثم خرج غلام حين راهقَ الحلُم من ذلك الخباء، فقام معه يصلّي، فقلتُ للعباس: ما هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، قلتُ: مَنْ هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: ما هذا الفتى؟ قال: عليّ بن أبي طالب ابن عمه، قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلّي، وهو يزعم أنه نبيّ، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابنُ عمه هذا الغلام، وهو يزعم أنه سيفتَح على أمته كنوزَ كسرى وقيصر، قال: فكان عُفَيف الكنديّ يقول - وقد أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذٍ كنتُ أكون ثانياً مع عليّ.

قال أبو عمر: وقد ذكرنا هذا الحديث من طُرق في باب عفيف الكنديّ من هذا الكتاب.

قال أبو عمر: ولقد قال عليّ عليه السلام: صلّيت مع رسول الله ﷺ كذا وكذا، لا يصلّي معه غيري إلا خديجة.

فهذه الروايات والأخبار كلها، ذكرها أبو عمر يوسف بن عبد البرّ في الكتاب المذكور وهي كما تراها تكاد تكون إجماعاً.

قال أبو عمر: وإنما الاختلافُ في كميّة سنّه عليه السلام يوم أسلمَ، ذكر الحسن بن عليّ الحلوانيّ في كتاب «المعرفة» له، قال، حدّثنا عبد الله بن صالح، قال: حدثنا الليث بن سعد، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، أنه بلغه أنّ علياً والزبير أسلما وهما ابنا ثماني سنين. كذا يقول أبو الأسود يتيم عروة، وذكره أيضاً ابنُ أبي خيثمة عن قُتيبة بن سعيد، عن الليث بن سعد، عن أبي الأسود، وذكره عمر بن شَبّة، عن الحزاميّ، عن أبي وهب، عن الليث، عن أبي الأسود، قال الليث: وهاجرا وهما ابنا ثمان عشرة سنة.

قال أبو عمر: ولا أعلم أحداً قال بقول أبي الأسود هذا.

قال أبو عمر: وروى الحسن بن علي الحلوانيّ، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا مَعْمَر، عن قتادة، عن الحسن، قال: أسلم عليّ وهو ابن خمس عشرة سنة.

قال أبو عمر: وأخبرَنا أبو القاسم خلَف بن قاسم بن سهل، قال: حدّثنا أبو الحسن عليّ بن محمد بن إسماعيل الطوسيّ، قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن إبراهيم السرّاج، قال: حدثنا محمد بن مسعود، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قل: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن الحسن، قال: أسلم عليّ - وهو أول مَنْ أسلم - وهو ابن خمس عشرة سنة، أو ستّ عشرة سنة.

قال أبو عمر: قال ابنُ وضّاح: وما رأيت أحداً قطّ أعلم بالحديث من محمد بن مسعود، ولا بالرأي من سُحنون.

قال أبو عمر: قال ابن إسحاق: أول ذكَرٍ آمن بالله ورسوله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين.

قال أبو عمر: والروايات في مَبْلغ سنِّه عليه السلام مختلفة، قيل: أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: ابن اثنتيْ عشرة سنة. وقيل، ابن خمسَ عشرةَ سنة. وقيل: ابن ستّ عشرةَ، وقيل: ابن عشر. وقيل: ابن ثمان.

قال أبو عمر: وذكر عُمر بن شَبّة، عن المدائنيّ، عن ابن جَعْدة، عن نافع، عن ابن عمر قال: أسلم عليّ وهو ابن ثلاثَ عشرةَ سنةً.

قال: وأخبرنا إبراهيم بن المنذر الحراميّ، قال: حدثنا محمد بن طلحة، قال: حدثني جدي إسحاق بن يحيى، عن طلحة، قال: كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام والزبير بن العوام وطَلْحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص أعماراً واحدة.

قال: وأخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: حدثنا إسماعيل بن عليّ الخطبيّ، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا حُجَيْن أبو عمر، قال: حدثنا حِبّان، عن معروف، عن أبي معشر، قال: كان عليّ عليه السلام وطلحة والزبير في سنٍّ واحدة.

قال: وروى عبد الرزاق، عن الحسن وغيره: أنَّ أوّلَ مَنْ أسلم بعد خديجة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن خمس عشرة سنة، أو ستّ عشرة.

قال أبو عمر: وروى أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدثنا شريح بن النعمان، قال: حدثنا الفُرات بن السائب، عن ميمون بن مِهران، عن ابن عمر، قال: أسلم عليّ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال أبو عمر: هذا أصحّ ما قيل في ذلك والله أعلم.

انتهى حكاية كلام أبي عمر في كتاب «الاستيعاب».

واعلم أنّ شيوخنا المتكلِّمين لا يكادُون يختلفون في أنّ أوّل الناس إسلاماً عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إلا مَنْ عساه خالف في ذلك من أوائل البصريين، فأما الذي تقررت المقالةُ عليه الآن فهو القول بأنه أسبقُ الناس إلى الإيمان، لا تكاد تجد اليوم في تَصانيفهم وعند متكلميهم والمحققين منهم خلافاً في ذلك.

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ما زال يدّعي ذلك لنفسه، ويفتخر به، ويجعله في أفضليّته عَلَى غيره، ويصرّح بذلك، وقد قال غير مرة: أنا الصدِّيق الأكبر، والفاروق الأوّل أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصلّيت قبل صلاته.

وروى عنه هذا الكلام بعينه أبو محمد بن قتيبة في كتاب «المعارف» وهو غير متّهم في أمره.

ومن الشعر المرويّ عنه عليه السلام في هذا المعنى الأبيات التي أولها:

محمد النبيّ أخي وصِهرِي ... وحمزة سيّدُ الشهداء عَمّي

من جملتها:

سبقتكم إلى الإسلام طُرًّا ... غلاماً ما بلغتُ أوانَ حلِمي

والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة جداً لا يتسع هذا الكتاب لذكرها، فلتُطْلَبْ من مظانّها.

ومن تأمل كتب السِّيَر والتواريخ عَرَف مِنْ ذلك ما قلناه.

فأمّا الذاهبون إلى أنّ أبا بكر أقدَمهما إسلاماً فنفر قليلون، ونحن نذكر ما أورده ابن عبد البرّ أيضاً في كتاب «الاستيعاب» في ترجمة أبي بكر.

قال أبو عمر: حدثني خالد بن القاسم، قال: حدثنا أحمد بن محبوب، قال: حدثنا محمد بن عبدوس، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا شيخ لنا، قال: أخبرنا مجالد، عن الشعبي، قال: سألت ابنَ عباس - أو سئل: - أيّ الناس كان أوّل إسلاماً؟ فقال: أمَا سمعتَ قول حسان بن ثابت:

إذا تذكَّرتَ شجْواً مِنْ أخِي ثِقةٍ ... فاذكُرْ أخاكَ أبا بكرٍ بما فعلا

خَيرَ البريّة أتقاها وأعدلَها ... بعدَ النبيّ وأوفاها بما حَمَلا

والثانيَ التاليَ المحمودَ مَشهَدُه ... وأوّلُ الناس منهم صَدَّقَ الرسلا

ويُروَى أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال لحسان: «هل قلت في أبي بكر شيئاً؟»، قال: نعم، وأنشده هذه الأبيات، وفيها بيت رابع:

وثانيَ اثنين في الغار المنيفِ وَقَدْ ... طاف العدوُّ به إذ صَعَّدُوا الجَبَلا

فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ، وقال: «أحسنتَ يا حسان»(١)، وقد روى فيها بيت خامس:

وَكَانَ حِبَّ رسولِ الله قد علمُوا ... من البريَّةِ لم يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا

وقال أبو عمر: وروى شُعبة، عن عمرو بن مرة، عن إبراهيم النَّخَعِيّ، قال: أوّل مَنْ أسلم أبو بكر.

قال: وَروى الجريريّ، عن أبي نصر، قال: قال أبو بكر لعليّ عليه السلام: أنا أسلمت قبلك، في حديث ذكره فلم ينكِرْه عليه.

قال أبو عمر: وقال فيه أبو مِحْجَن الثَّقفيّ:

وَسُمِّيتَ صِدِّيقاً وكلُّ مهاجر ... سواك يسمّى باسمه غير منكَرِ

سبقتَ إلى الإسلام واللّهُ شاهدٌ ... وكنتَ جليساً بالعريشِ المُشَهَّرِ

وبالغار إذ سُمِّيت خِلًّا وصاحباً ... كنت رفيقاً للنبيّ المطهَّرِ

قال أبو عمر: وروينا من وجوه، عن أبي أمامة الباهليّ، قال: حدثني عمرو بن عبَسة، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو نازل بعُكَاظ، فقلت: يا رسولَ الله، من اتَّبعك عَلَى هذا الأمر؟ فقال: حرّ وعبد: أبو بكر وبلال. قال: فأسلمت عند ذلك، وذكر الحديث(٢).

هذا مجموع ما ذكره أبو عمر بن عبد البرّ في هذا الباب في ترجمة أبي بكر، ومعلوم أنّه لا نسبة لهذه الروايات إلى الروايات التي ذكرها في ترجمة عليّ عليه السلام الدالّة عَلَى سَبْقه، ولا ريب أنّ الصحيح ما ذكره أبو عمر أنّ علياً عليه السلام كان هو السابق، وأن أبا بكر هو أوّلُ من أظهر إسلامَه، فظنّ أن السبق له.

وأما زيد بن حارثة، فإنّ أبا عمر بن عبد البرّ، رضي الله تعالى عنه ذكر في كتاب «الاستيعاب»، أيضاً في ترجمة زيد بن حارثة، قال: ذكر معمَر بن شبّة في جامعه عن الزهريّ أنه قال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة.

قال عبد الرزّاق: وما أعلم أحداً ذكره غير الزهريّ.

ولم يذكر صاحب «الاستيعاب» ما يدلّ على سبق زيد إلا هذه الرواية، واستغربها، فدلّ مجموع ما ذكرناه أنّ علياً عليه السلام أوّلُ الناس إسلاماً، وأن المخالف في ذلك شاذّ، والشاذّ لا يعتدّ به.

---

(١) أخرج بنحوه: الحاكم في «المستدرك» (٤١٤ط)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٥٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤١٩ط)، والنسائي، كتاب: المواقيت، باب: إباحة الصلاة إلى أن يصلي الصبح (٥٨٤)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أي ساعات الليل أفضل (١٣٦٤).

علي عليه السلام من السابقين إلى الهجرة

المسألة السابعة: أن يقال: كيف قال: «إنه سبق إلى الهجرة» ومعلوم أنّ جماعة من المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره، وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر في صحبة النبيّ صلى الله عليه وآله، وتخلف عليّ عليه السلام عنهما، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، ومكث أياماً يردّ الودائع التي كانتْ عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟.

والجواب، أنّه عليه السلام لم يقل: «وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة»، وإنما قال: «وسبقت» فقط، ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للناس كافة، ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبلَه أحد إلا نفر يسير جداً.

وأيضاً فقد قلناً إنه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سَبْقه إلى الهجرة، وهذه الأمور الثّلاثة لم تجتمع لأحد غيره، فكان بمجموعها متميّزاً عن كلّ أحد من الناس.

وأيضاً فإنّ اللام في «الهجرة» يجوز ألّا تكون للمعهود السابق، بل تكون للجنس، وأميرُ المؤمنين عليه السلام سبق أبا بكر وغيره إلى الهجرة التي قبل هِجْرة المدينة، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله هاجرَ عن مكة مراراً يطوف على أحياء العرب، وينتقل من أرض قوم إلى غيرها، وكان عليٌّ عليه السلام معه دون غيره.

أما هجرته إلى بني شيبان، فما اختلف أحد من أهل السيرة أنّ علياً عليه السلام كان معه هو وأبو بكر، وأنّهم غابوا عن مكة ثلاثة عشر يوماً وعادوا إليها، لَمّا لم يجدوا عند بني شيبان ما أرادوه من النُّصْرَة.

وروى المدائنيّ في كتاب «الأمثال» عن المفضّل الضبيّ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما خرج عن مكة يعرِض نفسه على قبائل العرب، خرج إلى ربيعة، ومعه عليٌّ عليه السلام وأبو بكر، فدفعوا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدّم أبو بكر - وكان نَسّابة - فسّلم فرّدوا عليه السلام، فقال: ممّن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: أمِنْ هَامتها، أم من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمى، فقال: من أيّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذُهْل الأكبر، قال: أفمنكم عَوْف الذي يقال له: لا حُرّ بوادي عوف؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم بِسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم جَسّاس حامِي الذّمار ومانع الجار؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم الحوْفَزان، قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا، قال: أفمنكم المزدَلِف صاحب العمامة الفَرْدِةِ؟ قالوا: لا قال: أفأنتم أخوالُ الملوك من كِنْدة؟ قالوا: لا، قال: فلستم إذن ذُهْلاً الأكبر، أنتم ذُهْل الأصغر. فقام إليه غلام قد بَقَل وجهه، اسمه دَغْفِل فقال:

إنّ علــي ســائِلِـنـا أنْ نَـسْـأَلَـهْ والـعِـبْءُ لا تـعـرُفُـه أو تـحـمِـلَـهْ

يا هذا، إنك قد سألتنا فأجبناك، ولم نكتمك شيئاً، فمّمن الرجل؟ قال: من قريش قال: بخٍ بخٍ! أهل الشرف والرّياسة، فمِنْ أيّ قريش أنت؟ قال: من تَيْم بن مرّة، قال: أمكنتَ والله الرامي من الثُّغرةِ، أمِنكم قصيّ بن كِلَاب الذي جَمَع القبائل من فِهْر فكان يدعى مجمِّعاً؟ قال: لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هَشَم لقومه الثريدَ؟ قال: لا، قال: أفمنكم شيبةُ الحمد، مُطعم طير السَّماء؟ قال: لا، قال: أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال: لا، قال: أفمِن أهل النَّدوة أنت؟ قال: لا، قال: أفمِنْ أهل الرِّفادة أنت؟ قال: لا، قال: أفمِن أهل الحِجابة أنت؟ قال: لا، قال: أفمِن أهل السِّقاية؟ قال: لا، قال: فاجتذب أبو بكر زِمام ناقته، ورجع إلى رسول الله ﷺ هارباً من الغُلام، فقال: دَغْفل:

صَادَفَ دَرَءَ السيلِ دَرءٌ يصدعه

أما والله لو ثبتَّ لأخبرتُكَ أنك من زَمَعات قريش، فتبسم رسول الله ﷺ. وقال عليّ عليه السلام لأبي بكر: لقد وقعتَ يا أبا بكر من الأعرابيّ على باقعة، قال: أجل: إن لكل طامّة طامّة والبلاء موكل بالمنطق، فذهبت مثلاً.

وأما هجرته ﷺ إلى الطائف، فكان معه عليّ عليه السلام وزيد بن حارثة في رواية أبي الحسن المدائني، ولم يكن معهم أبو بكر. وأما رواية محمد بن إسحاق، فإنه قال: كان معه زيد بن حارثة وَحْدَه، وغاب رسول الله ﷺ عن مكة في هذه الهجرة أربعين يوماً، ودخل إليها في جوار مُطعِم بن عديّ.

وأما هجرته ﷺ إلى بني عامر بن صعصعة وإخوانهم من قَيْس عيلان، فإنه لم يكن معه إلا عليّ عليه السلام وَحْدَه، وذلك عَقِيب وفاة أبي طالب، أوحى إليه ﷺ: اخرج منها، فقد مات ناصرُك، فخرج إلى بني عامر بن صعصعة، ومعه عَلِيّ عليه السلام وحدَه، فعرض نفسَه عليهم وسألهم النصر، وتلا عليهم القرآن فلم يجيبوه، فعادا عليهما السلام إلى مكة، وكانت مدة غيبته في هذه الهجرة عشرة أيام، وهي أوّل هجرة هاجرها ﷺ بنفسه.

فأما أوّل هجرة هاجرها أصحابه ولم يهاجر بنفسه فهجرةُ الحبشة، هاجر فيها كثيرٌ من أصحابه عليه السلام إلى بلاد الحبشة في البحر، منهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام، فغابوا عنه سنين، ثم قدم عليه منهم مَنْ سلم وطالت أيامه وكان قدوم جعفر عليه عامَ فتح خَيْبر[1]، فقال ﷺ: «ما أدري بأيّهما أنا أسَرّ، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر»!.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٤٩)، والطبراني في «الكبير» (١٤٦٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٠١)، و«شعب الإيمان» (٨٩٦٨).

٥٧ - ومن كلام له عليه السلام كلم به الخوارج

الأصل: أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ. أَبَعْدَ إِيمَانِي بِاللّهِ، وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ ٱللّهِ صَلَّىٰ ٱللّهُ عَلَيْهِ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكُفْرِ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ. فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ، وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ ٱلْأَعْقَابِ.

أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهَا ٱلظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً.

قال الرضيّ رحمه الله: قوله عليه السلام: «وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آبِرٌ»، يُرْوَى عَلى ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُها أن يكونَ كما ذَكَرْناهُ: «آبِر» بالرَّاءِ، من قولهِمْ: رَجُلٌ آبِرٌ، للذي يَأْبُرُ النَّخل، أي يُصْلِحُهِ.

وَيُرْوَى: «آثِرٌ» بالثَّاء، بثلاث نقطٍ، يُرَاد به الذي يَأْثِرُ الحدِيثَ، أي يروِيه ويحكيه وهو أصحُّ الوُجُوه عنْدِي، كأنهُ عليه السلام قال: لَا بَقِيَ منكم مُخْبِرٌ.

وَيُرْوى: «آبِزٌ» بالزَّاي المعجمةِ، وهو الوَاثِبُ، والهَالِكُ أيضاً يُقَالُ له: آبِزٌ.

الشرح: الحاصب: الريح الشديدة التي تُثير الحصباء، وهو صغار الحصى، ويقال لها أيضاً حَصِبَة. قال لَبيد:

جَرَّتْ عَلَيْهَا إِذْ خَوَتْ مِن أَهْلِهَا ... أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَة

فأما التفسيرات التي فَسّر بها الرضيّ رحمه الله تعالى قوله عليه السلام: «آبر» فيمكن أن يزاد فيها، فيقال: يجوز أن يريد بقوله: «ولا بقي منكم آبر» أي نَمّام يفسد ذات البين، والمئبَرة: النميمة، وأبر فلان، أي نَمّ، والآبر أيضاً: مَنْ يبغي القوم الغوائل خفية، مأخوذ من أَبَرْتُ الكلب إذا أطعمتَه الإبرة في الخبز، وفي الحديث: «المؤمن كالكلب المأبور»[1]، ويجوز أنْ يكون أصلُه «هابر»، أي مَنْ يضرب بالسيف فيقطع، وأبدلت الهاء همزة، كما قالوا في: «آل» أهل، وإن صحّت الرواية الأخرى «آثر» بالثاء بثلاث نقط، فيمكن أن يريد به ساجي باطن خُفّ البعير، وكانوا يُسَجُّون باطن الخفّ بحديدة ليقتصّ أثره، رجل آثر وبعير مأثور.

---

(١) لم أجده في كتب الحديث، وقد ذكره ابن منظور في لسان العرب، مادة (أبر)، وكذلك أبو بكر الرازي في «مختار الصحاح»، مادة (أبر).

وقوله عليه السلام: «فأوبوا شرّ مآب»، أي ارجعوا شرّ مرجع. والأعقاب: جمع عَقِب بكسر القاف، وهو مؤخّر القدم، وهذا كله دعاء عليهم، قال لهم أوّلاً: أصابكم حاصِب وهذا من دعاء العرب، قال تميم بن أبي مُقْبل:

فَإِذَا خَلَتْ من أهْلِها وقَطِينها   فأصابَها الحَصْباء والسّفّانُ

ثم قال لهم ثانياً: «لا بقي منكم مخبر». ثم قال لهم ثالثاً: «ارجعوا شَرّ مرجع»، ثم قال لهم رابعاً: «عودوا على أثر الأعقاب»: وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1]، والمراد انعكاس حالهم، وعوْدهم من العِزّ إلى الذلّ، ومن الهداية إلى الضلال.

وقوله عليه السلام: «وأثْرَة يتَّخذها الظالمون فيكم سنّة» فالأثرَة ها هنا الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم وإطّراح جانبهم، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم للأنصار: «ستلقوْن بعدي أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقوني»[2].

الخوارج: رجالهم وحروبهم

واعلم أن الخوارجَ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام كانوا أصحابَه وأنصارَه في الجمل وصِفّين قبل التحكيم، وهذه المخاطبة لهم، وهذا الدعاء عليهم، وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك، فإنّ الله تعالى سَلّط عَلَى الخوارج بعده الذلّ الشامل، والسيف القاطع، والأثرة من السلطان، وما زالت حالُهم تضمحلّ، حتى أفناهم الله تعالى وأفنى جُمهورهم، ولقد كان لهمْ من سيف المهلّب بن أبي صفرة وبنِيه الحتْف القاضي، والموت الزؤام.

ونحن نذكر من أخبار الخوارج وحروبهم ها هنا طرفاً.

عروة بن حدير

فمنهم عُروة بن حُدَيْر أحد بني ربيعة بن حنظلة من بني تميم، ويعرف بعُرْوة بن أدَيّة وأديّة جدة له جاهليّة، وكان له أصحاب وأتباع وشيعة، فقتله زياد في خلافة معاوية صبراً.

نجدة بن عويمر الحنفي

ومنهم نجدة بن عُويمر الحنفيّ، كان من رؤسائهم، وله مقالة مفردة من مقالة الخوارج وله أتباع وأصحاب، وإليهم أشار الصَّلَتَان العبديّ بقوله:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» (٣٧٩٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١).

أرى أمَّةً شَهَرتْ سيفَها ... وقد زيد في سوطِها الأصبحي
بنجديّة أو حَروريّةٍ ... وأزرق يدعو إلى أزرقي
فملّتنا أنّنا مسلمونَ ... على دِين صدّيقنا والنَّبِي
أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبيرَ مَرُّ الغَدَاةِ وكَرُّ العَشِي
إذا ليلة أهْرَمَتْ يومَها ... أتى بعد ذلك يوم فَتِي
نَرُوح ونغدو لحاجاتِنا ... وحاجةُ مَنْ عَاشَ لا تنقضِي
تموت مع المرء حاجاتُه ... وتبقى له حاجة ما بَقِي

وكان نجدة يصلّي بمكة بحذاء عبد الله بن الزبير في جمعه في كلّ جُمْعَةٍ، وعبد الله يطلب الخلافة، فيمسكان عن القتال من أجل الحرَم.

وقال الراعي يخاطب عبد الملك:

إنّي حَلَفْتُ عَلَى يمينٍ بَرَّةٍ ... لا أكذبُ اليومَ الخليفةَ قيلَا
ما إن أتيتُ أبا خُبَيْبٍ وافداً ... يوماً أريدُ لبيعتي تبديلا
ولَمّا أتيت نُجيدة بن عُوَيْمرٍ ... أبغِي الهُدَى فيزيدُني تضليلا
مِنْ نعمةِ الرحمن لا مِنْ حيلتِي ... أنّي أعدُّ لَهُ عَلَيّ فُضُولا!

واستولى نَجْدة على اليمامة، وعظُم أمره، حتى ملك اليمن والطائف وعُمان والبحرين ووادي تميم وعامر، ثم إن أصحابه نَقَموا عليه أحكاماً أحدثها في مذهبهم، ومنها قوله: إنّ المخطىء، بَعْد الاجتهاد معذور، وإن الدين أمران: معرفة الله ومعرفة رسوله، وما سوى ذلك فالناس معذورون بجهله، إلى أن تقوم عليهم الحُجّة، فمن استحلّ محرّماً من طريق الاجتهاد فهو معذور، حتى إنّ مَنْ تزوّج أخته أو أمه مستحلًا لذلك بجهالة فهو معذور ومؤمن، فخلعوه وجعلوا اختيار الإمام إليه، فاختار لهم أبا فُدَيك، أحد بني قيس بن ثعلبة، فجعله رئيسَهم. ثم أن أبا فُدَيك أنفذ إلى نَجْدة بعدُ مَنْ قتله، ثم تولاه بعد قتله طوائف من أصحابه بعد أن تفرّقوا عليه، وقالوا: قتل مظلوماً.

ومنهم المستورد بن سعد أحد بني تميم، كان ممن شهد يوم النُّخَيْلة ونجا بنفسه فيمن نجا من سيفِ علي عليه السلام، ثم خرج بعد ذلك بمدّة على المغيرة بن شعبة، وهو والي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان في جماعة من الخوارج، فوجّه المغيرة إليه معقِل بن قيس الرِّياحيّ، فلما تواقَفَا دعاه المستورد إلى المبارزة، وقال له: علام تقتَل الناس بيني وبينك؟ فقال معقل: النّصَفَ سألت، فأقسم عليه أصحابُه، فقال: ما كنت لآبيَ عليه، فخرج إليه فاختلفا ضربتيْن،

خرّ كلّ واحد منهما من ضربة صاحِبه قتيلاً. وكان المستورد ناسكاً كثير الصلاة، وله آداب وحكم مأثورة.

ومنهم حَوْثرة الأسديّ، خرج على معاوية في عام الجماعة في عِصابة من الخوارج فبعث إليه معاوية جيشاً من أهل الكوفة، فلما نظر حَوْثرة إليهم، قال لهم: يا أعداء الله، أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدُّوا سلطانه، وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدُّوا سلطانه! فلما التحمت الحرب قتِل حوثرة، قتَله رجل من طيّىء، وفضّت جموعه.

ومنهم قُريب بن مرّة الأزديّ، وزَحّاف الطائي، كانا عابدين مجتهدين من أهل البصرة فخرجا في أيام معاوية في إمارة زياد، واختلف الناس، أيهما كان الرئيس؟ فاعترضا الناس فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضُبيعة من ربيعة بن نزار فقتلاه - وكان يقال له رُؤبة الضُّبَعي - وتنادى الناس، فخرج رجل من بني قَطيعة، من الأزد، وفي يده السّيف، فناداه الناس من ظهور البيوت الحروريّة: انجُ بنفسك، فنادوْه: لسنا حَرُورية، نحن الشُّرَط فوقف فقتلوه، فبلغ أبا بلال مرداس بن أُدَيّة خبرُهما، فقال: قريب، لا قرّبه الله! وزحّاف لا عفا الله عنه! ركبَاها عَشْواء مظلِمة - يريد اعتراضهما الناس - ثم جعلا لا يمران بقبيلة إلا قَتَلا مَن وجدا، حتى مَرّا على بني عليّ بن سُود، من الأزد، وكانوا رماة، كان فيهم مائة يُجيدون الرمي، فرموهم رمْياً شديداً فصاحوا: يا بني عليّ، البقيا، لا رِمَاء بيننا. فقال رجل من بني عليّ بن سود:

لَا شَيْء لِلْقومِ سِوَى السِّهامِ مَشْحُوذةً في غَلَسِ الظَّلامِ

فعرّد عنهم الخوارج، وخافوا الطلب، واشتقّوا مقبرة بني يشكُر حتى نفذُوا إلى مُزَينَة ينتظرون مَنْ يلحق بهم من مُضَر وغيرها، فجاءهم ثمانون، وخرجت إليهم بنو طاحِيَة، من بني سُودِ، وقبائلُ من مُزَيْنة وغيرها، فاستقتلت الخوارج، وحاربت حتى قُتِلت عن آخرها، وقُتِل قُرَيب وزَحّاف.

ومنهم أبو بلال مرداس بن أُديّة، وهو أخو عروة بن حُدير الذي ذكرناه أولاً، خرج في أيام عبيد الله بن زياد، وأنفذ إليه ابنُ زياد عباسَ بن أخضر المازنيّ فقتله وقتل أصحابه، وحُمل رأسه إلى ابن زياد، وكان أبو بلال عابداً ناسكاً شاعراً، ومن قدماء أصحابنا مَنْ يدّعيه، لِمَا كان يذهب إليه من العَدْل وإنكار المنكر، ومن قدماء الشيعة من يَدَّعيه أيضاً.

نافع بن الأزرق الحنفي

ومنهم نافع بن الأزرق الحنفي، وكان شجاعاً مقدماً في فقه الخوارج، وإليه تنسب الأزارقة، وكان يفتِي بأنّ الدار دار كفر، وأنهم جميعاً في النار، وكلّ مَنْ فيها كافر، إلّا من أظهر إيمانه، ولا يحلّ للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة، ولا أن يأكلوا مِنْ ذبائحهم

ولا أن يناكحوهم، ولا يتوارث الخارجيّ وغيره، وهم مثل كفّار العرب وعَبَدة الأوثان، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعَد بمنزلتهم، والتقيّة لا تحلّ، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾(١)، وقال فيمن كان على خلافِهم: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾(٢)، فتفرّق عنه جماعة من الخوارج، منهم نجدة بن عامر، واحتج نَجدة بقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾(٣)، فسار نَجدَة وأصحابه إلى اليمامة وأضاف نافع إلى مقالته الّتي قدّمناها، استحلالَه الغدر بأمانه لمن خالفه، فكتب نَجدة إليه:

أمّا بعدُ، فإنّ عهدي بك وأنت لليتيم كالأبِ الرحيم، وللضّعيف كالأخ البرّ، تعاضد قويّ المسلمين، وتصنع للأخرق منهم، لا تأخذُك في الله لومة لائم، ولا ترى معونةَ ظالم كذلك كنت أنت وأصحابك، أولاً تتذكر قولك: لولا أني أعلمُ أنَّ للإمام العادل مثل أجر رعيته ما تولّيت أمر رجلين من المسلمين! فلما شَرَيْتَ نفسَك في طاعة ربّك ابتغاء مرضاته، وأصبت من الحقّ فَصّه، وصبَرْت على مُرّه، تجرّدَ لك الشيطان، ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وطأة منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك، وأغواك فغويت، وأكفرت الذين عَذَرهم الله تعالى في كتابه، من قَعَدةِ المسلمين وضَعَفتهم، قال الله عزّ وجلّ، وقوله الحقّ، ووعده الصدق: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٤): ثم سماهم تعالى أحسن الأسماء فقال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾(٥) ثم استحلَلْت قتل الأطفال، وقد نهى - رسول الله ﷺ - عن قَتْلهم(٦)، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٧)، وقال سبحانه في القَعَدة خيراً، فقال: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٨) فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلةَ مَنْ هو دون المجاهدين، أوَمَا سمعت قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾(٩) فجعلهم من المؤمنين. وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ثم إنك لا تؤدي أمانةً إلى مَنْ خالفك، والله تعالى قد أمرَ أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها. فاتق الله في نفسك، واتّقِ يوماً لا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإن الله بالمرصاد، وحكمُه العدل، وقولُه الفصل. والسلام.

فكتب إليه نافع:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٢٨.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٩١.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٩١.
(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٨٠).
(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٨) سورة النساء، الآية: ٩٥.
(٩) سورة النساء، الآية: ٩٥.

أما بعد، أتاني كتابُك تعِظُني فيه، وتذكّرني وتنصحُ لي وتزجرني، وتصفُ ما كنتُ عليه من الحق، وما كنت أوثره من الصواب، وأنا أسألُ الله أن يجعلني من القوم الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه. وعبتَ عليّ ما دِنْتُ به، من إكفار القَعَدةِ وقَتْل الأطفال، واستحلالِ الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك إن شاء الله...

أما هؤلاء القَعَدةُ، فليسوا كمن ذكرت ممّن كان على عهد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد تفقّهوا في الدين، وقرؤوا القرآن، والطريقُ لهم نَهْجٌ واضح. وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلَهم، إذ قالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقال: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾[4] فخبّر بتعذيرهم، وأنهم كذَبُوا الله ورسوله، ثم قال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5] فانظر إلى أسمائهم وسِماتهم.

وأما الأطفال، فإن نوحاً نبيّ الله كان أعلَم بالله منّي ومنك، وقد قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[6]، فسماهم بالكفر وهم أطفال، وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوح، ولا تقوله في قومنا، والله تعالى يقول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾[7]، وهؤلاء كمشركي العرب، لا يقبل منهم جِزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأمّا استحلال أمانات مَنْ خالفنا فإنّ الله تعالى أحلّ لنا أموالهم، كما أحلّ دماؤهم لنا، فدماؤهم حَلال طِلْق، وأموالهم فيء للمسلمين، فاتّقِ الله وراجع نفسَك، فإنه لا عذرَ لك إلا بالتوبة، ولن يسعَك خِذلاننا والقعود عنّا وترك ما نهجناه لك من مقالتنا، والسلام على من أقرّ بالحقّ وعمل به.

وكتب إلى مَنْ بالبصرة من المحكّمة: أما بعد فإنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون. إنّكم لتعلمون أنّ الشريعة واحدة، والدين واحد، ففيم المقام بين أظهر الكفّار ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم الله عز وجل إلى الجهاد، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[8]، ولم يجعلْ لكم في التخلّف عذراً في حالٍ من الأحوال، فقال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٨١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٩٠.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٩٠.
(٦) سورة نوح، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٧) سورة القمر، الآية: ٤٣.
(٨) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

وَثِقَالًا﴾[١] وإنما عذر الضعفاء والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، ومَنْ كانت إقامتُه لعِلّة، ثم فضّل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٢]، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا، فإنها غرّارة مكّارة، لذتها نافذة، ونعيمها بائد، حُفّتْ بالشهوات اغتراراً، وأظهرت حَبْرَة وأضمرت عَبْرة، فليس آكلٌ منها أَكْلَة تسرّه، ولا شاربٌ منها شربة تؤنقه إلا ودنا بها درجَة إلى أجله، وتباعد بها مسافة من أملِه، وإنما جعلها الله دار المتزوّد منها، إلى النعيم المُقيم، والعيش السليم، فليس يرضى بها حازم داراً ولا حكيم قراراً، فاتقوا الله وتزوّدوا، فإن خير الزاد التقوى، والسلام على من اتبع اهدى.

فلما أظهر نافعٌ مقالَته هذه، وانفرد عن الخوارج بها، أقام في أصحابه بالأهواز يستعرِض الناس، ويقتُل الأطفال، ويأخذ الأموال، ويَجْبي الخراج، وفشا عُمّاله بالسواد، فارتاع لذلك أهلُ البصرة، واجتمع منهم عشرة آلاف إلى الأحنف، وسألوه أن يؤمّر عليهم أمير يحمِيهم من الخوارج، ويجاهدَ بهم، فأتى عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو المسمّى بِبّة، فسأله أن يؤمّر عليهم - وببّة يومئذ أميرُ البصرة من قِبَل ابن الزبير - فأمّر عليهم مسلم بن عبيس بن كُرَيْز، وكان ديّناً شُجاعاً، فلما خرج بهم من جِسْر البصرة، أقبل عليهم، وقال: أيّها الناس، إني ما خرجت لامتيار ذهب ولا فضة، وإني لأحارب قوماً إن ظفرتُ بهم فما وراءهم إلا السيوف والرماح، فمن كان شأنه الجهاد، فلينهضْ، ومَنْ أحبّ الحياةَ فليرجع.

فرجع نفرٌ يسير، ومضى الباقُون معه، فلما صاروا بدُولاب خرج إليهم نافع وأصحابه فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسّرت الرماح: وعُقِرت الخيل: وكثُر الجراح والقتل، وتضاربوا بالسيوف والعَمَد، فقتِل ابنُ عُبَيْس أمير أهل البصرة، وقتِل نافع بن الأزرق أمير الخوارج: وادّعى قَتْلَه سلامة الباهليّ، وكان نافع قد استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحُور السّليطي اليربوعي، واستخلف ابن عُبَيْس الربيع بن عمرو الأجذم الغُدانيّ اليربوعيّ، فكان الرئيسان من بني يَرْبُوع، فاقتتلوابعد قتل ابن عُبيس ونافع قتالاً شديداً نَيّفاً وعشرين يوماً، حتى قال الربيع لأصحابه: إنّي رأيت البارحة كأنّ يدي التي أصيبت بِكابُل انحطت من السماء، فاسْتَشْلَتني، فلما كان الغد قاتلهم إلى الليل. ثم عاودهم القِتال، فقتِل، فتدافع أهلُ البصرة الراية، حتى خافوا العَطَب، إذ لم يكن لهم رئيس. ثم أجمعوا على الحجاج بن رباب الحميريّ، فأباها، فقيل له: ألا ترى رؤساء العرب قد اختاروك من بينهم! فقال: إنها مشؤومة، لا يأخذها أحدٌ إلا قتل، ثم أخذها فلم يَزَلْ يقاتل القوم بدُولاب حتى التقى بعمران بن الحارث الراسبيّ، وذلك بعد أن اقتتلوا زُهاء شهر، فاختلفا ضربتيْن، فخرّا ميتين.

---

(١)سورة التوبة، الآية: ٤١. (٢) سورة النساء، الآية: ٩٥.

وقام حارثة بن بدر الغُدانيّ بأمر أهل البصرة بعده، وثبت بإزاء الخوارج يناوشهم القتال مناوشةً خفيفة، ويزجِي الأوقات انتظاراً لقدوم أمير من قبل بِبّة يلي حَرْب الخوارج: وهذه الحرب تسمى حرب دُولاب: وهي من حُروب الخوارج المشهورة، انتصف فيها الخوارج من المسلمين، وانتصف المسلمون منهم، فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب.

عبيد الله بن بشير بن الماحوز اليربوعي

ومنهم عبيد الله بن بشير الماحُوز اليربوعيّ، قام بأمر الخوارج يوم دُولاب بعد قَتْل نافع بن الأزرق وقام بأمر أهل البصرة عمر بن عبيد الله بن معمر التيميّ، ولاه عبد الله بن الزُّبير ذلك، ولقيه كتابُه بالإمارة وهو يريد الحج، وقد صار إلى بعض الطريق، فرجع فأقام بالبصرة، وولى أخاه عثمان بن عبيد الله بن معمر محاربة الأزارقة، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً، فلقيه أهلُ البصرة الذين كانوا في وجه الأزارقة، ومعهم حارثة بن بدر الغُدانيّ، يقوم بأمرهم عن غير ولاية، وكان ابن الماحوز حينئذٍ في سوق الأهواز، فلما عبر عثمان إليهم دُجَيلاً، نهضت إليه الخوارج، فقال عثمان لحارثة: ما الخوارج إلا ما أرى، فقال حارثة: حسبك بهؤلاء! قال: لا جَرَم لا أتعدّى حتى أناجزهم، فقال حارثة: إنَّ هؤلاء القوم لا يقاتلون بالتعسّف، فأبق على نفسك وجندِك، فقال: أبيتم يا أهلَ العراق إلا جُبْناً! وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب! أنت والله بغير هذا أعلم - يُعَرِّض له بالشراب، وكان حارثة بن بدر صاحب شراب - فغضب حارثة، فاعتزل، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غربت الشمس، فأجْلَت الحرب عنه قتيلاً، وانهزم الناس، وأخذ حارثة بن بدر الراية، وصاح بالناس: أنا حارثة بن بدر! فثاب إليه قوم فعبر بهم دجيلاً، وبلغ قتل عثمان البصرة، فقال شاعر من بني تميم:

مضى ابن عُبَيْسٍ صابراً غيرَ عاجزٍ ... وأعقَبَنا هذا الحجازيّ عثمانُ
فأرعَدَ مِن قبل اللقاء ابنُ مَعْمَرٍ ... وأبرق، والبرقُ اليمانيّ خَوّانُ
فَضَحْتَ قريشاً غَثَّها وسمينَها ... وقيل بنو تيم بن مرةَ غُزلان
فلولا ابنُ بدرٍ للعراقَيْنِ لم يَقُمْ ... بما قام فيه للعِرَاقَيْنِ إنسانُ
إذا قيل مَنْ حامى الحقيقة؟ أومأت ... إليه مَعَدٌّ بالأكف وقحطان

ووصل الخبر إلى عبد الله بن الزبير بمكة، فكتب إلى عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر بعزله وولى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ المعروف بالقُباع البصرة، فقدمها، فكتبَ إليه حارثة بن بدر يسأله الولاية والمدد، فأراد توليتَه، فقال له رجل من بَكْرِ بن وائل: إن حارثة ليس بذلك، إنما هو صاحب شراب، وكان حارثة مستهتراً بالشراب، معاقراً للخمر، وفيه يقول رجل من قومه:

ألـم تـرَ أنّ حـارثـةَ بـنَ بَـدْرٍ يُـصَـلّـي وهـوَ أكْـفَـرُ مـن حِـمَـارِ

ألـم تـرَ أنّ لـلـفـتـيـانِ حَـظّـاً وحـظُّـكَ فـي الـبـغـايـا والـعُـقَـارِ

فكتب إليه القُباع: تُكْفى حربَهم إن شاء الله. فأقام حارثة يُدافعهم حتى تفرّق أصحابه عنه وبقي في خِفٍّ منهم، فأقام بنهر تِيرَي، فعبرت إليه الخوارج، فهرب مَنْ تخلّف معه من أصحابه، وخرج يركُض حتى أتى دُجَيلاً، فجاس في سفينة، وأتبعه جماعة من أصحابه، فكانوا معه فيها، ووافاه رجلٌ من بني تميم، عليه سلاحه والخوارج وراءه، وقد توسّط حارثة دُجيلاً، فصاح به: يا حارثة، ليس مثلي يضيع! فقال للملّاح: قرّب، فقرّب إلى جُرُف، ولا فُرْضة هناك، فَطَفَر بسلاحه في السفينة، فساخت بالقوم جميعاً، وهلك حارثة.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتاب «الأغاني الكبير» أن حارثة لما عقدوا له الرئاسة، وسلّموا إليه الراية، أمرهم بالثّبات، وقال لهم: إذا فتح الله عليكم فللعرب زيادة فريضتين، وللموالي زيادة فريضة، ونَدَب الناس، فالتقوْا وليس بأحدٍ منهم طِرْق قد فشت فيهم الجراحات، وما تطأ الخيلُ إلّا على القتلى، فبيناهم كذلك، إذْ أقبل جمعٌ من الشراة من جهة اليمامة، - يقول المكثِّر: إنهم مائتان، والمُقلّل: إنهم أربعون - فاجتمعوا وهم مُريحون مع أصحابهم، فصاروا كَوْكَبَةً واحدة، فلما رآهم حارثة بن بدر ركض برايته منهزماً، وقال لأصحابه:

كَـرْنِـبُـوا وَدَوْلِـبُـوا أَوْ حَـيْـثُ شِـئْـتُـمْ فـاذْهَـبُـوا

وقال:

أيْـر الـحِـمـار فـريـضـةٌ لـعـبـيـدِكُـمْ والـخـصـيَـتَـان فـريـضـة الأعـراب

قال: كَرنبوا، أي اطلبوا كرنَبي، وهي قرية قريبة من الأهواز، ودَوْلِبوا: اطلبوا دُولاب، وهي ضيعة بينها وبين الأهواز أربعة فراسخ.

قال: فتتابع الناس عَلَى أثره منهزمين، وتبعتهم الخوارج، فألقى الناس أنفسَهم في الماء، فغرق منهم بدُجَيل الأهواز خلق كثير.

ومنهم الزُّبير بن علي السليطيّ التميمي، كان على مقدمة ابن الماحوز، وكان ابن الماحوز يخاطَب بالخلافة، ويخاطَب الزبير بالإمارة. ووصل الزبير بعد هلاك حارثة بن بدر، وهرب أصحابُه إلى البصرة، فخافه الناس خوفاً شديداً، وضجّ أهلُ البصرة إلى الأحنف، فأتى القُباع، فقل: أصلح الله الأمير! إنّ هذا العدوّ قد غَلَبا على سوادنا وفيئنا، فلم يبق إلا أن يحصُرَنا في بلدنا حتى نموت هُزالاً. قال: فسمّوا إليّ رجلاً يلي الحرب، فقال الأحنف: لا أرى لها رجلاً إلا المهلّب بن أبي صُفرة، فقال: أو هذا رأي جميع أهل البصرة؟ اجتمعوا إليّ في غدٍ لأنظر.

وجاء الزبير حتى نزل على البصرة، وعَقَد الجسْرَ ليعبُر إليها، فخرج أكثرُ أهل البَصْرة إليه، وانضمّ إلى الزبير جميع كُوَر الأهواز وأهلها رغبة ورهبة، فوافاه البصريون في السُّفُن وعلى الدّوابّ، فاسودّت بهم الأرض، فقال الزبير لما رآهم: أبى قومُنا إلا كفراً، وقطع الجسر، وأقام الخوارج بإزائهم، واجتمع الناس عند القُباع، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً، وكانوا ثلاث فرق: سمَّى قومٌ المهلّب، وسمّى قوم مالك بن مِسْمع، وسمّى قوم زياد بن عمرو بن أشرف العتكيّ، فاختبر القُباع ما عند مالك وزياد، فوجدهما مُتثاقلين عن الحرب، وعاد إليه مَنْ أشار بهما، وقالوا: قد رجعْنا عن رأينا، ما نرى لها إلا المهلّب، فوجّه إليه القُباع فأتاه، فقال له: يا أبا سعيد، قد ترى ما قد رَهِقَنا من هذا العدوّ، وقد أجمع أهلُ مصرك عليك، وقال له الأحنف: يا أبا سعيد، إنّا والله ما آثرناك، ولكنّا لم نَرَ مَنْ يقوم مقامك.

ثم قال القُبَاع - وأومأ إلى الأحنف: - إنّ هذا الشيخَ لم يسمّك إلا إيثاراً للدِّين والبقيَا وكلُّ مَنْ في مِصْرك مادٌّ عينَه إليك، راجٍ أن يكشف الله عنه هذه الغمّة بك، فقال المهلّب: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنّي عند نفسي لَدون ما وصفتم، ولست آبَي ما دعوتم إليه، لكنّ لي شروطاً أشترطها، قالوا: قل، قال: على أن أنتخب مَنْ أحببت! قال الأحنف: ذاك لك، قال: وَلي إمرَة كلّ بلد أغلب عليه! قالوا: لك ذلك، قال: ولي فَيْء كلّ بلد أظفر به! قال الأحنف: ليس ذلك لك ولا لنا، إنما هو فَيْء للمسلمين، فإن سلبتَهم إياه كنت عليهم كعدوّهم، ولكن لك أن تعطيَ أصحابك من فيء كلّ بلد تغلب عليه ما أحببت، وتُنفق منه على محاربة عدوّك، فما فَضَل عنكم كان للمسلمين، فقال المهلّب: لا حول ولا قوة إلا بالله! فمنْ لي بذلك؟ قال الأحنف: نحن وأميرك وجماعة أهلِ مصرك، قال: قد قبلت. فكتبوا بينهم بذلك كتاباً، وَوُضِع على يدي الصَّلْت بن حُرَيث بن جابر الجعفيّ، وانتخب المهلّب من جميع الأخماس، فبلغت نُخْبتَه اثني عشر ألفاً، ونظروا في بيت المال، فلم يكن إلا مائتي ألف درهم، فعجزتْ، فبعث المهلّب إلى التّجار، فقال: إنّ تجاراتِكم منذ حول قد فَسَدت بانقطاع موادّ الأهواز وفارس عنكم، فهلمّوا فبيعوني واخرُجوا معي أوفّكم حقوقَكم. فبايعوه وتاجروه، فأخذ منهم المال ما أصلَح به عسكَره، واتخذ لأصحابه الخفاتين والرّانَات المحشوّة بالصوف، ثم نهض - وكان أكثر أصحابه رَجّالة - حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفُن فأصلحت وأحضرت، فما ارتفع النهار حتى فَرَغ منها، ثم أمر الناس بالعُبور، وأمّر عليهم ابنة المغيرة، فخرج الناس، فلما قاربوا الشطّ خاضت إليهم الخوارج، فحاربوهم وحاربهم المغيرة، ونَضَحهم بالسهام حتى تنحَّوْا، وصار هو وأصحابه على الشطّ، فحاربوا الخوارج، فكشفوهم وَشَغلوهم حتى عقد المهلب الجسْر وعبر، والخوارج منهزمون، فنهى الناس عن اتباعهم، ففي ذلك يقول شاعر من الأزد:

إنّ العـراق وأهـلَـه لـم يـخـبُـرُوا ... مثلَ المهلّب في الحروب فسلّوا

أمضى وأيمن في اللقاء نقيبةً ... وأقلّ تهليلاً إذا ما أحجموا

وأبلى مع المغيرة يومئذ عطية بن عمرو العنبريّ، من فرسان تميم وشجعانهم. ومن شعر عطية:

يُدْعى رجالٌ للعَطاء وإنما ... يُدْعَى عطيّة للطّعان الأجردِ

وقال فيه شاعر من بني تميم:

وما فارسٌ إلّا عطيةُ فَوْقَهُ ... إذا الحربُ أبْدَتْ عَنْ نَوَاجِذِها الفَمَا

به هَزَم الله الأزارقَ بَعْدَمَا ... أباحُوا مِنَ المِصْرَيْنِ حَلًّا ومَحْرَمَا

فأقام المهلّب أربعين ليلة يَجْبِي الخراج بكُور دَجْلة، والخوارج بنهر تِيَرِي، والزبير بن علي منفرِد بعسكره عن عكسر ابن الماحُوز، فقضى المهلب التجار، وأعطى أصحابه، فأسرع الناس إليه رغبة في مجاهدة العدوّ وطمعاً في الغنائم والتجارات، فكان فيمن أتاه محمد بن واسع الأزديّ وعبد الله بن رباح ومعاوية بن قُرّة المُزَنيّ، وكان يقول: لو جاءت الديلم من ها هنا والحَروريّة من ها هنا لحاربتُ الحَروريّة، وجاءه أبو عمران الْجَوْني. وكان يروى عن كعب أنّ قتيل الحرُوريّة يفضُل قتيل غيرهم بعشرة أبواب.

ثم أتى المهلّب إلى نهر تيري، فتنحّوْا عنه إلى الأهواز، وأقام المهلّب يَجْبِي ما حواليه من الكُوَر، وقد دسّ الجواسيس إلى عسكر الخوارج يأتونه بأخبارهم ومَنْ في عسكرهم، وإذا حُشوة، ما بين قَصّاب وحَدّاد وداعر. فخطب المهلب الناس، وذكر لهم ذلك، وقال: أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم! ولم يزل مقيماً حتى فَهمهم، وأحكم أمرهم وقَوّى أصحابه، وكثُرت الفرسان في عسكره، وتتامّ أصحابُه عشرين ألفاً.

ثم مضى يؤمّ كُوَر الأهواز، فاستخلَفَ أخاه المعارك بن أبي صُفرة على نهر تِيرَي، وجعل المغيرة على مقدِّمته، فسار حتى قاربهم، فناوشهم وناوشوه، فانكشف عن المغيرة بعضُ أصحابه، وثبت المغيرة نفسُه بقية يومه وليلته يوقد النيران، ثم غاداهم فإذا القوم قد أوقدوا النيران في بقية متاعهم، وارتحلوا عن سوق الأهواز، فدخلها المغيرة، وقد جاءت أوائل خيل المهلّب، فأقام بسوق الأهواز، وكتب بذلك إلى الحارث القُباع كتاباً يقول فيه:

أما بعد، فإنا مذ خرَجْنا نؤمّ العدوّ، في نعم من فضل الله متّصلة علينا، ونِقَم متتابعة عليهم نُقْدِم ويحجمون، ونَحِلُّ ويرتحلون، إلى أن حَلَلْنا سوقَ الأهواز، والحمد لله ربّ العالمين، الذي من عنده النصر، وهو العزيز الحكيم.

فكتب إليه الحارث:

هنيئاً لك أخا الأزد الشّرف في الدنيا والأجر في الآخرة، إن شاء الله.

فقال المهلّب لأصحابه: ما أجفَى أهل الحجاز أما ترونه عرف اسمي وكنيتي واسم أبي!.

قالوا: وكان المهلّب يبثّ الأحراس في الأمن، كما يبثّهم في الخوف، ويُذْكِي العيون في الأمصار كما يُذْكِيها في الصحاري، ويأمر أصحابَه بالتحرز، ويخوّفهم البَيَات، وإن بَعُد منه العدوّ، ويقول: احذروا أنْ تُكَادوا كما تكيدون، ولا تقولوا: هَزمناهم وغَلَبناهم، والقوم خائفون وجِلون، فإن الضرورة تفتح باب الحيلة.

ثم قام فيهم خطيباً، فقال: أيها النّاس، قد عرفتُم مذهب هؤلاء الخوارج، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فَتَنُوكم في دينكم، وسفكوا دماءكم، فقاتلوهم على ما قاتَلهم عليه أوّلُكم عليّ بن أبي طالب، لقد لقيهم الصابر المحتسب مسلم بن عُبَيس، والعَجِل المفرِّط عثمان بن عبيد الله، والمعصيّ المخالف حارثة بن بدر، فَقَتلوا جميعاً وقُتِلوا، فالقوهم بحدٍّ وَجِدّ فإنما هو مَهَنَتكم وعبيدكم، وعارٌ عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أنْ يغلبكم هؤلاء على فيئكم، ويطاؤوا حريمكم.

ثم سار يريدهم وهم بمنَاذر الصغرى، فوجه عبيد الله بن بشير بن الماحُوز رئيسُ الخوارج رجلاً يقال له واقد، مولًى لآل أبي صُفْرة مِنْ سَبْي الجاهلية، في خمسين رجلاً، فيهم صالح بن مخراق إلى نهر تِيري، وبها المعارك بن أبي صُفْرة، فقتلوه وصلبوه، فنُمِيَ الخبر إلى المهلّب، فوجه ابنَه المغيرة، فدخل نهر تِيري، وقد خرج واقد منها، فاستنزل عمّه فدفنَه، وسكن الناس، واستخلف بها ورجع إلى أبيه، وقد نزل بسُولاف والخوارج بها، فواقعهم، وجعل على بني تميم الحريش بن هلال، فخرج رجلٌ من أصحاب المهلّب، يقال له عبد الرحمن الإسكاف، فجعل يحضُّ الناس ويهوّن أمرَ الخوارج، ويختالُ بين الصّفّين، فقال رجل من الخوارج لأصحابه: يا معشر المهاجرين، هل لكم في قِتْلة فيها الجنّة! فحمل جماعة منهم على الإسكاف فقاتلهم وحده فارساً، ثم كَبَابه فرسُه، فقاتلهم راجلاً قائماً وباركاً، ثم كَثُرت به الجراحات فذبّب بسيفه، ثم جعل يحثُو في وجوههم التراب، والمهلّبُ غيرُ حاضر، فقُتِلَ، ثم حضر المهلب فأعلم، فقال للحريش ولعطية العنبري: أسلمتُمَا سيدَ أهل العراق، لم تُعِيناه ولم تستنقذاه حَسداً له، لأنه رجل من الموالي، ووبّخهما. وحمل رجلٌ من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب فقتله، فحمل عليه المهلّب فطعنه فقتله، ومال الخوارجُ بأجمعهم على العسكر، فانهزم الناس، وقتل منهم سبعون رجلاً، وثبت المهلّب وابنه المغيرة يومئذ، وعرف مكانه.

ويقال: حاص المهلب يومئذ حَيْصة. ويقول الأزد: بل كان يردّ المنهزمة ويحمي أدبارهم، وبنو تميم تزعم أنه فَرّ، وقال شاعرهم:

بِسُولَافٍ أَضَعْتَ دماءَ قومي ... وَطِرْتَ على مُواشِكَةٍ دَرُورِ

وقال آخر من بني تميم:

تبعنا الأعورَ الكذّابَ طَوْعاً ... يُزَجّي كلَّ أربعةٍ حماراً

فيا ندمي عَلَى تَرْكِي عَطَائي ... معايَنَةً وأطلُبُه ضِمَارا

إذا الرحمن يَسّر لي قُفُولاً ... فحرّقَ في قُرَى سولاف نارا

قوله: «الأعور الكذاب»، يعني به المهلّب، كانت عينه عارَتْ بسهم أصابها، وسَمَّوْه الكَذّاب، لأنه كان فقيهاً، وكان يتأوّل ما ورد في الأثر من أنّ كلّ كذب يكتَّب كذباً إلا ثلاثة: الكذب في الصلح بين رجلين، وكذب الرجل لامرأته بوعْد، وكذب الرجل في الحرب بتوعّد وَتهدُّد. قالوا: وجاء عنه ﷺ: «إنما أنت رجل فخذِّل عَنَّا ما استطعت»[1]. وقال: «إنما الحرب خُدعة»[2]، فكان المهلّب ربما صنع الحديث ليشدّ به من أمر المسلمين ما ضعف، ويضعّف به من أمر الخوارج ما اشتدّ، وكان حَيّ من الأزد يقال لهم النَّدَب، إذا رأوا المهلب رائحاً إليهم قالوا: راح ليكذب، وفيه يقول رجل منهم:

أنت الفتى كلّ الفتى ... لو كنت تصدُق ما تقول

فبات المهلب في ألفين، فلما أصبح رجع بعضُ المنهزمة، فصاروا في أربعة آلاف، فخطب أصحابه، فقال: والله مابكم من قلّة، وما ذهب عنكم إلا أهل الجُبْن والضعف والطَّبَع والطمع، فإن يمسسكم قَرْح فقدْ مَسّ القَوم قَرْح مثله، فسيروا إلى عدوّكم على بركة الله.

فقام إليه الحريش بن هلال، فقال: أنشدك الله أيها الأمير أنْ تقاتلهم، إلا أن يقاتلوك، فإن في أصحابك جراحاً، وقد أثختْهم هذه الجولة.

فقبل منه، ومضى المهلب في عشرة فأشرف على عسكر الخوارج، فلم ير منهم أحداً يتحرك، فقال له الحَريش: ارتحل عن هذا المنزل، فارتحل، فعَبر دُجَيلاً وصار إلى عاقول لا يؤتى إلا من جهة واحدة، فأقام به، وأقام الناس ثلاثاً مستريحين.

وفي يقوم سُولاف يقول ابن قيس الرقيات:

ألا طَرَقت من آل مَيَّةَ طَارِقَةْ ... عَلَى أنَّها معشوقة الدَّلّ عاشِقَةْ

تراءت أرض السُّوس بيني وبينها ... ورستاق سولافٍ حَمَتْه الأزارقةْ

إذا نحن شئنا صادفتنا عِصابة ... حَرُورية فيها من الموت بارقه

أجازت علينا العسكريْنِ كليْهما ... فباتت لنا دُون اللِّحَافِ معانقَةْ

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب الحرب خدعة (٣٠٢٩)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: التحريض على قتل الخوارج (١٠٦٦).

فأقام المهلب في ذلك العَاقُول ثلاثة أيام ثم ارتحلَ، والخوارج بسِلّي وسِلَّبْرَي فنزل قريباً منهم، فقال ابن الماحُوز لأصحابه: ما تنتظرون بعدوّكم وقد هزمتموهم بالأمس، وكسرتم حدهم! فقال له واقد مولى أبي صفرة: يا أميرَ المؤمنين، إنما تفرّق عنهم أهل الضعف والجُبْن، وَبَقِيَ أهل النَّجدة والقوة، فإن أصبتهم لم يكن ظفراً هيّناً، لأني أراهم لا يُصابون حتى يصيبوا، وإن غَلَبوا ذهب الدين. فقال أصحابه: نافَق واقد، فقال ابن الماحوز: لا تعجلوا على أخيكم، فإنه إنما قال هذا نظراً لكم.

ثم وجّه الزبير بن عليّ إلى عسكر المهلّب، لينظرَ ما حالُهم، فأتاهم في مائتين فحزَرهم ورجع. وأمر المهلب أصحابه بالتحارُس، حتى إذا أصبح ركب إليهم في تعبئة، فالتقوا بسلّي وسلّبْري، فتصافُّوا، فخرج من الخوارج مائة فارس، فَرَكزوا رماحهم بين الصفين، واتكأوا عليها، وأخرج إليهم المهلّب أعدادهم، ففعلوا مثل ما فعلوا، لا يرعوْن إلا الصلاة، حتى إذا أمسوْا رجع كلّ قوم إلى معسكرهم، ففعلوا هكذا ثلاثة أيام.

ثم إن الخوارج تطاردُوا لهم في اليوم الثالث، فحمَل عليهم هؤلاء الفرسان، فجالوا جماعة، ثم إنّ رجلاً من الخوارج حمل على رجل فطعنه، فحمل عليه المهلّب فطعنه، فحمل الخوارج بأجمعهم، كما صنعُوا يوم سُولاف فضعضعُوا الناس، وفُقِد المهلّب وثبت المغيرة في جمع أكثرهم أهل عُمَان.

ثم نَجم المهلّب في مائة، وقد انغمسَ كُمّاه في الدم، وعلى رأسه قلنسوَة مربعة فوق المِغْفر محشوة قزًّا وقد تمزّقَتْ، وإنّ حشوَها ليتطاير وهو يَلْهث، وذلك في وقت الظهر، فلم يزل يحاربُهم حتى أتى الليل، وكَثُر القتلى في الفريقين، فلما كان الغد غاداهم، وقد كان وجَّه بالأمس رجلاً من طاحيةَ بن سود بن مالك بن فَهْم، من الأزْد من ثقاته وأصحابه، يرُدُّ المنهزمين، فمرّ به عامر بن مِسْمَع فردّه، فقال: إنّ الأمير أذن لي في الانصراف، فبعث إلى المهلب، فأعلمه، فقال: دعْه فلا حاجة لي في مثله من أهل الجبن والضعف. ثم غاداهم المهلّب في ثلاثة آلاف، وقد تفرّق عنه أكثر الناس، وقال لأصحابه: ما بكُم من قِلّة! أيعجز أحدُكم أن يلقي رمحه ثم يتقدم فيأخذه ففعل ذلك رجل من كِنْدة، واتبعه قوم، ثم قال المهلّب لأصحابه: أعدّوا مخاليَ فيها حجارة، وارمُوا بها في وقت الغفلة، فإنها تصدّ الفارس، وتصرَعُ الراجل، ففعلوا. ثم أمر منادياً ينادي في أصحابه، يأمرهم بالجدّ والصَّبْر، ويطمعهم في العدوّ، ففعل ذلك حتى مرّ ببني العدَوّية، من بني مالك بن حنظلة، فنادى فيهم فضربوه، فدعا المهلّب بسيِّدهم - وهو معاوية بن عمرو - فعل: يركُله برجله، فقال: أصلح الله الأمير! اعفني من أمّ كَيْسان - والأزْد تسمى الركبة أم كَيْسان - ثم حمل المهلب وحملوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فجهد الخوارج، ونادى مناد منهم: إلا إن المهلب قد قُتِل.

فركب المهلب بِرْذوناً وَرْداً، وأقبل يركُض بين الصَّفّين، وإنّ إحدى يديه لفي القَباء، وما يشعر لها، وهو يصيح: أنا المهلب! فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنّوا أن أميرهم قد قتل، وكَلّ الناس مع العصْر، فصاح المهلّب بابنه المغيرة: تقدّم، ففعل وصاح بذكْوان مولاه: قدِّم رايتك، ففعل، فقال له رجل من ولده: إنك تغرِّر بنفسِك، فزَبره وزجَره، وصاح: يا بني سلمة، آمركم فتعصونني! فتقدّم وتقدم الناس فاجتلدوا أشد جِلاد، حتى إذا كان مع المساء قتل ابن الماحُوز، وانصرف الخوارج ولم يشعر المهلب بقتله، فقال لأصحابه: ابغوا لي رجلاً جَلْداً يطوف في القتلى، فأشاروا عليه برجل من جَرْم، وقالوا: إنا لم نر قطّ رجلاً أشدّ منه، فجعل يطوف ومعه النيران، فحمل إذا مرّ بجريح من الخوارج، قال: كافر وربِّ الكعبة! فأجهز عليه، وإذا مَرّ بجريح من المسلمين أمر بسقيهِ وحمله، وأقام المهلب يأمرهم بالاحتراس، حتى إذا كان في نِصْف اللَيل، وجّه رجلاً من اليَحْمَد في عشرة، فصاروا إلى عسكر الخوارج، فإذا هم قد تحمّلوا إلى أرَّجان، فرجع إلى المهلب فأعلمه، فقال لهم: أنا الساعة أشدّ خوفاً، احذروا البَيات.

ويروى عن شعبة بن الحجاج أنّ المهلب قال لأصحابه يوماً: إنّ هؤلاء الخوارج قد يئسوا من ناحيتكم إلا من جهة البيت، فإن يكن ذلك فاجعلوا شِعاركم: «حَم لا يُنصرون» فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بها[1].

ويروى أنه كان شعار أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

فلما أصبح القوم غَدَوْا على القتلى، فأصابوا ابن الماحُوز قتيلاً، ففي ذلك يقول رجل من الخوارج:

بِسِلّي وسَلّبْري مَصارع فتيةٍ ... كِرامٍ وَعَقْرَي من كُمَيْتٍ ومن وردِ[2]

وقال آخر:

بِسلي وسِلبْري جماجم فتيةٍ ... كرام وصَرْعى لم توسَّد خدودها

وقال رجل من موّالي المهلّب: لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة، رميت به رجلاً فصرعته، ثم رميت به رجلاً فأصبت به أصل أذنه فصرعته، ثم أخذت الحجر وصرعت به ثالثاً، وفي ذلك يقول رجل من الخوارج:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الشعار (١٦٨٢)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب: الرجل ينادي بالشعار (٢٥٩٧)، وأحمد في «مسنده» (١٦١٧٩).

(٢) سلّي وسلّبري: يقال لهما العاقول، وهي مناذر الصغرى كانت بها وقعة بين المهلب والأزارقة. اللسان، مادة (سلل).

أتانا بأحجار ليقتلنا بها وهَل يُقْتَلُ الأبطالُ وَيْحَكَ بالحجَرْ!

وقال رجل من أصحاب المهلب في يوم سِلّي وسِلّبْرَي وقتل ابن الماحوز:

ويوم سلّي وسِلّبْري أحاطَ بهم مِنّ صواعقُ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ

حتى تركنا عُبيد الله مُنْجَدِلاً كما تجدّل جِذْعٌ مالَ مُنْقَعِرُ

ويروى أن رجلاً من الخوارج يوم سِلّي حمل على رجل من أصحاب المهلب، فطعنه، فلما خالطه الرّمح صاح: يا أمّتاه! فصاح به المهلب: لأكثر الله منك في المسلمين! فضحك الخارجيّ، وقال:

أمُّكَ خَيْرٌ لك منّي صاحبَا تَسقيك مَحْضاً وتَعُلّ رائبا

وكان المغيرة بن المهلب إذا نظر إلى الرماح قد تَشاجرت في وجهه، نَكَس عَلَى قَرَبُوس السَّرْج، وحَمَل من تحتها، فبراها بسيفه، وأثّر في أصحابها، فتُحُوميت الميمنة من أجله، وكان أشدّ ما تكونُ الحربُ استعاراً أشدّ ما يكون تبسماً. وكان المهلّب يقول: ما شَهِد معي حَرْباً قطّ إلا رأيت البُشْرَى في وجهه.

وقال رجل من الخوارج في هذا اليوم:

فإنْ تَكُ قَتْلَى يَوْمَ سِلّي تتابعت فكَمْ غادرتْ أسيافُنا مِنْ قُمَاقِمِ!

غَدَاةَ نَكُرُّ المشرَفِيَّةَ فِيهِمُ بِسُولافَ يومَ المأزِقِ الْمُتلاحِمِ

فكتب المهلب إلى الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة القُباع:

أما بعد، فإنا لقينا الأزارقة المارقة بحَدٍّ وجِدّ، فكانت في الناس جَوْلة، ثم ثابَ أهلُ الحِفاظ، بِنيّات صادقة، وأبدانٍ شداد، وسيوف حِدَاد، فأعقب الله خيرَ عاقبة، وجاوز بالنعمة مقدار الأمل، فصاروا دريئةَ رماحنا، وضرائبَ سيوفنا، وقتل الله أميرهم ابنَ الماحوز، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأوّلها. والسلام.

فكتب إليه القُباع:

قد قرأت كتابك يا أخا الأزد، فرأيتك قد وُهِب لك شرفُ الدنيا وعِزُّها، وذُخِر لك إن شاء الله ثوابُ الآخرة، وأجرُها، ورأيتُك أوثقَ حصون المسلمين، وهادّ أركان المشركين، وذا الرياسة وأخا السّياسة، فاستدِم الله بشكره، يتممْ عليك نعمَه. والسلام.

وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه، ولم يكتب إليه الأحنف، ولكن قال: اقرؤوا عليه وقولوا: أنا لك على ما فارقتك عليه. فلم يزل يقرأ الكتب وينظر في تضاعيفها، ويلتمس كِتاب الأحنف فلا يراه، فلما لم يرَه، قال لأصحابه: أما كَتَب أبو بحر؟ فقال له الرسول: إنَّه حَمَّلني إليك رسالة، فأبلغه، فقال: هذا أحبُّ إليّ من هذه الكتب.

واجتمعت الخوارج بأرّجان، فبايعوا الزبير بن عليّ، وهو من بني سَليط بن يربُوع، من رهْط ابن الماحُوز، فرأى فيهم انكساراً شديداً، وضعفاً بيّناً، فقال لهم: اجتمعوا، فاجتمعوا فحمِد الله وأثنى عليه وصلى على محمد رسوله ﷺ، ثم أقبل عليهم فقال: إن البلاء للمؤمنين تمحيص وأجر، وهو على الكافرين عقوبة وخِزْي، وإن يُصَب منكم أميرُ المؤمنين، فما صار إليه خيرٌ مما خلَفَ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عُبَيْس وربيعاً الأجذم والحجاج بن رباب وحارثة بن بدر، وأشجَيْتُم المهلّب وقتلتم أخاه المُعارك، والله يقول لإخوانكم المؤمنين: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، فيوم سِلّي كان لكم بلاء وتمحيصاً، ويوم سُولاف كان لهم عقوبة ونكالاً، فلا تُغْلَبنّ على الشُّكر في حينه، والصبر في وقته، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض، والعاقبة للمتقين.

ثم تحمّل للمحَاربة نحو المهلبّ، فنفحهم المهلّب نفحة فرجعوا وأكْمَنُوا للمهلّب - في غَمْضٍ من غُموض الأرض يقرُب من عسكره - مائة فارس ليغتالُوه، فسار المهلّب يوماً يُطِيف بعسكره، ويتفقّد سوادَه، فوقف على جبل، فقال: إنّ من التدبير لهذه المارِقة أنْ تكون قد أكْمَنَتْ في سفح هذا الجبل كميناً، فبعث المهلّب عشرة فوارس، فاطّلعوا على المائة، فلما علموا بهم قطَعُوا القنطرة ونجوْا وانكشفت الشمس فصاحوا: يا أعداء الله، لو قامت القيامة لجددنا ونحن في جهادكم.

ثم يئس الزّبَير من ناحية المهلب، فضرب إلى ناحية أصبهَان، ثم كرّ راجعاً إلى أرَّجان وقد جمع جموعاً، وكان المهلّب يقول: كأني بالزبير وقد جمع لكم، فلا تَرْهبوهم، فتنجبَ قلوبُكم، ولا تغفلوا الاحتراسَ فيطعموا فيكم. فجاؤوه من أرّجان، فلقوه مستعدّاً آخذاً بأفواه الطُّرق، فحاربهم فظهر عليهم ظهوراً بيّناً، ففي ذلك يقول رجل من بني يربوع:

سَقَى اللّهُ المهلّبَ كُلَّ غَيْثٍ ... مِنَ الوَسْمِيّ يَنْتَحِرُ انْتِحَارَا
فما وَهَنَ المهلَّب يوم جاءتْ ... عوابس خيلهم تبغي الغِوارا

وقال المهلب يومئذٍ: ما وقفتُ في مضِيق من الحرب إلا رأيت أمامي رجالاً من بني الهُجَيم بن عمرو بن تميم يجالِدُون، وكأنَّ لحاهم أذناب العَقَاعق وكانوا صبروا معه في غير مواطن.

وقال رجل من أصحاب المهّلب من بني تميم:

ألَا يا مَنْ لِصَبٌ مُسْتَهَامٍ ... قَريح القَلْبِ قَدْ مَلَّ المَزُونَا
لهان على المهلَّب ما لِقينَا ... إذا ما راح مسروراً بَطِينَا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

يَـجُـرّ الـسـابِـرِيَّ وَنَـحْـنُ شُـعْـثٌ　　كـأنّ جـلـودنـا كُـسِـيَـتْ طَـحِـيـنَـا

وحمل يومئذ الحارث بن هلال على قيس الإكاف، وكان من أنْجَدِ فُرْسان الخوارج فطعنَه فدَقَّ صلبه، وقال:

قـيـس الإكـاف غَـداة الـرَّوْعِ يَـعْـلَـمُـنِـي　　ثَـبْـتَ الـمَـقَـامِ إذا لاقـيـتُ أقْـرَانِـي

وقد كان بعض جيش المهلب يوم سِلَّى وسِلَّبْري صاروا إلى البصرة، فذكروا أنّ المهلب قد أصيبَ فهمّ أهل البصرة بالنّقلة إلى البادية، حتى ورد كتابُه بظَفَرِه، فأقام الناس، وتراجع مَنْ كان ذهب منهم، فعند ذلك قال الأحنف: البَصْرة بَصْرة المهلّب. وقدم رجل من كِنْدة يعرف بابن أرْقم، فنعى ابنَ عمّ له، وقال: إني رأيت رجلاً من الخوارج، وقد مكّن رمحه من صُلْبه فلم ينشب أنْ قدم المنعيّ سالماً، فقيل له ذلك، فقال: صدق ابن أرقم، لمّا أحسَسْتُ برمحه بين كتفيّ صِحْت به: البَقِيّة، فرفعه، وتلا: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] ووجّه المهلّب بعقبِ هذه الوقعة رجلاً من الأزْد، برأس عبيد الله بن بشير بن الماحُوز إلى الحارث بن عبد الله، فلما صار بكُرْبُج دينار لقيته إخوة عبيد الله: حَبيب وعبد الملك وعليّ بنو بشير بن الماحُوز فقالوا: ما الخبر؟ وهو لا يعرفهم، فقال: قتل الله ابن الماحُوز المارق، وهذا رأسُه معي، فوثبوا عليه فقتلوه وصلبوه، ودفنوا رأس أخيهم عُبيد الله، فلما وليَ الحجاج دخل عليه عليّ بن بشير، وكان وَسيماً جسيماً، فقال: مَنْ هذا؟ فخبّره، فقتله ووهب ابنَه الأزهر وابنَته لأهل الأزديّ المقتول، وكانت زينب بنت بشير لهم مواصلة، فوهبوهما لها.

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتاب «الكامل»: ولم يزل المهلّب يقاتل الخوارج في ولاية الحارث القُباع، حتى عُزل وولِيَ مصعب بن الزبير، فكتب إلى المهلّب أن أقدِم عليّ، واستخلف ابنَك المُغيرة. ففعل بعد أن جمع الناس، وقال لهم: إنّي قد استَخلفتُ المغيرة عليكم، وهو أبو صغيركم رقّةً ورحمةً، وابنُ كبيركم طاعةً وبِرًّا وتبجيلاً، وأخو مثله مواساةً ومناصحة، فلتحسُنْ له طاعتُكم، وليلِنْ له جانبكُم، فوالله ما أردتُ صواباً قطّ إلا سبقني إليه.

ثم مضى إلى مصعب، فكتب مصعب إلى المغيرة بولايته، وكتب إليه: إنك إن لم تكن كأبيك، فإنك كافٍ لما وليت، فشمّر واتّزر، وجِدّ واجتهد.

ثم شَخَص المصعب إلى المَزار، فقتل أحمر بن شُمَيط، ثم أتى الكوفة فقتل المختار، وقال للمهلب: أشِرْ عليّ برجل أجعله بيني وبين عبد الملك، فقال له: اذكر واحداً من ثلاثة:

(١) سورة هود، الآية: ٨٦.

محمد بن عمير بن عُطارد الدارميّ، أو زياد بن عمرو بن الأشرف العتكيّ، أو داود بن قَحْذَم، قال: أو تكفيني أنت؟ قال: أكفيك إن شاء الله. فشخَص فولّاه الموصل فخرج إليها، وصار مُصعب إلى البصرة لينفِر إلى أخيه بمكة. فشاور الناس فيمن يستكفِيه أمرَ الخوارج، فقال قوم: وَلِّ عبد الله بن أبي بَكْرة، وقال قوم: وَلِّ عمر بن عبيد الله بن معمر، وقال قوم: ليس لهم إلّا المهلّب فاردده إليهم، وبلغت المشورةُ الخوارج فأدارُوا الأمر بينهم، فقال قطريّ بن الفُجاءة المازنيّ - ولم يكن أمَّروه عليهم بَعْد -: إن جاءكم عبد الله بن أبي بَكْرة أتاكم سيّدٌ سَمْح كريم جواد مُضِيع لعسكره، وإن جاءكم عُمر بن عبيد الله أتاكم فارس شُجاع، بطل جادّ، يقاتل لدينه ولملكه، وبطبيعة لم أرَ مثلها لأحد، فقد شهدته في وقائع، فما نُودِيَ في القومِ لحربٍ إلا كان أولَ فارس، حتى يَشُدّ على قِرنه ويضربه، وإن رُدّ المهلّب فهو مَنْ قد عرفتموه، إذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر، يمدّه إذا أرسلتموه، ويُرسله إذا مددتموه، لا يبدؤكم إلا أن تبدؤوه، إلا أن يرى فرصة فينتهزها، فهو الليث المبرّ، والثعلب الرَّواغ، والبلاء المقيم.

فولّى مصعبٌ عليهم عمر بن عبيد الله بن مَعْمر، وولّاه فارس، والخوارج بأَرَّجان يومئذٍ وعليهم الزُّبير بن عليّ السَّلِيطيّ، فشخص إليهم فقاتلهم، وألحّ عليهم حتى أخرجهم منها فألحقهم بأصبهانَ، فلما بلغ المهلب أنّ مصعباً ولّى حربَ الخوارج عمرَ بن عبيد الله، قال: رماهُمْ بفارس العرب وفَتَاها. فجمع الخوارج له، وأعدُّوا واستعدُّوا، ثم أتوْا سَابور. فسار إليهم حتى نزل منهم على أربعة فراسخ، فقال له مالك بن أبي حَسّان الأزديّ: إنّ المهلب كان يُذكي العيون، ويخاف البَيات، ويرتقب الغَفْلة، وهو على أبعد من هذه المسافة منهم.

فقال عمر: اسكُتْ، خَلَع الله قلبَك! أتراكَ تَمُوتُ قبلَ أجلِك! وأقام هناك، فلما كان ذات ليلة بيّته الخوارج، فخرج إليهم فحاربهم حتى أصبح، فلم يظفروا منه بشيء. فأقبل على مالك بن أبي حسان، فقال: كيف رأيت؟ فقال: قد سلَّم اللّهُ، ولم يكونوا يطمعُون في مثلها من المهلّب، فقال: أما إنّكم لو ناصحتمُوني مناصحَتكم المهلّب، لرجوت أنْ أنفِيَ هذا العدوَّ ولكنّكم تقولون: قرشيّ حجازيّ، بعيدُ الدار خيرُه لغيرنا، فتقاتلون معي تعذيراً. ثم زحف إلى الخوارج من غَد ذلك اليوم، فقاتلهم قتالاً شديداً، حتى ألجأهم إلى قنطرةٍ، فتكاثف الناسُ عليها حتى سقطت، فأقام حتى أصلحها، ثم عبَر، وتقدَّم ابنه عبيدُ الله بن عمر - وأمّه من بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب - فقاتلهم حتى قُتِل، فقال قطريّ للخوارج: لا تقاتلوا عُمَر اليوم، فإنه موتور، قد قتلتم ابنَه - ولم يعلم عمرُ بقتلِ ابنه حتى أفضَى إلى القوم، وكان معه ابنه النّعمان بن عباد - فصاحَ به عمر: يا نعمان، أين ابني؟ قال احتسِبْه فقد استشهد صابراً مقبلاً غير مدبر، فقال: إنا لله وإنّا إليهِ رَاجِعون! ثم حَمَل على الخوارج حملة لم يُر مثلُها، وحمل أصحابُه بحمْلته، فقتلوا في وجههم ذلك تسعين رجلاً من الخوارج، وحملَ على قَطَرِيّ فضربَه

على جبينه ففلَقه، وانهزمت الخوارجُ وانتهبها، فلما استقرُّوا ورأى ما نزلَ بهم، قال: ألم أشِرْ عليكم بالانصراف! فجعلوه حينئذ من وجُوههم، حتى خرجوا من فارس، وتلقّاهم في ذلك الوقت الفِزْر بن مِهزم العبديّ، فسألوه عن خبره، وأرادوا قتله، فأقبل على قطريّ، وقال: إني مؤمن مهاجر، فسأله عن أقاويلهم فأجاب إليها، فخلّوا عنه، ففي ذلك يقول في كلمة له:

فشدّوا وَثاقي ثم ألَجوْا خُصُومَتي إلى قطريٌ ذِي الجَبين المفلَّقِ
وحاججْتُهم في دينهم فحججْتُهُمْ وما دينهم غيرُ الهوَى والتخلّقِ

ثم رجعوا وتكانَفوا، وعادوا إلى ناحية أرّجان، فسار إليهم عمر بن عبيد الله، وكتب إلى مصعب:

أما بعد، فإني لقيت الأزارقة، فرزق الله عزّ وجل عُبيد الله بن عمر الشهادة، ووهب له السعادة، ورزقنا بعدُ عليهم الظَّفَر، فتفرقوا شَذَر مَذَر. وبلغني عنهم عودةٌ فيمَّمْتُهم، وبالله أستعين، وعليه أتوكل.

فسار إليهم ومعه عطية بن عمرو، ومُجّاعة بن سُعْر فالتقوا، فألحّ عليهم عمر حتى أخرجهم، وانفرد من أصابه، فعمِد إلى أربعة عشر رجلاً من مَذْكوريهم وشجعانهم، وفي يده عمود. فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صَرَعه، فركض إليه قطريّ على فرس طِمِرّ وعمر على مُهْر، فاستعلاه قطريّ بقوة فرسه، حتى كاد يصرعُه، فبَصُرَ به مَجّاعة، فأسرع إليه فصاحت الخوارج: يا أبا نعامة، إنّ عدوّ الله قد رَهِقك. فانحطّ قطري على قَرَبُوسه وطعنه مُجّاعة، وعلى قطريّ دِرْعان فهتَكهما وأسرع السِّنان في رأس قَطَرِيّ، فكشط، جلدَه ونجا وارتحل القوم إلى أصفَهان، فأقاموا بُرهة، ثم رجعوا إلى الأهواز، وقد ارتحل عمر بن عبيد الله إلى إصْطَخْر، فأمر مُجّاعة فجبَى الخراج أسبوعاً، فقال له: كم جبيت؟ قال: تسعمائة ألف فقال: هي لك.

وقال يزيد بن الحكم لمُجّاعة:

وَدَعَاكَ دَعْوَةَ مُرْهَقٍ فأجَبْتَهُ عُمَرٌ وقد نَسِيَ الحياةَ وَضَاعَا
فَرَدَدْتَ عَادِيَةَ الكَتِيبة عَنْ فَتًى قد كادَ يُتْرَكُ لَحْمُهُ أوْزَاعا

قال: ثم عُزِل مُصْعبُ بن الزُّبير، وولّى عبدُ الله بن الزبير العراقَ ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير، فمكث قليلاً، ثم أعيد مُصعب إلى العراق، والخوارج بأطراف أصبّهان، والوالي عليها عَتّاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ، فأقام الخوارج هناك يجبون شيئاً من القرى، ثم أقبلوا إلى الأهواز من ناحية فارس، فكتب مُصعب إلى عمر بن عبيد الله: ما أنصفتنا! أقمتَ بفارس تَجْبي الخراج، ومثل هذا العدّو يجتاز بك لا تحاربه! والله لو قاتلتَ ثم هُزمت لكان أعْذَرَ لك!

وخرج مُصعب من البصرة يريدهم، وأقبل عمرُ بن عبيد الله يريدهم، فتنحّى الخوارج إلى

السُّوس، ثم أتوا إلى المدائن، وبسطوا في القتل، فجعلوا يقتلون النساء والصبيان، حتى أتوا المذار، فقتلوا أحمر طيّء، وكان شجاعاً، وكان من فرسان عُبيد الله بن الحرّ، وفي ذلك يقول الشاعر:

تَرَكْتُمْ فَتَى الْفِتْيانِ أَحْمَرَ طَيِّءٍ بِسَابَاطَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ خَلِيلُ

ثم خرجوا عامدين إلى الكوفة، فلما خالطوا سوادَها - وواليها الحارث القُباع - تثاقل عن الخروج، وكان جَباناً، فذَمره إبراهيم بن الأشتر، ولامه الناس، فخرج متحاملاً حتى أتى النُّخيلة، ففي ذلك يقول الشاعر:

إنّ الْقُبَاعَ سَارَ سَيْراً نُكْرَا يَسِيرُ يوماً ويُقِيم عَشْرا

وجعل يعد الناسَ بالخروج ولا يخرج، والخوارج يَعيثون، حتى أخذوا امرأة، فقتلوا أباها بين يديها، وكانت جميلة، ثم أرادوا قتلَها، فقالت: أتقتلون مَنْ يُنَشأ في الحِلْية وهو في الخصام غير مبين! فقال قائل منهم: دعوها، فقالوا: قد فتنتْك، ثم قدموها فقتلوها.

وقربوا امرأة أخرى وهم بإزاء القُباع، والجسْر معقود بينهم، فقطعه القُباع وهو في ستة آلاف، والمرأة تستغيث به وهي تُقْبل، وتقول: علام تقتلونَني! فوالله ما فَسَقْت، ولا كَفَرت ولا زَنَيْت، والناس يتفلّتون إلى القتال، والقُباع يمنعهم.

فلما خاف أن يعصُوه أمر عند ذاك بقَطْع الجسر، فأقام بين دَبيرى ودَباها خمسة أيام والخوارج بقُرْبه، وهو يقول للناس في كل يوم: إذا لقيتُم العدوَّ غداً، فأثْبتوا أقدمَكم واصبروا فإن أوّل الحرب الترامِي، ثم إشراع الرِّماح، ثم السلَّة، فثكلت رجلاً أمُّه فرَّ من الزحف!

فقال بعضهم لما أكثر عليهم: أما الصِّفة فقد سمعناها، فمتى يقع الفعل؟

وقال الراجز:

إن الْقُبَاعَ سَارَ سَيْراً مَلْسَا بَيْنَ دَبَاها ودَبِيرَى خَمْسَا

وأخذ الخوارج حاجتَهم، وكان شأن القُباع التحصُّنَ منهم، ثم انصرفوا ورجع إلى الكوفة، وساروا من فورهم إلى أصبَهان، فبعثَ عتّاب بن وَرْقاء الرياحيّ إلى الزُّبير بن علي: أنا ابنُ عَمّك، ولست أراك تقصد في انصرافك من كلِّ حَرْب غيري. فبعث إليه الزبير: إنّ أدنَى الفاسقين وأبعدَهم في الحقّ سواء.

فأقام الخوارجُ يُغَادُونَ عتّاب بن وَرْقاء القتال ويُراوِحُونه، حتى طال عليهم المقام، ولم يظفروا بكبير شيء، فلما كثُر عليهم ذلك انصرفوا، لا يمرّون بقريةٍ بين أصبَهان والأهواز إلا استباحوها، وقتلوا مَنْ فيها. وشاوَر المُصعَبُ النَّاس فيهم، فأجمع رأيُهم على المهلّب، فبلغ الخوارج مُشاورَتُهم، فقال لهم قَطَرِيّ: إنْ جاءكم عَتّاب بن وَرَقاء، فهو فَاتِكٌ يطلع في أول

المِقْنَب ولا يظفَر بكثير، وإن جاءكم عمر بن عُبيد الله ففارس يُقْدِم، إما عليه وإمّا لَهُ، وإن جاءكم المهلّب فرجلٌ لا يُناجِزُكم حتى تُناجزوه ويأخذُ منكم ولا يُعطيكم، فهو البَلاء الملازِم، والمكروه الدائم.

وعزم مُصعَب على توجِيه المهلّب، وأن يشخَص هو لحرب عبد الملك. فلما أحسَّ به الزُّبير خرج إلى الرَّيّ - وبها يزيد بن الحارث بن رويم - فحارَبه ثم حصَره، فلما طال عليه الحِصار خرج إليه، فكان الظُّفر للخوارج، فقتل يزيد الحارث بن رُويم، ونادى يزيد ابنه حَوْشبًا، ففرّ عنه وعن أمّه لطيفة وكان عليّ بن أبي طالب عليه السلام دخل على الحارث بن رويم يعود ابنه يزيد، فقال: عندي جارية لطيفة الخدمة أبعث بها إليك، فسّماها يزيد لطيفة فقتِلت مع بَعْلها يزيد يومئذٍ. وقال الشاعر:

مـواقِـفُـنـا فـي كـلِّ يـوم كَـرِيـهَـةٍ ... أَسَرّ وأشْفَى مِنْ مواقِف حَوْشَبِ
دعـاه أبـوهُ والـرِّمـاح شَـوَارِعٌ ... فلم يستجِبْ بل رَاغ تَرْوَاغَ ثَعلَب
وَلَوْ كَانَ شَهْمَ النَّفْسِ أوْ ذَا حَفِيظَةٍ ... رَأى ما رأى في الموت عِيسى بنُ مُصْعَبِ

وقال آخر:

نَجّى حَلِيلَتَه وأسْلَمَ شَيْخَهُ ... نَصْبَ الأسِنَّة حَوْشَبُ بنُ يَزِيدِ

قال: ثم انحطّ الزُّبير على أصفهان، فحَصر بها عَتّاب بن ورقاء سبعة أشهر، وعتّاب يُحاربه في بعضهنّ، فلما طال به الحِصار قال لأصحابه: ما تنتظرون! والله ما تُؤْتَوْن من قِلّة، وأنكم لَفُرْسان عشائركم، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتم منهم، وما بَقِيَ مع هذا الحصار إلا أن تَفْنَى ذخائركم، فيموتَ أحدكم، فيدفِنه أخوه، ثم يموت أخوه فلا يجدُ مَنْ يدفنه، فقاتلُوا القوم وبكم قُوّة من قبْل أن يَضْعُفَ أحدُكم عن أن يمشيَ إلى قِرْنه.

فلما أصبَح صلّى بهم الصبح، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون، وقد نصَبَ لواءً لجارية له يقال لها ياسمين، فقال: مَنْ أراد البقاء فليلْحق بلواء ياسمين، ومن أرادَ الجهاد فليخرج معي، فخرج في ألفين وسبعمائة فارس، فلم يشعر بهم الخوارج حتى غَشُوهم فقاتلوهم بجدٍّ لم تر الخوارجُ منهم مثله، فعقروا منهم خَلْقاً كثيراً وقُتل الزبير بن عليّ وانهزمت الخوارج، فلم يتبعهم عتّاب، ففي ذلك يقول القائل:

وَيَـومٌ بِـجَـيٍّ تـلافـيـتُـه ... وَلَولاكَ لَاصْطُلِمَ العَسْكَرُ

وقال آخر:

خَـرَجْـتُ مـن الـمـديـنـة مُـسْـتَـمـيـتـاً ... ولـم أكُ فـي كَـتِـيـبـةِ يَـاسَـمِـيـنَـا
ألَـيْـسَ مِـنَ الـفـضـائـل أنّ قَـومِـي ... غَـدَوا مـسـتـلـئِـمِـيـن مـجـاهـديـنـا

قال: وتزعم الرواة أنّهم في أيام حصارهم كانوا يتواقفون، ويحمل بعضُهم على بعض وربما كانت مُواقَفة بغير حَرْب، وربما اشتدّت الحرب بينهم، وكان رجلٌ من أصحاب عَتّاب - يقال له: شريح، ويكنى أبا هُريرة - إذا تحاجَز القومُ مع المساء نادى بالخوارج والزبير بن عليّ:

يــابــنَ أبــي الـمــاحُــوز والأشــرَارِ   كَـيْـفَ تَـرَوْنَ يـا كِـلَابَ الـنَّـارِ
شــدُّ أبــي هُــرَيْــرَةَ الــهــرَّارِ   يَـهُـرُّكـم بـالـلَّـيـل والـنَّـهـارِ
ألَـم تَـرَوا حَـيًّـا عـلـى الـمِـضْـمـار   يُـمْـسـي مـن الـرَّحْـمـن فـي جِـوَار

فغاظهم ذلك، فكمَن له عبيدة بن هِلال، فضربه بالسَّيف، واحتمله أصحابه، وظنت الخَوارج أنه قد قتل، فكانوا إذا تواقفوا نادوْهم: ما فعل الهرّار؟ فيقولون: ما به من بأس حتى أبلَّ من عِلَّته، فخرج إليهم، فقال: يا أعداء الله، أترون بي بأساً، فصاحوا به: قد كنا نرى أنّك قد لَحِقْت بأمّك الهاوية، إلى النار الحامية.

ومنهم قَطَرِيّ بن الفجاءة المازني، قال أبو العباس:

لما قِتل الزّبير بن عليّ أدارت الخوارجُ أمرَها، فأرادوا توليَةَ عبيدة بن هلال، فقال: أدلُّكم على مَنْ هو خيرٌ لكم مني؟ مَنْ يطاعِن في قُبُل، ويحمي في دُبُر، عليكم بقَطَرِيّ بن الفُجَاءة المازنيّ. فبايَعوه. وقالوا: يا أمير المؤمنين، امضِ بنا إلى فارس، فقال: إنّ بفارس عمر بن عبيد الله بن مَعْمر، ولكن نسير إلى الأهواز، فإن خرج مُصْعب من البصرة دخلناها، فأتوا الأهواز ثم ترفّعوا عنها على إيذَج - وكان المُصعب قَدْ عَزَم على الخروج إلى باجُميرا - وقال لأصحابه: إنّ قَطرِيًّا لمُطلٌّ علينا، وإن خرجنا عن البصرة دخَلها، فبعث إلى المهلّب فقال: اكفِنا هذا العدوّ، فخرج إليهم المهلّب، فلما أحسّ به قطريّ يمّم نحو كِرْمان، وأقام المهلّب بالأهواز، ثم كرّ عليه قَطريّ، وقد استعدّ، وكانت الخوارج في حالاتهم أحسَن عُدّة ممن يقاتلهم بكثرة السلاح وكثرة الدواب، وحَصَانة الجُنَن. فحارَبَهُم المهلّب، فدفعهم فصاروا إلى رَامَهُرْمُز، وكان الحارث بن عُميرة الهمدانيّ قد صار إلى المهلب مراغِماً لعتّاب بن ورقاء، ويقال: إنّه لم يُرضِه عن قتله الزبيرَ بن عليّ، وكان الحارث بن عَمِيرة، هو الذي قتله وخاض إليه أصحابه، ففي ذلك يقول أعشى هَمْدان:

إنّ الـمـكـارِمَ أكْـمِـلَـتْ أسـبـابُـهـا   لابـن الـلُّـيـوثِ الـغُـرّ مِـنْ هَـمْـدَانِ
لـلـفـارسِ الـحـامِـي الـحـقـيـقـة مُـعلِـماً   زادِ الـرِّفـاق وفـارس الـفُـرْسـان
الـحـارث بـن عَـمـيـرةَ الـلَّـيـث الَّـذِي   يـحـمـي الـعـراق إلـى قُـرَى نَـجْـرانِ

ودّ الأزارقُ لو يصابُ بطعنةٍ ويموتُ مِنْ فرسانهم مائتان

قال أبو العباس: وخرج مُصعب إلى باجُمَيْرَا، ثم أتى الخوارج خبرُ مقتله بمَسْكِن، ولم يأتِ المهلّب وأصحابه، فتواقفوا يوماً برامَهُرْمُز على الخندق، فناداهم الخوارج: ما تقولون في مُصعب؟ قالوا: إمام هدًى، قالوا: فما تقولون في عَبْد الملك؟ قالوا: ضالٌ مضلّ. فلما كان بعدَ يومين أتى المهلّبَ قتلُ المصعب، وأنّ أهل العراق قد اجتمعوا على عبد الملك، وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته، فلما تواقفوا ناداهم الخوارج: ما تقولون في المصعب؟ قالوا: لا نخبركم، قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: إمام هدى، قالوا: يا أعداء الله، بالأمس ضالٌ مضل، واليوم إمام هدى! يا عبيدَ الدنيا عليكم لعنة الله.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتاب «الأغاني الكبير»[1]، قال: كان الشُّراة والمسلمون في حرب المهلّب وقطريّ يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك، على أمانٍ وسكون، ولا يَهيج بعضُهم بعضاً، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكريّ، وأبو حُزَابة التميميّ، فقال عبيدة: يا أبا حُزابة، إني أسألك عن أشياء، أفتصدقُني عنها في الجواب؟ قال: نعم، إن ضمنت لي مثلَ ذلك، قال: قد فعلت، قال: فسَلْ عمّا بدا لك، قال: ما تقولون في أئمتكم؟ قال: يبيحون الدم الحرام، قال: ويحك! فكيف فعلُهم في المال؟ قال: يَجبُونه من غير حلّه ويُنفِقونه في غير وجهه، قال: فكيف فعلُهم في اليتيم؟ قال: يظلمونه ماله، ويمنعونه حقّه ويَنيكون أمّه، قال: ويحك يا أبا حُزابة! أمثل هؤلاء تَتّبع! قال: قد أجبتك، فاسمع سؤالي ودع عتابي على رأيي، قال: سل، قال: أيّ الخمر أطيب، خمر السّهل أم خَمْر الجبل؟ قال: ويحك! أمثلي يُسألُ عن هذا قال: قد أوجبتَ على نفسك أن تجيب، قال: أمّا إذ أبيت، فإنّ خمر الجبل أقوى وأسكر، وخمر السهل أحسن وأسلس، قال: فأيّ الزّواني أفره[2]؟ أزواني رامَهُرمز، أم زواني أرّجان؟ قال: ويحك! إنّ مثلي لا يسأل عن هذا، قال: لا بدّ من الجواب أو تغدِر.

قال: أمّا إذا أبيت فزواني رَامُهرمز أرقّ أبشاراً، وزواني أرّجان أحسن أبداناً. قال: فأيّ الرجلين أشعر، جرير أم الفرزدق؟ قال: عليك وعليهما لعنة الله، قال: لا بدّ أن تجيب، قال: أيّهما الذي يقول:

وطوى الطِّرادُ مع القِياد بطونَها طَيّ التِّجار بحضرَمَوْتَ بُروداً

(١) «الأغاني»: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يؤلفه مثله اتفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

(٢) الفارهة: الجارية المليحة، والفتية، والشديدة الأكل. القاموس، مادة (فره).

قال: جرير، قال: فهو أشعرُهما.

قال أبو الفرج: وقد كان الناسُ تجادلوا في أمر جرير والفرزدق في عسكر المهلَّب، حتى تواثَبُوا، وصاروا إليه محكّمين له في ذلك، فال: أتريدون أن أحكُم بين هذين الكلْبين المتهارشين، فيمضغاني! ما كنت لأحكم بينهما، ولكني أدلّكم على مَنْ يحكم بينهما، ثم يَهونُ عليه سِبابهما، عليكم بالشّراة، فاسألوهم إذا تواقفتم، فلما تواقَفوا سأل أبو حُزابة عبيدة بن هلال عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب.

وروى أبو الفرج أنّ امرأةً من الخوارج كانت مع قطريّ بن الفُجاءة، يقال لها أمّ حكيم وكانت مِنْ أشجع الناس وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بالدِّين تمسكاً، وخطبها جماعة منهم فردّتهم ولم تجبْهم، فأخبر مَنْ شاهدها في الحرب أنّها كانت تحمل على الناس وترتجز فتقول:

أحْمِـلُ رأساً قَـدْ سَئِمْتُ حَمْلَـهْ   وَقَـدْ مَلِلْـتُ دَهْنَـهُ وَغَسْلَـهْ

أَلا فَتًـى يَحْمِـلُ عَنِّـي ثِقْلَـهْ

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمّهات، فما رأينا قبلها ولا بعدها مثلها.

وروى أبو الفرج، قال: كان عبيدة بن هلال، إذا تكافّ الناس ناداهم، ليخرجْ إليّ بعضكم، فيخرج إليه فِتْيانٌ من عَسْكر المهلّب، يقول لهم: أيّما أحبّ إليكم؟ أقرأ عليكم القرآنَ أم أنشِدكم الشِّعر؟ فيقولون له: أمّا القرآن فقد عرفناه مثل معرفِتك، ولكن تنشدنا، فيقول: يا فَسَقة، قد والله علمت أنّكم تختارون الشعر على القرآن ثم لا يزال يُنشِدُهم ويستنشدهم حتى يمَلُّوا ويفترقوا.

قال أبو العباس: وولّى خالد بن عبد الله بن أسِيد فقدم فدخلَ البصرة، فأراد عزل المهلّب، فأشير عليه بألّا يفعل، وقيل له: إنّما أمِنَ أهل هذا المِصْر، لأن المهلّب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس، فقد تنحّى عمر، وإن نَحيَّتَ المهلّب لم تأمَنْ على البصرة. فأبى إلّا عَزْله، فقدم المهلّب البصرة، وخرج خالد إلى الأهواز، فاستصحبه، فلما صار بكُرْبَج دينار لقيه قطريّ، فمنعه حطّ أثقاله، وحاربه ثلاثين يوماً.

ثم أقام قطريّ بإزائه، وخندقَ على نفسه، فقال المهلّب لخالد: إنّ قَطرِيًّا ليس بأحق بالخندق منك، فعبر دُجَيلاً إلى شقّ نهر تِيرَى، واتبعه قطريّ فصار إلى مدينة نهر تِيرَى، فبنَى سورها، وخندق عليها، فقال المهلّب لخالد: خَنْدق على نفسك، فإني لا آمنُ البَيات، فقال:

يا أبا سعيد، الأمر أعجل من ذاك، فقال المهلّب لبعض ولده: إنّي أرَى أمراً ضائعاً، ثم قال لزياد بن عمرو: خندق علينا، فخندَق المهلّب على نفسه، وأمر بسفنه ففرّغَتْ، وأبي خالد أن يفرّغ سفنَه، فقال المهلّب لفيروز حصين: صِرْ معنا، فقال: يا أبا سعيد، إن الحزم ما تقول غير أنّي أكره أنْ أفارِق أصحابي، قال: فكن بقُرْبنا، قال: أمّا هذه فنعم.

وقد كان عبد الملك كتبَ إلى بشر بن مروان يأمره أن يمدّ خالداً بجيشٍ كثيف، أميرُه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث: ففعل، فقدِم عليه عبد الرحمن، فأقام قَطَرِيّ يُغادِيهم القتال ويُراوِحهم أربعين يوماً، فقال المهلّب لمولى أبي عُيينة: سِرْ إلى ذلك الناوس، فبتْ عليه كلّ ليلة، فمتى أحسست خَبَراً للخوارج، أو حركةً أو صهيلَ خيل، فاعْجَل إلينا.

فجاءه ليلة، فقال: قد تحرّك القومُ، فجلس المهلب بباب الخندق، وأعدّ قَطَرِيٌّ سفناً فيها حطب وأشعلها ناراً، وأرسلها على سُفن خالد، وخرج في أدبارها حتى خالَطهم، لا يمرُّ برجلٍ إلا قَتَله، ولا بدابّة إلا عَقَرها، ولا بفُسطاط إلا هَتَكه، فأمر المهلّب يزيد ابنه، فخرج في مائة فارس. فقاتل، وأبْلَى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يومئذٍ بلاءً حسناً، وخرج فيروز حصين في مواليه، فلم يزل يرميهم بالنُّشاب هو ومن معه، فأثّر أثراً جميلاً، وصُرِع يزيد بن المهلب يومئذٍ، وصُرِع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فحامى عنهما أصحابُهما حتى ركبا، وسقط فيروز حُصين في الخندق، فأخذ بيده رجل من الأزْد، فاستنقذه، فوهب له فيروز عشرة آلاف، وأصبح عسكر خالد كأنه حرّة سوداء، فجعل لا يرى إلا قتيلاً أو جَريحاً، فقال للمهلب: يا أبا سعيد، كدنا نفتضح! فقال: خَندِق على نفسك، فإن لم تفعل عادوا إليك، فقال: اكفني أمرَ الخندق، فجمع له الأخماس فلم يبق شريف إلا عمل فيه، فصاح بهم الخوارج: والله لولا هذا الساحر المَزْونّي، لكان الله قد دمّر عليكم - وكانت الخوارجُ تسمّي المهلّب الساحر -، لأنهم كانوا يدبّرون الأمرَ فيجدون المهلّب قد سبق إلى نقضِ تدبيرهم.

وقال أعشى هَمْدان لابن الأشعث، يذكّره بلاء القحطانيّة عنده، في كلمة طويلة:

وَيَوْمَ أهوازِكَ لا تَنْسَهُ ... ليس الثَّنَا والذِّكْرُ بالبائد

ثم مضى قَطَرِيٌّ إلى كِرْمان، وانصرف خالد إلى البصرة، وأقام قطريّ بكَرْمان شهراً، ثم عمَد لفارس، فخرج خالد إلى الأهواز وندَب الناس للرحيل، فجعلوا يطلُبونَ المهلب، فقال خالد: ذهب المهلّب بحظّ هذا المِصْر، إني قد ولّيت أخي قتال الأزارقة. فولى أخاه عبد العزيز، واستخلف المهلّب على الأهواز في ثلاثمائة، ومضى عبد العزيز والخوارج بدار بجرِد وهو في ثلاثين ألفاً، فجعل عبد العزيز يقول في طريقه: يزعم أهلُ البصرة أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلا بالمهلّب، سيعلمون!

قال صقعب بن يزيد: فلمّا خرج عبد العزيز عن الأهواز، جاءني كُرْدُوس، حاجب

المهلّب، فدعاني، فجئت إلى المهلب وهو في سطح، وعليه ثياب هَرَوِيّة، فقال: يا صَقْعب، أنا ضائع كأني أنظر إلى هزيمة عبد العزيز، وأخشى أن توافيَني الأزارقة ولا جند معي، فابعث رجلاً من قِبَلك يأتيني بخبرهم سابقاً إليّ به، فوجّهت رجلاً من قِبَلي يقال له عمران بن فلان، وقلت له: اصحب عسكر عبد العزيز، واكتب إليّ بخبر يوم فيوم، فجعلت أورده على المهلّب، فلما قاربهم عبد العزيز وقف وقفة، فقال له الناس: هذا منزل، فينبغي أن تنزِل فيه أيّها الأمير، حتى نطمئّن ثم نأخذ أهبّتنا، فقال: كلّا، الأمر قريب، فنزل الناس عن غير أمره، فلم يستتمّ النزول، حتى ورد عليه سعد الطلائع في خمسمائة فارس، كأنهم خَيْط ممدود، فناهضهم عبدُ العزيز فواقفوه ساعة، ثم انهزموا عنه مكيدة، واتّبعهم فقال له الناس: لا تتبعهم، فإنّا على غير تعبية، فأبَى، فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عَقَبة، فاقتحمها وراءهم والناس ينهوّنه ويأبى، وكان قد جعل على بني تميم عَبْس بن طَلْق الصّريميّ الملقّب عَبْس الطّعان، وعلى بكْر بن وائل مقاتل بن مِسْمَع، وعلى شُرْطته رجلاً من بني ضُبيعة بن ربيعة بن نِزار. فنزلوا عن العَقَبة، ونزل خلْفهم وكان لهم في بطن العَقبة كمين، فلما صاروا من ورائها، خرج عليهم الكَمِين، وعطف سعد الطلائع، فترجّل عبس بن طلْق، فقُتِل وقُتِل مقاتل بن مسمع، وقتل الضُّبَيعيّ، صاحب شُرْطة عبد العزيز، وانحاز عبدُ العزيز واتّبعهم الخوارح فرسخَين يقتلونهم كيف شاؤوا، وكان عبد العزيز قد أخرج معه أمّ حفص بنت المنذر بن الجارُود امرأته، فسَبَوُا النساء يومئذٍ، وأخذُوا أسَارَى لا تحصى، فقذفُوهم في غارٍ بعد أنْ شدُّوهم وَثاقاً، ثم سدُّوا عليهم بابه، حتى ماتوا فيه.

وقال بعض مَنْ حضر ذلك اليوم: رأيتُ عبد العزيز، وإنّ ثلاثين رجلاً ليضربُونه بسيوفهم، فما تَحِيكُ في جَنْبه، ونودي على السَّبْي يومئذ، فغُولِيَ بأمّ حَفْص، فبلغ بها رجل سبعين ألفاً، وكان ذلك الرجل من مجوسٍ كانوا أسلموا، ولحِقُوا بالخوارج، ففرَضوا لكلّ رجل منهم خمسمائة، فكاد ذلك الرجل يأخذُ أمّ حفص، فشَقّ ذلك على قَطَرِيّ، وقال: ما ينبغي لرجل مسلم أن يكون عنده سبعون ألفاً، إنّ هذه لفِتْنَة! فوثب عليها أبو الحديد العبديّ فقتلها: فأتِيَ به قطريّ، فقال: مَهْيم يا أبا الحديد! فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت المؤمنين تزايدوا في هذه المشركة فخشيت عليهم الفتنة، فقال قطريّ: أحسنت، فقال رجل من الخوارج:

كَفَانا فِتْنَةً عَظُمَت وَجَلّت ... بحمد الله سيفُ أبي الحديدِ

أهابَ المسلمون بها وقالُوا ... على فَرْطِ الهوى هَلْ من مزيدِ!

فزادَ أبو الحديد بنصلِ سَيْفٍ ... رقيقِ الحدِّ فعلَ فتًى رشيدِ

وكان العَلاء بن مطرّف السعدي ابنَ عم عمرو القنا، وكان يحب أن يلقاه في صدر مبارزة، فلحقه عمرو القنا يومئذٍ، وهو منهزم، فضحك منه وقال متمثّلاً:

تـمـنّـانِـي لِـيَـلْـقَـانِـي لَـقِـيـطٌ ... أعـام لـك ابـن صـعـصـعـة بـن سـعـدِ

ثم صاح به: انج يا أبا المصدّى، وكان العلاء بن مطرّف قد حمل معه امرأتين: إحداهما من بني ضَبّة، يقال لها أمّ جميل، والأخرى بنت عمه، يقال لها فلانة بنت عَقِيل فطلّق الضبيّة وحملها أولاً، وتخلص بابنة عمه، فقال في ذلك:

ألـسـتُ كـريـمـاً إذ أقـولُ لِـفِـتْـيَـتِـي ... قِـفُـوا فـاحـمـلُـوهـا قـبـل بـنـتِ عَـقِـيـلِ

ولـو لـم يـكـن عُـودِي نُـضَـاراً لأصْـبَـحَـتْ ... تَـجُـرُّ عـلـى الـمَـتْـنَـيْـن أمّ جـمـيـل

قال الصقعب بن يزيد: وبعثني المهلب لآتيه بالخبر، فصرت إلى قنطرة أرْبك عَلَى فرس اشتريته بثلاثة آلاف درهم، فلم أحسّ خبراً، فسرت مُهَجّراً إلى أن أمسيت، فلما أمسينا وأظلمْنا، سمعتُ كلامَ رجل عرفتُه من الجهاضم، فقلت: ما وراءك؟ قال: الشرّ، قلت: فأين عبد العزيز؟ قال: أمامك، فلما كان آخر الليل، إذا أنا بِزُهاء خمسين فارساً معهم لواء، قلت: لواء مَنْ هذا؟ قالوا: لواء عبد العزيز، فتقدّمت إليه، فسلّمت عليه، وقلت: أصلح الله الأمير لا يكبُرَنّ عليك ما كان، فإنّك كنت في شرّ جند وأخبثه، قال لي: أو كنت معنا؟ قلت: لا ولكن كأني شاهد أمرك، ثم أقبلت إلى المهلّب وتركته، فقال لي: ما وراءك؟ قلت: ما يسرّك هُزم الرجلُ وفَلّ جيشه، فقال: وَيْحك وما يسرّني من هزيمة رجل من قُرَيش وفَلّ جيشٍ من المسلمين قلت: قد كان ذلك، ساءك أو سرّك، فوجّه رجلاً إلى خالد يخبره بسلامة أخيه. قال الرجل: فلما خبرت خالداً، قال: كَذَبْتَ ولَؤُمت، ودخل رجل من قريش فكذّبني، فقال لي خالد: والله لقد هَمَمْتُ أنْ أضرب عنقك، فقلت: أصلح الله الأمير! إن كنت كاذباً فاقتلني وإن كنت صادقاً فأعطني مُطْرَف هذا المتكلم، فقال خالد: لبئس ما أخطرت به دَمَك فما برحتُ حتى دخل عليه بعض الفلّ، وقدم عبد العزيز سوق الأهواز، فأكرمه المهلّب وكساه وقدم معه على خالد، واستخلف المهلّب ابنَه حبيباً، وقال له: تجسّس الأخبار، فإن أحسست بخيل الأزارقة قريباً منك فانصرف إلى البصرة على نهر تِيرَى. فلما أحسَّ حبيب بهم، دخل البصرة، وأعلم خالداً بدخوله، فغضِب وخاف حبيب منه، فاستتر في بني عامر بن صعصعة وتزوّج هناك في استتاره الهلالية، وهي أمّ ابنه عبّاد بن حبيب. وقال الشاعر لخالد يُفَيِّل رأيه:

بـعـثـتَ غـلامـاً مـن قـريـشٍ فَـروقـةً ... وتـتـركُ ذا الـرأي الأصـيـلَ الـمـهـلـبـا

أبَـى الـذّمّ واخـتـارَ الـوفـاء وأحـكـمَـت ... قُـواهُ، وَقَـدْ سَـاس الأمـورَ وَجَـرَّبـا

وقال الحارث بن خالد المخزوميّ:

فَـرّ عـبـد الـعـزيـز إذا رَاءَ عِـيـسـى ... وابـنَ داودَ نـازلًا قَـطَـرِيّـا

عَـاهَـدَ الله إنْ نَـجَـا مِـلْـمَـنَـايـا ... لَـيَـعُـودنّ بـعـدَهـا حُـرَمِـيّـا

يسكُنُ الخلّ والصّفاح فغورينا مِراراً ومرّةً نجدِيّا
حَيثُ لا يشهد القِتالَ ولا يسمع يوماً لكَرّ خَيْلٍ دويّا

وكتب خالد إلى عَبْد الملك بعُذْر عبد العزيز، وقال للمهلب: ما ترى أميرَ المؤمنين صانعاً بي؟ قال: بعزلك، قال: أتراه قاطعاً رَحِمي! قال: نعم، قد أتته هزيمةُ أميّةَ أخيك ففعل - يعني هرب أميّة من سِجِسْتان - فكتب عبد الملك إلى خالد:

أما بعد، فإني كنت حَدَدْتُ لك حَدًّا في أمر المهلّب، فلمّا ملكتَ أمرك، نبذتَ طاعتي وراءك، واستبدَدْت برأيك، فولّيتَ المهلّبَ الجِباية، ووليت أخاك حَرْب الأزارقة، فقبح الله هذا رأياً! أتبعثُ غلاماً غِرًّا لم يجرِّب الأمور والحروب للحرب، وتترك سيّداً شجاعاً مدبِّراً حازماً قد مارَس الحَروب فَفَلج، فشغلته بالجباية! أما لو كافأتك على قدْر ذنبك لأتاك من نكيري ما لا بقيَّةَ لك معه! ولكن تذكّرتُ رحِمك فكَفَّتْني عنك، وقد جعلت عقوبتَك عَزْلك. والسلام.

قال: وولّى بشر بن مروان الإمارة وهو بالكوفة، وكتب إليه:

أما بعد، فإنك أخو أمير المؤمنين، يجمعُك وإياه مروان بن الحكم، وإنّ خالداً لا مجتمَع له مع أمير المؤمنين دون أمية، فانظر المهلّب بن أبي صُفْرة، فولّه حرْب الأزارقة، فإنه سيّد بطل مجرِّب، وامدده من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل، والسلام.

فشقّ على بِشْر ما أمرَه به في المهلّب، وقال: والله لأقتلنّه، فقال له موسى بن نصير: أيها الأمير، إنّ للمهلّب حِفاظاً ووفاء وبلاء.

وخرج بِشْر بن مَرْوان يريد البصرة، فكتبَ موسى بن نُصير وعِكْرمة بن رِبْعيّ إلى المهلّب أنْ يتلقاه لقاءَ لا يعرفه به، فتلقاه المهلّب على بَغْلٍ، وسلّم عليه في غُمار الناس، فلمّا جلس بِشر مجلسه، قال: ما فعل أميركم المهلب؟ قالوا: قد تلقّاك أيّها الأمير، وهو شاكٍ.

فهمّ بِشْر أنّ يولّيَ حربَ الأزارقة عمر بن عبيد الله بن مَعْمر، وشَدَّ عَزْمه أسماء بن خارجة، وقال له: إنما ولّاك أميرُ المؤمنين لترى رأيك، فقال له عِكْرمة بن رِبْعيّ: اكتُب إلى أمير المؤمنين فأعلمه علّة المهلّب، فكتب إليه بذلك، وأنّ بالبَصْرة مَنْ يغني غناءه، ووجّه بالكِتاب مع وفد أوفدهم إليه، رئيسُهم عبد الله بن حكيم المُجاشِعيّ.

فلما قرأ عبدُ الملك الكتاب خَلَا بعبدِ الله، فقال له: إنّ لك ديناً ورأياً وحزماً، فَمَنْ لقتال هؤلاء الأزارقة؟ قال: المهلّب، قال: إنه علِيل، قال: ليست عِلّتُه بمانعة، فقال عبد الملك: لقد أراد بِشْر أن يفعل ما فعل خالد، فكتب إليه يعزم عليه أن يولّيَ المهلّب الحربَ، فوجّه إليه، فقال: أنا علِيل، ولا يمكنني الاختلاف، فأمَر بِشْر بحمْل الدّواوين إلي، فجعل ينتخب فعزم

عليه بِشْرٌ بالخروج، فاقتطع أكثر نخبته، ثم عزم عليه ألّا يقيم بَعْد ثالثة، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلّفوها وراء ظهورهم، وصاروا بالفرات، فخرج المهلّب حتى صار إلى شَهارطاق،، فأتاه شيخ من بني تميم، فقال: أصلح الله الأمير! إنّ سنّي ما تَرى، فهبْني لعيالي، فقال: على أن تقول للأمير إذا خَطَب فحثّكم على الجهاد: كيف تحثُّنا على الجهاد، وأنت تحبِس عَنْه أشرافنا، وأهلَ النَّجْدة منا! ففعل الشيخُ ذلك، فقال له بشر: وما أنت وذاك ثم أعطى المهلّبُ رجلاً ألفَ درهم، على أن يأتيَ بِشراً فيقول له: أيُّها الأمير، أعِن المهلّب بالشُّرْطة والمقاتِلة، ففعل الرجل ذلك، فقال له بشر: وما أنت وذاك؟ فقال: نصيحةٌ حضرتْني للأمير والمسلمين، ولا أعود إلى مثلها، فأمده بِشر بالشُّرطة والمقاتلة، وكتب إلى خليفته على الكوفة أن يعقِد لعبد الرحمن بن مِخْنف على ثمانية آلاف، من كلّ رُبْع ألفين، ويوجّه بهم مدداً للمهلّب.

فلما أتاه الكتاب، بعث إلى عبد الرحمن بن مِخْنف الأزْدِيّ يعقد له، واختار من كلّ رُبْع ألفين، فكان على رُبْع أهل المدينة بِشْر بن جَرِير بن عبد الله البَجَليّ، وعلى رُبْع تميم وهَمْدان محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهَمْدانيّ، وعلى رُبْع كِنْدة محمد بن إسحاق بن الأشعث بن قَيْس الكِنْدي، وعلى رُبْع مَذْحِج وأسد زَحْر بن قيس المذْحِجيّ، فقدموا على بِشْر بن مروان، فخلا بعبد الرحمن بن مِخْنف، وقال له: قد عرفتَ رأيي فيك، وثقتي بك فكن عند ظنّي بك، وانظر إلى هذا المزُونيّ، فخالفه في أمره، وأفسِدْ عليه رأيه.

فخرج عبدُ الرحمن، وهو يقول: ما أعجبَ ما طلَبَ مِنّي هذا الغُلام يأمُرني أن أصغِّر شأنَ شيخٍ من مشايخ أهلي، وسَيِّد من ساداتهم فلحِق بالمهلّب.

فلما أحسَّ الأزارقة بدنوّ المهلّب منهم انكشفُوا عن الفُرات، فاتبعهم المهلّب إلى سوق الأهواز، فنفاهم عنها، ثم اتبعهم إلى رَامَهُرْمُز فهزمهم عنها، فدخلوا فارسَ، وأبلَى يزيد ابنه في وقائعه هذه بلاءً شديداً، تقدّم فيه وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة.

فلما صار القومُ إلى فارس، وجّه إليهم ابنَه المغيرة، فقال له عبد الرحمن بن صالح: أيّها الأمير، إنه ليس لك برأيٍ قتلُ هذه الأكلُب، ولئن والله قتَلْتهم لتقعدنّ في بيتك، ولكنْ طاولهم، وكُلْ بهم. فقال: ليس هذا من الوفاء، فلم يلبَثْ برَامَهُرمز إلا شهراً، حتى أتاه موت بِشْر بن مروان.

فاضطرب الجُند على ابن مِخْنف، فوجّه إلى إسحاق بن الأشعث وابن زَحْر فاستحلفهما ألّا يبرحا، فحلفا له ولم يفِيا، وجعل الجند من أهل الكوفة يتسلّلون حتى اجتمعوا بسُوق الأهواز، وأراد أهلُ البصْرة الانسلالَ من المهلّب، فخطبهم فقال: إنّكم لستُم كأهل الكُوفة، إنما تذبّون عن مصِركم وأموالكم وحرَمكم.

فأقام منهم قومٌ، وتسلّل منهم قومٌ كثير.

وكان خالد بن عبد الله خليفة بشر بن مروان، فوجّه مولّى له بكتاب منه إلى مَنْ بالأهواز، يحلف بالله مجتهداً: لئن لم يرجعوا إلى مراكزهم، وانصرفوا عصاةً لا يظفَرُ بأحدٍ إلا قتله. فجاءهم مولاه، فجعل يقرأ عليهم الكتابَ، ولا يرى في وجوههم قَبولاً، فقال: إني أرى وجوهاً ما القبولُ مِنْ شأنها، فقال له ابن زَحْر: أيها العبد، اقرأ ما في الكتاب، وانصرفْ إلى صاحبك، فإنك لا تدري ما في أنفسنا. وجعلوا يستحثّونه بقراءته، ثم قصدوا قَصْد الكوفة، فنزلوا النُّخَيْلة، وكتبوا إلى خليفة بشر يسألونه أن يأذن لهم في دخول الكوفة، فأبى، فدخلوها بغير إذن.

فلم يزل المهلّب ومَنْ معه من قواده وابن مِخْنف، في عدد قليل، فلم يلبثُوا أن وليَ الحجّاج العراق.

فدخَل الكوفة قبل البَصْرة، وذلك في سنة خمس وسبعين، فخطبهم الخطبة المشهورة وتهدّدهم، ثم نزل فقال لوجوه أهلها: ما كانت الولادةُ تَفعل بالعُصاة؟ قالوا: كانت تضرب وتحبس، فقال: ولكن ليس لهم عندي إلا السيف، إنّ المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون، ولو ساغت المعصية لأهلها، ما قوتل عدوّ، ولا جُبِيَ فَيْء، ولا عَزّ دين.

ثم جلس لتوجيه الناس، فقال: قد أجّلتكم ثلاثاً، وأقسم بالله لا يتخلف أحدٌ من أصحاب ابن مِخْنَف بعدَها إلا قتلْته. ثم قال لصاحب حَرَسه ولصاحب شُرْطَته: إذا مضت ثلاثة أيام فاشحذا سيوفكما. فجاءه عُمير بن ضابِىء البرجُميّ بابنه فقال: أصلح الله الأمير! إنّ هذا أنفع لكم مِنّي، وهو أشدّ بني تميم أبداناً، وأجمعهم سلاحاً، وأربطهم جأشاً، وأنا شيخٌ كبير عليل، واستشهد جُلساءه، فقال له الحجاج: إنّ عذْرك لَواضح، وإن ضَعفك لَبيِّن، ولكني أكره أن يجتريء بك الناس عليّ، وبعد، فأنت ابن ضابِىء صاحب عثمان، وأمر به فقتِل، فاحتَمل النّاس، وإنّ أحدَهم ليُتْبِع بزاده وسلاحه، ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسديّ.

أقــولُ لـعـبــدِ الله يَـوْمَ لـقـيـتُـهُ ... أرَى الأمر أمْسَى مُنْصِباً متشعّباً

تـجـهّـز فـإمـا أن تَـزُور ابـنَ ضـابِـىءٍ ... عُـمَـيـراً، وإمَّـا أنْ تَـزُور الـمـهـلـبـا

هـمـا خُـطّـتـا خَـسْـفٍ نَـجَـاؤُك مـنـهـمـا ... رُكُـوبُـك حَـوْلِـيًّـا مِـنَ الـثَّـلْـجِ أشـهَـبَـا

فـمـا إنْ أرَى الـحـجَّـاجَ يَـغْـمِـدُ سَـيْـفَـهُ ... مَدَى الدَّهرِ حتى يترك الطفل أشْيَبَا

فَـأضـحَـى ولـو كَـانَـت خُـرَاسَـانُ دُونَـهُ ... رآهـا مَـكَـانَ الـسُّـوقِ أوْهـى أقْـرَبـا

وهَرَبَ سَوَّارُ بنُ المُضَرِّبِ السَّعْدِي من الحجاج، وقال:

أقــاتِــلِـيَ الـحـجّــاج إن لـم أزُرْ لَـهُ ... دَرَابَ وأتــرُكْ عِــنْــدَ هِــنْــد فُــؤادِيَــا

في قصيدة مشهورة له.

فخرج الناس عن الكوفة، وأتى الحجاج البصرة، فكان أشدّ عليهم إلحاحاً، وقد كان أتاهم خبره بالكوفة، فتحمّل الناس قبل قدومه. وأتاه رجل من بني يَشْكُر، وكان شَيْخاً أعور، يجعل على عينه العوراء صُوفة، فكان يلقَّب ذا الكُرْسُفَة، فقال: أصلح الله الأمير! أنّ بي فَتْقاً وقد عَذَرني بِشْر بن مروان، وقد رددت العطاء، فقال: إنك عندي لصادق، ثم أمر به فضربتْ عنقُه، ففي ذلك يقول كعب الأشقريّ - أو الفرزدق.

لَقَدْ ضَرَبَ الحَجّاجُ بالمِصرِ ضَرْبَةً تَقَرْقَرَ منها بَطنُ كلِّ عريفِ

ويُروى عن أبي البشر، قال: إنّا لنتغدّى معه يوماً، إذ جاءه رجل من بني سُليم برجل يقوده، فقال: أصلح الله الأمير إنّ هذا عاصٍ، فقال له الرجل: أنشُدُك الله أيها الأمير في دمي فوالله ما قَبَضْتُ ديواناً قط، ولا شهدت عكسراً قَطّ، وإني لَحَائك، أخذتُ من تحتِ الحَفّ. فقال: اضربوا عُنقَه. فلما أحسّ بالسّيف سجَد، فلحقه السّيف وهو ساجد، فأمسكنا عن الأكل، فأقبل علينا، وقال: ما لي أراكم قد صَفِرتْ أيديكم، واصفرّت وجوهكم، وحَدّ نظرُكم من قَتْل رجل واحد ألا إنّ العاصيَ يجمع خِلالاً، يُخِلُّ بمركزه، ويَعْصِي أميرَه، ويغرّ المسلمين، وهو أجيرٌ لهم، وإنما يأخذُ الأجرة لِمَا يعمل، والوالي مخيّر فيه، إن شاء قتل وإن شاء عفا.

ثم كتب إلى المهلب:

أما بعد، فإن بِشراً استكره نفسَه عليك، وأراك غِنَاه عنك، وأنا أريك حاجتي إليك فأرِني الجدّ في قتال عدوك، ومَنْ خِفْتَه على المعصية مِمّن قَبلك فاقتله، فإني قاتل مَنْ قبلي ومَنْ كان عندي ممّن هرب عنك، فأعلِمْني مكانَه، فإني أرى أن آخذ السّميّ بالسّميّ، والوليّ بالولي.

فكتب إليه المهلّب:

ليس قِبَلي إلا مطيعٌ - وإنّ الناسَ إذا خافوا العقوبة كبّروا الذّنب، وإذا أمِنُوا العقوبة صغروا الذنب، وإذا يَئسوا العفو أكفرهم ذلك، فهب لي هؤلاء الذين سميتّهم عصاة، فإنهم فُرسان أبطال، أرجو أن يقتُلَ الله بهم العدوّ - ونادم على ذنبه.

فلما رأى المهلّب كثرةَ الناس عنده قال: اليوم قُوتل هذا العدوّ.

ولما رأى ذلك قَطرِيّ، قال لأصحابه: انهضوا بنا نريد السَّرْدَن، فنتحصن فيها، فقال عبيدة بن هلال: أو تأتي سابُور، فتأخُذَ منها ما نُريد، وتصير إلى كَرْمان. فأتوْا سابور، وخرج المهلب في آثارهم فأتى أرّجان، وخاف أن يكونوا قد تحصنوا بالسَّرْدَنْ - وليست بمدينة ولكنها جبال مُحدِقة منيعة - فلم يصبْ بها أحداً، فخرج فعسكر بكازَرُون، واستعدّوا لقتاله فخندقَ

على نفسه، ووجّه إلى عبد الرحمن بن مخنف: خَنْدِق على نفسك. فوجه إليه: خنادقُنا سيوفُنا، فوجه المهلّب إليه: إني لا آمن عليك البَيات، فقال ابنه جعفر: ذلك أهونُ علينا من ضَرْطة جمل، فأقبل المهلّب على ابنه المغيرة، فقال: لم يصيبوا الرأي، ولم يأخذوا بالوثيقة.

فلما أصبح القومُ عاودوه الحرب، فبعثَ إلى ابن مخنف يستمدّه، فأمدّه بجماعة، جعل عليهم ابنه جعفراً، فجاؤوا وعليهم أقبِيةٌ بيض جُدُد، فأبلَوا يومئذٍ حتى عرف مكانهم المهلّب، وأبلَى بنوه يومئذٍ كبلاء الكوفيين أو أشدّ.

ثم أتى رئيسٌ من الخوارج، يقال له صالح بن مخراق، وهو ينتخبُ قوماً من جلّة العَسْكر حتى بلغ أربعمائة، فقال لابنه المغيرة: ما أراه يُعِدّ هؤلاء إلا للبيات.

وانكشفت الْخوارج، والأمر للمهلّب عليهم، وقد كَثُر فيهم الجراح والقتل، وقد كان الحجّاج يتفقّد العصاة، ويوجّه الرجال، وكان يحبسهم نهاراً، ويفتح الحبس ليلاً، فيتَسَلّلُ الرجال إلى ناحية المهلّب، وكأنّ الحجاج لا يعلم، فإذا رأى إسراعهم تمثّل:

إنّ لَـهَـا لَـسَـائـقـاً عَـشَـنْـزَرا ... إذا وَنَـيْـنَ وَثْـبَـةً تَـغَـشْـمَـرا[1]

ثم كتب الحجّاج إلى المهلّب يستحثّه:

أما بعد، فإنه قد بلغني أنّك قد أقبلت على جباية الخراج، وتركتَ قتال العدو، وإني ولّيتُك وأنا أرى مكانَ عبد الله بن حكيم المجاشعيّ. وعبّاد بن الحصين الحَبَطيّ، واخترتك وأنت من أهل عُمان، ثم رجلٌ من الأزد، فالقهم يوم كذا في مكان كذا، وإلا أشرعتُ إليك صدر الرمح.

فشارو المهلّب بنيه، فقالوا: أيها الأمير، لا تُغْلِظ عليه في الجواب.

فكتب إليه:

وردّ إليّ كتابك، تزعُم أنّي أقبلتُ على جباية الخراج، وتركتُ قتال العدوّ، ومَنْ عَجَزَ عن جباية الخراج، فهو عن قتال العدو أعْجَز. وزعمتَ أنّك ولّيتني، وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم وعَبّاد بن الحصين، ولو ولّيتهما لكانا مستحِقّيْن لذلك لفضلهما وغَنائهما وبطشهما. وزعمتَ أنك اخترَتني وأنا رجلٌ من الأزد، ولعمرِي إنّ شرًّا من الأزد لقبيلة تنازعتْها ثلاث قبائل، لم تستقرّ في واحدة منهنّ. وزعمتَ أني لم ألقهم يوم كذا في مكان كذا أشرعتَ إليّ صدرَ الرمح، لو فعلتَ لقلبتُ لك ظهر المِجنّ. والسلام.

---

(١) العشنزر: الشديد الخلق العظيم من كل شيء. اللسان، مادة (عشزر)، وتغشمره: أخذه قهراً. اللسان، مادة (غشمر).

قال: ثم كانت الوقعة بينه وبين الخوارج عَقِيب هذا الكتاب.

فلما انصرف الخوارج تلك الليلة، قال لابنه المغيرة: إني أخاف البَيات على بني تميم، فانهض إليهم فكن فيهم، فأتاهم المغيرة، فقال له الحريش بن هلال. يا أبا حاتم، أيخاف الأميرُ أن يؤتَى من ناحيتنا قُلْ له: فليبت آمناً، فإنا كافوه ما قِبَلَنا إن شاء الله.

فلما انتصف الليل، وقد رجع المغيرة إلى أبيه، سرى صالح بن مخراق في القوم الذين كان أعدّهم للبيات إلى ناحية بني تميم، ومعه عبيدة بن هلال، وهو يقول:

إنّـي لَـمُـنْـكِـ لـلـشُّـراةِ نـارَهـا ومـانـعٌ مـمّـنْ أتـاهـا دارهـا
وغـاسِـلٌ بـالـسـيـف عـنـهـا عَـارَهـا

فوجد بني تميم أيقاظاً متحارسين، وخرج إليهم الحريش بن هلال، وهو يقول:

وَجَـدْتُـمُـونَـا وُقُـراً أنـجَـادَا لا كُـشُـفـاً مِـيـلاً[1] ولا أوْغَـادَا

ثم حمل على الخوارج، فرجعوا عنه، فاتبعهم ثم صاح بهم: إلى أين يا كلاب النار! فقالوا: إنما أُعِدّتْ لك ولأصحابك، فقال الحريش: كلّ مملوك لي حُرّ إن لم تدخلوا النّار، ما دخلها مجوسيٌّ فيما بين سَفَوان وخُراسان.

ثم قال بعضهم لبعض: نأتي عسكرَ ابن مِخْنف، فإنه لا خندق عليه، وقد بَعَث فرسانهم اليوم مع المهلّب، وقد زعموا أنّا أهونُ عليهم من ضَرْطة جمل. فأتوهم فلم يشعر ابن مِخْنف وأصحابه، إلا وقد خالطُوهم في عسكرهم.

وكان ابن مخنف شريفاً، وفيه يقول رجل من بني عامر لرجل يعاتبه، ويضرب بابن مخنَف المثل:

تَـرُوحُ وتَـغْـدُو كـلَّ يـوم مُـعَـظَّـمـاً كـأنـك فـيـنـا مِـخْـنفٌ وابـن مِـخْـنَـفِ

فترجّل عبد الرحمن تلك الليلة يجالدهم، حتى قتل وقتل معه سبعون رجلاً من القرّاء فيهم نفرٌ من أصحاب عليّ بن أبي طالب، ونفر من أصحاب ابن مسعود. ويلغ الخبرُ المهلّب - وجعفر بن عبد الرحمن بن مِخْنف عند المهلّب - فجاءهم مُغِيثاً فقاتل حتى ارتُثّ، ووجّه المهلّب إليهم ابنه حبيباً، فكشفهم، ثم جاء المهلّب حتى صلّى على عبد الرحمن بن مِخْنف وأصحابه، وصار جندُه في جند المهلّب، فضمّهم إلى ابنه حبيب، فعيّرهم البَصرِيّون، وسَمّوْا جعفراً خضفة الجمل.

وقال رجل منهم لجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف:

---

(١) الكُشُف: الذين لا يصدقون القتال، أو الذين ليس معهم تروس. اللسان، مادة (كشف).

تـركـت أصـحـابَـكُـم تَـدْمَـى نُـحُـورُهُـمْ وجـئـتَ تَـسْـعـى إلـيـنـا خَـضْـفَـة الـجـمـلِ

فلامَ المهلّب أهل البصرة، وقال: بئسما قلتم، والله ما فَرّوا ولا جَبُنوا، ولكنهم خالفوا أميرهم، أفلا تذكرون فِراركم بدُولابَ عَنّي، وفرارَكم بدَارس عن عثمان!.

ووجه الحجّاج البراء بن قبيصة إلى المهلّب يستحثّه في مناجزة القوم، وكتب إليه: إنّك تحبُّ بقاءهم لتأكُلَ بهم، فقال المهلّب لأصحابه: حَرِّكُوهم، فخرج فُرسان من أصحابه فخرج إليهم من الخوارج جَمْعٌ كثير، فاقتتلوا إلى الليل: فقال لهم الخوارج: وَيْلَكم! أما تَمَلُّون فقالوا: لا، حتّى تملُّوا، فقالوا: فمن أنتم؟ قالوا: تميم، فقالت الخوارج: ونحن تميم أيضاً، فلما أمسَوْا افترقوا، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلّب، وخرج إليهم من الخوارج عشرة، واحتفر كلّ واحدٍ منهم حَفِيرة، وأثبت قدميه فيها، كلّما قُتِل رجل جاء رجل من أصحابه فاجترّه وقام مكانه حتى أعْتموا، فقال لهم الخوارج: ارجعوا، فقالوا: بل ارجعوا أنتم، قالوا لهم: وَيْلكم مَنْ أنتم! قالوا: تميم، قالوا: ونحن تميم أيضاً: فرجع البرَاء بن قبيصة إلى الحجاج فقال له: مَهْيم؟ قال: رأيت أيها الأمير قوماً لا يعين عليهم إلا الله.

وكتب المهلّب جواب الحجاج: إنّي منتظر بهم إحدى ثلاث: موتاً ذريعاً، أو جُوعاً مُضِرًّا، أو اختلافاً من أهوائهم.

وكان المهلّب لا يتّكل في الحراسة على أحد، كان يتولّى ذلك بنفسه، ويستعين عليه بولده، وبمن يحلّ محلهم في الثقة عنده.

قال أبو حَرْملة العبديّ يهجو المهلّب، وكان في عسكره:

عَـدِمْـتُـك يـا مُـهَـلّـبُ مـن أمـيـرٍ أمـا تَـنْـدَى يـمـيـنُـك لـلـفـقـيـر!
بِـدُولَابٍ أضـعـتَ دمـاء قـومـي وَطِـرْتَ عَـلَـى مُـوَاشِـكَـةٍ دَرُورِ

فقال له المهلّب: ويحك! والله إنّي لأقِيكم بنفسي وولدي، قال: جعلني الله فداء الأمير! فداك الذي نَكْره منك، ما كلُّنا يحبّ الموت. قال: ويحك! وهل عنه مِنْ محيص! قال: لا، ولكنا نكره التعجيل، وأنت تُقدِم عليه إقداماً، قال المهلّب: وَيلك أما سمعت قول الكلْحبة اليربوعيّ:

فـقـلـتُ لـكـأسٍ ألـجـمـيـهـا فـإنّـمـا نَـزَلْـنَـا الـكَـثِـيـبَ مِـنْ زَرُودَ لِـنَـفْـزَعـا

فقال: بلى، قد سمعت، ولكنّ قولي أحبّ إليّ منه:

وَلَـمّـا وقـفـتـمْ غُـدْوةً وعـدوّكُـمْ إلـى مـهـجـتي وَلَّـيْـتُ أعداءكُـمْ ظَـهْـرِي
وطِـرتُ ولـم أحـفـل مـلامَـةَ جـاهِـلٍ يُـسَـاقِـي الـمـنـايا بـالـردَيْـنِـيّـة الـسُّـمْـر[1]

---

(١) الردينية: ردينة اسم مرأة، والرماح الردينية منسوبة إليها. اللسان، مادة (ردن).

فقال المهلب: بئس حشو الكتيبة أنت والله يا أبا حرملة! إنْ شئت أذِنْتُ لك فانصرفت إلى أهلك. قال: بل أقيم معك أيها الأمير، فوهب له المهلب وأعطاه فقال يمدحه:

يَرَى حَتْماً عَلَيْهِ أبُو سَعِيدٍ ... جِلَادَ الْقَوْمِ فِي أولَى النَّفِيرِ
إذا نَادَى الشُّرَاةُ أبَا سَعِيدٍ ... مَشَى فِي رِفْلِ مُحْكَمَةِ الْقَتِيرِ

قال: وكان المهّلب يقول: ما يسرّني أنّ في عسكري ألف شجاع مكان بيهس بن صُهيب، فيقال له: أيها الأمير، بَيْهس ليس بشجاع، فيقول: أجل، ولكنّه سديد الرأي، محكم العقل، وذو الرأيِ حذر سَؤول، فأنا آمن أن يُغْتَفَل، ولو كان مكانه ألف شجاع لخِلْت أنهم يَنْشَامون حيث يحتاج إليهم.

قال: ومطرت السماء مطراً شديداً وهم بسابور، وبين المهلب وبين الشُّراة عقبة، فقال المهلّب: مَنْ يكفينا أمرَ هذه العقبة الليلة؟ فلم يقم أحد، فلبس المهلّب سلاحه، وقام إلى العقبة واتَّبعه ابنُه المغيرة، فقال رجل من أصحابه: دعانا الأمير إلى ضَبْط العقبة، والحظّ في ذلك لنا، فلم نطِعْه، وليس سلاحه واتّبعه جماعة من العسكر، فصاروا إليه، فإذا المهلّب والمغيرة ولا ثالثَ لهما، فقالوا: انصرف أيها الأمير، فنحنُ نكفِيك إن شاء الله، فلما أصبحُوا إذ هم بالشُّراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عُمان على فرس، فجعل يحملُ وفرسه تَزْلق، ويَلْقاه مُدرك في جماعة معه، حتى ردوهم عن العقبة. فلما كان يوم النَّحْر والمهلّب على المنبر يخطب الناس، إذ الشُّراة قد أكبّوا، فقال المهلب: سبحان الله! أفي مثل هذا اليوم! يا مغيرة اكفنيهم، فخرج إليهم المغيرة، وأمامه سعد بن نجد القُرْدوسيّ وكان سعد مقدّماً في شجاعته، وكان الحجاج إذا ظن برجلٍ أن نفسه قد أعجبته قال له: لو كنت سعد بن نجد القرْدُوسيّ ما عدا! فخرج أمام المغيرة، ومع المغيرة جماعة من فُرسان المهلب، فالتقوا، وأمام الخوارج غلام جامع السلاح، مدِيد القامة، كريه الوجه، شديد الحَمْلة، صحيح الفروسيّةِ، فأقبل يحمل على الناس، ويرتجز فيقول:

نَحْنُ صَبَحْنَاكُمْ غداةَ النَّحْرِ ... بالخيلِ أمثالِ الوشيجِ[1] تَجْرِي

فخرج إليه سعد بن نجد القُرْدُوسيّ، من الأزد، فتجاولا ساعة ثم طعنه سعد فقتله، والتقى الناس، فصُرِع المغيرة يومئذٍ، فحامى عليه سعد بن نجد ودينار السجستانيّ وجماعة من الفرسان، حتى ركب وانكشف الناس عند سَقطة المغيرة حتى صاروا إلى المهلب، فقالوا: قُتِل المغيرة، فأتاه ديار السجستانيّ، فأخبره بسلامته، فأعتق كلّ مملومك كان بحضرته.

قال: ووجّه الحجاج الجرّاح بن عبد الله إلى المهلّب يستبطئه في مناجزة القوم، وكتب إليه:

---

(١) الوشيج: هي عامة الرماح واحدتها وشيجة. اللسان، مادة (وشج).

أما بعد، فإنك جَبَيْت الخراج بالعِلل، وتحصّلت بالخنادق، وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصراً، وأكثر عدداً، وما أظنّ بك مع هذا معصية ولا جُبْناً، ولكنّك اتخذتهم أُكُلاً، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم، فناجزهم وإلا أنكرتَني، والسلام.

فقال المهلّب للجرّاح: يا أبا عُقْبة، والله ما تركتُ حيلة إلا احتلتُها، ولا مكيدةً إلا أعمَلتُها، وما العجبُ من إبطاء النُّصْرة وتراخي الظَّفَر، ولكنّ العجب أن يكون الرأيُ لمن يملِكهُ دون مَنْ يُبْصره.

ثم ناهضهم ثلاثةَ أيام، يغاديهم القتال، فلا يزالون كذلكَ إلى العصر. وينصرف أصحابُه وبهم قَرْح، وبالخوارج قَرْح وَقَتْل. فقال له الجرّاح: قد أعْذَرْت.

فكتب المهلّبَ إلى الحجاج:

أتاني كتابك تستبطئُني في لقاء القوم، على أنّك لا تظنُّ بي معصية ولا جُبْناً، وقد عاتبْتَني معاتبة الجبان، وأوعدْتَني وعيدَ العاصي، فسلِ الجرّاح. والسلام.

فقال الحجاج للجرّاح: كيف رأيتَ أخاك؟ قال: والله أيّها الأمير، ما رأيت مثلَه قط، ولا ظننت أنْ أحداً يبقى على مثلِ ما هو عليه، ولقد شهدتُ أصحابه أياماً ثلاثة يَغْدُون إلى الحرب، ثم ينصرفون عنها، وهم يتطاعنون بالرماح، ويتجالدون بالسيوف، ويتخابَطون بالعَمَد، ثم يروحون كأنْ لم يصنَعُوا شيئاً، رَوَاحَ قومٍ تلك عادتهم وتجارتهم.

فقال الحجّاج: لَشَدّ ما مدحتَه أبا عُقْبة! فقال: الحقّ أوْلَى.

وكانت رُكُبُ الناس قديماً من الخشب، فكان الرّجل يضرب ركباه فينقطع، فإذا أراد الضّربَ أو الطعن لم يكن له معتمَد، فأمر المهلّب بضَرْب الرُّكُب من الحديد: فهو أول من أَمَر بطبعها، وفي ذلك يقول عمران بن عصام العنزِيّ:

ضَرَبُوا الدَّرَاهِمَ في إمارَتِهِمْ ... وَضَرَبْتَ لِلْحَدَثَانِ وَٱلْحَرْبِ

حَلَقاً تَرَى مِنهَا مَرَافِقَهُمْ ... كَمنَاكِبِ الجِمَالَةِ الْجُربِ

قال: وكتبَ الحجّاج إلى عتّاب بن وَرْقاء الرياحيّ، من بني رياح بن يَرْبوع - وهو والي أصْفهان - يأمره بالمسير إلى المهلّب، وأن يضمّ إليه جندَ عبد الرحمن بن مخْنف، فكلُّ بلدٍ يدخلانه من فُتوح أهل البصرة فالمهلّب أميرُ الجماعة فيه، وأنت على أهل الكوفة، فإذا دخلتُم بلداً فَتحَهُ أهلُ الكوفة فأنتَ أميرُ الجماعة، والمهلّب على أهل البصرة.

فقدِم عَتّاب في إحدى جُمادَيَيْن من سنة ست وسبعين على المهلّب، وهو بسابور - وهي من

فتوح أهل البصرة - فكان المهلّب أميرَ الناس وعَتّاب على أصحاب ابن مخنف، والخوارج بأيديهم كِرْمان، وهم بإزاء المهلّب بفارس، يحاربونه من جميع النواحي.

قال: ووجّه الحجّاج إلى المهلّب رَجُلَيْن يستحثّانه لمناجزة القوم: أحدُهما يقال له زياد بن عبد الرحمن، من بني عامر بن صعصعة، والآخر من آل أبي عَقِيل من رهط الحجاج، فضمّ المهلّب زياداً إلى ابنهِ حَبيب، وضمّ الثَّقَفِي إلى ابنه يزيد، وقال لهما: خذا يزيد وحبيباً بالمناجزة، وغادوا الخوارج. فاقتتلوا أشدّ قتال، فقتِل زياد بن عبد الرحمن العامريّ، وفقد الثقفيّ. ثم باكروهم في اليوم الثاني، وقد وُجِد الثقفيّ، فدعا به المهلّب، ودعا بالغداء، فجعل النَّبْل يقع قريباً منهم ويتجاوزهم، والثقفيّ يَعْجَب من أمر المهلّب، فقال الصَّلتان العبديّ:

ألَا يا اصْبَحانِي قَبْل عَوْقِ الْعَوائقِ ... وَقَبْلَ اخْتِرَاطِ الْقَوْمِ مثل الْعَقَائِقِ

غداةَ حَبيبٍ في الحَدِيدِ يقودُنا ... يخوض المنايا في ظلال الخوافِق

حَرُونٌ إذا ما الحربُ طَار شَرَارُها ... وَهَاجَ عَجَاجُ النَّقْعِ فَوْقَ الْمَفَارِقِ

فَمَنْ مبلغُ الحجَّاج أنْ أمينَه ... زياداً أطاحتْهُ رماحُ الأزارقِ!

فلم يزل عتّاب بن وَرْقاء مع المهلّب ثمانية أشهر حتى ظهر شَبيب بن يزيد، فكتب الحجّاج إلى عتاب يأمُره بالمصير إليه ليوجّهه إلى شَبيب، وكتب إلى المهلّب يأمره أن يرزُق الجندَ، فرزَق أهلَ البصرة، وأبى أن يرزُقَ أهل الكوفة، فقال له عتّاب: ما أنا ببارحٍ حتى تَرْزُق أهلَ الكوفة، فأبى، فجرتْ بينهما غِلْظة، فقال له عتاب: قد كان يبلغني أنّك شجاعٌ، فرأيتُك جَباناً، وكان يبلغني أنّك جوادٌ، فرأيتك بخيلاً. فقال له المهلّب: يابن اللَّخْناء[1]، فقال له عتّاب: لكنك مُعَمّ مُخْول! فغضبت بكْر بن وائل للمهلّب للحلْف، ووثب نُعَيْم بن هُبيرة، ابن أخي مَصْقلة بن هُبيرة على عتّاب فشتَمه، وقد كان المهلّب كارهاً للحلْف، فلما رأى نُصرة بكر بن وائل له سرّه، واغتبط به، فلم يزل يؤكّده، وغضبت تميم البَصْرة لعتّاب، وغضبت أزْدُ الكوفة للمهلّب، فلما رأى ذلك المغيرةُ مشى بين أبيه وبين عتّاب، وقال لعتّاب: يا أبا ورقاء، إنّ الأميرَ يصيرُ إلى كلِّ ما تحبّ، وسأل أباه أن يرزُقَ أهلَ الكوفة، ففعل فصلَح الأمر، فكانت تميم قاطبةً وعتاب بن ورقاء يَحْمَدون المغيرة بن المهلّب، وكان عتاب يقول: إنّي لأعرف فضله على أبيه.

وقال رجلٌ من الأزد، من بني إياد بن سُود،

ألا أبْلِغْ أبا وَرْقَاءَ عَنَّا ... فَلَوْلَا أنّنا كُنّا غِضَابا

على الشَّيْخ المهلّب إذْ جَفانَا ... لَلَاقَتْ خيلُكم مِنّا ضِرَابا

(١) اللخناء: هي التي لم تختتن. اللسان، مادة (لخن).

قال: وكان المهلّب يقول لبنيه: لا تبدؤوا الخوارج بقتال حتى يبدؤوكم، ويَبْغُوا عليكم، فإنهم إذا بَغَوْا عليكم نُصِرْتُمْ عليهم.

فشخص عَتّاب إلى الحجاج في سنة سبع وسبعين، فوجّهه إلى شبيب فقتله شبيب.

وأقام المهلّب على حربهم، فلما انقَضَى من مقامه ثمانية عشر شهراً اختلفوا وافترقت كلمتهم. وكان سبب اختلافهم أنّ رجلاً حداداً من الأزارقة، كان يعمل نِصالاً مسمومة، فَيرمَى بها أصحاب المهلّب، فرُفِع ذلك إلى المهلّب، فقال: أنا أكفيكموه إن شاء الله، فوجّه رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكري قطريّ، فقال له: ألقِ هذا الكتابَ في العسكر والدّراهم، واحذر على نفسك - وكان الحدّاد يقال له أبْزَى - فمضى الرجل، وكان في الكتاب: أما بعد، فإن نصالَك قد وصلت إليّ، وقد وجّهتُ إليك بألف درهم فاقبِضْها وزدنا من هذه النِّصال.

فوقع الكتاب إلى قَطَرِي، فدعا بأبْزَى، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري، قال فما هذه الدراهم؟ قال: لا أعلم، فأمر به فَقُتِل. فجاءه عبد ربّه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له: أقتلت رجلاً على غير ثِقةٍ ولا تبين! قال قطريّ: فما حال هذه الألف؟ قال: يجوز أن يكون أمرُها كَذباً، ويجوز أن يكون حَقًّا، فقال قَطَرِيّ: إنّ قتلَ رجُلٍ في صلاح الناس غير منكَر، وللإمام أن يحكُم بما رآه صلاحاً، وليس للرعيّة أن تعترض عليه. فتنكّر له عبدُ رَبّه في جماعة معه، ولم يفارقوه.

وبلغ ذلك المهلّب فدسَّ إليهم رَجُلاً نصرانيًّا، جعل له جُعْلاً يُرْغَب في مثله، وقال له: إذا رأيتَ قَطَرِيًّا فاسْجُد له، فإذا نهاك فقل: إنّما سجدتُ لك، ففعل ذلك النَّصرانيّ، فقال قطريّ: إنما السجود لله تعالى، فقال ما سجدتُ إلا لَكَ، فقال رجل من الخوارج: إنه قد عَبَدَك من دون الله، وتلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[1]، فقال قَطَريّ: إنّ النصارى قد عبدُوا عيسى ابن مريم، فما ضرّ عيسى ذلك شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النَّصرانيّ فقتله، فأنكر قطريّ ذلك عليه، وأنكر قوم من الخوارج إنكارَه.

وبلغ المهلّب ذلك، فوجّه إليهم رجلاً يسألهم، فأتاهم الرجل، فقال: أرأيتُمْ رجُلَيْن خرجَا مهاجريْن إليكم، فمات أحدهما في الطريق، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه فلم يَجُزِ المحنة، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أمّا الميت فمؤمن من أهل الجَنّة، وأما الذي لم يَجُزِ المِحنة فكافر حتى يُجيز المحنة.

وقال قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيز المحنة، فكثر الاختلاف.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

وخرج قَطَريٌّ إلى حدود إصطَخْر، فأقام شهراً، والقومُ في اختلافهم. ثم أقبل فقال لهم صالح بن مخراق: يا قوم، إنكم أقررتم عين عدوكم، وأطعمتموه فيكم بما يظهر من خلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب، واجتماع الكلمة.

وخرج عمرو القنا - وهو من بني سعد بن زيد مناة بن تميم - فنادى: يا أيها المحِلّون، هل لكم في الطِّرَاد فقد طال عهدي به ثم قال:

ألمْ تَرَ أنّا مذْ ثلاثين ليلةً جَدِيبٌ وأعداءُ الكتاب على خَفْضِ

فتهايج القوم، وأسرع بعضُهم إلى بعض، وكانت الوقعة، وأبلى يومئذٍ المغيرة بن المهلّب، وصار في وسط الأزارقة، فجعلت الرماح تحطُّه وترفَعُه، واعتورتْ رأسَه السيوف، وعليه ساعد حديد، فوضع يده على رأسه، فلم يعمل السيف فيه شيئاً، واستنقذه فرسانٌ من الأزد بعد أن صرع، وكان الذي صَرَعه عبيدة بن هلال بن يشكر بن بكر بن وائل، وكان يقول يومئذٍ:

أنا ابن خيرِ قومِه هلالِ شيخٌ على دينِ أبي بلالِ
وذاكَ دِيني آخرَ الليالي

فقال رجلٌ للمغيرة: كنّا نعجب كيف تُصْرَع، والآن نعجب كيف تنجو وقال المهلّب لبنيه: إنَّ سَرْحَكُم لغارّ، ولست آمنهم عليه، أفوكّلتم به أحداً؟ قالوا: فلم يستّمّ الكلام حتى أتاه آتٍ، فقال: إن صالح بن مخراق قد أغارَ على السَّرْح، فشقّ على المهلّب، وقال: كل أمرٍ لا أليه بنفسي فهو ضائع، وتذمّر عليهم، فقال له بشر بن المغيرة: أرِح نفسك، فإنْ كنتَ إنما تريد مثلك فوالله ما يعدِل خيرُنا شِسْعَ نعلك، فقال: خذوا عليهم الطريق، فبادر بشر بن المغيرة، ومدرك والمفضّل ابنا المهلّب، فسبق بشر إلى الطريق، فإذا رجل أسود من الأزارقة يَشُلّ السَّرْح، وهو يقول:

نَحْنُ قَمَعْناكُمْ بشلِّ السَّرْحِ وَقَدْ نَكَأْنَا الْقَرْحَ بَعْدَ الْقَرْحِ

ولحقه المفضّل ومدرك، فصاحا برجل من طيِّىء: اكفِنا الأسود، فاعتوره الطائيّ وبشر بن المغيرة فقتلاه، وأسَرَا رجلاً من الأزارقة من هَمْدان، واستردا السَّرْح.

قال: وكان عيّاش الكنديّ شجاعاً بئيساً، فأبلى يومئذ، فلما مات على فراشه بعد ذلك قال المهلّب: لا وألتْ نفسُ الجبان بعد عَيّاش! وقال المهلّب: ما رأيت تالله كهؤلاء القومِ كلما انتُقص منهم يزيد فيهم!.

ووجّه الحجاج رجلين إلى المهلّب يستحثّانه بالقتال: أحدهما من كَلْب، والآخر من سُلَيم، فقال المهلّب متمثّلاً بشعر لأوس بن حَجَر:

ومستعجِبٍ مما يرى من أناتِنَا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحربُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ

فقال المهلّب ليزيد ابنه: حَرّكِ القوم، فحرّكهم فتهايَجُوا، وذلك في قرية من قرى إصطخْر، فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلّب وطعنه، فشكّ فخذِه بالسَّرْج، فقال المهلّب للسُّلميّ والكلبيّ: كيف يُقَاتَل قوم هذا طعنهم! وحمل يزيد عليهم، وقد جاء الرُّقاد - وهو من فرسان المهلب - وهو أحد بني مالك بن ربيعة، على فرسٍ له أذهم، وبه نَيّف وعشرون جِراحة، وقد وضع عليها القُطْن، فلما حمل يزيد ولّى الجمع، وحَمَاهم فارسان منهم، فقال يزيد لقيس الخُشَنيّ، مولى العتيك: مَنْ لهذين؟ قال: أنا، فحمل عليهما، فعطف عليه أحدهما فطعنَه قيس فصرعه، وحمل عليه الآخر فتعانقا، فسقطا جميعاً إلى الأرض، فصاح قيس الخشنيّ: اقتلونا جميعاً، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء، فحجزُوا بينهما، فإذا مُعانِق قيس امرأة، فقام قيس مستحْيِياً، فقال له يزيد: يا أبا بشر، أمّا أنتَ فبارزتها على أنّها رجل فقال: أرأيت لو قُتِلْتُ، أما كان يقال: قتلته امرأة! وأبلى يومئذٍ ابن المنجِب السّدُوسيّ، فقال غلام له يقال له خِلاج: والله لوددنا أنا فَضَضْنا عسكرهم حتى نصيرَ إلى مستقرّهم، فأستلِب مما هناك جاريتين. فقال له مولاه ابن المنجب: وكيف تمنّيت ويحك اثنتين! فقال: لأعطيَك إحداهما وآخذ الأخرى، فقال ابن المنجب:

أخلاجُ إنكَ لَنْ تعانِقَ طِفْلَةً ... شَرِقاً بها الجاديّ كالتِّمْثالِ
حَتّى تلاقيَ في الكَتِيبة مُعْلِماً ... عَمْرو القَنا وعبيدة بن هلالِ
وترى المقعْطَر في الفَوَارِس مقدِماً ... في عُصْبَةٍ نَشِطُوا عَلَى الضُّلّالِ
أو أنْ يعلّمَك المهلّب غَزْوَهُ ... وَتَرى جِبالاً قد دَنَتْ لِجِبالِ

قال: وكان بدر بن الهُذيل من أصحاب المهلّب شجاعاً، وكان لَحّانه، كان إذا أحسَّ بالخوارج ينادي: «يا خيلِ الله ازكَبِي»، وإليه يشير القائل:

وَإذَا طَلَبْتَ إِلَى المهلّب حَاجَةً ... عَرَضَتْ توابعُ دونَهُ وعَبِيدُ
العبد كُرْدُسٌ وبَدرٌ مثلُه ... وعلاجُ باب الأحمرين شَدِيدُ

قال: وكان بشر بن المغيرة بن أبي صُفرة أبلى يومئذ بلاء حسناً عُرِف مكانه فيه، وكانت بينه وبين المهلّب جَفْوة، فقال لبنيه: يا بني عمّ، إني قد قصرت عن شَكاةِ العاتب، وجاوزتُ شَكَاة المستعتِب، حتى كأني لا موصول ولا محروم، فاجعلوا لي فُرْجَةً أعيش بها، وهبوني امرأً رجوتم نصره، أو خفتم لسانه. فرجعوا له ووصلوه، وكلّموا فيه المهلّب، فوصله.

وولّى الحجاج كَرْدماً فارس، ووجّهه إليها والحرب قائمة، فقال رجل من أصحاب المهلّب:

وَلَوْ رَآها كَرْدَمٌ لَكَرْدَمَا ... كَرْدَمَةَ العَيْرِ أحسَّ الضَّيْغَمَا

فكتب المهلّب إلى الحجّاج يسأله أنْ يتجافَى له عن إصطخر ودَارا بجرد لأرزاق الجند، ففعل. وقد كان قطريّ هدم مدينة إصطخر، لأن أهلها كانوا يكاتِبون المهلب بأخباره، وأراد مثل ذلك بمدينة فَسا، فاشتراها منه آزاذ مَرْد بن الهِربذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها. فواقعه وجهُ المهلّب فهزمه، فنفاه إلى كِرْمان، وأتبعه المغيرة ابنه، وقد كان دفع إليه سيفاً وجّه به الحجاج إلى المهلّب، وأقسم عليه أن يتقلده، فدفعه إلى المغيرة بعدما تقلده، فرجع به المغيرة إليه وقد دمّاه، فسر المهلّب، وقال: ما يسرُّني أن يكونَ كنت دفعته إلى غيرك من ولدي، وقال له: اكفِني جباية خراج هاتين الكورَتَيْن، وضم إليه الرّقاد، فجعلا يَجْبيان، ولا يعطيان الجند شيئاً، ففي ذلك يقول رجل من بني تميم في كلمة له:

وَلَـوْ عَـلِـم ابـنُ يُـوسُـفَ مـا نـلاقِـي ... مـن الآفـاتِ والـكُـرَب الـشّـدَادِ

لـفـاضـت عـيـنُـه جَـزَعـاً عـلـيـنـا ... وأصـلـح مـا اسـتـطـاع مِـن الْـفـسَـادِ

ألا قـلْ لِـلأمـيـر جُـزِيـتَ خَـيْـراً ... أرِحْـنَـا مِـنْ مُـغِـيـرَةَ والـرُّقـادِ

فـمـا رزق الـجـنـودَ بـهـم قـفـيـزاً ... وقـد سَـاسَـتْ مـطـامِـيـرُ الـحَـصَـادِ

أي وقع فيها السوس.

قال: ثم حاربهم المهلّب بالسِّيرَجان حتى نفاهم عنها إلى جِيرَفْت واتبعهم ونزل قريباً منهم.

ثم اختلفت كلمة الخوارج، وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اتُّهم بامرأة رجل نَجّار رأوه يدخل مراراً إليها بغير إذن، فأتى قَطَرِيّاً فذكروا ذلك له، فقال لهم: إن عبيد من الدِّين بحيثُ علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فقالوا: إنّا لا نقارّ على الفاحشة، فقال: انصرفوا ثم بعث إلى عبيدة، فأخبره، وقال له: أنا لا أقارّ على الفاحشة. فقال: بهَتُوني يا أمير المؤمنين فما ترى؟ قال: إني جامع بينك وبينهم، فلا تخضَعْ خضوع المذنب، ولا تتطاولْ تطاولُ البريء، فجمع بينهم، فتكلموا، فقام عبيدة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[1] حتى تلا الآيات، فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه، وقالوا: استغفِر لنا. ففعل، فقال عبدُ ربِّه الصغير مولَى بني قيس بن ثعلبة: والله لقد خدعَكم، فتابَعَ عبدَ ربّه منهم ناس كثير، ولم يظهروا، ولم يجدوا على عبَيدة في إقامة الحدّ ثَبَتاً.

وكان قَطَرِيّ قد استعملَ رجلاً من الدَّهاقين، فظهرت له أموال كثيرة، فأتوْا قَطَريًا فقالوا: إنّ عمر بن الخطاب لم يكن يُقارّ عمّاله على مثل هذا، فقال قَطَرِي: إنِّي استعملتُه وله ضياع

(١) سورة النور، الآية: ١١.

وتجارات، فأوغَرَ ذلك صدورَهم، وبلغ المهلّبَ ذلك، فقال: اختلافهم أشدُّ عليهم مِنّي، ثم قالوا لقَطَريّ: إلا تخرج بنا إلى عَدُوِّنا؟ فقال: لا، ثم خرج فقالوا: قد كَذَبَ وارتدّ فاتبعوه يوماً، فأحسّ بالشرّ، ودخل داراً مع جماعة من أصحابه، فاجتمعوا عليه وصاحوا: اخرج إلينا يا دابّة، فخرج إليهم، فقال: أرجعتم بَعْدِي كفاراً! قالوا: أولستَ دابة قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1]، ولكنّك قد كفَرْت بقولك: «إنا قد رَجَعْنا كفاراً»، فتب إلى الله. فشاور عبيدة في ذلك، فقال له: إن تبتَ لم يقبلوا منك، فقل: إنّي استفهمت فقلت: «أرجعتم بعدي كفاراً؟» فقال لهم ذلك، فقبلوا منه، فرجع إلى منزله.

ومنهم عبد ربّه الصغير، أحد موالي قيس بن ثعلبة.

لما اختلفت الخوارج على قطريّ بايعه منهم جمع كثير، وكان قَطَرِيٌّ قد عزم على أن يبايع للمقعطر العبديّ، ويخلع نفسَه، فجعله أمير الجيش في الحرب قبل أن يعهدَ إليه بالخلافة، فكرهه القوم وأبوْه، وقال صالح بن مخراق عنهم وعن نفسه: ابغِ لنا غير المقعطَر، فقال لهم قَطريّ: إنّي أرى طولَ العهد قد غيّركم، وأنتم بصدد عدوّ، فاتقوا الله وأقبِلوا على شأنكم، واستعدّوا للقاء القوم، فقال صالح: إنّ الناس قَبْلنا قد سألوا عثمان بن عفان أن يعزِل سعيد بن العاص عنهم ففعل. ويجب على الإمام أن يُعفِيَ الرعيّة مما كرِهَتْ. فأبى قَطَرِيّ أن يعزل المقعطر، فقال له القوم: فإنا قد خلعناك وبايعنا عبد ربه الصّغير - وكان عبد ربّه هذا مُعلِّمَ كُتّاب، وكان عبد ربّه الكبير بائع رمان: وكلاهما من موالي قيس بن ثعلبة - فانفصل إلى عبد ربّه الصغير أكثر من شَطْرِهم: وجلُّهم الموالي والعجم، وكان منهم هناك ثمانية آلاف وهم القرّاء، ثم ندم صالح بن مخراق، وقال لقَطَرِيّ: هذه نفخة من نفخات الشيطان فأعفِنا من المقعطر، وسِرْ بنا إلى عدونا وعدوِّك، فأبى قطريّ إلا المقعطر، وحمل فتًى من الشُّرَاة على صالح بن مخراق، فطعنه فأنفذه، وأوجرَه الرمح.

فنشبت الحرب بينهم، فتهايجوا. ثم انحاز كلّ قوم إلى صاحبهم، فلما كان الغد اجتمعوا، فاقتتلوا، فأجلَتِ الحرب عن ألفي قتيل، فلما كان الغد عاودوا الحرب، فلم ينتصف النهار حتى أخرجت العجم العربَ عن المدينة، فأقام عبد ربه بها، وصار قَطَرِيٌّ خارجاً من مدينة جِيرفْت بإزائهم، فقال له عبيدة بن هلال: يا أمير المؤمنين، إن أقمتَ لم آمن هذه العبيد عليك، إلّا أن تخندق على نفسك، فخندَق على باب المدينة وجعل يُناوشهم، وارتحل المهلّب، وكان منهم على ليلة، ورسول الحجاج معه يستحثّه، فقال له: أصلح الله الأمير عاجِلْهم قبل أن

(١) سورة هود، الآية: ٦.

يصطلحوا، فقال المهلّب: إنّهم لن يصطلحوا، ولكن دَعْهم فإنهم سيصيرون إلى حال لا يفلِحون معها، ثم دسّ رجلاً من أصحابه، فقال: ائت عسكر قَطَرِيّ، فقل: إني لم أزل أرى قَطَرِيًّا يصيب الرأي، حتى نزل منزله هذا، فظهر خطؤه: أيقيم بين المهلّب وعبد ربّة، يغاديه القتال هذا، ويراوحه هذا فنُمِيَ الكلام إلى قَطريّ، فقال: صدق: تنحّوْا بنا عن هذا الموضع، فإن اتّبعَنا المهلّبُ قاتلناه، وإن أقام على عبد ربّه رأيتم فيه ما تحبُّون.

فقال له الصّلت بن مرة: يا أميرَ المؤمنين، إن كنت إنما تريد الله فأقْدِمْ على القوم، وإن كنت إنما تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا، ثم قال:

قُلْ للمحِلّين قد قَرّتْ عيونُكُمْ ... بفرقَةِ القوم والبغضاء والهَرَبِ
كنّا أناساً على دينٍ فغيّرَنَا ... طولُ الجِدَالِ وخَلْطُ الجِد باللعبِ
ما كان أغنى رجالاً قَلّ جيشُهم ... عن الجِدَالِ وأغناهم عن الخُطَبِ
إنّي لأهونُكم في الأرض مضطرَباً ... مالي سوى فرسِي والرُّمح من نَشَبِ(١)

ثم قال: أصبح المهلّب يرجو منّا ما كنا نطمع منه فيه.

وارتحل قَطريّ، وبلغ ذلك المهلّب، فقال لهُزَيم بن أبي طَحْمَة المجاشعيّ: إني لا آمن أن يكونَ كاذباً بترك موضعه، اذهب فتعرّف الخبَر، فمضى الهُزَيم في اثني عشر فارساً، فلم يَرَ في المعسْكر إلا عبداً وعِلْجاً مريضين، فسألهما عن قَطَرِيّ وأصحابه، فقالا: مضوْا يرتادون غير هذا المنزل، فرجع هُزيم إلى المهلّب، فأخبره، فارتحل حتى نزلَ خندق قطريّ، فجعل يقاتل عبدَ ربّه أحياناً بالغداة، وأحياناً بالعَشِيّ، فقال رجل من سَدُوس، يقال له المعتق، وكان فارساً:

ليت الحرائرَ بالعراق شَهِدْنَنَا ... ورأيننَا بالسّفح ذي الأجبالِ
فنكحن أهل الجِدّ من فرساننا ... والضاربين جَماجَم الأبطالِ

ووجّه المهلّب يزيدَ ابنَه إلى الحجاج يخبره بأنه قد نزل منزل قَطرِيّ، وأنه مقيم على عبد ربّه، ويسأله أن يوجّه في أثر قطرِيّ رجلاً جَلْداً. فسرّ بذلك الحجاج سروراً أظهره. ثم كتب إلى المهلّب يستحثّه لمناجزة القوم مع عبيد بن موهب:

أما بعد، فإنّك تتراخَى عن الحرب حتى تأتيَك رُسُلي فيرجعون بعذرِك، وذلك أنك تُمسِك حتى تَبرأ الجراح، وتُنْسي القتلى، وتحملَ الكالَ ثم تلْقاهم، فتحمل منهم ثِقَلَ ما يحتملون منك من وَحْشة القتل، وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجدّ لكان الداء قد حُسِم، والقَرْن قد

---

(١) النشب المال. اللسان، مادة (نشب).

قُصِم، ولعمري ما أنت والقوم سواء، لأنّ مِنْ ورائك رجالاً، وأمامك أموالاً، وليس للقوم إلا ما نعهد، ولا يُدْرَك الوجيفُ بالدبيب، ولا الظفر بالتعذير.

فلما ورد عليه الكتاب، قال لأصحابه: يا قوم إن الله قد أراحكم من أمور أربعة: قطريّ بن الفجاءة، وصالح بن مخراق، وعبيدة بن هلال، وسعد بن الطلائع، وإنما بين أيديكم عبد ربّه الصغير في خُشار[1] من خُشار الشيطان، تقتلونهم إن شاء الله تعالى.

فكانوا يتغَادوْن القتال ويتراوحون، فتصيبهم الجِراح، ثم يتحاجزون، فكأنما انصرفوا عن مجلس كانوا يتحدّثون فيه، يضحك بعضهم إلى بعض، فقال عبيد بن موهب للمهلّب: قد بان عذرُك، فاكتب فإني مخبرٌ الأمير.

فكتب إلى الحجّاج:

أما بعد، فإني لم أعطِ رُسُلَك على قول الحقّ أجراً، ولم أحتجْ منهم عن المشاهدة إلى تلقينٍ. ذكَرتَ أني أجِمُّ القوم، ولا بدّ من وقت راحةٍ يستريح فيه الغالب، ويحتالُ فيه المغلوب، وذكرت أنّ في الجِمام ما ينسى القتلى، وتبرأ منه الجراح، وهيهات أن يُنْسَى ما بيننا وبينهم! تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ، وقُروح لم تتقرّف، ونحن والقوم على حالة، وهم يرقبون مِنّا حالاتٍ، إن طمعوا حاربوا، وإن مَلُّوا وقفوا، وإن يئسوا انصرفوا. وعلينا أن نقاتلَهم إذا قاتلوا، ونتحرّز إذا وقفوا، ونطلب إذا هربوا، فإن تركتَني والرأي، كان القَرْنُ مقصوماً والداءُ بإذن الله محسوماً، وإن أعجلتَني لم أبغكَ ولم أعصِك، وجعلتُ وجْهي إلى بابك وأعوذُ بالله من سَخَطِ الله ومَقْتِ الناس.

قال: ولما اشتدّ الحصار على عَبْد ربّه، قال لأصحابه: لا تفتقِروا إلى مَنْ ذهب عنكم من الرجال، فإنّ المسلم لا يفتقر مع الإسلام إلى غيره، والمسلم إذا صحّ توحيدُه عَزّ بربّه وقد أراحكم الله من غِلْظة قطَرِيْ، وعجلة صالح بن مخراق ونخوته، واختلاط عبيدة بن هلال، ووكَلَكم إلى بصائركم، فالقَوْا عدوّكم بصبر ونيّة، وانتقِلوا عن منزلكم هذا، فمن قُتل منكم قتل شهيداً، ومن سَلِم من القتل فهو المحروم.

قال: وورد في ذلك الوقت على المهلّب عبيدُ بن أبي رَبيعة بن أبي الصَّلت الثَّقَفِيّ من عند الحجاج، يستحثُّه بالقتال، ومعه أمينان، فقال للمهلّب: خالفتَ وصيّة الأمير، وآثرت المدَافعة والمطاولة. فقال له المهلّب: والله ما تركتُ جهداً.

فلما كان العشيّ خرجت الأزارقة، وقد حملوا حريمهم وأموالهم، وخِفَّ متاعِهم لينتقلوا،

(١) خشارة الناس سفلتهم. اللسان، مادة (خشر).

فقال المهلّب لأصحابه: الزموا مَصافّكم، وأشرِعوا رماحكم، ودعوهم والذّهاب فقال له عُبَيْدة بن أبي ربيعة: هذا لعمري أيسر عليك، فغضب وقال للناس: ردُّوهم عن وجههم، وقال لبنيه: تفرقوا في الناس، وقال لعبيدة بن أبي ربيعة: كُنْ مع يزيد، فخذه بالمحاربةِ أشدّ الأخذ، وقال لأحد الأمينيْن: كن مع المغيرة، ولا تُرَخّصْ له في الفُتور.

فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى عُقرت الخيل، وصُرِع الفرسان، وقُتِلت الرَّجّالة، وجعلت الخوارج تقاتل عن القَدَح يؤخذ منها، والسَّوْط والعَلَف والحشيش أشدّ قتال.

وسقط رمحٌ لرجل من مُراد، من الخوارج، فقاتلوا عليه حتى كَثُر الجراح والقتل، وذلك مع المغرِبِ، والمراديّ يرتجز، ويقول:

اللَّيلُ لَيلٌ فيهِ وَيْلٌ وَيْلُ ... قَدْ سَالَ بالقومِ الشُّراةِ السَّيْلُ

إن جازَ للأعداءِ فينَا قَوْلُ

فلما عظُم الخطب في ذلك الرمح بعث المهلّب إلى المغيرة: خَلِّ لهم عن الرمح، عليهم لعنة الله! فخلّوا لهم عنه، ومضت الخوارج، فنزلت على أربعة فراسخ من جِيرَفْت، فدخلها المهلّب، وأمر بجمع ما كان لهم من متاع، وما خلّفوه من دقيق، وجَثَم عليه هو والثقفيّ والأمينان، ثم اتبعهم فوجدهم قد نزلُوا على ماء وعين لا يشرب منها أحد إلا قويّ يأتي الرجل بالدلو قد شَدَّها في طرف رمحه فيستقي بها، وهناك قرية فيها أهلُها، فغاداهم القتال، وضمّ الثقفيَّ إلى ابنه يزيد، وأحدَ الأمينين إلى المغيرة، فاقتتل القوم إلى نصف النهار.

وقال المهلّب لأبي علقمة العبديّ - وكان شجاعاً، وكان عاتياً هازلاً -: أمددنا يا أبا علقمة بخيل اليَحْمَد، وقل لهم: فليعيرُونا جماجمهم ساعة، فقال: أيُّها الأمير، إن جماجِمهم ليست بفخّار فتُعار، ولا أعناقُهم كَرَادِيَ[1] فتنبت.

وقال لحبيب بن أوس: كُرّ على القوم، فلم يفعل، وقال:

يقولُ ليَ الأميرُ بغيرِ علمٍ ... تَقَدَّمْ حين جَدَّ به المِرَاسُ

فمالي إن أطعتُك منْ حياةٍ ... ومالِيَ غيرَ هذا الرأس رَاسُ

وقال لمَعن بن المغيرة بن أبي صُفْرة: احمِلْ، فقال: لا، إلّا أنْ تزوِّجَني ابنتك أمّ مالك، فقال: قد زوّجتُك، فحمل على الخوارج فكشفهم، وطعن فيهم، وقال:

لَيْتَ مَنْ يَشتري الحياة بمالٍ ... مَلَكَةُ كان عندنا فَيَرانا

نَصِلُ الكَرَّ عند ذاكَ بطعنٍ ... إنّ للموتِ عندنا ألوانا

(١) الكرد: هو أصل العنق. اللسان، مادة (كرد).

قوله: «مَلْكَةً»، أي تزويجاً ونكاحاً.

قال: ثم جال الناس جولةً عند حَمْلةٍ حَمَلَها عليهم الخوارج، فالتفت المهلّب، فقال للمغيرة ابنه: ما فعل الأمينُ الذي كان معك؟ قال: قُتِل وهرب الثقفيّ، فقال ليزيد: ما فعل عُبيد بن أبي ربيعة؟ قال: لم أره منذ كانت الجوْلة، فقال الأمين الآخر للمغيرة: أنت قتلتَ صاحبي، فلما كان العشيّ رجع الثقفيّ، فقال رجل من بني عامر بن صعصعة:

مـا زلـتَ يـا ثَـقَـفِـيّ تـخـطُـبُ بـيـنـنـا ... وتُـغـمُّـنَـا بـوَصـيّـةِ الـحـجّـاجِ
حـتـى إذا مـا الـمـوتُ أقـبـل زَاخِـراً ... وَسَـقَـى لَـنَـا صِـرْفـاً بـغـيـرِ مِـزاجِ
وَلَّـيْـتَ يـا ثـقـفـيُّ غَـيْـر مـنـاظِـرٍ ... تـنـسـاب بـيـن أجِـزَّةٍ وفـجَـاجِ
لـيـست مـقـارعـةُ الـكُـمـاة لَـدَى الـوغـى ... شُـرْبَ الـمُـدامـة فـي إنـاء زُجـاج

فقال المهلّب للأمين الآخر: ينبغي أن تتوجّه مع ابني حبيب في ألف رجل، حتى تبيِّتُوا عسكرهم، فقال: ما تريد أيها الأمير إلّا أن تقتلَني كما فعلت بصاحبي! فضحك المهلّب وقال: ذاك إليك. ولم يكن للقوم خنادق، فكان كلٌّ حذِراً من صاحبه، غير أنّ الطعام والعُدّة مع المهلّب، وهو في زُهاء ثلاثين ألفاً، فلما أصبح أشرف على وادٍ فإذا هو برجلٍ معه رمح مكسور مخضوب بالدم، وهو ينشد:

وإنـي لأُغـفِـي ذَا الـخِـمـار وصـنـعـتِـي ... إذا راحَ أطـواءَ بـنـيّ الأصـاغـرُ
أُخَـادِعُـهُـمَ عـنـه لِـيَـغْـبُـقَ[1] دُونَـهُـمْ ... وأعْـلَـمُ غـيـر الـظّـنّ إنـي مـغـاوِرُ
كـأنّـي وأبـدانَ الـسُّـلَاح عـشـيّـة ... يـمـرّ بـنـا فـي بَـطـنِ فَـيْـحَـانَ طـائـرُ

فقال له: أتميميٌّ أنت؟ قال: نعم، قال: أحنظليّ؟ قال: نعم، قال: أيربوعيّ؟ قال: نعم، قال: أمِنْ آل نُويرة؟ قال، نعم، أنا ولد مالك بن نويرة، قال: قد عرفتك بالشِّعر.

قال أبو العباس: وذُو الخمار فرس مالك بن نويرة.

قال: فمكثوا أياماً يتحاربون ودوابُّهم مسرَجة، ولا خنادقَ لهم، حتى ضَعُف الفريقان فلما كان الليلةُ التي قُتِل في صبيحتها عَبْد رَبِّه، جمع أصحابه، فقال: يا معشرَ المهاجرين، إن قَطَرِيًّا وعبيدةَ هربا طلباً للبقاء، ولا سبيلَ إلى البقاء، فالقَوْا عَدُوّكم غداً، فإن غلبوكم على الحياة، فلا يغلِبُنّكم على الموت، فتَلَقَّوُا الرّماح بنحوركم، والسيوف بوجوهكم، وهَبُوا أنفسكم لله في الدنيا يهبْها لكم في الآخرة.

فلما أصبحوا، غَادَوُا المهلَّب، فاقتتلوا قتالاً شديداً أنسى ما كان قَبْلَه، وقال رجل من

---

(١) الغبق: هو شرب العشي. اللسان، مادة (غبق).

الأزد، من أصحاب المهلّب: مَنْ يُبَايِعُني على الموت؟ فبايعه أربعون رجلاً من الأزْد، فصُرع بعضهم، وقتِل بعضهم، وجرح بعضهم.

وقال عبد الله بن رزام الحارثيّ للمهلب: احمِلوا، فقال المهلّب: أعرابيّ مجنون - وكان من أهْلِ نَجْران - فحمل وحْده، فاخترق القوم حتى خرج من ناحية أخرى، ثم كرّ ثانية ففعل فَعْلَته الأولى، وتهايج الناس، فترجّلت الخوارج، وعَقَروا دوابَّهم، فناداهم عمرو القَنَا - ولم يترجّل هو ولا أصحابه، وهم زهاء أربعمائة - فقال: موتوا على ظهور دوابّكم كراماً، ولا تعقِروها، فقالوا: إنّا إذا كُنّا على الدواب ذكرنا الفِرار، فاقتتلوا، ونادى المهلّب بأصحابه: الأرضَ الأرضَ! وقال لبنيه: تفرَّقوا في الناس ليروْا وجوهكم، ونادت الخوارج: ألا إنّ العيال لمنْ غَلَب، فصبَر بنو المهلّب، وقاتل يزيد بين يدي أبيه قتالاً شديداً، أبْلَى فيه، فقال له أبوه، يا بنيّ، إني أرى موطناً لا ينجُو فيه إلا مَنْ صَبَر، وما مَرّ بي يوم مثلُ هذا منذ مارستُ الحروب.

وكسرت الخوارجُ أجفانَ سيوفها، وتجاوَلُوا، فأجلت جَوْلتُهم عن عبد ربّه مقتولاً. فهرب عمرو القنا وأصحابُه، واستأمن قوم، وأجْلَت الحرب عن أربعة آلاف قتيل وجريح من الخوارج ومأسور، وأمرَ المهلّب أن يُدفَع كلُّ جريح إلى عشيرته، وظفِرَ بعسكرهم، فحوى ما فيه، ثم انصرف إلى جِيرَفْت، فقال: الحمد لله الّذي رَدَّنا إلى الخفضِ والدَّعة، فما كان عيشنا ذلك العيش.

ثم نظر المهلّب إلى قوم في عسكرِه ولم يعرفهم، فقال: ما أشدّ عادة السلاح! ناولْني دِرْعي، فلبِسها ثم قال: خذوا هؤلاء، فلما صيَّرهم إليه، قال: ما أنتم؟ قالوا: جئنا لنطلب غِرَّتك للفتك بك. فأمر بهم فقتلوا.

ووجه كعب بن مَعدان الأشقريّ ومرة بن بليد الأزديّ، فوردا على الحجاج، فلما طلعا عليه، تقدم كعب فأنشده:

يَـا حَـفْـصُ إنّـي عَـدانِـي عـنـكـم الـسّـفـرُ

فقال الحجاح: أشاعر أم خطيب؟ قال: شاعر، فأنشده القصيدة، فأقبل عليه الحجاج وقال: خبِّرني عن بني المهلّب، قال: المغيرة سيدُهم وفارسهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً! وجوادُهم وسَخيُّهم قَبيصة، ولا يستحِي الشجاعُ أنْ يفِرُّ من مُدْرِك، وعبدُ الملك سمّ ناقع وحَبيب مَوت ذُعاف، ومحمد ليثُ غاب، وكفاك بالفضل نَجْدة! فقال له: فكيف خلّفتَ جماعة الناس؟ قال: خلّفتهم بخير، قد أدركوا ما أمّلوا، وأمِنوا ما خافوا، قال: فكيف كان بنو المهلّب فيهم؟ قال: كانوا حُمَاة السَّرح فإذا أليلوا ففُرسان البَيات، قال: فأيُّهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحَلْقة المفرّغة، لا يُدرَي أين طرفاها، قال: فكيف كنتم أنتم وعدوّكم؟ قال: كنا إذا أخذْنا عفوْنا وإذا أخذوا يئسنا منهم، وإذا اجتهدنا واجتهدوا طمَعنا فيهم. قال الحجاج: إنّ

العاقبة للمتقين، فكيف أفلتكم قَطَرِي؟ قال: كدناه وظنّ أن قد كادنا، بأن صِرْنا منه إلى التي نحبّ. قال: فهلا اتبعتموه؟ قال: كان حربُ الحاضر آثرَ عندنا من اتباع الفَلّ، قال: فكيفَ كان المهلّب لكم وكنتم له؟ قال: كانَ لنا منه شفقةُ الوالد، وله منّا برّ الولد، قال: فكيف كان اغتباطُ الناس به؟ قال: نشأ فيهم الأمن، وشَمِلهم النَّفَل، قال: أكنت أعددت لي هذا الجواب؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: هكذا والله تكون الرجال! المهلب كان أعلَم بذلك حيث بعثَك.

هذه رواية أبي العباس.

وروى أبو الفرج في الأغاني أنّ كعباً لما أوفده المهلّب إلى الحجاج أنشده قصيدته التي أولها:

يَا حَفْصُ إني عَدَاني عَنْكُمُ السَّفَرُ ... وقد سهرتُ وآذى عينيَ السَّهَرُ

يذكر فيها حروبَ المهلّب مع الخوارج، ويصف وقائعه فيهم في بلد، وهي طويلة، ومن جملتها:

كنا نهوّن قبل اليوم شأنَهمُ ... حتى تفاقم أمر كان يُحْتَقَرُ

لَمّا وَهَنّا وَقَدْ حَلُّوا بساحَتِنا ... واستنفرَ الناسُ تاراتٍ فما نَفَرُوا

نَادَى امرؤٌ لا خلافٌ في عشيرته ... عَنْه، وَلَيْسَ بِهِ عن مثله قِصَرُ

خَبُّوا كمينَهُمُ بالسَّفْح إذْ نزلوا ... بكازَرُون فما عَزُّوا ولا نَصَرُوا

باتَتْ كتائِبنا تَرْدِي مُسوَّمَةً ... حَوْلَ المهلّب حتى نَوّر القمرُ

هُنَاكَ وَلّوْا خَزَايا بَعْدَ ما هُزِمُوا ... وحال دونهمُ الأنهار والجُدُرُ

تأبى علينا حزازاتُ النُّفوس فما ... نُبْقي عَلَيْهِمْ ولا يُبْقُونَ إن قَدَرُوا

فضحك الحجاج، وقال: إنّك لمنصِف يا كعب، ثم قال له: كيف كانتْ حالكم مع عدوّكم؟ قال: كنّا إذا لقِيناهم بعفوِنا وعفْوهم يئسنا منهم، وإذا لقيناهم بجِدّنا وجِدّهم طمِعْنا فيهم. قال: فكيف كان بنو المهلّب؟ قال: حماة الحرِيم نهاراً، وفُرسان الليل تيقظاً، قال: فأين السَّماع من العيان؟ قال: السماع دون العيان، قال: صفْهم لي رجلاً رجلاً. قال: المغيرة فارسهم وسيِّدهم، نار ذاكية، وصَعَدَة عالية. وكفى بيزيدَ فارساً شجاعاً! ليثُ غاب، وبحرٌ جَمّ العُباب. وجوادهم قَبيصة، ليث المَغار، وحامي الذِّمار، ولا يستحي الشجاع أن يفرّ من مُدرِك، وكيف لا يفرّ من مدرك، وكيف لا يفرّ من الموت الحاضر، والأسد الخادِر! وعبد الملك سَمّ ناقع، وسيف قاطع، وحبيب الموت الذّعاف، طود شامخ، وبحر باذخ، وأبو عيينة البطل الهمام، والسيف الحسام وكفاك بالمفضّل نَجْدة، ليثٌ هَدّار وبحر مَوّار! ومحمد ليث

غاب، وحُسام ضِراب. قال: فأيّهم أفضل؟ قال: هم كالحلقة المفرّغة لا يعرف طرفاها، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: لي أحسنِ حال، أرضاهم العدلُ، وأعناهم النَفَل. قال: فكيف رضاهم بالمهلّب؟ قال: أحسن رضا، لا يعدمون منه إشفاق الوالد، ولا يعدم منهم برّ الولد. وذكر تمام الحديث.

وقال: إن الحجاج أمرر له بعشرين ألف درهم، وحمله على فَرَس، وأوفده على عبد الملك، فأمر له بعشرين ألفاً أخرى.

قال أبو الفرج: وكعب الأشقريّ من شعراء المهلّب ومادحيه، وهو شاعر مجيد. قال عبد الملك بن مروان للشعراء: تُشبّهونني مرةً بالأسد، ومرة بالبازي، ألا قلتم كما قال كعب الأشقري للمهلب وولده:

بَرَاكَ اللّهُ حِينَ بَرَاكَ بَحْراً ... وَفَجَّرَ مِنْكَ أنهاراً غِزَارا
بَنُوكَ السابِقونَ إلى المعالي ... إذا ما أعظَمَ النَّاسُ الخِطَارا
كأنهمُ نجومٌ حَوْلَ بَدْرٍ ... تكمَّل إذا تكمَّل فاستدارا
مُلوكٌ ينزِلُون بكُلِّ ثَغرٍ ... إذا ما الهامُ يَوْمَ الرَّوْعِ طارا
رِزَانٌ في الخطوب تَرَى عليهم ... من الشَّيْخ الشمائل والنِّجَارا
نجومٌ يُهتدَى بهمُ إذا ما ... أخُو الغَمَرات في الظلماء حارا

قال أبو الفرح، وهذا الشعر من قصيدة لكعب، يمدح بها المهلّب، ويذكر الخوارج ومنها:

سَلُوا أهلَ الأباطحِ مِنْ قُرَيْشٍ ... عن المجدِ المؤثّلِ أيْنَ صَارَا
لَقَوْمُ الأزْدِ في الغمرات أمضَى ... وأوفى ذمَّةً وأعزّ جارا
هُمُ قادُوا الجياد عَلَى وجاها ... من الأمصار يقذفن المِهارا
إلَى كِرْمَانَ يَحْمِلْنَ الْمَنايَا ... بكُلِّ ثَنِيَّةٍ يُوقِدْنَ نَارَا
شَوازب ما أصبنا الثار حتى ... رددها مكلّمةً مرارا
غَدَاة تركْنَ مَصْرَعَ عَبْدِ رَبٍّ ... نَثَرْنَ عليه مِنْ رَهجٍ غُبارا
ويوم الزّحْفِ بالأهوازِ ظلْنا ... نُرَوِّي منهمُ الأسَلَ الحِرَارا[1]
فقرّت أعينٌ كانت حَزِيناً ... قليلاً نومُها إلا غِرارا
ولولا الشيخُ بالمِصْرَينِ يَنْفِي ... عدوّهُمُ قد نزلُوا الدِّيارا
ولكنْ قارعَ الأبطال حتَّى ... أصابوا الأمْنَ واحتَلّوا القَرَارا

(١) الأسل: الرماح. اللسان، مادة (أسل).

إذا وَهَنُوا وحَلَّ بهم عَظِيمٌ ... يَدُقّ العظمَ كانَ لهم جُبَارا
وَمُبْهَمةٍ يحيدُ الناسُ عنها ... تَشُبّ الموت شدّ لها إزارا
شهابٌ تنجلي الظلماء عنه ... يَرَى في كلّ مُظْلِمَةٍ منارا
براكَ الله حينَ بَرَاكَ بَحْراً ... وفجّر منك أنهاراً غِزارا

الأبيات المتقدمة.

قال أبو الفرج: وحدّثني محمد بن خلف وكيع، بإسناد ذكره، أنّ الحجّاجَ لما كتب إلى المهلّب يأمُره بمناجزة الخوارج حينئذٍ، ويستبطئه، ويضعّفه ويعجِّزه من تأخيره أمرهم ومطاولته لهم، قال المهلّب لرسوله قل له: إنما البلاء أن يكون الأمر لمن يملكه، لا لمن يعرفه، فإن كنتَ نصبتَني لحربَ هؤلاء القوم - على أن أدبّرها كما أرى، فإذا أمكنتْني فرصة انتهزتها، وإن لم تمكّنّي توقفت - فأنا أدبّر ذلك بما يصلحه، وإن أردت أن أعملَ برأيك وأنا حاضر وأنت غائب - فإن كانَ صواباً فلك، وإن كان خطأ فعليّ - فابعثْ مَنْ رأيتَ مكاني، وكتب من فَوْرِه بذلك إلى عبد الملك، فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج: لا تعارض المهلّب فيما يراه، ولا تُعجله ودَعْه يدبّر أمره.

قال: وقام كعب الأشقريّ إلى المهلب، فأنشده بحضرة رسول الحجاج:

إنّ ابنَ يوسفَ غَرّه من أمرِكُمْ ... خَفْضُ المُقام بجانب الأمصارِ
لو شهدَ الصَّفَّيْن حيثُ تلاقَيَا ... ضاقتْ عليه رَحِيبَةُ الأقطار
من أرض سابورِ الجنود وخيلُنا ... مثلُ القداح بَرَيْتَهَا بشِفارِ
من كلّ صنديدٍ يُرى بلَبانِه[1] ... وَقْعُ الظُّباة مع القَنا الخَطّار
لَرَأى مُعاوَدَة الرِّباعِ غَنِيمةً ... أزمانَ كان محالفَ الإقتار
فدع الحروب لشِيبها وشبّابها ... وعليك كلّ غريرةٍ مِعْطار

فبلغت أبياتُه الحجاج، فكتب إلى المهلّب يأمره بإشخاص كعبِ الأشقريّ إليه، فأعلم المهلّب كعباً بذلك، وأوفده إلى عبد الملك من ليلته، وكتب إليه يستوهبُهُ منه، فقدم كعب على عبد الملك برسالة المهلّب، فاستنطقه فأعجبه، وأوفدَه إلى الحجاج، وكتب إليه يُقسم عليه أن يصفحَ، ويعفو عمّا بَلَغَه من شعره، فلما دخلَ قال: إيه يا كعب!

لَرأي مُعَاوَدَة الرِّبَاع غنيمة

فقال: أيها الأمير، لوددْتُ في بعض ما شاهدتُه من تلك الحروب، وما أورَدَناه المهلّب من

---

(١) اللبان: الصدر وقيل: وسطه وقيل: ما بين الثديين، اللسان، مادة (لبن).

خطرها، أنْ أنجُوَ منها وأكون حجّاماً أو حائكاً، قال: أولَى لك! لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نفعك ما تقول، الحَقْ بصاحبك، وردّه إلى المهلب.

قال أبو العباس: وكان كتاب المهلّب إلى الحجاج، الذي بشره فيه بالظفر والنصر:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الكافي بالإسلام فَقْدَ ما سواه، الحاكم بألّا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطعَ الشكر من عباده، أما بعد:

فقد كان من أمرنا ما قد بلَغك، وكُنّا نحنُ وعدُونا على حالَين مختلفَين، يسرّنا منهم أكثر مما يسوءنا، ويسوءهم مِنّا أكثر مما يسرّهم، على اشتداد شوكتهم، فقد كان عَلا أمرُهم حتى ارتاعت له الفتاة، ونُوّم به الرضيع، فانتهزتُ الفرصة منهم في وقت إمكانها، وأدنيتُ السّواد من السواد، حتى تعارفت الوجوه، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجلَه، فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

فكتب إليه الحجاج:

أمّا بعد، فقد فعل الله بالمسلمين خَيْراً، وأراحهم من بأسِ الجلاد، وثِقَلِ الجهاد، ولقد كنت أعلم بما قِبَلك، فالحمدُ لله رب العالمين، فإذا وَرَدَ عليك فاقْسِم في المجاهدين فيْهم وَنَفِّل الناس على قدر بلائهم، وفَضّل مَن رأيت تفضيلَه، وإن كانت بقيَت من القوم بقية فخلِّف خيلاً تقوم بإزائهم، واستعمِلْ على كِرمان مَنْ رأيت، وَولّ الخيل شَهْماً من ولدك، ولا ترخّص لأحدٍ في اللحاق بمنزلة دون أن تَقْدُم بهم عليّ، وعجّل القدوم إن شاء الله.

فولّى المهلب يزيد ابنه كرْمان، وقال له: يا بنيّ، إنّك اليومَ لست كما كنت، إنما لك من كرْمان ما فَضَل عن الحجّاج، ولن تحتمل إلا عَلَى ما احتمل عليه أبوك، فأحْسِنْ إلى مَنْ تبعك، وإن أنكرتَ من إنسان شيئاً فوجّه إليّ، وتفضّل على قومك، إن شاء الله.

ثم قدم المهلب على الحجاج، فأجلَسه إلى جانبه، وأظهر بِرّه وإكرامه، وقال: يا أهل العراق، أنتم عَبيدُ قِنٌّ للمهلب، ثم قال: أنت والله كما لقيط:

فَقَلِّدُوا أمْرَكُمْ لله دَرُّكُمُ ... رَحْب الذّراع بأمْرِ الحرْب مُضْطَلِعا

لا يطعَم النومَ إلا رَيْثَ[1] يبعثُه ... هَمٌّ يكاد حشاه يَقْصِمُ الضّلعا

لا مترَفاً إن رخاءُ العيش ساعَدَهُ ... ولا إذا عضّ مكروهٌ بهِ خَشَعَا

ما زال يحلب هذا الدّهرَ أشْطُرَهُ ... يكون متَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا

(١) الريث: الإبطاء. اللسان، مادة (ريث).

حَتى استمرّتْ عَلَى شَررٍ مَريرَتُه   مستحكم الرَّأي لا قَحماً وَلَا ضَرَعاً

وروى أنه قام إليه رجل فقال: أصلح الله الأمير! والله لكأني أسمع الساعة قَطَريًّا وهو يقول لأصحابه: المهلب والله كما قال لقيط الإياديّ، ثم أنشد هذا الشعر. فسُرّ الحجاج حتى امتلأ سروراً، فقال المهلب: أما والله ما كُنّا أشدّ من عدوّنا ولا أحَدّ، ولكن دَمَغَ الحقّ الباطل وقهرتِ الجماعة الفتنة، والعاقبة للمتقين، وكان ما كرهْنَاه من المطاولة خَيراً لنا مما أحببناه من المعاجلة.

فقال الحجاج: صدقت، اذْكر لي القوم الّذين أبْلَوْا، وصف لي بلاءهم، فأمر الناس فكتبوا ذلك إلى الحجاج، فقال لهم المهلب: ما ذَخَرَ الله لكم خيرٌ لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله، فذكرهم المهلب على مراتبهم في البلاء، وتفاضلهم في الغَنَاء، وقدّم بنيه: المغيرة ويزيد، ومدركاً، وحبيباً، وقَبيصة، والمفضّل، وعبد الملك، ومحمداً، وقال: والله لو واحد يقدمُهم في البلاء لقدَّمتهُ عليهم، ولولا أنْ أظلِمهم لأخرّتُهم. فقال الحجاج: صدقت، وما أنت أعلم بهم مني، وإن حضرتَ وغبتُ إنهم لسيوفٌ من سيوف الله. ثم ذكر مَعن بن المغيرة والرّقاد وأشباههما.

فقال الحجاج: مَن الرُّقاد؟ فدخل رجل طويل أجْنأ[1]، فقال المهلب: هذا فارس العرب فقال الرُّقاد للحجاج: أيها الأمير، إني كنت أقاتِل مَعَ غير المهلب فكنت كبعض الناس، فلما صرتُ مع مَنْ يُلزِمني الصبر، ويجعلني أسوةَ نفسه وولدِه، ويجازيني على البلاء، صرت أنا وأصحابي فُرساناً.

فأمر الحجّاج بتفضيل قوم على قوم على قدرِ بلائهم، وزاد ولد المهلّب ألفيْن ألفيْن، وفعل بالرُّقاد وبجماعة شبيهاً بذلك.

وقال يزيد بن حَبْنَاءَ من الأزارقة:

دَعِي اللَّوْمَ إنَّ الْعَيْشَ ليس بدائِم   ولا تعجلي باللَّوْم يا أمّ عاصِم
فإنْ عَجِلتْ منك الملامةُ فاسمعِي   مقالةَ مَغْنِيٍّ بحقِّكِ عَالِم
ولا تعذُلينا في الهَدِيّة إنما   تكونُ الهدايا من فُضُول المغانم
وليس بمُهْدٍ مَنْ يكون نهارُهُ   جِلاداً، ويُمسي ليلُه غيرَ نائم
يُريد ثوابَ الله يوماً بطعْنَةٍ   غَمُوسٍ كشِدْقِ العنبريّ ابن سالِم
أبِيتُ وَسِرْبَالي دِلَاصٌ[2] حَصِينَةٌ   وَمَغْفِرُها، والسَّيْفُ فوقَ الحيازِمِ

---

(١) الأجنأ: الذي في كاهله الخناء على صدره. اللسان. مادة (جنأ).
(٢) دلاص اللين البرّاق الأملس. مادة (دلص).

حلفتُ بربِّ الواقفين عشيَّةً ... لدى عَرَفاتٍ حَلْفَةً غيرَ آثِمِ
لقد كانَ في القوم الذين لقيتُهُمْ ... بِسَابُورَ شغلٌ عن بُزوز اللَّطائِمِ
تَوَقّدُ في أيديهُمُ زاعِبيَّةٌ ... وَمُرْهَفَةٌ تَفْرِي شُؤون الجماجِمِ

وقال المغيرة الحنظليّ من أصحاب المهلّب:

إنّي امرؤٌ كفَّني ربّي وأكرمني ... عن الأمور التي في غِبِّها وَخَمُ
وإنما أنا إنسانٌ أعيشُ كما ... عاشتْ رجالٌ وعاشت قبلها أُمَمُ
مَا عَاقَني عَنْ قُفولِ الجُنْدِ إذا قَفَلُوا ... عِيٌّ بما صَنَعُوا حولِي وَلَا صممُ
وَلَوْ أردتُ قُفولاً ما تَجهّمَني ... إذنُ الأميرِ ولا الكُتّابُ إذ رَقَمُوا
إنّ المهلّب إن أشتقْ لرؤيتِهِ ... أو أمتدحْهُ فإن الناس قد عَلِمُوا
أنّهُ الأريبُ الذي تُرْجَى نوافلُهُ ... والمستنيرُ الّذِي تُجلَى به الظُّلَمُ
والقائلُ الفاعلُ الميمونُ طائره ... أبو سعيدٍ إذا ما عُدَّتِ النِّعَمُ
أزمان كَرْمان إذ غصّ الحديدُ بهم ... وإذ تَمَنّيَّ رجالٌ أنّهُمْ هُزِموا

وقال حبيب بن عوف من قواد المهلّب:

أبا سعيدٍ جَزَاك اللّهُ صالحةً ... فَقَدْ كَفَيْتَ وَلَمْ تَعْنُفْ على أحَدِ
داويتَ بالحلمِ أهل الجَهْلِ فانْقَمَعُوا ... وكنتَ كالوالدِ الحانِي على الوَلَدِ

وقال عبيدة بن هلال الخارجيّ يذكر رجلاً من أصحابه:

يَهْوِي فترفعُه الرِّمَاحُ كأنّه ... شِلْوٌ تَنَشَّبَ في مخالِبِ ضَارِ
يَهْوِي صريعاً والرِّماح تَنُوشه ... إن الشُّراةَ قصيرة الأعمارِ

ومنهم شبيب بن يزيد الشيبانيّ، وكان في ابتداء أمره يصحب صالح بن مسرّح، أحد الخوارج الصُّفْرية، وكان ناسكاً مصفرّ الوجه، صاحب عبادة، وله أصحاب يقرئهم القرآن ويفقّههم ويقصّ عليهم، ويقدَم الكوفة، فيقيم بها الشهرَ والشهرين. وكان بأرض الموصل الجزيرة، وكان إذا فَرَغ من التّحميد والصلاة على النبي ﷺ، ذكر أبا بكر فأثنى عليه، وثنّى عُمَر، ثم ذكر عثمان وما كان من أحداثه، ثم علياً عليه السلام وتحكيمَه الرجالَ في دين الله، ويتبرّأ من عثمان وعليّ، ثم يدعو إلى مجاهدة أئمة الضلال، وقال: تيسّرُوا يا إخواني من دَار الفناء إلى دار البقاء، واللّحاق بإخواننا المؤمنين، الذين باعُوا الدنيا بالآخرة ولا تجزَعُوا من القتل في الله، فإنّ القتلَ أيسرُ من الموت، والموت نازل بكم، مفرّق بينكم وبين آبائكم وإخوانكم،

وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدّ لذلك جزعُكم، ألا فبيعوا أنفسكم طائعين وأموالكم، تدخلوا الجنة. . . وأشباه هذا من الكلام.

وكان فيمن يحضرُه من أهل الكوفة سُوَيد والبَطِين، فقال يوماً لأصحابه: ماذا تنتظرون؟ ما يَزيد أئمةُ الجوْر إلا عتوًا وعلوًا، وتباعداً من الحق، وجراءةً على الرّبّ، فراسِلوا إخوانكم حتى يأتوكم، وننظر في أمورنا ما نحن صانعون. وأيّ وقت إن خرجنا نحن خارجون. فبينا هو كذلك إذ أتاه المحلّل بن وائل بكتاب من شبيب بن يزيد، وقد كتب إلى صالح:

أما بعد، فقد أردت الشخوص، وقد كنتَ دعوْتني إلى أمرٍ أستجيب لك، فإن كان ذلك من شأنك، فإنّك شيخ المسلمين، ولم يعدلْ بك منّا أحد، وإن أردت تأخير ذلك أعلمني، فإن الآجال غادية ورائحة، ولا آمنُ أن تخترِمَني المنية، ولمّا أجاهد الظالمين، فيا له غبناً ويا له فضلاً! ، جعلنا الله وإياكم ممن يريد الله بعلمه ورضوانه والنظر إلى وجهه ومرافقة الصالحين في دار السلام. والسلام عليك.

فأجابه صالح بجواب جميل، يقول فيه: إنه لم يمنعني من الخروج - مَعَ ما أنا فيه من الاستعداد - إلا انتظارك، فاقْدَم علينا، ثم اخرج بنا، فإنك ممّن لا تقضى الأمور دونَه، والسلام عليك. فلما ورد كتابُه على شَبِيب، دعا القرّاء من أصحابه، فجمعهم إليه، منهم أخوه مصاد بن يزيد، والمحَلّل بن وائل، والصقر بن حاتم، وإبراهيم بن حجر وجماعة مثلهم، ثم خرج حتى قَدِم على صالح بن مسرّح، وهو بداراتِ أرض الموصل فبثّ صالح رسله، وواعدهم بالخروج، في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ست وتسعين.

فاجتمع بعضهم إلى بعض، واجتمعوا عنده تلك الليلة، فحدّث فَرْوَة بن لَقِيط، قال: إني لمعهم تلك الليلة عند صالح، وكان رأيي استعراض الناس، لِمَا رأيتُ من المكر والفساد في الأرض، فقمت إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، كيف تَرَى السِّيرَة في هؤلاء الظلمة، أنقتلهم قبل الدعاء، أم ندعوهم قبل القتال؟ فإنّي أخبرُك برأيي فيهم قبل أن تخبرني بذلك، إنا نخرج على قوم طاغِين، قد تركوا أمر الله، أو راضين بذلك، فأرى أن نضعَ السيف، فقال: لا، بل ندعوهم، ولعمري لا يجيبُك إلا مَنْ يرى رأيَك، وليقاتلنّك مَنْ يُزْرِي عليك، والدعاء أقْطَعُ لحجّتهم، وأبلغ في الحجّة عليهم لك. فقلت: وكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به؟ وما تقول في دمائهم وأموالهم؟ فقال: إن قتلنا وغنمنا فلَنا وإن تجاوزْنا وعفونا فموسّع علينا. ثم قال صالح لأصحابه ليلته تلك: اتّقُوا اللّهَ عبادَ الله، ولا تعجَلُوا إلى قِتَالِ أحدٍ من الناس، إلّا أن يكونوا قوماً يريدونكم وينصبون لكم، فإنكم إنما خَرَجْتُمْ غَضَباً لله حيث انتُهِكَتْ محارمُه، وعُصِيَ في الأرْض، وسُفِكَت الدماء بغيرَ حَقّها، وأخذت الأموال غَصْباً، فلا تَعيبُوا على قوم أعمالاً ثم تعملونها، فإن كلّ ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون، وإن عظمكم رجالة، وهذه دوابّ

لمحمد بن مروان في هذا الرُّستاق[1]، وابدؤوا بها فاحملوا عليها راجلَكم، وتَقَوَّوْا بها على عدوّكم. ففعلوا ذلك، وتحصّن منهم أهل دارا.

ويبلغ خبرُهم محمد بن مروان وهو يومئذ أمير الجزيرة، فاستخفّ بأمرهم، وبعث إليهم عديّ بن عميرة في خمسمائة، وكان صالح في مائة وعشرة، فقال عديّ: أصلح الله الأمير! تبعثني إلى رأس الخوارج منذ عشرين سنة، ومعه رجالٌ سُمُّوا لِي كانوا يعازّوننا، وإنّ الرجل منهم خير من مائة فارس في خمسمائة! فقال له: إني أزيدُك خمسمائة، فسرْ إليهم في ألف فارس.

فسار مِنْ حَرّان في ألف رجل، وكأنّما يُساقون إلى الموت - وكان عديّ رجلاً ناسكاً - فلما نزل دوغان نزل بالناس، وأنفذ إلى صالح بن مسرّح رجلاً دسّه إليه فقال: إنّ عديًّا بعثني إليك يسألك أن تخرُج عن هذا البلد، وتأتي بلداً آخر فتقاتل أهله، فإني للقتال كاره، فقال له صالح: ارجع إليه، فقل له: إن كنت ترى رأينا، فأرنا من ذلك ما نعرف، ثم نحن مُدْلِجُون عنك، وإن كنت على رأي الجبابرة وأئمة السوء، رَأَيْنا رأينا، فإنّا بدأنا بك، وإلا رَحَلْنا إلى غيرك.

فانصرف إليه الرسول، فأبلغه فقال له عديّ: ارجعْ إليه فقل له: إنّي والله لا أرى رأيَك ولكنّي أكره قتالك وقتال غيرك من المسلمين.

فقال صالح لأصحابه: اركبوا، فركبوا، واحتبس الرجلَ عنده، ومضى بأصحابه حتى أتى عديًّا في سوق دَوْغان، وهو قائم يصلِّي الضّحى، فلم يشعر إلا بالخيل طالعة عليهم، فلما دنا صالح منهم، رآهم على غير تعبية، وقد تنادَوْا، وبعضُهم يجولُ في بعض، فأمرَ شبيباً فحمل عليهم في كتيبة، ثم أمرَ سُوَيْداً فحمل في كتيبة، فكانت هزيمتُهم، وأتى عديٌّ بدابّته فركبها ومضَى على وجهه، واحتَوَى صالح على عسكره وما فيه، وذهب فَلُّ عديّ حتى لَحِقُوا بمحمد بن مروان، فغضِب، ثم دعا بخالد بن جَزْء السُّلمي فبعثه في ألف وخمسمائة، ودعا الحارث بن جَعْوَنَة في ألف وخمسمائة، وقال لهما: اخرجا إليّ هذه الخارجةَ القليلة الخبيثة وعَجِّلا الخروج، وأغِذّا السّير فأيّكما سَبَق، فهو الأمير على صاحبه، فخرجا وأغَذّا في السير، وجعلا يسألان عن صالح، فقيل لهما: توجّه نحو آمِد، فاتّبعاه حتى انتهيا إليه بآمِد، فنزلا ليلاً، وخندقا وهما متساندان، كلُّ واحدٍ منهما على حِدَتِه، فوجّه صالح شبيباً إلى الحارث بن جَعْوَنة في شطْر أصحابه، وتوجَّه هو نحو خالدِ السُّلَميّ، فاقتتلوا أشدّ قتال اقتتله قوم، حتى حَجَز بينهم الليل، وقد انتصف بعضُهم من بعض.

فتحدّث بعضُ أصحابِ صالح، قال: كنا إذا حَمَلْنا عليهم استقبلْنا رجالَهم بالرماح ونَضَحنا رُماتَهم بالنّبل، وخيلُهم تطاردنا في خلال ذلك، فانصرفنا عند الليل، وقد كرهْناهم وكَرِهونا،

(١) الرستاق: فارسي وهو السواد. اللسان، مادة (رستق).

فلما رجعنا وصلّينا وتروّحنا وأكلنا من الكِسَر، دعانا صالح وقال: يا أخِلَائي، ماذَا تَرَوْن؟ فقال شبيب: إنّا إن قاتلنا هؤلاء القوم وهم معتصمون بخندقهم، لم نَنَلْ منهم طائلاً والرأي أن نَرْحَل عنهم، فقال صالح: وأنا أرى ذلك، فخرجوا من تحت ليلتهم حتى قطعوا أرض الجزيرة، وأرض الموصل، ومَضَوْا حتى قطعوا أرض الدَّسْكرة. فلما بلغ ذلك الحجَّاج سَرّح عليهم الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف، فسار وخرج صالح نحو جلُولاء وخَانقِين واتبعه الحارث حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبج، وصالح يومئذٍ في تسعين رجلاً، فعبّى الحارث بن عميرة أصحابه ميمنة وميسرة، وجعل صالح أصحابه ثلاثة كَرادِيس وهو في كُردوس، وشبيب في مَيْمَنة في كُرْدُوس، وسُوَيْد بن سُلَيم في كُرْدُوس في ميسرته، في كلّ كُرْدُوس منهم ثلاثون رجلاً، فلما شدّ عليهم الحارث بن عميرة انكشف سويد بن سليم، وثبت صالح فقُتِل، وضارب شبيب حتى صُرِع عن فرسه، فوقع بين رجاله، فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح، فوجَدَه قتيلاً فنادى: إليّ يا معشر المسلمين! فلاذوا به، فقال لأصحابه: ليجعلْ كلّ رجلٍ منكم ظهرَه إلى ظهر صاحبه، وليطاعِنْ عدوَّه إذا قدم عليه، حتى ندخل هذا الحِصْن، ونرى رأينا.

ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحِصْن، وهم سبعون رجلاً مع شبيب، وأحاط بهم الحارث بن عميرة ممسياً، وقال لأصحابه: أحرقوا الباب، فإذا صار جَمْراً فدَعوه، فإنهم لا يقدرون على الخروج حتى نصبح فنقتلهم، ففعلوا ذلك بالباب، ثم انصرفوا إلى معسكرهم.

فقال شبيب لأصحابه: يا هؤلاء، ما تنتظرون! فوالله إن صَبَّحوكم غُدْوَة إنه لهلاككم فقالوا له: مُرْنا بأمرك، فقال لهم: إن الليل أخفى للويل، بايعوني إن شئتم، أو بايعوا مَنْ شئتم منكم، ثم اخرجوا بنا حتى نشُدَّ عليهم في عسكرهم، فإنهم آمنون منكم، وإني أرجو أنْ ينصرَكم الله عليهم. قالوا: ابسط يدك، فبايعوه، فلما جاؤوا إلى الباب، وجدُوه جَمْراً، فأتوْه باللّبود فبلّوها بالماء، ثم ألقوْها عليه وخرجوا، فلم يشعُر الحارث بن عميرة إلا وشبيب وأصحابه يضربُونهم بالسيوف في جوف عسكرهم، فضارب الحارث حتى صُرِع، واحتمله أصحابه، وانهزموا وخلُّوا لهم المعسكر وما فيه، ومضَوْا حتى نزلوا المدائن، وكان ذلك الجيش أولَ جيش هزمه شبيب.

ثم ارتفع في أداني أرض الموصل، ثم ارتفع إلى نحو أذربيجان يَجْبي الخراج، وكان سفيان بن أبي العالية قد أمِر أن يحارب صاحب طبَرِسْتَان، فأمر بالقفول نحو شبيب، وأن يصالح صاحب طَبَرِسْتان، فصالحه، فأقبل في ألف فارس، وقد ورد عليه كتاب من الحجاج:

أما بعد، فأقِمْ بالدَّسْكرة فيمن معك، حتى يأتيَك جيش الحارث بن عميرة. قاتل صالح بن مسرّح، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزه.

ففعل سفيان ذلك، ونزل إلى الدّسكرة حتى أتوْه، وخرج مرتحلاً في طلب شبيب فارتفع شبيب عنهم، كأنه يكره قتالهم ولقاءهم، وقد أكْمَنَ لهم أخاه مَصَاداً في خمسين رجلاً في هَضْم من الأرض، فلما رأوْا شبيباً جمع أصحابه، ومضى في سَفْح من الجبل مشرقاً قالوا: هرب عدو الله، واتبعوه. فقال لهم عَدِيّ بن عميرة الشيبانيّ: أيّها الناس، لا تعجَلوا عليهم حتى نَضْرِب في الأرض ونستبرِئها، فإن يكونوا أكمنوا كميناً حَذِرْناه، وإلا كان طلبُهم بين أيدينا لن يفوتَنا. فلم يسمعوا منه، فأسرعوا في آثارهم.

فلما رأى شبيب أنّهم قد جازوا الكمين، عَطَف عليهم، فحمَلَ من أمامهم، وخرج الكَمِين من ورائهم، فلم يقاتل أحد، وإنما كان الهزيمةُ، وثبت سُفيان بن أبي العالية في مائتي رجل، فقاتل قتالاً شديداً حتى انتصفَ من شبيب، فقال سويد بن سليم لأصحابه: أمِنْكم أحد يعرف أميرَ القوم ابن أبي العالية؟ فقال له شبيب: أنا مِنْ أعرف النّاس به، أما ترى صاحبَ الفرسِ الأغرّ الذي دونه المرامية! فإنه هو، فإن كنتَ تريده فأمهِلْه قليلاً.

ثم قال: يا قَعْنَب، اخرُج في عشرين، فأتِهم من ورائهم. فخرج قَعْنَب في عشرين فارتفع عليهم، فلما رأوْه يريد أنْ يأتيَهم من ورائهم، جعلوا ينتقصون ويتسلَّلون، وحَمَل سويد بن سُلَيم على سُفْيان بن أبي العالية يطاعِنُه، فلم تصنع رماحُهما شيئاً، ثم اضطرَبا بسيفيهما، ثم اعتنق كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرضِ يعترِكان، ثم تحاجزا، وحَمَل عليهم شبيب، فانكشف مَنْ كان مع سفيان، ونزل غلام له يقال له غَزْوان عن بِرْذَوْنِه، وقال لسفيان: اركب يا مولاي، فركب سُفيان، وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتل دونه غزوان حتى قُتِل، وكان معه رايته، وأقبل سفيان منهزماً، حتى انتهَى إلى بابل مَهْرُوذ، فنزل بها، وكتب إلى الحجاج، وكان الحجاجُ أمَرَ سَوْرة بن أبجر أن يلْحَق بسفيان، فكاتَبَ سورة سفيانَ، وقال له: انْتَظِرني، فلم يفعلْ وعَجِل نحو الخوارج، فلما عرف الحجاج خبرَ سفيان، وقرأ كتابه، قال للناس: مَنْ صنع كما صنع هذا وأبلى كما أبلى فقد أحسن. ثم كتب إليه يعذره، ويقول: إذا خَفَّ عليكَ الوَجَع فأقبِلْ مأجوراً إلى أهلك. وكتب إلى سورة بن أبجر:

أما بعد يابن أمّ سورة، فما كنتَ خليقاً أن تجترىءَ على تركِ عهدي، وخذلان جُندي فإذا أتاكَ كتابي فابعث رجلاً مِمّن معك صَلِيباً إلى المدائن، فلينتخبْ من جندها خمسمائة رجل، ثم ليقدم بهم عليك، ثم سِرْ بهم حتى تَلْقَى هذه المارقة، واحزم أمركَ، وكِدْ عَدُوّك، فإنّ أفضل أمر الحروب حُسْنُ المكيدة. والسلام.

فلما أتى سَوْرةَ كتابُ الحجاج بعث عديّ بن عمير إلى المدائن، وكان بها ألف فارس

فانتخب منهم خمسمائة، ثم رحل بهم حتى قدِم على سَوْرة ببابل مَهْرُوذ، فخرج بهم في طلب شبيب، وخرج شبيب يَجُول في جُوخي، وسَوْرة في طلبه، فجاء شَبيب إلى المدائن فتحصَّنَ منه أهلُها فانتهب المدائن الأولى، وأصاب دوابَّ من دوابّ الجند، وقتل مَنْ ظَهر له، ولم يدخل البيوت، ثم أتى فقيل له: هذا سَوْرة قد أقبل إليك، فخرج في أصحابه حتى انتهى إلى النهروان، فنزلوا به وتوضّئوا وصلوا، ثم أتوْا مصارع إخوانهم الذين قتلهم عليّ بن أبي طالب، فاستغفروا لهم، وتبرؤوا من عليّ وأصحابه، وبكوْا فأطالوا البكاء، ثم عَبَرُوا جسر النهروان، فنزلوا جانبه الشرقيّ، وجاء سَوْرة حتى نزل بنفطرانا وجاءته عيونه، فأخبروه بمنزل شبيب بالنهروان، فدعا سورة رؤوس أصحابه، فقال لهم: إنّ الخوارج قَلّما يُلْقَوْن في صحراء أو على ظهرٍ إلا انتصفوا، وقد حُدِّثت أنّهم لا يزيدون على مائة رجل، وقد رأيتُ أنْ أنتخِبكم وأسير في ثلاثمائة رجل منكم، من أقويائكم وشجعانكم فأبيّتهم فإنهم آيسون من بَيَاتكم، وإني والله أرجو أن يصرَعهم الله مَصَارع إخوانهم في النهروان مِن قَبْل، فقالوا: اصْنَعْ ما أحببت.

فاستعمَل على عسكره حازم بن قُدامة، وانتخب ثلاثمائة من شجعان أصحابه، ثم أقبل بِهِمْ حتى قَرُب من النهروان، وبات وقد أذكى الحرس، ثم بيّتهم، فلما دنا أصحاب سورة منهم نَذِروا بهم، فاستوَوْا على خيولهم، وتعبَّوْا تَعْبِيَتهم، فلما انتهى إليهم سورة وأصحابه أصابوهم وقد نَذِرُوا، فحمل عليهم سَوْرة، فصاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم حتى تركُوا له العَرْصة، وحمل شبيب، وجعل يضرب ويقول:

مَـــنْ يَـــنِـــكِ الْـــعَـــيْـــرَ يَـــنِـــكْ نَـــيَّـــاكـــا

فرجع سورة مفلولاً، قد هزم فرسانه وأهل القوّة من أصحابه، وأقبل نحو المدائن، وتَبِعه شبيب، حتى انتهى سورة إلى بيوت المدائن، وانتهى شَبيب إليهم، وقد دخل الناس البيوتَ وخرج ابن أبي عصيفر، وهو أمير المدائن يومئذٍ في جماعة، فلقَيهم في شوارع المدائن ورماهم النّاسُ بالنبل والحجارة من فوق البيوت.

ثم سار شبيب إلى تكْرِيت، فبينا ذلك الجند بالمدائن إذ أرْجَف الناس فقالوا: هذا شبيب قد أقبلَ يريد أن يبيّت أهل المدائن، فارتحل عامّةُ الجند، فلحِقوا بالكوفة، وإنّ شبيباً بتكْرِيت فلما أتى الحجاج الخبرُ، قال: قبح الله سَوْرة! ضَيّع العسكرَ وخرج يُبَيّت الخوارج، والله لأسوءَنّه.

ثم دعا الحجاج بالجَزْل، وهو عثمان بن سعيد، فقال له: تيسّر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتَهم فلا تعجل عَجَلةَ الخرِق النَّزِق[1]، ولا تحجم إحجام الواني الفَرِق، أفهمت؟ قال: نعم أصلح الله الأمير قد فهمت، قال: فاخرج وعَسْكِرْ بدَيْرِ عبد الرحمن حتى يخرج الناس

(١) النزَق: الخفة والطيش. اللسان. مادة (نزقه).

يك، فقال: أصلَحَ الله الأمير! لا تبعثْ معي أحداً من الجُند المهزوم المفلول، فإنّ الرعبَ قد خل قلوبَهم، وقد خشيت ألّا ينفعك والمسلمين منهم أحدٌ، قال: ذلك لك، ولا أراك إلا قد حسنْتَ الرأي، ووُفِّقت، ثم دعا أصحابَ الدواوين، فقال: اضربوا عَلَى النَّاسِ البعث، أخرجوا أربعةَ آلاف من الناس، وعَجّلوا، فجمعت العُرَفاء، وجلس أصحابُ الدواوين، ضَرَبوا البعث، فأخرجوا أربعة آلاف، فأمرهم باللّحاق بالعسكر، ثم نودي فيهم بالرحيل، رتحلوا، ونادى منادي الحجاج: أنْ بَرِئت الذِّمَّة مِنْ رجل أصبْناه من بعث الجَزْل متخلِّفاً.

فمضى بهم الجَزْل، وقد قدّم بين يديه عياض بن أبي لينة الكنديّ على مقدمته فخرج، حتى ى المدائن، فأقام بها ثلاثاً، ثم خرج وبعث إليه ابن أبي عصيفر بفَرَس وبِرْذَوْن وألفي درهم، وضع للناس من الحطب والعلَف ما كفاهم ثلاثة أيام، وأصاب الناس ما شاؤوا من ذلك.

ثم إنّ الْجزل خرج بالناس إثْرَ شبيب، فطلبه في أرض جُوخَى، فجعل شبيب يُرِيه الهيبة، خرج من رُسْتَاق إلى رُسْتاق، ومن طَسُّوج[1] إلى طَسُّوج ولا يقيم له، يريد بذلك أن يفرِّق جَزْل أصحابَه، ويتعجّل إليه فيَلْقاه في عَدَدٍ يسير على غيرِ تعبية، فجعل الجَزْل لا يسير إلّا على بِيَة، ولا ينزل إلا خَنْدَق على نفسه وأصحابه، فلما طال ذلك على شبيب، دعا يوماً أصحابه، هم مائة وستون رجلاً، هو في أربعين، ومصاد أخوه في أربعين، وسويد بن سليم في أربعين، لمحلّل بن وائل في أربعين، وقد أتته عيونه فأخبرته، أنّ الجزْل بن سعيد قد نزل ببئر سعد. ال لأخيه وللأمراء الذين ذكرناهم: إني أريد أن أبيِّت الليلة هذا العسكر فأْتِهم أنت يا مصاد ن قِبَل حُلْوان، وسآتيهم أنا من أمامهم من قِبَل الكوفة، وأْتِهمْ أنت يا سُوَيْد من قِبَلِ المشرق، تِهِمْ أنت يا مجلّل، من قِبل المغرب، ولْيَلِجْ كلُّ امرىءٍ منكم على الجانب الذي يحمل عليه، لا تقلعوا عنهم حتى يأتِيَكم أمري.

قال فروة بن لَقِيط: وكنتُ أنا في الأربعين الذين كانوا معه، فقال لجماعتنا: تيسَّرُوا، وليسِرْ لُّ امرىءٍ منكم مع أميره، ولْيَنْظُر ما يأمره به أميره فليتبعْه، فلما قضمت دوابّنا - وذلك أول ما دأت العيون - خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة، فإذا القوم عليهم مَسْلحة بن أبي لينة، فما إلا أن رآهم مصاد أخو شَبيب حتى حمل عليهم في أربعين رجلاً، وكان شبيب أراد أن يرتفع يهم حتى يأتيهَم من ورائهم، كما أمره.

فلما لَقِي هؤلاء قاتلهم، فصبروا له وقاتلوه. ثم إنّا دفعنا إليهم جميعاً، فهزمناهم، وأخذوا لريق الأعظم، وليس بينهم وبين عسكرهم بدير يزدَجِرد إلا نحو ميل، فقال لنا شبيب: اركبوا

[1]) الطسوج: الناحية. اللسان، مادة (طسج).

معاشر المسلمين أكتافهم، حتى تدخلوا معهم عسكرهم إن استطعتم، فأتبعناهم ملظّين بهم، ملحّين عليهم، ما نُرفّهُ عنهم وهم منهزمون، ما لهم همّة إلا عسكرهم.

فمنعهم أصحابهم أن يدخلوا عليهم، وَرَشَقُوهم بالنَّبْل، وكانت لهم عيون قد أتتهم فأخبرتهم بمكاننا، وكان الجزل قد خَنْدَق عليهم وتحرّز، ووضع هذه المسلحة الذين لقيناهم بدير الخرّارة، ووضع مسلحة أخرى مما يلي حُلوان.

فلما اجتمعت المسالح، ورشقوهم بالنبل، ومنعونا من خَنْدَقهم، رأى شبيب أنّه لا يصلُ إليهم، فقال لأصحابه: سيروا ودعوهم، فلما سار عنهم أخَذَ على طريق حُلوان، حتى كان منهم على سبعة أميال، قال لأصحابه: انزلوا فأقضموا دوابَّكم، وقيلوا وتروّحوا، فصلوا ركعتين، ثم اركبوا. ففعلوا ذلك. ثم أقبل بهم راجعاً إلى عسكر الكوفة، وقال: سيروا على تعبيتكم التي عبّأتكم عليها أوّل الليل، وأطيفُوا بعسكرهم كما أمرتكم. فأقبلنا معه، وقد أدخلَ أهلُ العسكر مسالحهم إليهم، وأمِنُوا، فما شعروا حتى سَمِعوا وقع حوافر الخيل، فانتهينا إليهم قبيل الصبح، وأحطْنا بعسكرهم، وصحنا بهم من كل ناحية، فقاتلونا، ورمونا بالنَّبْل، فقال شبيب لأخيه مصاد، وكان يقاتلهم من الجانب الذي يلي الكوفة: خَلِّ لهم سبيل طريق الكوفة، فخلى لهم، وقاتلناهم من تلك الوجوه الثلاثة الأخرى إلى الصبح، ثم سرنا وتركناهم، لأنا لم نظفرْ بهم، فلما سار شبيب سار الجزل في أثره بطلبه، وجعل لا يسيرُ إلا على تعبية وترتيب، ولا ينزل إلا على خندق، وأما شبيب فضرب في أرض جُوخَى، وترك الجزل، فطال أمرُه على الحجاج، فكتب إلى الجزل كتاباً قُرِىء على الناس وهو:

أما بعد، فإني بعثْتُك في فرسان أهل المِصْر ووجوه الناس، وأمرتك باتّباع هذه المارقة وألّا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها، فجعلتَ التَّعرِيس في القُرى، والتخييم في الخنادق، أهونَ عليك من المضيِّ لمناهضتهم ومناجزتهم. والسلام.

قال: فشقّ كتابُ الحجاج على الجزلُ، وأرجف الناس بأمره، وقالوا: سيعزله، فما لَبِث الناس أنْ بعث الحجاج سعيد بن المجالد أميراً بدله، وعَهِد إليه: إذا لقى المارقة أن يزحف إليهم، ولا يناظرهم، ولا يطاولهم، ولا يصنع صُنْع الجزل، وكان الجزل يومئذٍ قد انتهى في طلب شبيب إلى النّهروان، وقد لزم عسكره، وخندق عليهم، فجاء سعيد حتى دخلَ عسكرَ أهل الكوفة أميراً، فقام فيهم خطيباً، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا أهلَ الكوفة، إنكم قد عجزتم وَوَهَنْتُم، وأغضبْتم عليكم أميرَكم، أنتم في طلب هذه الأعاريب العُجْف منذ شهرين، قد أخربوا بلادكم، وكسروا خراجكم، وأنتم حَذِرون في جوف هذه الخنادق لا تُزايلونها إلّا أن يبلغَكم أنّهم قد ارتحلوا عنكم، ونزلوا بلداً سوى بلدكم اخرجوا على اسم الله إليهم.

ثم خرج وخرج الناس معه، فقال له الجزل: ما تريد أن تصنع؟ قال: أقدمُ على شبيب وأصحابه في هذه الخيل، فقال له الجزل: أقِمْ أنت في جماعة الناس فارسهم وراجلهم، ولا تفرّق أصحابك، ودعني أصْحَرُ له، فإن ذلك خيرٌ لك وَشَرٌّ لهم. فقال سعيد: بل تَقِفُ أنت في الصّف، وأنا أصحِرُ له، فقال الجزل: إني بريءٌ من رأيك هذا، سمع الله ومَنْ حضر من المسلمين! فقال سعيد: هو رأيي، إن أصبتُ فيه، فالله وَفّقني، وإن أخطأتُ فيه فأنتم برآء.

فوقف الجزل في صَفّ أهل الكوفة، وقد أخرجهم من الخندق وجعل على ميمنتهم عياض بن أبي لينةَ الكِنديَ، وعلى ميسرتهم عبد الرحمن بن عوف أبا حُميد الراسبيّ، ووقف الجزْل في جماعتهم، واستقدم سعيد بن مجالد فخرج وأخرج الناس معه، وقد أخذ شبيب إلى بَرَاز الروز، فنزل قَطُفْتَا، وأمر دِهقانها[1] أن يشوِيَ لهم غنماً، ويعدّ لهم غداءً ففعل، وأغلق مدينة قَطُفْتا، ولم يفرغ الدِّهقان من طَعامه حتى أحاط بها ابن مجالد، فصعِد الدِّهقان، ثم نزل، وقد تغيَّر لونه، فقال شبيب: ما بالك؟ قال: قد جاءك جمع عظيم، قال: أبَلَغ شواؤك؟ قال: لا، قال: دَعْهُ يبلغ، ثم أشرف الدِّهقان إشرافة أخرى، ثم نزل فقل: قد أحاطوا بالجوْسق، قال: هات شواءك، فجعل يأكل غير مكترِث بهم، ولا فَزِع، فلما فَرَغ قال لأصحابه، قوموا إلى الصلاة، وقام فتوضأ، فصلى بأصحابه صلاة الأولى، ولبس درعه، وتقلّد سيفه، وأخذ عموده الحديد، ثم قال: أسرِجُوا إلى بغلتي، فقال أخوه: أفي مثل هذا اليوم تركب بغلة؟ قال: نعم، أسْرجوها، فركبها، ثم قال: يا فلان، أنت على الميمنة، وأنت يا فلان على الميسرة، وأنت يا مَصاد - يعني أخاه - على القلب، وأمر الدِّهقان ففتح الباب في وجوههم.

فخرج إليهم وهو يحكّم، وحمل حملة عظيمة، فجعل سعيد وأصحابه يرجعون القهقرى، حتى صار بينهم وبين الدَّيْرِ ميل، وشبيب يصيح: أتاكم الموت الزؤام! فاثبتوا، وسعيد يَصيح: يا معشر هَمْدان، إليّ إليّ، أنا ابن ذي مرّان فقال شبيب لمصاد: وَيْحَك! استعرِضهم استعراضاً، فإنهم قد تقطّعوا، وإني حامل على أميرهم، وأثكَلَنِيكَ الله إن لم أُثكِله ولده، ثم حمل على سعيد فعلاه بالعمود، فسقط ميّتاً وانهزم أصحابه، ولم يقتل يومئذ من الخوارج إلا رجل واحد.

وانتهى قتلُ سعيد إلى الجزْل، فناداهم: أيها الناس، إليّ إليّ وصاح عياض بن أبي لينة: أيها الناس، إن يكن أميركم هذا القادم هَلك، فهذا أميركم الميمون النقيبة، أقبِلوا إليه، فمنهم مَنْ أقبل إليه، ومنهم مَنْ ركب فرسه منهزماً، وقاتل الجزْل يومئذٍ قتالاً شديداً حتى صُرع، وحامى عنه خالد بن نَهِيك، وعياض بن أبي لينة، حتى استنقذاه مرتَثاً، وأقبل الناس منهزمين حتى دخلوا الكوفة، وأُتي بالجزْل جريحاً حتى دخل المدائن، فكتب إلى الحجاج:

(١) دهقن الطعَام: إلانه. اللسان، مادة (دهقن).

أما بعد، فإني أخبر الأمير - أصلحه الله - أني خرجتُ فيمن قِبَلي من الجند الذي وَجّهني فيه إلى عدوّه، وقد كنتُ حفظتُ عهدَ الأمير إليّ فيهم ورأيه، فكنت أخرجُ إلى المارقين إذا رأيت الفرصة، وأحبس الناس عنهم إذا خشيت الورْطة، فلم أزل كذلك أديرُ الأمر، وأرفقُ في التدبير، وقد أرادني العدوّ بكل مكيدة، فلم يُصِبْ مني غِرّة، حتى قدم عليّ سعيد بن مجالد، فأمرتُه بالتؤدة، ونهيته عن العَجَلة، وأمرته ألّا يقاتلهم إلا في جماعة الناس عامّة فعصاني وتعجَّل إليهم في الخيل، فأشهدْتُ الله عليه وأهلَ المِصْرَيْن أنّي بَرِيء من رأيه الذي رأى، وأنّي لا أهوَى الذي صنع، فمضى فقُتل، تجاوز الله عنه! ودَفَع الناس إليّ فنزلت ودعوتُهم إلى نفسي ورفعتُ رايتي، وقاتلت حتى صُرِعت، فحملني أصحابي من بين القتلى، فما أفقت إلّا وأنا عَلَى أيديهم، عَلَى رأس ميلٍ من المعركة، وأنا اليوم بالمدائن، وفيّ جِراحات قد يموتُ الإنسان من دونها، وقد يعافَى من مثلها، فليسأل الأمير أصلحَه الله عَنْ نصيحتي له ولجنده، وعن مكايدتي عدوّه، وعن موقفي يوم البأس، فإنه سيبين له عند ذلك أنّي صدقته ونصحت له. والسلام.

فكتب إليه الحجّاج:

أما بعد، فقد أتاني كتابُك وقرأته، وفهمت كلّ ما ذكرتَه فيه من أمر سَعِيد وأمر نفسِك وقد صدّقْتُك في نصيحتك لأميرك وحَيْطتك على أهل مِصْرك، وشدّتك عَلَى عدُوّك، وقد رضيتُ عَجلةَ سعيد وتؤدتَك. فأما عجلتُه فإنها أفضَتْ به إلى الجَنة، وأما تؤدتك فإنها لم تدع الفرصة إذا أمكنت حزم، وقد أحسنت وأصبت وأجرت، وأنتَ عندِي من أهل السمع والطاعة والنصيحة، وقد أشخصتُ إليك حيّان بن أبجر الطبيب ليداويَك، ويعالج جراحاتك، وقد بعثتُ إليك بألفيْ درهم نفقةً تصرفها في حاجتك وما ينوبك. والسلام.

وبعث عبد الله بن أبي عصيفر والي المدائن إلى الجَزْل بألف درهم، وكان يعوده ويتعاهَدُه بالألطاف والهدايا.

وأما شبيب، فأقبل حتى قَطَع دِجلة عند الكَرْخ، وأخذ بأصحابه نحو الكوفة. وبلغ الحجّاج مكانُه بحمّام أعين، فبعث إليه سويد بن عبد الرحمن السعديّ، فجهزه بألفيّ فارس منتخَبين، وقال له: اخرُج إلى شبيب فالْقَه ولا تَتْبعه، فخرج بالناس بالسَّبَخة، وبلغه أنّ شبيباً قد أقبل، فسار نحوه كأنما يُساق إلى الموت هو وأصحابه، وأمر الحجّاج عثمان بن قَطَن فعسكر بالناس في السَّبَخة، ونادى: ألا برِئت الذِّمَّةُ من رجل من هذا الجند، بات الليلة بالكوفة، ولم يخرج إلى عثمان بن قَطَن بالسَّبَخة، فبينا سويد بن عبد الرحمن يسيرُ في الألفين الذين معه، وهو يعبّيهم ويحرّضهم، إذْ قيل له: قد غشيَك شبيب، فنزل ونزل معه جُلّ أصحابه، وقدّم رايته، فأخبر أنّ شبيباً لما علم بمكانه تركه، ووجد مخاضةً فعبر الفرات، يريد الكوفة من غير الوجه الذي سويد بن عبد الرحمن به، ثم قيل: أما تراهم! فنادى في أصحابه فركبوا في آثارهم، فأتى

شبيب دارَ الرزق فنزلها، وقيل له: إنّ أهلَ الكوفة بأجمعهم معسكرون، فلما بلغهم مكانُ شبيب، ماجَ الناس بعضُهم إلى بعض، وجالوا وهَمّوا بدخول الكوفة، حتى قيل: هذا سويد بن عبد الرحمن في آثارهم قد لحقهم، وهو يقاتلهم في الخيل ومضى شبيب حتى أخذَ علَى شاطىء الفرات، ثم أخذ عَلَى الأنبار، ثم دخل دَقُوقَاء، ثم ارتفع إلى أداني أذرَبيجان.

وخرج الحجاجُ من الكوفة إلى البصرة حيث بَعُد شبيب، واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المغيرة بن شعبة، فما شعر الناس إلا بكتاب من مادارست، دِهْقان بابل مهروز إلى عروة بن المغيرة بن شعبة، أنَّ تاجراً من تجار الأنبار من أهل بلادي أتاني يذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة في أول هذا الشهر المستقبل، وأحببت إعلامك [ذلك] لترى رأيك، وإني لم ألبث بعد ذلك إذ جاءني اثنان من جيراني فحدَّثاني أن شبيباً قد نزل خانيجَار.

فأخذ عروة كتابه فأدرجه وسرّح به إلى الحجاح إلى البصرة. فلما قرأ الحجاج أقبل جادًّا إلى الكوفة، وأقبل شبيب يسير حتى انتهى إلى قرية حَرْبَى على شاطىء دجلة، فعبرها وقال لأصحابه: يا هؤلاء، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة، وليس دون أخذها شيء إن شاء الله. فسيروا بنا، فخرج يُبادر الحجاج إلى الكوفة، وكتب عروة إلى الحجاج: إن شبيباً قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة، فالعجلَ العجلَ.

فطوَى الحجاج المنازلَ مسابقاً لشبيب إلى الكوفة، فسبقه ونزلها صلاة العصر، ونزل شبيب السَّبَخة صلاة العشاء الآخر، فأصاب هو وأصحابه من الطعام شيئاً يسيراً، ثم ركبوا خيولهم، فدخل شبيب الكوفة في أصحابه حتى انتهى إلى السوق، وشدّ حتى ضرب باب القصر بعموده، فحدّث جماعة أنهم رأوا أثر ضربة شبيب بالعمود بباب القصر، ثم أقبل حتى وقف عند باب المصطبة، وأنشد:

وَكَأنّ حَافِرَها بكلّ ثَنِيَّةٍ ... فَرقٌ يكيلُ بِهِ شَحِيحٌ مُعْدِمُ

ثم أقحم هو وأصحابه المسجد الجامع، ولا يفارقه قومٌ يصلّون فيه، فقتل منهم جماعة ومرّ هو بدار حَوْشب - وكان هو على شُرْطة الحجاج - فوقف على بابه في جماعة، فقالوا: إنّ الأمير - يعنون الحجاج - يدعو حوشباً، وقد أخرج ميمون غلامه بِرْذَونه ليركب، فكأنه أنكرهم، فظنوا أنه قد اتهمهم فأراد أن يدخَل إلى صاحبه، فقالوا له: كما أنت حتى يخرج صاحبُك إليك، فسمع حوشب الكلام، فأنكر القوم، وذهب لينصرف فعجِلوا نحوه، فأغلق الباب دونه، فقتلوا غلامه ميموناً، وأخذوا بِرْذَونه، ومضوا حتى مرُّوا بالجحّاف بن نبيط الشيبانيّ، من رهط حَوْشب. فقال له سويد: انزل إلينا، فقال: ما تصنع بنزولي! فقال: انزل إني لم أقضِك ثمن البَكْرة التي ابتعتها منك بالبادية، فقال الجحّاف: بئس ساعة القضاء هذه وبئس المكان لقضاء الدَّيْن هذا. ويحك! أما ذكرت أداء أمانتك إلا والليل مظلم، وأنت على

مَتْن فرسك! قبح الله يا سُوَيد ديناً لا يصلُح ولا يتمّ إلا بقتل الأنفس وسَفْك الدماء. ثم مَرُّوا بمسجد بني ذُهْل، فلقُوا ذُهل بن الحارث، وكان يصلّي في مسجد قومه، فيطِيل الصلاة إلى الليل، فصادفوه منصرفاً إلى منزله فقتلوه ثم خرجوا متوجّهين نحو الردمة، وأمر الحجاج المنادي: يا خيل الله اركبي وأبشري، وهو فوق باب القطر، وهناك مصباح مع غلام له قائم.

وكان أوّل مَنْ جاء من النّاس عثمان بن قَطَن، ومعه مواليه وناس من أهله، وقال: أعلموا الأميرَ مكاني، أنا عثمان بن قَطَن، فليأمرني بأمره. فناداه الغلام صاحب المصباح: قِفْ مكانك حتى يأتيَك أمرُ الأمير، وجاء الناس من كلّ جانب، وبات عثمان مكانَه فيمن اجتمع إليه من الناس، حتى أصبح.

وقد كان عبدُ الملك بن مَرْوان بعثَ محمد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتان، وكتب له عهدَه عليها، وكتب إلى الحجاج: إذا قدِم عليك محمد بن موسى الكوفة، فجهِّز معه ألفيْ رجل، وعَجِّل سَرَاحَه إلى سِجِسْتَان.

فلما قدم الكوفة، جعل يتجهّز، فقال له أصحابه ونصحاؤه: تعجَّل أيها الرجل إلى عَمَلك، فإنك لا تدرِي ما يحدث، وعرض أمرُ شبيب حينئذٍ ودخولُه الكوفة، فقيل للحجاج: إنّ محمد بن موسى إن سار إلى سجستان مع نجدته وصِهر لأمير المؤمنين عبد الملك، فلجأ إليه أحدٌ ممن تطلبه، منعك منه. قال: فما الحيلة؟ قالوا: أنْ تذكُر له أنّ شبيباً في طريقه وقد أعياك، وأنك ترجو أن يريح اللّهُ منه على يده، فيكون له ذكر ذلك وشهرته.

فكتب إليه الحجاج: إنّك عامل على كل بلد مررت به، وهذا شبيب في طريقك تجاهده ومَن معه، ولك أجره وذكره وصيته، ثم تمضي إلى عملك، فاستجاب له.

وبعث الحجاج بن بشر بن غالب الأسديّ في ألفيْ رجل، وزياد بن قدامة في ألفين، وأبا الضريس مولى تميم في ألف من الموالي، وأعين صاحب حمام أعين مولى بشر بن مروان تميم في ألف من الموالي، وأعين صاحب حمام أعين مولى بشر بن مروان في ألف، وجماعة غيرهم، فاجتمعتْ تلك الأمراء في أسفل الفرات وترك شبيب الوجهَ الذي فيه جماعة هؤلاء القُوّاد، وأخذ نحو القادسيّة، فوجه الحجاج زَحْر بن قيس في جَريدة خيل، نُقاوة، عدّتها وثمانمائة فارس، وقال له: اتبع شبيباً حتى تواقَعه حيثَما أدركته، فخرج زحر بن قيس حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين، وبلغ شبيباً مسيرُه إليه فأقبل نحوه فالتقيا، وقد جعل زحْر على ميمنته عبد الله بن كنّاز، وكان شجاعاً، وعلى ميسرته عديّ بن عديّ بن عُميرة الكنديّ، وجمع شبيب خيله كلها كبْكَبة واحدة، ثم اعترض بها الصّفّ يُوجف وجيفاً، حتى انتهى إلى زحْر بن قيس، فنزل زَحْر، فقاتل حتى صُرِع وانهزم أصحابه، وظن أنه قد قتل.

فلما كان الليل وأصابه البرد، قام يمشي حتى دخل قرية، فبات بها وحُمِل منها إلى الكوفة،

وبوجهه أربع عشرة ضربة، فمكث أياماً، ثم أتى الحجّاج، وعلى وجهه وجراحه القُطن، فأجلسه معه على السرير. وقال أصحابُ شَبيب لشَبيب، وهم يظنون أنّهم قد قَتَلوا زَحْراً: قد هزمنا جندهم، وقتلنا أميراً من أمرائهم عظيماً، فانصرِفْ بنا الآن موفورين. فقال لهم: إنّ قتلَكم هذا الرجل وهزيمتَكم هذا الجند قد أرعب هؤلاء الأمراء، فاقصِدوا بنا قَصْدهم، فوالله لئن نحن قتلناهم ما دون قَتْلِ الحجاج وأخذ الكوفة شيء. فقالوا له: نحن طوعٌ لأمرك ورأيك، فانقَضّ بهم جَادًا، حتى أتى ناحية عين التمر، واستخبَر عن القوم، فعرف اجتماعهم في رُوذْبَار في أسفل الفرات، على رأس أربعة وعشرين فَرْسخاً من الكوفة.

وبلغ الحجاجَ مسير شبيب إليهم، فبعث إليهم: إنْ جَمَعَكم قِتال، فأميرُ الناس زائدة بن قدامة.

فانتهى إليهم شبيب، وفيهم سبعة أمراء، على جماعتهم زائدة بن قدامة، وقد عَبّى كلّ أمير أصحابه على حِدَة، وهو واقف في أصحابه، فأشرَف شبيبٌ على الناس، وهو على فرس أغرّ كُمَيت(١)، فنظر إلى تعبيتهم، ثم رجع إلى أصحابه، وأقبل في ثلاث كتائب يزحف بها، حتى إذا دنا من الناس مضتْ كَتِيبة فيها سويد بن سليم، فوقفت بإزاء ميمنة زائدة بن قدامة، وفيها زياد بن عمرو العَتَكِيّ، ومضت كتيبة فيها مصاد أخو شبيب، فوقفتْ بإزاء الميسرة، وفيها بشر بن غالب الأسديّ، وجاء شبيب في كَتِيبة، حتى وقف مُقابل القوم في القَلْب، فخرج زائدة بن قدامة يسير في الناس بين الميمنة والميسرة، يحرِّض الناس، ويقول: عبادَ الله، إنكم الطَّيِّبون الكثيرون، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون، فاصبِروا جعلت لكم الفداء! إنّما هي حَمْلتان أو ثلاث، ثم هو النصر ليس دونه شيء، ألا تَرَوْنهم والله لا يكونون مائتي رجل، إنما هم أَكَلَة رأس وهم السُّرّاق المرَّاق، إنما جاوؤكم ليُهرِيقوا دماءكم، ويأخذوا فيئكم، فلا يكونوا على أخذه أقوى منكم على منعه، وهم قليل وأنتم كثير، وهم أهل فُرْقة وأنتم أهلُ جِماعة، غُضُّوا الأبصار واستقبلوهم بالأسنّة، ولا تحملوا عليهم حتى آمركم.

ثم انصرف إلى موقفه، فحمل سُويد بن سليم على زيد بن عمرو العَتِكيّ، فكشف صَفّه وثبت زياد قليلاً ثم ارتفع سويد عنهم يسيراً ثم كَرّ عليهم ثانية.

فقال فروة بن لَقِيط الخارجيّ: اطَّعَنَّا ذلك اليوم ساعة فصبروا لنا حتى ظننت أنهم لن يزولوا، وقاتل زياد بن عمرو قتالاً شديداً، ولقد رأيت سويد بن سليم يومئذٍ وإنه لأشَدّ العرب قتالاً وأشجعهم، وهو واقف لا يعرِض لهم، ثم ارتفعنا عنهم، فإذا هم يتقوّضون، فقال بعض أصحابنا لبعض: ألا تَرَوْنهم يتقوّضون! احمِلُوا عليهم، فأرسل إلينا شبيبٌ: خَلّوهم لا تحمِلُوا

(١) فرس كميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم. اللسان، مادة (كمت).

عليهم حتى يخفّوا، فتركناهم قليلاً، ثم حملنا عليهم الثالثة فانهزموا، فنظرت إلى زياد بن عمرو، وإنه ليضرَبُ بالسيوف، وما من سيف يُضرَبُ به إلّا نَبا عنه، ولقد اعتوره أكثرُ من عشرين سيفاً وهو مجفّف، فما ضرّه شيء منها، ثم انهزم.

وانتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة أمير سجِسْتَان عند المغرب، وهو قائم في أصحابه، فقاتلاه قتالاً شديداً، وصَبَرَ لنا.

ثم إن مصاداً حَمَل على بِشر بن غالب في الميسرة فَصَبَر وكَرُم وأبْلَى، ونزل معه رجال من أهل البَصْرة نحو خمسين، فضاربوا بأسيافهم حتى قتلوا، ثم انهزم أصحابهُ فشدَدْنا على أبي الضريس فهزمناه، ثم انهينا إلى موقف أعين، ثم شددنا على أعْيَن، فهزمناهم حتى انتهينا إلى زائدة بن قدمة، فلما انتهوْا إليه، نزل ونادى: يا أهلَ الإسلام، الأرضَ الأرض! ألا لا يكونُون على كفرهم أصبرَ منكم على إيمانكم. فقاتلَوا عامّة الليل إلى السَّحَر.

ثم إن شبيباً شدّ على زائدة بن قدامة في جماعة من أصحابه، فقتله وقتل رِبْضَةً حوله من أهل الحفّاظ، ونادى شبيب في أصحابه: ارفعوا السيف، وادْعوهم إلى البيعة، فدعَوْهم عند الفجر إلى البيعة.

قال عبد الرحمن بن جندب: فكنتُ فيمَنْ تقدّم فبايعه بالخلافة، وهو واقف على فرسٍ أغرّ كُمَيت، وخيله واقفة دونه وكلُّ مَنْ جاء ليبايِعَه يُنزع سيفه عن عاتقه، ويؤخذ سلاحُه، ثم يدنو من شبيب فيسلّم عليه بإمْرة المؤمنين، ثم يبايع، فإنا كذلك إذ أضاء الفجر ومحمد بن موسى بن طلحة في أقصى العسكر مع أصحابه، وكان الحجّاج قد جَعَل موقفه آخر الناس وزائدة بن قدامة بين يديه، ومقام محمد بن موسى مقام الأمير على الجماعة كلّها، فأمر محمد مؤذّنه فأذّن، فلما سمع شبيب الأذان، قال: ما هذا؟ قيل: هذا ابنُ طلحة لم يبرحْ، قال: ظننتُ أنّ حمقه وخِيَلاءه سيحملانه على هذا، نحّوا هؤلاء عَنّا، وانزلوا بنا فلنصلِّ، فنزلَ وأذّن هو، ثم استقدم فصلّى بأصحابه، وقرأ ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[1]، و﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾[2]، ثم سلّم وركب، وأرسل إلى محمد بن موسى بن طلحة: إنك امرؤ مخدوع قد اتّقى بك الحجاج المنيَّة، وأنت لي جارٌ بالكوفة، ولك حقّ فانطلِقْ لما أُمِرتَ به، ولك الله ألّا أسوءك، فأبى محاربته فأعاد عليه الرسول فأبى إلّا قتاله، فقال له شبيب: كأني بأصحابك لو التقتْ حَلْقَتَا البِطان قد أسلموك، وصُرِعتَ مصرَع أمثالك، فأطِعْني وانصرفْ لشأنِك، فإني أنفسُ بك عن القَتْل، فأبى وخرج بنفسه، ودعا إلى البِراز، فبرز له البَطين ثم قَعْنَب بن سويد، وهو يأبى إلا شبيباً. فقالوا لشبيب: إنّه قد رَغِبَ عَنّا إليك، قال: فما ظنُّكم بمَنْ يرغب عن الأشراف! ثم برز

(١) سورة الهمزة، الآية: ١.
(٢) سورة الماعون، الآية: ١.

له، وقال له: أنشدك الله يا محمد في دمك، فإنّ لك جواراً! فأبى إلّا قتاله فحمل عليه بعموده الحديد، وكان فيه اثنا عشر رِطْلاً، فهشم رأسَه وبيضةً[1] كانت عليه فقتله ونزل إليه فكَفَّنه ودفنه، وَتَتَبّع ما غنم الخوارجُ من عسكره، فبعث به إلى أهله، واعتذر إلى أصحابه، وقال: هو جارِي بالكوفة، ولي أنْ أهبَ ما غنمت. فقال له أصحابه: ما دون الكوفة الآن أحد يمنعك، فنظر فإذا أصحابه قد فَشَا فيهم الجِراح، فقال: ليس عليكم أكثر مِمّا قد فعلتم.

وخرج بهم على نِفَّرَ، ثم خرج بهم نحو بغداد، يطلب خَانِيجار. وبلَغ الحجّاج أنّ شَبِيباً قد أخذ نحو نِفَّر، فظنّ أنّه يريدُ المدائن، وهي باب الكوفة، ومَنْ أخَذَ المدائن كان ما في يديه من أرض الكوفةِ أكثر، فهالَ ذلك الحجّاج، وبعثَ إلى عثمان بن قَطَن، فسرَّحه إلى المدائن وولّاه مِنْبَرها والصلاة ومعونة جُوخَى كلها، وخراج الأسْتان، فجاء مسرعاً حتى نزل المدائن وعزل الحجّاجُ ابن أبي عصيفر عن المدائن، وكان الْجزل مقيماً بِهَا يُدَاوِي جراحاته، وكان ابن أبي عصيفر يعوده ويكرمه، ويُلْطِفه، فلما قدِم عثمان بن قَطَن لم يكن يتعاهده ولا يُلْطِفُه بشيء، فكان الجُزل يقول: اللّهم زاد ابن أبي عصيفر فَضْلاً وكلاماً، وزد عثمان بن قطن ضيقاً وبخلاً.

ثم إنّ الحجاج دعا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال له: انتخب الناس، فأخرج ستمائة من قومه من كِنْدَة، وأخرج من سائر الناس ستّة آلاف، واستحثّه الحجاج على الشخوص، فخرج بعسكره بدير عبد الرحمن، فلما استَتَمُّوا هناك كتب إليهم الحجاج كتاباً قرىء عليهم:

أما بعدُ فقد اعتدتم عادة الأذِلاءِ، ووليّتم الدُّبُر يوم الزَّحْف، دأبَ الكافرين وقد صفحتُ عنكم مَرّةً بعد مرة، وتارة بعد أخرى، وإني أقسم بالله قَسَماً صادقاً لئن عُدْتم لذلك لأوقِعَنَّ بكم إيقاعاً يكون أشدَّ عليكم من هذا العدوّ الذي تنهزمون منه في بطون الأودية والشّعاب وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال، فليخَفْ مَنْ كان له معقولٌ على نفسه، ولا يجعَل عليها سبيلاً، فقد أعْذَر مَنْ أنذر. والسلام.

وارتحل عبدُ الرحمن بالناس حتى مَرَّ بالمدائن، فنزل بها يوماً ليشترِيَ أصحابُه منها حوائجهم، ثم نادى في الناس بالرحيل، وأقبل حتى دخل على عُثمان بن قطن مودّعاً، ثم أتى الجَزْل عائداً، فسأله عن جِرَاحته، وحادثه، فقال الجزل: يابن عَمّ، إنّك تسير إلى فرسان العرب وأبناء الحرب وأحْلاس[2] الخيل، والله لكأنّما خُلِقوا من ضُلوعها، ثم رُبُّوا على

(١) البيضة: الخوذة. المعجم الوسيط، مادة (بيض).
(٢) الأحلاس: هو الكساء الذي على ظهر البعير تحت القتب، وهم أحلاس الخيل: يريدون لزومهم ظهورها. اللسان، مادة (حلص).

ظهورها، ثم هم أشدُ الأجَم، الفارسُ منهم أشدُّ من مائة، إن لم يُبْدَأ به بدأ هو، وإن هُجْهِج أقْدَم، وإني قد قاتلتُهم وبلوتُهم، فإذا أصحرتُ لهم انتصفوا مِنّي، وكان لهم الفضل عليّ، وإذا خندقتُ أو قاتلت في مَضِيق نلت منهم ما أحبّ، وكانتْ لي عليهم، فلا تَلْقَهُم وأنت تستطيع إلا وأنت في تعبية أو خندق، ثم ودعه، وقال له: هذه فرسي الفسيفساء خذها فإنها لا تجارَى، فأخذها ثم خرج بالناس نحو شبيب، فلما دنا منه ارتفع شَبِيب عنه إلى دَقُوقاء وشهرزور، فخرج عبدُ الرحمن في طلبه، حتى إذا كان على تُخوم تلك الأرض أقام، وقال: إنّما هو في أرض الموصل، فليقاتِلْ أميرُ الموصل وأهلُها عن بلادهم أو فليدعوا.

وبلغ ذلك الحجّاج، فكتب إليه:

أما بعدُ فاطلب شبيباً واسلُكْ في أثره أيْنَ سلك حتى تدرِكه فتقتله أو تنفِيَه عن الأرض فإنما السلطانُ سلطانُ أميرِ المؤمنين، والجند جندُه. والسلام.

فلما قرأ عبدُ الرحمن كتابَ الحجاج خرجَ في طلب شبيب، فكان شبيب يَدَعُه، حتى إذا دنا منه ليبيّته فيجده قد خندق وحَذِر، فيمضي ويتركه، فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغ شبيباً أنّه قد تحمّل وسار بطلبه كَرّ في الخيل نحوه، فإذا انتهى إليه وجده قد صَفّ خيلَه ورجّالته المرامية فلا يصيبُ له غِرّة ولا غفلة، فيمضي ويَدَعه.

ولما رأى شبيبٌ أنّه لا يصيب غِرّته، ولا يصل إليه، صار يخرج كلّما دنا منه عبد الرحمن، حتى ينزل على مسيرة عشرين فرسخاً، ثم يقيم في أرض غَلِيظة وَعْرَة، فيجيء عبدُ الرحمن في ثَقَلِه وخيله، حتى إذا دنا من شبيب ارتحل، فسار عشرين أو خمسة عشر فرسخاً، فنزل منزلاً غَلِيظاً خشناً، ثم يقيم حتى يبلُغَ عبدُ الرحمن ذلك المنزل، ثم يرتحل فعذّب العسكر، وَشَقّ عليهم، وأحْفَى دوابَّهم، ولقُوا منه كلّ بلاء.

فلم يزل عبد الرحمن يتبعه، حتى صار إلى خانِقين وجَلولاء، ثم أقبل على تَامَرّا، فصار إلى البَتّ، ونزل على تُخوم الموصل ليس بينه وبين الكوفة إلا نهر حَوْلَايا، وجاء عبدُ الرحمن حتى نزلَ بشرقّ حَوْلَايا، وهم في راذان الأعلى من أرض جُوخَى، ونزل في عواقيل من النهر ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها، وهي تعجبه، يرى أنّها مثل الخندق الحصين.

فأرسل شبيب إلى عبد الرحمن أنّ هذه الأيام أيام عيد لنا ولكم، فإن رأيتُم أن توادعونا حتى تمضِيَ هذه الأيام فعلتم، فأجابه عبد الرحمن إلى ذلك، ولم يكن شيء أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة، فكتب عثمان بن قَطَن إلى الحجاج:

أما بعد، فإنّي أخبرُ الأمير أصلحه الله، أنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد حفر جُوخَى كلّها عليه خندقاً واحداً، وخلّى شبيباً، وكسر خراجها، فهو يأكل أهلها، والسلام.

فكتب إليه الحجاج:

قد فهمتُ ما ذكرت، وقد لَعمرِي فَعل عبد الرحمن، فسِرْ إلى الناس، فأنت أميرُهم وعاجل المارِقة حتى تلقاهم، فإن الله إن شاء ناصرك عليهم، والسلام.

وبعث الحجاج على المدائن مطرّف بن المغيرة بن شعبة، وخرج عثمان حتى قدِم على عبد الرحمن ومَنْ معه، وهم معسكرون على نهر حوْلايا، قريباً من البتّ، وذلك يوم التروية عشاء، فنادى في الناس، وهو على تَلْعة: أيها الناس، اخرجوا إلى عَدُوّكم. فوثبوا إليه وقالوا: ننشدُك الله! هذا المساء قد غِشُينا، الناس لم يوطّنوا أنفسَهم على القتال فبتِ الليلةُ ثم اخرج على تعبية، فجعل يقول: لأناجِزَنّهم الليلة، ولتكونَنّ الفرصة لي أو لهم، فأتاه عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث، فأخذ بَعنان بَغْلته، وناشده الله لما نزل، وقال له عقيل بن شَدّاد السلوليّ: إنّ الذي تريدُه من مناجزتهم الساعة أنت فاعله غداً، وهو خير لك وللناس، إنّ هذه ساعة ريح قد اشتدّت مساء، فانزل، ثم أبكِرْ بنا غدوة..

فنزل وسَفَت عليه الريح، وشقّ عليه الغبار، فاستدعى صاحب الخراج عُلُوجاً، فبنوْا له قُبّة، فبات فيها، ثم أصبح فخرج بالناس، فاستقبلتْهم ريح شديدة وغَبَرة، فصاح الناسُ إليه وقالوا: ننشدك الله ألّا تخرج بنا في هذا اليوم! فإنّ الريح علينا، فأقام ذلك اليوم.

وكان شبيب يخرج إليهم، فلما رآهم لا يخرجون إليه أقام، فلما كان الغد خرج عثمان يعبّي الناس على أرباعهم، وسألهم: مَنْ كان على ميمنتكم وميسرتكم؟ فقالوا: خالد بن نَهِيك بن قيس الكِنْديّ على ميسرتنا، وعَقيل بن شَدّاد السلوليّ على ميمنتا، فدعاهما وقال لهما: قفا في مواقفكما التي كنتما بها، فقد ولَّيْتُكما المُجَنّبتَيْن، فاثبتا ولا تفرّا، فوالله لا أزولُ حتى تَزُولَ نخيل راذان عن أصولها. فقالا: نحن والله الذي لا إله إلا هو لا نفرّ حتى نظفر أو نقتل، فقال لهما: جزاكما الله خيراً! ثم أقام حتى صلّى بالناس الغداة، ثم خرج بالخيل، فنزل يمشي في الرّجال، وخرج شبيب ومعه يومئذٍ مائة وأحد وثمانون رجلاً، فقطع إليهم النهر وكان هو في ميمنة أصحابه، وجعل على الميسرة سويد بن سليم، وجعل في القلب مصَاداً أخاه وزحفوا، وكان عثمان بن قَطَن يقول لأصحابه فيُكثر: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١).

ثم قال شبيب لأصحابه: إني حاملٌ على ميسرتهم، ما يَلي النهر، فإذا هزمتُها فليحمِلْ صاحبُ ميسرتي على ميمنتهم، ولا يبرحْ صاحبُ القلب حتى يأتيَه أمرِي، ثم حمل في ميمنة أصحابه مما يلي النهر على ميسرة عثمان بن قطن، فانهزموا، ونزل عقيل بن شدّاد مع طائفة من أهلِ الحفاظ، فقاتل حتى قُتِل، وقتلوا معه.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

ودخل شبيب عسكرَهم، وحمل سويد بن سليم في ميسرَة شبيب على ميمنة عثمان بن قَطَن فهزمها، وعليها خالد بن نَهِيك الكِنْديّ، فنزل خالد، وقَاتَل قتالاً شديداً، فحمل عليه شبيب مِنْ ورائه، فلم يَنْثَنِ حتى علاه بالسيف فقتَله، ومشى عُثمان بن قَطَن، وقد نزلت معه العُرَفاء والفُرْسان وأشرافُ الناس نحو القلب، وفيه أخو شَبِيب في نحو من ستين رجلاً، فلمّا دَنَا منهم عثمان، شَدَّ عليهم في الأشراف وأهل الصبر، فضربهم مَصَاد وأصحابه، حتى فَرّقوا بينهم، وحمل شبيبٌ من ورائهم بالخيل، فما شَعَرُوا إلّا والرِّماح في أكتافهم تَكُبّهم لوجوههم، وعطف عليهم سويد بن سليم أيضاً في خيله، وقاتل عثمان فأحسنَ القتال.

ثم إن الخوارجَ شَدُّوا عليهم، فأحاطوا بعُثْمان، وحَمَل عليه مَصاد أخو شبيب: فضربه ضربةً بالسيف استدار لها، وسقط، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1]، فقتل وقُتِل معه العُرَفاء ووجوه الناس، وقُتِل مِنْ كِنْدة يومئذٍ مائة وعشرون رجلاً، وقتل مِنْ سائر الناس نحو ألف، ووقع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الأرض، فعرَفه ابن أبي سَبْرة، فنزل وأركبه، وصار رديفاً له. وقال له عبدُ الرحمن: نادِ في الناس، الحقوا بدَيْر ابن أبي مريم، فنادى بذلك، وانطلقا ذاهبين، وأمر شبيب أصحابَه، فرفعوا عن الناس السيف ودعاهم إلى البيعة، فأتاه مَنْ بَقِي من الرجال، فبايعوه، وبات عبدُ الرحمن بدير اليَعار، فأتاه فارسان ليلاً، فخلا به أحدِهما يناجيه طويلاً، وقام الآخر قريباً منهما، ثم مَضَيا ولم يعرفا فتحدّث الناس أن المناجيَ له كان شبيباً، وأنّ الذي كان يرقُبُهما كان مصَاداً أخاه، واتّهم عبد الرحمن بمكاتبة شبيب من قبل.

ثم خرج عبد الرحمن آخرَ الليل، فسار حتى أتى دير ابن أبي مريم، فإذا هو بالناس قَبْله قد سَبَقوه، وقد وضع لهم ابن أبي سبرة صُبَر الشعير والقَتّ كأنها القصور، ونحر لهم من الجزور ما شاؤوا، واجتمع الناس إلى عبد الرحمن، فقالوا له: إن علم شبيب بمكانك أتاك فكنت له غنيمة، قد تفرّق الناس عنك، وقُتِل خيارهم، فالحق أيّها الرجل بالكوفة.

فخرج وخرج معه الناس، حتى دخل الكوفةَ مستتراً من الحجاج، إلى أن أخِذ له الأمان بعد ذلك.

ثم إن شبيباً اشتدّ عليه الحرّ وعلى أصحابه، فأتى ماه بهراذان، فصيّف بها ثلاثة أشهر وأتاه ناسٌ ممن كان يطلب الدنيا والغنيمة كثير، ولحق به ناسٌ ممن كان يطلبهم الحجاج بمالٍ وتبعة، فمنهم رجل يقال له الحرّ بن عبد الله بن عوف، كان قتل دِهْقانين من أهل نهر درقيط كانا أساءا إليه، ولحق بشبيب حتى شهد معه مواطنه إلى أن هلك، وله مقام عند الحجاج وكلام سَلِم به من

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

القتل، وهو أنّ الحجاج بعد هلاك شبيب، أمّن كلَّ من خرج إليه ممن كان يطلبهم الحجاج بمالٍ، أو تبعة، فخرج إليه الحرّ فمن خرج، فجاء أهل الدهقانين يستعدُون عليه الحجّاج، فأحضره، وقال: يا عدوّ الله، قتلت رجلَين من أهل الخراج، فقال: قد كان أصلحك الله مِني ما هو أعظم من هذا، قال: وما هو؟ قال: خروجي عن الطاعة، وفراقي الجماعة، ثم إنك أمَّنت كلّ من خرج عليك، وهذا أماني وكتابك لي.

فقال الحجاج: قد لَعَمْرِي فعلتُ، ذلك أوْلى لك! وخَلّى سبيله.

ثم لما باخ الحرّ، وسكن عن شبيب خرج من ماه نهروان في نحو من ثمانمائة رجل فأقبل نحو المدائن، وعليها المطرّف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حذيفة بن اليمان فكتب ماذراسب وهو عظيم بابل مهروذ إلى الحجاج يخبره خبر شبيب وقدومه إلى قناطر حذيفة، فقام الحجاج في الناس وخطبهم، وقال:

أيها الناس، لتقاتِلُنّ عن بلادكم وفيئكم، أو لأبعثنّ إلى قومٍ هم أطوع وأسمع، وأصبر على البلاء منكم، فيقاتلون عدوّكم ويأكلون فيئكم - يعني جند الشام.

فقام إليه الناس من كلّ جانب، يقولون: بل نحن نقاتلهم، ونغيِث الأمير، فليندبنا إليهم فإنّا حيث يسرّه.

وقام إليه زُهرة بن حَوّية - وهو يومئذٍ شيخ كبير لا يَسْتَمّ قائماً، حتى يؤخذ بيده - فقال: أصلح الله الأمير! إنك إنما تبعث الناس متقطعين، فاستنفِر إليهم الناس كافة، وابعث عليهم رجلاً متيناً شجاعاً مجرّباً، يرى الفِرار هَضْماً وعاراً، والصبر مجداً وكرماً.

فقال الحجاج: فأنت ذاك، فاخرج.

فقال: أصلح الله الأمير! إنّما يصلح هذا الموقف رجلٌ يحمل الرمح والدِّرْع، ويَهُزّ السيف، ويثبُت على مَتْن الفرس، وأنا لا أطيق ذلك، فقد ضعفت وضَعُف بصري ولكن ابعثني مع أميرٍ تعتمده، فأكون في عسكره، وأشير عليه برأيي.

فقال: جزاك الله عن الإسلام والطاعة خيراً، لقد نصحت وصدَقت، وأنا مخرج الناس كافة، ألا فسيرُوا أيها الناس.

فانصرف الناس يجهزون وينتشرون، ولا يدرون مَنْ أميرهم.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك:

أما بعد، فإني أخبر أميرَ المؤمنين أكرمه الله، أنّ شبيباً قد شارفَ المدائن، وإنما يريدُ الكوفة، وقد عَجَز أهل العراق عن قِتَاله في مواطنَ كثيرة، في كلّها تُقتَل أمراؤهم ويُفَلّ خيولهم وأجنادهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليَّ جنداً من جند الشام ليقاتلوا عدوَّهم، ويأكلوا بلادهم فعل إن شاء الله.

فلما أتى عبدَ الملك كتابُه بعث إليه سفيان بن الأبرد في أربعة آلاف، وبعث إليه حبيب بن عبد الرحمن الحكميّ من مذحِج في ألفين وسَرّحهم نحوه حين أتاه الكتاب.

وقد كان الحجّاج بعث إلى عَتّاب بن ورقاء الرِّياحيّ ليأتيَه، وكان على خيل الكوفة مع المهلّب، ودعا الحجاجُ أشراف أهل الكوفة، منهم زُهرة بن حَويّة، وقبيصة بن والق، فقال: مَنْ ترون أنْ أبعثَ على هذا الجيش؟ قالوا: رأيك أيها الأمير أفضلُ، قال: إنّي قد بعثتُ إلى عتّاب بن ورقاء وهو قادم عليكم الليلة، فيكون هو الذي يسير بالناس، فقال زُهرة بن حَويّة: أصلَحَ الله الأمير! رميتَهم بحَجَرهم، لا والله لا يرجعُ إليك حتى يظفَر أو يقتل.

فقال قبيصة بن والق: وإنّي مشيرٌ عليك أيها الأمير برأيٍ اجتهدته، نصيحةً لك ولأمير المؤمنين ولعامّة المسلمين، إنّ الناس قد تحدَّثوا أنّ جيشاً قد وَصَل إليك من الشام، لأنّ أهل الكوفة قد هُزِموا، وهان عليهم الفِرار والعار من الهزيمة، فكأنّما قلوبهم في صدور قوم آخرين، فإنْ رأيتَ أنْ تبعثَ إلى الجيش الذي قد أُمِدِتَ به من أهل الشام، فليأخذوا حذرهم ولا يثبتوا بمنزلٍ إلا وهم يرون أنهم يبيتون، فإن فعلت فإنك إنما تحارب حُوّلاً قُلَّباً مِخْلَالاً مظعاناً، إنّ شبيباً بينا هو في أرض إذا هو في أخرى، ولا آمن من أن يأتيَهم وهم غارّون، فإن يهلكوا يهلك العراق كلّه.

فقال الحجاج: لله أبوك! ما أحسنَ ما رأيت! وما أصحّ ما أشرت به! فبعث إليه الجيش الوارد عليه من الشام كتاباً قرؤوه وقد نزلوا هِيت، وهو:

أما بعد، فإذا حاذيتم هِيت، فدَعُوا طريق الفرات والأنبار، وخذوا عَلَى عين التمر، حتى تقدموا الكوفة، إن شاء الله.

فأقبل القوم سِراعاً، وقدم عَتّاب بن ورقاء في الليلة التي قال الحجاج إنه فيها قادم، فأمَره الحجّاج، فخرج بالنّاس، وعسكر بحمّام أعين، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كَلْوَاذى، فقطع منها دِجْلة، وأقبل حتى نزل بَهُرسير، وصار بينه وبين مطرّف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة فقطع مطرف الجسر، ورأى رأياً صالحاً كادَ به شبيباً، حتى حبسه عن وجهه، وذلك أنّه بعث إليه: أن أبعثْ إليّ رجالاً من فقهاء أصحابك وقرّائهم، وأظهر له أنّه يريد أن يدارسَهم القرآن وينظر فيما يدعون إليه، فإن وجد حقاً اتّبعه، فبعث إليه شبيب رجالاً، فيهم قَعْنب وسويد والمحلّل، ووصّاهم ألّا يدخلوا السفينة حتى يرجع رسولُه من عند مطرّف، وأرسل إلى مطرّف: أن ابعثْ إليّ من أصحابك ووجوه فُرسانك بعدة أصحابي، ليكونوا رَهْناً في يدي حتى تردّ عليّ أصحابي. فقال مطرّف لرسله: القه، وقل له: كيف آمنك الآن على أصحابي إذ أبعثهم إليك، وأنت لا تأمنّني على أصحابك! فأبلغه الرسول، فقال: قل له: قد عَلِمت أنّا لا نستحلّ الغَدْر في ديننا، وأنتم قوم غُدُر تستحلّون الغَدْر وتفعلونه. فبعث إليه مطرّف جماعةً من وجوه

صحابه، فلما صارُوا في يد شبيب، سرَّح إليه أصحابه، فَعَبُروا إليه السفينة، فأتَوْه، فمكثوا
ربعة أيام يتناظرون، ولم يتفُّقوا على شيء، فلما تبيّن لشبيب أن مطرّفاً كاده وأنه غير متابع له،
عبّى للمسير، وجَمَع إليه أصحابه، وقال لهم: إنّ هذا الثقفيّ قطعني عن رأيي منذ أربعة أيام،
ذلك أنّي هممت أن أخرُج في جريدة من الخيل، حتى ألْقَى هذا الجيش المقبل من الشام،
أرجُو أن أصادِفَ غِرَّتَهم قبل أن يحذَرُوا، وكنت ألقهم منقطعين عن المِصر، ليس عليهم أمير
الحجاج يستندون إليه، ولا لهم مِصْرٌ كالكوفة يعتصمون به، وقد جاءني عيوني أنّ أوائلَهم قد
خلوا عَيْن التّمر، فهم الآن قد شارفوا الكوفة، وجاءني أيضاً عُيون من نحو عَتّاب أنه نزل
حمام أعْيَن بجماعة أهل الكوفة وأهل البصرة، فما أقربَ ما بيننا وبينهم! فتيسَّرُوا بنا للمسير
ى عتّاب.

وكان عتاب حينئذٍ قد أخرَج معه خمسين ألفاً من المقاتلة، وهدّدهم الحجاج إن هربوا
عادة أهل الكوفة، وتوعَّدَهم، وعَرَض شبيب أصحابه بالمدائن، فكانوا ألفَ رجل فخطبهم
قال: يا معشرَ المسلمين، إنّ الله عزّ وجلّ كان ينصركم وأنتم مائة ومائتان، واليوم فأنتم مئون
رمئون]، ألَا وَإنّي مصلٍّ، ثمّ سائر بكم إن شاء الله.

فصلّى الظهر، ثم نادى في النّاس، فتخلّف عنه بعضُهم.

قال فروة بن لقيط: فلما جَاز ساباط، ونزلْنا معه، قَصّ علينا، وذكّرنا بأيام الله، وزهَّدَنا في
دنيا، ورَغّبنا في الآخرة. ثم أذن مؤذنه فصلّى بنا العصر، ثم أقبل حتى أشرف على عَتّاب بن
رقاء، فلما رأى جيشَ عتاب نزل من ساعته، وأمر مؤذّنه، فأذّن ثم تقدّم، فصلّى بأصحابه
لاةَ المغرب، وخرج عتّاب بالناس كلهم فعبّأهم، وكان قد خندق على نفسه مذ يوم نزل.

وجعل على ميمنته محمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمْداني، قال له: يابن أخي
ك شريف، فاصبر وصابر، فقال: أما أنا فوالله لأقاتلنّ ما ثَبَت معي إنسان.

وقال لقبيصة بن والق التغْلبيّ: اكفني الميسرة، فقال: أنا شيخ كبير، غايتي أنْ أثبتَ تحت
يتي، أما تراني لا أستطيع القيام إلا أن أقام، وأخي نعيم بن عليم ذُو غناء، فابعثه على
ميسرة. فبعثه عليها. وبعث حنظلة بن الحارث الرياحيّ ابن عمه، وشيخ أهل بيته على
رجّالة، وبعث معه ثلاثة صفوف: صفٌّ فيه الرجّالة ومعهم السيوف، وصفٌّ هم أصحاب
ماح، وصفٌّ فيه المرامية.

ثم سار عَتّاب بين الميمنة والميسرة يمرّ بأهل راية راية، فيحرّض مَنْ تحتها على الصَّبر ومن
امه يومئذٍ: إنّ أعظمَ الناس نصيباً من الجنة الشهداء، وليس الله لأحَدٍ أمقتَ منه لأهل البغي،
ترون عدوَّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه، لا يرى ذلك إلا قربةً لهم! فهم شرار أهل
رض، وكلاب أهل النار. فلم يجبه أحد، فقال: أين القُصّاص يقصّون على الناس

ويحرّضونهم؟ فلم يتكلم أحد، فقال: أين من يَرْوِي شعر عنترة، فيحرّك الناس؟ فلم يجبه أحد ولا ردّ عليه كلمة، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، والله لكأني بكم وقد تفرّقتم عن عتاب وتركتموه تسفِي في استِه الريح، ثم أقبل حتى جلس في القلب، ومعه زهرة بن حَوِيّة، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وأقبل شبيب في ستمائة، وقد تخلّف عنه من الناس أربعمائة، فقال: إنّه لم يتخلّفْ عَنّي إلا مَنْ لا أحبّ أنْ أراه معي، فبعث سويد بن سليم في اثنين إلى الميسرة، وبعث المحلّل بن وائل في مائتين إلى القلب، ومضى هو في مائتين إلى الميمنة، وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة، حين أضاء القمر، فناداهم: لمن هذه الرايات؟ قالوا: رايات هَمْدان. فقال: رايات طالَما نَصرَت الحقَّ، وطالما نصرت الباطل: لها في كلِّ نصيبٌ، أنا أبو المدلّة اثبتوا إن شئتم. ثم حمل عليهم، وهم على مسنّاة أمام الخندق، ففضّهم، وثبت أصحاب رايات قبيصة بن والق.

فجاء شبيب فوقف عليه، وقال لأصحابه: مَثَل هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(1).

ثم حمل على الميسرة فَفَضّها، وصمد نحو القلب، وعُتاب جالس على طِنْفِسةٍ، هو وزهرة بن حَوِيّة، فغشيَهم شبيب، فانفضّ الناسُ عن عتاب وتركوه، فقال عتاب: يا زُهرة، هَذَا يومٌ كثُر فيه العدد، وقلّ فيه الغَناء، لهفي على خمسمائة فارسٍ من وُجُوه الناس، ألا صابرٌ لعدوه! ألا مواسٍ بنفسه! فمضى الناس عَلَى وجوههم، فلما دنا منه شبيب وَثَب إليه في عصابة قليلة صبرت مَعَه، فقال له بعضهم: إنّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد هرب، وانصفق معه ناس كثير، فقال: أما إنه قد فَرّ قبل اليوم، وما رأيت مثل ذلك الفتى، ما يبالي ما صنع ثم قاتلهم ساعة، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قَطّ موطناً لم أبلَ بمثله، وأقلّ ناصراً، ولا أكثر هارباً خاذلاً، فرآه رجلٌ من بني تغْلب من أصحاب شبيب - وكان أصاب دماً في قومه، والتحق بشبيب: فقال: إني لأظُنّ هذا المتكلّم عتّاب بن ورقاء، فحمَل عليه فطعنه، فوقع وقُتِل ووطئت الخيل زُهرة بن حَوِيّة، فأخذ يذبّب بسيفه، وهو شيخ كبير لا يستطيع أن ينهض فجاءه الفضل بن عامر الشيبانيّ فقتله، وانتهى إليه شبيب، فوجده صَريعاً فعرفه، فقال: مَنْ قتل هذا؟ قال الفضل: أنا قتلته، فقال شبيب: هذا زَهرة بن حَوِيّة، أما والله لئن كنتَ قُتِلتَ عَلَى ضلالةٍ، لربَّ يوم من أيام المسلمين قد حَسُن فيه بلاؤك، وعظم فيه غنَاؤك، ولربّ خيلٍ للمشركين هزمَتها، وسَرِيّة لهم ذعرتَها، ومدينةٍ لهم فتحتَها! ثم كان في علم الله أن تُقْتل ناصراً للظالمين.

وقتل يومئذٍ وجوهُ العرب من عسكَر العراق في المعركة: واستمكن شبيبٌ من أهل العسكر،

---

(1) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

فقال: ارفعُوا عنهم السيف، ودعاهم إلى البَيْعة، فبايعه الناس عامّة من ساعتهم واحتوى على جميع ما في العسكر، وبعث إلى أخيه وهو بالمدائن، فأتاه فأقام بموضع المعركة يومين، ودخل سفيان بن الأبرد الكلبيّ، وحبيب بن عبد الرحمن فيمن معهما إلى الكوفة فشدُّوا ظهرَ الحجاج، واستغنى بِهِمْ عن أهل العراق، ووصلته أخبار عَتّاب وعسكره، فَصَعِد المنبر، فقال: يا أهلَ الكوفة، لا أعَزّ الله مَنْ أراد بكم العزّ، ولا نَصَر مَنْ أراد منكم النصر اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتالَ عدونا، والحقوا بالحيرة، فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا يقاتلنّ معنا إلّا مَنْ لم يشهد قتال عتّاب بن ورقاء.

وخرج شبيب يريد الكوفة، فانتهى إلى سورا، فقال لأصحابه: أيُّكم يأتيني برأس عاملها، فانتدب إليه قَطِين، وقَعْنب، وسويد، ورجلان من أصحاب شَبِيب، فكانوا خمسة وساروا حتى انتهوْا إلى دار الخراج، والعمال فيها، فقالوا: أجيبوا الأمير، فقال الناس: أيّ أميرٍ؟ قالوا: أمير قد خرج من قِبَل الحجاج، يريد هذا الفاسق شبيباً، فاغترّ بذلك عامل سُورَا فخرج إليهم، فلما خالطهم شَهَرُوا السيوف، وحكّموا وخَبَطُوه بها حتى قتلوه، وقبضوا ما وجدوا في دار الخراج من مالٍ، ولحقوا بشبيب.

فلما رأى شبيب البدرَ، قال: أتيتمونا بفتنة المسلمين! هلمّ يا غلام الحربة، فحرّق بها البِدر، وأمر أن تنخَسَ الدوابّ التي كانت البِدَر عليها، فمرّت رائحة، والمال يتناثر من البِدَر[1] حتى وردت الصّراة، فقال: إن كان بقِيَ شيء فاقذفوه في الماء.

وقال سفيان بن الأبرد للحجّاج: ابْعَثِني إلى شَبِيب أستقبله قبل أنْ يَرِد الكوفة، فقال: لا، ما أحبّ أن نفترق حتى ألقه في جماعتكم، والكوفة في ظهرنا، وأقبل شبيب حتى نزلَ حَمّام أعين، ودعا الحجاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثقفيّ فوجّهه في ناس لم يكونوا شهدُوا يوم عتاب. فخرج في ألف رجل، حتى انتهى إلى شبيب ليدفعه عن الكوفة، فلما رآه شبيب حَمَل عليه فقتَله، وفَلّ أصحابه. فجاؤوا حتى دخلوا الكوفة، وبعث شبيب البَطِين في عَشَرة فوارس يرتادون له منزلاً على شاطىء الفرات، في دار الرزق، فوجّه الحجاج حوشب بن يزيد، في جمع من أهل الكوفة، فأخذُوا بأفواه السكك، فقاتلهم البطيم فلم يَقْوَ عليهم، فبعث إلى شبيب، فأمدّه بفوارس من أصحابه، فعقروا فرس حَوْشب وهزموه، فنجا بنفسه، ومضى البَطِين إلى دار الرزق في أصحابه، ونزل شبيب بها، ولم يوجّه إليه الحجاج أحداً، فابتنى مسجداً في أقصى السَّبَخة، وأقام ثلاثاً لم يوجّه إليه الحجاج أحداً، ولا يخرج إليه من أهل

(١) البِدَر: جمع بدرة وهي جلد السخلة إذا فُطِم. اللسان، مادة (بدر).

الكوفة، ولا من أهل الشام أحَدٌ، وكانت امرأته غزالة نَذَرت أن تصلّيَ في مسجد الكوفة ركعتين، تقرأ فيهما بالبقرة وآل عمران.

فجاء شبيبٌ مع امرأته حتى أوفَتْ بنذرها في المسجد، وأشير على الحجاج أن يخرُج بنفسه إليه، فقال لقتيبة بن مسلم: إنّي خارج، فاخرج أنت، فارتدْ لي معسكراً، فخرج وعاد، فقال: وجدت المَدَى سهلاً، فسر أيها الأمير على اسم الله والطائر الميمون، فخرج الحجّاج بنفسه، ومرَّ على مكان فيه كناسة وأقذار، فقال: ألقوا لي هنا بساطاً، فقيل له: إنّ الموضع قَذِرَ، فقال: ما تدعوني إليه أقذر، الأرضُ تحته طيبة، والسماء فوقه طيبة.

ووقف هناك وأخرج مولى له يعرف بأبي الورد، وعليه تِجْفَاف[1]، وأحاط به غِلْمان كثير وقيل: هذا الحجاج، فحمل عليه شبيب فقتله، وقال: إن يكن الحجاج، فقد أرَحْتُ الناس منه، ودلف الحجاج نحوه حينئذٍ، وعلى ميمنته مطر بن ناجية، وعلى ميسرته خالد بن عتاب بن ورقاء، وهو في زهاء أربعة آلاف، فقيل له: أيها الأمير لا نعرف شبيبًا بمكانك، فتنكّر وأخفى مكانه، وتشبه به مولى آخر للحجاج في هيئته وزيه، فحمل عليه شبيب، فضربه بالعمود فقتله، ويقال إنه قال لما سقط: «أخ» بالخاء المعجمة فقال شبيب: قاتل الله ابن أمّ الحجاج! اتقى الموت بالعبيد، وذلك أن العرب تقول عند التأوه «أح» بالحاء المهملة.

ثم تشبّه بالحجاج أعيَن صاحب حَمّام أعيَن، ولبس لبسته، فحمل عليه شبيب فقتله، فقال الحجاج: عليّ بالبغل لأركبه، فأتِيَ ببغل محجَّل، وقيل: أيها الأمير، أصلحك الله! إنّ الأعاجم كانت تتطيّر أن تركب مثل هذا البغل في مثل هذا اليوم، فقال: أدنوه مني فإنّه أغرّ محجّل، فركبه، ثم سار في الناس يميناً وشمالاً ثم قال: اطرحوا لي عَباءة، فطرِحَتْ له، فنزل فجلس عليها، ثم قال: ائتوني بكرسيّ، فأتِيَ به، فقام فجلس عليه ثم نادى أهلَ الشام، فقال: يا أهلَ الشام، يا أهلَ السمع والطاعة، لا يغلِبَنّ باطلُ هؤلاء الأرجاس حقَّكم، غُضّوا الأبصار، واجثوا على الرُّكَب، واستقبلوا القوم بأطراف الأسِنّة، فجثوْا على الرُّكَب، وكأنهم حَرّة سوداء.

ومنذ هذا الوقت ركدت ريح شبيب، وأذِن الله تعالى في إدبار أمره، وانقضاء أيامه فأقبل، حتى إذا دنا من أهل الشام عَبّى أصحابَه ثلاثة كراديس، كَتِيبة معه، وكَتِيبة مع سُويد بن سُليم وكتيبة مع المحلّل بن وائل، وقال لسُويَد: احمل عليهم في خيلك، فحمَل عليهم فثبتوا له حتى

---

(١) التجفاف: ما جلل به الفرس من سلاح أو آله تقيه الجراح، وقد يلبسه الإنسان أيضاً. اللسان، مادة (جفف).

إذا غَشِيَ أطراف أسنتهم، وثبوا في وجهه، فقاتلهم طويلاً، فصبروا له، ثم طاعنوه، قُدُمًا قُدُمًا، حتى ألحقوه بأصحابه.

فلما رأى شبيب صبرَهم، نادى: يا سُوَيد، احمل في خيلك في هذه الرايات الأخرى لعلّك تزيل أهلها، فتأتِي الحجاجَ من ورائه، ونحمِل نحن عليه من أمامه. فحمل سويد على تلك الرايات، وهي بين جدران الكوفة، فرمى بالحجارة من سطوح البيوت، ومن أفواه السّكك، فانصرف ولم يظفروا.

ورماهم عُروة بن المغيرة بن شعبة بالسهام، وقد كان الحجاج جعله في ثلاثمائة رامٍ من أهل الشام رِدْءاً له كي لا يؤتى من ورائه، فصاح شبيب في أصحابه:

يا أهلَ الإسلام! إنما شَرَيْتُم لله، ومن يكن شراؤه لله لـم يضرّه ما أصابه من ألـم وأذى لله يوكم! الصبرَ الصبر، شَدّة كشدّاتِكم الكريمة في مواطنكم المشهورة.

فشدّوا شَدّة عظيمة، فلم يزُل أهل الشام عن مراكزهم، فقال شبيب: الأرضَ! دبّوا دبيباً تحت تِراسكم، حتى إذا صارت أسِنّة أصحاب الحجاج فوقها، فأذْلِقُوها صُعُداً، وادخلوا تحتها، واضرِبُوا سوقهم وأقدامهم، وهي الهزيمةُ بإذن الله. فأقبلوا يدبُّون دبيباً تحت الجَحَف: صمْداً صمْداً، نحو أصحاب الحجاج.

فقال خالد بن عتاب بن ورقاء: أيّها الأمير، أنا موتور، ولا أتّهم في نصيحتي، فأذَنْ لي حتى آتِيَهم من ورائهم، فأغيرَ على معسكرهم وثَقلهم، فقال: افعل ذلك، فخرج في جَمْع من مواليه وشَاكِريّتِه وبني عمّه، حتى صار من ورائهم، فالتقى بمصَاد أخي شبيب فقتله، وقَتَل غَزالَ امرأة شبيب، وألقى النار في معسكرهم، والتفت شبيب والحجّاج، فشاهدا النار، فأمّا الحجّاج فكبّر وكبّر أصحابُه، وأما شبيب، فوثب هو وكلُّ راجل من أصحابه على خيولهم مرعوبين، فقال الحجّاج لأصحابه: شُدّوا عليهم، فقد أتاهم ما أرعبهم، فشدُّوا عليهم فهزموهم، وتخلّف شبيب في خاصّة الناس، حتى خرج من الجسر، وتبعه خيل الحجّاج وغَشِيه النُّعاس، فجعل يخفق برأسه، والخيل تطلبه.

قال أصغر الخارجيّ: كنت معه ذلك اليوم، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، التفتْ فانظر مَنْ خلفك، فالتفتَ غير مكترِث، وجعل يخفِق برأسه. قال: ودَنوْا منا، فقلت: يا أميرَ المؤمنين قد دنا القوم منك، فالتفت والله ثانية غيرَ مكترث بهم، وجعل يخفِق برأسه، وبعث الحجاج خيلاً تركض تقول: دعوه يذهب في حرق الله، فتركوه وانصرفوا عنه.

ومضى شبيب بأصحابه، حتى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا دَيْراً هناك، وخالد بن عتاب يقفوهم، فحصرهم في الدير، فخرج شبيب إليه فهزمه وأصابه نحواً من فرسخين، حتى ألقى

خالد نفسه في دجلة هو وأصحابه بخيولهم، فمرّ به شبيب، فرآه في دجلة، ولواؤه في يده فقال: قاتله الله فارساً، وقاتل فرَسه! فرس هذا أشدُّ الناس قوة، وفرسه أقوى فرس في الأرض، وانصرف، فقيل له بعد انصرافه: إنّ الفارس الذي رأيت هو خالد بن عتاب بن ورقاء، فقال: معرق في الشجاعة! لو علمت لأقحمت خَلْفه، ولو دخل النار.

ثم دخل الحجاج الكوفة بعد هزيمة شبيب، فصعد المنبر، وقال: والله ما قُوتل شبيب قطّ قبل اليوم، ولّى هارباً، وترك امرأته يُكسر في استّها القصب.

ثم دعا حبيب بن عبد الرحمن فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل اشام، وقال: احذر بَيَاته، وحيثما لقيته فنازله، فإنّ الله تعالى قد فَلَّ حَدَّه، وقصم نابه. فخرج حبيب في أثرِه حتى نزل الأنبار، وبعث الحجاج إلى العمال: أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب، مَنْ جاءنا منكم فهو آمن، فكان كلُّ مَنْ ليست له بصيرة في دين الخوارج، ممن هزَّه القتال. وكرهه ذلك اليوم يجيء فيؤمن. وقبل ذلك كان الحجّاج نادى يوم هُزِم شبيب: من جاءنا فهو آمن، فتفرّق عن شبيب ناسٌ كثير من أصحابه.

وبلغ شبيباً منزلُ حبيب بن عبد الرحمن بالأنبار، فأقبل بأصحابه حتى دنا منه، فقال يزيد السّكسكي: كنت مع أهل الشام بالأنبار ليلةَ جاءنا شبيب، فبيّتنا، فلما أمسينا جمَعنا حبيب بن عبد الرحمن، فجعلَنا أرباعاً، وجعل على كلِّ رُبْع أميراً، وقال لنا: لِيَحْم كلّ رُبِع منكم جانبَه فإن قُتِل هذا الربع فلا يُعنْهم الرُّبْع الآخر، فإنه بَلَغني أنّ الخوارج منكم قريب، فوطّنُوا أنفسَكم على أنكم مبيّتون فمقاتَلُون، قال: فما زِلنا على تعبيتنا حتى جاءنا شبيب تلك الليلة فبيَّتنا، فشدّ على رُبْع مِنّا فصابرهم طويلاً، فما زالت قدمُ إنسان منهم. ثم تركهم وأقبل إلى ربع آخر فقاتلهم طويلاً فلَم يظفر بشيء، ثم طاف بنا يحمل علينا رُبْعاً رُبْعاً، حتى ذهب ثلاثة أرباع الليل ولصِق بنا حتى قلنا: لا يفارقنا، ثم ترجَّل فنازَلَنا راجلاً نِزَالاً طويلاً هو وأصحابه، فسقطتْ والله بيننا وبينهم الأيدي والأرجل، وفُقِئت الأعين، وكَثُرتْ القتلى، فقتلنا منهم نحو ثلاثين وقَتلوا منّا نحو مائة، وايمُ الله لو كانوا أكثر من مائتي رجل لأهلكونا، ثم فارقونا وقد مَلِلْناهم ومَلّونا، وكرهناهم وَكرهونا، ولقد رأيتُ الرجُل مِنّا يضرب الرجل منهم بالسيف فما يضره من الإعياء والضعف، ولقد رأيتُ الرجل منّا يقاتل جالساً ينفح بسيفه ما يستطيع أن يقومَ من الإعياء والبُهْر[1]. حتى ركب شبيب، وقال لأصحابه الذين نزلوا معه: اركبُوا، وتوجّه بهم مُنْصرِفاً عنا.

فقال فروة بن لقيط الخارجي - وكانَ شهد معه مواطنه كلها - قال لنا ليلتئذ، وقد رأى بنا

(١) البهر: الغلبة. اللسان، مادة (بهر).

كآبة ظاهرة، وجراحاتٍ شديدة: ما أشدّ هذا الذي بنا لو كنا نطلب الدنيا! وما أيسرَ هذا في طاعة الله وثوابه! فقال أصحابُه: صدقتَ يا أمير المؤمنين.

قال فَرْوة بن لقيط: وسمعتُه تلك الليلة يحدّث سوَيد بن سُلَيم، ويقول له: لقد قتلت منهم أمسِ رَجُلَيْن من أشجع الناس، خرجت عشيَّة أمس طليعة لكم، فلقيتُ منهم ثلاثة نفر دخلُوا قرية يشترون منها حوائجهم، فاشترى أحدُهم حاجته، وخرج قبل أصحابه فخرجت معه، فقال لي: أراك لم تشتر عَلَفاً! فقلت: إنّ لي رُفقاء قد كَفَوْني ذلك، ثم قلت له: أين تَرَى عَدُوَّنا هذا نزل؟ فقال: بلغني أنه قد نزل قريباً منّا، وايمُ الله لوَدِدْتُ أني لقيتُ شبيبهم هذا قلت: أفتحِبّ ذلك؟ قال: إي والله، قلت: فخذ حِذْرَك، فأنا والله شبيب، وانتضيتُ السيف فخرّ والله ميتاً فقلت له: ارتفع ويحك! وذهبت أنظر فإذا هو قد مات فانصرفت راجعاً فاستقبلت الآخر خارجاً من القرية، فقال: أين تذهبُ هذه الساعة التي يرجع فيها الناس إلى معسكرهم؟ فلم أكلّمه، ومضيت، فنفرتْ بي فرسي، وذهبت تتمطّر، فإذا به في أثَري حتى لحقني، فعطفت عليه، وقلت: ما بالك؟ قال: أظنك والله من عَدُوِّنا. قلت أجل والله، قال: إذاً لا تبرح حتى أقتلك أو تقتلني، فحملت عليه وحَمَل عليّ، فاضطربنا بسَيْفَيْنَا ساعة، فوالله ما فَضَلْتُه في شدَّة نفس ولا إقدام، إلّا أنّ سيفي كان أقطع من سيفه فقتلته.

وبلغ شبيباً أنّ جند الشام الذي مع حبيب حملوا معهم حَجَراً، وحلفوا لا يفرّون حتّى يفرّ هذا الحجرُ، فأراد أن يُكذّبهم، فعمَد إلى أربعة أفراس، وربط في أذنابها تِرَسَة، في ذَنَب كل فرس تُرْسين، ثم نَدَب ثمانية نفر من أصحابه، وغلاماً له يقال له حيّان - كان شجاعاً فاتكاً - وأمره أن يحمل معه إدَاوةً من ماء، ثم سار ليلاً حتى أتى ناحية من عَسْكرِ أهل الشام، فأمر أصحابه أن يكونوا في نواحي العسكر الأربع، وأن يكون مع كلِّ رجلَين فرس: ثم يلبسوها الحديد حتى تَجِدَ حَرَّه، ثم يخلُّوها في العسكر، وواعدهم تَلْعَةً[1] قريبة من العسكر، وقال: مَنْ نجا منكم، فإن موعدَه التّلعة، فكرِه أصحابُه الإقدام على ما أمرهم، فنزل بنفسه حتى صَنَع بالخيل ما أمرهم به، حتى دخلتْ في العسكر، ودخل هو يتلوها، ويشدّ خلفها شَدًّا محكماً فتفرّقت في نواحي العسكر، واضطرب الناس، فضرب بعضُهم بعضاً، وماجوا، ونادى حبيبُ بن عبد الرحمن: ويحكم إنها مكيدة! فالزَموا الأرض حتى يتبين لكم الأمر، ففعلوا وحصل شبيب بينهم، فلزم الأرضَ معهم، حتى رآهم قد سكنوا، وقد أصابَتْه ضربة عمود أوْهَنَتْه.

(١) التلعة: أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل، والتلعة مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض. اللسان، مادة (تلع).

فلما هدأ الناس ورجعوا إلى مراكزهم فخرج في غُمارهم، حتى أتى التَّلْعة، فإذا مولاه حيّان، فقال: أفرغ وَيْحَك على رأسي مِنْ هذه الإداوة! فلمّا مدّ رأسه لِيَصُبّ عليه من الماء هَمّ حيان بضرب عنقه، وقال لنفسه: لا أجِدُ مكرمة لي، ولا ذِكْراً أرْفَعَ من هذا في هذه الخَلْوة، وهو أماني من الحجاج، فأخذته الرِّعْدة حين هَمّ بما همّ به، فلما أبطأ عليه، قال له: ويحك! ما انتظارُك بحلِّها! ناولْنِيها، وتناول السِّكين من مَوْزِجه فخرقها به، ثم ناوله إيّاها، فأفرغ عليه من الماء، فكان حيّان بعد ذلك يقول: لقد هممت فأخذَتْني الرِّعدة فجبُنت عنه، وما كنتُ أعهد نفسي جَبَاناً.

ثم إنّ الحجاج أخرج الناس إلى شبيب، وقَسَّم فيهم أموالاً عظيمة، وأعطى الجرْحَى وكلَّ ذي بلاء، وأمر سفيان بن الأبرد أن يسيرَ بهم، فشقَّ ذلك على حبيب بن عبد الرحمن وقال: تبعث سفيان إلى رجل قد فللتُه، وقتلتُ فرسانَه! وكان شبيب قد أقام بِكَرْمَان حتى جبر واستراش هو وأصحابه، فمضى سفيان بالرِّجال، واستقبله شبيب بدُجيل الأهواز، وعليه جسر معقود، فعبر إلى سفيان، فوجده قد نزل بالرجال، وجعل مهاصر بن صيفيّ على خيله وبشر بن حسان الفِهْرِيّ عَلَى ميمنته، وعمر بن هبيرة الفزاري على ميسرته، وأقبل شبيب في ثلاثة كراديس، هو في كَتِيبة، وسويد بن سليم في كَتيبة، وقَعْنب في كَتِيبة، وخلف المحلّل في عسكره، فلما حَمَلَ سُوَيد وهو في ميمنته على ميسرة سُفيان وقَعنب وهو في ميسرته على ميمنة سفيان، حَمَلَ هو على سفيان، ثم اضطربوا مليًّا، حتى رجعت الخوارج إلى مكانها الذي كانوا فيه.

فقال يزيد السَّكسكي - وكان ن أصحاب سفيان يومئذٍ: كَرّ علينا شبيب وأصحابه أكثر من ثلاثين كَرّة، ولا يزول من صفّنا أحدٌ، فقال لنا سفيان: لا تحملوا عليهم متفرقين، ولكن لتزحفْ عليهم الرجال زحفاً، ففعلنا، وما زلنا نطاعِنُهم حتى اضطرارناهم إلى الجسر، فقاتلونا عليه أشدَّ قتال يكون لقوم قَطّ. ثم نزل شبيب، ونزل معه نحو مائة رجل، فما هو إلا أن نَزَلُوا حتى أوْقَعُوا بنا من الضَّرْب والطعن شيئاً ما رأينا مثله قَطّ، ولا ظنناه يكون، فلما رأى سفيان أنّه لا يقدر عليهم، ولا يأمَنُ ظفرهم، دعا الرّماة فقال: ارشُقُوهم بالنَّبْل، وذلك عند المساء وكان الالتقاء ذلك اليوم نصفَ النهار، فرشَقهم أصحابُه، وقد كان سفيان صَفَهم على حِدَة وعليهم أمير، فلما رَشَقُوهم شَدُّوا عليهم، فشَدَدنا نحن، وشغلناهم عنهم، فلما رأوا ذلك ركب شبيبٌ وأصحابه، وكَرّوا على أصحاب النَّبْل كَرّة شديدة، صرعوا منهم فيها أكثر من ثلاثين رامياً، ثم عطف علينا يُطاعننا بالرماح، حتى اختلط الظلام، ثم انصرف عنا، فقال سفيان بن الأبرد لأصحابه، يا قوم، دعوهم لا تتَّبعوهم، يا قوم دَعُوهم حتى نُصْبحَهم. قال: فكففنا عنهم وليس شيء أحبَّ إلينا من أن ينصرفوا عنا.

قال فروة بن لقيط الخارجيّ: فلما انتهينا إلى الجسر، قال شبيب: اعبُروا معاشر المسلمين فإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله تعالى، قال: فعبرنا أمامه، وتخّلف في آخرنا، وأقبل يعبُر الجسر، وتحته حصان جَمُوح، وبين يديه فرس أُنثى ماذيانة، فنزا حصانُه عليها وهو على الجسر، فاضطربت الماذيانة، وزَلّ حافر فرس شبيب عن حَرْف السفينة، فسقط في الماء، فسمعناه يقول لما سقط: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾(١) واغتمس في الماء ثم ارتفع فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(٢) ثم اغتمس في الماء، فلم يرتفع.

هكذا روى أكثرُ الناس. وقال قوم: إنه كان مع شبيب رجال كثيرٌ بايعوه في الوقائع التي كان يهزم الجيش فيها، وكانت بيعتُهم إياه على غير بصيرة، وقد كان أصاب عشائرهم وساداتهم، فهم منه موتورن، فلما تخلّف في أُخْرَيات الناس يومئذ، قال بعضهم لبعض: هل لكم أنْ نقطع به الجسر، فندرك ثأرنا الساعة! فقالوا: هذا هو الرأي، فقطعوا الجسر، فمالت به السفينة، ففزِع حصانُه ونفَر، فسقط في الماء وغَرِق.

والرواية الأولى أشهر، فحدث قومٌ من أصحاب سُفيان، قالوا: سمعنا صوتَ الخوارج يقولون: غَرِق أمير المؤمنين، فعبَرْنا إلى عسكرهم، فإذا هو ليس فيه صافر ولا أثر، فنزلْنا فيه، وطلبنا شَبيباً حتى استخرجناه من الماء، وعليه الدرْع، فيزعم الناس أنهم شقوا بطنه وأخرجوا قلبَه فكان مجتمعاً صُلْباً كالصخرة، وأنه كان يضرب به الأرض فينبُو، ويثب قامة الإنسان.

ويحكى أن أم شبيب كانت لا تصدّق أحداً نعاه إليها، وقد كان قيل لها مراراً إنه قد قتل فلا تقبل، فلما قيل لها: إنه قد غرق بكتْ، فقيل لها في ذلك، فقالت: رأيت في المنام حين ولدْتُه أنه خرج من فَرْجي نارٌ ملأت الآفاق، ثم سقطت في ماء فحمدت، فعلمت أنه لا يهلِك إلا بالغرق.

وهذا آخر الجزء الرابع

من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

ويتلوه الجزء الخامس إن شاء الله

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.
(٢) سورة يّس، الآية: (٣٨).

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الجزء الثالث

الجزء الرابع

شرح
نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الثالث
٥ - ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الكتاب العربي

بغداد - شارع المتنبي

تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

خلوي: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١٥٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٧٢٦٤٠٨

http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين.

٥٨ - وقال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج وقيل له: إنّ القوم قد عبروا جسر النَّهْروان

الأصل: مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَٱللهِ لاَ يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ، وَلاَ يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ.

قال الرضيّ رحمه الله: يَعْني بالنُّطْفَةِ ماء النَّهْر، وهِيَ أفْصَح كناية عنِ الماءِ وإنْ كَانَ كَثيراً جَمًّا، وَقَدْ أشرنا إلى ذلِكَ فيما تَقَدَّمَ عِنْدَ مُضِيِّ ما أشْبَهَه.

الشرح: هذا الخبرُ من الأخبار التي تكاد تكون متواتِرة؛ لاشتهاره ونَقْل الناس كافَّة له، وهو من معجزاته وأخباره المفصّلة عن الغيوب.

والأخبار على قسمين: أحدُهما: الأخبار المجمَلة، ولا إعجازَ فيها: نحو أن يقولَ الرجلُ لأصحابه: إنكم سَتُنْصَرون على هذه الفئة التي تلقوْنها غداً، فإنْ نُصِر جعل ذلك حُجّةً له عند أصحابه وسمّاها معجزة، وإن لم يُنْصَر، قال لهم: تغيَّرتْ نِيّاتُكم وشَكَكْتُمْ في قولي، فمنَعكم الله نصره، ونحو ذلك من القول: ولأنه قد جرت العادةُ أن الملوكَ والرؤساء يَعِدُون أصحابَهم بالظَّفر والنّصر، ويُمَنُّونهم الدُّوَل، فلا يدلُّ وقوعُ ما يقع من ذلك على إخبار عن غَيْب يتضمَّن إعجازاً.

والقسم الثاني: في الأخبار المفصّلة عن الغيوب، مثل هذا الخبر، فإنه لا يحتمل التلبيس، لتقييده بالعَدَد المعين في أصحابه وفي الخوارج، ووقوع الأمر بعد الحرب بموجبه من غير زيادة ولا نقصان، وذلك أمرٌ إلهيٌّ عرفه من جهة رسول الله صلى الله عليه وآله، وعَرَفه رسول الله صلى الله عليه وآله من جهة الله سبحانه. والقُوّة البشرية تقصرُ عن إدراك مِثل هذا، ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكُنْ لغيره.

وبمقتضى ما شاهد الناس من معجزاته وأحواله المنافية لقُوَى البشر، غَلا فيه مَنْ غلا، حتى نُسِب إلى أنّ الجوهرَ الإلهيّ حلّ في بدنه، كما قالت النصارى في عيسى عليه السلام، وقد أخبره النبيّ صلى الله عليه وآله بذلك، فقال: «يهلِك فيك رجلان: محبٌّ غالٍ، ومُبغض قالٍ»[1]. وقال له تارة

(١) الذي ورد في مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٤٧٣): «اللهم العن كل مبغض لنا قال، وكل محب لنا غال» وكذلك في السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٤٧٧).

أخرى: «والّذي نفسي بيده، لولا أنّي أشفِق أن يقول طوائفُ من أمّتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً، لا تمرّ بملإٍ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة»[(١)].

ظهور الغلاة

وأوّل مَنْ جَهَرَ بالغُلُوِّ في أيامه عبدُ الله بن سَبأ، قام إليه وهو يخطب، فقال له: أنتَ أنتَ! وجعل يكرِّرها، فقال له: وَيْلَك! مَنْ أنا؟ فقال: أنت الله، فأمر بأخذِه وأخذِ قومٍ كانوا معه على رأيه.

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله، عن عَمّارٍ الثقفيّ، عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ، عن أبيه وعن غيره من مشيخته، أنّ عليًا قال: يهلِك فيّ رجلان: محبٌّ مُطْرٍ يَضَعُني غير موضعي ويمدحُني بما ليس فيَّ، ومبغض مفْتَرٍ يرميني بما أنا منه بريء».

وقال أبو العباس: وهذا تأويل الحديث المرويّ عن النبيّ ﷺ فيه، وهو قوله: «إن فيكَ مَثَلاً من عيسى ابن مريم، أحبّته النصارى فرفعته فوق قَدْره، وأبغضته اليهودُ حَتّى بَهَتَتْ أمَّه»[(٢)].

قال أبو العباس: وقد كان عليّ عَثَرَ على قوم خرجوا من محبَّتِه باستحواذ الشيطان عليهم، إلى أنْ كَفرُوا بربِّهم، وجحدوا ما جاء به نبيُّهم، واتخذوه رَبًّا وإلهاً، وقالوا: أنت خالِقُنا ورازقنا، فاستَتابَهُم وتَوَعَّدَهم، فأقاموا على قولهم، فحفر لهم حفراً دخّن عليهم فيها طمعاً في رجوعهم، فأبَوا، فحرقهم بالنار، وقال:

ألاَ تَـرَوْنَ قَـدْ حَـفَـرْتُ حَـفَـراً ... إنّـي إذَا رأيـتُ أمـراً مُـنْـكَـرَا
وقَـدتُ نـارِي وَدَعَـوْتُ قَـنْـبَـرَا

وروي أصحابُنا في كتب المقالات أنّه لما حرّقهم صاحوا إليه: الآن ظهر لنا ظهوراً بيّناً أنّك أنت الإله؟ لأنّ ابنَ عمك الذي أرسلته قال: «لا يعذِّب بالنار إلا ربُّ النار».

وروى أبو العباس، عن محمد بن سليمان بن حبيب المِصّيصيّ عن عليّ بن محمد النوفليّ، عن أبيه ومشيخته، أنّ عليًا مَرَّ بهم وهم يأكلون في شهر رمضان نهاراً، فقال: أسَفْرٌ أم مرضى؟ قالوا: ولا واحدة منهما، قال: أفمِنْ أهل الكتاب أنتم؟ قالوا: لا، قال: فما بالُ الأكل في شهر رمضان نهاراً! قالوا: أنت أنت! لم يزيدوه على ذلك، ففهِم مُرادَهم، فنزل عن فَرَسِه،

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٣١).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» في كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٢٧٢٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٢٢)، والبزار في «مسنده» (٧٥٨).

فألصق خدّه بالتراب، ثم قال: وَيْلَكم! إنّما أنا عبدٌ من عبيد الله، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام، فأبَوْا، فدعاهم مراراً، فأقاموا على أمرهم، فنهض عنهم، ثم قال: شُدُّوهم وَثاقاً، وعليّ بالفَعلة[1] والنار والحطب، ثم أمَرَ بحفْر بئرين، فحفرتا، فجعل إحداهما سَرَباً[2]، والأخرى مكشوفة، وألقى الحَطَب في المكشوفة، وفتح بينهما فَتْحاً، وألقى النار في الحطب، فدخَّن عليهم، وجعل يهتف بهم، ويناشدهم: ارجعوا إلى الإسلام، فأبَوْا، فأمر بالحطب والنار، وألقى عليهم، فاحترقوا، فقال الشاعر:

لِتَرْمِ بيَ المَنِيَّةُ حَيثُ شاءَتْ ... إذا لَمْ تَرْمِ بي في الحُفرتَيْنِ

إذا ما حُشّتا حطباً بنارٍ ... فذاكَ الموتُ نَقداً غيرَ دَيْنِ

قال: فلم يبرحْ وَاقفاً عليهم حتى صاروا حُمَماً[3].

قال أبو العباس: ثم إن جماعة من أصحاب عليّ، منهم عبد الله بن عباس، شَفَعوا في عبد الله بن سَبَأ خاصَّة، وقالوا: يا أمير المؤمنين، إنه قد تابَ فاعفُ عنه، فأطلقه بعد أن اشترط عليه ألاّ يقيمَ بالكوفة، فقال: أين أذهب؟ قال: المدائن، فنَفاه إلى المدائن، فلما قُتِل أميرُ المؤمنين عليه السلام أظهر مقالته، وصارت له طائفة وفِرْقة يصدّقونه ويتّبعونه. وقال لما بلغه قتلُ عليّ: والله لو جئتمونا بدِماغه في سبعين صُرّة، لعلمنا أنّه لم يمت، ولا يموت حتى يسوق العربَ بعصاه. فلما بلغ ابنَ عباس ذلك، قال: لو علمنا أنه يرجع لما تزوّجْنا نساءه، ولا قَسَمْنا ميراثه.

قال أصحاب المقالات: واجتمع إلى عبد الله بن سبأ بالمدائن جماعة على هذا القول، منهم عبد الله بن صَبْرة الهمْداني، وعبد الله بن عَمرو بن حرب الكِنديّ، وآخرون غيرهما، وتفاقم أمرُهم.

وشاع بين الناس قولهم، وصار لهم دعوة يدعُون إليها، وشبهة يرجعون إليها، وهي ما ظهر وشاع بين الناس، من إخباره بالمغيَّبات حالاً بعد حال، فقالوا: إن ذلك لا يمكن أن يكون إلاّ من الله تعالى، أو ممّنْ حَلّتْ ذاتُ الإله في جَسَدِه، ولَعَمْري إنه لا يقدر على ذلك إلا بإقدار الله تعالى إياه عليه، ولكن لا يلزم من إقداره إياه عليه أن يكون هوَ الإله، أو تكون ذات الإله حالّة فيه. وتعلق بعضُهم بشبهة ضعيفة، نحو قول عمر - وقد فقأ عليّ عينَ إنسان ألحدَ في الحرم -: ما أقول في يدِ الله، فقأت عيناً في حرم الله! ونحو قول عليّ: والله ما قلعتُ بابَ خيبر بقوّة

(١) الفَعَلة: صفة غالبة على عَمَلة الطين والحفر ونحوهما، اللسان، مادة (فَعَلَ).
(٢) السَّرب: حفير تحت الأرض، وقيل: بيت تحت الأرض. اللسان، مادة (سَرَبَ).
(٣) أخرجه السيد مرتضى العسكري في عبد الله بن سبأ: ٢/ ١٩٠.

جسدانية، بل بقوة إلهية، ونحو قول رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله وحدَه، صدق وعدَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزَاب وحده»، والذي هزم الأحزاب هو عليّ بن أبي طالب، لأنه قتل بارعَهم وفارسَهم عَمْراً لما اقتحموا الخندق، فأصبحوا صبيحة تلك الليلة هاربين مفلولين، من غير حربٍ سوى قتل فارسهم. وقد أومأ بعضُ شعراء الإمامية إلى هذه المقالة، فجعلها من فضائله، وذلك قوله:

إذا كُنْتُمُ مِمَّن يرومُ لحاقَهُ ... فهلا برزتمْ نَحْو عَمْرٍو وَمَرْحَبِ
وكيفَ فررتمْ يومَ أُحُدٍ وَخَيْبَرٍ ... ويومَ حُنَيْنٍ مَهْرَباً بَعْدَ مَهْرَبِ
ألم تشهدوا يوم الإخاء وبيعة ... الغدير وكلٌّ حُضَّرٌ غير غُيَّبِ
فكَيْفَ غدا صِنْوُ النُّفيليّ وَيْحَهُ ... أميراً على صِنْو النبيِّ المرجَّبِ!
وَكَيْفَ عَلاَ من لا يطا ثوب أحمدٍ ... عَلَى مَنْ عَلاَ مِنْ أحمَدٍ فوق مِنْكَبِ
إمامُ هُدًى رُدَّتْ له الشمسُ جَهْرَةً ... فصَلَّى أداءً عَصْرَهُ بَعْدَ مَغْرِبِ
وَمِنْ قَبْلِهِ أفْنَى سليمانُ خَيْلَهُ ... رَجَاءً فلَمْ يبلُغْ بها نَيْل مَطْلَبِ
يجِلُّ عن الأفهَامِ كُنْهُ صفاتِهِ ... ويرجع عنها الذِّهْنُ رَجْعَةَ أخْيَبِ
فليسَ بيانُ القول عنهُ بكاشِفٍ ... غِطاءً، ولا فصلُ الخطاب بمغْرِبِ
وحقَّ لقبرٍ ضَمَّ أعضَاءَ حَيْدَرٍ ... وغُودِرَ مِنْهُ في صَفِيحٍ مُغَيَّبِ
يَكُونُ ثَرَاهُ سِرَّ قُدْسٍ مُمَنَّعٍ ... وَحَصْبَاؤُهُ مِنْ نُورِ وَحْيٍ مُحَجَّبِ
وتغشاه من نور الإله غمامة ... تُغَاديه من قُدْس الجَلاَلِ بِصَيِّبِ
وتنقضُّ أسرابُ النُّجُومِ عَوَاكِفاً ... عَلَى حُجْرَتَيْهِ كَوكَبٌ بَعْدَ كَوْكَبِ
فلولاكَ لم ينجُ ابن مَتَّى ولا خَبَا ... سَعِيرٌ لإبراهيم بعدَ تَلَهُّبِ
ولا فلق البحرَ ابنُ عمرانَ بالعَصَا ... ولا فَرَّتِ الأحزابُ عَنْ أهْلِ يَثْرِبِ
وَلاَ قُبِلَتْ من عابدٍ صَلَوَاتُهُ ... وَلاَ غَفَرَ الرَّحْمٰنُ زَلَّةَ مُذْنِبِ
ولم يغلُ فيك المسلمونَ جَهَالَةً ... ولكنْ لسرٌ في عُلاك مُغَيَّبِ

وقالوا أيضاً: إنَّ بَكْرِيًّا وشيعيًّا تجادلا، واحتكما إلى بعض أهل الذِّمّة، ممن لا هوى له مع أحد الرجلين في التفضيل، فأنشدهما:

كَم بَيْنَ مَنْ شَكَّ في عَقِيدَتِهِ ... وَبَيْنَ مَنْ قِيلَ إِنَّهُ اللهُ!

فأما الإخبار عن الغيوب، فلمعترض أن يقول: قد يقع الإخبار عن الغيوب من طريق

النُّجوم، فإنّ المنجّمين قد اتفقوا على أن شكلاً من أشكال الطالع إذا وقع لمولود، اقتضى أن يكون صاحبُهُ متمكناً من الإخبار عن الغيوب.

وقد يقع الإخبار عن الغيوب من الكُهّان، كما يحكى عن سَطِيح، وشِقّ، وسَواد بن قارب وغيرهم.

وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأصحاب زَجْر الطير والبهائم، كما يحكى عن بني لِهْب في الجاهلية.

وقد يقع الإخبار عن الغيوب للقَافَة(١)، كما يحكى عن بني مُدْلِج.

وقد يخبر أرباب النّيرنجات(٢) وأرباب السّحر والطّلّسمات بالمغيبات. وقد يقع الإخبار عن الغيوب لأرباب النفْس الناطقة القوية الصافية، التي تتصل مادتها الرُّوحانيّة على ما تقوله الفلاسفة. وقد يقع الإخبار عن الغيوب بطريق المنامات الصادقة، على ما رآه أكثرُ الناس، وقد وردت الشريعة نصًّا به.

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بأمرٍ صناعيّ يشبه الطبيعيّ، كما رأيناه عن أبي البيان وابنه.

وقد يقع الإخبار عن الغيوب بواسطة إعلام ذلك الغيب إنساناً آخرَ، لنفسه بنفس ذلك المخبر اتحاد أو كالاتحاد، وذلك كما يحكي أبو البَرَكات بن ملكا الطبيب في كتاب «المعتبر»(٣) قال: والمرأة العمياء التي رأيناها ببغداد، وتكرَّرت مشاهدتُنا لها منذ مدة مديدة، قدْرها ما يقارب ثلاثين سنة، وهي على ذلك إلى الآن تعرض عليها الخبايا، فتدلّ عليها بأنواعها وأشكالها ومقاديرها، وأعدادها، غريبها ومألوفها، دقيقها وجليلها، تجيب على أثر السؤال من غير توقّف ولا استعانة بشيء من الأشياء، إلا أنّها كانت تلتمس أن ترى الذي يُسأل عنه أبوها، أو يسمعه في بعض الأوقات دون بعض، وعند قوم دون قوم، ، فيتصوّر في أمرها أنّ الذي تقوله بإشارة من أبيها، وكان الذي تقولُه يبلغ من الكثرة إلى ما يزيد على عشرين كلمة، إذا قيل بصريح الكلام الذي هو الطريق الأخصر، وإنما كان أبُوها يقول إذا رأى ما يراه من أشياء كثيرة مختلفة الأنواع والأشكال في مدة واحدة كلمة واحدة، وأقصاه كلمتان، وهي التي يكرّرها في كلّ قول ومع كلّ ما يسمع، ويَرى: سلْها وسلْها تخبرك، أو قولي له، أو قولي يا صغيرة.

قال أبو البركات: ولقد عاندته يوماً وحاققته في ألاّ يتكلم البتّة، وأريتُه عدّة أشياء، فقال

---

(١) القافة: جمع مفرده قائف وهو الذي يعرف الآثار، يقال: قفتُ أثره إذا اتبعته.

(٢) نَيْرَنْج: أُخذَةٌ تشبه السحر والشعوذة وليست بحقيقة، فارسي معرب.

(٣) المعتبر في المنطق - والحكمة، لأبي البركات هبة الله بن ملكا البغدادي المتوفى سنة (٥٤٧هـ).

لفظة واحدة، فقلت له: الشَّرْط أملك، فاغتاظ واحتدّ طيشُه عن أن يملِكَ نفسَه، فباح بخبيئته، قال: ومثلُك يظنّ أنّني أشرت إلى هذا كله بهذه اللفظة! فاسمع الآن، ثم التفت إليها، وأخذ يشير بإصبعه إلى شيء، وهو يقول تلك الكلمة، وهي تقول: هذا كذا وهذا كذا، على الاتصال من غير توقّف، وهو يقول تلك الكلمة، لا زيادةَ عليها، وهي لفظة واحدة، بلَحْنٍ واحد، وهيئة واحدة، حتى ضَجِرْنا، واشتدّ تعجّبنا، ورأينا أنّ هذه الإشارة، لو كانتْ تتضمّن هذه الأشياء لكانت أعجبَ من كل ما تقوله العمياء.

قال أبو البركات: ومن عجيب ما شاهدناه من أمرها، أنّ أبَاها كان يغلط في شيء يعتقده على خلاف ما هو به، فتخبرُ هي عنه على معتقَد أبيها، كأنّ نفسَها هي نفسُه.

قال أبو البركات: ورأيناها تقول ما لا يعلمُه أبوها من خبيئة في الخبيئة التي اطّلع عليها أبوها، فكانت تطّلع ما قَدْ علمه أبوها، وعلى ما لم يعلمه أبوها، وهذا أعجب وأعجب.

قال أبو البركات: وحكاياتها أكثرُ من أن تُعَدّ، وعند كلّ أحد من الناس من حديثها ما ليس عند الآخر، لأنها كانت تقول من ذلك على الاتصال لشخص شخص جواباً بحسب السؤال.

قال: وما زلت أقولُ: إنَّ من يأتي بعدنا لا يصدّق ما رأيناه منها، فإن قلت لي: أريد أن تفيدَني العلّة في معرفة المغيّبات هذه؟ قلت: لك العلة التي تصلح في جواب «لِمَ» في نسبة المحمول إلى الموضوع تكون الحدّ الأوسط في القياس وهذه، فالعلّة الفاعلة الموجبة لذلك فيها هي نفسها بقوتها وخاصتها، فما الذي أقوله في هذا! وهلْ لي أن أجعل ما ليس بعلة عِلّة!

واعلم أنّا لا ننكر أن يكونَ في نوع البشر أشخاصٌ يخبرون عن الغيوب، ولكن كلّ ذلك مستند إلى الباريء سبحانه بإقداره وتمكينه وتهيئة أسبابه، فإن كان المخبِر عن الغيوب ممّن يدّعي النبوة لم يَجُز أن يكون ذلك إلا بإذن الله سبحانه وتمكينه، وأن يريد به تعالى استدلالَ المكلَّفين على صدق مُدّعِي النبوّة، لأنه لو كان كاذباً لكان يجوز أن يمكن الله تعالى الجنّ من تَعليمه ذلك إضلالاً للمكلّفين، وكذلك لا يجوز أن يمكِّن سبحانه الكاذب في ادعاء النبوّة من الإخبار عن الغيب بطريق السحر وتسخير الكواكب، والطِّلسمات، ولا بالزَّجْر، ولا بالقيافة، ولا بغير ذلك من الطرق المذكورة، لما فيه من استفساد البشر وإغوائهم.

وأما إذا لم يكن المخبر عن الغيوب مدّعياً للنبوة، نُظر في حاله، فإن كان ذلك من الصالحين الأتقياء نُسِب ذلك إلى أنه كرامة أظهرها الله تعالى على يدِهِ، إبانةً له وتمييزاً من غيره، كما في حق عليّ عَلَيْهِ السَّلَامْ، وإن لم يكن كذلك أمكَن أن يكونَ ساحراً أو كاهناً، أو نحو ذلك.

وبالجملة فصاحب هذه الخاصيّة أفضلُ وأشرف ممن لا تكون فيه، من حيث اختصاصُه بها، فإن كان للإنسان العاري منها مزية أخرى يختص بها توازيها، أو تزيد عليها، فنرجع إلى التّمييل والترجيح بينهما، وإلا فالمختصّ بهذه الخاصيَّة أرجَحُ وأعظمُ من الخالي منها على جميع الأحوال.

٥٩ - وقال لما قتل الخوارج وقيل له:
يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم

الأصل: كَلاَّ وَاللهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاء، وكُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ.

الشرح: نَجَم: ظهر وطلع.

قرارات النّساء: كناية لطيفة عن الأرحام.

ومن الكنايات اللّطيفة الجارية هذا المجرى قولُه تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(١)، يعني الجماع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾(٢).

وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾(٣)، يعني الفروج.

وقول رسول الله ﷺ للحادي: «يا أَنْجَشَة، رِفْقاً بالقوارير»(٤). يعني النساء.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة صٓ، الآية: ٢٣.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٠.

(٤) أخرجه البخاري ح: (٦١٤٩)، ومسلم وأحمد ح: (١١٦٣٠) كلهم بلفظ: «يا أنجشة رويدك سوقاً بالقوارير». أما لفظ: «رفقاً بالقوارير» فقد أورده ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١٤٠). وأنجشة عبد حبشيّ كان يحدو بالنساء.

والكناية إبدال لفظة - يُستحَى من ذكرها، أو يستهجن ذِكْرُها، أو يُتَطَيَّر بها، أو يقتضي الحال رَفْضَها لأمرٍ من الأمور - بلفظة ليس فيها ذلك المانع، ومن هذا الباب قول امرىء القيس:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ ما نَام أَهْلُها ... سُمُوَّ حَبابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ
فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلاتُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ والنَّاسَ أَحْوَالِي
فَلَمّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ
فَصِرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلامُنَا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إِذْلالِ

قوله: «فصرنا إلى الحسنى» كناية عن الرَّفَث ومقدّمات الجماع.

وقال ابنُ قتيبة: تمازحَ معاوية والأحنف، فما رُئِيَ مازحان أوْقَرَ منهما، قال معاوية: يا أبا بَحْر، ما الشيء الملفَّفُ في البِجاد[1]؟ فقال: السَّخينةُ[2] يا أمير المؤمنين، وإنما كَنَى معاوية عَنْ رَمْيِ بني تميم بالنَّهَم وحُبِّ الأكل، بقول القائل:

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ... فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِئْ بِزَادِ
بِخُبْزٍ أو بِتَمْرٍ أو بِسَمْنٍ ... أو الشيءِ المُلَفَّفِ فِي البِجَادِ
تَرَاهُ يَطُوفُ في الآفَاقِ حِرْصاً ... لِيَأْكُلَ رأسَ لُقْمَانَ بنِ عادِ

وأراد الشاعر وَطْبَ اللبن، فقال الأحنف: «هو السَّخينة يا أمير المؤمنين»، لأنّ قريشاً كانت تعيَّر بأكلِ السَّخينة قبل الإسلام، لأنّ أكثرَ زمانها كان زمان قَحْطٍ، والسَّخينة ما يُسَخَّن بالنار ويُذَرّ عليه دقيق، وغلب ذلك على قريش حتى سميت سَخِينة، قال حسّان:

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنّ مغالبُ الغَلاّبِ

فعبّر كل واحد من معاوية والأحنف عمّا أراده بلفظ غير مستهجَن ولا مستقبح، وعلِم كُلُّ واحد منهما مرادَ صاحبه، ولم يفهم الحاضرون ما دار بينهما، وهذا من باب التعريض، وهو قريب من الكناية.

---

(١) البِجاد: كساء مخطط من أكسية العرب، وقيل: إذا غزل الصوف بسرة ونسج بالصِّيصة فهو بجاد والملفف في البجاد: وطْبُ اللبن يُلَفّ فيه ليحمى ويدرك، وكانت تميم تُعَيَّرُ به لسان العرب مادة (بجد).

(٢) السَّخينة: دقيق يلقى على ماء أو لبن فيطبخ ثم يؤكل بتمر أو يحسى، وقيل: طعام يتخذ من دقيق وسمن، وقيل: دقيق وتمر أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة، وكانت قريش تُكثر من أكلها فَعُيِّرت بها حتى سُمُّوا سخينة. لسان العرب، مادة (سَخَنَ).

ومن كنايات الكتاب العزيز أيضاً قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾(١)، كنى بذلك عن مناكح النساء.

ومنها قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾(٢)، كنى عن مواقع النسل بمواقع الحَرْث.

ومما ورد في الأخبار النبويّة في هذا الباب، الخبر الذي فيه: إن المرأة قالت للرجل القاعد منها مَقْعد القابلة: لا يحلّ لك أن تفضّ الخاتَم إلاّ بحقّه، فقام عنها وتركها(٣).

وقد أخذ الصاحب بن عباد هذه اللفظة، فقال لأبي العلاء الأسديّ الأصفهانيّ، وقد دخل بزوجةٍ له بكْر:

قَـلْـبِـي عَـلَـى الْـجَـمْـرَةِ يَـا أبـا الْـعَـلاَ ... فَـهَـلْ فَـتَـحْـتَ الـمَـوْضِـعَ الـمُـقْـفَـلاَ!

وَهَـلْ فَـضَـضْـتَ الـكِـيـسَ عَـنْ خَـتْـمِـهِ ... وَهَـلْ كَـحَـلْـتَ الـنَّـاظِـرَ الأحْـوَلا!

وأنشد الفرزدق في سليمان بن عبد الملك شعراً قال فيه:

دَفَـعْـنَ إلـيّ لـم يُـطْـمَـثْـنَ قَـبْـلِـي ... وَهُـنَّ أصَـحُّ مِـنْ بَـيْـضِ الـنَّـعَـامِ

فَـبِـتْـنَ بِـجَـانِـبَـيّ مُـصَـرَّعَـاتٍ ... وَبِـتّ أفُـضُّ أغْـلاَقَ الـخِـتَـامِ

فاستنكر سليمان ذلك ـ وكان غيوراً جداً - وقال له: قد أقررت بالزنى، فلأجْلِدَنَّك، فقال: يا أمير المؤمنين إني شاعر، وإن الله يقول في الشعراء: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾(٤)، وقد قلتُ ما لم أفعل، قال سليمان: نجوت بها.

ومن الأخبار النَّبوية أيضاً، قولُه عليه السلام في الشهادة على الزنى، «حتى تشاهد المِيلَ في المُكْحُلة»(٥).

ومنها قوله عليه السلام للمرأة التي استفتته في الذي استخْلت له ولم يستطع جِماعها: «لاَ، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيلَتَهُ ويَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ».

ومنها قول المرأة التي شكت إلى عائشة زوجَها أنه يُطمِح بصرَه إلى غيرها: «إني عزمتُ على أن أقيّد الجمل»، إشارة إلى رَبْطه.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٣) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ١٥/ ١٧٠، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/ ١٤٣.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٦.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الحدود (٤٤٥٢)، والدارقطني (٣٢) وابن أبي شيبة في المصنف: (٢٨٨٧٨).

ومنها قول عمر: يا رسول الله، هلكت، قال: «وَمَا أَهْلَكَك؟» قال: حوّلتُ رَحْلي، فقال عليه السلام: «أقبل وأدبرْ واتَّق الحيْضة»[1]، ففهم ﷺ ما أراد.

ورأى عبد الله بن سلاَم على إنسان ثوباً معصفراً، فقال: لو أن ثوبك في تَنُّور أهلك لكان خيراً لك، فذهب الرجلُ فأحرق ثوبه في تَنُّور أهله، وظنّ أنه أراد الظاهر، ولم يرد ابن سلاَم ذلك، وإنما أراد: لو صُرِف ثمنُه في دقيق يخبزه في تنُّور أهله.

ومن ذلك قوله ﷺ: «إياكُم وخَضْراءَ الدِّمَن»[2] والدِّمَن: جمع دِمْنة، وهي المزبلة فيها البَعْر تُنبت نباتاً أخضر، وكنى بذلك عن المرأة الحسناء في منبت السوء.

ومن ذلك قولهم: «إياك وعَقِيلة الملح»، لأن الدُّرّة تكون في الماء الملح، ومرادهم النهي عن المرأة الحسناء وأهلها أهل سوء. ومن ذلك قولهم: «البس له جلد النَّمِرِ»، و«قلب له ظهرَ المِجَنّ».

وقال أبو نواس:

لاَ أذُودُ الـطَّـيْـرَ عَـنْ شَـجَـرٍ ... قَـدْ بَـلَـوْتُ الـمُـرَّ مـن ثَـمَـرِهْ

وقد فسّر قومٌ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[3] فقالوا: أراد: وإذا عَبّروا عن اللفظ بما يقبُح ذكرهُ كَنَوْا عنه، فسمي التعبير عن الشيء مُروراً به، وسمّي الكناية عنه كرماً.

ومن ذلك أنّ بنتَ أعرابية صرخت، وقالت: لسعتْني العقرب، فقالت أمّها: أين؟ فقالت: موضع لا يضع الرَّاقي فيه أنفه، كنّت بذلك عن السوءة.

ومن هذا الباب قوله سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[4]، قال كثير من المفسرين: هو كناية عن الغائط، لأنه يكون من الطعام، فكني عنه، إذا هو منه مسبَّب، كما كنوا عن السِّمَة بالنار فقالوا: ما نار تلك؟ أي ما سمتها؟ ومنه قول الشاعر:

قَـد وَسَـمُـوا آبـالَـهُـمْ بـالـنـارِ ... والـنَّـارُ قَـدْ تَـشْـفِـي مـن الأوار

وهذا من أبيات المعاني، يقول: هم أهل عزّ ومَنَعة، فسقى راعيهم إبلَهم بالسّمات التي على الإبل، وعلم المزاحمون له في الماء أنه لا طاقة لهم بمنازعتهم عليه لعزّهم، فكانت

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٨٠)، وأحمد في باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٦٩٨).

(٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٩٥٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٥٣٧)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٦٠٨).

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٢. (٤) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

السّمات سبباً لسقيها. والأوار: العطش، فكنى سبحانه بقوله: ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ عن إتيان الغائط، لما كان أكل الطعام سبباً له، كما كنّى الشاعر بالنّار عن السِّمَة، لمّا كانت النار سبب السِّمَة.

ومن هذا الباب قوله سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾(١) كَنَى بالإفضاء عن الجِماع.

ومن الأحاديث النّبويّة: «مَنْ كَشَف قناعَ امرأة، وَجَبَ عليه مهرُها»(٢)، كَنَى عن الدخول بها بكَشف القناع، لأنه يكشف في تلك الحالة غالباً.

والعرب تقول في الكناية عن العِفّة: ما وضعت مومسة عنده قناعاً.

ومن حديث عائشة: كان رسول الله ﷺ يصيب من رؤوس نسائه وهو صائم(٣)، كنت بذلك عن القبْلة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٤)، كَنَى بذلك عن الجماع والمخالطة.

وقال النابغة الجعديّ:

إذا ما الضَّجيعُ ثَنى عِطْفَها ... تثنّتْ فَكانَتْ عليهِ لباسا

وقد كنَت العرب عن المرأة بالريحان، وبالسَّرْحة، قال ابن الرقيّات:

لاَ أشَمُّ الرَّيْحَانَ إلاّ بِعَيْنِي ... كَرَماً إنّما تَشَمُّ الْكِلاَبُ

أي أقنع من النساء بالنَّظَر، ولا أرتكب منهنّ محرماً.

وقال حُميد بن ثور الهلاليّ:

أَبَى ٱللهُ إلاّ أنّ سَرْحَةَ مَالِكٍ ... عَلَى كُلِّ أفْنَانِ الْعِضَاهِ تَرُوقُ

فيا طِيبَ رَيَّاها وَبَرْدَ ظِلاَلِهَا ... إذا حانَ مِنْ حامي النَّهَارِ وَدِيقُ

وَهَل أنا إن علّلْت نفسي بِسَرْحَةٍ ... من السَّرْح مَسْدُودٌ عَلَيَّ طَريقُ!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢١.
(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٤٢٦٤)، والدارقطني (٢٣٢).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: القبلة للصائم (١٩٢٨)، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: القبلة في الصوم ليست محرمة (١١٠٦)، والترمذي في كتاب: الصوم، باب: القبلة للصائم (٧٢٩)، وأبو داود في كتاب: الصوم، باب: القبلة للصائم (٢٣٨٣).
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

والسَّرحة: الشجرة.

وقال أعرابيّ، وكَنَى عن امرأتين:

أيا نخلتيْ أَوْدٍ إذا كانَ فيكما جَنًى فانْظُرا مَنْ تُطْعِمَان جَناكُمَا!
ويا نخلتيْ أَوْدٍ إذَا هبَّتِ الصَّبا وأمسيتُ مقروراً ذكرتُ ذَراكُمَا

ومن الأخبار النبويّة قولُه ﷺ: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فلا يسقينَّ ماءه زرع غيره»[1]، أراد النّهي عن نكاح الحبائل، لأنّه إذا وطئها فقد سَقَى ماءه زرع غيره.

وقال ﷺ لخوَّات بن جُبَيرٍ: «مَا فَعَلَ جَمَلُك يَا خَوّات»؟ يمازحه، فقال: قيّدَه الإسلام يا رسول الله[2]، لأن خَوَّاتاً في الجاهلية كان يغشَى البيوت، ويقول: شَرَدَ جملي وأنا أطلبه، وإنّما يطلب النساء والخلوة بهنّ، وخوّات هذا هو صاحب ذات النِّحيَيْن.

ومن كنايات القرآن العزيز قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[3]، كنَى بذلك عن الزنى، لأنّ الرجل يكون في تلك الحال بين يديِ المرأة ورجليها.

ومنه في الحديث: «إذا قَعَد الرجُل بين شُعَبها الأربع»[4].

وقد فسّر قوم قولَه تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[5]، عن النميمة، والعرب تقولُ لمن ينِمّ ويَشِي: يُوقِد بين النّاس الحَطَب الرَّطْب.

وقال الشاعر يذكر امرأة:

مِنَ الْبِيضِ لم تُصْطَدْ على خَيْلٍ لامَةٍ ولم تمشِ بَيْنَ النَّاسِ بالْحَطَبِ الرَّطْبِ

أي لم تؤخذ على أمرٍ تلام عليه، ولم تُفسِد بين الحيّ بالكذب والنميمة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: وطء السبايا (٢١٥٨)، والبيهقي في «سننه» (١٥٣٦٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٨٨٤)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٨٢).
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤١٤٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٠١).
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الغسل، باب: إذا التقى الختانان (٢٩١)، ومسلم في كتاب: الحيض باب: نسخ الماء من الماء (٣٤٨)، والنسائي في كتاب: الطهارة، باب: وجوب الغسل إذا التقى الختانان (١٩١)، وأبو داود في كتاب: الطهارة، باب: الإكسال (٢١٦).
(٥) سورة المسد، الآية: ٤.

ومما ورد نظير ممازحة معاوية والأحنف من التعريضات أنّ أبا غسّان المِسْمعيّ مَرّ بأبي غِفَار السَّدوسيّ، فقال: يا غِفَار، ما فعل الدِّرْهمان؟ فقال، لحقا بالدرهم، أراد بالدِّرهمين قول الأخطل:

فـإنْ تَـبْـخَـلْ سَـدُوسُ بـدِرْهَـمَـيْـهَـا ... فــإنّ الــرِّيــحَ طــيِّــبَــةٌ قَــبُــولُ

وأراد الآخر قول بشّار:

وَفِـي جَـحْـدَرٍ لـؤمٌ، وفـي آلِ مِـسْـمَـعٍ ... صَـلَاحٌ ولـكِـنْ دِرْهَـمُ الـقـومِ كَـوْكَـبُ

وكان محمد بن عِقَال المجاشعيّ عند يزيد بن مَزْيد الشيبانيّ، وعنده سيوفٌ تُعرَض عليه، فدفع سيفاً منها إلى يد محمد، فقال: كيف ترى هذا السيف؟ فقال: نحن أبصر بالتَّمْر منّا بالسيوف، أراد يزيد قول جرير في الفرزدق:

بِـسَـيْـفِ أبي رَغْـوَانَ سَـيْـفِ مُـجَـاشِـعٍ ... ضربتُ ولم تضربْ بسيفِ ابنِ ظَالِمِ

ضـربـتَ بـه عـنـد الإمـام فـأُرْعِـشَـتْ ... يَـدَاك، وقـالـوا: مُـحْـدَثٌ غـيـرُ صـارمِ

وأراد محمد قول مَروان بن أبي حفصة:

لـقـد أفـسـدت أسـنـان بـكـر بـن وائـل ... مـن الـتَّـمـر مـا لـو أصـلـحَـتْـه لَـمَـارَهَـا

وقال محمد بن عمير بن عطاء التميميّ لشريك النميريّ، وعلى يده صَقْر: ليس في الجوارح أحبّ إليّ من البازي، فقال شريك: إذا كان يصيد القطا، أراد محمد قول جرير:

أنـا الـبـازِي الـمـطِـلُّ عَـلَـى نُـمَـيْـرٍ ... أتـيـحَ مـن الـسَّـمـاءِ لـهـا انْـصِـبَـابَـا

وأراد شريك قول الطِرمّاح:

تـمـيمٌ بطرْق اللـؤْمِ أهْـدَى من الـقـطا ... ولَـوْ سَـلَـكَـتْ سُـبْـلَ الـمـكـارمِ ضَـلّـتِ

ودخل عبد الله بن ثعلبة المحاربيّ على عبد الملك بن يزيد الهلاليّ، وهو يومئذ والي أرمِينَية، فقال له: ماذا لقينا الليلة من شيوخ محارب! منعونا النَّوْم بضوضائهم ولَغَطهم، فقال عبد الله بن ثعلبة: إنّهم - أصلح الله الأمير - أضلّوا الليلة بُرقعاً، فكانوا يطلبونه.

أراد عبد الملك قولَ الشاعر:

تَـكِـشُّ بـلا شـيءٍ شـيـوخُ مـحـارِبٍ ... ومـا خِلْتُـهـا كـانَـتْ تَـرِيش ولا تَـبْـرِي

ضـفـادع فـي ظـلـمـاء لـيـلٍ تـجـاوبـت ... فـدلَّ عـلـيـهـا صـوتُـهـا حـيّـةَ الـبـحـرِ

وأراد عبد الله قول القائل:

لِكُلِّ هلالِيّ من اللؤم بُرْقُعٌ ولابن يزيد بُرْقُعٌ وجِلالُ

وروى أبو بكر بن دُريد في كتاب «الأمالي»(١) عن أبي حاتم، عن العُتبيّ، عن أبيه، أنه عُرِض على معاوية فرس، وعنده عبد الرحمن بن الحكَم بن أبي العاص، فقال: كيف ترى هذا الفرس يا أبا مطرّف؟ قال: أراه أجشَّ هزيماً، قال معاوية: أجل، لكنه لا يَطّلع على الكنائن، قال: يا أمير المؤمنين، ما استوجبتُ منك هذا الجواب كلّه، قال: قد عوّضتك عنه عشرين ألفاً.

قال أبو بكر بن دريد: أراد عبد الرحمن التعريض بمعاوية بما قاله النجاشي في أيام صفّين:

وَنَجّى ابنَ حربٍ سابحٌ ذُو عُلالَةٍ أجشُّ هَزِيمٌ والرّماح دواني
إذا قلت أطراف الرماح تَنُوشُهُ مَرَتْهُ له السّاقان والقَدَمانِ

فلم يحتمل معاوية منه هذا المُزاح، وقال: لكنه لا يطّلع على الكنائن، لأن عبد الرحمن كان يُتَّهم بنساء إخوته.

وروى ابن دريد أيضاً في كتاب «الأمالي» عن أبي حاتم النَّخَعيّ، أنّ النجاشيّ دخل على معاوية، فقال له: كيف قلت: «ونجّى ابنَ حربٍ سابحٌ»، وقد علمت أنّ الخيل لا تجري بمثلي فراراً؟ قال: إنما عنيت عتبة أخاك - وعُتْبة جالس - فلم يقل معاوية ولا عُتبة شيئاً.

وورد إلى البصرة غلام من بني فَقْعس، كان يجلس في المِرْبد، فينشد شعراً، ويجمع الناس إليه، فذُكر ذلك للفرزدق، فقال: لأسوءنّه، فجاء إليه، فسمِع شيئاً من شعره، فحَسده عليه، فقال: ممّنْ أنت؟ قال: من بني فَقْعس، قال: كيف تركت القَنَان؟ فقال: مقابل لَصَافِ، فقال: يا غلام، هل أنجدَتْ أمّك؟ قال: بل أنجد أبي.

قال أبو العباس المبرّد: أراد الفرزدق قول الشاعر:

ضَمِنَ القَنَانُ لِفَقْعَسٍ سَوْءاتها إن القَنَانَ لِفَقْعَسٍ لَمُعَمَّرُ

والقَنَان جبل في بلاد فقْعس، يريد أن هذا الجبل يستر سَوْءاتهم، وأراد الغلام قول أبي المهوِّش:

---

(١) الأمالي: كتاب في اللغة لمحمد بن أبي بكر اللغوي المتوفى (٣٢١هـ)، لخصه جلال الدين السيوطي وسماه (قطف الوريد). «كشف الظنون» (١/ ١٦٢).

وإذَا يَسُرُّكَ مِن تَمِيمٍ خَلَّةٌ ... فلَمَا يَسُوءُكَ مِنْ تميم أكثرُ
أكلت أسَيْدٌ والهُجَيْمُ ودارِمٌ ... أيْرَ الحِمار وخُصيتيه العَنْبَرُ
قد كنتُ أحسِبُهم أسودَ خَفِيَّةٍ ... فإذا لَصَافِ يبيض فيه الحُمَّرُ

ولَصَاف: جبل في بلاد بني تميم، وأراد بقوله: «هل أنجدت أمُّك»، أي إن كانت أنجَدتْ فقد أصابها أبي، فخرجتَ تشبهني، فقال: بل أنجد أبي، يريد بل أبي أصاب أمّك فوجدها بغيًا.

قال عبد الله بن سِوّار: كنا على مائدة إسحاق بن عيسى بن عليّ الهاشميّ، فأتِينا بحريرة قد عُمِلت بالسُّكَّر والسمن والدقيق، فقال معدّ بن غَيْلان العبْديّ: يا حبذا السخينة! ما أكلت - أيها الأمير - سَخينةً ألذ من هذه، فقال: إلاّ أنها تولِّد الرياح في الجوف كثيراً، فقال: إنّ المعايب لا تذكر على الخِوان.

أراد مَعدّ ما كانت العرب تعيّر به قريشاً في الجاهلية من أكْل السَّخينة، وقد قدّمنا ذكره، وأراد إسحاق بن عيسى ما يعيّر به عبد القيس من الفَسْو، قال الشاعر:

وَعَبْدُ الْقَيْس مُضْفَرٌ لحاها ... كأنّ فساءها قِطَعُ الضَّبابِ

وكان سِنان بن أحمس النُّميريّ يساير الأمير عمر بن هبيرة الفزاريّ، وهو على بغلة له، فتقدمت البغلة على فرس الأمير، فقال: اغضُضْ بغلتك يا سنان، فقال: أيّها الأمير، إنها مكتوبة، فضحك الأمير.

أراد عمر بن هبيرة قول جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّك مِنْ نُميرٍ ... فلا كَعْباً بلغتَ وَلاَ كِلابَا

وأراد سنان قولَ ابن دارة:

لا تأمَنَنّ فَزَاريًا خَلَوْتَ بِهِ ... عَلَى قَلُوصِكَ واكْتُبْهَا بأسْيَارِ

وكانت فَزارة تعيَّر بإتيان الإبل، ولذلك قال الفرزدق يهجو عمر بن هبيرة هذا، ويخاطب يزيد بن عبد الملك.

أميرَ المؤمنين وأنت بَرٌّ ... تقيٌّ لَسْتَ بالجَشِعِ الحريصِ
أأطعمتَ العِرَاق وَرَافِدَيْه ... فزاريًا أحَذَّ يدَ القَمِيصِ
تَفَنَّقَ بالعراقِ أبو المثَنّى ... وَعَلّم قومَه أكل الخَبِيصِ

ولـم يـك قـبـلَـهـا راعِـي مـخـاضٍ   لـتـأمـنـه عـلـى وَرِكَـيْ قَـلُـوصِ(١)

الرافدان: دِجْلة والفُرات، وأحذّ يد القيمصِ، كناية عن السرقة والخيانة وتفنّق: تنعَّم وسمن، وجارية فُنُق، أي سمينة.

والبيت الآخر كناية عن إتيان الإبل الذي كانوا يُعيّرون به.

وروى أبو عُبيدة عن عبد الله بن عبد الأعلى قال: كنا نتغدّى مع الأمير عمر بن هبيرة. فأحضر طباخُه جامَ خَبِيص، فكرهه للبيت المذكور السابق، إلا أنّ جلَده أدركه، فقال: ضعه يا غلام، قاتل الله الفرزدق، لقد جعلَني أرى الخبيص فأستحي منه!.

قال المبرّد: وقد يسير البيت في واحد، ويرى أثره عليه أبداً، كقول أبي العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة:

فـمـا تَـصْـنَـعُ بـالـسَّـيْـفِ   إذا لـم تَـكُ قَـتَّـالا

فَـكَـسِّـرْ حِـلْـيـةَ الـسَّـيْـفِ   وصُـغْـهـا لَـكَ خـلـخـالا

وكان عبد الله بن معن إذا تقلّد السيفَ ورأى مَنْ يرمُقه بان أثرُه عليه، فظهر الخجل منه.

ومثل ذلك ما يحكى أنّ جريراً قال: والله لقد قلتُ في بني تَغْلِب بيتاً لو طُعِنُوا بعدَها بالرِّماح في أستاهِهم ما حَكُّوها، وهو:

والـتَّـغْـلَـبيّ إذا تَـنَـحْـنَـحَ لِـلْـقِـرَى   حَـكَّ اسْـتَـه وتَـمـثّـل الأمـثـالا

وحكى أبو عبيدة عن يونس، قال: قال عبد الملك بن مَرْوان يوماً، وعنده رجال: هل تعلمون أهلَ بيت قيل فيهم شعر، وَدُّوا لو أنهم افْتَدَوْا منه بأموالهم؟ فقال أسماءُ بن خارجة الفَزارِيّ: نحن يا أمير المؤمنين، قال: وما هو؟ قال: قول الحارث بن ظالم المرّيّ:

وَمـا قـومـي بـثـعـلـبـة بـن سـعـدٍ   ولا بـفَـزَارةَ الـشُّـعْـرِ الـرقـابـا

فوالله يا أميرَ المؤمنين، إني لألبَس العمامة الصفيقة، فيخيَّل لِي أن شعر قفايَ قد بدا منها.

(١) الوَرِك: ما فوق الفخذ. لسان العرب، مادة (ورك). والقلوص من الإبل: الشابة، والباقية علىء السير، أو أول ما يُركب من إناثها إلى أن تثني، ثم هي ناقى، والناقة الطويلة القوائم خاص بالإناث، لسان العرب، مادة (قلص).

وقال هانىء بن قبيصة النميريّ: نحن يا أمير المؤمنين، قال وما هو؟ قال قول جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْرٍ … فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلابا

كان النميريّ يا أمير المؤمنين إذا قيل له: ممّن أنت؟ قال: من نُمير، فصار يقول بعد هذا البيت: «من عامر بن صعصعة».

ومثل ذلك ما يروى أنَّ النجاشيّ لما هَجَا بني العَجْلان بقوله:

إذَا الله عَادَى أهلَ لؤمٍ وقِلّةٍ … فعادى بني العَجْلان رهطَ ابن مُقْبِل

قُبَيِّلَةٌ لا يغدِرُون بذِمَّة … ولا يَظْلِمُون النَّاسَ حَبّةَ خردلِ

وَلاَ يَرِدُون الماءَ إلا عَشِيَّةً … إذا صدَر الوُرَّاد عن كلِّ منهلِ

وَما سُمِّي العَجلاَن إلا لقولِهِ: … خذ القَعْبَ[1] فاحلُب أيها العبد واعْجَلِ

فكان الرّجُل منهم إذا سُئل عن نسبه يقول: من بني كعب، وترك أن يقول: «عَجْلانيّ».

وكان عبد الملك بن عمير القاضي، يقول: والله إنّ التَّنحنُحَ والسُّعال ليأخذني وأنا في الخلاء فأردّه حياء من قول القائل:

إذَا ذَاتُ دَلٍّ كلّمتْهُ لحاجةٍ … فهمّ بأن يقضي تَنَحْنَحَ أو سَعَلْ

ومن التعريضات اللّطيفة، ما رُوي أن المفضّل بن محمد الضبيّ بعث بأضحيةٍ هزيل إلى شاعر، فلما لقيَه سأله عنها، فقال: كانت قليلة الدم، فضحِك المفضّل، وقال: مهلاً يا أبا فلان، أراد الشاعر قول القائل:

ولَوْ ذُبح الضَّبيّ بالسَّيْفِ لم تَجِدْ … من اللؤم للضبيّ لحماً ولاَ دَمَا

وروى ابن الأعرابيّ في «الأمالي» قال: رأى عقال بن شبّة بن عقال المجاشعيّ على أصبغ ابن عنبس وَضَحاً، فقال: ما هذا البياض على إصبعك يا أبا الجرّاح؟ فقال: سَلْح النعامة يابن أخي، أراد قول جرير:

فضحَ العشيرةَ يومَ يسْلَح قائماً … سَلْحُ النعامة شَبَّةُ بنُ عقالِ

وكان شبّة بن عقال قد بَرَزَ يوم الطُّوانة مع العبّاس بن الوليد بن عبد الملك إلى رجل من الروم، فحمل عليه الروميّ، فنكَص وأحدث، فبلغ ذلك جريراً باليمامة، فقال فيه ذلك.

---

(١) القَعب: القدح الضخم الغليظ الجافي، وقيل: قدح من خشب مقعر. لسان العرب، مادة (قعب).

ولقي الفرزدق مختنّاً يحمِلُ قُماشه، كأنه يتحوّل من دار إلى دار، فال: أين راحت عمّتنا؟ فقال: قد نفاها الأغرّ يا أبا فراس، يريد قول جرير في الفرزدق:

نـفـاك الأغـرّ ابـنُ عـبـد الـعـزيـز ... وَحـقُّـك تُـنـفـى مـن الـمـسـجـدِ

وذلك أن الفرزدق وَرَد المدينة، والأمير عليها عمر بن عبد العزيز، فأكرمه حمزة بن عبد الله بن الزبير وأعطاه، وقعد عنه عبد الله بن عمرو بن عَفّان، وقَصّر به، فمدح الفرزدقُ حمزة بن عبد الله، وهجا عبد الله، فقال:

مَـا أنـتُـمُ مِـنْ هـاشِـمٍ فـي سِـرِّهـا ... فـاذْهَـبْ إلـيـكَ ولا بَـنِـي الـعَـوّامِ

قـومٌ لـهـمْ شـرفُ الـبـطـاح وأنـتـمُ ... وَضَـرُ الـبـلاط مـوطّـئـو الأقـدام

فلما تناشد الناس ذلك، بعث إليه عمر بن عبد العزيز، فأمره أن يخرج عن المدينة، وقال له: إن وجدتك فيها بعد ثلاث عاقبتُك، ، فقال الفرزدق: ما أراني إلا كثمود حين قيل لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[1]، فقال جرير يهجوه:

نـفـاكَ الأغـرّ ابـنُ عـبـدُ الـعـزيـز ... وَحَـقُّـكَ تـنـفَـى مـن الـمـسـجـدِ

وَسَـمَّـيْـت نـفـسَـك أشـقَـى ثـمـودَ ... فـقـالـوا ضـلـلـتَ ولـم تـهـتـدِ

وقـد أُجِّـلـوا حـيـن حـلّ الـعـذابُ ... ثـلاث لـيـالٍ إلـى الـمـوعـدِ

وَجَـدْنـا الـفـرزدق بـالـمـوْ ... سِمَيْنِ خبيثَ المداخِل والمشهدِ

وحكى أبو عبيدة، قال: بينا نحن على أشراف الكوفة وقُوف، إذ جاء أسماء بن خارجة الفزاريّ فوقف، وأقبل ابن مكعبر الضبيّ فوقف متنحيّاً عنه، فأخذ أسماء خاتماً كان في يده، فصّه فيروز أزرق، فدفعه إلى غلامه، وأشار إليه أن يدفعه إلى ابن مكعبر، فأخذ ابن مكعبر شِسْع نعلِه، فربطه بالخاتم، وأعاده إلى أسماء، فتمازحا ولم يَفْهَمْ أحدٌ من النّاس ماأرادا، أراد أسماء بن خارجة قول الشاعر:

لـقـد زَرِقـت عـيـنـاكَ يـابْـنَ مـكـعـبَـرٍ ... كـذا كـلّ ضَـبِّـيٍّ مـن الـلُّـؤم أزرقُ

وأراد ابن مكعبر قول الشاعر:

لا تـأمـنَـنَّ فـزاريًّـا خَـلَـوْتَ بِـه ... عَـلَـى قَـلُـوصِـكَ وَاكْـتُـبْـهَـا بـاسـيـارِ

وكانت فَزارة تعيّر بإتيان الإبل، وعيّرت أيضاً بأكْل جُرْدان الحمار، لأن رجلاً منهم كان في سفر فجاع، فاستطعم قوماً فدفعوا إليه جُرْدان الحمار، فشواه وأكله، فأكثرت الشعراء ذكرهم بذلك، وقال الفرزدق:

---

(١) سورة هود، الآية: ٥.

جَهِّزْ إذا كنتَ مُرْتاداً ومنتجِعاً ... إلى فزارة عَيْراً تحمل الكَمَرَا

إن الفزاريّ لَوْ يَعْمَى فيطعِمُهُ ... أيْرَ الحمارِ طبيبٌ أبرأ البَصَرَا

إن الفزاريّ لا يشفيه مِنْ قَرَمٍ ... أطايبُ العَيْرِ حتى يَنْهشَ الذَّكَرا

وفي كتب الأمثال أنه اصطحب ثلاثة: فزاريّ وتغلَبي ومُريّ - وكان اسم التغلَبيّ مرقمة - فصادوا حماراً، وغاب عنهما الفَزاريّ لحاجة، فقالوا: نخبأ له جُرْدَانه، نضحك منه، وأكلوا سائره، فلما جاء دفعا إليه الجردان، وقالا: هذا نصيبك، فنهسَه فإذا هو صلب، فعرف أنهم عَرَّضوا له بما تُعاب به فزارة، فاستلّ سيفه، وقال: لتأكلانِه، ودفعه إلى مَرْقمة، فأبى أن يأكله، فضربه فقتله، فقال المرّيّ: طاح مَرْقمة، قال: وأنت إن لم تلقمه! فأكله.

وذكر أبو عبيدة أنّ إنساناً قال لمالك بن أسماء بن خارجة الفزازيّ: اقضِ ديني أيّها الأمير، فإنّ عليّ ديناً، قال: ما لك عندي إلا ما ضرب به الحمار بطنه، فقال له عبيد بن أبي مِحْجَن: بارك الله لكم يا بني فَزارة في أيْر الحمار، إن جُعْتُم أكلتموه، وإن أصابكم غُرْمٌ قضيتموه به.

ويحكى أن بني فزارة وبني هلال بن عامر بن صعصعة تنافرُوا إلى أنَس بن مدرك الخثعميّ، وتراضَوْا به، فقالت بنو هلال: أكلتم يا بني فَزارة أيْر الحمار، فقالت: بنو فزارة: وأنتم مَدَرْتُم الحوض بسلْحكم، فقضى أَنَس لبني فَزارة على بني هلال، فأخذ الفَزاريّون منهم مائة بعير كانوا تخاطروا عليها، وفي مادر يقول الشاعر:

لَقَدْ جَلّلتْ خِزياً هلالُ بن عامرٍ ... بني عامرٍ طُرًّا بسلْحَةِ مَادِرِ

فأفٌ لكُمْ لا تذكروا الفَخْرَ بعدها ... بنِي عامرٍ، أنتم شرارُ المعاشرِ

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في كتاب «الكامل» أن قتيبة بن مسلم لما فتح سَمَرْقَنْد، أفضى إلى أثاث لم يُرَ مثله، وآلات لم يسمع مثلها، فأراد أن يُرِيَ الناسَ عظيمَ ما فتح الله عليه، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم، فأمر بدارٍ ففُرِشت، وفي صحنها قدورٌ يُرتقى إليها بالسلاليم، فإذا بالحضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وَعْلة الرقاشيّ قد أقبل، والناس جلوسٌ على مراتبهم - والحُضَيْن شيخ كبير - فلمّا رآه عبد الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة: ائذن لي في معاتبته، قال: لا تُرِدْه، فإنه خبيث الجواب، فأبى عبدُ الله إلاّ أنْ يأذن له - وكان عبد الله يُضَعَّف، وكان قد تسوّر حائطاً إلى امرأة قبل ذلك - فأقبل على الحُضين، فقال: أمِنَ الباب دخلت يا أبا ساسان؟ قال: أجلْ، أسنَّ عَمُّك عن تسوُّر الحيطان، قال: أرأيتَ هذه القدور؟ قال: هي أعظم من ألا تُرَى، قال: ما أحسب بكرَ بن وائل رأى مثلها، قال: أجل، ولا عَيْلان، ولو رآها سُمِّي شَبْعان، ولم يسمّ عَيْلان، فقال عبد الله: أتعرف يا أبا ساسان الذي يقول:

عَـزَلْـنـا وأمَّـرنـا وبَـكْـرُ بـن وائـلٍ ... تَـجُـرُّ خُصاها تبتغِي من تحالفُ

فقال: أعرفه، وأعرف الذي يقول:

فـأدى الـغُـرْم مَـنْ نـادى مـشـيـراً ... ومَـنْ كـانَـتْ لـه أَسْـرَى كـلابِ

وخَـيْـبَـةُ مَـنْ يـخـيـب عـلـى غَـنِـيٍّ ... وبـاهـلـة بـن أعـصـر والـرِّبـابِ

فقال: أفتعرف الذي يقول:

كـأنَّ فِـقـاح الأزد حَـوْلَ ابـن مِـسْـمَـعٍ ... وقـد عَـرِقَـتْ أفـواهُ بـكْـر بـن وائـلِ

قال: نعم وأعرف الذي يقول:

قـوم قـتـيـبـةُ أمُّـهـمْ وأبـوهُـم ... لـولا قـتـيبة أصْبَحُوا في مـجـهـلِ

قال: أما الشعر فأرَاكَ ترويه، فهل تقرأ من القرآن شيئاً، قال: نعم، أقرأ الأكثر الأطيب: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1]. فأغضبه، فقال: والله لقد بلغني أنّ امرأة الحُضَيْنِ حُمِلَتْ إليه وهي حُبْلى من غيره، قال: فما تحرّك الشيخ عن هيئته الأولى، بل قال على رِسْلِه: وما يكون! تلد غلاماً على فِراشِي، فيقال: فلان ابن الحُضَين، كما يقال: عبد الله بن مسلم، فأقبل قتيبة على عبد الله، وقال له: لا يبعِد الله غيرك.

وغرضنا من هذه الحكاية الأدبية المستحسنة قول الحُضَيْن تعريضاً بفاحشة عبد الله: «أجلْ، أسنّ عَمُّك عن تسوُّر الحيطان».

ويحكى أن أبا العيناء أهْدَى إلى أبي عليٍّ البصير - وقد ولد له مولود - حَجَراً، يذهب في ذلك إلى قوله عليه السلام: «الولد للفراش، وللعاهر الحجَر»[2]، فاستخرج أبو عليٍّ ذلك بفطنته وذكائه، ثم ولد بعد أيام لأبي العيناء مولود، فقال له: في أيّ وقت وُلِد لك؟ قال: وقت السَّحَر، فقال: اطَّرد قياسُه، وخرج في الوقت الذي يخرج فيه أمثاله - يعنِي السُّؤَّال - يعرّض بأن أبا العيناء شَحَّاذ، وأن ولده خرج يشبهه.

ومن التّعريضات والرموز بالفعل دون القول ما ذكره مؤرّج بن عمرو السّدوسيّ في كتاب «الأمثال» أنّ الأحوص بن جعفر الكلابيّ، أتاه آتٍ من قومه، فقال: إن رجلاً لا نعرفه جاءنا،

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: الشبهات (٢٠٥٣)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: الولد للفراش (١٤٥٨)، والترمذي في كتاب: الرضاع، باب: ما جاء أن الولد للفراش (١١٥٧)، والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: إلحاق الولد بالفراش (٣٤٨٢).

فلما دنا منّا حيث نراه، نزل عن راحلته، فعلّق على شجرة وَطْباً من لبن، ووضع في بعض أغصانها حَنْظَلة، ووضع صُرّة من تراب، وحُزمة من شوك، ثم أثار راحلته، فاستوى عليها وذهب - وكان أيام حرب تميم وقيس عَيْلان - فنظر الأحوص في ذلك، فعيَّ به، فقال: أرسلوا إلى قيس بن زهير، فأتوا قيساً، فجاءوا به إليه، فقال له: ألم تك أخبرتَني أنّه لا يرِد عليك أمرٌ إلا عرفتَ ما فيه ما لم تر نواصيَ الخيل! قال: ما خبرُك؟ فأعلمه، فقال: «قد بَيّن الصبح لذي عينين»، هذا رجل قد أُخِذَتْ عليه العهود ألا يكلّمكم، ولا يرسل إليكم، وإنه قد جاء فأنذركم. أما الحنظلة، فإنه يخبركم أنه قد أتاكم بنو حنظلة، وأما الصُرّة من التراب، فإنه يزعُم أنّهم عدد كثير، وأما الشوك فيخبركم أنّ لهم شَوْكة، وأما الوطْب فإنّه يدلّكم على قُرْب القوم وبعدهم، فذوقوه، فإن كان حُلْواً حليباً فالقوم قريب، وإن كان قارصاً فالقوم بعيد، وإن كان الْمَسِيخ لا حلواً ولا حامضاً فالقوم لا قريب ولا بعيد. فقاموا إلى الوَطْب فوجدوه حليباً، فبادروا الاستعداد، وغشيَتهم الخيل فوجدتهم مستعدين.

ومن الكنايات، بل الرّموز الدقيقة، ما حِكي أنّ قتيبة بن مسلم دخَل على الحجاج وبين يديه كتاب قد وَرَد إليه من عبد الملك، وهو يقرؤه، ولا يعلم معناه، وهو مفكّر، فقال: ما الذي أحزن الأمير؟ قال: كتاب وَرَد من أمير المؤمنين، لا أعلم معناه، فقال: إنْ رأي الأميرُ إعلامِي به! فناوله إياه، وفيه: «أما بعدُ، فإنك سالم، والسلام».

فقال قتيبة: ما لي إن استخرجتُ لك ما أراد به؟ قال: ولاية خراسان، قال: إنه ما يسرّك أيها الأمير، ويقرُّ عينك، إنما أراد قول الشاعر:

يُـدِيـرُونَـنِـي عَـنْ سَـالِـمٍ وأديـرهُـمْ   وَجِـلْـدَةُ بَـيْـنَ الـعيـن والأنـف سـالـم

أي أنت عندي مثل سالم عند هذا الشاعر، فولاّه خراسان.

حكى الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»[1] قال: خطب الوليد بن عبد الملك فقال: «أمير المؤمنين عبدُ الملك قال: إن الحجّاج جلدة ما بين عيني وأنفي، ألا وإني أقول: إن الحجّاج جلدة وجهي كله».

وعلى ذكر هذا البيت، حُكي أنّ رجلاً كان يسقي جلساءَه شراباً صِرْفاً غير ممزوج، وكان يحتاج إلى المَزْج لقوّته، فجعل يغنّي لهم:

يُـديـرونَـنِـي عَـنْ سـالـمٍ وأديـرهُـمْ   وجِـلـدة بـيـن الْـعَـيْـن والأنـف سـالـم

فقال له واحد منهم: يا أبا فلان، لو نقلت «ما» من غنائك إلى شرابك، لصلَح غِناؤنا ونبيذنا جميعاً.

---

(١) البيان والتبيين: كتاب كبير في طرائف الأدب، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المعتزلي، المتوفى سنة (٢٥٥هـ)، «كشف الظنون» (١/ ٢٦٣).

ويشبه حكاية قتيبة والحجاج كتابُ عبد الملك إلى الحجاج، جواباً عن كتاب كتبه إليه يغلظ فيه أمرَ الخوارج، ويذكر فيه حال قَطَرِيّ وغيره وشدة شوكتهم، فكتب إليه عبد الملك: «أوصيك بما أوصَى به البكريّ زيداً، والسلام».

فلم يفهم الحجاج ما أراد عبد الملك، فاستعلم ذلك من كثير من العلماء بأخبار العرب فلم يُعلموه، فقال: مَنْ جاءني بتفسيره فله عشرة آلاف درهم، وورد رجل من أهل الحجاز يتظلّم من بعض العمال، فقال له قائل: أتعلم ما أوْصَى به البكريّ زيداً؟ قال: نعم أعلمه، فقيل له: فأْت الأمير، فأخبِرْه ولك عشرة آلاف درهم، فدخل عليه فسأله، فقال: نعم أيها الأمير، إنه يعني قوله:

أقـول لـزيـدٍ لا تُـتَـرْتِـرْ فـإنَّـهـمْ ... يرون المنايا دون قتلِكَ أو قتلي[1]
فإنْ وضعوا حرباً فَضَعْها، وإنْ أبَوْا ... فَعُرْضَةُ نارِ الحرب مثلك أو مثلِي
وإن رفعوا الحربَ العوَان الّتي ترى ... فشُبّ وقود النار بالحطب الجَزْل

فقال الحجاج: أصاب أمير المؤمنين فيما أوصاني، وأصاب البكريّ فيما أوصى به زيداً، وأصبت أيّها الأعرابي، ودفع إليه الدّراهم.

وكتب إلى المهلّب: إنّ أمير المؤمنين أوصاني بما أوصى به البكريّ زيداً، وأنا أوصيك بذلك، وبما أوصى به الحارث بن كعب بنيه.

فنظر المهلب في وصية الحارث بن كعب، فإذا فيها: يا بنيّ كونوا جميعاً، ولا تكونوا شِيعاً فتفرّقوا، وبزّوا قبل أن تُبَزُّوا. الموت في قوّة وعزّ، خير من الحياة في ذلّ وعجز.

فقال المهلّب: صدق البكريّ وأصاب، وصدق الحارث وأصاب.

واعلم أنّ كثيراً مما ذكرناه داخلٌ في باب التعريض، وخارج عن باب الكناية، وإنما ذكرناه لمشابهة الكناية، وكونهما كالنوعين تحت جنس عام، وسنذكر كلاماً كليًّا فيهما إذا انتهينا إلى آخر الفصل إن شاء الله.

ومن الكنايات قول أبي نواس:

وَنَـاظِـرَةٍ إلـيّ مـن الـنـقـابِ ... تـلاحِـظُـنـي بـطَـرْفٍ مُـسْـتَـرَابِ
كَـشَـفْـتُ قِـنـاعـهـا فـإذا عـجـوزٌ ... مُـمَـوَّهَـة الـمَـفـارِقِ بـالـخِـضـابِ

---

(١) تَرْتَرَ: إذا استرخى في بدنه وكلامه، وقيل: التَارُّ المسترخي من جوع أو غيره. لسان العرب، مادة (ترر).

فما زالت تُجَشِّمُنِي طويلاً ... وتأخذ في أحاديثَ التَّصَابِي
تحاولُ أن يقومَ أبو زيادٍ ... ودون قيامه شَيْبُ الغرابِ
أتت بجرابها تكتال فيهِ ... فقامت وهي فارغةُ الجِرابِ

والكناية في البيت الأخير وهي ظاهرة.

ومنها قول أبي تمام:

ما لِي رأيتُ ترابَكُمْ بِئسَ الثَّرَى ... مَا لِي أرَى أطْوَادَكُم تتهدَّمُ

فكني بـ«بئس الثرى» عن تنكّرِ ذات بينهم، وبـ«تهدّم الأطواد» عن خِفّة حلومهم وطيش عقولهم.

ومنها قول أبي الطيب:

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْه راحَتِي قَنَصٌ ... شُهْبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ[1]

كَني بذلك عن سيف الدولة، وأنه يساوي بينه وبين غيره من أراذل الشعراء وخامليهم في الصلة والقرب.

وقال الأقيشر لرجل: ما أراد الشاعر بقوله:

ولقد غدوت بِمُشْرِفٍ يافوخُهُ ... مثل الهراوة ماؤه يتفصَّدُ
أرِنٌ يسيل من المراح لُعَابُهُ ... ويكاد جلد إهَابِهِ يتقدَّدُ

قال: إنه يصف فرساً، فقال: حملك الله على مثله، وهذان البيتان من لطيف الكناية ورشيقها، وإنما عَنَى العضو.

وقريب من هذه الكناية قول سَعِيد بن عبد الرحمن بن حسان، وهو غلام يختلف إلى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب ولد هشام بن عبد الملك، وقد جمشه عبد الصمد فأغضبه، فدخل إلى هشام، فقال له:

إنّه والله لولا أنت لم ... يَنجُ مِنِّي سالماً عبدُ الصمدْ

فقال هشام: ولم ذلك؟ قال:

إنّهُ قَدْ رَامَ مِنِّي خُطَّةً ... لم يَرُمْها قبلَه مِنّي أحد

---

(١) الرَّخَمَةُ: طائر يأكل القذِرَة، وهو من الخبائث وليس من الصيد، سمي بذلك لضعفه عن الاصطياد. المصباح المنير، مادة (رخم).

قال هشام: وما هي؟ ويحك! قال:

رَامَ جَـهْـلاً بـي وجـهـلاً بِـأبـي ... يُـدْخِـلُ الأفـعـى إلـى بـيـت الأسَـدْ

فضحك هشام، وقال: لو ضربتَه لم أنكِرْ عليك.

ومن هذا الباب قول أبي نواس:

إذا مَـا كـنـتَ جـارَ أبـي حُـسَـيْـنٍ ... فَـنَـمْ وَيَـدَاكَ فِـي طَـرَفِ الـسِّـلاَحِ

فـإنَّ لـه نـسـاءً سـارقـاتٍ ... - إذا مـا بـتـن - أطـراف الـرِّمَـاحِ

سـرقـن وقـد نـزلـتُ عـلـيـه عـضـوي ... فـلـم أظـفـر بـه حَـتَّـى الـصـبـاح

فـجـاء وقـد تَـخَـدَّشَ جـانـبـاه ... يـئـنُّ إلـيَّ مـن ألـمِ الـجـراحِ

والكناية في قوله: «أطراف الرماح»، وفي قوله: «في طرف السلاح».

ومن الكناية الحسنة قول الفرزدق يَرْثي امرأته، وقد ماتت بجُمْع:

وجـفـنِ سـلاحٍ قـد رزئـتُ فـلـم أنُـحْ ... عـلـيـه، ولـم أبـعـث عـلـيـه الـبـواكِـيَـا

وفـي جـوفـه مـن دارم ذو حـفـيـظـة ... لـو إنّ الـمـنـايـا أخـطـأتـه لـيـالـيـا

أخذه الرضيّ رحمه الله تعالى فقال يرثي امرأة:

إن لـم تَـكُـنْ نـصـلاً فـغِـمْـدُ نُـصُـولِ ... غَـالَـتْـهُ أحْـدَاثُ الـزمـانِ بِـغُـولِ

أو لـم تَـكُـنْ بـأبـي شُـبـول ضـيـغـم ... تَـدْمَـى أظـافـرُه فـأمّ شُـبُـولِ

ومن الكنايات ما يروى أن رجلاً من خواصّ كسرى أحبَّ الملك امرأته، فكان يختلف إليها سرًّا وتختلف إليه، فعلم بذلك، فهجرها وترك فراشها، فأخبرتْ كسرى، فقال له يوماً: بلغني أنّ لك عيناً عذبة، وأنك لا تشرب منها! فقال: بلغني أيّها الملك أن الأسد يَرِدُها فخفتُه، فتركتها له، فاستحسن ذلك منه ووصله.

ومن الكنايات الحسنة قول حاتم:

ومـا تـشـتـكِـيـنـي جَـارَتي غيـر أنَّـنـي ... إذا غـاب عـنـهـا بَـعْـلُـهَـا لا أزُورهـا

سـيـبـلـغـهـا خـيـرِي ويـرجـع بـعـلُـهـا ... إلـيـهـا، ولـم يُـسْـبَـلْ عـلـيّ سـتـورُهـا

فكَنى بإسبال الستر عن الفعل، لأنه يقع عنده غالباً.

فأما قول عمر: «مَنْ أرخى ستراً أو أغلق باباً فقد وجب عليه المهر». فيمكن أن يُكْنَى بذلك

عن الجماع نفسه، ويمكن أن يُكْنَى به عن الخلْوة فقطْ، وهو مذهب أبي حنيفة، وهو الظاهر من اللفظ لأمرين: أحدهما قوله: «أغلق بابا» فإنه لو أراد الكناية لم يحسن الترديد بـ«أو»، وثانيهما أنه قد كان مقرراً عندهم أنّ الجماع نفسه يُوجب كمال المهر، فلم يكن به حاجة إلى ذكر ذلك.

ويشبه قولَ حاتم في الكناية المقدّم ذكرها قولُ بَشّار بن بشر:

وإنـي لـعَـفٌّ عَـنْ زيـارَةِ جـارتـي ... وإن لـمـشْـنُـوءٌ إلـيّ اغـتـيـابُـهـا
وَلَـم أكُ طـلاّبـاً أحـاديـثَ سِـرِّهـا ... ولا عـالـمـاً مـن أيّ حَـوْكٍ ثـيـابُـهـا
إذا غـابَ عـنـهـا بعلُـهـا لـم أكـنْ لَـهـا ... زَؤوراً ولـم تـنـبـحْ عَـلـيّ كـلابـهـا

وقال الأخطل في ضدّ ذلك يهجو رجلاً ويرميه بالزنى:

سَبَنْتَى يَظَلُّ الكَلْبُ بمضغُ ثَوْبَه ... لَـهُ فـي ديـارِ الـغـانـيـاتِ طَـرِيـقُ

السَّبنتى: النَّمرِ، يريد أنه جريءٌ وقح، وأنّ الكلب لأنسه به وكثرة اختلافه إلى جاراته يعرفه، ويمضغ ثوبه، يطلب ما يطعمه، والعفيف ينكره الكلب ولا يأنس به، ثم أكّد ذلك بأنه قد صار له بكثرة تردّده إلى ديار النساء طريق معروف.

ومن جيّد الكِناية عن العفّة قول عَقِيل بن عُلّفة المرّي:

وَلَـسْـتُ بـسـائـلٍ جَـارَاتِ بـيـتـي ... أغُـيَّـابٌ رجـالُـكِ أم شُـهُـودُ
وَلاَ مُـلْـقٍ لـذِي الْـوَدَعَـاتِ سَـوْطِـي ... ألاعِـبُـه وريـبـتُـهُ أريـدُ

ومن جَيّد ذلك ومختاره قولُ مسكين الدارميّ:

نَـارِي وَنَـارُ الْـجَـارِ واحِـدَةٌ ... وإلـيـه قـبـلِـي تَـنْـزِلُ الْـقِـدْرُ
مـا ضـرّ جـاراً لِـي أجـاورُه ... ألاّ يـكـون لـبـابِـهِ سِـتْـرُ
أغْـمَـى إذا مـا جـارتـي بَـرَزَتْ ... حَـتَّـى يُـوارِي جـارتـي الـخِـدْرُ

والعرب تكْنِي عن الفَرْج بالإزار، فتقول: هو عفيف الإزار، وبالذيل، فتقول: هو طاهر الذّيل، وإنما كَنَوْا بهما، لأنّ الذيل والإزار لا بد من رفعهما عند الفعل، وقد كَنَوْا بالإزار عن الزوجة في قول الشاعر:

ألاَ أبْـلِـغ أبـا بِـشْـرٍ رَسُـولاً ... فِـداً لـك مـن أخِـي ثِـقَـةٍ إزاري

يريد به زوجتي، أو كَنى بالإزار ها هنا عن نفسه.

وقال زُهير:

الحافِظُونَ ذِمَامَ عَهْدِهِمُ ... والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزُرِ
السِّتْر دون الفاحشات ولا ... يلقاك دون الخيرِ مِنْ سُتُرِ

ويقولون في الكناية عن العفيف: ما وضعتْ مُومسة عنده قِناعاً، ولا رفع عن مومسة ذيلاً.
وقد أحسن ابنُ طباطبا في قوله:

فَطَرِبْتُ طَرْبَةَ فاسقٍ متهتِّكٍ ... وَعَفَفْتُ عِفَّةَ نَاسِكٍ متحرِّجِ
الله يعلمُ كيفَ كانت عِفَّتِي ... ما بين خَلخالٍ هُنَاك ودُمْلُجِ[1]

ومن الكناية عن العفّة قولُ ابن ميّادة:

وما نِلْتُ مِنْهَا مَحْرَماً غَيْرَ أَنَّني ... أُقَبِّلُ بَسَّاماً من الثَّغْرِ أَفْلَجَا
وألثُمُ فاهَا آخذاً بِقُرُونِها ... وأترُكُ حاجاتِ النُّفوس تحرُّجَا

فكنى عن الفعل نفسه بحاجات النفوس، كما كنى أبو نواس عنه بذلك العمل في قوله:

مَرَّ بِنَا وَالعُيُونُ تَرْمُقُهُ ... تَجْرَحُ مِنْهُ مواضِعَ القُبَلِ
أفرغَ في قالب الجمال فما ... يصلح إلا لذلك العَمَلِ

وكما كنى عنه ابن المعتز بقوله:

وَزَارَنِي فِي ظَلاَمِ اللَّيْلِ مُسْتَتِراً ... يستعجلُ الْخَطْوَ من خَوْفٍ ومن حَذَرِ
ولاح ضوءُ هلالٍ كاد يفضَحُهُ ... مثل القُلامة قد قُصَّتْ من الظُّفُرِ
فقمت أفرش خَدِّي في الطريق لَهُ ... ذُلاً وأسحبُ أذيالِي على الأثرِ
فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أذْكُرُهُ ... فظُنَّ خَيْراً ولا تسأل عن الخَبَرِ

ومما تطيَّرُوا من ذكره، فكَنَوْا عنه قولُهم: «مات»، فإنهم عَبّروا عنه بعبارات مختلفة داخلة في باب الكناية، نحو قولهم: «لعق إصبعه»[2]. وقالوا: «اصفرَّت أنامله» لأن اصفرار الأنامل من صفات الموتى، قال الشاعر:

فَقَرِّبَانِي بأبِي أنْتُمَا ... مِنْ وَطَنِي قَبلَ اصفِرار البنانْ
وَقَبلَ مَنْعَايَ إلى نِسْوَةٍ ... منزلها حَرّان والرَّقتان

(١) الدُّمْلُج: المِعْضد من الحليّ. لسان العرب، مادة (دملج).
(٢) انظر: المستقصى للزمخشري (٢/ ٢٨٢).

وقال لَبِيد:

وَكُلّ أناسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بينهمْ　　　دُوَيْهِيَةٌ تصفرُّ منها الأنامِلُ

يعني الموت.

ويقولون في الكناية عنه: صَكّ لفلانٍ على أبي يحيى، وأبو يحيى كنية الموت، كُنِيَ عنه بضده، كما كنوا عن الأسود بالأبيض، وقال الخوارزميّ:

سريعةُ موتِ العاشقين كأنَّما　　　يُغارُ عليهمْ مِنْ هَواهَا أبُو يحيى

وكنى رسول الله ﷺ عنه بهاذم اللذات، فقال: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[1].

وقال أبو العتاهية:

رَأيتُ المنايا قُسِّمَتْ بينَ أنفُسٍ　　　ونفسي سيأتِي بينهنّ نصيبُها

فيا هاذِمَ اللّذاتِ مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ　　　تحاذِرُ نفِسي مِنْكَ مَا سَيُصِيبُهَا

وقالوا: حلّقت به العنقاء، وحلّقت به عنقاء مُغْرِب، قال:

فلولاَ دِفاعِي اليومَ عنك لحلّقَتْ　　　بِشِلْوِكَ بَيْنَ الْقَوْمِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

وقالوا فيه: زَلّ الشِّراكُ عن قدمه، قال:

لا يسلمون العداة جَارَهُمُ　　　حتى يَزلّ الشِّرَاكُ عن قَدَمِهْ

أي حتى يموت، فيستغني عن لبس النعل.

فأما قولهم: «زلّت نعله» فيكنَى به تارة عن غَلَطه وخطئه، وتارة عن سوء حاله واختلال أمره بالفقر، وهذا المعنى الأخير أراده الشاعر بقوله:

سَأشْكُرُ عَمْراً ما تراخَتْ مَنِيَّتِي　　　أيادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وإن هِيَ جَلَّتِ

فتًى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقِه　　　ولا مظهرِ الشكوى إذَا النَّعلُ زَلّتِ

رأى خَلّتِي من حيث يخفى مكانُها　　　فكانت قذى عينيه حتى تجلّتِ

ويقولون فيه: شَالَتْ نعامتُه، قال:

ياليتَ أُمّيَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُها　　　أيمَا إلى جَنَّةٍ أيمَا إلى نارِ

ليست بشَبْعَي ولو أوردتُها هَجَراً　　　ولا بِرَيَّا وَلَوْ حَلّتْ بِذِي قَارِ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٧)، والنسائي في كتاب: الجنائز، باب: كثرة ذكر الموت (١٨٢٤)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٥٨)، وأحمد في كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٧٨٦٥).

أي لا يشبِعُها كثرة التّمْر ولو نزلت هَجَر - وهَجَر كثيرة النخل - ولا تروَى ولو نزلت ذا قَار، وهو موضع كثير الماء.

قال ابن دريد: والنعامة خطّ باطنِ القدم في هذه الكناية.

ويقال أيضاً للقوم قد تفرّقوا بجلاء عن منازلهم: شالتْ نعامتُهم، وذلك لأنّ النعامَة خفيفة الطيران عن وجه الأرض، كأنهم خَفّوا عن منزلهم.

وقال ابن السكّيت: يقال لمن يغضب ثم يسكنُ: شالت نعامتُه ثم وقعت.

وقالوا أيضاً في الكناية عن الموت: مضى لسبيله، واستأثر الله به، ونقله إلى جواره، ودُعِيَ فأجاب، وقضى نَحْبَهُ، والنَّحْب: النّذر، كأنهم رأوْا أنّ الموت لمّا كان حتماً في الأعناق كان نذراً.

وقالوا في الدعاء عليه: اقتضاه الله بذنبه، إشارة إلى هذا، وقالوا: ضَحَا ظلّه، ومعناه صار ظله شمساً، وإذا صار الظل شمساً فقد عدم صاحبه.

ويقولون أيضاً: خلّى فلان مكانه، وأنشد ثعلب للعتبيّ في السريّ بن عبد الله:

كأنّ الذي يأتي السريَّ لحاجةٍ ... أباحَ إليه بالَّذي جَاءَ يطلُبُ
إذا ما ابنُ عبد الله خَلَّى مكانَهُ ... فقد حلّقت بالجودِ عَنْقاء مُغْرِبُ

وقال دُريد بن الصمّة:

فإن يكُ عبدُ الله خلَّى مكانَهُ ... فَمَا كَانَ وَقَّافاً ولا طائشَ اليدِ

وكثير ممّن لا يفهم يعتقد أنه أراد بقوله: «خلّى مكانه» فرّ، ولو كان كذلك لكان هجاء.

ويقولون: وقع في حِياضِ غُتَيم، وهو اسم للموت.

ويقولون: طار من ماله الثّمين، يريدون الثُّمْن، يقال: ثُمْن وثمِين، وسُبْع وسبيع، وذلك لأنّ الميّت ترِث زوجته من ماله الثمن غالباً، قال الشاعر يذكر جودَه بماله ويخاطب امرأته:

فَلاَ وأبيكِ لا أولي عَلَيْهَا ... لتمنع طالباً منها اليمِينُ
فإني لست منكِ ولستِ مِنّي ... إذا ما طار من مالي الثمِينُ

أي إذا متُّ، فأخذتِ ثُمنَك من تركتي.

وقالوا: لحق باللطيف الخبير، قال:

وَمِنَ النَّاس مَنْ يُحِبّك حُبًّا ... ظَاهِرَ الوُدِّ ليس بالتَّقْصِيرِ
فإذا ما سألتَهُ رُبْعَ فَلْسٍ ... ألحق الوُدَّ باللّطيف الخَبيرِ

وقال أبو العلاء:

لاَ تَسَلْ عَنْ عِداكَ أين استقرُّوا　　لَحِق القومُ باللّطِيف الخبير

ويقولون: قَرَضَ رباطَه، أي كاد يموت جهداً وعطشاً.

وقالوا في الدعاء عليه: لا عُدَّ مِنْ نفره، أي إذا عُدّ قومُه، فلا عُدَّ معهم، وإنما يكون كذلك إذا مات، قال امرؤ القيس:

فَهْوَ لاَ تَنْمِي رَمِيَّتُهُ　　مَا لَهُ لا عُدَّ مِنْ نَفَرِهْ

وهذا إنما يريد به وصفَه، والتعجّب منه، لا أنّه يدعو عليه حقيقة، كما تقول لمن يجيد الطعن: شَلّتْ يَدُه، ما أحذقه!

وقالوا في الكناية عن الدَّفْن: أضلُّوه وأضلُّوا به، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، أي إذا دُفِنَّا في الأرض.

وقال المخبل السعديّ:

أَضَلّتْ بنو قَيْس بن سعدٍ عَميدَهَا　　وَسَيِّدَها في الدَّهْر قَيْسَ بْنَ عاصِمِ

ويقولون للمقتول: ركِب الأشقر، كناية عن الدم، وإليه أشار الحارث بن هشام المخزوميّ في شعره، الذي يعتذر به عن فِراره يوم بَدْر عن أخيه أبي جهل بن هشام حين قتل:

الله يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ　　حَتّى عَلَوْا فَرَسِي بأشْقَرَ مُزْبِدِ

وعلمت أني إن أقاتلْ واحداً　　أُقتَلْ ولا يضْرُر عَدُوّيَ مَشْهَدِي

فصددتُ عنهم والأحبة فيهمُ　　طمَعاً لهم بعقاب يوم مرصدِ

أراد بدم أشقر، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه كناية عنه، والعرب تقيم الصفة مقام الموصوف كثيراً، كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾[2]، أي على سفينة ذات ألواح، وكقول عنترة:

تَمْكُو فَرِيصَتُه كَشِدْقِ الأعْلَمِ

أي كشدق الإنسان الأعلم، أو البعير الأعلم.

ويقولون: تُرِك فلان بَجَعْجَاع، أي قتِل، قال أبو قيس بن الأسلت:

مَنْ يَذُقِ الحَرْب يَجِدْ طَعْمَهَا　　مُرًّا وتتركه بجَعْجَاعِ

أي تتركه قتيلاً مُخَلًّى بالفضاء.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٠.　　(٢) سورة القمر، الآية: ١٣.

ومما كنوا عنه قولهم للمقيّد: هو محمول على الأدهم، والأدهم: القيد، قال الشاعر:

أوْعَـدَنـي بـالـسِّـجْـن والأداهِـمِ ... رِجْـلِـي وَرِجْـلِـي شَـثْـنَـةُ الـمـنـاسِـمِ

وقال الحجاج للغضبان بن القَبَعْثَرَى: لأحملنّك على الأدهم، فتجاهل عليه، وقال: مثل الأمير حمَل على الأدهم والأشهب.

وقد كنوا عن القَيْد أيضاً بالأسمر، أنشد ابن عرفة لبعضهم:

فـمـا وَجْـدُ صُـعـلـوك بـصـنـعـاء موثَـقٍ ... بـسـاقـيـه مـن سُـمْـرِ الـقُـيـود كُـبُـولُ

قـلـيـلُ الـموالِـي مُـسْـلَـمٌ بـجـريـرةٍ ... لـه بـعـد نَـوْمـاتِ الـعُـيـون غَـلِـيـلُ

يـقـول لـه الـبـوَّاب أنـت مـعـذَّبٌ ... غَـدَاةَ غـدٍ أو رائـح فـقـتـيـل

بـأكـثـر مِنْ وجـدي بـكـم يـوم رَاعَـنِي ... فـراقُ حـبـيـب مـا إلـيـه سـبـيـلُ

وهذا من لطيف شعر العرب وتشبيهها.

ومن كناياتهم عنه: ركبَ رَدْعَه، وَأصله في السهم يُرمى به فيرتدِع نصلُه فيه، يقال: ارتدع السهم، إذا رجع النصل في السِّنْخ متجاوزاً[1]، فقولهم: ركبَ رَدْعه، أي وُقِصَ فدخل عنقه في صَدْره، قال الشاعر وهو من شعر الحماسة:

تَـقُـولُ وَصَـكّـتْ صَـدْرَهـا بـيـمـيـنِـهَـا ... أَبَـعْـلِـيَ هَـذَا بـالـرَّحَـا الْـمُـتـقَـاعِـسُ!

فـقـلـتُ لـهـا لا تـعـجَـلِـي وتـبـيَّـنِـي ... بـلايَ إذا الـتـفّـتْ عـلـيّ الـفـوارسُ

ألـسـتُ أردُّ الـقِـرنَ يَـرْكَـبُ رَدْعَـه ... وفـيـهِ سِـنـانٌ ذُو غِـرارَيْـنِ يـابـسُ

لَـعَـمْـرُ أبـيـكِ الْـخَـيْـرِ إنـي لَـخَـادِمٌ ... لـضـيـفـي وإنـي إنْ رِكـبـتُ لـفـارسُ

وأنشد الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» لبعض الخوارج:

وَمُـسَـوَّمٍ لـلـمـوتِ يَـرْكَـبُ رَدْعَـهُ ... بَـيْـنَ الأسِـنّـةِ وَالْـقَـنَـا الْـخَـطَّـارِ

يَـدْنُـو وتـرفـعُـه الـرِّمَـاحُ كـأنّـهُ ... شِـلْـوٌ تـنـشَّـبَ فـي مـخـالـبِ ضَـارِي

فَـثَـوَى صَـرِيـعـاً والـرمـاحُ تَـنُـوشُـهُ ... إنَّ الـشُّـرَاةَ قَـصِـيـرةُ الأعـمـار

وقد تطيّرت العرب من لفظة البَرَص، فكنوْا عنه بالوَضَح، فقالوا: جذيمة الوضّاح، يريدون الأبرص، وكُني عنه بالأبْرَش أيضاً، وكلّ أبيض عند العرب وَضّاح، ويسمُّون اللبن وَضَحاً، يقولون: ما أكثر الوَضَح عند بني فلان!

---

(١) سِنْخُ النصل: الحديدة التي تدخل في رأس السهم. لسان العرب، مادة (سنخ).

ومما تفاءلوا به قولهم للفلاة التي يُظَنّ فيها الهلاك: مَفَازة، اشتقاقاً من الفَوْز وهو النجاة، وقال بعض المحدَثين:

أحبُّ الفأل حين رأى كَثِيراً ... أبوهُ عن اقتناءِ المجدِ عاجِزْ
فسمّاه لِقِلَّتِهِ كَثِيراً ... كتلقيب المهالكِ بالمفاوِزْ

فأما من قال: إن المفازة «مفعلة» من فَوّز الرجل، أي هلك، فإنه يُخرج هذه اللفظة من باب الكنايات.

ومن هذا تسميتهم اللّدِيغ سَلِيماً، قال:

كأني من تَذَكُّرِ ما ألاقي ... إذا ما أظلم الليل البهيمُ
سليمٌ مَلَّ منه أقربُوه ... وأسلمه المجاور والحميمُ

وقال أبو تمام في الشيب:

شُعْلَةٌ في المفارقِ استودَعَتْني ... في صَمِيمِ الأحْشاءِ ثُكْلاً صَمِيمَا
تستثيرُ الهمومُ ما اكتَنّ منها ... صُعُداً وهْي تستثيرُ الهُمُوما
دِقّةٌ في الحياةِ تُدْعَى جَلالاً ... مِثْلَمَا سُمّيَ اللَّدِيغُ سَلِيما
غُرّةٌ بَهْمَةٌ ألا إنّما كُنْـ ... ـتُ أغَرًّا أيام كنتُ بهِيما
حَلَّمتْنِي - زعمتمُ - وأرَاني ... قبل هذا التَّخْلِيم كُنْتُ حَلِيما

ومن هذا قولهم للأعور: ممتَّع، كأنهم أرادوا أنه قد مُتّع ببقاء إحدى عينيْه، ولم يُحْرَمْ ضوءهما معاً.

ومن كناياتهم على العكس قولهم للأسود: يا أبا البيضاء، وللأسود أيضاً: يا كافور، وللأبيض: يا أبا الجون، وللأقرع: يا أبا الجَعْد.

وسمّوا الغراب أعور لحدّة بصرِه، قال ابن مَيّادة:

ألا طرقَتْنَا أمّ عمرو وَدُونَها ... فَيافٍ من البَيْدَاء يَغْشى غُرَابُها

خَصّ الغراب بذلك لحدّة نظره، أي فكيف غيره!

ومما جاء في تحسين اللّفظ ما رُوِي أنّ المنصورَ كان في بستان دارِهِ والربيع بين يديه، فقال له: ما هذه الشجرة؟ فقال: «وِفاق» يا أمير المؤمنين، وكانت شجرة خِلاَف، فاستحسن منه ذلك.

ومثل هذا استحسان الرشيد قولَ عبد الملك بن صالح، وقد أهدى إليه باكُورَة فاكهة في أطباق خَيزُران: بعثتُ إلى أمير المؤمنين في أطباق قُضْبانٍ تحمل من جَنَايا باكُورة بستانه ما راج وأينع، فقال الرشيد لمن حضر: ما أحسن ما كَنى عن اسم أمِّنا!

ويقال: إن عبد الملك سبق بهذه الكناية، وإن الهاديَ قال لابن دأب، وفي يده عصا: ما جنسُ هذه؟ فقال: من أصول القنا - يعني الخيزران، والخيزران أمّ الهادي والرشيد معاً.

وشبيه بذلك ما يقال: إن الحسنَ بن سهل كان في يده ضِغْثٌ[(١)] من أطراف الأراك، فسأله المأمون عنه: ما هذه؟ فقال: «محاسنك» يا أمير المؤمنين، تجنُّباً لأن يقول: «مساوئك»، وهذا لطيف.

ومن الكنايات اللطيفة أنّ عبد الملك بعث الشعبيّ إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو أمير مصر يومئذ، لِيَسْبُرَ أخلاقه وسياسته، ويعود إليه فيخبره بحاله، فلما عاد سأله فقال: وجدتُه أحوجَ الناس إلى بقائك يا أمير المؤمنين، وكان عبد العزيز يُضَعّف.

ومن الألفاظ التي جاءت عن رسول الله ﷺ من باب الكنايات قوله ﷺ: «بُعِثتُ إلى الأسود والأحمر»[(٢)]، يريد إلى العرب والعجم، فكَنى عن العرب بالسُّود وعن العجم بالحمر، والعرب تسمي العجميّ أحمر، لأنّ الشقرة تغلب عليه.

قال ابن قتيبة: خطب إلى عَقِيل بن علّفة المرّي ابنتَه هشامُ بن إسماعيل المخزوميّ - وكان واليَ المدينة، وخال هشام بن عبد الملك - فردّه، لأنه كان أبيض شديد البياض - وكان عَقِيل أعرابياً جافياً غيوراً مفرِط الغَيْرة - وقال:

رَدَدْتُ صحيفةَ القرَشي لمّا أبت أعراقه إلا احمرارا

فردّه، لأنه توسّم فيه أن بعضَ أعراقه ينزع إلى العجم، لما رأى من بياضِ لونه وشُقرته.

ومنه قول جرير يذكر العجم:

يُسَمُّونَنَا الأعرابَ والعَرَبُ اسْمُنَا وأسماؤهم فِينا رقابُ المزاوِدِ

وإنّما يسمونهم رقاب المزاود، لأنها حمراء.

---

(١) الضِّغث: بالكسر قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس. القاموس المحيط، مادة (ضغث).

(٢) أخرجه أحمد باب: مسند جابر بن عبدالله (١٣٨٥٢)، والدارمي في كتاب السير، باب: الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا (٢٤٦٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٦٤٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٤٦٢).

ومن كناياتهم تعبيرهم عن المفاخرة بالمساجلة، وأصلها من السَّجْل، وهي الدّلْو الملىء، كان الرجلان يستقِيان، فأيّهما غلب صاحبَه كان الفوز والفخر له، قال الفضلُ بن العباس ابن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب:

وَأَنَـا الأخْـضَـرُ مَـنْ يَـعْـرِفُـنِـي ... أخْـضَـرُ الْـجِـلْـدَةِ مِـنْ بَـيْـتِ الْـعَـرَبْ
مَـنْ يـسـاجِـلْـنـي يُـسـاجِـلْ مَـاجِـداً ... يـمـلأ الـدَّلْـو إلـى عَـقْـدِ الـكَـرَبْ
بـرسـولِ الله وابْـنَـيْ عـمّـه ... وبـعـبـاس بـن عـبـد الـمـطـلـب

ويقال: إن الفرزدق مَرّ بالفضل وهو ينشد: «مَنْ يساجلني»[1]، فقال: أنا أساجلُك، ونزَع ثيابه، فقال الفضل: «برسول الله وابن عمه»، فلبِس الفرزدق ثيابه، وقال: أعضّ الله مَنْ يساجلك بما نَفَتِ المَواسي[2] من بَظْر أمه، ورواه أبو بكر بن دريد: «بما أبقت المواسي».

وقد نزل القرآن العزيز على مخرج كلام العرب في المساجلة، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾[3]، الذَّنُوب: الدّلو، والمراد ما ذكرناه.

وقال المبرّد: المراد بقوله: «وأنا الأخضر»، أي: الأسمر والأسود، والعرب كانت تفتخِر بالسمرة والسواد، وكانت تكره الحُمْرة والشقرة، وتقول: إنهما من ألوان العجم.

وقال ابن دُرَيد: مرادُه أن بيتي ربيعٌ أبداً مخصِب، كثير الخير، لأنّ الخِصْب مع الخضرة، وقال الشاعر:

قـومٌ إذا اخـضـرّت نـعـالـهـمُ ... يـتـنـاهَـقُـون تـنـاهُـق الـحـمـرِ

أي إذا أعشبت الأرض اخضرّت نعالهم من وطئهم إياها، فأغار بعضُهم على بعض، والتناهق ها هنا: أصواتهم حين ينادَوْن للغارة، ويدعو بعضهم بعضاً، ونظير هذا البيت قول الآخر:

قـومٌ إذا نَـبَـتَ الـربـيـعُ لَـهُـمْ ... نـبـتَـت عـداوتُـهـمْ مـع الْـبَـقْـل

أي إذا أخصبوا وشبعوا غزا بعضهم بعضاً. ومثله قول الآخر:

يـا ابـن هـشـام أهـلـكَ الـنَّـاسَ الـلَّـبَـنْ ... فـكـلُّـهـمْ يـغـدو بـسـيـف وَقَـرَنْ

أي تسفهوا لما رأوا من كثرة اللبن والخصب، فأفسدوا في الأرض، وأغار بعضهم على بعض. والقرَن: الجَعْبة.

وقيل لبعضهم: متى يُخاف من شرّ بني فلان؟ فقال: إذا ألبنوا.

---

(١) ساجَلَه: باراه، فاخره. القاموس المحيط، مادة (سجل).
(٢) مَسَى الناقة والفرس: نَقّى رحمها. القاموس المحيط، مادة (مسي).
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٩.

ومن الكنايات الداخلة في باب الإيماء قول الشاعر:

فَتًى لا يرى قَد القميص بَخصره ... ولكنّما يُوهِي القميص عَواتِقُهْ

لمّا كان سلامة القميص من الخرق في موضع الخَصْر تابعاً لدقة الخَصْر، ووهَنُه في الكاهل تابعاً لعظم الكاهل، ذكر ما دلّ على دقّة خَصْر هذا الممدوح وعظم كاهله: ومنه قول مسلم بن الوليد:

فَرْعَاءُ في فَرْعِهَا لَيْلٌ عَلَى قَمَرٍ ... عَلَى قَضِيبٍ على حِقْفِ[1] النَّقا[2] الدَّهِسِ[3]

كأنّ قلبي وشاحاها إذا خطرتْ ... وقَلْبَها قُلْبها في الصَّمْت والخَرَسِ

تجري محبّتُها في قَلْب عاشقها ... مجرى السَّلامة في أعضاء منتكسِ

فلما كان قلق الوشاح تابعاً لدقة الخَصْر ذكره دالاً به عليه.

ومن هذا الباب قول القائل:

إذا غَرّد المُكّاء في غَيْر روضةٍ ... فويلٌ لأهل الشَّاءِ والحُمراتِ

أومأ بذلك إلى الجذب، لأن المُكاء يألف الرياض، فإذا أجدبت الأرض سقط في غير روضة وغرّد، فالويل حينئذ لأهل الشاء والحُمُر.

ومنه قول القائل:

لعمرِي لنعم الحيّ حيّ بني كعبٍ ... إذا جُعِل الخَلخال في موضِع القُلْبِ

القُلْب: السِّوار، يقول: نعم الحيّ هؤلاء إذا ريع الناس وخافوا، حتى إنّ المرأة لشدّة خوفها تلبَس الخلخال مكانَ السوار، فاختصر الكلام اختصاراً شديداً.

ومنه قول الأفوه الأوديّ:

إنّ بَني أوْدٍ هُمُ ما هُم ... للحرْب أو للجَدْبِ عامَ الشُّمُوسِ

أشار إلى الجدب وقلّة السحب والمطر، أي الأيام التي كلّها أيام شمس وصحو، لا غيم فيها ولا مطر.

فقد ذكرنا من الكنايات والتعريضات وما يدخل في ذلك ويجري مجراه من باب الإيماء

(١) الحِقْفَ: بالكسر المعوج من الرمل، أو الرمل العظيم المستدير، وأصل الرّمل وأصل الجبل، وأصل الحائط. القاموس المحيط، مادة (حقف).

(٢) النَّقا من الرمل: القطعة تنقاد مُحدودبة. القاموس المحيط، مادو (نقو).

(٣) الدُّهسة: لون كلون الرمال وألوان المعزى، وقيل: لون يعلوه أدنى سواد يكون في الرمال والمعز. لسان العرب، مادو (دهس).

والرَّمز قطعة صالحة، وسنذكر شيئاً آخر من ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى، إذا مررنا في شرح كلامه عليه السلام بما يتقضيه ويستدعيه.

الفرق بين الكناية والتعريض

وقد كنّا وعدنا أن نذكر كلاماً كلّياً في حقيقة الكناية والتعريض، والفرق بينهما، فنقول:

الكناية قسم من أقسام المجاز، وهو إبدال لفظة عَرَض في النطق بها مانع بلفظةٍ لا مانعَ عن النطق بها، كقوله عليه السلام: «قرارات النساء»، لمّا وجد الناس قد تواضعوا على استهجان لفظة «أرْحَام النساء».

وأما التّعريض فقد يكون بغير اللفظ كدفع أسماء بن خارجة الفَصّ الفيروز الأزرق من يده إلى ابن مكعبر الضَّبّي إذ كاراً له، بقول الشاعر:

كـذا كـلّ ضَـبّـيٍّ مـن الـلـؤم أزرقُ

فالتعريض إذاً هو التنبيه بفعل أو لفظ على معنى اقتضت الحال العدول عن التصريح به.

وأنا أحكي ها هنا كلام نصر الله بن الأثير الجزريّ في كتابه المسمى «بالمثل السائر»[1] في الكناية والتعريض، وأذكر ما عندي فيه، قال:

خلط أربابُ هذه الصناعة الكناية بالتعريض، ولم يفصلوا بينها، فقال ابن سنان: إن قولَ امرىء القيس:

فصِرْنَا إلَى الحُسْنَى ورَقَّ كلامُنَا ورُضْتُ فذلَّتْ صعبةً أيّ إذلالِ

من باب الكناية، والصحيح أنه من باب التعريض.

قال: وقد قال الغانميّ والعسكريّ وابن حمدون وغيرهم نحو ذلك، ومزجوا أحدَ القسمين بالآخر.

قال: وقد حدّ قوم الكناية، فقالوا: هي اللفظ الدالّ على الشيء بغير الوضع الحقيقيّ، بوصفٍ جامع بين الكناية والمكنّى عنه، كاللمس والجماع، فإن الجماعَ اسم لموضوع حقيقيّ، واللمس كناية عنه، وبينهما وصف جامع، إذا الجماع لمسٌ وزيادة، فكان دالاً عليه بالوضع المجازيّ.

قال: وهذا الحدّ فاسد، لأنه يجوز أن يكون حدًّا للتشبيه والمشبَّه، فإنّ التشبيه هو اللفظ

---

(١) مثل السائر: لضياء الدين نصر الله بن محمد بن صاين الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري، المتوفى سنة (٦٣٧هـ)، جمع فيه ما استوعب، ولم يتعلق شيئاً بفن الكتابة إلا ذكره. كشف الظنون (٢/ ١٥٨٦).

الدالّ على الوضع الحقيقي الجامع بين المشبّه والمشبّه به في صفة من الأوصاف، ألا ترى إذا قلنا: زيد أسد، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين زيد والأسد، وذلك الوصف هو الشجاعة.

قال: وأمّا أصحابُ أصول الفقه، فقالوا في حدّ الكناية: إنها اللفظ المحتمل، ومعناه أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى، وعلى خلافه.

وهذا منقوض بالألفاظ المفردة المشتركة، وبكثير من الأقوال المركبة المحتملة للشيء وخلافه، وليست بكنايات.

قال: وعندي أن الكنايات لا بد أن يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز، ومتى أفردت جاز حملها على الجانبين معاً، ألا ترى أن اللمس في قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[1] يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وكلٌّ منهما يصح به المعنى ولا يختلّ! ولهذا قال الشافعيّ: إن ملامسَة المرأة تنقض الوضوء والطهارة.

وذهب غيرُه إلى أنّ المراد باللمس في الآية الجماع، وهو الكناية المجازية، فكلّ موضع يَرِدُ فيه الكناية، فسبيله هذا السبيل، وليس التشبيه بهذه الصورة ولا غيره من أقسام المجاز، لأنه لا يجوز حملُه إلا على جانب المجاز خاص، ولو حمل على جانب الحقيقة لاستحال المعنى، ألا ترى أنا إذا قلنا: زيد أسد لم يصحّ أن يحمل إلا على الجهة المجازية، وهي التشبيه بالأسد في شجاعته، ولا يجوز حمله على الجهة الحقيقة، لأنّ «زيداً» لا يكون سَبُعاً ذا أنياب ومخالبَ، فقد صار إذَنْ حدّ الكناية أنها اللفظ الدالّ على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز.

قال: والدليل على ذلك أنّ الكناية في أصل الوضع أنْ تتكلّم بشيء وتريد غيره، يقال: كنَيْتُ بكذا عن كذا، فهي تدلّ على ما تكلّمت به، وعلى ما أردته من غيره فلا يخلو إمّا أن يَكُونَ في لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة، أو في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز، أو في لفظ لا يتجاذبه أمر. وليس لنا قسم رابع.

والثاني باطل، لأن ذاك هو اللفظ المشترك، فإن أطلق من غير قرينة مخصصة كان مبهماً غير مفهوم، وإن كان معه قرينة صار مخصّصاً لشيء بعينه، والكناية أنّ تتكلّم بشيء وتريد غيره، وذلك مخالف للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة، لأنه يخْتصّ بشيء واحد بعينه، ولا يتعدّاه إلى غيره، والثالث باطل أيضاً، لأنّ المجاز لا بد له من حقيقة ينقل عنها لأنه فرع عليها.

وذلك اللفظ الدالّ على المجاز، إما أنْ يكونَ للحقيقة شركة في الدلالة عليه أو لا يكون لها

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

شركة في الدلالة عليه، كأن اللفظ الواحد قد دلّ على ثلاثة أشياء: أحدها الحقيقة، والآخران المجازان.

وهذا مخالف لأصل الوضع، لأن أصل الوضع أن تتكلّم بشيء وأنت تريد غيره، وها هنا يكون قد تكلّمت بشيء وأنت تريد شيئين غيرين، وإن لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة، كان ذلك مخالفاً لأصل الوضع أيضاً، إذ أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريدُ غيره، فيكون الذي تكلّمت به دالًّا على غيره، وإذا أخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركة في الدلالة، لم يكن الذي تكلّمت به، وهذا محال، فثبت إذن أنّ الكناية هي أن ت...

قال: وهذا مما لم يسبقني إليه أحد.

ثم قال: قد يأتي من الكلام ما يجوزُ أن يكون كناية، ويجوز أن يكون استعارة، ويختلف ذلك باختلاف النظر إليه بمفرده والنظر إلى ما بعده. كقول نصر بن سيّار [في أبياته المشهورة التي يحرض بها على بني أميّة عند خروج أبي مسلم:

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أنْ يَكُونَ لَهُ ضِرامُ[1]

فَإنّ النارَ بالزّنديْنِ تُورِي ... وإنّ الحربَ أولُها كلامُ

أقول من التعجّب: لَيْتَ شعرِي ... أأيقاظٌ أمَيّةُ أم نيامُ!

فالبيت الأول لو ورد بمفرده لكان كناية، لأنه لا يجوز حملُه على جانبي الحقيقة والمجاز، فإذا نظرنا إلى الأبيات بجملتها، كان البيت الأول المذكور استعارة لا كناية.

ثم أخذ في الفرق بين الكناية والتعريض، فقال: التّعريض هُو اللفظ الدالّ على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقيّ ولا بالمجازيّ، فإنّك إذا قلت لمن تتوقع معروفه وصِلَته بغير طلب: أنا محتاج ولا شيء في يدي، وأنا عريانٌ والبرد قد آذاني، فإن هذا وأشباهَه تعريضٌ بالطلب، وليس اللفظ موضوعاً للطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، وإنما يدلّ عليه من طريق المفهوم بخلاف قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[2]. وعلى هذا ورد تفسير التعريض في خِطبة النكاح، كقولك للمرأة: أنت جميلة، أو إنّك خليّة وأنا عَزَب. فإن هذا وشبهه لا يدلّ على

(١) الأبيات من الأخبار الطوال: ٣٤٠. والضرام: اشتعال النار في الحلفاء ونحوها. والضِّرام أيضاً: دقاق الحطب الذي يسرع فيه اشتعال النار.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

طلب النكاح بالحقيقة ولا بالمجاز، والتعريض أخفى من الكناية، لأنّ دلالة الكناية وَضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم المركّب، وليست وضعية، وإنما يسمى التعريض تعريضاً، لأنّ المعنى فيه يُفهم من عُرْض اللفظ المفهوم، أي من جانبه.

قال: واعلم أنّ الكناية تشتمل على اللفظ المفرد، واللفظ المركّب، فتأتي على هذا مرّة، وعلى هذا أخرى، وأمّا التعريض فإنه يختصّ باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتّة، لأنه لا يُفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة، ولا من جهة المجاز، بل من جهة التلويح والإشارة، وهذا أمر لا يستقلّ به اللفظ المفرد، ويحتاج في الدلالة عليه إلى اللفظ المركب.

قال: فقد ظهر فيما قلنا في البيت الذي ذكره ابن سنان مثال الكناية، ومثال التعريض هو بيت امرىء القيس، لأن غَرض الشاعر منه أن يذكر الجماع، إلا أنه لم يذكره بل ذكر كلاماً آخر، ففهم الجِماع من عرضه، لأنّ المصير إلى الحسنى ورقّة الكلام لا يدلان على الجماع، لا حقيقة ولا مجازاً.

ثم ذكر أن من باب الكناية قوله سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ الآية[1]. قال: كَنى بالماء عن العِلم، وبالأودية عن القُلوب، وبالزَّبد عن الضلال.

قال: وقد تحقق ما اخترعناه وقدرناه من هذه الآية، لأنه يجوز حملها على جانب الحقيقة، كما يجوز حملها على جانب المجاز.

قال: وقد أخطأ الفرّاء حيث زعم أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[2] كناية عن أمر النبيّ ﷺ، وأنه كَنى عنه بالجبال. قال: ووجه الخطأ أنّه لا يجوز أن يتجاذَب اللفظَ ها هنا جانبا الحقيقة والمجاز، لأنّ مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال الحقيقية، فالآية إذاً من باب المجاز لا من باب الكناية.

قال: ومن الكنايات المستحسَنة قولُه ﷺ للحادي بالنساء: «يا أنجَشَة رِفْقاً بالقوارير»[3].

وقول امرأة لرجل قعد منها مقعد القابلة: لا يحلُّ لكَ أنْ تَفُضّ الخاتم إلا بحقِّه.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧. (٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يجوز من الشعر (٦١٤٩)، ومسلم في كتاب: الفضائل باب: رحمة النبي للنساء (٢٣٢٣)، وأحمد في باب: مسند أنس بن مالك (١١٦٣٠) كلهم بلفظ: «يا أنجشة رويدك سوقاً بالقوارير». أما لفظ: «رفقاً بالقوارير» فقد أورده ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١٤٠).

وقول بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ لرسول الله ﷺ: إنّ قريشاً قد نزلت على ماء الحُدَيبِيَة معها العُوذ المطافيل، وإنّهم صادُّوك عن البيت.

قال: فهذه كناية عن النساء والصبيان، لأنّ العُوذَ المطافيل: الإبل الحديثات النّتاج ومعها أولادها.

ومن الكناية ما ورد في شهادة الزنى، أن يُشهد عليه برؤية المِيل في المكحُلة.

ومنها قول عمر لرسول الله ﷺ: هلكتُ يا رسول الله، قال: «وما أهلكك؟»، قال: حَوّلت رحلي البارحة[1]. قال: أشار بذلك إلى الإتيان في غير المأتى.

ومنها قول ابن سِلاَم لمن رأى عليه ثوباً معصفراً: «لو أنّ ثوبك في تنُّور أهلك لكان خيراً لك».

قال: ومن الكنايات المستقبحة قول الرضيّ يرثي امرأة:

إن لـم تـكـن نَـصْـلاً فـغِـمْـدُ نُـصُـولِ

لأن الوهم يسبق في هذا الموضع إلى ما يقبح، وإنما سرقه من قول الفرزدق في امرأته وقد ماتت بِجُمْع:

وَجَـفْـنِ سِـلاَحٍ قَـدْ رُزِئْـتُ فـلـم أَنُـحْ — عَـلَـيْـه، ولـم أبـعـثْ عـلـيـه الـبـواكـيَـا

وفـي جـوفِـه مـن دارمٍ ذُو حـفـيـظـة — لَـوَ انَّ الـمـنـايـا أخـطـأتـه لـيـالـيـا

فأخذه الرضيّ فأفسده ولم يحسِن تصريفَه.

قال: فأمّا أمثله التعريض فكثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[2]، فقوله: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريضٌ بأنّهم أحقّ بالنبوّة، وأنّ الله تعالى لو أراد أنْ يجعلَها في واحد من البَشَر لجعلها فيهم، فقالوا: هبْ أنّك واحد من الملإ ومُوازِيهم في المنزلة، فما جَعَلك أحقَّ بالنبوّة منهم! الا تَرى إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

هذه خلاصة ما ذكره ابن الأثير في هذا الباب.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة البقرة (٢٩٨٠)، وأحمد في كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٦٩٨).

(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.

واعلم أنّا قد تكلّمنا عليه في كثير من هذا الموضع في كتابنا الذي أفردناه للنّقض عليه، وهو الكتاب المسمّى بـ«الفلك الدائر على المثل السائر» فقلنا أولاً: إنه اختار حَدّ الكناية وشَرَعَ يبرهِنُ على التّحديد، والحُدود لا يبرهَن عليها، ولا هِيَ مِنْ باب الدَّعَاوى التي تحتاج إلى الأدِلّة، لأنّ مَنْ وَضَع لفظ الكناية لمفهوم مخصوص لا يحتاج إلى دليل، كمَنْ وضعَ لفظ الجدار للحائط لا يحتاج إلى دليل.

ثم يقال له: لم قلت: إنّه لا بدَّ من أنْ يتردَّد لفظ الكناية بين محملَيْ حقيقةٍ ومجاز؟ ولم لا يتردَّد بين مجازَيْن؟ وما استدللتَ به على ذلك لا معنى له....

أما أولاً، فلأنّك أردت أن تقول: إمّا أنْ تكون للَّفظَةِ الدالّة على المجازَيْن شركة في الدلالة على الحقيقة، أو لا يكون لها في الدلالة على الحقيقة شركة، لأنّ كلامك هكذا يقتضي، ولا ينتظم إلا إذا قلت هكذا فلم تقله، وقلت: إمّا أن يكون للحقيقة شركة في اللّفظ الدالّ على المجازين، وهذا قلْب للكلام الصحيح وعكس له.

وأمّا ثانياً فلم قلتَ: إنه لا يكون للّفظة الدالّة على المجازَيْن شَركة في الدلالة على الحقيقة التي هي أصل لهما، فأما قولك هذا فيقتِضي أن يكون الإنسان متكلّماً بشيء وهو يريد شيئين غيره، وأصلُ الوَضع أن يتكلم بشيء وهو يريد غيره، فليس معنى قولهم: الكناية أن تتكلّم بشيء وأنت تريد غيره، أنّك تريد شيئاً واحداً غيره، كَلاّ ليس هذا هو المقصود، بل المقصود أنْ تتكلّم بشيء وأنت تريد ما هو مغاير له، وإن أردت شيئاً واحداً أو شيئيْن أو ثلاثة أشياء أو ما زاد، فقد أردت ما هو مغاير له، لأنّ كلّ مغاير لما دلّ عليه ظاهر لفظك فليس في لفظه غير ما يقتضي الوحدة والإفراد.

وأما ثالثاً فلم لا يجوز أن يكون للّفظ الدالّ على المجازين شركة في الدلالة على الحقيقة أصلاً، بل يدلّ على المجازين فقط! فأمّا قولك إذا خرجت الحقيقة عن أن يكون لها في ذلك شركة لم يكن الذي تكلّمت به دالًا على ما تكلّمت به وهو محال، ومرادك بهذا الكلام المقلوب أنه إذا خرجت اللفظة عن أن يكون لها شركة في الدّلالة على الحقيقة التي هي موضوعة لها في الأصل لم يكنْ ما تكلم به الإنسانُ دالاً على ما تكلّم به وهو حقيقة، ولا دالاً أيضاً على ما تكلّم به وهو مجاز، لأنه إذا لم يدلّ على الحقيقة، وهي الأصل، لم يجز أن يدلّ على المجاز الذي هو الفرع، لأنّ انتفاء الدلالة على الأصل، يوجب انتفاء الدلالة على الفرع، وهكذا يجب أن يُتأولّ استدلاله، وإلاّ لم يكن له معنى محصّل، لأن اللفظ هو الدّال على مفهوماته، وليس المفهوم دالاً على اللفظ، ولا له شركة في الدلالة عليه، ولا على مفهوم آخر يعترض اللفظ بتقدير انتقال اللفظ، اللّهمّ إلا أنْ يكون دلالة عقلية، وكلامُنَا في الألفاظ ودلالتها.

فإذا أصلحنا كلامَه على ما ينبغي، قلنا له في الاعتراض عليه: لم قلتَ إنه إذا خرج اللفظُ

عن أن يكون له شركة في الدلالة على الحقيقة، لم يكن ما تكلّم به الإنسان دالاً على ما تكلم به؟ ولم لا يجوزُ أن يكون للحقيقة مجازان قد كثر استعمالهما حتى نسيت تلك الحقيقة، فإذا تكلّم الإنسان بذلك اللفظ كان دالاً به على أحد ذَيْنِك المجازَيْن، ولا يكون له تعرُّضٌ ما بتلك الحقيقة، فلا يكون الذي تكلم به غير دالٍّ على ما تكلم به، لأن حقيقة تلك اللفظة قد صارتْ ملغاة منسية، فلا يكون عدمُ إرادتها موجباً أنْ يكون اللفظ الذي يتكلم به المتكلم غير دالٍّ على ما تكلم به، لأنها قد خرجت بترك الاستعمال، عن أنْ تكون هي ما تكلم به المتكلم.

ثم يقال: إنك منعت أن يكون قولنا: «زيد أسد». كناية، وقلت: لأنه لا يجوز أن يحمل أحد هذا اللفظ على أن «زيداً» هو السبع ذو الأنياب والمخالب، ومنعت من قول الفرّاء إن الجبال في قوله: ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾(1) كناية عن دعوة محمد ﷺ وشريعته، لأنّ أحداً لا يعتقد ولا يتصوّر أنّ مكرَ البشر يزيل الجبال الحقيقية عن أماكنها، ومنعتَ مِنْ قول مَنْ قال إن قول الشاعر:

وَلَوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

من باب الكناية، لأنّ أحداً لا يتصوّر أنّ الحقائب - وهي جمادات - تُثْنِي وتشكر.

وقلت: لا بدّ أن يصحّ حمل لفظ الكناية عل محمَلي الحقيقة والمجاز، ثم قلت: إنّ قول عبد الله بن سلاَم لصاحب الثوب المعصفَر: «لو أنّك جعلتَ ثوبَك في تَنُّور أهلك» كناية، وقول الرضيّ في امرأة ماتت:

إنْ لَمْ تَكُنْ نَصْلاً فَغِمْدُ نُصُولِ

كناية، وإن كانت مستقبحة، وقول النبيّ ﷺ: «يا أنجشة رفقاً بالقوارير»، وهو يحدو بالنساء كناية، فهل يجيزُ عاقل قطّ أو يُتصوّر في الأذهان أنْ تكونَ المرأة غِمْداً للسيف! وهل «يحمِل أحد» قطّ قوله للحادي «رفقاً بالقوارير» على أنه يمكن أن يكون نهاه عن العُنْف بالزُّجاج، أو يحمل أحدٌ قطّ قول ابن سلاَم على أنه أراد إحراق الثوب بالنار، أو يحمل قطّ أحدٌ قوله: «المِيل في المكحلة» على حقيقتها، أو يحمل قطّ أحد قوله: «لا يحل لَكَ فضّ الخاتم» على حقيقته! وهل يشكّ عاقل قطّ في أنّ هذه الألفاظ ليست دائرة بين المحملين دَوَرَان اللمس والجماع والمصافحة، وهذه مناقضة ظاهرة، ولا جوابَ عنها إلا بإخراج هذه المواضع من باب الكناية، أو بحذف ذلك الشرط الذي اشترطته في حدّ الكناية.

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.

فأمّا ما ذكره حكايةً عن غيره في حَدّ الكناية بأنّها اللّفظ الدالّ على الشيء بغير الوضع الحقيقيّ، بوصف جامع بين الكناية والمكنيّ عنه، وقوله: هذا الحدّ هو حدّ التشبيه، فلا يجوز أنْ يكونَ حدّ الكناية.

فلقائل أن يقول: إذا قلنا: زيد أسد، كان ذلك لفظاً دالاً على غير الوضع الحقيقيّ، وذلك المدلول هو بعينه الوصف المشترك بين المشبّه والمشبّه به، ألا تَرَى أنّ المدلولَ هو الشجاعة، وهي المشترك بين زيد والأسد، وأصحاب الحدّ قالوا في حَدّهم: الكناية هي اللّفظ الدالّ على الشيء بغير الوضع الحقيقي، باعتبار وصف جامع بينهما، فجعلوا المدلولَ أمراً والوصف الجامع أمراً آخر باعتباره وقت الدلالة، ألاَ ترى أنّ لفظ ﴿لَمَسْتُمُ﴾[1] يدلّ على الجماع الذي لم يوضع لفظ ﴿لَمَسْتُمُ﴾ له، وإنما يدلّ عليه باعتبار أمر آخر، هو كون الملامسة مقدّمة الجماع ومفضِية إليه! فقد تغاير إذن حدّ التشبيه وحدُّ الكناية، ولم يكن أحدُهما هو الآخر.

فأما قوله: إن الكناية قد تكون بالمفردات والتعريض لا يكون بالمفردات، فدعوى، وذلك أنّ اللفظ المفرد لا ينتظِمُ منه فائدة، وإنما تفيد الجملة المركبة من مبتدأ وخبر، أو من فعل وفاعل، والكناية والتعريض في هذا الباب سواء، وأقلّ ما يمكن أن يقيّد في الكناية قولك: لامست هنداً، وكذلك أقلّ ما يمكن أن يفيد في التعريض: «أنا عزب»، كما قد ذكره هو في أمثلة التعريض. فإن قال: أردت أنه قد يقال: اللّمس يصلح أن يُكْنَى به عن الجماع، واللمس لفظ مفرد، قيل له: وقد يقال: التعزّب يصلح أن يعرّض به في طلب النكاح.

فأمّا قوله: إن بيت نصر بن سيّار، إذا نظر إليه لمفرده صَلَح أن يكون كنايةً، وإنّما يخرِجه عن كونه كناية ضمُّ الأبيات التي بعدَه إليه، ويدخله في باب الاستعارة، فلزم عليه أن يخرج قول عمر: «حوَّلت رَحْلِي» عن باب الكناية بما انضمّ إليه من قوله: «هلكت»، وبما أجابه رسول الله ﷺ من قوله: «أقبِلْ وأدبِرْ واتّق الدُّبر والحَيْضة»، وبقرينة الحال. وكان يجب ألاّ تُذكر هذه اللفظة في أمثلة الكنايات.

فأما بيت امرىء القيس فلا وجه لإسقاطه من باب الكناية وإدخاله في باب التعريض، إلا فيما اعتمد عليه، من أنّ من شرط الكناية أن يتجاذَبها جانبا حقيقة ومجاز.

وقد بيَّنا بطلان اشتراط ذلك، فبطل ما يتفرّع عليه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

وأما قول بُدَيل بن ورقاء: «معها العُوذُ المَطَافيل» فإنه ليس بكناية عن النساء والأولاد كما زعم، بل أراد به الإبل ونتاجها، فإنّ كتب السِّيَر كلّها متّفقة على أن قُريشاً لم يخرج معها في سنة الحديبيّة نساؤُها وأولادها، ولم يحارب رسول الله ﷺ قوماً أحضروا معهم نساءهم وأولادهم، إلا هَوازِن يوم حُنَين، وإذا لم يكن لهذا الوجه حقيقة ولا وجود، فقد بطل حمل اللفظ عليه.

فأما ما زَرَى به على الرضيّ رحمه الله تعالى من قوله:

إن لـم تـكـنْ نَـصْـلاً فـغِـمْـدُ نُـصُـولِ

وقوله: هذا مما يسبق الوهم فيه إلى ما يستقبَح واستحسانه شعرَ الفرزدق وقوله: إن الرضيّ أخذه منه فأساء الأخذ، فالوَهْم الذي يسبق إلى بيت الرضيّ يسبق مثله إلى بيت الفرزدق، لأنّه قد جعل هذه المرأة جَفْن السلاح، فإن كان الوَهْمُ يسبق هناك إلى قبيح فها هنا أيضاً يسبق إلى مثله.

وأما الآية التي مثَّل بها على التعريض، فإنه قال: إن قوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[1] تعريض بأنّهم أحقّ بالنبوّة منه، ولم يبين ذلك، وإنما قال: فحوى الكلام أنّهم قالوا له: هب أنّك واحد من الملأ وموازيهم في المنزلة، فما جَعَلك أحقَّ بالنبوة منهم؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾[2]! وهذا الكلام لا يقتضي ما ادّعاه أولاً من التعريض، لأنه ادَّعى أن قوله: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ تعريض بأنّهم أحقُّ بالنبوّة منه، وما قَرّره به يقتضي مساواته لهم، ولا يقتضي كونَهُم أحقَّ بالنبوة منه، فبطلَ دعوى الأحقيّة، التي زعم أن التعريض إنما كان بها.

فأما قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾[3]، وقوله: إن هذا من باب الكناية وأنه تعالى كَنَى به عن العلم والضلال وقلوب البَشر، فبعيد، والحكيم سبحانه لا يجوز أن يُخاطب قوماً بلغتهم، فيعمِّيَ عليهم، وأن يصطلح هو نفسه على ألفاظ لا يفهمون المراد بها، وإنما يعلمها هو وحده، ألا ترى أنّه لا يجوز أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[4] على أنّه أراد أنّا زيّنا رؤوس البشر بالحواس الباطنة والظاهرة المجعولة فيها، وجعلناها بالقوى الفِكْريّة والخيالية المركبة في الدّماغ راجمة وطاردة للشُّبَه المضلّة، وإنّ مَنْ حمل كلام الحكيم سبحانه على ذلك فقد نسبه إلى الإلغاز والتعمية، وذلك يقدح في حكمته تعالى. والمراد بالآية المقدم ذكرُها ظاهرُها، والمتكلف

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٤) سورة الملك، الآية: ٥.

لحملِها على غيرها سخيفُ العقل، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾(١)، أفترى الحكيمَ سبحانه يقول: إن للذهب والفضة زبداً مثل الجهل والضلال! ويبين ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(٢)، فضرب سبحانه الماءَ الذي يبقى في الأرض فينتفع به الناس، والزَّبَد الذي يعلو فوقَ الماء فيذهب جفاء مثلاً للحق والباطل، كما صَرَّح به سبحانه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾(٣)، ولو كانت هذه الآية من باب الكنايات - وقد كنى سبحانه بالأودية عن القلوب، وبالماء الذي أنزله من السماء عن العلم، وبالزَّبد عن الضلال - لَمَا جعل تعالى هذه الألفاظ أمثالاً، فإن الكناية خارجة عن باب المثَل، ولهذا لا تقول إن قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(٤) من باب المثل، ولهذا أفرد هذا الرجل في كتابه باباً آخر غير باب الكناية، سمّاه باب المثل، وجعلهما قسمين متغايرين في علم البيان، والأمر في هذا الموضع واضح، ولكنّ هذا الرجل كان يحبُّ هذه الترّهات، ويُذهِب وقته فيها، وقد استقصينا في مناقضته والردّ عليه في كتابنا الذي أشرنا إليه.

فأما قوله عليه السلام: «كُلَّمَا نَجَمَ منهم قَرْنٌ قطع»(٥)، فاستعارة حسنة، يريد: كُلَّما ظهر منهم قوم استؤصلوا، فعبّر عن ذلك بلفظة «قَرْن» كما يقطع قَرْن الشَّاة إذا نجم، وقد صح إخبارُه عليه السلام عنهم أنّهم لم يهلكوا بأجمعهم في وقعة النّهروان(٦)، وأنّها دعوة سيدعو إليها قوم لم يخلَقوا بعد، وهكذا وقع وصحّ إخباره عليه السلام أيضاً أنه سيكون آخرهم لصوصاً سَلاَّبين، فإن دعوة الخوارج اضمحلّت، ورجالها فنيت، حتى أفضى الأمرُ إلى أن صارَ خَلَفُهم قُطّاع طريق، متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض.

الوليد بن طريف الخارجيّ (وقتله ورثاء أخته له)

فممن انتهى أمره منهم إلى ذلك الوليد بن طريف الشيبانيّ. في أيام الرّشيد بن المهديّ، فأشخص إليه يزَيد بن مزيد الشيبانيّ فقتله، وحمل رأسه إلى الرشيد، وقالت أخته ترثيه، وتذكر أنّه كان من أهلِ التُّقى والدين، على قاعدة شعراء الخوارج، ولم يكن الوليد كما زعمت:

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ٤٣.
(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٩٧) وابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب: في ذكر الخوارج (١٧٤)، وأحمد في كتاب: المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٢٧٧٦٧).
(٦) انظر تفاصيل الوقعة في تاريخ الطبري (٥/ ١٣٣).

أَيا شَجرَ ٱلْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ
فَتًى لا يحبّ الزادَ إلاّ مِنَ التُّقَى ... ولا المالَ إلا مِنْ قَناً وسيوفِ
ولا الذُّخرَ إلا كلّ جرداء شَطْبةٍ ... وكلّ رقيق الشَّفْرَتَيْنِ خفيفِ
فَقَدْنَاك فقدانَ الربيع وليتَنَا ... فَدَيْنَاكَ من سَادَاتِنا بألُوفِ

وقال مُسلم بن الوليد يمدح يزيد بن مزيد، ويذكر قتله الوليد:

والمارقُ ابنُ طريفٍ قد دَلَفتَ لَهُ ... بعارضٍ للمنايا مُسْبِلٍ هَطِلِ
لو أن شيئاً بَكَى مما أطاف به ... فاز الوليد بِقِدْحِ النّاضِل الخَصِلِ
ما كان جمعُهُم لمَّا لقيتَهُمُ ... إلا كرَجْل جَرادٍ ريع مُنْجَفِلِ
فاسلم يزيدُ فما في الملك من أوَدٍ ... إذا سلمت، ولا في الدين من خَلَلِ

خروج ابن عمرو الخثعمي بالجزيرة

ثم خرج في أيام المتوكل ابنُ عمرو الخثعميّ بالجزيرة فقطَع الطريق، وأخاف السبيل وتسمّى بالخلافة، فحاربه أبو سعيد محمد بن يوسف الطائيّ الثغريّ الصامِتيّ، فقتل كثيراً من أصحابه، وأسرَ كثيراً منهم ونجا بنفسه هارباً، فمدحه أبو عُبادة البحتريّ، وذكر ذلك فقال:

كُنّا نُكَفِّرُ من أميَّةَ عُصْبَةً ... طَلَبُوا الخِلافَةَ فَجْرَةً وفُسُوقا
وَنَلومُ طلحةَ والزبير كلَيْهِمَا ... وَنُعَنِّفُ الصِّدِّيق وَالْفَارُوقَا
ونقول: تيم أقربت وعَدِيُّها ... أمراً بعيداً حيثُ كانَ سَحِيقا
وهمُ قريشُ الأبطحونَ إذا انتمَوْا ... طابُوا أُصُولاً في العُلاَ وَعُرُوقا
حَتَّى غَدَتْ جُشَمُ بن بكر تبتغِي ... إرْثَ النبيِّ وتَدَّعِيه حُقُوقا
جاؤوا براعيهمْ ليتّخذوا به ... عَمْداً إلى قطع الطريق طريقا
عَقَدُوا عِمَامَتَهُ برأس قَناتِهِ ... ورأوْه بَرًّا فاستحال عَقُوقا
وأقامَ يُنفذ في الجزيرة حكمَهُ ... ويظنُّ وَعْدَ الكاذبين صدوقا
حتى إذا ما الحيَّةُ الذكر انْكفى ... من أرزَنٍ حَرِباً يمجُّ حَرِيقَا
غضبان يلقى الشمس منه بهامةٍ ... يُغْشِي العيون تألُّقاً وبُرُوقا
أوْفَى عليه فظلَّ من دَهش يظن ... البَرّ بحراً والفَضَاءَ مَضِيقا
غدرت أمانيه به وتمزَّقَتْ ... عَنْه غيابةُ سُكْرِه تمزيقَا
طلعتْ جيادك من رُبا الجودِيِّ قد ... حُمّلْنَ من دَفْع المنون وُسُوقا
فدعَا فريقاً من سُيوفك حتفهمْ ... وشدَدْتَ في عِقْدِ الحديد فَرِيقا

ومضى ابن عَمْرٍو قد أساء بعمرِه ... ظنـاً ينزّق مهره تنزيقا
فاجتاز دِجلة خائضاً وكأنها ... قَعْبٌ على باب الكُحَيْل أريقا
لو خاضها عِمْليق أو عوج إذاً ... ما جوَّزت عُوجاً ولا عمليقا
لولا اضطرابُ الخوف في أحشائِه ... رسب العُباب به فمات غَرِيقا
لو نفّسته الخيلُ لفتة ناظرٍ ... ملأ البلادَ زلازلاً وفُتُوقا
لَثَنَى صُدُور الخيل تكشف كُرْبَةً ... وَلَوى رماحَ الخَطّ تفرج ضيقا
ولبكرت بَكْرٌ وَرَاحت تَغْلِبٌ ... في نصر دَعْوَته إليه طُرُوقا
حتى يعودَ الذئب ليثاً ضيغماً ... والغصن ساقاً والقَرارة نِيقَا
هَيْهَات مارس فيلقاً متيقّظاً ... قَلِقاً إذا سكن البليد رَشيقا
مستسلفاً جعل الغَبُوق صَبُوحَه ... وَمَرَى صبوح غدٍ فكَانَ غَبُوقَا

وهذه القصيدة من ناصع شعر البحتريّ ومختاره.

ذكر طائفة من جماعة الخوارج

وقد خرج بعد هذين جماعة من الخوارج بأعمال كِرْمان وجماعة أخرى من أهل عُمان لا نباهة لهم وقد ذكرهم أبو إسحاق الصابي في الكتاب «التاجي»[1] وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم، وإنما وَكْدُهم وقصدهم إخافة السبيل، والفساد في الأرض، واكتساب الأموال من غير حِلّها. ولا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرهم. ومن المشهورين برأي الخوارج الذين تَمّ بهم صدق قول أمير المؤمنين عليه السلام: إنّهم نُطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء، عِكْرمة مولى ابن عباس، ومالك بن أنس الأصبحيّ الفقيه، يروى عنه أنه كان يذكر علياً عليه السلام وعثمان وطلحة والزبير، فيقول: والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعْفَر.

ومنهم المنذر بن الجارود العبديّ، ومنهم يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج.

وروي أنّ الحجاج أتِيَ بامرأة من الخوارج وبحضرته مولاه يزيد بن أبي مسلم، وكان يستسرّ برأي الخوارج، فكلّم الحجاج المرأة فأعرضت عنه، فقال لها يزيد: الأمير - ويلك - يكلّمك! فقالت: بل الويل لك أيها الفاسق الرديء! والرديء عند الخوارج هو الذي يعلم الحقّ من قولهم ويكتمه.

---

(١) التاجي في أخبار الدولة الديلمية، لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي المتوفى سنة (٣٨٤هـ)، ألفه بأمر عضد الدولة، وسماه بالنسبة إلى لقبه تاج الملّة، وهو كتاب بليغ سهل العبارة. كشف الظنون (١/ ٢٧٠).

ومنهم صالح بن عبد الرحمن صاحب ديوان العراق.

وممن ينسب إلى هذا الرأي من السلف جابر بن زيد وعمرو بن دينار ومجاهد.

وممن ينسب إليه بعد هذه الطبقة أبو عبيدة معمر بن المثنى التيميّ، يقال: إنه كان يرى رأي الصُّفْريّة.

ومنهم اليمان بن رباب، وكان على رأي البيهسيّة[1]، وعبد الله بن يزيد ومحمد بن حرب ويحيى بن كامل، وهؤلاء إباضيّة.

وقد نسب إلى هذا المذهب أيضاً من قبل أبو هارون العبديّ، وأبو الشعثاء، وإسماعيل بن سميع، وهبيرة بن يريم.

وزعم ابن قتيبة أن ابن هبيرة كان من غُلاة الشّيعة.

ونُسِب أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد إلى رأي الخوارج لإطنابه في كتابه المعروف بـ«الكامل» في ذكرهم وظهور الميلِ منه إليهم.

٦٠ - وقال عليه السلام في الخوارج

الأصل: **لاَ تُقَاتِلُوا ٱلْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ ٱلْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طلبَ ٱلبَاطِلَ فَأدْرَكَهُ.**

قال الرضيّ رحمه الله: يَعْني معاوية وأصحابه.

الشرح: مرادهُ أن الخوارج ضلّوا بشبهة دخلت عليهم، وكانوا يطلبون الحقّ، ولهم في الْجُملة تمسُّك بالدين، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها، وإن أخطؤوا فيها، وأما معاوية فلم يكنْ يطلبُ الحقّ، وإنما كان ذا باطل، لا يحامي عن اعتقاد قد بناه على شبهة، وأحواله كانت تدلّ على ذلك، فإنه لم يكن من أرباب الدين، ولا ظهر عنه نُسُك، ولا صلاحُ حال، وكان مترَفاً يُذهِب مالَ الفيءِ في مآربه، وتمهيد مُلكه، ويصانع به عن سلطانه، وكانت أحوالُه كلها مؤذنةً بانسلاخه عن العدَالة، وإصراره على الباطل، وإذا كان كذلك لم يَجُزْ أن ينصُر المسلمون سلطانه، وتحارَبُ الخوارج عليه وإن كانوا أهل ضلال، لأنَّهم أحسن حالاً منه، فإنهم كانوا ينهوْن عن المنكر، ويروْنَ الخروج على أئمة الجور واجباً.

---

(١) البيهسية: أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر، قالوا: الإيمان هو الإقرار، والعلم بالله، وبما جاء به الرسول ﷺ، ووافقوا القدرية بإسناد أفعال العباد إليهم. انظر: التعريفات للجرجاني (١/ ٧٠).

وعند أصحابنا أنّ الخروجَ على أئمة الجور واجبٌ، وعند أصحابنا أيضاً أنّ الفاسق المتغلّب بغير شبهة يعتمد عليها لا يجوز أن ينصر على مَنْ يخرج عليه ممن ينتمي إلى الدين، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، بل يجب أن ينصر الخارجون عليه وإن كانوا ضالّين في عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلتْ عليهم، لأنهم أعدَلُ منه، وأقربُ إلى الحقّ، ولا ريب في تلزّم الخوارج بالدين، كما لا ريْبَ في أنّ معاوية لم يظهر عنه مثل ذلك.

في ذكر الخوارج ورجالهم وحروبهم

ذكر أبو العباس المبرد في الكتاب «الكامل» أن عُرْوة بن أدَيّة أحد بني ربيعة بن حنظلة - ويقال إنه أول من حَكّم - حضر حرب النَّهْروان، ونجا فيها فيمن نجا، فلم يزل باقياً مدة من خلافة معاوية، ثم أخِذَ فأتي به زياد ومعه مولى له، فسأله عن أبي بكر وعمر، فقال خيراً، فقال له: فما تقول في عثمان وفي أبي تراب، فتولّى عثمان ست سنين من خلافته، ثم شهد عليه بالكفر، وفعلَ في أمر عليّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكَّم ثم شهد عليه بالكفر. ثم سأله عن معاوية فسبَّه سبًّا قبيحاً، ثم سأله عن نفسه، فقال: أوّلك لريبة، وآخرك لِدَعوة، وأنتَ بعدُ عاصٍ ربَّك. فأمر فضربت عنقه، ثم دعا مولاه، فقال: صف لي أمورَه، فقال: أأُطْنِبُ أم أختصر؟ قال: بل اختصر، قال: ما أتيتُه بطعام في نهار قطّ ولا فرشْتُ له فِراشاً في ليل قَطّ.

قال: وحُدِّثت أنّ واصلَ بن عطاء أبا حُذَيفة أقبل في رُفقة، فأحسُّوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرُّفقة: إنَّ هذا ليس من شأنِكم فاعتزلوا، ودَعوني وإيّاهم - وقد كانوا قد أشرفُوا على العطب - فقالوا: شأنَك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: قوم مُشركون مُسْتَجِيرون بكم، ليسمَعُوا كلام الله، ويفهموا حدوده، فقالوا: قد أجَرْنَاكم. قال: فعلِّمُونا، فجعلوا يعلِّمونهم أحكامهم، وواصل يقول: قد قِبلت أنا ومن معي، قالوا: فامضوا مُصاحَبين فإنكم إخواننا، فقال: ليس ذاك إليكم، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[1]. فأبلغونا مأمننا. فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساروا معهم بجمعهم، حتى أبلغوهم المأمن.

وقال أبو العباس: أُتِيَ عبدُ الملك بن مرْوان برجل من الخوارج، فبحثَه فرأى منه ما شَاءَ فهماً وعلماً، ثم بحثه فرأى منه ما شاء أدباً وذهناً، فَرغِب فيه، فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصراً محقِّقاً، فزاده في الاستدعاء، فقال: تغنيك الأولى عن الثانية، وقد قلتَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

وسمعتُ، فاسمع أقُلْ، قال: قل، فجعل يبسُط من قول الخوارج ويزيِّن له من مذهبهم بلسان طلق، وألفاظ بيّنة، ومعان قريبة. فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته وفضله: لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة إنما خلقت لهم، وأنّي أوْلى العباد بالجهاد معهم، ثم رجعت إلى ما ثبَّت الله عليَّ من الحجّة، وقَرّر في قلبي من الحقّ، فقلت له: الدنيا والآخرة لله، وقد سَلّطنا الله في الدنيا، ومكَّن لنا فيها، وأراك لست تجيبنا إلى ما نقول، والله لأقتلنك إن لم تطع. فأنا في ذلك، إذ دُخِل عَليّ بابنيْ مَرْوان.

قال أبو العباس: وكان مَرْوان أخا يزيد بن عبد الملك لِأمّه، [أمّهما] عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان أبيًّا عزيزَ النفس، فدُخل به على أبيه في هذا الوقت باكياً لضرب المؤدّب إياه، فشقّ ذلك على عبد الملك، فأقبل عليه الخارجيّ وقال: [له] دَعْه يبكِ، فإنه أرحبُ لشدقه، وأصحّ لدِماغه، وأذهَبُ لصوته، وأحرَى ألا تأبى عليه عينُه إذا حضرتْه طاعة واستدعى عَبْرَتها.

فأعجب ذلك من قوله عبدَ الملك، وقال له متعجّباً: أما يشغَلُك ما أنت فيه ويعرضك عن هذا؟ فقال: ما ينبغي أن يشغلِ المؤمنَ عن قول الحقّ شيء، فأمر بحبسه، وصفح عن قتله، وقال بَعْدُ معتذراً إليه: لولا أن تُفْسِدَ بألفاظك أكثرَ رعيَّتي ما حبستك، ثم قال عبد الملك: لقد شكّكني ووهّمني حَتّى مالت بي عصمة الله، وغير بعيد أن يستهوِيَ مَنْ بَعْدي.

مرداس بن حُدير الناسك

قال أبو العباس: وكان من المجتهدين من الخوارج البلْجَاء، وهي امرأة من بني حَرَام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.

وكان مرداس بن حُدَير أبو بلال، أحد بني ربيعة بن حنظلة ناسكاً، تعظّمه الخوارج، وكان كثيرَ الصواب في لفظه مجتهداً، فلقيه غَيْلان بن خَرَشَةَ الضّبي، فقال: يا أبا بلال، إنّي سمعت الأمير البارحة - يعني عبيد الله بن زياد - يذكر البلجاء، وأحسبها ستؤخذ، فمضى إليها أبو بلال فقال: إن الله قد وسّع على المؤمنين في التقيَّة فاستتري، فإن هذا الْمُسرِفَ على نفسه الجبّار العنيد قد ذكركِ، قال: إنْ يأخذني فهو أشقى به، فأمّا أنا فما أحبّ أن يعنَّت إنسان بسببي، فوجّه إليها عبيد الله بن زياد، فأتِيَ بها فقطع يديْها ورجليها، ورمى بها في السوق، فمرَّ بها أبو بلال والناس مجتمعون، فقال: ما هذا؟ قالوا: البلجاء، فعرّج إليها فنظر ثم عضَّ على لحيته، وقال لنفسه: لهذه أطيبُ نفساً من بقيّة الدنيا منك يا مرداس.

قال: ثم إن عبيد الله أخذ مِرْدَاساً فحبسه، فرأى صاحب السجن منه شدّة اجتهاده، وحلاوة منطقه، فقال له: إنّي أرى لك مذهباً حسناً، وإني لأحِبّ أن أوليَكَ معروفاً، أفرأيتك إن تركتُك تنصرف ليلاً إلى بيتك أتدَلّج إليّ؟ قال: نعم، فكان يفعل ذلك به.

ولَّج عبيد الله في حَبْس الخوارج وقتلهم، وكُلّم في بعضهم فأبَى وقال: أقمعُ النفاق قبل أن ينجُم، لَكلامُ هؤلاء أسرعُ إلى القلوب من النَّار إلى اليراع.

فلما كان ذاتَ يوم قَتَلَ رجل من الخوارج رجلاً من الشُّرْطة، فقال ابن زياد: ما أدرِي ما أصنع بهؤلاء! كلما أمرتُ رجلاً بقتل رجل منهم فتكوا بقاتله، لأقتلنّ مَنْ في حبسِي منهم. وأخرج السَّجان مرداساً إلى منزله كما كان يفعل، فأتى مرداساً الخبر، فلما كان في السَّحَر، تهيّأ للرجوع إلى السجن، فقال له أهله: اتق الله في نفسِك، فإنك إذا رجعتَ قُتلتَ، فأبى وقال: والله ما كنتُ لألقى الله غادراً، فرجع إلى السجان، فقال: إنّي قد علمت ما عَزَم عليه صاحبُك، قال: أعلمت، ثم جئت!

قال أبو العباس: ويروَى أنّ مرداساً مَرّ بأعرابيّ يَهْنأ[1] بعيراً له، فهرِج[2] البعير، فسقط مرداس مغشيًّا عليه، فظنّ الأعرابيّ أنّه صُرِع، فقرأ في أذنه، فلما أفاق قال له الأعرابيّ: إني قرأت في أذُنك، فقال مِرْداس: ليس بِي ما خفتَه عَلَيّ، ولكنّي رأيت بعيراً هَرِج من القَطِران، فذكرت به قَطِران جهنم، فأصابني ما رأيت، فقال الأعرابي: لا جَرَم! والله لا أفارقك أبداً.

قال أبو العباس: وكان مِرْداس قد شَهِدَ مع عليّ عليه السلام صِفِّين، ثم أنكر التحكيم، وشهد النَّهْروان، ونجا فيمن نجا، ثم حبسه ابنُ زياد، كما ذكرناه، وخرج مِنْ حبسه، فرأى جِدَّ ابن زياد في طلب الشُّراة، فعزم على الخروج، فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعُنا المقام مع هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامُهم، مجانِبين للعدل، مفارقين للقصد، والله إنّ الصبر على هذا لعظيم، وإنّ تجريد السيف وإخافة الناس لعظيم، ولكنا ننتبذ عنهم، ولا نجرّد سيفاً، ولا نقاتل إلا مَنْ قاتلنا. فاجتمع إليه أصحابُه زُهاء ثلاثين رَجُلاً، منهم حُرَيْث بن حَجْل وكَهْمس بن طَلْق الصَّرِيميّ، وأرادوا أن يولّوا أمرَهم حُرَيثاً فأبى، فولّوا أمرَهم مِرْداساً، فلمَا مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاريّ - وكان له صديقاً - فقال: يا أخي، أين تريد؟ قال: أريد أن أهربَ بديني ودين أصحابي مِنْ أحكام هؤلاء الجَوَرَة، فقال: أعَلِمَ بكم أحد؟ قال: لا، قال: فارجع، قال: أو تخاف عليّ نُكراً؟ قال: نعم، وأن يؤتى بك. قال: لا تخف، فإني لا أجرِّد سيفاً، ولا أخيف أحداً، ولا أقاتل إلاّ مَنْ قاتلني.

ثم مضى حتى نزل آسَك، وهي ما بين رامَهُرمز وأرّجان، فمرّ به مالٌ يُحمل إلى ابن زياد، وقد قارَب أصحابه الأربعين، فحطّ ذلك المال، وأخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه، وردّ الباقي

---

(١) هَنأ الإبل يهنؤها: طلاها بالهِناء وهو اسم للقَطِران. القاموس المحيط، مادة (هنأ).

(٢) هَرِجَ البعير: سَدِر من شدة الحرّ وكثرة الطّلاء بالقطران. القاموس المحيط، مادة (هرج).

على الرُّسل، وقال: قولوا لصاحبكم: إنا قبضنا أعطياتنا، فقال بعض أصحابه: علام نَدَع الباقي؟ فقال: إنهم يقيمون هذا الفيء، كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم على الصلاة.

قال أبو العباس: ولأبي بلال مرداس في الخروج أشعار، اخترت منها قوله:

أبعدَ ابنِ وَهْبٍ ذِي النَّزاهة والتُّقى ... ومَنْ خَاضَ في تلكَ الحرُوبِ المهالِكا
أحبّ بقاءً أو أرجّي سلامةً ... وقد قتلُوا زيدَ بن حِصْنٍ وَمَالِكا
فيا ربِّ سَلِّمْ نيَّتِي وَبَصِيرتي ... وهبْ لِي التُّقى حتى ألاقِي أولائكا

قال أبو العباس: ثم إنّ عُبيد الله بن زياد، نَدَب جيشاً إلى خُراسان، فحكى بعضُ مَنْ كان في ذلك الجيش، قال: مررنا بآسَك[1]، فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رَجُلاً، فصاح بنا أبو بلال: أقاصدون لقتالنا أنتم؟ قال: وكنت أنا وأخي قد دخلنا زَرْباً، فوقف أخي ببابه، فقال: السلام عليكم، فقال مِرْداس: وعليكم السلام، ثم قال لأخي: أجئتم لقتالنا؟ قال: لا، إنما نريد خُراسان، قال: فأبلِغوا مَنْ لقيتم أنّا لم نخرج لنفسد في الأرض، ولا لنروِّع أحداً، ولكن هرباً من الظلم. ولسنا نقاتل إلا مَنْ يقاتلنا، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا، ثم قال: أنُدِب لنا أحد؟ قلنا: نعم، أسلم بن زُرْعة الكلابيّ، قال: فمتى ترونَه يصل إلينا؟ قلنا: يوم كذا وكذا، فقال أبو بلال: حَسْبنا الله ونعم الوكيل!

قال أبو العباس: وجَهّز عبيد الله بن زياد أسلم بن زُرْعة في أسرع مدّة، ووجهّه إليهم في ألفين، وقد تتامّ أصحابُ مرداس أربعين رجلاً، فلما صار أسلم إليهم صاح به أبو بلال: اتّق الله يا أسلم، فإنا لا نرُيد فساداً في الأرض، ولا نحتجر فيئاً، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن أردّكم إلى ابن زياد، قال: إذن يقتلنا، قال: وإن قتلكم! قال: تشرَك في دمائنا، قال: إني أدِين بأنّه محقٌّ وأنتم مبطلون، فصاح به حُريث بن حَجْل: أهو محقٌّ، وهو يطيع الفَجَرة، وهو أحدهم، ويقتل بالظّنّة ويخصُّ بالفيء، ويجور في الحكم! أما علمت أنه قتل بابن سُعاد أربعة برآء، وأنا أحد قتلته، وقد وضعتُ في بطنه دراهم كانت معه.

ثم حملوا على أسلم حملة رجل واحد، فانهزم هو وأصحابه من غير قِتال، وكاد يأسره مَعْبَد أحد الخوارج، فلما عاد إلى ابن زياد غَضِب عليه غضباً شديداً، وقال وَيْلك! أتمضي في ألفين، فتهزم بهم من حملة أربعين! فكان أسْلَمُ يقول: لأن يذمّني ابن زيادٍ وأنا حيٌّ، أحبُّ إليَّ أن يمدحَني وأنا ميت.

(١) آسَك: بلد من نواحي الأهواز ذات نخيل ومياه. معجم البلدان (١/ ٥٤).

وكان إذا خرج إلى السوق، أو مَرّ بصبيان صاحوا به: أبو بلال وراءك! وربما صاحوا به: يا معبد خذه، حتى شكا إلى ابن زياد، فأمَر الشُّرَط أن يكفُّوا الناس عنه، ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك، من بني تيم اللات بن ثعلبة أحد الخوارج:

فلما أصبَحُوا صَلَّوْا وقامُوا إلى الجُرْد العتاقِ مُسَوّمِينَا
فَلَمَّا اسْتَجْمَعُوا حَملُوا عليهم فَظَلَّ ذوو الْجَعائِلِ يُقْتَلُونا
بقِيّةَ يومِهِمْ حتى أتاهُمْ سوادُ الليل فيهِ يُرَاوِغُونَا
يقولُ نَصِيرُهُمْ لَمَّا أتاهُمْ فإنَّ القومَ ولَّوْا هَارِبينَا
أألفَا مؤمنٍ فيكم زَعَمْتُمْ ويهزمُكُم بآسك أرْبَعُونا!
كذبتم ليس ذاك كما زعمتُمْ ولكنَّ الخوارجَ مؤمِنُونا
هم الفئة القليلة غَيْرَ شَكٍّ على الفِئَة الكثيرة ينصرونا

قال أبو العباس: أما قول حُريث بن حَجْل: «أما علمت أنه قتل بابن سُعاد أربعة براء وأنا أحد قتلته»، فابن سعاد هو المثلَّم بن مسروح الباهليّ، وسعاد اسم أمّه، وكان من خبره أنه ذُكر لعبيد الله بن زياد رجل من سَدوس، يقال له خالد بن عَبّاد، أو ابن عُبادة، وكان من نُسّاك الخوارج، فوجّهَ إليه فأخذه، فأتاه رجل من آل ثور فكذّب عنه وقال: هو صهري وفي ضِمْنِي، فخلَّى عنه، فلم يزل الرجل يتفقّده حتى تغيّب، فأتى ابنَ زياد فأخبره، فلم يزل يبعث إلى خالد بن عَبّاد حتى ظفر به، فأخذه، فقال: أينَ كنت في غيبتك هذه؟ قال: كنتُ عند قوم يذكرون الله ويسبِّحونَه، ويذكرون أئمة الجَوْر، فيتبرؤون منهم. قال: ادللني عليهم، قال: إذن يَسْعَدُوا وتشقى، ولم أكُنْ لأروِّعهم، قال: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فقال: خيراً، قال: فما تقول في عثمان وفي معاوية، أتتولاهما؟ فقال: إن كانا وليَّيْنِ لله فلست معاديهما، فأراغه مراراً ليرجع عن قوله فلم يفعل، فعزم على قتله، فأمر بإخراجه إلى رَحْبة تعرف برَحْبة الرّسّي وقتله بها، فجعل الشُّرطة يتفادوْن مِن قتله ويروغون عنه توقّياً لأنه كان متقشِّفاً عليه أثر العبادة، حتى أتى المثلّم بن مسروح الباهليّ، وكان من الشُّرْطة، فتقدم فقتله، فائتمر به الخوارج أن يقتلوه، وكان مغرَماً باللِّقاح[1] يتبعها، فيشتريها من مظانّها، وهم في تفقّده، فدسُّوا إليه رجلاً في هيئة الفِتْيَان عليه رَدْعُ زعفران، فلقيه بِالمرْبد وهو يسأل عن لِقْحة صفِيّ، فقال له الفتى: إن كنت تبتغِي فعندي ما يغنيك عن غيره، فامض معي. فمضى المثلّم معه على فرسه، يمشي الفتى

(١) اللِّقَاح: الإبل، أو الناقة الحلوب، أو التي نتجت.

أمامه حتى أتى به بني سَعْد، فدخل داراً، وقال له: أدخل عليَّ فرسَك، فلما دخل وتوغّل في الدار أغلَق الباب، وثارت به الخوارج، فاعتوره حُرَيث بن حَجْل وكَهمس بن طَلْق الصَّرِيميّ، فقتلاه، وجعلا دراهم كانت معه في بَطْنه، ودفناه في ناحية الدار، وحكّا آثار الدم وَخَلّيا فرسه في الليل، فأصيب في الغد في المِرْبد وتجسّس عنه الباهليُّون، فلم يروا له أثراً، فاتهموا بني سَدُوس به، فاستعدَوْا عليهم السّلطان، وجعل السَّدوسيّة يحلفون، فتحامل ابن زياد مع الباهليين، فأخذ من السَّدوسيّين أربع ديات، وقال: ما أدري ما أصنع بهؤلاء الخوارج! كلما أمرت بقتل رجل اغتالوا قاتله. فلم يعلم بمكان المثلّم حَتّى خرج مرداس وأصحابه، فلما واقفهم ابنُ زُرْعة الكِلابيّ صاح بهم حُريث، وقال: أها هنا من باهلة أحد؟ قالوا: نعم، قال: يا أعداء الله، أخذتم لِلمثلم من بني سَدُوس أربع ديات، وأنا قتلتُه، وجعلت دراهم كانت معه في بطنه، وهو في موضع كذا مدفون، فلما انهزم ابن زُرْعة وأصحابُه صاروا إلى الدار، فأصابوا أشلاءه، ففي ذلك يقول أبو الأسود:

وَآلَيْتُ لاَ أَغْدُو إلى ربِّ لِقْحَةٍ أساوِمُه حتى يؤوبَ المثلَّمُ

قال أبو العباس: فأما ما كان من مِرْداس، فإنّ عبيد الله بن زياد نَدَب إليه الناس، فاختار عَبّاد بن أخضر المازنيّ - وليس بابن أخضر، بل هو عَبّاد بن علقمة المازنيّ وكان أخضر زوج أمه، وغلَب عليه - فوجّهه إلى مرداس وأصحابه في أربعة آلاف فارس، وكانت الخوارج قد تنحّت من موضعها، بدرابجراد من أرض فارس، فصار إليهم عَبّاد، فكان التقاؤهم في يوم جمعة، فناداه أبو بلال: اخرج إليّ يا عبّاد، فإني أريد أن أحاورَك، فخرج إليه، فقال: ما الذي تبغي؟ قال: أنْ آخذ بأقفيتكم فأردّكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد، قال: أو غير ذلك؟ أن نرجع، فإنا لا نخيفُ سبيلاً، ولا نَذْعَرُ مسلماً، ولا نحارب إلا مَنْ يحاربنا، ولا نجبي إلا ما حَمَيْنا. فقال عَبّاد: الأمر ما قلت لك، فقال له حُريث بن حَجْل: أتحاول أنْ تردّ فئة من المسلمين إلى جَبّار عنيد ضَالّ! فقال لهم: أنتم أَوْلَى بالضلال منه، وما من ذاك من بدّ.

قال: وقدم القعقاع بن عطية الباهليّ من خراسان، يريد الحج، فلما رأى الجمعَيْن قال: ما هذا؟ قالوا: الشُّراة، فحمل عليهم ونشبَت الحرب بينهم، فأخذت الخوارج القعقاع أسيراً، فأتوا به أبا بلال، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: ما أنا من أعدائك، إنما قدمت للحجّ، فحملت وغُررْت، فأطلقه، فرجع إلى عباد وأصلح مِنْ شأنه، وحمل على الخوارج ثانية، وهو يقول:

أُقَاتِلُهُمْ وَلَيْسَ عَلَيَّ بَعْثٌ نَشَاطاً لَيسَ هَذا بالنشاطِ

أَكُرُّ على الحروريّين مُهْرِي لأحملَهم على وَضَحِ الصِّراط

فحمل عليه حُرَيث بن حَجْل السدوسيّ وكَهْمَسُ بن طَلْق الصَّريميّ، فأسراه وقتلاه، ولم يأتيا به أبا بلال. ولم يزل القوم يجتلِدُون حتى جاء وقت صلاة الجمعة، فناداهم أبو بلال: يا

قوم، هذا وقتُ الصلاة، فوادعونا حتى نصلّي وتصلّوا، قالوا: لك ذاك، فرمى القوم أجمعون بأسلحتهم، وعمدوا للصلاة، فأسرع عباد ومَنْ معه وقَضَوْا صلاتهم، والحروريّة مبطئون، فيهم ما بين راكع وساجد، وقائم في الصلاة وقاعد، حتى مالَ عليهم عَبّاد ومن معه، فقتلوهم جميعاً، وأُتيَ برأس أبي بلال.

قال: ويرى الشّراة أنّ مرداساً أبا بلال لمّا عَقَد على أصحابه، وعزم على الخروج رفع يديْه، فقال: اللهمَّ إن كان ما نحن فيه حقًّا فأرنا آية، فرجف البيت.

وقال آخرون: فارتفع السقف.

ويقال: إنّ رجلاً من الخوارج ذكر ذلك لأبي العالية الريّاحيّ، يعجّبه من الآية، ويرغّبه في مذهب القوم، فقال أبو العالية: كاد الخسف ينزِل بهم، ثم أدركتهم نظرة من الله.

قال: فلما فرغ عَباد من الجماعة أقبل بهم فصلب رؤوسهم، وفيهم داود بن شبيب، وكان ناسكاً، وفيهم حبيبة البكريّ من عَبْد القيس، وكان مجتهداً، ويروى عنه أنه قال: لما عزمت على الخروج فكّرْت في بناتي، فقلت ذات ليلة: لأمسكنّ عن نفقتهنّ حتى أنظر، فلما كان في جوف الليل استسقت بنيَّة لي، فقالت: ياأبت اسقني، فلم أجبها، وأعادت، فقامت أختٌ لها فسقتها، فعلمت أنّ الله عزّ وجلّ غير مضيعّهن، فأتممت عزمي.

وكان في القوم كَهْمس، وكان من أبرّ الناس بأمّه، فقال لها: يا أمه، لولا مكانك لخرجتُ، فقالت: يا بنيّ، وهبتك لله.

ففي مقتلهم يقول عيسى بن فاتك الخطيّ:

ألا في الله لا في النّاس سَالتْ ... بداوُدٍ وإخوته الجُذُوعُ
مَضَوْا قَتْلاً وتمزيقاً وَصَلْباً ... تَحُومُ عليهمُ طَيْرٌ وُقُوعُ
إذا ما الليلُ أظلم كابَدُوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطار الخوفُ نومَهمُ فقاموا ... وأهلُ الأرض في الدنيا هُجُوع

وقال عمران بن حِطّان:

يا عينَ بَكّي لمرداسٍ ومصرعِه ... يا ربّ مرداسٍ اجعلني كمرداسِ
تركتني هائماً أبكي لمرزئة ... في منزلٍ موحشٍ من بعد إيناسِ
أنكرتُ بَعْدَكَ من قد كنت أعرفه ... ما الناسُ بعدك يا مرداسُ بالناس
إمّا شَرِبت بكأسٍ دار أوّلُها ... على القُرون فذاقوا جَرْعَة الكاسِ
فكُلّ مَنْ لم يذُقْها شارباً عجلاً ... يُسْقَى بأنفاس وِرْدٍ بعد أنفاسِ

وقال أيضاً:

لَـقَـدْ زادَ الـحـيـاة إلـيَّ بـغـضـاً ... وحُـبًّـا لـلـخـروج أبـو بـلالِ
أحـاذِر أن أمـوتَ عـلـى فـراشِـي ... وأرجُـو الـموت تـحت ذُرا الـعَوالـي
فـمـن يـكُ هـمُّـه الـدنـيـا فـإنّـي ... لَـهَـا - والله ربِّ الـبـيـت - قـالِ

عمران بن حطّان

وقال أبو العباس: وعمران هذا، أحدُ بني عمرو بن يسار بن ذهل بن ثعلبة بن عُكَابَة بن صَعْب بن علّ بن بكْر بن وائل، وكان رأس القَعَد من الصُّفريّة وفقيههم وخطيبَهم. وشاعرهم، وشعره هذا بخلاف شعر أبي خالد القَنانيّ وكان من قَعَد الخوارج أيضاً. وقد كان كتب قطريّ بن الفجاءة المازنيّ يلومه على القُعود:

أبـا خـالـدٍ أيـقـنْ فـلـسـتَ بـخـالـدٍ ... ومـا جَـعَـلَ الـرحـمـنُ عـذْراً لـقـاعـدِ
أتـزعـم أنّ الـخـارجـيَّ عـلـى الْـهُـدَى ... وأنـت مـقـيـمٌ بـيـن لـصٍّ وجَـاحـدِ!

فكتب إليه أبو خالد:

لـقـدْ زادَ الـحـيـاةَ إلـيَّ حُـبًّـا ... بـنـاتِـي إنَّـهـنَّ مـن الـضِّـعـافِ
أحـاذِرُ أن يَـرَيْـنَ الـفـقـرَ بـعـدي ... وَأن يَـشْـرَبْـنَ رَنْـقـاً[1] بـعـد صـافِ
وَأنْ يَـعْـرَيْـنَ إن كُـسِـيَ الـجـواري ... فـتـنْـبـو الـعـيـنُ عـن كرمٍ عِـجَـافِ
ولـولا ذاكَ قـد سـوَّمْـتُ مُـهْـرِي ... وفـي الـرَّحْـمـن لـلـضـعـفـاء كـافِ

وقال أبو العباس: وما حدثني به العباس بن أبي الفرج الرياشيّ، عن محمد بن سلام أنّ عمران بن حِطّان لما طَرَدَهُ الحَجَّاج، جعل يتنقّل في القبائل، وكان إذا نزل بحيّ انتسب نسباً يقرب منهم، ففي ذلك يقول:

نـزلْـنَـا فـي بـنـي سـعـدِ بـن زيـدٍ ... وفـي عـكٍّ وعـامـر عَـوْبَـثـانِ
وفـي لـخـمٍ وفـي أدَدِ بـن عـمـرو ... وفـي بـكْـرٍ وحـيّ بـنـي الـغُـدَانِ

ثم خرج حتى لَقِي رَوْح بن زِنْبَاع الجُذَاميّ، وكان رَوْح يَقْرِي الأضياف، وكان مسايراً لعبد الملك بن مروان، أثيراً عنده. وقال ابن عبد الملك فيه: مَنْ أعطِيَ مثل ما أعطِيَ أبو زُرْعة! أعطِيَ فقه الحجاز ودهاء أهل العراق وطاعة أهل الشام.

وانتمى عمران إليه أنّه من الأزد، فكان رَوْح لا يسمعُ شعراً نادراً، ولا حديثاً غريباً عند عبد

(١) رَنِق الماء: بكسر النون وفتحها: كَدِرَ. القاموس المحيط، مادة (رنق).

الملك، فيسأل عنه عمران إلا عرفه وزاد فيه. فقال رَوْح لعبد الملك: إنّ لي ضَيْفاً ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولا شِعْراً إلا عرفه وزاد فيه، فقال: أخِبْرني ببعض أخباره، فأخبره وأنشده، فقال: إنّ اللغة لغة عدنانية، ولا أحسبه إلا عِمْران بن حِطّان، حتى تذاكروا ليلةً البيتين اللذين أولهما: «يا ضربة...».

فلم يدر عبد الملك لمن هما، فرجع رَوْح فسأل عمران عنهما، فقال: هذا الشعر لِعمْران بن حِطّان يمدح عبد الرحمن بن ملجم. فرجع رَوْح إليه فأخبره، فقال: ضيفك عمران بن حِطّان، فاذهب فجئني به، فرجع إليه فقال: أمير المؤمنين قد أحبّ أن يراك، فقال له عمران: قد أردتُ أن أسألك ذاك فاستحييتُ منك، فاذهب فإنّي بالأثر، فرجع روح إلى عبد الملك فخبره، فقال: أما إنّك سترجع فلا تجده، فرجع فوجد عمران قد احتمل، وخلّف رقعة فيها:

يَا رَوْحُ كَمْ مِنْ أخي مَثْوًى نزلْتُ به ... قد ظَنَّ ظنَّكَ مِنْ لَخْمٍ وَغَسَّانِ
حَتى ذا خفتُه زايلتُ منزِلَهُ ... من بعْدِ ما قيل عِمْران بن حِطّانِ
قد كنتُ جارَك حولاً لا يروِّعُني ... فيه طوارقُ مِنْ إنْسٍ ولا جانِ
حتى أرَدْتَ بيَ العظْمَى فأدركَنِي ... ما أدْرَكَ النَّاسَ من خوف ابن مَرْوانِ
فاعذِرْ أخاك ابنَ زنباع فإنّ له ... في الحادثاتِ هنَاتٍ ذَاتَ ألوانِ
يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمَنٍ ... وإن لقيتُ مَعَدِّيًا فعدْناني
لوْ كُنْتُ مُسْتَغْفِراً يَوْماً لِطَاغيةٍ ... كُنْتَ ٱلْمُقَدَّمَ فِي سِرِّي وإعْلاَنِي
لٰكِنْ أَبَتْ ذَاكَ آيَاتٌ مُطَهَّرَةٌ ... عِنْدَ ٱلتِّلاَوَةِ فِي طٰهَ وَعِمْرَانِ

ثم ارتحل، حتى نزل بزُفر بن الحارث أحد بني عَمْرو بن كلاب، فانتسب له أوزاعيًا، وكان عمران يطيل الصلاة، فكان غِلمان بني عامر يضحكون منه، فأتاه رجل ممن كان عند رَوْح، فسلّم عليه، فدعاه زفر فقال له: مَنْ هذا؟ فقال: رجل من الأزد، رأيته ضيفاً لروْح بن زنباع، فقال له زفر: يا هذا، أزديًا مرة وأوزاعيًا أخرى! إن كنت خائفاً أمَّنّاك، وإن كنت فقيراً جَبَرناك، فلما أمسى خلّف في منزله رقعة، وهرب فوجدوا فيها:

إنّ التي أصْبَحتْ يَعْيَا بها زُفَرٌ ... أعْيَتْ عَياءً على رَوْحِ بن زِنْباعِ
ما زالَ يسألُنِي حَوْلاً لأخبِرَهُ ... والنَّاسُ مَا بَيْنَ مَخْدُوعٍ وخَدّاعِ
حتّى إذا انقطعتْ مِنّي وسائلُهُ ... كفَّ السؤالَ ولم يُولَعْ بإهلاعِ
فاكْفُفْ لسانَك عن لومِي وَمَسْأَلَتِي ... ماذا تريدُ إلى شَيْخٍ بلا راعِ!
فاكْفُفْ كَما كَفَّ عنّي إنّني رجلٌ ... إما صميمٌ وإما فَقْعَةُ الْقَاعِ
أمّا الصَّلاَةَ فإنّي غيرُ تارِكها ... كلُّ امرىءٍ للّذي يُعْنَى بِهِ سَاعِ

أكْرِمْ بِرَوْحِ بنِ زنباعٍ وأسرتِهِ ... قومٌ دعا أوَّلِيهِمْ للعُلا داعِ
جاورتُهُمْ سَنَةً مِمَّا أسَرُّ به ... عِرْضِي صَحِيحٌ ونومِي غَيْرُ تَهْجَاعِ
فاعمَلْ فإنّكَ مَنْعِيٌّ بواحدةٍ ... حَسْبُ اللَّبيب بِهذَا الشَّيْبِ من دَاعِ

ثم ارتحل حتى أتى عُمان، فوجدهم يعظّمون أمر أبي بلال، ويظهر فيهم، فأظهر أمرَه فيهم، فبلغ ذلك الحجاج، فكتب فيه إلى أهل عُمان، فهرب حتى أتى قوماً من الأزد في سَواد الكوفة، فنزل بهم، فلم يزل عندهم حتى مات، وفي نزوله فيهم يقول:

نَزَلْنَا بحمْدِ الله فِي خَيْر منزلٍ ... نُسَرُّ بما فيهِ من الإنْسِ والخَفَرْ
نَزَلْنَا بقومٍ يجمعُ الله شَمْلَهُمْ ... وليسَ لهم دَعْوَى سِوىٰ المجدِ يُعْتَصَرْ
منَ الأزدِ إنّ الأزْدَ أكرمُ أسوةٍ ... يمانية طابُوا إذا انتسبَ البَشَرْ
فأصْبَحْتُ فيهم آمناً لا كمعشرٍ ... أتَوْنِي فقالوا: من ربيعةَ أو مُضَرْ
أم الحيِّ قحطانٍ فتلكم سفاهةٌ ... كما قال لي رَوْحٌ وصاحبُه زُفَرْ
وما منهُما إلا يسرُّ بنسبةٍ ... تقرِّبُنِي مِنْهُ وإن كان ذَا نَفَرْ
فنحنُ عبادُ الله، والله واحِدٌ ... وأوْلَى عبادِ الله بالله مَنْ شَكَرْ

قال أبو العباس: ومن الخوارج مَنْ مَشى في الرمح وهو في صدره خارجاً من ظهره، حتى خالط طاعِنَهُ فضربه بالسيف فقتله، وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾(١).

ومنهم الذي سأل عليًا عليه السلام يوم النَّهروان المبارزة في قوله:

أطعنهم ولا أرى عليّا ... ولو بدا أوْجرتُهُ الخطِّيّا

فخرج إليه عليّ فضربَه بالسيف فقتله، فلما خالطه السيف قال: «يا حبذا الرَّوْحة إلى الجنة».

ومنهم ابن ملجم، وقطع الحسن بن عليّ يديه ورجليه وهو في ذلك يذكر الله، ثم عمد إلى لسانه فقطعه فجزع، فقيل له في ذلك قال: أحببتُ ألّا يزال لساني رَطْباً من ذكر الله.

ومنهم القوم الذين وثب رجل منهم على رُطَبة سقطت من نخلة، فوضعها في فيه، فلفظها تورعاً.

ومنهم أبو بلال مرداس، الذي ينتحله من الفِرق لتقشّفه وتصرّمه وصحة عبادته، وصلابة نيّته.

أما المعتزلة فتنتحله وتقول: إنّه خرج منكِراً لجور السلطان، داعياً إلى الحق، وإنه من أهل

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٤.

العَدْل، ويحتجون لذلك بقوله لزياد، وقد كان قال في خُطبته على المنبر: والله لآخذَنّ المحسن بالمسيء، والحاضِرَ بالغائب، والصحيح بالسَّقيم، فقام إليه مرداس فقال: قد سَمِعْنا ما قلت أيها الإنسان، وما هكذا قال الله تعالى لنبيه إبراهيم، إذ يقول: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، ثم خرج عليه عَقِيب هذا اليوم.

وأما الشّيعة فتنتحلُهُ، وتزعم أنّه كتب إلى الحسين بن عليّ: إنّي والله لستُ من الخوارج، ولا أرى رأيهم، وإنّي على دين أبيك إبراهيم.

الناسك المجتهد المستورد السعدي

ومنهم المستورِد، أحد بني سعد بن زيد بن مَناة، كان ناسكاً مجتهداً، وهو أحدُ من ترأّسَ على الخوارج في أيام عليّ، وله الخطبة المشهورة التي أولها: إنَّ رسول الله ﷺ أتانا بالعدْل تخفِق راياته، وتلمَعُ معالِمُه، فبلَّغنا عن رَبّه، ونصح لأمّته، حتى قبضه الله تعالى مخيّراً مُختاراً.

ونجا يوم النُّخَيْلة[2] من سَيْف عليّ، فخرج بعد مدّة على المُغيرة بن شعبة - وهو والي الكوفة - فبارزَه معقِل بن قيس الرِّياحيّ، فاختلفا ضرْبَتين، فخرّ كلّ واحد منهما ميتاً.

ومن كلام المستورد: لو ملكتُ الدنيا بحذافِيرها، ثم دُعِيت إلى أنْ أستفِيدَ بها خطيئة ما فعلت.

ومن كلامه: إذا أفضيتُ بسرّي إلى صديقي فأفشاه لم أَلُمْه، لأنّي كنت أوْلى بحفظه.

ومن كلامه: كن أحرصَ على حفظ سرّك منك على حَقْن دمك.

وكان يقول: أوّلُ ما يدلّ على عيب عائب الناس معرفته بالعيوب، ولا يعيب إلا مَعِيب.

وكان يقول: المالُ غير باقٍ عليك، فاشترِ به من الحمد والأجر ما يبقى عليك.

حوثرة الأسدي

قال أبو العباس: وخَرج من الخوارج على معاوية بعد قَتْل عليّ حَوْثرة الأسديّ، وحابس الطائيّ، خرجا في جَمْعهما، فصارا إلى مواضع أصحاب النُّخَيْلة، ومعاوية يومئذ بالكوفة قد دخلها في عام الجماعة، وقد نزل الحسنُ بن عليّ، وخرج يريد المدينة، فوجّه إليه معاويةُ - وقد تجاوز في طريقه - يسأله أنْ يكونَ المتولّيَ لمحاربة الخوارج، فكان جوابُ الحسن: والله لقد كَفَفْتُ عنكَ لحقْنِ دماء المسلمين، وما أحسب ذاك يَسَعُني، أفأقاتل عنك قوماً أنت والله أوْلَى بالقتال منهم!

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٧، ٣٨.

(٢) انظر يوم النخيلة في تاريخ الطبري (٢/ ٣٧٦).

قلت: هذا موافق لقول أبيه: «لا تقاتِلوا الخوارجَ بعدي، فليس مَنْ طلب الحقَّ فأخطأه، مثلَ مَنْ طلب الباطل فأدرَكه»، وهو الحقّ الذي لا يُعْدَلُ عنه وبه يقول أصحابنا، فإنّ الخوارج عندهم أعْذَرُ من معاوية، وأقلُّ ضلالاً، ومعاوية أوْلَى بأن يحارَب منهم.

قال أبو العباس: فلما رجع الجواب إلى معاوية أرسل إلى حوثرة الأسديّ أباه، وقال له: اذهب فاكفِني أمرَ ابنك، فصار إليه أبوه، فدعاه إلى الرجوع فأبى، فماراه فصمّم، فقال: يا بنيّ، أجيئُك بابنِك، فلعلّك تراه فتحنّ إليه! فقال: يا أبت، أنا والله إلى طعنةٍ نافذة أتقلّب فيها على كُعوب الرمح، أشوقُ منّي إلى ابني!

فرجع إلى معاوية فأخبره فقال: يا أبا حوثرة، لقد عتا بحقّ هذا جدًّا. ثم وجه إليه جيشاً أكثرُه أهل الكوفة، فلما نظر إليهم حوثرة، قال لهم: يا أعداءَ الله، أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدُّوا سلطانه، وأنتم اليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه! فخرج إليه أبوه، فدعاه إلى البراز، فقال: يا أبتِ، لك في غيري مندوحة، ولي في غيرك مذهب، ثم حمل على القوم وهو يقول:

اكْرُرْ عَلَى هذِي الجموعِ حَوْثَرَهْ فعن قليلٍ ما تَنَالُ المغفرهْ

فحمل عليه رجل من طيّىء فقتله، فلما رأى أثر السجود قد لوَّح جبهته ندم على قتله.

الرُّهين المرادي

وقال الرُّهَيْن المراديّ أحد فقهاء الخوارج ونسّاكها:

يا نفسُ قَدْ طَال في الدُّنْيا مُرَاوغَتِي لا تأمَنَنَّ لصَرْفِ الدَّهْرِ تنغيصا
إنـي لبائعُ ما يَفْنَى لباقيةٍ إنْ لم يَعُقْنِي رَجَاءُ العيش تربيصَا
وأسألُ الله بيعَ النفس محتسِباً حتّى ألاقيَ في الفِرْدَوْسِ حُرقوصا
وابن المنيحِ ومِرْدَاساً وإخوَته إذْ فارقوا هذه الدّنيا مخاميصا(١)

قال أبو العباس: وأكثرُهم لم يكنْ يبالِي بالقتل، وشيمتُهم استعذَابُ الموت، والاستهانة بالمنيّة.

ومنهم الهازِىء بالأمراء، وقد قُدِّم إلى السيف، ولَّى زياد شيبانَ بن عبد الله الأشعريّ - صاحب مقبُرة بني شيبان - بابَ عثمان وما يليه بالبصرة، فجدّ في طلب الخوارج، وأخافهم، فلم يَزَلْ على ذلك حتى أتاه ليلةً وهو متّكِىء بباب داره رجلان من الخوارج، فضرباه بأسيافهما

(١) المخماص: كالخميص أي ضامر البطن، لسان العرب، مادة (خمص).

فقتلاه، فأتِيَ زياد بعد ذلك برجل من الخوارج، فقال: اذهبوا به فاقتلوه متّكئاً كما قتل شيبان متكئاً، فصاح به الخارجيّ: يا عدلاه! يهزأ به.

عباد بن أخضر المازني

قال: وأما عبّاد بن أخضر قاتل أبي بلال مرداس بن أُديّة - وقد ذكرنا قصَّتَه - فإنه لم يزلْ بعد قتله مرداساً محموداً في المِصْر موصوفاً بما كان منه، حتى ائتمر جماعة من الخوارج أن يقتلوه، فذمَر بعضُهم بعضاً على ذلك، فجلسوا له يوم جُمعة بعد أن أقبَلَ على بغلته، وابنُه رديفه، فقام إليه رجلٌ منهم فقال له: أسألك عن مسألة؟ قال: قل، قال: رأيتَ رجلاً قَتل رجلاً بغير حقّ، وللقاتل جاه وقَدْر وناحية من السلطان، ولم يُعْدِ عليه السلطانَ لجوره، ألوليّ ذلك المقتول أن يقتل القاتل إن قدر عليه؟ فقال: بل يرفعُه إلى السلطان. قال: إنّ السلطان لا يُعدِي عليه لمكانه منه، ولعظَم جاهه عنده، قال: أخاف عليه إن فتك به [فتك به السلطان]. قال: دعْ ما تخافه من السلطان، أيلحقه تَبِعة فيما بينه وبين الله؟ قال: لا، فحكَّم هو وأصحابُه ثم خَبَطوه بأسيافهم، ورمى عبّاد بابنه فنجا، وتنادى الناس: قُتِل عبّاد، فاجتمعوا فأخذوا أفواه الطُّرق - وكان مقتل [عبّاد في سكة] بني مازن عند مَسْجِد بني كُلَيب بن يَرْبوع، فجاء معبد بن أخضر، أخو عبادٍ - وهو معبد بن علقمة، وأخضر زوج أمهما - في جماعة من بني مازن، وصاحوا بالناس: دعونا وثأرَنا، فأحجم الناس، فتقدم المازنيّون، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً، لم يفلِتْ منهم أحد إلا عبيدة بن هلال، فإنه خَرَق خُصًّا ونفذ فيه، ففي ذلك يقول الفرزدق:

لَقَدْ أدْرَكَ الأوتارَ غَيْرَ ذميمةٍ ... إذَا ذُمَّ طُلاَّبُ التِّراتِ الأخاضِرُ
هُمُ جَرَّدُوا الأسيافَ يَوْم ابنِ أخضرٍ ... فنالُوا الَّتِي ما فَوْقَها نَالَ ثَائرُ
أقَادُوا به أُسْداً لَهَا في اقتحامِها ... - إذَا بَرَزَتْ نحو الحرُوب - بصائرُ

ثم هجا كُليب بن يَربوع، رهط جرير بن الخَطَفَى، لأنه قُتِل بحضْرة مسجدهم ولم ينصروه، فقال في كلمته هذه:

كَفِعْلِ كُلَيْبٍ إذ أخَلَّتْ بجارِها ... ونصرُ اللَّئيم مُغْتِمٌ وهو حاضرُ
وما لِكُلَيْبٍ حين تُذكر أوّلٌ ... وما لكُلَيْبٍ حين تُذكرُ آخرُ

قال: وكان مقتل عَبّاد بن أخضر وعُبيد الله بن زياد بالكوفة، وخليفته على البصرة عُبيد الله بن أبي بَكْرة، فكتب إليه يأمره ألاّ يدع أحداً يُعرف بهذا الرأي إلا حبسه، فجدّ في طلب مَنْ تغيّب عنه، وجعل يتبعهم ويأخذهم، فإذا شفع إليه أحد منهم كَفله، إلى أن يقدَم به على ابن زياد، حتى أتوه بِعُرْوة بن أُديّة فأطلقه، وقال: أنا كفيلُك، فلما قدم ابن زياد أخِذَ مَنْ في الحبس،

فقتلهم جميعاً، وطلب الكفلاء بمن كَفلوا به، فكلّ مَنْ جاء بصاحبه أطلقه وقتل الخارجيّ، ومن لم يأت بمن كَفل به منهم قتله.

ثم قال لابن أبي بَكْرة: هات عُروة بن أدَيّة، قال: لا أقدر عليه، قال: إذاً والله أقتلك، فإنك كفيله. فلم يزل يطلبُه حتى دُلّ عليه في سَرَب العلاء بن سويّة المِنْقريّ، فكتب بذلك إلى عبيد الله بن زياد، فقرأ عليه كتابه فقال: إنّا قد أصبناه في شرْب العَلاء، فتهانف به عبيد الله وقال: صحّفت ولؤمت، إنما هو «في سَرَب العلاء»، ولوددت أنه كان ممنّ شرب النبيذ. فلما أقيم عروة بين يديه، قال: لم جهّزتَ أخاك عَليّ! يعني أبا بلال، فقال: والله لقد كنتُ به ضنيناً، وكان لي عِزًّا، ولقد أردت له ما أريد لنفسي، فعزم عزماً فمضى عليه، وما أحبّ لنفسي إلا المقام وترك الخرَوج. فقال له: أفأنت على رأيه؟ قال: كلّنا نعبد ربًّا واحداً، قال: أما والله لأمثّلنّ بك، قال: اختر لنفسك من القِصَاص ما شئت، فأمر به فقَطعوا يديه ورجليه، ثم قال له: كَيف ترى؟ قال: أفسدْت عليّ دنياي، وأفسدتُ عليك آخرتك، فأمر به فصُلِب على باب داره.

قال أبو العباس: وكان أبو الوازع الراسبيّ من مجتهدي الخوارج ونُسّاكها، وكان يذمّ نفسَه ويلُومها على القعود، وكان شاعراً، وكان يفعل ذلك بأصحابه، فأتى نافعَ بن الأزرق وهو في جماعة من أصحابه، يصف لهم جَوْرَ السلطان وفساد العامة، وكان نافع ذا لسان عَضْب واحتجاج وصَبْر على المنازعة، فأتاه أبو الوازع، فقال له: يا نافع، إنك أعْطِيتَ لساناً صارماً، وقَلْباً كليلاً، فلوَدِدْت أنّ صرامةَ لسانك كانت لقلبك، وكلالَ قلبك كان للسانك، أتحضّ على الحقّ وتقعد عنه! وتقبّح الباطل وتقيم عليه! فقال نافع: يا أبا الوازع، إنما ننتظر الفرص، إلى أن تجمع من أصحابك من تَنْكِيءُ به عدوّك، فقال أبو الوازع:

لِسانُك لا تَنْكِي بهِ القومَ إنما ... تنالُ بكفَّيْك النَّجاةَ من الكَرْبِ
فجاهِدْ أناساً حاربُوا الله واصطبِرْ ... عَسَى الله أن يَجْزي غَوى بني حرب

يعني معاوية. ثم قال: والله لا ألومُك ونفسي ألوم، ولأغدُوَنّ غَدْوة لا أنثني بعدها أبداً. ثم مضى فاشترى سيفاً، وأتى صَيْقَلاً كان يذمّ الخوارج، ويدلّ على عَوراتِهم، فشاوره في السيف، فحمِده، ثم قال: اشحذه، فشحذه حتى إذا رضيَه، خَبَط به الصَّيْقَل فقتله، وحمل على الناس فهربوا منه، حتى أتى مقبرة بني يشكر، فدفع عليه رجل حائط ستره فشدَخه، وأمر ابن زياد بصلْبه.

عمران بن الحارث الراسبي

قال أبو العباس: ومن نُسّاكهم الذين قُتِلوا في الحرب عمران بن الحارث الراسبيّ، قُتِل يوم دُولاب، التقى هو والحجاج بن باب الحميريّ - وكان الأمير يومئذ على أهل البصرة، وصاحب رايتهم - فاختلفا ضربتين فخرّا ميتين، فقالت أمّ عمران ترثيه:

اللهُ أيّـد عِـمـرانـاً وطـهّـرهُ ... وكان عمرانُ يَدْعُو الله في السَّحَرِ
يـدعُـوه سِـرًّا وإعـلانـاً ليـرزُقَـه ... شـهـادةً بـيـديْ مِـلْـحَـادةٍ غُـدَرِ
وَلّـى صَحَـابـتـهُ عَـن حـرّ مَـلْـحَـمَـةٍ ... وَشَـدَّ عـمـرانُ كـالـضُّـرغـامـةِ الـذَّكَـرِ

قال: وممّن قتل من رؤسائهم يوم دولاب نافع بن الأزرق - وكان خليفتهم - خاطبوه بإمْرة المؤمنين، فقال رجل منهم يرثيه:

شَـمِـتَ ابـنُ بَـدْرٍ والـحـوادِثُ جـمّـةٌ ... والـجـائـرون بـنـافـعِ بـن الأزرقِ
والـمـوتُ حَـتْـمٌ لا مـحـالـةَ وَاقِـعٌ ... مَـنْ لا يـصـبِّـحْـهُ نـهـاراً يَـطْـرُقِ
فـلـئـن أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـن أصـابَـهُ ... رَيْـبُ الـمَـنُـونِ فَـمَـنْ يُـصِـبْـهُ يَـغْـلَـقِ

وقال قَطَريّ بن الفُجَاءة يذكر يوم دَوْلاب:

لَـعَـمْـرُكَ إنّـي فـي الْـحَـيَـاةِ لَـزَاهِـدٌ ... وَفـي ٱلْـعَـيْـشِ مَـا لـم أَلْـقَ أُمَّ حَـكِـيـمِ
مِـنَ الْـخَـفِـرَاتِ الـبـيـض لَـمْ يُـرَ مِـثْـلُـهـا ... شِـفَـاءٌ لِـذي بـثٌّ وَلا لِـسَـقِـيـمِ
لـعـمـركَ إنّـي يَـوْمَ ألـطِـم وجْـهـهَـا ... عَـلَـى نـائِـبـاتِ الـدَّهْـرِ جِـدُّ لـئـيـمِ
فـلـو شـهـدتْـنَـا يَـوْمَ دُولاَبَ شَـاهَـدَتْ ... طِـعَـانَ فَـتًـى فـي الـحـربِ غـيـر ذَمِـيـمِ
غَـدَاةَ طَـفَـتْ عَـلْـمَـاءِ بـكْـرُ بـن وَائِـلٍ ... وَعُـجْـنَـا صُـدورَ الـخَـيْـل نـحـو تـمـيـمِ
وكـان بـعَـبْـدِ الْـقَـيْـسِ أوّلُ جَـدِّنَـا ... وَأَحْـلافِـهـا مِـنْ يَـحْـصُـبٍ وسَـلِـيـمِ
وَظَـلّـت شُـيـوخُ الأزْدِ فِـي حَـوْمَـةِ الـوَغَـى ... تَـعُـومُ فـمـن مـسـتـنـزَلٍ وهـزيـمِ
فَـلَـمْ أرَ يَـوْمـاً كـانَ أكْـثَـرَ مُـقْـعَـصـاً ... يـمـجُّ دمـاً مـن فـائـظٍ وكـلـيـمِ
وضـاربـةٍ خَـدًا كَـريـمـاً عَـلَـى فـتًـى ... أغـرَّ نـجـيـب الأمّـهـاتِ كَـريـمِ
أصـيـبَ بـدُولابٍ وَلـم تَـكُ مَـوْطِـنـاً ... لـه أرضُ دولاَبٍ وأرْضُ حَـمِـيـمِ
فـلـو شـهـدتْـنـا يـوم ذاك وخَـيْـلُـنـا ... تُـبـيـح مِـنَ الـكـفّـار كـلَّ حَـرِيـمِ
رأت فـتـيـةً بـاعـوا الإلـه نـفـوسَـهُـم ... بـجـنّـات عَـدْن عـنـده ونـعـيـمِ

عبد الله بن يحيى طالب الحق

ومن رؤساء الخوارج وكبارهم عبد الله بن يحيى الكنديّ الملقّب طالب الحق، وصاحبه المختار بن عوْف الأزديّ صاحب وقعة قُدَيد، ونحن نذكر ما ذكره أبو الفَرج الأصفهانيّ من قصتهما في كتاب «الأغاني»[1] مختصراً محذوفاً منه ما لا حاجة بنا في هذا الموضع إليه.

قال أبو الفرج: كان عبد الله بن يحيى من حَضرَموت، وكان مجتهداً عابداً، وكان يقول قبل أن يخرج: لقيني رجلٌ فأطال النظَر إليّ وقال: ممّن أنت؟ قلت: من كِنْدة، فقال: من أيّهم؟ فقلت: من بني شيطان، فقال: والله لتملكنّ وتبلُغَنّ وادِيَ القُرَى، وذلك بعد أنْ تَذْهب إحدى عينيك، وقد ذهبت وأنا أتخوّف ما قال، وأستخير الله.

فرأى باليمن جَوْراً ظاهراً، وعسْفاً شديداً، وسيرة في الناس قبيحة، فقال لأصحابه: إنه لا يحلّ لنا المقام على ما نَرى، ولا الصبرَ عليه. وكتب إلى جماعة من الإباضيّة بالبصرة وغيرها، يشاورهم في الخروج، فَكتبوا إليه: إن استطعت ألاّ تقيم يوماً واحداً فافعل، فإنّ المبادرة بالعمل الصالح أفضلُ، ولستَ تدرِي متى يأتي أجلُك، ولله بقيّة خَيْرٍ من عباده، يبعثهم إذا شاء بنصر دينه، ويختصّ بالشهادة منهم مَنْ يشاء.

وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزديّ وبلْج بن عُقْبة المسعوديّ في رجال من الإباضيّة، فقدموا عليه حضرموت فحرّضوه على الخروج، وأتَوْه بكتب أصحابه يُوصونه ويُوصون أصحابَه: إذا خرجتم فلا تَغُلُّوا، ولا تَغْدرُوا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا بسيرتهم، فقد علمتم أنّ الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم.

فدعا عبدُ الله أصحابه فبايعوه، وقصدوا دار الإمارة، وعلى حضرموت يومئذ إبراهيم بن جَبَلة بن مخرمة الكنديّ فأخذه، فحبسه يوماً ثم أطلقه، فأتى صنعاء، وأقام عبد الله بحضرموت، وكثر جمعه، وسَمَّوْه «طالبَ الحق».

وكتب إلى مَنْ كان من أصحابه بصنعاء: إنّي قادم عليكم، ثم استخلفَ على حَضْرموت عبدَ الله بن سعيد الحضْرميّ، وتوجّه إلى صنعاء - وذلك في سنة تسع وعشرين ومائة - في ألفين، والعامل على صنعاء يومئذ القاسم بن عمرو أخو يوسف بن عمرو الثَّقَفيّ، فجرَت بينه وبين عبد الله بن يحيى حروب ومناوشَات، كانت الدّولة فيها والنّصرة لعبد الله بن يحيى، فدخل إلى صنعاء، وجَمَع ما فيها من الخزائن والأموال فأحرزها.

---

(١) الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني المتوفى (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يُؤلَّف مثله اتفاقاً، ذكر أنه جمعه في خمسين سنة. كشف الظنون (١/ ١٢٩).

فلما استولى على بلاد اليمن خَطب، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلَّى على رسوله، وذكّر وحذّر، ثم قال: إنا ندعوكم أيّها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيّه، وإجابة مَنْ دعا إليهما. الإسلام دينُنا، ومحمد نبيُّنا، والكعبة قبلتُنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلال حلالاً لا نبتغي به بدلاً، ولا نشتري به ثمناً، وَحرّمنا الحرام، ونبذناه وراء ظُهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكَى، وعليه المعوّل، مَنْ زنَى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شِرب الخمر فهو كافر، ومن شكّ في أنه كافر فهو كافر. ندعوكم إلى فرائض بيّنات، وآياتٍ محكمات، وآثار نَقْتدِي بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، وعَدْل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الربّ واليقين بالوعْد والوعِيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله. أيُّها الناس، إنّ مِنْ رحمة الله أن جَعَل في كلِّ فَتْرة بقايا من أهل العلم، يدعُون مَنْ ضَلّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم في جنب الله، ويُقتلون على الحقّ في سالف الأيام، شهداء فما نسيَهم ربُّهم، وما كان ربك نسيّا. أوصيكم بتقوى الله وحُسْن القيام على ما وُكّلتم بالقيام عليه، وقابلوا الله حُسْناً في أمره وزجره. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال: وأقام عبدُ الله بن يحيى بصنعاء أشهُراً، يحسِنُ السِّيرة في الناس، ويُلين جانبَه لهم، ويكفّ الأذَى عنهم، وكثر جمعُه، وأتته الشُّراة مِنْ كلّ جانب، فلمّا كان في وقت الحج وجّه أبَا حمزة المختار بن عوف، وبلْج بن عُقْبة، وأبرهة بن الصّباح إلى مكة، والأمير عليهم أبو حمزة في ألفٍ، وأمره أن يقيمَ بمكّة إذا صدر الناس، ويوجّه بَلْجاً إلى الشام، فأقبل المختار إلى مكة يوم التّروِية، وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك في خلافة مَرْوان بن محمد بن مروان، وأمّ عبد الواحد بنت عبد الله بن خالد بن أسِيد، فكره عبدُ الواحد قتالَهم، وفزع النّاس منهم حين رأوْهم، وقد طلعوا عليهم بعَرفة، ومعهم أعلام سُود في رؤوس الرّماح، وقالوا لهم: ما لكم وما حالكم؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرّي منهم، فراسلهم عبدُ الواحد في ألاّ يعطّلوا على الناس حَجّهم. فقال أبو حمزة: نحن بحجّنا أضنّ، وعليه أشحّ، فصالحم على أنّهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض، حتى ينفِر النّاس النَّفْر الأخير، وأصبحوا من الغد، ووقفوا بحيال عبد الواحد بعرَفة، ودفع عبد الواحد بالنّاس، فلما كانُوا بمنًى، قيل لعبد الواحد: قد أخطأت فيهم، ولو حملت عليهم الحاجّ ما كانوا إلا أكَلة رأس.

ويعث عبد الواحد إلى أبي حمزة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عمر بن حفص العُمريّ، وربيعة بن عبد الرحمن، ورجالاً أمثالهم، فلما قَربُوا من أبي حمزة أخذتْهم مَسالِحه فأدخلوا على أبي حَمْزة، فوجدوه جالساً، وعليه إزار قَطَرِيّ قد ربطه بحورة في قفاه، فلما دنوا، تقدّم إليه عبد الله بن الحسن العلويّ، ومحمد بن عبد الله العثمانيّ،

فنسبهما، فلما انتسبا له عَبَس في وجوههما، وأظهر الكراهِيَة لهما، ثم تقدّم إليه بعدهما البَكريّ والعمريّ فنسبهما فانتسبا له، فهشَّ إليهما وتبسم في وجوههما، وقال: والله ما خرجْنا إلا لنسير سيرة أبويْكما، فقال له عبد الله بن حَسن: والله ما جئناك لتفاخر بين آبائنا، ولكنّ الأميرَ بعثنا إليك برسالة، وهذا ربيعة يخبركها، فلما أخبره ربيعة، قال له: إنّ الأمير يخاف نَقْضَ العهد، قال: معاذ الله أن ننقض العهد، أو نخيس به! والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه، ولكن إلى أن تنقضِيَ الهدنة بيننا وبينكم.

فخرجوا من عنده، فأبلغوا عبد الواحد، فلما كان النّفْر الأخير، نَفَرَ عبد الواحد وخلّى مكة لأبي حمزة، فدخل بغير قتال، فقال بعضُ الشعراء يهجو عبد الواحد:

زارَ الحجيجَ عصابةٌ قد خالَفُوا ... دينَ الإلهِ ففرّ عبدُ الواحدِ

تركَ الإمارةَ والمواسمَ هارباً ... ومضى يخبِّط كالبعير الشاردِ

فلو إنَّ والده تخيّر أمَّهُ ... لصفَت خلائقه بعرْق الوالد

ثم مضى عبدُ الواحد حتى دخل المدينة ودعا بالديوان، فَضربَ على الناس البَعْث، وزادهم في العطاء عشرة عشرة، واستعمل على الجيش عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فخرجوا، فلقيتهم جُزُر منحورة، فتشاءم الناس بها، فلما كانوا بالعقيق عَلِق لواء عبد العزيز بَسمُرة فانكسر الرمح، فتشاءموا بذلك أيضاً.

ثم ساروا حتى نزلوا قُدَيْداً، فنزل بها قوم معتزلون، ليسوا بأصحاب حرب، وأكثرهم تجار أغمار، قد خرجوا في المصبّغات والثياب الناعمة واللهو، لا يظنون أن للخوارج شوْكة، ولا يشكّون في أنهم في أيديهم.

وقال رجل منهم من قريش: لو شاء أهلُ الطائف لكفوْنا أمرَ هؤلاء، ولكنهم داهنوا في دين الله، والله لنظفرَنّ ولنسيرنّ إلى أهل الطائف فلنسبِيَنّهم، ثم قال: مَنْ يشتري مِنّي من سَبْي أهلِ الطائف؟

قال أبو الفرج: فكانَ هذا الرَّجُل أوّلَ المنهزمين، فلما وصل المدينة، ودخل دارَه، أراد أن يقول لجاريته: أغلقي الباب، قال لها: «غاق باق» دهشاً، فلقّبه أهلُ المدينة بعد ذلك «غاق بَاق»، ولم تفهم الجارية قوله، حتى أومأ إليها بيده، فأغلقت الباب.

قال: وكان عبد العزيز يعرِض الجيش بذي الحُلَيفة، فمرّ به أمية بن عنْبَسة بن سعيد بن العاص، فرحّب به وضحك إليه، ثم مرّ به عُمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فلم يكلّمه، ولم يلتفت إليه، فقال له عمران بن عبد الله بن مطيع - وكان ابن خالته، أمّا هما ابنتا عبد الله بن خالد بن أسيد -: سبحان الله! مرّ بك شيخ من شيوخ قريش، فلم تنظر إليه ولم تكلِّمْه، ومرَّ بك غلام من بني أميّة فضحكتَ إليه ولاطفته! أما والله لو التقَى الجمعانِ لعلمت أيّهما أصبر!

قال: فكان أمية بن عنبسة أوّلَ مَن انهزم وركب فرسَه ومضى، وقال لغلامه: يا مجيب، أما والله لئن أحرزت هذه الأكلب من بني الشُّراة إني لعاجز.

وأما عمارة بن حمزة بن مصعب بن الزبير فقاتل يومئذ حتى قتل، وكان يحمِل ويتمثّل:

وإنــي إذا ضَــنَّ الأمــيــرُ بــإذنــه على الإذنِ من نفسي - إذا شئتُ - قادرُ

والشعر للأغرّ بن حماد اليشكريّ.

قال: فلما بلغ أبا حمزة إقبالُ أهل المدينة إليه، استخلف على مكة أبرهة بن الصبّاح وشخص إليهم، وعلى مقدمته بلج بن عُقْبة.

فلما كان في الليلة التي وافاهم في صبيحتها، وأهل المدينة نزول بقُدَيْد، قال لأصحابه: إنكم ملاقُو القوم غداً، وأميرهم فيما بلغني ابنُ عثمان، أوّل منْ خالف سُنّة الخلفاء وبدّل سنة رسول الله ﷺ، وقد وضَح الصُّبح لذي عينين، فأكثِروا ذكرَ الله وتلاوةَ القرآن، ووطِّنُوا أنفسكم على الموت. وصبَّحهم غداة الخميس لتسع خلوْن من صفر سنة ثلاثين ومائة.

قال أبو الفرج: وقال عبد العزيز لغُلامه في تلك الليلة: ابغنا عَلَفاً، قال: هو غالٍ، فقال: ويحك! البواكي علينا غداً أغلى، وأرسل أبو حمزة إليهم بلج بن عقبة ليدعوَهم، فأتاهم في ثلاثين راكباً فذكّرهم الله، وسألهم أن يكفُّوا عنهم، وقال لهم: خلُّوا سبيلنا إلى الشام، لنسير إلى مَنْ ظلمكم، وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلُوا حدّنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم، فشتمهم أهلُ المدينة، وقالوا: يا أعداء الله، أنحن نخلّيكم، ونترككم تفسدون في الأرض!

فقالت الخوارج: يا أعداء الله، أنحن نفسد في الأرض! إنّما خرجنا لنكفَّ الفساد، ونقاتل مَنْ قاتلنا منكم، واستأثر بالفيء! فانظروا لأنفسكم، واخلعوا مَنْ لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق، فادْخُلوا في السّلْم، وعاونوا أهل الحقّ.

فناداه عبد العزيز: ما تقول في عثمان؟ قال: قد بريء منه المسلمون قَبْلي، وأنا متّبع آثارهم، ومقتدٍ بهم، قال: ارجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينكم إلا السيف، فرجع إلى أبي حمزة فأخبره، فقال: كُفُّوا عنهم، ولا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم بالقتال، وفواقَفُوهم ولم يقاتلوهم، فرمى رجلٌ مِنْ أهل المدينة بسَهم في عسكر أبي حمزة، فجرح منهم رجلاً، فقال أبو حمزة: شأنكم الآن فقد حلّ قتالُهم، فحملوا عليهم، فثبتَ بعضُهم لبعض، وراية قريش مع إبراهيم بن عبد الله بن مطيع، ثم انكشف أهلُ المدينة، فلم يتبعوهم، وكان على عامّتهم صخر بن الجهم بن حذيفة العدويّ، فكبّر وكَبّر الناس معه، فقاتلوا قليلاً، ثم انهزموا فلم يبعدوا حتى كبّر ثانية، فثبت معه ناس وقاتلوا، ثم انهزموا هزيمة لم يَبْق بعدها منهم باقية. فقال عليّ بن الحصين لأبي حمزة: اتّبع آثار القوم، أو دَعْني أتبعهم، فأقتُل المدبر، وأذَفّف على الجريح، فإن هؤلاء شرٌّ علينا من أهل الشام، ولو قد جاءك أهلُ الشام غداً لرأيتَ مِنْ هؤلاء ما

تكره، قال: لا أفعل، ولا أخالف سيرة أسلافنا. وأخذ جماعةً منهم أسراً، وأراد إطلاقَهم، فمنعه عليّ بن الحصين، وقال: إن لكلِّ زمان سيرة، وهؤلاء لم يُؤْسَروا وهم هرّاب، وإنما أسِروا وهم يقاتلون، ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرُمْ قتلهم، فهكذا الآن، قتلُهم حلال. ودَعَا بهِمْ، فكان إذا رأى رجلاً من قريش قتله، وإذا رأى رجلاً من الأنصار أطلقه.

قال أبو الفرج: وذلك لأن قريشاً كانوا أكثرَ الجيش، وبهمْ كانت الشوكة. وأتى محمد بن عبد العزيز بن عمرو بن عثمان، فنسَبه، فقال: أنا رجل من الأنصار، فسأل الأنصار فأقرت بذلك، فأطلقه، فلما ولّى قال: والله إني لأعلم أنّه قرشيّ، ولكن قد أطلقتُه.

قال: وقد بلغت قتلَى قُدَيْد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً، منهم من قريش أربعمائة وخمسون رجلاً، ومن الأنصار ثمانون رجلاً، ومن الموالي وسائر الناس ألف وسبعمائة رجل.

قال: وكان في قتلَى قريش من بني أسد بن عبد العزَّى بن قصي أربعون رجلاً.

قال: وقُتِل يومئذ أميّة بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، خرج مقنَّعاً، فلم يكلِّم أحداً، وقاتل حتى قتل، ودخل بَلْج المدينة بغير حرب، فدخلوا في طاعته، وكَفَّ عنهم، ورجع إلى مُلْكه، وكان على شُرْطَته أبو بكر بن عبد الله بن عمر، من آل سراقة، فكان أهل المدينة، يقولون: لعن الله السُّراقيّ، ولعن الله بَلْجاً العراقيّ. وقالت نائحة أهل المدينة تبكيهم:

مَا لـلـزَّمـان ومـا لِـيَـهْ ... أفـنَـتْ قُـدَيْـدُ رجـالـيَـهْ

فـلأبـكـيَـنَّ سـريـرةً ... ولأبـكـيَـنّ عـلانِـيَـهْ

ولأبـكـيـنَّ عـلـى قُـدَيْـ ... ـدَ بـسـوء مـا أولانِـيَـهْ

ولأغـويـنّ إذا خَـلَـوْ ... تُ مـع الـكـلاب الـعـاوِيـهْ

قال أبو الفرج: ولما سار عبدُ الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الشام، وخلّف المدينة لبلج، أقبلَ أبو حمزة من مكة حتى دخلها، فرقِيَ المنبر، فحمِد الله وقال: يا أهلَ المدينة، سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء فأسأتم لعمري والله القولَ فيهم، وسألناكم: هلْ يَقتُلُون بالظنّ؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام؟ فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم، فانشدُوا الله وحدَه أن يَتنحَّوْا عنا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم، فقلتم: لا نفعل، فقلنا لكم: تعالَوْا نحن وأنتم نلقاهم، فإن نظهر نحن وأنتم يأت مَن يقيم لنا كتاب الله وسنة نبيّه، ويعدِل في أحكامكم، ويحملكم على سنة نبيكم، فأبيتم وقاتلتمونا، فقاتلناكم وقتلناكم، فأبعدكم الله وأسحقكم يا أهلَ المدينة! مررتُ بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة في ثمارِكم، فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم، فكتب

بوضعه عن قوم من ذوي اليسار منكم، فزاد الغنيّ غنًى، والفقير فقراً. وقلتم: جزاه الله خيراً، فلا جزاه خيراً ولا جزاكم!

قال أبو الفرج: فأما خطبتا أبي حمزة المشهورتان اللتان خطب بهما في المدينة، فإن إحداهما قوله:

تعلَمُون يا أهلَ المدينة، أنّا لم نخرج من ديارِنا وأموالنا أَشَراً ولا بَطَراً، ولا عبثاً ولا لهوًا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيلَ منّا، ولكنّا لما رأينا مصابيح الحقّ قد أطفِئَتْ، ومعالم العَدْل قد عُطّلَتْ، وعُنِّفَ القائم بالحقّ، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرضُ بما رحُبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحكْم القرآن، فأجبنا داعي الله، ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. فأقبلنا من قبائِلَ شتّى، النَّفَر منّا على البعير الواحد، وعليه زادُهم، يتعاورون لِحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا الله وأيَّدنا بنصره، وأصبحنا - والله المحمود - من أهلِ فضله ونعمته. ثم لقِيَنا رجالُكم بقُدَيْد، فدعَوْناهم إلى طاعة الرَّحْمن، وحكم القرآن، فدعَوْنا إلى طاعة الشيطان، وحُكم مَرْوان، فشتّان - لعمر الله - ما بين الغيّ والرشد! ثم أقبلوا يزفّون ويُهرعون، قد ضرب الشيطان فيهم بجِرَانه، وصدّق عليهم إبليس ظنّه، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائب، بكل مهنَّدٍ ذي رَوْنق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم، بضربٍ يرتاب منه المبطلون.

وايمُ الله يا أهلَ المدينة، إن تنصروا مَرْوان وآلَ مروان فيسحِتَكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، ويَشْفِ صدور قومٍ مؤمنين.

يا أهل المدينة، الناس منّا ونحن منهم، إلا مشركاً عَبّاد وثَن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو إماماً جائراً.

يا أهل المدينة، مَنْ يزعم أن الله تعالى كلّف نفساً فوق طاقتها، وسألها عَمّا لم يؤتها فهو لنا حَرْب.

يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القويّ والضعيف، فجاء تاسع ليس له منها سَهْم، فأخذها جميعاً لنفسه، مكابراً محارباً لربه، ما تقولون فيه، وفيمن عاونه على فعله؟

يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقِصُون أصحابي، قلتم: هم شبابٌ أحداث، وأعراب جُفاة،

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٢.

ويحكم يا أهل المدينة! وهل كان أصحابُ رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً! نعم والله إنّ أصحابي لَشباب مكتهلون في شَبَابهم، غضِيضة عن الشرّ أعينُهم، ثقيلة عن الباطل أقدامُهم، قد باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، قد خلطوا كَلاَلَهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، محنيَّة أصلابُهم على أجزاء القرآن، كُلَّما مرّوا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار، وكلَّما مرُّوا بآية رجاء شَهِقوا شَوْقاً إلى الجنة، وإذا نظروا إلى السيوف وقد انْتُضِيَتْ، وإلى الرماح وقد أشرعَتْ، وإلى السِّهام وقد فُوِّقَت، وأرعِدت الكتيبة بصواعق الموت - استخفُّوا وعيدَها عند وعيد الله، وانغمسوا فيها. فطوبى لهم وحسن مآب! فكم من عينٍ في منقارِ طائر طالَما بكى بها صاحبُها من خَشْية الله! وكَم من يدٍ قد أبِينتْ عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً في طاعة الله! أقول قولي هذا وأستغفر الله، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب[1].

وأما الخطبة الثانية، فقوله:

يا أهل المدينة، ما لي رأيتُ رَسْم الدين فيكم عافياً، وآثاره دارسة! لا تقبلون [عليه] عظة، ولا تفقهون من أهله حُجّة، قد بليت فيكم جِدّتُه، وانطمسَتْ عنكم سُنّته، ترون معروفَه منكراً، والمنكَرَ من غيره معروفاً، فإذا انكشفتْ لكم العِبَر، وأوضحت لكم النُّذُر، عَمِيَتْ عنها أبصاركم، وصَمَّت عنها آذانكم، ساهين في غمرة، لاهين في غَفْلة، تنبسِط قلوبكم للباطل إذا نُشِر، وتنقبض عن الحقّ إذا ذُكِر، مستوحشة من العلم، مستأنسة بالجهل، كلَّما وردت عليها موعظة زادتها عن الحقّ نفوراً، تحملون قلوباً في صدوركم كالحجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة، فهي لا تلين بكتاب الله، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله!

يا أهلَ المدينة، إنه لا تُغْني عنكم صحّةُ أبدانكم إذا سَقِمت قلوبكم، قد جعل الله لكلّ شيء سبباً غالباً عليه، لينقاد إليه مطيع أمره، فجعل القلوب غالبة على الأبدان، فإذا مالت القلوبُ مَيْلاً كانت الأبدان لها تبَعاً، وإنّ القلوب لا تلينُ لأهلها إلا بصحتها، ولا يصحّحها إلا المعرفة بالله، وقوة النية ونفاذ البصيرة، ولو استشعرت تقوى الله قلوبُكم، لاستُعمِلت في طاعة الله أبدانكم.

يا أهل المدينة، داركم دارُ الهجرة، ومثوى الرسول ﷺ، لما نَبَتْ به دارُه، وضاق به قراره، وآذاه الأعداء وتجهَّمت له، فنقله الله إليكم، بل إلى قومٍ لعمري لم يكونوا أمثالكم،

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٦/ ٥٩، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ١٠/ ٣٩.

متوازرين مع الحقّ على الباطل، مختارين الآجل على العاجل، يصبرون للضّراء رجاء ثوابها فنصروا الله وجاهدوا في سبيله، وآزروا رسوله ﷺ، واتبعوا النُّور الذي أنزل معه، وآثروا الله على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، فقال الله تعالى لهم ولأمثالهم، ولمن اهتدى بهديهم: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وأنتم أبناؤهم ومَنْ بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذوا بسنّتهم، عُمْي القلوب صمّ الآذان. اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدَى، وأسهاكم عن مواعظ القرآن، لا تزجركم فتنزجِرُون، ولا تعظكم فتتعظون، ولا توقظكم فتستيقظون، لبئس الخلَفُ أنتم من قوم مَضَوْا قبلكم! ما سرتُم سيرتَهم، ولا حفظتم وصيَّتهم، ولا احتذيتم مثالهم، لو شُقَّت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالُكم لعجِبُوا كيف صُرِف العذاب عنكم! ألا ترون إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أضيعت، حتى تداولها بنو مَرْوان، أهل بيت اللعنة، وطرداء رسول الله، وقوم [من] الطُّلَقاء، ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان! فأكلوا مال الله أكلاً، وتلعَّبوا بدين الله لعباً، واتَّخذوا عباد الله عبيداً، يورّثُ الأكبرُ منهم ذلك الأصغر، فيا لها أمّةً ما أضعفها وأضيعها! ومضوا على ذلك مِنْ سيِّىء أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله، قد نبذوه وراء ظهورهم، فالعنوهم لعنهم الله لعناً، كما يستحقونه.

ولقد وليَ منهم عمر بن عبد العزيز فاجتهد ولم يَكَدْ، وعجز عن الذي أظهر، حتى مضى لسبيله. قال: ولم يذكره بخير ولا بشرّ. ثم قال: ووليَ بعده يزيد بن عبد الملك، غلام سفيةٌ ضعيف، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين، لم يبلغ أشدَّه، ولم يؤنَسْ رشده، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[2] وأمرُ أمة محمد ﷺ وأحكامها وفروجها ودمائها أعظمُ عند الله من مال اليتيم، وإن كان عند الله عظيماً، غلام مأبُونٌ في فَرْجه وبطنه، يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس بُرْدَين قد حيكا من غير حِلّهما، وصرفت أثمانهما في غير وجهها، بعد أن ضُرِبت فيهما الأبشار، وحُلِقَت فيهما الأشعار، استحلَّ ما لم يحلّه الله لعبد صالح، ولا لنبيّ مرسل، فأجلس حَبَابة عن يمينه، وسلاّمة عن يساره، يغنّيانه بمزامير الشيطان، ويشرب الخمر الصُّراح، المحرّمة نصًّا بعينها، حتى إذا أخذت منه مأخذها، وخالطت روحَهُ ولحمه ودمه، وغلبت سَوْرتها على عقله، مزّق بُرْدَيه، ثم التفت إليهما، فقال: أتأذنان لي بأن أطير! نعم فطِرْ إلى النّار، طِرْ إلى لعنة الله، طِرْ إلى حيث لا يردّك الله.

ثم ذكر بني أميّة وأعمالَهم، فقال: أصابوا إمْرة ضائعة، وقوماً طَغاماً جهّالاً لا يقومُون لله بحق، ولا يفرقون بين الضّلالة والهدى، ويرون أنّ بني أمية أربابٌ لهم، فملكوا الأمر،

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦.

وتسلطوا فيه تسلُّط ربوبية، بطشُهم بطش الجبابرة، يحكُمون بالهوى، ويقتُلون على الغَضَب ويأخذون بالظَّنّ، ويعطِّلون الحدود بالشفاعات، ويُؤَمّنون الخَونَة، ويعصُون ذوِي الأمانة، ويتناولون الصَّدقة من غير فرضها، ويضعونها غير موضعها، فتلك الفِرْقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، فالعنوهم لعنهم الله.

قال: ثم ذكر شيعة آل أبي طالب، فقال: وأما إخواننا من الشِّيعة - وليسوا بإخواننا في الدِّين، لكني سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾(١) - فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله، وآثرت الفرقة على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن، ولا عقلٍ بالغ في الفِقْه، ولا تفتيش عن حقيقة الثواب، قد قلدوا أمورَهم أهواءهم، وجعلوا دينَهم العصبيّة لحزب لزموه وأطاعوه، في جميع ما يقوله لهم: غَيًّا كان أو رشداً، ضلالةً كان أو هدى، ينتظرون الدُّول في رَجْعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما في بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه، أو يحويه جسمه، ينقِمون المعاصي على أهلها، ويعمَلُون بها ولا يعلمون المخرج منها، جفاة في دينهم، قليلة عقولهم، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينَهم، وزعموا أنّ موالاتهم لهم تُغْنيهم عن الأعمال الصالحة، وتنجِّيهم من عقاب الأعمال السيئة، قاتلهم الله أنى يؤفكون!

فأيّ الفرَق يا أهل المدينة تتّبعون، أم بأيّ مذاهبهم تَقْتُدون! ولقد بلغني مقالُكم في أصحابي وما عبتموه من حداثة أسنانهم، ويحكم! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ ألا أحداثاً! نعم إنهم لشباب مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرّ أعينهم، ثقيلة في الباطلِ أرجلُهم، أنْضَاء عبادة، قد نظر الله إليهم في جَوْف الليل، محنيّة أصلابهم على أجزاء القرآن كلّما مَرّ أحدُهم بآية فيها ذكرُ الجنة بكى شوقاً، وكلّما مَرّ بآية فيها ذكر النار شَهِق خَوْفاً، كأنّ زفير جهنم بين أذُنيه، قد أكلتِ الأرضُ جباههم ورُكَبَهم، ووصلوا كَلال ليلهم بكَلال نهارهم، مصفرّة ألوانهم، ناحلة أبدانهم، من طول القيام، وكثرة الصيام، يُوفون بعهد الله، منجِزون لوعد الله، قد شرَوْا أنفسهم في طاعة الله، حتى إذا التقت الكتيبتان، وأبرقت سيوفُهما، وفوّقت سهامهما، وأشرعَتْ رماحهما، لقوا شَبَا الأسنة وزِجَاج السهام وظُبَى السيوف، بنحورهم، ووجوههم وصدورهم فمضى الشابُّ منهم قُدماً، حتى اختلفتْ رجلاه على عنُق فرسه، واختضبت محاسنُ وجهه بالدماء، وعُفِّر جبينه بالتراب والثرى، وانحطّت عليه الطير من السماء، ومزَّقته سباع الأرض، فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكَى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله! وكم من وجهِ رقيق، وجبين عتيق قد فلِق بعمَد الحديد.

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

ثم بكى فقال: آه، آه! على فراق الإخوان، رحمة الله تعالى على تلك الأبدان، اللهمَّ أدخل أرواحها الجنان[١]!

قال أبو الفرج: وسار أبو حمزة، وخلّف بالمدينة المفضّل الأزديّ في جماعة من أصحابه، وبعث مروان بن محمد عبدَ الملك بن عطية السعديّ في أربعة آلاف من أهل الشام، فيهم فرسان عسكره ووجّهوهم لحرب أبي حمزة وعبد الله بن يحيى طالب الحق وأمر ابنَ عطية بالجدّ في المسير، وأعطى كلَّ رجل من الجيش مائة دينار، وفرساً عربياً، وبغلاً لثقله، فخرج ابن عطية حتى إذا كان بالمعلّى. فكان رجل من أهل وادي القرى، يقال له العلاء بن أفلح أبي الغيث، يقول: لقيَني في ذلك اليوم وأنا غلام رجلٌ من أصحاب ابن عطية، فقال لي: ما اسمُك يا غلام؟ فقلت: العلاء، فقال: ابنُ مَنْ؟ قلت: ابن أفلح، قال: أعربيّ أم مولى؟ فقلت: مولى، قال: مولى مَنْ؟ قلت: مولى أبي الغيث، قال: فأين نحن؟ قلت: بالمعلّى، قال: فأين نحن غداً؟ قلت: بغالب، قال: فما كلمني حتى أردفني خَلْفه، ومضى حتى أدخلني على ابن عطية، وقال له: أيّها الأمير، سلِ الغلام ما اسمه؟ فسأل وأنا أردّ عليه القول، فسرّ بذلك، ووهب لي دراهم.

قال أبو الفرج: وقدم أبو حمزة، وأمامه بَلْج بن عقبة في ستمائة رجل، ليقاتل عبد الملك ابن عطية، فلقِيَه بوادي القرى، لأيام خَلَت من جمادى الأولى سنة ثلاثين ومائة، فتواقفوا، ودعاهم بَلْج إلى الكتاب والسنة، وذكَر بني أمية وظُلْمهم، فشتمه أهلُ الشام، وقالوا: يا أعداء الله، أنتم أحقُّ بهذا ممن ذكرتم. فحمل بَلْج وأصحابه عليهم، وانكشفت طائفة من أهل الشام، وثبت ابنُ عطية في عُصْبة صبروا معه، فناداهم: يا أهل الشام، يا أهل الحفاظ! ناضِلوا عن دينكم وأميرِكم، واصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، فقتل بلْج وأكثرُ أصحابه، وانحازت قطعة من أصحابه نحو المائة إلى جبل اعتصموا به، فقاتلهم ابنُ عطية ثلاثة أيام، فقتل منهم سبعين رجلاً، ونجا منهم ثلاثون. فرجعوا إلى أبي حمزة وهو بالمدينة، وقد اغتمّوا وجزعوا من ذلك الخبر، وقالوا: فررنا من الزَّحف، فقال لهم أبو حمزة: لا تجزعوا فإنا لكم فئة، وإليّ تحيزتم.

وخرج أبو حمزة إلى مكة، فدعا عمر بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أهل المدينة إلى قتال المفضل، خليفة أبي حمزة على المدينة، فلم يجد أحداً، لأن القتل قد كان أسرع في الناس، وخرج وجوه أهل البلد عنه، فاجتمع إلى عمر البربر والزّنوج وأهل السوق والعبيد، فقاتل بهم الشّراة، فقتِل المفضَّل وعامة أصحابه، وهرب الباقون، فلم يبق منهم أحد، فقال في ذلك سُهيل مولى زينب بنت الحكم بن أبي العاص:

(١) أخرجه العصفري في تاريخ خليفة بن خياط: ٣٠٩.

لـيـت مـرْوان رآنـا يـوم الاثـنـيـن عـشـيَّـهْ
إذ غـسـلـنـا الـعـارَ عَـنَّـا وانـتـضـيـنـا الـمَـشْـرَفـيَّـهْ

قال: فلما قدم ابن عطية أتاه عمر بن عبد الرحمن، فقال له: أصلحك الله! إني جمعت قَضّي وقَضِيضي، فقاتلتُ هؤلاء الشُّراة فلقّبه أهل المدينة: قَضّي وقَضِيضِي».

قال أبو الفرج، وأقام ابن عطية بالمدينة شهراً، وأبو حمزة مقيم بمكة، ثم توجّه إليه، فقال عليّ بن الحصين العبديّ لأبي حمزة: إنّي كنتُ أشرت عليك يوم قُدَيد وقبله أن تقْتُل الأسرى فلم تفعل، حتى قتلوا المفضّل وأصحابنا المقيمين معه بالمدينة، وأنا أشير عليك الآن أن تضع السيف في أهل مكة، فإنهم كَفَرة فَجَرة، ولو قد قدِم ابن عطية لكانوا أشدّ عليك من أهل المدينة، فقال: لا أرى ذلك، لأنهم قد دخلوا في الطاعة، ، وأقرّوا بالحكم، ووجب لهم حقُّ الولاية.

فقال: إنهم سيغدرون، فقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾(١).

وقدم ابن عطيّة مكة فصيّر أصحابه فرقتين، ولقيَ الخوارج من وجهين، فكان هو بإزاء أبي حمزة في أسفل مكة، وجعل طائفة أخرى بالأبطح بإزاء أبرهة بن الصباح، فقتل أبرهة، كَمنَ له ابن هبار وهو على خيل دمشق، فقتله عند بئر ميمون، والتقى ابن عطية بأبي حمزة، فخرج أهلُ مكة بأجمعهم مع ابن عطية، وتكاثر الناس على أبي حمزة، فقتل عَلَى فم الشِّعب، وقتلت معه امرأته وهي ترتجز:

أنـا الـجـديـعـاءُ وبـنـتُ الأغـلَـمْ مَـنْ سـالَ عـن اسْـمِـي فـاسْـمِـي مَـرْيَـمْ
بـعـتُ سِـوارَيَّ بـعـضْـب مِـخْـذَمْ

وقتلت الخوارج قَتْلاً ذريعاً، وأسِرَ منهم أربعمائة، فقال لهم ابن عطية: وَيْلَكم! ما دعاكم إلى الخروج مع هذا؟ فقالوا: ضمن لنا «الكنّة»، يريدون «الجنة»، فقتلَهم كلهم، وصلب أبا حمزة وأبرهة بن الصّباح على شِعْب الخَيْف، ودخل عليّ بنُ الحصين داراً من دور قريش، فأحدق أهل الشام بها فأحرقوها، فرمى بنفسه عليهم وقاتل، فأسِر وقُتِل وصلب مع أبي حمزة، فلم يزالوا مصلُوبين حتى أفضَى الأمرُ إلى بني هاشم، فأنزلوا في خلافة أبي العباس.

قال أبو الفرج: وذكر ابن الماجشون أنّ ابن عطيّة لما التَقَى بأبي حمزة، قال أبو حمزة لأصحابه: لا تقاتُلوهم حتى تختبرُوهم، فصاحوا فقالوا: يا أهل الشام، ما تقولون في القرآن؟

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.

والعمل به؟ فقال ابن عطية: نضعه في جَوْف الْجُوالق، قالوا: فما تقولون في اليتيم؟ قالوا: نأكل مَاله ونفجُر بأمّه، في أشياء بلغني أنهم سئلوا عنها، فلما سمعوا كلامَهم قاتلوهم حتى أمْسَوْا، فصاحت الشُّراة: ويحك يابن عطية! إن الله جلَّ وعزّ قد جعل الليل سكناً فاسكن ونسكن، فأبى وقاتلهم حتى أفناهم.

قال: ولما خرج أبو حمزة من المدينة خَطَب، فقال: يا أهل المدينة، إنا خارجون لحرب مروان، فإنْ نظهرْ عليه نعدِلْ في أحكامكم، ونحملْكم على سنَّة نبيكم، وإن يكُنْ ما تمنيتم لنا، فسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون.

قال: وقد كان اتّبعه على رأيه قومٌ من أهل المدينة وبايعوه، منهم بشكست النحويّ، فلما جاءهم قتله وثب الناس على أصحابه فقتلوهم، وكان ممن قتلوه بشكُسْت النحويّ، طلبوه فرقِيَ في درجة دارٍ، فلحقوه فأنزلوه، وقتلوه وهو يصيح: يا عباد الله، فيم تقتلونني! فقيل فيه:

لقد كان بشكُسْت عبدُ العزيز مِنَ أهلِ القراءَة والْمَسْجِدِ
فبعداً لبشكست عبد العزيز وأما الْقُرَانُ فلا تَبْعَدِ

قال أبو الفرج: وحدَّثني بعضُ أصحابنا أنه رأى رجلاً واقفاً على سَطْح يرمي بالحجارة قوم أبي حمزة بمكة، فقيل له: ويلك! أتدري من ترمي مع اختلاط الناس؟ فقال: والله ما أبالي مَنْ رميت، إنما يقع حَجَري في شامٍ أو شارٍ، والله ما أبالي أيهما قتلت.

قال أبو الفرج: وخرج ابنُ عطية إلى الطائف، وأتى قتلُ أبي حمزة إلى عبد الله بن يحيى طالب الحق، وهو بصنعاء، فأقبل في أصحابه يريد حرب ابن عطية، فشخص ابن عطية إليه، والتقَوْا، فقتل بين الفريقين جمعٌ كثير، وترجّل عبدُ الله بن يحيى في ألف رجل، فقاتلوا حتى قُتِلوا كلُّهم، وقتل عبد الله بن يحيى، وبعثَ ابنُ عطية رأسَه إلى مروان بن محمد، وقال أبو صخر الهذليّ، يذكر ذلك:

قَتَلْنَا عُبَيْداً والَّذِي يكتني الكُنَى أبا حَمْزة القارِي المصلّي اليمانيا
وأبرهة الكنديَّ خاضت رماحُنا وبَلْجاً منحناه السُّيوف المَواضِيَا
وما تركت أسيافُنا منذ جُرِّدَتْ لمرْوان جَبَّاراً على الأرض عاصِيَا

وقال عمرو بن الحصين العنبري، يرثي أبا حمزة وغيره من الشُّراة، وهذه القصيدة من مختار شعر العرب:

هَبّتْ قُبَيْلَ تبلُّجِ الفَجْرِ ... هِنْد تقولُ ودمعُها يَجْرِي
إذْ أبْصَرَتْ عَيْنِي وأدْمُعُها ... تنهلُّ واكفةً على النَّحْرِ:
أنّى اعتراكَ وَكُنْت عَهدِيَ لاَ ... سَرِب الدُّموعِ وَكُنْتَ ذَا صَبْرِ!
أقَذًى بعينِك لا يفارقها ... أم عائرٌ، أم مالها تَذْرِي!
أم ذِكْر إخوانٍ فُجِعْتَ بِهِمْ ... سَلَكُوا سَبِيلَهُمُ عَلَى قَدْرِ
فأجبتُها بلْ ذِكْرُ مَصْرَعِهِمْ ... لا غيره عبراتُها تَمْرِي
يا ربّ أسلِكْنِي سَبِيلَهُمُ ... - ذَا العرش - واشْدُد بالتُّقى أزْرِي
فِي فتْيَةٍ صبروا نُفُوسَهُمُ ... للمشرفيّةِ والْقَنَا السُّمْرِ
تالله ما فِي الدَّهرِ مِثْلُهُمُ ... حَتّى أكونَ رَهِينَةَ الْقَبْرِ
أوفَى بذمَّتِهِمْ إذا عَقَدُوا ... وأعفُّ عِنْدَ الْعُسْرِ والْيُسْرِ
متأهِّبُون لكلِّ صالِحةٍ ... نَاهُونَ مَنْ لاَقَوْا عن النُّكْرِ
صُمْتٌ إذا حَضَرُوا مَجَالِسَهُمْ ... من غير ما عيٍّ بهم يُزْرِي
إلاّ تجيئهُمُ فإنَّهُمُ ... رُجُفُ القلوب بحضرة الذكْر
متأوِّهُونَ كَأنّ جَمْرَ غَضًا ... للموتِ بين ضُلُوعِهِمْ يَسْرِي
فهمُ كأنّ بهم جَرَى مرضٌ ... أوْ مَسَّهم طَرْفٌ من السِّحر
لا ليلُهم ليلٌ فيلبسهم ... فيه غواشي النَّوم بالسكْرِ
إلا كَرًى خَلْساً وآونة ... حذر العقاب فَهُمْ على ذُعْرِ
كَمْ مِنْ أخٍ لك قَدْ فُجِعْتَ بِه ... قَوَّام ليلتِه إلى الفَجْرِ
متأوِّهاً يَتْلُو قَوارِعَ مِنْ ... آي الْكِتَاب مُفَزَّع الصَّدْرِ
ظمآن وَقْدَة كلِّ هاجرةٍ ... تَرّاكَ لَذَّتِه عَلَى قَدْرِ
رَفّاضَ ما تَهْوى النُّفُوسُ إذا ... رُغُبُ النفوس دَعَتْ إلى المِزْرِ
وَمُبرّأً مِنْ كُلّ سيِّئةٍ ... عَفّ الهوى ذَا مِرّة شَزْرِ
والمصطلى بالحرب يُوقدها ... بحسُامه في فِتْيَة زُهْرِ
يختاضها بأقلّ ذي شُطَبٍ ... عَضْب المضارِب ظاهر الأثْرِ
لا شيءَ يَلْقاه أسرَّ له ... مِنْ طَعْنَة في ثُغْرَةِ النَّحْرِ
منهارة منه تجيش بما ... كانَتْ عواصِمُ جَوْفِه تَجْرِي
لخليلك المختارُ أذكِ به ... من مغتدٍ في الله أو مُسْرِي!

خواصُ غَمْرَةٍ كلّ متلفَةٍ — في الله تحت العِثْيَرِ الكدرِ
نزال ذي النّجَواتِ مختضباً — بنجيعهِ بالطَّعْنَةِ الشَّزْرِ
وابن الحصين وَهَلْ لَهُ شَبَهٌ — في العُرْف أنّى كان والنُّكْرِ
بشهامةٍ لم تُخْنَ أضلُعُهُ — لذوِي أجِزّتِه على غَدْرِ
طلْق اللسانِ بِكُلّ مُحْكَمَة — رآب صدِع العظم ذي الكَسْرِ
لم ينفكِكْ في جوفه حَزَنٌ — تَغْلِي حَرَارَتُهُ وَتَسْتَشْرِي
ترقى وآونة يخفّضها — بتنفّسِ الصُّعَداء والزَّفْرِ
ومخالطي بَلْجٌ وخَالِصَتِي — سَهْم العدوّ وجابر الكَسْرِ
نِكْل الخصوم إذا هُمُ شغبوا — وسِداد ثَلْمَة عورة الثَّغْرِ
والخائض الغَمَرات يخطِرُ في — وَسَطِ الأعادي أيّما خَطْرِ
بمشطَّب أو غير ذِي شُطَبٍ — هامَ العِدا بِذُبَابِه يَفْرِي
وأخيك أبرهة الهجان أخي الـ — حرْبِ العَوان ومُوقد الجَمْرِ
والضّارب الأخدُود لَيْسَ لها — حَدٌّ يُنَهْنِهُهَا عن السَّحْر
وولِيّ حُكمِهِمُ فُجِعْتُ به — عمرو، فواكبدِي على عَمْرو!
قَوّال محكمة وذو فَهَم — عَفّ الهوى متثبّتُ الأمرِ
ومسيّب فاذكر وصيّته — لاَ تَنْس إمّا كُنْتَ ذَا ذُكْرِ
فكلاهما قد كان مختشِعاً — لله ذَا تَقْوَى وَذَا بِرٌّ
في مخبتين ولم أسمّهِمُ — كانُوا ندًى وهمُ أولو نَصْرِي
وهمُ مساعرُ في الوغى رُجُحٌ — وخيارُ مَنْ يمشي على العَفْرِ
حَتَّى وَفَوْا لله حَيْثُ لَقُوا — بعهود لا كذِب ولا غَدْرِ
فتخالسُوا مُهجاتِ أنفُسِهِم — وعداتهم بقواضبٍ بُتْرِ
وأسِنَّةٍ أُثْبِتْنَ في لُدُنٍ — خَطّيةٍ بأكفّهم زُهْرِ
تَحْت العَجاج وفوقهم خِرَقٌ — يخفِقْنَ من سُود ومِنْ حُمْرِ
فتوقّدت نيران حرْبِهِمُ — ما بين أعلى البيت والحِجْرِ
وَتَصَرَّعت عَنْهُم فَوَارِسُهُمْ — لم يغمِضُوا عَيْناً على وِتْرِ
صَرْعى فخاويةٌ بيوتُهُمُ — وخوامعٌ بجسومهم تَفْرِي

قال أبو الفرج: وأقام ابنُ عطيّة بحضرموت بعد ظَفَره بالخوارج حتى أتاه كتاب مَروان، يأمرُه بالتَّعجيل إلى مكة، فيحجّ بالناس، فشخص إلى مكة متعجّلاً مُخِفًّا في تسعة عشر فارساً، وندم مَروَان على ما كتبه، وقال: قتلت ابن عطية، وسوف يخرج متعجّلاً مخِفًّا من اليمن ليلحق الحجّ فيقتله الخوارج، فكان كما قال، صادفه في طريقه جماعةٌ متلففة، فمن كان منهم إباضياً قال: ما تنتظر أن ندرِك ثأر إخواننا، ومَنْ لم يكن منهم إباضيًا ظنّ أنه إباضيٌّ منهزم من ابن عطية، فصمد له سعيد وجُمانة ابنا الأخنس الكنديّان في جماعة من قومهما، وكانوا على رأي الخوارج، فعطف ابنُ عطيّة على سعيد فضربه بالسيف، وطعنه جُمانة فصرَعه، فنزل إليه سعيد، فقعد على صدره، فقال له ابنُ عطيّة: هل لك في أن تكون أكرَم العرب أسيراً؟ فقال سعيد: يا عدوّ الله، أتظنّ الله يهمِلك! أوَ تطمع في الحياة، وقد قتلتَ طالب الحق وأبا حمزة وبَلْجاً وأبرهة! فذبحه. وقتِل أصحابُه أجمعون.

فهذا يسيرٌ مما هو معلوم من حال هذه الطائفة من خُشونتها في الدِّين، وتلزُّمها بناموسه، وإن كانتْ في أصل العقيدة على ضلال، وهكذا قال النبيّ ﷺ عنهم: «تُستَحقَر صلاةُ أحدِكم في جَنْب صلاتهم، وصيامُ أحدكم في جنب صيامهم»، ومعلومٌ أنّ معاوية ومَنْ بعده من بني أميّة لم تكن هذه الطريقة طريقتَهم، ولا هذه السنّة سنتهم، وأنهم كانوا أهلَ دنيا وأصحابَ لعب ولهو وانغماس في اللذات، وقلة مبالاة بالدين، ومنهم مَنْ هو مرميٌّ بالزندقة والإلحاد.

وقد طعَن كثير من أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقِه، وقالوا عنه إنه كان ملحِداً لا يعتقد النبوّة، ونقلوا عنه فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدلّ على ذلك.

وروي الزبير بن بكار في «الموفقيات»[1] - وهو غير متَّهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانَبه عليّ عليه السلام، والانحراف عنه -:

قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي عَلَى معاوية، وكان أبي يأتيه، فيتحدّث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقلَه، ويعجَبُ بما يرى منه، إذ جاء ذاتَ ليلة، فأمسك عن العَشاء، ورأيته مغتمًّا فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتمًّا منذ الليلة؟ فقال: يا بُنيّ، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوتُ به: إنّك قد بلغتَ سنًّا يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنَّك قد كبِرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلْت أرحامَهم فوالله ما عندهم اليومَ شيء

---

(١) الموفقيات في الحديث: للزبير بن بكار الأسدي، المتوفى سنة (٢٥٦هـ). كشف الظنون (٢/ ١٩١٠).

تخافه، وإنّ ذلك ممّا يَبْقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات! أيّ ذِكْر أرجو بقاءه! مَلَك أخو تَيْم فعدَل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هَلَك حتى هلك ذكرهُ، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عديّ، فاجتهد وشمَّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلَك ذكرهُ، إلا أن يقول قائل: عمر، وإن ابنَ أبي كبشةَ ليُصَاح به كلَّ يوم خمس مرات: «أشهد أنّ محمداً رسول الله»، فأيّ عمل يبقى؟ وأيّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلا دَفْناً دفناً.

وأما أفعاله المجانبة للعدالة الظاهرة من لُبْسه الحرير، وشربه في آنية الذهب والفضة، حتى أنكر عليه ذلك أبو الدَّرْداء، فقال له: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول، «إنّ الشّارب فيهما ليُجرْجِر في جوفه نار جهنم»، وقال معاوية: أمّا أنا فلا أرى بذلك بأساً، فقال أبو الدرداء: مَنْ عذيري من معاوية! أنا أخبره عن الرسول ﷺ، وهو يخبرني عن رأيه! لا أساكنك بأرضٍ أبداً.

نقل هذا الخبرَ المحدّثون والفقهاء في كُتبهم في باب الاحتجاج على أنّ خبر الواحد معمول به في الشرع، وهذا الخبر يقدَح في عدالته، كما يقدح أيضاً في عقيدته، لأنّ مَنْ قال في مقابلة خَبَرٍ قد روي عن رسول الله ﷺ: أمّا أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله ﷺ، ليس بصحيح العقيدة ومن المعلوم أيضاً من حالة استئثاره بمال الفيء، وضربه مَنْ لا حدّ عليه، وإسقاط الحدّ عمّن يستحقّ إقامةَ الحدّ عليه، وحكمه برأيه في الرَّعيّة وفي دين الله، واستلحاقه زياداً، وهو يعلم قول رسول الله ﷺ: «الولَد للفراش وللعاهر الحَجَر»، وقتله حُجْر بنَ عديّ وأصحابه ولم يجب عليهم القتل، ومهانته لأبي ذرّ الغِفاري وَجبهُهُ وشتمه وإشخاصه إلى المدينة على قَتَب بعير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه عليًّا وحسناً وحسيناً وعبد الله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد، مع ظهور فسقه وشُرْبِه المسكر جهاراً، ولعبه بالنَّرد، ونومه بين القيان المغنّيات، واصطباحه معهنّ، ولعبه بالطنبور بينهنّ، وتطريقه بني أمية للوثوب على مقام رسول الله ﷺ وخلافته، حتى أفضَت إلى يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، المفتضحَيْن الفاسقَيْن: صاحب حَبَابة وسلاّمة، والآخر رامي المصحف بالسّهام وصاحب الأشعار في الزندقة والإلحاد.

ولا ريب أن الخوارج إنما برىء أهلُ الدين والحقّ منهم، لأنهم فارقوا عليًّا وبرئوا منه، وما عدا ذلك من عقائدهم، نحو القول بتخليد الفاسق في النار، والقول بالخروج على أمراء الجَوْر، وغير ذلك من أقاويلهم، فإن أصحابنا يقولون بها، ويذهبون إليها، فلم يبق ما يقتضي البراءة منهم إلا براءتهم من عليّ، وقد كان معاوية يلعنُه على رؤوس الأشهاد وعلى المنابر في الجمع والأعياد، في المدينة ومكة وفي سائر مدن الإسلام، فقد شارك الخوارج في الأمر المكروه منهم، وامتازوا عليه بإظهار الدين والتلزّم بقوانين الشريعة، والاجتهاد في العبادة، وإنكار المنكَرات، وكانوا أحقَّ بأن يُنْصرُوا عليه مِنْ أن يُنصَر عليهم، فوضح بذلك قولُ أمير

المؤمنين: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي»، يعني في مُلْك معاوية.

ومما يؤكّد هذا المعنى أنّ عبد الله بن الزُّبير استنصَر على يزيد بن معاوية بالخوارج، واستدعاهم إلى ملكه، فقال فيه الشاعر:

يا ابنَ الزبير أتهوَى فتية قَتَلوا ... ظُلمًا أباك ولمَّا تُنزع الشُّكَكُ!

ضَحَّوْا بعثمان يوم النَّحْر ضاحيةً ... يا طيبَ ذاك الدم الزاكي الذي سفكوا!

فقال ابن الزبير: لو شايعني الترك والدَّيْلم على محاربة بني أمية لشايعتهُم وانتصرت بهم.

٦١ - ومن كلام له عليه السلام لما خوف من الغيلة

الأصل: **وَإِنَّ عَلَيَّ مِنَ الله جُنَّةً حَصِينَةً، فَإِذَا جَاءَ يَوْمِي آنْفَرَجَتْ عَنِّي وَأَسْلَمَتْنِي، فَحِينَئِذٍ لاَ يَطِيشُ السَّهْمُ، وَلاَ يَبْرَأُ ٱلْكَلْمُ.**

الشرح: الغِيلَة: القتل على غير علْم ولا شعور. والجُنّة: الدِّرع وما يجَنّ به، أي يستتر من تُرْس وغيره. وطاش السهم، إذا صَدَف عن الغرض. والكَلْم: الجرح، ويعني بالجنّة هاهنا الأجل، وعلى هذا المعنى الشعر المنسوب إليه عليه السلام:

من أيّ يوميّ مِنَ الموتِ أفرّ ... أيومَ لم يُقْدَرَ أم يوم قُدِرْ

فيوم لا يقدَر لا أرهَبُهُ ... ويوم قد قُدّر لا يغني الحَذَرْ

ومنه قول صاحب الزَّنْج:

وإذا تُنازعني أقولُ لها قَرِي ... موتٌ يُريحك أو صعود المنبرِ

ما قد قضي سيكونُ فاصطَبري له ... ولكِ الأمان من الذي لم يُقْدَرِ

ومثله:

قَدْ علم المستأخرون في الوَهَلْ ... أن الفرار لا يزيد في الأجَلْ

والأصل في هذا كله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾(١) وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢).

وقوله سبحانه: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(٣)، وفي القرآن العزيز كثيرٌ من ذلك.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

الآجال واختلاف الناس فيها

واختلف الناس في الآجال، فقالت الفلاسفة والأطباء: لا أجلَ مضروب لأحدٍ من الحيوان كلّه من البشر ولا من غيرهم. والموت عندهم على ضربين: قَسْريّ وطبيعيّ.

فالقسْرِيّ الموت بعارض، إمّا من خارج الجسد كالمتردِّي والغريق والمقتول، ونحو ذلك، أو من داخل الجسدِ كما يعرض من الأمراض القاتلة، مثل السُّلّ والاستسقاء والسِّرسام، ونحو ذلك.

والموت الطبيعيّ ما يكون بوقوف القوّة الغاذية التي تورَد على البدن عوضَ ما يتحلّل منه، وهذه القوّة المستخدَمة للقوى الأربع: الجاذبة، والدافعة، والماسكة، والهاضمة. والبدن لا يزال في التحلّل دائماً من الحركات الخارجية، ومن الأفكار والهموم وملاقاة الشمس والريح، والعوارض الطارئة، ومن الجوع والعطش. والقوة الغاذية تورَد على البدنِ عِوَض الأجزاء المتحللّة، فتصرفها في الغذاء المتناول، واستخدام القوى الأربع المذكورة.

ومنتهى بقاءِ هذه القوّة في الأعمّ الأغلب للإنسان مائة وعشرون سنة، وقد رأيت في كتب بعض الحكماء أنّها تبقى مائة وستين سنة، ولا يصدّق هؤلاء بما يروَى من بقاء المعمَّرين، فأما أهل الملل فيصدّقون بذلك.

واختلف المتكلّمون في الآجال، فقالت المعتزلة: ينبغي أوّلاً أنْ نحقّق مفهوم قولنا: «أجل» ليكون البحث في التصديق بعد تحقق التصور، فالأجل عندنا هو الوقت الذي يعلم الله أنّ حياة الإنسان أو الحيوان تبطل فيه، كما أنّ أجل الدَّيْن هو الوقت الذي يحلّ فيه، فإذا سألَنا سائل فقال: هل للنّاس آجالٌ مضروبة؟ قلنا له: ما تعني بذلك؟ أتريد: هل يعلم الله تعالى الأوقات التي تبطل فيها حياة الناس؟ أم تريد بذلك أنّه: هل يراد ببطلان حياة كلّ حيّ في الوقت الذي بطلت حياتُه فيه؟

فإن قال: عَنَيْت الأول، قيل له: نعم للناس آجال مضروبة بمعنى معلومة، فإنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء.

وإن قال: عَنَيْت الثاني، قيل: لا يجوز عندنا إطلاق القول بذلك، لأنه قد تبطل حياة نبيّ أو وليّ بقتل ظالم، والبارىء تعالى لا يريدُ عندنا ذلك.

فإن قيل: فهل تقولون: إن كلّ حيوان يموت وتبطل حياتُه بأجله؟ قيل: نعم، لأنّ الله قد علم الوقت الذي تبطل حياتُه فيه، فليس تبطل حياته إلا في ذلك الوقت، لا لأنّ العلم ساق إلى ذلك، بل إنما تبطل حياته بالأمر الذى اقتضى بطلانه، والبارىء تعالى يعلمُ الأشياء على ما هي عليه، فإنْ بطلت حياته بقتل ظالم فذلك ظلم وجَوْر، وإن بطلتْ حياته من قِبَل الله تعالى فذلك حكمة وصواب. وقد يكون ذلك لطفاً لبعض المكلَّفين.

واختلف الناسُ: لو لم يقتل القاتل المقتول، هل كان يجوز أن يبقيَه الله تعالى؟ فقطع الشيخ أبو الهذيْل على موته لو لم يقتله القاتل، وإليه ذهب الكرّاميّة، قال محمد بن الهيصَم: مذهبُنا أنّ الله تعالى قد أجّل لكلّ نفس أجلاً لن ينقضيَ عمره دون بلوغه، ولا يتأخر عنه، ومعنى الأجل هو الوقت الذي علم الله أن الإنسان يموت فيه، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وليس يجوز أن يكونَ الله تعالى قد أجّل له أجَلاً، ثم يقتل قبل بلوغه أو يخترم دونه، ولا أن يتأخر عما أجّلَ له، ليس على معنى أنّ القاتل مضطر إلى قتله، حتى لا يمكنه الامتناع منه، بل هو قادر على أن يمتنع من قَتْله، ولكنه لا يمتنع منه، إذ كان المعلوم أنّه يقتله لأجله بعينه، وكتب ذلك عليه.

ولو توهّمنا في التقدير، أنه يمتنع مِنْ قتله، لكان الإنسان يموتُ لأجل ذلك، لأنهما أمران مؤجّلان بأجل واحد، فأحدهما قتْل القاتل إياه، والثاني تصرّم مدة عمره وحلول الموت به، فلو قدرنا امتنَاع القاتل من قتله، لكان لا يجب بذلك ألاّ يقع المؤجل الثاني الذي هو حلول الموت به، بل كان يجب أن يموت بأجله

قال: وبيان ذلك من كتاب الله توبيخه المنافقين على قولهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾[1]، فقال تعالى لهم: ﴿قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[2]، فدلّ على أنهم لو تجنّبوا مصارع القتل لم يكونوا ليدرؤوا بذلك الموت عن أنفسهم.

وقالت الأشعرية والْجَهميّة والجبْريّة كافّة: إنّها آجالٌ مضروبة محدودة، وإذا أُجّل الأجل، وكان في المعلوم أنّ بعض الناس يقتله، وجَب وقوع القتل منه لا محالة، وليس بقدر القاتل على الامتناع من قَتْله، وتقدير انتفاء القتل ليقال: كيف كانت تكون الحال، تقدير أمرٍ محال، كتقديرِ عَدَمِ القديم وإثبات الشريك، وتقدير الأمور المستحيلة لَغْو وخُلْف من القول.

وقال قومٌ من أصحابنا البَغداديين رحمهم الله بالقطع على حياته لو لم يقتله القاتل، وهذا عكس مذهب أبي الهُذَيْل ومن وافقه، وقالوا: لو كان المقتول يموتُ في ذلك الوقت لو لم يقتله القاتل لما كان القاتل مسيئاً إليه، إذ لم يفوّتْ عليه حياة لو لم يبطلها لبقيتْ، ولما استحقّ القَودَ، ولكان ذابح الشاة بغير إذن مالكها قد أحسن إلى مالكها، لأنّه لو لم يذبحها لماتَتْ، فلم يكن ينتفع بلحمها.

قالوا: والذي احتجّ به من كونهما مؤجَّلين بأجل واحد فلو قدّرنا انتفاء أحد الأمرين في ذلك الوقت لم يجب انتفاء الآخر، ليس بشيء، لأن أحدَهما علّة الآخر، فإذا قدّرنا انتفاء العلّة، وجب أن ينتفيَ في ذلك التقدير انتفاء المعلول، فالعلة قتل القاتل، والمعلول بطلان

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦. (٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

الحياة، وإنما كان يستمرّ ويصلح ما ذكروه، لو لم يكن بين الأمرين عليّة العلّيّة والمعلوليّة.

قالوا: والآية التي تعلّقوا فيها لا تدلّ على قولهم، لأنه تعالى لم ينكر ذلك القول إنكار حاكم بأنهم لو لم يقتلوا لماتوا، بل قال: كلّ حيّ ميّت، أي لا بد من الموت، إما معجّلاً وإمّا مؤجلاً.

قالوا: فإذا قال لنا قائل: إذا قلتم إنه يبقى لو لم يقتله القاتل، ألستم تكونون قد قلتم: إن القاتل قد قطع عليه أجلَه؟

قلنا له: إنما يكون قاطعاً عليه أجله لو قتله قبل الوقت الذي علم الله تعالى أن حياته تبطل فيه، وليس الأمر كذلك، لأن الوقت الذي علم الله تعالى أنّ حياته تبطُل فيه هو الوقت الذي قتله فيه القاتل، ولم يقتله القاتل قبل ذلك، فيكون قد قَطَع عليه أجله.

قالوا: فإذا قال لنا: فهل تقولون إنه قطع عليه عمره؟

قلنا له: إنّ الزمان الذي كان يعيش فيه لو لم يقتله القاتل لا يسمَّى عمراً إلا على طريق المجاز، باعتبار التقدير، ولسنا نطلق ذلك إلا مقيداً، لئلا يُوهم، وإنما قلنا: إنا نقطع على أنه لو لم يقتَل لم يمت، ولا نُطلق غير ذلك.

وقال قدماء الشّيعة: الآجال تزيد وتنقص، ومعنى الأجل، الوقت الذي علم الله تعالى أنّ الإنسان يموت فيه إن لم يقتَل قبل ذلك، أو لم يفعل فعلاً يستحقّ به الزيادة والنقصان في عمره.

قالوا: وربما يُقتَل الإنسان الذي ضُرِبَ له من الأجل خمسون سنة، وهو ابن عشرين سنة، وربما يفعل من الأفعال ما يستحقّ به الزيادة فيبلغ مائة سنة، أو يستحق به النقيصة فيموت وهو ابن ثلاثين سنة.

قالوا: فمما يقتضي الزيادة، صلة الرحِم، ومما يقتضي النقيصة الزنى وعقوق الوالدين، وتعلّقوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾[1].

وربما قال قوم منهم: إنّ الله تعالى يضرِب الأجل لزيد خمسين سنة أو ما يشاء، فيرجع عن ذلك فيما بعد، ويجعله أربعين أو ثلاثين، أو ما يشاء، وبَنَوْه على قولهم في البدَاء.

وقال أصحابنا: هذا يوجب أن يكونَ الله تعالى قد أجَّل الآجال على التخمين دون التحقيق، حيث أجَّلَ لزيد خمسين، فقتِل لعشرين، وأفسدوا أن يعلم الله تعالى الشيء بشرط، وأن يبدوَ له فيما يقضيه ويقدره، بما هو مشهور في كتبهم.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١١.

وقالوا في الآية: إنّ المرادَ بها أن ينقص سبحانه بعضَ الناس عن مقدار أجل المعمّر، بأن يكون انتقصَ منه عمراً، ليس أنه ينقص من عمر ذلك المعمّر.

فأما مشايخنا أبو عليّ وأبو هاشم فتوقفا في هذه المسألة، وشكا في حياة المقتول وموته، وقالا: لا يجوز أن يبقى لو لم يُقتل، ويجوز أن يموت، قالا: لأن حياته وموته مقدوران لله عز وجل، وليس في العقل ما يدلّ على قبح واحد منهما، ولا في الشَّرْع ما يدل على حصول واحد منهما، فوجب الشكّ فيهما، إذ لا دليل يدلّ على واحد منهما.

قالوا: فأما احتجاج القاطعين على موتِه، فقد ظهر فسادُه بما حُكي من الجواب عنه.

قالوا: ومما يدلّ على بطلانه من الكتاب العزيز قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١)، فحكم سبحانه بأنّ إثباته القصاص مما يزجر القاتل عن القتل، فتدوم حياة المقتول، فلو كان المقتول يموت لو لم يقتله القاتل ما كان في إثبات القصاص حياة.

قالوا: وأما احتجاجُ البغداديين على القَطْع على حياته بما حُكي عنهم، فلا حُجَّة فيه، أمّا إلزام القاتل القَوَد والغرامة فلأنّا غير قاطعين على موت المقتول لو لم يقتل، بل يجوز أن يبقى ويغلب ذلك على ظنوننا، لأن الظاهرَ من حال الحيوان الصحيح ألاّ يموت في ساعته، ولا بعد ساعته وساعات، فنحن نلزم القاتل القوَد والغرامة، لأنّ الظاهر أنه أبطل ما لو لم يبطله لبقي.

وأيضاً فموت المقتول لو لم يقتله القاتل لا يخرج القاتل من كونه مسيئاً، لأنه هو الذي تولّى إبطال الحياة، ألا تَرى أنّ زيداً لو قتل عمراً لكان مسيئاً إليه، وإن كان المعلوم أنّه لو لم يقتله لقتله خالد في ذلك الوقت!

وأيضاً فلو لم يقتل القاتل المقتول ولم يذبح الشاة حتى ماتا، لكان يستحقّ المقتول ومالك الشاة من الأعواض على الباريء سبحانه أكثر مما يستحقّانه على القاتل والذابح، فقد أساء القاتل والذابح حيث فوّتا على المقتول ومالك الشاة زيادة الأعواض.

فأمّا شيخنا أبو الحسين فاختار الشكّ أيضاً في الأمريْن إلا في صورة واحدة، فإنه قطع فيها على دوام الحياة، وهي أن الظالم قد يَقتل في الوقت الواحد الألوفَ الكثيرة في المكان الواحد، ولم تجر العادة بموت مثلهم في حالة واحدة في المكان الواحد، واتفاق ذلك نقضُ العادة، وذلك لا يجوز.

قال الشيخ: ليس يمتنع أن يقال في مثل هؤلاء إنه يقطع على أنّ جميعهم ما كانوا يموتون في ذلك المكان في ذلك الوقت لو لم يقتلهم القاتل، إن كان الوقت وقتاً لا يجوز انتقاض

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

العادات فيه، ولكن يجوز أن يموتَ بعضُهم دون بعض، لأنه ليس في موت الواحد والاثنين في وقت واحد في مكان واحد نقض عادة، ولا يمتنع هذا الفرض من موتهم بأجمعهم في زمان نبيّ من الأنبياء.

وقد ذكرت في كتبي المبسوطة في علم الكلام في هذا الباب ما ليس هذا الشرح موضوعاً لاستقصائه.

٦٢ - ومن خطبة له عليه السلام يحذر من فتنة الدنيا

الأصل: **أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ لاَ يُسْلَمُ مِنْهَا إلاَّ فِيهَا، وَلاَ يُنْجَى بِشَيْءٍ كَانَ لَهَا. ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِتْنَةً فَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لَهَا أُخْرِجُوا مِنْهُ وَحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وَمَا أَخَذُوهُ مِنْهَا لِغَيْرِهَا قَدِمُوا عَلَيْهِ، وَأَقَامُوا فِيهِ، فَإِنَّهَا عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ كَفَيْءِ الظِّلِّ، بَيْنَا تَرَاهُ سَابِغاً حَتى قَلَص، وَزَائِداً حَتى نَقَصَ.**

الشرح: تقدير الكلام: أنّ الدُّنيا دارٌ لا يُسلَم من عقاب ذنوبها إلا فيها، وهذا حقّ، لأن العِقاب المستحقّ، إنما يَسْقُط بأحد أمرين: إما بثوابٍ على طاعاتٍ تفضُل على ذلك العقاب المستَحق، أو بتوبةٍ كاملة الشروط.

وكلا الأمرين لا يصحُّ من المكلّفِين إيقاعهُ إلا في الدنيا، فإنّ الآخرة ليست دارَ تكليف، ليصحّ من الإنسان فيها عمل الطاعة والتوبة عن المعصية السالفة، فقد ثبت إذاً أن الدنيا دارٌ لا يسلم مِنها إلا فيها.

إن قيل: بيِّنُوا أن الآخرةَ ليست بدار تكليف.

قيل: قد بَيّن الشيوخُ ذلك بوجهين:

أحدُهما: الإجماعُ على المنع مِنْ تجويز استحقاق ثواب أو عقاب في الآخرة.

والثاني: أن الثوابَ يجب أن يكون خالصاً من المشاقّ، والتكليف يستلزم المشقّة، لأنها شرطٌ في صحته، فبطل أن يجوز استحقاق ثواب في الآخرة للمكلّفين المُثَابين في الآخرة لأجلِ تكاليفهم في الآخرة، وأما المعاقَبون فلو كانوا مكلَّفين لجاز وقوع التوبة منهم، وسقوط العقاب بها، وهذا معلومٌ فساده ضرورةً من دين الرسول عليه السلام.

وها هنا اعتراضان:

أحدُهما: أن يقال: فما قولكم في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾[1]، وهذا أمر وخطاب لأهل الجنة، والأمر تكليف؟

والثاني: أنّ الإجماع حاصل على أنّ أهل الجنة يشكرون الله تعالى، والشكْر عبادة وذلك يستدعي استحقاق الثواب!

والجواب عن الأول أن قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ عند شيخنا أبي عليّ رحمه الله تعالى ليس بأمرٍ على الحقيقة، وإن كانت له صورته، كما في قوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾[2].

وأما الشيخ أبو هاشم فعنده أن قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أمر، لكنه زائد في سرور أهل الجنة، إذا علموا أنِ الله تعالى أرادَ منهم الأكل وأمرَهم به، ولكنه ليس بتكليف، لأنّ الأمرَ إنما يكون تكليفاً إذا انضمّت إليه المشقة.

وأما الجوابُ عن الثاني، فإنّ الشكر الذي بالقلْب رجوعه إلى الاعتقادات، والله تعالى يفعل في أهل الجنة المعارف كلَّها، فلا وجوب إذاً عليهم، وأما الشكر باللسان فيجوز أن يكون لهم فيه لذة، فيكون بذلك غير منافٍ للثواب الحاصل لهم.

وبهذا الوجه نجيب عن قول من يقول: أليس زبانية النار يعالجون أهلَ العذاب في جهنم، أعاذنا الله منها؟ وهل هذا محض تكليف! لأنا نقول إنه يجوز أن يكونَ للزبانية في ذلك لذّة عظيمة، فلا يثبت التكليف معها، كما لا يكون الإنسان مكلَّفاً في الدنيا بما يخلص إليه شهوته، ولا مشقة عليه فيه.

إن قيل: هذَا الجواب ينبيء على أنّ معارف أهلِ الآخرة ضرورية، لأنكم أجبتم عن مسألة الشكر، بأنّ الله تعالى يفعل المعارف في أهل الجنة، فدلِّلوا على ذلك، بل يجب عليكم أن تدللوا أولاً على أنّ أهلَ الآخرة يعرفون الله تعالى.

قيل: أمّا الدليل على أنّهم يعرفونه تعالى، فإن المثاب لابدّ أن يعلَم وصولَ الثواب إليه على الوجه الذي استحقّه، ولا يصحُّ ذلك إلا مع المعرفة بالله تعالى، ليعلم أن ما فعله به هو الذي لمستحقه، والقول في المعاقب كالقول في المثاب.

وأيضاً فإنّ من شرط الثواب مقارنة التعظيم والتبجيل له من فاعل الثواب، لأن تعظيم غير فاعل الثواب لا يؤثّر، والتعظيم لا يُعلم إلا مع العلم بالقَصْد إلى التعظيم، ويستحيل أن يعلموا قَصْدَه تعالى، ولا يعلموه، والقول في العقاب وكون الاستحقاق والإهانة تقارنه تجري هذا المجرى.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٠.

فأمّا بيان أنّ هذه المعرفة ضرورية، فلأنّها لو كانت من فعلهم، لكانت إمّا أن تَقَع عن نظر يتحرَّوْن فيه، أو يلجؤون إليه، أو عن تذكّر نظر، أو بأن يلجؤوا إلى نفس المعرفة من غير تقدم نظر، والأول باطل، لأنّ ذلك تكليف وفيه مشقّة، وقد بينا سقوط التكليف في الآخرة. ولا يجوز أن يلجؤوا إلى النظر لأنهم لو ألجئوا إلى النظر لكان ألجاهم إلى المعرفة أولاً، وإلجاؤهم إلى المعرفة يمنع من إلجائهم إلى النظر، ولا يجوز وقوعها عند تذكّر النظر، لأنّ المتذكّر للنظر تَعرِض له الشُّبَه، ويلزمه دفعها، وفي ذلك عَوْد الأمر إلى التكليف، وليس معاينة الآيات بمانع عن وقوع الشبه، كما لم تمنع معاينة المعجزات والإعلام عن وقوعها، ولا يجوز أن يكونَ الإلجاء إلى المعرفة، لأن الإلجاء إلى أفعال القلوب لا يصحّ إلا من الله تعالى، فيجب أن يكونَ الملجَأ إلى المعرفة عارفاً بهذه القضية، وفي ذلك استغناؤه بتقدم هذه المعرفة على الإلجاء إليها.

إن قيل: إذا قلتم إنّهم مضطرون إلى المعارف، فهل تقولون إنهم مضطرون إلى الأفعال؟

قيل: لا، لأنّه تعالى قال: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[1]، ولأنّ مَنْ تدبّر ترغيبات القرآن في الجنّة والثواب، علم قطعًا أنّ أهلَ الجنة غير مضطرين إلى أفعالهم، كما يضطر المرتعش إلى الرعشة.

إن قيل: فإذا كانُوا غير مضطرين، فلمَ يمنعُهم من وقوع القبيح منهم؟

قيل: لأن الله تعالى قد خلَق فيهم علماً بأنّهم مَتَى حاولوا القبيح منِعوا منه، وهذا يمنع من الإقدام على القبيح بطريق الإلجاء.

ويمكن أيضاً أنْ يعلمهم استغناءهم بالحسَن عن القبيح، مع ما في القبيح من المضرّة، فيكونون ملجئين إلى ألاّ يفعلوا القبيح.

فأما قوله عليه السلام: «ولا يُنْجَى بشيء كَانَ لها» فمعناه أنّ أفعال المكلّف التي يفعلها لأغراضه الدنيويّة ليست طريقاً إلى النجاة في الآخرة، كمن ينفق ماله رئاء الناس، وليست طرقُ النجاة إلا بأفعال البرّ التي يقصد فيها وجه الله تعالى لا غير، وقد أوضح عليه السلام ذلك بقوله: «فما أخذُوه منها لها أخرجوا منه، وحوسبوا عليه، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه».

فمثال الأول من يكتسب الأموال ويدخّرها لملاذّه، ومثال الثاني من يكسبها لينفقها في سبيل الخيرات والمعروف.

(١) سورة الواقعة، الآية: ٢٠.

ثم قال عليه السلام: «وإنّها عند ذوي العقول كفيء الظلّ....» إلى آخر الفصل، وإنما قال: «كفيء الظلّ» لأن العرب تضيف الشيء إلى نفسه، قال تأبّط شراً:

إِذَا خَاصَ عَيْنَيْه كَرَى النوم لم يَزَلْ لَهُ كَالِيءٌ مِنْ قَلْبِ شِيحَانَ فَاتِكِ

ويمكن أن يقال: الظلّ أعمّ من الفيء، لأنّ الفيء لا يكون إلا بعد الزوال، وكلّ فيءٍ ظلٌّ، وليس كلّ ظلٍّ فيئاً، فلما كان فيهما تغايرُ معنويٌّ بهذا الاعتبار صحّت الإضافة.

والسابغ: التامّ. وقَلَص، أي انقبض.

وقوله عليه السلام: «بينا تراه»، أصل «بينا» «بين»، فأشبعت الفتحة، فصارت «بينا» على وزن «فَعْلى» ثم تقول «بينما» فتزيد «ما»، والمعنى واحد، تقول بينا نحن نرقبه أتانا، أي بين أوقاتِ رقبتنا إياه أتانا، والجمل تضاف إليها أسماء الزمان، كقولك: أتيتك زمنَ الحجاج أمير، ثم حذفت المضاف الذي هو «أوقات» وولّى الظرف الذي هو بين الجملة التي أقيمت مقام المضاف إليه، كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾(١).

وكان الأصمعيّ يخفض بـ«بينا» إذا صلح في موضعه «بين»، وينشد بيت أبي ذؤيب، بالجرّ:

بَيْنَا تَعَنُّقِهِ الكماة وروغِهِ يوماً أتيحَ له جَرِيءٌ سَلْفَعُ(٢)

وغيره يرفع ما بعد «بينا» و«بينما» على الابتداء والخبر، وينشد هذا البيت على الرفع.

وهذا المعنى متداول، قال الشاعر:

ألا إنّما الدُّنيا كظلِّ غمامةٍ أظلَّتْ يسيراً ثم خَفَّت فولَّتِ

وقال آخر:

ظِلُّ الغَمام، وأحلامُ المنام، فما تدوم يوماً لمخلوقٍ على حالِ

٦٣ - ومن خطبة له عليه السلام في الاستعداد للموت

الأصل: فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جُدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وَكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلاَّ الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ.

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٢.
(٢) السَّلْفَع: الجريء الشجاع الواسع الصدر، والبيت في ديوان الهزليين ١/ ١٨.

وَإِنَّ غَايَةً تَنْقُصُهَا ٱللَّحْظَةُ، وَتَهْدِمُهَا ٱلسَّاعَةُ، لَجَدِيرَةٌ بِقِصَرِ ٱلْمُدَّة. وَإِنَّ غَائِباً يَحْدُوهُ ٱلْجَدِيدَانِ، ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ، لَحَرِيٌّ بِسُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ. وَإِنَّ قَادِماً يَقْدُمُ بالفَوْز أَوِ ٱلشِّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٌّ لِأَفْضَلِ العُدَّةِ.

فَتَزَوَّدُوا فِي ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً، فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ ٱلْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا.

فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمْرُهُ عَلَيهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى ٱلشِّقْوَةِ! نَسْأَلُ ٱللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ، وَلاَ تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلاَ كَآبَةٌ.

الشرح: بادروا آجالكم بأعمالكم: أي سابقوها وعاجِلُوها. البِدار: العجلة، وابتاعوا الآخرة الباقيةَ بالدنيا الفانية الزائلة.

وقوله: «فقد جُدّ بكم»: أي حُثِثتم على الرحيل، يقال: جَدَّ الرحيل، وقد جُدّ بفلان، إذا أزعج وحُثَّ على الرحيل.

واستعدُّوا للموت، يمكن أن يكون بمعنى «أعدُّوا»، فقد جاء «استفعل» بمعنى «أفعل» كقولهم: استجاب له، أي أجابه.

ويمكن أن يكون بمعنى الطّلَب، كما تقول: استطعم، أي طلب الطعام، فيكون بالاعتبار الأول، كأنّه قال: أعدُّوا للموت عُدّة، وبمعنى الاعتبار الثاني كأنه قال: اطلبوا للموت عُدّة.

وأظلّكم: قربُ منكم، كأنّه ألقى عليهم ظلّه، وهذا من باب الاستعارة.

والعبَث: اللَّعب، أو ما لا غرض فيه، أو ما لا غرضَ صحيح فيه.

وقوله: «ولم يترككم سُدًى»، أي مهمَلين.

وقوله: «أن ينزل به» موضعُه رفع لأنّه بدلٌ من «الموت»، والغائب المشار إليه هو الموت.

ويحدوه الجديدان: يسوقه الليل والنهار، وقيل: الغائب هنا هو الإنسان يَسُوقه الجديدان إلى الدار التي هي داره الحقيقية، وهي الآخرة، وهو في الدنيا غائب على الحقيقة عن داره التي خلق لها، والأول أظهر.

وقوله: «فتزوّدوا في الدنيا من الدنيا» كلامٌ فصيح، لأنّ الأمر الذي به يتمكّن المكلّف من إحراز نفسه في الآخرة، إنما هو يكتسبه في الدنيا منها، وهو التقوى والإخلاص والإيمان.

والفاء في قوله: «فاتّقى عبد ربّه» لبيان ماهيّة الأمر الذي يحرِزُ الإنسان به نفسَه ولتفصيل أقسامه وأنواعه، كما تقول: فعل اليوم فلان أفعالاً جميلة، فأعطى فلاناً، وصفَح عن فلان، وفعل كذا. وقد روي: «اتقى عبد ربّه» بلا فاء، بتقدير «هلاّ»، ومعناه التحضيض.

وقد روي: «ليسوّفها» بكسر الواو وفتحها، والضمير في الرواية الأولى يرجع إلى نفسه، وقد تقدم ذكرها قبلُ بكلمات يسيرة. ويجوز أن يعني به: ليسوّف التوبة، كأنه جعلها مخاطبة يقول لها: سوف أوقعك، والتسويف أن يقول في نفسه: سوف أفعل، وأكثر ما يستعمل للوعد الذي لا نَجاز له. ومن روى بفتح الواو جعله فعلَ ما لم يسمّ فاعله، وتقديره: ويمنّيه الشيطان التوبة، أي يجعلها في أمنيته ليكون مسوّفاً إياها، أي يعدّ من المسوَّفين المخدوعين. وقوله: «فيا لَها حسرة»، يجوزُ أن يكونَ نادى الحسرة، وفتحة اللام على أصل نداء المدعو، كقولك: يا للرجال، ويكون المعنى: هذا وقتك أيتها الحسرة فاحضرِي. ويجوز أن يكون المدعو غير الحسرة، كأنه قال: يا للرجال لِلْحَسْرةِ! فتكون لامها مكسورة نحو الأصل لأنّها المدعو إليه، إلا أنّها لما كانت للضمير فتحت، أي أدعوكم أيُّها الرجال لتقضُوا العجب من هذه الحسْرة.

وهذا الكلام من مواعظ أمير المؤمنين البالغة، ونحوه من كلام الحسن البصريّ ذكره شيخنا أبو عثمان في «البيان والتبيين».

ابنَ آدم، بِعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبِعْ آخرتَك بدنياك فتخسرَهما جميعاً، وإذا رأيت النَّاس في الخير فقاسِمْهم فيه، وإذا رأيتَهم في الشرّ فلا تغبِطْهم عليه. البقاء ها هنا قليل، والبقاء هناك طويل، أمّتكم آخر الأمم وأنتم آخرُ أمتكم، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون المعاينة! فكأن قَدْ. هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحالِيْها وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق. فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة! ألاَ إنّه لا أمّةَ بعد أمتكم، ولا نبيّ بعد نبيّكم، ولا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقُون الناس والساعة تسوقكم، وإنما يُنتظَرُ بأوّلكم أن يلحق آخركم. مَنْ رأى محمداً صلوات الله وسلامه عليه، فقد رآه غادياً رائحاً، لم يضع لَبِنَةً على لَبِنة، ولا قَصَبة على قصبة، رُفِع له عَلم فسما إليه، فالوحَى الوحَى، النجاء النجاء! على ماذا تعرّجون! ذهب أماثلكم وأنتم تَرْذُلون كلّ يوم، فما تنتظرون!

إن الله بعث محمداً على عِلْم منه، اختاره لنفسه، وبعثه برسالته، وأنزل إليه كتابَه، وكان صَفْوتَه من خلقه، ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظرُ إليه أهلُ الأرض، فآتاه فيها قوتاً وبُلْغة، ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، فركَن أقوامٌ إلى غير عيشته، وسخطُوا ما رضيَ له ربُّه، فأبعدهم وأسحقهم.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

يا بن آدم، طإ الأرض بقدمك، فإنها عن قليل قبرُك، واعلم أنّك لم تَزَلْ في هَدْم عمرك منذ سقطت من بطن أمّك، رحم الله امرأ نظر فتفكّر، وتفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر، وأبصر فأقصر، فقد أبصر أقوامٌ ولم يقصّروا، ثم هلكوا فلم يُدْرِكوا ما طلبُوا، ولا رجعوا إلى ما فارقوا.

يا بن آدم، اذكر قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(١)، عدَل والله عليك مَنْ جعلك حسيبَ نفسك. خذُوا صفوة الدنيا، ودعوا كَدَرها، ودَعُوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم، ظهر الجفاء وقلّت العلماء، وعفَت السّنّة، وشاعت البدعة. لقد صحبتُ أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرّة عين لكلّ مسلم، وجِلاءَ الصدور، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حَسناتهم أن تُردَّ عليهم، أشفقَ منكم من سيئاتكم أن تعذّبوا عليها، وكانوا مما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهدَ منكم فيما حرّم عليكم منها.

ما لي أسمع حسِيساً ولا أرى أنيساً! ذهبَ النّاس، وبقي النّسْناس. لو تكاشفتُم ما تدافنْتم. تهاديتُم الأطباق، ولم تتهادَوْا النصائح. أعدّوا الجواب، فإنكم مسؤولون. إنّ المؤمن من لا يأخذ دينه عن رأيه، ولكن عن ربّه. ألا إنّ الحقّ قد أجهدَ أهله، وحال بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلاّ من عرف فضله، ورجا عاقبته، فَمن حمد الدنيا ذمّ الآخرة، ولا يكره لقاء الله إلا مقيم على ما يسخطه. إن الإيمان ليس بالتمنّي ولا بالتشهّي، ولكن ما وقَر في القلوب وصدَّقته الأعمال.

وهذا كلام حسن وموعظة بالغة، إلا أنّه في الجزالة والفصاحة دون كلام أمير المؤمنين عليه السلام بطبقات.

ومن خطب عمر بن عبد العزيز: إن لكلّ سفَر زاداً لا محالة، فتزوَّدُوا لسفرِكم من الدّنيا إلى الآخرة، فكونوا كمن عايَن ما أعدّ الله تعالى من ثوابه وعقابه، فرغِبوا ورهبوا، ولا يطولَنّ عليكم الأمر فتَقْسُوَ قلوبكم، وتنقادُوا لعدوّكم، فإنه والله ما بُسِط أمَلُ مَنْ لا يَدْرِي لعلّه لا يصبح بعد إمسائه، ولا يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خَطَفات المنايا. فكم رأينا وأنتم مَنْ كان بالدنيا مغترًّا فأصبح في حبائل خطوبها ومناياها أسيراً! وإنما تقرُّ عين من وَثِقَ بالنَّجاة من عذاب الله، وإنما يفرح مَنْ أمِنَ من أهوال يوم القيامة، فأما مَنْ لا يبرأ من كَلْم إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يفرح! أعوذ بالله أنْ أخبِرَكم بما أنهى عنه نفسي، فتخيبَ صفقتي، وتظهر عورتي، وتبدوَ مسكنتي، في يوم يبدُو فيه الغنيّ والفقير، والموازين منصوبة، والجوارح

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.

ناطقة. لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النّجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، أو الأرض لانفطرت، أما تعلمون أنّه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى أحدهما!

ومن خطب عمر بن عبد العزيز: أيها الناس: إنكم لم تخْلَقوا عبثاً، ولم تتركوا سدًى، وإن لكم معاداً يبيِّن الله لكم فيه الحكْم والفصل بينكم، فخاب وخسِر مَنْ خرج من رحمة الله التي وَسِعَتْ كلَّ شيء، وحُرِم الجنَّة التي عَرْضها السمٰوات والأرض.

واعلموا أنّ الأمان لمن خاف الله، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباقٍ. ألا ترون أنّكم في أسلاب الهالكين، وسيُسْلَبها بعدكم الباقون، حتى تردَّ إلى خير الوارثين! ثم إنكم في كلّ يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله عزّ وجلّ، قد قضى نحبَه، وبلغ أجلَه، تغيّبونه في صَدْع من الأرض ثـم تدَعونهُ غير ممهَّد ولا موسَّد، قد صرم الأسباب، وفارق الأحباب، وواجَه الحساب، وصار في التراب، غنيًّا عَمَّا ترك، فقيراً إلى ما قدم.

ومن خطب ابن نباتة الجيّدة في ذكر الموت: أيّها الناس، ما أسلسَ قيادَ من كان الموت جريره، وأبعد سداد من كان هواه أميرَه! وأسرع فطام من كانت الدنيا ظِئره، وأمنع جَناب من أضحَت التقوى ظهره! فاتقوا الله عباد الله حَقّ تقواه، وراقبوه مراقبة مَنْ يعلم أنه يراه، وتأهّبوا لوثَبات المنون، فإنها كامنة في الحركات والسكون، بينما ترى المرء مسروراً بشبابه، مغروراً بإعجابه، مغموراً بسعة اكتسابه، مستوراً عَمّا خُلِق له لما يغرَى به، إذ أسْعَرت فيه الأسقام شهَابها، وكَدّرت له الأيام شرابَها، وحَوّمت عليه المنيّة عُقابها، وأعلقَت فيه ظُفرها ونابَها، فسرَتْ فيه أوجاعُه، وتنكّرت عليه طباعه، وأظلّ رحيلُه ووداعه، وقلَّ عنه منعه ودفاعه، فأصبح ذا بصرٍ حائر، وقلب طائر، ونَفَس غابر، في قطب هلاك دائر، قد أيقن بمفارقة أهله ووطنه، وأذعن بانتزاع رُوحه عن بدنه، حتى إذا تحقق منه اليأس، وحلّ به المحذور والبأس، أومأ إلى خاصّ عوّاده، موصياً لهم بأصاغر أولاده، جَزَعاً عليهم مِنْ ظَفر أعدائه وحسّاده والنفس بالسِّياق تجذَب، والموت بالفراق يقرب، والعيون لهول مصرعه تَسْكُب، والحامة عليه تعدّد وتندب، حتى تجلّى له مَلَك الموت من حُجُبه، فقضى فيه قضاء أمر رَبّه، فعافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وزُوِّد من مالِه كفناً، وحصر في الأرض بعمله مرتهناً، وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً علىٰ قُرْب المكان، مقيماً بين قوم كانوا فزالوا، وحوت عليهم الحادثات فحالوا، لا يخبِرون بما إليه آلوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شرِبوا من الموت كأساً مُرّة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرّة، وآلى عليهم الدهر أليّة برَّة، ألاّ يجعل لهم الدنيا كَرّة، كأنهم لم يكونوا للعيون قُرَّة، ولم يُعَدُّوا في الأحياء مَرّة، أسكتهم الذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم وسيوجِدهم كما خلقهم، ويجمعهم كما فرّقهم، يوم يُعيد الله العالمين خَلْقاً جديداً،

ويجعل الله الظالمين لنار جهنم وقوداً: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[1] [2].

٦٤ - ومن خطبة له عليه السلام في تنزيه الله وتقديسه

الأصْلُ: الْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالاً، فَيَكُونَ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِراً، وَيَكُونَ ظَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِناً، كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيف، وكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وكُلُّ عالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ ٱلأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُها، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ ٱلْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ ٱلْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ غَيْرُ بَاطِنٍ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ.

لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، ولا اسْتِعانَةٍ عَلَى نِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلا شَرِيكٍ مُكَاثِرٍ، ولا ضِدٍّ مُنَافِرٍ، وَلَكِنْ خَلاَئِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، لَمْ يَحْلُلْ فِي الأَشْيَاءِ فَيُقَال: هُو فِيهَا كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيُقَال: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ.

لَمْ يَؤُدْهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، وَلا تَدْبِيرُ مَا ذَرَأَ، ولاَ وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَق، وَلاَ وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبْهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتْقَنٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، المَأْمُولُ مَعَ النِّقَم، المَرْهُوبُ مَعَ النِّعَم.

الشرح: يَصَمّ، بفتح الصاد، لأنّ الماضي «صَمِمْت» يا زيد، والصَّمم: فساد حاسّة السمع، ويصِمه بكسرها، يحدث الصَّمَم عنده، وأصْمَمت زيداً.

والنِّد: المِثْل والنظير. والمثاور: المواثب. والشريك المكاثر: المفتخر بالكثرة. والضدّ المنافر: المحاكم في الحسب، نافرت زيداً فنفَرْته، أي غلبته. ومربوبون: مملوكون. وداخرون: ذليلون خاضعون.

ولم يَنْأ: لم يبعُد. ولم يؤده: لم يتعبه. وذَرَأ: خَلَق، وَوَلَجت عليه الشبهة، بفتح اللام، أي دخلت. والمرهوب: المَخُوف.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٢) البيان والتبيين: ٢/١٢٦-١٢٩.

فأما قوله: «الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أوّلاً قبل أن يكون آخراً»، فيمكن تفسيرُه على وجهين:

أحدُهما: أنّ معنى كونه أولاً أنه لم يزَلْ موجوداً، ولا شيء من الأشياء بموجود أصلاً، ومعنى كونه آخراً أنه باقٍ لا يزال، وكلّ شيء من الأشياء يُعدَم عدَماً مَحْضاً حسب عدمه فيما مضى، وذاته سبحانه ذاتٌ يجب لها اجتماعُ استحقاق هذين الاعتبارين معاً في كلّ حال، فلا حال قطُّ إلا ويصدق على ذاته أنه يجب كونها مستحقّة للأوليّة والآخرية بالاعتبار المذكور استحقاقاً ذاتياً ضرورياً، وذلك الاستحقاق ليس على وجه وصف الترتيب، بل مع خلاف غيره من الموجودات الجسمانية، فإنّ غيره مما يبقى زمانَيْن فصاعداً إذا نسبناه إلى ما يبقى دون زمان بقائه لم يكن استحقاقه الأولّية والآخريّة بالنسبة إليه على هذا الوصف، بل إمّا يكون استحقاقاً بالكليّة، بأن يكون استحقاقاً قريباً، فيكون إنما يصدُق عليه أحدُهما، لأنّ الآخر لم يصدق عليه، أو يكونا معاً يصدقان عليه مجتمعين غير مرتّبين، لكن ليس ذلك لذات الموصوف بالأوليّة والآخرية، بل إنما ذلك الاستحقاق لأمرٍ خارج عن ذاته.

الوجه الثاني: أن يريدَ بهذا الكلام أنّه تعالى لا يجوز أن يكون مورداً للصفات المتعاقبة، على ما يذهب إليه قوم من أهل التوحيد، قالوا: لأنّه واجبٌ لذاته، والواجب لذاته واجب من جميعِ جهاته، إذ لو فرضنا جواز اتصافه بأمرٍ جديد ثبوتيّ أو سلبيّ لقلنا: إن ذاته لا تكفِي في تحقّقه، ولو قلنا ذلك لقلنا إنّ حصول ذلك الأمر، أو سلبه عنه، يتوقّف على حصول أمرٍ خارج عن ذاته، أو على عدم أمر خارج عن ذاته، فتكون ذاته لا محالَة متوقّفة على حضور ذلك الحصول أو السلب، والمتوقف على المتوقف على الغير متوقّف على الغير، وكلّ متوقّف على الغير ممكن، والواجب لا يكون ممكناً. فيكون معنَى الكلام على هذا التفسير نفيَ كونه تعالى ذا صفة، بكونه أولاً وآخراً، بل إنّما المرجع بذلك إلى إضافات لا وجودَ لها في الأعيان، ولا يكون ذلك من أحوال ذاته الراجعة إليها كالعالمية ونحوها، لأن تلك أحوال ثابتة، ونحن إنما ننفي عنه بهذه الحجة الأحوالَ المتعاقبة.

وأما قوله: «أو يكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً»، فإنّ للباطن والظاهر تفسيراً على وجهين:

أحدهما: أنه ظاهر بمعنى أنّ أدلّة وجوده وأعلام ثبوته وإلٰهيته جليّة واضحة، ومعنى كونه باطناً أنه غير مدرَك بالحواس الظاهرة، بل بقوة أخرى باطنة، وهي القوة العقلية.

وثانيهما: أنّا نعني بالظاهر الغالب، يقال: ظَهر فلانٌ على بني فلان، أي غلَبَهم، ومعنى الباطن العالم، يقال: بطنْتُ سرّ فلان، أي علِمتُه، والقول في نفيه عنه سبحانه أن يكون ظاهراً قبل كونه باطناً، كالقول فيما تقدّم من نفيه عنه سبحانه كونه أوّلاً قبل كونه آخراً.

وأما قوله: «كلّ مسمًّى بالوحدة غيره قليل»، فلأنّ الواحد أقلّ العدد، ومعنى كونه واحداً

يُباين ذلك، لأنّ معنى كونه واحداً إما نفي الثاني في الإلٰهية، أو كونه يستحيل عليها الانقسام، وعلى كلا التفسيرين يُسلَب عنها مفهوم القلة.

هذا إذا فسرنا كلامه على التفسير الحقيقيّ، وإن فسرناه على قاعدة البلاغة وصناعة الخطابة، كان ظاهراً، لأن الناس يستحقرون القليل لقلّته، ويستعظمون الكثير لكثرته، قال الشاعر:

تَجَمَّعْتُمُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ووجْهَةٍ عَلَى واحدٍ لازِلْتُمُ قِرْنَ واحدِ

وأما قوله: «وكلُّ عزيز غيره ذليل» فهو حقّ، لأن غيره من الملوك وإن كان عزيزاً فهو ذليل في قبضة القضاء والقدر، وهذا هو تفسير قوله: «وكلّ قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك».

وأما قوله: «وكلّ عالم غيره متعلم» فهو حقّ، لأنه سبحانه مفيضُ العلوم على النفوس، فهو المعلّم الأوّل، جلّت قدرته.

وأما قوله: «وكلُّ قادرٍ غيره يقدر ويعجز» فهو حقّ، لأنه تعالى قادر لذاته، ويستحيل عليه العجز، وغيره قادر لأمر خارج عن ذاته، إما لقدرة، كما قاله قوم، أو لبنية وتركيب كما قاله قوم آخرون، والعجز على مَنْ عداه غير ممتنع، وعليه مستحيل.

وأما قوله عليه السلام: «وكلُّ سميع غيره يَصَمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها» فحق، لأن كلَّ ذي سَمْع من الأجسام يضعُف سمعه عن إدراك خَفِيِّ الأصوات، ويتأثر من شديدها وقويّها، لأنّه يسمع بآلة جسمانية، والآلة الجسمانية ذات قوة متناهية واقفة عند حَدّ محدود، والباري تعالى بخلاف ذلك.

واعلم أنّ أصحابنا اختلفوا في كونه تعالى مدرِكاً للمسموعات والمبصرات، فقال شيخنا أبو عليّ وأبو هاشم وأصحابهما: إنّ كونه مدركاً صفة زائدة على كونه عالماً، وقالا: إنّا نصف الباري تعالى - فيما لم يزل - بأنّه سميع بصير، ولا نصفُه بأنه سامع مبصر، ومعنى كونه سامعاً مبصراً أنّه مدرِك للمسموعات والمبصرات.

وقال شيخنا أبو القاسم وأبو الحسين وأصحابهما: إنّ معنى كونه تعالى مُدْرِكاً، هو أنه عالم بالمدرَكات، ولا صفة له زائدة على صفته بكونه عالماً، وهذا البحث مشروح في كتبي الكلامية لتقرير الطريقين وفي «شرح الغرر» وغيرهما.

والقول في شرح قوله: «وكلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان، ولطيف الأجسام»، كالقول فيما تقدّم في إدراك السّمع.

وأما قوله: «وكلُّ ظاهرٍ غيره غير باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر» فحق، لأن كلّ ظاهر غيره على التفسير الأول فليس بباطن كالشمس والقمر وغيرهما من الألوان الظاهرة، فإنّها ليست إنّما تدرَك بالقوة العقليّة، بل بالحواسّ الظاهرة، وأمّا هو سبحانه فإنّه أظهرُ وجوداً من الشمس، لكنّ ذلك الظهور لم يمكن إدراكه بالقُوى الحاسة الظاهرة، بل بأمْر آخر، إمّا خفيٌّ في باطن هذا الجسد، أو مفارق ليس في الجسد ولا في جهة أخرى غير جهة الجسد.

وأما على التفسير الثاني، فلأنّ كلّ مَلِكٍ ظاهر على رعيّته أو على خصومه وقاهر لهم، ليس بعالم ببواطنهم، وليس مطّلعاً على سرائرهم، والباريء تعالى بخلاف ذلك، وإذا فهمتَ شرح القضيّة الأولى، فهمت شرح الثانية، وهي قوله: «وكلّ باطن غيره غير ظاهر».

اختلاف الأقوال في خلق العالم

فأما قوله: «لم يخلق ما خلقَه لتشديد سلطانه» إلى قوله: «عباد داخرون»، فاعلم أنّ الناس اختلفوا في كمية خلْقه تعالى للعالم ما هي؟ على أقوال:

القول الأول: قول الفلاسفة:

قال محمد بن زكريا الرازيّ عن أرسطاطاليس[1]: إنّه زعم أن العالم كان عن الباريء تعالى، لأنّ جوهرَه وذاته جوهر وذات مسخرة للمعدوم أن يكون مسخراً موجوداً.

قال: وزعم ابن قيس أنّ علة وجود العالم وجود الباريء.

قال: وعلى كلاَ القولين يكون العالم قديماً، أما على قول أرسطو فلأنّ جوهر ذات الباريء لما كان قديماً لم يَزَل، وجب أن يكون أثرها ومعلولها قديماً. وأمّا على قول ابن قيس فلأنّ الباريء موجود لم يزل، لأن وجوده من لوازم ذاته، فوجب أن يكون فيضُه وأثرُه أيضاً لم يزل هكذا.

قال ابن زكريا: فأمّا الذي يقول أصحاب أرسطاطاليس الآن في زماننا، فهو أنّ العالم لم يجب عن الله سبحانه عن قصد ولا غرض، لأنّ كلّ مَنْ فعل فعلاً لغرض كان حصول ذلك الغرض له أوْلى من لا حصوله، فيكون كاملاً لحصول ذلك الغرض، وواجب الوجود لا يجوز أن يكون كاملاً بأمر خارج عن ذاته، لأنّ الكامل لا من ذاته ناقص من ذاته.

---

(١) أرسطاطاليس: تلميذ أفلاطون، لازم خدمته مدة عشرين عاماً، وكان أفلاطون يسميه العقل، وهو خاتم حكمائهم وسيد علمائهم، وأول من استخرج المنطق، وله كتب في الفلسفة، وكان معلم الإسكندر بن فيلقوس، وبآدابه وسياسته عمل هو فظهر الخير وفاض العدل، وبه انقمع الشر في بلاد اليونانيين، ومعنى أرسطاطاليس: محب الحكمة، أو الفاضل الكامل، عاش سبعاً وستين سنة. ا.هـ. انظر: «أبجد العلوم» للقنوجي (٢/ ١٠٤).

قالوا: لكن تمثُّل نظام العالم في علم واجب الوجود، يقتضي فيضَ ذلك النظام منه، قالوا: وهذا معنى قول الحكماء الأوائل: إنّ علمه تعالى فعليّ لا انفعاليّ، وإن العلم على قسمين:

أحدهما: ما يكون المعلوم سبباً له، والثاني ما يكون هو سبب المعلوم، مثالُ الأول أنْ نشاهد صورة فنعلَمها، ومثال الثاني أن يتصوّر الصائغ أو النجار أو البنّاء كيفيّة العمل فيوقعه في الخارج على حسب ما تصوّره.

قالوا: وعلمه تعالى من القسم الثاني، وهذا هو المعنى المعبّر عنه بالعناية، وهو إحاطة علم الأول الحقّ سبحانه بالكلّ وبالواجب أن يكون عليه الكلّ، حتى يكون عل أحسن النظام، وبأنّ ذلك واجب عن إحاطته به، فيكون الموجود وِفْق المعلوم من غير انبعاث قصد وطلب عن الأوّل الحقّ سبحانه، فعلمُه تعالى بكيفية الصواب في ترتيب الكلّ هو المنبع لفيضان الوجود في الكل.

القول الثاني: قولٌ حكاه أبو القاسم البلخيّ عن قدماء الفلاسفة، وإليه كان يذهب محمد بن زكريا الرازي من المتأخرين.

وهو أنّ علة خلق الباريء للعالم تنبيه النفس على أنّ ما تراه من الهيولَي وتريده غير ممكنٌ لترفُضَ محبّتها إياها وعشقها لها، وتعود إلى عالمها الأول غبر مشتاقة إلى هذا العالم.

واعلم أن هذا القول هو القول المحكيّ عن الحِرْنانية[1] أصحاب القدماء الخمسة، وحقيقة مذهبهم إثبات قدماء خمسة: اثنان منهم حَيّان فاعلان، وهما الباريء تعالى والنفس، ومرادهم بالنّفس ذات هي مبدأ لسائر النفوس التي في العالم كالأرواح البشرية، والقوى النباتية والنفوس الفلَكيّة، ويسمّون هذه الذات النفسَ الكلّية. وواحد من الخمسة منفعل غير حيّ، وهو الهيولَى، واثنان لا حَيّان ولا فاعلان ولا منفعلان، وهما الدّهر والقضاء. قالوا: والباريء تعالى هو مبدأ العلوم والمنفعلات، وهو قائم العلم والحكمة، كما أنّ النفس مبدأ الأرواح والنفوس، فالعلوم والمنفَعلات تفيض من الباريء سبحانه فيضَ النور عن قرص الشمس، والنفوس والأرواح تفيض عن النفس الكليّة فيضَ النور عن القرص، إلا أنّ النفوس جاهلة لا تعرف الأشياء إلا على أحد وجهين: إمّا أن يفيض الباريء تعالى عليها تعقُّلاً وإدراكاً، وإما أن تمارس غيرها وتمازِجَه، فتعرِف ما تعرف باعتبار الممارسة والمخالطة معرفة ناقصة، وكان الباريء تعالى في

---

(١) الحرنانية: جماعة من الصائبة من عقائدهم عدم تصور بعث إحياء الموتى، وبعث من في القبور، وزعموا أن الله جلّ وعز أجلُّ من أن يخلق الشرور والقبائح والأقذار والخنافس والحيات والعقاب، بل كلها واقعة ضرورة عن اتصالات الكواكب. ا.هـ، انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٥٤).

الأزل عالماً بأنّ النفس تميل إلى التعلُّق بالهيولى وتعشقها، وتطلب اللذة الجسمانية، وتكره مفارقة الأجسام، وتنسي نفسها، ولما كان الباريء سبحانه قائمَ العلم والحكمة، اقتضت حكمتُه تركّب الهيولي لما تعلَّقت النفس بها ضروباً مختلفة من التراكيب، فجعل منها أفلاكاً وعناصر وحيوانات ونباتات، فأفاضَ على النفوس تعقّلاً وشعوراً جعله سبباً لتذكُّرِها عالمها الأول، ومعرفتها أنّها ما دامت في هذا العالم مخالطة للهيولى لم تنفكّ عن الآلام، فيصير ذلك مقتضياً شوقها إلى عالمها الأوّل الذي لها فيه اللذات الخالية عن الآلام، ورفضها هذا العالم الذي هو سبب أذاها ومضرّتها.

القول الثالث: قوَل المجوس: إنّ الغرَضَ من خلْق العالم أن يتحصّن الخالق جلّ اسمُه من العدوّ، وأنْ يجعلَ العالم شبكة له ليوقع العدوّ فيه، ويجعله في ربط ووِثاق، والعدوّ عندهم هو الشيطان، وبعضُهم يعتقِد قِدَمَه، وبعضهم حُدوثه.

قال قوم منهم: إن الباريء تعالى استوحش، ففكّر فكرةً رديئة، فتولّد منها الشيطان.

وقال آخرون: بل شكّ شكًّا رديئاً، فتولّد الشيطان من شَكّه.

وقال آخرون: بل تولّد من عفونة رديئة قديمة، وزعموا أنّ الشيطان حارب الباريء سبحانه، وكان في الظلم لم يزل بمعزل عن سلطان الباريء سبحانه، فلم يزل يزحفُ حتى رأى النور، فوثب وثبةً عظيمة، فصار في سلطان الله تعالى في النور، وأدخل معه الآفات والبلايا والسرور، فبنى الله سبحانه هذه الأفلاك والأرض والعناصر شبكةً له، وهو فيها محبوس، لا يمكنه الرجوع إلى سلطانه الأوّل، وصار في الظُّلمة، فهو أبداً يضطرب ويرمي الآفات على خلق الله سبحانه، فمن أحياه الله رماه الشيطان بالموت، ومن أصحّه رماه الشيطان بالسّقم، ومن سرّه رماه بالحزن والكآبة، فلا يزال كذلك، وكلّ يوم ينتقصُ سلطانه وقوّته، لأن الله تعالى يحتالُ له كلّ يوم، ويضعفه إلى أن تذهب قُوّته كلها، وتجمُد وتصير جماداً لا حراك به، فيضعه الله تعالى حينئذ في الجوّ، والجوّ عندهم هو الظلُمة، ولا منتهى له، فيصير في الجوّ جماداً جامداً هوائيًا، ويجمع الله تعالى أهلَ الأديان فيعذّبهم بقدر ما يطهِّرهم، ويصفِّيهم من طاعة الشيطان، ويغسلهم من الأدناس، ثم يدخلهم الجنّة، وهي جنة لا أكلَ فيها ولا شرب ولا تمتّع، ولكنها موضع لذة وسرور.

القول الرابع: قول المانَوِيّة[1]: وهو: أن النّور لا نهاية له من جِهَة فوق، وأمّا من جهة

---

(١) المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور. كان يقول: بنبوة عيسى عَلَيْتَلِا، انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢٤٥).

تحت فله نهاية، والظلمة لا نهاية لها من جهة أسفل، وأما مِنْ جهة فوق فلها نهاية، وكان النور والظلمة هكذا قبل خلْق العالم وبينهما فُرْجة، وأنّ بعضَ أجزاء النور اقتحم تلك الفُرْجة لينظر إلى الظلمة، فأسرَته الظلمة، فأقبل عالم كثير من النور، فحارب الظلَمة ليستخلص المأسورين من تلك الأجزاء، وطالت الحرب، واختلط كثير من أجزاء النور بكثير من أجزاء الظلمة، فاقتضت حكمةُ نور الأنوار - وهو البارىء سبحانه عندهم - أن عمِل الأرضَ من لحوم القتلى، والجبال من عظامهم، والبحار من صديدهم ودمائهم، والسماء من جُلودهم، وخلق الشمس والقمر وسيّرهما، لاستقصاء ما في هذا العالم من أجزاء النور المختلطة بأجزاء الظلمة، وجعل حول هذا العالم خندقاً خارج الفَلَك الأعلى، يطرح فيه الظلام المستقصَى، فهو لا يزال يزيد ويتضَاعف ويكثر في هذا الخَنْدق، وهو ظلام صِرْف قد استقصى نورَه. وأما النور المستخلص فيلحق بعد الاستقصاء بعالم الأنوار من فوق، فلا تزال الأفلاكُ متحرّكة، والعالم مستمرًّا إلى أن يتمّ استقصاءُ النور الممتزج، وحينئذ يبقى من النور الممتزج شيءٌ يسير، فينعقد بالظلمة، لا تقدر النيران على استقصائه، فعند ذلك تسقط الأجسام العالية - وهي الأفلاك - على الأجسام السافلة - وهي الأرضون - وتثور نار، وتضطرم في تلك الأسافل وهي المسمّاة بجهنّم، ويكون الاضطرام مقدار ألف وأبعمائة سنة، فتحَلّل بتلك النار تلك الأجزاء المنعقدة من النّور، الممتزجة بأجزاء الظلمة التي عجز الشمس والقمر عن استقصائها، فيرتفع إلى عالم الأنوار، ويبطل العالم حينئذ، ويعود النور كلُّه إلى حاله الأولى قبل الامتزاج، فكذلك الظلمة.

القول الخامس: قول متكلّمي الإسلام.

وهو على وجوه:

أوّلُها قول جمهور أصحابنا: إن الله تعالى إنما خلَق العالم للإحسان إليهم والإنعام على الحيوان، لأن خلْقه حيًّا نعمة عليه، لأنّ حقيقة النعمة موجودة فيه، وذلك أنّ النعمة هي المنفعة المفعولة للإحسان، ووجود الجسم حَيًّا منفعة مفعولة للإحسان، وأما بيانُ كون ذلك منفعة، فلأنّ المنفعةَ هي اللّذة والسرور ودفع المضارّ المخوّفة، وما أدّى إلى ذلك وصحّحه، ألا ترى أنّ مَنْ أشرَفَ على أن يهوِيَ من جبل، فمنعه بعضُ الناس من ذلك، فإنه يكون منعَماً عليه، ومَنْ سَرّ غيره بأمر، وأوصل إليه لذّة، يكون قد أنعم عليه، ومَنْ دفع إلى غيره مالاً يكونُ قد أنعم عليه، لأنه قد مكّنه بدفعه إليه من الانتفاع، وصحّحه له. ولا ريب أن وجودَنا أحياء يصحّح لنا اللذات، ويمكّننا منها، لأنّا لو لم نكن أحياء لم يصحّ ذلك فينا. قالوا: وإنما قُلْنا إنّ هذه المنفعة مفعولة للإحسان، لأنّها إما أن تكون مفعولة لا لغرض أو لغرض، والأول باطل، لأن ما يُفعل لا لغرض عبثٌ، والبارىء سبحانه لا يصحّ أن تكون أفعاله عبثاً، لأنه حكيم.

وأما الثاني، فإمّا أن يكون ذلك الغرض عائداً عليه سبحانه بنفع أو دفع ضرر، أو يعود على غيره. والأوّل باطل، لأنه غنيّ لذاته، يستحيل عليه المنافع والمضارّ، ولا يجوز أن يفعله لمضَرّة يوصّلها إلى غيره، لأنّ القصدَ إلى الإضرار بالحيوان من غير استحقاقٍ ولا منفعة يوصَل إليها بالمضرّة قبيح، تعالى الله عنه! فثبت أنّه سبحانه إنما خلق الحيوانَ لنفعه، وأما غيرُ الحيوان فلو لم يفعله لينفعَ به الحيوان، لكان خَلْقه عبثاً، والباريء تعالى لا يجوز «عليه العَبث، فإذاً جميعُ ما في العالم إنما خلقه لينفعَ به الحيوان.

فهذا هو الكلامُ في علّة خَلْق العالم عندهم، وأما الكلام في وجه حُسْن تكليف الإنسان فذاك مقام آخر لسنا الآن في بيانه ولا الحاجة داعية إليه.

وثانيها: قول قوم من أصحابنا البغداديّين: إنه خلَق الخلْق، ليُظهِرَ به لأربابِ العقول صفاتِه الحميدة، وقدرتَه على كلّ ممكن، وعلمَه بكلِّ معلوم، وما يستحقّه من الثناء والحمد. قالوا: وقد ورد الخبر أنه تعالى قال: «كنتُ كنزاً لا أعرَف، فأحببت أن أُعرَف»[1]، وهذا القول ليس بعيداً.

وثالثها: للمجبِرة: إنه خلق الخلْق لا لغرض أصلاً، ولا يقال: لم كان كلّ شيء لعلّة، ولا علّة لفعله، ومذهب الأشعريّ وأصحابه أن إرادتَه القديمة تعلّقت بإيجاد العالم في الحال التي وجد فيها لذاتها، ولا لغرض ولا لداعٍ، وما كان يجوز ألا يوجد العالم حيث وُجد، لأن الإرادة القديمة، لا يجوز أنْ تتقلّب وتتغيّر حقيقتها، وكذلك القول عندهم في أجزاء العالم المجدّدة من الحركات والسكنات، والأجسام وسائر الأعراض.

ورابعها: قوله بعضِ المتكلّمين: إنّ الباريء تعالى إنما فعل العالم لأنه ملتذٌّ بأنْ يفعل، وأجاز أرباب هذا القول عليه اللّذة والسرور والابتهاج قالوا: والباريء - سبحانه - وإن كان قبل أن يخلق العالم ملتذًا بكونه قادراً على خَلْق العالم - إلا أن لذة الفعل أقْوىٰ من لذة القدرة على الفعل، كأن يلتذّ بأنه قادر على أن يكتُبَ خطًّا مستحسناً، أو يبنيَ بيتاً محكماً، فإنه إذا أخرج تلك الصناعةَ من القُوّة إلى الفعل، كانت لذته أتمّ وأعظم. قالوا: ولم يثبت بالدليل العقليّ استحالة اللّذة عليه، وقد ورد في الآثار النبوية أنّ الله تعالى يُسَرّ، واتفقت الفلاسفة على أنه ملتذّ بذاته وكماله.

وعندي في هذا القول نظر، ولي في اللذّة والألم رسالة مفردة، وأما قوله: «لم يحلُل في الأشياء، فيقال: لا هو فيها كائن ولا منها مباين»، فينبغي أن يحمَل على أنّه أرادَ أنّه لم ينأَ عن الأشياء نأياً مكانيًا فيقال: هو بائن بالمكان، هكذا ينبغِي أن يكون مراده، لأنّه لا يجوز إطلاقُ

---

(١) قال ملا علي القاري في كتابه «المصنوع» (٢٣٢): نص الحفاظ كابن تيمية والزركشي والسخاوي على أنه لا أصل له.

القول بأنّه ليس ببائن عن الأشياء، وكيف والمجرّد بالضرورة بائن عن ذي الوضع، ولكنها بينونة بالذات لا بالجهة، والمسلمون كلُّهم متفقون على أنّه تعالى يستحيلُ أن يحُلّ في شيء إلا مَن اعتزَى إلى الإسلام من الحلوليّة، كالذين قالوا بحلُوله في عليّ وولده، وكالذين قالوا بحلُوله في أشخاص يعتقدون فيها إظهاره كالحلاّجيّة وغيرهم، والدليلُ على استحالةِ حلُوله سبحانه في الأجسام، أنّه لو صحَّ أن يحُلَّ فيها لم يعقل منفرداً بنفسه أبداً، كما أنّ السواد لا يعقل كونه غير حالٌ في الجسم، لأنه لو يعقل غير حالّ في الجسم لم يكن سواداً، ولا يجوز أن يكون الله تعالى حالاً أبداً، ولا أن يلاقيَ الجسم، إذ ذلك يستلزم قدمَ الأجسام، وقد ثبت أنها حادثة.

فأمّا قولُه: «لم يؤدْهُ خَلْق ما ابتدأ» إلى قوله: «عَمّا خلَق» فهو حقّ، لأنه تعالى قادر لِذاته، والقادر لذاته لا يتعب ولا يعجَز، لأنه ليس بجسم، ولا قادر بقدرة يقف مقدورها عند حَدّ وغاية، بل إنما يقدر على شيء لأنه تعالى ذات مخصوصة، يجب لها أن تقدر على الممكِنات، فيكون كلّ ممكن داخلاً تحت هذه القضيّة الكلية، والذات التي تكون هكذا لا تعجَز ولا تقف مقدوراتها عند حَدٍّ وغاية أصلاً، ويستحيل عليها التعب، لأنها ليستْ ذات أعضاء وأجزاء.

وأما قوله: «ولا وَلَجتْ عليه شُبْهة» إلى قوله: «وأمر مُبْرَم» فحقّ، لأنه تعالى عالم لذاته، أي إنما عَلِم ما علمه لا بمعنى أن يتعلّق بمعلوم دون معلوم، بل إنما علم أيّ شيء أشرت إليه، لأنه ذات مخصوصة، ونسبة تلك الذات إلى غير ذلك الشيء المشار إليه، كنسبتها إلى المشار إليه، فكانت عالمة بكلِّ معلوم، واستحال دخول الشبهة عليها فيما يقضيه ويقدّره.

وأما قوله: «المأمول مع النِّقم، المرهوب مع النعم»، فمعنى لطيف، وإليه وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾(٣)، وقوله سبحانه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٤) وإليه نظر الشاعر في قوله:

مَـنْ عَـاشَ لاَقَـى مَـا يَـسُـو ءُ مِـنَ الأُمـورِ وَمَـا يَـسُـرّ
ولـربَّ حـتـفٍ فـوقـه ذهـبٌ ويـاقـوتٌ ودُرّ

وقال البحتري:

يَـسُـرّكَ الـشَّـيءُ قَـدْ يَـسُـوءُ وَكَـمْ نَـوَّهَ يَـوْمـاً بِـخَـامِـلٍ لَـقَـبُـهْ

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الانشراح، الآيتان: ٥، ٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٩.

لاَ يَيأس المرءُ أن يُنَجِّيَهُ ... مَا يَحْسِبُ الناسُ أنه عَطَبُهْ

وقال آخر:

رُبَّ غَمٍّ يَدِبُّ تَحتَ سُرُورِ ... وَسُرُورٍ يأتِي مِنَ المَحْذُورِ

وقال سعيد بن حُميد:

كم نعمةٍ مطويّة ... لَكَ بَيْنَ أثناءِ النوائبْ

وَمَسرَّةٍ قَدْ أقْبَلَتْ ... مِنْ حَيْثُ تُنتَظرُ المصائبْ

وقال آخر:

أنتظِرُ الرَّوْح وأسبَابَهُ ... أيأسَ ما كنتُ من الرَّوْحِ

وقال آخر:

رُبَّمَا تَجْزَعُ النُّفُوس مِنَ الأمْـ ... ـرِ لَهُ فَرْجَةٌ كحلِّ العِقَال

وقال آخر:

العسْرُ أكرِمُه ليسرٍ بعدَهُ ... ولأجل عَيْنٍ ألفُ عَيْنٍ تُكْرَمُ

والمرءُ يكرهُ يومَهُ ولعلّه ... يأتِيه فيهِ سَعَادَةٌ لاَ تُعْلَمُ

وقال الحّلاج:

وَلَرُبَّما هَاجَ الكبيرَ ... من الأمور لك الصغيرُ

ولرُبَّ أمرٍ قد تضيـ ... ـقُ به الصُّدور ولا يصيرُ

وقال آخر:

يا راقدَ اللَّيل مسروراً بأوّله ... إنّ الحوادث قَدْ يَطْرُقْن أسحارَا

وقال آخر:

كم مرَّةٍ حُفَّت بك المكارِهْ ... خارَ لَكَ الله وَأنْتَ كارِهْ

ومن شعري الذي أناجي به الباريء سبحانه في خلَواتي، وهو فنّ أطويه وأكتمه عن الناس، وإنما ذكرتُ بعضَه في هذا الموضع، لأن المعنى ساق إليه، والحديث ذو شجون:

يَامَنْ جَفَانِي فَوَجْدِي بَعْدَهُ عَدَمُ ... هَبْنِي أسَأتُ فَأيْنَ العَفْوُ وَالْكَرَمُ!

أنا المرابطُ دونَ النّاس فاجفُ وَصِلْ ... واقبلْ وَعَاقِبْ وحَاسِبْ لَسْتُ أنهزمُ

إنّ المحبَّ إذا صَحَّتْ محبّتُهُ ... فما لوقْعِ المواضِي عِنْدَهُ ألَمُ

وَحَقِّ فَضْلِكَ مَا اسْتَيْأسْتُ مِنْ نِعَمٍ ... تسرِي إليّ وإنْ حَلَّتْ بِي النِّقَمُ

ولا أمِنْتُ نَكَالاً منك أرْهَبُهُ ... وإنْ ترادفَت الآلاءُ والنِّعَمُ

حاشاكَ تُعرض عَمَّنْ في حشَاشَتِهِ نارٌ لحبّك طُولَ الدَّهرِ تضطرِمُ
ألم تقل إنّ مَنْ يدنو إليّ قَدْرَ الذِّ راع أدنو له باعاً وأبتسِمُ
والله والله لو عاقبتَني حُقُباً بالنّار تأكُلُني حطماً وتلتهِمُ
مَا حُلْتُ عن حبّك الباقي فليس على حالٍ بِمنصرمٍ، والدهر ينصرِمُ

٦٥ - ومن كلام له عليه السلام كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صفين

الأصل: مَعَاشِرَ المُسْلِمِينَ، آسْتَشْعِرُوا الخَشْيَةَ، وتَجَلْبَبُوا السَّكِينَةَ، وَعَضُّوا عَلَى النَّوَاجِذِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الهَامِ. وَأَكْمِلُوا اللَّأْمَةَ، وَقَلْقِلُوا السُّيُوفَ فِي أَغْمَادِهَا قَبْلَ سَلِّهَا. وَٱلْحَظُوا الخزْرَ، وَآطْعَنُوا الشَّزْرَ، وَنَافِحُوا بِالظُّبَا، وَصِلُوا السيُوفَ بِالخُطَا.

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِعَيْنِ ٱللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ ٱللهِ. فَعَاوِدُوا الكَرّ، وَٱسْتَحْيُوا مِنَ الفَرّ، فَإِنَّهُ عَارٌ فِي ٱلأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الحِسَابِ. وَطِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً، وَٱمْشُوا إِلَى المَوْتِ مَشْياً سُجُحاً، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ ٱلأَعْظَمِ، وَالرِّوَاقِ المُطَنَّبِ، فاضْرِبُوا ثَبَجَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ، وَقَدْ قَدَّمَ لِلْوَثْبَةِ يَداً، وَأَخَّرَ لِلنُّكُوصِ رِجْلاً.

فَصَمْداً صَمْداً! حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الحَقّ، وَأَنْتُمُ ٱلأَعْلَوْنَ، وَٱللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ.

الشرح: قوله: «استَشعروا الخشية»، أي اجعلوا الخوفَ من الله تعالى من شعاركم، والشِّعَار من الثياب: ما يكون دون الدِّثار، وهو يلي الجلد، وهو ألصق ثياب الجسد، وهذه استعارة حَسَنة، والمراد بذلك أمرُهم بملازمة الخشية والتقوى، كما أنّ الجلد يلازم الشِّعار.

قوله: «وتجَلْبَبُوا السَّكينة» أي اجعلوا السَّكِينة والحلم والوقار جِلْباباً لكم، والجلباب الثوب المشتمِل على البدن.

قوله: «وعضُّوا عل النواجذ» جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ في كلّ شقّ، والنواجذ بعد الأرحاء، ويسمَّى النّاجِذ ضِرْس الحِلْم، لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل، ويقال: إن العاضّ على نواجذه ينبُو السيف عن هامته نبوًّا ما، وهذا مما يساعد التعليلُ الطبيعي عليه، وذلك أنه إذا عضّ على نواجذه تصلّبت الأعصاب والعَضَلات المتصلة بدِماغه، وزال عنها الاسترخاء، فكانت على مقاومة السيف أقْدَر، وكان تأثيرُ السيفِ فيها أقلّ.

وقوله: «فإنّه أنبَى»، الضمير راجع إلى المصدر الذي دلّ الفعل عليه، تقدير: فإنّ العَضّ أنبَى، كقولهم: مَنْ فعل خيراً كان له خيراً، أي كان فعله خيراً، وأنبَى «أفعل»، من نبا السيفُ، إذا لم يقطع.

قال الراونديّ: هذا كلام ليس على حقيقته، بل هو كناية عن الأمر بتسكين القلْب وترك اضطرابه واستيلاء الرِّعْدة عليه، إلى أن قال: ذلك أشدّ إبعاداً لسيْف العدوّ عن هامتكم.

قوله: «وأكْمِلوا اللَّأمة»، اللّأمة، بالهمزة: الدِّرع، والهمزة ساكنة على «فَعلة»، مثل النأمة للصوت، وإكمالها أن يزاد عليها البَيْضة والسواعد ونحوها، ويجوز أن يعبّر باللّأمة عن جميع أداة الحرب، كالدِّرع والرمح والسيف، يريد: أكملوا السلاحَ الذي تحاربون العدوَّ به.

قوله: «وقلقلوا[1] السيوف في أغمادها قبل سَلّها»، يوم الحرب، لئلا يدومَ مكثها في الأجفان فتلحج فيها فيستصعب سلّها وقت الحاجة إليها.

وقوله: «والحظُوا الخَزْر»، الخزْر أن ينظُر الإنسان بعينه، وكأنه ينظر بمؤخِرها وهي أمارة الغضب، والذي أعرفه «الخَزَر» بالتحريك، قال الشاعر:

إذا تَـخَـازَرْتُ وَمَـا بِـي مِـنْ خَـزَرْ ... ثُـمّ كـسرتُ ٱلْـعَـيْـنَ وما بـي مِـنْ عَـوَرْ
أَلْـفـيـتَـنـي أَلْـوَي بـعـيـد الـمـسـتـمـرّ ... أَحْـمِـلُ مـا حُـمّـلْـتُ مِـنْ خَـيْـرٍ وَشَـرّ

فإن كان قد جاء مسكّنا فتسكينه جائز للسجعة الثانية، وهي قوله: «واطعنوا الشَّزْر». والطعن شَزْراً، هو الطَّعْن عن اليمين والشمال، ولا يسمَّى الطعن تجاه الإنسان شَزْرا. وأكثر ما تستعمل لفظة «الشَّزْر» في الطعن، لما كان عن اليمين خاصة، وكذلك إدارة الرحا. وخَزْرا وشزرا، صفتان لمصدرين محذوفين، تقديره: الحظوا لحظاً خزْراً، واطعُنوا طَعْناً شزراً، وعينُ «اطعُنوا» مضمومة، يقال: طعنت بالرمح أطعُن، بالضم، وطعنت في نسبه أطعَن، بالفتح، أي قدحت، قال:

يُـطَـوّفُ بـي عَـكـبٌ فـي مَـعَـدٍّ ... ويـطـعَـنُ بـالـصّـمِـلّـةِ فـي قَـفَـيّـا

قوله: «نافحوا بالظبا» أي ضاربوا نَفْحة بالسيف، أي ضربة، ونفحَتِ الناقة برجلها، أي ضربت. والظُّبا: جمع ظُبَة، وهي طَرَف السيف.

قوله: «وصلوا السيوف بالخطا» مثل قول الشاعر:

إذا قَـصُـرَتْ أَسْـيَـافُـنَـا كـانَ وَصْـلُـهَـا ... خُـطَـانـا إلـى أعـدائِـنـا فَـنُـضـارِبِ

---

(١) أي حركوها في أغمادها قبل أن تحتاجوا إلى سَلّها ليسهل عند الحاجة إليها. لسان العرب، مادة (قلق).

قالوا: بكسر «نضارب» لأنه معطوف على موضع جزاء الشرط، الذي هو «إذا».

وقال آخر:

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخطونَا ... يوماً ونلحقها إذَا لَمْ تَلْحَقِ

وأنشدنِي شيخنا أبو القاسم الحسين بن عبد الله العُكْبَرِيّ، ولم يسمّ قائله، ووجدته بعدُ لنابغة بني الحارث بن كعب:

إن تسألي عَنّا سُمَيّ فإنه ... يسمُو إلى قُحَمِ العلا أدنانا

وتبيتُ جارتُنا حَصاناً عَفَّةً ... ترضى ويأخذ حَقَّه مولانا

ونقوم إنْ طَرقَ المنُون بسُخْرَةٍ ... لوصاة والدِنا الّذِي أوْصَانَا

ألاَّ نفرّ إذا الكتيبة أقبلت ... حَتى تدور رحاهُمُ ورَحَانا

وتَعِيشُ في أخلاَمِنَا أشياخُنا ... مُرْداً وَمَا وَصَلَ الوجوه لِحانا

وإذا السُّيوف قصرن طوّلها لنا ... حتّى تناول ما نريدُ خُطانا

وقال حُميد بن ثور الهِلاليّ:

إلى أنْ نَزَلْنَا بالفَضاء وَمَا لَنَا ... بهِ مَعْقِلٌ إلا الرِّماح الشّوَاجِرُ

وَوَصْلُ الخُطا بالسَّيْف والسَّيْفِ بالخُطا ... إذا ظُنَّ أنّ المرءَ ذَا السَّيف قاصِرُ

وهذه الأبيات من قطعة لحميد جيدة، ومن جملتها:

قَضَى الله في بعض المكاره لِلْفَتَى ... برشدٍ وَفِي بَعْضِ الْهَوَى مَا يُحَاذِرُ

ألَمْ تَعْلَمِي أنّي إذا الإلْفُ قادَنِي ... إلى الجَوْر لا أنقادُ، والإلف جائرُ

وقد كنتُ فِي بَعْضِ الصَّبَاوة أتّقي ... أموراً وأخشَى أن تَدُور الدَّوَائِرُ

وأعلَمُ أنّي إن تَغَطَّيْتُ مَرَّةً ... من الدَّهر مكشوفٌ غِطائي فَنَاظِرُ

ومن المعنى الذي نحن في ذكره، ما روي أن رجلاً من الأزْد، رفع إلى المهلّب سَيْفاً له فقال: يا عمّ، كيف ترى سيفي هذا؟ فقال: إنه لجيّد لولا أنه قصير، قال: أطوّله يا عمّ بخطوتي، فقال: والله يا بن أخي، إن المَشي إلى الصِّين أو إلى أذَرْبِيجَان على أنياب الأفاعي أسهل من تلك الخُطوة، ولم يقل المهلّب ذلك جبناً، بل قال ما توجبه الصورة إذ كانت تلك الخطوة قريبة للموت، قال أبو سعد المخزوميّ في هذا المعنى:

رُبَّ نارٍ رفعتها ودُجى اللَّيْـ ... ـل على الأرضِ مُسْبِلُ الطَّيْلَسان

وأُمُون نحرتُها لضيوفٍ ... وألوف نقدتُهُنَّ لجاني

وحروبٍ شهدتها جامع القلْـ ... ـب فلم تنكر الكُماة مكاني

وإذا مـا الـحـسـام كـان قـصـيـراً　　طَـوَّلَـتْـه إلى الـعـدوّ بـنـانِـي

من الناس من يرويها في ديوانه «الجاني» بالجيم، أي حملت الحمالة عنه، ومنهم من يرويها بالحاء، يعني الخمَّار.

ومن المعنى المذكور أوّلاً قولُ بعض الشعراء، يمدح صخر بن عمرو بن الشريد الأسلميّ:

إنّ ابـنَ عـمـرو بـن الـشَّـريـــدِ لــه فـخـارٌ لا يــرامُ

وحِـجـاً إذا عُـدِمَ الـحـجـا　　ونَـدًى إذا بَـخِـلَ الـغـمـامُ

يَـصِـلُ الـحُـسـام بـخـطـوِه　　فـي الـرَّوع إن قَـصُـر الـحُـسَـامُ

ومثله قول الراجز:

يـخطُو إذا مـا قـصّـر الـعَـضْـب الـذَّكَـرْ　　خـطـواً تَـرَى مـنـه الـمـنـايـا تـبـتـدرْ

ومثله:

وإنـا لَـقَـوْمٌ مـا نَـرَى الـقـتْـل سُـبّـةً　　إذا مـا رأتـه عَـامِـرٌ وسَـلُـولُ

يـقـصّـر ذِكْـرُ الـمـوتِ آجـالَـنَـا لـنـا　　وتَـكْـرَهُـهُ آجـالُـهُـمْ فَـتَـطُـولُ

ومنها:

وإن قَـصُـرَتْ أسـيـافُـنـا كَـانَ وَصْـلُـهـا　　خُـطَـانـا إلـى أعـدائـنـا فـتـطـولُ

ومثله قول وَدّاك بن ثميل المازنيّ:

مـقـاديمُ وَصّـالـون فـي الـرَّوْع خَـطْـوَهُـمْ　　بـكـلّ رقـيـق الـشَّـفْـرَتَـيْـنِ يـمَـانِـي

إذا اسْتُنْجِدُوا لـم يـسـألـوا مَـنْ دَعَـاهُـمُ　　لأيّـةِ حَـرْبٍ أم بِـأيّ مـكـانِ

وقال آخر:

إذا الـكُـمـاة تـنـحَّـوْا أن يـصـيـبَـهُـمُ　　حَـدّ الـسُّـيـوف وَصَـلْـنَـاهـا بـأيْـدِيـنـا

وقال آخر:

وَصَـلْـنـا الـرِّقـاق الـمـرهـفـاتِ بـخـطـونـا　　على الـهَـوْل حتى أمكنتنا المضارب

وقال بعض الرجاز:

الـطَّـاعِـنُـون فـي الـنُّـحـورِ والـكُـلَـى　　والـواصِـلُـون لـلـسـيـوف بـالـخُـطـا

قوله عليه السلام: «واعلموا أنكم بعين الله» أي يراكم ويعلم أعمالكم، والباء ها هنا كالباء في قوله: «أنت بمرأى مني ومسمع».

قوله: «فعاودوا الكرّ» أي إذا كررتم على العدوّ كرَّة فلا تقتصروا عليها، بل كرّوا كرّة أخرى بعدها، ثم قال لهم: «واستحيوا من الفرار، فإنه عار في الأعقاب»، أي في الأولاد، فإنّ

الأبناء يعيّرون بفرار الآباء. ويجوز أن يريد بالأعقاب جمع عَقِب، وهو العاقبة وما يؤول إليه الأمر، قال سبحانه: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾(١)، أي خير عاقبة، فيعني على هذا الوجه أنّ الفرار عارٌ في عاقبة أمركم، وما يتحدّث به الناس في مستقبل الزمان عنكم.

ثم قال: «ونار يوم الحساب»، لأن الفِرَار من الزحف ذنب عظيم، وهو عند أصحابنا المعتزلة من الكبائر، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾(٢)، والجهاد بين يدي الإمام، كالجهاد بين يدي الرسول عليه السلام.

قوله عليه السلام: «وطِيبُوا عن أنفِسكم نَفْساً»، لمّا نصب «نفساً» على التميز وحّده، لأن التميز لا يكون إلا واحداً، وإن كان في معنى الجمع، تقول: انعموا بالاً، ولا تضيقوا ذَرْعاً * وأبقى «الأنفس» على جمعها لَمّا لم يكُنْ به حاجة إلى توحيدها، يقول: وطّنُوا أنفَسكم على الموت ولا تكرهوه، وهوّنوه عليكم، تقول: طِبْتُ عن مالي نَفساً، إذا هَوّنت ذهابه.

وقوله: «وامشُوا إلى الموت مَشْياً سُجُحاً»، أي سهلاً، والسجاحة: السهولة، يقال: في أخلاق فلان سَجاحة، ومن رواه «سمحاً» أراد سهلاً أيضاً.

والسّواد الأعظم، يعني به جُمهور أهلِ الشام.

قوله: «والرّواق المطنّب»، يريد به مضرِب معاوية ذا الأطناب، وكان معاوية في مضرب عليه قُبّة عالية، وحَوْلَه صناديد أهل الشام. وثَبَجه: وَسطَه، وثبج الإنسان: ما بين كاهله إلى ظهره.

والكِسْر: جانب الخِباء. وقوله: «فإنّ الشيطان كامنٌ في كِسْره»، يحتمل وجهين، أحدُهما: أن يعنَى به الشيطان الحقيقيّ، وهو إبليس، والثاني: أن يعنيَ به معاوية. والثاني هو الأظهر للقرينة التي تؤيده، وهي قوله: «قد قَدّم للوثبة يداً، وأخّر للنكوص رجلاً»، أي إن جبنتم وثَب، وإن شجعتم نكَص، أي تأخر وفرَّ، ومَنْ حمله على الوجه الأوّل جعله من باب المجاز، أي أن إبليس كالإنسان الذي يعتوره دواعٍ مختلفة بحسب المتجدّدات، فإن أنتم صدقتم عدوّكم القتال فرَّ عنكم بفرار عدوكم، وإن تخاذلتم وتواكلتم طمع فيكم بطمعه، وأقدم عليكم بإقدامه.

وقوله عليه السلام: «فصَمْداً صمْداً» أي اصمدوا صمداً، صمداً، صمدت لفلان أي قصدت له.

وقوله: «حتى ينجليَ لكم عمودُ الحق»، أي يسطع نورُه وضوءُه، وهذا من باب الاستعارة. والواو في قوله: «وأنتم الأعلَوْن» واو الحال.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٤.   (٢) سورة الأنفال، الآية: ١٦.

ولن يَتِرَكم أعمالكم، أي لن ينقصكم، وها هنا مضافٌ محذوف تقديره: جزاء أعمالكم، وهو من كلام الله تعالى رَصّع به خطبتَه، عليه السلام.

وهذا الكلام خَطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام في اليوم الذي كانت عشيته ليلة الهرير في كثير من الروايات.

وفي رواية نصر بن مزاحم أنّه خَطَب به في أوّل أيام اللقاء والحرب بصِفّين، وذلك في صفر من سنة سبع وثلاثين.

وقعة صفين

قال نصر: كان عليّ عليه السلام يركب بغلةً له يستلذّها، قبل أن يلتقي الفئتان بصِفّين، فلما حضرت الحرب وبات تلك الليلة يعبّى الكتائب حتى أصبح قال: ائتوني بفرس، فأُتِيَ بفرس له ذَنُوب أذهم، يُقاد بشَطنَيْن، يبحث الأرض بيديه جميعاً، له حَمْحَمة وصهيل، فركبه، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شِمر، عن جابر الجعفيّ، قال: كان علي عليه السلام إذا سار إلى قتال، ذكر اسم الله قبل أن يركب، كان يقول: الحمدُ لله على نِعَمِه علينا وفضله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[١] ثم يستقبل القبلة، ويرفع يديه إلى السماء ويقول: اللهمَّ إليك نُقِلت الأقدام، وأُتعبتِ الأبدان، وأفضتِ القلوب، ورُفعت الأيدي، وشَخصت الأبصار: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٢]، ثم يقول: سيروا على بركة الله، ثم يقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، يا الله يا أحد يا صمد، يا ربّ محمد، اكفف عنا بأس الظالمين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[٣] بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال: وكانت هذه الكلمات شعاره بصفّين.

قال: وروى سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نُباتة، قال: ما كان عليّ عليه السلام في قتال إلا نادى: يا كهيعص.

قال نصر: وحدّثنا قيس بن الربيع، عن عبد الواحد بن حسّان العِجْليّ، عمّن حدّثه أنه سمع عليًا عليه السلام يقول يوم لقائه أهل الشّام بصفين: اللهمّ إليك رُفعت الأبصار، وبُسطت الأيدي،

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ١٣، ١٤. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٣) سورة الفاتحة، الآيات: ٢ - ٥.

ونقِلت الأقدام، ودعت الألسن، وأفضت القلوب، وتُحوكم إليك في الأعمال. فاحكم بيننا وبينهم بالحقّ، وأنتَ خير الفاتحين. اللهمَّ إنا نشكو إليك غَيْبَة نبينا، وقِلَّة عددنا، وكثرة عدوّنا، وتشتّت أهوائنا، وشدّة الزمان، وظهور الفِتن، فأعنّا على ذلك بفتح منك تعجِله، ونصر تعزّ به سلطان الحق وتظهره.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن سلاّم بن سويد، عن عليّ عليه السلام في قوله: «وألزَمَهم كلمة التقوى»، قال: هي لا إله إلا الله، وفي قوله: «الله أكبر» قال: هي آية النصر.

قال سلاّم: كانت شعارَه عليه السلام يقولها في الحرب، ثم يحمِل فيورد - والله - مَن اتّبعه ومن حَادَّه حياض الموت.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن عبد الرحمن بن جُندب، عن أبيه قال: لما كان غداة الخميس لسبع خَلَوْن من صفَر من سنة سبع وثلاثين، صلى عليٌّ عليه السلام الغداة فَغلَّس، ما رأيتُ عليًّا غَلَّس بالغَدَاة أشدَّ من تغليسه يومئذ. وخرج بالناس إلى أهل الشام، فزحف نحوَهم، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم، فإذا رأوْه قد زَحَف استقبلوه بزحوفهم.

قال نصر: فحدثني عمر بن سعد، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، قال: لما خرجَ عليٌّ عليه السلام غداة ذلك اليوم فاستقبلوه، رفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهمَّ ربَّ هذا السقف المحفوظ المكفوف، الذي جعلته مُحيطاً بالليل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر، ومنازل الكواكب والنجوم، وجعلت سكّانه [سِبْطاً] من الملائكة لا يسأمون العبادة، وربَّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوامّ والأنعام، وما لا يحصى مما يُرَى ومما لا يُرَى، من خَلْقِك العظيم، وربَّ الفُلْك التي تجري في البحر المحيط بما ينفع الناسَ، وربَّ السحاب المسخّرِ بين السماء والأرض، وربَّ البحر المسجور، المحيط بالعالمين، وربَّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق متاعاً، إن أظهرتَنا على عدّونا، فجنِّبنا البغي، وسدّدنا للحق. وإن أظهرتهم علينا فارزقْنا الشهادة، واعْصم بقيّة أصحابي من الفتنة.

قال: فلما رأوه قد أقْبل تقدّموا إليه بزحوفهم، وكان على ميمنته يومئذ عبد الله بن بُدَيل بن ورقاء الخُزاعيّ، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقرّاء العراق مع ثلاثة نفر: عمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عُبادة، وعبد الله بن بُدَيل، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعليّ عليه السلام في القلْب في أهل المدينة، جمهُورهم الأنصار، ومعه من خُزاعة ومن كنانة عدد حسن.

قال نصر: وكان عليّ عليه السلام رجلاً رَبْعة، أدْعَج العينين، كأن وجهه القمر ليلة البدر حسناً، ضخم البطن، عريض المسْرُبة، شَثْن الكفين، ضخم الكُسور، كأنّ عنقه إبريقُ فِضة، أصلعُ من خلفه شعر خفيف، لمنكبه مُشاش كمشاش الأسد الضاري، إذا مشى تكفّأ ومارَ به جسدُه،

ولظهره سنام كسنام الثَّوْر لا يبين عَضدُه من ساعده قد أُدمِجَت إدماجاً، لم يمسك بذِراع رجل قطّ إلا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس، ولونه إلى سمرة مّا، وهو أذلف الأنف، إذا مشى إلى الحرب هَرْوَل، قد أيّده الله تعالى في حُروبه بالنصر والظفَر.

قال نصر: ورفع معاوية قبّة عظيمة وألقى عليها الكرابيس، وجلس تحتها.

قال نصر: وقد كان لهم قبل هذا اليوم أيام ثلاثة، وهي الرابع من صفر هذا، واليوم الخامس، واليوم السادس، كانت فيها مناوشات وقتال، ليس بذلك الكثير، فأما اليوم الرابع، فإنّ محمد بن الحنفِيّة عليه السلام، خرج في جَمْع من أهل العراق، فأخرج إليه معاويةُ عبيدَ الله بن عمر بن الخطاب في جَمْع من الشام، فاقتتلوا. ثم إن عبيد الله بن عمر أرسلَ إلى محمد بن الحنفيّة: أن اخرجُ إليّ أبارزْك، فقال: نعم، ثم خرج إليه، فبصُر بهما عليّ عليه السلام، فقال: مَنْ هذان المتبارزان؟ قيل: محمد بن الحنفيّة وعبيد الله بن عمر، فحرّك دابته، ثم دعا محمداً إليه، فجاءه فقال: أمسِك دابتي، فأمسكها، فمشى راجلاً بيده سيفُه نحو عبيد الله، وقال له: أبا أنا رزُك، فهلمَّ إليّ، فقال عبيد الله: لا حاجةَ بي إلى مبارزتك، قال: بلى، فهلم إليّ، قال: لا أبارزُك، ثم رجع إلى صَفّه، فرجع عليٌّ عليه السلام، فقال ابنُ الحنفيّة: يا أبتِ منعتَني من مبارزته؟ فوالله لو تركتني لرجوتُ أن أقتله! قال: يا بنيّ، لو بارزته أنا لقتلتُه، ولو بارزته أنت لرجوتُ لك أن تقتله، وما كنتُ آمنُ أن يقتلك، فقال: يا أبتِ أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدوّ الله! والله لو أبوه يسألُك المبارزة لرغبتُ بك عنه، فقال: يا بنيَّ لا تذكر أباه، ولا تَقُلْ فيه إلا خيراً، رحِمَ الله أباه!

قال نصر: وأما اليوم الخامس، فإنه خرج فيه عبدُ الله بن العباس، فخرج إليه الوليد بن عُقبة، فأكثر منْ سبّ بني عبد المطلب، وقال: يا بن عباس: قطعتم أرحامَكم، وقتلتم إمامكم، فكيف رأيتم صُنْع الله بكم! لم تُعْطَوْا ما طلبتم، ولم تدركوا ما أمّلتم، والله - إن شاء - مُهلكُكم، وناصرنا عليكم. فأرسل إليه عبد الله بن العباس: أن ابرُز إليّ، فأبى أن يفعل، وقاتل ابنُ عباس ذلك اليوم قتالاً شديداً، ثم انصرفوا وكلٌّ غير غالب.

قال نصر: وخرج في ذلك اليوم شَمِر بن أبرهة بن الصباح الحميريّ، فلحِق بعليّ عليه السلام في ناس من قراء أهل الشام، ففتّ ذلك في عَضُد معاوية وعمرو بن العاص، وقال عمرو: يا معاوية، إنّك تريد أن تقاتل بأهل الشام رَجُلاً له من محمد صلى الله عليه وآله قرابة قريبة، ورحِم ماسَّة، وقدمٌ في الإسلام لا يعتدّ أحد بمثله، وحدَّة في الحرب لم تكنْ لأحد من أصحاب

محمد ﷺ، وإنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقُرّائهم وأشرافهم وقدمائهم في الإسلام، ولهم في النفوس مهابة، فبادر بأهل الشام مخاشن الأوعار، ومضايق العِياض، واحمِلْهم على الْجَهْد، وائتهم من باب الطمع قبل أن ترفّههم فيحدث عندهم طولُ المقام مللاً، فتظهر فيهم كآبة الخِذلان. ومهما نسيت فلا تنسَ أنّك على باطل، وأن عليًّا على حقّ، فبادر الأمر قبل اضطرابه عليك. فقام معاوية في أهل الشام خطيباً، فقال:

أيها الناس: أعيرونا جماجِمكم وأنفسكم، لا تقتتلوا ولا تتجادلوا، فإن اليومَ يوم خِطَارٍ، ويوم حقيقة وحفاظ، إنكم لعلى حق، وبأيديكم حُجَّة، إنما تقاتلون مَنْ نكث البيعة، وسَفَك الدم الحرام، فليس له في السماء عاذِر.

قدّموا أصحاب السلاح المستلئمة، وأخِّروا الحاسر، واحملوا بأجمعكم، فقد بلغ الحقُّ مقطعه، وإنما هو ظالم ومظلوم.

قال نصر: وخطب علي عليه السلام أصحابه فيما حدثنا به عمر بن سعد، عن أبي يحيى، عن محمد بن طلحة، عن أبي سنان، عن أبيه قال: كأنّي أنظرُ إليه متوكئاً على قوسِه، وقد جمع أصحاب رسول الله ﷺ عنده، فهم يلُونه، كأنه أحبَّ أن يعلم الناس أنّ الصحابة متوافرون معه، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال:

أمّا بعدُ، فإن الخيلاء من التجبُّر، وإن النَّخْوة من التكبر، وإنّ الشيطان عدوٌّ حاضر، يعدُكم الباطل، ألا إنّ المسلم أخو المسلم، فلا تنابذُوا ولا تخاذلوا. ألا إنّ شرائع الدين واحدة، وسبله قاصدة، مَنْ أخذ بها لَحِق، ومن فارقها مُحِق، ومَنْ تركها مَرَق. ليس المسلم بالخائن إذا ائتمِن، ولا بالمخلِف إذا وعد، ولا بالكذاب إذا نطق. نحن أهل بيت الرحمة، وقولنا الصدق، وفعلنا القَصْد، ومِنّا خاتم النبيين، وفينا قادة الإسلام، وفينا حملة الكتاب. ألا إنّا ندعوكم إلى الله وإلى رسوله، وإلى جهاد عدوّه والشدة في أمره، وابتغاء مرضاته، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصِيَام شهر رمضان، وتوفير الفيء على أهله. ألا وإنّ مِنْ أعجب العجائب أنّ معاوية بن أبي سفيان الأمويّ وعمرو بن العاص السهميّ، أصبحا يحرّضان الناس على طلب الدِّين بزعمهما، ولقد علمتم أني لم أخالف رسول الله ﷺ قطّ، ولم أعصه في أمر، أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال، وتُرْعَد فيها الفَرائص، بنجدةٍ أكرمني الله سبحانه بها، وله الحمدُ. ولقد قُبِض رسول الله ﷺ وإنّ رأسه لفي حِجْري، ولقد وَليتُ غسله بيدي وحدي، تقلّبه الملائكة المقربون معي. وايمُ الله ما اختلفت أمةٌ قطّ بعد نبيّها إلاّ ظهر أهلُ باطلها على أهلِ حقها، إلا ما شاء الله.

قال أبو سنان الأسلميّ: فأشهد لقد سمعت عَمّار بن ياسر، يقول للناس: أما أمير المؤمنين فقد أعلَمكم أنّ الأمة لم تستقم عليه أولاً، وأنها لن تستقيم عليه آخراً.

قال: ثم تفرّق الناس، وقد نفذت أبصارهم في قتال عدوهم، فتأهبوا واستعدّوا.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب أنّ عليًا عليه السلام، قال في هذه الليلة: حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا! ثم قام في الناس فقال: الحمدُ لله الذي لا يُبْرَم ما نقض، ولا ينقَض ما أبرم، ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه، ولا تنازع البشر في شيء من أمره، ولا جَحَد المفضول ذا الفضل فضلَه. وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، حتى لفّت بيننا في هذا الموضع، ونحن مِنْ ربّنا بمرأى ومسمع، ولو شاء لعجّل النقمة، ولكان منه النصر، حتى يكذّب الله الظالم، ويعلم الحقُّ أين مصيره. ولكنه جَعَل الدنيا دار الأعمال، والآخرة دار الجزاء والقرار ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾[1]. ألا إنكم لاقو العدوّ غداً إن شاء الله، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن. واسألوا الله الصَّبْر والنصر، والقوْهم بالجِدّ والحزم، وكونوا صادقين.

قال: فوثب الناس إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم يصلحونها، وخرج عليه السلام فعبّى الناس ليلته تلك كلّها حتى أصبح، وعقد الألوية، وأمّر الأمراء، وكَتّب الكتائب، وبعث إلى أهل الشام منادياً نادى فيهم: اغدُوا على مصافكم. فضج أهلُ الشام في معسكرهم، واجتمعوا إلى معاوية فعبّى خيله، وعقد ألويته، وأمر أمراءه، وكتب كتائبه، وأحاط به أهلُ حِمْص في راياتهم، وعليهم أبو الأعور السُّلَميّ، وأهل الأردنّ في راياتهم، عليهم عمرو بن العاص، وأهل قِنّسرين وعليهم زُفر بن الحارث الكلابيّ، وأهل دمشق - وهم القلب - وعليهم الضحاك بن قيس الفِهْريّ، فأطافوا كلهم بمعاوية، وكان أهل الشام أكثر من أهل العراق بالضّعف، وسار أبو الأعور وعمرو بن العاص ومَنْ معهما، حتى وقفا بحيال أهل العراق، فنظرا إليهم، واستقلاّ جمعهم، وطمِعا فيهم، ونُصب لمعاوية منبر، فقعد عليه في قبّة ضربها، ألقى عليها الثياب والأرائك، وأحاط به أهلُ يَمنٍ، وقال: لا يقربَنَّ هذا المنبر أحد لا تعرفونه إلا قتلتموه كائناً مَنْ كان.

قال نصر: وأرسل عمرو إلى معاوية: قد عرفت ما بيننا من العهد والعَقْد، فاعصِبْ برأسي هذا الأمر، وأرسِل إلى أبي الأعور فنحّه عني، ودعني والقوم، فأرسل معاوية إلى أبي الأعور أن لأبي عبد الله رأياً وتجرِبة ليست لي ولا لك، وقد ولّيته أعنّة الخيل، فسِرْ أنت حتى تقف بخيلك على تلّ كذا ودعه والقوم.

فسار أبو الأعور، وبقي عمرو بن العاص فيمنْ معه واقفاً بإزاء عسكر العراق، فنادى عمرو ابنيْه: عبد الله ومحمداً، فقال لهما: قَدّمَا الدُّرّع، وأخّرا هؤلاء الحُسّر، وأقيما الصَّف قَصّ الشارب، فإن هؤلاء قد جاؤوا بخطة قد بلغت السماء.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣١.

فمشيا برايتهما، فعدّلا الصفوف، وسار بينهما عمرو فأحسن الصفّ ثانية، ثم حمل قيساً وكلبياً وكنانة على الخيول، ورجّل سائر الناس.

قال نصر: وبات كعب بن جعيل التغلَبيّ، شاعر أهل الشام تلك الليلة يرتجز وينشد:

أصبحت الأمّةُ في أمرٍ عَجَبْ ... والمُلْكُ مجموعٌ غداً لمن غَلَبْ

أقولُ قَوْلاً صادقاً غَيْرَ كَذِبْ ... إنّ غداً يهلِكُ أعلامُ العَرَبْ

غداً نُلاقي رَبَّنا فنحتسِبْ ... غداً يصيرون رماداً قَدْ ذَهَبْ

بعد الجَمالِ والحَياءِ والحَسَبْ ... يارَبِّ لا تُشْمِتْ بنا ولا تُصِبْ

مَنْ خَلَعَ الأنداد طُرًّا والصُّلُبْ

قال نصر: وقال معاوية: مَنْ في ميسرة أهل العراق؟ فقيل: ربيعة، فلم يجد في الشام ربيعة، فجاء بحِمْيَر، فجعلها بإزاء ربيعة على قرعة أقرعها بين حِمْير وعَكّ، فقال ذو الكَلاع الحميريّ: باستك مِنْ سَهْمٍ [لم تَبْغِ الضِّراب]! كأنّه أنِف عن أن تكون حمير بإزاء ربيعة، فبلغ ذلك حُجدراً الحنفيّ، فحلَف بالله إن عاينه ليقتلنّه أو ليموتَنّ دونه، فجاءت حمير حتى وقفت بإزاء ربيعة، وجعل السّكاسك والسَّكون بإزاء كندة، وعليهما الأشعث بن قيس، وجعل بإزاء هَمْدَان العراق الأزد، وبإزاء مذحِج العراق عَكًّا.

وقال راجز من أهل الشام:

ويلٌ لأمّ مَذْحِجٍ مِنْ عَكّْ ... وأمّهم قائمة تُبَكّي

نَصُكّهم بالسيفِ أيَّ صَكّْ ... فلا رجالَ كرجالِ عَكّْ

قال: وطرحت عكٌّ حَجَراً بين أيديهم، وقالوا: لا نفرّ حتى يفرّ هذا الحَكَر (بالكاف) - وعَكّ تقلب الجيم كافاً - وصفّ القلب خمسة صفوف، وفعل أهل العراق أيضاً مثل ذلك، ونادى عمرو بن العاص بأعلى صوته:

يأيّها الجندُ الصليبُ الإيمانْ ... قُوموا قياماً واستعينوا الرّحمْنْ

إنّي أتانِي خبرٌ ذو ألوانْ ... أنّ عليًّا قتل ابنَ عَفّانْ

رُدّوا علينا شيخَنا كما كانْ

فردّ عليه أهل العراق وقالوا:

أبَتْ سيوف مذحِجٍ وهَمْدَانْ ... بأنْ تَرُدَّ نَعْثَلاً كَما كانْ

خَلْقاً جديداً مثلَ خَلْقِ الرَّحْمٰن ذلك شأنٌ قد مَضَى وذَا شَانْ

ثم نادى عمرو بن العاص ثانية برفع صوته:

ردّوا علينا شيخَنا ثم بَجَلْ أو لا تكونُوا جَزَراً من الأَسَلْ[(١)]

فردّ عليه أهل العراق:

كيف نردّ نعثلاً وقد قَحَلْ! نحن ضربنا رأسَه حتى انجفَلْ

وأبدلَ الله به خيرَ بَدَلْ أعلمَ بالدّين وأزكى بالعَمل

وقال إبراهيم بن أوس بن عبيدة من أهل الشام:

لله درّ كتائب جاءتكُمُ تبكي فوارسُها عَلَى عثمانِ

تسعون ألفاً ليس فهم قاسطٌ يتلُون كلّ مفضلٍ ومثانِ

يَسَلُون حقّ الله لا يعدُونه ومجيبكم للملك والسّلطانِ

فأتُوا ببيِّنة عَلَى ما جئتمُ أو لا فحسبكمُ من العُدْوَانِ

وأتوا بما يمحو قِصاص خليفةٍ لله، ليس بكاذب خوَّانِ

قال نصر: وبات عليٌّ عليه السلام ليلتَه يعبّي الناس حتى إذا أصبح زحف بهم، وخرج إليه معاوية في أهل الشام فجعل يقول: مَنْ هذه القبيلة؟ ومَنْ هذه القبيلة؟ يعني قبائل أهل الشام، فيسمُّوْن له حتى إذا عرفهم، وعَرَف مراكزهم قال للأزد: اكفوني الأزد، وقال لخثعم: اكفوني خثعماً، وأمر كلَّ قبيلة من العراق أن تكفيَه أختها من أهل الشام، إلا قبيلة ليس منهم بالعراق إلا القليل مثل بَجِيلة، فإن لَخْماً كانت بإزائها. ثم تناهضَ القوم يوم الأربعاء سادس صفر واقتتلوا إلى آخر نهارهم، وانصرفوا عند المساء، وكلّ غير غالب.

قال نصر: فأمّا اليوم السابع فكان القتال فيه شديداً، والخَطْب عظيماً، وكان عبد الله بن بُديل الخُزَاعيّ على ميمنة العراق، فزحف نحو حبيب بن مسلمة، وهو على ميسرة أهل الشام، فلم يزل يَحُوزُه ويكشف خيله حتى اضطرَّ بهم إلى قُبّة معاوية وقت الظهر.

قال نصر: فحدّثنا عمر بن سعد، قال: حدّثنا مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، أنّ عبد الله بن بُدَيل قام في أصحابه فخطبهم فقال: ألا إنّ معاوية ادّعى ما ليس له، ونازع الأمر أهلَه ومن ليس مثله، وجادل بالباطل ليُدحِض به الحقّ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزيّن لهم الضَّلالَة. وزرَع في قلوبهم حُبّ الفتنة، ولبّس عليهم الأمور، وزادهم رِجْساً إلى

---

(١) الأَسَلُ: نبات، والرِّماح، والنَّبل، وشوك النخل، وعيدان تنبت بلا ورق يعمل منها الحصر. القاموس المحيط، مادة (أسل).

رجسهم، وأنتم - والله - على نور وبرهان [مبين] قاتلوا الطغاة الجفاة، قاتلوهم ولا تخشوْهم، وكيف تخشوْنهم، وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبين: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[١]، لقد قاتلتهم مع النبي ﷺ، والله ما هُمْ في هذه بأزكى، ولا أتقى، ولا أبرّ، انهضوا إلى عدوّ الله وعَدُوّكم.

قال نصرٌ: وحدّثنا عمر بن سعد، قال: حدّثني عبد الرحمن، عن أبي عمرو، عن أبيه، أنّ عليًّا عليه السلام خطب في ليلة هذا اليوم، فقال: معاشرَ المسلمين، استشعِرُوا الخشْية، وتَجَلْبَبُوا السكينة، وعَضّوا على النواجذ، فإنه أنبَى للسيوف عن الهام...»، الفصل بطوله إلى آخره، وهو المذكور في الكتاب[٢].

وروى نصر أيضاً بالإسناد المذكور أنّ عليًّا عليه السلام خطب ذلك اليوم، وقال: أيّها الناس، إنّ الله تعالى ذِكْره، قد دلّكم على تجارة تُنجيكم من العذاب، وتُشفِي بكم على الخير: إيمانٌ بالله ورسوله، وجهاد في سبيله، وجعلَ ثوابه مغفرة الذنوب، ومساكن طيبة في جناتِ عدن ورضوانٌ من الله أكبر، وأخبركم بالّذي يحبُّ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٣]، فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص، وقدّموا الدارع، وأخّروا الحاسر، وَعَضّوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، وأربط للجأش، وأسكن للقلوب. وأميتوا الأصوات، فإنه أطرد للفشل، وأولى بالوَقار، والتوُوا في أطراف الرماح، فإنه أمْوَر للأسنّة، ورايتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها، ولا تجعلوها إلاّ بأيدِي شجعانكم المانعي الذّمار، والصُّبُر عند نزول الحقائق، أهلِ الحفاظ، الذين يَحُفُّونَ برايتكم ويكتنفونها، يضربون خلفها وأمامها، ولا تضيّعوها. أجزَأ كلّ امرىءٍ [وَقَذَ] قِرْنه، وواسى أخاه بنفسه، ولم يَكِلْ قِرْنَه إلى أخيه، فيجمع عليه قِرْنه وقِرْن أخيه، فيكسب بذلك من الإثم، ويأتي به دناءة، أنّى هذا، وكيف يكون هكذا! هذا يقاتل اثنين، وهذا ممسك يدَه، قد خلّى قِرْنه إلى أخيه، هارباً منه، أو قائماً ينظر إليه! من يفعل هذا يمقته الله، فلا تعرَّضُوا لِمَقْت الله، فإنما مردّكم إلى الله، قال الله تعالى لقوم عابهم: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤]، وايمُ

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٤٦٦.
(٣) سورة الصف، الآية: ٤.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

الله لئن فررتم من سيفِ العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة، استعينوا بالصّدق والصبر، فإنه بعد الصبر ينزل النصر(١).

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، عن الشعبيّ، عن مالك بن قُدامة الأرحبيّ، قال: قام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بقُنَاصِرين فقال: الحمد لله الذي هَدَانا لدينه، وأورثَنا كتابه، وامتنّ علينا بنبيه، فجعلَه رحمةً للعالمين، وسيداً للمرسلين، وقائداً للمؤمنين، وخاتماً للنبيين، وحُجّة الله العظيم على الماضِين والغابرين، ثم كان فيما قضى الله وقدّره - وله الحمدُ على ما أحببنا وكرهنا - أن ضمّنا وعدوّنا بقُناصرين، فلا يجمُل بنا اليوم الحياص وليس هذا بأوانِ انصراف، ولات حين مناص، وقد خصّنا الله منه برحمة لا نستطيع أداء شكرها، ولا نقدر قدرها، إن أصحاب محمد المصطفَيْن الأخيار معنا، وفي حَيّز، فوالله الذي هو بالعباد بصير، أن لو كان قائدُنا رجلاً مجدّعاً، إلاّ أنّ معنا من البدريّيّن سبعين رجلاً لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا، وتطيب أنفسنا، فكيف وإنما رئيسنا ابن عمّ نبيّنا، بدريُّ صِدق، صلّى صغيراً، وجاهد مع نبيكم كثيراً، ومعاوية طَليق من وِثاق الإسار [وابن طليق]. ألا إنه أغوَى جفاة فأوردهم النار، وأورثهم العار، والله محِلّ بهم الذلّ والصَّغار. ألا إنكم ستلقون عدوّكم غداً، فعليكم بتقوى الله، من الجدّ والحزم، والصّدق والصبر، فإن الله مع الصابرين. ألا إنكم تفوزون بقتلهم، ويشقَوْن بقتلكم، والله لا يقتلُ رجلٌ منكم رجلاً منهم إلا أدخل الله القاتل جنات عدنٍ، وأدخل المقتول ناراً تَلَظّى ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾(٢) عصمنا الله وإياكم بما عصم به أولياءه، وجعلنا وإياكم ممن أطاعه واتقاه، وأستغفر الله العظيم لي ولكم وللمؤمنين.

ثم قال الشعبيّ: ولقد صدَّق فعلُه ما قال في خطبته.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر وزيد بن الحسن، قالا: طلب معاويةُ إلى عمرو بن العاص أن يسوّي صفوفَ أهل الشام، فقال له عمرو: عَلَى أنّ لي حُكْمي إن قَتَل الله ابن أبي طالب، واستوثقت لكَ البلاد! فقال: أليس حُكمك في مصر! قال: وهل مصر تكون عِوَضاً عن الجنّة، وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار الذي ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾! فقال معاوية: إنّ لك حكمَك أبا عبد الله إن قتِلَ ابن أبي طالب. رُويداً لا يسمع أهل الشام كلامك. فقام عمرو فقال: معاشرَ أهل الشام، سَوُّوا صفوفَكم قَصَّ الشارب، وأعيرونا جماجمكم ساعة، فقد بلغ الحقُّ مقطعه، فلم يبق إلا ظالم أو مظلوم.

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٤/ ١١.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧٥.

قال نصر: وأقبل أبو الهيثم بن التّيهان وكان من أصحاب رسول الله ﷺ بدريًا نقيباً عقبيًا، يسوِّي صفوف أهل العراق، ويقول: يا معشرَ أهل العراق، إنه ليس بينكم وبين الفتح في العاجل، والجنة في الآجل إلاَّ ساعة من النهار، فأرْسُوا أقدامَكم، وسوُّوا صفوفكم، وأعيروا ربّكم جماجمكم، استعينوا بالله إلهكم، وجاهدوا عدوَّ الله وعدوكم، واقتلُوهم قتلهم الله وأبادهم! واصبروا فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الفضل بن أدهم، عن أبيه أنّ الأشتر قام يخطب الناس بقُنَاصرين، وهو يومئذ على فَرَسٍ أدهم، مثل حَلَك الغراب، فقال:

الحمد لله الذي خلق السموات العُلَي﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾[1]، أحمده على حُسن البلاء، وتظاهر النعماء حَمْداً كثيراً، بُكرةً وأصيلاً، مَنْ هداه الله فقد اهتدى، ومن يُضِلْل فقد غَوَى، أرسل محمداً بالصواب والهدىٰ، فأظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون، صلى الله عليه وسلم. ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدّر أن ساقتْنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض، فلفَّت بيننا وبين عدوّ الله وعدوّنا، فنحن بحمد الله ونعمه، ومَنّه وفضله، قريرةٌ أعيننا، طيّبة أنفسنا، نرجو بقتالهم حسنَ الثواب، والأمنَ من العقاب، معنا ابن عمّ نبينا، وسيفٌ من سيوف الله عليّ بن أبي طالب، صلّى مع رسول الله، لم يسبقه إلى الصلاة ذكَر حتى كان شيخاً، لم تكن له صبْوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة، فقيه في دين الله تعالى، عالم بحدود الله، ذو رأي أصيل، وصبر جميل، وعَفاف قديم، فاتّقوا الله وعليكم بالحزْم والجدِّ، واعلموا أنكم على الحقّ، وأن القوم على الباطل، إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البَدْريِّين، قريب من مائة بدريّ، سوى مَنْ حولَكم من أصحاب محمد، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله، ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله، فما يشكّ في قتال هؤلاء إلا ميّت القلب، أنتم على إحدى الحسنيَيْن، إما الفتح وإما الشهادة، عَصَمنا الله وإياكم بما عَصَم به من أطاعه واتقاه، وألهمنا وإياكم طاعته وتقواه، وأستغفر الله لي ولكم.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبيّ، عن صعصعة بن صُوحان، عن زامل بن عمرٍو الجُذاميّ، قال: طلب معاوية إلى ذي الكَلاع أن يخطب الناس ويحرّضهم على قتال عليٍّ عليه السلام ومَنْ معه من أهل العراق، فعقَد فرسه، وكان من أعظم أصحاب معاوية خطراً، وخطب الناس، فقال:

الحمد لله حمداً كثيراً، نامياً واضحاً منيراً، بكرة وأصيلاً، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكّل عليه، وكفى بالله وكيلاً، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً

(١) سورة طه، الآيتان: ٥، ٦.

عبده ورسوله، أرسله بالفرقان إماماً، وبالهدى ودين الحق، حين ظهرت المعاصي، ودَرَست الطاعة، وامتلأت الأرضُ جَوْراً وضلالة، واضطرمت الدنيا نيراناً وفتنة، ووَرِك عدوّ الله إبليس، على أن يكون قد عبد في أكنافها، واستولَى على جميع أهلها، فكان محمد ﷺ هو الذي أطفأ الله به نيرانَها، ونزع به أوتادها، وأوْهَن به قُوَى إبليس وآيسه مما كان قد طمِع فيه من ظفره بهم، وأظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون، ثم كان من قضاء الله أن ضمّ بيننا وبين أهل ديننا بصفِّين، وإنّا لنعلم أنّ فيهم قوماً قد كانت لهم مع رسول الله ﷺ سابقة ذات شأن وخطر عظيم، ولكني ضربت الأمر ظهراً وبطناً، فلم أر يَسَعُنِي أن يُهدَرَ دمُ عثمان صهر نبيّنا ﷺ، الذي جَهّز جيش العُسْرة، وألْحَقَ في مصلى رسول الله بيتاً، وبنى سقاية، بايع له نبيّ الله بيده اليمنى على اليسرى، واختصّه بكريمتيه: أم كلثوم ورقية: فإن كان قد أذنب ذنباً فقد أذنبَ مَنْ هو خير منه، قال الله سبحانه لنبيه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1]، وقتل موسى نفساً، ثم استغفر الله فغفر له، وقد أذنب نوح، ثم استغفر الله فغفر له، وقد أذنب أبوكم آدم، ثم استغفر الله فغفر له، ولم يعرَ أحدُكم من الذنوب، وإنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبي طالب سابقة حَسَنة مع رسول الله ﷺ، فإن لم يكن مالأ على على قتل عثمان فلقد خَذَله، وإنّه لأخوه في دينه وابنُ عمه وسِلْفُه وابن عمّته. ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامَكُم، وبلادكم وبيضتكم، وإنّما عامّتُهم بين قاتل وخاذل، فاستعينوا بالله واصبروا. فلقد ابتليتم - أيتها الأمة - ولقد رأيت في منامي في ليلتي هذه، لكأنّا وأهل العراق اعتَورْنَا مصحفاً نضربُه بسيوفنا، ونحن في ذلك جميعاً ننادي: ويحكم الله! ومع أنّا والله لا نفارقُ العَرْصة حتى نموت، فعليكم بتقوى الله، ولتكن النيّات لله، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما يُبْعث المقتتلون على النّيّات»[2]، أفرغ الله علينا وعليكم الصبر، وأعزّ لنا ولكن النصر، وكان لنا ولكم في كلِّ أمر، وأستغفر الله لي ولكم.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن ابن عامر، عن صعصعة العبديّ، عن أبرهة بن الصباح، قال: قام يزيد بن أسد البَجليّ في أهل الشام يخطُب الناس بصِفّين، وعليه قَبَاء من خَزّ، وعمامة سَوْداء، آخذاً بقائم سيفه، واضعاً نَصْل السَّيْف في الأرض، متوكّئاً عليه. قال صعصعة: فذكَر لي أبرهة أنّه كان يومئذ من أجْمل العرب وأكرمها وأبلغها، فقال:

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.
(٢) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٢) وابن حجر في «لسان الميزان» (٤/ ٣٦٦) وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٣٠).

الحمدُ لله الواحدِ الفَرْد، ذي الطَّوْل والجلال، العزيز الجبّار، الحكيم الغفار، الكبير المتعال، ذي العطاء والفعال، والسّخاء والنوال، والبهاء والجمال، والمنّ والإفضال، مالك اليوم الذي لا بَيْع فيه ولا خِلال، أحمَدُه على حُسْن البلاء، وتظاهُرِ النعماء، وفي كل حالٍ من شدة أو رخاء. أحمدُه على نِعمَه التؤام، وآلائه العِظام، حَمْداً يستنير بالليل والنهار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له. كلمة النَّجاء في الحياة، وعند الوفاة، وفيها الخَلاص يوم القِصاص، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبيّ المصطفى، وإمامُ الهدى، صلى الله عليه وسلم. ثم كان من قضاء الله أنْ جَمَعنا وأهلَ ديننا في هذه الرُّقعة من الأرض، والله يعلم أني كنتُ كارهاً لذلك ولكنهم لم يبلعونا ريقَنا، ولم يتركونا نرتادُ لأنفسنا، وننظرُ لمعادنا، حتى نزلوا بين أظْهرنا، وفي حَرِيمنا وبَيْضتنا. وقد علمنا أن في القوم أحلاماً وطَغاماً، ولسنا نأمَنُ من طَغَامهم على ذرارينا ونسائنا، ولقد كنّا نحبُّ ألاّ نقاتل أهلَ ديننا، فأخرجُونا حتى صارت الأمور إلى أنْ قاتلناهم غداً حميّة فإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين!

أما والذي بعثَ محمداً بالرسالة، لودِدْت أني مِتّ منذ سنة، ولكنَّ الله إذا أرادَ أمراً لم يستطع العبادُ ردَّه، فنستعين بالله العظيم، وأستغفر الله لي ولكم.

قال نصر: وحدّثنا عمرو، عن أبي رَوْق الْهمْدانيّ أن يزيد بن قيس الأرحبيّ، حَرّض أهلَ العراق بصِفّين يومئذ، فقال: إن المسلم السليم مَنْ سَلِمَ دينُه ورأيه، وإنّ هؤلاء القوم - والله - ما إنْ يقاتلوننا على إقامة دين رأوْنا ضيَّعناه، ولا على إحياء حق رأوْنا أمتْناه، ولا يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا، ليكونوا فيها جبابرةً وملوكاً، ولو ظهرُوا عليكم - لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً - إذاً لوليَكم مثلُ سَعيد والوليد وعبد الله بن عامر السّفيه، يحدِّث أحدُهم في مجلسه بذَيْت وذيْت[1]، ويأخذُ مال الله ويقول: لا إثم عليّ فيه، كأنما أعطِي تُراثَه من أبيه، كيفَ! إنما هو مالُ الله، أفاءه علينا بأسيافِنا ورماحنا، قاتلوا عبادَ الله القومَ الظالمين، الحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا تأخذكم فيهم لومَة لائم، إنهم إن يظهروا عليكُم يفْسدوا عليكم دينَكم ودنياكم، وهمْ مَنْ قد عرفتم وجرّبتم، والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شرًّا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

قال نصر: وارتجز عمْرو بن العاص، وأرسل بها إلى عليّ:

(١) ذيت وذيت: كناية عن الحديث، مثل: «كيت وكيت».

لاَ تـأمَـنَـنَّـا بـعـدهَـا أبـا حَـسَـنْ   إنـا نُـمِـرّ الأمـرَ إمـرارَ الـرَّسَـنْ[1]

خُذْهَـا إليـك واعـلـمـنْ أبـا حَـسَـنْ

ويروى:

لـتـصـبـحـنّ مـثـلـهـا أم لُـبُـنْ   طـاحِـنَـةً تـدقّـكُـمْ دَقَّ الْـحـفَـنْ

قال: فأجابه شاعر من شعراء أهل العراق:

ألا احـذرُوا فـي حـربـكـم أبـا حـسَـنْ   لـيـثاً أبـا شِـبْـلَـيْـن مـحـذُور فَـطِـنْ

يـدقـكُـمْ دَقَّ الـمـهـارِيـسِ الـطُّـحُـنْ   لـتُـغْـبَـنَـنْ يـا جـاهـلاً أيّ غـبَـنْ

حـتـى تـعـضّ الـكـفّ أو تَـقْـرَع سِـنّ

قال نصر: فحدّثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن الشعبيّ أن أوّل فارسيْن التقَيا في هذا اليوم - وهو اليوم السابع من صَفَر، وكان من الأيام العظيمة في صِفِّين، ذا أهوال شديدة - حُجْر الخير وحُجْر الشرّ، أما حُجْر الخير فهو حُجْر بن عديّ، صاحب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأما حُجْر الشرّ فابن عمّه، كلاهما من كِنْدة، وكان من أصحاب معاوية، فاطّعنا برمحيهما، وخرج رجلٌ من بني أسَد، يقال له خزيمة، من عَسْكر معاوية، فضرَب حُجْر بن عديّ ضربةً برمحه، فَحَمَل أصحابُ عليّ عليه السلام فقتلوا خزيمة الأسديّ، ونجا حُجْر الشرّ هارباً، فالتحق بصفّ معاوية. ثم برز حُجْر الشرّ ثانية، فبرز إليه الحكَم بن أزهر من أهل العراق، فقتله حُجْر الشرّ، فخرج إليه رفاعة بن ظالم الحميريّ، من صفّ العراق فقتله، وعاد إلى أصحابه يقول: الحمد الله الذي قُتل حُجْر الشرّ بالحكَم بن أزهر.

ثم إن عليًّا عليه السلام دَعا أصحابه إلى أنْ يذهب واحد منهم بمصحَفٍ كان في يده إلى أهل الشام، فقال: مَنْ يذهب إليهم، فيدعوهم إلى ما في هذا المصحف؟ فسكت الناس، وأقبل فتًى اسمه سعيد، فقال: أنا صاحبُه، فأعاد القول ثانية، فسكَت الناس، وتقدم الفتى، فقال: أنا صاحبه، فسلّمه إليه فقبضه بيده، ثم أتاهم فأنشدهم الله، ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه، فقال عليّ عليه السلام لعبد الله بن بُدَيل ابن ورقاء الخزاعيّ: احمِلْ عليهم الآن. فحمَل عليهم بمن معه من أهل الميمنة، وعليه يومئذ سَيْفان ودرعان، فجعل يضرب بسيفه قُدُماً، ويقول:

لَـمْ يَـبْـقَ غَـيْـرُ الـصَّـبْـرِ والـتَّـوكُّـلْ   والـتُّـرس والـرمـح وسـيـفٌ مِـقْـصَـلْ

ثـم الـتـمـشّـي فـي الـرَّعـيـل الأوّلْ   مَـشْـيَ الـجـمـالِ في حياض الـمـنـهـلْ

---

(١) الرَّسَن: الحبل، وما كان من زمام على أنف. القاموس المحيط، مادة (رسن).

فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية، والذين بايعوه إلى الموت، فأمرهم أن يصمُدوا لعبد الله بن بُدَيل، وبعث إلى حبيب بن مسلمة الفِهْريّ وهو في الميسرة، أن يحملَ عليه بجميع مَنْ معه، واختلط النَّاس، واضطرم الفَيْلقَان[1]، ميمنة أهل العراق وميسرة أهل الشام، وأقبل عبدُ الله بن بُدَيْل يضرِب الناس بسيْفه قُدُماً، حتى أزال معاوية عن مَوْقفه وجعل ينادي: يا ثَاراتِ عثمان! وإنما يعني أخاً له قد قتل، وظن معاوية وأصحابُه أنه يعني عثمان بن عفان، وتراجع معاوية عن مكانه القَهْقَرَى كثيراً وأشفق على نفسه، وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية، وثالثة، يستنجده ويستصرخه، ويحمل حبيب حَملةً شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق، فكشفها حتى لم يبق مع ابن بُديل إلا نحو مائة إنسان من القرّاء، فاستَند بعضُهم إلى بعض، يحمُون أنفسهم، ولجّج ابن بديل في النّاس وصمم على قتل معاوية، وجعل يطلُب موقفه، ويصمُد نحوه، حتى انتهى إليه، ومع معاوية عبد الله بن عامر واقفاً، فنادى معاوية في الناس: وَيْلَكُم! الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح. فرضَخَه الناس بالصَّخر والحجارة، حتى أثخنُوه فسقط، فأقبلوا عليه بسيوفهم، فقتلوه.

وجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه، فأمّا عبد الله بن عامر فألقى عمامته على وجهه، وترحّم عليه، وكان له أخاً صديقاً من قبلُ، فقال معاوية: اكشف عن وجهه فقال: لا والله لا يمثّل به وفيّ روح! فقال معاوية: اكشف عن وجهه فإنا لا نمثّل به، قد وهبناه لك. فكَشَف ابن عامر عن وجهه، فقال معاوية: هذا كبْش القوم وربِّ الكعبة، اللهمَّ أظفِرْني بالأشتر النخعي والأشعث الكنديّ! والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر:

أخُو الحَرْب إن عَضّت به الحربُ عَضَّها ... وإن شمَّرَت عن سَاقِها الحربُ شَمَّرَا
ويحمِي إذا الموتُ كان لقاؤه ... قِدَى الشِّبْر يحمي الأنفَ أن يتأخّرا[2]
كليثٍ هِزَبْرٍ كان يحمي ذِمَارَهُ ... رمَتْه المنايا قَصْدَها فتقَطّرا

ثم قال: إنّ نساء خُزاعة لو قدرت على أنْ تقاتلني فَضْلاً عن رجالها، لفعلت.

قال نصر: فحدّثنا عمرو، عن أبي رَوق، قال: استعلى أهلُ الشام عند قتل ابن بُديل على أهل العراق يومئذ، وانكشف أهلُ العراق من قِبَل الميمنة، وأجْفَلوا إجفالاً شديداً، فأمر عليّ عليه السلام سَهْل بن حُنَيف، فاستقدم مَنْ كان معه، ليرفد الميمنة ويُعَضّدها، فاستقبلهم جموعُ أهل الشام في خَيْلٍ عظيمة، فحملتْ عليهم، فألحقتهم بالميمنة، وكانت ميمنةُ أهْلِ العراق

(١) الفَيْلَق: الجيش، جمعها فيالق. القاموس المحيط، مادة (فلق).
(٢) قِدَى الشّبر: قيد الشبر. لسان العرب، مادة (قدا).

متصلةً بموقف عليّ عليه السلام في القَلْب في أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ عليه السلام، فانصرف يمشي نحو الميسرة، فانكشف مُضَر عن الميسرة أيضاً، فلم يبق مع عليّ عليه السلام من أهل العراق إلا ربيعة وحدها في الميسرة.

قال نصر: فحدثنا عمرو، قال: حدثنا مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، قال: لقد مَرّ عليّ عليه السلام يومئذ ومعه بنوه نحو الميسرة، ومعه ربيعة وحدها، وإنّي لأرى النَّبْل يمرّ بين عاتقه ومَنكِبيه، وما من بنيه إلا مَنْ يقيه بنفسه، فيكره عليّ عليه السلام ذلك. فيتقدّم عليه، ويحول بينه وبين أهل الشام ويأخذه بيده إذا فعل ذلك، فيلقيه من ورائه، ويبصر به أحمر مولى بني أمية، وكان شجاعاً، وقال عليّ عليه السلام: وربّ الكعبة، قتلني الله إن لم أقتلك! فأقبل نحوه، فخرج إليه كَيْسان مولى عليّ عليه السلام، فاختلفا ضربتيْن، فقتله أحْمر، وخالط عليًّا ليضربَه بالسيف، وينتهزه عليّ، فتقع يده في جَيْب دِرْعه، فجذبه عن فرسه، فحمله على عاتقه، فوالله لكأنّي أنظرُ إلى رِجْلي أحمر تختلفان على عُنق عليّ، ثم ضرب به الأرض، فكسر مَنْكِبه وعَضُدَيْه، وشدّ ابنا عليّ: حسين ومحمد فضرباه بأسيافهما حتى بَرَد، فكأني أنظر إلى عليّ قائماً، وشِبْلاه يضربان الرَّجُل حتى إذا أتيا عليه، أقبلا على أبيهما، والحسن قائم معه، فقال له عليّ: يا بنيّ، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك؟ فقال: كَفَياني يا أمير المؤمنين.

قال: ثم إنّ أهل الشام دنَوْا منه يريدونه، والله ما يزيدُه قربهم منه ودونوّهم إليه سرعة في مشيته، فقال له الحسن: ما ضرّك لو أسرعت حتى تنتهيَ إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك؟ قال: يعني ربيعة الميسرة - فقال عليّ: يا بنيّ إنّ لأبيك يوماً لن يعدُوَه ولا يبطىء به عند السعْي، ولا يقرِّبه إليه الوقوف، إن أباك لا يبالي، إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمِر، عن جابر، عن أبي إسحاق قال: خرج عليّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين، وفي يده عَنَزة، فمرّ على سعيد بن قيس الهمْدانيّ، فقال له سعد: أما تخشَى يا أمير المؤمنين أنْ يغتالك أحدٌ وأنت قُرْب عَدوّك؟ فقال عليّ عليه السلام: إنّه ليس من أحد إلا وعليه من الله حَفَظة يحفظونه من أن يتردَّى في قَلِيب، أو يخرّ عليه حائط، أو تصيبه آفة، فإذا جاء القَدَر خَلّوا بينه وبينه.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن فُضَيل بن خَديج، قال: لما انهزمتْ ميمنةُ العراق يومئذ أقبلَ عليّ عليه السلام نحو الميسرة يركُض، يستثيبُ الناس ويستوقفهم، ويأمُرهم بالرجوع نحو الفَزَع، فمرّ بالأشتر، فقال: يا مالك، قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: ائت هؤلاء القَوم، فقل لهم: أين فِراركم من الموت الذي لن تُعجزوه، إلى الحياة التي لا تَبْقى لكم! فمضى الأشتر، فاستقبل

الناس منهزمين، فقال لهم الكلمات، وناداهم: إليّ أيها الناس، أنا مالك بن الحارث، يكرّرها، فلم يَلْوِ أحدٌ منهم عليه، وظنّ أنّ «الأشتَر» أعرفُ في الناس من «مالك بن الحارث»، فجعل ينادي: ألا أيها الناس، فأنا الأشتر، فانقلبَ نحوه طائفةٌ، وذهبت عنه طائفة، فقال: عَضَضْتُم بهَنِ أبيكم! ما أقبَح والله ما فعلتم اليوم! أيّها الناس، غُضّوا الأبصار، وعَضّوا على النواجذ، واستقبلوا القوم بهامِكم وشدُّوا عليهم شدّة قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم، حَنَقاً على عدوّهم. قد وطّنُوا على الموت أنفسَهم كي لا يُسبقوا بثأر. إنّ هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا عن دينكم، ليطفئوا السُّنّة، ويحيُوا البِدْعة، ويُدخلوكم في أمرٍ قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة، فطِيبوا عبادَ الله نفساً بدمائكم دون دينكم، فإنّ الفِرار فيه سَلْبُ العِزّ والغَلَبة على الفيء، وذلّ المحيَا والممات، وعارُ الدنيا والآخرة، وسَخَط الله وأليم عقابه.

ثم قال: أيّها الناس، أخلصوا إليّ مذحِجاً، فاجتمعت إليه مذحِج فقال لهم: عَضَضْتُم بِصُمّ الجندل! ولله ما أرضيتم اليوم ربّكم، ولا نصحتم له في عَدُوّه، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات، وفِتيان الصباح، وفرسان الطِّراد، وحتُوف الأقران، ومذحِج الطّعان، الذين لم يكونوا سُبِقوا بثأرهم، ولم تُطلّ دماؤهم، ولم يعرفوا في موطنٍ من المواطن بخسْفٍ! وأنتم سادة مِصْركم، وأعزّ حَيّ في قومكم، وما تفعلُوا في هذا اليوم فهو مأثورٌ بعد اليوم، فاتّقوا مأثُور الحديث في غدٍ، واصدقوا عدوَّكم اللقاء، فإنّ الله مع الصابرين، والذي نفس مالكٍ بيده ما من هؤلاء - وأشارَ بيده إلى أهلِ الشام - رجلٌ على مثل جَناح البعوضة من دين الله، لله أنتم! ما أحسنتم اليوم القِراع، اخبِسوا سوادَ وجهي يرجعْ فيه دمي، عليكم هذا السواد الأعظم، فإن الله لو قد فَضّه تَبعه من بجانبيه كما يتبَع السيل مقدَمه.

فقالوا: خذ بنا حيث أحببتَ، فصمَد بهم نحو عُظْمهم واستقبله أشباهُهم من هَمْدان، وهم نحو ثمانمائة مقاتل قد انهزموا آخرَ الناس، وكانوا قد صَبروا في ميمنة عليّ عليه السلام، حتى قُتِل منهم مائة وثمانون رجلاً، وأصيب منهم أحدَ عشر رئيساً، كلما قتِل منهم رئيس أخذ الراية آخر، وهم بنو شُرَيح الهمْدانيون وغيرهم من رؤساء العشيرة، فأوّل مَنْ أصيب منهم كُريب بن شريح، وشرحبيل بن شريح، ومرثد بن شريح، وهبيرة بن شريح، وهريم بن شريح، وشهر بن شُريح، وشَمر بن شريح، قتل هؤلاء الإخوة الستّة في وقت واحد.

ثم أخذ الراية سفيان بن زيد، ثم كرب بن زيد، ثم عبد بن زيد، فقُتِل هؤلاء الإخوة الثلاثة أيضاً، ثم أخذ الراية عمير بن بشر، ثم أخوه الحارث بن بشْر، فقتلا جميعاً، ثم أخذ الراية أبو القلوص وهب بن كُريب، فقال له رجل من قومه: انصرف يرحمك الله بهذه الراية، ترّحَها الله فقد قُتِل الناس حَوْلها، فلا تقتل نَفْسَك، ولا مَنْ بقي معك. فانصرفوا وهم يقولون: ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا على الموت، ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نظفر أو نقتل،

فمرُّوا بالأشتر وهم يقولون هذا القول فقال لهم الأشتر: أنا أحالفكم وأعاقِدكم على ألا نرجع أبداً، حتى نظفَر أو نهلِك، فوقفوا معه على هذه النِّية والعزيمة، فهذا معنى قول كَعْب بن جُعَيل:

وهمدان زُرْقٌ تبتغِي مَنْ تحالفُ

قال: وزحف الأشترُ نحو الميمنة، وثاب إليه أناس تراجَعُوا من أهل الصبر والوفاء والحياء، فأخذ لا يصمدُ لكتيبة إلاّ كَشفها، ولا لجمع إلا حازه وردّه، فإنه لكذلك إذا مرّ بزياد بن النضر مستلحِماً، فقال الأشتر: هذا والله الصبر الجميل، هذا والله الفعل الكَريم إليّ، وقد كان هو وأصحابه في ميمنة العراق، فتقدم فرفع رايتَه لهم، فصبروا وقاتل حتى صُرِع، ثم لم يلبث الأشتر إلا يَسيراً كَلاَ شيء حتى مَرّ بهم يزيد بن قيس الأرحبيّ مستلحِماً أيضاً محمولاً، فقال الأشتر: مَنْ هذا؟ قالوا: يزيد بن قيس، لما صُرِع زياد بن النضر دَفَع رايتَه لأهل الميمنة، فقاتل تحتها حتى صُرِع، فقال الأشتر: هذا والله الصبر الجميل، هذا والله الفعل الكريم، ألا يستحيي الرجلُ أن ينصرف لَمْ يَقْتُل [ولم يُقْتَل] ولم يُشْفَ به على القتل!

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن الحارث بن الصبّاح، قال: كان بيدِ الأشتر يومئذ صفيحة له يمانية، إذا طأطأها خِلْت فيها ماء ينصبّ، وإذا رفعها يكاد يُغْشِي[1] البصرَ شُعاعها، ومرّ يضرب الناس بها قُدُماً، ويقول:

الغَمَرات ثُم يَنْجَلِينا

قال: فبصر به الحارث بن جُمْهان الجُعفيّ، والأشتر مقنّع في الحديد فلم يعرفه، فدنا منه، وقال له: جزاك الله منذ اليوم عن أميرِ المؤمنين وعن جماعة المسلمين خيراً. فعرفه الأشتر فقال: يا بن جُمهان، أمثلك يتخلّف اليوم عن مِثْل موطني هذا! فتأمله ابن جُمْهان فعرَفه - وكان الأشترُ من أعظمِ الرجال وأطولهم، إلا أن في لحمه خِفّة قليلة - فقال له: جعلت فداك! لا والله ما علمتُ مكانَك حتى الساعة، ولا والله لا أفارقك حتى أموتَ.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن الحارث بن الصبّاح، قال: رأى الأشترُ يومئذ مُنقذاً وحميراً ابني قَيْس اليقظيان فقال منقذ لحمير: ما في العرب رجلٌ مثل هذا، إن كان ما أرى من قتاله على نية! فقال له حِمْير: وهل النّية إلا ما ترى! قال: إنّي أخافُ أن يكون يحاول مُلْكاً.

---

(١) العشا: سوء البصر بالليل والنهار، أو العمى. القاموس المحيط، مادة (عشو).

قال نصر: وحدّثنا عمرو، عن فُضَيل بن خَديج، عن مولى الأشتر قال: لما اجتمع مع الأشتر عُظْمُ من كان انهزم من الميمنة، حرّضهم، فقال لهم:

عَضُّوا على النَّواجِذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهامِكم، فإن الفِرارَ من الزَّحْف [فيه] ذهابُ العزّ، والغلبة على الفيء، وذلّ المحيا والممات، وعار الدنيا والآخرة.

ثم حمل على صفوف أهل الشام حتى كشَفهم، فألحقهم بمضارِب معاوية، وذلك بين العصر والمغرب.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، أنّ علياً عليه السلام لمّا رأى ميمنته قد عادَت إلى موقفها ومصافّها، وكشفت مَنْ بإزائها حتى ضَارَبُوهم في مواقفهم ومراكزهم، أقبلَ حتى انتهى إليهم، فقال:

إني قد رأيت جَوْلتكم وانحيازَكم من صُفوفكم، يحوزكم الجُفاة الطغاة، وأعراب أهل الشام، وأنتم لهامِيم[1] العرب، والسَّنَام الأعظم، وعُمَّار الليل بتلاوة القرآن، وأهلُ دعوة الحقّ إذ ضلّ الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إدباركم وكرّكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجَب على المولِّي يوم الزَّحف دُبُره، وكنتم فيما أرى من الهالكين، ولقد هَوّن عليّ بعض وجدِي، وَشَفى بعضَ لاعج نفسي، أني رأيتكم بأخَرة، حُزْتموهم كما حازوكم، وأزلتُموهم عن مصافّهم كما أزالوكم، تحشّونهم بالسيوف، يركب أولُهم آخرَهم، كالإبل المطرودة الهِيم، فالآن فاصبروا، نزلت عليكم السكينة وثبتكم الله باليقين، وليعلم المنهزم أنّه يُسخط رَبّه، ويوبق نفسَه، وفي الفرار موجدة الله عليه، والذلّ اللازم له، وفساد العيش. وإن الفارّ لا يزيد الفِرارُ في عُمره، ولا يرضِي ربَّه، فموت الرجل مَحْقاً قبل إتيان هذه الخِصال، خير من الرضا بالتلبّس بها، والإصرار عليها.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثنا أبو علقمة الخثعميّ، أن عبد الله بن حنش الخثعميّ، رأس خثعم الشام، أرسل إلى أبي كعب الخثعميّ رأس خثعم العراق: إن شئت تواقَفنا فلم نقتتل، فإن ظهر صاحبُكم كُنّا معكم، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا، ولا يقتُل بعضُنا بعضاً، فأبى أبو كعب ذلك. فلما التقتْ خثعم وخثعم، وزحف الناس بعضهم إلى بعض، قال عبد الله بن حنش لقومه: يا معشر خَثْعم، إنا قد عرضنا على قومنا من أهل العراق الموادَعة، صِلَةً لأرحامها، وحفظاً لحقها، فأبوا إلا قتالَنا، وقد بدأونا بالقطيعة، فكُفُّوا أيديَكم عنهم حِفْظاً

(١) اللَّهَامِيم: جمع لُهْمُوم وهو الجواد من الناس والخيل. لسان العرب مادة (لهم).

لحقهم أبداً ما كَفُّوا عنكم، فإن قاتلوكم فقاتِلُوهم. فخرج رجل من أصحابه فقال: إنّهم قد ردّوا عليك رأيك، وأقبلوا إليك يقاتلونك، ثم برز فنادى رجل: يا أهل العراق. فغضب عبد الله بن حنش، قال: اللهمَّ قيّض له وهبَ بن مسعود - يعني رجلاً من خثعم الكوفة، كان شجاعاً يعرفونه في الجاهلية، لم يبارزه رجل قطّ إلا قتله - فخرج إليه وهب بن مسعود فقتله، ثم اضطربوا ساعة، واقتتلوا أشدّ قتال، فجعل أبو كعب يقول لأصحابه، يا معشرَ خثعم: خَدّموا، أي اضرِبوا موضع الخَدَمة، وهي الخلخال، يعني اضربوهم في سُوقهم، فناداه عبد الله بن حنش: يا أبا كعب، الكُلُّ قومك فأنصف، قال: إي والله وأعْظِم. واشتدّ قتالهم، فحمل شمر بن عبد الله الخثعميّ، من خثعم الشام، على أبي كعب، فطعَنه فقتله، ثم انصرف يبكي، ويقول: يرحمك الله أبا كعب! لقد قتلتُك في طاعة قومٍ أنت أمسُّ بي رحِماً منهم، وأحبُّ إليّ منهم نفساً، ولكني والله لا أدري ما أقول، ولا أرى الشيطان إلا قد فتَننا، ولا أرى قريشاً إلا وقد لَعِبت بنا! قال: ووثبَ كعب بن أبي كعب إلى راية أبيه، فأخذها ففقئت عينه وصرع، ثم أخذها شريح بن مالك الخثعميّ، فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم نحو ثمانين رجلاً، وأصيب من خَثْعم الشام مثلُهم، ثم ردّها شريح بن مالك بعد ذلك إلى كعب بن أبي كعب.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثنا عبد السلام بن عبد الله بن جابر، أن راية بَجِيلة في صِفّين مع أهل العراق كانت في أحْمس مع أبي شداد، قيس بن المكشوح بن هلال بن الحارث بن عمرو بن عوف بن عامر بن عليّ بن أسلم بن أحمس بن الغوْث بن أنمار. قالت له بَجيلة: خذ رايتنا، فقال: غيري خيرٌ لكم مِنّي، قالوا: لا نريدُ غيرك، قال: فوالله لئن أعطيتُمونيها لا أنتهي بكم دونَ صاحب الترس المذهَب، قالوا: وكان على رأس معاوية رجلٌ قائم معه تُرْس مُذهَب، يستره من الشمس، فقالوا: اصنع ما شئت، فأخَذَها ثم زَحَف بها، وهم حوله يضربون الناس، حتى انتهى إلى صاحب التُّرس المذهب، وهو في خَيْلٍ عظيمة من أصحاب معاوية، وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فاقتتل الناسُ هناك قتالاً شديداً، وشدّ أبو شدّاد بسيفه نحو صاحب التُّرس، فتعرّض له روميّ من دونه لمعاوية، فضرب قدم أبي شَدّاد فقطَعها، وضرب أبو شداد ذلك الروميّ فقتله، وأسرعت إليه الأسنّة، فقتِل فأخذ الراية بعده عبد الله بن قَلْع الأحمسيّ، وارتجز وقال:

لا يُبْعِدُ الله أبا شدادِ ... حيث أجابَ دَعْوة المنادِي
وشدّ بالسيف على الأعادِي ... نِعْمَ الفتى كان لَدَى الطِّرادِ
وفي طعان الخيل والجلادِ

ثم قاتل حتى قتل، فأخذها بعده أخوه عبد الرحمن بن قَلْع، فقاتل حتى قتل، ثم أخذها عفيف بن إياس الأحمسيّ، فلم تزل بيده حتى تحاجز الناس.

قال نصر: وحدّثنا عمرو، قال: حدّثنا عبد السلام، قال: قُتِل يومئذ من بني أَحْمَس حازم بن أبي حازم، أخو قيس بن أبي حازم، ونعيم بن شهيد بن التَّغْلبيّة، فأتى سَمِيُّه، ابن عمه نعيم بن الحارث بن التغلبيّة معاوية - وكان من أصحابه - فقال: إن هذا القتيل ابنُ عمي، فهبه لي أدفنه، فقال: لا تدفنوهم، فليسوا لذلك بأهل، والله ما قدرنا على دَفْن عثمان بينهم إلا سرًّا، قال: والله لتأذنَنّ لي في دفنه أو لألْحَقَنّ بهم ولأدعنّك، قال: ويحك! ترى أشياخ العرب لا نُواريهم، وأنت تسألني في دَفْن ابن عمك! ادفنه إن شئت، أو دعه. فأتاه فدفنه.

قال نصر: وحدثنا عَمْرو، قال: حدثنا أبو زهير العبسيّ، عن النضر بن صالح، أنّ راية غطفان العراق كانت مع عَيّاش بن شريك بن حارثة بن جُندَب بن زيد بن خلَف بن رواحة، فخرج رجلٌ من آل ذي الكَلاع، فسأل المبارزة، فبرز إليه قائد بن بكير العبْسيّ، فبارزه فشدّ عليه الكَلاعيّ، فأوْهَطه، فقال أبو سُلَيم عَيّاش بن شريك لقومه: إني مبارزٌ هذا الرجل، فإن أصِبْت فرأسكم الأسود بن حبيب بن جُمانة بن قيس بن زهير، فإن أصِيب فرأسكم هَرِم بن شتير بن عمرو بن جُندَب، فإن أصِيب فرأسكم عبد الله بن ضرار، من بني حنظلة بن رواحة. ثم مشى نحو الكَلاعي فلحقه هرم بن شتير فأخذ بظهره وقال: ليمسّك رحم، لا تبرُزْ إلى هذا الطُّوال، فقال: هبلتْك الهَبَول! وهل هو إلا الموت! قال: وهل الفرار إلا منه! قال: وهل منه بدّ! والله لأقتلنّه، أو ليُلْحِقَنّي بقائد بن بكير. فبرز له ومعه حَجَفة من جُلُود الإبِل فدنا منه، فإذا الحديد مُفَرغ على الكَلاعيّ لا يبين من نحره إلا مثل شِراك النعل من عنقه بين بَيْضته ودرعه، فضربه الكَلاعيّ، فقطع جحفَتَهُ إلا نحواً من شِبْر، فضَرَبه عَيّاش على ذلك الموضع، فقطع نخاعه، فقتله، وخرج ابنُ الكَلاعيّ ثائراً بأبيه، فقتله بُكَير بن وائل.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن الصَّلْت بن زُهير النهديّ أنّ راية بني نَهْد بالعراق أخذها مسروق بن الهيثم بن سلمة فقتل، ثم أخذها صخر بن سميّ فارتُثّ[1]، ثم أخذها علي بن عمير، فقاتل حتى ارتُثَّ. ثم أخذها عبد الله بن كعب فقتِل، ثم أخذها سلمة بن خُذَيم بن

(١) ارتُثّ: حمل من الحرب جريحاً ولم يقتَل.

جُرثومة، فارتُثَّ وصرع، ثم أخذها عبد الله بن عمرو بن كبشة، فارتُثّ، ثم أخذها أبو مُسبِّح بن عمرو فقتل، ثم أخذها عبد الله بن النزَّال فقتل، ثم أخذها ابن أخيه عبد الرحمن بن زهير، فقتِل، ثم أخذها مولاه مخارق فقتل، حتى صارت إلى عبد الرحمن بن مِخْنَف الأزديّ.

قال نصر: فحدثنا عمرو: قال: حدثنا الصَّلت بن زهير، قال: حدثني عبد الرحمن بن مِخنف، قال: صرع يزيد بن المغفّل إلى جنبي، فقتلتُ قاتلَه وقمت على رأسه، ثم صُرع أبو زينب بن عروة، فقتلتُ قاتلَه، وقمت على رأسه وجاءني سفيان بن عوف، فقال: أقتلتم يزيد بن المغفل؟ فقلت: إي والله إنّه لَهذا الذي تراني قائماً على رأسه، قال: ومَنْ أنت حَيّاك الله! قلت: أنا عبد الرحمن بن مِخْنف، فقال: الشريف الكريم! حَيّاك الله ومرحباً بك يابن عمّ! أفلا تدفعه إليّ، فأنا عمُّه سفيان بن عوف بن المغفل! فقلت: مرحباً بك، أما الآن فنحن أحقُّ به منك، ولسنا بدافعيه إليك، وأمّا ما عدا ذلك فَلَعَمْرِي أنت عمّه ووارثه.

قال نصر: حدثنا عمرو، قال: حدّثنا الحارث بن حُصين، عن أشياخ الأزْد، أنّ مِخْنف بن سُليم، خطب لما نُدِبَتْ أزْدُ العراق إلى قتال أزْد الشام، فقال:

الحمد لله، والصلاة على محمد رسوله، ثم قال: إنّ من الخطب الجليل، والبلاء العظيم، أنّا صُرِفْنا إلى قومنا، وصُرِفوا إلينا، والله ما هي إلا أيدينا نقطعُها بأيدينا، وما هي إلا أجنحتنا نحذِفُها بأسيافنا، فإن نحن لم نفعل لم نُنَاصِح صاحبَنا، ولم نواس جماعتّنا، وإن نحن فعلنا، فعزَّنا آلمنا، ونارَنا أخمدنا.

وقال جنُدَب بن زهير الأزديّ: والله لو كنا آباءَهم وَلَدْناهم، أو كانوا آباءنا وَلدُونا، ثم خرجوا عن جماعتنا، وطَعَنُوا على إمامنا، ووازروا الظالمين الحاكمين بغير الحقّ على أهل مِلّتنا وديننا - ما افترقنا بعد أن اجتمعنا، حتى يرجعوا عمّا هم عليه، ويدخلوا فيما ندعوهم إليه، أو تكثر القتلى بيننا وبينهم.

فقال مخنف: [أعزَبك الله في التيه!]، والله ما علمتك صغيراً ولا كبيراً إلا مشؤوماً، والله ما ميّلنا في الرأي بين أمرين قط أيّهما نأتي وأيّهما نَدع في جاهلية ولا إسلام إلا اخترتَ أعسرهما وأنكدهما اللهمَّ أن تعافينا أحبّ إليّ من أنْ تبتليَنا، اللهمَّ أعْط كلَّ رجل منا ما سألك.

فنقدم جُندب بن زهير، فبارز أزديًا من أزد الشام، فقتله الشاميّ.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن الحارث بن حُصين، عن أشياخ الحيّ، أن عتبة بن جويرة قال يوم صفّين لأهله وأصحابه: ألا إنّ مرعَى الدنيا قد أصبح هَشِيماً، وأصبح شجرها حَصِيداً، وجديدها سَمَلاً، وحلوها مُرًّا. ألا وإنّي أنبئكم نبأ امرىءٍ صادق، أني قد سئمت الدنيا، وعزفتُ نفسي عنها، ولقد كنت أتمنّى الشهادة، وأتعرض لها في كلّ حين، فأبى الله إلا أنْ يُبَلِّغَني هذا اليوم، ألا وإنّي متعرّض ساعتي هذه لها، وقد طمعتُ ألاّ أحرمَها، فما تنتظرون عباد الله من جهاد أعداء الله؟ أخَوفَ الموت القادم عليكم، الذاهب بنفوسكم! أو من ضَرْبة كَفٍّ أو جبين بالسيف! أتستبدلُون الدنيا بالنظر إلى وجه الله ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار القرار! ما هذَا بالرأي السديد.

ثم قال: يا إخوتاه، إني قد بعتُ هذه الدار بالدار التي أمامها، وهذا وجهي إليها، لا يبرحِ الله وجوهَكم، ولا يقطّع أرحامكم.

فتبعه أخَواه عبد الله وعوف، فقالا: لا نطلب ورقَ العيش دونك، قبح الله الدنيا بعدك! اللهم إنّا نحتَسِبُ أنفسنا عندك. فاستقدَموا جميعاً، وقاتلوا حتى قتلوا.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدّثني رجل من آل الصَّلْت بن خارجة، أن تميماً لما ذهبت لتُهزَم ذلك اليوم، ناداهم مالك بن حَرِيّ النهشليّ: ضاع الضِّراب اليوم، والذي أنا لَهُ عبدٌ يا بني تميم، فقالوا: ألا تَرَى الناس قد انهزموا! فقال: ويحكم! أفراراً واعتذاراً! ثم نادى بالأحساب، فجعل يكررها، فقال له قوم منهم: أتنادي بنداء الجاهلية! إنّ هذا لا يحِلّ، فقال: الفرار وَيْلَكم أقبح، إنْ لم تقاتلوا على الدين واليقين فقاتلوا على الأحساب. ثم جعل يقاتل ويرتجز، فيقول:

إنّ تميماً أخْلَفَتْ عنك ابن مُرّ ... وقد أراهم وهُمُ الحَيُّ الصُّبُرْ

فإن يفرّوا أو يخيموا لا أفرّ

فقتِل مالك ذلك اليوم. وقال أخوه نهشل بن حرّيّ التميمي يرثيه:

تطاولَ هذا اللّيْلُ ما كادَ ينْجَلِي ... كَلَيْلِ التّمامِ ما يريدُ انصِرَاما

وبتّ بذكرَى مالكٍ بكآبةٍ ... أؤرّق من بَعْدِ العشاء نِياما

أبَى جَزعِي في مالكٍ غيرَ ذكره ... فلا تعذليني إن جَزِعْت أُماما

فأبكي أخي ما دام صوتُ حمامةٍ ... يُؤرِّق من وادي البِطاح حَماما

وأبعث أنواحاً عليه بسُحْرة ... وتذرِفُ عيناايَ الدُّموع سِجَاما

وأدعو سَرَاةَ الحيّ تبكي لمالكٍ ... وأبعث نَوْحاً يلتدِمْنَ قيَاما

يقلن: ثوَى ربُّ السماحة والحجا — وذو عِزّةٍ يأبَى بها أن يُضاما
وفارسُ خيل لا تُنازَلُ خيلُه — إذا اضطرمت نار العدوّ ضِراما
وأحيا عن الفحشاء من ذات كِلّة — يرى ما يهاب الصالحون حَراما
وأجرأ من ليث بِخَفَّانَ مُخْدرٍ — وأمضى إذا رام الرجال صداما

وقال أيضاً يرثيه:

بَكّي الفَتَى الأبيض البُهلول سُنَّتُهُ — عندَ النِّداء، فلا نِكْساً ولا وَرَعا
بَكّي على مالكِ الأضياف إذْ نَزَلُوا — حينَ الشِّتاء وَعزّ الرِّسْلُ فانقطعا
ولم يجِدْ لقِراهم غيْرَ مُرْبِعَةٍ — مِنَ البِشار تُزَجّي تَحْتَهَا رُبَعَا
أهوَى لها السيفَ صَلْتاً وَهْي رَاتِعَةٌ — فأوهن السيفُ عظمَ الساق فانجذعَا
فجاءهمْ بعدَ رِفْدِ الناس أطيبُها — وأشبعتْ منهُمُ من نام واضطجعا
يا فارسَ الرَّوْعِ يوم الرَّوْعِ قد عَلِمُوا — وصاحبَ العزم لانِكْسا ولا طبِعا
ومدرِكَ التَّبْلِ في الأعداء يطلبُه — وإن طلبت بتَبْلٍ عنده مَنَعا
قالوا: أخُوك أتى الناعي بمصرَعِهِ — فانشقَّ قلبي غداة القول فانْصَدَعا
ثم ارعوَى القلْبُ شيئاً بعد طَرْبَتِهِ — والنَّفس تَعلم أنْ قد أثبِتَتْ وَجَعَا

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: حدثني يونس بن أبي إسحاق، قال: قال لنا أدهم بن محرِز الباهليّ، ونحن معه بأذْرُح: هل رأى أحدٌ منكم شِمرَ بن ذي الجوْشَن؟ فقال عبد الله بن كُبار النهديّ وسعيد بن حازم البَلوِيّ: نحن رأيناه، قال: فهل رأيتما ضربةً بوجهه؟ قالا: نعم، قال: أنا والله ضربته تلك الضربةَ بصِفّين.

قال نصر: وحدثنا عمرو، قال: قد كان خرج أدهم بن محرِز من أصحاب معاوية إلى شَمِرْ بن ذِي الجوشَن في هذا اليوم، فاختلفا ضربتَيْن، فضربه أدهم على جبينه، فأسرع فيه السيفُ حتى خالط العظم، وضربه شمرٍ، فلم يصنع شيئاً، فرجع إلى عسكره، فشرب ماء وأخذ رُمْحاً، ثم أقبل وهو يقول:

إنّي زعيمٌ لأخي باهِلَهْ — بطعنةٍ إن لم أمتْ عاجِلَهْ
وضربةٍ تحت الوَغَى فاصِلَهْ — شبيهةٍ بالقتل أو قاتِلَهْ

ثم حمل على أدهم وهو يعرِف وجهه - وأدهم ثابت له لم ينصرف - فطعنه، فوقع عن فرسه، وحال أصحابُه دونه، فانصرف شَمِر وقال: هذه بتلك:

قال نصر: وخرج سُويد بن قيس بن زيد الأرحبيّ من عسكر معاوية يسأل المبارزة، فخرج إليه من عسكر العراق أبو العمرّطة قيس بن عمرو بن عمير بن يزيد، وهو ابن عمّ سويد، وكان كلٌّ منهما لا يعرف صاحبَه، فلما تقاربا تعارفا، وتواقفا وتساءلا، ودعا كلُّ واحد منهما صاحبَه إلى دينه، فقال أبو العمرّطة: أمّا أنا فوالله الذي لا إله إلا هو، لئن استطعت لأضربنَّ بسيفي هذه القبة البيضاء - يعني القبّة التي كان فيها معاوية - ثم انصرف كلّ واحد منهما إلى أصحابه.

قال نصر: ثم خرج رجل من عسكر الشام من أزْد شنوءة، يسأل المبارزة، فخرج إليه رجل من أهل العراق، فقتله الأزديّ، فخرج إليه الأشتر، فما ألبثه أن قَتَله، فقال قائل: كان هذا ريحاً فصارت إعصاراً.

قال نصر: وقال رجل من أصحاب عليّ عليه السلام: أما والله لأحملنَّ على معاوية حتى أقتله، فركب فرساً، ثم ضربه حتى قام على سنابكه، ثم دفعه فلم ينهنهه شيء عن الوقوف على رأس معاوية، فهرب معاوية، ودخل خِباء، فنزل الرجلُ عن فرسه ودخل عليه، فخرج معاوية مِنْ جانب الخباء الآخر، فخرج الرجلُ في أثره، فاستصرخ معاوية بالناس، فأحاطوا به وحالوا بينهما، فقال معاوية: ويحكم! إنّ السيوف لم يؤذَنْ لها في هذا، ولولا ذلك لم يصِلْ إليكم، فعليكم بالحجارة، فرضخُوه بالحجارة حتى همد. فعاد معاوية إلى مجلسه.

قال نصر: وحمل رجلٌ من أصحاب عليّ عليه السلام يدعى أبا أيوب - وليس بأبي أيوب الأنصاري - على صفّ أهل الشام، ثم رجع فوافق رجلاً من أهل الشام صادراً، قد حمل على صفّ أهل العراق، ثم رجع فاختلفا ضربتين، فنفحه أبو أيوب بالسيف، فأبانَ عنقه، فثبت رأسُه على جسده كما هو، وكذّب الناس أن يكون هو ضربه، فأرابهم ذلك، حتى إذا أدخلته فرسه في صفّ أهل الشام نَدَر رأسه، ووقع ميتاً، فقال علي عليه السلام: والله لأنا من ثبات رأس الرجل أشدُّ تعجباً من الضربة، وإن كان إليها ينتهي وصفُ الواصفين.

وجاء أبو أيوب فوقف بين يدي عليّ عليه السلام، فقال له: أنت والله كما قال الشاعر:

وَعَلَّمَنا الضربَ آباؤنا ونحن نعلّم أيضاً بنينا

قال نصر: فلما انقضى هذا اليوم بما فيه، أصبحوا في اليوم الثامن من صفّين، والفيلقان متقابلان، فخرج رجلٌ من أهل الشام فسأل المبارزة، فخرج إليه رجل من أهل العراق، فاقتتلا بين الصفّين قتالاً شديداً. ثم إن العراقيّ اعتنقه فوقعا جميعاً، وغار الفرسان. ثم إن العراقيّ قهره، فجلس على صدره. وكشف المِغْفر عنه، يريد ذبحه، فإذا هو أخوه لأبيه وأمّه، فصاح به أصحاب عليّ عليه السلام: ويحك أجهِزْ عليه! قال: إنه أخي، قالوا: فاتركه، قال: لا والله حتى يأذَن أمير المؤمنين، فأخبِر عليٌّ عليه السلام بذلك، فأرسل إليه أن دَعه، فتركه، فقام فعاد إلى صفّ معاوية.

قال نصر: وحدّثنا محمد بن عبيد الله، عن الجرجانيّ، قال: كان فارسَ معاوية الذي يُعِدّه لكلّ مبارز ولكلّ عظيم، حُريث مولاه، وكان يلبَس سلاح معاوية متشبِّهاً به فإذا قاتل قال الناس: ذاك معاوية. وإنّ معاوية دعاه، فقال له: يا حُريث، اتّق علياً وضَعْ رمحك حيث شئت. فأتاه عمرو بن العاص، فقال: يا حريث، إنك والله لو كنتَ قرشياً لأحبّ لك معاوية أن تقتُلَ علياً، ولكن كَره أن يكون لك حظُّها، فإن رأيتَ فرصة فاقتحِمْ. قال: وخرج عليّ عليه السلام في هذا اليوم أمام الخيل، فحمل عليه حُرَيث.

قال نصر: فحدّثني عمرو بن شَمِر، عن جابر، قال: برز حُريث مولى معاوية هذا اليوم، وكان شديداً أيّداً ذَا بأس لا يرام، فصاح: يا عليّ، هل لك في المبارزة؟ فأقدِمْ أبا حسن إن شئت، فأقبل عليٌّ عليه السلام، وهو يقول:

أنا عليٌّ وابنُ عبد المطَّلِبْ ... نحنُ لعمرُ الله أوْلَى بالكُتُبْ

مِنّا النبيُّ المصطفى غَيْرَ كَذِبْ ... أهلُ اللواء والمقام والحجُبْ

نحن نصرْناه على كلّ العَرَبْ

ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة، فقطعه نصفين.

قال نصر: فحدثنا محمد بن عبيد الله، قال: حدثني الجرجانيّ، قال: جزع معاوية على حُريث جَزَعاً شديداً، وعاتب عمراً في إغرائه إياه بعليّ عليه السلام، وقال في ذلك شعراً:

حُرَيْثُ ألم تعلَمْ وجهلُك ضائرُ ... بأنّ عليّاً للفوارس قاهرُ

وأنّ عليّاً لم يبارزه فارسٌ ... من الناس إلا أقصَدَتْه الأظافِرُ

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتَني ... فجَدُّك إذ لم تقبل النُّصْحَ عاثِرُ

وَدَلاّك عمرو والحوادِثُ جَمّةٌ ... غُروراً، وما جرّت عليك المقادرُ

وظَنَّ حريثٌ أن عمراً نصيحُه ... وقد يُهْلِك الإنسانَ من لا يحاذر

قال نصر: فلما قتل حُريث برز عمرو بن الحصين السَّكْسَكِي، فنادى: يا أبا حسن، هَلُمَّ إلى المبارزة، فأومأ عليه السلام إلى سعيد بن قيس الهمْدانيّ، فبارزه فضربه بالسيف فقتله.

وقال نصر: وكان لهَمْدَان بلاء عظيم في نصرة عليّ عليه السلام في صِفّين، ومن الشعر الذي لا يشكّ أن قائله عليّ عليه السلام لكثرة الرواة له:

دعوتُ فلبّاني من القوم عصبةٌ ... فوارِسُ من هَمْدان غيرُ لئام

فوارسُ مِنْ هَمْدَان ليسُوا بُعزَّلٍ ... غَدَاة الوَغَى من شاكرٍ وشِبَام
بكلّ رُدينيٍّ وعَضْبٍ تخالُه ... إذا اختلف الأقوام شَعْل ضِرَام
لِهَمْدان أخلاقٌ كرام تزينهمْ ... وبأس إذا لاقَوْا وحَدُّ خصام
وجِدٌّ وصدقٌ في الحروب ونجدةٌ ... وقول إذا قالُوا بغير أثام
مَتَى تأتِهِمْ في دارِهِمْ تستضيفهمْ ... تَبِتْ ناعماً في خِدْمةٍ وطعام
جَزى الله هَمْدَانَ الجنانَ فإنها ... سِمام العِدَا في كلّ يوم زحام
فلو كنتُ بوَّاباً على بابِ جنّة ... لقلتُ لهمْدَان ادخلوا بسلام

قال نصر: فحدثني عمرو بن شمر، قال: ثم قام عليٌّ عليه السلام بين الصَّفين، ونادى: يا معاوية، يكررها، فقال معاوية: سَلُوه ما شأنه؟ قال: أحِبّ أن يظهَر لي فأكلّمه كلمةً واحدة. فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قارباه، لم يلتفت إلى عمرو، وقال لمعاوية: ويحك! علام يقتتل الناس بيني وبينك، ويضرب بعضهم بعضاً! ابرز إليّ، فأيّنا قتلَ صاحبَه فالأمر له. فالتفت معاوية إلى عمرو، فقال: ما ترى يا أبا عبد الله؟ قال: قد أنصفك الرجل، واعلم أنّك إن نَكَلْت عنه لم يزل سُبَّةً عليك وعلى عَقِبك ما بقيَ على ظهر الأرض عربيّ. فقال معاوية: يابنَ العاص، ليس مثلي يُخْدَعُ عن نفسه، والله ما بارز ابنَ أبي طالب شجاع قطّ إلا وسقى الأرض من دمه، ثم انصرف معاوية راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه، فلما رأى عليٌّ عليه السلام ذلك ضحِك، وعاد إلى موقفه[1].

قال نصر: وفي حديث الجرجاني أنّ معاويةَ قال لعمرو: ويحك! ما أحمقك! تدعوني إلى مبارزته، ودوني عكّ وجُذام والأشعرون!

قال نصر: قال: وحقَدها معاوية على عَمْرٍو باطناً، وقال له ظاهراً: ما أظنُّك قلت ما قلتَه يا أبا عبد الله إلا مازحاً! فلما جلس معاوية مجلسه، أقبل عمرو يمشي حتى جلس إلى جانبه، فقال معاوية:

يا عمرُو إنك قد قَشَرْتَ لِيَ الْعَصَا ... برضَاك لي وَسْطَ العجاج برازي
يا عمرو إنّك قد أشرْت بظنَّةٍ ... حَسْبُ المبارز خطفة من بازي
ولقد ظننتُك قلتَ مزحة مازحٍ ... والهزل يحمِله مقالُ الهازِي
فإذا الذي مَنَّتْكَ نفسُك حاكِيا ... قتلي، جَزَاك بما نويت الجازِي

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٤٧٧.

ولقد كشفتَ قناعها مذمومةً ... ولقد لبستَ بها ثياب الحازِي

فقال عمرو: أيها الرجل، أتجبن عن خَصْمِك، وتتهم نصيحك! وقال مجيباً له:

معاويَ إنْ نَكَلْتَ عن البِرَازِ ... وخِفْتَ فإنّها أمّ المخازِي

معاويَ ما اجترمتُ إليك ذنباً ... ولا أنا في الَّذِي حَدّثْتُ خازِي

وما ذنبي بأنْ نادَى عَلِيٌّ ... وَكَبْشُ الْقَوْمِ يُدْعَى للبرازِ!

ولو بارزتَه بارزتَ ليثاً ... حديدَ النّاب يخطف كلَّ بازي

وَتَزْعُمُ أنّني أضمرْتُ غِشًّا ... جَزانِي بالَّذِي أضْمَرْتُ جازي

وروى ابن قتيبة في كتابه المسمى «عيون الأخبار»(١) قال: قال أبو الأغرّ التميميّ: بينا أنا واقف بصِفّين، مَرّ بي العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، مكفّراً بالسّلاح، وعيناه تَبِصّان من تحت المِغْفر، كأنهما عينَا أرقم، وبيده صفيحة يمانِية يقلّبها، وهو على فَرَس له صَعْب، فبينا هو يمغثه(٢)، ويليّن من عريكته، هتف به هاتف من أهلِ الشام، يعرَف بعرار بن أدهم: يا عباس، هلّم إلى البراز! قال العباس: فالنزول إذاً فإنه إياسٌ من القفول، فنزل الشاميّ، وهو يقول:

إن تركبُوا فرُكوبُ الخيلِ عادَتُنَا ... أو تنزلون فإنا مَعْشَرٌ نُزُلُ

وثنى العباس رجلَه، وهو يقول:

ويصدُّ عنك مَخِيلَةَ الرّجُل الـ ... ـعرِّيض موضِحةٌ عن العظمِ

بحُسام سيفك أو لسانِك، والـ ... ـكَلِمُ الأصيل كأرْغَبِ الكلم

ثم عَصَب فَضَلات دِرْعه في حُجْزَته، ودفع فرسه إلى غلام له أسود، يقال له أسلم، كأني والله أنظر إلى فلافل شعره، ثم دَلَف كلّ واحد منهما إلى صاحبه، فذكرت قول أبي ذؤيب:

فتنازَلا وتواقَفَتْ خَيْلاَهُمَا ... وكِلاهما بطل اللّقاء مُخَدَّعُ

وكفت الناس أعنَّةَ خيولهم ينظرون ما يكون من الرجلين، فتكافحا بسيفيهما مَلِيًّا من نهارهما، لا يصل واحدٌ منهما إلى صاحبه لكمال لأمته، إلى أن لحظ العباس وَهْناً في درع الشاميّ، فأهوى إليه بيده، فهتكه إلى ثُنْدُوَته، ثم عاد لمجاولته، وقد أصحر له مفتّق الدرع،

---

(١) عيون الأخبار: للإمام عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٧٦هـ)، وهو كتاب كبير مشتمل على أبواب كثيرة تجتمع في عشرة كتب. «كشفوف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

(٢) المَغْثُ: المرثُ والضرب الخفيف. القاموس المحيط، مادة (مغث).

فضربه العباس ضَرْبَةً انتظم بها جوانحَ صدره، فخرّ الشاميّ لوجهه، وكبّر الناسُ تكبيرة ارتجت لها الأرض من تحتهم، وسما العباس في الناس، فإذا قائل يقول: من ورائي: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾(١)، فالتفتُّ فإذا أمير المؤمنين عليه السلام، فقال لي: يا أبا الأغرّ، مَن المنازِل لعدوّنا؟ قلت: هذا ابن أخِيكم، هذا العباس بن ربيعة، فقال: وإنه لهو! يا عباس ألم أنهَك، وابن عباس، أن تُخِلاّ بمراكزكما، وأن تباشرا حرباً! قال: إنّ ذلك كان، قال: فما عَدَا مّا بدا! قال: يا أمير المؤمنين، أفأُدعَى إلى البراز فلا أجيب! قال: نعم طاعة إمامك أولى من إجابة عدوّك، ثم تغيّظ واستَطار حتى قلت: الساعة الساعة. ثم سكن وتطامن، ورفع يديه مبتهِلاً، فقال: اللّهمَّ اشكر للعباس مَقامه، واغفر ذنبه، إني قد غفرتُ له، فاغفر له قال: ولَهِف معاوية على عرار، وقال: متى ينتطح فحل لمثله أيُطَلّ دمه! لاها الله إذاً! ألا رجلٌ يشرِي نفسه لله، يطلُب بدم عرار! فانتدَب له رجلان من لَخْم فقال لهما: اذهبا، فأيّكما قتل العباس بِرَازاً فله كذا، فأتياه، فدعوَاه للبراز، فقال: إن لي سيداً أريد أن أؤامره. فأتى عليًّا عليه السلام، فأخبره الخبر، فقال عليّ عليه السلام، والله لودّ معاوية أنه ما بقِيَ من بني هاشم نافخ ضَرمة إلا طُعِن في بطنه، إطفاء لنور الله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢)، أما والله ليملكنّهم مِنّا رجال ورجال يسومونهم الخسفَ، حتى يحتفروا الآبار، ويتكفّفُوا الناسَ، ويتوكّلُوا على المساحي، ثم قال: يا عباس، ناقِلْنِي سلاحَك بسلاحي، فناقله، ووثب على فَرس العباس، وقصد اللخميّين، فما شكّا أنه هو، فقالا: أذن لك صاحبك، فحرِج أن يقول: نعم، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٣)، فبرز إليه أحدهما: فكأنما اختطفه، ثم برز له الآخر فألحقه بالأول، ثم أقبل وهو يقول: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(٤) ثم قال: يا عباس، خُذْ سلاحَك وهات سلاحي، فإن عاد لك أحد فعدْ إليّ.

قال: فَنُمِيَ الخبرُ إلى معاوية، فقال: قَبّح الله اللَّجاج! إنه لَقعود ما ركبته قَطّ إلا خذلت. فقال عمرو بن العاص: المخذول والله اللّخميّان لا أنت! فقال: اسكت أيّها الرجل، وليست هذه من ساعاتك، قال: وإن لم يكن فرحم الله اللخميّين وما أراه يفعل! قال: فإنّ ذاك والله أخسرُ لصفقتك، وأضيَق لحجزتك.

قال: قد علمت ذاك، ولولا مصر لركبتُ المنجاة منها، قال: هي أعمتْك، ولولاها ألفِيت بصيراً.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الحج، الآية: ٣٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

قال نصر بن مزاحم: وحدثنا عمرو، قال: حدثني فضيل بن خَدِيج، قال: خرج رجلٌ من أهل الشام يدعُو إلى المبارزة، فخرج إليه عبد الرحمن بن محرز الكنديّ [ثم ٱلطُّمَحيّ]، فَتَجَاوَلاَ ساعة. ثم إنّ عبد الرحمن حَمَل على الشاميّ، فطعنه في نُقْرَةِ نحره فصَرَعه، ثم نزل إليه فسلبه دِرْعه وسلاحه، فإذا هو عبدٌ أسود، فقال: إنا لله! أخطرت نفسي بعبد أسود! قال: وخرج رَجُلٌ من عَكّ، فسأل البراز، فخرج إليه قيس بن فهران الكنديّ، فما ألبثه أن طعنه فقتله، وقال:

لـقـد عـلـمـتْ عَـكٌّ بـصِـفّـيـن أنّـنـا إذا ما تلاقَى الخيلُ نطعنُها شَزْرَا[1]

ونـحـمـل رايـاتِ الـقـتـال بـحـقّـهـا فـنُـوردهـا بِـيـضـاً ونُـصْـدِرُهـا حُـمْـرَا

قال: وحمل عبد الله بن الطفيل البكائيّ على صفوف أهل الشام، فلما انصرف حَمَل عليه رجل من بني تميم يقال له قيس بن فهد الحنظليّ اليربوعيّ، فوضع الرمحَ بين كتفيْ عبد الله، فاعترضه يزيد بن معاوية البكائيّ، ابن عم عبد الله بن الطفيل، فوضع الرمحَ بين كتفي التميميّ، وقال: والله لئن طعنته لأطعننّك، فقال: عليك عهدُ الله لئن رفعتُ السنان عن ظهر صاحبك لترفعنّه عن ظهري! قال: نعم، لك العهد والميثاق بذلك. فرفع السنان عن ظَهْر عبد الله، فرفع يزيد السنان عن التميميّ، فوقف التميمي، وقال ليزيد: ممّن أنت؟ قال: من بنى عامر، قال: جعلني الله فداكم! أينما لقيناكم كراماً. أما والله إني لآخرُ أحد عشر رجلاً من بني تميم قتلتموهم اليوم.

قال نصر: فبعد ذلك بدهْرٍ عتب يزيد على عبد الله بن الطفيل، فأذكره ما صنع معه يوم صفين، فقال:

ألـم تـرنِـي حـامـيـتُ عَـنْـك مُـنـاصـحـاً بـصِـفّـيـن إذ خَـلاَّكَ كـلُّ حـمـيـمِ

ونـهـنـهـتُ عـنـك الـحـنـظـليّ وقد أتَـى عـلـى سـابـحٍ ذي مَـيْـعَـةٍ وهـزِيـمِ

قال نصر: وخرج ابن مقيّدة الحمار الأسديّ - وكان ذا بأس وشجاعة، وهو من فُرسان الشام - فطلب البراز، فقام المقطع العامريّ، وكان شيخاً كبيراً، فقال علي عليه السلام له: اقعد، فقال: يا أمير المؤمنين لا تردّني، إمّا أن يَقتُلَني فأتعجلَ الجنة وأستريح من الحياة الدنيا في الكِبَر والهرم، أو أقتله فأريحك منه.

وقال له عليه السلام: ما اسمك؟ فقال: المقطّع، قال: ما معنى ذلك؟ قال: كنت أدْعى هشيماً، فأصابتني جِراحة منكرة، فدعيت المقطع منها، فقال له عليه السلام: اخرج إليه، وأقدم عليه،

(١) الشَّزْر: المعاداة، ورجل مشرز: شديد التعذيب للناس، والشرزة: الشديدة من شدائد الدهر. لسان العرب، مادة (شرز).

اللهمَّ انصر المقطَع على ابن مقيدة الحمار، فحمل على ابن مقيدة الحمار، فأدهشه لشدّة الحملة، فهرب وهو يتبعه، حتى مرّ بمضرِب معاوية حيث يراه والمقطّع على أثره، فجاوزا معاوية بكثير، فلما رجع المقطّع ورجع ابن مقيدة الحمار، ناداه معاوية: لقد شَمَص[1] بِك العراقيّ، قال: أما إنه قد فعل أيها الأمير، ثم عاد المقطع، فوقف في موقفه.

قال نصر: فلما كان عامُ الجماعة، وبايع الناس معاوية، سأل عن المقطع العامريّ، حتى أدخل عليه، وهو شيخ كبير، فلما رآه قال: آه، لولا أنّك على مثل هذه الحال لما أفلتّ مني، قال: نشدتك الله إلاّ قتلتَني وأرحتَني من بؤس الحياة، وأدنيتني إلى لقاء الله، قال: إني لا أقتلك، وإنّ بي إليك لحاجة، قال: ما هي؟ قال: أحبّ أن تواخيَني، قال: إنّا وإياكم، افترقنا في الله، فلا نجتمع حتى يحكُمَ الله بيننا في الآخرة.

قال: فزوِّجني ابنتك، قال: قد منعتُك ما هو أهون عليّ من ذلك، قال: فاقبَلْ مِنّي صلة، قال: لا حاجة لي فيما قِبَلك.

قال: فخرج من عنده ولم يقبل منه شيئاً.

قال نصر: ثم التقى الناس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وحاربت طَيّىء مع أمير المؤمنين عليه السلام حرباً عظيماً، وتداعَتْ وارتجزت، فقتل منها أبطال كثيرون، وفقئت عينُ بشر بن العوس الطائيّ - وكان من رجال طيىء وفرسانها - فكان يذكر بعد ذلك أيام صِفّين، فيقول: وددت أنّي كنت قُتِلت يومئذ، ووددت أن عيني هذه الصحيحة فقئت أيضاً، وقال:

ألاَ لَيْتَ عَيْني هَذِه مثلُ هذِه ... ولم أمش بَيْنَ الناس إلا بقائِد
ويا ليتَ رِجْلِي ثَمَّ طَنَّتْ بنصفِهَا ... وياليتَ كَفِّي ثَمَّ طاحتْ بساعِدي
وياليتني لم أبقَ بعد مطرِّفٍ ... وسعد وبعد المستنير بنِ خالدِ
فوارسُ لم تَغْذُ الحواضن مثلَهُمْ ... إذا هي أبدت عن خِدَام الخرائد

قال نصر: وأبلتْ محارب يومئذ مع أميرِ المؤمنين عليه السلام بلاءً حسناً، وكان عنتر بن عبيد بن خالد بن المحاربيّ أشجعَ الناس يومئذ، فلما رأى أصحابَه متفرقين، ناداهم: يا معشرَ قيس، أطاعة الشيطان أبرّ عندكم من طاعة الرحمن! ألاَ إنّ الفرار فيه معصية الله وسخطه، وإن الصبر فيه طاعة الله ورضوانه، أفتختارون سخط الله على رضوانه، ومعصيته على طاعته! ألا إنما الراحةُ بعد الموت لمن مات محتسباً لنفسه، ثم يرتجز فيقول:

(١) شَمَصَ الدواب: طردها طرداً نشيطاً أو عنيفاً. القاموس المحيط، مادة (شمص)

لا وَأَلَتْ نفسُ امرىء ولّى الدُّبُرْ أنا الذي لا أنثني ولا أفِرّ
وَلاَ يُرَى مع المعازيل الغُدُرْ

وقاتل حتى ارتُثّ.

قال نصر: وقاتلت النَّخَع مع عليّ عليه السلام ذلك اليوم قتالاً شديداً، وقطِعت رجلُ علقمة بن قيس النَّخَعيّ، وقتِل أخوه أبيّ بن قيس، فكان علقمة يقول بعد: ما أحِبّ أن رجلي أصحُّ ما كانت، لما أرجو بها من حسن الثواب. وكان يقول: لقد كنتُ أحِبّ أن أبصر أخي في نومي، فرأيته، فقلت له: يا أخي، ما الذي قدِمتم عليه؟ فقال لي: التقينا نحن وأهل الشام بين يدي الله سبحانه، فاحتججنا عنده، فحجَجْناهُم. فما سرِرت بشيء منذ عَقلْت سروري بتلك الرؤيا.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن سويد بن حبّة البصري، عن الحُضَين بن المنذر الرّقاشيّ، قال: إنّ ناساً أتوا علياً عليه السلام قبل الوقْعة في هذا اليوم، فقالوا له: إنّا لا نرى خالد بن المعمر السَّدوسيّ إلا قد كاتب معاوية، وقد خشينا أنْ يلتحِق به ويبايعه، فبعث إليه عليٌّ عليه السلام وإلى رجال من أشراف ربيعة، فجمعهم، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا معشرَ ربيعة، أنتم أنصاري ومجيبُو دعوتي، ومِنْ أوثَق أحياء العرب في نفسي، وقد بلَغني أنّ معاويةَ قد كاتب صاحبَكم هذا، وهو خالد بن المعمّر، وقد أتيتُ به وجمعتكم لأشهِدَكم عليه، وتسمعُوا مِنّي ومنه.

ثم أقبل عليه فقال: يا خالد بن المعمّر، إن كان ما بلَغني عنك حقًّا، فإني أُشهِدُ مَنْ حَضَرَني من المسلمين أنّك آمن، حتى تلحق بالعراق، أو بالحجاز، أو بأرض لا سلطان لمعاوية فيها، وإن كنتَ مكذوباً عليك، فأبِرّ صدورَنا بأيْمانٍ نطمئنّ إليها، فحلف له خالد بالله ما فعلَ، وقال رجال منّا كثير: والله يا أمير المؤمنين لو نعلم أنّه فعل لَقتلناه.

وقال شقيق بن ثور السدوسيّ: ما وفق الله خالد بن المعمّر حين ينصر معاوية وأهلَ الشام على عليّ وأهل العراق وربيعة. فقال له زياد بن خَصَفة: يا أمير المؤمنين، استوثِقْ من ابن المعمّر بالأيْمان، لا يغدِرْ بك، فاستوثق منه. ثم انصرفوا.

فلما تصافّ الناس في هذا اليوم، وحمل بعضُهم على بعض، تضعضعت ميمنةُ أهلِ العراق، فجاءنا عليّ عليه السلام ومعه بنُوه، حتى انتهى إلينا، فنادى بصوت عالٍ جهير: لمن هذه الرايات؟ فقلنا: رايات ربيعة، فقال: بل هي راياتُ الله عَصم الله أهلها، وصبّرهم وثبّت أقدامهم، ثم قال لي وأنا حامل رايةَ ربيعة يومئذ: يا فتى، ألا تُدنِي رايتَك هذه ذراعاً؟ فقلت: بلى، والله وعشرة أذرع، ثم ملت بها هكذا، فأدنيتُها، فقال لي: حسبك مكانك.

قال نصر: وحدّثنا عمرو، قال: حدثني يزيد بن أبي الصلت التيميّ، قال: سمعت أشياخَ الحيّ من بني تيم بن ثعلبة يقولون: كانت راية ربيعة كلِّها: كوفيتِها وبصريتها، مع خالد بن المعمّر السدوسيّ، من ربيعة البصرة، ثم نافسه في الراية شقيق بن ثور، من بكْر بن وائل من أهل الكوفة، فاصطلحا على أن يولِّيا الرايةَ لحضَين بن المنذر الرقاشيّ، وهو من أهل البصرة أيضاً، وقالوا: هذا فتى له حَسَبٌ، نُعطيه الراية إلى أن نرى رأينا، وكان الحُضَين يومئذ شابًّا حَدَث السنّ.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: أقبل الحضَين بن المنذر يومئذ وهو غلام يزحف براية ربيعة، وكانت حمراء، فأعجب عليًّا عليه السلام زحفه وثباته، فقال:

لِمَنْ رايةٌ حمراءُ يخفِقُ ظِلُّهَا ... إذا قيلَ قَدِّمها حُضَيْنُ تقدَّما
ويدنُو بها في الصَّفّ حتى يُزيرَها ... حِمامَ المنايا تقطرُ الموت والدما
تَراهُ إذا ما كان يومُ عظيمةٍ ... أبَى فيه إلا عزَّةً وتكرُّما
جزَى الله قوماً صَابَروا في لقائِهِمْ ... لدَى الناس حرًّا ما أعفّ وأكرما!
وأحزمَ صَبْراً يوم يُدْعى إلى الوغَى ... إذا كان أصواتُ الكماة تغمغُما
ربيعةَ أعنِي، إنهم أهل نجدةٍ ... وبأس إذا لاقَوْا خَميساً عَرَمْرَما[1]
وقد صبرت عكٌّ ولخمٌ وحِمْيَرٌ ... لمذحِجَ حَتَّى لم يفارقْ دمٌ دمَا
ونادت جُذامٌ: يالَ مذحِجَ ويحكم! ... جَزَى الله شرًّا أيّنا كانَ أظلما
أما تتقون الله في حُرُمَاتِكُمْ ... وما قرّب الرحمنُ منها وعَظَّمَا!
أذقْنا ابن حرَب طعنَنا وضِرَابَنا ... بأسيافِنا حَتَّى تولَّى وأحْجَمَا
وفرّ ينادي الزِّبرِقَان وظالماً ... ونادىٰ كَلاعاً والكُريبَ وأنعَما
وعمراً وسُفياناً وجَهْماً ومالكاً ... وحَوْشَب والغاوي شُرَيحاً وأظلمَا
وكرز بن تَيْهانٍ وعمرو بن جَحْدَرٍ ... وصَبَّاحاً القينيّ يدعو وأسلما

قلت: هكذا روى نَصْر بن مزاحم، وسائر الرواة رَوَوْا له عليه السلام الأبيات الستة الأولى، ورووا باقي الأبيات، من قوله: «وقد صبرتْ عكٌّ» للحضَين بن المنذر صاحب الراية.

قال نصر: وأقبل ذو الكَلاع في حمير ومن لفّ لفّها، ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قُرّاء أهل الشام، وذو الكَلاع في حِمْير في الميمنة، وعبيد الله في القرّاء في الميسرة، فحملوا على ربيعة - وهم في مَيْسرة أهل العراق، وفيهم عبيد الله بن العباس - حملة شديدة، فتضعضعت رايات ربيعة.

---

(١) العَرَمْرَم: الجيش الكثير. القاموس المحيط، مادة (عرم).

ثم إنّ أهل الشام انصرفوا فلم يمكثوا إلا قليلاً، حتى كرّوا ثانية وعبيد الله بن عمر في أوائلهم، يقول: يا أهل الشام، هذا الحيّ من العراق قتلة عثمان بن عفان وأنصار عليّ بن أبي طالب، ولئن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم من عثمان، وهَلَك عليّ وأهل العراق. فشَدُّوا على الناس شَدّةً عظيمة، فثبتت لهم ربيعة، وصبرت صبراً حسناً، إلا قليلاً من الضعفاء.

فأما أهل الرايات وذَوُو البصائر منهم والحفّاظ، فثبتوا وقاتلوا قتالاً شديداً. وأما خالد بن المعمّر، فإنّه لما رأى بعض أصحابه قد انصرفوا انصرف معهم، فلما رأى أهلَ الرايات ثابتين صابرين رجع إليهم وصاح بمن انهزم، وأمرهم بالرجوع، فكان من يتّهمه من قومه، يقول: إنه فَرّ، فلما رآنا قد ثبتْنا رجع إلينا، وقال هو: لمّا رأيتُ رجالاً مِنّا قد انهزمُوا، رأيت أنْ استقبلَهم ثم أردَّهم إلى الحربَ، فجاء بأمر مشتبه.

قال نصر: وكان في جملة ربيعة من عَنَزة وحدها أربعة آلاف مُجَفّف.

قلت: لا ريب عند علماء السيرة أن خالد بن المعمّر كان له باطن سوء مع معاوية، وأنه انهزم هذا اليوم ليكسر الميسرة على عليّ عليه السلام، ذكر ذلك الكلبيّ والواقديّ وغيرهما. ويدلّ على باطنه هذا أنّه لما استظهرت ربيعةُ على معاوية وعلى صفوف أهل الشام في اليوم الثاني من هذا أرسل معاوية إلى خالد بن المعمّر: أنْ كُفَّ عني ولك إمارة خراسان ما بقيت. فكفّ عنه، فرجع بربيعة، وقد شارفوا أخذه من مضرِبه، وسيأتي ذكر ذلك.

قال نصر: فلما رجع خالد بن المعمّر واستوت صفوف ربيعة كما كانت، خطبهم فقال:

يا معشرَ ربيعة: إنّ الله تعالى قد أتى بكلّ رجل منكم من منبتِه ومسقط رأسه، فجمعكم في هذا المكان جَمْعاً لم تجتمِعوا مثلَه قطّ منذ أفرشكم الله الأرض، وإنكم إن تمسِكوا أيديَكم، وتَنكلوا عن عدوّكم وتحولوا عن مصافّكم، لا يرضى الربّ فعلَكم ولا تعدموا معيِّراً يقول: فضحت ربيعة الذِّمار، وخاموا عن القتال، وأُتِيَت من قبلهم العرب، فإياكم أن يتشاءم بكم اليوم المسلمون. وإنكم إن تمضوا مقدمين وتصبروا محتسبين، فإنّ الإقدام منكم عادة، والصبر منكم سجيّة، فاصبروا ونيّتكم صادقة تؤجروا، فإنّ ثوابَ مَنْ نوى ما عند الله شرفُ الدنيا وكرامة الآخرة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فقام إليه رجل من ربيعة، وقال: قد ضاعَ والله أمرُ ربيعة حين جعلتْ أمرَها إليك، تأمرنا ألا نحول ولا نزول، حتى نقتل أنفسنا، ونسفك دماءنا!

فقام إليه رجال من قومه، فتناولوه بقسِّيهم، ولكَزُوه بأيديهم، وقالوا لخالد بن المعمّر: أخرجوا هذا من بينكم، فإنّ هذا إن بَقِيَ فيكم ضرّكم، وإن خرج منكم لم ينقصْكُم عدداً، هذا

الذي لا ينقص العددَ، ولا يملأ البلَد. ترَّحك الله من خطيب قوم! لقد جنّبك الخير. قبح الله ما جئت به!

قال نصر: واشتدّ القتال بين ربيعة وحمير وعبيد الله بن عمر حتى كثرت القتلى، وجعل عبيد الله يحمل ويقول: أنا الطيب ابن الطيب، فتقول له ربيعة: بل أنت الخبيث ابن الطيب.

ثم خرج نحو خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب عليّ عليه السلام على رؤوسهم البَيض، وهم غائصون في الحديد، لا يُرَى منهم إلا الحدَق، وخرج إليهم من أهلِ الشام نحوهم في العدّة، فاقتتلوا بين الصَّفَّين، والناس وقوف تحت راياتهم، فلم يرجع مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء مخبر، لا عراقيّ ولا شاميّ، قتلوا جميعاً بين الصفين.

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، عن جابر، عن تيم، قال: نادى منادي أهل الشام: ألا إن معنا الطيب ابن الطيب، عبيد الله بن عمر، فنادى منادي أهل العراق بل هو الخبيث ابن الطيب، ونادى منادي أهل العراق: ألا إن معنا الطيب ابن الطيب محمد بن أبي بكر، فنادى منادي أهل الشام: بل الخبيث ابن الطيب.

قال نصر: وكان بصِفّين تَلٌّ تلقى عليه جماجمُ الرِّجال، فكان يدعى تلّ الجماجم، فقال عُقْبة بن مسلم الرُّقاشي من أهل الشام:

وَلَمْ أرَ فُرساناً أشدَّ حفيظةً ... وأمنعَ مِنَّا يومَ تَلِّ الجماجِمِ
غداة غدا أهلُ العراق كأنهمْ ... نعامٌ تَلاَقَى في فجاجِ المخارِمِ[1]
إذا قلتُ قد وَلَّوْا تثوب كتيبةٌ ... ململَمةٌ في البيض شُمْطُ المقادِمِ
وقالوا لنا: هذا عليٌّ فبايعوا ... فقلنا: صهٍ بلْ بالسيُوف الصوارِمِ

وقال شبَث بن رِبْعيّ التميميّ:

وقفنا لديهمْ يوم صِفِّين بالْقَنَا ... لَدُنْ غَدْوَةً حَتَّى هَوَتْ لغُروبِ
وولّى ابن حربٍ والرماح تَنُوشُه ... وقد أرضت الأسيافُ كلّ غضوبِ
نجالدهمْ طوراً وطوراً نشلّهمْ ... على كلِّ مَخْبُوكِ السَّراةِ شَبُوبِ
فلم أر فرساناً أشدَّ حفِيظَةً ... إذا غشِي الآفاقَ رَهْجُ جَنُوبِ
أكرَّ وأحمَى بالغطاريف والْقَنَا ... وكلّ حديدِ الشَّفرَتَيْن قضوبِ

قال نصر: ثم ذهب هذا اليوم بما فيه، فأصبحوا في اليوم التاسع من صفر، وقد خطب معاوية أهل الشام وحَرّضهم، فقال:

---

(١) المَخَارِم: الطُّرُف في الغِلَظ، وأوائل الليل.

إنّه قد نَزَلَ بكم من الأمر ما تروْن، وحضركم ما حضركم، فإذا نَهَدْتُم إليهم إن شاء الله، فقدِّموا الدّارع، وأخِّروا الحاسر، وصُفّوا الخيل وأجنبوها، وكونوا كقَصّ الشارب، وأعيرونا جماجِمكم ساعة، فإنما هو ظالم أو مظلوم، وقد بلغ الحق مقطعَه.

قال نصر: وروى الشَّعبيّ، قال: قام معاوية فخطَب الناس بصِفِّين في هذا اليوم، فقال:

الحمد لله الذي دَنا في عُلُوِّه، وعَلا في دُنُوِّه، وظهر وبَطن، وارتفع فوق كلِّ ذي منظرٍ، هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، يقضي فيفصِل، ويقدِّر فيغفر، ويفعل ما يشاء، إذا أراد أمراً أمضاه، وإذا عزم عَلَى شيء قضاه، لا يؤامر أحداً فيما يملك، ولا يُسْألُ عَمّا يفعل وهم يُسْألُون، والحمدُ لله ربّ العالمين، على ما أحببنا وكرِهنا. وقد كان فيما قضاه الله أنْ ساقتْنا المقادير إلى هذه البُقْعة من الأرض، ولفّ بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظَر، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(١).

انظروا يا أهلَ الشام، إنكم غداً تلقوْن أهلَ العراق، فكونوا على إحدى ثلاث خصال: إمّا أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله في قتال قوم بَغَوْا عليكم، فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بَيْضتكم، وإمّا أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيّكم، وإمّا أن تكونوا قوماً تذُبّون عن نسائكم وأبنائكم. فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل، أسأل الله لنا ولكن النَّصْر، وأنْ يفتح بيننا وبين قومنا بالحقّ، وهو خير الفاتحين.

فقام ذو الكَلاع، فقال:

يا معاوية، إنا نحنُ الصُّبُر الكِرام، لا نَنْثَنِي عِنْد الخِصَام، بنو الملوكِ العِظَام، ذوِي النُّهى والأحلام، لا يقربون الآثام.

فقال معاوية: صدقت.

قال نصر: وكانت التعبية في هذا اليوم كالتعبية في الذي قَبْله، وحملَ عبيدُ الله بن عمر في قرّاء أهلِ الشام، ومعه ذو الكَلاع في حِمْير على ربيعة، وهي في ميسرة عليّ عليه السلام، فقاتلوا قتالاً شديداً، فأتى زياد بن خَصَفة إلى عَبْد القيس، فقال لهم: لا بَكْر بن وائلٍ بعد اليوم! إن ذا الكَلاع وعُبيد الله أبادَا رَبيعة، فانهضوا لهم وإلا هلكوا. فركبت عبدُ القيس، وجاءت كأنها غمامة سوداء فشدَّتْ أزْرَ الميسرة، فعظم القتال، فقتل ذو الكَلاع الحميريّ، قتله رجل من بكْر بن وائل، اسمه

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

خِنْدف، وتضعضعت أركان حمير، وثبتت بعد قتل ذي الكَلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر، وأرسل عبيد الله إلى الحسن بن عليّ عليه السلام: إنّ لي إليك حاجةً فالقَني، فلقيه الحسن عليه السلام، فقال له عبيد الله: إنّ أباك قد وَتَرَ قريشاً أولاً وآخراً، وقد شنِئه الناسُ، فهل لك في خَلْعه، وأنْ تتولى أنت هذا الأمر! فقال: كلاّ والله، لا يكون ذلك. ثم قال: يابن الخطاب، والله لكأني أنظرُ إليك مقتولاً في يومك أو غدك. أما إن الشيطان قد زَيّن لك وخَدَعك، حتى أخرجك مخلقاً بالخَلُوق، تَرى نساءُ أهلِ الشام موقفك، وسيصرَعُك الله، ويبطحك لوجهك قتيلاً!

قال نصر: فوالله ما كانَ إلا بياضُ ذلك اليوم حتّى قُتل عبيد الله، وهو في كتيبة رَقْطاء، وكانت تدعى الخضريّة، كانوا أربعة آلاف، عليهم ثياب خُضْر، فمرّ الحسن عليه السلام، فإذا رجلٌ متوسّد برجل قتيل، قد ركز رمحَه في عينه، وربط فرسَه برجله، فقال الحسن عليه السلام لمن معه: انظُروا مَنْ هذا؟ فإذا رجلٌ من هَمْدان، وإذا القتيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قد قتله الهمدانيّ في أوّل الليل، وبات عليه حتى أصبح.

قال نصر: وقد اختلف الرواة في قاتل عُبيد الله، فقالت هَمْدان: نحن قتلناه، قتَله هانىء بن الخطاب الهمْدانيّ، وركز رمحه في عينه... وذكر الحديث. وقالت حضرموت: نحن قتلناه، قتله مالك بن عمرو الحضرميّ. وقالت بكر بن وائل: نحن قتلناه، قتله محرز بن الصَّحصح من بني تيم اللات بن ثعلبة، وأخذ سيفه الوشاح.

فلما كان عامُ الجماعة طلب معاوية السيف من ربيعة الكوفة، فقالوا: إنما قتله رجلٌ من ربيعة البصرة يقال له محرز بن الصَّحصح، فبعث إليه معاوية، فأخذ السيف منه.

قال نصر: وقد روى أن قاتله حُريث بن جابر الحنفيّ، وكان رئيس بني حَنيفة يوم صِفّين مع عليّ عليه السلام، حمل عبيد الله بن عمر على صَفّ بني حنيفة، وهو يقول:

أنا عُبيدُ الله يَنميني عُمَرْ ... خَيْرُ قريش مَنْ مَضَى ومَنْ غَبرْ
إلا رسولَ الله والشيخَ الأغَرّ ... قد أبطأت عن نصر عثمانَ مُضَرْ
والربَعيّون فَلا أسْقُوا المطَرْ ... وسارَعَ الحيّ اليمانون الغُرَرْ
والخير في النّاس قديماً يُبتدَرْ

فحمل عليه حُرَيث بن جابر الحنفيّ، وقال:

قَدْ سَارَعَتْ في نَصْرِهَا رَبِيعَهْ ... في الحقّ والحقُّ لَهَا شَرِيعَهْ
فاكفُفْ فلستَ تاركَ الوقيعَهْ ... في العُصبة السامعة المطِيعَهْ
حتى تذوقَ كاسَهَا الفَظِيعَهْ

وطعنه فصرعه.

قال نصر: فقال كعب بن جُعَيل التغلبيّ يرثي عبيد الله، وكان كعبٌ شاعر أهل الشام:

ألا إنما تبكي العيونُ لفارسٍ ... بصِفِّين أجلَتْ خَيْلُه وهو واقفُ
تَبَدَّلَ مِنْ أسماءَ أسيافَ وائلٍ ... وأيّ فتى لو أخطأتْهُ المتالِفُ!
تركتمْ عبيد الله في القاع مُسْلَماً ... يمجّ دماء، والعرُوق نوازِف
ينوءُ وتَغْشَاهُ شآبيبُ من دمٍ ... كما لاحَ في جَيْب القميصِ الكفائفُ
دعاهنّ فاسْتَسْمَعْن من أينَ صوتُه ... فأقبلنَ شَتَّى والعيونُ ذَوارِفُ
تُحَلِّلْنَ عنه زرّ دِرْعٍ حصينة ... ويُنْكَرُ منه بعد ذاك مَعارِفُ
وقرّت تميم سعدها وربابُها ... وخالفت الخضراءُ فيمن يخالف
وقد صبرت حولَ ابن عمّ محمد ... لدى الموت شهباءُ المناكب شَارِفُ
بمرْجٍ ترى الرايات فيه كأنّها ... إذا جنحت للطَّعن طَيْرٌ عواكفُ
فما بَرِحُوا حتى رأى الله صبرهمْ ... وحَتّى أسرّت بالأكفّ المصاحفُ
جزى الله قَتْلانا بصِفّين خَيْر ما ... أثيب عباد غادرتها المواقف

قلت: هذا الشعر نظمه كعب بن جُعَيل بعد رفع المصاحف وتحكيم الحكمين يذكر فيه ما مضى لهم من الحرب على عادة شعراء العرب، والضمير في قوله:

دعاهنّ فاستسمعن من أين صوته

يرجع إلى نساء عبيد الله، وكانت تحته أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة التميميّ وبحرية بنت هانىء بن قبيصة الشيبانيّ، وكان عبيد الله قد أخرجهما معه إلى الحرب ذلك اليوم لينظرا إلى قتاله، فوقفتا راجلتين، وإلى أسماء بنت عطارد، أشار كعب بن جُعَيل بقوله:

تبدّل من أسماء أسيافَ وائل

والشعر يدلّ على أن ربيعة قتلته، لا همدان ولا حضرموت.

ويدلّ أيضاً على ذلك ما رواه إبراهيم بن ديزيل الهمدانيّ في كتاب صفين: قال شدّت ربيعة الكوفة، وعليها زياد بن خَصَفة على عبيد الله بن عمر ذلك اليوم، وكان معاوية قد أقْرَع بين الناس، فخرج سهم عبيد الله بن عمر على رَبيعة فقتلته، فلما ضُرِب فُسطاط زياد بن خَصَفة بقي طُنُب من الأطناب لم يجدوا له وَتِداً، فشدّوه برِجْل عبيد الله بن عمر، وكان ناحية فجرّوه، حتى ربطوا الطُّنب برجله، وأقبلت امرأتاه حتى وقَفَتا عليه، فبكتا عليه وصاحتا، فخرج زياد بن خَصَفة، فقيل له: هذه بحرية ابنة هانىء بن قبيصة الشيبانيّ ابنة عمك، فقال لها: ما حاجتُك يابنة أخي! قالت: تدفع زوجي إليّ، فقال: نعم خذيه، فجيء ببغل فحملته عليه، فذكروا أن يديه ورجليه خَطّتا بالأرض عَنْ ظهر البغل.

قال نصر: ومما رثى به كعبُ بن جُعيل عُبيدَ الله بن عمر قولُه:

يـقـولُ عـبـيـدُ الله لـمـا بَـدَتْ لـه ... سَحَابةُ موتٍ تَقْطر الْحَتْفَ والدَّما
ألا يـالـقـومـي فـاصبـروا إنّ صبـركُـمْ ... أعـفُّ وأحـجـى عِـفّـةً وتـكـرُّمـا
فـلـمـا تـدانـي الـقـوم خَـرّ مُـجَـدّلاً ... صريـعـاً تـلاقي التُرب كفّيه والفَما
وَخَـلَّـف أطـفـالاً يـتـامـى أذلّـة ... وعِرْساً عليه تَسكُب الدمْع أيّما
حَلالاً لـهـا الـخطّاب لا يـمـنعـنّهـم ... وقـد كـان يـحـمِـي غَـيْرةً أن تُـكـلّـمـا

وقال الصّلَتان العبديّ يذكر مقتل عبيد الله، وأنّ حريث بن جابر الحنفيّ قتله:

ألا يـا عُـبـيـدَ الله مـا زلْـتَ مُـولَـعـاً ... ببكـرٍ لـهـا تُـهْـدِي الـقرى والـتّـهددا
وَكُـنْـتَ سَـفـيـهـاً قَـدْ تـعـوَّدْتَ عَـادَةً ... وكـلُّ أمـرىءٍ جـارٍ عَـلَـى مـا تـعـوّدا
فـأصـبـحـتَ مـسـلـوبـاً عـلـى شرّ آلـة ... صريـع الـقـنـا تـحـت الـعـجـاجـة مُفْردا
تـشـقّ عـلـيـك جـيـبـهـا ابـنـة هـانـىء ... مُـسَـلّـبـة تـبـدي الـشـجـا والـتـلـدّدا
وكـانـت تـرىٰ ذا الأمـر قـبـل عِـيـانـه ... ولـكـن حـكـم الله أهـدىٰ لـك الـرَّدَى
وقـالـت عـبـيـدَ الله لا تـأتِ وائـلاً ... فَقُلت لـهـا لا تـعجلي وانظرِي غدا
فـقـد جـاء مـا قـد مـسَّـهـا فـتـسـلّـبَت ... عـلـيك، وأمسى الجيبُ منها مقدّدا
حـبـاك أخـو الـهـيـجـا حُـريث بن جابر ... بـجـيـاشـةٍ تـحـكـي بـهـا الـنـهـر مـزبـدا
كـأنّ حـمـاة الـحـيّ بـكـر بـن وائـل ... بـذي الـرِّمْـث أسدٌ قـدْ تـبـوأن غَـرْقـدا

قال نصر: فأما ذو الكَلاع فقد ذكرنا مقتله، وأنّ قاتله خندف البكري.

وحدّثنا عمرو بن شمر، عن جابر، قال: لما حَمَل ذو الكَلاع ذلك اليوم بالفَيْلق العظيم من حِمْير على صفوف أهل العراق، ناداهم أبو شجاع الحميريّ - وكان من ذوي البصائر مع عليّ عليه السلام - فقال: يا معشر حِمْير، تبّت أيديكم! أتروْن معاوية خيراً من عليّ عليه السلام! أضلّ الله سعيكم. ثم أنت يا ذا الكَلاع قد كنّا نرى أن لك نيّةً في الدين، فقال ذو الكَلاع: إيهاً يا أبا شجاع! والله إنّي لأعلم ما معاوية بأفضلَ من عليّ عليه السلام ولكني أقاتلُ على دم عثمان، قال: فأصيب ذو الكَلاع حينئذ، قتله خِنْدف بن بكر البكريّ في المعركة.

قال نصر: فحدّثنا عمرو، قال: حدّثنا الحارث بن حصيرة أن ابن ذي الكَلاع، أرسل إلى الأشعث بن قيس رسولاً يسأله أن يسلِم إليه جثّة أبيه، فقال الأشعث: إني أخاف أن يتهمني أميرُ

المؤمنين في أمره، فاطلبه من سعيد بن قيس فهو في الميمنة، فذهب إلى معاوية فاستأذنه أن يدخل إلى عسكر عليّ عليه السلام، يطلُب أباه بين القَتْلى، فقال له: إنّ علياً قد منع أن يدخل أحدٌ منا إلى معسكره، يخاف أن يُفسِد عليه جنده، فخرج ابن ذي الكَلاع، فأرسل إلى سعيد بن قيس الهمدانيّ يستأذِنه في ذلك، فقال سعيد: إنّا لا نمنعك من دخول العسكر، إنّ أمير المؤمنين لا يبالي مَنْ دخل منكم إلى معسكره، فادخل، فدخل من قبل الميمنة، فطاف فلم يجدْه، ثم أتى الميسرة فطاف فلم يجدْه، ثم وجده وقد ربطت رجله بطُنُب[1] من أطناب بعض فساطيط العسكر، فجاء فوقف على باب الفسطاط، فقال: السّلام عليكم يا أهل البيت، فقيل له: وعليك السلام، فقال: أتأذنون لنا في طُنُب من أطناب فُسْطاطِكم؟ ومعه عبد أسودُ لم يكن معه غيره. فقالوا: قد أذنّا لكم، وقالوا له: معذرة إلى الله وإليكم، أما إنه لولا بغيُه علينا ما صنعنا به ما تروْن، فنزل ابنهُ إليه، فوجده قد انتفخ - وكان من أعظم الناس خَلْقاً - فلم يطق احتماله، فقال: هل من فتى معوان؟ فخرج إليه خِندف البكريّ، فقال: تنحّوْا عنه، فقال ابنه: ومَنْ الذي يحمله إذا تنحينا عنه؟ قال: يحملُه قاتله. فاحتمله خِندف حتى رمى به على ظهر بغل، ثم شدّه بالحبال، فانطلقا به.

قال نصر: وقال معاوية لما قتِل ذو الكَلاع: لأنا أشدُّ فَرَحاً بقتل ذي الكَلاع منّي بفتح مصر لو فتحتُها. قال: لأن ذا الكَلاع كان يحجُر على معاوية في أشياء كان يأمرُ بها.

قال نصر: فلما قتل ذو الكَلاع اشتدّت الحرب وشدّت عكّ وَلَخمٌ وجُذام، والأشعريون من أهل الشام على مذحِج من أهل العراق، جعلهم معاوية بإزائهم، ونادى منادي عكّ:

ويلٌ لأمّ مَذْحِجٍ مِنْ عَكٌّ ... لَنتركَنَّ أمَّهُم تُبَكّي
نقتلُهم بالطَّعْنِ ثم الصَّكّ ... بكل قِرْن باسلٍ مِصَكّ[2]
فلاَ رجالَ كرجالِ عكّ

فنادى منادي مَذْحج، يا لمَذحِج! خَدّموا - أي اضربوا السُّوق مواضع الخَدَمة، وهي الخلاخيل - فاعترضت مذحِج سوقَ القوم، فكان فيه بوار عامَّتهم، ونادى منادي جذام حين طحنت رحا القوم، وخاضت الخيل والرجال في الدماء.

الله الله في جذام، ألا تذكرون الأرحَام، أفنيتم لخماً الكرام، والأشعرين وآل ذي حمام! أين النُّهى والأحلام! هذي النساء تبكي الأعلام.

ونادى منادي عكّ:

---

(١) الطُّنُبُ: حبل طويل يُشَدُّ به سرادق البيت، أو الوتد. القاموس المحيط، مادو (طنب)
(٢) المِصَكُّ: القوي من الناس وغيرهم. القاموس المحيط، مادة (صكك).

يا علكَ أين المفرّ، اليوم تعلم ما الخبر، لأنكم قومٌ صُبُر، كونوا كمجتمع المدَر[1]، لا تشمتن بكُم مُضَر، حتى يحولَ ذا الخبر.

ونادى منادي الأشعريين:

يا مذحِج، مَنْ للنساء غداً إذا أفناكم الرَّدَى، الله الله في الحرمات، أما تذكرون نساءكم والبنات، أما تذكرون فارس والروم والأتراك، لقد أذن الله فيكم بالهلاك!

قال: والقومُ ينحرُ بعضُهم بعضاً ويتكادَمون بالأفواه.

قال نصر: وحدّثني عمرو بن الزبير: لقد سمعت الحُضَين بن المنذر، يقول: أعطاني عليّ عليه السلام ذلك اليوم رايةَ ربيعة، وقال: باسم الله سِرْ يا حضَين، واعلم أنه لا تخفِق على رأسك رايةٌ مثلها أبداً، هذه راية رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فجاء أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهليّ إلى الحُضين، وقال: هل لك أن تعطيَني الراية أحملُها لك، فيكون لك ذكرُها، ويكون لي أجرُها! فقال الحُضَين: وما غناي يا عمّ عن أجرها مع ذِكْرِها! قال: إنه لا غنى بك عن ذلك، ولكن أعِرْهَا عمّك ساعة، فما أسرع ما ترجع إليك! قال الحُضَين: فقلت: إنه قد استَقتل، وإنه يريد أن يموت مجاهداً، فقلت له: خذها فأخذها، ثم قال لأصحابه: إن عملَ الجنة كَرْه كله وثَقيل، وإن عَمل النار خِفٌّ كلّه وخبيث، إنّ الجنةَ لا يدخلها إلا الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره، وليس شيء مما افترض الله على العباد أشدّ من الجهاد، هو أفضلُ الأعمال ثواباً عند الله، فإذا رأيتموني قد شددتُ فشدّوا، ويحكم! أما تشتاقون إلى الجنة! أما تحبّون أن يغفِر الله لكم! فشدّ وشدوا معه، فقاتلوا قتالاً شديداً، فقتل أبو عرفاء رحمه الله تعالى، وشدت ربيعة بعده شَدّة عظيمة على صفوف أهل الشام فنقضتها. وقال مجزَأة بن ثور:

أضربُهمْ ولا أرى معاويه ... الأبرجَ العين العظيمَ الحَاويْه

هوت به في النّار أمُّ هاويه ... جاوره فيها كلابٌ عاويه

أغوى طَغَاماً لا هدته هاديْه

قال نصر: وكان حُريث بن جابر يومئذ نازلاً بين الصَّفّين في قبّة له حمراء، يسقي أهلَ العراق اللبن والماء والسَّوِيق، ويطعمهم اللّحم والثريد، فمن شاء أكَل، ومن شاء شرب، ففي ذلك يقول شاعرهم:

---

(١) المَدَرُ: قطع الطين اليابس، أو العِلْكُ الذي لا رمل فيه.

فلو كانَ بالدَّهْنا حُريث بن جابر ... لأصبح بحراً بالمفازة جاريا

قلت: هذا حُرَيث بن جابر، هو الذي كتب معاوية إلى زياد في أمره بعد عام الجماعة - وحريث عامل لزياد على همْدان - أما بعد، فاعزِلْ حريث بن جابر عن عَمَله، فما ذكرت مواقفه بصفِّين إلا كانت حزازة في صدري. فكتب إليه زياد: خَفِّض عليك يا أمير المؤمنين، فإن حريثاً قد بلغ من الشَّرف مبلغاً لا تزيده الولاية، ولا ينقصه العزل.

قال نصر: فاضطربَ النّاسُ يومئذ بالسيوف حتى تقطّعت وتكسرت، وصارت كالمناجل، وتطاعنوا بالرّماح حتى تقصّفت وتناثرت أسنتُها، ثم جَثَوْا على الركب فتحاثَوا بالتراب، يحثُو بعضهم التراب في وجه بعض، ثم تعانقوا وتكادَموا بالأفواه، ثم تراموْا بالصخر والحجارة. ثم تحاجزُوا، فكان الرّجلُ من أهل العراق يمرّ على أهل الشام، فيقول: كيف آخذ إلى رايات بني فلان؟ فيقولون: ها هنا لا هداك الله، ويمرّ الرجل من أهل الشام على أهل العراق، فيقول: كيف آخذ إلى راية بني فلان؟ فيقولون: ها هنا لاحفظك الله ولا عافاك.

قال نصر: وقال معاوية لعمرو بن العاص: أما ترَى يا أبا عبد الله إلى ما قَدْ دفعنا، كيف ترى أهل العراق غداً صانعين! إنا لبِمعرض خطر عظيم. فقال له: إن أصبحتْ غداً ربيعة وهم متعطّفون حَوْل عليّ عليه السلام تعطُّف الإبل حول فحلها، لقيت منهم جِلاداً صادقاً، وبأساً شديداً، وكانت التي لا يُتعزَّى لها. فقال معاوية: أيجوز أنّك تخوفنا يا أبا عبد الله! قال: إنّك سألتني فأجبتك. فلما أصبحوا في اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدِقة بعليّ عليه السلام إحداقَ بياض العين بسوادها.

قال نصر: فحدّثني عمرو، قال: لما أصبَح عليّ عليه السلام هذا اليوم، جاء فوقف بين رايات ربيعة، فقال عتاب بن لقيط البكريّ، من بني قيس بن ثعلبة: يا معشرَ ربيعة، حامُوا عن عليّ منذ اليوم، فإنْ أصيبَ فيكم افتضحتُمْ، ألا ترونَه قائماً تحت راياتكم! وقال لهم شقيق بن ثور: يا معشرَ ربيعة، ليس لكم عُذْر عند العرب إن وُصل إلى عليّ وفيكم رجل حيّ، فامنعوه اليوم، واصدقوا عدوّكم اللقاء، فإنه حمد الحياة تكسبونه. فتعاهدت ربيعة وتحالفتْ بالأيمان العظيمة منها، تبايعَ سبعة آلاف، على ألا ينظر رجلٌ منهم خلفه حتى يردوا سُرادق معاوية، فقاتلوا ذلك اليوم قتالاً شديداً لم يكنْ قبله مثله، وأقبلوا نحو سرادق معاوية، فلما نظر إليهم قد أقبلوا قال:

إذا قلتُ قد ولَّتْ ربيعة أقبلَتْ ... كتائبُ منها كالجبالِ تُجالدُ

ثم قال لعمرو: يا عمرو، ما ترى! قال: أرى ألا تحنَثَ أخوالي اليوم، فقام معاوية وخلّى لهم سرادقه ورحْلَه وخرج فارًّا عنه، لائذاً ببعض مضارب العسكر في أخرَيات الناس فدخله، وانتهبت ربيعة سرادقه ورَحْله، وبعث إلى خالد بن المعمّر: إنّكَ قد ظفرت، ولك إمرة خراسان

إن لم تُتمّ. فقطع خالد القتال ولم يتمّه، وقال لربيعة: قد برّت أيمانكم فحسبكم، فلما كان عام الجماعة، وبايع النّاسُ معاوية، أمّره معاوية على خُراسان، وبعثه إليها، فمات قبل أن يبلغَها.

قال نصر في حديث عمرو بن سَعْد: إنّ علياً عليه السلام صلّى بهم هذا اليوم صلاةَ الغداة، ثم زحف بهم، فلما أبصروه قد خرج استقبلُوه بزُحوفهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم إنّ خيل أهلِ الشام حملت على خيل أهل العراق، فاقتطعُوا من أصحاب عليٍّ عليه السلام ألفَ رجل أو أكثر، فأحاطوا بهم، وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم يروهم، فنادى عليّ عليه السلام يومئذ: ألا رجلٌ يشري نفسَه لله ويبيع دنياه بآخرته! فأتاه رجلٌ من جُعْف يقال له عبد العزيز بن الحارث، على فَرَس أدهم، كأنه غراب مقنَّع في الحديد، لا يُرى منه إلا عيناه، فقال: يا أمير المؤمنين، مُرْني بأمرك، فوالله لا تأمرني بشيء إلا صنعته، فقال عليٌّ عليه السلام:

سمحتَ بأمرٍ لا يطاق حفيظةً ... وصدقاً وإخوانُ الوفاء قليلُ
جَزَاك إلٰهُ النَّاسِ خيراً فإنّه ... لعمرُك فضلٌ ما هناك جزيلُ

يا أبا الحارث، شدَّ الله ركنك، احمل على أهل الشام، حتى تأتيَ أصحابَك فتقولَ لهم: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السَّلام، ويقول لكم: هلّلوا وكَبّروا من ناحيتكم، ونهلّل نحن ونكبّر من ها هنا، واحملوا من جانبكم، ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام فضرب الجعفيّ فرسه، حتى إذا أقامه على أطراف سَنَابكه، حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب عليٍّ عليه السلام: فطاعَنهم ساعة، وقاتلهم. فأفرَجُوا له حتى خَلَص إلى أصحابه، فلما رأوْه استبشرُوا به وفرِحُوا، وقالوا: ما فعل أمير المؤمنين؟ قال: صالح، يقرئكم السلام ويقول لكم: هلّلوا وكبروا واحملوا حملة شديدة من جانبكم، ونهلّل نحن ونكبّر ونحملِ من جانبنا. ففعلوا ما أمرهم به، وهلّلوا وكَبّروا، وهلّل عليٌّ عليه السلام وكَبّر هو وأصحابه، وحَمَل على أهل الشام وحملوا هُمْ من وَسَط أهل الشام، فانفرج القومُ عنهم وخرجوا، وما أُصيب منهم رجلٌ واحد، ولقد قُتِل من فُرْسان الشام يومئذ زهاء سبعمائة إنسان.

قال عليّ عليه السلام: مَنْ أعظمُ الناس اليوم غناء؟ فقالوا: أنتَ يا أمير المؤمنين، فقال: كلاّ، ولكنّه الجُعفيّ.

قال نصر: وكان عليٌّ عليه السلام لا يعدِل بربيعة أحداً من النَّاس، فشقّ ذلك على مُضَر، وأظهروا لهم القبيح، وأبدَوْا ذات أنفسهم، فقال الحُضَين بن المنذر الرقاشي شعراً أغضبهم به، من جملته:

أرَى مُضَراً صارتْ ربيعةُ دونَها ... شِعَارَ أميرِ المؤمنين، وذا الفضلُ
فأبدَوْا لنا مما تجنّ صدورهمْ ... هو السوءُ والبغضاء والحِقْد والغِلُّ

فـأبـلُـوا بـلانـا أو أقـرّوا بـفـضـلِـنَـا ولـن تـلـحـقـونـا الـدّهْـرَ مـا حنّت الإبُلُ

فقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانيّ، وعمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة التميميّ، وقبيصة بن جابر الأسدي، وعبد الله بن الطّفيل العامريّ، في وجوه قبائلهم، فأتوا عليًّا عليه السلام، فتكلم أبو الطفيل، فقال: إنا والله يا أمير المؤمنين ما نحسُد قوماً خصّهم الله منك بخير، وإن هذا الحيّ من ربيعة قد ظنّوا أنّهم أوْلَى بك مِنّا، فأعفهم عن القتال أياماً، واجعل لكلّ امرىء منّا يوماً يقاتل فيه، فإنا إذا جتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا. فقال عليّ عليه السلام: نعم أعطيكم ما طلبتم، وأمر ربيعة أن تكفّ عن القتال، وكانت بإزاء اليمن من صُفوف أهل الشام، فغدَا أبو الطفيل عامر بن واثلة في قومه من كنانة، وهم جماعةٌ عظيمة، فتقدّم أمام الخيل، ويقول: طاعِنوا وضاربوا. ثمَ حمل، وارتجز فقال:

قَـدْ ضَـارَبَـتْ فِـي حَـرْبِـهَـا كِـنَـانَـهْ والله يـجـزيـهـا بِـهِ جِـنـانَـهْ
مـن أفْـرغ الـصَّـبْـرُ عـلـيـه زانَـهْ أو غَـلَـبَ الـجُـبْـنُ عـلـيـه شَـانَـهْ
أو كـفـر الله فـقـد أهـانَـهْ غـداً يَـعـضّ مَـنْ عَـصَـى بـنـانَـهْ

فاقتتلوا قتالاً شديداً: ثم انصرف أبو الطُّفيل إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّك أنبأتَنا أنّ أشرفَ القتل الشهادة، وأحظَى الأمر الصبر، وقد والله صبرنا حتى أصِبنا، فقتيلُنا شهيد، وحيُّنا سعيد، فليطلُب مَنْ بقي ثأر مَن مضى، فإنا وإن كنّا قد ذهب صَفْوُنا، وبقي كدَرُنا، فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى، ويقيناً لا تزحمه الشبهة. فأثنى عليّ عليه السلام عليه خيراً.

ثم غَدَا في اليوم الثاني عمير بن عطارد بجماعة من بني تميم - وهو يومئذ سيّد مُضَر الكوفة - فقال يا قوم، إني أتبع آثار أبي الطفيل، فاتبعوا آثار كنانة، ثم قدّم رايته وارتجز فقال:

قَـدْ ضَـارَبَـتْ فِـي حَـرْبِـهـا تَـمِـيـمُ إنّ تـمـيـمـاً خـطـبُـهـا عَـظِـيـمُ
لـهـا حـديـثٌ ولـهـا قـديـمُ إنّ الـكـريـمَ نَـسْـلُـه كَـرِيـمُ
ديـن قـويـم وهـوًى سـلـيـمُ إن لـم تـرِدْهـم رايـتـي فـلـومـوا

ثم طعن برايته حتى خَضَبها، وقاتل أصحابه قتالاً شديداً حتى أمسَوْا، وانصرف عمير إلى عليّ عليه السلام، وعليه سلاحه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، قد كان ظنّي بالناس حسناً، وقد رأيتُ منهم فوقَ ظَنّي بهم، قاتلوا من كلّ جهة، وبلغوا من عَفْوهم جَهْدَ عدوّهم، وهم لهم إن شاء الله.

ثم غدا في اليوم الثالث قَبيصة بن جابر الأسَديّ في بني أسد، وقال لأصحابه: يا بني أسد، أمّا أنَا فلا أقصّر دون صاحبيّ، وأمّا أنتم فذاك إليكم، ثم تقدّم برايته، وقال:

قَـدْ حَـافَـظَـتْ فـي حـربـهـا بـنـو أَسَـدْ مـا مـثـلُـهـا تَـحْـتَ الـعَـجَـاجِ مـن أَحَـدْ
أقـربُ مـنْ يُـمْـنٍ وأنـأى مـن نَـكَـدْ كـأنّـنـا ركـنـا ثَـبِـيـرٍ أو أُحُـدْ

لسنا بأوباشٍ ولا بيضِ البلد لكنّنا المحّة منْ ولد معدْ

فقاتل القوم إلى أن دخل الليلُ، ثم انصرفوا.

ثم غدا في اليوم الرابع عبد الله بن الطُّفيل العامريّ في جماعة هوازن، فحارب بهم حتّى الليل ثم انصرفوا.

قال نصر: فانتصف المضرية من الربعيّة، وظهر أثرها وعرف بلاؤها، وقال أبو الطُّفيل:

وحَامَتْ كِنانة في حَرْبها وحامت تميم وحَامَتْ أسدْ
وَحَامَتْ هَوَازِنُ يَومَ اللّقا فَمَا خامَ مِنّا وَمِنْهُمْ أحَدْ
لقينا الفوارس يوم الخميـ ـس والعيدِ والسَّبت ثم الأحَدْ
لقينَا قبائل أنسابهمْ إلى حضرموت وأهل الجَنَدْ
فأمدادُهم خَلْف آذَانِهِمْ وليس لنا من سوانا مَدَدْ
فلما تنادَوْا بآبائهِمْ دَعَوْنا مَعَدًّا ونعم المعَدّ
فظلْنا نُفَلّق هاماتِهِمْ ولم نَكُ فيها ببيض البَلَدْ
وَنِعْمَ الفوارسُ يومَ اللقا فقلْ في عديدٍ، وقُلْ في عَدَدْ
وقل في طِعانٍ كفَرْغ الدِّلاءِ وَضَرْبٍ عظيم كنارِ الوَقَدْ
ولكن عَصَفْنَا بهم عَصْفَةً وفي الحرب يُمْنٌ وفيها نَكَدْ
طَحَنّا الفوارسَ وَسْطَ العَجاجِ وَسُقْنا الزعانِفَ سَوْق النَّقَدْ
وقلنا عَليٌّ لَنَا والدٌ ونحنُ له طاعةٌ كالوَلَدْ

قال نصر: وحدّثنا عمرو، عن الأشعث بن سُوَيد، عن كرْدوس، قال: كتب عُقْبة بن مسعود عاملُ عليّ على الكوفة إلى سليمان بن صُرَد الخُزاعيّ، وهو مع عليٍّ بصِفّين:

أما بعد: فإنهم ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾(١)، فعليكَ بالجهاد والصَّبْر مع أمير المؤمنين. والسلام.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن سعد وعمرو بن شَمِر، عن جابر عن أبي جعفر، قال: قام عليٌّ عليه السلام فخطب الناس بصِفّين، فقال:

الحمدُ لله عَلَى نِعَمِهِ الفاضِلة على جَمِيع مَنْ خَلَق، من البَرّ والفاجر، وعلى حُجَجه البالغة

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٠.

عَلَى خَلْقِه مَنْ أطاعه فيهم ومَنْ عصاه، إن يَرحَمْ فبفضله وَمَنّه، وإن عَذّب فبما كسبت أيديهم، وإن الله ليسَ بظلامٍ للعبيد.

أحْمَدُه على حُسْن البلاء، وتظاهر النَّعماء، وأستعينه على ما نابنا من أمرِ الدنيا والآخرة، وأتوكّل عليه وكفى بالله وكيلاً. ثم إني أشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله، أرسلَه بالهدى ودين الحقّ، ارتضاه لذلك، وكان أهله، واصطفاه لتبليغ رسالته، وجعلَه رحمةً منه على خَلْقِه، فكان علمُه فيه رؤوفاً رحيماً، أكرم خلق الله حسباً، وأجملُهم منظراً، وأسخاهم نفساً، وأبرّهم لوالد، وأوْصَلهم لرحِم، وأفضلهم علماً، وأثقلهم حِلْماً، وأوفاهم لعهد، وآمنهم على عَقْد، لم يتعلّق عليه مسلم ولا كافر بمظلمة قطّ، بل كان يظلم فيغفر، ويقدِر فيَصفح، حتى مضى صلى الله عليه وآله مطيعاً لله، صابراً على ما أصابه، مجاهداً في الله حقَّ جاهده، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وآله، فكان ذهابُه أعظمَ المصيبة على أهل الأرض: البرّ والفاجر، ثم ترك فيكم كتابَ الله يأمركم بطاعة الله، وينهاكم عن معصيته، وقد عهِد إليّ رسولُ الله عهداً فلستُ أحيدُ عنه، وقد حَضَرْتُم عَدُوّكُم، وعلمتُم أن رئيسهم منافق، يدعوهم إلى النار، وابن عمّ نبيكم معكم، وبين أظهركم، يدعوكم إلى الجنّة وإلى طاعة ربّكم، والعملِ بسنّة نبيكم، ولا سواءَ مَنْ صلَّى قبلَ كلّ ذَكَر، لم يسبقني بصلاةٍ مع رسول الله أحدٌ، وأنا من أهل بدر، ومعاوية طليق [وابن طليق]. والله إنّا على الحقّ وإنهم على الباطل، فلا يجتمعُنّ على باطلهم وتتفرقوا عن حَقّكم حتّى يغلِبَ باطلُهم حقّكم، ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾(١)، فإن لم تفعلوا يعذّبهم بأيدي غيركم.

فقام أصحابُه، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، انهَضْ بنَا إلى عَدُوّنا وعدوّك إذا شئت، فوالله ما نريدُ بك بدلاً، بل نموت مَعَك، ونحيَا معك. فقال لهم: والّذِي نفسي بيده، لنَظَرَ إليَّ النبي صلى الله عليه وآله، أضربُ بين يديه بسيفي هذا، فقال: «لا سيف إلا ذُو الفقار ولا فتى إلا عليّ»، وقال لي: «يا عليّ، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّهُ لا نبيّ بعدي، وموتك وحياتك يا عليّ معي»، والله ما كَذَب ولا كَذَبْتُ، ولا ضلّ ولا ضللت، ولا ضلّ بي، ولا نسِيت ما عهِدَ إليّ، وإنّي على بيِّنة من ربِّي وعلى الطريق الواضح، ألقطه لَقْطاً.

ثم نهض إلى القوم، فاقتتلوا مِنْ حين طلعتِ الشمس حتى غاب الشفق الأحمر، وما كانت صلاة القوم في ذلك اليوم إلا تكبيراً.

قال: وحدّثنا عمرو بن شمرٍ، عن جابر، عن الشعبيّ، عن صعصعة بن صُوحان، قال: برزَ

(١) سورة التوبة، الآية: ١٤.

في بعض أيام صفّين رجل من حِمْيَر، من آل ذِي يَزَن، اسمه كُرَيب بن الصباح، ليس في الشام يومئذ رجلٌ أشهر بالبأس والنّجْدة منه، فنادَى: مَنْ يبارز؟ فخرج إليه المرتفع بن الوضّاح الزبيديّ، فقتله، ثم نادى: مَنْ يُبارز؟ فخرج إليه الحارث بن الجلاح، فقتله، ثم نادى: مَنْ يبارز؟ فخرج إليه عابد بن مسروق الهمْدانيّ فقتله، ثم رمى بأجسادهم بعضَها فوق بعض، وقام عليها بغياً واعتداء، ونادى: مَنْ يبارز؟ فخرج إليه عليّ، وناداه: ويحك يا كُرَيب! إني أحذِّرك الله وبأسَه ونِقْمته، وأدعوك إلى سنّة الله وسنّة رسوله، ويحك! لا يُدخِلَنّك معاوية النار، فكان جوابُه له أن قال: ما أكثرَ ما قد سمعت مِنْك هذه المقالة! ولا حاجة لنا فيها، أقدِمْ إذا شئت، مَنْ يشتري سيفي وهذا أثره؟ فال عليّ: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم مشى إليه فلم يمهلْه أن ضربه ضَرْبَةً خرّ منها قتيلاً يُشحَط في دمه، ثم نادى: مَنْ يبرز؟ فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميريّ، فقتله، ثم نادى: مَنْ يبرُز؟ فبرز إليه المطاع بن مطّلب العنسيّ، فقتله، ثم نادى: مَنْ يبرز! فلم يبرز إليه أحدٌ، فنادى: [يا معشر المسلمين]، ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ويحك يا معاوية! هلّم إليّ فبارزْني، ولا يُقتَلَنّ الناسُ فيما بيننا. فقال عمرو بن العاص: اغتنِمهُ منتهزاً، قد قَتَل ثلاثة من أبطال العرب وإني أطمعُ أن يُظفِرَك الله به، فقال معاوية: والله لَن تريد إلا أن أُقتَلَ فتصيبَ الخلافة بعدي، اذهب، إليك عنّي، فليس مثلي يُخدَع.

قال نصر: وحدّثنا عمرو، قال: حدّثنا خالد بن عبد الواحد الجريريّ قال: حدّثني مَنْ سمع عمْرو بن العاص قبل الوقْعة العظمى بصِفّين، وهو يحرّض أهل الشام، وقد كان منحنياً على قوس، فقال:

الحمدُ لله العظيم في شأنِه، القويّ في سلطانه، العليّ في مكانه، الواضح في بُرْهانِه، أحمَده على حُسْن البلاء، وتظاهر النعماء، في كلِّ رزيةٍ من بلاء، أو شِدّةٍ أو رخاء، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، ثم إنّا نحتسِب عندَ الله ربّ العالمين ما أصبحَ في أمة محمد ﷺ من اشتعال نيرانها، واضطراب حَبْلها، ووقوع بأسها بينها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين! أوَ لاَ تعلمون أنّ صلاتَنا وصلاتَهم، وصيامَنا وصيامَهم، وحجّنا وحَجّهم، وقتلنا وقَتْلهم، ودينَنا ودينَهم واحد، ولكنّ الأهواء مختلفة، اللهمَّ أصلِحْ هذه الأمة بما أصلحتَ به أوّلَها، واحفَظْ فيما بينها، مع أن القوم قد وَطِئوا بلادكُم، وبغَوْا عليكم، فجِدّوا في قتالِ عَدُوّكم، واستعينوا بالله ربِّكم، وحافظوا على حُرماتكم. ثم جلس.

قال نصر: وخطب عبد الله بن العباس أهلَ العراق، يومئذ فقال:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

الحمدُ لله ربّ العالمين، الذي دَحا تحتَنا سَبْعا، وسَمَك فوقنا سَبْعاً، وخلَق فيما بينهنّ خَلْقاً، وأنزل لنا مِنهُنّ رزقاً، ثم جعل كلّ شيء قدراً يبلى وينفى غير وجهه الحيّ القيوم، الذي يحيا ويبقى. إن الله تعالى بعث أنبياء ورُسُلاً، فجعلهم حججاً على عباده، عُذْراً أوْ نُذْرا، لا يطاع إلا بعلمه وإذنه، يمنّ بالطاعة على مَنْ يشاء من عباده، ثم يُثيب عليها، ويُعْصَى بعلم منه، فيعفو ويغفر بحلمه، لا يقدَر قدرُه، ولا يَبْلغ شيء مكانه، أحصى كلّ شيء عدداً، وأحاط بكلّ شيء علماً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنّ محمداً عبده ورسوله، إمامُ الهدى، والنبيّ المصطفى، وقد ساقنا قَدَرُ الله إلى ما ترون، حتى كان مما اضطرب من حَبْلِ هذه الأمة، وانتشر من أمرِها، أنّ معاوية بن أبي سفيان، وَجَدَ مِنْ طغام الناس أعواناً، على عليّ ابن عم رسول الله وصهره، وأوّل ذَكَرٍ صلّى معه، بَدْرِيّ، قد شهد مع رسول الله ﷺ كلّ مشاهده الّتي فيها الفضلُ ومعاوية مشركٌ، كان يعبد الأصنام، والذي مَلك المُلك وحدَه، وبان به وكان أهله، لقد قاتَل عليّ بن أبي طالب مع رسول الله، وهو يقول: صدَق الله ورسوله، ومعاوية يقول: كَذب الله ورسوله، فعليكم بتقوّى الله، والجِدّ والحزْم والصبر، والله إنّا لَنعلمُ إنّكم لَعَلَى حقّ، وإنّ القومَ لَعَلَى باطل، فلا يكونُنّ أوْلَى بالجِدّ على باطلهم منكم في حَقّكم، وإنا لنعلمُ أن الله سيعذّبهم بأيدِيكم أو بأيدي غيركم، اللهمَّ أعِنّا ولا تخذُلْنا، وانصرنا على عَدُوّنا، ولا تحل عَنّا، وافتح بيننا وبين قومنا بالحقّ، وأنت خير الفاتحين.

قال نصر: وحدّثنا عمرو، قال: حَدّثنا عبد الرحمن بن جُندب، عن جندب بن عبد الله، قال: قام عَمّار يوم صفين، انهضُوا مَعِي عبادَ الله، إلى قومٍ يزعمون أنّهم يطلبُون بدم ظالم، إنما قتله الصالحون المنكِرون للعُدْوان، الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو دَرَس هذا الدين، لِمَ قتلتموه؟ فقلنا: لإحداثه، فقالوا إنه لم يُحدِث شيئاً، وذلك لأنه مكّنهم من الدنيا، فهم يأكلونَها ويَرْعَوْنها، ولا يبالون لو انهدمت الجبال. والله ما أظنّهم يطلبُون بدم، ولكنّ القوم ذاقُوا الدنيا فاستحلّوها، واستمرؤوها، وعلِموا أنّ صاحبَ الحق لو ولِيَهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعوْن منها.

إنّ القوم لم يكُنْ لهم سابقة في الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قُتِل إمامُنا مظلوماً: ليكونوا بذلك جبابرةً وملوكاً، تلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون، ولولاها ما بايعهم من النّاس رجل، اللهمَّ إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادّخر لهم بما أحدثوا لعبادك العذاب الأليم.

ثم مضى، ومضى معه أصحابُه، فدنا من عمرو بن العاص، فقال: يا عمرو، بعت دينَك بمصر، فتبًّا لك! وطالما بَغَيْت للإسلام عِوَجاً.

ثم قال: اللهمَّ إنّك تعلم أنّ لو أعلم أنّ رضاك في أنْ أقذِف بنفسي في هذا البحْر لفعلت.

اللهمَّ إنك تعلم أنّي لو أعلمُ أنّ رضاك أن أضع ظُبَة سيفي في بطْني ثم أنحني عليه حتى يخرج من ظَهْري لفعلت، اللهمَّ إنّي أعلم مما علّمتني أنّي لا أعمل عملاً صالحاً هذا اليوم، هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته.

قال نصر: وحدّثني عمرو بن سعد، عن الشعبيّ، قال: نادى عَمّار عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: بعتَ دينك بالدنيا من عدوّ الله، وعدوّ الإسلام معاوية، وطلبت هوَى أبيكَ الفاسق، فقال: لا، ولكنّي أطلبُ بدم عثمان الشهيد المظلوم، قال: كلاّ، أشهد على علمي فيك أنّك أصبحتَ لا تطلبُ بشيء من فعلك وجهَ الله، وأنك إن لم تقتل اليوم فستموت غداً، فانظر إذا أعطى الله العباد على نيّاتهم، ما نيّتك(١)!

وروى ابن ديزيل في كتاب صِفّين، عن صيف الضّبّي، قال: سمعت الصَّعب بن حكيم بن شريك بن نَملة المحاربيّ يروى عن أبيه عن جَدّه شريك، قال: كان النّاس من أهلِ العراق وأهل الشام يقتتلون أيام صِفّين، ويتزايلون، فلا يَستطيع الرجلُ أن يرجعَ إلى مكانه حتى يُسْفِر الغبار عنه، فاقتتلوا يوماً، وتزايلوا وأسفَر الغبار، فإذا عليٌّ تحت رايتِنا - يعني بني محارب - فقال: هل من ماء؟ فأتيتُه بإداوة فخنثتُها له ليشرب، فقال: لا إنّا نُهينا أن نشربَ من أفواه الأسقية. ثم علّق سيفه وإنه لمخضّب بالدم من ظُبته إلى قائمه، فصببت له على يديه فغسلَهما حتى أنقاهما، ثم شرب بيديه حتى إذا رَوِي رفع رأسه، ثم قال: أين مضر؟ فقلت: أنت فيهم يا أمير المؤمنين، فقال: مَنْ أنتم بارك الله فيكم؟ فقلنا: نحن بنو محارب، فعرفَ موقفَه، ثم رجع إلى موضعه.

قلت: خنثتُ الإداوة، إذا ثنيتَ فاها إلى خارج، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن اختِناث الأسقية(٢)، لأنّ رجلاً اختنثَ سِقاء فشرِب، فدخل إلى جوفه حيّة كانت في السقاء.

قال ابن ديزيل: وروى إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدّثني عبد الملك بن قُدامة بن إبراهيم بن حاطب الجُمحيّ، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدّه عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال لي رسول الله ﷺ: كيف بك يا عبد الله إذا بقيتَ في حُثالة من الناس، قد مَرَجت عهودهم ومواثيقهم، وكانوا هكذا؟ وخالف بين أصابعه - فقلت: تأمرني بأمرِك يا رسول الله، قال: «تأخذُ مما تعرِف، وتدع ما تنكر، وتعمل بخاصّة نفسك، وتدع الناس وهوامّ أمرهم»(٣).

---

(١) أخرجه ابن مزاحم في كتاب صفين: ٣٢٠/ ٤٩٠، وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢.
(٢) اختناث القرب: ثَنْيُ فيها إلى خارج والشرب منه. لسان العرب، مادة (خنث).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: تشبيك الأصابع في المسجد (٤٨٠)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٤٧٢).

قال: فلما كان يوم صفين، قال له أبوه عمرو بن العاص: يا عبد الله، اخرُج فقاتل، فقال: يا أبتَاه، أتأمرني أنْ أخرج فأقاتل، وقد سمعت ما سمعت يوم عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ما عهد! فقال: أنشُدُك الله يا عبد الله، ألم يكن آخر ما عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وآله أن أخذ بيدك، فوضعها في يدي، فقال: أطع أباك! فقال: اللهمّ بلى، قال: فإني أعزِم عليك أن تخرُج فتقاتل، فخرج عبد الله بن عمرو فقاتل يومئذ متقلّداً سيفين. قال: وإن من شعر عبد الله بن عمرو بعد ذلك يذكر عليًا بصفين:

فلو شهدتْ جُملٌ مقامِي ومشهدِي ... بصفّين يوماً شابَ منها الذوائبُ
عَشِيّةَ جا أهلُ العراق كأنهُمْ ... سحابُ ربيعٍ رفّعته الجَنَائبُ
إذا قلت قد وَلّت سِرَاعاً بدتْ لنا ... كتائب منهم وارجحنَّتْ كتائبُ
وجئناهمُ فرادَى كأنّ صفوفنا ... من البحر مدٌّ موجه متراكب
فدارتْ رَحَانا واستدارَتْ رحاهُمُ ... سَرَاة النهار ما تولّى المناكبُ
فقالوا لنا: إنّا نرى أن تُبايعوا ... فقلنا بلى إنا نرى أن تضاربوا

وروى ابن ديزيل، عن يحيى بن سليمان الجعفيّ، قال: حدثنا مسهر بن عبد الملك بن سلع الهمدانيّ، قال: حدثني أبي عن عبد خير الهمدانيّ، قال: كنت أنا وعبدُ خير في سفَر، قلت: يا أبا عمارة، حدِّثني عن بعض ما كنتم فيه بصِفّين، فقال لي: يابن أخي، وما سؤالك؟ فقلت: أحببتُ أن أسمعَ منك شيئاً، فقال: يا بن أخي، إنا كنا لنصلّي الفجر، فنصفّ ويصفّ أهل الشام، ونُشرع الرماح إليهم ويشرعون بها نحونا، أما لو دخلتَ تحتها لأظلّتك، والله يابن أخي، إنا كنا لنقِف ويقفُون في الحرب لا نفتر ولا يفترون، حتى نصلّيَ العشاء الآخرة، ما يعرف الرجلُ منّا طولَ ذلك اليوم مَن عن يمينه ولا مَن عن يساره، من شدّة الظلمة والنَّقْع إلا بقَرْع الحديد بعضه على بعض، فيبرزُ منه شُعاع كشعاع الشمس، فيعرف الرجلُ مَن عن يمينه ومَنْ عن يساره، حتى إذا صلينا العشاء الآخرة جَرَرنا قتلانا إلينا فتوسَّدْنَاهُمْ حتى نصبح، وجرّوا قتلاهم فتوسّدوهم حتى يُصبحوا. قال: قلت له يا أبا عمارة، هذا والله الصّبر.

وروى ابن ديزيل، قال: كان عمرو بن العاص إذا مرّ عليه رجلٌ من أصحاب عليّ فسأل عنه، فأخبر به، فقال: يرى عليّ ومعاوية أنهما بريئان من دم هذا.

قال ابن ديزيل: وروى ابنُ وهب، عن مالك بن أنس، قال: جلس عمرو بن العاص بصِفّين في رواق - وكان أهلُ العراق يدفنون قتلاهم، وأهل الشام يجعلون قتلاهم في العَباء والأكسية

يحملونهم فيها إلى مدافنهم - فكلّما مُرّ عليه برجل، قال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان، فقال عمرو: كم مِنْ رجل أحسنَ في الله، عظيم الحال لم ينجُ من قتله فلان وفلان! قال: يعني عليًا ومعاوية[1].

قلت: ليت شعري! لِمَ برّأ نفسه، وكان رأساً في الفتنة! بل لولاه لم تكن، ولكن الله تعالى أنطقه بهذا الكلام وأشباهه، ليظهر بذلك شكّه، وأنه لم يكن على بصيرة من أمره.

وروى نصر بن مزاحم، قال: حدثني يحيى بن يعلى، قال: حدثني صباح المُزنيّ عن الحارث بن حصن، عن زيد بن أبي رجاء، عن أسماء بن حكيم الفزاريّ، قال: كنا بصِفّين مع عليّ، تحت راية عمّار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظلَلْنا برداء أحمر، إذْ أقبلَ رجل يستقرِي الصفّ حتى انتهى إلينا، فقال: أيّكم عمار بن ياسر؟ فقال عمار: أنا عَمّار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إنّ لي إليك حاجةً أفأنطقُ بها سراً أو علانية؟ قال: اخترْ لنفسك، أيّهما شئت، قال: لا بل علانية، قال: فانطق، قال: إنّي خرجتُ من أهلِي مستبصراً في الحقّ الذي نحن عليه، لا أشكُّ في ضلالة هؤلاء القوم، وأنّهم على الباطل، فلم أزلْ على ذلك مستبصراً، حتى ليلتِي هذه، فإني رأيتُ في منامي منادياً تقدّم، فأذّن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ونادى بالصّلاة، ونادى منادِيهم مثل ذلك، ثم أقِيمت الصلاة، فصلّينا صلاة واحدةً، وتلوْنا كتاباً واحداً، ودعونا دعوةً واحدة، ، فأدركني الشكّ في ليلتي هذه، فبتّ بليلة لا يعلمُها إلا الله تعالى، حتى أصبحتُ، فأتيتُ أميرَ المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقِيت عمار بن ياسر؟ قلت: لا ، فالقه، فانظر ماذا يقول لك عمار فاتّبعه، فجئتُك لذلك، فقال عمار: تعرف صاحبَ الراية السوداء المقابلة لي! فإنّها راية عمْرو بن العاص، قاتلتُها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هِيَ بخيرهنّ، ولا أبرِّهن، بل هي شرُّهن وأفجرهُنّ. أشهِدْت بدراً وأحداً ويوم حُنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا ، قال: فإن مراكِزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله ﷺ وسلم يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومَنْ فيه! والله لوددت أن جميعَ مَنْ فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا، مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خَلْقاً واحداً، فقطّعته وذبحته. والله لدماؤهم جميعاً أحلُّ مِنْ دم عصفور، أفتى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنهم حلال كذلك، أتراني بيّنت لك؟ قال: قد بيّنتَ لي، قال: فاختر أيّ ذلك أحببت.

---

(١) أخرجه ابن مزاحم في وقعة صفين: ٣٦٣، وابن منظور في لسان العرب: ١١/ ٥٢.

فانصرف الرجلُ، فدعاه عمّار ثم قال: أما إنهم سيضربونكم بأسيافهم حتى يرتابَ المبطلون منكم، فيقولوا: لو لم يكونوا على حقّ ما أظهروا علينا، والله ما هم من الحق على ما يقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سَعَفَات هَجر لعلمنا أنّا على حقّ، وأنّهم على باطل.

قال نصر: وحدّثنا يحيى بن يعلَى، عن الأصبغ بن نباتة، قال: جاء رجلٌ إلى عليّ، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء القوم الذين نقاتلهم، الدعوة واحدة، والرسول واحد، والصلاة واحدة، والحجّ واحد فماذا نسميهم؟ قال: سمّهم بما سماهم الله في كتابه، قال: ما كلّ ما في الكتاب أعلمه، قال: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾[1]! فلما وقع الاختلاف، كنّا نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبيّ وبالحقّ، فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا، وشاء الله قتالهم، فقاتِلهم بمشيئته وإرادته[2].

هذا آخر الجزء الخامس من شرح نهج البلاغة والحمد لله وحده

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٩/ ٤٥٥، وأخرجه محمد بن علي الطبري في بشارة المصطفى: ١٦٩.

شرح نهج البلاغة

الجزء ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

٦٦ – ومن كلام له عليه السلام في معنى الأنصار

الأصل: قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عليه السلام: ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت: منّا أمير ومنكم أمير، قال عليه السلام:

فَهَلاَّ ٱحْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَّى بِأَنْ يُحْسَنَ إلى مُحْسِنِهِمْ، وَيُتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ!

قَالُوا: وَما في هذَا مِنَ ٱلحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؟

فَقَالَ عليه السلام: لَوْ كَانَت الإمَامةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِهِمْ. ثُم قَالَ عليه السلام: فَمَاذَا قَالَتْ قُرَيْشٌ؟

قَالُوا: ٱحْتَجَّتْ بِأَنّها شَجَرَةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم.

فَقَالَ عليه السلام: ٱحْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ، وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ!

الشرح: قد ذكرنا فيما تقدّم طرفاً من أخبار السقيفة، فأمّا هذا الخبر الوارد في الوصية بالأنصار، فهو خبر صحيح، أخرجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القُشَيْرِيّ في مسنديهما، عن أنس بن مالك، قال: مرّ أبو بكر والعباس رضي الله تعالى عنهما بمجلسٍ من الأنصار، في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون، فقالا: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا محاسنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبراه بذلك، فخرج صلى الله عليه وسلم وقد عَصَبَ على رأسه حاشية بُردْة، فصعد المِنْبر – ولم يصعده بعد ذلك اليوم – فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أوصِيكم بالأنصار، فإنّهم كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقيَ الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[1].

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي (ص): «اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم» (٣٧٩٩)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب فضائل الأنصار، (٢٥١٠)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب فضل الأنصار وقريش (٣٩٠٤).

فأما كيفية الاحتجاج على الأنصار، فقد ذكرها عليّ عليه السلام، وهي أنّه لو كان - صلواتُ الله وسلامه عليه - ممّن يجعل الإمامة فيهم، لأوصى إليهم، ولم يوصِ بهم.

وإلى هذا نَظر عمرو بن سعيد بن العاص، وهو المسمى بالأشْدَق[1]، فإنّ أباه لما مات خَلّفه غلاماً، فدخل إلى معاوية فقال: إلى مَنْ أوْصى بك أبوك؟ فقال: إنّ أبي أوصَى إليّ ولم يوصِ بي، فاستحسن معاوية منه ذلك، فقال: إنّ هذا الغلام لأشدَق، فسمّيَ الأشْدَق.

فأما قول أمير المؤمنين: «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»، فكلام قد تكرّر منه عليه السلام أمثالُه، نحو قوله: «إذا احتجّ عليهم المهاجرون بالقُرْب من رسول الله صلى الله عليه وآله كانت الحجة لنا على المهاجرين بذلك قائمة، فإن فَلَجَتْ حُجّتهم كانت لَنَا دونهم، وإلاّ فالأنصار على دعوتهم».

ونحو هذا المعنى قول العباس لأبي بكر: «وأما قولك: نحن شجرة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنكم جيرانها، ونحن أغصانها».

خبر السقيفة

ونحن نذكر خبر السَّقِيفة، روَى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في كتاب «السقيفة» قال:

أخبرني أحمد بن إسحاق، قال: حدّثنا أحمد بن سيّار، قال: حدّثنا سعيد بن كَثِير بن عُفَير الأنصاريّ أن النبيّ صلى الله عليه وآله لما قُبِض، اجتمعت الأنصار في سَقِيفة بني ساعدة، فقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قبِض، فقال سعد بن عبادة لابنه قيس - أو لبعض بنيه: إنّي لا أستطيعُ أن أسمِعَ الناسَ كلامي لمرضِي، ولكن تلقّ مني قولي فأسْمعهم. فكان سعد يتكلّم، ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليُسمِع قومَه، فكان من قوله بعد حمد الله والثناء عليه أنْ قال:

إنّ لكم سابقةً إلى الدين، وفضيلةً في الإسلام ليستْ لقبيلة من العرب. إن رسول الله صلى الله عليه وآله لبِثَ في قومه بضعَ عشرةَ سنة، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلْع الأوثان، فما آمن به من قومه إلا قليل، والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله، ولا يُعِزُّوا دينَه، ولا يدفعوا عنه عِداه، حتى أراد الله بكم خيرَ الفضيلة، وساق إليكم الكرامة، وخصّكم بدينه، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والإعزازَ لدينه، والجهادَ لأعدائه، فكنتم أشدَّ الناس على مَنْ تخلّف عنه منكم، وأثقله على عَدُوّه من غيركم، حتى استقاموا لأمر الله طوْعاً وكرهاً، وأعطَى البعيدُ المقَادَةَ صاغراً داخراً، حتى أنجز الله لنبيّكم الوعد، ودانت لأسيافِكم العربُ. ثم توفّاه الله تعالى وهو عنكم راضٍ، وبكم قريرُ عَيْن، فشُدّوا يديْكم بهذا الأمر، فإنّكم أحقُّ الناس وأولاهم به.

---

(١) الأشدق: البليغ. القاموس المحيط مادة (شدق).

فأجابوا جميعاً: أنْ وُفِّقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدُوَ ما أمرت. نولّيك هذا الأمر، فأنت لنا مقنَع، ولصالح المؤمنين رضاً.

ثم إنّهم ترادُّوا الكلام بينهم، فقالوا: إن أبتْ مُهاجِرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون، وأصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله الأوّلون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلامَ تُنازعوننا هذا الأمر من بعده! فقالت طائفة منهم: إذاً نقول: مِنّا أمير ومنكم أمير، لن نَرْضى بدون هذا منهم أبداً، لنا في الإيواء والنصرة ما لهم في الهجرة، ولنا في كتاب الله ما لهم، فليسوا يعدُّون شيئاً إلا ونعدّ مثله، وليس مِنْ رأينا الاستئثارُ عليهم فمنّا أمير ومنهم أمير.

فقال سعد بن عبادة: هذا أول الوَهَن!

وأتى الخبرُ عمرَ، فأتى منزلَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فوجَد أبا بكر في الدار وعليًّا في جِهاز رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان الذي أتاه بالخبر مَعْن بن عديّ - فأخذ بيد عمر، وقال: قم، فقال عمر: إنّي عنك مشغول، فقال: إنّه لا بدّ من قيام، فقام معه، فقال له: إنّ هذا الحيَّ من الأنصار قد اجتمعُوا في سَقِيفة بني ساعدة، معهم سعد بن عُبادة، يدورون حَوْله، ويقولون: أنت المرجّى، ونجلك المرجّى، وثَمّ أناسٌ من أشرافهم، وقد خُشِيت الفتنة، فانظر يا عمر ماذا ترى! واذكر لإخوتك من المهاجرين، واختاروا لأنفسكم، فإني أنظر إلى باب فتنة قد فتِح الساعة إلاّ أن يغْلقَهُ الله. ففزع عمر أشدَّ الفزَع، حتى أتى أبا بكر، فأخذ بيده، فقال: قم، فقال أبو بكر: إنّي عنك مشغول. فقال عمر: لا بدّ من قيام، وسنرجع إن شاء الله.

فقام أبو بكر مع عمر، فحدّثه الحديث، ففزِع أبو بكر أشدَّ الفزع، وخرجا مسرعيْن إلى سقيفة بني ساعدة، وفيها رجالٌ من أشراف الأنصار، ومعهم سعد بن عبادة وهو مريض بين أظهرهم، فأراد عمر أن يتكلّم ويمهِّدَ لأبي بكر، وقال: خشِيتُ أن يقصّر أبو بكر عن بعض الكلام، فلما نَبَس عمر، كَفّه أبو بكر وقال: عَلَى رِسْلك، فتلقّ الكلامَ ثم تكلَّمْ بعد كلامي بما بدا لك. فتشهد أبو بكر، ثم قال:

إنّ الله جل ثناؤه بعثَ محمداً بالهدى ودين الحق، فدعا إلى الإسلام، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى ما دعانا إليه، وكُنّا - معاشرَ المسلمين المهاجرين - أوّلَ الناس إسلاماً، والنّاس لنا في ذلك تَبَع، ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأوسطُ العرب أنْساباً، ليس من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة، وأنتم أنصار الله، وأنتم نصرتُم رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم أنتم وزراء رسول الله صلى الله عليه وآله، وإخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين، وفيما كُنّا فيه من خير، فأنتم أحبُّ الناس إلينا، وأكرمُهم علينا، وأحقّ الناس بالرضا بقضاء الله، والتسليم لما ساق الله إلى إخوانكم من المهاجرين، وأحقّ الناس ألا تحسدوهم، فأنتم المؤثِرون على أنفسِهم حين

الخصاصة، وأحقُّ الناس ألاّ يكون انتقاض هذا الدين واختلاطه على أيدِيكم، وأنا أدعوكم إلى أبي عبيدة وعمر، فكلاهما قد رضِيتُ لهذا الأمر، وكلاهما أراه له أهلاً.

فقال عمر وأبو عبيدة: ما ينبغي لأحدٍ من الناس أن يكونَ فوقك، أنت صاحبُ الغار، ثاني اثنين، وأمرَك رسول الله بالصلاة، فأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر.

فقال الأنصار: والله ما نحسدكُم على خيرٍ ساقه الله إليكم، ولا أحدَ أحبّ إلينا ولا أرضى عِنْدنا منكم، ولكِنّا نشفِق فيما بعد هذا اليوم، ونحذر أن يغلبَ على هذا الأمر مَنْ ليس مِنّا ولا منكم، فلو جعلتم اليوم رجُلاً منكم بايعْنا ورضينا - على أنّه إذا هلك اخترنا واحداً من الأنصار، فإذا هَلَك كان آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة - كان ذلك أجدر أن نَعْدِل في أمّة محمد ﷺ، فيشفِق الأنصاريّ أن يزيغ فيقبض عليه القرشيّ، ويشفق القرشيّ أن يزيغَ فيقبض عليه الأنصاريّ.

فقام أبو بكر فقال: إنّ رسول الله ﷺ لما بُعث عظم على العرب أن يتركُوا دينَ آبائهم، فخالفوه وشاقّوه، وخصّ الله المهاجرين الأولين من قومِه بتصديقه والإيمان به والمواساة له، والصَّبْر معه على شِدّة أذى قومه، ولم يستوحشوا لكثرة عَدوّهم، فهمْ أول مَنْ عَبَد الله في الأرض، وهم أوّلُ مَنْ آمن برسول الله، وهم أولياؤه وعِتْرته، وأحقّ الناس بالأمر بعده، لا ينازعهم فيه إلا ظالم، وليس أحد بعد المهاجرين فضلاً وقَدَماً في الإسلام مثلكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نمتاز دونكم بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور.

فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح، فقال: يا معشر الأنصار، امْلِكُوا عليكم أيديكم، إنّما الناس في فيئكم وظلّكم، ولن يجترىء مجترىء على خِلافكم، ولا يصدر الناس إلاّ عن أمركم، أنتم أهل الإيواءُ والنُّصْرة، وإليكم كانت الهجرة، وأنتم أصحاب الدّار والإيمان، والله ما عبِد الله علانيةً إلا عندكم وفي بلادكم، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم، ولا عُرِف الإيمان إلا من أسيافكم، فامْلِكُوا عليكم أمرَكم، فإن أبى هؤلاء فمنّا أميرٌ ومنَهم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع سَيْفان في غِمْد، إنّ العرب لا ترضى أن تؤمِّركم ونبيُّها من غيركم، وليس تمتنع العرب أن تولِّيَ أمرَها مَنْ كانت النبوّة فيهم، وأولو الأمر منهم، لنا بذلك الحجة الظاهرة على مَنْ خالفنا، والسلطان المبين على مَنْ نازعنا، مَنْ ذا يخاصِمُنا في سلطان محمد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلاّ مُدْلٍ بباطل، أو متجانفٌ لإثم، أو متورّط في هَلَكة!

فقامَ الحُباب، وقال: يا معشر الأنصار، لا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإن أبَوْا عليكم ما أعطيتموهم فأجلُوهم عن بلادكم، وتولَّوْا هذا الأمر عليهم، فأنتم أوْلَى الناس بهذا الأمر، إنّه دانَ لهذا الأمر بأسيافكم مَنْ لم يكن يدين له. أنا جُذَيْلُها

المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب، إن شئتم لتعيدنّها جَذعة، والله لا يردّ أحدٌ عليّ ما أقول إلا حطّمتُ أنفه بالسَّيْف.

قال: فلما رأى بشير بن سعد الخزرجيّ ما اجتمعت عليه الأنصار من تأمِير سعد بن عبادة - وكان حاسداً له، وكان من سادة الخزْرج - قام فقال:

أيها الأنصار، إنّا وإنْ كُنّا ذوِي سابقة، فإنّا لم نُرِدْ بجهادنا وإسلامِنا إلا رضا رَبِّنا وطاعة نبينا، ولا ينبغي لنا أن نستطِيل بذلك على الناس، ولا نبتغِي به عِوَضاً من الدّنيا، إن محمداً صلى الله عليه وآله رجلٌ من قريش، وقومه أحقُّ بميراثِ أمره، وايمُ الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر، فاتّقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم.

فقام أبو بكر، وقال: هذا عمر وأبو عُبيدة، بايعوا أيّهما شئتم، فقالا: والله لا نتولّى هذا الأمر عليك، وأنت أفضلُ المهاجرين، وثاني اثنين، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله على الصلاة، والصّلاةُ أفضلُ الدّين. ابسُط يَدك نبايعك.

فلما بَسط يده، وذهبا يبايعانه، سبقهما بشير بن سعد، فبايَعه، فناداه الحُباب بن المنذر: يا بشير، عَقّك عَقَاقِ، والله ما اضطرك إلى هذا الأمر إلاّ الحسدُ لابنِ عَمّك.

ولما رأت الأوس أنّ رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أُسَيد بن حُضَير - وهو رئيس الأوس - فبايَع حسدًا لسعد أيضاً، ومنافَسةً له أن يليَ الأمرَ، فبايعت الأوس كلّها لمّا بايع أُسَيد، وحمِل سعد بن عبادة وهو مريض، فأدخِل إلى منزله، فامتنع من البَيْعة في ذلك اليوم وفيما بعده، وأراد عمر أن يُكرِه عليها، فأشير عليه ألاّ يفعل، وأنه لا يبايع حتى يُقتل، وأنه لا يُقْتل حتى يقتَل أهلُه، ولا يقتَل أهلُه حتى يقتَلَ الخزرج، وإن حوربت الخزرج كانت الأوس معها.

وفسد الأمر فتركوه، فكانَ لا يصلِّي بصلاتِهم، ولا يجمّع بجماعتهم، ولا يقضِي بقضائهم، ولو وجد أعواناً لضاربَهم، فلم يزلْ كذلك حَتى مات أبو بكر، ثم لقِيَ عمرَ في خلافته، وهو على فرس، وعمر على بعير، فقال له عمر: هيهات يا سعد! فقال سعد: هيهات يا عمر! فقال: أنت صاحب مَنْ أنت صاحبه؟ قال: نعم أنا ذاك، ثم قال لعمر: والله ما جاوَرني أحدٌ هو أبغضُ إليّ جواراً منك، قال عمر: فإنه مَنْ كَرِه جوار رجل انتقل عنه، فقال سعد: إنّي لأرجو أن أخلّيَها لك عاجلاً إلى جوار مَنْ هو أحبُّ إليّ جواراً منك ومن أصحابك، فلم يلبث سعدٌ بعد ذلك إلا قليلاً حتى خرج إلى الشام، فمات بحوران ولم يبايع لأحدٍ، لا لأبي بكر ولا لعمر ولا لغيرهما.

قال: وكثر الناسُ على أبي بكر، فبايعه معظمُ المسلمين في ذلك اليوم، واجتمعت بنو

هاشم إلى بيت عليّ بن أبي طالب، ومعهم الزبير، وكان يعدّ نفسه رجلاً من بني هاشم، كان عليّ يقول: ما زال الزُّبير مِنّا أهلَ البيت، حتى نشأ بنُوه، فصرفُوه عَنّا.

واجتمعتْ بنو أميّة إلى عثمان بن عفّان، واجتمعت بنو زُهْرة إلى سعد وعبد الرحمن، فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة، فقال: ما لي أراكم ملتاثِين؟ قوموا فبايعوا أبا بكر، فقد بايع له الناس، وبايعه الأنصار. فقام عثمان ومن معه، وقام سعد وعبد الرحمن ومَنْ معهما، فبايعوا أبا بكر.

وذهب عمر ومعه عِصَابة إلى بيت فاطمة، منهم أسيد بن حُضير وسلمَة بن أسلم، فقال لهم: انطلقوا فبايِعوا، فأبوْا عليه، وخرج إليهم الزُّبَير بسيفِه، فقال عمر: عليكم الكلْب، فوثب عليه سلمةَ بن أسلم، فأخذَ السيفَ من يدِه فضرب به الجِدار، ثم انطلقوا به وبعليّ ومعهما بنو هاشم، وعليّ يقول: أنا عبدُ الله وأخو رسول الله ﷺ، حتى انتهوْا به إلى أبي بكر، فقيل له: بايعْ، فقال: أنا أحقُّ بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أوْلى بالبيعةِ لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحْتَجَجْتُم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأعطوْكم المقادَة، وسلَّموا إليكم الإمارة، وأنا أحتجُّ عليكم بمثل ما احتججتُم به على الأنصار. فأنصفونا إن كنتم تخافُون الله من أنفسكم، واعرِفوا لَنَا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.

فقال عمر: إنّك لستَ متروكاً حتى تبايع. فقال له عليّ: احلب يا عمر حلباً لك شطرهُ! اشدُد له اليوم أمرَه ليردّ عليك غَداً! ألا والله لا أقبل قولَك ولا أبايعه. فقال له أبو بكر: فإن لم تبايعني لم أكْرِهك، فقال له أبو عبيدة: يا أبا الحسن، إنّك حديثُ السنّ، وهؤلاء مَشْيَخة قريش قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوَى على هذا الأمر منك، وأشدَّ احتمالاً له، واضطلاعاً به، فسلِّم له هذا الأمر وارْضَ به، فإنك إن تعش وَيَطُلْ عمرك فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلِك وقرابتِك، وسابقتِك وجهادِك.

فقال عليّ: يا معشرَ المهاجرين، الله الله! لا تخْرِجوا سلطانَ محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهلَه عن مقامه في الناس وحَقّه، فوالله يا معشرَ المهاجرين، لَنَحْنُ - أهلَ البيت - أحقُّ بهذا الأمر منكم. أمَا كان منّا القارىء لكتابِ الله، الفقيه في دين الله، العالم بالسنّة، المضطلع بأمر الرعية! والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى، فتزدادوا من الحقّ بعداً.

فقال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلامُ سمعتْهُ منك الأنصار يا عليّ قبل بيعتِهم لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان، ولكنّهم قد بايعوا.

وانصرف عليّ إلى منزله، ولم يبايع، ولزم بيتَه حتى ماتت فاطمة فبايَع(١).

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٤٨/٢٨ وأخرجه القمي في كتاب الأربعين: ١٥٤.

قلت: هذا الحديثُ يدلُّ على بُطلان ما يُدَّعى من النصّ على أمير المؤمنين وغيره، لأنه لو كان هناك نصٌّ صريح لاحتجّ به ولم يجرِ للنصّ ذكر، وإنّما كان الاحتجاج منه ومن أبي بكر ومن الأنصار بالسوابق والفضائل والقرب، فلو كان هناك نصٌّ على أمير المؤمنين أو على أبي بكر، لاحتجّ به أبو بكر أيضاً على الأنصار، ولاحتجّ به أميرُ المؤمنين على أبي بكر، فإنّ هذا الخبر وغيره من الأخبار المستفيضة، يدلّ على أنه قد كان كاشفهم وهَتَك القِناع بينه وبينهم، ألا تراه كيف نسبهم إلى التعدّي عليه وظلمه، وتمنَّع من طاعتهم، وأسمعَهم من الكلام أشدّه وأغلظه! فلو كان هناك نصٌّ لذكره، أو ذكره بعض مَنْ كان من شيعته وحِزْبه، لأنّه لا عِطْر بعد عَرُوس.

وهذا أيضاً يدلّ على أنّ الخبرَ المرويّ في أبي بكر في صحيحَي البخاري ومسلم غيرُ صحيح، وهو ما رُوي من قوله عليه السلام لعائشة في مرضه: «ادعِي لي أباك، حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، فإني أخافُ أن يقول قائل، أو يتمنى متمَنٍّ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

وهذا هو نص مذهب المعتزلة.

وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ أيضاً: حدثنا أحمد وقال: حدثنا ابن عُفير، قال: حدّثنا أبو عوف عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبي جعفر محمد بن عليّ رضي الله عنهما، أنّ عليًا حَمَل فاطمة على حمار، وسار بها ليلاً إلى بيوت الأنصار، يسألهم النصرة، وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنتَ رسول الله، قد مضت بيعتُنا لهذا الرجل، لو كان ابنُ عمّك سبق إلينا أبا بكر ما عَدَلْنا به، فقال عليّ: أكنت أتركُ رسولَ الله ميّتاً في بيته لا أجهّزه، وأخرجُ إلى الناس أنازعهم في سلطانه!

وقالت فاطمة: ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له، وصنعوا هم ما الله حسْبُهم عليه.

وقال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وحدثنا أحمد، قال: حدثني سعيد بن كَثِير، قال: حدثني ابن لَهِيعة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات وأبو ذَرّ غائب، وقدم وقد وُلّيَ أبو بكر، فقال: أصبتم قِناعه، وتركتم قرابه، لو جعلتم هذا الأمر في أهلِ بيت نبيّكم لما اختلف عليكم اثنان.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدثنا أبو قبيصة محمد بن حرب، قال: لما توفّيَ النبيّ صلى الله عليه وآله، وجرى في السقيفة ما جرى تمثل عليّ:

وأصبح أقوام يقولونَ ما اشْتَهَوْا ... ويطغون لمّا غالَ زيداً غوائلُهْ

وحدثني أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلَوِيّ نقيب البصرة، قال: لما قدم أبو القاسم عليّ بن الحسين المغربيّ من مصر إلى بغداد، استكتبه شرفُ الدولة أبو عليّ بن بويه، وهو

يومئذ سلطان الحضرة، وأمير الأمراء بها، والقادر خليفة، ففسدت الحالُ بينه وبين القادر، واتفق لأبي القاسم المغربيّ أعداء سوء أوحشوا القادر منه، وأوهموه أنّه مع شرف الدولة في القبض عليه وخلعه من الخلافة، فأطلق لسانَه في ذكره بالقبيح. وأوْصلَ القول فيه، والشكوى منه، ونسبه إلى الرفض وسبّ السلف، وإلى كفران النعمة، وأنه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد إحسانه إليه.

قال النقيب أبو جعفر رحمه الله تعالى: فأما الرفض فنعم، وأما إحسان الحاكم إليه فلا. كان الحاكم! قتَل أباه وعَمّه وأخاً من إخوته، وأفلت منه أبو القاسم بخديعة الدين، ولو ظفر به لألحقه بهم.

قال أبو جعفر: وكان أبو القاسم المغربيّ، ينسب في الأزد، ويتعصّب لقَحْطان على عدنان، وللأنصار على قريش، وكان غالياً في ذلك مع تشيّعه، وكان أديباً فاضلاً شاعراً مترسّلاً، وكثير الفنون عالماً، وانحدر مع شرف الدولة إلى واسط، فاتفّق أن حصل بيد القادر كتاب بخطّه شبه مجموع، قد جمعه من خَطّه وشعره وكلامه مسود، أتحفه به بعض مَنْ كان يشنأ أبا القاسم، ويريد كيده، فوجد القادر في ذلك المجموع قصيدة من شعره، فيها تعصّب شديد للأنصار على المهاجرين، حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة، لإفراط غُلُوّه وفيها تصريح بالرّفْض مع ذلك، فوجدها القادر تَمْرَة الغراب، وأبرزها إلى ديوان الخلافة، فقرىء المجموع والقصيدة بمحضَرٍ من أعيان الناس من الأشراف والقضاة والمعدّلين والفقهاء، ويشهد أكثرهم أنه خَطّه، وأنهم يعرفونه كما يعرفون وجهه، وأمر بمكاتبة شرف الدولة بذلك، فإلى أن وصل الكتاب إلى شرف الدولة بما جَرى، اتصل الخبر بأبي القاسم قبل وصول الكتاب إلى شرف الدولة، فهرب ليلاً، ومعه بعضُ غلمانه، وجارية كان يهواها ويتحظّاها، ومضى إلى البَطِيحة، ثم منها إلى الموصل، ثم إلى الشام، ومات في طريقه، فأوصى أن تحمَلَ جثته إلى مشهد عليّ، فحملت في تابوت، ومعها خفراء العرب حتى دفن بالمشهد بالقرب منه عليه السلام.

وكنت برهةً أسأل النقيبَ أبا جعفر عن القصيدة، وهو يدافعني بها، حتى أملاها عليّ بعد حين، وقد أوردت ها هنا بعضها، لأني لم أستجِزْ ولم أستحلّ إيرادها على وجهها، فمن جملتها - وهو يذكر في أولها رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقول: إنه لولا الأنصار لم تستقمْ لدعوته دعامة، ولا أرست له قاعدة، في أبيات فاحشة كرهنا ذكرها:

نحنُ الّذِين بنا استجارَ فلم يَضِعْ ... فينا، وأصبَحَ في أعزّ جِوارِ
بسيوفنا أمست سخينةُ برّكاً ... في بَدْرِها كنحائِرِ الجزّارِ
وَلَنحنُ في أُحُدٍ سَمَحْنَا دونه ... بنفوسنا للموت خوفَ العارِ
فنجا بمهجتِه، فلولا ذبُّنا ... عنه تنشّب في مخالِب ضارِ

وحميّة السَّعْدَيْنِ بل بحماية السـ ـدِّين يوم الجحفلِ الجرّارِ
في الخندق المشهور إذا ألقى بها بيدٍ، ورام دفاعها بشمار
قالا: معاذ الله إن هضيمةً لم نعطها في سالف الأعصارِ
ما عندنا إلا السيوف، وأقبلا نحو الحتُوف بها بَدَارِ بَدَارِ
ولنا بيوم حنينَ آثارٌ متى تذكرْ فهنّ كرائمُ الآثارِ
لما تصدع جمعُه فغدَا بنا مستصرِخاً بعقِيرَةٍ وجُؤارِ[1]
عطفت عليه كماتُنا، فتحصَّنَتْ مِنّا جموعُ هوازنٍ بِفرَارِ
وفدَتْه من أبناء قَيْلَة عُصْبَةٌ شَرْوَى النّقير وجنَّة البقَّارِ
أفنحنُ أولى بالخلافة بعدَهُ أم عبد تيم حامِلُو الأوزارِ!
ما الأمر إلا أمرُنا وبسعدِنا زُفَّتْ عَرُوسُ الملك غير نوارِ!
لكنما حسدُ النفوس وشحُّها وتذكّر الأذحالِ والأوتارِ
أفضى إلى هَرْجٍ وَمَرْجٍ فانبرَتْ عشواء خابطةٌ بغير نَهارِ
وتداوالتْها أربعٌ لولا أبو حَسَنٍ لقلتُ لؤمت من إسْتارِ
من عاجز ضَرِعٍ، ومن ذي غِلْظَةٍ جافٍ، ومن ذي لوثة خوّار
ثم ارتدى المحرومُ فضْلَ رِدَائها فغلت مراجل إحْنَةٍ ونِفَارِ
فتأكّلت تلك الجُذَى، وتلمَّظَتْ تلك الظُّبا، ورقا أجيج النار[2]
تالله لو ألقوْا إليه زمامَها لمشى بهم سُجُحاً بغيرِ عِثَار
ولو أنّها حلّت بساحةِ مجده بادِي بدَا سكنت بدارِ قَرَارِ
هو كالنبيِّ فضيلةً، لكنَّ ذا من حَظّه كاسٍ، وهذا عارِ
والفضلُ ليس بنافعٍ أربابَه إلا بمسعدة من الأقدارِ
ثم امتطاها عبدُ شمس فاغتدَتْ هزوًا، وَبُدِّلَ رِبْحُها بخَسَارِ
وتنقّلت في عصبةٍ أمَويَّة ليسوا بأطهارٍ ولا أبرارِ
ما بين مأفونٍ إلى مُتَزَنْدِقٍ ومُداهِنٍ ومضاعَفٍ وحِمَارِ

فهذه الأبيات، هي نظيفُ القصيدة، التقطناها وحذفْنا الفاحش، وفي الملتقط المذكور أيضاً ما لا يَجُوز، وهو قوله: «نحن الذين بنا استجار»، وقوله: «ألقى بها بيدٍ»، وقوله: «فنجا

(١) الجُؤار: رفع الصوت بالدعاء، والتضرع، والاستغاثة، القاموس المحيط مادة (جأر).
(٢) تَلَمَّظ: أخرج لسانه فمسح شفتيه. القاموس المحيط مادة (لمظ).

بمهجته...» البيت. وقوله عن أبي بكر: «عبد تيم»، وقوله: «لولا عليّ لقلت في الأربعة إنهم إستار لؤم»، وذكره الثلاثة رضي الله عنهم بما ذكرهم ونسبهم إليه. وقوله: «إن علياً كالنبي في الفضيلة»، وقوله: «إنّ النبوة حظ أعطيَه وحُرِمه عليّ عليه السلام».

فأما قوله في بني أمية: «ما بين مأفون...» البيت، فمأخوذ من قول عَبْد الملك بن مرْوان، وقد خطب فذكر الخلفاء من بني أميّة قبله، فقال: إنّي والله لستُ بالخليفة المستضعَف، ولا بالخليفة المداهِن، ولا بالخليفة المأفون، عَنَى بالمستضعَف عثمان، وبالمداهن معاويةَ، وبالمأفون يزيدَ بن معاوية، فزاد هذا الشاعر فيهم اثنين: وهما المتزندِق، وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والحِمار وهو مرْوان بن محمد بن مروان.

المهاجرون والأنصار بعد بيعة أبي بكر

وروى الزبير بن بكار في «الموفقيّات» قال: لما بايع بشير بن سعد أبا بكر، وازدحَم الناس على أبي بكر فبايعوه، مَرّ أبو سفيان بن حرب بالبيت الذي فيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فوقف وأنشَد:

بَنِي هاشمٍ لا تطمِعُوا النّاس فيكمُ ... ولاسيَّما تَيم بن مرّة أو عديّ
فما الأمرُ إلا فيكمُ وإليكمُ ... وليس لها إلاّ أبو حسنٍ عليّ
أبا حَسَنٍ فاشدُدْ بها كفّ حازمٍ ... فإنّك بالأمر الذي يُرْتَجى مليّ
وأيّ امرىءٍ يرمي قصيًّا ورأيها ... منيعُ الحِمى والناس من غالبٍ قصيّ!

فقال عليّ لأبي سفيان: إنّك تريدُ أمراً لسْنَا من أصحابه، وقد عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهداً فأنا عليه، فتركه أبو سفيان وعَدل إلى العبّاس بن عبد المطلب في منزله، فقال: يا أبا الفضل، أنت أحقّ بميراث ابن أخيك، امدد يدك لأبايعك، فلا يختلف عليكَ الناس بعد بيعتي إياك. فضحِك العباس، وقال: يا أبا سفيان، يدفعها عليّ ويطلبُها العباس! فرجع أبو سفيان خائباً.

قال الزبير: وذكر محمد بن إسحاق أنّ الأوس تزعم أنّ أوّل مَنْ بايع أبا بكر بشير بن سعد، وتزْعم الخزرج أن أول مَنْ بايع أُسَيْد بن حُضير.

قلت: بشير بن سعد خزرجيّ وأسَيْد بن حضير أوْسِيّ، وإنما تدافَع الفريقان الرّوايتين تفادياً عن سعد بن عبادة، وكراهية كلِّ حيٍّ منهما أن يكونَ نِقْضُ أمره جاء من جهة صاحبه، فالخزرج هُمْ أهله وقرابته، لا يقرّون أن بشير بن سعد هو أول مَنْ بايع أبا بكر وأبطل أمرَ سعد بن عبادة، ويُحيلون بذلك على أسيد بن حضير، لأنه من الأوْس أعداء الخزرج وأمّا الأوس فتكره أيضاً أن يُنسَب أسيد إلى أنّه أول مَنْ نَقَضَ أمر سعد بن عبادة، كي لا يرمُوه بالحَسد للخزرج، لأن

سعد بن عُبادة خَزْرجيٌّ، فيحيلون بانتقاض أمره على قبيلته - وهم الخزرج - ويقولون: إنّ أول مَنْ بايع أبا بكر ونَقَض دعوة سَعد بن عبادة بشيرُ بن سعد. وكان بشيرٌ أعْوَر.

والذي ثبت عندي أنّ أوّلَ مَنْ بايعه عمر، ثم بشير بن سعد، ثم أُسَيْد بن حُضَير، ثم أبو عبيدة بن الجرّاح، ثم سالم مولى أبي حُذَيفة.

قال الزبير: وقد كان مالأ أبا بكر وعمر على نقض أمر سعد وإفساد حاله رجلان من الأنصار ممّن شهد بدراً، وهما عُوَيم بن ساعدة ومعن بن عديّ.

قلت: كان هذان الرجلان ذوَيْ حُبّ لأبي بكر في حياة رسول الله ﷺ واتفق مع ذلك بغض وشحناء، كانت بينهما وبين سعد بن عبادة، ولها سبب مذكور في كِتَاب «القبائل»[١] لأبي عبيدة معمر بن المثنّى، فليُطلب من هناك.

وعُوَيم بن ساعدة، هو القائل لمّا نصب الأنصار سعداً: يا معشرَ الخزرج، إن كان هذا الأمر فيكم دونَ قريش فعرّفونا ذلك وبرهِنُوا حتى نبايِعَكم عليه، وإن كان لهم دونكم، فسلّوا إليهم، فوالله ما هلك رسول الله ﷺ حتى عَرَفْنا أنّ أبا بكر خليفة حين أمرَه أن يصلّيَ بالناس، فشتَمه الأنصار وأخرجوه، فانطلق مسرعاً حتى التحقَ بأبي بكر، فشحَذَ عزمه على طلب الخلافة.

ذكر هذا بعينه الزبير بن بكار في «الموفقيات»[٢].

وذكر المدائنيّ والواقديّ أنّ معن بن عديّ اتفق هو وعُوَيم بن ساعدة على تحريض أبي بكر وعمر على طلب الأمر وصَرْفه عن الأنصار. قال: وكان معن بن عديّ يشخصهما إشخاصاً، ويسوقهما سَوْقاً عنيفاً إلى السقيفة، مبادرةً إلى الأمر قبل فواته.

قال الزبير بن بكار: فلمّا بُويع أبو بكر، أقبَلت الجماعة التي بايعتْه تزفّه زفًّا إلى مسجد رسول الله ﷺ، فلما كان آخرُ النهار، افترقوا إلى منازلهم، فاجتمع قومٌ من الأنصار وقوم من المهاجرين، فتعاتبوا فيما بينهم، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا معشرَ الأنصار، إنكم وإن كنتمْ أولِي فضلٍ ونصْر وسابقة، ولكن ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا عليّ ولا أبي عبيدة. فقال زيد بن أرقم: إنا لا ننكر فضلَ مَنْ ذَكرتَ يا عبد الرحمن، وإنّ مِنّا لسيّد الأنصار سعد بن عبادة، ومَنْ أمر الله رسوله أن يقرئه السلام، وأن يأخذ عنه القرآن أُبَيّ بن كعب، ومَنْ يجيء يوم

(١) كتاب: القبائل، لأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ النحوي. كشف الظنون: (٢/ ١٤٤٨).
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ٣٣٤.

القيامة إمام العلماء مُعاذ بن جبل، ومن أمْضَى رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين خُزيمة بن ثابت، وإنّا لنعلم أنّ ممّن سمَّيتَ من قريش مَنْ لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد، عليّ بن أبي طالب.

قال الزّبير: فلما كان من الغد قام أبو بكر فخطب الناس وقال:

أيّها الناس، إني وليت أمرَكم ولستُ بخيركم، فإذا أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، إنّ لي شيطاناً يعتريني[1]، فإيّاكم وإيّاي إذا غضِبت، لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم. الصّدق أمانة، والكذب خيانة، والضّعيف منكم قويّ حتى أردَّ إليه حقّه، والقويّ ضعيف حتى آخذ الحق منه. إنّه لا يدَع قومٌ الجهادَ إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشِيع في قوم الفاحشة إلا عَمّهم البلاء، أطِيعوني ما أطعتُ الله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

قال ابن أبي عبرة القرشيّ:

شكراً لمن هو بالثّناءِ حقيقُ ... ذهب اللَّجاجُ وبُويِع الصِّدِّيقُ
مِنْ بعد ما زَلَّتْ بسعدٍ نعلُه ... ورجا رجاءً دونَهُ العَيُّوقُ[2]
حفَّتْ به الأنصارُ عاصبَ رأسِه ... فأتاهمُ الصِّدّيقُ والفاروقُ
وأبو عبيدَة والذين إليهمُ ... نفس المؤمّل للقاء تتوقُ
كنّا نقول: لها عليّ والرضا ... عُمَرٌ وأوْلاهمْ بذاك عتيق
فدعتْ قريش باسمه فأجابها ... إنّ المنوّه باسمه الموثوقُ
قل للألى طلبوا الخلافة زَلّةً ... لم يَخْطُ مثل خطاهُمُ مخلوقُ
إنّ الخلافة في قريش ما لكم ... فيها - وربِّ محمدٍ - مَغرُوقُ

وروى الزبير بن بكار، قال: روى محمد بن إسحاق أنّ أبا بكر لما بُويع افتخرت تَيم بن مرة - قال: وكان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكُّون أنّ علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله ﷺ - فقال الفضل بن العباس: يا معشرَ قريش، وخصوصاً يا بني تَيم، إنّكم إنما أخذتم الخلافَة بالنبوّة، ونحن أهلُها دونكم، ولو طلبنا هذا الأمرَ الذي نحنُ أهلُه لكانت كراهةُ

(١) اعتراه: غشيه طالباً معروفه. القاموس المحيط مادة (عرو).
(٢) العَيُّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريّا لا يتقدمها. القاموس المحيط مادة (عوق).

الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا، حسداً منهم لنا، وحِقْداً علينا، وإنّا لنعلم أنّ عند صاحبنا عَهْداً هو ينتهي إليه.

وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم شعراً:

ما كنتُ أحسِبُ أنّ الأمر منصرفٌ ... عن هاشمٍ ثمّ منْهَا عن أبي حَسَنِ

أليس أوّلَ منْ صلّى لقبلتكمْ ... وأعلمَ الناس بالقرآن والسّننِ

وأقربَ الناس عهداً بالنبيّ ومَنْ ... جبريلُ عَوْنٌ له في الغسْلِ والكَفَنِ

ما فيه ما فيهمُ لا يمترونَ به ... وليس في القوم ما فيه من الحسن

ماذا الذي رَدّهُمْ عنه فنعلَمه ... ها إنّ ذَا غَبْنُنَا من أعظم الغبَنِ!

قال الزُّبير. فبعث إليه عليّ فنهاه وأمرَه ألاّ يعود، وقال: سلامة الدّين أحبّ إلينا من غيره.

قال الزبير: وكان خالدُ بن الوليد شيعةً لأبي بكر، ومن المنحرفين عن عليّ، فقام خطيباً، فقال: أيّها الناس، إنّا رُمِينا في بدء هذا الدين بأمر ثَقُل علينا - والله - محملُه، وصعُب علينا مُرتقاه، وكنّا كأنّا فيه على أوْتار، ثم والله ما لبثنا أن خَفَّ علينا ثقلُه، وذلّ لنا صَعْبُه، وعجبْنَا ممن شكّ فيه بعد عَجَبِنا ممن آمن به، حتى أمِرنا بما كنا نَنْهَى عنه، ونُهِينا عمّا كنا نأمُر به، ولا والله ما سُبقنا إليه بالعقول، ولكنه التوفيق. ألا وإنّ الوحي لم ينقطع حتى أحكم، ولم يذهب النبي ﷺ فنستبدل بعده نبياً، ولا بعد الوحي وحياً، ونحن اليوم أكثر مِنّا أمسِ، ونحن أمسِ خيرٌ منّا اليوم، مَن دَخَلَ في هذا الدين كان ثوابه على حَسَب عمله ومَنْ تركه رددناه إليه، وإنه والله ما صاحب الأمر - يعني أبا بكر - بالمسؤول عنه، ولا المختَلَف فيه، ولا الخفيّ الشخص، ولا المغموز القَنَاة[١].

فعجب الناس من كلامه. ومدحه حَزْن بن أبي وهب المخزوميّ، وهو الذي سمّاه رسول الله ﷺ «سَهْلاً»، وهو جدّ سعيد بن المسيّب الفقيه، وقال:

وَقَامَتْ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ كثيرةٌ ... فلم يَكُ منهم في الرِّجَالِ كخالدِ

ترقّى فلم يزلَقْ به صدرُ نعله ... وكفّ فلم يعرض لتلك الأوابدِ

فجاء بها غرّاء كالبدرِ ضوءها ... فسمّيتُها في الحسن أم القلائدِ

أخالد لا تعدم لؤيُّ بن غالبٍ ... قيَامك فيها عند قَذْفِ الجلامدِ

كساك الوليدُ بن المغيرة مجدَه ... وَعلّمك الأشياخُ ضَرْبَ القَمَاحِدِ[٢]

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب اسم الحزن (٦١٩٠)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في تغيير الاسم القبيح (٤٩٥٦)، وأحمد في «مسنده» (٢٣١٦١).

(٢) القَمَاحِدُ: مفردها قَمَحْدُوَة: وهو ما خلف الرأس. لسان العرب مادة (قحد).

تقارع في الإسلام عن صُلْبِ دينه ... وفي الشركِ عن أحسابِ جَدٍّ ووالدِ
وكنتَ لمخزوم بن يقظة جُنَّةً ... يعدّك فيها ماجداً وابنَ ماجدِ
إذا ما سمَا في حَرْبِها ألفُ فارسٍ ... عَدَلْت بألْفٍ عند تلك الشدائدِ
ومن يَكُ في الحرب المثيرة واحداً ... فما أنت في الحربِ العَوَانِ بواحدِ
إذا نابَ أمرٌ في قريشٍ مخلَّجٌ ... تشيب له رُوسُ العذارى النواهدِ
تولّيتَ منه ما يُخافُ وإن تَغِبْ ... يقولوا جميعاً: حَظّنا غير شاهدِ

قال الزبير: وحدّثنا محمد بن موسى الأنصاريّ المعروف بابن مخرمة، قال: حدّثني إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف الزهريّ، قال: لما بُويع أبو بكر واستقرّ أمرُهُ، نَدِم قوم كثير من الأنصار على بيْعته، ولام بعضُهم بعضاً، وذكروا عليّ بن أبي طالب، وهتفوا باسمه، وإنّه في داره لم يخرجْ إليهم، وجزع لذلك المهاجرون، وكثر في ذلك الكلام.

وكان أشدَّ قريش على الأنصار نفرٌ فيهم، وهم سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤيّ، والحارث بن هشام، وعِكْرمة بن أبي جهل المخزوميّان، وهؤلاء أشراف قريش الّذين حاربوا النبيّ ﷺ، ثم دخلوا في الإسلام، وكلُّهم موتورٌ قد وَتَرَهُ الأنصار. أما سهيل بن عمرو فأسره مالك بن الدخشم يوم بَدْر، وأمّا الحارث بن هشام، فضربه عروة بن عمرو، فجرحه يوم بَدْر، وهو فارٌّ عن أخيه. وأمّا عِكْرِمة بن أبي جهل، فقتل أباه ابنا عَفْراء، وسلَبه دِرْعه يوم بدر زيادُ بن لبيد، وفي أنفسهم ذلك. فلما اعتزلت الأنصار تجمّع هؤلاء، فقام سهيل بن عمرو فقال: يا معشرَ قريش، إنّ هؤلاء القوم قد سمّاهم الله الأنصار، وأثنى عليهم في القرآن، فلهم بذلك حَظٌّ عظيم، وشأن غالب، وقد دَعَوْا إلى أنفسهم وإلى عليّ بن أبي طالب، وعليّ في بيته لو شاء لردَّهم، فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته، فإنْ أجابوكم وإلا قاتلوهم، فوالله إني لأرجو الله أن ينصرَكم عليهم كما نُصِرْتم بهم.

ثم قام الحارث بن هشام، فقال: إن تكن الأنصارُ تبوأتِ الدار والإيمان مِنْ قبْل، ونقلوا رسول الله ﷺ إلى دورهم من دورنا، فآووْا وانصروا، ثم ما رَضُوا حتى قاسمونَا الأموال، وكَفَوْنَا العمل، فإنّهم قد لَهِجُوا بأمرٍ إن ثبتوا عليه، فإنّهم قد خرجوا مما وُسِموا به، وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيفُ، وإن نزعوا عنه فقد فعلوا الأوْلَى بهم والمظنون معهم.

ثم قام عِكْرمة بن أبي جهل، فقال: والله لولا قولُ رسول الله ﷺ: «الأئمة من قريش»[1]، ما أنكرْنا إمْرة الأنصار، ولكانوا لها أهلاً، ولكنه قولٌ لا شكّ فيه ولا خيار، وقد

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٩٦٢)، وأحمد في «المسند» (١١٨٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٤٢).

عجلت الأنصار علينا، والله ما قبضنا عليهم الأمرَ ولا أخرجناهم من الشورى، وإنّ الذي هم فيه من فلَتات الأمور ونَزَغَات الشيطان، وما لا يبلغه المُنى، ولا يحملُه الأملُ. أعذِروا إلى القوم، فإنْ أبَوْا فقاتلوهم، فوالله لو لم يبقَ من قريش كلّها إلا رجل واحد لصيّر الله هذا الأمر فيه.

قال: وحضَر أبو سفيان بن حرب، فقال:

يا معشرَ قريش، إنه ليس للأنصار أن يتفضّلوا على الناس حتى يُقرُّوا بفضلنا عليهم، فإن تفضّلوا فحَسبُنَا حيث انتهى بها، وإلا فحَسبُهم حيث انتهى بهم. وايمُ الله لئن بَطروا المعيشة، وكَفَروا النعمة، لنضربنّهم على الإسلام كما ضرِبوا عليه، فأما عليّ بن أبي طالب فأهل والله أن يُسوَّد على قريش، وتطيعه الأنصار.

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال:

يا معشرَ الأنصار، إنّما يكبرُ عليكم هذا القول لو قاله أهلُ الدين من قريش، فأما إذا كان من أهل الدنيا، لاسيما من أقوام كلّهم موتور، فلا يكبُرَنّ عليكم، إنما الرأي والقول مع الأخيار المهاجرين، فإن تكلّمت رجال قريش، والذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء، فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلا فأمسكوا.

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك:

تَنَادَى سُهَيْلٌ وابنُ حَرْبٍ وحَارِثٌ ... وعِكْرِمةُ الشَّانِي لَنا ابن أبي جَهْلِ
قتلنا أباهُ وانتزعْنَا سِلاَحَهُ ... فأصْبَحَ بالبطْحَا أذلَّ مِنَ النَّعْلِ
فأمّا سهيلٌ فاحتواهُ ابن دخشم ... أسيراً ذليلاً لا يُمِرُّ ولا يُخْلِي
وصخْر بن حرب قد قتلنا رجالَه ... غَداةَ لِوَا بَدْرٍ فمِرْجَلُه يَغْلِي
وراكَضنا تحتَ العجاجة حارثٌ ... على ظهر جَرْداءٍ كباسِقةِ النَّخْلِ
يقبّلها طَوْراً وطورا يحُثّها ... ويعدِلها بالنَّفْس والمالِ والأهْلِ
أولئك رهطٌ من قريش تَبَايَعُوا ... على خُطَّةٍ ليست من الخطط الفُضْلِ
وأعجبُ منهم قابِلو ذاكَ منهمُ ... كأنا اشتملْنا من قُرَيْشٍ على ذَحْلِ[1]
وكلّهمُ ثانٍ عن الحقِّ عِطفَه ... يقول اقتلوا الأنصار، يا بِئس مِنْ فِعْل!
نصرنا وآوينا النبيَّ ولم نخف ... صروفَ الليالي والبلاءِ عَلَى رَجْلِ
بذلنا لهمْ أنصاف مال أكفِّنا ... كقسمة أيسارِ الجَزُور من الفَضْلِ
ومن بعد ذاك المال أنصاف دُورنا ... وكنّا أناساً لا نعيَّرُ بالبُخْلِ

(١) الذَّحْلُ: الثأر. القاموس المحيط مادة (ذحل).

ونحمِي ذمار الحيّ فهر بن مالك ... ونوقد نارَ الحرْبِ بالحَطَب الْجَزْلِ
فكان جزاء الفضل منّا عليهمُ ... جهالتهم حمقاً وما ذاك بالعدْلِ

فبلغ شعرُ حسان قريشاً، فغضبوا وأمروا ابن أبي عَزّة شاعرهم أن يجيبه، فقال:

معشرَ الأنصارِ خافوا ربّكمْ ... واستجيروا الله من شَرِّ الفِتَنْ
إنني أرهب حَرْباً لاقحاً ... يَشرَق المُرضَعُ فيها باللَّبَنْ
جَرّهَا سعد وسعدٌ فِتْنَةٌ ... ليت سعدَ بن عبادٍ لم يكُنْ
خلف برهوتٍ خفياً شخصُه ... بين بُصرى ذي رُعينٍ وَجَدَنْ
ليس ما قدّر سعد كائناً ... ما جرى البحر وما دام حَضَنْ
ليس بالقاطع مِنّا شعرة ... كيف يُرجى خير أمرٍ لم يَحِنْ!
ليس بالمدرِك منها أبداً ... غير أضغاثِ أمانيّ الوسَنْ(١)

قال الزُّبير: لمّا اجتمع جمهور الناس لأبي بكر أكرمت قريش معن بن عديّ وعويم بن ساعدة، وكان لهما فضلٌ قديم في الإسلام، فاجتمعت الأنصار لهما في مجلس ودعوْهما، فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فعيّرُوهما بانطلاقِهما إلى المهاجرين، وأكبروا فعلهما في ذلك، فتكلم معن، فقال:

يا معشرَ الأنصار. إنّ الذي أراد الله بكم خيرٌ مما أردْتم بأنفسكم، وقد كان منكم أمرٌ عظيم البلاء، وصغّرته العاقبة، فلوْ كان لكم على قريش مالقريش عليكم، ثم أردتموهم لِمَا أرادوكم به لم آمَنْ عليهم منكم مثل ما آمن عليكم منهم، فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجْتم منه وإلا فأنتم فيه.

قلت: قوله: «وقد كان منكم أمر عظيم البلاء، وصغرته العاقبة» يعني عاقبة الكف والإمساك، يقول: قد كان منكم أمر عظيم، وهو دعوَى الخلافة لأنفسكم، وإنما جعل البلاء معظّماً له، لأنه لو لم يتَعقّبْه الإمساك، لأحدث فتنة عظيمة، وإنما صغّره سكونُهم ورجوعهم إلى بيعة المهاجرين.

وقوله: «وكان لكم على قريش....» إلى آخر الكلام، معناه: لو كان لكم الفضل على قريش كفضل قريش عليكم، وادّعت قريش الخلافة لها، ثم أردتم منهم الرجوع عن دعواهم، وجرت بينكم وبينهم من المنازعة مثلُ هذه المنازعة التي جرت الآن بينكم لم آمن عليهم منكم

(١) الوَسَن: أول النوم، وقيل النعاس. لسان العرب مادة (وسن).

أن تقتلوهم، وتُقْدِموا على سفك دمائهم، ولم يحصل لي من سكون النفس إلى حلمكم عنه وصبركم عليهم مثل ما أنا آمن عليكم منهم، فإنهم صبروا وحَلُموا، ولم يقدموا على استباحة حربكم والدخول في دمائكم.

قال الزبير: ثم تكلم عُويم بن ساعدة، فقال: يا معشر الأنصار، إنّ من نعم الله عليكم أنه تعالىٰ لم يُرِدْ بكم ما أردتم بأنفسكم، فاحمدوا الله على حسن البلاء، وطول العافية، وصرف هذه البليّة عنكم، وقد نظرت في أول فتنتكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانيّ والحسد، واحذروا النِّقَم، فوددت أنّ الله صَيّر إليكم هذا الأمر بحقه فكنا نعيش فيه.

فوثبت عليهما الأنصار، فأغلظوا لهما، وفحشوا عليهما، وانبرى لهما فروة بن عمرو، فقال: أنسيتما قولكما لقريش: «إنا قد خلّفنا وراءنا قوماً قد حلّت دماؤهم بفتنتهم»! هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى، قد تُصرَفُ الحيّة عن وَجْهها وسمّها في نابها. فقال معن في ذلك:

وقالَتْ لِيَ الأنصارُ إنّك لم تُصِبْ ... فقلت: أما لِي في الكلامِ نَصِيبُ!
فقالوا: بلَى قل ما بدا لك راشداً ... فقلت ومثلي بالجواب طبيبُ
تركتُكمُ والله لَمّا رأيتكمْ ... تُيوساً لها بالحَرّتين نَبِيب(١)
تنادُون بالأمر الذي النجم دُونَه ... ألا كلّ شيء ما سواهُ قَريبُ
فقلتُ لكمْ قولَ الشَّفيق عليكمُ ... وللقلْبِ من خَوْف البلاء وَجِيبُ
دعُوا الرَّكْضَ واثنوا من أعنّة بَغْيكُم ... ودبّوا فسيْرُ القاصدين دَبيبُ
وخلُّوا قريشاً والأمورَ وبايعوا ... لمن بايعوه تَرْشُدُوا وتُصِيبُوا
أراكم أخَذْتمْ حَقّكم بأكفِّكُمْ ... وما النّاس إلا مخطِئٌ ومصيبُ
فلمّا أبيتمْ زُلْتُ عنكُمْ إليهمُ ... وكنتُ كأيٍّ يومَ ذَاك غريبُ
فإنْ كان هذا الأمر ذنبي إليكُمُ ... فلي فيكمُ بعد الذُّنوب ذنوبُ
فلا تبعثوا منّي الكلامَ فإنّني ... إذا شئتُ يوماً شاعرٌ وخطيبُ
وإني لحلوٌ تعتريني مرارةٌ ... وملْحٌ أجاجٌ تارةً وشَرُوبُ
لكلّ امرئٍ عندي الذي هو أهلُه ... أفانين شَتّى والرجال ضروبُ

وقال عُويم بن ساعدة في ذلك:

وقالت لِيَ الأنصار أضعاف قولِهمْ ... لمعنٍ، وذاك القولُ جهلٌ من الجَهْلِ

---

(١) النبيب: صياح التيس عند الهياج.

فقلت: دَعُوني لا أبا لأبيكُم | فإني أخوكم صاحب الخطر الفَصلِ
أنا صاحب القولِ الذي تعرفونه | أقطّع أنفاس الرجال على مَهْلِ
فإنْ تسكتوا أسكتْ وفي الصَّمْتِ راحة | وإن تنطِقُوا أصْمَتْ مقالتكم تَبْلي
وما لُمْتُ نفسي في الخلاف عليكمُ | وإن كنتمُ مُستجمعين على عَذْلِي
أريدُ بذاك الله لا شيءَ غيرهُ | وما عند ربّ الناس من دَرَجِ الفضلِ
وما ليَ رِحْمٌ في قريش قريبةٌ | ولا دارها داري ولا أصلُها أصْلِي
ولكنّهمُ قومٌ علينا أئمةٌ | أدينُ لهم ماأنفذت قَدَمِي نعلِي
وكانَ أحقّ الناس أن تقنعُوا به | ويحتمِلوا مَنْ جاء في قوله مِثْلِي
لأني أخفُّ الناس فيما يسرّكُمْ | وفيما يَسُوءُ لا أمِرّ ولا أحْلِي

قال فَرْوة بن عمر - وكان ممّن تخلّف عن بَيْعة أبي بكر، وكان ممّن جاهد مع رسول الله، وقاد فَرَسَين في سبيل الله، وكان يتصدّق من نخله بألف وَسْق في كلّ عام، وكان سيّداً، وهو من أصحاب عليّ، وممّن شهد معه يوم الجَمل. قال: فذكر معْناً وعويماً، وعاتبهما على قولهما: «خلّفنا وراءنا قوماً قد حلّت دماؤهم بفتنتهم»:

ألاَ قُلْ لِمعنٍ إذَا جئتَه | وذاك الذي شيخه ساعِدَهْ
بأنّ المقال الذي قلتما | خفيفٌ علينا سوىٰ واحِدَهْ
مقالكُمُ: إنّ مَنْ خَلْفنا | مِراضٌ قلوبهمُ فاسدَهْ
حلال الدماء على فتنةٍ | فيا بئسما رَبَّتِ الوالدَهْ!
فَلَمْ تأخذا قَدْر أثمانها | ولم تستفيدا بها فائدَهْ
لقد كذَّب الله ما قلتُما | وقد يكْذب الرّائدَ الواعِدَهْ

قال الزبير: ثم إنّ الأنصار أصلحوا بين هذين الرّجلين وبين أصحابهما، ثم اجتمعت جماعة من قريش يوماً وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط من المهاجرين، وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة، فاتفّق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفَر كان فيه، فجاء إليهم، فأفاضُوا في ذكر يوم السَّقيفة وسعد ودعواه الأمر، فقال عمرو بن العاص: والله لقد دفع الله عنّا من الأنصار عظيمة، ولَمّا دفع الله عنهم أعظم، كادوا والله أن يحلّوا حبلَ الإسلام كما قاتلوا عليه، ويخرِجُوا منه مَنْ أدخلوا فيه، والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله ﷺ: «الأئمة من قريش»، ثم ادّعَوْها لقد هَلكُوا وأهلَكوا، وإن كانوا لم يسمعوها فما هم كالمهاجرين، ولا سعد كأبي بكر، ولا المدينة كمكة، ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على

البدء، ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة، فلم يجبه أحد، وانصرف إلى منزله وقد ظفر، فقال:

ألاَ قُـلْ لأوسٍ إذا جـئـتَـهـا ... وقـلْ كُـلَّـمـا جـئـت لـلـخـزرجِ
تـمـنـيـتـمُ الـمـلـك فـي يـثـربٍ ... فـأنـزلـت الـقِـدْر لـم تـنـضـج
وأخـدَجْـتـمُ الأمـرَ قـبـل الـتَّـمـام ... وأعجِبْ بذا المعجَل المخدَجِ[1]
تـريـدون نَـتْـج الـحِـيـال الـعـشـا ... رَ ولـم تـلـقـحـوه فـلـم يُـنْـتَـجِ[2]
عَـجِـبْـتُ لـسـعـدٍ وأصـحـابِـه ... ولـو لـم يـهـيـجـوه لـم يَـهْـتَـجِ
رجـا الـخـزرجـيّ رجـاءَ الـسَّـرابِ ... وقـد يـخـلـف الـمـرءَ مـا يـرتَـجِي
فـكـان كَـمُـنْـحِ عـلـى كـفِّـه ... بـكـفٍّ يـقـطّـعـهـا أهـوجِ

فلما بلغ الأنصارَ مقالته وشعره، بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن العجلان - وكان رجلا أحمر قصيراً، تزدريه العيون، وكان سيّدا فخماً - فأتى عمراً وهو في جماعة من قريش، فقال: والله يا عمرو ما كرهتُم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم، وما كان الله ليخرجَكم من الإسلام بمنْ أدخلكم فيه، إنْ كان النبيّ ﷺ قال: «الأئمة من قريش»، فقد قال: «لو سلَك النّاس شِعْباً، وسلك الأنصار شِعْباً، لسلكتُ شِعب الأنصار»، والله ما أخرجناكم من الأمر إذْ قلْنا: منّا أمير ومنكم أمير، وأمّا مَنْ ذكرت، فأبو بكر لَعَمْري خير من سَعْد، لكنّ سعداً في الأنصار أطوعُ من أبي بكر في قريش، فأمّا المهاجرُون والأنصار، فلا فرق بينهم أبداً، ولكنّك يابن العاص، وتَرْتَ بني عبد مناف بمسيرِك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه، ووترتَ بني مخزوم بإهلاك عُمارة بن الوليد. ثم انصرف فقال:

فـقُـلْ لـقـريـش نـحـنُ أصـحـابُ مـكّـةٍ ... وَيَـوْمَ حـنُـيـن والـفـوارسُ فـي بَـدْر
وأصـحـاب أحُـدٍ والـنَّـضـيـر وَخَـيْـبـرٍ ... ونـحـن رجـعـنـا مـن قُـرَيْـظـةَ بـالـذِّكْـر
ويـوم بـأرض الـشـام أدخِـل جـعـفـر ... وزيـد وعـبـد الله فـي عَـلَـقٍ يَـجْـرِي
وفـي كـلّ يـوم يـنـكـر الـكـلـبُ أهـلَـه ... نـطـاعـنُ فـيـه بـالـمـثـقّـفَـةِ الـسُّـمْـرِ
ونـضـربُ فـي نَـقْـع الـعـجـاجَـة أرْؤُسـاً ... بـبـيـض كـأمـثـال الـبـروق إذا تَـسْـري
نَـصَـرْنَـا وآويـنـا الـنـبـيَّ ولـم يـخـف ... صروفَ اللّيالي والعظيمَ من الأمرِ
وقـلـنـا لـقـوم هـاجـروا قَـبْـلُ: مَـرْحَـبـاً ... وأهـلاً وسـهـلاً، قـد أمـنـتـمْ مـن الـفـقْـرِ

---

(١) المخدَج: الناقص.

(٢) الحِيَال: مفردها حائل: وهي الناقة التي لم تَلْقَحْ سَنَةً أو سنتين أو سنوات.

نقاسمكمْ أموالَنا وبيوتَنا | كقسمة أيسار الجزورِ على الشَّطْرِ
ونكفيكمُ الأمْر الذي تكرهونَهُ | وكنَّا أناساً نُذْهِبُ العسر باليُسْرِ
وقلتم: حرامٌ نصب سعد ونصبكمْ | عتيقَ بن عثمان - حلالٌ - أبا بكرِ
وأهلٌ أبو بكر لها خير قائم | وإن عليًّا كان أخلَقَ بالأمْرِ
وكان هواناً في عليّ وإنه | لأهْلٌ لها يا عمرو من حَيْثُ لا تدري
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى | وينهَى عن الفحشاء والبَغْي والنُّكْرِ
وصيُّ النبيِّ المصطفَى وابنُ عمِّه | وقاتِلُ فرسان الضَّلالة والكُفرِ
وهذا بحمدِ الله يَهْدِي منَ الْعَمَى | ويفتح آذاناً ثقُلْنَ من الْوَقْرِ
نَجِيُّ رسول الله في الغارِ وحدَه | وصاحبُه الصِّدِّيقُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ
فلولا اتّقاء لم تَذهبوا بها | ولكن هذا الخير أجمع للصَّبرِ
ولم نَرْضَ إلاّ بالرِّضَا ولربما | ضربنا بأيدينا إلى أسفل القِدْرِ

فلما انتهى شعر النعمان وكلامُه إلى قريش، غضب كثير منها، وألفى ذلك قدومُ خالد بن سعيد بن العاص من اليمن وكان رسول الله استعمله عليها، وكان له ولأخيه أثر قديم عظيم في الإسلام، وهما مِنْ أوّل من أسلم من قريش، ولهما عبادة وفضل. فغضب للأنصار، وشتَمَ عمرو بن العاص، وقال: يا معشرَ قريش، إنّ عمراً دخل في الإسلام حين لم يجِدْ بدًّا من الدخول فيه، فلما لم يستطِعْ أن يكيدَه بيده كاده بلسانه، وإنّ مِنْ كيده الإسلام تفريقَه وقطعه بين المهاجرين والأنصار. والله ما حاربْناهم للدِّين ولا للدنيا، لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا، وما بذلنا دماءنا لله فيهم، وقاسمونا ديارَهم وأموالهم، وما فعلنا مثل ذلك بهم، وآثرونا على الفَقْر، وحرمناهم على الغنى، ولقد وصّى رسولُ الله بهم، وعزّاهم عن جَفْوة السلطان، فأعوذ بالله أن أكونَ وإياكم الخلف المضيّع، والسلطان الجاني!

قلت: هذا خالد بن سعيد بن العاص، هو الذي امتنع من بيعة أبي بكر، وقال: لا أبايع إلا عليًّا، وقد ذكرنا خبره فيما تقدم.

وأما قوله في الأنصار: «وعزّاهم عن جَفْوة السُّلْطان» فإشارة إلى قول النبيّ ﷺ: «ستَلْقَوْن بعدي أثَرةً، فاصبروا حتى تقدَمُوا عليّ الحوض»[1]، وهذا الخبر هو الذي يكفِّر كثير من أصحابنا معاوية بالاستهزاء به، وذلك أنّ النعمان بن بشير الأنصاريّ جاء في جماعة من الأنصار إلى معاوية، فشكوْا إليه فقرَهم، وقالوا: لقد صدق رسول الله ﷺ في قولِه لنا:

(١) أخرجه البخاري كتاب: الجزية، باب: ما أقطع النبي ﷺ من البحرين (٣١٦٣)، ومسلم، كتاب: الزكاة باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ١٠٦١).

«ستلقوْن بعدي أثرةً»، فقد لقيناها. قال معاوية: فماذا قال لكم؟ قالوا: قال لنا «فاصْبِروا حتى تردوا عليّ الحوض»، قال: فافعلوا ما أمركم به عساكم تلاقُونه غداً عند الحوض كما أخبركم، وحرمهم ولم يعطهمْ شيئاً(١).

قال الزّبير: وقال خالد بن سعيد بن العاص في ذلك:

تفوّه عمرو بالذي لا نُريدُه ... وصرّح للأنصار عن شَنْأَةِ البُغْضِ

فإن تكن الأنصار زَلّتْ فإننا ... نُقِيلُ ولا نجزيهمُ بالقَرْضِ

فلا تقطعنْ يا عمرو ما كانَ بيننا ... ولا تَحملنْ يا عمرو بعضاً على بعضِ

أتنسى لهم يا عمرو ما كان منهمُ ... ليالِيَ جئناهم من النّفْل والفَرْضِ

وقسْمَتَنَا الأموال كاللّحم بالمُدَى ... وقسمتَنا الأوطان كلٌّ به يقضي

ليالِي كُلُّ الناس بالكفر جَهْرة ... ثِقالٌ علينا، مجمعونَ على البُغْضِ

فساوَوْا وآوَوا وانتهيْنَا إلَى المُنَى ... وقَرّ قَرَارَانَا من الأمن والخفضِ

قال الزُّبير: ثم إنّ رجالاً من سفهاء قريش ومثيرِي الفِتَن منهم، اجتمعوا إلى عمرو بن العاص، فقالوا له: إنّك لسانُ قريش ورجُلها في الجاهليّة والإسلام، فلا تَدَع الأنصار وما قالت، وأكثروا عليه من ذلك، فراح إلى المسجد، وفيه ناس من قريش وغيرهم، فتكلم وقال: إنّ الأنصار تَرَى لنفسها ما ليس لها، وايمُ الله لوددت أنّ الله خلّى عنّا وعنهم، وقضى فيهم وفينا بما أحبّ ولنحنُ الذين أفسدْنا على أنفسنا أحرزناهم عن كلّ مكروه، وقدّمناهم إلى كلّ محبوب، حتى أمنوا المخوف، فلما جاز لهم ذلك صَغَّروا حقنا، ولم يراعُوا ماأعظمنا من حقوقهم.

ثم التفت فرأى الفضلَ بن العباس بن عبد المطلب، وندِم على قوله، للخؤولة التي بين ولَد عبد المطلب وبين الأنصار، ولأنّ الأنصار كانت تُعظّم عليًّا، وتهتِف باسمه حينئذ، فقال الفضل: يا عمرو، إنّه ليس لنا أن نكتُم ما سمعنا منك، وليس لنا أن نجيبَك، وأبو الحسن شاهد بالمدينة، إلا أن يأمرنا فنفعل.

ثم رجع الفضلُ إلى عليّ فحدّثه. فغضب وشتم عمْراً. وقال: آذى الله ورسوله، ثم قام فأتى المسجد، فاجتمع إليه كثير من قريش وتكلّم مغضَباً، فقال:

يا معشرَ قريش، إن حبّ الأنصار إيمان، وبغضَهم نفاق، وقد قَضَوْا ما عليهم، وبقي ما

(١) أخرجه ابن معصوم في الدرجات الرفيعة: ٣٤٩.

عليكم، واذكروا أنّ الله رغب لنبيكم عن مكّة، فنقله إلى المدينة. وكره له قريشاً، فنقله إلى الأنصار، ثم قدِمْنَا عليهم دارَهم، فقاسمونا الأموال، وكَفَوْنَا العمل، فصرْنا منهم بَيْن بذل الغنيّ وإيثار الفقير، ثم حاربَنَا الناس فوقونا بأنفسهم، وقد أنزل الله تعالى فيهم آيةً من القرآن، جمع لهم فيها بين خمس نِعَم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)، ألاَ وإنّ عمرو بن العاص قد قام مقاماً آذى فيه الميّت والحيّ، ساء به الواتر وسرّ به الموتور، فاستحقّ من المستمع الجواب، ومن الغائب المقْت، وإنه مَنْ أحبّ الله ورسوله أحبَّ الأنصار، فليكفُف عمرو عنّا نفسَه.

قال الزبير: فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص، فقالوا: أيّها الرجل، أمّا إذا غضب عليٌّ فاكفُفْ.

وقال خُزيمة بن ثابت الأنصاريّ يخاطب قريشاً:

أيـالَ قـرَيْـش أصـلِـحُـوا ذات بـيـنِـنـا ... وبينكُمُ قد طَالَ حَبْلُ التماحكِ(٢)

فـلا خَيْرَ فـيكُمْ بعدَنا فارفقُوا بنا ... ولا خيرَ فينا بعد فِهْر بن مالكِ

كِلانَـا عـلـى الأعـداء كـفٌّ طـويـلـة ... إذا كـان يـومٌ فـيـه جَـبُّ الـحـوَارِك

فـلا تـذكـرُوا مـا كـان مِـنَّـا ومـنـكـمُ ... ففي ذِكْرِ ما قد كان مَشْيُ التَّسَاوُكِ

قال الزّبير: وقال عليّ للفضل: يا فضل، انصر الأنصار بلسانك ويدك، فإنهم منك وإنك منهم، فقال الفَضل:

قـلـتَ يـا عـمـرُو مـقـالاً فـاحـشـاً ... إن تـعُـد يـا عـمـرو والله فَـلَـكْ

إنـمـا الأنـصـار سـيـفٌ قـاطـعٌ ... مَـنْ تُـصِـبْـه ظُـبَـةُ الـسَّـيْـفِ هَـلَـكْ

وسـيـوفٌ قـاطـع مَـضْـرَبُـهَـا ... وسـهـام الله فـي يـوم الـحَـلَـكْ

نـصـرُوا الـديـن وآوَوْا أهـلَـه ... مـنـزل رَحْـبٌ ورِزْقٌ مُـشْـتَـرَكْ

وإذا الـحـرب تـلـظَّـتْ نـارُهـا ... بـركـوا فـيـهـا إذا الـمـوت بَـرَكْ

ودخل الفضل على عليّ فأسمعه شعره، ففرح به، وقال وَرِيَتْ بك زنادي يا فَضْل، أنت شاعر قريش وفتاها، فأظهر شِعْرَك وابعث به إلى الأنصار، فلما بلغ ذلك الأنصار، قالت: لا أحد يجيبُ إلاّ حَسّان الحسام، فبعثوا إلى حسان بن ثابت، فعرضوا عليه شعر الفضل، فقال:

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) التماحك: المشارّة والمنازعة في الكلام. لسان العرب مادة (محك).

كيف أصنع بِجوابه! إنْ لم أتحرّ قوافيَه فضحني، فرويداً حتى أقفُوَ أثره في القوافي، فقال له خُزَيمة بن ثابت: اذكر عليًا وآله يكفِك عن كلّ شيء، فقال:

جزى الله عنّا والجزاء بكفّه ... أبا حسنٍ عَنّا ومَنْ كأبي حَسَنْ
سبقتَ قريشاً بالذي أنت أهلُه ... فصدرُك مشروح، وقلبك ممتحَنْ
تمنّتْ رجالٌ من قريش أعِزّةٌ ... مكانَك، هيهات الهُزال من السِّمَنْ!
وأنتَ من الإسلام في كلِّ موطن ... بمنزلة الدَّلْو البَطِينِ من الرَّسَنْ
غضبتَ لنا إذ قامَ عمرٌو بخطبة ... أمات بها التقوى وأحيابها الإحَنْ[1]
فكنتَ المرجّى من لؤيّ بن غالب ... لما كان منهم، والَّذي كانَ لم يكُنْ
حفظت رسول الله فينَا وعهدَه ... إليك ومَنْ أولى به منك مَنْ ومَنْ!
ألستَ أخاه في الهُدى ووصيَّهُ ... وأعلمَ منهم بالكتابِ وبالسُّنَنْ
فحقّك ما دامت بنجْدٍ وشيجةٌ ... عظيم علينا ثم بعد على اليمنْ

قال الزّبير: وبعثت الأنصار بهذا الشعر إلى عليّ بن أبي طالب، فخرج إلى المسجد، وقال لمن به من قريش وغيرهم. يا معشرَ قريش، إن الله جعلَ الأنصار أنصاراً، فأثنى عليهم في الكتاب، فلا خيرَ فيكم بعدهم، إنّه لا يزال سفيه من سفهاء قريش وَتَره الإسلام، ودفعه عن الحقّ، وأطفأ شرفه وفضّل غيره عليه، يقوم مقاماً فاحشاً فيذكر الأنصار، فاتّقوا الله وارعَوْا حقَّهم، فوالله لو زالوا لزلتُ معهم، لأنّ رسول الله قال لهم: «أزولُ معكم حيثما زُلتم»، فقال المسلمون جميعاً: رحِمك الله يا أبا الحسن! قلت قولاً صادقاً.

قال الزبير: وترك عمرو بن العاص المدينة، وخرج عنها حتى رضيَ عنه عليّ والمهاجرون.
قال الزبير: ثم إنّ الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط - وكان يبغض الأنصار، لأنهم أسرُوا أباه يوم بَدْر، وَضربوا عنقه بين يديْ رسول الله - قام يشتم الأنصار، وذكرهم بالهُجْر، فقال: إن الأنصار لَترى لها من الحقّ علينا ما لا نراه، والله لئن كانوا آوَوا لقد عزُّوا بنا، ولئن كانوا آسَوْا لقد مَنُّوا علينا، والله ما نستطيع مودَّتَهم، لأنه لا يزال قائل منهم يذكر ذلَّنا بمكة، وعزّنا بالمدينة، ولا ينفكّون يعيّرون موتانا، ويغيظون أحياءنا، فإن أجبناهم قالوا: غضبت قريش على غاربها[2]، ولكن قد هوّن عليّ ذلك منهم حرْصُهم على الدين أمس، واعتذارهم من الذنب اليوم، ثم قال:

تباذَخَتِ الأنصار فِي الناس باسْمِهَا ... ونسبتُها في الأزد عَمْرو بن عامرِ

(١) الإحَنْ: جمع إحنة: وهي الغضب والحقد. القاموس المحيط مادة (أحن).
(٢) أخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ٣/ ١٧٢.

وقالوا: لَنَا حقٌّ عظيم ومِنَّةٌ على كلِّ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضرِ
فإن يكُ للأنصار فضلٌ فلم تنلْ بحرمتِه الأنصار فضلَ المهاجرِ
وإن تكن الأنصار آوتْ وقاسَمَتْ معايشها مَنْ جاء قسمةَ جازرِ
فقد أفسدت ما كان منها بمنِّها وما ذاك فعلُ الأكرمين الأكابرِ
إذا قال حسانٌ وكعب قصيدةً بشتمِ قريش غُنِّيتْ في المعاشرِ
وسَارَ بها الرُّكْبان في كلِّ وجهةٍ وأعملَ فيها كلُّ خُفٍّ وحافرِ
فهذا لنا من كلِّ صاحب خطبة يقومُ بها منكم ومِنْ كلّ شاعرِ
وأهلٌ بأن يُهجَوْا بكلِّ قصيدةٍ وأهلٌ بأن يُرْمَوْا بنبل فواقرِ(١)

قال: ففشا شعره في الناس، فغضبت الأنصار، وغضب لها من قريش قومٌ، منهم ضرار بن الخطاب الفهريّ، وزيد بن الخطاب، ويزيد بن أبي سفيان، فبعثوا إلى الوليد فجاء.

فتكلّم زيد بن الخطاب، فقال: يابن عُقبة بن أبي معَيط، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرِجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، لأحببتَ الأنصار، ولكنّك من الجُفاة في الإسلام البطآء عنه، الذين دخلوا فيه بعد أنْ ظهر أمرُ الله وهم كارهون، إنّا نعلم أنا أتيناهمْ ونحن فقراء، فأغنونا، ثم أصبنا الغنَى فكفُّوا عنا. ولم يرزؤونا شيئاً. فأما ذكرهم ذلّة قريش بمكة وعزها بالمدينة، فكذلك كنا، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾(٢)، فنصرنا الله تعالى بهم، وآوانا إلى مدينتهم.

وأما غضبك لقريش فإنا لا ننُصر كافراً، ولا نوادّ مُلحِداً ولا فاسقاً، ولقد قلت وقالوا، فقطعك الخطيب، وألجمكَ الشاعر.

وأمّا ذكرك الذي كان بالأمس، فدَعِ المهاجرين والأنصار، فإنَّك لستَ من ألسنتهم في الرّضا، ولا نحن من أيديهم في الغضب.

وتكلّم يزيد بن أبي سفيان، فقال: يابن عُقْبة، الأنصار أحقُّ بالغضب لقتْلَى أحُد، فاكفف لسانك، فإنّ مَنْ قتله الحقّ لا يغضب له.

وتكلّم ضرار بن الخطاب، فقال: أما والله لولا أنّ رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش» لقلنا: الأئمة من الأنصار، ولكن جاء أمر غَلب الرأي، فاقمع شِرَّتَك أيها الرجل، ولا

(١) الغارب: الكاهل. القاموس المحيط مادة (غرب).
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

تكن امرأ سَوْء، فإن الله لم يفرّق بين الأنصار والمهاجرين في الدنيا، وكذلك الله لا يفرّق بينهم في الآخرة.

وأقبل حسان بن ثابت مغضَباً من كلام الوليد بن عُقْبة وشعره، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش، فقال: يا معشرَ قريش، إن أعظم ذنبنا إليكم قتلُنا كفارَكم، وحمايتُنا رسول الله ﷺ، وإن كنتم تنقمون مِنّا مِنَّة كانت بالأمس، فقد كفى الله شرّها، فما لنا وما لكم، والله ما يمنعنا من قتالكم الجبنُ، ولا من جوابكم العِيّ. إنا لحيّ فَعال ومقال، ولكنا قلنا: إنها حرب، أولها عار وآخرها ذلّ، فأغضيْنَا عليها عيوننا، وسحبنا ذيولَنا، حتى نَرَى وتَرَوْا، فإن قلتم قلنا، وإن سكتّم سكتنا. فلم يجبْه أحدٌ من قريش، ثم سكت كلٌّ من الفريقين عن صاحبه، ورضِيَ القوم أجمعون، وقطعوا الخِلاف والعصبية.

انتهى ما ذكره الزبير بن بكار في «الموفقيّات» ونعود الآن إلى ذكر ما أورده أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب «السقيفة».

قال أبو بكر: حدّثني أبو يوسف يعقوب بن شيبة، عن بحر بن آدم عن رجاله، عن سالم بن عبيد، قال: لما تُوفِّيَ رَسول الله وقالت الأنصار: مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، أخذ عمر بيد أبي بكر، وقال: سَيْفَان في غِمْد واحد! إذاً لا يصلحان. ثم قال: مَنْ له هذه الثلاثُ: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ مَنْ هما؟ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾، مَنْ صاحبه؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(١) مَعَ مَنْ؟ ثم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه، فبايعه الناس أحْسَنَ بيعة، وأجملها.

قال أبو بكر: حدّثنا أحمد بن عبد الجبار العُطارديّ، عن أبي بكر بن عيّاش، عن زيد بن عبد الله، قال: إنّ الله تعالى نظر في قلوب العباد، فوجدَ قَلْب محمد عليه الصلاة والسلام خَيْرَ قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب الأمم بعدَ قلبه، فوجد قلوبَ أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراءَ نبيه، يقاتلون عن دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأى المسلمون سيّئاً فهو عند الله سيّء.

قال أبو بكر بن عياش: وقد رأى المسلمون أن يولُّوا أبا بكر بعد النّبي ﷺ، فكانت ولايته حسنة.

قال أبو بكر: وحدثنا يعقوب بن شيبة، قال: لما قُبض رسول الله ﷺ وقال الأنصار: «مِنّا أميرٌ ومنكم أميرٌ»، قال عمر: أيّها الناس، أيّكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قَدَّمهما رسول الله ﷺ في الصّلاة! رضيك الله لديننا أفلا نرضاك لدنيانا!

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدثني زيد بن يحيى الأنماطيّ، قال: حدثنا صخر بن جُويرية، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، قال: أخذ أبو بكر بيد عمر ويد رَجل من المهاجرين - يرونه أبا عبيدة - حتى انطلقوا إلى الأنصار، وقد اجتمعوا عند سَعْد في سقيفة بني ساعدة، فقال عمر: قلت لأبي بكر: دعني أتكلّم، وخشيت جِدّ أبي بكر - وكان ذَا جِدّ - فقال أبو بكر لا، بل أنا أتكلّم، فما هو والله إلا أن انتهينا إليهم، فما كان في نفسي شيء أريد أن أقوله إلا أتى أبو بكر عليه، فقال لهم:

يا معشرَ الأنصار، ما ينكِرُ حقَّكم مسلم، إنا والله ما أصبنا خيراً قَطّ إلا شَرَكتمونا فيه، لقد آويتم ونصرتم، وآزرتم وواسيتُم، ولكن قد علمتم أن العرب لا تُقِرّ ولا تطيع إلا لامرىءٍ من قريش، هم رهط النبي ﷺ، أوسطُ العرب وشيجةً[1] رحِم، وأوسط الناس داراً، وأعرَبُ الناس ألسناً، وأصبَحُ الناس أوجهًا، وقد عرفتم بلاءَ ابن الخطاب في الإسلام وقدمه، هلمّ فلبنايعْه.

قال عمر: بل إياك نبايع، قال عمر: فكنتُ أوّل الناس مدّ يده إلى أبي بكر فبايعه، إلاّ رجلاً من الأنصار أدخل يده بين يدي ويد أبي بكر فبايعه قبلي. ووطىء الناس فراش سعد، فقيل: قتلتم سعداً. فقال عمر: قتل الله سعداً! فوثب رجل من الأنصار، فقال: أنا جُذَيْلُها[2] المحكّك وعذَيقُها[3] المرجَّب. فأخِذ ووطىء في بطنِه ودسُّوا في فيه التراب.

قال أبو بكر: وحدّثني يعقوب، عن محمد بن جعفر، عن محمد بن إسماعيل، عن مختار اليمان، عن عيسى بن زيد، قال: لما بويع أبو بكر جاء أبو سفيان إلى عليّ، فقال: أغلبكم على هذا الأمر أذلّ بيت من قريش وأقلُّها! أما والله لئن شئت لأملأنها على أبي فَصِيل خيلاً ورجلاً، ولأسدّنّها عليه من أقطارها، فقال عليّ: يا أبا سفيان، طالما كدْت الإسلام وأهلَه، فما ضرّهم شيئاً، أمسك عليك، فإنا رأينا أبا بكر لها أهلاً.

قال أبو بكر: وحدّثنا يعقوب، عن رجاله، قال: لمَّا بُويع أبو بكر تخلّف عليّ فلم يبايع، فقيل لأبي بكر: إنه كره إمارتك، فبعث إليه: أكرِهت إمارتي؟ قال: لا، ولكن القرآن خشيت أن يُزاد فيه، فحلفْتُ ألا أرتديَ رِداءً حتى أجمعه، اللهمّ إلا إلى صلاة الجمعة.

---

(١) الوشيجة: عرف الشجر، وليف يفتل ثم يشدُّ به ما يحمل. لسان العرب مادة (وشج).

(٢) الجُذَيل: تصغير جَذْل، وهو: عود ينصب للإبل الجربى، وعنى بالجذيل ههنا الأصل من الشجرة تحتك به الإبل فتشتفي به، لسان العرب مادة (جذل).

(٣) العُذَيق: تصغير عِذْق، وهو: النخلة يحملها. لسان العرب مادة (عذق).

فقال أبو بكر: لقد أحسنت، قال: فكتبه عليه الصلاة والسلام كما أنزل، بناسخه ومنسوخه.

قال أبو بكر: حدثنا يعقوب، عن أبي النضر، عن محمد بن راشد، عن مكحول، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استعمل خالد بن سعيد بن العاص على عمل، فقدم بعدما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد بايع الناس أبا بكر، فدعاه إلى البيعة، فأبى، فقال عمر: دَعْني وإياه، فمنعه أبو بكر حتى مضت عليه سنة، ثم مرّ به أبو بكر وهو جالس على بابه فناده خالد. يا أبا بكر، هل لك في البيعة؟ قال: نعم، قال: فادْنُ، فدنا منه، فبايعه خالد وهو قاعد على بابه.

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو يوسف يعقوب بن شيبة، عن خالد بن مخلد، عن يحيى بن عمر، قال: حدثني أبو جعفر الباقر، قال جاء أعرابيٌّ إلى أبي بكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له: أوصني، فقال: لا تَأمَّرْ على اثنين. ثم إن الأعرابيّ شخص إلى الرَّبَذَةِ، فبلَغه بعد ذلك وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل عن أمر الناس: مَنْ وليَه؟ فقيل: أبو بكر، فقدِم الأعرابيّ إلى المدينة، فقال لأبي بكر: ألستَ أمرتَني ألا أتأمّر على اثنين؟ قال: بلَى، قال: فما بالُك؟ فقال أبو بكر: لم أجد لها أحداً غيري أحَقَّ منّي.

قال: ثم رفع أبو جعفر الباقرُ يديه وخَفضهما، فقال: صدق، صدق.

قال أبو بكر: وقد رُوي هذا الخبر برواية أتَمَّ من هذه الرواية: حدثنا يعقوب بن شيبة، قال: حدّثنا يحيى بن حمّاد، قال: حدثنا أبو عوانة، عن سليمانَ الأعمش، عن سُلَيمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن رافع بن أبي رافع الطائيّ، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جيشاً، فأمَّر عليهم عمْرو بن العاص، وفيهم أبو بكر وعمرو، وأمرهم أن يستنفِرُوا مَنْ مرّوا به، فمرُّوا علينا فاستنفرونا، فنفرنا معهم في غزاةِ ذات السلاسل - وهي التي تفخر بها أهل الشام، فيقولون: استعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر وعمر - قال: فقلت، والله لأختارنّ في هذه الغزاة لنفسي رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أستهديه، فإني لستُ أستطيع إتيانَ المدينة، فاخترتُ أبا بكر ولم آل، وكان له كِسَاء فَدكيّ يُخلّه عليه إذا رَكِب، ويلبسه إذا نزل، وهو الذي عيّرته به هوازن بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا لا نبايع ذا الخِلال، قال: فلما قضيْنا غزاتنا، قلت له: يا أبا بكر. إني قد صحبتكُ وإنّ لي عليك حقاً، فعلِّمْني شيئاً أنتفع به، فقال: قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لي: تعبدُ الله لا تشركُ بهِ شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتحجُ البيت، وتصوم شهرَ رمضانَ، ولا تتأمّر على رجليْن، فقلت: أما العبادات فقد عرفتها، أرأيت نهيك لي عن الإمارة! وهل يصيب الناسَ الخير والشر إلا بالإمارة! فقال: إنك استجهدتّني فجهدت لك، إنّ الناس دخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً

فأجارهم الله من الظلم، فهم جيران الله وعواد الله وفي ذمة الله، فَمنْ يظلم منكم إنما يحقِر ربه، والله إنّ أحدكم ليأخذ شويهة جاره أو بعيره فيظلُّ عملُه بأساً بجاره، والله منْ وراء جاره، قال: فلم يلبث إلا قليلاً حتى أتتنا وفاة رسول الله ﷺ، فسألتُ: من استخلف بعده؟ قيل: أبو بكر، قلت أصاحبي الذي كان ينهاني عن الإمارة! فشددتُ على راحلتي، فأتيت المدينة، فجعلت أطلب خَلْوَتَه، حتى قدرت عليها، فقلت أتعرفني؟ أنا فلان ابن فلان، أتعرف وصية أوصيتَني بها؟ قال: نعم إنّ رسول الله ﷺ قُبض والناس حديثو عهد بالجاهلية، فخشيتُ أن يفتتنوا، وإنّ أصحابي حمّلونيها، فما زال يعتذر إليّ حتى عذرته، وصار من أمري بعد أن صرت عريفاً.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، عن رجاله، عن الشعبيّ، قال: قام الحسن بن عليّ عليه السلام إلى أبي بكر وهو يخطُب على المنبر فقال له: انزل عن منبر أبي، فقال: أبو بكر: صدقت، والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي، فبعث عليّ إلى أبي بكر، إنه غلام حدَثٌ، وإنا لم نأمره، فقال أبو بكر: صدقت، إنا لم نتهمك.

قال أبو بكر: وروى أبو زيد، عن حباب بن يزيد، عن جرير، عن المغيرة أنّ سلْمان والزبير وبعضَ الأنصار كان هواهم أن يبايعوا عليًا بعد النبيّ ﷺ، فلما بويع أبو بكر، قال سلْمانُ للصحابة: أصبتم الخير، ولكن أخطأتم المعدِن قال: وفي رواية أخرى: أصبتم ذا السنّ منكم، ولكنكم أخطأتم أهلَ بيت نبيّكم. أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رَغَداً[(١)].

قلت: هذا الخبر هو الذي رواه المتكلمون في باب الإمامة عن سلْمان أنه قال: «كرديد ونكرديد»، تفسره الشيعة، فتقول: أراد أسلمتم وما أسلمتم، ويفسره أصحابنا فيقولون معناه: أخطأتم وأصبتم.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال: حَدثنا غسّان بن عبد الحميد، قال: لما أكثر في تخلّف عليّ عن البيعة، واشتدّ أبو بكر وعمر في ذلك، خرجت أم مِسْطح بن أثاثة، فوقفت عند قبر النبيّ ﷺ ونادته: يا رسول الله!

قَدْ كَانَ بَعدكَ أنباءٌ وهَيْنَمَةٌ … لو كنتَ شاهِدَها لم تكثر الخَطَبُ
إنا فقدناك فَقْد الأرض وابلها … فاختلّ قومك، فاشهدهم ولا تَغِبِ

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز: وسمعت أبا زيد عمر بن شبّة يحدِّث رجلاً بحديث لم أحفظ إسنادَه، قال: مرَّ المغيرة بن شعبة بأبي بكر وعمر، وهما جالسان على باب النّبي حين

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ١٩٤.

قُبِض، فقال: ما يقعدكما؟ قالا: ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه - يعنيان عليًا - فقال: أتريدُون أن تنظروا حبَل الحبَلة من أهل هذا البيت! وسُعُوها في قريش تتّسع.

قال: فقاما إلى سَقِيفة بني ساعدة، أو كلاماً هذا معناه.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك الواسطيّ، عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهريّ، عن أنس بن مالك، قال: لما مرض رسول الله مرضه الذي مات فيه أتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال بعد مرتين: يا بلال، قد أبلغتَ، فمن شاء فليصلّ بالناس، ومن شاء فليدعْ.

قال: ورُفعت السِتور عن رسول الله، فنظرنا إليه كأنّه ورقة بيضاء، وعليه خَمِيصة[1] له، فرجع إليه بلال فقال: مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس، قال: فما رأيناه بعد ذلك عليه السلام.

وقال أبو بكر: وحدّثني أبو الحسن عليّ بن سليمان النوفليّ، قال: سمعتُ أبيًا يقول: ذكَر سعد بن عبادة يوماً علياً بعد يوم السقيفة، فذكر أمراً من أمره نسيَه أبو الحسن، يوجب ولايته، فقال له ابنه قيس بن سعد: أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا الكلام في عليّ بن أبي طالب، ثم تطلب الخلافة، ويقول أصحابُك: منّا أمير ومنكم أمير! لا كلمتك والله من رأسي بعد هذا كلمة أبداً.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو الحسن علي بن سليمان النوفليّ، قال: حدثني أبي، قال: حدّثني شريك بن عبد الله، عن إسماعيل بن خالد، عن زيد بن عليّ بن الحسين، عن أبيه، عن جدّه، قال: قال عليّ: كنت مع الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة له في المحبوب والمكروه، فلما عزّ الإسلام، وكَثُر أهله، قال: يا عليّ، زد فيها: «على أن تمنعوا رسولَ الله وأهلَ بيته مما تمنعون منه أنفسَكم وذراريكم»[2]، قال: فحملها على ظهور القوم، فوفَى بها مَنْ وَفَى، وهلك مَنْ هَلَك.

قلت: هذا يطابق ما رواهُ أبو الفرج الأصفهانيّ في كتاب «مقاتل الطالبيين» أن جعفر بن محمد عليه السلام وقف مستتراً في خِفْية، يشاهد المحامل التي حُمِل عليها عبد الله بن الحسن وأهلُه في القيود والحديد من المدينة إلى العراق، فلما مرُّوا به بكى، وقال: ما وفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بايَعهم على أن يمنعوا محمداً وأبناءه وأهله وذريتَه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وذراريّهم، فلم يفوا. اللهمّ اشدد وطأتك على الأنصار.

قال أبو بكر: وحدَّثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد، قال: حدثنا أحمد بن الحكم،

---

(١) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان. القاموس المحيط مادة (خمص).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٧٤٥)، و«مسند الشاميين» (٢٠٧)، و«الكبير» (٢٠/ ١١٣).

قال: حدثنا عبد الله بن وهب، عن ليث بن سعد، قال: تخلف عليّ عن بيعة أبي بكر، فأخرج مُلبّباً يُمْضَى به رَكْضاً، وهو يقول: معاشرَ المسلمين، علامَ تُضرب عنق رجل من المسلمين، لم يتخلّفْ لخلاف، وإنما تخلّف لحاجة! فما مرّ بمجلس من المجالس إلا يقال له: انطلق فبايع.

قال أبو بكر: وحدّثنا عليّ بن جرير الطائيّ، قال: حدثنا ابنُ فضل، عن الأجلح، عن حبيب بن ثعلبة بن يزيد، قال: سمعت عليًا يقول: أما وربِّ السماء والأرض، ثلاثاً، إنه لعهد النبيّ الأمي إليّ: «لتغدرَنّ بك الأمّة من بعدي»[1].

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو زيد عمر بن شبّة بإسناد رفعه إلى ابن عباس، قال: إنّي لأماشي عمر في سكّة من سكك المدينة، يده في يدي، فقال: يا بن عباس، ما أظنّ صاحبَك إلا مظلوماً، فقلت في نفسي: والله لا يسبقُني بها، فقالت: يا أمير المؤمنين، فارددْ إليه ظلامتَه. فانتزع يدَه من يدي، ثم مرّ يهمهِم ساعة ثم وقف. فلحقته فقال لي: يابن عباس، ما أظنّ القوم منعهم من صاحبك إلا أنّهم استصغروه، فقلت في نفسي: هذه شرّ من الأولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمرَه أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر.

ذكر أمر فاطمة مع أبي بكر وعمر

فأما ما رواه البخاريّ ومسلم في الصحيحين من كيفية المبايعة لأبي بكر بهذا اللفظ الذي أورده عليك، والإسناد إلى عائشة: أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النبيّ ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدَك، وسهمَه من خيبر، فقال لهما أبو بكر: إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»[2]، وإني والله لا أدعُ أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته. فهجرتْه فاطمةُ ولم تكلّمه في ذلك حتى ماتت. فدفنها عليّ ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر. وكان لعلي وجه من الناس في حياة فاطمة. فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوهُ الناس عن عليّ، فمكثت فاطمة ستة أشهر ثم توفيت - فقال رجل للزّهريّ وهو الراوي لهذا الخبر عن عائشة: فلم يبايعه عليّ ستة أشهر! قال: ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه عليّ. فلما رأى ذلك ضرع إلى مبايعة أبي بكر، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا، ولا يأت معك أحد، وكره أن يأتيَه عمر لما عرف من شدته، فقال عمر: لا تأتهم وحدك، فقال أبو بكر: والله لآتينّهم وحدي، وما عسى

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٧١.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الفرائض، باب: قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة» (٦٧٢٦)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة» (١٧٥٩).

أن يصنعوا بي! فانطلق أبو بكر حتى دخل عَلَى عليّ، وقد جَمَع بني هاشم عنده، فقام عليّ. فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: أمّا بعد، فإنه لم يمنعْنا أنْ نبايعَك يا أبا بكر إنكارٌ لفضلك، ولا منافسةٌ لخيرٍ ساقه الله إلَيك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقًّا، فاستبددتم به علينَا. وذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقه، فلم يزل عليّ يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر، فلما صمَت عليّ تشهّد أبو بكر، فحمِد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه. ثم قال: أما بعد فوالله لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ أنْ أصلَها من قرابتي، وإني والله ما آلوكم من هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم إلا الخير، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورَث ما تركناه صدقة، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال»، وإني والله لا أترك أمراً صنعه رسول الله ﷺ إلا صنعتهُ إن شاء الله، قال علي: موعدك العشيّة للبيعة، فلما صلّى أبو بكر الظهر، أقبل على الناس ثم عذَر عليًّا ببعض ما اعتذر به، ثم قام عليّ فعظم من حقِّ أبي بكر، وذكر فضلَه وسابقته، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه، فأقبل الناس إلى عليّ، فقالوا: أصبتَ وأحسنت، وكان عليّ قريباً إلى الناس حين قارب الأمر بالمعروف.

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، قال: حدثني أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدثني إبراهيم بن المنذر، قال: حدثنا ابن وهب، عن ابن لَهِيعة، عن أبي الأسود، قال: غضِب رجال من المهاجرين فيْ بَيْعة أبي بكر بغير مشورة، وغضب عليّ والزبير، فدخلا بيتَ فاطمة، معهما السلاح، فجاء عمر في عِصَابة، فيهم أُسَيد بن حُضير، وسلمة بن سلامة بن قُريش، وهما من بني عَبْد الأشهل، فاقتحما الدّارَ، فصاحت فاطمة وناشدتهما الله، فأخذوا سيفيهما، فضربوا بهما الحجر حتى كسروهما، فأخرَجهما عمر يسوقُهما حتى بايعا.

ثم قام أبو بكر، فخطب الناس، فاعتذر إليهم، وقال: إنّ بيعتي كانت فَلْتة(١) وقَى الله شرّها، وخشِيت الفتنة، وايمُ الله ما حرصت عليها يوماً قطّ، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانية قطّ، ولقد قُلّدتُ أمراً عظيماً ما لي به طاقة، ولا يَدَان، ولقد وددت أنّ أقوى الناس عليه مكاني.

فقبِل المهاجرون، وقال عليّ والزبير: ما غضِبْنا إلا في المشورة، وإنّا لنرى أبا بكر أحقَّ الناس بها، إنّه لصاحبُ الغار، وثاني اثنين، وإنا لنعرفُ له سِنّه، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة وهو حيّ.

قال أبو بكر: وذكر ابنُ شهاب بن ثابت أن قيس بن شماس أخا بني الحارث من الخزرج، كان مع الجماعة الذين دخلوا بيت فاطمة.

---

(١) أي: فجأة. لسان العرب مادة (قلت).

قال: وروى سعد بن إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر ذلك اليوم، وأنّ محمد بن مسلمة كان معهم، وأنّه هو الذي كسر سيفَ الزبير.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو زيد عمر بن شبّة، عن رجاله، قال: جاء عمر إلى بيت فاطمة في رجال من الأنصار ونفر قليل من المهاجرين، فقال: والّذي نفسي بيده لتخرجَنّ إلى البيعة أو لأحرقنّ البيت عليكم. فخرج إليه الزبير مصلتاً بالسيف، فاعتنقه زياد بن لَبيد الأنصاريّ ورجل آخر، فنَدَر السيفُ من يده، فضرب به عمر الحجر فكسره، ثم أخرجَهُم بتلابيبهم يساقون سَوْقاً عنيفاً، حتى بايعوا أبا بكر.

قال أبو زيد: وروى النضر بن شُمَيْل، قال: حُمِل سيف الزبير لما نَدَر من يده إلى أبي بكر وهو على المنبر يخطب، فقال: اضربوا به الحجر، قال أبو عمرو بن حماس: ولقد رأيت الحجَر وفيه تلك الضربة، والناس يقولون: هذا أثر ضربة سيف الزبير.

قال أبو بكر: وأخبرني أبو بكر الباهليّ، عن إسماعيل بن مجالد، عن الشعبيّ، قال: قال أبو بكر: يا عمر، أين خالد بن الوليد؟ قال: هو هذا، فقال: انطلقا إليهما - يعني علياً والزبير - فأْتياني بهما، فانطلقا، فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ قال: أعددته لأبايع عليًا، قال: وكان في البيت ناس كثير، منهم المقداد بن الأسود وجمهور الهاشميين، فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة في البيت فكسرَه، ثم أخذ بيد الزبير، فأقامه ثم دفعه فأخرجه، وقال: يا خالد، دونك هذا، فأمْسَكَه خالد - وكان خارج البيت مع خالد جَمْعٌ كثير من الناس، أرسلهم أبو بكر رِدْءًا لهما - ثم دخل عمر فقال لعليّ: قم فبايع، فتلكأ واحتبس، فأخذ بيده، وقال: قم، فأبى أن يقومَ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير، ثم أمسكهما خالد، وساقهما عمر ومَن معه سَوْقاً عنيفاً، واجتمع الناس ينظرون، وامتلأت شوارع المدينة بالرجال، ورأت فاطمة ما صنع عمر، فصرخت وولولت، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميّات وغيرهنّ، فخرجت إلى باب حجرتها، ونادت: يا أبا بكر، ما أسرع ما أغرْتُم على أهل بيت رسول الله! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله.

قال: فلما بايع عليّ والزبير، وهدأت تلك الفوْرة، مشى إليها أبو بكر بعد ذلك فشفَع لعمر، وطلب إليها فرضيتَ عنه.

قال أبو بكر: وحدّثني المؤمل بن جعفر، قال: حدثني محمد بن ميمون، قال: حدثني داود بن المبارك، قال: أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن راجعون من الحجّ في جماعة، فسألناه عن مسائلَ، وكنت أحدَ مَنْ سأله، فسألته عن أبي بكر وعمر، فقال: أجيبك بما أجاب به جَدّي عبد الله بن الحسن، فإنه سئل عنهما، فقال: كانت أمّنا صِدّيقة، ابنة نبيّ مرسل، وماتت وهي غضبى على قوم، فنحن غِضاب لغضبها.

قلت: قد أخذ هذا المعنى بعض شعراء الطالبيِّين من أهل الحجاز، أنشدنيه النقيب جلال الدين عبد الحميد بن محمد بن عبد الحميد العَلويّ قال: أنشدني هذا الشاعر لنفسه - وذهب عني أنا اسمه - قال:

يـا أبـا حـفـص الـهـويْـنَـى ومـا كـنــ ـــت مـلـيًّـا بـذاك لـولا الـحـمـامُ
أتـمـوتُ الـبـتـولُ غَـضْـبَـى ونَـرضـى مـا كـذا يـصـنـعُ الـبـنـون الـكـرامُ!

يخاطب عمر ويقول له: مهلاً ورُوَيداً يا عمر، أي ارفق واتَّئِد ولا تعنُف بنا. وما كنت مليًّا، أي وما كنت أهلاً لأن تخاطَب بهذا وتستعطف، ولا كنت قادراً على ولوج دار فاطمة على ذلك الوجه الذي ولجتها عليه، لولا أنّ أباها الذي كان بيتها يحترم ويصان لأجله مات فطمع فيها من لم يكن يطمع. ثم قال: أتموت أمّنا وهي غضبى ونرضى نحن! إذاً لسنا بكرام، فإنّ الولد الكريم يرضى لرضا أبيه وأمه ويغضب لغضبهما.

والصحيح عندي أنّها ماتت وهي واجِدة على أبي بكر وعمرَ، وأنها أوصتْ ألا يصلّيا عليها، وذلك عند أصحابنا من الأمور المغفورة لهما، وكان الأوْلى بهما إكرامَها واحترامَ منزلها لكنّهما خافا الفرقة، وأشفقا من الفتنة، ففعلا ما هو الأصلحُ بحسب ظنّهما، وكانَا من الدين وقوة اليقين بمكان مكين، لا شك في ذلك، والأمور الماضية يتعذّر الوقوف على عِلَلِها وأسبابها، ولا يَعْلَم حقائقَها إلا مَنْ قد شاهدها ولابسها، بل لعلّ الحاضرين المشاهدين لها يعلمون باطن الأمر، فلا يجوز العدولُ عن حسن الاعتقاد فيهما بما جرى، والله وليّ المغفِرة والعفو، فإن هذا لو ثبت أنّه خطأ لم يكن كبيرة، بل كان من باب الصغائر التي لا تقتضي التبرُّؤ، ولا توجب زوال التولّي.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا محمد بن حاتم، عن رجاله، عن ابن عباس، قال: مرّ عمر بعليّ، وأنا معه بفِناء داره فسلّم عليه، فقال له عليّ: أين تريد؟ قال: البقيع، قال: أفلا تصل صاحبك، ويقوم معك، قال: بلى، فقال لي عليّ: قم معه، فقمت فمشيتُ إلى جانبه، فشبك أصابعه في أصابعي، ومشينا قليلاً، حتّى إذا خلّفنا البقيع قال لي: يا ابن عباس، أما والله إنّ صاحبَك هذا لأوْلَى الناس بالأمر بعد رسول الله ﷺ، إلا أنّا خفناه على اثنين، قال ابن عباس: فجاء بكلام لم أجد بدًّا من مسألته عنه، فقلت: ما هما يا أميرَ المؤمنين؟ قال: خِفْناه على حداثة سنّه، وحبّه بني عبد المطلب.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو زيد، قال: حدثني محمد بن عباد، قال: حدّثني أخي سعيد بن عباد، عن الليث بن سعد، عن رجاله، عن أبي بكر الصديق أنّه قال: ليتني لم أكشفْ بيتَ فاطمة، ولو أعلن عليّ الحرب!

قال أبو بكر: وحدّثنا الحسن بن الربيع، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهريّ، عن

عليّ بن عبد الله بن العباس عن أبيه، قال: لما حضرتْ رسول الله ﷺ الوفاة، وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله ﷺ: ائتوني بدواةٍ وصحيفة، أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعدي، فقال عمر كلمة معناه أنّ الوَجَع قد غلَب على رسول الله ﷺ، ثم قال: عندنا القرآن حسبُنا كتاب الله، فاختلف مَنْ في البيت واختصموا، فمِن قائل يقول: القول ما قال رسول الله ﷺ، ومِنْ قائل يقول: القول ما قال عمر، فلما أكثرُوا اللّغط واللغو والاختلاف، غضِب رسول الله، فقال: «قوموا، إنه لا ينبغي لنبيّ أن يختلف عنده هكذا»، فقاموا، فمات رسول الله ﷺ في ذلك اليوم(١)، فكان ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ يعني الاختلاف واللغط(٢).

قلت: هذا الحديث قد خَرّجه الشيخان محمد بن إسماعيل البخاريّ، ومسلم بن الحجاج القشيريّ في صحيحيهما، واتفق المحدّثون كافة على روايته.

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو زيد، عن رجاله، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: إنْ تولُّوها أبا بكر تجدُوه ضعيفاً في بَدَنه، قويًّا في أمر الله، وإن تولُّوها عمر تجدوه قويًّا في بدنه قوياً في أمر الله، وإن تولُّوها عليًّا - وما أراكم فاعلين - تجدوه هادياً مهديًّا، يحملكم على المحجّة البيضاء، والصراط المستقيم(٣).

قال أبو بكر: وحدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح، عن أحمد بن سيّار، عن سعيد بن كثير الأنصاريّ، عن رجاله، عن عبد الله بن عبد الرحمن، أن رسول الله ﷺ في مرض موتِه أمّر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جِلّةُ المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير، وأمرَه أن يُغير على مؤتة حيث قتل أبوه زيد، وأن يغزو وادِيَ فلسطين. فتثاقل أسامةُ وتثاقل الجيش بتثاقُله، وجعل رسول الله ﷺ في مرضه يثقُل ويخِفّ، ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له أسامة: بأبي أنت وأمي! أتأذن لي أن أمكُث أياماً حتى يَشفِيَكَ الله تعالى! فقال: اخرج وسِرْ على بركة الله، فقال: يا رسول الله، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفي قلبي قَرْحة(٤) منك، فقال: سر على النصر والعافية، فقال: يا رسول الله، إني أكره أن أسأل عنك الركبان، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: كتابة العلم (١١٤)، ومسلم، كتاب: الوصية، باب ترك الوصية ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧).

(٢) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٧٦.

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» (٢٨٩٥)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٩١٠)، وقال: رواه البزار، وفيه أبو اليقظان عثمان بن عمير، وهو ضعيف.

(٤) أي جراحة. لسان العرب مادة (فرح).

انفُذ لما أمرتُك به، ثم أغمي على رسول الله ﷺ، وقام أسامة فتجهّز للخروج، فلما أفاق رسول الله ﷺ سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهَّزون، فجعل يقول: «أنفذوا بعث أسامة، لعن الله مَنْ تخلّف عنه»، وكرر ذلك، فخرج أسامة واللواء على رأسه والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرْف نزل ومعه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار أُسَيْد بن حُضير وبشير بن سعد وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسولُ أمّ أيمن، يقول له: ادخل فإنّ رسول الله يموت، فقام من فوره، فدخلَ المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركَزه بباب رسول الله، ورسول الله قد مات في تلك الساعة.

قال: فما كان أبو بكر وعمر يخاطبان أسامة إلى أن ماتا إلا بالأمير.

٦٧ - ومن كلام له عليه السلام لما قلد محمد بن أبي بكر مصر فملكت عليه وقتل

الأصل: **وَقَدْ أَرَدْتُ تَوْلِيَةَ مِصْرَ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ، وَلَوْ وَلَّيْتُهُ إِيَّاهَا لَمَا خَلَّى لَهُمُ ٱلْعَرْصَةَ، وَلاَ أَنْهَزَهُم ٱلْفُرْصَةَ، بِلاَ ذَمٍّ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً، وَكَانَ لِي رَبِيباً.**

الشرح: أمّ محمد بن أبي بكر أسماءُ بنت عُمَيْس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خَثْعم، كانت تحتَ جعفر بن أبي طالب، وهاجرتْ معه إلى الحبشة، فولدت له هناك عبدَ الله بن جعفر الجواد، ثم قتل عنها يوم مُؤتة، فخلَف عليها أبو بكر الصدّيق، فأولدها محمداً، ثم مات عنها، فخلَف عليها عليّ بن أبي طالب، وكان محمد ربيبه وخِرّيجَه، وجارياً عنده مَجْرَى أولادِه، رضَع الولاء والتشيُّع مذ زمن الصِّبا، فنشأ عليه، فلم يكن يعرف له أباً غير عليّ، ولا يعتقد لأحَدٍ فضيلة غيره، حتى قال عليّ عليه السلام: **محد ابني من صلْب أبي بكر، وكان يكْنَى أبا القاسم في قول ابن قتيبة. وقال غيرُه: بل كان يكْنَى أبا عبد الرحمن.**

وكان محمد من نُسّاك قريش، وكان ممن أعان على عثمان في يوم الدّار، واختلِف: هل باشر قتلَ عثمان أم لا! ومن ولد محمد: القاسم بن محمد بن أبي بكر فقيه الحجاز وفاضلُها، ومن ولد القاسم: عبد الرحمن بن القاسم بن محمد، كان من فضلاء قريش ويكنَى أبا محمد، ومن ولد القاسم أيضاً أم فَرْوَة، تزوجها الباقر أبو جعفر محمد بن عليّ، فأولدها الصادق أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام، وإلى أم فَرْوة أشار الرضيّ أبو الحسن بقوله:

يفـاخـرُنـا قَـوْمٌ بـمَـنْ لـم نـلـدهـمُ ... بـتـيـمٍ إذا عُـدّ الـسـوابـق أوْ عَـدِي
وَيَـنْـسَـوْنَ مَـنْ لـو قَـدَّمُـوه لَـقَـدَّمُـوا ... عِـذارَ جـوادٍ فـي الـجـيـادِ مُـقَـلَّـدِ

فَتَى هاشمٍ بعد النبيّ وباعُها لمرمىً عُلاً أو نيلِ مجد وسؤدَد
ولولا عليٌّ ما علَوْا سَرَوَاتِها ولا جَعْجَعُوا[1] فيها بمرعًى وَمَوْرِدِ
أخذنا عليكم بالنبيّ وفاطم طلاعَ المساعي مِنْ مَقَامٍ وَمَقْعَدِ
وَطُلْنَا بِسِبْطَيْ أحمدٍ ووصيّه رقابَ الورى مِنْ مُتْهِمِينَ ومُنْجِدِ
وحُزْنا عَتِيقاً وهو غايةُ فَخْرِكُمْ بمولد بِنت القاسم بن محمدِ
فَجَدٌّ نَبِيٌّ ثم جَدٌّ خليفةٌ فأكرم بجدَّيْنا: عتيقٍ وأحمدِ
وَمَا افتَخَرَتْ بعدَ النبيّ بغيرِه يدٌ صَفَقَتْ يَوْمَ البِياعِ على يَدِ

قوله:

ولولا عليّ ما عَلَوْا سَرَوَاتها....

ينظر فيه إلى القول المأمون في أبيك يمدح فيها عليًّا، أولها:

ألامُ على حُبّي الوصيّ أبا الحسنْ وذلك عندي من أعاجيبِ ذا الزَّمَنْ

والبيت المنظور إليه منها قوله:

وَلَوْلاهُ ماعُدَّتْ لهاشم إمْرَةٌ وكان مدى الأيام يُغْضَى ويُمْتَهَنْ

نسب هاشم بن عتبة بن أبي وقاص

وأمّا هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب، فعمّه سعد بن أبي وقاص، أحدُ العشرة، وأبوه عُتْبة بن أبي وقّاص، الذي كسر رَبَاعيَة رسول الله ﷺ يوم أُحد، وكلَم شفتيه وشجّ وجهه، فجعل يمسح الدمَ عن وجهه، ويقول: «كيف يُفلِح قوم خضبوا وجهَ نبيِّهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم!»[2]، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[3].

وقال حسان بن ثابت في ذلك اليوم:

إذا الله حَيّا معشراً بفَعالِهِمْ ونصرهِمُ الرحمنَ ربَّ المشارقِ
فهدّك ربّي يا عتيبَ بن مالك ولَقّاك قبل الموت إحدَى الصواعِقِ
بَسَطْتَ يميناً للنبيّ محمدٍ فدمّيت فاه قُطِّعَتْ بالبوارقِ

---

(١) جَعْجَعَ الإبل: حركها للإناخة أو النهوض. ديوانه، لوحة ٩١.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء (٤٠٢٧)، وأحمد في «المسند» (١٢٤٢٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

فـهـلَّا ذكـرتَ الله والـمـنـزل الَّـذي ... تـصـيـر إلـيـه عـنـد إحـدَى الـصـعـائـقِ
فَـمَـنْ عـاذِرِي مـن عـبـد عُـذْرَةَ بـعـدمـا ... هَوَى في دَجُوجِيٍّ شديد المضايق!
وأورثَ عـارًا فـي الـحـيـاة لأهـلِـهِ ... وفي النار يـوم الـبـعـث أمّ الـبَـوائـق

وإنما قال، «عبد عُذْرَة» لأنّ عتبة بن أبي وقاص وإخوتَه وأقاربَه في نسبهم كلام، ذكر قوم من أهل النسب أنهم من عُذْرة، وأنهم أدعياء في قريش، ولهم خبر معروف، وقصة مذكورة في كتب النسب.

وتنازَع عبدُ الله بن مسعود وسعد بن أبي وقّاص في أيام عثمان في أمرٍ فاختصما، فقال سعد لعبد الله: اسكُت يا عبدَ هذيل، فقال له عبدُ الله: اسكُتْ يا عبد عُذْرة.

وهاشم بن عتبةَ هو المِرْقال، سمي المرقال، لأنه كان يُرْقِل في الحرب إرقالاً، وهو من شِيعة عليّ، وسنفصّل مقتلَه، إذا انتهينا إلى فصل من كلامه يتضمّن ذكر صِفّين.

فأما قوله: «لما خَلّى لهم العرْصة» فيعني عَرْصة مصر، وقد كان محمد رحمه الله تعالى: لما ضاق عليه الأمر، ترك لهم مصر وظنّ أنه بالفِرار ينجو بنفسه، فلم ينجُ وأخِذ وقُتِل.

وقوله: «ولا أنهزَهم الفرصَة»، أي ولا جعلهم للفرصة منتهزين. والهمزة للتعدية، يقال: أنهزت الفرصة، إذا أنهزتُها غيري.

ونحن نذكر في هذا الموضع ابتداء أمرِ الذين ولاّهم عليّ عليه السلام مصر، إلى أن ننتهي إلى كيفية ملك معاوية لها وقتل محمد بن أبي بكر، وننقل ذلك من كتاب إبراهيم بن سعد بن هلال الثقفي، وهو كتاب «الغارات».

ولاية قيس بن سعد على مصر

قال إبراهيم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان الثَّقفيّ، قال: حدثني عليّ بن محمد بن أبي سيف، عن الكلبيّ، أنّ محمد بن أبي حُذيفة بن عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس، هو الذي حَرّض المصريين على قتل عثمان وندبَهم إليه، وكان حينئذ بمصر، فلما ساروا إلى عثمان وحَصَرُوه، وثَب هو بمصر علَى عامل عثمان عليها، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرْح، أحد بني عامر بن لؤيّ، فطرده عنها، وصلّى بالناس، فخرج ابنُ أبي سَرْح من مصر، ونزل على تخوم أرضها مما يَلي فِلسطين، وانتظر ما يكون من أمر عثمان، فطلَع عليه راكب، فقال له: يا عبد الله، ما وراءك؟ ما خبرُ الناس بالمدينة؟ قال: قتل المسلمون عثمان، فقال ابنُ أبي سَرْح:

إنّا لله وإنا إليه راجعون! ثم صنعوا ماذا يا عبد الله؟ قال: بايعوا ابن عمّ رسول الله عليّ بن أبي طالب، فقال ثانية: إنا لله وإنا إليه راجعون! فقال الرجل: أرَى أنّ ولايةَ عليّ عدلَتْ عندك قتل عثمان! قال: أجلْ، فنظر إليه متأمّلاً له فعرفه، فقال أظنّك عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، أمير مصر! قال: أجل، قال: إن كانتْ لك في الحياة حاجة فالنَّجاء النَّجاء، فإنّ رأيَ عليّ فيك وفي أصحابك إن ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين، وهذا أمير تقدّم بعدي عليكم. قال: ومَن الأمير؟ قال: قيس بن سعد بن عبادة. فقال ابنُ أبي سَرْح: أبْعَد الله ابن أبي حذيفة! فإنّه بَغَى على ابن عمّه، وسعى عليه، وقد كان كفَلَه وربّاه، وأحسن إليه، وأمِنَ جواره، فجهّز الرجال إليه حتى قُتِل، ووثب على عامله.

وخرج ابن أبي سَرْح حتى قدِم على معاوية بدمشق.

قال إبراهيم: وكان قيس بن سعد بن عبادة من شيعة عليّ ومناصحيه، فلما وليَ الخلافة، قال له: سِرْ إلى مصر فقد ولَّيْتُكَها، واخرج إلى ظاهر المدينة، واجْمَعْ ثقاتك ومَنْ أحببت أن يصحبَك حتى تأتيَ مصر ومعك جند، فإنّ ذلك أرعبُ لعدوّك، وأعزّ لوليّك. فإذا أنت قدمتَها إن شاء الله، فأحسِن إلى المحسِن، واشتدّ على المريب، وارفُقْ بالعامّة والخاصّة فالرفق يُمْن.

فقال قيس: رَحمك الله يا أمير المؤمنين! قد فهمتُ ما ذكرتَ، فأمّا الجندُ فإني أدعُه لك، فإذا احتجتَ إليهم كانوا قريباً منك، وإن أردت بعثهم إلى وجْهٍ من وجوهك كان لك عُدّة، ولكنيّ أسير إلى مصر بنفسي وأهل بيتي، وأمّا ما أوصيتَني به من الرفق والإحسان فالله تعالى هو المستعانُ على ذلك.

قال: فخرج قيسٌ في سبعة نفر من أهله حتى دخل مصر، فصعِد المنبر، وأمر بكتاب معه يُقْرأ على الناس، فيه:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من المسلمين. سلام علَيكم، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإنّ الله بحسنِ صنعه وقدَرِه وتدبيره، اختارَ الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، وبعث به أنبياءه إلى عباده، فكان ممَّا أكرم الله عزّ وجلّ به هذه الأمة وخصّهم به من الفضل أن بعث محمداً ﷺ إليهم، فعلّمهم الكتاب والحكمة والسّنة والفرائض وأدّبهم لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرّقوا، وزكّاهم لكيما يتطهّروا، فلما قضى من ذلك ما عليه، قبضه الله إليه، فعليه صلوات الله وسلامه ورحمته ورضوانه. ثم إن المسلمين من بعده استخلفوا أميرين منهم صالحين، فعملا بالكتاب والسنّة وأحيَا السِّيرة، ولم يعدُوَا السنة. ثم توُفّيَا رحمهما الله، فوُلّي بعدهما والٍ أحدَث أحداثاً، فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا، ثمّ نقموا فغيّروا ثم جاءوني فبايعوني، وأنا أستهدِي الله الهدَى، وأستعينه على التقوَى. ألاَ وإنّ لكم علينا العملَ بكتاب الله

وسنة رسوله والقيام بحقّه، والنصح لكم بالغيب، والله المستعان على ما تصفون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد بعثتُ لكم قيسَ بن سعد الأنصاري أميراً، فوازِروه وأعِينوه على الحقّ، وقد أمرته بالإحسان إلى محسنكم، والشدّة على مُرِيبكم، والرّفق بعوامّكم وخواصّكم، وهو ممّنْ أرضَى هَدْيَه، وأرجو صلاحَه ونصحه. نسأل الله لنا ولكم عملاً زاكياً، وثواباً جزيلاً ورحمة واسعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتبه عبد الله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين.

قال إبراهيم: فلما فرغ من قراءة الكتاب، قام قيس خطيباً فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: الحمدُ لله الذي جاء بالحقّ، وأمات الباطل، وكَبَت الظالمين. أيّها الناس، إنّا بايعنا خَيْرَ من نعلم من بعد نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله، فإن نحن لم نعمل بكتاب الله وسنة رسوله فلا بيعة لنا عليكم.

فقام الناس فبايعوا، واستقامت مصر وأعمالها لقيس، وبعث عليها عماله، إلا أن قريةً منها قد أعظَمَ أهلُها قتل عثمان، وبها رجل من بني كنانة يقال له يزيد بن الحارث، فبعث إلى قيس: إنّا لا نأتيك فابعث عُمّالك، فالأرض أرضُك، ولكن أقرّنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس.

ووثب محمد بن مسلَمة بن مخلَّد بن صامت الأنصاريّ فنعَى عثمان، ودعا إلى الطلب بدمه، فأرسل إليه قيس: ويحك! أعليَّ تَثِب! والله ما أحبّ أن لي ملك الشام ومصر وأنّي قتلتك! فاحقِنْ دمك. فأرسل إليه مسلمَة: إني كافٌّ عنك ما دمتَ أنتَ والي مصر.

وكان قيس بن سعد ذا رأيٍ وحَزْم، فبعث إلى الذين اعتزلوا: إني لا أكرِهكم على البَيْعة، ولكني أدَعُكُم وأكفّ عنكم. فهادنهم وهادَن مسلمة بن مخلَّد، وجبَى الخراج، وليس أحد ينازعه.

قال إبراهيم: وخرج عليّ عليه السلام إلى الجمل، وقيس على مصر، ورجع من البصرة إلى الكوفة، وهو بمكانه، فكان أثقلَ خلق الله على معاوية لقرب مصر وأعمالها من الشام، ومخافةَ أن يقبِلَ بأهل العراق، ويقبِلَ إليه قيس بأهل مصر، فيقع بينهما. فكتب معاوية إلى قيس، وعليّ يومئذ بالكوفة قبل أن يسيرَ إلى صِفّين:

من معاوية بن أبي سُفيان إلى قيس بن سعد. سلام عليك، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإنّكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أثَرَةٍ رأيتموها، أو ضربة سوط ضرَبها، أو في

شتمه رجلاً، أو تعييره واحداً، أو في استعماله الفتيانَ من أهله - فإنّكم قد علمتم إن كنتم تعلمون، أنّ دمه لم يحلّ لكم بذلك، فقد ركبتمْ عظيماً من الأمر، وجئتم شيئاً إدًّا[١]، فتب يا قيس إلى ربّك، إن كنت من المجلِبين على عثمان، إن كانت التوبة قبل الموت تغني شيئاً. وأمّا صاحبُكَ فقد استيقنّا أنه أغرى الناس بقتله، وحملهم على قتله حتى قتلوه، وأنه لم يسلَم من دمِه عُظْم قومك، فإن استطعتَ يا قيس أن تكونَ مِمّن يطلب بدم عثمان فافعل، وتابعْنا على عليّ في أمرنا. هذا ولك سلطان العِراقين إنْ أنا ظفرتُ ما بقيت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلْني عن غير هذا مما تحبّ، فإنّك لا تسألُني شيئاً إلا أتيتُه، واكتب إليّ رأيك فيما كتبتُ إليك.

فلما جاء إليه كتابُ معاوية أحبّ أن يدافعه، ولا يبدي له أمرَه، ولا يعجّل له حربه، فكتب إليه:

أما بعدُ، فقد وصل إليّ كتابُك، وفهمتُ الذي ذكرتَ من أمر عثمانَ، وذلك أمرٌ لم أقاربْه. وذكرتَ أنّ صاحبي هو الذي أغرَى الناسَ بعثمان ودسّهم إليه حتى قتلوه، وهذا أمرٌ لم أطّلع عليه. وذكرت لي أنّ عُظْم عشيرتي لم تسلَم منْ دم عثمان، فلعمري إنّ أولى الناس كان في أمرِه عشيرتي، وأمّا ما سألتني من مبايعتك على الطلب بدمه، وما عرضته عليّ فقد فهمته، وهذا أمرٌ لي نظر فيه وفِكْر، وليس هذا مما يُعجَل إلى مثله، وأنا كافٌّ عنك، وليس يأتيك من قِبَلي شيء تكرهُه، حتى ترى ونرى، إن شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: فلما قرأ معاوية كتابه لم يرهُ إلا مقارباً مباعداً، ولم يأمن أن يكونَ له في ذلك مخادعاً مكايداً، فكتب إليه:

أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابك، فلم أرك تدنو فأعُدَّك سِلْما. ولم أركَ تتباعد فأعُدَّك حرباً، أراك كحبل الجَرُور[٢]، وليس مثلي يصانَع بالخداع، ولا يخدَع بالمكايد، ومعه عدد الرجال وأعِنّة[٣] الخيل، فإن قبلتَ الذي عرضتُ عليك فلك ما أعطيتُك، وإنْ أنت لم تفعل ملأتُ مصر عليك خَيْلاً ورَجْلاً. والسلام.

فلما قرأ قيس كتابه، وعلم أنه لا يقبل منه المدافعة والمطاولة، أظهر له ما في نفسه، فكتَب إليه:

من قيس بن سعد، إلى معاوية بن أبي سفيان:

أما بعد، فالعجبُ من استسقاطك رأيي، والطمع في أنْ تسومني - لا أبا لغيرك - الخروجَ

---

(١) أي فظيعاً منكراً. القاموس المحيط مادة (أدد).
(٢) الجَرُور: الجمل الذي يَمْنَع القياد. القاموس مادة (جرر).
(٣) الأعِنّة: جمع عِنَان، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة. القاموس المحيط مادة (عنن).

من طاعة أوْلى الناس بالأمر، وأقوَلهم بالحقّ، وأهداهم سبيلاً، وأقربِهمْ من رسول الله وسيلةً. وتأمرُني بالدخول في طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقوَلِهم بالزّور. وأضلّهم سبيلاً، وأدناهم من رسول الله وسيلة، ولديك قوم ضالّون مضلُّون. طواغيت من طواغيت إبليس. وأمّا قولُك إنّك تملأ عليّ مصر خَيْلاً ورَجْلاً، فلئن لم أشغلْك عن ذلك حتى يكون منك، إنّك لذو جِدّ. والسلام.

فلما أتى معاوية كتابُ قيس، أيسَ وثَقُل مكانه عليه، وكان أن يكون مكانه غيره أحبَّ إليه، لما يعلم من قوته وتأبّيه ونَجدته، واشتداد أمره على معاوية، فأظهرَ للناس أنّ قيساً قد بايعكم، فادْعوا الله له. وقرأ عليهم كتابه الذي لان فيه وقاربه، واختلق كتاباً نسبه إلى قيس فقرأه على أهل الشام:

للأمير معاوية بن أبي سفيان من قيس بن سعد:

أما بعد، إنّ قَتْلَ عثمان كان حدَثاً في الإسلام عظيماً، وقد نظرتُ لنفسي وديني، فلم أر يسعُني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرِماً بَرًّا تقيًّا، فنستغفر الله سبحانه لذنوبنا، ونسأله العصمةَ لديننا. ألا وإنّي قد ألقيت إليكم بالسَّلام، وأجبتُك إلى قتال قَتَلَة إمام الهدى المظلوم، فاطلب مِنّي ما أحببتَ من الأموال والرجال أعجّله إليك إن شاء الله. والسلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.

قال: فشاع في الشام كلّها أنّ قيساً صالح معاوية، وأتت عيونُ عليّ بن أبي طالب إليه بذلك، فأعظمه وأكبره وتعجّب له، ودعا ابنيْه حسناً وحسيناً وابنه محمداً وعبد الله بن جعفر، فأعلمهم بذلك، وقال: ما رأيكم؟ فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبُك، اعزلْ قيساً عن مصر. قال عليّ: والله إني غيرُ مصدّق بهذا على قيس. فقال عبد الله: اعزِله يا أمير المؤمنين، فإن كان ما قد قيل حقاً فلا يعتزل لك إن عزلتَه، قال: وإنهم لكذلك إذ جاءهم كتاب من قيس بن سعد، فيه:

أمّا بعد، فإني أخبرُ يا أمير المؤمنين - أكرمك الله وأعزّك - أنّ قِبَلي رجالاً معتزلين سألوني أن أكفّ عنهم وأدَعَهم على حالهم حتى يستقيمَ أمرُ الناس فنرى ويروْن، وقد رأيتُ أن أكُفّ عنهم ولا أعجّل بحرْبهم، وأنْ أتألّفهم فيما بين ذلك، لعلّ الله أن يقبل بقلوبهم، ويفرّقهم عن ضلالتهم إن شاء الله. والسلام.

فقال عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنك إن أطعتَه في تركهم واعتزالِهم استشرى الأمرُ وتفاقمت الفتنة، وقَعدَ عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها، ولكن مُرْه بقتالهم. فكتب إليه: أما بعد، فسِرْ إلى القوم الذين ذكرت، فإنْ دخلُوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزْهم، والسلام.

قال: فلما أتى هذا الكتاب قيساً فقرأه لم يتمالك أن كتبَ إلى عليّ:

أما بعدُ يا أمير المؤمنين، تأمُرني بقتال قوم كافّين عنك، ولم يمدُّوا يداً للفتنة، ولا أرصدوا لها، فأطعْني يا أمير المؤمنين، وكُفّ عنهم، فإنّ الرأيَ تركهم، والسلام.

فلمّا أتاه هذا الكتاب، قال عبدُ الله بن جعفر: يا أميرَ المؤمنين، ابعث محمد بن أبي بكر إلى مصر يكفِكَ أمرها، واعزِل قيساً، فوالله لبلغني أن قيساً يقول: إنّ سلطاناً لا يتمّ إلا بقتل مسلمة بن مخلّد لسلطان سوء، والله ما أحبّ أنّ لي سلطان الشام مع سلطان مصر، وأنني قتلت ابنَ مخلّد. وكان عبد الله بن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه، وكان يحبّ أن يكونَ له إمْرَة وسلطان، فاستعمل عليّ عليه السلام محمّد بن أبي بكر على مصر، لمحبّةٍ له ولهوى عبد الله بن جعفر أخيه فيه، وكتب معه كتاباً إلى أهل مصر، فسار حتى قَدِمها، فقال له قيس: ما بالُ أمير المؤمنين! ما غيّره! أدخَلَ أحدٌ بيني وبينه! قال: لا وهذا السلطان سلطانك. - وكان بينهما نسب، كان تحت قيس قُرَيبة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر الصديق، فكان قيس زوجَ عمته - فقال قيس: لا والله لا أقيم معك ساعة واحدة، وغضب حين عزله عليّ عنها، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة ولم يمض إلى عليّ بالكوفة.

قال إبراهيم: وكان قيسٌ مع شجاعته ونجْدَتِه جواداً مفضالاً، فحدثني عليّ بن محمد بن أبي سيف، عن هاشم، عن عروة، عن أبيه، قال: لما خرج قيس بن سعد من مصر، فمرّ بأهلِ بيت من بَلْقَيْن، فنزل بمائِهم، فنحرَ له صاحبُ المنزل جَزوراً وأتاه بها، فلما كان الغد نحر له أخرى، ثم حبستْهم السماءُ اليوم الثالث، فنحر لهم ثالثة، ثم إنّ السماء أقلَعَتْ فلما أراد قيسٌ أن يرتحِل، وضع عشرين ثوباً من ثياب مصر، وأربعة آلاف درهم عند امرأة الرجل، وقال لها: إذا جاءَ صاحبك، فادفعي هذه إليه، ثم رحل، فما أتَتْ عليه إلا ساعة حتى لَحِقه الرجل صاحب المنزل على فَرس، ومعه رمح، والثياب والدراهم بين يديه، فقال: يا هؤلاء خذوا ثيابَكم ودراهمكم فقال قيس: انصرف أيها الرجل، فإنّا لم نكنْ لنأخذها، قال: والله لتأخذنّها، فقال قيس: لله أبوك! ألم تكرِمْنَا وتحسنْ ضيافتنَا فكافأناك! فليس بهذا بأس، فقال الرجل: إنّا لا نأخذ لِقِرَى الأضياف ثمناً، والله لا آخذها أبداً. فقال قيس: أمّا إذ أبى ألاّ يأخذَها فخذوها، فوالله ما فضلني رجل من العرب غيره.

قال إبراهيم: وقال أبو المنذر: مَرّ قيس في طريقه برجل من بَلِيّ، يقال له: الأسود بن فلان، فأكرمه، فلما أراد قيس أن يرتحِل وضع عند امرأته ثياباً ودراهم، فلما جاء الرجل دفعتْه إليه، فلحقه فقال: ما أنا بائع ضيافتي، والله لتأخُذَنّ هذا أو لأنفِذَنّ الرمحَ بين جنبيك! فقال قيس: ويحكم خذوه!

قال إبراهيم: ثم أقبلَ قيس حتى قدِم المدينة، فجاءه حَسّانُ بن ثابت شامتاً به - وكان

عثمانياً - فقال له: نَزَعك عليّ بن أبي طالب، وقد قتلت عثمان، فبقي عليك الإثم، ولم يحسِنْ لك الشكر! فزجره قيس وقال: يا أعمَى القلب، يا أعمى البصر، والله لولا ألقى بين رهطي ورهطك حَرْباً لضربت عنقك. ثم أخرجه من عنده.

قال إبراهيم: ثم إنّ قيساً وسهل بن حُنيف، خرجا حتى قدما على عليّ الكوفة، فخبّره قيس الخبر وما كان بمصر فصدّقه. وشهد مع عليّ صِفين هو وسهل بن حنيف.

قال إبراهيم: وكان قيس طُوالاً أطول الناس وأمدّهم قامة، وكان سِناطاً[1] أصلع شيخاً شجاعاً مجرّباً مناصحاً لعليّ ولولده، ولم يزل على ذلك إلى أن مات.

قال إبراهيم: حدّثني أبو غسّان، قال: أخبرني عليّ بن أبي سيف، قال: كان قيس بن سعد مع أبي بكر وعمر في سَفَر في حياة رسول الله ﷺ، فكان ينفق عليهما وعلى غيرهما ويُفضِل. فقال له أبو بكر: إنّ هذا لا يقوم به مالُ أبيك فأمسِك يدك. فلمّا قدموا من سفرهم قال سعد بن عبادة لأبي بكر: أردت أن تبخّل ابني! إنا لقومٌ لا نستطيع البخل.

قال: وكان قيس بن سعد يقول في دعائه: اللهم ارزقني حَمْداً ومجداً وشكراً، فإنه لا حَمْدَ إلا بفَعال، ولا مجد إلا بمال. اللهمّ وسّع عليّ فإنّ القليل لا يسعني ولا أسعه.

ولاية محمد بن أبي بكر

قال إبراهيم: وكان عهد عليّ إلى محمد بن أبي بكر الذي قرىء بمصر:

هذا ما عَهِد عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر، أمرَه بتقوى الله في السرّ والعلانية، وخوف الله تعالى في المَغِيب والمشهد، وأمرَه باللّين على المسلم، والغِلظ على الفاجر، وبالعدْلِ على أهل الذمّة، وبالإنصاف للمظلوم، وبالشدّة على الظالم، وبالعفو عن الناس وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين. وأمره أنْ يدعُوَ مَنْ قِبَلَه إلى الطاعة والجماعة، فإنّ لهم في ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يُقْدَر قدرُه ولا يعرَف كنهه. وأمره أن يجبَى خَراج الأرض على ما كانت تُجبَى عليه من قَبْلُ، ولا ينتقِص ولا يبتدع، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل، وإن تكُنْ لهم حاجة يواسِ بينهم في مجلسه ووجهه، ليكون القريب والبعيد عنده عَلَى سواء. وأمره أن يحكم بين الناس بالحقّ، وأن يقوم بالقِسْط، ولا يتبع الهوى، ولا يخاف في الله لومة لائم، فإن الله مع مَنِ اتّقاه وآثر طاعته على مَنْ سواه.

وكتبه عبد الله بن أبي رافع مولَى رسول الله لغُرّةِ شهر رمضان سنة ست وثلاثين.

---

(١) السّناط: بضم السين وكسرها. الكوسج الذي ليس له لحية أصلاً. القاموس المحيط مادة (سنط).

قال إبراهيم: ثم قام محمد بن بكر خطيباً، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعدُ فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختُلِف فيه من الحقّ، وبصَّرنا وإيّاكم كثيراً مما عَمِيَ عنه الجاهلون. ألا وإنّ أمير المؤمنين ولاّني أمورَكم، وعَهِد إليّ بما سمعتم، وأوصاني بكثير منه مشافهة، ولنْ آلوَكم خيراً ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فإن يكن ما تروْن من آثاري وأعمالي طاعة لله وتقوى، فاحمَدوا الله على ما كان من ذلك، فإنه هو الهادي إليه، فإن رأيتم من ذلك عملاً بغير الحقّ، فارفعوه إليّ، وعاتبوني عليه، فإني بذلك أسعد وأنتم بذلك جديرون. وفَّقنا الله وإياكم لصالح العمل.

قال إبراهيم: وحدّثني يحيى بن صالح، عن مالك بن خالد الأسديّ، عن الحسن بن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن، قال: كتب عليّ عليه السلام إلى أهل مصر لما بعث محمد بن أبي بكر إليهم كتاباً يخاطبهم به، ويخاطب محمداً أيضاً فيه:

أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله في سرّ أمركم وعلانيته، وعلى أيّ حالٍ كنتم عليها، وليعلم المرء أنّ الدنيا دارُ بلاء وفناء، والآخرة جزاء وبقاء، فمن استطاع أن يؤثِرَ ما يبقى على ما يفنى فليفعل، فإنّ الآخرة تبقى، والدنيا تفنى. رزقنا الله وإياكم بَصَراً لما بصرنا وفهْما لما فهمنا، حتى لا نقصر عما أمَرَنا، ولا نتعدّى إلى ما نهانا. واعلم يا محمد أنّك وإن كنت محتاجاً إلى نصيبك من الدنيا إلاّ أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران: أحدُهما للآخرة والآخر للدنيا، فابدأ بأمر الآخرة، ولتعظُم رغبتُك في الخير، ولتحسُن فيه نيتك، فإنّ الله عزّ وجلّ يعطي العبد على قَدْرِ نيّته، وإذا أحبّ الخير وأهله ولم يعمله كان إن شاء الله كمن عمله، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من تَبُوك: إنّ بالمدينة لأقواماً ما سرتُم من مسير، ولا هبطتم من وادٍ إلا كانوا معكم، ما حبَسهم إلاّ المرض[1] - يقول: كانت لهم نيّة - ثم اعلم يا محمد أني قد ولّيتُك أعظم أجنادي أهل مصر، وولّيتك ما ولّيتك من أمر الناس، فأنت محقوق أنْ تخافَ فيه على نفسك، وتحذَر فيه على دينك، ولو كان ساعة من نهارٍ. فإن استطعت ألا تُسْخِط ربّك لرضا أحدٍ من خلقه فافعل، فإنّ في الله خَلَفاً من غيره، وليس في شيء خلفٌ منه، فاشتدّ على الظالم، ولِنْ لأهل الخير، وقَرِّبْهم إليك، واجعلهم بطانتَك وإخوانك. والسلام.

قال إبراهيم: حدّثني يحيى بن صالح، عن مالك بن خالد، عن الحسن بن إبراهيم، عن عبد الله بن الحسن بن الحسن، قال: كتب عليّ إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر:

أما بعد، فإنّي أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون، فأنتم به رهن، وإليه

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه مرض أو عذر عن الغزو (١٩١١)، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر عن الجهاد (٢٧٦٥)، وأحمد في مسنده (١٤٢٦٥).

صائرون، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(١). وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾(٢). وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣).

فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصّغير من أعمالكم والكبير، فإن يعذّب فنحن الظالمون، وإنْ يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين. وعلموا أنّ أقربَ ما يكون العبد إلى الرّحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته في التوبة. فعليكم بتقوى الله عزّ وجلّ، فإنّها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها، ويُدْرَكُ بها من الخير ما لا يدرَك بغيرها خير الدنيا وخير الآخرة، يقول الله سبحانه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

واعلموا عبادَ الله أن المؤمنين المتّقين قد ذهبُوا بعاجل الخيرِ وآجلِه، شرَكُوا أهلَ الدنيا في دنياهم ولم يشاركهم أهلُ الدنيا في آخرتهم، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٥)، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكِنت، وأكلوها بأفضل ما أكِلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم، فأكلوا من أفضل ما يأكلون، وشربوا من أفضل ما يشربون، ويلبسون من أفضل ما يلبسون، ويسكنون من أفضل ما يسكنون، أصابوا لذّة أهل الدنيا مع أهل الدنيا مع أنّهم غداً من جيران الله عزّ وجلّ، يتمنوْن عليه، لا يردّ لَهُم دعوة، ولا ينقص لهم لذة. أما في هذا ما يشتاق إليه مَنْ كان له عقل!

واعلموا - عباد الله - أنّكم إذا اتقيتُم ربّكم، وحفظتم نبيّكم في أهل بيته، فقد عبدتموه بأفضلِ ما عُبِد، وذكرتموه بأفضل ما ذكر، وشكرتموه بأفضل ما شُكر، وأخذتم بأفضل الصبر، وجاهدتم بأفضَلِ الجهاد، وإنْ كان غيرُكم أطول صلاة منكم، وأكثر صياماً، إذا كنتم أتقى لله وأنصحَ لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله وأخشع. واحذَرُوا عبادَ الله الموت ونزوله، وخذولَهُ، فإنه يدخل بأمر عظيم، خيرٍ لا يكون معه شرّ أبداً، أو شرٌ لا يكون معه خير أبداً. وليس أحد من الناس يفارق روحُه جسده، حتّى يعلم إلى أيّ المنزلتين يصير، إلى الجنّة أم إلى النار! أعدوّ هو لله أم وليّ له! فإنْ كان ولياً فُتِحت له أبواب الجنة، وشرع له طريقها، ونظر إلى ما أعدّ الله عزّ وجلّ لأوليائه فيها، فرغ من كلّ شغل، ووضع عنه كل ثِقْل، وإن كان عدوًّا فتحت له أبوابُ النار، وسهل له طريقها، ونظر إلى ما أعدّ الله فيها لأهلها. واستقبل كل مكروه، وفارق كلَّ سرور، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾(٦).

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢، ٩٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٦) سورة النحل، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

واعلموا عبادَ الله أن الموت ليس منه فَوْت، فاحذروه وأعِدُّوا له عُدّته، فإنكم طُرَداء للموت، إن قمتم أخذكم، وإن هربتم أدرككم، وهو ألزم لكم من ظِلّكم، معقودٌ بنواصيكم، والدُّنيا تطوَى من خَلْفِكم، فأكثروا ذكرَ الموتِ عند ما تنازِعكم إليه أنفسكم من الشهوات، فإنه كَفَى بالموت واعظاً. قال رسول الله ﷺ: «أكثِرُوا ذكرَ الموت فإنه هاذم اللذات»[١].

واعلموا عبادَ الله أنّ ما بعد الموت أشدّ من الموت، لمن لم يغفر الله له ويرحمه. واحذروا القَبْرَ وضمَّته وضيقه وظلمته، فإنه الذي يتكلّم كلّ يوم: أنا بيت التراب، وأنا بيت الغربة، وأنا بيت الدود. والقبر روضة من رياض الجنة. أو حفرة من حفر النار. إنّ المسلم إذا مات قالت له الأرض مرحباً وأهلاً، قد كنت ممّن أحبّ أن تمشيَ على ظهري، فإذْ وليتك فستعلم كيف صنعي بك! فيتسع له مدّ بصره. وإذا دُفِن الكافر قالت له الأرض: لا مرحباً ولا أهلاً، قد كنت ممن أُبْغِضُ أن تمشيَ على ظهري، فإذ وليتك فستعلم كيف صنعي بك! فتنضمّ عليه حتى تلتقيَ أضلاعه. واعلموا أن المعيشة الضَّنْك التي قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٢] هي عذابُ القبر، فإنه يسلط على الكافر في قبره حياتٍ عظام تنهش لحمه حتى يبعث، لو أن تنّيناً منها نفخ الأرض ما أنبت الزرع أبداً.

اعلموا عبادَ الله أن أنفسكم وأجسادَكم الرقيقة الناعمة التي يكفيها اليسير من العقاب ضعيفة عن هذا، فإن استطعتم أن ترحموا أنفسَكم وأجسادكم ممّا لا طاقةَ لكم به، ولا صبرَ لكم عليه، فتعلموا بما أحبّ الله سبحانه وتتركوا ما كَرِهَ، فافعلوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

واعلموا - عباد الله - أنّ ما بعد القبر أشدُّ من القبر، يومٌ يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، وتذهَلُ كلّ مرضعة عما أرضعت. واحذروا يوماً عبوساً قمطريراً[٣]، كان شرُّه مستطيراً. أما إنّ شرّ ذلك اليوم وفزعه استطار حتى فزِعت منه الملائكة الذين ليست لهم ذنوب، والسبع الشداد، والجبال الأوتاد، ، والأرضون المهاد. وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، وتغيّرت فكانت وَرْدةً كالدِّهان، وكانت الجبال سراباً، بعد ما كانت صُمًّا صلاباً، يقول الله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤]. فكيف بمن يعصيه بالسّمع والبصر، واللسان واليد، والفرج والبطن، إن لم يغفر الله ويرحم!

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٧)، والنسائي، كتاب: الجنائز، باب: كثرة ذكر الموت (١٨٢٤)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٥٨)، وأحمد في «مسنده» (٧٨٦٥).

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٣) أي: شديداً. القاموس المحيط مادة (قمطر).

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

واعلموا - عباد الله - أنّ ما بعد ذلك اليوم أشدّ وأدهى، نارٌ قعرُها بعيد، وحَرّها شديد، وعذابها جديد، ومقامِعُها حديد، وشرابها صديد، لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكِنها، دارٌ ليست لله سبحانه فيها رحمة، ولا يُسْمَع فيها دعوة، ومع هذا رحمة الله التي وَسِعَتْ كلّ شيء، لا تعجز عن العباد، وجنَّة عَرْضها كعَرْض السماء والأرض، خير لا يكون بعده شرّ أبداً، وشهوة لا تنفد أبداً، ولذة لا تفنى أبداً، ومجمع لا يتفرّق أبداً. قومٌ قد جاوَرُوا الرحمن، وقام بين أيديهم الغِلْمان، بصحافٍ من ذهب فيها الفاكهة والريحان. وإنّ أهل الجنة يزورون الجبّار سبحانه في كلّ جمعة، فيكون أقربُهم منه على منابرَ من نورٍ، والذين يلُونهم على منابر من ياقوت، والذين يلونهم على منابر من مِسْك، فبيناهم كذلك ينظرون الله جلّ جلاله، وينظر الله في وجوههم، إذ أقبلت سحابة تغشاهم فتمطِرُ عليهم من النعمة واللذة والسرور والبهجة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ومع هذا ما هو أفضل منه، رضوان الله الأكبر.

أما إنّا لو نخوّف إلا ببعض ما خوّفنا به لكنا محقوقين أنْ يشتدَّ خوفُنا مما لا طاقة لنا به، ولا صبرَ لقوتنا عليه، وأن يشتدّ شوقنا إلى ما لا غنًى لنا عنه ولا بدَّ لنا منه، فإن استطعتم عباد الله أن يشتدّ خوفُكم من ربّكم فافعلوا، فإنّ العبد إنما تكون طاعته على قَدْرِ خوفه، وإنّ أحسنَ الناس لله طاعة، أشدُّهم له خوفاً.

وانظر يا محمد صلاتَك كيف تصلّيها، فإنما أنت إمامٌ ينبغي لك أن تتمّها وأنْ تخفّفها وأن تصلِّيَهَا لوقتها، فإنه ليس من إمام يصلي بقوم فيكونِ في صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثمُ ذلك عليه، ولا ينقص من صلاتهم شيئاً.

واعلم أنّ كلّ شيء من عملكَ يتبع صلاتَك، فمَنْ ضيّع الصلاة فهو لغيرها أشدُّ تضييعاً. ووضوءك من تمام الصلاة، فأت به على وجهه، فالوضوء نصف الإيمان. أسأل الله الذي يَرَى ولا يُرَى وهو بالمنظر الأعلى، أن يجعلنا وإيّاك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإن استطعتم يا أهلَ مصر، أن تصدّق أقوالُكم أفعالَكم، وأن يتوافق سِرُّكم وعلانيتكم، ولا تخالف ألسنتُكم قلوبَكم فافعلوا. عصمنا الله وإياكم بالهدى، وسلك بنا وبكم المحجّة الوسطى. وإياكم ودعوة الكذّاب ابن هند. وتأمّلوا واعلموا أنّه لا سوى إمام الهدى وإمام الردى، ووصيّ النبيّ وعدوّ النبيّ، جعلنا الله وإياكم ممّن يحب ويرضى. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّي لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأمّا المشرك فيخزيه الله بشِرْكه، ولكنّي أخاف عليهم كلّ منافق اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون»[1].

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٧)، والطبراني في «الأوسط» ح: (٧٠٦٥)، وأحمد قريباً منه في باب: مسند عمر بن الخطاب (١٤٤).

واعلم يا محمد أنّ أفضلَ الفقه الورع في دين الله، والعمل بطاعته، فعليك بالتقوى في سِرّ أمرِك وعلانيته، أوصيك بسبعٍ هنّ جوامع الإسلام: اخْشَ الله ولا تخشَ الناس في الله، وخير القولِ ما صدّقه العمل، ولا تَقضِ في أمر واحد بقضاءين مختلفين فيتناقضَ أمرُك وتزيغَ عن الحق. وأحبّ لعامة رعيّتك ما تحبّه لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك. وأصلِحْ أحوال رعيّتك، وخض الغمراتِ إلى الحق، ولا تخف لَومَة لائم. وانصح لمن استشارَك، واجعل نفسَك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم. جعل الله خلتنا وودنا خلّة المتقين ودَّ المخلصين، وجمع بيننا وبينكم في دار الرضوان إخواناً على سرر متقابلين. إن شاء الله.

قال إبراهيم بن سعد الثقفيّ: فحدثني عبد الله بن محمد بن عثمان، عن عليّ بن محمد بن أبي سيف، عن أصحابه، أنّ عليًا لما كتب إلى محمد بن أبي بكر هذا الكتاب، كان ينظر فيه ويتأدّب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية، فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجّب منه، فقال الوليد بن عُقْبة، وهو عند معاوية، وقد رأى إعجابه به: مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال معاوية: مه، لا رأيَ لك! فقال الوليد: أفمِنَ الرأي أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك تتعلّم منها! قال معاوية: ويحك! أتامرني أن أحرِق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكَم. فقال الوليد: إنْ كنتَ تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله! فقال: لولا أن أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثم سكت هُنَيهة، ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول: إن هذه من كتب عليّ بن أبي طالب، ولكن نقول: هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها.

قال: فلم تزلْ تلك الكتب في خزائن بني أميّة، حتى وليَ عمر بن عبد العزيز، فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قلت: الأليق أن يكون الكتاب الذي كان معاوية ينظرُ فيه ويعجب منه، ويفتي به ويقضي بقضاياه وأحكامه هو عهد عليّ عليه السلام إلى الأشتر، فإنه نسيج وحده، ومنه تعلّم الناس الآداب والقضايا والأحكام والسياسة، وهذا العهد صار إلى معاوية لما سمّ الأشترَ ومات قبل وصوله إلى مصر، فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق من مثله أن يقتنى في خزائن الملوك.

قال إبراهيم: فلمّا بلغ عليًا عليه السلام أنّ ذلك الكتاب صارَ إلى معاوية، اشتدّ عليه حُزناً.

وحدثني بكر بن بكار، عن قيس بن الربيع، عن ميسرة بن حبيب، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلَمة، قال: صلّى بنا عليّ عليه السلام، فلما انصرف قال:

لَقَد عَثرتُ عَثرَةً لا أعتَذِرْ سَوفَ أكِيسُ بعدها وأستَمِرّ
وأجمعُ الأمر الشَّتِيتَ المنتشِرْ

فقلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني استعملتُ محمد بن أبي بكر على مصر، فكتب إليّ أنه لا علم لي بالسنّة، فكتبت إليه كتاباً فيه أدب وسنّة، فقتل وأخذ الكتاب.

قال إبراهيم: فحدّثني عبد الله بن محمد، عن ابن أبي سيف المدائنيّ، قال: فلم يلبث محمد بن أبي بكر شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك المعتزلين الذين كان قيس بن سعد موادعاً لهم، فقال: يا هؤلاء، إما أن تدخلُوا في طاعتنا، وإمّا أن تخرجوا من بلادنا. فبعثوا إليه: إنا لا نفعل، فدعْنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمرُ الناس، فلا تعْجل علينا. فأبى عليهم، فامتنعوا منه وأخذوا حذْرَهم. ثم كانت وقعة صِفين، وهم لمحمد هائبون، فلما أتاهم خبرُ معاوية وأهل الشام، ثم صار الأمر إلى الحكومة، وأنّ عليًا وأهل العراق قد قفلوا عن معاوية وأهل الشام إلى عراقهم، اجترؤوا على محمد بن أبي بكر، وأظهروا المنابذة له. فلما رأى محمدٌ ذلك بعث إليهم ابن جمْهان البلويّ ومعه يزيد بن الحارث الكنانيّ فقاتلاهم، فقتلوهما. ثم بعث إليهم رجلاً من كَلْب فقتلوه أيضاً. وخرج معاوية بن حُديْج من السكاسك يدعو إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه القوم وناس كثير آخرون، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، فبلغ عليًا توثّبُهم عليه، فقال ما أرى لمصر إلا أحد الرجلين: صاحبنا الذي عزلْنا بالأمس - يعني قيس بن سعد بن عبادة - أو مالك بن الحارث الأشتر. وكان عليّ حين رجع عن صفين، ردّ الأشتر إلى عملِه بالجزيرة، وقال لقيس بن سعد: أقم أنتَ معي على شُرْطَتي حتى نفرُغ من أمر هذه الحكومة، ثم أخرج إلى أذربيجان، فكان قيس مقيماً على شُرْطته، فلما أن انقضى أمر الحكومة كتب عليّ إلى الأشتر، وهو يومئذ بنصيبين:

أمّا بعد، فإنّك ممّن أستظهر به على إقامة الدين، وأقمعُ به نَخْوة الأثيم، وأسُدُّ به الثَّغر المخُوف. وقد كنت ولّيتُ محمد بن أبي بكر مصرَ، فخرجَتْ عليه خوارجُ، وهو غلام حدَث السنّ، ليس بذي تجرِبَةٍ للحروب، فاقدم عليّ لننظر فيما ينبغي واستخلِفْ على عملك أهلَ الثقة والنصيحة من أصحابك. والسلام.

فأقبل الأشتر إلى عليّ، واستخلَف على عمله شبيب بن عامر الأزديّ - وهو جدّ الكِرْمانيّ الذي كان بخُراسان صاحب نصر بن سيّار - فلما دخل الأشتر على عليّ حدثه حديث مصر وخَبّره خبَر أهلها، وقال له: ليس لها غيرُك، فاخرج إليها رحمك الله، فإنّي لا أوصيك اكتفاء برأيك، واستعِنْ بالله على ما أهمّك، واخلِط الشدّة باللين، وارفُق ما كان الرِّفق أبلغَ، واعتزِم على الشدّة حين لا يُغني عنك إلا الشدّة.

فخرج الأشترُ من عنده، فأتى برحْلِه وأتت معاويةَ عيونُه فأخبروه بولاية الأشتر مصر، فعظُم

ذلك عليه، وقد كان طمع في مصر، فعلم أنّ الأشتر إن قدم عليها كان أشدَّ عليه من محمد بن أبي بكر، فبعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به، وقال له إنّ الأشترَ قد وليَ مصر، فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيتُ وبقيتَ، فاحتلْ في هلاكه ما قدرتَ عليه.

فخرج الأشتر حتى انتهى إلى القُلْزُم حيث تركَبُ السفن من مصر إلى الحجاز، فأقام به، فقال له ذلك الرجل، وكان ذلك المكان مكانه: أيّها الأمير، هذا منزل فيه طعام وعَلَف، وأنا رجلٌ من أهل الخراج، فأقم واسترِحْ، وأتاه بالطعام حتى إذ طَعم سقاه شَرْبة عسل، قد جعل فيها سُمًّا، فلمّا شربها مات.

قال إبراهيم: وقد كان أميرُ المؤمنين كتبَ على يد الأشتر كتاباً إلى أهل مصر، روى ذلك الشعبيّ عن صَعْصعة بن صُوحان:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى مَنْ بمصر من المسلمين:

سلامُ الله عليكم، فإنّي أحمد الله إليكم، الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنّي قد بعثت إليكم عبداً من عباد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكِلُ عن الأعداء حِذارَ الدّوائر. لا ناكِلٌ من قدَم، ولا واهٍ في عزم، من أشدّ عباد الله بأساً، وأكرمِهم حَسَباً، أضرّ على الفُجّار من حريق النار، وأبعدُ الناس من دنَسٍ أو عارٍ، وهو مالك بن الحارث الأشتر، حسام صارمٌ، لا نابِي الضَّريبةِ، ولا كليلُ الحدّ، حليم في السِّلْم، رَزِينٌ في الحرب، ذو رأي أصيل، وصبر جميل. فاسمعوا له وأطيعوا أمرَه، فإنْ أمرَكم بالنَّفْر. فانفِروا، وإنْ أمرَكم أن تقيموا فأقيموا، فإنه لا يُقْدِمُ ولا يحجِمُ إلاّ بأمري. وقد آثرتُكم به على نفسي، نصيحةً لكم، وشدّة شكيمة[1] على عدوّكم. عصمكم الله بالهدى، وثبّتكم بالتقوى، ووفّقنا وإياكم لما يحبّ ويرضى. والسلام عليكم ورحمة الله.

قال إبراهيم: وروى جابر عن الشعبيّ قال: هلك الأشتر حين أتى عَقبة أفِيق.

قال إبراهيم: وحدثنا وطبة بن العَلاَء بن المنهال الغنويّ، عن أبيه، عن عاصم بن كُليب، عن أبيه، أن عليًّا لما بعث الأشتر إلى مصر والياً عليها، وبلغ معاويةَ خبرُه، بعث رسولاً يتبعُ الأشتر إلى مصر، وأمره باغتياله، فحمل معه مِزْوَدَيْن فيهما شراب، وصحب الأشتر، فاستسقى الأشترُ يوماً فسقاه من أحدهما، ثم استسقى يوماً آخر منه فسقاه من الآخر وفيه سمّ فشربه، فمالت عنقه. وطُلِب الرجل ففاتهم.

قال إبراهيم: وحدّثنا محرز بن هشام، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضّبيّ، أنّ معاوية دسّ للأشتر مولًى لآل عمر، فلم يزل المولى يذكر للأشتر فضلَ عليّ وبني هاشم، حتى

(١) شديد الشكيمة: أي شديد النَّفس أنِفاً أبِيّاً. لسان العرب مادة (شكم).

اطمأنّ إليه، واستأنس به، فقدِم الأشتر يوماً ثَقَله أو تقدّم ثَقَله، فاستسقى ماء، فقال له مولى آل عمر: وهل لك في شربة سَويق؟ فسقاه شربة سويق فيها سمّ فمات. وقد كانت معاوية قال لأهل الشام لما دسّ إليه مولى آل عمر: ادعُوا على الأشتر، فَدَعَوْا عليه، فلما بلغه موتُه قال: ألا ترَوْن كيف اسْتُجيب لكم!

قال إبراهيم: قد رُوِي من بعض الوجوه أنّ الأشتر قُتِل بمصر بعد قتال شديد. والصحيح أنه سُقِي سمًّا فمات قبل أن يبلغ مِصْر.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله بن عثمان، عن عليّ بن محمد بن أبي سيف المدائنيّ، أنّ معاوية أقبل يقول لأهل الشام: أيّها الناس، إنّ عليًّا قد وجّه الأشتر إلى مصر، فادعُوا الله أن يكفِيكموه، فكانوا يدعُون عليه في دُبُر كلّ صلاة، وأقبل الذي سقاه السمّ إلى معاوية، فأخبره بهلاك الأشتر، فقام معاوية في الناس خطيباً، فقال:

أمّا بعدُ، فإنه كان لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان، فقُطِعَتْ إحداهما يوم صِفّين وهو عمّار بن ياسر، وقد قُطِعت الأخرى اليوم، وهو مالك الأشتر.

قال إبراهيم: فلما بلغ عليًّا موتُ الأشتر، قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون! والحمد لله ربّ العالمين! اللهمّ إنّي أحتسبه عندك، فإنّ موتَه من مصائب الدهر. ثم قال: رحم الله مالكاً، فلقد وفّى بعهده، وقضى نحبَه، ولقِيَ ربّه، مع أنا قد وطّنا أنفسنا أن نصبِرَ على كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وآله فإنها من أعظم المصيبات.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن هشام المراديّ، عن جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة الضبّيّ، قال: لم يزلْ أمرُ عليّ شديداً حتى مات الأشتر، وكان الأشتر بالكوفة أسوَدَ من الأحنف بالبصرة.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن ابن أبي سيف المدائنيّ، عن جماعة من أشياخ النَّخَع، قالوا: دخلْنا على أمير المؤمنين حين بلغه موتُ الأشتر، فوجدناه يتلهّف ويتأسف عليه، ثم قال: لله دَرّ مالك! وما مالك! لو كان من جبل لكان فِنْداً[1]، ولو كان من حَجَرٍ لكان صَلْداً[2]، أما والله ليهدّنّ موتُك عَالَماً، وليفرحنّ عالماً، على مثل مالكٍ فلتبكِ البواكي! وهل موجُوٌّ كمالك! وهل موجود كمالك!

قال علقمة بن قيس النَّخَعيّ: فما زال عليّ يتلهّف ويتأسفُ، حتى ظننا أنّه المصاب به دونَنا، وعُرِف ذلك في وجهه أياماً.

---

(١) الفِنْدُ: الجبل العظيم. القاموس المحيط مادة (فند).
(٢) الصَّلْدُ: الصلب الأملس. القاموس المحيط مادة (صلد).

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائني، قال: حدثنا مولًى للأشتر، قال: لما هلك الأشتر أصيبَ في ثقله رسالةُ عليّ إلى أهل مصر:

من عبد الله أمير المؤمنين إلى النفر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عُصي في الأرض، وضرَب الجورُ برواقه علي البرّ والفاجر، فلا حقّ يُستراح إليه، ولا منكَرٌ يُتناهى عنه. سلام عليكم؛ فإنّي أحمدُ إليكم الذي لا إله إلا هو.

أمّا بعد، فقد وجَّهتُ إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكلُ من الأعداء حِذارَ الدوائر، أشدّ على الكافرين من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مَذْحِج، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة، ولا كليلُ الحَدّ، فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفِروا فانفروا، وإن أمركم أن تُحجِمُوا فأحجموا، فإنه لا يقْدِم ولا يحجم إلا بأمري، وقد آثرتكم به على نفسي، لنصيحته وشدة شكيمته على عدوّه، عصمكم الله بالحق، وثبّتكم بالتقوى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: وحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنيّ، عن رجاله، أن محمد بن أبي بكر لما بلغه أن عليًا قد وجّه الأشتر إلى مصر، شقَّ عليه، فكتب عليه السلام إليه عند مَهْلِك الأشتر:

أما بعد، فقد بلَغني موجِدتُك من تسريح الأشتر إلى عملك، ولم أفعلْ ذلك استبطاءً لك عن الجهاد، ولا استزادة لك مني في الجدّ، ولو نزعت ما حوت يداك من سلطانك لوليتك ما هو أيسرُ مؤنة عليك، وأعجب ولاية إليك، إلا أن الرجل الذي ولّيتُه مصر، كان رجلاً لنا مناصحاً، وهو على عدوّنا شديد، فرحمة الله عليه، قد استكمل أيامه، ولاقى حِمَامه[1]، ونحن عنه راضون، فرضيَ الله عنه، وضاعفَ له الثَّواب، وأحسن له المآب. فأصحِرْ لعدوّك وشمِّر للحرب، وادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكرَ الله والاستعانة به، والخوفَ منه، يكفِكَ ما أهمّك، ويُعنْك على ما ولاك. أعاننا الله وإياك على ما لا ينال إلا برحمته، والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إليه جوابه:

إلى عبد الله أمير المؤمنين من محمد بن أبي بكر: سلام عليك، فإنّي أحمَد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد فقد انتهى إليّ كتابُ أمير المؤمنين وفهمتُه، وعرفتُ ما فيه، وليس أحدٌ من الناس أشدَّ على عدوّ أمير المؤمنين، ولا أرأفَ وأرقّ لوليّه منّي. وقَد خرجتُ فعسكرت، وأمّنْتُ الناسَ، إلاّ مَنْ نَصَبَ لنا حرْباً، وأظهر لنا خِلافاً، وأنا أتبع أمرَ أمير المؤمنين، وحافظ ولاجىء إليه وقائم به، والله المستعان على كلّ حالٍ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

---

(١) الحِمَام: قضاء الموت وقدره. لسان العرب مادة (حمم).

قال إبراهيم: فحدّث محمد بن عبد الله بن عثمان، عن ابن سيف المدائنيّ، عن أبي جَهْضم الأزديّ أنّ أهلَ الشام لما انصرفوا عن صِفّين، كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان، فلمّا انصرفا وتفرّقا، وبايع أهلُ الشام معاوية بالخلافة لم يزدد معاوية إلاّ قوّة، واختلف أهلُ العراق على عليّ بن أبي طالب فلم يكن همّ معاوية إلا مِصْر، وقد كان لأهلها هائباً لقربهم منه، وشدّتهم على مَنْ كان على رأيِ عثمان، وقد كان علم أن بها قوماً قد ساءهم قتلُ عثمان، وخالفوا عليًّا، مع أنّه كان يرجو أن يكون له فيها معاونة إذا ظهر عليها على حرب عليّ، لوفور خَراجها، فدعا مَنْ كان معه من قريش، وهم عمرو بن العاص السهميّ، وحبيب بن مَسلمة الفهريّ وبُسْر بن أبي أرطاة العامريّ، والضّحاك بن قَيس الفِهْريّ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزوميّ. ودعا من غير قريش نحو شُرَحْبيل بن السِّمط الحميريّ، وأبي الأعور السُّلَميّ، وحمزة بن مالك الهَمْدانيّ، فقال: أتدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا، قال: فإنّي دعوتكم لأمر هُوَ لي مُهِمٌّ، وأرجو أن يكون الله عزّ وجلّ قد أعانَ عليه، فقال له القوم - أو من قال له منهم -: إنّ الله لم يُطْلعْ على غيبه أحداً، ولسنا ندري ما تريد! فقال عمرو بن العاص: أرى والله أن أمْرَ هذه البلاد المصرية لكثرة خراجها وعدد أهلها قد أهمّك، فدعوتَنا تسألنا عن رأينا في ذلك، فإنْ كنتَ لذلك دعوتَنا، وله جمعتَنا، فاعزِم واصرِم، ونعم الرأي ما رأيت! إنّ في افتتاحها عزّك وعزّ أصحابك، وذلّ عدوّك، وكَبْتَ أهلِ الخلاف عليك.

- قال معاوية: أهمّك ما أهمّك يابن العاص! وذلك أنّ عمْراً كان بايع معاوية على قتال عليّ، وأن مصر له طُعْمة ما بقي - فأقبل معاوية على أصحابه، وقال: إنّ هذا - يعني ابن العاص - قد ظنّ وحقّق ظنّه، قالوا: ولكنّا لا ندري، ولعلّ أبا عبد الله قد أصاب، فقال عمرو: وأنا أبو عبد الله، إنّ أفضل الظّنون ما شابَه اليقينَ.

ثم إن معاوية حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فقد رأيتم كيف صنَع الله لكم في حربكم هذه على عدوّكم! ولقد جاؤوكم وهم لا يشكُّون أنّهمُ يستأصِلُون بيضتَكم[(١)] ويجوزون بلادكم، ما كانوا يروْن إلاّ أنّكم في أيديهم، فردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكفاكم مؤنتهم. وحاكمتموهم إلى الله فحكَم لكم عليهم. ثم جَمَع كلمتَنا، وأصلَح ذات بيننا، وجعلَهم أعداءً متفرّقين، يشهدُ بعضهم على بعض بالكُفر، ويسفِكُ بعضُهم دَم بعض، والله إني لأرجو أن يُتمّ الله لنا هذا الأمر، وقد رأيت أن أحاوِل حرب مصر، فماذا ترون؟

فقال عمرو بن العاص: قد أخبرتُك عَمّا سألت، وأشرتُ عليك بما سمعت.

---

(١) البيضة: أصل القوم ومجتمعهم. لسان العرب مادة (بيض).

فقال معاوية: ما ترون؟ فقالوا: نرى ما رأى عمرو بن العاص. فقال معاوية: إنّ عمراً قد عزم وصرم بما قال، ولم يفسّر كيف ينبغي أن نصنع!

قال عمرو: فإني مشير عليك بما تصنع، أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً، عليهم رجلٌ صارم، تأمنُه وتثِق به، فيأتيَ مصر فيدخلَها فإنه سيأتينا مَنْ كان على مِثْلِ رأينا من أهلها، فنظاهره على مَنْ كان من عدوّنا، فإن اجتمع بها جندك ومَنْ كان بها من شيعتك على مَنْ بها من أهل حربك، رجوتُ الله أن يُعِزَّ نصرَك، ويظهر فَلَجَك.

فقال معاوية: هل عندك شيء غير هذا نعمله فيما بيننا وبينهم قبل هذا؟ قال: ما أعلمه.

قال معاوية: فإنّ رأيي غيرُ هذا، أرى أن نكاتب مَنْ كان بها من شيعتِنا، ومَنْ كان بها من عدوّنا: فأما شيعتنا فنأمرُهم بالثبات على أمرِهم ونُمَنِّيهم قدومَنا عليهم، وأمّا مَن كان بها منْ عدوّنا فندعوهم إلى صلْحنا، ونمنِّيهم شكرَنا، ونخوّفهم حربنا، فإن صلَح لنا ما قبَلهم من غير حرب ولا قتال، فذلك ما أحببنا، وإلا فحربُهم من وراء ذلك. إنّك يابنَ العاص لاَمْرُؤٌ بورك لك في العَجلة، وبورك لي في التؤدة.

قال عمرو: فاعمل بما أراك الله، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصيرُ إلا إلى الحرب.

قال: فكتب معاوية عند ذلك إلى مسلمة بن مخلَّد الأنصاريّ، وإلى معاوية بن حُدَيج الكِنْديّ، وكانا قد خالفا عليًا:

أما بعد، فإن الله عَزّ وجلّ قد ابتعثكما لأمرٍ عظيم، أعظمَ به أجرَكما ورفع درجتَكما ومرتبتكما في المسلمين. طلبتما بدم الخليفة المظلوم، وغضبتما لله، إذ تُرِك حكم الكتاب، وجاهدتما أهلَ الظلم والعدوان، فأبشرا برضوان الله، وعاجلا نصرة أولياء الله، والمواساة لكما في دار الدنيا وسلطاننا، حتى ينتهيَ ذلك إلى ما يرضيكما، ويؤدّي به حقكما فالزما أمرَكما، وجاهدا عدوّكما، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما، فكأنّ الجيش قد أظلّ عليكما، فاندفع كلُّ ما تكرهان، ودام كلُّ ما تهويان، والسلام عليكما ورحمة الله.

وبعث بالكتاب مع مولًى له يقال له سُبَيع، فخرج بكتابه حتى قدم به عليهما بمصر، ومحمد بن أبي بكر يومئذ أميرُها قد ناصبه هؤلاء النَّفر الحرب، وهم هائبون الإقدام عليه، فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلّد، فقرأه فقال: القَ به معاوية بن حُدَيج، ثم القَني به حتى أجيبَ عنّي وعنه. فانطلق الرسول بكتاب معاوية فأقرأه إيّاه، ثم قال له إنّ مسلمة قد أمرني أن أردّ الكتاب إليه لكي يجيبَ عنك وعنه. قال: قل له فليفعل، فأتى مسلمة بالكتاب. فكتب الجواب عنه وعن معاوية بن حُدَيج: أما بعدُ، فإن هذا الأمر الذي قد ندبْنا له أنفسنا، وابتغينا الله به على عدوّنا، أمرٌ نرجو به ثواب ربِّنا، والنصر على مَنْ خالفنا، وتعجيل النقمة على مَنْ سعى على

إمامنا، وطأطأ الرّكض في مهادنا(١)، ونحن بهذه الأرض قد نفينا مَن كان بها من أهل البَغي، وأنهضنا مَنْ كان بها من أهل القسط والعدل وقد ذكرت موازرتَك في سلطانك وذات يدك، وبالله إنه لا من أجْلِ مالٍ نهضْنا، ولا إياه أردنا، فإن يجمَع الله لنا ما نريد ونطلب أو يرينا ما تمنّينا، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين، وقد يثوبهما الله جميعاً عالماً من خَلْقه، كما قال في كتابه: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢). عجّل لنا بخيلك ورَجْلك، فإن عدوّنا قد كان علينا جريئاً، وكنّا فيهم قليلاً، وقد أصبحوا لنا هائبين، وأصبحنا لهم منابذين، فإنْ يأتنا مددٌ من قبَلك يفتح الله عليك، ولا قوة إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال: فجاء هذا الكتاب معاويةَ وهو يومئذ بفلسطين، فدعا النفر الذين سمّيناهم من قريش وغيرهم، وأقرأهم الكتاب، وقال لهم: ماذا ترون؟ قالوا: نرى أن تبعثَ إليهم جيشاً من قِبَلِك فأنت مفتتحها إن شاء الله، بإذن الله.

قال معاوية: فتجهَّزْ إليها يا أبا عبد الله - يعني عمرو بن العاص - فبعثه في ستة آلاف فخرج يسير، وخرج معه معاوية يودّعه، فقال له معاوية عند وَدَاعه إياه: أوصيك بتقوى الله يا عمرو، وبالرفق فإنّه يُمْنٌ، وبالتؤدة فإنّ العجلة من الشيطان، وبأن تقبَلَ من أقبل، وتعفُوَ عمّن أدبر، أنظِرْه فإن تاب وأناب قبلتَ منه، وإن أبى فإنّ السطوة بعد المعرفة أبلغُ في الحجة، وأحسن في العاقبة. وادع الناسَ إلى الصلح والجماعة، فإنْ أنت ظَفِرت فليكن أنصارُك أبرّ الناس عندك، وكلَّ الناس فأوْلِ حُسْناً.

قال: فسار عمرو في الجيش حتى دنا من مصر، فاجتمعت إليه العثمانية، فأقام وكتب إلى محمد بن أبي بكر:

أما بعد، فتنحّ عني بدمك يابنَ أبي بكر، فإنّي لا أحبُّ أن يصيبَك منّي ظُفر، وإنّ الناسَ بهذه البلاد قد اجتمعُوا على خلافك ورفض أمرك، وندِمُوا على اتباعك، وهم مسلموك لو قد التقت حَلَقَتا البِطان، فاخرج منها فإني لك من الناصحين. والسلام.

قال: وبعث عمرو إلى محمد مع هذا الكتاب كتابَ معاوية إليه، وهو:

أما بعد، فإن غبَّ الظلم والبغي عظيم الوبال، وإنّ سفكَ الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النِّقمة في الدنيا والتَّبِعة الموبقة في الآخرة، وما نعلم أحداً كان أعظمَ على عثمان بغياً، ولا أسْوَأ له عيباً، ولا أشدّ عليه خلافاً منك، سعيتَ عليه في الساعين، وساعدت عليه مع

(١) أي أرضنا. القاموس المحيط مادة (مهد).
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

المساعدين، وسفكت دمَه مع السافكين، ثم تظنّ أني نائم عنك، فتأتي بلدة فتأمن فيها وجلّ أهلها أنصاري، يروْن رأيي، ويرفُضون قولك، ويستصرخونني عليك. وقد بعثت إليك قوماً حِناقاً عليك، يسفِكُون دمك، ويتقرّبون إلى الله عزّ وجلّ بجهادك، وقد أعطوا الله عهداً ليقتُلنَّك، ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا لقتلك الله بأيديهم أو بأيدي غيرهم من أوليائه، وأنا أحذِّرك وأنذرك، فإنّ الله مُقِيد منك، ومقتصٌّ لوليه وخليفته بظلمك له، وبغيك عليه ووقيعتك فيه، وعداوتِك يوم الدّار عليه، تطعن بمشاقِصك فيما بين أحشائه وأوْدَاجه، ومع هذا فإني أكره قتلَك، ولا أحبُّ أن أتولّى ذلك منك، ولن يسلمَك الله من النقمة أين كنت أبداً، فتنحّ وانجُ بنفسك. والسلام.

قال فطوىٰ محمد بن أبي بكر كتابيهما، وبعث بهما إلى عليّ عليه السلام، وكتب إليه:

أما بعد يا أمير المؤمنين، فإن العاصيَ ابن العاص، قد نزل أدانِيَ مصر، واجتمع إليه مِنْ أهل البلد مَنْ كان يرى رأيَهم، وهو في جيش جَرّار، وقد رأيتُ ممّن قبلي بعض الفشل، فإن كان لك في أرض مصر حاجة فامددني بالأموال والرجال، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فكتب إليه عليّ:

أما بعد، فقد أتاني رسولك بكتابك، تذكر أنّ ابنَ العاص قد نزل في جيش جرّار، وأنّ مَنْ كان على مثل رأيه قد خرج إليه. وخروجُ مَنْ كان يرى رأيَه خيرٌ لك من إقامته عندك. وذكرتَ أنّك قد رأيت مِمّن قبلك فَشَلاً، فلا تفشل وإن فشلوا، حَصِّن قريتك، واضمُمْ إليك شيعتك، وأذكِ الحرَسِ في عسكرك، واندب إلى القوم كنانة بن بشر، المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس، وأنا نادبٌ إليك النّاس على الصَّعْب والذلول. فاصبِرْ لعدوّك وامضِ على بصيرتك، وقاتلهم على نيّتك، وجاهدهم محتسباً لله سبحانه، وإن كانت فئتُك أقلّ الفئتين، فإن الله تعالى يُعينُ القليل ويخذُل الكثير. وقد قرأتُ كتابَي الفاجرين المتحابّين على المعصية، والمتلائميْن على الضلالة، والمرتَشِيَيْن على الحُكومة، والمتكبّريْن على أهل الدين، الذين استمتعوا بخَلاقِهم، كما استمتع الذين من قبلهم بخَلاقهم، فلا يضرّنّك إرعادهما وإبراقهما، وأجبْهما إن كنت لم تجبهما بما هما أهله، فإنك تجد مقالاً ما شئت. والسلام.

قال: فكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية جواب كتابه:

أما بعد، فقد أتاني كتابُك تذكر من أمرِ عثمان أمراً لا أعتذر إليك منه، وتأمرني بالتنحّي عنك كأنك لي ناصح، وتخوّفني بالحرْب كأنك عليّ شفيق، وأنا أرجو أن تكونَ الدائرة عليكم، وأنْ يُهلِككم الله في الوقعة، وأن ينزل بكم الذلّ، وأن تولّوا الدُّبُر، فإن يكن لكم الأمر في الدنيا فكم وكم لَعَمْرِي من ظالم قد نصرتم وكَمْ من مؤمن قد قتلتم ومثّلتم به! وإلى الله المصير، وإليه تردّ الأمور، وهو أرحم الراحمين، والله المستعانُ علىٰ ما تصفون.

قال: وكتب محمد بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص جوابَ كتابه:

أما بعد، فهمت كتابك، وعلمت ما ذكرت، زعمت أنّك تكره أن يصيبَني منك ظُفر، فأشهد بالله إنّك لمن المبطلين. وزعمت أنك ناصح لي، وأقسم إنّك عندي ظنين. وقد زعمت أن أهلَ البلد قد رفضوني، وندِمُوا على اتّباعي، فأولئك حزبك وحزب الشيطان الرجيم، وحسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل، وتوكّلت على الله العزيز الرحيم، ربّ العرش العظيم.

قال إبراهيم: فحدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنيّ، قال: فأقبل عمرو بن العاص يقصد قَصْد مصر، فقام محمد بن أبي بكر في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، يا معاشرَ المؤمنين، فإنّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحرْمة، ويغشَوْن الضلالة، ويستطيلون بالجبرّية، قد نصبوا لكم العداوة، وساروا إليكم بالجنود، فمن أراد الجنّة والمغفرة فليخرُجْ إلى هؤلاء القوم فليجاهدْهم في الله. انتدِبوا رحمكم الله مع كنانة بن بشر. ثم ندب معه نحو ألفي رجل، وتخلف محمد في ألفين، واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدّمة محمد، فلما دنا عمرو من كنانة سرّح إليه الكتائب، كتيبة بعد كتيبة، فلم تأته من كتائب الشام كتيبة إلا شدّ عليها بمن معه فيضربها حتى يُلحقها بعمرو، ففعل ذلك مراراً. فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حُديج الكنديّ، فأتاه في مثل الدَّهْم[1]. فلما رأى كنانة ذلك الجيش، نزل عن فرسه، ونزل معه أصحابه فضاربهم بسيفه، وهو يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[2]. فلم يزل يضاربهم بالسيف حتى استُشهد رحمه الله.

قال إبراهيم: حدثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنيّ، عن محمد بن يوسف، أنّ عمرو بن العاص لما قَتَل كنانة أقبل نحو محمد بن أبي بكر، وقد تفرّقَ عنه أصحابه، فخرج محمد متمهّلاً، فمضى في طريقه حتى انتهى إلى خَرِبة، فأوى إليها، وجاء عمرو بن العاص حتى دخل الفُسطاط، وخرج معاوية بن حُدَيج في طلب محمد، حتى انتهى إلى عُلُوج على قارعة الطريق، فسألهم: هلْ مرَّ بهم أحد ينكرونه؟ قالوا: لا، قال أحدهم: إني دخلت تلك الخَرِبة، فإذا أنا برجل جالس. قال ابن حُدَيج: هو وربّ الكعبة، فانطلقوا يركضون، حتى دخلوا على محمد، فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فأقبلوا به نحو الفُسْطاط.

قال: ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص، وكان في جُنْدِه، فقال: لا والله لا يُقتَلُ أخي صبراً، ابعث إلى معاوية بن حُدَيج فانْهَهُ، فأرسل عمرو بن العاص: أن

(١) الدَّهم: الجيش الكثير العدد. لسان العرب مادة (دهم).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

ائتني بمحمد، فقال معاوية: أقتلتم كنانة بن بشر، ابن عمّي، وأخلّي عن محمد! هيهات! ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾[1]. فقال محمد: اسقوني قطرة من الماء، فقال له معاوية بن حُدَيج: لا سقاني الله إن سقيتُك قطرة أبداً، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرِماً، فسقاه الله من الرَّحِيق المختوم، والله لأقتلنّك يابن أبي بكر وأنت ظمآن، ويسقيك الله من الحميم والغِسْلين، فقال له محمد: يابن اليهودية النَّساجة، ليس ذلك اليوم إليك ولا إلى عثمان، إنما ذلك إلى الله يسقي أولياءه ويظمىء أعداءه، وهم أنت وقرناؤك ومَنْ تولاّك وتولّيته، والله لو كان سَيْفي في يدي ما بلغتم مني ما بلغتم. فقال له معاوية بن حُدَيج: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك جَوْفَ هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار. قال: إن فعلتم ذاك بي فطالما فعلتم ذاك بأولياء الله، وايمُ الله إنّي لأرجُو أن يجعل الله هذه النار التي تخوّفني بها برداً وسلاماً، كما جعلها الله على إبراهيم خليله، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك، كما جعلها على نمرود وأوليائه، وإني لأرجُو أن يُحْرِقَك الله وإمامك معاوية، وهذا - وأشار إلى عمرو بن العاص - بنارٍ تلظى، كلّما خَبَتْ زادها الله عليكم سعيراً. فقال له معاوية بن حديج: إني لا أقتلك ظلْماً، إنما أقتلك بعثمان بن عفان، قال محمد: وما أنت وعثمان! رجل عَمل بالجوْر، وبدّل حكم الله والقرآن، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[2]، ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3] ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4]، فنقِمْنا عليه أشياء عمِلها، فأردنا أن يُخْلع من الخلافة عَلَناً، فلم يفعل، فقتله مَنْ قتله من الناس.

فغضب معاوية بن حُدَيج، فقدّمه فضرب عنقه، ثم ألقاه في جَوْف حمار وأحرقه بالنار.

فلما بلغَ ذلك عائشة جَزعت عليه جزعاً شديداً، وقنتَتْ في دُبُر كلّ صلاة تدعو على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن حُديج، وقبضت عيالَ محمد أخيها وولده إليها، فكان القاسم بن محمد من عيالها.

قال: وكان ابن حُدَيج ملعوناً خبيثاً يسبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال إبراهيم: وحدثني عمرو بن حماد بن طلحة القنّاد، عن عليّ بن هاشم، عن أبيه، عن داود بن أبي عوف، قال: دخلَ معاوية بن حُدَيج علَى الحسن بن عليّ في مسجد المدينة، فقال له الحسن: ويلك يا معاوية! أنت الّذي تسب أميرَ المؤمنين علياً عليه السلام! أما والله لئن رأيتَه يوم القيامة - وما أظنك تراه - لترينَّه كاشفاً عن ساق، يضرب وجوه أمثالك عن الحوض ضَرْبَ غرائب الإبل.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

قال إبراهيم: وحدثني محمد بن عبد الله بن عثمان، عن المدائنيّ، عن عبد الملك بن عُمير، عن عبد الله بن شدّاد، قال: حلفتْ عائشة لا تأكل شواءً أبداً بعد قَتْل محمد، فلم تأكُلْ شِواءً حتى لحِقت بالله، وما عثرت قطّ إلا قالت: تعِسَ معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، ومعاوية بن حُديج!

قال إبراهيم: وقد روي هاشم أن أسماء بنت عُمَيْس، لما جاءَها نعيُ محمد ابنها وما صُنِع به، قامت إلى مسجدها، وكظمت غيظها حتى تشخّبت دماً.

قال إبراهيم: وروى ابنُ عائشة التيميّ عن رجاله عن كثير النَّوَّاء، أن أبا بكر خَرَج في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله في غَزاة، فرأت أسماء بنت عُمَيس وهي تحته، كأنّ أبا بكر مخضّب بالحناء رأسَه ولحيته، وعليه ثياب بيض، فجاءت إلى عائشة فأخبرتها، فقالت: إنْ صدقت رؤياكِ فقد قُتِل أبو بكر، إن خضابه الدم، وإن ثيابه أكفانه، ثم بكت، فدخل النبيّ صلى الله عليه وآله وهي كذلك، فقال: ما أبكاها؟ فقالوا: يا رسولَ الله، ما أبكاها أحد، ولكنّ أسماء ذكرتْ رؤيا رأتْها لأبي بكر، فأخبر النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: «ليس كما عبّرت عائشة، ولكن يرجع أبو بكر صالحاً، فيلقى أسماء، فتحمل منه بغلام، فتسمّيه محمداً، يجعله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين»(١).

قال: فكان كما أخبر صلى الله عليه وآله.

قال إبراهيم: حدّثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنيّ، قال: فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان عند قتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر: أما بعد، فإنا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموعٍ من أهلِ مصر، فدعوناهم إلى الكتاب والسنّة، فعصوا الحق، فتهوّلُوا في الضلال، فجاهدناهم، واستنصرنا الله جلّ وعزّ عليهم، فضرب الله وجوهَهم وأدبارهم، ومنَحنا أكتافهم، فقتِل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بِشْر، والحمد لله رب العالمين.

قال إبراهيم: وحدّثني محمد بن عبد الله، عن المدائنيّ، عن الحارث بن كعب بن عبد الله بن قعين، عن حبيب بن عبد الله، قال: والله إنّي لعند عليّ جالسٌ إذ جاءه عبد الله بن معين وكعب بن عبد الله مِنْ قِبَل محمد بن أبي بكر يستصرِخانه قبل الوقعة، فقام عليٌّ فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، فصلّى عليه، ثم قال: أما بعدُ، فهذا صريخُ محمد بن أبي بكر وإخوانكم من أهلِ مصر، قد سار إليهم ابنُ النابغة عدوّ الله وعدوّ مَنْ والاه، ووليّ مَنْ عادى الله، فلا يكونَنّ أهلُ الضلال إلى باطلهم، والركون إلى سبيل الطاغوت أشدّ اجتماعاً على باطلهم وضلالتهم منكم على حقّكم. فكأنكم بهم وقد بدؤوكم وإخوانكم بالغَزْو، فاعجلوا إليهم بالمواساة

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٥٦٣ وأخرجه الطبرسي في الاحتجاج: ١/ ٢٧٠.

والنَّصْر عبادَ الله، إنّ مصر أعظم من الشام وخيرٌ أهلاً، فلا تُغلَبُوا على مصر، فإنّ بقاء مصر في أيديكم عِزٌّ لكم، وكبتٌ لعدوّكم، اخرجوا إلى الجرَعة - قال: والجرَعة بين الحيرة والكوفة - لنتوافَى هناك كلّنا غداً إن شاء الله.

قال: فلما كان الغد، خرج يمشي، فنزلها بُكْرة، فأقام بها حتى انتصف النهارُ، فلم يوافِه مائة رجل، فرجع. فلمّا كان العشيّ بعث إلى الأشراف فجمعهم، فدخلوا عليه القصر، وهو كئيب حزين، فقال: الحمدُ لله على ما قَضَى مِنْ أمرٍ، وقَدَّر من فعل، وابتلاني بكم أيّها الفرقة التي لا تطيع إذا أمرتُها، ولا تجيب إذا دعوتها. لا أبا لغيركم! ماذا تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم! الموت خيرٌ من الذلّ في هذه الدنيا لغير الحقّ، والله إن جاءني الموت - وليأتيَنّي - لتجدُنَّني لصحبتكم جِدَّ قالٍ.

ألا دين يجمعُكم! ألا حمِيَّة تغضبكم! ألا تسمعون بعدوّكم ينتقص بلادَكم، ويشنّ الغارة عليكم! أو ليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجُفاة الطَّغام[1] الظلمة، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة، ويجيبونه في السنة المرة والمرتين والثلاث، إلى أيّ وجه شاء، ثم أنا أدعوكم - وأنتم أولُو النُّهى وبقيّة الناس - تختلفون وتفترِقون عنّي، وتعصونني وتخالفون عليَّ!

فقام إليه مالك بن كعب الأرحبيّ، فقال يا أمير المؤمنين، اندُب الناس مَعِي، فإنه لا عِطْرَ بعد عَروس، وإن الأجر لا يأتِي إلا بالكرْه. ثم التفت إلى الناس وقال: اتقّوا الله، وأجيبوا دعوةَ إمامكم، وانصروا دعوتَه، وقاتلوا عدوَّكم، إنا نسير إليهم يا أمير المؤمنين.

فأمر عليٌّ سعداً مولاه أن ينادِيَ: ألاَ سيرُوا مع مالك بن كعب إلى مصر، وكان وجهاً مكروهاً، فلم يجتمعوا إليه شهراً، فلما اجتمَع له منهم ما اجتمع خرج بهم مالك بن كعب، فعسكَرَ بظاهر الكوفة، وخرج معه عليّ، فنظر فإذا جميع مَنْ خرج نحو من ألفين، فقال عليّ: سيرُوا، والله ما أنتم! ما إخالكم تدرِكون القوم حتى ينقضيَ أمرُهم!

فخرج مالك بهم وسار خمس ليال، وقدم الحجاج بن غُزيّة الأنصاريّ على عليّ، وقدِم عليه عبد الرحمن بن المسيّب الفَزاريّ من الشام، فأمّا الفَزاريّ، فكان عيناً لعليّ عليه السلام، لا ينام، وأما الأنصاريّ فكان مع محمد بن أبي بكر، فحدثه الأنصاري بما عاين وشاهد، وأخبره بهلاك محمد، وأخبره الفزاريّ أنه لم يخرج من الشام حتى قَدِمت البشرى من قِبَل عمرو بن العاص، يتبع بعضُها بعضاً بفتح مصر، وقتل محمد بن أبي بكر، وحتى أذَّن معاوية بقتله على المنْبر وقال: يا أميرَ المؤمنين، ما رأيتُ يوماً قطُّ سروراً مثل سروره، رأيته بالشام حين أتاهم قَتْلُ محمد بن أبي بكر، فقال عليّ: أما إنّ حزننا على قتله، على قدر سرورهم به، لا بل يزيدُ أضعافاً.

(١) أرذال الناس وأوغادهم. لسان العرب مادة (طغم).

قال: فسرّح عليٌّ عبد الرحمن بن شريح إلى مالك بن كعب، فردّه من الطريق.

قال: وحزن عليّ على محمد بن أبي بكر حتى رُئِي ذلك فيه، وتبيَّن في وجهه، وقام في الناس خطيباً، فحمد الله. وأثنى عليه، ثم قال: ألا وإن مصر قد افتتحها الفَجَرة أولياءُ الجَوْر والظلم، الذين صَدُّوا عن سبيل الله، وبغَوا الإسلام عِوَجاً. ألا وإنّ محمد بن أبي بكر قد استُشهدَ رحمة الله عليه، وعند الله نحتسبه. أما والله لَقَدْ كان - ما علمت - ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحبُّ سَمْت المؤمن، إنّي والله لا ألومُ نفسي على تقصير ولا عجز، وإنّي بمقاساة الحرب لجِدُّ بَصير، إنّي لَأقدِمُ على الحرب، وأعرِف وَجْه الحزم، وأقوم بالرأي المصيب، فأستصرخُكم معلنًا، وأناديكم مستغيثاً، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تُطيعون لي أمراً، حتى تصيرَ الأمور إلى عواقب المساءة. وأنتم القومُ لا يدرَك بكم الثأرُ، ولا تنقضُ بكم الأوتار، دعوتُكم إلى غياث إخوانكم منذُ بضع وخمسين ليلة، فجرجرتُمْ عليّ جَرْجرة[1] الجمل الأسرّ[2]، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقُلَ من لا نيَّة له في الجهاد، ولا رأيَ له في الاكتساب للأجر، ثم خرج إليّ منكم جُنيْد متذائب ضعيف، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. فأفٍّ لكم! ثم نزل فدخل رَحْله.

قال إبراهيم: فحدّثنا محمد بن عبد الله، عن المدائنيّ، قال: كتب عليّ إلى عبد الله بن عباس وهو على البصرة:

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، إلى عبد الله بن عباس: سلام عليك ورحمة الله وبركاته:

أما بعد، فإن مصر قد افتتحت، وقد استُشهد محمد بن أبي بكر، فعند الله عزّ وجلّ نحتسبه. وقد كنت كتبتُ إلى الناس، وتقدّمت إليهم في بدء الأمر، وأمرتُهم بإغاثته قبل الوقعة، ودعوتُهم سرًّا وجهراً، وعوْداً وبدءًا، فمنهم الآتي كارها، ومنهم المتعلّل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً. أسأل الله أن يجعلَ لي منهم فَرَجاً، وأن يرُيحني منهم عاجلاً، فوالله لولا طمعِي عند لقاء عدوّي في الشهادة، وتوطيني نفسي عند ذلك، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً. عزم الله لنا ولك على تقواه وهداه، إنه على كل شيء قدير. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: فكتب إليه عبد الله بن عباس:

لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس. سلام على أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته:

---

(١) الجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته. القاموس المحيط، مادة (جرر).
(٢) أي الأجوف. القاموس المحيط مادة (سرر).

أما بعد، فقد بلغني كتابُكَ تذكر فيه افتتاحَ مصر وهلاكَ محمد بن أبي بكر، وأنك سألتَ الله ربك أن يجعل لك من رعيَّتك التي ابتُلِيت بها فرجاً ومخرجاً، وأنا أسأل الله أن يُعْلِيَ كلمتك، وأن يغشِّيَك بالملائكة عاجلاً. واعلم أن الله صانع لك، ومعزٌّ دعوتك، وكابتٌ عدوَّك. وأخبرُك يا أمير المؤمنينَ أن الناسَ ربما تباطؤوا ثم نشطوا، فارفق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومَنِّهم، واستعنْ بالله عليهم. كفاك الله الهمَّ! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال إبراهيم: وروي عن المدائنيّ، أن عبد الله بن عباس قَدِم من البصرة على عليّ، فعزَّاه عن محمد بن أبي بكر.

وروى المدائنيّ أنَّ عليًا قال: رحِم الله محمداً كان غلاماً حَدَثاً، لقد كنت أردت أن أُوَلِّيَ المِرْقال هاشم بن عتبة مصر، فإنه والله لو وليَها لما خلَّى لابن العاص وأعوانه العَرْصة، ولا قُتِل إلا وسيفه في يده، بلا ذمّ لمحمد، فلقد أجهد نفسه فقضى ما عليه.

قال المدائني: وقيل لعليّ عليه السلام: لقد جزعتَ على محمد بن أبي بكر يا أميرَ المؤمنين. فقال: وما يمنعني! إنّه كان لي ربيباً، وكان لِبَنِيَّ أخاً، وكنت له والداً، أعدُّه ولداً[1].

خطبة للإمام عليه السلام علي بعد فتح مصر

وروى إبراهيم، عن رجاله، عن عبد الرحمن بن جندَب، عن أبيه، قال: خطب عليّ عليه السلام بعد فتح مصر، وقتْل محمد بن أبي بكر، فقال:

أما بَعْد، فإنّ الله بَعَثَ محمداً نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وشهيداً عَلَى هذِهِ الأمّة، وأنتمْ مَعاشِرَ العرب يومئذ على شرِّ دِين، وفي شَرِّ دَارٍ، مُنيخونَ على حجارةٍ خُشْنٍ، وحيّات صُمّ، وشَوْكٍ مَبْثُوث في البلاد، تَشرَبُونَ الماءَ الخَبيث، وتأكلونَ الطَّعَامَ الخبيثَ، تسفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وتقتُلون أولادكُمْ، وتُقَطِّعُونَ أَرْحَامَكُمْ، وَتأكلُونَ أَموالَكُمْ بَيْنكُمْ بالباطِلِ. سُبُلكُم خائفة، والأصنام فيكم مَنْصُوبة، ولا يؤمنُ أكثرُهُم بالله إلاّ وهمْ مُشْرِكُونَ.

فمنّ آلله - عزّ وجلّ - عليكم بمحمد، فَبَعَثَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِكُمْ، فَعَلَّمَكُم الكِتابَ وَالْحِكمةَ، وَٱلْفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ، وأمركُمْ بِصِلةِ أرحامِكُمْ وَحَقْنِ دِمَائِكُمْ وصلاحِ ذَاتِ ٱلْبَيْنِ، وأنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَى أهْلِهَا، وَأَنْ تُوفُوا بالعَهْدِ، وَلاَ تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها، وأن تَعَاطَفوا وتبارّوا وتَرَاحَمُوا. ونَهَاكُمْ عنِ التَّنَاهُبِ والتَّظَالُمِ وَالتَّحَاسُدِ والتَّبَاغي والتَّقَاذُفِ، وعن شُرْبِ الخمرِ وبَخْسِ المِكْيَال، وَنَقْصِ المِيزانِ. وتقدَّم إليكم فيما يُتْلَى عليكم: ألاَّ

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/٥٦٦.

تَزْنُوا ولا تُرْبُوا، ولا تَأْكُلُوا أمْوالَ الْيَتَامَى ظُلْماً، وأنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أهْلِهَا، وَلاَ تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ الله لا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ، وكلُّ خيرٍ يُدْنِي إلى الجنَةِ، ويُبَاعِدُ عَنِ النّارِ أمَرَكُمْ بِهِ، وَكُلُّ شَرٍّ يُدْنِي إِلى النّارِ وَيُبَاعِدُ عنِ ٱلْجَنّةِ نَهَاكُمْ عنهُ.

فلما استكْمَلَ مُدَّته، تَوفّاهُ الله إِلَيْه سَعِيداً حَمِيداً، فيا لَها مُصِيبةً خَصَّتِ الأقْرَبِينَ، وعَمَّتِ المُسْلِمينَ! ما أصيبوا قبلها بمثلها، ولَنْ يُعايِنُوا بَعْدَهَا أختَها. فلما مضَى لسبيلِه ﷺ، تنازع المسلمون الأمْرَ بَعْدَهُ، فوالله ما كَانَ يُلْقَى في روعي، ولاَ يَخْطُر عَلَى بَالي أَنَّ العَرَبَ تَعْدِلُ هذا الأمرَ بَعْدَ محمدٍ عن أهلِ بيْتِهِ، وَلاَ أنَّهُمْ مُنَحُّوه عَنّي من بعده. فما رَاعَنِي إلاَّ انْثِيَالُ الناسِ على أبي بكرٍ، وإجْفَالُهُمْ إليهِ لِيُبَايِعُوهُ، فأمْسَكْتُ يَدِي، ورأيتُ أنّي أحقّ بمقَامِ محمدٍ ﷺ في الناسِ ممّنْ تولّي الأمرَ من بَعْدِهِ، فلبثْتُ بذاك ما شاء الله حتى رأيتُ راجعةً من الناس رجعتْ عن الإسلام، يدعونَ إلى مَحْقِ دين الله وملة محمد ﷺ، فخشِيتُ - إن لم أنصر الإسلامَ وأهلَهُ - أن أرى فيه ثَلْماً[١] وهدماً يكونُ المصاب بهمَا عَلَيَّ أعظم من فوات وِلاَيةِ أُمُورِكُمْ، التي إنما هيَ مَتَاعُ أيام قلائل، ثم يزولُ ما كانَ منهَا كما يزول السرابُ، وكما يتقشّعُ السَّحاب، فمشيتُ عندَ ذلكَ إلى أبي بكرٍ فبايعتُهُ، ونهضتُ في تلكِ الأحْداث، حتى زَاغَ الباطلُ وَزَهَقَ، وكانتْ كلمةُ الله هيَ الْعُلْيَا، وَلَوْ كَرِهَ الكافرونَ.

فتولّى أبو بكر تلك الأمورَ، فيسَّرَ وسَدَّدَ، وقارَب واقْتَصَدَ، وصَحِبْتُه مُنَاصِحاً، وأطعتُهُ فيما أطاعَ الله فِيهِ جاهداً، وما طمِعْتُ - أن لوْ حَدَثَ به حادث وأنا حيٌّ أن يُرَدّ إليّ الأمرُ الَّذِي نازعتُه فيه - طَمَعَ مُستيقنٍ، ولا يئست مِنهُ يَأْسَ مَنْ لا يرجوهُ، ولولا خاصّة ما كان بيْنَهُ وبين عمر، لظننتُ أنّه لاَ يَدْفَعُهَا عَنّي، فلما احْتُضِر بَعثَ إلى عُمر فولاّه فسمِعْنَا وأطعنا وناصحنا.

وتولّى عُمر الأمر، فكانَ مرضيّ السِّيرة، ميمونَ النَّقِيبة[٢]، حتى إذا احْتُضِر، فقلت في نفسي: لن يَعْدِلَها عَنّي، ليس يدافعها عنّي، فجعلَني سادسَ ستة، فما كانوا لولاية أحدٍ منهم أشدَّ كَراهة لولايتي عليهم، فكانوا يَسْمعونَ عند وفاة رسول الله ﷺ لَجاج أبي بكر، وأقول: يا معشرَ قريش، إنا - أهلَ البيت - أحقُّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا من يقرأ القرآن، ويعرفُ السُّنّة، ويدين بدين الحقّ. فخشِيَ القوم - إن أنا وَليتُ عليهم - ألاّ يكون لهم من الأمر نصيب ما بَقُوا، فأجمعوا إجْمَاعاً واحداً، فصرَفُوا الولاية إلى عثمان،

(١) الثَّلْم: الخلل في الشيء. اللسان مادة (ثلم).

(٢) النقيبة: النفس. القاموس مادة (نقب).

وأخرجوني منها، رجاء أنْ ينالُوها، ويتداولُوها إذ يئسوا أن ينالُوا بها مِنْ قبَلي، ثم قالوا: هَلمَّ فَبايعْ وإلا جاهدناك، فَبَايَعْتُ مستكرَهاً، وصبرت محتَسِباً، فقال قائلهم: يابنَ أبي طالب، إنّك على هذا الأمر لحريصٌ، فقلت أنتُم أحرصُ منّي وأبعد، أيّنا أحرَصُ؟ أنا الذي طلبتُ ميراثي وحَقّي الذي جعلني الله ورسوله أوْلَى به، أم أنتم إذْ تضرِبُون وَجْهي دُونه، وتحولون بيني وبينه! فبهتوا، والله لا يهدِي القوم الظالمين.

اللهم إنّي أستعديك على قُريش، فإنّهم قطعوا رَحِمي، وأضاعوا إيايّ، وصغَّروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعَتي حقًّا كنت أوْلَى به منهم، فَسلبونِيهِ ثم قالوا: ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه، وفي الحق أن تمنعه، فاصبر كمداً، أو مت أسِفاً حَنِقاً.

فنظرتُ فإذا ليسَ معي رافد ولا ذابّ ولا ناصِر ولا ساعد إلا أهلُ بيتي، فضنَنْت بهم عن المنية، وأغضيتُ على القذى، وتجرّعت ريقي على الشَّجَى[1]، وصَبَرْتُ مِنْ كَظْم الغيظ على أمرَّ من العلقم، وآلم للقلب مِنْ حَزِّ الشِّفَار، حتى إذا نقِمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه، ثم جئتموني لتبايعوني، فأبيتُ عليكم، وأمسكت يدِي فنازعتموني ودافعتموني، وبَسَطْتُمْ يدِي فكففتُها، ومددتموها فقبَضتُها، وازدحمتم عليّ حتى ظننت أنّ بعضَكم قاتل بعضِكم أو أنكم قاتِلِيَّ. فقلتم: بايِعْنا لا نجدُ غيرَك، ولا نرضى إلا بك، بايِعْنَا لا نفترق ولا تختلف كلمتُنا. فبايعتُكم ودعوتُ الناس إلى بيعتي، فمن بايع طوعاً قبلته، ومن أبَى لم أُكْرِهْهُ وتركته.

فبايَعني فيمَن بايعني طلحةُ والزبير، ولو أبَيَا ما أكرهتُهما، كما لم أُكرِهْ غيرَهما، فما لبثا إلا يسيراً حتى بلغني أنهما خرجا مِنْ مَكةَ متوجِّهَيْنِ إلى البصرة، في جيشٍ ما منهم رجلٌ إلا قد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة، فقدمَا على عاملي وخُزَّان بيت مالي وعلى أهل مصري الذين كلهم على بيعتي وفي طاعتي، فشتّتوا كلمتَهم، وأفسدوا جماعتَهم، ثم وثبوا على شِيعتِي من المسلمين، فقتلُوا طائفةً منهم غدراً، وطائفةً صَبْراً. ومنهم طائفة غضِبوا لله وَلِي، فشَهَرُوا سيوفَهم وضربوا بها، حتى لَقُوا الله عزَّ وجلَّ صادقين، فوالله لو لم يصيبُوا منهم إلاّ رجلاً واحداً متعمِّدين لقتله لحلّ لي به قتلُ ذلك الجيش بأسره، فدَعْ ما أنّهم قد قَتَلُوا من المسلمين أكثرَ من العدّة التي دخلُوا بها عليهم، وقد أدَالَ الله منهم، فبعداً للقوم الظالمين!

---

(١) الشَّجى: ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه. القاموس المحيط مادة (شجو).

ثم إني نظرتُ في أمر أهل الشام، فإذا أعرابٌ أحزاب وأهلُ طمع جفاة طغاة، يجتمعُون من كلّ أوْب[١]، من كان ينبغي أن يؤدَّب وأنْ يولَّى عليه، ويؤخذ علي يده، ليسوا من الأنصَار ولا المهاجرين ولا التَّابعين بإحسان. فسِرْتُ إليهم، فدعوتُهم إلى الطاعة والجماعة، فأبَوْا إلا شقاقاً وفراقاً، ونهضوا في وجوه المسلمين ينْضَحُونهم بالنّبْل، ويشْجُرونهم بالرماح، فهناك نهِدْت إليهم بالمسلمين فقاتلتهم، فلما عَضَّهم السلاح. ووجَدُوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف يدعونَكم إلى ما فيها، فأنبأتكم أنّهُمْ ليسوا بأهل دين ولا قرآن، وأنهم رفعوها مكيدةً وخديعةً ووهْناً وضعفاً، فامضوا على حقّكم وقتالكم فأبيتم عليّ وقلتم: اقبَلْ منهم، فإنْ أجابوا إلى ما في الكتاب جامعونا على ما نحن عليه من الحقّ، وإنْ أبَوْا كان أعظمَ لحجّتنا عليهم فقبلتُ منهم، وكفَفْتُ عنهم، إذْ ونيتم وأبيتم، فكان الصُّلْح بينكم وبينهم على رجلين، يُحْييان ما أحيا القرآن، ويُميتَان ما أمات القرآن، فاختلف رأيُهما، وتفرّق حكمهما، ونَبَذا ما في القرآن، وخالفا ما في الكتاب، فجنَّبهما الله السّداد، ودَلاَّهما في الضلالة، فانحرفتْ فِرْقَةٌ منّا فتركناهم ما تركونا، حتى إذا عثوْا في الأرض يقتلون ويفسدون، أتيناهم فقلنا: ادْفَعُوا إلينا قَتَلةَ إخوانِنا، ثم كتابُ الله بيننا وبينكم. قالوا: كلُّنا قتَلهم، وكلُّنا استحلَّ دماءهم. وشدّت علينا خيلُهم ورجالُهم، فصرَعَهُم الله مصارعَ الظالمين.

فلما كان ذلك من شأنهم أمرتُكم أن تمضُوا من فَوْرِكم ذلك إلى عدوّكم، فقلتم: كلَّتْ سيوفُنا، وَنَفِدَتْ نبالُنا، ونَصَلت أسِنّة رماحنا، وعاد أكثرها قِصَداً، فارجع بنا إلى مصرنا لنستعدّ بأحسن عُدّتنا، فإذا رجعتَ زدت في مقاتلتنا عدَّة مَنْ هَلَك منّا وفارقنا، فإنّ ذلك أقوى لنا على عدوّنا. فأقبلتُ بكم، حتى إذا أطلَلْتُم على الكوفة أمرتُكم أن تنزلوا بالنُّخَيلة، وأن تلزَمُوا معسكركم، وأن تَضُمُّوا قَوَاصِيَكم، وأن توطِّنُوا على الجهاد أنفسَكم، ولا تكثِرُوا زيارة أبنائكم ونسائكم، فإن أهلَ الحربِ المصابرُوها، وأهلَ التشميرِ فيها الذين لا ينقادُون من سَهر ليلهم ولا ظَمإٍ نهارهم، ولا خَمْص بطونهم، ولا نصَب أبدانهم، فنزلت طائفةٌ منكم معي معذِرَة، ودخلت طائفة منكم المِصْرَ عاصية، فلا مَنْ بقِيَ منكم صَبَرَ وثَبَت، ولا مَنْ دخل المِصْرَ عاد ورَجَعَ، فنظرتُ إلى معسكري، وليس فيه خمسون رجلاً، فلما رأيتُ ما أتيتم، دخلت إليكم فلم أقْدِرْ على أن تخرجوا معي إلى يومنا هذا، فما تنتظرون!

(١) أي من كل وجه وطريق وناحية. اللسان مادة (أوب).

أما تَرَوْن أطرافَكُم قد انتُقِصَتْ، وإلى مصر قد فتِحت، وإلى شيعتي بها قد قتلت، وإلى مسالحكم تَعْرَى، وإلى بلادكم تُغْزَى! وأنتم ذَوُو عدد كثير، وشَوْكة وبأس شديد، فما بالُكم! لله أنتم منْ أين تؤتَون! وما لكم تُؤفَكُون! وأنَّى تُسْحَرُون!

ولو أنّكم عَزَمْتم وأجمعتم لم تراموا، إلاّ أنّ القوم تَرَجَعُوا وتناشبوا وتناصحوا، وأنتم قد وَنَيْتُم وتغاشَشْتُم وافْتَرقْتم، ما إن أنتم إن ألممتُم عندي على هذا بسُعدَاء، فانتهوا بأجمعكم، وأجمِعوا على حَقّكم، وتجرَّدُوا لحرب عَدُوّكم، وقد أبدتِ الرَّغْوةُ عن الصَّرِيح، وبيَّن الصُّبْحُ لِذِي عينين، إنما تقاتلون الطُّلَقاء، وأبناء الطُّلَقاء وأولي الجفاء، ومَنْ أسلَم كرهاً، وكان لرسول الله ﷺ أنفَ الإسلام كلّه حرباً، أعداء الله والسنّة والقرآن، وأهل البدَع والأحداث، ومن كان بوائقه تُتَّقى، وكان عن الإسلام منحرفاً، أكَلَة الرِّشا، وعَبَدة الدنيا، لقد أنهِيَ إليّ أنّ ابنَ النابغة لم يبايعْ معاويةَ حتى أعطاه، وشرط له أن يؤتيَه ما هي أعظم مما في يده من سلطانه. ألا صَفِرَتْ يدُ هذا البائع دينَه بالدنيا، وخزِيَتْ أمانة هذا المشتري نَصْرةَ فاسِق غادر بأموالِ المسلمين، وإنّ فيهم مَنْ قد شرِبَ فيكم الخمْرَ وجُلِد الحدّ، يُعْرَف بالفساد في الدين، والفعل السيّء، وإنّ فيهم مَنْ لم يُسلم حتى رُضِخ له رَضِيخة(١).

فهؤلاء قادة القوم، ومَنْ تركتُ ذكر مساوئه مِنْ قادتهم مِثْلُ من ذكرت منهم، بل هو شرّ، ويودُّ هؤلاء الذين ذكرت لو وُلُّوا عليكم فأظهرُوا فيكم الكُفْر والفساد والفجور والتسلُّط بجبريّة، واتبعوا الهوَى وحكَمُوا بغير الحقّ. ولأنْتُمْ - عَلَى مَا كَانَ فيكم مِنْ تواكُل وتخاذُلٍ - خيرٌ منهم وأهدى سبيلاً، فيكم العلماءُ والفقهاء، والنُّجباء والحكماء، وحَمَلة الكتاب والمتهجِّدُون بالأسْحار، وعُمّار المساجد بتلاوة القرآن، أفلا تسخَطُون وتهتمّون أن ينازِعَكم الولايةَ عليكم سفهاؤكم، والأشرار الأراذل منكم!

فاسمَعُوا قولِي، وأطيعوا أمري، فوالله لئِنْ أطعتُموني لا تغوُون، وإن عصيتموني لا ترشُدُون، خُذُوا للحربِ أهْبَتَها وأعِدُّوا لها عُدّتها، فقد شَبَّتْ نارُها، وعلا سنانها وتجرَّدَ لكم فيها الفاسقون، كي يعذّبوا عباد الله، ويطفِئُوا نور الله. ألا إنه ليس أولياء الشيطان مِنْ أهل الطمع والمكر والجفاء بأوْلَى في الجدّ في غيِّهم وضلالتهم من أهل البرّ والزهادة والإخبات في حقّهم وطاعة ربِّهم، إنّي والله لو لقيتُهم فرداً وهم ملاء الأرض، ما باليت ولا استوحشت، وإني مِنْ ضلالتهم الَّتي هم فيها، والهُدى الذي نحن عليه، لَعلَى ثقة وبيِّنة، ويقين

(١) الرَّضيخة: العطيّة. لسان العرب مادة (رضخ).

وبصيرة، وإني إلى لقاء ربّي لمشتاق، ولحسنِ ثوابه لمنتظر، ولكنّ أسفاً يعتريني، وحزناً يخامِرُني، أن يليَ أمرَ هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها، فيتخذوا مال الله دُوَلاً، وعباده خَوَلاً، والفاسقين حِزْباً. وايمُ الله لولا ذلك لما أكثرتُ تأنيبَكم وتحريضَكم، ولتركتُكم إذ ونيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسِي، متَى حُمّ لي لقاؤهم. فوالله إني لَعَلَى الحقّ، وإنّي للشهادة لمحِبّ، فانفِروا خِفافاً وثِقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسِكم في سبيل الله، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. ولا تثاقَلُوا إلى الأرض فتقرُّوا بالخسف، وتبوءوا بالذلّ، ويكنْ نصيبُكم الخسران [إنّ] أخا الحرب اليقظان، ومَنْ ضعف أوْدى، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين.

اللهمَّ اجْمَعْنَا وإياهم على الهُدى، وزهِّدْنا وإياهم في الدنيا، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى.

قال إبراهيم: وحدثني محمد بن عبد الله بن عثمان، عن المدائنيّ، أنّ محمد بن أبي حُذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أصيبَ لما فتح عمرو بن العاص مصر، فبعثَ به إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يومئذ بفلسطين، فحبسه معاوية في سجن له، فمكث فيه غير كثير، ثم هرب - وكان ابن خال معاوية - فأرى معاويةُ الناس أنّه كره انفلاتَه من السجن، وكان يحبّ أن ينجوَ، فقال لأهل الشام: مَنْ يطلبه؟ فقال رجل من خثعم - يقال له عبيد الله بن عمرو بن ظلام، وكان شجاعاً وكان عثمانياً: أنا أطلبه، فخرج في خيل فلحقه بحُوَّارين، وقد دخل بغارٍ هناك، فجاءت حُمُرٌ فدخلته، فلما رأى الرجل في الغار فزِعت ونفَرت، فقال حمّارون كانوا قريباً من الغار: إنّ لهذه الحمُر لشأناً، ما نفَّرها من هذا الغار إلا أمر! فذهبوا ينظرون، فإذا هم به، فخرجوا به، فوافاهم عبد الله بن عمرو بن ظلام، فسألهم ووصفَه لهم فقالوا: ها هو هذا، فجاء حتى استخرجه، وكره أن يصيرَ به إلى معاوية فيخلِيَ سبيله، فضرب عنقه. رحمه الله تعالى[1].

---

٦٨ - ومن كلام له عليه السلام في ذم أصحابه

الأصل: كَمْ أُدَارِيكُمْ كَما تُدَارَى ٱلْبِكَارُ العَمِدَةُ، وَالثِّيَابُ المُتَدَاعِيَةُ! كُلمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخر، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُم مِنْسَرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُم بَابَهُ، وَٱنْجَحَرَ ٱنْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا، وَالضَّبُعِ فِي وِجَارِهَا.

---

(١) انظر الغارات للثقفي: ١/ ٣٢٨.

الذَّليلُ وَٱللهِ مَنْ نَصَرْتُمُوه، وَمَنْ رُمِيَ بِكُمْ فَقَدْ رُمِيَ بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ.

إِنَّكُمْ وَٱللهِ لَكَثِيرٌ فِي ٱلْبَاحَات، قَلِيلٌ تَحْتَ الرَّايَات، وَإِنِّي لَعَالِمٌ بِمَا يُصْلِحُكُمْ، وَيُقِيمُ أَوَدَكُمْ، وَلَكِنِّي وَٱللهِ لاَ أَرَى إِصْلاَحَكُمْ بِإِفْسَادِ نَفْسِي.

أَضْرَعَ ٱللهُ خُدُودَكُمْ، وَأَتْعَسَ جُدُودَكُمْ! لاَ تَعْرِفُونَ الحَقَّ كَمَعْرِفَتِكُم ٱلْبَاطِل، وَلاَ تُبْطِلُونَ ٱلْبَاطِلَ كَإِبْطَالِكُمُ الحَقَّ.

الشرح: البِكَار: جمع بَكْر، وهو الفتِيُّ من الإبل. والعَمِدَة: التي قد انشدَخَتْ أسْنِمتها من داخل وظاهرها صحيح، وذلك لكثرة ركوبها.

والثياب المتداعية: الأسْمال التي قد أخلَقت، وإنما سمِّيت متداعِية، لأن بعضها يتخرّق فيدعو بعضَها إلى مثل حاله.

وحِيصت: خيطت، والحَوْص: الخياطة. وتهتكت: تخرَّقت.

وأطلَّ عليكم، أي أشرف، وروي: «أظلّ» بالظاء المعجمة، والمعنى واحد.

ومِنْسَر: قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكثير، والأفصح «مِنَسر» بكسر الميم وفتح السين، ويجوز «مَنْسِر» بفتح الميم وكسر السين.

وانجحر: استتر في بيته، أجحرتُ الضبّ، إذا ألجأتَه إلى جُحْره فانجحر.

والضبّة: أنثى الضِّباب، وإنما أوقع التشبيه على الضبّة مبالغة في وصفهم بالجبن والفرار، لأن الأنثى أجبن وأذل من الذكر. والوِجار: بيت الضبع.

والسهم الأفوق: الناصل المكسور الفُوق، المنزوع النّصل، والفُوقِ: موضع الوَتَر من السهم، يقال نَصَل السّهم إذا خرج منه النَّصْل فهو ناصل، وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده.

والباحات: جمع باحة، وهي ساحة الدار. والأوَد: العوج، أوِد الشيء بكسر الواو يأوَد أوَداً، أي اعوجّ، وتأوّد، أي تعوَّج. وأضرَع الله خدُودكم: أذلَّ وجوهكم. ضَرَع الرجل ذلّ وأضرعه غيره، ومنه المثل: «الحمَّى أضرعته لك».

وأتعسَ جدودكم، أي أحال حظوظكم وسعودكم وأهلكها فجعلها إدباراً ونحساً. والتَّعَس: الهلاك. وأصله الكبّ، وهو ضد الانتعاش. تَعَس الرجل، بفتح العين يتعَس تَعَساً. يقول: كم أداريكم كما يدارِي راكب البعير بعيرَه المنفضخ السنام، وكما يداري لابس الثوب السَّمَل ثوبَهُ المتداعِي، الذي كلّما خِيط منه جانب تمزّق جانب.

ثم ذكر خُبْثَهم وذلّهم، وقلّة انتصار مَنْ ينتصر بهم، وأنّهم كثير في الصورة، قليل في المعنى. ثم قال: إني عالم بما يصلحكم، يقول: إنما يصلحكم في السياسة السيفُ، وَصَدَق! فإن كثيراً لا يصلُح إلا عليه. كما فعل الحجّاج بالجيش الّذي تقاعد بالمهلّب، فإنه نادى مناديَه: مَنْ وجدناه بعد ثالثة لم يلتحق بالمهلّب فقد حلّ لنا دمه، ثم قَتَل عُمير بن ضابىء وغيره، فخرج الناس يُهْرَعون إلى المهلّب.

وأميرُ المؤمنين لم يكُنْ ليستحلَّ من دماء أصحابه ما يستحلّه مَنْ يريد الدنيا وسياسة الملك وانتظام الدولة، قال عليه السلام: «لكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي»، أي بإفساد ديني عند الله تعالى.

فإن قلت: أليستْ نُصرة الإمام واجبةً عليهم؟ فلم لا يقتلهم إذْ أخلُّوا بهذا الواجب؟

قلت: ليس كلّ إخلال بواجب يكون عقوبته القتل، كمن أخَلّ بالحج. وأيضاً فإنّه كان يعلم أن عاقبةَ القتل فسادهم عليه واضطرابهم، فلو أسرع في قَتلهم لشَغَبُوا عليه شغباً يُفضِي إلى أن يقتلوه ويقتلوا أولادَه، أو يسلموه ويسلموهم إلى معاوية، ومتى علم هذا أو غلب على ظنّه لم يَجُز له أن يسوسَهم بالقتل الذي يُفْضِي إلى هذه المفسدة، فلو ساسَهم بالقتل والحال هذه، لكان آثماً عند الله تعالى، ومواقعاً للقبيح، وفي ذلك إفساد دينه كما قال: «لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل...» إلى آخر الفصل، فكأنّه قال: لا تعتقدون الصواب والحقّ كما تعتقدون الخطأ والباطل، أي اعتقادكم الحقّ قليل، واعتقادكم الباطل كثير، فعبّر عن الاعتقاد العام بالمعرفة الخاصة، وهي نوع تحت جنسه مجازاً.

ثم قال: ولا تسرعون في نقض الباطل سرعتَكم في نقض الحقّ وهدمه.

ذمّ الجبن في شعر الشعراء

واعلم أن الهجاء بالجبن والذل والفَرَق كثير جدًّا، ونظير قوله: «إنكم لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات» قول معدان الطائيّ:

فأمّا الَّذي يُحْصِيهُمُ فمكَثِّرٌ ... وَأمّا الَّذي يُطْرِيهُمُ فمقلِّلُ

ونحو قول فراد بن حَنَش، وهو من شعر الحماسة:

وأنتمْ سماء يُعْجِبُ النّاسَ رِزُّها ... بآبدةٍ تُنْحِي شَدِيدٍ وَبِيدُها[1]

تُقَطِّع أطنابَ البيوتِ بحاصبٍ ... وأكذبُ شيء بَرْقُها ورُعُودُها

فَوَيْلُمِّها خيلاً بهاءً وشارةً ... إذا لاقت الأعداء لولا صدُودُها!

(١) رزّت السماء: صوتت من المطر. والآبدة: الغريبة. وتنحي: تعتمد.

ومن شعر الحماسة في هذا المعنى:

لَقَدْ كَانَ فيكُم لَوْ وفيتمْ بجارِكُمْ ... لِحَى وَرِقَابٌ عَرْدَةٌ وَمَنَاخِرُ[1]

من الصُّهْبِ أثناءَ وجُذْعاً كأنّها ... عذارَى عليها شارةٌ وَمَعَاجِر[2]

ومن الهجاء بالجبن والفرار، قولُ بعض بني طيىء يهجو حاتماً، وهو من شعر الحماسة أيضاً:

لعمري وَمَا عَمْري عليّ بهيِّنٍ ... لَبِئْسَ الفتى المدعُوّ بالليل حاتِمُ

غَدَاة أتى كالثوْرِ أُخرِج فاتَّقى ... بجبهته أقتالَه وهو قائمُ

كأنّ بصحراءِ المُرَيْط نعامةً ... تبادِرُها جنحَ الظلام نَعَائِمُ

أعارَتْكَ رِجْلَيْهَا وهَافِيَ لُبِّهَا ... وقد جُرِّدَتْ بيضُ المتُون صوارمُ

ونظير المعنى الأول أيضاً قول بعضهم من شعر الحماسة:

كاثِرْ بسعدٍ إن سعداً كثيرةٌ ... ولا ترجُ من سعدٍ وفاء ولا نَصْرَا

يروعك من سعدِ بن عمرٍو جُسُومُها ... وتزهد فيها حين تقتلها خُبْرَا

ومنه قول عُوَيف القوافي:

وما أُمُّكم تحت الخوافق والقنا ... بثَكْلَى ولا زهراء من نسوة زُهْرِ

ألستمْ أقلَّ الناس عند لوائِهِمْ ... وأكْثَرَهُمْ عند الذّبيحة والقِدْرِ

وممّن حسّن الجبن والفرار بعضُ الشعراء في قوله:

أضحتْ نشجعُني هندٌ وقد علمتْ ... أنَّ الشجاعة مقرونٌ بها العَطَب

لا والّذي حجّت الأنصارُ كعبتَهَ ... ما يشتهي الموتَ عندي من له أرَبُ

للحرب قومٌ أضلّ الله سعيَهُمُ ... إذا دعتهمْ إلى حوماتِهَا وثَبُوا[3]

وَلَسْتُ منهم ولا أهوَى فعالهمُ ... لا القتلُ يعجبني منها ولا السَّلَبُ

ومن هذا قول أيمن بن خُرَيم الأسديّ:

إنّ للفتنة مَيْطاً بَيِّنا ... ووريد المَيْطِ منها يَعْتَدِلْ

فإذا كان عَطاءٌ فابتدِرْ ... وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ

إنما يُسْعِرُها جُهَّالُها ... حطب النار فدَعْها تشتعلْ

---

(١) العَرْدُ: الصلب الشديد المنتصب. القاموس مادة (عرد).

(٢) المعاجِرُ: جمع مِعجر، وهو ثوب تعتجر به المرأة. القاموس مادة (عجر).

(٣) حَوْمة القتال: معظمه وأشدُّ موضع فيه. اللسان مادة (حوم).

ومن عرِف بالجبن أميّة بن عبد الله بن خالد بن أُسَيْد، عيَّره عبد الملك بن مرْوان فقال:

إذا صَوّتَ العصفورُ طار فؤادُه ... وليثٌ حديد النابِ عند الشرائدِ

وقال آخر:

يطيرُ فؤادهُ مِنْ نَبْحِ كَلْبٍ ... ويكفيهِ من الزَّجر الصفيرُ

وقال آخر:

ولو أنها عصفورة لحسبتُها ... مُسَوّمَةً تدعو عَبيداً وأزْنَما

أخبار الجبناء ونوادرهم

ومن أخبار الجُبناء ما رواه ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار»(١) قال: رأى عمرَ بن العاص معاوية يوماً فَضحِك، وقال: ممّ تضحكُ يا أمير المؤمنين، أضحكَ الله سنَّك! قال: أضحك من حُضُور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب، والله لقد وجدتَه مَنّاناً كريماً ولو شاء أن يقتلَك لقتلك! فقال عمرو: يا أميرَ المؤمنين، أما والله إنّي لعن يمينك حين دعاك إلى البزار فاحولَّتْ عيناك، وانفتح سَحْرُك، وبدا منك ما أكره ذكرهُ لك، فمن نفسك فاضحك أو فدَعْ.

قال ابن قتيبة: وقدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك، وعليه دِرْعٌ وعمامة سوداء وقوسٌ عربية وكنانة، فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد - وهي تحته يومئذ: مَنْ هذا الأعرابيّ المستلئم في السلاح عندك على خلوة، وأنت في غُلالة؟ فأرسَلَ إليها الوليد: إنه الحجّاج، فأعادت عليه الرسول: والله لأن يخلُوَ بك مَلَكُ الموت أحبُّ إليّ من أن يخلوَ بك الحجاج! فضحك وأخبر الحجاج بقولها وهو يمازحه، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة رَيْحانة وليست بقَهْرمانة(٢)، فلا تطلِعْها على سرّك، ومكايدة عدوّك.

فلما انصرف الحجاج ودخل الوليد على امرأته أخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، حاجتي إليك اليوم أن تأمرَه غداً أن يأتيني مستلئماً، ففعل ذلك، وأتاها الحجاج فحجَبْته ثم أدخلته، ولم تأذن له في القُعود، فلم يزل قائماً، ثم قالت: إيهٍ يا حجاجّ! أنت

---

(١) «عيون الأخبار» للشيخ الإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة (٢٧٦هـ) وهو مجلد كبير مشتمل على أبواب كثيرة تجتمع في عشرة كتب. «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

(٢) القهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شؤونه، فارسي معرب. المعجم الوسيط مادة (قهرم).

الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابنَ الزبير وابن الأشعث! أما والله لولا أنّ الله عَلِم أنّك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين أوّل مولود في الإسلام، وأما نهيُك أميرَ المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذّاته وأوطاره، فإنْ كنّ ينفرجن عن مثلك فما أحقّه بالقبول منك! وإن كنّ ينفرِجْنَ عن مثله، فهو غير قابل لقولك. أما والله لو نقضَ نساءُ أمير المؤمنين الطيبَ من غدائرهنّ فبعنَه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيَق من القرن، قد أظلتك الرّماح، وأثخنك الكفاح، وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه، قاتل الله القاتل حين ينظر إليك وسِنان غزالة بين كتفيك:

أَسَـدٌ عـلـيّ وفـي الـحـرُوب نـعـامـةٌ رَبْـدَاء تـنـفِـرُ مـن صَـفـيـرِ الـصَّـافـرِ[1]
هـلا بـرزتَ إلـى غـزالـة فـي الـوغـى أم كـان قـلـبـك فـي جَـنَـاحَـيْ طـائـرِ!

ثم قالت لجواريها: أخرجْنَه، فأخرج[2].

ومن طريف حكايات الجبناء ما ذكره ابن قتيبة أيضاً في الكتاب المذكور، قال كان بالبصرة شيخٌ من بني نهشل بن دارم، يقال له عروة بن مرثَد، ويكنى أبا الأعزّ، ينزل في بني أخت له من الأزْد في سكّة بني مازن، فخرج رجالهم إلى ضياعهم في شهر رمضان، وخرج النساء يصلّين في مسجدهم، ولم يبق في الدار إلا إماء، فدخل كلب يتعسّس، فرأى بيتاً مفتوحاً فدخله، وانصفق الباب عليه، فسمع بعضُ الإماء الحركة، فظننوا أنه لصّ دخل الدار، فذهبت إحداهنّ إلى أبي الأعزّ، فأخبرته، فقال أبو الأعزّ: إلام يبتغي اللصّ عندنا! وأخذ عصاه، وجاء حتى وقف بباب البيت، وقال: إيه يا فلان! أما والله إنّي بك لعارف، فهل أنت من لصوص بني مازن! شربت حامضاً خَبِيثاً، حتى إذا دارت في رأسك منّتك نَفْسُكَ الأمانيّ، وقلت: أطرُق دور بني عمرو، والرجال خلُوف، والنساء يصلّين في مسجدهنّ، فأسرقهم. سوءةً لك! والله ما يفعل هذا ولد الأحرار! وايمُ الله لتخرجنّ أو لأهتفنّ هتْفة مشؤومة يلتقي فيها الحيّان: عمرو وحنظلة، وتجيء سعد عدد الحصى، وتَسيل عليك الرجال، من هنا وهنا، ولئن فعلتُ لتكوننّ أشأمَ مولود!

فلما رأى أنّه لا يجيبُه، أخذه باللين، فقال: اخرج - بأبي أنت - مستوراً، والله ما أراك

---

(١) رَبْداء: أي لونها كلون الرَّماد. اللسان مادة (ربد).
(٢) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٩/ ٣٨٣، وأخرجه ابن منظور في لسان العرب العرب: ١١/ ٤٩٣.

تعرِفُني. ولو عرفَتني لقنعت بقولي، واطمأننت إلى ابن أختي البارّ الوَصول، أنا - فديتك - أبو الأعزّ النهشلّي! وأنا خال القوم، وجِلْدة بين أعينهم، لا يعصونني، ولا تضارّ الليلة وأنت في ذمتي، وعندي قَوْصَرَتان، أهداهما إليّ ابنُ أختي البارّ الوصول، فخذ إحداهما، فانبذها حلالاً من الله ورسوله.

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق، وإذا سكت أبو الأعزّ وثب يريد المخرَج، فتهانف أبو الأعزّ، ثم تضاحك، وقال: يا ألأم الناس وأوضعهم! ألا أراني لك منذ الليلة في وادٍ وأنت لي في واد آخر، أقبلت السوداء والبيضاء، فتصيح وتطرق، فإذا سكتّ عنك وثبْتَ تريد الخروج! والله لتخرجنّ أو لألِجَنّ عليك البيت.

فلما طال وقوفُه جاءت إحدى الإماء فقالت: أعرابيٌّ مجنون والله، ما أرى في البيت شيئاً، فدفعت الباب فخرج الكلب شارداً، وحاد عنه أبو الأعزّ ساقطاً على قفاه، شائلة رجلاه، وقال: تالله ما رأيت كالليلة هذه! ما أراه إلا كلباً، ولو علمت بحاله لولجت عليه.

ونظير هذه الحكاية حكاية أبي حيّة النميريّ، وكان جباناً، قيل: كان لأبي حيّة سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق، كان يسميه لُعاب المنيّة، فحَكَى عنه بعضُ جيرانه أنه قال: أشرفتُ عليه ليلة، وقد انتضاه وهو واقفٌ بباب بيت في داره، وقد سمع فيه حِسًّا، وهو يقول: أيها المغترّ بنا، المجترىء علينا، بئس والله ما اخترتَ لنفسك! خيرٌ قليلٌ وسيف صقيل، لعاب المنيَّة الذي سمعتَ به، مشهورة صولته، ولا تخاف نبوته. اخرج بالعفو عنك، لا أدخل بالعقوبة عليك، إني والله إن أدْعُ قيساً تملأ الفضاء عليك خيلاً ورجلاً. سبحان الله! ما أكثرها وأطيبها، والله ما أنت ببعيد من تابعها، والرسوب في تيار لجّتها!

قال: وهبَّت ريحٌ ففتحت الباب، فخرج كلب يشتدّ، فلبِط بأبي حية واربدّ[1]، وشغر برجليه، وتبادرت إليه نساءُ الحي، فقلن: يا أبا حيّة، لتفرخ روعتُك، إنما هو كلب، فجلس وهو يقول: الحمد لله الذي مسخك كلباً، وكفاني حرباً[2]!

وخرج مغيرة بن سعيد العِجْليّ في ثلاثين رجلاً بظهر الكوفة، فعطعطوا[3]، وخالد بن عبد الله القسريّ أمير العراق، يخطب على المنبر فعرِق، واضطرب وتحيّر، وجعل يقول: اطعِمُوني ماء، فهجاه ابن نوفل فقال:

أخـــالـــدُ لا جـــزاك الله خـــيـــراً وأيـــري فـــي حِـــرِ أُمِّـــكَ مـــن أمـــيـــرِ

---

(١) أربدّ: احمر حمرة فيها سواد عند الغضب. اللسان مادة (ربد).
(٢) أخرجه عباس القمي في الكنى والألقاب: ١/ ٦٢.
(٣) عَطعَطُوا: غَلَبُوا. اللسان مادة (عطط).

تروم الفخر في أعرابِ قَشْرٍ ... كأنك من سَراة بني جَريرِ[1]
جرير من ذوي يمنٍ أصيلٌ ... كريم الأصل ذُو خَطَرٍ كبيرِ
وأمّك عِلْجَةٌ وأبوك وغْدٌ ... وما الأذناب عَدْلٌ للصدورِ!
وكنت لَدَى المغيرة عَبْدَ سَوْء ... تبولُ من المخافة للزئيرِ
لأعلاجٍ ثمانيةٍ وشَيْخٍ ... كبير السنّ ليس بذي ضَريرِ
صرخت من المخافة: أطعمُوني ... شراباً ثمّ بُلْتَ على السَّريرِ

وقال آخر يعيره بذلك:

بَلّ المنابرَ من خوف ومن دَهَشٍ ... واستطعم الماء لما جدَّ في الهرَب

ومن كلام ابن المقفع في ذمّ الجبن: الجبن مقتلة، والحرص محرَمة، فانظر فيما رأيت وسمعت: مَنْ قُتل في الحرب مقبِلاً أكثر أم مَنْ قتل مدبراً! وانظر مَنْ يطلب إليك بالإجمال والتكرّم أحقّ أن تَسخوَ نفسُك له بالعطيّة، أم من يطلب ذلك بالشَّرَهِ والحِرْص!

٦٩ - وقال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضرب فيه

الأصل: مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ! مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ ٱلْأَوَدِ وَٱللَّدَدِ! فَقَالَ: ٱدْعُ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي ٱللهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي.

قال الرضي رحمه الله: يَعْنِي بالأَوَد ٱلاعوجاج، وباللَّدَد الخِصَام، وهذا مِنْ أَفْصَح الكلام.

الشرح: قوله: «ملكتْني عيني» من فصيح الكلام، يريد غَلَبني النوم.

قوله: «فسنح لي رسول الله صلى الله عليه وآله»، يريد مرّ بي كما تسنَحُ الظِّباء والطير يمرّ بك، ويعترض لك.

وذا هاهنا بمعنى «الذي» كقوله تعالى: ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾[2]، أي ما الذي ترى، يقول: قلت

(١) السَّراة: أعلى كل شيء. القاموس مادة (سري).
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

له: ما الذي لقيتُ من أمتك؟ وما هاهنا استفهامية كأيّ، ويقال ذلك فيما يستعظم أمره، كقوله سبحانه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝﴾[1]. و«شرًّا» ها هنا لا يدلّ على أنّ فيه شرًّا، كقوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾[2] لا يدلّ على أنّ في النار خيراً.

مقتل الإمام علي عليه السلام

ويجب أن نذكر في هذا الموضع مقتله عليه السلام، وأصحّ ما ورد في ذلك ما ذكره أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانيّ في كتاب «مقاتل الطالبيين».

قال أبو الفرج عليّ بن الحسين - بعدَ أسانيد ذكَرها مختلفة متفرّقة، تجتمع على معنى واحد نحن ذاكروه: إنّ نَفَراً من الخوارج اجتمعوا بمكّة تذاكروا أمرَ المسلمين، فعابوهم وعابوا أعمالهم عليهم، وذكروا أهلَ النّهروان، فترحَّموا عليهم، وقال بعضهم لبعض: لو أنّا شَرَيْنَا أنفسَنا لله عزّ وجلّ فأتيْنَا أئمةَ الضّلال، وطلبنا غِرّتَهم، وأرحْنَا منهم العباد والبلاد، وثأرنا بإخواننا الشُّهداء بالنهروان!

فتعاقدوا عند انقضاء الحجّ، فقال عبد الرحمن بن ملجَم: أنا أكفيكُمْ عليًّا، وقال واحد: أنا أكفيكم معاوية، وقال الثالث: أنا أكفيكم عَمْرو بن العاص، فتعاقدوا وتواثقوا على الوفاء، وألاّ ينكِل أحد منهم عن صاحبه الذي يتوجّه إليه ولا عن قتله، واتّعدوا لشَهْر رمضان، في الليلة التي قتَل فيها ابنُ ملجم عليًّا.

قال أبو الفرج: قال أبو مخنف: قال أبو زهير العبسيّ: الرجلان الآخران البُرَك بن عبد الله التميميّ، وهو صاحب معاوية، وعمرو بن بكر التميميّ، وهو صاحب عمرو بن العاص.

قال: فأما صاحبُ معاوية فإنّه قصده، فلما وقعت عينُه عليه ضربه، فوقعت ضربته على أليته، وأُخِذ فجاء الطبيب إليه، فنظر إلى الضربة فقال: إنّ السيفَ مسموم، فاخترْ إمّا أن أحْمِيَ لك حديدةً فأجعلَها في الضربة فتبرأ، وإما أن أسقيَك دواء فتبرأ وينقطع نسلُك. فقال: أمّا النار فلا أطيقُها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تَقَرّ عيني، وحسبي بهما. فسقاه الدواء فعوفي وعالج جُرحَه حتى التأم، ولم يولد له بعد ذلك.

وقال له البُرَك بن عبد الله: إنّ لك عندي بشارةً، قال: وما هي؟ فأخبره خبرَ صاحبه، وقال له: إنّ عليًّا قُتل في هذه الليلة فاحتبسْني عندك، فإن قتِل فأنت وليّ ما تراه في أمري، وإن لم يقتَل أعطيتك العهود والمواثيق أنْ أمضِيَ إليه فأقتلَه، ثم أعود إليك فأضع يدي في يدك، حتى تحكم فيّ بما ترى. فحبسه عنده، فلما أتى الخبرُ أنّ عليًّا قُتِل في تلك الليلة خلّى سبيله.

---

(1) سورة القارعة، الآيتان: ١، ٢.　(2) سورة الفرقان، الآية: ١٥.

هذه رواية إسماعيل بن راشد. وقال غيره من الرواة: بل قتله من وقته.

وأما صاحبُ عمرو بن العاص، فإنه وافاه في تلك الليلة، وقد وجد علّة فأخذ دواء، واستخلَف رجلاً يصلّي بالناس، يقال له خارجة بن أبي حبيبة، أحد بني عامر بن لؤيّ، فخرج للصلاة، فشدّ عمرو بن بكر فضربه بالسيف فأثبته، وأخِذَ الرجل، فأتِيَ به عمرو بن العاص فقتله، ودخل من غد إلى خارجة وهو يجودُ بنفسه، فقال: أما والله يا أبا عبد الله ما أراد غَيرك. قال عمرو: ولكنّ الله أراد خارجة.

وأما ابن مُلْجَم فإنه قتَل عليًّا تلك الليلة.

قال أبو الفرج: وحدثني محمد بن الحسن الأشناندانيّ وغيره، قال: أخبرني عليّ بن المنذر الطريقيّ، قال: حدثنا ابنُ فُضيل، قال: حدثنا فِطر، عن أبي الطُّفَيل، قال: جمع عليّ عليه السلام الناسَ للبيْعة، فجاء عبد الرحمن بن ملجَم فردّه عليّ مرتين أو ثلاثاً، ثم مد يدَه فبايعه، فقال له عليّ: ما يحبس أشقاها! فوالذي نفسي بيده لتَخضِبَنّ هذه من هذه، ثم أنشد:

اشْدُد حيازيمك للموْ ... ت فإنّ الموت لاقِيكا
ولا تجزع من المو ... ت إذَا حَلَّ بِواديكا

قال أبو الفرج:

وقد روي لنا من طرق غير هذه، أن عليًّا أعطى الناس، فلما بلغ ابنَ ملجم أعطاه، وقال له:

أريدُ حيَاتهُ ويُريدُ قَتْلي ... عذيرَك من خَليلك من مُرَادِ[1]

قال أبو الفرج: وحدّثني أحمد بن عيسى العِجْليّ بإسناد ذكره في الكتاب، إلى أبي زهير العبسيّ، قال: كان ابن ملجَم من مُراد وعدادهُ في كِندة، فأقبلَ حتى قدم الكوفة، فلقي بها أصحابه وكتمهم أمره، وطوى عنهم ما تعاقد هو وأصحابه عليه بمكة مِنْ قتلِ أمراء المسلمين مخافة أن ينتشر، وزار رجلاً من أصحابه ذات يوم من بني تيم الرّباب، فصادف عنده قَطام بنت الأخضر، من بني تيم الرّباب - وكان عليّ قتل أخاها وأباها بالنهروان، وكانت من أجمل نساء أهل زمانها - فلما رآها شُغِف بها، واشتدّ إعجابه فخطبها، فقالت له: ما الذي تُسَمّي لي من الصداق؟ فقال: احتكمِي ما بَدَا لك، فقالت: أحتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفاً وخادماً، وأن تقتلَ عليّ بن أبي طالب. فقال لها: لك جميعُ ما سألتِ، وأما قتلُ عليّ فأنّى لي بذلك! قالت: تلتمس غِرّته، فإن أنت قتلتَه شفيْتَ نفسي، وهَناك العيش معي، وإن قُتِلْت فما عند الله خير لك من الدنيا، فقال لها: أما والله ما أقدمني هذا المصرَ، وقد كنت هارباً منه لآمن أهلَه، إلا ما سألتِني من قتْل عليّ.

(١) البيت لعمر بن معديكرب، اللآلي ١٣٨.

قالت له: فأنا طالبة لك بعض مَنْ يساعدك على هذا ويقوّيك، ثم بعثت إلى وردان بن مجالد، أحد بني تَيم الرّباب، فخبّرته الخبر، وسألته معاونة ابن مُلْجَم، فتحمَّل لها ذلك، وخرج ابن مُلْجَم، فأتى رجلاً من أشجَع، يقال له شَبِيب بن بَجْرة، وقال له: يا شبيب، هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: تساعِدُني على قتل عليّ - وكان شبيبٌ على رأي الخوارج - فقال له: هبِلتْك الهَبُول[1]! لقد جئتَ شيئاً إدًّا! وكيف تقدِر ويحك على ذلك! قال ابن ملجم: نكمن له في المسجِد الأعظم؟ فإذا خرج لصلاة الفجر فَتَكْنا به، وشفَيْنا أنفسَنا منه، وأدركنا ثأرنا. فلم يزل به حتى أجابه.

فأقبل به حتى دخَلا على قَطَامِ، وهي معتكفة في المسجد الأعظم، قد ضُربت لها قبّة، فقالا لها: قد أجمع رأيُنا على قتلِ هذا الرجل، قالت لهما: فإذا أردتما ذلك فالقَيَاني في هذا الموضع. فانصرفا من عندها، فلبثا أياماً أتياها، ومعهما وردان بن مجالد، الذي كلَّفَتْه مساعدةَ ابن مُلْجَم، وذلك في ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين.

قال أبو الفرج: هكذا في رواية ابن مخنف، وفي رواية أبي عبد الرحمن السُّلَميّ أنها كانت ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، فقال لها ابن ملجَم: هذه الليلة هي التي وعدتُ فيها صاحبيّ ووعدَاني أن يقتُلَ كلُّ واحدٍ منا صاحبَه الذي يتوجّه إليه.

قلت: إنما تواعدُوا بمكة: عبد الرحمن، والبُرَك، وعَمْرو، على هذه الليلة، لأنهم يعتقدون أن قتل ولاة الجوْر قُربة إلى الله، وأحْرَى القُربات ما تُقُرِّب به في الأوقات الشريفة المباركة.

ولما كانت ليلة الجمعة التاسعة عشرة من شهر رمضان ليلة شريفة، يُرجَى أن تكون ليلة القَدْر، عيّنوها لفعل ما يعتقدونه قُربةً إلى الله، فليَعْجَب المتعجِّب من العقائد، كيف تسري في القلوب، وتغلب على العقول، حتى يرتكب الناسُ عظائمَ الأمور، وأهوال الخطوب لأجلها!

قال أبو الفرج: فدعت لهم بحريرٍ فعصبتْ به صدورَهم، وتقلدوا سيوفهم، ومضوْا فجلسوا مقابل السُّدّة التي كان يخرج منها علي عليه السلام إلى الصلاة.

قال أبو الفرج: وقد كان ابن ملجم أتى الأشعثَ بن قيس في هذه الليلة، فخلا به في بعض نواحي المسجد، ومرّ بهما حُجْر بن عديّ، فسمع الأشعثَ وهو يقول لابن ملجم: النَّجاء النَّجاء بحاجتك! فقد فضحَك الصبح، قال له حُجْر: قتلتَه يا أعور! وخرج مبادراً إلى عليّ، وقد سبقه ابنُ ملجَم فضربه، فأقبل حُجْر والناس يقولون: قُتِل أمير المؤمنين.

قال أبو الفرج: وللأشعث بن قيس في انحرافِه عن أمير المؤمنين أخبارٌ يطول شرحها، منها

---

(١) هبلتك الهبول: أي ثكلتك أمّك.

حديثٌ حدَّثنيه محمد بن الحسين الأشنانداني، قال: حدثني إسماعيل بن موسى: قال: حدثنا عليّ بن مسهر، عن الأجلح، عن موسى بن أبي النعمان قال: جاء الأشعثُ إلى عليّ يستأذِن عليه، فردّه قَنْبَر، فأدْمَى الأشعثُ أنفه، فخرج عليّ وهو يقول: ما لي ولك يا أشعث! أما والله لو بعبد ثقيف تمرّست لاقشعرّتْ شعيراتك! قيل: يا أمير المؤمنين، ومَنْ عبد ثقيف؟ قال: غلامٌ لهم لا يبقِي أهلَ بيتٍ من العرب إلا أدخلهم ذلًّا، قيل: يا أمير المؤمنين، كم يَلِي - أو كم يمكث؟ قال: عشرين، إن بلغها.

قال أبو الفرج: وحدّثني محمد بن الحسين أيضاً بإسناد ذكَره، أنّ الأشعث دخل عَلَى عليّ فكلمه فأغلظ عليّ له، فعرّض له الأشعث، أنه سيفتك به، فقال له عليّ: أبالموتِ تخوّفني أو تهدّدني! فوالله ما أبالي وقعتُ علَى الموتِ أو وقَعَ الموتُ عليّ!

قال أبو الفرج: قال أبو مِخْنف: فحدّثني أبي، عن عبد الله بن محمد الأزديّ، قال: إنّي لأصلّي تلك الليلةَ في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المِصْر، كانوا يصلّون في ذلك الشَّهْر من أول الليل إلى آخره، إذْ نظرتُ إلى رجالٍ يصلّون قريباً من السُّدّة قياماً وقعوداً، وركوعاً وسجوداً، ما يسأمون، إذْ خرج عليهم عليّ بن أبي طالب الفجر، فأقبل ينادي: الصلاة الصلاة! فرأيتُ بريقَ السيف، وسمعت قائلاً يقول: الحكم لله يا عليّ لا لك، ثم رأيت بريقَ سيف آخر، وسمعت صوتَ عليٍّ عليه السلام، يقول: لا يفوتنّكم الرجل.

قال أبو الفرج: فأما بريقُ السيف الأول، فإنه كان شبيب بن بجرة ضربه فأخطأه، ووقعت ضربته في الطّاق، وأما بريق السيف الثاني، فإنه ابن ملجم، ضَرَبه فأثبت الضربة في وسط رأسه، وشدّ الناس عليهما من كلّ ناحية، حتى أخذوهما.

قال أبو مخنف: فهمْدَان تذكُر أنّ رجلاً منهم، يكنى أبا أدماء أخذ ابنَ ملجم. وقال غيرهم: بل أخذَهُ المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب، طرحَ عليه قطيفة ثم صرَعه، وأخذ السيف من يده وجاء به.

قال: وأما شبيب بن بجرة فإنه خرج هارباً، فأخذه رجلٌ فصرَعه، وجلس على صدره، وأخذ السيف من يده ليقتله، فرأى الناسَ يقصدون نحوه، فخشيَ أن يعجّلوا عليه، فوثب عن صدره، وخلاّه وطرح السيف عن يده، وأمّا شبيب بن بجرة ففاته، فخرج هارباً حتى دخلَ منزله، فدخل عليه ابنُ عمٍّ له، فرآه يحلّ الحرير عن صدره، فقال له: ما هذا؟ لعلّك قتلت أمير المؤمنين! فأراد أن يقول: لا، فقال: نعم، فمضى ابنُ عمّه فاشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله.

قال أبو مخنف: فحدّثني أبي، عن عبد الله بن محمد الأزديّ، قال: أدخِلَ ابن مُلجم على عليّ عليه السلام، ودخلتُ عليه فيمن دخَل، فسمعت عليًّا يقول: النَّفْس بالنفس، إن أنا مِتّ فاقتلوه

كما قَتلني، وإن سَلِمْتُ رأيت فيه رأيي، فقال ابن ملجم: ولقد اشتريتُه بألفٍ - يعني السيف -، وسَممْتُه بألف، فإن خانني فأبعده الله! قال: فنادته أمّ كلثوم: يا عدوّ الله، قتلتَ أمير المؤمنين! قال إنّما قتلت أباك، قالت: يا عدوّ الله، إني لأرجُو ألا يكون عليه بأس، قال: فأراك إنما تبكين عليًّا إذاً والله لقد ضربتُه ضربة لو قسِمَت بين أهل الأرض لأهلكتهم.

قال أبو الفرج: وأخرِج ابن ملجم من بين يديه، وهو يقول[1]:

نَحْنُ ضَرَبْنَا يابنةَ الخير إذ طَغَى ... أبا حسنٍ مأمومَةً فتفَطّرا[2]

ونحن حَلَلْنَا ملكه من نظامِه ... بضربةِ سيف إذ علا وتَجَبَّرا

ونحن كرامٌ في الصَّباحِ أعزةٌ ... إذا المرء بالموتِ ارتدى وتأزرا

قال: وانصرفَ النَّاسُ من صلاة الصبح، فأحدَقُوا بابن ملجم، ينهشُون لحمَه بأسنانهم كأنّهم السباع، ويقولون: يا عدوَّ الله، ماذا صنَعت! أهلكت أمةَ محمد، وقتلت خيرَ الناس! وإنه لصامت ما ينطِق.

قال أبو الفرج: وروى أبو مِخْنَف، عن أبي الطُّفَيل، أنّ صعصعة بن صُوحان، استأذَنَ على عليّ عليه السلام، وقد أتاه عائداً لما ضرَبه ابن ملجم - فلم يكن عليه إذْنٌ - فقال صعصعة للآذن: قلْ له: يرحمُك الله يا أمير المؤمنين حَيًّا وميّتاً، فلقد كان الله في صدرك عظيماً، ولقد كنت بذات الله عليماً. فأبلغه الآذِنُ مقالتَه، فقال: قل له: وأنت يرحمك الله، فلقد كنتَ خفيف المؤونة، كثير المعونة.

قال أبو الفرج: ثم جُمع له أطّباءُ الكوفة، فلم يكن منهم أحدٌ أعلم بجُرحه من أثير بن عمرو بن هانيء السَّكونيّ - وكان متَطبِّباً صاحب كرسيّ يعالج الجراحات، وكان من الأربعين غلاماً الذين كان خالد بن الوليد أصابهم في عين التمر فسبَاهم - فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارّة، فاستخرج منها عِرْقاً، وأدخله في الجُرح، ثم نفخه، ثم استخرجه، وإذا عليه بياض الدِّماغ، فقال: يا أمير المؤمنين، اعهَد عهدَك، فإن عدوّ الله قد وصلتْ ضربتُه إلى أمّ رأسك. فدعا عليٌّ عليه السلام عند ذلك بدواة وصحيفة، وكتب وصيتَه: هذا ما أوصى به أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب، أوصى بأنه يشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودينِ الحقّ ليظهرَه على الدّين كله ولو كره المشركون، صلوات الله وبركاته عليه، إن صلاتي ونُسُكِي ومَحْيَاي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين.

---

(١) الأبيات في المؤتلف والمختلف للآمدي ٢٨٥، ونسبها إلى ابن ميناس، وميناس أمُّه.
(٢) المأمومة: الشجّة التي تبلغ أمّ الرأس.

أوصيك يا حسن وجميعَ ولدي وأهل بيتي ومَنْ بلغه كتابي هذا بتقوى الله ربّنا وربكم، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، فإني سمعتُ رسول الله يقول: «صلاح ذات البين أفضلُ من عامة الصلاة والصيام»(١)، وإن المبيرة حالقة الدين إفساد ذات البين، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم. انظروا إلى ذوي أرحامكم فصِلُوها يهوّن الله عليكم الحساب. والله الله في الأيتام فلا تُغيّرُنّ أفواهَهم بجفوتكم. والله الله في جيرانكم، فإنها وصية رسول الله ﷺ، فما زال يُوصينا بهم حتى ظننّا أنه سيورّثهم(٢) الله، والله الله في القرآن فلا يسبقنّكم بالعمل به غيرُكم. والله الله في الصلاة، فإنها عماد دينكم. والله الله في صيام شهر رمضان فإنه جُنّة من النار. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم، والله الله في زكاة أموالكم، فإنها تطفىء غضب ربكم، والله الله في أهل بيت نبيكم فلا يظلَمُنّ بين أظهركم، والله الله في أصحاب نبيّكم فإن رسول الله ﷺ أوصَى بهم. والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم.

والله الله فيما ملكت أيمانكم فإنه كانت آخر وصيّة رسول الله ﷺ إذ قال: «أوصيكم بالضّعيفين، فيما ملكت أيمانكم»(٣)، ثم الصلاةَ الصلاةَ لا تخافوا في الله لومة لائم يكفكم مَنْ بغى عليكم، ومن أرادكم بسوء. قولُوا للناس حسناً، كما أمركم الله به، ولا تتركوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولّى ذلك غيرُكم، وتدعون فلا يستجابُ لكم. عليكم بالتواضُع والتباذل والتبارّ، وإياكم والتقاطُع والتفرّق والتدابر، تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب. حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيَّه، أستودعكم الله خير مستودَع، وعليكم سلام الله ورحمته.

قلت: قوله: «والله الله في الأيتام، فلا تغيّرنّ أفواههم بجفوتكم» يحتمل تفسيرَيْن: أحدُهما لا تجيعوهم، فإن الجائع يخلُف فمه، وتتغيّر نكهته. والثاني: لا تحوِجوهُم إلى تكرار الطلب والسؤال، فإنّ السائل ينضبُ ريقه وتنشفُ لهواته(٤)، ويتغيّر ريح فمه.

وقوله حكاية عن رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمانكم»، يعني به الحيوان الناطق والحيوان الأعجم.

قال أبو الفرج: وحدثني أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ بإسناد ذكره في الكتاب، عن أبي

---

(١) أخرجه أبو داود ح: (٤٩١٩)، والترمذي ح: (٢٥٠٩)، وأحمد في مسنده ح: (٢٦٩٦٢).
(٢) أخرجه البخاري ح: (٦٠١٤)، ومسلم ح: (٢٦٢٥)، والترمذي ح: (١٩٤٢)، وأبو داود ح: (٥١٥٢).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٦٨).
(٤) اللهوات: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق. اللسان مادة (لهو).

عبد الرحمن السلميّ، قال: قال لي الحسن بن عليّ عَلَيْتَلا : خرجتُ وأبي يصلّي في المسجد، فقال لي: يا بنيّ إن بتّ الليلة أوقظ أهلي، لأنها ليلة الجمعة صبيحة يوم بدر لتسع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، فملكتْني عيناي، فسنَح لي رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ماذا لقيت من أمّتك من الأوَد واللَّدد[1]! فقال لي: ادْعُ عليهم، فقلت: اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي مَنْ هو شرٌّ مني»[2].

قال الحسن عَلَيْتَلا : وجَاء ابنُ أبي السَّاج، فآذَنه بالصلاة، فخرج فخرجت خَلْفه، فاعتوره الرجلان، فأمّا أحدُهما فوقعت ضربته في الطَّاق، وأما الآخر فأثبتها في رأسه.

قال أبو الفرج: قال: حدثني أحمد بن عيسى، قال: حدّثنا الحسين بن نصر، قال: حدثنا زيد بن المعدّل، عن يحيى بن شعيب، عن أبي مُخْنف، عن فُضَيل بن خديج، عن الأسود الكنديّ والأجلح، قالا، توفّي عليّ عَلَيْتَلا وهو ابن أربع وستين سنة في عام أربعين من الهجرة، ليلة الأحد لإحدى وعشرين ليلة مضت من شهر رمضان، ووليَ غُسلَه ابنُه الحسن وعبد الله بن العباس، وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وصلّى عليه ابنُه الحسن، فكبّر عليه خمسَ تكبيرات، ودُفِن بالرَّحَبة، مما يلِي أبوابَ كِنْدة عند صلاة الصبح.

هذه رواية أبي مخنف.

قال أبو الفرج: وحدّثِني أحمد بن سعيد، قال: حدثنا يحيى بن الحسن العلويّ، قال: حدّثنا يعقوب بن زيد، عن ابن أبي عُمَيْر، عن الحسن بن علي الخلال، عن جَدّه، قال: قلت للحسين بن عليّ عَلَيْتَلا : أين دفنتم أمير المؤمنين عَلَيْتَلا ؟ قال: خرجنا به ليلاً من منزله حتى مَرَرْنا به على منزل الأشعث بن قيس، ثم خرجنا به إلى الظهر بجنب الغَرِيّ.

قلت: وهذه الرواية هي الحقّ وعليها العمل، وقد قلنا فيما تقدّم أن أبنَاء الناسِ أعرفُ بقبور آبائهم من غيرهم من الأجانب، وهذا القبر الذي بالغريّ، هو الذي كان بنو عليّ يزورونه قديماً وحديثاً، ويقولون: هذا قبر أبينا، لا يشكّ أحد في ذلك من الشيِّعة، ولا من غيرهم، أعني بني عليّ من ظهر الحسن والحسين وغيرهما من سلالته، المتقدمين منهم والمتأخرين، ما زاروا ولا وقفوا إلاّ على هذا القبر بعينه.

وقد روي أبو الفَرَج عبد الرحمن بن علي بن الجوزيّ في تاريخه المعروف «بالمنتظم»[3] وفاة أبي الغنائم محمد بن علي بن ميمون النَّرسِيّ المعروف بأبيّ، لجودة قراءته قال:

---

(١) اللَّدَد: الخصومة الشديدة. اللسان مادة (لدد).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥٢٠).

(٣) المنتظم ٩/ ١٨٩.

توفي أبو الغنائم هذا في سنة عشر وخمسمائة، وكان محدّثاً من أهل الكوفة ثقة حافظاً، وكان من قُوّام الليل ومن أهل السنّة، وكان يقول: ما بالكوفة مَنْ هو على مذهب أهل السنّة وأصحاب الحديث غيري، وكان يقول: مات بالكوفة ثلاثمائة صحابيّ ليس قبر أحد منهم معروفاً إلا قبر أمير المؤمنين، وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن، جاء جعفر بن محمد عليه السلام وأبوه محمد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام إليه، فزاراه، ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً، وإنما كان به سَرْح عِضاه، حتى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم، فأظهر القبر.

وسألت بعضَ من أثق به من عقلاء شيوخ أهل الكوفة عمّا ذكره الخطيب أبو بكر في تاريخه، أنّ قوماً يقولون: إنّ هذا القبر الذي تزورُه الشيعة إلى جانب الغريّ هو قبر المغيرة بن شعبة، فقال: غلطوا في ذلك، قبر المغيرة وقبر زياد بالثويّة من أرض الكوفة، ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا. وأنشدني قولَ الشاعر يرثي زياداً، وقد ذكره أبو تمام في الحماسة:

صَلّى الإلٰه على قبرٍ وَطَهّرَهُ … عند الثويّة يَسفِي فوقَه المورُ[1]
زَفّت إليه قريشٌ نعشَ سَيِّدها … فالحلم والجُودُ فيه اليوم مَقْبُور
أبا المغيرة والدنيا مفجّعةٌ … وإنّ من غرّتِ الدنيَا لمَغْرُور
قد كان عندك للمعروف معرفَةٌ … وكان عندك للمنكُور تنكيرُ
وكنت تُغْشَى وتعطي المَال مِنْ سَعَةٍ … فاليوم قبرُك أضحى وهو مهجُورُ
والنَّاسُ بعدَك قد خَفَّتْ حُلُومُهُم … كأنما نُفِخَتْ فيه الأعاصيرُ

وسألت قطبَ الدين نقيب الطالبيين أبا عبد الله الحسين بن الأقساسيّ رحمه الله تعالى عن ذلك، فقال: صدَق من أخبرك، نحن وأهلها كافّة نعرف مقابر ثَقِيف إلى الثَّوِيّة، وهي إلى اليوم معروفة، وقبر المغيرة فيها، إلا أنها لا تعرف، وقد ابتلعها السَّبَخُ[2] وَزَبَدُ الأرض وفورانُها، فطمِسَت واختلط بعضها ببعض.

ثم قال: إن شئت أن تتحقّق أنّ قبر المغيرة في مقابر ثَقيف فانظر إلى كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين، والمَحْ ما قاله في ترجمة المغيرة، وأنه مدفونٌ في مقابر ثقيف، ويكفيك قولُ أبي الفرج، فإنه الناقد البصير، والطبيب الخبير، فتصفَّحْتُ ترجمةَ المغيرة في الكتاب المذكور، فوجدت الأمر كما قاله النقيب.

(١) المور: الغبار. اللسان مادة (مور).
(٢) السَّبْخ: المكان يسبخ فينبت الملح وتسوخ فيه الأقدام.

قال أبو الفرج: كان مصقلةُ بن هبيرة الشيباني قد لاَحَى المغيرةَ في شيء كان بينهما منازعة، فضرعَ له المغيرة وتواضع في كلامه، حتى طمع فيه مصقلة، فاستعلى عليه وشَتمه، وقال: إنّي لأعرفُ شَبَهي في عروة ابنك، فضربه شرَيح الحدّ وآلى مصقلة ألاَّ يقيم ببلدة فيها المغيرة، فلم يدخل الكوفة، حتى مات المغيرة، فدخلها، فتلقاه قومُه فسلّموا عليه، فما فرغ من السلام حتى سألهم عن مقابر ثَقيف، فأرشدوه إليها، فجعل قومٌ من مواليه يلتقطونَ الحجارة، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا: نظنّ أنك تريد أن ترجُم قبر المغيرة، فقال: ألقوا ما في أيديكم، فانطلق حتى وقف على قبره، ثم قال: والله لقد كنتَ - ما علمت - نافعاً لصديقك، ضارًّا لعدوك، وما مثلك إلا كما قال مهلهل في كليب أخيه:

إنّ تحتَ الأحجار حَزماً وعَزماً ... وَخصيماً ألَدَّ ذا مِغلاَقِ

حيّةٌ في الوجار أرْبد لاَ ينـ ... ـفعُ منه السليمَ نفثةُ راقِ[١]

قال أبو الفرج: فأما ابن ملجم، فإن الحسن بن عليّ بعد دفنه أمير المؤمنين دَعَا به وأمر بضرب عنقه، فقال له: إن رأيت أن تأخذ عليّ العهود أنْ أرجعَ إليك حتى أضعَ يدي في يدك، بعد أن أمضيَ إلى الشام، فأنظر ما صنع صاحبي بمعاوية، فإن كان قتله وإلا قتلتُه ثم عدت إليك حتى تحكُم فيّ حكمك. فقال: هيهات، والله لا تشربُ الماء البارد حتى تلحق روحك بالنار، ثم ضرب عنقه، واستوهبت أم الهيثم بنت الأسود النَّخَعِيّة جثّته منه، فوهبها لها، فأحرقتها بالنار[٢].

وقال ابن أبي مياس الفزاريُّ، وهو من الخوارج:

فلَمح أرَ مَهراً سَاقَهُ ذُو سماحة ... كمهر قَطامٍ من غَنِيٍّ ومُعْدِمِ

ثلاثةُ آلاف وعبدٌ وقَينَةٌ ... وضربُ عليٍّ بالحسام المصمّمِ

فلا مهرَ أغلى من عليّ وإن غلا ... ولا فَتْك إلا دُونَ فَتْكِ ابن ملجم

وقال عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[٣]:

وَهَزَّ عَلِيٌّ بالعراقين لحيةً ... مصيبتُهَا جلّت عَلَى كل مُسْلم

وقال سيأتيها من الله نازلٌ ... ويخضِبُها أشقَى البَرية بالدم

فعاجَلَهُ بالسيف شَلَّتْ يمينُه ... لشؤم قَطَام عند ذاك ابن مُلْجَم

فيا ضربةً من خاسر ضَلّ سعيُه ... تَبَوّأ منها مقعداً في جهنم

ففاز أميرُ المؤمنين بحظه ... وإن طرقت إحدى الليالي بمعظم

---

(١) الوِجار: جُحْر الضبع والأسد والذئب ونحو ذلك، والبيتان في الأغاني ١٦/ ٩٢.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٢/ ٢٣٢.

(٣) الأبيات في الاستيعاب ٤٧٢، ونسبها إلى بكر بن حماد.

ألا إنــمــا الــدنــيــا بــلاءٌ وفــتــنــة حــلاوتُــهــا شــيــبــتْ بــصــابٍ وعــلــقــم

قال أبو الفرج: وأنشدني عمّي الحسن بن محمد، قال: أنشدني محمد بن سعد، لبعض بني عبد المطلب، يرثي عليًا، ولم يذكر اسمه:

يــا قــبرَ سيــدنــا الــمــجنّ ســمــاحــةً صــلّــى الإلٰــهُ عــلــيــك يــا قَــبْــرُ
مــا ضــرّ قَــبْــراً أنــت ســاكــنُــه ألاَّ يَــحُــلَّ بــأرضــه الــقَــطْــرُ
فــلــيــنــديــنّ ســمــاحُ كَــفِّــك بــالــثَّــرى ولــيــورقــنّ بــجــنــبــك الــصَّــخْــرُ
والله لــــو بـــك لــم أجِــدْ أحــداً إلا قــتــلــت، لــفَــاتَــنِــي الــوتْــرُ

٧٠ – ومن كلام له عليه السلام في ذم أهل العراق

الأصل: أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ ٱلْعِرَقِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَالمَرْأَةِ الحَامِلِ، حمَلَتْ فَلَمَّا أَتَمَّتْ أَمْلَصَتْ ومَاتَ قَيِّمُهَا، وطَالَ تَأَيُّمُهَا، ووَرِثَهَا أَبْعَدُهَا.

أَمَا وَٱللهِ مَا أَتَيْتُكُم ٱخْتِيَاراً، وَلٰكِنْ جِئْتُ إِلَيْكُمْ سَوْقاً. ولقد بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عَلِيٌّ يَكْذِبُ، قَاتَلَكُمُ ٱللهُ تَعَالَى! فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ! أعَلَى الله فأَنَا أَوَّلُ منْ آمَنَ بِهِ! أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ؟ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ بِهِ!

كَلاَّ والله، لَكِنها لَهْجَةٌ غِبْتُمْ عَنْهَا، ولَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، ويْلُ أُمِّهِ كَيْلاً بِغَيرِ ثَمَنٍ لَوْ كَانَ لَهُ وِعَاءٌ: وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حينٍ!

الشرح: أملصت الحامل: ألقتْ ولدها سقاطاً. وقيّمها: بعلها. وتأيّمها: خلّوها عن الأزواج، يقول: لما شارفتم استئصالَ أهل الشام، وظهرت أمارات الظّفر لكم، ودلائل الفتح، نكصْتم وجنحتم إلى السّلْم والإجابة إلى التحكيم عند رفع المصاحف، فكنتم كالمرأةِ الحامل لما أتمت أشهرَ حَمْلِها ألقت ولدها إلقاءً غير طبيعيّ، نحو أن تلقيَه لسقطةٍ أو ضربة أو عارض يقتضي أن تلقيَه هالكاً.

ثم لم يكتف لهم بذلك، حتى قال: «ومات بعلُها، وطال تأيّمها، وورثها أبعدها»، أي لم يكن لها ولد وهو أقربُ المخلفين إلى الميت، ولم يكن لها بَعْلٌ فورثها الأباعد عنها، كالسافلين من بني عمّ، وكالمولاة تموت من غير ولد ولا من يجري مجراه، فيرثُها مولاها ولا نَسب بينها وبينه.

ثم أقسم أنه لم يأتهم اختياراً، ولكنّ المقاديرَ ساقته إليهم سَوْقاً، يعني اضطراراً. وصدقَ عليه السلام، لأنه لولا يوم الجمل لم يحتَجْ إلى الخروج من المدينة إلى العراق، وإنما استنجَد بأهْل الكوفة على أهل البصرة، اضطراراً إليهم، لأنّه لم يكن جيشُه الحجازيُّ وافياً بأهل البصرة الذين أصفقوا على حَرْبه ونكْث بيعته، ولم يكن خروجه عن المدينة - وهي دار الهجرة - ومفارقته لقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقبرِ فاطمة عن إيثارٍ ومحبّة، ولكنّ الأحوال تحكم وتسوقُ الناس إلى ما لا يختارونه ابتداء.

وقد روي هذا الكلام على وجه آخر: «ما أتيتكم اختياراً، ولا جئت إليكم شوقاً» بالشين المعجمة.

ثم قال: «بلغنَي أنكم تقولون: يكذب»، وكان كثيراً ما يخبر عن الملاحم والكائنات ويوميء إلى أمور أخبره بها رسول الله صلى الله عليه وآله، فيقول المنافقون من أصحابه: يكذب كما كان المنافقون الأوّلون في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون عنه: يكذب.

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن الأعمش، عن رجاله، قال: خطب عليٌّ عليه السلام، فقال:

والله لو أمرتُكم فجمعتم من خياركم مائة، ثم لو شئت لحدّثتكم من غُدوة إلى أن تَغيب الشمس، لا أخبرتُكم إلا حقًّا، ثم لتخرُجنَّ فلتزعُمنَّ أني أكْذَبُ الناس وأفجرُهم.

وقد روى صاحب هذا الكتاب وغيره من الرواة أنه قال:

إن أمرَنا صعب مستصعَب، لا يحمله إلا ملك مقرّب، أو نبيٌّ مرسل، أو عبدٌ امتحَن الله قلبَه للإيمان[1].

وهذا الكلام منه كلام عارفٍ عالم بأنّ في الناس مَنْ لا يصدّقه فيما يقول، وهذا أمر مركوز في الجبلّة البشرية، وهو استبعاد الأمور الغريبة، وتكذيب الإخبار به. وإذا تأمّلتَ أحواله في خلافته كلّها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، كأنها نسخة منتسَخة منها، في حربه وسِلْمه، وسيرته وأخلاقه، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره، وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً، فاقرأ سورة «براءة» ففيها الجمّ الغفير من المعنَى الذي أشرنا إليه.

---

(١) أخرجه الصدوق في الخصال: ٦٢٤، والراوندي في الخرائج والجرائح: ٢/ ٧٩٤.

واعلم أن النظّام[1] لما تكلّم في كتاب «النُّكت»، وانتصر لكون الإجماع ليس بحجّة، اضطر إلى ذكْر عيوب الصحابة، فذكَر لكلٍّ منهم عيباً، ووجّه إلى كلّ واحد منهم طعناً، وقال في عليّ: إنه لما حارب الخوارج يوم النهروان، كان يرفعُ رأسَه إلى السماء تارة ينظر إليها، ثم يُطرِق إلى الأرض فينظر إليها تارةً أخرى، يُوهِم أصحَابه أنه يُوحَى إليه، ثم يقول: «ما كذبت ولا كذِبت»، فلما فرغ من قتالهم وأدِيل عليهم، ووضعت الحرب أوزارها، قال الحسن ابنه: يا أميرَ المؤمنين، أكانَ رسول الله ﷺ تقدّم إليك في أمر هؤلاء بشيء؟ فقال: لا، ولكنّ رسول الله ﷺ أمرَني بكلّ حقٍّ، ومن الحقّ أن أقاتلَ الناكثين والقاسطين والمارقين.

قال النّظام: وقولُه: «ما كذَبت ولا كذِبت»، ورفعه رأسه أحياناً إلى السماء وإطراقه إلى الأرض إيهام، إما لنزول الوحي عليه، أو لأنه قد أوصِيَ من قَبْل في شأن الخوارج بأمرٍ. ثم هو يقول: ما أوصِيَ فيهم على خصوصيّتهم بأمر، وإنما أوصِيَ بكلّ الحق، وقتالهم من الحق.

وهذا عجيب طريف.

فنقول: إن النظام أخطأ عندنا في تعريضه بهذا الرجل خطأ قبيحاً، وقال قولاً منكراً، نستغفر الله له من عقابه، ونسأله عفوَه عنه، وليست الرواية التي رواها عن الحسن وسؤالِه لأبيه وجوابه له، بصحيحة ولا معروفة، والمشهور المعروف المنقولُ نقلاً يكاد يبلغ درجةَ المتواتر من الأخبار، ما روي عن رسول الله ﷺ في معنى الخوارج بأعيانهم وذكرهم بصفاتهم، وقوله ﷺ لعلي عليه السلام: «إنَّك مقاتلهم وقاتلهم، وإن المخدَج ذا الثُّدَيّة منهم، وإنك ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين»[2]، فجعلهم أصنافاً ثلاثة حسب ما وقعت الحال عليه. وهذا من معجزات الرسول الله ﷺ، وإخباره عن الغيوب المفصّلة. فما أعلمُ من أيّ كتابٍ نَقَل النظّام هذه الرواية، ولا عن أيّ مُحَدّث رواها، ولقد كان رحمه الله تعالى بعيداً عن معرفة الأخبار والسِّيَر منصباً فكره، مجهداً نفسه في الأمور النظرية الدقيقة. كمسألة الجزء. ومداخلة الأجسام وغيرهما، ولم يكن الحديث والسِّيَرُ من فنونه ولا مِن علومه، ولا ريب أنه سمِعها ممن لا يوثَق بقوله، فنقلها كما سمعها.

فأما كونه عليه السلام كان ينظر تارةً إلى السماء، وتارةً إلى الأرض. وقوله: «ما كَذَبت ولا

---

(١) النظام هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري المعتزلي ذكره ابن حجر في لسان الميزان ١/ ٦٧، وقال: «مات في خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين».

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٧٥)، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٣٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٩)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٨٧) كلهم، دون قوله: «إنك مقاتلهم، وقاتلهم، وإن المخدج ذا الثدية منهم».

كُذِبت»(١)، فصحيح وموثوق بنقله، لاستقامته وشهرته وكثرة رواته، والوجه في ذلك أنه استبطأ وجود المخدَج حيث طلبه في جملة القتلى، فلما طال الزمان. وأشفق من دخول شبهة على أصحابه لما كان قدّمه إليهم من الأخبار قَلِق واهتمّ. وجعل يكرر قوله: «ما كَذَبت ولا كُذِبت» أي ما كذبت على رسول الله ﷺ. ولا كذّبني رسول الله ﷺ فيما أخبرني به.

فأمّا رفعُه رأسَه إلى السماء تارةً. وإطراقهُ إلى الأرض أخرى، فإنّه حيث كان يرفع رأسه، كان يدعُو ويتضرّع إلى الله في تعجيل الظَّفرِ بالمخدَج، وحيث يطرِق كان يغلبُه الهمّ والفكر فيُطرق.

ثم حين يقول: «ما كَذَبت ولا كُذِبت»، كيف ينتظر نزول الوحي، فإنّ من نزل عليه الوحي لا يحتاج أن يُسند الخبر إلى غيره، ويقول: ما كَذَبت فيما أخبرتكم به عن رسول الله ﷺ.

ومما طعن به النظّام عليه أنه عليه السلام قال: إذا حدَّثتكم عن رسول الله ﷺ فهو كما حدّثتكم، فوالله لأن أخِرّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أكذب على رسول الله ﷺ، وإذا سمعتموني أحدِّثكم فيما بيني وبينكم، فإنما الحرْب خدعة».

قال النظّام: هذا يجرِي مجرى التَّدْليس في الحديث، ولو لم يحدّثهم عن رسول الله ﷺ بالمعارض، وعلى طريق الإيهام لما اعتذر من ذلك.

فنقول في الجواب: إنّ النّظام قد وَهِم وانعكس عليه مقصِد أمير المؤمنين، وذلك أنه عليه السلام لشدة ورعه أراد أن يفصّل للسامعين بين ما يخبر به عن نفسه، وبين ما يرويه عن رسول الله ﷺ، وذلك لأنّ الضرورة ربّما تدعوه إلى استعماله المعاريض، لاسيما في الحرب المبنيّة على الخديعة والرأي، فقال لهم: كلّ ما أقول لكم قال لي رسول الله ﷺ، فاعلموا أنه سليمٌ من المعاريض، خال من الرّمز والكناية، لأني لا أستجيز ولا أستحلّ أن أُعمِّيَ أو ألغِزَ في حديث رسول الله ﷺ وما حدّثتكم به عن نفسي، فربّما استعمل فيه المعارض، لأنّ الحرْب خُدْعة. وهذا كلام رجل قد استعمل التقوى والوَرَع في جميع أموره، وبلغ من تعظيم أمر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وإجلال قدره واحترام حديثه ألا يرويَه إلا بألفاظه لا بمعانيه ولا بأمرٍ يقتضي فيه إلباساً وتعمِيَةً، ولو كان مضطراً إلى ذلك، ترجيحاً للجانب الذي على جانب مصلحته في خاص نفسه. فأمّا إذا هو قال كلاماً يبتدىء به من نفسِه، فإنه قد يستعمِلُ فيه المعاريضَ إذا اقتضتِ الحكمةُ والتدبير ذلك، فقد كان رسول الله ﷺ باتّفاق الرواةِ كافّة إذا أراد أن يغزُوَ وجهاً ورّى عنه بغيره، ولَمّا خرج عليه السلام من المدينة لفتح مكة، قال

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج (١١٦٦)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي (١١٨٣).

لأصحابه كلاماً يقتضي أنه يقصِد بني بكْر بن عبد مناة من كنانة، فلم يعلَمُوا حقيقة حالِه حتى شارفَ مكة. وقال حين هاجَر وصحِبَه أبو بكر الصّديق لأعرابيّ لقيهما: منْ أين أنت؟ وممن أنت؟ فلما انتسبَ لهما، قال له الأعرابيّ: أمّا أنا فقد أطلعتُكما طِلْعَ أمرِي، فممّن أنت؟ فقال: من ماء، لم يزده على ذلك، فجعل الأعرابيّ يفكّر، ويقول: من أيّ ماء؟ من ماء بني فلان، من ماء بني فلان؟ فتركه ولم يفسّر له، وإنما أراد عليه السلام أنه مخلوقٌ من نطفة.

فأما قول النّظام: «لو لم يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله بالمعارِيض لما اعتذرَ من ذلك»، فليس في كلامه اعتذار، ولكنه نَفَى أن يُدْخِلَ المعاريض في روايته، وأجازها فيما يبتدىء به عن نفسِه، وليس يتضمّن هذا اعتذاراً. وقوله: «لأنْ أخِرّ من السماء» يدلّ على أنّه ما فعل ذلك ولا يفعله.

ثم قال: «عَلَى مَنْ أكذِب؟» يقول: كيف أكذب على الله وأنا أوّل المؤمنين به؟ وكيف أكذب على رسول الله وأنا أول المصدّقين به! أخرجه مخرج الاستبعاد لدعواهم وزعمهم.

فإن قلت: كيف يمكنُ أن يكونَ المكلّف الذي هو من أتباع الرسول كاذباً على الله إلا بواسطة إخبارِه عن الرسول، لأنه لا وصلةَ ولا واسطة بينه وبين الله تعالى إلا الرسول، وإذا لم يكن كَذِبُه على الله إلا بكذبه على الرسول لم يَبْقَ لتقسيم الكذب وقوله: «أفأنا أكذب على الله أو على رسوله؟» معنى.

قلت: يمكن أن يكذِب الكاذب على الله دون أن يكونَ كاذباً على الرسول، وإن كان من أتباع الرسول، نحو أن يقول: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله ليلةً في مقبرة فأحيا الله تعالى فلاناً الميت، فقام وقال كذا. أو يقول: كنت معه يوم كذا، فسمعت منادياً يناديه من السماء: افعل كذا، أو نحو ذلك من الإخبار بأمورٍ لا تستند إلى حديث الرسول.

ثم قال عليه السلام: «كلاّ والله»، أي لا والله. وقيل: إن «كلاّ» بمعنى «حقًّا» وإنه إثبات.

قال: «ولكنها لهجة غِبْتُم عنها»، اللهجَة، بفتح الجيم، وهي آلة النطق، يقال له: هو فصيح اللهجة، وصادق اللهجة. ويمكن أن يعنَى بها لهجة رسول الله صلى الله عليه وآله، فيقول: «شهدت وغبتم». ويمكن أن يعني بها لهجتَه هو، فيقول: إنها لهجة غبتم عن منافعها، وأعدمتم أنفسكم ثمن مناصحتها.

ثم قال: «ويلمّه» الضمير راجع إلى ما دلّ عليه معنى الكلام من العلم، لأنّه لما ذكر اللّهجة

وشهودَه إياها وغيبُوبتهم عنها دلّ ذلك على علمٍ له خصّه به الرسول عليه السلام. فقال: «ويلمّه»، وهذه كلمة تقال للتعجّب والاستعظام، يقال: «ويلمّه فارساً!» وتكتب موصولة كما هي بهذه الصورة، وأصله «ويل أمّه» مرادهم التعظيم والمدح، وإن كان اللفظ موضوعاً لضدّ ذلك، كقوله عليه الصلاة والسلام: «فاظفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يداك»[1]، وكقولهم للرجل يصفونه ويقرِّظونه: «لا أبا له».

وقال الحسن البصريّ، وهو يذكر عليًّا عليه السلام، ويصف كونه على الحقّ في جميع أموره، حتى قال: «فلما شارف الظّفرَ وافق على التحكيم، وما لَك في التحكيم والحقّ في يديك، لا أبا لك!».

قال أبو العباسَ المبرّد: هي كلمة فيها جفاء وخشونة، كانت الأعراب تستعملها فيمن يستعظمون أمرَه، قال: ولما أنشِدَ سليمانُ بن عبد الملك قول بعض الأعراب:

رَبَّ العِبادِ ما لَنا وما لَكا ... قد كنتَ تسقِينَا فما بَدَا لكا

أنزِلْ علينا الغيثَ لا أبَا لَكَا

قال: أشهدُ أنه لا أبَ له ولا صاحبةَ ولا ولد، فأخرجها أحسن مخرج.

ثم قال عليه السلام: «كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء»، انتصب «كيلاً» لأنه مصدر في موضع الحال، ويمكن أن ينتصب على التمييز، كقولهم: لله دره فارساً! يقول: أنا أكِيلُ لكم العلم والحكمة كيْلاً ولا أطلب لذلك ثمناً لو وجدت وعاء! أي حاملاً للعلم، وهذا مثل قوله عليه السلام: ها إنّ بين جنبيّ علماً جمّاً لو أجِد له حَمَلَةً!

ثم ختم الفصلَ بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[2]، وهو أحسن ما خُتمَ هذا الكلام به.

خطبة الإمام علي عليه السلام بعد انقضاء أمر النهروان

وروي المدائنيّ في كتاب «صِفّين»، قال: خطب عليّ عليه السلام بعد انقضاءِ أمر النَّهروان، فذكر طَرفاً من الملاحم، قال: إذا كَثرُتْ فيكمُ الأخلاَطُ، واستولَتِ الأنباطُ، دنَا خَرابُ العراق، ذاك إذا بُنِيَتْ مدينة ذات أثْلٍ[3] وأنهار. فإذا غلت فيها الأسْعار، وشُيِّدَ فيها البِنانُ، وحَكم فيها الفُسّاق، واشتدَّ البَلاء، وتَفَاخَر الغوغاء، دنَا خُسوف البيْدَاء، وطاب الهَرَبُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: الأكفاء في الدين (٥٠٩٠)، ومسلم في كتاب: الرضاع، باب: استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦)، والنسائي في كتاب: النكاح، باب كراهية تزويج الزناة (٣٢٣٠).

(٢) سورة صٓ، الآية: ٨٨.

(٣) الأثل: شجر.

والجلاء. وستكونُ قبل الجلاء أمورٌ يشيبُ منها الصَّغير، ويعْطَبُ الكبير، ويخرَس الفصيح وَيبْهَتُ اللَّبيب، يعاجَلون بالسيف صَلْتا، وقد كانوا قبل ذلك في غَضَارة[1] من عَيْشهم يمْرحُون. فيا لَها مصيبة حينئذ! من البلاء العَقيم، والبُكاءِ الطويل، والويْل والعويل، وشدَّةِ الصَّريخ، في ذلك أمرُ الله - وَهُوَ كائن، وقتاً - بريج[2]. فيابنَ حُرّة الإماء، متى تَنْتَظِرُ! أبشِرْ بنصرٍ قريب مِنْ رَبٍّ رحيم. ألاَ فويْلٌ للمتكبِّرين، عند حصاد الحاصدين، وقتل الفاسِقينَ. عصاة ذي العرش العظيم، فبأبي وأمّي من عدة قليلة! أسماؤهم في الأرض مجْهولة. قد دنا حينئذ ظهورُهم، ولو شئت لأخبرتُكم بما يأتي ويكون مِنْ حَوادث دَهْرِكُمْ ونوائب زمانكم، وبلايا أيامكم، وغَمَرَات ساعاتكم، ولكنّه أفضِيه إلى مَنْ أُفضيه إليه، مخافةً عليكم، ونظراً لكم، علماً منِّي بما هو كائن وما يكون من البلاء الشامل، ذلك عند تمرّد الأشرار، وطاعة أولي الخسار. ذاك أوانُ الحَتْفِ والدمار، ذاك إدبار أمركم، وانقطاع أصْلِكم وتشتُّتِ ألفتكم، وإنما يكون ذلك عند ظُهور العصيان، وانتشار الفُسوق، حيثُ يكون الضربُ بالسَّيْفِ أهونَ على المؤمنين من اكتساب درْهَمٍ حلال، حينَ لا تُنالُ المعيشَةُ إلا بمعصية الله في سمائه، حينَ تَسْكَرُونَ من غير شراب، وتحلِفون من غير اضطرار، وتظلِمون مِنْ غير منفعة، وتكذبون من غير إحراج. تتفكّهون بالفسوق، وتبادرون بالمعصية. قولُكم البهتان، وحديثكم الزور، وأعمالكم الغرور، فعندَ ذلك لا تأمنون البَيّات، فياله من بياتٍ ما أشدّ ظلمته! ومن صائح ما أفظع صوته! ذلك بيات لا يَنْمِي صاحِبُه، فعند ذلك تُقتَلون، وبأنواع البلاء تُضرَبُون، وبالسَّيْف تحصَدُون، وإلى النار تصيرون، ويعضّكم البلاء كما يعضّ الغاربَ[3] القَتَب. يا عجباً كلّ العجب، بين جُمادَى ورَجَب! من جمع أشتاتٍ، وحصْدِ نبات، ومن أصوات بعدها أصوات. ثم قال: سبق القضاء... سبق القضاء!

قال رجل من أهل البصرة لرجل من أهل الكوفة إلى جانبه: أشهدُ أنه كاذب على الله ورسوله! قال الكوفيّ: وما يُدريك؟ قال: فوالله ما نزل عليّ من المنبر حتى فُلِجَ الرجل، فحمِل إلى منزله في شِقّ محمل، فمات من ليلته.

بعض مما قاله الإمام علي عليه السلام

وروي المدائنيّ أيضاً. قال: خطب عليّ عليه السلام، فقال: لو كُسِرتْ لي الوِسادة لحكمتُ بين أهل التوراة بتوراتِهم، وبين أهلِ الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهْلِ الفرقان بفرقانهم، وما مِنْ آية في كتاب الله أنزلتْ في سهلٍ أو جبل إلا وأنا عالم مَتَى أنزلت، وفيمن أنزلت.

---

(١) الغضارة: النعمة والسعة والخصب.
(٢) كذا وردت العبارة في الأصول، وفيها غموض.
(٣) الغارب هنا: كاهل البعير. والقتب: رجل صغير على قدر السنام، والكلام هنا جارٍ مجرى المثل.

فقال رجل من القُعود تحت مِنْبره: يالله وللدّعوى الكاذبة! وقال آخر إلى جانبه: أشهد أنك أنت الله رب العالمين!

قال المدائني: فانظر إلى هذا التناقض والتباين فيه!

وروي المدائني أيضاً، قال: خطب عليّ عليه السلام، فذكر الملاحم، فقال: سلوني قبل أن تفقِدوني، أما والله لَتَشْغَرَنَّ[١] الفتنة الصمّاء برجلِها، وتطأ في خِطامها.

يالها من فِتنة شُبّت نارها بالحطب الجزْل، مقلبة من شرق الأرض رافعة ذيلها، داعية ويلَها، بدجلة أو حولها. ذاك إذا استدارَ الفلَك، وقلتم: مات أو هلك، بأيّ واد سلك!

فقال قوم تحت منبره: لله أبوه! ما أفصحه كاذباً[٢]!

وروي صاحب كتاب «الغارات» عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث، قال: سمعت عليًّا يقول على المنبر: ما أحدٌ جَرَتْ عليه المواسِي إلاّ وقد أنزل الله فيه قرآناً، فقام إليه رجل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، فما أنزل الله تعالى فيك؟ قال: يريد تكذيبه. فقام الناس إليه يلكزونه في صدره وجنبه، فقال: دعوه، أقرأت سورة هود؟ قال نعم، قال: أقرأت قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[٣] قال: نعم، قال: صاحب البيّنة محمد، والتالي الشاهد أنا[٤].

٧١ - ومن خطبة له عليه السلام علّم فيها الناس الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله

الأصل: اللَّهُمَّ دَاحِيَ المَدْحُوَّاتِ، ودَاعِمَ المَسْمُوكاتِ، وجَابِلَ ٱلْقُلُوبِ عَلَى فِطَرَاتِها شَقِيِّهَا وسَعِيدِهَا، اجْعَلْ شَرَائِفَ صَلَوَاتِكَ، ونَوامِيَ بَرَكَاتِكَ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ ورَسُولِكَ. الخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، والْفَاتِحِ لِمَا انْغَلَقَ، والمُعْلِنِ الحَقَّ بِالحَقِّ، والدَّافِعِ جَيْشَاتِ

(١) الشغر: الرفع، لسان العرب، مادة (شعر).
(٢) انظر تاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٣، والبحار: ٤٥/ ٣٥٤.
(٣) سورة هود، الآية: ١٧.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ٣٨٦.

الأبَاطِيل، والدَّامِغِ صَوْلاَتِ الأضَالِيل. كَمَا حُمِّلَ فاضْطَلَع، قَائِماً بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِزاً في مَرْضَاتِك، غَيْرَ ناكِلٍ عنْ قُدُمٍ، ولاَ وَاهٍ في عَزْمٍ، وَاعِياً لِوَحْيِكَ، حَافِظاً لِعَهْدِكَ. مَاضِياً عَلَى نَفَاذِ أمْرِكَ، حَتَّى أوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ، وأضَاءَ الطَّرِيقَ لِلْخابِط، وهُدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعْدَ خَوْضَاتِ الْفِتَنِ والآثامِ. وأقامَ بِمُوضِحَاتِ الأعْلاَمِ ونَيِّرَاتِ الأحْكَام، فَهُوَ أمِينُكَ المَأمُونُ، وخَازِنُ عِلْمِكَ المَخْزُونِ، وشَهِيدُك يَوْمَ الدِّينِ، وبَعِيثُكَ بِالحَقِّ، ورَسُولُكَ إلى الخَلْقِ.

اللّهُمَّ افْسَحْ لَهُ مَفْسَحاً فِي ظِلِّكَ، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ.

اللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ مَنْزِلَتَهُ، وَأَتْمِمْ لَهُ نُورَهُ، وَاجْزِهِ مِنَ ابْتِعَاثِكَ لَهُ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، مَرْضِيَّ الْمَقَالَةِ، ذَا مَنْطِقٍ عَدْلٍ، وَخُطْبَةٍ فَصْلٍ.

اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي بَرْدِ الْعَيْشِ وَقَرَارِ النِّعْمَةِ، وَمُنَى الشَّهَوَاتِ، وَأَهْوَاءِ اللَّذَّاتِ، وَرَخَاءِ الدَّعَةِ، وَمُنْتَهَى الطُّمَأْنِينَةِ، وَتحَفِ الْكَرَامَةِ.

الشرح: دَحَوْتُ الرَّغيف دَحْواً: بسطَته، والمدحُوّات هنا: الأرضون.

فإن قلت: قد ثبت أنّ الأرض كُرِيّة، فكيف تكون بسيطة، والبسيط هو المسطّح، والكرِيّ لا يكون مسطحاً؟

قلت: الأرض بجملتها شكل كرة، وذلك لا يمنع أن تكون كلّ قطعة منها مبسوطة تصلح لأن تكون مستقراً ومجالاً للبشر وغيرهم من الحيوان، فإنّ المراد بانبساطها ها هنا ليس هو السطح الحقيقيّ الذي لا يوجد في الكرة، بل كون كلّ قطعة منها صالحة لأن يتصرّف عليها الحيوان لا يعني به غير ذلك.

وداحيَ المدحُوّات، يَنتصب لأنه منادى مضاف، تقديره: يا باسط الأرضين المبسوطات.

قوله: «وداعم المسموكات»، أي حافظ السموات المرفوعات، دعمتُ الشيء إذا حفظتَه من الهُوِيّ بدِعامة، والمسموك: المرفوع، قال:

إنّ الّذي سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لَنَا   بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ[1]

ويجوز أن يكون عَنَى بكونها مسموكة كونَها ثخينة. وسُمْك الجسم هو البعد الذي يعبّر عنه المتكلّمون بالعمق وهو قَسِيم الطول والعرْض، ولا شيء أعظم ثخناً من الأفلاك.

فإن قلتَ: كيف قال: إنه تعالى دعمَ السموات وهي بغير عَمد؟

(١) البيت مطلع قصيدة للفرزدق، ديوانه ٧١٤.

قلت: إذا كان حافظاً لها من الهويّ بقدرته وقوّته فقد صدق عليه كونُه داعماً لها، لأن قوته الحافظة تجري مجرى الدعامة.

قوله: «وجابل القلوب» أي خالقها، الجَبْل الخَلْق، وجِبِلّة الإنسان: خِلْقَتُه، وفِطَراتها: بكسر الفاء وفتح الطاء: جمع فِطْرة، ويجوز كسر الطاء، كما قالوا في سِدْرة: سِدَرات وسِدِرات، والفِطْرة: الحالة التي يفطِر الله عليها الإنسان، أي يخلقه عليها خالياً من الآراء والديانات والعقائد والأهوية، وهي ما يقتضيه محض العقل، وإنما يختار الإنسان بسوء نظره ما يُفْضِي به إلى الشقوة، وهذا معنى قول النبيّ ﷺ: «كلّ مولود يُولدُ على الفطرة، فإنما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه»[1].

قوله: «شقيّها وسعيدها» بَدَل من القلوب، وتقدير الكلام: وجابل الشقيّ من القلوب والسعيد على ما فُطِرت عليه.

والنوامي: الزوائد. والخاتم لما سبق، أي لما سبق من المِلَل. والفاتح لما انغلق من أمر الجاهلية. والمعلن الحقّ بالحقّ، أي المظهر للحقّ الذي هو خلاف الباطل بالحقّ، أي بالحرب والخصومة، يقال: حاقّ فلان فلاناً فحقَّه، أي خاصمه فَخصمَه. ويقال: ما فيه حقّ أي خصومة.

قوله: «والدافع جَيْشات الأباطيل»، جمع جَيْشة، من جاشت القدر إذا ارتفع غَلَيانُها.

والأباطيل: جمع باطل على غير قياس، والمراد أنه قامع ما نجم من الباطل.

والدامغ: المهلك، من دَمَغه أي شجّه حتى بلغ الدماغ، ومع ذلك يكون الهلاك.

والصولات: جمع صَوْلة وهي السَّطوة. والأضاليل: جمع ضلال على غير قياس.

قوله: «كما حُمّل»، أي لأجل أنه يحمل، والعرب تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل، قال الشاعر:

فقلتُ له أبا المِلْحاء خُذْها كما أوسعتَنا بَغْياً وَعَدْوَا

أي هذه الضربة لبغيك علينا، وتعدّيك.

وقوله: «كما حمّل» يعني حَمَل أعباء الرسالة، فاضطلع، أي نهض بها قويًّا، فرس ضَليع أي قويّ، وهي الضلاعة، أي القوة.

متسوفزاً، أي غير بطيء، بل يحثُّ نفسَه ويُجْهدها في رضا الله سبحانه، والوفز: العَجَلة، والمستوفز: المستعجل.

---

(١) أخرجه البخاري ح: (١٣٨٥)، ومسلم ح: (٢٦٥٨)، والترمذي ح: (٢١٣٨)، وأبو داود ح: (٤٧١٤).

غير ناكلٍ عن قُدُم، أي غير جبان ولا متأخر عن إقدام، والمقدام: المتقدّم، يقال مَضَى قُدُماً أي تقدّم وسار ولم يعرّج.

قوله: «ولا واهٍ في عزم»، وَهَى، أي ضعف، والواهي: الضعيف.

واعياً لوحيك، أي فاهما، وَعَيْتُ الحديث، أي فهِمته وَعَقَلْته.

ماضياً على نفاذ أمرك، في الكلام حذف تقديره: ماضياً مصرًّا على نفاذ أمرك، كقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[1]، ولم يقل: «مرسَلاً» لأنّ الكلام يدلّ بعضُه على بعض.

وقوله: «حتى أوْرَى قبسَ القابس»، يقال: ورى الزَّنْدُ، يَرِي، أي خرج ناره، وأوريته أنا. والقَبَس: شعلة من النار، والمراد بالقَبَس ها هنا نور الحق، والقابس: الذي يطلب النار، يقال: قَبَسْت منه ناراً، وأقبسني ناراً، أي أعطانيها.

وقال الراونديّ: أقبست الرجل علماً، وقبسته ناراً، أعطيته، فإن كنتَ طلبتَها له قلت: أقبسته ناراً.

وقال الكِسائيّ: أقبسته ناراً وعلماً سواء، قال: ويجوز «قَبَسْته» بغير همزة فيهما.

قوله: «وأضاء الطريق للخابط»، أي جعل الطريق للخابط مضيئة، والخابط: الذي يسيرُ ليلاً على غير جادة واضحة.

وهذه الألفاظ كلها استعارات ومجازات.

وخَوْضات الفتن: جمع خَوْضَة، وهي المرّة الواحدة، من خُضْتُ الماء والوحل، أخوضهما، وتقدير الكلام: وهدِيتْ به القلوبُ إلى الأعلام الموضحة بعد أن خاضَتْ في الفتن أطواراً. والأعلام. جمع عَلَم، وهو ما يستدلّ به على الطريق، كالمنارة ونحوها. والموضِحة: التي توضح للناس الأمور وتكشفها. [والنيّرات]: ذوات النور.

قوله: «فهو أمينك المأمون» أي أمينُك على وحيك، والمأمون منَ ألقاب رسول الله ﷺ، قال كعب بن زهير:

سَقَاكَ أبو بكرٍ بكأسٍ رَوِيَّةٍ … وأنهلك المأمونُ منها وعلَّكا

وخازن علمِك، المخزون بالجرّ صفة «علمِك» والعلم الإلهي المخزون: هو ما أطْلَع الله تعالى عليه ورسوله من الأمور الخفيّة التي لا تتعلّق بالأحكام الشرعية كالملاحم وأحكام الآخرة وغير ذلك، لأنّ الأمور الشرعية لا يجوزُ أن تكون مخزونة عن المكلّفين.

وقوله: «وشهيدُك يوم الدّين»، أي شاهدك، قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2].

(1) سورة النمل، الآية: ١٢.

(2) سورة النساء، الآية: ٤١.

والبعيث: المبعوث «فعيل» بمعنى «مفعول» كقتيل وجريح وصريع. ومَفْسَحاً مصدر، أي وسّع له مفسحاً.

وقوله: «في ظلك» يمكن أن يكون مجازاً، كقولهم: فلان يشمَلُني بظله، أي بإحسانه وبرّه، ويمكن أن يكون حقيقة، ويعني به الظلّ الممدود الذي ذكره الله تعالى، فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١﴾[1].

وقوله: «وأعل على بناء البانين بناءه»، أي اجعل منزلته في دار الثواب أعلى المنازل. وأتمم له نورَه، من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾[2]. وقد روِي أنه تُطفأ سائر الأنوار إلا نور محمد صلى الله عليه وآله، ثم يعطى المخلصون من أصحابه أنواراً يسيرة يبصرون بها مواطىء الأقدام، فيدعُون إلى الله تعالى بزيادة تلك الأنوار وإتمامها. ثم إن الله تعالى يتمّ نور محمد صلى الله عليه وآله، فيستطيلُ حتى يملأ الآفاق، فذلك هو إتمام نوره صلى الله عليه وآله.

قوله: «من ابتعاثك لهَ»، أي في الآخرة.

مقبول الشهادة، أي مصدَّقاً فيما يشهد به على أمته وعلى غيرها من الأمم.

وقوله: «ذا منطق عَدْل»، أي عادل، وهو مصدر أقيم مقام اسم الفاعل، كقولك: رجل فِطْر وصَوْم، أي مفطر وصائم.

وقوله: «وخطبة فصل» أي يخطب خطبة فاصلة يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾[3]، أي فاصل يفصل بين الحقّ والباطل، وهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى في الكتاب، فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[4]، وهو الذي يشار إليه في الدّعوات في قولهم: «اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة، والدَّرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود»[5].

قوله: «في بَرْد العيش»، تقول العرب: عيش بارد ومعيشة باردة، أي لا حَرْب فيها ولا نزاع، لأنّ البرْد والسكون متلازمان كتلازم الحرّ والحركة.

وقرار النعمة، أي مستقرّها، يقال: هذا قرار السَّيْل، أي مستقرّه. ومن أمثالهم: «لكلّ سائلة قرار».

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٣) سورة الطارق، الآية: ١٣، ١٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء عند الأذان (٦١٤)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب منه آخر (٢١١)، والنسائي، كتاب الأذان، باب الدعاء عند الأذان (٦٨٠)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الدعاء عند الأذان (٥٢٩).

ومُنَى الشهوات: ما تتعلّق به الشهوات من الأماني. وأهواء اللذات: ما تهواه النفوس وتستلّذه. والرخاء، المصدر من قولك: رجل رخيّ البال فهو بيّن الرخاء، أي واسع الحال.

والدَّعة: السكون والطمأنينة، وأصلها الواو.

ومنتهى الطمأنينة. غايتها التي ليس بعدها غاية.

والتُّحَف: جمع تحفة، وهي ما يكرَم به الإنسان من البِرّ واللّطَف، ويجوز فتح الحاء.

معنى الصلاة على الرسول ﷺ

فإن قلت: ما معنى الصلاة على الرسول الله ﷺ، التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(١).

قلت: الصلاة من الله تعالى هي الإكرام والتبجيل ورفع المنزلة، والصلاة منّا على النبي ﷺ هي الدعاء له بذلك، فقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ﴾(٢) أي هو الذي يرفع منازلَكم في الآخرة، وقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أي يدعون لكم بذلك.

وقيل: جُعِلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنّهم فاعلون التعظيم للمؤمن ورفع المنزلة، ونظيره قوله: «حَيّاك الله» أي أحيَاك الله وأبقاك، وحيّيتك أي دعوت لك بأن يحيِيك، لأنّك لاعتمادك على إجابة دعوتك ووثوقك بذلك، كأنك تحيِيه وتبقيه على الحقيقة، وهكذا القول في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾.

وقد اختلف في الصلاة على النبيّ ﷺ: هل هي واجبةٌ أم لا؟

فمن الناس من لم يَقُلْ بوجوبها، وجعل الأمر في هذه الآية للنَّدْب ومنهم من قال: إنّها واجبة.

واختلفوا في حال وجوبها، فمنهم من أوجَبها كلما جرى ذكره، وفي الحديث: «مَنْ ذُكِرْتُ عندَه فلم يصلّ عليّ دخل النار وأبعده الله»(٣)، ومنهم من قال: تجِبُ في كلّ مجلس مرّة واحدة، وإن تكرر ذكرهُ. ومنهم مَنْ أوجبها في العمر مرة واحدة، وكذلك قال في إظهار الشهادتين.

واختُلِف أيضاً في وجوبها في الصلاة المفروضة، فأبو حنيفة وأصحابه لا يوجبونها فيها. وروي عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنهم كانوا يكتفون - يعني الصحابة - عنها بالتشهّد، وهو: «السّلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته»، وأوجبها الشافعيّ وأصحابه. واختلف أصحابه في

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.
(٣) أخرج نحوه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٤٥)، وأحمد في كتاب: مسند أهل البيت (١٧٣٨).

وجوب الصلاة على آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فالأكثرون على أنها واجبة، وأنها شرط في صحة الصلاة.

فإن قلت: فما تقول في الصلاة على الصّحابة والصالحين من المسلمين؟

قلت: القياس جواز الصلاة على كلّ مؤمن، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾[1]، وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[2]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[3]، ولكنّ العلماء قالوا: إذا ذُكِرَ أحدٌ من المسلمين تبعاً للنبيّ عليه السلام فلا كلام في جواز ذلك، وأما إذا أفردوا أو ذُكِرَ أحد منهم، فأكثر الناس كَرِهوا الصلاة عليه، لأنّ ذلك شعارُ رسول الله فلا يشركه فيه غيره.

وأما أصحابُنا من البغداديين فلهم اصطلاح آخر، وهو أنهم يكرَهون إذا ذكروا عليًا عليه السلام أن يقولوا: «صلّى الله عليه» ولا يكرهون أن يقولوا: «صلواتُ الله عليه»، وجعلوا اللفظة الأولى مختصّة بالرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلوا اللفظة الثانية مشتركةً فيها بينهما عليهما السلام، ولم يطلقوا لفظَ الصلاة على أحدٍ من المسلمين إلا على عليّ وحده.

٧٢ - ومن كلام له عليه السلام قاله لمروان بن الحكم بالبصرة

الأصل: قالوا: أُخِذَ مَرْوان بن الحكم أسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسنَ والحسينَ عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فكلّماه فيه فَخَلّى سبيله، فقالا له: يُبايُعك يا أمير المؤمنين. قال عليه السلام:

أَوَلَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ! لاَ حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ، إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ، لَوْ بَايَعَنِي بِيَدِهِ لَغَدَرَ بِسُبَّتِهِ. أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ، وَهُوَ أَبُو ٱلْأَكْبُشِ ٱلْأَرْبَعَةِ، وَسَتَلْقَى ٱلْأُمَّةُ مِنْهُ ومِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ.

الشرح: قد رُوِي هذا الخبر من طرق كثيرة، ورويت فيه زيادة لم يذكرها صاحب «نهج البلاغة»، وهي قوله عليه السلام في مروان: «**يَحْمِلُ رايَة ضلالة بعد ما يَشِيبُ صُدْغاه، وإنّ له إمْرة...**» إلى آخر الكلام.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

وقوله: «فاستشفع الحسنَ والحسينَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام»، هو الوجه، يقال: استشفعتُ فلاناً إلى فلان، أي سألته أن يشفَع إليه، وتشفّعت إلى فلان في فلان فشَفّعني فيه تشفيعاً. وقول الناس: «استشفعتُ بفلان إلى فلان» بالباء ليس بذلك الجيّد.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أو لم يبايعني بعد قتل عثمان!» أيْ وَقَدْ غدر، وهكذا لو بايعني الآن.

ومعنى قوله: «إنّها كفٌّ يهوديّة» أي غادرة، واليهود تنسَب إلى الغدر والخبْث، وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾[1].

والسَّبَّة: الاست، بفتح السين، سبّه يسبّه أي طعنه في الموضع، ومعنى الكلام محمولٌ على وجهين:

أحدهما: أن يكون ذكر السَّبّة إهانة له وغلظة عليه، والعرب تسلُك مثل ذلك في خُطبها وكلامها، قال المتوكّل لأبي العيناء: إلى مَتَى تمدحُ الناس وتذمّهم؟ فقال: ما أحسنوا وأساؤوا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى رَضِيَ عن واحد فمدحه، وسخِط على آخر فهجاه وهجا أمّه، قال: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[2]، وقال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[3]، والزَّنيم ولد الزنى.

الوجه الثاني: أن يريدَ بالكلام حقيقة لا مجازاً، وذلك لأنّ الغادِرَ من العرب كان إذا عَزَم على الغَدْر بعد عَهْدٍ قد عاهده أو عَقْدٍ قد عقده، حَبَق[4] استهزاء بما كان قد أظهره من اليمين والعهد، وسُخرية وتهكّماً.

والإمْرة: الولاية، بكسر الهمزة. وقوله: «كَلَعْقَةِ الكلب أنفه»، يريد قِصَر المدَّة، وكذلك كانت مدّة خلافة مَرْوان، فإنّه وليَ تسعة أشهر.

والأكبُش: الأربعة بنو عبد الملك: الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام، ولم يَلِ الخلافَةَ من بين أميّة ولا من غيرهم أربعة إخوة إلا هؤلاء.

وكلّ الناس فَسّرُوا الأكبُشَ الأربعة بمَنْ ذكرناه، وعندِي أنّه يجوز أن يعنِي به بني مَرْوان لصُلبه، وهم: عبد الملك، وعبد العزيز، وبِشْر، ومحمد، وكانوا كِباشاً أبطالاً أنجاداً، أما عبد الملك فَوَلِيَ الخلافة، وأما بِشْر فَوَلِيَ العراق، وأما محمد فَوَلِيَ الجزيرة، وأما عبد العزيز فَوَلِيَ مصر، ولكلٍّ منهم آثار مشهورة. وهذا التفسير أَوْلى، لأن الوليد وإخوته أبناء ابنه، وهؤلاء بنوه لصُلْبه.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.
(٢) سورة صٓ، الآية: ٣٠.
(٣) سورة القلم، الآية: ١٣.
(٤) حبق: ضرط.

ويقال لليوم الشديد: يوم أحمر، وللسَّنَة ذاتِ الجَدْب: سنَة حَمْراء.

وكلّ ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكلام وَقَع كما أخبره به، وكذلك. قوله: «يحمل راية ضلالة بعد ما يشيب صُدغاه»، فإنه ولِيَ الخلافة وهو ابن خمسة وستين في أعدل الروايات.

نسب مروان بن الحكم وبعض أخباره

ونحنُ ذاكرون في هذا ا لموضع نَسَبَه، وجُمَلاً من أمره وولايته للخلافة، ووفاته على سبيل الاختصار:

هو مَرْوان بن الحكَم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمّه آمنة بنت عَلْقمة بن صفوان بن أميّة الكِنانيّ. يُكنَى أبا عبد الملك، ولِدَ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، منذ سنة اثنتَيْن من الهجرة، وقيل عام الخندق، وقيل يوم أُحُد، وقيل غير ذلك. وقال قومٌ: بل ولد بمكة، وقيل: ولد بالطائف. ذكر ذلك كلّه أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب».

قال أبو عُمَر: وممنّ قال بولادته يومَ أُحُد مالك بن أنس، وعلى قوله يكونُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تُوفِّيَ، وعمره ثمان سنين أو نحوها.

وقيل: إنه لما نُفِي مع أبيه إلى الطائف كان طفلاً لا يعقل، وإنه لم يرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الحَكَم أبوه قد طرده رسول الله عن المدينة، وسيّره إلى الطائف، فلم يَزَلْ بها حتى وَلِيَ عثمان، فردّه إلى المدينة، فقدمها هو وولده في خلافة عثمان، وتوفِّيَ، فاستكتبه عثمان وضمَّه إليه، فاستولَى عليه إلى أن قتِل.

والحكَم بن أبي العاص هو عمّ عثمان بن عفان، كان من مُسلمة الفتح، ومن المؤلّفة قلوبُهم، وتوفِّيَ الحكَم في خلافة عثمان قبل قتله بشهور.

واختلِف في السبب الموجِب لنفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل: إنه كان يتحيّل ويستخفي ويتسمّع ما يُسِرُّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أكابر الصحابة في مُشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين، ويُفْشي ذلك عنه، حتى ظهر ذلك عنه.

وقيل كان يتجسَّس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند نسائه، ويسترِقُ السَّمْع، ويُصغِي إلى ما يجري هناك ممّا لا يجوز الاطّلاع عليه، ثم يحدِّث به المنافقين على طريق الاستهزاء.

وقيل: كان يحكِيه في بعض مِشْيَته وبعض حركاته، فقد قيل: إن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى يتكفأُ[1]، وكان الحكَم بن أبي العاص يحكِيه، وكان شانئاً له مبغضاً حاسداً، فالتفت

(١) يتكفأ: يميل إلى الأمام.

رسول الله ﷺ يوماً، فرآه يمشي خَلْفه يحكيه في مِشيته، فقال له: كذلك فَلْتَكُنْ يا حكَم. فكان الحكم مُختلجاً يرتعش من يومئذ، فذكر ذلك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، فقال لعبد الرحمن بن الحكم يهجوه:

إنّ اللّعين أبوك فارمِ عِظَامهُ ... إن ترم ترمِ مخلَّجاً مَجْنُونَا

يمشي خَميصَ البَطْنِ مِنْ عملِ التُّقى ... وَيظلّ مِنْ عملِ الخبيث بَطِينا[1]

قال صاحب الاستيعاب: أما قول عبد الرحمن بن حسان «إنّ اللّعين أبوك» فإنّه روي عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبي خَيْثَمة وغيره، أنّها قالت لمروان إذْ قال في أخيها عبد الرحمن أنه أنزل فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2]: أما أنت يا مروان فأشهد أنّ رسول الله ﷺ لَعَنَ أباك وأنت في صُلْبه.

وروى صاحب كتاب «الاستيعاب» بإسناد ذكَره عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنّ رسول الله ﷺ قال: «يدخل عليكم رجل لَعين»، قال عبد الله: وكنتُ قد رأيتُ أبي يلبَس ثيَابه ليقبِل إلى رسول الله ﷺ، فلم أزل مشفِقاً أن يكون أوّل مَنْ يدخل، فدخل الحكَم بن أبي العاص.

قال صاحب «الاستيعاب»: ونظر عليّ عليه السلام يوماً إلى مَرْوان، فقال له: «ويل لك، وويل لأمة محمد منك ومن بنيكَ إذا شاب صُدغاك!»[3]. وكان مَرْوان يدعَى خَيْط باطل، قيل: لأنه كان طويلاً مضطرباً.

وضرِب يوم الدار على قفاه فخرّ لِفيه فلما بُويع له بالخلافة، قال فيه أخوه عبدُ الرحمن بن الحكم - وكان ماجناً شاعراً [مُحْسِناً]، وكان لا يَرى رأي مروان:

فــوالله مَــا أدْرِي وَإنّــي لَسَــائِــلٌ ... حليلةَ مَضْرُوبِ القفا كَيْف تَصْنَعُ

لحا الله قوماً أمَّرُوا خيطَ باطلٍ ... عَلى الناس يُعطي ما يشاء ويَمْنَعُ

وقيل: إنما قال له أخوه عبد الرحمن ذلك حينَ ولاّه معاوية إمْرَة المدينة، وكان كثيراً ما يهجوه، ومن شعره فيه:

وهبتُ نصيبي مِنْك يا مَرْوَ كُلَّهُ ... لعمرٍو ومروانَ الطويلِ وخالدِ

وربّ ابنِ أمٍّ زائدٍ غيرِ ناقصٍ ... وأنت ابنُ أمٍّ ناقصٌ غيرُ زائدِ

وقال مالك بن الرَّيْب يهجو مَرْوان بن الحكم:

---

(١) خميص البطن: ضامرها، خلاف البطين. (٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٧.

(٣) أخرجه الشيخ محمودي في نهج السعادة رقم: ٤٤/ ١/ ١٦٩.

لعمرُك ما مَرْوَان يقضي أمورَنا ولكنّ ما يقضي لنا بنت جَعْفَرِ
فيا ليتَها كانَتْ عَلَيْنَا أميرةً وليتك يا مرْوان أمسيْتَ ذا حِرِ

ومن شعر أخيه عبد الرحمن فيه:

ألاَ مَنْ يُبْلِغَنْ مَرْوَانَ عَنِّي رَسُولاً والرَّسُولُ من الْبَيَانِ
بأنك لَنْ ترى طَرْداً لحُرٍّ كإلصاقٍ به بعضَ الهَوَانِ
وهل حُدثتَ قبلي عن كريم معينٍ في الحوادث أو مُعانِ
يقيمُ بدار مضيعةٍ إذا لَمْ يكن حيران أو خَفِق الجَنان
فلا تقذف بي الرَّجَوَيْنِ إني أقلّ القوم مَنْ يُغْنِي مكاني[1]
سأكفيك الذي استكفيتَ منّي بأمرٍ لا تُخالجه اليدانِ
فلو أنّا بمنزلةٍ جَرَيْنا جَرَيْتَ وأنتَ مُضطرب العِنَانِ
ولولا أنّ أم أبيك أمّي وأنْ من قد هجاك فقد هَجَاني
لقد جاهرتُ بالبَغْضَاءِ إنّي إلى أمْرِ الجهارة والعِلانِ

ولما صار أمر الخلافة إلى معاوية، ولّى مرْوانَ المدينة، ثم جمع له إلى المدينة مكّة والطائف، ثم عزله وولّى سعيدَ بن العاص، فلما مات يزيد بن معاوية، ووليَ ابنُه أبو ليلى معاوية بن يزيد في سنة أربع وستين، عاش في الخلافة أربعين يوماً ومات، فقالت له أمّه أم خالد بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس: اجعل الخلافةَ من بعدك لأخيك، فأبى وقال: لا يكونُ لي مُرُّها ولكم حُلْوها، فوثب مروان عليها، وأنشد:

إنّي أرى فتنةً تَغْلِي مراجِلُها والملك بعد أبي ليلَى لمنْ غَلَبَا

وذكر أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهاني في كتاب «الأغاني»: أن معاوية لما عَزل مَرْوان بن الحكم عن إمْرَة المدينة والحجاز، وولّى مكانه سعيد بن العاص، وجّه مَرْوان أخاه عبد الرحمن بن الحكَم أمامه إلى معاوية، وقال له: الْقَهُ قبلي فعاتِبْه لي واستصْلِحه.

قال أبو الفرج: وقد رُوي أنّ عبدَ الرحمن كان بدمشق يومئذ، فلما بلغه خبرُ عَزْلِ مَرْوَان وقدومه إلى الشام، خرج وتلقّاه، وقال له: أقِمْ حَتّى أدخلَ إلى أخيك، فإن كان عَزَلك عن مَوْجِدة[2] دخلت إليه منفرداً، وإن كان عن غير مؤجِدة دخلتَ إليه مع الناس فأقام مَرْوان ومضى عبد الرحمن، فلما قدم على معاوية دخل إليه هو يُعَشِّي الناس، فأنشده:

---

(١) الرجوان: ناحيتا البئر.

(٢) الموجدة: الغضب.

أتَتكَ العيسُ تَنفُخُ في بُراها ... تكشَّفُ عن مناكِبِها القُطُوعُ(١)

بِأبيَضَ مِنْ أُميَّةَ مَضرَحِيٍّ ... كأن جبينَه سَيفٌ صنيعُ(٢)

فقال له معاوية: أزائراً جئت أم مفاخراً مكابراً؟ فقال: أيّ ذلك شئت! فقال: ما أشاء من ذلك شيئاً، وأراد معاوية أن يقطعه عن كلامه الّذي عَنّ له، فقال له: عَلى أيّ ظهر جئتنا؟ فقال: على فرسٍ، قال: ما صفته؟ قال: أجشّ هَزيم - يعرِّض بقول النّجاشِيّ في معاوية يوم صِفّين:

وَنَجّى ابنَ حَرْبٍ سابحٌ ذو عُلالةٍ ... أجشُّ هزيمٌ والرماح دَوَانِ(٣)

إذا قلت أطرافُ الرماح تنالُه ... مَرَتْهُ له السّاقان والقَدَمان(٤)

فغضِب معاوية، وقال: إلا أنه لا يركبُه صاحبُه في الظُّلم إلى الرِّيَب، ولا هو ممّن يتسوّر على جَاراتِهِ، ولا يتوثّب بعد هَجْمة الناس على كنائنه - وكان عبد الرحمن يُتَّهَمُ بذلك في امرأة أخيه - فخجل عبدُ الرحمن، وقال: يا أميرَ المؤمنين، ما حَمَلك على عَزْل ابن عمّك؟ الخيانةٍ أوجبَتْ ذلك، أم لرأيٍ رأيتَه وتدبير استصلحته؟ قال: بل لتدبير استصلحته، قال: فلا بأس بذلك. فخرج من عنده فلقيَ أخاه مَرْوان، فأخبره بما دارَ بينه وبين معاوية، فاستشاط غيظاً وقال لعبد الرحمن: قَبحك الله، ما أضعفك! عَرّضت للرجل بما أغضبه، حتى إذا انتصر منك أحجمت عنه. ثم لبس حُلّته، وركِب فرسَه، وتقلّد سيفَه، ودخلَ على مُعاويةَ، فقال له حين رآه وتبيَّن الغضبَ في وجهِه: مَرْحَباً بأبي عبد الملك! لقد زرتَنا عند اشتياق مِنّا إليك، فقال: [لا] هاالله، ما زرتُك لذلك ولا قدِمتُ عليك فألفيتُك إلا عاقًّا قاطعاً، والله ما أنصفتَنا ولا جزيتَنا جزاءَنا، لقد كانت السابقة من بني عبد شمس لآل أبي العاص، والصِّهر عن رسول الله ﷺ لهم، والخلافة منهم، فوصلُوكم يا بني حَرْب وشرّفوكم وولّوكم، فما عزَلُوكم ولا آثروا عليكم، حتى إذا وليتم وأفضى الأمرُ إليكم أبيتم إلا أثَرَة وسوء صنيعة وقبح قطيعة، فرويداً رويداً! فقد بلغ بنو الحَكم وبنو بنيه نَيِّفاً وعشرين، وإنما هي أيام قلائل حتى يَكمُلوا أربعين، ثم يُعلم امرُؤ ما يكون منهم حينئذ، ثم هم للجزاء بالحسْنى والسوء بالمرصاد.

قال أبو الفرج: هذا رمز إلى قول رسول الله ﷺ: «إذا بلغ بنُو أبي العاص أربعين رجلاً،

---

(١) براها: مفردها بره: حلقة في أنف البعير، القاموس مادة (برا). وناقة قطوع: يسرع القطاع لبنها القاموس، مادة (قطع).

(٢) المضرحي: الصقر طويل الجناح، والسيد الكريم. القاموس، مادة (ضرح).

(٣) الغليظ الصوت من الإنسان، ومن الخيل. القاموس مادة (جش)، هزيم: الرعد. القاموس، مادة (هزم).

(٤) مرته: استدرّت.

اتخذوا مال الله دُوَلاً وعباد الله خَوَلاً»[١]، فكان بنُو أبي العاص يذكرون أنّهم سيلُون أمْرَ الأمة إذا بلغوا هذه العدّة.

قال أبو الفرج: فقال له معاوية: مهلاً أبا عبد الملك، إنِّي لم أعزلك عن خيانة، وإنّما عزلتُك لثلاثةٍ لو لم يكن منهنّ إلا واحدة لأوجبْتُ عَزلَك: إحداهُنّ أني أمّرتُك على عبد الله بن عامر، وبينكما ما بينكما، فلن تستطيع أن تشتفِيَ منه، والثانية كراهيتُك لإمْرة زياد، والثالثة أنّ ابنتِي رَمْلة استعدَتْك على زوجها عمرو بن عثمان، فلم تُعْدِها. فقال مروان: أمّا ابنُ عامر فإنّي لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موقعه، وأما كراهتي لإمْرَة زياد فإنّ سائرَ بني أمية كرهوه، وجعل الله لنا في ذلك الكرْه خيراً كثيراً. وأما استعداء رمْلة على عمرو، فوالله إنه ليأتي عليّ سنة أو أكثر وعندي بنت عثمان، فما أكشف لها ثوباً - يعرّض بأنّ رملة إنما تستعدِي على عمرو بن عثمان طلب النكاح - فغضب معاوية، فقال: يابن الوَزَغ[٢]، لستَ هناك! فقال مروان: هو ما قلت لك، وإنّي الآن لأبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وقد كادَ ولد أبي أن يكملوا العِدّة - يعني أربعين، ولو قد بلغوها لعلمت أين تقع مني. فانخزَل معاوية، وقال:

فـإن أكُ فِـي شِـرَارِكُـم قَـلِـيـلاً ... فـإنّـي فـي خـيـارِكُـمُ كَـثِـيـرُ
بـغـاثُ الـطَّـيْـر أكـثـرُهـا فِـرَاخـاً ... وأمّ الـصَّـقْـر مِـقْـلاتٌ نَـزُور

ثم استخذَى معاوية في يد مروان وخضع، وقال: [لك] العتبى، وأنا رادك إلى عملك. فوثب مروان، وقال: كلاّ وعيشِك لا رأيتَني عائداً! وخرج.

فقال الأحنف لمعاوية: ما رأيت قطّ لك سَقْطَةً مثلها! ما هذا الخضوع لمروان! وأيّ شيء يكون منه ومن بني أبيه إذا بلغوا أربعين؟ وما الذي تخشاه منهم؟ فقال: ادْنُ منّي أخبرْك ذلك، فدنا الأحنف منه، فقال [له]: إنّ الحكَم بن أبي العاص كان أحدَ مَنْ قَدِم مع [أختي] أمّ حبيبة لما زُفّتْ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يتولّى نقلها إليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يُحِدّ النظر إليه، فلما خرج من عنده، قيل: يا رسول الله، لقد أحدَدْتَ النّظر إلى الحكم! فقال: ابن المخزوميّة، ذاك رجل إذا بلغ بنو أبيه ثلاثين أو أربعين، ملكوا الأمر من بعدي، فوالله لقد تلقّاها مَرْوان من عين صافية. فقال الأحنف: رويداً يا أمير المؤمنين، لا يسمعْ هذا مِنْك أحد، فإنّك تَضَعُ من قَدْرِك وقَدْرِ ولدك بعدك، وإنْ يَقْضِ الله أمراً يكن. فقال: معاوية: اكْتُمْها يا أبا بحر عليّ إذاً، فقد لَعَمْر صدقتَ ونصحت.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٧٩)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٤٣)، والطبراني في «الصغير» (١١٥٠)، بلفظ: «ثلاثين» بدل: «أربعين».

(٢) الوزغ: سامّ أبرص. والرجل الحارض الفشل. القاموس مادة (وزغ).

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «مفاخرة هاشم وعبد شمس» أنّ مَرْوان كان يُضعّف، وأنه كان ينشد يوم مرج راهط[1] والرؤوس تُنْدَر[2] عن كواهلها:

وما ضَرّهُمْ غير حَيْنِ النُّفُو ... س أيّ غلامي قريش غَلَبْ!

قال: وهذا حُمْق شديد، وضعف عظيم، قال: وإنما سادَ مرْوان وذُكِر بابنه عبد الملك، كما ساد بنوه، ولم يكن في نفسه هناك.

فأمّا خلافة مروان، فذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في التاريخ أن عبد الله بن الزبير لما أخرَج بني أميّة عن الحجاز إلى الشام في خلافة يزيد بن معاوية، خرجوا وفيهم مَرْوان، وابنه عبد الملك، ولم تَطُلْ مدّة يزيد، فتوفّيَ، ومات ابنُه بعده بأيام يسيرة. وكان من رَأي مَرْوان أن يدخل إلى ابن الزّبير بمكة فيبايعه بالخلافة، فقدِمَ عبيدُ الله بن زياد، وقد أخرجه أهلُ البصرة عنها بعد وفاة يزيد، فاجتمع هو وبنو أميَّة، وأخبروه بما قد أجمع عليه مروان، فجاء إليه، وقال: استحييت لك يا أبا عبد الملك، فما تريد! أنتَ كبير قريش وسيّدها تصنع ما تصنع، وتشخص إلى أبي خُبَيْبٍ فتبايعه بالخلافة! فقال مَرْوان: ما فات شيء بعد، فقام مَرْوان، واجتمع إليه بنو أميّة ومواليهم وعُبَيد الله بن زياد وكثير من أهل اليمن وكثير من كَلْب، فقدم دمشق وعليها الضّحاك بن قيس الفِهْرِيّ، قد بايعه النّاس على أنْ يُصَلِّيَ بهم، ويقيمَ لهم أمرَهم، حتى يجتمع الناس على إمام، وكان هوى الضّحاك مع ابن الزبير إلا أنه لم يبايعْ له بعد، وكان زفر بن الحارث الكلابِيّ بقنّسرين يخطب لابن الزبير، والنعمان بن بشير الأنصاري بِحمْص يخطب لابن الزبير، وكان حسان بن مالك بن بَحْدَل الكلبيّ بفلسطين يَهْوَى هوى بني أمية، ثم من بينهم بني حرب، لأنه كان عاملاً لمعاوية، ثم ليزيد بن معاوية من بعدِه، وكان حسّان بن مالك مُطاعاً في قومه، عظيماً عندهم، فخرج عن فِلَسْطين يريد الأردُنّ، واستخلف على فلسطين رَوْح بن زنباع الجُذاميّ، فوثب عليه بعد شُخوص حَسّان بن مالك وناتل بن قيس الجُذاميّ أيضاً، فأخرجه عن فلسطين، وخطب لابن الزبير، وكان له فيه هوًى، فاستوثقت الشام كلّها لابن الزبير، ما عدَا الأردنّ، فإنّ حسان بن مالك الكلبيّ كان يهوَى هَوَى بني أمية، ويدعو إليهم، فقام في أهل الأردن فخطبهم، وقال لهم: ما شهادتُكم على ابن الزبير وقَتْلَى المدينة بالحَرّة؟ قالوا: نشهد أن ابن الزبير كان منافقاً، وأن قَتْلَى أهل المدينة بالحَرّة في النار، قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحَرّة؟ قالوا: نشهد أن يزيد بن معاوية كان

---

(١) بنواحي دمشق وهو أشهر المروج في الشعر.
(٢) تندر: تتساقط.

مؤمناً، وكان قتلانا بالحرّة في الجنة، قال: وأنا أشهد أنه إن كان دين يزيد بن معاوية وهو حيّ حقاً، إنه اليوم لَعَلَى حقّ هو وشيعته، وإن كان ابن الزبير يومئذ هو وشيعتُه على باطل، إنه اليوم وشيعته على باطل، قالوا: صدقت، نحن نبايعك على أن نقاتلَ معك مَنْ خالفك من الناس وأطاع ابن الزبير، على أن تجنِّبَنا ولاية هذين الغلامين ابني يزيد بن معاوية، وهما خالد وعبد الله، فإنهما حديثة أسنانُهما ونحن نكرهُ أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبيّ!

قال: وقد كان الضّحاك بن قيس يُوالي ابنَ الزبير باطناً، ويهوى هواه، ويمنعه إظهارَ ذلك بدمشق والبيعةَ له أنّ بني أمية وكَلْباً كانوا بحضرته، وكلب أخوالُ يزيد بن معاوية وبنيه، ويطلبُون الإمْرَة لهم، فكان الضحاك يعمل في ذلك سرًّا، وبلغ حسان بن مالك بن بحْدل ما أجمع عليه الضّحاكَ، فكتب إليه كتاباً يعظّم فيه حَقّ بني أمية، ويذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بني أمية عنده وصنيعهم إليه، ويدعوه إلى بيعتهم وطاعتهم ويذكر ابنَ الزبير ويقع فيه ويشتِمه، ويذكر أنّه منافق قد خلع خليفتين، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس، ثم دعا رجلاً من كلْب يقال له ناغضة، فسرّح بالكتاب معه إلى الضحاك بن قيس، وكتب حسّانُ نسخة ذلك الكتاب، ودفعه إلى ناغضة، وقال له: إنْ قرأ الضحاك كتابي على الناس، وإلا فقم أنت واقرأ هذا الكتاب عليهم، وكتب حسان إلى بني أمية يأمرهم أن يحضُروا ذلك، فقدم ناغضة بالكتاب على الضّحاك، فدفعه إليه، ودفع كتابَ بني أميّة إليهم سراً.

فلما كان يوم الجمعة، وصَعِد الضّحاك على المِنْبر، وقدم إليه ناغضة، فقال: أصلح الله الأمير! ادعُ بكتاب حسّان فاقرأه على الناس، فقال له الضحّاك: اجلس، فجلس ثم قام ثانية فتكلّم مثل ذلك، فقال له: اجلس، فجلس ثم قام ثالثة وكان كالثانية والأولى، فلما رآه ناغضة لا يقرأ الكتاب أخرج الكتاب الذي معه، فقرأه على الناس. فقام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فصدق حسّان، وكذّب ابنَ الزّبير وشَتَمه، وقام يزيد بن أبي النمس الغسّاني، فصدّق مقالة حسان وكتابه، وشتَم ابن الزبير، وقام سُفيان بن أبرد الكلبيّ، فصدّق مقالة حسان وشتَم ابنَ الزّبير، وقام عمر بن يزيد الحكَمِيّ، فشتَم حسان، وأثنَى على ابن الزبير، فاضطرب الناسُ، ونزل الضّحاك بن قيس، فأمر بالوليد بن عُتْبة، وسفيان بن الأبرد، ويزيد بن أبي النّمس الذين كانوا صدّقوا حسان، وشتموا ابنَ الزبير. فحبسوا، وجال الناس بعضُهم في بعض، ووثبت كلْب على عمر بن يزيد الحكَميّ فضربوه، وخَرّقوا ثيابه. وقد كان قام خالد بن يزيد بن معاوية فصعِد مِرْقاتَيْن من المنبر، وهو يومئذ غلام. والضحاك بن قيس فوق المنبر، فتكلّم بكلام أوْجزَ فيه، لم يُسْمع بمثله، ثم نزل.

فلما دخل الضحاك بن قيس دارَه، جاءت كلْب إلى السجن فأخرجوا سفيان بن أبرد الكلبيّ، وجاءت غسان، فأخرجوا يزيد بن أبي النّمس، وقال الوليد بن عُتْبة: لو كنتُ من كلب

أو غسّان، لأخرجت، فجاء ابنا يزيد بن معاوية: خالد وعبد الله، ومعهما أخوالُهما من كَلْب، فأخرجوه من السجن.

ثم إنّ الضّحاك بن قيس خرج إلى مسجد دمشق، فجلس فيه، وذكر يزيد بن معاوية فوقع فيه، فقام إليه سنان من كلْب ومعه عصا، فضربه بها، والناس جلوس حلَقاً. متقلِّدي السيوف. فقام بعضُهم إلى بعض في المسجد، فاقتتلوا، فكانت قيس عَيْلان قاطبةً تدعو إلى ابن الزبير ومعهما الضحاك، وكلْب تدعو إلى بني أمية، ثم إلى خالد بن يزيد، فيتعصبون له، فدخل الضحاك دارَ الإمارة، وأصبح الناس، فلم يخرج الضّحاك إلى صلاة الفجر.

فلما ارتفع النهارُ بعث إلى بني أميّة، فدخلوا عليه، فاعتذر إليهم، وذكر حسنَ بلائهم عنده، وأنه ليس يهوَى شيئاً يكرهونه، ثم قال: تكتبون إلى حسّان ونكتب، ويسير حسان من الأردنّ حتى ينزل الجابية ونسير نحن وأنتم حتى نوافيَه بها، فيجتمع رأيُ الناس على رجل منكم! فرضيتْ بذلك بنو أميّة، وكتبوا إلى حسّان وهو بالأردنّ وكتب إليه الضحاك يأمره بالموافاة في الجابية، وأخذ الناس في الجهاز للرحيل.

وخرج الضحاك بن قيس من دمشق، وخرج الناس وخرجت بنو أمية، وتوجهت الراياتُ يريدون الجابية، فجاء ثور بن معن يزيد بن الأخنس السُّلَميّ إلى الضحاك، فقال: دعوتَنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعنَاك على ذلك، ثم أنت الآن تسير إلى هذا الأعرابيّ من كَلْب لتستخلفَ ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية! فقال الضّحاك: فما الرأي؟ قال: الرأيُ أن نظهر ما كنّا نُسرّ، وندعو إلى طاعة ابن الزبير، ونقاتل عليها. فمال الضحاك بمَن معه من الناس، وانخزل من بني أمية ومن معهم من قبائل اليمن فنزل مَرْج راهط.

قال أبو جعفر: واختلف في أي وقت كانت الوقعة بمرج راهط فقال الواقديّ: كانت في سنة خمس وستين. وقال غيره: في سنة أربع وستين.

قال أبو جعفر: وسارتْ بنو أميّة ولفيفها حتى وافَوْا حسان بالجابية، فصلّى بهم أربعين يوماً، والناس يتشاورون، وكتب الضحاك بن قيس من مرج راهط إلى النُّعمان بن بشير الأنصاريّ، وهو على حِمْص يستنجده، وإلى زُفَر بن الحارث وهو في قِنّسرين، وإلى ناتل بن قيس وهو على فِلسْطين ليستمدّهم، وكلُّهم على طاعة ابن الزبير، فأمدُّوه، فاجتمعت الأجناد إليه بمرْج راهط، وأما الذين بالجابية فكانت أهواؤهم مختلفة، فأما مالك بن هبيرة السكونيّ، فكان يهوَى هوى يزيد بن معاوية، ويحب أن تكونَ الخلافةُ في ولده، وأما حصين بن نُمير السّكونيّ، فكان يهوى هَوَى بني أميّة، ويحب أن تكون الخلافة لمرْوان بن الحكم، فقال مالك بن هبيرة للحصين بن نمير: هلم فلْنبايعْ لهذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه، وهو ابن أختنا، فقد عرفت منزلتنا التي كانت من أبيه، إنك إن تبايْعه يحملك غداً على رقاب العرب -

يعني خالد بن يزيد - فقال الحصين: لا لعمر الله، لا يأتينا العرب بشيخ، ونأتيها بصبيّ! فقال مالك: أظنّ هَوَاكَ في مَرْوان! والله إن استخلفْتَ مروان ليحسدنك على سَوْطك وشِرَاك نعلِك، وظلّ شجرة تستظلّ بها. إنّ مروان أبو عشرة، وأخو عشرة وعمّ عشرة، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم، ولكن عليكم بابن أختكم خالد بن يزيد فقال الحصين: إنّي رأيتُ في المنام قِنْديلاً معلقاً من السماء، وإنه جاء كلّ من يمدّ عنقه إلى الخلافة ليتناوَله، فلم يصل إليه. وجاء مروان فتناوَله، والله لنستخلفنّه.

فلما اجتمع رأيُهم على بيعته، واستمالوا حسان بن بحْدل إليها، قام رَوْح بن زِنباع الجُذاميّ، فحمِد الله وأثنى عليه، فقال:

أيّها الناس، إنكم تذكرون لهذا الأمر عبدَ الله بن عمر بن الخطاب، وتذكرون صحبتَه لرسول الله ﷺ، وقَدَمه في الإسلام، وهو كما تذكرون، لكنّه رجل ضعيف، وليس صاحبُ أمة محمد بالضعيف، وأما عبد الله بن الزُّبير وما يذكر الناس من أمره، وأنّ أباه حواريّ رسول الله ﷺ، وأمّه أسماء بنت أبي بكر ذات النِّطَاقين، فهو لعمري كما تذكرون، ولكنه منافق قد خلع خليفتين: يزيد وأباه معاوية، وسَفَك الدماء، وشقّ عصا المسلمين، وليس صاحبُ أمة محمد ﷺ بالمنافق، وأمّا مروان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قطّ إلا كان مَرْوان ممّن يشعَب[1] ذلك الصَّدْع، وهو الذي قاتَل عن عثمان بن عفان يوم الدّار، والذي قاتل عليّ بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير، ويستشبّوا الصغير - يعني بالكبير مروان، وبالصغير خالد بن يزيد.

فاجتمع رأيُ الناس على البيعة لمروان، ثم لخالد بن يزيد من بعده، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعدهما، على أن تكونَ في أيام خلافة مروان إمْرَة دمشق لعمرو بن سعيد، وإمْرَةِ حِمْص لخالد بن يزيد. فلما استقرّ الأمر على ذلك، دعا حسان بن بَحْدل خالد بن يزيد، فقال: يابن أختي، إنّ الناس قد أبوْك لحداثة سِنّك، وإني والله ما أريدُ هذا الأمر إلا لك ولأهل بيتك، وما أبايع مَرْوان إلا نظراً لكم، فقال خالد: بل عجزت عَنّا، فقال: لا والله لم أعجزْ عنك، ولكن الرأي لك ما رأيت.

ثم إن حسّان دعا مرْوان بن الحكم، فقال له: يا مروان، إنّ الناس كلّهم لا يرضوْن بك، فما ترى؟ فقال مروان: إن يردِ الله أن يعطينيها لم يمنعنيها أحدٌ من خلقه، وإن يرد أن يمنعَنيها لا يعطينيها أحدٌ من خلقه، فقال حسان: صدقت.

ثم صعِد حسان المنبر، فقال: أيّها الناس، إني مستخلِف في غدٍ أحدَكم إن شاء الله، فاجتمع الناس بُكرة الغد ينتظرون، فصعِد حسان المنبر، وبايع لمرْوان، وبايع الناس، وسار

---

(١) شَعَبَ: أفسد، أصلح، من ألفاظ الأضداد، وأراد القائل هنا شعب أي أصلح.

من الجابية حتى نزل بمرْج راهط، حيث الضَّحَّاك بن قيس نازل، فجعل مَرْوَانُ على ميمَنته عمرو بن سعيد بن العاص، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، وجعل الضحّاكُ على ميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العتكيّ، وعلى ميسرته ثور بن معن السُّلميّ، وكان يزيد بن أبي النّمس الغسّانيّ بدمشق، لم يشهد الجابية، وكان مريضاً، فلما حصل الضّحاك بمرْج راهط، ثار بأهل دمشق في عبيده وأهله، فغلَب عليها، وأخرج عامل الضحّاك منها، وغلب على الخزائن وبيت المال، وبايع لمروان، وأمدّه من دمشق بالرّجال والمال والسلاح، فكان ذلك أولَ فتح فُتح لمروان.

ثم وقعت الحرب بين مَرْوان والضحاك، فاقتتلوا بمرْج راهط عشرين ليلة، فهزِم أصحابُ الضحاك وقتلوا، وقتل أشراف الناس من أهل الشام، وقتِلت قيسٌ مقتلة لم تقتل مثلها في موطن قَطّ، وقتل ثور بن معن السُّلَميّ الذي ردّ الضحاك عن رأيه.

قال أبو جعفر: ورويَ أن بشير بن مروان كان صاحب الراية ذلك اليوم، وأنه كان ينشد:

إن عـلـى الـرئـيـس حَـقًّـا حـقًّـا   أن يـخـضـب الـصَّـعْـدَة أو يـنـدقَّـا

وصُرِع ذلك اليوم عبد العزيز بن مروان ثم استنقذ.

قال: ومرّ مروان برجل من محارب وهو في نفرٍ يسير من أصحاب مروان، فقال له: لو انضممتَ إلى أصحابك رحمك الله! فإني أراك في قِلّة، فقال: إن مَعَنا يا أمير المؤمنين من الملائكة مددًا أضعاف مَنْ تأمرنا بالانضمام إليهم، قال: فضحك مروان وسُرّ بذلك، وقال للناس ممن كان حوله: ألا تستمعون!

قال أبو جعفر: وكان قاتل الضحاك رجلاً من كلْب، يقال له زحْنة بن عبد الله، فلما قتله وأحضِرَ الرأس إلى مروان، ظهرت عليه كآبة، وقال: الآن حين كَبِرَتْ سِنّي، ودَقّ عظمي، وصرت في مثل ظِمْء الحمار، أقبلتُ أضرِب الكتائب بعضها ببعض!

قال أبو جعفر: وروي أن مروان أنشد لما بويع ودعا إلى نفسه:

لـمـا رأيـتُ الأمـرَ أمـراً نَـهْـبَـا   سَـيّـرت غَـسَّـان لَـهُـمْ وكـلْـبَـا
والـسَّـكْـسَـكِـيِّـين رجـالاً غُـلْـبـا   وطـيّـئـاً تـأبـاه إلا ضَـرْبَـا
والـقـيْـن تـمـشي في الـحـديـد نُكْبـا   ومـن تَـنـوخَ مُـشْـمَـخِـرًا صَـعْـبَـا[1]
لا يـمـلـكـون الـمـلـك إلا غَـصْـبـا   وإنْ دَنَـتْ قـيـس فـقـل لا قُـرْبـا

قال أبو جعفر: وخرج الناس منهزِمين بعد قتل الضحاك، فانتهى أهلُ حِمْص إلى حِمْص، وعليها النّعمان بن بشير، فلما عرف الخبر خرج هارباً ومعه ثَقَله وولده، وتحيّر ليلته كلّها،

(١) المشمخرّ: الجبل العالي. القاموس مادة (شمخر).

وأصبح وهو بباب مدينة حمص، فرآه أهلُ حِمْص فقتلُوه، وخرج زفر بن الحارث الكلابيّ من قنّسرين هارباً، فلحق بقرقيسِيَاء، وعليها عياض بن أسْلم الجرشيّ فلم يمكّنه من دُخُولها، فحلف له زفر بالطلاق والعتاق أنّه إذا دخل حَمّامها خرج منها، وقال له: إنّ لي حاجةً إلى دخول الحمام، فلما دخلها لم يدخل حَمّامها وأقام بها، وأخرج عياضاً منها، وتحصّن فيها، وثابَتْ إليه قيس عَيْلان، وخرج ناتل بن قيس الجذاميّ من فلسطين هارباً، فالتحق بابن الزبير بمكة، وأطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له، واستعمل عليهم عُمّاله، ففي ذلك يقول زفر بن الحارث:

أريـنِـي سِـلاَحِـي لاَ أَبَـا لَـك إنّـنـي ... أرَى الـحَـرْبَ لاَ تَـزدَادُ إلاَّ تَـمـاديـا
أتـانـيَ عَـنْ مَـرْوان بـالـغـيْـبِ أنّـه ... مُـريـقٌ دمـي، أو قـاطـعٌ مـن لـسـانـيـا
وفي العِيس منجاةٌ، وفي الأرض مَهْربٌ ... إذا نـحـن رفَـعْـنـا لـهـنّ الـمـبـانـيـا
فقد ينبت المرعى على دِمَنِ الثّرى ... وَتَبْقى حَزَازَاتُ النُّفُوس كَمَا هِيا[1]
أتـذهـب كَـلْـبٌ لـم تَـنـلـهـا رمـاحُـنَـا ... وتـتـرك قَـتْـلـى راهـطٍ هِـيَ مَـاهـيـا
لـعـمـري لـقـد أبـقـتْ وقـيـعـةُ راهـطٍ ... لـحـسّـان صَـدْعـاً بَـيْـنَـا مـتـنـائـيَـا
أبْـعـد ابـن عـمـرو وابـن مـعـنٍ تَـتَـايَـعَـا ... ومَـقْـتَـلِ هَـمَّـامٍ أُمَـنَّـي الأمـانِـيَـا[2]!
وَلَـمْ تُـرَ مِـنّـي نـبـوةٌ قَـبْـلَ هَـذِهِ ... فِـراري وتَـرْكِـي صـاحِـبَـيَّ ورائـيـا
أيـذهـب يـومٌ واحـد إن أسـأتُـه ... بـصـالـح أيـامـي وحـسـن بـلائـيـا!
فلا صُلْحَ حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقنا ... وتـثـأر مـن نـسـوانِ كَـلْـبٍ نِـسَـائـيـا

وقال زُفَر بن الحارث أيضاً، وهو من شعر الحماسة:

أفـي الله أمّـا بـحْـدَلٌ وابـن بَـحْـدَلٍ ... فـيـحـيَـا وأمّـا ابـنُ الـزّبَـيـرِ فـيـقـتَـلُ!
كَـذَبْـتُـمْ وبـيـتِ الله لا تـقـتـلـونَـهُ ... وَلَـمّـا يـكـن يـومٌ أغـرُّ مـحـجّـلُ
وَلَـمّـا يـكـنْ لـلـمـشـرفـيّـة فـوقَـكـمْ ... شـعـاعٌ كـقـرن الـشَّـمـس حـيـنَ تَـرجّـلُ

وأما وفاة مروان، والسبب فيها أنه كان قد استقرّ الأمر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ما قدّمنا ذكره، فلمّا استوثق له الأمرُ، أحبَّ أن يبايع لعبد الملك وعبد العزيز ابنيْه، فاستشار في ذلك، فأشير عليه أن يتزوّج أم خالد بن يزيد، وهي ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغر

(١) الدِّمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار. القاموس، مادة (دمن).
(٢) تتايع للقيام: استقل له. واتايعت الريح بالورق ذهبت به وأصله تتابع. القاموس مادة (تاع).

شأنه فلا يرشّح للخلافة، فتزوجها. ثم قال لخالد يوماً في كلام دار بينهما والمجلس غاصّ بأهله: اسكت يابن الرطبة، فقال خالد: أنت لعمري مؤتمن وخبير.

ثم قام باكياً من مجلسه - وكان غلاماً حينئذ - فدخل على أمّه، فأخبرها، فقالت له: لا يعرفنّ ذلك فيك، واسكت فأنا أكفيك أمرَه. فلما دخل عليها مروان، قال لها: ما قال لك خالد؟ قالت: وما عساه يقول؟ قال: ألم يشكُني إليك؟ قالت: إنّ خالداً أشدّ إعظاماً لك من أن يشتكيَك، فصدّقها. ثم مكثت أياماً، فنام عندها وقد واعدت جواريَها، وقُمْنَ إليه، فجعلن الوسائد والبراذع عليه، وجلسنَ عليه حتى خنقنه، وذلك بدمشق في شهر رمضان. وهو ابن ثلاث وستين سنة، في قول الواقديّ.

وأما هشام بن محمد الكلبيّ، فقال: ابن إحدى وثمانين سنة، وقال: كان ابن إحدى وثمانين، عاش في الخلافة تسعة أشهر. وقيل عشرة أشهر، وكان في أيام كتابته لعثمان بن عفان أكثر حُكماً، وأشد تلطفاً وتسلّطاً منه في أيام خلافته، وكان ذلك من أعظم الأسباب الداعية إلى خلع عثمان وقتله.

وقد قال قوم: إن الضّحاك بن قيس لما نزل مَرْج راهط لم يَدْعُ إلى ابن الزُّبير، وإنما دعا إلى نفسه. وبويع بالخلافة، وكان قرشيًّا. والأكثر الأشهر أنه كان يدعو إلى ابن الزبير.

٧٣ - ومن كلام له عليه السلام لمّا عزموا على بيعة عثمان

الأصل: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَٱللهِ لَأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلاَّ عَلَيَّ خَاصَّةً، ٱلْتِمَاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ.

الشرح: نافست في الشيء مُنافسة ونِفاساً، إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه، أي رغبوا.

والزّخرف: الذهب، ثم شبه به كل مموّه مزوّر، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[1] والمزخرف: المزيّن.

والزِّبرج: الزينة من وشيٍ أو جوهر، ونحو ذلك. ويقال: الزبرج الذهب أيضاً.

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

يقول لأهل الشورى: إنكم تعلمون أنّي أحقّ بالخلافة من غيري، وتعدلون عَنّي. ثم أقسم لَيُسْلِمَنَّ وليتركَنّ المخالفة لهم، إذا كان في تسليمه ونزوله عن حَقِّه سلامةُ أمور المسلمين، ولم يكن الجوْرُ والحيْفُ إلا عليه خاصة، وهذا كلام مثله عليه السلام، لأنه إذا علم أو غلَب عَلَى ظنه أنه إن نازَع وحارَب دخل على الإسلام وَهَن وَثَلْم[1] لم يَخْتَرْ له المنازعة، وإن كان يطلب بالمنازعة ما هو حقٌّ، وإن عَلِم أو غلَب على ظنّه بالإمساك عن طلب حقه أنما يدخل الثَّلْم الوَهَن عليه خاصة، ويسلم الإسلامُ من الفتنة، وَجَب عليه أنْ يُغضيَ ويصبر على ما أتوْا إليه من أخذ حقّه، وكفّ يده، حراسة للإسلام من الفتنة.

فإن قلت: فهلاّ سلّم إلى معاوية وإلى أصحاب الجَمل، وأغضَى على اغتصاب حَقّه حفظاً للإسلام من الفتنة؟

قلت: إنّ الجورَ الداخل عليه من أصحاب الجمل ومن معاوية وأهل الشام، لم يكن مقصوراً عليه خاصة، بل كان يعمّ الإسلام والمسلمين جميعاً، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يصلُح لرياسة الأمة وتحمّل أعباء الخلافة، فلم يكن الشَّرْط الذي اشترطه متحقّقاً، وهو قوله: «ولم يكن فيه جَوْر إلاّ عليّ خاصة».

وهذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام لم يكن يذهب إلى أن خلافة عثمان كانت تتضمّن جَوْراً على المسلمين والإسلام، وإنما كانت تتضمن جَوْراً عليه خاصّة، وأنها وقعت على جهة مخالفة الأوْلى، لا على جهة الفساد الكلّيّ والبطلان الأصليّ، وهذا محضُ مذهب أصحابنا.

الإمام علي عليه السلام قبل المبايعة لعثمان

ونحن نذكر في هذا الموضع ما استفاض في الروايات من مناشدتِه أصحابَ الشورى، وتعديده فضائله وخصائصه التي بان بها منهم ومن غيرهم. قد رَوَى الناس ذلك فأكثروا، والذي صحَّ عندنا أنه لم يكن الأمرُ كما رُوِي من تلك التعديدات الطويلة، ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبدُ الرحمن والحاضرون عثمانَ، وتلكأ هو عليه السلام عن البيعة: إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه، وإن نمنَعْه نركب أعجاز الإبل وإن طال السُّرى، في كلام قد ذكره أهل السيرة، وقد أوردنا بعضَه فيما تقدم، ثم قال لهم: أنشدكم الله! أفيكم أحَدٌ آخَى رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبين نفسه، حيث آخى بينَ بعض المسلمين وبعضٍ غيري؟

فقالوا: لا، فقال: أفيكم أحدٌ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ كنت مولاه فهذا مولاه»[2]

---

(١) الثلم: الخلل في الشيء. اللسان مادة (ثلم).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٣)، وابن ماجه (١٢١)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند علي بن أبي طالب (٦٤٢).

غيري؟ فقالوا: لا، فقال: أفيكم أحدٌ؟ قال له رسول الله ﷺ: «أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي»[1] غيري؟ قالوا: لا، قال: أفيكُم من اؤتمن على سورة براءة، وقال له رسول الله ﷺ إنه لا يؤدي عَنّي إلا أنا أو رجل مِنّي غيري؟ قالوا: لا، قال: ألا تعلمون أنّ أصحابَ رسول الله ﷺ فَرُّوا عنه في مأقِط الحرب[2] في غير موطن، وما فررت قَطّ؟ قالوا: بلى، قال: ألا تعلمون أني أوّل الناس إسلاماً؟ قالوا: بلى. قال: فأيُّنا أقرب إلى رسول الله ﷺ نسباً؟ قالوا: أنت. فقطع عليه عبدُ الرحمن بن عوف كلامه، قال: يا عليّ، قد أبَى الناس إلا على عُثمان، فلا تجعَلنّ على نفسك سبيلاً، ثم قال: يا أبا طلحة، ما الذي أمرك به عمر؟ قال: أن أقْتُل مَنْ شقّ عصا الجماعة، فقال عبد الرحمن لعليّ: بايع إذن، وإلا كنت متَّبعاً غيرَ سبيل المؤمنين، وأنفذْنا فيك ما أمِرْنا به. فقال: «لقد علمتم أني أحقُّ بها من غيري، والله لأسْلِمن...»[3] الفصل إلى آخره، ثم مدّ يده فبايع.

٧٤ - ومن كلام له عليه السلام لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان

الأصل: أَوَ لَمْ يَنْهَ بَنِي أُمَيَّةَ عِلْمُهَا بِي عَنْ قَرْفِي! أَوَ مَا وَزَعَ ٱلْجُهَّالَ سَابِقَتِي عَنْ تُهَمَتِي! وَلَمَا وَعَظَهُم ٱللهُ بِهِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي.

أَنَا حَجِيجُ المَارِقِينَ، وَخَصِيمُ النَّاكِثِينَ المُرْتَابِينَ، وَعَلَى كِتَابِ ٱللهِ تُعْرَضُ ٱلْأَمْثَالُ، وبما فِي الصَّدُورِ تُجَازَى ٱلعِبَادُ.

الشرح: القَرْف: العيب، قرفتُه بكذا أي عبته. ووزَع: كَفّ وَردَع، ومنه قوله: «لا بدّ للناس من وَزَعة»، جمع وازع، أي من رؤساء وأمراء. والتُّهَمة، بفتح الهاء، هي اللغة الفصيحة، وأصل التاء فيه واو.

والحجيج، كالخصيم: ذو الحجاج والخصومة. يقول عليه السلام: أمَا كان في عِلْم بني أميّة بحالي ما ينهاها عن قَرْفي بدم عثمان! وحاله التي أشار إليها، وذكَر أنّ عِلْمَهم بها يقتضي ألا يقرِفوه بذلك، هي منزلته في الدِّين التي لا منزلةَ أعلى منها، وما نطق به الكتاب الصادق من

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٠).
(٢) مأقط الحرب: موضع القتال. (٣) انظر البحار: ٢٩/ ٦١٢.

طهارته وطهارة بنيه وزوجته، في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(١)]. وقول النبيّ ﷺ: «أنتَ مِني بمنزلة هارون من موسى»، وذلك يقتضي عصمتَه عن الدم الحرام، كما أنّ هارون معصوم عن مثل ذلك. وترادف الأقوال والأفعال من رسول الله ﷺ في أمره التي يضطرّ معها الحاضرون لها والمشاهدون إيّاها إلى أن مثله لا يجوز أن يسعى في إراقةِ دم أمير مسلم، لم يُحْدِث حدثاً يستوجب به إحلالَ دمه.

وهذا الكلامُ صحيح معقول، وذاك أنّا نَرَى مَن يُظهر ناموس الدين، ويواظب على نوافل العبادات، ونشاهد مِنْ وَرَعِه وتقواه ما يتقرّر معه في نفوسنا استشعارَه الدين، واعتقاده إياه، فيصرفنا ذلك عن قَرْفه بالعيوب الفاحشة، ونستبعد مع ذلك طَعْنَ مَنْ يطعن فيه، ونُنْكِره ونأباه ونكذِّبه، فكيف ساغَ لأعداء أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع علمهم بمنزلته العالية في الدين، التي لم يصل إليها أحد من المسلمين، أن يُطلِقوا ألسنَتهم فيه، وينسبُوه إلى قَتْل عثمان أو الممالأة عليه، لاسيما وقد اتّصل بهم، وثَبَت عندهم، أنّه كان من أنصاره لا من المجلِبين عليه، وأنه كان أحسنَ الجماعة فيه قولاً وفعلاً. ثم قال: «ألم تَزَعِ الجهال وتردعهم سابقتي عن تهمتي»! وهذا الكلام تأكيد للقول الأوّل.

ثم قال: إن الذي وعظهم الله تعالى به في القرآن من تحريم الغيبة والقذف وتشبيه ذلك بأكل لحم الميت أبلغ من وعظي لهم، لأنه لا عظةَ أبلغُ من عظة القرآن.

ثم قال: «أنا حَجِيج المارقين، وخَصِيم المرتابين»، يعني يوم القيامة، روي عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «أنا أوّلُ من يَجْثُو للحكومة بين يدي الله تعالى»[(٢)]، وقد رُوِيَ عن النبيّ ﷺ مثل ذلك مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[(٣)] وأنه ﷺ سئل عنها، فقال: «عليّ وحمزة وعُبيدة، وعُتْبة وشَيْبة والوليد»[(٤)]، وكانت حادثتُهم أوّلَ حادثة وقعت فيها مبارزة أهل الإيمان لأهل الشرك، وكان المقتول الأول بالمبارزة الوليد بن عُتْبة، قتلَه عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ضربه على رأسه فبدرَتْ عيناه على وجنته، فقال النبيّ ﷺ فيه وفي أصحابه ما قال، وكان علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يكثر من قوله: «أنا حجيج المارقين»، ويشير إلى هذا المعنى.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٩٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٥٧)، بلفظ: «للخصومة» بدل الحكومة.

(٣) سورة الحج، الآية: ١٩.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب قتل أبي جهل (٣٩٦٦)، ومسلم في كتاب: التفسير، باب قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ (٣٠٣٣)، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب المبارزة والسلب (٢٨٣٥).

ثم أشار إلى ذلك بقوله: «على كتاب الله تعرض الأمثال»، يريد قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾(١).

ثم قال: «وبما في الصدور تجازى العباد» إن كنت قتلتُ عثمان أو مالأت عليه، فإنّ الله تعالى سيجازيني بذلك، وإلا فسوف يجازِي بالعقوبة والعذاب من اتَّهمني به، ونسبه إليّ.

وهذا الكلام يدلّ على ما يقوله أصحابنا من تبرّؤ أمير المؤمنين عليه السلام من دم عثمان، وفيه ردّ وإبطال لما يزعمه الإمامية، من كونه رضيَ به وأباحه، وليس يقول أصحابنا إنه عليه السلام لم يكن ساخطاً أفعال عثمان، ولكنهم يقولون: إنه وإن سخطها وكرهها وأنكرها لم يكن مُبيحاً لدمه، ولا ممالئاً على قتله، ولا يلزم من إنكار أفعال الإنسان إحلال دمه، فقد لا يبلغ الفعل في القبح أن يستحلّ به الدم، كما في كثير من المناهي.

٧٥ – ومن خطبة له عليه السلام

الأصل: رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَأً سَمِعَ حُكْماً فَوَعَى، وَدُعِيَ إِلَى رَشَادٍ فَدَنَا، وَأَخَذَ بِحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا. رَاقَبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ، قَدَّمَ خَالِصاً، وَعَمِلَ صَالِحاً. اكْتَسَبَ مَذْخُوراً، وَٱجْتَنَبَ مَحْذُوراً. رَمَى غَرَضاً، وَأَحْرَزَ عِوَضاً. كَابَرَ هَوَاهُ، وَكَذَّبَ مُنَاهُ.

جَعَلَ ٱلصَّبْرَ مَطِيَّةَ نَجَاتِهِ، وَٱلتَّقْوَى عُدَّةَ وَفَاتِهِ. رَكِبَ ٱلطَّرِيقَةَ ٱلْغَرَّاءَ. لَزِمَ ٱلْمَحَجَّةَ ٱلْبَيْضَاءَ. ٱغْتَنَمَ ٱلْمَهَلَ، وَبَادَرَ ٱلْأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ مِنَ ٱلْعَمَلِ.

الشرح: الحُكم ها هنا: الحِكْمة، قال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(٢)، ووعى: حفظ، وعيتُ الحديث أعيه وعياً، وأُذُنٌ واعيةٌ، أي حافظة. ودنا: قَرُب. والحُجزة: معقِد الإزار، وأخذ فلان، بحجزة فلان إذا اعتصم به ولجأ إليه.

ثم حذف عليه السلام الواو في اللفظات الأخر فلم يقل: «وراقب ربه»، ولا «وقدّم خالصاً»، وكذلك إلى آخر اللفظات، وهذا نوع من الفصاحة كثير في استعمالهم.

واكتسب، بمعنى كسب، يقال: كسبت الشيء واكتسبته بمعنى.

والغَرَض: ما يرمَى بالسهام، يقول: رحِم الله امرأ رمى غَرَضاً، أي قَصد الحَق كمن يرمي غرضاً يَقصده، لا من يرمي في عمياء لا يقصد شيئاً بعينه.

(١) سورة الحج، الآية: ١٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ١٢.

والعوض المحرَز ها هنا: هو الثواب.

وقوله: «كابر هواه» أي غالبه. وروي «كاثر» بالثاء المنقوطة بالثلاث، أي غالب هواه بكثرة عقله، يقال: كاثرناهم فكثرناهم، أي غلبناهم بالكثرة.

وقوله: «وكَذَّب مُنَاه» أي أمنيَّته. والطريقة الغرّاء: البيضاء. والمَهَل: النّظر والتُّؤَدة.

٧٦ - ومن كلام له عليه السلام في بني أمية

الأصل: **إِنَّ بَنِيَ أُمَيَّةَ لَيُفَوِّقُونَنِي تُرَاثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ تَفْوِيقاً، وَٱللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ لَأَنْفُضَنَّهُمْ نَفْضَ ٱللَّحّامِ ٱلْوِذَامَ ٱلتَّرِبَةَ.**

قال الرضيّ رحمه الله: وَيُرْوَى «ٱلتِّرَابَ الْوَذَمَةَ»، وهو على الْقَلْب.

وقوله عليه السلام: «لَيُفَوِّقُونَنِي» أي يُعْطُونني من المال قليلاً كفُواق الناقة، وهو الحلبة الواحدةُ من لبنها.

وَٱلْوِذَامُ ٱلتَّرِبةُ: جمعُ وَذَمَةٍ، وهي الْحُزَّة من الكَرِش أو الكَبِد تقع في التُّراب فتُنْفَض.

الشرح: اعلم أنّ أصل هذا الخبر قد رواه أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانيّ في كتاب «الأغاني» بإسناد رفعه إلى الحارث بن حبيش، قال: بعثني سعيد بن العاص - وهو يومئذ أمير الكوفة من قِبَل عثمان - بهدايا إلى المدينة، وبعث معي هدية إلى عليّ عليه السلام وكتب إليه: **إني لم أبعثْ إلى أحدٍ أكثر مما بعثت به إليك، إلا إلى أمير المؤمنين. فلما أتيت علياً عليه السلام وقرأ كتابه، قال: «لشدَّ ما يحظر عليّ بنو أمية تراثَ محمد صلى الله عليه وسلم! أما والله لئن وليتُها لأنفضنّها نَفْضَ القَصّاب التراب الوذِمة».**

قال أبو الفرج: وهذا خطأ، إنما هو «الوِذام التَّرِبة».

قال: وقد حدثني بذلك أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ عن أبي زيد عمر بن شبّة، بإسناد ذكره في الكتاب، أنّ سعيد بن العاص حيث كان أميرَ الكوفة، بعث مع ابن أبي عائشة مولاه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام بِصلَة، فقال عليٌّ عليه السلام: والله لا يزال غلام من غلمان بني أمية يبعث إلينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة، والله لئن بقيت لأنفضنّها نَفْض القَصّاب الوذام التَّرِبة.

٧٧ - ومن كلمات كان عليه السلام يدعو بها

الأصل: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْمَغْفِرَةِ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي، وَلَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي، ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ الأَلْحَاظِ، وَسَقَطَاتِ الأَلْفَاظِ وَسَهَوَاتِ الْجَنَانِ، وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ.

الشرح: وأيتُ، أي وعدت، والوأي الوعد. ورمزات الألحاظ: الإشارة بها. والألحاظ: جمع لَحظ، بفتح اللام، وهو مُؤخَر العين. وسقَطات الألفاظ: لغوها، وسهوات الجنان: غَفلاته، والجَنان: القلْبُ. وهَفَوات اللسان: زلآته.

وفي هذا الموضع يقال: ما فائدةُ الدعاء عندكم - والقَديم تعالى إنّما يغفِر الصغائر، لأنها تقع مكفّرة، فلا حاجة إلى الدعاء بغفرانها، ولا يؤثّر الدعاء أيضاً في أفعال الباري سبحانه لأنه إنما يفعلُ بحسَب المصالح ويرزق المال والولد وغير ذلك، ويصرف المرض والجدب وغيرهما بحسب ما يعلمه من المصلحة، فلا تأثير للدعاء في شيء من ذلك؟

والجواب، أنه لا يمتنع أن يحسن الدعاء بما يعلم أنّ القديم يفعله لا محالة، ويكون وجه حُسْنه، صدوره عن المكلّف على سبيل الانقطاع إلى الخالق سبحانه.

ويجوز أيضاً أن يكونَ في الدعاء نفسِه مصلحة ولطف للمكَلّف، لقد حَسُن منّا الاستغفار للمؤمنين، والصلاة على الأنبياء والملائكة.

وأيضاً فليس كلّ أفعال الباريء سبحانه واجبةً عليه، بل معظمها ما يصدر على وجه الإحسان والتفضّل، فيجوز أن يفعله، ويجوز ألا يفعله.

فإن قلت: فهل يُسمّى الواجب الذي لا بدّ للقديم - تعالى - من فعله إجابةً لدعاء المكلف؟

قلت: لا، وإنّما يسمّى إجابة إذا فعل سبحانه ما يجوز أن يفعلَه، ويجوز ألا يفعله كالتفضّل. وأيضاً فإنّ اللطف والمصلحة قد يكون لطفاً ومصلحة في كلِّ حال، وقد يكون لطفاً عند الدعاء، ولولا الدعاء لم يكن لطفاً، وليس بممتنع في القِسْمِ الثاني أن يسمّى إجابة للدعاء، لأنّ للدعاء على كلّ حال تأثيراً في فعله.

فإن قيل: أيجوز أن يدعو النبيّ صلى الله عليه وآله بدعاء فلا يستجاب له؟

قيل: إن مِنْ شَرْط حسن الدعاء أن يعلم الداعي حُسْن ما طلبه بالدعاء، وإنما يَعلمُ حسنَه،

بألاّ يكون فيه وجه قبح ظاهر، وما غاب عنه من وجوه القبح، نحو كونِه مفسدة يجب أن يشترِطه في دعائه، ويطلب ما يطلبه بشرط ألا يكون مفسدة. وإن لم يظهرْ هذا الشرط في دعائه وجب أن يُضمِره في نفسه، فمتَى سأل النبيُّ ربَّه تعالى أمراً فلم يفعلْه لم يجز أن يقال: إنه ما أجيبت دعوتُه، لأنه يكون قد سأل بشرط ألاّ يكون مفسدة، فإذا لم يقع ما يطلبه، فلأنّ المطلوب قد علم الله فيه من المفسدة ما لم يعلمه النبيّ صلى الله عليه وآله، فلا يقال: إنه ما أجيب دعاؤه، لأن دعاءه كان مشروطاً، وإنما يصدُق قولنا ما أجيب دعاؤه على مَنْ طلب أمراً طلباً مطلقاً غير مشروط فلم يقع، والنبيّ صلى الله عليه وآله لا يتحقّق ذلك في حقه.

من أدعية رسول الله المأثورة

ونحن نذكر في هذا الموضع جملة من الأدعية المأثورة طلباً لبركَتها، ولينتفع قارىء الكتاب بها: كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أصبح أن يقول: «**أصْبَحْنَا وأصبَح الملك والكِبْرياء والعظمة والجلال والخَلْق والأمْر والليل والنهار وما يسكُن فيهما لله عز وجلّ وحدَه لا شريك له. اللَّهمَّ اجعلْ أوّلَ يومِي هذا صلاحاً، وأوسطَه فلاحاً، وآخره نجاحاً. اللهم إنّي أسألُك خيرَ الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين. اللَّهمَّ اقسِمْ لنا من خَشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتنا ما تبلّغنا به رحمتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا. اللّهمَّ مَتعنا بأسماعِنا وأبصارِنا، واجعلهما الوارث مِنّا، وانصرنا على مَنْ ظلمنا، ولا تجعل مصيبَتَنا في ديننا، ولا تجعل الدُّنْيا أكبرَ هَمِّنا، ولا مَبْلَغَ علمنا، ولا تسلط علينا مَنْ لا يرحمُنا**»[1].

من أدعية الصحيفة السجادية

ومن دعاء أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يدعُو به زينُ العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام، وهو من أدعية الصحيفة: يا مَنْ يرحَمُ من لا يرحمهُ العباد، ويا مَن يقبل من لا تقبَلُه البلاد، ويا مَنْ لا يحتقِر أهلَ الحاجة إليه، يا من لا يجبّه بالردّ أهلَ الإلحاح إليه. يا مَنْ لا يخفَى عليه صغيرُ ما يُتحَف[2] به، ولا يضيع يسيرُ ما يعمَلُ له. يا مَنْ يشكُر على القليل، ويجازِي بالجليل. يا مَنْ يدنو إلى مَنْ دنا منه. يا من يَدْعُو إلى نفسه مَنْ أدبَر عنه. يا مَنْ لا يغيِّر النعمة، ولا يبادِر بالنِّقْمة. يا مَنْ يثَمِّر الحسنَة حتى ينمِّيهَا، ويتجاوز عن السيئة حتى يعفّيهَا، انصرفت دون مَدَى كرمك الحاجات، وامتلأت ببعضِ جودك أوعيةُ الطلِبات، وتفسّخَتْ دون بلوغ نعتك الصِّفات. فلك العلوّ الأعلى فوق كل عالٍ، والجلال الأمجد فوق كلّ جلال، كلّ جليل عندك حقير،

---

(١) أخرج بنحوه الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد (٣٥٠٢).

(٢) من البر واللطف والطرفة. القاموس، مادة (تحف).

وكلّ شريفٍ في جَنْب شرفك صغير، خَاب الوافدون على غيرِك، وخَسِر المتعرّضون إلا لك، وضاع الملمُّون إلا بك، وأجدب المنتجعون[1] إلا منِ انتجعَ فضلك، لأنّك ذو غاية قريبة من الراغبين، وذو مجدٍ مباح للسائلين، لا يخِيبُ لديك الآملون، ولا يخفِق من عطائك المتعرّضون، ولا يشقى بنقمتك المستغفرون، رزقُك مبسوط لمَنْ عصاك، وحلمُك معرّض لمن ناواك، وعادتك الإحسان إلى المسيئين، وسنّتك الإبقاء على المعتدين، حتى لقد غرَّتْهم أنَاتك عن النزوع، وصدّهم إمهالك عن الرجوع، وإنما تأنّيت بهم ليَفيئوا إلى أمرِك، وأمهلتهم ثقةً بدوَام مُلْكك، فمن كان من أهل السعادة ختمتَ له بها، ومَنْ كان من أهل الشّقاوة خذلته لها.

كلهم صائر إلى رحمتك، وأمورُهم آيلة إلى أمرك، لم يهُنْ على طول مدّتهم سلطانُك، ولم تدحَضْ لترك معاجلتهم حججُك، حجّتك قائمة، وسلطانك ثابت، فالويل الدائم لمن جنحَ عنك، والخيبَةُ الخاذِلة لمن خاب أمله منك، والشقاء الأشقى لمن اغترّ بك. ما أكثر تقلبه في عذابك، وما أعظم تردّده في عقابك، وما أبعدَ غايته من الفرج، وما أثبطه من سهولة المخرج! عدلاً من قضائك لا تجوز فيه، وإنصافاً من حكمك لا تحيفُ عليه، قد ظاهرتَ الحجج، وأزلتَ الأعذار، وتقدّمت بالوعيد، وتلطّفت في الترغيب، وضربت الأمثال، وأطلتَ الإمهال، وأخَّرت وأنت تستطيع المعاجلة، وتأنّيت وأنت مليء بالمبادرة.

لم تك أناتُك عَجْزاً، ولا حِلْمك وَهْناً، ولا إمساكك لِعلّة، ولا انتظارك لمداراة، بل لتكونَ حجَّتك الأبلغ، وكرمك الأكمل، وإحسانك الأوفى، ونعمتك الأتمّ. كلّ ذلك كان ولم يزل، وهو كائن لا يزول. نعمتُك أجلّ من أن تُوصف بكلّها، ومجدُك أرفعُ من أن يحدّ بكنهه، وإحسانُك أكبرُ من أن يشكَر على أقله، فقد أقصرتُ ساكتاً عن تحميدك، وتَهيّبتُ ممسكاً عن تمجيدك، لا رغبةً يا إلهي عنك بل عجزاً، ولا زهداً فيما عندك بل تقصيراً، وها أنذا يا إلهي أؤمّل بالوفادة، وأسألك حسنَ الرِّفادة[2]، فاسمع ندائي، واستجب دعائي، ولا تخْتم عَمَلِي بخيبتي، ولا تجبّهني بالردّ في مسألتي، وأكرِم من عندك منصرَفي، إنك غير ضائق عَمّا تريد، ولا عاجز عمّا تشاء، وأنت على كل شيء قدير[3].

ومن أدعيته عليه السلام، وهو من أدعية الصحيفة أيضاً:

اللهمّ يا مَنْ برحمتِه يستغيث المذنبون، ويا مَنْ إلى إحسانه يفزَعُ المضطرون، ويا مَنْ لخيفَتِه

(١) انتجع: طلب الكلأ في موضعه. القاموس، مادة: (نجع).
(٢) الرفادة: العطاء والصلة. القاموس، مادة: (رفدة).
(٣) أخرجه محمد بن المشهدي في المزار: ٤٦.

ينتحب الخاطئون، يا أنسَ كلّ مستوحِشٍ غريب، يا فرج كل مكروب حريب. يا عونَ كلّ مخذول فريد، يا عاضدَ كلِّ محتاج طريد، أنت الذي وَسِعْتَ كلّ شيء رحمة وعلماً، وأنتَ الذي جعلتَ لَكلِّ مخلوق في نعمتك سَهْماً، وأنت الذي عفوُه أعلَى من عقابه، وأنت الذي رحمتُه أمام غَضَبِه، وأنت الذي إعطاؤه أكبَرُ من منعه، وأنتَ الذي وَسِع الخلائق كلّهم بعفوه، وأنت الّذي لا يرغبُ في غنى مَنْ أعطاه. وأنت الذي لا يفرِّط في عقاب من عصاه.

وأنا يا سيّدي عبدُك الذي أمرتَه بالدعاء فقال: لبَّيك وسعْدَيْك! وأنا يا سيدي عبدُكَ الذي أوقَرَتِ الخطايا ظهره، وأنا الذي أفنَت الذنوبُ عمرَه، وأنا الذي بجهله عصاك، ولم يكن أهلاً منه لذلك، فهل أنتَ يا مولاي راحمٌ من دعاك فاجتهد في الدعاء، أم أنت غافرٌ لمن بكى لك، فأسرع في البكاء، أم أنت متجاوزٌ عمّن عَفَّر لك وجهَه، متذّللاً، أم أنت مُغْنٍ من شكا إليك فقره متوكّلاً!

اللَّهمَّ فلا تخيِّب مَنْ لا يجد معطياً غيرَك، ولا تخذُل من لا يستغني عنك بأحدٍ دونك. اللَّهمَّ لا تُعرِضْ عَنّي وقد أقبلت عليك، ولا تحرمْني وقد رغبتُ إليك، ولا تجبّهني بالردّ وقد انتصبتُ بين يديك. أنت الذي وصفتَ نفسَك بالرّحمة، وأنت الذي سمَّيْتَ نفسك بالعفو، فارحمني واعفُ عَنّي، فقد تَرَى يا سيّدي فيضَ دموعي من خيفَتِك، ووجيبَ قلبِي من خشيتك، وانتفاضَ جوارحي من هيبتك، كلُّ ذلك حياءً منك بسوء عَمَلِي، وخجلاً منك لكثرة ذنوبي، قد كَلّ لساني عن مناجاتك، وخَمد صوتي عن الدعاء إليك!

يا إلهي، فكَمْ من عيبٍ سترتَه عليّ فلم تفضحْني، وكَمْ من ذنبٍ غَطّيتَ عليه فلم تشهِّر بي! وكَمْ من عائبةٍ أممتُ بها فلم تهتِكْ عنّي سترَها، ولم تقلّدني مكروه شَنَارها[1]، ولم تبد عليّ محرّمات سوءاتها. فمن يلتمسُ معايبي من جِيرتي وحَسَدَةِ نعمتك عندي، ثم لم ينهني ذلك حتى صرتُ إلى أسوإ ما عهدتَ مِنّي! فمن أجهلُ مِنِّي يا سيدي برشَدِك! ومن أغفلُ مِنّي عن حظه منك! ومَنْ أبعدُ مِنِي من استصلاح نفسه حين أنفقت ما أجريتَ عليّ من رزقك فيما نهيتَني عنه مِن معصيتك! ومَنْ أبعدُ غوْراً في الباطل، وأشدّ إقداماً على السوء منّي حين أقِفُ بين دعوتك ودعوة الشيطان، فاتّبع دعوته على غير عَمًي عن المعرفة به، ولا نسيانٍ من حفظي له، وأنا حينئذ موقِنٌ أنّ منتهَى دعوتك الجنّة، ومنتهى دعوته النار!

سُبْحَانك فما أعجب ما أشهد به على نفسي، وأعدّدُه من مكنون أمري! وأعجبُ مِنْ ذلك أناتك عَنّي، وإبطاؤك عن معاجَلتي، وليس ذلك من كرمي عليك، بل تأنّياً منك بي وتفضُّلاً منك عليّ، لأن ارتدعَ عن خطيئي، ولأنّ عفوك أحبُّ إليك من عقوبتي. بل أنا يا إلهي أكثرُ

(١) الشَّنار: أقبح العيب، والعار.

ذنوباً، وأقبح آثاراً، وأشنع أفعالاً، وأشدّ في الباطل تهوّراً، وأضعف عند طاعتك تيقّظاً، وأغفل لوعيدك انتباهاً، مِنْ أنْ أحصِيَ لك عيوبي، وأقدر على تعديد ذنوبي، وإنما أوبّخ بهذا نفسي طمعاً في رأفتك التي بها إصلاح أمر المذنبين، ورجاءً لعصمتك التي بها فَكاك رقاب الخاطئين. اللهمّ وهذه رقبتي قد أرقّتْها الذنوب فأعتِقْها بعفوك، وقد أثقلتْها الخطايا فخفّف عنها بمنّك. اللهمّ إني لو بكيت حتى تسقط أشفارُ عيني، وانتحبْتُ حتى ينقطع صوتي، وقمت لك حتى تنتشرَ قدمايَ، وركعتُ لك حتى ينجذِع صُلْبي، وسجدْت لك حتى تتفقّأ حَدَقَتاي، وأكلْت التراب طولَ عمري، وشربت ماء الرماد آخر دهري، وذكرتُك في خلال ذلك حتى يكلّ لساني، ثم لم أرفع طرفي إلى آفاق السماء استحياء منك، لما استوجبتُ بذلك محو سيّئة واحدة من سيّئاتي، فإن كنتَ تغفرُ لي حين أستوجب مغفرتَك، وتعفو عني حين أستحقُّ عفوك، فإنّ ذلك غير واجب لي بالاستحقاق، ولا أنا أهلٌ له على الاستيجاب، إذ كان جزائي منك من أوّل ما عصيتُك النار، فإن تعذّبني فإنك غير ظالم.

إلهي فإن تغمَّدْتَني بسترك فلم تفضحني، وأمهلتَني بكرمك فلم تعاجِلْني، وحلُمتَ عني بتفضّلك فلم تغيّر نعمك عليّ، ولم تكدّر معروفَك عندي، فارحم طول تضرُّعي، وشدةَ مسكنتي، وسوء موقفي.

اللهمَّ صلّ على محمد وآل محمد، وأنقذني من المعاصي، واستعملني بالطاعة، وارزقني حسنَ الإنابة، وطهّرني بالتوبة، وأيّدني بالعصمة، واستصلِحْني عافية، وارزقني حلاوة المغفرة، واجعلني طليقَ عفوك، واكتب لي أماناً من سَخَطك، وبشِّرْني بذلك في العاجل دون الآجل، بشرَى أعرفها، وعرّفني له علامةً أتبيّنها، إن ذلك لا يضيقُ عليك في وُجدك، ولا يتكاءدك في قدرتك، وأنت على كلّ شيء قدير[1].

ومن أدعيته عليه السلام، وهو من أدعية الصحيفة:

اللهمَّ يا ذا الملك المتأبّد بالخلود والسلطان، الممتنِع بغير جنود، والمعزّ الباقي على مَرّ الدهور، عزّ سلطانك عزًّا لا حدّ له ولا منتهى لآخره، واستعلَى ملكك علوًّا سقطت الأشياء دونَ بلوغ أمده، ولا يبلغ ما استأثرت به من ذلك نعوتُ أقصى نعت الناعتين ضلّت فيك الصفات، وتفسّخت دونك النعوت، وحارت في كبريائك لطائف الأوهام.

كذلك أنت الله في أوّليتك، وعلى ذلك أنت دائم لا تزول، وكذلك أنت الله في آخريتك، وكذلك أنت ثابت لا تحُول.

(١) انظر المزار للمشهدي: ١٦٠، والصحيفة السجادية: ٩٠.

وأنا العبد الضعيف عملاً، الجسيم أملاً، خرجتْ من يديّ أسبابُ الوصلات إلى رحمتك، وتقطّعت عنّي عِصَم الآمال إلا ما أنا معتصم به من عفوك. قَلّ عندي ما أعتدّ به من طاعتك، وكثُر عندي ما أبوء به من معصيتك، ولن يفوتك عفوٌ عن عبدك وإن أساء، فاعف عنّي.

اللهمَّ قد أشرف على كلّ خطايا الأعمال علمُك، وانكشف كلّ مستور عند خُبْرِك، فلا ينطوي عنك دقائق الأمور، ولا يعزُب عنك خفايا السرائر، وقد هربتُ إليك من صغائر ذنوب موبقة، وكبائر أعمال مردية، فلا شفيعَ يشفع لي إليك، ولا خفير يؤمنني منك، ولا حصن يحجبني عنك، ولا ملاذ ألجأ إليه غيرك.

هذا مقامُ العائذ بك، ومحلّ المعترف لك، فلا يضيقَنّ عنّي فضلُك، ولا يقصّرَنّ دوني عفوك، ولا أكون أخيبَ عبادك التائبين، ولا أقنَط وفودك الآملين، واغفر لي إنك خير الغافرين.

اللهمّ إنك أمرتني فغَفلت، ونهيتَني فَرَكبت، وهذا مقام من استحيا لنفسه منك، وسخِط عليها ورضيَ عنك، وتلقّاك بنفس خاشعةٍ، وعين خاضعة، وظهرٍ مثقَل من الخطايا، واقفاً بين الرغبة إليك والرهبة منك، وأنت أوْلَى مَنْ رجاه، وأحقُّ مَنْ خشيَه واتقاه، فأعطني يا ربِّ ما رجوتُ، وأمنّي ما حَذَرت، وعدْ عليّ بفضلك ورحمتك، إنّك أكرمُ المسؤولين.

اللهمّ وإذْ سترتَني بعفوك، وتغمّدْتَني بفضلك في دار الفناء، فأجرْني من فَضيحات دار البقاء عند مواقفِ الأشهاد، من الملائكة المقربين، والرسل المكرّمين، والشهداء الصالحين، مِنْ جارٍ كنتُ أكاتمه سيّئاتي، ومن ذي رحِم كنت أحتشِم منه لسريراتي، لم أثق بهم في السَّتْر عليّ، ووثقت بك في المغفرة لي، وأنت أوْلى مَنْ وُثِق به، وأعطى مَنْ رُغِب إليه، وأرأف من استرحِم، فارحمني.

اللهمَّ إني أعوذُ بك مِنْ نار تغلّظتَ بها على مَنْ عصاك، وأوعدْتَ بها من ضارّك وناوَاك[1]، وصدَف عن رضاك. ومن نارٍ نورها ظلمة، وهيّنُها صعب، وقريبها بعيد. ومِنْ نار يأكل بعضُها بعضاً، ويصول بعضها على بعض، ومن نارٍ تَذَرُ العظام رميماً، وتسقى أهلَها حميماً، ومن نارٍ لا تبقى على من تضرَّع، ولا ترحم مَنِ استعطفها، ولا تقدر على التخفف عَمّن خشع لها، واستبتل إليها، تلقَى سكانَها بأحرّ ما لديها من أليم النكال، وشديد الوبال.

اللهمَّ بك أعوذ من عَقَاربها الفاغرة أفواهَها، وحيّاتها الناهشة بأنيابها، وشرابها الذي يقطّع الأمعاء، ويذيب الأحشاء، وأستهديك لما باعد عنها، وأنقذ منها، فأجرني بفضل رحمتك، وأقِلْني عثرتي بحسن إقالتك، ولا تخذُلني يا خير المجيرين.

(١) ناوأه: فاخره وعاداه. «القاموس المحيط» مادة (نوأ).

اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد إذا ذُكر الأبرار، وصلّ على محمد وآل محمد ما اختلف الليل والنهار، صلاةً لا ينقطع مددها، ولا يحصى عددُها، صلاة تشحن الهواء، وتملأ الأرض والسماء.

صلّ اللهمَّ عليه وعليهم حتى ترضى، وصلّ عليه وعليهم بعد الرّضا صلاةً لاحدَّ لها، ولا منتهى، يا أرحم الراحمين(١)!

ومن دعائه عليه السلام، وهو من أدعية الصحيفة:

اللهمّ إني أعوذ بك من هَيَجان الحِرْص وسَوْرة الغضب، وغلَبة الحسد وضعف الصبر، وقلة القناعة، وشكاسة الخُلق، وإلحاح الشهوة، وملكة الحميّة، ومتابعة الهوى، ومخالفة الهدى وسِنَة الغفلة، وتعاطي الكُلْفة، وإيثار الباطل على الحقّ، والإصرار على المأثم، والاستكثار من المعصية، والإقلال من الطاعة، ومباهات المكثرين، والإزراء على المقلّين، وسوء الولاية علىٰ مَنْ تحت أيدينا، وترك الشُّكر لمن اصطنع العارفة عندنا، وأن نعضُد ظالماً، أو نخذل ملهوفاً، أو نروم ما ليس لنا بحقّ، أو نقول بغير علم، ونعوذ بك أن ننطوِيَ على غِشّ لأحد، وأن نُعْجَب بأموالنا وأعمالنا، وأن نُمدّ في آمالنا. ونعوذ بك من سوء السريرة، واحتقار الصغيرة، وأن يستحوذَ علينا الشيطان، أو يشتدّ لنا الزمان، أو يتهضّمنا السلطان، ونعوذ بك من حبّ الإسراف، وفقدان الكفاف، ومن شماتة الأعداء، والفقر إلى الأصدقاء، ومن عيشة في شدّة، أو موت على غير عُدّة.

ونعوذ اللهمّ بك من الحَسْرَة العُظْمَى، والمصيبة الكبرى، ومن سوء المآب، وحرمان الثواب، وحلول العقاب.

اللهمَّ أعذنا من كلّ ذلك برحمتك وَمَنّك وجودك، إنك على كل شيء قديرٌ(٢).

ومن دعائه عليه السلام وتحميده، وذكره النبيّ صلى الله عليه وآله، وهو من أدعية الصحيفة أيضاً:

الحمد لله بكلّ ما حمِده أدنى ملائكته إليه، وأكرمِ خلْقِه عليه، وأرضى حامِديه لديه، حمداً يفضُل سائرَ الحمد، كفضْلِ ربّنا - جلّ جلاله - على جميع خَلْقه.

ثم له الحمد مكانَ كلّ نعمة له علينا، وعلى جميع عباده الماضين والباقين، عَدَد ما أحاط

(١) أخرجه البهائي في مفتاح الفلاح: ٢٧٧.
(٢) انظر الصحيفة السجادية: ٥٩.

به علمُه، ومن جميع الأشياء أضعافاً مضاعفة، أبداً سرمداً إلى يوم القيامة، وإلى ما لا نهاية له من بعد القيامة، حمداً لا غايةَ لحدّه، ولا حساب لعدّه، ولا مبلغَ لأعداده، ولا انقطاع لآماده، حمداً يكون وُصْلَةً إلى طاعته، وسبباً إلى رضوانه، وذريعةً إلى مغفرته، وطريقاً إلى جنّته، وخفيراً من نقمته، وأمْناً من غَضَبِه، وظهيراً على طاعته، وحاجزاً عن معصيته، وعوناً على تأدية حقه ووظائفه، حمداً نسعَدُ به في السعداء من أوليائه، وننتظم به في نظام الشهداء بسيوف أعدائه.

والحمد لله الذي منّ علينا بنبيّه محمد ﷺ دون الأمم الماضية، والقرون السالفة، لقدرته التي لا تعجزُ عن شيء وإن عَظُم، ولا يفوتها شيء وإن لَطُف.

اللّهم فصلّ على محمد أمينك على وحيِك، ونجيّك من خَلْقك، وصفيّك من عبادك. إمام الرحمة وقائد الخير، ومفتاح البرَكة، كما نصب لأمرك نفسه، وعرض فيك للمكروه بدَنه، وكاشف في الدعاء إليك حامّته، وحارب في رضاك أسرته، وقطَع في نُصرة دينك رَحِمَهُ، وأقصى الأدنَيْن على عنودهم عنك، وقرّب الأقصَيْن على استجابتهم لك، ووالَى فيك الأبعدين، وعاند فيك الأقربين، وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك، وأتعبها في الدعاء إلى ملّتك، وشغَلها بالنصح لأهل دعوتك، وهاجر إلى بلاد الغرْبة ومحلّ النأي عن موطن رحله، وموضع رجْله، ومسْقط رأسه، ومأنَس نفسه، إرادة منه لإعزاز دينك، واستنصاراً على أهل الكفر بك، حتى استتبّ له ما حاول في أعدائك، واستتمّ له ما دبّر في أوليائك، فنهد إلى المشركين بك، مستفتحاً بعونك، ومتقوياً على ضعفه بنصرك، فغزاهم في عُقْر ديارهم، وهجم عليهم في بُحبوحة قرارهم، حتى ظهر أمرُك، وعَلَتْ كلمتك، وقد كره المشركون.

اللهمَّ فارفعْه - بما كَدَح فيك - إلى الدرجة العليا من جنّتك، حتى لا يساوَى في منزلة، ولا يُكافأ في مرتبة، ولا يوازيه لديك ملَك مقرّب، ولا نبيّ مرسَل، وعَرّفه في أمته من حسن الشفاعة أجلّ ما وعدته، يا نافذ العِدة، يا وافيَ القول، يا مبدّل السيئات بأضعافها من الحسنات، إنك ذو الفضل العظيم[1].

ومن الأدعية المروية عن عيسى ابن مريم عليه السلام:

اللهمَّ أنت إله مَنْ في السماء، وإله من في الأرض، لا إله فيهما غيرك، وأنت حكيم مَنْ في السماء، وحكيم من في الأرض، لا حكيم فيهما غيرك، وأنت مَلِك من في السماء، وملك من

(١) أخرجه الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية: ٣٢.

في الأرض، لا ملك فيهما غيرك، قدرتك في السماء كقدرتك في الأرض، وسلطانك في السماء كسلطانك في الأرض، أسألك باسمك الكريم، ووجهك المنير، وملكِك القديم أن تفعل بي كذا وكذا[(١)].

وكان بعض الصالحين يدعو فيقول:

اللهمَّ لا تدخلنا النارَ بعد أن أسكنت قلوبَنا توحيدك، وإني لأرجو ألا تفعل، وإن فعلت لتجمعنّ بيننا وبين قوم عادَيْنَاهم فيك.

ومن دعاء بعضهم:

اللهمّ إنك لم تشرِكْ في خلقنا غيرَك، فلا تشرك في الإحسان إلينا غيرَك، اللهمّ لا ربّ لنا غيرك، فلا تجعل حاجتَنا عند غيرك. اللهمَّ إنّا لا نعبُد غيرك، فلا تسلّط علينا غيرَك.

قام أعرابيّ على قبرِ رسول الله ﷺ فقال:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! قلت فقبلنا، وتلوتَ فوعَيْنا، ثم ظلمنا أنفسنا، وقرأنا فيما أتيتنا به عن ربنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[(٢)]. اللهمَّ إنا قد جئنا رسولك ونحن نستغفرك ونسأل رسولك أن يستغفر لنا خطايانا، فاغفر لنا وتُبْ علينا.

فيقال: إن إنساناً حضر ذلك الدعاء، فرأى تلك الليلة رسول الله ﷺ في منامه يقول له: أبلغ الأعرابيّ أنّ الله قد غفر له.

ومن أدعية بعض الصالحين:

اللهمَّ إني لم آتِكَ بعمل صالح قدّمتُه، ولا شفاعة مخلوق رجوتُه، أتيتُك مقرًّا بالظلم والإساءة على نفسي، أتيتك بلا حجّة، أتيتك أرجو عظيمَ عفوكَ الذي عدتَ به على الخاطئين، ثم لم يمنعك عكوفُهم على عظيم الجُرْم أن جُدْت لهم بالمغفرة، فيا صاحب العفو العظيم اغفِر الذنب العظيم، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروي أنّ عليًّا عليه السلام اعتَمر، فرأى رجلاً متعلّقاً بأستار الكعبة، وهو يقول: يا مَنْ لا يشغَلُه

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور: ٢/ ٣٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.

سمع عن سمع، يا من لا تقلقه المسائل ولا يبرمه[١] إلحاح الملحّين، أذقني بَرْدَ عفوك، وحلاوة مغفرتك، وعذوبة عافيتك، والفوزَ بالجنّة، والنجاة من النار.

فقال عليٌّ عليه السلام: والذي نفسي بيده إن قالها وعليه مثل السموات والأرض من الذنوب قولاً مخلصاً ليغفرنّ له[٢].

ودعا أعرابيّ عند الملتزَم، فقال:

اللّهمَّ إن لك عليَّ حقوقاً فتصدّقْ بها عليّ، وإنّ للناس قبَلي تَبِعاتٍ فتحَمَّلْها عني، وقد أوجَبتَ لكلّ ضيفٍ قِرًى وأنا ضيفُك الليلة، فاجعل قِرايَ الجنة.

ودعا بعض الأعراب أيضاً، وقد خرج حاجًا، فقال: اللّهمَّ إليك خرَجْتُ، وما عندك طلبت، فلا تحرمني خيرَ ما عندك، لشرِّ ما عندي، اللّهمَّ إن كنتَ لم ترحَمْ تعبِي ونصَبي، فإنّها لمصيبة أصِبْتُ بها، فلا تحرمْني أجرَ المصاب على المصيبة.

ودعا بعضهم فقال: اللّهمّ إنك سترتَ علينا في الدنيا ذنوباً كثيرة، ونحن إلى سترها في الآخرة أحوَج، فاغفر لنا.

ومن دعاء بعضهم: اللّهمّ اجعل الموتَ خيرَ غائب ننتظره، واجعل القبرَ خير بيت نعمره، واجعل ما بعدَه خيراً لنا منه. اللهمّ إليك عجّت الأصوات بصنوف اللغات تسألكُ الحاجات، وحاجتي إليك أن تذكرني عند طول البِلَى، إذا نسيني أهل الدنيا.

وقال بعضهم: كنتُ أدعو الله بعد وفاة مالك بن دينار أنْ أراه في منامي، فرأيتُه بعد سنة، فقلت: يا أبا يحيى، علمني كيف أدعو؟ فقال: اللّهم يسّر الجواز، وسهل المجاز.

وقال الشعبيّ: حسدتُ عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعُو به على المنبر، يقول: اللهمّ إن ذنوبي كثيرة جلّت أن توصَف، وهي صغيرة في جَنْب عفوك، فاعفُ عني.

ومن دعاء بعض الزهاد: اللهمّ إنّي أعوذ بك من أهل يُلهيني، ومن هوًى يخزيني، ومن عمل يُخْزِيني ومن صاحبٍ يُغويني، ومن جارٍ يؤذيني، ومن غِنًى يُطغيني، ومن فقر ينسّيني. اللهمَّ اجعلنا نستحييك ونتقيك، ونخافك ونخشاك، ونرجوك ونطيعك في السرّ والعلانية. اللهمّ استرنا بالمعافاة والغنى، أستعين الله على أموري، وأستغفر الله لذنُوبي، وأعوذ بك من شرّ نفسي.

ويروى أنّ رجلاً أعمى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فشكا إليه ذهابَ بصره، فقال صلى الله عليه وآله له:

---

(١) بَرِم: ضجر. القاموس مادة (برم).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره: ١١/ ٤٣، وذكره ابن كثير في قصص الأنبياء: ٢/ ٢٣٠.

قل: يا سبّوح يا قدّوس، يا نور الأنوار، يا نورَ السموات والأرض، يا أوّل الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا أرحم الراحمين، أسألُك أنْ تغفرَ لي الذنوب التي تغيّر النعم، والذنوب التي تنزِل النقم، والذنوب التي تهتك العِصَم، والذنوب التي توجب البلاء، والذنوب التي تقطع الرجاء، والذنوب التي تحبس الدعاء، والذنوب التي تكشف الغِطاء، والذنوب التي تعجّل الفناء، والذنوب التي تظلم الهواء، وأسألك باسمك العظيم، ووجهك الكريم، أن تردّ عليّ بصري[(١)].

فدعا بذلك فردّ عليه بصره.

ومن الآثار المنقولة، أن الله تعالى غضب على أمة فأنزل عليهم العذاب، وكان فيهم ثلاثة صالحون، فخرجوا وابتهلوا إلى الله سبحانه، فقام أحدهم فقال: اللهمّ إنك أمرتنا أن نعتق أرقّاءنا ونحن أرقّاؤك، فاعِتقْنا، ثم جلس. وقام الثاني فقال: اللّهمّ إنك أمرتنا أن نعفُوَ عمّن ظلمنا، وقد ظَلمْنَا أنفسنا فاعفُ عَنّا، ثم جلس. وقام الثالث فقال: اللهمّ إنا على ثقة أنّك لم تخلق خلقاً أوسعَ من مغفرتك، فاجعل لنا في سعتها نصيباً، فرفع عنهم العذاب.

قيل لسفيان بن عُيينة: ما حديث رويته عن رسول الله ﷺ: «أفضل دعاء أعطِيته أنا والنبيون قبلي: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير»[(٢)]، كأنهم لم يروهُ دعاء! فقال: ما تنكرون من هذا! ثم روى لهم قول رسول الله ﷺ: «مَنْ تشاغل بالثناء على الله، أعطاه الله فوق رغبة السائلين». ثم قال: هذا أمية بن أبي الصَّلْت يقول لابن جُدْعان:

أأذكرُ حاجتي أمْ قد كفاني ... حَيَاؤكَ؟ إنّ شيمتَك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

وقال: هذا مخلوق يقول لمخلوق، فما ظنّكم برب العالمين!

ومن دعائه ﷺ: «اللهمّ إنّي أعوذُ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذلّ إلا لك»[(٣)].

ومن دعائه عليه السلام: «اللهمّ ارزقْني عينين هطّالتين تسقيان القلوبَ مذروفَ الدموع، قَبْل أن يكون الدمع دماً، وقرع الضِّرْس نَدَماً»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٧/ ٨٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة (٣٥٨٥)، ومالك في «الموطأ» في كتاب: النداء للصلاة: (٤٩٨).

(٣) أخرج بنحوه النسائي في كتاب: الاستعاذة، باب: الاستعاذة من الذلة (٥٤٦٠)، وأحمد في «مسنده»: (٧٩٩٢).

(٤) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١٩٠٨)، وابن المبارك في الزهد (٤٨٠).

ومن دعائه عليه السلام: اللهمّ طهّر لساني من الكذب، وقلبي من النّفاق، وعملي من الرياء، وبصري من الخيانة، فإنك تعلم خائنَة الأعين وما تخفي الصدور»[١].

ومما رواه أنَس بن مالك. «لا تعجَزُوا عن الدعاء فإنّه لن يهلِكَ مع الدعاء أحد»[٢].

ومن رواية جابر بن عبد الله: «لقد بارك الله للرجل في الحاجة بكثرة الدعاء فيها، أُعْطِيَها أو مُنِعَها»[٣].

أبو هريرة يرفعه: «اللهمّ أصْلِح لي في ديني الذي هو عِصْمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشِي، وأصلِحْ لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كلّ خير، والموت راحة لي مِن كلّ شرّ»[٤].

قيل لأعرابيّ: أتحسِنُ أن تدعوَ ربَّك؟ فقال: نعم، ثم دعا فقال: اللهمّ إنّك مَنَنْتَ علينَا بالإسلام من غير أن نسألَك، فلا تحرمْنَا الجنّة ونحن نسألك.

سُمِعَتْ أعرابية تقولَ في دعائها: يا عريضَ الجَفْنة، يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، فزجرها رجل، فقالت: دعوني أصف ربي بما يستحقّه.

وكان موسى بن جعفر عليه السلام يقول في سجوده آخر الليل: إلهي عَظُم الذّنبُ من عبدك، فليحسُن العفوُ من عندك.

ذُكِرَ عند بعض الصالحين رجُلٌ قد أصابه بلاءٌ عظيم، وهو يدعو فتبطىء عنه الإجابة، فقال: بَلَغَني أنّ الله تعالى يقول: كيف أرحم المبتَلَى من شيء أرحمه به!

قال طاوس: إني لفي الحِجْر ليلةً إذ دخل عليّ بن الحسين عليه السلام، فقلت: رجل صالح من أهلِ بيتٍ صالح، لأسمعن دعاءه! فسمعتُه يقول في أثناء دعائه: عَبْدُك بفِنائك، سائلك بفِنائك، مسكينك بفنائك. فما دعوت بهنّ في كَرْب إلا وفرّج عني.

عمر بن ذَرّ: اللهمَّ إن كنّا عصيناك فقد تركنامن معاصيك أبغضَها إليك، وهو الإشراك، وإن كنّا قصّرنا عن بعض طاعتك، فقد تمسكنا منها بأحبّها إليك، وهو شهادة أن لا إله إلا أنت، وأنّ رسلك جاءت بالحقّ من عندك[٥].

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٢٧).
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ح: (١٨١٨)، وابن حبان في «صحيحه» ح: (٨٧١)، وابن عدي في «الكامل» ح: (١١٨٨).
(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» ح: (١١٣٥).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء ح: (٢٧٢٠)، والطبراني في «المعجم الصغير» ح: (٩٠١).
(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار رقم: ٧/ ٩٩/ ١٣.

أعرابيّ: اللهمّ إنّا نبات نعمتِك، فلا تجعلْنا حصائدَ نقمتك.

بعضهم: اللهمّ إن كنتَ بلّغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء، فبلغْنِيها بالعافية.

حجّ أعرابيّ، فكان لا يستغفر إذا صلّى كما يستغفر الناس، فقيل له، فقال: كما أنّ تركي الاستغفار مع ما أعلم من عَفْوِ الله ورحمته ضعْف، فكذلك استغفاري مع ما أعلم من إصراري لؤم.

لما صافّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرُهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو في أقصى الميمنة جانحاً على سِيَة قوسه[(١)]، مبصبصاً بإصبَعه نحو السماء، فقال قتيبة: لتلك الأصبع القارورة، أحبّ إليّ من مائة ألف سيف شهير، ورمح طَرِير[(٢)].

سمع مطرِّف بن الشّخّير صيْحة الناس بالدعاء، فقال: لقد هممتُ أن أحلف أن الله غفر لهم، ثم ذكرت أني فيهم فكففت.

كان المأمون إذا رفعت المائدة من بين يديه يقول: الحمد لله الذي جعل أرزاقنا أكثر من أقواتنا.

الحسن البصريّ: مَنْ دخل المقبرة فقال: اللهمّ ربّ الأرواح العالية، والأجساد البالية، والعظام النَّخِرة التي خرجت من الدنيا وهي مؤمنة بك، أدخِلْ عليهم رَوْحاً منك وسلاماً منّي، كتب الله له بعدد مَنْ ولد - منذ زمن آدم إلى أن تقومَ الساعة - حسنات.

عليّ عليه السلام: الدّعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموٰات والأرض[(٣)].

قيل: إنّ فيما أنزله الله تعالى من الكتب القديمة: إن الله يبتلي العبد وهو يحبّه، ليسمعَ دعاءه وتضرُّعَه.

أبو هريرة: اطلبُوا الخيرَ دهرَكم كلَّه، وتعرّضوا لنفَحَاتٍ مِنْ رحمة الله تعالى، فإنّ لله تعالىٰ نفحاتٍ من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوا الله أن يسترَ عوراتِكم، ويؤمّن روعاتكم.

صلّى رجل إلى جَنْب عبد الله بن المبارك، فلما سلّم الإمام سلّم وقام عَجِلاً، فجذب عبدُ الله بثوبه، وقال: أما لك إلى ربِّك حاجة!

قيل لعمر بن عبد العزيز: جزاك الله عن الإسلام خيراً! فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عنّي خيراً.

عليّ عليه السلام: الداعِي بغير عملٍ كالرامي بغير وَتَر.

---

(١) سية القوس: ما عطف من طرفيها. (٢) رمح طرير: محدَّد.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٩٠/ ٢٨٨.

كان الزهريّ إذا فرغ من الحديث تلاه، فدعا: اللهمّ إني أسألُك خيرَ ما أحاط به علمُك في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من شرّ ما أحاط به علمُك في الدنيا والآخرة.

كان زبيد النّامِيّ يستتبع الصبيان إلى المسجد، وفي كُمّه الجوْز، ويقول: مَن يتبعنِي منكم فأعطيه خمس جوزات؟ فإذا دخلوا المسجد، قال ارفعوا أيديَكم وقولوا: اللهمّ اغفر لزبيد، فإذا دَعَوْا قال: اللهم استجِبْ لهم، فإنهم لم يذنبوا.

عليّ عليه السلام: جعلَ في يديك مفاتيح خزائنه بما أذِنَ لك فيه من مسألته، فمتى شئتَ استفتحتَ بالدعاء أبوابَ نعمته، واستمطرت شآبيبَ رحمته، فلا يُقنِطنّك إبطاءُ إجابته، فإن العطيّةَ على قدر النيّة، وربما أُخّرت عنك الإجابة، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزلَ لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تُؤتاه، وأُوتيتَ خيراً منه، أو صُرِف عنك بما هو لك خير. واعلم أنه رُبّ أمرٍ قد طلبتَ، فيه هلاكُ دينك لو أوتيتَه[1].

ومن الدعاء المرفوع: اللهمّ مَنْ أراد بنا سوءاً فأحِطْ به ذلك السوء كإحاطة القلائد بترائب الولائد، وأرسخْه على هامته كرسوخ السِّجّيل على قِمِمَ أصحاب الفيل.

سمع عمر رجلاً يقول في دعائه: اللهمَّ اجعلني من الأقلّين! فقال: ما أردتَ بهذا؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[3]، فقال: عليكم من الدعاء بما عُرف.

قال سعيد بن المسيَّب: مرّ بي صِلَة بن أشيم، فقلت له: ادع لي، فقال: رغّبك الله فيما يبقَى، وزهّدك فيما يفْنَى، ووهب لك اليقين الذي لا تسكُنُ النفوس إلا إليه، ولا تعوّل إلا عليه.

كان عليّ بن عيسى بن ماهان صاحبَ خراسان، وفي أيامه عصام بن يوسف الزاهد فلقيَه في الطريق، وسلّم عليه عليّ، فأعرض عنه ولم يردّ عليه، فوقف عليّ، ورفع يديه وأسبل عينيه، وقال: اللهمّ إنّ هذا الرجل يتقرّب إليك ببغضِي، وأنا أتقرّب إليك بحبّه، فإن كنت غفرتَ له ببغضي، فاغفِرِ لي بحبّه، يا كريم! ثم سار.

قال الأصمعيّ: سمعتُ أعرابياً يدعو ويقول: اللّهمّ إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان بعيداً فقرّبه، وإن كان قريباً فيسّره، وإن كان قليلاً فكثّره، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه.

من دعاء عمرو بن عُبَيْد، اللهمّ أغْنِنِي بالافتقار إليك، ولا تُفْقِرْني بالاستغناء عنك، اللهمَّ أعنّي عَلَى الدنيا بالقَناعة، وعلى الدين بالعصمة.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: رقم ٣٨/ ٩٠/ ٣٠١.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٠. (٣) سورة سبأ، الآية: ١٣.

شكا رجل إلى الحسن رحمه الله تعالى رجلاً يظلمه، فقال له: إذا صلّيت الركعتين بعد المغرب، فاسجد وقل: يا شديدَ القوى، يا شديد المِحَال، يا عزيز، أذللت لعزّك جميعَ مَنْ خلقت، فصلّ على محمد وآل محمد، واكفِني مؤنة فلان بما شئت. فدعا بها فلم يرعْهُ إلا الواعية بالليل. فسأل، فقيل: مات فلان فجأة.

قال موسى عليه السلام: يا ربّ إنك لتعطيني أكثر من أملِي، قال: لأنّك تكثِر من قول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

كان بعض الصالحين يقول قبل الصلاة: يا محسن، قد جاءك المسيء، وقد أمرت المحسن أن يتجاوزَ عن المسيء، فتجاوزْ عن قبيح ما عندِي بجميل ما عندك. اللهمّ ارزقني عَمَلَ الخائفين وخوف العاملين، حتى أنعم بترك التنعّم طمَعاً فيما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.

ومن الأدعية الجامعة: اللهمّ أغنِنِي بالعلم، وزيّنّي بالحلم، وجَمّلني بالعافية، وكَرّمني بالتقوى.

أحمد بن يوسف كاتب المأمون، إذا دخل عليه حيّاه بتحيّة أبرويز الملك: عشتَ الدهر، ونِلت المنى، وجُنّبت طاعة النساء.

ومن الدعاء المرويّ عن رسول الله ﷺ: «اللهمّ اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلّها. اللهمَّ أنعِشْني واجْزِني وانصرني واهدني لِصالح الأعمال والأخلاق، إنه لا يهدي لصالحها، ولا يصرِف عن سيئها إلا أنت»[١]. «اللهمّ إنّي أسألك الثباتَ في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكرَ نعمتك وحسنَ عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[٢].

آداب الدعاء

قالوا: ومن آداب الدعاء أن ترصد له الأوقات الشريفة، كما بين الأذان والإقامة، وكوقت السجود ووقت السَّحر، ويستحبّ أن يدعُوَ مستقبل القبلَة رافعاً يديه، لما روى سلمان عن النبيّ ﷺ: «إنّ ربّكم كريم يستحيي من عَبْدِه إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صِفراً»[٣]، ويستحبّ أن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء، فإنّ ذلك قد روي عن رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه الطبراني (٧٨١١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١١٢).
(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٩٣٥)، والترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٠٧)، والنسائي في كتاب: السهو (١٣٠٤)، وأحمد (١٦٦٦٥).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٥٥٦)، وأبو داود في كتاب: الصلاة (١٤٨٨)، وابن ماجه في كتاب: الدعاء (٣٨٦٥).

ويكره أن يرفَع بصرَه إلى السماء، لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَينتهينّ أقوامٌ عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو لَتُخطفَنّ أبصارُهمْ»(١)، وقد رُخّص في ذلك للصديقين والأئمة العادلين ويستحب أن يخفض صوته، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٢). وقد روي أن عمر سمع رجلاً يجهر بالدعاء، فقال: لكن زكريا نادى ربه نداء خفيًا.

ويكره أن يتكلّف الكلام المسجوع، ويستحبّ الإتيان بالمطبوع منه، لقوله ﷺ: «إيّاكم والسجع في الدعاء، بحسْبِ أحدكم أن يقول: اللهمّ إني أسألك الجنّة وما قَرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول أو عمل»(٣).

وقيل في الوصية الصالحة: ادعُ ربَّك بلسان الذّلة والاحتقار، لا بلسان الفصاحة والتشدّق.

وقال سفيان بنَ عُيينة: لا يمنعنّ أحدَكم من الدعاء ما يعلَمُه من نفسه، فإنّ الله تعالى أجابَ دعاء شرّ خلقه إبليس حيث قال: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾(٤).

النبيّ ﷺ: «إذا سأل أحدُكم ربه مسألة [فتعرّف الإجابة]، فليقل: الحمد لله الذي بنعته تتمّ الصالحات. ومَنْ أبطأ عنه شيء من ذاك فليقل: الحمد لله على كل حال»(٥).

ومن الآداب أن يَفْتتح بالذّكر وألاّ يَبتدىء بالمسألة، كان رسول الله ﷺ قبل أن يدعو يقول: «سبحان ربّيَ العليّ الوهاب»(٦).

أبو سليمان الداراني: مَنْ أراد أن يسأل الله تعالى حاجتَه فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ، ثم يسألُ حاجتَه، ثم يختم بالصّلاة على رسول الله ﷺ، فإنّ الله تعالى يقبَلُ الصلاتين، وهو أكرم من أن يَدَع ما بينهما.

ومن دعاء عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللّهمّ صنْ وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزقَ طالبي رزقك، وأستعطِفَ شرار خلقك، وأبتلى بحمْد مَنْ أعطاني، وأفتتنَ بذمّ مَنْ منعني، وأنت من وراء ذلك كلّه وليّ الإعطاء والمنع، إنك على كل شيء قدير».

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان (٧٥٠)، ومسلم في كتاب: الصلاة (٤٢٨)، والنسائي في كتاب: السهو (١١٩٣)، وأبو داود في كتاب: الصلاة (٩١٣).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥).
(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء (٣٨٤٦)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٤٨٦).
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤.
(٥) أخرج ابن ماجه نحوه في كتاب: الأدب (٣٨٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٤٠).
(٦) أخرجه أحمد في كتاب: مسند المدنيين (١٦١١٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٣٥).

ومن دعاء الحسن رحمه الله تعالى: «اللهمّ إني أعوذُ بك من قَلْب يعرِف، ولسان يصِف، وأعمال تخالف».

ومن دعاء أهل البيتِ عليهم السلام، وفيه رائحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي نحن في شرحه: اللّهم إني أستغفرُك لما تبتُ منه إليك ثم عدت فيه، وأستغفرك لما وعدتك من نفسي ثم أخلفتك، وأستغفرك للنّعم التي أنعمتَ بها عليّ، فتقوّيتُ على معصيتك، وأستغفرك من كلّ ذنب تمكّنتُ منه بعافيتك، ونالتْه يدي بفضل نعمتك، وانبسطتُ إليه بسعة رزقك، واحتجبتُ فيه عن الناس بسترك، واتّكلت فيه على أكرم عفوك. اللهمّ إني أعوذ بك أن أقولَ حقًّا ليس فيه رضاك، ألتمس به أحداً سواك، وأعوذ بك أن أتزيَّن للناس بشيء يَشِينني عندَك، وأعوذ بك أن أكونَ عِبْرةً لأحد من خلقك، وأن يكون أحدٌ من خلْقك أسعدَ بما علَّمتني مني، وأعوذ بك أن أستعينَ بمعصية لك على ضُرّ يصيبني(١).

كان أبو مسلم الخوْلانيّ إذا أهمّه أمر قال: يا مالكَ يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين.

ومن دعاء عليّ عليه السلام: اللهمَّ إن تِهتُ عن مسألتي وأعمِيتُ عن طلبتي، فدلّني على مصالحي، وخُذْ بقلبي إلى مَراشدي. اللهم احمِلْني على عفوك، ولا تحمِلْني على عدلك(٢).

٧٨ – ومن كلام له عليه السلام من حرب الجمل في ذم النساء

ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج، وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم، فقال عليه السلام:

الأصل: أَتَزْعَمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ، وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ! فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهٰذَا فَقَدْ كَذَّبَ ٱلْقُرْآنَ، وَٱسْتَغْنَى عَنِ ٱلاسْتِعَانَةِ بِالله فِي نَيْلِ المَحْبُوبِ وَدَفْعِ المَكْرُوهِ. وَتَبْتَغِي فِي قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ ٱلْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ - بِزَعْمِكَ - أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَأَمِنَ الضُّرَّ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم: ١/ ٨/ ٢٤٤.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٦/ ٣٢٩ح: وأخرجه الشيخ الحمودي في نهج السعادة: ٦/ ٢٥٢.

ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال:

أَيُّها ٱلنَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنهَا تَدْعُو إِلَى ٱلْكَهَانَةِ، المُنَجِّمُ كَالكاهِنِ، وَٱلْكاهِنُ كالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكافِرِ، وَٱلْكافِرُ فِي النَّارِ، سِيرُوا عَلَى ٱسْمِ ٱللهِ.

الشرح: حاق به الضرّ، أي أحاط به، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1].

ويوليك الحمد، مضارع «أولاك»، وأولاك معدًّى بالهمزة من «وَلِيَ»، يقال: وليَ الشيء ولايةً وأوليته ذلك، أي جعلته والياً له ومتسلّطاً عليه. والكاهن: واحد الكُهّان وهم الذين كانوا يخبرون عن الشياطين بكثير من الغائبات.

واعلم أنّ الناس قد اختلفوا في أحكام النجوم، فأنكرها جمهورُ المسلمين والمحقّقون من الحكماء، ونحن نتكلم ها هنا في ذلك ونبحث فيه بحثَين: بحثاً كلاميًا، وبحثاً حُكْميًا.

أمّا البحثُ الكلاميّ، هو أن يقال: إمّا أن يذهب المنجمون إلى أنّ النجوم مؤثرة، أو أمَارات.

والوجه الأول ينقسم قسمين: **أحدهما** أنْ يقال: إنها تفعل بالاختيار، **والثاني** أن تفعلَ بالإيجاب.

والقول بأنّها تفعل بالاختيار باطل، لأنّ المختار لا بد أن يكونَ قادراً حيًّا، والإجماعُ من المسلمين حاصلٌ على أنّ الكواكب ليستْ حيّة ولا قادرة، والإجماع حجّة، وقد بيّن المتكلّمون أيضاً أنّ مِنْ شرط الحياة الرطوبة، وأن تكون الحرارة على قَدْر مخصوص، متى أفرط امتنع حلول الحياة في ذلك الجسم، فإنّ النار على صرافتها يستحيل أن تكون حَيّة، وأن تحلّها الحياة لعدم الرطوبة وإفراط الحرارة فيها واليبس، والشّمسُ أشدُّ حرارةً من النار، لأنّها على بُعْدِها تؤثّر ما تؤثره النّار على قُرْبِها، وذلك دليل على أنّ حرارتَها أضعافُ حرارة النار، وبينوا أيضاً أنّها لو كانت حيّة قادرة لم يَجزْ أن تفعلَ في غيرها ابتداء، لأنّ القادر لا يصحّ منه الاختراع، وإنما يفعل في غيرِه على سبيل التوليد، ولا بدّ من وصلة بين الفاعل والمفعول فيه، والكواكب غير مماسّة لنا، فلا وُصلة بينها وبيننا، فيستحيل أنْ تكون فاعلة فينا.

فإن ادّعى مدّعٍ أنّ الوصلة هي الهواء، فعن ذلك أجوبة:

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

أحدُها: أنّ الهواءَ لا يجوزُ أن يكون وصلة وآلةً في الحركات الشديدة وحمل الأثقال، لا سيما إذا لم يتموّج.

والثاني: أنّه كان يجب أن نحسّ بذلك، ونعلم أنّ الهواء يحرّكنا ويصرّفنا، كما نعلم في الجسم إذا حرّكنا وصرّفنا بآلة موضع تحريكه لنا بتلك الآلة.

والثالث: أنّ في الأفعال الحادثة فينَا ما لا يجوز أن يفعل بآلة، ولا يتولّد عن سبب، كالإرادات والاعتقادات ونحوها.

وقد دلّل أصحابنا أيضاً على إبطال كون الكواكب فاعلةً للأفعال فينا، بأنّ ذلك يقتضي سقوط الأمر والنهي، والمدح والذم، ويلزمهم ما يلزم المجبِرة، وهذا الوجهُ يبطل كونَ الكواكب فاعلة فينا بالإيجاب، كما يبطل كونَها فاعلة بالاختيار.

وأما القول بأنها أمارات على ما يحدُث ويتجدّد، فيمكن أن يُنصر بأن يقال: لم لا يجوزُ أن يكون الله تعال أجْرَى العادة، بأن يفعل أفعالاً مخصوصة عند طلوع كوكب أو غروبه أو اتصاله بكوكب آخر.

والكلام على ذلك بأن يقالَ: هذا غير ممتنع لو ثبت سمع مقطوع به يقتضي ذلك، فإنّ هذا مما لا يعلم بالعقل.

فإن قالوا: نعلم بالتجربة.

قيل لهم: التجربة إنما تكون حُجَّةً إذا استمرّت واطّردت، وأنتم خطؤكم فيما تحكمون به أكثرُ من صوابكم، فهلا نسبتُم الصّواب الذي يقع منكم إلى الاتفاق والتخمِين! فقد رأينا من أصحاب الزّرَق[1] والتخمين مَنْ يصيب أكثرَ مما يصيب المنجّم، وهو من غير أصل صحيح ولا قاعدة معتمدة ومتى قلتم: إنما أخطأ المنجّم لغَلطه في تسيير الكواكب، قيل لِكم: ولم لا يكون سبب الإصابة اتفاقاً! وإنما يصحّ لكم هذا التأويل والتخريج لو كان على صحة أحكام النجوم دليل قاطع، هو غير إصابة المنجّم.

فأما إذا كان دليل صحّة الأحكام الإصابة، فهلاّ كان دليلُ فسادها الخطأ، فما أحدُهما إلا في مقابلة صاحبه!

ومما قيل على أصحاب الأحكام، إن قيل لهم في شيء بعينه: خذوا الطَّالع واحكموا، أيؤخذ أم يترك؟ فإن حكموا بأحدهما خولفوا، وفُعِل خلاف ما أخبروا به، وهذه المسألة قد أعضل عليهم جوابها.

(١) الزّرَق: التفرُّس.

وقال بعض المتكلّمين لبعض المنجّمين: أخبِرْني، لو فرضنا جادّة مسلُوكة، وطريقاً يمشِي فيها الناس نهاراً وليلاً، وفي تلك المحجّة آبار متقاربة، وبين بعضها وبعض طريق يحتاجُ سالكه إلى تأمّل وتوقّف، حتى يتخلّص من السقوط في بعض تلك الآبار، هل يجوز أن تكون سلامة مَنْ يمشي بهذا الطريق من العميان كسلامة من يمشي فيه من البُصَراء، والمفروض أنّ الطريق لا يخلو طَرْفَةَ عين من مشاة فيها عميان ومبصرون؟ وهل يجوز أن يكون عَطَبُ البُصَرَاءِ مقارباً لعَطَب العميان؟

فقال المنجّم: هذا مما لا يجوزُ، بل الواجب أن تكون سلامةُ البصراء أكثرَ من سلامة العميان.

فقال المتكلّم: فقَد بطل قولكم، لأن مسألتنا نظير هذه الصورة، فإن مثال البُصَراء هُم الذين يعرفون أحكامَ النجوم، ويميّزون مَساعدها من مَناحسها، ويتوقَّوْن بهذه المعرفة مضارّ الوقت والحركات ويتخطَّوْنَها ويعتمدون منافعَها ويقصدونها، ومثال العميان كلّ من لا يحسِنُ علم النجوم، ولا يقولون به من أهل العلم والعامة، وهم أضعاف أضعاف عدد المنجمين.

ومثال الطريق الذي فيه الآبار، الزمان الذي مضى ومَرَّ على الخلْق أجمعين، ومثال آباره مصائبه ومِحَنُه.

وقد كان يجب - لو صحّ أحكام النجوم - أن سلامة المنجّمين أكثرُ، ومصائبهم أقلّ، لأنهم يتوقَّوْن المحن ويتخطوْنها لعلمهم بها قبل كونها، وأن تكون مِحَنُ المعرضين عن علم أحكام النجوم على كثرتهم أوفَر وأظهر، حتى تكون سلامة كلّ واحد منهم هي الطريقة الغريبة، والمعلومُ خلاف ذلك، فإنّ السلامة والمحن في الجميع متقاربة متناسبة غير متفاوته.

وأما البحث الحُكميّ في هذا الموضع، فهو أنّ الحادث في عالم العناصر عند حلول الكوكب المخصوص في البرج المخصوص، إمّا أن يكون المقتَضِي له مجرّد ذلك الكوكب أو مجرد ذلك البرْج، أو حلول ذلك الكوكب في ذلك البرج. فالأولان باطلان، وإلا لوَجب أن يحدث ذلك الأمر قبل أن يحدث، والثالث باطل أيضاً، لأنه إمّا أن يكون ذلك البرج مساوِياً لغيره من البروج في الماهيّة، أو مخالفاً. والأول يقتضي حدوثَ ذلك الحادث حالَ ما كان ذلك الكوكب حالاً في غيره من البروج، لأنّ حكم الشيء حكم مثله، والثاني يقتضي كونَ كُرة البروج متخالفة الأجزاء في أنفسها، ويلزم في ذلك كونها مركّبة، وقد قامت الدلالة على أنه لا شيءَ من الأفلاك بمركّب.

وقد اعترِض على هذا الدليل بوجهين:

أحدهما: أنّه لِمَ لا يجوز أن تختلف أفعالُ الكواكب المتحيّرة عند حلولها في البُروج، لا لاختلاف البروج في نفسها، بل لاختلاف ما في تلك البروج من الكواكب الثابتة المختلفة الطبائع!

الوجه الثاني: لم لا يجوزَ أن يقال: الفَلَك التاسع مكوكَب بكواكب صغار لا نراها لغاية بعدِها عنا، فإذا تحرّكت في كرات تداويرها سامتَتْ مواضعَ مخصوصة من كُرة الكواكب الثابتة، وهي فلك البروج، فاختلفت آثار الكواكب المتحيّرة عند حلولها في البروج، باعتبار اختلاف تلك الكواكب الصغيرة؟ ولم لا يجوزُ إثبات كرة بين الكرة الثامنة، وبين الفلك الأطلس المدبّر لجميع الأفلاك من المشرق إلى المغرب، وتكون تلك الكرَة المتوسّطة بينهما بطيئة الحركة بحيث لا تفِي أعمارنَا بالوقوف على حركتها، وهي مكوكبة بتلك الكواكب الصغار المختلفة الطبائع؟

وأجيب عن الأول، بأنّه لو كان الأمر كما ذُكِر، لوجب أن تختلف بيوتُ الكواكب وإشرافها وحدودها عند حركة الثوابت بحركة فَلَكها، حتى إنها تتقدّم على مواضعها في كلّ مائة سنة على رأي المتقدمين، أو في كلّ ست وستين سنة على رأي المتأخرين درجة واحدة، لكن ليس الأمرُ كذلك، فإنّ شرف القمر، كما أنه في زماننا في درجة الثالثة من الثور، فكذلك كان عند الذين كانوا قبلَنا بألف سنة وبألفي سنة.

وأما الوجه الثاني فلا جواب عنه.

واعلم أنّ الفلاسفة قد عَوَّلَتْ في إبطال القول بأحكام النجوم على وجهٍ واحد، وهو أن مبنَى هذا العلم على التجربة، ولم توجد التجربة فيما يدّعيه أربابُ علم النجوم، فإنّ ها هنا أموراً لا تتكرر إلا في الأعمار المتطاولة مثل الأدوار والألوف الّتي زعم أبو معشرٍ أنها هي الأصل في هذا العلم، ومثل مماسة جُرْم زُحَل للكرة المكوكبة، ومثل انطباق معدّل النهار على دائرة فَلَك البروج، فإنهم يزعمون أنّ ذلك يقتضي حدوثَ طوفان الماء وإحاطَته بالأرض من جميع الجوانب، مع أن هذه الأمور لا توجد إلاّ في ألوف الألوف من السنين، فكيف تصحّ أمثالُ هذه الأمور بالتجربة!

وأيضاً، فإنّا إذا رأينا حادِثاً حَدَث عند حلول كوكب مخصوص في برج مخصوص فكيف نعلم استنادَ حدوثه إلى ذلك الحلول! فإنّ في الفلك كواكبَ لا تحصى، فما الذي خصّص حدوثَ ذلك الحدوث بحلول ذلك الكوكب في ذلك البرج لا غيره! وبتقدير أن يكون لحلوله تأثير في ذلك، فلا يمكن الجزم قبل حلوله بأنه إذا حلّ في البرج المذكور لا بدّ أن يحدث ذلك

الحادث، لجواز أن يوجد ما يبطل تأثيره، نحو أن يحلّ كوكب آخر في برج آخر، فيدفع تأثيرَه، ويبطل عمله، أو لعلّ المادة الأرضيّة لا تكون مستعدّة لقبول تلك الصورة، وحدوث الحادث، كما يتوقّف على حصول الفاعل يتوقف على حصول القابل، وإذا وقع الشكّ في هذه الأمور بطل القولُ بالجَزم بعلم أحكام النجوم، وهذه الحجّة جيّدة إن كان المنجّمون يطلبون القطع في علمهم. فأما إن كانوا يطلبون الظنّ فإن هذه الحجة لا تفسد قولهم.

فأما أبو البركات بن مَلْكا البغدادي صاحب كتاب «المعتبر»[1] فإنه أبطلَ أحكام النجوم من وجهٍ وأثبته من وجه.

قال: أما مَنْ يريد تطبيقَ علم أحكام النجوم على قاعدة العلْم الطبيعي فإنّه لا سبيلَ له إلى ذلك، فإنّا لا نتعلّق من أقوالهم إلا بأحكام يحكمُون بها من غير دليل، نحو القول بحرّ الكواكب وبرْدها أو رطوبتها، ويبوستها واعتدالها، كقولهم: إنّ زُحَل بارد يابس، والمشتري معتدل، والاعتدال خير والإفراط شرٌّ، وينتجون من ذلك أنّ الخيرَ يوجب سعادة، والشرّ يوجب مَنْحَسَة، وما جانَس ذلك مما لم يقل به علماء الطبيعيين ولم تنتجه مقدّماتهم في أنظارهم، وإنما الذي أنتجتْه هو أنّ الأجرام السماوية فَعّالة فيما تحويه وتشتمل عليه وتتحرّك حوله فعلاً على الإطلاق غير محدود بوقت، ولا مقدّر بتقدير، والقائلون بالأحكام ادّعَوْا حصولَ علمهم بذلك، من توقيف وتجربة لا يطابق نظر الطبيعيّ.

وإذا قلت بقول الطبيعي بحسب أنظاره أن المشتري سَعْد، والمرّيخ نحس، أو أنّ زحل بارد يابس، والمريخ حارّ يابس، والحارّ والبارد من الملموسات، وما دلّ على هذا المسّ وما استدل عليه بلمس كَتأثيره فيما يلمسه، فإنّ ذلك لم يظهر للحسّ في غير الشمس، حيث تسخّن الأرض بشعاعها، ولو كان في السمائيات شيء من طبائع الأضداد، لكان الأوْلى أن تكون كلّها حارّةً، لأنّ كواكبها كلّها منيرة.

ومتى يقول الطبيعي بتقطيع الفلك وتقسيمه إلى أجزاء، كما قسّمه المنجمون قسمة وهمية إلى بروج ودَرَج ودقائق، وذلك جائز للمتوهّم، كجواز غيره، وليس بواجب في الوجود ولا حاصل، فنقلوا ذلك التوهم الجائز إلى الوجود الواجب في أحكامهم، وكان الأصلُ فيه على زعمهم حركةَ الشمس والأيام والشهور، فحصَلوا منها قسمة وهمية، وجعلوها كالحاصلة الوجودية المثمرة بحدود وخطوط، كأنّ الشمس بحركتها من وقت إلى مثله خطّت في السماء

---

(١) المعتبر في المنطق والحكمة: لأبي البركات هبة الله بن ملكا البغدادي المتوفى سنة (٥٤٧هـ)، «كشف الظنون» (٢/ ١٧٣١).

خطوطاً، وأقامت فيها جُدُراً أو حدوداً، أو غيرت في أجزائها طباعاً تغييراً يبقى، فيتقي به القسمة إلى تلك الدَّرَج والدقائق، مع جواز الشمس عنها، وليس في جوهر الفلك اختلاف يتميز به موضع عن موضع سوى الكواكب، والكواكب تتحرك عن أمكنتها، فبقيت الأمكنة على التشابه، فبماذا تتميز بروجه ودرَجه، ويبقى اختلافهابعد حركة المتحرك في سَمْتها؟ وكيف يقيس الطبيعيّ على هذه الأصول، وينتج منها نتائج ويحكم بحسبها أحكاماً؟ وكيف له أن يقول بالحدود ويجعل خمسَ درجات من بُرْج الكوكب وستًّا لآخر، وأربعاً لآخر، ويختلف فيها البابليون والمصريون، وجعلوا أربابَ البيوت كأنّها ملاّك، والبيوت كأنها أملاك تثبت لأربابها بصكوك وأحكام الأسد للشمس والسرطان للقمر!

وإذا نظر الناظر وجد الأسد أسداً من جهة كواكب شَكّلوها بشكل الأسد، ثم انقلبت عن مواضعها وبقي الموضع أسداً وجعلوا الأسد للشمس. وقد ذهبتْ منه الكواكبُ التي كأنّ بها أسداً كأن ذلك الملك بيت للشمس، مع انتقال الساكن وكذلك السَّرَطان للقمر.

ومن الدقائق في العلم النجوميّ الدرجات المدَارة والغربيّة والمظلمة والنيّرة والزائدة في السعادة ودرجات الآثار، من جهة أنها أجزاء الفَلَك، إن قطعوها وما انقطعت، ومع انتقال ما ينتقل من الكواكب إليها وعنها، ثم انتَجوا من ذلك نتائج أنظارهم، من أعداد الدرَج وأقسام الفلك، فقالوا: إنّ الكوكب ينظر إلى الكواكب من ستين درجة نظر تسديس لأنه سُدُس من الفلك، ولا ينظر إليه من خمسين ولا من سبعين، وقد كان قبل الستين بعشر دَرَج، وهو أقرب من ستين، وبعدها بعشر دَرَج، وهو أبعد من ستين لا ينظر.

فليت شعري ما هذا النظر! أترى الكواكب تظهر للكوكب ثم تحتجِب عنه، ثم شعاعه يختلط بشعاعه عند حدّ لا يختلط به قبله ولا بعده!

وكذلك التربيع، من الرُّبع الذي هو تسعون درجة، والتثليث، من الثلث الذي هو مائة وعشرون درجة، فلم لا يكون التخميس والتسبيع والتعشير على هذا القياس! ثم يقولون: الحمَل حارّ يابس ناريّ، والثور بارد يابس أرضِيّ، والجوزاء حارّ رطب هوائيّ، والسرطان بارد رطب مائيّ! ما قال الطبيعي هذا قطّ، ولا يقول به.

وإذا احتجُّوا وقاسوا كانت مبادىء قياساتهم الحمل بُرْج ينقلب، لأن الشمس إذا نزلت فيه ينقلب الزمان من الشتاء إلى الربيع، والثور برج ثابت، لأنّ الشمس إذا نزلت فيه ثبت الربيع على ربيعيّته.

والحقّ أنه لا ينقلب الحمل ولا يثبت الثور، بل هما على حالهما في كلّ وقت. ثم كيف

يبقَى دهرَه منقلباً مع خروج الشمس منه وحلولها فيه! أتراها تخلِّف فيه أثراً أو تحيل منه طباعاً، وتبقى تلك الاستحالة إلى أن تعود فتجدِّدَها! ولم لا يقول قائل: إن السَّرَطان حارّ يابس، لأن الشمس إذا نزلتْ فيه يشتدّ حر الزمان، وما يجانس هذا مما لا يلزم، لا هو ولا ضدّه، فليس في الفَلَك اختلاف يعرفه الطبيعيّ، إلا بما فيه من الكواكب، وهو في نفسه واحد متشابه الجوْهر والطبع، ولكنها أقوالٌ قال بها قائل فقبِلها قائل، ونقلها ناقل، فحسُن فيها ظنّ السامع، واغترّ بها مَنْ لا خِبْرة له ولا قدرة له على النظر.

ثم حَكَم بها الحاكمون بجيد ورديء، وسلْب وإيجاب، وبتّ وتجوز، فصادف بعضُه موافقة الوجود فصدَق، فيعتبر به المعتبرون، ولم يلتفتوا إلى ما كذب منه فيكذّبوه، بل عذروا وقالوا: إنما هو منجِّم، وليس بنبيّ حتى يصدق في كلّ ما يقول، واعتذرُوا له بأنّ العلم أوسعُ من أن يحيط به أحد، ولو أحاط به أحدٌ لصدق في كلّ شيء! ولعمر الله إنه لو أحاط به علماً صادقاً لصدَق، والشأن في أن يحيطَ به على الحقيقة، لا أن يفرِض فرضاً، ويتوهم وهماً، فينقله إلى الوجود وينسب إليه، ويقيس عليه.

قال: والذي يصحّ من هذا العلم ويلتفِتُ إليه العقلاء، هي أشياء غير هذه الخرافات التي لا أصل لها، فما حصل توقيف أو تجربة حقيقة كالقرانات والمقابلة، فإنها أيضاً من جملة الاتصالات، كالمقارنة من جهة أنّ تلك غاية القُرْب، وهذه غاية البعد، ونحو ممرّ كوكب من المتحيرة، تحت كوكب من الثابتة، ونحوه ما يعرض للمتحَيِّرة من رجوع واستقامة وارتفاع في شمال، وانخفاض في جنوب، وأمثال ذلك.

فهذا كلام ابن ملكا كما تراه يبطلُ هذا الفنّ من وجه، ويقول به من وجه.

وقد وقفت لأبي جعفر محمد بن الحسين الصنعانيّ المعروف بالخازن، صاحب كتاب «زيج الصفائح» على كلامٍ في هذا الباب مختصر له سماه «كتاب العالمين»[1] أنا ذاكرهُ في هذا الموضع على وجْهه. لأنه كلامٌ لا بأس به، قال: إنّ بعضَ المصدّقين بأحكام النجوم وكلّ المكذّبين بها، قد زاغوا عن طريق الحقّ والصواب فيها فإنّ الكثيرين المصدقين بها قد أدخلوا فيها ما ليس منها، وادَّعَوْا ما لم يمكن إدراكه حتى كَثُر فيها خطؤهم، وظهر كذبهم، وصار ذلك سبباً لتكذيب أكثر الناس بهذا العلم.

فأما المكذِّبون به فقد بلغُوا من إنكار صحيحه وردّ ظاهرِه إلى أن قالوا: إنه لا يصحّ منه شيء أصلاً، ونسبوا أهلَه إلى الرزق والاحتيال والخداع والتمويه، فلذلك رأينا أن نبتدىء بتبيين

---

(١) سر العالمين في الهيئة: لأبي جعفر الخازن. «كشف الظنون» (٢/ ٩٨٨).

صحّة هذه الصناعة، ليظهر فسادُ قول المكذّبين لها بأسرها، ثم نبيّن ما يمكن إدراكه بها ليبطل دعوى المدّعين فيها ما يمتنع وجودُه بها.

أما الوجوه التي بها تصحّ صناعة الأحكام فهي كثيرة، منها ما يظهر لجميع الناس من قِبَل الشمس، فإنّ حدوث الصيف والشتاء وما يعرِض فيهما من الحرّ والبرد والأمطار والرياح ونبات الأرض، وخروج وقت الأشجار وحملها الثمار، وحركة الحيوان إلى النسل والتوالد وغير ذلك، مما يشاكله من الأحوال، إنما يكون أكثر ذلك بحسب دنوّ الشمس من سَمْت الرؤوس في ناحية الشمال، وتباعدها منه إلى ناحية الجنوب، وبفضل قوَّة الشمس على قوة القمر، وقُوَى سائر الكواكب ظهر ما قلنا لجميع الناس.

وقد ظهر لهم أيضاً من قبَل الشمس في تغيير الهواء كلّ يوم، عند طلوعها، وعند توسّطها السماء، وعند غروبها ما لا خفاء به من الآثار.

ومن هذه الوجوه ما يظهر للفلاّحين والملاّحين بأدنى تفقّد للأشياء التي تحدث. فإنّهم يعلمون أشياء كثيرة من الآثار التي يؤثّرها القمر وأنوار الكواكب الثابتة، كالمدّ والجزر، وحركات الرياح والأمطار وأوقاتها عند الحدوث، وما يوافق من أوقات الزراعات وما لا يوافق، وأوقات اللّقاح والنتاج. وقد يظهر من آثار القمر في الحيوان الذي يتوالد في الماء والرّطوبات ما هو مشهور لا ينكر.

ومنها جهات أخرى يعرفها المنجّمون فقط على حَسَب فضل علمهم، ودقّة نظرهم في هذا العِلْم. وإذ قد وصفْنا على سبيل الإجمال ما يوجب حقيقة هذا العلم، فإنَّا نصِف ما يمكن إدراكه به أو لا يمكن، فنقول: لما كانت تغيّرات الهواء، إنّما تحدث بحسَب أحوال الشمس والقمر والكواكب المتحيرة والثابتة، صارت معرفة هذه التغيّرات قد تدركُ من النجوم مع سائر ما يتبعُها من الرياح والسحاب والأمطار والثلج والبرد والرعد والبرق، لأنّ الأشياء التي تَلي الأرض وتصل إليها هذه الآثار من الهواء المحيط بها، كانت الأعراض العامية التي تعرض في هذه الأشياء تابعةً لتلك الآثار، مثل كثرة مياه الأنهار وقلتها، وكثرة الثمار وقلتها وكثرة خِصْب الحيوان وقلّته، والجُدوبة والقَحْط، والوباء والأمراض التي تحدث في الأجناس والأنواع، أو في جنس دون جنسٍ، أو في نوع دون نوع، وسائر ما يشاكِل ذلك من الأحداث.

ولما كانت أخلاقُ النفس تابعةً لمزاج البدن، وكانت الأحداث التي ذكرناها مغيّرة لمزاج البَدَن، صارت أيضاً مغيِّرة للأخلاق، ولأن المزاج الأول الأصليّ هو الغالب على الإنسان في الأمر الأكثر، وكان المزاج الأصليّ هو الذي طُبع عليه الإنسان في وقت كونه في الرَّحِم، وفي وقت مولده وخروجه إلى جَوّ العالم - صار وقت الكون ووقت المولد أدلّ الأشياء على مِزاج الإنسان، وعلى أحواله التابعة للمزاج، مثل خِلْقة البدن، وخَلْق النفس والمرض والصحّة،

وسائر ما يتبع ذلك، فهذه الأشياء وما يشبِهُها من الأمور التي لا تشارك شيئاً من الأفعال الإرادية فيه مما يمكن معرفتُه بالنجوم، وأما الأشياء التي تشارك الأمور الإرادية بعضَ المشاركة، فقد يمكن أن يصدق فيها هذا العلم على الأمر الأكثر، وإذا لم يستعمل فيه الإرادة جَرَى على ما تقود إليه الطبيعة.

على أنه قد يعرض الخطأ والغلط لأصحاب هذه الصناعة من أسباب كثيرة، بعضها يختصّ بهذه الصناعة دون غيرها، وبعضها يعمُّها وغيرها من الصنائع.

فأمّا ما يعمّ فهو من قصور طبيعة الناس في معرفة الصنائع أيًا كانت عن بلوغ الغاية فيها، حتى لا يبقَى وراءها غاية أخرى، فكثرة الخطأ وقلّته على حَسَب تقصير واحد من الناس.

وأما ما يخصُّ هذهَ الصناعة فهو كثير ما يحتاج صاحبها إلى معرفته، مما لا يمكنه أن يعلم كثيراً منه إلا بالحَدْس والتخمين، فضلاً عن لُطف الاستنباط وحسن القياس، ومما يحتاج إلى معرفة علم أحوال الفَلَك، ومما يحدث في كل واحد من تلك الأحوال، فإنّ كل واحد منها له فعل خاص، ثم يؤلف تلك الأحوال بعضَها مع بعض على كثرة فنونها واختلافاتها، ليحصلَ من جميع ذلك قوّة واحدة، وفعلٌ واحد، يكون عنه الحادث في هذا العالم، وذلك أمر عسير، فمتى أُغفل من ذلك شيء كان الخطأ الواقع بحسبِ الشيء الذي سها عنه وترك استعماله.

ثم من بعد تحصيل ما وصفناه ينبغي أن يعلم الحال التي عليها يُوافي في تلك القوة الواحدة الأشياء التي تعرض فيها تلك الأحداث، كأنه مثلاً إذا دل ما في الفلك على حدوث حَرّ، وكانت الأشياء التي يعرض فيها ما يعرِض قد مَرّ بها قبل ذلك حَرّ، فحميت وسخنت أثّر ذلك فيها أثراً قويًا، فإن كان قد مرّ بها بَرْد قبل ذلك، أثّر ذلك فيها أثراً ضعيفاً، وهذا شيء يحتاج إليه في جميع الأحداث التي تعمل في غيرها مما يناسب هذه المعرفة.

وأما الأحداثُ التي تخصّ ناحيةً ناحية، أو قوماً قوماً، أو جنساً جنساً، أو مولوداً واحداً من النّاس، فيحتاج مع معرفتها إلى أن يعلم أيضاً أحوالُ البلاد والعادات، والأغذية والأوباء وسائر ما يشبه ذلك، مما له فيه أثر وشركة، مثل ما يفعل الطبيب في المعالجة، وفي تقدمة المعرفة، ثم من بعد تحصيل هذه الأشياء كلِّها ينبغي أن ينظَر في الأمر الذي قد استدلّ على حدوثه، هل هو مما يمكن أن يرد أو يتلافى بما يبطله أو بغيره من جهة الطبّ والحيل أم لا؟ كأنه مثلاً استدلّ على أنه يصيب هذا الإنسان حرارة يحمّ منها، فينبغي أن يحكم بأنه يحمّ إن لم يتلاف تلك الحرارة بالتبريد، فإنه إذا فعل ذلك أنزل الأمور منازلَها، وأجراها مجاريها.

ثم إن كان الحادث قويًا لا يمكن دفعه ببعض ما ذكرنا، فليس يلزم الحاجة إلى ما قلنا، فإنّ الأمر يحدث لا محالة، وما قوي وشمل الناس فإنّه لا يمكن دفعه ولا فسخه، وإن أمكَنَ فإنما يمكنُ في بعض الناس دون بعض.

وأما أكثرهم فإنه يجري أمره على ما قد شمل وعمّ، فقد يعمّ الناسَ حَرّ الصيف، وإن كان بعضُهم يحتال في صرفه بالأشياء التي تبرد وتنفي الحرّ.

فهذه جملة ما ينبغي أن يعلم ويعمل عليه أمور هذه الصناعة.

قلت: هذا اعتراف بأن جميع الأحداث المتعلقة باختيار الإنسان وغيره من الحيوان لا مدخل لعلم أحكام النجوم فيه، فعلى هذا لا يصحّ قولُ من يقول منهم لزيد مثلاً: إنك تتزوّج أو تشتري فرساً، أو تقتل عدوًّا أو تسافر إلى بلد ونحو ذلك، وهو أكثر ما يقولونه ويحكمون به.

وأما الأمور الكليّة الحادثة لا بإرادة الحيوان واختياره، فقد يكون لكلامهم فيه وجهٌ من الطريق التي ذكرها، وهي تعلّق كثيرٍ من الأحداث بحركة الشمس والقمر، إلا أن المعلومَ ضرورة من دين رسول الله ﷺ إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها والنهي والزجر عن تصديق المنجّمين، وهذا معنى قول أمير المؤمنين في هذا الفصل: «فمن صدقك بهذا فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله». ثم أردف ذلك وأكّده قوله: كان يجب أن يحمَد المنجم دون الباري تعالى، لأن المنجم هو الذي هدى الإنسان إلى الساعة التي ينجح فيها، وصدَّه عن الساعة التي يخفق ويُكدِي فيها فهو المحسن إليه إذاً، والمحسن يستحقّ الحمد والشكر، وليس للباريء سبحانه إلى الإنسان في هذا الإحسان المخصوص، فوجب ألاَّ يستحقّ الحمد على ظَفَر الإنسان بطلبه، لكنّ القول بذلك والتزامه كفر محْضٌ.

٧٩ - ومن كلام له عليه السلام بعد فراغه من حرب الجمل في ذمّ النساء

الأصل: مَعَاشِرَ النَّاسِ، إِنَّ النِّسَاءَ نَوَاقِصُ الإِيمَانِ، نَوَاقِصُ الحُظُوظِ، نَوَاقِصُ ٱلْعُقُولِ. فَأَمَّا نُقْصَانُ إِيمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ، وَأَمَّا نُقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ ٱمْرَأَتَيْنِ مِنْهُنَّ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ ٱلْوَاحِدِ، وَأَمَّا نُقْصَانُ حُظُوظِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ. فَاتَّقُوا شِرَارَ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ، وَلاَ تُطِيعُوهُنَّ فِي ٱلْمَعْرُوفِ حَتَّى لاَ يَطْمَعْنَ فِي ٱلْمُنْكَرِ.

الشرح: جَعَل عليه السلام نقصانَ الصّلاة نقصاناً في الإيمان، وهذا هو قولُ أصحابِنا: إنّ الأعمال من الإيمان، وإنّ المقرّ بالتوحيد والنبوّة، وهو تارك للعمل ليس بمؤمن.

وقوله عليه السلام: «ولا تطيعوهنّ في المعروف»، ليس بنهي عن فعل المعروف، وإنما هو نهي

عن طاعتهنّ، أي لا تفعلوه لأجل أمرهنّ لكم بهِ، بل افعلوه لأنه معروف، والكلام ينحو نحو المثل المشهور: «لا تعط العبد كُراعاً فيأخذ ذراعاً».

وهذا الفصل كلّه رمْز إلى عائشة، ولا يختلفُ أصحابنا في أنها أخطأت فيما فعلتْ ثم تابت وماتت تائبة، وأنّها من أهل الجنة.

قال كلّ من صنف في السير والأخبار: إن عائشة كانتْ من أشدّ الناس على عثمان، حتى إنها أخرجتْ ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله، فنصبتْه في منزلها، وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يَبْلَ، وعثمان قد أبلَى سنّته[1].

قالوا: أولُ مَنْ سمى عثمان نعثلاً عائشة، والنّعثل: الكثير شعر اللحية والجسد، وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً!

وروي المدائنيّ في كتاب «الجمل»، قال: لما قتِل عثمان، كانت عائشة بمكّة، وبلغ قتلُه إليها وهي بشَراف، فلم تشكّ في أنّ طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بُعْداً لنعثل وسحقا! إيهِ ذا الإصبع! إيه أبا شِبْل! إيه يابن عمّ، لكأني أنظرُ إلى إصبعه وهو يبايَع له: حثُّوا الإبل ودعدعوها[2].

قال: وقد كان طلحةُ حين قتل عثمان أخذ مفاتيحَ بيت المال، وأخذ نجائبَ كانت لعثمان في داره، ثم فسد أمرُه، فدفعها إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزديّ في كتابه: إنّ عائشة لما بَلغها قتلُ عثمان وهي بمكة، أقبلتْ مسرعة، وهي تقول: إيه ذا الإصبع! لله أبوك! أما إنهم وجدوا طلحة لها كفوًا. فلما انتهت إلى شَراف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثيّ، فقالت له: ما عندك؟ قال: قُتِل عثمان، قالت: ثم ماذا؟ قال: ثم حارتْ بهم الأمور إلى خير مَحَارٍ، بايعوا علياً، فقالت: لوددْتُ أنّ السماء انطبقتْ على الأرض إن تمّ هذا، وَيْحك! انظر ما تقول! قال: هو ما قلت لك يا أمّ المؤمنين، فولولت، فقال لها: ما شأنُك يا أمّ المؤمنين! والله ما أعرف بين لابتيْها[3] أحداً أوْلَى بها منه ولا أحقّ، ولا أرَى له نظيراً في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته؟ قال: فما ردّت عليه جواباً.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١/٢٩٦، وأخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ٢/ ٢٤٥.

(٢) دعدع الإبل: زجرها على السير.

(٣) اللابة: الحَرَّة وفي الحديث: «حرم النبي صلى الله عليه وآله ما بين لابتي المدينة» أي: حرتيها القاموس، مادة (لوب).

قال: وقد رُوِي من طرق مختلفة أنّ عائشة لما بَلغها قتلُ عثمان وهي بمكة، قالت: أبعده الله! ذلك بما قدّمت يداه، وما الله بظلام للعبيد[1].

قال: وقد رَوَى قيس بن أبي حازم أنّه حج في العام الذي قُتِل فيه عثمان وكان مع عائشة لما بلغها قتله، فتحمّل إلى المدينة، قال: فسمعها تقول في بعض الطريق: إيه ذا الإصبع! وإذا ذكرت عثمان قالت: أبعده الله! حتى أتاها خبرُ بيعة عليّ، فقالت: لوددْتُ أنّ هذه وقعت على هذه، ثم أمرت بردّ ركائبها إلى مكّة فردّت معها، ورأيتها في سيرها إلى مكّة تخاطب نفسها، كأنها تخاطبُ أحداً: قتلوا ابن عفان مظلوماً، فقلت لها: يا أمّ المؤمنين، ألمْ أسمعْك آنفاً تقولين: أبعده الله، وقد رأيتك قبلُ أشدّ الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً! فقالت: لقد كان ذلك، ولكني نظرت في أمره، فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفِضّة البيضاء أتوْه صائماً محرِماً في شهر حرام فقتلوه.

قال: وروي من طرق أخرى أنّها قالت لما بلغها قتله: أبعده الله! قتله ذنبُه، وأقاده الله بعمله! يا معشرَ قريش لا يسومنكم قتلَ عثمان، كما سامَ أحمرُ ثمود قومَه، إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر ذو الإصبع، فلما جاءت الأخبار ببيعة عليّ عليه السلام، قالت: تعِسُوا تعسُوا! لا يردُّون الأمر في تَيم أبداً.

كتب طلحة والزبير إلى عائشة وهي بمكة كتاباً: أن خَذِّلِي النّاس عن بيعة عليّ، وأظهري الطلب بدم عثمان، وحمّلا الكتاب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير، فلما قرأت الكتاب كاشفتْ وأظهرت الطلب بدم عثمان، وكانت أمّ سلمَة رضي الله عنها بمكة في ذلك العام، فلما رأتْ صنع عائشة، قابلتْها بنقيض ذلك، وأظهرت موالاةَ عليّ عليه السلام ونصرته على مقتضى العداوة المركزة في طباع الضَّرتين.

قال أبو مخنف: جاءت عائشةُ إلى أمّ سلمة تخادِعُها على الخروج للطّلب بدم عثمان، فقالت لها: يا بنتَ أبي أمية، أنتِ أوّلُ مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وأنتِ كبيرة أمّهات المؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يَقسم لنا من بيتِك، وكان جبريل أكثرَ ما يكون في منزلك، فقالت أم سلمَة: لأمرٍ ما قلت هذه المقالة، فقالت عائشة: إنّ عبد الله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان، فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرام، وقد عزمتُ على الخروج إلى البصرة ومعي الزبير وطلحةُ، فاخرجي معنا، لعلّ الله أن يصلِح هذا الأمر على أيدينا وبنا، فقالت أمّ سلمة: إنّك كنت بالأمس تحرّضين على عثمان، وتقولين فيه أخبثَ القول، وما كان اسمُه عندك إلا نَعْثَلاً، وإنّك لتعرفين منزلة عليّ بن أبي طالب عند رسول الله صلى الله عليه وآله، أفأذكّرك؟ قالت: نعم، قالت:

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٩/ ٣٥١.

أتذكرين يومَ أقبل عليه السلام ونحن معه، حتى إذا هبط من قُدَيد ذات الشمال، خلا بعليّ يناجيه فأطال، فأردت أن تهجمي عليهما، فنهيتُك فعصيتِني، فهجمتِ عليهما، فما لبثتِ أن رجعتِ باكية، فقلت: ما شأنك؟ فقلتِ: إني هجمتُ عليهما وهما يتناجيان فقلت لعليّ: ليس لي من رسول الله إلا يومٌ من تسعة أيام، أفما تدَعني يا بن أبي طالب ويومي! فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله علي، وهو غضبان محمرّ الوجه، فقال: ارجعي وراءك، والله لا يبغضُه أحدٌ من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان، فرجعتِ نادمةً ساقطة! قالت عائشة: نعم أذكر ذلك[1].

قالت: وأذكّركِ أيضاً، كنت أنا وأنتِ مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنت تغسلين رأسَه، وأنا أحِيسُ[2] له حيْساً، وكان الحيْس يعجبه، فرفع رأسه، وقال: «يا ليت شعرِي، أيتكنّ صاحبه الجمل الأذنب، تنبحُها كلاب الحوأب[3]، فتكون ناكبةً عن الصرّاط!» فرفعت يدي من الحيْس، فقلت: أعوذُ بالله وبرسوله من ذلك، ثم ضربَ على ظهرك، وقال: «إياك أن تكونيها» ثم قال: يا بنت أبي أميّة، إياك أن تكونيها يا حُمَيراء، أما أنا فقد أنذرتك»، قالت عائشة: نعم أذكر هذا.

قالت: وأذكرك أيضاً كنتُ أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سَفر له، وكان عليّ يتعاهد نَعْلَيْ رسول الله صلى الله عليه وآله فيخصِفها، ويتعاهد أثوابه فيغسلها، فنَقِبت له نعلٌ، فأخذها يومئذ يخصِفها، وقعد في ظلِّ سَمُرة، وجاء أبوك ومعه عمر، فاستأذنا عليه، فقمنا إلى الحجاب، ودخلا يحادثانه فيما أراد، ثم قالا: يا رسول الله إنا لا ندرِي قدر ما تصحبنا، فلو أعلمتنا مَنْ يستخلف علينا، ليكون لنا بعدك مفزعاً؟ فقال لهما: أما إني قد أرى مكانه، ولو فعلت لتفرّقتم عنه. كما تفرّقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران، فسكتا ثم خرجا، فلما خرجْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، قلتِ له، وكنتِ أجرأ عليه مِنّا: مَنْ كنتَ يا رسول الله، مستخلفاً عليهم؟ فقال: خاصف النّعل، فنظرنا فلم نر أحد إلا عليًّا، فقلت: يا رسول الله، ما أرى إلاّ عليًّا، فقال: «هو ذاك»، فقالت عائشة: نعم أذكر ذلك، فقالت: فأيّ خروج تخرجين بعد هذا؟ قالت: إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله، فقالت: أنت ورأيك، فانصرفت عائشة عنها، وكتبتْ أمّ سلمة بما قالت وقيل لها إلى عليّ عليه السلام[4].

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/١٦٩، وأخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ٢/٩٩.

(٢) الحَيْس: الطعام يخلط من التمر والأقط والسمن. لسان العرب مادة (حيس).

(٣) الحوأب الوادي الوسيع. وهو اسم مكان، موضع في طريق البصرة.

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ١٧٠ ح١٣٠، وأخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ٢/ ١٠٠.

فإن قلت: فهذا نصٌّ صريح في إمامة عليّ عليه السلام، فما تصنعُ أنت وأصحابك المعتزلة به؟

قلت: كلاّ إنه ليس بنصّ كما ظننت، لأنه صلى الله عليه وآله لم يقل: قد استخلفته، وإنما قال: «لو قد استخلفتُ أحداً لاستخلفته»(١)، وذلك لا يقتضي حصول الاستخلاف، ويجوز أنْ تكونَ مصلحةُ المكلَّفين متعلقة بالنصّ عليه لو كان النبيّ صلى الله عليه وآله مأموراً بأنْ ينصّ على إمام بعينه من بعده، وأن يكون من مصلحتهم أن يختارُوا لأنفسهم من شاؤوا إذا تركهم النبيّ صلى الله عليه وآله وآراءهم ولم يعين أحداً.

وروى هشام بن محمد الكلبي في كتاب «الجمل» أن أمّ سلمة كتبت إلى عليٍّ عليه السلام من مكة: أما بعد، فإنّ طلحة والزبير وأشياعَهم أشياع الضلالة، يريدون أن يخرجُوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبد الله بن عامر بن كُريز، ويذكرون أنّ عثمان قُتل مظلوماً، وأنهم يطلبون بدمه، والله كافيهم بحوْله وقوته، ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج، وأمرَنا به من لزوم البيت لم أدَع الخروجَ إليك، والنُّصرة لك، ولكنّي باعثة نحوك ابني، عَدْل نفسي عمر بن أبي سلمة، فاستوصِ به يا أمير المؤمنين خيراً.

قال: فلما قدم عمر على عليّ عليه السلام أكرمه، ولم يزل مقيماً معه حتى شهد مشاهده كلّها، ووجَّهه أميراً على البحرين. وقال لابن عمٍّ له: بلغني أن عمر يقول الشعر، فابعث إليّ من شعره، فبعث إليه بأبيات له أولها:

جزتْك أميرَ المؤمنين قرابةٌ رفعت بها ذكرى جزاء موفَّرا

فعجب عليّ عليه السلام من شعره واستحسنه.

ومن الكلام المشهور الذي قيل: إن أمّ سلَمة رحمها الله، كتبتْ به إلى عائشة: إنك جُنّة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أمّته، وإن الحجابَ دونك لمضروب على حُرمته، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحِيه(٢)، وسكّن عُقَيْراك(٣) فلا تُصْحريها، لو أذكرتُكِ قولةً مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله تعرفِينَها لنهشت بها نَهْش الرّقشاء المطرقة. ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وآله لو لقيك ناصّة قَلُوص قعودك من مَنْهَل إلى منهل قد تركت عُهَيداه، وهتكت ستره، ، إنّ عمود الدين لا يقومُ بالنساء، وصَدْعه لا يُرأب بهنّ، حُماديات النساء خفض الأصوات وخفر الأعراض، اجعلي قاعدة البيت قبْرك حتى تلقينه، وأنت على ذلك.

---

(١) انظر الغدير فقد فصل الكلام فيه: ٥/ ٣٦٦.

(٢) أي فلا توسعيه بخروجك إلى البصرة. القاموس مادة (نوح).

(٣) صوت الباكي. القاموس مادة (عقر).

فقالت عائشة: ما أعرفَني بنصحك، وأقبلني لوعْظك! وليس الأمر حيث تذهبين، ما أنا بعميّة عن رأيك، فإن أقِمْ ففي غير حرج، وإن أخرج ففي إصلاح بين فئتين من المسلمين.

وقد ذكر هذا الحديث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه المصنف في «غريب الحديث»[1] في باب أم سلمة، على ما أورده عليك، قال:

لما أرادت عائشة الخروجَ إلى البصرة، أتتها أمّ سلمة، فقالت لها: إنّك سُدّة بين محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أمته، وحجابك مضروب على حُرْمته، قد جَمَع القرآن ذَيلك فلا تَنْدَحيه، وسكّن عُقَيْراك فلا تُصْحِريها، الله من وراء هذه الأمة، لو أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يعهد إليك عَهْداً عُلْت عُلْت، بل قد نهاك عن الفَرطة في البلاد، إنّ عمود الإسلام لا يُثْأبُ بالنساء إن مال، ولا يُرأبُ بهنّ إن صُدع، حُمادَيات النساء غَضّ الأطراف وخَفَر الأعراض وقِصَر الوهَازة، ما كنت قائلة لو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عارضَك بعْد الفلوات، ناصّة قَلُوصاً من منهلٍ إلى آخر، إنّ بعين الله مَهْواك، وعلى رسوله تَردين، وقد وَجّهتِ سَدَافته - ويروى سَجافته - وتركت عُهَيْداه. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس لاستحييت أنْ ألقي محمداً صلى الله عليه وسلم هاتكةً حجاباً، وقد ضرَبه عليّ، اجعلِي حِصْنَك بيتك، ووقاعةَ الستر قبرك، حتّى تلقيْنه، وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله بالرقبة، وأنْصَر ما تكونين للدين ما حلت عنه. لو ذكّرتك قولاً تعرفينه لنهشت به نَهْشَ الرَّقشاء المطرِقة.

فقالت عائشة: ما أقبلَنِي لوعظك! وليس الأمر كما تظنّين، ولنعمَ المسيرُ مسير فزعتُ فيه إليّ فئتان متناجزتان - أو قالت متناحرتان - إن أقعد ففي غير حرج، وإن أخرج فإلى ما لابدّ لي من الازدياد منه[2].

تفسير غريب هذا الخبر

السُّدّة: الباب، ومنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه ذكر أول مَنْ يردُ عليه الحوض، فقال: الشُّعْث رؤوساً، الدُّنس ثياباً، الذين لا تفتح لهم السُّدد، ولا ينكحون المتنعمات، وأرادت أمّ سلمَة أنّك بابٌ بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين الناس، متى أصيب ذلك الباب بشيءٍ فقد دُخل على رسول الله صلى الله عليه وآله في حرَمه وحوزته، واستبيح ما حماه، تقول: فلا تكوني أنت سببَ ذلك بالخروج الذي لا يجب عليك، فتحوجي الناس إلى أن يفعلوا ذلك. وهذا مثلُ قول نعمان بن

(١) غريب الحديث: لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري المتوفى سنة (٢١٠هـ)، قيل: إنه أول ما جُمِعَ في هذا الفن. «كشف الظنون» (٢/ ١٢٠٣).

(٢) أخرجه الصدوق في معاني الأخبار: ٣٧٦، وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ١٥٤.

مُقَرّن للمسلمين في غزاة نَهاوَنْد: ألا وإنّكم باب بين المسلمين والمشركين، إن كُسِر ذلك الباب دُخل عليهم منه.

وقولها: «قد جمع القرآن ذيلك فلا تَنْدَحيه»، أي لا تفتحيه ولا توسّعيه بالحركة والخروج، يقال: ندحتُ الشيء إذا وسَّعته، ومنه يقال: فلان في مَنْدوحة عن كذا، أي في سعة، تريد قول الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[1]. ومن روي «تبدحيه» بالباء فإنه من البَدَاح وهو المتسع من الأرض، وهو معنى الأول.

وسكن عُقَيْرَاك، من عُقْر الدار وهو أصلها، أهل الحجاز يضمُّون العَين، وأهل نجد يفتحونها، وعُقَيرْ اسم مبنيٌّ من ذلك على صيغة التصغير، ومثله ممّا جاء مصغراً «الثريّا» و«الحُمَيّا» وهو سوْرة الشراب. قال ابن قتيبة: ولم أسمع بـ«بُعقيرا» إلا في هذا الحديث.

قولها: «فلا تُصْحريها»، أي لا تُبرزيها وتجعليها بالصحراء، يقال: أصْحَر، كما يقال: أنجد وأسهَل وأحزن.

وقولها: «الله من وراء هذه الأمة»، أي محيط بهم وحافظ لهم وعالم بأحوالهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[2].

قولها: «لو أراد رسول الله ﷺ» الجواب محذوف، أي لفعل ولعَهد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾[3]، أي لكان هذا القرآن.

قولها: «عُلْت عُلت»، أي جرْت في هذا الخروج، وعدلت عن الجواب، والعول: الميل والجور، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾[4]، ومن الناس من يرويه «عِلْت عِلْت» بكسر العين، أي ذهبت في البلاد وأبعدت السير، يقال: عال فلان في البلاد، أي ذهب وأبعد، ومنه قيل للذئب: عيال.

قولها: «عن الفَرْطة في البلاد»، أي عن السفر والشّخوص، من الفَرْط وهو السَّبْق والتقدّم، ورجل فارط: أتى الماء، أي سابق.

قولها: «لا يُثْأب بالنساء»، أي يردّ بهن إن مال إلى استوانه، من قولك: ثاب فلان إلى كذا، أي عاد إليه.

قولها: «ولا يرأب بهنّ إن صَدع» أي لا يسدّ بهِنّ، ولا يجمع، والصَّدْعُ: الشقّ، ويروى: «إن صَدَع» بفتح الصاد والدال أجْروه مجرى قولهم: جبرت العظم فجبر.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة البروج، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣.

قولها: «حمادَيات النساء» يقال: حمُادَاك أن تفعل كذا مثل «قُصاراك أن تفعل كذا» أي جهدك وغايتك.

وغض الأطراف، جمْعها، وخَفَرَ الأعراض، الخفَر: الحياء، والأعراض، جمع عِرْض وهو الجسد، يقال: فلان طيّب العِرْض، أي طيب ريح البدن، ومن رواه «الإعراض» بكسر الهمزة جعلَه مصدراً، من أعرضَ عن كذا.

قولها: و«قِصَر الوِهازة»، قال ابن قتيبة: سألت عَنْ هذا فقال لي مَنْ سألته: سألتُ عنه أعرابيًّا فصيحاً فقال: الوِهَازة: الخطوة، يقال للرجل: إنه لمتوهّز ومتوهّر، إذا وطيء وطئاً ثقيلاً.

قولها: «ناصّة َقلوصاً»، أي رافعة لها في السير، والنصّ: الرفع، ومنه يقال: حديث مَنْصوص، أي مرفوع، والقَلُوص من النوق: الشابّة وهي بمنزلة الفتاة من النساء.

والمنهل: الماء ترده الإبل.

قولها: «إنّ بعين الله مَهْواك»، أي إن الله يرى سيرَك وحركتك، والْهُوِيّ: الانحدار في السير من النَّجد إلى الغَوْر.

قولها: «وعلى رسوله تَرِدين»، أي تقدمين في القيامة.

قولها: «وقد وجَّهْت سِدَافته»، السّدافة: الحجاب والستر، هي من أسْدَف الليل إذا ستر بظلمته، كأنه أرخى ستوراً من الظلام، ويروى بفتح السين، وكذلك القول في سَجافته، إنه يروى بكسْر السين وفتحها، والسّدافة والسَّجافة بمعنى.

ووجَّهت، أي نظمتها بالخرز، والوجيهة: خرزة معروفة، وعادة العرب أن تنظِم على المحمَل خرزات إذا كان للنساء.

قولها: «وتركت عُهيْداه»، لفظة مصغّرة مأخوذة من العَهْد، مشابهة لما سلف من قولها: «عُقَيراك» و «حماديات النساء».

قولها: «ووِقاعة السّتر» أي موقِعَه على الأرض إذا أرسلته، وهي الموقعة أيضاً، وموقعة الطائر.

قولها: «حتى تلقيْنه وأنت على تلك»، أي على تلك الحال، فحذف.

قولها: «أطوع ما تكونين لله إذا لزمته»، أطوع: مبتدأ، وإذا لزمته: خبر المبتدأ، والضمير في لزمته راجع إلى العهد والأمر الذي أمِرَتْ به.

قولها: «لَنَهَشَتْ به نَهْش الرقشاء المطرِقة»، أي لعضّك ونهشك ما أذكّره لك وأذكّرك به كما تنهشك أفعى رقشاء، والرّقش في ظهرها، هو النقط، والجرادَة أيضاً رقشاء، قال النابغة:

فبتّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ   من الرُّقْش في أنيابها السُّمُ ناقع

والأفعى يوصف بالإطراق، وكذلك الأسد والنمر والرجل الشجاع، وكان معاوية يقول في عليّ عليه السلام: الشجاع المطرِق، وقال الشاعر وذكر أفعى:

أصمّ أعمى ما يجيب الرُّقى   من طول إطراق وإسْبَاتِ

قولها: «فئتان متناجزتان»، أي تسرع كلّ واحدة منهما إلى نفوس الأخرى، ومن رواه «متناحرتان» أراد الحربَ وطَعْن النّحور بالأسنة، ورشقها بالسهام.

وفزعت إلى فلان في كذا، أي لذتُ به والتجأت إليه.

وقولها: «إن أقعد ففي غير حَرَج» أي في غير إثم، وقولها: «فإن أخرج فإلى ما لا بدّ لي من الازدياد منه»، كلام مَن يعتقِد الفضيلة في الخروج، أو يعرف موقع الخطإ ويصرّ عليه.

لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيّداً يحمل هَوْدَجها، فجاءهم يعلَى بن أمية ببعيره المسمى عَسْكراً، وكان عظيم الخلْق شديداً، فلما رأتْه أعجبها، وأنشأ الجمّال يحدّثها بقوته وشدته، ويقول: في أثناء كلامه: «عسكر»، فلما سمعت هذه اللفظة، استرجعتْ، وقالت: ردّوه لا حاجة لي فيه، وذكرت حيث سألت أن رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر لها هذا الاسم، ونهاها عن ركوبه، وأمرَتْ أن يطْلب لها غيرُه فلم يوجد لها ما يشبهه، فغيِّر لها بجِلال غير جِلاله، وقيل لها: قد أصبْنا لك أعظم منه خَلْقاً، وأشدّ قوة، وأتِيَتْ به فرضيت(١).

قال أبو مخنف: وأرسلت إلى حَفْصة تسألها الخروجَ والمسير معها، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فأتى أختَه فعزم عليها، فأقامت وحطّتِ الرّحال بعد ما همّت.

كتب الأشتر من المدينة إلى عائشة وهي بمكة، أما بعد: فإنّكِ ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أمرك أن تَقَرّي في بيتك، فإنْ فعلتِ فهو خيرٌ لك، فإن أبيتِ إلا أن تأخذي مِنْسأتَك، وتُلقى جلبابك، وتبدي للناس شعيراتك، قاتلتُك حتى أردّك إلى بيتك، والموضع الذي يرضاه لك ربّك.

فكتبت إليه في الجواب: أما بعد، فإنّك أولُ العرب شَبّ الفتنة، ودعا إلى الفرقة وخالف الأئمة، وسعى في قتل الخليفة، وقد علمتَ أنك لن تُعجزَ الله حتى يصيبك منه بنقِمْة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم، وقد جاءني كتابُك، وفهمت ما فيه، وسيكفينيك الله، وكلّ من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغَيّك، إن شاء الله.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ١٣٨.

وقال أبو مِخنف: لما انتهت عائشةُ في مسيرها إلى الحوأب، وهو ماء لبني عامر بن صعصعة، نبحتْها الكلاب، حتى نفرت صِعَاب إبلها، فقال قائل من أصحابها: ألا ترون، ما أكثر كلاب الحوأب، وما أشدّ نُباحها! فأمسكت زمام بعيرها، وقالت: وإنها لكلاب الحوأب! ردّوني ردّوني، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول... وذكرت الخبر، فقال لها قائل: مهلاً يرحمك الله! فقد جُزْنا ماء الحوأب، فقالت: فهل من شاهد؟ فلفّقوا لها خمسين أعرابياً، جعلوا لهم جُعْلاً، فحلفوا لها: إن هذا ليس بماء الحوأب، فسارت لوجهها.

لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حَفَر أبي موسى قريباً من البصرة، أرسل عثمان بن حَنِيف - وهو يومئذٍ عامل عليّ عليه السلام على البَصْرة - إلى القوم أبا الأسود الدؤليّ يعلَم له علمهم، فجاء حتّى دخلَ على عائشة، فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان، قال: إنه ليسَ بالبَصْرة مِنْ قَتَلة عثمان أحدٌ، قالت: صدقت، ولكنّهم مع عليّ بن أبي طالب بالمدينة، وجئت أستنهضُ أهلَ البصرة لقتاله. أنغضب لكم من سَوْطِ عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم! فقال لها: ما أنت مِن السَّوْط والسيف! وإنما أنت حَبِيس رسول الله صلى الله عليه وآله، أمرَكِ أن تَقَرّي في بيتك، وتتلِي كتاب ربك، وليس على النساء قتال، ولا لهنّ الطلب بالدماء، وإن عليًّا لأوْلى بعثمان منك، وأمسُّ رحماً، فإنهما ابنَا عبد مناف، فقالت: لست بمنصرفةٍ حتى أمضِيَ لما قدمتُ لَهُ، أفتظنّ يا أبا الأسود أنّ أحداً يقدمُ على قتالي! قال: أما والله لتقاتِلنّ قتالاً أهونه الشديد.

ثم قام فأتى الزبير، فقال: يا أبا عبد الله، عهد الناس بك، وأنت يوم بويع أبو بكر آخذٌ بقائم سيفك، تقول: لا أحدَ أوْلى بهذا الأمر من ابن أبي طالب، وأين هذا المقام من ذاك! فذكر له دمَ عثمان، قال: أنت وصاحبك ولِيتماه فيما بلغنا! قال: فانطلقْ إلى طلحة فاسمع ما يقول، فذهب إلى طلحة، فوجده سادِراً في غَيّه، مصِرًّا على الحرب والفتنة، فرجع إلى عثمان بن حُنيف، فقال: إنها الحرب، فتأهَّبْ لها!

لما نزل عليّ عليه السلام بالبَصْرة، كتبت عائشة إلى زيد بن صُوحان العبديّ:

من عائشة بنت أبي بكر الصديق زَوج النبي صلى الله عليه وآله إلى ابنها الخالص زيد بن صُوحان، أما بعدُ فأقِمْ في بيتك، وخذِّل الناسَ عن عليّ، ولْيبلغْني عنك ما أحبّ، فإنك أوثق أهْلي عندي، والسلام.

فكتب إليها: من زيد بن صُوحان إلى عائشة بنت أبي بكر، أمّا بعدُ فإن الله أمَرَكِ بأمرٍ وأمرَنا بأمرٍ، أمرَكِ أن تَقَرّي في بيتك، وأمرَنا أن نجاهدَ، وقد أتاني كتابُك، فأمرتني أنْ أصنَع خِلاف ما أمرَني الله، فأكون قد صنعتُ ما أمرَكِ الله به، وصنعتِ ما أمرني الله به، فأمرُكِ عندي غير مطاع، وكتابك غير مجاب، والسلام.

روى هذين الكتابين شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر، عن شيخنا أبي سعيد الحسن البصريّ.

وركبت عائشة يوم الحرب الجملَ المسمَّى عسكراً في هَوْدج، قد ألبس الرّفْرف، ثم ألبِس جلود النّمِر، ثم ألبِس فوق ذلك دروع الحديد.

الشعبيّ، عن مسلم بن أبي بَكْرة، عن أبيه أبي بَكْرة، قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة، تقلَّدتُ سيفي، وأنا أريد نصرَهما، فدخلت على عائشة، وإذا هي تأمر وتنهى، وإذا الأمر أمرُها، فذكرتُ حديثاً كنت سمعته عن رسول الله ﷺ: «**لن يفلِح قومٌ تدبِّر أمرَهم امرأة**»[1]، فانصرفت واعتزلتهم.

وقد رُوِيَ هذا الخبر على صورة أخرى: «إنّ قوماً يخرجُون بعدي في فئة، رأسها امرأة، لا يفلحون أبداً»[2].

كان الجمل لواء عسكر البصرة لم يكن لواء غيره.

خطبت عائشة والناس قد أخذوا مصافّهم للحرب، فقالت:

أما بعد فإنا كنا نقَمْنَا على عثمان ضربَ السوط، وإمْرة الفتيان، ومَرْتَع السحابة المحميّة، ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبَكم، فلما مُصْتُموه كما يُمَاص الثوب الرّحِيض، عَدَوْتم عليه، فارتكبتم منه دماً حراماً، وايمُ الله إن كان لأحصنَكم فَرْجاً، وأتقاكم لله.

خطب علي عليه السلام لما تواقف الجمعان، فقال:

لا تقاتلوا القومَ حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حُجّة، وكفُّكم عنهم حتى يبدؤوكم حجة أُخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تُجْهِزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعُوا مُدْبراً، ولا تكشِفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سِتْراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تَهيجوا امرأة بأذًى، وإن شتمْنَ أعراضكم وسبَبْن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب كتاب النبي (ص) إلى كسرى (٤٤٢٥)، والترمذي في كتاب: الفتن، باب منه (٢٢٦٢)، والنسائي في كتاب: آداب القضاة (٥٣٨٨)، بلفظ: وَلوْا بدل قوله تدبّر.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٢١٣.

أمراءكم وصلحاءكم، فإنّهن ضعاف القوى، والأنفس والعقول، لقد كنّا نؤمَر بالكَفّ عنهنّ وإنهنّ لمشركات، وإن كان الرجل ليتناولُ المرأة بالهراوة والجريدة، فيعيَّر بها وعقِبه من بعده.

قُتِل بنو ضَبّة حول الجمل فلم يبقَ إلا مَنْ لا نفع عنده، وأخذَت الأزد بخِطامه، فقالت عائشة: مَنْ أنتم؟ قالوا: الأزد، قالت: صبراً، فإما يصبر الأحرار، ما زلت أرى النَّصر مع بني ضَبّة، فلما فقدتُهم أنكرتُه. فحرّضت الأزْد بذلك، فقاتلوا قتالاً شديداً، ورُمِي الجملُ بالنَّبْل حتى صارت القبة عليه كهيئة القنفذ.

قال عليّ عليه السلام: لما فنِيَ الناس على خِطام الجمل، وقطعت الأيدي، وسالت النفوس: ادعُوا لي الأشتر وعَمّاراً، فجاءا، فقال: اذهبَا فاعقِرا هذا الجمل، فإن الحرْب لا يبوخ ضِرامها ما دام حَيًّا، إنهم قد اتخذوه قبلة، فذهبا ومعهما فتَيانِ من مُراد، يعرُف أحدهما بعمر بن عبد الله، فما زالا يضربان الناسَ حتى خَلَصا إليه، فضربه المُراديّ عَلَى عرقوبيْه، فأقعى وله رُغاء، ثم وقع لجنبه، وفرّ الناس من حوله، فنادى عليّ عليه السلام: اقطعوا أنْسَاع الهوْدج، ثم قال لمحمد بن أبي بكر: اكفني أختَك، فحملها محمد حتى أنزلَها دار عبد الله بن خلَف الخُزاعيّ.

بعث عليٌّ عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة، قال: فأتيتُها، فدخلت عليها، فلم يوضع لي شيء أجلِس عليه، فتناولت وسادة كانت في رَحْلها، فقعدت عليها، فقالت: يابن عباس، أخطأت السنّة، قعدت على وسادتنا في بيتنا بغير إذننا! فقلت: ليسَ هذا بيتُكِ الذي أمَرك الله أن تَقَرّي فيه، ولو كان بيتَك ما قعدتُ على وِسادتك إلا بإذنك، ثم قلت: إن أمير المؤمنين أرسلَني إليك يأمُرك بالرحيل إلى المدينة، فقالت: وأين أمير المؤمنين! ذاك عمر، فقلت: عمر وعليّ، قالت: أبيت! قلت: أما والله ما كان أبوك إلا قصيرَ المدّة، عظيم المشقة، قليل المنفعة، ظاهر الشؤم بيّن النكد، وما عسى أن يكون أبوك! والله ما كان أمرُكِ إلا كحَلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين، ولا تأخذين ولا تعطين، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد:

ما زال إهداء الصغائر بيننا ... نثُّ الحديث وكثرَة الألقابِ
حتى نزلت كأن صوتَك بينهم ... في كلّ نائبة طنينُ ذبابِ

قال: فبكت حتى سُمع نحيبُها من وراء الحجاب، ثم قالت: إني معجّلة الرحيل إلى بلادي

إن شاء الله تعالى، والله ما من بلدٍ أبغضَ إليّ من بلد أنتم فيه، قلت: ولم ذاك! فوالله لقد جعلناكِ للمؤمنين أمًّا، وجعلنا أباك صِدّيقاً، قالت: يابن عباس، أتمنّ عليّ برسول الله؟ قلت: ما لي لا أمنّ عليك بمَنْ لو كان منك لمننتِ به عليّ!

ثم أتيت عليًّا عليه السلام فأخبرته بقولها وقولي، فسرّ بذلك، وقال لي: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وفي رواية: أنا كنت أعلم بك حيث بعثتُك[2].

٨٠ - ومن كلام له عليه السلام في الزهد

الأصل: **أَيُّهَا النَّاسُ، ٱلزَّهَادَةُ قِصَرُ ٱلْأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعَمِ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ المَحَارِمِ، فَإِنْ عَزَبَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فَلاَ يَغْلِبِ ٱلْحَرَامُ صَبْرَكُمْ، وَلاَ تَنْسَوْا عِنْدَ النِّعَمِ شُكْرَكُمْ، فَقَدْ أَعْذَرَ ٱللهُ إِلَيْكُمْ بِحُجَجٍ مُسْفِرَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَكُتُبٍ بَارِزَةِ ٱلْعُذْرِ وَاضِحَةٍ.**

الشرح: **فسّر عليه السلام لفظ الزّهادة، وهي الزّهد، بثلاثة أمور وهي: قصَر الأمل، وشكر النعمة، والورَع عن المحارم، فقال: لا يسمّى الزّاهد زاهداً حتى يستكمِل هذه الأمور الثلاثة، ثم قال: «فإن عزب ذلك عنكم»، أي بَعُدَ، فأمران من الثلاثة لا بدّ منهما، وهما الورع وشكر النعم، جعلهما آكد وأهمّ من قصر الأمل.**

واعلم أنّ الزهد في العُرْف المشهور هو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها، لكنه لما كانت الأمور الثلاثة طريقاً موطئة إلى ذلك أطلَق عليه السلام لفظ الزهد عليها على وجه المجاز.

وقوله: «فقد أعذر الله إليكم» أي بالغ، يقال: أعذَر فلان في الأمر أي بالغ فيه، ويقال: ضُرِب فلان فأعذر، أي أشرف على الهلاك، وأصل اللفظة من العذر، يريد أنه قد أوضحَ لكم بالحجج النيّرة المشرقة ما يجب اجتنابُه، وما يجب فعله، فإن خالفتم استوجبتُم العقوبة، فكان له في تعذيبكم العذر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

(٢) أخرجه السيد مرتضى في أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ٢٤٩، وأخرجه ابن الدمشقي في جواهر المطالب: ٢/ ٢٥.

والآثارة الواردة في الزهد كثيرة:

قال رسول الله ﷺ: «أفلح الزاهد في الدنيا، حَظِيَ بعزّ العاجلة وبثواب الآخرة»[(١)].

وقال ﷺ: «من أصبَحت الدنيا همّه وسَدَمه، نزع الله الغني من قلبه وصيّر الفقر بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له، ومن أصبحت الآخرة همّه وسَدَمه، نزع الله الفقر عن قلبه، وصيّر الغني بين عينيه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[(٢)].

وقال عليه السلام للضحّاك بن سفيان: ما طعامُك؟ قال: اللحم واللبن، قال: ثم يصير إلى ماذا؟ قال: إلى ما علمت، قال: فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا.

وكان الفُضَيْل بن عِياض يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه: انطلقوا حتى أريَكم الدنيا، فيجيء بهم إلى المزبلة، فيقول: انظروا إلى عنَبهم وسَمْنهم ودَجاجهم وبطِّهم! صار إلى ما ترون.

ومن الكلام المنسوب إلى المسيح عليه السلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

سئل رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[(٣)] فقال: إذا دخل النّور القلبَ انفسخ، فذلك شرح الصدر، فقيل: أفلذلك علامة يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافِي عن دار الغُرور، والاستعداد للموت قبل نزوله[(٤)].

قالوا: أوحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء: اتخذِ الدّنيا ظِئْراً، واتخذ الآخرة أمّاً.

الشعبيّ: ما أعلم لنا وللدنيا مثلاً إلا قول كُثيّر:

أسيئِي بنَا أو أحسِنى لا ملومةً ... لَدَيْنَا ولا مقليّة إن تَقَلَّتِ

بعض الصالحين: المستغنى عن الدّنيا بالدّنيا، كالمطفِيء النارَ بالتبن.

وفي بعض الكتب القديمة الإلهية: قال الله للدنيا: مَنْ خدَمني فاخدميه، ومن خدَمكِ فاستخدِميه.

---

(١) أخرجه محمد الريشهري في ميزان الحكمة: ٢/ ١١٧٤.

(٢) أخرج الدارمي نحوه كتاب: المقدمة، في باب: فضل العلم والعالم (٣٣١)، والطراني في «الأوسط» (٥٩٩٠)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٤٧).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٢٥).

(٤) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٩٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٤٦).

دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مسلم، وعليه مدرعة من صُوف، فقال: ما هذه؟ فسكت، فأعاد عليه السؤال، فقال: أكره أن أقولَ زهداً أزكّيَ نفسي، أو فقراً فأشكوَ ربيّ.

قيل في صفة الدنيا والآخرة: هما كضَرتين إن أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى.

قيل لمحمد بن واسع: إنك لترضَى بالدُّون، قال: إنّما رضيَ بالدُّون مَنْ رضيَ بالدنيا.

خطب أعرابيٌّ كان عاملاً لجعفر بن سليمان على ضَريّة يوم جُمعة خطبةً لم يُسمعْ أوجَز منها ولا أفصح، فقال: إنّ الدنيا دارُ بلاغ، وإنّ الآخرةَ دار قرار، فخذُوا من ممرّكم لمستقَرِّكم، ولا تهتِكوا أستارَكم عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم، وأخرِجُوا من الدنيا قلوبَكم قبل أن تخرُج منها أبدانُكم، ففيها جئتم، ولغيرها خُلقتم، إنّ المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدَّم؟ فلِلّه آثاركم! قدّموا بعضاً يكن لكم، ولا تؤخِّروا كُلاً فيكون عليكم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله، والمدعوُّ له الخليفة، ثم الأمير جعفر. ونزل.

أبو حازم الأعرج: الدُّنيا كلُّها غموم، فما كان فيها سروراً فهو ربْح.

محمد بن الحنفيّة: مَنْ عزّت عليه نفسُه هانتْ عليه الدنيا.

قيل لعليّ بن الحسين عليه السلام: مَنْ أعظمُ الناس خَطراً؟ قال: مَنْ لم يَر الدنيا لنفسه خطراً[1].

قال المسيح عليه السلام لأصحابه: حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة، واقتناء المال فيها داء عظيم، قالوا له: كيف ذلك؟ قال: لا يسلم صاحبه من البغي والكبر، قيل: فإن سَلِم منهما، قال: يشغلُه إصلاحه عن ذكر الله.

أشرف أبو الدرداء على أهلِ دمشق، فقال: يا أهلَ دمشق، تبنونُ ما لا تسْكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأمُلون ما لا تدركون! أينَ مَنْ كان قبلَكم؟ بنوْا شديداً، وأمَّلوا بعيداً، وجمعوا كثيراً، فأصبحتْ مساكنهم قُبوراً، وجمعُهم بُوراً، وأملُهم غروراً.

قال المأمون: لو سئلت الدُّنيا عن نفَسها لم تسطِعْ أن تصفَ نفسها بأحسنَ من قول الشاعر:

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ ... لَهُ عن عَدُوٍّ في ثيابِ صديقِ

وقال رجل: يا رسولَ الله، كيف لي أن أعلم أمري؟ قال: **«إذا أردتَ شيئاً من أمور الدنيا فعسُر عليك، فاعلم أنّك بخير، وإذا أردتع شيئاً من أمر الدنيا فيسُر لك، فاعلم أنه شرٌّ لك»**[2].

قال رجل ليونس بن عبيد: إنّ فلاناً يعمل بعمل الحسن البصريّ، فقال: والله ما أعرِف

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٩/ ١٢٣، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٤١/ ٤٠٨.

(٢) أخرج البيهقي في «الشعب» (١٠٤٥٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٨٨) نَحْوَه.

أحداً يقول بقوله، فكيفَ يعمل بعمله؟ قيل: فصِفْه لنا، قال: كان إذا أقبَلَ فكأنّه أقبَل مِنْ دفنِ حبيب، وإذا جلس فكأنّه أسيرٌ أجلِس لضرْب عنقه، وإذا ذكرتِ النار فكأنّها لم تخلق إلاّ له.

وقال بعض الصالحين لرجل: يا فلان، هلْ أنت على حالٍ أنتَ فيها مستعدٌّ للموت؟ قال: لا، قال: فهل أنت عالم بأنّك تنتقل إلى حال ترضى به؟ قال: لا، قال: أفتعلم بعد الموت داراً فيها مستعتَب؟ قال: لا، قال: أفتأمن الموت أن يأتيَك صباحاً أو مساءً؟ قال: لا، قال: أفيرضى بهذه الحال عاقل!

وقال أبو الدّرْداء: أضحكتْني ثلاثٌ، وأبكتْني ثلاث: أضحكني مؤمّل الدنيا والموت يطلبه، وغافلٌ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ ملءَ فيه لا يدرِي أراضٍ عنه الله أمْ ساخط! وأبكاني فراقُ محمدٍ وحزبه، وأبكاني هولُ الموت، وأبكاني هولُ الموقف، يومَ تبدُو السرائر حين لا أدري أيؤخذ بي إلى جنّة أم إلى نار!

وكان عبد الله بن صغير يقول: أتضحكُ ولعلّ أكفانَك قد خرجت من عند القَصّار! وكان يقال: مَنْ أتى الذنبَ ضاحكاً، دخل النار باكياً.

وكان ملك بن دينار يقول: وددت أنّ رزقي في حصاة أمصّها حتى أبول، فلقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييتُ من ربّي.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يبلغ العبدُ أن يكونَ من المتّقين حتى يدَعَ ما ليس به بأس حذراً عَمّا به البأس**»(١).

وقال المسيح عليه السلام: بحقٍّ أقول لكم، إنّ مَنْ طلب الفِرْدَوس، فخبْز الشعير، والنّوم على المزابل مع الكلاب، له كثير.

وأوصى ابن محرز رجلاً فقال: إن استطعتَ أن تعرِف ولا تعرَف، وتسأل ولا تُسْأل، وتمشي ولا يمشَي إليك، فافعل.

وقال عليّ عليه السلام: طوبَى لمن عَرَف الناس ولم يعرفوه، تعجَّلَتْ له منيَّته، وقلّ تراثه، وفقد باكياته.

وكان يقال: في الجوع ثلاث خصالٍ: حياةٌ للقلْب، ومذلّة للنفس، ويورث العقل الدقيق من المعاني.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أريدُ أن تقبل مني دراهم، قال: إن كنت غنيًّا قبلتُها منك،

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق، باب منه (٢٤٥١)، وابن ماجه، في كتاب: الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٥).

وإن كنتَ فقيراً لم أقبَلها، قال: فإني غنّي، قال: كم تملك؟ قال ألفي درهم، قال: أفيسرُّك أن تكون أربعة آلاف؟ قال: نعم، قال: لست بغنيّ ودراهمك لا أقبلها.

وكان أبو حازم الأعرج إذا نظَر إلى الفاكهة في السوق، قال: موعدكِ الجنة إن شاء الله تعالى.

ومرّ أبو حازم بالقصابين، فقال له رجل منهم: يا أبا حازم، هذا سَمِين فاشتر منه، قال: ليس عندي دراهم، قال: أنا أنظِرُك، قال: فأفكّر ساعة، ثم قال: أنا أنظِرُ نفسي.

نزل الحجّاج في يوم حارّ على بعض المياه، ودعا بالغَدَاء وقال لحاجبه: انظر مَنْ يتغدّى معي، واجهَدْ ألاّ يكون من أهل الدنيا، فرأى الحاجبُ أعرابيًا نائماً، عليه شملة من شَعْر، فضربه برجله، وقال: أجب الأمير، فأتاه، فدعاه الحجّاج إلى الأكل، فقال: دعاني مَنْ هو خيرٌ من الأمير فأجبته، قال: مَنْ هو؟ قال: الله، دعاني إلى الصوم فصمت، قال: أفي هذا اليوم الحارّ؟ قال: نار جهنّم أشدُّ حرًا، قال: أفِطر وتصومُ غداً، قال: إن ضمنتَ لي البقاء إلى غد، قال: ليس ذلك إليّ، قال: فكيف أدَعُ عاجلاً لآجل لا تقدر عليه! قال: إنه طعام طيِّب، قال: إنك لم تطيّبه ولا الخبّاز، ولكنّ العافية طيّبته لك.

وقال شبيب: كنّا سنة في طريق مكّة، فجاء أعرابيّ في يوم صائفٍ شديد الحرّ، ومعه جارية سوداء، وصحيفة، فقال: أفيكم كاتب؟ قلنا: نعم، وحضر غداؤنا، فقلنا له: لو دخلتَ فأصبت من طعامنا! قال: إنّي صائم، قلنا: الحرّ وشدته، وجفاء البادية، فقال: إنّ الدنيا كانت ولم أكنْ فيها، وستكون ولا أكونُ فيها، وما أحبّ أن أغبن أمامي، ثم نبذ إلينا الصحيفة، فقال للكاتب: اكتُب ولا تَزِدْ على ما أمليه عليك: هذا ما أُعتَق عبد الله بن عقيل الكلبيّ، أعتق جاريةً له سوداء اسمها لؤلؤة، ابتغاء وجهِ الله وجواز العقبة، وإنه لا سبيلَ له عليها إلا سبيل الولاء، والمنّة لله علينا وعليها واحدة.

قال الأصمعيّ: فحدّث بذلك الرشيد، فأمر أن يعتَق عنه ألف نسمة، ويكتب لهم هذا الكتاب.

وقال خالد بن صفوان: بتُّ ليلتي هذه أتمنّى، فكبست البحر الأخضر بالذهب الأحمر، فإذا الّذي يلقّاني من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران(١).

ورأى رجلٌ رجلاً من ولد معاوية يعمل على بعيرٍ له، فقال: هذا بعد ما كنتم فيه من الدنيا! قال: رحمك الله يابن أخي، ما فقدنا إلا الفُضول.

---

(١) الطّمر: الكساء البالي، والثوب الخلق، القاموس، مادة (طمر).

وقال الحسن: يابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضُك.

قال يونس الكاتب: لو قيل بيت دريد في زاهدٍ كان به جديراً:

قليلُ التَّشكِّي للمصيبات ذاكرٌ ... من اليوم أعقابَ الأحاديث في غد

وقال الحسن: ما أطال عبد الأملَ إلاّ أساء العمل.

وقال رجل للفُضَيل بن عياض: ما أعجب الأشياء؟ قال: قلبٌ عرف الله ثم عصاه.

قال وكيع: ما أحسنتُ قطّ إلى أحد، ولا أسات إليه، قيل: كيف؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1].

وقال الحسن لرجل: إن استطعتَ ألاّ تسيء إلى أحدٍ ممن تحبّه فافعل، قال الرجل: يا أبا سعيد، أوَ يسيء المرء إلى مَنْ يحبّه؟ قال: نعم، نفسُك أحبُّ النفوس إليك، فإذا عصيتَ الله فقد أساتَ إليها.

وكان مالك بن دينار إذا مَنَع نفسَه شيئاً من الشهوات، قال: اصبري، فوالله ما منعُك إلا لكرامتك عليّ.

قام رسول الله ﷺ الليل، حتى تورّمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله، أتفعل هذا، وقد غفرَ الله ما تقدّم مِنْ ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً!»[2].

وقال عبد الله بن مسعود: لا يكونَنّ أحدكم جيفة ليله، قُطْرُب[3] نهاره.

وكان يقال. مَنْ كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار.

وكان مالك بن دينار يقول في قَصصه: ما أشدّ فطام الكبر! وينشدُ:

أتروضُ عِرْسك بعد ما هرِمَتْ! ... ومن العناء رياضةُ الهَرِمِ

وقال آخر:

إن كنت تؤمن بالقيا ... مَة واجترأتَ على الخطيَّة

فلقد هلكتَ وإن ... جَحَدْتَ فذاك أعظمُ للبليَّة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٢) أخرجه البخاري، في كتاب: والجمعة باب: قيام النبي (ص) حتى ترم قدماه. (١١٣٠)، ومسلم في كتاب: صفة القيامة، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩)، والترمذي، في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الاجتهاد في الصلاة (٤١٢)، والنسائي في كتاب: قيام الليل، باب: الاختلاف على عائشة في إحياء الليل (١٦٤٤).

(٣) القطرب: الذي لا يستريح نهاره سعياً في حوائج دنياه. اللسان، مادة: (قطرب).

٨١ – ومن كلام له عليه السلام في صفة الدنيا

الأصل: مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ، أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ! في حَلاَلِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ ٱفْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ.

قال الرضيّ رحمه الله:

أقول: وإذا تأمّلَ المُتأمّلُ قوله عليه السلام: «وَمَن أبصرَ بها بصَّرَتْه»، وَجدَ تحته من المعنى العجيب، والغرض البعيد، ما لا يبلَغ غايتُه ولا يدرَك غَوره، لا سِيَّما إذا قرن إليه قوله: «وَمَنْ أبْصَرَ إليها أعمتْهُ»، فَإنه يجد الفرق بين «أبصرَ بها» و«أبصَرَ إليها» وَاضِحاً نَيِّراً، وعجيباً باهراً.

الشرح: العناء: التعب. وساعاها: جاراها سعياً. وواتته: طاوعته.

ونظر الرضيّ إلى قوله. «أولها عناء وآخرها فناء»، فقال.

وأوّلُنا العناءُ إذا طَلَعْنَا ... إلى الدنيا وآخرنا الذهابُ

ونظر إلى قوله عليه السلام: «في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب» بعضُ الشعراء، فقال:

الدهر يومان فيومٌ مضَى ... عنك بما فيه ويومٌ جديدْ
حلالُ يوميك حسابٌ وفي ... حرام يَوْمَيْكَ عذابٌ شديدْ
تجمعُ ما يأكلُه وارثٌ ... وأنت في القبر وحيدٌ فريدْ
إني لغيري واعظٌ تاركٌ ... نفسي وقولي من فعالي بعيدْ
حلاوةُ الدنيا ولَذّاتُها ... تكلّف العاقلَ ما لا يريدْ

ومن المعنى أيضاً قول بعضهم:

حَلاَلُهَا حَسْرَةٌ تُفضي إلىَ نَدَمٍ ... وَفي المحارمِ مِنْهَا الغنم مَنْزُورُ(١)

ونظر الحسن البصريّ إلى قوله عليه السلام: «من استغنى فيها فُتِن، ومن افتقَرَ فيها حزن»، فقال، وقد جاءه إنسان يبشّره بمولود له ذكَر: ليهنك الفارس يا أبا سعيد، فقال: بل الراجِل! ثم قال:

---

(١) منزور: محتقر وقليل. القاموس، مادة (نزر).

لا مرحباً بمن إنْ كان غَنيًا فتنني، وإن كان فقيراً أحزنني، وإن عاش كَدَّني، وإن مات هَدَّني، ثم لا أرضى بسعيي له سعياً، ولا بكدحِي له كدحاً، حتى اهتمّ بما يصيبه بعد موتي، وأنا في حالٍ لا ينالُني بمساءته حُزن، ولا بسروره جَذَل.

ونظر ابن المعتزّ إلى قوله عليه السلام: «مَنْ ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته» فقال: الدنيا كظلّك، كلّما طلبته زاد منك بعداً.

ونظرتُ إلى قوله عليه السلام: «ومَنْ أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته»، فقلت:

دُنْيَاكَ مثلُ الشَّمْسِ تُدني إليْـ ... ـك الضوءَ لكن دعوة المُهْلِكْ

إن أنت أبصرتَ إلى نورِها ... تَغْشَ، وإن تبصرْ به تدركْ

فإن قلت: المَسموع: أبصرت زيداً، ولم يسمع أبصرت إلى زيد، قلت: يجوز أن يكون قوله عليه السلام: «ومن أبصر إليها»، أيْ ومن أبصر متوجهاً إليها، كقوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[1] ولم يقل «مرسلاً»، ويجوز أن يكون أقام ذلك مقام قوله «نظر إليها» لما كان مثله، كما قالوا في «دخلت البيت»، «ودخلت إلى البيت» أجروه مجرَى «ولجت إلى البيت» لَمّا كان نظيره.

٨٢ - ومن خطبة له عليه السلام وتسمى بالغراء وهي من الخطب العجيبة

الأصل: **ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي عَلاَ بِحَوْلِهِ، وَدَنَا بِطَوْلِهِ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ. أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ، وَسَوَابِغِ نِعَمِهِ، وَأُومِنُ بِهِ أَوَّلاً بَادِياً، وَأَسْتَهْدِيهِ قَرِيباً هَادِياً، وَأَسْتَعِينُهُ قَاهِراً قَادِراً، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِياً نَاصِراً، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ لإِنْفَاذِ أَمْرِهِ، وَإِنْهَاءِ عُذْرِهِ، وَتَقْدِيمِ نُذُرِهِ.**

الشرح: الحوْل: القوّة. والطّول: الإفضال، والمانح: المعطي. والأزل، بفتح الهمزة: الضيق والحبس. والعواطف: جمع عاطفة وهي ما يعطفك على الغير، ويدنيه مِنْ معروفك، والسوابغ: التوامّ الكوامل، سبَغَ الظّلُّ، إذا عَمّ وشمل.

و«أولا» ها هنا منصوب على الظرفية، كأنه قال: قبل كلّ شيء. والأوّل نقيض الآخر أصله «أوْءَل» على «أفعل» مهموز الوسط، قلبت الهمزة واواً وأدغم، يدلّ على ذلك قولهم: «هذا أوّلُ منك» والإتيان بحرف الجرّ دليل على أنه «أفعل»، كقولهم: هذا أفضل منك، وجمعه على

(١) سورة النمل، الآية: ١٢.

أوائل وأوالٍ أيضاً على القلب. وقال قوم: أصله «ووّل» على «فَوْعل» فقلبت الواو الأولى همزة، وإنما لم يجمع على «ووالٍ» لاستثقالهم اجتماع الواوين وبينهما ألف الجمع. وإذا جعلت «الأول» صفة لم تصرِفْه، تقول: لقيته عاماً أوّل، لاجتماع وزن الفعل، وتقول: ما رأيته مذ عامُ أوّلَ، كلاهما بغير تنوينٍ، فمن رفع جعله صفة لعام، كأنه قال«، أوّل من عامنا، ومَنْ نصب جعله كالظرف، كأنه قال: مذ عام قبل عامنا. فإن قلت: «ابدأ بهذا أوّلُ»، ضممتَه على الغاية.

والإنهاء الإبلاغ، أنهيتُ إليه الخبرَ فانتهى، أي بلغ، والمعنى أنّ الله تعالى أعذر إلى خلقه وأنذرهم، فإعذارُه إليهم أنْ عرّفهم بالحجج العقليّة والسمعية أنّهم إنْ عصوه استحقُّوا العقاب، فأوضح عذرَه لهم في عقوبته إيّاهم على عصيانه. وإنذاره لهم: تخويفه إياهم من عقابه. وقد نظر البحتريّ إلى معنى قوله عليه السلام: «علا بحوله، ودنا بطوله»، فقال:

دَنَـوْتَ تَـوَاضُـعـاً وَعَـلَـوْتَ قَـدْراً ... فَـشَـأْنَـاكَ انْـخِـفَـاضٌ وارْتِـفَـاعُ
كَـذَاكَ الـشـمـس تـبعُـدُ أنْ تُـسَـامَـى ... وَيَـدْنُـو الـنُّـورُ مِـنْـهـا والـشُّـعَـاعُ

وفي هذا الفصل ضروب من البديع، فمنها أنّ «دنا» في مقابلة «علا» لفظاً ومعنى، وكذلك «حوله» و«طوله».

فإن قلت: لا ريبَ في تقابل «دنا» و«علا» من حيث المعنى واللفظ، وأما «حوله» و«طوله» فإنهما يتناسبان لفظاً، وليسا متقابلين معنى، لأنهما ليسا ضدّين، كما في العلوّ والدنوّ.

قلت: بل فيهما معنى التضادّ، لأنّ الحولِ هو القوّة، وهي مشعرة بالسَّطْوة والقهر، ومنه منشأ الانتقام، والطَّوْل: الإفضال والتكرّم، وهو نقيض الانتقام والبطش.

فإن قلت: أنت وأصحابُك لا تقولون إنّ الله تعالى قادرٌ بقدرة، وهو عندكم قادر لذاتِه، فكيف تتأوّلون قوله عليه السلام: «الذي علا بِحوْله»؟ أليس في هذا إثبات قدرة له زائدة على ذاته، وهذا يخالف مذهبكم!

قلت: إن أصحابنا لا يمتنعون من إطلاق قولهم: إنّ لله قوة وقدرة وحولاً، وحاش لله أنْ يذهب ذاهبٌ منهم إلى منع ذلك! ولكنّهم يطلقونه ويعنُون به حقيقتَه العرفيّة، وهي كون الله تعالى قويًّا قادراً، كما نقول نحن والمخالف: إن لله وجوداً وبقاءً وقِدماً، ولا نعني بذلك أنّ وجوده أو بقاءه أو قدمه معانٍ زائدة على نفسه، لكنا نعني كلّنا بإطلاق هذه الألفاظ عليه كونه موجوداً أو باقياً أو قديماً، وهذا هو العُرْف المستعمَل في قول الناس: «لا قوة لي على ذلك» و «لا قدرة لي على فلان» لا يعنون نفيَ المعنى، بل يعنون كونَ الإنسان قادراً قوياً على ذلك.

ومنها أن «مانحاً» في وزن «كاشف» و«غنيمة» بإزاء «عظيمة» في اللفظ، وضدها في المعنى، وكذلك «فضل» و«أزل».

ومنها أن «عواطف» بإزاء «سوابغ» و«نِعَمه» بإزاء «كرمه».

ومنها - وهو ألطف ما يَستعمله أرباب هذه الصناعة: أنَّه جعل «قريباً هادياً»، مع قوله: «أستهديه»، لأن الدليل القريب منك أجدرُ بأن يهديَك من البعيد النازح، ولم يجعله مع قوله: «وأستعينه»، وجعل مع الاستعانة «قاهراً قادراً» لأن القادر القاهر يليقُ أن يستعَان ويستنجدَ به، ولم يجعله قادراً قاهراً مع التوكّل عليه، وجعل مع التوكل «كافياً ناصراً»، لأنّ الكافيَ الناصر أهلٌ لأنْ يتوكّل عليه.

وهذه اللطائف والدقائق من معجزاته عليه السلام التي فات بها البلغاءَ، وأخرس الفصحاء.

الأصل: أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ ٱلَّذِي ضَرَبَ لكم ٱلْأَمْثَالَ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ، وَأَلْبَسَكُمُ ٱلرِّيَاشَ، وَأَرْفَغَ لَكُمْ ٱلْمَعَاشَ، وَأَحَاطَ بِكُمُ ٱلْإِحْصَاءَ، وَأَرْصَدَ لَكُمْ ٱلجَزَاءَ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ ٱلسَّوَابِغِ، وَٱلرِّفَدِ ٱلرَّوَافِغِ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ ٱلْبَوَالِغِ، فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً، وَوَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ، وَدَارِ عِبْرَةٍ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا، وَمُحاسَبُونَ عَلَيْهَا.

الشرح: وقّت وأقّت بمعنى، أي جعل الآجال لوقتٍ مقدّر.

والرياش والريش واحد، وهو اللباس، قال تعالى: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[1]. وقرىء «ورياشاً»، ويقال: الرياش: الخِصْب والغنى، ومنه ارتاش فلان، حَسُنت حالُه، ويكون لفظ «ألبسكم» مجازاً إن فُسّر بذلك.

وأرفغَ لكم المعاش، أي جعله رفيغاً، أي واسعاً مخصِباً، يقال: رفُغ - بالضمّ - عيشُه رَفاغة، اتسع، فهو رافغ ورفيغ وترفّغ الرجل، وهو في رفاغَية من العيش، مخففاً، مثل «رَفَاهِيَة» و«ثمانية».

وقوله: «وأحاط بكم الإحصاء»، يمكن أنْ ينصَب الإحصاء على أنّه مصدر فيه اللام، والعامل فيه غير لفظه، كقوله: «يعجّبه السُّخون»، ثم قال: «حُبًّا»، وليس دخول اللام بمانع من ذلك، تقول: ضربتُه الضربة، كما تقول: ضربته ضرباً. ويجوز أن يصب بأنّه مفعول به، ويكون ذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون من «حَاط» ثلاثياً، تقول: حاط فلان كرْمَه، أي جعل عليه حائطاً، فكأنه جعل الإحصاء والعدّ كالحائط المدار عليهم، لأنّهم لا يعدون منه ولا يخرجون عنه.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

والثاني: أن يكونَ من حاط الحمارُ عانَته يحُوطها، بالواو أي جمعها، فأدخل الهمزة، كأنه جعل الإحصاء يحوطهم ويجمعهم، تقول: ضربتُ زيداً وأضربته أي جعلته ذا ضَرْب، فلذلك كأنه جعل عَلَيْتَكِلاَرِ الإحصاء ذا تحويط عليهم بالاعتبار الأول، أو جعله ذا جمع لهم بالاعتبار الثاني.

ويمكن فيه وجه آخر، وهو أن يكون الإحصاء مفعولاً له ويكون في الكلام محذوف تقديره: وأحاط بكم حفظته وملائكته للإحصاء ودخول اللام في المفعول له كثير، كقوله:

والـهَـوْل مِـنْ تـهـوّلِ الـهـبُـورِ[1]

قوله: «وأرصد» يعني أعدّ، وفي الحديث: «إلاّ أن أرصُدَه لدَيْن عليّ»[2].

وآثركم، من الإيثار، وأصله أن تقدّم غيرَك على نفسك في منفعة أنت قادرٌ على الاختصاص بها وهو في هذا الموضع مجاز مستحسَن.

والرِّفَد: جمع رِفْدَة، مثل كِسْرة وكِسَر، وفِدْرةٍ وفِدَر. والرِّفدة والرِّفد واحد، وهي العطيّة والصِّلَة ورَفدت فلاناً رَفْداً بالفتح، والمضارع أرفِده بكسر الفاء، ويجوز «أرفدته» بالهمزة.

والروافغ: الواسعة. والحجج البوالغ: الظاهرة المبينة، قال سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[3].

ووظّف لكم مدداً، أي قدّر، ومنه وظيفة الطعام.

وقرار خِبْرة بكسر الخاء، أي دار بلاءٍ واختبار، تقول: خبرت زيداً أخبُره خُبْرة، بالضم فيهما، وخِبْرة بالكسر إذا بلوته واختبرته، ومنه قولهم: صغّر الخُبْرُ الخبرَ.

ودار عِبْرة أي دار اعتبار واتّعاظ، والضمير في «فيها» و«عليها» ليس واحداً، فإنّه في «فيها» يرجع إلى الدار، وفي «عليها» يرجع إلى النعم والرِّفَدِ، ويجوز أن يكون الضمير في «عليها» عائداً إلى الدار على حذف المضاف، أي على سكانها.

الأصل: **فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا، رَدِغٌ مَشْرَعُهَا، يُونِقُ مَنْظَرُهَا، وَيُوبِقُ مَخْبَرُها. غُرُورٌ حائِلٌ، وَضَوْءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زَائِلٌ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ، حَتَّى إِذَا أَنِس نَافِرُها، وَاطْمَأَنَّ**

---

(١) الهَبور: العنكبوت. القاموس، مادة (هبر).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك (٦٢٦٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩١).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

نَاكِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا، وَأَعْلَقَتِ ٱلْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ، قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ ٱلْمَضْجَعِ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ، وَمُعَايَنَةِ ٱلْمَحَلِّ وَثَوَابِ الْعَمَلِ.

وَكَذَلِكَ ٱلخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ، لاَ تَقْلِعُ ٱلْمَنِيَّةُ ٱخْتِرَاماً، وَلاَ يَرْعَوِي ٱلْبَاقُونَ ٱجْتِرَاماً، يَحْتَذُونَ مِثَالاً، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً، إِلَى غَايَةِ الانْتِهَاءِ، وَصَيُّورِ ٱلْفَنَاءِ.

الشرح: يقال: عيش رنِق، بكسر النون، أي كَدِر، وماءٌ رنْق بالتسكين، أي كَدر والرَّنَق بفتح النون مصدر قولك: «رنِق الماء» بالكسر ورنقّته أنا ترنيقاً، أي كَدّرته والرواية المشهورة في هذا الفصل «رنِق مشربُها» بالكسر أقامه مقام قولهم: «عيش رَنِق»، ومن رواه «رَنْق مشربها» بالسكون - وهم الأقلون - أجرى اللفظ على حقيقته.

ويقال: مشرع رَدِغ: ذو طين ووحَل، روى «الرَّدَغة» بالتحريك، ويجوز تسكين الدال، والجمع رِداغ وردْغ.

ويونِق منظرُها: يعجب الناظر، آنقَنِي الشيء أعجبني. ويُوبق مخبرها: يُهلك، وَبَق الرجلُ يبِق وبُوقاً، هلك، والموْبِق «مفعِل» منه كالموعد «مَفْعل»، من وعَد يعِد، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾[1]. وقد جاء وَبِق يبِق، بالكسر فيهما، وهو نادر، كورثَ يرِث، وجاء أيضاً وبق يوبق وبَقاً.

والغُرور، بضم الغين: ما يغترّ به من متاع الدنيا، والغَرور، بالفتح: الشيطان.

والحائل: الزائل، والآفل: الغائب، أفل غاب يأفُلُ ويأفِل أفولاً.

والسّناد: دِعامة يُسنَد بها السقف. وناكرها: فاعل، من نكرت كذا، أي أنكرته وقمِصت بأرجلها، قَمصَ الفرسُ وغيره يقمِص ويقمُص قَمْصا وقِماصاً، أي استنّ، وهو أن يرفع يديْه ويطرحهما معاً، ويعجن برجْليه، وفي المثل المضروب لمن ذلّ بعد عزة: «ما لِعَيْر من قِماص».

وجمع فقال: «بأرجلها» وإنما للدابة رجلان، إمّا لأنّ المثنى قد يطلق عليه صيغة الجمع، كما في قولهم: امرأة ذات أوراك ومآكم، وهما وَركان، وإمّا لأنه أجرى اليدين والرجلين مجرى واحد، فسماها كلّها أرجلاً. ومن رواه «بالحاء» فهو جمع رَحْل الناقة.

وأقصدت: قتلت مكانها من غير تأخير.

والأوهاق: جمع وَهَق بالتحريك، وهو الحبل، وقد يسكن مثل نَهْر ونهَر. وأعلقت المرء الأوْهَاق: جعلتَ الأوهاق عالقة به. والضنك: الضيق.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٢.

والمضجع: المصدر أو المكان، والفعل ضَجَع الرجل جنبه بالأرض، بالفتح، يضجَع ضجوعاً وضجْعاً، فهو ضاجع، ومثله أضجع.

والمرجع: مصدر رَجَع، ومنه، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾[1]، وهو شاذ، لأن المصادر من فَعَل يفعِل بكسر العين، إنما يكون بالفتح.

قوله: «ومعاينة المحلّ»، أي الموضع يحُلُّ به المكلَّف بعد الموت، ولا بدّ لكلّ مكلف أن يعلم عَقِيب الموت مصيره، إما إلى جنة وإما إلى نار.

وقوله: «ثواب العمل» يريد جزاء العمل، ومراده الجزاء الأعمُّ الشامل للسعادة والشقاوة، لا الجزاء الأخصّ الذي هو جزاء الطاعة، وسمي الأعمّ ثواباً على أصل الحقيقة اللغوية، لأنّ الثواب في اللغة الجزاء، يقال: قد أثابَ فلان الشاعرَ لقصيدة كذا، أي جازاه.

وقوله: «وكذلك الخلف بِعقْبِ السلف» الخلَف المتأخرون، والسلَف المتقدمون، وعقْب ها هنا بالتسكين، وهو بمعنى بَعْد، جئت بعقْب فلان أي بعده، وأصله جَرْى الفرس بعد جَرْيه، يقال: لهذا الفرس عَقْب حسن. وقال ابن السكيت: يقال جئت في عُقْب شهر كذا، بالضم، إذا جئت بعد ما يمضي كلّه، وجئت في عَقِب، بكسر القاف إذا جئت وقد بقيت منه بقية. وقد روي: «يَعقُب السلف»، أي يتبع.

وقوله: «لا تُقلع المنية»، أي لا تكف، والاخترام: إذهاب الأنفس واستئصالها.

وارعوى: كفّ عن الأمر وأمسك، وأصل فعله الماضي رَعَى يرعو، أي كفّ عن الأمر، وفلان حسن الرِّعوة والرَّعوة والرُّعْوَة والرُّعوى والارعواء. والاجترام، افتعال من الجرم، وهو الذنْب، ومثله الجريمة، يقال: جَرَم وأجْرَم بمعنى.

قوله: «يحتذون مثالاً» أي يقتدون، وأصله من «حذوت النعل بالنعل حَذْواً»، إذا قدّرت كلّ واحدة على صاحبها.

قوله: «ويمضون أرسالاً»، بفتح الهمزة، جمع رَسَل، بفتح السين، وهو القطيع من الإبل أو الغنم، يقال: جاءت الخيل أرسالاً، أي قطيعاً قطيعاً.

وصَيّور الأمر: آخره وما يؤول إليه.

الأصل: حَتى إِذَا تَصَرَّمَتِ ٱلْأُمُورُ، وَتَقَضَّتِ ٱلدُّهُورُ، وَأَزِفَ ٱلنُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ ٱلْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ ٱلطُّيُورِ، وَأَوْجِرَةِ ٱلسِّبَاعِ، وَمَطَارِحِ ٱلْمَهَالِكِ، سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ رَعِيلاً صُمُوتاً، قِيَاماً صُفُوفاً، يَنْفُذُهُمُ ٱلْبَصَرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ ٱلاسْتِكَانَةِ، وَضَرَعُ ٱلاسْتِسْلاَمِ وَالذِّلَّةِ. قَدْ ضَلَّتِ ٱلْحِيَلُ، وَانْقَطَعَ ٱلأَمَلُ، وَهَوَتِ ٱلأَفْئِدَةُ كَاظِمَةً، وَخَشَعَتِ ٱلاصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً، وَأَلْجَمَ ٱلْعَرَقُ، وَعَظُمَ الشَّفَقُ، وَأُرْعِدَتِ ٱلأَسْمَاعُ، لِزَبْرَةِ ٱلدَّاعِي إِلَى فَصْلِ ٱلْخِطابِ وَمُقَايَضَةِ ٱلْجَزاءِ، وَنَكالِ ٱلْعِقَابِ، وَنَوَالِ الثَّوابِ.

الشرح: تصرّمت الأمور: تقطّعت، ومثله «تقضّت الدهور». وأزف: قَرُب ودَنا، يأزف أزفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾(١) أي القيامة، الفاعل «آزف».

والضرائح: جَمع ضريح وهو الشّقّ في وسَط القبر. واللَّحْد: ما كان في جانب القبر، وضرحت ضَرْحاً، إذا حفرت الضريح.

والأوكار: جمع وَكْر بفتح الواو، وهو عشّ الطائر، وجمع الكثرة وُكور، وكَر الطائر يكِرُ وَكْراً، أي دخل وَكْره، والوَكْن بالفتح مثل الوكر، أي العُشّ.

وأوجِرَة السِّباع: جمع وِجار بكسر الواو، ويجوز فتحها، وهو بيت السَّبُع والضبُع ونحوهما.

مهطعين: مسرعين. والرَّعيل: القطعة من الخيل.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ينفذهم البَصَر ويُسمعهم الداعي»، أي هم مع كثرتهم لا يخفى منهم أحد عن إدراك الباريء سبحانه، وهم مع هذه الكثرة أيضاً لا يبقى منهم أحد إلاّ إذا دعا داعي الموت سمع دعاءه ونداءه.

واللَّبوس، بفتح اللام: ما يلبس، قال:

البَسْ لِكُلِّ حالةٍ لَبُوسَها إمّا نعيمَها وإمّا بوسَها

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾(٢) يعني الدُّروع.

والاستكانة: الخضوع. والضَّرع: الخشوع والضعف، ضَرَع الرجل يضرَع، وأضرعه غيره.

وكاظمتُه: ساكتّه، كَظَم يكظِم كُظوماً أي سكتَ، وقوم كُظَّم، أي ساكتون.

ومهينمة: ذات هَيْنَمة، وهي الصوت الخفيّ. وألجم العرقُ: صار لجاماً، وفي الحديث: «إنَّ العرق لَيَجْري منهم حتى إنّ منهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ صَدْره، ومنهم من يبلغ عنقه، ومنهم من يُلْجمه، وهم أعظمهم مشقّة»(٣).

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥٧. (٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.

(٣) أخرج نحوه مسلم، في كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: صفة يوم القيامة (٢٨٦٤)، والترمذي، في كتاب: صفة القيامة والرقائق، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤٢١).

وقال لي قائل: ما أرى لقوله عليه السلام: «المؤذّنون أطولُ الناس أعناقاً يوم القيامة»، كثير فائدة، لأنّ طولَ العنق جداً ليس مما يرغب في مثله، فذكرت له الخبر الوارد في العَرَق وقلتُ: إذا كان الإنسان شديد طول العنق كان عن إلجام العرق أبْعَد، فظهرت فائدة الخبر. ويروى «وأثْجم العرق»، أي كثر ودام.

والشَّفق والشفقة، بمعنى، وهو الاسم من الإشفاق، وهو الخوف والحذر، قال الشاعر:

تَهْوَى حَياتِي وأهْوَى مَوْتَهَا شَفَقاً والـمـوتُ أكـرم نَـزَّالٍ عـلـى الـحُـرَمِ

وأرعدت الأسماع: عرتها الرِّعدة. وزَبْرة الداعي: صدته ولا يقال الصوت زَبْرة إلا إذا خالطه زجر وانتهار، زيرتُه أزْبُره، بالضم.

وقوله: «إلى فصل الخطاب»، إلى ها هنا يتعلّق بالدّاعي، وفصل الخطاب: بتّ الحكومة التي بين الله وبين عباده في الموقف، رزقنا الله المسامحة فيها بمنه! وإنما خص الأسماع بالرعدة، لأنها تحدُث من صوت الملك الذي يدعو النَّاس إلى محاسبته.

والمقايضة: المعاوضة، قايضت زيداً بالمتاع، وهما قَيِّضان، كما قالوا: بيِّعان.

فإن قلت: كيف يصحّ ما ذكره المسلمون من حَشْر الأجساد! وكيف يمكن ما أشارَ إليه عليه السلام من جَمْع الأجزاء البدنية من أوكار الطيور وأوجرة السباع، ومعلوم أنه قد يأكلُ الإنسانَ سَبُع، ويأكل ذلك السبُعَ إنسان آخر، ويأكل هذا الإنسانَ طائر، ثم يأكل الطائرَ إنسان آخر، والمأكول يصير أجزاء من أجزاء بدن الآكل، فإذا حشرت الحيوانات كلُّها على ما تزعم المعتزلة، فتلك الأجزاء المفروضة، إما أن تحشر أجزاء من بنية الإنسان، أو بنية السبع، أو منهما معاً، فإنْ كان الأول وجب ألاّ يحشر السبع، وإن كان الثاني وجبَ ألاّ يحشر الإنسان، والثالث محال عقلاً، لأنّ الجزء الواحد لا يكون في موضعين.

قلت: إن في بدن كلِّ إنسان وكلّ حيوان أجزاء أصلية وأجزاء زائدة، فالأجزاء الزائدة يمكن أن تصير أجزاء بدن حيوان إذا اغتذى بها، والأجزاء الأصلية لا يمكن ذلك فيها، بل يحرسها الله تعالى من الاستحالة والتغيير، وإذا كان كذلك، أمكن الحشر بأن تعادَ الأجزاء الأصلية إلى موضعها الأول، ولا فساد في استحالة الأجزاء الزائدة، لأنه لا يجب حشرُها، لأنّها ليست أصل بنْية المكلّف، فاندفع الإشكال. وأما من يقول بالنفس الناطقة من أهل الملّة، فلا يلزمه الجواب عن السؤال، لأنه يقول: إنّ الأنفس إذا أزِف يوم القيامة، خلقت لها أبدان غير الأبدان الأولىٰ، لأن المكلف المطيع والعاصي المستحق للثواب والعقاب عندهم، هو النفس، وأما البدن فآلة لها نستعمله استعمال الكاتب للقلم، والنجار للفأس.

الأصل: عِبَادٌ مَخْلُوقُونَ ٱقْتِدَاراً، وَمَرْبُوبُونَ ٱقْتِسَاراً، وَمَقْبُوضُونَ ٱحْتِضَاراً، وَمُضَمَّنُونَ أَجْدَاثاً، وَكَائِنُونَ رُفَاتاً، وَمَبْعُوثُونَ أَفْرَاداً، وَمَدِينُونَ جَزَاءً، وَمُمَيَّزُونَ حِسَاباً. قَدْ أُمْهِلُوا فِي طَلَبِ ٱلْمَخْرَجِ، وَهُدُوا سَبِيلَ ٱلْمَنْهَجِ، وَعُمِّرُوا مَهَلَ ٱلْمُسْتَعْتَبِ، وَكُشِفَتْ عَنْهُمْ سُدَفُ ٱلرِّيَبِ، وَخُلُّوا لِمِضْمارِ ٱلْجِيَادِ، وَرَوِيَّةِ ٱلارْتِيَادِ، وَأَنَاةِ ٱلْمُقْتَبِسِ المُرْتَادِ، فِي مُدَّةِ الأَجَلِ، وَمُضْطَرَبِ المَهَلِ.

الشرح: مربوبون: مملوكون. والاقتسار: الغَلَبة والقهر.

والاحتضار: حضور الملائكة عند الميت، وهو حينئذٍ محتضَر، وكانت العرب تقول: لبن محتضَر: أي فاسد ذو آفة، يعنون أنّ الجنّ حضرته، يقال: اللبن محتَضَر فغطّ إناءك.

والأجداث: جمع جَدَث، وهو القبر، واجتدث الرجل، اتخذ جَدَثاً، ويقال: «جَدَف» بالفاء.

والرُّفات: الحُطام، تقول منه رَفَتَ الشيء فهو مرفوت.

ومدينون، أي مجزيّون. والدِّيْن: الجزاء، ومنه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1].

ومميَّزون حساباً، من قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2]، ومن قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[3]، كما أنّ قوله: «ومبعوثون أفراداً»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾[4] وأصل التميز على الفصل والتبيين.

قوله: «قد أمهلوا في طلب المخرج»، أي أنظِروا ليفيئوا إلى الطاعة ويخلِصوا التوبة، لأنّ إخلاصَ التوبة هو المخرج الذي مَنْ سلكه خرج من رِبْقَة المعصية. ومثله قولُه: «وهُدُوا سبيل المنهج»، والمنهج: الطريق الواضح.

والمستعتَب: المسترضَى، استعتبت زيداً إذا استرضيته عَنّي، فأنا مستعتِب له، وهو مستعتَب. وأعتبني، أي أرضاني، وإنما ضرب المثل بمهل المستعتَب، لأنّ مَنْ يُطلب رضاه في مجرى العادة لا يُرهَق بالتماس الرضا منه، وإنا يمهل ليرضى بقلبه لا بلسانه.

والسُّدَف: جمع سُدْفة، هي القطعة من الليل المظلم، هذا في لغة أهل نجد، وأما غيرهم فيجعل السدْفة الضوء، وهذا اللفظ من الأضداد، وكذلك السَّدَف، بفتح السين والدال. وقد قيل: السُّدفة: اختلاط الضوء والظلمة كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار، والسَّدَف:

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٥٩.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

الصبح وإقباله، وأسدف الليل، أظلم، وأسدف الصبح أضاء، يقال: أسدِف الباب، أي افتحه حتى يضيء البيت، وفي لغة هوازن «أسدفوا»، أي أسرجوا، من السراج والرِّيَب: الشبهة، جمع رِيبة.

والمضمار: الموضع الذي تضمَّر فيه الخيل، والمِضْمار أيضاً المدة التي تضمّر فيها. والتضمير: أن تعلِفَ الفرس حتى يسمَن، ثم تردّه إلى قوته الأولى، وذلك في أربعين يوماً، وقد يطلَق التَّضْمير على نقيض ذلك، وهو التجويع حتى يهزل ويخفّ لحمُه، ضَمَر الفرسُ بالفتح، يضمُر بالضم، ضُموراً، وجاء «ضَمُر الفرس» بالضم، وأضمرته أنا، وضمَّرته فاضطمر هو ولؤلؤ مضطمر: في وسطه بعض الانضمام. رجل لطيف الجسم، ضمِير البطن، وناقة ضامر وضامرة أيضاً. يقول: مكَّنَهم الحكيم سبحانه وخلاَّهم وأعمالهم، كما تمكّن الخيل التي تستبق في المِضْمار ليعلم أيُّها أسبق.

والرويّة: الفكْرة، والارتياد: الطلب، ارتاد فلان الكلأ يرتاده ارتياداً: طلبه، ومثله راد الكلأ يروده رَوْداً ورِياداً، وفي الحديث: «إذا بال أحدُكم فليرتدْ لبوله»(١)، أي فليطلب مكاناً ليّناً أو منحدراً، والرائد: الذي يرسله القوم في طلب الكلأ، وفي المثل: «الرائد لا يكذب أهله»(٢). والأناءة: التؤدة والانتظار، مثل القناة.

وتأنى في الأمر: ترفّق، واستأني فلان بفلان، أي انتظر به، وجاء الأناء، بالفتح والمدّ، على «فَعَال» قال الحطيئة:

وَأكْـرَيْـتُ الـعَـشَـاء إلـى سُـهَـيْـلٍ أو الـشِّـعْـري فـطـال بـيَ الإنَـاءُ(٣)

والمقتبِس: متعلّم العلم ها هنا، ولا بدّ له من أناة ومَهَل ليبلغُ حاجتَه، فضرب مثلاً، وجاء في بعض الروايات: «ومقبوضون اختضاراً» بالخاء المعجمة، وهو موت الشاب غَضًّا أخضر، أي مات شاباً، وكان فتيان يقولون لشيخ: أجززت يا أبا فلان، فيقول: أيْ بنيّ، وتختَضرون! أجزّ الحشيش: آن أنْ يُجزَّ، ومنه قيل للشيخ كاد يموت: قد أجَزَّ، والروايَة الأولى أحسن، لأنها أعمّ.

وفي رواية «المضمار الخيار»، أي للمضمار الذي يستبِق فيه الأبرار الأتقياء إلى رضوان الله سبحانه.

---

(١) أخرجه أبو داود، في كتاب: الطهارة، باب الرجل يتبوأ لبوله (٣)، وأحمد في باب: حديث أبي موسى (١٩٠٤٣).

(٢) أنظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ١٨٨) برقم (٣٦٠٦).

(٣) الإناء: من الإني - بالقصر - وهو النضج ومدت الألف للقافية وفي التنزيل «غير ناظرين إناه» اللسان، مادة (أني).

الأصل: فَيَالَهَا أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَآرَاءً عَازِمَةً، وَأَلْبَاباً حَازِمَةً!

فَاتَّقُوا ٱللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَٱقْتَرَفَ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ، وَحاذَرَ فَبَادَرَ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ، وَحُذِّرَ فَحَذِرَ، وَزُجِرَ فَٱزْدَجَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ، وَرَاجَعَ فَتَابَ، وَٱقْتَدَى فَاحْتَذَى، وَأُرِيَ فَرَأَى، فَأَسْرَعَ طَالِباً. وَنَجَا هَارِباً، فَأَفَادَ ذَخِيرَةً، وأطابَ سَرِيرَةً، وعَمَّرَ مَعاداً، واسْتَظْهَرَ زَاداً، لِيَوْمِ رَحِيلِهِ، وَوَجْهِ سَبِيلِهِ، وحالِ حاجَتِهِ، وَمَوْطِنِ فاقَتِهِ، وَقَدَّمَ أمامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ.

فَاتَّقُوا ٱللهَ عِبَادَ ٱللهِ جِهَةَ مَا خَلَقَكُمْ لَهُ، وَٱحْذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نفْسِهِ، وَٱسْتَحِقُّوا مِنْهُ ما أعَدَّ لَكُمْ بِالتَّنَجُّزِ لِصِدْقِ مِيعادِهِ، والحَذَرِ مِنْ هَوْلِ مَعادِهِ.

الشرح: صائبة: غير عادلة عن الصواب، صاب السهم يصوبُ صَوْبَةً، أي قصد ولم يَجُرْ، وصاب السهمُ القرْطاسَ يَصِيبه صَيْباً لغة في «أصابه»، وفي المثل: مع الخواطىء سهم صائب.

وشافية: تبرىء من مرض الجهل والهوى. والقلوب الزاكية: الطاهرة والأسماع الواعية: الحافظة. والآراء العازمة: ذات العزم. والألباب: العقول، والحازمة: ذات الحَزْم، والحزْم: ضبط الرجُلِ أمرَه.

وخشع الرجل، أي خضع. واقترف: اكتسب، ومثله قرَف يقرِف بالكسر، يقال: هو يقرِفُ لعياله، أي يكسب.

ووجِل الرجل خاف، وَجَلاً، بفتح الجيم، ومستقبله يَوْجَل وياجَل وييجَو وييِجَل، بكسر الياء المضارعة.

وبادر: سارع. وعُبّر: أي أرِيَ العِبَر مراراً كثيرة، لأنّ التشديد ها هنا دليل التكثير. فاعتبر، أي فاتّعظ. والزَّجْر: النهي والمنع، زُجِر أي منع، وازدجر مطاوع ازدجر، اللفظ فيهما واحد، تقول: ازدجرت زيداً عن كذا فازدجر هو، وهذا غريب، وإنما جاء مطاوع ازدجر في «زجر» لأنهما كالشي الواحد، وفي بعض الروايات «ازدُجر فازدجر»، فلا يحتاج مع هذه الرواية إلى تأويل.

وأناب الرجل إلى الله، أي أقبل وتاب. واقتدى بزيد، فعل مثله فعله، واحتذى مثله.

قوله عليه السلام: «فأفاد ذخِيرة»، أي فاستفاد، وهو من الأضداد، أفدت المال زيداً أعطيته إياه، وأفدت أنا مالاً، أي استفدته واكتسبته.

قوله عليه السلام: «فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له». نصب «جهة» بفعل مقدر، تقديره: «واقصدوا جهة ما خلقكم له» يعني العبادة، لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(1). فحذف الفعل، واستغنى عنه بقوله: «فاتقوا الله» لأن التقوى ملازمة لقصد المكلّف العبادة، فدلّت عليه واستغنى بها عن إظهاره.

والكُنْهُ: الغاية والنهاية، تقول: أعرفه كُنْه المعرفة، أي نهايتها.

ثم قال عليه السلام: «واستحقّوا منه ما أعدّ لكم»، أي اجعلوا أنفسكم مستحقين لثوابه الذي أعدّه لكم إن أطعتم.

والباء في «بالتنجّز» متعلق بـ«استحقوا» ويقال: فلان يتنجّز الحاجة، أي يستنجحها ويطلب تعجّلها، والناجز: العاجل، يقال: «ناجزاً بناجز»، كقولك: «يداً بيد» أي تعجيلاً بتعجيل، والتنجّز من المكلّفين بصِدق ميعاد القديم سبحانه، وهو مواظبتهم على فعل الواجب، وتجنُّب القبيح. و«والحذر» مجرور بالعطف على «التنجّز»، لا على «الصدق»، لأنه لا معنى له.

الأصل: ومنها: جَعَلَ لَكُمْ أَسْمَاعاً لِتَعِيَ ما عَنَاهَا، وَأَبْصَاراً لِتَجْلُوَ عَنْ عَشاها، وَأَشْلاَءً جَامِعَةً لِأَعْضَائِهَا، مُلاَئِمَةً لِأَحْنَائِهَا، فِي تَرْكِيبِ صُوَرِهَا، وَمُدَدِ عُمُرِهَا، بِأَبْدَانٍ قَائِمَةٍ بِأَرْفَاقِهَا، وَقُلُوبٍ رَائِدَةٍ لِأَرْزَاقِهَا، فِي مُجَلِّلاتِ نِعَمِهِ، وَمُوجِبَاتِ مِنَنِهِ، وَحَوَاجِزِ عَافِيَتِهِ.

وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنَ آثَارِ ٱلْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ. أَرْهَقَتْهُمُ ٱلْمَنَايَا دُونَ ٱلْآمَالِ، وَشَذَّبَهُمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ ٱلْآجَالِ، لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ ٱلْأَبْدَانِ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ ٱلْأَوَانِ.

الشرح: قوله: «لتعي ما عناها»، أي لتحفظ وتفهم ما أهمّها، ومنه الأثر المرفوع: «مِن حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(2).

ولتجلو، أي لتكشف.

وعن ها هنا زائدة، ويجوز أن تكون بمعنى «بَعْد» كما قال:

---

(1) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب منه (٢٣١٧)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٦)، وأحمد في كتاب: مسند أهل البيت (١٧٣٩).

لَقِحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَنْ حِيَالِ[1]

أي بعد حِيال، فيكون قد حذف المفعول، وحذفه جائز، لأنه فضلة، ويكون التقدير: لتجلوَ الأذى بعد عشاها، والعشا، مقصور: مصدر عَشِيَ، بكسر الشين، يَعْشَى، فهو عَشٍ، إذا أبصر نهاراً ولم يبصر ليلاً.

والأشلاء: جمع شِلْو، وهو العضو.

فإن قلت: فأيّ معنى في قوله: أعضاء تجمع أعضاءها؟ وكيف يجمع الشيء نفسه؟ قلت: أراد عليه السلام بالأشلاء ها هنا الأعضاء الظاهرة، وبالأعضاء الجوارح الباطنة، ولا ريب أنّ الأعضاء الظاهرة تجمع الأعضاء الباطنة وتضمها. والملائِمة: الموافِقة. والأحناء: الجوانب والجهات. ووجه الموافقة والملاءمة أنّ كون اليد في الجانب أوْلَى من كونها في الرأس أو في أسفل القدم، لأنّها إذا كانت في الجانب كان البطش وتناول ما يراد ودَفْع ما يؤذي أسهل، وكذلك القول في جعل العين في الموضع الذي جعلت به، لأنّها كدَيْدَبَان[2] السفينة البحرية، ولو جعلت في أم الرأس لم ينتفع بها هذا الحدّ من الانتفاع الآن، وإذا تأملت سائر أدواتِ الجسد وأعضائه وجدتها كذلك.

ثم قال: «في تركيب صورها»، كأنّه قال: مركبة أو مصورة، فأتى بلفظة «في» كما تقول: ركب بسلاحه وفي سِلاحه، أي متسلّحاً.

وقوله: «بأرفاقها»، أي بمنافعها جمع رِفْق، بكسر الراء، مثل حِمْل وأحمال، وأرفقت فلاناً، أي نفعته، والمِرْفق من الأمر: ما ارتفقت به وانتفعت، ويروى: «بأرماقها»، والرّمَق: بقية الروح.

ورائدة: طالبة. ومجلِّلات النعم، تجلّل الناسَ، أي تعمّهم، من قولهم: «سحاب مجلِّل» أي يطبّق الأرض، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولك: أنا في سابغ ظلّك وعميم فضلك، كأنه قال: في نعمه المجلّلَة، وكذلك القول في موجبات مِننه، أي في مننه التي توجب الشُّكر.

وفي ها هنا متعلقة بمحذوف، والموضع نصب على الحال.

ثم قال: «وحواجز عافيته»، الحواجز: الموانع، أي في عافية تحجز وتمنع عنكم المضارّ. ويروى «وحواجز بَلِيَّتِه»، وقد فسر قوله: «حواجز عافيته»، على أن يراد به ما يحجز العافية ويمنعها عن الزوال والعدم.

---

(١) الحيال: هو توقف الناقة عن الحمل سنة أو سنتين أو أكثر. اللسان، مادة (حال).
(٢) الطليعة. معربة. القاموس، مادة (دبب).

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من مستمتَع خَلاقهم»، الخلاق: النصيب: قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾[2]، وتقدير الكلام: خلّف لكم عِبَراً من القرون السالفة، منها تمتّعهم بنصيبهم من الدنيا ثمّ فناؤهم، ومنها فسحة خناقهم وطول إمهالهم، ثم كانت عاقبتهم الهلكة.

وأرهقتهم المنايا: أدركتهم مسرعة.

والمرهَق: الذي أدرِك ليقتل. وشذّبهم عنها: قطعهم وفرقهم، من تشذيب الشجرة، وهو تقشيرها.

وتخرّمت زيداً المنية: استأصلته واقتطعته.

ثم قال: «لم يمهدوا في سلامة الأبدان»، أي لم يمهدوا لأنفسهم، من تمهيد الأمور وهو تسويتها وإصلاحها.

وأنُف الأوان: أوله، يقال: روضةٌ أُنُف لم تُرْعَ قبل، وكأس أُنُف: لم يُشْرَب بها قَبْلُ.

الأصل: فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضاضةِ الشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ ٱلْهَرَمِ، وَأَهْلُ غَضارَةِ الصِّحَةِ إلا نَوَازِلَ السَّقَمِ، وَأَهْلُ مُدَّةِ ٱلْبَقَاءِ إِلاَّ آوِنَةَ ٱلْفَنَاءِ، مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ، وَأُزُوفِ الانْتِقَالِ، وَعَلَزِ ٱلْقَلَقِ، وَأَلَمِ ٱلْمَضَضِ، وَغُصَصِ ٱلجَرَضِ، وَتَلَفُّتِ الاسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ ٱلْحَفَدَةِ وَٱلْأَقْرِبَاءِ، وَٱلْأَعِزَّةِ وَٱلْقُرَنَاءِ، فَهَلْ دَفَعَتِ ٱلْأَقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ ٱلنَّوَاحِبُ، وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ ٱلْأَمْوَاتِ رَهِيناً، وَفِي ضِيقِ ٱلْمَضْجَعِ وَحِيداً، قَدْ هَتَكَتِ ٱلْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ، وَأَبْلَتِ ٱلنَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ، وَعَفَتِ ٱلْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَمَحَا ٱلْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ، وَصَارَتِ الأَجْسَادُ شَحِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا، وَٱلْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا، وَٱلْأَرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبائِها، مُوقِنَةً بِغَيْبِ أَنْبائِهَا لاَ تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلاَ تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّءِ زَلَلِها.

الشرح: البَضاضة: مصدر، من بَضَضت يا رجُل، بضِضت، بالفتح والكسر بضاضةً وبضُوضة، ورجل بَضّ، أي ممتلىء البدن رقيق الجلد، وامرأة بَضّة.

وحواني الحرم: جمع حانية، وهي العلّة التي تَحْني شِطَاط الجسد، وتميله عن الاستقامة.

والهرَم: الكبَر. والغضارة: طيب العيش، ومنه المثل: أباد الله غضراءهم، أي خيرهم وخِصْبهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٩.

وآونة الفناء جمع أوَانٍ، وهو الحَيْن، كزمان وأزمنة، وفلان يصنع ذلك الأمر آونة كقولك: تارات، أي يصنعه مراراً ويَدَعه مراراً.

والزِّيال: مصدر زايله مزايلة وزِيالاً، أي فارقه.

والأزوف: مصدر أزِف، أي دنا.

والعَلَز: قلق وخِفّة وهلع يصيبُ الإنسان، وقد عَلِز بالكسر، وبات عَلِزاً، أي وجعاً قلقاً.

والمضض: الوجع، أمضَّنِي الجرح ومَضَّني، لغتان، وقد مَضِضْت يا رجل، بالكسر.

والغُصَص: جمع غُصَّة وهي الشجا، والغَصَص بالفتح: مصدر قولك غَصِصت يا رجل تَغصّ بالطعام، فأنت غاصٌ وغصَّان، وأغصصتُه أنا.

والجرِيض: الرِّيق يغصّ به، جَرَض بريقه بالفتح، يَجْرِض بالكسر، مثل كَسَر يكسِر، وهو أن يبلع ريقه على همٍّ وحزن بالجهد. والجريض: الغُصّة، وفي المثل: «حال الجرِيض دون القريض»، وفلان يجرَض بنفسه إذا كان يموت، وأجرضه الله بريقه أغصّه.

والحفَدة: الأعوان والخدم، وقيل: ولد الولد، واحدهم حافد، والباء في «بنُصرة الحَفدة» متعلّق بالاستعانة، يقول: إن الميّت عند نزول الأمر به يتلفّت مستغيثاً بنصرة أهله وولده، أي يستنصُر يستصرخ بهم.

والنّواحب: جمع ناحبة، وهي الرافعة صوتها بالبكاء، ويروى: «النوادب».

والهوامّ: جمع هامّة، وهي ما يخاف ضرره من الأحناش، كالعقارب والعناكب ونحوها والنواهك: جمع ناهكة وهي ما ينهَك البدن، أي يبليه.

وعَفَتْ: دَرَسَت، ويروى بالتشديد. وشَجِبة: هالكة، والشَّجَب: الهلاك، شجِب الرجل بالكسر، يَشْجَب، وجاء شَجَب، بالفتح يشجُبُ بالضم، أي هلك، وشَجَبه الله يشجُبه، يتعدّى ولا يتعدى.

ونَخِرَة: بالية. والأعباء: الأثقال، واحدها عِبْء.

وقال: «موقنة بغيب أنبائها»، لأنّ الميت يعلم بعد موته ما يصير إليه حاله من جنّة أو نار.

ثم قال: إنها لا تكلف بعد ذلك زيادة في العمل الصالح، ولا يطلب منها التوبة من العمل القبيح، لأن التكليف قد بطل.

الأصل: أَوَ لَسْتُمْ أَبْنَاءِ ٱلْقَوْمِ وَٱلْآبَاءَ، وَإِخْوَنَهُمْ وَٱلأَقْرِبَاءَ، تَحْتَذُونَ أَمْثِلَتَهُمْ، وَتَرْكَبُونَ قِدَّتَهُمْ وَتَطَئُونَ جَادَّتَهُمْ، فَالْقُلُوبُ قَاسِيَةٌ عَنْ حَظِّهَا، لاَهِيَةٌ عَنْ رُشْدِهَا، سالِكَةٌ فِي غَيْرِ مِضْمَارِهَا، كَأَنَّ المَعْنِيَّ سِوَاهَا، وَكَأَنَّ الرُّشْدَ فِي إِحْرَازِ دُنْيَاهَا.

الشرح: القِدّة، بالدال المهملة وبكسر القاف: الطريقة، ويقال لكل فِرْقة من الناس إذا كانت ذات هَوًى على حدة: قِدّة، ومنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾[1]، ومن رواه: «ويركبون قُذّتهم» بالذال المعجمة وضم القاف أراد الواحدة من قُذذ السهم، وهي ريشة، يقال: حذوَ القُذّة بالقُذّة، ويكون معنى: «وتركبون قُذّتهم»، تقتفون آثارهم وتُشابهون بهم في أفعالهم.

ثم قال: وتطئون جادّتهم، وهذه لفظة فصيحة جداً.

ثم ذكر قساوة القلوب وضلالها عن رشدها، وقال: «كأن المعنى سواها»، هذا مثل قول النبيّ ﷺ: «كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب، وكأنّ الحقّ فيها على غيرنا وجب»[2].

الأصل: وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ، فَاتَّقُوا ٱللهَ عِبَادَ ٱللهِ، تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَأَنْصَبَ ٱلْخَوْفُ بَدَنَهُ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وَظَلَفَ ٱلزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ، وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ، وَقَدَّمَ ٱلْخَوْفَ لِأَمَانِهِ، وَتَنَكَّبَ المَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ المَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ المَطْلُوبِ، وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلاَتُ ٱلْغُرُورِ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ ٱلْأُمُورِ، ظَافِراً بِفَرْحَةِ ٱلْبُشْرَى، وَرَاحَةِ النُّعْمَى، فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ.

قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ ٱلْعَاجِلَةِ حَمِيداً، وَقَدَّمَ زَادَ ٱلْآجِلَةِ سَعِيداً، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَرَغِبَ فِي طَلَبٍ، وَذَهَبَ عَنْ هَرَبٍ، وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَرُبَّمَا نَظَرَ قُدُماً أَمَامَهُ.

فَكَفَى بِٱلْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً، وَكَفَى بِالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً! وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً! وَكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وَخَصِيماً!

الشرح: وقال أصحابنا رحمهم الله تعالى: الصراط الوارد ذكرهُ في الكتاب العزيز، هو الطريق لأهل الجنة إلى الجنة، ولأهل النار إلى النار بعد المحاسبة، قالوا: لأنّ أهلَ الجنة ممرّهم على باب النار، فمن كان من أهل النار عُدِل به إليها، وقذف فيها، ومَنْ كان من أهل الجنّة مَرّ بالنار مروراً نجا منها إلى الجنة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[3]، لأنّ

(١) سورة الجن، الآية: ١١.

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٦٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٠٣).

(٣) سورة مريم، الآية: ٧١.

ورودها هو القرب منها، والدنوّ إليها، وقد دلّ القرآن على سُور مضروب بين مكان النار وبين الموضع الذي يجتازون منه إلى الجنة في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1].

قالوا: ولا يصحّ ما روي في بعض الأخبار أن الصراط أدقّ من الشّعر وأحدّ من السيف، وأنّ المؤمن يقطعه كمرور البرق الخاطف، والكافر يمشي عليه حَبْواً، وأنّه ينتفض بالذين عليه حتى تتزايل مفاصلُهم. قالوا: لأنّ مثل ذلك لا يكون طريقاً للماشي، ولا يتمكّنُ من المشي عليه، ولو أمكن لم يصحّ التكليف في الآخرة، ليؤمر العُقلاء بالمرورعليه على وجه التعبّد.

ثم سأل أصحابنا أنفسهم، فقالوا: أيّ فائدة في عمل هذا السّور؟ وأيّ فائدة في كون الطريق الذي هو الصَراط منتهياً إلى باب النار منفرجاً منها إلى الجنة؟ ألستمْ تعللون أفعال الباريء تعالى بالمصالح، والآخرة ليست دارَ تكليف ليفعل فيها هذه الأفعال للمصالح!

وأجابوا بأنّ شعورَ المكلّفين في الدنيا بهذه الأشياء مصالح لهم، وألطاف في الواجبات العقليّة، فإذا أعْلِم المكلفون بها وجب إيقاعُها على حسب ما وعِدوا وأخبِروا به، لأنّ الله صادق لا خُلْف في أخباره.

وعندي أنه لا يمتنع أن يكونَ الصراط على ما وردت به الأخبار، ولا مانع من ذلك قولهم: لا يكون طريقاً للماشي، ولا يتمكن من المشي عليه مسلم، ولكنْ لم لا يجوزُ أن يكونَ في جعله على هذا الوجه والإخبار عن كيفيته هذه مصلحة للمكلّفين في الدنيا؟ وليس عدم تمكّن الإنسان من المشي عليه بمانع من إيقاعه على هذا الوجه، لأنّ المراد من هذا وأمثاله هو التخويف والزجر.

وأما قولهم: الآخرة ليست دار تكليف، فلقائل أن يقول لهم: لم قلتمْ: إنّه تكليف؟ ولم لا يجوز أن يكونَ المكَلَّفُون مضطرين إلى سلوكه اضطراراً؟ فالمؤمن يخلق الله فيه الثبات والسكينة، والحركة السريعة فينجُو ويسلم، والكافر يخلق فيه ضدّ ذلك فيهوى ويعطب ولا مانع من ذلك.

يقال: مكان دَحْض ودَحَض، بالتحريك، أي زلَق، وأدحضتُه أنا أزلقْتُه فدحَض هو.

والأهاويل: الأمور المفزعة. وتارات أهواله، كقوله: دفَعات أهواله، وإنما جعل أهواله تاراتٍ، لأنّ الأمور الهائلة إذا استمرّت لم تكن في الإزعاج والترويع، كما تكون إذا طرأت تارة، وسكنت تارة.

وأنصب الخوف بدنه: أتعب، والنّصَب: التعب. والتهجّد هنا: صلاة الليل، وأصلُه: السهر، وقد جاء التهجّد بمعنى النوم أيضاً، وهو من الأضداد.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

الغِرار: قلّة النوم، وأصله قلّة لبن الناقة، ويقال: غارت الناقة تغار غِرارَ قل لَبَنُها.

فإن قلت: كيف توصف قِلّةُ النوم بالسهر، وإنما يوصف بالسَّهَر الإنسان نفسه؟

قلت: هذا من مجازات كلامهم، كقولهم ليل ساهر، وليل نائم.

والهواجر: جمع هَاجِرة، وهي نصف النهار عند اشتداد الحرّ، يقال: هَجّر النهار، وأتينا أهلنا مُهَجِّرِينَ، أي سائرين في الهاجِرة.

وظلَف: منع، وظلِفت نفسُ فلان، بالكسر عن كذا، أي كفّتْ.

وأوْجَف: أسرع، كأنّه جعل الذِّكْر لشدّة تحريكه اللسان مُوجفاً به، كما توجِف الناقة براكبها، والوجِيف: ضرْب من السَّيْر.

ثم قال: «وقدم الخوف لأمانه»، اللام ها هنا لام التعليل، أي قدّم خوفه ليأمن.

والمخالج: الأمور المختلجة، أي الجاذبة، خَلَجه واختلجه، أي جذَبه.

وأقصد المسالك: أقومها. وطريق قاصد، أي مستقيم. وفتله عن كذا، أي ردّه وصرفه، وهو قلب «لفت». ويروى: «قد عَبَر مَعْبر العاجلة حمِيداً، وقدم زاد الآجلة سعيداً».

وأكمش: أسرع، ومثله انكمش ورجل كمِش أي سريع، وقد كمُشَ بالضم كماشةً فهو كَمِش وكميش، وكمَشته تكميشاً: أعجلته.

قوله: «ورغب في طلب، وذهب عن هرب»، أي ورغب فيما يطلب مثله، وفرّ عما يهرب من مثله، فأقام المصدر مقام ذي المصدر.

ونظر قُدُماً أمامه، أي ونظر ما بين يديه مقدماً لم يَنْثَنِ ولم يعرِّج، والدال مضمومة ها هنا. قال الشاعر يذمّ امرأة:

تمضي إذا زُجِرَتْ عَنْ سوأةٍ قُدُماً ... كأنها هَدَمٌ في الجفْرِ منقاضُ(١)

ومن رواه بالتسكين، جاز أن يعني به هذا ويكون قد خفف، كما قالوا: حُلْم وحُلُم. وجاز أن يجعله مصدراً، من قَدمَ الرجل بالفتح، يقدَم قَدْماً، أي تقدم، قال الله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾(٢)، أي يتقدّمهم إلى ورودها، كأنه قال: «ونظرَ بين يديه متقدماً لغيره وسابقاً إياه إلى ذلك». والباء في «بالجنة» و«بالنار» و«بالله» و«بالكتاب» زائدة، والتقدير: كفى الله، وكفى الكتاب!

(١) الجفر: البئر لم تطوَ، أو طوي بعضها «القاموس المحيط»، مادة (جفر).
(٢) سورة هود، الآية: ٩٨.

الأصل: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ ٱلَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ، وَٱحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوًّا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا، وَنَفَثَ فِي الآذَانِ نَجِيًّا، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى، وَوَعَدَ فَمَنَّى، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ ٱلْجَرَائِمِ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ ٱلْعَظَائِمِ، حَتَّى إِذَا ٱسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَٱسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَٱسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ.

الشرح: «أغذر بما أنذر»، ما ها هنا مصدرية، أي أعذر بإنذاره. ويجوز أن تكونَ بمعنى «الذي».

والعدوّ المذكور: الشيطان.

وقوله: «نَفَذ في الصدور» و«نفث في الآذان» كلام صحيح بديع. وفي قوله: «نفذ في الصدور»، مناسبة لقوله ﷺ: «الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم»[(١)]، والنجيّ: الذي يسارّهُ، والجمع الأنجية، قال.

إنّي إذا ما القومُ كانُوا أنْجِيَهْ

وقد يكون النجيّ جماعة مثل الصديق، قال الله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾[(٢)]، أي متناجين.

القرينة ها هنا: الإنسان الذي قارنه الشيطان، ولفظه لفظ التأنيث، وهو مذكّر، أراد القرين، قال تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[(٣)]، ويجوز أن يكون أراد بالقرينة النفس، ويكون الضمير عائداً إلى غير مذكور لفظاً لما دلّ المعنى عليه، لأن قوله: «فأضل وأردى، ووعد فمنّى» معناه أضلّ الإنسان وأردى، ووعده فمنّى، فالمفعول محذوف لفظاً، وإليه رجع الضمير على هذا الوجه، ويقال: غَلِق الرّهن إذا لم يفتكّه الراهن في الوقت المشروط، فاستحقّه المرتهن.

وهذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري، في كتاب: الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨)، ومسلم في كتاب؛ السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي مع امرأة وكانت زوجته (٢١٧٤)، والترمذي في كتاب: الرضاع (١١٧٢)، وأبو داود، في كتاب الصوم، باب المعتكف يدخل البيت لحاجته ٢٤٧٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٨.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

الأصل: ومنها في صفة خلق الإنسان: أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ ٱلأَرْحَامِ، وَشُغُفِ ٱلأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً، وَعَلَقَةً مِحَاقاً، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً وَيَافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِسَاناً لاَفِظاً، وَبَصَراً لاَحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً، حَتَّى إِذَا قَامَ ٱعْتِدَالُهُ، وَٱسْتَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وَخَبَطَ سَادِراً، مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ، ثُمَّ لاَ يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، وَلاَ يَخْشَعُ تَقِيَّةً، فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً.

دَهَمَتْهُ فَجَعَاتُ المَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ، فَظَلَّ سَادِراً، وَبَاتَ سَاهِراً، فِي غَمَرَاتِ الآلاَمِ، وَطَوَارِقِ ٱلأَوْجَاعِ وَٱلأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ، وَوَالٍ شَفِيقٍ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، وَلاَ دِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً، وَالمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ، وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ.

ثُمَّ أُدرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً، وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى ٱلأَعْوادِ، رَجِيعَ وَصَبٍ، وَنِضْوَ سَقَمٍ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ ٱلْوِلْدَانِ، وَحَشَدَةُ ٱلإِخْوَانِ، إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ، وَمُفْرَدِ وَحْشَتِهِ، حَتَّى إِذَا ٱنْصَرَفَ المُشَيِّعُ، وَرَجَعَ المُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيًّا لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَعَثْرَةِ ٱلامْتِحَانِ.

وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُلُ ٱلْحَمِيمِ، وَتَصْلِيَةُ ٱلْجَحِيمِ، وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ، وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ، لاَ فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ، وَلاَ دَعَةٌ مُزِيحَةٌ، وَلاَ قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ، وَلاَ مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ، وَلاَ سِنَةٌ مُسْلِيَةٌ، بَيْنَ أَطْوَارِ المَوْتَاتِ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ، إِنَّا بِالله عَائِذُونَ!

الشرح: أم هنا إما استفهامية على حقيقتها، كأن قال: أعِظُكم وأذكّركم بحال الشيطان وإغوائه، أم بحال الإنسان منذ ابتدأ وجوده إلى حين مماته، وإما أنْ تكون منقطعة بمعنى «بل» كأنه قال: عادلاً وتاركاً لما وعظهم به، بل أتلو عليكم نبأ هذا الإنسان الذي حاله كذا.

الشُّغُف بالغين المعجمة: جمع شَغاف، بفتح الشين، وأصله غلاف القلب، يقال: شغفه الحبّ، أي بلغ شغافه، وقرىء: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[1].

والدّهاق: المملوءة، ويروى «دفاقاً» من دَفقت الماء أي صببته.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

قال: «وعلَقَة محاقاً»، المحاق: ثلاث ليالٍ من آخر الشهر، وسميت محاقاً لأنّ القمر يمتحق فيهنّ، أي يخفى وتبطل صورته، وإنما جعل العلَقة محاقاً ها هنا، لأنها لم تحصل لها الصورة الإنسانية بعد، فكانت ممحوّة ممحوقة.

واليافع: الغلام المرتفع، أيْفَع وهو يافع، وهذا من النوادر. وغلام يَفَع ويَفَعة وغلمان أيفاع ويَفَعة أيضاً.

قوله: «وَخَبَط سادراً»، خَبَط البعير إذا ضرب بيديه إلى الأرض، ومشى لا يتوقى شيئاً.

والسادر: المتحيّر، والسادر أيضاً: الذي لا يهتمّ ولا يبالي ما صنع والموضع يحتمل كلا التفسيرين.

والماتح: الذي يستقي الماء من البئر وهو على رأسها. والمائح: الذي نزل البئر إذا قلّ ماؤها، فيملأ الدلاءَ. وسُئِل بعض أئمة اللغة عن الفرق بين الماتح والمائح، فقال: اعْتَبِرْ نقطَتي الإعجام، فالأعلى للأعلى، والأدنى للأدنى.

والغَرْب: الدلو العظيمة. والكدْح: شدّة السعي والحركة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾(١).

قوله: «وبَدَوات»، أي ما يخطر له من آرائه التي تختلف فيها دواعيه، فتقدم وتحجِم، ومات غريراً، أي شاباً، ويمكن أن يُراد به أنه غيرُ مجرّب للأمور.

والهفْوة: الزَّلة، هفا يهفو. لم يُفِدْ عوضاً، أي لم يكتسب.

وغُبَّر جماحة: بقاياه، قال أبو كبير الهذليّ:

وَمُبَرًّا مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ(٢)

والجِماح الشِّرّة وارتكاب الهوى. وسَنَن مِرَاحه، السَّنَن: الطريقة، والمِرَاح: شدَّة الفرح والنشاط.

قوله: «فظلَّ سادراً»، السادر ها هنا غير السادر الأول، لأنه ها هنا المغمى عليه كأنه سكران، وأصله من سدر البعير من شدة الحرّ وكثرة الطَّلاء بالقَطِران، فيكون كالنائم لا يحسّ، ومراده عليه السلام ها هنا بَدَأ بهِ المرض. ولادِمة للصدر: ضاربة له، والتِدام النساء: ضربهنَّ الصدور عند النياحة. سكرة مُلْهِثة: تجعل الإنسان لاهثاً لشدّتها لهثَ يَلْهَثُ لهثاناً ولِهاثاً، ويروى «ملهية» بالياء، أي تُلهي الإنسان وتشغله.

والكارثة «فاعلة» من كرثه الغمّ يكرُثه بالضمّ، أي اشتدّ عليه وبلغ منه غاية المشقة.

---

(١) سورة الإنشقاق، الآية: ٦.

(٢) من الغيل، وهو: إرضاع المرأة ولدها وهي تؤتى أو وهي حامل. القاموس، مادة (غيل).

الجذبة: جذب الملك الرُّوح من الجسد أو جذب الإنسان إذا احتضر ليُسَجَّى. والسَّوْقة: من سياق الرُّوح عند الموت. المُبلس: الذي يَيْئس من رحمة الله، ومنه سمِّيَ إبليس. والإبلاس أيضاً: الانكسار والحزن. والسَّلِس: السَّهْل المقادة. والأعواد خشب الجنازة، ورَجِيع وَصِب: الرَّجِيع المعنّي الكالّ: والوصِب: الوجع، وصِب الرجل يَوْصَب، فهو واصب، وأوصبه الله فهو مُوصب. والموصَّب بالتشديد: الكثير الأوجاع. والنِّضو: الهزيل. وحشدة الإخوان: جمع حاشد، وهو المتأهّب المستعدّ. ودار غربته: قبره. وكذلك منقطَع زورته، لأنّ الزيارة تنقطع عنده.

ومفرد وَحْشته نحو ذلك، لانفراده بعمله، واستيحاش الناس منه، حتى إذا انصرف المشيِّع وهو الخارج مع جنازته، أقعِد في حفرته. هذا تصريحٌ بعذاب القبر، وسنذكر ما يصلح ذكره في هذا الموضع.

والنجيّ: المناجي. ونُزُل الحمِيم وتَصْلية الجَحِيم، من الألفاظ الشريفة القرآنية. ثم نفى عليه السلام أن يكون في العذاب فتور يجد الإنسان معه راحة، أو سكون يزيح عنه الألم أي يزيله، أو أنّ الإنسان يجد في نفسه قوة تحجز بينه وبين الألم، أي تمنع ويموت موتاً ناجزاً معجّلاً، فيستريح، أو ينام فيسلوا وقتَ نومه عَمّا أصابه من الألم في اليقظة كما في دار الدنيا.

ثم قال: «بين أطْوَار الموتات»، وهذا في ظاهره متناقض، لأنه نفي الموتَ مطلقاً، ثم قال: «بين أطوار الموتات»، والجواب أنّه أراد بالموتات الآلام العظيم، فسّماها موتات، لأنّ العرب تسمِّي المشقة العظيمة موتاً، كما قال:

إنّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحْياء

ويقولون: الفقر الموت الأحمر، واستعمالهم مثل ذلك كثير جداً.

ثم قال: «إنّا بالله عائذون»، عُذْت بفلان واستعذت به، أي التجأت إليه.

القبر وسؤال منكَر ونكير

واعلم أنّ لقاضي القضاة في كتاب «طبقات المعتزلة» في باب «القبر وسؤال منكر ونكير»، كلاماً أنا أورد ها هنا بعضه، قال رحمه الله تعالى:

إنّ عذابَ القبر إنما أنكره ضرار بن عمرو، ولما كان ضرارٌ من أصحاب واصل بن عطاء، ظنّ كثيرٌ من الناس أنّ ذلك مما أنكرته المعتزلة، وليس الأمر كذلك، بل المعتزلة رجلان: **أحدهما**: يجوّز عَذَاب القبر، ولا يقطع به، وهم الأقلون، والآخر: يقطع على ذلك، وهم أكثر أصحابِنا لظهور الأخبار الواردة فيه، وإنما تنكر المعتزلة قول طائفة من الجهلة إنّهم يعذبون وهم موتى، لأنّ العقل يمنَعُ من ذلك، وإذا كان الإنسان مع قُرْب العهد بموته، ولمّا يدفن

يعلمون أنّه لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك، ، ولا يألم ولا يلتذّ، فكيف يجوز عليه ذلك وهو ميت في قبره! وما رُوِي من أنّ الموتى يسمعون لا يصحّ إلا أن يُراد به أنَّ الله تعالى أحياهم، وقوّى حاسة سمعهم، فسمعوا وهم أحياء.

قال رحمه الله تعالى: وأنكر أيضاً مشايخُنا أن يكونَ عذابُ القبر دائماً في كلِّ حال، لأن الأخبار إنما وردت بذلك في الجملة، فالذي يقال به هو قدر ما تقتضيه الأخبار دون ما زاد عليه مما لا دليلَ عليه، ولذلك لسنا نوقّت في التعذيب وقتاً، وإن كان الأقرب في الأخبار أنّها الأوقات المقارنة للدفن، وإن كان لا نعيّنها بأعيانها.

هكذا قال قاضي القضاة، والذي أعرفه أنا من مذهب كثير من شُيوخنا قَبْل قاضي القضاة أنّ الأغلبَ أن يكونَ عذاب القبر بين النَّفْختَيْن.

ثم إن قاضيَ القضاة سأل نفسه، فقال: إذا كانت الآخرة هي وقت المجازاة، ، فكيف يعذّب في القبر في أيام الدنيا؟

وأجاب بأن القليل من العقاب المستحَقّ قد يجوز أن يجعلَه الله في الدنيا لبعض المصالح، كما فعل في تعجيل إقامة الحدود على من يستحقّها، فلا يمنع منه تعالى أنْ يفعل ذلك بالإنسان إذا كان من أهل النار.

ثم سأل نفسه، فقال: إذا كان بالموت قد زال عنه التكليف، فكيف يقولون يكون ذلك من مصالحه!

وأجاب بأنا لم نقل: إنَّ ذلك من مصالحه وهو ميّت، وإنما نقول إنه مصلحة أنْ نعلم في الدنيا ذلك من حال الموتى، لأنه إذا تصوّر أنه مات عُوجل بضرب من العقاب في القبر، كان أقرب إلى أن ينصرف عن كثير من المعاصي. وقد يجز أن يكون ذلك لطفاً للملائكة الذين يتولّوْن هذا التعذيب.

فأمّا القول في منكَر ونكير، فإنه سأل نفسَه رحمه الله تعالى، وقال: كيف يجوز أن يسمَّوْا بأسماء الذمّ، وعندكم أن الملائكة أفضلُ من الأنبياء؟

وأجاب، فقال: إنّ التسمية إذا كانت لقباً لم يقع بها ذمّ، لأنّ الذمّ إنما يقع لفائدة الاسم، والألقاب كالإشارات لا فائدة تحتها، ولذا يلقّب الرجل المسلم بظالم وكلب ونحو ذلك، فيجوز أن يكون هذان الاسمان من باب الألقاب، ويجوز أنْ يسمّيا بذلك من حيث يهجُمان على الإنسان عند إكمال الله تعالى عقله على وجه ينكره ويرتاع منه، فسمّيا منكراً ونكيراً.

قال: وقد روي في المسألة في القبر أخبار كثيرة وكلّ ذلك مما لا قبحَ فيه، بل يجوز أن يكون من مصالح المكلّفين فلا يصحّ المنع عنه.

وجملة الأمر أنّ كلّ ما ثبت من ذلك بالتواتر والإجماع، وليس بمستحيل في القدرة، ولا قبيح في الحكمة يجب القول به، وما عداه مما وردت به آثار وأخبار آحاد يجب أن يجوّز، ويقال: إنه مظنون ليس بمعلوم، إذا لم يمنع منه الدليل.

الأصل: عِبَادَ ٱلله، أَيْنَ الذين عُمِّرُوا فَنَعِمُوا، وَعُلِّمُوا فَفَهِمُوا، وَأُنْظِرُوا فَلَهَوْا، وَسُلِّمُوا فَنَسُوا! أُمْهِلُوا طَوِيلاً، وَمُنِحُوا جَمِيلاً، وَحُذِّرُوا أَلِيماً، وَوُعِدُوا جَسِيماً.

ٱحْذَرُوا الذُّنُوبَ المُوَرِّطَةَ، وَٱلْعُيُوبَ المُسْخِطَةَ. أُولِي ٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَسْمَاعِ، وَٱلْعَافِيَةِ وَالمَتَاعِ، هَلْ مِنْ مَنَاصٍ أَوْ خَلَاصٍ، أَوْ مَعَاذٍ أَوْ مَلَاذٍ، أَوْ فِرَارٍ أَو مَحَارٍ! فَأَنَّي تُؤْفَكُونَ، أَمْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ، أَمْ بِمَاذَا تَغْتَرُّونَ!

وَإِنَّمَا حَظُّ أَحَدِكُمْ مِنَ الأَرْضِ، ذَاتِ الطُّولِ وَٱلْعَرْضِ، قِيدُ قَدِّهِ، منعفِراً عَلَى خَدِّهِ.

الآنَ عِبَادَ ٱلله، وَٱلْخِنَاقُ مُهْمَلٌ، وَالرُّوحُ مُرْسَلٌ، فِي فَيْنَةِ ٱلْإِرْشَادِ، وَرَاحَةِ ٱلْأَجْسَادِ، وَبَاحَةِ الاحْتِشَادِ، وَمَهَلِ ٱلْبَقِيَّةِ، وأُنُفِ المَشِيَّةِ، وَإِنْظَارِ التَّوْبَةِ، وَٱنْفِسَاحِ ٱلْحَوْبَةِ، قَبْلَ الضَّنْكِ وَالمَضِيقِ، وَالرَّوْعِ وَالزُّهُوقِ، وَقَبْلَ قُدُومِ ٱلْغَائِبِ المُنْتَظَرِ، وَأَخْذَةِ ٱلْعَزِيزِ المُقْتَدِرِ.

قال الرضي رحمه الله: وفِي الخبرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَمَّا خطب بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ ٱقْشَعَرَّتْ لَهَا الجُلُودُ، وبَكَتِ ٱلْعُيُونُ، وَرَجَفَتِ ٱلْقُلُوبُ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُسَمِّي هَذِهِ الْخُطْبَةَ ٱلْغَرَّاءَ.

الشرح: نَعِم الرجل يَنْعَم ضِدّ قولك: «بَئس»، وجاء شاذاً نَعِمَ ينعِم بالكسر. وأنظروا: أمهلوا. والذنوب المورّطة: التي تُلقِي أصحابَها في الورطة، وهي الهلاك، قال رؤبة:

فــأصــبَــحُــوا فــي ورطــة الأَوْرَاطِ

وأصله أرض مطمئنّة لا طريق فيها، وقد أورطت زيداً وورّطته توريطاً فتورَّط. ثمّ قال عليه السلام: «أولى الأبصار والأسماع»، ناداهم نداءً ثانياً بعد النداء الذي في أول الفصل، وهو قوله: «عباد الله»، فقال: يا مَنْ منحهم الله أبصاراً وأسماعاً، وأعطاهم عافية، ومتّعهم متاعاً هل من مناص، وهو الملجأ والمفرّ، يقالُ: ناصَ عن قِرْنه مناصاً، أيْ فَرّ وراوغ، قال سبحانه: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾(١).

---

(١) سورة ص، الآية: ٣.

والمحار: المرجع، من حَارَ يحور أي رجع قال تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾(١).

ويؤفَكون: يقلبون، أفكَه يأفِكه عن كذا، قلبه عنه إلى غيره، ومثله «يُصْرَفون». وقِيد قدّه: مقدار قدّه، يقال: قرب منه قِيدَ رمح وقَادَ رُمح، والمراد ها هنا هو القبر، لأنه بمقدار قامة الإنسان.

والمُنْعفِرُ: الذي قد لامس العَفَر، وهو التراب.

ثم قال عليه السلام: «الآن والخناق مُهْمَل»، تقديره: اعملوا الآن وأنتم مخلَّوْنَ متمكّنون لم يعقد الحبل في أعناقكم، ولم تقبَض أرواحكم.

والرُّوح يُذكّر ويؤنث. والفَيْنة: الوقت، ويروى «وفَيْنة الارتياد»، وهو الطَّلب. وأنفُ المشيّة: أول أوقاتَ الإرادة والاختيار.

قوله: «وانفساح الحَوْبة»، أي سعة وقت الحاجة، والحوْبَة: الحاجة والأرَب، قال الفرزدق:

فَهَبْ لِي خُنَيساً واتَّخِذْ فِيه مِنَّةً ... لِحَوْبَةِ أمّ ما يَسُوغُ شَرَابُهَا

والغائب المنتظر، هو الموت. قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى: حَدّثني ثُمَامة، قال: سمعتُ جعفر بن يحيى - وكان من أبلَغ الناس وأفصحهم - يقول: الكتابة ضمّ اللفظة إلى أختها، ألم تسمعوا قول شاعر لشاعر، وقد تفاخرا: أنا أشعرُ منك لأنّي أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابنَ عمّه! ثم قال: وناهيك حسناً بقول عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «هَلْ من مناص أو خلاص، أو معاذ أو ملاذ، أو فرار أو محار!».

قال أبو عثمان: وكانَ جعفر يُعجب أيضاً بقول عليّ عليه السلام: أين من جدَّ واجتهد، وجَمَع واحتشد، وبنَى فشيَّد، وفرش فمهَّد، وزخرف فنجَّد، قال: ألا ترى أن كلّ لفظة منها آخذةٌ بعُنِق قرينتها، جاذبة إياها إلى نفسها، دالَّةٌ عليها بذاتها!

قال أبو عثمان: فكان جعفر يسمّيه فصيح قريش.

واعلم أننا لا يتخالجنا الشكّ في أنه عليه السلام أفصحُ من كلّ ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين، إلاّ من كلام الله سبحانه، وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك لأنّ فضيلَة الخطيب والكاتب في خطابته وكتابته تعتمِد على أمرين، هما: مفردات الألفاظ ومركَّباتها.

أما المفردات فأنْ تكون سهلةً سلِسة غيرَ وحشيّة ولا معقّدة، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك، فأما المركّبات فَحُسْنُ المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام، واشتماله على الصفات التي باعتبارها فُضّل بعضُ الكلام على بعض، وتلك الصفات هي الصناعة التي سَمّاها المتأخرون

(١) سورة الإنشقاق، الآية: ١٤.

البديع، من المقابلة، والمطابقة، وحسن التقسيم، وردّ آخر الكلام على صَدْره، والتّرصيع، والتسهيم، والتوشيح، والمماثلة، والاستعارة، ولطافة استعمال المجاز، والموازنة، والتكافؤ، والتّسْميط والمشاكلة.

ولا شبهةَ أن هذه الصفات كلَّها موجودة في خُطَبِه وكتبه، مبثوثة متفرقة في فُرُش كلامه عليه السلام، وليس يوجد هذان الأمران في كلامِ أحد غيرِه فإن كان قد تعمَّلها وأفْكَر فيها، وأعمَل رويتَه في رَصْفها ونثرها، فلقد أتى بالعجب العُجاب، ووجبَ أن يكون إمام الناس كلِّهم في ذلك، لأنّه ابتكره ولم يعرف من قبله وإن كان اقتضبها ابتداءً، وفاضت على لسانه مرتجلة، وجاش بها طبْعه بديهةً، من غير رويَّةٍ ولا اعتمال، فأعجب وأعجب!

وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجلّياً والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره. وبحقٍّ ما قال معاوية لمحقن الضّبيّ، لمّا قال له: جئتك من عند أعيا الناس: يابن اللخناء، ألعليٍّ تقول هذا؟ وهل سنَّ الفصاحة لقريش غيره!

واعلم أن تكلّف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يتعب، وصاحبه منسوب إلى السَّفَه، وليس جاحد الأمور المعلومة علماً ضروريًا بأشدّ سفهاً ممّن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها.

٨٣ – ومن كلام له عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص

الأصل: عَجَباً لاَبْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً، وَأَنِّي ٱمْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ، أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثماً. أَمَا - وَشَرُّ ٱلْقَوْلِ ٱلْكَذِبُ - إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ، وَيَخُونُ ٱلْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ ٱلْإِلَّ، فَإِذَا كانَ عِنْدَ ٱلْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَآمِرٍ هُوَ! مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سَبَّتَهُ.

أَمَا وَٱللهِ إِنِّي لَيَمْنَعُنِي مِنَ ٱللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَقِّ نِسْيَانُ ٱلآخِرَةِ. وَإِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَّةً، وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً.

الشرح: الدّعابة: المُزاح، دَعَب الرجل، بالفتح. ورجل تِلْعابة، بكسر التاء: كثير اللعب، والتَّلْعاب، بالفتح: مصدر «لعب».

والمعافسة، المعالجة والمصارعة، ومنه الحديث: «عَافَسْنَا النساء». والممارسة نحوه.

يقول عليه السلام: إن عَمْراً يقدح فيَّ عند أهل الشام بالدُّعابة واللعب، وأني كثير الممازحة، حتى أني ألاعب النساء وأغازلهنّ، فعلَ المترَف الفارغ القلب، الذي تتقّضى أوقاته بملاذّ نفسه.

ويُلحِف: يلحّ في السؤال، قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾(١)، ومنه المثل: «ليس للملحِف مِثل الرّد».

والإلّ: العهد، ولمّا اختلف اللفظان حَسُن التقسيم بهما، وإن كان المعنى واحداً. ومعنى قوله: «ما لم تأخذ السيوف مآخذها»، أي ما لم تبلغ الحرب إلى أن تخالط الرؤوس، أي هو مليء بالتَّحريض والإغراء قبل أن تلتحِم الحرب، فإذا التحمت واشتدّت فلا يمكث، وفعل فَعلته التي فعل.

والسَّبَّة: الإست، وسبّه يَسُبُّهُ: طعنه في السَّبَّة.

ويجوز رفع «أكبر» ونصبه، فإن رفعتَ فهو الاسم، وإن نصبتَ فهو الخبر. والأتيّة العطية، والإيتاء: الإعطاء. ورضخ له رضخاً: أعطاه عطاءً بالكثير، وهي الرّضيخة، لما يعطَى.

نسب عمرو بن العاص واخباره

ونحن نذكر طرفاً من نسب عمرو بن العاص وأخباره إلى حين وفاته إن شاء الله. هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤيّ بن غالب بن فِهرْ بن مالك بن النّضر. يكنى أبا عبد الله، ويقال: أبو محمد.

أبوه العاص بن وائل، أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله، والمكاشفين له بالعداوة والأذى، وفيه وفي أصحابه أنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾(٢).

ويلقّب العاصُ بن وائل في الإسلام بالأبتَر، لأنه قال لقريش: سيموتُ هذا الأبتر غداً، فينقطع ذكرُه، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّه لم يكن له صلى الله عليه وآله ولدٌ ذَكَر يُعْقِبُ منه، فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾(٣).

وكان عمرو أحد مَنْ يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة، ويشتِمه ويضع في طريقه الحجارة، لأنّه كان صلى الله عليه وآله يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة، وكان عمرو يجعل له الحجارة في مسلكه ليعثُرَ بها. وهو أحدُ القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا خرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة، فروَّعُوها وقَرَعوا هَوْدَجها بكعُوب الرماح، حتى أجْهَضت جنيناً ميّتاً من أبي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٥.
(٣) سورة الكوثر، الآية: ٣.

العاص بن الربيع بعلها، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ، نال منه وشقّ عليه مشقّة شديدة ولعنهم. روى ذلك الواقديّ.

وروي الواقديّ أيضاً وغيره من أهل الحديث، أن عمرو بن العاص هجا رسول الله ﷺ هِجاءً كثيراً، كان يعلِّمه صبيان مكة، فيُنشدونه ويَصيحون برسول الله إذا مرَّ بهم، رافِعين أصواتهم بذلك الهجاء، فقال رسول الله ﷺ وهو يصلّي بالحِجْر: «**اللهمّ إنّ عمرو بن العاص هَجَاني، ولستُ بشاعر، فالعنْه بعدَد ما هجاني**»[١].

وروى أهل الحديث أنّ النَّضر بن الحارث وعُقْبة بن أبي مُعَيْط وعمرو بن العاص، عهدوا إلى سَلَى جَملٍ فرفعوه بينهم ووضعُوه على رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد بفناء الكعبة، فسال عليه، فصبَر ولم يرفَعْ رأسه، وبكى في سجوده ودعا عليهم، فجاءت ابنتُه فاطمة عليها السلام وهي باكية، فاحتضنت ذلك السَّلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكي، فرفع رأسه ﷺ، وقال: «**اللهمّ عليك بقريش**»[٢]، قالها ثلاثاً، ثم قال رافعاً صوته: «**إنّي مظلوم فانتِصر**»، قالها ثلاثاً، ثم قام فدخل منزله: وذلك بعد وفاة عَمّه أبي طالب بشهرين.

ولشدّة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله ﷺ، أرسله أهلُ مكّة إلى النّجاشيّ ليزهِّدَه في الدّين، وليطرد عن بلاده مهاجِرَة الحبشة، وليقتل جعفر بن أبي طالب عنده، إن أمكنه قتلُه، فكان منه في أمر جعفر هناك ما هو مذكور مشهور في السِّيَر، وسنذكر بعضه.

فأمّا النابغة فقد ذكر الزمخشريّ في «كتاب ربيع الأبرار»[٣] قال: كانت النابغة أم عمرو بن العاص أمَةً لرجل من عَنزَة، فسُبِيت، فاشتراها عبد الله بن جُدْعان التيميّ بمكة، فكانت بَغِيًّا، ثم أعتقَها، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، وأميّة بن خلَف الجُمحيّ، وهشام بن المغيرة المخزوميّ، وأبو سفيان بن حَرْب، والعاص بن وائل السَّهميّ، في طُهْرٍ واحد، فولدت عَمْراً، فادّعاه كلُّهم، فحكِّمتْ أمُّه فيه، فقالت: هو من العاص بن وائل، وذاك لأن العاص بن وائل كان يُنفق عليها كثيراً، قالوا: وكان أشبه بأبي سفيان، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص:

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢٩٩ ح: ٥١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (٢٤٠)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب ما لقي النبي (ص) من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤).

(٣) «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار في المحاضرات»: لأبي القاسم محمود بن عمر جار الله العلامة الزمخشري، المتوفى سنة (٥٣٨هـ)، «كشف الظنون» (١/ ٨٣٢).

أبـوك أبـو سفيـانَ لا شـكّ قـد بَـدَتْ لَـنَـا فـيـك مـنـه بـيِّـنـاتُ الـشَّـمـائـلِ

وقال أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب «الاستيعاب»: كان اسمها سلمى - وتلقّبت بالنابغة - بنت حَرْملة من بني جلاَّن بن عَنَزة بن أسد بن ربيعة بن نزار، أصابها سِباء، فصارت إلى العاص بن وائل بعد جماعة من قريش، فأولدها عمْراً.

قال أبو عمر: يقال إنه جُعِل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمْراً وهو على المنبر: مَنْ أمّه؟ فسأله، فقال: أمّي سلْمى بنت حرملة، تُلَقَّب بالنابغة، من بني عَنَزة ثم أحد بني جِلاّن وأصابتها راح العرب فبيعت بعُكاظ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدْعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت فأنجبت، فإن كان جُعِل لك شيء فخذ.

وقال المبرّد في كتاب «الكامل»[1]: اسمُها ليلى. وذكر هذا الخبر وقال: إنّها لم تكن في موضع مَرْضِيّ، قال المبرّد: وقال المنذر بن الجارود مرة لعمرو بن العاص: أيّ رجل أنت لولا أن أمّك أمّك! فقال: إني أحمَد الله إليك، لقد فكَّرْت البارحة فيها فأقبلت أنقلُها في قبائل العرب ممن أحبُّ أن تكون منها، فما خطرت لي عَبْد القيس على بال!

وقال المبرّد: ودخل عمرو بن العاص مكة، فرأى قوماً من قريش قد جلسوا حَلْقة، فلما رأوه رَمَقُوه بأبصارهم، فعدل إليهم فقال: أحسِبكم كنتم في شيء من ذكرى! قالوا: أجل، كنا نمثّل بينك وبين أخيك هشام بن العاص، أيّكما أفضل؟ فقال عمرو: إن لهشام عليَّ أربعة: أمه بنت هشام بن المغيرة، وأمّي مَن قد عرفتم، وكان أحبّ إلى أبيه مني، وقد علمتم معرفة الوالد بولده، وأسْلَمَ قَبْلِي، واستشهد وبقِيت.

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب «الأنساب» أن عَمْراً اختصم فيه يوم ولادته رجلان: أبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، فقيل: لِتَحْكم أمُّه، فقالت أمّه: إنه من العاص بن وائل، فقال أبو سفيان: أما إني لا أشك أني وضعته في رَحِم أمه، فأبت إلا العاص.

فقيل لها: أبو سفيان أشرف نسباً، فقالت: إن العاص بن وائل كثير النفقة عليّ وأبو سفيان شَحِيح.

---

(١) «الكامل في اللغة»: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

ففي ذلك يقول حسان بن ثابت لعمرو بن العاص حيث هجاه مكافئاً له عن هجاء رسول الله ﷺ:

أبـوك أبـو سـفـيـان لاشـكّ قـد بَـدَتْ ... لـنـا فـيـك مـن بـيِّـنَـاتُ الـدلائـلِ
فَـفَـاخِـرْ بـه إمّـا فَـخَـرْتَ ولا تـكـن ... تـفـاخـرُ بـالـعـاص الـهـجـين بن وائل
وإن الـتـي فـي ذاك يـا عـمـرو حُـكِّـمَـتْ ... فـقـالـت رجـاءَ عـنـد ذاك لـنـائـل
مِنَ العاص عمرٌو وتخبر الناس كلَّما ... تـجـمَّـعَـتِ الأقـوامُ عـنـدَ الـمـحـافِـلِ

وروى الزبير بن بكار في كتاب «المفاخرات»، قال: اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص، والوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط، وعُتْبة بن أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، وقد كان بلغهم عن الحسن بن عليّ عليه السلام قوارصُ، وبلغه عنهم مثل ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن الحسن قد أحيا أباه وذكره، وقال فصُدِّق، وأمر فأُطيع، وخَفَقَتْ له النعال، وإنّ ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغُنا عنه ما يسوؤنا.

قال معاوية: فما تريدون؟ قالوا: ابعث عليه فليحضُر لنَسُبَّه ونَسُبَّ أباه، ونعيِّره ونوبخه، ونخبره أن أباه قتل عثمان ونقرّره بذلك، ولا يستطيع أن يغيِّر علينا شيئاً، من ذلك.

قال معاوية: إني لا أرى ذلك ولا أفعله، قالوا: عزمْنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلَنّ، فقال: ويحكم لا تفعلوا! فوالله ما رأيته قطّ جالساً عندي إلا خفت مقامه وعيْبَه لي، قالوا: ابعث إليه على كلِّ حال، قال: إن بعثت إليه لأنصفنَّه منكم.

فقال عمرو بن العاص: أتخشى أن يأتيَ باطلُه على حقنا، أو يُرْبَى قَولُه على قولنا! قال معاوية: أما إني إن بعثت إليه لآمرنّه أن يتكلّم بلسانه كلّه، قالوا: مُرْه بذلك.

قال: أما إذْ عصيتموني، وبعثتم إليه وأبيْتم إلا ذلك فلا تُمرِضوا له فيَ القول، واعلموا أنهم أهل بيتٍ لا يعيبهم العائب، ولا يُلْصَق بهم العار، ولكن اقذفوه بحجَرِه، تقولون له: إن أباك قتل عثمان، وكره خلافة الخلفاء مِن قبله.

فبعث إليه معاوية، فجاءه رسوله، فقال: إن أمير المؤمنين يدعوك.

قال: مَنْ عنده؟ فسماهم له، فقال الحسن عليه السلام: ما لهم خرَّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم قال: يا جار، ابغيني ثيابي، اللهم إني أعوذُ بك من شرورهم، وأدرَأُ[1] بك في نحورهم، وأستعين بك عليهم، فاكْفِنيهم كيف شئتَ وأنّي شئت، بَحوْلٍ منك وقوة، يا أرحم الراحمين!

---

(١) من درأ بمعنى دفع. القاموس، مادة (درأ).

ثم قام، فلما دخل على معاوية، أعظمه وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وقد ارتاد القوم، وخطروا[١] خَطَران الفحول، بغياً في أنفسهم وعُلُوًّا، ثم قال: يا أبا محمد، إن هؤلاء بعثوا إليك وعَصَوْني.

فقال الحسن عليه السلام: سبحان الله! الدّار دارُك، والإذنُ فيها إليك، والله إن كنتَ أجبتَهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم إني لأستحيي لك من الفُحْش، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف، فأيهما تُقرِّر، وأيهما تنكر؟ أما إني لو علمتُ بمكانهم جئتُ معي بمثلهم من بني عبد المطّلب، وما لي أن أكون مستوحشاً منك ولا منهم! إن وليِّيَ الله، وهو يتولّى الصالحين.

فقال معاوية: يا هذا، إنّي كرهتُ أن أدعوَك، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له، وإن لك منهم النَّصَف ومنِّي، وإنما دَعَوْناك لنقرِّرَك أن عثمان قُتل مظلوماً، وأن أباك قتله، فاستمِع منهم ثم أجِبْهم، ولا تمنعكَ وَحْدتك واجتماعُهم أن تتكلم بكلّ لسانك.

فتكلم عمرو بن العاصِ، فحمِد الله وصلى على رسوله، ثم ذكر عليًّا عليه السلام، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله، وقال: إنّه شتم أبا بكر وكره خلافته، وامتنع مِنْ بيعته، ثم بايعه مكرَهاً، وشَرَك في دم عمر، وقتلَ عثمان ظلماً، وادّعى من الخلافة ما ليس له.

ثم ذكر الفتنة يعيِّره بها، وأضاف إليه مساوىء، وقال: إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيَكم الملك على قتلكم الخلفاء، واستحلالكم ما حرّم الله من الدماء، وحِرْصكم على الملك، وإتيانكم ما لا يحلّ. ثم إنك يا حسن، تحدّث نفسك أن الخلافة صائرة إليك، وليس عندك عقلُ ذلك ولا لبُّه، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلَك، وتركك أحمقَ قريش، يُسخر منك ويُهزأ بك، وذلك لسوء عمل أبيك! وإنما دعوناك لنسبّك وأباك، فأما أبوك فقد تفرّد الله به وكفانا أمره، وأما أنت فإنك في أيدينا نختار فيك الخصال، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله، ولا عيب من الناس، فهل تستطيع أن تردّ علينا وتكذّبنا؟ فإن كنت ترى أنّا كذبنا في شيء فارْدُده علينا فيما قلنا، وإلا فاعلم أنّك وأباك ظالمان.

ثم تكلم الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط، فقال: يا بني هاشم، إنّكم كنتم أخوال عثمان، فنِعم الولد كان لكم، فَعرف حقكم، وكنتم أصهاره فنعم الصِّهْر كان لكم، يكرمكم فكنتم أول من حَسده، فقتله أبوك ظلماً، لا عذرَ له ولا حجة، فكيف ترَوْن الله طلب بدمه، وأنزلكم منزلَتكم! والله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية، وإن معاوية خيرٌ لك من نفسك.

ثم تكلم عُتْبة بن أبي سفيان، فقال: يا حسن، كان أبوك شرَّ قريش لقريش، أسَفَكَها

(١) خطر في مشيته: رفع يديه ووضعهما. القاموس، مادة (خطر).

لدمائها، وأقطعها لأرحامها، طَويلَ السيف واللسان، يقتل الحيّ ويعِيب الميت، وإنك مِمّن قتل عثمان، ونحن قاتلوك به، وأما رجاؤك الخلافة فلست في زَنْدِها قادحاً، ولا في ميزانها راجحاً، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان، وإنّ في الحق أن نقتلك وأخاك به، فأما أبوك فقد كفانا الله أمرَه وأقادَ منه، وأما أنت، فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان.

ثم تكلم المغيرة بن شعبة، فشتم عليّاً، وقال: والله ما أعيبه في قضية يخون، ولا في حكم يميل، ولكنه قتل عثمان. ثم سكتوا.

فتكلم الحسن بن عليّ عليه السلام، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله، ثم قال: أما بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتَني، فحشاً أَلِفتَه، وسوءَ رأيٍ عُرفتَ به، وخُلُقاً سيئاً ثبتَّ عليه، وبغياً علينا، عداوةً منك لمحمد وأهله، ولكن اسمع يا معاوية، واسمعوا فلأقولنّ فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم.

أنشُدُكم الله أيها الرّهط، أتعلمون أن الذي شتمتُموه منذ اليوم، صلّى القبلتين كلْتيهما وأنت يا معاوية بهما كافر، تراها ضلالة، وتعبد اللات والعزى غواية!

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيْعتين كلتيهما: بيعة الفتح وبيعة الرضوان، وأنت يا معاوية بإحداهما كافر، وبالأخرى ناكث!

وأنشُدُكم الله هل تعلمون أنه أولُ الناس إيماناً، وأنك يا معاوية وأباك من المؤلفة قلوبهم تُسِرُّون الكفر، وتظهرون الإسلام، وتُستمالون بالأموال!

وأنشُدُكم الله، ألستم تعلمون أنّه كان صاحبَ راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بَدْر، وأنّ راية المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه، ثم لقيَكم يوم أُحُد ويوم الأحزاب، ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعَك ومع أبيك رايةُ الشِّرك، وفي كلّ ذلك يفتح الله له ويُفلِج حُجّتَه، وينصر دعوتَه، ويصدّق حديثه، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلّها عنه راضٍ، وعليك وعلى أبيك ساخط! وأنشُدك الله يا معاوية، أتذكُر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر، وأنت تسوقُه، وأخوك عتْبة هذا يقوده، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «اللهمّ العن الراكب والقائد والسائق!»(١).

أتنسى يا معاوية الشعر الذي كتبتَه إلى أبيك لما همّ أن يُسلم، تنهاه عن ذلك:

يا صخر لا تُسْلِمنْ يوماً فتفضَحَنا ... بعد الذين بِبَدْرٍ أصبَحُوا فِرَقا
خالي وعَمّي وعمّ الأمّ ثالثهمْ ... وحنظلُ الخير قد أهدى لنا الأرَقا

(١) أخرجه القاضي النعمان في شرح الأخبار: ٢/ ١٤٧.

لا تَـرْكَـنَـنَّ إلـى أمـرٍ تـكـلّـفـنـا   والرّاقصات به في مكة الخُرُقَا[1]

فالموتُ أهونُ من قول العِداة: لقدْ   حادا بنُ حربٍ عن العُزَّى إذاً فَرَقَا

والله لَمَا أخفيتُ من أمرك أكبرُ مما أبديتُ.

وأنشدكم الله أيُّها الرهط، أتعلمون أن عليًّا حَرَّم الشهواتِ على نفسه بين أصحاب رسول الله ﷺ فأنزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾[2]، وأنَّ رسول الله ﷺ بعث أكابرَ أصحابه إلى بني قُرَيظَة فنزلوا من حِصْنهم فهُزموا، فبعث عليًّا بالراية، فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله، وفعل في خَيْبر مثلها!

ثم قال: يا معاوية أظنُّك لا تعلم أنّي أعلم ما دعا به عليك رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتبَ كتاباً إلى بني خُزيمة، فبعث إليك [ابن عباس، فوجدك تأكل، ثم بعثه إليك مرة أخرى فوجدك تأكل، فدعا عليك الرسول بجوعك] ونهمِك إلى أن تموت.

وأنتم أيها الرّهط: نشدتُكم الله، ألاَ تعلمون أن رسول الله ﷺ لعن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردّها:

أوّلها: يوم لَقِيَ رسول الله ﷺ خارجاً من مكّة إلى الطائف، يدعو ثَقيفاً إلى الدِّين، فوقع به وسبَّه وسفَّهَهُ وشتَمه وكذَّبه وتوعّده، وهمّ أن يَبْطش به، فلعنه الله ورسوله وصُرِف عنه.

والثانية: يوم العِير، إذ عرض لها رسول الله ﷺ وهي جائيةٌ من الشام، فطردها أبو سفيان، وساحَل بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها.

والثالثة: يوم أُحُد، حيث وقف تحت الجبل، ورسول الله ﷺ في أعلاه، وهو ينادي: اعْلُ هُبَل! مراراً، فلعنه رسول الله ﷺ عشر مرات، ولعنه المسلمون.

والرابعة: يوم جاء بالأحزاب وغَطفَان واليهود، فلعنه رسول الله وابتهل.

والخامسة: يوم جاء أبو سفيان في قريش فصدُّوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام «والهدْيَ معكوفاً أن يبلغ مَحلّه» ذلك يوم الحدَيبية، فلعن رسول الله ﷺ أبا سفيان، ولعن القادة والأتباع، وقال: ملعونون كلُّهم، وليس فيهم من يؤمن»، فقيل: يا رسول الله، أفما يُرْجَى الإسلام لأحد منهم فكيف باللعنة؟ فقال: «لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع، وأما القادة فلا يفلح منهم أحد»[3].

---

(١) الخرق: بالضم ضد الرفق وألا يحسن الرجل العمل والتصرف، الأحمق. القاموس، مادة (خرق).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٧.

(٣) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ١٠/ ٨٢.

والسادسة: يوم الجمل الأحمر.

والسابعة: يومَ وقفوا لرسول الله ﷺ في العَقَبة ليستنفروا ناقته، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم أبو سفيان.

فهذا لك يا معاوية، وأما أنت يا بنَ العاص، فإنّ أمرَك مشترَك، وضعتْك أمك مجهولاً، من عُهْر وسِفاح، فيك أربعة من قريش، فغلب عليك جَزّارُها، ألأمُهُمْ حَسباً، وأخبثُهم منِصباً، ثم قام أبوك فقال: أنا شانىء محمدٍ الأبتر، فأنزل الله فيه ما أنزل.

وقاتلتَ رسول الله ﷺ في جميعِ المشاهد، وهجوْتَه وآذيته بمكّة وكِدته كيدَك كلَّه، وكنتَ من أشدّ النّاس له تكذيباً وعداوةً.

ثم خرجتَ تريد النّجاشيّ مع أصحاب السفينة، لتأتِيَ بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجَوْتَ ورجَعك الله خائباً، وأكذَبَك واشِياً، جعلت حدَّك على صاحبك عُمارة بن الوليد، فوشيْت به إلى النجاشيّ، حسداً لما ارتكبَ مع حليلتك، ففضحك الله وفضحَ صاحبك.

فأنت عدوّ بني هاشم في الجاهلية والإسلام. ثم إنك تعلم وكلّ هؤلاء الرَّهْط يعلَمُون أنّك هجوتَ رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشّعر، فقال رسول الله ﷺ: «**اللّهمّ إني لا أقول الشّعر ولا ينبغي لي، اللّهمّ العنه بكل حرفٍ ألف لعنة**»[1]، فعليك إذاً من الله ما لا يحصَى من اللعن.

وأما ما ذكرت من أمر عثمان، فأنت سعَّرت عليه الدّنيا ناراً، ثم لحقت بفلسطين، فلمّا أتاك قتلُه، قلت: أنا أبو عبد الله إذا نكأتُ[2] قَرْحة أدميتُها. ثم حبستَ نفسك إلى معاوية، وبعتَ دينك بدنياه، فلسنا نلومك على بُغض، ولا نعاتبك على ودّ، وبالله ما نصرت عثمان حيًّا ولا غضِبت له مقتولاً، ويحك يابن العاص! ألستَ القائل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشيّ:

تقول ابنتي أين هذا الرحيل ... وما السَّيْرُ مِنّي بمستنكَر
فقلت: ذريني فإني امرؤٌ ... أريدُ النجاشِيَّ في جعفَرِ
لأكْوِيَهُ عنده كيَّةً ... أُقِيمُ بها نخوةَ الأصْعَرِ
وشانىءُ أحمدَ من بينهم ... وأقْوَلُهم فيه بالمنكَرِ

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢/ ١٣٥.
(٢) نكأ القرحة: قشرها قبل أن تبرأ فَنَدِيَت. القاموس، مادة (نكأ).

وأجرى إلى عتبة جاهداً ... ولو كانَ كالذَّهَبِ الأحمرِ
ولا أنثني عن بَنِي هاشم ... وما اسْطعتُ في الْغَيْبِ والمَحْضَرِ
فإنْ قَبِلَ العَتْبَ منِّي لَهُ ... وإلا لَوَيْتُ له مِشْفَرِي[١]

فهذا جوابك، هل سمعته!

وأما أنت يا وليد، فوالله ما ألومك على بغض عليٍّ، وقد جلَدك ثمانين في الخمر، وقَتَل أباك بين يديْ رسول الله صبراً، وأنت الذي سمّاه الله الفاسق، وسمّي عليًّا المؤمن، حيث تفاخرتما فقلتَ له: اسكت يا عليّ، فأنا أشجع منك جَناناً، وأطول منك لساناً، فقال لك عليّ: اسكُتْ، يا وليد فأنا مؤمن وأنت فاسق، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[٢]، ثم أنزل فيك عَلَى موافقة قوله أيضاً: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٣].

ويحَك يا وليد! مَهْمَا نسيتَ، فلا تنسَ قول الشاعر فيك وفيه:

أنزل الله والكتاب عزيزٌ ... في عليٍّ وفي الوليد قُرَانَا
فتبوّا الوليد إذ ذاك فِسْقاً ... وعليٌّ مبوَّأً إيمانَا
ليس من كان مؤمناً - عَمْرَكَ الله - ... كَمَنْ كان فاسقاً خَوَّانَا
سوف يُدعَى الوليد بعد قليل ... وعليٌّ إلى الحساب عِيَانَا
فعليٌّ يُجزي بذاك جِناناً ... ووليدٌ يُجزي بذاك هَوانَا
رُبَّ جَدٍّ لِعُقْبَةَ بن أبانٍ ... لابس في بلادنا تُبّانَا[٤]

وما أنت وقريش؟ إنما أنت عِلْج من أهل صَفّورية، وأقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد، وأسنّ ممّن تدعى إليه.

وأما أنت يا عتبة، فوالله ما أنت بحصيف فأجيبَك، ولا عاقل فأحاورَك وأعاتبَك، وما عندك خير يُرْجَى، ولا شرّ يتقى، وما عقلك وعقل أمَتِك إلا سواء، وما يضرّ عليًّا لو سبَبْتَه على رؤوس الأشهاد!

وأما وعيدك إيّاي بالقتل، فهلا قتلت اللّحيانيّ إذ وجدته على فراشك! أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك:

---

(١) المشفر للبعير كالشفة للإنسان. «القاموس المحيط» مادة (شفر).
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٨. (٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٤) سراويل صغيرة تستر العورة المغلظة.

يـا لـلـرجـال وحـادثِ الأزمـان ولَـسُـبَّـةٍ تُـخـزي أبـا سـفـيـانِ
نُـبِّـئـتُ عـتـبـةَ خـانـه فـي عِـرسِـه جِـبْـسٌ لـئـيـمُ الأصـل مـن لِـحْـيـانِ[1]

وبعدَ هذا، ما أربأ بنفسي عن ذكره لفحشه، فكيف يخاف أحدٌ سيفَك، ولم تقتلْ فاضحَك! وكيف ألومك على بغض عليّ، وقد قتلَ خالك الوليد مبارزةً يوم بدْر، وشَرَكَ حمزة في قتل جدّك عتبة، وأوْحَدك من أخيك حنظلة في مقامٍ واحد!

وأما أنت يا مغيرة، فلم تكن بخليقٍ أن تقع في هذا وشِبْهه، وإنما مَثَلك مثَلُ البعوضة إذ قالت للنخلة: استمسكي، فإني طائرة عنك، فقالت النخلة: وهل علمتُ بكِ واقعة عليّ فأعلم بكِ طائرةً عني!

والله ما نشعرُ بعداوتك إيّانا، ولا اغتممْنا إذ علمنا بها، ولا يشقّ علينا كلامُك، وإن حدَّ الله في الزّنى لثابت عليك، ولقد درأ عمرُ عنك حقاً، الله سائله عنه[2]!

ولقد سألتَ رسول الله ﷺ: هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها؟ فقال: «لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنى»[3]، لعلمه بأنكَ زانٍ.

وأما فخركم علينا بالإمارة: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[4].

ثم قام الحسن فنفضَ ثوبه، وانصرف، فتعلّق عمرو بن العاص بثوبه، وقال: يا أمير المؤمنين، قد شهدتَ قوله فيَّ وقذفَه أمِّي بالزنى، وأنا مطالب له بحدِّ القذف.

فقال معاوية: خلِّ عنه لا جزاك الله خيراً. فتركه.

فقال معاوية: قد أنبأتكم أنه ممّن لا تطاق عارضتُه، ونهيتكم أن تسبّوه فعصيتموني، والله ما قام حتى أظلم عليَّ البيت، قوموا عنّي، فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككُم الحزْم، وعُدولِكم عن رأي النّاصح المشفِق، والله المستعان[5].

وروى الشَّعبيّ، قال: دخل عمرو بن العاص على معاوية يسأله حاجة، وقد كان بلغ معاوية عنه ما كَرِهَهُ، فكره قضاءها وتشاغل، فقال عمرو: يا معاوية، إنّ السخاء فِطنة، واللؤمَ تغافل، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين. فقال معاوية: يا عمرو، بماذا تستحقّ منّا قضاء الحوائج

---

(١) الجبس: الفاسق، الرديء، الجبان، اللئيم. «القاموس المحيط». مادة (جبس).
(٢) أخرجه ابن الدمشقي في جواهر المطالب: ٢/ ٢٢٦.
(٣) انظر أنساب الأشراف للبلاذري: ١/ ٤٩٢ ح ٩٩٠ - ٩٩٣، والتذكرة الحمدونية ٣/ ٣١٢ ح٩٣٨.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٥) أخرجه ابن الدمشقي في جواهر المطالب: ٢/ ٢٢٦.

العظام؟ فغضب عمرو وقال: بأعظم حقّ وأوْجَبِه، إذْ كنتَ في بحر عَجّاج، فلولا عمرو لغرقتَ في أقلّ مائه وأرقّه، ولكنّي دفعتُك فيه دفعة فصرتَ في وسطه، ثم دفعتك فيه أخرى فصرت في أعلى المواضع منه، فمضى حكمُك، ونفذ أمرُك، وانطلق لسانُك بعد تلجلجِه، وأضاء وجهك بعد ظلمتِه، وطمستُ لك الشمسَ بالعِهْن المنفوش، وأظلمت لك القمر بالليلة المدلهمّة[١].

فتناوم معاوية، وأطبق جفنيه مليًّا، فخرج عمرو، فاستوى معاوية جالساً وقال لجلسائه: أرأيتم ما خرج من فم ذلك الرجل؟ ما عليه لو عرَّض، في التعريض ما يكفي! ولكنه جَبهني بكلامه، ورماني بسموم سهامه.

فقال بعض جلسائه: يا أميرَ المؤمنين، إن الحوائج لتُقَضى على ثلاث خصال: إمّا أن يكون السائلُ لقضاء الحاجة مستحقًّا فتُقْضَى له بحقّه، وإمّا أن يكون السائل لئيماً فيصونَ الشريف نفسَه عن لسانه فيقِضي حاجته، وإمّا أن يكون المسؤول كريماً فيقتضيَها لكرمه، صغُرتْ أو كبرتْ.

فقال معاوية: لله أبوك! ما أحسن ما نطقت! وبعث إلى عمرو فأخبره، وقضى حاجته ووصله بصِلَة جليلة، فلما أخذها ولّى منصرفاً. فقال معاوية: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[٢] فسمعَها عمرو، فالتفت إليه مغضَباً وقال: والله يا معاوية، لا أزال آخذ منك قهراً، ولا أطيع لك أمراً، وأحفِر لك بئراً عميقاً، إذا وقعت فيه لم تدرَك إلا رميماً. فضحك معاوية، فقال: ما أريدك يا أبا عبد الله بالكلمة، وإنما كانت آية تلوتها من كتاب الله عرَضتْ بقلبي، فاصنع ما شئت.

وروى المدائني قال: بينا معاوية يوماً جالساً عنده عمرو بن العاص، إذ قال الآذان: قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فقال عمرو: والله لأسُوءَنّه اليوم، فقال معاوية: لا تفعل يا أبا عبد الله، فإنك لا تنصَف منه، ولعلّك أن تُظهِرَ لنا من منقبته ما هو خفيّ عنّا، وما لا نحبُّ أن نعلمَه منه.

وغشيهم عبد الله بن جعفر، فأدناه معاوية وقرَّبه، فمال عمرو إلى بعض جلساء معاوية، فنال من عليّ عليه السلام جِهاراً غير ساتر له، وثَلبه ثلْباً قبيحاً[٣].

فالتمع لونُ عبد الله بن جعفر واعتراه أفْكَل حتى أرْعِدت خصائله، ثم نزل عن السرير كالفَنِيق، فقال عمرو: مَهْ يا أبا جعفر! قال له عبد الله: مه لا أمّ لك! ثم قال:

أظـنّ الـحـلـم دلّ عـلـيَّ قـومـي   وقـد يُـسْـتَـجْـهَـلُ الـرجـلُ الـحـلـيـمُ

(١) شديدة الظلمة. «القاموس المحيط». مادة (اذلهمّ).
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٨.
(٣) عابه عيباً قبيحاً. «القاموس المحيط». مادة (ثلب).

ثم حَسَر عن ذراعيْه، وقال: يا معاوية، حتّامَ نتجرّع غيظَك؟ وإلى كم الصبرُ على مكروه قولك، وسيّيء أدبك، وذميم أخلاقك! هَبِلتْك الهَبُول! أما يزجرك ذِمام المجالَسة عن القَذْع لجليسك إذا لم تكن لك حُرْمة منْ دينك تنهاك عما لا يجوز لك! أما والله لو عَطَفَتْك أواصرُ الأرحام، أو حاميْتَ على سهمك من الإسلام، ما أرعَيْت بني الإماء المُتْك[1]، والعَبيد الصُّكّ[2] أعراض قومك.

وما يجهل موضعَ الصَّفْوة إلا أهل الجفوة، وإنك لتعرف وشائظ قريش وصَبوة غرائزها، فلا يدعونك تصويبُ ما فَرط من خطئك في سفك دماء المسلمين، ومحاربة أمير المؤمنين، إلى التمادي فيما قد وضح لك الصواب في خلافه، فاقصِدْ لمنهج الحقّ، فقد طال عَمَهُك عن سبيل الرُّشد، وخبطُك في بحور ظلمة الغيّ.

فإن أبيت ألاّ تتابعنا في قبح اختيارك لنفسك، فأعفِنا من سوء القالة فينا إذا ضمّنا وإياك النديّ، وشأنك وما تريد إذا خلوت، والله حسيبك، فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك.

ثم قال: إنك إن كلفتني ما لم أُطِقْ ساءك ما سَرّك منّي من خُلُق.

فقال معاوية: يا أبا جعفر، أقسمت عليك لتجلسنّ، لعن الله مَنْ أخرج ضَبّ صَدْرك من وجاره، محمولٌ لك ما قلت، ولك عندنا ما أمّلت، فلو لم يكن مَحْمدك ومنصبك لكان خُلُقك وخَلْقك شافعيْن لك إلينا، وأنت ابنُ ذي الجناحين وسيّد بني هاشم.

فقال عبد الله: كلاّ، بل سيّد بني هاشم حسن وحسين، لا ينازعهما في ذلك أحد. فقال: أبا جعفر، أقسمت عليك لَمَا ذكرت حاجة لك إلا قضيتُها كائنة ما كانت، ولو ذهبتْ بجميع ما أملِك، فقال: أما في هذا المجلس فلا، ثم انصرف.

فأتبعه معاوية بصرَه، وقال: والله لكأنه رسول الله ﷺ، مشيُه وخُلُقه وخَلْقه، وإنه لمن مِشْكاتِه، ولوددت أنه أخي بنفيس ما أملِك.

ثم التفت إلى عمرو، فقال: أبا عبد الله، ما تراه منعه من الكلام معك؟ قال: ما لا خفاء به عنك، قال: أظنّك تقول: إنه هابَ جوابك، لا والله، ولكنّه ازدَراك واسْتَحْقرك، ولم يرك للكلام أهلاً، أما رأيتَ إقبالَه عليّ دونك ذاهباً بنفسه عنك!

فقال عمرو: فهل لك أن تسمع ما أعددتُه لجوابه؟ قال معاوية: اذهب إليك أبا عبد الله، فلات حين جوابٍ سائرَ اليوم. ونهض معاوية وتفرّق الناس[3].

---

(١) أنثى الذباب، أو ذكر، «القاموس المحيط» مادة (متك).
(٢) رجل أصك: مضطرب الركبين والعرقوبين. «القاموس المحيط». مادة (صكك).
(٣) أخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ١/ ٢٠٩.

عبد الله بن العباس ورجالات قريش في مجلس معاوية

وروى المدائني أيضاً قال: وَفَد عبد الله بن عباس على معاوية مرّة، فقال معاوية لابنه يزيد، ولزياد بن سُمية، وعتبة بن أبي سفيان، ومَرْوان بن الحكم، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن أمّ الحكم: إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس، وما كان شَجَر بيننا وبينه وبين ابن عمّه، ولقد كان نَصَبه للتحكيم فدُفع عنه، فحرّكوه على الكلام لنبلُغَ حقيقة صفته، ونقِفَ على كنْه معرفته، ونعرف ما صُرف عنا من شَبَا حَدّه، وزُويَ عَنَّا من دهاء رأيه، فربما وُصِف المرء بغير ما هو فيه، وأُعْطِيَ من النعت والاسم ما لا يستحقه.

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس، فلما دخل واستقرّ به المجلس، ابتدأه ابن أبي سفيان فقال: يابن عباس، ما منع عليًّا أن يوجّه بك حَكماً؟ فقال: أما والله لو فعل لقرن عمْراً بصَعْبة من الإبل، يوجع كفّه مراسُها، ولأذهلتُ عقله، وأجرضته[1] بريقه، وقدحت في سويداء قلبه، فلم يبرمْ أمراً، ولم ينفض تراباً، إلا كنت منه بمرأى ومسمع، فإن أنكأه أدميت قواه، وإن أُدْمِهِ فصَمت عراه، بغَرْب مِقْوَل لا يُفلّ حدُّه، وأصالة رأي كمتاح الأجل لا وَزَر منه، أصدع به أديمَه، وأفلُّ به شَبا حَدّه، وأشحَذُ به عزائم المتقين، وأزيح به شُبَه الشاكين.

فقال عمرو بن العاص: هذا والله يا أمير المؤمنين نجومُ أوّل الشرّ، وأفولُ آخرِ الخيْر، وفي حَسْمِه قطع مادته، فبادرْه بالحملة، وانتهز منه الفرصة، واردَع بالتنكيل به غيرَه، وشرِّد به مَنْ خَلْفه.

فقال ابن عباس: يا بنَ النابغة، ضلَّ والله عقلُك، وسَفُه حِلْمك، ونطق الشيطانُ على لسانك، هلاّ توليتَ ذلك بنفسك يوم صِفّين حين دُعيْت نَزالِ، وتكافح الأبطال، وكثرت الجراح، وتقصّفتِ الرِّماح، وبرزتَ إلى أمير المؤمنين مصاوِلاً، فانكفأ نحوك بالسيف حاملاً، فلما رأيت الكواشرَ من الموت، أعددت حيلَة السلامة قبل لقائه، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه، فمنحته - رجاء النجاة - عورتك، وكشفتَ له - خوف بأسه - سوأتك، حذَراً أن يصطلمك بِسَطْوَته، ويلتهمَك بحمْلته، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته، وحسَّنْت له التعرُّض لمكافحته، رجاء أن تكتفي مؤنته، وتعدم صورته، فعلم غِلَّ صدرك، وما انحنت عليه من النفاق أضلعُك، وعرَف مَقرَّ سهمِك في غَرَضك.

فاكفف غَرْب لسانِك، واقْمَع عوراء لفظك، فإنك لمن أسدٍ خادرٍ، وبحر زاخر، إن تبرّزت للأسد افترسَك، وإن عُمْت في البحر قمسك.

---

(١) أجرضه بريقه: أغصّه. «القاموس المحيط». مادة (جرض).

فقال مرْوان بن الحكم: يابن عباس إنّك لتصرف أنيابَك، وتُورى نارك، كأنك ترجو الغلَبة وتؤمّل العافية، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم لتناولكم بأقصرِ أنامله، فأوردكم منهلاً بعيداً صدَرُه، ولعمري لئن سَطَا بِكُمْ ليأخذَنّ بعض حقّه منكم، ولئن عَفَا عن جرائركم فقديماً ما نُسب إلى ذلك.

فقال ابن عباس: وإنك لتقول ذلك يا عدوّ الله، وطريد رسول الله، والمباح دمه، الداخل بين عثمان ورعيّته، بما حملهم على قطع أوداجه، وركوب أثباجه[1]! أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره.

وأما قولك لي: «إنك لتصرف أنيابك، وتورى نارك»، فسَلْ معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهرير، كيف ثباتنا للمَثُلات، واستخفافنا بالمعضلات، وصدقُ جلادنا عند المصاوَلة، وصبرُنا على اللأْواء والمطاولة، ومصافحتنا بجباهنا السيوف المرهَفة، ومباشرتُنا بنحورنا حَدّ الأسِنّة، هل خِمنا عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبذل مُهَجنا للمتالف؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود، ولا يومٌ مشهودُ، ولا أثر معدود، وإنهما شهدا ما لو شهدتَ لأقلقك، فاربَعْ على ظَلْعِك، ولا تتعرّض لما ليس لك، فإنك كالمغرور في صَفَدٍ، لا يهبط برجل، ولا يَرْقى بيد.

فقال زياد: يابن عباس، إني لأعلم ما منع حسَنا وحسيناً من الوفود معك على أمير المؤمنين إلا ما سوّلت لهما أنفسهما، وغرّهما به مَنْ هو عند البأساء سلّمهما، وايم الله لو وَليتُهما لأدأبا في الرِّحلة إلى أمير المؤمنين أنفسَهما، ولقلّ بمكانهما لبثَهما.

فقال ابن عباس: إذن والله يقصرُ دونهما باعُك، ويضيق بهما ذراعك، ولو رُمتَ ذلك لوجدت من دونهما فئة صُدُقاً، صُبُراً على البلاء، لا يخِيمون عن اللقاء، فلَعَركوك بكلاكلهم، ووَطِئوك بمناسمهم، وأوجروك مُشْقَ[2] رماحهم، وشِفار سيوفهم ووخز أسنتهم، حتى تشهد بسوء ما أتيت، وتتبيّن ضياع الحزم فيما جنيت. فحذار حذار من سوء النية فتكافأ برد الأمنيّة، وتكون سبباً لفساد هذين الحيَّيْن بعد صلاحهما، وسعياً في اختلافهما بعد ائتلافهما، حيث لا يضرّهما إبساسُك، ولا يغني عنهما إيناسك.

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم: لله دَرُّ ابن مُلجم! فقد بلغ الأمل، وأمِن الوجل، وأحدَّ الشّفرة وألان المُهْرَة، وأدرك الثار، ونفَى العار، وفاز بالمنزلة العليا، ورقي الدرجة القصوى.

فقال ابن عباس: أما والله: لقد كَرع كأسَ حتفه بيده، وعجَّل الله إلى النار بروحه، ولو

---

(١) الأثباج: جمع ثبج وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، «القاموس المحيط». مادة (ثبج).
(٢) المشق: السرعة في الطعن والضرب. اللسان، مادة (مشق).

أبدَى لأمير المؤمنين صفحَته لخَالطه الفحل القَطِم[١] والسيف الخَذِم[٢]، ولألعقه صاباً، وسقاه سمًّا، وألحقه بالوليد وعُتبة وحنظلة، فكلّهم كان أشدّ منه شكيمة، وأمضى عزيمة، ففرَى بالسيف هامَهم، ورمّلهم بدمائهم، وقَرى الذئاب أشلاءهم، وفَرَّق بينهم وبين أحبائهم: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[٣]، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[٤]، ولا غَرْو إن ختِل، ولا وصمةَ إن قُتل، فإنّا لكما قال دُرَيد بن الصِّمَّة:

فإنا لَلحْمُ السيف غيرَ مكَرَّهٍ ... ونلحِمه طوراً وليس بذِي نُكرِ
يُغار علينا واترِين فيُشتفَى ... بنا إن أُصبنا، أو نُغير على وِترِ

فقال المغيرة بن شُعبة: أما والله لقد أشرت على عليٍّ بالنصيحة فآثر رأيه، ومضى على غُلَوائه، فكانت العاقبة عليه لا له، وإني لأحُسِب أن خلَفه يقتدون بمنهجه.

فقال ابن عباس: كان والله أميرُ المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأي، ومعاقد الحزم، وتصريف الأمور، من أن يقبل مشورتَك فيما نهى الله عنه، وعَنّف عليه، قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[٥]، ولقد وقفك على ذِكر مبين، وآية متلّوة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[٦]، وهل كان يسوغ له أن يحكّم في دماء المسلمين وفَيْءِ المؤمنين، من ليس بمأمون عنده، ولا موثوق به في نفسه؟ هيهات هيهات! هو أعلم بفرْض الله وسنة رسوله أن يُبطِن خلاف ما يظهر إلاّ للتقيّة، ولات حين تَقِيّة! مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار، يمضي كالسيف المصلَت في أمر الله، مؤثراً لطاعة ربّه، والتقوى على آراء أهل الدنيا.

فقال يزيد بن معاوية: يابن عباس، إنك لتنطق بلسان طَلْق يُنبِىءُ عن مكنون قلب حُرِق، فاطْوِ ما أنتَ عليه كَشْحاً، فقد محا ضوء حقنا ظلمةَ باطلكم.

فقال ابن عباس: مهلاً يزيد، فوالله ما صفَتِ القلوبُ لكم منذ تكدّرت بالعداوة عليكم، ولا دَنَتْ بالمحبة إليكم مذ نأت بالبغضاء عَنْكم، لا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم، وإن تدُل الأيام نستقض ما سُدّ عنا، ونسترجع ما ابتُزّ منا، كيلاً بكيل، ووزْناً بوزن، وإن تكن الأخرى فكفى بالله وليًّا لنا، ووكيلاً على المعتدين علينا.

فقال معاوية: إنّ في نفسي منكم لحزازاتٍ يا بني هاشم، وإني لخليقٌ أن أدرك فيكم الثار، وأنفي العار، فإن دماءنا قِبَلكم، وظلامتَنا فيكم.

---

(١) قَطِم: اشتهى الضراب والنكاح واللحم أو غيره. القاموس المحيط، مادة (قطم).
(٢) الخذم: القاطع. القاموس المحيط، مادة (خذم).
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٤) سورة مريم، الآية: ٩٨.
(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٥١.

فقال ابن عباس: والله إن رُمْتَ ذلك يا معاوية لتثيرَنّ عليك أسْداً مُخدرة، وأفاعيَ مطرقة، يفثؤها كثرة السلاح ولا يعَضُّها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم، يضربون قدُماً ماً مَن نأواهم، يهون عليهم نُباح الكلاب وعُواء الذئاب، لا يُفاتون بوِتر، ولا يُسبَقون إلى يم ذِكر، قد وَطَّنُوا على الموت أنفسَهم، وسَمَتْ بهم إلى العَلْياء هِمَمُهم، كما قالت الأزديّة:

قــومٌ إذا شـهـدوا الـهـيَـاج فَـلا ضـربٌ يُـنـهـنِـهـهـمْ ولا زَجْـرُ
وكـأنّـهـم آسـادُ غِـيـنَـة قَـدْ غَـرِثـتْ وبـلّ مـتـونَـهـا الـقـطـرُ

فلتَكونَنَّ منهم بحيث أعددتَ ليلةَ الهرير للهرب فرسَك، وكان أكبر همّك سلامة حُشاشةِ سك، ولولا طغامٌ من أهل الشام وقوْك بأنفسهم، وبذلوا دونك مُهَجَهم، حتى إذا ذاقوا وَخز لنفار، وأيقنوا بحلول الدّمار، رفعوا المصاحف مستجيرين بها، وعائذين بعِصْمَتها - لكنتَ واً مطروحاً بالعَراء، تَسْفِي عليك رياحُها، ويعتورك ذُبابها.

وما أقول هذا أريد صرفَك عن عَزيمتك، ولا إزالتَك عن معقود نيّتك، لكنّ الرَّحِم التي طف عليك، والأوامر التي توجب صرفَ النّصيحة إليك.

فقال معاوية: لله درّك يابن عباس! ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيلٍ، ورأى أصيلٍ! لله لو لم يلد هاشمٌ غيرَك لما نقص عددُهم، ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم.

ثم نهض، فقام ابن عباس وانصرف[1].

وروى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في أماليه، أن عمرو بن العاص قال لعُتْبة بن أبي يان يوم الحكَمين: أما ترى ابنَ عباس قد فتح عينيْه، ونشَر أذنيه، ولو قدر أن يتكلّم بهما ، وإن غَفْلة أصحابه لمجبورة بفطنته، وهي ساعتنا الطُّولى فاكفنيه. قال عتبة: بجهدي.

قال: فقمت فقعدت إلى جانبه، فلما أخذ القومُ في الكلام أقبلت عليه بالحدَيث، فقرَع يّ، وقال: ليست ساعة حديث، قال: فأظهرتُ غضباً، وقلت: يابن عباس، إن ثقتَك لامنا أسرعتْ بك إلى أعراضنا، وقد والله تقدّم من قَبْلُ العذر، وكثُر مِنّا الصبر، فجئت بت من عمرو بن العاص، فرماني بمؤخر عينيه وقال: ما صنعت؟ فقلت: كفيتك التّقوالة، مْحَم كما يُحمحِم الفرس للشعير. قال: وفات ابن عباس أوّل الكلام، فكره أن يتكلّم في ه. وقد ذكرنا نحن هذا الخبر فيما تقدم في أخبار صِفّين على وجه آخر غير هذا الوجه.

فأما خبر عُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ، أخي خالد بن الوليد مع عمرو بن العاص

---

[1] أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٢/ ١٧٢، وأخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ١/ ١٦٧.

فقد ذكره ابن إسحاق في كتاب «المغازي» قال: كان عُمارة بن الوليد بن المغيرة وعمرو بن العاص بن وائل، بعد مَبْعَث رسول الله ﷺ، خرجا إلى أرض الحبشة على شِرْكهما، وكلاهما كان شاعراً عارِماً فاتِكاً. وكان عُمارة بن الوليد رجلاً جميلاً وَسيماً تهواه النساء، صاحب محادثة لهنّ، فركبا البحر ومع عمرو بن العاص امرأته، حتى إذا صاروا في البحر ليالِيَ، أصابا من خَمْرٍ معهما، فلما انتشى عُمارة قال لامرأة عمرو بن العاص: قبّليني، فقال لها عمرو: قبّلي ابنَ عمك، فقبّلته فَهَوِيَها عُمارة، وجعل يراودها عن نفسها، فامتنعتْ منه. ثم إن عمراً جلس على مِنجاف السفينة يبول، فدفعه عُمارة في البحر فلما وقع عمرو سبَح، حتى أخذ بمِنجاف السفينة، فقال له عُمارة: أما والله لو علمتُ سابحٌ ما طرحتُك، ولكنّني كنتُ أظنّ أنك لا تحسِنُ السباحة، فضغِن عمرو عليه في نفسه، وعلم أنّه كان أراد قلته، ومضيا على وجههما ذلك، حتى قدِما أرضَ الحبشة، فلما نزلاها كتب عمرو إلى أبيه العاص بن وائل، أن اخلعْني وتبرّأ من جريرتي إلى بني المغيرة وسائر بني مخزوم، وخَشِي على أبيه أن يُتْبع بجريرته. فلما قدِم الكتابُ على العاص بن وائل، مشى إلى رجال بني المغيرة وبني مخزوم، فقال: إن هذين الرّجُلين قد خرجا حيث علمتم، وكلاهما فاتك صاحبُ شرٍّ، غيرُ مأمونيْن على أنفسهما، ولا أدري ما يكون منهما! وإنّي أبرأ إليكم من عمرو وجريرته، فقد خلعتُه. فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو مخزوم: وأنتَ تخاف عمراً على عُمارة! ونحن فقد خلعنا عُمارة وتبرأْنا إليك من جريرته، فخلِّ بين الرجلين. قال: قد فعلتُ، فخلعوهما وبرىء كلّ قوم من صاحبهم وما يجري منه.

قال: فلما اطمأنّا بأرض الحبشة، لم يلبثْ عُمارة بن الوليد أن دَبّ لامرأة النجاشيّ - وكان جميلاً صَبيحاً وسيماً - فأدخلته، فاختلف إليها، وجعل إذا رجع من مَدخله ذلك يخبر عمراً بما كان من أمره، فيقول عمرو: لا أصدقك أنّك قدرت على هذا، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك، فلما أكثر عليه عُمارة بما كان يخبره - وكان عمرو قد علم صدقَه، وعرف أنه دخل عليها، ورأى من حاله وهيئته وما تصنع المرأة به إذا كان معها، وبيتوته عندها، حتى يأتي إليه مع السَّحَر ما عرف به ذلك، وكانا في منزلٍ واحد، ولكنّه كان يريد أن يأتيَه بشيء لا يستطاع دفعه، إن هو رفع شأنه إلى النجاشيّ - فقال له في بعض ما يتذاكران من أمرها: إنْ كنتَ صادقاً فقلْ لها: فلتدهنْك بدُهن النجاشيّ الذي لا يدّهن به غيره، فإني أعرفه، وائتني بشيء منه حتى أصدّقك، قال: أفعل.

فجاء في بعض ما يدخل إليها، فسألها ذلك، فدَهنته منه، وأعطته شيئاً في قارورة، فلما شمّه عمرو عَرفه، فقال: أشهد أنك قد صدَقت! لقد أصبتَ شيئاً ما أصابَ أحد من العرب مثلَه قطّ، ونلت من امرأة الملك شيئاً ما سمعنا بمثل هذا. وكانوا أهلَ جاهلية وشباناً، وذلك في أنفسهم فَضْلٌ لمن أصابه وقَدَر عليه.

ثم سكت عنه حتى اطمأنّ، ودخل على النجاشيّ، فقال: أيّها الملك، إن معي سفيهاً من سفهاء قريش، وقد خشيتُ أن يعرّني عندك أمرُه، وأردت أن أُعلمَك بشأنه، وألاّ أرفع ذلك إليك حتى أستثبت أنه قد دخل على بعض نسائك فأكثَر. وهذا دُهنك قد أعطته وادّهن به.

فلما شمّ النجاشيّ الدُّهن، قال: صدقت، هذا دُهني الذي لا يكون إلا عند نسائي، فلما أثبتت أمرَه، دعا بعُمارة، ودعا نسوة أُخَرَ، فجرّدُوه من ثيابه، ثم أمرهنّ أن ينفخُن في إحليله، ثم خلى سبيله.

فخرج هارباً في الوحش، فلم يزلْ في أرض الحبشة، حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب، فخرج إليه رجالٌ من بني المغيرة، منهم عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة - وكان اسم عبد الله قبل أن يُسلم بجيراً، فلما أسلم، سمّاه رسول الله ﷺ عبد الله - فرصدوه على ماءٍ بأرض الحبشة، كان يرِدُه مع الوحش، فزعموا أنه أقبل في حمُر الوحش ليرد معها، فلما وجد ريح الإنس، هرب منه، حتى إذا أجهده العطش، ورد فشرِب حتى تملّأ، وخرجُوا في طلبه.

قال عبد الله بن أبي ربيعة: فسبقتُ إليه فالتزمته، فجعل يقول: أرسِلْني، إني أموت إن أمسكتَني. قال عبد الله: فضبطتُه فمات في يدي مكانه، فواروْه ثم انصرفوا.

وكان شَعْرُه - فيما يزعمون - قد غَطّى كُلَّ شيء منه، فقال عمرو بن العاص، يذكر ما كان صنع به وما أراد من امرأته:

تَعلَّمْ عُمَارُ أنّ من شرّ سُنَّةٍ ... على المرء أن يُدْعَى ابنُ عمٍّ له ابْنَما
أأن كنتَ ذا بُرْدَيْنِ أحْوَى مُرجَّلاً ... فلستَ براعٍ لابن عمك محرَمَا
إذا المرءُ لم يترك طعاماً يحبُّه ... ولم ينهَ قلباً غاوياً حيثُ يمّما
قضى وَطَراً منهُ يَسِيراً وأصبحتْ ... إذا ذكرت أمثالُهَا تملأ الفَمَا

وأما خبر عمرو بن العاص في شخوصه إلى الحبشة، ليكيد جعفر بن أبي طالب والمهاجرين من المؤمنين عند النجاشيّ، فقد رواه كلّ من صنف في السيرة، قال محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي» قال:

حدّثني محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهريّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، زوجة رسول الله ﷺ، قالت:

لما نزلنا بأرض الحبشة جاورْنا بها خيرَ جارٍ، النجاشيّ، أمِنَّا على ديننا، وعبَدْنا الله لا نُؤذَى كما كنا نُؤذَى بمكة، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا

إلى النجاشيّ في أمرنا رجلين منهم جَلْدين، وأن يُهدُوا للنّجاشيّ هدايا ممّا يُستطرَف من متاع مكّة، وكان من أعجب ما يأتيه منه الأدَم، فجمعوا أدَماً كثيراً، ولم يتركوا من بَطارقته بِطْريقاً إلا أهدَوا إليه هديّة. ثم بعثوا ذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ وعمرو بن العاص بن وائل السهميّ، وأمروهما أمْرَهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلِّ بِطريق هديته، قبل أن تُكلِّما النجاشيّ فيهم.

ثم قَدِما إلى النجاشيّ، ونحن عنده في خيرِ دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته، قبْلَ أن يكلّما النجاشيّ، ثم قالا للبطارقة:

إنه قد فَرّ إلى بلد الملك منَّا غِلمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحنُ ولا أنتم، وقد بعثَنا إلى الملك أشرافُ قومهم لنردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يُسْلِمَهم إلينا ولا يكلّمهم، فإن قومَهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قرَّبا هدايا الملك إليه فقَبِلها منهم، ثم كلّماه، فقالا له:

أيّها الملك، قد فرّ إلى بلادك منّا غِلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، جاؤوا بدينٍ ابتدعُوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنَا فيهم إليك أشرافُ قومِنا من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردّهم عليهم، فهمْ أعلى بهم عَيْناً، واعلم بما عابوا عليهم وعاينوه منهم.

قالت أم سلَمة: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، من أن يسمع النجاشيّ كلامهم.

فقالت بطارقة الملك وخواصّه حوله: صدقاً أيها الملك، قومُهم أعلَى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم فليسْلِمْهم الملك إليهما، ليردّاهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب الملك وقال: لا ها الله! إذاً لا أسلمُهم إليهما، ولا أخفِر قوماً جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على سواي، حتى أدعوَهم وأسألهم عَمّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسْلمتهم إليهما ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتُهم منهم، وأحسنتُ جوارَهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علِمْناه، وما أمرَنا به نبينا ﷺ كائناً [في ذلك] ما هو كائن، فلّما جاؤوه، وقد دعا النجاشيُّ أساقِفتَه، فنشروا مصاحفَهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت أم سلمة: وكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب فقال له:

أيها الملك إنا كنَّا قوماً في جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل المِيتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منّا الضعيف. فكنَّا على ذلك حتى بعث الله عزّ وجلّ علينا رسولاً منّا، نعرف نسبَه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحِمِ، وحسن التجاور، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن سائر الفواحش، وقَوْل الزورِ، وأكْل مال اليتيم، وقذف المحصَنة، وأمَرَنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وبالصلاة وبالزكاة والصيام.

قالت: فعدّد عليه أمورَ الإسلام كلَّها، فصدّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حَرَّم علينا، وأحْلَلْنا ما أَحَلّ لنا، فعدَا علينا قومُنا فعذّبونا، وفتنُونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأصنام والأوثان عن عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث، فلمّا قهورنا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغِبنا في جوارك، ورجونا ألاّ نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشيّ: فهل معك مما جاء به صاحبكم عن الله شيء؟ فقال جعفر: نعم. فقال اقرأ عليّ، فقرأ عليه صدْراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[1]، فبكى حتى اخضّلت لحيتُه، وبكت أساقفته حتى أخضلوا لحاهم. ثم قال النجاشيّ: والله إن هذا والذي جاء به عيسى لَيخرج من مشكاةٍ واحدة، والله لا أُسْلمكم إليهم.

قالت أمّ سلمة: فلمّا خرج القوم مِن عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأعيبُهم غداً عنده بما يستأصل به خَضراءهم، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرَّجُلَيْن: لا تفعلْ، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفوا، قال: والله لأخبرنّه غداً أنهم يقولون في عيسى ابن مريم إنه عبدٌ. ثم غَدا عليه من الغد، فقال: أيّها الملك، إنّ هؤلاء يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسِلْ إليهم فسلْهم عمّا يقولون فيه، فأرسل إليهم.

قالت أم سلمة: فما نزل بنا مثلُها. واجتمع المسلمون، وقال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه والله ما قال عزّ وجلّ، وما جاء به نبينا عليه السلام، كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلمّا دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر: نقول إنه عبد الله ورسوله وروحُه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول.

---

(١) سورة مريم، الآية: ١.

قالت: فضرب النجاشيّ يديْه على الأرض، وأخذ منها عوداً، وقال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قال هذا العود.

قالت: فقد كانت بطارقته تناخرت حوله، حين قال جعفر ما قال، فقال لهم النجاشيّ: وإن تناخرتم!

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتُم «سيومٌ» بأرضي، أي آمنون، مَنْ سبّكم غَرِم، ثم مَنْ سَبّكم غرم، ثم مَنْ سَبّكم غرم، ما أُحِب أن لي دَبْراً ذهباً وأنّي آذيتُ رجلاً منكم - والدّبر بلسان الحبشة: الجبل - ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي فيها، فوالله ما أخذ الله مني الرِّشوة حتى ردّني إلى مُلْكي. فآخذ الرِّشوة فيه، وما أطاع الناسَ فيّ أفأطيعهم فيه!

قالت: فخرج الرجلان من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده في خير دار مع خير جار، فوالله إنّا لعلى ذلك، إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه في ملكه.

قالت أمّ سلمة: فوالله ما أصابنا خوفٌ وحزن قَطّ كان أشدَّ من خوف وحزنٍ نزل بنا أن يظهرَ ذلك الرجل على النجاشيّ، فيأتي رَجل لا يعرفُ من حَقّنا ما كان يعرف منه.

قالت: وسار إليه النجاشيُّ وبينهما عرْض النِّيل، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضر وَقْعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزّبير بن العوام: أنا - وكان من أحدَث المسلمين سِنًّا - فنفخوا له قربة فجعلناها تحت صدره، ثم سَبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها يلتقي القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت: ودعوْنا الله للنجاشيّ بالظهور على عدوّه والتمكين له في بلاده، فوالله إنا لَعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير يسعى ويلوّح بثوبه ويقول: ألا أبشِرُوا، فقد ظهر النجاشيّ وأهلك الله عدوّه.

قالت: فوالله ما أعلَمُنا فرحنَا فرحة مثلَها قطّ، ورجع النجاشيّ، وقد أهلك الله عدوَّه وتمكّن ومكّن له في بلاده، واستوثق له أمر الحبشة، فكنّا عنده في خير منزلٍ ودار إلى أن رجعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة(١).

وروي عن عبد الله بن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: لقد كاد عمرو بن العاص عمَّنا جعفراً بأرض الحبشة عند النجاشيّ، وعند كثير من رعيّته بأنواع الكيد ردّها الله تعالى عنه بلطفه، رماه بالقتل والسَّرَق والزّنى فلم يلصَق به شيء من تلك العُيوب، لما شاهدَه القوم من طهارته وعبادته، ونُسْكِه وسيما النبوّة عليه، فلما نبا مِعْوَلُه عن صَفاتِه، هيّأ له سُمًّا قذفه إليه في طعام،

(١) أخرجه المحب الطبري في ذخائر العقبى: ٢١١، وابن هشام في سيرته: ١/ ٢٢٦.

فأرسل الله هِرًّا كفأ تلك الصَّحفة، وقد مدّ يده نحوه ثم مات لوقته، وقد أكل منها. فتبين لجعفر كيدُه وغائلته فلم يأكل بعدها عنده، وما زال ابن الجزّار عدُوًّا لنا أهلَ البيت.

وأمّا خبر عمرو في صِفّين واتقائه حملة عليّ عليه السلام، بطرحه نفسه على الأرض وإبداء سَوْأته: فقد ذكره كلّ من صنف في السّيَر كتاباً، وخصوصاً الكتب الموضوعة لصِفّين.

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين، قال:

حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي عمرو، وعن عبد الرحمن بن حاطب، قال: كان عمرو بن العاص عدواً للحارث بن نضر الخثعمي، وكان من أصحاب عليّ عليه السلام، وكان عليّ عليه السلام قد تهيبتْه فرسان الشام، وملأ قلوبَهم بشجاعته، وامتنع كلٌّ منهم من الإقدام عليه. وكان عمرو قلّما جلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث بن نضْر الخثعميّ وعابه، فقال الحارث:

لـيـس عـمـرو بـتـاركٍ ذكـرَه الـحـا ... رث بـالـسـوء أو يـلاقـي عـلـيّـا
واضـعُ الـسـيـف فـوق مـنـكِـبـه الأيـ ... ـمـن لا يـحـسـب الـفـوارس شـيّـا
لـيـتَ عـمـراً يـلـقـاه في حَـوْمـة الـنَّقْـ ... ـع وقـد أمـسـت الـسـيـوف عِـصِـيًّـا
حـيـث يـدعـو لـلـحـرب حـامـيـة الْـقَـوْ ... مِ إذا كـان بـالـبِـزار مَـلـيّـا
فـالـقَـه إن أردت مـكـرُمـة الـدّهـ ... ـر أو الـمـوت كـلّ ذاك عـلـيّـا

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمراً، فأقسم بالله ليلقيّن عليًّا ولو مات ألف موتة. فلما اختلطت الصفوف لقيَه فحمل عليه برمحه، فتقدم عليٌّ عليه السلام وهو مخترط سيفاً معتقلٌ رمحاً، فلما رهقه همز فرسَه ليعلُوَا عليه، فألقى عمرو نفسه عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه، كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستدبِراً له، فعدَّ الناس ذلك من مكارمه وسؤدُده، وضرِب بها المثل.

قال نصر(١): وحدثني محمد بن إسحاق، قال: اجتمع عند معاوية في بعض ليالي صِفّين عمرو بن العاص، وعُتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عُقبة، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن عامر، وابن طلحة الطَّلحات الخُزاعيّ، فقال عتبة: إن أمْرَنا وأمرَ عليّ بن أبي طالب لَعجَب! ما فينا إلا موتور مُجتاح.

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢/١٥٨.

أمّا أنا فقتل جَدّي عُتبة بن ربيعة، وأخي حنظلة، وشرَك في دم عمّي شيبة يوم بدر. وأما أنتَ يا وليد، فقتلَ أباك صَبْراً، وأما أنت يابن عامر، فصرع أباك وسلب عمك. وأما أنت يا بن طلحة، فقتل أباك يوم الجمل، وأيْتَم إخوتك. وأما أنت يا مروان فكما قال الشاعر:

وأفلتهنّ عِلْباءٌ جَريضاً ... وَلَوَ أدْرَكْنَهُ صَفِرَ الوِطابُ[1]

فقال: معاوية هذا الإقرار فأين الغُيُر؟ قال مَرْوان: وأيّ غُيُر تريد؟ قال: أريد أن تشْجُروه بالرماح. قال: والله يا معاوية ما أراك إلا هاذياً أو هازئاً، وما أرانا إلا ثَقّلنا عليك، فقال ابن عُقْبة:

يقول لنا معاويةُ بن حَرْب ... أما فيكمْ لِوَاتركم طَلُوبُ
يَشُدُّ على أبي حسَن عليٍّ ... بأسْمَر لا تُهَجِّنه الكعوبُ
فيهتِكَ مَجمع اللَّبَّاتِ مِنْهُ ... ونقعُ الحرب مطَّرِدٌ يؤوبُ
فقلت له: أتلْعب يابن هندٍ ... كأنك بيننَا رجلٌ غريبُ!
أتُغْرِينا بحيَّةِ بطنِ وادٍ ... إذا نهشَتْ، فليس لها طبيبُ
وما ضَبعٌ يدِبّ ببطن وادٍ ... أتيح له به أسَدٌ مَهيبُ
بأضعف حيلةً مِنَّا إذا ما ... لقِيناه ولُقْياهُ عجيبُ
سوى عمرو وَقَتْه خُصْيتاهُ ... وكان لقلبه مِنْهُ وَجِيبُ
كأنّ القومَ لما عايَنوه ... خِلال النّقْع، ليس لهم قلوبُ
لعمر أبي معاويةَ بن حربٍ ... وما ظنِّي ستلحقُه العُيوبُ
لقد ناداه في الهيْجا عليٌّ ... فأسمعَه ولكنْ لا يُجِيبُ

فغضب عمرو، وقال: إن كان الوليد صادقاً فليلْق عليًا، أو فليقِفْ حيث يسمع صوته.

وقال عمرو:

يذكِّرُني الوليد دُعَا عليٍّ ... ونُطقُ المرء يملؤُه الوعيدُ
متى تذكرْ مشاهدَه قريش ... يَطِرْ من خوفه القلب الشّديدُ
فأما في اللقاء فأين منهُ ... معاويةُ بن حرب والوليدُ!
وعيَّرَني الوليد لقاءَ ليث ... إذا ما شدَّ هابتْه الأسودُ
لقيتُ ولست أجهلُه عليًّا ... وقد بُلَّتْ من العَلَقِ[2] اللُّبودُ[3]

---

(١) الوطب: سقاء اللبن، القاموس المحيط، مادة (وطب).
(٢) العَلَق: الدم. القاموس المحيط، مادة (عَلَق).
(٣) اللبود: القراد، سُمّي بذلك لأنه يلبد بالأرض أو يلصق بها، اللسان، مادة (لبد).

فأطعُنه ويطعُنني خِلاساً ... وماذا بعد طعنته أريدُ!
فرُمْها منه يابن أبي مُعَيْطٍ ... وأنت الفارس البطل النَّجِيدُ
وأُقسِمُ لو سمعتَ ندا عليّ ... لطار القلب وانتفخَ الوريدُ
ولو لاقيْتَه شُقَّت جيُوبٌ ... ولُطِّمت فيك الخدودُ

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستيعاب» في باب بُسْر بن أرطاة قال:

كان بُسْر من الأبطال الطغاة، وكان مع معاوية بصِفّين، فأمره أن يلقي عليًّا عليه السلام في القتال، وقال له: إني سمعتك تتمنّى لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعْتَه حصُلْتَ على الدنيا والآخرة، ولم يزل يشجِّعه ويمنّيه حتى رأى عليًّا في الحرب، فقصده، والتقيا فصرعه عليّ عليه السلام، وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو بن العاص في كشف السوأة.

قال أبو عمر: وذكر ابن الكلبيّ في كتابه في أخبار صِفّين، أن بُسْر بن أرطاة بارزَ عليًّا يوم صِفّين، فطعنه عليّ عليه السلام فصرَعه، فانكشف له، فكفّ عنه، كما عرض له مثل ذلك مع عمرو بن العاص.

قال: وللشعراء فيهما أشعار مذكورة في موضعها من ذلك الكتاب، منها فيما ذكر ابن الكلبي والمدائنيّ قول الحارث بن نضر الخثعمي - وكان عدوًّا لعمر بن العاص وبُسْر بن أرطاة:

أفي كلّ يوم فارسٌ لك ينتهي ... وعورته وسْطَ العجاجَةِ باديَهْ
يكفُّ لها عنه عليٌّ سِنانه ... ويَضحك منها في الخلاء معاويَهْ
بدَتْ أمسِ من عمرو فقنّع رأسه ... وعورة بُسْر مثلها حذو حاذيَهْ
فقولا لعمرو ثم بُسْرٍ: ألاَ انظُرَا ... لنفسِكما: لا تَلْقَيا الليثَ ثانيهْ
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنفس واقيهْ
ولولاهما لم تنجُوَا من سنانِه ... وتلك بما فيها إلى العَوْد ناهيهْ
متى تلقيا الخيل المغيرة صُبْحَةً ... وفيها عليٌّ فاترُكا الخيلَ ناحيهْ
وكُونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا ... نُحورَكما، إنّ التجارِبَ كافيهْ

وروى الواقديّ قال: قال معاوية يوماً بعد استقرار الخلافة له لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لا أراك إلا ويغلِبُني الضحك، قال: بماذا؟ قال: أذكر يوم حَمل عليك أبو تراب في

صِفّين، فأزريت نفسك فَرَقاً من شَبَا سنانه، وكشفت سوأتك له، فقال عمرو: أنا منك أشدّ ضحكاً، إني لأذكرُ يومَ دعاك إلى البِراز فانتفخ سَحْرُك[١]، وربَا لسانُك في فمك، وغَصِصْتَ بريقك، وارتعَدَتْ فرائصُك، وبدا منك ما أكره ذِكْرَه لك، فقال معاوية: لم يكن هذا كلّه، وكيف يكون ودوني عَكّ والأشعريون! قال: إنك لتعلم أن الذي وصفتُ دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عكّ والأشعريون، فكيف كانت حالك لو جمعكما مأقِطُ[٢] الحرب! فقال: يا أبا عبد الله، خُضْ بنا الهزل إلى الجِدّ، إن الجبْن والفرار من عليّ لا عَار على أحدٍ فيهما[٣].

فأما القول في إسلام عمرو بن العاص، فقد ذكره محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي» قال:

حدثني زيد بن أبي حبيب، عن راشد مولى حبيب بن أبي أوْس الثّقفِيّ، عن حبيب بن أبي أوس، قال: حدثني عمرو بن العاص مِن فِيه، قال:

لما انصَرفْنا [مع الأحزاب] من الخندق، جمعتُ رجالاً من قُريش كانوا يروْن رأيي، ويسمعون مِنّي، فقلت لهم: والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا مُنكَراً، وإنّي قد رأيت رأياً، فما ترون فيه؟ فقالوا: ما رأيت؟ فقلت: أرى أن نُلْحَق بالنجاشيّ، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشيّ، فأنْ نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يديْ محمد، فإن ظهر قومُنا فنحن مَن قد عرفوا، [فلن يأتنا منهم إلا خير] قالوا: إنّ هذا الرأيّ، فقلت: فاجمعوا ما نُهدِي له - وكان أحبَّ ما يأتيه من أرضنا الأدَم - فجمعنا له أدَماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدِمنا عليه، فوالله إنا لعندَه، إذ قدم عمرو بن أمية الضمْرِيّ، وكان رسول الله ﷺ بعثه إليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصْحابه.

قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، لو قد دخلتُ على النجاشيّ فسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلتُ ذلك رأتْ قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، قال: فدخلتُ عليه فسجدت له فقال: مرحباً بصديقي أهديتَ إليّ من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدَماً كثيراً، ثم قرّبته إليه، فأعجبه

(١) السَّحْر، والسَّحَر، والسُّحْر: ما النزق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن، ويقال للجبان: قد انتفخ سَحْرُه. اللسان، مادة (سحر).

(٢) المأقط: المضيق في الحرب، والموضع الذي يقتتلون فيه. اللسان، مادة (أقط).

(٣) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢/ ١٦٤.

واشتهاه، ثم قلت له: أيّها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوٌ لنا فأعطنيه لأقتلَه، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

فغضب الملكُ ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كَسره، فلو انشقّت لي الأرض لدخلتُ فيها فرَقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، والله لو ظننتُ أنّك تكره هذا ما سألتُكَه، فقال: أتسألني أن أعطيَك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ فقلت: أيّها الملك، أكذلك هو؟ فقال: إي والله! أطعْني ويحك واتبعه، فإنه والله لعلَى حقّ، وليظهرَنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: فبايِعني له على الإسلام، فبَسط يده، فبايعتُه على الإسلام، وخرجتُ عامداً لرسول الله ﷺ، فلما قدمت المدينة جئت إلى رسول الله ﷺ، وقد أسلم خالد بن الوليد، وقد كان صحِبَني في الطريق إليه، فقلتُ: يا رسول الله، أبايعك على أن تغفرَ لي ما تقدم من ذنبي، ولم أذكر ما تأخر، فقال: «بايعْ يا عمرو، فإن الإسلام يجبّ ما قبله، وإن الهجرة تجبّ ما قبلها»[1]، فبايعته وأسلمت.

وذكر أبو عمر في «الاستيعاب»: أنّ إسلامه كان سنة ثمانٍ، وأنه قدِم وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة، فلما رآهم رسولُ الله، قال: رمتْكم مكّة بأفلاذ كَبِدها.

قال: وقد قيل إنه أسلم بين الحديبيّة وخيبر، والقول الأول أصحّ.

بعث رسول الله عمراً إلى ذات السلاسل

قال أبو عمر: وبعث رسولُ الله عمراً إلى ذات السَّلاسل من بلاد قُضاعة في ثلاثمائة، وكانت أمّ العاص بن وائل من بَلِيّ، فبعث رسول الله ﷺ عمراً إلى أرض بليّ وعُذْرة، يتألّفهم بذلك ويدعُوهم إلى الإسلام، فسارَ حتى إذا كان على ماء أرض جُذام، يقال له: السلاسل - وقد سمِّيت تلك الغزاة ذات السَّلاَسل - خاف، فكتب إلى رسول الله ﷺ يستنجِدُ، فأمدّه بجيشٍ فيه مائتا فارس، فيه أهلُ الشرَف والسوابق من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر، وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلما قَدِموا على عمرو، قال عمرو: أنا أميرُكم وإنما أنتم مدَدي، فقال أبو عبيدة: بل أنا أمير مَنْ معي وأنت أمير من معك، فأبى عمرو ذلك، فقال أبو عبيدة: إن رسول الله ﷺ عهد إليّ فقال: إذا قدمت إلى عمرو فتطاوعا ولا تختلفا، فإن خالفتَني أطعتك، قال عمرو: فإني أخالفك، فسلّم إليه أبو عبيدة، وصلى خلفه في الجيش كله، وكان أميراً عليهم، وكانوا خمسمائة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٢٣)، وأحمد في «مسنده» (١٧١٠٩)، والديلمي في «مسنده» (٤٠٠).

ولايات عمرو بن العاص ونُبذ من كلامه

قال أبو عمر: ثم ولاه رسول الله ﷺ عُمان، فلم يزل عليها حتى قُبض رسول الله ﷺ، وعمل لعمر وعثمان ومعاوية، وكان عمر بن الخطاب ولّاه بعد مَوْت يزيد بن أبي سفيان فِلَسْطين والأردنّ، وولّى معاوية دمشق وبعلبكّ والبلقاء، وولى سعيدَ بن عامر بن خذيم حِمْص. ثم جمع الشام كلّها لمعاوية، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يسيرَ إلى مصر، فسار إليها فافتتحها، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر فأمّره عثمان عليها أربع سنين ونحوها، ثم عزله عنها وولاها عبد الله بن سعد العامريّ.

قال أبو عمر: ثم إن عمرو بن العاص ادّعى على أهل الإسكندرية أنهم قد نقضوا العهد الذي كان عاهدهم، فعمِد إليها، فحارب أهلها وافتتحها، وقتل المقاتلة وسبَى الذرّية، فنقم ذلك عليه عثمان، ولم يصحّ عنده نقضُهم العهدَ، فأمر بردّ السَبْي الذي سُبوا من القُرى إلى مواضعهم، وعزل عمراً عن مصر، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح العامريّ مصر بدَله، فكان ذلك بدوُّ الشر بين عمرو بن العاص وعثمان بن عفّان، فلمّا بدا بينهما من الشرّ ما بدَا، اعتزل عمرو في ناحيةِ فِلسطين بأهله، وكان يأتي المدينة أحياناً، فلما استقرّ الأمر لمعاوية بالشام، بعثه إلى مصر بعد تحكيم الحكَميْن فافتتحها، فلم يزل بها إلى أن مات أميراً عليها، في سنة ثلاث وأربعين، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين، وقيل سنة إحدى وخمسين.

قال أبو عمر: والصحيح أنه مات في سنة ثلاث وأربعين، ومات يوم عيد الفِطر من هذه السنة وعمره تسعون سنة، ودفن بالمقطّم من ناحية السَّفح، وصلّى عليه ابنه عبد الله، ثم رجع فصلّى بالناس صلاةَ العيد، فولاه معاوية مكانه، ثم عزله وولى مكانه أخاه عُتْبة بن أبي سفيان.

قال أبو عمر: وكان عمرو بن العاص من فُرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، مذكوراً فيهم بذلك، وكان شاعراً حسن الشعر، وأحد الدّهاة المتقدمين في الرأي والذكاء، وكان عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلاً في رأيه وعقله، قال: أشهد أنّ خالقك وخالق عمرو واحد، يريد خالق الأضداد.

ونقلت أنا من كتب متفرّقة كلمات حِكْمية تُنسب إلى عمرو بن العاص، استحسنتُها وأوردتها، لأني لا أجحد لفاضل فضلَه، وإن كان دينُه عندي غيرَ مرضيّ.

فمن كلامه: ثلاث لا أمَلهنّ: جليسي ما فَهِم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حَملتْ رَحْلي.

وقال لعبد الله بن عباس بصِفّين: إن هذا الأمرَ الذي نحن وأنتم فيه، ليس بأوّل أمر قاده البلاء، وقد بلغ الأمر مِنّا ومنكم ما ترى، وما أبقت لنا هذه الحرب حياة ولا صبراً، ولسنا نقول: ليت الحرب عادت، ولكنا نقول: ليتها لم تكن كانت! فافعل فيما بقيَ بغير ما مضى، فإنّك رأس هذا الأمر بعد عليّ، وإنما هو آمر مطاع، ومأمور مطيع، ومبارز مأمون، وأنت هو.

ولمّا نصب معاوية قميصَ عثمان على المنبر، وبكى أهل الشام حوله، قال: قد هممتُ أن أدعَه على المنبر، فقال له عمرو: إنه ليس بقميص يوسف، إنه إن طال نظرهم إليه، وبحثوا عن السبب وقفوا على ما لا تحبّ أن يقفوا عليه، ولكن لذِّعهم بالنظر إليه في الأوقات.

وقال: ما وضعت سرّي عند أحدٍ فأفشاه فلُمْتُه، لأني أحقّ باللوم منه إذ كنتُ أضيقَ به صدراً منه.

وقال: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ، لكن العاقل من يعرف خير الشرّين.

وقال عمر بن الخطاب لجلسائه يوماً وعمرو فيهم: ما أحسنُ الأشياء؟ فقال كلٌّ منهم ما عنده؟ فقال: ما تقول أنت يا عمرو؟ فقال:

الغمراتُ ثمّ ينجلينا

وقال لعائشة: لوددت أنك قتلتِ يوم الجمل، قالت: ولمَ لا أبالك؟! قال: كنت تموتين بأجَلِك، وتدخلين الجنة، ونجعلك أكبرَ التشنيع على عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وقال لبنيه، يا بَنِي، اطلبوا العلم، فإن استغنيتم كان جَمَالاً، وإن افتقرتم كان مالاً.

ومن كلامه: أميرٌ عادل خيرٌ من مطر وَابل، وأسدٌ حَطوم خير من سلطان ظلوم، وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم، وزلة الرِّجل عَظمٌ يجبَر، وزلّة اللسان لا تُبقِي ولا تَذَر. واسترح مَنْ لا عقل له.

وكتب إليه عمر يسأله عن البحر، فكتب إليه: خَلْق عظيم يركبه خَلْق ضعيف. دُود على عود، بين غرق ونَزَق.

وقال لعثمان وهو يخطب على المنبر: يا عثمان، إنّك قد ركبتَ بهذه الأمة نهاية من الأمر، وزغت فزاغوا، فاعتدِل أو اعتزِل.

ومن كلامه: استوْحِش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان، فإنّ الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع.

وقال جُمِع العجز إلى التواني فنتج بينهما الندامة، وجُمِع الجبن إلى الكسل فنتجَ بينهما الحرمان.

وروى عبد الله بن عباس، قال: دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتُضِر، فقلت: يا أبا عبد الله، كنت تقول: أشتهي أنّي أرى عاقلاً يموت حتى أسأله كيف تجد، فماذا تجد؟ قال: أجد السماء كأنها مطبِقة على الأرض وأنا بينهما، وأراني كأنما أتنفّس من خرق إبرة، ثم قال:

اللّهم خُذْ منّي حتى تَرْضَى، ثم رفع يده، فقال: اللّهم أمرَ فعصينا، ونهيت فركبنَا، فلا بريءٌ فأعتذر، ولا قويّ فأنتصر، ولكن لا إله إلا الله، فجعل يرددها حتى فاض.

وقد روى أبو عمر بن عبد البرّ هذا الخبر في كتاب «الاستيعاب»، قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة، قال: اللهم أمرتَني فلم أئتمر، وزجرتَني فلم أنزجر. ووضع يده في موضع الغلّ، ثم قال: اللهمّ لا قَوِيٌّ فأنتصر، ولا بريءٌ فأعتذر، ولا مستكبرٌ بل مستغفر، لا إله إلا أنت، فلم يزل يرددها حتى مات.

قال أبو عمر: حدثني خلف بن قاسم، قال: حدثني الحسن بن رشيق، قال: حدثنا الطحاويّ، قال: حدثنا المُزنيّ، قال: سمعت الشافعيّ يقول: دخل ابنُ عباس على عمرو بن العاص في مرضه، فسلّم عليه، فقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحتُ وقد أصلحت من دنياي قليلاً، وأفسدتُ من ديني كثيراً، فلو كان الذي أصلحتُ هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت، لَفُزت. ولو كان ينفعني أنْ أطلبَ طلبتُ، ولو كان ينجيني أن أهرُب، هربت فقد صرت كالمنخنق بين السماء والأرض، لا أرقى بيدين، ولا أهبط برجلين، فعظني بعظةٍ أنتفع بها يابن أخي، فقال ابن عباس: هيهات أبا عبد الله، صار ابنُ أخيك أخاك، ولا تشاء أن تَبلى إلا بَليت، كيف يؤمر برحيلٍ من هو مقيم! فقال عمرو على حينها: من حين ابن بضع وثمانين تقْنِطني من رحمة ربي! اللهمّ إنّ ابن عباس يُقنطنِي من رحمتك، فخذ منّي حتى ترضى، فقال ابن عباس: هيهات أبا عبد الله! أخذتَ جديداً وتُعطي خَلَقاً، قال عمرو: مالي ولك يابن عباس! ما أُرسل كلمة إلا أرسلتَ نقيضها.

وروى أبو عمر في كتاب «الاستيعاب» أيضاً عن رجال قد ذكرهم وعدّدهم أن عَمْراً لمّا حضرته الوفاة، قال له ابنة عبد الله وقد رآه يبكي، لِمَ تبكي؟ أجَزَعاً من الموت؟ قال: لا والله، ولكن لما بعده. فقال له: لقد كنت على خيرٍ، فجعل يُذكّرُهُ صحبةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وفتوحه بالشام، فقال له عمرو: تركتَ أفضل من ذلك شهادةَ أن لا إله إلا الله، إني كنت على ثلاثة أطباق، ليس منها طبَق إلا عرفتُ نفسي فيه، كنت أولَ أمري كافراً، فكنت أشدَّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وآله، فلو مِتّ حينئذٍ وجبتْ لي النار، فلما بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله، كنت أشدّ الناس حياءً منه، فما ملأتُ منه عيني قطّ، فلو متّ يومئذٍ قال الناس: هنيئاً لعمرو! أسلم وكان

على خير، ومات على خير أحواله، فسرّحوا له بالجنة، ثم تلبّثْتُ بعد ذلك بالسلطان وبأشياء، فلا أدري أعليّ أم لي؟ فإذا مت فلا تبكينَّ عليّ باكية، ولا يتبعني نائح، ولا تقرّبوا من قبري ناراً، وشُدّوا عليّ إزاري، فإني مخاصَم، وشنوا[1] عليّ التراب شنًّا، فإنّ جنبي الأيمن ليس بأحقّ من جنبي الأيسر، ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قَدْر نحر جزور وتقطيعها، أستأنس بكم.

فإن قلت: فما الذي يقوله أصحابك المعتزلة في عمرو بن العاص؟ قلت: إنهم يحكُمون على كلّ من شهد صِفّين، بما يحكَم به على الباغي الخارج على الإمام العادل، ومذهبهم في صاحب الكبيرة إذا لم يتب معلوم.

فإن قلت: أليس في هذه الأخبار ما يدل على توبته، نحو قوله: «ولا مستكبر بل مستغفر» وقوله: «اللهمّ خذ مني حتى ترضى»، وقوله: «أمرتَ فعصيت، ونهيت فركبت». وهذا اعتراف ونَدَم، وهو معنى التوبة؟ قلت: إن قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[2] يمنع من كون هذا توبة، وشروط التوبة وأركانها معلومة، وليس هذا الاعتراف والتأسّف منها في شيء.

وقال شيخُنا أبو عبد الله: أوّلُ مَنْ قال بالإرجاء المحْض معاوية وعمرو بن العاص، كانا يزعُمان أنه لا يضرُّ مع الإيمان معصية، ولذلك قال معاوية لمن قال له: حاربتَ من تعلَم، وارتكبت ما تعلم، فقال: وثقتُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[3]. وإلى هذا المعنى أشار عمرو بقوله لابنه: تركتَ أفضلَ من ذلك، شهادةَ أن لا إله إلا الله.

الإمام علي عليه السلام رجل العبادة لا رجل الدعابة

فأما ما كان يقوله عمرو بن العاص في عليّ عليه السلام لأهل الشام: «إن فيه دُعابة»، يروم أن يعيبه بذلك عندهم، فأصل ذلك كلمة قالها عمر فتلقّفها، حتى جعلها أعداؤه عيباً له وطعناً عليه.

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في كتاب «الأمالي»: كان عبد الله بن عباس عند عمر، فتنفّس عمر نَفَساً عالياً، قال ابن عباس: حتى ظننت أن أضلاعه قد انفرجَتْ، فقلت له: ما أخرجَ هذا النَّفَس منك يا أمير المؤمنين إلا همٌّ شديدٌ. قال: إي والله يابن عباس، إنّي فكّرت

---

(١) الشَّن: الصَّبُّ، وشن الماء على وجهه أي: صبَّه. اللسان، مادة (شنن).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

فلم أدرِ فيمن أجعلُ هذا الأمر بعدي. ثم قال: لعلك ترى صاحبَك لها أهلاً؟ قلت: وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه! قال: صدقتَ، ولكنه امرؤ فيه دُعابة، قلت: فأين أنت من طلحة؟ قال: هو ذو البأو بإصبعه المقطوعة. قلت: فعبد الرحمن؟ قال: رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتَمه في يد امرأتِه. قلت: فالزبير؟ قال شَكِس لَقِس، يلاطم في البقيع في صاعٍ من بُرّ. قلت: فسعد بن أبي وقاص؟ قال: صاحب مِقْنبٍ وسلاح، قلت: فعثمان، قال: أوْه أوْه، مراراً. ثم قال: والله لِئَنْ وليها ليحملّن بني أبي مُعَيط على رقاب الناس، ثم لتنهضنّ إليه العرب فتقتله. ثم قال: يابن عباس، إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا حصيف[1] العُقْدة، قليل الغِرّة، لا تأخذه في الله لومة لائم، يكون شديداً من غير عُنف، ليّناً من غير ضعف، جواداً من غيرِ سَرَف، ممسِكاً من غير وكَف. قال ابن عباس: وكانت هذه صفات عمر، ثم أقبل عليّ فقال: إنّ أحْرَاهم أن يحملَهم على كتاب ربهم وسنّة نبيهم لصَاحبُك، والله لئن وليَها ليحملنّهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم.

واعلم أن الرجل ذا الخلق المخصُوص لا يرى الفضيلَة إلا في ذلك الخُلق، ألا تَرَى أنَّ الرجل يبخلُ فيعتقد أنّ الفضيلةَ في الإمساك والبخيل يعيب أهلَ السَّماح والجود، وينسبهم إلى التبذير وإضاعة الحزم، وكذلك الرجل الجواد يعيب البخلاء وينسبُهم إلى ضيق النَّفْس وسوء الظنّ وحب المال، والجبان يعتقد أن الفضيلة في الجبن ويعيب الشجاعة ويعتقد كونها خَرَقاً وتغريراً بالنفس، كما قال المتنبي:

يرى الجبناءُ أنّ الجبنَ حزمٌ

والشجاع يعيب الجبانَ ويْنسُبه إلى الضعف، ويعتقد أنّ الجبن ذلّ ومهانة! وهكذا القول في جميع الأخلاق والسجايا المقتسمة بين نوع الإنسان. ولمّا كان عمر شديد الغِلْظَة وَعِر الجانب، خشِن الملمس دائم العبوس، كان يعتقد أنّ ذلك هو الفضيلة وأن خِلافه نقص، ولو كان سهلاً طَلْقاً مطبوعاً على البشاشة وسماحة الخُلق، لكان يعتقد أنّ ذاك هو الفضيلة وأن خلافه نقص، حتى لو قدّرنا أن خُلقَه حاصل لعليّ عليه السلام، وخُلقَ عليّ حاصل له، لقال في عليّ: «لولا شراسة فيه».

فهو غير ملوم عندي فيما قاله، ولا منسوب إلى أنه أراد الغضّ من عليّ، والقدح فيه، ولكنّه أخبر عن خُلقه، ظانًّا أن الخلافة لا تصلح إلا لشديد الشكيمة، العظيم الوعورة. وبمقتضى ما كان يظنّه من هذا المعنى، تمّم خلافة أبي بكر بمشاركته إياه في جميع تدبيراته وسياسته وسائر

(١) الحصيف: الرجل المحكم العقل. اللسان، مادة (حصف).

أحواله، لرفقٍ وسهولة كانت في أخلاق أبي بكر، وبمقتضى هذا الخلُق المتمكّن عنده، كان يشير على رسول الله ﷺ في مقامات كثيرة، وخطوب متعددة، بِقتل قوم كان يرى قتلَهم، وكان النبيّ ﷺ يَرَى استبقاءهم واستصلاحَهم، فلم يقبلْ ﷺ مشورتَه على هذا الخلُق.

وأما إشارته عليه يوم بدر بقتل الأسرى حيث أشار أبو بكر بالفِداء، فكان الصواب مع عمر ونزل القرآن بموافقته، فلما كان في اليوم الثاني وهو يوم الحديبيّة أشار بالحرب، وكرِه الصلح، فنزل القرآنُ بضدّ ذلك، فليس كلّ وقت يصلح تجريد السيف، ولا كلّ وقت يصلح إغماده، والسياسة لا تجري على منهاج واحدٍ ولا تلزم نظاماً واحداً.

وجملة الأمر أنه رضي الله عنه لم يقصِدْ عيبَ عليّ عليه السلام، ولا كان عنده معيباً، ولا منقوصاً، ألا تَرَى أنه قال في آخر الخبر: «**إنّ أحْرَاهم إن وَلِيَها أن يحملهم على كتابِ الله وسنّة رسوله لِصاحبُك**»، ثم أكّد ذلك بأن قال: «**إن وَلِيَهم ليحملنّهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم**»، فلو كان أطلَق تلك اللفظة، وعنَى بها ما حملها عليهِ الخصوم، لم يقل في خاتمة كلامه ما قاله.

وأنت إذا تأمّلت حالَ عليّ عليه السلام في أيام رسول الله ﷺ، وجدتَه بعيداً عن أن يُنسبَ إلى الدُّعابة والمُزاح، لأنه لم ينقَلْ عنه شيء من ذلك أصلاً، لا في كتب الشيعة ولا في كتب المحدّثين، وكذلك إذا تأمّلت حاله في أيام الخليفتين أبي بكر وعمر، لم تجدْ في كتب السيرة حديثاً واحداً يمكن أن يتعلّق به متعلق في دُعابته ومُزاحه، فكيف يُظنّ بعمر أنه نَسَبه إلى أمر لم ينقله عنه ناقل، ولا ندّد به صديق ولا عدوّ، وإنما أراد سهولة خُلُقِه لا غَيْر، وظنّ أن ذلك مما يُفْضي به إلى ضعف إنْ وليَ أمر الأمّة، لاعتقاده أنّ قِوام هذا الأمر إنما هو بالوعورة، بناءً على ما قد ألفتْه نفسه، وطبِعَتْ عليه سجّيتُه، والحال في أيام عثمان، وأيّام ولايته عليه السلام الأمرَ كالحال فيما تقدم، في أنه لم يظهر منه دُعابة، ولا مُزاح يسمّى الإنسان لأجله ذا دُعابة ولعب.

ومن تأمّل كتب السِّيَر عرف صِدْق هذا القول، وعرف أن عمرو بن العاص أخذ كلمة عمر إذ لم يقصِدْ بها العيب فجعلها عيباً، وزاد عليها أنه كثيرُ اللعب، يعافِس النساء ويمارسهنّ، وأنه صاحب هَزْل.

ولعمر الله لقد كان أبعدَ الناس من ذلك، وأيّ وقت كان يتّسع لعليّ عليه السلام حتى يكون فيه على هذه الصفات؟ فإن أزمانه كلّها في العبادة والصلاة، والذكر والفتاوى والعلم، واختلاف الناس إليه في الأحكام وتفسير القرآن. ونهاره كلّه أو معظمه مشغول بالصوْم، وليله كله أو معظمه مشغول بالصلاة. هذا في أيام سِلْمه، فأما أيام حربه فبالسيف الشهير، والسِّنان الطرير[1]، وركوب الخيل، وقوْد الجيش، ومباشرة الحروب.

---

(١) الطرير: يقال سنان طرير ومطرور: محدد. اللسان، مادة (طرر).

ولقد صدق عليه السلام في قوله: «إنني ليمنعني من اللعب ذكرُ الموت»، ولكنّ الرجل الشريف النبيل، الذي لا يستطيع أعداؤه أن يذكروا له عيباً أو يَعُدّوا عليه وَصمة، لا بدّ أن يحتالوا ويبذلوا جهدهم في تحصيل أمرٍ ما وإن ضعف يجعلونه عذراً لأنفسهم في ذمّه، ويتوسّلون به إلى أتباعهم في تحسينهم لهم مفارقته، والانحراف عنه، وما زال المشركون والمنافقون يصنَعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموضوعات، ينسبون إليه ما قد برّاه الله عنه من العيوب والمطاعن، في حياته وبعد وفاته إلى زماننا هذا، وما يزيدُه الله سبحانه إلا رفعة وعلوًّا، فغيرُ منكَر أن يعيب عليًّا عليه السلام عمرو بن العاص وأمثاله من أعدائه، بما إذا تأمله المتأمل، علم أنهم باعتمادهم عليه وتعلُّقهم به، قد اجتهدوا في مدحه والثناء عليه، لأنهم لو وجدوا عيباً غير ذلك لذكروه، ولو بالغ أمير المؤمنين وبذل جهده في أن يُثنَى أعداؤه وشانِئوه عليه من حيث لا يعلمون، لم يستطع إلى أن يجد إلى ذلك طريقاً ألطفَ من هذه الطريق التي أسلكهم الله تعالى فيها، وهداهم إلى منهاجها، فظنُّوا أنهم يغضون منه، وإنما أعلوْا شأنه، ويضعون من قدره، وإنما رفعوا منزلته ومكانه.

المزاح وما قيل فيه

ونحن نذكر من بعد، ما جاء في الأحاديث الصحاح والآثار المستفيضة، المتّفَق على نقلها مزاحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومزاح الأشراف والأفاضل والأكابر من أصحابه والتابعين له، ليُعلم أن المزاح إذا لم يخرج عن القاعدة الشَّرْعية لم يكن قبيحاً.

فأوّل ذلك ما رواه الناس قاطبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إني أمزح، ولا أقول إلا حقًّا**»[(١)].

وقيل لسفيان الثوريّ: المزاح هُجْنة؟ فقال: بل هو سنة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني أمزح ولا أقول إلا الحق**».

وجاء في الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لامرأة من الأنصار: «**الحقي زوجك فإنّ في عينه بياضاً**»[(٢)]، فسعتْ نحوه مرعوبة، فقال لها: ما دهاك؟ فأخبرته، فقال: نعمْ إنّ في عيني بياضاً لا لسوء، فخفّضي عليك. فهذا من مُزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأتت عجوز من الأنصار إليه عليه السلام، فسألته أن يدعوا الله تعالى لها بالجنة، فقال: «**إن الجنة لا تدخلها العجُز**»[(٣)] فصاحت، فتبسم عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٩٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٥٥).
(٢) ذكره المناوي في «فتح القدير» (٢/ ٢٧٩).
(٣) أخرجه الجوهري في الصحاح: ٣/ ٨٨٤. (٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٣٥ ٣٦.

وفي الخبر أيضاً: أن امرأة استحملته، فقال: «**إنا حاملوك إن شاء الله تعالى على ولد الناقة**»، فجعلت تقول: يا رسول الله: وما أصنع بولد الناقة؟ وهل يستطيع أن يحملَني! وهو يبتسم ويقول: «**لا أحملك إلا عليه**»، حتى قال لها أخيراً: «**وهل يلد الإبل إلا النوق**»!

وفي الخبر أنّه عليه السلام مَرّ ببلال وهو نائم فضربه برجله، وقال: أنائمة أمّ عمرو؟ فقام بلال مرعوباً، فضرب بيده إلى مذاكيره، فقال له: ما بالك؟ قال: ظننت أني تحوّلت امرأة. قيل: فلم يمزح رسول الله بعد هذه.

وفي الخبر أيضاً أن نُغَراً كان لصبيٍّ من صبيان الأنصار، فطار من يده، فبكى الغلام، فكان رسول الله ﷺ يمرّ به فيقول: «**يا أبا عمير، ما فعل النُّغير**»؟ والغلام يبكي.

وكان يمازح ابنيْ بنته مُزاحاً مشهوراً، وكان يأخذ الحسين عليه السلام، فيجعله على بطنه، وهو عليه السلام نائم على ظهره ويقول له: **حُزُقَّة حُزقَّة**[1] تَرَقّ عين بقّة».

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه: أنه مرّ على أصحاب الدِّرْكِلة وهم يلعبون ويرقصون، فقال: جِدّوا يا بني أرْفَدَة، حتى يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فُسحة[2].

قال أهل اللغة: الدِّرِكِلة، بكَسر الدال والكاف: لعبة للحبش فيها ترقص. وبنو أَرْفَدَة: جنس من الحبش يرقصون.

وجاء في الخبر أنه سابَق عائشة فسبقته، ثم سابقها فسبقها فقال: «**هذه بتلك**»[3].

وفي الخبر أيضاً أن أصحاب الزفافة وهم الراقصون، كانوا يقمَعون باب حجرة عائشة، فتخرج إليهم مستمعة ومبصرة، فيخرج هو عليه السلام من ورائها مستتراً بها[4].

وكان نعيمان، وهو من أهل بدر، أوْلَع الناس بالمُزاح عند رسول الله ﷺ وكان يكثر الضحك، فقال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة وهو يضحك**».

وخرج نُعيمان هو وسويبط بن عبد العزّي وأبو بكر الصديق، في تجارة قبل وفاة

---

(١) رجل حزقة: نجيل. اللسان، مادة (حزق).

(٢) أخرجه الحميدي في «مسنده» (٢٥٤)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٢٥٩)، وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في السبق على الرجل (٢٥٧٨).

(٤) هذه من الإسرائيليات فرسول البشرية أجلّ من أن يفعل كذلك، ولو قيل لنا في هذه الأيام أن شيخاً يفعل ذلك لما صلينا خلفه ولسقط من أعيننا فكيف تريدون أن نصدقه على نبي الرحمة الذي لا ينطق عن الهوى.

رسول الله ﷺ بعامين، وكان سُويبط على الزاد، فكان نُعَيْمان يستطعمه فيقول: حتى يجيء أبو بكر، فمرّ بركب من نَجْران، فباعه نُعَيمان منهم على أنه عبدٌ له بعشر قلائص، وقال لهم: إنه ذو لسان ولهجة، وعساه يقول لكم: أنا حرّ، فقالوا: لا عليك. وجاؤوا إليه فوضعوا عمامته في عنقه، وذهبوا به، فلما جاء أبو بكر أخبر بذلك، فرده وأعاد القلائص إليهم. فضحك رسول الله ﷺ وأصحابه من ذلك سنَةً.

وروي أن أعرابيًا باع نُعَيمان عكّة عسل، فاشتراها منه، فجاء بها إلى بيت عائشة في يومها وقال: خذوها، فظنّ رسول الله ﷺ أنه أهداها إليه، ومضى نُعَيمان، فنزل الأعرابيّ على الباب، فلما طال قعوده نادى: يا هؤلاء، إما أن تعطونا ثمن العسل أو تردّوه علينا، فعلم رسول الله ﷺ بالقصّة، وأعطى الأعرابيّ الثمن، وقال لنُعَيمان: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيتُك يا رسولَ الله، تحبّ العسل، ورأيت العُكّة مع الأعرابيّ[1]. فضحك رسول الله ﷺ ولم ينكِر عليه.

وسئل النَّخَعيّ: هل كان أصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون؟ فقال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي.

وجاء في الخبر أن يحيى عليه السلام لقي عيسى عليه السلام، وعيسى متبسّم، فقال يحيى عليه السلام: ما لي أراك لاهياً كأنك آمن! فقال عليه السلام: ما لي أراك عابساً كأنك آيس؟ فقالا: لا نبرح حتى ينزل علينا الوحي، فأوحى الله إليهما: أحبّكما إليّ الطلْقُ البسّام، أحسنكما ظنًّا بي.

وروي عن كبراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يتمازحون ويتناشدون الأشعار، فإذا خاضوا في الدين، انقلبت حماليقهم، وصاروا في صور أخرى.

وروي أن عبد الله بن عمر قال لجارِيَته: خلقَني خالق الخير، وخلقك خالق الشر. فبكت، فقال: لا عليك، فإن الله تعالى هو خالق الخير وهو خالق الشر.

قلت: يعني بالشرّ المرض والغلاء ونحوهما.

وكان ابن سيرين ينشد:

نُبِّئتُ أن فتاة كنتُ أخطبُها ... عُرقوبها مثلُ شهر الصوم في الطولِ

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

وجاء عبد الرحمن بن عوف إلى باب عمر بن الخطاب، فوجدَه مستلقياً على مِرفقةٍ له، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى، منشداً بصوت عال:

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٧٦).

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما   قَضَى وطراً منها جميلُ بن معمرِ!

فلما دخل عبد الرحمن وجلس، قال: يا أبا محمد، إنّا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس.

وكان سعيد بن المسيّب ينشد:

لقد أصبحتْ عِرْسِ الفرزدق جامحاً   ولو رضيت رمح استه لاستقرّتِ

ويضحك حتى يستغرق.

وكان يقال: لا بأس بقليل المُزاح يخرج منه الرجل عن حَدّ العبوس.

ومن كلام بعض الأدباء: ونحن نحمد الله إليك، فإن عُقْدة الإسلام في قلوبنا صحيحة، وأواخِيه عندنا ثابتة، وقد اجتهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم، وأن يَشُوبوا يقيننا بشكّهم، فَعصِم الله منهم، وحال توفيقه دونهم، ولنا بعدُ مذهب في الدُّعابة جميل، لا يشوبه أذى ولا قذَى، يخرج بنا إلى الأنس من العبُوس، وإلى الاسترسال من القُطوب، ويلحقنا بأحرار الناس الذين ارتفعوا عن لُبسة الرياء، وأنفِوا من التشوّف بالتصنّع.

وقال ابن جُرَيح: سألت عطاءً عن القراءة على ألحان الغناء والحُداء، فقال لي: لا بأس بذلك، حدثني عبيد الله بن عمر الليثيّ، أنه كان لداود النبي عليه السلام مِعْزَفَة، قد يضرب بها إذا قرأ الزبور، فتجمّع إليه الطير والوحش، فيبكي ويُبكي مَنْ حوله.

وقال جابر بن عبد الله الجُعفي: رأيت الشعبيّ يقول لخياط يمازحه: عندنا حُبٌّ مكسور وأحب أن تخيطه، فقال الخياط: أحضر لي خيوطاً من ريح لأخيطه لك.

وسئل الشعبيّ: هل يجوز أن يؤكل الجِنّي لو ظُفر به؟ فقال: ليتنا نخرج منه كَفافاً لا لنا ولا علينا.

وسأل إنسان محمد بن سيرين عن هشام بن حسان، فقال: توفي البارحة، أما شعَرت؟ فخرج يسترجع، فلما رأى ابن سيرين جزعَه، قرأ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾(١).

وكان زيد بن ثابت من أفكهِ الناس في بيته وأرفثهم، وقد أباح الله تعالى الرَّفَث إلى النساء، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(٢). وقال أهلُ اللغة: الرَّفَث: القول الفاحش تخاطَب به المرأة حال الجماع.

ومرّ بالشعبيّ حمّال على ظهره دَنّ خَلّ، فوضع الدَّنّ وقال له: ما كان اسم امرأة إبليس؟ فقال الشعبيّ: ذلك نكاح ما شهدناه.

وقال عِكْرمة: خَتن ابنُ عباس بِنيه فأرسلني، فدعوت اللعَّابين فلعِبوا، فأعطاهم أربعة دراهم.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

وتقدّم رجلان إلى شُريح في خُصومة، فأقرّ أحدَهما بما ادُّعِيَ عليه وهو لا يدري، فقضى شُريح عليه، فقال: أصلحك الله! أتقضي عليّ بغَيْر بينة؟ قال: بلى، شهد عندي ثقة. قال: ومَنْ هو؟ قال: ابنُ أخت خالتك.

وجاء في الخبر أن النبيّ ﷺ مرّ بصُهيب وهو أرمد يأكل تمراً، فنهاه، فقال: إنما آكله عن جانب العين الصحيحة يا رسول الله، فضحك منه ولم ينكِر عليه.

وفي الخبر أنّه ﷺ مَرّ بحسان بن ثابت، وقد رشّ أطماره، وعنده جارية تغنيه:

هـــل عـــلـــيّ ويـــحـــكـــمـــا إن لـــغـــوتُ مـــن حَـــرَجِ

فقال ﷺ: «لا حَرِج إن شاء الله».

وقيل: إن عبد الله بن جعفر قال لحسان بن ثابت في أيام معاوية: لو غنّتْك فلانة جاريتي صوت كذا لم تدرِكْ ركابك، فقال: يا أبا جعفر، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[1].

وقال أسلم مولى عمرَ بن الخطاب: مرّ بي عمر وأنا وعاصم نغنّي غناء النَّصْب، فوقف وقال: أعيدا عليّ، فأعدنا عليه، وقلنا: أينا أحسن صنعة يا أمير المؤمنين؟ فقال: مَثَلُكما كحماري العِبادِيّ، قيل له: أيّ حماريك شرّ؟ فقال: هذا ثمّ هذا. فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أنا الأول من الحمارين، فقال: أنت الثاني منهما.

ومرّ نعيمان وهو بَدْرِيّ بمخرمة بن نوفل في خلافة عثمان، وقد كُفّ بصره، فقال: ألا يقودني رجل حتّى أبول؟ فأخذ نعيمان بيده حتى صار به إلى مؤخر المسجد، وقال: ها هنا فبُلْ، فبال فصاح به النّاس، فقال: مَنْ قادني؟ قيل: نعيمان، قال: لله عليّ أن أضرِبَه بعصاي هذه. فبلغ نعيمان فأتاه، فقال: بلغني أنك أقسمت لتضربنّ نعيمان فهل لك فيه! قال: نعم. قال: قم، فقام معه حتى وافَى به عثمان بن عفان وهو يصلي، فقال: دونك الرجل، فجمع محرَمة يديه في العصا وضربه بها، فصاح الناس: ويلك، أمير المؤمنين! قال: من قادني! قالوا: نعيمان، قال: ومالي ولنعيمان! لا أعرض له أبداً!

وكان طُويس يتغنّى في عُرَس، فدخل النعمان بن بشير الأنصاري العرس وطويس يغنيهم:

أجَـدَّ بِـعَـمْـرة هـجـرانُـهـا وتـسـخـط أم شـأنـنـا شـأنُـهـا

فأشاروا إليه بالسكوت، فقال النعمان: دعوه إنه لم يقل بأساً، إنما قال:

وعـمْـرةُ مِـنْ سـوراتِ الـنّـسـا ءِ تـنـفـحُ بـالـمـسـك أرْدَانُـهـا

وعَمْرة هذه أمّ النعمان، وفيها قيل هذا النسيب.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين اللعب بالنّرد والشّطْرَنج، ومنهم من روى عنهم شربَ النبيذ وسماع الغناء المطرب.

فأمّا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فإذا نظرت إلى كتب الحديث والسِّيَر، لم تجد أحداً من خَلْقِ الله عدوًّا ولا صديقاً، روي عنه شيئاً من هذا الفنّ، لا قولاً ولا فعلاً، ولم يكن جِدّ أعظم من جِدِّه، ولا وقار أتَمّ من وقاره، وما هَزَل قطّ ولا لعِب، ولا فارق الحقّ والناموس الدينيّ سرًّا ولا جهراً، وكيف يكون هازلاً ومن كلامه المشهور عنه: «ما مزح امرؤ مزحة إلا ومجّ معها من عقله مجّة»! ولكنّه خُلِق على سَجِيّةٍ لطيفة، وأخلاق سهلة، ووجه طلْقٍ، وقول حَسَن، وبِشر ظاهر، وذلك من فضائله عليه السلام، وخصائصه التي منحه الله بشرفها، واختصه بمزيتها، وإنما كانت غلظته وفظاظته فعلاً لا قولاً، وضرباً بالسيف لاجَبْهاً بالقول، وطَعْناً بالسنان لا عَضْهاً باللسان، كما قال الشاعر:

وتسفه أيدينا ويحلُم رأيُنا ... ونشتمُ بالأفعال، لا بالتكلّم

فأمّا سوء الخلق فلم يكن من سجاياه، فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «**خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البُخْلُ وسوء الخلق**»(١). وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٣).

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الشؤم؟ فقال: «**سوء الخلق**»(٤).

وصحب جابر رجلاً في طريق مكة، فآذاه سوء خُلُقه، فقال جابر: إني لأرحمه، نحن نفارقه ويبقى معه سوء خُلقه!

وقيل لعبد الله بن جعفر: كيف تجاورُ بني زُهرة وفي أخلاقهم زَعَارة؟ قال: لا يكون لي قِبَلهم شيء إلا تركتُه، ولا يطلبون مني شيئاً إلا أعطيتهم.

وفي الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**ألا أنبئكم بشرّ الناس**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**مَنْ نزل وحْده، ومنع رِفْده، وضرب عبده**»، ثم قال: «**ألا أنبّئكم بشرّ من ذلك**»؟ قالوا: بلى، قال: «**مَنْ لم يُقِل عَثرة، ولا يقبل معذرة**»(٥).

وقال إبراهيم بن عباس الصوليّ: لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحاسن الخلْق كلّها

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في البخيل (١٩٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٨٣٠).

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٤) أخرجه أبو داود، كتب الأدب، باب في حق المملوك (٥١٦٢)، وأحمد في كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة (٢٤٠٢٦).

(٥) أخرج الحاكم نحوه في «المستدرك» (٧٧٠٧)، والطبراني في «المعجم اللبيب» (١٠٧٧٥).

لرجحت، قوله: «إنكم لن تسَعُوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»(١).

وفي الخبر المرفوع: «حُسن الخلق زمام من رحمة الله في أنْف صاحبه، والزّمام بيد المَلَك، والملك يجرُّه إلى الخير، والخير يجرّه إلى الجنة، وسوء الخلق زمام من عذاب الله في أنف صاحبه، والزمام بيد الشيطان، والشيطان يجرّه إلى الشرّ، والشرّ يجرّه إلى النار».

وروى الحسن بن عليّ عَلَيْتَلِا عن النبيّ ﷺ: «إن الرّجُل يدرك بحسن خلُقه دَرَجة الصائم القائم، وإنه ليُكتب جباراً ولا يملك إلا أهلَه»(٢).

وروى أبو موسى الأشعريّ، قال: بينا رسول الله ﷺ يمشِي وامرأةٌ بين يديه، فقلت: الطريقَ لرسول الله ﷺ! فقالت: «الطريق معرَّض، إن شاء أخذ يميناً وإن شاء أخذ شمالاً. فقال ﷺ: «دعوها فإنها جبّارة»(٣).

وقال بعض السلف: الحسَن الخلق ذو قرابة عند الأجانب، والسّيِّء الخلق أجنبيّ عند أهله.

ومن كلام الأحنف: ألا أخبرُكم بالمحمَدة بلا مذّمة؟ الخلق السَّجِيح، والكفّ عن القبيح. ألا أخبركم بأدوأ الداء! الخلق الدنيء واللسان البذيء».

وفي الحديث المرفوع: «أول ما يوضع في الميزان الخُلق الحسن».

وجاء مرفوعاً أيضاً: «المؤمن هيّن ليّن كالجمل الأنِف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ»(٤).

وجاء مرفوعاً أيضاً: «ألا أخبركم بأحبّكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموَطّئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤُلفون. ألا أخبركم بأبغضِكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة: الثرثارون المتفيهقون»(٥).

أبو رجاء العُطارديّ: من سرّه أن يكون مؤمناً حقاً، فليكن أذلّ من قَعُود، كلّ من مرّ به ادّعاه.

---

(١) أخرج نحوه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٢١٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٥٠)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: حسن الخلق (٤٧٩٨)، وأحمد في كتاب: باقي مسند الأنصار (٢٤٤٩٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨١٦٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٢٧٦).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٨٧)، والديلمي في مسند الفردوس (٦٥٨٣).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: معالي الأخلاق (٢٠١٨)، وأحمد في «مسنده» باب: حديث أبي ثعلبة (١٧٢٧٨).

فُضَيل بن عياض: لأن يصحَبني فاجر حَسَنُ الخلُق، أحب إليّ من أن يصحبَني عابد سَيِّء الخلق، لأنّ الفاسق إذا حَسُن خلقه خفَّ على الناس وأحبوّه، والعابد إذا ساء خلقُه، ثقُل على الناس ومَقَتُوه.

دخل فَرْقد ومحمد بن واسع على رجل يعودانه، فجرى ذكر العنف والرِّفق، فروى فَرْقد عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: عَلَى من حُرّمت النار يا رسول الله؟ قال: «على الهيِّن الليّن السّهل القريب»[1]، فلم يجد محمد بن واسع بياضاً يكتب ذلك فيه، فكتبه على ساقه.

عبد الله بن الداراني: ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قَسْوة القلب.

عائشة: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم باب رِفْق»[2].

وعنها، عنه ﷺ: «من أُعطِيَ حظَّه من الرّفق أعطِيَ حظَّه من خير الدنيا والآخرة»[3].

جرير بن عبد الله البَجَلِيّ رفعه «إنّ الله ليُعطي على الرفق ما لا يعطي على الخُرْق، فإذا أحبّ الله عبداً أعطاه الرفق»[4]. وكان يقال: «ما دخل الرِّفق في شيء إلا زانه».

أبو عَوْن الأنصاريّ: ما تكلّم الإنسان بكلمةٍ عنيفة إلا وإلى جانبها كلمة ألْيَن منها تجري مجراها.

سئلتْ عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقُه القرآن: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[5].

وسئل ابنُ المبارك عن حُسْن الخلق، فقال: بسْط الوجْه، وكفّ الأذى، وبذْلُ الندى.

ابن عباس: إنّ الخُلُقَ الحسَن يُذِيب الخطايا كما تُذِيب الشمس الجَليد، وإنّ الخلُق السَّيِّءَ يفسِد العمل، كما يفسد الخلّ العسل.

عليّ عليه السلام: ما من شيء في الميزان أثقل من خُلُق حَسَن.

وعنه عليه السلام: عنوان صحيفة المؤمن حُسْنُ خلقه.

وعنه عليه السلام مرفوعاً: عليكم بحسْنِ الخلُق، فإنه في الجنّة، وإياكم وسوء الخلق فإنّه في النار.

---

(١) أخرجه أحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب مسند عبد الله بن مسعود (٣٩٢٨).
(٢) أخرج أحمد نحوه في كتاب: باقي مسند الأنصار (٢٤٢١٣).
(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: الرفق (٢٠١٣)، وأحمد في كتاب: باقي مسند الأنصار (٢٤٧٣١).
(٤) أخرجه الطبراني (٢٢٧٤).
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

قال المنصور لأخيه أبي العباس في بني حسن لما أزمَعُوا الخروج عليه: آنسْهُم يا أميرَ المؤمنين بالإحسان، فإن استوحشوا فالشَّرُّ يصلح ما يعجز عنه الخير، ولا تَدَعْ محمداً يمرَحُ في أعنّة العقوق. فقال أبو العباس: يا أبا جعفر؟ إنه من شدّد نفّر، ومن لان ألّف، والتغافل من سجايا الكرام.

ونحن نذكر بعدُ كلاماً كليًّا في سبب الغلظة والفظاظة، وهو الخلق المنافي للخلق الذي كان عليه أمير المؤمنين، فنقول: إنه قد يكون لأمر عائد إلى المزاج الجسماني، وقد يكون لأمرٍ راجع إلى النفس:

فأمّا الأول، فإنما يكون من غَلَبة الأخلاط السوداوّية وترمّدها، وعدم صفاء الدّم وكثرة كدرته وعكَره، فإذاً غلظ الدم وثَخُن غلظ الرُّوح النفسانيّ وثخن أيضاً، لأنه متولدّ من الدم، فيحدث منه نوع مما يحدث لأصحاب الفِطْرة، من الاستيحاش والنّبْوة عن الناس وعدم الاستئناس والبشاشة، وصار صاحبُه ذا جفاء وأخلاق غليظة، ويشبه أن يكون هذا سبباً ماديًّا، فإنّ الذي يقوى في نفسي أن النفوس إن صحّت وثبتت مختلفةٌ بالذات.

وأما الراجع إلى النفس فأن يجتمع عندها أسقاط وأنصباء من قوى مختلفة مذمومة، نحو أن تكون القوة الغضبية عندها متوافرة، وينضاف إليها تصوُّر الكمال في ذاتها وتوهم النقصان في غيرها، فيعتقد أنّ حركات غيره واقعة على غير الصّواب، وأن الصواب ما توهمه. وينضاف إلى ذلك قلّة أدب النفس وعدم الضبط لها واستحقارها للغير، ويقلّ التوقير له، وينضاف إلى ذلك لجاجٌ، وضيق في النفس، وحدّةٌ واستشاطة وقلة صبر عليه، فيتولّد من مجموع هذه الأمور خُلُق دنيّ، وهو الغلظة والفظاظة، والوعورة والبادرة والكروهة، وعدم حبّه الناس، ولقاؤهم بالأذى، وقلّة المراقبة لهم، واستعمال القَهْر في جميع الأمور، وتناول الأمر من السماء، وهو قادر على أن يتناوله من الأرض.

وهذا الخلق خارجٌ عن الاعتدال، وداخل في حَيّز الجوْز، ولا ينبغي أن يسمّى بأسماء المدح، وأعني بذلك أن قوماً يسمُّون هذا النوع من العنْف والخلق الوعر رجوليّة، وشدةً وشكيمة، ويذهبون به مذهبَ قوة النفس وشجاعتها، الذي هو بالحقيقة مدح. وشتّان بين الخُلُقين، فإنّ صاحبَ هذا الخلق ذممناه تصدُر عنه أفعال كثيرة يجور فيها على نفسه ثم على إخوانه، على الأقربِ فالأقرب من معامليه، حتى ينتهيَ إلى عبيده وحرمه، فيكون عليهم سوط عذاب، لا يقيْلهم عثْرة، ولا يرحم لهم عَبْرة، وإن كانوا برآء الذنوب، غير مجرمين ولا مكتسبِي سوء، بل يتجرّم عليهم، ويهيج من أدنى سبب يجد به طريقاً إليهم، حتى يبسُط يده ولسانه، وهم لا يمتنعون منه، ولا يتجاسرون على ردّه عن أنفسهم، بل يُذعِنُون له ويقرُّون

بذنوب لهم يقترفوها، استكفافاً لعاديته وتسكيناً لغَضِبه، وهو في ذلك يستمرُّ على طريقته لا يكفّ يداً ولا لساناً.

وأصل هذا الخلق الذي ذكرناه أنه مركّب من قوى مختلفة من شدة القوة الغضبية، فهي الحاملة لصاحب هذا الحق على ما يصدُر عنه من البادرة المكروهة والجبْه والقِحة، وقد رأينا وشاهدنا من تشتدّ القوة الغضبية فيه، فيتجاوز الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التي لا تعقل، وإلى الأواني التي لا تحسّ، وربما قام إلى الحِمار وإلى البرذَوْن فضربهما ولكَمهما، وربّما كسر الآنية لشدة غَضبه، وربما عَضّ القُفل إذا تعسّر عليه، وربما كسر القلم إذا تعلقت به شعرة من الدواة واجتهد في إزالتها فلم تزل.

ويحكى عن بعض ملوك اليونان المتقدّمين، أنه كان يغضب على البحر إذا هاج واضطرب، وتأخّرت سفنه عن النفوذ فيه، فيسم بمعبودِه ليطمّنه وليطرحنّ الجبال فيه حتى يصيرَ أرضاً، ويقف بنفسه على البحر، ويهدده بذلك، ويزجُره زجراً عنيفاً، حتى تدرّ أوداجُه ويشتدّ احمرار وجه، ومنهم من لا يسكن غضبُه حتى يصَبّ عليه ماء بارد أو حتى يبول، ولهذا ورد في الشريعة، الأمر لمن اشتد غضبه أن يتوضأ للصلاة ويصلّيَ.

وكان عمر بن الخطاب إذا غضب على واحد من أهله لا يسكُن غضبُه، حتى يعضّ يده عضًّا شديداً حتى يُدمِيها.

وذكر الزبير بن بكار في «الموفقيات» أن سرّية جاءت لعبد الرحمن أو لعبيد الله بن عمر بن الخطاب إليه تشكوه فقالت: يا أميرَ المؤمنين، ألا تعذُرني من أبي عيسى، قال: ومَنْ أبو عيسى؟ قالت: ابنك عبيد الله، قال: ويحك! وقد تكنّى بأبي عيسى! ثم دعاه فقال: إيهاً اكتنيت بأبي عيسى! فحذر وفزع، وأخذ يده فعضّها، ثم ضربه، وقال: ويلك! وهل لعَيسى أب؟ أتدري ما كُنَى العرب! أبو سلمة، أبو حنظلة، أبو عرفطة أبو مرّة...

قال الزبير: وكان عمر إذا غضِب على بعض أهله لم يسكن غضبُه حتى يعضّ يده عضًّا شديداً. وكان عبد الله بن الزبير كذلك، ولقوة هذا الخلُق عنده أضمر عبد الله بن عباس في خلافته إبطال القول بالعوْل وأظهره بعده، فقيل له: هلا قلت هذا في أيام عمر! فقال: هبْته، وكان أميراً مهيباً.

ولذلك قال أيضاً أبو سفيان في استلحاق زياد: أخاف من هذا العَيْر الجالس أن يخرِق عليّ إهابيّ، فإذا هابه أبو سفيان، وهو من بني عبد مناف في المنزلة التي تعلم، وحوله بنو عبد شمس، وهم جمرة قريش، فما ظنك بمن هو دونه!

وقد علمتَ حال جبلة بن الأيهم وارتدادَه عن الإسلام لتهدّده له ووعيده إياه أن يضربه بالدِّرّة، وفساد الحال بينه وبين خالد بن الوليد بعد أن كان وليًّا مصافياً، ومنحرفاً عن غيره قالياً، والشأن الذي كان بينه وبين طلحة حتى همّ أن يوقِع به، وحتّى همّ طلحة أن يجاهرَه، وطلحة هو الذي قال لأبي بكر عند موته: ماذا تقول لربك وقد ولّيتَ فينا فظًّا غليظاً! وهو القائل له: يا خليفةَ رسول الله، إنا كنّا لا نحتمل شراسته وأنت حيّ تأخذ على يديه، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميت وهو الخليفة!

واعلم أنا لا نريد بهذا القول ذمَّه رضي الله عنه، وكيف نذمّه وهو أوْلى الناس بالمدح والتعظيم، ليُمْن نقيبته وبركة خلافته، وكثرة الفتوح في أيامه، وانتظام أمور الإسلام على يده! ولكنّا أردنا أن نشرح حال العنف والرفق، وحال سعة الخلق وضيقه، وحال البشاشة والعبوس، وحال الطلاقة والوعورة، فنذكر كل واحد منها ذكراً كليًّا، لا نخصّ به إنساناً بعينه. فأما عمر فإنه وإن كان وعراً شديداً خشناً، فقد رزق من التوفيق والعناية الإلهية ونُجْح المساعي، وطاعة الرعية ونفوذ الحكم، وقوة الدين وحسن النية وصحة الرأي، ما يُربى محاسنه ومحامده على ما في ذلك الخلق من نقص، وليس الكامل المطلق إلا الله تعال وحده.

فأما حديث الرَّضِيخة وما جعل معاوية لعمرو بن العاص من جعالة على مبايعته ونصرته، فقد تقدم ذكره في أخبار صفين المشروحة في هذا الكتاب من قبل.

٨٤ - ومن خطبة له عَلَيْهِ السَّلَامُ في تعظيم الله وتمجيده

الأصل: وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، الأَوَّلُ لاَ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَٱلآخِرُ لاَ غَايَةَ لَهُ، لاَ تَقَعُ ٱلأَوْهَامُ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلاَ تُعْقَدُ ٱلْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ، وَلاَ تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ، وَلاَ تُحِيطُ بِهِ ٱلأَبْصَارُ وَٱلْقُلُوبُ.

الشرح: في هذا الفصل على قصره ثماني مسائل من مسائل التوحيد:

الأولى: أنّه لا ثانيَ له سبحانه في الإلهية.

والثانية: أنه قديم لا أوّل له. فإن قلت: ليس يدلُّ كلامه على القدم، لأنه قال: «الأوّل لا شيء قبله» فيوهِم كونه غير قديم بأن يكون محدثاً وليس قبله شيء، لأنه محدَث عن عدم والعدم ليس بشيء! قلت: إذا كان محدَثاً كان له محدِث، فكان ذلك المحدث قبله، فثبت أنه متى صدق أنه ليس شيء قبله صدق كونه قديماً.

والثالثة: أنه أبدِيٌّ لا انتهاء ولا انقضاء لذاته.

والرابعة: نفي الصفات عنه - أعني المعاني.

والخامسة: نفي كونه مكيّفاً، لأن كيف إنما يُسْأل بها عن ذوي الهيئات والأشكال وهو منزّه عنها.

والسادسة: أنه غير متبعّض لأنه ليس بجسمٍ ولا عَرَض.

والسابعة: أنه لا يُرى ولا يدرَك.

والثامنة: أن ماهيَّته غير معلُومة، وهو مذهب الحكماء وكثير من المتكلِّمين من أصحابنا وغيرهم.

وأدلّةُ هذه المسائل مشروحة في كتبنا الكلامية.

واعلم أنَّ التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهيّة، ما عرِفت إلا من كلام هذا الرجل، وأنّ كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمّن شيئاً من ذلك أصلاً، ولا كانوا يتصورونه، ولو تصوّروه لذكروه. وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام.

الأصل: ومنها: **فَاتَّعِظُوا عِبَادَ ٱللهِ بِالْعِبَرِ ٱلنَّوَافِعِ، وَٱعْتَبِرُوا بِالآيِ ٱلسَّوَاطِعِ، وَٱزْدَجِرُوا بِالنُّذُرِ ٱلْبَوَالِغِ، وَٱنْتَفِعُوا بِالذِّكْرِ وَٱلْمَوَاعِظِ، فَكَأَنْ قَدْ عَلِقَتْكُمْ مَخَالِبُ ٱلْمَنِيَّةِ، وَانقَطَعَتْ مِنْكُمْ عَلاَئِقُ ٱلأُمْنِيَّةِ، وَدَهَمَتْكُمْ مُفْظِعَاتُ ٱلأُمُورِ، وَالسِّيَاقَةُ إِلَى ٱلْوِرْدِ ٱلْمَوْرُودِ، فَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا، وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا.**

الشرح: العِبَر: جمع عِبْرة، وهي ما يعتبر به أيّ يتعظ. والآي: جمع آية، ويجوز أن يريدَ بها آي القرآن، ويجوز أن يريدَ بها آيات الله في خلقه، وفي غرائب الحوادث في العالم.

والسواطع: المشرقة المنيرة.

والنُّذر: جمع نذير، وهو المخوِّف، والأحسن أن يكون النُّذر ها هنا هي الإنذارات نفسها، لأنه قد وصف ذلك بالبوالغ، وفواعل لا تكون في الأكثر إلا صفة المؤنث.

ومُفظِعات الأمور: شدائدها الشنيعة، أفظعَ الأمرُ فهو مُفظِع، ويجوز فظُع الأمر بالضم فظاعة فهو فظيع، وأُفظِع الرجل على ما لم يسمّ فاعله، أي نزل به ذلك.

وقوله: «والسياقة إلى الورد المورود»، يعني الموت. وقوله: «سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»، وقد

فسّر عليه السلام ذلك وقال: «سائق يسوقها إلى محشَرها، وشاهد يشهد عليها بعملها»، وقد قال بعض المفسرين: إن الآية لا تقتضي كونهما اثنين، بل من الجائز أن يكون ملكاً واحداً جامعاً بين الأمرين، كأنه قال: «وجاءت كل نفس معها ملك يسوقها ويشهد عليها». وكلام أمير المؤمنين يحتمل ذلك أيضاً، لأنه لم يقل أحدهما، لكن الأظهر في الأخبار والآثار أنهما ملَكان.

فإن قلت: إذا كان تعالى عالماً بكلّ شيء فأيّ حاجة إلى الملائكة التي تكتب الأعمال، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[1]، وإذا كان تعالى أعدل العادلين فأيّ حاجة إلى ملك يشهد على المكلّف يوم القيامة؟ وإذا كان قادراً لِذاته، فأيّ حاجة إلى ملَك يسوق المكلف إلى المحشر؟ قلت: يجوز أن يكونَ في تقرير مثل ذلك في أنفس المكلّفين في الدنيا ألطافٌ ومصالح لهم في أديانهم، فيخاطبهم الله تعالى به لوجوب اللّطف في حكمته، وإذا خاطبهم به وجب فعله في الآخرة، لأن خبره سبحانه لا يجوز الخلف عليه.

الأصل: ومنها في صفة الجنة: **دَرَجَاتٌ مُتَفَاضِلاَتٌ، وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَاتٌ، لاَ يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا، وَلاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يَهْرَمُ خَالِدُهَا، وَلاَ يَبْأَسُ سَاكِنُهَا.**

الشرح: الدّرَجات: جمع درجة، وهي الطّبقات والمراتب، ويقال لها: درجات في الجنة ودَرَكات في النار، وإنما تفاضَلَتْ وتفاوتت بحسب الأعمال، ولا يجوز أن يقع ذلك تفضُّلاً، لأن التفضّل بالثّواب قبيح.

فإن قلت: فما قولُك في الحُور والولدان والأطفال والمجانين؟ قلت: يكون الواصل إليهم نعيماً ولذة لا شبهة في ذلك، ولكن لا ثواب لهم ولا ينالونه، والثواب أمرٌ أخصُّ من المنافع والنعيم، لأنّه منافع يقترن بها التعظيم والتبجيل، وهذا الأمرُ الأخصّ لا يحسن إيصاله إلاّ إلى أرباب العمل.

وقوله: «لا ينقطع نعيمها ولا يظعن مقيمها» قولٌ متفق عليه بين أهل الملّة، إلا ما يحكى عن أبي الهذيل، أنّ حركات أهل الجنة تنتهي إلى سكون دائم. وقد نَزّهه قوم من أصحابنا عن هذا القول وأكذبوا رواته، ومَنْ أثبته منهم عنه زعم أنه لم يقل بانقطاع النعيم، لكن بانقطاع الحركة مع دوام النعيم، وإنما حمله على ذلك أنه لما استدلّ على أن الحركة الماضية يستحيل

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.

ألاّ يكون لها أوّل، عورض بالحركات المستقبلة لأهل الجنة والنار، فالتزم أنها متناهية، وإنما استُبعد هذا عنه، لأنه كان أجلّ قدراً من أن يذهب عليه الفرق بين الصورتين.

ويبأس: مضارع بَئِسَ، وجاء فيه «يَبئِس» بالكسر، وهو شاذّ كشذوذ «يحسِب» وينعِم، ومعنى «يبأس»: يصيبه البؤس وهو الشقاء.

٨٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الوعظ

الأصل: قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ ٱلْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَٱلْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَٱلْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُ مِنْكُمْ فِي أَيَّامِ مَهَلِهِ، قَبْلَ إِرْهَاقِ أَجَلِهِ، وَفِي فَرَاغِهِ قَبْلَ أَوَانِ شُغْلِهِ، وَفِي مُتَنَفَّسِهِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ، وَلْيُمَهِّدْ لِنَفْسِهِ وَقَدَمِهِ، وَلْيَتَزَوَّدْ مِنْ دَارِ ظَعْنِهِ لِدَارِ إِقَامَتِهِ.

فَاللهَ ٱللهَ أيُّها النَّاسُ فِيمَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ، وَٱسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وَلَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ وَلاَ عَمًى، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ، وَعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وَكَتَبَ آجَالَكُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ، وَعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ وَلَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ ٱلَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ، وَنَوَاهِيَهُ وَأَوَامِرَهُ، وَأَلْقَى إِلَيْكُم المَعْذِرَةَ، وَٱتَّخَذَ عَلَيْكُم ٱلْحُجَّةَ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وَأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ.

الشرح: السرائر: جمع سَرِيرة، وهو ما يكتم من السّرّ.

وخبَر الضمائر، بفتح الباء: امتحنها وابتلاها، ومن رواه بكسر الباء أراد «علم»، والاسم الخُبْر، بضم الخاء وهو العلم. والضمائر: جمع ضمير، وهو ما تضمره وتكنّه في نفسك.

وفي قوله: «له الإحاطة بكلّ شيء»، وقد بينها ثلاث مسائل في التوحيد:

إحداهنّ: أنه تعالى عالم بكلّ المعلومات.

والثانية: أنه لا شريك له، وإذا ثبت كونه عالماً بكلّ شيء كان في ضمن ذلك نفي الشريك، لأن الشريك لا يكون مغلوباً.

والثالثة: أنه قادر على كلّ ما يصحّ تعلق قادريته تعالى به.

وأدلة هذه المسائل مذكورة في الكتب الكلاميّة.

وقوله: «فليعمل العامل منكم إلى قوله»: «وليتزوّد من دار ظعنه لدار إقامته» مأخوذٌ من قول رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة وهي: «أيّها الناس، إنّ لكم معالَم فانتهُوا إلى معالمكم وإن لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم. إن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مَضى لا يدرِي ما الله صانعٌ به، وأجلٍ قد بقيَ لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومِنْ دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبة قبل الهَرَم، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفس محمد بيده، ما بعدَ الموت من مستعتَب، وما بعدَ الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»[1].

والمهَل: المهلة والتؤدة. والإرهاق: مصدر أرهق، تقول: أرهقه قِرنه في الحرب إرهاقاً إذا غشيَه ليقتله، وزيد مرهَق، قال الشاعر:

تَنْدَى أكفّهمُ وفي أبياتهمْ ثِقَةُ المجاور والمضافِ المرهَقِ

وفي متنفّسه، أي في سَعة وقته، يقال: أنت في نفَس من أمرك، أي في سَعة. والكَظم بفتحهما: مخرج النَّفَس، والجمع أكْظَام. ويجوز ظعنْه وظعَنه، بتحريك العين وتسكينها، وقرىء بهما: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾[2] ﴿وظعَنكم﴾.

ونصب «الله الله» على الإغراء، وهو أن تقدّر فعلاً ينصب المفعول به، أي اتقوا الله، وجعلِ تكرير اللفظ نائباً عن الفعل المقدّر ودليلاً عليه.

استحفظكم من كتابه: جعلكم حَفَظة له، جمع حافظ.

السُّدَى: المهمَل، ويجوز سَدى بالفتح، أسديت الإبل: أهملتها. وقوله: «قد سمّي آثاركم» يفسَّر بتفسيرين: أحدهما: قد بيّن لكم أعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[3]، والثاني: قد أعلى مآثركم، أي رفع منازلكم إن أطعتم، ويكون سميّ بمعنى أسْمَى، كما كان في الوجه الأول بمنى أبان وأوضح.

والتِّبيان، بكسر التاء: مصدر، وهو شاذّ، لأن المصادر إنما تجيء على «التَّفعال» بفتحها مثل التَّذكار والتَّكرار، ولم يأت بالكسر إلا حرفان وهما: التِّبيان والتِّلْقاء.

وقوله: «حتى أكمل له ولكم دينه» من قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[4].

وقوله: «الذي رضي لنفسه» من قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾[5]، لأنه

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٥٨١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤٢٦١).
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٠. (٣) سورة البلد، الآية: ١٠.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٣. (٥) سورة النور، الآية: ٥٥.

إذا ارتضى لهم فقد ارتضاه لنفسه، أي ارتضى أن ينسَب إليه، فيقال: هذا دين الحق. «وأنهَى إليكم»: عرّفكم وأعلمكم.

ومحابّه: جمع محبة، ومكارهه: جمع مَكْرهة، وهي ما تكره، وفي هذا دلالة أن الله تعالى يحب الطاعة ويكره المعصية، وهو خلاف قول المجبِرة.

والأوامر: جمع آمِر، وأنكره قوم وقالوا: ها هنا جمع «أمْر»، كالأحاوِص جمع أحْوص، والأحامِر جمع أحْمر. يعني الكلام الآمر لهم بالطاعات وهو القرآن.

والنَّواهي: جمع ناهِية، كالسّواري جمع سارِية، والغوادي جمع غادية، يعني الآيات الناهية لهم عن المعاصي، ويضعُف أن يكون الأوامر والنواهي جمع أمر ونهي، لأن «فَعْلاً» لا يجمع على أفاعل وفواعل، وإن كان قال ذلك بعض الشواذّ من أهل الأدب.

وقوله: «وألقى إليكم المعذِرة» كلام فصيح، وهو من قوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾(١).

وقدّم إليكم بالوعيد، وأنذركم بين يدي عذاب شديد، أي أمامه وقبله، مأخوذ أيضاً من القرآن. ومعنى قوله: «بين يدي عذاب شديد»، أي أمامه وقبله، لأن ما بين يديك متقدم لك.

الأصل: فَاسْتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ، وَاصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّهَا قَلِيلٌ فِي كَثِيرِ ٱلْأَيَّامِ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْكُمْ فِيهَا ٱلْغَفْلَةُ، وَالتَّشَاغُلُ عَنِ المَوْعِظَةِ، وَلاَ تُرَخِّصُوا لِأَنْفُسِكُمْ، فَتَذْهَبَ بِكُمُ الرُّخَصُ مَذَاهِبَ الظَّلَمَةِ، وَلاَ تُدَاهِنُوا فَيَهْجُمَ بِكُمُ ٱلْإِدْهَانُ عَلَى المَعْصِيَةِ.

عِبَادَ ٱللهِ: إِنَّ أَنْصَحَ النَّاسِ لِنَفْسِهِ أَطْوَعُهُمْ لِرَبِّهِ، وَإِنَّ أَغَشَّهُمْ لِنَفْسِهِ أَعْصَاهُمْ لِرَبِّهِ، وَالمَغْبُونُ مَنْ غَبَنَ نَفْسَهُ، وَالمَغْبُوطُ مَنْ سَلِمَ لَهُ دِينُهُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنِ ٱنْخَدَعَ لِهَوَاهُ وَغُرُورِهِ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ ٱلْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلْإِيمَانِ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ.

جَانِبُوا ٱلْكَذِبَ فَإِنَّهُ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ. الصَّادِقُ عَلَى شَفَا مَنْجَاةٍ وَكَرَامَةٍ، وَٱلْكَاذِبُ عَلَى شَرَفِ مَهْوَاةٍ وَمَهَانَةٍ.

وَلاَ تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ ٱلْحَسَدَ يَأْكُلُ ٱلْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ ٱلْحَطَبَ، وَلاَ تَبَاغَضُوا فَإِنَّها الحَالِقَةُ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ الأَمَلَ يُسْهِي ٱلعَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ. فَأَكْذِبُوا ٱلأَمَلَ، فَإِنَّهُ غُرُورٌ، وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

الشرح: قوله: «فاستدركوا بقيّة أيامكم»، يقال: «استدركت ما فات وتداركت ما فات»، بمعنى «واصبروا لها أنفسكم»: مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾(١)، يقال: «صبر فلان نفسه على كذا»، أي حبَسها عليه. يتعدىّ فينصب، قال عنترة:

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسو إذا نفس الجبان تَطَلَّعُ

أي حبست نفساً عارفة. وفي الحديث النبويّ في رجل أمسك رجلاً وقتله الآخر، فقال عليه السلام: «اقتلوا القاتل واصبروا الصابر»(٢)، أي احبسوا الذي أمسكه حتى يموت.

والضمير في «فإنها قليل» عائد إلى الأيام التي أمرهم باستدراكها. يقول: إن هذه الأيام التي قد بقيَت من أعمَاركم قليلة، بالنسبة والإضافة إلى الأيام التي تغفلون فيها عن الموعظة.

وقوله: «فإنها قليل» فأخبر عن المؤنث بصيغة المذكر، إنما معناه فإنها شيء قليلٌ بحذف الموصوف، كقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾(٣) أي قَبِيلاً رفيقاً.

ثم قال: «ولا تُرَخّصوا»، نَهَى عن الأخذ برُخَص المذاهب، وذلك لأنه لا يجوز للواحد من العامة أن يقلّد كلاً من أئمة الاجتهاد فيما خفّ وسَهلُ من الأحكام الشرعية. أو لا تُساهلوا أنفسكم في ترك تشديد المعصية، ولا تسامحوها وترخّصوا إليها في ارتكاب الصغائر والمحقّرات من الذنوب، فتهجُم بكم على الكبائر، لأنّ من مَرَن على أمرٍ تدرّج من صغيره إلى كبيره.

والمداهنة: النفاق والمصانعة. والإدهان مثله، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٤).

قوله: «إنّ أنصحَ الناس لنفسه أطوعُهم لربه»، لأنه قد صانها عن العقاب، وأوجب لها الثواب، وذلك غاية ما يمكن من نصيحتها ونفعها.

قوله: «وإن أغشّ الناس لنفسه أعصاهم لربه، لأنه ألقاها في الهلاك الدائم، وذلك أقصى ما يمكن من غِشّها والإضرار بها.

ثم قال: «والمغبونُ من غبَن نفسه»، أي أحقّ الناس أن يسمَّى مغبوناً مَنْ غَبَن نفسه، يقال: غبنتُه في البيع غبْناً، بالتسكين، أي خدعتُه، وقد غُبِن فهو مغبون، وغبِن الرجل رأيه بالكسر غبَناً بالتحريك فهو غَبين، أي ضعيف الرأي، وفيه غَبَانة. ولفظ الغَبْن يدلّ على أنه من باب غَبْن البيع والشراء، لأنه قال: «والمغبون» ولم يقل: «والغبين».

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ٤/ ٤٣٨، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال رقم: ٣٩٨٣٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٤) سورة القلم، الآية: ٩.

والمغبوط: الذي يُتمنَّى مثلُ حاله، والذي يتمنى زوالَ حاله وانتقالها هو الحاسد، والحسد مذموم، والغبطة غير مذمومة، يقال: غَبَطته بما نَال، أغبطه غبطاً وغِبْطة فاغتبط هو، كقولك منعته فامتنع، وحبسته فاحتبس، قال الشاعر:

وبينما المرء في الأحياء مغتبِطٌ إذا صار في الرَّمْس تعفُوه الأعاصير

هكذا أنشدوه بكسر الباء، وقالوا فيه: مغتبَط، أي مغبوط.

قوله: «والسعيد من وُعظ بغيره» مثَل من الأمثال النبوية.

وقد ذكرنا فيما تقدم، ما جاء في ذم الرياء وتفسير كونه شِرْكاً.

وقوله عليه السلام: «مَنْسَاة للإيمان»، أي داعية إلى نسيان الإيمان وإهماله، والإيمان الاعتقاد والعمل.

ومحضرة للشيطان: موضع حضوره، كقولك: مَسْبَعة، أي موضع السباع. ومَفْعَاة، أي موضع الأفاعي.

ثم نهى عن الكذب وقال: «إنه مجانب للإيمان» وكذا ورد في الخبر المرفوع. وشَفا منجاة، أي حَرْف نجاة وخَلاَص، وشفا الشيء حرفه، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[1]، وأشفى على الشيء وأشرف عليه بمعنًى، وأكثر ما يقال ذلك في المكروه، يقال: أشفى المريض على الموت، وقد استعمله ها هنا في غير المكروه.

والشَّرَف: المكان العالي، بفتح الشين، وأشرفْت عليه، أي اطّلعت من فوق.

والمَهْواة: موضع السقوط. والمهانة: الحقارة.

ثم نهى عن الحسَد وقال: «إنه يأكلُ الإيمان كما تأكل النار الحطب»[2]. وقد ورد هذا الكلام في الأخبار المرفوعة، وقد تقدّم منا كلام في الحسد، وذكرنا كثيراً مما جاء فيه.

ثم نهى عن المباغضة وقال: «إنها الحالقة»، أي المستأصِلة التي تأتي علىَ القوم، كالحلْق للشعر.

ثم نهى عن الأمل وطُوله وقال: «إنه يورث العقل سهواً، وينسي الذكر». ثم أمر بإكذاب الأمل، ونهى عن الاعتماد عليه، والسكون إليه، فإنه من باب الغرور.

وقد ذكرنا في الأمل وطوله نكتاً نافعة فيما تقدم، ويجب أن نذكر ما جاء في النهي عن الكذب.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: الحسد (٤٩٠٣)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الحسد (٤٢١٠).

ذم الكذب والكذابين

جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملَك منه مَسِيرة ميل، من نتْن ما جاء به»[(١)].

وعنه عليه السلام : «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذِب ويتحرّى الكذب، فيُكتب عند الله كاذباً، وعليكم بالصدق، فإن الصِّدق يَهدي إلى البِرّ، وإن البرّ ليهدي إلى الجنة، وإن الرجلَ ليصدُق ويتحرّى الصدق، فيُكتب عند الله صادقاً»[(٢)].

وروي أنّ رجلاً قال للنبيّ صلى الله عليه وآله : أنا يا رسول الله أستسِرّ بخلال أربع: الزنى، وشرب الخمر، والسرَق، والكذب، فأيتهنّ شئتَ تركتُها لك، قال: «دع الكذب»، فلما وَلّى همَّ بالزنى، فقال: يسألني فإن جحدت نقضت ما جعلت له، وإن أقررت حُدِدت، ثم همّ بالسّرق، ثم بِشُرْب الخمر، ففكّر في مثل ذلك، فرجع إليه فقال: قد أخذَت عليّ السبيل كلّه، فقد تركتهنّ أجمع[(٣)].

قال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله: يا بنيّ أنت أفقهُ مني، وأنا أعقل منك، وإن هذا الرجل يُدْنيك - يعني عمر بن الخطاب - فاحفظ عنّي ثلاثاً: لا تُفشِيَنّ له سرًّا، ولا تغتابَنّ عنده أحداً، ولا يطّلِعَنّ منك على كِذبةٍ. قال عبد الله: فكانت هذه الثلاث أحبّ إليّ من ثلاث بَدَرات ياقوتاً.

قال الواثق لأحمد بن أبي دُوَاد رحمه الله تعالى: كان ابنُ الزّيات عندي، فذكَرك بكلّ قبيح، قال: الحمد لله الذي أحوجَه إلى الكذب عليّ، ونزّهني عن الصدق في أمرِه.

وكان يقال: أمران لا يكاد أحدُهما ينفكّ من الكذب: كثرةُ المواعيد وشدة الاعتذار.

ومن الحِكَم القديمة: إنّما فَضَل الناطق على الأخرس بالنطق، وزَيْن المنطق الصدق، فالكاذب شرٌّ من الأخرس.

قال الرشيد للفضل بن الربيع في كلام جرى بينهما: كذبتَ، فقال: يا أمير المؤمنين، وَجه الكذوب لا يقابلك، ولسانه لا يحاورك.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب الصدق والكذب (١٩٧٢).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب قبح الكذب (٢٦٠٧)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب: الصدق والكذب (١٩٧١)، وأبو داود في كتاب: الأدب، باب: التشديد في الكذب (٤٩٨٩).
(٣) أخرجه محمدي الريشهري في ميزان الحكمة: ٣/ ٢٦٧٤.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1]، هي في الكذابين، فالويل لكلّ كاذب إلى يوم القيامة.

ومن كلام بعض الصالحين: لو لم أترك الكذب تأثُّماً لتركتُه تكرُّماً.

أبو حيان: الكذِب شعارٌ خَلَق، وموردٌ رَنَق، وأدب سيّىء، وعادة فاحشة، وقَلّ مَن استرسل معه إلا ألفَه، وقلّ من ألفه إلا أتلفه، والصدق ملبس بهيّ، ومنهل غذيّ، وشُعاع منبث، وقلّ مَن اعتاده ومرنَ عليه إلا صحبتْه السكينة، وأيّده التوفيق، وخدمتْه القلوب بالمحبّة، ولحظتْه العيون بالمهابَة.

ابن السّماك: لا أدري، أُوجَر على ترك الكذب أم لا! لأني أتركه أنَفَةً.

يحيى بن خالد: رأيتُ شِرّيب خمرٍ نَزَع، ولصًّا أقلع، وصاحبَ فواحش ارتدع، ولم أر كاذباً رَجَعَ.

قالوا في تفسير هذا: إن المولع بالكذب لا يكاد يصبر عنه، فقد عوتب إنسان عليه، فقال لمعاتبه: يابن أخي، لو تغرْغَرْت به لما صبرت عنه.

وقيل لكاذب معروف بالكذب: أصدقت قطّ؟ قال: لولا أني أخاف أن أصدُق لقلت: لا!

وجاء في بعض الأخبار المرفوعة: قيل له: يا رسولَ الله، أيكون المؤمن جَباناً؟ قال: نعم، قيل: أفيكُون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل أفيكون كاذباً؟ قال: لا.

وقال ابنُ عباس: الحَدَث حَدَثان: حدث مِن فِيك، وحدث من فَرْجك.

وقال بعضهم: من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون، أخذه شاعر فقال:

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى ذَمِّهِ ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطِلِ

وكان يقال: خذوا عن أهل الشرف، فإنهم قَلّما يكذبون.

وقال بعض الصالحين: لو صحِبَني رجل، فقال لي: اشترطْ عليّ خَصْلَةً واحدة لا تزيد عليها، لقلت: لا تكذب.

وكان يقال: خَصْلتان لا يجتمعان: الكذب والمروءة.

كان يقال: مِنْ شرف الصدق أنّ صاحبَه يُصدَّق على عدوّه، ومن دناءة الكذب أنّ صاحبَه يكذَّب وإن كان صادقاً.

ومثل هذا قولهم: منْ عُرِف بالصدق جاز كِذبُه، ومن عُرِف بالكذب لم يَجُزْ صدقه.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

وجاء في الخبر المرفوع: «إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب»(١).

وقال ابن سِيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريفٌ.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾(٢)، لم ينسَ، ولكنّه من معاريض الكلام، وكذلك قالوا في قول إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾(٣).

وقال العُتْبِيّ: إني لأصدُق في صغارِ ما يضرّني، فكيف لا أصدق في كبار ما ينفعني! وقال بعض الشعراء:

لا يكذِبُ المرءُ إلاّ مِنْ مهانَتِهِ ... أو عادةِ السُّوءِ أو من قلّةِ الأدبِ

لَعَضُّ جيفَةِ كَلْبٍ خيرُ رائحةٍ ... مِن كِذبة المرء في جِدّ وفي لعبِ

شهد أعرابيّ عند معاوية بشهادة، فقال له: كذبت، فقال: الكاذب والله المتزمّل في ثيابك، فقال معاوية: هذا جزاء من عَجِل.

وقال معاوية يوماً للأحنف - وحدّثه حديثاً، أتكذب؟ فقال له الأحنف: والله ما كذبت منذ علمتُ أنّ الكذب يشين أهله.

ودخل عبدُ الله بن الزُّبير يوماً على معاوية فقال له: اسمع أبياتاً قلتُها - وكان واجداً على معاوية - فقال: هات، فأنشده:

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاكَ وجَدْتَه ... عَلَى طَرَفِ الهجران إن كان يعقلُ

ويركب حدّ السيف من أن تَضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مِزْحَلُ

فقال معاوية: لقد شعرتَ بعدنا يا أبا بكر، ثم لم يلبث معاوية أن دخل عليه مَعْنُ بن أوس المزنيّ، فقال: أقلت بعدنا شيئاً؟ قال نعم، وأنشده:

لَعَمْرُكَ لا أدري وإنّي لأوْجَلُ ... عَلَى أيِّنَا تَغْدُو المنيَّةُ أوّلُ

حتى صار إلى الأبيات التي أنشدها ابن الزبير، فقال معاوية: يا أبا بكر، أما ذَكرتَ آنفاً أن هذا الشعر لك؟ فقال: أنا أصلحتُ المعاني وهو ألّف الشعر. وبعدُ، فهو ظِئْري وما قال من شيء فهُوَ لي. وكان عبد الله بن الزبير مُسْترضَعاً في مُزَيْنة.

وروى أبو العباس المبرِّد في «الكامل» أن عمرَ بن عبد العزيز كَتَب في إشخاص إياس بن معاوية المزنيّ، وعديّ بن أرطاة الفَزاري أمير البصرة وقاضيها إليه، فصار عديٌّ إلى إياس،

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠٦٣١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٠٩٦)، وابن عدي في «الكامل» (٦٣٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٣.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٨٩.

وقدّر أنّه يمزّنه عند عمر بن عبد العزيز ويُثني عليه، فقال له: يا أبا وائلة، إن لنا حقًّا ورِحماً، فقال إياس: أعَلَى الكذب تريدني! والله ما يسرنيّ أنْ كذبتُ كذبة؟ يغفرهَا الله لي، ولا يطلع عليها هذا - وأومأ إلى ابنه - ولي ما طلعت عليه الشمس!

وروى أبو العباس أيضاً: أن عمرو بن معديكرب الزُّبيديّ كان معروفاً بالكذب. وقيل لخلف الأحمر - وكان مولًى لهم وشديد التعصب لليمن: أكان عمرو بن معديكرب يكذب؟ قال: يكذب في المقال ويصدق في الفعال.

قال أبو العباس: فروِي لنا أن أهل الكوفة الأشراف، كانوا يظهرون بالكُنَاسة، فيركبون على دوابهم حتى تطرُدَهم الشمس، فوقف عمرو بن معديكرب الزُّبيديّ، وخالد بن الصقعب النَّهديّ - وعمرو لا يعرفه، إنما يسمع باسمه - فأقبل عمرو يحدثه، فقال: أغرْنا مرّة على بني نَهْد، فخرجوا مسترعِفين بخالد بن الصقعب، فحملتُ عليه، فطعنته فأذريتُه ثم مِلْت عليه بالصَّمْصَامة، فأخذت رأسه، فقال خالد بن الصقعب: حِلاً أبا ثور، إن قتيلك هو المحدَّث، فقال عمرو: يا هذا إذا حُدِّثت فاستمِع، فإما نتحدّث بمثل ما تستمِع لنُرهِب به هذه المعدّيّةَ.

قوله: «مسترعِفين» أي مقدمين له. وقوله: «حِلاً أبا ثور» أي استثن، يقال: حلف ولم يتحلّل، أي لم يستثْن والمعدّية: مضرُ وربيعة وإياد، بنو معدّ بن عدنان، وهم أعداء اليمن في المفاخرة والتكاثُر.

٨٦ - ومن خطبة له عليه السلام في صفات من يحبه الله تعالى

الأصل: عِبَادَ ٱللهِ، إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ ٱللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ ٱللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ ٱلْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ ٱلْخَوْفَ، فَزَهَرَ مِصْبَاحُ ٱلْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ ٱلْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ ٱلْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ.

نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَٱرْتَوَى مِنْ عَذْبٍ فُرَاتٍ، سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلاً، وَسَلَكَ سَبِيلاً جَدَداً.

قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى عَنِ ٱلْهُمُومِ، إِلاَّ هَمًّا وَاحِداً ٱنْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ ٱلْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ ٱلْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مَفَاتِيحِ أَبْوَابِ ٱلْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ ٱلرَّدَى.

قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ، وَٱسْتَمْسَكَ مِنَ ٱلْعُرَا بِأَوْثَقِهَا، وَمِنَ ٱلْحِبَالِ بِأَمْتَنِها، فَهُوَ مِنَ ٱلْيَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ، قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ للهِ سُبْحَانَهُ فِي أَرْفَعِ ٱلأُمُورِ، مِنْ إِصْدَارِ كُلِّ وَارِدٍ عَلَيْهِ، وَتَصْيِيرِ كُلِّ فَرْعٍ إِلَى أَصْلِهِ.

مِصْبَاحُ ظُلُمَاتٍ، كَشَّافُ عَشَوَاتٍ، مِفْتَاحُ مُبْهَمَاتٍ، دَفَّاعُ مُعْضِلاَتٍ، دَلِيلُ فَلَوَاتٍ، يَقُولُ فَيُفْهِمُ، وَيَسْكُتُ فَيَسْلَمُ.

قَدْ أَخْلَصَ للهِ فَاسْتَخْلَصَهُ، فَهُوَ مِنْ مَعَادِنِ دِينِهِ، وَأَوْتَادِ أَرْضِهِ، قَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ الْعَدْلَ، فَكَانَ أَوَّلَ عَدْلِهِ نَفْيُ الْهَوَى عَنْ نَفْسِهِ.

يَصِفُ الْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِهِ، لاَ يَدَعُ لِلْخَيْرِ غَايَةً إِلاَّ أَمَّهَا، وَلاَ مَظِنَّةً إِلاَّ قَصَدَهَا، قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ، فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَيَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ.

الشرح: استشعر الحزن: جعله كالشعار، وهو ما يلي الجسد من الثياب. وتجلبَب الخوف: جعله جلباباً، أي ثوباً.

زهر مصباح الهدى: أضاء. وأعدّ القِرَى ليومه، أي أعدّ ما قدمه من الطاعات قِرًى لضيف الموتِ النازل به. والفُرات: العذب.

وقوله: «فشرب نَهَلاً»، يجوز أن يكون أراد بقوله: «نَهَلاً» المصدرَ، من نَهَلَ يَنْهَلُ نَهَلاً، أي شرب حتى رَوِيَ، ويجوز أن يريد بالنَّهَل الشرب الأول خاصة، ويريد أنه اكتفى بما شربه أولاً، فلم يحتج إلى العَلل.

وطريق جَدَدٌ: لا عثار فيه لقوة أرضه. وقطع غِماره، يقال: بحر غَمْر، أي كثير الماء، وبحار غِمار. واستمسك من العرا بأوثقها، أي من العقود الوثيقة، قال تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(١). ونصب نفسه لله، أي أقامها.

كشّاف عَشَوات: جمع عُشْوة وعَشْوة وعِشْوة، بالحرَكات الثلاث، وهي الأمر الملتبس، يقال: أوطأني عَشْوةً.

والمعضِلات: جمع معضلة وهي الشدائد والأمور التي لا يهتدي لوجهها.

دليل فلوات، أي يُهتدى به كما يَهتدى الركب في الفلاة بدليلهم.

أمّها: قصدها. ومظنّة الشيء: حيث يُظنّ وجوده. والثَّقَل. متاع المسافر وحَشَمه.

العباد والزهاد والعارفون

واعلم: أنّ هذا الكلام منه أخذ أصحاب علْم الطريقة والحقيقة علمَهم، وهو تصريح بحال العارف ومكانته من الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

والعِرْفان درجة حالٍ رفيعة شريفة جدًّا، مناسبة للنبوّة، ويختصّ الله تعالى بها مَنْ يقرِّبه إليه من خلقه.

والأولياء على طبقات ثلاث:

الطبقة الأولى: حالُ العابد، وهو صاحبُ الصلاة الكثيرة، والصوْم الدائم، والحجّ والصدقة.

والطبقة الثانية: حال الزاهد، وهو المعرِضُ عن ملاذّ الدنيا وطيّباتها، تقنِعه الكِسره، وتستُره الخِرقة، لا مالَ ولا زوجة ولا ولد.

والطبقة الثالثة: حال العارف، وهو الواصل إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدِنه، والباريء سبحانه متمثّلٌ في نفسه تمثُّلَ المعشوق في ذات العاشق، وهو أرفع الطبقات، وبعده الزاهد.

وأما العابد فهو أدْونُها، وذلك لأنّ العابد مُعامل كالتّاجر، يعبُد ليثاب، ويُتعب نفسه ليرتاح، فهو يعطي من نفسه شيئاً ويطلب ثمنه وعِوَضه، وقد يكون العابد غنيًّا موسراً، كثير المال والولد، فليستْ حاله من أحوال الكمال.

وأما الزاهد، فإنه احتقَر الدنيا وعروضها وقَيْناتها، فخلصت نفسه من دناءة المطامع وصار عزيزاً مَلِكاً، لا سلطان عليه لنفسه ولا لغيره، فاستراح من الذلّ والهوان، ولم يبق لنفسه شيء تشتاق إليه بعد الموت، فكان أقرب إلى السلامة والنجاة من العابد الغنيّ الموسر.

وأمّا العارف فإنّه بالحال التي وصفناها، ويستلزم مع وجودها أن يكون زاهداً، لأنه لا يتصوَّر العِرْفان مع تعلّق النفس بملاذّ الدنيا وشهواتها. نعم قد يحصلُ بعضُ العرفان لبعض العلماء الفضلاء، مع تعلّقهم بشهوات الدنيا، ولكنّهم لا يكونون كاملين في أحوالهم، وإنما تحصُل الحالة الكاملة لمن رَفَضَ الدنيا وتخلّى عنها، وتستلزم الحالة المذكورة أيضاً أن يكونَ عابداً عبادةً ما، وليس يشترط في حصول حال العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة، بل الإكثارُ من العبادة حجاب كما قيل، ولكنْ لا بدّ من القيام بالفرائض وشيء يسير من النوافل.

واعلم: أن العارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وكتبه، وبالحكمة المودعة في نظام العالم، لا سيما الأفلاك والكواكب، وتركيب طبقات العناصر، والأحكام وفي تركيب الأبدان الإنسانية.

فمن حصل له ذلك، فهو العارف، وإن لم يحصل له ذلك، فهو ناقص العرفان، وإن انضمّ إلى ذلك استشعارُه جلال الله تعالى وعظمته، ورياضة النفس والمجاهدة، والصبر والرضا والتوكل، فقد ارتفع طبقة أخرى، فإن حصل له بعد ذلك الحبّ والوجْد، فقد ارتفع طبقة

أخرى، فإن حَصَل له بعد ذلك الإعراضُ عن كلّ شيء سوى الله، وأن يصيرَ مسلوباً عن الموجودات كلها، فلا يشعر إلا بنفسه وبالله تعالى، فقد ارتفع طبقة أخرى، وهي أرفع الطبقات.

وهناك طبقة أخرى يذكرونها، وهي أن يسلب عن نفسه أيضاً، فلا يكون له شعور بها أصلاً، وإنما يكون شاعراً بالقيّوم الأوّل سبحانَه لا غير، وهذه درجةُ الاتحاد، بأن تصير الذّاتان ذاتاً واحدة.

وهذا قول قوم من الأوائل ومن المتأخّرين أيضاً، وهو مقام صعب، لا تثبت العقول لتصوُّره واكتناهه.

واعلم أن هذه الصفات والشروط والنعوت التي ذكرها في شرح حال العارف، إنما يعني بها نفسَه عليه السلام، وهو من الكلام الذي له ظاهر وباطن، فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق، وباطنه أن يشرح حال عارف معيّن، وهو نفسه عليه السلام. وسيأتي في آخر الخطبة ما يدلّ على ذلك.

ونحن نذكر الصفات التي أشار عليه السلام إليها واحدة واحدة:

فأوّلُها: أن يكون عبداً أعانه الله على نفسه، ومعنى ذلك أن يخصّه بألطاف، يختار عندها الحَسن ويتجنّب القبيح، فكأنه أقام النفس في مقام العدوّ، وأقام الألطافَ مقام المعونة التي يمدّه الله سبحانه بها، فيكسِر عادية العدوّ المذكور، وبهذا الاعتبار سمي قومٌ من المتكلمين اللطف عَوْناً.

وثانيها: أن يستشعر الحزن، أي يحزن على الأيام الماضية، إن لم يكن اكتسب فيها من موجبات الاختصاص أضعاف ما اكتسبه.

وثالثها: أن يتجلببَ الخوف، أي يخاف من الإعراض عنه، بأن يصدر عنه ما يمحوه من جريدة المخلِصين.

ورابعها: أن يُعِدّ القِرَى لضيف المنيّة، وذلك بإقامة وظائف العبادة.

وخامسها: أن يقرّب على نفسه البعيد، وذلك بأن يمثّل الموت بين عينيه صباحاً ومساءً، وألاّ يطيل الأمل.

وسادسها: أن يهوّن عليه الشدائد، وذلك باحتمال كُلَف المجاهدة ورِياضة النفس على عمل المشاقّ.

وسابعها: أن يكون قد نظر فأبصر، وذلك بترتيب المقدّمات المطابقة لمتعلّقاتها ترتيباً صحيحاً، لتنتج العلم اليقينيّ.

وثامنها: أن يذكر الله تعالى فيستكثرَ من ذكره، لأنّ ذكره سبحانه والإكثار منه، يقتضي سكونَ النفس وطُمأنينتها، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

وتاسعها: أن يرتوِيَ من حبّ الله تعالى، وهو العذب الفُرات، الذي سهل موارده على من انتخبه الله، وجعله أهلاً للوصول إليه، فشرب منه ونَهَل، وسلك طريقاً لا عَثار فيه ولا وَعْث.

وعاشرها: أن يخلَعَ سرابيلَ الشهوات، لأن الشهوات تصدِيء مرآة العقل، فلا تنطبع المعقولات فيها كما ينبغي، وكذلك الغَضب.

وحادي عشرها: أن يتخلّى من الهموم كلّها، لأنها تزيّدات وقواطع عن المطلوب، إلا همًّا واحداً وهو همّه بمولاه، الذي لذّته وسروره الاهتمام به، والتفرد بمناجاته ومطالعة أنوار عِزّته، فحينئذٍ يخرج عن صفة أهل العَمى، ومن مشاركة أهل الهوى، لأنه قد امتاز عنهم بهذه المرتبة والخاصيّة التي حصلت له فصار مفتاحاً لباب الهدى، ومِغْلاقاً لباب الضلال والردى، قد أبصر طريق الهدى، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره.

وثاني عشرها: أن ينصِبَ نفسَه لله في أرفع الأمور، وهو الخلوة به، ومقابلة أنوار جلاله بمرآة فكره، حتى تتكيّف نفسه بتلك الكيفية العظيمة الإشراق، فهذا أرفع الأمور وأجلّها وأعظمها، وقد رَمَز في هذا الفصل، ومزجه بكلام خرج به إلى أمر آخر، وهو فقه النفس في الدين، والأمور الشرعية النافعة للناس في دنياهم وأخراهم، أمّا في دنياهم فلردْع المفْسِد وكفّ الظالم، وأما في أخراهم فللفوز بالسعادة باعتبار امتثال الأوامر الإلهية. فقال: «في إصدار كلّ وارد عليه»، أي في فُتيا كلّ مستفتٍ له، وهداية كلّ مسترشِد له في الدين، ثم قال: «وتصيير كلّ فرع إلى أصله». ويمكن أن يحتجّ بهذا من قال بالقياس، ويمكن أن يقال: إنه لم يُرد ذلك، بل أراد تخريج الفروع العقلية، وردّها إلى أصولها، كما يتكلف أصحابنا القول في بيان حكمة القديم تعالى، في الآلام وذبح الحيوانات، ردًّا له إلى أصل العدل، وهو كونه تعالى لا يفعل القبيح.

وثالث عشرها: أن يكون مصباحاً لظلمات الضلال، كشّافاً لعشَوات الشُّبَه، مفتاحاً لمبهَمات الشُّكوك المستغلقة، دفّاعاً لمعضلات الاحتجاجات العقلية الدقيقة الغامضة، دليلاً في فلوات الأنظار الصعبة المشتبهة، ولم يكن في أصحاب محمد ﷺ أحد بهذه الصفة إلا هو.

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ورابع عشرها: أن يقول مخاطباً لغيره فيُفهمه ما خاطبه به، وأن يسكت فيَسلم، وذلك لأنه ليس كل قائل مُفهماً، ولا كل ساكت سالماً.

وخامس عشرها: أن يكونَ قد أخلصَ لله فاستخلَصه الله، والإخلاص لله مقام عظيم جدًّا، وهو ينزّه الأفعال عن الرّياء، وألاّ يمازج العبادة أمر لا يكون لله سبحانه، ولهذا كان بعض الصالحين يُصْبح من طول العبادة نَصِباً قشفاً، فيكتحلُ ويدّهن، ليُذهِبَ بذلك أثر العبادة عنه.

وقوله: «فهو من معادن دينه وأوتاد أرضه»، معادن دينه: الذين يُقتبس الدين منهم، كمعادن الذهب والفضة، وهي الأرضون التي يلتقط ذلك منها، وأوتاد أرضه: هم الذين لولاهم لمادَت الأرض وارتجّت بأهلها، وهذا من باب الاستعارة الفصيحة، وأهل هذا العلم يقولون: أوتاد الأرض جماعة من الصالحين، ولهم في الأوتاد والأبدال والأقطاب كلامٌ مشهور في كتبهم.

وسادس عشرها: أن يكون قد ألزَم نفسه العدل، والعدالة: مَلَكه تصدُر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقاً لا تخلّقاً.

وأقسام العدالة ثلاثة، هي الأصول وما عدَاها من الفضائل فروع عليها:

الأولى: الشجاعة، ويدخل فيها السخاء لأنه شجاعة وتهوين للمال، كما أنّ الشجاعة الأصلية تهوين للنفس، فالشجاع في الحرب جواد بنفسه، والجواد بالمال شجاع في إنفاقه، ولهذا قال الطائيّ:

أيقنت أنّ من السّمَاح شجاعةً ... تُدمِي، وأنّ من الشجاعة جودَا

والثانية: الفقه، ويدخل فيها القناعة والزهد والعزلة.

والثالثة: الحكمة، وهي أشرفها.

ولم تحصل العدالة الكاملة لأحدٍ من البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا لهذا الرجل، ومن أنصف عَلِم صحة ذلك، فإن شجاعته وجوده، وعفتَّه وقناعته وزهده، يُضرب بها الأمثال.

وأما الحكمة والبحث في الأمور الإلهيّة، فلم يكن من فنّ أحد من العرب، ولا نقل في جهادِ أكابرهم وأصاغرهم شيء من ذلك أصلاً، وهذا فنٌّ كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به، وأوّل من خاض فيه من العرب عليّ عليه السلام، ولهذا تجدُ المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبثوثةً عنه في فرش كلامه وخطبه، ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمةً واحدةً من ذلك، ولا يتصوّرونه، ولو فُهّموه لم يفهموه، وأنّي للعرب ذلك!

ولهذا انتسب المتكلّمون الذين لجّجوا في بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره، وسمّوْه أستاذَهم ورئيسهم، واجتذبتْه كلُّ فرقة من الفرَق إلى نفسها، ألا تَرَى أن أصحابنا ينتمُون إلى واصل بن عطاء، وواصل تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفيّة، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد، ومحمد تلميذ أبيه عليّ عليه السلام!

فأما الشّيعة من الإمامية والزّيديّة والكيسانية، فانتماؤهم إليه ظاهر.

وأما الأشعرية فإنهم بأخَرَةٍ ينتمون إليه أيضاً، لأنّ أبا الحسن الأشعريّ تلميذ شيخنا أبي عليّ رحمه الله تعالى، وأبو عليّ تلميذ أبي يعقوب الشّحّام، وأبو يعقوب تلميذ أبي الهُذَيل، وأبو الهُذَيل تلميذ أبي عثمان الطويل، وأبو عثمان الطّويل تلميذ واصل بن عطاء، فعاد الأمر إلى انتهاء الأشعرية إلى عليّ عليه السلام.

وأما الكرَّامية فإن ابن الهيصم ذكر في كتاب «المقالات» أنّ أصلَ مقالتهم وعقيدتهم تنتهي إلى عليٍّ عليه السلام من طريقين:

أحدهما: بأنهم يُسندون اعتقادَهم عن شيخ بعد شيخ، إلى أن ينتهي إلى سُفيان الثَّوريّ، ثم قال: وسفيان الثوريّ من الزيديّة، ثم سأل نفسه فقال: إذا كان شيخكم الأكبر الذي تنتمون إليه كان زيديًّا، فما بالكم لا تكونون زيديّة؟ وأجاب بأن سُفيان الثوريّ رحمه الله تعالى، وإن اشتهر عنه الزَّيْدية، إلا أنّ تزيّده إنما كان عبارة عن موالاة أهل البيت، وإنكار ما كان بنو أميّة عليه من الظلم، وإجلال زيد بن عليّ وتعظيمه، وتصوينه في أحكامه وأحواله، ولم ينقل عن سفيان الثوريّ أنّه طعن في أحد من الصحابة.

الطريق الثاني: أنه عدّ مشايخهم واحداً فواحداً، حتى انتهى إلى علماء الكوفة من أصحاب عليّ، كسلمة بن كُهَيل، وحُبّة العُرَنيّ، وسالم بن الجعْد، والفضل بن دُكين، وشعبة، والأعمش، وعلقمة وهُبيرة ابن مريم، وأبي إسحاق الشَّعبيّ، وغيرهم، ثم قال: وهؤلاء أخذوا العلم من عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، فهو رئيس الجماعة - يعني أصحابه - وأقوالهم منقولة عنه ومأخوذة منه.

وأما الخوارج فانتماؤهم إليه ظاهر أيضاً، مع طعنهم فيه، لأنهم كانوا أصحابه، وعنه مَرَقوا، بعد أن تعلّموا عنه واقتبسوا منه، وهم شيعته وأنصاره بالجمل وصِفّين، ولكنّ الشيطان رانَ على قلوبهم، وأعمى بصائرهم.

ثم إنه عليه السلام ذكر حال هذا العارف العادل فقال: «أوّل عدله نفي الهوى عن نفسه»، وذلك لأنّ من يأمر ولا يأتمر، وينهى ولا ينتهي، لا تؤثر عظته، ولا ينفع إرشاده. ثم شرح ذلك فقال: «يصف الحق ويعمل به». ثم قال: «لا يدع للخير غاية إلا أمّها، ولا مَظِنّةً إلا قصدها»، وذلك لأن الخير لذاته وسروره وراحته، فمتى وجد إليه طريقاً سلكها، ثم قال: «قد أمكن الكتاب - يعني القرآن - من زمامه»، أي قد أطاع الأوامر الإلهية، فالقرآن قائده وإمامُه، يحلّ حيث حلّ، وينزل حيث نزل.

الأصل: وَآخَرُ قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَلَيْسَ بِهِ، فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ، وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلاَّلٍ، وَنَصَبَ لِلنَّاس أَشْرَاكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَقَوْلِ زُورٍ، قَدْ حَمَلَ ٱلْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ، وَعَطَفَ ٱلْحَقّ عَلَى أَهْوَائِهِ، يؤمِّنُ النّاسَ مِنَ ٱلْعَظَائِمِ، وَيُهَوّنُ كَبِيرَ ٱلْجَرَائِمِ، يَقُولُ: أَقِفُ عِنْدَ ٱلشُّبُهَاتِ - وَفِيهَا وَقَعَ - وَيَقُولُ: أَعْتَزِلُ ٱلْبِدَعَ - وَبَيْنَهَا ٱضْطَجَعَ - فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَٱلْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ، لاَ يَعْرِفُ بَابَ ٱلْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ، وَلاَ بَابَ ٱلْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ، وَذٰلِكَ مَيِّتُ ٱلأَحْيَاءِ.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ! وَأَنَّي تُؤْفَكُونَ، وَٱلأَعْلاَمُ قَائِمَةٌ، وَٱلآيَاتُ وَاضِحَةٌ. وَٱلْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ! فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ، وَهُمْ أَزِمَّةُ ٱلْحَقِّ، وَأَعْلاَمُ ٱلدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ ٱلْقُرْآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ ٱلْهِيمِ ٱلْعِطَاشِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوهَا عَنْ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ صَلّى ٱلله عَلَيْهِ، إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ، وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ، فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ ٱلْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَأَعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْه - وَهُوَ أَنَا. أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ ٱلأَكْبَرِ، وَأَتْرُكْ فِيكُمْ الثَّقَلَ ٱلأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ ٱلإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ ٱلْحَلاَلِ وَٱلْحَرام، وَأَلْبَسْتُكُمُ ٱلْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمُ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ ٱلأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي. فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ ٱلْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ ٱلْفِكَرُ.

الشرح: الجهائل: جمع جهالة، كما قوال: عَلاقة وعلائق. والأضاليل: الضّلاّل، جمعٌ لا واحد له من لفظه.

وقوله: «وقد حمل الكتاب على آرائه»، يعني قد فسَّر الكتاب وتأوّلَه على مُقتضى هواه وقد أوضح ذلك بقوله: «وعطف الحقَّ على أهوائه».

وقوله: «يؤمِن الناس من العظائم»، فيه تأكيد لمذهب أصحابنا في الوعيد، وتضعيف لمذهب المرجئة الذين يؤمنون الناس من عظائم الذنوب، ويُمنُّونهم العفوَ، مع الإصرار وترك التّوْبة. وجاء في الخبر المرفوع المشهور: «الكيِّس مَنْ دانَ نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبَع نفسَه هواها، وتمنَّى على الله»(١).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب منه (٢٤٥٩)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٠)، وأحمد في «مسنده» (٥٨٥٩).

وقوله: «يقول أقف عند الشبهات»، يعني أنّ هذا المدّعِي للعلم يقول لنفسه وللناس: أنا واقف عند أدنَى شبهة تحرُّجاً وتورُّعاً، كما قال ﷺ: «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يريبُك».

ثم قال: «وفي الشبهات وَقَع»، أي بجهله، لأنّ مَنْ لا يعلم الشبهة ما هي، كيف يقفُ عندها، ويتحرّج من الورْطة فيها، وهو لا يأمن من كونها غير شبهة على الحقيقة!

وقوله: «اعتزل البِدَع، وبينها اضطجع»، إشارة إلى تضعيف مذاهب العامة والحَشوِيّة الذين رفضوا النَّظر العقليّ، وقالوا: نعتزل البدع.

وقوله: «فالصورة صورة إنسان...» وما بعده، فمراده بالحيوان ها هنا الحيوان الأخرس كالحِمار والثور، وليس يريد العموم، لأنّ الإنسان داخل في الحيوان، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1].

وقال الشاعر:

وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ   زِيَادَتُه أوْ نَقْصُه فِي التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الفتى نِصْفٌ ونِصْفٌ فؤادُه   فلَمْ يبقَ إلاّ صُورة اللَّحْمِ والدمِ

قوله: «وذلك مَيّت الأحياء» كلمة فصيحة، وقد أخذها شاعر فقال:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ   إنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

إلاّ أن أمير المؤمنين عليه السلام أراد لجهله، والشاعر أراد لبؤسه.

وتُؤفكُون: تقلبون وتصرَفُون.

والأعلام: المعجزات ها هنا، جمع عَلَم، وأصله الجبل أو الراية والمنارة، تنصَب في الفَلاة ليهتدَي بها.

وقوله: «فأيْنَ يُتاه بكم!» أي أين يذهب بكم في التيه! ويقال: أرضٌ تَيْهاء يتحيَّر سالكها. وتَعمهُون: تتحيّرون وتَضِلّون.

وعِتْرَة رسول الله ﷺ: أهلُه الأدْنَوْن ونسله، وليس بصحيح قول مَنْ قال: إنّهم رهطُه وإن بعدوا، وإنما قال أبو بكر يوم السقِيفة أو بعده: «نحن عِتْرة رسول الله ﷺ وبيْضته التي فقِئَتْ عنه»، على طريق المجاز، لأنهم بالنسبة إلى الأمصار عِتْرَة له لا في الحقيقة، ألا تَرَى أنّ العدنانيّ يفاخر القحطاني، فيقول له: أنا ابن عمّ رسول الله ﷺ، ليس يعني أنّه ابنُ عَمّه على الحقيقة، بل هو بالإضافة إلى القحطانيّ كأنه ابن عمه، وإنما استعمل ذلك ونطق به مجازاً. فإن قَدّر مقدِّر أنه على طريق حذفِ المضافات، أي ابن ابن ابن عمّ أب الأب، إلى عدد كثير في البنين

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

والآباء، فكذلك أراد أبو بكر أنّهم عِتْرة أجداده، على طريق حذف المضاف. وقد بَيّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عِتْرتَه مَنْ هي، لما قال: «إني تارك فيكم الثَّقَلَيْن»، فقال: «عِترتي أهل بيتي»(١)، وبيّن في مقام آخر مَن أهلُ بيته حيث طرح عليهم كساء. وقال حين نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾(٢): «اللهم هؤلاء أهلُ بيتي فأذهب الرجس عنهم»(٣).

فإن قلت: فمَنْ هي العِتْرة التي عناها أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الكلام؟

قلت: نفسه وولداه، والأصلُ في الحقيقة نفسه، لأنّ ولديه تابعان له، ونسبتهما إليه مع وجوده كنسبة الكواكب المضيئة مع طلوع الشمس المشرقة، وقد نبّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك بقوله: «وأبوكما خير منكما»(٤).

وقوله: «وهم أزمّة الحقّ»: جمع زمام، كأنه جعل الحقّ دائراً معهم حيثما داروا، وذاهباً معهم حيثما ذهبوا، كما أن الناقة طَوْع زمامها، وقد نبَّه الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صِدْق هذه القضية بقوله: «وأدِر الحقّ معه حيث دار»(٥).

وقوله: «وألسنة الصّدق» من الألفاظ الشريفة القرآنية، قال الله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾(٦)، لما كان لا يصدُر عنهم حكم ولا قول إلا وهو موافق للحقّ، والصواب جعلَهم كأنّهم ألسِنةُ صِدْقٍ لا يصدر عنها قول كاذب أصلاً، بل هي كالمطبوعة على الصدق.

وقوله: «فأنزلوهم منازل القرآن» تحته سرٌّ عظيم، وذلك أنّه أمر المكلَّفين بأنْ يُجْروا العِتْرة في إجلالها وإعظامها والانقياد لها والطاعة لأوامرها مَجْرَى القرآن.

فإن قلت: فهذا القول منه يُشعِرُ بأنّ العِتْرة معصومة، فما قول أصحابكم في ذلك؟

قلت: نصّ أبو محمد بن متّويْه، رحمه الله تعالى في كتاب «الكفاية» على أنّ عليًّا عليه السلام معصوم، وإنْ لم يكُنْ واجبَ العصمة، ولا العصمة شرط في الإمامة، لكن أدلّة النصوص قد دلَّتْ على عِصْمَتِه، والقطع على باطنه ومغيبه، وأنّ ذلك أمرٌ اختصّ هو به دون غيره من الصحابة، والفرق ظاهرٌ بين قولنا: «زيد معصوم، وبين قولنا: «زيد واجب العصمة»، لأنّه

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٥٧٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٩٧١).
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره: ٤/ ١٢٣.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٣/ ٢٨٦.
(٥) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب مناقب علي (٣٧١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٢٩).
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

إمام، ومِنْ شرط الإمام أن يكون معصوماً، فاعتبار الأول مذهبنا، والاعتبار الثاني مذهب الإمامية.

ثم قال: «ورِدوهم وِرْد الهِيم العطاش»، أي كونوا ذوي حِرْصٍ وانكماش على أخذ العلم والدين منهم، كحِرْص الهِيم الظماء على وُرود الماء.

ثم قال: «أيُّها الناس خذوها عن خاتم النبيين» إلى قوله: «وليس ببالٍ» هذا الموضع يحتاج إلى تلطّف في الشرح، لأنّ لقائلٍ أنْ يقولَ: ظاهر هذا الكلام متناقض، لأنه قال: «يموت مَنْ مات منا وليس بميت»، وهذا كما تقول: يتحرّك المتحرّك وليس بمتحرّك، وكذلك قوله: ويبلى مَنْ بليَ منا، وليس ببال»، الا ترى أنّه سلْب وإيجاب لشيءٍ واحد! فإن قلتم: أراد بقاءَ النفس بعد موت الجسد، كما قاله الأوائل وقوم من المتكلمين، قيل لكم: فلا اختصاص للنبيّ ولا لعليّ بذلك، بل هذه قضِيّة عامة في جميع البشر، والكلام خَرَجَ مخرج التمدّح والفخر.

فنقول في الجواب:

إنّ هذا يُمكن أن يحمَل على وجهين:

أحدُهما: أن يكونَ النبيّ ﷺ وعليٌّ ومَنْ يتلوهُما من أطايب العِترة أحياءً بأبدانهم التي كانت في الدنيا بأعيانها، قَدْ رَفعهم الله تعالى إلى ملكوت سماواته، وعلى هذا لو قدرنا أن محتفِراً احتفر تلك الأحداث الطاهرة عقب دَفْنهم لم يجد الأبدان في الأرض، وقد روي في الخبر النبويّ ﷺ مثل ذلك، وهو قوله: «**إنّ الأرض لم تُسَلَّط عليّ، وأنها لا تأكل لي لحماً ولا تشرب لي دماً**» نعم يبقى الإشكال في قوله: «ويبلي مَنْ بَلِي منا وليس ببالٍ»، فإنه إنْ صَحّ هذا التفسير في الكلام الأول، وهو قوله: «يموت مَنْ مات منّا وليس بميت»، فليس يصحّ في القضية الثانية، وهي حديث البلاء، لأنّها تقتضي أنّ الأبدانَ تَبْلى وذاك الإنسان لم يبلَ، فأحوَج هذا الإشكال إلى تقدير فاعل محذوف، فيكون تقدير الكلام: يموت مَنْ ماتَ حال موته وليس بميتٍ فيما بعد ذلك من الأحوال والأوقات، وَيبْلَى كفن مَنْ بَلِيَ منّا وليس هو ببال، فحذف المضاف كقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾[١]، أي وإلى أهل مدين، ولما كان الكَفَنُ كالجزء من الميت لاشتماله عليه عَبّر بأحدهما عن الآخر للمجاورة والاشتمال، كما عبَّروا عن المطَر بالسماء، وعن الخارج المخصوص بالغائط، وعن الخمر بالكأس. ويجوز أن يحذف الفاعل كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٢]، و ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾[٣]. وقول حاتم: «إذا حَشرَجَتْ» وحذف الفاعل كثير.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٢) سورة ص، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٨٣.

والوجه الثاني أنّ أكثر المتكلّمين ذهبوا إلى أن للإنسان الحيّ الفعّال أجزاء أصلية في هذه البنية المشاهدة، وهي أقلّ ما يمكن أن تأتلف منه البنية التي معها يصحّ كون الحيّ حيًّا، وجعلوا الخطاب متوجّهاً نحوها، والتكليف وارداً عليها، وما عداها من الأجزاء، فهي فاضلة ليست داخلة في حقيقة الإنسان، وإذا صحّ ذلك جاز أن ينتزع الله تلك الأجزاء الأصلية من أبدان الأنبياء والأوصياء، فيرفعها إليه بعد أن يخلق لها من الأجزاء الفاضلة عنها نظير ما كان لها في الدار الأولى، كما قاله مَنْ ذهب إلى قيامة الأنفس والأبدان معاً، فتنعم عنده وتلتذّ بضروب اللذات الجسمانية، ويكون هذا مخصوصاً بهذه الشجرة المباركة دون غيرها، ولا عجب فقد ورد في حقّ الشهداء نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١).

وعلى الوجه الأول لو أنّ محتِفراً احتفر أجداثهم لوجدَ الأبدان فيها، وإن لم يعلم أنّ أصول تلك البُنَى قد انتزعت منها ونقلت إلى الرفيقِ الأعلى، وهذا الوجه لا يحتاج إلى تقدير ما قدّرناه أولاً من الحذف، لأنّ الجسد يَبْلَى في القبر إلا قَدْر ما انتزع منه ونقل إلى مَحَلّ القُدْس، وكذلك أيضاً يصدُق على الجسد أنّه ميت، وإن كان أصل بنيته لم يمُتْ، وقد ورد في الخبر الصحيح: «أنّ أرواحَ الشهداء من المؤمنين في حواصل طيور خُضر تدور في أفناء الجنان، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظلّ العرش»، فإذا جاء هذا في الشهداء فما ظنُّك بموالي الشُّهدَاء وساداتهم(٢)!

فإن قلت: فهل يجوز أن يُتأوّل كلامُه، فيقال: لعلّه أراد بقاء الذِّكْر والصيت؟

قلت إنه لبعيدٌ، لأنّ غيرَهم يَشْرَكُهم في ذلك، ولأنّه أخرج الكلام مخرَجَ المستغرب المستعظم له.

فإن قلت: فهل يمكن أن يقال: إن الضَمير يعود إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، لأنه قد ذكره في قوله: «خاتم النبيين» فيكون التقدير: أنه يموت مَنْ مات منا والنبيّ صلى الله عليه وآله ليس بميت، ويبلى مَنْ بَلى منا والنبي ليس ببال.

قلت: هذا أبعدُ من الأول، لأنه لو أراد ذلك لقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لا تُبليه الأرض، وإنه الآن حيّ، ولم يأت بهذا الكلام الموهم، ولأنه في سياق تعظيم العِتْرة وتبجيل أمرها، وفخره بنفسه وتمدّحه بخصائصه ومزاياه، فلا يجوز أن يدخل في غضون ذلك ما ليس منه.

فإن قلت: فهل هذا الكلام منه أم قاله مرفوعاً؟ قلت: بل ذكَره مرفوعاً، ألا تراه قال: «خذوها عن خاتم النبيين». ثم نعود إلى التفسير فنقول: إنّه لما قال لهم ذلك علم أنه قال قولاً

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره: ١/ ٢٠٣.

عجيباً، وذكر أمراً غريباً، وعلم أنهم ينكِرون ذلك ويعجبون منه، فقال لهم: فلا تقولوا ما لا تعرفون، أي لا تكذِّبوا أخباري، ولا تكذِّبوا أخبار رسول الله لكم بهذا فتقولون ما لا تعلمون صِحَّته، ثم قال: فإن أكثر الحق في الأمور العجيبة التي تنكرُونها كإحياء الموتى في القيامة، وكالصراط والميزان والنار والجنة وسائر أحوال الآخرة، هذا إن كان خَاطَب مَنْ لا يعتقد الإسلام، فإن كان الخطاب لمن يعتقد الإسلام فإنه يعني بذلك أنّ أكثرهم كانوا مرجئة ومشبّهة ومُجْبرة، ومن يعتقد أفضليةَ غيره عليه، ومن يعتقد أنه شَرَك في دم عثمان، ومن يعتقد أنّ معاوية صاحب حُجّة في حربه، أو شبهة يمكن أن يتعلّق بها متعلق، ومن يعتقد أنّه أخطأ في التحكيم، إلى غير ذلك من ضروب الخطأ التي كان أكثرهم عليها.

ثم قال: «**واعذروا مَنْ لا حجة لكم عليه وهو أنا**»، يقول: قد عَدَلْتُ فيكم، وأحسنت السيرة وأقمتكم على المحجّة البيضاء، حتى لم يبق لأحد منكم حُجَّةٌ يحتجّ بها عليّ، ثم شرح ذلك، فقال: «عملت فيكم بالثَّقَل الأكبر»، يعني الكتاب و«خلَّفت فيكم الأصغر» يعني ولديْه، لأنهما بقيّة الثَّقَل الأصغر، فجاز أن يطلق عليهما بعد ذهاب مَنْ ذهب منه أنهما الثقل الأصغر، وإنما سمي النبيّ ﷺ الكتاب، والعِتْرة الثقليْن لأن الثَّقَل في اللغة متاع المسافر وَحَشْمه، فكأنه صلى عليه وآله لمّا شارف الانتقال إلى جوار ربه تعالى جعل نفسه كالمسافر الذي ينتقل من مَنْزِلٍ إلى منزل، وجعل الكتاب والعِتْرة كمتاعه وحَشَمه، لأنهما أخصّ الأشياء به.

قوله: «وركزت فيكم راية الإيمان»، أي غرزتها وأثبتها، وهذا من باب الاستعارة.

وكذلك قوله: «ووقفتكم على حدود الحلال والحرام» من باب الاستعارة أيضاً، مأخوذ من حُدود الدار وهي الجهات الفاصلة بينها وبين غيرها.

قوله: «وألبستكم العافية منْ عَدْلِي» استعارة فصيحة، وأفصح منها قوله: وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي»، أي جعلته لكم فراشاً، وفَرَش ها هنا: متعدٍّ إلى مفعولين، يقال: فرشته كذا، أي أوسعته إياه.

ثم نهاهم أن يستعملوا الرأي فيما ذكره لهم من خصائص العِترة وعجائب ما منحها الله تعالى، فقال: إنّ أمرنا أمر صعب لا تهتدي إليه العقول، ولا تدرك الأبصار قعرَهُ، ولا تتغلغل الأفكار إليه. والتغلغل: الدخول، من تغلغل الماء بين الشجر، إذا تخللها ودخل بين أصولها.

الأصل: ومنها: حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ، تَمْنَحُهُمْ دَرَّهَا، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلاَ يُرْفَعَ عَنْ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلاَ سَيْفُهَا. وَكَذَبَ الظَّانُّ لِذَلِكَ، بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ ٱلْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَهَا بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً.

الشرح: معقولة: محبوسة بعقال كما تعقَل الناقة. وتمنحهم: تعطيهم، والمنح: العطاء، منحَ يمنَح بالفتح، والاسم المِنْحَة بالكسر، واستمنحت زيداً: طلبت مِنْحَته.

والدَّرّ في الأصل: اللَّبَن، جعل الدنيا كناقة معقولة عليهم تمنحهم لبنها، ثم استعمل الدَّرّ في كل خير ونفع، فقيل: لا دَرّ درّه! أي لا كثُر خيره، ويقال في المدح: لله درّه! أي عمله.

ومجّة من لذيد العيش، مصدر مَجّ الشراب مِنْ فِيه، أي رمى به وقَذَفه، ويقال: انمجّتْ نقطة من القلم، أي ترشَّشتْ، وشيخ ماجّ، أي كبير يمجّ الريق، ولا يستطيع حبسه لكبره.

ويتطعَّمُونها، أي يذوقونها. وبُرْهة، أي مدة من الزمان فيها طول. ولفظت الشيء من فمي، ألفظه لفظاً: رميته، وذلك الشيء اللُّفاظ واللُّفاظة، أي يلفظونها كلَّها لا يبقى منها شيء معهم.

وهذه الخطبة طويلة، وقد حذف الرضيّ رحمه الله تعالى منها كثيراً، ومن جملتها:

أما والذِي فَلَق الحبَّة، وبرأ النَّسمة، لا يروْن الَّذي ينتظرون حتى يهلِك المتمنُّون. ويَضْمَحِلّ المحلُّون، ويتثبَّت المؤمنون، وقليلٌ ما يكون، والله والله لا تَرَوْن الذي تنتظرون حتى لا تَدْعُون الله إلا إشارةً بأيدِيكُمْ وإيماضاً بحواجبكم، وحتى لا تملِكُون من الأرض إلاّ مواضعَ أقدامكم، وحتى يكونَ موضعُ سلاحكم على ظهورِكم، فيومئذٍ لا ينصرني إلا الله بملائكتِه، ومَن كَتَبَ عَلَى قَلْبِه الإيمان، والَّذِي نَفْسُ عَليٍّ بيدِه لا تقوم عصابَةٌ تطلب لِي أو لغيرِي حَقًّا، أو تدفع عنا ضَيْماً إلا صَرَعتهم البليَّة، حتى تقوم عصابةٌ شهدت مع محمد صلى الله عليه وآله بَدْراً، لا يؤدَى قتيلُهم، ولا يداوَى جريحُهم، ولا ينعَشُ صريعُهم. قال المفسريون: هم الملائكة.

ومنها: لقد دعوتُكم إلى الحقّ وتولَّيْتُمْ، وضربتُكم بالدِّرَّةِ فَمَا استقمتم، وسَتَلِيكم بَعْدِي وُلاة يعذِّبُونكم بالسِّيَاط والحديد، وسيأتيكم غُلاماً ثَقيفٍ: أَخْفَش وجُعْبوب، يقتلان ويُظلَمان، وقليل ما يمكَّنان.

قلت: الأخفش: الضعيف البصر خِلْقة، والجُعبوب: القصير الذميم، وهما الحجاج ويُوسف بن عمر. وفي كتاب عبد الملك إلى الحجّاج: قاتلك الله أخيفشَ العينين، أصكَّ الجاعِرَتَيْن!

ومن كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى يذكر فيه الحجاج: أتانا أُعَيْمش أُخَيْمش يمدّ بيدٍ قصيرة البنان، ما عرق فيها عنان في سبيل الله.

وكان المثل يُضْرَبُ بِقِصَرِ يوسف بن عمر، وكان يغضب إذا قيل له قصير، فَصَّل له الخيَّاط

ثوباً، فأبقى منه فضلة كثيرة، فقال له: ما هذه؟ قال: فضلت مِنْ قميص الأمير، فضربه مائة سوط، فكان الخيّاطون بعد ذلك يفصّلون له اليَسير من الثوب، ويأخذون الباقي لأنفسهم.

٨٧ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف ما عليه الناس من الخطأ

الأصل: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ وَرَخَاءٍ، وَلَمْ يُجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ ٱلأُمَمِ إِلاَّ بَعْدَ أَزْلٍ وَبَلاَءٍ، وَفِي دُونِ مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عتْبٍ وَمَا ٱسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَرٌ. وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ، وَلاَ كُلُّ ذِي سَمْعٍ بِسَمِيعٍ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ. فَيَا عَجَباً! وَمَا لِيَ لاَ أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ ٱلْفِرَقِ عَلَى ٱخْتِلاَفِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا، لاَ يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَ يَقْتَدُونَ بِعمَلِ وَصِيٍّ، وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، وَلاَ يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، المَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا، وَالمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي المُعْضِلاَتِ إِلى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي المُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًا ثِقَاتٍ، وَأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ.

الشرح: القَضم، بالقاف والصاد المهملة: الكسر، قصمتُه فانقصم، وقصّمته فتقصّم، ورجل أقسم الثنيّة، أي مكسورها، بيّن القَصَم، بفتح الصاد.

والتمهيل: التأخير. ويروى «رجاء» وهو التأخير أيضاً، والرواية المشهورة «ورخاء»، أي بعد إعطائهم من سعة العيش وخِصب الحال ما اقتضته المصلحة.

والأزل، بفتح الهمزة: الضيق. ويقتصُّون: يتبعون، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾(١).

ويعفّو، بكسر العين، عَفَفْتُ عن كذا، أعِفُّ عَفًّا وعِفَّةً وعَفافة، أي كففت، فأنا عفّ وعفيف، وامرأة عَفّة وعفيفة، وقد أعفَّه الله، واستعفّ عن المسألة، أي عفّ. وتعفّف الرجل، أي تكلّف العِفّة، ويروى: «ولا يَعْفُون عن عَيْب»، أي لا يصفحون.

ومفزعهم: ملجؤهم. وفيما يُرى، أي فيما يظنّ، ويرى بفتح الياء، أي فيما يراه هو. وروي: «بعراً وثيقات».

(١) سورة القصص، الآية: ١١.

يقول إنّ عادة الله تعالى ألاّ يقصِم الجبابرة إلا بعد الإمهال والاستدراج، بإفاضة النعم عليهم، وألاّ يجير أولياءه وينصرهم إلا بعد بؤس وبلاء يمتحنهم به، ثم قال لإصحابه: إنّ في دون ما استقبلتم من عَتَب لمعتَبر، أي من مشقّة، يعني بما استقبلوه ما لا قِوَه في مستقبل زمامهم من الشيب، وولاة السوء، وتنكّر الوقت، وسمّي المشقّةَ عتْباً، لأن العَتْب مصدر عَتَب عليه، أي وَجَد عليه، فجعل الزمانَ كالواجد عليهم، القائم في إنزال مشاقّه بهم مقامَ الإنسان ذي الموجدَة يعتِب على صاحبه. وروي «من عَتَب»، بفتح التاء جمع عتَبة، يقال: لقد حُمِل فلان علي عتَبة، أي أمر كريه من البلاء، وفي المثل: «ما في هذا الأمر رتَب ولا عتَب»، أي شدة. وروي أيضاً «من عَنَتٍ» وهو الأمر الشاقّ. وما استدبروه من خَطْب، يعني به ما تصرّم عنهم من الحروب والوقائع التي قَضَوْها ونضوها واستدبروها. ويروى: «واستدبرتم من خِصْب»، وهو رخاء العيش، وهذا يقتضي المعنى الأول، أي وما خَلّفتُم وراءكم من الشباب والصحّة وصفو العيشة.

ثم قال: «وما كل ذي قلب بلبيب. . .» الكلام إلى آخره، وهو مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1].

ثم تعجّب من اختلاف حجج الفرق في الدّين وخطئهم وكونهم لا يتبعون أقوالَ الأنبياء، ولا أقوال الأوصياء، ثم نَعَى عليهم أحوالهم القبيحة، فقال: إنهم لا يؤمنون بالغيب، أي لا يصدقون بما لم يشاهدوه، ولا يكفّون عن الأمور القبيحة، لكنهم يعملون في الشبهات، أي يعملون أعمالاً داخلة في الشبهات متوسطة لها. ويسيرون في الشهوات، جعل الشهوات كالطريق التي يسير فيه الإنسان.

ثم قال: المعروف فيهم ما عرفوه، أي ليس المعروف عندهم مَا دلّ الدليل على كونه معروفاً وصواباً وحَقًّا، بل المعروف عندهم ما أنكروه كما شرحناه في المعروف.

ثم قال: إنهم لا يستشيرون بعالم، ولا يستفتون فقيهاً فاضلاً، بل مفزعهم في الأمور المشكلة إلى أنفسهم وآرائهم، ولقد صدق عليه السلام، فإن هذه صفات مَنْ يدّعي العلم والفضل في زماننا وقبله بدهر طويل، وذلك أنهم يأنفون من التعلّم والاسترشاد، فالبادىء منهم يعتقد في نفسه أنه أفضلُ من البارع المنتهي، ومتى ظفر الواحد منهم بمبادىء علم وحَمله، شرع في التّدريس والتصنيف، فمنعه التزامه بذلك من التردد إلى أبواب العلماء، وأنف من سؤالهم عن الأمور المشكلة، فدام جهله إلى أن يموت.

ثم قال: «كأنّ كلّ واحد منهم إمام نفسه»، ويروى بحذف «كأنّ» وإسقاطها، وهو أحسن.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

٨٨ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر حال الناس قبل البعثة

الأصل: أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ ٱلأُمَمِ، وَٱعْتِزَامٍ مِنَ ٱلْفِتَنِ، وَٱنْتِشَارٍ مِنَ ٱلأُمُورِ، وَتَلَظٍّ مِنَ ٱلْحُرُوبِ، وَٱلدُّنْيَا كَاسِفَةُ ٱلنُّورِ، ظَاهِرَةُ ٱلْغُرُورِ، عَلَى حِينِ ٱصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا، وَإِعْوَارٍ مِنْ مَائِهَا. قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ ٱلْهُدَى، وَظَهَرَتْ أَعْلاَمُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا، عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا ٱلْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا ٱلْجِيفَةُ، وَشِعَارُهَا ٱلْخَوْفُ، وَدِثَارُهَا السَّيْفُ.

فَٱعْتَبِرُوا عِبَادَ ٱللهِ، وَٱذْكُرُوا تِيكَ ٱلَّتِي آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهَنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسَبُونَ. وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلاَ بِهِمُ ٱلْعُهُودُ، وَلاَ خَلَتْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ ٱلأَحْقَابُ وَٱلْقُرُونُ، وَمَا أَنْتُمُ ٱلْيَوْمَ مِنْ يَوْمِ كُنْتُمْ فِي أَصْلاَبِهِمْ بِبَعِيدٍ.

وَٱللهِ مَا أَسْمَعَكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً إِلاَّ وَهَا أَنَا ذَا ٱلْيَوْمَ مُسْمِعُكُمُوهُ، وَمَا أَسْمَاعُكُمُ ٱلْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِٱلأَمْسِ، وَلاَ شُقَّتْ لَهُمُ ٱلأَبْصَارُ، وَلاَ جُعِلَتْ لَهُمُ ٱلأَفْئِدَةُ فِي ذٰلِكَ الزَّمَانِ، إِلاَّ وَقَدْ أُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هٰذَا الزَّمَانِ، وَوَٱللهِ مَا بُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَلاَ أُصْفِيتُمْ بِهِ وَحُرِمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ ٱلْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا، رِخْواً بِطَانُهَا، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ ٱلْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

الشرح: الفَترة بين الرسل: انقطاعُ الرّسالة والوحي، وكذلك كان إرسال محمد صلى الله عليه وآله، لأنَّ بين محمد وبين عهد المسيح عليه السلام عهداً طويلاً، أكثر الناس على أنّه ستمائة سنة، ولم يرسَل في تلك المدّة رسول، اللهمّ إلا ما يقال عن خالد بن سنان العبسيّ، ولم يكن نبيًّا ولا مشهوراً.

والهجْعة، النَّوْمة ليلاً، والهجوع مثله، وكذلك التَّهجاع، بفتح التاء، فأما الهِجعة بكسر الهاء، فهي الهيئة كالجِلْسة من الجلوس.

قوله: «واعتزام من الفتن»، كأنه جعل الفِتَن معتزِمة، أي مريدة مصمِّمة للشغْب والهرْج. ويروى: «واعتراض»، ويروى: «واعترام» بالراء المهملة من العُرام، وهي الشِّرّة. والتلظّي: التلهّب.

وكاسفة النور: قد ذهب ضوءها، كما تكسف الشمس. ثم وصفها بالتغير وذبول الحال، فجعلها كالشجرة التي اصفرَّ ورقها ويبِس ثمرها. وأعور ملؤها، والإعوار: ذهاب الماء، فلاة

عَوْراء: لا ماء بها. ومَنْ رواه: «وإغوارٍ من مائها، بالغين المعجمة، جعله من غار الماء، أي ذهب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾(١).

ومتجهّمة لأهلها: كالحة في وجوههم.

ثم قال: «ثمرها الفتنة» أي نتيجتها وما يتولّد عنها. وطعامها الجيفة، يعني أكل الجاهلية الميتة، أو يكون على وجه الاستعارة، أي أكلها خبيث. ويروى «الخِيفة» أي الخوف، ثم جعل الخوف والسيف شعارها ودثارها، فالشعار ما يلي الجسد، والدّثار فوق الشعار، وهذا من بديع الكلام ومن جيِّد الصناعة، لأنّه لما كان الخوفُ يتقدَّم السيف والسيف يتلُوه، جعلع الخوف شِعاراً لأنّه الأقربُ إلى الجسد، وجعل الدّثار تالياً له.

ثم قال: «واذكروا تيك» كلمة إشارة إلى المؤنثة الغائبة، فيمكن أن يعني بها الدنيا التي تقدّم ذكرها، وقد جعل آباءهم وإخوانهم مرتهنَين بها ومحاسبين عليها، والارتهان: الاحتباس، ويمكن أن يعني بها الأمانة التي عرضت على الإنسان فحملها، والمراد بالأمانة الطاعة والعبارة وفعل الواجب وتجنّب القبيح. وقال: «تيك» ولم يجر ذكرها، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾(٢) ولم يجرِ ذكره، لأنّ الإشارة إلى مثل هذا أعظم وأهيب وأشدّ روعة في صدر المخاطَب من التصريح.

قوله: «ولا خلت فيما بينكم وبينهم الأحقاف»، أي لم يطل العهد، والأحقاب: المدد المتطاولة، والقرون: الأمم من الناس.

وقوله: «من يوم كنتم»، يروى بفتح الميم من «يوم» على أنه مبنّي، إذ هو مضاف إليه الفعل المبني، ويروى بجرّها بالإضافة، على اختلاف القولين في علم العربية.

ثم اختلفت الرواية في قوله: «والله ما أسمعكم» فروي بالكاف وروي «أسمعهم»، وكذلك اختلفت الرواية في قوله: «وما أسماعُكم اليومَ بدون أسماعكم بالأمس»، فروي هكذا، وروي «بدون أسماعهم»، فمن رواه بهاء الغيبة في الموضعين فالكلام منتظم، لا يحتاج إلى تأويل، ومن رواه بكاف الخطاب، قال: إنه خاطب به من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله وشاهده وسمع خطابه، لأنّ أصحاب عليّ عليه السلام كانوا فريقين: صحابة وتابعين، ويعضّد الرواية الأولى سياق الكلام.

وقوله: «ولا شُقّت لهم الأبصار... إلا وقد أعطيتم مثلها».

وأصفِيتم به: منحتمُوه، من الصفيّ وهو ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة، يقال: صفيّ وصفيّة.

---

(١) سورة الملك، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ١ و٢.

وخلاصة هذا الكلام أن جميع ما كان رسول الله ﷺ قاله لأصحابه قد قلتُ مثله لكم، فأطاع أولئك وعصيتم أنتم، وحالكم مساوية لحالهم.

قلت: لو أن مجيباً منهم يجيبُه لأمكن أن يقول له: المخاطبون وإن كانوا نوعاً واحداً متساوياً، إلا أنّ المخاطَب مختلف الحال، وذلك لأنّك وإن كنت ابن عمه في النَّسب وأخاه ولحمه ودمه، وفضائلك مشتقة من فضائله، وأنت قبَس من نوره وثانيه على الحقيقة، ولا ثالث لكما، إلا أنك لم تُرْزَق القبول الذي رزقه، ولا انفعلت نفوس الناس لك حسب انفعالها له، وتلك خاصيّة النبوة التي امتاز بها عنك، فإنه كان لا يسمع أحدٌ كلامَه إلا أحبّه ومال إليه، ولذلك كانت قريش تسمي المسلمين قبل الهجرة الصباة، ويقولون: نخاف أن يَصْبُو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ﷺ، ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبوَنّ قريش بأجمعها. وقالوا فيه، ما كلامه إلا السّحر، وإنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر. ونهوْا صبيانَهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله، وكان إذا صلى في الحِجْر وجهر يجعلون أصابَعهم في آذانهم خوفاً أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته وبوعظه وتذكيره، هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾(١).

ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾(٢) لأنهم كانوا يهربون إذا سمعوه يتلو القرآن، خوفاً أن يغيِّر عقائدهم في أصنامهم، ولهذا أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه ورؤيته ومشاهدة رُوائه ومنظره، وما ذاقوه من حلاوة لفظه وسَرِيّ كلامه في آذانهم، ومَلَك قلوبهم وعقولهم، حتى بذلوا المُهَج في نصرته، وهذا من أعظم معجزاته عليه السلام، وهو القبول الذي منحه الله تعالى، والطاعة التي جعلها في قلوب الناس له، وذلك على الحقيقة سِرّ النبوّة، الذي تفرّد به صلوات الله عليه، فيكف يروم أمير المؤمنين من الناس أن يكونوا معه كما كان آباؤهم وإخوانهم مع النبيّ ﷺ، مع اختلاف حال الرئيسين وتساوي الأثرين كما يعتبر في تحققه تساوي حال المحلين، يعتبر في حقيقته أيضاً تساوي حال العلّتين.

ثم نعود إلى التفسير، قال: «ولقد نزلت بكم البليّة»، أي المحنَة العظيمة، يعني فتنة معاوية وبني أمية.

وقال: «جائلاً خِطامها»، لأن الناقة إذا اضطرب زمامها استصعبث على راكبها، ويسمى الزمام خِطاماً لكونه في مقدّم الأنف، والخطم من كلّ دابة: مقدّم أنفها وفمها، وإنما جعلها رخواً بطانها، لتكون أصعب على راكبها، لأنّه إذا استرخى البطان كان الراكب في معرض السقوط عنها، وبطان القَتَب هو الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير.

---

(١) سورة نوح، الآية: ٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.

ثم نهاهم عن الاغترار بالدنيا ومتاعها، وقال: إنها ظلٌّ ممدود إلى أجل معدود، وإنما جعلها كالظلّ لأنه ساكن في رأى العين، وهو متحرك في الحقيقة، لا يزال يتقلّص، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[1] وهو أشبه شيء بأحوال الدنيا.

وقال بعض الحكماء: أهل الدنيا كركبٍ سِير بهم وهم نيام.

٨٩ - ومن خطبة له عليه السلام في عدّ بعض صفات الله تعالى

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالْخالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، اَلَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً، إِذْ لاَ سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلاَ حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ، وَلاَ لَيْلٌ دَاجٍ، وَلاَ بَحْرٌ سَاجٍ، وَلاَ جَبَلٌ ذُو فِجَاجٍ، وَلاَ فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ، وَلاَ أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَلاَ خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ، وَذلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلٰهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ، يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ.

الشرح: الروّية: الفكرة وأصلها الهمز، رَوّأتُ في الأمر، وقد جاء مثلها كلمات يسيرة شاذّة، نحو البريّة، من برأ، أي خلق، والذريّة من ذَرَأ أي خلق أيضاً، والدَّريّة وهي ما يستتر به الصائد، أصله من درأت أي دفعت، وفلان بريّ أصله بريء، وصف الله تعالى بأنّه يعرف من غير أن تتعلّق الأبصار بذاته، ويخلق من غير تفكر وتروٍّ فيما يخلقه.

لم يزل قائماً، القائم والقيّوم بمعنًى، وهو الثابت الذي لا يزولُ، ويعبر عنه في الاصطلاح النظريّ بالواجب الوجود، وقد يفسر القائم على معنى قولهم: فلان قائم بأمر كذا، أي والٍ وممسك له أن يضطرب.

ثم قال: هو موصوف بأنه قائم دائم من قبل أن يخلق العالم، وهذا يؤكّد التفسير الأول، لأنه إذا لم يكن العالم مخلوقاً بعد لم يصدق عليه أنّه قائم بأمره إلا بالقوّة لا بالفعل، كما يصدق عليه أنّه سميع بصير في الأزَل، أي إذا وجدت المسموعات والمبصرات سمعها وأبصرها، ولو سمي قبل خلق الكلام متكلماً على هذا التفسير لم أستبعده، وإن كان أصحابنا يأبونَهُ.

والأبراج: الأركان في اللغة العربية.

فإن قلت: فهل يطابق هذا التفسير ما يعتقده أصحابُ الهيئة وكثير من الحكماء والمتكلّمين أنّ السماء كُرة لا زاوية فيها ولا ضِلَع؟

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٦.

قلتُ: نعم لا منافاة بين القولين، لأن الفلك وإن كان كُرة لكن فيه من المتمّمات ما يجري مجرى أركان الحصن أو السور، فصحّ إطلاق لفظة الأبراج عليه، والمتمّمات أجسام في حشو الفلك تخفّ في موضع، والناس كلهم أثبتوها.

فإن قلت: فهل يجوز أن يحمل لفظ الأبراج على ما يعتقده المنجّمون وأهل الهيئة، وكثير من الحكماء والمتكلمين من كون الفلك مقسوماً باثني عشر قسماً، كلّ قسم منها يسمى برجاً؟

قلت: لا مانع من ذلك، لأنّ هذا المسمى كان معلوماً متصوّر قبل نزول القرآن، وكان أهل الاصطلاح قد وضعوا هذا اللّفظ بإزائه، فجاز أن ينزل القرآن بموجبه، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾[1]، وأخذها عليّ عليه السلام منه، فقال: «إذ لا سماءٌ ذات أبراج»، وارتفع «سماء» لأنّه مبتدأ وخبره محذوف، وتقديره «في الوجود».

ثم قال: «ولا حُجُب ذات إرتاج» والإرتاج مصدر أرتج أي أغلق، أي ذات إغلاق، ومن رواه «ذات رِتاج» على «فِعال»، فالرتاج الباب المغلق، ويُبعِد رواية مَنْ رواه «ذات أرتاج» لأن «فعالاً» قلّ أن يجمع على «أفعال»، ويعني بالحُجُب ذات الإرتاج حجب النور المضروبة بين عرشه العظيم وبين ملائكته. ويجوز أن يريد بالحجب السمٰوات أنفسها، لأنها حجبت الشياطين عن أن تعلم ما الملائكة فيه.

والليل الداجي: المظلم، والبحر الساجي: الساكن. والفِجاج: جمع فَجّ، وهو الطريق الواسع بين جبلين. والمهاد: الفراش.

قوله: «ولا خلق ذو اعتماد»، أي ولا مخلوق يسعى برجلين فيعتمد عليهما، أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما، ويجوز أن يريد بالاعتماد هنا: البطش والتصرّف. مبتدع الخلق: مخرجه من العدم المحض، كقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. ودائبان: تثنية دائب، وهو الجادّ المجتهد المتعب، دأب في عمله أي جدّ وتعب دأباً ودؤوباً فهو دئيب، ودأبته أنا. وسمّي الشمس والقمر دائبين لتعاقبهما على حال واحدة دائماً لا يفتران ولا يسكنان، وروي «دائبين» بالنصب على الحال ويكون خبر المبتدأ «يبليان» وهذه من الألفاظ القرآنية.

الأصل: قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ ٱلْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ ٱلْغَايَاتُ.

(١) سورة البروج، الآية: ١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

الشرح: آثارهم، يمكن أن يُعْنَى به آثار وطئهم في الأرض إيذاناً بأنه تعالى عالم بكلّ معلوم كما آذن قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[1] بذلك. ويمكن أن يعني به حركاتهم وتصرّفاتهم.

وروي: «وعدد أنفاسهم» على الإضافة.

وخائنة الأعين: ما يومي به مسارقة وخفية. ومستقرّهم أي في الأرحام. ومستودعهم، أي في الأصلاب، وقد فسر ذلك فتكون «من» متعلّقة بمستودعهم ومستقرهم على إرادة تكرّرها، ويمكن أن يقال: أراد مستقرّهم ومأواهم على ظهر الأرض ومستودعهم في بطنها بعد الموت، وتكون «من» ها هنا بمعنى «مذ» أي مذ زمان كونهم في الأرحام والظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات، أي إلى أن يحشروا في القيامة. وعلى التأويل الأول يكون تناهي الغايات بهم عبارة عن كونهم أحياء في الدنيا.

الأصل: هُوَ ٱلَّذِي ٱشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَٱتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ. قَاهِرُ مَنْ عَازَّهُ، وَمُدَمِّرُ مَنْ شَاقَّهُ، وَمُذِلُّ مَنْ نَاوَاهُ، وَغَالِبُ مَنْ عَادَاهُ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ.

عِبَادَ ٱللهِ، زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَنَفَّسُوا قَبْلَ ضِيقِ ٱلْخِنَاقِ، وَٱنْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لاَ زَاجِرٌ وَلاَ وَاعِظٌ.

الشرح: يجوزَ نقمِة نِقْمة، مثل كَلِمة وكِلْمة ولَبِنة ولِبْنة، ومعنى الكلام أنّه مع كونه واسع الرحمة في نفس الأمر، وأنه أرحم الراحمين، فإنه شديد النقمة على أعدائه، ومع كونه عظيم النقمة في نفس الأمر وكونه شديد العقاب فإنه واسع الرحمة لأوليائه. وعازّه، أي غالبه، وعَزَّه أي غلبه، ومنه ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾[2]، وفي المثل «مَنْ عَزّ بَزّ»، أي مَنْ غَلَب سلَب. والمدمِّر: المهلك، دَمّره ودَمّر عليه بمعنًى، أي أهلكه. وشاقّه: عاداه، قيل إنّ أصلَه من الشّق وهو النِّصف، لأن المعادي يأخذ في شِقّ والمعادي في شِقّ يقابله. وناواه، أي عاداه، واللفظة مهموزة، وإنما ليّنها لأجل القرينة السَّجعية، وأصلها ناوأتُ الرجل مناوأة ونِواء، ويقال في المثل: «إذا ناوأت الرجل فاصْبِر».

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٣.

قوله: «زنوا أنفسكم قبل أن توزنوا» من الكلام الفصيح النادر اللطيف، يقول: اعتبروا أعمالكم وأنتم مختارون قادرون على استدراك الفارط، قبل أن يكون هذا الاعتبار فعلَ غيركم وأنتم لا تقتدرون على استدراك الفارط، ومثله قوله: «وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا».

ثم قال: «وتنفّسوا قبل ضيق الخناق»، أي انتهزوا الفرصة، واعملوا قبل أن يفوتكم الأمر، ويَجدّ بكم الرحيل ويقع الندم، قال الشاعر:

اختِمْ وطينُك رَطْبٌ إن قدرتَ فَكَمْ قد أمكن الختُم أقواماً فما ختموا

ثم قال: «وانقادوا قبل عُنف السياق»، هو العُنف بالضم، وهو ضدّ الرفق، يقال عنُف عليه وعنُف به أيضاً، والعَنيف: الذي لا رفق له بركوب الخيل، والجمع عُنُف. واعتنفتُ الأمرَ، أي أخذته بعنف، يقول: انقادوا أنتم من أنفسكم قبل أن تقادوا وتساقوا بغير اختياركم سوقاً عنيفاً.

ثم قال «مَنْ لم يُعِنْه الله على نفسه حتى يجعل له منها واعظاً وزاجراً لم ينفعه الزجر والوعظ من غيرها» أخذ هذا المعنى شاعر فقال:

وأقصرت عَمّا تعهدين وزاجرٌ من النفس خَيْرٌ من عِتَابِ الْعَوَاذِلِ

فإن قلت: أليس في هذا الكلام إشعارٌ ما بالجبر؟

قلت: إنه لا خلاف بين أصحابِنا في أنّ الله تعالى ألطافاً يفعلها بعباده، فيقرّبهم من الواجب، ويبعدهم من القبيح، ومن يعلم الله تعالى من حاله أنه لا لطف له لأنّ كلّ ما يعرض لطفاً له فإنه لا يؤثر في حاله ولا يزداد به إلا إصراراً على القبيح والباطل، فهو الذي عَنَاه أميرُ المؤمنين عليه السلام بقوله: «من لم يعن على نفسه»، لأنه ما قبل المعونة ولا انقاد إلى مقتضاها، وقد روي: «واعلموا أنّه مَنْ لم يعِن على نفسه» بكسر العين أي من لم يعِن الواعظين له والمنذرين على نفسه، ولم يكن معهم إلْباً عليها وقاهراً لها، لم ينتفع بالوعظ والزجر لأن هوى نفسه يغلِب وعظَ كلّ واعظ وزجر كل زاجر.

٩٠ - ومن خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح وهي من جلائل خطبه عليه السلام

الأصل: روي مَسعَدةُ بنُ صَدَقَةَ عن الصادقِ جعفرِ بن محمدٍ عليهما السلامُ، أنه قال: خطب أميرُ المؤمنينَ بهذه الخطبةِ على منبرِ الكوفةِ، وذلك أن رجلاً أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين، صِفْ لنا ربَّنا مثل ما نراه عَياناً، لنزداد له حبًّا، وبه معرفة، فغضِبَ ونادَى: الصلاة جامِعَةٌ، فاجتمع إليه الناسُ حتى غَصّ المسجدُ بأهلِهِ، فصعِدَ المنبرَ وهو مغضَبٌ متغيرُ اللوْنِ، فحمِدَ الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله، ثم قال:

ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي لاَ يَفِرُهُ المَنْعُ وَٱلْجُمُودُ، وَلاَ يُكْدِيهِ ٱلإِعْطَاءُ وَٱلْجُودُ، إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلاَهُ، وَهُوَ المَنَّانُ بِفَوَائِدِ النِّعَمِ، وَعَوَائِدِ المَزِيدِ وَٱلْقِسَمِ، عِيَالُهُ ٱلْخَلاَئِقُ، ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ، وَنَهَجَ سَبِيلَ الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَالطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ، وَلَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَل، الأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَٱلآخِرُ الَّذِي لم يكن لَهُ بَعْدٌ فَيَكُونَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، والرَّادِعُ أَنَاسِيَّ ٱلأَبْصَارِ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ، مَا ٱخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيَخْتَلِفَ مِنْهُ الحالُ، وَلاَ كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزَ عَلَيْهِ الانتِقَالُ.

الشرح: الأشباح: الأشخاص، والمراد بهم ها هنا الملائكة، لأنّ الخطبة تتضمّن ذِكْرَ الملائكة.

وقوله: «الصلاة جامعةً» منصوب بفعل مقدر، أي احضروا الصلاة، وأقيموا الصلاة، و«جامعةً» منصوب على الحال من الصلاة.

وغَصَّ المسجد، بفتح الغين، أي امتلأ، والمسجد غاصٌّ بأهله. ويقال: رجل مغضَب، بفتح الضاد، أي قد أغضِب، أي فعل به ما يوجب غَضَبه.

ويَفِرُه المنع: يزيد في ماله، والموفور التامّ، وفرتُ الشيء وفْرا وَوَفَر الشيءُ نفسُهُ وفُوراً، يتعدّى ولا يتعدى. وفي أمثالهم: «يوفر ويحمد» هو من قولك وفرته عرضَه ووفرته ماله.

وقوله: «ولا يكديه الإعطاء»، أي لا يفقِرُه ولا ينفد خزائنه، يقال: «كَدَتِ الأرضُ» تَكِدُ وفهي كادية، إذا أبطأ نباتُها، وقلّ خيرها، فهذا لازِم، فإذا عدّيته أتيتَ بالهمزة فقلتَ: أكديت الأرض، أي جعلتها كادية، وتقول: أكدَى الرجلُ إذا قلّ خيره، وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾[1]، أي قطع القليل، يقول: إنّه سبحانه قادر على المقدورات، وليس كالملوك من البشر الذين إذا أعطوْا نقصَت خزائنهم وإن منعوا زادت، وقد شرح ذلك وقال: «إذ كلّ معطٍ منتقَصَ» أي منقوص، ويجيء «انتقص» لازماً ومتعدياً، تقول: انتقص الشيءُ نفسُه، وانتقصتُ الشيء، أي نقصتُه وكذلك «نقص» يجيء لازماً ومتعدياً.

ثم قال: «وكلّ مانع مذموم غيره»، وذلك لأنّه تعالى إنما يمنع مَنْ تقتضي الحكمةُ والمصلحةُ منعه، وليس كما يمنع البشر. وسأل رجل عليّ بن موسى الرِّضا عن الجواد، فقال: إنّ لكلامك وجهين، فإن كنتَ تسأل عن المخلوق، فإنّ الجواد هو الذي يؤدّي ما افترض الله عليه، والبخيل هو الذي يبخلُ بما افترض الله عليه، وإن كنت تعني الخالق، فهو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن مَنَع، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له، وإن منعه منعه ما ليس له.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٤.

قوله: «وليس بما سُئِل بأجود منه بما لم يُسأل» فيه معنى لطيف، وذاك لأنّ هذا المعنى مما يختصّ بالبشر، لأنهم يتحركون بالسؤال وتهزّهم الطلبات، فيكونون بما سألهم السائل أجود منهم بما لم يسألهم إياه، وأما الباريء سبحانه فإن جوده ليس على هذا المنهاج لأنّ جوده عامٌّ في جميع الأحوال.

ثم ذكر أنّ وجودَه تعالى ليس بزمانيّ، فلا يطلق عليه البعدية والقبلية، كما يطلق على الزمانيات، وإنما لم يكن وجوده زمانياً لأنه لا يقبل الحركة، والزمان من لواحق الحركة، وإنما لم تطلق عليه البَعْدِيّة والقَبْليّة إذْ لم يكن زمانياً، لأنّ قولنا في الشيء: إنه بعد الشيء الفلانيّ، أي الموجود في زمان حضر بعد تَقَضّي زمان ذلك الشيء الفلاني، وقولنا في الشيء: إنه قبل الشيء الفلاني، أي إنه موجود في ز مان حضر ولم يحضر زمان ذلك الشيء الفلانيّ بعد، فما ليس في الزمان ليس يصدق عليه القَبْل والبعد الزمانيان، فيكون تقدير الكلام على هذا: الأوّل الذي لا يصدق عليه القبلية الزمّانية، ليمكن أن يكون شيءٌ ما قبله، والآخِر الذي لا يصدق عليه البعدية الزمانية، ليمكن أن يكون شيء ما بعده.

وقد يحمل الكلامُ على وجه آخر أقربَ مُتَنَاوَلاً من هذا الوجه، وهو أن يكون أراد: الذي لم يكن محدثاً، أي موجوداً قد سبقه عدم، فيقال إنه مسبوق بشيء من الأشياء إما المؤثر فيه أو الزمان المقدم عليه، وأنه ليس بذات يمكن فناؤها وعدمها فيما لا يزال، فيقال: إنه ينقضي وينصرم، ويكون بعده شيء من الأشياء، إمّا الزمان أو غيره، والوجه الأوّلُ أدق وألطف، ويؤكد كونه مراداً قوله عقيبه: «ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال»، وذلك لأنّ واجب الوجود أعلى من الدهر والزمان، فنسبة ذاته إلى الدهر والزمان بجملته وتفصيل أجزائه نسبة متحدة.

فإن قلت: إذا لم يكن قبل الأشياء بالزمان ولا بعدها بالزمان، فهو معها بالزمان، لأنه لا يبقى بعد نفي القَبْلية والبعديّة إلا المعيّة!

قلت: إنما يلزم ذلك فيما وجوده زمانيّ، وأمّا ما ليس زمانياً لا يلزم من نفي القبليّة والبعديّة إثبات المعيّة، كما أنه ما لم يكن وجوده مكانياً لم يلزم من نفي كونه فوق العالم أو تحت العالم بالمكان، أن يكون العالم بالمكان.

ثم قال: «الرادع أناسيّ الأبصار عن أن تنالَه أو تدركه»، الأناسيّ: جمع إنسان، وهو المثال الذي يُرى في السواد، وهذا اللفظ بظاهره يشعر بمذهب الأشعرية، وهو قولهم: إنّ الله تعالى خَلقَ في الأبصار مانعاً عن إدراكه، إلا أنّ الأدلّة العقلية من جانبنا اقتضتْ تأويل هذا اللفظ، كما تأوّل شيوخنا قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[1]، فقالوا: إلى جنّةِ ربها، فنقول: تقديرُه الرادعُ أناسيَّ الأبصار أنْ تنال أنوار جلالته.

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢ و٢٣.

فإن قلت: أتثبتون له تعالى أنواراً يمكن أن تدركها الأبصار، وهل هذا إلا قولٌ بالتجسيم!

قلت: كلاً لا تجسيمَ في ذلك، فكما أن له عرشاً وكرسيًّا وليس بجسم، فكذلك أنوار عظيمة فوق العرش، وليس بجسم، فكيف تنكر الأنوار، وقد نطق الكتاب العزيز بها في غير موضع، كقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[1]، وكقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[2].

الأصل: وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ ٱلْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ ٱلْبِحَارِ، مِنْ فِلِزِّ ٱللُّجَيْنِ وَٱلْعِقْيَانِ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ المَرْجَانِ، مَا أَثَّرَ ذَٰلِكَ فِي جُودِهِ، وَلاَ أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ ٱلْأَنْعَامِ، مَا لاَ تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ ٱلْأَنَامِ، لِأَنَّهُ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي لاَ يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ، وَلاَ يُبَخِّلُهُ إِلْحَاحُ ٱلْمُلِحِّينَ.

الشرح: هذا الكلام من تتمة الكلام الأوّل، وهو قوله: «لا يفِرُه المنع، ولا يكْدِيه الإعطاء والجود». وتنفّست عنه المعادن: استعارة، كأنّها لما أخرجته وولدته كانت كالحيوان يتنفّس فيخرج من صدره ورئته الهواء.

وضحكت عنه الأصداف، أي تفتّحت عنه وانشقّت، يقال للطَّلْع حين ينشقّ: الضَّحك، بفتح الضاد، وإنما سمي الضاحك ضاحكاً، لأنه يفتح فاه. والفلِزّ: اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضة والرصاص ونحوها. واللُّجَين: اسم الفضة جاء مُصغراً، كالكُمَيت والثّريا. والعِقْيان: الذهب الخالص، ويقال: هو ما ينبت نباتاً وليس مما يحصل من الحجارة. ونُثارة الدّر: ما تناثر منه، كالسُّقاطة والنُّخالة، وتأتي «فُعَالة» تارةً للجيِّد المختار، وتارة للساقط المتروك، فالأول نحو الخلاصة، والثاني نحو القُلامة.

وحصيد المَرْجان: كأنه أراد المتبدّد منه كما يتبدّد الحبّ المحصود، ويجوز أن يعني به الصلْب المحكم، من قولهم، «شيء مستحصَد»، أي مستحصف مستحكم، يعني أنّه ليس برخو ولا هشّ، ويروى: «وحَصْباء المرجان»، والحصباء: الحصى. وأرض حَصِبة ومحصَبة، بالفتح: ذات حَصْباء. والمرجان: صغار اللؤلؤ، وقد قيل إنه هذا الحجر، واستعمله بعض المتأخّرين فقال:

أدْمَى لها المرجانُ صَفْحَةَ خَدِّه ... وبكى عليها اللؤلؤ المكنونُ

وتُنفده: تفنيه، نفد الشيء أي فَنِيَ، وأنفدته أنا. ومطالب الأنام: جمع مطلب، وهو

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

المصدر، من طلبت الشيء طَلَباً ومطلباً.

ويَغيضه، بفتح حرف المضارعة: ينقصُه، ويقال: غاضَ الماء، فهذا لازم، وغاض الله الماءَ، فهذا متعدٍّ، وجاء: أغاض الله الماء.

والإلحاح: مصدر ألحّ على الأمر، أي أقام عليه دائماً، من ألحّ السحاب، إذا دام مطره، وألحّ البعيرُ: حَرَن، كما تقول: خَلأتِ الناقة، وروي «ولا يُبخِله» بالتخفيف، تقول: أبخلت زيداً، أي صادفته بخيلاً، وأجبنته: وجدته جباناً.

وفي هذا الفصل من حسن الاستعارة وبديع الصنعة ما لا خفاء به.

الأصل: فَانْظُرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ ٱلْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ، وَٱسْتَضِىءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ، وَمَا كَلَّفَكَ ٱلشَّيْطَانُ عِلْمَهُ، مِمَّا لَيْسَ فِي ٱلْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ، وَلاَ فِي سُنَّةِ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأَئِمَّةِ ٱلْهُدَى أَثَرُهُ، فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ ٱللهِ عَلَيْكَ.

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلرَّاسِخِينَ فِي ٱلْعِلْمِ هُمُ ٱلَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ ٱقْتِحَامِ ٱلسُّدَدِ ٱلْمَضْرُوبَةِ دُونَ ٱلْغُيُوبِ ٱلْإِقْرَارُ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ ٱلْغَيْبِ ٱلْمَحْجُوبِ، فَمَدَحَ ٱللهُ ٱعْتِرَافَهُمْ بِٱلْعَجْزِ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ ٱلتَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمُ ٱلْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخاً، فَٱقْتَصِرْ عَلَى ذٰلِكَ، وَلاَ تُقَدِّرْ عَظَمَةَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ.

الشرح: تقول: ائتمّ فلان بفلان، أي جعله إماماً واقتدى به. فكِلْ علمه، من وكلَه إلى كذا وكَلاً ووُكولاً، وهذا الأمر موكول إلى رأيك. والاقتحام: الهُجوم والدخول مغالبة. والسُّدد المضروبة: جمع سُدّة، وهي الرِّتاج.

واعلم أنّ هذا الفصل يمكن أن تتعلق به الحشويّة المانعون من تأويل الآيات الواردة في الصفات، القائلين بالجمود على الظواهر، ويمكن أيضاً أن يتعلّق به مَنْ نفي النظر وحرّمه أصلاً، ونحن قبل أن نحققّه ونتكلّم فيه نبدأ بتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾[1]، فنقول:

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

إن مِنَ النّاسِ من وقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ومنهم من لم يقف على ذلك، وهذا القول أقوى من الأوّل، لأنه إذا كان لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله لم يكن في إنزاله ومخاطبة المكلّفين به فائدة، بل يكون كخطاب العربيّ بالزنجية، ومعلوم أنّ ذلك عيب قبيح.

فإن قلت: فما الذي يكون موضع ﴿يَقُولُونَ﴾ من الإعراب؟

قلت: يمكن أن يكون نصباً على أنه حال من الراسخين، ويمكن أن يكون كلاماً مستأنفاً، أي هؤلاء العالمون بالتأويل، يقولون: آمنّا به.

وقد روي عن ابن عباس أنه تأوّل آية، فقال قائل من الصحابة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فقال ابن عباس: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، وأنا من جملة الراسخين.

ثم نعود إلى تفسير كلام المؤمنين عليه السلام فنقول:

إنه غضِب وتغير وجهه لقول السائل: صِفْ لنا ربّنا مثل ما نراه عياناً، وإذا هذا المعنى ينصرف وصيّة له بما أوصاه به من اتباع ما جاء في القرآن والسنّة، وذلك لأنَّ العلم الحاصل من رؤية الشيء عياناً، عِلمٌ لا يمكن أن يتعلّق مثله بالله سبحانه، لأن ذاته تعالى لا يمكن أن تُعْلَم من حيث هي هي، كما تعلم المحسوسات، الا ترى أنّا إذا علمنا أنه صانع العالم، وأنه قادر عالم حيّ سميع بصير مريد، وأنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض، وعلمنا جميعَ الأمور السلبية والإيجابية المتعلّقة به، فإنما علمنا سُلوباً وإضافات، ولا شك أنّ ماهية الموصوف مغايرة لماهية الصفات، والذوات المحسوسة بخلاف ذلك، لأنّا إذا رأينا السّوَاد، فقد علمنا نفس حقيقة السواد لا صفة من صفات السواد، وأيضاً فإنّا لو قدرنا أنّ العلم بوجوده وصفاته السلبية والإيجابية، يستلزم العلم بذاته، من حيث هي هي لم يكن عالماً بذاته علماً جزئياً، لأنه يمكن أن يصدُق هذا العلم على كثيرين، على سبيل البدل، وإذا ثبت أنه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل البدل، ثبتَ أنّه يستحيلُ أن يصدُق على كثيرين على سبيل الجمع، والعلم بالمحسوس يستحيلُ أن يصدق على كثيرين لا على سبيل الجمع، ولا على سبيل البدل، فقد بانَ أنه يستحيل أن يعلم الله تعالى كما يعلم الشيء المرئيّ عياناً، فأمير المؤمنين عليه السلام أنكر هذا السؤال كما أنكره الله تعالى على بني إسرائيل لما طلبوا الرؤية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾(١).

ثم قال للسائل بعد غضبه واستحالة لونه وظهور أثر الإنكار عليه: ما دلّك القرآنُ عليه من صفته فخُذْ به، فإن لم تجده في الكتاب فاطلبه من السنّة ومن مذاهب أئمة الحق، فإن لم تجد ذلك، فاعلم أنّ الشيطان حينئذٍ قد كلّفك علمَ ما لم يكلفك الله علمه، وهذا حقّ، لأن الكتاب

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

والسنّة قد نطقا بصفات الله من كونه عالماً قادراً حيًّا مريداً سميعاً بصيراً، ونطقاً أيضاً بتنزيهه عن سِمات الحُدُوث كالجسيمة والحلول والجهة، وما استلزم لجهة كالرؤية فلا إنكارَ على مَنْ طلب في مدارك العقول وجوهاً تعضِّدُ ما جاء به القرآن والسنَّة، وتوفِّق بَيْن بعض الآيات وبعض، وتحمل أحدَ اللفظين على الآخرة إذا تناقضا في الظاهر، صيانةً لكلام الحكيم عن التهافت والتعارض. وأما ما لم يأتِ الكتاب والسنة فيه بشيء فهو الذي حُرّم وحُظِر على المكلّفين الفكر فيه، كالكلام في الماهيّة التي يذهب ضرار المتكلم إليها، وكإثبات صفات زائدة على الصفات المعقولة لذات الباريء سبحانه، وهي على قسمين:

أحدُهما: ما لم يَرِدْ فيه نَصٌّ، كإثبات طائفة تعرف بالماتريدية صفةً سمَّوْها التكوين زائدة على القدرة والإرادة.

والثاني: ما ورد فيه لفظ فأخطأ بعضُ أهل النظر، فأثبت لأجل ذلك اللفظة صفة غير معقولة للباريء سبحانه، نحو قول الأشعريِّين: إنّ اليدين صفة من صفات الله، والاستواء على العرش صفة من صفات الله، وإنّ وجه الله صفة من صفاته أيضاً، ثم قال: إن الراسخين في العلم الذين غنوا بالإقرار بما عرفوه عن الولوج والتقحّم فيما لم يعرفوه، وهؤلاء هم أصحابنا المعتزلة لا شبهة في ذلك، ألا ترى أنّهم يعللون أفعال الله بالحِكم والمصالح، فإذا ضاق عليهم الأمر في تفصيل بعض المصالح في بعض المواضع، قالوا: نعلم على الجملة أنّ لهذا وجْهَ حكمة ومصلحة، وإن كنا لا نعرف تفصيل تلك المصلحة، كما يقولون في تكليف مَنْ يعلم الله تعالى منه أنه يكفر، وكما يقولون في اختصاص الحال التي حدث فيها العالم بحدوثه دون ما قبلها وما بعدها.

وقد تأول القطب الراونديّ كلامَ أمير المؤمنين في هذا الفصل، فقال: إنما أنكَر على من يقول: لم تعبَّد الله المكلَّفين بإقامة خمس صلوات، وهلا كانت ستًّا أوَ أربعاً، ولم جعل الظهر أربع ركعات، والصبح ركعتين؟ وهلاّ عكس الحال! وهذا التأويل غيرُ صحيح، لأنّه عليه السلام إنما أخرج هذا الكلام مخرج المنكِر عَلَى مَنْ سأله أن يصف له الباريء سبحانه، ولم يكن السائل قد سأل عن العِلّة في أعداد الصّلاة وكمية أجزاء العبادات.

ثم إنه عليه السلام قد صَرّح في غُضونِ الكلام بذلك، فقال: فانظر أيها السائل، فما دَلّك القرآن عليه من صفته فائتمّ به، وما لم يدلك عليه فليس عليك أن تخوض فيه، وهذا الكلام تصريحٌ بأنّ البحث إنما هو في النظر العقليّ في فَنّ الكلام، فلا يجوز أن يحمل على ما هو بمعزل عنه.

واعلم أننا نتساهل في ألفاظ المتكلمين، فنوردها بعباراتهم، كقولهم في «المحسوسات» والصواب «المحسَّات»، لأنه لفظ المفعول من «أحسّ» الرباعي، لكننا لما رأينا العدول عن ألفاظهم إذا خضنا في مباحثهم مستهجَناً عَبّرنا بعبارتهم على علمٍ مِنّا أنّ العربية لا تسوغُها.

الأصل: هُوَ ٱلْقَادِرُ ٱلَّذِي إِذَا ٱرْتَمَتِ ٱلْأَوْهَامُ لِتُدْرِكَ مُنْقَطَعَ قُدْرَتِهِ، حَاوَلَ ٱلْفِكْرُ المُبَرَّأُ مِنْ خَطَرِ ٱلْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ، وَتَوَلَّهَتِ ٱلْقُلُوبُ إِلَيْهِ، لِتَجْرِيَ فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ ٱلْعُقُولِ فِي حَيْثُ لاَ تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَاوُلِ عِلْمِ ذَاتِهِ - رَدَعَهَا وهي تَجُوبُ مَهَاوِيَ سُدَفِ ٱلْغُيُوبِ، مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لاَ يُنَالُ بِجَوْرِ الاعْتِسَافِ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ، وَلاَ تَخْطُرُ بِبَالِ أولِي الرَّوِيَّاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلاَلِ عِزَّتِهِ.

الشرح: ارتمت الأوهام، أي ترامَت، يقال: ارتمى القوم بالنَّبْل، أي تراموا، فشبّه جَوَلان الأوهام والأفكار وتعارضها بالترامي.

وخَطْر الوساوس، بتسكين الطاء، مصدر خَطَر له خاطر، أي عرض في قلبه، وروي «من خطَرات الوساوس».

وتولّهت القلوب إليه: اشتدّ عِشقها حتى أصابها الولَه وهو الحيرة.

وقوله: «لتجري في كيفية صفاته»، أي لتصادف مجرًى ومسلكاً في ذلك، وغمضت مداخلُ العقول، أي غَمض دخولها، ودق في الأنطار العميقة التي لا تبلغ الصفات كنهها لدقّتِها وغموضها طالبة أن تنال معرفته تعالى.

ولفظة «ذات» لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية، فأنكر قومٌ إطلاقها على الله تعالى وإضافتها إليه، أمّا إطلاقها فلأنّها لفظة تأنيث، والباريء سبحانه منزّه عن الأسماء والصفات المؤنثة، وأما إضافتها فلأنّها عين الشيء، والشيء لا يضاف إلى نفسه. وأجاز آخرون إطلاقَها في الباريء تعالى وإضافتها إليه، أما استعمالها فلوجهين:

أحدهما: أنها قد جاءت في الشعر القديم، قال خُبيب الصحابيّ عند صَلْبه:

وذلك في ذاتِ الإلٰه وإن يشأ ... يُبارِكْ على أوصال شِلْوٍ مُوزَّعِ

ويروى «ممزّع»، وقال النابغة:

محلّتُهمّ ذاتُ الإلٰه ودينُهمْ ... قديمٌ فما يخشَوْن غير العواقب

والوجه الثاني: أنها لفظة اصطلاحية، فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث «ذو» بل تستعمل ارتجالاً في مسماها الذي عَبّر عنه بها أرباب النظر الإلهيّ، كما استعملوا لفظ الجوهر والعرَض وغيرهما في غير ما كان أهل العربية واللغة يستعملونها فيه.

وأما منعهم إضافتها إليه تعالى، وأنه لا يقال: «ذاته»، لأنّ الشيء لا يضاف إلى نفسه فباطل بقولهم: أخذتُه نفسه وأخذتُه عينه، فإنه بالاتفاق جائز، وفيه إضافة الشيء إلى نفسه.

ثم نعود إلى التفسير:

قوله عليه السلام: «ردعها»، أي كَفّها. وتجوب، أي تقطع. والمهاوي: المهالك، الواحدة مَهْوَاة بالفتح، وهي ما بين جبلين أو حائطين ونحو ذلك. والسُّدَف: جمع سُدْفة، وهي القطعة من الليل المظلم. وجُبهت، أي رُدّت، وأصله مِنْ جَبْهتُه، أي صَكَكْتُ جبهتَه. والجَوْر: العدول عن الطريق. والاعتساف: قَطْع المسافة على غير جادّة معلومة.

وخُلاَصة هذا الفصل أنّ العقول إذا حاولت أن تدرِك متى ينقطع اقتداره على المقدّرات نكصتْ عن ذلك، لأنه قادر أبداً دائماً على ما لا يتناهى، وإذا حاول الفِكْر الذي قد صفا وخلا عن الوساوس والعوائِق أنْ يدرك مغيّبات عِلْمِه تعالى كلّ وحَسَر ورجع ناقصاً أيضاً، وإذا اشتّد عشق النفوس له، وتولّهت نحوه لتسلك مسلكاً تقِف منه على كيفية صفاته عجزت عن ذلك، وإذا تغلغلت العقول، وغَمَضت مداخلُها في دقائق العلوم النظرية الإلٰهية التي لا توصف لدقّتها طالبة أن تعلم حقيقة ذاته تعالى، انقطعت وأعيت، وردّها سبحانه وتعالى وهي تجول وتقطع ظلماتِ الغيب لتخلُص إليه، فارتدّتْ حيث جَبْهها وردعها، مُقِرّة معتَرِفة بأن إدراكه ومعرفته لا تُنالُ باعتساف المسافات التي بينها وبينه، وإن أرباب الأفكار والروايات يتعذّر عليهم أن يخطِر لهم خاطر يطابق ما في الخارج من تقدير جلال عزته، ولا بدّ من أخذ هذا القيد في الكلام، لأن أرباب الأنظار لا بدّ أن تخطِر لهم الخواطر في تقدير جلال عِزّته، ولكن تلك الخواطر لا تكون مطابقة لها في الخارج، لأنها خواطر مستندُها الوهم لا العقل الصريح، وذلك لأنّ الوهم قد ألف الحِسّيات والمحسوسات، فهو يعقل خواطر بحسب ما ألفه من ذلك، وجلالُ واجبِ الوجود أعلى وأعظم من أن يتطرّق الوهمُ نحوه، لأنه بريء من المحسوسات سبحانه، وأما العقل الصريح فلا يدرِك خصوصية ذاته لما تقدّم.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(١) فيه إشارة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾(٢).

الأصل: ٱلَّذِي ٱبْتَدَعَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ ٱمْتَثَلَهُ، وَلاَ مِقْدَارٍ ٱحْتَذَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَأَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَٱعْتِرَافِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمِسَاكِ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارِ قِيَامِ ٱلْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَظَهَرَتْ فِي ٱلْبَدَائِعِ ٱلَّتِي أَحْدَثَهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ، وَأَعْلاَمُ حِكْمَتِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ، وَدَلِيلاً عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَلْقاً صَامِتاً، فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ، وَدَلاَلَتُهُ عَلَى ٱلْمُبْدِعِ قَائِمَةٌ.

---

(١) سورة الملك، الآيتان: ٣ و٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

الشرح: المِساك، بكسر الميم: ما يمسَك ويعصَم به.

وقوله: «ابتدع الخلق على غير مثال امتثله» يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يريد بـ«امتثله» مثله، كما تقول: صنعت واصطنعت بمعنى، فيكون التقدير أنّه لم يمثّل لنفسِه مثالاً قبل شروعه في خلْق العالم، ثم احتذى ذلك المثال، وركّب العالم على حسب ترتيبه، كالصانع الذي يصوغ حلْقة من رصاص مثالاً، ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها، وكالبنَّاء يقدر ويفرض رسوماً وتقديراتٍ في الأرض وخطوطاً، ثم يبني بحسبها.

والوجه الثاني: أنّه يريد بامتثَله احتذاه وتقبّله واتبعه، والأصل فيه امتثال الأمر في القول، فنقل إلى احتذاء الترتيب العقليّ، فيكون التقدير أنّه لم يمثّل له فاعل آخر قبله مثالاً اتبعه واحتذاه وفعل نظيره» كما يفعل التلميذ في الصباغة والنجارة شيئاً قد مثّل له أستاذُه صورتَه وهيئته.

واعلم أنّ هذا أحدُ الأسئلة التي يذكرها أصحابنا في باب كونه عالماً، لأنهم لما استدلُّوا على كونه تعالى عالماً بطريق إحكام العلم وإتقانه، سألوا أنفسَهم فقالوا: لم لا يجوز أن يكونَ القديم سبحانه أحدَثَ العالم محتذياً لمثال مثله، وهيئة اقتضاها، والمحتذِي لا يجب كونه عالماً بما يفعله، ألا ترى أنّ من لا يحسِن الكتابة قد يحتذى خطاً مخصوصاً، فيكتب قريباً منه، وكذلك من يطبع الشَّمْع بالخاتم ثم يطبع فيه مثال الخاتم، فهو فعل الطابع، ولا يجب كونه عالماً.

وأجاب أصحابنا عن ذلك فقالوا: إنّ أول فعل محكم وقع منه، ثم احتذى عليه، يكفي في ثبوت كونه عالماً، وأيضاً فإنّ المتحذي ليست العالمية بمسلوبة عنه، بل موصوف بها، ألا ترى أنّه متصوّر صورة ما يحتذيه، ثم يوقع الفعل مشابهاً له، فالمتحذي عالم في الجملة، ولكنّ علمه يحدث شَيْئاً فشيئاً.

فأما معنى الفصل فظاهر، يقول عليه السلام: إنه ابتدع الخلق على غير مثال قدمه لنفسه ولا قدم له غيره ليحتذى عليه، وأرانا من عجائب صنعته ومن اعتراف الموجودات كلّها، بأنها فقيرة محتاجة إلى أنْ يمسكها بقوته، ما دلّنا على معرفته ضرورة، وفي هذا إشارة إلى أنّ كلّ ممكن مفتقر إلى المؤثر، ولما كانت الموجودات كلّها غيره سبحانه ممكنة لم تكن غَنِيّة عنه سبحانه، بل كانت فقيرة إليه، لأنها لولاه ما بقيت، فهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء، ولا شيء من الأشياء مطلقاً بغنيّ عنه سبحانه، وهذه من خصوصية الإلٰهية، وأجلّ ما تدركه العقول من الأنظار المتعلقة بها.

فإن قلت: في هذا الكلام إشعار بمذهب شيخكم أبي عثمان، في أنّ معرفتَه تعالى ضرورية.

قلت: يكاد أن يكون الكلام مشعِراً بذلك، إلا أنه غير دالّ عليه، لأنه لم يقل ما دلنا على معرفته باضطرار، ولكن قال ما دلّنا باضطرار قيام الحجّة له على معرفته، فالاضطرار راجعٌ إلى قيام الحجة، لا إلى المعرفة.

ثم قال عليه السلام: وظهرت آثار صنعته، ودلائل حكمته في مخلوقاته فكانت وهي صامتة في الصورة ناطقة في المعنى بوجوده وربوبيته سبحانه، وإلى هذا المعنى نظر الشاعر فقال:

فَـوَعَـجَـبـاً كَـيْـفَ يُـعْـصَـى الإلٰـهُ ... أمْ كـيـف يـجـحـدُه الـجـاحِـدُ!

وَفِـي كُـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ ... تَـدُلُّ عـلـى أنّـهُ وَاحِـدُ

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]: إنه عبارة عن هذا المعنى.

الأصل: فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايُنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ، وَتَلَاحُمِ حِقاقِ مَفَاصِلِهِمْ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ، لَمْ يَعقِدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ، وَلَمْ يُباشِرْ قَلْبَهُ الْيَقِينُ بِأَنَّهُ لا نِدَّلَكَ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ عَنِ الْمَتْبُوعِينَ، إذْ يَقُولُونَ: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[2]. كَذَبَ الْعادِلُونَ بِكَ، إذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنامِهِمْ، وَنَحَلُوكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّؤُكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ، وَقَدَّرُوكَ عَلَى الْخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ سَاوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ، وَالْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِما تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَماتُ آياتِكَ، وَنطَقَتْ عَنْهُ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّناتِكَ، وَأَنْتَ اللهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ، فَتَكُونَ فِي مَهَبِّ فِكْرِهَا مُكَيَّفاً، وَلاَ فِي رَوِيَّاتِ خَوَاطِرِهَا مَحْدُوداً مُصَرَّفاً.

الشرح: حقاق المفاصل جمع حقّة، وجاء في جمعها حِقاق وحقق وحقّ، ولما قال: «بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاق مفاصلهم»، فأوقع التلاحُم في مقابلة التباين صناعة وبديعاً، وروي «المحتجّة»، فمن قال: «المحتجّة»، أراد أنّها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة المستدلة على التدبير الحكمي من لدنه سبحانه، ومن قال: «المحتجبة» أراد المستترة، لأنَّ تركيبها الباطن خفيّ محجوب.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧ و٩٨.

والنِدّ: المثل. والعادلون بك: الذين جعلوا لك عَدِيلاً ونظيراً. ونحلُوك: أعطوك، وهي النُحلة، وروي: «لم يُعْقَد» على ما لم يسمّ فاعله.

وغَيْب ضمِيره، بالرفع. والقرائح: جمع قَرِيحة، وهي القوة التي تستنبط بها المعقولات وأصلُه من قريحة البئر، وهو أوّل مائها.

ومعنى هذا الفصل أنه عليه السلام شَهِد بأنّ المجسم كافر، وأنّه لا يعرف الله، وأن من شبه الله بالمخلوقين ذوي الأعضاء المتباينة، والمفاصل المتلاحمة، لم يعرفه ولم يباشر قلبه اليقين، فإنّه لا ندّ له ولا مِثل، ثم أكدّ ذلك بآيات من كتاب الله تعالى، وهي قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1]. حكى سبحانه حكاية قول الكُفار في النار، وهم التّابعون للذين أغووهم من الشياطين وهم المتبوعون. لقد كنّا ضالين إذ سويناكم بالله تعالى، وجعلناكم مثله، ووجه الحُجّة أنه تعالى حكى ذلك حكاية منكِرٍ على مَنْ زعم أن شيئاً من الأشياء يجوز تسويته بالباري سبحانه، فلو كان الباري سبحانه جسماً مصوّراً، لكان مشابهاً لسائر الأجسام المصوّرة، فلم يكن لإنكاره على من سواه بالمخلوقات معنى.

ثم زاد عليه السلام في تأكيد هذا المعنى، فقال: كذب العادلون بك، المثبتون لك نظيراً وشبيهاً، يعني المشبِّهة المجسّمة، إذ قالوا: إنّك على صورة ردم، فشبّهوك بالأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها. وأعطوْك حلية المخلوقين لما اقتضت أوهامهم ذلك، من حيث لم يألفوا أن يكون القادر الفاعل العالم إلاّ جسماً، وجعلوك مركّباً ومتجزئاً، كم تتجزأ الأجسام، وقدروك على هذه الخلقة، يعني خلقة البشر المختلفة القُوى، لأنها مركبة من عناصر مختلفة الطبائع. ثم كرّر الشهادة فقال: أشهد أنّ مَنْ ساواك بغيرك، وأثبت أنك جوهرٌ أو جسم فهو عادل بك كافر. وقالت تلك الخارجية للحجاج: «أشهدُ أنك قاسط عادل»، فلم يفهم أهلُ الشام حوله ما قالت، حتى فَسَّره لهم، قال عليه السلام فمن يذهب إلى هذا المذهب فهو كافر بالكتاب، وبما دَلّت عليه حجج العقول. ثم قال: وإنك أنت الله، أي وأشهد أنّك أنت الله الذي لم تحِط العقولُ بك، كإحاطتها بالأشياء المتناهية، فتكون ذا كيفية.

وقوله: «في مهبّ فكرها» استعارة حسنة، ثم قال: «ولا في رَوِيّات خواطرها»، أي في أفكارها. محدوداً، ذا حدّ مُصَرّفاً، أي قابلاً للحركة والتغير.

وقد استدلّ بعضُ المتكلّمين على نفي كون الباريء - سبحانه - جسماً بما هو مأخوذ مِن هذا الكلام، فقال: لو جاز أن يكون الباريء جسماً، لجاز أن يكونَ القمر هو إله العالم، لكن

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٩٤-٩٨.

لا يجوز أن يكون القمر إله العالم، فلا يجوز أن يكون الباري جِسْماً، بيان الملازمة أنّه لو جاز أن يكون الباريء سبحانه جسماً، لما كان بيْن الإلهية وبين الجسمية منافاة عقلية، وإذا لم يكن بينهما منافاة عقلية أمكن اجتماعُهما، وإذا أمكن اجتماعهما جاز أن يكون القمر هُو إله العالم، لأنه لا مانع من كونه إله العالم إلا كونه جسماً يجوز عليه الحركة، والأفول، ونقصان ضوئه تارة، وامتلاؤه أخرى، فإذا لم يكن ذلك منافياً للإلهية، جاز أن يكون القمر إله العالم، وبيان الثاني إجماعُ المسلمين على كفرِ من أجاز كون القمر إله العالم، وإذا ثبتت الملازمة وثبتت المقدّمة الثانية فقد تمت الدلالة.

الأصل: ومنها: قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ، وَدَبَّرَهُ فَأَلْطَفَ تَدْبِيرَهُ، وَوَجَّهَهُ لِوِجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنْزِلَتِهِ، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ ٱلانْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أَمَرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ ٱلْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ! ٱلْمُنْشِىءُ أَصْنَافَ ٱلْأَشْيَاءِ بِلاَ رَوِيَّةِ فِكْرٍ آلَ إِلَيْهَا، وَلاَ قَرِيحَةِ غَرِيزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا، وَلاَ تَجْرِبَةٍ أَفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ ٱلدُّهُورِ، وَلاَ شَرِيكٍ أَعَانَهُ عَلَى ٱبْتِدَاعِ عَجَائِبِ ٱلْأُمُورِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، وَأَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ، لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ ٱلْمُبْطِىءِ، وَلاَ أَنَاةُ ٱلْمُتَلَكِّىءِ، فَأَقَامَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ أَوَدَهَا، وَنَهَجَ حُدُودَهَا، وَلاَءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا، وَفَرَّقَهَا أَجْنَاساً، مُخْتَلِفَاتٍ فِي ٱلْحُدُودِ وَٱلْأَقْدَارِ، وَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْهَيْئَاتِ، بَدَايَا خَلاَئِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَٱبْتَدَعَهَا.

الشرح: الوِجْهة، بالكسر: الجهة التي يتوجّه نحوها، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(١).

والرَّيْث: البطء والمتلكّيء: المتأخر. والأوَد: الاعوجاج. ولاءم بين كذا وكذا، أي جمع، والقرائن هنا: الأنفس، واحدتها قَرونة وقَرينة، يقال: سمحت قرينته وقَرونته، أي أطاعته نفسُه وذلّت، وتابعته على الأمر. وبدايا. ها هنا: جمع بديّة، وهي الحالة العَجيبة، أبدأ الرجل إذا جاء بالأمر البديء، أي المعجِب، والبديّة أيضاً: الحالة المبتدأة المبتكرة، ومنه قولهم: فَعَلَه باديءَ ذي بَدِيء على وزن «فعيل»، أي أوّل كلّ شيء. ويمكن أن يحمَلَ كلامُه أيضاً على هذا الوجه.

وأما خلائق، فيجوز أن يكون أضاف «بداياً» إليها، ويجوز الاّ يكون أضافه إليها، بل

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

جعلها بدلاً من «أجناساً». ويروى «برايا» جمع بريّة. يقول عليه السلام: إنّه تعالى قَدّر الأشياء التي خلقها، فخلقها محكمة على حَسَب ما قدّر. وألطف تدبيرها، أي جعله لطيفاً، وأمضى الأمور إلى غاياتها وحدودها المقدّرة لها، فهيأ الصَّقْرة للاصطياد، والخيل للركوب والطّراد، والسيف للقَطْع، والقلم للكتابة، والفَلَك للدوران ونحو ذلك، وفي هذا إشارة إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له»، فلم تتعدّ هذه المخلوقات حدود منزلتها التي جعلت غايتها، ولا قصّرت دون الانتهاء إليها، يقول: لم تقف على الغاية ولا تجاوزتها. ثم قال: ولا استصعبتْ وامتنعت إذا أمرها بالمضيّ إلى تلك الغاية بمقتضى الإرادة الإلٰهية، وهذا كلّه من باب المجاز، كقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١].

وخلاصة ذلك، الإبانة عن نفوذ إرادته ومشيئته.

ثم علّل نفي الاستصعاب فقال: وكيف يَستصعب، وإنما صدرت عن مشيئته! يقول: إذا كانت مسيئتُه هي المقتضيّة لوجود هذه المخلوقات، فكيف يُسْتَصْعَبُ عليه بلوغها إلى غاياتها التي جعلت لأجلها، وأصلُ وجودها إنما هو مشيئته، فإذا كان أصل وجودها بمشيئته، فكيف يستصعب عليه توجيهها لوجهتها، وهو فرع من فروع وجودها وتابع له!

ثم أعاد معانيَ القول الأول، فقال: إنه أنشأ الأشياء بغير رويّة ولا فكرة ولا غريزة أضمر عليها خَلْق ما خلق عليها. ولا تجربة أفادها، أي استفادها من حوادث مرّت عليه من قبْلُ، كما تكسب التجارب علوماً لم تكن، ولا بمساعدة شريك أعانه عليها. فتمّ خلقُه بأمره إشارة إلى قوله: «ولم يَستصعب إذ أمر بالمضيّ»، فلما أثبت هناك كونها أُمِرت أعاد لفظ الأمر ها هنا، والكلّ مجاز، ومعناه نفوذ إرادته، وأنه إذا شاء أمراً استحال ألاّ يقع، وهذا المجاز هو المجازُ المستعمَل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]، تعبيراً بهذا اللفظ عن سرعة مواتاة الأمور له، وانقيادها تحت قدرته.

ثم قال: ليس كالواحد منا يعترض دون مراده رَيْث وبطء، وتأخير والتِوَاء. ثم قال: وأقام العِوج وأوضح الطريق، وجمع بين الأمور المتضادّة، ألا ترى أنه جَمَع في بَدَن الحيوانات والنبات بين الكيفيات المتباينة المتنافرة، من الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، ووصلَ أسباب أنفسها بتعديل أمزجتها، لأن اعتدال المزاج أو القرب من الاعتدال سببُ بقاء الروح، وفَرّقها أجناساً مختلفات الحدود والأقدار، والخلق والأخلاق والأشكال. أمورٌ عجيبة بديعة مبتكرة الصنعة، غير محتذٍ بها حَذْوَ صانع سابق، بل مخلوقة على غير مثال، قد أحكم سبحانه صنعها، وخَلَقها على موجب ما أراد، وأخرجها من العدم المحض إلى الوجود، وهو معنى

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٣.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

الابتداع، فإنّ الخلق في الاصطلاح النظريّ على قسمين: أحدهما: صورة تخلق في مادة، والثاني: ما لا مادّة له، بل يكون وجودُ الثاني من الأول فقط، من غير توسّط المادة، فالأول يسمّى التكوين، والثاني يسمى الإبداع، ومرتبة الإبداع أعلى من مرتبة التكوين.

الأصل: ومنها في صفة السماء: وَنَظَمَ بِلاَ تَعْلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرَجِهَا، وَلاَحَمَ صُدُوعَ ٱنْفِرَاجِهَا، وَوَشَّجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَزْوَاجِهَا، وَذَلَّلَ لِلْهَابِطِينَ بِأَمْرِهِ، وَالصَّاعِدِينَ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ حُزُونَةَ مِعْرَاجِهَا، وَنَادَاهَا بَعْدَ إِذْ هِيَ دُخَانٌ، فَالْتَحَمَتْ عُرَا أَشْرَاجِهَا، وَفَتَقَ بعدَ الارْتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا، وَأَقَامَ رَصَداً مِنَ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا، وَأَمْسَكَهَا مِنْ أَنْ تَمُورَ فِي خَرْقِ الهَوَاءِ بِأَيْدِهِ، وَأَمَرَهَا أَنْ تَقِفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ، وَجَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُبْصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرَها آيَةً مَمْحُوَّةً مِنْ لَيْلِهَا، وَأَجْرَاهُما فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا، وَقَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهما، لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ بِهِمَا، وَلِيُعْلَمَ عَدَدُ السِّنِينَ وَٱلْحِسَابِ بِمَقَادِيرِهِمَا، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا، مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا، وَمَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا، وَرَمَى مُسْتَرِقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهُبِهَا، وَأَجْرَاهَا عَلَى أَذْلاَلِ تَسْخِيرِهَا، مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا، وَمَسِيرِ سَائِرِهَا، وَهُبُوطِهَا وَصُعُودِهَا، وَنُحُوسِهَا وَسُعُودِهَا.

الشرح: الرَّهَوات: جمع رَهْوة، وهي المكان المرتفع والمنخفض أيضاً، يجتمعُ فيه ماءُ المطر، وهو من الأضداد. والفُرَج: جمع فُرْجة، وهي المكان الخالي. ولاحم: ألصق. والصَّدْع: الشَّق. ووَشّجَ، بالتشديد، أي شبك. ووشَجت العروقُ والأغصان، بالتخفيف: اشتبكت، وبيننا رحم واشِجة، أي مشتبكة.

وأزواجها: أقرانها وأشباهها، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾(١)، أي أصنافاً ثلاثة.

والحُزونة: ضدّ السهولة. وأشراجُها: جمع شَرْج، وهو عُرَا العَيْبة، وأشرجتُ العيبة، أي أقفلت أشراجَها، وتسمى مجرّة السماء شَرْجاً، تشبيهاً بشَرْج العيْبة، وأشراج الوادي: ما انفسح منه واتسع.

والارتتاق: الارتتاج. والنقاب: جمع نَقْب، وهو الطريق في الجبل. وتمُور: تتحرّك وتذهب وتجيء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾(٢) والأيْدُ: القوة. ونَاطَ بها: عَلّق.

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧. (٢) سورة الطور، الآية: ٩.

والدّراريّ: الكواكب المضيئة، نسبت إلى الدُّرّ لبياضها، واحدها دُرّيّ، ويجوز كسر الدال، مثل بحر لُجيّ ولِجيّ.

والثواقب: المضيئات. وتقول: افعل ما أمرتُك على أذْلاله، أي على وجهه، ودَعْه في أذْلاله، أي على حاله، وأمور الله جاريةٌ على أذلالها، أي على مجاريها وطرقها.

يقول عليه السلام: كانت السماء أوّل ما خلقت غير منتظمة الأجزاء، بل بعضُهَا أرفعُ وبعضها أخفَض، فنظمها سبحانه، فجعلها بسيطاً واحداً، نظْماً اقتضتْه القدرة الإلهية، من غير تعليق، أي لا كما ينظم الإنسانُ ثوباً مع ثوب، أو عِقداً مع عِقْد، بالتعليق والخياطة، وألصق تلك الفروجَ والشُّقُوق، فجعلها جسماً متصلاً، وسطحاً أملس لا نتوّات فيه ولا فُرج ولا صُدوع، بل جعلَ كلَّ جزءٍ منها ملتصِقاً بمثله، وذلل للملائكة الهابطين بأمرِه، والصاعدين بأعمال خلقه - لأنهم الكَتَبة الحافظون لها - حُزُونة العُروج إليها، وهو الصعود.

ثم قال: «ونادَاها بعد إذْ هي» روي بإضافة «بعْد» إلى «إذ» وروي بضمّ «بعد»، أي ونادها بعد ذلك إذ هي دخان، والأول أحسن وأصوب، لأنها على الضمّ تكون دُخاناً بعد نظمه رَهَوات فروجِها وملاحمة صدوعها، والحال تقتضي أنّ دخانها قبل ذلك لا بعده.

فإن قلت: ما هذا النداء؟ قلت: هو قوله: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[١]، فهو أمر في اللفظ ونداء في المعنى، وهو على الحقيقة كناية عن سرعة الإبداع. ثم قال: وفَتَق بعد الارتتاق صوامتَ أبوابها، هذا صريح في أنّ للسماء أبواباً، وكذلك قوله: «على نقابها»، وهو مطابق لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[٢] والقرآن العظيم وكلام هذا الإمام المعظّم أولى بالاتباع من كلام الفلاسفة، الذين أحالوا الخرق على الفلك. وأما إقامة الرصد من الشُّهب الثواقب، فهو نص القرآن العزيز ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾[٣]: والقول بإحراق الشهب للشياطين اتباعاً لنص الكتاب أولى من قول الفلاسفة الذين أحالوا الانقضاض على الكواكب.

ثم قال: وأمْسَكها على الحركة بقوته، وأمرها بالوقوف فاستمسكت ووقفت. ثم ذكْره الشمس والقمر تذكرةً مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[٤].

ثم ذكر الحكم في جَرَيان الشمس والقمر في مجراهما تذكرةً مأخوذ من قوله تعالى:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الجن، الآيتان: ٨-٩.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾[3].

ثم قال: «ثم علّق في جَوّها فَلَكها»، وهذا يقتضي أنّ الفلك غير السماء، وهو خلاف قول الجمهور، وقد قال به قائلون، ويمكن أن نفسر ذلك إذا أردنا موافقة قول الجمهور بأنّه أراد بالفلَك دائرة معدّل النهار، فإنّها الدائرة العظمى في الفَلَك الأعظم، وهي في الاصطلاح النظريّ تسمى فَلَكاً.

ثم ذكر أنّه زيّن السماء الدنيا بالكواكب، وأنّها رجوم لمسترِقي السمع، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾[4].

ثم شرح حال الدنيا فقال: «من ثبات ثابتها»، يعني الكواكب التي في كُرة البروج و«مسير سائرها»، يعني الخمسة والنيّرين لأنّها سائرة دائماً.

ثم قال: «وصعودها وهبوطها»، وذلك أنّ للكواكب السيارة صعوداً في الأوْج، وهبوطاً في الحضيض، فالأوّل هو البعد الأبعد عن المركز، والثاني البعد الأقرب.

فإن قلت: ما باله عليه السلام قال: «ونحوسها وسعودها»، وهو القائل لمن أشار عليه ألاّ يحارب في يوم مخصوص: «المنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار»؟

قلت: إنه عليه السلام إنما أنكر في ذلك القول عَلَى مَنْ يزعم أن النجوم مؤثّرة في الأمور الجزئيّة، كالذين يحكمون لأرباب المواليد وعليهم، وكمن يحكم في حَرْب أو سلم، أو سفر أو مقام، بأنه للسعد أو النحس، وأنه لم ينكر على من قال: إنّ النجوم تؤثّر سعوداً ونحوساً في الأمور الكلية، نحو أن تقتضي حَرًّا أو برداً، أو تدلّ على مرض عامّ أو قحط عام، أو مطر دائم، ونحو ذلك من الأمور التي لا تخصّ إنساناً بعينه، وقد قدمنا في ذلك الفصل ما يدل على تصويب هذا الرأي، وإفساد ما عداه.

الأصل: ومنها في صفة الملائكة: **ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمٰوَاتِهِ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ ٱلْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ، خَلْقاً بَدِيعاً مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَمَلأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا، وَحَشَى**

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٤) سورة الصافات، الآيات: ٦-٩.

بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَائِهَا، وَبَيْنَ فَجَوَاتِ تِلْكَ ٱلْفُرُوجِ زَجَلُ المُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حَظَائِرِ ٱلْقُدُسِ، وَسُتُرَاتِ ٱلْحُجُبِ وَسُرَادِقَاتِ المَجْدِ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيجِ ٱلَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ ٱلْأَسْمَاعُ سُبُحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ ٱلْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا.

وَأَنْشَأَهُمْ عَلَى صُوَرٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وَأَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ، أُولِي أَجْنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلاَلَ عِزَّتِهِ، لاَ يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي ٱلخَلْقِ مِنْ صُنْعِهِ، وَلاَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئاً مَعَهُ مِمَّا ٱنْفَرَدَ بِهِ، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1] جَعَلَهُمُ ٱللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ ٱلْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ، وَحَمَّلَهُمْ إِلَى المُرْسَلِينَ وَدَائِعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ رَيْبِ الشُّبُهَاتِ، فَمَا مِنْهُمْ زَائِغٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ.

وَأَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ المَعُونَةِ، وَأَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضُعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَاباً ذُلُلاً إِلَى تَمَاجِيدِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مَنَاراً وَاضِحَةً عَلَى أَعْلاَمِ تَوْحِيدِهِ، لَمْ تُثْقِلْهُمْ مُؤْصِرَاتُ الآثَامِ، وَلَمْ تَرْتَحِلْهُمْ عُقَبُ اللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامِ، وَلَمْ تَرْمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيمَانِهِمْ، وَلَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ، وَلاَ قَدَحَت قَادِحَةُ ٱلْإِحَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلاَ سَلَبَتْهُمُ ٱلْحَيْرَةُ مَا لاَقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِضَمَائِرِهِمْ، وَمَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَةِ جَلاَلِهِ فِي أَثْنَاءِ صُدُورِهِمْ، وَلَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ ٱلْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بِرَيْنِها عَلَى فِكْرِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ ٱلْغَمامِ الدُّلَّحِ، وَفِي عِظَمِ ٱلْجِبالِ الشُّمَّخِ، وَفِي قَتْرَةِ الظَّلاَمِ ٱلْأَيْهَمِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تُخُومَ ٱلْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَهِيَ كَرَايَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ ٱلْهَوَاءِ، وَتَحْتَها رِيحٌ هَفَّافَةٌ تَحْبِسُها عَلَى حَيْثُ ٱنْتَهَتْ مِنَ ٱلْحُدُودِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ، قَدِ ٱسْتَفْرَغَتْهُمْ أَشْغالُ عِبادَتِهِ، وَوَصَّلَتْ حَقائِقُ ٱلْإِيمانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ ٱلْإِيقانُ بِهِ إِلَى ٱلْوَلَهِ إِلَيْهِ، وَلَمح تُجاوِزْ رَغَباتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ.

قَدْ ذَاقُوا حَلاَوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرِبُوا بِٱلْكَأْسِ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاوَاتِ قُلُوبِهِمْ وَشِيجَةُ خِيفَتِهِ، فَحَنَوْا بِطُولِ الطَّاعَةِ ٱعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ، وَلَمْ يُنْفِدْ طُولُ ٱلرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ، وَلاَ أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبَقَ خُشُوعِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَلَّهُمُ ٱلْإِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَلا تَرَكَتْ لَهُمُ ٱسْتِكَانَةُ ٱلْإِجْلاَلِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ. وَلَمْ تَجْرِ ٱلْفَتَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُؤُوبِهِمْ، وَلَمْ تَغِضْ رَغَبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَمْ تَجِفَّ لِطُولِ

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦-٢٧.

ٱلْمُناجَاةِ أَسَلاَتُ ٱلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ مَلَكَتْهُمُ ٱلْأَشْغالُ فَتَنْقَطِعَ بِهَمْسِ ٱلْجُؤَارِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي مَقاوِمِ الطَّاعَةِ مَناكِبُهُمْ، وَلَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقابَهُمْ.

وَلاَ تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بَلاَدَةُ ٱلْغَفَلاَتِ، وَلاَ تَنْتَضِلُ فِي هِمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ.

قَدِ ٱتَّخَذُوا ذَا ٱلْعَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فاقَتِهِمْ، وَيَمَّمُوهُ عِنْدَ ٱنْقِطاعِ ٱلْخَلْقِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ، لاَ يَقْطَعُونَ أَمَدَ غايَةِ عِبادَتِهِ، وَلاَ يَرْجِعُ بِهِمْ ٱلاسْتِهْتارُ بِلزُومِ طَاعَتِهِ، إِلاَّ إِلَى مَوَادَّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرَ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجائِهِ وَمَخافَتِهِ، لَمْ تَنْقَطِعْ أَسْبابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيَنُوا فِي جِدِّهِمْ، وَلَمْ تَأْسِرْهُمُ ٱلْأَطْماعُ فَيُؤْثِرُوا وَشِيكَ السَّعْيِ عَلَى ٱجْتِهادِهِمْ. لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوِ ٱسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ ٱلرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقات وَجَلِهِمْ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقاطُعِ، وَلاَ تَوَلاَّهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ، وَلاَ تَشَعَّبَتْهُمْ مَصارِفُ ٱلرِّيَبِ، وَلاَ ٱقْتَسَمَتْهُمْ أَخْيافُ ٱلْهِمَمِ، فَهُمْ أُسَرَاءُ إِيمانٍ لَمْ يَفُكَّهُمْ مِنْ رِبْقَتِهِ زَيْغٌ وَلاَ عُدُولٌ، وَلاَ وَنًى وَلاَ فُتُورٌ، وَلَيْسَ فِي أَطْباقِ السَّماءِ مَوْضِعُ إِهَابٍ إِلاَّ وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، أَوْسَاعٍ حَافِدٌ، يَزْدَادُونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْماً، وَتَزْدَادُ عِزَّةُ رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَماً.

الشرح: هذا موضع المثل: «إذا جاء نهرُ الله بطل نهر مَعْقِل»! إذا جاء هذا الكلام الرّبانيّ، واللفظ القدسيّ، بطلَتْ فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه، نسبةَ التراب إلى النُّضار الخالص، ولو فرضنا أنّ العرب تقدِرُ على الألفاظ الفصيحة المناسبة، أو المقاربة لهذه الألفاظ، من أين لهم المادّة التي عبَّرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهليّة بل الصحابة المعاصرُون لرسول الله ﷺ هذه المعاني الغامضة السمائيّة، ليتهيّأ لها التعبير عنها! أما الجاهليّة فإنهم إنما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش، أو ثور فلاة، أو صفة جبال أو فلوات، ونحو ذلك. وأما الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحةٍ إنما كان منتهَى فصاحة أحدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة، إمّا في موعظة تتضمّن ذكر الموت أو ذمّ الدنيا، أو ما يتعلق بحرب وقتال، من ترغيب أو ترهيب، فأمّا الكلامُ في الملائكة وصفاتها، وصُورها وعباداتها، وتسبيحِها ومعرفتِها بخالقها وحبّها له، ووَلهها إليه، وما جرى مجرى ذلك مما تضمّنه هذا الفصل على طوله، فإنّه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل، نعمْ ربما علموه جملة غير مقسّمة هذا التقسيم، ولا مرتّبة هذا الترتيب، بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم، وأما مَنْ عنده علم من هذه المادة، كعبد الله بن سلاَم

وأميّة بن أبي الصَّلْب وغيرهم، فلم تكن لهم هذه العبارة، ولا قَدَرُوا على هذه الفصاحة، فثبت أنّ هذه الأمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة، لم تحصل إلا لعليّ وحده، وأقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمّله اللبيب اقشعرّ جلده، ورجَفَ قلبُه، واستشعر عظمةَ الله العظيم في رَوْعه وخَلده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه، وكاد أن يخرج من مُسْكه شوقاً، وأن يفارق هيكله صَبابةً ووجداً.

ثم نعود إلى التفسير فنقول:

الصّفيح الأعلى: سطح الفَلَك الأعظم، ويقال لوجه كلّ شيء عريض: صفيح وصَفْحَة.

والفُروج: الأماكن الخالية والفِجاج: جمع فَجّ، والفَجّ: الطريق الواسع بين جبلين أو حائطين وأجوائها: جمع جَوّ، وهو ما اتّسع من الأودية، ويقال لما بين السماء والأرض جَوّ، ويروى: «أجوابها»، جمع جَوْبة، وهي الفُرْجة في السحاب وغيره ويروى: «أجْوَازها» جمع جَوْز، وهو وَسَط الشيء. والفجوات: جمع فَجْوة، وهي الفُرْجة بين الشيئين، تقول منه: تفاجَى الشيء، إذا صار له فَجْوة، ومنه الفُجاء، وهو تباعُد ما بين عُرْقوبَيِ البعير.

والزَّجَل: الصوت. وحظائر القدس: لفظة وردت في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله، وأصل «الحظِيرة» ما يعمل شبْه البيت للإبل من الشجر ليقيها البرد، فسمّى عليه السلام تلك المواطن الشريفة المقدّسة العالية التي فوق الفلك حَظَائر القدس، والقُدْسُ بتسكين الدال وضمها: الطّهر، والتقديس: التطهير، وتقدّس: تطهّر. والأرض المقدّسة المطهّرة، وبيت المقدس أيضاً، والنسبة إليه قُدْسيّ ومقدسيّ. والسُّتُرات: جمع سُتْرة. والرجيج: الزلزلة والاضطراب، ومنه ارتجّ البحر. وتستَكّ الأسماع: تنسدّ، قال النابغة:

وَنُبِّئْتُ خَيرَ النّاس أنّكَ لِمْتَنِي ... وتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكّ منها المسامعُ

سُبُحات النور، بضم السين والباء: عبارة عن جلالة الله تعالى وعظمته. وتَرْدَع الأبصار تكفّها. وخاسئة، أي سادرة، ومنه: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]، وخَسَأ بصرُه، خَسْأً وخُسوءاً، أي سَدِر.

وقوله: «على حدودها» أي تقف حيث تنتهي قوّتها، لأنّ قوتها متناهية، فإذا بلغتْ حدّها وقفت. وقوله: «أُولِي أَجْنِحَةٍ» من الألفاظ القرآنية.

وقوله: «لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه»، أي لا يدّعون الإلٰهيّة لأنفسهم وإن كان قوم من البشر يدّعونها لهم. وقوله: «لا يدّعون أنهم يخلقُون شيئاً معه مما انفرد به»، فيه إشارة إلى مذهب أصحابنا في أنّ أفعال العباد مخلوقة لهم، لأنّ فائدة هذا القَيْد، وهو قوله: «انفرد به» إنّما تظهر بذلك.

(١) سورة الملك، الآية: ٤.

وأما الآيات المقدسة، فالرواية المشهورة «مُكْرَمون» وقرىء: «مُكَرَّمُون» بالتشديد، وقرىء «لا يسبُقونه» بالضم، والمشهور القراءة بالكسر، والمعنى أنّهم يتبعون قوله، ولا يقولون شيئاً حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قولَه، وأراد أن يقول: «لا يسبقونه بقولهم»، فحذف الضمير المضاف إليه، وأناب اللّام منابه. ثم قال: «وهم بأمره يعملون»، أي كما أنّ قولهم تابع لقوله، فعملهم أيضاً كذلك فَرْعٌ على أمره، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به، وجاء في الخبر المرفوع عن رسول الله ﷺ: «أنّه رأى جبرائيل ليلة المعراج ساقطاً كالحِلْس من خَشْية الله»[1].

والحِلْس: الكساء الخفيف.

والزائغ: العادل عن الطريق، والإخبات: التذلّل والاستكانة. وأبواباً ذُلُلاً، أي سهلة وطيئة، ومنه: دَابَّةٌ ذَلُول، وتماجيده: الثناء عليه بالمجد. والمؤصِرات: المثقِلات والإصْر: الثقل.

وتقول: «ارتحلتُ» البعير، أي ركبته، والعَقَبة: النوْبة، والجمع عُقَب. ومعنى قوله: «ولم ترتحلهم عُقَب الليالي والأيام». أي لم تؤثّر فيهم نوبات الليالي والأيام وكرورها، كما يؤثر ارتحال الإنسان البعير في ظهره. ونوازعها: شهواتها النازعة المحرّكة، وروي: «نوازغها» بالغين المعجمة، من نَزَغ بينهم، أي أفسد.

ولم تعترك الظنون، أي لم تزدحم الظنون على يقينهم الذي عقدوه.

والإحَن: جمع إحْنَة، وهي الحقد، يقول: لم تقطح قوادح الحِقْد في ضمائرهم.

وما لاق، أي ما التصق، وأثناء صدورهم: جمع ثِنْي وهي التضاعيف. والرَّيْن: الدَّنَس والغلبة، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾[2].

وتقترع، من الاقتراع بالسهام، بأنْ يتناوب كلٌّ من الوساوس عليها. ويروى: «فيفترع» بالفاء، أي تعلو برينها، فَرَعه، أي علاه.

والغمام: جمع غمامة، وهي السحابة. والدُّلَّح: الثِّقال، جاء يدْلح بحِمْلِه، أي جاء مثقلاً به. والجبال الشُّمَّخ: العالية الشاهقة.

وقوله: «في قَتْرة الظلام»، أي سواده. والأيْهم: لا يهتدَى فيه، ومنه فلاةَ يهْماء. والتُّخُوم، بضم التاء: جمع تَخْم وهو منتهى الأرض أو القرية، مثل فَلْس وفلوس، ويروى: «تَخُوم» بفتح التاء على أنّها واحد، والجمع تُخُم مثل صَبُور وصُبُر.

---

(١) أخرجه بدون كلمة «ساقطاً»: الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٢١)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٢٧).

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

وريح هَفّافة، أي ساكنةَ طيبة، يقول: كأنّ أقدامهم التي خرقتِ الهواء إلى حضيض الأرض رايات بيض تحتها ريح ساكنة ليست مضطربة، فتموج تلك الرايات، بل هي ساكنة تحبسها حيث انتهت، وجاء في الخبر أنّ لإسرافيل جناحيْن أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب، وأنّ العرش على كاهِله، وإنه ليتضاءل أحياناً لعظمة الله، حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور.

ثم، قال: «قد استفرغتْهم أشغال عبادته تعالى» أي جعلَتْهم فارغين إلا منها. ويروى: «ووسّلت حقائق الإيمان»، بالسين المشددة، يقال: وسَّل فلان إلى ربّه وسيلة، والوسيلة ما يتقرب به، والجمع وسيل ووسائل، ويقال: وسلتُ إليه وتوسلت إليه بمعنًى.

وسويداوات القلوب: جمع سويداء، وهي حَبّة القلب. والوشيجة في الأصل: عرق الشَّجرة، وهي هنا استعارة. وَحَنيتُ ضلْعي، أي عوجتها. والرِّبَق: جمع رِبْقة، وهي الحبل.

قوله: «ولم يتولّهم الإعجاب»، أي لم يستوْل عليهم. والدؤوب: الجدّ والاجتهاد. والأسَلاَت: جمع أسَلة، وهي طرف اللسان ومستدقّه، والجُؤار: الصَّوْت المرتفع، والهَمْس: الصوت الخفيّ، يقول: ليست لهم أشغال خارجة عن العبادة، فيكون لأجلها أصواتُهم المرتفعة خافية ساكنة. لا تعدُو، من عَدَا عليه، إذا قهره وظلمه، وهو ها هنا استعارة.

ولا تنتضل الخدائع في هممهم، استعارة أيضاً من النّضال، وهو المراماة بالسهام. وذو العرش: هو الله تعالى، وهذه لفظة قرآنية، قال سبحانه: ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[1]. يعني لابْتغوا إلى الله تعالى سبيلاً. وقال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2]، والاستهتار: مصدر استهتر فلان بكذا، أي لازمه وأولع به.

وقوله: «فَيَنُوا» أي فيضعفوا، وني: يني. والجِدّ: الاجتهاد والانكماش.

ثم قال: إنهم لا يستعظمون عبادتهم، ولو أنّ أحداً منهم استعظم عبادَته لأذهب خوفُه رجاءه الذي يتولّد من استعظام تلك العِبادة، يصفهم بعظم التقوى.

والاستحواذ: الغَلبة، والغِلّ: الحِقْد، وتشعّبتهم: تقسّمتهم وفَرّقتهم، ومنة قيل للمنية شَعوب، أي مفرّقة. وأخياف الهمم، أي الهمم المختلفة، وأصله من الخَيْف، وهو كَحل إحدَى العينين دون الأخرى، ومنه المثل: الناس أخْيَاف، أي مختلفون، والإهاب: الجِلْد. والحافد: المسرع، ومنه الدعاء: اللهمّ إليك نَسْعى ونحفِد.

واعلم أنّه عليه السلام إنما كَرّر وأكد صفاتهم بما وصفهم به، ليكون ذلك مثالاً يحتذِي عليه أهل العرفان من البشر، فإنّ أعلى درجات البشر أن يتشبّه بالملَك، وخُلاصة ذلك أمور:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٢. (٢) سورة البروج، الآيتان: ١٥ و١٦.

منها العبادة القائمة.

ومنها ألاّ يدعى أحدٌ لنفسه الحوْل والقوة، بل لا حولَ ولا قوّة.

ومنها أن يكون متواضعاً ذا سكينة ووقار.

ومنها أن يكون ذا يقين لا تقدَحُ فيه الشكوك والشبهات.

ومنها ألاّ يكون في صدره إحْنة على أحد من الناس.

ومنها شِدّة التعظيم والهيبة لخالق الخلق، تبارك اسمه.

ومنها أنْ تستفرغه أشغال العبادة له عن غيرها من الأشغال.

ومنها أنّه لا تتجاوز رغباتُه ممّا عند الله تعالى إلى ما عند غيره سبحانه.

ومنها أن يعقد ضميرَه وقلبَه على محبة الله تعالى، ويشرب بالكأس الروِيّة من حبّه.

ومنها عِظَم التقوى بحيث يأمن كلّ شيء عدا الله، ولا يهاب أحداً إلا الله.

ومنها الخشوع والخضوع والإخبت والذلّ لجلال عزته سبحانه.

ومنها ألاّ يستكثر الطاعة والعمل، وإنْ جَلّ وعَظُم.

ومنها عِظَمُ الرجاء الواقع في مقابلة عظم الخوف، فإنّ الله تعالى يحبّ أن يُرْجَى، كما يحب أن يخاف.

واعلم أنه يجب أن تُعلم أبحاث متعدّدة بالملائكة ويقصد فيها قصد حكاية المذهب خاصة، ونكلُ الاحتجاج والنظر إلى ما هو مذكور في كتبنا الكلاميّة.

البحث الأول: في وجود الملائكة، قال قوم من الباطنية: السبيل إلى إثبات الملائكة هو الحسّ والمشاهدة، وذلك أن الملائكة عندهم أهلُ الباطن.

وقالت الفلاسفة: هي العقول المفارقة، وهي جواهر مجرّدة عن المادة لا تعلّق لها بالأجسام تدبيراً، واحترزوا بذلك عن النُّفوس، لأنها جواهر مفارقة إلا أنها تدبر الأبدان، وزعموا أنهم أثبتوها نظراً.

وقال أصحابنا المتكلمون: الطريق إلى إثبات الملائكة الخبرُ الصادق المدلول على صدقه، وفي المتكلّمين مَنْ زعم أنه أثبت الملائكة بطريق نظريّ، وهو أنّه لما وجد خلقاً من طين وجب في العقل أن يكون في المخلوقات خَلْق من الهواء وخلق من النار فالمخلوق من الهواء هو الملك، والمخلوق من النار الشيطان.

البحث الثاني: في بنية الملائكة، وهيئة تركيبهم، قال أصحابُنا المتكلّمون: إنّ الملائكة أجسامٌ لطاف، وليسوا من لحم ودم وعظام، كما خلق البَشَر من هذه الأشياء. وقال أبو حفص المعوّد القرينسيّ من أصحابنا: إنّ الملائكة من أجسام من لحم وعظم: إنه لا فَرْق بينهم وبين البشر وإنما لم يُرَوْا لبعد المسافة بينا وبينهم.

وقد تبعه على هذا القول جماعة من معتزلة ما وراء النهر، وهي مقالة ضعيفة لأنّ القرآن يشهد بخلافه في قوله: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾(١)، وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾(٢)، فلو كانوا أجساماً كثيفة كأجسامنا لرأيناهم.

البحث الثالث: في تكليف الملائكة، حكي عن قوم من الحَشَويّة أنّهم يقولون: إنّ الملائكة مضطرون الله جميع أفعالهم، وليسوا مكلّفين.

وقال جمهور أهل النظر: إنهم مكلّفون.

وحكي عن أبي إسحاق النظام، أنه قال: إنّ قوماً من المعتزلة قالوا: إنّهم جبِلوا على الطاعة لمخالفة خَلْقهم حلقة المكلفين، وأنهم قالوا: لو كانوا مكلّفين لم يؤمن أن يعصوا فيما أمروا به، وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٣).

وقال قوم: إنّ أكثر الملائكة مكلّفون، وأن فيهم من ليس بمكلّف بل هو مسخر للملائكة المكلفين، كما أنّ في الحيوانات ما هو غير مكلّف، بل هو مسخّر للبشر ومخلوق لمصالحهم.

قالوا: ولا ننكر أن يكونَ الملائكة الذين ذكر منهم أنهم غُلُظ الأجْسام وعُظُم الخلق والتركيب بحيث تبلغ أقدامهم إلى قرار الأرض، قد جُعِلوا عُمُداً للسَّمَوات والأرض، فهم يحملونها بمنزلة الأساطين التي تحمل السقوف العالية ولم يرشحوا لأمر من الأمور سوى ذلك.

البحث الرابع: فيما يجوز من الملائكة وما لا يجوز، قال شيخنا أبو القاسم: حكى أبو الحسن الخيّاط عن قدماء المعتزلة، أنه لا يجوز أن يَعْصِيَ أحدٌ من الملائكة، ولم يذكر عنهم علّة في ذلك.

وقال قوم: إنهم لا يعصون، ولا يجوز أن يعصُوا، لأنهم غير مطيقين الشهوة والغضب، فلا داعي لهم إلى المعصية، والفاعل لا يفعل إلا بداعٍ إلى الفعل.

وقال قوم: إنهم لا يعصُون، لأنهم يشاهدون من عجائب صنع الله وآثار هيبته ما يبهرُهم عن فعل المعصية والقصد إليها، وكذلك قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.
(٢) سورة ق، الآية: ١٧.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

وقال قوم: إنما لم يَجُزْ أن يعصوا، لأنّ الله تعالى أخبر عنهم أنّهم لا يعصون، ولا ينكَر مع ذلك أن يكون منهم من يتغيّر حاله ويتبدل بها حالة أخرى ويعصي، على ما ورد من خَبَر الملكين ببابل، وخبر إبليس، وإنما يسلب عنهم المعصية ما داموا على حالهم التي هي عليها.

وقال شيوخنا أصحاب أبي هاشم رحمه الله تعالى: إنّ المعصية تجوز عليهم، كما تجوز علينا، إلا أن الله تعالى علم أن لهم ألطافاً يمتنعون معها من القبيح لفعلها، فامتنعوا من فعل القبيح اختياراً، فكانت حالهم كحال الأنبياء من البشر يقدرون على المعصية ولا يفعلونها، اختياراً من أنفسهم باعتبار الألطاف المفعولة لهم، ولو كان لإبليس أو فرعون أو نمرود ألطاف يعلم الله تعالى إذا فعلها فعلوا الواجب، وامتنعوا من فعل القبيح لفعلها بهم، ولكانوا معصومين كالأنبياء والملائكة، لكنّه تعالى علم أنّهم لا يؤمنون ولو فعل مهما فعل، فلا لطف في المعلوم، وهذا عندهم حكم عام لجميع المكلفين من الإنس والجنّ والملائكة.

البحث الخامس: في أنّ أيّ القبيلين أفضلُ: الملائكة أو الأنبياء؟ قال أصحابنا: نوع الملائكة أفضل من نوع البشر، والملائكة المقرّبون أفضل من نوع الأنبياء، وليس كلّ ملَكٍ عند الإطلاق أفضلَ من محمد ﷺ، بل بعضُ المقربين أفضل منه، وهو عليه السلام أفضل من ملائكة أخرى غير الأولين، والمراد بالأفضل الأكثر ثواباً، وكذلك القول في موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء. والذي يحكيه قومٌ من أرباب المقالات أنّ المعتزلة، قالوا: إنّ أدنى مَلَك في السماء أفضل من محمد ﷺ ليس بصحيح عنهم.

وقال أهل الحديث والأشعرية: إنّ الأنبياء أفضلُ من الملائكة.

وقال الشيعة: الأنبياء أفضل من الملائكة، والأئمة أفضل من الملائكة.

وقال قوم منهم ومن الحشَويّة: إنّ المؤمنين أفضلُ من الملائكة.

البحث السادس: في قِدَم الملائكة وحدوثهم، أمّا الفلاسفة القائلون بأنّهم العقول المفارقة، فإنّهم يذهبون إلى قِدم الملائكة.

وقال غيرهم من أهل الملل: إنّهم محدَثون.

وقال قوم من متأخّري الحكماء: إن نفوس البشر إذا فارقت الأبدان بالموت بقيت قائمة بأنفسها غير مدبّرة لشيء من الأبدان، فإن كانت خَيّرة صالحة فهي الملائكة، وإن كانت شِرّيرة رديئة الجوهر فهي الشياطين، فالملائكة عند هؤلاء محدثون، وعندهم أن هذه النفوس تساعد نفوساً أخرى متعلقة بتدبير الأبدان، إمّا على الخير أو على الشرّ، فما ينسب في الكتب الإلهية إلى إغواء الشياطين للناس وإضلالهم، فالمراد به تلك النفوس الشرّيرة، وما ينسب فيها إلى إعانة الملائكة لهم على الخير والصلاح، فالمراد به تلك النفوس الخيّرة.

البحث السابع في إبليس، أهو من الملائكة أو ليس منها؟ قال شيخنا أبو عثمان وجماعة من أصحابنا: إنه من الملائكة، ولذلك استثناه الله تعالى، فقال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾(١).

وقال قوم: إنّه كان من الملائكة بدلالة هذه الآية، لكن الله مَسَخه حيث خالف الأمر، فهو بعد المسخ خارج عن الملائكة، وقد كان قبل ذلك مَلَكاً، قالوا: ومعنى قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾(٢) أي من خزّان الجنة، وروي ذلك عن ابن عباس، قالوا: ويحمل على معناه أنّه صار من الجن، فيكون «كان» بمعنى «صار» كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(٣)، أي مَنْ صار، لأنها لو كانت «كان» على حقيقتها، لوجب ألا يكلّم بعضُهم بعضاً، لأنهم كانوا صبياناً في المُهود.

قالوا: ومعنى صيرورته من الجنّ صيرورته ضالاً، كما أنّ الجنّ ضالّون، لأنّ الكفار بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾(٤).

وقال معظم أصحابنا: إنّ إبليس ليس من الملائكة، ولا كان منها، وإنما استثناه الله تعالى منهم، لأنه كان مأموراً بالسجود معهم، فهو مستثنًى من عموم المأمورين بالسجود، لا من خصوص الملائكة.

البحث الثامن في هاروت وماروت، هل هما من الملائكة أم لا؟ قال جمهور أصحابنا: إنهما من الملائكة، وإن القرآن العظيم قد صرّح بذلك في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾(٥)، وإنّ الذي أنزِل عليهما هو علم السِّحر، ابتلاء من الله تعالى للناس، فمن تعلّمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلّمه لا ليعمل به ولكن ليتوّقاه كان مؤمناً: قالوا: وما كان هذان الملَكان يعلّمان أحداً حتى ينبّهاه وينهياه وينصحاه، ويقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، أي ابتلاء واختبار من الله، ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، ولا تتعلّمه معتقداً أنه حقّ.

وحكي عن الحسن البصريّ أنّ هاروت وماروت عِلْجان أقلفان من أهل بابل، كانا يعلّمان الناس السحر، وقرأ الحسن: ﴿عَلَى ٱلْمَلِكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، بكَسر اللام.

وقال قوم: كانا من الملائكة، فعصيا الله تعالى بالحيْف في الحكومة، وقد كان استقضاهما في الأرض، وركّب فيهما الشهوة والغضب، على نحو ما ركّب في البشر، امتحاناً لهما، لأنهما قد كانا عيّرا البشر بالمعصية، فلما عصيا حبسهما الله تعالى وعاقبهما بعذاب معجّل، وألهمهما كلاماً إذا تكلما به سكن بعض ما بهما من الألم، وإنّ السحرة يستمعون ذلك الكلام

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٠ و٣١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٣) سورة مريم، الآية: ٢٩.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

فيحفظونه، ويفرقون به بين المرء وزوجه، فإنهما يتقدّمان إلى من يحضرهما عندما يتكلّمان بالزجْر عن العمل بذلك الكلام، ويقولان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، وهما لم يكفرا، ولا دَعَوا إلى السحر، وإن عذابهما سيقطع وقد جاء في الأخبار ما يوافق هذا.

وقال قوم من الحشويّة: إنّهما شربا الخمر وقتلا النّفس، وزنَيا بامرأة اسمها «باهيد» فمسخت، وهي الزهرة التي في السماء.

الأصل: ومنها في صفة الأرض ودحوها على الماء:

كَبَسَ ٱلْأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَلَجُجِ بِحارٍ زَاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أمْواجِها، وتَصْطَفِقُ مُتقاذِفاتُ أَثْباجِها، وَتَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِياجِها، فَخَضَعَ جِمَاحُ المَاءِ المُتَلاَطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِها، وَسَكَنَ هَيْجُ ٱرْتِمائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِها، وَذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا، فَأَصْبَحَ بَعْدَ ٱصْطِخاب أَمْوَاجِهِ ساجِياً مَقْهُوراً، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقاداً أَسِيراً، وَسَكَنَتِ ٱلْأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَٱعْتِلاَئِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلَى كِظَّةِ جَرْيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ.

فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الماءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَحَمَلَ شَوَاهِقَ ٱلْجِبَالِ الشُّمَّخِ ٱلْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَّرَ يَنَابِيعَ ٱلْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلاَمِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ المَيَدَانِ لِرُسُوبِ ٱلْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ ٱلْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَحَ بَيْنَ ٱلْجَوِّ وَبَيْنَهَا، وَأَعَدَّ ٱلْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِها، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا.

ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ ٱلْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ ٱلْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلاَ تَجِدُ جَدَاوِلُ الأَنْهارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَها، أَلَّفَ غَمامَها بَعْدَ ٱفْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَتَبايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ المُزْنِ فِيهِ، وَٱلْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ في كَنَهْورِ رَبابِهِ، وَمُتَرَاكِمِ سَحابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحًّا مُتَدَارِكاً، قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، يَمْرِي ٱلْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ.

فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحابُ بَرْكَ بِوَانَيْها، وَبَعَاعَ ما ٱسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ ٱلْعِبْءِ المَحْمُولِ عَلَيْها، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُعْرِ ٱلْجِبَالِ الأَعْشابَ، فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِياضِها،

وَتَزدهِي بِما أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْطِ أَزَاهِيرِها، وَحِلْيَةِ ما سُمِطَتْ بِهِ مِنْ ناضِرِ أَنْوَارِها، وَجَعَلَ ذٰلِكَ بَلاَغاً لِلأنامِ، وَرِزْقاً لِلأنْعامِ، وَخَرَقَ ٱلْفِجاجَ فِي آفاقِها، وَأَقامَ المَنارَ لِلسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِها.

الشرح: كَبَس الأرض، أي أدخلها في الماء بقوة واعتماد شديد، ويقال لضربٍ من التمر: الكَبيس، لأنه يكبَس حتى يتراصّ. والمؤر: مصدر «مار» أي ذهب وجاء. ومستفحلة: هائجة هَيَجان الفحول. واستفحل الأمر: تفاقم واشتدّ. وزاخرة، زخر الماء أي امتدّ جدًّا وارتفع.

والأواذيّ: جمع آذيّ، وهو الموج وتصطفق: يضرب بعضها بعضاً. والأثباج ها هنا: أعالي الأمواج، وأصل الثَّبَج: ما بين الكاهل إلى الظهر، فنقل إلى هذا الموضع استعارة وترغو: تصوّت صوت البعير، والرغاء: صوت ذات الخُفّ، وفي المثل: «كفي برغائها منادياً»[1]، أي أنّ رُغاء بعير المضيف يقوم مقام ندائه للضيافة والقِرَى. وزَبَدا على هذا منصوب بفعل مقدّر، تقديره: وترغو قاذفةً زَبداً، والزَّبَد: ما يظهر فوق السَّيْل، يقال: قد أزبد البحر والسّيل، وبحر مُزْبِد، أي مالح يقذف بالزبد. والفحول عند هياجها، فحول الإبل إذا هاجتْ للضّراب.

وجماح الماء: صعودُه وغَلَيانه، وأصله من جِماح الفَرَس، وهو أن يعزّ فارسَه ويغلبه. والجَموح من الرجال: الذي يركَبُ هواه فلا يمكن ردّه. وَخَضَع: ذلّ. وهَيْج الماء: اضطرابه، هاج هَيْجاً وهياجاً وهياجاناً، واهتاج، وتهيّج، كلّه بمعنًى، أي ثار، وهاجَه غيرُه، يتعدّى ولا يتعدّى. وهيْج ارتمائه، يعني تقاذفه وتلاطمه، يقال ارتمى القومُ بالسهام وبالحجارة ارتماء. وكَلْكَلها: صدرها، وجاء كَلْكل وكَلْكال، وربما جاء في ضرورة الشعر مشدّداً، قال:

كَأنّ مَهْوَاهَا عَلَى ٱلْكَلْكَلِّ ... مَوضِعُ كَفَّيْ راهِبٍ مُصَلِّي

والمستخذ: الخاضع، وقد يهمز. وقيل لأعرابيّ في مجلس أبي زيد: كيف تقول: استخذأتُ؟ ليتعرّف منه الهمزة. فقال: العرب لا تستخذىء، وهمزه، وأكثر ما يستعمل مليّناً، وأصله من خَذَا الشيءُ يخذُو خَذْواً، أي استرخى، ويجوز خَذِيَ، بكسر الذال، وأُذُنٌ خَذْواء: بيِّنه الخذاء، أي مسترخية.

وتمعّكت: تمرغت، مستعار من تَمَعُّك الدابة في الأرض، وقالوا: معكتُ الأديم أي دلكته. وكواهلها: جمع كاهل، وهو ما بين الكتِفين، ويسمى الحارِك.

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٢٢، برقم (٣٠٣٣).

واصطخاب أمواجه: افتعال من الصَّخَب، وهو الصياح والجَلَبة، يقال: صخِب الرجلُ فهو صَخْبَان، واصطخب، افعتل منه، قال:

إن الضَّفادع في الغُدران تَصْطَخِبُ

والساجي: الساكن: والحَكَمة: ما أحاط من اللجام بحنَك الدابة، وكانت العرب تتخذها من القِدّ والأبَق، لأن الزينة لم تكن قصدهم، قال زهير:

القائد الخيلَ منكوباً دوابُرها   قد أحكمت حَكَمات القِدّ والأبَقا

واستعار الحَكَمة ها هنا، فجعل للذلّ حَكَمة ينقاد الماء بها ويذلّ إليها.

ومدحوّة: مبسوطة، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[1]. ويجوز أن تكون «مدحوّة» ها هنا بمعنى مقذوفة مرميّة، يقال: دحوتُ الحصاة أي قذفتُها، ويقال للاعب الجوز: ادحُ وأبعد المدى. والتيّار: أعظم الموج. ولجّته: أعمقه والبأو: الكِبْر والفخر، تقول: بأوتُ على القوم أبأي بأوا، قال حاتم:

فَمَا زَادَنَا بأواً على ذِي قَرَابةٍ   غِنَانا ولا أزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

وهذا الكلام استعارة، يقال: كَسَرتِ الأرضُ سوْرة الماء الجامح كما تُكسر سَوْرة بأو الرجل المتكبر المفتخر. والاعتلاء: التّيه والتكبّر. والشُّموخ: العلوّ، مصدر شَمَخ بأنفه أي تكبَّر، والجبال الشوامخ: الشاهقة والسموّ: العلو، وسمو غلوائه أي غلوّة وتجاوزه الحدّ.

وكَعَمْتُه، أي شدّدت فمه لما هاج، من الكِعَام وهو شيء يجعل في فَم البعير، وبعير مَكْعوم.

والكِظّة: الجهد والثِّقل الذي يعتري الإنسان عند الامتلاء من الطعام، يقول: كعمت الأرض الماء حال كونه مكظوظاً لشدة امتلائه وكثرته وازدحام أمواجه، فهمَد أي سكن، همدت النارُ تهمُد، بالضمّ هموداً، أي طفِئت وذهبت البتّةَ. والخمود دون الهمود. والنّزقات: الخفّة والطيش، نَزِق الرجل بالكسر، ينزَق نَزَقاً. والنَّزقات: الدفعات من ذلك.

ولبَد الشيء بالأرض يلبُد، بالضم لبوداً، أي لصق بها ساكناً. والزَّيفَان: التبختر في المشي، زاف البعيرُ يزيف، والزيّافة من النُّوق المختالة، ويروى: «ولَبَد بعد زَفَيان وثباته»، والزّفيان: شدة هبوب الريح، يقال زَفَتْه الريحُ زَفَيانا، أي طردته، وناقة زَفَيان: سريعة، وقوس زَفَيان: سريعة الإرسال للسهم. وأكنافها: جوانبها، وكنفا الطائر جناحاه، ويقال صِلاَء مُكنَّف، أي أحيط به من جوانبه وتكنفّه القوم واكتنفوه أحاطوا به.

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٣٠.

والجبال الشواهق: العالية، ومثله البذّخ. والعِرْنين أوّل الأنف تحت مجتمع الحاجبين. والينابيع: جمع يُنبوع، وهو ما انفجر من الأرض عن الماء. والسُّهوب: جمع سَهْب، وهو الفَلاة. والبِيد: جمع بَيْداء، وهي الفلاة أيضاً.

والأخاديد: جمع أخدود، وهو الشقّ في الأرض، قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾[1]. والراسيات: الثّقال. والشَّناخيب: رؤوس الجبال. والشُّمّ: العالية، والجلاميد: الصخور، واحدها جُلمود. والصَّياخيد: جمع صَيْخود، وهي الصخرة الصلبة. والمَيَدَان: التحرّك والاضطراب، وماد الرجل يميد أي تبختر. ورسوب الجبال: نزولُها رسب الشيء في الماء، أي سَفُل فيه، وسيف رَسُوب: ينزل في العظام.

وقوله: «في قِطَعِ أديمها» جمع قِطعة، يريد في أجزائها وأبعاضها. ويروى في «قُطَع أديمها»، بضم القاف وفتح الطاء، جمع قُطعة وهي القُطْعة مفروزة من الأرض، وحكيَ أن أعرابياً قال ورثتُ من أبي قُطعة. ويروى: «في قطْع أديمها»، بسكون الطاء، والقطْع: طِنْفِسة الرَّحْل، فنقل ذلك إلى هذا الموضع استعارة، كأنه جعل الأرض ناقة، وجعل لها قطعاً، وجعل الجبال ثابتة في ذلك القطع.

وأديم الأرض: وجهها وظاهرها. وتَغلْغُل الماء في الشجر: دخوله وتخلّله في أصوله. وعروقه متسرّبة، أي داخلة، تسرّب الثعلب أي دخل السَّرَب، وجَوْبات: جمع جَوْبة وهي الفُرْجة في جبل أو غيره. وخَياشيمها: جمع خَيْشُوم وهو أقصى الأنف، وتقول: خشمت الرجل خَشماً، أي كسرت خيشومه. وجراثيمها: جمع جُرثومة، وهي أصل الشجر. وفَسَح: أوسع. ومتنسَّماً، يعني موضع النّسيم. والأرض الجُرُز التي لا نبات فيها لانقطاع المطر عنها، وهذه من الألفاظ القرآنية. والروابي: التّلاع وما علا من الأرض. والجداول: الأنهار الصِّغَار، جمع جدول. والذّريعة: الوُصلة.

وناشئة سحاب: ما يبتدىء ظهوره. والمَوات، بفتح الميم: القَفْر من الأرض، واللّمع: جمع لُمعة، وهي القطعة من السحاب أو غيره. وتباين قَزَعه، القَزَع: قطع من السحاب رقيقة واحدها قَزَعة، قال الشاعر:

كأنّ رِعَالَهُ قَزَعُ الجَهَام

وفي الحديث «كأنهم قَزَع الخريف». وتباينها: افتراقها. وتمخّضت: تحركت بقوة، يقال: تمخّض اللبن إذا تحرّك في الممخضة، وتمخّض الولد: تحرك في بطن الحامل، والهاء في «فيه» ترجع إِلى المُزن، أي تحرّكت لجة المُزْن في المُزْن نفسه، أي تحرّك من السحاب وسَطُه

(١) سورة البروج، الآية: ٤.

وثَبجُه. والتَمع البرقُ ولمع أي أضاء، وكُفَفُه: جمع كُفّه. والكُفّة كالدَّارة تكون في السحاب. وكان الأصمعيّ يقول: كلّ ما استطال فهو كُفّة بالضم، نحو كُفّة الثوب، وهي حاشيته وكُفّة الرمل، والجمع كِفاف، وكلّ ما استدار فهو كِفّة بالكسر، نحو كِفّة الميزان، وكِفّة الصائد وهي حُبالته، والجمع كِفف. ويقال أيضاً كَفّة الميزان بالفَتْح. والوميض: الضياء واللّمعان.

وقوله: «لم ينم» أي لم يفتر ولم ينقطع، فاستعار له لفظة النوم. والكَنَهْور: العظيم من السحاب. والرّباب: الغمام الأبيض، ويقال: إنه السحاب الذي تراه كأنّه دون السحاب، وقد يكون أبيض، وقد يكون أسود، وهو جمع، والواحدَة ربابة، وبه سميت المرأة الرَّباب. والمتراكم: الذي قدَ رِكّب بعضُه بعضاً، والميم بدل من الباء. وسَحًّا: صبًّا، وسحابةَ سَحُوح، وتَسَحْسَحَ الماءُ: سال، ومطر سَحْسَاح، أي يسحّ شديداً. ومتداركاً: يلحق بعضه بعضاً من غير انقطاع. وأسفّ: دنا من الأرض. وهَيْدَبه: ما تهدّب منه، أي تدلّي كما يتدلّىٰ هَدبُ العين على أشفارها ويَمْري الجَنُوب، وهو بمعنى يحلب ويستدرّ، ويروى «تمرِيه الجَنُوب» على أن يعدّى الفعل إلى المفعولين، كما تقول حلبت الناقة لبناً. ويروى: «تمتري الجَنُوب» وهو بمعنى تَمْري، من مريت الفرس وامتريته، إذا استخرجتَ بالسوط ما عنده من الجري. وإنما خَصّ الجنوب بذلك لأنّها الريح التي يكون عليها المطر. والدّرر: جمع دِرّة، وهي كثرة اللبن وسيلانه وصبُّه. والأهاضيب: جمع هِضاب، والهِضَاب: جمع هَضْب، وهي خلبات القَطْر بعد القطر. والدُّفَع: جمع دُفعة، بالضم وهي كالدُّفقة من المطر بالضم أيضاً والشآبيب: جمع شؤبوب وهي رَشّة قوية من المطر، تنزل دفعة بشدة، والبرْك: الصدر وبِوانيها، تثنية بوان على «فِعال» بكسر الفاء وهو عمود الخيمة، والجمع بُون بالضم، قال الشاعر:

أَصْـبَـر مِـنْ ذِي ضَـاغِـطٍ عَـرِكْـرِكِ ... أَلْـقَـى بِـوَانَـيْ زَوْره لِـلْـمَـبْـرِكِ

ومن روى: «بَوَانِيها» أراد لواصقها، من قولك: قوس بانية إذا التصقت بالوَتَر. والرواية الأولى أصحّ. وبَعاع السحاب: ثقله بالمطر، قال امرؤ القيس:

وَأَلْـقـى بِـصَـحْـراء الْـغَـبِـيط بَـعَـاعَـهُ ... نُـزُولَ الْـيَـمـاني بِـالْـعِـيـابِ الْـمُـثَـقَّـلِ

والعبْء: الثّقل، واستقلّت: ارتفعت ونَهضت، وهو أمد الأرض، هي الأرضون التي لا نبات بها. وزُعْر الجبال: جمع أزعر، والمراد به قلة العشب والخَلي: وأصله من الزَّعَر، وهو قلة الشعر في الرأس، قال:

مَــنْ يَــكُ ذَا لِــمَّــةٍ يُــرَجِّــلُــهَــا ... فَــإِنَّــنِــي غَــيْــرُ ضَــائِــرِي زَعَــرِي

وقد زَعَر الرجلُ يَزْعَر: قَلّ شعرُه. وتبهج: تُسرّ وتفرح، تقول: بَهَجَنِي أمرُ كذا بالفتح، وأبهجني معاً، أي سَرّني. ومن رواه بضم الهاء أراد يَحْسُنُ ويُملح، من البهْجَة، وهي الحُسْن، يقال بَهُج الرجلُ بالضم، بَهَاجَةً، فهو بهيج، أي حسن، قال الله تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ

بَهِيجٍ﴾[1]، وتقول: قد أبهجت الأرض بالهمزة، أي بهج نباتُها وحَسُن. وتزدَهِي، أي تتكبّر، وهي اللغة التي حكاها ابن دريد، قال: تقول: زها الرجلُ يَزْهُو زَهْواً، أي تكبّر وعلى هذه اللغة تقول: ازدهى الرجلُ يزدهِي، كما تقول من «علا» اعتلى يعتلِي، ومن «رمي» ارتمى يرتمِي، وأما مَنْ رواها «وتُزْدَهَي بما أُلبِسَتْه» على ما لم يسمّ فاعله، فهي اللغة المشهورة. تقول: زُهِي فلان علينا، وللعرب أحرف تتكلّم بها على سبيل المفعول به، وإن كانت بمعنى الفاعل، كقولهم: عُنِي بالأمر، ونُتِجَت الناقة، فتقول على هذه اللغة: فلان يُزْدَهى بكذا.

والرَّيْط جمع رَيْطة، وهي المُلاءة غير ذاتِ لِفْقَين. والأزاهير: النَّوْر ذو الألوان. وسمِطَتْ به: علّق عليها السُّمُوط، جمع سِمْط وهو العقد، ومن رواه «شَمَطت» بالشين المعجمة، أراد ما خالط سواد الرياض من النَّوْر الأبيض كالأقحوان ونحوه، فصارت الرياض كالشعر الأشمط. والنّاضر: ذو النُّضارة، وهي الحسن والطَّرَاوة.

وبلاغاً للأنام، أي كفاية. والآفاق: النواحي، والمنار: الأعلام.

وينبغي أن نتكلّم في هذا الموضع في فصول:

الفصل الأول في كيفية ابتداء خلْق الأرض:

ظاهر كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن الماء خُلِق قبل الأرض، وقد ذكرنا فيما تقدّم أنّه قولٌ لبعض الحكماء، وأنه موافق لما في التوراة إلاّ أنَّ في كلامه عليه السلام في هذا الموضع إشكالاً، وذلك أنّ لقائل أن يقول: كلامُه يشعر بأن هَيَجان الماء وغَلَيانه وموْجه سَكَن بوضْعِ الأرض عليه، وهذا خلاف ما يشاهد، وخلاف ما يقتضيه العقل، لأنّ الماء الساكن إذا جُعِل فيه جسم ثقيل اضطرب وتموّج، وصعد علوًّا، فكيف الماء المتموّج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه؟

والجواب أنّ الماء إذا كان تموّجه من قِبَل ريح هائجه، جاز أن يسكن هيجانُه بجسم يحول بينه وبين تلك الريح، ولذلك إذا جعلنا في الإناء ماء وروَّحناه بمروحة تموّجه، فإنه يتحرك، فإن جعلنا على سطح الماء جسماً يملأ حافات الإناء وروحناه بالمروحة فإن الماء لا يتحرك، لأن ذلك الجسم قد حال بين الهواء المجتلَب بالمروحة وبين سطح الماء، فمن الجائز أن يكون الماء الأول هائجاً لأجل ريح محرّكة له، فإذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء وبين تلك الريح، وقد مَرّ في كلام أمير المؤمنين في الخطبة الأولى ذكرُ هذه الريح، فقال: «ريح اعتقمَ مهبّها، وأدام مُرَبَّها وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضت مَخْض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء».

---

(١) سورة ق، الآية: ٧.

الفصل الثاني في بيان قوله عليه السلام:

«فلما سكن هَيْج الماء من تحت أكنافها، وحمَل شواهق الجبال البُذّخ على أكتافها، فجّر ينابيع العيون فيها، وعدّل حركاتِها بالراسيات من جلاميدها».

وذلك لأنّ العامل في «لمّا» يجب أن يكون أمراً مبايناً لما أضيفت إليه، مثاله: لما قام زيد قام عمرو، فقام الثانية هي العاملة في «لَمّا»، فيجوز أن تكون أمراً مبايناً لما أضيف «لَمّا» إليه، وهو قيام زيد، وها هنا قد قال عليه السلام: لمَّا حمل الله تعالى شواهق الجبال على الأرض عَدّل حركات الأرض بالجبال، ومعلوم أن أحد الأمرين هو الآخر.

والجواب أنّه ليس أحدُ الأمرين هو الآخر بعينه، بل الثاني معلول الأول، وموجب عنه لأنّ الأول هو حَمْل الجبال عليها، والثاني تعديل حركاتها بالجبال المحمول عليها، فكأنه قال: حمل عليها الجبال، فاقتضى ذلك الحمل تعديلَ حركاتِها، ومعلومٌ أن هذا الكلام منتظم.

الفصل الثالث في قوله: «إن الجبال هي المسكِّنة للأرض»:

فنقول: إن هذا القول يخالِف قولَ الحكماء، لأن سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك، بل لأنها تطلب المركز، وهي حاصلة في حَيّزها الطبيعي، لكنا وإن كان مخالفا لقول الحكماء، فإنّا نعتقده ديناً ومذهباً، ونعدل عن قول الحكماء، لأنّ اتباع قوله عليه السلام أولى من اتباع أقوالهم[1].

الفصل الرابع في ذكر نظائر لما وصف به المطر والسحاب:

فمن ذلك ما رواه عبد الرحمن، ابن أخي الأصمعيّ، عن عمّه قال: سئل أعرابيّ عن مَطر، فقال:

استقلَّ سَدٌّ مع انتشار الطّفَل، فشصَا واحْزَألّ، ثم اكفهَرّت أرجاؤه، واحمومَتْ أرْحاؤه، وانزعرت فوارقه، وتضاحكَتْ بوارقه، واستطار وادقه، وأرسعت جُوَبُه، وارتعن هَيْدَبُه، وحَسَكت أخلافه، واستقلّتْ أردافه، وانتشرت أكنافه، فالرعد يرتجس، والبرق يختلِس، والماء ينبجِس، فأترع الغُدُر، وأنبت الوُجُر، وخلط الأوعال بالآجال، وقرن الصِّيران بالرئال،

(١) لقد أثبت العلم الحديث بأن للجبال أثر عظيم جداً في تثبيت الأرض واستقرار القشرة الأرضية التي تعوم فوق طبقات الأرض السائلة المنصهرة فالجبال بمثابة الأوتاد في تثبيت القشرة الأرضية بما لها من وزن وعمق يمتد إلى ضعفي ارتفاع الجبل.

فللأودية هدير، وللشِّراج خرير، وللتِّلاَع زَفير، وحطّ النَّبع والعنَم من القُلل الشمّ إلى القيعان الصُّحْم، فلم يبق في القُلَل إلا مَعْصِم مُجْرَجِمْ، أو داحض مُحَرجم، وذلك من فضل رب العالمين، على عباده المذنبين.

قلت: السَّدّ: السحاب الذي يَسُدّ الأفق، وأصل الجبل. والطَّفَل: اختلاط الظلام وانتشارُه حال غروب الشمس. وشصا: ارتفع وعلا. واحْزَألّ: انتصب. واكفهرّت أرجاؤه: غَلُظَتْ نواحيه وجوانبه وتراكمتْ. واحمومَتْ: اسودّت مع مخالطة حمرة. وأرجاؤه: أوساطه. وانزعرتْ: تفرّقت. والفوارق: قِطَعٌ من السحاب تتفرّق عنه مثل فِرَق الأبل، وهي النوق إذا أرادت الولادة فارقت الإبل وبَعدت عنها حيث لا تُرَى. وتضاحكت بوارقُه: لمعت. واستطار: انتشر. والوادِق: ذو الوَدْق، وهو مطر كبار. وأرسعت جُوَبه، أي تلاءمت فُرَجُه والتحمت. وارتعن: استرخى. وهَيْدَبُه: ما تدلّى منه. وحَسَكت أخلافُه: امتلأت ضُروعه. وأردافه: مآخره. وأكنافه: نواحيه، ويرتجس: يصوّت، والرِّجس: الصوت. ويختلس: يستلِبُ البصر. وينبجس ينصبّ. فأترع الغُدُرَ: مَلأها، جمع غَدِير. وأنبت الوُجُر: حفرها: جمع وجَار، وهو بيت الضبع. والآجال: جمع إجْل، وهو قطيع البقر: والصِّيران مثله، جمع صُوار. والرِّئال: جمع رَأْل، وهو فرخ النعام. والهدير: الصوت. والشِّراج: جمع شَرْج، وهو مسيل الماء إلى الحَرّة. وخرير الماء. وصوته. وزفير التِّلاع: أن تزفر بالماء لفرط امتلائها. والنَّبع: شجر، والعنَم: شجر آخر، وكلاهما لا ينبت إلاّ في رؤوس الجبال. والشمّ: العالية. والصُّحْم: السود التي تضرب إلى الصفرة، والمُعْصِم: المعتَصِم الملتجِىء. والمجرجم: المتقبض، والداحض: الزالق الواقع. والمحرجم: المصروع.

ومن ذلك ما رواه أبو حاتم، عن الأصمعي، قال: سألت أعرابيًّا من بني عامر بن صعصعة، عن مطر أصاب بلادَهم، فقال:

نشأ عارضاً، فطلع ناهضاً، ثم ابتسم وامضاً، فاعتَنّ في الأقطار فأشجاها، وامتدّ في الآفاق فغطّاها، ثم ارتجس فهمْهَم، ثم دَوّي فاظلم، فاركّ ودَثّ، وبَغَش وطَشّ، ثم قَطْقَط فأفرط، ثم ديَّم فأغمط، ثم ركد فأثجم، ثم وَبلَ فسجَم، وجاء فأنعم، فَقَمَس الرُّبا، وأفرط الزُّبَى سَيْعاً تباعاً، يريد انقشاعاً، حتى إذا ارتوت الحزُون، وتضحضحت المتون، ساقه ربّكَ إلى حيث يشاء، كما جلبه من حيث شاء.

قلت: العارض: سحاب يعترض في الأفق. واعتنّ: اعترض وأشجاها: ملأها فكان كالشَّجي في حَلْقها. وارتجس: صَوّت والهمهمة: صَوْت الرعد. ودَوّى: أحدث دَوِيًّا. فأظلم: أعدم الضوء من الأرض بتكاثفه. فأركّ، أي مطر ركًّا، والركّ: المطر الضعيف، وكذلك الدّثُّ والبَغْش والطَشّ، وفوق ذلك القَطْقَط. ودَيّم: صار دِيمةً وهي المطر أياماً لا

يُقلع. وأغمط، أي دام. وأثْجَم: أقام. ووَبَل: جاء بالوابل، وهو المطر العظيم: وسَجَم: صَبّ. وأنعم: بالغ. وقمسَ: غَوّص في الماء. وأفرط الزُّبى: ملأها، جمع زُبْية، وهي حفيرة تحفر للوحوش في مكان مرتفع. الحُزون: جمع حَزْن، وهو ما غَلُظ من الأرض والمُتون: جمع متْن، وهو الصلب من الأرض. وتضحضحت: صار فوقها ضحضاح من الماء، وهو الرقيق.

ومن ذلك ما رواه أبو حاتم أيضاً، عن الأصمعي، قال: سألتُ أعرابيًّا عن مَطَرٍ أصابهم بعد جَدْب، فقال:

ارتاح لنا ربُّك بعد ما استولى اليأس على الظُّنون، وخامر القلوبَ القُنوط، فأنشأ بنوء الجبهة قَزَعةً كالقُرْص من قِبَل العَيْن، فاحزألّتْ عند ترجّل النهار لأدهم السِّرار، حتى إذا نهضت في الأفق طالعة، أمرَ مسخّرها الجَنوب فتبسّمت لها، فانتثرت أحضانُها، واحمومَتْ أرْكانها، وبَسَق عَنانها، واكفهرّت رَحاها، وانبعجت كُلاَها، وذمرت أخراها أولاها، ثم استطارت عقائقُها، وارتعجت بوارقها، وتعققت صواعقها، ثم ارتعبت جوانبها، وتداعَتْ سواكبُها، ودَرّتْ حوالبُها، فكانت للأرض طَبَقاً شجّ فهَضَب، وعَمّ فأحسب، فَعلّ القِيعان، وضَحْضَح الغيطان، وصَوّح الأضواج، وأترع الشِّراج، فالحمد لله الذي جعل كفاء إساءتنا إحساناً، وجزاء ظلمنا غفراناً.

قلت: نوء الجبْهة محمود عندهم للمطر، والقزَعة: القطعة الصغيرة من السحاب. والقُرْص: الترس. والعَيْن ما عن يمينِ قِبْلة العراق. وترجّل النهارِ: انبساط الشمس. والأدهم: أحد ليالي السِّرار، والأحضان: النواحي. واحمومت: اسودّت. وبَسَق: علا. والعَنان: ما يعترض من السحاب في الأفق. وانبعجت: انفتقت وذمرت: حضّتْ والعقائق: البروق. وارتعجت: اهتزّت وارتعدت. وطبقاً، أي غَطّت الأرض وهَضَب: جاء بالمطر دفعة فدفعة. وأحسب: كفى وعلّ القيعان: سقاها مرّة بعد أخرى، والغِيطان: جمع غائط وهو ما سَفل من الأرض. وصوّح الأضواج: هدم الأجواف. وأترع الشِّراج: ملأ المسيلات.

ومن ذلك ما رواه ابن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه الأصمعيّ، قال: سمعت أعرابياً من بني عامر يصف مطراً، قال: نشأ عند القصر بنوْء الغَفْر حَياً عارضاً ضاحكاً وامضاً، فكلا ولا ما كان حتى شَجِيَتْ به أقطارُ الهواء، واحتجبت به السماء، ثم أطرَق فاكفهرّ، وتراكم فادلهمّ، وبَسَق فازلأمّ، ثم حدت به الريح فخرّ، والبرق مرتعج، والرعد مُبْتَوِج، والحدج مبتعج، فأثجم ثلاثاً، متحيّراً هثهاثاً، أخلافه حاشكة، ودُفَعه متواشكة، وسَوامه متعاركة. ثم ودّع مُنْجِماً، وأقلع مُتْهماً، محمود البلاء، مترع النّهاء، مشكور النعماء، بطوْل ذي الكبرياء.

قلت: القَصْر: العشيّ. والغَفْر من نجوم الأسد. والحيَا: الدّاني من الأرض.

وقوله: «كلا ولا» أي في زمان قصير جداً. وشجيت به الأقطار: صار كالشَّجَي لها. وازلأمّ: انتصب والمرتعج: المتدارك والمبترِج: العالي الصوت. والحدّج: السّحاب أوّل ما ينشأ. ويتبعّج: يشقق. وأثْجَم: دام متحيّراً، أي كأنه قد تحيّر لا وجه له يقصده. والهنهات: المداخل. وأخلافه حاشِكة، أي ضروعة ممتلئة. ودُفَعه متواشكة، أي مسرعة. وسَوامه متعاركة، شبَّه قطع السحاب بسَوام الأبل. ومُنْجماً: مقلعاً. ومُتْهِماً: يسير نحو تهامة.

الفصل الخامس في بيان أنه عليه السلام إمام أرباب صناعة البديع

وذلك لأن هذا الفن لا يوجد منه في كلام غيره ممن تقدّمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة، ولكنها واقعة بالاتفاق كما وقع التجنيس في القرآن العزيز اتفاقاً غيْرَ مقصود، وذلك نحو قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾(١)، وكما وقعت المقابلة أيضاً غير مقصودة في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾(٢) على أنها ليست مقابلة في المعنى، بل من اللفظ خاصة. ولما تأمل العلماء شعر امرىء القيس ووجدوا فيه من الاستعارة بيتاً أو بيتين نحو قوله يصف الليل:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أعْجازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وقوله:

وإن يَكُ قد ساءتكِ مِنّي خليقةٌ ... فَسُلّي ثيابي مِنْ ثيابِكِ تَنْسُلِ

ولم يُنشَدوا مثل ذلك في أشعار الجاهليّة، حكموا له بأنه إمام الشعراء ورئيسهم. وهذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد اشتمل من الاستعارة العجيبة وغيرها من أبواب البديع على ما لو كان موجوداً في ديوان شاعر مكثِر، أو مترسّل مكثر لكان مستحقّ التقديم بذلك، ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنها مستفحلة، وأنها ترغو رُغاء فحول الأبل. ثم جعل الماءَ جَمّاحاً، ثم وصفه بالخضوع، وجعل للأرض كَلْكَلاً، وجعلها واطئة للماء به، ووصف الماء بالذلّ والاستخذاء لمّا جعل الأرض متمعّكة عليه كما يتمعّك الحمار أو الفرس، وجعل لها كواهل، وجعل للذل حَكَمة، وجعل الماء في حَكَمه الذلّ منقاداً أسيراً، وساجياً مقهوراً. وجعل الماء قد كان ذا نخوة وبأوٍ واعتلاء، فردّته الأرض خاضعاً مسكيناً، وطأطأت من شُموخ أنفه، وسُموّ غلوائه، وجعلها كاعمة له، وجعل الماء ذا كِظّة بامتلائه، كما تعتري الكظّة المستكثر من الأكل. ثم جعله هامداً بعد أن كانت له نزقات، ولا بداً بعد أن كانت له وثبات،

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٧.

ثم جعل للأرض أكتافاً وعرانين، وأنوفاً وخياشيم، ثم نفي النوم عن وميض البرق، وجعل الجنوب مارية دِرَرَ السحاب، ثم جعل للسحاب صدراً وبِوَاناً، ثم جعل الأرض مبتهجة مسرورة مزدهاة، وجعل لها رَيْطاً من لباس الزهور وسُموطاً تحلّى بها. فيالله وللعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضُل بعضه بعضاً لاشتماله على أمثال هذه الصنعة، فإذا وجدوا في مائة ورقة كلمتين أو ثلاثاً منها، أقاموا القيامة، ونفخوا في الصور، وملأوا الصحف بالاستحسان لذلك والاستظراف، ثم يمرّون على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على ألطف وجه، وأرصع وجه، وأرشق عبارة، وأدقّ معنى، وأحسن مقصد، ثم يحملهم الهوى والعصبية على السّكُوت عن تفضيله إذا أجملوا وأحسنوا، ولم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه! على أنه لا عجب، فإنه كلام علي عليه السلام، وحظّ الكلام حظّ المتكلم، وأشبه امرأً بعضُ بَزِّهِ!

وهذا آخر الجزء السادس من الأجزاء العشرين من شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد المعتزليّ على ما جزّأه

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الجزء الثالث

الجزء السادس

شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح

نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

٧ - ٨

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الكتاب العربي

بغداد - شارع المتنبي

تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الأميرة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

تلفون: ٠٣/٩٤٦١١٦١ - ٠٣/٨١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠٨-٧٢٧٦٤٠

http://www.Dar-ALamira.com

email:info@dar-alamira.com

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق
محمد إبراهيم

المجلد الرابع
٧ - ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل بقية الخطبة التسعين

الأصل: فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، ٱخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ خِيَرَةً مِنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي ٱلْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ٱلتَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ، فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ. فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ ٱلتَّوْبَةِ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِيُقِيمَ ٱلْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَمْ يُخْلِهِم بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاَتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً، حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ المَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ.

الشرح: مهّد أرضه: سوّاها وأصلحها، ومنه المهاد وهو الفراش، ومَهَدْتُ الفراش، بالتخفيف مَهداً، أي بسطته ووطّأته. وقوله - «خِيَرَة من خَلْقه» على «فِعَلة»، مثل عِنَبَة، الاسم من قولك: اختاره الله، يقال: محمد خِيَرَة الله من خلْقه، ويجوز: «خِيْرة الله» بالتسكين، والاختيار: الاصطفاء.

والجِبِلّة: الخَلْق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، ويجوز «الجُبُلة»، بالضم، وقرأ بها الحسن البصريّ، وقرىء قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾[2] على وجوه: فقرأ أهلُ المدينة بالكسر والتشديد، وقرأ أبو عمرو: ﴿جُبْلاً كثيراً﴾ مثل قُفل، وقرأ الكِسائيّ «جُبُلاً كثيراً»، بضم الباء مثل «حُلُم»، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿جِبِلاً﴾ بكسر الجيم، وقرأ الحسن بن أبي إسحاق: ﴿جُبُلًّا﴾ بالضم والتشديد.

قوله: «وأرْغَدَ فيها أُكُله»، أي جعل أُكُله - وهو المأكول - رغداً، أي واسعاً طيّباً، قال سبحانه: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[3]، وتقرأ رغْدا ورغِدا بكسر الغين وضمها، وأرغَدَ القومُ: أخصبوا، وصاروا في رَغَدٍ من العيش.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨٤. (٢) سورة يس، الآية: ٦٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

قوله: «وأوعز إليه فيما نهاه عنه»، أي تقدّم إليه بالإنذار، ويجوز «ووَعّز إليه» بالتّشديد توعيزاً، ويجوز التخفيف أيضاً وَعَزَ إليه وَعْزاً. والواو في «وأعلمه» عاطفة على «وأوعز»، لا على «نهاه».

قوله، «موافاة لسابق علمه» لا يجوز أن ينتصب لأنه مفعول له، وذلك لأن المفعول له يكون عذراً وعلّة للفعل، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلٰهيّ السابق، ولا يستمرّ ذلك على مذاهبنا، بل يجب أن ينصب «موافاةً» على المصدرية المحْضَة، كأنه قال: فوافى بالمعصية موافاة، وطابق بها «سابق العلم» مطابقة.

قوله: «فأهبطه بعد التوبة»، قد اختلف الناس في ذلك، فقال قوم: بل أهبطه قبل التوبة، ثم تاب عليه وهو في الأرض. وقال قوم: تاب قبل الهبوط، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[1]، فأخبر عن أنّه أهبطهم بعد تلقّي الكلمات والتوبة. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[2]. فبيّن أنّ اعترافهما بالمعصية واستغفارهما كانا قبل أمرهما بالهبوط. وقال في موض آخر: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾[3]، فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة، واحتجّ الأولون بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[4]، قالوا: فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب إزلال الشيطان لهما، ثم عقّب الهبوط بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾، فدلّ على أنّ التوبة بعد الهبوط.

ويمكن أن يجابَ عن هذا فيقال: إنّه تعالى لم يقل: «فقلنا اهبطوا» بالفاء، بل قال: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ بالواو، والواو لا تقتضي الترتيب، ولو كان عِوَضها فاء لكانت صريحة في أنّ الإهباط كان عقيب الزلّة، فأمّا الواو فلا تدلّ على ذلك، بل يجوز أن تكون التوبة قبل الإهباط، ويخبر عن الإهباط بالواو وقبل أن يخبرَ عن التوبة.

قوله عليه السلام: «وَليُقِيمَ الحجّة على عباده»، أي إذا كان أبوهم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فأخلِقْ بِها ألاّ يدخلها ذو خطايا جَمّة، وهذا يؤكّد مذهب أصحابنا في الوعيد. ثم أخبر عليه السلام

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٣٧، ٣٨.
(٢) الأعراف، الآيات: ٢٢ - ٤٠.
(٣) سورة طه، الآيات: ١٢١ - ١٢٣.
(٤) سورة البقرة، الآيات: ٣٥ - ٣٧.

أنّ الباريء سبحانه ما أخلى عباده بعد قبض آدم وتوفيِّه مما يؤكد عليهم حجج الربوبية، بل أرسل إليهم الرسل قَرْناً فقَرناً، بفتح القاف، وهو أهل الزمان الواحد، قال الشاعر:

إذا مَا مَضى ٱلْقَرْنُ ٱلَّذِي أَنْتَ فِيهِمُ ... وَخُلِّفتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

وتعاهدَهُم بالحجج، أي جَدّد العهد عندهم بها، ويروى «بل تَعَهَّدَهم» بالتشديد، والتعهّد: التحفّظ بالشيء، تعهّدْتُ فلاناً وتعهّدت ضَيْعتي، وهو أفصح من «تعاهدت» لأنّ التفاعل إنما يكون من شيئين، وتقول: فلان يتعهده صَرَعٌ.

قوله: «وبَلَغ المقطعَ عُذْرُه ونُذُرُه»، مقطع الشيء حيث ينقطع، ولا يبقى خلفه شيء منه، أي لم يزل يبعث الأنبياء واحداً بعد واحد، حتى بعث محمداً صلى الله عليه وآله، فتمَّتْ به حجته على الخلق أجمعين. وبلغ الأمرُ مقطعه، أي لم يبق بعده رسول ينتظر، وانتهت عُذْرُ الله تعالى ونُذُرُه، فعذْرُهُ مَا بيَّن للمكلَّفين من الإعذار في عقوبته لهم إنْ عَصَوْه، ونُذُرُه ما أنذرهم به من الحوادث، ومَنْ أنذَرَهُمْ على لسانه من الرسل.

واعلم أنّ المتكلمين اختلفوا في عصمة الأنبياء، ونحن نذكر ها هنا طَرَفاً من حكاية المذاهب في هذه المسألة على سبيل الاقتصاص ونقل الآراء، لا على سبيل الحِجاج، ونخصّ قِصّة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر، إذ كانت هذه القصة مذكورةً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل، فنقول:

اختلف الناس في المعصوم ما هُوَ؟ فقال قوم: المعصوم هو الذي لا يمكنه الإتيان بالمعاصي، وهؤلاء هم الأقلُّون أهل النظر، واختلفوا في عدم التمكُّن كيف هو؟ فقال قوم منهم: المعصوم هو المختصُّ في نفسه أو بدنه أو فيهما، بخاصيّة تقتضي امتناع إقدامه على المعاصي.

وقال قوم منهم: بل المعصوم مساوٍ في الخواصّ النفسية والبدنية لغير المعصوم، وإنما العصمة هي القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية، وهذا قولُ الأشعريّ نفسه، وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه.

وقال الأكثرون من أهل النظر: بل المعصوم مختار متمكّن من المعصية والطاعة.

وفسروا العصمة بتفسيرين: أحدهما: أنها أمورٌ يفعلها الله تعالى بالمكلّف فتقتضي ألاّ يفعل المعصية اقتضاء غير بالغ إلى حدّ الإيجاب، وفسَّروا هذه الأمور فقالوا: إنها أربعة أشياء: أوّلُها أن يكون لنفس الإنسانِ مَلَكةٌ مانعة من الفجور، داعية إلى العفّة، وثانيها العلم بمثالِب المعصية ومناقب الطاعة. وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحي والبيان من الله تعالى. ورابعها أنه مَتَى صَدَر عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهملاً بل يعاقب وينبه ويضيّق عليه العذر، قالوا: فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوماً عن المعاصي لا محالة، لأنّ

العِفّة إذا انضاف إليها العلْم بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من الشقاوة، ثم أكّد ذلك تتابع الوحي إليه وترادُفه، وتظاهر البيان عنده، وتمّم ذلك خوفُه من العتاب على القدر القليل، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة.

وقال أصحابنا: العصمة لطف يمتنع المكلَّف عند فعله من القبيح اختياراً، وقد يكون ذلك اللطف خارجاً عن الأمور الأربعة المعدودة، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إنْ أنشأ سحاباً، أو أهبّ ريحاً، أو حرّك جسماً، فإن زيداً يمتنع عن قبيح مخصوص اختياراً، فإنّه تعالى يجب عليه فعل ذلك، ويكون هذا اللطف عصمة لزيد، وإن كان الإطلاق المشتهر في العصمة إنما هو لمجموع ألطافٍ يمتنع المكلَّف بها عن القبيح مدة زمان تكليفه.

وينبغي أن يقع الكلام بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في حال الأنبياء قبل البعثة ومن الذي يجوزُ أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذي عليه أصحابُنا المعتزلة رحمهم الله، أنه يجب أن ينزَّه النبيّ قَبْلَ البعثة عما كان فيه تنفيرٌ عن الحق الذي يدعو إليه، وعمَّا فيه غضاضة وعيب.

فالأول: نحو أن يكون كافراً أو فاسقاً، وذلك لأنّا نجد التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناسُ منه السُّخْف والمجون والفِسْق، لا يقع أمرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه إلاّ على السَّداد والصلاح.

والثاني: نحو أن يكون حَجّاماً أو حائكاً أو محترفاً بحِرفة يقذرُها الناس، ويستخفُّون بصاحبها، إلا أنْ يكون المبعوثُ إليهم على خلاف ما هو المعهود الآن، بألاّ يكون من تعاطى ذلك مستهاناً به عندهم. ووافق أصحابنا في هذا القول جمهورُ المتكلمين.

وقال قوم من الخوارج: يجوز أن يبعث الله تعالى مَنْ كان كافراً قبل الرسالة، وهو قول ابن فُورك من الأشعرية، لكنه زعم أنّ هذا الجائز لم يقع.

وقال قوم من الحَشَوِيّة: قد كان محمد ﷺ كافراً قبل البعثة، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[1]. وقال بُرغوث المتكلم، وهو أحد النَّجّارية: لم يكن النبيّ ﷺ مؤمناً بالله قبل أنْ يبعثه، لأنه تعالى قال له: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾[2].

وروي عن السُّدّيّ في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾[3]، قال: وِزْرُهُ: الشرك، فإنه كان على دين قومه أربعين سنة.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الشرح، الآيتان: ٢، ٣.

وقال بعض الكرّاميّة في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾[(١)]: إنه أسلم يومئذ، ولم يكن من قبل ذلك مسلماً، ومثل ذلك، قال اليمان بن رباب، متكلّم الخوارج.

وحكى كثير من أرباب المقالات عن شيخنا أبي الهذيل وأبي عليّ جواز أن يبعث الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة، ولم أجد في كتب أصحابنا حكاية هذا المذهب عن الشيخ أبي الهُذَيل، ووجدتُه عن أبي عليّ، ذكره أبو محمد بن مَتّوَيْه في كتاب «الكفاية»، فقال: منع أهلُ العدل كلُّهم من تجويز بعثة مَنْ كان فاسقاً قبل النبوّة إلا ما جرى في كلام الشيخ أبي عليّ رحمه الله تعالى من ثُبوت فَصْل بين البعثة وقبلها، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكباً لكبيرة ثم يتوب، فيبعثه الله تعالى حينئذ، وهو مذهب محكيّ عن عبد الله بن العباس الرَّامَهُرْمزيّ.

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى: والصّحيح من قول أبي عليّ رحمه الله تعالى مثل ما نختاره من التّسْوية بين حال البعثة وقبلها في المنع من جواز ذلك.

وقال قوم من الأشعريّة ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث: إنّ ذلك جائز واقع، واستدلُّوا بأحوال إخوة يوسف. ومنع المانعون من ذلك من ثبوت نُبُوَّةِ إخوة يوسف، ثم هؤلاء المجوّزون، منهم من جَوَّز عليهم فعل الكبائر مطلقاً، ومنهم مَنْ جوَّز ذلك على سبيل النُّدْرة ثم يتوبون عنه، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح، فأمّا لو فرضنا إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصي، فإنّ ذلك لا يجوز، لأنه يفوّت الغرض من إرسالهم ونبوّتهم على هذا التقدير.

وقالت الإماميّة: لا يجوز أنْ يبعث الله تعالى نبيًّا قد وقع منه قبيح قبل النّبوة، لا صغيراً ولا كبيراً، لا عمداً ولا خطأً، ولا على سبيل التأويل والشبهة، وهذا المذهب مما تفرّدوا به، فإن أصحابنا وغيرهم من المانعين للكبائر قبل النبوة، لم يمنعوا وقوع الصغائر منهم إذا لم تكن مسخّفة منفرة[(٢)].

أطْردت الإمامية هذا القول في الأئمة فجعلت حكمهم في ذلك حكم الأنبياء في وجوب العصمة المطلقة لهم قبل النبوّة وبعدها.

الفصل الثاني: في عصمة الأنبياء في زمن النبوة عن الذنوب في أفعالهم وتروكهم عدا ما يتعلق بتبليغ الوحي والفتوى في الأحكام

جوّز قوم من الحَشَوّية عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء، كالزنى واللواط وغيرهما، وفيهم مَنْ جوز ذلك بشرط الاستسرار دون الإعلان، وفيهم مَنْ جوّزَ ذلك على الأحوال كلها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٢) أقول: الإصرار على الصغائر من الكبائر فينحصر الفرق فيما إذا ارتكبت الصغيرة مرة واحدة.

ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلاً، ومنعوا أيضاً مِنْ وقوع الصغائر المسخّفة منهم، وجوّزوا وقوع الصغائر التي ليست بمسخَّفة منهم. ثم اختلفُوا فمنهم مَنْ جَوّز على النبيّ الإقدام على المعصية الصغيرة غير المسخَّفة عَمْداً، وهو قول شيخنا أبي هاشم رحمه الله تعالى، فإنه أجاز ذلك وقال: إنه لا يقدم عليه السلام على ذلك إلا على خوف وَوَجَلٍ، ولا يتجرّأ على الله سبحانه.

ومنهم مَنْ منع مَنْ تعمَّد إتيان الصغيرة، وقال: إنّهم لا يقدمون على الذنوب التي يعلمونها ذنوباً، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة، وهذا قول أبي علي رحمه الله تعالى.

وحُكِيَ عن أبي إسحاق النظام وجعفر بن مبشّر، أنّ ذنوبهم لا تكون إلاّ على سبيل السَّهو والنسيان، وأنّهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أمتهم، لأنّ معرفتهم أقوى، ودلائلهم أكثر، وأخطارهم أعظم، ويتهيّأ لهم من التحفُّظ ما لا يتهيّأ لغيرهم.

وقالت الإمامية: لا تجوزُ عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمداً ولا خطأ، ولا سهواً، ولا على سبيل التأويل والشبهة، وكذلك قولهم في الأئمة، والخلاف بيننا وبينهم في الأنبياء يكاد يكون ساقطاً، لأنّ أصحابنا إنّما يجوّزون عليهم الصغائر، لأنه لا عقابَ عليها، وإنما تقتضي نقصان الثواب المستحقّ على قاعدتهم في مسألة الإحباط، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنّه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمًّا ولا عقاباً، والإمامية إنّما تنفي عن الأنبياء الصغائر والكبائر، من حيث كان كلُّ شيء منها يستحق فاعلُه به الذمّ والعقاب، لأنّ الإحباط باطل عندهم، فإذا كان استحقاقُ الذمّ والعقاب يجب أن ينفى عن الأنبياء، وجب أن يُنْفَى عنهم سائر الذنوب، فقد صار الخلافُ إذاً متعلّقاً بمسألة الإحباط، وصارت هذه المسألة فرعاً من فروعها.

واعلم أن القول بجواز الصَّغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على مَا ذهب إليه شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى، إنما اقتضاه تفسيرُه لآية آدم والشجرة، وتكلّفه إخراجها عن تعمّد آدم للعصيان، فقال: إنّ آدم نُهِيَ عن نوع تلك الشجرة لا عن عينها، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[(١)]، وأراد سبحانه نوعَها المطلق، فظن آدم أنه أراد خُصوصيّة تلك الشجرة بعينها، وقد كان أشير إليها فلم يأكل منها بعينها، ولكنه أكل من شجرة أخرى من نَوْعِها، فأخطأ في التأويل. وأصحاب شيخنا أبي هاشم لا يرضون هذا المذهب، ويقولون إنّ الإشكال باقٍ بحاله، لأن آدم أخلّ بالنظر على هذا القول في أنّ المنهيّ عنه: هل هو عينُ الشجرة أو نوعها؟ مع أنه قد كان مدلولاً على ذلك، لأنّه لو لم يكن مدلولاً على ذلك لكانَ تكليفُ الامتناع عن التناول تكليف ما لا يطاق، وإذا دلّ على ذلك وجب عليه النظر، ولا وَجْه يجب النظر لأجله

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥. والأعراف، الآية: ١٩.

إلا الخوف من تركه، وإذا لم يكن بدّ من كونه خائفاً فهو عالم إذاً بوجوب هذا التأمّل والنظر، فإذا أخلّ به فقد وقعتْ منه المعصية مع علمه.

وكما لا يرضَى أصحابُ شيخنا أبي هاشم هذا المذهب، فكذلك لا يرتضُون مذهَب النَّظّام وجعفر بن مبشّر، وذلك لأنّ القول بأنّ الأنبياء يؤاخذون على ما يفعلونه سهواً متناقض، لأنّ السهو يُزِيل التكْليف، ويخرج الفعل من كونه ذنباً مؤاخذاً به، ولهذا لا يصحّ مؤاخذةُ المجنون والنائم، والسهو في كونه مؤثراً في رفع التكليف جارٍ مجرى فقد القُدر والآلات والأدلّة، فلو جاز أن يخالف حالُ الأنبياء حالَ غيرهم في صحّة تكليفهم مع السهو، جاز أن يخالف حالُهم حالَ غيرهم في صحّة التكليف مع فقد القُدَر والآلات، وذلك باطل.

واعلم أنّ الشريف المرتضَى - رحمه الله تعالى - قد تكلّم في كتابه المسمى «بتنزيه الأنبياء والأئمة» على هذه الآية، وانتصر لمذهب الإمامية [فيها]، وحاول صَرْفها عن ظاهرها، وتأوّلَ اللفظِ بتأويلٍ مستكرَه غير صحيح، وأنا أحكي كلامه ها هنا وأتكلّم عليه نُصرةً لأصحابنا، ونصرةً أيضاً لأمير المؤمنين عليه السلام، فإنه قد صرّح في هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام، ألا ترى إلى قوله: «والمخاطرة بمنزلته»، وهل تكون هذه اللفظة إلا في الذنب! وكذلك سياقة الفَصْل من أوّله إلى آخره، إذا تأمله المنصف واطّرح الهوى والتعصّب. ثم إنا نذكر [كلام] السيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى، قال رحمه الله تعالى:

أما قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾[1] فإنّ المعصية مخالفة للأمر، والأمر من الحكيم تعالى قد يكونُ بالواجب وبالندب معاً، فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوباً إلى ترك التّناول من الشجرة، فيكون بمواقعتها تاركاً فرضاً ونفلاً، وغير فاعل قبيحاً، وليس يمتنع أن يسمَّى تارك النفل عاصياً، كما يُسمَّى بذلك تارك الواجب، فإنّ تسمية من خالف ما أمر به سواء كان واجباً أو نفلاً بأنه عاصٍ ظاهر، ولهذا يقولون: أمرتُ فلاناً بكذا وكذا من الخير فعصاني وخالفني، وإن لم يكن ما أمر به واجباً.

يقال له: الكلام على هذا التأويل من وجوه:

أولها: أنّ ألفاظ الشّرْع يجب أن تُحمَل على حقائقها اللّغوية ما لم يكن لها حقائق شرعية، فإذا كان لها حقائق شرعية وجبَ أن تحمل على عُرْف الشّرْع واصطلاحه، كالصلاة والحجّ والنفاق والكفر، ونحو ذلك من الألفاظ الشّرعية، وهكذا قال السيد المرتضى رحمه الله تعالى في كتابه في أصول الفقه المعروف «بالذَّريعة» في باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذي لا

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.

مندوحَة عنه. وإذا كان لفظُ العصيان في الاصطلاح الشرعيّ موضوعاً لمخالفة الأمر الإيجابيّ لم يُجز العدول عنه وحمله على مخالفة النَّدْب.

ومعلوم أنّ لفظ العصيان في العُرْف الشرعيّ لا يطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضِي للوجوب، فالقول بجواز حملها على مخالفة الأمر الندبيّ قول تبطله وتدفعه تلك القاعدة المقرّرة التي ثبتت بالاتفاق وبالدليل، على أنّنا قبل أن نجيبَ بهذا الوجه نمنع أصلاً أنه يجوز أن يقال لِتارك النفل: إنَّه عاصٍ لا في أصل اللغة، ولا في العُرْف، ولا في الشرع، وذلك لأنّ حقيقة النفل هو ما يقال فيه للمكلّف: الأوْلى أن تفعلَ هذا، ولكَ ألاّ تفعله، ومعلوم أنّ تاركَ مثلِ ذلك لا يطلَق عليه أنه عاصٍ، ويبين ذلك أن لفظ «العصيان» في اللغة موضوع للامتناع، ولذلك سُمّيتِ العصا عَصاً، لأنه يُمتَنع بها، ومنه قولهم: قد شقّ العصا، أي خرج عن الرِّبْقة المانعة من الاختلاف والتفرّق، وتارك الندب لا يمتنع من أمرٍ، لأنّ الأمر الندبيّ لا يقتضي شيئاً اقتضاء اللزوم، بل معناه إن فعلت فهو أوْلى، ويجوز ألاّ تفعل، فأيّ امتناع حدث إذا خولف أمر الندب سمي المخالف له عاصياً، ويبين ذلك أيضاً أنّ لفظ «عاصٍ» اسم ذمّ، فلا يجوز إطلاقه على تارك الندب: كما لا يسمّى فاسقاً، وإنْ كان الفسق في أصل اللغة للخروج.

ثم يُسأل المرتضَى رحمه الله تعالى عَمّا سأل عنه نفسَه، فيقال له: كيف يجوز أن يكون تركُ الندب معصية؟ أو لَيْس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة في كل حالٍ، وأنهم لا ينفكّون عن المعصية، لأنهم لا يكادون ينفكّون من ترك الندب؟!

وقد أجاب رحمه الله تعالى عن هذا، فقال: وَصْف تارك النَّدْب بأنه عاصٍ توسّع وتجوّز، والمجاز لا يقاسُ عليه، ولا يعدَّى عن موضعه. ولو قيل إنه حقيقة في فاعل القبيح، وتارك الأوْلى والأفضل لم يجز إطلاقه في الأنبياء إلا مع التقييد، لأنّ استعماله قد كثر في فاعل القبائح، فإطلاقه عن التقييد مُوهِمٌ.

لكنا نقول: إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنّهم فعلوا القبيح، فلا يجوز ذلك، وإنْ أردت أنهم تركوا ما لو فعلوه لاستحقُّوا الثواب، ولكان أوْلَى، فهم كذلك.

كذلك يقال له: ليس هذا من باب القياس على المجاز الذي اختلَفَ فيه أربابُ أصول الفقه، لأن مَنْ قال: إذا ترك زيد الندب، فإنه يسمَّى عاصياً، يلزمه أن يقول: إن عمْراً إذا ترك الندب يسمى عاصياً، وليس هذا قياساً، كما أنّ من قال لزيد البليد: هذا حمار، قال لعمرو البليد: هذا حمار، والقياس على المجاز الذي اختلف الأصوليون في جوازه خارج عن هذا الموضع.

ومثال المسألة الأصولية المختلف فيها: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾[1]، هل يجوز أن يقال: طأطىء لهما عُنق الذلّ!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

وأما قوله: لو سلمنا أنه حقيقة في تارك الندب لم يجز إطلاقه في حق الأنبياء، لأنه يوهم العصيان، بل يجب أن يقيّد.

فيقال له: لكن الباريء سبحانه أطلقه ولم يقيّده في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾(١)، فيلزمك أن يكون تعالى موهماً وفاعلاً للقبيح، لأن إيهام القبيح قبيح.

فإن قال: الدلالة العقلية على استحالة المعاصي على الأنبياء تؤمن من الإيهام.

قيل له: وتلك الدلالة بعينها تُؤمن من الإيهام في قول القائل: الأنبياء عصاة، فهلاّ أجزتَ إطلاق ذلك!

وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿فَغَوَىٰ﴾ والغيّ الضلال.

قال المرتضى رحمه الله تعالى: معنى غوى ها هنا خاب، لأنه نعلم أنه لو فعل ما ندب إليه من ترك التناول من الشجرة لاستحقّ الثواب العظيم، فإذا خالف الأمر ولم يَصِر إلى ما ندب إليه، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصِرْ إلى الثّواب الذي كان يستحقّه بالامتناع، ولا شبهة في أنّ لفظ «غوى» يحتمل الخيبة، قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيّ لاَئمَا

يقال له: ألستَ القائل في مصنّفاتك الكلامية: إنّ المندوبات إنما ندب إليها، لأنها كالمسّهلات والميّسرات لفعل الواجبات العقلية، وأنها ليست ألطافاً في واجب عقليّ، وأنّ ثوابها يسيرٌ جداً بالإضافة إلى ثواب الواجب! فإذا كان آدم عليه السلام ما أخلّ بشيء من الواجبات، ولا فعلَ شيئاً من المقبّحات، فقد استحقّ من الثواب العظيم ما يستحقر ثواب المندوب بالإضافة إليه. ومثل هذا لا يقال فيه لمن ترك المندوب إنّه قد خاب، ألا ترى أنّ من اكتسب مائة ألف قنطار من المال، وترك بعد ذلك درهماً واحداً كان يمكنُه اكتسابه فلم يكتسبه، لا يقال: إنه خاب!

وثالثها: أنّ ظاهر القرآن يخالف ما ذكره، لأنه تعالى أخبر أن آدم منهيٌّ عن أكل الشجرة بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢)، وقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾(٣)، وهذا يوجب أنّه قد عصى بأن فعل منهيًا عنه، والشريف المرتَضى رحمه الله تعالى يقول: إنه عصى بأن ترك ماموراً به.

قال المرتَضى رحمه الله تعالى مجيباً عن هذا: إنّ الأمر والنهي ليسا يختصّان عندنا بصيغة

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

ليس فيها احتمال واشتراك، وقد يؤمر عندنا بلفظ النهي ويُنهى بلفظ الأمر، وإنّما يكون النهيُ نهياً بكراهة المنهيّ عنه، فإذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، ولم يكره قربهما لم يكن في الحقيقة ناهياً، كما أنه تعالى لمّا قال: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾(١)، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾(٢)، ولم يرد ذلك، لم يكن أمراً به، وإذا كان قد صحب قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ إرادة ترك التناول، وجب أن يكون هذا القول أمراً، وإنما سمّاه منهيًّا، وسمى أمره له بأنه نهيٌ من حيث كان فيه معنى النهي، لأنّ في النهي ترغيباً في الامتناع من الفعل، وتزهيداً في الفعل نفسه، ولما كان الأمر ترغيباً من فعل المأمور، وتزهيداً في تركه جاز أن يسمّى نهياً.

وقد يتداخل هذان الوضعان في الشاهد، فيقول أحدنا: قد أمرت فلاناً بألاّ يلقى الأمير، وإنما يريد أنّه نهاه عن لقائه، ويقول: نهيتك عن هَجْر زيد، وإنّما معناه أمرتُك بمواصلته.

يقال له: هذا خلاف الظاهر، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصرِف اللفظ عن ظاهره، ويكفي أصحاب أبي هاشم في نصرة قولهم التمسك بالظاهر.

واعلم أنّ بعض أصحابنا تأول هذه الآية، وقال: إنّ ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوّته، لأنه لو كان نبياً قبل إخراجه من الجنّة، لكان إما أن يكون مرسَلاً إلى نفسه، وهو باطل، أو إلى حوّاء وقد كان الخطاب يأتيها بغير واسطة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أو إلى الملائكة، وهذا باطل، لأن الملائكة رسل الله، بدليل قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾(٣)، والرسول لا يحتاج إلى رسول آخر، أو يكون رسولاً وليس هناك من يرسَل إليه، وهذا محال. فثبت أن هذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوّته وإرساله.

الفصل الثالث: في خطئهم في التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا: إنّ الأنبياء معصومون من كلّ خطإٍ يتعلّق بالأداء والتبليغ، فلا يجوز عليهم الكذب ولا التغيير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة، ولا الغلط فيما يؤدّونه عن الله تعالى، ولا السهوُ فيه ولا الإلغاز ولا التَّعمِية، لأنّ كلّ ذلك إما أنْ ينقُض دلالة المعجز على صدقه، أو يؤدّي إلى تكليف ما لا يطاق.

وقال قومٌ من الكرّامية والحشوِيّة: يجوز عليهم الخطأ في أقوالهم، كما جاز في أفعالهم، قالوا: وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله في التبليغ، حيثُ قال: «تلك الغرانيق العلا * وإن شفاعتهنّ لتُرتجى»(٤).

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١.
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩١٥٦).

وقال قوم منهم: يجوز الغلط على الأنبياء فيما لم تكن الحجّة فيه مجرّد خبرهم، لأنه لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه، كما وقع من النبيّ ﷺ في هذه الصورة، فإنّ قوله ذلك ليس بمبطل لحجة العقل في أن الأصنام لا يجوز تعظيمها، ولا ترجَى شفاعتها. فأمّا ما كان السبيلُ إليه مجرّد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة بإخبارهم.

وقال قوم منهم: إنّ الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم، إذا لم تَجْرِ تلك الأفعال مجرَى بيان الوحي، كبيانه عليه السلام لنا الشريعة، ولا يجوز عليه الخطأ في حال البيان، وإن كان يجوز عليه ذلك في غير حال البيان، كما روي من خَبِر ذي اليدين حين سها النبيّ ﷺ في الصلاة[1]، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحي، فإنه لا يجوز عليه أن يخطِىء فيه، لأنه حجّة الله على عباده. فأمّا في أقواله الخارجة عن التبليغ، فيجوز أن يخطىء كما روي عنه ﷺ في نهيه لأهل المدينة عن تأبير النّخل[2].

فأمّا أصحابُنا المعتزلة، فإنّهم اختلفوا في الخبر المرويّ عنه عليه الصلاة والسلام في سورة النّجم، فمنهم مَن دَفَع الخبر أصلاً ولم يقبله، وطعن في رواته، ومنهم من اعترف بكونه قرآناً منزّلاً، وهم فريقان: أحدُهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة، فلما ظَنّ المشركون أنه وصفُ آلهتهم، رفِع ونُهِيَ عن تلاوته. وثانيهما القائلون إنه خارجٌ على وجه الاستفهام بمعنى الإنكار، فتوهّم سامعوه أنه بمعنى التحقيق، فنسخه الله تعالى ونهى عن تلاوته.

ومنهم من قال: ليس بقرآن منزّل، بل هو كلام تكلّم به رسول الله ﷺ من قِبَل نفسه على طريق الإنكار والهزء بقريش، فظنوا أنّه يريد التحقيق، فنسخه الله بأنْ بيّن ظنّهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾[3]. قالوا: فإلقاءُ الشيطان ها هنا هو إلقاء الشبهة في قلوب المشركين، وإنما أضافه إلى أمنيّته، وهي تلاوته القرآن، لأن بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون إلى تلاوته عليه السلام ما لم يُرِده بها.

وأنكر أصحابُنا الأخبار الواردة التي تقتضي الطّعْنَ على الرسول الله ﷺ، قالوا: وكيف

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب: هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس (٧١٤) بلفظ: «أن رسول الله ﷺ من اثنتين فقال له: ذو اليدين أقصرت الصلاة، أم نسيت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أصدق ذو اليدين، فقال الناس: نعم، فقال رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول» وأخرجه مسلم في المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له (٥٧٣) والترمذي في الصلاة (٣٩٩)، وأبو داود؛ الحديث (١٠٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل الحديث (٢٣٦٣).

(٣) سورة الحج، الآية: ٥٢.

يجوز أن تصدق هذه الأخبار الآحاد على من قد قال الله تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[١] وقال له: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[٢] وقال عنه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[٣]. وأمّا خبر ذي اليدين وخبر تأبير النخل، فقد تكلّمنا عليهما في كتبنا المصنّفة في أصول الفقه.

الأصل: وَقَدَّرَ ٱلْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ، فَعَدَّلَ فِيها لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِها وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَبِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفاتِهَا، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا. وَخَلَقَ ٱلْآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَها، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالمَوْتِ أَسْبَابَها، وَجَعَلَهُ خالِجاً لِأَشْطانِها، وَقاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِها.

الشرح: الضِّيق والضَّيْق: لغتان، فأما المصدر من «ضاق» فالضِّيق بالكسر، لا غير. وعَدّل فيها: من التعديل وهو التقويم، وروي: «فعدَل»، بالتخفيف، من العدل نقيض الظلم. والميسور والمعسور: مصدران. وقال سيبويه: هما صفتان، ولا يجيء عنده المصدر على وزن «مفعول» البتّة، ويتأول قولهم: «دعه إلى ميسوره»، ويقول كأنه قال: دعْه إلى أمر يوسر فيه، وكذلك يتأول «المعقول» أيضاً، فيقول كأنه عُقِل له شيء، أي حبس وأيّد وسدد.

ومعنى قوله عَلَيْتَلِا: «ليبتليَ مَنْ أراد بميسورها ومعسورها»، هو معنى قول النبيّ ﷺ: «إنّ إعطاء هذا المال فتنة، وإمساكه فتنة»[٤]. والعقابيل في الأصل: الحَلأ، وهو قروح صغار تخرج بالشّفة من بقايا المرض. والفاقة: الفقر. وطوارق الآفات: متجدّدات المصائب، وأصلُ الطُّروق ما يأتي ليلاً. والأتراح: الغموم، الواحد تَرَح، وترّحه تتريحاً، أي حزّنه. وخالجاً: جاذباً، والخلج الجذْب، خلجه يخلِجه بالكسر، واختلجه، ومنه الخليج: الحبْل لأنه يجتذب به، وسمي خليج البحر خليجاً، لأنه يجذَب من معظم البحر.

والأشطان: الحبال، واحدها شَطَن، وشطنتُ الفرسَ أشطُنه، إذا شددته بالشَّطَن.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأعلى، الآية: ٦.
(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٠٦٣)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٨٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٩٧).

والقرائن: الحبال، جمع قَرَن، وهو من شواذ الجموع، قال الشاعر:

أبلغ خليفتنا إنْ كنتَ لاقيَه ... أنّي لَدَى الباب كالمشدود في قَرَنِ

ومرائر القرائن: جمع مَرير، وهو ما لَطُف وطال منها واشتدّ فتله، وهذا الكلام من باب الاستعارة.

الأصل: عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضمِرِينَ وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعَقْدِ عَزِيمَاتِ ٱلْيَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ ٱلْجُفُونِ، وَما ضَمِنَتْهُ أَكْنانُ ٱلْقُلُوبِ، وَغَيَاباتُ ٱلْغُيوبِ، وَما أَصْغَتْ لاِسْتِرَاقِهِ مَصائِخُ ٱلْأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفِ الذَّرِّ، وَمَشَاتِي ٱلْهَوَامِّ، وَرَجْعِ ٱلْحَنِينِ مِنَ المُولَهاتِ، وَهَمْسِ ٱلْأَقْدَامِ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلاَئِجِ غُلُفِ ٱلْأَكْمَامِ، وَمُنْقَمَعِ ٱلْوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ ٱلْجِبالِ وَأَوْدِيَتِها، وَمُخْتَبَإِ ٱلْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ ٱلْأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِها، وَمَغْرِزِ ٱلْأَوْرَاقِ مِنَ ٱلْأَفْنانِ، وَمَحَطِّ ٱلْأَمْشاجِ مِنْ مَسَارِبِ ٱلْأَصْلاَبِ، وَناشِئَةِ ٱلْغُيُومِ وَمُتَلاَحِمِها، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِها، وَمَا تَسْفِي ٱلْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِها، وَتَعْفُو ٱلْأَمْطَارُ بِسُيُولِها، وَعَوْمِ بَنَاتِ ٱلْأَرْضِ فِي كُثْبانِ الرِّمَالِ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ ٱلْأَجْنِحَةِ بِذُرَا شَنَاخِيبِ ٱلْجِبَالِ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ المَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ ٱلْأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ ٱلْأَصْدَافُ، وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ ٱلْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهارٍ، وَمَا ٱعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ، وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمِثْقالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلاَلَةٍ، لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُلْفَةٌ، وَلاَ ٱعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ٱبْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلاَ ٱعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ المَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ وَلاَ فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

الشرح: لو سمع النّضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله عليّ بن العباس بن جُريج، لإسماعيل بن بلبل:

قَالُوا أبو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ ... كَلاَّ، وَلَكِنْ لَعَمْرِي مِنْهُ شَيْبَانُ

وكم أبٍ قَدْ عَلاَ بابنٍ ذُرا شَرَفٍ ... كَمَا عَلاَ بِرَسُولِ الله عَدْنَانُ

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقرُّ به عينُ أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له: إنه لم يُعْفِ ما شيّدْتُ من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعْهُ أنت في جاهلية النَّبط[1]، بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس، القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيّات، لخشع قلبهُ وقَفَّ شعرُه، واضطربَ فكره، ألا ترى ما عليه من الرُّواء والمهابة، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة! مع ما قد أُشرِبَ من الحلاوة والطَّلاوة واللُّطف والسلاسة، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلامَ الخالق سبحانه، فإنَّ هذا الكلام نَبْعةٌ من تلك الشجرة، وجدولٌ من ذلك البحر، وجَذْوَةٌ من تلك النار، وكأنه شَرْح قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

ثم نعود إلى التفسير فنقول:

النَّجْوى: المسارَّة، تقول: انتجى القومُ وتناجَوْا، أي تسارُّوا، وانتجيت زيداً إذا خصصتَه بمناجاتك، ومنه الحديث، أنه صلّى الله عليه وآله أطال النَّجْوى مع عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال قوم: لقد أطال اليوم نَجْوَى ابن عَمِّه، فبلغه ذلك فقال: «إنّي ما انتجيتُه، ولكن الله انتجاه»[3] ويقال للسرّ نفسه النَّجْو، يقال: نجوته نَجْواً أي ساررته، وكذلك ناجَيْتُه مناجاةً، وسمِّي ذلك الأمرُ المخصوص نجوى لأنه يستسرّ به، فأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾[4] فجعلهم هم النجوى، وإنما النجوى فعلهم، فإنما هو كقولك: «قوم رضاً» وإنما الرضا، فعلهم، ويقال للذي تسارّه: النجيّ على «فعيل»، وجمعه أنجية، قال الشاعر:

إنّـي إذا مـا الـقـومُ كـانـوا أنـجِـيَـهْ

وقد يكون النجيّ جماعة، مثل الصَّدِيق، قال الله تعالى: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾[5]، وقال الفرّاء: قد يكون النجيّ والنجوَى اسماً ومصدراً.

والمتخافتين: الذين يسرّون المنطق، وهي المخافتة والتخافت والخَفْت، قال الشاعر:

---

(١) النَّبَط: هم الأنباط شعب كانت له دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية، وعاصمتهم سَلْع وتعرف اليوم بالبتراء، المعجم الوسيط، مادة (نبط).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب: المناقب علي بن أبي طالب (٣٧٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٧٥٦)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٢٨).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٧. (٥) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

أخاطِبُ جَهْراً إذْ لَهُنَّ تَخافُتٌ وَشَتَّانَ بَيْنَ ٱلْجَهْرِ وَالْمَنْطِقِ ٱلْخَفْتِ

ورَجْم الظنون: القولُ بالظَّن، قال سبحانه: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾(١)، ومنه «الحديث المُرَجَّم» بالتشديد، وهو الذي لا يدرَي أحقٌّ هو أم باطل، ويقال صار رَجْماً، أي لا يوقف على حقيقة أمره. وعقد عزيمات اليقين، العزائم: التي يعقِد القلب عليها وتطمئِنّ النفس إليها.

ومسارق إيماض الجفون: ما تسترقه الأبصار حين تومض، يقال: أومض البصر والبرق إيماضاً إذا لمع لَمْعاً خفيفاً، ويجوز: ومض بغير همز، يَمِض وَمْضاً ووَميضاً ووَمَضاناً. وأكنانُ القلوب: غُلُفها، والكِنُّ: الستر، والجمع أكنان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾(٢) ويروى: «أكنّة القلوب» وهي الأغطية أيضاً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾(٣)، والواحد كِنَان، قال عمر بن أبي ربيعة:

تَحتَ عَيْنٍ كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّلُ

ويعني بالذي ضمنته أكنانُ القلوب الضمائر.

وغَيابات الغيوب: جمع غَيابة، وهي قَعْر البئر في الأصل، ثم نقلت إلى كلّ غامض خفيّ، مثل غَيابة، وقد روي: «غَبَابَات» بالباء. وأصغَتْ: تسمّعت ومالت نحوه. ولاستراقِه: لاستماعه في خُفْيَة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾(٤).

ومصائخ الأسماع: خروقُها التي يُصيخ بها، أي يتسمّع.

ومصائف الذرّ: المواضع التي يَصِيف الذرّ فيها، أي يقيم الصيف، يقال: صافَ بالمكان واصطاف بمعنى، والموضع مَصِيف ومصطاف.

والذرّ: جمع ذَرّة، وهي أصغر النمل.

ومشاتي الهوامّ: المواضع التي تشتو الهوامُّ بها، يقال: شتوتُ بموضع كذا وتشتَّيْت، أي أقمت به الشتاء.

والهوامّ: جمع هامّة، ولا يقع هذا الاسم إلاّ على المخُوف من الأحْنَاش.

ورجْع الحنين: ترجيعه وترديده، والمولّهات: النُّوق والنساء اللواتي حِيلَ بينهنّ وبين أولادهنّ. وهمس الأقدام: صوت وطئها خفيًّا جدًّا، قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾(٥)، ومنه قول الراجز.

فَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسا

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الحجر، الآية: ١٨.
(٥) سورة طه، الآية: ١٠٨.

والأسدُ الهمُوس: الخفيُّ الوطء.

ومنفسَحُ الثَّمرة، أي موضع سعتها من الأكمام، وقد رُوي: «متفسّخ» بالخاء المعجمة وتشديد السين وبتاء بعد الميم، مصدراً من تفسّخت الثمرة، إذا انقطعت.

والولائج: المواضع الساترة، والواحدة وَلِيجة، وهو كالكهف يستَتِر فيه المارة من مطر أو غيره، ويقال أيضاً في جمعه: وُلُج وأولاج.

ومتقمّع الوحوش: موضع تقمّعها واستتارها، وسُمِّيَ قَمَعة بن إلياس بن مضر بذلك، لأنّه انقمع في بيته كما زعموا. وغِيران الجبال: جمع غارٍ، وهو كالكهف في الجبل، والمغار مثل الغار والمغارة مثله. ومختَبأ البعوض: موضع اختبائها واستتارها، وسُوق الأشجار: جمع ساق. وألحيتُها جمع لحاء وهو القشر. ومغرز الأوراق: موضع غَرْزها فيها.

والأفنان: جمع فَنَن، وهو الغصن. والأمشاج: ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها، جمع مَشِيج، كيتيم وأيتام. ومحطّها: إما مصدر أو مكان.

ومسارب الأصلاب: المواضع التي يتسرب الْمنيُّ فيها من الصُّلبُ، أي يسيل.

وناشئة الغيوم: أوّل ما ينشأ منها، وهو النَّشْءُ أيضاً، وناشئة الليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾(١) أول ساعاته، ويقال: هي ما ينشأ في الليل من الطاعات. ومتلاحمها، ما يلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم.

ودرور قطر السحائب: مصدر، من دَرّ يدِرّ، أي سال، وناقة دَرُور: أي كثيرة اللَّبن، وسَحَاب درور: أي كثير المطر، ويقال: إن لهذا السحّاب لدِرَّةً، أي. صبًّا، والجمع درور. ومتراكمها: المجتمِع المتكاثف منها، رَكَمْتُ الشيء أركُمه بالضم: جمعته وألقيت بعضَه على بعض، ورمْلٌ رُكام: وسحاب رُكام، أي مجتمع.

والأعاصير: جمع إعصار، هي ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السَّماء كالعَمود. وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾(٢). وتسفي، من سفَتِ الريح التراب سَفْياً، إذا أذرته فهو سَفِيٌّ. وذيولها هاهنا، يريد به أطرافها وما لاحَفَ الأرض منها. وما تعفو الأمطار: أيّ ما تدرُس، عفت الريح المنزل أي درسته، وعفا المنزل نفسُه يعفُو: دَرَسَ، يتعدّى ولا يتعدّى.

وبنات الأرض: الهوامّ والحشرات التي تكون في الرمال، وعَوْمُها فيها: سباحتها، ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضاً: عَوْم، عُمْتُ في الماء، بضمّ أوله أعُوم.

وكُثبان الرمال: جمع كَثيب وهو ما انصبَّ من الرَّمْل واجتمع في مكانٍ واحد فصار تلًّا، وكَثَبْتُ الشيءَ أكثِبُه كثباً، إذا جمعته، وانكثب الرمْلُ: اجتمع.

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

وشَناخيب الجبال: رؤوسها، واحدها شُنْخوب. وذُرَاها: أعاليها جمع ذِرْوة وذُروة، بالكسر والضمّ.

والتَّغريد: التطريب بالغناء، والتغرّد مثله، وكذلك الغَرَد بفتحهما، ويقال: غرِد الطائر فهو غرِد، إذا طرّب بصوته.

وذوات المنطق ها هنا: الأطيار، وسمّيَ صوتها منطقاً وإن كان لا يطلق إلا على ألفاظ البشر مجازاً.

ودياجير: جمع دَيْجور، وهو الظلام. والأوكار: جمع وَكْر، وهو عُشّ الطائر، ويجمع أيضاً على وُكُور، ووَكَر الطائر يَكِر وَكْراً، أي دخل وَكْره.

وقوله: «وما أوعِبته الأصداف»، أي من اللؤلؤ. وحَضَنت عليه أمواجُ البحار: أي ما ضمَّته كما تحضن الأنثى من الطير بيضها، وهو ما يكون في لُجَّةٍ، إما من سمك أو خشب أو ما يحمله البحر من العنبر كالجماجم بين الأمواج وغير ذلك.

وسُدْفة الليل: ظلمته، وجاء بالفتح. وقيل: السُّدْفة اختلاط الضوء والظلمة معاً كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار.

وغشيَتْه: غطّته. وذرّ عليه شارق نهار، أي ما طلعت عليه الشمس، وذَرَّت الشمس تذُرُّ بالضم، ذُروراً: طلعت، وذرّ البقل، إذا طلع من الأرض.

وشَرَقت الشمس: طلعت، وأشرقت بالهمزة، إذا أضاءت وصفت.

واعتقبت: تعاقبت. وأطباق الدياجير[1]: أطباق الظُّلَم. وأطباقها: جمع طَبَقة، أي أغطيتها، أطبقتُ الشيء أي غَطّيته، وجعلته مطبَقاً، وقد تطبّق هو، ومنه قولهم: لو تطبّقت السماء على الأرض لما فعلتُ كذا. وسُبحات النور: عطف على أطباق الدياجير، أي يعلم سبحانه ما تعاقب عليه الظلام والضياء. وسُبحات ها هنا، ليس يعني به ما يعني بقوله: «سبحان وجْه ربنا»، لأنه هناك بمعنى ما يسبَح عليه النور، أي يجري، من سَبْح الفرس وهو جَرْيه، ويقال: فرس سابح.

والخُطوة: ما بين القدمين، بالضم، وخطوت خَطْوَةً بالفتح، لأنه المصدر.

ورَجْعُ كلّ كلمة: ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك.

والنَّسَمة: الإنسان نفسه، وجمعها نَسَم، ومثقال كلّ ذرة: أي وزن كلّ ذرة، ومما يخطىء فيه العامة قولهم للدينار: مثقال، وإنما المثقال وزن كلّ شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2].

---

(١) انظر المعجم الوسيط، مادة (دجر). (٢) سورة النساء، الآية: ٤٠.

وهَمَاهم كلّ نفس هامّة، الهماهِم: جمع هَمْهمة، وهي ترديد الصوت في الصَّدْر، وحمار هِمْهيم: يهمْهِم في صوته، وهممت المرأة في رأس الصبيّ، وذلك إذا نوّمته بصوت ترقّقه له. والنفس الهامّة: ذات الهمّة التي تعزم على الأمر.

قوله: «وما عليها» أي ما على الأرض، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه، اعتماداً على فهم المخاطب، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(١).

وقرارة النطفة: ما يستقرّ فيه الماء من الأماكن، قال الشاعر:

وَأَنْـتُـمْ قَـرَارَةُ كُـلِّ مَـعْـدِنِ سَـوْءَةٍ وَلِـكُـلِّ سـائـلـةٍ تَـسِـيـلُ قَـرَارُ

والنُّطفة: الماء نفسه، ومنه قوله عليه السلام في الخوارج: إن مَصارعهم لَدُونَ النطفة، أي لا يعبُرون النهر، ويجوز أن يريد بالنطفة المَنّي، ويقويه ما ذكره بعده من المُضْغة.

والنُّقاعة: نُقْرة يجتمع فيها الدم، ومثله أنْقُوعة، ويقال لِوَقْبَة الثّريد: أنقوعة.

والمضغة: قطعة اللّحم. والسلالة في الأصل: ما استلّ من الشيء، وسميت النطفة سلالة الإنسان، لأنها استلّتْ منه، وكذلك الولد.

والكُلْفة: المشقّة، واعتورته مثل عرته. ونفذهم علمه، تشبيه بنفوذ السهم، وعدّى الفعل بنفسه وإن كان معدًّى في الأصل بحرف الجرّ، كقولك: اخترت الرجال زيداً، أي من الرجال، كأنه جعل علمه تعالى خارقاً لهم ونافذاً فيهم. ويروى: «وأحصاهم عَدّه»، بالتضعيف.

الأصل: اللَّهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ ٱلْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوّ. ٱللَّهُمْ فَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلاَ أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ، وَلاَ أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعادِنِ ٱلْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ ٱلآدَمِيِّينَ، وَالثَّناءِ عَلَى المَرْبُوبِينَ المَخْلُوقِينَ. ٱللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخائِرِ ٱلرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ المَغْفِرَةِ.

ٱللَّهُمَّ، وَهٰذَا مَقامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقًّا لِهٰذِهِ المَحَامِدِ وَالمَمادِحِ غَيْرَكَ، وَبِي فاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَها إِلا فَضْلُكَ، وَلاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِها إِلاَّ مَنُّكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنا فِي هٰذَا المَقامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ ٱلأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٢٦.

الشرح: التعداد: مصدر: وخَيْر: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فأنت خير مأمول.

ومعنى قوله: «قد بسطت لي»، أي قد آتيتني لسناً وفصاحة وسعة منطق، فلا أمدحُ غيرَك، ولا أحمَدُ سواك.

ويعني بمعادن الخيبة: البشر، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب في الأكثر، وجعلهم مواضع الريبة، لأنهم لا يوثق بهم في حال:

ومعنى قوله عليه السلام: «وقد رجوتُك دليلاً على ذخائر الرَّحْمة وكنوز المغفرة»، أنّه راجٍ منه أن يدلّه على الأعمال التي ترضيه سبحانه، ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة، وكأنه جعل تلك الأعمال التي يرجو أن يدلّ عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً.

والفاقة: الفقر، وكذلك المسْكَنة.

وينعَش، بالفتح: يرفع، والماضي نعَش، ومنه النعْش لارتفاعه.

والمنّ: العطاء والنعمة، والمَنّان، من أسماء الله سبحانه.

٩١ - ومن كلام له عليه السلام
لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان رضي الله عنه

الأصل: دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ ٱلْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ ٱلْعُقُولُ. وَإِنَّ ٱلْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَٱلْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ.

وَٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ، وَعَتْبِ ٱلْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وزيراً، خيرٌ لكم مِنّي أميراً.

الشرح: في أكثر النسخ: «لما أراده الناس على البيعة»، ووجدت في بعضها: «أداره الناس على البيعة»، فمن روى الأول جعل «على» متعلّقة بمحذوف، وتقديره «موافقاً»، ومن روى الثاني جعلها متعلّقة بالفعل الظاهر نفسه، وهو «أداره»، تقول: أدرت فلاناً على كذا، وداورت فلاناً على كذا، أي عالجته.

ولا تقوم له القلوب، أي لا تصبر. وأغامت الآفاق: غطّاها الغيم، أغامت وغامت، وأغيَمَتْ وتغيَّمَتْ، كلّه بمعنى، والمحَجّة: الطريق. وتنكّرت: جهلت فلم تعرف. و«وزيراً» و«أميراً»: منصوبان على الحال.

وهذا الكلام يحمِلُه أصحابُنا على ظاهره، ويقولون: إنه عليه السلام لم يكن منصوصاً إليه بالإمامة من جهة الرسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان أَوْلى الناس بها وأحقهم بمنزلتها، لأنه لو كان منصوصاً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول: «دَعُوني والتمسوا غيري»، ولا أنْ يقول: «ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم»، ولا أن يقول: «وأنا لكم وزيراً خيرٌ منّي لكم أميراً» وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون: إنّ الذين أرادوه على البَيْعة هم كانوا العاقدين بَيْعة الخلفاء من قبل، وقد كان عثمان مَنَعَهم أو منع كثيراً منهم عن حَقّه من العطاء، لأنّ بني أمية استأصلوا الأموال في أيام عثمان، فلما قُتِلَ قالوا لعليّ عليه السلام: نبايعك على أن تسيرَ فينا سيرَة أبي بكر وعمر، لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلهما، فطلبوا من عليّ عليه السلام البَيْعة، على أن يقسّم عليهم بيوت الأموال قسمة أبي بكر وعمر[1]، فاستعفاهم وسألهم أن يطلبُوا غيره ممّن يسير بسيرتهما، وقال لهم كلاماً تحته رمز، وهو قوله: «إنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإنّ الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تنكّرت».

قالوا: وهذا كلام له باطنٌ وغَوْرٌ عميقٌ، معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم، وهو الإنذارُ بحرب المسلمين بعضهم لبعض، واختلافُ الكلمة وظهورُ الفتنة.

ومعنى قوله: «له وجوه وألوان» أنّه موضع شبهة وتأويل، فمن قائل يقول: أصاب عليّ، ومن قائل يقول: أخطأ، وكذلك القول في تصويب محارِبيه من أهل الجمل وصِفّين والنَّهْروان وتخطِئتهم، فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعّبت وتفرّقت جدًّا.

ومعنى قوله: «الآفاق قد أغامت، والمَحَجّة قد تنكّرت» أن الشبهة قد استولتْ على العقول والقلوب، وجهل أكثرُ الناس مَحَجّة الحق أين هي، فأنا لكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أفتي فيكم بشريعته وأحكامه خيرٌ لكم مني أميراً محجوراً عليه مدبّراً بتدبيركمَ، فإني أعلم أنه لا قُدرة لي أن أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله في أصحابه مستقلًا بالتدبير، لفساد أحوالكم، وتعذّر صلاحكم.

وقد حمل بعضُهم كلامه على محمل آخر، فقال: هذا كلام مُسْتزيد شاكٍ من أصحابه، يقول لهم: دعوني والتمسوا غيري، على طريق الضَّجر منهم، والتبرّم بهم والتسخّط لأفعالهم، لأنهم كانوا عَدَلوا عنه من قَبْل، واختاروا عليه، فلما طلبوه بعدُ أجابهم جوابَ المتسخّط العاتب.

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر، فقالوا: إنه أخرجه مخرج التهكّم والسخرية، أي أنا لكم وزيراً خيرٌ مني لكم أميراً فيما تعتقدونه، كما قال سبحانه: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ

(١) تقدم من المصنف ويأتي هنا أن عمر خالف أبا بكر في العطاء فلم يسو بين المسلمين.

ٱلْكَرِيمُ﴾(١) أي تزعم لنفسك ذلك وتعتقده.

واعلم أن ما ذكروه ليس ببعيد أن يحمَل الكلام عليه لو كان الدليل قد دلّ على ذلك، فأما إذا لم يدلّ عليه دليل، فلا يجوز صَرْفُ اللفظ عن ظاهره، ونحن نتمسك بالظاهر إلاّ أن تقوم دلالة على مذهبهم تصدّنا عن حَمْلِ اللفظ عن ظاهره، ولو جاز أن تصرف الألفاظُ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدف ويصدّ عنها، لم يبق وثوق بكلام الله عز وجلّ وبكلام رسوله ﷺ، وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحال التي كانت بعد قَتْل عثمان، والبيعة العلَويّة كيف وقعت.

ونحن نذكر ها هنا في هذه القصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ في كتابه الذي نقض فيه كتاب «العثمانية» لشيخنا أبي عثمان، فإن الذي ذكره لم نورده نحن فيما تقدم.

قال أبو جعفر: لما اجتمعت الصحابةُ في مسجد رسول الله ﷺ بعد قَتْل عثمان للنَّظر في أمر الإمامة، أشار أبو الهيثم بن التَّيّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاريّ وعمار بن ياسر بعليّ عليه السلام، وذكروا فضلَه وسابقته وجهاده وقرابته، فأجابهم الناسُ إليه، فقام كلّ واحد منهم خطيباً يذكر فَضْل عليٍّ عليه السلام، فمنهم مَنْ فَضّله على أهل عصره خاصة، ومنهم من فضله على المسلمين كلِّهم كافة. ثم بويع وصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البَيْعة، وهو يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة بقينَ من ذي الحجة، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمداً فصلّى عليه، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهدهم فيها، وذكر الآخرة فرغبهم إليها، ثم قال:

أما بعدُ، فإنه لما قُبِض رسول الله ﷺ استخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فعمِل بطريقه، ثم جعلها شورى بين ستة، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان، فعمل ما أنكرتم وعرفتم، ثم حُصِر وقتل، ثم جئتموني طائعين فطلبتم إليّ، وإنما أنا رجلٌ منكم، لي ما لكم، وعليّ ما عليكم، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة، وأقبلت الفِتن كقطع الليل المظلم، ولا يحمِلُ هذا الأمرَ إلا أهلُ الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر، وإنّي حاملكم على منهج نبيّكم ﷺ، ومنفِذ فيكم ما أمِرت به، إن استقمتم لي. وبالله المستعان. الا إنّ موضعِي من رسول الله ﷺ بعد وفاته كموضعي منه أيامَ حياته، فامضوا لما تؤمرون به، وقِفُوا عند ما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى نبيّنه لكم، فإنّ لنا عن كلّ أمر تنكرونه عذراً. الا وإنّ الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهاً للولاية على أمة محمد، حتى اجتمع رأيُكم على ذلك، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيّما وَالٍ وَلِيَ الأمر من بعدي، أقيم على حدّ

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

الصراط، ونشرَت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله، ثم يهوى إلى النار، فيكون أوّل ما يتّقِيها به أنفه وحرّ وجهه»[١]، ولكني لمّا اجتمع رأيكم لم يسعني ترككم.

ثم التفتَ عليه السلام يميناً وشمالاً، فقال: ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمرتْهم الدنيا فاتخذوا العَقّار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الرُّوقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتُهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقِمون ذلك، ويستنكرون ويقولون: حرمَنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرَى أن الفضل له على مَنْ سواه لصحبته، فإنّ الفضل النيِّر غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيّما رجلٍ استجاب لله وللرسول، فصدق ملّتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسَّم بينكم بالسوّية، لا فضلَ فيه لأحد على أحدٍ، وللمتقين عند الله غداً أحسنُ الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار. وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدُوا علينا، فإن عندنا مالاً نقسّمه فيكم، ولا يتخلّفنّ أحدٌ منكم، عربيّ ولا عجميّ، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلا حَضَر، إذا كان مسلِماً حرًّا. أقولُ قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. ثم نزل[٢].

قال شيخنا أبو جعفر: وكانَ هذا أوّل ما أنكروه من كلامه عليه السلام، وأورثهم الضِّغن عليه، وكرهوا إعطاءه وقَسْمه بالسويّة. فلما كان من الغد، غدا وغَدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: ابدَأْ بالمهاجرين فنادِهم، وأعطِ كلّ رجل ممّن حضر ثلاثة دنانير ثم ثَنِّ بالأنصار فافْعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلّهم، الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حَنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقتُه اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك، فأعطى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضّل أحداً على أحد، وتخلّف عن هذا القَسْم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومرْوان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها.

---

(١) أخرجه السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٠٠٠)، وقال: حسن. والمتقي الهندي في «كنز العمال» (١٤٦٥٨).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ١٧، وأخرجه محمدي الريشهري في ميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٩٥.

قال: وسمع عبيدُ الله بن أبي رافع عبدَ الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: ما خفيَ علينا أمس من كلام عليّ ما يريد، فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت: إياكِ أعني واسمعي يا جارة، فقال عبيدُ الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله بن الزبير: إن الله يقولُ في كتابه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[1].

ثم إنّ عبيد الله بن أبي رافع أخبرَ عليًّا عليه السلام بذلك، فقال: والله إنْ بقيت وسلِمت لهم لأقيمنّهم على المحجّة البيضاء، والطريق الواضح، قاتل الله ابنَ العاص! لقد عرَفَ من كلامي ونظري إليه أمسِ أنّي أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هَلَك.

قال: فبينا الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزّبير وطلحة، فجلسا ناحية عن عليّ عليه السلام، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير، فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش فانضمّوا إليهم، فتحدّثوا نجيًّا ساعة، ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فجاء إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أبا الحسن، إنك قد وَتَرْتَنا جميعاً، أما أنا فقتلتَ أبي يوم بدر صَبْراً، وخذلتَ أخي يوم الدار بالأمس، وأما سعيد فقتلتَ أباه يوم بَدْر في الحرب - وكان ثورَ قريش - وأما مروان فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه، ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضعَ عَنّا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتلتَه، وإنا إن خفناك تركناك، فالتحقنا بالشام.

فقال: أمّا ما ذكرتم من وِتْري إياكم فالحقّ وترَكم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم، وأما قتلي قَتَلَةَ عثمان فلو لزِمَني قتلُهم اليوم لقتلتُهم أمس، ولكنْ لكم عليّ إن خفتموني أن أؤمّنكم وإن خفتُكم أنْ أسَيّركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم، وافترقوا على إظهار العداوةِ وإشاعة الخلاف، فلما ظهر ذلك من أمرهم، قال عمار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا إلى هؤلاء النَّفَر من إخوانكم فإنّه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف، والطعن على إمامهم، وقد دخل أهلُ الجفاء بينهم وبين الزُّبير والأعسر العاقّ - يعني طلحة.

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيوب وسَهْل بن حنيف وجماعة معهم، فدخلوا على عليّ عليه السلام، فقالوا: يا أمير المؤمنين، انظر في أمرِك، وعاتِبْ قومك، هذا الحيّ من قريش فإنهم قد نَقَضُوا عهدك، وأخلفوا وعْدَك، وقد دعونا في السرّ إلى رفضك، هداك الله لرشدك! وذاك لأنّهم كرِهوا الأسوة، وفقدوا الأثرة، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوَّكَ وعظّموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة، وتألّفاً لأهل الضلالة. فرأيك!

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٨.

فخرج عليّ عليه السلام، فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بِطاقٍ، مؤتزراً بِبُرْدٍ قَطَرِيٍّ، متقلداً سيفاً، متوكئاً على قوْس، فقال:

أما بعد، فإنّا نحمد الله ربنا وإلٰهنا ووليّنا، ووليّ النعم علينا، الذي أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة، امتناناً منه بغير حَوْل منا ولا قوة، ليبلُوَنَا أنشكرُ أم نكفر، فمن شكر زاده ومَنْ كَفَر عذّبه، فأفضلُ الناس عند الله منزلةً، وأقربهم من الله وسيلةً، أطوعهم لأمره، وأعملهم بطاعته، وأتبعهم لسنّة رسوله، وأحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فَضْلٌ إلا بطاعة الله وطاعة الرسول. هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهلُ ذلك إلا جاهلٌ عاند عن الحقّ منكر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(1).

ثم صاح بأعلى صوته: أطيعوا الله وأطيعوا الرَّسول، فإنْ تَوَلَّيْتُم فإنّ ٱلله لا يحبُّ ٱلْكَافِرِينَ.

ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار: أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنْتم صادقين.

ثم قال: أنا أبو الحسن - وكان يقولها إذا غضب - ثم قال: ألا إنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تَمَنَّوْنَهَا وترغبون فيها، وأصبحتْ تغضِبُكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلِقتُم له، فلا تغرّنّكم فقد حَذَّرتكموها، واستتمُّوا نعم الله عليكم بالصَّبْر لأنفسكم على طاعة الله، والذّلّ لحكمه جل ثناؤه، فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحد فيه أثَرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهدُ نبينا بين أظهرنا، فمن لم يَرضَ به فليتَولَّ كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحْشَة عليه.

ثم نزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبد الرحمن بن حسل القرشيّ إلى طلحة والزبير، وهما في ناحية المسجدِ، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نشدتكما الله، هل جئتماني طائعيْن للبيعة، ودعوتماني إليها، وأنا كارهٌ لها! قالا: نعم، فقال: غيرَ مجبَرين ولا مقسورَيْن، فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما! قالا: نعم، قال: فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى؟ قالا: أعطيناك بَيْعتنَا على ألاّ تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كلّ أمر ولا تستبدّ بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمتَ، فأنتَ تقسم القَسْم وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال: لقد نقَمتما يسيراً، وأرجأتما كثيراً، فاستغفرا الله يغفرلكما ألا تخبراني، أدفعْتُكما

---

(1) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

عن حقّ وجب لكما فظلمتكما إياه؟ قالا: معاذ الله! قال: فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالا: معاذ الله! قال: أفوقع حُكم أو حقّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟ قالا: معاذ الله! قال: فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتُما خلافي؟ قال: خلافك عمر بن الخطاب في القَسْم، أنك جعلتَ حقّنا في القَسْمْ كحقّ غيرنا، وسوَّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا وأوَجَفْنا عليه بخيلنا ورَجْلِنا، وظهرتْ عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً. فقال: فأمّا ما ذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فخفت أن أردّكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إليّ نظرتُ في كتاب الله وسنّة رسوله فأمضيت ما دلأني عليه واتَّبعته، ولم أحتَجْ إلى آرائكما فيه، ولا رأي غيركما، ولو وقع حكمٌ ليس في كتاب الله بيانُه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتُكما فيه، وأما القَسْم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكُم فيه بادىء بدء! قد وجدتُ أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وآله يحكُم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وأما قولكُما: جعلتَ فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله في القَسْم، ولا آثرهم بالسَّبْق، والله سبحانه موفٍ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ثم قال: رحم الله امرءًا رأى حقًّا فأعان عليه، ورأى جَوْراً فردّه، وكان عوناً للحقّ على من خالفه(١).

قال شيخنا أبو جعفر: وقد روي أنهما قالا له وقت البيعة: نُبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنّكما شريكاي في الفيء، لا أستأثر عليكما ولا على عبدٍ حبشيٍّ مُجدَّعٍ بدرهم فما دونه، لا أنا ولا وَلَداي هذان، فإن أبيتُما إلا لفظ الشركة، فأنتما عَوْنان لي عند العجز والفاقة، لا عند القوة والاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشترطا ما لا يجوز في عَقْد الأمانة، وشرط عليه السلام لهما ما يجب في الدِّين والشريعة.

قال رحمه الله تعالى: وقد رُوِيَ أيضاً أنّ الزبير قال في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من عليّ! قمنا له في أمر عثمان حتى قُتِل، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا مَنْ كنّا فوقه.

وقال طلحة: ما اللّوم إلا علينا، كنّا أهل الشورى ثلاثة، فكرهه أحدنا - يعني سعداً -

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٢٢.

وبايعناه، فأعطيناه ما في أيدينا، ومنَعَنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم ما رجوْناه أمس، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم.

فإن قلت: فإنّ أبا بكر قَسَم بالسواء، كما قَسمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم ينكروا ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبا بكر قَسَم محتذياً لقَسْم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وَليَ عمر الخلافة، وفضّل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسُوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأشرِبَتْ قلوبهم حُبَّ المال، وكثرةَ العطاء. وأما الذين اهتَمُوا فقنعوا ومَرَنُوا على القناعة، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أنّ هذه الحال تنتقض أو تتغيّر بوجهٍ ما، فلما وليَ عثمان أجْرَى الأمر على ما كان عمر يُجريه، فازداد وثوقُ القوم بذلك، ومن ألِفَ أمراً شقّ عليه فراقه، وتغيير العادة فيه، فلما ولي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر، وقد نسي ذلك ورفض وتخلّل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشق ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدَث ما حدث من نقض البيعة، ومفارقة الطاعة، ولله أمر هو بالغه!

٩٢ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر ما كان تغلبه على الخوارج

الأصل: أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ ٱللهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ ٱلْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، وَٱشْتَدَّ كَلَبُهَا.

فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلاَ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إِلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً.

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ ٱلْأُمُورِ، وَحَوَازِبُ ٱلْخُطُوبِ، لَأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ المَسْؤُولِينَ، وَذَلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَكَانَتْ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ ٱلْبَلاَءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ ٱللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ.

إِنَّ ٱلْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَتٍ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَداً، وَيُخْطِئْنَ بَلَداً.

أَلاَ وَإِنَّ أَخْوَفَ ٱلْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ ٱلْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطأَ ٱلْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا.

وَٱيْمُ ٱللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَٱلنَّابِ ٱلضَّرُوسِ، تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لاَ يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّىٰ لاَ يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ.

وَلاَ يَزَالُ بَلاَؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّىٰ لاَ يَكُونَ ٱنْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلاَّ مِثْلَ انتصار ٱلْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَٱلصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شوهاً مَخْشِيَّةً، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى، وَلاَ عَلَمٌ يُرَىٰ، نَحْنُ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ مِنْهَا بنجاة، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا ٱللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ ٱلأَدِيمِ، بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لاَ يُعْطِيهِمْ إِلاَّ ٱلسَّيْفَ، وَلاَ يُحْلِسُهُمْ إِلاَّ ٱلْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جزُورٍ، لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ ما أَطْلُبُ ٱلْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونَنِيهِ.

الشرح: فقأتُ عينَه، أي بخقْتُها[١]، وتفقأت السحابة عن مائها: تشققت، وتفقأ الدّمل والقُرح، ومعنى فقْئِه عليه السلام عينَ الفتنة، إقدامه عليها حتى أطفأ نارها، كأنه جعل للفتنة عيناً محدقة يهابها الناس، فأقدم هو عليها، ففقأ عينَها، فسكنت بعد حركتها وهيجانها. وهذا من باب الاستعارة، وإنما قال: «ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري»، لأنّ الناس كلَّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعُون مولِّيهم أم لا؟ وهل يُجْهِزُون على جريحهم أم لا؟ وهل يقسّمون فيئهم أم لا؟ وكانوا يستعظِمُون قتال منْ يؤذّن كأذاننا، ويصلّي كصلاتنا، واستعظموا أيضاً حربَ عائشة وحربَ طلحة والزبير، لمكانهم في الإسلام، وتوقّف جماعتهم عن الدّخول في تلك الحرب، كالأحنف بن قيس وغيره، فلولا أنّ عليًّا اجترأ على سلّ السيف فيها ما أقدم أحدٌ عليها، حتى الحسن عليه السلام ابنه، أشار عليه ألاّ يبرح عَرْصة المدينة، ونهاه عن المسير إلى البصرة، حتى قال له منكراً عليه إنكاره: ولا تزال تخِنّ خَنِينَ الأمَة! وقد روى ابنُ هلال صاحب كتاب «الغارات» أنه كلّم أباه في قتال أهل البصرة بكلام أغضبه، فرماه ببيضةِ حديدٍ عَقَرَتْ ساقه، فعولج منها شهرين[٢].

---

(١) بخق عينه: أي عوَّرها، ا.هـ القاموس، مادة (بخق).

(٢) هذه من المفتريات على آل بيت العصمة والطهارة وهي منافية لأخلاق المؤمنين فضلاً عن ساداتهم وأئمتهم عليهم السلام.

والغيهب: الظلمة، والجمع غياهب. وإنما قال: «بعد ما ماج غيهبها»، لأنه أراد: بعد ما عَمّ ضلالُها فشمل، فكنّى عن الضلال بالغيهب، وكنّى عن العُموم والشمول بالتموّج، لأن الظلمة إذا تموّجت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التي تشملها لو كانت ساكنة. واشتدَّ كَلَبُها، أي شرّها وأذاها. ويقال للقحط الشديد: كَلَب، وكذلك للقرّ الشديد.

ثم قال عليه السلام: «سَلُوني قبل أن تفقدوني»[1]، روى صاحب كتاب «الاستيعاب» وهو أبو عمر محمد بن عبد البرّ عَنْ جماعة من الرواة والمحدّثين، قالوا: لم يقلْ أحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم: «سَلُوني» إلا عليّ بن أبي طالب. وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتاب «نقض العثمانية» عن عليّ بن الْجَعْد، عن ابن شُبْرُمَة، قال: ليس لأحد من الناس أن يقول عَلَى المنبر: «سَلُوني» إلا عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

والفئة: الطائفة، والهاء عوض من «الياء» التي نقصت من وسطه، وأصله «فيء» مثال «فيع» لأنه من فاء، ويجمع على فئات، مثل شيات وهبات ولِدَات.

وناعقها: الداعي إليها، من نَعيق الرّاعِي بغنمه، وهو صوته نَعَق ينعِق بالكسر نعيقاً ونُعاقاً، أي صاح بها وزجرها. قال الأخطل:

فانْعَقْ بضأنكَ يا جريرُ فإنّما ... منَّتْكَ نفسُك في الخلاء ضلالا

فأمّا الغراب، فيقال: نَغَق، بالغين المعجمة ينغِق بالكسر أيضاً، وحكى ابن كَيْسان «نَعَق الغراب» أيضاً بعين غير معجمة.

والركاب: الإبل، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها رُكُب، مثل كتاب وكتب. ويقال: زيْت ركابيّ، لأنه يحمل من الشام عليها.

والمُنَاخ، بضمّ الميم، ومَحطّ بفتحها، يجوز أن يكونا مصدرين، وأنْ يكونا مكانين، أما كونُ المُناخ مصدراً، فلأنه كالمقام الذي بمعنى الإقامة، وأما كون المَحَطّ مصدراً فلأنه كالمَرَدّ في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2]، وأما كونُهما موضعين فلأن المناخ من أنخت الجمل، لا من ناخ الجمل، لأنه لم يأت، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع منه يأتي مضموم الميم، لأنّه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج، وهذا مُدَحرجنا، ومن قال: هذا مُقام بني فلان، أي موضع مقامهم جَعَله كما جعلناه نحن، من أقام يقيم، لا من قام يقوم، وأما المَحَطّ، فإنه كالمَقْتَل موضع القتلِ، يقال: مقتَلُ الرّجُل بين فكيه، ويقال للأعضاء التي إذا أصيب الإنسان فيها هلك: مَقاتل، ووجه المماثلة كونهما مضمومي العين.

---

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٢/ ٣٨٣).

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٣.

الإمام علي عليه السلام وإخباره بأمور غيبيّة

واعلم أنه عليه السلام قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلاّ أخبرهم به، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدي بها مائة وتضلّ بها مائة، إلا وهو مخبرٌ لهم - إن سألوه - برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزُل ركابها وخيولها، ومَنْ يقتل منها قتلاً، ومَنْ يموت منها موتاً، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الرّبوبية، ولا ادّعاء النبوة، ولكنه كان يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدلَلنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة يُضرب بها في رأسه فتخضِب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه، وما قاله في كرْبلاء حيث مرّ بها، وإخباره بملك معاويةَ الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصَلْب مَنْ يُصْلَب، وإخبارَه بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شَخَص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير، وقوله فيه: «خبّ ضبّ، يروم أمراً ولا يدركه، ينصِبُ حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعد مصلوب قريش» وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق، وهلاكها تارة أخرى بالزّنج، وهو الذي صحّفه قوم فقالوا: بالريح، وكإخباره عن ظهور الرايات السُّود من خُراسان، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق - بتقديم المهملة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم، وكانوا هم وسَلفهم دعاة الدولة العباسية، وكإخباره عن الأئمة الّذين ظهروا من وَلده بطبرستان، كالناصر والداعي وغيرهما، في قوله عليه السلام: «وإن لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله»[1]، وكإخباره عن مقتل النفس الزّكية بالمدينة، وقوله: «إنه يقتَل عند أحجار الزيت»[2]، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة: «يقتل بعد أن يظهر ويُقهر بعد أن يقهر»[3]، وقوله فيه أيضاً: «يأتيه سهم غَرْب يكون فيه منيّته فيا بؤسا للرامي! شَلّت يده، ووهَن عَضُده»[4]، وكإخباره عن قتلى وَجّ، وقوله فيهم: «هم خير أهل الأرض»[5].

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.

(٣) أخرجه المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.

وكإخباره عن المملكة العَلَوية بالغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الدّاعي المعلّم. وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي: وهو أولهم ثم يظهرُ صاحب القَيْروان الغضّ البَضّ، ذو النسب المحض، المنتجَب من سلالة ذي البداء، المسجّى بالرداء، وكان عبيد الله المهدي أبيض مترفاً مشرباً بحُمرة، رخْص البدن، تارّ الأطراف. وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليه السلام، وهو المسجّى بالرداء، لأن أباه أبا عبد الله جعفر سجّاه بردائه لما مات، وأدخل إليه وجُوه الشيعة يشاهدونه، ليعلموا موته، وتزول عنهم الشبهة في أمره.

وكإخباره عن بني بويه وقوله فيهم: «ويخرج من دَيْلمانَ بنو الصَّياد»[1]، إشارة إليهم. وكان أبوهم صياد السمك يصيدُ منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلْبه ملوكاً ثلاثة، ونشر ذرّيتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم. وكقوله عليه السلام فيهم: «ثم يستشري أمرُهم حتى يملكوا الزّوراء، ويخلعوا الخلفاء» فقال له قائل: فكم مدّتُهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: «مائة أو تزيد قليلاً». وكقوله فيهم: «والمترفُ بن الأجذم، يقتله ابنُ عَمّه على دِجْلة»[2]، وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحسين، وكان معزّ الدولة أقْطع اليد، قطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترَفاً، صاحب لهو وشرب، وقتله عَضُد الدولة فنّاخسرو، ابن عمه بقصر الجُصّ على دِجْلة في الحرب، وسلَبه ملكه. فأما خلعهم للخلفاء فإنّ معز الدولة خلع المستكفي، ورتّب عِوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خَلَع الطائع ورتّب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام.

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده، فإنّ عليَّ بن عبد الله لما ولِدَ، أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام، فأخذه وتَفَل في فيه وحَنّكه بتمرة قد لاكها، ودفعه إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك. هكذا الرواية الصحيحة، وهي التي ذكرها أبو العباس المبرّد في كتاب «الكامل»، وليست الرواية التي يُذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمَد عليه.

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كراريس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة.

فإن قلت: لماذا غَلاَ الناس في أمير المؤمنين عليه السلام، فادَّعَوْا فيه الإلٰهية لإخباره عن الغيوب التي شاهدوا صدقها عِياناً، ولم يَغْلوا في رسول الله صلى الله عليه وآله فيدّعوا له الإلٰهية، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقيناً، وهو كان أوْلى بذلك، لأنه الأصلُ المتبوع، ومعجزاته أعظم، وأخباره عن الغيوب أكثر؟

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٣.

قلت: إنّ الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشاهدوا معجزاتِه، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عِياناً، كانوا أشدّ آراء، وأعظم أحلاماً، وأوفر عقولاً من تلك الطائفة الضعيفة العقول، السخيفة الأحلام، الذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام في آخر أيامه، كعبد الله بن سبأ وأصحابه، فإنهم كانوا من رَكاكة البصائر وضعفها على حال مشهورة، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفّهم المعجزاتُ، فيعتقدوا في صاحبها أنّ الجوهر الإلٰهيّ قد حلّه، لاعتقادهم أنه لا يصحّ من البشرِ هذا إلا بالحلول، وقد قيل: إن جماعة من هؤلاء كانوا من نَسْل النصارى واليهود، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول في أنبيائهم ورؤسائهم، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك. ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم مُلْحدين أرادوا إدخال الإلحاد في دين الإسلام، فذهبوا إلى ذلك، ولو كانوا في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقالوا فيه مثل هذه المقالة، إضلالاً لأهل الإسلام، وقصداً لإيقاع الشبهة في قلوبهم، ولم يكن في الصَّحابة مثل هؤلاء، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة.

ومما ينقدِحُ لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنّ هؤلاء من العراق وساكني الكوفة، وطينة العراق ما زالت تنبت أربابَ الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة، وأهل هذا الإقليم أهل بَصَرٍ وتدقيق ونظر، وبحث عن الآراء والعقائد، وشُبَهٍ معترضة في المذاهب، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومَزْدك وغيرهم، وليست طينة الحجاز هذه الطينة، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعَجْرفيّة وخشونة الطبع، ومن سكن المدن منهم كأهلِ مكة والمدينة والطائف فطباعُهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة، ولم يكن فيهم من قبلُ حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل، ولا موقع شبهة، ولا مبتدع نحِلَة، ولهذا نجد مقالة الغُلاة طارئة وناشئة من حيث سكن عليّ عليه السلام بالعراق والكوفة، لا في أيام مقامه بالمدينة، وهي أكثر عمره.

فهذا ما لاح لي من الفرق بين الرجلين في المعنى المقدم ذكره.

فإن قلت: لماذا قال عن فئة تهدي مائة؟ وما فائدة التقييد بهذا العدد؟

قلت: لأنّ ما دون المائة حقير تافه لا يعتدّ به ليذكر ويخبر عنه، فكأنه قال: مائة فصاعداً.

قوله عليه السلام: «كرائه الأمور» جمع كريهة وهي الشدّة في الحرب. وحوازب الخطوب: جمع حازب، وحَزَبه الأمر، أي دَهمه.

وفشل: جبن، فإن قلت: أما فشل المسؤول فمعلوم، فما الوجه في إطراق السائل؟

قلت: لشدة الأمر وصعوبته، حتى إن السائل ليبهت ويذهش فيطرِق، ولا يستطيع السؤال.

قوله عليه السلام: «إذا قَلّصت حربكم» يروى بالتشديد وبالتخفيف، ويروى: «عن حربكم»، فمن رواه مشدداً أراد انضمّت واجتمعت، وذلك لأنّه يكون أشدّ لها وأصعب من أن تتفرّق في مواطن متباعدة، ألا ترى أنّ الجيوش إذا اجتمعت كلّها واصطدم الفَيْلَقان، كان الأمر أصعب وأفظع من أن تكونَ كلُّ كتيبة من تلك الجيوش تحارب كتيبة أخرى في بلاد متفرّقة متباعدة! وذلك لأنّ اصطدامَ الفَيْلَقَيْن بأجمعهما هو الاستئصال الذي لا شَوَى له ولا بقْيا بعده. ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتَزايدت، من قولهم: قَلَصَتِ البئر، أي ارتفع ماؤها إلى رأسها أو دونه، وهو ماء قالِص وقَليص، ومن روى: «إذا قلّصت عن حربكم» أراد إذا قلّصت كرائه الأمور وحوازب الخطوب عن حربكم، أي انكشفت عنها، والمضارع من قلَص يَقْلِص، بالكسر.

قوله: «وشمّرت عن ساق»، استعارة وكناية، يقال للجادّ في أمره: قد شمّر عن ساق، وذلك لأنّ سبوغ الذيل مَعْثَرة. ويمكن أن يجري اللفظ على حقيقته، وذلك أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[1] فسّروه فقالوا: الساق: الشدّة، فيكون قد أراد بقوله: «وشمرت عن ساق»، أي كشفت عن شدّة ومشقة.

ثم قال: «تستطيلون أيام البلاء»، وذلك لأنّ أيام البؤس طويلة، قال الشاعر:

فـأيّـام الـهـمـوم مـقـصّـصـاتٌ ... وأيـام الـسـرور تـطـيـر طـيـرًا

وقال أبو تمام:

ثـم انـبـرَتْ أيـام هَـجْـر أردفـتْ ... بِـجَـوًى أسًـى فـكـأنـهـا أعـوامُ

قوله عليه السلام: «إن الفتَن إذا أقبلت شبّهت»، معناه أن الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثها، يلتبس أمرها ولا يُعلم الحقّ منها من الباطل، إلى أن تنقضيَ وتدبِر، فحينئذ ينكشف حالها، ويعلم ما كان مشتبهاً منها. ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى بقوله: «ينكَرْن مقبلات، ويعرَفن مدبرات»، ومثال ذلك فتنة الجمل، وفتنة الخوارج، كان كثير من الناس فيها في مبدأ الأمر متوقّفين، واشتبه عليهم الحال، ولم يعلموا موضع الحقّ إلى أن انقضت الفتنة، ووضعت الحرب أوزارها، وبان لهم صاحبُ الضلالة من صاحب الهداية.

ثم وصف الفتن، فقال: إنها تحُوم حَوْمَ الرياح، يصبن بلداً، ويخطئن بلداً. حام الطائر وغيرُه حول الشيء، يحوم حَوْماً وحَوَماناً، أي دار.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

ثم ذكر أنّ أخوف ما يخاف عليهم فتنة بني أميّة. ومعنى قوله «عَمّت خطتها، وخصّت بليّتها»، أنها عمّت الناس كافة من حيث كانت رياسة شاملة لكلّ أحد، ولكن حظّ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من بليّتها أعظم، ونصيبهم فيها أوفر.

ومعنى قوله: «وأصاب البلاء مَنْ أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عَمِي عنها»، أن العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذ لم ينكر، والجاهل بذلك لا إثم عليه إذا لم ينههم عن المنكر، لأنّ من لا يعلم المنكر مُنْكَراً لا يلزمه إنكاره، ولا يعني بالمنكر هاهنا ما كان منكراً من الاعتقادات، ولا ما يتعلق بالأمانة، بل الزنى وشرب الخمر ونحوهما من الأفعال القبيحة.

فإن قلت: أيّ فرق بين الأمرين؟

قلت: لأن تلك يلحق الإثمُ مَنْ لا يعلمها إذا كان متمكناً من العلم بها، وهذه لا يجب إنكارها إلا مع العلم بها، ومن لا يعلمها لا يلحقه الإثم إذا كان متمكّناً من العلم بها، فافترق الموضوعان.

ثم أقسم عليه السلام فقال: «وايم الله»، وأصله: وايمنُ الله، واختلف النحويون في هذه الكلمة فعند الأكثرين منهم أن ألفها ألف وصل، وأن «ايمن» اسم وضع للقسم هكذا بألف وصل، وبضم الميم والنون، قالوا: ولم يأت في الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها، وتدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء، فتقول: لَيْمن الله فتذهب الألف، قال الشاعر:

فـقـال فـريـقُ الـقـوم لـمـا نـشـدتـهـمْ نـعـم، وفـريـقٌ لَـيْـمُـنُ الله مـا نـدرِي

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف، والتقدير لَيْمنُ الله قسمي، فإذا خاطبت قلت «لَيْمُنُكَ»، وفي حديث عروة بن الزبير: «لَيْمُنُكَ لئِنْ كنت ابْتَلَيْتَ، لقد عافيت، ولئن كنتَ أخذت لقد أبقيت». وتحذف نونه فيصير «ايم الله» بألف وصل مفتوحة وقد تكسر، وربما حذفوا الياء، فقالوا: «ام الله»، وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة، فقالوا: «مُ الله»، وقد يكسرونها لما صارت حرفاً شبهوها بالباء، وربما قالوا «مُنُ الله» بضم الميم والنون: «ومِنِ الله» بكسرهما: «ومَنْ الله» بفتحهما، وذهب أبو عبيد وابن كَيْسان وابن دَرَسْتَويه إلى أنّ «أيمن» جمع يمين، والألف همزة قطع، وإنما خففت وطرحت في الوصل لكثرة الاستعمال، قالوا: وكانت العرب تحلف باليمين فتقول: يمين الله لا أفعل، قال امرؤ القيس:

فَـقُـلْـتُ يـمـيـنَ الله أبْـرَحُ قـاعـداً وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

قالوا: واليمين تجمع على «أيمن»، قال زهير:

فـتُـجْـمَـعُ أيـمُـنٌ مِـنّـا ومِـنْـكُـمْ بِـمـقْـسَـمَـةٍ تَـمُـورُ بـهـا الـدِّمـاء

ثم حلفوا به، فقالوا: أيمن الله، ثم كثر في كلامهم وخفّ على ألسنتهم، حتى حذفوا منه النون كما حذفوا في قوله «لم يكن» فقالوا «لم يك». فأقسم عليه السلام لأصحابه أنّهم سيجدون بني

أمية بعده لهم أرباب سوء، وصدَقَ صلوات الله عليه فيما قال، فإنّهم ساموهم سوء العذاب قَتْلاً وصلباً، وحَبْساً وتشريداً في البلاد.

ثم شبّه بني أمية بالنّاب الضّروس، والنّاب: الناقة المُسِنّة، والجمع نِيب، تقول: لا أفعله ما حَنّت النِّيب، والضّروس: السيئة الْخُلق تعضّ حالبها.

وتعذِم بفيها: تكدم، والعذْم: الأكل بجفاء، وفرس عَذُوم: يعضّ بأسنانه.

والزَّبْن: الدفع، زبنتِ الناقة تزبِنُ، إذا ضربت بثَفِناتها عند الحلْب، تدفع الحالب عنها. والدَّرُّ: اللَّبَنُ، وفي المثل: «لا درّ دَرُّه» الأصل «لبنُه»، ثم قيل لكل خير، وناقة دَرُور، أي كثيرة اللَّبَن.

ثم قال: لا يزالون بكم قتلاً وإفناءً لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه، أو لا يضرهم ولا ينفَعُهم، قال: حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبْد من مولاه، أي لا انتصارَ لكم منهم، لأنّ العبد لا ينتصر من مولاه أبداً. وقد جاء في كلامه عليه السلام في غير هذا الموضع تتمة هذا المعنى: «إن حضر أطاعه، وإن غاب سَبَعه»، أي ثلبه وشتمه، وهذه أمارة الذلّ، كما قال أبو الطيب:

أبْدُو فيسجدُ مَنْ بالسُّوءِ يذكرُني ... ولا أعاتبه صَفْحاً وإهوانا

وهكذا كنتُ في أهْلِي وفي وطني ... إنّ النفيسَ نفيسٌ أينما كانا

قال عليه السلام: «والصاحب من مستصحِبه»، أي والتابع من متبوعه.

والشُّوه: جمع شَوْهاء، وهي القبيحة الوجه، شاهت الوجوه تشوه شَوْهاً، قَبُحت، وشوّهه الله فهو مشوّه، وهي شوهاء، ولا يقال للذكر: أشوه. ومخشيّة: مخوفة.

وقطعاً جاهلية، شبهها بقطع السحاب لتراكمها على الناس، وجعلها جاهلية لأنها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم، ويروى: «شوهاء» و «قطعاء»، أي نكراء، كالمقطوعة اليد.

قوله: «نحن أهلَ البيت منها بمنجاة»، أي بمعزل، والنّجاة والنّجوة: المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاك، ولا يعلوه السيل. ولسنا فيها بدعاة، أي لسنا من أنصار تلك الدّعوة. و«أهلَ البيت» منصوب على الاختصاص، كقولهم: نحن معشرَ العرب نفعل كذا، ونحن آلَ فلان كرماء.

قوله: «كتفريج الأديم»: الأديم الجلد، وجمعه أدُم مثل أفيق وأفُق، ويجمع أيضاً على «آدمة»، كرغيف وأرغفه، ووجه التشبيه أن الجلد ينكشف عمّا تحته، فوعدهم عليه السلام بأنّ الله تعالى يكشف تلك الغمّاء كانكشاف الجلد عن اللحم، بمن يسومهم خسفاً، ويوليهم ذلاً.

والعُنْف، بالضم: ضدّ الرفق. وكأس مصبّرة ممزوجة بالصَّبِر لهذا المرّ، ويجوز أن يكون

«مصبّرة» مملوءة إلى أضبارها، وهي جوانبها، وفي المثل: «أخذها بأصبارها»[1] أي تامّة، الواحد صُبر، بالضم.

ويُخلِسهم: يلبسهم، أحلست البعير ألبسته الحِلْس، وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة، يقال: له حِلْس وحَلَس، مثل شِبْه وشَبَه.

والجَزُور من الإبل: يقع على الذَّكر والأنثى، وجَزرها: ذَبْحها.

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوّدة، وانقراض ملك بني أمية. ووقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه، حتى لقد صدق قوله: «لقد تودّ قريش. . .» الكلام إلى آخره، فإن أرباب السِّيَر كلهم نَقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزّاب لما شاهد عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس بإزائه في صفّ خراسان: لوددت أن عليّ بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلاً من هذا الفتى، والقصة طويلة وهي مشهورة.

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير، وهي متداولة منقولة مستفيضة، خطب بها عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد انقضاء أمر النّهروان، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضيّ رحمه الله، من ذلك قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولم يكن ليجترىء عليها غيري، ولو لم أكُ فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والنهروان. وايمُ الله لولا أن تتكلوا فَتَدَعُوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله عزّ وجلّ على لسان نبيكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لمَنْ قاتلهم مبصراً لضلالتهم، عارفاً للهدى الذي نحن عليه، سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي ميِّت عن قريب أو مقتول، بل قتلاً ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه بدم»[2]. وضرب بيده إلى لحيته.

ومنها في ذكر بني أمية: «يظهر أهلُ باطِلها على أهل حقّها، حتىٰ تُملأ الأرض عدواناً وظلماً وبِدَعاً إلى أن يضع الله عزّ وجلّ جبروتها، ويكسر عَمَدها، وينزع أوتادها. ألا وإنّكم مدركوها فانصرُوا قوماً كانوا أصحاب رايات بدر وحُنين، تؤجروا، ولا تمالئوا عليهم عدوّهم، فتصرعكم البليَّة، وتحُلّ بكم النقمة».

ومنها «إلاّ مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه، وإن توارى عنه شَتَمه. وايمُ الله لو فرّقوكم تحتَ كلّ حجر، لجمعكم الله لشرّ يوم لهم».

ومنها: «فانظروا أهل بيت نبيكم، فإن لبَدُوا فالبدوا، وإن استنصروكم فانصروهم، فليفرجَنّ الله الفتنة برجل منّا أهلَ البيت، بأبي ابن خيرة الإماء، لا يعطيهم إلا السيف، هَرْجاً هرجاً،

---

(١) ذكره الميداني في «مجمع الأمثال» (٣٤٠١).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٣٦٦.

موضوعاً على عاتقه ثمانية أشهر، حتى تقول قريش: لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا، يغريه الله ببني أمية حتى يجعلهم حُطاماً ورفاتاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذُوا وقُتِّلوا تقتيلاً. سنّة الله في الذين خَلَوْا من قبل ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً»[1].

فإن قيل: لماذا قال: «ولو لم أكُ فيكم لما قوتل أهلُ الجمل وأهل النهروان»، ولم يذكر صِفّين؟ قيل: لأنّ الشبهة كانت في أهل الجمل وأهل النّهروان ظاهرة الالتباس، لأنّ الزبير وطلحة مَوْعُودان بالجنة، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الآخرة، كما هي زوجته في الدنيا، وحال طلحة والزبير في السَّبْق والجهاد والهجرة معلومة، وحال عائشة في محبّة الرسول الله ﷺ لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة، وأما أهل النّهروان فكانوا أهلَ قرآن وعبادة واجتهاد، وعُزوف عن الدنيا وإقبال على أمور الآخرة، وهم كانوا قرّاء أهل العراق وزهادهم، وأما معاوية فكان فاسقاً، مشهوراً بقلّة الدين والانحراف عن الإسلام، وكذلك ناصره ومظاهره على أمره عمْرو بن العاص، ومن اتّبَعهما من طغام أهل الشام وأجلافهم وجهّال الأعراب، فلم يكن أمرُهم خافياً في جواز محاربتهم واستحلال قتالهم، بخلاف حال من تقدّم ذكره.

فإن قيل: ومَنْ هذا الرجل الموعود به الذي قال عليه السلام عنه: «بأبي ابن خيرة الإماء»؟ قيل: أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثاني عشر، وأنه ابن أمَة اسمها نرجس، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطميّ يولد في مستقبل الزمان، لأمّ ولد، وليس بموجود الآن.

فإن قيل: فمن يكون من بني أمية في ذلك الوقت موجوداً، حتى يقول عليه السلام في أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم، حتى يودّوا أنّ علياً عليه السلام، كان المتولّي لأمرهم عوّضاً عنه؟

قيل: أما الإماميّة فيقولون بالرجعة، ويزعمون أنّه سيعاد قوم بأعيانهم من بني أميّة وغيرهم، إذا ظهر إمامهم المنتَظر، وأنه يقطع أيدي أقوام وأرجلهم، ويسمُل عيون بعضهم، ويصلُب قوماً آخرين، وينتقم من أعداء آل محمد عليهم السلام المتقدّمين والمتأخرين. وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق الله تعالى في آخر الزمان رجلاً من ولد فاطمة عليها السلام ليس موجوداً الآن، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوْراً وظلماً، وينتقم من الظالمين وينكّل بهم أشدّ النّكال، وأنه لأمّ ولد، كما قد ورد في هذا الأثر وفي غيره من الآثار، وأن اسمه محمد، كاسم رسول الله ﷺ، وأنه إنما يظهر بعد أن يستولي على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بني أمية، وهو السفيانيّ الموعود به في الخبر الصحيح[2]، من ولد أبي سفيان بن حرب بن أمية، وأنّ الإمام الفاطميّ

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٣٦٨.
(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٨٥٨٥)، (٤/ ٥٦٥).

يقتله ويقتل أشياعه من بني أمية وغيرهم، وحينئذ ينزل المسيح عليه السلام من السماء، وتبدو أشراطُ الساعة، وتظهر دابة الأرض، ويبطل التكليف، ويتحقّق قيام الأجساد عند نفخ الصور، كما نطق به الكتاب العزيز.

فإن قيل: فإنكم قلتم فيما تقدم: إن الوعد إنما هو بالسفّاح وبعمّه عبد الله بن عليّ، والمسوّدة، وما قلتموه الآن مخالف لذلك!

قيل: إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضيّ رحمه الله تعالى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة» وهذا التفسير هو تفسير الزيادة التي لم يذكرها الرضِيّ، وهي قوله بأبي ابن خِيرة الإماء. وقوله: «لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا»، فلا مناقضةَ بين التفسيرين.

٩٣ - ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الأنبياء

الأصل: فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلَّذِي لاَ يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ حَدْسُ ٱلْفِطَنِ، ٱلأَوَّلُ ٱلَّذِي لاَ غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي، وَلاَ آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِي.

الشرح: البرَكة: كثرة الخير وزيادته، وتبارك الله منه، وبرّكْتُ، أي دعوتُ بالبرَكة، وطعام بريك أي مبارك. ويقال: بارك الله لزيد وفي زيد وعلى زيد، وبارك الله زيداً، يتعدّى بنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾[1]. ويحتمل «تبارك الله» معنيين: أحدُهما أنْ يُراد: تبارك خَيْره وزادت نعمته وإحسانه، وهذا دعاء. وثانيهمَا أن يُراد به: تزايد وتعالٍ في ذاته وصفاته عن أن يُقاس به غيره، وهذا تمجيد.

قوله عليه السلام: «لا يبلغه بعدُ الهمم» أي بعد الأفكار والأنظار، عبّر عنها بالهمم لمشابهتها إياها. وحَدْس الفِطَن: ظنّها وتخمينها، حَدَسْتُ أحْدِسُ، بالكسر.

ويُسأل عن قوله: «لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضِي»، فيقال: إنما تدخل الفاء فيما إذا كان الثاني غير الأول، وكقولهم: ما تأتينا فتحدثَنا، وليس الثاني ها هنا غير الأول لأن الانقضاء هو الآخرية بعينها، فكأنه قال: لا آخر له، فيكون له آخر، وهذا لغو، وكذلك القول في اللفظة الأولى.

(١) سورة النمل، الآية: ٨.

وينبغي أن يقال في الجواب: إن المراد: لا آخر له بالإمكان والقوّة فينقضي بالفعل فيما لا يزال: ولا هو أيضاً ممكن الوجود فيما مضى، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم، وهو معنى قوله: «فينتهي» بل هو واجب الوجود في حالين: فيما مضى وفي المستقبل، وهذان مفهومان متغايران، وهما العدم وإمكان العدم، فاندفع الإشكال.

الأصل: ومنها: فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ ٱلْأَصْلَابِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ ٱلْأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ ٱللهِ خَلَفٌ، حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ ٱلْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ ٱلْأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَٱنْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَثَمرٌ لاَ يُنالُ، فَهُوَ إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَىٰ، وَبَصِيرَةُ مَنِ ٱهْتَدَىٰ.

سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ ٱلْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ ٱلرُّشْدُ، وَكَلاَمُهُ ٱلْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ ٱلْعَدْلُ، أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ، وَهفْوَةٍ عَنِ ٱلْعَمَلِ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ.

الشرح: تناسختهم، أي تناقلتهم، والتناسخ في الميراث: أنْ يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم لم يقَسَّم، كأن ذلك تناقل من واحد إلى آخر، ومنه: نسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته، أي نقلت ما فيه. ويروى: «تناسلتْهم».

والسّلَف: المتقدمون، والخلف: الباقون، ويقال: خَلَفُ صدق بالتحريك، وخَلْفُ سوء بالتسكين.

وأفضت كرامة الله إلى محمد ﷺ، أي انتهت. والأرومات: جمع أرومة وهي الأصل، ويقال أروم بغير هاء: وصدع: شقّ، وانتجب: اصطفى. والأسرة: رهط الرجل.

وقوله: «نبتت في حرم» يجوز أن يعني به مكّة، ويجوز أن يعني به المنعة والعزّ.

ويشهد: طالت. ومعنى قوله: «وثمر لا ينال» ليس على أن يريد به أن ثمرها لا ينتفع به، لأن ذلك ليس، بمدح بل يريد به أنّ ثمرها لا ينال قهراً، ولا يجنى غصباً. ويجوز أنْ يريد بثمرها نفسه ﷺ، ومَنْ يجري مجراه من أهل البيت ﵈، لأنهم ثمرة تلك الشجرة.

ولا ينال، أي لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد، وقد روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فضل قريش وبني هاشم الكثير المستفيض، نحو قوله عليه السلام : «قدّموا قريشاً ولا تقدُموها»[(١)].

وقوله: «الأئمة من قريش»[(٢)]، وقوله: «إن الله اصطفى من العرب مَعَدًا، واصطفى من معدٍّ بني النضر بن كنانة، واصطفى هاشماً من بني النضر، واصطفاني من بني هاشم»[(٣)]، وقوله: «إن جبرائيل عليه السلام قال لي: يا محمد قد طفتُ الأرض شرقاً وغرباً فلم أجدْ فيها أكرَم منك، ولا بيتاً أكرم من بني هاشم»[(٤)]، وقوله: ونقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية»[(٥)]، وقوله عليه السلام : «إن الله تعالى لم يمسسْني بسفاح في أرومتي منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبد الله بن عبد المطلب»، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «سادة أهل محشر، سادة أهل الدنيا: أنا وعلي وحسن وحسين وحمزة وجعفر»[(٦)]، وقوله وقد سمع رجلاً ينشد:

يا أيّها الرجلُ المحوِّل رحلَهُ   هلاَّ نزلتَ بآل عبد الدار؟

أهكذا قال يا أبا بكر؟ منكراً لما سمع، فقال أبو بكر: لا يا رسول الله، إنه لم يقل هكذا ولكنه قال:

يا أيُّها الرجلُ المحوِّل رَحْلَهُ   هلَّا نزلتَ بآل عبد منافِ؟

عَمْرو العُلاَ هَشَمَ الثريدَ لقومِهِ   وَرِجالُ مكة مُسْنِتونَ عِجافُ

فسرّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، وقوله: «أذلّ الله من أذلّ قريشاً»[(٧)]، قالها ثلاثاً، وكقوله: «أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[(٨)] وكقوله: «الناس تبعٌ لقريش، بَرّهم لبرهم، وفاجرهم

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٥)، والشافعي في «مسنده» (١/ ٢٧٨)، والبزار في «مسنده» (٤٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٧٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٨٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٨٩٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٣٨٨)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ١٤٣)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٤٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٠٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي مختصراً في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي (ص) (٣٦٠٦) ومسلم في الفضائل، باب: فضل نسب النبي صلى الله عليه وآله وسلم (٢٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٤٢).

(٤) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.   (٥) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.

(٦) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٩٤٠) بلفظ: «سادة أهل الجنة...» وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وابن ماجه في «سننه» كتاب: الفتن، باب: خروج المهدي (٤٠٨٧).

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور».

(٨) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: من قاد دابة غيره في الحرب (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٦)، والترمذي في الجهاد، باب: ما جاء في الثبات عند القتال (١٦٨٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٠٠٠).

لفاجرهم»[١]، وكقوله: «أنا ابنُ الأكرمين»[٢]، وقوله لبني هاشم: «والله لا يُبغضُكم أحد إلا أكبّه الله على منخريه في النار»[٣]، وقوله: «ما بال رجال يزعمون أن قرابتي غير نافعة! بلى إنها لنافعة، وإنه لا يُبغِضُ أحدٌ أهلي إلا حرمه الله الجنة»[٤].

والأخبار الواردة في فضائل قريش وبني هاشم وشرفهم كثيرة جداً، ولا نرى الإطالة ها هنا باستقصائها.

وسطع الصبح يسطعُ سطوعاً، أي ارتفع، والسَّطيع: الصبح. والزَّند: العود تقدح به النار، وهو الأعلى، والزَّندة: السفلى فيها ثقب، وهي الأنثى، فإذا اجتمعا قيل: زَندان ولم يُقَلْ: «زندتان»، تغليباً للتذكير، والجمع زناد وأزنُد وأزناد.

والقصد: الاعتدال. وكلامه الفصل، أي الفاصل، والفارق بين الحق والباطل وهو مصدر بمعنى الفاعل، كقولك: رجل عَدْل، أي عادل.

والهفوة: الزّلة، هفا يهفو. والغباوة: الجهل وقلت الفطنة، يقال: غبيت عن الشيء وغبيت الشيء أيضاً، أغبى غباوة إذا لم يفطن له، وغبيَ عليّ الشيء كذلك، إذا لم تعرفه، وفلان غبيٌّ على «فعيل»، أي قليل الفطنة.

الأصل: ٱعْمَلُوا - رَحِمَكُمُ ٱللهُ - عَلَى أَعْلاَمٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ ٱلسَّلاَمِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ، وَٱلصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَٱلْأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ، وَٱلْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَٱلْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَٱلتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَٱلْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ.

الشرح: الطريق: يذكّر ويؤنث، يقال: هذا الطريق الأعظم، وهذه الطريق العُظمى، والجمع أطرِقه وطرُق.

وأعلام بيّنة، أي منار واضح. ونهج، أي واضح. ودار السلام: الجنة، ويروى: «والطريق نهج» بالواو، واو الحال.

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٥١٢).

(٢) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.

(٣) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٠٣٦) بلفظ «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أكبه الله في النار» وهو جزء من حديث طويل.

وأنتم في دار مستعتَب، أي في دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه، واستعتابه.

ثم شرح ذلك فقال: أنتم ممهلون متفرّغون، وصحف أعمالكم لم تطوَ بعد، وأقلام الحَفَظة عليكم لم تجف بعد، وأبدانكم صحيحة، وألسنتكم ما اعتُقلت كما تعتقل ألسنة المحتَضرين عند الموت، وتوبتكم مسموعة وأعمالكم مقبولة، لأنكم في دار التّكليف لم تخرجوا منها.

٩٤ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها حال الناس عند البعثة

الأصل: بَعَثَهُ وَٱلنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ ٱسْتَهْوَتْهُمُ ٱلْأَهْوَاءُ وَٱسْتَزَلَّتْهُمُ ٱلْكِبْرِيَاءُ، وَٱسْتَخَفَّتْهُمُ ٱلْجَاهِلِيَّةُ ٱلْجَهْلاَءُ، حَيَارَىٰ فِي زَلْزَالٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّصِيحَةِ، وَمَضَىٰ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى ٱلْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ.

الشرح: حاطبون في فتنة: جمع حاطب، وهو الذي يجمع الحَطَب، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ، أو يتكلّم بالغثّ والسمين: حاطب ليل، لأنه لا يبصر ما يجمع في حَبْله. ويروى: «خابطون».

واستهوتهم الأهواء: دعتهم إلى نفسها.

واستزلّتهم الكبرياء: جعلتهم ذوي زلل وخطأ. واستخفّتهم الجاهلية: جعلتهم ذوي خِفّة وَطيْشٍ وخُرْق.

والزلزال، بالفتح: الاسم، وبالكسر: المصدر، والزلازل: الشدائد، ومثله في الكسر عند الاسمية والفتح عند المصدر «القَلْقال».

٩٥ - ومن خطبة له عليه السلام في تحميد الله وتعظيمه

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْأَوَّلِ فَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَٱلْآخِرِ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ، وَٱلظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ، وَٱلْبَاطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ.

الشرح: تقدير الكلام: والظاهر فلا شيء أجلَى منه، والباطن فلا شيء أخفى منه، فلما كان الجلاءُ يستلزم العلوّ والفوقية، والخفاء يستلزم الانخفاض والتحتيّة، عَبّر عنهما بما يلازمهما، وقد تقدم الكلامُ في معنى الأول والآخر والظاهر والباطن.

وذهب أكثر المتكلّمين إلى أن الله تعالى يعدم أجزاء ثم يعيدها، وذهب قوم منهم إلى أنّ الإعادة إنما هي جمع الأجزاء بعد تفريقها لا غير.

واحتجّ الأولون بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾[(١)]، قالوا: لما كان أوّلاً بمعنى أنّه الموجود ولا موجود معه، وجب أن يكون آخراً بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كلّ شيء إلا ذاته تعالى، كما كان أولاً، والبحث المستقصى في هذا الباب مشروح في كتبنا الكلاميّة.

الأصل: ومنها في ذكر الرسول ﷺ: **مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ ٱلْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ ٱلسَّلاَمَةِ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ ٱلْأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ ٱلْأَبْصَارِ، دَفَنَ ٱللهُ بِهِ ٱلضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ ٱلنَّوَائِرَ، أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، وَأَعَزَّ بِهِ ٱلذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ ٱلْعِزَّةَ، كَلاَمُهُ بَيَانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ.**

الشرح: المِهاد: الفِراش، ولما قال: «في معادن»، وهي جمع معدن، قال بحكم القرينة والازدواج: «ومَمَاهد» وإن لم يكن الواحد منها «ممْهداً»، كما قالوا: الغدايا والعشايا. ومأجورات ومأزوات، ونحو ذلك. ويعني بالسلامة ها هنا البراءة من العيوب، أي في نسب طاهر غير مأفون ولا معيب.

ثم قال: «قد صُرِفت نحوه»، أي نحو رسول الله ﷺ، ولم يقل مَنْ صرفَها، بل جعله فعلاً لم يُسَمّ فاعله، فإن شئت قلت: الصارف لها هو الله تعالى لا بالجبْر كما يقوله الأشعريّة، بل بالتوفيق واللطف، كما يقوله أصحابنا، وإن شئت قلت: صرفها أربابُها.

والضغائن: جمع ضغينة، وهي الحِقْد. ضَغِنت على فلان بالكسر ضِغْناً والضِّغْن الاسم، كالضغينة، وقد تضاغنوا واضطغنوا: انطوَوْا على الأحقاد. ودَفَنها: أكمنها وأخفاها. وألّف به إخواناً، لأنّ الإسلام قد ألّف بين المتباعدين، وفرق بين المتقاربين، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾[(٢)]، قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما، وألّف بين عليّ عليه السلام وعمّار مع تباعدهما.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

قوله عليه السلام: «وَصَمْتُه لسان»، لا يعني باللسان ها هنا الجارحة نفسهما، بل الكلام الصادر عنها، كقول الأعشى:

إنّـي أتـتـنـي لِـسَـانٌ لا أسـرّ بـهـا

قالوا في تفسيره: أراد الكلمة، وجمعه على هذا ألسن، لأنه مؤنث، كقولك: ذراع وأذرع، فأمّا جمع لسان للجارحة فألسِنة، لأنه مذكّر، كقولك: حمار وأحمرة، يقول عليه السلام: إن كلامَ الرَّسول الله صلى الله عليه وآله بيان، والبيان إخراج الشيء من حَيّز الخفاء إلى حَيّز الوضوح، وصمته صلى الله عليه وآله كلام وقول مفيد، أي أن صمته لا يخلو من فائدة، فكأنه كلام، وهذا من باب التشبيه المحذوف الأداة، كقولهم: يده بَحْر، ووجهه بدر.

٩٦ - ومن كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه

الأصل: وَلَئِنْ أَمْهَلَ ٱللهُ ٱلظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ، عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ.

أَمَا وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحقِّ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي، وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ ٱلْأُمَمُ تخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي.

ٱسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا.

شُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ. أَتْلُو عَلَيْكُمُ ٱلْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ ٱلْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ. أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ ٱلْحَنِيَّةِ عَجَزَ ٱلْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ ٱلْمُقَوَّمُ.

أَيُّهَا القومُ، ٱلشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، ٱلْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، ٱلْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ، صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ ٱللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ ٱلشَّامِ يَعْصِي ٱللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ! لَوَدِدْتُ وَٱللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ ٱلدِّينارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!

يَا أَهْلَ ٱلْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ وَٱثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ ٱلْبَلاَءِ.

تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ ٱلإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ.

وَٱللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أن لَوْ حَمِسَ ٱلْوَغَى، وَحَمِيَ ٱلضِّرَابُ، قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱنْفِرَاجَ ٱلْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِها. وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَىٰ ٱلطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً.

الشرح: أمهله: أخّره، وأخذُه فاعل، والمفعول محذوف تقديره: «فلن يفوته». والمرصاد: الطريق، وهي من ألفاظ الكتاب العزيز.

ومجاز طريقه: مسلكه وموضع جوازه. والشَّجا: ما ينشَب في الحلق من عظم أو غيره، وموضع الشَّجا: هو الحَلق نفسه. ومساغُ ريقه: موضع الإساغة، أسغت الشراب: أوصلتُه إلى المعدة. ويجوز: سغت الشراب أسُوغه وأسيغه، وساغ الشرابُ نفسُه يسوغ سَوْغاً، أي سَهُل مدخله في الحَلق، يتعدّى ولا يتعدّى. وهذا الكلام من باب التوسّع والمجاز، لأنّ الله تعالى لا يجوز عليه الحصول في الجهات، ولكنه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]. وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2].

ثم أقسم عليه السّلام أنّ أهل الشام لا بدّ أن يظهروا على أهل العراق، وأنّ ذلك ليس لأنّهم على الحقّ وأهلُ العراق على الباطل، بل لأنّهم أطوَعُ لأميرهم، ومدَار النّصرة في الحرب إنّما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره، لا على اعتقاد الحقّ، فإنه ليس يُغْنِي في الحرب أن يكون الجيش محقًّا في العقيدة إذا كان مختلف الآراء، غير مطيع لأمر المدبّر له، ولهذا تجدُ أهل الشرك كثيراً ما ينتصرون على أهل التوحيد.

ثم ذكر عليه السلام نكتة لطيفة في هذا المعنى، فقال: العادة أنّ الرعيّة تخاف ظلم الوالي، وأنا أخاف ظلم رعيتي، ومَنْ تأمّل أحواله عليه السلام في خلافته، علم أنّه كان كالمحجور عليه، لا يتمكّن من بلوغ ما في نفسه، وذلك لأنّ العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين، وكان السواد الأعظم، لا يعتقدون فيه الأمر الذي يجب اعتقادُه فيه، ويرون تفضيلَ مَنْ تقدّمه من الخلفاء عليه، ويظنّون أن الأفضليّة إنما هي الخلافة، ويقلّد أخلافُهم أسلافَهم، ويقولون: لولا أنّ

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٢) سورة قٓ، الآية: ١٦.

الأوائل علموا فضل المتقدّمين عليه لما قدموهم، ولا يرونه إلا بعين التبعيّة لمن سبقه، وأنه كان رعيّة لهم، وأكثرهم إنما يحارب معه بالحميّة وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة، وكان عليه السلام مدفوعاً إلى مداراتهم ومقاربتهم، ولم يكن قادراً على إظهار ما عنده، ألا ترى إلى كتابه إلى قضاته في الأمصار. وقوله: «فاقضوا كما كنتم تقضون، حتى تكون للناس جماعة، وأموتَ كما مات أصحابي»، وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير، ومعناه واضح، وهو أنه قال لهم: أتبعُوا عادتكم الآن بعاجل الحال في الأحكام والقضايا التي كنتم تقضُون بها إلى أن يكون للناس جماعة، أي إلى أن تُسْفر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة، وحينئذ أعرفكم ما عندي في هذه القضايا والأحكام التي قد استمررتم عليها.

ثم قال: «أو أموت كما مات أصحابي»، فمن قائل يقول: عنى بأصحابه الخلفاء المتقدّمين ومن قائل يقول: عَنَى بأصحابه شيعتَه كسلمان، وأبي ذرّ، والمقداد، وعمّار، ونحوهم، ألا ترى إلى قوله على المنبر في أمّهات الأولاد: «كان رأيي ورأي عمر ألاَّ يُبَعْن، وأنا أرى الآن يبعهنّ»، فقام عليه عبيدة السلمانيّ فقال له: رأيكَ مع الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك، فما أعاد عليه حَرْفاً، فهل يدلّ هذا على القوة والقهر، أم على الضعف في السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضي في ذلك الوقت غير السكوت والإمساك! ألا ترى أنه كان يقرأ في صلاة الصبح وخَلْفه جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعاً صوته، معارضاً قراءة أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[1]. فلم يضطرب عليه السلام، ولم يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضاً له على البديهة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2]. وهذا صبر عظيم وأناة عجيبة وتوفيق بيِّن، وبهذا ونحوه استدل أصحابنا المتكلّمونَ على حُسْن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ مَنْ مُنِيَ بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصي له، المتمرّد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، وقَتَل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغَه، ولا يقدر أحدٌ قدره، وقد قال بعض المتكلّمين من أصحابنا: إنّ سياسة عليّ عليه السلام إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالإضافة إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، جرت مَجْرَى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذُّره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تَذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً وتتولاّه وتبرأ من أعدائه، والأخرى - وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل الغناء والبأس - يعتقدون أن عثمان قُتِل لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم مَنْ يصرح بتكفيره، وكلٌّ من هاتين الفرقتين يزعُم أن علياً عليه السلام موافق لها على رأيها. وتطالبه في كل وقت بأن يبديَ مذهبه في عثمان، وتسأله أن يجيبَ بجواب واضح في أمره، وكان عليه السلام، يعلم أنّه متى وافق إحدى الطائفتين باينتْه الأخرى،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الروم، الآية: ٦٠.

وأسلمته وتولتْ عنه وخذلته، فأخذ عليه السلام يعتمد في جوابه ويستعمل في كلامه ما تظنّ به كلّ واحدة من الفرقتين أنه يوافق رأيها ويماثل اعتقادَها، فتارة يقول: الله قتله وأنا معه، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنّه أراد أن الله أماتَه وسيميتني كما أماته، وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنّه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضاً، وكذلك قوله تارة أخرى: «ما أمَرْت به ولا نَهيت عنه»، وقوله: «لو أمرت به لكنت قاتلاً، ولو نهيت عنه لكنت ناصراً»، وأشياء من هذا الجنس مذكورة مروية عنه، فلم يزل على هذه الوتيرة حتى قُبِض عليه السلام، وكلّ من الطائفتين موالية له معتقدة أن رأيه في عثمان كرأيها، فلو لم يكن له من السّياسة إلا هذا القَدْر - مع كثرة خوض الناس حينئذ في أمر عثمان والحاجة إلى ذكره في كل مقام - لكفاه في الدلالة على أنه أعرَفُ الناس بها، وأحذقهم فيها، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام، وتدبير أحوال الرجال.

ثم نعود إلى الشرح:

قوله عليه السلام: «ونصحت لكم»، هو الأفصح، وعليه، ورد لفظ القرآن، وقول العامة: «نصحتك» ليس بالأفصح.

قوله: «وعَبيد كأرباب» يصفهم بالكِبْرِ والتِّيه.

فإن قلت: كيف قال عنهم إنّهم عبيد وكانوا عَرَباً صليبة؟ قلت: يريد أنّ أخلاقهم كأخلاق العبيد، من الغَدْر والخلاف ودناءة الأنفس، وفيهم مع ذلك كِبْر السادات والأرباب وتيههم، فقد جمعوا خِصالَ السُّوء كلها.

وأيادي سبأ، مثل يضرب للمتفرّقين، وأصله قولُه تعالى عن أهل سبأ: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[1] وسبأ مهموز، وهو سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان، ويقال: ذهبوا أيدي سبا وأيادي سبا، الياء ساكنة، وكذلك الألف، وهكذا نقل المثل، أي ذَهَبوا متفرّقين، وهما اسمان جعلا واحداً، مثل معدي كرب.

قوله: «تتخادَعُون عن مواعظكم»، أن تمسكون عن الاتّعاظ والانزجار، وتُقْلعون عن ذلك، من قولهم: كان فلان يُعطي ثم خدع، أي أمسك وأقلع. ويجوز أن يريد: تتلوّنون وتختلفون في قبول الموعظة، من قولهم: خلق فلان خَلُق خادع، أي متلوّن، وسوق خادعة أي مختلفة متلوّنة، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها، لأنه إنما يقال: فلان يتخادع لفلان، إذا كان يُريه أنّه منخدع له وليس بمنخدع في الحقيقة، وهذا لا يطابق معنَى الكلام.

والحَنيّة: القوس. وقوله: «كظهر الحنيّة»، يريد اعوجاجهم، كما أنّ ظهر القوس معوجّ. وأعضل المقوّم، أي أعضل داؤه، أي أعيا. ويروى: «أيّها الشاهدةُ أبدانهم» بحذف الموصوف.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٩.

ثم أقسم أنّه يودّ أن معاوية صارَفه بهم، فأعطاه من أهل الشام واحداً، وأخذ منه عشرة، صَرْف الدينار بالدراهم، أخذ هذا اللفظ عبدُ الله بن الزبير لَمّا وفد إليه أهلُ البصرة، وفيهم الأحنف، فتكلّم منهم أبو حاضر الأسديّ، وكان خطيباً جَمِيلاً، فقال له عبد الله بن الزّبير: اسكتْ، فوالله لوَدِدْت أنّ لي بكلّ عشرة من أهل العراق واحداً من أهل الشام صَرْف الدينار بالدراهم، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لنا ولك مثَلاً، أفتأذن في ذكره؟ قال: نعم. قال: مَثلُنا ومثلُك ومثل أهل الشام قولُ الأعشى:

عُـلِّـقْـتُـهَـا عَـرَضـاً وَعُـلِّـقَـتْ رَجُـلاً غَيْرِي، وَعُلِّقَ أُخرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

أحبّك أهلُ العراق وأحببتَ أهل الشام وأحبّ أهل الشام عبدَ الملك فما تصنع؟ ثم ذكر عليه السلام أنهُ مُنِيَ، أي بُلِيَ منهم بثلاث واثنتين، إنما لم يقل بخمس، لأن الثلاث إيجابية والاثنتين سَلْبية، فأحبّ أن يفرّق بين الإثبات والنفي.

ويروى: «لا أحرار صدُق عند اللقاء» جمع صادق. ولا إخوان ثقة عند البلاء، أي موثوق بهم.

تربتْ أيديكم، كلمة يدعى على الإنسان بها، أي لا أصَبْتُم خيراً، وأصل «ترب» أصابه التراب، فكأنه يدعو عليه بأن يفتقر حتى يلتصق بالتراب.

قوله: «فما إخالكم» أي فما أظنُّكم، والأفصح كسر الألف وهو السماع، وبنو أسد يفتحونها وهو القياس.

قوله: «ألّو» أصله «أن لو» ثم أدغمت النون في الألف فصارت كلمة واحدة.

وحمِس الوغى، بكسر الميم: اشتدّ وَعَظُم، فهو حمس وأحمس، بيّن الحمَس والحماسة. والوغى في الأصل: الأصوات والجلبة، وسميت الحرب نفسها وَغًى لما فيها من ذلك.

وقوله: «انفراج المرأة عن قُبُلها»، أي وقت الولادة.

قوله: «ألقطه لَقْطاً» يريد أنّ الضلال غالب على الهدى، فأنا التقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لقطاً من ها هنا وها هنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة، قد اكتَنَفها الشَّوْك والعَوْسَج من جانبيْهما كليهما، فهو يلتقط النَّهج التقاطاً.

الأصل: أنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا.

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فَما أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ ٱلْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ المِعْزَىٰ، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ، إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّىٰ تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَما يَمِيدُ ٱلشَّجَرُ يَوْمَ ٱلرِّيحِ ٱلْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ.

الشرح: السَّمْت: الطريق، ولَبَد الشيء بالأرض، يلبُد بالضم لُبوداً: التصق به. ويصبحون شعثاً غبْراً، من قَشَف العبادة وقيام الليل وصوم النهار وهجر الملاذ، فيراوحون بين جِباههم وخدودهم، تارة يسجدون على الجباه، وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة، تذلّلاً وخضوعاً. والمراوحة بين العمل: أن يعمَل هذا مَرّة وهذا مرة، ويراوح بين رجليه، إذا قام على هذه تارة وعلى هذه أخرى.

ويقال معزى لهذا الجِنْس من الغنم ومَعِز ومعيز وأُمعوز ومَعْز، بالتسكين، وواحد المعْز ماعز، كصَحْب وصاحب، والأنثى ماعزة والجمع مواعز. وهملتْ أعينُهم: سالَت، تهمُل وتهمِل. ويروى «حتى تُبَلّ جباههم»، أي يبلّ موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته. ومادُوا: تحرّكوا واضطربوا، إما خوفاً من العقاب كما يتحرّك الرجل ويضطرب، أو رجاء للثواب كما يتحرّك النشوان من الطرب، وكما يتحرك الجذِل المسرورُ من الفَرَح.

٩٧ – ومن كلام له عليه السلام في وصف بني أمية

الأصل: وَٱللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتَّىٰ لاَ يَدَعُوا لله مُحَرَّماً إِلاَّ ٱسْتَحَلُّوهُ، وَلاَ عَقْداً إِلاَّ حَلُّوهُ، وَحَتَّى لاَ يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رِعَتِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّىٰ تكونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ ٱلْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِالله ظَنّاً، فَإِنْ أَتَاكُمُ ٱللهُ بِعَافِيَةٍ فاقْبَلُوا، وَإِنِ ٱبْتُلِيتُمْ فاصْبِرُوا، فَإِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

الشرح: تقدير الكلام: لا يزالون ظالمين، فحذف الخبر وهو مراد، وسدّت «حتى» وما بعدها مسدّ الخبر، ولا يصحّ ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنّ «زال» بمعنى تحرك

وانتقل، فلا تكون محتاجة إلى خبر، بل تكون تامة في نفسها، لأنّ تلك مستقبلها يزول بالواو، وما هنا بالألف لا يزالون، فهي الناقصة التي لم تأتي تامّة قطّ، ومثلها في أنّها لا تزال ناقصة: ظلّ وما فتىء وليس.

والمحرّم: ما لا يحلّ انتهاكه وكذلك المحرّمة بفتح الراء وضمها.

وبيوت المَدَر: هي البيوت المبنيّة في القُرى، وبيوت الوبر: ما يتّخذ في البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن، وكالشعر للمعِز.

وقد وَبِر البعيرُ بالكسر، فهو وَبِر وأوبر، إذا كثر وبرُه. ونبا به منزله: إذا ضرّه ولم يوافقه، وكذلك نبا به فِراشُه، فالفعل لازم، فإذا أردت تعديتَه بالهمزة قلتَ: قد أنبى فلان على منزلي، أي جعله نابياً، وإنْ عَدّيته بحرف الجر قلت: قد نبا بمنزلي فلان، أي أنباه عليّ، وهو في هذا الموضع معدًى بحرف الجرّ.

وسوء رِعتهم أي سوء ورعهم، أي تقواهم والورع بكسر الراء: الرّجُل التقيّ، ورع يرع بالكسر فيهما ورعاً ورِعَةً، ويروى: «سوء رَعْيهم»، أي سوء سياستهم وإمْرَتهم. ونصرة أحدكم من أحدهم، أي انتصاره منه وانتقامه، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل، وقد تقدم شرح هذا المعنى، وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نُصرة العبد وتقدير الكلام: حتى يكون نصرةُ أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيّد العبد السَّيِّئ الطريقة إياه «ومن» في الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره مِنْ جانب أحدهم ومن جانب سيده، وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله: «إذا شهد أطاعه»، وهو الكلام الذي إذا استمرّ المعنى جعل حالاً من العبد بقوله: «من سيده» والضمير في قوله: «فيها» يرجع إلى غير مذكور لفظاً، ولكنه كالمذكور، يعني الفتنة، أي حتى يكون أعظمكم في الفتنة غناء.

ويروى برفع: «أعظمكم» ونصب «أحسنكم» والأول أليق، وهذا الكلام كلّه إشارة إلى بني أمية.

٩٨ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا

الأصل: نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ المُعَافَاةَ فِي ٱلْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ ٱلْمُعَافَاةَ فِي ٱلْأَبْدَانِ.

أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلتَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَٱلْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً

فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ، وَكَمْ عَسَىٰ ٱلْمُجْرِي إِلَى ٱلْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ ٱلْمَوْتِ يَحْدُوهُ، وَمُزْعِجٌ فِي ٱلدُّنْيَا عَنِ ٱلدُّنْيَا حَتَّىٰ يُفَارِقَهَا رَغْماً!

فَلاَ تَنَافَسُوا فِي عِزِّ ٱلدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلاَ تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى ٱنْقِطَاعٍ، وَزِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى ٱنْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ.

أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثارِ ٱلأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ، وَفِي آبَائِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ!

أَوَ لَمْ تَرَوْا إِلَى ٱلْماضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعونَ، وَإِلَى ٱلْخَلَفِ ٱلْبَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ! أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ ٱلدُّنْيَا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّىٰ: فَمَيْتٌ يُبْكَىٰ، وَآخَرُ يُعَزَّىٰ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلًى، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَٱلْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَعَلَى أَثَرِ ٱلْمَاضِي مَا يَمْضِي ٱلْبَاقِي!

أَلاَ فَاذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ ٱلشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ ٱلأُمْنِيَّاتِ، عِنْدَ ٱلْمُسَاوَرَةِ لِلأَعْمَالِ ٱلْقَبِيحَةِ، وَٱسْتَعِينُوا ٱللهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لاَ يُحْصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ.

الشرح: لما كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه، لأنّ المجهول لا يحمَد عليه، ولما كان المستقبل غيرَ معلوم جعل الاستعانة بإزائه، لأنّ الماضيَ لا يُستعان عليه، ولقد ظَرُف وأبدع عليه السلام في قوله: «ونسألُه المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان»، وذلك أنّ للأديان سُقماً وطبًّا وشفاء، كما أنّ للأبدان سُقماً وطبّاً وشفاء، قال محمود الورّاق:

وإذا مَرِضْتَ من الذُّنُوبِ فداوِها ... بالذكرِ إنّ الذِّكْرَ خيرُ دواءِ
والسُّقْم في الأبدان لَيْسَ بضائرٍ ... والسُّقْم في الأديان شرّ بَلاَءِ

وقيل لأعرابيّ: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي؟ قال: الجنّة، قيل: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

سمعتْ عفيرة بنت الوليد البَصْريّة العابدة رجلاً يقول: ما أشدّ العمَى على من كان بصيراً! فقالت: عبدَ الله! غَفَلْتَ عن مرض الذنوب، واهتممت بمرض الأجساد، عَمَى القلوب عن الله أشدُّ من عمى العين عن الدنيا، ودِدْت أن الله وهب لي كُنْهَ محبّته، ولم يُبق مني جارحة إلا تَبلها.

قيل لحسان بن أبي سنان في مرضه: ما مرضُك؟ قال: مرض لا يفهمه الأطباء، قيل: وما هو؟ قال: مرض الذنوب، فقيل: كيف تجدُك الآن؟ قال: بخير إن نجوتُ من النار، قيل: فما تشتهي؟ قال: ليلة طويلةً بعيدةُ ما بين الطرفين أُحْيِيها بذكر الله.

ابن شُبْرُمة: عجبتُ ممّن يحتمِي من الطّعام مخافة الداء، كيف لا يحتمِي من الذنوب مخافة النار!

قوله عليه السلام: «الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبُّوا تركها» معنى حسن، ومنه قول أبي الطّيّب:

كلّ دَمْعٍ يسيلُ منها عليْهَا ... وبِفكّ اليدين عنها تُخَلّى

والرفض: التَّرْك، وإبل رَفْض: متروكة ترعى حيث شاءت، وقوم سَفْر، أي مسافرون. وأمُّوا: قَصَدوا، والعَلَم: الجبل أو المنار في الطريق يهتدي به.

وكأنّ في هذه المواضع كهي في قوله: «كأنّك بالدنيا لم تكُنْ، وكأنّك بالآخرة لم تزل، ما أقرب ذلك وأسرعه»، وتقدير الكلام ها هنا: كأنّهم في حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له، وكأنهم في حال كونهم غير بالغين له بالغون له، لأنه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شُبِّهوا وهم في الحال الأولى بهم أنفسِهم وهم على الحال الثانية.

قوله عليه السلام: «وكم عسى المجرِي» أجْرَى فلان فرسه إلى الغاية، إذا أرسلها، ثم نقل ذلك إلى كل مَنْ يقصِد بكلامه معنًى أو فعله غرضاً، فقيل: فلان يجرِي بقوله إلى كذا، أو يجرِي بحركته الفلانية إلى كذا، أي يقصد وينتهي بإرادته وأغراضه ولا يعدوه ولا يتجاوزه.

والحثيث: السريع. ويحدوه: يسوقه. والمنافسة: المحاسدة، ونفست عليه بكذا، أي ضَنِنت. والبُؤس: الشدّة. والنفاد: الفناء.

وما في قوله: «على أثر الماضي ما يمضي الباقي» إمّا زائدة مصدرية، وقد أخذ هذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مَسْلَمة بن عبد الملك، قيل: لما مات مسلمة بن عبد الملك، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جِنازته، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نَشْوان ثَمِل يجرّ مُطْرَف خزّ، وهو يندب مسلمة ومواليه حوله، فوقف على هشام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن عُقْبَى مَنْ بقي لحوق مَنْ مَضَى، وقد أقفر بعد مسلمة الصّيدُ لمن رمى، واختلّ الثغر فوهَى، وارتجّ الطّود فهوى، وعلى أثرِ مَنْ سلف ما يمضي من خَلَف، فتزوّدُوا فإن خير الزاد التقوى.

قوله عليه السلام: «عند مساورة الأعمال القبيحة» العامل في «عند» قوله: «اذكروا» أي ليكن ذكرُكم الموت وقت مساورَتِكم، والمساورة: المواثبة، وسارَ إليه يَسُور سَوْراً: وثب، قال الأخطل يصف خمراً له:

لما أتوها بمصباحٍ وَمِبْزَلِهِمْ ... سَارَتْ إليهم سُؤورَ الأبجل الضاري

أي كوثوب العِرْق الذي قد فُصِد أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه، ويقال: إنّ لغَضَبِه لَسَوْرة، وهو سَوّار، أي وثّاب مُعَرْبِد.

٩٩ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر محمداً وما تركه في أصحابه

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلنَّاشِرِ فِي ٱلْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَٱلْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّىٰ أَمِيناً، وَمَضَىٰ رَشِيداً، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ ٱلْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ. دَلِيلُهَا مَكِيثُ ٱلْكَلاَمِ، بَطِيءُ ٱلْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ ٱلْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ ٱللهُ، حَتَّى يُطْلِعَ ٱللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلاَ تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ ٱلْمُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدىٰ قَائِمَتَيْهِ، وَتَثْبُتَ ٱلأُخْرَىٰ فَتَرْجِعَا حَتَّىٰ تَثْبُتَا جَمِيعاً.

أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ ٱلسَّمَاءِ، إِذَا خَوَىٰ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ ٱللهِ فِيكُمُ ٱلصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

الشرح: يده ها هنا: نعمته، يقال: لفلان عندي يد، أي نعمة وإحسان، قال الشاعر:

فإنْ تَرْجِعِ الأيامُ بيني وبينَها ... فإنّ لها عندي يَداً لا أُضيعُها

وصادعاً، أي مظهراً ومجاهراً للمشركين، قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[1]. وراية الحقّ: الثّقلان المخلّفان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهما الكتاب والعِتْرة.

ومَرَق: خرج، أي فارق الحَقّ، ومرق السهم عن الرميّة: خرج من جانبها الآخر، وبه سُمّيت الخوارق مارقة. وزهَقَت نفسه، بالفتح زُهوقاً، أي خرجت، قال تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[2]. وزهَقَت الناقة، إذا سبقت وتقدّمت أمام الرّكاب، وزهقَ الباطل: اضمحلّ، يقول عليه السلام: مَنْ خالفها متقدّماً لها أو متأخراً عنها فقد خرج عن الحق، ومن لازمها فقد أصابَ الحق.

ثم قال: «دليلها مَكيث الكلام»، يعني نفسَه عليه السلام، لأنه المشارُ إليه من العِتْرة، وأعلمُ

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٥.

النّاس بالكتاب. وَمكِيث الكلام: بطيئه، ورجل مَكِيث، أي رزين، والمُكْث: اللُّبْث والانتظار، مَكَث ومكُث بالفتح والضم، والاسم المُكث والْمُكْثة بالضم وكسرها، يعني أنه ذو أناة وتؤدة، ثم أكّد ذلك بقوله: «بطيء القيام».

ثم قال: «سريع إذا قام»، أي هو متأنٍّ متثبّت في أحواله، فإذا نهض جَدّ وبالغ، وهذا المعنى كثير جداً، قال أبو الطيب:

وما قلتُ للبدرِ أنت اللُّجَيْنُ ... ولا قلتُ للشَّمس أنتِ الذهبْ
فَيَقْلَقَ منهُ البعيد الأناةِ ... وَيغضَبَ منه البطيء الغضبْ

يعني سيف الدولة.

ومن أمثالهم: «يريك الهوينى والأمور تطير»، يضرب لمن ظاهره الأناة وباطنُه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون، ويقولون لمن هو كذلك: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1].

ووقّع ذُو الرِّياستين إلى عامل له: إنّ أسرَع النار التهاباً أسرعُها خموداً، فتأنَّ في أمرك. ويقال: إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال: كلّ عملٍ تريدون أن تعملوهُ فتوقّفُوا فيه ساعة، فإنّي لو توقّفت لم يصبني ما أصابني.

بعض الأعراب يوصي ولده: إياكم والعَجلة، فإن أبي كان يكنيها: أمّ الندم. وكان يقال: مَنْ ورد عَجِلاً صدر خجِلاً.

وقال ابن هانئ المغربيّ:

وكلُّ أناة في المواطن سؤدُدٌ ... ولا كأناةٍ من قديرٍ مُحَكَّم
ومنْ يَتَبَيَّنْ أنّ للصفح موضِعاً ... من السيف يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمِ
وما الرأيُ إلا بعد طول تثبُّتٍ ... ولا الحزمُ إلا بعد طول تَلَوُّمِ

وقوله عليه السلام: «بطيء القيام، سريع إذا قام» فيه شَبَهٌ من قول الشَّنْفَرَى:

مسبل في الحيّ أحْوَى رِفَلٌ[2] ... وإذا يغزو فسِمْعٌ أزَلُّ

ومن أمثالهم في مدح الأناة وذمّ العجلة: أخطأ مستعجلٌ أو كاد، وأصاب متثبّت أو كاد.

ومنها:

وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(٢) الثوب الرِّفَلُّ: الواسع، والمعيشة الرفلة: الواسعة. اللسان. مادة (رفل).

ومنها: ربّ عجلة تهب رَيْثاً:

وقال البحتريّ:

حَلِيمٌ إذا القومُ استخفَّتْ حُلُومُهُمْ   وَقُورٌ إذا ما حادثُ الدهر أجْلَبا

قال الأحنف لرجل سَبّه فأفرط: يا هذا، إنّك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال.

وقال الشّاعر:

أحلامُنَا تزِنُ الجبال رَجَاحَةً   وتخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهَلُ

مدح المقلّ من الكلام وذم المكثر

فأمّا قوله عليه السلام: «مكيثُ الكلام»، فإنَّ قلة الكلام من صِفات المدح وكثرته من صفات الذمّ. قالت جارية ابن السّمّاك له: ما أحسنَ كلامَك لولا أنك تكثر ترداده! فقال: أردِّدُه حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت: فإلى أن يفهمه مَنْ لم يفهمه قد مَلّه مَنْ فهمه.

بعث عبدُ العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابنِ أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفةً حمراء، وكتب إليه: أما بعدُ، فقد بعثتُ إليك بقطيفة حمراء، حمراء، حمراء، فكتب إليه الوليد: أما بعد، فقد وصلت القطيفة، وأنت يا عمّ أحمق، أحمق، أحمق.

وقال المعتضِد لأحمد بن الطيب السرخسيّ: طول لسانك دليلٌ على قِصَر عَقْلك.

قيل للعتّابيّ: ما البلاغة؟ قال: كلّ مَنْ أفهمَك حاجتَه من غير إعادة ولا خلْسة ولا استعانة فهو بليغ. قيل له: ما الاستعانة؟ قال: ألا ترى الرجل إذا حدّث قال: يا هناه، واستمِعْ إليّ، وافهم، وألست تفْهم؟.. هذا كلّه عيّ وفساد.

دخل على المأمون جماعة من بني العبّاس، فاستنطقهم فوجدهم لُكْناً[1]، مع يسارٍ وهيئة، ومَنْ تكلّم منهم أكثر وَهذر، فكانت حاله أفحش من حال الساكتين، فقال: ما أبين الخَلّة في هؤلاء! لا خَلّة الأيدي بل خَلة الألسنة والأحلام.

وسئل عليّ عليه السلام عن اللّسان فقال: معيارٌ أطاشه الجهل، وأرجحه العقل[2].

سمع خالد بن صفوان مكثاراً يتكلّم، فقال له: يا هذا، ليست البلاغة بخفّة اللّسان، ولا بكثرة الهذَيان، ولكنّها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة.

قال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزِّبَعرَى: ما لك لا تُسْهِب في شعرك؟ قال: حسبك من الشعر غرّة لائحة، أو وصمة فاضحة.

---

(١) اللُّكْنَةُ: عجمة في اللّسان وعيّ. لسان العرب، مادة (لكن).

(٢) أخرجه ابن شعبة الحراني في تحف العقول: ٢٠٧.

وفي خطبة كتاب «البيان والتبيين»، لشيخنا أبي عثمان: «ونَعوذ بك من شرّ السّلاطة والهذَر، كما نعوذ بك من العِيّ والحصر»، قال أُحَيحة بن الجُلاَح:

والصمتُ أجملُ بالفتى ... ما لم يكن عِيٌّ يَشِينُهْ
والقول ذو خَطَلٍ إذا ... مَا لَمْ يَكُنْ لُبٌّ يعينُهُ

وقال الشاعر يرثي رجلاً:

لَقَدْ وارى المقابرُ من شُرَيْكٍ ... كثيرَ تَحَلُّمٍ وقليلَ عابِ
صموتاً في المجالس غير عيٍّ ... جَديراً حين ينطق بالصوابِ

وكان رسول الله ﷺ: يكره التشادقَ والإطالةَ والهذرَ، وقال: «إياكَ والتشادُقَ» وقال: «أبغضُكم إليّ الثرثارون المتفيهقون».

وروى عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى، عن النبي ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء بكاءون قليلُو الكلام»[1]، رجل بَكِيٍ على «فعيل».

قال: وكانوا يكرهُون أن يزيد منطق الرجل على عَقْله.

وقيل للخليل، وقد اجتمع بابن المقفّع: كيف رأيتَه؟ فقال: لسانه أرجحُ من عقله، وقيل لابن المقفَّع: كيف رأيت الخليل؟ قال: عقله أرجحُ من لسانه. فكان عاقبتهما أن عاش الخليل مصوناً مكرَّماً، وقتِل ابن المقفع تلك القِتلة.

وسأل حفص بن سالم عمرو بن عُبيد عن البلاغة، فقال: ما بلّغك الجنّة، وباعدك عن النار، وبصّرك مواقع رشدك، وعواقب غَيّك. قال: ليس عن هذا أسأل، فقال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سَقَطات الكلام، ولا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت.

قال أبو عثمان الجاحظ: وكان عمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى: لا يكاد يتكلّم، فإن تكلّم لم يكد يطيلُ، وكان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا أطال المتكلّم الكلام عرضت له أسبابُ التكلّف، ولا خير في شيء يأتيك بالتكلّف.

وقال بعض الشعراء:

وإذا خطبتَ على الرِّجال فلا تَكُنْ ... خَطِلَ الكلام تقولُه مختالا
واعلَمْ بأنّ من السكوت إبانةً ... ومن التكلّف ما يكون خبالا

وكان يقال: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكّر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه، فإن همّ بالكلام تكلّم به.

وقال سعد بن أبي وقّاص لعمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم، وقد كان غضب عليه،

---

(١) أخرجه ابن الأثير في النهاية: ١/ ٢٣٣.

فكلّموه في الرضا عنه: هذا الذي أغضبني عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحسُ الأرضَ البقرُ بألسنتها»(١).

وقال معاوية لعمرو بن العاص في أبي موسى: قد ضُمّ إليك رجلٌ طويل اللسان قصير الرأي فأجِد الحزّ، وطبّق المفصل، ولا تلقه برأيك كلّه.

وكان يقال: لو كان الكلامُ من فضّة لكان السكوت من ذهب. وكان يقال: مقتل الرجل بين فكّيه، وقيل: بين لحييه. وكان يقال: ما شيء بأحقّ بسجنٍ من لسان. وقالوا: اللسان سبع عَقُور. وأخذ أبو بكر بطرف لسانه، وقال: هذا الذي أوردني الموارد.

لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة، أوصاها حين أخرجها إليه فقال: أمسِكي عليك الْفَضْلَيْن، قالت: وما هما؟ قال: فضل الغُلْمة، وفضل الكلام.

وسئل أعرابيّ كان يجالس الشعبيّ عن طول صمته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم.

وقال النبي ﷺ: «وهل يُكبّ الناسَ في النار على مناخِرهم إلاّ حصائدُ ألسنتهم!»(٢).

تكلّم رجل في مجلس النّبي ﷺ فخطِل في كلامه، فقال ﷺ: «ماأعطِيَ العبد شرًا من ذلاقة لسان».

قال عمر بن عبد العزيز يوم بويع بالخلافة لخالد بن عبد الله القَسْريّ، وقد أنشده متمثلاً:

وإذا الدّرّ زانَ حُسْنَ نُحورٍ ... كان للدرّ حسن نحرك زَيْنا

إن صاحبكم أعطِيَ مَقُولاً، وحُرِم معقولاً.

وقيل لإياس بن عمر: ادعُ لنا، فقال: اللّهم ارحمنا وعافنا وارزقنا، فقالوا: زدنا يا أبا الرحمن، فقال: أعوذ بالله من الإسهاب.

وكان القُباع - وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ - مِسْهاباً، سريع الحديث كثيره، فقال فيه أبو الأسود الدؤليّ:

أميرَ المؤمنين جُزِيتَ خَيْراً ... أرِحْنَا من قُبَاع بني المغيرة

بلوناهُ ولمناه فأعْيَا ... علينا ما يمرّ لنا مريرَة

على أن الفتى نِكحٌ أكولٌ ... ومسهابٌ، مذاهبُه كثيرة

وقال أبو العتاهية:

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٨٠)، والدارقطني في «العلل» (٦٢١).

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢١٥١١).

كـلّ امـرىءٍ فـي نـفـسـه   أغـلـى وأشـرفُ مـنْ قـريـنـة
والـصّـمْـتُ أجـمـلُ بـالْـفَـتَـى   مِنْ مـنـطـقٍ في غـيـر حـيـنـة

وقال الشاعر:

وإيّـاك إيّـاك الـمـراء فـإنّـه   إلى الشرّ دَعّاءٌ وللشرّ جالب

وكان يقال: العجلة قَيْد الكلام.

أطال خطيب بين يدي الإسكندر فزبَره[1]، قال: ليس حُسْن الخطبة على حَسَب طاقة الخاطب، ولكن على حسب طاقة السامع.

محمد الباقر عليه السلام: إني لأكره أن يكون مقدارُ لسان الرجل فاضلاً على مقدار علمه، كما أكره أن يكونَ مقدارُ علمه فاضلاً على مقدار عقله[2].

أطال ربيعة الرأي الكلام، وعنده أعرابيّ، فلما فرغ من كلامه، قال للأعرابيّ: ما تعدُّون العيّ والفهاهة فيكم؟ قال: ما كنتَ فيه أصلحك الله منذ اليوم!

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: إذا تمّ العقلُ نقص الكلام[3].

واصل بن عطاء: لأن يقولَ الله لي يوم القيامة: هَلاّ قلت! أحبُّ إليّ، من أن يقول لي: لِمَ قلت؟ لإني إذا قلتُ طالبني بالبرهان، وإذا سكتّ لم يطالبني بشيء.

نزل النعمان بن المنذر برابية، فقال له رجل من أصحابه: أبيت اللعن! لو ذُبح رجلٌ على رأس هذه الرابية، إلى أينَ كان يبلغ دمُه؟ فقال النعمان: المذبوح والله أنت، ولأنظرنّ إلى أين يبلغ دمُك! فذبحه. فقال رجل: ربّ كلمة تقول: دَعْني.

أعرابيّ: رب منطقٍ صَدَع جَمْعاً، وربّ سكوت شَعَب صدْعاً.

قالت امرأة لبعلها: ما لكَ إذا خرجت تطلّقت وتحدّثتَ، وإذا دخلت قعدت وسكتَّ؟ قال: لأنّي أدِقّ عن جليلك، وتجلّين عن دقيقي.

النّخَعيّ: كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلّمون الكلام.

عليّ بن هشام:

لـعـمـرك إن الـحـلـم زَيْـنٌ لأهـلـه   ومـا الـحـلـم إلا عـادةٌ وتـحـلُّـمُ
إذا لـم يـكـن صـمـتُ الـفـتـى من بَـلادةٍ   وعـيٍّ، فـإنَّ الـصـمـت أهـدى وأسـلـمُ

(١) زبَرَه: نَهَرَه. القاموس المحيط، مادة (زبر).
(٢) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٣٧٥.
(٣) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٣٨٣.

وهيب بن الورْد: إنّ الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، والعاشرة العزلة عن الناس.

مكث الربيع بنُ خثيم عشرين سنة لا يتكلّم إلى أن قُتل الحسين عليه السلام، فسُمعتْ منه كلمة واحدة، قال لما بلغه ذلك: أوَقد فعلوها! ثم قال: «اللّهمّ فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون». ثم عاد إلى السكوت حتى مات[1].

الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

زعمَ ابنُ سلْمَى أنّ حلمي ضَرّني ... ما ضَرَّ قَبْلي أهلَهُ الحِلْمُ
إنّا أناسٌ من سجيّتِهِمْ ... صِدْقُ الحديث ورأيهم حَتْمُ
لبِسُوا الحياء فإن نظرت حسبتهمْ ... سقموا ولم يَمْسَسْهُمُ سُقْمُ
إني وجدتُ العُذم أكبرُهُ ... عُذمُ العقول وذلك العُذْمُ
والمرء أكثرُ عيبه ضَرَراً ... خَطَلُ اللّسانِ وصَمْتُه حُكْمُ

جاء في الحديث المرفوع عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم المؤمنَ صموتاً فادنوا منه، فإنه يُلَقَّى الحكمة»[2].

سفيان بن عيينة: من حُرِم العلم فليصمت، فإن حُرِمَهما فالموت خير له.

وكان يقال: إذا طلبتَ صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك.

واعلم أن هذه الخطبة خطبَ بها أمير المؤمنين عليه السلام في الجمعة الثالثة من خلافته، وكَنى فيها عن حال نفسه، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه، وطاعتهم له، وهكذا وقع الأمر، فإنه نقِل أنّ أهل العراق لم يكونوا أشدَّ اجتماعاً عليه من الشهر الذي قُتِل فيه عليه السلام.

وجاء في الأخبار أنه عَقَد للحسن ابنه عليه السلام على عَشَرةِ آلاف، ولأبي أيوب الأنصاريّ على عشرة آلاف، ولفلان وفلان، حتى اجتمع له مائة ألف سَيْف، وأخرج مقدّمته أمامه يريد الشام فضربه اللعينُ ابن ملجم، وكان من أمره ما كان، وانفضّت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقد راعيها.

ومعنى قوله: «ألنتم له رقابَكم» أطعتموه، ومعنى «أشرتم إليه بأصابعكم» أعظمتموه

---

(١) أخرجه الشيخ محمد مهدي الحائري في شجرة طوبى: ٢/ ٣٩٧.
(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه»، كتاب: الزهد، باب: الزهد في الدنيا (٤١٠١) بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه، فإنه يلقى الحكمة».

وأجللتموه، كالملك الذي يشار إليه بالإصبع، ولا يخاطب باللسان. ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله، ولم يحدد ذلك بوقت معين، ثم يطلع الله لهم مَنْ يجمعهم ويضمهم، يعني من أهل البيت عليه السلام، وهذا إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت. وعند أصحابنا أنه غير موجود الآن وسيوجد، وعند الإمامية أنه موجود الآن.

قوله عليه السلام: «فلا تطمعوا في غيرِ مقبل، ولا تيأسوا من مدبر»، ظاهر هذا الكلام متناقض، وتأويله أنّه نهاهم عن أن يطمعوا في صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرياسة، وهو معنى مقبل، أي قادم، تقول: سوف أفعل كذا في الشهر المقبل، وفي السنة المقبلة، أي القادمة، يقول: كلّ الرياسات التي تشاهدونها فلا تطمعوا في صلاح أموركم بشيء منها، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم، مستأنف الرياسة خامل الذكر، ليس أبوه بخليفة، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برياسة، بل يتبَع ويعلو أمرُه، ولم يكن قبل معروفاً هو ولا أهله الأدنوْن، وهذه صفة المهديّ الموعود به.

ومعنى قوله: «ولا تيأسوا من مدبر»، أي وإذا مات هذا المهديّ وخلفه بنوه بعده، فاضطرب أمر أحدهم فلا تيأسوا وتتشككوا وتقولوا: لعلنا أخطأنا في اتباع هؤلاء، فإنّ المضطرب الأمر منّا ستثبتُ دعائمه وتنتظمُ أموره، وإذا زلّت إحدى رجليه ثبتت الأخرى فثبتت الأولى أيضاً. ويروى: «فلا تطعنوا في عين مقبل»، أي لا تحارِبوا أحداً منا ولا تيأسوا من إقبال مَنْ يدبر أمره منا. ثم ذكر عليه السلام أنّهم كنجوم السماء، كلّما خوى نجم طلع نجم. خوى: مال للمغيب.

ثم وعدهم بقرب الفرج، فقال: إنّ تكامل صنائع الله عندكم، ورؤية ما تأملونه أمر قد قَرُب وقته، وكأنكم به وقد حضر وكان، وهذا على نمط المواعيد الإلٰهية بقيام الساعة، فإنّ الكتب المنزلة كلّها صرحت بقربها، وإن كانت بعيدة عندنا، لأنّ البعيد في معلوم الله قريب، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1].

١٠٠ - ومن خطبة له عليه السلام
وهي من الخُطب التي تشتمل على ذكر الملاحم

الأصل: اَلْحَمْدُ لله اَلْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَاَلْآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ أَوَّلَ لَهُ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ آخِرَ لَهُ.

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٦، ٧.

الشرح: يقول: الباريء تعالى موجود قبل كلّ شيء، يشير العقل إليه ويفرضه أول الموجودات، وكذلك هو موجود بعد كلّ شيء، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى من جميع الموجودات، فإن الباريء سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولاً قبل كلّ ما يفرض أولاً، وبالاعتبار الثاني يكون آخراً بعد كلّ ما يفرض آخراً.

فأمّا قوله: «بأوّليَّتِهِ وجب أن لا أولّ له...»، إلى آخر الكلام، فيمكن أن يفسّر على وجهين:

أحدُهما: أنّه تعالى لما فرضناه أولاً مطلقاً، تبع هذا الفرض أن يكون قديماً أزليًا، وهو المعنيُّ بقوله: «وجب أن لا أوّل» وإنما تبعه ذلك، لأنّه لو لم يكن أزلياً لكان محدَثاً فكان له محدِث، والمحدِث متقدّم على المحدَث، لكنا فرضناه أولاً مطلقاً، أي لا يتقدّم عليه شيء، فيلزم المحال والخلف. وهكذا القول في آخريّته، لأنا إذا فرضناه آخراً مطلقاً، تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل العدم، وهو المعنيّ بقوله: «وجب أن لا آخر له» وإنما تبعه ذلك، لأنه لو لم يستحل عدمه لصح عدمه، لكن كلّ صحيح وممكن فليفرض وقوعه، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال، مع فرضنا إياه صحيحاً وممكناً، لكن فرضُ تحقّق عدمه محال، لأنه لو عدم لما عدم بعد استمرار الوجوديّة إلا بضدّ، لكن الضد المعدم يبقى بعد تحقق عدم الضدّ المعدوم لاستحالة أن يعدمه، ويعدم معه في وقت واحد، لأنه لو كان وقت عدم الطاريء هو وقت عدم الضدّ المطروء عليه، لامتنع عدم الضدّ المطروء عليه، لأن حال عدمه الذي هو الأثر المتجدّد تكون العلّة الموجبة للأثر معدومة، والمعدوم يستحيل أن يكون مؤثِّراً البتّة، فثبت أنّ الضدّ الطاريء لا بدّ أن يبقى بعد عدم المطروء عليه ولو وقتاً واحداً، لكن بقاءه بعده ولو وقتاً واحداً يناقض فرضنا كون المطروء عليه آخراً مطلقاً، لأن الضد الطاريء قد بقيَ بعده، فيلزم من الخلف والمحال ما لزم في المسألة الأولى.

والتفسير الثاني: ألا تكون الضمائر الأربعة راجعة إلى الباريء سبحانه، بل يكون منها ضميران راجعين إلى غيره، ويكون تقدير الكلام بأوليّة الأول الذي فرضنا كون الباريء سابقاً عليه، علمنا أن الباريء لا أول له، وبآخرية الآخر الذي فرضنا أنّ الباريء متأخر عنه، علمنا أنّ الباريء لا آخر له، وإنّما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولاً لأول الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل، وإثبات محدِثين ومحدَثين إلى غير نهاية، وهذا محال.

ولو كان سبحانه آخراً لآخر الموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل، وإثبات أضداد تعدم ويعدمها غيرها إلى غير نهاية، وهذا أيضاً محال.

الأصل: وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ ٱلإِعْلاَنَ، وَٱلْقَلْبُ اللِّسَانَ. أَيُّهَا النَّاسُ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، وَلاَ تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي، فَوَالَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ صلى الله عَلَيْهِ، وَآلِه مَا كَذَبَ المُبَلِّغُ، وَلاَ جَهِلَ السَّامِعُ.

لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَٱشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي ٱلْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، عَضَّتِ ٱلْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا، وَمَاجَتِ ٱلْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبَدَا مِنَ ٱلْأَيَّامِ كُلُوحُهَا، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَايَاتُ ٱلْفِتَنِ المُعْضِلَةِ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ المُظْلِمِ، وَٱلْبَحْرِ المُلْتَطِمِ.

هٰذَا وَكَمْ يَخْرِقُ ٱلْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ! وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ ٱلْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ ٱلْقَائِمُ، وَيُحْطَمُ المَحْصُودُ!

الشرح: في الكلام محذوف، وتقديره: «لا يجرمنكم شقاقي على أن تكذبوني»، والمفعول فضلة وحذفه كثير، نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[1]، فحذف العائد إلى الموصول، ومنها قوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[2]، أي مَنْ رحمه، ولا بد من تقدير العائد إلى الموصول، وقد قرىء قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[3]، مَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ، بحذف المفعول.

لا يجرمنّكم: لا يحملنّكم، وقيل: لا يكسبنّكم. وهو من الألفاظ القرآنية. ولا يستهوينكم، أي لا يستهيمنكم يجعلكم هائمين.

ولا تترامَوْا بالأبصار، أي لا يلحَظ بعضكم بعضاً، فعلَ المنكِر المكذّب.

ثم أقسم بالذي فَلَق الحبّة، وبرأ النسمة، فَلَق الحبّة من البُرّ، أي شقّها وأخرج منها الوَرق الأخضر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[4].

وبرأ النّسمة، أي خلق الإنسان، وهذا القَسَم لا يزال أمير المؤمنين يُقسم به، وهو من مبتكراته ومبتدعاته.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٣.
(٣) سورة يس، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

والمبلّغ والسامع هو نفسه عليه السلام، يقول: ما كذبتُ على الرسول تعمّداً، ولا جهلت ما قاله فأنقل عنه غلطاً.

والضِّلّيل: الكثير الضلال، كالشِّرّيب والفِسّيق ونحوهما.

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان، لأنّ هذه الصفات والأمارات فيه أتمّ منها في غيره، لأنه قام بالشام حين دَعَا إلى نفسه، وهو معنى نعيقه، وفَحَصت راياته بالكوفة، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق، وقَتل مُصعباً، وتارةً لمّا استخلَف الأمراء على الكوفة كبِشْر بن مروان أخيه وغيره، حتى انتهى الأمر إلى الحجّاج، وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثِقَل وطأته، وحينئذ صَعُب الأمر جِدًّا، وتفاقمت الفتَن مع الخوارج وعبد الرحمن بن الأشعث، فلمّا كَمَلَ أمرُ عبد الملك - وهو معنى «أينع زرعه» هلك، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده، كحروب أولاده مع بني المهلَّب، وكحروبهم مع زيد بن عليّ عليه السلام، وكالفتن الكائِنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسريّ وعمر بن هُبيرة وغيرهم، وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال، وذهاب النفوس.

وقد قيل: إنه كَنَى عن معاوية وما حدَث في أيامه من الفتن، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيد الله بن زياد، وواقعة الحسين عليه السلام، والأوّل أرجح، لأنّ معاوية في أيام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد نَعَق بالشام، ودعاهم إلى نفسه، والكلام يدلّ على إنسان ينعق فيما بعد، ألا تراه يقولُ: لكأنّي أنظر إلى ضلّيل قد نَعَق بالشام!

ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والغريب.

النعيق: صوت الراعِي بغنمه. وفَحَص براياته. من قولهم: ما له مفحَص قطاة، أي مجثمها، كأنهم جعلوا ضواحيَ الكوفة مفحَصاً ومجثماً لراياتهم.

وكوفان: اسم الكوفة، والكوفة في الأصل اسم الرملة الحمراء، وبها سميت الكوفة.

وضواحيها: نواحيها القريبة منها البارزة عنها، يريد رُسْتاقها.

وفغرت فاغرته: فتح فاه، وهذا من باب الاستعارة، أي إذا فتك فتح فاه وقتل، كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأنيف للفتنة.

والشكيمة في الأصل: حديدة معترضة في اللجام في فم الدابّة، ثم قالوا: فلان شديدُ الشّكيمة، إذا كان شديدَ المراس شديد النفس عَسِر الانقياد.

وثقلت وطأته: عظم جَوْره وظلمه. وكلوح الأيام: عبوسها، والكدوح: الآثار من الجراحات.

والقروح، الواحد الكَدْح، أي الخدش.

والمراد من قوله: «من الأيام»، ثم قال: «ومن الليالي» أنّ هذه الفتنة مستمرة الزمان كلّه، لأن الزمان ليس إلا النهار والليل.

وأينع الزرع: أدرك ونضج، وهو اليَنْع واليُنْع، بالفتح والضم، مثل النَّضج والنُّضج، ويجوز ينع الزرع بغير همز، ينَع ينوعاً، ولم تسقط الياء في المضارع لأنها تقوّت بأختها، وزرع يَنِيع ويانع، مثل نضيج وناضج. وقد روي أيضاً هذا الموضع بحذف الهمز.

وقوله عليه السلام: «وقام على ينعه» الأحسن أن يكون «ينع» ها هنا جمع يانع كصاحب وصَحْب، ذكر ذلك ابن كَيْسان، ويجوز أن يكون أراد المصدر، أي وقام على صفةٍ وحالةٍ هي نضجه وإدراكه.

وهدرت شقاشِقه، قد مرّ تفسيره في الشُّقْشقيَّة وبرقت بوارقه: سيوفه ورماحه. والمعضلة: العسرة العلاج داء معضل.

ويخرق الكوفة: يقطعها. والقاصف: الريح القوية تكسِر كلّ ما تمرُّ عليه وتقصفه. ثم وعد عليه السلام بظهور دولة أخرى، فقال: «وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون»، وهذا كناية عن الدولة العباسية التي ظهرت على دولة بني أمية. والقُرون: الأجيال من الناس، واحدها قَرنٌ، بالفتح.

وَيُحْصَدُ القائم، ويُحْطَم المحصود: كناية عن قتل الأمراء من بني أمية في الحرب، ثم قتل المأسورين منهم صَبْراً، فحصْد القائم قتل المحاربة، وحَطْم الحصِيد: القتل صبراً، وهكذا وقعت الحال مع عبد الله بن عليّ، وأبي العباس السفاح.

١٠١ - ومن خطبة له عليه السلام تجري هذا المجرى

الأصل: وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ ٱللهُ فِيهِ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لِنِقَاشِ ٱلْحِسَابِ وَجَزَاءِ ٱلْأَعْمَالِ، خُضُوعاً قِيَاماً قَدْ أَلْجَمَهُمُ ٱلْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً.

الشرح: هذا شرح حال يوم القيامة، والنّقاش: مصدر ناقش، أي استقصى في الحساب، وفي الحديث: «من نوقش الحساب عذّب»[(١)].

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب: من سمع شيئاً فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه (١٠٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب: إثبات الحساب (٢٨٧٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٦)، وأبو داود في الجنائز باب: عيادة النساء (٣٠٩٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٦٨٠).

والجمهم العَرق: سال منهم حتى بلغ إلى موضع اللِّجام من الدابة، وهو الفم. ورجفت بهم: تحرّكت واضطربت، رجف يرجُفُ بالضم، والرّجفة: الزلزلة والرجّاف من أسماء البحر، سمّي بذلك لاضطرابه.

ثم وصف الزحام الشديد الذي يكون هناك، فقال: أحسنُ الناس حالاً هناك مَنْ وَجَد لقدميْه موضعاً، ومَنْ وجد مكاناً يسعه.

الأصل: ومنها: فِتَنٌ كَقِطَعِ ٱللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ، لاَ تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلاَ تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي ٱللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ، فِي ٱلْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي ٱلسَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ، فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ ٱللهِ! لاَ رَهَجَ لَهُ وَلاَ حِسَّ، وَسَيُبْتَلَىٰ أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ ٱلْأَحْمَرِ، وَٱلْجُوعِ ٱلْأَغْبَرِ!

الشرح: قطع الليل: جمع قِطع، وهو الظلمة، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[1].

قوله: «لا تقوم لها قائمة»، أي لا تنهض بحربها فئة ناهضة، أو لا تقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل، يعني لا سبيل إلى قتال أهلها، ولا يقوم لها قلعة قائمة أو بنيَّة قائمة بل تنهدم.

قوله: «ولا يردّ لها راية»، أي لا تنهزم ولا تفرّ، لأنها إذا فرّت فقد رُدّتْ على أعقابها.

قوله: «مزمومة مرحولة»، أي تامّة الأدوات كاملة الآلات، كالناقة التي عليها رَحْلها وزمامها قد استعدّت لأن تُركب.

يحفزها: يدفعها. ويجهَدها: يحمل عليها في السَّيْر فوق طاقتها، جَهَدت دابَّتي، بالفتح، ويجوز: أجهدت، والمراد أنّ أربَاب تلك الفتن يجتهدون ويجدّون في إضرام نارِها، رُجَّلاً وفرساناً، فالرّجل كنّى عنهم بالقائد، والفرسان كنّى عنهم بالراكب.

والكَلَب: الشدّة من البرد وغيره، ومثله الكُلْبة، وقد كَلِب الشتاء، وكَلِب القحط، وكَلِب العدوّ، والكَلَب أيضاً: الشَّرّ، دفعت عنك كَلَبَ فلان، أي شرّه وأذاه.

وقوله: «قليل سَلَبُهم»، أي همُّهم القتل لا السلب، كما قال أبو تمام.

إنّ الأسـودَ أسـودَ الـغـاب هِـمَّـتُـهَـا ... يومَ الكريهة في المسلُوبِ لا السَّلَبِ

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

ثم ذكر عليه السلام أنّ هؤلاء أرباب الفتن يجاهدهم قوم أذلة، كما قال الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1]، وذلك من صفات المؤمنين.

ثم قال: هم مجهولون عند أهل الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد، ولكنهم معروفون عند أهل السماء، وهذا إنذار بملحَمةٍ تجري في آخر الزمان، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله بنحو ذلك، وقد فَسَّر هذا الفصل قومٌ وقالوا إنه أشار به إلى الملائكة لأنّهم مجهولون في الأرض، معروفون في السماء، واعتذروا عن لفظة «قوم»، فقالوا: يجوز أن يقال في الملائكة قوم كما قيل في الجنّ قوم، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[2]، إلا أنّ لفظ «أذلةٍ عند المتكبّرين» يبعد هذا التفسير.

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نِقم الله لا رَهَج له ولاَ حسّ، الرَّهج: الغبار، وكنّى بهذا الجيش عن جَذب وطاعون يصيب أهلَها حتى يبيدَهم. والموت الأحمر، كناية عن الوباء والجوع.

الأغبر: كناية عن المحْل، وسمِّي الموت الأحمر لشدّته، ومنه الحديث: «كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله»[3] ووصف الجوع بأنه أغبر، لأن الجائع يرى الآفاق كأنّ عليها غبرة وظلاماً، وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزَّنج، وهو بعيد، لأنّ جيشه كان ذا حسّ ورهَج، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن، ألا تراه قال: «فويل لكِ يابصرة عند ذلك»، ولم يكن قبل خروج صاحب الزَّنجِ فتَنٌ شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

١٠٢ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الناس في بعض الأزمان

الأصل: ٱنْظُرُوا إِلَى ٱلدُّنْيَا نَظَرَ ٱلزَّاهِدِينَ فِيهَا، ٱلصَّادِفِينَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا وَٱللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ ٱلثَّاوِيَ ٱلسَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ ٱلْمُتْرَفَ ٱلْآمِنَ، لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَلاَ يُدْرَىٰ مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرُ.

سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ ٱلرِّجَالِ فِيهَا إِلَى ٱلضَّعْفِ وَٱلْوَهَنِ، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا.

رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَءًا تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَٱعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤. (٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٤٩)، ونحوه الحاكم في «مستدركه» (٢٦٣٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٠٢).

يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ ٱلْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ.

الشرح: الصادفين عنها، أي المعرضين، وامرأة صدوف: التي تعرض وجهها عليك ثم تصدِف عنك. وعَمّا قليل: عن قليل، وما زائدة.

والثاوي: المقيم، ثوى يثوي ثواءً وثُويًا، مثل مضى يمضي مضاء ومُضيًا، ويجوز: ثويتُ بالبصرة وثويت البصرة، وجاء «أثويتُ بالمكان»، لغة في «ثويت، قال الأعشى:

أثــوَى وَقــصَّــر لــيــلــه لــيــزوَّدا ... فَـمَـضَـتْ وأخـلـف مـن قُـتـيـلـة مَـوْعِـدَا

والمترَف: الذي قد أترفته النعمة، أي أطغته، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: لا يعود على الناس ما أدبر وتولّى عنهم من أحوالهم الماضية، كالشباب والقوّة، ولا يُعلم حال المستقبل من صحّة أو مرض، أو حياة أو موت لينتظر، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر:

وأضيَعَ العمرَ، لا الماضي انتفعتُ بِهِ ... ولا حَصَلْتُ على علمٍ من الباقِي

ومشوب: مخلوط، شبْته أشوبه فهو مشوب، وجاء «مشيب» في قول الشاعر:

ومـاء قـدورٍ فـي الـقِـصـاع مـشـيـب

فبناه على «شِيب» لم يسمّ فاعله، وفي المثل: «هو يشوب ويروب»، يضرب لمن يخلط في القول أو العمل.

والجلَد: الصلابة والقوة. والوهَن: الضعف نفسه، وإنما عطف للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[(١)]، وقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[(٢)].

ثم نهى عن الاغترار بكثرة العُجْب من الدنيا، وعلّل حسنَ هَذا النهي، وقبّح الاغترار بما نشاهده عياناً من قِلّة ما يصحب مفارقِيها منها. وقال الشاعر:

فَـمَـا تَـزَوّد مـمّـا كـان يـجـمـعُـهُ ... إلا حَـنُـوطـاً غـداة الـبـيـن فـي خِـرَقِ

وغـيـر نـفـحـة أعـوادٍ شـبـبـن لـهُ ... وقـلّ ذلـك مـن زادٍ لـمـنـطـلـقِ

ثم جعل التفكّر علة الاعتبار، وجعل الاعتبار علّة الإبصار، وهذا حقّ، لأنّ الفكر يوجب الاتعاظ، والاتعاظ يُوجب الكشف، والمشاهدة بالبصيرة التي نورها الاتّعاظ. ثم ذكر أنّ ما هو كائن وموجود من الدنيا سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير - معدوماً، والزمان القصير هاهنا: انقضاء الأجل وحضور الموت.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٥.

ثم قال: إنّ الذي هو كائن وموجود في الآخرة سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير أيضاً - كأنه لم يزل، والزمان القصير ها هنا هو حضور القيامة، وهي وإن كانت تأتي بعد زمان طويل، إلاّ أنّ الميت لا يحسّ بطوله، ولا فرْقَ بين ألف ألف سنة عنده إذا عاد حيًّا، وبين يوم واحد، لأن الشعور بالبطء في الزمان مشروط بالعلم بالحركة، ويدلّ على ذلك حال النائم. ثم قال: كلّ معدود منقضٍ، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظري على أن الدنيا زائلة ومنصرفة، وقد استدلّ المتكلّمون بهذا على أنّ حركات الفلك يستحيل ألاّ يكون لها أول، فقالوا لأنها داخلة تحت العدد، وكلّ معدود يستحيل أن يكون غير متناهٍ، والكلام في هذا مذكور في كتبنا العقلية.

ثم ذكر أن كلّ ما يتوقع لا بد أن يأتِيَ، وكلّ ما سيأتي فهو قريب وكأنه قد أتى، وهذا مثل قول قُسّ بن ساعدة الإياديّ: ما لي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون! أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا هناك فناموا! أقْسَمَ قُسٌّ قسماً، إنّ في السماء لَخَبَراً، وإنّ في الأرض لَعِبراً، سقفٌ مرفوع، ومِهاد موضوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. اسمعوا أيّها الناس وَعُوا! مَنْ عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت.

الأصل: ومنها: ٱلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ ٱلرِّجَالِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى لَعَبْداً وَكَلَهُ ٱللهُ إِلَى نَفْسِهِ، جَائِراً عَنْ قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ، سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ، إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ ٱلدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ ٱلآخِرَةِ كَسِلَ، كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ مَا وَنَىٰ فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ.

الشرح: قوله عليه السلام: «العالم مَنْ عرف قدره»، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام، وقد قال الناس بعده في ذلك فأكثروا، نحو قولهم: إذا جهلت قدر نفسك فأنت لقدر غيرك أجهل. ونحو قولهم: مَنْ لم يعرف قَدْرَ نفسه، فالناس أعذَرُ منه إذا لم يعرفوه، ونحو قول الشاعر أبي الطيب:

وَمَــنْ جَــهِــلَــتْ نَــفْــسُــه قَــدْرَهُ ... رَأى غَــيْــرُه مِــنْــهُ مَــا لاَ يَــرَى

ثم عَبّر عن هذا المعنى بعبارة أخرى، فصارت مثلاً أيضاً، وهي قوله: «كفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره»[1]، ومن الكلام المرويّ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام مرفوعاً: «ما هلك امرؤ عرف قدره»، رواه أبو العباس المبرد عنه في الكامل.

(١) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١٥/ ٤٦٢، والعلامة المجلسي في البحار: ٧٢/ ٦٦.

قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: وما إخالُ رجلاً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من خلل في عقله.

وروى صاحب «الكامل» أيضاً عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: لما حضرت الوفاةُ عليّ بن الحسين عليه السلام أبي ضمّني إلى صدره، ثم قال: يا بنيّ أوصيك بما أوصاني به أبي يوم قُتِل، وبما ذكر لي أنّ أباه عليًا عليه السلام أوصاه به: يا بنيّ عليك ببَذْلِ نفسِك، فإنه لا يسرّ أباك بِذُلِّ نفسه حمر النعم[1].

وكان يقال: مَنْ عرف قدرَه استراح[2].

وفي الحديث المرفوع: «ما رفع امرؤ نفسه في الدنيا درجة إلا حَطّهُ الله تعالى في الآخرة درجات»[3].

وكان يقال: مَنْ رضِيَ عن نفسه كَثُر الساخطون عليه. ثم ذكر عليه السلام أنّ مِنْ أبغض البَشَر إلى الله عبداً وكَلَه الله إلى نفسه، أي لم يمدّه بمعونته وألطافه، لعلمه أنه لا ينجع ذلك فيه، وأنه لا ينجذب إلى الخير والطاعة، ولا يؤثر شيء ما في تحريك دواعيه إليها، فيكِلُه الله حينئذ إلى نفسه.

والجائر: العادِل عن السَّمت، ولما كان هذا الشقيّ خابطاً فيما يعتقده ويذهب إليه مستنداً إلى الجهل وفساد النَّظر جعله كالسائر بغير دليل.

والحرث ها هنا: كلّ ما يفعل ليثمر فائدة، فحرثُ الدنيا كالتجارة والزراعة، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المقبحات والمعاصي، وسمي حرثاً على جهة المجاز، تشبيهاً بحرْث الأرض، وهو من الألفاظ القرآنية.

وكَسِل الرجل بكسر السين، يكسَل، أي يتثاقل عن الأمور، فهو كسلان، وقوم كَسالى وكُسالى بالفتح والضم.

قال عليه السلام: حتى كأن ما عمله من أمور الدنيا هو الواجب عليه، لحرصه وجدّه فيه، وكأنّ ما وَنَى عنه - أي فتر فيه من أمور الآخرة - ساقط عنه، وغير واجب عليه لإهماله وتقصيره فيه.

الأصل: ومنها: وَذٰلِكَ زَمَانٌ لاَ يَنْجُو فِيهِ إلاّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، إنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ ٱلْهُدَىٰ وَأَعْلاَمُ ٱلسُّرَىٰ، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ وَلاَ ٱلْمَذَايِيعِ ٱلْبُذُرِ، أُولٰئِكَ يَفْتَحُ ٱللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ.

(١) أخرجه علي الطبرسي في مشكاة الأنوار: ٤٣٠.
(٢) رواه الطبرسي في مشكاة الأنوار: ٥٨.
(٣) ذكره الميداني في «مجمع الأمثال» (٣٢٧١)، ولم أجده مرفوعاً.

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ ٱلْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ ٱلْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ.

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّ ٱللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾(١).

قال الرضي رحمه الله تعالى: أمَّا قوله عليه السلام: «كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ» فإنما أرادَ به الخامِلَ الذِّكْرِ القليل الشرِّ، والمَسايِيحُ: جمعُ مِسْيَاحٍ، وهو الذي يَسِيحُ بينَ الناسِ بِالْفِسادِ وَالنَّمائمِ، والمَذَايِيعُ: جمعُ مِذْيَاعٍ، وهو الذي إذا سَمِعَ لغيرِهِ بِفاحِشَةٍ أذاعَها، وَنَوَّهَ بها. وَٱلْبُذُرُ: جمع بَذُورٍ، وهو الَّذِي يَكثرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقُهُ.

الشرح: شهد: حضر، وكفأت الإناء أي قَلَبْتُهُ وكبيته. وقال ابن الأعرابيّ: يجوز أكفأته أيضاً، والبُذُر: جمع بَذُور مثل صَبُور وصُبُر، وهو الذي يذيع الأسرار، وليس كما قال الرضيّ رحمه الله تعالى، فقد يكون الإنسان بَذُوراً وإن لم يكثُر سفهه ولم يَلْغُ منطقه، بأن يكون عُلَنَةً مذياعاً من غير سفهٍ ولا لغوٍ. والضرّاء: الشدّة، ومثلها البأساء، وهما اسمان مؤنثان من غير تذكير، وأجاز الفرّاء أن يجمع على آضر وأبؤس، كما يُجمع النعماء على أنْعم.

واعلم أنه قد جاء في التواضع وهَضْم النفس شيء كثير، ومن ذلك الحديث المرفوع: «مَنْ تواضع لله رفعه الله، ومن تكبّر على الله وضعه»(٢).

ويقال: إنّ الله تعالى قال لموسى: إنما كلمتك لأن في أخلاقك خُلُقاً أحبّه الله، وهو التواضع.

ورأى محمد بن واسع ابنه يمشي الخُيَلاء، فناداه فقال: ويلَك! أتمشي هذه المِشْية، وأبوك أبوك، وأمك أمك! أما أمّك فأمَة، ابتعتُها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا كثّر الله في الناس مثله.

ومثل قوله عليه السلام: «كل مؤمن نُوَمة إنْ شهد لم يعرَف وإن غاب لم يفتقد»، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رب أشعثَ أغبر ذي طِمْرين لا يُؤْبه له، لو أقسم على الله لأبرّ قسمه»(٣).

وقال عمر لابنه عبد الله: التمس الرِّفعة بالتواضع والشرف بالدين، والعفو من الله بالعفو

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٢٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١١٠٩) والشهاب القضاعي في «مسنده» (٣٣٤).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب البراء بن مالك (٣٨٥٤)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٥).

عن الناس، وإياك والخُيَلاء فتضَع من نفسك، ولا تحقرنّ أحداً فإنك لا تدرِي لعلّ مَنْ تزدريه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك.

وقال الأحنف: عجبت لمن جرى في مَجْرى البول مرتين، من فَرْجين، كيف يتكبّر!

وقد جاء في كلام رسول الله ﷺ ما يناسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا: «إن الله يحبُّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كلّ غبراء مظلمة»[1].

وأما إفشاء السرّ وإذاعته، فقد ورد فيه أيضاً ما يكثر، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾[2] لكفى.

وفي الحديث المرفوع: «مَنْ أكل بأخيه أكلة أطعمه الله مثلها من نار جهنم»[3] قيل في تفسيره: هو أن يسعى بأخيه ويجرّ نفعاً بسعايته.

الجُنيد: سَتْر ما عاينتَ أحسنُ من إشاعة ما ظننت.

عبد الرحمن بن عوف: من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها.

قال رجل لعمرو بن عُبيد: إن عليًا الأسواري لم يزل منذ اليوم يذكُرك بسوء ويقول: الضالّ. فقال عمرو: يا هذا، ما رعيت حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا وفّيتني حقي حين أبلغتني عن أخي ما أكرهه! اعلم أنّ الموت يعمّنا، والبعث يحشرُنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

وكان يقال: مَنْ نَمَّ إليك نمَّ عليك.

وقالوا في السُّعاة: يكفيك أن الصدق محمود إلا منهم، وإنَّ أصْدَقَهُمْ أخبثُهُم.

وشى واشٍ برجل إلى الإسكندر، فقال له: أتحبّ أن أقبل منك ما قلتَ فيه، على أن أقبل منه ما قال فيك؟ قال: لا، قال: فكُفّ عن الشرّ يكفّ عنك.

قال رجل لفيلسوف: عابك فلان بكذا، قال: لقيتَني لِقِحتِك بما لم يلقني به لحيائه.

عاب مصعب بن الزبير الأحنف عن شيء بلغه عنه، فأنكره، فقال: أخْبَرَني بذلك الثقة، فقال: كلاّ أيها الأمير، إن الثقة لا يَنِمّ.

عرض بعضُ عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع في طيّ كتاب كتبه إليه، فوقّع الفضل:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبر: ٢٠/ ١٥٤. وأخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ٣٩٨٩.
(٢) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣٤) وذكره الإمام المزي في «تهذيب الكمال» (٣٠/ ٤٥٩).

قبول السعاية شرٌّ من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس مَنْ دلّ على قبيح كمن أجازه وعمل به، فاطرُد هذا الساعيَ عن عملك، وأقْصِه عن بابك، فإنه لو لم يكن في سعايته كاذباً لكان في صدقه لئيماً، إذ لم يَرْعَ الحرمة، ولم يستر العورة، والسلام.

صالح بن عبد القدوس:

مَنْ يخبِّرك بشتم عن أخٍ ... فَهُوَ الشاتِمُ، لا مَنْ شَتَمَكْ
ذاك شيء لم يواجهْك به ... إنما اللَّوْمُ عَلَى مَنْ أعْلَمكْ
كيف لم ينصرك إن كان أخاً ... ذا حفاظٍ عند مَنْ قد ظلمك!

طريح بن إسماعيل الثقفيّ:

إن يعلمُوا الخير يخفُوه وإن علموا ... شرًّا أذاعوا، وإن لم يعلموا كَذَبُوا

ومعنى قوله عليه السلام: «وإن غاب لم يُفتقَد»، أي لا يقال: ما صنع فلان، ولا أين هو؟ أي هو خامل لا يعرف.

وقوله: «أولئك يفتح الله بهم أبواب الرحمة، ويكشف بهم ضرّاء النقمة»، وروي: «أولئك يفتح الله بهم أبواب رحمته، ويكشف بهم ضرّاء نقمته»، أي ببركاتهم يكون الخير ويندفع الشر.

ثم ذكر عليه السلام أنه سيأتي على الناس زمانٌ تنقلب فيه الأمور الدينية إلى أضدادها ونقائضها، وقد شهدنا ذلك عياناً.

ثم أخبر عليه السلام أنّ الله لا يجور على العباد، لأنه تعالى عادل ولا يظلم ولكنه يبتلي عباده أي يختبرهم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[1]، والمراد أنه تعالى، إذا فسد الناس لا يلجئهم إلى الصلاح، لكن يتركهم واختيارهم امتحاناً لهم، فمن أحسن أثيب، ومن أساء عوقب.

١٠٣ - ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الناس

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلاَ وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ ٱلْحَسِيرُ، وَيَقِفُ ٱلْكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلاَّ هَالِكاً لاَ خَيْرَ فِيهِ. حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَٱسْتَدَارَتْ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٠.

رَحاهُمْ، وَٱسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ. وَٱيْمُ ٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَٱسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا، مَا ضَعُفْتُ وَلاَ جُبُنْتُ، وَلاَ خُنْتُ وَلاَ وَهَنْتُ. وَٱيْمُ ٱللهِ لَأَبْقُرَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ ٱلْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ.

قال الرضيّ رحمه الله تعالى: وقد تقدَّم مختار هذه الخطبة، إلاَّ أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانية.

الشرح: لقائل أن يقول: ألم يكن في العرب نبيٌّ قبل محمد، وهو خالد بن سنان العبسيّ؟ وأيضاً فقد كان فيها هود وصالح وشعيب.

ونجيب هذا القائل بأنّ مراده عليه السلام أنّه لم يكن في زمان محمد صلى الله عليه وآله وما قاربه من ادّعى النبوّة، فأما هود وصالح وشعيب، فكانوا في دَهْرٍ قديم جدًّا، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتاباً، ولا يدّعي شريعة وإنما كانت نبوّة مشابهة لنبوّة جماعة من أنبياء بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع، وإنما ينهوْن عن الشرك، ويأمرون بالتوحيد.

ومنجاتهم: نجاتهم، نجوت من كذا نجاءً، ممدود، ونجاً مقصور. ومنجاة على «مَفْعَلة»، ومنه قولهم: «الصدق مَنْجَاة».

قوله عليه السلام: «ويبادر بهم الساعة»، كأنه كان يخاف أن تسبِقه القيامة، فهو يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم، وهم على ضلالهم.

والحسير: المعيَا، حَسَر البعير بالفتح، يحسِر بالكسر حُسوراً، واستحسر مثله، وحسرته أنا، يتعدّى ولا يتعدّى، حَسْراً فهو حسير، ويجوز أحسرته، بالهمزة، والجمع حَسْرَى، مثل قتيل وقَتْلَى، ومنه حَسَر البصر، أي كَلَّ، يحسِر، قال تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]. وهذا الكلامُ من باب الاستعارة والمجاز، يقول عليه السلام: كان النبي صلى الله عليه وآله لحِرْصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين، ورأفته بهم، يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده، أو عرضتْ له شبهة، أو حدَث عنده ريب، ولا يزال يوضّح له ويرشده حتى يزيل ما خامر سرَّه من وساوس الشيطان، ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين، ولم يكن ليقصِّر في مراعاة أحد من المكلّفين في هذا المعنى إلا مَنْ كان يعلم أنّه لا خير فيه أصلاً، لعناده وإصراره على الباطل، ومكابرته للحقّ.

ومعنى قوله: «حتى يلحِقه غايتَه»، حتى يوصّله إلى الغاية التي هي الغرض بالتكليف، يعني اعتقاد الحق وسكون النفس إلى الإسلام، وهو أيضاً معنى قوله: «وبوّأهم محلَّتهم».

(١) سورة الملك، الآية: ٤.

ومعنى قوله: «فاستدارت رحاهم»، انتظم أمرُهم، لأن الرّحا إنّما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها، وهو أيضاً معنى قوله: «واستقامت قناتُهم»، وكلُّ هذا من باب الاستعارة.

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من ساقتها، الساقة: جمع سائق، كقادة جمع قائد، وحَاكة جمع حائك، وهذا الضمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظاً، والمراد الجاهلية، كأنه جعَلها مِثْلَ كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه، حتى فرّت وأدبرت، واتبعها يسوقها سوقاً وهي مولّية بين يديه. حتى أدبرت بحذافيرها، أي كلّها عن آخرها.

ثم أتى بضمير آخر إلى غير مذكور لفظاً، وهو قوله: «واستوسقت في قيادها»، يعني الملّة الإسلامية أو الدعوة، أو ما يجري هذا المجرى. واستوسقت: اجتمعت، يقول: لما ولّت تلك الدعوة الجاهلية استوسقت هذه في قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها. ويجوز أن يعودَ هذا الضمير الثاني إلى المذكور الأول وهو الجاهلية، أي ولّت بحذافيرها واجتمعت كلُّها تحت ذلّ المقادة.

ثم أقسم أنّه ما ضعف يومئذ ولا وَهَن ولا جَبُن ولا خان، وليبقرنّ الباطل الآن حتى يخرج الحقّ من خاصرته، كأنّه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالباً عليه، ومحيطاً به، فإذا بُقِر ظَهَرَ الحقُّ الكامن فيه، وقد تقدم منّا شرح ذلك.

١٠٤ - ومن خطبة له عليه السلام في شأن أهل البيت

الأصل: حَتَّىٰ بَعَثَ ٱللهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ شَهِيداً وَبَشِيراً وَنَذِيراً، خَيْرَ ٱلْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، وَأَطْهَرَ ٱلْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ ٱلْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً، فَمَا ٱحْلَوْلَتْ لَكُمُ ٱلدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا، وَلاَ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا، إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ. صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا، قَلِقاً وَضِينُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ ٱلسِّدْرِ ٱلْمَخْضُودِ، وَحَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا وَٱللهِ ظِلاًّ مَمْدُوداً إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ، وَأَيْدِي ٱلْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ.

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً، وَإِنَّ ٱلثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ ٱللهُ ٱلَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ، وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ.

الشرح: معنى كون النبيّ ﷺ شهيداً، أنّه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان.

أنجبها: أكرمها، ورجل نَجيب، أي كريم بَيِّن النَّجابة، والنُّجَبة مثل الهُمَزة، ويقال: هو نُجَبَة القوم، أي النجيب منهم، وأنجب الرجل، أي ولد ولدًا نجيبًا، وامرأة منجبة ومِنْجاب، تلد النُّجَباء، ونسوة مناجيب.

والشيمة: الخُلق. والدِّيمة: مطر يدوم. والمستمطَرون: المستَجْدَوْنَ والمستماحون.

واحلولت: حلَت، وقد عدّاهُ حميد بن ثور في قوله:

فَلَمّا أتى عَامَانِ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عن الضَّرْعِ، واحْلَوْلَى دِماثاً يَرُودها

ولم يجئ «افعوعل» متعدّياً إلا هذا الحرف وحرف آخر، وهو اعروريت الفرس. وهو الرَّضاع، بفتح الراء: رضِع الصبيّ أمَّه، بكسر الضاد يرضعها رضاعاً، مثل سمع يسمَع سماعاً، وأهل نجد يقولون: رَضَع بالفتح يرضِع بالكسر، مثل ضرَب يضرِب ضرباً.

وقال الأصمعيّ: أخبرني عيسى بن عمر أنه سمع العرب تُنْشد هذا البيت:

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يرضِعُونها أفاويقَ حتى ما يدرّ لها ثُعْلُ

بكسر الضاد. والأخلاَف للناقة بمنزلة الأطْبَاء للكلبة، واحدها خِلْف بالكسر، وهو حَلَمة الضَّرْع. والخِطام: زمام الناقة، خطمتُ البعير: زممته، وناقة مخطومة، ونوق مخطّمة.

والوَضِين للهودج، بمنزلة البِطَان للقَتَب، والتّصدير للرَّحْل، والحِزام للسَّرْج، وهو سُيور تنسَج مضاعفة بعضها على بعض، يشدّ بها الهوْدج منه إلى بطن البعير، والجمع وُضُن.

والمخضود: الذي خُضِد شوكه، أي قطع.

وشاغرة: خالية، شَغَر المكان، أي خلا، وبلدة شاغرة. إذا لم تمتنع من غارة أحد. والثائر: طالب الثأر، لا يبقي على شيء حتى يدرك ثأره.

يقول عليه السلام مخاطباً لمن في عصره من بقايا الصحابة ولغيرهم من التابعين، الذين لم يدركوا عَصْر رسول الله ﷺ: إن الله بعثَ محمداً، وهو أكرم الناس شيمة، وأنداهم يداً، وخيرهم طفلاً، وأنجبَهم كَهْلاً، فصانه الله تعالى في أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا، وأكرمه عن ذلك فلم تُفْتَح عليكم البلاد، ولا دَرّت عليكم الأموال، ولا أقبلت الدنيا نحوكم، وما دالت الدولة لكم إلا بعده، فتمكّنتم من أكُلها والتمتع بها، كما يتمكّن الحالب من احتلاب الناقة فيحلبها، وحلت لذّاتها لكم، واستطبتم العيشة، ووجدتموها حُلْوة خضرة.

ثم ذكر أنّهم صادفوها - يعني الدنيا - وقد صَعُبت على مَنْ يليها ولاية حق، كما تستصعبُ الناقة على راكبها إذا كانت جائلة الخِطام، ليس زمامها بممكّن راكبها من نفسه، قلقَة الوضين، لا يثبت هودجُها تحت الراكب، حرامه سهل التناول على من يريده، كالسِّدْر الذي خُضِد عنه شوكه، فصار ناعماً أملس، وحلالها غير موجود لغلبة الحرام عليه، وكونه صار مغموراً

مستهلكاً بالنسبة إليه، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائماً من استبداد الخلفاء قبله دونه بالأمر، وأنه كان الأولى والأحق.

فإن قلت: إذا كانت الدنيا قَلِقة الوضين، جائلة الخِطام، فهي صَعْبة الركوب، وهذا ضدّ قوله: «حرامها بمنزلة السدر المخضود»، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة!

قلت: فحوى كلامه أنّ الدنيا جمحت به عليه السلام، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكباً أو كالراكب لها لاستحقاقه ركوبَها، وأنها صارت بعده كالناقة التي خَلَعَتْ زمامها، أو أجالته فلا يتمكّن راكبُها من قبضه، واسترخى وَضِينُها لشدّة ما كان صدر عنها من النفار[1] والتقحّم[2]، حتى أذرَتْ راكبها، فصارت على حالٍ لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعي، لأنه ركب ما لا ينبغي أن يركب، فالذين وُلّوا أمرها وُلُّوه على غير الوجه، كما أن راكب هذه الناقة يركبها على غير الوجه، ولهذا لم يقل: «فصار» حرامها بمنزلة السدر المخضود»[3] بل قال «عند أقوام»، فخصّص.

وهذا الكلام كلُّه محمول عند أصحابنا على التألّم من كون المتقدمين تركوا الأفضل، كما قدمناه في أول الكتاب.

ثم ذكر عليه السلام أنّ الدنيا فانية، وأنها ظِلٌّ ممدود إلى أجل معدود. ثم ذكر أنّ الأرض بهؤلاء السّكان فيها صورة خالية من معنى، كما قال الشاعر:

ما أكثرَ النّاسَ، لا بل مَا أقلَّهُمُ ... الله يَعْلَمُ أنّي لم أقُلْ فَنَدَا[4]
إنّي لأفْتَحُ عَيْني ثم أُغمِضُها ... عَلَى كَثيرٍ، ولكنْ لا أرى أحَدَا

ثم أعاد الشكوى والتألم فقال: أيديكم في الدنيا مبسوطة، وأيدي مستحقّي الرّياسة ومُستوجبي الأمر مكفوفة، وسيوفكم مسلّطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء، وسيوفهم مقبوضة عنكم، وكأنّه كان يرمز إلى ما سيقع من قَتْل الحسين عليه السلام وأهله، وكأنّه

(١) نَفَرَتِ الدابة نِفَاراً: جَزِعَتْ وتباعدت القاموس المحيط، مادة (نفر).
(٢) قَحّمَتْه الفرس تقحيماً: رمته على وجهه. القاموس المحيط، مادة (قحم).
(٣) السِّدْر المخضود: هو الذي نزع شوكه فلا شوك فيه، والخَضْد: نزع الشوك عن الشجر. لسان العرب مادة (خضد).
(٤) الفَنَد: الخَرَف وإنكار العقل من الهرم أو المرض. لسان العرب، مادة (فند).

يشاهد ذلك عياناً، ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذي سَنَح له، والأمر الذي كان أخبر به، ثم قال: إنّ لكلّ دمٍ ثائراً يطلب القَودَ، والثائر بدمائنا ليس إلا الله وحدَه، الذي لا يُعجزه مطلوب، ولا يفوته هارب.

ومعنى قوله عليه السلام: «كالحاكم في حقّ نفسه»، أنّه تعالى لا يقصّر في طلب دمائنا كالحاكم الذي يحكم لنفسه، فيكون هو القاضي وهو الخصم، فإنه إذا كان كذلك يكون مبالغاً جدًّا في استيفاء حقوقه.

ثم أقسم وخاطب بني أمية، وصرّح بذكرهم أنّهم ليعرفنّ الدنيا عن قليل في أيدي غيرهم وفي دورهم، وأنّ الملك سينتزعه منهم أعداؤهم، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام، فإنّ الأمر بقيَ في أيدي بني أمية قريباً من تسعين سنة، ثم عاد إلى البيت الهاشميّ، وانتقم الله تعالى منهم على أيدي أشدّ الناس عداوة لهم.

سار عبد الله عليّ بن عبد الله بن العباس في جَمْع عظيم للقاء مَروان بن محمد بن مروان، وهو آخر خلفاء الأمويين، فالتقيا بالزّاب من أرض الموصل، ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة، فهزِم مروان، واستولى عبد الله بن عليّ على عسكره، وقتل من أصحابه خَلْقاً عظيماً، وفرّ مروان هارباً حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه، فصار إلى مصر، فاتبعه عبدُ الله بجنوده، فقتله ببوصير الأشمونين من صعيد مصر، وقتل خواصّه وبطانته كلّها، وقد كان عبد الله قتل من بني أمية على نهر أبي فُطْرُس من بلاد فلسطين قريباً من ثمانين رجلاً، قتلهم مُثْلَة واحتذى أخوه داود بن عليّ بالحجاز فعلَه، فقتل منهم قريباً من هذه العدّة بأنواع المُثُل.

وكان مع مروان حين قُتِل ابناه عبد الله وعبيد الله - وكانا وليّي عهده - فهرَبَا في خواصّهما إلى أسْوَان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جَهْدٌ شديد وضُرّ عظيم، فهلك عبد الله بن مروان في جماعة ممّن كان معه قتلاً وعطشاً وضُرًّا، وشاهد من بقيَ منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره، ووقع عبيد الله في عدّة ممن معه في أرض البُجَه وقطعوا البحر إلى ساحل جُدّة، وتنقّل فيمن نجا معه من أهله ومواليه في البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سُوقة بعد أن كانوا ملوكاً، فظُفِر بعبد الله أيام السفاح، فحبس فلم يزل في السجن بقية أيام السَّفاح، وأيام المنصور، وأيام المهديّ، وأيام الهادي وبعض أيام الرشيد، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير، فسأله عَنْ خبره، فقال: يا أميرَ المؤمنين، حُبست غلاماً بصيراً، وأخرِجْت شيخاً ضريراً! فقيل: إنّه هلك في أيام الرشيد، وقيل: عاش إلى أن أدرك خلافة الأمين.

شهد يوم الزّاب مع مَرْوان في إحدى الرّوايتين إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، الذي خُطِب له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتل فيمنْ قُتِل. وفي الرواية الثانية إنّ إبراهيم قتله مَرْوان الحمار قبل ذلك.

لما انهزمَ مَرْوان يوم الزّاب مضى نحو الموصل، فمنعه أهلُها من الدخول، فأتى حَرّان، وكانت داره ومقامه، وكان أهل حَرّان حين أزيل لعْن أمير المؤمنين عن المنابر في أيام الجمع امتنعوا من إزالته، وقالوا: لا صلاَةَ إلاّ بلعن أبي تراب، فاتبعه عبد الله بن عليّ بجنوده، فلما شارفه خرج مروان عن حَرّان هارباً بين يديه وعبر الفرات، ونزل عبد الله بن عليّ على حَرّان، فهدم قصر مروان بها، وكان قد أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم واحتوى على خزائن مَرْوان وأمواله، فسار مَرْوانُ بأهله وعِتْرته من بني أمية وخواصّه، حتى نزل بنهر أبي فُطْرس، وسار عبد الله بن عليّ حتى نزل دمشق، فحاصرها وعليها مِنْ قِبَل مَرْوان الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مَرْوان في خمسين ألف مقاتل، فألقى الله تعالى بينهم العصبية في فَضْل نزار على اليمن، وفَضْل اليمن على نزار، فقتِل الوليد - وقيل بل قُتِل في حرب عبد الله بن علي - ومَلَك عبدُ الله دمشق، فأتى يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فحملهما مأسورين إلى أبي العباس السفاح، فقتلهما وصلبهما بالحيرة، وقَتَل عبد الله بن عليّ بدمشق خلقاً كثيراً من أصحاب مَرْوان وموالي بني أمية وأتباعهم، ونزل عبد الله على نهر أبي فطرس، فقتل من بني أمية هناك بضعاً وثمانين رجلاً، وذلك في ذي القعدة من سنة ثنتين وثلاثين ومائة.

وفي قتلى نهر أبي فُطْرس وقتلى الزاب يقول أبو عديّ عبد الله بن عمرو العبليّ، وكان أمويّ الرأي:

تــقــول أمــامــةُ لــمّــا رأتْ نـشـوزي عـن الـمـضـجـع الأمـلـسِ
وقــلّــةَ نــومــي عــلــى مــضــجــعــي لـدى هَـجْـعَـةِ الأعـيُـنِ الـنُّـعَّـسِ:
أبـي، مـا عـرَاك؟ فـقـلـت: الـهـمـومُ عَـرَيْـنَ أبـاكِ فـلا تُـبْـلِـسـي[1]
عَـــرَيْـــنَ أبـــاك فـــحَـــبّـــسْـــنَـــهُ مِـنَ الـذلّ فـي شـرّ مـا مَـحْـبِـس
لِــفَــقْــدِ الأحِــبّــةِ إذْ نَــالَــهَــا سـهـامٌ مـن الـحـدَث الـمُـبْـئِـسِ
رمــتْــهَــا الــمــنــون بــلا نُــكّــلِ ولا طــائــشــاتٍ ولا نُــكّــسِ

(١) أبْلَسَ: يئس وتَحَيَّر. القاموس المحيط، مادة (بلس).

بـأسْـهُـمِـهـا الـمـتـلـفـاتِ الـنـفـو ... س مَتَى ما تُصِبْ مهجة تُخْلَسِ
فَـصَـرَّعـتـهُـمْ بـنـواحـي الـبـلا ... د فـمـلـقًـى بـأرض ولـم يُـرْمَـسِ
نَـقـيّ أصـيـب وأثـوابُـه ... مِنَ ٱلْعَيْبِ والعار لم تَدْنَسِ
وآخـرُ قـد رُسَّ فـي حـفـرةٍ ... وآخـرُ طـار فَـلـم يُـحْـسَـسِ[1]
أفـاض الـمـدامـع قـتـلـى كُـدًى ... وَقَـتْـلَـى بِـكُـثْـوةَ لـم تُـرْمَـسِ
وَقَـتْـلَـى بِـوَجٍّ وبِـالَّـلابـتَـيْـ ... ـنِ مـن يـثـرب خَـيـرُ مـا أنـفُـسِ
وبـالـزابِـيَـيْـن نـفـوسٌ ثَـوَتْ ... وَقَـتْـلَـى بـنـهـرِ أبـي فُـطْـرُسِ
أولـئـك قـومـي أنـاخَـتْ بـهـمْ ... نـوائـبُ مـن زمـن مُـتْـعِـسِ
إذا ركـبـوا زيَّـنـوا الـموكِـبَـ ... ـيْنِ وإنْ جلسوا زينةُ المجلسِ
وإن عـنّ ذِكْـرُهُـمُ لـم يـنـمْ ... أبـوكِ، وأوحـش فـي الـمـآنـسِ
فـذاكِ الـذي غـالـنِـي فـاعـلَـمِـي ... ولا تـسـألـي بـامـرىء مـتـعَـسِ
هُـمُ أضـرعـونـي لـريـب الـزمـا ... ن وهـم ألـصقوا الخدّ بالمعْطِسِ

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتاب «الأغاني»[2]، قال: نظر عبد الله بن عليٍّ في الحرْب إلى فتى عليه أبّهة الشَّرف، وهو يحارب مستقتلاً، فناداه: يا فتى، لك الأمان، ولو كنتَ مَرْوان بن محمد! قال: إلاّ أكنْه فلست بدونه! فقال: ولك الأمان، ولو كنتَ من كنت، فأطرق، ثم أنشد:

لَـذُلُّ الـحـيـاة وكُـرْهُ الـمـمـا ... تِ وكُـلاًّ أراهُ طـعـامـاً وبـيـلا
وإنْ لـم يـكـنْ غَـيْـرَ إحـداهـمـا ... فَسيْراً إلى الموت سَيْراً جميلا

ثم قاتل حتى قتل، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك.

وروى أبو الفرج أيضاً، عن محمد بن خلَف وكيع، قال: دخل سُدَيف مولى آل أبي لهب على أبي العباس بالحيرة، وأبو العباس جالس على سريره، وبنو هاشم دونه على الكراسيّ وبنو أمية حوله على وسائد قد ثُنِيت لهم، وكانوا في أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة منهم على الأسرّة، ويجلس بنو هاشم على الكراسيّ، فدخل الحاجب، فقال: يا أميرَ المؤمنين، بالباب

---

(١) الرَّمْسُ: الدفن والقَبْر. القاموس المحيط، مادة (رمس).
(٢) الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني المتوفى سنة (٣٥٦)، وهو كتاب لم يؤلف مثله اتفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

رجل حجازيّ أسود راكب على نجيب متلثّم، يستأذِن ولا يخبر باسمه، ويحلف لا يحسِر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين! فقال: هذا سُدَيف مولانا، أدخله، فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حَسَر اللثام عن وجهه، ثم أنشد:

أصبح الملك ثابت الأساسِ ... بالبَهَالِيل من بني العباس
بالصّدور المقدّمين قديماً ... والبحورِ القماقِم الرّؤّاسِ[1]
يا إمامَ المَطَهّرينَ من الذمّ ... ويا رأس منتهى كلّ راسِ
أنت مهديّ هاشمٍ وفَتاها ... كم أناس رجوك بعد أناس
لا تُقِيلَنَّ عبد شمسٍ عِثاراً ... واقْطَعَنْ كل رَقْلةٍ وغِرَاس
أنزلوها بحَيثُ أنزلها اللـ ... ـهُ بدار الهوانِ والإتعاس
خَوْفُهَا أظهرَ التودّد منها ... وبها منكمُ كحزّ المواسي
أقصِهِمْ أيّها الخليفةُ واحسِمْ ... عنك بالسّيف شأفة الأرْجاسِ
واذكُرَنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ ... وقَتِيلاً بجانب المِهْرَاسِ
والقتيلَ الذي بحرّان أمسى ... ثاوياً بين غُرْبةٍ وَتَناسِ
فَلَقَدْ ساءني وساء سوائي ... قُرْبُهُمْ من نمارِقٍ وكَراسي
نِعْمَ كلب الهِراش مولاك شِبْلٌ ... لو نجا من حبائل الإفلاس

قال: فتغيّر لونُ أبي العباس، وأخذه زَمَع ورعدة، فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى آخر فيهم كان إلى جانبه، فقال: قَتَلنَا والله العبدا فأقبل أبو العباس عليهم، فقال: يا بني الزّواني، لا أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون في الدُّنيا، خذوهم، فأخذتهم الخراسانية بالكافر كُوبات فأُهْمِدوا، إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن العزيز، فإنه استجار بداود بن عليّ، وقال: إن أبي لم يكن كآبائهم، وقد علمت صنيعته إليكم فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له: قد علمت صنيع أبيه إلينا، فوهبه له، وقال: لا يرينّي وجهه، وليكُن بحيث نأمنه، وكتب إلى عماله في الآفاق بقتل بني أمية.

فأما أبو العباس المبرّد، فإنه روى في «الكامل»[2] هذا الشعرعلى غير هذا الوجه، ولم

---

(١) القَمَاقِم: مفردها قَمْقَام: وهو هنا السيّد الجامع للسيادة، الواسع الخير.
(٢) الكامل في اللغة: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

ينسبه إلى سَديف، بل إلى شِبْل مولى بني هاشم.

قال أبو العباس: دخل شِبْل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي، وقد أجلس ثمانين من بني أميّة على سِمط[1] الطعام، فأنشده:

أصْبَحَ المـلـكُ ثـابـتَ الآسـاسِ ... بِـالْـبـهـالـيـلِ مـن بـنـي الْـعَـبَّـاسِ
طَـلَـبُـوا وِتْـرَ هـاشـمٍ وَشَـفَـوْهـا ... بَـعْـدَ مَـيْـلٍ مـن الـزَّمـان ويـاسِ
لا تُـقِـيـلَـنَّ عَـبْـدَ شـمـسٍ عِـثـاراً ... واقْـطَـعَـنْ كـلَّ رَقْـلَـةٍ وأواسـي
ذلّـهـا أظـهـرَ الـتَّـودُّدَ مـنـهـا ... وبـهـا مـنـكُـم كـحـزّ الـمـواسـي
وَلَـقَـدْ غـاظَـنِـي وَغَـاظَ سـوائِـي ... قُـرْبُـهـا مـن نـمـارقٍ وكَـرَاسـي
أنـزِلُـوهـا بـحـيـثُ أنـزَلَـهـا الـلـ ... ـه بـدارِ الـهـوانِ والإتـعـاسِ
واذكـرُا مَـصْـرَعَ الـحـسـيـن وزيـدٍ ... وَقَـتـلاً بـجـانـب الـمـهْـرَاسِ
والـقـتـيـلَ الَّـذِي بـحَـرَّانَ أضْـحَـى ... ثـاوِيـاً بـيـن غُـرْبـةٍ وتـنـاسِ
نـعـم شِـبْـلُ الـهـراش مـولاك شِـبْـلٌ ... لَـوْ نـجـا مـن حـبـائـل الإفـلاس

فأمر بهم عبد الله فشُدِخوا بالعَمَد، وبسطت البُسُطُ عليهم، وجلس عليها، ودعا بالطّعام، وإنه ليسمعُ أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعاً. وقال لشِبْل: لولا أنك خلطت شعرك بالمسألة لأغنمتُك أموالهم ولعقدتُ لك على جميع موالي بني هاشم.

قال أبو العباس: الرقلة: النخلة الطويلة، والأواسي: جمع آسية، وهي أصل البناء كالأساس. وقتيل المِهْراس: حمزة عليه السلام، والمِهْراس: ماء بأحُد. وقتيل حَرّان: إبراهيم الإمام.

قال أبو العباس: فأما سُدَيف، فإنه لم يقمْ هذا المقام، وإنّما قام مقاماً آخر، دخل على أبي العباس السّفاح، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أعطاهُ يده فقبّلها وأدناه، فأقبل على السفاح، وقال له:

لاَ يَـغُـرَّنْـكَ مَـا تـرى مِـنْ رجـالٍ ... إنَّ تـحـتَ الـضُّـلـوع داءً دوِيّـا
فـضـع الـسَّـيـف وارفـع الـسوط حَـتَّـى ... لا تـرى فَـوْقَ ظـهـرِهـا أمـويّـا

فقال سليمان: ما لي ولك أيها الشيخ! قتلتَني قَتلك الله! فقام أبو العباس، فدخل وإذا المنديل قد ألقِي في عُنق سليمان، ثم جرّ فقتل.

فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مرْوان فقتِل بالبلقاء، وحمل رأسه إلى عبد الله بن عليّ.

(١) لعل المراد بها الشاة المشوية التي تسمى سميط. ا. هـ اللسان مادة (سمط).

انتقال الملك من بني أمية إلى بني العباس

وذكر صاحب «مروج الذهب»[١] أنّه أرسَلَ عبد الله أخاه صالح بن عليّ ومعه عامر بن إسماعيل أحد الشيعة الخُراسانية إلى مصر، فلحقوا مروان ببُوصير، فقتلوه وقتلوا كلّ مَنْ كان معه من أهله وبطانته، وهجموا على الكَنيسة التي فيها بناته ونساؤه، فوجدُوا خادماً بيده سيف مشهور يسابقهم على الدخول، فأخذُوه وسألوه عن أمره، فقال: إنّ أمير المؤمنين أمرني إنْ هو قُتِل أن أقتل بناتِه ونساءه كلّهن، قبل أن تصلوا إليهنّ، فأرادوا قتله، فقال: لا تقتلوني، فإنّكم إن قتلتموني فقدتُم ميراثَ رسول الله ﷺ، فقالوا: وما هو؟ فأخرجهم من القرية إلى كُثْبانٍ من الرمل، فقال: اكشفوا ها هنا، فإذا البردة والقضيب وقَعْب مخضّب قد دفنها مروان ضَنًّا بها أنْ تصيرَ إلى بني هاشم. فوجّه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن عليّ، فوجّه به صالح إلى أخيه عبد الله، فوجّه به عبد الله إلى أبي العباس، وتداوله خلفاء بني العباس من بعد.

وأدخِل بنات مروان وحرمه ونساؤه على صالح بن عليّ، فتكلّمت ابنة مروان الكبرى، فقالت: يا عمّ أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما تحبّ حفظه، وأسعدك في أحوالك كلّها، وعمّك بخواصّ نعمه، وشمِلَك بالعافية في الدنيا والآخرة. نحن بناتُك وبنات أخيك وابن عَمّك، فلْيسعنا من عَدْلِكم ما وسعنا من جوْركم. قال: إذاً لا نستبقي منكم أحداً، لأنكم قد قتلتم إبراهيمَ الإمام، وزيد بن عليّ، ويحيى بن زيد، ومُسلم بن عقيل، وقتلتم خيرَ أهل الأرض: حسيناً وإخوته وبنيه وأهل بيته، وسقتم نساءه سبايا - كما يُساق ذراريّ الروم - على الأقْتَاب إلى الشام. فقالت: يا عمّ أمير المؤمنين، فليسعْنا عفوُكم إذاً. قال: أمّا هذا فنعم، وإن أحببت زوجتك من ابني الفضل بن صالح، قالت: يا عمّ أمير المؤمنين، وأيّ ساعة عرْس ترى! بل تُلحِقنا بحرّان، فحملهنّ إلى حرّان.

كان عبد الرحمن بن حبيب بن مَسْلمة الفِهريّ، عاملَ إفريقيَة لمروان، فلمّا حدثت الحادثة، هرب عبدُ الله والعاص ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه، فاعتصما به فخاف على نفسه منهما، ورأى مَيْل الناس إليهما فقتلهما، وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك يريد أن يقصِد ويلتجيء إليه، فلمّا علِم ما جرى لابني الوليد بن يزيد، خاف منه، فقطع المجاز بيْن إفريقيَة والأندلس، وركب البحرَ حتى حصل بالأندلس، فالأمراء الّذين وُلُّوها كانوا من ولده.

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ: لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٦٥٨).

ثم زال أمرُهم ودولتهم على أيدِي بني هاشم أيضاً، وهم بنو حَمُود الحسنِيُّون، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام.

لما قتلَ عامر بن إسماعيل مَرْوانَ ببُوصِير، واحتوى على عسكره، دخل إلى الكنيسة التي كان فيها، فقعد على فِرَاشه، وأكل من طعامه، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى - وتُعرف بأمّ مَرْوان -: يا عامر، إنّ دهراً أنزل مَرْوان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها، تأكل من طعامِه ليلة قَتْله، محتوياً على أمرِه، حاكماً في مُلكه وحُرَمه وأهله، لقادرٌ أن يغيّر ذلك، فأنهِيَ هذا الكلامُ إلى أبي العباس السفّاح، فاستهجَن ما فعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه: أما كان لك في أدب الله ما يزجرك أنْ تقعد في مثل تلك الساعة على مهادِ مروان، وتأكل من طعامه! أما والله لولا أن أمير المؤمنين أنزل ما فعلته على غير اعتقاد منك [لذلك] ولانَهَم على طعامٍ، لمسّك من غضبه وأليم أدبه، ما يكون لك زاجراً، ولغيرك واعظاً. فإذا أتاك كتابُ أمير المؤمنين: فتقرَّب إلى الله بصدَقة تطفىء بها غضبَه، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة له، وصُمْ ثلاثة أيام، وتُبْ إلى الله من جميع ما يسخطه ويغضبه، ومرْ جميعَ أصحابك أن يصوموا مثل صيامك.

ولما أُتي أبو العباس برأس مَرْوان، سجد فأطال، ثم رفع رأسه، وقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأرنا قِبَلك وقِبَل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك، وأظهرنا عليك. ما أبالي متى طرقني الموت، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بني أمية، وأحرقت شِلْوَ[1] هشام بابن عَمّي زيد بن عليّ، كما أحرقوا شِلْوه، وتمثل:

لَوْ يَشْرَبُونَ دَمِي لم يَرْوَ شارِبُهم ... ولا دماؤهمُ جَمْعاً تُرَوِّيني

ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس، فتمثل:

أبى قومنا أن يُنْصِفُونا فأنصفت ... قواطعُ في أيْمانِنا تَقْطُرُ الدّمَا

إذا خالطت هامَ الرجال تركتُها ... كبيض نَعامٍ في الثرى قد تحطّما

ثم قال: أمّا مَرْوان فقتلناه بأخي إبراهيم، وقتلنا سائر بني أمية بحسين، ومن قتل معه وبعده من بني عمنا أبي طالب[2].

وروى المسعوديّ في كتاب «مروج الذهب» عن الهيثم بن عديّ، قال: حدّثني عمرو بن هانىء الطائيّ، قال: خرجتُ مع عبد الله بن عليّ لنبش قبور بني أميّة في أيام أبي العباس

(١) الشِّلْوُ: العضو، والقطعة من اللحم، والبقية من كل شيء، وجمعه: أشلاء.
(٢) مروج الذهب: ٣٠٠٠/ ٢٧١-٢٧٢.

السَّفاح، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك، فاستخرجناه صحيحاً، ما فقدنا منه إلا عِرْنينَ[1] أنفه، فضربه عبدُ الله بن عليّ ثمانين سوطاً ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا صُلْبه ورأسه وأضلاعه فأحرقناه، وفعلنا مثل ذلك بغيرهما من بني أميّة، وكانت قبورهم بقِنَّسرين، ثم انتهينا إلى دمشق، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منه إلا عظماً واحداً، ووجدنا من مَوْضع نحره إلى قدمه خطًّا واحداً أسود، كأنّما خُطّ بالرماد في طول لَحْده، وتتّبعنا قبورَهم في جميع البلدان، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

قلت: قرأت هذا الخبر على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد العلويّ بن عبد الله في سنة خمس وستمائة، وقلتُ له: أما إحراقُ هشام بإحراق زيد فمفهوم، فما معنى جَلْده ثمانين سوطاً؟ فقال رحمه الله تعالى: أظُنّ عبد الله بن عليّ ذهب في ذلك إلى حدّ القَذْف، لأنه يقال: إنّه قال لزيد: يابن الزانية، لما سبّ أخاه محمداً الباقر عليه السلام، فسبّه زيد، وقال له: سمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الباقر وتسمّيه أنت البقرة! لشدّ ما اختلفتما! ولتخالفنّه في الآخرة كما خالفتَه في الدنيا فيرد الجنة وترد النار. وهذا استنباط لطيف.

قال مرْوان لكاتبه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت إلى أن تصير مع عدوّي وتظهر الغَدْر بي! فإنّ إعجابهم ببلاغتك، وحاجتهم إلى كتابتك، تدعوهم إلى اصطناعِك وتقريبك، فإن استطعت أن تسعى لتنفعني في حياتي، وإلا فلن تعجز عن حفظ حُرَمي بعد وفاتي. فقال عبد الحميد: إنّ الذي أشرتَ به هو أنفع الأمرين لي، وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر معك حتى يفتح الله لك أو أقتَل بين يديك، ثم أنشد:

أسِرّ وفاءً ثم أظهِرُ غَدْرَةً ... فمنْ لي بعُذْرٍ يوسِعُ الناس ظاهرُهْ!

فثبَت على حاله، ولم يَصِرْ إلى بني هاشم حتى قتِل مروان، ثم قتِل هو بعده صبراً.

وقال إسماعيلُ بن عبد الله القسريّ: دعاني مَرْوان، وقد انتهت به الهزيمة إلى حَرّان، فقال: يا أبا هاشم - وما كان يكنّيني قبلها: قد ترى ما جاء من الأمر، وأنت الموثوق به، ولا عِطْرَ بعد عروس، ما الرأي عندك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، علامَ أجمعت؟ قال: أرتحل

(١) عِرْنين الأنف: ما صلب منه.

بمواليّ ومَنْ تبعني حتى آتي الدرب، وأميل إلى بعض مدن الروم فأنزلها، وأكاتب ملكَ الروم وأستوثق منه، فقد فَعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم، وليس هذا عاراً على الملوك، فلا يزال يأتيني من الأصحاب الخائفُ والهارب والطامع فيَكثر مَنْ معي، ولا أزال على ذلك حتى يكشفَ الله أمري، وينصرني على عدوّي، فلما رأيتُ ما أجمعَ عليه من ذلك، وكان الرأي، ورأيت آثارَه في قومه من نِزَار وعصبيّته على قومي من قَحطان، غششتهُ، فقلت: أعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين من هذا الرأي، أن تحكّمَ أهل الشِّرْك في بناتك وحرمك! وهم الرّوم لا وفاء لهم، ولا يُدْرَى ما تأتي به الأيام، وإن حَدَث عليك حَدَثٌ من أرض النصرانيّة - ولا يحدثنّ الله عليك إلا خيراً - ضاع مَنْ بعدك، ولكن اقطع الفرات، واستنفِر الشام جنداً جنداً، فإنّك في كَنَفٍ وعدّة، ولك في كلّ جند صنائع وأصحاب، إلى أن تأتيَ مصر، فهي أكثرُ أرضِ الله مالاً وخيلاً ورجالاً، والشام أمامك، وإفريقيّة خَلفك، فإن رأيتَ ما تحبّ انصرفت إلى الشام، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية، فقال: صدقت وأستخير الله. فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان: ابن حديد السّلميّ - وكان أخاه من الرضاعة - والكوثر بن الأسود الغنوي، وغدر به سائرُ النِّزارية مع تعصبه لهم، فلما اجتاز ببلاد قِنّسرين وخُناصرة، أوقعوا بساقته، ووثب به أهلُ حِمْص، وصار إلى دمشق، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشيّ ثم العقيليّ، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو التميميّ، ثم مَرّ بفلَسْطين، فوثب به أهلُها، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشّه في الرأي، ولم يَمْحَضه النصيحة، وأنّه فرّط في مشورته إياه إذا شاور رجلاً من قحطان موتوراً شانئاً له، وإنّ الرأيَ كان أول الذي همّ به من قطع الدَّرْب والنزول ببعض مدن الروم ومكاتبته ملكها. ولله أمر هو بالغه!

لما نزل مروان بالزّاب، جَرّد من رجاله مِمّن اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس، على مائة ألف قارح[1]، ثم نظر إليهم، وقال: إنّها لعدَّة ولا تنفع العدّة، إذا انقضت المدة.

لما أشرف عبد الله بن علي يوم الزَّاب في المسوّدة، وفي أوائلهم البنود السُّود، تحملها الرجال على الجمال البُخت، وقد جعل لها بدلاً من القَنَا خشب الصَّفصاف والغَرْب قال مَرْوان لمن قرب منه: أما ترونَ رماحهم كأنها النخلُ غلظاً! أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنّها

(١) القارح: الفرس. والناقة.

قطع الغمام السُّود! فبينما هو ينظرها ويعجب، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السود، فنزلت على أوّل عسكر عبد الله بن عليّ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود، ومرْوان ينظر، فازداد تعجّبه، وقال: أما تروْن إلى السواد قد اتّصل بالسواد، حتى صار الكلّ كالسحب السُّود المتكاثفة! ثم أقبل على رجل إلى جنبه فقال: ألا تعرّفُني مَنْ صاحب جيشهم؟ فقال: عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. قال: ويحك! أمِنْ ولد العباس هو؟ قال: نعم، قال: والله لوددْتُ أنّ عليّ بن أبي طالب عَلَيْتَكِلاِ مكانه في هذا الصّف، قال: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا لعليٍّ مع شجاعته التي ملأ الدنيا ذكرُها! قال: ويحك! إنّ علياً مع شجاعته صاحبُ دين، وإنّ الدين غيرالملك، وإنّا نروي عن قديمنا أنّه لا شيء لعليّ ولا لولده في هذا. ثم قال: مَنْ هو من ولد العباس، فإني لا أثبت شخصه؟ قال: هو الرجل الذي كان يخاصمُ بين يديك، عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. فقال أذكِرْني صورته وحلْيتَه، قال: هو الرجل الأقنى الحديد العَضَل، المعروق الوجه، الخفيف اللحية، الفصيح اللسان، الذي قلت لمّا سمعت كلامه يومئذ: يرزق الله البيان مَنْ يشاء، فقال: وإنه لهو! قال: نعم، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أتعلم لم صَيّرتُ الأمرَ بعدي لولدي عبد الله، وابنى محمد أكبر سناً منه؟ قال: لا، قال: إن آباءنا أخبرُونا أنّ الأمر صائر بعدي إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه.

ثم بعث مروان بعد أن حدّث صاحبه بهذا الحديث إلى عبد الله بن عليّ سرًّا، فقال: يابن عمّ، إنّ هذا الأمر صائر إليك، فاتق الله واحفظْني في حُرَمي، فبعث إليه عبد الله: إنّ الحقّ لنا في دمك، وإنّ الحق علينا في حُرَمك.

قلت: إن مروان ظنّ أن الخلافة تَكون لعبد الله بن عليّ، لأنّ اسمه عبد الله، ولم يعلم أنّها تكون لآخر اسمه عبد الله، وهو أبو العباس السفاح.

كان العَلاء بن رافع سِبْط ذي الكَلاع الحميريّ مؤنساً لسلمان بن هشام بن عبد الملك لا يكاد يفارقه، وكان أمر المسوّدة بخُراسان قد ظهر ودنوْا من العراق، واشتدّ إرجافُ الناس، ونطق العدو بما أحبّ في بني أمية وأوليائهم.

قال العلاء: فإنّي لمع سليمان وهو يشرب تجاه رُصافة أبيه، وذلك في آخر أيام يزيد الناقص، وعنده الحكَم الوادي، وهو يغنّيه بشعر العرْجيّ:

إنّ الحبيبَ تروّحَتْ أجمالُهُ ... أُصُلاً، فدمعك دائم إسبالُهُ
فاقْنِ الحياء فقد بكيتَ بعوْلَةٍ ... لو كان ينفع باكياً إعوالُهُ[1]

---

(١) رفع الصوت بالبكاء. اللسان، مادة (عول).

يا حَبّذا تلك الحمول وحَبّذا ... شخصٌ هناك، وحَبّذا أمثالُهُ!

فأجاد ما شاء، وشرب سليمان بن هشام بالرَّطْل، وشربنا معه حتى توسَّدْنا أيدينا، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياي، فقمت مسرعاً، وقلت: ما شأن الأمير؟ فقال: على رِسْلك، رأيت كأنّي في مسجد دمشق، وكأنّ رجلاً على يده حَجَر، وعلى رأسه تاج، أرى بصيصَ ما فيه من الجوهر، وهو رافع صوته بهذا الشعر:

أبني أميّة قد دنا تشتيتكُمْ ... وَذَهَاب ملككُمُ وليس براجِعِ

وينال صفوته عدوٌّ ظالمٌ ... كأساً لكم بسمام موت ناقع

فقلت: أعيذ الأمير بالله من وساوس الشيطان الرجيم! هذا من أضغاث الأحلام، ومما يقتضيه ويَجلبه الفكر، وسماع الأراجيف. فقال: الأمر كما قلتُ لك، ثم وَجَم ساعة، وقال: يا حميريّ، بعيدُ ما يأتي به الزمان قريب!

قال العلاء: فوالله ما اجتمعنا على شراب بعد ذلك اليوم.

سُئل بعضُ شيوخ بني أمية عَقِيب زوال الملك عنهم: ما كان سببُ زوال ملككم؟ فقال: جار عُمّالنا على رعيّتنا، فتمنّوا الراحة منّا، وتُحومل على أهل خراجنا فجلوْا عنا، وخرِبَت ضياعنا فخلَتْ بيوت أموالنا، ووثقْنا بوزرائنا، فآثروا مرافقَهم على منافعنا، وأمضوْا أموراً دوننا، أخفَوْا علمها عَنّا، وتأخّر جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدوُّنا، فظافروه على حَرْبنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلّة أنصارنا، وكان استتارُ الأخبار عَنّا من أوكد أسباب زوال مُلْكنا.

كان سعيد بن عمر بن جَعْدة بن هبيرة المخزوميّ، أحد وزراء مروان وسمّاره، فلمّا ظهرَ أمْر أبي العباس السفاح، انحاز إلى بني هاشم، ومتّ إليهم بأمّ هانىء بنت أبي طالب، وكانتْ تحتْ هُبيرة بن أبي وهب، فأتَتْ منه بجعْدة، فصار من خواصّ السفاح وبطانته، فجلس السّفّاح يوماً، وأمر بإحضار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ، ثم قال للحاضرين: أيّكم يعرف هذا؟ فقال سعيد: أنا أعرفه، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد بن مروان خليفتنا بالأمس، رحمه الله تعالى! قال سعيد: فحدّقت إليّ الشيعة، ورمتْني بأبصارها، فقال لي أبو العباس: في أيّ سنة كان مولده؟ قلت: سنة ست وسبعين، فقام وقد تغيَّر لونه غضباً عليّ، وتفرّق الناس من المجلس، وتحدّثوا به، فقلت: زلّة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبداً! فأتيتُ منزلي، فلم أزل باقي يومي أعْهدُ وأوصي، فلما كان الليل اغتسلْتُ وتهيّأت للصلاة - وكان أبو العباس إذا

همّ بأمر بعث فيه ليلاً - فلم أزلْ ساهراً حتى أصبحتُ وركبت بغلتي، وأفكرت فيمن أقصِد في أمري، فلم أجد أحداً أوْلى من سليمان بن مجالد مولى بني زهرة، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة، وكان من شيعة القوم، فأتيتُه، فقلت له: أذكَرَني أمير المؤمنين البارحة؟ قال: نعم، جرى ذكرك، فقال: هو ابن أختنا، وفيّ لصاحبه، ونحن لو أولَيْناه خيراً لكان لنا أشكر. فشكرت لسليمان بن مجالد ما أخبرني به، وجزيتُه خيراً، وانصرفت. فلم أزل من أبي العباس على ما كنت عليه، لا أرى منه إلا خيراً.

ونما ذلك المجلس إلى عبد الله بن عليّ وإلى أبي جعفر المنصور، فأمّا عبد الله بن عليّ فكتب إلى أبي العباس يُغرِيه بي، ويعاتبه على الإمساك عَني، ويقول له: إنه ليس مثل هذا ممّا يحتمل، وكتب إليه أبو جعفر يُعْذِر لي، وضرب الدهر ضَرْبَهُ، فأتى ذات يوم عند أبي العباس، فنهض ونهضت، فقال لي: عَلَى رِسْلك يابن هبيرة! فجلست، فرفع السِّتْر، ودخل وثبتَ في مجلسه قليلاً، ثم خرج في ثَوْبَيْ وَشْيٍ ورداء وجُبّة، فما رأيت والله أحسنَ منه ولا ممّا عليه قطّ، فقال لي: يابن هبيرة، إني ذاكرٌ لك أمراً، فلا يخرُجنّ من رأسك إلى أحد من الناس. قلت: نعم، قال: قد علمتَ ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتَل مروان، وإنما قتله عمّي عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتدبيره، وأنا شديد الفكر في أمر أخي أبي جعفر، في فَضْله وعلمه وسنّه وإيثاره لهذا الأمر، كيف أخرِجُه عنه! فقلت: أصلح الله أمير المؤمنين! إنّي أحدّثك حديثاً تعتبر به، وتستغني بسماعه عن مشاورتي، قال: هاته، فقلت: كنّا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية، إذ ورَدَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز ينعَى سليمان، ومصيرَ الأمر إليه، فدخلت إليه، فرمى الكتاب إليّ فقرأته، واسترجعت، واندفع يبكي وأطال، فقلت: أصلح الله الأمير وأطال بقاءه! إنّ البكاء على الأمر الفائت عجز، والموت منهلٌ لا بدّ من وِرْده، فقال: ويحك! إنّي لستُ أبكي على أخي، لكنّي أبكي لخروج الأمر عن ولد أبي إلى ولد عمّي! فقال أبو العباس: حسبُك، فقد فهمت عنك، ثم قال: إذا شئت فانْهَض، فلما نهضت لم أمض بعيداً حتى قال لي: يابن هبيرة! فالتفتّ إليه، فقال: أما إنّك قد كافأت أحدهما، وأخذت بثأرك من الآخر، قال سعيد: فوالله ما أدري من أيّ الأمرين أعجب! من فطنته أم من ذكره.

لما سايرَ عبدُ الله بن عليّ في آخر أيام بني أمية عبدَ الله بن حسن بن حسن، ومعهما داود بن عليّ، فقال داود لعبد الله بن الحسن: لم لا تأمرُ ابنيك بالظّهور؟ فقال عبد الله بن حسن: لم يأنِ لهما بعد، فالتفتَ إليه عبد الله بن عليّ، فقال: أظنّك ترى أنّ ابنيك قاتلا مروان! فقال عبد الله بن حسن: إنه ذلك، قال: هيهات! ثم تمثّل:

سيكفيك الجعالة مستميتٌ　　خفيف الحاذِ من فتيان جَرْم

أنا والله أقتل مروان، وأسلبه ملكه، لا أنت ولا ولدك!

وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني رواية أخرى في سبب قتل السفاح لمن كان أمّنه من بني أمية، قال: حدّث الزبير بن بكّار، عن عَمّه، أنّ السفاح أنشِد يوماً قصيدة مُدِح بها، وعنده قوم من بني أمية كان آمنَهم على أنفسهم، فأقبل على بعضهم، فقال: أين هذا مما مُدِحتم به! فقال: هيهات! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيّات فينا:

مـا نـقَـمـوا مـن بـنـي أمـيّـة إلاّ　　　أنـهُـمْ يـحـلُـمـون إن غَـضِـبُـوا

وأنّـهـم مـعـدِن الـمـلـوك فـمـا　　　تـصـلُـح إلا عـلـيـهـم الـعـرب

فقال له: يا ماصّ كذا من أمّه! وإن الخلافة لفي نفسك بعد! خذوهم. فأخِذوا وقتِلوا.

وروى أبو الفرج أيضاً أنّ أبا العباس دعا بالغدَاء حين قُتِلوا، وأمر ببساط فبُسِط عليهم، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته، فلما فرغ، قال: ما أعلم أنّي أكلتُ أكلة قطّ كانت أطيبَ ولا أهنأ في نفسي من هذه. فلما فرغ من الأكل قال: جُرُّوهم بأرجلهم، وألقوهم في الطريق، ليلعنَهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء.

قال: فلقد رأينا الكلاب تجرّهم بأرجلهم، وعليهم سراويلات الوشْي حتى أنْتَنوا، ثم حفرتْ لهم بئر فألقُوا فيها.

قال أبو الفرج: وروى عمر بن شبّة، قال: حدثني محمد بن معن الغِفَاريّ، عن معبد الأنباريّ، عن أبيه، قال: لما أقبل داود بن عليّ من مكة، أقبل معه بنو حسنٍ جميعاً، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن، وأخوه حسن بن الحسن، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان - وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمّه - فعمل داود مجلساً ببعض الطريق، جلس فيه هو والهاشميُّون كلّهم، وجلس الأمويّون تحتهم، فجاء ابن هرْمة فأنشده قصيدة يقول فيها:

فَـلا عَـفَـا الله عـن مَـرْوان مـظـلِـمـةً　　　ولا أمـيّـة، بـئـس الـمـجـلـس الـنـادي!

كـانـوا كـعـادٍ فـأمـسـى الله أهـلـكـهـمْ　　　بـمـثـل مـا أهـلـك الـغـاوين مِـنْ عَـادِ

فـلـن يـكـذّبَـنـي مـن هـاشـمٍ أحـدٌ　　　فـيـمـا أقـول، ولـو أكـثـرتُ تـعـدادِي

قال: فنبذ داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضَحْكةً كالكِشْرة، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن: أما رأيت ضحك داود إلى ابن عنبسة! الحمد الله الذي صرَفَها عن أخي - يعني العثمانيّ - قال: فما هو إلا أن قدم المدينة، حتى قتل ابن عنبسة.

قال أبو الفرج: وحدّثني محمد بن معن قال: حدّثني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: استحلف أخي عبد الله بن الحسن داودَ بن علي - وقد حجّ معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة - بطلاق امرأته مُلَيكة بنت داود بن الحسن، ألاّ يقتل أخويه محمداً والقاسم ابنَيْ عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: فكنت أختلِف إليه آمناً، وهو يقتل بني أمية، وكان يكره أنَ يراني أهل خراسان، ولا يستطيع إليّ سبيلاً ليمينه، فاستدناني يوماً، فَدَنوت منه، فقال: ما أكثر الغَفْلة، وأقلّ الحَزَمة! فأخبرت بها أخي عبدَ الله بن الحسن، فقال: يابن أمّ، تغيَّبْ عن الرجل، وأقِلّ عنه، فتغيب حتى مات.

قلت: إلاّ أنّ ذلك الدَّيْن الذي لم يقضه داود، قضاه أبو جعفر المنصور.

وروى أبو الفرج في الكتاب المذكور أن سُدَيفاً أنشد أبا العباس، وعنده رجال من بني أمية، فقال:

يابنَ عَمّ النبي أنت ضِيَاءٌ ... استبنّا بك اليقينَ الجليّا

[فلمّا بلغ قوله]:

جَرِّد السيفَ وارفع العفو حَتّى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا

قَطَنَ البغضُ في القديم وأضحى ... ثابتاً في قلوبهم مطويّا

وهي طويلة، فقال أبو العباس: يا سُدَيف، خُلِقَ الإنسان من عجل! ثم أنشد أبو العباس متمثّلاً:

أحيا الضغائن آباء لنا سَلَفُوا ... فلن تبيد وللآباء أبناءُ

ثم أمر بمن عنده فقتلوا.

وروى أبو الفرج أيضاً، عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفلي، عن أبيه، عن عمومته، أنهم حضروا سليمان بن عليّ بالبصرة، وقد حضر جماعة من بني أمية عنده، عليهم الثياب الموشّاة المرتفعة - قال أحد الرواة المذكورين: فكأني أنظر إلى أحدهم وقد اسودّ شيب في عارضيه من الغالية - فأمر بهم فقتلوا وجُرّوا بأرجلهم، فألقُوا على الطريق، وإنّ عليهم لسراويلات الوَشي والكلاب تجرّهم بأرجلهم.

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك، عن أبيه، قال: جاءني رسولُ عمرو بن

معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان، قال: يقول لك [عمور]: قد جاءت هذه الدولة، وأنا حديث السنّ، كثير العيال، منتشِر الأموال، فما أكون في قبيلة إلا شُهر أمري وعرِفت. وقد عزمت على أن أخرج من الاستتار، وأفدِيَ حُرَمي بنفسي، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن عليّ، فصرْ إليّ. فوافيتُه فإذا عليه طيلسانٌ[1] أبيض مطبق، وسراويل وَشْيٍ مسدول، فقلت: يا سبحان الله! ما تصنع الحداثة بأهلها! أبهذا اللباس تَلْقَى هؤلاء القوم لِمَا تَريد لقاءهم [فيه]! فقال: لا والله، ولكن ليس عندي ثوب إلا أشهر ممّا تَرَى. فأعطيته طَيْلساني وأخذت طيلسانه، ولويتُ سراويله إلى ركبتيه. فدخل إليّ سليمان، ثم خرج مسروراً فقلت له: حدّثني ما جرى بينك وبين الأمير، قال: دخلت عليه ولم يرني قطّ، فقلت: أصلح الله الأمير! لفظتْني البلاد إليك ودلّني فضلُك عليك، إمّا قتلتَني [غانماً] وإمّا أمّنتني [سالماً]، فقال: ومَنْ أنت حتى أعرفك؟ فانتسبت له، فقال: مرحباً بك! اقعد فتكلّم سالماً آمناً، ثم أقبلَ عليّ فقال: حاجتك يابن أخي؟ فقلت: إن الحُرَم اللواتي أنت أقربُ الناس إليهنّ معنا، وأولى الناس بهنّ بعدنا، قد خفْن لخوفنا، ومَنْ خاف خِيف عليه. فوالله ما أجابني إلا بدموعه على خدّيه، ثم قال: يابن أخي، يحقِنُ الله دمك، ويحفظك في حُرَمك، ويوفّر عليك مالك، فوالله لو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت، فكن متوارياً كظاهر، وآمناً كخائف، ولْتأتِني رقاعُك. قال: فوالله لقد كنتُ أكتب إليه كما يكتبُ الرجل إلى أبيه وعمه. قال: فلما فرغ من الحديث، رددت عليه طيلسانه، فقال: مهلاً، فإن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ، قال: أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ، عن عمر بن شبّة، قال: قال سُدَيف لأبي العباس يحضّه على بني أمية، ويذكر من قتل مَرْوان وبنو أمية من أهله:

كيف بالعفو عنهمُ وقديماً ... قَتَّلوكم وهَتَّكوا الحرماتِ

أين زيدٌ وأين يحيى بن زيد! ... يا لها من مصيبة وتِرَاتِ!

والإمام الذي أصيب بحرّا ... ن إمام الهدى ورأس الثقاتِ

قتلوا آل أحمد لا عفا الذّ ... نبَ لمروان غافرُ السّيّئاتِ

قال أبو الفرج: وأخبرَني عليّ بن سليمان الأخفش، قال: أنشدني محمد بن يزيد المبرّد لرجل من شيعة بني العباس، يحضّهم على بني أمية:

---

(١) طيلسان: ضرب من الأكسية، أسود. اللسان، مادة (طلس).

إيـاكـمُ أن تـلـيـنـوا لاعـتـذارهِـمُ فـلـيـس ذلـك إلاّ الـخـوف والـطـمـعُ
لـو أنّـهـم أمِـنُـوا أبـدوْا عـداوتـهـمْ لـكـنّـهـم قُـمِـعوا بـالـذلّ فـانـقـمـعـوا
أليـس في ألف شهر قد مضت لهمُ سـقـيـتـمُ جُـرَعـاً من بـعـدهـا جُـرَعُ
حتـى إذا مـا انـقـضـت أيـام مـدّتـهـمْ متُّوا إليكـم بالارحام التـي قطعوا
هـيـهـات لا بـدّ أن يـسـقـوا بـكـأسـهـمُ رَيَّا وأن يَحْصُدوا الزرع الذي زرعُوا
إنّـا وإخـوانـنـا الأنـصـارَ شـيـعـتُـكـم إذا تـفـرقـت الأهـواء والـشِّـيَـعُ

قال أبو الفرج: وروى ابن المعتز في قصة سُدَيف مثل ما ذكرناه من قبل، إلا أنّه قال فيها: فلما أنشده ذلك التفت إليه أبو الغَمْر سليمان بن هشام، فقال: يا ماصّ بَظْرامه، أتَجْبَهُنَا(١) بمثل هذا ونحن سَرَوات الناس! فغضِب أبو العباس - وكان سليمان بن هشام صديقه قديماً وحديثاً، يقضي حوائجه في أيامهم ويَبَرُّهُ - فلم يلتفت إلى ذلك، وصاح، بالخُراسانية: [خذوهم]! فقتّلوهم جميعاً إلا سليمان بن هشام، فأقبل عليه أبو العباس، فقال: يا أبا الغَمْر: ما أرى لك في الحياة بعد هؤلاء خيراً. قال: لا والله، قال: فاقتلوه، وكان إلى جنبه فقتِل وصلِبوا في بستانه، حتى تأذى جلساؤه بريحهم، فكلّموه في ذلك، فقال: والله إن ريحهم عندي لألذّ وأطيب من ريح المسك والعنبر غيظاً عليهم [وحنقاً].

قال أبو الفرج: وكان أبو سعيد مولى فائد من مواليهم يعدّ في موالي عثمان بن عفان واسم أبي سعيد إبراهيم، وهو من شعرائهم الذين رثوْهم، وبكوا على دولتهم وأيامهم، فمن شعره بعد زوال أمرهم:

بـكـيـتُ ومـاذا يـردُّ الـبـكـاءُ وقَـلّ الـبُـكَـاء لـقـتـلَـى كَـدَاءْ
أصـيـبـوا مـعـاً فـتـولّـوْا مـعـاً كـذلـك كـانـوا مـعـاً فـي رَخَـاءْ
بـكـت لـهـمُ الأرضُ مـن بـعـدهِـمْ ونـاحـت عـلـيـهـمْ نـجـومُ الـسـمـاءْ
وكـانـوا ضـيـاءً فـلـمـا انـقـضـى الـزّمـان بـقـومـي تـولـى الـضـيـاءْ

ومن شعره فيهم:

أثّـر الـدّهـرُ فـي رجـالـي فَـقـلُّـوا بعد جَمْع فراح عظمِي مَهِيضَا(٢)

(١) جَبَهَهُ: رده أو لقيه بما يكره. القاموس، مادة (جَبَهَ).
(٢) مهيض: هاض العظم هيضاً: كسره بعدما كاد ينجبر. اللسان، مادة (هيض).

مـا تـذكّـرتُـهـمْ فـتـمـلـك عـيـنـي فـيـضَ دمـع، وحـقّ لـي أن تـفـيـضـا

ومن شعره فيهم:

أولـئـك قـومـي بـعـد عِـزٍّ وثـرْوَةٍ تـداعـوْا فـإلّا تـذرِف الـعـيـن أكْـمَـد

كـأنـهـمُ لا نـاس لـلـمـوت غـيـرهُـمْ وإن كـان فـيـهـم مـنـصـفـاً غـيـر مُـعْـتـدِ

وقال أبو الفرج: ركبَ المأمون بدمشق يتصيّد، حتى بلغ جبل الثلْج، فوقف في بعض الطريق على بِرْكة عظيمة، في جوانبها أربع سرَوات، لم يُرَ أحسن منها، فنزل هناك، وجعل ينظر إلى آثار بني أميّة وَيعْجَب منها، ويذكرهم. ثم دعا بطبقٍ عليه طعام، فأكل، وأمر علّويه فغنى:

أولـئـك قـومـي بـعـد عـزٍّ ومـنـعـة تَـفَـانَـوْا فـإلّا تـذرف الـعـيـن أكـمَـدِ

وكان علّويه من موالي بني أمية، فغضب المأمون. وقال: يابن الفاعلة، ألم يكن لك وقت تبكي فيه على قومك إلا هذا الوقت! قال: كيف لا أبكي عليهم ومولاكم زرياب، كان في أيام دولتهم يركب معهم في مائة غلام، وأنا مولاهم معكم أموت جوعاً! فقام المأمون فركب وانصرف الناس، وغضب على علّويه عشرين يوماً، وكُلِّم فيه فرضي عنه، ووصله بعشرين ألف درهم.

لما ضرب عبد الله بن عليّ أعناق بني أميّة، قال له قائل من أصحابه: هذا والله جهد البلاء، فقال عبد الله: كلاّ، ما هذا وشَرْطة حجّام إلاّ سواء، إنما جهد البلاء فَقْر مدقع، بعد غنًى موسع.

خطب سليمان بن عليّ لما قَتَل بني أمية بالبصرة، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[1] قضاء فصل، وقول مبرم، فالحمد لله الذي صدق عبده، وأنجز وعده، وبعداً للقوم الظالمين، الذين اتخذوا الكعبة غرَضاً، والدين هزواً، والفيء إرثاً، والقرآن عِضِين، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكأيّن ترى لهم من بئر معطّلة وقصر مشيد، ذلك بما قدّمت أيديهم، وما ربّك بظلام للعبيد، أمهلهم حتى اضطهدوا العِتْرَة، ونبذوا السنّة، واستفتحوا وخاب كلّ جبار عنيد، ثم أخذهم فهل تُحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً!

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

ضرب الوليد بن عبد الملك عَليّ بن عبد الله بن العباس بالسِّياط، وشَهَره بين الناس يُدار به على بعير، ووجهه مما يَلِي ذَنَب البعير، وصائح يصيح أمامه: هذا عليّ بن عبد الله الكذّاب، فقال له قائل، وهو على تلك الحال: ما الذي نسبوك إليه من الكذب ياأبا محمد؟ قال: بلغهم قولي: إن هذا الأمر سيكون في ولَدِي، والله ليكوننّ فيهم حتى يَمْلِكَهُ عبيدهم الصغار العيون، العراض الوجوه، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرَّقة.

وروي أنّ عليّ بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنه: الخليفتان أبو العباس وأبو جعفر، فكلّمه فيما أراد، ثمّ ولّى فقال هشام: إنّ هذا الشيخ قد خرِف وأهْتَر، يقول: إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده! فسمع عليّ بن عبد الله كلامه، فالتفت إليه، وقال: إي والله ليكوننّ ذلك، وليملكنّ هذان.

وقد روى أبو العباسَ المبرّد في كتاب «الكامل» هذا الحديث، فقال: دخل عليّ بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شجاع البلخيّ، ومعه ابنا ابنه الخليفتان بعد: أبو العباس وأبو جعفر، فأوسع له على سريره وبرّه، وسأله عن حاجته، فقال: ثلاثون ألف درهم عليّ دين، فأمر بقضائها، قال: واستوص بابنيّ هذين خيراً، ففعل، فشكره عليّ بن عبد الله، وقال: وصلتك رَحِم، فلما ولّى قال سليمان لأصحابه: إنّ هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخَلّط، وصار يقول: إنّ هذا الأمر سينتقل إلى ولده. فسمع ذلك عليّ بن عبد الله، فالتفت إليه، وقال: إي والله ليكوننّ ذلك، وليملكنّ هذان.

قال أبو العباس المبرِّد: وفي هذه الرواية غلط، لأنّ الخليفة في ذلك الوقت لم يكن سليمان، وإنما ينبغي أن يكون دخل على هشام، لأنّ محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس كان يحاول التزويج في بني الحارث بن كعب، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له، فلمّا قام عمر بن عبد العزيز جاء فقال: إنّي أردت أنْ أتزوّج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب، أتزوّج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب، فتأذن لي! فقال عمر بن عبد العزيز: تزوجْ يرحمك الله مَنْ أحببت. فتزوّجها فأولدها أبا العباس السّفاح، وعمر بن عبد العزيز بعد سليمان، وأبو العباس ينبغي ألا يكون تهيأ لمثله أن يدخل في خليفة حتى يترعرع، ولا يتمّ مثل هذا إلا في أيام هشام بن عبد الملك[1].

قال أبو العباس المبرِّد: وقد جاءت الرواية أنّ أمير المؤمنين عليًا عليه السلام لما وُلِد لعبد الله بن العباس مولود فقده وقت صلاة الظهر، فقال: ما بالُ ابن العبّاس لم يحضُر! قالوا: وِلد له ولد

(١) الكامل: ٣٦١ (طبع أوروبا) مع اختلاف الرواية.

ذكر، يا أمير المؤمنين. قال: فامضُوا بنا إليه، فأتاه فقال له: شكرتَ الواهب، وبُورك لك في الموهوب! ما سميّتَه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أو يجوز لي أن أسمّيَه حتى تسمّيَه! فقال: أخرجه إليّ، فأخرجه، فأخذه فحنّكه ودعا له ثم رده إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك، قد سميتُه عليًّا، وكنيته أبا الحسن. قال: فلما قدم معاوية خليفة، قال لعبد الله بن العبّاس: لا أجمع لك بين الاسم والكنية، قد كنيته أبا محمد، فجرَتْ عليه[1].

قلت: سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى، فقلت له: مِنْ أيّ طريق عرف بنو أمية أنّ الأمر سينتقل عنهم، وأنّه سيليه بنو هاشم، وأوّل من يلي منهم يكون اسمه عبد الله؟ ولم منعوهم عن مناكحة بني الحارث بن كعب لعلمهم أنّ أول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أمّه حارثيّة؟ وبأيّ طريق عرف بنو هاشم أنّ الأمر سيصير إليهم، ويملكه عبيدُ أولادهم، حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه، كما قد جاء في هذا الخبر!

فقال: أصلُ هذا كلّه محمد بن الحنفيّة، ثم ابنه عبد الله المكنّى أبا هاشم.

قلت له: أفكان محمد بن الحنفيّة مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام؟ قال: لا، ولكنهما كتما وأذاع. ثم قال: قد صحّت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث، أنّ علياً عليه السلام لما قبِض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام، فقال لهما: أعطياني ميراثي من أبي، فقالا له: قد عَلِمْتَ أنّ أباك لم يترك صَفْراء ولا بيضاء، فقال: قد علمت ذلك، وليس ميراث المال أطلب، إنما أطلب ميراث العلم.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: فروى أبان بن عثمان عَمّن يُروى له ذلك، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: فدفعا إليه صحيفة، لو أطلعاه على أكثر منها لهلك، فيها ذكر دولة بني العباس.

قال أبو جعفر: وقد رَوَى أبو الحسن عليّ بن محمد النوفليّ، قال: حدثني عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس، قال: لما أردنا الهرَب من مروان بن محمد، لما قبض على إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التي دفعها أبو هاشم بن محمد بن الحنفيّة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وهي التي كان آباؤنا يسمّونها صحيفة الدولة، في صندوق من نحاس صغير، ثم دفناه تحت زيتونات بالشّراة لم يكن بالشّراة من الزيتون غيرهنّ، فلما أفضى السلطان إلينا، وملكنا الأمر، أرسلنا إلى ذلك الموضع فبحث وحُفر، فلم يوجد فيه شيء، فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع، حتى بلغ الحفر الماء ولم نجد شيئاً.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٢/ ١٠٢.

قال أبو جعفر: وقد كان محمد بن الحنفيّة صرّح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرّفه تفصيله، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصّل لعبد الله بن العباس الأمر، وإنما أخبره به مجملاً، كقوله في هذا الخبر: «خذ إليك أبا الأملاك»، ونحو ذلك مما كان يعرّض له به، ولكن الذي كشف القناع، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفيّة.

وكذلك أيضاً ما وصل إلى بني أمية من علْم هذا الأمر، فإنه وصل من جهة محمد بن الحنفيّة، وأطلعهم على السرّ الذي علمه، ولكن لم يكشف لهم كشفه لبني العباس، فإنّ كشفهُ الأمر لبني العباس كان أكمل.

قال أبو جعفر: فأما أبو هاشم، فإنه قد كان أفضى بالأمر إلى محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس وأطلعه عليه، وأوضحه له، فلما حضرته الوفاة عَقيب انصرافه من عند الوليد بن عبد الملك مَرّ بالشراة، وهو مريض ومحمد بن علي بها، فدفع إليه كتبه، وجعله وصيّه، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه.

قال أبو جعفر: وحضر وفاة أبي هاشم ثلاثة نفر من بني هاشم: محمد بن عليّ هذا، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فلما مات خرج محمد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر من عنده، وكلّ واحد منهما يدّعي وصايتَه، فأمّا عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئاً.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: وصدق محمد بن عليّ، أنّه إليه أوصى أبو هاشم، وإليه دفع كتاب الدولة، وكَذَب معاوية بن عبد الله بن جعفر، لكنّه قرأ الكتاب، فوجد لهم فيه ذِكْراً يسيراً، فادّعى الوصية بذلك، فمات وخرج ابنُه عبد الله بن معاوية يدّعي وصاية أبيه، ويدّعي لأبيه وصاية أبي هاشم، ويظهر الإنكار على بني أمية، وكان له في ذلك شيعة يقولون بإمامته سرًّا حتى قتل.

دخلتْ إحدى نساء بني أميّة على سليمان بن علي، وهو يقتل بني أمية بالبصرة، فقالت: أيها الأمير، إنّ العدل لَيُمَلّ من الإكثار منه، والإسراف فيه، فكيف لا تملّ أنت من الجوْر وقطيعة الرحم! فأطرق ثم قال لها:

سَنَنْتُمْ علينا القتل لا تنكِرُونه   فذوقوا كما ذقْنا على سَالِف الدّهرِ

ثم قال: يا أمَةَ الله.

وأول راضٍ سنّة مَنْ يَسِيرُها

ألم تحاربوا علياً وتدفعوا حقه؟ ألم تَسُمُّوا حسناً وتنقضوا شرطه؟ ألم تقتلُوا حسيناً وتسيّروا رأسه؟ ألم تقتلوا زيداً وتصلبوا جسده؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به؟ ألم تلعنوا علياً على

منابركم؟ ألم تضربوا أبانا عليّ بن عبد الله بسياطكم؟ ألم تخنقوا الإمام بجراب النّورة[1] في حبسكم؟ ثم قال: ألكِ حاجة؟ قالت: قَبض عُمّالك أموالي، فأمر برد أموالها عليها.

لما سار مَرْوان إلى الزّاب، حفر خندقاً، فسار إليه أبو عون عبد الله بن يزيد الأزديّ، وكان قَحطبة بن شبيب قد وجّهه وأمدّ أبو سلمة الخلاّل بأمداد كثيرة، فكان بإزاء مرْوان. ثم إن أبا العباس السفاح قال لأهله وهو بالكوفة حينئذ: مَنْ يسير إلى مَرْوان من أهل بيتي وله ولاية العهد إن قتله؟ فقال عبد الله عمّه: أنا، قال: سرْ على بركة الله، فسار فقدم على أبي عَوْن، فتحول له أبو عون عن سُرادقه وخلاّه له بما فيه. ثم سأل عبد الله عن مخاضةٍ في الزّاب، فدلّ عليها، فأمر قائداً من قوّاده فعبَرها في خمسة آلاف، فانتهى إلى عسكر مَرْوان فقاتلهم، حتى أمسوْا وتحاجزوا، ورجع القائد بأصحابه، فعبرَ المخاضة إلى عسكر عبد الله بن عليّ، وأصبح مروان، فعقد جسراً، وعَبَر بالجيش كلّه إلى عبد الله بن عليّ، فكان ابنه عبد الله بن مروان في مقدمته، وعلى الميمنة الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان، وعلى الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، وعبّأ عبد الله بن علي جيشه، وتراءى الجمعان، فقال مروان لعبد العزيز بن عمر: انظر، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندعها إلى عيسى ابن مريم، وإن قاتلونا قبل الزوال، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ثم أرسل إلى عبد الله بن علي يسأله الكفّ عن القتال نهار ذلك اليوم، فقال عبد الله: كذب ابن زربي إنما يريد المدافعة إلى الزوال، لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله. ثم حرك أصحابه للقتال، فنادى مروان في أهل الشام: لا تبدءوهم بالحرب، فلم يسمع الوليد بن معاوية منه، وحمل على ميسرة عبد الله بن عليّ، فغضب مروان وشَتَمه، فلم يسمع له واضطرمت الحرب، فأمر عبد الله الرماة أن ينزلوا، ونادى: الأرض الأرض! فنزل الناس، ورمت الرماة، وأشرعت الرماح وجَثَوْا على الرُّكب، فاشتدّ القتال، فقال مروان لقضاعة: انزلوا، قالوا: حتى تنزل كِنْدة، فقال لكندة: انزلوا، فقالوا: حتى تنزل السَّكاسك، فقال لبني سليم: انزلوا، فقالوا: حتى تنزل عامر، فقال لتميم: احملوا، فقالوا: حتى تحمِلَ بنو أسد، فقال لهوازن: احملوا، قالوا: حتّى تحمل غَطَفان، فقال لصاحب شرْطته: احْمِل ويلك! قال: ما كنتُ لأجعل نفسي غَرَضاً، قال: أما والله لأسوأنّك، قال: وددت أنّ أميرَ المؤمنين يقدر على ذلك! فانهزم عسكرُ مروان وانهزم مروان معهم، وقطع الجسر، فكان مَنْ هلك غرقاً أكثرَ ممنّ هلك تحت السيف، واحتوى عبد الله بن عليّ على عسكر مروان بما فيه، وكتب إلى أبي العباس يخبره الواقعة.

---

(١) النورة: من الحجر الذي يحرق ويسوى منه الكلس ويحلق به شعر العانة. اللسان، مادة (نور).

كان مَرْوان سديدَ الرأي، ميمون النقيبة، حازماً، فلما ظهرت المسوّدة، ولقيهم كان ما يدبّر أمراً إلا كان فيه خلل، ولقد وقف يوم الزّاب، وأمر بالأموال فأخرجت، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا، وهذه الأموال لكم، فجعل ناسٌ يصيبون من ذلك المال ويشتغلون به عن الحرب، فقال لابنه عبد الله: سِرْ في أصحابك فامنع مَنْ يتعرّض لأخذ المال، فمال عبد الله برايته، ومعه أصحابه، فتنادَى الناسُ: الهزيمة! الهزيمة! فانهزموا، وركب أصحابُ عبد الله بن عليّ أكتافهم.

لما قتل مروانِ ببوصير، قال الحسن بن قحطبة: أخرجوا إليّ إحدى بنات مَرْوان، فأخرجوها إليه وهي تُرْعد، قال: لا بأس عليك! قالت: وأيّ بأس أعظمُ من إخراجك إياي حاسرة، ولم أر رجلاً قبلك قَطُّ! فأجلسها، ووضع رأس مروان في حِجْرها، فصرخت واضطربت فقيل له: ما أردت بهذا؟ قال: فعلت بهم فعلهم بزيد بن علي لمّا قتلوه، جعلوا رأسه في حجر زينب بنت عليّ بن الحسين عليه السلام.

دخلت زوجةُ مَرْوان بن محمد، وهي عجوز كبيرة، على الخيزُران في خلافة المهديّ، وعندها زينبُ بنت سليمان بن عليّ، فقالت لها زينب: الحمد لله الّذي أزال نعمتَك، وصيَّرك عِبْرة! أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك نساؤنا يسألنكِ أن تكلّمي صاحبَك في أمر إبراهيم بن محمد، فلقيتهنّ ذلك اللقاء، وأخرجتِهنّ ذلك الإخراج! فضحكت، وقالت: أيْ بنتَ عَمّي! وأيّ شيء أعجبَك من حُسْن صنيع الله بي عقيب ذلك، حتى أردتِ أن تتأسَّيْ بي فيه! ثم ولّت خارجة.

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة، لثلاث عشرة ليلة خَلَوْن من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فصعِد المنبر بالكوفة فخطب، فقال: الحمدُ لله الّذِي اصْطَفى الإسلام لنفسه، وكَرّمه وشَرّفه وعَظّمه، واختَارَهُ لنا، وأيّده بنا، وجعلنا أهله وكهفَه، وحصْنه والقوّام به، والذّابين عنه، والناصرين له، وخَصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنبتَنا من شَجَرتِه، واشتقّنا من نَبْعتِه، وأنزل بذلك كتاباً يتلى، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، قام بالأمر أصحابه ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2] فعلوا، وخرجوا خِمَاصاً، ثم وثبت بنو حَرْب وبنو مروان فابتزُّوها وتداولوها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٣. (٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

فأملى الله لهم حيناً، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حَقّنا، فأنا السَّفّاحُ المبيح والثائر المبير.

وكان مؤعوكاً فاشتدت عليه الوعْكة، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام عمه داود بن عليّ وكان بين يديه، فقال:

يا أهلَ العراق، إنا والله ما خَرَجْنا لنحفِر نَهراً، ولا لنكنز لُجَيْناً ولا عِقْياناً، وإنما أخرجتْنا الأنَفة من ابتزاز الظالمين حقَّنا، ولقد كانت أموركم تتصل بنا فُترْمِضُنا ونحن على فُرُشنا، لكم ذمّة الله وذمّة رسوله، وذمة العباس، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير فيكم بسنّة رسول الله ﷺ. واعلموا أنّ هذا الأمر ليس بخارج عنا حتى نسلِمه إلى عيسى بن مريم.

يا أهل الكوفة، إنه لم يخطب على مِنبركم هذا خليفة حقّ إلا عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا، فاحمَدُ الله الذي رَدّ إليكم أمورَكم. ثم نزل.

وقد روى حديث خطبة داود بن عليّ برواية أخرى، وهي الأشهر، قالوا: لما صعد أبو العباس مِنبر الكوفة، حُصِر فلم يتكلم، فقام داود بن عليّ، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بِمرْقاة، فاستقبل الناس، وقال:

أيها النّاس، إن أمير المؤمنين يكرَه أن يتقدّم قولُه فعلَه، ولَأثرُ الفعال أجْدَى عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم كتاب الله تمثّلاً فيكم، وابن عمّ رسول الله ﷺ خليفةً عليكم، أقسم بالله قَسَماً بَرًّا ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله ﷺ أحقُّ به من عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمسْ هامِسُكم، ولينطق ناطقكم. ثم نزل.

ومن خطب داود التي خطب بها بعد قتل مَرْوان:

شُكْراً شُكْراً! أظَنَّ عدوّ الله أن لن يُظْفَر به، أرخى له في زمامه، حتى عثر في فضل خِطامه، فالآن عاد الحقّ إلى نصابه، وطلعت الشمس من مطلعها، وأخذَ القوسَ باريها، وصار الأمر إلى النُّزَعة، ورجع الحقّ إلى مستقرّه، أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة.

وخطب عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس لما قُتِل مَرْوان، فقال: الحمد لله الذي لا يفوقه مَنْ طلب، ولا يُعجزُه مَنْ هرب، خدعتْ والله الأشقرَ نفسُه، إذ ظنّ أن الله ممهله، ويأبى

الله إلاّ أن يُتمّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون، فحتى مَتَى؟ وإلى متى! أما والله لقد كَرِهَتْهُمُ ٱلْعِيدَان التي افْتَرعوها، وأمسكت السماء دَرّها، والأرض رَيْعها وقَحَلَ الضَّرْعُ وجَفَز الفنيقُ، وأسْمَل جلباب الدّين، وأُبْطِلت الحدُود، وأهدِرَت الدماء، وكان ربّك بالمرصاد، فدمْدَم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها، ولا يَخاف عُقباها، وملّكنا الله أمرَكم، عبادَ الله لينظر كيف تعملون، فالشكر الشكر، فإنّه من دواعِي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مُضِلاّت الأهواء، وبغتات الفتن فإنما نحن به وله.

لما أمعن داود بن عليّ في قَتْل بني أمية بالحجاز قال له عبد الله بن الحسن عليه السلام: يا بن عمي، إذا أفرطت في قتل أكفائك فمَنْ تُباهي بسلطانك! وما يكفيك منهم أن يروْك غادياً ورائحاً فيما يسرّك ويسوءُهمْ!

كان داود بن عليّ يمثلِ ببني أمية، يسمُل العيون، ويبقُرُ البطون، ويَجْدَعُ الأنوف ويصطلم الآذان. وكان عبد الله بن علي بنهر أبي فُطْرُس يصلُبهم منكّسين، ويسقيهم النُّوْرة والصّبرِ، والرّماد والخلّ، ويقطع الأيدي والأرجل. وكان سليمان بن عليّ بالبصرة يضرب الأعناق.

خطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة فقال:

يا أيُّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، والله لا أعِدكم شيئاً ولا أتوعّدكم إلا وفّيت بالوعْد والوعيد، ولأعمَلنّ اللين حتى لا تنفع إلا الشدّة، ولأغمِدَنّ السيف إلا في إقامة حَدّ، أو بلوغ حَقّ، ولأعطينّكم حتى أرى العطية ضياعاً. إنّ أهل بيت اللعنة والشَّجَرة الملعونة في القرآن، كانوا لكم أعداء لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشدّ منها، ولا يلي عليكم منهم والٍ إلا تمنيتم مَنْ كان قبله، وإن كان لا خير في جميعهم، منعوكم الصّلاة في أوقاتها وطالبوكم بأدائها في غير وقتها، وأخذوا المدبِر بالمقبِل، والجار بالجار، وسلّطوا شراركم على خياركم، فقد محق الله جَوْرَهم، وأزهق باطلَهم بأهل بيت نبيكم، فما نؤخر لكم عطاء، ولا نضيع لأحد منكم حقًّا، ولا نجهزّكم في بعث، ولا نخاطر بكم في قتال، ولا نبذلكم دون أنفسنا، والله على ما نقول وكيل بالوفاء والاجتهاد، وعليكم بالسمع والطاعة. ثم نزل.

كان يقال: لو ذهبتْ دولة بني أميّة على يد غير مروان بن محمد، لقيل: لو كان لها مَرْوان لما ذهبت.

كان يقال: إنّ دولة بني أمّية آخرها خليفة أُمّه أَمَة، فلذلك كانوا لا يعهدون إلى بني الإماء

منهم، ولو عَهِدُوا إلى ابن أمَة لكان مسلمة بن عبد الملك أولاهم بها، وكان انقراضُ أمرِهم على يد مروان وأمّه أمَة، كانت لمصعب بن الزبير، وُهِبَها من إبراهيم بن الأشتر، فأصابها محمد بن مروان يوم قَتَل ابنَ الأشتر، فأخذها من ثَقَله، فقيل: إنها كانت حاملاً بمرْوان، فولدته على فراش محمد بن مروان، ولذلك كان أهل خراسان ينادونه في الحرب: يابن الأشتر.

قيل أيضاً: إنها كانتْ حاملاً به من مصعب بن الزبير، وإنّه لم تَطُل مَدّتها عند إبراهيم بن الأشتر، حتى قتِل فوضعت حَمْلها على فراش محمد بن مرْوان، ولذلك كانت المسوّدة تصيح به في الحرب: يابن مصعب! ثم يقولون: يابن الأشتر! فيقول: ما أبالي أيُّ الفَحْلين غَلَب عليّ!

لما بُويع أبو العباس جاءه ابنُ عياش المنتوف، فقبّل يده وبايعه، وقال: الحمدُ لله الذي أبدلنا بحِمَار الجزيرة، وابن أمَة النَّخَع، ابن عمّ رسول الله ﷺ، وابن عبد المطلب.

لما صعِد السّفاح مِنْبر الكوفة يوم بيعته، وخطب الناس، قام إليه السيّد الحميري، فأنشده:

دونَكُموها يا بني هاشمٍ ... فجدِّدوا من آيِها الطّامِسَا
دونكُموها لا علا كعبُ مَنْ ... أمسى عليكمْ مُلكُها نافِسَا
دُونكُموها فالبسُوا تاجَها ... لا تعدمُوا منكمْ لهُ لابِسَا
خلافةُ الله وسلطانُهُ ... وعُنْصُرٌ كان لكم دَارِسَا
قَدْ ساسَها مِن قبلكم سَاسَةٌ ... لم يتركوا رَطْباً ولا يَابِسَا
لو خُيِّر المنبرُ فرسانَه ... ما اختارَ إلا منكمُ فارِسَا
والمُلْك لو شُوورَ في سائسٍ ... لما ارتضى غيرَكم سائِسا
لم يُبْقِ عبدُ الله بالشام مِنْ ... آل أبي العاص امْرَءًا عاطِسَا
فلستُ من أنْ تملِكوها إلى ... هُبوط عيسى منكمُ آيِسَا

قال داود بن عليّ لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قَتْله مَنْ قَتلَ من بني أميّة: هل علمتَ ما فعلتُ بأصحابك؟ قال: نعم، كانوا يداً فقطعتها، وعَضداً ففتتّ فيها، ومِرّةً فنقضتها، وجنَاحاً فحصصتها، قال: إني لخليق أن ألحقك فيهم، قال: إني إذاً لسعيد!

لما استوثق الأمر لأبي العباس السفاح، وفد إليه عشرة من أمراء الشام، فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم، وبأيمان البَيْعة بأنهم لا يعلمون - إلى أن قُتل مروان - أنّ لرسول الله ﷺ أهلاً ولا قرابة إلا بني أمية.

وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: حدّثني رجلٌ قال: كنت بالشام، فجعلت لا أسمع أحداً يسمِّي أحداً أو يناديه: يا عليّ أو يا حسن، أو يا حسين، وإنما أسمع: معاوية، والوليد، ويزيد، حتى مررْت برجل، فاستسقيته ماء، فجعل ينادي: يا عليّ، يا حسن، يا حسين، فقلت: يا هذا، إنّ أهلَ الشام لا يسمُّوْن بهذه الأسماء! قال: صدقت، إنهم يسمُّون أبناءهم بأسماء الخلفاء، فإذا لعن أحدُهم ولده أو شتمه فقد لعن اسمَ بعض الخلفاء، وأنا سمّيت أولادي بأسماء أعداء الله، فإذا شتمتُ أحدَهم أو لعنته، فإنما ألعن أعداء الله.

كانت أمّ إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس أمويّة من ولد عثمان بن عفان.

قال إبراهيم: فدخلت على جَدّي عيسى بن موسى مع أبي موسى، فقال لي جَدّي: أتحبّ بني أمية؟ فقال له موسى أبي: نعم، إنهم أخواله، فقال: والله لو رأيت جدّك عليّ بن عبد الله بن العباس يُضرب بالسياط ما أحببتهم، ولو رأيت إبراهيم بن محمد يُكْرَه على إدخال رأسه في جراب النُّورة لما أحببتهم، وسأحدّثك حديثاً إن شاء الله أن ينفعك به نفعك: لما وجّه سليمان بن عبد الملك ابنَه أيوب بن سليمان إلى الطائف وجّه معه جماعة، فكنت أنا ومحمد بن عليّ بن عبد الله جدّي معهم، وأنا حينئذ حديث السِّنّ، وكان مع أيوب مؤدّب له يؤدّبه، فدخلنا عليه يوماً أنا وجَدّي، وذلك المؤدّب يضربه، فلما رآنا الغلام أقبل على مؤدّبه فضربه فنظر بعضُنا إلى بعض وقلنا: ما له قاتله الله! حين رآنا كَرِه أن نَشْمَت به، ثم التفت أيوب إلينا، فقال: ألا أخبركم يا بني هاشم بأعقلكم وأعقلنا، أعقلنا مَنْ نشأ منّا يَبغضُكم، وأعقلكم من نشأ منكم يبغضنا، وعلامة ذلك أنكم لم تسمُّوا بمروان، ولا الوليد، ولا عبد الملك، ولم نسمّ نحن بعليّ ولا بحسن ولا بحسين.

لما انتهى عامر بن إسماعيل - وكان صالح بن علي قد أنفذه لطلب مَرْوان - إلى بوصير مِصْر، هرب مرْوان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابِهِ، ولم يكن قد تخلف معه كثير عدد، فانتهوْا في غَبش الصُّبْح إلى قنطرة هُنَاكَ على نهر عميقٍ، ليس للخيل عُبور إلا على تلك

القنطرة، وعامر بن إسماعيل من ورائهم، فصادف مروانُ على تلك القنطرة بغالاً قد استقبلته تعبرُ القنطرة، وعليها زِقَاق عسل، فحبسته عن العبُور حتى أدركه عامر بن إسماعيل ورهقه، فلوى مَرْوان دابَّته إليهم، وحارب فقُتِل، فلما بلغ صالح بن عليّ ذلك، قال: إن لله جنودًا من عسل.

لما نقف رأس مروان ونفض مخه، قطع لسانه وألقي مع لحم عنقه، فجاء كلب فأخذ اللسان، فقال قائل: إنّ مِن عبَر الدنيا أن رأينا لسان مروان في فم كلب.

خطب أبو مسلم بالمدينة في السّنة التي حَجّ فيها في خلافة السفّاح، فقال: الحمد لله الذي حَمِد نفسَه، واختار الإسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى محمد رسول الله ﷺ من ذلك ما أوحى، واختارهُ من خلقه، نفسُه من أنفسهم، وبيتُه من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه النّاطق الذي يحفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على حقه، قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، ثم جعل الحقّ بعد محمد عليه السلام في أهلِ بيته، فصبرَ مَنْ صَبَر منهم بعد وفاة رسول الله ﷺ على اللأواء والشدّة، وأغضى على الاستبداد والأثَرة. ثم إنّ قوماً من أهل بيتِ الرسول ﷺ، جاهدوا على ملّة نبيّه وسنّته بعد عصرٍ من الزمان من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، بين ظهرانيْ قوْم آثروا العاجلَ على الآجل، والفانيَ على الباقي، إن رُتق جورٌ فتقوه، أو فُتق حقّ رَتقوه، أهل خمور وماخور، وطنابير ومزامير، إن ذُكّروا لم يذكُروا، أو قُدّموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشُّبُهات، والمغانمَ في المحارم، والفيء في الغيّ، هكذا كان زمامهم، وبه كان يعمل سلطانهم. وزعموا أنّ غير آل محمد أوْلى بالأمر منهم، فَلِمَ وَبِمَ أيها الناس؟ ألكم الفضلُ بالصحابة دون ذوي القرابة، الشركاء في النسب، والورثة في السّلَب مع ضربهم على الدين جاهلكم، وإطعامِهم في الجدب جائعكُم! والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قطّ، وما زلتم بعد نبيّه تختارون تيميًّا مرّة، وعَدَوِيًّا مرة، وأمويًّا مرة، وأسدِيًّا مرة، وسُفيانيًّا مَرَّة، ومَرْوانيًّا مرّة حتى جاءكم مَنْ لا تعرفون اسمَه ولا بيته، يضربكم بسيفه، فأعطيتموها عَنْوةً وأنتم صاغرون. الا إنّ آل محمد أئمة الهدى، ومنارُ سبيل التّقى، القادة الذادة السادة، بنو عمّ رسول الله، ومنزل جبريل بالتنزيل، كَمْ قَصَم الله بهم من جبّار طاغٍ، وفاسق باغٍ، شيّد الله بهم الهدى، وجلا بهم العَمى، لم يُسمَعْ بمثل العباس! وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حقّ الحرمة! أبو رسول الله بعد أبيه، وإحدى يديه، وجلْدة بين عينيه. أمينُه يوم العقَبة وناصره بمكّة، ورسوله إلى أهلها، وحاميه يوم حُنين،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

عند ملتقى الفئتين، لا يخالف له رسماً، ولا يعصي له حكماً، الشافع يوم نِيق ٱلْعُقاب، إلى رسول الله في الأحزاب ها إنّ في هذا أيّها الناس لعبرةً لأولي الأبصار!

قلت: الأسديّ عبد الله بن الزّبير. ومَنْ لا يعرفون اسمه ولا بيته، يعني نفسه، لأنه لم يكن معلوم النّسب، وقد اختلف فيه هل هو مولًى أم عربيّ.

ويوم العقبة: يوم مبايعة الأنصار السبعين لرسول الله ﷺ بمكة. ويوم نيق العُقاب يوم فتح مكة، شفع العباس ذلك اليوم في أبي سفيان وفي أهل مكة، فعفا النبيّ ﷺ عنهم.

اجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه، منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما، فتذاكروا خُلفاء بني أميّة، والسبب الذي به سلبوا عزّهم، فقال المنصور: كان عبد الملك جَبّاراً لا يبالي ما صنع، وكان الوليد لحّاناً مجنوناً، وكان سليمان همّته بطنه وفرجه، وكان عمر أعْورَ بين عميان، وكان هشام رجلَ القوم، ولم يزل بنو أميّة ضابطين لما مهّد لهم من السلطان، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه، ويحرسون ما وهب الله لهم منه، مع تسنّمهم معاليَ الأمور، ورفضِهم أدانيها، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مترَفين من أبنائهم، فغَمطُوا النعمة، ولم يشكروا العافية، وأساءوا الرعاية، فابتدأت النّقمة منهم، باستدراج الله إياهم آمنين مكرَه. مطّرحين صيانة الخلافة، مستخفّين بحقّ الرياسة، ضعيفين عن رسوم السياسة، فسلَبهم الله العزّة، وألبسهم الذلّة، وأزال عنهم النعمة.

سأل المنصورُ ليلةً عن عبد الله بن مروان بن محمد، فقال له الربيع: إنّه في سجن أمير المؤمنين حيًّا، فقال المنصور: قد كان بلغني كلامٌ خاطَبه به ملكُ النّوبة، لما قدم دياره، وأنا أحبّ أن أسمَعه مِنْ فيه، فَلْيُؤْمَرْ بإحضاره. فأحضِر، فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة، فأمره المنصور، بالجلوس، فجلس وللقيد في رجليه خشخشة. قال: أحِبّ أن تسمعني كلاماً قاله لك ملك النُّوبة حيث غشيت بلاده، قال: نعم، قدمت إلى بلد النُّوبة، فأقمت أياماً، فاتّصل خبرنا بالملك، فأرسل إلينا فرشاً وبسطاً وطعاماً كثيراً، وأفرد لنا منازل واسعة، ثم جاءني ومعه خمسون من أصحابه، بأيديهم الحراب، فقمت إليه فاستقبلته، وتنحّيت له عن صدر المجلس، فلم يجلس فيه، وقعد على الأرض، فقلت له: ما منعك من القعود على الفرش؟ قال: إني ملك، وحقّ الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعَمه متجدّدة عنده، ولمّا رأيت تجدّد نعمة الله عندي بقصدِكم بلادي، واستجارتكم بي، بعد عزّكم وملككم، قابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع. ثم سكت وسكتّ، فلبثنا ما شاء الله، لا يتكلّم ولا أتكلّم، وأصحابه

قيامٌ بالحِراب على رأسه. ثم قال لي: لماذا شربتم الخمر وهي محرّمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدُنا بجهلهم، قال: فلم وَطِئتُم الزّروع بداوبّكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: فَعَل ذلك أتباعُنا وعُمّالنا جهلاً منهم، قال: فَلِمَ لبستم الحرير والدّيباج والذهب، وهو محرّم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: استعنّا في أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتّاب، دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك اتبّاعاً لسنّة سلفهم، على كُرْه منّا. فأطرق مليًّا إلى الأرض يقلّب يده، وينكت الأرض. ثم قال: عبيدنا وأتباعنا وعُمّالُنا وكتّابنا! ما الأمر كما ذكرت، ولكنكم قوم استحللتم ما حَرّم الله عليكم، وركبتم ما عنه نُهيتُم، وظلمتم فيما مُلّكتُم، فسلبكم الله العزّ، وألبسكم الذلّ، وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتَها بعد، وأنا خائف أنْ يَحُلّ بكم العذاب وأنتم بأرضي فينالني معكم، والضيافة ثلاث، فاطلبوا ما احتجتم إليه، وارتحلوا عن أرضي.

فأخذنا منه ما تزودنا به، وارتحلنا عن بلده. فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته إلى الحبس.

وقد جاءنا في بعض الروايات أنّ السفاح لما أراد أن يقتل القوم الذين انضمّوا إليه من بني أميّة جلس يوماً على سرير بهاشميّة الكوفة وجاء بنو أمية وغيرهم من بني هاشم، والقواد والكتاب، فأجلسهم في دار تتصل بداره، وبينه وبينهم سِتْر مسدول، ثم أخرج إليهم أبا الجهم بن عطية، وبيده كتابٌ ملصَق، فنادى بحيث يسمعون: أين رسول الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟ فلم يتكلّم أحد، فدخل ثم خرج ثانية، فنادى: أين رسول زيد بن عليّ بن الحسين؟ فلم يجبه أحد، فدخل ثم خرج ثالثة، فنادى: أين رسول يحيى بن زيد بن علي؟ فلم يردّ أحد عليه، فدخل ثم خرج رابعة، فنادى: أين رسولُ إبراهيم بن محمد الإمام؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض، وقد أيقنوا بالشرّ، ثم دخل وخرج، فقال لهم: إنّ أمير المؤمنين يقول لكم: هؤلاء أهلي ولحمي، فماذا صنعتم بهم؟ ردّوهم إليّ أو فأقيدوني من أنفسكم. فلم ينطقوا بحرف، وخرجت الخراسانية بالأعمدة فشدَخوهم عن آخرهم.

قلت: وهذا المعنى مأخوذ من قول الفَضْل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن عليّ عليه السلام في سنة اثنتين وعشرين ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك، وذلك أنّ هشاماً كتب إلى عامله بالبصرة - وهو القاسم بن محمد الثقفيّ - أن يشخص كلّ مَنْ بالعراق من بني هاشم إلى المدينة خوفاً من خروجهم، وكتب إلى عامل

المدينة أن يحبس قوماً منهم، وأن يعرضهم في كلّ أسبوع مرة، ويقيم لهم الكفلاء، على ألا يخرجوا منها، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة له طويلة:

كـلّـمـا حُـدِّثـوا بـأرضٍ نـقـيـقـاً ضـمّـنـونـا الـسـجـون أو سـيّـرونـا
أشـخـصـونـا إلـى الـمـديـنـة أسْرَى لا كـفـاهُـمْ رَبّـي الـذي يـحـذرونـا
خـلّـفـوا أحـمـدَ الـمـطـهَّـر فـيـنـا بـالـذي لا يـحـبّ، واسـتـضـعـفـونـا
قَـتّـلـونـا بـغـيـر ذنـبٍ إلـيـهـم قـاتـل الله أمّـة قـتّـلـونـا!
مـا رعَـوْا حـقّـنـا ولا حـفـظـوا فـيـ ـنـا وَصـاة الإلـه بـالأقـربـيـنـا
جـعـلـونـا أدنـى عـدوٍّ إلـيـهـمْ فـهـمُ فـي دمـائـنـا يَـسْـبَـحُـونـا
أنـكَـرُوا حَـقَّـنـا وجـارُوا عـلـيـنـا وعَـلَـى غـيـرِ إحْـنَـةٍ أبـغـضُـونـا
غـيـرَ أنّ الـنـبـيّ مِـنّـا وأنّـا لـم نـزل فـي صِـلاتـهـم راغـبـيـنـا
إن دَعَـوْنـا إلـى الـهُـدى لـم يـجـيـبو نـا، وكـانـوا عـن الـهُـدَى نـاكـبـيـنـا
أو أمـرنـا بـالـعُـرْف لـم يـسـمـعوا مـ ـنّـا وردّوا نـصـيـحـةَ الـنّـاصـحـيـنـا
ولَـقِـدْمـاً مـا رُدّ نُـصـحُ ذوي الـرأ يِ فـلـم يـتّـبـعـهـمُ الـجـاهـلـونـا
فـعـسـى الله أن يُـديـل أنـاسـاً مِـنْ أنـاس فـيـصـبِـحُـوا ظـاهِـريـنـا
فـتـقـرّ الـعـيـون مـن قـوم سـوءٍ قـد أخـافـوا وقَـتّـلـوا الـمـؤمـنـيـنـا
لـيـت شـعـري هـل تُـوجِـفَـنّ بـي الـخيـ ـلُ عـلـيـهـا الـكـمـاةُ مـسـتـلـئِـمـيـنـا
مـن بـنـي هـاشـمٍ ومـنْ كـلّ حَـيٍّ يـنـصـرون الإسـلام مـسـتـنـصـريـنـا
فـي أنـاسٍ آبـاؤهـم نـصـروا الـذيـ ـنَ، وكـانـوا لـربّـهـم نـاصـريـنـا
تـحـكـم الـمرهَـفَـاتُ فـي الـهـامِ مـنـهـم بـأكـفّ الـمـعـاشـر الـثـائـريـنـا
أيـن قَـتْـلَـى مِـنّـا بَـغـيـتـمْ عـلـيـهـم ثـمّ قـتـلـتـمـوهُـم ظـالـمـيـنـا
أرجـعـوا هـاشـمـاً ورُدُّوا أبـا الـيَـقْـ ـظـان وآبـنَ الـبـديـل فـي آخـريـنـا
وارجـعـوا ذا الـشـهـادتـيـن وقَـتْـلَـى أنـتـمُ فـي قـتـالـهـمْ فـاجـرونـا
ثـم رُدُّوا حُـجْـراً وأصـحـاب حُـجْـرٍ يـومَ أنـتـمْ فـي قـتـلـهـمْ مـعـتـدُونـا
ثـم رُدُّوا أبـا عُـمـيـرٍ ورُدُّوا لـي رشـيـداً ومـيـثـمـاً والّـذيـنـا:
قُـتِّـلـوا بـالـطُّـفـوف يـوم حُـسَـيـنٍ مـن بـنـي هـاشـم، ورُدُّوا حـسـيْـنَـا
أيـن عـمـرو؟ وأيـن بِـشْـرٌ وقَـتْـلـى مـعـهـمُ بـالـعـراء مـا يـدفـنـونـا!
ارجِـعـوا عـامـراً وردُّوا زُهَـيْـراً ثـم عـثـمـانَ، فـارجـعـوا عـازمـيـنـا

وارجعوا الحرَّ وابن قَيْنٍ وقوماً ... قُتِّلوا حين جاوزوا صِفّينا
وارجعوا هانئاً وردّوا إلينا ... مُسلماً والرواع في آخرينا
ثم ردّوا زيداً إلينا وردّوا ... كلّ من قد قتلتمُ أجمعينا
لن تردّوهُم إلينا ولسنا ... منكمُ غيرَ ذلكمْ قابلينا[1]

الأصل: أَلاَ إِنَّ أَبْصَرَ ٱلْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي ٱلْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلاَ إِنَّ أَسْمَعَ ٱلْأَسْمَاعِ مَا وَعَى ٱلتَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ!

أَيُّهَا النَّاسُ، ٱسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَٱمْتَاحُوا مِنْ صَفِيِّ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ ٱلْكَدَرِ.

عِبَادَ ٱللهِ، لاَ تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلاَ تَنْقَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا المَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لاَ يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ! فَاللهَ ٱللهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لاَ يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ.

إِنَّه لَيْسَ عَلَى ٱلْإِمَامِ إِلاَّ مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: ٱلْإِبْلاَغُ فِي المَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَٱلْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ ٱلْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا.

فَبَادِرُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ ٱلْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَٱنْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!

الشرح: هَارَ الجرف يهورُ هَوْراً وهؤوراً فهو هائر، وقالوا: «هارٍ»، خفضوه في موضع الرفع، كقاضٍ، وأرادوا «هائر»، وهو مقلوب من الثلاثيّ إلى الرباعي، كما قلبوا «شائك السلاح» إلى «شاكي السلاح». وهَوّرته، فتهوّر وانهار، أي انهدم.

وأشكيت زيداً: أزلت شكايته. والشجو: الهمّ والحزن.

وصوّح النبت، أي جفّ أعلاه، قال:

ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت ... وصَوَّحَ نبتُها رُعِيَ الهَشِيمُ

(١) ذكره القمي في الكنى والألقاب: ١/ ٢٣٣.

يقول عليه السلام: أشدّ العيون إدراكاً ما نفذ طرفُها في الخير، وأشدّ الأسماع إدراكاً ما حفظ الموعظة وقَبِلها.

ثم أمر الناس أن يستصبِحوا، أي يُسرجوا مصابيحَهم من شعلة سراج. متّعِظٍ في نفسه واعظ لغيره، وروي بالإضافة من «شعلة مصباحِ واعظ» بإضافة «مصباح» إلى «واعظ»، وإنما جعله متّعظاً واعظاً، لأن مَنْ لم يتّعظ في نفسه فبعيد أن يتعظ به غيرُه، وذلك لأن القبول لا يحصل منه، والأنفس تكون نافرةً عنه، ويكون داخلاً في حَيّز قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، وفي قول الشاعر:

لاَ تَـنْـهَ عَـنْ خُـلُـقٍ وَتَـأْتِـيَ مِـثْـلَـهُ

وعَنَى بهذا المصباح نفسَه عليه السلام.

ثم أمرهم أن يمتاحوا من عين صافية قد انتفَى عنها الكدر، كما يروّق الشراب بالراووق فيزول عنه كدره، والامتياح: نزول البئر وملء الدلاء منها، ويكني بهذا أيضاً عن نفسه عليه السلام.

ثم نهاهم عن الانقياد لأهوائهم والميل إلى جهالتهم، وقال: إنّ من يكون كذلك، فإنه على جانب جُرُفٍ متهدّم، ولفظة «هارٍ» من الألفاظ القرآنية.

ثم قال: ومَنْ يكون كذلك، فهو أيضاً ينقل الهلاك على ظهره من موضع إلى موضع، ليُحدِث رأياً فاسداً بعد رأي فاسد، أي هو ساعٍ في ضلال يروم أن يحتجّ لما لا سبيل إلى إثباته، وينصر مذهباً لا انتصار له.

ثم نهاهم وحذّرهم أن يشكُوا إلى مَنْ لا يزيل شِكايتهم ومَنْ لا رأي له في الدين ولا بصيرة. لينقض ما قد أبرمه الشيطان في صدورهم لإغوائهم. ويروى: «إلى من لا يشكي شجوَكم، ومَنْ ينقض برأيه ما قد أبرم لكم»، وهذه الرواية أليق، أي لا تشكُوا إلى مَنْ لا يدفع عنكم ما تشكون منه، وإنما ينقض برأيه الفاسد ما قد أبرمه الحقّ والشرع لكم.

ثم ذكر أنّه ليس على الإمام إلا ما قد أوضحه من الأمور الخمسة.

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله - يعني نفسَه عليه السلام - قبل أن يموت، فيذهب العلم. وتصويح النَّبْت، كناية عن ذلك.

ثم قال: وقبل أن تشغَلُوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استثارة العلم من معدنه واستنباطه من قرارته.

ثم أمرهم بالنّهي عن المنكر، وأن يتناهوْا عنه قبل يَنْهَوْا عنه، وقال: إنما النهيُ بعد التناهي.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

وفي هذا الموضع إشكال، وذلك أنّ لقائل أن يقول: النهي عن المنكَر واجب على العدْل والفاسق، فكيف قال: «إنما أمرتم بالنهي بعد التناهي»، وقد روي أنّ الحسنَ البصريّ قال للشّعبيّ: هلاّ نهيتَ عن كذا؟ فقال: يا أبا سعيد، إني أكره أن أقولَ ما لا أفعل. قال الحسن: غفر الله لك! وأيّنا يقول ما يفعل! ودّ الشيطان لو ظفِر منكم بهذه فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم ينه عن منكر!

والجواب أنه عليه السلام لم يرِدْ أن وجود النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهي عن المنكَر، وإنما أراد: أنّي لم آمركم بالنهي عن المنكر إلا بعد أن أمرتُكم بالانتهاء عن المنكر، فالترتيب إنّما هو في أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين، لا في نهيهم وتناهيهم.

فإن قلت: فلماذا قدم أمرَهم بالانتهاء على أمرهم بالنهي؟

قلت: لأنّ إصلاح المرء نفسه أهمّ من الاعتناء بإصلاحه لغيره.

١٠٥ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الإسلام

الأصل: اَلْحَمْدُ لله اَلَّذِي شَرَعَ اَلْإِسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ. وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُوراً لِمَنِ اَسْتَضَاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اَتَّعَظَ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّق، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ.

فَهُوَ أَبْلَجُ اَلْمَنَاهِجِ، وَأَوْضَحُ اَلْوَلاَئِجِ، مُشْرِفُ اَلْمَنَارِ، مُشْرِقُ اَلْجَوَادِّ، مُضِيءُ اَلْمَصَابِيحِ، كَرِيمُ اَلْمِضْمَارِ، رَفِيعُ اَلْغَايَةِ، جَامِعُ اَلْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ اَلسُّبْقَةِ، شَرِيفُ اَلْفُرْسَانِ.

اَلتَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ، وَاَلدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، وَاَلْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَاَلْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ.

الشرح: هذا باب من الخطابة شريف، وذلك لأنه ناط[1] بكلّ واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها لو نيطَتْ بغيرها لما انطبقت عليها، ولا استقرّت في قرارها، ألا تراه قال: «أمناً لمنْ عَلِقه»! فالأمنُ مرتّب على الاعتلاق، وكذلك في سائر الفِقَر كالسلّم المرتّب

(١) ناط الشيء ينوطه نوطاً: علقه. اللسان، مادة (نوط).

على الدخول، والبرهان المرتّب على الكلام، والشاهد المرتّب على الخصام، والنّور المرتّب على الاستضاءة... إلى آخرها، ألا ترى أنه لو قال: «وبرهاناً لمن دخله، ونوراً لمن خاصم عنه، وشاهداً لمن استضاء به»، لكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها، فكان قد خرج عن قانون الخطابة، ودخل في عَيْب ظاهر!

وتوسّم: تفرّس. والولائج: جمع وليجة، وهو المدخل إلى الوادي وغيره.

والجُنّة: التّرس. وأبلج المناهج: معروف الطريق.

الحَلْبة: الخيل المجموعة للمسابقة.

والمِضْمار: موضع تضمير الخيل، وزمان تضميرها. والغاية: الراية المنصوبة، وهو ها هنا خِرْقة تجعل على قَصَبة وتنصب في آخر المدَى الذي تنتهي إليه المسابقة، كأنه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم، وغايتها رفيعة عالية، وحَلْبتها جامعة حاوية، وَسُبقتها متنافس فيها، وَفُرسانها أشراف..

ثم وصفه بصفات أخرى، فقال: التصديق طريقه، والصالحات أعلامه، والموت غايته، أي أنّ الدنيا سِجْن المؤمن، وبالموت يخلُص من ذلك السجن، ويحظى بالسعادة الأبدية.

قال: والدنيا مضماره، كأن الإنسان يجري إلى غاية هي الموت، وإنما جعلها مِضْمار الإسلام، لأنّ المسلم يقْطَع دنياه لا لدنياه بل لآخرته، فالدّنيا له كالمِضْمار للفرس إلى الغاية المعيّنة.

قال: والقيامة حلْبته، أي ذات حلبته فحذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾(١) أي ذوو درجات.

ثم قال: والجنّة سُبقتُه، أي جزء سُبقتِه، فحذف أيضاً.

الأصل: منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: حَتَّى أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً، وَرَسُولُكَ بِالحقِّ رَحْمَةً.

اَللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَاجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. اَللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَادِمِينَ، وَلاَ نَاكِبِينَ، وَلاَ نَاكِثِينَ، وَلاَ ضَالِّينَ، وَلاَ مُضِلِّينَ، وَلاَ مَفْتُونِينَ!

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.

قال الرضيّ رحمه الله تعالى: وَقَدْ مَضَى هَذَا ٱلْكَلاَمُ فِيمَا تَقَدَّمَ، إلاَّ أَنَّنَا كَرَّرْنَاهُ ها هنا لِمَا فِي الرِّوَايَتَيْنِ مِنَ الاخْتِلاَفِ.

الشرح: قبساً، منصوب بالمفعولية، أي أوْرَى رسول الله ﷺ قَبَسًا، والقَبَس: شعلة من النار، والقابس: طالب الاستصباح منها. والكلام مجاز، والمراد الهداية في الدين.

وعلَماً، منصوب أيضاً بالمفعولية، أي وأنا رَرسول الله ﷺ علماً. لحابس، أي نصب لمن قد حَبَس ناقته - ضلالاً، فهو يخبط لا يدري كيف يهتدي إلي المنهج - علماً يهتدي به.

فإن قلت: فهل يجوز أن ينصب «قبساً» و «علماً» على أن يكون كلّ واحد منهما حالاً، أي حتى أورى رسول الله في حال كونه قبساً وأنار في حال كونه عَلماً؟

قلت: لم أسمع «أوْرَى الزند» وإنما المسموع «وَرَى» و«ورّى» ولم يجئ «أوْرَى» إلا متعدِّياً، أورى زيد زنده، فإن حمل ها هنا على المتعدّي احتيج إلى حذف المفعول، ويصير تقديره: حتى أورى رسول الله الزند حال كونه قبساً، فيكون فيه نوع تكلّف واستهجان. والبعيث: المبعوث. ومقسماً: نصيباً، وإن جعلتَه مصدراً جاز. والنُّزُول: طعام الضيف. والوسيلة: ما يتقرّب به، وقد فسر قولهم في دعاء الأذان: «اللّهم آته الوسيلة»، بأنها درجة رفيعة في الجنّة. والسّناء بالمد: الشرف. وزمرته: جماعته.

وخزايا: جمع خزيان، وهو الخَجِل المستحيي، مثل سكران وسكارى، وحيران وحيارى، وغَيْران وغَيَارَى. وناكبين، أي عادلين عن الطريق. وناكثين، أي ناقضين للعهد.

قلت: سألتُ النقيب أبا جعفر رحمه الله - وكان منصفاً بعيداً عن الهوىَ والعصبية عن هذا الموضع - فقلت له: قد وقفت على كلام الصحابة وخُطَبهم فلم أر فيها من يعظّم رسول الله ﷺ تعظيمَ هذا الرجل، ولا يدعو كدعائه، فإنا قد وقفنا من «نهج البلاغة» ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل، تدلّ على إجلال عظيم، وتبجيل شديد منه لرسول الله ﷺ. فقال: ومن أينَ لغيره من الصحابة كلام مدوّن يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبي ﷺ؟ وهل وُجد لهم إلا كلماتٌ مبتدرة، لا طائل تحتها! ثم قال: إن علياً عليه السلام كان قويّ الإيمان برسول الله ﷺ والتصديق له، ثابت اليقين، قاطعاً بالأمر، متحققًا له، وكان مع ذلك يحبّ رسول الله ﷺ لنسبته منه، وتربيته له، واختصاصه به من دون أصحابه. وبعد، فشرفُه له، لأنهما نفسٌ واحدة في جسمين: الأب واحد، والدار واحدة، والأخلاق متناسبة، فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقد كان يودّ أنْ تطبّق دعوةُ

الإسلام مشارف الأرض ومغاربها، لأن جمال ذلك لاحقٌ به، وعائد عليه، فكيف لا يعظّمه ويبجّله ويجتهد في إعلاء كلمته!

فقلت له: قد كنتُ اليوم أنا وجعفر بن مكّي الشاعر نتجاذب هذا الحديث، فقال جعفر: لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وآله أحدٌ نُصرة أبي طالب وبنيه له، أما أبو طالب فكفَله وربّاه، ثم حَمَاه من قريش عند إظهار الدّعوة، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله، وأما ابنه جعفر فهَاجَر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة، فنشَرَ دعوته بها، وأما عليّ فإنه أقام عماد الملّة بالمدينة، ثم لم يُمْنَ أحدٌ من القتل والهوان والتشريد بما مُنِيَ به بنو أبي طالب، أما جعفر فقتل يوم مؤتة، وأما عليّ فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل، وتمنّى الموت، ولو تأخر قتلُ ابن ملجم له لمات أسفاً وكمداً، ثم قُتِل ابناه بالسمّ والسيف، وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطفّ، وحُمِلت نساؤهم على الأقتاب سَبَايَا إلى الشام، ولقيت ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصّلْب والتشريد في البلاد والهوان والحبس والضرب ما لا يحيط الوصف بكنهه، فأيّ خير أصاب هذا البيت من نصرته، ومحبته وتعظيمه بالقول والفعل!

فقال رحمه الله - وأصاب فيما قال: - فهلاّ قلت: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]. ثم قال: وهلاً قلت له: فقد نصرته الأنصار، وبذلت مُهَجَهَا دونه، وقُتِلَتْ بين يديه في مواطن كثيرة، وخصوصاً يوم أُحُد ثم اهتضِمُوا بعده، واستُؤثر عليهم، ولقوا من المشاقّ والشدائد ما يطول شرحه، ولو لم يكن إلا يوم الحرّة، فإنه اليوم الذي لم يكن في العرب مثله، ولا أصيب قوم قطّ بمثل ما أصيب به الأنصار ذلك اليوم!

ثم قال: إن الله تعالى زَوَى الدنيا عن صالحي عباده وأهل الإخلاص له، لأنه لم يرها ثمناً لعبادتهم، ولا كفؤًا لإخلاصهم، وأرجأ جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار، في مثلها يتنافس المتنافسون!

الأصل: منها في خطاب أصحابه: وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ ٱللهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ، وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلاَ يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لاَ يَخَاف لَكُمْ سَطْوَةً، وَلاَ لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ.

وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ ٱللهِ مَنْقُوضَةً فَلاَ تَغْضَبُونَ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ، وَكَانَتْ أُمُورُ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

أللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ ٱللهِ في أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ. وَآيْمُ ٱللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ ٱللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!

الشرح: هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية، التي كان يُغير بها على أطراف أعمال عليّ عليه السلام كالأنبار وغيرها، مما تقدّم ذكرنا له، قال لهم: إنّ الله أكرمكم بالإسلام بعد أن كنتم مجوساً أو عبّاد أصنام، وبلغتم من كرامته إياكم بالإسلام منزلة عظيمة، أكرِم بها إماؤكم وعبيدكم، ومن كان مَظِنّة المِهْنة والمذلّة.

ووصل بها جيرانكم، أي مَنْ التجأ إليكم من مُعاهَدٍ أو ذِميّ، فإنّ الله تعالى حفظ لهم ذمام المجاورة لكم، حتى عصمَ دماءهم وأموالهم، وصرتم إلى حال يعظّمكم بها مَنْ لا فضل لكم عليه، ولا نعمة لكم عنده، كالروم والحبشة، فإنهم عَظّموا مسلمي العرب لتقمّصهم لباس الإسلام والدين ولزومهم ناموسه، وإظهارهم شعاره.

ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة، ولا لكم عليه إمرة، كالملوك الذين في أقاصي البلاد، نحو الهند والصين وأمثالها، وذلك لأنهم هابوا دولة الإسلام، وإن لم يخافوا سطوة سيفها، لأنه شاع وذاع أنهم قوم صالحون، إذا دعوا الله استجاب لهم، وأنهم يقهرون الأمم بالنصر السماويّ وبالملائكة، لا بسيوفهم ولا بأيديهم. قيل: إنّ العرب لما عبرت دِجْلة إلى القصر الأبيض الشرقيّ بالمدائن عبرتها في أيام مَدّها، وهي كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها، ولا دروع عليها ولا بَيْض، فهربت الفرس بعد رَمْي شديد منها للعرب بالسهام، وهم يقدمون ويحملون، ولا تهولُهم السهام، فقال فلاّح نَبَطيّ، بيده مسحاته[1] وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسْوَارٍ من الأساورة معروفٍ بالبأس وجودةِ الرماية: ويلكم! أمِثْلكم في سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولذعَهُ باللّوم والتعنيف. فقال له: أقم مِسْحَاتك، فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتى عبر النّصل إلى جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمى بعضَ العرب المارّين عليه عشرين سهماً لم يُصِبْه ولا فرسه منها بسهم واحد، وإنه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعضُ السهام يسقط بين يدي الأُسوار، فقال له بالفَارسية: أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم! قال: نعم.

ثم قال عليه السلام: ما لكم لا تغضبون، وأنتم تروْن عهود الله منقوضة! وإن من العجب أن يغضب الإنسان ويأنف من نقض عهد أبيه، ولا يغضب ولا يأنف لنقض عهود إلٰهه وخالقه!

---

(١) المسحاة: أداة القشر والجرف يستعملها الفلاح لفتح طريق الماء ليسقي زرعه.

ثم قال لهم: كانت الأحكام الشرعية إليكم تردُ مني ومن تعليمي إياكم، وتثقيفي لكم، ثم تصدُر عنكم إلى مَنْ تعلّمونه إياها من أتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأنْ يتعلّمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الأتباع والتلامذة، ففررتم من الزّحف لما أغارت جيوش الشام عليكم، وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم ومكنتم الظلمة من منزلتكم، حتى حكّموا في دين الله بأهوائهم، وعَمِلوا بالشّبْهة لا بالحجّة، واتسعوا في شهواتهم ومآرب أنفسهم.

ثم أقسم بالله: إنّ أهل الشام لو فرّقوكم تحت كل كوكب ليجمعنّكم الله ليوم، وهو شرّ يوم لهم، وكنى بذلك عن ظهور المسوّدة وانتقامها من أهل الشام وبني أمية، وكانت المسوّدة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية.

١٠٦ - ومن كلام له عليه السلام في بعض ايام صفين

الأصل: وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُم، وَٱنْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ ٱلْجُفَاةُ ٱلطَّغَامُ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ ٱلشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ ٱلْعَرَبِ، وَيَآفِيخُ ٱلشَّرَفِ، وَٱلْأَنْفُ ٱلْمُقَدَّمُ، وَٱلسَّنَامُ ٱلْأَعْظَمُ.

وَلَقَدْ شَفَا وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ، تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ، حَسًّا بِالنِّصَالِ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ، تَرْكَبُ أُولاَهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ ٱلْهِيمِ ٱلْمَطْرُودَةِ، تُرْمَىٰ عَنْ حِيَاضِهَا، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا!

الشرح: جوْلتكم: هزيمتكم. فأجمل في اللفظ، وكنّى عن اللفظ المنفّر، عادلاً عنه إلى لفظ لا تنفير فيه، كما قال تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[1]، قالوا: هو كناية عن إتيان الغائط، وإجمال في اللفظ.

وكذلك قوله: «وانحيازكم عن صفوفكم» كناية عن الهرب أيضاً، وهو من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[2].

وهذا باب من أبواب البيان لطيف، وهو حُسْن التوصّل بإيراد كلام غير مزعج، عوضاً عن لفظ يتضمّن جَبْهاً وتقريعاً.

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٦.

وتحوزكم: تعدل بكم عن مراكزكم. والجفاة: جمع جافٍ، وهو الفَدْم الغليظ. والطّغام: الأوغاد. و اللهاميم: جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل، قال الشاعر:

لا تـحـسـبـنَّ بـيـاضـاً فـيَّ مَـنـقـصـةً إنّ الـلـهـامـيـم فـي أقـرَابـهـا بَـلَـقُ

واليآفيخ: جمع يافُوخ وهو معظم الشيء، تقول: قد ذهب يافوخ الليل، أي أكثره، ويجوز أن يريد به اليافوخ، وهو أعلى الرأس، وجمعه يآفيخ أيضاً. وأفخْتُ الرجُلَ: ضربت يافوخَه، وهذا ألْيَق، لأنه ذكر بعده الأنف والسنام، فحمْل اليافوخ على العضو إذاً أشبه.

والوحاوح: الحرق والحزازات ولقيته بأخَرة على «فَعَلة» أي أخيراً.

والحَسّ القتل، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

وشجرت زيداً بالرمح: طعنته، والتأنيث في «أولاهم» و «أخراهم» للكتائب.

والهيم: العطاش. وتذاد تصدّ وتمنع، وقد روي: «الطغاة» عوض «الطغام».

وروي «حشأ» بالهمز من حشأت الرجل أي أصبت حشاه.

وروي «بالنضال» بالضاد المعجمة، وهو المناضلة والمراماة.

وقد ذكرنا نحن هذا الكلام فيما اقتصصناه من أخبار صِفِّين فيما تقدم من هذا الكتاب.

١٠٧ - ومن خطبة له عليه السلام، وهي من خطب الملاحم

الأصل: ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَٱلظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ، خَلَقَ ٱلْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتِ ٱلرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلاَّ بِذَوِي ٱلضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ ٱلسُّتُرَاتِ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ ٱلسَّرِيرَاتِ.

الشرح: الملاحم: جمع ملحمة، وهي الوقعة العظيمة في الحرْب، ولما كانت دلائل إثبات الصانع ظاهرة ظهور الشمس، وصفه عليه السلام بكونه ظهر وتجلى لخلقه، ودلّهم عليه بخلْقه إياهم وإيجاده لهم.

ثم أكد ذلك بقوله: «والظاهر لقلوبهم بحجته» ولم يقل «لعيونهم» لأنه غير مرئيّ، ولكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الحجج الدالة عليه.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

ثم نفى عنه الرويّة والفكر والتمثيل بين خاطرين، ليعمل على أحدهما، لأن ذلك إنما يكون لأرباب الضمائر والقلوب أولي النوازع المختلفة والبواعث المتضادّة.

ثم وصفه بأنّ علمه محيط بالظاهر والباطن والماضي والمستقبل، فقال: إنّ علمه خرق باطن الغيوب المستورة، وأحاط بالغامض من عقائد السرائر.

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: ٱخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ ٱلْأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ ٱلضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ ٱلْعَلْيَاءِ، وَسُرَّةِ ٱلْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ ٱلظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ ٱلْحِكْمَةِ.

الشرح: شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام، لأنّ أكثر الأنبياء منهم: والمشكاة: كُوّة غير نافذة، يجعل فيها المصباح. والذؤابة. طائفة من شعر الرأس، وسرّة البطحاء: وسطها، وبنو كعب بن لؤيّ يفخرون على بني عامر بن لؤيّ بأنهم سكنوا البطاح، وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكّة، وسكن معها بنو فهر بن مالك، رهط أبي عبيدة بن الجرّاح وغيره، قال الشاعر:

فَحَلَلْتَ منها بالبطا ح وحَلّ غيرُكَ بالظواهِرْ

وقال طريح بن إسماعيل:

أنت ابنُ مُسْلَنطِحِ البطاح ولم تُطْرَقْ عليك الحُنِيّ والوُلُجُ

وقال بعض الطالبيّين:

وأنا ابن مُعتلج البطاح إذا غدا غيري، وراح على متون ظواهِر
يفترّ عنّي ركنها وحطيمُها كالجَفْن يُفتح عن سواد الناظِر
كجبالِهَا شَرَفي، ومثل سهولها خُلُقِي، ومثل ظبائهنّ مجاوري

الأصل: ومنها: طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَىٰ مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذٰلِكَ حَيْثُ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ ٱلْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ ٱلْحَيْرَةِ.

الشرح: إنّما قال: «دوّار بطبّه»، لأنّ الطبيب الدّوار أكثر تجربة، أو يكون عَنَى به أنّه يدور عَلَى مَنْ يعالجه، لأنّ الصالحين يدورون على مرضى القلوب، فيعالجونهم ويقال:

إن المسيح رُئِيَ خارجاً من بيت مومسة، فقيل له: يا سيدنا، أمثلك يكون ها هنا! فقال: إنما يأتي الطبيبُ المرضى.

والمراهم: الأدوية المركّبة للجراحات والقروح. والمواسم: حدائِدُ يُوسَم بها الخيل وغيرها.

ثم ذكر أنّه إنما يعالج بذلك مَنْ يحتاج إليه، وهم أولو القلوب العُمْي، والآذان الصمّ، والألسنة البكم، أي الخرس. وهذا تقسيم صحيح حاصر، لأن الضلال ومخالفة الحقّ يكون بثلاثة أمور: إما بجهل القلب، أو بعدم سماع المواعظ والحجج، أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر، فهذه أصول الضلال، وأما أفعال المعَاصي ففروع عليها.

التقسيم وهو من أبواب علم البيان

وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان، ومنه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[1]. وهذه قسمة صحيحة، لأن المكلّفين: إما كافر، أو مؤمن، أو ذو المنزلة بين المنزلتين، هكذا قسم أصحابنا الآيةَ على مذهَبهم في الوعيد.

وغيرهم يقول: العباد إمّا عاصٍ ظالم لنفسه، أو مطيعٌ مبادرٌ إلى الخير، أو مقتصدٌ بينهما.

ومن التقسيم أيضاً قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾[2] ومثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[3]، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع.

ووقف سائل على مجلس الحسن البصريّ، فقال: رحم الله عبداً أعطى من سَعَة، أو واسَى من كفاف، أو آثرَ مِنْ قِلَّةٍ! فقال الحسن: لم تترك لأحدٍ عذراً.

ومن التقسيمات الفاسدة في الشعر قول البحتري:

ذَاكَ وَادي الأرَاكِ فَاحْبِسْ قليلاً ... مُقْصِراً في مَلاَمةٍ أوْ مُطِيلاَ
قِفْ مَشُوقاً، أو مُسْعِداً، أو حزيناً ... أو مُعيناً، أو عاذراً، أو عذولا

فالتقسيم في البيت الأول صحيح، وفي الثاني غير صحيح، لأنَّ المشوق يكون حزيناً، والمسعد يكون معيناً، فكذلك يكون عاذراً، ويكون مشوقاً، ويكون حزيناً.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧ - ١٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٢.

وقد وقع المتنبي في مثل ذلك، فقال:

فافخر، فإنّ الناس فيك ثلاثة　　مستعظِمٌ أو حاسدٌ أو جاهلُ

فإن المستعظم يكون حاسداً، والحاسد يكون مستعظماً.

ومن الأبيات التي ليس تقسيمها بصحيح، ما ورد في شعر الحماسة:

وأنتَ امرؤ إمّا ائتمنتُك خالياً　　فخنْتَ، وإمّا قلت قولاً بلا عِلْمِ

فأنْتَ من الأمر الذي قد أتيته　　بمنزلةٍ بين الخيانة والإثم

وذلك لأنَّ الخيانة أخصّ من الإثم، والإثم شامل لها، لأنه أعمّ منها، فقد دخل أحد القسمين في الآخر. ويمكن أنْ يعتذر له، فيقال: عَنَى بالإثم الكذبَ نفسه، وكذلك هو المعنيّ أيضاً بقوله: «قولاً بلا علم»، كأنه قال له: إما أن أكون أفشيت سري إليك فخنتَني، أو لم أفش فكذبت عَليّ، فأنت فيما أتيتَ بين أن تكونَ خائناً أو كاذباً.

ومما جاء من ذلك في النثر قول بعضهم: «من جريحٍ مضرّج بدمائه، أو هارب لا يلتفت إلى ورائه»، وذلك أنّ الجريح قد يكون هارباً، والهارب قد يكون جريحاً.

وقد أجاد البحتري لما قَسّم هذا المعنى، وقال:

غادرتْهُمْ أيدي المنيّة صُبْحاً　　لِلْقَنا بين ركّعٍ وسجودِ

فهمُ فرقتانِ: بين قتيل　　قبضت نفسُه بحدّ الحديد

أو أسيرٍ غدا له السجن لَحْداً　　فهو حيٌّ في حالة الملحودِ

فرقة للسيوف ينفذ فيها الـ　　حُكْمُ قَسْراً وفرقةٌ للقيود

ومن ذلك قول بعض الأعراب: النِّعم ثلاث: نعمة في حال كونها، ونعمة ترجّى مستقبَلة، ونعمة تأتي غير محتَسبة، فأبقى ٱلله عليك ما أنتَ فيه، وحقّق ظنّك فيما ترتجيه، وتفضّل عليك بما لم تحتسبه. وذلك أنه أغفل النعمة الماضية. وأيضاً فإنَّ النعمةَ التي تأتي غَير محتَسَبَة داخلة في قِسْم النعمة المستقبَلة. وقد صحح القسمة أبو تمام، فقال:

جُمعتْ لنا فِرَقُ الأماني منكمُ　　بأبرَّ من رُوح الحياة وأوصلِ

كالمُزن من ماضي الرِّباب ومقبِلٍ　　متنظِّرٍ ومخيِّم متهلل

فصنيعةٌ في يومها وصنيعةٌ　　قد أحولَتْ، وصنيعةٌ لم تحولِ

فإنْ قلت: فإن ما عنيتَ به فساد التقسيم على البحتريّ والمتنبي يَلزمك مثله فيما شرحته، لأنّ الأعمى القلب قد يكون أبكم اللسان، أصمّ السمع.

قلت: إن الشاعرين ذكرا التقسيم بـ «أوْ»، وأميرُ المؤمنين عليه السلام قسّم بالواو والواو للجمع، فغيرُ منكَرٍ أنْ تجتمع الأقسام لواحد، أو أن تعطي معنى الانفراد فقط، فافترق الموضعان.

الأصل: لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ ٱلْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ ٱلْعُلُومِ ٱلثَّاقِبَةِ، فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَٱلْأَنْعَامِ ٱلسَّائِمَةِ، وَٱلصُّخُورِ ٱلْقَاسِيَةِ، قَدِ ٱنْجَابَتِ ٱلسَّرَائِرُ لِأَهْلِ ٱلْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ ٱلْحَقِّ لِخَابِطِهَا، وَأَسْفَرَتِ ٱلسَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ ٱلْعَلاَمَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا.

مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ!

الشرح: انجابت: انكشفت. والمحجّة: الطريق. والخابط: السائر على غير سبيل واضحة. وأسفرت الساعة: أضاءت وأشرقت، وعن متعلقة بمحذوف، وتقديره: كاشفة عن وجهها.

والمتوسِّم: المتفرّس. أشباحاً بلا أرواح، أي أشخاصاً لا أرواح لها ولا عقول، وأرواحاً بلا أشباح، يمكن أن يريد به الخفة والطيش، تشبيهاً بروح بلا جسد. ويمكن أن يعني به نقصهم، لأن الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الاعتمال والتحريك اللّذين كانا من فعلها حيث كانت تدير الجسد.

ونسّاكاً بلا صلاح: نسبهم إلى النفاق.

وتجّاراً بلا أرباح: نسبهم إلى الرياء وإيقاع الأعمال على غير وجهها.

ثم وصفهم بالأمور المتضادة ظاهراً، وهي مجتمعة في الحقيقة، فقال: أيقاظاً نُوَّماً، لأنهم أولو يقظة، وهم غفول عن الحق كالنيام، وكذلك باقيها، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(١).

الأصل: رَايَةُ ضَلاَلٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ ٱلْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى ٱلضِّلَّةِ، فَلاَ يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفَالَةٌ

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

كَثُفَالَةِ ٱلْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةً كَنُفَاضَةِ ٱلْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ ٱلْأَدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ ٱلْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ ٱلْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ ٱسْتِخْلَاصَ ٱلطَّيْرِ ٱلْحَبَّةَ ٱلْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ ٱلْحَبِّ.

الشرح: هذا كلام منقطع عَمّا قبله، لأن الشريف الرضيّ رحمه الله كان يلتقط الفصول التي في الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرُها، ويتخطّى ما قبلها وما بعدها، وهو عليه السلام يذكر ها هنا ما يحدُث في آخر الزمان من الفتن، كظهور السّفيانيّ وغيره.

والقطب في قوله عليه السلام: «قامت على قطبها»: الرئيس الذي عليه يدور أمرُ الجيش. والشُّعْب: القبيلة العظيمة، وليس التفرّق للراية نفسها، بل لنصّارها وأصحابها، فحذف المضاف، ومعنى تفرّقهم، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة المخصوصة في بلاد متفرقة، أي تفرق ذلك الجمع العظيم في الأقطار، داعين إلى أمرٍ واحد ويروى «بشُعَبها» جمع شُعْبَة.

وتقدير: «تكيلكم بصاعها» تكيل لكم، فحذف اللام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾[1]، أي كالوا لهم، أو وزنوا لهم، والمعنى تحمِلكم على دينها ودعوتها، وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها. ويجوز أن يريد بقوله: «تكيلكم بصاعها» يقهركم أربابها على الدخول في أمرهم، ويتلاعبون بكم، ويرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كيّال البُرّ به إذا كاله بصاعه.

وتخبطكم بباعها: تظلمكم وتعسفكم، قائدها ليس على ملّة الإسلام بل مقيم على الضلالة، يقال: ضلّة لك، وإنه ليلومني ضَلّة، إذا لم يوفّق للرشادِ في عَذله.

والثفالة: ما ثفل في القِدْر من الطبيخ. والنُّفاضة: ما سقط من الشيء المنفوض.

والعِكْم: العِدْل، والعِكْم أيضاً نمَطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتها.

وعركت الشيء: دلكته بقوة. والحصيد: الزرع المحصود.

ومعنى استخلاص الفتنة المؤمن أنها تخصّه بنكايتها وأذاها، كما قيل: المؤمن مُلَقّى والكافر موَقّى، وفي الخبر المرفوع: «آفات الدنيا أسرعُ إلى المؤمن من النار في يَبيس العَرْفَج».

الأصل: أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ ٱلْمَذَاهِبُ، وَتَتِيهُ بِكُمُ ٱلْغَيَاهِبُ، وَتَخْدَعُكُمُ ٱلْكَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ، وَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ! فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٣.

فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ. وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ.

الشرح: الغياهب: الظلمات، الواحد غَيْهب. وتتيه بكم: تجعلكم تائهين، عدّى الفعل اللازم بحرف الجرّ، كما تقول في ذهب: ذهبت به. والتائه: المتحير.

والكواذب ها هنا: الأمانيّ، فحذف الموصوف وأبقى الصفة كقوله:

إلاّ بكَفَّيْ كان منْ أرْمَى البشر

أي بكَفّيْ غلام هذه صفته.

وقوله: «ولكل أجل كتاب» أظنه منقطعاً أيضاً عن الأول مثل الفصل الذي تقدم، وقد كان قبله ما ينطبق عليه ويلتئم معه لا محالة. ويمكن على بعد أن يكون متصلاً بما هو مذكور ها هنا.

وقوله: «ولكل غيبة إياب» قد قاله عَبيد بن الأبرص، واستثنى من العموم الموت، فقال:

وكلّ ذي غَيْبَةٍ يَؤوبُ   وغائب الموت لا يؤوب(١)

وهو رأي زنادقة العرب، فأمّا أمير المؤمنين، وهو ثاني صاحب الشريعة التي جاءت بِعَوِدِ الموتى، فإنه لا يستثني، ويحمّق عبيداً في استثنائه.

والربانيّ: الذي أمرهم بالاستماع منه، إنما يعني به نفسَه عليه السلام، ويقال: رجل ربانيّ أي متألّه عارف بالربّ سبحانه. وفي وصف الحسَن لأمير المؤمنين عليه السلام: «كان والله ربانيّ هذه الأمة وذَا فضلها، وذا قرابتها، وذا سابقتها».

ثم قال: وأحضروه قلوبكم، أي اجعلوا قلوبكم حاضرةً عنده، أي لا تقنعوا لأنفسكم بحضور الأجساد وغيبة القلوب، فإنكم لا تنتفعون بذلك: وهتف بكم: صاح، والرائد: الذي يتقدّم المنتجعين لينظر لهم الماء والكلأ. وفي المثل: الرائد لا يكذب أهله.

وقوله: «وليجمع شَمْلَهُ» أي وليجمع عزائمه وأفكاره لينظر، فقد فَلَق هذا الربانيّ لكم الأمر، أي شقَّ ما كان مبهماً، وفتح ما كان مغلقاً، كما تفلق الخرزة فيعرَف باطنها.

وقَرَفه، أي قشره، كما تقشر الصمغة عن عود الشجرة، وتقلع.

---

(١) رواه النعماني في شرح الأخبار: ٢/ ١٨٢ ح ٥٢٥.

الأصل: فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ ٱلْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ ٱلْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ ٱلسَّبُعِ ٱلْعَقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيقُ ٱلْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُوم، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى ٱلْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحابُّوا عَلَى ٱلْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ ٱلْوَلَدُ غَيْظاً، وَالمَطَرُ قَيْظاً، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ ٱلْكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً، وَغَارَ ٱلصِّدْقُ، وَفَاضَ ٱلْكَذِبُ، وَٱسْتُعْمِلَتِ المَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ ٱلْفُسُوقُ نَسَباً، وَٱلْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ الإِسْلاَمُ لُبْسَ ٱلْفَرْوِ مَقْلُوباً.

الشرح: تقول: أخذ الباطل مأخذه، كما تقول عمل عمله، أي قوي سلطانه وقهر، ومثله «ركب الجهل مراكبه».

وعظمت الطاغية، أي الطغيان، فاعلة بمعنى المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[1]، أي تكذيب، ويجوز أن تكون الطاغية ها هنا صفة فاعل محذوف، أي عظمت الفئة الطاغية. وقلت الداعية مثله، أي الفرقة الداعية.

وصالَ: حمل ووثب، صَوْلاً وصَوْلَةً، يقال: ربّ قول أشدُّ من صَوْل، والصِّيال والمصاولة هي المواثبة، صايله صِيالاً وصيالةً، والفحلان يتصاولان، أي يتواثبان.

والفنيق: فحل الإبل. وهدَرَ: ردّد صوته في حَنْجَرتِه، وإبل هوادر، وكذلك هدّر بالتشديد تهديراً، وفي المثل: «هو كالمهدِّر في العُنّة» يضرب للرجل يصيح ويجلب وليس وراء ذلك شيء كالبعير الذي يُحبَس في العنّة، وهي الحظيرة، ويمنَع من الضِّراب، وهو يهدر، وقال الوليد بن عقبة لمعاوية:

قَطَعْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِمِ المعنَّى تهدّر في دمشقَ ولا تَرِيمُ

والكُظوم: الإمساك والسكوت، كَظَم البعير يكظِم كظوماً، إذا أمسك الجِرّة، وهو كاظم، وإبل كُظُوم لا تجترّ، وقوم كُظّم ساكتون.

وتواخى الناس: صاروا إخوة، والأصل تآخى الناس، فأبدلت الهمزة واواً، كآزرته أي أعنته، ووازرته.

يقول: اصطلحوا على الفجُور، وتهاجروا على الدين، أي تعادَوْا وتقاطعوا.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٢.

فإن قلت: فإنّ من شعار الصالحين أن يهجُروا في الدين ويعادوا فيه!

قلت: لم يذهب أميرُ المؤمنين حيث ظننْت، وإنما أراد أنّ صاحب الدين مهجور عندهم، لأن صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جارٍ عندهم مجرى الأخ في الحنوّ عليه، والحبّ له، لأنه صاحب فجور.

ثم قال: «كان الولد غيظاً»، أي لكثرة عقوق الأبناء للآباء، «وصار المطر قيظاً» يقال إنه من علامات الساعة وأشراطها.

وأوساطُه أكالاً، أي طعاماً، يقال: ما ذقتُ أكالاً، وفي هذا الموضع إشكال، لأنه لم يُقَلْ هذا الحرف إلا في الجَحْد خاصة، كقولهم: ما بها صافر، فالأجود الرواية الأخرى، وهي «آكالاً» بمدّ الهمزة على «أفعال» جمع أُكُل، وهو ما أُكِل، كقُفْل وأقفال. وقد روى «أُكَالاً» بضم الهمزة على «فُعال»، وقالوا: إنه جمع «أكل» للمأكول كعِرْق وعُراق، وظِئْر وظُؤار، إلا أنه شاذّ عن القياس، ووزن واحدهما مخالف لوزن واحد «أكال» لو كان جمعاً، يقول: صار أوساط الناس طُعْمة للولاة وأصحاب السلاطين، وكالفريسة للأسد، وغار الماء: سفل لنقصه، وفاض: سال.

وتشاجر الناس: تنازَعوا وهي المشاجرة، وشَجَر بين القوم، إذا اختلف الأمر بينهم، واشتجروا، مثل تشاجروا.

وصار الفسوق نسباً يصير الفاسق صديق الفاسق، حتى يكون ذلك كالنسب بينهم، وحتى يعجب الناس من العفاف، لقلّته وعدمه.

ولَبِس الإسلام لبس الفرو، وللعرب عادة بذلك، وهي أن تجعل الخَمْل إلى الجسد، وتظهر الجلد، والمراد انعكاس الأحكام الإسلامية في ذلك الزمان.

١٠٨ – ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله ووصف ملائكته

الأصل: كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ، غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ.

مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ.

لَمْ تَرَكَ ٱلْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ ٱلْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ.

لَمْ تَخْلُقِ ٱلْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلاَ ٱسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلاَ يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلاَ يُفْلِتُكَ مَنْ

أَخَذْتَ، وَلاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلاَ يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلاَ يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ.

كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ.

أَنْتَ ٱلأَبَدُ فَلاَ أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ المُنْتَهَى فَلاَ مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ المَوْعِدُ فَلاَ مَنْجِيَ مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ.

بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ.

سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي ٱلدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ ٱلآخِرَةِ!

الشرح: قال: كل شيء خاضع لعظمة الله سبحانه، وكلّ شيء قائم به، وهذه هي صفته الخاصة، أعني كونَه غنياً عن كل شيء، ولا شيء من الأشياء يغني عنه أصلاً.

ثم قال: «غني كلّ فقير، وعز كلّ ذليل، وقوة كلّ ضعيف، ومفزع كلّ ملهوف». جاء في الأثر: من اعتزّ بغير الله ذَلّ، ومن تكثّر بغير الله قَلّ، وكان يقال: ليس فقيراً من استغنى بالله. وقال الحسن: واعجبا للوطٍ نبيّ الله! قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، أتراه أراد ركناً أشدّ وأقوى من الله!

واستدلّ العلماءُ على ثبوت الصانع سبحانه بما دلّ عليه فحوى قوله عَلَيْتَكِلاٍ: «ومفزع كلّ ملهوف»، وذلك أنّ النفوس ببدائهها تفزع عند الشدائد والخطوب الطارقة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها، ألا ترى راكبي السفينة عند تلاطم الأمواج، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطراراً لا اختياراً، فدلّ ذلك على أنّ العلم به مركوز في النفس، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2].

ثم قال عَلَيْتَكِلاٍ: «من تكلّم سَمِعَ نطقه، ومَنْ سكت علم سرّه»، يعني أنه يعلم ما ظهر وما بطن.

ثم قال: «ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبُه»، أي هو مدبّر الدنيا والآخرة، والحاكم فيهما.

ثم انتقل عن الغيبة إلى الخطاب، فقال: «لم ترك العيون».

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

وعلم أنّ باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبيرٌ من أبواب علم البيان، وأكثر ما يقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلّم بذلك المعنى المنتقل إليه، كقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾(١) فأخبر عن غائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢)، قالوا: لأنّ منزلة الحمد دون منزلة العبادة، فإنك تحمد نظيرَك ولا تعبده، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضرٍ يخاطب بالكاف، لأنّ كاف الخطاب أشد تصريحاً به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة. قالوا: ولما انتهى إلى آخر السورة، قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٣) فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر، وقال في الغضب: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾(٤)، فأسنده إلى فاعل غير مسمّى ولا معيّن، وهو أحسن من أن يكون قال: «الم تغضب عليهم»، وفي النعمة: «الذين أنعم عليهم».

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾(٥) فأخبر بـ«قالوا» عن غائبين، ثم قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾(٦)، فأتى بلفظ الخطاب استعظاماً للأمر كالمنكر على قوم حاضرين عنده.

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(٧) الآية.

وفائدة ذلك أنّه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنه يعدّد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بغيَهم وعنادهم الحق، ويقبّح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا تعجبون من حالهم كيف دعونا، فلمّا رحمناهم، واستجبنا دعاءهم، عادوا إلى بغيهم! وهذه الفائدة لو كانت الآية كلّها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة.

قال عليه السلام: ما رأتك العيون فتخبر عنك، كما يخبر الإنسان عما شاهده، بل أنت أزليّ قديم موجود قبل الواصفين لك.

---

(١) سورة الفاتحة، الآيات: ٢-٤.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٧.
(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٧.
(٥) سورة مريم، الآية: ٨٨.
(٦) سورة مريم، الآية: ٨٩.
(٧) سورة يونس، الآية: ٢٢.

فإن قلت: فأيّ منافاة بين هذيْن الأمرين، أليس من الممكن أن يكون سبحانه قَبْل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه، ثم يصفونه رأي عين!

قلت: بل ها هنا منافاة ظاهرة، وذلك لأنه إذا كان قديماً لم يكن جِسْماً ولا عَرَضاً، وما ليس بجسم ولا عَرَض تستحيل رؤيته، فيستحيل أن يخبرَ عنه على سبيل المشاهدة.

ثم ذكر عليه السلام أنه لم يخلق الخلْق لاستيحاشه وتفرّده، ولا استعملهم بالعبادة لنفعه، وقد تقدم شرح هذا.

ثم قال: لا تطلب أحداً فيسبقك، أي يفوتك، ولا يفلتك من أخذته.

فإن قلت: أيّ فائدة في قوله: «ولا يفلتك من أخذته»، لأن عدم الإفلات هو الأخذ، فكأنّه قال: لا يفلتك من لم يفلتك!

قلت: المراد أنّ مَنْ أخذت لا يستطيع أن يُفْلِت، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلِتُوا بحيلة من الحِيَل.

فإن قلت: أفلتَ فعل لازم، فما باله عَدّاه؟

قلت: تقدير الكلام: «لا يفلت منك» فحذف حرف الجر، كما قوال: «استجبتك» أي استجبت لك، قال:

فلم يستجبْه عند ذاك مجيب

وقالوا: استغفرت الله الذنوب، أي من الذنوب، وقال الشاعر:

أستغفرُ الله ذنباً لست محصِيَهُ ربُّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

قوله عليه السلام: «ولا يردّ أمرَك مَنْ سَخِط قضاءك، ولا يستغني عنك مَنْ تولّى عن أمرك»، تحته سرّ عظيم، وهو قول أصحابنا في جواب قول المجْبِرة: لو وقع منّا ما لا يريده لاقتضى ذلك نقصه: إنه لا نقص في ذلك، لأنه لا يريد الطاعات منّا إرادة قَهْر وإلجاء، ولو أرادَها إرادة قهر لوقعتْ وغلبت إرادته إرادتنا، ولكنّه تعالى أراد منّا أن نفعل نحن الطاعة اختياراً، فلا يدلّ عدم وقوعها منّا على نقصه وضعفه، كما لا يدلّ بالاتفاق بيننا وبينكم عدمُ وقوع ما أمر به على ضعفه ونقصه.

ثم قال عليه السلام: «كلّ سرّ عندك علانية»، أي لا يختلف الحال عليه في الإحاطة بالجهر والسرّ، لأنّه عالم لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الأمور واحدة.

ثم قال: «أنت الأبد فلا أمدَ لك»، هذا كلام عُلْويّ شريف، لا يفهمه إلا الراسخون في العلم، وفيه سِمَة من قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا تسبّوا الدهر، فإن الدهر هو الله»[1]، وفي مناجاة

---

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٩٢).

الحكماء لمحة منه أيضاً، وهو قولهم: «أنت الأزل السَّرْمد، وأنت الأبد الَّذي لا ينفد»، بل قولهم: «أنت الأبد الذي لا ينفد»، هو قوله: «أنت الأبد فلا أَمَد لك»، بعينه، ونحن نشرحه ها هنا على موضوع هذا الكتاب، فإنه كتاب أدب لا كتاب نظر، فنقول: إن له في العربية محملَيْن: أحدهما أنّ المراد به: أنت ذو الأبد، كما قالوا: رجل خالٍ، أي ذو خالٍ، والخال الخُيَلاء، ورجل داء، أي به داء، ورجل مال، أي ذو مال. والمحمل الثاني، أنّه لما كان الأزل والأبد لا ينفكّان عن وجوده سبحانه جعله عليه السلام، كأنّه أحدهما بعينه، كقولهم: أنتِ الطلاق، لما أراد المبالغة في البينونة جعلها كأنها الطلاق نفسه، ومثله قول الشاعر:

فـإن الـمـنـدّى رِحْـلَـةٌ فَـرُكـوب

وقال أبو الفتح في «الدمشقيات» استدلّ أبو عليّ على صرف «مِنًى» للموضع المخصوص، بأنه مصدر «منى يمنى»، قال: فقلت له: أتستدلّ بهذا على أنّه مذكر، لأن المصدر إلى التذكير! فقال: نعم، فقل: فما تنكر ألاّ يكون فيه دلالة عليه، لأنه لا ينكر أن يكون مذكراً سمي به البقعة المؤنثة، فلا ينصرف، كامرأةٍ سميتها بحجر وجَبَل وشبع ومعى، فقال: إنما ذهبت إلى ذلك، لأنه جُعِل كأنّه المصدر بعينه، لكثرة ما يعاني فيه ذلك. فقلت: الآن نعم.

ومن هذا الباب قوله:

فـإنّـمـا هِـيَ إقْـبَـالٌ وإدبـار

وقوله:

وهـنّ من الإخلاف قبلـك والمطلِ

وقوله: «فلا منجي منك إلا إليك» قد أخذه الفرزدق فقال لمعاوية:

إلـيـك فـررتُ مـنـك ومـن زيـادٍ ولـم أحـسـب دَمِـي لَـكُـمَـا حـلالاً

ثم استعظم واستهول خلْقه الذي يراه، وملكوته الذي يشاهده، واستصغر واستحقر ذلك، بالإضافة إلى قدرته تعالى، وإلى ما غاب عَنّا من سلطانه. ثم تعجّب من سُبُوغ نعمه تعالى في الدنيا، واستصغر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة، وهذا حقّ لأنه لا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي.

الأصل: منها: مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ، لَمْ يَسْكُنُوا ٱلْأَصْلاَبَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا ٱلْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ رَيْبُ الْمَنُون، وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَٱسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ، وَكَثْرَةِ طاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا

خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ، لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ.

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً، مَشْرَباً وَمَطْعَماً وَأَزْوَاجاً، وَخَدَماً وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً وَزُرُوعاً وَثِمَاراً.

ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْها، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَها، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْها، حَيْثُما زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُما أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْها، لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ لَهُمْ وَلاَ رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ فيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَها مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يُنَعَّمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ المَهْنأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمْرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ المَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ، حَتَّى خَالَطَ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أُوحِشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ

مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤلاَءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤْلاَءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلاَ تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ، وَلاَ تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلاَ تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ، لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلاَ تُفْصَمُ كُبُولُهَا، لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى.

الشرح: هذا موضع المثل. «في كلّ شجرة نار، واستمجد المرْخ والعفار»، الخطب الوعظية الحسان كثيرة، ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث:

محاسن أصناف المغنين جمّةٌ ... وما قصباتُ السَّبْق إلا لمعبد[1]

من أراد أن يتعلّم الفصاحة والبلاغة، ويعرف فضلَ الكلام بعضه على بعض، فليتأمل هذه الخطبة، فإن نسبتها إلى كلّ فصيح من الكلام - عدا كلام الله ورسوله - نسبة الكواكب المنيرة الفلكيّة إلى الحجارة المظلمة الأرضية، ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلالة والرّواء، والديباجة، وما تحدثه من الروعة والرهبة، والمخافة والخشية، حتى لو تليتْ على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث والنّشور لهدّت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده، فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به وليًا من أوليائه! فما أبلغ نصرته له! تارةً بيده وسيفه، وتارة بلسانه ونطقه، وتارة بقلبه وفكره! إن قيل: جهادٌ وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل: وعظٌ وتذكير، فهو أبلغُ الواعظين والمذكّرين، وإن قيل: فقهٌ وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين، وإن قيل: عدلٌ وتوحيد، فهو إمام أهل العدل والموحّدين:

ليس على الله بمستنكرٍ ... أن يجمع العالم في واحدِ

(١) قصبات السبق: الغاية التي يسبق إليها تذرع بالقصب، وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية فمن سبق إليها حازها، ومعبد: هو معبد بن وهب نابغة الغناء العربي في العصر الأموي.

ثم نعود إلى الشرح، فنقول: قوله عليه السلام: «أسكنتهم سماواتك»، لا يقتضي أنّ جميع الملائكة في السماوات، فإنه قد ثبت أنّ الكرام الكاتبين في الأرض، وإنما لم يقتض ذلك، لأنّ قوله: «من ملائكة» ليس من صيغ العموم، فإنه نكرة في سياق الإثبات: وقد قيل أيضاً: إنّ ملائكة الأرض تعرُج إلى السماء ومسكنها بها، ويتناوبون على أهل الأرض.

قوله: «هم أعلمُ خَلْقك بك»، ليس يعني به أنّهم يعلمون من ماهيته تعالى ما لا يعلمه البشر، أمّا على قول المتكلّمين فلأنّ ذاته تعالى معلومة للبشر، والعلم لا يقبل الأشدّ والأضعف، وأمّا على قول الحكماء، فلأنّ ذاته تعالى غيرُ معلومة للبشر ولا للملائكة، ويستحيل أن تكون معلومة لأحدٍ منهم، فلم يبق وجهٌ يحمَل عليه قوله عليه السلام: «هم أعلم خلقك بك» إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته وتدبيراته ما لا يعلمه غيرهم، كما يقال: وزير الملك أعلمُ بالملِك من الرعية، ليس المراد أنّه أعلم بذاته وماهيته، بل بأفعاله وتدبيره ومراده وغرضه.

قوله: «وأخوفهم لك»، لأنّ قوّتَي الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم، وهما منبع الشرّ، وبهما يقع الطمع والإقدام على المعاصي. وأيضاً فإنّ منهم مَنْ يشاهد الجَنّة والنار عياناً، فيكون أخوفَ لأنّه ليس الخبر كالعيان.

قوله: «وأقربهم منك» لا يريد القربَ المكانيّ لأنه تعالى منزّه عن المكان والجهة، بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل، وهذا يدلّ على صحة مذهب أصحابنا في أنّ الملائكة أفضلُ من الأنبياء.

ثم نبّه على مزيّة لهم تقتضِي أفضليةَ جنسِهم على جنْس البشر، بمعنى الأشرفيّة، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله «لم يسكنُوا الأصلاب، ولم يضمَّنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مَهين، ولم يتشعّبهم ريبُ المنون»، وهذه خصائص أربع:

فالأولى أنّهم لم يسكنوا الأصلاب، والبَشر سكنوا الأصلاب، ولا شبهة أنّ ما ارتفع عن مخالطة الصورة اللحميّة والدمويّة أشرف مما خالطها ومازجها.

والثانية أنّهم لم يضمَّنُوا الأرحام، ولا شبهة أنّ من لم يخرج من ذلك الموضع المستقذَر أشرفُ ممن خرج منه، وكان أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن كامكاو بن يزدَجرْد بن شهريار، يفخر على أبناء الملوك بأنّه لم يخرج من بُضع امرأة، لأن أمّه ماتت وهي حامل به، فشقّ بطنها عنه وأخرج، قال أبو الريحان البيرونيّ في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» عن هذا الرجل: إنه كان يتيه على الناس، وإذا شَتَم أحداً، قال: ابن البُضع، قال أبو الريحان: وأوّل مَنْ اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم، وهو أول من سمّي فيهم قيصر، لأنه تفسير «قيصر» بلغتهم، شقّ عنه، وأيامه تاريخ، كما أنّ أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندهم.

والثالثة أنهم لم يخلقوا من ماء مهين، وقد نصّ القرآن العزيز على أنّه مهين، وكفى ذلك في

تحقيره وضَعته، فهم لا محالة أشرف ممَّن خلق منه، لا سيما وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته.

والرابعة أنّهم لا يتشعّبهم ريْبُ المنيّة، ولا ريب أنّ من لا تتطرّق إليه الأسقام والأمراض ولا يموت، أشرف ممن هو في كلّ ساعة ولحظة بعرض سقام، وبصدد موت وحمام.

واعلم أن مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء لها صورتان: إحداهما أنّ «أفضل» بمعنى كونهم أكثر ثواباً، والأخرى كونهم أفضل بمعنى أشرف، كما تقول: إنّ الفلك أفضلُ من الأرض، أي أنّ الجوهر الذي منه جسميّة الأرض.

وهذه المزايا الأربع دالة على تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار الثاني.

قوله عليه السلام: «يتشعّبهم ريب المنون»، أي يتقسّمهم، والشَّعْب: التفريق، ومنه قيل للمنيّة: شَعوب، لأنها تفرّق الجماعات، وريْب المنون: حوادث الدهر، وأصل الرَّيْب ما رابَ الإنسان، أي جاءه بما يكره، والمنون الدهر نفسه، والمنون أيضاً المنيّة، لأنّها تمنّ المدّة أي تقطعها، والمنّ: القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(١).

وقال لَبِيد:

غُبْسٌ كواسبُ لا يمنّ طعامُها(٢)

ثم ذكر أنّهم على كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو عاينوا كُنْه ما خفي عليهم من الباريء تعالى لحقروا أعمالهم. وزرَوْا على أنفسهم، أي عابوها: تقول زريت على فلان، أي عبته وأزريت بفلان أي قصرت به.

فإن قلت: ما هذا الكنه الذي خَفي عن الملائكة، حتى قال: «لو عاينوه لَحَقَرُوا عبادتهم، ولعلموا أنهم قد قصروا فيها»؟

قلت: إنّ علوم الملائكة بالباريء تعالى نظريَّة كعلوم البشر، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية في الجلاء والوضوح، فأميرُ المؤمنين عليه السلام يقول: لو كانتْ علومهم بك وبصفاتك إثباتية والسلبية والإضافية ضرورية، عِوَض علومهم هذه المتحقّقة الآن، التي هي نظرية لانكشفَ لهم ما ليس الآن على حدّ ذلك الكشف والوضوح. ولا شبهةَ أنَّ العبادة والخدمة على قَدْر المعرفة بالمعبود، فكلّما كان العابد به أعرفَ، كانت عبادته له أعظَم، ولا شبهةَ أنّ العظيم عند الأعظم حقير.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٢) الغُبْس: الذِّئاب. لسان العرب، مادة (غبس).

فإن قلت: فما معنى قوله: «واستجماع أهوائهم فيك»، وهل للملائكة هَوًى؟ وهل تستعمل الأهواء إلا في الباطل؟

قلت: الهوى: الحبُّ وميْل النفس، وقد يكون في باطل وحق، وإنما يحمل على أحدهما بالقرينة، والأهواء تستعمل فيهما، ومعنى استجماع أهوائهم فيه: أنَّ دواعيهم إلى طاعته وخدمته لا تنازعُها الصوارف، وكانت مجتمعة مائلة إلى شقّ واحد.

فإن قلت: الباء في قوله: «بحسن بلائك» بماذا تتعلق؟

قلت: الباب هاهنا للتعليل بمعنى اللام، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾[1]، أي لأنّهم، فتكون متعلقة بما في «سبحانك» من معنى الفعل، أي أسبحك لحسن بلائك. ويجوز أن تتعلق بمعبود، أي يعبد لذلك.

ثم قال: «خلقت داراً» يعني الجنة. والمأدَبة والمأدُبة، بفتح الدال وضمها: الطعام الذي يُدعَى الإنسان إليه، أدبَ زيدٌ القومَ، يأدِبهم بالكسر، أي دعاهم إلى طعامه، والآدِب الداعي إلى طعامه، قال طَرَفة:

نَحْنُ فِي الـمَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى ... لاَ تَـرى الآدِبَ فِـينَـا يَـنْـتَـقِـرْ

وفي هذا الكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة، وهو مذهب أكثر أصحابنا.

ومعنى قوله: «وزروعاً» أي وغروساً من الشجر، يقال: زرعت الشجر، كما يقال: زرعه الله أي أنبته، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾[2].

ولو قال قائل: إن في الجنة زروعاً من البرّ والْقُطْنيّة لم يبعد.

قوله: ثم أرسلت داعياً يعني الأنبياء. وأقبلوا على جِيفة، يعني الدنيا، ومن كلام الحسن رضي الله عنه: إنّما يتهارشون على جِيفةٍ.

وإلى قوله: «ومن عشق شيئاً أعشى بصره» نظر الشاعر فقال:

وَعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ ... كما أنّ عين السخط تبدي المساويا

وقيل لحكيم: ما بال الناس لا يرون عيب أنفسهم، كما يرون عَيْب غيرهم؟ قال: إنّ الإنسان عاشق لنفسه، والعاشق لا يرَى عيوب المعشوق.

قد خرقت الشهواتُ عقله، أي أفسدته كما تخرِق الثوب فيفسد.

وإلى قوله: «فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها» نظر ابن دريد، فقال:

عَبِيدُ ذِي المال وإنْ لم يَطمعُوا ... مِنْ مالِهِ في نُغْبةٍ تَشْفي ٱلصَّدَا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

وهـــم لـــمـــن أمـــلَـــق أعـــداءٌ وإن　　شـــاركـــهـــم فـــيـــمـــا أفـــاد وحَـــوَى

وإلى قوله: «حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها» نظر الشاعر، فقال:

مـا الـنـاس إلاَّ مـع الـدنْـيـا وصـاحِـبـهـا　　فـكـيـفـمـا انـقـلـبـتْ يـومـاً بـه انـقـلـبُـوا

يـعـظِّـمـون أخـا الـدنـيـا فـإن وثـبـتْ　　يـومـاً عـلـيـه بـمـا لا يـشـتـهـي وَثَـبُـوا

والغِرّة: الاغترار والغَفْلة، والغارّ: الغافل، وقد اغتررتُ بالرجل، واغترّه زيد، أي أتاه على غِرّة منه، ويجوز أن يعني بقوله: «المأخوذينِ على الغرّة» الحداثة والشبيبة، يقول: كان ذلك في غَرارتي وغرتي، أي في حداثتي وصبايَ.

قوله: «سكْرة الموتِ وحسرة الفَوْت»، أي الحسرة على ما فاتهم من الدنيا ولذّتها، والحسرة على ما فاتهم من التوبة والندم واستدراك فارط المعاصي.

والولوج: الدخول، وَلَج يلِج.

قوله: «وبقاء من لبّه» أي لبُّه باق لم يعدم، ويروى «ونقاء» بالنون، والنّقاء: النظافة، أي لبّه غير مغمور.

أغمض في مطالبها، أي تساهل في دينه في اكتسابه إياها، أي كان يفتي نفسَه بتأويلات ضعيفة في استحلال تلك المطالب والمكاسب، فذاك هو الإغماض، قال تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾(1)، ويمكن أن يُحمَل على وجه آخر، وهو أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة في تلك المطالب حتى حصلها واكتسبها.

قوله عليه السلام: «وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها»، أي من وجوه مباحة وذوات شبهة، وهذا يؤكد المحمل الأول في «أغمض».

والتبعات: الآثام، الواحدة تبعة ومثلها التباعة، قال:

لـــم يـــحـــذَرُوا مِـــنْ رَبِّـــهـــم　　سُـــوءَ الـــعـــواقـــب والـــتِّـــبـــاعـــه

والمهنأ: المصدر من هَنِيء الطعام وهَنُؤ بالكسر والضم، مثل فَقِه وفَقُه، فإن كسرت قلت: «يهنَأ»، وإن ضممت قلت: «يهنُؤ»، والمصدر «هناءة» و«مهنأ»، أي صار هنيئاً، وهنَأني الطعام يَهْنَؤني» ويهنئني - ولا نظير له في المهموز - هَنْأً وهَنَاء، وهنئت الطعام، أي تهنّأت به، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾(2).

والعبء: الحمل، والجمع أعباء.

وغَلِق الرّهن، أي استحقّه المرتهِن، وذلك إذا لم يُفْتَكّ في الوقت المشروط، قال زهير:

وَفَـارَقَـتْـكَ بـرهـنٍ لا فـكَـاكَ لَـهُ　　يـوم الـوَدَاعِ فـأمْـسَـى الـرَّهْـنُ قـد غَـلِـقَـا

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(2) سورة النساء، الآية: ٤.

فإن قلت: فما معنى قوله عليه السلام: «قد غَلِقتْ رهونُه بها» في هذا الموضع؟ قلت: لمّا كان قد شارفَ الرحيلَ وأشفى على الفراق، وصارت تلك الأموال التي جمعها مستحقة لغيره، ولم يبقَ له فيها تصرُّف، أشبهت الرّهن الذي غَلِق على صاحبه، فخرج عن كونه مستحقًّا، وصار مستَحقًّا لغيره وهو المرتهِن.

وأصحر: انكشف، وأصله الخروج إلى الصحراء والبروزُ من المكمن.

رجْع كلامهم: ما تراجعوهُ بينهم من الكلام. ازداد الموت التياطاً به، أي التصاقاً قد أُوحِشُوا، أي جعلوا مستوحشين، والمستوحِش: المهموم الفزِع، ويروى «أَوْحشوا من جانبه»، أي خلوْا منه وأقفروا، تقول: قد أوحش المنزل من أهلهِ، أي أقفر.

وخلا إلى مخطّ في الأرض، أي إلى خَطّ، سماه مخطًّا أو خَطًّا لدِقّته، يعني اللّحد، ويروى: «إلى محطّ» بالحاء المهملة، وهو المنزل، وحطّ القوم، أي نزلوا.

والحق آخرُ الخلق بأوله، أي تساوى الكلّ في شمول الموت والفناء لهم، فالتحق الآخر بالأوّل.

أماد السماء: حَرّكَها، ويروى: «أمار»، والمَوَرَان: الحركة. وفَطَرها: شَقّها. وأرجّ الأرض: زلزلها، تقول: رجّت الأرضُ، وأرجّها الله، ويجوز «رجّها»، وقد روي «رجّ الأرضَ» بغير همزة، وهو الأصحّ، وعليه ورد القرآن: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾[1].

أرجفها: جعلها راجفة أي مرتعدة متزلزلة، رجفت الأرضُ، ترجُف، والرَّجَفان: الاضطراب الشديد، وسمّى البحر رَجّافاً لاضطرابه، قال الشاعر:

حتى تغيبَ الشَّمْسُ في الرَّجّاف[2]

ونسفها: قَلَعها من أصولها. ودَكّ بعضُها بعضاً: صدمه ودقّه حتى يكسره ويسوّيَه بالأرض، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾[3]. ميّزهم، أي فَصَل بينهم، فجعلهم فريقين: سعداء وأشقياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[4]، أي انفصلوا من أهل الطاعة.

يظعَن: يرحل. تنوبُهم الأفزاع: تعاودُهم، وتعرض لهم الأخطار: جمع خَطَر، وهو ما يشرف به على الهَلَكة.

وتُشخصهم الأسفار: تخرجهم من منزل إلى منزل، شخص الرجلُ وأشخصه غيرُه. وغلّ

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٤.
(٢) الرَّجاف: البحر. لسان العرب، مادة (رجف).
(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٤. (٤) سورة يٓس، الآية: ٥٩.

الأيدي: جعلها في الأغلال، جمع غُلّ بالضم، وهو القَيْد. والقَطِران: الهِناء، قطرتُ البعير أي طَليته بالقَطِران، قال:

كَمَا قَطَرَ المهنوءَةَ الرَّجُلُ الطالي

وبعير مقطور، وهذا من الألفاظ القرآنية، قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾(١)، والمعنى أنّ النار إلى القَطِران سريعة جداً.

ومقطّعات النِّيران، أي ثياب من النيران، قد قطعت وفصّلت لهم، وقيل: المقطّعات: قصار الثياب. والكلَب: الشدّة. والجلَب واللّجَب: الصوت. والقصِيف: الصوت الشديد.

لا يُفْصم كُبولها: لا يكسر قيودها، الواحد كَبْل.

ثم ذكر أن عذابهم سرمديّ، وأنه لا نهاية له، نعوذ بالله من عذاب ساعة واحدة، فكيف من العذاب الأبديّ!

ونحن نذكر في هذا الموضع فصولاً من خُطب الخطيب الفاضل عبد الرحيم بن نُباتة رحمه الله، وهو الفائز بقَصَبات السبق من الخطباء، وللناس غرام عظيم بخطبه وكلامه، ليتأمّل الناظر كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه ومواعظه، وكلام هذا الخطيب المتأخّر الذي قد وقع الإجماع على خطابته وحسنها، وأنّ مواعظه هي الغاية التي ليس بعدها غاية. فمن ذلك قوله:

«أيها الناس، تجهّزوا فقد ضَرَب فيكم بُوق الرحيل، وابرُزوا فقد قربت لكم نوق التحويل، ودَعُوا التمسّك بخُدَعِ الأباطيل، والركون إلى التسويف والتعليل، فقد سمعتم ما كرّر الله عليكم من قِصص أبناء القُرى، وما وعظكم به من مصارع مَنْ سَلَف من الورى، مما لا يعترض لذوي البصائر فيه شكّ ولا مِرَا، وأنتم معرِضون عنه إعراضَكم عمّا يُختَلق ويفتَرى، حتى كأنّ ما تعلمون منه أضغاثُ أحلام الكَرى، وأيدي المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العُرَا، وهجمت بكم على هول مطلعِ كريه القِرى، فالقهقرى رحمكم الله عن حبائلَ العطب القهقرى! واقطعوا مفاوِزَ الهلكات بمواصلة السُّرى، وقفوا على أحداث المنزلين من شَناخيب الذُّرا، المنجلين بوازع أمِّ حَبْوَ كَرى، المشغولين بما عليهم من الموت جرى، واكشفوا عن الوجوه المنعمة أطباق الثرى، تجدوا ما بقي منها عِبْرَة لمن يرى. فرحِم الله امرأً رحم نفسه فبكاها، وجعل منها إليها مشتكاها! قبل أن تعلق به خطاطيف المنون، وتصدق فيه أراجيف الظنون، وتَشْرَقَ عليه بمائها مُقَل العيون، ويلحق بمن دَثَر من القرون، قبل أن يبدوَ على المناكب محمولاً، ويغدوَ إلى محلّ المصائب منقولاً، ويكونَ عن الواجب مسؤولاً، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولاً. هناك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، وتقطع الأسباب، وتذهب

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٠.

الأحساب، ويمنع الإعتاب، ويجمع من حَقّ عليه العقاب، ومَنْ وجب له الثواب، فيضرب بينهم بسُورٍ له باب، باطنه فيه الرَّحمة وظاهره من قِبَله العذاب».

فلينظر المنصِف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد، أوّلاً بالنسبة إلى ذلك الكلام العربيّ المحض، ثم لينظُرْ فيما عليه من الكسل والرخاوة، والفتور والبلادة، حتى كأنّ ذلك الكلام لعامر بن الطفيل مستلئماً شِكّته، راكباً جواده، وهذا الكلام للدّلال المديني المخنّث، آخذاً زمّارته، متأبطاً دفّه.

والمخ ما في «بوق الرحيل» من السفسفة واللفظ العاميّ الغثّ. واعلم أنهم كلهم عابوا على أبي الطيب قوله:

فإن كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ ... ففي النّاس بُوقاتٌ لها وطُبُولُ

وقالوا: لا تدخل لفظة «بوق» في كلام يفلح أبداً.

والمخ ما على قوله: «القهقرى القهقرى» متكررة من الهجْنة، وأهجَنُ منها «أم حَبَوْ كَرى». وأين هذا اللفظ الحوشيّ الذي تفوح منه روائح الشِّيح والقَيْصوم، وكأنه من أعرابيّ قح قد قدِم من نجد لا يفهم محاورة أهل الحضر، ولا أهل الحضر يفهمون حواره، من هذه الخطبة الليّنة الألفاظ التي تكاد أن تتثنّى من لينها، وتتساقط من ضَعْفِها!

ثم المخ هذه الفِقَر والسَّجعات، التي أولها «القرى» ثم «المرا» ثم «يفترى» ثم «الكرى» إلى قوله: «عبرة لمن يَرى»، هَلْ تَرَى تحت هذا الكلام معنى لطيفاً، أو مقصداً رشيقاً! أو هل تجد اللفظ نفسه لفظًا جَزْلاً فصيحاً، أو عذباً معسولاً! وإنما هي ألفاظ قد ضُمّ بعضُها إلى بعض، والطائل تحتها قليل جدًّا. وتأمل لفظة «مِرا» فإنها ممدودة في اللغة، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة، وإن أراد جمع «مِرْية» فقد خرج عن الصناعة، لأنه يكون قد عَطَف الجمع على المفرد، فيصير مثل قول القائل: «ما أخذت منه ديناراً ولا دراهم»، في أنه ليس بالمستحسن في فن البيان.

ومن ذلك قوله:

«أيها الناس، حصحصَ الحقّ، فما من الحقّ مناص، وأشخِص الخلق، فما لأحد من الخلق خَلاَص، وأنتم على ما يباعدكم من الله حِرَاص، ولكم على موارد الهَلَكة اغتصاص، وفيكم عن مقاصد البركة انتكاص، كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص، ولجوارح الموت في وَحْش نفوسكم اقتناص، ليس بها عليها تأبٌ ولا اعتياص».

فليتأمّلْ أهلُ المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلامَ بعين الإنصاف، يعلموا أن سطراً واحداً من كلام «نهج البلاغة» يساوي ألف سطر منه، بل يزيد ويُربي على ذلك، فإنّ هذا الكلام ملزقٌ عليه آثار كُلْفة وهُجْنة ظاهرة، يعرفها العاميّ فضلاً عن العالم.

ومن هذه الخطبة:

«فاهجروا رحمكم الله وثيرَ المراقد، وادّخروا طيّب المكتسب تخلصوا من انتقاد الناقد، واغتنموا فسحة المَهَل قبل انسداد المقاصد، واقتحموا سُبُل الآخرة على قِلّة المرافق والمساعد».

فهل يجد متصفّح الكلام لهذا الفصل عُذوبة، أو معنى يُمدح الكلامُ لأجله؟ وهلْ هُوَ إلا ألفاظ مضموم بعضها إلى بعض، ليس لها حاصل، كما قيل في شعر ذي الرُّمة: «بعر ظِباء ونقط عروس»!

ومن ذلك قوله:

«فيا له من واقع في كُرَب الحشارج، مصارع لسكرات الموت معالج! حتى دَرَج على تلك المدارج، وقدم بصحيفته على ذي المعارج».

وغير خاف ما في هذا الكلام من التكلّف.

ومن ذلك قوله:

«فكأنّكم بمنادي الرحيل قد نادى في أهل الإقامة، فاقتحموا بالصّغار محجّة القيامة، يتلو الأوائل منهم الأواخر، ويتبع الأكابرُ منهم الأصاغر، ويلتحق الغوامر من ديارهم بالغوامر، حتى تبتلع جميعهم الحفر والمقابر».

فإن هذا الكلام ركيك جدًّا، لوقاله خطيب من خُطباء قُرَى السواد لم يستحسَن منه، بل ترك واسترذل.

ولعلّ عائباً يعيب علينا فيقول: شرعتم في المقايسة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وبين كلام ابن نُباتة، وهل هذا إلا بمنزلة قول مَنْ يقول: السيف أمضى من العصا، وفي هذه غضاضة[1] على السيف!

فنقول: إنه قد اشتملت كتبُ المتكلّمين على المقايسة بين كلام الله تعالى وبين كلام البَشَر، ليبيّنوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب، نحو مقايستهم بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[2] وبين قول القائل: «القتل أنفى للقتل» ونحو مقايستهم بين قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[3] وبين قول الشاعر:

فإن عرضوا بالشرّ فاصفح تكرّماً ... وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلْ

(١) الغضاضة: الذّلة والمنقصة، لسان العرب، مادة (غضض).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

ونحو إيرادهم كلام مُسَيلمة، وأحمد بن سليمان المعرّي، وعبد الله بن المقفع، فصلاً فصلاً، والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد، وإيضاح أنّه لا يبلغ ذلك إلى درجة القرآن العزيز، ولا يقاربها، فليس بمستنكرٍ منّا أن نذكر كلام ابن نُباتة في معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهرَ فضيلة كلامه عليه السلام، بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل، الذي قد اتفق الناس على أنه أوْحدُ عصره في فنّه.

واعلم أنّا لا ننكر فضل ابن نُباتة وحُسنَ أكثر خطبِه، ولكنّ قوماً من أهل العصبيّة والعناد، يزعمون أنّ كلامه يساوي كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام ويماثلُه، وقد ناظَر بعضُهم في ذلك، فأحببت أن أبيّن للناس في هذا الكتاب أنّه لا نسبة لكلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وأنه بمنزلة شعر الأبله وابن المعلّم بالإضافة إلى زُهير والنابغة.

واعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق، والحلو والأحلى، والعالي والأعلى من الكلام أمر لا يُدرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه، وهو بمنزلة جاريتين: إحداهما بيضاء مشرَبة حمرة دقيقة الشفتين، نقية الثّغر، كحلاء العينين، أسِيلة الخدّ، دقيقة الأنف، معتدِلة القامة، والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن، لكنها أحلَى في العيون والقلوب منها، وأليق وأصلح، ولا يدرَى لأيّ سبب كان ذلك، ولكنه بالذوق والمشاهدة يُعرف، ولا يمكن تعليله، وهكذا الكلام، نعم يبقى الفرق بين الموضعين. أنّ حُسْن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كلّ من له عين صحيحة، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق، وليس كلّ من اشتغل بالنحو واللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق وممّن يصلح لانتقاد الكلام، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلْم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر، وصارت لهم بذلك دُرْبَة وملكة تامة، فإلى أولئك ينبغي أن ترجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض، إن كنت عادماً لذلك من نفسك.

الأصل: منها في ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله: قَدْ حَقَّرَ ٱلدُّنْيَا وَصَغَّرَها، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ ٱلله زَوَاهَا عَنْهُ ٱخْتِيَاراً، وَبَسَطَها لِغَيْرِهِ ٱحْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ ٱلدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعَا إِلَى ٱلْجَنَّةِ مُبَشِّراً، وَخَوَّفَ مِنَ ٱلنَّارِ مُحَذِّراً.

الشرح: فَعّل، مشدّد، للتكثير، «قَتّلْتُ» أكثر من «قَتَلْتُ»، فيقتضي قوله عليه السلام : «قد حقر الدنيا» زيادة تحقير النبي ﷺ لها، وذلك أبلغ من الثناء عليه وتقريظه.

قوله: «وَصَغّرها»، أي وصغّرها عند غيره، ليكون قوله: «وأهْوَنَ بها وهوّنها» مطابقاً له، أي أهون هو بها وهَوّنها عند غيره.

وزواها: قبضها، قال عليه الصلاة والسلام: «زُوِيَتْ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»[1].

وقوله: «اختياراً»، أي قبض الدّنيا عنه باختيار ورضاً من النبي ﷺ بذلك، وعلمٍ بما فيه من رفعة قدره، ومنزلته في الآخرة.

والرياش والريش بمعنى، وهو اللباس الفاخر كالحِرْم والحرام واللّبس واللباس، وقرىء: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[2] ويقال: الريش والرياش: المال الخِصْب والمعاش، وارتاش فلان: حسنت حاله. ومعذراً، أي مبالغاً، أعذر فلان في الأمر، أي بالغ فيه.

الأصل: نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ المَلاَئِكَةِ، وَمَعَادِنُ ٱلْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ ٱلْحُكْمِ، نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ.

الشرح: هذا الكلام غير ملتصِق بالأول كلّ الالتصاق، وهو من النَّمَط الذي ذكرناه مراراً، لأنّ الرضيّ رحمه الله يقتضب فصولاً من خطبة طويلة، فيوردها إيراداً واحداً، وبعضها منقطع عن البعض.

قوله عليه السلام : «نحن شجرة النبوّة»، كأنه جعل النبوّة كثمرة أخرجتها شجرة بني هاشم. ومحطّ الرسالة: منزلها. ومختلف الملائكة: موضع اختلافها في صعودها ونزولها، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبيّين فقال: يفتخر على بني عمّ له ليسوا بفاطميين:

هل كان يقتعد البُرَاقَ أبوكُمُ ... أمْ كانَ جبريلٌ عليه يُنَزَّلُ
أم هَلْ يقولُ لَهُ الإلٰهُ مُشافهاً ... بالوَحْيِ: قم يا أيّها المُزَّمّلُ

وقال آخر يمدح قوماً فاطميين:

ويطرقه الوَحْيُ وهناً وأنتمْ ... ضَجيعانِ بين يدي جَبْرئيلاَ

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، وابن ماجه في الفتن، باب: ما يكون من الفتن (٣٩٥٢).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

يعني حسناً عليه السلام وحسيناً عليه السلام.

واعلم أنه إن أراد بقوله: «نحن مختلف الملائكة» جماعة من جملتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ريب في صحة القضية وصدْقها، وإن أراد بها نفسَه وابنيْه فهي أيضاً صحيحة، ولكن مدلوله مستَنْبَط، فقد جاء في الأخبار الصحيحة، أنه قال: «يا جبريل، إنه منّي وأنا منه»[1]، فقال جبريل: وأنا منكما. وروى أبو أيوب الأنصاريّ مرفوعاً: «لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين لم تصلّ على ثالث لنا»[2]، وذلك قبل أن يظهر أمرُ الإسلام ويتسامع الناس به.

وفي خطبة الحسن بن عليّ عليه السلام لما قبض أبوه: «لقد فارقكُم في هذه الليلة رجلٌ لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون، كان يبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره».

وجاء في الحديث أنه سُمِع يوم أحد صوتٌ من الهواء من جهة السماء، يقول: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا عليّ»، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «هذا صوت جبريل»[3].

فأما قوله: «ومعادن العلم، وينابيع الْحُكْم» يعني الحكمة أو الحكم الشرعيّ، فإنه وإن عَنَى بها نفسه وذرّيته، فإن الأمر فيها ظاهر جدًّا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب»[4]، وقال: «أقضاكم عليّ»[5] والقضاء أمر يستلزم علوماً كثيرة.

وجاء في الخبر أنّه بعثه إلى اليمن قاضياً، فقال: يا رسول الله، إنهم كهول وذوُو أسنانٍ وأنا فتًى، وربما لم أصِبْ فيما أحكُم به بينهم، فقال له: «اذهب فإنّ الله سيثبِّت قلبك ويهدي لسانك»[6].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[7]: سألت الله أن يجعلها أذنَك ففعل[8].

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦١١٠).

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٣٣١).

(٣) ذكره الطبري في «تاريخه» (٢/ ٦٥).

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١١٠٦١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٠٥).

(٥) ذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٢٠).

(٦) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة (٦٩٧)، وأحمد في «مسنده» (٦٦٨)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٢٢)، والطيالسي في «مسنده» (٩٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٩٣).

(٧) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

(٨) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٣٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٦).

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١] أنها أنزلت في عليّ عليه السلام وما خُصّ به من العلم[٢]. وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[٣]: أن الشاهد عليّ عليه السلام [٤].

وروى المحدّثون أنه قال لفاطمة: «زَوّجتُكِ أقدمَهم سِلْماً، وأعظمهم حِلْماً، وأعلمهم علماً»[٥]. وروى المحدّثون أيضاً عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ أراد أن ينظُر إلى نوح في عزمه، وموسى في عِلْمِه، وعيسى في وَرَعِه، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب».

وبالجملة فحاله في العلم حال رفيعة جداً لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه. وحقّ له أن يصف نفسَه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم، فلا أحدَ أحقُّ بها منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

فإن قلت: كيف قال: «عدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة»، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه، لا ينتظرونها!

قلت: لما كانت منتظرةً لهم ومعلوماً بيقين حلولها بهم، صاروا كالمنتظرين لها. وأيضاً فإنهم ينتظرون الموت لا محالة الذي كلّ إنسان ينتظره، ولما كان الموت مقدّمة العقاب وطريقاً إليه جعل انتظاره انتظار ما يكون بعده.

١٠٩ – ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها فرائض الإسلام

الأصل: إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ٱلْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ ٱلْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةُ ٱلْإِخْلَاصِ، فَإِنَّهَا ٱلْفِطْرَةُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا ٱلْمِلَّةُ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ ٱلْعِقَابِ، وَحَجُّ ٱلْبَيْتِ وَٱعْتِمَارُهُ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ ٱلْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي ٱلْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي ٱلْأَجَلِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ ٱلْخَطِيئَةَ، وَصَدَقَةُ ٱلْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وَصَنَائِعُ المَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ ٱلْهَوَانِ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٤.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٠/٨٨.
(٣) سورة هود، الآية: ١٧.
(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٢٨).
(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٣٢٢)، والطبراني في «الكبير» (١٥٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٠١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢١٣١).

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ ٱللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَٱرْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ ٱلْوَعْدِ، وَٱقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الهَدْيِ، وَٱسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَىٰ ٱلسُّنَنِ، وَتَعَلَّمُوا ٱلْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ ٱلْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ ٱلْقُلُوبِ، وَٱسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ ٱلصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ ٱلْقَصَصِ وَإِنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ ٱلْحَائِرِ ٱلَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ ٱلْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَٱلْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ أَلْوَمُ.

الشرح: ذَكَر عليه السلام ثانية أشياء، كلٌّ منها واجب.

أولها: الإيمان بالله وبرسوله، ويعني بالإيمان ها هنا مجرَّد التصديق بالقلب، مع قَطْع النظر عما عدا ذلك من التلفّظ بالشهادة، ومن الأعمال الواجبة، وترك القبائح. وقد ذهب إلى أن ماهيّة الإيمان هو مجرد التصديق القلْبيّ جماعة من المتكلمين، وهو وإن لم يكن مذهبَ أصحابنا، فإنّ لهم أن يقولوا: إن أمير المؤمنين عليه السلام جاء بهذا اللّفظ على أصل الوضع اللّغويّ، لأن الإيمان في أصل اللّغة هو التصديق، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[1]، أي لست بمصدّق لنا، لا إن كنّا صادقين، ولا إنْ كنا كاذبين. ومجيئه عليه السلام به على أصل الوضع اللُّغوي لا يبطل مذهبنا في مسمّى الإيمان، لأنا نذهب إلى أن الشرع استجدّ لهذه اللفظة مسمًّى ثانياً، كما نذهب إليه في الصلاة والزكاة وغيرهما، فلا مُنافاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه عليه السلام.

وثانيها: الجهاد في سبيل الله، وإنما قدّمه على التلفُّظ بكلمتَي الشهادة، لأنه من باب دفع الضّرر عن النفس، ودفع الضرر عن النفس مقدّم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح، والتلّفظ بكلِمَتي الشهادة من أعمال الجوارح، وإنما أخّره عن الإيمان، لأنّ الإيمان من أفعال القلوب، فهو خارج عمّا يتقدم عليه، ودفع الضّرر عن الأفعال المختصّة بالجوارح، وأيضاً فإنّ الإيمان أصلُ الجهاد، لأنّه ما لم يعلم الإنسان على ماذا يُجاهد لا يجاهد، وإنما جعله ذِرْوة الإسلام، أي أعلاه، لأنه ما لم تتحصّن دار الإسلام بالجهاد لا يتمكّن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام، فكان إذاً من الإسلام بمنزلة الرأس من البدن.

وثالثها: كلمة الإخلاص، يعني شهادة أنْ لا إله إلا اللّه وشهادة أنّ محمداً رسول اللّه، قال: فإنها الفطرة، يعني هي التي فطر الناس عليها، والأصل الكلمة الأولى لأنها التوحيد، وعليها فُطِر البشرُ كلّهم، والكلمة الثانية تَبَعٌ لها فأجريت مجراها، وإنما أخّرت هذه الخصلة

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.

عن الجهاد، لأنّ الجهاد كان هو السببَ في إظهار الناس لها ونطقهم بها، فصار كالأصل بالنسبة إليها.

ورابعها: إقام الصلاة أي إدامتها، والأصل «إقامة». قال: فإنها الملَّة، وهذا مثل قول النبي ﷺ: «الصّلاة عماد الدين، فمن تركها فقد هَدَم الدين»(١).

وخامسها: إيتاء الزكاة، وإنما أخّرها عن الصلاة لأنّ الصلاة آكد افتراضاً منها، وإنما قال في الزكاة «فإنها فريضة واجبة»، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المعيّن المقدر في السائمة، باعتبارٍ غير الاعتبار الذي يطلق به على صلاة الظهر لفظ الفريضة، والاعتبار الأوّل من القطع، والثاني من الوجوب، وقال: فإنها فريضة واجبة، مثل أن يقول: فإنها شيء مقتطع من المال موصوف بالوجوب.

وسادسها: صوم شهر رمضان، وهو أضعف وجوباً من الزكاة، وجعله جُنّة من العقاب، أي سترة.

وسابعها: الحجّ والعمرة، وهما دون فريضة الصّوم، وقال: إنَّهما ينفيان الفقر، ويَرْحضان الذنب، أي يغسلانه، رَحَضت الثوب، وثوب رَحيض. وهذا الكلام يدلّ على وجوب العُمْرة، وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء.

وثامنها: صِلَة الرّحم وهي واجبة، وقطيعة الرحم محرّمة، قال: فإنها مثراة في المال، أي تُثريه وتكثره.

ومَنْسأة في الأجل، أي تنسَؤه وتؤخره، ويقال: نسأ اللّه في أجلك. ويجوز أنسأه بالهمزة.

فإن قلت: فما الحجة على تقديم وجوب الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج؟

قلت: أما الصّلاة، فلأن تاركها يقتل، وإن لم يجحد وجوبها، وغيرها ليس كذلك، وإنما قدمت الزّكاة على الصوم لأنّ اللّه تعالى قَرنَها بالصلاة في كثير من الكتابَ العزيز، ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا في موضع واحد، وكثرة تأكيد الشيء وذكره دليلٌ على أنّه أهمّ، وإنما قدّم الصوم على الحجّ، لأنه يتكرر وجوبه، والحجّ لا يجب في العمر إلا مَرّة واحدة، فدلّ على أنه أهمّ عند الشارع من الحج.

ثم قال عليه السلام: «وصدقة السرّ»، فخرج من الواجبات إلى النوافل. قال: «فإنَّها تكفر الخطيئة»، والتكفير هو إسقاط عقاب مستحقّ بثواب أزيد منه أو توبة وأصله في اللُّغة السَّتْر والتغطية، ومنه الكافر، لأنّه يغطّي الحق، وسمّي البحر كافراً لتغطيته ما تحته، وسمي الفلاّح كافراً لأنّه يغطّي الحبّ في الأرض المحروثة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٠٧) والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٧٩٥).

ثم قال: «وصدقة العلانية»: فإنها تدفع ميتة السوء كالغرق والهدم وغيرها.

قال: «وصنائع المعروف، فإنها تقي مصارع الهوان» كأسْر الروم للمسلم، أو كأخذ الظَّلَمة لغير المستحقّ للأخذ.

ثم شرع في وصايا أُخَرَ عدّدها. والهَدْيُ: السِّيرة، وفي الحديث: «واهدوا هَدْيَ عَمّار»، يقال: هُدِيَ فلان هَدْيَ فلان، أي سار سيرته.

وسمّي القرآن حديثاً اتباعاً لقول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[1]، واستدلّ أصحابُنا بالآية على أنه محدَث، لأنه لا فَرْق بين حديث ومُحْدَث في اللُّغة. فإن قالوا: إنما أراد أحسن الكلام، قلنا: لعمري إنه كذلك، ولكنه لا يطلق على الكلام القديم لفظة حديث، لأنه إنما سمّي الكلام والمحاورة والمخاطبة حديثاً، لأنه أمر يتجدّد حالاً فحالاً، والقديم ليس كذلك.

ثم قال: «تفقّهوا فيه فإنه ربيع القلوب»، من هذا أخذ ابن عباس قوله: «إذا قرأت آلَمَ حَمَ، وقعت في روضات دمِثاتٍ».

ثم قال: «فإنه شفاء الصدور»، وهذا من الألفاظ القرآنية.

ثم سمّاه قصصاً، اتباعاً لما ورد في القرآن من قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[2].

ثم ذكر أن العالم الذي لا يعمل بعلمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله.

ثم قال: «بل الحجّة عليه أعظم»، لأنه يعلم الحقّ ولا يعمل به، فالحجّة عليه أعظم من الحجّة على الجاهل، وإن كانا جميعاً محجوجَيْن، أما أحدُهما فبِعلمه، وأما الآخر فبتمكُّنه من أن يعلم.

ثم قال: «والحسرة له ألزم»، لأنه عند الموت يتأسّف ألاّ يكون عمِل بما علم، والجاهل لا يأسَف ذلك الأسف.

ثم قال: «وهو عند الله ألوم»، أي أحقّ أن يلام، لأن المتمكّن عالم بالقوة، وهذا عالم بالفعل، فاستحقاقه اللوم والعقاب أشدّ.

١١٠ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا،

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣.

وَلاَ تُؤمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ، لاَ تَعْدُو - إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1].

لَمْ يَكُنِ ٱمْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلاَّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلاَّ مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً، وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلاَّ هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ.

وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا ٱعْذَوْبَ وَٱحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَىٰ!

لاَ يَنَالُ ٱمْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلاَّ أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلاَّ أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ.

غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلاَّ ٱلتَّقْوَىٰ.

مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا ٱسْتَكْثَرَ مِمّا يُؤْمِنُهُ، وَمَنِ ٱسْتَكْثَرَ مِنْهَا ٱسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ.

كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً!

سُلْطَانُها دُوَلٌ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ.

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَىٰ آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ، وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْفَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ ٱلْأَبَدِ.

وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ ٱلسَّغَبَ، أَو أَحَلَّتْهُمْ إِلاَّ ٱلضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُم إِلاَّ الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلاَّ ٱلنَّدَامَةَ!

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

أَفَهٰذه تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحرِصُونَ!

فَبِئْسَتِ ٱلدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!

فاعلموا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تارِكُوهَا، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَٱتَّعِظُوا فِيها بِالَّذِينَ قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[١]، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلاَ يُدْعَوْنَ رُكْباناً، وَأُنْزِلُوا الأجْداثَ فَلاَ يُدْعُونَ ضيفاناً، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنانٌ، وَمِنَ التُّرابِ أكْفانٌ، وَمِنَ الرُّفاتِ جِيرَانٌ. فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً، وَلاَ يُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا، جَمِيعٌ وَهُمْ آحادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ، مُتَدَانُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لاَ يَتَقَارَبُونَ.

حُلَماءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغانُهُمْ، وَجُهَلاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لاَ يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلاَ يُرْجَى دَفْعُهُمْ. اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاؤوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً قَدْ ظَعَنُوا عَنها بِأَعْمالِهِمْ، إِلَى ٱلْحَياةِ الدَّائِمَةِ، والدَّارِ ٱلْباقِيةِ، كما قال سُبْحانَهُ وتعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[٢].

الشرح: خَضِرة، أي ناضرة، وهذه اللفظة من الألفاظ النبوية، قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الدنيا حُلْوة خَضِرَة، وإن الله مستَخلِفُكم فيها، فناظر كيف تعملون!»[٣].

وحُفَّت بالشهوات، كأن الشهوات مستديرة حولها، كما يحفّ الهودجُ بالثياب، وحَفوا حوله يحفُّونَ حَفًّا: أطافوا به، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[٤].

قوله: «وتحبّبت بالعاجلة»، أي تحبّبت إلى الناس بكونها لذّة عاجلة، والنفوس مغرمة مولَعة بحبّ العاجل، فحذف الجار والمجرور القائم مقام المفعول.

قوله: «وراقت بالقليل»، أي أعجبت أهلها، وإنما أعجبتهم بأمر قليل ليس بدائم.

قوله: «وتحلّت بالآمال» من الحِلْية، أي تزيّنت عند أهلها بما يؤمّلون منها.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥. (٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٢)، والترمذي كتاب: الفتن، باب: ما أخبر النبي صلى الله عليه وآله أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١).

(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

والحَبْرة: السرور. وحائلة: متغيّرة. ونافدة: فانية. وبائدة: منقضية. وأكّالة: قتالة، وغوّالة: مهلكة. والغَوْل: ما غال، أي أهلك، ومنه المثل: «الغضب غُول الحلم».

ثم قال: إنها إذا تناهتْ إلى أمنيّة ذوي الرغبات فيها لا تتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾(١).

فاختلط، أي فالتفّ بنبات الأرض. وتكاثف به، أي بسبب ذلك الماء وبنزوله عليه، ويجوز أن يكون تقديره: فاختلط بنبات الأرض، لأنه لَمّا غَذَاه وأنماه، فقد صار مختلطاً به، ولَمّا كان كلّ واحد من المختلطيْن مشاركاً لصاحبه في مسمّى الاختلاط جاز «فاختلط به نبات الأرض»، كما يجوز: فاختلط هو بنبات الأرض.

والهشيم: ما تهشّم وتحطّم، الواحدة هشيمة. وتذرُوه الرياح: تطيّره. وكان الله على ما يشاء، من الإنشاء والإفناء، مقتدراً.

قوله: «من يلق من سَرّائها بطناً» إنما خصّ السَّرّاء بالبطن، والضَرّاء بالظهر، لأن الملاقي لك بالبطن ملاقٍ بالوجه، فهو مقبل عليك، والمعطيك ظهرهَ مدِبر عنك. وقيل: لأنّ التّرس بطنُه إليك وظهره إلى عدوّك، وقيل: لأنّ المشيَ في بطون الأودية أسهلُ من السير على الظِّرَاب والآكام.

وطلّه السحابُ يَطلُّه، إذا أمطره مطراً قليلاً، يقول: إذا أعطت قليلاً من الخير أعقبت ذلك بكثير من الشرّ، لأنّ التهتّان الكثير المطر، هتن يهتِن بالكسر، عَتْنا وهُتوناً وتَهْتاناً.

قوله: «وحريّ»، أي جدير وخَليق، يقال: بالْحَرى أن يكون هذا الأمر كذا، وهذا الأمر مَحْرَاة لذلك، أي مَقْمَنة، مثل مَحجاة، وما أحراه مثل ما أحجاه، وأحْرِ به، مثل أحْجِ به، وتقول: هو حَرًى أن يفعل ذلك بالفتح، أي جدير وقمين، لا يثنّى ولا يجمع، قال الشاعر:

وَهُــنّ حَــرًى ألاّ يُـثِـبْـنَـكَ نـقْـرَةً وَأنْـتَ حَـرًى بـالـنـار حِـيـن تُـثِـيـبُ

فإذا قلت: هو حرٍ بكسر الراء وحريّ بتشديدها على «فعيل» ثنيت وجمعت، فقلت: هما حَرِيَان وحَريّان، وحَرُون مثل عَمُون، وأحراء أيضاً، وفي المشدّد حَريّون وأحْرياء، وهي حرِيَة وحَرِيّة، وهنّ حَريّات وحَرِيات وحرايا.

فإن قلت: فهلّا قال: «وحريّة إذا أصبحت»، لأنه يخبر عن الدنيا؟

قلت: أراد شأنها، فذكّر، أي وشأنها خليق أن يفعل كذا.

واعذوذب: صار عذباً. واحْلَوْلَى: صار حُلْواً، ومن ها هنا أخذ الشاعر قوله:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

ألا إنّما الدّنيا غضارةُ أيْكةٍ ... إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ
فلا تكتحِلْ عيناك منها بِعَبْرةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهبُ

وارتفع «جانب» المذكور بعد «إن» لأنه فاعل فعل مقدّر يفسّره الظاهر، أي وإن اعذوذب جانبٌ منها، لأن «إنْ» تقتضي الفعل وتطلبه فهي: كـ«إذا» في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[(١)].

أمرّ الشيءُ، أي صار مرًّا. وأوْبَى: صار وبيًّا، وليَّن الهمز، لأجل السجع.

والرَّغَب: مصدر رغبت في الأمر رغْبة ورَغَباً، أي أردته.

يقول: لا ينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقته تَعَباً، يقال: أرهقه إثماً، أي حَمّله وكلّفه. فإن قلت: لم خَصّ الأمنَ بالجناح والخوف بالقوادم؟

قلت: لأنّ القوادم مقاديمُ الريش، والراكب عليها بعرَض خطر عظيم وسقوط قريب، والجناح يستر ويقي البرد والأذى، قال أبو نُوَاس:

تَغَطّيتُ مِنْ دَهْرِي بظلِّ جناحه ... فصرت أرى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَاني
فلو تسأل الأيامَ ما اسمي لما دَرَتْ ... وأيْنَ مكاني ما عرفْنَ مكانِي

والهاء في «جناحه» ترجع إلى الممدوح بهذا الشعر.

وتُوبقه: تهلكه، والأبَهة: الكِبْر. والرَّنَق، بفتح النون، مصدر رَنَق الماء، أي تكدّر وبالكسر الكدر، وقد روي ها هنا بالفتح والكسر، فالكسر ظاهر، والفتح على تقدير حذف المضاف، أي ذو رَنَق.

وماء أُجَاج: قد جمع المرارة والمُلوحة، أجّ الماءُ يؤُج أجاجاً. والصبر بكسر الباء: هذا النبات المرّ نفسه، ثم سمِّيَ كلّ مرّ صَبِراً. والسمام: جمع سَمّ لهذا القاتل، يقال سَمّ وسُمّ، بالفتح والضم، والجمع سِمام وسُموم.

ورمام: بالية، وأسبابها: حبالها. وموفورها: ذو الوفْر والثروة منها، والمحروب: المسلوب، أي لا تحمي جاراً ولا تمنعه.

ثم أخذ قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[(٢)] فقال: «ألستم في مساكِن مَنْ كان قبلكم أطول أعماراً»، نصب «أطول» بأنه خبر كان، وقد دلّنا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول أعماراً بقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[(٣)]، وثبت بالعيان أنّهم أبقى آثاراً، فإنّ من آثارهم الأهرام

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

والإيوان ومنارة الإسكندرية وغير ذلك. وأمّا بُعدُ الآمال فمرتَّب على طول الأعمال، فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعَد، وإن عَنَى به علُوّ الهمم، فلا ريب أنهم كانوا أعلى همماً من أهل هذا الزمان، وقد كان فيهم مَنْ ملَك معمورة الأرض كلّها، وكذلك القول في «أعدّ عديداً»، وأكثف جنوداً»، والعديد: العدوّ الكثير، وأعدّ منهم، أي أكثر.

قوله: «ولا ظهر قاطع»، أي قاطع لمسافة الطريق.

والفوادح: المثقلات، فَدَحه الدَّين أثقله، ويروى «بالقوادح» بالقاف، وهي آفة تظهر في الشجر، وصدوع تظهر في الأسنان.

وأوهقتهم: جعلتهم في الوهَق، بفتح الهاء، وهو حبل كالطِّوَل ويجوز التّسْكين، مثل نَهْر ونَهَر.

والقوارع: المحن والدواهي، وسميت القيامة قارِعة في الكتاب العزيز من هذا المعنى وضَعْضَعتهم: أذلتهم، قال أبو ذؤيب:

أنــي لـرَيْـب الـدّهْـرِ لا أتـضـعـضـع

وضعضعت البناء: أهدمته.

وعَفَّرتُهم للمناخر. ألصقت أنوفهم بالعَفَر، وهو التراب. والمناسم: جمع منسِم، بكسر السين وهو خُفّ البعير.

ودان لها: أطاعها، ودان لها أيضاً: ذلّ. وأخلد إليها: مال، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

والسّغَب: الجوع: يقول: إنما زودتْهم الجوع، وهذا مثَل، كما قال:

ومـدحـتُـه فـأجـازنـي الـحـرمـانـا

ومعنى قوله: «أو نوّرت لهم إلا الظلمة»، أي بالظلمة، وهذا كقوله: «هل زوّدتهم إلا السّغب». وهو من باب إقامة الضدّ مقام الضدّ، أي لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة. والضنك: الضيق.

ثم قال: فبئست الدار، وحذف الضمير العائد إليها وتقديره «هي» كما قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[2]، وتقديره: «هو».

ومن لم يتّهمها: من لم يسؤ ظنًّا بها. والصفيح: الحجارة. والأجنان: القبور، الواحد جَنَن، والمجنون: المقبور، ومنه قول الأعرابية: «لله درّك من مجنون في جَنَن!» والأكنان:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٢) سورة صٓ، الآية: ٤٤.

جمع كِنّ: وهو السّتْر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾[1].

والرّفات: العظام البالية. والمندبة: النَدْب على الميت. لا يبالون بذلك: لا يكترثون به. وجِيدُوا: مُطِروا. وقُحِطوا: انقطع المطر عنهم فأصابهم القَحْط، وهو الجدب وإلى معنى قوله عليه السلام: «فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون» نظر البحتريّ، فقال:

بِنَا أنتِ من مجفوّة لم تؤنّبِ ... ومهجورة في هَجْرها لم تعتَّبِ
ونازحةٍ والدار منها قريبةٌ ... وما قُرْب ثاوٍ في التراب مغيّبِ!

وقد قال الشعراء والخطباء في هذا المعنى كثيراً، فمن ذلك قول الرضيّ أبي الحسن رحمه الله في مرثيته لأبي إسحاق الصابي:

أعْزِزْ عليّ بأنْ نزلتَ بمنزِلٍ ... متشابهِ الأمجادِ بالأوغادِ
في عصبةٍ جُنِبوا إلى آجالِهِمْ ... والدهرُ يُعْجِلُهمْ عن الإزوادِ
ضرَبوا بمدْرَجة الفناء قبابَهمْ ... من غير أطْنَابٍ ولا أوتادِ
رَكْبٌ أناخُوا لا يرجّى منهمُ ... قصدٌ لإتهامٍ ولا إنجادِ
كرهوا النزولَ فأنزلتهمْ وقعة ... للدهر نازلة بكل مَقادِ
فتهافتوا عن رَحْل كل مذلّلٍ ... وتطاوحوا عن سَرْج كلّ جواد
بادون في صُوَرِ الجميع وإنهم ... متفردون تفرّدَ الآحاد

فقوله: «بادون في صورالجمع...» البيت، هو قوله عليه السلام: «جمع وهم آحاد» بعينه. وقال الرضيّ رحمه الله تعالى أيضاً:

متوسِّدين على الخدود كأنّما ... كَرَعُوا على ظمإٍ من الصَّهْباءِ
صُوَرٌ ضننتُ على العيون بحسنها ... أمسيتُ أوقرُها من ٱلْبَوْغاءِ
ونواظرٍ كَحَلَ التراب جفونَها ... قد كنت أحْرُسُهَا من الأقذاءِ
قَرُبت ضرَائحهم على زُوّارها ... وَنأوا عن الطّلاب أيّ تناءِ

قوله: «قربت ضرائحهم...» البيت هو معنى قوله عليه السلام: «وجيرة، وهم أبعاد» بعينه.

ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب:

لكلِّ أناس مقبرٌ في ديارهم ... فهمْ ينقصون، والقبور تزيدُ
فكائنْ تَرَى من دار حَيٍّ قد أخربت ... وقبرٍ بأكناف التراب جديدُ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨١.

هـمُ جيـرة الأحيـاء، أمّـا مـزارهـم فـدانٍ، وأمـا الـمـلـتـقَـى فـبـعـيـدُ

ومن كلام ابن نُباتة: «وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً على قرب المكان».

ومنه قوله: «أسير وحشة الانفراد، فقير إلى اليسير من الزاد، جارُ من لا يجير، وضيْفُ من لا يمير، حمِلُوا ولا يروْن ركباناً، وأنزلوا ولا يُدْعَون ضيفاناً، واجتمعوا ولا يُسَمَّوْن جيراناً، واحتشدوا ولا يعدّون أعواناً، وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه المذكور في هذه الخطبة، وقد أخذه مصالتةً.

ومنه قوله: «طحنتهم طحن الحصيد، وغيّبتهم تحت الصعيد، فبطون الأرض لهم أوطان، وهم في خرابها قُطّان، عمروا فأخربوا، واقتربوا فاغتربوا، واصطحبوا وما اصطحبوا».

ومنه قوله: «غُيّباً كأشهاد، عصباً كآحاد، هموداً في ظُلَم الألحاد، إلى يوم التناد».

واعلم أنّ هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» ورواها لِقَطَرِيّ بن الفجاءة، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام، وقد رأيتها في كتاب «الموفق» لأبي عبيد الله المرزبانيّ مروية لأمير المؤمنين عليه السلام، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه، وليس يبعد عندي أن يكون قطريّ قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره، وقد لقي قَطَرَيّ أكثرهم.

١١١ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس

الأصل: هَلْ يُحَسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً! بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى ٱلْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا! كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!

الشرح: أما مذهب جمهور أصحابنا، وهم النافون للنفس الناطقة، فعندهم أنّ الروح جسم لطيف بخاريّ، يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية، ينفذ في العروق الضوارب، والحياة عَرَض قائم بالروح وحالّ فيها، فللدماغ روح دِماغية وحياة حالّة فيها، وكذلك للقلب، وكذلك للكبد، وعندهم أن لملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه، لولا ذلك لتعذّر عليه وهو جسم أن يقبضَ روحَيْنِ في وقت واحد في المشرق والمغرب، لأنّ الجسم الواحد لا يكون في مكانيْن في وقت واحد. قال أصحابنا: ولا يبعد أن يكون الحَفَظة الكاتبون هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل، قالوا: وكيفية القبض وُلُوج الملك من الفَم إلى القلب،

لأنه جسم لطيف هوائيّ لا يتعذّر عليه النفوذ في المخارق الضيّقة، فيخالط الروح التي هي كالشبيهة به، لأنها جسم لطيف بخاريّ، ثم يخرج من حيث دخل وهي معه، وإنما يكون ذلك في الوقت الّذي يأذَنُ الله تعالى له فيه، وهو حضور الأجل، فألزموا على ذلك أن يغوصَ الملك في الماء مع الغريق، ليقبض روحه تحت الماء، فالتزموا ذلك، وقالوا: ليس بمستحيل أن يتخلّل الملَك الماء في مسامّ الماء، فإنّ فيه مسامّ ومنافذ، وفي كلّ جسم على قاعدتهم في إثبات الماء في الأجسام.

قالوا: ولو فرضنا أنّه لا مسامّ فيه، لم يبعد أن يلجه الملك فيوسّع لنفسه مكاناً كما يلجُهُ الحجر والسمك وغيرهما، وكالريح الشديدة التي تقرع ظاهر البحر فتقعره، وتحفره، وقوة الملَك أشدّ من قوة الرِّيح.

ثم نعود إلى الشرح فنقول:

المَلك أصله «مألَك» بالهمز، ووزنه «مفعل» والميم زائدة، لأنه من الألوكة والألُوك، وهي الرسالة، ثم قلبت الكلمة وقدمت اللام فقيل ملأك، قال الشاعر:

فلستُ لِإنسِيٍّ ولكن لملأكٍ　　　تَنَزّلَ من جَوّ السماءِ يصوب

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل: «مَلَك»، فلما جمع ردت الهمزة إليه، فقالوا: ملائكة وملائك، قال أميّة بن أبي الصلت:

وَكَأنّ بِرْقِعَ والملائك حولها　　　سَدِرٌ تواكله القوائم أجرَدُ

والتوفّي: الإماتة وقبض الأرواح، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾(١).

والتقسيم الذي قسّمه في وفاة الجنين حاصر، لأنه مع فرضنا إيّاه جسماً يقبض الأرواح التي في الأجسام، إما أن يكون مع الجنين في جوف أمّه فيقبض روحَه عند حضور أجله، أو خارجاً عنها. والقسم الثاني ينقسم قسمين: أحدهما أن يَلِجَ جوف أمّه لقبْض روحه فيقبضها، والثاني أن يقبضَها من غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها، وذلك بأن تطيعه الرُّوح وتكون مسخّرة إذا أراد قبضها امتدّت إليه فقبضها. وهذه القسمة لا يمكن الزيادة عليها، ولو قسمها واضع المنطق لما زاد.

ثم خرج إلى أمر آخرَ أعظم وأشرف ممّا ابتدأ به، فقال: «كيف يصف إلهه مَنْ يعجز عن وصف مخلوق مثله»! وإلى هذا الغرض كان يترامَى، وإياه كان يقصد، وإنما مهّد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف، والسرّ الدقيق.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

بعض الأشعار في التخلص

وهذا الفنّ يسميه أرباب علم البيان التخلّص، وأكثر ما يقع في الشعر، كقول أبي نواس:

تقول التي من بيتها خَفّ مركبي　　عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ
أما دونَ مصرٍ للغنى متطلّبُ!　　بلى، إن أسبابَ الغنى لكثيرُ
فقلت لها واستعجلتْها بوادرٌ　　جَرَت، فجرى في جريهنّ عَبِيرُ:
ذِريني أكثّر حاسديك برحلةٍ　　إلى بلد فيه الخصيب أميرُ

ومن ذلك قول أبي تمام:

يَقُولُ في قُومِسٍ صحبي وقد أخذَتْ　　مِنّا السُّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ
أمَطْلِعَ الشمس تبغي أنْ تؤمّ بنا　　فقلت كَلاًّ ولكن مطلِعِ الجُودِ

ومنه قوله البحتري:

هل الشباب ملمٌّ بي فراجعةٌ　　أيامُه لِيَ في أعقاب أيامي!
لو أنه نائل غمْرٌ يجادُ به　　إذن تطلّبتُه عند ابن بسطامِ

ومنه قول المتنبي، وهو يتعزّل بأعرابية، ويصف بخلها وجبْنها وقلة مطعمها، وهذه كلها من الصفات الممدوحة في النساء خاصة:

فِي مُقْلَتَيْ رشأ تديرُهُما　　بدويَّةٌ فُتنتْ بها الحِلَلُ
تشكُو المطاعمُ طولَ هِجْرَتِهَا　　وصدودَها، ومَنِ الذي تَصِلُ!
ما أسأرتْ في القَعْبِ من لبنٍ　　تركتْهُ، وهو المسكُ والعسلُ
قالت: ألا تصحو فقلت لها　　أعْلَمْتِنِي أنّ الهوى ثَمِلُ
لَوْ أنّ فنّاخُسْرَ صَبَّحَكُمْ　　وبرزتِ وحدكِ عاقَهُ الغَزَلُ
وتفرّقتْ عنكم كتائبُه　　إنَّ الملاحَ خوادعٌ قُتُلُ
ما كنتِ فاعلة وضيفكُمُ　　ملكُ الملوك وشأنُكِ البَخَلُ
أتمنّعين قِرًى فتفتضحي　　أم تبذُلين له الّذي يَسَلُ
بل لا يحلّ بحيث حَلَّ به　　بخلٌ ولا جَوْرٌ ولا وَجَلُ

وهذا من لطيف التخلّص ورشيقه، والتخلص مذهب الشعراء، والمتأخرون يستعملونه كثيراً، ويتفاخرون فيه ويتناضلون، فأما التخلّص في الكلام المنثور فلا يكاد يظهر لمتصفّح الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمّل شديد، وقد وردت منه مواضع في القرآن العزيز، فمن أبينِها وأظهرها أنّه تعالى ذكر في سورة الأعراف الأمم الخالية، والأنبياء الماضين من لدن آدم عليه

الصلاة والسلام، إلى أن انتهى إلى قصة موسى، فقال في آخرها بعد أن شرحها وأوضحها:
﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وهذا من التخلّصات اللطيفة المستحسنة.

واعلم أنّ من أنواع علم البيان نوعاً يسمّى الاستطراد، وقد يسمّى الالتفات، وهو من جنس التخلّص وشبيه به، إلاّ أنّ الاستطراد هو أن تخرج بعد أن تمهّد ما تريد أن تمهّده إلى الأمر الذي تروم ذكره فتذكره، وكأنّك غيرُ قاصد لذكره بالذّات، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرَض عن غير قصد، ثم تدعه وتتركه، وتعود إلى الأمر الذي كنت في تمهيده، كالمقبل عليه، وكالملغي عمّا استطردت بذكره، فمن ذلك قول البحتريّ وهو يصف فرساً:

وأغرَّ فِي الزّمن البهيم مُحَجّلٍ ... قَدْ رُحتُ مِنه عَلَى أغرّ مُحَجّلِ
كالهيكل المبنيّ إلاّ أنه ... في الحسن جاء كصورةٍ في هيكلِ
وافِي الضلوع يشدّ عقد حزامه ... يومَ اللقاء على مُعِمٍّ مخولِ
أخواله للرستمين بفارسٍ ... وجدُوده للتُّبّعين بموكلِ
يهوِي كما هوت العُقابُ وقد رأتْ ... صيداً، وينتصب انتصابَ الأجْدَلِ
متوجس برقيقتين كأنما ... تُريانِ من ورق عليه مكلّلِ
ما إن يعاف قَذًى ولو أوردْته ... يوماً خلائق حَمْدَوَيْهِ الأحول
ذَنَبٌ كما سَحَب الرِّشاء يذبّ عن ... عُرْفٍ، وعرفٌ كالقناع المسبَلِ
جَذلانُ ينفض عُذْرةً في غُرّةٍ ... يقَقٍ تسيل حجولها في جَنْدَلِ
كالرائح النّشوان أكثر مشيه ... عرضاً على السّنن البعيد الأطولِ
ذهب الأعالي حيث تذهب مقلةٌ ... فيه بِناظرها حديد الأسفلِ

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

هزج الصَّهيل كأنّ في نغماتهِ ... نبراتُ معبد في الثّقيل الأولِ
مَلَك القلوب، فإن بدا أعطينه ... نَظَر المحبّ إلى الحبيب المقبل

ألا تراه كيف استطرد بذكر حَمْدويه الأحول الكاتب، وكأنه لم يقصد ذلك، ولا أراده وإنما جَرّته القافية، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس، ولو أقسم إنسان أنه ما بنى القصيدة منذ افتتحها إلاّ على ذكره، ولذلك أتى بها عَلَى رويّ اللام، لكان صادقاً. فهذا هو الاستطراد.

ومن الفرق بينه وبين التخلّص أنّك في التخلّص متى شرعتَ في ذكر الممدوح أو المهجوّ تركت ما كنت فيه من قبل بالكلّية وأقبلت على ما تخلّصت إليه من المديح والهجاء بيتاً بعد بيت، حتى تنقضي القصيدة، وفي الاستطراد تمرّ على ذكر الأمر الذي استطردت به مروراً كالبرق الخاطف، ثم تتركه وتنساه، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصد قَصْدَ ذاك، وإنما عرض عروضاً. وإذا فهمت الفرق فاعلم أنّ الآيات التي تلوْناها إذا حقّقتَ وأمعنت النظر، من باب الاستطراد، لا من باب التخلّص، وذلك لأنه تعالى قال بعد قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١). فعاد إلى ما كان فيه أولاً، ثم مرّ في هذه القصّة، وفي أحوال موسى وبني إسرائيل حتى قارب الفراغ من السّورة.

ومن لطيف التخلّص الذي يكاد يكون استطراداً، لولا أنّه أفسده بالخروج إلى المدح، قولُ أبي تمّام في قصيدته التي يمدح بها محمد بن الهيثم التي أوّلها:

أسقَى طلولَهُمُ أجشُّ هَزيمُ ... وَغَدَتْ عليهِمْ نَضرَةٌ ونعيمُ
ظلمتْك ظالمةُ البريء ظلومُ ... والظُّلْمُ من ذي قُدْرَةٍ مذمُومُ
زَعَمَتْ هواك عَفَا الغداة كما عفتْ ... مِنها طلولٌ باللّوى ورسومُ
لا والّذي هو عالِمٌ أنّ النّوى ... صَبِرٌ وأنّ أبا الحسين كريمُ
مَا حُلْتُ عَمّا تعهدين ولا غَدَتْ ... نَفسي عَلَى إلْفٍ سواكِ تحُومُ

فلو أتمّ متغزلاً لكان مستطرداً لا محالة، ولكنه نقض الاستطراد، وغمس يده في المدح، فقال بعد هذا البيت:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧ - ١٦٠.

لمحمد بن الهيثم بن شُبَانةٍ ... مجدٌ إلى جَنْب السِّماك مقيمُ
ملك إذا نسِبَ النّدى من مُلْتَقى ... طَرَفَيْهِ فَهُوَ أخٌ لهُ وحَميمُ

ومضى على ذلك إلى آخرها.

ومن الاستطراد أن يحتالَ الشاعر لذكر ما يروم ذكرَه، بوصف أمر ليس من غرضه، ويدمج الغرض الأصليّ في ضمْن ذلك وفي غضونه، وأحسنُ ما يكون ذلك إذا صرّح بأنه قد استطرد ونصّ في شعره على ذلك، كما قال أبو إسحاق الصابي في أبيات كتبها إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة، كتبها إليه إلى شيراز، وأبو إسحاق في بغداد، وكانت أخبار فتوح عضد الدولة بفارس وكرمان وما والاها متواصلةً مترادفة إلى العراق، وكُتُب عبد العزيز واصلة بها إلى عزّ الدولة بختيار، والصابي يجيب عنها:

يا راكبَ الْجَسْرَةِ العَيْرانةِ الأُجُدِ ... يَطْوِي المَهامِهَ من سهْل إلى جَلَدِ
أبلغ أبا قاسمٍ - نفسي الفداءُ له - ... مقالةً من أخٍ للحقّ معتمدِ
وفي كلّ يوم لكم فتحٌ يُشَادُ به ... بين الأنام بذكر السّيّدِ العضُدِ
وما لنا مثله لكنّنا أبداً ... نجيبكم بجواب الحاسِد الكمِدِ
فأنت أكتب منّي في الفتوح وما ... تجري مجيباً إلى شأوِي ولا أمَدِي
وما ذممتُ ابتدائي في مكاتبةٍ ... ولا جوابكمُ في القرب والبُعُدِ
لكنّني رمت أن أثني على مَلِكٍ ... مستطرد بمديح فيه مطّرِدِ

ولقد ظرُف وملُح أبو إسحاق في هذه الأبيات، ومتى خلا أو عَرَى عن الظرف والمَلاحة، ولقد كان ظرفاً ولباقة كلّه!

وليس من الاستطراد ما زعم ابن الأثير الموصلّي في كتابه المسمى «بالمثل السائر» أنه استطراد، وهو قول بعض شعراءِ الموصل يمدح قرواش بن المقلّد، وقد أمره أن يعبث بهجاء وزيره سليمان بن فهد، وحاجبه أبي جابر ومغنّيه المعروف بالبرقعيديّ، في ليلة من ليالي الشتاء وأراد بذلك الدّعابة والولع بهم، وهم في مجلس في شراب وأنس، فقال وأحسن فيما قال:

وليلٍ كوجهِ البرقعيديّ ظلمةً ... وبردِ أغانيه وطُول قُرونِهِ
سَرَيْتُ ونومي فيه نومٌ مشرَّدٌ ... كعقلِ سليمانَ بن فهْدٍ ودِينِهِ
على أوْلقٍ فيه التفاتٌ كأنه ... أبو جابر في خَبْطه وجنونه
إلى أن بدا ضوءُ الصَّباح كأنه ... سَنَا وَجْهِ قِرْواشٍ وَضَوْءِ جبينه

وذلك لأن الشاعر قصد إلى هجاء كلّ واحد منهم، ووضع الأبيات لذلك، وأمره قرواش رئيسهم وأميرهم بذلك، فهجاهم ومدحه ولم يستطرد. وهذه الأبيات تشبيهات كلّها مقصود بها الهجاء، لم يأت بالعرض في الشعر كما يأتي الاستطراد. وهذا غلط من مصنف الكتاب.

١١٢ - ومن خطبة له عليه السلام في التحذير من أمر الدنيا

الأصل: وَأُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا ٱللهُ تَعَالَىٰ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عن أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ ٱلْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَىٰ فِيهَا فَنَاءَ ٱلزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ ٱنْقِطَاعَ ٱلسَّيْرِ!

ٱجْعَلُوا مَا ٱفْتَرَضَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلِبَتِكُم، وَٱسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ كَمَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ ٱلْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَىٰ بِكُمْ. إِنَّ ٱلزَّاهِدِينَ فِي ٱلدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ ٱغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ ٱلْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ ٱلْآمَالِ، فَصَارَتِ ٱلدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ، وَٱلْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ ٱلْآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ ٱللهِ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ ٱلسَّرَائِرِ، وَسُوءُ ٱلضَّمَائِرِ، فَلاَ تَوَازَرُونَ وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ وَلاَ تَوَادُّونَ.

مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ ٱلدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُم ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ ٱلْيَسِيرُ مِنَ ٱلدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُم، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ.

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ ٱلْآجِلِ، وَحُبِّ ٱلْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ.

الشرح: قوله عليه السلام: «فإنها منزلُ قُلْعة» بضم القاف وسكون اللام، أي ليست بمستوطنة. ويقال: هذا مجلس قُلْعة، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة. ويقال: هم على قُلْعة، أي على رحلة، ومن هذا الباب. قولهم: فلان قُلْعة، إذا كان ينقلع عن سرجه، ولا يثبت في البطش والصراع، والقلعة أيضاً: المال العاريّة، وفي الحديث: «بئس المال القلعة»[1].

(١) أخرجه ابن منظر في لسان العرب: ٨/ ٢٩٠.

والنَّجعة: طلب الكلأ في موضعه، وفلان ينتجع الكلأ، ومنه انتجعت فلاناً، إذا أتيتَه تطلب معروفه.

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى، فقال: «من هوانها أنه خَلَط حلالها بحرامها...» الكلام، مراده تفضيل الدار الآتية على هذه الحاضرة، فإنّ تلك صفو كلّها وخير كلّها، وهذه مشوبة، والكَدَر والشرّ فيها أغلب من الصَّفْوِ والخير. ومن كلام بعض الصالحين: من هوان الدّنيا على الله أنه لا يعصَى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها. ويروى: «ولم يضنّ بها على أعدائه»، والرواية المشهورة «عن أعدائه»، وكلاهما مستعمل. والزهيد: القليل، والعتيد: الحاضر. والسيْر: سير المسافر.

ثم أمرهم بأنْ يجعلوا الفرائض الواجبة عليهم من جُمْلة مطلوباتهم، وأن يسألوا الله من الإعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألهم، أي كما ألزمهم وافترض عليهم، فسمَّى ذلك سؤالاً لأجل المقابلة بين اللفظين، كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[1]، وكما قال النبي ﷺ: «فإنّ الله لا يَمَلّ حتى تَمَلُّوا»[2] وكما قال الشاعر:

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أحدٌ علَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ ٱلْجَاهِلِينَا

ثم أمرهم أن يُسمعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت، فَيحلّ بهم. ومثل قوله: «تبكي قلوبهم وإن ضحكوا» قول الشاعر، وإن لم يكن هذا المقصِد بعينه قَصَد:

كَمْ فَاقَةٍ مستورةٍ بمروءة وضرورةٍ قد غُطِّيَتْ بتجمُّلِ

ومن ابتسامٍ تحته قلبٌ شجٍ قد خامرته لوعةٌ ما تنجلي

والمقت: البغض: واغتبطوا: فرحوا.

وقوله: «أملكَ بكم» مثل «أوْلى بكم». وقوله: «والعاجلة أذهب بكم من الآجلة» أي ذهبت العاجلةُ بكم واستولت علكيم أكثرَ مما ذهبت بكم الآخرة، واستولت عليكم.

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فِطْرَة واحدة، وهي دين الله وتوحيده، وإنما اختلفوا وتفرّقوا باعتبار أمر خارجيّ عن ذلك، وهو خبْث سرائرهم وسوء ضمائرهم، فصاروا إلى حالٍ لا يتوازرون، أي لا يتعاونون والأصل الهمز، آزرته، ثم تقلب الهمزة واواً، وأصل قوله: «فلا توازرون» «فلا تَتوازرون» فحذفت إحدى التاءين، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[3]، أي لا تتناصرون، والتبادل: أن يجودَ بعضهم على بعض بماله ويبذله له.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه (٤٣)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضيلة العمل الدائم (٧٨٢).

(٣) سورة الصافات، الآية: ٢٥.

ومثل قوله عليه السلام «ما بالكم تفرحون بكذا، ولا تحزنون لكذا، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم» من هذا قول الرضي رحمه الله:

نَقْصُ الجديدَيْن من عمري يزيدُ على ما ينقصان على الأيام من مالِي
دهرٌ توَتّر في جسمي نَوَائِبُهُ فما اهتماميَ أنْ أودَى بسربالي

والضمير في «يخاف» راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له، أي ما يخافه الأخ من مواجهته بعينه.

قوله: «وصارَ دينُ أحدكم لُعْقةً على لسانه» أخذه الفرزدق، فقال للحسين بن عليّ عليه السلام، وقد لقيَه قادماً إلى العراق، وسأله عن الناس: «أمّا قلوبهمُ فمعك، وأمّا سيوفهم فعليك، والدين لُعْقةٌ على ألسنتهم، فإذا امتحصوا قلّ الديّانون»، واللفظة مجاز، وأصل اللُّعقة شيء قليل يُؤخذ بالمِلْعقة من الإناء، يصف دينهم بالنّزارة والقِلّة كتلك اللعقة، ولم يقنع بأن جعله لُعقة حتى جعله على ألسنتهم فقط، أي ليس في قلوبهم.

١١٣ – ومن خطبة له عليه السلام في الحض على التقوى

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ اَلْوَاصِلِ اَلْحَمْدَ بِالنِّعَمِ، وَاَلنِّعَمَ بِالشُّكْرِ، نَحْمَدُهُ عَلَى آلاَئِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلاَئِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ اَلنُّفُوسِ اَلْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، اَلسِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ، عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ اَلْغُيُوبَ، وَوَقَفَ عَلَى اَلْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَىٰ إِخْلاَصُهُ اَلشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ اَلشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اَللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّىٰ اَللهُ عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ اَلْقَوْلَ، وَتَرْفَعَانِ اَلْعَمَلَ، لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ مِنْهُ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اَللهِ بِتَقْوَىٰ اَللهِ اَلَّتِي هِيَ اَلزَّادُ وَبِهَا اَلْمَعَاذُ، زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ، دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ، فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ اَللهِ، إِنَّ تَقْوَىٰ اَللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اَللهِ مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ، فَأَخَذُوا اَلرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ، وَاَسْتَقْرَبُوا اَلأَجَلَ، فَبَادَرُوا اَلْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا اَلأَمَلَ، فَلاَحَظُوا اَلأَجَلَ.

ثُمَّ إِنَّ اَلدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ، فَمِنَ اَلْفَنَاءِ أَنَّ اَلدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لاَ تُخْطِىءُ سِهَامُهُ، وَلاَ تُؤْسَى جِرَاحُهُ، يَرْمِي اَلْحَيَّ بِالْمَوْتِ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ،

آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ. وَمِنَ ٱلْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَالاً يَأْكُلُ، وَيَبْنِي مَا لاَ يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى، لاَ مَالاً حَمَلَ، وَلاَ بِنَاءً نَقَلَ.

وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، والْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً، لَيْسَ ذٰلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ، وَبُؤْساً نَزَلَ.

وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ، فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ ٱللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا، وَأَضْحَى فَيْئَهَا!

لاَ جَاءٍ يُرَدُّ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ، فَسُبْحَانَ ٱللهِ، مَا أَقْرَبَ ٱلْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ لاِنْقِطَاعِهِ عَنْهُ!

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ إِلاَّ ثَوَابُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ ٱلْعِيَانِ ٱلسَّمَاعُ، وَمِنَ ٱلْغَيْبِ ٱلْخَبَرُ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَزَادَ فِي ٱلآخِرَةِ، خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ ٱلآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!

إِنَّ ٱلَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ ٱلَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا ٱتَّسَعَ، قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ، فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَٱللهِ لَقَدِ ٱعْتَرَضَ الشَّكُّ، وَدَخَلَ ٱلْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ ٱلَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ ٱلَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا ٱلْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ ٱلأَجَلِ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ ٱلْعُمُرِ، مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ.

مَا فَاتَ ٱلْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ ٱلْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ ٱلْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ ٱلْجَائِي، وَٱلْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي، فَٱتَّقُوا ٱللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ!

الشرح: لقائل أن يقول: أمّا كونُه واصَل الحمدَ له من عباده بالنّعم منه عليهم فمعلوم، فكيف قال: إنه يصلُ النّعم المذكورة بالشكر، والشكر من أفعال العباد، وليس من أفعاله ليكون واصلاً للنّعم به!

وجواب هذا القائل، هو أنّه لما وفّق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه في عقولهم مقرّراً، وبعد أن أقدرهم عليه، صار كأنّه الفاعل له، فأضافه إلى نفسه توسُّعاً، كما يقال: أقام الأمير الحدّ، وقتل الوالي اللّصّ، فأمّا حمدُه سبحانه على البلاءِ كحمدِهِ على الآلاء فقد تقدّم القول فيه. ومن الكلام المشهور: «سبحان من لا يحمَد على المكروه سواه»[١]، والسّرّ فيه أنه تعالى إنما يفعلُ المكروه بِنَا لمصالحنا، فإذا حَمَدْناه عليه فإنما حمدناه على نعمةٍ أنعم بها، وإن كانَتْ في الظاهر بليّة وألماً.

فإن قلت: فقد كان الأحسن في البيان أن يقول: «نحمده على بلائه، كما نحمده على آلائه».

قلت: إنما عكَس لأنه جاء باللّفظين في معرِض ذكْر النعم والشُّكر عليها، فاستهجن أن يلقّبها بلفظة الحمد على البلاء للمنافرة التي تكون بينهما، فقال: نحمده على هذه الآلاء التي أشرنا إليها، التي هي آلاء في الحقيقة. وهذا ترتيب صحيح منتظم.

ثم سأل الله أن يعينَه على النفْس البطيئة عن المأمور به، السريعة إلى المنهيّ عنه. ومن دعاء بعض الصالحين: اللّهمّ إني أشكُو إليكَ عدوًّا بين جنبيّ قد غلب عليّ.

وفسّر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[٢] قالوا: أراد مجاهدة النفوس. ومن كلام رسول الله ﷺ: «أبت الأنفس إلا حبَّ المال والشرف، وإنّ حبَّهما لأذهبُ بدين أحدِكم من ذِئْبَيْنِ ضاريَيْنِ باتا في زريبة غنم إلى الصباح، فماذا يبقيان منها!»[٣].

ثم شرع في استغفار الله سبحانه من كلّ ذنب، وعبّر عن ذلك بقوله: «ممّا أحاط به علمُه، وأحصاه كتابُه»، لأنه تعالى عالم بكلّ شيء، ومحيط بكلّ شيء، وقد أوضح ذلك بقوله: «علْم غير قاصر، وكتاب غير مغادر»، أي غير مبقٍ شيئاً لا يحصيه، قال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[٤].

ثم قال: «ونؤمن به إيمان مَنْ عاين وشاهد»، لأنّ إيمان العيان أخلصُ وأوثق من إيمان الخبر، فإنه ليس الخبر كالعِيان، وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو عليه السلام سيدُهم ورئيسهم، ولذلك قال: «لو كشف الغِطاء ما ازددتُ يقيناً».

---

(١) أخرجه ابن عابدين في تكملة حاشية رد المختار: ١/ ٤١٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.
(٣) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٨٥٦٢) ونسبه لسيدنا علي عليه السلام، وعزاه للعشاري في المواعظ.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

وقوله: «تُصعدان القول» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(١) وروي: «تسعدان القول» بالسين، أي هما شهادتان بالقلب يعاضدان الشهادة باللسان، ويُسعدانها.

ثم ذكر أنّهما شهادتان لا يخفّ ميزانٌ هما فيه، ولا يثقلُ ميزان رفعا عنه، أمّا إنه لا يثقلُ ميزانٌ رُفعا عنه، فهذا لا كلام فيه، وإنما الشأن في القضية الأولى، لأنّ ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرجئة الخلّص، وهم أصحاب مقاتل بن سليمان، القائلون إنّه لا يضرّ مع الشهادتين معصية أصلاً، وإنه لا يدْخُل النّارَ مَنْ في قلبه ذَرّة من الإيمان، ولهم على ذلك احتجاج قد ذكرناه في كتبنا الكلامية، فنقول في تأويل ذلك إنّه لم يحكم بهذا على مجرّد الشهادتين، وإنّما حَكَم بهذا على شهادتين مقيّدتين، قد وصفهما بأنهما يصْعدان القول، ويرفعان العمل، وتانِك الشهادتان المقيّدتان بَذلك القيْد، إنما هما الشهادتان اللّتّان يقارنهما فعلُ الواجب وتجنّب القبيح، لأنه إن لم يقارنْهما ذلك لم يَرْفعا العمل، وإذا كان حكمه عليه السلام بعد خِفّة ميزان هما فيه، وإنما هو على شهادتيْن مقيّدتين لا مطلقتين، فقد بطل قولُ مَنْ يجعل هذا الكلام حجة للمرجئة.

ثم أخذ في الوصاة بالتقوى، وقال إنما الزاد في الدنيا الذي يزوّد منه لسفر الآخرة وبها المعاذ، مصدر من عذْت بكذا، أي لجأت إليه واعتصمت به.

ثم وصفهما - أعني الزاد والمعاذ - فقال: «زاد مُبْلغ»، أي يبلغُك المقصد والغاية التي تسافر إليها، ومعاذ منجح، أي يصادف عنده النجاح.

دعا إليه أسمع داع: يعني الباريء سبحانه، لأنه أشدّ الأحياء إسماعاً لما يدعوهم إليه وبناء «أفعل» ها هنا من الرباعي، كما جاء ما أعطاه للمال، وما أولاه للمعروف! وأنت أكرم لي من زيد، أي أشدّ إكراماً، وهذا المكان أقفرُ من غيره، أي أشدّ إقفاراً، وفي المثل «أفلَسُ من ابن المذلّق»(٢)، وروي: «دعا إليه أحسن داعٍ»، أي أحسن داع دعا، ولا بدّ من تقدير هذا المميّز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن، وإنما يوصف بالحسن أفعاله.

ووعاها خير واع، أي من وعاها عنه تعالى وعَقَلها وأجاب تلك الدعوة، فهو خير واع. وقيل: عنى بقوله: «أسمع داع» رسول الله صلى الله عليه وآله، وعنى بقوله: «خير واع» نفسَه، لأنه أنزل فيه: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾(٣) والأوّل أظهر.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٢) ابن المُذَلّق: في القاموس: «وابن المذلّق من عبد شمس لم يكن يجد بيت ليلة، ولا أبوه ولا أجداده، فقيل: أفلسِ من ابن المذلّق».
(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

ثُمَّ قال: «فأسمع داعيهَا» أي لم يبق أحداً من الكلفين إلا وقد أسمعه تلك الدعوة وفازوا عليها، أفلح مَنْ فَهِمها وأجاب إليها، لا بد من تقدير هذا، وإلا فأيّ فوز يحصل لمن فهم ولم يجب! والتقوى: خشية الله سبحانه ومراقبته في السرّ والعلن، والخشية أصلُ الطاعات، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١) وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(٢).

قوله: «حتى أسهرتْ لياليَهُم، وأظمأت هواجرَهم» من قول العرب «نهاره صائم، وليله قائم»، نقلوا الفعل إلى الظرف، وهو من باب الاتساع الذي يجرون فيه الظروف مجرى المفعول به، فيقولون: الذي سرته يوم الجمعة، أي سرت فيه، وقال:

ويـوم شـهـدنـاه سـلـيـمـاً وعـامـرا

أي شهدنا فيه سليماً، وقد اتسعوا فأضافوا إلى الظروف فقالوا:

يـا سـارق الـلـيـلـة أهـل الـدار

وقال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾(٣) فأخرجوهما بالإضافة عن الظرفية. قوله عليه السلام: «فأخذوا الراحة النَّصَب» يروى: «فاستبدلوا الراحة» والنَّصَب: التعب. واستقربوا الأجل: رأوه قريباً.

فإن قلت: لماذا كرّر لفظة «الأجل»، وفي تكرارها مخالفة لفنّ البيان؟ قلت: إنه استعملها في الموضعين بمعنيين مختلفين، فقوله: «استقربوا الأجل» يعني المدة. وقوله: «فلاحظوا الأجل» يعني الموت نفسه.

ويروى: «موتِر» و«موتّر» بالتشديد. ولا تؤسَى جراحه: لا تطبّ ولا تصلح، أسَوْتُ الجرح، أي أصلحته. ولا ينقع: لا يروى، شَرِبَ حتى نقع، أي شفي عليله، وماء ناقع، وهو كالناجع، وما رأيتُ شَرْبة أنقع منها.

وإلى قوله عليه السلام: «يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن» نظر الشاعر، فقال:

أموالُنا لذَوي الميراث نجمعُها ... ودُورنا لخراب الدهر نبْنيها

وقال آخر:

أَلَمْ تر حَوْشَباً أمسَى يُبَنِّي ... بناء نفعُهُ لبني بُقَيْلَهْ

يؤمّل أن يعمّر عمر نوحٍ ... وأمر الله يطرق كل لَيْلَهْ

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٣.

قوله: «ومن غِيَرها أنك ترى المرحوم مغبوطاً والمغبوط مرحوماً»، أي يصير الفقير غنيًا والغنيّ فقيراً، وقد فسره قوم فقالوا: أراد أنك تَرى مَنْ هو في باطن الأمر مرحوم، مغبوطاً، وترى مَنْ هو في باطن الأمر مغبوط، مرحوماً، أي تحسب ذاك وتتخيّلة، وهذا التأويل غير صحيح، لأن قوله بعده: «ليس ذلك إلا نعيماً زلّ، وبؤساً نَزَل»، يكذّبه ويصدّق التفسير الأول.

وأضحى فيئها من أضحى الرجل إذا برز للشمس. ثم قال: «لا جاءٍ يُرَدّ ولا ماضٍ يرتد» أي يسترد ويسترجع، أخذه أبو العتاهية فقال:

فلا أنا راجعٌ ما قد مضى لِي ... وَلا أنا دافعٌ ما سوف يأتي

وإلى قوله: «ما أقرب الحيّ من الميت للحاقه به، وما أبعد الميت من الحيّ لانقطاعه عنه» نظر الشاعر، فقال:

يا بعيداً عَنّي وليس بعيداً ... من لحاقي به سميع قريبُ

صِرْتُ بين الورىٰ غريباً كما أنـ ... ـك تحت الثرى وحيدٌ غريبُ

فإن قلت: ما وجه تقسيمه عليه السلام الأمورَ التي عدّها إلى الفناء والعناء، والغِيَر والعبَر؟

قلت: لقد أصاب الثّغرة وطبّق المفصِل، ألا تراه ذكَر في الفناء رَمْيَ الدهر الإنسان عن قَوْس الرّدى، وفي العناء جَمْع ما لا يأكل، وبناء ما لا يسكن وفي الغِيَر الفقر بعد الغنى والغنى بعد الفقر، وفي العِبَر اقتطاع الأجل الأمل، فقد ناط بكلّ لفظة ما يناسبها.

وقد نظر بعضُ الشعراء إلى قوله عليه السلام: «ليس شيء بشرّ من الشرّ إلا عقابُهُ، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه» فقال:

خير البضائع للإنسان مكرُمَةٌ ... تَنْمِي وتزكُو إذا بارت بضائعُهُ

فالخير خيرٌ، وخير منه فاعلُه ... والشرُّ شرٌّ، وشرٌّ منه صانعُهُ

إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثواب، والشاعر جعل مكانهما فاعل الخير والشرّ.

ثم ذكر أنّ كلّ شيء من أمور الدنيا المرغبة والمرهبة، سماعه أعظم من عِيانه، والآخرة بالعكس، وهذا حقّ، أما القضيّة الأولى فظاهرة، وقد قال القائل:

أهتزُّ عند تمنّي وصْلِها طرباً ... وربّ أمنيّة أحلَى من الظّفَرِ

ولهذا يحرِص الواحد منّا على الأمر، فإذا بلغه بَرَد وفتر، ولم يجده كما كان يظنّ في اللذة. ويوصف لنا البلد البعيد عَنّا بالخِصب والأمن والعدل، وسماح أهله، وحسن نسائه، وظَرْف رجاله، فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وَصَفَ، بل ربما وجدنا القليل من ذلك، ويُوصف لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم، ويبالغ الواصفون في ذلك. فإذا اختبرناه

وجدناه دون ما وَصَف، وكذلك قد يخاف الإنسان حبساً أو ضرباً أو نحوهما فإذا وقع فيهما هان ما كان يتخوّفه، ووجد الأمر دون ذلك، وكذلك القتل والموت، فإنّ ما يستعظِمُه النّاس منهما دون أمرهما في الحقيقة، وقد قال أبو الطيب - وهو حكيم الشعراء:

كُلّ ما لم يكنْ من الصَّعْبِ في الأنـ ـفُس سَهْلٌ فيها إذا هو كانا

ويقال في المثل: لِجِ الخوف تأمن. وأمّا أحوالُ الآخرة فلا ريب أنّ الأمر فيها بالضدّ من ذلك، لأنّ الذي يتصوره الناس من الجنة، أنّها أشجار وأنهار ومأكول ومشروب، وجماع، وأمرها في الحقيقة أعظمُ من هذا وأشرفُ، لأنّ ملاذّها الروحانية المقارِنة لهذه الملاذّ المضادّة لها أعظم من هذه الملاذّ بطبقات عظيمة، وكذلك أكثر الناس يتوهّمون أنّ عذاب الناس يكون أياماً وينقضي، كما يذهب إليه المرجئة، أو أنه لا عذاب بالنار لمسلم أصلاً، كما هو قول الخلّص من المرجئة، وأنّ أهل النار يألفون عذابها فلا يستضرّون به إذا تطاول الأمد عليهم، وأمر العذاب أصعب مما يظنّون، خصوصاً على مذهبنا في الوعيد، ولو لم يكن إلاّ آلام النفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها، فإنّ ذلك أعظمُ من ملاقاة جرْم النار لبدن الحيّ.

وفي هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة، ليس هذا الكتاب موضوعاً لها.

ثم أمرهم بأن يكتفوا من عِيان الآخرة وغيبها بالسماع والخبَر، لأنه لا سبيل ونحن في هذه الدار إلى أكثر من ذلك.

وإلى قوله: «ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خيرٌ مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا» نظر أبو الطيب، فقال، إلاّ أنّه أخرجه في مخرج آخر:

بلاد ما اشتهيتَ رأيتَ فيها فليس يفوتها إلا كِرَامُ
فهلاّ كان نقصُ الأهل فيها وكان لأهلها منها التَّمامُ!

ثم قال: «فكم من منقوص في دنياه وهو رابح في آخرته، وكَمْ من مزيد في دنياه وهو خاسر في آخرته». ثم قال: «إنّ الذي أُمِرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وما أُحِلّ لكم أكثر مما حُرّم عليكم»، الجملة الأولى هي الجملة الثانية بعينها، وإنما أتى بالثانية تأكيداً للأولى وإيضاحاً لها، ولأنّ فنّ الخطابة والكتابة هكذا هو، وينتظم كلتا الجملتيْن معنى واحد، وهو أنّ فيما أحلّ الله غنًى عَمّا حَرّم، بل الحلالُ أوسع، ألا ترى أنّ المباح من المآكل والمشارب أكثرُ عدداً وأجناساً من المحرّمات! فإن المحرّم ليس إلا الكلب والخنزير وأشياء قليلة غيرهما، والمحرّم من المشروب الخمر ونحوها من المسكر، وما عدا ذلك حلال أكلُه وشربه، وكذلك القول في النكاح والتسرّي، فإنّهما طريقان مَهْيَعان إلى قضاء الوطر، والسّفاح طريق واحد والطريقان أكثر من الطريق الواحد.

فإن قلت: فكيف قال: «إنّ الذي أمِرتم به» فسمّى المباح مأموراً به؟

قلت سمّى كثير من الأصوليين المباح مأموراً به، وذلك لاشتراكه مع المأمور به في أنّه لا حرج في فعله، فأطلق عليه اسمه. وأيضاً فإنه لَمّا كان كثير من الأمور التي عددناها مندوباً أطبق عليه لفظ الأمر، لأن المندوب مأمور به، وذلك كالنّكاح والتسرّي وأكل اللحوم، التي هي سبب قوة البدن، وشرب ما يصلح المزاج من الأشربة التي لا حَرَج في استعمالها. وقال بعض العقلاء لبنيه: يا بنيّ، إنه ليس كل شيء من اللّذة ناله أهلُ الخسارة بخسارتهم إلاّ ناله أهلُ المروءة والصيانة بمروءتهم وصيانتهم، فاستتروا بستر الله ودخل إنسان على عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، وعليه ثياب مرتفعة القِيمة، فقال: يا بن رسول الله، أتلبس مثل هذا؟ فقال له: مَنْ حَرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق[1]!

ثم أمر بالعمل والعبادة، ونهى عن الحِرْص على طلب الرزق، فقال: إنّكم أمِرْتم بالأوّل وضُمِن لكم الثاني، فلا تجعلوا المضمون حصولُه لكم هو المخصوص بالحِرْص والاجتهاد، بل ينبغي أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بعمله وهو العبادة. وقد يتوهّم قوم أنه ارتفع «طلبه» بـ«المضنون»، كقولك: المضروب أخوه، وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبَه، وإنما ضمن حصوله، ولكنه ارتفع، لأنه مبتدأ وخبره أولى، وهذا المبتدأ والخبر في موضع نصب، لأنه خبر «يكونَنّ» أو ارتفع لأنه بدل من «المضنون»، وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول، وهو بدل الاشتمال.

ثم ذكر أنّ رجعة العمر غيرُ مرجوّة، ورجعة الرزق مرجوّة، أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستعيضه، أي يكتسب عِوَضه في الغدِ ديناراً، وأمّا «أمس» نفسه فمستحيل أن يعود ولا مثله، لأن الغد وبَعْد الغد محسوب من عمره، وليس عوضاً من الأمس الذاهب. وهذا الكلام يقتضي أنّ العمرَ مقدور، وأن المكاسب والأرزاق إنما هي بالاجتهاد، وليست محصورة مقدّرة، وهذا يناقض في الظاهر ما تقدّم من قوله: «إنّ الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه»، فاحتاج الكلام إلى تأويل، وهو أنّ العمر هو الظرف الذي يوقع المكلّف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى، المخلّصة له من الشقاوة العظمى، وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصّة، فكلّ جزء منه إذا فات من غير عمل لما بعد الموت، فقد فات على الإنسان بفواتِهِ ما لا سبيل له إلى استدراكه بعينه ولا اغترام مثله، لأن المثل الذي له إنما هو زمان آخر، وليس ذلك في مقدور الإنسان، والزمان المستقبل الذي يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه، فيقال: إنّه حصله عوَضاً مما انقضى وذهب من عمره، وإنما هو فعل غيره، ومع ذلك فهو

(١) أخرجه ابن عساكر بما معناه في تاريخ مدينة دمشق: ٧٠/ ٢٢.

معدّ ومهيّأ من العبادة توقع فيه، كما كان الجزء الماضي معدًا لأفعال توقع فيه، فليس أحدُهما عوضاً عن الآخر ولا قائماً مقامه، وأمّا المنافع الدنيويّة كالمآكل والمشارب والأموال، فإن الإنسان إذا فاته شيء منها قَدَر على ارتجاعه بعينه، إن كانت عينه باقية، وما لا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله، والرزق وإن كان مضمونا من الله إلاّ أنّ للحركة فيه نصيباً، أمّا أن يكون شَرْطاً أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة الإنسان، كحركته واعتماده وسائر أفعاله، ويكون الأمر بالتوكّل والنهي عن الاجتهاد في طلب الرزق على هذا القول، إنما هو نهي عن الحرص والجشع والتهالك في الطلب، فإنّ ذلك قبيح يدلّ على دناءة الهمة وسقوطها.

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذاهب، لأنّ الأمر الذي يراد الذاهب له يمكن حصولُه بهذا المكتسب، وليس كذلك الزمان الذاهب من العمر، لأنّ العبادات والأعمال التي كان أمسِ متعيناً لها، لا يمكن حصولُها اليوم، على حدّ حصولها أمس، فافترق البابان: باب الأعمال، وباب الأرزاق.

وقوله: «الرجاء مع الجائي، واليأس مع الماضي»، كلام يجري مجرى المثل، وهو تأكيد للمعنى الأول، وجعل الجائي مرجوًا لأنه لا يعلم غيبه، قال الشاعر:

مَا مَضَى فَاتَ والمقدَّرُ غَيْبٌ   ولَكَ السَّاعةُ التي أنت فيها

وقوله: «حق تقاته»، أي حق تقيّته، أي خوفه، اتقى يتقي تقية وتقاة، ووزنها «فُعَلة» وأصلها الياء، ومثلها أتخم تخمة: واتهم تهمة.

١١٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء

الأصل: اَللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلاَدِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا!

اَللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ!

اَللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا!

اَللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجَوْدِ، فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلاَغَ لِلْمُلْتَمِسِ.

نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَلاَّ تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلاَ

تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا، وَٱنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ ٱلْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ المُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ المُونِقِ، سَحّاً وَابِلاً، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ.

ٱللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيئَةً مَرِيعَةً، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتحْيِي بِهَا المَيِّتَ مِن بِلاَدِكَ!

ٱللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْك تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنا، وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِها مَوَاشِينا، وَتَنْدَى بِها أَقَاصِينا، وَتَسْتَعِينُ بِها ضَوَاحِينا، مِنْ بَرَكَاتِكَ ٱلْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ ٱلْجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ المُرْمِلَةِ، وَوَحْشِكَ المُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الوَدْقُ مِنْها ٱلْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ ٱلْقَطْرُ مِنْهَا ٱلْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُها، وَلاَ جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلاَ قَزَعٍ رَبَابُها، وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُها، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِها ٱلْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِها المُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ.

قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى:

قوله عليه السلام: «ٱنْصَاحَتْ جِبالُنَا»، أَيْ تَشَقَّقَتْ مِنَ ٱلْمحولِ، يُقَالُ: ٱنصاحَ الثَّوْبُ، إِذَا ٱنْشَقَّ. وَيقالُ أَيْضاً: ٱنْصَاحَ النَّبْتُ، وَصَاحَ وَصَوَّحَ، إِذَا جَفَّ وَيَبِسَ، كُلُّهُ بِمَعْنًى.

وَقَوْلُه: «وَهَامَتْ دَوَابُّنا» أَيْ عَطِشتْ، وَٱلْهُيَامُ: الْعَطَشُ.

وَقَوْلُهُ: «حَدَابِيرُ السِّنِينَ»، جَمْعُ حِدْبَارٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي أَنْضَاهَا السَّيْرُ، فَشَبَّهَ بِهَا السَّنَةَ الَّتِي فَشَا فِيهَا ٱلْجَدْبُ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

حَدَابِيرُ مَا تَنْفَكُّ إِلاَّ مُنَاخَةً ... عَلَى ٱلْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلَداً قَفْرَا

وَقَوْلُهُ: «وَلاَ قَزَعٍ رَبَابُهَا»، ٱلْقَزَعُ: ٱلْقِطَعُ الصِّغَارُ المُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ.

وَقَوْلُهُ: «وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا» فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ: «وَلاَ ذَاتُ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا»، وَالشَّفَّانُ الرِّيحُ ٱلْبَارِدَةُ، وَالذِّهَابُ: ٱلأَمْطَارُ اللَّيِّنَةُ، فَحُذِفَ «ذَاتُ» لِعِلْمِ السَّامِعِ بِهِ.

الشرح: يجوز أن يريد بقوله: «وهامت دوابُّنا» معنًى غير ما فسّره الشريف الرضيّ رحمه الله به، وهو نُدودها وذهابُها على وجوهها لشدة المحْل، يقول: هام على وجهه، يهيم هَيْماً وهَيَمَاناً.

والمرابض: مبارك الغنم، وهي لها كالمواطن للإبل، واحدها مَرْبِض، بكسر الباء مثل مجلِس. وعَجّت: صرخت. ويحتمل الضمير في «أولادها» أن يرجع إلى الثكالى، أي كعجيج الثكالى على أولادهنّ، ويحتمل أن يرجع إلى الدوابّ، أي وعَجّت على أولادها كعجيج الثكالى، وإنّما وصفها بالتَّحيُّر في مَرَابضها، لأنّها لشدّة المحْل تتحيّر في مباركها، ولا تدري ماذا تصنع، إن نهضت لترعَى لم تجد رعياً، وإن أقامت كانت إلى انقطاع المادّة أقرب!

قوله: «وملّت التردد في مراتعها، والحنين إلى مواردها»، وذلك لأنّها أكثرتْ من التردّد في الأماكن التي كانت تعهد مراتعها فيها فلم تجد مرتعاً، فملّت التَّرداد إليها، وكذلك ملّت الحنين إلى الغدران والموارد التي كانت تعتادها للشرب، فإنّها حنّت إليها لما فقدتها، حتى ضجرت ويئست فملّت مما لا فائدة لها فيه.

والآنّة والحانّة: الشاة والناقة، ويقال: ماله حانّة ولا آنّة. وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوَصب، يقال: أنّ يئنّ أنيناً وأناناً وتأناناً.

والموالج: المداخل، وإنما ابتدأ عليه السلام بذكر الأنعام وما أصابها من الجدْب اقتفاءً بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولعادة العرب، أما سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال: «لولا البهائم الرُّتَّع، والصبيانُ الرّضع، والشيوخُ الرّكع، لصبّ عليكم العذاب صَبًّا»(١)، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استحباب إخراج البهائم في صلاة الاستسقاء. وتقدير دعائه عليه السلام: اللّهمّ إن كنتَ حرمتنا الغيث لسوء أعمالنا، فارحم هذه الحيوانات التي لاَ ذنْب لها، ولا تؤاخذها بذنوبنا. وأمّا عادة العرب فإنّهم كانوا إذا أصابهم المحْل استسقوْا بالبهائم، ودعوا الله بها واسترحموه لها، ومنهم من كان يجعل في أذناب البقر السّلع والعُشَر، ويصعد بها في الجبال والتلاع العالية، وكانوا يُسْقَوْن بذلك، وقال الشاعر:

أجـاعـلٌ أنـتَ بَـيْـقُـوراً مـسـلّـعـةً   ذريـعـةً لـك بـيـن الله والـمـطـر

فاعتكرت: رَدِف بعضُها بعضاً، وأصل عَكَر عطف. والعكْرة. الكرّة، وفي الحديث: قال له قوم: يا رسول الله، نحن الفرّارُون. فقال: «بل أنتم العكّارون إن شاء الله»(٢).

والبيت الذي ذكره الرضيّ رحمه الله لذي الرّمة، لا أعرفه إلا «حراجيج»، وهكذا رأيتُه بخط ابن الخشّاب رحمه الله، والحرجُوج: الناقة الضّامرة في طول.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (٣/ ٣٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٦٥٣٩)، و«الكبير»(٧٨٥).
(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الفرار من الزحف (١٧١٦)، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب: التولي يوم الزحف (٢٦٤٧)، وأحمد في «مسنده» (٥٦٣١)، و«المنتقى» لابن الجارود (١٠٥٠).

وفيه مسألة نحوية، وهي أنه كيف نقَضَ النفي من «ما تنفكّ» وهو غير جائز، كما لا يجوز ما زال زيد إلا قائماً؟ وجوابها أنّ تنفكّ ها هنا تامّة، أي ما تنفصل، ومناخة منصوب على الحال.

قوله: «وأخْلفتنا مخايل الجَوْد»، أي كلَّما شِمْنا برقاً، واختلنا سحاباً، أخلَفَنا ولم يمطر. والجوْد: المطر الغزير. ويروى: «مخايل الجُود» بالضم.

والمبتئس: ذو البؤس. والبلاغ للملتمس، أي الكفاية للطالب.

وتقول: قنَط فلان، بالفتح يقنُط ويقنِط، بالكسر والضم، فهو قانط. وفيه لغة أخرى قَنِط بالكسر، يقنَط قنَطاً، مثل تعِب يتعَب تعباً، وقناطةً أيضاً، فهو قنِط. وقرىء: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَنِطِينَ﴾(١).

وإنما قال: «ومُنِع الغمام»، فبنى الفعلَ للمفعول به، لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله تعالى، وهو منبَع النعم، فاقتضى حسنُ الأدب أنّه لم يسمّ الفاعل. وروي «مَنَع الغمام»، أي ومَنَع الغمام القطر، فحذف المفعول. والسوام: المال الراعي.

فإن قلت: ما الفرق بين «تؤاخذنا» وبين «تأخذنا»؟

قلت: المؤاخذة دون الأخذ، لأنّ الأخذ الاستئصال، والمؤاخذة عقوبة وإن قلّت.

والسحاب المنبعِق: المتبعّج بالمطر، ومثله المتبعّق، ومثله البُعاق. والربيع المغدق: الكثير. والنبات المونق: المعجب.

وانتصب «سحًا» على المصدر. والوابل: المطر الشديد.

ثم قال: «تُحْيِي به ما قد مات»، أي يكاد يتلف بها من الزرع. وتردّ به ما قد فات، أي يستدرك به الناس ما فاتهم من الزرع والحرث.

والسقيا مؤنثة، وهي الاسم من سَقَى. والمريعة: الخصيبة.

و«ثامراً فرعُها»: ذو ثمر، كما قالوا: لابن وتامر، ذو لبن وتمر.

وتنعش: ترفع. والنِّجاد: جمع نَجْد، وهو ما ارتفع من الأرض. والوهاد: جمع وَهْد، وهو المطمئنّ منها، وروي: «نجادَنا» بالنصب على أنه مفعول.

قوله: «وتندى بها أقاصينا»، أي الأباعد مِنّا. ويندى بها: ينتفع، ندِيت بكذا، أي انتفعت.

والضواحي: النواحي القريبة من المدينة العظمى. والمرمِلة: الفقيرة، أرمل افتقر ونفد زاده. ووحشك المهملة: التي لا راعي لها ولا صاحب ولا مشفق.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٥.

وسماء مخضِلَة: تُخضِل النبت أي تبلّه، وروي: «مخضَلَّة» أي ذات نبات وزروع مخضَلَّة، يقال: اخضلّ النبت اخضلالاً، أي ابتلّ، وإنما أنّث السماء وهو المطر وهو مذكر، لأنه أراد الإمطار. والوَدْق: المطر. ويحفِز: يدفع بشدّة، وإذا دفع القطر القطر، كان أعظم وأغزر له.

وبرق خُلّب: لا مطر معه، وسحاب جَهام: لا ماء فيه. والمجدِبون: أهل الجدْب. والمسنِتُون الذين أصابتهم السنَة وهي المحْل والقحط الشديد.

واعلم أنّ صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سُنّة.

وقال أبو حنيفة: لا صلاة للاستسقاء. قال أصحابه: يعني ليست سنّة في جماعة، وإنّما يجوز أن يصلّيَ الناس وُحداناً، قالوا: وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستغفار.

وقال باقي الفقهاء كالشافعيّ وأبي يوسف ومحمد وغيرهم بخلاف ذلك. قالوا: وقد روي أنّ رسول الله ﷺ صلّى بالناس جماعةً في الاستسقاء، فصلّى ركعتين، جَهَر بالقراءة فيهما وحوّل رداءه ورفع يديْه واستسقى. قالوا: والسنّة أنْ يكون في المصلّى، وإذا أراد الإمام الخروج لذلك وَعَظ الناس، وأمرهم بالخروج من المظالم والتوبة من المعاصي، لأنّ ذلك يمنع القطر.

قالوا: وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إذا بُخِس المكيال حُبِس القطر.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ﴾[1]، قال: دوابّ الأرض تلعنهم، يقولون: مُنِعْنَا القَطْر بخطاياهم.

قالوا: ويأمر الإمام النّاس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج، ثم يخرج في اليوم الرابع وهم صيام ويأمرهم بالصَّدَقة، ويستسقي بالصالحين من أهل بيت رسول الله ﷺ كما فعل عمر، ويحضر معه أهل الصلاح والخير، ويستسقي بالشُّيوخ والصبيان.

واختلفوا في إخراج البهائم، فمنهم من استحبّ ذلك، ومنهم من كَرِهَه. ويُكره إخراج أهل الذمّة، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يمنعوا. والغُسْلُ والسواك في صلاة الاستسقاء عندهم مسنونان، ولا يستحبّ فيهما التطيُّب، لأنّ الحال لا يقتضيه.

وينبغي أنْ يكونَ الخروج بتواضع وخشوع وإخبات، كما خرج رسول الله ﷺ للاستسقاء[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في صلاة الاستسقاء (٥٥٨)، والنسائي، كتاب: الاستسقاء، باب: الحال التي يستحب أن يكون عليها الإمام (١٥٠٦)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: (١١٦٥).

قالوا: ولا يؤذَّن لهذه الصلاة ولا يقام، وإنما ينادَى لها: الصلاة جامعة! وهي ركعتان كصلاة العيد، يكبّر في الأولى سبع تكبيرات، وفي الثانية خمس تكبيرات.

قالوا: ويخطب بعد الصلاة خطبتين، ويكون دعاء الاستسقاء في الخطبة الأولى.

قالوا: فيقول: اللهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً، هنيئاً مريئاً مريعاً، غَدَقاً مجللاً طَبَقاً، سَحًا دائماً. اللهمّ اسقِنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين. اللهمّ إنّ بالعباد والبلاد من اللأواء والضَّنْك والجهد ما لا نشكوه إلاّ إليك. اللهمّ أنبت لنا الزّرع، وأدرّ لنا الضَّرْع، واسقنا من بركات السماء. اللهمّ اكشف عنّا الجهد والجوع والعُرْي، واكشف عَنّا ما لا يكشفه غيرك. اللهمّ إنا نستغفرك، إنك كنت غفاراً، فأرسِل السماء علينا مدراراً.

قالوا: ويستحبّ أن يستقبل القبلة في أثناء الخطبة الثانية، ويحوّل رداءه فيجعل ما على الأيمن على الأيسر، وما على الأيسر على الأيمن تفاؤلاً بتحوّل الحال. وكذا رُوِي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فَعل، ويستحبّ للناس أن يحوّلوا أردِيتهم مثله، ويتركوها كما هي، ولا يعيدوها إلى حالها الأولى إلاّ إذا رجعوا إلى منازلهم.

ويستَحَبّ أن يدعُوَ في الخطبة الثانية سرًّا فيجمع بين الجهر والسرّ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[(١)]، وكقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾[(٢)]. قالوا: ويستحبّ رفع اليد في هذا الدعاء، وأن يكثروا من الاستغفار لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾[(٣)]، فإن صلّوا واستسقَوْا فلم يُسْقَوْا عادوا من الغد، وصلّوا واستسقَوْا، وإن سُقوا قبلَ الصّلاة صلوا شكراً وطلباً للزيادة.

قالوا: ويستحبُّ أن يقِفُوا تحت المطر حتى يصيبهم، وأن يحسِرُوا له عن رؤوسهم، وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله حَسَر عن رأسه حتى أصابه مطر الاستسقاء.

ويستحَبّ إذا سال الوادي أن يغتسلوا فيه، ويتوضَّؤوا منه.

وقد استحَبّ قوم من الفقهاء أن يخرُجَ النّاس للاستسقاء حُفاة حاسرين، والأكثرون على خلاف ذلك.

فأما مذهب الشيعة في هذه المسألة فأن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين، فيكبّر الله مائة تكبيرة، ويرفع بها صوته ويكبّر مَنْ حضر معه، ثم يلتفت عن يمينه فيسبّح الله مائة تسبيحة، يرفع بها صوته، ويسبِّح معه مَنْ حضر ثم يلتفت عن يساره فيهلّل الله مائة مرة يرفع بها صوته،

---

(١) سورة نوح، الآية: ٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٣) سورة نوح، الآيتان: ١٠، ١١.

ويقول من حضر مثل ذلك، ثم يستقبل الناس بوجهه، فيحمد الله مائة مرة، يرفع بها صوته ويقول معه مَنْ حضر مثل ذلك، ثم يخطب بهذه الخطبة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام في الاستسقاء، فإنْ لم يتمكّن منها اقتصر على الدعاء.

احاديث في الاستسقاء

وجاءَ في الأخبار الصحيحة رؤيا رُقيقة في الجاهلية، وهي رقيقة بنت أبي صيفيّ بن هاشم بن عبد مناف، قالت رقيقة: تتابعتْ على قريش سنُون أقحلت الضَّرْع وأرقَّت العظم، فبينا أنا راقدة - اللهمّ - أو مُهوّمة [ومعي ضِنْوي]، إذا أنا بهاتف صَيِّت يصرخ بصوت صَحِل: يا معشر قريش، إنّ هذا النبيّ المبعوث فيكم قدأظلّتكم أيامه، وهذا إبّان نجومه، فحيّهلاً بالخصب والحيا. ألا فانظروا رجلاً منكم عُظاماً جُسَاماً، أبيض بَضًّا، أوطفَ الأهداب سَهْل الخدين، أشمّ العِرْنين، له سُنَّة تهدي إليه. ألا فليخلُص هو وولده، وليدلِفْ إليه من كلِّ بطْن رجل. ألا فليشُنُّوا عليهم من الماء، وليمسُّوا من الطيب، وليطوفوا بالبيت سبعاً، وليكن فيهم الطيّب الطّاهر [لذاته]. فليستق الرجلُ، وليؤمّن القوم. ألا فغِثْتُم إذا ما شئتم.

قالت: فأصبحتُ - علم الله - مذعورة قَدْ قفّ جِلْدِي، وَوَلِهَ عقلي، فاقتصصت رؤياي على الناس، فذهبت في شِعَاب مكة، فو الحرْمة والحرَم، إن بقي أبطحيٌّ إلا وقال: هذا شيبة الحمد.

فتتامّت رجال قريش، وانقضّ إليه من كلِّ بطنٍ رجل، فشنُّوا عليهم ماء، ومسّوا طيباً، واستلموا وأطّوّفوا، ثم ارتقوْا أبا قُبَيْس، وطفِق القوم يَدِفُّون حول عبد المطلب، ما إن يُدْرِك سعيهم مَهْلهُ، حتى استقرّوا بذِرْوة الجبل، واستكَفُّوا جانبيه.

فقام فاعتضد ابن ابنه محمداً صلى الله عليه وآله، فرفعه على عاتقه، وهو يومئذ غلام قد أيْفع أو كَرَب، ثم قال: اللهمّ سادّ الخلَّة، وكاشفَ الكُربة، أنت عالم غير مُعَلَّم، ومسؤول غير مبخّل، وهذه عِبِدَّاؤك وإماؤك بعذارات حَرَمِك، يشكون إليك سَنَتَهم التي أذهبت الخُفّ والظِّلْف، فاسمعنّ اللهمّ، وأمطِرَنّ علينا غيثاً مُغْدِقاً مريعاً سَحًّا طَبَقا دراكاً.

قالت: فوربِّ الكعبة ما راموا حتى انفجرت السَّماءُ بمائها واكتظَّ الوادي بثجيجِه[1] وانصرف الناس يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك سيدَ البطحاء[2]!

---

(١) الثَّجيجُ: السَّيل. القاموس المحيط، مادة (ثجج).
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢١٥)، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٦٠).

وفي رواية أبي عبيدة معمرَ بن المثنَّى قال: فسمعنا شِيخانَ قريش[1] وجِلّتها: عبد الله بن جُدعان وحرْب بن أمية وهشام بن المغيرة، يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك، أبا البطحاء!

وفي ذلك قال شاعر من قريش وقد روي هذا الشعر لرقيقة:

بشيبة الحمدِ أسْقَى الله بَلْدَتَنَا　　وقد فقدنا الْحَيَا واجلوّذ المطرُ

فجاد بالماء وسميٌّ لَهُ سَبَلٌ　　سحا، فعاشت به الأنعام والشجر

وفي الحديث من رواية أنس بن مالك: أصاب أهلَ المدينة قَحْط على عهد رسول الله ﷺ، فقام إليه رجل وهو يخطب يوم جمعة، فقال: يا رسول الله، هَلَك الشاء، هلك الزّرع، ادعُ الله لنا أن يسقينا، فمدّ عليه السلام يده، ودعا واستسقى، وإن السماء كمثل الزّجاجة، فهاجت ريح ثم أنشأت سحاباً، ثم اجتمع، ثم أرسلت عَزَالِيَها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلَنا، ودام القَطْر، فقام إليه الرجل في اليوم الثالث. فقال يا رسول الله، تهدّمت البيوت، ادع الله أن يحبسَه عنّا. فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم رفع يده: وقال: «اللّهم حَوَالينا ولا علينا»[2].

قال أنس: فوالذي بعث محمداً بالحقّ، لقد نظرتُ إلى السحاب، وإنه لقد انجابَ حول المدينة كالإكليل.

وفي حديث عائشة أنه عليه السلام استسقى حين بدأ قرنُ الشمس، فقعد على المنبر، وحمِد الله وكبَّره، ثم قال: إنكم شكوتُم جَدْبَ دياركم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيبَ لكم فادعوه. ثم رفع صوته فقال: «اللهمّ إنك أنت الغنيّ، ونحن الفقراء، فأنزِلْ علينا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. اللهمّ اجعل ما تنزله علينا قوةً لنا، وبلاغاً إلى حين، برحمتك يا أرحم الراحمين». فأنشأ الله سحاباً، فرعَدَتْ وبَرَقت، ثم أمطرت، فلم يأت عليه السلام منزله، حتى سالت السيول، فلما رأى سرعَتَهم إلى الكِنّ ضحك حتى بدت نواجذه، وقال: أشهد أنّي عبد الله ورسوله، وأن الله على كلّ شيء قدير[3].

ومن دعائه عليه السلام في الاستسقاء وقد رواه الفقهاء وغيرهم: «اللهم اسقنا وأغثنا، اللهم اسقِنا غيثاً مُغيثاً، وحَياً ربيعاً، [وجَداً] طَبَقاً، غدَقاً مُغدقاً، موفقاً عامًّا، هنيئاً مريئاً، مَرِيعاً مُرْبعاً مرتعاً، وابلاً سابلاً مسيلاً، مجلّلاً، درًّا، نافعاً غير ضارّ، عاجلاً غير رائث. غيثاً - اللهمّ -

(١) الشّيخان: جمع شيخ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة (٩٣٣)، ومسلم، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: رفع اليدين في الاستسقاء (١١٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٢٢٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٤٩).

تحيي به العباد، وتغيث به البلاد، وتجعله بلاغاً للحاضر منّا والباد، اللهمَّ أنزل علينا في أرضنا زينتها، وأنزل علينا في أرضنا سكَنها. اللهم أنزل علينا ماء طَهوراً، فأحْيِ به بلدةً ميتاً، واسقه مما خَلَقت لنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً».

وروى عبد الله بنُ مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستسقي بالعباس، فقال: اللهمّ إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيك وقفيّة آبائه وكُبْرِ رجاله، فإنك قلت، وقولك الحق: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾[1] الآية، فحفظتَهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهمّ نبيك في عمّه فقد دلَوْنا به إليك مستشفعين ومستغفرين. ثم أقبل على الناس، فقال: استغفروا ربّكم إنّه كان غفاراً.

قال ابن مسعود: رأيت العباس يومئذ وقد طال عُمَر، وعيناه تنضَحان، وسبائبُه تجول على صدره، وهو يقول: اللهمّ أنت الراعي فلا تهمل الضّالة، ولا تدع الكسير بدار مَضيعة، فقد ضَرَع الصغير، ورَقّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرّ وأخفى. اللهمّ أغثهمْ بغياثك من قبل أن يقنَطوا فيهلِكوا، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

قال: فنشأت طُرَيرة من سحاب، وقال الناس: ترونَ تَرَوْنَ! ثم تلاءمت واستتمّت ومشت فيها ريح، ثم هَدّت ودرّت، فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الأحذية، وقَلَّصوا المآزر، وطفِق الناس يلوذون بالعباس، يمسحون أركانه ويقولون: هنيئاً لك ساقيَ الحرَمين.

١١٥ - ومن خطبة له عليه السلام في تعظيم ما حجب عن الناس

الأصل: أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى ٱلْحَقّ، وَشَاهِداً عَلَى ٱلْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ، غَيْرَ وَانٍ وَلاَ مُقَصِّر، وَجَاهَدَ فِي ٱللهِ أَعْدَاءَهُ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلاَ مُعَذِّرٍ، إِمَامُ ٱتَّقَى، وَبَصَرُ مَنِ ٱهْتَدَى.

الشرح: قوله: «وشاهداً على الخلق»، أي يشهد على القوم الذين بعث إليهم، وشهد لهم، فيشهد على العاصي بالعصيان والخلاف، ويشهد للمطيع بالإطاعة والإسلام، وهذا من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2]، ومن قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[3].

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

فإن قلت: إذا كان الله تعالى عالماً بكلّ شيء، ومالكاً لكلّ أحد، فأيّ حاجة إلى الشهادة؟

قلت: ليس بمنكرٍ أن يكون في ذلك مصلحة للمكلّفين في أديانهم، من حيث إنّه قد تقرّر في عقول الناس، أنّ مَنْ يقوم عليه شاهد بأمرٍ منكرٍ قد فعله، فإنه يخزَى ويخجل وتنقطع حجته، فإذا طرق أسماعهم أنّ الأنبياء تشهد عليهم، والملائكة الحافظين تكتب أعمالَهم، كانوا عن مواقعة القبيح أبعد.

والواني: الفاتر الكالّ. والواهن: الضعيف.

والمعذّر: الذي يعتذر عن تقصيره بغير عذر، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾[1].

الأصل: منها: وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إذاً لَخَرَجْتُمْ إلَى الصُّعُدَاتِ، تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لاَ حَارِسَ لَهَا، وَلاَ خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لاَ يَلْتَفِتُ إلَى غَيْرِهَا، وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ.

وَلَوَدِدْتُ أَنَّ ٱللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ، قَوْمٌ وَٱللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ ٱلْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ، مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَأَوْجَفُوا عَلَى ٱلْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَٱلْكَرَامَةِ ٱلْبَارِدَةِ.

أَمَا وَٱللهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلاَمُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الميَّالُ، يَأْكُل خَضِرَتَكُمْ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ. إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ!

قال الرضيّ رحمه الله تعالى: ٱلْوَذَحَة: ٱلْخُنفَسَاءُ، وهذا الْقول يُومىءُ به إلى الحَجَّاج، وَله مع ٱلْوَذَحَةِ حَدِيثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِع ذِكْرِهِ.

الشرح: الصعيد: التراب، ويقال: وجْه الأرض، والجمع صُعُد وصُعُدات، كطريق وطُرُق وطُرُقات. والالتدام: ضرب النساء صدورَهنّ في النّياحة. ولا خالف عليها: لا مستخلف.

قوله: «ولهمّت كلَّ امرىء منكم نفسه»، أي أذابته وأنحلته، هممتُ الشحم، أي أذبته. ويروى: «ولأهمّت كلَّ امرىء» وهو أصحّ من الرواية الأولى، أهمَّني الأمر، أي أحزنني.

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٠.

وتاه عن فلان رأيه، أي عزَب وضلّ.

ثم ذكر أنه يودّ ويتمنّى أن يفرّق الله بينه وبينهم، ويلحقه بالنبيّ ﷺ وبالصالحين من أصحابه، كحمزة وجعفر عليهما السلام وأمثالهما ممَّن كان أمير المؤمنين يُثْني عليه. ويحمَد طريقته من الصحابة. فمضَوْا قُدُماً، أي متقدّمين غير معرّجين ولا معرّدين(١).

وأوجفوا: أسرعوا. ويقال: غنيمة باردة وكرامة باردة، أي لم تؤخذ بحرب ولا عسف وذلك لأن المكتسب بالحرب جارٍ في المعنى لما يلاقي ويعاني في حصوله من المشقّة.

وغلام ثقيف المشار إليه، هو الحجّاج بن يوسف. والذيّال: التائه، وأصله من «ذال» أي تبختر، وجرّ ذيله على الأرض. والميَّال: الظالم.

ويأكل خَضِرَتكم: يستأصل أموالكم. ويذيب شحمتكم مثله، وكلتا اللفظتين استعارة.

ثم قال له كالمخاطب لإنسان حاضر بين يديه: «إيهٍ أبا وَذَحة»، أيهٍ كلمة يُستزاد بها من الفعل، تقديره: زِدْ وهات أيضاً ما عندك، وضدّها إيهاً، أي كفّ وأمسك.

قال الرضيّ رحمه الله: والوَذَحَة الخنفساء، ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب، ولا وجدتُه في كتاب من كتب اللغة، ولا أدري من أين نقل الرضيّ رحمه الله ذلك!

ثم إن المفسّرين بعد الرضيّ رحمه الله قالوا في قصّة هذه الخنفساء وجوهاً:

منها أنّ الحجّاج رأى خنفساء تدِبّ إلى مصلاّه، فطردَها فعادت، ثم طردها فعادت، فأخذها بيده، وحذَف بها، فقرصته قَرْصاً وَرِمَتْ يده منها ورماً كان فيه حتفه، قالوا: وذلك لأنّ الله تعالى قتله بأهونِ مخلوقاته، كما قتل نمرود بن كنعان بالبقّة التي دخلت في أنفه، فكان فيها هلاكه.

ومنها أنّ الحجّاج كان إذا رأى خنفساء تدِبّ قريبةً منه، يأمر غلمانه بإبعادها، ويقول: هذه وَذَحة من وَذَح الشيطان، تشبيهاً لها بالبعرة، قالوا: وكان مغرًى بهذا القول، والوذَح: ما يتعلّق بأذناب الشاة من أبعارها فيجفّ.

ومنها أنّ الحجاج قال وقد رأى خنفساوات مجتمعات: واعجباً لمن يقول إن الله خلق هذه! قيل: فمن خلقها أيها الأمير؟ قال: الشيطان، إنّ ربّكم لأعظم شأناً أن يخلق هذه الوذح! قالوا: فجمعها على «فَعَل» كبَدَنة وبَدَن، فنُقل قوله هذا إلى الفقهاء في عصره، فأكفروه. ومنها أنّ الحجّاج كان مثْفاراً(٢)، وكان يمسك الخنفساء حيّة ليشفَى بحركتها في الموضع حكاكه.

(١) يقال: عرَّد الرجل عن قرنه؛ إذا أحجم ونكل.
(٢) رجل مثفار: نعت سوء.

قالوا: ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شانئاً مبغضاً لأهل البيت. قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء، وإنما قلنا: كلّ من فيه هذا الداء فهو مبغض.

قالوا: وقد روى أبو عمر الزاهد - ولم يكن من رجال الشّيعة - في أماليه وأحاديثه عن السياريّ عن أبي خزيمة الكاتب، قال: ما فتّشنا أحداً فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصبيًّا.

قال أبو عمر: وأخبرني العطافي عن رجاله، قالوا:

سئل جعفر بن محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ عن هذا الصّنف من الناس، فقال رحم منكوسة يُؤتَى ولا يأتي، وما كانت هذه الخصلة في وليّ لله تعالى قطّ، ولا تكون أبداً، وإنما تكون في الكفار والفساق والناصب للطاهرين.

وكان أبو جهل عمرو بن هشام المخزوميّ من القوم، وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، قالوا: ولذلك قال له عتبة بن ربيعة يوم بدر: يا مُصَفِّرَ استه.

فهذا مجموع ما ذكره المفسرون، وما سمعته من أفواه الناس في هذا الموضع، ويغلب على ظني أنه أراد معنًى آخر، وذلك أنّ عادة العرب أن تكني الإنسان إذا أرادتْ تعظيمه بما هو مظنّة التعظيم، كقولهم: أبو الهول، وأبو المقدام، وأبو المغوار، فإذا أرادتْ تحقيره والغضّ منه كنّتْهُ بما يستحقَر ويستهان به، كقولهم في كُنية يزيد بن معاوية: أبو زنّة، يعنون القرد، كقولهم في كنية سعيد بن حفص البخاري المحدث: أبو الفار، وكقولهم للطفيليّ: أبو لقمة، وكقولهم لعبد الملك: أبو الذّبان لبَخَره، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء:

فأنتَ لعمري أبو جعفرٍ ... ولكننا نحذف الفاء منهُ

وقال أيضاً:

لئيم دَرِنُ الثوبِ ... نظيف القعب والقِدْرِ
أبو النتن، أبو الدَّفرِ، ... أبو البعر، أبو الجَعْرِ

فلما كان أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلمُ مِن حال الحجاج نجاسته بالمعاصي والذنوب، التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصِق بشعر الشاء، كناه «أبو وذَحَة» ويمكن أيضاً أن يكنّيه بذلك لدمامته في نفسه، وحقارة منظره، وتشويه خلقته، فإنه كان قصيراً دميماً نحيفاً، أخفشَ العينين معوجّ الساقين، قصير الساعدين، مجدورَ الوجه، أصلع الرأس، فكنّاه بأحقر الأشياء، وهو البعرة.

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى، فقالوا: «إيه أبا ودجة»، قالوا: واحدة الأوداج، كنّاه بذلك لأنه كان قتّالاً يقطع الأوداج بالسيف، ورواه قوم «أبا وحرة» وهي دويّبة تشبه الحِرْباء قصيرة الظهر، شبّهه بها.

وهذا وما قبله ضعيف، وما ذكرناه نحن أقرب إلى الصواب.

١١٦ - ومن كلام له عليه السلام في التوبيخ على البخل

الأصل: فَلاَ أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلاَ أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا، تَكْرُمُونَ بِالله عَلَى عِبَادِهِ، وَلاَ تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ!

فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ!

الشرح: انتصاب «الأموال» بفعل مقدّر دلّ عليه «بذلتموها» وكذلك «أنفس»، يقول: لم تبذلوا أموالكُم في رضًا من رزقكم إياها، ولم تخاطروا بأنفسكم في رضا الخالق لها، والأولَى بكم أن تبذلوا المالَ في رضا رازقه، والنفسَ في رضا خالقها، لأنه ليس أحَدٌ أحقّ منه بالمال والنفس وبذلهما في رضاه.

ثم قال: من العجب أنكم تطلبون من عباد الله أن يكرموكم ويطيعوكم لأجل الله، وانتمائكم إلى طاعته، ثم إنكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه في نفع عباده، والإحسان إليهم.

ومحصول هذا القول: كيف تسيمون الناس أن يطيعوكم لأجل الله، ثم إنكم أنتم لا تُطيعون الله، الذي تكلّفون الناس أن يطيعوكم لأجله!

ثم أمرهم باعتبارهم بنزولهم منازل مَنْ كان قبلهم، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[١].

وروي عن «أصل إخوانكم» وذلك بموت الأب، فإنه ينقطع أصل الأخ الواشج بينه وبين أخيه، والرواية الأولى أظهر.

١١٧ - ومن كلام له عليه السلام في حث أصحابه على مناصحته

الأصل: أَنْتُمُ ٱلْأَنْصَارُ عَلَى ٱلْحَقِّ، وَٱلْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَٱلْجُنَنُ يَوْمَ ٱلْبَأْسِ، وَٱلْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ، فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ ٱلْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ، فَوَالله إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بالنَّاسِ!

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

الشرح: الجنن جمع جُنّة، وهي ما يُستَر به. وبطانة الرجل: خواصّه وخالصته الذين لا يطوِي عنهم سرّه.

فإن قلت: أمّا ضربُه بهم المدبر فمعلوم، يعني الحرب، فما معنى قوله عليه السلام: «وأرجو طاعة المقبل»؟

قلت: لأن مَنْ ينضوِي إليه من المخالفين إذا رأى ما عليه شيعتُه وبطانتُه من الأخلاق الحميدة، والسيرة الحسنة، أطاعه بقلبه باطناً، بعد أن كان انضوى إليه ظاهراً.

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل، وقد ذكره المدائني والواقديّ في كتابيهما.

١١٨ - ومن كلام له عليه السلام وقد جمع الناس، وحضّهم على الجهاد، فسكتوا مليّاً، فقال عليه السلام: ما بالكم! امخرسون أنتم؟ فقال قوم منهم: يا أمير المؤمنين، إن سرت سرنا معك

الأصل: فقال عليه السلام: مَا بَالُكُمْ! لاَ سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ، أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ! وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شجعانكم، وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ ٱلْجُنْدَ وَالمِصْرَ وَبَيْتَ المَالِ وَجِبَايَةَ ٱلْأَرْضِ، وَٱلْقَضَاءَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ المُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ ٱلْقِدْحِ فِي ٱلْجَفِيرِ ٱلْفَارِغِ.

وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُه ٱسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَٱضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ ٱللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ، وَٱللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي ٱلْعَدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلاَ أَطْلُبُكُمْ، مَا ٱخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمالٌ، طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِين رَوَّاغِينَ.

إِنَّهُ لاَ غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قِلَّةِ ٱجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ الَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ.

مَنِ ٱسْتَقَامَ فَإِلَى ٱلْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!

الشرح: سكتوا مليًّا، أي ساعة طويلة، ومضى مَليٌّ من النهار كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾[1]. وأقمت عند فلان مُلاوة ومَلاوة ومِلاوة من الدهر، بالحركات الثلاث، أي حينا وبرهة، وكذلك أقمت مَلْوة ومُلوة ومِلوة، بالحركات الثلاث.

وقوله: «أمخرَسون أنتم؟» اسم المفعول من أخرسه الله، وخرس الرجل، والخرَس المصدر.

والكتيبة: قطعة من الجيش. والتقلقل: الحركة في اضطراب. والقِدْح: السهم. والجَفير: الكنانة، وقيل وعاء للسهام أوسع من الكنانة.

واستحار مدارها: اضطرب، والمدار ها هنا مصدر. والثِّفال بكسر الثاء: جلد يبسط وتُوضع الرحا فوقه، فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق.

وحُمّ: أي قُدّر، والركاب: الإبل، وشخصت عنكم: خرجت:

ثم وصفهم بعيب الناس والطعن فيهم، وأنّهم يحيدون عن الحقّ وعن الحرب، أي ينحرفون ويروغون كما يروغ الثعلب.

ثم قال: إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرّق القلوب. والغَنَاء، بالفتح والمدّ: النفع.

وانتصب «طعانين» على الحال من الضمير المنصوب في «أطلبكم».

وهذا كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صِفّين والنهروان، وقد ذكرنا سببه ووقعته فيما تقدم.

فإن قلت: كيف قال: الطريق الواضح، فذكّره، ثم قال: «لا يهلك فيها» فأنثه؟

قلت: لأن الطريق يذكّر ويؤنث، تقول: الطريق الأعظم والطريق العظمى، فاستعمل اللغتين معاً.

---

١١٩ – ومن كلام له عليه السلام في الحث على الاستقامة

الأصل: تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ ٱلرِّسَالاَتِ، وَإِتْمَامَ ٱلْعِدَاتِ، وَتَمَامَ ٱلْكَلِمَاتِ، وَعِنْدَنَا - أَهْلَ ٱلْبَيْتِ - أَبْوَابُ ٱلْحُكْمِ، وَضِيَاءُ ٱلأَمْرِ.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٦.

أَلاَ وَإِنَّ شَرَائِعَ ٱلدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ، مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ. ٱعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ ٱلذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ ٱلسَّرَائِرُ، وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَٱتَّقُوا نَاراً حرُّها شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ.

أَلاَ وَإِنَّ ٱللِّسَانَ ٱلصَّالِحَ يَجْعَلُهُ ٱللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي ٱلنَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ ٱلْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لاَ يَحْمَدُهُ.

الشرح: رواها قوم «لقد عَلِمْتُ» بالتخفيف وفتح العين، والرواية الأولى أحسن، فتبليغ الرسالات تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول الله صلى الله عليه وآله إلى المكلّفين، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1]، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في قصة براءة: «لا يؤدّي عنّي إلا أنا ورجل منّي»[2].

وإتمام العِدات: إنجازها، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[3]، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام: «قاضي دَيْني ومنجزَ مَوْعدي»[4].

وتمام الكلمات: تأويل القرآن، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[5]، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام: «اللهم اهد قلبه، وثبّت لسانه»[6].

وخلاصة هذا، أنّه أقسم بالله أنه قد عَلم، أو علَّم - على اختلاف الروايتين - أداء الشرائع إلى المكلّفين، والحكم بينهم بما أنزله الله، وعلِم مواعيد رسول الله التي وعد بها، فمنها ما هو يحدُث، كأخبار الملاحم والأمور المتجدّدة. وعلِم تمام كلمات الله تعالى، أي تأويلها وبيانها الذي يتمّ به، لأنّ في كلامه - تعالى - المجمَل الذي لا يستغني عن متّمم ومبيّن يوضحه.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.
(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٩)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٩)، وأحمد في «مسنده» (١٧٠٥١).
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٩/ ١٨٤.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.
(٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الأقضية، باب: كيف القضاء (٣٥٨٢)، وابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب: ذكر القضاة (٢٣١٠)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٤).

ثم كشف الغطاء وأوضح المراد فقال: «وعندنا - أهلَ البيت - أبواب الحكْم»، يعني الشرعيات والفتاوى. وضياء الأمر، يعني العقليات والعقائد، وهذا مقام عظيم لا يجسُر أحدٌ من المخلوقين أن يدّعيَه سواه عليه السلام، ولو أقدم أحد على ادّعائه غيره لكذب وكذبه الناس.

و«أهلَ البيت» منصوب على الاختصاص.

وسبُله قاصدة، أي قريبة سهلة، ويقال: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة ورافهة، أي هيّنة المسير لا تَعَب فيها ولا بطء.

وتُبلَى فيه السرائر، أي تختبر.

ثم قال: من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر ولا موجود من العقل عنده أوْلَى وأحرى، أي مَنْ لم يكن له من نفسه ومن ذاته وازع وزاجر عن البيح، فبعيد أن ينزَجر، وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة غيره له كما قيل:

.... وزاجر من النّفس خيرٌ من عتاب العواذِلِ

ثم ذكر النار فحذّر منها.

وقوله: «حليتها حديد»، يعني القيود والأغلال.

ثم ذكر أنّ الذكْر الطيّب - يخلّفه الإنسان بين الناس - خير له من مالٍ يجمعه ويورّثه من لا يحمده، وجاء في الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام جاءه مخبرٌ فأخبرَه أن مالاً له قد انفجرت فيه عن خرّارة، يبشّره بذلك، فقال: بشّر الوارث، بشّر الوارث، يكررها، ثم وقف ذلك المال على الفقراء، وكتب به كتاباً في تلك الساعة.

---

١٢٠ - ومن كلام له عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فما ندري أي الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى، ثم قال

الأصل: هَذا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ ٱلْعُقْدَةَ! أَمَا وَٱللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى ٱلْمَكْرُوهِ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱللهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ ٱسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ ٱعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ ٱلْوُثْقَى، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ! أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ ٱلشَّوْكَةِ بِٱلشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا!

ٱللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَذَا ٱلدَّاءِ ٱلدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ ٱلنَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ ٱلرَّكِيِّ!

أَيْنَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ دُعُوا إِلَى ٱلْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَى ٱلْجِهَادِ

فَوَلِهوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إلَى أوْلاَدِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَصَفًّا صَفًّا، بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا، لاَ يُبَشَّرُونَ بالأحْيَاءِ، وَلاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ المَوْتَى، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكاءِ خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الألْوَانِ مِنَ السَّهَرِ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الخَاشِعِينَ، أولئِكَ إخْوَانِي الذَّاهِبُونَ، فَحَقَّ لَنَا أنْ نَظْمأَ إلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الأيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ!

إنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَة، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أهْدَاهَا إلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أنْفُسِكُمْ.

الشرح: هذه شبهة من شبهات الخوارج، ومعناها أنك نهيت عن الحكومة أولاً ثم أمرت بها ثانياً، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيباً، وبأمرك بها مخطئاً، وإن كانت حسنة، كنتَ بنهيك عنها مخطئاً وبأمرك بها مصيباً، فلا بدّ من خطئك على كلّ حال.

وجوابها أنّ للإمام أن يعمل بموجب ما يغلب على ظنّه من المصلحة، فهو عليه السلام لَمّا نهاهم عنها كان نهيهُ عنها مصلحة حينئذ، ولما أمرهم بها كانت المصلحة في ظنّه قد تغيّرت، فأمرهم على حسب ما تبدّل وتغيّر في ظنه، كالطبيب الذي ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمره بمثله غداً.

وقوله: «هذا جزاء من ترك العقدة»، يعني الرأي الوثيق، وفي هذا الكلام اعتراف بأنه بان له وظهرَ فيما بعد أنّ الرأي الأصلح كان الإصرار والثبات على الحرب، وأن ذلك وإن كان مكروهاً، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه، كما قال سبحانه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١).

ثم قال: كنت أحملكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمرو، مِنْ رفع المصاحف، فإن استقمتم لي اهتديتم بي، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين: أحدهما أنْ تعوجوا، أي يقع منكم الالتواء، ويسيرٌ من العصيان، كفتور الهمة وقلة الجدّ في الحرب. والثاني التأني والامتناع المطلق من الحرب، فإن كان الأول قوّمْتكم بالتأديب والإرشاد وإرهاق الهمم والعزائم بالتبصير والوعظ والتحريض والتشجيع، وإن كان الثاني تداركت الأمر معكم: إمّا بالاستنجاد بغيركم من قبائل العرب وأهل خُراسان والحجاز، فكلّهم كانوا شيعتَه وقائلين بإمامته، أو بما أراه في ذلك الوقت من المصلحة التي تحكم بها الحال الحاضرة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

قال: لو فعلت ذلك لكانتْ هي العقدة الوثقى، أي الرأي الأصوب الأحزم.

فإن قلت: أفتقولون إنه أخطأ في العدول عن هذا الرأي؟

قلت: لا نقول إنه أخطأ بمعنى الإثم، لأنه إنما فعل ما تغلّب على ظنّه أنه المصلحة، وليس الواجب عليه إلا ذلك، ولكنه ترك الرأي الأصوب، كما قال الحسن: «هلاّ مضيت قُدُماً لا أبا لك!»، ولا يلحق الإثم من غلب على ظنّه في حكم السياسة أمر فاعتمده، ثم بان له أنّ الأصوب كان خلافه، وقد قيل إن قوله:

لَـقَـدْ عَـثَـرْتُ عَـثْـرَةً لا تـنـجَـبِـرْ   سَـوْفَ أكِـيـس بَـعْـدَهـا وأسـتـمِـرّ

واجـمـع الـرأي الـشـتـيـت الـمـنـتـشـرْ

إشارة إلى هذا المعنى، وقيل: فيه غير ذلك مما قدمنا ذكره قبل.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رضي الله عنه: مَنْ عَرَفه عرف أنه غيرُ ملوم في الانقياد معهم إلى التحكيم، فإنّه ملّ من القتل وتجريد السيف ليلاً ونهاراً، حتى ملّت الدماءُ من إراقته لها، وملّت الخيل من تقحّمه الأهوالَ بها، وضَجِر من دوام تلك الخطوب الجليلة، والأرزاء العظيمة، واستلاب الأنفس، وتطاير الأيدي والأرجل بين يديه، وأكلت الحربُ أصحابه وأعداءه، وعُطّلت السواعد، وخَدِرت الأيدي التي سلمت من وقائع السيوف بها، ولو أنّ أهلَ الشام لم يستعفوا من الحرب، ويستقيلوا من المقارعة والمصادمة، لأدّت الحال إلى قعودِ الفيلقيْن معاً، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح، فإنّ الحال أفضت بعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه.

واعلم أنه عليه السلام قال هذا القول، واستدرك بكلام آخر حذَراً أن يثبِتَ على نفسه الخطأ في الرأي، فقال: لقد كان هذا رأياً لو كان لي من يطيعني فيه، ويعمل بموجبه، وأستعين به على فعله، ولكن بمنْ كنت أعمل ذلك، وإلى مَنْ أخلد في فعله! أمّا الحاضِرون لنصري فأنتم وحالكم معلومة في الخلاف والشّقاق والعصيان، وأمّا الغائبون من شيعتي كأهل البلاد النائية فإلى أن يصلوا يكون قد بلغ العدوّ غرضه منّي، ولم يبقَ مَنْ أخلُد إليه في إصلاح الأمر وإبرام هذا الرأي الذي كان صواباً لو اعتُمِد، إلا أنْ أستعين ببعضكم على بعض، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة، وهذا مثل مشهور: «لا تنقش الشوكة بالشوكة». فإن ضَلْعها لها، والضلع الميل، يقول: لا تستخرج الشوكة النائبة في رجلك بشوكه مثلها، فإن إحداهما في القوّة والضعف كالأخرى، فكما أنّ الأولى انكسرت لَمّا وطئتَها فدخلتْ في لحمك، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر، وتلج في لحمك.

ثم قال: «اللّهمّ إن هذا الداء الدويّ، قد ملّت أطباؤه»، والدويّ: الشديد، كما تقول: ليلٌ أليل.

كلّت النَّزَعَة، جمع نازع، هو الذي يستقي الماء، والأشطان: جمع شطَن، وهو الحبل. والرَّكيّ: الآبار، جمع رَكيّة، وتجمع أيضاً على ركايا.

ثم قال: أين القوم! هذا كلام متأسّفٍ على أولئك، متحسّر على فقدهم.

والولَه: شدّة الحب حتى يذهب العقل، وَلِهَ الرجل.

واللِّقاح، بكسر اللام: الإبل، والواحدة لقوح، وهي الحلوب، مثل قِلاص وقلوص.

قوله: «وأخذوا بأطراف الأرض»، أي أخذوا على الناس بأطراف الأرض، أي حصروهم، يقال لمن استولى على غيره وضيّق عليه: قد أخذ عليه بأطراف الأرض، قال الفرزدق:

أخَذْنَا بأطْرافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ   لَنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوالِعُ

وزحْفاً زحْفاً، منصوب على المصدر المحذوف الفعل، أي يزحفون زحفاً، والكلمة الثانية تأكيد للأولى. وكذلك قوله: «وصَفًّا صَفًّا».

ثم ذكر أنّ بعض هؤلاء المتأسَّف عليهم هلك، وبعض نجا، وهذا ينحي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾(١).

ثم ذكر أنّ هؤلاء قوم وقَذَتْهم العبادة، وانقطعوا عن الناس، وتجرّدوا عن العلائق الدنيوية، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشّر به، وإذا مات له ميّت لم يعزَّ عنه.

ومَرِهت عين فلان، بكسر الراء، إذا فسدت لترك الكُحْل، لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام جعل مَرَهَ عيون هؤلاء من البكاء من خوف خالقهم سبحانه. وذكر أن بطونهم ضامرة من خماص الصوم، وشفاههم ذابلة من الدعاء، ووجوههم مصفرّة من السَّهر، لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غَبَرة الخشوع.

ثم قال: «أولئك إخواني الذاهبون». فإن قلت: مَنْ هؤلاء الذين يشير - عليه السلام - إليهم؟

قلت: هم قوم كانوا في نَأنأة الإسلام وفي زمان ضعفه وخموله أربابَ زهد وعبادة وجهاد شديد في سبيل الله، كمصعب بن عمير من بني عبد الدّار، وكسعد بن معاذ من الأوس، وكجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم، ممن استشهد من الصالحين أرباب الدين والعبادة والشجاعة في يوم أُحُد، وفي غيره من الأيام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكعمّار، وأبي ذَرّ، والمقداد، وسلمان، وخَبّاب، وجماعة من أصحاب الصُّفّة وفقراء المسلمين أرباب العبادة، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة. وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن الجنة لتشتاقُ إلى أربعة: عليّ، وعمار، وأبي ذَرّ،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

والمقداد»[1]، وجاء في الأخبار الصحيحة أيضاً، أنّ جماعة من أصحاب الصُّفَّة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضُّوا أيديَهم عليه، وقالوا: وا أسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عُنق عدوّ الله! وكان معه أبو بكر، فقال لهم: أتقولون هذا لسيّد البطحاء؟ فرفع قولَه إلى رسول الله ﷺ فأنكره، وقال لأبي بكر: «انظر لا تكون أغضبتَهم، فتكون قد أغْضبت ربك»[2] فجاء أبو بكر إليهم وترضّاهم وسألهم أن يستغفروا له، فقالوا: غفر الله لك.

قوله: «فحَقّ لنا»، يقالُ: حَقّ له أن يفعل كذا، وهو حقيق به، وهو محقوق به، أي خليقٌ له، والجمع أحقّاء ومحقوقون.

ويسنّي: يسهّل. وصدف عن الأمر، يصدِف، أي انصرف عنه. ونزغات الشيطان: ما ينزَغ به، بالفتح، أي يفسد ويغري. ونفثاته: ما ينفِث به وينفُث، بالضم والكسر، أي يخيّل ويسحر.

واعقلوها على أنفسكم، أي اربطوها والزموها.

١٢١ - ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج
وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة، فقال عليه السلام:

الأصل: أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ: فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلاَمِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلاَمِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا. ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِكَلاَمٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ، فَقُلْتُ لَكُمْ: هٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ، إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٠٤٥).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل سلمان وصهيب وبلال (٢٥٠٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١١٧).

فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ ٱلْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى ٱلآبَاءِ وَٱلأَبْنَاءِ وَٱلإِخْوَانِ وَٱلْقَرَابَاتِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً وَمُضِيًّا عَلَى ٱلْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ ٱلْجِرَاحِ.

وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي ٱلإِسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ ٱللهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى ٱلْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا!

الشرح: هذا الكلام يتلو بعضه بعضاً، ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصِق أحدها بالآخر، وهذه عادة الرضيّ، تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلماتٍ فصيحة، يوردها على سبيل التتالي، وليست متتالية حين تكلّم بها صاحبها، وسنقطع كلّ فصل منها عن صاحبه إذا مررنا على مَتْنها.

قوله: «إلى معسكَرهم» الكاف مفتوحة، ولا يجوز كسرها، وهو موضع العسكر ومحطّه.

وَشِهد صفين: حَضَرها، قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾[1].

قوله: «فامتازوا: أي انفردوا»، قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2].

قوله: «حتى أكلّم كلًّا منكم بكلامه»، أي بالكلام الذي يليق به.

والغيلة: الخداع. والناعق: المصوّت.

قوله: «إن أجيب ضلّ، وإن ترك ذلّ...» هو آخر الفصل الأول. وقوله: «ضلّ»، أي ازداد ضلالاً، لأنه ضلّ قبل أن يجاب.

فأما قوله: «فلقد كنا مع رسول الله ﷺ»، فهو من كلام آخر، وهو قائم بنفسه، إلى قوله: «وصبرا على مضض الجراح»، فهذا آخر الفصل الثاني.

فأما قوله: «لكنا إنما أصبحنا»، فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملتصق بهما، وهو في الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول، لأنّ الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم، وهذا يتضمّن تصويبها، وظاهر الحال أنّه بعد كلام طويل. وقد قال الرضيّ رحمه الله في أول الفصل: إنه من جملة كلام طويل، وإنه لَمّا ذكر التحكيم، قال ما كان يقوله دائماً، وهو أنّي إنما حكّمت على أن نعمَل في هذه الواقعة بحكْم الكتاب، وإن كنت أحارب قوماً أدخلوا في

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة يس، الآية: ٥٩.

الإسلام زيغاً وأحدثوا به اعوجاجاً، فلمّا دعوني إلى تحكيم الكتاب أمسكْتُ عن قتلهم، وأبقيْت عليهم لأني طمعت في أمرٍ يُلَمُّ به شَعَث المسلمين، ويتقاربون بطريقه إلى البقية، وهي الإبقاء والكفّ.

فإن قلت: إنه قد قال: «نقاتل إخواننا المسلمين»، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة «المسلمين»؟

قلت: إنّا وإن كنا نذهب إلى أنّ صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمناً ولا مسلماً، فإنا نجيز أن يطلق عليه هذا إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمّة وعابدي الأصنام، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصوداً به التعظيم والثناء والمدح، فإن لفظة «مسلم» و«مؤمن» تستعمل في أكثر الأحوال كذلك، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقصد بذلك إلا تمييزهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشِّرْك، ولم يقصد مدحَهم بذلك، فلم ينكر مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم.

١٢٢ - ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساعة الحرب

الأصل: وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ.

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لاَ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلاَ يُعْجِزُهُ ٱلْهَارِبُ.

إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ ٱلْقَتْلُ، وَٱلَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى ٱلْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ ٱللهِ!

الشرح: أحسّ: علم ووجد. ورِباطة جاش، أي شدة قَلْب: والماضي «رَبَط»، كأنه يربط نفسه عن الفرار. والمرويّ: «رِباطة» بالكسر، ولا أعرفه نقلاً وإنما القياس لا يأباه، مثل عَمِر عِمارة، وخَلَب خِلابة.

والفشل: الجبن. وذبّ الرجل عن صاحبه، أي أكثر الذبّ، وهو الدفع والمنع. والنَّجدة: الشجاعة. والحثيث: السريع، وفي بعض الروايات: «فليذبّ عن صاحبه» بالإدغام، وفي بعضها «فليذبُبْ» بفك الإدغام. والميتة، بالكسر: هيئة الميّت كالجِلْسة: والرِّكْبة هيئة الجالس

والراكب، يقال: مات فلان مِيتة حسنةً، والمرويّ في «نهج البلاغة» بالكسر في أكثر الروايات، وقد روي: «من موتة» وهو الأليق، يعني المرّة الواحدة، ليقع في مقابلة الألف.

واعلم أنّه عليه السلام أقسم أنّ القتل أهونُ من الموت حَتْف الأنف، وذلك على مقتضى ما منحه الله تعالى من الشجاعة الخارقة لعادة البشر، وهو عليه السلام يحاول أن يحضّ أصحابه، ويحرّضهم، ليجعل طباعهم مناسبة لطباعه، وإقدامَهم على الحرب مماثلاً لإقدامه، على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم، وهيهات! إنما هو كما قال أبو الطيب:

يكلّف سيفُ الدولة الجيشَ هَمَّهُ ... وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الجيوشُ ٱلْخَضَارِمُ[1]

وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْد نفسهِ ... وذلك ما لا تدَّعيهِ الضراغم

ليست النفوس كلّها من جوهر واحدٍ، ولا الطباع والأمزجة كلّها من نوع واحدٍ، وهذه خاصيّة توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده، في الأوقات المتطاولة، والدهور المتباعدة، وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان، فإن التواريخ من قبل الطوفان - مجهولة عندنا - أنّ أحداً أعطي من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها، من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم، والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرْب على السلم، والموت على الحياة، والموت الذي كان يطلبه ويؤثره، إنما هو القتل بالسيف، لا الموت على الفراش، كما قال الشاعر:

لو لم يمتْ بين أطرافِ الرماح إذاً ... لمات - إذْ لم يمتْ - من شدَّة الحَزَنِ

وكما قال الآخر:

يستعذبون مناياهم كأنّهمُ ... لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

فإن قلت: فما قولك فيما أقسم عليه: هل ألف ضربة بالسيف أهون ألماً على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة، أم هذا قول قاله على سبيل المبالغة والتجوّز، ترغيباً لأصحابه في الجهاد؟

قلت: الحالف يحلف على أحد أمرين: أحدهما أن يحلِف على ظنّه واعتقاده، نحو أن يحلف أنّ زيداً في الدار، أي أنا حالف ومقسم على أنّي أظن أن زيداً في الدار، أو أني أعتقد كون زيد في الدار. والثاني أن يحلِف، لا على ظنّه، بل يحلِف على نفس الأمر في الخارج، فإن حملنا قَسَم أمير المؤمنين عليه السلام على المحمل الأول فقد اندفع السؤال، لأنه عليه السلام قد كان يعتقد ذلك، فحلف أنه يعتقد وأنّه يظن ذلك، وهذا لا كلام فيه، وإن حملناه على الثاني فالأمر في الحقيقة يختلف، لأنّ المقتول بسيف صارمٍ معجّل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة ما يجده الميت دون النزع من المدّ والكفّ، نعم قد يجد المقتولُ قبل الضربة ألم التوقّع لها، وليس كلامنا في ذلك، بل في ألم الضَّرْبة نفسها، وألف سيف صارم مثل سيف واحد، إذا

فرضنا سرعة الزُّهوق. وأما في غير هذه الصورة، نحو أن يكون السيف كالاً، وتتكرر الضربات به، والحياة باقية بعد، وقايسنا بينه وبين ميّت يموت حَتْف أنفه موتاً سريعاً، إمّا بوقوف القوّة الغازية كما يموت الشيوخ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة، ويبقى العقل والذهن، إلى وقت الموت، فإن الموت ها هنا أهون وأقلّ ألماً، فالواجب أن يحمَل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إمّا على جهة التحريض، فيكون قد بالغ كعادة العرب والخطباء في المبالغات المجازية، وإما أن يكون أقسم على أنّه يعتقد ذلك، وهو صادق فيما أقسم، لأنه هكذا كان يعتقد بناء على ما هو مركوز في طبعه من محبّة القتال، وكراهية الموت على الفراش. وقد روي أنه قيل لأبي مسلم الخُراساني: إن في بعض الكتب المنزلة: مَنْ قَتَل بالسيف فبالسيف يُقتَل، فقال: القتل أحبّ إليّ من اختلاف الأطباء، والنظر في الماء، ومقاساة الدواء والداء، فذُكِر ذلك للمنصور بعد قتل أبي مسلم، فقال: قد أبلغناه محبّته!

١٢٣ - ومن كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه ووصفهم بالجبن

الأصل: وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ ٱلضِّبَابِ، لاَ تَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلاَ تَمْنَعُونَ ضَيْماً، قَدْ خُلِّيتُمْ وَٱلطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَٱلْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ.

الشرح: الكشيش: الصوت يشوبه خَوَر، مثل الخشخشة، وكَشِيش الأفعى: صوتها من جلدها لا من فمها، وقد كشَّت تكِشّ، قال الراجز:

كَشِيش أفعَى أجمعت لعضّ ... وهي تحكُّ بعضَها ببعضِ

يقرّع عليه السلام أصحابه بالجبن والفشل، ويقول لهم: لكأنّي أنظر إليكمَ وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي قد اعتراكم، فهي أشبه شيء بأصوات الضِّباب المجتمعة.

ثم أكّد وصف جبنهم حقًّا وخوفهم، فقال: لا تأخذون حقًّا، ولا تمنعون ضيماً، وهذه غاية ما يكون من الذلّ.

ثم ترك هذا الكلام وابتدأ فقال: قد خلّيتم وطريق النجاة عند الحرب، ودللتم عليها، وهي أن تقتحموا وتلجوا، ولا تهنوا، فإنكم مَتى فعلتم ذلك نَجَوْتُمْ، ومتى تلوّمتم وتثبطتم وأحجمتم هلكتم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

تأخّرْتُ أسْتَبْقي الحياةَ فلم أجِدْ ... لِنَفْسِي حَيَاةً مثل أن أتقدّما

وقال قَطَرِيّ بن الفُجاءة:

لا يـركـنـنْ أحـدٌ إلـى الإحـجـامِ　　يـومَ الـوغـى مـتـخـوّفـاً لِـحـمـامِ
فـلـقـد أرانـي لـلـرمـاح دريـئـةً　　مِـنْ عـن يـمـيـنـي تـارةً وأمـامـي
حَتّى خضبْتُ بما تحدّر من دمِي　　أكـنـاف سَـرْجـي أو عِـنـان لـجـامـي
ثم انصرفتُ وقد أصَبْتُ ولم أصبْ　　جَـذَع الـبـصـيـرةِ قـارحَ الإقـدام

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد: واعلم أنّ عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيتَ العدوّ، فاحرص على الموت تُوهب لك الحياة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد نورٌ له يوم القيامة. وقال أبو الطيب:

يُقتَلُ العاجزُ الجبانُ وَقَدْ يَعْجَزُ　　عـن قَـطْـعِ بُـخْـنُـقِ الـمـولـود
ويـوقّـى الـفـتـى الـمُـخَـشُّ وقـد　　خَـوّضَ فـي مـاء لـبّـةِ الـصّـنْـدِيـدِ

ولهذا المعنى الذي أشار إليه عليه السلام سبب معقول، وهو أن المقدّم على خصمه يرتاع له خصمه، وتنخذل عنه نفسه، فتكون النجاة والظفر للمقدّم، وأما المتلوّم عن خصمه، المحجم المتهيّب له، فإن نفس خصمه تقوى عليه، ويزداد طمعه فيه، فيكون الظفر له، ويكون العطب والهلاك للمتلوّم الهائب.

تم الجزء السابع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثامن

شرح نهج البلاغة

الجزء الثامن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

١٢٤ - ومن كلام له عليه السلام في حث أصحابه على القتال

الأصل: فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا ٱلْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى ٱلْأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ ٱلْهَامِ، وَٱلْتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ، وَغُضُّوا ٱلْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَأَمِيتُوا ٱلْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ فَلاَ تُمِيلُوهَا وَلاَ تُخِلُّوهَا، وَلاَ تَجْعَلُوهَا إِلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ ٱلْحَقَائِقِ هُمُ ٱلَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا، وَوَرَاءَهَا، وَأَمَامَهَا، لاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلاَ يَتَقَدَّمُون عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا.

الشرح: الدارع: لابس الدِّرْع، والحاسر: الذي لا دِرْع عليه ولا مِغْفَر، أمرَهم عليه السلام بتقديم المستلئِم على غير المستلئِم، لأنّ سَوْرة الحرب وشدّتها تلقى وتصادف الأوّل فالأوّل، فواجب أن يكون أوّلُ القوم مستلئماً. وأن يعضُّوا على الأضراس، وقد تقدم شرح هذا، وقلنا: إنه يجوز أن يبدَأ وهم بالحنَق والجدّ، ويجوز أن يريد أنّ العضّ على الأضراس يشدّ شوون الدماغ ورباطاته، فلا يبلغ السيف منه مبلغه لو صادفه رِخْواً. وأمرهم بأن يلتووا إذا طعنوا، لأنهم إذا فعلوا ذلك، فبالحرَى أن يمورَ السِّنان، أيْ يتحرّك عن موضع الطمنة، فيخرج زالقاً، وإذا لم يلتووا لم يمرّ السّنان، ولم يتحرّك عن موضعه فيخرق وينفذ، فيقتل.

وأمرهم بغضّ الأبصار في الحرب، فإنه أربَطُ للجأش(١)، أي أثبت للقلب، لأن الغاضّ بصره في الحرب أحْرَى ألا يُدهش ولا يرتاع لهوْل ما ينظر.

وأمرهم بإماتة الأصوات وإخفائها، فإنه أطرد للفشل، وهو الجبن والخوف، وذلك لأن الجبان يرعد ويبرُق، والشجاع صامت.

وأمرهم بحفظ رايتهم ألاّ يميلوها، فإنّها إذا مالت انكسر العسكر، لأنهم إنما ينظرون إليها

(١) الجأش: رُواع القلب إذا اضطرب عند الفزع. القاموس المحيط، مادة (جاش).

وألاّ يُخلوها من محامٍ عنها، وألاّ يجعلوها بأيدي الجبناء وذوي الهلَع منهم كي لا يَخيموا ويجبنوا عن إمساكها.

والذِّمار: ما وراء الرجل مما يحقّ عليه أن يحميَه، وسمّي ذِماراً، لأنه يجب على أهله التذمّر له، أي الغضب.

والحقائق: جمع حاقّة، وهي الأمر الصعب الشديد، ومنه قول الله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾[1]، يعني الساعة.

ويكتنفونها: يحيطون بها. وحِفَافاها: جانباها، ومنه قول طَرَفة:

كأنّ جناحَيْ مَضْرَحِيٍّ تَكَنَّفَا حِفَافَيْهِ شُكَّا في العَسِيبِ بِمِسْرَدِ

الأصل: أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ. وَايْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لاَ تَسْلَمُون مِنْ سَيْفِ الآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ.

إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ وَالذُّلَّ اللاَّزِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ.

مَنْ رائحٌ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ! الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي.

الْيَوْمَ تُبْلَى الأَخْبَارُ.

وَاللهِ لأَنا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ. اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ.

الشرح: من الناس من يجعل هذه الصيغة وهي صيغة الإخبار بالفعل الماضي، في قوله: «أجزأ امرؤ قِرْنَه» في معنى الأمر، كأنه قال: ليُجْزِىء كلّ امرىء قِرنَه، لأنه إذا جاز الأمر بصيغة الإخبار في المستقبل، جاز الأمر بصيغة الماضي، وقد جاز الأول، نحو قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾[2]، فوجب أن يجوز الثاني. ومن النّاس من قال: معنى ذلك: هلاّ أجزأ امرؤ قرنه! فيكون تحضيضاً محذوف الصيغة للعلم بها. وأجزأ بالهمزة، أي كفى. وقِرْنك: مقارنك في القتال أو نحوه.

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ١-٢. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

وآسى أخاه بنفسه مؤاساةً، بالهمز، أي جعله أسوة نفسِه، ويجوز: واسيتُ زيداً بالواو، وهي لغة ضعيفة. ولم يكلْ قِرنه إلى أخيه، أي لم يدع قِرْنه ينضمّ إلى قِرْن أخيه، فيصيرا معاً في مقاومة الأخ المذكور، وذلك قبيحٌ محرّم، مثاله: زيد وعمرو مسلمان، ولهما قِرْنان كافران في الحرْب، لا يجوز لزيد أن ينكُلَ عن قِرْنه فيجتمع قِرْنُه وقِرْن عمرو على عمرو.

ثم أقسم عليه السلام أنّهم إن سلموا من الألم النازل بهم لو قُتِلُوا بالسيف في الدنيا، فإنهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الآخرة، على فِرارهم وتخاذُلهم، وسمّي ذلك سيفاً على وجه الاستعارة وصناعة الكلام، لأنه قد ذكر سيف الدنيا، فجعل ذلك في مقابلته.

واللهاميم: السادات الأجواد من الناس، والجياد من الخيل، الواحد لُهموم. والسَّنام الأعظم، يريد شَرَفهم وعلوّ أنسابهم، لأن السَّنام أعلى أعضاء البعير.

وموجِدة الله: غضبه وسَخَطه.

ويروى: «والذلّ اللاذم» بالذال المعجمة، وهو بمعنى اللازم أيضاً، لذِمْتُ المكان بالكسر، أي لزمتَه.

ثم ذكر أنّ الفِرار لا يزيد في العُمْر، وقال الراجز:

قَدْ عِلمتْ حَسْنَاءُ دَعْجَاءُ المُقَلْ   أن الـفِـرارَ لا يـزيـدُ فـي الأَجَـلْ

ثم قال لهم: أيّكم يروح إلى الله فيكون كالظمآن يرد الماء!

ثم قال: الجنّة تحت أطراف العوالي، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الجنّة تحت ظلال السيوف»[1]. وسمع بعض الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول يوم أُحُد: «الجنَّة تحت ظلال السيوف»، وفي يده تُميْرات يلُوكها، فقال: بخٍ بخٍ! ليس بيني وبين الجنة إلاّ هذه التميرات! ثم قَذَفها من يده، وكسر جَفْنَ سيفه، وحمل على قريش فقاتل حتى قُتِل[2].

ثم قال: «اليوم تُبلَى الأخبار»، هذا من قول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[3]، أي نختبر أفعالكم.

ثم دعا على أهل الشام إن ردّوا الحق، بأن يفضّ الله جماعتهم، أي يهزمهم ويشتّت، أي يفرّق كلمتهم. وأن يُسلهم بخطاياهم، أي يسلمهم لأجل خطاياهم التي اقترفوها ولا بنصرهم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الجنة تحت بارقة السيوف (٢٨١٩)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: كراهة تمني لقاء العدو (١٧٤٢)، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: كراهية تمني لقاء العدو (٢٦٣١)، وأحمد في مسنده: مسند الكوفيين، باب: بقية حديث عبد الله بن أبي أوفى (١٨٦٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده فيما معناه: ٤/ ٣٥٤.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

أبسلتَ فلاناً، إذا أسلمتَه إلى الهلكة، فهو مبسَل، قال تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾(١)، أي تُسلَم، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾(٢)، أي أسلِموا للهلاك لأجل ما اكتسبوه من الإثم، وهذه الألفاظ كلّها لا يتلو بعضها بعضاً، وإنما هي منتزَعة من كلام طويل، انتزعها الرضيّ رحمه الله، واطّرح ما عداها.

الأصل: إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ ٱلْهَامَ، وَيُطِيحُ ٱلْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَٱلْأَقْدَامَ. وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا ٱلحَلاَئِبُ. وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلاَدِهِمُ ٱلْخَمِيسُ يَتْلُوهُ ٱلْخَمِيسُ. وَحَتَّى تَدْعَقَ ٱلْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ.

قال الشريف الرضيّ رحمه الله تعالى: الدَّعق: الدَّقُّ، أَيْ تدقُّ الخيولُ بِحَوَافِرِهَا أَرْضَهُمْ. وَنَوَاحِرُ أَرْضِهِمْ: مُتَقَابِلاَتُهَا، وَيُقَالُ: مَنَازِلُ بَنِي فُلاَنٍ تَتَنَاحَرُ، أَيْ تَتَقَابَلُ.

الشّرح: طعن دِراك، أي متابع يتلو بعضُه بعضاً. ويخرج منه النسيم، أي لسَعَتِه، ومن هذا النحو قول الشاعر:

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طَعْنَةَ ثائرٍ   لها نَفَذٌ، لولا الشّعاع أضاءَها
ملكتُ بها كفّي فأنهَرْتُ فَتْقَها   يَرَى قائمٌ من دونها مَا وَرَاءَهَا

فهذا وصف الطعنة، بأنّها لاتّساعها يرى الإنسان المقابل لها ببصره ما وراءها، وأنه لولا شَعاع الدم - وهو ما تفرّق منه - لبان منها الضوء. وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد من أصحابه طعناتٍ يخرُج النسيم - وهو الريحُ اللينة - منهنّ.

وفلقت الشيء، أفلِقه - بكسر اللام - فَلْقاً، أي شققتُه. ويُطِيح العظام: يسقطها، طاح الشيء، أي سقط أو هلك أو تاه في الأرض، وأطاحه غيره، وطوّحه.

ويُنْدِرُ السواعد: يسقطها أيضاً، ندرَ الشيء يندُر نَدْراً، أي سقط، ومنه النوادر، وأندره غيرُه. والساعد: من الكوع إلى المِرفق، وهو الذراع.

والمناسر: جمع مَنْسِر، وهو قطعة من الجيش تكون أمامَ الجيش الأعظم، بكسر السين وفتح الميم، ويجوز مِنْسَر بكسر الميم وفتح السين، وقيل إنها اللّغة الفصحى.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

ويُرْجَمُوا، أي يُغْزَوْ بالكتائب، جمع كتيبة وهي طائفة من الجيش.

تقفوها الحلائب، أي تتبعها طوائف لنصرها والمحاماة عنها، يقال: قد أحلبوا، إذا جاؤوا من كلّ أوب للنّصرة، ورجل مُحلِب، أي ناصر، وحالبت الرجل، إذا نصرتّه وأعنته، وقال الشاعر:

أَلَهْفا بِقُرَّى سَحْبَلٍ حين أحْلَبَتْ عَلَيْنَا الوَلايَا والعدوّ المباسِلُ

أي أعانتْ ونصرتْ. والخميس: الجيش. والدَّعْق، قد فسّره الرضيّ رحمه الله، ويجوز أن يفسّر بأمر آخر، وهو الهَيْج والتنفير، دَعَقَ القومَ يَدْعَقُهم دَعْقاً، أي هاج منهم ونفّرهم.

ونواحر أرضهم، قد فسّره رحمه الله أيضاً، ويمكن أن يفسّر بأمر آخر، وهو أن يراد به أقصى أرضِهم وآخرها، من قولهم لآخر ليلة من الشهر: ناحرة.

وأعنان مسارِبهم ومسارحهم: جوانبها، والمسارب: ما يسرُب فيه المال الراعي، والمسارح: ما يسرح فيه، والفرق بين «سرْح» و«سرب»، أن السُّروح إنما يكونُ في أوّل النهار، وليس ذلك بشرط في السُّروب.

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه في صِفّين، يحرّضهم به، وقد ذكرنا من حديث صِفّين فيما تقدّم أكثره، ونحن نذكر ها هنا تتمة القصّة، ليكون مَنْ وقف على ما تقدّم وعلى هذا المذكور آنفاً هنا، قد وقف على قصّة صفين بأسرها.

اتفق النّاس كلّهم أنّ عمّاراً رضي الله عنه أصِيب مع عليّ عليه السلام بصِفّين، وقال كثيرٌ منهم، بل الأكثر: إن أويساً القَرَنيّ أصيب أيضاً مع عليّ عليه السلام بصِفّين. وذكر ذلك نصر بن مزاحم في «كتاب صِفّين» رواه عن حفص بن عمران البرجميّ، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختريّ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أويس ما قال، وقال الناس كلّهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الجنّة لتشتاق إلى عمّار»[1]، ورووْا عنه صلى الله عليه وآله أنّ عماراً جاء يستأذن عليه، فقال: «ائذنوا له، مَرْحَباً بالطيّب المطيّب».

وروى سلمة بن كُهيل، عن مجاهد، أن النبيّ صلى الله عليه وآله رأى عَمّاراً وهو يحمل أحجار المسجد فقال: «ما لهم ولعمار! يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار!»[2].

وروى الناس كافّة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «تقتلك الفئة الباغية».

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب سلمان (٣٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٤٧)، وابن حنبل في فضائل الصحابة (١٥٩٨).

وروى نصر بن مزاحم في كتاب صِفّين، عن عمرو بن شمِر، عن مالك بن أعْيَنَ، عن زيد بن وهب الجُهنيّ، أن عمّار بن ياسر نادى في صِفّين يوماً قبل مقتله بيوم أو يومين: أين من يبغي رضوان الله عزّ وجلّ ولا يؤوب إلى مال ولا ولد؟ فأتته عِصابة من النّاس، فقال: أيّها الناس، اقصِدوا بنا قَصْد هؤلاء القوم [الذين يتبعون دم عثمان، ويزعمون أنه قتِل مظلوماً، والله إن كان إلا ظالماً لنفسه، الحاكم بغير ما أنزل الله]. ودفع عليّ عليه السلام الراية إلى هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص - وكان عليه ذلك اليوم دِرْعان - فقال له عليّ عليه السلام كهيئة المازح: أيا هاشم، أما تخشى على نفسك أن تكون أعْوَر جباناً؟ قال: ستعلم يا أميرَ المؤمنين، والله لألُفّنّ بين جماجم العرب لفَّ رجل ينوِي الآخرة. فأخذ رمحاً فهزّه فانكسر، ثم أخذ آخر فوجده جاسياً فألقاه، ثم دعا برمح لَيّن فشدّ به اللواء[1].

قال نصر: وحدّثنا عمرو قال: لما دفع عليّ عليه السلام الرايةَ إلى هاشم بن عُتْبة، قال له رجل من أصحابه مِن بَكْر بن وائل: أقْدِم هاشم - يكررها - ثم قال: مالك [يا هاشم] قد انتفخ سَحْرك! أعَوَراً وجُبناً! قال: مَنْ هذا؟ قالوا: فلان، قال: أهلُها وخير منها، إذا رأيتني قد صُرعت فخذها. ثم قال لأصحابه: شدّوا شُسوعَ نعالكم، وشدّوا أُزُرَكم، فإذا رأيتموني قد هَزَزْت الراية ثلاثاً، فاعلموا أنّ أحداً منكم لا يسبقني إلى الحملة. ثم نظر إلى عسكر معاوية، فرأى جمعاً عظيماً، فقال: مَن أولئك؟ قيل: أصحاب ذي الكَلاع، ثم نظر فرأى جنداً، فقال: من أولئك؟ قيل: قريش وقوم من أهل المدينة، فقال: قَوْمي، لا حاجة لي في قتالهم، مَنْ عند هذه القبّة البيضاء؟ قيل: معاوية وجنده، قال: فإني أرى دُونهم أسْوِدة، قيل: [ذاك] عمرو بن العاص وابناه ومواليه، فأخذ الراية فهزّها، فقال رجل من أصحابه: الْبَث قليلاً ولا تعجَل، فقال هاشم:

قَــدْ أكــثــرا لَــوْمــي وَمَــا أقَــلاَّ ... إنــي شَــرَيْــتُ الــنــفــس لَــنْ أعــتَــلاَّ

أعــوَرُ يــبــغــي أهــلَــه مــحــلَّا ... قــد عــالــج الــحــيــاة حَــتــى مَــلاَّ

لا بــد أن يَــفُــلّ أو يُــفَــلاَّ ... أشِــلّــهــم بــذي الــكُــعــوب شَــلاَّ

مَــعَ ابــن عَــمّ أحــمــدَ الــمُــعَــلَّــى ... أوّلُ مَــنْ صَــدَّقَــهُ وَصَــلَّــى

قال نصر: وحدّثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: لما تناول هاشم الراية، جعل عمار بن ياسر يحرّضه على الحرب، ويقرعه بالرمح، ويقول: أقدم يا أعور:

لاَ خَيْـرَ فِي أعْـوَرَ لا يـأتـي ٱلْـفَـزَعْ

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢٦.

فيستحي من عَمّار، ويتقدّم، ويركز الراية، فإذا ركزها عاوده عَمّار بالقول، فيتقدّم أيضاً. فقال عمرو بن العاص: إني لأرى لصاحب الراية السّوْدَاء عملاً، لئن دام على هذا لَتَفْنَيَنّ العرب اليوم! فاقتتلوا قتالاً شديداً، وعمّار ينادي: صبراً! والله إن الجنة تحت ظلال البِيض. فكان بإزاء هاشم وعمّارٍ أبو الأعور السُّلميّ، ولم يزل عمّار بهاشم ينخسُه وهو يزحف بالراية، حتى اشتدّ القتالُ وعظم، والتقى الزَّحْفان، واقتتلا قتالاً لم يسمع السامعون بمثله، وكثرت القتلى في الفريقين جميعاً.

وروى نصر، عن عمرو بن شَمِر، قال: حدَّثني مَنْ أثق به من أهل العراق، قال: لما التقينا بالقوم في ذلك اليوم، وجدناهم خمسةَ صفوف قد قيّدوا أنفسهم بالعمائم، فقتلنا صفًّا، ثم صفًّا، ثم خلصنا إلى الرابع، ما على الأرض شاميّ ولا عِراقي يولّي دُبُرَه، وأبو الأعور يقول:

إذا مَا فَرَرْنَا كَانَ أَسْوَا فِرارِنا ... صُدودَ الخُدودِ وازْوِرارَ المناكِبِ

صُدودَ الخُدودِ والقَنَا متشاجِرٌ ... ولا تبرح الأقدامُ عند التضارُبِ

قال نصر: والتقتْ في هذا اليوم هَمْدان العراق بعكّ الشام، فقال قائلهم:

هَمْدَانُ هَمْدَانُ، وعكٌّ عكُّ ... سَتَعْلَمُ اليومَ مَنِ الأَرَكُّ

وكانت على عَكّ الدروع، وليس عليهم رايات، فقالت: هَمْدان: خدِّموا القوم، أي اضربوا سوقهم - فقالت عَكّ: ابرُكوا برْكَ الْكَمل، فبركوا كما يبرك الجمل ثم رموا الحجَر، وقالوا: لا نفرّ حتى يفر الحكّر.

قال نصر: واقتتل الناسُ من لدن اعتدال النهار إلى صلاة المغرب، ما كان صلاة القوم إلا التكبير عند مواقيت الصلاة.

ثم إن أهل العراق كشفوا ميمنة أهل الشام، فطاروا في سواد الليل، وكشف أهلُ الشام مَيْسَرة أهل العراق، اختلطوا في سواد الليل، وتبدّلت الرايات بعضُها ببعض، فلما أصبح الناس وجَدَ أهلُ الشام لواءهم وليس حوله إلاّ ألف رجل، فاقتلَعوه وركزوه من وراء موضعه الأول وأحاطوا به، ووجَد أهلُ العراق لواءهم مركوزاً وليس حوله إلا ربيعة، وعليّ عليه السلام بينها، وهم محيطون به، وهو لا يعلم مَنْ هم، ويظنّهم غيرهم، فلما أذّن مؤذّن عليّ عليه السلام الفجر، قال عليّ عليه السلام:

يا مَرْحَباً بالقائلينَ عَدْلا ... وبالصّلاةِ مَرْحَباً وأهلا

ثم وقف وصلّى الفجر، فلما انفتل أبصر وجوهاً ليست بوجوه أصحابه بالأمس، وإذا مكانُه الذي هو فيه ما بيْن الميسرة إلى القلب، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: ربيعة، وإنك يا أمير المؤمنين لعندنا منذ الليلة! فقال:

فخرٌ طويلٌ لك يا ربيعة

ثم قال لهاشم بن عُتبة: خذ اللواء، فوالله ما رأيتُ مثل هذه الليلة. فخرج هاشم باللواء حتى ركزه في القلب.

قال نصر: حدثنا عمرو بن شمِر، عن الشعبيّ، قال: عبّى معاوية تلك الليلة أربعة آلاف وثلاثمائة من فارس وراجل مُعْلِمين بالخضرة، وأمرهم أن يأتوا عليًا عليه السلام مِن ورائه. ففَطِنتْ لهم هَمْدان، فواجهوهم وصَمَدوا إليهم، فباتوا تلك الليلة يتحارسون، وعليّ عليه السلام قد أفضى به ذهابه ومجيئه إلى رايات ربيعة، فوقف بينها وهو لا يعلم، ويظنّ أنه في عسكر الأشعث، فلما أصبح لم ير الأشعث ولا أصحابه، ورأى سعيد بن قيس الهمْدانيّ على مركزه، فجاء إلى سعيد رجل من ربيعة، يقال له زُفَر فقال [له]: ألست القائل بالأمس: لئنْ لم تنتهِ ربيعة لتكوننّ ربيعة ربيعة، وهَمْدان همدان؟ فما أغنتْ همدان البارحة! فنظر إليه عليٌّ عليه السلام نظر منكِر، ونادى منادِي عليّ عليه السلام: أن اتّعدوا للقتال، واغدُوا عليه، وانهَدُوا إلى عدوّكم. فكلّهم تحرّك إلا ربيعة لم تتحرّك، فبعث إليهم عليّ عليه السلام: أن انهَدُوا إلى عدوّكم، فبعث إليهم أبا ثَرْوان، فقال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يُقرئكم السلام، ويقول لكم: يا معشرَ ربيعة، ما لكم لا تَنْهَدُون إلى عدوّكم وقد نَهَد الناس! قالوا: كيف نَنْهد وهذه الخيل من وراء ظهرنا! قل لأمير المؤمنين فليأمر هَمْدان أو غيرها بمناجزتهم لنَنْهد. فرجع أبو ثروان إلى عليّ عليه السلام، فأخبره، فبعث إليهم الأشتر، فقال: يا معشرَ ربيعة، ما منعكم أن تَنْهدوا وقد نَهد الناس - وكان جهير الصوت - وأنتم أصحاب كذا، وأصحاب كذا؟! فجعل يعدّد أيامهم. فقالوا: لسنا نفعل حتى ننظر ما تصنع هذه الخيل التي خَلف ظهورنا، وهي أربعة آلاف، قل لأمير المؤمنين: فَلْيَبْعَثْ إليهم مَنْ يكفيه أمرهم.

وراية ربيعة يومئذ مع الحُضَين بن المنذر. فقال لهم الأشتر: فإن أمير المؤمنين يقول لكم: اكفُونيها، إنّكم لو بعثتم إليهم طائفةً منكم لتركوكم في هذه الفلاة، وفرُّوا كاليعافير. فوجّهت حينئذ ربيعة إليهم تيم الله والنَّمِر بن قاسط وعَنَزَة. قالوا: فمشينا إليهم مستلئمين مقنَّعين في الحديد - وكان عامّة قتال صِفِّين مشياً - قال: فلما أتيناهم هَرَبُوا وانتشروا انتشارَ الجراد، فذكرت قوله: «وفرّوا كاليعافير». ثم رجعنا إلى أصحابنا وقد نشب القتال بينهم وبين أهل الشام، وقد اقتطع أهلُ الشام طائفةً من أهل العراق، بعضها من ربيعة، فأحاطوا بها، فلم نَصلْ إليها حتى حملْنا على أهل الشام، فعلَوْناهم بالأسياف حتى انفرجوا لنا، فأفضيْنَا إلى أصحابنا فاستنقذناهم، وعَرَفناهم تحت النَّقْع بسيماهم وعلامتهم. وكانت علامة أهل العراق بصِفِّين الصّوف الأبيض، قد جعلوه في رؤوسهم وعلى أكتافهم، وشعارهم: «يا ألله، يا ألله! يا أحد يا صمد! يا ربّ محمد! يا رحمن يا رحيم!»، وكانت علامةُ أهل الشام خِرَقاً صُفراً، قد جعلوها على رؤوسهم وأكتافهم، وشعارهم:

نحن عبادُ الله حقًّا حقًّا

يا لثارات عثمان!

قال نصر: فاجتلدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد، فلم يتحاجزوا حتى حَجَز بينهم الليل، وما يُرَى رجُلٌ من هؤلاء ومن هؤلاء مولّياً.

قال نصر: حدّثنا عمر بن سعد، قال: كانوا عرباً يعرف بعضُهم بعضاً في الجاهلية، وإنّهم لحَديثو عهْد بها، فالتقوْا في الإسلام. وفيهم بقايا تلك الحميَّة، وعند بعضهم بصيرة الدّين والإسلام، فتضاربوا واستحيَوْا من الفِرار، حتى كادت الحرب تبيدهم، وكانوا إذا تحاجزوا دَخَلَ هؤلاء عسكَر هؤلاء، فيستخرجون قَتْلاَهم فيدفنونهم.

قال نصر: فحدّثنا عمر بن سعد، قال: فبينَا عليّ عليه السلام واقفاً بين جماعة من هَمْدان وحمير وغيرهم من أفناء قحطان، إذ نادى رجل من أهل الشام: من دلّ على أبي نوح الحميريّ؟ فقيل له: قد وجدته، فماذا تريد؟ قال: فَحَسر عن لِثَامة، فإذا هو ذو الكَلاع الحميريّ، ومعه جماعة من أهله ورهطه، فقال لأبي نوح: سِرْ معي، قال: إلى أين؟ قال: إلى أن نخرُجَ عن الصَّف، قال: وما شأنُك؟ قال: إنّ لي إليك لحاجة، فقال أبو نوح، معاذ الله أن أسير إليك إلاّ في كتيبة! قال ذو الكَلاع: بَلى فَسِرْ فلك ذمّة الله وذمّة رسوله وذمّة ذي الكَلاع، حتّى ترجع إلى خيلك، فإنما أريد أن أسألَك عن أمرٍ فيكم ربْنَا فيه. فسار أبو نُوح، وسار ذو الكَلاع، فقال له: إنما دعوتُك أحدّثك حديثاً حدّثناه عمرو بن العاص قديماً في خلافة عمر بن الخطاب، ثم أذكَرْناه الآن به فأعاده، إنه يزعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يلتقي أهل الشام وأهلُ العراق، وفي إحدى الكتيبتين الحقّ وإمام الهدى، ومعه عمّار بن ياسر». فقال أبو نوح: نعم والله: إنه لفينا. قال: نشدتُك الله، أجادٌّ هو على قتالنا؟ قال أبو نوح: نعم وربّ الكعبة، لهو أشدّ عَلى قتالكم منّي، ولوددت أنكم خَلْق واحد فذبحتُه وبدأت بك قبلهم، وأنت ابن عمّي. قال ذو الكَلاع: وَيلَك! علام تمنّى ذلك مِنّا! فوالله ما قطعتُك فيما بيني وبينك قَطّ، وإنّ رحِمَك لقريبة، وما يَسُرّني أنْ أقتلك. قال أبو نوح: إنّ الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة، ووصل به أرحاماً متباعدة، وإني قاتلُك وأصحابك، لأنّا على الحقّ وأنتم على الباطل. قال ذو الكَلاع: فهلْ تستطيع أن تأتِيَ معي صفّ أهل الشام، فأنا لك جارٌ منهم، حتى تلقى عمرو بن العاص، فتخبرَه بحال عمّار وجِدّه في قتالنا، لعلّه أن يكونَ صلحٌ بين هذين الجندين!

قلت: واعَجَباه من قوم يعتريهم الشكّ في أمرهم لمكان عمّار، ولا يعتريهم الشكّ لمكان عليّ عليه السلام! ويستدلّون على أنّ الحقّ مع أهل العراق بكوْن عَمّار بين أظهرهم، ولا يعبؤون بمكانِ عليّ عليه السلام! ويحذرون من قول النبي صلى الله عليه وآله: «تقتُلك الفئة الباغية»، ويرتاعون لذلك،

ولا يرتاعون لقوله ﷺ في عليّ عليه السلام: «اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه»[١]، ولا لقوله: «لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»[٢]. وهذا يدلّك على أن علياً عليه السلام اجتهدت قريش كلّها من مبدإ الأمر في إخمال ذكره وستر فضائله، وتغطية خصائصه حتى مُحِيَ فضله ومرتبته من صدورِ الناس كافّة إلا قليلاً منهم[٣].

قال نصر: فقال له أبو نوح: إنّك رجل غادِرٌ، وأنت في قوم غُدُر، وإنْ لـم يُرِد الغدر أغدروك، وإني أن أموتَ أحبُّ إليّ من أن أدخل مع معاوية. فقال ذو الكَلاع: أنا جار لك من ذلك، ألا تقتل ولا تسلَب ولا تكرَه على بيعة، ولا تحبَسَ عن جندك، وإنما هي كلمة تبلّغها عمرو بن العاص، لعلّ الله أن يُصلِحَ بذلك بين هذين الجندَيْن، ويضع عنهم الحرب. فقال أبو نوح: إني أخاف غَدَراتِك وغَدَراتِ أصحابك. قال ذو الكَلاع: أنا لك بما قلت زعيم، قال أبو نوح: اللهمّ إنك ترى ما أعطاني ذو الكَلاع حتى أتى ما في نفسي، فاعصِمْنِي واخترْ لي وانصرني، وادْفع عَنّي. ثم سار مع ذي الكَلاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله الناس، وعبد الله بن عمرو يحرّض الناس على الحرب، فلما وقفا على القوم، قال ذو الكَلاع لعمرو: يا أبا عبد الله، هلْ لك في رجل ناصح لبيب مشفِق، يخبركَ عن عَمّار بن ياسر فلا يكْذبك؟ قال: ومَنْ هو؟ قال: هو ابن عمّي هذا، وهو من أهل الكوفة. فقال عمرو: أرى عليك سيما أبي تراب! فقال أبو نوح: عليّ سيما محمد وأصحابه، وعليك سيما أبي جهل وسيما فرعون! فقام أبو الأعور فسلّ سيفَه، وقال: لا أرى هذا الكذّاب اللئيم يسبّنا بين أظهرِنا وعليه سيما أبي تراب! فقال ذو الكَلاع: أقسم بالله لئن بسطتَ يدك إليه لأحطِمنّ أنفَك بالسيف، ابن عمّي وجاري، عقدت له ذمّتي، وجئت به إليكم ليخبركم عمّا تماريتُم فيه.

فقال له عمرو بن العاص: يا أبا نوح، أذكّرك بالله إلا ما صدَقتنا ولم تكْذبنا، أفيكم عَمّار بن ياسر؟ قال أبو نوح: ما أنا بمخبرِك حتى تخبرَ: لمَ تسأل عنه ومعنا من أصحاب محمد صلى الله عليه عدّة غيره، وكلّهم جادّ على قتالكم؟ فقال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٦)، وأحمد في «مسنده» في كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٥٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٦)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٧٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٨٥).

(٣) لله درّك يا بن أبي الحديد ما هذه الالتفاتة الجميلة خاصة عندما نذكر أيضاً قول النبي (ص): علي مع الحق والحق مع علي.

عماراً تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس لعمار أن يفارق الحقَّ، ولن تأكلَ النار من عَمّار شيئاً»[١]، فقال أبو نوح: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله إنه لَقينا جادٌّ على قتالكم! فقال عمرو: الله الذي لا إله إلا هو إنه لجادّ على قتالنا! قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو، ولقد حدّثني يوم الجمل أنّا سنظهر على أهل البصرة، ولقد قال لي أمس: إنّكم لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سَعَفات هَجَر، لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنكم على باطل، ولكنا قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

قال عمرو: فهل تستطيع أن تجمَع بيني وبينه؟ قال: نعم، فركب عمرو بن العاص وابناه، وعُتْبة بن أبي سفيان وذو الكَلاع، وأبو الأعور السُلميّ، وحوشب، والوليد بن عقبة وانطلقوا، وسار أبو نوح ومعه شُرَحبيل بن ذي الكَلاع يحمِيه، حتى انتهى إلى أصحابه، فذهب أبو نوح إلى عَمّار، فوجده قاعداً مع أصحابٍ له، منهم الأشتر وهاشم وابنا بُدَيْل، وخالد بن معمر، وعبد الله بن حَجَل، وعبد الله بن العباس. فقال لهم أبو نوح: إنّه دعاني ذو الكَلاع، وهو ذو رحِم، فقال: أخبِرْني عن عمّار بن ياسر، أفيكم هو؟ فقلت: لِمَ تسأل؟ فقال: أخبرَني عمرو بن العاص في إمْرة عمر بن الخطاب أنّه مع رسول الله ﷺ، يقول: «يلتقي أهلُ الشام وأهل العراق، وعمّار مع أهل الحق وتقتله الفئة الباغية»، فقلت: نعم، إن عَمّاراً فينا، فسألني: أجادّ هو عَلَى قتالنا؟ فقلت: نعم والله، إنه لأجدّ منّي في ذلك، ولوددت أنكم خَلْق واحد فذبحته وبدأت بك يا ذا الكَلاع، فضحك عَمّار، وقال: أيسرّك ذلك؟ قال: نعم، ثم قال أبو نوح: أخبرَني الساعة عمرو بن العاص، أنّه سمِع رسول الله ﷺ يقول: «تقتل عمّاراً الفئة الباغية»، قال عمّار: أقرّرته بذلك؟ قال: نعم، لقد قَرّرته بذلك فأقرّ، فقال عمّار: صدق، وليضرّنه ما سمع ولا ينفعه.

قال أبو نوح: فإنه يريد أن يلقاك، فقال عمّار لأصحابه: اركبُوا، فركبوا وساروا. قال: فبعثنا إليهم فارساً من عبد القيس يسمى عوف بن بشر فذهب، حتى إذا كان قريباً منهم، نادى: أين عمرو بن العاص؟ قالوا: ها هنا، فأخبره بمكان عَمّار وخيله، قال عمرو: قل له: فليسرْ إلينا، قال عوف: إنه يخاف غَدراتِك وفَجَراتك، قال عمرو: ما أجراك عليّ وأنت على هذه الحال؟ قال عوف: جرّأني عليك بصرِي فيك وفي أصحابك، وإن شئت نابذتك الآن على سواء، [وإن شئت التقيت أنت وخصماؤك، وأنت كنت غادراً]، فقال عمرو: إنك لسفيهٌ، وإني باعث إليك رجلاً من أصحابي يواقفك، قال: ابعث مَنْ شئت، فلستُ بالمستوحش، وإنك لا تبعث إلا شقيًّا، فرجع عمرو، وأنفذ إليه أبا الأعور، فلمّا تواقفا تعارفا، فقال عوف: إنّي لأعرف الجسد وأنكر القلب، وإني لا أراك مؤمناً لا أراك إلا من أهل النار، قال أبو الأعور:

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بما معناه: ٨/ ١٨٩.

يا هذا، لقد أعطِيتَ لساناً يكبّك الله به على وجهك في النار، قال عوف: كلاّ والله إنّي لأتكلّم بالحق وتتكلّم بالباطل، وإني أدعوك إلى الهدى وأقاتلك على الضلال، وأفرّ من النار، وأنت بنعمة الله ضالّ، تنطق بالكذب وتقاتل على ضلالة، وتشتري العقاب بالمغفرة، والضلالة بالهدى، انظر إلى وجوهنا ووجوهكم وسيمانا وسيماكم، واسمع دعوتَنا ودعوتكم، فليس أحدٌ مِنّا إلا وهو أوْلى بالحق وبمحمد، وأقرب إليه منكم. فقال أبو الأعور: لقد أكثرتَ الكلام، وذهب النّهار، ويحك! ادعُ أصحابَك وأدعُوا أصحابي، وليأت أصحابُك في قلّة إن شاؤوا أو كثرة، فإني أجيء من أصحابي بعدّتهم، [فإن شاء أصحابك فليقلّوا وإن شاؤوا فليكثروا. فسار عمّار في اثني عشر فارساً، حتى إذا كانوا بالمنصف سار عمرو بن العاص في اثني عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل، خيل عمار وخيل عمرو، ونزل القوم واحتبوْا بحمائل سيوفهم، فتشهّدَ عمرو بن العاص فقال له عمار: اسكت، فلقد تركتها وأنا أحقّ بها مِنْك، فإن شئتَ كانت خصومة فيدفع حقُّنا باطلَك، وإنْ شئتَ كانت خطبة، فنحن أعلم بفَصْل الخطاب منك، وإن شئتَ أخبرتُك بكلمةٍ تفصِلُ بيننا وبينك، وتكفّرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسِك، ولا تستطيع أن تكذّبني فيها.

فقال عمرو: أيا أبا اليقظان، ليس لهذا جئتُ إنما جئتُ لأنّي رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم. أذكّرك الله إلاّ كففتَ سلاحهم، وحقَنْتَ دماءهم، وحرصتَ على ذلك، فعلام تقاتلوننا! أوَ لسنا نعبُد إلٰهاً واحداً، ونصلي إلى قبلتِكم وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن بنبيّكم! فقال عمّار: الحمد لله الذي أخرَجَها مِنْ فيك، إنّها لِي ولأصحابي: القبلة، والدين، وعبادة الرحمن، والنبيّ والكتاب، من دونك ودون أصحابك. الحمدُ لله الذي قرّرك لنا بذلك، وجعلك ضالاً مضلاً أعمى، وسأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك، إنّ رسول الله ﷺ أمرني أنْ أقاتِلَ الناكثين[1]، فقد فعلت، وأمرني أن أقاتِل القاسطين وأنتم هم، وأمّا المارِقون فلا أدري أدركهم أوْ لا! أيّها الأبتر، ألست تعلم أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللّهمَّ والِ مَنْ وَالاه وعادِ مَنْ عاداه!» فأنا مولَى الله ورسوله وعليّ مولاي بعدهما. قال عَمْرو: لِمَ تشتِمني يا أبا اليقظان ولست أشتِمك! قال عمّار: وبِمَ تشتمني؟ أتستطيع أن تقول: إنّي عصيت الله ورسوله يوماً قط! قال عمرو: إنّ فيك لمسابَّ سوى ذلك، قال عَمّار: إن الكريمَ مَنْ أكرمه الله! كنتُ وضيعاً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقوّاني الله، وفقيراً فأغناني الله! قال عمرو: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم باب كلّ سوء، قال عمرو: فعَليٌّ قتله؟ قال عَمّار: بل الله ربُّ عليّ قتله وعليّ معه، قال عمرو: فكنتَ فيمنَ قَتَله؟ قال عمرو: فكنتَ فيمن قَتَله؟ قال: كنتُ مع مَنْ قتله، وأن اليوم أقاتل معهم، قال عمرو: فلم

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٦٢٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٥٣٧).

قتلتموه؟ قال عمّار: إنه أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه، فقال عمرو: ألا تسمعون؟ قد اعترف بقتل إمامكم! فقال عمّار، قد قالها فرعون قبلك لقومه: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾(١). فقام أهلُ الشام ولهم زَجَل فركبوا خيولهم ورجعوا، وقام عمّار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا، وبلغ معاوية ما كان بينهم فقال: هلكت العرب إن حَرّكتهم خفّة العبد الأسود - يعني عماراً.

قال نصر: فحدّثنا عمرو بن شمر، قال: فخرجت الخيول إلى القتال واصطفّت بعضُها لبعض، وتزاحف الناس، وعلى عَمّار دِرْعٌ بيضاء، وهو يقول: أيّها الناس، الرَّوَاح إلى الجنّة.

فقاتل القوم قتالاً شديداً لم يَسْمَع السامعون بمثله، وكثرت القتلى حتى أنْ كان الرجل ليشدّ طُنُب فُسطاطه بيد الرجل أو برجْله. وحكى الأشعث بعد ذلك، قال: لقد رأيت أخبِيَة صِفّين وأروقتها، وما فيها خِباء ولا رواق ولا فُسطاط إلا مَرْبوطاً بيد إنسانٍ أو برجله.

قال نصر: وجعل أبو السّماك الأسديّ يأخذ إداوة من ماء وشَفْرَة حَديدة، فيطوف في القتلى، فإذا رأى رجلاً جَريحاً وبه رَمَق أقعده، فيقول له: مَنْ أمير المؤمنين؟ فإذا قال: «عليّ» غسَل الدم عنه، وسقاه من الماء، وإن سكت وجاْه بالسّكين حتى يموت ولا يسقيه.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، قال: سمعت الشعبيّ، يقول: قال الأحنف بن قيس: والله إنّي إلى جانب عمّار بن ياسر، [بيني وبينه رجل من بني الشعيراء].

فتقدّمنا حتى دنوْنا من هاشم بن عُتْبة، فقال له عمار: احْمِلْ فداك أبي وأمّي! فقال له هاشم: يرحمك الله يا أبا اليقظان! إنّك رجل تأخذك خِفّة في الحرب، وإنّي إنما أزحفُ باللواء زحفاً، أرجو أن أنال بذلك حاجتي، وإن خَفَفْتُ لم آمن الهَلَكة. وقد كان قال معاوية لعمرو: ويحك! إنّ اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة، وقد كان من قبل يُرقِل به إرقالاً، وإنْ زحف به اليوم زحفاً إنه لَلْيومُ الأطول على أهل الشام، فإن زحف في عُنُق من أصحابه، إني لأطمع أن تقتطع. فلم يزل به عمار حتى حمل، فبصُر به معاوية، فوجّه إليه حماة أصحابه ومَنْ يُزَنُّ بالبأس والنَّجدة منهم في ناحية، وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص، ومعه يومئذ سيفان قد تقلّد بأحدهما، وهو يضرب بالآخر، فأطافت به خيولُ عليّ عليه السلام، وجعل عمرو يقول: يا الله، يا رحمن! ابني ابني! فيقول معاوية: اصبر فلا بأس عليه. فقال عمرو: لو كان يزيد بن معاوية، أصبَرت! فلم يزل حماة أهل الشام تذبّ عن عبد الله حتى نجا هارباً على فرسه [ومن معه، وأصيب هاشم في المعركة].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٥.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: وفي هذا اليوم قُتِل عمار بن ياسر رضي الله عنه، أصيب في المعركة، وقد كان قال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: والله إنّها لراية قد قاتلتُها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهنّ، ثم قال:

نَحْنُ ضربناكُمْ على تأويلِهِ كما ضربناكُمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ
أو يَرْجِعَ الحقُّ إلى سَبيلِهِ

ثم استسقى وقد اشتدّ عطشه، فأتته امرأة طويلة اليديْن، ما أدري أعُسٌّ معها أم إداوة، فيها ضَيَاحٌ من لبن! فقال حين شرب: «الجنّة تحت الأسنّه، اليوم ألقى الأحبّه، محمداً وحزبه»[1]. والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنهم على الباطل. ثم حمل وحَمَل عليه ابن حَوّى السَّكْسِكي وأبو العادية، فأما أبو العادية فطعنه، وأما ابن حَوّى فاحتزّ رأسه، وقد كان ذو الكَلاع يسمع عمرو بن العاص يقول: إن النبي صلى الله عليه يقول لعمار: «تقتلك الفئة الباغية، وآخر شُرْبك ضَيَاحٌ من لبن»[2]، فقال ذو الكَلاع لعمرو: ويحك ما هذا! قال عمرو: إنه سيرجع إلينا، ويفارق أبا تراب، وذلك قبل أن يصاب عمّار، فلما أصيب عمار في هذا اليوم أصيب ذو الكَلاع، فقال عمرو لمعاوية: والله ما أدري بقتل أيّهما أنا أشدّ فرحاً! والله لو بقي ذو الكَلاع حتى يقتَل عمّار لمال بعامّة قومه إلى عليّ، ولأفسد علينا أمرينا.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: لا يزال رجل يجيء فيقول لمعاوية وعمرو: أنا قتلت عَمّار، فيقول له عمرو: فما سمعته يقول؟ فيخلط، حتى أقبل ابنُ حَوّى، فقال: أنا قتلتُه، فقال عمرو: فما كان آخر منطقه؟ قال: سمعته يقول: «اليوم ألقى الأحِبَّه، محمداً وحزبه»[3]. فقال: صدقت، أنت صاحبُه، أما والله ما ظفرتْ يداك، ولقد أسخطتَ ربّك.

قال نصر: حدثنا عمرو بن شمر، قال: حدثني إسماعيل السّديّ، عن عبد خير الهَمْدانيّ،

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٦٨٧)، والطبراني في «الأوسط» (٦٤٧١)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١١٣٩).
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٦٧٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦٤٧١).
(٣) تقدم تخريجه.

قال: نظرتُ إلى عمّار بن ياسر يوماً من أيام صِفّين، قد رُمِيَ رميةً فأغمِي عليه، فلم يصلِّ الظهرَ ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ولا الفجر، ثم أفاق فقضاهنّ جميعاً، يبدأ بأوّل شيء فاته، ثم بالتي تليها.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن السديّ، عن أبي حُرَيث، قال: أقبل غلامٌ لعمّار بن ياسر، اسمه راشد، يحمل إليه يوم قتل بشربة من لبن، فقال عمّار: أما إنّي سمعتُ خليلي رسول الله ﷺ يقول: «إنّ آخرَ زادك من الدنيا شربة لبن»(١).

قال نصر: وروى عمرو بن شمر، عن السّديّ، أنّ رجلَين بصِفّين اختصما في سلَب عمّار وفي قتله، فأتَيا عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: ويحكما اخرجا عَنّي! فإنّ رسول الله ﷺ قال: «ما لقريش ولعمّار! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قاتله وسالبُه في النار»(٢).

قال السُّدّيّ: فبلغني أنّ معاوية قال لما سمع ذلك: إنما قتَله مَنْ أخرجه، يخدع بذلك طَغَام أهل الشام.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن جابر، عن أبي الزبير، قال: أتى حُذَيفةَ بنَ اليمان رهطٌ من جُهينة، فقالوا له: يا أبا عبد الله، إنّ رسول الله ﷺ استجار من أن تُصْطَلَم أمّتُه، فأجير من ذلك، واستجار من أن يُذيق أمّتَه بعضها بأس بعض، فمنع من ذلك، فقال حُذَيفة: إنّي سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إنّ ابنَ سميّة لم يخيَّر بين أمرين قطّ إلا اختار أشدَّهما - يعني عمّاراً - فالزموا سمتَه»(٣).

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: حمل عمّار ذلك اليوم على صفّ أهل الشام وهو يرتجز:

كَـلاّ وربِّ الـبـيـت لا أبـرحُ أجِـي ... حـتّـى أمـوتَ أو أرى مـا أشـتـهِـي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه بما معناه: ٨/ ٧٢٩ رقم: ٤١، وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ٣/ ٢٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، وأحمد في كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١١٤٥١).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٦٦٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٤٦).

لاَ أفتأ الدّهرَ أحامي عن عَلِي ... صهر الرّسول ذي الأمانات الوفي
ينصرنا ربّ السموات العلِي ... ويقطع الهامَ بحدّ المشرفِي
يمنحنا النَّصرَ عَلَى من يبتغي ... ظلماً علينا جاهداً ما يأتلِي

قال: فضرب أهلَ الشام حتى اضطرهم إلى الفرار.

قال نصر: وقد كان عبد الله بن سويد الحميريّ من آل ذي الكَلاع، قال لذي الكَلاع: ما حديثٌ سمعتَه من ابن العاص في عَمّار؟ فأخبره، فلما قُتِل عَمّار خرج عبد الله ليلاً يمشي، فأصبح في عسكر عليّ عليه السلام، وكان عبد الله من عُبّاد أهل زمانه، وكاد أهل الشام أن يضطربوا لولا أنّ معاوية قال لهم: إنّ علياً قتل عَمَّاراً، لأنه أخرجه إلى الفتنة. ثم أرسل معاوية إلى عمرو: لقد أفسَدْتَ عليّ أهل الشام، أكلّ ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله تقوله! فقال عمرو: قلتُها ولستُ أعلم الغيب، ولا أدري أنّ صِفّين تكون! قلتُها وعمّار يومئذ لك وليٌّ، وقد رويتَ أنت فيه مثل ما رويت. فغضب معاوية وتنمّر لعمرو، وعزم على منعه خيرَه، فقال عمرو لابنه وأصحابه: لا خيْر في جوار معاوية، إنْ تجلّت هذه الحرب عنه لأفارقنّه - وكان عمرو حَمِيّ الأنف، قال:

تعاتِبني أن قلتُ شيئاً سمعتُه ... وقد قلتَ لو أنصفتَنِي مثلَه قَبْلِي
أنعلُك فيما قلتَ نعلٌ ثبيتَةٌ ... وتَزْلَقُ في مثل ما قلتُه نعلِي!
وما كان لي علمٌ بصِفّين أنّها ... تكون وعَمّارٌ يحثّ على قتلِي
ولو كان لِي بالغيْبِ علمٌ كتمتُها ... وكايدتُ أقواماً مراجِلُهمْ تَغْلِي[1]
أبى الله إلا أنّ صدرَك واغرٌ ... عليّ بلا ذنبٍ جنيتُ ولا ذحْل
سوى أنني والراقصاتِ عشيّةً ... بنصرك مدخول الهوى ذاهلُ العقلِ
فلا وضَعَتْ عَنّي حَصانٌ قِناعها ... ولا حملتْ وجْناءُ ذِعْلَبَةٌ رَحْلِي[2]
ولا زلتُ أُدْعَى في لؤيّ بن غالبٍ ... قليلاً غَنائِي لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي
إنِ الله أرخَى من خِناقِكَ مَرّةً ... ونلتَ الذي رجّيت إن لم أزُرْ أهلي
وأتركْ لك الشّامَ التي ضاق رُحْبُها ... عليك ولم يَهْنِكْ بها العيشُ من أجلِي

---

(١) المِرْجَل: قدر من حجارة أو نحاس. القاموس المحيط، مادة (رجل).
(٢) الوَجْناء: الناقة الشديدة. القاموس المحيط، مادة (وجن). والذعلبة: الناقة السريعة. القاموس المحيط، مادة (ذعلب).

فأجابه معاوية:

أالآن لما ألقت الحربُ بَرْكَها ... وقام بنا الأمر الجليلُ على رِجْلِ
غمزتَ قناتي بعد ستين حجّة ... تِبَاعاً كأني لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي!
أتيتَ بأمرٍ فيه للشام فتنةٌ ... وفي دون ما أظهرتَه زَلّةُ النَّعْلِ
فقلت لك القول الّذي ليس ضائراً ... ولو ضرّ لم يضرُرْكَ حملُك لي ثقْلي
تُعاتِبني في كلّ يوم وليلةٍ ... كأنّ الذي أبليكَ ليس كما أبلي
فيا قبَّحَ الله العتابَ وأهله ... ألم ترَ ما أصبحتُ فيه من الشُّغْلِ!
فدعْ ذا ولكنِ هل لك اليومَ حيلةٌ ... تردّ بها قوماً مراجِلُهم تَغْلِي!
دعاهم عليٌّ فاستجابوا لِدَعْوَةٍ ... أحبّ إليهم من ثَرَى المال والأهل
إذا قلت هابوا حَوْمَةَ الموت أرْقَلُوا ... إلى الموت إرقال الهَلُوك إلى الفَحْلِ

قال: فلما أتى عمراً شعر معاوية أتاه، فأعتبه وصار أمرهما واحداً.

قال نصر: ثم إن علياً عليه السلام دعا في هذا اليوم هاشم بن عُتْبة ومعه لواؤه [وكان أعور] فقال له: يا هاشم حتى متى! : فقال هاشم: لأجهدنّ ألاّ أرجع إليك أبداً. فقال عليّ عليه السلام: إنَّ بإزائك ذا الكَلاع، وعنده الموت الأحمر. فتقدّم هاشم فلما أقبل، قال معاوية: مَنْ هذا المقبل؟ فقيل: هاشم المِرْقال، فقال: أعور بن زُهْرة! قاتله الله! فأقبل هاشم وهو يقول:

أعْوَرُ يبغي نفسَه خَلاصا ... مثل الفَنِيقِ لابساً دِلاَصا[1]
لا ديَةً يخشَى ولا قِصاصا ... كلّ امرىء وإن كَبَا وحَاصَا
لَيْسَ يَرَى مِنْ يَوْمِه مَنَاصَا

فحمل أصحاب لواء ذي الكَلاع - وهو رجل من عُذْرة - فقال:

يا أعْوَرَ العين - وما بي من عَوَرْ - ... اثْبُتْ فإنّي لَسْتُ من فَرْعَيْ مُضَرْ
نحن اليمانونَ وَمَا فينَا خَوَرْ ... كَيْفَ تَرى وَقْعَ غُلاَمٍ من عُذَرْ!
ينعَى ابنَ عفّان ويلحَى مَنْ عَذَرْ ... سِيّانِ عندي مَنْ سَعَى ومَنْ أمَرْ

فاختلفا طعنتين، فطعنه هاشم فقتله، وكثرت القتلى حول هاشم، وحمل ذو الكَلاع، واختلط الناس واجتلدوا، فقتِل هاشم وذو الكَلاع جميعاً، وأخذ عبدُ الله بن هاشم اللواء وارتجز، فقال:

يا هاشمَ بنَ عتبةَ بنِ مالِكْ ... أعْزِزْ بشيخٍ من قُرَيْش هالِكْ!

---

(١) الفَنِيْقُ: الفحل المكرم، لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب. القاموس المحيط مادة (فنق).

تحيطه الخيلانُ بالسنابك في أسودٍ من نقعهنّ حَالِك
أبشرْ بحورِ العين في الأرائك والرَّوْح والريحانِ عندَ ذلك

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، قال: أخذ عبد الله بن هاشم بن عتبة راية أبيه، ثم قال: أيّها الناس، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذي قدّر أرزاقهم، وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم، فدعاه الله ربّه فاستجاب لأمره، وسلّم لأمره، وجاهد في طاعة ابن عمّ رسوله. أول مَنْ آمن به، وأفقههم في دين الله، الشديد على أعداء الله، المستحلّين حُرم الله، الذين عملوا في البلاد بالجَوْر والفساد، واستحوَذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكرَ الله، وزيّن لهم الإثم والعدوان، فحقّ عليكم جهادُ مَنْ خالف الله، وعطّل حدوده، ونابذَ أولياءه. جودوا بمهجكم في طاعة الله في هذه الدنيا، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى، والأبد الذي لا يفنى. فوالله لو لم يكن ثوابٌ ولا عقاب، ولا جنّة ولا نار، لكان القتالُ مع عليّ أفضلَ من القتال مع معاوية، فكيف وأنتم ترجون ما ترجون!

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، قال: لما انقضى أمرُ صِفّين، وسلّم الحسن عليه السلام الأمرَ إلى معاوية، ووفدت عليه الوفود، أشخِص عبد الله بن هاشم إليه أسيراً، فلمّا مثَل بين يديه، وعنده عمرو بن العاص، قال: يا أميرَ المؤمنين، هذا المختال بن المرقال، فدونك الضبُّ المضبّ، المغرّ المفتون، فاقتله، فإنّ العصا من العُصيّة، وإنما تلد الحيّةُ حُيَيّة، وجزاء السيئة سيئة مثلها.

فقال عبد الله: إن تقتلني فما أنا بأوّل رجل خذله قومُه، وأسلمه يومُه. فقال عمرو: يا أميرَ المؤمنين، أمكنّي منه أشخب أوداجه على أثباجه. فقال عبد الله: فهلاّ كانت هذه الشجاعة منك يابن العاص في أيام صِفّين، ونحن ندعوك إلى النِّزال، وقد ابتلّت أقدام الرجال من نقيع الجريال، وقد تضايقت بك المسالك، وأشرفتَ منها على المهالك! وايمُ الله لولا مكانُك منه لرميتُك بأحدّ مِنْ وقع الأشافي، فإنك لا تزال تكثر في هَوَسِك، وتخبِط في دَهَسِك، وتنشِبُ في مَرسك، [تخبط العشواء، في الليلة الحِندِس الظلماء]. فأمر معاوية به إلى الحبس، فكتب عمرو إلى معاوية:

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتَني وكانَ من التوفيق قتلُ ابن هاشم
وكان أبوه يا معاويةُ الذي رَمَاكَ على حربٍ بحزّ الغلاصِمَ[1]

(١) الغلاصم: مفردها غلصمة: وهي اللحم بين الرأس والعنق، أو رأس الحلقوم. القاموس المحيط مادة (غلصم).

فـقـتّـلـنـا حـتـى جـرت مـن دمـائـنـا بصِفّين أمثالُ البحور الخضارمِ[١]
وهـذا ابنُـه، والـمـرء يـشـبـهُ أصلَـه ستقرَع - إن أبقيتَه - سِنّ نادم!

فبعث معاوية بالشعر إلى عبد الله بن هاشم، فكتب في جوابه من السجن:

مـعـاويَ إن الـمـرءَ عَـمْـراً أبـتْ لـه ضـغـيـنـةُ صَـدْرٍ وُدّهـا غـيـر سـالـم
يـرى لـك قـتـلِـي يـابـن حَـرْبٍ، وإنّـمـا يَرَى ما يَرَى عمرو ملوكُ الأعاجم
عـلـى أنـهـم لا يـقـتـلـون أسِـيـرَهُـمْ إذا كـان فـيـه مَـنْـعَـةٌ لـلـمـسـالـمِ
وقـد كـان مـنّـا يـوم صِـفّـيـن نَـفْـرَةٌ عـلـيك، جناها هاشمٌ وابن هاشم
قضى الله فيها ما قضى ثمّتَ انقضى ومـا مـا مَـضـى إلاّ كـأضـغـاثِ حـالـم
فإن تـعـفُ عنّـي تـعـفُ عـن ذِي قرابةٍ وإن تـرَ قَـتْـلـي تـسـتـحـلّ مـحـارمـي

هذه رواية نصر بن مزاحم[٢].

وروى أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الله المرزبانيّ، أنّ معاوية لما تمّ له الأمر بعد وفاة عليّ عليه السلام، بعث زياداً على البصرة، وناد منادي معاوية: أمِنَ الأسودُ والأحمرُ بأمان الله، إلا عبد الله بن هاشم بن عُتْبة! فمكث معاوية يطلبه أشدّ الطلب، ولا يعرف له خبراً، حتى قدم عليه رجلٌ من أهل البصرة، فقال له: أنا أدُلُّك على عبد الله بن هاشم بن عتبة، اكتب إلى زياد، فإنه عند فلانة المخزوميّة، فدعا كاتبه فكتب: من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمِدْ إلى حيّ بني مخزوم، ففتّشه داراً داراً، حتى تأتيَ إلى دار فلانة المخزوميّة، فاستخرج عبد الله بن هاشم المِرْقال منها، فاحْلِقْ رأسَه، وألبسه جُبَّة شَعَر، وقيّده، وغُلّ يده إلى عنقه، واحمِلْه على قَتَب بعير بغير وطاء ولا غذاء، وانفُذْ به إليّ.

قال المرزبانيّ: فأما الزبير بن بكّار فإنه قال: إنّ معاوية قال لزياد لما بعثه إلى البصرة: إنّ عبد الله بن المِرْقال في بني ناجِية بالبصرة، عند امرأة منهم يقال لها فلانة، وأنا أعزم عليك إلا حَطَطْت رَحْلك ببابها، ثم اقتحمت الدار واستخرجتَه منها، وحملْتَه إليّ.

فلما دخل زياد إلى البصرة، سأل عن بني ناجية، وعن منزل المرأة فاقتحم الدار،

---

(١) الخَضَارم: مفردها خِضْرِم: وهو الكثير الماء، لسان العرب، مادة (خضرم).
(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ١/ ١٧١، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٣٣/ ٣٤٥.

واستخرج عبد الله منها، فأنفذه إلى معاوية فوصل إليه يوم الجمعة، وقد لاقى نَصَباً كثيراً، ومن الهجير ما غيّر جسمَه، وكان معاوية يأمر بطعام فيتّخذ في كلّ جمعة لأشراف قريش ولأشراف الشام ووفود العراق، فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه، وقد ذَبل وسَهَمَ وجهه، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص، فقال معاوية: يا أبا عبد الله، أتعرف هذا الفتى؟ قال: لا، قال: هذا ابن الّذي كان يقول في صِفّين:

أغــوَر يــبــغــي أهــلَــه مَــحــلاّ قَــدْ عــالَــجَ الــحــيــاة حــتــى مــلاّ
لا بــــدّ أن يَـــفُـــلّ أو يُـــفَـــلاّ

قال عمرو: وإنه لهو! دونك الضّب المضِبّ، فاشخب أوداجَه، ولا تَرْجِعْه إلى أهل العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق، وله مع ذلك هوًى يُرْدهيه، وبطانة تغويه، فوالذي نفسي بيده لئِنْ أفلَتَ من حَبائلك، ليُجَهّزن إليك جيشاً تكثر صواهله، لشرّ يوم لك. فقال عبد الله وهو في القيد: يابن الأبتر، هلاّ كانت هذه الحماسة عندك يوم صِفّين، ونحن ندعوك إلى البراز، وتلوذ بشمائل الخيل كالأمَة السوداء والنّعجة القوداء! أما إنه إن قتلني قَتل رجلاً كريم المخبرة، حميد المقدرة، ليس بالجِبْس المنكوس، ولا الثِّلْب المركوس. فقال عمرو: دع كيتَ وكيتَ، فقد وقعت بين لَحْيَي لَهْزَم، فرُوس للأعداء، يسعطك إسعاطَ الكودَن[1] الملجم. قال عبد الله: أكثر إكثارك، فإني أعلمكَ بَطِراً في الرخاء، جباناً في اللقاء، هيّابة عند كفاح الأعداء، ترى أنْ تقيَ مهجتَك، بأن تبديَ سوءتك. أنسيتَ يوم صفّين وأنت تُدْعى إلى النزال، فتحيد عن القتال، خوفاً أن يغمرَك رجال لهم أبدان شداد، وأسنّة حداد، ينهبون السَّرح، ويذلّون العزيز.

قال عمرو: لقد علم معاوية أني شهدت تلك المواطن، فكنت فيها كمِدرَة الشوْك، ولقد رأيت أباك في بعض تلك المواطن تخفِق أحشاؤه، وتنقّ أمعاؤه. قال: أما والله لو لقيَك أبي في ذلك المقام، لارتعدتْ منه فرائصك، ولم تسلَم منه مهجتُك، ولكنه قاتل غيرَك فقتل دونك.

فقال معاوية، ألا تسكت لا أمّ لك! فقال: يابن هند، أتقول لي هذا! والله لئن شئت لأعرقنّ جبينك، ولأقيمنّك وبين عينيك وَسْم يلين له أخدَعاك. أبأكثر من الموت تخوّفني! فقال معاوية: أو تكفّ يابن أخي! وأمر به إلى السجن.

فقال عمرو: وذكر الأبيات، فقال عبد الله: وذكر الأبيات أيضاً، وزاد: «فأطرق معاوية طويلاً حتى ظنّ أنه لن يتكلم»، ثم قال:

أرَى الـعـفـوَ عـن عُـلْـيَـا قـريـشٍ وسـيـلـةً إلـى الله فـي الـيـوم الـعَـبُـوس الـقـمـاطـرِ
ولـسـتُ أرى قـتـلِـي فـتًـى ذا قـرابـة لـه نـسـب فـي حـيّ كَـعْـبٍ وعـامـرِ
بـل الـعـفـوَ عـنـه بـعـدمـا خـابَ قِـدْحُـه وزلّـتْ بـه إحـدى الـجـدود الـعـواثـرِ

---

(١) الكودن: البرذون الهجين، وقيل: البغل. لسان العرب مادة (لحدن).

وكـان أبـوه يـوم صِـفّـيـن مـحـنَـقـاً عـلـيـنـا، فـأردتـه رمـاحُ يُـحـابِـرِ

ثم قال له: أتراك فاعلاً ما قال عمرو من الخروج علينا! قال: لا تسل عن عَقِيدات الضمائر، لاسيما إذا أرادت جهاداً في طاعة الله. قال: إذن يقتلك الله كما قتل أباك، قال: ومَنْ لي بالشهادة!

قال: فأحسن معاوية جائزته، وأخذ عليه موثقاً ألا يساكنه بالشام فيفسد عليه أهله.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمِر، عن السّديّ، عن عبد خير الهمدانيّ، قال: قال هاشم بن عُتبْة يوم مقتله: أيّها الناس، إني رجل ضَخم، فلا يهولنّكم مسقطي إذا سقطت، فإنه لا يفْرَغ مني أقلّ من نَحْر جَزور، حتى يفرُغ الجزارُ من جَزرها. ثم حمل فصرِع، فمرّ عليه رجل وهو صريع بين القتلى، فناداه: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وقل له: بركات الله ورحمته عليك يا أمير المؤمنين، أنشُدك الله إلا أصبحت وقد ربطت معاوِدَ خيلك بأرجل القتلى، فإنَّ الدبْرة تصبح غداً لمن غلَب على القتلى. فأخبَر الرجلُ علياً عليه السلام بما قاله، فسار في الليل بكتائبه حتى جعل القتلى خلْف ظهره، فأصبح والدَّبْرة له على أهل الشام.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمِر، عن السديّ، عن عبد خير، قال: قاتل هاشمُ الحارثَ بن المنذر التَّنوخيّ، حمل عليه بعد أن أعيا وكلّ، وقتل بيده، فطعنه بالرّمح فشقّ بطنَه فسقط، وبعث إليه عليّ عليه السلام وهو لا يعلم: أقدِم بلوائك، فقال للرسول: انظر إلى بطني، فإذا هو قد انشقّ، فجاء عليّ عليه السلام حتى وقف عليه، وحوله عصابة من أسلم قد صرِعوا معه، وقوم من القراء، فجزع عليه، وقال:

جَـزى الله خـيـراً عُـصْـبَـةً أسـلَـمـيّـةً صِباح الوُجوه صُرّعُوا حَوْلَ هاشمِ
يـزيـد وسـعـدان وبِـشـرٌ وَمُـعَـبـدٌ وسفيان، وابنا معبدٍ ذي المكارم
وعُـروة لا يَـبْـعَـدْ نَـثَـاهُ وذكْـرُهُ إذا اخترِطت يوماً خفافُ الصوارم

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، عن أبي سلمة، أنَّ هاشم بن عتبة استصرخ الناس عند المساء: ألا مَنْ كان له إلى الله حاجة، ومن كان يريد الآخرة فليقبِل. فأقبل إليه ناس كثير شدّ بهم على أهل الشام مراراً، ليس من وجه يحمل عليه إلا صبروا له، فقاتل قتالاً [شديداً] ثم قال لأصحابه: لا يهولنّكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون منهم إلا حميّة العرب وصبرها تحت راياتها، وعند مراكزها، وإنّهم لعلى الضلال، وإنكم لعلى الحق، يا قوم

اصبروا وصابروا واجتمعوا، وامشوا بنا إلى عدوّنا على تؤدة، رويداً، واذكروا الله، ولا يُسلمنّ رجل أخاه، ولا تُكثِروا الالتفات، واصمُدوا صمدهم، وجالدوهم محتسبين، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين.

قال أبو سلمة: فبينا هو وعصابة من القُرّاء يجالدون أهل الشام، إذ طلع عليهم فتًى شابٌّ، وهو يقول:

أنـا ابـن أربـاب مـلـوكِ غَـسّـانْ | والـدائـنُ الـيـوم بـدِيـن عـثـمـانْ
أنـبـأنـا قـراؤنـا بـمـا كـان | أنّ عـلـيًّـا قـتـلَ ابـنَ عـفـانْ

ثم شدّ لا ينثني حتى يضربَ بسيفه، ثم جعل يلعن عليًّا ويشتِمه ويُسهب في ذمّه، فقال له هاشم بن عتبة: يا هذا إنّ الكلام بعده الخصام، وإنّ لعنَك سيّد الأبرار، بعده عقاب النار. فاتّق الله، فإنك راجع إلى ربك فيسألك عن هذا الموقف وعن هذا المقال. قال الفتى: إذا سألني ربّي قلت: قاتلتُ أهلَ العراق، لأن صاحبهم لا يصلّي كما ذُكِر لي، وإنهم لا يصلّون، وصاحبُهم قتل خليفتَنا، وهمْ آزروه على قتله. فقال له هاشم: يا بنيّ، وما أنت وعثمان! إنما قتله أصحابُ محمد، الذين هم أولى بالنظر في أمور المسلمين، وإنّ صاحبنا كان أبعدَ القوم عن دمه، وأما قولك: «إنه لا يصلّي»، فهو أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله، وأوّل من آمن به. وأما قولك: إن أصحابه لا يصلّون، فكلّ مَن ترى معه قراء الكتاب، لا ينامون الليل تهجّداً، فاتّق الله واخشَ عقابه، ولا يغرُرْك من نفسك الأشقياء الضالُّون.

فقال الفتى: يا عبد الله، لقد دخل قلبي وجلٌ من كلامك، وإني لأظنّك صادقاً صالحاً، وأظنّني مخطئاً آثماً، فهل لي من توبة؟ قال: نعم، ارجع إلى ربّك وتب إليه، فإنه يقبل التوبةَ ويعفو عن السيئات، ويحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين. فرجع الفتى إلى صفّه منكسراً نادماً، فقال له قوم من أهل الشام: خدعك العراقيّ! قال: لا، ولكنْ نصحني العراقيّ.

قال نصر: وفي قتل هاشم وعمار تقول امرأة من أهل الشام:

لا تـعـدَمُـوا قـومـاً أذاقـوا ابـنَ يـاسـرٍ | شَـعـوبـاً ولـم يـعـطـوكـمُ بـالـخـزائـمِ[1]
فـنـحـنُ قـلـتـنـا الـيـثـربـيَّ ابـن مِـحْـصَـنٍ | خـطـيـبـكـمُ وابـنـي بُـدَيْـل وهـاشـمِ

قال نصر: أما اليثربيّ، فهو عمرو بن مِحصن الأنصاريّ، وقد رثاه النجاشيّ شاعر أهل العراق، فقال:

لنِعْمَ فتى الحيَّيْن عمرو بن مِحْصَنٍ | إذا صارخُ الـحـيّ الـمـصـبَّـحُ ثـوَّبـا

(١) الشَّعُوب: المنيّة. لسان العرب، مادة (شعب).

إذا الخيل جالت بينها قِصَدُ القنا يثرن عَجَاجاً ساطِعاً متنصّبا
لقد فُجع الأنصارُ طرًّا بسيِّدٍ أخي ثقةٍ في الصَّالحات مجرَّبا
فيا رُبَّ خيرٍ قد أفدتَ، وجفنةٍ ملأتَ، وقِرْنٍ قد تركت مسلّبا
ويا ربّ خَصْمٍ قد رددتَ بغيظِهِ فآبَ ذليلاً بعد أن كان مُغْضَبا
وراية مجدٍ قد حملتَ وغَزْوَةٍ شهدتَ إذ النِّكْسُ الجبانُ تَهيَّبا
حويطاً على جلّ العشيرة ماجداً وما كنت في الأنصار نِكْساً مؤنّبا
طويلَ عمادِ المجد رَحْباً فِناؤه خَصِيباً إذا ما رائد الحيّ أجدبا
عظيمَ رمادِ النار لم يكُ فاحشاً ولا فَشِلاً يوم النِّزال مغلَّبا
وكنتَ ربيعاً ينفع الناسَ سيبُهُ وسيفاً جُرَازاً باتِكَ الحدِّ مِقضبَا
فمن يك مسروراً بقتل ابن مِخْصَنٍ فعاش شقيًّا ثم مات معذّبا
وغُودِر منكبًّا لفيهِ ووَجْهِهِ يعالج رمحاً ذا سنانٍ وثعلَبا[1]
فإن يقتلوا الحرّ الكريم ابنَ مِخْصَنٍ فنحن قتلنا ذا الكَلاع وحَوْشبا
وإن يقتلوا ابنيْ بُدَيْل وهاشماً فنحن تركنا منكُمُ القَرْن أعضَبا
ونحن تركنا حِمْيراً في صفوفكم لدَى الحرب صَرْعى كالنّخيل مُشَذّبا
وأفلتَنَا تحت الأسنّة مرثِدٌ وكان قديماً في الفرار مدرّبا
ونحن تركنا عند مختلف القنا أخاكم عُبيد الله لحماً ملحّبَا
بصفّين لما ارفضّ عنه رجالكمْ ووجه ابن عتّاب تركناه مُلْغَبَا
وَطَلْحة من بعد الزبير ولم ندعْ لضبّةَ في الهيْجا عريفاً وَمَنْكِبَا
ونحن أحطنا بالبعير وأهلِه ونحن سقيناكُمْ سِماماً مقشَّبا[2]

قال نصر: وكان ابن مِخصن من أعلام أصحاب عليّ عليه السلام، قتل في المعركة وجزع عليٌّ عليه السلام لقتله.

قال: وفي قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانيّ، وهو من الصحابة - وقيل إنه آخر مَنْ بقي من صَحْب رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهد مع عليّ صِفّين، وكان من مخلصي الشيعة:

يا هاشمَ الخيرِ جُزيت الجَنَّهْ قاتلتَ في الله عَدُوّ السُّنّهْ

(١) اللحم الملحّب: المقطع طولاً. القاموس المحيط مادة (لحب).
(٢) المقشب: المخلوط بالطعام. لسان العرب، مادة (قشب).

والتاركِي الحق وأهل الظِّنّة أعظِمْ بما فزت به مِنْ مِنّة!
صَيّرني الدهر كأنّي شَنّة وسوف تعلو حول قبري رَنّة
من زوجةٍ وحَوبَةٍ وكَنّة

قال نصر: والحَوْبة القرابة، يقال: لي في بني فلان حَوْبَةٌ، أي قُرْبَى.

قال نصر: وقال رجلٌ من عُذْرة، من أهل الشام:

لقد رأيتُ أموراً كلُّها عَجَبٌ وما رأيتُ كأيّامٍ بصفّينا
لَمّا غَدَوْا وغدوْنَا كلُّنا حَنِقٌ كما رأيتَ الجِمالَ الجِلّةَ الجُونَا[1]
خيلٌ تجولُ وأخرى في أعِنّتِهَا وآخرون على غيظٍ يُرَامُونَا
ثم ابتذلْنَا سيوفاً في جماجمهمْ وَمَا نساقِيهمُ من ذاك يَجْزونا
كأنها في أكفّ القوم لامعةً سلاسلُ البرق يَجْدَعْنَ العرانينا[2]
ثم انصرفْنَا كأشلاءٍ مقطّعةٍ وكلُّهم عند قتلاهم يصلّونَا

قال نصر: وقال رجل لعديّ بن حاتم الطائيّ - وكان من جملة أصحاب عليّ عليه السلام - يا أبا طَريف، ألم أسمعْك تقول يوم الدار: «والله لا تحبِقُ فيها عَنَاقٌ حَوْليّة»! وقد رأيتَ ما كان فيها! وقد كان فقئت عين عديّ، وقتل بنوه - فقال: أما والله لقد حَبَقَتْ في قتله العَنَاق والتيس الأعظم.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، قال: بعث عليّ عليه السلام خيلاً ليحبسوا عن معاوية مادّته، فبعث معاوية الضحاك بن قيس الفِهْرِيّ في خيل إلى تلك الخيل، فأزالوها، وجاءت عيون عليّ عليه السلام فأخبروه بما كان، فقال لأصحابه: ما ترون فيما ها هنا؟ فقال بعضهم: نرى كذا، وقال بعضهم: نرى كذا، فلما زاد الاختلاف، قال عليّ عليه السلام: اغدُوا إلى القتال، فغاداهم إلى القتال، فانهزمت صفوف الشام من بين يديه ذلك اليوم، حتى فَرّ عتبة بن أبي سفيان عشرين فرسخاً عن موضع المعركة، فقال النجاشيّ فيه من قصيدة أولها:

---

(١) جِلّة الإبل: مَسَانُّها. لسان العرب، مادة (جلل). والجُون من الإبل والخيل: الأدهم، القاموس المحيط، مادة (جون).

(٢) العرانين: الأنوف. القاموس المحيط مادة (عرن).

لقد أمعنتَ يا عتبُ الفِرارَا ... وأورثَك الوغَى خِزياً وعارا
فلا يحمِدْ خُصاك سوى طِمِرٍ ... إذا أجريتَهُ انهمر انهمارا

وقال كعب بن جُعيل - وهو شاعر أهل الشام - بعد رفع المصاحف، يذكر أيام صِفّين ويحرّض معاوية:

معاوِيَ لا تنهضْ بغير وثيقةٍ ... فإنّكَ بعد اليوم بالذلّ عارفُ
تركتم عبيد الله بالقاع مسنَداً ... يمجّ نجيعاً والعروق نوازفُ[1]
ألا إنّما تبكي العيونُ لفارسٍ ... بصِفّين أجلَتْ خيلُهُ وهو واقفُ
ينوءُ وتعلوهُ شآبيبُ من دمٍ ... كما لاح في جيب القميص اللّفائفُ
تبدّل من أسماءَ أسيافَ وائلٍ ... وأيّ فتى لو أخطأته المتالفُ!
ألا إن شَرّ الناس في الناس كلّهمْ ... بنو أسد، إنّي بما قلتُ عارفُ
وفرّت تميم: سعدُها وربابُها ... وخالفت الجعراءُ فيمن يخالفُ
وقد صبرت حولَ ابن عمّ محمدٍ ... على الموت شهباءُ المناكب شارف
فما برحوا حتى رأى الله صبرهم ... وحتى أتيحت بالأكفّ المصاحفُ

وقد تقدم ذكر هذه الأبيات بزيادة على ما ذكرناه الآن.

قال نصر: وهجا كعبَ بن جُعَيل عتبةُ بن أبي سفيان وعيّره بالفرار، وكان كعب من شيعة معاوية، لكنّه هجا عتبة تحريضاً له، فهجاه عتبة جواباً، فقال له:

وَسُمّيتَ كعباً بشرّ العظا ... م وكان أبوك يُسَمَّى الجُعَلْ
وإنّ مكانك من وائلٍ ... مكانُ القُرادِ من است الجَمَلْ

قال نصر: ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة الخميس، حدّثنا بها عمر بن سعد، عن سليمان الأعمش عن إبراهيم النّخعِيّ، قال: حدثنا القعقاع بن الأبرد الطُّهَوِيّ، قال: والله إني لواقف قريباً من عليّ عليه السلام بصِفّين يوم وقعة الخميس، وقد التقتْ مذحِج - وكانوا في ميمنة عليّ عليه السلام - وعكّ ولخم وجُذام والأشعريّون، وكانوا مستبصرين في قتال عليّ عليه السلام، فلقد والله رأيتُ ذلك اليوم من قتالهم، وسمعت من وقع السيوف على الرؤوس وخبْط الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى، ما الجبال تَهِدّ، ولا الصواعق تصعَق، بأعظم من هؤلاء في الصدور من تلك الأصوات. ونظرتُ إلى عليّ عليه السلام وهو قائم، فدنوت منه فأسمعُه يقول: لا

(١) النَّجيع: الدم المائل إلى السواد، أو دم الجوف. القاموس المحيط، مادة (نجع).

حول ولا قوة إلا بالله! اللهمّ إليك الشكوى وأنت المستعان! ثم نهض حين قام قائم الظهيرة وهو يقول: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1]. وحمل على الناس بنفسه، وسيفُه مجرّد بيده، فلا والله ما حجز بين الناس ذلك اليوم إلا الله ربُّ العالمين، في قريب من ثلث الليل الأول، وقتِلتْ يومئذ أعلام العرب، وكان في رأس عليٍّ عليه السلام ثلاثُ ضَرَبات، وفي وجهه ضربتان.

قال نصر: وقد قيل: إنّ علياً عليه السلام لم يخرج قطّ، وقتِل في هذا اليوم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقتِل من أهل الشام عبد الله بن ذي الكَلاع الحميريّ، فقال معقل بن نَهِيك بن يساف الأنصاريّ:

يا لهفَ نفسِي ومَنْ يشفي حَزَازَتَها ... إذ أفلتَ الفاسِقُ الضِّلِّيل منطلقَا
وأفلت الخيلَ عمرو وهي شاحِبَةٌ ... تحت العجاج تحتَ الرّكْض والعَنَقَا[2]
وافت منيّة عبد الله إذ لحقتْ ... قبّ الخيول به، أعْجِزْ بمن لُحِقَا
وانساب مروانُ في الظّلْماء مستتراً ... تحت الدجَى كلّما خافَ الردى أرقا

وقال مالك الأشتر:

نحن قتلنا حوشباً ... لمّا غدا قد أعلما
وذَا الكَلاع قبلَهُ ... ومَعْبَداً إذْ أقدما
إن تقتلوا منا أبا الـ ... يقظانِ شيخاً مسلِمَا
فقد قتلنا منكمُ ... سبعين كَهْلاً مجرِما
أضحوا بصِفّين وقدْ ... لاقوْا نَكالاً مؤلِمَا

وقالت ضُبيعة بنت خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ترثي أباها رحمه الله:

عيْن جودي على خزيمة بالدمْـ ... ـعِ قتيلِ الأحزاب يَوم الفُراتِ
قتلوا ذا الشّهادتين عُتوًّا ... أدرك الله منهم بالتِّراتِ!
قتلوه في فتية غير عُزْلٍ ... يسرعون الركوبَ في الدَّعَواتِ
نصروا السيّد الموفّق ذا العد ... لِ، ودانوا بذاك حتى المماتِ
لعنَ الله معشراً قتلوه ... ورماهمْ بالخزْيِ والآفاتِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٢) العَنَقُ: ضرب من السير فسيح سريع. المصباح المنير، مادة (عنق).

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الأعمش، قال: كتبَ معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان سيّداً معظماً من سادات الأنصار، وكان من شيعة عليّ عليه السلام - كتاباً، وكتب إلى زياد بن سميّة - وكان عاملاً لعليّ عليه السلام على بعض فارس - كتاباً ثانياً. فأما كتابه إلى أبي أيوب فكان سطراً واحداً: حاجيْتك! «لا تنسى الشيباء أبا عُذرها، ولا قاتل بِكْرها»، فلم يدر أبو أيوب ما هو! قال: فأتى به عليًا عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن معاوية كهف المنافقين، كتب إليّ بكتاب لا أدري ما هو! قال عليّ عليه السلام: فأينَ الكتاب؟ فدفعه إليه، فقرأه، وقال: نعم، هذا مثل ضربه لك، يقول: لا تنسى الشيباء أبا عذرها. والشيباء: المرأة البِكْر ليلةَ افتضاضها، لا تنسى بعلها الذي اقترعها أبداً، ولا تنسى قاتل بِكْرها، وهو أول ولدها، كذلك لا أنسى أنا قتل عثمان.

وأما الكتابُ الذي كتبَه إلى زياد، فإنّه كان وعيداً وتهدُّداً، فقال زياد: ويْلِي عَلَى معاوية، كهفِ المنافقين وبقيّة الأحزاب! يتهدّدني ويتوعّدني، وبيني وبينه ابنُ عمّ محمد، معه سبعون ألفاً، سيوفهم على عواتقهم، يطيعونه في جميع ما يأمرهم به، لا يلتفت رجل منهم وراءه حتى يموت! أما والله لو ظفِر ثم خَلَص إليّ ليجدنّني أحمرَ ضرّاباً بالسيف.

قال نصر: أحمر أي مولى. فلما ادّعاه معاوية عاد عربيًّا مَنافياً.

قال نصر: وروى عمرو بن شمِر أنّ معاوية كتب في أسفَل كتابه إلى أبي أيوب:

أبـلِـغْ لـديـك أبـا أيـوبَ مـألُـكـةً ... أنّـا وقـومُـك مـثـل الـذئـب والـنَّـقَـدِ[1]

إمّـا قـتـلْـتـم أمـيـر الـمـؤمـنـيـن فَـلا ... تَـرْجُـوا الـهـوادة مِـنّـا آخـر الأبـد

إنّ الـذي نـلـتـمـوه ظـالـمـيـنَ لَـهُ ... أبـقـتْ حَـزَازتُـه صَـدْعـاً عـلـى كـبِـدي

إنّـي حـلـفـتُ يـمـيـنـاً غـيـرَ كـاذبـةٍ ... لـقـد قـتـلـتـم إمـامـاً غـيـرَ ذي أوَدِ

لا تـحـسِـبـوا أنـنـي أنـسـى مـصـيـبـتَـهُ ... وفـي الـبـلاد مـن الأنـصـار مـن أحَـدِ

قـد أبـدلَ الله مـنـكُـمْ خَـيْـر ذي كَـلَـعٍ ... والـيـحـصـبـيّـيـن أهْـل الـخـوف والـجـنَـد

إن الـعـراق لـنـا فـقـعٌ بـقـرقـرةٍ ... أو شـحـمـةٌ بـزّهـا شـاوٍ ولـم يـكَـدِ

والـشـام يـنـزلـهـا الأبـرار، بـلـدتُـهـا ... أمـنٌ وبَـيْـضـتُـهـا عِـرّيـسـةُ الأسـد

فلما قرِىء الكتاب على عليّ عليه السلام، قال: لشدّ ما شحذَكم معاوية! يا معشر الأنصار أجيبوا الرجل، فقال أبو أيوب: يا أميرَ المؤمنينَ، إني ما أشاء أن أقولَ شيئاً من الشعر يعيا به الرجال إلا قلته، فقال: فأنت إذاً أنت.

---

(١) المألُكَة: الرسالة. القاموس المحيط، مادة (ألك).

فكتب أبو أيوب إلى معاوية: أمّا بعد، فإنك كتبت: «لا تنسى الشَّيباء أبا عُذْرها، ولا قاتل بِكْرها»، فضربتَها مثلاً بقتل عثمان، وما نحن وقتل عثمان! إنّ الذي تربص بعثمان وثبّط يزيد بن أسد وأهلَ الشام عن نُصرته لأنتَ، وإنّ الذين قتلوه لغيرُ الأنصار، وكتب في آخر كتابه:

لا تـوعِـدنَّـا ابـنَ حـرب إنـنـا نـفـرٌ ... لا نـبـتـغي وُدّ ذِي الـبـغـضـاء من أحـدِ
واسْعَوْا جميعاً بني الأحزاب كلّكُمُ ... لـسـنـا نـريـد رِضَـاكُـمْ آخـر الأبـدِ
نـحـنُ الّـذِيـن ضـربْـنَا الـنّـاس كـلَّـهُـمُ ... حتى استقامُوا وكانوا عُرْضة الأوَدِ[1]
والـعـامَ قـصـرُك مِـنّـا إن ثـبـتّ لـنـا ... ضـربٌ يـزيِّـل بـيـنَ الـرُّوح والـجـسـدِ
أمّـا عـلـيٌ فـإنـا لا نـفـارقُـه ... مـا رفـرفَ الآلُ فـي الـدوِّيَّـة الـجَـرَدِ
إمّـا تـبـدّلـتَ مِـنّـا - بـعـد نُـصـرتِـنـا ... دينَ الرسول - أناساً ساكِنِي الجَنَدِ
لا يـعـرفـون أضـلّ الله سـعـيـهـمُ ... إلا اتّـبـاعـكـم، يـا راعـيَ الـنَّـقَـدِ
فقد بغى الحقّ هَضماً شرُّ ذي كَلَعٍ ... والـيـحـصـبـيّـونَ طُرًّا بـيـضـةُ الـبـلـد

قال: فلّما أتى معاوية كتابُ أبي أيوب كَسَره.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شِمر، قال: حدثني مجالد، عن الشعبيّ، عن زياد بن النَّضْر الحارثيّ، قال: شهدتُ مع عليّ عليه السلام صِفّين، فاقتتلنا مرة ثلاثة أيام، وثلاث ليال، حتى تكسّرت الرماح، ونفِدَت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل، حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث، يعانق بعضُنا بعضاً، ولقد قاتلتُ ليلتئذٍ بجميع السلاح، فلم يبقَ شيءٌ من السلاح إلا قاتلتُ به، حتى تحاثَيْنا بالتراب، وتكادَمْنا[2] بالأفواه، حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا إلى بعض، ما يستطيع أحدٌ من الفريقين أن ينهضَ إلى صاحبه، ولا يقاتل، فلما كان نصفُ الليل من الليلة الثالثة، انحاز معاوية وخيله من الصفّ وغلب عليّ عليه السلام على القَتْلَى، فلما أصبح أقبل على أصحابه يدفنهم وقد قتِل كثير منهم، وقتل من أصحاب معاوية أكثر، وقتِل فيهم تلك الليلة شِمر بن أبرهة.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن جابر عن تميم، قال: والله إنّي لمع عليّ عليه السلام، إذ أتاه علقمة بن زهير الأنصاريّ، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمرو بن العاص يرتجز في الصفّ بشعر، أفأسمعكه! قال: نعم، قال: إنه يقول:

---

(١) الأوَد: الاعوجاج. القاموس المحيط، مادة (أود).
(٢) كَدَمه: عضّه بأدنى فمه. القاموس المحيط، مادة (كدم).

إذا تخازَرْتُ وما بي من خَزَرْ ... ثم كَسَرْتُ العين من غير عَوَرْ[١]
ألفيتَني ألوَى بعيدَ المستمرْ ... ذا صولةٍ في المصمئلاتِ الكُبَرْ
أحمل ما حُمّلتُ من خير وشرّ ... كالحيّة الصّماءِ في أصل الحَجَرْ

فقال عليّ: اللهمَّ العنه، فإنّ رسولك لعنه، قال علقمة: وإنّه يا أميرَ المؤمنين يرتجز برجز آخر، فأنشدك؟ قال: قل، فقال:

أنا الغلامُ القرشيّ المؤتَمنْ ... الماجِدُ الأبلجُ ليثٌ كالشَّطَنْ[٢]
ترضى بيَ الشامُ إلى أرض عَدَنْ ... يا قادة الكوفة، يا أهل الفِتَنْ
أضربُكم ولا أرَى أبا حَسَنْ ... كَفَى بهذا حَزَناً من الحَزَنْ!

فضحك عليّ عليه السلام، وقال: إنّه لكاذب، وإنّه بمكاني لعالم، كما قال العربيّ: «غير الوَهْي ترقعين وأنت مبصرة»، ويْحكم! أروني مكانه، لله أبوكم، وخلاكم ذَمّ!

وقال محمد بن عمرو بن العاص:

لو شهدت جُمْلٌ مقامي ومشهدي ... بصِفّين يوماً شاب منها الذوائبُ
غداةَ غَدَا أهلُ العراق كأنّهمْ ... من البحر موجٌ لُجّهُ متراكبُ
وجئناهُمُ نمشِي صفوفاً كأنّنا ... سحاب خريفٍ صفَّفَتْهُ الجنائبُ
فطارتْ إلينا بالرماح كُماتُهُمْ ... وطِرْنَا إليهمْ والسيوفُ قواضبُ
فدارتْ رَحاناً واستدارت رحاهُمُ ... سَرَاةَ نهارٍ ما تولّى المناكبُ
إذا قلت يوماً قد ونوا برزتْ لنَا ... كتائب منهم واحجنّت كتائبُ
وقالوا نرى من رأينا أن تُبايعوا ... عليًّا، فقلنا بل نرى أن نضاربَا
فأبْنَا وقد أردَوْا سَرَاة رجالنا ... وليس لما لاقَوْا سوى الله حاسبُ
فلم أر يوماً كان أكثر باكياً ... ولا عارضاً منهم كميًّا يكالب
كأنّ تلالي البيض فينا وفيهمُ ... تلألُؤُ برقٍ في تِهامة ثاقِب

وقال النّجاشيُّ يذكر علياً عليه السلام، وجِدّه في الأمر:

إنّي إخالُ عليًّا غير مرتدعٍ ... حَتّى تُقام حقوقُ الله والحُرَمُ
أما ترى النَّقْع معصوباً بلمّتهِ ... كأنه الصَّقْر في عِرْنينه شَمَمُ
غضبانُ يحرق نابَيْه عَلَى حَنَقٍ ... كما يغطّ الفنيقُ المصعَب القَطِمُ[٣]

(١) الخَزَر: كسر العين بصرها خلقة، وقيل: هو حول إحدى العينين. لسان العرب مادة (خزر).
(٢) الشطن: الحبل الطويل شديد الفتل. اللسان، مادة (شطن).
(٣) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته.

حتى يزيل ابنَ حربٍ عن إمارته　　كما تنكّب تيس الحبْلَةِ الْحُلُمُ

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن الشعبي، قال: بلغ النجاشيّ أن معاوية تهدده فقال:

يَا أيُّها الرجلُ المبدِي عداوتَهُ　　رَوِّىءْ لنفسك أيّ الأمر تأتمِرُ!

لا تحسبنّي كأقوام ملكْتَهُمُ　　طوعَ الأعِنّة لمّا ترشح الغُدُر

وما علمتُ بما أضمرتَ من حَنَقٍ　　حتى أتتني به الركْبانُ والنّذرُ

إذا نَفَسْتَ على الأنجاد مجدَهمُ　　فابْسُط يديك، فإن الخير مبتَدَرُ

واعلم بأنَّ عليَّ الخير مِن نَفَرٍ　　شُمِّ العرانين لا يعلوهُمُ بشرُ

لا يجحد الحاسد الغضبان فضلهمُ　　ما دام بالحَزْن من صَمّائها حَجَرُ

نعم الفتى أنتَ إلاّ أنّ بينكما　　كما تفاضلَ ضوءُ الشمس والقَمَرُ

ولا إخالك إلا لستَ منتهياً　　حتى يمسّك من أظفارِهِ ظُفُرُ

لا تحمَدنّ امرأ حتى تجرّبه　　ولا تذمنّ مَنْ لم يبلُهُ الخُبُرُ

إني امرؤٌ قلما أثنِي على أحدٍ　　حَتّى أرى بَعْضَ ما يأتِي وما يَذَرُ

وإن طوى معشرٌ عنّي عداوتَهمْ　　في الصّدر أو كان في أبصارهم خَزَرُ

أجمعتُ عَزماً جراميزي بقافيةٍ　　لا يبرحُ الدَّهرَ منها فيهمُ أثَرُ

قال: فلمّا بلغ معاويةَ هذا الشعر، قال: ما أراه إلا قد قارب.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن محمد بن إسحاق، أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان يحمل على الخيل يوماً، فجاءه رجل، فقال: هل من فرسٍ يابْن ذي الجناحين! قال: تلك الخيل فخذ أيّتها شئت، فلما ولّى قال ابنُ جعفر: إن تصب أفضل الخيل تقتَل، فما عَتِم أن أخذ أفضل الخيل، فركبه، ثم حمل على فارس قد كان دعاه إلى البراز، فقتله الشاميّ، وحمل غلامان آخران من أهل العراق، حتى انتهيا إلى سرادق معاوية، فقتِلا عنده، وأقبلت الكتائبُ بعضُها نحو بعض، فاقتتلت قياماً في الركب، لا يسمع السامع إلا وقْع السيوف على البيض والدّرَق.

وقال عمرو بن العاص:

أجئتم إلينا تسفِكُون دماءنا　　وما رُمتمُ وعرٌ من الأمر أعسرُ

لعمرِي لَمَا فيه يكون حِجاجُنا　　إلى الله أدْهَى لو عقلتم وأنكرُ

تعاورتمُ ضَرباً بكلّ مهنّدٍ   إذا شدّ وَرْدانٌ تقدّم قنبُر
كتائبكم طوراً تَشُدُّ وتارةً   كتائبنا فيها القَنا والسَّنَوَّرُ
إذا ما الْتقوْا يوماً تدارك بينهمْ   طِعَانٌ وموت في المعارك أحمرُ

وقال رجل من كلْب مع معاوية يهجو أهل العراق ويوبّخهم:

لقد ضَلّتْ معاشرُ من نزارٍ   إذا أنقادوا لمثل أبي تُرابِ
وإنهمُ وبيعتَهمْ عليًّا   كواشِمة التغضّنِ بالخضابِ
تزيّنُ من سَفاهتها يديْها   وتحسِرُ باليدين عن النّقابِ
فإياكم وداهيةً نَؤوداً   تسير إليكم تحتَ العُقابِ(١)
إذا ساروا سَمعتَ لحافَتيْهمْ   دويًّا مثل تصفيقِ السَّحاب
يُجيبون الصّريخ إذا دعاهمْ   وقد طعن الفوارسُ بالحرابِ
عليهم كلُّ سابغة دِلاصٍ   وأبيضَ صارم مثل الشّهاب(٢)

وقال أبو حَيّة بن غَزيّة الأنصاريّ، وهو الذي عَقَر الجمل يوم البصرة، واسمه عمرو:

سائلْ حليلةَ معبَدٍ عن بعلِها   وحليلةَ اللخميّ وابن كَلاَعِ
واسأل عُبَيْد الله عن فرساننا   لَمّا ثَوَى مُتَجَدّلاً بالقاعِ
واسأل معاويةَ المولّي هارباً   والخيل تمعَجُ وهي جِدّ سراعِ
ماذا يخَبرُك المخبر منهمُ   عنهمْ وعَنّا عند كلّ وقاعِ
إن يصدُقوك يخبّرُوك بأنّا   أهل النّدَى قِدْماً مجيبُوا الدَّاعِي
إن يصدقوك يخبّروك بأنّنا   نحمي الحقيقة كلَّ يوم مِصاعِ
ندعو إلى التقوى ونرعَى أهلها   برعاية المأمونِ لا المضياعِ
ونسنّ للأعداء كلّ مثقّفٍ   لَدْنٍ وكلَّ مشطّبٍ قطّاعِ

وقال عديّ بن حاتم الطائيّ:

أقولُ لما أنْ رأيتُ المعمعَهْ   واجتمع الجندان وسْط البلْقَعَهْ
هذا عليّ والهدَى حقًّا معَهْ   يا ربّ فاحفظه ولا تضيِّعَهْ
فإنّه يخشاك ربّ فارفَعَهْ   ومن أراد عيبَهُ فضعضِعَهْ

أو كادَهُ بالبَغي منك فاقمعَهْ

---

(١) نأدت الداهية فلاناً: دهته، القاموس، مادة (نأد).
(٢) درع دلاص: ملساء لينة. القاموس، مادة (دلص).

وقال النعمان بن جعلان الأنصاريّ:

سائلْ بصِفّين عَنّا عند غَدْوَتِنَا ... أم كيفَ كُنّا إلى العلياء نبتدرُ!
وسلْ غداةَ لقينا الأزْدَ قاطِبَةً ... يَوْمَ البصيرة لما استجمعتْ مُضَرُ
لولا الإلٰهُ وعَفْوٌ من أبي حسن ... عنهم، وما زال منه العفو يُنتظرُ
لما تداعتْ لهم بالمِصْرِ داعيةٌ ... إلاّ الكلابُ، وإلاّ الشاءُ والحُمُرُ
كم مُقْعَصٍ قد تركناهُ بمقْفرَةٍ ... تعوِي السباعُ عليه وهو منعفِرُ
ما إن يؤوب ولا ترجوه أسرته ... إلى القيامة حتى ينفخ الصُّوَرُ

قال عمرو بن الحمِق الخُزاعيّ:

تقولُ عِرْسِيَ لما أنْ رأت أَرَقِي ... ماذا يهيجكَ من أصحاب صِفّينا
ألستَ في عُصْبَةٍ يهدي الإلٰهُ بهمْ ... لا يظلمون، ولا بغياً يريدونَا!
فقلت إني عَلَى ما كان من رَشَدٍ ... أخشى عواقبَ أمرٍ سوف يأتينا
إدالةَ القومِ في أمرٍ يرادُ بنا ... فاقْنَيْ حياءً وكفّي ما تقولينا

وقال حُجْر بن عدي الكنديّ.

يا ربَّنَا سلّم لنا عليّا ... سلّم لنا المهذّب التَّقِيّا
المؤمنَ المسترشِدَ الرضيّا ... واجعله هادي أمةٍ مهديّا
واحفظه ربّ حفظك النبيّا ... لا خَطِلَ الرأيِ ولا غبيّا
فإنه كان لنا وليًّا ... ثم ارتضيه بعده وصيّا

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: قال الأحنف بن قيس في صِفّين لأصحابه: هلَكت العرب! قالوا له: وإن غَلَبْنا يا أبا بحر؟ قال: نعم، قالوا: وإن غُلِبنا؟ قال: نعم، قالوا: والله ما جَعَلْتَ لنا مخرجاً. فقال الأحنف: إنّا إنْ غلبناهم لم نترك بالشام رئيساً إلا ضربنا عنقه، وإن غلبونا لم يعرّج بعدها رئيس عن معصية الله أبداً.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: ذكر معاوية يومَ صِفّين بعد عام الجماعة، وتسليم الحسن عليه السلام الأمرَ إليه، فقال الوليد بن عُقْبة: أيُّ بني عمّك كان أفضلَ يوم صفّين [يا وليد]، عند وَقَدان الحرب، واستشاطة لَظَاها حين قاتلَت الرجال على الأحساب؟ قال: كلّهم قد وصل كَنَفَيْها عند انتشار وَقْعتها، حتى ابتلّت أثباجُ[1] الرّجال من

(١) ما بين الكاهل إلى الظهر، ووسط الشيء القاموس، مادة (ثَبَجَ).

الجِرْيال(١)، بكلّ لَدْن(٢) عَسّال، وبكلّ عَضْب(٣) قصّال. فقال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: أما والله لقد رأيتُنا يوماً من الأيام، وقد غشيَنا ثعبان في مثل الطَّوْد الأرعن، قد أثار قسطلاً حال بيننا وبين الأفق، وهو على أدهم شائل الغرّة، - يعني علياً عليه السلام - يضربهم بسيفه ضربَ غرائب الإبل، كاشراً عن نابه كشر المُخْدر الحرِب، فقال معاوية: نعم إنه كان يقاتل عن تِرَةٍ له وعليه.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، قال: أرسل عليّ عليه السلام إلى معاوية: أن أبْرُز إليّ وأعْفِ الفريقين من القتال، فأيّنا قتل صاحبه كان الأمر له. فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، فقال معاوية: أنا أبارز الشجاع الأخرق! أظنك يا عمرو طمِعت فيها. فلمّا لم يجب عليّ عليه السلام: وانفساه! أيطاع معاوية وأعصى! ما قاتلت أمة قطّ أهلَ بيتِ نبيها وهي مقرّة بنبيّها غير هذه الأمّة!

ثم إنّ عليًّا عليه السلام أمرَ الناس أن يحملُوا على أهل الشام، فحملوا، فنقضوا صفوف الشام، فقال عمرو: عَلى مَنْ هذا الرّهج الساطع؟ قالوا: على ابنيْك عبد الله ومحمد، فقال عمرو: يا وردان، قدّم لوائي، فأرسل إليه معاوية: إنه ليس على ابنيْك بأس فلا تنقض الصفّ، والزم موقفك، فقال عمرو: هيهات هيهات.

اللَّيثُ يَحْمِي شِبْلَيْهِ ما خيرُهُ بَعْدَ ابنيهِ!

ثم تقدّم باللواء، فأدركه رسول معاوية [فقال]: إنه ليس على ابنيك بأس، فلا تحمِلنّ، فقال: قل له: إنك لم تلدهما، وإني أنا ولدتُهما، وبلغ مقدّم الصفوف، فقال له الناس: مكانَك! إنّه لا بأس على ابنيك، إنّهما في مكان حريز. فقال: أسمعوني أصواتَهما حتى أعلمَ أحيّان هما أم قتيلان! ونادى: يا وَرْدان، قدم لواءك قَيْد قوس، فقدّم لواءه، فأرسل عليّ عليه السلام إلى أهل الكوفة: أن احملوا، وإلى أهل البصرة: أن احملوا. فحمل الناس من كلّ جانب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وخرج رجل من أهل الشام، فقال: مَنْ يبارز؟ فبرز إليه رجلٌ من أهل العراق، فاقتتلا ساعةً، وضرب العراقيّ الشاميّ عَلَى رجله، فأسقط قدَمَه، فقاتل ولم يسقط إلى الأرض، فضرَبه العراقيّ أخرى، فأسقط يده، فرمى الشاميّ سيفه إلى أهل الشام، وقال: دونكم سيفي هذا، فاستعينوا به على قتال عدوّكم. فاشتراه معاوية من أوليائه بعشرة آلاف درهم.

(١) الجِرِيال: صبغ أحمر، القاموس مادة (جرل).
(٢) اللّدْن: اللّين من كل شيء. القاموس، مادة (لدن).
(٣) العضب: القطع والضرب والطعن. القاموس، مادة (عضب).

قال نصر: وحدّثنا مالك الجُهَنيّ، عن زيد بن وهب، أنّ عليًا عليه السلام مرّ عَلَى جماعة من أهل الشام بصِفّين، منهم الوليد بن عقبة، وهم يشتِمونه ويقصِبونه، فأخبر بذلك، فوقف على ناسٍ من أصحابه، وقال: انهَدُوا إليهم، وعليكم السكينة والوقار وسيما الصالحين، أقرِبْ بقومٍ من الجهل، قائدهم ومؤدّبهم معاوية، وابن النابغة، وأبو الأعور [السُّلَميّ]، وابن أبي مُعيط شارب الحرام، والمحدود في الإسلام! [وهم أولاء]، يقصِبونني[1] ويشتمونني، وقبل اليوم ما قاتلوني وشَتَموني، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، فالحمد لله، ولا إله إلا الله! لقديماً ما عاداني الفاسقون، إنّ هذا لهو الخطب الجلل، إنّ فساقاً كانوا عند غير مرضيّين، وعَلَى الإسلام وأهله متخوّفين، أصبحوا وقد خدعوا شَطْر هذه الأمة، وأشربوا في قلوبهم حبّ الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، ونَصَبُوا لنا الحرب، وجَدُّوا في إطفاء نور الله، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. اللهمّ فإنهم قد رَدّوا الحق فافضُضْ جمعَهم، وشتّت كلمتَهم، وأبلسْهم بخطاياهم، فإنه لا يَذلّ مَنْ واليت، ولا يَعِزّ من عاديت.

قال نصر: وكان عليّ عليه السلام، إذا أراد الحمْلة هلّل وكبّر ثم قال:

مِن أيِّ يوميّ من الموتِ أفرّ ... أيومَ لم يقدر أو يوم قُدِرْ!

فجعل معاوية لواءه الأعظم مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأمر عليّ عليه السلام جارية بن قُدامة السعديّ أن يلقاه بأصحابه، وأقبل عمرو بن العاص بعده في خيل، ومعه لواء ثانٍ، فتقدّم حتى خالط صفوفَ العراق، فقال عليّ عليه السلام لابنه محمد: امش نحو هذا اللواء رويداً، حتى إذا أشرَعْت الرماح في صدورهم فأمسك يدك حتى يأتيك أمري. ففعل - وقد كان أعدّ عليه السلام مثلَهم مع الأشتر - فلما أشرَع محمد الرماح في صدورِ القوم، أمر عليٌّ عليه السلام الأشترَ أن يحمل فحمل، فأزالهم عن مواقفهم، وأصاب منهم رجالاً، واقتتل الناس قتالاً شدِيداً، فما صلى مَنْ أراد الصلاة إلا إيماء، فقال النجاشيّ في ذلك اليوم يذكر الأشتر:

ولما رأينا اللّواء العُقاب ... يقحّمه الشانىءُ الأخزَرُ
كليث العرينِ خلال العجاج ... وأقبل في خيلِه الأبترُ
دَعَوْنا لها الكبش كَبْشَ العراق ... وقد أضمر الفشلَ العسكرُ
فردّ اللواء عَلَى عَقْبِهِ ... وفاز بحظوتها الأشترُ
كما كان يفعل في مِثلها ... إذا ناب مَعْصَوْصِبٌ منكر
فإن يدفع الله عن نفسه ... فحظّ العراق به الأوفرُ

---

(١) قصبه: شتمه وعابه ووقع فيه. اللسان، مادة (قصب).

إذا الأشتر الخيرُ خلّى العراق فقد ذهب العُرْفُ والمنكَرُ
وتلك العراق ومن عرفت كفَقْع تضمّنه القَرْقَرُ(١)

قال نصر: وحدّثنا محمد بن عتبة الكنديّ، قال: حدثني شيخ من حَضرموت شَهِد مع عليّ عليه السلام صِفّين، قال: كان مِنّا رجل يعرف بهانىء بن فهد، وكان شجاعاً، فخرج رجل من أهل الشام يدعو إلى البراز فلم يخرج إليه أحد، فقال هانىء: سبحان الله! ما يمنعكم أن يخرج منكم رجل إلى هذا! فوالله لولا أنّي موعوك، وأنّي أجدُ ضعفاً شديداً لخرجت إليه. فما ردّ أحدٌ عليه، فقام وشدّ عليه سلاحه ليخرج، فقال له أصحابهُ: يا سبحان الله! أنت موعوك وَعْكَةً شديدة، فكيف تخرج! قال: والله لأخرجنّ ولو قتَلني، فخرج، فلما رآه عرفه، وإذا الرجل من قومه من حَضرموت، يقال: له يعمر بن أسد الحضرميّ، فقال: يا هانىء، ارجع فإنّه إن يخرج إليّ رجلٌ غيرُك أحبُّ إليّ، فإنّي لا أحبّ قتلك. قال هانىء: سبحان الله! أرجع وقد خرجت، لا والله لأقاتلن اليوم حتى أقتل، ولا أبالي قتلتَني أنت أو غيرك! ثم مشى نحوه، وقال: اللهمّ في سبيلك ونصراً لابن عمّ رسولك. واختلفا ضربتيْن، فقتله هانىء، وشدّ أصحاب يعمر بن أسد عَلَى هانىء، فشدّ أصحاب هانىء عليهم، فاقتتلوا وانفرجوا عن اثنين وثلاثين قتيلاً. ثم إنّ عليًا عليه السلام أرسل إلى جميع العسكر: أن احملوا، فحمل الناس كلُّهم عَلَى راياتهم، كلٌّ منهم يحمل عَلَى مَنْ بإزائه، فتجالَدُوا بالسيوف، وعُمُد الحديد، لا يُسمع إلاّ صوت ضرب الهامات، كوقع المطارق على السنّادِين، ومرّت الصلوات كلّها، فلم يصلّ أحدٌ إلا تكبيراً عند مواقيت الصلاة، حتى تفانَوْا، ورقّ الناس، وخرج رجل من بين الصّفّين، لا يُعلَم مَنْ هو، فقال: أيّها الناس، أخرَج فيكم المحلّقون؟ فقيل: لا، فقال: إنّهم سيخرُجون، ألسنتُهم أحلَى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصَّبِر، لهم حُمَة كحُمَة الحيات. ثم غاب الرجل فلم يُعلم مَنْ هو!

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن السدي، قال: اختلط أمر الناس تلك الليلة، وزال أهلُ الرايات عن مراكزهم، وتفرّق أصحابُ عليّ عليه السلام عنه، فأتى ربيعة ليلاً، فكان فيهم، وتعاظم الأمر جدًا، وأقبل عديّ بن حاتم يطلبُ عليًا عليه السلام في موضعه الذي تركه فيه فلم يجده، فطاف يطلبه، فأصابه بين رماح ربيعة، فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا إذْ كنت حيًا، فالأمر أمَمٌ، ما مشيتُ إليك إلاّ عَلَى قتيل، وما أبقت هذه الوقعة لهم عميداً، فقاتِل حتى يفتح الله عليك، فإنّ في الناس بقيّة بعد وأقبل الأشعث يلهث جزعاً، فلما رأى عليًا عليه السلام هلّل فكبّر، وقال: يا أمير المؤمنين، خيل كخيلٍ ورجال كرجال، ولنا الفضلُ عليهم إلى ساعتنا هذه، فعدْ

(١) الفَقْع: البيضاء الرخوة من الكمأة. القاموس، مادة (فقع). والقرقر: أرض مطمئنة لينة. القاموس، مادة (قرر).

إلى مكانك الذي كنتَ فيه، فإنّ الناس إنما يظنّونك حيث تركوك. وأرسل سعيد بن قيس الهمْدَانيّ إلى عليّ عليه السلام: إنّا مشتغلون بأمرنا مع القوم، وفينا فضْل، فإن أردت أن نمِدّ أحداً أمددنا. فأقبل عليٌّ عليه السلام عَلَى ربيعة، فقال: أنتم دِرْعي ورمحي - قال: فربيعة تفخَر بهذا الكلام إلى اليوم - فقال عديّ بن حاتم. يا أمير المؤمنين، إنّ قوماً أنِسْت بهم، وكنت في هذه الجولة فيهم، لعظيمٌ حقّهم، والله إنّهم لصُبُر عند الموت، أشدّاء عند القتال - فدعا علي عليه السلام بفرَس رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يقال له المرتجز، فركبه، ثم تقدّم أمام الصفوف، ثم قال: بل البغلة، بل البغلة، فقدِّمت له بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت الشهباء، فركبها، ثم تعصّب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت سوداء، ثم نادى: أيّها الناس، مَنْ يَشْرِ نفسه الله يربح، إنّ هذا ليومٌ له ما بعده، إنّ عدوّكم قد مسّه القَرْح كما مسكم، فانتدبوا لِنصرة دين الله. فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً، قد وضعوا سيوفَهم عَلَى عواتقهم، فشدّ بهم على أهل الشام، وهو يقول:

دبّوا دبيب النمل لا تفوتُوا ... وأصبِحُوا في حربكم وبيتُوا
حتى تنالوا الثأر أو تموتُوا ... أو لاَ فإني طالما عُصِيتُ
قد قلتُمو لو جئتنا! فجيتُ ... ليس لكم ما شئتمُ وشيتُ
بل ما يريد الْمُحْيِيُ المميتُ

وتبعه عديّ بن حاتم بلوائه، وهو يقول:

أبعد عمّارٍ وبعد هاشمِ ... وابن بُديلٍ فارس الملاحِمِ
نرجو البقاء، ضلّ حُلْم الحالِمِ ... لقد عَضَضْنا أمسِ بالأباهِمِ!
فاليوم لا نقرعُ سنّ نادِمِ ... ليس امرؤ من حتفِهِ بسالِمِ

وحمل وحمل الأشتر بعدَهما في أهل العراق كافّة، فلم يبق لأهل الشام صفّ إلا انتقض، وأهمد أهل العراق ما أتوْا عليه حتّى أفضى الأمر مضرِب معاوية، وعليٌّ عليه السلام يضرب الناس بسيفه قُدُماً قُدُماً، ويقول:

أضربُهمْ ولا أرى معاويهْ ... الأخزَرَ العينِ العَظِيمَ الحاويَهْ[1]
هوتْ به النار أمُّ هاويهْ

فدعا معاوية بفرسه لينجوَ عليه، فلما وضع رجله في الرّكاب توقّف وتلوّم قليلاً، ثم أنشد قول عمرو بن الإطنابة:

أبتْ لي عِفّتي وأبَى بلائي ... وأخذِي الحمدَ بالثمن الرَّبيحِ

(١) الحاوية: ما تحوّى من الأمعاء. اللسان، مادة (حوي).

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامَة البطلِ المشيحِ
وقَولِي كلّما جشأت وجاشتْ ... مكانَك تُحمَدي أو تستريحي
لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحمِي بعدُ عن عِرْضٍ صحيح
بذي شُطَبٍ كلوْن الملح صافٍ ... ونفسٍ ما تَقَرّ عَلَى ٱلْقَبِيح

ثم قال: يا عمرو بن العاص، اليوم صبر وغداً فخر، قال: صدقت، إنك وما أنت فيه، كقول القائل:

ما علّتِي وأنا جَلْدٌ نابلُ ... والقوس فيها وَتَرٌ عُنابِلُ[1]
تَزلّ عن صَفْحِتها المعابلُ ... الموتُ حقٌّ والحياة باطلُ

فَثنَى معاوية رجلَهَ من الركاب، ونزل واستصرخ بعكّ والأشعريّين، فوقفوا دونه، وجالدُوا عنه، حتى كَره كلٌّ من الفريقين صاحبَه، وتحاجز الناس.

قال نصر: جاء رجل إلى معاوية بعد انقضاء صِفّين وخلوص الأمر له، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ لي عليك حقًّا، قال: وما هو؟ قال: حق عظيم! قال ويحك! ما هو؟ قال: أتذكر يوماً قدّمت فرسك لتفرّ، وقد غشيَك أبو تراب والأشتر، فلما أردت أن تستوثبه وأنت على ظهره، أمسكتُ بعِنانك وقلت لك: أين تذهب! إنه للؤمٌ بك أن تسمَح العرب بنفوسها لك شهرين، ولا تسمح لها بنفسك ساعة، وأنت ابن ستين! وكم عسى أن تعيش في الدنيا بعد هذه السنّ إذا نجوت! فتلوّمتَ في نفسك ساعة، ثم أنشدتَ شعراً لا أحفظه ثم نزلت! فقال: ويحك! فإنك لأنت هو! والله ما أحلّني هذا المحل إلا أنت، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن النخعيّ، عن ابن عباس، قال: تعرّض عمرو بن العاص لعليّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين، وظنّ أنه يطمع منه في غرّة فيصيبُه، فحمل عليه عليٌّ عليه السلام فلما كاد أن يخالطه أذرى نفسه عن فرسه، ورفع ثوبَه وشغر[2] برجلِه، فبدت عورتُه، فصرف عليه السلام وجهه عنه، [وارتُثّ]، وقام معفراً بالتراب، هارباً على رجليه، معتصِماً بصفوفه. فقال أهل العراق: يا أميرَ المؤمنين: أفلت الرجل! فقال أتدرون مَنْ هو؟ قالوا: لا، قال: فإنه عمرو بن العاص، تلقّاني بسوأته فصرفت وجهي عنه. ورجع عمرو إلى معاوية، فقال: ما

---

(١) وتر عنابل: أي غليظ. القاموس، مادة (عنبل).
(٢) رفعها. القاموس، مادة (شغر).

صنعتَ يا أبا عبد الله؟ فقال: لقيَني عليّ فَصرعني، قال: احمَد الله وعورتك، والله إنّي لأظنّك لو عرفتَه لما أقحمتَ عليه، وقال معاوية في ذلك:

ألا لله مــن هــفـواتِ عــمـرٍو ... يـعـاتـبـنـي عـلـى تـركـي بـرازي
فـقـد لاقـى أبـا حـسـن عـلـيًّـا ... فـآب الـوائـلـيُّ مـآبَ خـازِي
فـلـو لـم يُـبْـدِ عـورتَـهُ لـطـارت ... بـمـهـجـتِـهِ قـوادمُ أيّ بـازي
فـإن تـكـن الـمـنـيّـة أخـطـأتْـهُ ... فـقـد غـنّـى بـهـا أهـل الـحـجـازا!

فغضب عمرو وقال: ما أشدّ تعظيمك [عليًا] أبا تراب في أمري! هل أنا إلا رجل لقيَه ابن عمّه فصرعه! أفترى السماء قاطرةً لذلك دماً! قال: لا، ولكنها معقِبة لك خزياً.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: لما اشتدّ الأمر، وعظُم على أهل الشام، قال معاوية لأخيه عُتبة بن أبي سفيان: القَ الأشعث، فإنه إن رضي رضيتِ العّامة - وكان عُتْبة فصيحاً - فخرج فنادى الأشعث، فقال الأشعث: سَلُوا مَنْ هو المنادي؟ قالوا: عُتْبة بن أبي سفيان، قال: غلام مُتْرَفٌ ولا بدّ من لقائه! فخرج إليه، فقال، ما عندك يا عتبة؟ فقال: أيّها الرجل، إنّ معاوية لو كان لاقياً رجلاً غير عليّ للقيَك، إنّك رأسُ أهل العراق، وسيّد أهل اليمن، وقد سَلَفَ من عثمان إليك ما سلف من الصِّهر والعمل، ولستَ كأصحابك، أمّا الأشتر فقتَل عثمان، وأما عديّ فحرّض عليه، وأما سعيد بن قيس فقلّد عليًا ديتَهُ، وأما شُريح وزحر بن قيس فلا يعرفان غيرَ الهوى، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرّماً، وحاربت أهل الشام حميّة، وقد بلغْنا منك وبلغت منا ما أردت، وإنّا لا ندعوك إلى ترك عليّ ونصرة معاوية، ولكنا ندعوك إلى البقيّة التي فيها صلاحُك وصلاحنا. فتكلّم الأشعث، فقال: يا عُتْبة، أمّا قولك: «إن معاوية لا يلقى إلا عليًا»، فلو لقيَني والله لما عظُم عنّي، ولا صَغُرْتُ عنه، وإن أحبّ أن أجمع بينه وبين عليّ فعلت. وأما قولك: «إنّي رأسُ أهل العراق، وسيّد أهل اليمن»، فإن الرأس المتّبَع والسيّد المطاع، هو عليّ بن أبي طالب، وأما ما سلَف من عثمان إليّ، فوالله ما زادني صهرهُ شرفاً، ولا عمله عزًّا. وأما عيبُك أصحابي، فإنه لا يقرّبك مني، ولا يباعدني عنهم، وأما محاماتي عن أهل العراق، فمن نزل بيتا حماه، وأما البقية فلستُم بأحوجَ إليها منّا، وسنرى رأينا فيها.

فلما عاد عتبة إلى معاوية، وأبلغه قوله قال له: لا تلقَهُ بعدها، فإنّ الرجل عظيم عند نفسه، وإن كان قد جَنح للسّلم. وشاع في أهل العراق ما قاله عُتْبة للأشعث وما ردّه الأشعث عليه، فقال النجاشيّ يمدحه:

يـابـن قـيـس وحـارثٍ ويـزيـدِ ... أنـتَ والله رأسُ أهــلِ الـعـراقِ

أنـت والله حـيّـة تـنـفـث الـسُّـ ـمّ قـلـيـلٌ مـنـهـا غَـنـاء الـراقـي
أنـت كـالـشـمـس والـرجـال نـجـومٌ لا يُـرى ضـوءُهـا مـع الإشـراقِ
قـد حَـمَـيْـتَ الـعراق بـالأسَـلِ الـسُّمْـ ـرِ وبـالـبـيـض كـالـبـروق الـرّقـاق
وسَـعَـرت الـقـتـال في الـشـام بـالـبيـ ـض الـمـواضـي وبـالـرّماح الـدّقـاق
لا تـــرى غــيـــر أذرع وأكـــفٍّ ورؤوسٍ بـــهـــامِـــهـــا أفـــلاقِ[1]
كُـلَّـمَـا قـلـت قـد تـصرّمـت الـهيـ ـجا سـقـيـتـهـمْ بـكـاسٍ دِهـاقِ[2]
قـد قـضـيتَ الـذي عـلـيـك من الـحقّ وسـارتْ بـه الـقِـلاص الـمـنـاقـي
أنــت حــلــوٌ لــمــن تـقـرّب بـالـو دّ ولـلـشـانـئـيـن مـرّ الـمـذاقِ
بـئـسـمـا ظـنّـه ابـن هـنـدٍ ومَـنْ مثْـ ـلُكَ في الناس عند ضِيق الخناقِ!

قال نصر: فقال معاوية لما يئس من جهة الأشعث لعمرو بن العاص: إن رأس الناس بعد عليّ هو عبد الله بن العباس، فلو كتبتَ إليه كتاباً لعلك ترقّقه، ولعلّه لو قال شيئاً لم يخرج عليّ منه، وقد أكلَتنا الحرب، ولا أرانا نصلُ إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام. فقال عمرو: إن ابن عباس لا يُخدَع، ولو طمعت فيه لطمعت في عليّ، قال معاوية: على ذلك فاكتب، فكتب عمرو إليه:

أمّا بعد، فإنّ الذي نحن فيه وأنتم ليس بأوّل أمر قاده البلاء، وأنت رأسُ هذا الجمع بعد عليّ، فانظر فيما بقي، ودعْ ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياةً ولا صبراً، فاعلم أنّ الشام لا تهلِك إلاّ بهلاك العراق، وأنّ العراق لا تهلِك إلا بهلاك الشام، فما خيرُنا بعد هلاك أعدادنا منكم، وما خيركم بعد هلاك أعدادِكم منّا! ولسنا نقول: ليت الحرب عادت، ولكنا نقول: ليتهَا لم تكن، وإنّ فينا مَنْ يكره اللقاء، كما أنّ فيكم مَنْ يكرهه، وإنما هو أمير مطاع، ومأمور مطيع، أو مؤتمَن مشاوَر وهو أنت، فأما الأشتر الغليظ الطبع، القاسي القلب، فليس بأهل أن يدعَى في الشورى ولا في خواصّ أهل النجوى. وكتب في أسفل الكتاب:

طـال الـبـلاءُ ومـا يـرجَـى لـه آسـي بـعـد الإلـه سـوى رِفْـقِ ابـن عـبـاسِ
قـولاً لـه قـول مـن يـرجـو مـودّتـه: لا تَـنـس حـظَّـك إنّ الـخـاصـر الـناسِي
انـظـر فـدًى لـكَ نـفـسـي قـبل قـاصـمةٍ لـلـظـهـر لـيـس لـهـا راقٍ ولا آسِ
إنّ الـعـراق وأهـل الـشـام لـن يـجـدوا طعم الحياة مع المستغلِق القاسي
يـابـن الـذي زمـزمٌ سـقـيـا الـحـجيـج لـه أعـظـمْ بذلـك من فـخـرٍ عَـلَـى الـنـاس!
إنـي أرى الـخـير في سلـم الـشـآم لـكـمْ والله يـعـلـم مـا بـالـسـلْـمِ مـن بـاس

(١) الأفلاق: الشقوق. القاموس، مادة (فلق).
(٢) دهاق: ممتلئة. القاموس، مادة (دهق).

فيها التّقى وأمور ليس يجهلها إلا الجهول ومَا نوكى كأكياس

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس، عرضه على أمير المؤمنين عليه السلام، فضحك، وقال: قاتل الله ابنَ العاص! ما أغرَاه بك يا عبد الله. أجبه وليردّ عليه شعرَه الفضل بن العباس، فإنه شاعر، فكتب ابن عباس إلى عمرو:

أما بعد، فإني لا أعلمُ أحداً من العرب أقلّ حياء منك، إنه مالَ بك معاوية إلى الهوى فبعتَه دينَك بالثمن اليسير، ثم خبطت الناس في عَشْوة، طمعاً في الدنيا فأعظمتَها إعظام أهلِ الدنيا، ثم تزعم أنّك تتنزّه عنها تنَزُّه أهل الورع، فإن كنت صادقاً فارجع إلى بيتك، ودعْ الطمع في مصر والركون إلى الدنيا الفانية، واعلم أنّ هذه الحرب ما معاوية فيها كعليّ، بدأها عليّ بالحق، وانتهى إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف، وليس أهلُ العراق فيها كأهل الشام، بايعَ أهلُ العراق عليًّا، وهو خيرٌ منهم، وبايع أهل الشام معاويةَ وهم خير منه، ولست أنا وأنت فيها سواء، أردتُ الله وأردتَ مصر، وقد عرفتَ الشيء الذي باعدَك منّي، ولا أعرف الشيء الذي قرّبك من معاوية، فإن تُرِدْ شرًّا لا نسبقك به، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه. والسلام.

ثم دعا أخاه الفضل، فقال: يابنَ أمّ، أجب عَمْراً، فقال الفضل:

يا عمرُو حسبُكَ من مَكْرٍ وَوَسْوَاسِ فاذهبْ فليس لداءِ الجهل من آسِ
إلا تواتُرُ طعنٍ في نحوركمُ يُشْجي النّفوس وَيَشْفِي نخوة الرّاسِ
أمّا عليٌّ فإن الله فَضّله بفضلِ ذي شرفٍ عالٍ على النّاسِ
إن تعقلوا الحربَ نعقلْها مخيّسةً أو تبعثوها فإنّا غير أنكاس(١)
قَتْلَى العراق بقتلَى الشام ذاهبةٌ هذا بهذا، وما بالحقّ من باس

ثم عرض الشعرَ والكتاب على عليّ عليه السلام، فقال: لا أراه يُجيبك بعدها أبداً بشيء إن كان يعقل، وإن عاد عُدْتَ عليه. فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص عَرَضه على معاوية، فقال: إنّ قلْب ابن عباس وقلْب عليّ قلب واحد، وكلاهما ولَد عبد المطلب، وإن كان خَشُن فلقدْ لان، وإن كان قد تعظّم أوْ عَظّم صاحبه، فلقد قارب وجنح إلى السّلم.

قال نصر: وقال معاوية: لأكْتُبَنّ إلى ابن عباس كتاباً أستعرض فيه عقله، وأنظر ما في نفسه، فكتب إليه:

أما بعد، فإنّكم معشرَ بني هاشم لستم إلى أحدٍ أسرعَ بالمساءة منكم إلى أنصار ابن عَفّان، حتى إنّكم قتلتم طلحةَ والزبير، لطلبهما دَمه، واستعظامِهما ما نيلَ منه، فإن كان ذلك منافسةً

(١) المخيّس: السجن. القاموس، مادة (خيس).

لبني أميّة في السلطان، فقد وَلِيهَا عديّ وتَيْم فلمْ تنافسوهم، وأظهرتم لهم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما ترى، وأكلتْ هذه الحروبُ بعضُها بعضاً، حتى استوينا فيها، فما يطمِعكم فينا يطمِعُنا فيكم، وما يؤيسنا منكم يؤيسكم منَّا، ولقد رجونا غير ما كان، وخشِينا دونَ ما وقع، ولست ملاقينا اليومَ بأحدّ من حَدّ أمس، ولا غداً بأحدّ من حَدّ اليوم، وقد قنعْنا بما في أيدينا من مُلك الشام، فاقنعوا بما في أيديكم من مُلْك العراق، وأبقُوا على قريش، فإنّما بَقِي من رجالها ستة: رجلان بالشام، ورجلان بالعراق، ورجلان بالحجاز، فأمّا اللذان بالشام فأنا وعمرو، وأمّا اللّذان بالعراق فأنت وعليّ، وأما اللّذان بالحجاز، فسعد وابن عمر، فاثنان من السّتّة ناصبان لك، واثنان واقفان فيك، وأنت رأسُ هذا الجمع، ولو بايعَ لك النّاسُ بعد عثمان كُنّا إليك أسرعَ مِنّا إلى عليّ.

فلما وصل الكتابُ إلى ابن عباس أسخطه، وقال: حتّى مَتَى يخطب ابنُ هندٍ إليّ عقلي! وحتّى متَى أجمجم على ما في نفسِي! وكتب إليه:

أما بعد [فقد] أتاني كتابك، وقرأته. فأما ما ذكرتَ من سرعتنا إليك بالمساءة إلى أنصار ابن عفّان، وكراهتنا لسلطان بني أمية، فلَعمري لقد أدركتَ في عثمان حاجتَك حين استنصرك فلم تنصره، حتى صرت إلى ما صرتَ إليه. وبيني وبينك في ذلك ابنُ عمّك وأخو عثمان، وهو الوليد بن عقبة. وأما طلحة والزبير، فإنّهما أجلبا عليه وضيّقا خناقه، ثم خرجا ينقُضان البَيْعة، ويطلبان المُلْك، فقاتلناهما على النّكث، كما قاتلناكَ على البغْي. وأما قولك: إنه لم يبقَ من قريش غيرُ ستة، فما أكثرَ رجالها، وأحسن بقيّتها! وقد قاتلك من خيارها مَنْ قاتلك، ولم يخذلنا إلا من خَذَلك، وأما إغراؤك إيانا بعديّ وتَيْم، فإن أبا بكر وعمر خيرٌ من عثمان، كما أن عثمان خير منك، وقد بقِيَ لك مِنّا ما ينسيك ما قبله، وتخاف ما بعده. وأمّا قولك: لو بايع الناس لِي لاستقامُوا، فقد بايع النّاس عليًّا وهو خيرٌ منّي فلم يستقيموا له. وما أنت والخلافةَ يا معاوية! وإنما أنت طليق وابن طليق! والخلافة للمهاجرين الأولين، وليس الطُّلقاء منها في شيء! والسلام.

فلما وصل الكتاب إلى معاوية، قال: هذا عملي بنفسي، لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة. وقال:

دعوتُ ابنَ عَبّاس إلى جلّ حظّه ... وكان امرأً أهدي إليه رسائلي
فأخلَف ظنّي والحوادث جَمّةٌ ... وما زاد أن أغلَى عليه مراجِلي
فقل لابن عباس: أراك مخوِّفاً ... بجهلك حلمي، إنني غير غافل
فأبرِق وأرعِد ما استطعت فإنّني ... إليك بما يشجيك سَبْطُ الأنامل

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: عقد معاوية يوماً من أيام صفّين الرياسة على اليمن من قريش، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم، منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد وعتبة ابنا أبي سفيان، وبُسْر بن أبي أرطاة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وذلك في الوقعات الأولى من صِفّين، فغمّ ذلك أهلَ اليمن، وأرادوا ألاّ يتأمَّرَ عليهم أحدٌ إلاّ منهم. فقام إليه رجل من كِنْدة، يقال له عبد الله بن الحارث السَّكونيّ، فقال: أيّها الأمير، إنّي قد قلت شيئاً فاسمعه، وضعه منّي على النصيحة، قال: هات، فأنشده:

مُعاويَ أحييتَ فينَا الإحَنْ ... وأحدثت بالشّام ما لم يكُنْ
عقدتَ لبُسْرٍ وأصحابه ... وما النّاس حولَكَ إلاّ اليَمَنْ
فلا تُخلِطنّ بنا غيرَنا ... كما شيب بالماء صَفْو اللّبَنْ
وإلاّ فدعْنا عَلَى حالنا ... فإنّا وإنّا إذا لم نُهَنْ
ستعلم إن جاشَ بحرُ العراقِ ... وأبدى نواجذَه في الفتَنْ
وشدّ عليٌّ بأصحابِهِ ... ونفسُك إذ ذَاكَ عند الذَّقَنْ
بأنا شعارُك دونُ الدِّثارِ ... وأنّا الرماحُ وأنّا الجُنَنْ[1]
وأنّا السيوفُ، وأنّا الحتوفُ ... وأنّا الدُّروع، وأنّا المِجَنّ[2]

قال: فبكى لها معاوية، ونظر إلى وجوه أهل اليمن، فقال: أعن رضاكم يقول ما قال؟ قالوا: لا مرحباً بما قال، إنّما الأمرُ إليك فاصْنع ما أحببت. فقال معاوية: إنما خلطتُ بكم أهلَ ثقتي، ومَنْ كان لي فهو لكم، ومنْ كان لكم فهو لي. فرضي القومُ وسكتوا، فلمّا بلغ أهلَ الكوفة مقالُ عبد الله بن الحارث لمعاوية [فيمن عقد له من رؤوس أهل الشام]، قام الأعور الشّنيّ إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية، ولكن نقول: زاد الله في سرورك وهداك! نظرت بنور الله، فقدّمت رجالاً، وأخرتَ رجالاً. عليك أن تقول، وعلينا أن نفعل. أنت الإمام، فإن هلكتَ فهذان من بعدك - يعني حسناً وحسيناً عليهما السلام - وقد قلتُ شيئاً فاسمعه، قال: هات، فأنشده:

أبا حَسَنٍ أنت شمسُ النّهـ ... ـارِ وهذانِ في الحادثاتِ القَمَرْ
وأنت وهذان حَتّى المـ ... ـماتِ بمنزلةِ السَّمْعِ بَعْدَ البصَرْ
وأنتمْ أناس لكم سَوْرَةٌ ... تقصّر عنها أكفّ البَشَرْ
يخبِّرُنا النّاس عن فضلكمْ ... وفضلكُمُ اليومَ فوق الخبَرْ

(١) الجنن: القبر والكفن. القاموس مادة (جنن).
(٢) المجن: الترس. القاموس، مادة (جنن).

عــقــدت لــقــومٍ أولــي نــجــدَةٍ ... مــن أهْــلِ الــحــيــاءِ وأهــل الــخــطَــرْ
مــســامــيــحُ بــالــمــوت عــنــد الــلــقــا ... ءِ مِــنّــا وإخــوانــنــا مــن مُــضَــرْ
ومــن حــيّ ذي يَــمَــن جِــلَّــةٌ ... يــقــيــمــون فــي الــنّــائــبــات الــصَّــعَــرْ
فــكــلٌّ يــســرّك فــي قــومِــه ... ومــن قــال لا، فــبــفــيــهِ الــحَــجَــرْ
ونــحــنُ الــفــوارس يــوم الــزبــيــر ... وطــلــحــة إذ قــيــل أودى غُــدَرْ
ضــربــنــاهــمُ قــبــلَ نــصــفِ الــنَّــهــار ... إلــى الــلــيــل حــتــى قــضــيْــنَــا الــوطَــرْ
ولــم يــأخــذ الــضــرب إلا الــر ... ؤوسَ ولــم يــأخــذ الــطــعــنُ إلا الــثُّــغَــرْ
فــنــحــنُ أولــئــك فــي أمــسِــنَــا ... ونــحــن كــذلــك فــيــمــا غَــبَــرْ

قال: فلم يبق أحدٌ من الرؤساء إلا وأهدى إلى الشّنّيّ، [أو أتحفه].

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، قال: لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، دعا عمرو بن العاص، وبُسْر بن أبي أرطاة، وعُبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقال لهم: إنّه قد غمّني مقامُ رجال من أصحاب عليّ، منهم سعيد بن قيس الهمْدانيّ في قومه، والأشتر في قومه، والمِرْقال، وعديّ بن حاتم، وقيس بن سعد في الأنصار، وقد علمتم أنّ يمانيّتكم وقّتكم بأنفسها أياماً كثيرة، حتى لقد استحييتُ لكم، وأنتم عُدّتهم من قريش، وأنا أحِبّ أن يعلم النّاس أنكم أهلُ غَنَاءٍ، وقد عبّأت لكلّ رجلٍ منهم رَجُلاً منكم، فاجعلوا ذلك إليّ، قالوا: ذاك إليك، قال: فأنا أكفيكم غداً سعيد بن قيس وقومَه، وأنت يا عمرو للمرقال أعور بني زهرة، وأنت يا بسرُ لقيس بن سعيد، وأنت يا عُبيد الله للأشتر، وأنت يا عبد الرحمن لأعور طيّئ - يعني عديّ بن حاتم - وقد جعلتها نُوباً في خمسة أيام، لكلّ رجلٍ منكم يوم، فكونوا على أعِنّة الخيل، قالوا: نعم، فأصبح معاوية في غدِه، فلم يدعْ فارساً إلا حَشَده، ثم قصد لهمْدان بنفسه، وارتجز فقال:

لــن تــمــنَــع الــحــرمــة بــعــد الــعــامِ ... بــيــن قــتــيــل وجــريــح دامِ
ســأمــلِــك الــعــرَاق بــالــشــآمِ ... أنــعَــى ابــنَ عــفــانٍ مَــدَى الأيــامِ

فطعن في أعرض الخيل مليًّا. ثم إن همدان تنادتْ بشعارها، وأقحم سعيد بن قيس فرسَه على معاوية، واشتدّ القتال حتى حجز بينهم الليل، فهمْدان تذكر أنّ سعيداً كاد يقتنِصه، إلا أنه فاته ركْضاً، وقال سعيد في ذلك:

يــا لَــهــفَ نــفــسِــي فــاتــنــي مــعــاويــهْ ... فــوق طِــمِــرٍّ كــالــعُــقــاب هَــاوِيَــهْ
والــراقــصــاتِ لا يــعــودُ ثــانــيَــهْ

قال نصر: وانصرف معاوية ذلك اليوم، ولم يصنع شيئاً، وغدا عمرو بن العاص في اليوم الثاني في حُماة الخيل، فقصد المرقال، ومع المرقال لواء عليّ عليه السلام الأعظم في حماة الناس، [وكان عمرو من فرسان قريش]، فارتجز عمرو، فقال:

لاَ عَيْشَ إن لم أَلْقَ يوماً هاشما ذاك الذي جَشّمني المجاشما[1]
ذاكَ الّذِي يشتِم عِرْضي ظالِما ذاك الّذِي إن يَنْجُ منّي سالما
يَكُنْ شَجًى حَتّى المماتِ لازما

فطعن في أعراض الخيل مُزْبداً، وحمل المرقال عليه، وارتجز فقال:

لاَ عَيْشَ إن لم أَلْقَ يوماً عَمْرَا ذاك الّذي أحدث فينا الغَدْرَا
أو يبدل الله بأمرٍ أمرا لا تجزعي يا نفسُ صَبْراً صَبْرَا
ضَرْباً هَذَاذَيْكَ وطَعْناً شَزْرَا يا ليت ما تجنِي يكونُ القبرا!

فطاعن عمراً حتى رجع، وانصرف الفريقان بعد شدّة القتال، ولم يسرّ معاوية ذلك، وغَدَا بُسر بن أبي أرطاة في اليوم الثالث في حماة الخيل، فلقي قيس بن سعد بن عبادة في كُماة الأنصار، فاشتدّت الحرب بينهما، وبَرَزَ قيس كأنه فَنيقٌ مُقْرَم، وهو يقول:

أنا ابنُ سعدٍ زانهُ عُبَادَهْ والخزرجيّون كماةٌ سادَهْ
ليس فرارِي في الوغى بعادَهْ إنّ الفِرار للفتى قِلادَهْ
يا ربّ أنت لقّنِي الشهادَهْ فالقتلُ خير من عناقِ غَادة
حتّى متى تُثْنَى لي الوِسَادَهْ

وطاعن خيل بُسر، وبرز بُسْر فارتجز وقال:

أنا ابن أرطاةَ العظيمُ القَدْرِ مُرَدَّدٌ في غالبٍ وفهرِ
ليس الفِرَار من طباع بُسْرِ إن أرجِع اليوم بغيرِ وِترِ
وقد قضيتُ في العدوّ نذرِي يا ليت شعري كم بَقِي من عمري!

ويطعن بُسرٌ قيساً، ويضربه قيس بالسيف، فردّه على عقِبيْه، ورجع القوم جميعاً، ولقيس الفضل، وتقدّم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في اليوم الرابع، لم يترك فارساً مذكوراً إلا جمعه، واستكثر ما استطاع، فقال له معاوية: إنّك اليوم تلقى أفعى أهل العراق، فارفق واتّئد، فلقيَه الأشتر أمام الخيل مُزبداً - وكان الأشتر إذا أراد القتال أزبد - وهو يقول:

يا ربّ قيّض لِي سيوف الكفَرَهْ واجعل وفاتي بأكفّ الفَجَره

(١) جَشّمه: تكلفه على مشقة. القاموس، مادة (جشم).

فالقتل خيرٌ من ثياب الحِبَرَهْ لا تعدلُ الدّنيا جميعاً وَبَرَهْ
ولا بعوضاً في ثواب البرَرَهْ

وشدّ على الخيل خيل الشام، فردّها. فاستحيَا عبيد الله وبرز أمام الخيل - وكان فارساً شجاعاً، وقال:

أنعى ابن عفانٍ وأرجو ربِّي ذاك الّذي يخرجني من ذَنْبي
ذاك الّذِي يكشف عنِّي كَرْبي إنّ ابنَ عفّان عظيمُ الخطبِ
يأبَى له حُبّي بكلّ قلبي إلا طِعانِي دونه وضَرْبِي
حَسْبي الذي أنويه حَسْبي حَسْبي

فحمل عليه الأشتر، وطعنه واشتدّ الأمر، وانصرف القوم، وللأشتر الفضل. فغمّ ذلك معاويةَ، وغدا عبد الرحمن بن خالد في اليوم الخامس، وكان رجاء معاوية أن ينال حاجتَه، فقوّاه بالخيل والسلاح، وكان معاوية يعدّه ولداً، فلقيَه عديّ بن حاتم في كُماة مَذحِج وقُضاعة، فبرز عبد الرحمن أمام الخيل، وقال:

قُلْ لعديٍّ ذَهَبَ الوعيدُ أنا ابن سيفِ الله لا مزيدُ
وخالدٌ يزينه الوليدُ ذاك الّذي قيل له الوحيد

ثم حمل فطعن الناس، فقصده عديّ بن حاتم، وسدد إليه الرمح، وقال:

أرجُو إلهي وأخافُ ذَنْبي ولستُ أرجو غيرَ عَفْوِ ربِّي
يابنَ الوليد بغضكم في قَلْبي كالهَضْب بل فوق قِنان الهَضْبِ

فلما كاد أن يخالطه بالرمح، توارى عبد الرحمن في العَجاج، واستتر بأسنّة أصحابه واختلط القوم، ثم تحاجزوا، ورجع عبد الرحمن مقهوراً، وانكسر معاوية، وبلغ أيمن بن خزيم ما لقيَ معاوية وأصحابه، فشمِت بهم - وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام وكان معتزلاً للحرب في ناحية عنها، فقال:

معاويَ إنّ الأمرَ لله وحدَهُ وإنّك لا تستطيع ضُرّا ولا نَفْعَا
عَبأتَ رجالاً من قُريشٍ لعُصْبَةٍ يمَانيَةٍ لا تستطيع لها دَفْعَا
فكيف رأيتَ الأمر إذ جدّ جِدّه لقد زادك الأمر الذي جئته جَدْعَا
تعبِّي لقيسٍ أو عديّ بن حاتم والاشتَرِ، ياللنّاس أغمارك الْجُذعا
وتجعلُ للمرقالِ عمراً وإنه لليثٌ لَقِي من دون غايَته ضَبْعَا
وإنّ سعيداً إذ برزتَ لرمحِه لفارس هَمْدَان الذي يشعَب الصَّدْعَا
مليٌّ بضرْب الدارعين بسيفِه إذا الخيل أبدَتْ من سنابكها نَقْعَا

رجعتَ فلم تظفرْ بشيء تُريدُه ... سوى فرسٍ أعيت وأبتَ بها ظَلْعَا
فدعهمْ فلا والله لا تستطيعهمْ ... مجاهرةً، فاعمل لقهرهمُ خَدْعا

قال: وإنّ معاوية أظهر لعمرو شماتة، وجعل يقرّعه ويوبّخه، وقال: لقد أنصفتكم، إذ لقيت سعيد بن قيس في هَمْدان، وفررتم. وإنك لجبان يا عمروا فغضب عمرو، وقال: فهلاّ برزت إلى عليّ إذ دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم! وقال:

تسير إلى ابنِ ذي يزنٍ سعيدٍ ... وتترك في العجاجة مَنْ دَعَاكا
فهلْ لك في أبي حسنٍ عليٍّ ... لعلّ الله يُمْكِنُ مِنْ قفاكا!
دعاك إلى البرازِ فلم تجبْهُ ... ولو نازلْتَه تربَتْ يَدَاكا
وكنت أصمّ، إذ ناداك عنها ... وكان سكوتُه عنها مُناكا
فآب الكبْش قد طَحَنَتْ رَحَاهُ ... بنجْدتِه وما طَحَنَتْ رَحاكا
فما أنصفتَ صحبَك يابنَ هندٍ ... أتَفْرَقُهُ وتغضب مَنْ كفاكا
فلا والله ما أضمرْتَ خيراً ... ولا أظهرتَ لِي إلاّ هواكا

قال: وإن القرشيِّين استحيَوْا ما صنعوا، وشمِت بهم اليمانيةُ من أهل الشام، فقال معاوية: يا معشر قريش، والله لقد قرّبكم لقاء القوم إلى الفتح، ولكن لا مَرَدَّ لأمرِ الله، ومِمَّ تستحيون! إنما لقيتم كباش العراق، فقتلتم منهم وقتلوا منكم، وما لكم عليّ من حجة. لقد عبأت نفسي لسيّدهم وشجاعهم سعيد بن قيس. فانقطعوا عن معاوية أياماً، فقال معاوية [في ذلك]:

لعمري لقد أنصفتُ والنَّصْف عادتي ... وعاين طعناً في العَجاج المعاينُ
ولولا رجائي أن تؤوبوا بُنهزةٍ ... وأنْ تغسِلوا عاراً وَعَتْهُ الكنائنُ(١)
لناديت للهيجا رجالاً سواكمُ ... ولكنّما تَحمي الملوكَ البطائنُ
أتدرونَ مَنْ لاقيتُم، فُلَّ جيشكمْ! ... لقيتمْ لُيوثاً أصحرتْها العرائن
لقيتمْ صناديد العِراق ومَنْ بهم ... إذا جاشت الهيجاءُ تُحْمَى الظعائنُ
وما كان منكم فارسٌ دون فارسٍ ... ولكنّه ما قدّر الله كائن!

فلما سمع القوم ما قاله معاوية، أتوْه فاعتذروا إليه، واستقاموا إليه على ما يحبّ.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، قال: لما اشتدّ القتال وعظُم الخطب، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: أن قَدّم عكًّا والأشعريين إلى مَنْ بإزائهم. فبعث عمرو إليه أنّ بإزاء عَكٍّ

(١) النهرة: الفرصة، وانتهزها: اغتنمها. القاموس، مادة (نهز).

هَمْدان. فبعث إليه معاوية: أنْ قدّم عَكًّا، فأتاهم عمرو، فقال: يا معشر عَكّ، إنّ عليًا قد عرف أنّكم حيّ أهل الشام، فعبأ لكم حَيّ أهل العراق هَمْدان، فاصبروا وهَبُوا إليّ جماجمكم ساعة من النهار، فقد بلغ الحقّ مقطعَه. فقال ابن مسروق العكيّ: أمهلني حتى آتِيَ معاوية، فأتاه فقال: يا معاوية، اجعلْ لنا فريضةَ ألفيْ رجل في ألفين ألفين، ومَنْ هلك فابنُ عَمّه مكانه، لنقرّ اليوم عينَك. فقال: لك ذلك، فرجع ابنُ مسروق إلى أصحابه، فأخبرَهم الخبر، فقالت عكّ: نحن لهمْدان، ثم تقدّمت عكّ، ونادى سعيد بن قيس: يا همْدان، أن تقدّموا! فشدّت هَمْدان على عكّ رجّالة، فأخذت السيوفُ أرجُلَ عكّ، فنادى ابن مسروق:

يـا لـعـكٍّ بَـرْكـاً كـبـرِك الـكَـمَـلْ

فبركوا تحت الحجف، فشجرتْهم همْدان بالرماح، وتقدّم شيخ من هَمْدان، وهو يقول:

يـا لـبَـكِـيـلٍ لـخـمُـهـا وحَـاشِـدُ ... نـفـسـي فـداكـمْ طـاعِـنُـوا وجـالِـدُوا
حـتـى تـخـرّ مـنـكـم الـقـمـاجِـدُ ... وأرجـلٌ يـتـبـعـهـا سـواعـدُ
بـذاك أوصـى جـدّكـم والـوالـدُ

وقام رجل من عكّ، فارتجز فقال:

تـدعـون هَـمْـدان ونـدعـو عـكّـا ... بـكّـوا الـرجـالَ يـا لـعـكٍّ بـكّـا
إن خَـدّم الـقـومُ فـبـركـاً بَـرْكًـا ... لا تـدخِـلـوا الـيـومَ عـلـيـكـم شَـكّـا
قـد مَـحَـك الـقـومُ فـزيـدُوا مَـحْـكًـا[1]

قال: فالتقى القومُ جميعاً بالرماح، وصاروا إلى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل فقالت همدان: يا معشر عَكّ، نحن نقسم بالله إننا لا ننصرف حتى تنصرفوا. وقالت عكّ مثل ذلك، فأرسل معاوية إلى عكّ أن أبِرّوا قَسَم إخوتكم وهلمّوا. فانصرفت عكّ، فلما انصرفت انصرفت هَمْدان، فقال عمرو: يا معاوية، والله لقد لقيتُ أسْد أسْداً، لم أرَ والله كهذا اليوم قطّ لو أنّ معك حيّا كعك، أو مع عليّ حيّ كهمدان لكان الفناء.

وقال عمرو في ذلك:

إنَّ عـكّـا وحـاشـداً وبَـكـيـلاً ... كـأسـود الـضّـراءِ لاقـتْ أسـودَا
وجَـثـا الـقـومُ بـالـقـنـا وتـسـاقـوْا ... بـظُـبـاةِ الـسـيـوف مـوتـاً عـتـيـدا
ازورار الـمـنـاكـب الـغـلـب بـالـشُّـ ... ـمّ وضـربِ الـمـسـوّمـيـن الـخـدودا
لـيـس يـدرون مـا الـفـرار ولـو كـا ... ن فـراراً لـكـان ذاك سـديـدا

---

(١) المحك: اللّجوج. القاموس، مادة (محك).

يعلم الله ما رأيت من القو ... مِ ازوراراً، ولا رأيت صدودا
غير ضرب فوق الطُّلى، وعلى الها ... م وقرع الحديد يعلو الحديدا
ولقد قال قائل خدّموا السُّو ... ق، فخرّت هناك عكٌّ قعودا
كبُروك الجمال أثقلها الحِمْـ ... ـلُ فما تستقلّ إلا وئيدا

قال: ولما اشترطت عكّ والأشعريون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم، لم يبقَ من أهل العراق أحدٌ في قلبه مرض إلا طمع في معاوية، وشخص ببصره إليه، حتى فشا في الناس، وبلغ عليًا عليه السلام، فساءه.

قال نصر: وجاء عديّ بن حاتم يلتمس عليًا عليه السلام، ما يطأ إلا على قتيل أو قَدَم أو ساعِدٍ، فوجده تحت رايات بكْر بن وائل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ألا تقومُ حتى نقاتلَ إلىّ أن نموت! فقال له عليّ عليه السلام: ادنُ، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: ويحك! إن عامّة مَنْ معي اليوم يعصيني، وإنّ معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه!

قال نصر: وجاء المنذر بن أبي حَميصة الوداعيّ - وكان شاعر همْدان وفارسها - عليًا عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ عكًّا والأشعريّين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم، فباعوا الدين بالدنيا، وإنّا قد رضينا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبكَ من معاوية، والله لآخرتُنا خيرٌ من دنياهم، ولعراقنا خيرٌ من شآمهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم، فاستفْتِحنا بالحرب، وثِقْ منّا بالنصر، واحمِلنا على الموت، وأنشده:

إن عكًّا سالوا الفرائض والأشـ ... ـعَرَ سالُوا جوائزاً بَثَنِيَّهْ(١)
تركوا الدّين للعطاء ولِلْفَرْ ... ض، فكانوا بذاك شرَّ البريّهْ
وَسَألْنا حُسْنَ الثواب من الله ... وصبراً على الجهاد ونِيّهْ
فلكلٌّ ما سالهُ ونواهُ ... كلّنا يحسب الخلافَ خَطيّهْ
وَلأهلُ العراق أحسن في الحَرْ ... ب إذا ما تدانَتِ السَّمْهريّهْ(٢)
ولأهلُ العراق أحمل للثّقْلِ ... إذا عمّت البلادَ بليّهْ
ليس منّا من لم يكن في الله ... وليًّا يا ذَا الولاَ والوصيّهْ

فقال علي عليه السلام: حسبك الله! يرحمك الله! وأثنى عليه وعلى قومه خيراً. وانتهى شعره إلى معاوية، فقال: والله لأستميلنّ بالدنيا ثقات عليّ، ولأقسمنّ فيهم الأموال حتى تغلِب دنياي آخرتَه.

قال نصر: فلما أصبح النّاس غدَوْا على مصافهم، وأصبح معاوية يدورُ في أحياء اليمن،

---

(١) البثنية: بلاد الشام. لسان العرب، مادة (بثن).
(٢) السمهريّة: القناة الصلبة الشديدة. اللسان، مادة (سمهر).

وقال: عبُّوا إليّ كلّ فارس مذكور فيكم، أتقوّى به على هذا الحيّ من هَمْدان فخرجت خيل عظيمة، فلما رآها عليّ عليه السلام وعرف أنها عيونُ الرجال، فنادى: يا لَهْمدان! فأجابه سعيد بن قيس، فقال له عليّ عليه السلام: احمل، فحمل حتى خالط الخيل بالخيل، واشتدّ القتال، وحطّمتهم هَمْدان حتى ألحقتْهم بمعاوية، فقال معاوية: ما لقيت من همدان! وجزع جزعاً شديداً، وأسرع القتل في فرسان الشام، وجمع عليّ عليه السلام هَمْدان، فقال لهم: يا معشر هَمْدان، أنتم دِرْعي ورمحي ومِجَنّي، يا همدان ما نصرتم إلا الله، ولا أجبتم غيرَه. فقال سعيد بن قيس: أجَبْنَا الله وأجَبْنَاك، ونصرنا رسول الله في قبره، وقاتلنا معك مَنْ ليس مثلك، فارمِنا حيث شئت.

قال نصر: وفي هذا اليوم قال عليّ عليه السلام:

ولو كنتُ بَوّاباً على بابِ جَنّةٍ ... لقلتُ لهَمْدانَ ادخلي بسلامِ

فقال عليّ عليه السلام لصاحب لواء همْدان: اكفِني أهل حِمْص، فإني لم ألقَ من أحدٍ ما لقيت منهم. فتقدّم وتقدّمت هَمْدان، وشدّوا شدّةً واحدة على أهل حِمْص، فضربوهم ضرباً شديداً متداركاً، بالسيوف وعُمُد الحديد، حتى ألجؤوهم إلى قبّة معاوية، وارتجز من هَمْدان رجل، عِدَادُه في أرْحب، فقال:

قد قتلَ الله رجالَ حِمْصِ ... غُرُّوا بقولٍ كذِبٍ وخَرْصِ[1]

حِرْصاً على المال وأيّ حِرص! ... قد نكص القوم وأيّ نَكْصِ!

عن طاعةِ الله وفحوى النَّصّ

قال نصر: فحدثنا عمر بن سعدٍ، قال: لما رُدَّت خيول معاوية أسف فجرّد سيفه وحمل في كُماة أصحابه، فحملت عليه فوارس هَمْدان، ففاز منها ركضاً، وانكسرت كُماته ورجعت هَمْدان إلى مراكزها، فقال حُجر بن قحطان الهمْدانيّ، يخاطب سعيد بن قيس:

ألاَ ابنَ قيس قَرّت العينُ إذا رأتْ ... فوارسَ هَمْدان بن زيد بن مالكِ

عَلَى عارفاتٍ للِّقاءِ عوابس ... طوالَ الهوادِي مشرفاتِ الحواركِ[2]

معوّدة للطعن في ثُغُراتها ... يَجُلْنَ فيحطمن الحَصى بالسَّنابكِ

عَبَاها عليّ لابن هند وخيله ... فلو لم يفتها كانَ أوّل هالك

وكانت له في يومه عند ظنّه ... وفي كلّ يوم كاسِف الشمس حالك

وكانتْ بحمد الله في كلّ كُرْبَةٍ ... حُصوناً وعزًّا للرِّجالِ الصَّعَالكِ

(١) الخرص: الكذب وكل قول بالظن. اللسان، مادة (خرص).

(٢) الحوارك: جمع حارك وهو أعلى الكاهل. القاموس، مادة (حرك).

فقل لأمير المؤمنين: أن ادعُنَا ... متى شئت إنّا عُرْضة للمهالك
ونحن حَطَمْنَا السُّمْور في حيِّ حمير ... وكِندة والحيِّ الخفاف السكاسك
وعكّ ولخْم شائلينَ سيَاطَهُمْ ... حذارَ العوالي كالإماء العوارك[1]

قال: نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن رجاله، أنَّ معاوية دعا يوماً بصفّين مروان بن الحكم، فقال له: إنّ الأشتر قد غمّني وأقلقني، فاخرج بهذه الخيل في يحصُب والكَلاَعيين، فالقه: فقال مَرْوان: ادعُ لهما عمراً، فإنه شعارك دون دِثارك قال: فأنت نفسي دون وريدي. قال: لو كنتُ كذلك ألحقتَني به في العطاء وألحقتَه بي في الحِرْمان، ولكنك أعطيتَه ما في يدك، ومنّيته ما في يد غيرك، فإن غَلَبْتَ طاب له المقام، وإن غُلِبتَ خَفَّ عليه الهرب. فقال معاوية: سيغني الله عنك. قال: أمّا إلى اليوم فلم يغنِ. فدعا معاوية عمراً، فأمره بالخروج إلى الأشتر، فقال: أما إني لا أقول لك ما قال مروان، قال: وكيف نقوله وقد قدّمتُك وأخّرته، وأدخلتُك وأخرجته! قال: أما والله إن كنتَ فعلتَ، لقد قدّمتني كافياً، وأدخلتَني ناصحاً، وقد أكثر القوم عليك في أمر مصر، وإن كان لا يرضيهم إلاّ رجوعُك فيما وثِقت لي به منها فارجع فيه. ثم قام فخرج في تلك الخيل، فلقيَه الأشتر أمام القوم، وقد علم أنه سيلقاه، وهو يرتجز ويقول:

يا ليتَ شعرِي كيف لي بعمرِو ... ذاكَ الذي أوجبتُ فيه نَذرِي!
ذاكَ الّذِي أطلبه بوِتْرِي ... ذاكَ الذي فيه شفاءُ صدرِي
مَنْ بائِعي يوماً بكلّ عمري ... يُغلِي به عند اللّقاء قَدْرِي
أجعله فيه طعام النّسرِ ... أو لا فربّي عاذِري بعذري

فلما سمع عمرو هذا الرجز، فشل وجَبُن، واستحيا أن يرجع، وأقبل نحو الصوت، وقال:

يا ليت شعري كيف لي بمالكِ؟ ... كم كاهلٍ جببتُه وحارِكِ!
وفارسٍ قتلته وفاتكِ ... ومُقْدِمٍ آبَ بوجهٍ حالكِ
ما زلت دهري عرضة المهالك

فغشيَه الأشتر بالرمح، فراغ عمرو عنه، فلم يصنع الرمح شيئاً، ولوَى عَمْرو عِنَان فرسه، وجعل يده على وجهه، وجعل يرجع راكضاً نحو عسكره. فنادى غلامٌ من يَحْصُب: يا عمرو، عليك العَفَا ما هبَّت الصبا، يا آل حمير [إنّا لكم ما كان معكم]، هاتوا اللواء، فأخذه وتقدّم، وكان غلاماً حَدَثاً، فقال:

(١) عركت المرأة: حاضت. القاموس، مادة (عرك).

إن يَـكُ عـمـروٌ قـد عـلاه الأشـتـرُ　　بـأسـمـرٍ فـيـه سِـنـانٌ أزهـرُ
فـذاك والله لـعـمـري مـفـخـرُ　　يـا عـمـرو تكـفيـك الطِّعـانَ حِمْيَرُ
والـيـحـصـبـيّ بـالـطـعـان أمـهـرُ　　دون الـلِّـواء الـيـوم مـوتٌ أحـمـرُ

فنادى الأشترُ ابنَه إبراهيم: خذ اللِّواء، فغلام لغلام. وتقدم فأخذ إبراهيم اللِّواء، وقال:

يـا أيُّـهـا الـسـائـلُ عَـنِّـي لا تُـرَعْ　　أقـدِمْ فـإنـي مِـنْ عَـرانـيـن الـنَّـخَـعْ
كـيـف تَـرى طـعـن الـعـراقـيّ الـجَـذَعْ　　أطـيـرُ فـي يـوم الـوَغـى ولا أقَـعْ
مـا سـاءكـم سَـرَّ، ومـا ضـرَّ نَـفَـعْ　　أعـددْتُ ذا الـيـومَ لـهـول الـمـطَّـلَـعْ

ويحمل على الحِمْيَرِيّ، فالتقاه الحميريّ بلوائه ورمحه، فلم يبرحا يطعَن كلّ واحدٍ منهما صاحبَه، حتى سقط الحَميريّ قتيلاً، وشمت مروان بعمرو، وغضب القحطانيون على معاوية، وقالوا: تولي علينا مَنْ لا يقاتل معنا. ولِّ رجلاً مِنّا، وإلا فلا حاجة لنا فيك. وقال شاعرهم:

مُـعَـاوِيَ إمّـا تـدْعُـنـا لـعـظـيـمـةٍ　　يُلَبَّسُ مِنْ نكرائِها الغَرْضُ بالحقَبْ
فـولّ عـلـيـنـا مَـنْ يـحـوطُ ذمـارَنـا　　من الحميريِّينَ الملوكِ على العَرَبْ[1]
ولا تـأمـرنّـا بـالّـتـي لا نـريـدُهـا　　ولا تجعلنّا بالهوى موضع الذَّنَبْ
ولا تـغـضـبـنّـا والـحـوادث جَـمّـةٌ　　عليك، فيفشو اليوم في يحصُبَ الغَضَبْ
فـإن لـنـا حـقـاً عـظـيـمـاً وطـاعـةً　　وحُبًّا دخيلاً في المُشاشِ وفي العَصَبْ[2]

فقال لهم معاوية: والله لا أولي عليكم بعد هذا اليوم إلا رجلاً منكم.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، قال: لما أسرع أهلُ العراق في أهل الشام، قال لهم معاوية: هذا يوم تمحيص، وإنّ لهذا اليوم ما بعده، وقد أسرعتم في القوم كما أسرعوا فيكم، فاصبروا وموتوا كراماً. وحرّض عليّ عليه السلام أصحابَه، فقام إليه الأصبغ بن نباتة، وقال: يا أمير المؤمنين، قدِّمني في البقيَّة من الناس، فإنك لا تفقد لي اليوم صبراً ولا نصراً، أما أهل الشام فقد أصبنا، وأما نحن ففينا بعض البقية، ائذن لي فأتقدّم، فقال له: تقدّم على اسم الله والبركة، فتقدم وأخذ الراية ومضى بها، وهو يقول:

إنّ الـرجـاء بـالـقـنـوط يُـدْمَـغُ　　حـتـى متى يـرجـو الـبـقـاءَ الأصبغُ!
أمـا تـرى أحـداث دهـر تَـنْـبُـغُ　　فـادبـغ هـواك، والأديـمُ يـدبَـغ

---

(١) الذّمار: ما يلزمك حفظه وحمايته. القاموس، مادة (ذمر).
(٢) المشاش: رأس العظم الممكن المضغ. القاموس، مادة (مشش).

والـرفـق فـيـمـا قـد تـريـد أبـلـغُ　　الـيـوم شـغـل، وغـدا لا تـفـرُغُ

فما رجع إلى عليّ عليه السلام حتى خضب سيفه دماً ورمحه. وكان شيخاً ناسكاً عابداً، وكان إذا لقيَ القومُ بعضُهم بعضاً يغمِد سيفه، وكان من ذخائر عليّ عليه السلام ممّن قد بايعه على الموت، وكان عليّ عليه السلام يضنّ به عن الحرب والقتال.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، قال: نادَى الأشتر يوماً أصحابَه، فقال: أما من رجل يشرِي نفسه لله! فخرج أثال بن حَجْل بن عامر المذحجِي فنادى بين العسكرين: هلْ من مبارز؟ فدعا معاوية - وهو لا يعرفه - أباه حَجْلَ بن عامر المذحجِيّ، فقال: دونك الرجل - قال: وكانا مستبصرين في رأيهما - فبرز كلّ واحد منهما إلى صاحبه، فبدره بطعنة، وطعنه الغلام، وانتسبا فإذا هو ابنه، فنزلا فاعتنَق كلّ واحد منهما صاحبَه، وبكيا. فقال له الأب: يا بنيّ، هلمّ إلى الدنيا. فقال له الغلام: يا أبي هلمّ إلى الآخرة. ثم قال: يا أبتِ والله لو كان من رأيي الانصراف إلى أهل الشام لوجبَ عليك أن يكون من رأيك لي أن تنهاني، واسوأتاه! فماذا أقول لعليّ وللمؤمنين الصالحين! كنْ على ما أنت عليه، وأنا على ما أنا عليه. فانصرف حَجْل إلى صفّ الشام، وانصرف ابنه أثال إلى أهل العراق، فخبّر كلّ واحد منهما أصحابَه، وقال في ذلك حَجْل:

إنّ حَـجْـل بـن عـامـرٍ وأثـالاً　　أصـبـحـا يـضـرَبـان فـي الأمـثـالِ
أقـبـل الـفـارس الـمـدجّج في الـنـقـ　　ـع أثـالٌ يـدعـو يـريـد نـزالِـي[1]
دون أهـل الـعـراق يـخـطـر كـالـفـحـ　　ـل عـلـى ظـهـر هـيـكـلٍ ذيّـالِ
فـدعـانـي لـه ابـنُ هـنـد ومـا زا　　لَ قـلـيـلاً فـي صـحـبِـه أمـثـالِـي
فـتـنـاولـتُـه بـبـادرة الـرُّمْـحِ　　وأهـوَى بـأسـمـرٍ عَـسّـال
فـاطّـعـنّـا وذاك مـن حـدث الـدهـ　　ـر عـظـيـمٌ، فـتـى لـشـيـخ بـجـالِ
شـاجـراً بـالـقـنـاة صـدرَ أبـيـه　　وعـزيـزٌ عـلـيّ طـعـنُ أثـال
لا أبـالـي حـيـنَ اعـتـرضـتُ أثـالاً　　وأثـالٌ كـذاك لـيـس يُـبَـالِـي
فـافـتـرقـنـا عـلـى الـسـلامـة، والـنّـفـ　　ـسُ يـقـيـهـا مـؤخّـرُ الآجـالِ
لا يـرانـي عـلـى الـهـدى وأراه　　مِـنْ هُـدَايَ عـلـى سـبـيـل ضـلال

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق، قال أثال ابنه مجيباً له:

---

(١) الأثال: المجد والشرف. القاموس، مادة (أثل).

إن طعنِي وسْطَ العجاجة حَجْلاً ... لم يكن في الّذي نويتُ عُقوقا
كنت أرجو به الثواب من اللّـ ... ـهِ وكَوْني مع النبيّ رفيقا
لم أزل أنصر العراق على الشا ... م أراني بفعلٍ ذاك حَقيقا
قال أهل العراق إذ عَظُم الخط ... بُ ونقّ المبارزون نَقيقا:
مَنْ فتًى يسلك الطريق إلى اللّـ ... ـهِ، فكنتُ الذي سلكتُ الطريقا
حاسرَ الرأس لا أريد سوى المو ... تِ أرى الأعظم الجليل دقيقا
فإذا فارس تقحّم في الرو ... ع خِدَبًّا مثل السَّحوق عتيقا[1]
فبداني حَجْلٌ ببادِرَة الطّعـ ... ـنِ وما كنت قبلها مسبوقا
فتلقَّيْتُه بعالية الرّمْحِ ... كِلانا يطاوِلُ العَيّوقا[2]
أحمد الله ذا الجلالة والقد ... رة حمداً يزيدني توفيقا
إذْ كففتُ السنان عنه ولم أد ... ن قتيلاً مِنْهُ ولا تُغروقا
قلتُ للشّيْخ لستُ أكفر نعما ... ك لطيف الغذاء والتفنيقا[3]
غير أني أخاف أن تدخل النا ... رَ فلا تَعْصِنِي وكنْ لي رفيقا
وكذا قال لي فغرّب تغريبـ ... ـاً، وشرّقتُ راجعاً تشريقا

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شِمِر بالإسناد المذكور، أنّ معاويةَ دعا النّعمان بن بشير بن سعد الأنصاريّ، ومسلَمة بن مخلَدٍ الأنصاريّ - ولم يكن معه من الأنصار غيرهما - فقال: يا هذان، لقد غمّني ما لقيت من الأوْس والخزرَج، واضعِي سيوفِهم عَلَى عواتقهم يدعُون إلى النزال، حتى لقد جَبّنُوا أصحابي الشجاع منهم والجبان، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهلِ الشام إلا قيل قتله الأنصار، أما والله لألقينّهم بحدّي وحديدِي، ولأعبينّ لكلّ فارس منهم فارساً ينشَبُ في حَلْقِه، ولأرمينّهم بأعدادِهم من قريش، رجال لم يغذِهم التّمْر والطَّفَيْشل، يقولون: نحن الأنصار، قد والله آووْا ونصروا، ولكن أفسدوا حَقّهم بباطلهم!

فغضِب النعمان، وقال: يا معاوية لا تلومَنّ الأنصار في حبّ الحرب والسرعة نحوها، فإنهم كذلك كانوا في الجاهلية. وأمّا دُعاؤهم إلى النزال فقد رأيتهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يفعلون ذلك كثيراً. وأما لقاؤك إياهم في أعدادهم من قريش فقد علمت ما لقيتْ قريش منهم قديماً،

---

(١) الخِدَبُّ: العظيم. القاموس، مادة (خدب).

(٢) العَيُّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها. القاموس، مادة (عيق).

(٣) التفنيق: التّنعُّم. اللسان، مادة (فنق).

فإن أحبَبت أن تَرَى فيه مثلَ ذلك آنفاً فافعل. وأما التّمر والطَّفَيْشَل، فإنّ التمر كان لنا فلما ذقتُموه شارَكتمونا فيه. وأما الطَّفَيْشَل، فكان لليهود، فلما أكلناه غلبناهم عليه، كما غلبت قريش عَلَى السَّخينة.

ثم تكلّم مسلمة بن مخلد، فقال: يا معاوية، إنّ الأنصار لا تعاب أحسابُها ولا نَجَاداتها. وأما غمّهم إياك فقد والله غمّونا، ولو رضِينا ما فارقونا ولا فارقْنا جماعَتهم، وإنّ في ذلك ما فيه من مباينة العشيرة، ولكنا حملنا ذلك لك، ورجونا منك عِوَضه. وأما التّمر ولطَّفَيْشَل، فإنهما يجرّان عليك السخينة والخرنوب.

قال: وانتهى هذا الكلام إلى الأنصار، فجمع قيس بن سعد الأنصار، ثم قام فيهم خطيباً فقال: إنّ معاوية قال ما بلغكم، وأجابه عنكم صاحِبَاكم، ولَعَمْرِي إن غظتُم معاوية اليوم، لقد غظتُموه أمس، وإن وترتموه في الإسلام، فلقد وترتموه في الشِّرْك، وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين، فجدُّوا اليومَ جدًّا تُنْسونه به ما كان أمس، وجِدّوا غداً جدًّا تنسُونه به ما كان اليوم، فأنتم مع هذا اللواءِ الذي كان يقاتل عن يمينِه جبريل، وعن يساره ميكائيل، والقوم مع لواء أبي جهل والأحزابِ فأمّا التمر فإنا لم نغرِسْه، ولكن غلَبنا عليه مَنْ غرسه، وأما الطَّفَيْشَل، فلو كان طعامنا لسُمِّينا به، كما سميّت قريش بسخِينة، ثم قال سعد في ذلك:

يابن هندٍ دع التَّوَثُّبَ في الحرْ ... بِ إذا نحن بالجِيادِ سَرَيْنا
نحنُ مَنْ قد علمتَ فادْنُ إذا شئتَ ... بمنْ شِئتَ في العجاج إلينا
إن تشأ فارس له فارس منّا ... وإنْ شئتَ باللّفيف التقينا
أيّ هذين ما أردت فخذه ... ليس مِنّا وليس منك الهوينَى
ثم لا نسلخ العجاجة حتّى ... تنجلي حربُنا، لَنا أو عَلَيْنا
لَيتَ ما تطلبُ الغَدَاةَ أتانا ... أنعَمَ الله بالشهادة عَيْنا

فلما أتى شعرهُ وكلامُه معاويةَ، دعا عمرَو بن العاص، فقال: ما ترى في شتم الأنصار؟ قال: أرى أن تُوعِدَهم، ولا تشتِمهم. ما عسى أن تقولَ لهم إذا أردتَ ذمّهم! فذُمّ أبدانَهم ولا تذمّ أحسابهم. فقال: إن قيس بن سعد يقوم كلّ يوم خطيباً، وأظنّه والله يُفْنينا غداً إن لم يحبسْه عنّا حابس الفيل، فما الرأيُ؟ قال: الصبر والتوكّل، وأرسل إلى رؤوس الأنصار مع عليّ، فعاتبهم وأمرهم أن يعاتبوه، فأرسل معاوية إلى أبي مسعود والبَرَاء بن عازب، وخُزيمة بن ثابت، والحجّاج بن غزية، وأبي أيّوب، فعاتبهم فمشوا إلى قيس بن سعد، وقالوا له: إنّ معاوية لا يحبّ الشتم، فكُفّ عن شتمه، فقال: إنّ مثلِي لا يشتم، ولكنّي لا أكفّ عن حربه حتى ألقَى الله. قال: وتحرّكت الخيل غُدْوة، فظنّ قيس أنّ فيها معاوية، فحمل على رجل يشبِهه، فضربه بالسيف فإذا هو ليس به، ثم حملَ على آخر يشبهه أيضاً فقنّعه بالسيف.

فلما تحاجَزَ الفريقانِ شتَمه معاوية شتماً قبيحاً، وشتَم الأنصار فغضِب النعمان ومسلَمة، فأرضاهما بعد أنْ همَّا أن ينصرفا إلى قومهما.

ثم إنّ معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السِّلْم. فخرج النعمان، فوقف بين الصَّفين، ونادى: يا قيس بن سعد، أنا النعمان بن بشير، فخرج إليه، وقال: هيه يا نعمان! ما حاجتُك؟ قال: يا قيس، إنّه قد أنصفكم مَنْ دعاكم إلى ما رضيَ لنفسه. يا معشرَ الأنصار، إنكم أخطأتم في خَذْل عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصارَه يوم الجمل، وأقحمتُم خيولَكم على أهلِ الشام بصِفّين، فلو كنتم إذْ خذلتم عثمان خذلتُم عليًا، لكانت واحدةً بواحدة، ولكنكم لم ترضَوْا أن تكونوا كالنّاس، حتى أعلمتُم في الحرب، ودعوْتم إلى البراز. ثم لم ينزل بعليّ خطبٌ قطّ إلا هَوّنتم عليه المصيبةَ، ووعدتموه الظفر. وقد أخذت الحربُ منّا ومنكم ما قد رأيتم، فاتّقوا الله في البقيّة.

فضحك قيس، وقال: ما كنتُ أظنّك يا نعمان محتوياً على هذه المقالة، إنه لا ينصحُ أخاه من غشّ نفسه، وأنت الغاشّ الضالّ المضِلّ. أما ذكرُك عثمان، فإن كانت الأخبار تكفِيك فخذ منّي واحدة، قَتل عثمان مَنْ لستَ خيراً منه، وخَذَله مَنْ هو خيرٌ منك. وأمّا أصحابُ الجمل فقاتلناهم على النكث. وأما معاوية، فوالله لو اجتمعتْ عليه العرب قاطبة لقاتلتْه الأنصار، وأما قولك إنّا لسنَا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنّا مع رسول الله، نتقي السيوف بوجوهنا، والرماحَ بنحورنا، حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. ولكن انظر يا نعمان، هل تَرى مع معاوية إلا طليقاً، أو أعرابيّاً، أو يمانيّاً مستدرجاً بغرور! انظرْ أين المهاجرون والأنصار والتّابعون لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه! ثم انظر، هل تَرى مع معاوية أنصاريًا غيرك وغير صويحبك، ولستما والله ببدريين ولا عَقبيّين لا أُحديّين، ولا لكما سابقة في الإسلام، ولا آية في القرآن. ولعمرِي لئن شغِبتَ علينا لقد شغب علينا أبوك(١)!

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، قال: كان فارسَ أهل الشام الذي لا ينازَع عوفُ بن مجزأة المراديّ، المكني أبا أحمر، وكان فارسَ أهل الكوفة العكبرُ بن جدير الأسديّ، فقام العكبر إلى عليّ عليه السلام، وكان مِنْطيقاً فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ في أيدينا عهداً من الله لا نحتاج فيه إلى الناس، قد ظننا بأهلِ الشام الصبر وظنّوا بنا، فصبرنا وصبروا، وقد عجبت من صبر أهل الدنيا [لأهل الآخرة، وصبر أهلِ الحقّ على أهل الباطل، ورغبة أهل الدنيا]، ثم قرأتُ آية من كتاب الله فعلمت أنهم مفتونون: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/٥١٨ ح ٤٣٧.

ٱلْكَٰذِبِينَ ۝﴾(1). فقال له عليه السلام خيراً، وخرج الناس إلى مصافّهم، وخرج عوف بن مجزأة المراديّ نادراً من الناس، وكذا كان يصنع، وقد كان قتل نفراً من أهلِ العراق مبارزةً، فنادى: يا أهل العراق، هلْ من رجل عَصَاه سيفُه يبارزني! ولا أغرّكم من نفسي! أنا عوف بن مجزأة. فنادى النّاس بالعكْبَر، فخرج إليه منقطعاً عن أصحابه ليبارزه، فقال عوف:

بالشّامِ أمْنٌ ليس فيه خوفْ ... بالشّام عَدْلٌ ليس فيه حَيْفْ(2)
بالشام جُودٌ ليس فيه سَوْفْ ... أنا ابن مجزاةٍ واسمي عوفْ
هل من عراقيّ عصاه سَيْفْ ... يَبْرُز لي وكَيْفَ لِي وكَيْفْ!

فقال له العكْبَرُ:

الشّام مَحْلٌ والعراق ممطرْ ... بها إمامٌ طاهِرٌ مطَهّرْ
والشّام فيها أعورٌ ومُعْوِرْ ... أنا العراقيّ واسمي عَكْبَرْ
ابن جُدير وأبوه المنذِرْ ... ادن، فإنّي في البراز قَسْوَرْ(3)

فاطّعنا، فصرعه العكبر وقتله، ومعاوية على التلّ في وجوه قريش ونفر قليل من الناس، فوجه العكْبَر فرسَه، يملأ فروجه ركضاً، ويضربه بالسوط مسرعاً نحو التلّ. فنظر معاوية إليه فقال: هذا الرجلُ مغلوبٌ عَلَى عقله أو مستأمن، فاسألوه، فأتاه رجل وهو في حَمْوِ فرسه، فناداه فلم يجبه، ومضى مبادراً، حتى انتهى إلى معاوية، فجعل يطعن في أعراض الخيل ورجا أن ينفرد بمعاوية فيقتله، فاستقبله رجال، قتل منهم قوماً، وحال الباقون بينه وبين معاوية بسيوفهم ورماحهم، فلما لم يصل إليه قال: أوْلى لك يابن هند! أنا الغلام الأسديّ، ورجع إلى صفّ العراق ولم يكلّم، فقال له عليّ عليه السلام: ما دعاك إلى ما صنعت؟ لا تُلْقِ نفسَك إلى التهلُكة، قال: يا أمير المؤمنين أردت غِرّة ابن هِند فحيل بيني وبينه، وكان العكبر شاعراً فقال:

قتلتُ المراديّ الذي كان باغياً ... ينادِي وقد ثار العَجَاجُ: نَزَالِ
يقولُ: أنا عوفُ بن مجزاة والمُنَى ... لقاءُ ابن مجزاةٍ بيوم قتالِ
فقلت له لَمّا علا القومَ صَوْتُه: ... مُنِيتَ بمشبوح اليدين طُوالِ
فأوْجَرتُه في ملتقى الحرْب صَعْدَةً ... ملأتُ بها رعباً صدورَ رجالِ(4)
فغادرتُه يكبو صريعاً لوجههِ ... ينوء مِراراً في مَكَرّ مجَالِ

(1) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.
(2) الحيف: الظلم والجور. القاموس، مادة (حيف).
(3) القَسْوَرُ: الأسد. القاموس، مادة (قسر).
(4) الصعدة: القناة المستقيمة. اللسان، مادة (صعد).

وقدّمت مُهْري راكضاً نحو صفِّهِمْ أصَرِّفه في جَرْيِهِ بشِمَالِي
أريدُ به التلّ الذي فوق رأسِهِ معاويةُ الجانِي لكلّ خَبَالِ
فقامَ رجالٌ دونَهُ بسيوفهمْ وقام رجالٌ دونَهُ بعوالِي
فلو نلتُه نلتُ التي ليس بعدها وفزت بذكر صالح وفعالِ
ولو متّ في نيلِ المُنَى ألف مَوْتَةٍ لقلت إذا ما متّ: لست أبالِي

قال: فانكسر أهل الشام لقتل عَوْف المراديّ، وهدر معاوية دم العكبر، فقال العكبر: يد الله فوق يدِه، فأين الله جلّ جلاله ودفاعه عن المؤمنين!

قال نصر: ورَوَي عمر بن سعد، عن الحارث بن حصين، عن أبي الكَنود، قال: جزع أهلُ الشام عَلَى قَتْلاهم جزعاً شديداً، وقال معاوية بن خديج: قَبَح الله ملكاً يملكه المرء بعد حَوْشَبٍ وذي الكَلاع، والله لو ظفِرْنا بأهل الدنيا بعد قتلهما بغير مؤونة ما كان ظفراً. وقال يزيد بن أسد لمعاوية: لا خيرَ في أمرٍ لا يشبه آخرُه أوله، لا يدمى جريح ولا يبكى قتيل حتى تنجليَ هذه الفتنة، فإن يكن الأمر لك أدميت وبكيت عَلَى قرار، وإن يكن لغيرك فما أصِبت به أعظم. فقال معاوية: يا أهل الشام، ما جعلكم أحقّ بالجزع عَلَى قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم، والله ما ذو الكَلاع فيكم بأعظَم من عَمّار بن ياسر فيهم، ولا حَوْشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم، وما عبيد الله بن عمر فيكم بأعظَم من ابن بُدَيل فيهم، وما الرجال إلاّ أشباه، وما التمحيص إلا من عند الله، فأبشرُوا فإنّ الله قد قتل من القوم ثلاثة: قتَل عماراً وكان فتاهم، وقتل هاشِماً وكان حمزتَهم، وقتل ابنَ بُدَيل وهو الذي فعل الأفاعيل، وبقي الأشتر، والأشعث، وعديّ بن حاتم، فأمّا الأشعث فإنما حمى عنه مصره، وأمّا الأشتر وعديّ فغضبا والله [للفتنة]، قاتلهما غداً إن شاء الله تعالى، فقال معاوية بن خَديج: إن يكن الرجال عندك أشباها فليست كذلك، وغضب. وقال شاعر اليمن يرثي ذا الكَلاع وحوشباً:

مُعَاوِيَ قد نلنا ونيلتْ سَرَاتُنَا وجُدِّع أحياءُ الكَلاع ويحصُبِ[1]
فذو كَلَعٍ لا يُبْعِدِ الله دارَه وكلّ يمان قد أصيبَ بحوْشَبِ
هما ما هما كانا - معاويَ - عصمةً متى قلتُ كانا عصمةً لا أكذَّبِ
ولو قُبِلَتْ في هالكٍ بَذْلُ فِدْيَةٍ فديتُهما بالنَّفْس والأمّ والأب

(١) السَّراة: أعلى كل شيء. القاموس، مادة (سري).

وروى نصر، عن عمر بن سعد، عن عبيد الرحمن بن كعب، قال: لما قتل عبد الله بن بُدَيْل يوم صِفِّين مَرّ به الأسود بن طَهْمَان الخُزاعيّ، وهو بآخر رَمق، فقال له: عَزّ عَليَّ والله مصرعُك! أما والله لو شهدتُك لآسيتُك، ولدافعتُ عنك، ولو رأيت الذي أشعَرك لأحببت ألاّ أزايلَه ولا يزايلني حتى أقتله، أو يلحقني بك. ثم نزل إليه، فقال: رحمك الله يا عَبد الله، [والله] إن كان جارك لَيأمَنُ بوائقك، وإن كنتَ لمِن الذّاكرين الله كثيراً. أوْصني رحمك الله. قال: أوصِيك بتقوى الله، وأن تناصحَ أميرَ المؤمنين، وتقاتل معه حتى يظهر الحقّ أو تلحق بالله، وأبلغ أميرَ المؤمنينَ عنّي السلام، وقل له: قاتلْ عَلَى المعركة حتى تجعلَها خَلْف ظهرك، فإنه مَنْ أصبَحَ والمعركة خلف ظهره، كان الغالب.

ثم لم يلبث أن مات.

فأقبل أبو الأسود إلى عليّ عليه السلام، فأخبره، فقال: رحمه الله! جاهَدَ معنا عدوّنا في الحياة، ونصح لنا في الوفاة.

قال نصر: وقد رُوي نحو هذا عن عبد الرحمن بن كَلَدة، حدثني محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بحر، عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: خرجتُ ألتمس أخي سويداً في قَتْلَى صِفّين، فإذا رجل صريع في القَتْلَى، قد أخذ بثوبي فالتفتّ، فإذا هو عبد الرحمن بن كَلَدة، فقلت: إنّا لله وإنا إليه راجعون! هل لك في الماء ومعي إداوة؟ فقال: لا حاجة لي فيه، قد أنفِذ فيّ السلاح وخرقني، فلست أقدر على الشراب، هل أنت مُبلِغٌ عنّي أميرَ المؤمنين رسالةً أرسلُك بها؟ قلت: نعم، قال: إذا رأيته فاقرأ عليه السلام، وقل له: يا أميرَ المؤمنين، احمِلْ جرحَاك إلى عسكرك حتى تجعلهم من وراءِ ظهرك، فإنّ الغلَبة لمن فعل ذلك، ثم لم أبرح حتى مات. فخرجتُ حتى أتيتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام فقلت له: إنّ عبد الرحمن بن كَلَدة يقرأ عليكَ السّلام، قال: وأين هو؟ قلت: وجدته وقد أنفذه السّلاح وخَرّقه، فلم يستطع شرب الماء، ولم أبرح حتى مات. فاسترجع عليه السلام، فقلت: قد أرسلني إليك برسالةٍ، قال: وما هي؟ قلت: إنّه يقول: احمِلْ جرحاك إلى عسكرك، واجعلْهم وراءَ ظهرك، فإنّ الغَلَبة لمن فعل ذلك، فقال: صدَق، فنادى مناديه في العسكر أن احمِلوا جرحاكم من بيْن القتلى إلى معسكركم، ففعلوا.

قال نصر: وحدّثني عمرو بن شَمِر، عن جابر، عن عامر، عن صعصعة بن صُوحان، أنّ أبرهَة بن الصَّبّاح الحميريّ قام بصِفّين، فقال: ويحكم يا معشر أهل اليمن! إنّي لأظنّ الله قد أذنَ بفنائكم! ويْحكم خلّوا بين الرجلين، فليقتتلا، فأيّهما قَتَل صاحبَه مِلْنا معه جميعاً - وكان أبْرهة من رؤساء أصحاب معاوية - فبلغ قولُه عليًّا عليه السلام، فقال: صدق أبرهة! والله ما سمعتُ بخطبة منذ وردتُ الشام أنا بها أشدّ سروراً منّي بهذه الخطبة!

قال: وبلغ معاويةَ كلامُ أبرهة، فتأخر آخر الصفوف، وقال لمن حوله: إنّي لأظنّ أبرهة مصاباً في عقله. فأقبلَ أهلُ الشام يقولون: والله إنّ أبرهة لأكملُنا ديناً وعقلاً، ورأياً وبأساً، ولكن الأمير كرِه مبارزة عليّ، وسمع ما دار من الكلام أبو داود عروة بن داود العامريّ - وكان من فرسان معاوية - فقال: إن كان معاوية كَرِه مبارزة أبي حسن، فأنا أبارزه، ثم خرج بين الصفّين، فنادى: أنا أبو داود فأبرز إليّ يا أبا حسن، فتقدم عليّ عليه السلام نحوه، فناداه الناس: ارجعْ يا أميرَ المؤمنين عن هذا الكلب فليس لك بخطر، فقال: والله ما معاوية اليوم بأغيظَ لي منه، دعوني وإياه، ثم حَملَ عليه فضربه فقطعه قطعتين، سقطت إحداهما يمنيّةً والأخرى شامية، فارتجّ العسكران لهوْل الضربة، وصرخ ابن عمّ لأبي داود: واسوء صباحاه! وقبّح الله البقاء بعد أبي داود! وحمل على عليّ عليه السلام، فطعنه فضرب الرمح فبراه، ثم قنّعه ضربةً فألحقه بأبي داود، ومعاوية واقف على التلّ، يبصِر ويشاهد، فقال: تبًّا لهذه الرجال وقبحاً، أما فيهم من يقتلُ هذا مبارزَة أو غيلة، أو في اختلاط الفيلق وثَوَران النّقع. فقال الوليد بن عقبة: ابرزْ إليه أنت فإنّك أولى الناسَ بمبارزته، فقال: والله لقد دعاني إلى البراز حتى لقد استحييتُ من قريش، وإني والله لا أبرز إليه، ما جعل العسكرُ بين يدَي الرئيس إلا وقاية له. فقال عتبة بن أبي سفيان: الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه، فقد علمتم أنه قتل حريثاً، وفضح عمراً ولا أرى أحداً يتحكّك به إلا قتله. فقال معاوية لبُسْر بن أرطاة: أتقوم لمبارزته؟ فقال: ما أحدٌ أولى بها منك، أما إذ بيتموه فأنا له، قال معاوية: إنك ستلقاه غداً في أوّل الخيل، وكان عند بُسْر ابن عمّ له، قدِم من الحجاز يخطب ابنته، فأتى بسراً، فقال له: إني سمعتُ أنك وعدتَ من نفسك أن تبارز عليًا، أما تعلم أنّ الوالي من بعد معاوية عتبة ثم بعده محمد أخوه، وكلّ من هؤلاء قرْن عليّ، فما يدعوك إلى ما أرى! قال: الحياء، خرج مني كلام، فأنا أستحيي أن أرجع عنه. فضحك الغلام، وقال:

تنازلُه يا بُسْر إن كنتَ مثلَه ... وإلا فإنّ الليث للشاء آكل

كأنك يا بُسْر بن أرطاةَ جاهلٌ ... بآثاره في الحرب أو متجاهلُ

معاوية الوالي وصِنْواه بعدَهُ ... وليس سواء مستعارٌ وثاكلُ(١)

أولئك هم أولى به منك إنّه ... عليٌّ فلا تقربْه، أمّك هابلُ؟

مَتى تَلْقَهُ فالموت في رأس رمحه ... وفي سيفِهِ شغلٌ لنفسك شاغلُ

وما بعده في آخر الخيل عاطفٌ ... ولا قبله في أوّل الخيل حَامل

فقال بُسْر: هل هو إلا الموت، لا بدّ من لقاء الله فغدا عليّ عليه السلام منقطعاً من خيله، ويده

(١) الصِّنْوُ: الأخ الشقيق والعم والابن. اللسان، مادة (صنو).

في يد الأشتر، وهما يتسايران رويداً، ويطلبان التلّ ليقفا عليه، إذ برز له بُسْر مقنعاً في الحديد، لا يعرف، فناداه: ابرز إليّ أبا حسن، فانحدر إليه على تُؤَدة غير مكترِث به حتى إذا قاربه طعنه وهو دارعٌ فألقاه إلى الأرض، ومنع الدّرع السنان أن يصلَ إليه، فاتقاه بسرٌ بعورته، وقصد أن يكشفها، يستدفع بأسه، فانصرف عنه عليه السلام مستدبراً له فعرفه الأشتر حين سقط فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا بُسْر بن أرطاة، هذا عدو الله وعدوك، فقال: دعه عليه لعنة الله، أبعد أن فعلها؟

فحمل ابنُ عَمّ بُسر من أهل الشام، شاب، على عليّ عليه السلام. وقال:

أرديــتَ بُــسْــرًا والــغــلامُ ثــائــرُهْ ... أرْدَيْتَ شيخاً غاب عنه ناصرُهْ

وكــلُّــنَــا حــامٍ لــبُــسْــرٍ واتــرُه

فلم يلتفت إليه علي عليه السلام وتلقّاه الأشتر فقال له:

فــي كــل يــومٍ رجُــلُ شــيــخٍ شــاغــرَهْ ... وعــورةٌ وســطَ الــعَــجَــاج ظــاهِــرهْ

تــبــرزُهــا طــعــنــة كــفٍّ واتــرَهْ ... عــمــروٌ وَبُــسْــرٌ مُــنِــيــا بــالــفــاقِــرهْ[1]

فطعنه الأشتر، فكسر صُلْبه، وقام بُسْرٌ من طعنة علي عليه السلام مولّيا، وفرّت خيله، وناداه عليّ عليه السلام: يا بُسْر، معاوية كان أحقّ بها منك، فرجع بُسر إلى معاوية، فقال له معاوية: ارفع طرفك، فقد أدال الله عمراً منك، قال الشاعر في ذلك:

أفِــي كــلّ يــومٍ فــارسٌ تــنــدبــونــه ... لــه عــورةٌ تَــحْــتَ الــعــجــاجــة بــادِيَــهْ

يــكــفّ بــهــا عــنــه عــلــيٌّ ســنــانَــهُ ... ويــضــحَــكُ منــهــا فــي الــخَــلاء معــاويَــهْ

بــدت أمــسِ مــن عــمــرو فــقــنّــع رأسَــه ... وعــورةُ بــسْــرٍ مــثــلُــهــا حَــذْو حــاذيَــهْ

فــقــولاَ لــعــمــرو وابــن أرطــاةَ أبــصــرَا ... سَــبِــيلَــيْــكُــمــا، لا تــلــقــيَــا الــلّــيْــث ثــانــيَــهْ

ولا تــحــمَــدا إلا الــحــيــا وخُــصــاكــمــا ... هــمــا كــانــتَــا لــلــنَّــفــس - والله - واقــيَــهْ

فــلــولاهــمــا لــم تــنــجُــوَا مــن سِــنَــانــهِ ... وتــلــك بــمــا فــيــهــا عــن الــعَــوْدِ نــاهِــيَــهْ

متــى تــلــقــيَــا الــخــيْــلَ الــمــغــيــرة صُــبْــحــةً ... وفــيــهــا عــلــيّ فــاتــركــا الــخــيــل نــاحِــيَــهْ

وكــونــا بــعــيــداً حــيــث لا تــبــلــغ الــقَــنَــا ... ونــار الــوغَــى، إن الــتــجــارب كــافِــيَــهْ

وإنْ كــان مــنــه بــعــدُ لــلــنــفــس حــاجــةٌ ... فــعــودَا إلــى مــا شــئــتــمــا هِــيَ مــاهــيَــهْ

قال: فكان بُسْر بعد ذلك اليوم، إذا لقِيَ الخيل الّتي فيها عليّ يتنحِي ناحية، وتحامى فرسانُ الشام بعدها عليًا عليه السلام.

---

(١) الفاقرة: الدّاهية الكاسرة للفِقار. اللسان، مادة (فقر).

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الأجلح بن عبد الله الكنديّ، عن أبي جُحيفة، قال: جمع معاوية كلّ قرشيٍّ بالشام، وقال لهم: العجَب يا معشر قريش! أنّه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فِعالٌ يطول بها لسانه غداً ما عدا عمراً، فما بالكم! أين حميّة قريش؟ فغضب الوليد بن عُقْبة، وقال: أيَّ فعال تريد؟ والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق مَنْ يُغني غناءنا باللسان ولا باليد. فقال معاوية: بلى إنّ أولئك، وقَوْا عليًّا بأنفسهم. قال الوليد: كلاّ، بل وقاهم عليّ بنفسه. قال: ويحكم! أمَا فيكم مَنْ يقوم لقِرْنه منهم مبارزة ومفاخرة! فقال مروان: أما البراز فإنّ عليًّا لا يأذنُ لحسن ولا لحُسين ولا لمحمّد بنيه فيه، ولا لابن عباس وإخوته، ويصلَى بالحرب دونهم، فلأيّهم نبارز! وأمّا المفاخرة، فبماذا نفاخرهم! بالإسلام أم بالجاهلية! فإن كان بالإسلام، فالفخر لهم بالنبوّة، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن، فإن قلنا قريش، قالوا لنا: عبد المطلب.

فقال عُتْبة بن أبي سفيان: الهوا عن هذا، فإني لاق بالغداة جَعْدة بن هُبيرة، فقال معاوية: بخٍ بخٍ! قومُه بنو مخزوم، وأمّه أمّ هانيء بنت أبي طالب، كفء كريم!

وكثر العتاب والخصام بين القوم، حتى أغلظوا لمروان وأغلظ لهم، فقال مرْوان: أما والله، لولا ما كان منّي إلى عليٍّ عليه السلام في أيام عثمان، ومشهدي بالبصرة، لكان لي في عليّ رأيٌ يكفي امرأً ذا حسب ودين، ولكنّ ولعلّ. ونابذ معاوية الوليد بن عُقْبة [دون القوم]، فأغلظ له الوليد، فقال معاوية: إنّك إنّما تجترىء عليّ بنسبك من عثمان، ولقد ضربك الحدَّ وعزلك عن الكوفة.

ثم إنهم ما أمسوا حتى اصطلحوا، وأرضاهم معاوية من نفسه، ووصلهم بأموال جليلة. وبعث معاوية إلى عُتْبة، فقال: ما أنت صانعٌ في جَعْدة! قال: ألقاه اليوم وأقاتله غداً، وكان لجعدة في قريش شرفٌ عظيم، وكان له لسانٌ، وكان من أحبّ الناس إلى عليّ عليه السلام، فغدا عليه عُتْبة، فنادى: أبا جَعْدة أبا جعدة! فاستأذن عليًّا عليه السلام في الخروج إليه، فأذِن له، واجتمع الناس، فقال عُتْبة: يا جَعْدة، والله ما أخرجك علينا إلا حبّ خالك وعمّك عامل البحرين، وإنّا والله ما نزعم أنّ معاوية أحقُّ بالخلافة من عليّ، لولا أمره في عثمان، ولكن معاوية أحقّ بالشام لرضا أهلِها به، فاعفوا لنا عنها، فوالله ما بالشام رجلٌ به طِرْق إلا وهو أجدُّ من معاوية في القتال، وليس بالعراق رجل له مثل جدّ عليّ في الحرب، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم، وما أقبح بعليّ أن يكون في قلوب المسلمين أوْلَى الناس بالنّاس، حتى إذا أصابَ سلطاناً أفنى العرب. فقال جعدة: أما حُبّي لخالي، فلو كان لك خالٌ مثله لنسيتَ أباك، وأما ابن أبي سلمة فلم يصب أعظمَ من قدره، والجهاد أحبّ إليّ من العمل، وأما فضل عليّ عَلَى معاوية، فهذا ما لا يختلف فيه اثنان. وأمّا رضاكم اليوم بالشام، فقد رضيتم بها أمسِ فلم

نقبل. وأمّا قولك: «ليس بالشام أحدٌ إلاّ وهو أجدّ من معاوية، وليس بالعراق رجل مثل جدّ عليّ»، فهكذا ينبغي أن يكون، مضى بعليّ يقينُه، وقصّر بمعاوية شكّه، وقصْدُ أهل الحقّ خيرٌ من جهد أهل الباطل. وأمّا قولُك: «نحن أطوع لمعاوية منكم لعليّ» فوالله ما نَسأله إن سكتَ، ولا نردّ عليه إن قال. وأما قتلُ العرب، فإنّ الله كتب القتل والقتال، فمن قتله الحقُّ فإلى الله.

فغضب عُتْبة، وفَحَش على جَعْدة فلم يجبه، وأعرض عنه، فلما انصرف عنه، جمع خيله فلم يستبقِ [منها] شيئاً، وجلّ أصحابه السَّكون والأزْد والصَّدِف، وتهيّأ جَعْدة بما استطاع، والتقوْا، فصَبر القوم جميعاً، وباشر جَعْدة يومئذ القتال بنفسه، وجزع عتبة، فأسلم خيله، وأسرع هارباً إلى معاوية، فقال له: فَضَحك جَعْدة وهَزَمتك، لا تغسِل رأسَك منها أبداً! فقال: والله لقد أعذرت، ولكن أبَى الله أنْ يديلنا منهم، فما أصنع؟ وحَظِي جَعْدَةُ بعدها عند عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ!

وقال النّجاشيّ فيما كان من فُحْش عتبة عَلَى جَعْدة:

إن شتْمَ الكريم يا عُتْب خطبٌ ... فاعْلَمَنْهُ من الخطوب عظيمُ
أمّه أمّ هانىء وأبوهُ ... من معدٍّ ومن لؤيٍّ صميمُ
ذاكَ منها هبيرة بن أبي وهـ ... ـبٍ أقرّتْ بفضله مخزومُ
كان في حربكم يعدّ بألفٍ ... حين يلْقى بها القُرومَ القرومُ
وابنُه جَعْدَةُ الخليفة منه ... هكذا تنبت الفروع الأرومُ[1]
كلّ شيء تريده فهو فيهِ ... حَسَبٌ ثاقبٌ ودين قويمُ
وخطيب إذا تمعّرت الأوْ ... جُهُ يشجَى بهِ الألدّ الخصيمُ[2]
وَحَليمٌ إذا الحُبَى حَلَّها الْجَهْـ ... ـلُ، وخفّت من الرجال الحلومُ
وشَكِيمُ الحروب قد علم النّا ... سُ إذا حَلّ في الحروبِ الشكيمُ[3]
وصحيح الأديم من نَغَل العيـ ... ـبِ إذا كان لا يصحّ الأدِيمُ
حامل للعظيم في طلب الحمـ ... ـدِ إذا عظّم الصغيرَ اللئيمُ
ما عسى أن تقول للذهب الأحمـ ... ـر عيباً، هيهات منك النجوم!
كلّ هذا بحمْدِ ربّك فيهِ ... وسوى ذاك كانَ وهو فطيمُ

(١) الأروم: الأصول، القاموس، مادة (أرم).
(٢) تَمعَّرَت الأوجه: تغيرت غيظاً. القاموس، مادة (معر).
(٣) الشكيم: الأبيُّ الأنِف شديد النفس. اللسان، مادة (شكم).

وقال الأعور الشنّي في ذلك، يخاطب عُتْبة بن أبي سفيان:

ما زلتَ تظهرُ في عِطْفيْك أبّهةً ... لا يرفع الطَّرْف منك التّيهُ والصَّلَفُ(١)
لا تحسبِ القومَ إلاّ فقع قَرْقَرَةٍ ... أو شحمةً بزّها شاوٍ لها نُطَفُ
حتى لقيت ابنَ مخزومٍ، وأيّ فتى ... أحيا مآثر آباء له سَلَفُوا!
إن كان رهط أبي وهب جحاجحةً ... في الأولين، فهذا منهمُ خَلَفُ(٢)
أشجاك جَعْدَة إذ نادى فوارسَه ... حاموا عن الدِّين والدنيا فما وقفوا
هلاّ عطفت على قومٍ بمصرعةٍ ... فيها السَّكُون وفيها الأزد والصَّدِف

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، قال كان رجلٌ من أهل الشام، يقال له الأصبغ بن ضرار الأزديّ، من مسالح معاوية وطلائعه، فندَب له عليٌّ عليه السلام الأشتر، فأخذه أسيراً من غير قتال، فجاء به ليلاً فشدّه وثاقاً، وألقاه عند أصحابهِ ينتظر به الصباح، وكان الأصبغ شاعراً مفوّهاً، فأيقن بالقتل، ونام أصحابُه، فرفع صوته فأسمع الأشتر، وقال:

ألا ليتَ هذا اللّيلَ أصبح سرمداً ... عَلَى الناس لا يأتيهمُ بنهارِ
يكونُ كذا حتى القيامة إنّني ... أحاذرُ في الإصباح يوم بواري
فيا ليل أطبق، إن في الليل راحةً ... وفي الصبح قتلي أو فكاك أسارِي
ولو كنتُ تحت الأرض ستين وادياً ... لما رَدّ عنّي ما أخاف حِذاري
فيا نفسُ مهلاً إن للموت غاية ... فصبراً على ما ناب يابنَ ضرارِ
أأخشَى ولي في القوم رِحْمٌ قريبة ... أبَى الله أن أخشى ومالك جاري
ولو أنّه كَانَ الأسير ببلدةٍ ... أطاعُ بها، شمّرت ذيلَ إزاري
ولو كنت جاراً لأشعثِ الخير فكّنِي ... وقلّ من الأمر المخوفِ فراري
وجارَ سعيد أو عديّ بن حاتم ... وجارَ شُريحِ الخير قَرّ قرارِي
وجار المراديّ الكريم وهانىء ... وزخرِ بن قيس ما كرهت نهارِي
ولو أنني كنتُ الأسير لبعضهم ... دعوتُ فتى منهم ففكّ إساري
أولئك قومي لا عدمتُ حياتَهم ... وعفوهمُ عنّي وسَتْر عواري

قال: فغدا بهِ الأشتر إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ هذا رجل من مسالح معاوية، أصبته أمس، وبات عندنا الليل، فحرّكنا بشعره، وله رَحِمٌ، فإن كان فيه القتل فاقتله،

---

(١) الصَّلَفُ: الغُلُوّ في الظَّرْف والزيادة على المقدار مع تكبر. اللسان، مادة (صلف).

(٢) جحاجحة: جمع جحجاح وهو السيد. القاموس، مادة (جحح).

وإن ساغ لك العفو عنه فهبْه لنا، فقال: هو لك يا مالك، وإذا أصبت منهم أسيراً فلا تقتله، فإنّ أسير أهل القبلة لا يقتل.

فرجع به الأشتر إلى منزله وخلى سبيله[١].

١٢٥ - ومن كلام له عليه السلام في الخوارج لما أنكروا تحكيم الرجال، ويذم فيه أصحابه في التحكيم

الأصل: إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا ٱلْقُرْآنَ. هٰذَا ٱلْقُرْآنُ، إنما هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا ٱلْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا ٱلْقُرْآنَ، لَمْ نَكُنِ ٱلْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَى عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٢]، فَرَدُّهُ إِلَى ٱللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ ٱللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلاَهُمْ بِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ ٱلْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ ٱلْعَالِمُ، وَلَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ ٱلْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ، وَلاَ تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ ٱلْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ ٱلْغَيِّ.

إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ ٱللهِ مَنْ كَانَ ٱلْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ، وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ، مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! ٱسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ ٱلْحَقِّ لاَ يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لاَ يَعْدِلُونَ عَنْهُ، جُفَاةٍ عَنِ ٱلْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ.

مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلاَ زَوَافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا، لَبِئْسَ حُشَاشُ نَارِ ٱلْحَرْبِ أَنْتُمْ!

أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً يَوْماً أُنَادِيكُمْ، وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ!

(١) أخرجه ابن مزاحم المنقري في وقعة صفين: ٤٦٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

الشرح: دَفّتا المصحف: جانباه اللّذان يكتُفانه، وكان الناس يعملونَهما قديماً من خشب، ويعملونَهما الآن من جلد، يقول عليه السلام: لا اعتراضَ عليّ في التحكيم، وقول الخوارج: «حكّمتَ الرجال» دَعْوَى غير صحيحة، وإنّما حكّمت القرآن، ولكنّ القرآن لا ينطق بنفسه، ولا بدّ له مَن يترجم عنه. والتَّرْجُمان بفتح التاء وضم الجيم، هو مفسّر اللغة بلسان آخر، ويجوز ضمّ التاء لضمة الجيم، قال الراجز:

كالتُّرْجُمان لُقّيَ الأنباطا

ثم قال: لمّا دعينا إلى تحكيم الكتاب، لم نكن القوم الذين قال الله تعالى في حقّهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾(١)، بل أجبنا إلى ذلك، وعملنا بقول الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(٢). وقال: معنى ذلك أنْ نحكم بالكتاب والسنّة، فإذا عمل الناس بالحقّ في هذه الواقعة، واطّرحوا الهوى والعصبية، كنّا أحقّ بتدبير الأمّة وبولاية الخلافة من المنازع لنا عليها.

فإن قلت: إنّه عليه السلام لم يقل هكذا، وإنما قال: إذا حُكِم بالصدق في كتاب الله، فنحن أولى به، وإذا حُكِم بالسنة فنحن أحقّ بها!

قلت: إنه رفع نفسه عليه السلام أن يصرّح بذكر الخلافة فكنّى عنها، وقال: نحنُ إذا حُكِم بالكتاب والسنة أولى بالكتاب والسنّة، ويلزم من كونه أوْلى بالكتاب والسنة من جميع الناس أن يكون أولى بالخلافة من جميع الناس، فدلّ على ما كنّى عنه بالأمر المستلزم له.

فإن قلت: إذا كان الرجال الذين يترجمون القرآن ويفسّرونه، وقد كُلِّفُوا أن يحكموا في واقعة أهل العراق وأهل الشام، بما يدلّهم القرآن عليه، يجوز أن يختلفوا في تفسير القرآن وتأويله، فيدّعي صاحب أهل العراق من تفسيره ما يستدلّ به على مراده، ويدّعي وكيل أهل الشام ما يقابل ذلك ويناقضه، بطريق الشبهة الّتي تمسكوا بها من دم عثمان، ومن كون الإجماع لم يحصل على بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، احتاجَ الحكمان حينئذ إلى أنْ يحكُم بينهما حَكَمان آخران، والقول فيهما كالقول في الأول إلى ما لا نهاية له، وإنما كان يكون التحكيم قاطعاً للشَّغَب لو كان القرآن ينصّ بالصريح الذي لا تأويل فيه، إمّا عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام وإمّا على معاوية، ولا نصّ صريح فيه، بل الذي فيه يحتمل التأويل والتجاذب، فما الذي يفيد التحكيم والحال تعود لا محالة جَذَعة!

قلت: لو تأمّل الحكمان الكتاب حقّ التأمّل، لوجدا فيه النصّ الصريح على صحة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّ فيه النصّ الصريح على أنّ الإجماع حجّة، ومعاوية لم يكن مخالفاً

(١) سورة النور، الآية: ٤٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

في هذه المقدمة ولا أهل الشام، وإذا كان الإجماع حجّة، فقد وقع الإجماع لما توفّي رسول الله ﷺ، على أنّ اختيار خمسةٍ من صلحاء المسلمين لواحد منهم وبيعتِه توجب لزوم طاعته وصحة خلافته، وقد بايع أميرَ المؤمنين عليه السلام خمسةٌ من صلحاء الصحابة بل خمسون، فوجب أنْ تصحّ خلافته، وإذا صحّت خلافته نفذت أحكامه، ولم يجب عليه أن يقِيد بعثمان، إلا إن حضر أولياؤه عنده، طائعين له مبايعين، ملتزمين لأحكامه، ثم بعد ذلك يطلبون القصاص من أقوام بأعيانهم، يدّعون عليهم دمَ المقتول، فقد ثبت أنّ الكتاب لو تؤمّلَ حقّ التأمّل، لكان الحق مع أهل العراق، ولم يكن لأهل الشام من الشبهة ما يقدح في استنباطهم الذكور.

ثم قال عليه السلام: فأمّا ضربي للأجل في التّحكيم فإنما فعلته لأن الأناة والتثبّت من الأمور المحمودة، أما الجاهل فيعلم فيه ما جهله، وأما العالم فيثبُت فيه على ما علِمه، فرجوتُ أن يصلح الله في ذلك الأجلِ أمرَ هذه الأمّة المفتونة.

ولا تؤخذ بأكْظامها: جمع كَظْم، وهو مخرج النَّفَس، يقول: كرهت أن أعْجِل القوم عن التبيّن والاهتداء، فيكون إرهاقي لهم، وتركي للتنفيس عن خناقهم، وعدُولي عن ضرب الأجل بيني وبينهم أدْعَى إلى استِفسادهم، وأحْرَى أن يركبوا غيَّهم وضلالهم، ولا يُقْلِعوا عن القبيح عنهم.

ثم قال: أفضلُ الناس مَنْ آثرَ الحقّ وإن كرثه - أي اشتدّ عليه، وبلغ منه المشقة ويجوز «أكرثه» بالألف - على الباطل وإن انتفع به وأورثه زيادة.

ثم قال: «فأين يتاه بكم؟»، أي أين تذهبون في التيه؟ يعني في الحَيْرة. وروي: «فأنى يُتاهُ بكم؟».

ومن أين أتيتم؟ أي كيفَ دخل عليكم الشيطان أو الشبهة، ومن أيّ المداخل دخل اللّبس عليكم!

ثم أمرهم بالاستعداد للمسير إلى حرب أهل الشام، وذكَر أنهم مُوزَعُون بالجَوْر، أي ملهَمون، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾[(١)] أي ألهمني، أوزعته بكذا وهو موزَع به، والاسم والمصدر جميعاً الوزع بالفتح، واستوزعت إليه تعالى شكره فأوزَعني، أي استلهمته فألهمني.

ولا يعدِلون عنه، لا يتركونه إلى غيره، وروي «لا يعدلون به»، أي لا يعدلون بالجَوْر شيئاً آخر، أي لا يرضون إلاّ بالظلم ولا يختارون عليهما غيرهما.

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.

قوله: «جفاة عن الكتاب»: جمع جافٍ وهو النابي عن الشيء، أي قد نَبَوْا عن الكتاب لا يلائمهم ولا يناسبونه، تقول: جفَا السرجُ عن ظهرِ الفرس إذا نبا وارتفع، وأجفيتُه أنا، ويجوز أن يريد أنّهم أعراب جفاة، أي أجْلافٌ لا أفهام لهم.

قوله: «نُكُبٌ عن الطريق»، أي عادلون، جمع ناكب، نكَب ينكُب عن السبيل، بضم الكاف، نكُوباً.

قوله: «وما أنتم بوثيقة»، أي بذي وثيقة، فحذف المضاف، والوثيقة: الثقة، يقال: قد أخذت في أمر فلان بالوثيقة، أي بالثقة، والثقة مصدر.

والزوافر: العشيرة والأنصار، ويقال: هم زافرتهم عند السلطان، للذين يقومون بأمره عنده.

وقوله: «يعتصم إليها»، أي بها، فأناب «إلى» مناب الباء، كقول طرفة:

وإن يَلْتَقِ الحيّ الجميع تلاقِني ... إلى ذِرْوة البيت الرفيع المصمّدِ

وحُشاش النار: ما تُحشّ به، أي توقد، قال الشاعر:

أفِي أن أحُشّ الحرب فيمن يُحشّها ... ألامُ، وفي ألاّ أقرّ المخازيا!

وروي «حَشاش» بالفتح كالشَّياع، وهو الحطب الذي يلقى في النار قبل الجزل، وروي: «حُشّاش» بضم الحاء وتشديد الشين، جمع حاشٍّ، وهو الموقد للنار.

قوله: «أفٍّ لكم» من الألفاظ القرآنية، وفيها لغات «أفّ» بالكسر وبالضم وبالفتح و«أفٌّ» منوناً بالثلاث أيضاً، ويقال: أفًّا وتفًّا، وهو إتباع له، وأفّة وتفّة، والمعنى استقذار المعنى بالتأفيف.

قوله: «لقد لقيت منكم بَرْحاً»، أي شدّة، يقال: لقيت منكم بَرْحاً بارحاً، أي شدّة وأذى، قال الشاعر:

أجدّك هذا عمرَكَ الله كلّما ... دَعاكَ الهوى بَرْحٌ لعينك بارح!

ويروى: «ترحاً»، أي حزناً.

ثم ذكر أنه يناديهم جهاراً طوراً، ويناجيهم سِرًّا طوراً، فلا يجدُهم أحراراً عند ندائه، أي لا ينصرون ولا يجيبون، ولا يجدهم ثقاتاً وذوي أمانة عند المناجاة، أي لا يكتمون السرّ.

والنّجاء: المناجاة، مصدر ناجيته نجاء، مثل ضاربته ضِراباً، وصارعته صِراعاً.

١٢٦ - ومن كلام له عليه السلام لما عوقب على التسوية في العطاء وتصييره الناس أسوة في العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف

الأصل: أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَٱللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! وَلَوْ كَانَ المَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا المَالُ مَالُ ٱللهِ!

ثم قال عليه السلام: أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ المَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَضَعُهُ فِي ٱلآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ ٱللهِ، وَلَمْ يَضَعِ ٱمْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، إِلاَّ حَرَمَهُ ٱللهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَٱحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ، وَأَلأَمُ خَدِينٍ.

الشرح: أصل «تأمروني»: تأمرونني، بنونين، فأسكن الأولى وأدغم، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[1].

ولا أطور به: لا أقرَب به ولا تَطُرْ حَوْلنا، أي لا تقرب ما حولنا، وأصله من طَوار الدار، وهو ما كان ممتدًا معها من الفناء.

وقوله: «ما سمر سمير» يعني الدهر، أي ما أقام الدهر وما بقي، والأشهر في المثل: «ما سمر ابنا سمير»، قالوا: السمير الدهر، وابناه الليل والنهار. وقيل: ابنا سمير الليل والنهار، لأنه يُسمَر فيهما، ويقولون: لا أفعله السَّمَر والقمر، أي ما دام الناس يسمرون في ليلة قمْراء ولا أفعله سميرَ الليالي، أي أبداً، قال الشَّنْفَرَى:

هنالِكَ لاَ أرْجُو حياةً تَسُرُّنِي ... سميرَ الليَّالي مُبسلاً بالجرائر

قوله: «وما أمّ نجم في السماء نجماً»، أي قصد وتقدّم، لأن النجوم يتبع بعضها بعضاً، فلا بدّ من تقدُّم وتأخُّر، فلا يزال النجم يقصد نجماً غيره، ولا يزال النجم يتقدم نجماً غيره.

والخدين: الصديق، يقول عليه السلام: كيف تأمرونني أن أطلب النصر من الله بأن أجور على قوم ولّيت عليهم! يعني الذين لا سوابق لهم ولا شرف، وكان عُمَر ينقصهم في العطاء عن غيرهم.

ثم قال عليه السلام: لو كان المال لي وأنا أفرّقه بينهم لسوّيت، فكيف وإنما هو مال الله وفيئه!

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٤.

ثم ذكر أنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وقد نهى الله عنه وأنه يرفع صاحبه عند الناس، ويضعه عند الله، وأنه لم يسلك أحد هذه المسلك إلاّ حرمه الله ودّ الذين يتحبب إليهم بالمال، ولو احتاج إليهم يوماً عند عثرة يعثرها لم يجدهم.

واعلم أن هذه مسألة فقهية ورأيُ عليٍّ عليه السلام وأبي بكر فيها واحد، وهو التسوية بين المسلمين في قسمة الفيء والصدقات، وإلى هذا ذهب الشافعيّ رحمه الله، وأما عمر فإنه لَمّا وَلِيَ الخلافة فضّل بعض الناس على بعض، ففضّل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضّل العرب على العجم، وفضّلَ الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبي بكر أيام خِلافته بذلك، فلم يقبل، وقال: إنّ الله لم يفضّل أحداً على أحد، ولكنه قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[1]، ولم يخصّ قوماً دون قوم، فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار به أولاً. وقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله، والمسألة محلّ اجتهاد، وللإمام أن يعمل بما يؤديه إليه اجتهاده، وإن كان اتّباع عليٍّ عليه السلام عندنا أَوْلى، لا سيما إذا عضده موافقة أبي بكر على المسألة، وإن صحّ الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوّى، فقد صارت المسألة منصوصاً عليها، لأن فعله عليه السلام كقوله[2].

---

١٢٧ - ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج أيضاً

الأصل: فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ - بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بخطئي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ ٱلْبُرْءِ وَٱلسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ ورَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ ٱلْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ ٱلْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ ٱللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ ٱلْإِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ. ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٢) وقد قال عمر في آخر حياته أنه سوف يعيد العطاء كما كان في أيام أبي بكر.

رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ. وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ ٱلْحُبُّ إِلَى غَيْرِ ٱلْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ ٱلْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ ٱلْحَقِّ. وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ ٱلأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَٱلْزَمُوا السَّوَادَ ٱلأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ ٱللهِ عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَٱلْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ ٱلْغَنَمِ لِلذِّئْبِ.

أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هٰذِهِ، فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا ٱلْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ ٱلْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ ٱلاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ ٱلافْتِرَاقُ عَنْهُ، فَإِنْ جَرَّنَا ٱلْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ ٱتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا ٱتَّبَعُونَا، فَلَمْ آتِ لاَ أَبَا لَكُمْ بُجْراً، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ.

إِنَّمَا ٱجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى ٱخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا ٱلْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا ٱلْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ ٱلْجَوْرُ هَوَاهُمَا، فَمَضَيَا عَلَيْهِ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا.

الشرح: ليس لقائل أن يقول له عليه السلام معتذراً عن الخوارج: إنهم إنما ضلّلوا عامّة أمة محمد صلى الله عليه وآله، وحكّموا بخطئِهم وكفرِهم بالسيف خبطاً، لأنهم وافقوك في تصويب التحكيم، وهو عندهم كفر فلم يؤاخذوهم بذنبك كما قلت لهم؟ وذلك لأن أمير المؤمنين عليه السلام ما قال هذه المقالة إلاّ لمن رَأى منهم استعراض العامّة، وقتل الأطفال حتى البهائم، فقد كان منهم قوم فعلوا ذلك. وقد سبق مِنّا شرح أفعالهم ووقائعهم بالناسِ، وقالوا: إن الدار دار كفر لا يجوز الكفّ عن أحد من أهلها، فهؤلاء هم الذين وجّه أميرُ المؤمنين عليه السلام إليهم خطابه وإنكاره، دون غيرهم من فرق الخوارج.

واعلم أن الخوارج كلّها تذهب إلى تكفير أهل الكبائر، ولذلك كفّروا عليًّا عليه السلام ومَن اتبعه على تصويب التحكيم، وهذا الاحتجاج الذي احتجّ به عليهم لازم وصحيح، لأنه لو كان صاحبُ الكبيرة كافراً لما صلّى الله عليه وآله، ولا ورّثه من المسلم، ولا مكّنه من نكاح المسلمات، ولا قسم عليه من الفيء ولأخرجه عن لفظ الإسلام.

وقد احتجت الخوارج لمذهبها بوجوه:

منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ

عَنِ﴾[1]، قالوا: فجَعل تارك الحجّ كافِراً.

والجواب أن هذه الآية مجملة، لأنه تعالى لم يبيّن ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بماذا؟ فيحتمل أن يريد تارك الحج، ويحتمل أن يريد تاركَ اعتقاد وجوبه على ما استطاع إليه سبيلاً، فلا بدّ من الرجوع إلى دلالة، والظاهر أنه أراد لزومَ الكفر لمن كفر باعتقاد كون الحج غيرَ واجب، ألا تراه في أول الآية قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، فأنبأ عن اللزوم، ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بلزوم ذلك! ونحن نقول: إنّ مَنْ لم يقل: لله على الناس حج البيت، فهو كافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، قالوا: والفاسق لفسقه وإصراره عليه آيسٌ من رَوْح الله، فكان كافراً.

والجواب أنّا لا نسلّم أن الفاسقَ آيسٌ من رَوْح الله مع تجويزه تَلاَفِي أمرِه بالتوبة والإقلاع، وإنما يكون اليأس مع القطع، وليس هذه صفة الفاسق، فأمّا الكافر الذي يجحد الثواب والعقاب، فإنه آيسٌ من رَوْح الله، لأنه لا تخطُر له التوبة والإقلاع، ويقطع على حسن معتقده.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3] وكلّ مرتكبٍ للذنوب فقد حكَم بغير ما أنزل الله. ولم يحكم بما أنزل الله.

والجواب أنّ هذا مقصورٌ على اليهود، لأن ذكرهم هو المقدّم في الآية، قال سبحانه وتعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[4] ثم قال عقيب قوله: ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[5] فدلّ عَلَى أنّها مقصورة على اليهود.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾[6]، قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزِلة على أنَّ الفاسق يصلَى النارَ، فوجب أنْ يسمّى كافراً.

والجواب، أنّ قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ نكرة في سياق الإثبات فلا تعمّ، وإنّما تعمّ النكرة في سياق النفي، نحو قولك: «ما في الدار من رجل»، وغير ممتنع أن يكون في الآخرة نار مخصوصة لا يصلاَها إلاّ الّذين كذّبوا وتولّوْا، ويكون للفسّاق نار أخرَى غيرها.

منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[7]، قالوا: والفاسق تحيط به جهنّم، فوجب أن يكون كافراً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٢.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٦.
(٦) سورة الليل، الآيات: ١٤-١٦.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

والجواب أنه لم يقل سبحانه: «وإنّ جهنم لا تحيط إلاّ بالكافرينَ» وليس يلزم من كونها محيطةً بقوم ألاّ تحيط بقوم سواهم.

ومنها قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(١). قالوا: والفاسق لا يجوز أن يكونَ ممّن ابيضّت وجوههم، فوجب أن يكونَ ممّن اسودّت، ووجب أن يسمّى كافراً، لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

والجواب أنّ هذه القسمة ليست متقابلة، فيجوز أن يكونَ المكلّفون ثلاثة أقسام: بيضُ الوجوه، وسود الوجوه، وصنف آخر ثالث بين اللونين، وهم الفساق.

ومنها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾(٢). قالوا: والفاسق على وجهه غبَرة، فوجب أن يكونَ من الكفرة والفجرة.

والجواب، أنّه يجوز أن يكون الفسّاق قسماً ثالثاً لا غبرة على وجوههم، ولا هي مسفِرة ضاحكة، بل عَلَى ما كانت عليه في دار الدنيا.

ومنها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾(٣). قالوا: والفاسق لا بدّ أن يجازَى، فوجب أن يكون كفوراً.

والجواب، أنّ المرادَ بذلك: «وهل نجازي بعقاب الاستئصال إلا الكفور»! لأنّ الآية وردت في قصّة أهل سَبأ، لكونهم استُؤصِلوا بالعقوبة.

ومنها أنّه تعالى قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(٤)، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾(٥)، فجعل الغاوي الذي يتبعه مشركاً.

والجواب أنّا لا نسلّم أنّ لفظة «إنما» تفيد الحصر، وأيضاً فإنه عطف قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، فوجب أن يثبت التّغاير بين الفريقين، وهذا مذهبنا، لأنّ الذين يتولّونه هم الفسّاق، والذين هم به مشركون هم الكفار.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾(٦) فجعل الفاسق مكذّباً.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٨-٤١.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٠.
(٦) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

والجواب، أن المراد به الذين فسقوا عن الدين، أي خرجوا عنه بكفرهم، ولا شُبْهة أنّ مَنْ كان فسقه من هذا الوجه فهو كافر مكذّب، ولا يلزم منه أنّ كل فاسق على الإطلاق فهو مكذّب وكافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾(١)، قالوا: فأثبت الظالم جاحداً، وهذه صفة الكفار.

والجواب أنّ المكلّف قد يكون ظالماً بالسرقة والزنى، وإن كان عارفاً بالله تعالى، وإذا جاز إثبات ظالم ليس بكافر ولا جاحد بآيات الله تعالى، جاز إثباتُ فاسق ليس بكافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(٢).

والجواب، أنّ هذه الآية تَدلّ على أنّ الكافر فاسق، ولا تدلّ على أنّ الفاسق كافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾(٣). فنصّ سبحانه على أن مَنْ تخفّ موازينه يكون مكذّباً، والفاسق تخفّ موازينه، فكان مكذّباً، وكلّ مكذّب كافر.

والجواب أنّ ذلك لا يمنع من قسم ثالث، وهم الذين لا تخفّ موازينهم ولا تثقل، وهم الفساق، ولا يلزم من كون كلّ مَنْ خفّت موازينه يدخل النار ألاّ يدخل النار إلا من خَفّت موازينه.

ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾(٤)، وهذا يقتضي أنّ من لا يكون مؤمناً فهو كافر والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافراً.

والجواب أنّ «منْ» ها هنا للتبعيض، وليس في ذكر التبعيض نفي الثالث، كما أن قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾(٥)، لا ينفي وجود دابّة تمشي على أكثر من أربع كبعض الحشرات.

ثم نعود إلى الشرح: قوله عليه السلام: «ومن رَمَى به الشيطان مراميَه»، أي أضلّه كأنّه رمَى به مرمًى بعيداً، فضلّ عن الطريق، ولم يهتدِ إليها.

قوله: «وضرب به تيهَه» أي حيّره وجعله تائهاً.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠٢-١٠٥.
(٤) سورة التغابن، الآية: ٢.
(٥) سورة النور، الآية: ٤٥.

ثم قال عليه السلام : يهلك فيّ رجُلان، فأحدهما مَنْ أفرط حبّه له واعتقاده فيه حتى ادّعى له الحلول كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح عليه السلام ، والثاني مَنْ أفرط بغضه له، حتى حارَبَه، أو لعنه، أو برىء منه، أو أبغضه، هذه المراتب الأربع، والبغض أدناها، وهو مُوبِقٌ مهلك، وفي الخبر الصّحيح المتّفق عليه أنه لا يحبّه إلا مؤمن، ولا يُبغضه إلاّ منافق[١]، وحسبك بهذا الخبر، ففيه وحده كفاية.

غلاة الشيعة والنصيرية وغيرهم

فأما الغُلاة فيه فهالكون كما هلك الغلاة في عيسى عليه السلام . وقد روى المحدّثون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عليه السلام : «فيك مُثُلٌ من عيسى بن مريم، أبغضتْه اليهود فبهتَت أمّه، وأحبّته النصارى فرفعته فوق قدره»[٢]، وقد كان أمير المؤمنين عثر على قوم من أصحابه خرجوا من حدّ محبته باستحواذ الشيطان عليهم أن كفروا بربهم، وجحدوا ما جاء به نبيُّهم، فاتخذوه ربًا وادّعوه إلٰهاً، وقالوا له: أنت خالقنا، ورازقنا، فاستتابهم، واستأنى وتوعّدهم فأقاموا على قولهم، فحفر لهم حفراً دخّن عليهم فيها، طمعاً في رجوعهم، فأبوا فحرقهم، وقال:

ألاَ تَـرَوْنـي قَـدْ حَـفَـرْتُ حَـفَـرَا ... إنّـي إذا رأيـتُ أمـراً مـنـكَـرَا

أوقــدتُ نــاري وَدَعَــوْتُ قَـنْـبَـرَا

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفيّ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المصيصيّ، المعروف بنوين، وروى أيضاً عن عليّ بن محمد النوفليّ عن مشيخته، أن عليًا عليه السلام مرّ بقوم وهم يأكلون في شهر رمضان نهاراً، فقال: أسفر أم مرضى؟ قالوا: لا ولا واحدة منهما، قال: فمن أهل الكتاب أنتم فتعصمكم الذمّة والجزية؟ قالوا: لا، قال: فما بالُ الأكل في نهار رمضان! فقاموا إليه، فقالوا: أنت أنت! يومون إلى ربوبيته، فنزل عليه السلام عن فرسه، فألصق خدّه بالأرض، وقال: ويلكم! إنما أنا عبدٌ من عبيد الله، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام. فأبَوْا فدعاهم مراراً، فأقاموا على كفرهم، فنهض إليهم، وقال: شدُّوهم وثاقاً، وعليّ بالفَعَلة والنار والحطب، ثم أمر بحفر بئرين فحفِرتا، إحداهما سَرَباً والأخرى مكشوفة، وألقى الحطب في المكشوفة، وفتح بينهما فتحاً، وألقى النار في الحطب، فدخن عليهم، وجعل يهتف بهم، ويناشدهم ليرجعوا إلى الإسلام، فأبَوْا، فأمر بالحطب والنار فألقَى عليهم، فأحرِقوا، فقال الشاعر:

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال رقم: ٣٣٠٢٩.
(٢) أخرجه أحمد في كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي (٢٧٢٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٨٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٣٤).

لترم المنيّةُ حيثُ شاءَتْ إذا لم ترمِني في الحفرتيْنِ
إذَا ما حُشّتَا حطباً بنار فذاك الموت نقداً غير دَينِ

قال: فلم يبرحْ عليه السلام حتى صارُوا حُمَماً.

ثم استترت هذه المقالة سنة أو نحوها، ثم ظهر عبد الله بن سبأ وكان يهوديًا يتستّر بالإسلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام فأظهرها، واتّبعه قومٌ فسمّوا السَّبَئيّة، وقالوا: إنّ علياً عليه السلام لم يمتْ، وإنّه في السماء، والرعد صوته والبرق صورته، وإذا سمعوا صوت الرعد، قالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين! وقالوا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أغلَظ قول، وافتروْا عليه أعظم فرْية، فقالوا: كَتَم تسعة أعشار الوحي، فنعَى عليهم قولَهم الحسنُ بن عليّ بن محمد بن الحنفيّة رضي الله عنه في رسالته، التي يذكر فيها الإرجاء، رواها عنه سليمان بن أبي شيخ، عن الهيثم بن معاوية، عن عبد العزيز بن أبان، عن عبد الواحد بن أيمن المكيّ، قال: شهدتُ الحسن بن عليّ بن محمد بن الحنفيَّة يُمْلِي هذه الرسالة، فذكرهاوقال فيها: ومِنْ قول هذه السبئيّة: هدِينا لوحي ضلّ عنه الناس، وعِلْم خفي عنهم، وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كَتم تسعة أعشار الوحي، ولو كتم صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً مما أنزل الله عليه لكَتَم شأن امرأة زيد، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾(1).

ثم ظهر المغيرة بن سعيد، مولى بَجِيلة، فأراد أن يحدِثَ لنفسه مقالةً يستهوي بها قوماً، وينال بها ما يريد الظَّفَر به من الدنيا، فغَلا فِي عليّ عليه السلام، وقال: لو شاء عليّ لأحيا عاداً وثمودَ وقروناً بين ذلك كثيراً.

وروى علي بن محمد النوفلِيّ، قال: جاء المغيرة بن سعيد، فاستأذنَ عَلَى أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين، وقال له: أخبر الناس أني أعلمُ الغيب، وأنا أطعمك العراق، فزجره أبو جعفر زجْراً شديداً، وأسمعه ما كرِهَ، فانصرف عنه، فأتى أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة رحمه الله، فقال له مثل ذلك - وكان أبو هاشم أيْداً - فوثب عليه فضربه ضرباً شديداً أشفى به على الموت، فتعالج حتى برىء، ثم أتى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رحمه الله - وكان محمد سُكَيْتاً - فقال له كما قال للرجلين، فسكت محمد فلم يجبْه، فخرج وقد طمع فيه بسكوته، وقال: أشهد أنّ هذا هو المهديّ الذي بَشّر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه قائمُ أهل البيت، وادّعى أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن. ثم قدم المغيرةُ الكوفة، وكان مشعبذاً، فدعا الناس إلى قوله، واستهواهم واستغواهم، فاتّبعه خلق كثير، وادّعى عَلَى محمد بن عبد الله أنّه أذِنَ له في خَنْق الناس وإسقائهم السموم، وبثّ أصحابَه في الأسفار يفعلون ذلك بالناس، فقال له بعضُ أصحابه: إنّا

(1) سورة التحريم، الآية: 1.

نختُق مَن لا نعرف، فقال: لا عليكم! إنْ كان من أصحابكم عجّلتموه إلى الجنة، وإن كان من عدوّكم عجلتموه إلى النار، ولهذا السبب كان المنصور يسمًى محمد بن عبد الله الخنّاق، وينحله[1] ما ادّعاه عليه المغيرة.

ثم تفاقم أمرُ الغُلاة بعد المغيرة، وأمعنوا في الغلوّ، فادعَوْا حلول الذات الإلٰهية المقدّسة في قوم سلالة أمير المؤمنين عليه السلام، وقالوا بالتناسخ، وجحدوا البعث والنشور، وأسقطوا الثواب والعقاب، وقال قوم منهم: إن الثواب والعقاب إنّما هو ملاذُّ هذه الدنيا ومشاقّها، وتولّدت من هذه المذاهب القديمة التي قال بها سلفهم مذاهبُ أفحش منها قال بها خَلَفُهم، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنّصيريّة، وهي التي أحدثها محمد بن نصير النميريّ، وكان من أصحاب الحسن العسكريّ عليه السلام، والمقالة المعروفة بالإسحاقية وهي التي أحدثها إسحاق بن زيد بن الحارث، وكان من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف، ويثبت لعليّ عليه السلام شركة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النبوّة على وجهٍ غير هذا الظاهر الذي يعرفه الناس، وكان محمد بن نصير من أصحاب الحسن بن عليّ بن محمد بن الرّضا، فلما مات ادّعى وكالة لابن الحسن الذي تقول الإماميّة بإمامته، ففضحه الله تعالى بما أظهره من الإلحاد والغلوّ والقول بتناسخ الأرواح، ثم ادّعى أنه رسول الله ونبيٌّ من قِبَل الله تعالى، وأنه أرسله عليّ بن محمد بن الرضا، وجحد إمامة الحسن العسكريّ وإمامة ابنه، وادعى بعد ذلك الربوبية، وقال بإباحة المحارم.

وللغلاة أقوال كثيرة طويلة عريضة، وقد رأيتُ أنا جماعةً منهم، وسمعت أقوالهم، ولم أر فيهم محصّلاً، ولا مَنْ يستحقّ أن يخاطَب، وسوف أستقصي ذكْرَ فِرَقِ الغلاة وأقوالهم في الكتاب الذي كنت متشاغلاً بجمعه، وقطعني عنه اهتمامي بهذا الشرح، وهو الكتاب المسمى «بمقالات الشيعة» إن شاء الله تعالى.

قوله عليه السلام: «والزموا السّواد الأعظم»[2]، وهو الجماعة، وقد جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه اللفظة التي ذكرها عليه السلام، وهي: «يد الله على الجماعة ولا يبالَى بشذوذِ مَنْ شذّ»[3]، وجاء في معناها كثير، نحو قوله عليه السلام: «الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين

---

(١) نحله القول: نسبه إليه. القاموس، مادة (نحل).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» كتاب: أول مسند الكوفيين، باب: حديث النعمان بن بشير (١٧٩٨٢)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٧)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، بلفظ: عليكم بالسواد.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٧)، والنسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: قتل من فارق الجماعة (٤٠٢٠).

أبعد»[(١)]، وقوله: «لا تجتمع أمتي على خطأ»[(٢)]، وقوله: «سألت الله ألاّ تجتمع أمتي على خطأ، فأعطانيها»[(٣)]، وقوله: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»[(٤)]، وقوله: «لا تجتمع أمّتي على ضلالة»[(٥)]، و«سألت ربّي ألاّ تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها»[(٦)]. و«لم يكن الله ليجمع أمّتي على ضلال ولا خطأ»[(٧)].

وقوله عليه السلام: «عليكم بالسّواد الأعظم»[(٨)]، وقوله: «مَنْ خرج من الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه»[(٩)].

وقوله: «مَنْ فارق الجماعة مات ميتة جاهليّة»، وقوله: «مَنْ سرَّه بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة»[(١٠)].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه»، يعني الخوارج، وكان شعارهم أنّهم يحلِقُون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٥)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (١١٥).

(٢) ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ٢٠)، بنفس اللفظ، وأخرج ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٣٦٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٨٨٠)، كلهم بلفظ: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة».

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٨٢)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٢١٧١)، كلهم بلفظ: ضلالة بدل قوله: خطأ.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده»، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٥٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤٤٦٥)، والطبراني في «الأوسط» (٣٦٠٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والطبراني (١٣٦٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٨٨٠).

(٦) أخرجه أحمد (٢٦٦٨٢)، والطبراني (٢١٧١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٧).

(٧) أخرجه الزمخشري في الفايق في غريب الحديث: ٣/ ٣٠.

(٨) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٩٨٢)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٧).

(٩) أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣)، وأبو داود في كتاب: السنة، باب في قتل الخوارج (٤٧٥٨)، وأحمد (١٦٧١٨).

(١٠) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٥)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة باب: مسند عمر بن الخطاب (١٧٨).

قال: «ولو كان تحت عمامتي هذه - أي لو اعتصم واحتمى بأعظم الأشياء حُرْمة - فلا تكفّوا عن قتله».

ثم ذكر أنه إنما حُكِّم الحكمان ليُحييا ما أحياه القرآن، أي ليجتمعا على ما شهد القرآن باستصوابه واستصلاحه، ويميتا ما أماته القرآن، أي ليفترقا ويصدًّا وينكلا عَمّا كرهه القرآن، وشهد بضلاله.

والبُجْر، بضم الباء: الشرُّ العظيم، قال الراجز:

أرمـي عـلـيـهـا وهـي شـيء بُـجْـرُ

أي داهية.

ولا خَتَلْتُكم، أي خدعتكم، خَتَلَهُ وخاتله: أي خدعه، والتخاتل: التخادع. ولا لبَّسته عليكم، أي جعلته مشتبهاً ملتبساً، ألبستُ عليهم الأمر ألبسه بالكسر.

والملأ: الجماعة من الناس. والصَّمْد: القصد.

قال: سبق شرطُنا سوءَ رأيهما، لأنا اشترطنا عليهما في كتاب الحكومة ما لا مضرّة علينا، مع تأمّله فيما فعلاه من اتّباع الهوى وترك النصيحة للمسلمين.

١٢٨ - ومن كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة

الأصل: يا أَحْنَفُ، كأَنّي بِهِ وَقَدْ سارَ بِالْجَيْشِ ٱلَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلاَ لَجَبٌ، وَلاَ قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلاَ حَمْحَمَةُ خَيْلٍ، يُثِيرُونَ ٱلْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ ٱلنَّعامِ.

قال الشريف الرضيّ أبو الحسن رحمه الله تعالى: يُومِئ بِذَلِكَ إلى صاحِبِ ٱلزَّنْجِ.

ثم قال عليه السلام: وَيْل لِسَكَكِكُمُ ٱلْعَامِرَةِ، وَٱلدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ، الَّتِي لَهَا أَجْنِحَة كأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيم ٱلْفِيَلَةِ، مِنْ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ لاَ يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلاَ يُفْقَدُ غائِبُهُمْ.

أنا كَابُّ ٱلدُّنْيا لِوَجْهِها، وقادِرُها بِقَدْرِها، وَناظِرُها بِعَيْنِها!

الشرح: اللّجَب: الصوت. والدُّور المزخرفة: المزيّنة المموّهة بالزُّخرف، وهو الذهب. وأجنحة الدور التي شبّهها بأجنحة النسور: رواشينها. والخراطيم: ميازيبها.

وقوله: «لا يندب قتيلُهم»: ليس يريد به مَنْ يقتلونه، بل القتيل منهم، وذلك لأنّ أكثرَ الزّنج

الذين أشار إليهم، كانوا عبيد دهاقين البصرة وبناتها، ولم يكونوا ذوِي زوجات وأولاد، بل كانوا على هيئة الشطّار عُزّاباً فَلا نادبةَ لهم.

وقوله: «ولا يفقد غائبهم» يريد به كثرتَهم وأنّهم كلما قتِل منهم قتيل سدّ مسدّه غيره، فلا يظهر أثر فقده.

وقوله: «أنا كابّ الدنيا لوجهها»، مثل الكلمات المحكيّة عن عيسى عليه السلام: أنا الذي كببت الدنيا على وجهها، ليس لي زوجة تموت، ولا بيت يخرب. وِسادِي الحجَر وفراشي المدَر[1]، وسراجي القمر.

أخبار صاحب الزنج

فأما صاحب الزّنج هذا فإنه ظهر في فُرات البصرة في سنة خمس وخمسين ومائتين رجل زعم أنّه عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فتبِعه الزّنج الذين كانوا يكسَحون السّباخ في البصرة.

وأكثرُ الناس يقدحون في نسبه وخصوصاً الطالبيين.. وجمهور النسّابين اتفقوا على أنّه من عبد القيس، وأنّه عليّ بن محمد بن عبد الرحيم، وأمّه أسديّة من أسد بن خزيمة، جدّها محمد بن حكيم الأسديّ، من أهل الكوفة، أحد الخارجين مع زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام عَلَى هشَام بن عبد الملك، فلما قتِل زيد، هرب فلحق بالرَّيّ وجاء إلى القرية التي يقال لها وَرزَنين، فأقام بها مُدّة، وبهذه القرية ولد عليّ بن محمد صاحب الزّنج، وبها منشؤه، وكان أبو أبيه المسمّى عبد الرحيم رجلاً من عبد القيس، كان مولده بِالطالِقان، فقدِم العراق، واشترى جارية سِنْديّة، فأولدها محمداً أباه.

وكان عليّ هذا متّصلاً بجماعة من حاشية السلطان وخَوَل بني العباس، منهم غانم الشّطرنجيّ، وسعيد الصغير، وبشير، خادم المنتصر، وكان منهم معاشُه ومن قومٍ من كتّاب الدولة يمدحهم ويستمنحهم بشعره، ويعلّم الصبيان الخطّ والنّحو والنجوم، وكان حَسن الشعر مطبوعاً عليه، فصيحَ اللهجة، بعيد الهمة، تسمو نفسه إلى معالي الأمور، ولا يجد إليها سبيلاً، ومن شعره القصيدة المشهورة التي أولها:

رأيتُ المقامَ على الاقتصادِ قُنوعاً بهِ ذلّةً في العِبَادِ

ومن جملتها:

إذا النّجار ضاقَ بهَا زَنْدُهَا فَفسحتُها في فِراق الزنّادِ

(١) المدر: قطع الطين اليابس. القاموس، مادة (مدر).

إذا صــارمٌ قــرّ فــي غِـمْـدِهِ   حَـوَى غـيـرُهُ السَّـبْـقَ يـوم الـجـلادِ

ومن الشعر المنسوب إليه:

وإنّـا لـتـصـبـحُ أسـيـافـنـا   إذا مـا انـتـضـيـن لـيـوم سَـفُـوكِ[1]

مـابـرهـنّ بـطـونُ الأكُـفّ   وأغـمـادهُـنّ رؤوسُ الـمـلـوكِ

ومن شعره في الغزل:

ولـمّـا تـبـيـنـت الـمـنـازل بـالـحـمـى   ولـم أقـضِ مـنـهـا حـاجـة الـمـتـورّدِ

زفـرت إلـيـهـا زفـرةً لـو حـشـوتُـهـا   سرابـيـل أبـدانِ الـحـديـد الـمـسـرّدِ[2]

لـرقّـت حـواشِـيـهـا، وظـلّـت مـتـونُـهـا   تَـلِـيـن كـمـا لانَـتْ لـداود فـي الـيـدِ

ومن شعره أيضاً:

وإذا تُـنـازعـنـي أقـولُ لـهـا قـرِي   مـوتٌ يـريـحُـك أو صـعـود الـمـنـبـرِ

ما قد قُضِي سيكونُ فاصطبري له   ولـك الأمـان مِـنَ الَّـذِي لـم يـقـدرِ

وقد ذكر المسعوديّ في كتابه المسمى «مروج الذهب»، أن أفعال عليّ بن محمد صاحب الزّنج، تدلّ على أنّه لم يكن طالبيًا، وتصدّق ما رُمي به من دعوته في النسب، لأنّ ظاهر حاله كان ذَهابه إلى مذهب الأزارقة، في قتل النساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض، وقد روي أنه خطب مَرّة، فقال في أول خطبته: «لا إلٰه إلا الله والله أكبر، الله أكبر لا حُكْم إلا لله»، وكان يرى الذنوب كلّها شِرْكاً.

ومن الناس من يطعن في دينه ويرميه بالزّندقة والإلحاد، وهذا هو الظاهر من أمره، لأنه كان متشاغلاً في بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرلابات[3].

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أن عليّ بن محمد شَخَص من سامُرّاء وكان يعلّم الصبيان بها، ويمدح الكتّاب، ويستميح الناس، في سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادّعى بها أنّه عليّ بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ودعا النّاس بهجَر إلى طاعته، فاتّبعه جماعة كثيرة من أهلها، واتّبعه جماعة أخرى، فكانت بسببه بين الذين اتّبعوه والذين أبوْه عصبيّة، قتل فيها بينهم جماعة، فانتقل عنهم

(١) السفك: صب الدم. اللسان، مادة (سفك).
(٢) السرد: اسم جامع للدروع وسائر الحَلَق وما أشبهها. اللسان، مادة (سرد).
(٣) أخرجه ابن شيبة في مصنفه رقم: ٢٧.

لمّا حدث ذلك إلى الأحساء، وضَوَى إلى حيّ من بني تميم، ثم من بني سعد يقال لهم بنو الشّماس، فكان بينهم مقامه، وقد كان أهل البحرين أحلّوه من أنفسهم محلّ النبيّ ﷺ - فيما ذكر - حتى جُبِيَ له الخراج هنالك، ونفذ حُكْمُه فيهم، وقاتلوا أسبابَ السلطان لأجله، ووترَ منهم جماعةً كثيرة، فتنكّروا له، فتحوّل عنهم إلى البادية. ولما انتقل إلى البادية صحبَه جماعة من أهل البحرين، منهم رجل كيّال من أهل الأحساء، يقال له يحيى بن محمد الأزرق، مولَى بني دارم، ويحيى بن أبي ثعلب وكان تاجراً من أهل هَجَر، وبعض موالي بني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع، وكان قائد جيشه حيث كان بالبحرين.

ثم تنقّل في البادية من حيّ إلى حيّ، فذكر عنه أنه كان يقول: أوتيتُ في تلك الأيام آياتٍ من آياتِ إمامتي، منها أنّي لقّيت سوراً من القرآن لم أكن أحفظها، فجرى بها لساني في ساعة واحدة، منها «سبحان» و«الكهف» و«صاد»، ومنها أنّي ألقيْتُ نفسي على فراشي، وجعلت أفكّر في الموضع الذي أقصِد له، وأجعل مُقامي به إذا نبت البادية بي. وضقْتُ ذَرْعاً بسوء طاعة أهلها، فأظلّتْني سحابة، فبرقت ورعدت، واتّصل صوتُ الرعد منها بسمعي، فخوطبت فقيل له: اقصِد البصرة، فقلت لأصحابي وهم يكتنفونني: إني أمِرْت بصوت من هذا الرعد بالمصير إلى البصرة.

وذكر عنه أنّه عند مصيره إلى البادية أوْهَم أهلَها أنه يحيى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة في أيام المستعين، فاختدَع بذلك قوماً منهم، حتى اجتمع عليه منهم جماعة، فزحف بهمْ إلى موضع من البحرين، يقال له الرّدْم، فكانت بينه وبين أهله وقعة عظيمة، كانت الدَّبَرَة فيها عليه وعلى أصحابه، قتِلوا فيها قتلاً ذريعاً، فتفرّقت عنه العرب وكرهته، وتجنّبتْ صحبتَه.

فلما تفرّقت العرب عنه ونبتْ به البادية، شخص عنها إلى البصرة، فنزل بها في بني ضُبَيعة، فاتّبعه بها جماعة، منهم عليّ بن أبان المعروف بالمهلبيّ، من ولد المهَلّب بن أبي صُفْرة، وأخواه محمد والخليل وغيرهم، وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين وعاملُ السلطان بها يومئذ محمد بن رجاء، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبِلالية والسّعدية، فطمع في أحد الفريقين أن يميلَ إليه، فأرسل أربعةً من أصحابه يَدْعُون إليه، وهم محمد بن سَلْم القصّاب الهجَريّ وبُرَيش القُرَيعيّ وعليّ الضرّاب، والحسين الصيدنانيّ، وهم الذين كانوا صحِبوه بالبحرين، فلم يستجب لهم أحد من أهل البلد، وثار عليهم الجند، فتفرّقوا، وخرج عليّ بن محمد من البصرة هارباً، وطلبه ابنُ رجاء فلم يقدر عليه. وأخبِر ابنُ رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه، فأخذهم فحبسهم، وحبس معهم زوجة عليّ بن محمد، وابنه الأكبر، وجارية له كانت حاملاً، ومضى عليّ بن محمد لوجهه يريد بغداد ومعه قوم من خاصّته، منهم محمد بن

سلْم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبُريش القُريعيّ، فلما صاروا بالبطيحة، نذِر بهم بعضُ موالي الباهليّين، كان يلي أمر البطيحة، فأخذهم وحمَلهم إلى محمد بن أبي عوْن وهو عامل السلطان بواسط، فاحتال لابن أبي عوْن حتى تخلّص هو وأصحابه من يده، ثم صار إلى بغداد فأقام بها سنة. وانتسب في هذه السنة إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، وكان يزعم أنه ظهر له أيّام مقامه ببغداد في هذه السنة آيات، وعرف ما في ضمائر أصحابه وما يفعله كلّ واحد منهم، وأنه سأل ربّه أن يعلِمه حقيقة أمور كانت في نفسه، فرأى كتاباً يكتَب له على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

قال أبو جعفر: واستمال ببغداد جماعة، منهم جعفر بن محمد الصُّوحانيّ، من ولدزيد بن صُوحان العبديّ، ومحمد بن القاسم، وغلامان لبني خاقان، وهما مُشرق ورفيق، فسمّى مشرقاً حمزة وكنّاه أبا أحمد، وسمى رفيقاً جعفراً وكنّاه أبا الفضل، فلما انقضى عامة ذلك ببغداد، عُزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثبتْ رؤساء الفتنة بها من البِلاليّة والسّعدية، ففتحوا المحبس، وأطلقوا مَنْ كان فيها، فتخلَّص أهله وولده فيمن تخلّص، فلمّا بلغه ذلك شخص عن بغداد، فكان رجوعه إلى البصرة في شهر رمضان من سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه عليّ بن أبان المهلبيّ، وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام مشرق ورفيق، وأربعة أُخَر من خواصّه، وهم يحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع، وأبو يعقوب المعروف بجرْبان، فساروا جميعاً حتى نزلوا بالموضع المعروف ببرنخل من أرض البصرة في قصر هناك يعرف بقصر القرشيّ على نهر يعرف بعمود ابن المنجم، كان بنو موسى بن المنجّم احتفروه، وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع ما يملكونه هناك من السِّباخ.

قال أبو جعفر: فذكر عن ريحان بن صالح، أحد غلمان الشّورجيّين الزُّنوج، وهو أوّل مَنْ صحبه منهم، قال: كنت موكَّلاً بغلمان مولاي، أنقل الدقيق إليهم، فمررت به وهو مقيم بقصر القرشيّ يظهر الوَكالة لأولاد الواثق، فأخذني أصحابه وصاروا بي إليه، وأمروني بالتسليم عليه بالإمْرة، ففعلت ذلك، فسألني عن الموضع الذي جئت منه، فأخبرته أني أقبلت من البصرة، فقال: هل سمعت لنا بالبصرة خبراً؟ قلت: لا، قال: فخبر البلالية والسّعدية؟ قلت: لم أسمع لهم خبراً، فسألني عن غلمان الشورجيّين وما يجرى لكلّ جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر، وعمّن يعمل في الشّورج من الأحرار والعبيد، فأعلمتُه ذلك، فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبتُه فقال لي: احْتَل فيمن قدرتَ عليه من الغلمان، فأقبلْ بهم إليّ. ووعدني أن يقوّدني على من آتيه به منهم، وأن يحسِن إليّ، واستحلفني ألاّ أعلِم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه. فخلى سبيلي.

فأتيتُ بالدقيق الذي معي إلى غلمان مولاي، وأخبرتهم خبره، وأخذت له البيعة عليهم،

ووعدتهم عنه بالإحسان والغنى، ورجعت إليه من غد ذلك اليوم، وقد وافاه رفيق غلام الخاقانية وقد كان وجّهه إلى البصرة، يدعو إليه غلمان الشُّورج، ووافى إليه صاحب له آخر يعرف بشبل بن سالم، قد كان دعا إليه قوماً منهم أيضاً، وأحضر معه حريرة كان أمره بابتياعها، ليتخذها لواء، فكتب فيها بالحمرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١) الآية، وكتب اسمه واسم أبيه عليها، وعلّقها في رأس مُرْدِيّ، وخرج وقت السّحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فلما صار إلى مؤخّر القصر الذي كان فيه، لقيَه غلمان رجلٍ من الشورجيين، يعرف بالعطار [متوجهين إلى أعمالهم]، فأمر بأخذِ وكيلهم، فأخِذ وكُتّف، واستضم غلمانه إلى غلمانه، وكانوا خمسين غلاماً، ثم صار إلى الموضع المعروف بِالسُّنائيّ فاتّبعه الغلمان الذين كانوا فيه، وهم خمسمائة غلام فيهم الغلام المعروف بأبي حُديد، وأمر بأخذ وكيلهم، وكتّفه ثم مضى إلى الموضع المعروف بالسيرافِيّ، فاتّبعه مَنْ كان فيه من غلمان، وهم مائة وخمسون غلاماً، منهم زُرَيق وأبو الخنجر، ثم صار إلى الموضع المعروف بسَبَخة ابن عطاء، فأخذ طريفاً، وصبيحاً الأعسر، وراشد المغربيّ، وراشد القرمطيّ، وكلّ هؤلاء من وجوه الزَّنج وأعيانهم الذين صاروا قوّاداً وأمراء في جيوشهم، وأخذ معهم ثمانين غلاماً.

ثم أتى الموضع المعروف بغلام سَهْل الطَّحّان، فاستضافَ مَنْ كان به من الغلمان، ثم لم يزل بفعل مثل ذلك في يومه حتى اجتمع إليه بشر كثير من الزَّنج، ثم قام فيهم آخرَ الليل خطيباً، فمنّاهم ووعَدهم أن يقوّدهم ويرئّسهم ويملّكهم الأموال والضّياع، وحلف له بالأيمان الغليظة ألاّ يغدرَ بهم، ولا يخذُلَهم، ولا يدعَ شيئاً من الإحسان إلاّ أتى إليهم.

ثم دعا وكلاءهم، فقال: قد أردتُ ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلُوه بهم، وكلّفتموهم ما لا يطيقونه، فكلّمني أصحابي فيكم، فرأيت إطلاقكم.

فقالوا له: أصلحك الله! إن هؤلاء الغلمان أُبّاق، وإنهم سيهربون منك فلا يُبقُون عليك ولا علينا، فخذ من مواليهم مالاً، وأطلِقْهم.

فأمرَ الغلمان فأحضَروا شطوباً، ثم بطح كلَّ قوم وكيلَهم، فضرَب كلَّ رجلٍ منهم خمسمائة شطبة، [وأحلفهم بطلاق نسائهم ألاّ يعلموا أحداً بموضعه]، ثم أطلقهم، فمضوا نحو البصرة ومضى رجل منهم حتى عَبَر دُجَيل الأهواز، فأنذر الشُّورجيين ليحفظوا غِلْمانهم، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام زنجيّ، ثم سار، وعَبَر دُجَيْلاً، وسار إلى نهر ميمون بأصحابه، واجتمع إليه السُّودان من كلّ جهة.

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

فلما كان يوم الفطر، جمعهم وخطب خطبة ذكَر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأنّ الله تعالى قد استنقذهم من ذلك، وأنه يريد أن يرفَع أقدارَهم، ويملّكم العبيدَ والأموال والمنازل، ويبلُغَ بهم أعلَى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك. فلما فرغَ من خطبته أمرَ الّذِين فهموا عنه قوله أن يُفهِمُوه مَنْ لاَ فهمَ له من عَجَمهم، لتطيبَ بذلك أنفسهم، ففعلوا ذلك.

قال أبو جعفر: فلمّا كان في اليوم الثالث من شوال، وافاه الحميريّ أحد عمال السلطان بتلك النواحي، في عدد كثير، فخرج إليه صاحب الزّنج في أصحابه، فطرده وهزم أصحابَه، حتى صاروا في بطن دجْلة، واستأمن إلى صاحب الزّنج رجل من رؤساء السودان، يعرف بأبي صالح القصير في ثلاثمائة من الزنج، فلما كثر من اجتمع إليه من الزّنج قوّد قواده، وقال لهم: مَنْ أتى منكم برجلٍ من السودان فهو مضموم إليه.

قال أبو جعفر: وانتهى إليه أن قوماً من أعوان السلطان هناك، منهم خليفة بن أبي عون على الأبُلّة، ومنهم الحميريّ قد أقبلوا نحوه، فأمر أصحابه بالاستعداد لهم، فاجتمعوا للحرب، وليس في عسكره يومئذ إلا ثلاثةُ أسياف: سيفه، وسيف عليّ بن أبان، وسيف محمد بن سلْم، ولحقه القوم، ونادى الزّنج، فبدر مُفَرّج النوبيّ والمكنّى بأبي صالح، وريحان بن صالح، وفتْح الحجام، وقد كان فتْح حينئذ يأكل وبين يديه طبق، فلما نهض تناول ذلك الطبق، وتقدم أمام أصحابه، فلقيه رجل من عسكر أصحاب السلطان، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذي كان في يده، فرمى الرجل سلاحَه، وولّى هارباً، وانهزم القوم كلّهم، وكانوا أربعة آلاف، فذهبوا على وجوههم، وقُتِل مَنْ قتل منهم، ومات بعضُهم عطشاً، وأسِرَ كثير منهم، فأتى بهم صاحب الزّنج، فأمر بضرب أعناقهم، فضرِبت، وحملت الرؤوس على بغال كان أخذها من الشورجيّين، كانت تنقل الشُّورَج.

قال أبو جعفر: ومرّ في طريقه بالقرية المعروفة بالمحمدية فخرج منها رجلٌ من موالي الهاشميّين، فحمل على بعض السودان فقتله، ودخل القرية، فقال له أصحابه: ائذنْ لنا في انتهاب القرية وطلب قاتل صاحِبنا، فقال: لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند أهلها، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم، ونسائلهم أن يدفعوه إلينا، فإنْ فعلوا وإلا حلَّ لنا قتالهم، وعجّل المسير من القرية، فتركها وسار.

قال أبو جعفر: ثم مرّ على القرية المعروفة بالكرخ، فأتاه كبراؤها، وأقاموا له الأنزال،

وبات ليلَته تلك عندهم، فلمّا أصبح أهدى له رجلٌ من أهل القرية المسمّاة جُبَّى فرساً كميتاً، فلم يجد سرجاً ولا لجاماً، فركبه بحبل وسنفه بحبل ليف[1].

قلت: هذا تصديق قول أمير المؤمنين عليه السلام: «كأنه به قد سار في الجيش الذي ليس لهُ غبار ولا لجب[2]، ولا قعقعة لجم[3]، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدامُ النعام»[4].

قال أبو جعفر: وأوّل مالٍ صار إليه مائتا دينار وألف درهم، لما نزل القرية المعروفة بالجعفرية، أحضر بعض رؤسائها، وسأله عن المال فجحَد، فأمر بضرْب عنقِه، فلما خاف أحضَر له هذا القدرَ، وأحضر له ثلاثةَ براذِين: كميتاً وأشقر وأشهَب، فدفع أحدَها إلى محمد بن سلم، والآخر إلى يحيى بن محمد، والآخر إلى مشرق غلام الخاقانية، ووجدوا في دارٍ لبعض الهاشميين سلاحاً فانتهبوه، فصار ذلك اليوم بأيدي بعض الزّنج سيوف وآلات وأتراس.

قال أبو جعفر: ثم كانتْ بينه وبين مَنْ يليه من أعوان السلطان، كالحميريّ، ورُميس وعقيل وغيرهم وقعات، كان الظفر فيها كلّها له، وكان يأمر بقتل الأسرى، ويجمع الرؤوس معه، وينقلها من منزل إلى منزل، وينصبها أمامه إذا نزل، وأوقعَ الهيبة والرّهبةَ في صدور الناس بكثرة القتْلى، وقلة العفو، وعلى الخصوص المأسورين، فإنه كان يضرب أعناقَهم ولا يستبقي منهم أحداً.

قال أبو جعفر: ثم كان له مع أهل البصرة وقعة بعد ذلك سار يريدها في ستة آلاف زنجي، فاتّبعه أهل الناحية المعروفة بالجعفرية ليحاربوه، فعسكر عليهم، فقتلَ منهم مقتلةً عظيمة، أكثر من خمسمائة رجل، فلما فرغ منهم صمد نحو البصرة، واجتمع أهلها ومَنْ بها من الجند، وحاربوه حرباً شديداً، فكانت الدائرة عليه، وانهزم أصحابه، ووقع كثير منهم في النّهرين المعروفين بنهر كثير ونهر شيطان، وجعل يهتف بهم ويردّهم ولا يرجعون، وغرق مِنْ أعيان جنده وقوّاده جماعة، منهم أبو الجون، ومبارك البحرانيّ، وعطاء البربريّ، وسلاّم الشامي، فلحقه قوم من جند البصرة، وهو على قنطرة نهر كثير فرجع إليهم بنفسه، وسيفُه في يده، فرجعوا عنه، حتى صاروا إلى الأرض وهو يومئذ في دُرّاعة وعمامة ونعل وسيف، وفي يده اليسرى ترس، ونزل عن القنطرة، فصعدها البصريون يطلبونه، فرجع إليهم، فقتل منهم رجلاً

(١) انظر تاريخ الطبري: ٧/ ٥٤٩.

(٢) اللّجب: محركة: الجلبة والصياح والاضطراب. القاموس، مادة (لجب).

(٣) الجم: الكثير. اللسان، مادة (جمم).

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٢٥٠ ح: ١٩٧.

بيده على خمس مراقٍ من القنطرة، وجعل يهتف بأصحابه، ويعرّفهم مكانه، ولم يكن بقي معه في ذلك الموضع من أصحابه إلا أبو الشوك ومصلح ورفيق ومشرق غلاما الخاقانية، وضلّ أصحابه عنه، وانحلّتْ عمامته، فبقي على رأسه كُور منها أو كُوران، فجعل يسحبها من ورائه، ويعجله المشي عن رفعها، وأسرع غلاما الخاقانية في الانصراف، وقصّر عنهما فغابا عنه، فاتّبعه رجلان من أهل البصرة بسيفيهما، فرجع إليهما، فانصرفا عنه، وخرج إلى الموضع الذي فيه مجمع أصحابه، وقد كانوا تحيّروا، فلما رأوهُ سكنوا.

قال أبو جعفر: ثم سأل عن رجاله وإذا قد هرب كثير منهم، ونظر فإذا هو مِنْ جميع أصحابه في مقدار خمسمائة رجل، فأمر بالنفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته، فنفخ فيه فلم يرجع إليه أحد.

قال: وانتهب أهلُ البصرة سفناً كانت معه، وظفروا بمتاع من متاعه، وكتب من كتبه واصطرلابات كانت معه، ثم تلاحق به جماعة ممن كان هرب، فأصبح وإذا معه ألف رجل. فأرسل محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد إلى أهل البصرة يعظهم ويعلمهم أنّه لم يخرج إلاّ غضباً لله وللدين، ونهياً عن المنكر، فعبر محمد بن سلم حتى توسّط أهل البصرة، وجعل يكلّمهم ويخاطبهم، فرأوا منه غِرّة[1]، فوثبوا عليه فقتلوه، ورجع سليمان ويحيى إلى صاحب الزّنج، فأخبراه، فأمرهما بطيّ ذلك عن أصحابه، حتى يكون هو الذي يخبرهم.

فلما صلى بهم العصر، نعى إليهم محمد بن سلم، وقال لهم: إنكم تقتلُون به في غدٍ عشرة آلاف من أهل البصرة.

وقال أبو جعفر: وكانت الوقعة التي كانت الدَّبرَة عليه فيها يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلوْن من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين، فلما كان يوم الاثنين جمع له أهل البصرة وحشدوا لما رأوا من ظهورهم عليه يوم الأحد، وانتدب لذلك رجلٌ من أهل البصرة يعرف بحمّاد الساجيّ، وكان من غزاة البحر في الشّذا، وله علم بركوبها، والحرب فيها، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خَفّ معه من حزبي البلالية والسعدية، ومن غير هذه الأصناف من الهاشميّين والقرشيّين ومن يحبّ النظر ومشاهدة الحرب من سائر أصناف الناس، وشحنَ ثلاثة مراكب من الشّذا بالرماة، وجعل الناس يزدحمون في الشّذا حِرْصاً على حضور ذلك المشهد، ومضى جمهورُ الناس رَجّالة، منهم من معه سلاح ومنهم من لا سلاحَ معه بل نظّارة، فدخلت السفن النهر المعروف بأمّ حبيب بعد زوال الشمس من ذلك

(١) غَرّه غَرّاً وغروراً: خدعه. القاموس، مادة (غرر).

اليوم في المدّ، ومرّت الرجالة والنظارة على شاطىء النهر، قد سدُّوا ما ينفذ فيه البصر كثرةً وتكاثفاً، فوجّه صاحب الزنج صاحبيه زُرَيقاً وأبا الليث الأصبهانيّ، فجعلهم كميناً من الجانب الشرقيّ من نهر شيطان، وكان مقيماً بموضع منه، ووجّه صاحبيْه شبلاً وحسيناً الحماميّ، فجعلهما كميناً في غربيّه، ومع كلٍّ من الكمينين جماعة، وأمر عليّ بن أبان المهلبي أن يتلقى القوم فيمنْ بقي معه مِنْ جمعه، وأمره أن يستتر هو وأصحابه بتراسهم، ولا يثور إليهم منه ثائر، حتى يوافيَهم القوم ويخالطوهم بأسيافهم، فإذا فعلوا ذلك ثاروا إليهم وتقدّم إلى الكمينيْن إذا جاوزهما الجمع، وأحسّا بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجا من جنبي النهر، ويصيحا بالناس.

وكان يقول لأصحابه بعد ذلك: لمّا أقبل إليّ جمعُ البصرة وعاينتُه، رأيت أمراً هائلاً راعني، وملأ صدريٍ رهبةً وجزعاً، ففزعت إلى الدعاء، وليس معي من أصحابي إلا نفر يسير، منهم مصلح، وليس منّا أحد إلا وقد خُيّل إليه مصرعه، فجعل مصلح يعجّبني من كثرة ذلك الجمع، وجعلت أومئ إليه أن اسكت، فلما قرب القوم منّي قلت: اللهمّ إن هذه ساعة العُسْرة، فأعنّي، فرأيت طيوراً بيضاً أقبلتْ فتلقّت ذلك الجمع، فلم أستتم دعائي حتى بصرت سُمَيْرِيَةً من سفنهم قد انقلبتْ بمن فيها، فغرقوا، ثم تلتها، الشذا فغرِقت واحدة بعد واحدة، وثار أصحابي إلى القوم، وخرج الكمينان من جَنْبَي النهر، وصاحوا وخبطوا الناس، فغرقَت طائفة، وقتلت طائفة، وهربت طائفة نحو الشّط طمعاً، فأدركها السيف، فمن ثبت قتل، ومن رجع إلى الماء غرق، حتى أبيد أكثرُ ذلك الجمع، ولم ينج منهم إلاّ الشريد، وكثر المفقودون بالبصرة، وعلا العويل من نسائهم.

قال أبو جعفر: وهذا يوم الشّذا الذي ذكره الناس في أشعارهم، وعظّموا ما فيه من القتل، فكان ممن قتل من بني هاشم، جماعة من ولد جعفر بن سليمان وانصرف صاحب الزّنج وجمع الرؤوس وملأ بها سفناً، وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب في الجزر وأطلقها، فوافت البصرة، فوقفت في مشرعة تعرف بمشرعة القيّار، فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس، فيأخذ رأسَ كلّ رجل أولياؤه، وقوي صاحب الزنج بعد هذا اليوم، وسكن الرّعبُ قلوبَ أهلِ البصرة منه، وأمسكوا عن حربه، وكتب إلى السلطان بخبره، فوجّه جُعْلان التركيّ مدداً لأهل البصرة، في جيش ذوي عدّة وأسلحة.

قال أبو جعفر: وقال أصحاب عليّ بن محمد له: إنّا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة، ولم يبق فيها إلا ضعفاؤهم، ومَنْ لا حَراك به، فأذنْ لنا في تقحّمها، فنهاهم وهجّن آراءهم وقال: بل نبعد عنها، فقد رعبناهم وأخفناهم، ولنقتحمها وقتاً آخر، وانصرف بأصحابه إلى سَبَخة في آخر أنهار البصرة، تعرف بسبخة أبي قُرّة، قريبة من النهر المعروف بالحاجر فأقام هناك، وأمر

أصحابَه باتخاذ الأكواخ، وهذه السَّبَخة متوسطة النّخل والقرى والعمارات، وبثّ أصحابَه يميناً وشمالاً، يعيثون[١] ويُغيرون على القرى، ويقتلون الأكرة، وينهبون أموالَهم، ويسرقون مواشيهم.

وجاءه شخص من أهل الكتاب من اليهود، يعرف بمارويه، فقبّل يدَه وسجَد له، وسأله عن مسائل كثيرة، فأجابه عنها، فزعم اليهوديّ أنه يجد صفتَه في التوراة، وأنه يرى القتال معه، وسأل عن علامات في يده وجسده ذكر أنها مذكورة في الكتب، فأقام معه.

قال أبو جعفر: ولما صار جعْلان التركي إلى البصرة بعسكره، أقام ستة أشهر يحارب صاحب الزّنج، فإذا التقوا لم يكن بينهم إلا الرمي بالحجارة والنُّشّاب، ولم يجد جعلان إلى لقائه سبيلاً، لضيق الموضع بما فيه من النخل والدَّغَل عن مجال الخيل، ولأن صاحبَ الزنج قد كان خندق على نفسه وأصحابه.

ثم إنّ صاحب الزّنج بيَّت جعلان، فقتل جماعة من أصحابه، ورُوِّع الباقون رَوْعاً شديداً، فانصرف جعلان إلى البصرة ووجّه إليه مقاتلة السّعْدية والبلالية في جمع كثيف، فواقعهم صاحب الزنج، فقهرهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانصرفوا مفلولين، ورجع جعلان بأصحابه إلى البصرة، فأقام بها معتصماً بجدرانها، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج، وأمر سعيداً الحاجب بالشُّخوص إلى البصرة لحربهم.

قال أبو جعفر: واتفق لصاحب الزنج من السعادة أن أربعاً وعشرين مركباً من مراكب البحر كانت اجتمعت تريد البصرة، وانتهى إلى أصحابها خبرُ الزنج وقطعُهم السبل، وفيها أموال عظيمة للتجار، فاجتمعت آراؤهم على أن شدّوا المراكب بعضَها إلى بعض، حتى صارت كالجزيرة، يتصل أولها بآخرها، وسارت في دَجْلة، فكان صاحب الزَّنج يقول: نهضت ليلة إلى الصلاة وأخذت في الدعاء والتضرّع، فخوطبت بأن قيل لي: قد أظلّك فتحٌ عظيم، فالتفتّ فلم ألبث أنْ طلعت المراكبُ، فنهض أصحابي إليها في شذاتها فلم يلبثوا أن حَوَوْها وقتلوا مقاتلتها، وسَبَوْا ما فيها من الرقيق، وغنموا منها أموالاً لا تحصى، ولا يعرف قدرها فأنهبتُ ذلك أصحابي ثلاثة أيام، وأمرت بما بقي منها فحِيزَ لي.

---

(١) العيث: الإفساد. القاموس، مادة (عيث).

قال أبو جعفر: ثم دخل الزّنج الأبلة في شهر رجب من سنة ست وخمسين ومائتين، وذلك أن جُعْلان لما تنحّى إلى البصرة، ألحّ صاحبُ الزنج بالسّرايا على أهل الأبلّة، فجعل يحاربهم من ناحية شَطّ عثمان بالرجّالة، وبما خَفّ له من السفن من ناحية دَجْلة، وجعلت سراياه تضرِب إلى ناحية معقِل.

فذكِر عن صاحب الزنج أنه قال: ميّلت بين عَبّادان والأبلّة، فمِلْتُ إلى التوجّه. إلى عَبّادان فندبت الرجال إلى ذلك، فخوطبتُ وقيل لي: إنّ أقرب عدوّ داراً، وأولاه ألا يتشاغل عنه بغيرِه أهلُ الأبلّة، فرددت بالجيش الذي كنت سيّرته نحو عبّادان إلى الأبلّة، ولم يزالوا يحاربون أهلَها إلى أنْ اقتحموها وأضرموها ناراً، وكانت مبنيّة بالساج بناءً متكاثِفاً، فأسرعت فيها النار، ونشأت ريح عاصف، فأطارتْ شرَر ذلك الحريق إلى أن انتهى إلى شطّ عثمان، وقتل بالأبلّة خَلْق كثير، وحُوِيت الأسلاب والأموال، على أن الذي أحرق منها كان أكثر مما انتهب، واستسلم أهل عبّادان بعدها لصاحب الزّنج، فإن قلوبهم ضعفت، وخافوه على أنفسِهم وحُرمهم، فأعْطَوا بأيديهم، وسلّموا إليه بلدهم، فدخلها أصحابه، فأخذوا مَنْ كان فيها من العبيد، وحملوا ما كان فيها من السلاح، ففرّقه على أصحابه، وصانعه أهلها بمالٍ كفّ به عنهم.

قال أبو جعفر: ثم دخل الزَّنْج بعد عَبّادان إلى الأهواز ولم يثبت لهم أهلُها، فأحرقوا ما فيها، وقتلوا ونهبوا، وأخربوا، فكان بالأهواز إبراهيم بن محمد المدبّر الكاتب، وإليه خراجها وضياعها، فأسروه بعد أن ضربوه ضربة على وجهه، وحوَوْا كلّ ما كان يملكه من مال وأثاث ورقيق وكراع، واشتدّ خوفُ أهله البصرة، وانتقل كثير من أهلها عنها، وتفرّقوا في بلاد شتّى، وكثرت الأراجيف[1] من عوامّها.

قال أبو جعفر: فلمّا دخلت سنة سبع وخمسين أنفذ السلطان بغُراج التركي على حرب البصرة وسعيد بن صالح الحاجب للقاء صاحب الزنج، وأمر بُغْراج بإمداده بالرجال، فلما صار سعيد إلى نهر معقِل، وجد هناك جيشاً لصاحب الزَّنْج في النّهر المعروف بالمُرْغاب، فأوقع بهم سعيد فهزمهم، واستنقذ ما في أيديهم من النساء والنهب، وأصابت سعيداً في تلك الوقعة جراحات، منها جراحة في فيه.

---

(١) الأراجيف: الأخبار، وقد أرجفوا في الشيء: أي خاضوا فيه. اللسان، مادة (رجف).

ثم بلغه أنّ جيشاً لصاحب الزنج في الموضع المعروف بالفرات، فتوجّه إليه فهزَمه، واستأمن إليه بعض قواد صاحب الزنج، حتى لقد كانت المرأة من سكّان ذلك الموضع تجد الزنجيّ مستتراً بتلك الأدغال فتقبض عليه، حتى تأتي به عسكر سعيد، ما به عنها امتناع.

ثم قصد سعيد حرب صاحب الزّنج، فَعبر إليه إلى غربيّ دجْلة، فأوْقَع به وَقَعَاتٍ متتالية، كلّها يكونُ الظّفَر فيها لسعيد، إلى أنْ تهيّأ لصاحب الزّنج عليه أن وجّه إلى يحيى بن محمد البحرانيّ صاحبه، وهو إذ ذاك مقيم بنهر معقِل، في جيش من الزّنج، فأمره بتوجيه ألف رجل من أصحابه، عليهم سليمان بن جامع وأبو الليث القائدان، ويأمرهما بقصد عسكر سعيد ليلاً، حتى يوقعا به وقت طلوع الفجر، من ليلة عيّنها لهم، ففعلا ذلك، وصارا إلى عسكر سعيد في ذلك الوقت، فصادَفا منه غِرّة وغفلة، فأوقعا بِهِ وبأصحابه، وقت طلوع الفجر، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأصبح سعيد وقد ضعف أمرُه، واتّصل بالسلطان خبره، فأمره بالانصراف إلى باب السلطان، وتسليم الجيش الذي معه إلى منصور بن جعفر الخيّاط، وكان إليه يومئذ حرب الأهواز وكوتب بحرب صاحب الزنج، وأنْ يصمد له، فكانت بينهم وقعة كان الظّفَر فيها للزنج، فقتِل من أصحاب منصور خلق كثير عظيم، وحمل من الرؤوس خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن البحرانيّ القائد، فنصبت على نهر معقِل.

قال أبو جعفر: ثم كانت بين الزّنج وبين أصحاب السلطان بالأهواز وقعات كثيرة، تولاّها عليّ بن أبان المهلبيّ، فقتل شاهين بن بِسْطام، وكان من أكابر أصحاب السلطان، وهزم إبراهيم بن سيما، وكان أيضاً من الأمراء المشهورين، واستولى الزّنج على عسكره.

قال أبو جعفر: ثم كانت الواقعة العظمى بالبصرة في هذه السنة، وذلك أنّ صاحب الزّنج قطعَ الميرة عنهم، فأضرّ ذلك بهم، وألحّ بجيوشه وزنوجه عليهم بالحرب صباحاً ومساء، فلما كان في شوّال من هذه السنة، أزمع عَلَى جَمْع أصحابه للهجوم على البصرة، والجدّ في خراجها، وذلك لعلمه بضعف أهلها وتفرّقهم، وإضرار الحصار بهم، وخراب ما حولَها من القرى. وكان قد نظر في حِساب النجوم، ووقف على انكساف القمر، الليلة الرابعة عشرة من هذا الشهر، فذكر محمد بن الحسن بن سهل أنه قال: سمعته يقول: اجتهدت في الدعاء على أهل البصرة، وابتهلت إلى الله تعالى في تعجيل خرابها، فخوطبت وقيل لي: إنّما البصرة خبزة [لك] تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة. فأوّلتُ انكِسار نصف الرغيف بانكساف نصف القمر المتوقّع في هذه الليالي، وما أخلق أمرَ أهل البصرة أن يكون بعده!

قال: فكان يحدّث بهذا حتى أفاض فيه أصحابه، وكثُر تردّده في أسماعهم وإجالتهم إياه بينهم.

ثم ندب محمد بن يزيد الدارميّ - وهو أحد مَنْ كان صحِبَه بالبحرين للخروج إلى الأعراف واستنفار مَنْ قَدَر عليه منهم - فأتاه منهم - بخلْق كثير، ووجّه إلى البصرة سليمان بن موسى الشعرانيّ، فأمره بتطرّق البصرة، والإيقاع بأهلها، وتقدم إلى سليمان [بن موسى] بتمرين الأعراب على ذلك. فلما وقع الكسوف، أنهض إليها عليّ بن أبان، وضمّ إليه جيشاً من الزنج وطائفة من الأعراب، وأمره بإتيان البصرة مما يَلِي بني سعد، وكتب إلى يحيى بن محمد البحرانيّ في إتيانها مما يلِي نهر عديّ، وضمّ باقي الأعراب إليه، فكان أوّل مَنْ واقَع أهل البصرة عليّ بن أبان بغراج التركيّ يومئذ بالبصرة في جماعة من الجند، فأقام يقاتلهم يومين، وأقبل يحيى بن محمد مما يَلِي قصر أنس، قاصداً نحو الجسر، فدخل عليّ بن أبان البلد وقت صلاة الجمعة، لثلاثَ عشرة بقين من شوّال. فأقبل يقتل الناس، ويحرّق المنازل والأسواق بالنار، فتلقّاه بغراج وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان الهاشميّ، المعروف بِبُرَيْهِ وكان وجيهاً مقدّماً مطاعاً - في جمْع عظيم، فردّاه، فرجع فأقام ليلته تلك. ثم غاداهم وقد تفرق جند البصرة فلم يكن في وجهه أحد يدافعه، وانحاز بغراج بمن معه، وهرب إبراهيم بن محمد الهاشميّ المعروف ببُرَيه، فوضع عليُّ بن أبان السيف في الناس، وجاء إليه إبراهيم بن محمد المهلبيّ - ابن عمّه - فاستأمنه لأهل البصرة، فحضر أهلُ البصرة قاطبة، فأمّنهم، ونادى مناديه: مَنْ أراد الأمان فليحضُر دارَ إبراهيم بن محمد المهلبيّ. فحضر أهلُ البصرة قاطبةً، حتى ملؤوا الأزّقة. فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة، فأمر بأخذ السّكك والطرق عليهم، وغَدَر بهم، وأمر الزنوج بوضع السيف فيهم، فقتِل كلّ مَنْ شهد المشهد.

ثم انصرف آخرَ نهار يومه ذلك فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخُريبة.

وروى أبو جعفر، قال: حدثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: حدثني محمد بن سمعان، قال: كنت يومئذ بالبصرة، فمضيت مبادراً إلى منزلي لأتحصّن به، وهو في سكة المِرْبد، فلقيتُ أهلَ البصرة هاربين، يدعون بالويل والثبور، وفي آخرهم القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشميّ على بَغْلٍ متقلّداً سيفاً، يصيح بالناس: ويحكم! تُسلِمون بَلَدكم وحَرَمكم! هذا عدوّكم قد دخل البلد. فلم يلْوُوا عليه، ولم يسمعوا منه، فمضى هارباً، ودخلت أنا منزلي، وأغلقت بابي، وأشرفت فمرّ بي الأعراب ورجّالة الزنج، يقدمُهم رجل على حصان كُمَيْت، بيده رمح، وعليه عَذَبة صفراء، فسألت بعد ذلك عنه فقيل لي: إنّه عليّ بن أبان.

قال: ونادى منادي عليّ بن أبان: مَنْ كان من آل المهلّب فلْيدخل دارَ إبراهيم بن يحيى المهلبيّ، فدخلتْ جماعة قليلة، وأغلِق الباب دونَهم، ثم قيل للزنج: دونكم الناس فاقتلوهم، ولا تُبقوا منهم أحداً، وخرج إليهم أبو الليث الأصفهاني، أحد قوّاد الزنج، فقال للزنج:

كيلوا، وهي العلامة التي كانوا يعرفونها فيمن يؤمَرُون بقتله، فأخذ الناسَ السيف، قال: فوالله إنّي لأسمع تشهُّدهم وضجيجهم وهم يقتلون، وقد ارتفعت أصواتهم بالتشهّد، حتى سُمِعت بالطّفَاوة، وهو عَلَى بعدٍ من الموضع الذي كانوا فيه.

قال: ثم انتشر الزّنج في سِكَك البصرة وشوارعها، يقتلون مَنْ وجدوا. ودخل عليّ بن أبان يومئذ المسجد فأحرقه، وبلغ إلى الكلأءِ فأحرقه إلى الجسر، وأخذت النار كلّ ما مرّت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع، ثم ألحّوا بالغدوّ والروّاح عَلَى مَنْ وجدوه، ويسوقونهم إلى يحيى بن محمد البحرانيّ، وهو نازل ببعض سِكَك البصرة، فَمنْ كان ذامال قرّره حتى يستخرج ماله ثم يقتله، ومَنْ كان مختلاً قتله معجّلاً.

قال أبو جعفر: وقد كان عليّ بن أبان كفّ بعض الكفّ عن العَيْث بناحية بني سعد، وراقب قوماً من المهلبيّين وأتباعهم، فانتهى ذلك إلى عليّ بن محمد صاحب الزنج، فصرفه عن البصرة، وأقرّ يحيى بن محمد البحرانيّ بها لموافقته عَلَى رأيه في الإثخان في القتل، ووقوع ذلك بمحبّته، وكتب إلى يحيى بن محمد يأمره بإظهار الكفّ ليسكن الناس، ويظهرَ المستخفي، ومَنْ قد عرِف باليسار والثورة، فإذا ظهر فليؤخذوا بالدلالة عَلَى ما دفعوه وأخفوه من أموالهم، ففعل يحيى بن محمد ذلك، وكان لا يخلو من اليوم من الأيام من جماعة يؤتَى بهم، فمن عرف منهم باليسار استنزف ما عنده ثم قتله، ومَنْ ظهرت له خلّته عاجله بالقتل حتى لم يدعْ أحداً ظهر له إلاّ قتله.

قال أبو جعفر: وحدّثني محمد بن الحسن، قال: لما انتهى إلى عليّ بن محمد عظيم ما فعل أصحابه بالبصرة سمعته يقول: دعوت عَلَى أهل البصرة في غَدَاة اليوم الذي دخل فيه أصحابي إليها، واجتهدت في الدّعاء، وسجدت وجعلت أدعو في سجُودي، فرفعتْ إليّ البصرة، فرأيتها ورأيت أصحابي يقاتِلون فيها، ورأيت بين السماء والأرض رجلاً واقفاً في صورة جَعْفر المعلوف المتولّي كان للاستخراج في ديوان الخراج بسامُرّاء، وهو قائم قد خَفَض يده اليسرى، ورفع يده اليمنى، يريد قَلْب البصرة، فعلمتُ أنّ الملائكة تولّت إخرابها دون أصحابي، ولو كان أصحابي تولّوْا ذلك ما بلغوا هذا الأمر العظيم الذي يحكى عنها، ولكن الله تعالى نصرني بالملائكة، وأيّدني في حُروبي، وثبّتَ بهم مَنْ ضعُف قلبُه من أصحابي.

قال أبو جعفر وانتسب صاحب الزّنج في هذه الأيام إلى محمد بن محمد بن زيد بن عليّ بن الحسين، بعد انتسابه الذي كان إلى أحمد بن عيسى بن زيد، وذلك لأنه بعد إخرابه البصرة، جاء إليه جماعة من العلويّة الذين كانوا بالبصرة، وأتاه فيمن أتاه منهم قوم من ولد أحمد بن

عيسى بن زيد، في جماعة من نسائهم وحُرَمهم، فلما خافهم ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى، وانتسب إلى محمد بن محمد بن زيد.

قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: كنت حاضراً عنده وقد حضر جماعة من النوفليّين، فقال له القاسم بن إسحاق النوفليّ: إنه انتهى إلينا أن الأمير من ولد أحمد بن عيسى بن زيد، فقال: لست من ولد عيسى، أنا من ولد يحيى بن زيد.

قال محمد بن الحسن: فانتقل من أحمد بن عيسى بن زيد إلى محمد بن محمد بن زيد، ثم انتقل من محمد إلى يحيى بن زيد، وهو كاذب لأنّ الإجماع واقع على أنّ يحيى بن زيد مات ولم يعقِبْ ولم يولَدْ له إلاّ بنت واحدة ماتت، وهي ترضع[(١)].

فهذا ما ذكره أبو جعفر الطبري في «التاريخ الكبير»[(٢)].

وذكر عليّ بن الحسن المسعودي في «مروج الذهب»[(٣)] أن هذه الواقعة بالبصرة، هلك فيها مِنْ أهلها ثلاثمائة ألف إنسان، وأنّ عليّ بن أبان المهلبي بعد فراغه من الواقعة، نصب منبراً في الموضع المعروف ببني يشكُر، صلّى فيه يوم الجمعة، وخطب لعليّ بن محمد صاحب الزنج، وترحّم بعد ذلك على أبي بكر وعمر، ولم يذكر عثمان ولا عليًا عليه السلام في خطبته، ولعن أبا موسى الأشعريّ وعَمْرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، قال: وهذا يؤكّد ما ذكرناه وحكيناه من رأيه، وأنه كان يذهب إلى قول الأزارقة.

قال: واستخفى مَنْ سَلم من أهل البصرة في آبار الدور، فكانوا يظهرون ليلاً، فيطلبون الكِلاَب فيذبحونها ويأكلونها، والفار والسنانير، فأفنوْها حتى لم يقدروا على شيء منها، فصاروا إذا مات الواحد منهم أكلوه، فكان يراعي بعضُهم موتَ بعض، ومَنْ قدر على صاحبه قتلَه وأكله، وعدموا مع ذلك الماء، وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة قد احتضرت، وعندها أختها وقد احتوشوها ينتظرون أن تموتَ فيأكلوا لحمها، قالت المرأة: فما ماتت حسناء

(١) تاريخ الطبري: أخرجه الطبري، تاريخه: ٧/ ٦٠٨.
(٢) تاريخ الطبري: للإمام أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة (٣١٠هـ)، وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم. «كشف الظنون» (٢٩٧٨).
(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ: لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٦٥٨).

حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه، ولقد حضرت أختها ونحن على شريعة عيسى بن حرب وهي تبكي ومعها رأس الميت، فقال لها قائل: ويحك! ما لك تبكين! فقالت: اجتمع هؤلاء على أختي فما تركوها تموت حسناء حتى قطّعوها، وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئاً إلا الرأس، وإذا هي تبكي شاكية من ظُلْمهم لها في أختها.

قال: وكان مثل هذا وأكثر منه وأضعافه، وبلغ منْ أمر عسكره أنه ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشراف قريش، فكانت الجارية تباع منهم بدرهمين وبثلاثة دراهم، وينادَى عليها بنسبها: هذه ابنة فلان بن فلان، وأخذ كلّ زنجيّ منهم العشرين والثلاثين يطؤهنّ الزّنج ويخدمْن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف، ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن عليّ عليه السلام، وكانت عند بعض الزنج وسألته: أن يعتقها مما هي فيه، أو ينقلها من عنده إلى غيره، فقال لها: هو مولاك، وهو أولى بك.

قال أبو جعفر: وأشخص السلطان لحرب صاحب الزنج محمداً المعروف بالمولد، في جيش كثيف، فجاء حتى نزل الأبُلّة، وكتب صاحب الزّنج إلى يحيى بن محمد البحرانيّ يأمره بالمصير إليه، فصار إليه بزنوجه، وأقام على محاربته عشرة أيام، ثم فَتَر المولد عن الحرب، وكتب عليّ بن محمد إلى يحيى، يأمره أن يبيّته، فبيّته فهزمه، ودخل الزّنج عسكره فغنِموا ما فيه، وكتب يحيى إلى صاحب الزّنج يخبره، فأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت، ثم انصرف عنه، فمرّ بالجامدة، وأوقع بأهلها، وانتهب كلّ ما كان في تلك القرى، وسفَك مَا قَدَر على سفكه من الدماء، ثم عاد إلى نهر معقل.

قال أبو جعفر: واتّصلت الأخبار بسامراء وبغداد وبالقوّاد الموالي وأهلِ الحضرة، بما جرى على أهلِ البصرة، فقامت عليهم القيامة، وعلم المعتمد أنه لا يرتق هذا الفتق إلا بأخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل - وكان منصوراً مؤيداً عارفاً بالحرب وقيادة الجيوش، وهو الذي أخذ بغداد للمعتز، وكسر جيوش المستعين، وخلعه من الخلافة، ولم يكن لبني العباس في هذا الباب مثله ومثل ابنه أبي العباس - فعقَد له المعتمد على ديار مضَر وقنّسرين والعواصم، وجلس له مستهلّ شهر ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين، فخلع عليه وعلى مفلح، وشَخَصا نحو البصرة لحرب علي بن محمد وإصلاح ما أفسده من الأعمال، وركب المعتمد ركوباً ظاهراً يشيّع أخاه أبا أحمد إلى القرية المعروفة ببركوارا، وعاد.

قال أبو جعفر: وأما صاحب الزّنج فإنه بعد هزيمة محمد المولد أنفذ عليّ بن أبان المهلبيّ إلى حرب منصور بن جعفر والي الأهواز، فكانت بينهما حروب كثيرة في أيام متفرّقة حتى كان آخرها اليوم الذي انهزم فيه أصحاب منصور، وتفرّقوا عنه، وأدركت منصوراً طائفة من الزّنج، فلم يزل يكرّ عليهم حتى انقصف رمحه، ونفدت سهامه، ولم يبق معه سلاح، وانتهى إلى نهر يعرف بنهر ابن مَرْوان، فصاح بحصان كان تحته ليعبُر، فوثب فقصّر فانغمس في الماء.

وقيل: إنّ الحصان لم يقصّر في الوثْبة، ولكنّ رجلاً من الزّنج سبقه إلى النهر، فألقى نفسَه فيه، لعلمه أنه لا محيص لمنصور عن النهر، فلما وثب الفرس تلقّاه الأسود، فنكص فغاصَ الفرس ومنصور، ثم أطلع منصور رأسه، فنزل إليه غلام من السودان من عُرَفاء مصلح، يقال له أبرون، فاحتزّ رأسه، وأخذ سلَبه، فولّى يارجوخ التركي صاحب حرب خوزستان، ما كان مع منصور من العمل أصغجون التركي.

وقال أبو جعفر: وأما أبو أحمد، فإنّه شخَص عن سامُرّاء في جيش لم يسمَع السامعون بمثله، كثرةً وعُدة، قال: وقد عاينتُ أنا ذلك الجيش، وأنا يومئذ ببغداد بباب الطاق، فسمعتُ جماعة من مشايخ أهل بغداد يقولون: قد رأينا جيوشاً كثيرة للخلفاء، فما رأينا مثل هذا الجيش أحسن عُدّة وأكمل عَتاداً وسلاحاً، وأكثر عدداً وجمعاً، واتبع ذلك الجيشَ مِنْ متسوّقة أهلِ بغداد خلق كثير.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن بن سهل، أن يحيى بن محمد البحرانيّ كان مقيماً بنهر معقل قبل موافاة أبي أحمد، فاستأذن صاحبَ الزّنج في المصير إلى نهر العباس، فكرِه ذلك، وخاف أن يوافيَه جيشٌ من قِبَل السلطان، وأصحابه متفرّقون، فألحّ عليه يحيى حتى أذن له، فخرج واتّبعه أكثرُ أهلِ عسكر صاحب الزّنج، وكان عليّ بن أبان مقيماً بجُبّى في جمع كثير من الزّنج، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر صاحب الزّنج، يغادونها ويراوحونها لنقْلِ ما نالته أيديهم منها إلى منازلهم، فليس بمعسكر عليّ بن محمد يومئذ من أصحابه إلاّ القليل، فهو على ذلك من حاله، حتى وافى أبو أحمد في الجيش ومعه مفلح، فورد جيشٌ عظيم لم يرد على الزّنج مثلُه، فلما وصل إلى نهر معقل، انصرف مَنْ كان هناك من الزّنج، فالتحقوا بصاحبهم مرعوبين، فراعه ذلك، ودعا برئيسين منهما، فسألهما عن السبب الذي له تركا موضعهما، فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد، وكثرة عدد أهله وإحكام عدّتهم، وأنّ الذي عايناه من ذلك لم يكن في قوّتهما الوقوف له في العُدّة التي كانا فيها، فسألهما: هل عَلمَا مَنْ يقود هذا الجيش؟ فقالا: قد اجتهدنا في علم ذلك، فلم نجد مَنْ يصدُقنا عنه.

فوجّه صاحب الزّنج طلائعه في سُمَيْريّات ليعرف الخبَر، فرجعت طلائعه إليه بتعظيم أمر

الجيش وتفخيمه، ولم يقف أحدٌ منهم على مَنْ يقوده، فزاد ذلك في جَزَعِه وارتياعه، فأمر بالإرسال إلى عليّ بن أبان يعلِمه خبرَ الجيش الوارد، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه، ووافَى جيش أبي أحمد، فأناخ بإزاء صاحب الزّنج فلما كان اليوم الذي كانت فيه الواقعة، خرج عليّ بن محمد يطوف في عسكره ماشياً، ويتأمّل الحال فيمن هو من حزبه ومَنْ هو [مقيم] بإزائه على حزبه، وقد كانت السماء مطرت ذلك اليوم مطراً خفيفاً، والأرض ثرِيّة تزلّ عنها الأقدام، فطوّف ساعة من أوّل النهار ورجع، فدعا بدواة وقرطاس ليكتب كتاباً إلى عليّ بن أبان، ليعلمه ما قد أظلّه من الجيش، ويأمرَه بتقديم مَنْ قَدَر على تقديمه من الرجال، فإنّه لف ذلك، إذ أتاه أبو دُلَفٍ القائد أحد قوّاد الزّنج، فقال له: إنّ القوم قد غَشُوك ورهقوك، وانهزم الزّنج من بين أيديهم، وليس في وجوههم مَنْ يردّهم، فانْظر لنفسك، فإنهم قد انتهوا إليك. فصاح به وانتهره وقال: اغْرُبْ عنّي فإنك كاذبٌ فيما حكيت، إنما ذلك جزعٌ داخَل قلبَك لكثرة مَنْ رأيت من الجمع، فانخلع قلبُك، فلستَ تدرِي ما تقول!

فخرج أبو دُلَفٍ من بين يديه، وأقبل يكتب، وقال لجعفر بن إبراهيم السجّان: ناد في الزّنج، وحرّكهم للخروج إلى موضع الحرب، فقال له: إنّهم قد خرجوا، وقد ظفروا بسُمَيريّتين من سفن أصحاب السلطان، فأمره بالرجوع لتحريك الرّجالة، وكان من القضاء والقدر أن أصيب مفلح - وهو القائد الجليل، المرشّح لقيادة الجيش بعد أبي أحمد - بسهم غَرْب لا يدرى من رماه، فمات لوقته، ووقعت الهزيمة على أصحاب أبي أحمد، وقوِي الزّنج على حربهم، فقتلوا منهم جمعاً كثيراً. ووافى عليّ بن محمد زَنْجه بالرؤوس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقوْها بين يديه، فكثرت الرؤوس يومئذٍ حتى ملأت الفضاء، وجعل الزّنج يقتسِمون لحوم القتلى، ويتهادونها بينهم، وأتِيَ بأسيرٍ من الجيش فسأله عن رأس العسكر، فذكر أبا أحمد ومفلحاً، فارتاع لذكر أبي أحمد، وكان إذا راعه أمرٌ كذّب به، وقال: ليس في الجيش إلا مُفْلح، لأني لست أسمع الذّكْر إلا له، ولو كان في الجيش مَنْ ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد، ولَمّا كان مُفْلح إلا تابعاً له، ومضافاً إليه.

قال أبو جعفر: وقد كان قبل أن يصيب السهمُ مفلحاً، انهزم الزّنج لما خرج عليهم جيش أبي أحمد، وجزِعُوا جزعاً شديداً، ولجؤوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب، ولا جسرَ يومئذ عليه، فغرق منهم خلق كثير، ولم يلبثْ صاحبُ الزنج إلا يسيراً حتى وافاه عليّ بن أبان في أصحابه، فوافاه وقد استغنى عنه بهزيمة الجيش السلطاني، وتحيّز أبو أحمد بالجيش إلى الأبُلّة، ليجمع ما فرّقت الهزيمة منه، ويجدّد الاستعداد للحرب، ثم صار إلى نهر أبي الأسد فأقام به.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن، قال: فإن صاحب الزنج لا يدري كيف قُتل مفلح؛ فلما لم يرَ أحداً ينتحل رميَه ادّعى أنّه كان الرامي له، قال: فسمعته يقول: سقط بين يديّ سَهْمٌ من السماء، فأتاني به واح خادمي، فدفعه إليّ، فرميتُ به فأصاب مُفلِحاً فقتله، قال محمد: وكذَب في ذلك، لأنّي كنتُ حاضراً معه ذلك المشهد، ما زال عن فرسه حتى أتاه خبرُ الهزيمة.

قال أبو جعفر: ثم إن الله تعالى أصاب صاحب الزَّنج بمصيبة تعادِل فرحَه وسروره بقتل مُفلح عقيب قَتل مُفلح، وذلك أنّ قائده الجليل يحيى بن محمد البحرانيّ أسِرَ وقتل، وصورة ذلك أن صاحب الزنج كان قد كتب إلى يحيى بن محمد، يعلمُه ورودَ هذا الجيش عليه، ويأمُره بالقدوم والتحرّز في منصرفه من أنْ يلقاه أحدٌ منهم وقد كان يحيى غَنِمَ سفناً فيها متاعٌ وأموال، لتجّار الأهواز جليلة، وحامى عنها أصحابُ أصفجون التركي فلم يُغْن، وهزمهم يحيى، ومضى الزنج بالسفن المذكورة يمدُّونها متوجّهين نحو معسكر صاحب الزَّنج على سَمْت البطيحة المعروفة بَبطيحة الصّحناة، وهي طريقة متعسّقة[1] وعرة، فيها مشاقّ متعبة، وإنما سلكها يحيى وأصحابه، وتركوا الطريقَ الواضح، للتحاسد الذي كان بين يحيى بن محمد وعليّ بن أبان، فإن أصحاب يحيى أشارُوا عليه ألا يسلك الطريق التي يمرّ فيها على أصحاب عليّ بن أبان، فأصغى إلى مشورتهم فشرَعُوا له الطريق المؤدي إلى البطيحة المذكورة فسلكها، وهذه البطيحة ينتهي السائر فيها إلى نهر أبي الأسد، وقد كان أبو أحمد انحاز إليه، لأن أهلَ القرى والسواد كاتبوه يعرّفونه خبر يحيى بن محمد البحرانيّ، وشدة بأسه، وكثرة جمعه، وأنّه ربما خرج من البطيحة إلى نهر أبي الأسد، فعسكر به، ومنع أبا أحمد المِيرة، وحال بينه وبين مَن يأتيه من الأعراب وغيرهم، فسبقه أبو أحمد إلى نهر أبي الأسد، وسار يحيى حتى إذا قرب من نهر أبي الأسد، وافته طلائعه، فأخبرته بالجيش، وعظّمت أمره، وخوّفته منه، فرجع من الطريق الذي كان سلكه بمشقّة شديدة نالته، ونالت أصحابه، وأصابهم مرض لتردّدهم في تلك البطيحة، وجعل يحيى على مقدّمته سليمان بن جامع، وسار حتى وقف على قنطرة فورج نهر العباس، في موضع ضيّق تشتدّ فيه جرية الماء، وهو مشرف ينظر أصحابه الزنج: كيف يُجرون تلك السفن التي فيها الغنائم، فمنها ما يغرق وما يسلم.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن سمعان قال: كنتُ في تلك الحال واقفاً مع يحيى على القنطرة، وقد أقبل عليّ متعجّباً من شدّة جرية الماء، وشدّة ما يلقَى أصحابُه من تلقّيه بالسفن، فقال: أرأيت لو هجم علينا عدوّ في هذه الحال مَن كان يكون أسوأ حالاً مِنّا! فوالله ما انقضى

(١) العسق: الضيق والالتواء. اللسان، مادة (عسق).

كلامُه حتى وافَى كاشهم التركي في جيش، قد أنفذه معه أبو أحمد عند رجوعه من الأبُلّة إلى نهر أبي الأسد، يتلّقى به يحيى، فوقعت الصيحة، واضطربت الزنج، فنهضتُ متشوّفاً للنظر، فإذا الأعلام الحمر قد أقبلت في الجانب الغربيّ من نهر العباس ويحيى به، فلما رآها الزنج ألقَوْا أنفسهم جملةً في الماء، فعبروا إلى الجانب الشرقيّ وخلا الموضع الذي فيه يحيى، فلم يبق معه إلا بضعة عشر رجلاً منهم، فنهض عند ذلك فأخذ درَقته[1] وسيفه، واحتزم بمنديل، ثم تلقى القوم في النفر الذين تخلّفوا معه، فرشقهم أصحاب كاشهم التركيّ بالسهام، حتى كثرت فيهم الجراح، وجرح يحيى بأسهم ثلاثة في عضُده اليمنى وساقه اليسرى، فلما رآه أصحابُه جريحاً، تفرّقوا عنه ولم يعرف فيقصد له، فرجع حتى دخل بعض تلك السفن، وعبر به إلى الجانب الشرقيّ من النهر، وذلك وقت الضحى، وأثقلته الجراحات التي أصابته، فلما رأت الزّنج شدّة ما نزل به، اشتدّ جزعهم، وضعفتْ قلوبهم، فتركوا القتال، وكانت همّتهم النجاة بأنفسهم، وحاز أصحاب السلطان تلك الغنائم التي كانتْ في السفن في الجانب الغربيّ من النهر، وانفضّ الزنج بالجانب الشرقيّ عن يحيى، فجعلوا يتسلّلون بقيّة نهارهم بعد قتل ذريع فيهم، وأسْرٍ كثير، فلما أمسوا وأسدَف الليل، طاروا على وجوههم. فلما رأى يحيى تفرّقَ أصحابه ركب سُميريّة كانت هناك، وأقعد معه فيها متطبّباً، يقال له عباد، وطمع في الخلاص إلى عسكر صاحب الزنج، فسار حتى قرب من فُوّهة النهر، فأبصر سميريّات وشذايات لأصحاب السلطان في فوّهة النهر، فخاف أنْ تعترض سميريته، وجزع من المرور بها، فعبر به الملاّح إلى الجانب الغربيّ من النهر، فألقاه وطبيبه على الأرض في زرع هناك، فخرج يمشي وهو مثقل حتى ألقى نفسَه في بعض تلك المواضع، فأقام هناك ليلته تلك. فلما أصبح نزفه الدم، ونهض عبّاد الطبيب، فجعل يمشي متشوّفاً أن يرى إنساناً، فرأى بعضَ أصحاب السلطان، فأشار لهم إلى موضع يحيى، فجاؤوا، حتى وقفوا عليه، فأخذوه، وانتهى خبره إلى [الخبيث] صاحب الزنج فجزع عليه جزعاً شديداً، وعظم عليه توجّعه.

ثم حُمِل يحيى إلى أبي أحمد، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد، فأدخل إلى سامُرّاء راكبَ جمل، والناس مجتمعون ينظرونه، ثم أمر المعتمد ببناء دكّة عالية بحضرة مجرى الحلبة، فبنيتْ، ورفع للناس عليها حتى أبصره الخلائق كافّة، ثم ضرب بين يدي المعتمد وقد جلس له مائتي سوط بثمارها ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف، [ثم خبط بالسيوف] ثم ذبح وأحرق.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن، قال: لما قتِل يحيى البحرانيّ، فانتهى خبرُه إلى

(١) الدرقة: الحجفة، وهي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب. اللسان، مادة (درق).

صاحب الزَّنج، قال لأصحابه. لما عظم عليَّ قتلُه، واشتدّ اهتمامي به، خوطبت فقيل لي: قتْله خيرٌ لك! إنه كان شرهاً. ثم أقبل على جماعة أنا فيهم، فقال: مِنْ شَرَهه أنّا غنمنا غنيمة من بعض ما كنا نغنمه وكان فيها عِقْدان، فوقعا في يد يحيى، فأخفى عنّي أعظمهما خطراً، وعرض عليّ أخسَّهما، ثم استوهبه فوهبته له، فرفِع إليّ العِقْد الذي أخفاه حتى رأيته، فدعوته فقلت: أحضِرْ لي العقد الذي أخفيتَه، فأتاني بالعِقْد الذي وهبتُه له، وجحد أن يكون أخذ غيرَه، فرُفِع إليّ العقد ثانية، فجعلت أصفه له وأنا أراه وهو لا يراه، فبُهت وذهب، فأتاني، ثم استوهبنيه فوهبتُه له، وأمرته بالاستغفار.

قال أبو جعفر: وذكر محمد بن الحسن، أنّ محمد بن سمعان حدّثه أن صاحب الزَّنج، قال في بعض أيّامه: لقد عُرِضَتْ عليّ النبوّة فأبيتها. فقيل له: ولم ذاك؟ قال: إنّ لها أعباء خِفْت ألاّ أطيق حملها.

قال أبو جعفر: فأمّا الأميرُ أبو أحمد، فإنّه لما صار إلى نهر أبي الأسد وأقام به، كثرت العلل فيمن معه من جُنْده وغيرهم، وفشا فيهم الموت، فلم يزل مقيماً هنالك حتى أبَلّ مَنْ نَجا مِنهم من عِلّته، ثم انصرف، راجعاً إلى بَاذاوَرْد، فعسكر به، وأمر بتجديد الآلات وغِلْمانه، ونهض نحو عسكر الناجم، وأمر جماعة من قوّاده بقصد مواضع سَمّاها لهم، من نهر أبي الخصيب وغيره، وأمر الباقين بملازمته والمحاربة معه، في الموضع الذي يكون فيه، وهم الأقلّون، وعرف الزنج تفرّق أصحاب أبي أحمد عنه، فكثروا في جهته، واستعرت الحرب بينه وبينهم، وكثرت القتلى والجراح بين الفريقين، وأحرق أصحابُ أبي أحمد قُصوراً ومنازل كان الزّنج ابتنوها، واستنقذوا من نساء أهل البصرة جَمْعاً كثيراً. ثم صرف الزّنج سورتَهم وشدّة حملتهم إلى الموضع الذي به أبو أحمد، فجاءه منهم جمعٌ لا يقاوَم، بمثل العدّة اليسيرة التي كان فيها، فرأى أنّ الحزم في محازتهم، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على تُؤدة وتمهّل، ففعلوا، وبقيت طائفة من جنده وَلَجُوا تلك الأدغال والمضايق، فخرج عليهم كمين للزنج فأوقعوا بهم، فحاموا عن أنفسهم، وقتلوا عدداً كثيراً من الزنج إلى أن قتلُوا بأجمعهم، وحملت رُؤوسهم إلى الناجم، فزاد ذلك في قوّته وعتوّه وعُجْبه بنفسه، وانصرف أبو أحمد بالجيش إلى باذاورد، وأقام يعبّي أصحابه للرجوع إلى الزنج، فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره، وذلك في أيام عُصُوف الرياح، فاحترق العسكر، ورحل أبو أحمد منصرفاً وذلك في شعبان من هذه السنة إلى واسط.

فأقام بها إلى ربيع الأول، ثم انصرف عنها إلى سامرّاء، وذلك أنّ المعتمد كاتبه واستقدمه لحرب يعقوب بن الليث الصفّار أمير خراسان، فاستخلف على حرْب الناجم محمداً المولد،

وأمّا النّاجم فإنه لم يعلم خبر الحريق الذي وقع في عسكر أبي أحمد، حتى وَرد عليه رجلان من أهل عَبّادان، فأخبراه، فأظهر أن ذلك من صُنْع الله تعالى له ونصره على أعدائه، وأنه دعا الله على أبي أحمد وجيشه، فنزلت نارٌ من السماء فأحرقتهم.

وعاد إلى العبث، واشتد طغيانه وعتوّه، وأنهض عليّ بن أبان المهلبيّ، وضم إليه أكثر الجيش، وجعل على مقدمته سليمان بن جامع، وأضاف إليه الجيش الذي كان مع يحيى بن محمد البحراني وسليمان بن موسى الشعرانيّ، وأمرهم بأن يقصِدوا الأهواز وبها حينئذ أصغجون التركي، ومعه نيزك القائد، فالتقى العسكران بصحراء تعرف بدشت ميسان، واقتتلوا، فظهرتْ الزنج، وقتل نيزك في كثير من أصحابه، وغرق أصغجون التركي، وأسر كثير من قُوّاد السلطان، منهم الحسن بن هرثمة المعروف بالشاري، والحسن بن جعفر. وكتب عليّ بن أبان بالخبر إلى النّاجم، وحمل إليه أعلاماً ورؤوساً كثيرة وأسرى، ودخل عليّ بن أبان الأهواز، وأقام بها بزنوجه يعيث وينهب القُرى والسواد، إلى أن ندب المعتمد على الله موسى بن بغا لحرْبه، فشخص عن سامُرّا، في ذي القعدة من هذه السنة، وشيّعه المعتمد بنفسه إلى خلف الحائطين، وخلع عليه هنالك فقدم أمامه عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز وإسحاق بن كنداج إلى البصرة، وإبراهيم بن سيما إلى الباذاورْد.

قال أبو جعفر: فلما ورد عبد الرحمن بن مفلح على الأهواز أناخ بقنطرة أربق عشرة أيام، ثم مضى إلى عليّ بن أبان المهلبي فواقعه فهزمه عليّ بن أبان، فانصرف فاستعدّ ثم عاد لمحاربته، فأوقع به وقعة عظيمة، وقتَل من الزّنج قتلاً ذريعاً وأسر أسرى كثيرة، وانهزم عليّ بن أبان ومَنْ معه من الزّنج حتى أتوا الموضع المعروف ببَيان، فأراد النّاجم ردّهم فلم يرجعوا، للذّعر الذي خالطَ قلوبهم. فلما رأى ذلك أذِنَ لهم في دخول عسكره، فدخلوا جميعاً، فأقاموا معه بالمدينة التي كان بناها، ووافَى عبد الرحمن بن مفلح حصن مهديّ ليعَسكر به، فوجّه إليه النّاجم عليّ بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه، ومضى عليّ بن أبان إلى قريب من الباذاورد، وهناك إبراهيم بن سيما، فواقعه إبراهيم، فهزِم عليّ بن أبان، فعاوده فهزمه إبراهيم، فمضى في اللّيل، وسلك الأدغال والآجام، حتى وافَى نهرَ يحيى، فانتهى خبره إلى عبد الرحمن بن مفلح، فوجّه إليه طاشْتِمُر التركيّ في جمعٍ من الموالي، فلم يصلْ إلى عليّ بن أبان ومن معه، لوعورة الموضع الذي كانوا فيه، وامتناعه بالقصب والحُلافيّ، فأضرمه عليهم ناراً، فخرجوا منه هاربين، وأسرَ منهم أسْرَى، وانصرف إلى عبد الرحمن بن مفلح، فصار إلى العمود، فأقام به، وصار عليّ بن أبان إلى نهر السِّدْرة، وكتب إلى النّاجم يستمدّه ويسأله التوجيه إليه بالشّذا، فوجّه إليه ثلاث عشرة شَذَاة، فيها جمعٌ كثير من أصحابه، فسار عليّ بن أبان ومَنْ معه في الشّذَا، ووافَى عبد الرحمن بمن معه، فلم يكن بينهما قتال، وتواقف الجيشان يومَهما ذلك.

فلما كان الليل انتخَب عليّ بن أبان من أصحابه جماعةً يثق بجلَدهم وصبرهم، ومضى ومعه سليمان بن موسى المعروف بالشّعراني، وترك سائرَ عسكره مكانه ليخفى أمرُه، فصار من وراء عبد الرحمن، ثم بيَّته وعسكره، فنال منه ومن أصحابه نيلاً ما، وانحاز عبدُ الرحمن عنه وترك أربع شَذَوَات من شَذَوَاته، فغنِمها علي بن أبان، وانصرف ومضى عبد الرحمن لوجهه، حتى وافى دُولاب، فأقام بها، وأعدّ رجالاً من رجاله، وولّى عليهم طاشتمر التركيّ، وأنفذهم إلى عليّ بن أبان، فوافَوْه وهو في الموضع المعروف بباب آزر، فأوقعوا به وَقْعةً انهزم منها إلى نهر السِّدرة، وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمن بانهزامه عنه، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وافى العمود، فأقام به واستعدّ أصحابه للحرب، وهيّأ شذواتِه[1]، وولّى عليها طاشتمر، وسار إلى فُوّهة نهر السِّدرة، فواقع عليّ بن أبان وقعة عظيمة، انهزم منها عليّ بن أبان، وأخذ منه عشر شَذَوات، ورجع عليّ بن أبان إلى الناجم مفلولاً مهزوماً، وسار عبد الرحمن من فوره، فعسكر ببيان، فكان عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما يتناوبان المصير إلى عسكر النّاجم، فيوقِعان به، ويخيفان مَنْ فيه وإسحاق بن كنداجيق يومئذ بالبصرة، وقد قطع المِيرة[2] عن عسكر الناجم، فكان الناجم يجمع أصحابه في اليوم الذي يخاف فيه موافاة عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما، حتى ينقضِيَ الحرب، ثم يصرف فريقاً منهم إلى ناحية البصرة، فيواقع بهم إسحاق بن كندجيق، فأقاموا على هذه الحال بضعَة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بغا عن حرب الزّنج.

قال أبو جعفر: وسبب ذلك أنّ المعتمد ردّ أمرَ فارس والأهواز والبصرة وغيرها من النواحي والأقطار إلى أخيه أبي أحمد، بعد فراغه من حرب يعقوب بن الليث الصفّار وهزيمته له، فاستخلف أبو أحمد على حرب صاحب الزنج مسروراً البلخيّ، وصرف موسى بن بغا عن ذلك، واتفق أنّ ابن واصل حاربَ عبد الرحمن بن مفلح، فأسره وقتله، وقتل طاشتمر التركيّ أيضاً، وذلك بناحية رَامَهُرْمز، فاستخلف مسرورٌ البلخيّ على الحربِ أبا الساج وولي الأهواز، فكانت بينه وبين عليّ بن أبان المهلبيّ وقعة بناحية دولاب، قتل فيها عبد الرحمن صهر أبي الساج، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مُكْرَم، ودخل الزّنج الأهواز، فقتلوا أهلَها وسَبَوْا وأحرقوا [دورها].

قال أبو جعفر: ثم وجّه صاحب الزّنج جيوشه بعد هزيمة أبي الساج إلى ناحية البطيحة

(١) الشذا: حَدُّ كل شيء. اللسان، مادة (شذو).
(٢) الميرة: الطعام. اللسان، مادة (مور).

والحوانيت ودستُميسان، قال: وذلك لأنّ واسطاً خلتْ من أكثر الجند في وقعة أبي أحمد ويعقوب بن الليث التي كانت عند دير العاقول، فطمع الزنج فيها، فتوجّه إليها سليمان بن جامع في عسكر من الزّنج، وأردفه الناجم بجيش آخر مع أحمد بن مهديّ في سُميريّات، فيها رماة من أصحابه، أنفذه إلى نهر المرأة، وأنفذ عسكراً آخر فيه سليمان بن موسى، فأمره أن يعسكر بالنهر المعروف بالهيوديّ، فكانت بين هؤلاء وبين من تخلّف بهذه الأعمال من عساكر السلطان حروب شديدة، وكانت سجالاً لهم وعليهم، حتى ملَكوا البَطيحة والحوانيت، وشارفوا واسطاً، وبها يومئذ محمد المولّد من قِبَل السلطان فكانت بينه وبين سليمان بن جامع حروب كثيرة يطولُ شرحها وتعداده، وأمدّه الناجم بالخليل بن أبان - أخي عليّ بن أبان المهلبيّ - في ألف وخمسمائة فارس، ومعه أبو عبد الله الزنجي المعروف بالمذوّب، أحد قُوّادهم المشهورين، فقوِيَ سليمان بهم، وأوقع بمحمد المولّد، فهزمه، ودخل واسطاً في ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين بزنوجه وقوّاده، فقتل منها خلقاً كَثيراً، ونهبها وأحرق دورها وأسواقها، وأخرب كثيراً من منازل أهلها، وثبت للمحاماة عنها قائدٌ كان بها من جانب محمد بن المولّد، يقال له كنجور البخاريّ، فحامَى يومه ذلك إلى العصر، ثم قتِل. وكان الذي يقود الخيل يومئذ في عسكر سليمان بن جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالمذوّب، وكان أحمد بن مهديّ الجبائيّ في السميريّات، وكان مهربان الزنجي في الشَّذَوات، وكان سليمان بن موسى الشعرانيّ وأخوه في ميمنته وميسرته، وكان سليمان بن جامع، وهو الأمير على الجماعة في قواده السّودان ورجالته منهم، وكان الجميع يداً واحدة، فلما قضوْا وطَرَهم من نهب واسط وقتل أهلها، خرجوا بأجمعهم عنها، فمضوا إلى جُنْبُلاء، وأقاموا هناك يعيثون ويخربون.

وفي أوائل سنة خمس وستين، دخلوا إلى النُّعمانية، وجَرْجَرايا وجَبُّل، فنهبوا وأخربوا وقتلوا وأحرقوا، وهرب منهم أهل السّواد فدخلوا إلى بغداد.

قال أبو جعفر: فأمّا عليّ بن أبان المهلبيّ فإنه استولى على معظم أعمال الأهواز، وعاث هناك وأخرب وأحرق، وكانت بينه وبين عمّال السلطان وقواده مثل أحمد بن ليثويْه، ومحمد بن عبد الله الكرديّ، وتكين البخاري، ومطر بن جامع، وأغرتمش التركي وغيرهم، وبينه وبين عُمّال يعقوب بن الليث الصفار، مثل خضر بن العنبر وغيره حروبٌ عظيمة، ووقعات كثيرة، وكانت سِجَالاً، تارة له وتارة عليه، وهو في أكثرها المستظهر عليهم. وكثرت أموال الزنج والغنائم التي حَوَوْاها من البلاد والنواحي، وعَظُم أمرهم، وأهمّ الناسَ شأنُهم، وعظم على المعتمد وأخيه أبي أحمد خَطْبُهم، واقتسموا الدنيا، فكان عليّ بن محمد الناجم صاحب الزنج

وإمامهم مقيماً بنهر أبي الخصيب، قد بنى مدينة عظيمة سمّاها المختارة، وحصّنها بالخنادق، واجتمع إليه فيها من النّاس ما لا ينتهي العدّ والحصر إليه، رغبة ورهبة، وصارتْ مدينة تضاهي سامُرّاء وبغداد، وتزيد عليهما، وأمراؤه وقوّاده بالبصرة وأعمالها يجبُون الخراج على عادة السلطان لَمّا كانت البصرة في يده، وكان عليّ بن أبان المهلّبيّ - وهو أكبر أمرائه وقوّاده - قد استولى على الأهواز وأعمالها، ودوّخ بلادها كرامهرمز وتسْتَر وغيرهما، ودَان له الناس، وجبى الخراج، ومَلَك أموالاً لا تحصى.

وكان سليمان بن جامع وسليمان بن موسى الشعرانيّ، ومعهما أحمد بن مهديّ الجبائيّ في الأعمال الواسطية، قد ملكوها وبنوْا بها المدن الحصينة، وفازوا بأموالها وارتفاعها، وجَبَوْا خراجها، ورتّبوا عمِالهم وقوّادهم فيها، إلى أن دخلت سنة سبع وستين ومائتين، وقد عظم الخطب وجلّ، وخيف على مُلْك بني العباس أن يذهب وينقرض، فلم يجد أبو أحمد الموفّق - وهو طلحة بن المتوكّل على الله - بدًّا من التوجّه بنفسه ومباشرته هذا الأمر الجلل برأيه وتدبيره، وحضوره معارك الحرب، فندب أمامه ابنه أبا العباس، وركب أبو أحمد إلى بستان الهادي ببغداد، وعَرَض أصحاب أبي العباس، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة، فكانوا عشرة آلاف، فرساناً ورجّالة في أحسن زِيّ وأجمل هيئة، وأكمل عدّة، ومعهم الشّذَوات والسميريّات والمعابر برسم الرجّالة، كلُّ ذلك قد أحكمت صنعته. فركب أبو العباس من بستان الهادي، وركب أبو أحمد مشيّعاً له حتى نزل القرية المعروفة بالفِرْك، ثم عاد وأقام أبو العباس بالفِرْك أياماً، حتى تكامل عدده وتلاحق به أصحابه.

ثم رحل إلى المدائن، فأقام بها أياماً، ثم رحل إلى دير العاقول، فورَدَ عليه كتاب نُصَير المعروف بأبي حمزة، وهو من جلّة أصحابه، وكان صاحب الشّذَا والسميريّات، وقد كان قدّمه على مقدّمته بدجْلة يعلمه فيه أنّ سليمان بن جامع قد وافَى لمّا علم بشخوص أبي العباس، والجبائيّ يقدمه، في خيلهما ورجالهما وسفنهما حتى نزلا الجزيرة التي بحضرة بردودا، فوق واسط بأربعة فراسخ، وأن سليمان بن موسى الشعرانيّ قد وافى نهر أبان بعسكره، عسكر البرّ وعسكر الماء، فرحَل أبو العباس لَمّا قرأ هذا الكتاب حتى وافى جَرْجَرَايا، ثم منها إلى فم الصّلح، ثم ركب الظهر وسار حتى وافى الصّلح، ووجّه طلائعه ليتعرّف الخبر، فأتاه منهم مَنْ أخبره بموافاة القوم، وأن أوّلهم قريب من الصّلح، وآخرهم ببستان موسى بن بغا، أسفل واسط، فلما عرف ذلك عَدَل عن سنَنَ الطريق، ولقيَ أصحابه أوائل القوم، فتطاردوا لهم عن وصيّةٍ أوصاهم أبو العباس بها، حتى طمِع الزّنج فيهم، واغترّوا وأمعنوا في اتّباعهم، وجعلوا يصيحون بهم: اطلبوا أميراً للحرب، فإن أميرَكم مشغول بالصّيد!

فلما قربوا من أبي العباس بالصّلح، خرج إليهم فيمن معه من الخيل والرَّجل، وأمَرَ فصِيح

بأبي حمزة: يا نُصَير، إلى أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب! ارجع إليهم. فرجع نُصَير بشذَواته وسُميريّاته، وفيها الرجال، وركب أبو العباس في سُميريّة، ومعه محمد بن شعيب، وحفّ أصحابُه بالزنج مِن جميع جهاتهم، فانهزموا، ومنح الله أبا العباس وأصحابه أكتافَهم، يقتلونهم ويطردونهم، إلى أن وافوْا قرية عبد الله، وهي على ستة فراسخ، من الموضع الذي لقُوهم فيه، وأخذوا منهم خمس شذوات وعشر سميريّات، واستأمن منهم قوم، وأسِر منهم أسرى، وغرِق مِن سفنهم كثير، فكان هذا اليوم أوّلَ الفتح على أبي العباس.

قال أبو جعفر: فلما انقضى هذا اليوم، أشار على أبي العباس قوّاده وأولياؤه، أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه، إشفاقاً عليه من مقاربة القوم، فأبى إلا نزول واسط بنفسه، ولما انهزم سليمان بن جامع ومَن معه، وضرب الله وجوهَهم، انهزم سليمان بن موسى الشعرانيّ عن نهر أبان، حتى وافَى سوق الخميس، ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير، وقد كان القوم حين لَقُوا أبا العباس، أجالوا الرأي بينهم فقالوا: هذا فتًى حَدَث لم تطل ممارسته الحرب وتدرّبه بها، والرأي أن نرميَه بحدّنا كلِّه، ونجتهد في أوّل لَقْية نَلْقاه في إزالته، فلعلّ ذلك أن يروعَه، فيكون سبباً لانصرافه ففعلوا ذلك وحشدوا واجتهدوا، فأوقع الله تعالى بهم بأسه ونقمته، ولم يتمّ لهم ما قدّروه، وركب أبو العباس من غدِ يوم الوقعة، حتى دخل واسطاً في أحسن زيّ، وكان ذلك يوم جُمعة، فأقام حتى صلّى بها صلاة الجمعة، واستأمن إليه خلق كثير من أتباع الزّنج وأصحابهم، ثم انحدر إلى العُمْر، وهو على فرسخ واحد من واسط، فاتّخذه معسكراً، وقد كان أبو حمزة نُصَير وغيره أشاروا عليه أن يجعلَ معسكره فوق واسط، حذراً عليه من الزّنج فامتنع، وقال: لست نازلاً إلا العُمْر، وأمر أبا حمزة أن ينزل فُوّهة برِدُودا فوق واسط، وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شيء من آرائهم، واستبدّ برأي نفسه، فنزل العُمْر وأخذ في بناء الشَّذَوات والسُّميريّات، وجعل يراوح الزّنج القتال ويغاديهم، وقد رتّب خاصة غلمانه ومواليه في سميريّات، فجعل في كلّ سميريّة أميراً منهم.

ثم إنّ سليمان استعدّ وحشد وفرّق أصحابه، فجعلهم في ثلاثة أوجه: فرقة أتت من نهر أبان، وفرقة من برّ تمرتا، وفرقة من بردُودا، فلقيَهم أبو العباس، فلم يلبثوا أن انهزموا، فلحقت طائفة منهم بسوق الخميس، وطائفة بما زروان، وطائفة ببرّتمرتا، وسلك آخرون نهر الماذيان، واعتصم قوم منهم ببردودا، وتبعهم أصحابُ أبي العباس، وجعل أبو العباس قَصْده القوم الذين سلكوا نهر الماذيان، فلم يرجع عنهم حتى وافَى بهم برْمساور، ثم انصرف، فجعل يقف على القُرى والمسالك ويسأل عنها ويتعرّفها، ومعه الأدلاء وأرباب الخِبْرة، حتى عرف جميع تلك الأرض ومنافذها، وما ينتهي إليه من البطائح والآجام وغيرها، وعاد إلى مُعَسكره بالعُمْر، فأقام به أياماً مريحاً نفسه وأصحابه.

ثم أتاه مخبِر فأخبره أنّ الزّنج قد اجتمعوا واستعدُّوا لكبس[1] عسكره، وأنهم على إتيانه من ثلاثة أوجه، وأنهم قالوا: إن أبا العباس غلام يغرّر بنفسه، وأجمع رأيهم على تكمين الكُمنَاء، والمصيرِ إليه من الجهات الثلاث، فحذِر أبو العباس من ذلك واستعدّ له، وأقبلوا إليه وقد كمنوا زهاء عشرة آلاف في برتمرتا، ونحواً من العدّة في قسّ هثا وتقدّم منها عشرون سميريّة إلى عسكر أبي العباس، على أن يخرج إليهم فيهربوا بعد مناوشة يسيرة، فيُجيزوا أبا العباس وأصحابه إلى أن يجاوزوا الكُمناء، ثم يخرج الكمين عليهم من ورائهم.

فمنع أبو العباس أصحابَه من اتباعهم لما واقعوهم، وأظهروا الكَسْرة والعَوْد، فعلموا أنّ كيدهم لم ينفذ فيه، وخرج حينئذ سليمان والجبائيّ في الشُّذا والسميريّات العظيمة، وقد كان أبو العباس أحسن تعبِئة أصحابه، فأمر أبا حمزة نُصيراً أن يخرُج إليهم في الشذا والسميريّات المرتّبة، فخرج إليهم، ونزل أبو العباس في شَذَاة من شَذَوَاتٍ قد كان سمّاها الغزال، واختار لها جَذّافين، وأخذ معه محمد بن شعيب الاشتيان، واختار من خاصّة أصحابه وغلمانه جماعة، دفع إليهم الرماح، وأمر الخيّالة بالمسير بإزائه على شاطىء النهر، وقال لهم: لا تَدَعُوا المسيرَ ما أمكنكم، إلى أن تقطعكم الأنهار. ونَشَبت الحرب بين الفريقين، فكانت معركة القتال من حَدّ قرية الرمل إلى الرُّصافة، حتى أذن الله في هزيمة الزّنج، فانهزموا، وحاز أصحاب أبي العباس منهم أربع عشرة شذاة، وأفلت سليمان والجبائيّ في ذلك اليوم بعد أن أشفَيَا على الهلاك راجلَيْن، وأخذِت دوابّهما، ومضى جيشُ الزّنج بأجمعه، لا ينثني أحدٌ منهم حتى وافَوْا بطهيثا، وأسلَموا ما كان معهم من أثاث وآلة، ورجع أبو العباس، فأقام بمعسكره بالعُمْر، وأصلح ما كان أخذ منهم من الشُّذا والسفن، ورتّب الرجال فيها، وأقام الزّنج بعد ذلك عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد.

قال أبو جعفر: ثم إن الجبائيّ صار بعد ذلك يجيء في الطلائع كلّ ثلاثة أيام وينصرف، وحفر في طريق عسكر أبي العباس آباراً، وصيّر فيها سفافيد حديد، وغشّاها بالبواريّ، وأخفى مواضعها، وجعلها على سنن مسير الخيل ليتهوّر فيها المجتازون بها، كان تطلبه، فقطر فرس رجل من قُوّاد الفراغنة في بعض تلك الآبار، فوقف أصحابُ أبي العباس بما ناله من ذلك على ما كان دبّره الجبّائيّ، فحذِروا ذلك، وتنكّبوا سلوك تلك الطريق.

قال أبو جعفر: وألحّ الزّنج في مغاداة العسكر في كلّ يوم بالحرب، وعسكروا بنهر الأمير في جمع كثير، وكتب سليمان إلى النّاجم يسأله إمداده بسميريّات، لكلّ واحدة منهن أربعون

---

(١) الكبس: الاقتحام. القاموس المحيط، مادة (كبس).

مجدافاً، فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سميريّة، فيها الرجال والسيوف والتّراس والرماح، فكانت لأبي العبّاس معهم وقعات عظيمة، وفي أكثرها الظّفَر لأصحابه والخذلان على الزنج، ولجّ أبو العباس في دخول الأنهار والمضايق، حتى انتهى إلى مدينة سليمان بن موسى الشعرانيّ بنهر الخميس التي بناها وسمّاها المنيعة، وخاطر أبو العباس بنفسه مراراً، وسلم بعد أن شارف العطب، واستأمن إليه جماعةٌ من قوّاد الزّنج فأمّنهم، وخلع عليهم وضمّهم إلى عسكره، وقتل من قوّاد الزّنج جماعة، وتمادت الأيام بينه وبينهم، واتّصل بأبي أحمد الموفّق أنّ سليمان بن موسى الشعراني والجبائيّ ومَنْ بالأعمال الواسطيّة من قُوّاد صاحب الزّنج، كاتبوا صاحبَهم، وسألوه إمدادَهم بعليّ بن أبان المهلبيّ، وهو المقيم حينئذ بأعمال الأهواز، والمستولي عليها، وكان عليّ بن أبان قائد القواد وأمير الأمراء فيهم، فكتب النّاجم إلى عليّ بن أبان يأمره بالمصير بجميع مَنْ معه إلى ناحية سليمان بن جامع، ليجتمعا على حرب أبي العباس.

فصحّ عزمُ أبي أحمد على الشخوص إلى واسط وحضور الحرب بنفسه، فخرج عن بغداد في صَفَر من هذه السنة، وعسكر بالفِرْك وأقام بها أياماً، حتى تلاحق به عسكرُهُ، ومن أراد المسيرَ معه، وقد أعدّ آلة الماء ورحل من الفرْك إلى المدائن، ثم إلى دير العاقُول، ثم إلى جَرْجَرايا، ثم قُنّى، ثم جَبُل، ثم نزل الصُّلْح، ثم نزل على فرسخ من واسط.

وتلقاه ابنه أبو العباس في جَريدة خيل فيها وجوه قوّاده، فسأله أبوه عن خبرهم، فوصف له بلاءهم ونصحَهم، فخلع أبو أحمد عَلَى أبي العباس، ثم عَلَى القوّاد الذين كانوا معه. وانصرفَ أبو العباس إلى معسكره بالعُمْر فبات به، فلما كان صبيحة الغد، رحل أبو أحمد منحدراً في الماء، وتلقّاه ابنه أبو العباس في آلات الماء بجميع العسكر في هيئة الحرب، على الوضع الذي كانوا يحاربون الزّنج عليه، فاستحسن أبو أحمد هيئتهم، وسُرّ بذلك، وسار أبو أحمد حتى نزل بإزاء القرية المعروفة بقرية عبد الله، ووضع العطاء، فأعطى الجيش كلّه أرزاقهم، وقدم ابنه أبا العباس أمامه في السُّفن، وسار وراءه. فتلقّاه أبو العباس برؤوس وأسرى من أصحاب الشّعرانيّ، وكان لقيهم، فأمر أبو أحمد بالأسرى فضرِبت أعناقهم، ورحل يريد المدينة التي بناها الشعرانيّ بسوق الخميس، وسمّاها المنيعة.

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب الشّعرانيّ قبل حرب سليمان بن جامع، لأنّ الشعرانيّ كان وراءه، فخاف إن بدأ بابن جامع، أن يأتيَه الشعرانيّ من ورائه، فيشغله عَمَّنْ هو أمامه، فلما قرُب من المدينة، خرج إليه الزّنج، فحاربوه حرباً ضعيفة، وانهزموا، فعلاَ أصحاب أبي العباس السُّور، ووضعوا السيف فيمنْ لقيهم، وتفرّق الزنج، ودخل أبو العباس المدينة، فقتلوا وأسروا، وحَوَوْا ما كان فيها، وأفلت الشعرانيّ هارباً ومعه خواصّه، فاتّبعهم أصحاب أبي

العباس، حتى وافَوْا بهم البطائح، فغرِق منهم خَلْق كثير، ولجأ الباقون إلى الآجام، وانصرف الناس، وقد استنقذ من المسلمات اللّواتي كنّ بأيدي الزّنج في هذه المدينة خاصة خمسة آلاف امرأة، سوى مَن ظُفِر به من الزنجيات.

فأمر أبو أحمد بحمْل النساء اللّواتي سباهنّ الزّنج إلى واسط، وأنْ يدفعنَ إلى أوليائهن، وبات أبو أحمد بحيال المدينة، ثم باكرها، وأذن للناس في نَهْب ما فيها من أمتعة الزنج، فدخلت ونهب كلّ ما كان بها، وأمر بهدْم سورها، وطمّ خندقِها وإحراق ما كان بقي منها، وظفر في تلك القرى التي كانت في يد الشعرانيّ بما لا يحصى من الأرز والحنطة والشعير، وقد كان الشعرانيّ استولى على ذلك كلّه، وقتل أصحابه، فأمر أبو أحمد ببيعه وصرف ثمنه في أعطيات مواليه وغلمانه وجنده.

وأما الشعرانيّ فإنه التحق هو وأخوه بالمذار، وكتب إلى النّاجم يعرّفه ذلك وأنه معتصِمٌ بالمذار.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: حدّثني محمد بن هشام الكرنبائيّ المعروف بأبي واثلة، قال: كنت بين يدي النّاجم ذلك اليوم وهو يتحدّث، إذْ وَرَد عليه كتابُ سليمان بخبر الواقعة وما نزل به، وانهزامِه إلى المذار، فما كان إلاّ أنْ فضّ الكتاب، ووقعت عينه على ذكر الهزيمة، حتى انحلّ وكاء بطنه، فنهض لحاجته ثم عاد. فلما استوى به مجلسه، أخذ الكتاب وتأمّله، فوقعت عينُه على الموضع الذي أنهضه أولاً، فنهض لحاجته حتى فعل ذلك مراراً، فلم أشكّ في عِظَم المصيبة، وكرهت أنْ أسأله، فلما طال الأمرُ تجاسرتُ، فقلت: أليس هذا كتاب سليمان بن موسى؟ قال: بَلَى، ورد بقاصمة الظهر، ذكر أنّ الّذين أناخُوا عليه أوقعوا به وقعةً لم تُبْق منه ولم تَذَرْ، فكتب كتابه هذا وهو بالمذار، ولم يسلم بشيء غير نفسه. قال: فأكبرتُ ذلك - والله يعلم ما أخفي من السرور الذي وصل إلى قلبي - قال: وصبرَ عليّ بن محمد على مكروه ما وصل إليه، وجعل يظهر الجلَد، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشعرانيّ، ويأمره بالتيقّظ في أمره وحفظ ما قِبله.

قال أبو جعفر: ثم لم يكن لأبي أحمد بعد ذلك همٌّ إلا في طلب سليمان بن جامع، فأتته طلائعه، فأخبرته أنّه بالحوانيت، فقدّم أمامه ابنَه أبا العباس في عشرة آلاف، فانتهى إلى الحوانيت، فلم يجد سليمان بن جامع بها، والفَى هناك من قوّاد السودان المشتهرين بالبأس والنجدة القائدين، المعروف أحدهما بشبْل، والآخر بأبي الندى، وهما من قدماء أصحاب النّاجم الذين كان قوّدهم في بدء مخرَجه، وكان سليمان قد خلّف هذين القائدين بالحوانيت،

لحفظ غلاّتٍ كثيرة كانوا قد أخذوها، فحاربهما أبو العباس، فقتَل من رجالهما وجرح بالسهام خلقاً كثيراً - وكانوا أجْلَدَ رجالِ سليمان بن جامع ونخبتَهم الذين يعتمد عليهم - ودامت الحرب بين أبي العباس وبينهم ذلك اليوم إلى أن حَجَز الليل بين الفريقين. ورمى أبو العباس في ذلك اليوم كُرْكيًّا طائراً، فوقع بين الزّنج والسهمُ فيه، فقالوا: هذا سهم أبي العباس، وأصابهم منه ذُعر، واستأمن في هذا اليوم بعضُهم إلى أبي العباس فسأله عن الموضع الذي فيه سليمان بن جامع، فأخبره أنه مقيم بمدينته التي بناها بطهيثا، فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان، وأن معه هنالك جميعَ أصحابه إلا شبلاً وأبا الندى، فإنهما بالحوانيت لحفظ الغلاّت التي حَوَوْها. فأمر حينئذٍ أبو أحمد أصحابه بالتوجّه إلى طهيثا، ووضع العطاء، فأعطى عسكره، وشخص مصاعداً إلى بردودا، ليخرج منها إلى طهيثا، إذ كان لا سبيلَ له إليها إلاّ بذلك، فظنّ عسكره أنّه هارب، وكادوا ينفضّون لولا أنّهم عرفوا حقيقة الحال، فانتهى إلى القرية بالحوذية، وعقد جسراً على النهر المعروف بمَهْروذ، وعبَر عليه الخيل، وسار إلى أن صار بينه وبين مدينة سليمان التي سمّاها المنصورة بطهيثا ميلان، فأقام هناك بعسكره، ومطرت السماء مطراً جَوْداً، واشتدّ البرد أيام مُقامه هنالك، فشغل بالمطر والبرد عن الحرب فلم يحارب، فلما فَتَر ركب في نفر من قُوّاده ومواليه لارتياد موضع لمجال الخيل، فانتهى إلى قريب من سُور تلك المدينة، فتلقّاه منهم خلْق كثير وخرج عليه كُمناءُ من مواضع شَتّى، ونشبت الحرب واشتدّت، فترجّل جماعةٌ من الفرسان، ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التي كانوا أوغلوها، وأسِر من غلمان أبي أحمد غلامٌ يقال له وصيف العَلمدار وعدّة من قواد زيرك، وقتِل في هذا اليوم أحمد بن مهدي الجبائيّ أحد القوّاد العظماء من الزّنج، رماه أبو العباس بسهْم فأصاب أحدَ منخريه حتى خالط دِماغه، فخّر صريعاً، وحمِل من المعركة وهو حيّ، فسأل أن يحمل إلى الناجم، فحمِل من هناك إلى نهر أبي الخصيب إلى مدينة النّاجم التي سماها المختارة، فوضع بين يديه، وهو على ما به، فعظُمت المصيبة عليهَ به إذ كانَ من أعظم أصحابه غناء، وأشدّهم تصبّراً لإطاعته، فمكث الجبائيّ يعالَج هنالك أياماً ثم هلك، فاشتدّ جزع الناجم عليه، وصار إليه، فوليَ غسله وتكفينَه والصلاة عليه، والوقوف على قبره إلى أن دفن، ثم أقبل على أصحابه فوعظهم، وذكر موت الجبائيّ. وكانت وفاته في ليلة ذات رُعود وبروق.

فقال فيما ذكر عنه: لقد سمعتُ وقتَ قبض روحه زَجَل[1] الملائكة بالدّعاء له، والترحّم عليه. وانصرف من دفنه منكسراً، عليه الكآبة.

(١) الزجل: الصوت. القاموس، مادة (زجل).

قال أبو جعفر: فلما انصرف أبو أحمد ذلك اليوم من الوقعة، غاداهم بكْرة الغد، وعبّأ أصحابه كتائب فرساناً ورجّالة، وأمر بالشّذا والسميريّات أن يسارَ بها معه في النهر الذي يشقّ مدينة طهيثا، وهو النهر المعروف بنهر المنذر، وسار نحو الزّنج، حتى انتهى إلى سور المدينة قريب قوّاد غلمانه في المواضع التي يخاف خروج الزّنج عليه منها، وقدم الرجّالة أمام الفرسان، ونزل فصلّى أربع ركعات، وابتهل إلى الله تعالى في النَّصْر والدعاء للمسلمين، ثم دعا بسلاحه فلبسه، وأمَر ابنَه أبا العباس أنْ يتقدّم إلى السُّور ويحضّ الغلمان على الحرْب ففعل، وقد كان سليمان بن جامع أعدّ أمامَ سور المدينة التي سماها المنصورة خَندقاً، فلما انتهى الغلمان إليه تهيّبوا عُبورَه، وأحجموا عنه، فحرّضهم قوادهم، وترجّلوا معهم فاقتحموه متجاسرين عليه، فعبروه وانتهوْا إلى الزنج وهم مشرفون من سُور مدينتهم، فوضعوا السلاح فيهم، وعبَرت شِرْذمة من الفرسان الخندق خوضاً، فلما رأى الزنج خبَر هؤلاء الذين لقوهم وجراءتَهم عليهم، ولّوْا منهزمين، واتبعهم أصحابُ أبي أحمد، ودخلوا المدينة من جوانبها، وكان الزّنج قد حصّنوها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كلّ خندق منها سوراً يمتنعون به، فجعلوا يقفون عند كلّ سور وخندقٍ انتهَوْا إليه، وأصحاب أبي أحمد يكشفونهم في كلّ موقف وقفوه، ودخلت الشذَا والسميرّيات مدينتهم مشحونة بالغلمان المقاتلة من النهر الذي يشقّها بعد انهزامهم، فأغرقَت كلّ ما مرّت به لهم من شذاة أو سميريّة، واتّبعوا مَنْ تجافَى النهر منهم، يقتلون ويأسِرون، حتى أجلوْهم عن المدينة وعمّا يتصل بها، وكان ذلك زُهاء فرسخ، فحوى أبو أحمد ذلك كلَّه، وأفلت سليمان بن جامع في نفرٍ من أصحابه، واستحرّ القتلُ فيهم والأسر، واستنقذ من نساء أهل واسط وصِبْيانهم وما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زُهاء عشرة آلاف، فأمر أبو أحمد بحياطتهم والإنفاق عليهم، وحملوا إلى واسط فدفعوا إلى أهليهم، واحتوى أبو أحمد على كلّ ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي، فكان شيئاً جليلَ القدر، فأمر ببيع الغلاّت وغيرها من العُروض، وصَرَفه في أعطيات عسكره ومواليه وأسر من نساء سليمان وأولاده عِدّة، واستنقِذ يومئذ وصيف العَلمدار ومَنْ كان أسره الزّنج معه.

فأخرِجوا من الحبس وقد كان الزّنج أعجلَهم الأمر عن قتله وقتلهم، وأقام أبو أحمد بطهيثا سبعةَ عشر يوماً، وأمر بهدْم سورِ المدينة، وطمّ خنادقها، ففعِل ذلك، وأمر بتتبُّع مَنْ لجأ منهم إلى الآجام[1]، وجعل لكلّ مَن أتاه برجل منهم جُعْلاً، فسارع الناس إلى طلبهم، فكان إذا أتِيَ بالواحد منهم خَلَع عليه وأحسن إليه، وضمّه إلى قُوّاد غلمانه لما دبّر من استمالتهم، وصرَفهم عن طاعة صاحبهم، وندب نُصَيراً صاحبَ الماء في شَذَا وسميريّات لطلب سليمان بن جامع

(١) الآجام: الحصون. اللسان، مادة (أجم).

والهاربين معه من الزّنج وغيرهم، وأمره بالجدّ في اتباعهم، حتى يجاوز البطائح، وحتى يلج دَجْلة المعروفة بالعوراء، وتقدم إليه في فتح السُّكور[1] التي كان سليمان أحدثها ليقطع بها الشذا عن دَجْلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبي الخصيب، وتقدّم إلى زيرك في المقام بطهيثا في جمع كثير من العسكر، ليتراجع إليها الذين كان سليمان أجْلاَهم عنها من أهلها، فلما أحكم ما أراد إحكامه، تراجع بعسكره مزمعاً على التوجّه إلى الأهواز ليصلحها، وقد كان قدّم أمامه ابنه أبا العباس، وقد تقدّم ذكر عليّ بن أبان المهلبيّ، وكونه استولَى على معظم كُور الأهواز، ودوّخ جيوشَ السلطان هناك، وأوقعَ بهم، وغلَب على معظم تلك النواحي والأعمال.

فلما تراجع أبو أحمد وافَى بردودا، فأقام بها أياماً، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه للمسير على الظّهر إلى الأهواز، وقدّم أمامه مَنْ يصلِح الطرق والمنازل، ويعدّ فيها المِيرَة للجيوش التي معه، ووافاه قبل أن يرحل عن واسط زيرك منصرفاً عن طهيثا، بعد أن تراجع إلى النواحي التي كان بها الزّنج أهلُها، وخلّفهم آمنين، فأمره أبو أحمد بالاستعداد والانحدار في الشّذا والسميريّات في نخبة عسكره وأنجادهم، فيصير بهم إلى دَجْلة العوراء، فتجتمع يده ويد نصير صاحب الماء على نقض دجلة، واتباع المنهزمين من الزّنج والإيقاع بكلّ من لقوا من أصحاب سليمان إلى أن ينتهِيَ بهم المسير إلى مدينة الناجم بنهر أبي الخصيب، فإن رأوْا موضعَ حرب حاربوه في مدينة، وكتبوا بما يكون منهم إلى أبي أحمد، ليرد عليهم من أمره ما يعملون بحسبه.

واستخلف أبو أحمد عَلَى مَنْ خَلَفه من عسكره بواسط ابنَه هارونَ، وأزمع على الشخوص في خِفٍّ من رجاله وأصحابه، ففعل ذلك بعد أن تقدّم إلى ابنِهِ هارون في أن يحدِر الجيشَ الذي خلّفه معه في السفن إلى مستقرّه بِدجْلة، إذا وافاه كتابُه بذلك، وارتحل شاخصاً من واسط الأهواز وكُورها، فنزل باذِبين، إلى الطِّيب، إلى قُرْقُوب إلى وادي السوس، وقد كان عقِد له عليه جسْرٌ، فأقام به من أول النهار إلى وقت الظهر، حتى عَبَر عسكره أجمع. ثم سار حتى وافى السُّوس فنزلها، وقد كان أمر مسروراً البلخيّ وهو عامله على الأهَواز بالقدُوم، عليه فوافاهم في جيشه وقوّاده من غدِ اليوم الذي نزل فيه السُّوس، فخلع عليه وعليهم، وأقام بالسُّوس ثلاثاً، وكان ممنْ أسِر من الزنج بطهيثا أحمد بن موسى بن سعيد البصريّ المعروف بالقَلوص، وكان قائداً جليلاً عندهم، وأحد عُدَد النّاجم، من قدماء أصحابه، أسِر بعد أن أثخن جراحات كانت فيها منيّته، فأمر أبو أحمد باحتزاز رأسه ونصبه على جسر واسط.

قال أبو جعفر: واتّصل بالناجم خبرُ هذه الوقعة بطهيثا، وعلم ما نيلَ من أصحابه، فانتقض عليه تدبيرهُ وضلّتْ حيلته، فحمله الهلع إلى أن كتب إلى عليّ بن أبان المهلبيّ، - وهو يومئذ مقيم بالأهواز في زُهاء ثلاثين ألفاً - يأمره بترك كل ما كان قِبَله من المِيرَة والأثاث، والإقبال

إليه بجميع جيوشه، فوصل الكتاب إلى المهلّبيّ، وقد أتاه الخبر بإقدام أبي أحمد إلى الأهواز وكُوَرها، فهو لذلك طائر العقل. فقرأ الكتاب، وهو يحفزُه فيه حفزاً بالمصير إليه، فترك جميع ما كان قبله، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائيّ. فلما شخص المهلَّبي عنه لم يثبُت ولم يقِمْ، لما عنده من الوجل وترادُف الأخبار بوصول أبي أحمد إليه، فأخلَى ما استخلِف عليه، وتبعَ المهلبي - وبالأهواز وكتب الناجم أيضاً إلى بهبوذ بن عبد الوهاب القائد - وإليه يومئذ الأعمال التي بين الأهواز وفارس - يأمره بالقدوم عليه بعسكره، فترك بهبوذ ما كان قِبَله من الطعام والتمر والمواشي، فكان ذلك شيئاً عظيماً، فحوى جمعَ ذلك أبو أحمد، فكان قوةً له على الناجم، وضعفاً للناجم.

ولما رحل المهلبيّ عن الأهواز بثّ أصحابه في القُرى التي بينه وبين مدينة الناجم، فانتهبوها وأجلوْا عنها أهلها، وكانوا في سِلْمهم، وتخلّف خلقٌ كثير ممن كان مع المهلبيّ من الفرسان والرجالة عن اللّحاق به، وأقاموا بنواحي الأهواز، وكتبوا يسألون أبا أحمد الأمان لما انتهى عنه إليهم من عفوه عمّن ظفر به من أصحاب الناجم، وكان الذي دعا النّاجم إلى أمر المهلبيّ وبهبوذ بسرعة المصير إليه، خوفه موافاة أبي أحمد بجيوشه إليه، على الحالة الّتي كان الزّنج عليها من الوجَل وشدّة الرعب، مع انقطاع المهلبيّ وبهبوذ فيمن كان معهما عنه. ولم يكن الأمر كما قدّر، فإنّ أبا أحمد إنما كان قاصداً إلى الأهواز، فلو أقام المهلبيّ بالأهواز وبهبوذ بمكانه في جيوشهما، لكان أقربَ إلى دفاع جيش أبي أحمد عن الأهواز، وأحفظ للأموال والغَلاّت التي تُرِكت بعد أن كانت اليد قابضةً عليها.

قال أبو جعفر: وأقام أبو أحمد حتى أحرز الأموال التي كان المهلبيّ وبهبوذ وخلفاؤهما تركوها، وفتحت السكور التي كان النّاجم أحدثها في دجلة، وأصلِحت له طرقه ومسالكه ورحل أبو أحمد عن السّوس إلى جُنْدَيْسابور فأقام بها ثلاثاً، وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر، فوجّه في طلبها وحملها، ورحَلَ عن جُنْدَيْسابور إلى تستَر، فأقام بها لجبابة الأموال من كُور الأهواز، وأنفذ إلى كلّ كُورة قائداً ليروّج بذلك حملَ المال، ووجه أحمد بن أبي الأصبغ إلى محمد بن عبد الله الكرديّ، صاحب رَامَهُرْمُز وما يليها من القِلاع والأعمال، وقد كان مالأ المهلبيّ، وحمل إلى الناجم أموالاً كثيرة، وأمره بإيناسه وإعلامه ما عليه رأيه في العفو عنه، والتغمّد لزلته، وأن يتقدّم إليه في حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز بجميع مَنْ معه من الموالي والغلمان والجند، ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق، وينهضهم معه لحرب النّاجم.

ففعل وأحضرهم، وعُرِضوا رجلاً رجلاً، وأعطوا ثم رحل إلى عسكر مُكرَم، فجعله منزلَه

أياماً، ثم رحل منه فوافَى الأهوازَ وهو يرى أنّه قد تقدّمه إليها من المِيرَة ما يحمل عساكره، فلم يكن كذلك، وغلُظ الأمر في ذلك اليوم، واضطرب الناس اضطراباً شديداً، فأقام ثلاثة أيام ينتظر ورودَ المِيرَة فلم ترد، فساءت أحوالُ الناس، وكاد ذلك يفرّق جماعتهم، فبحث عن السبب المؤخر لورودها، فوُجد الزّنج قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية، كانت بين سوق الأهواز ورَامَهُرْمز، يقال لها قنطرة أربق، فامتنع التجّار ومَنْ كان يحمل المِيرة من الورود، لقطع تلك القنطرة.

فركب أبو أحمد إليها، وهي على فرسخين من سوق الأهواز، فجمع مَنْ كان في العسكر من السودان، وأخذهم بنقل الصخر والحجارة لإصلاح هذه القنطرة، وبذل لهم من أموال الرعيّة، فلم يرِمْ حتى أصلحت في يومه ذلك، وردّت إلى ما كانت عليه، فسلكها الناس، ووافت القوافِل بالمِيرة، فحيِيَ أهلُ العسكر، وحسُنت أحوالُهم، وأمر بجمع السفن لعقد الجسر على دُجيل الأهواز، فجمعت من جميع الكُور، وأقام بالأهواز أياماً حتى أصلح أصحابه أمورَهم، وما احتاجوا إليه من آلاتهم، وحسُنت أحوال دوابّهم، وذهَب عنها ما كان بها من الضّرّ بتأخر الأعلاف، ووافَتْ كتبُ القوم الّذين تخلّفوا عن المهلّبيّ، وأقاموا بعدَه بسوق الأهواز يسألون أبا أحمد الأمان، فآمّنهم، فأتاه منهم نحو ألف رجل، فأحسن إليهم، وضمّهم إلى قوّاد غلمانه، وأجرى لهم الأرزاق، وعقد الجسر على دُجَيل الأهواز، ورحل بعد أن قدّم جيوشه أمامه، وعَبَر دُجَيْلاً، فأقام بالموضع المعروف بقصر المأمون ثلاثاً، وقد كان قدّم ابنه أبا العباس إلى نهر المبارك، من فرات البصرة، وكتب إلى ابنه هارون بالانحدار إليه ليجتمع العساكر هناكَ، ورحل أبو أحمد عن قصر المأمون إلى قُورَج العباس، ووافاه أحمد بن أبي الأصبغ هنالك بهدايا محمد بن عبد الله الكرديّ صاحب رامهرمز من دوابّ ومال. ثم رحل عن القُورَج فنزل الجعفرية، ولم يكن بها ماء، وقد كان أنفذ إليها وهو بعد في القُورَج من حفر آبارها، فأقام بها يوماً وليلة، وألفَى بها ميرا مجموعة، فاتّسع الجند بها، وتزوّدوا منها، ثم رحل إلى المنزل المعروف بالبشير، فألفى فيه غديراً من ماء المطر، فأقام به يوماً وليلة، ورحل إلى المبارك وكان منزلاً بعيد المسافة، فتلقّاه ابناه أبو العباس وهارون في طريقه، وسلّما عليه، وسارا بسيْره، حتى وَرَد بهم المبارك، وذلك يوم السّبت للنّصف من رجب سنة سبع وستين.

قال أبو جعفر، فأما نُصير وزيرَك، فقد كانا اجتمعا بدَجْلة العوراء، وانحدرا حتى وافيا الأبُلّة بسفنهما وشذاهما، فاستأمن إليهما رجلٌ من أصحاب الناجم، فأعلمهما أنّه قد أنفذ عدداً كثيراً من السميريّات والزواريق مشحونة بالزّنج، يرأسهم قائدٌ من قُوّاده، يقال له محمد بن إبراهيم، ويكنَى أبا عيسى.

قال أبو جعفر: ومحمد بن إبراهيم هذا، رجل من أهلِ البَصْرة، جاء به إلى الناجم صاحب شُرطته المعروف بيَسار، واستصلحه لكتابته فكان يكتب له حتى مات، وقد كانت ارتفعت حالُ أحمد بن مهديّ الجُبّائيّ عند الناجم، وولاّه أكثرَ أعمالِه، فضمّ محمد بن إبراهيم هذا إليه، فكان كاتبه، فلما قتل الجبّائيّ في وقعة سليمان الشعرانيّ، طمع محمد بن إبراهيم هذا في مرتبته، وأنْ يحلّه الناجم محلّه، فنبذ القلم والدواة، ولبِس آلة الحرب، وتجرّد للقتال، فأنهضه النّاجم في هذا الجيش، وأمره بالاعتراض في دِجْلة لمدافعة مَنْ يردُها من الجيوش، فكان يدخله أحياناً، وأحياناً يأتي بالجمع الذي معه إلى النّهر المعروف بنهر يزيد، وكان معه في ذلك الجيش من قُوّاد الزّنج شبل بن سالم وعمرو المعروف بغلا بُوذي وأخلاط من السودان وغيرهم، فاستأمن رجلٌ منهم كان في ذلك الجيش إلى زيرك ونصير، وأخبرهما خبره، وأعلمهما أنه على القصد لسواد عسكر نُصير. وكان نصَير يومئذ معسكراً بنهر المرأة، وإنّهم على أن يسلكوا الأنهار المعترضة على نهر معقِل، وبَثْق شِيرين حتى يوافُوا الشرطة، ويخرجوا من وراء العسكر، فيكبّوا على مَنْ فيه، فرجع نُصَير عند وصول هذا الخبر إليه من الأبُلّة، مبارزاً إلى عسكره وسار زيرك قاصداً بثق شيرين، معارضاً لمحمد بن إبراهيم، فلقيَه في الطريق، فوهب الله له العلوّ عليه بعد صبر من الزّنج له، ومجاهدة شديدة، فانهزموا ولجؤوا إلى النهر الذي فيه كمينُهم، وهو نهر يزيد، فدلّ زيرك عليهم، فتوغّلت إليهم سمَيريّاته، فقتل منهم طائفة وأسر طائفة، فكان محمد بن إبراهيم فيمن أسِرغ وعمرو وغلام بوذي، وأخِذ ما كان معهم من السميريّات، وهي نحو ثلاثين سميريّة، وأفلت شبل بن سالم في الذين نجوْا معه، فلحق بعسكر الناجم، وخرج زيرك في بَثْق شِيرين سالماً ظافراً، ومعه الأسارى ورؤوس القتلى، مع ما حوى من السميريّات والسفن، وانصرف من دِجْلة العوراء إلى واسط، وكتب إلى أبي أحمد بالفَتْحِ وعظم الجزَع على كلّ من كان بدجْلة وكُورها من أتباع الناجم، فاستأمن إلى نصير صاحب الماء، وهو مقيم حينئذ بنهر المرأة زُهاء ألفي رجل من الزّنج وأتباعهم.

فكتب إلى أبي أحمد بخبرهم، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان، وإجراء الأرزاق عليهم، وخلَطهم بأصحابه، ومناهضة العدوّ بهم، ثم كتب إلى نُصير يأمره بالإقبال إليه إلى نهر المبارك، فوافاه هنالك.

وقد كان أبو العباس عند منصَرَفه إلى نهر المبارك، انحدر إلى عسكر الناجم في الشَّذَا، فأوقع بهم في مدينته بنهر أبي الخصيب، فكانت الحرب بينهما من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر.

واستأمن إليه قائد جليل من قوّاد الناجم من المضمومين، كانوا إلى سليمان بن جامع، يقال له منتاب، ومعه جماعة من أصحابه، فكان ذلك مما كسر من الناجم وانصرف أبو العباس بالظَّفَر، وخلَع على منتاب الزنجيّ، ووصله وحمله، فلما لقي أباه أخبَره خبَره، وذكر إليه

خروجَه إليه في الأمان، فأمر أبو أحمد له بِخلَع وصلَةٍ وحُملان، وكان منتاب أوّل من استأمن من جملة قواد النّاجم.

قال أبو جعفر: ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك كان أوّل ما عمل به في أمر الناجم أن كتبَ إليه كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، مما ارتكب من سَفْك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفُروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوّة والإمامية، ويعلمه أنّ التوبة له مبسوطة، والأمان له موجود، فإنْ نَزَع عَمّا هو عليه من الأمور التي يسخطها الله تعالى، ودخل في جماعة المسلمين، محا ذلك ما سلَف من عظيم جرائمه، وكان له به الحظّ الجزيل في دنياه وآخرته، وأنفذ ذلك إليه مع رسول، فالتمس الرسول إيصاله إليه، فامتنع الزّنج من قَبُول الكتاب، ومن إيصاله إلى صاحبهم، فألقى الرسول الكتاب إليهم إلقاء، فأخذوه وأتوْا به صاحبَهم، فقرأه ولم يجب عنه بشيء، ورجع الرّسول إلى أبي أحمد، فأخبره، فأقام خمسة أيام متشاغلاً بعرض السفن، وترتيب القوّاد والموالي والغلمان فيها، وتخيّر الرماة، وانتخابهم للمسير بها.

ثم سار في اليوم السادس في أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة النّاجم التي سَمّاها المختارة، من نهر أبي الخصيب فأشرف عليها، وتأمّلها فرأى منَعتها وحَصَانتها بالسُّور والخنادق المحيطة بها، وغَوّر الطرِيق المؤدّى إليها، وما قد أعدّ من المجانيق والعرّادات والقسيّ الناوكيّة، وسائر الآلات على سُورها، فرأى ما لم ير مثله ممن تقدّم من منازِعي السلطان. ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلَظ أمره

ولما عاين الزّنج أبا أحمد وأصحابَه، ارتفعت أصواتهم بما ارتجّت له الأرض، فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنَه أبا العباس بالتقدّم إلى سور المدينة، ورَشْق مَنْ عليه بالسهام، ففعل ودنا، حتى ألصق شذواته بمسنّاة قصر النّاجم، وانحاز الزنج بأسرهم إلى الموضع الذي دنتْ منه الشذا. وتحاشدوا، وتتابعت سهامُهم وحجارة منجنيقاتهم وعرَّاداتهم[١] ومقاليعهم، ورمى عوامُّهم بالحجارة عن أيديهم، حتى ما يقع طرف ناظر على موضع إلا رأى فيه سهماً أو حجراً.

وثبت أبو العباس، فرأى الناجم وأشياعُه من جَهْدهم واجتهادهم وصَبْرهم ما لا عهدَ لهم بمثله من أحدٍ ممّن حاربهم، وحينئذٍ أمر أبو أحمد ابنَه أبا العباس بالرّجوع بمن معه إلى مواقفهم ليروّحوا عن أنفسهم، ويداووا جروحهم، ففعلوا ذلك، واستأمن في هذه الحال إلى أبي أحمد مقاتلان من مقاتلة السميريّات من الزّنج، فأتياه بسُميريّاتهما وما فيهما من الملاّحين

---

(١) العَرَّادات: شيء أصغر من المنجنيق. القاموس المحيط، مادة (عرد).

والآلات، فأمر لهما بخلَع ديباج ومناطق محلاّة بالذهب، ووصلَهما بمال، وأمر للملاحين بخلَع من الحرير الأحمر والأخضر الذي حسُن موقعه منهم، وعمّهم جميعاً بصِلاته، وأمر بإدنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراؤهم، فكان ذلك من أنجع المكايد التي كِيد بها صاحب الزنج.

فلما رأى الباقون ما صار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم رغبوا في الأمان، وتنافسوا فيه، فابتدر منهم جمع كثير مسرعين نحوه، راغبين فيما شرَع لهم منه. فأمر أبو أحمد لهم بمثل ما أمر به لأصحابهم، فلمّا رأى الناجم ركونَ أصحاب السميريّات إلى الأمان، ورغبتهم فيه، أمر بردّ من كان منهم في دِجْلة إلى نهر أبي الخصيب، ووكّل بفوّهة النهر مَنْ يمنعهم الخروج، وأمر بإظهار شذاوته الخاصّة، وندب لهم بهبوذ بن عبد الوهاب - وهو من أشدّ كُماته بأساً، وأكثرهم عَدداً وعُدّة - فانتدب بهبوذ لذلك، وخرج في جمع كثيف من الزَّنْج فكانت بينه وبين أبي حمزة نُصَيْر صاحب الماء وبين أبي العباس بن أبي أحمد وقعات شديدة، في كلّها يظهر عليه أصحاب السلطان، ثم يعدو فيرتاش ويحتشد، فيخرج فيواقعهم، حتى صَدَقُوه الحرب، وهزموه وألجؤوه إلى فناء قصر الناجم، وأصابتْه طعنتان، وجرح بالسهام، وأوهنتْ أعضاءه الحجارة، وأولجوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت، وقتِل قائد جليل معه من قُوّاد الزنج ذو بأس ونجدة، وتقدُّمٍ في الحرب، يقال له عميرة.

واستأمن إلى أبي أحمد جماعة أخرى، فوصلهم وحَبَاهم وخَلَع عليهم، وركب أبو أحمد في جميع جيشِه وهو يومئذ في خمسين ألف رجل، والناجم في ثلاثمائة ألف رجل، كلهم يقاتل ويدافع، فمن ضاربٍ بسيف، وطاعن برمح، ورامٍ بقوس، وقاذفٍ بمقلاع، ورامٍ بعرّادة ومِنْجَنيق، وأضعفهم أمرُ الرماة بالحجارة عَنْ أيديهم، وهم النظّارة المكثرون للسواد، والمعيّنون بالنّعير والصياح، والنساء يَشْرَكنهُم في ذلك أيضاً، فأقام أبو أحمد بإزاء عسكر الناجم إلى أن أضحى، وأمر فنودي: الأمانُ مبسوطٌ للناس: أسودِهم وأحمرِهم، إلا لعدوّ الله الدّعيّ عليّ بن محمد. وأمر بسهام فَعُلِّقَتْ فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان، مثل الذي نُودي به، ووعد الناس فيها الإحسان ورمي بها إلى عسكر الناجم، فمالت إليه قلوب خَلق كثير من أولئك، ممّن لم يكن له بصيرة في اتباع الناجم.

فأتاه في ذلك اليوم جمع كثير تحملهم الشّذَا والسُّميريّات، فوصلهم وحَبَاهم، وقدم عليه قائدان من قوّاده، وكلاهما من مواليه ببغداد، أحدهما يكتمر والآخر بغرا في جمع من أصحابهما، فكان ورودهما زيادةً في قوّته. ثم رحل في غدِ هذا اليوم بجميع جيشه، فنزل متاخماً لمدينة النّاجم في موضع كان تخيّره للنزول، فأوطن هذا الموضع، وجعله معسكراً له وأقام به، ورتّب قوّاده ورؤساء أصحابه مراتبهم، فجعل نُصَيْرا صاحب الماء في أول العسكر،

وجعل زيرك التركيّ في موضع آخر، وعليّ بن جهشيار حاجبه في موضع آخر وراشداً مولاه في مواليه وغلمانه الأتراك والخزر والروم والديالمة والطبرية والمغاربة والزّنج والفراغنة والعجم والأكراد، محيطاً هو وأصحابه بمضارب أبي أحمد وفساطيطه وسُرادقاته.

وجعل صاعد بن مخلد وزيرَه وكاتبه في جيش آخر من الموالي والغِلْمان، فوق عسكر راشد، وأنزل مسروراً البلخيّ القائد صاحب الأهواز في جيش آخر على جانب من جوانب عسكره، وأنزل الفضلَ ومحمداً بني موسى بن بغا في جانب آخر بجيش آخر، وتلاهما القائد المعروف بموسى، ولَجُوا في جيشه وأصحابه، وجعل بُغْراجَ التركيّ على ساقته في جيش كثيف بعدّة عظيمة، وعدد جمّ. ورأى أبو أحمد من حال النّاجم وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم معه أنه لا بدّ له من الصبر عليه، وطول الأيام في محاصرته، وتفريق جموعه، وبذل الأمان لهم، والإحسان إلى مَنْ أناب منهم، والغلظة على مَنْ أقام عَلَى غيّه منهم، واحتاج إلى الاستكثار من الشّذا وما يحارب به في الماء، وشرَع في بناء مدينة مماثلة لمدينة النّاجم، وأمر بإنفاذ الرسل في حَمْل الآلات والصنّاع من البرّ والبحر، وإنفاذ المِيَر والأزواد والأقوات وإيرادها إلى عسكره بالمدينة التي شرع فيها، وسماها الموفقيّة. وكتب إلى عمّاله بالنّواحي في حَمْل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة، وألاّ يحمَل إلى بيت المال بالحضْرة درهمٌ واحد، وأنفذ رسلاً إلى سيراف وجَنّابة في بناء الشّذا والاستكثار منها لحاجته إلى أن يبثّها ويفرّقها في المواضع التي يقطع بها المِيرَة عن النّاجم وأصحابه، وأمر بالكتاب إلى عمّاله في إنفاذ كلّ مَنْ يصلح للإثبات والعَرْض في الدواوين، من الجند والمقاتلة، وأقام ينتظر ذلك شهراً أو نحوه، فوردت المِيَر متتابعة، يتلُو بعضها بعضاً، ووردت الآلات والصّناع وبُنِيتْ المدينة، وجهّز التّجر صنوف التجارات في الأمتعة، وحملوها إليْها، واتخذت بها الأسواق، وكَثُر بها التّجّار والمجهّزون من كلّ بلد، ووردت إليها مراكب من البحر، وقد كانت انقطعت لقطع الناجم وأصحابه سُبُلَها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين، وبنى أبو أحمد في هذه المدينة المسجد الجامع، وصلّى بالناس فيه واتخذ دور الضّرب، فضرب بها الدنّانير والدراهم، فجمعت هذه المدينة جميعَ المرافق وسيق إليها صنوف المنافع، حتى كان ساكنوها لا يفقدون فيها شيئاً، مما يوجد في الأمصار العظيمة القديمة، وحملت الأموال وأدرّ العطاء على الناس في أوقاته، فاتّسعوا وحسنت أحوالهم، ورغب الناس جميعاً في المصير إلى هذه والمقام بها.

قال أبو جعفر: وأمر النّاجم بهبوذ بن عبد الوهاب، فعبر والنّاس غارّون في سميريّات إلى طرف عسكر أبي حمزة صاحب الماء، فأوقع به، وقتل جماعةً من أصحابه، وأسر جماعة، وأحرق أكواخاً كانت لهم، وأرسل إبراهيم بن جعفر الهمْدانيّ - وهو من جملة قوّاد النّاجم -

في أربعة آلاف زنجيّ، ومحمد بن أبان المكني أبا الحسين - أخا عليّ بن أبان المهلّبي - في ثلاثة آلاف والقائد المعروف بالدّور في ألف وخمسمائة، ليُغيروا على أطراف عسكر أبي أحمد ويُوقعوا بهم. فنذِر بهم أبو العبّاس، فنهد إليهم في جمْع كثيف من أصحابه، وكانت بينه وبينهم حروب كان الاستظهار فيها كلّها له، واستأمَن إليه جماعة منهم، فخلع عليهم، وأمر أن يوقفوا بإزاء مدينة النّاجم ليعاينهم أصحابُه، وأقام أبو أحمد يكايد النّاجم، ويبذل الأموال لأصحابه تارةً، ويواقعهم ويحاربهم تارة، ويقطع المِيرة عنهم، فسَرَى بهبوذ الزنجي في الأجلاد المنتخبين من رجاله ليلة من الليالي، وقد تأدّى إليه خبر قَيْرَوان ورد للتجّار، فيه صنوف التجارات والأمتعة والمِيَر، فكمن في النخل، فلما ورد القيروان، خرج إلى أهله وهم غارّون، فقتل منهم وأسر، وأخذ ما شاء أن يأخذ من الأموال.

وقد كان أبو أحمد علم بورود ذلك القَيْروان، وأنفذ قائداً من قُوّاده لبَذرقته[1] في جمع خفيف، فلم يكن لذلك القائد ببهبوذ طاقة، فانصرف عنه منهزماً.

فلما انتهى إلى أبي أحمد ذلك، غَلظ عليه ما نال الناس في أموالم وتجاراتهم، فأمر بتعويضهم. وأخلف عليهم مثل الذي ذهب منهم، ورتّب على فوهة النهر المعروف بنهر بيان، وهو الذي دخل القيروان فيه جيشاً قوياً لحراسته.

قال أبو جعفر: ثم أنفذ النّاجم جيشاً عليه القائد المعروف بصندل الزنجيّ، وكان صندل هذا - فيما ذكر - يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهن ويقلبهنّ تقليب الإماء، فإن امتنعت منهنّ امرأة لطم وجهها، ودفعها إلى بعض علوج[2] الزنّج يواقعها، ثم يخرجها بعد ذلك إلى سوق الرقيق فيبيعها بأوكس الثمن، فيسّر الله تعالى قتلَه في وقعة جرت بينه وبين أبي العباس، أسر وأحضِر بين يدي أبي أحمد، فشدّه كتافاً، ورماه بالسهام حتى هلك.

قال أبو جعفر: ثم ندب الناجم جيشاً آخر، وأمره أن يغير على طرف من أطراف عسكر أبي أحمد وهم غارُّون، فاستأمن من ذلك الجيش زنجيّ مذكور، يقال له مهذّب، كان من فرسان الزّنج وشجعانهم، فأتى به إلى أبي أحمد وقت إفطاره، فأعلمَه أنه جاء راغباً في الطاعة والأمان، وأن الزّنج على العبور في ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات، وأن المندوبين لذلك

(١) البذرقة: الحراس يتقدمون القافلة. فارسي معرب. المعجم الوسيط، مادة (بذرق).
(٢) العلج: الرجل من كفار العجم. القاموس المحيط، مادة (علج).

أنجادُهم وأبطالُهم، فأمر أبو أحمد أبا العباس ابنَه أن ينهض إليهم في قوّاد عيَّنهم له، فنهضوا، فلما أحسَّ ذلك الجيش بأنهم قد نذِروا بهم، وعرفوا استئمان صاحبهم، رجعوا إلى مدينتهم.

قال أبو جعفر: ثم إن الناجم ندَب أجلّ قوّاده وأكبرهم قدْراً عنده، وهو عليّ بن أبان المهلبيّ، وانتخَب له أهل البأس والجلَد، وأمره أن يبيّت عسكر أبي أحمد، فعبر في زهاء خمسة آلاف رجل، أكثرهم من الزنج، وفيهم نحو مائتي قائد من مذكوريهم وعظمائهم، فعبَر ليلاً إلى شرقيّ دجْلة، وعزموا على أن يفترقوا قسمين: أحدهما خلف عسكر أبي أحمد والثاني أمَامه، ويغير الّذين أمامه على أصحاب أبي أحمد، فإذا ثاروا إليهم، واستعرت الحرب، أكبّ أولئك الذين من وراء العسكر على مَن يليهم، وهم مشاغيل بحرب مَن بإزائهم. وقدّر الناجم وعليّ بن أبان أن يتهيّأ لهما من ذلك ما أحبّا، فاستأمن منهم إلى أبي أحمد غلام كان معهم من الملاحين ليلاً، فأخبره خبرهم، وما اجتمعت عليه آراؤهم، فأمر ابنَه أبا العباس والغلمان والقوّاد بالحذر والاحتياط والجدّ، وفرّقهم في الجهتين المذكورتين.

فلمّا رأى الزّنج أنّ تدبيرَهم قد انتقض، وأنه قد فُطِن لهم ونُذِر بهم، كرُّوا راجعين في الطريق الذي أقبلوا فيه، طالبين التخلّص. فسبقهم أبو العباس وزيرك إلى فوّهة النهر له قيادة على السودان الذين بعسكر الموفّق - فأمره أن يعترضَهم، ويقف لهم في طريقهم بأصحابه، فأدركهم وهو في خمسمائة رجل، فواقَعهم وشدّ عَضُده أبو العباس وزيرك بمن معهما، فقتِل من الزنج أصحاب الناجم خلْق كثير، وأسِر منهم كثير، وأفلت الباقون فلحقوا بمدينتهم، وانصرف أبو العباس بالفتح وقد علق رؤوس الزنج في الشَّذَا وصلب الأسارى أحياءً فيها، فاعترضوا بهم مدينتهم ليُرهبوا أصحابهم، فلما رأوهم رعبوا وانكسروا. واتصل بأبي أحمد أن النّاجم مَوّه على أصحابه، وأوهم أن الرؤوس المرفوعة مُثُلٌ مثّلها لهم أبو أحمد ليراعوا، وأن الأسارى من المستأمنة. فأمر أبو أحمد عند ذلك بجميع الرؤوس والمسير بها إلى إزاء قصر الناجم، والقذف بها في منجنيق منصوب في سفينة إلى عسكره، ففعل ذلك، فلما سقطت الرؤوس في مدينتهم، عرف أولياء القتلى رؤوس أصحابهم، فظهر بكاؤهم وصُراخهم.

قال أبو جعفر: وكانت لهم وقعات كثيرة بعد هذه، في أكثرها ينهزم الزنج ويُظفَر بهم، وطلب وجوهُهم الأمان، فكان ممّن استأمن محمد بن الحارث القائد، وإليه كان حفظ النهر المعروف بَمْنكي، والسور الذي يلي عسكر أبي أحمد، كان خروجه ليلاً مع عدّة من أصحابه، فوصله أبو أحمد بصِلاتٍ كثيرة، وخلع عليه، وحملَه على عدّة دوابّ بحليتها وآلاتها، وأسنى له الرزق.

وكان محمد هذا حاول إخراجَ زوجته معه - وهي إحدى بنات عَمّه - فعجزت المرأة عن اللّحاق به، فأخذها الزّنج فردّوها إلى الناجم، فحبسها مدة، ثم أمر بإخراجها والنّداء عليها في السوق، فبيعت.

وممن استأمن، القائد المعروف بأحمد البرذعيّ كان من أشجع رجالهم، وكان يكون أبداً مع المهلّبيّ.

وكان ممن استأمن مريداً القائد وبرنكوية وبيلويه، فخلِعت عليهم الخِلَع ووُصلوا بالصلات الكثيرة، وحملوا على الخيول المحلّاة، وأحسن إلى كلّ من جاء معهم من أصحابهم.

قال أبو جعفر: فضاقت المِيَرُ على الناجم وأصحابه، فندب شبلاً القائد وأبا الندى - وهما من رؤساء قوّاده، وقدما أصحابه الّذين يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم - وأمرهما بالخروج في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم، والقصدِ إلى نهر الدير ونهر المرأة ونهر أبي الأسد، والخروج مِن هذه الأنهار إلى البطيحة، والغارة على المسلمين وأهل القرى وقطع الطرقات، وأخذ جميع ما يقدرون عليه من الطعام والمِيرَة وحمله إلى مدينته، وقطعه عن الوصول إلى عسكر أبي أحمد. فندَب أبو أحمد لقصدهم مولاه زيرك في جيش كثيف، بعضه في الماء، وبعضه على الظهر، فواقعهم في الموضع المعروف بنهر عمر، فكانت بينه وبينهم حرب شديدة، أسفرت عن انكسارهم وخذلان الله لهم، فأخذ منهم أربعمائة سفينة وأسرى كثيرين، وأقبل بها وبهم، وبالرؤوس إلى عسكر أبي أحمد.

قال أبو جعفر: وندب أبو أحمد ابنه أبا العباس لقصْد مدينة الناجم، والعلوّ عليها، فقصدها من النهر المعروف بالغربي، وقد أعد النّاجم به عليّ بن أبان المهلبيّ، فاستعرت الحرب بين الفريقين، فأمدّ النّاجم علياً بسليمان بن جامع في جمْع كثير من قوّاد الزنج، واتّصلت الحرب، واستأمن كثير من قواد الزنج إلى أبي العباس وامتدّت الحرب إلى بعد العصر، ثم انصرف أبو العباس، فاجتاز في منصرفه بمدينة الناجم، وقد انتهى إلى الموضع المعروف بنهر الأتراك، فرأى في ذلك النهر قلّة من الزّنج الذين يحرسونه، فطمِع فيهم، فقصد نحوهم، وصعد جماعة من أصحابه سورَ المدينة، وعليه فريق من الزّنج، فقتلوا مَنْ أصابوا هناك، ونذِر الناجم بهم، فأنجدَهم بقوّاد من قوّاده، فأرسلَ أبو العباس إلى أبيه يستمدُّه، فوافَى من عسكر أبي أحمد مَنْ خَفّ من الغلمان، فقِويَ بهم عسكرُ أبي العباس.

وقد كان سليمان بن جامع لمّا رأى أنّ أبا العباس قد أوْغَلَ في نهر الأتراك، صَعِد في جمع كثير من الزّنج، ثم استدبرَ أصحاب أبي العباس وهم متشاغلون بحرْب مَن بإزائهم على سور

المدينة، فخرج عليهم من ورائهم وخَفَقَتْ طبولهم، فانكشف أصحابُ أبي العباس وحملت الزّنج عليهم من أمامهم، فأصيب في هذه الوقعة جماعةٌ من غلمان أبي أحمد وقوّاده، وصار في أيدي الزّنج عدّة أعلام ومطارد، وحامَى أبو العباس عن نفسه حتى انصرف سالماً، فأطمعت هذه الوقعة الزّنج وأتباعهم، وشدّت قلوبهم، فأجمع أبو أحمدَ على العبور بجيشه أجمع، وأمر بالاستعداد والتأهُّب، فلما تهيّأ له ذلك عَبَر في آخر ذي الحجة من سنة سبع وستين، في أكثف جمع، وأكمل عُدّة، وفرّق قوّاده على أقطار مدينة الناجم وقصد هو بنفسه ركناً من أركانها، وقد كان النّاجم حَصّنه بابنه الذي يقال له أنكلاي، وكَنَفه بعليّ بن أبان، وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ وحفّه بالمجانيق والعرّادات والقسيّ الناوكيّة، وأعدّ فيه الناشبة وجمع فيه أكثر جيشه، فلما التقى الجمعان أمر أبو أحمد غلمانه النّاشبة والرامحة والسُّودان بالدنوّ من هذا الركن، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك، وهو نهر عريض غزير الماء، فلما انتهوْا إليه أحجموا عنه، فصِيح بهم، وحُرِّضوا على العبور، فعبروه سباحةً، والزّنج ترميهم بالمجانيق والعرّادات والمقاليع والحجارة عن الأيدي، والسهام عن قسيّ اليد، وقسيّ الرجْل، وصنوف الآلات التي يرمى عنها، فصبروا على جميع ذلك حتى جاوزوا النهر وانتهوْا إلى السور، ولم يكن لِحقَهم من الفَعَلة مَنْ كان أعدّه لهدمه. فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح، ويسّر الله تعالى ذلك، وسهلوا لأنفسهم السبيل إلى علوّه، وحضرهم بعضُ السلاليم التي كانت اتخذت لذلك، فعلوا الركنَ ونصبوا عليه عَلماً عليه مكتوب: «الموفق بالله»، وأكبّت الزنج، فحاربوا أشدّ حرب، وقتل من قوّاد أبي أحمد القائد المعروف بثابت الأسود، رُمِيَ بسهم في بطنه فمات، وكان من جلّة القوّاد، وأحرق أصحابُ الموفق ما على ذلك الركن من المنجنيقات والعرّادات.

وقصد أبو العباس بأصحابه جهةً أخرى من جهات المدينة ليَدْخلها من النهر المعروف بمَنْكي، فعارضه عليّ بن أبان في جمع من الزَّنج، فظهر أبو العباس عليه، وهزمه، وقتل قوماً من أصابه، وأفلت عليّ بن أبان المهلّبيّ راجعاً، وانتهى أبو العباس إلى نهر مَنْكي وهو يرى أنّ المدخل من ذلك الموضع سهل، فوصل إلى الخندق، فوجده عريضاً منيعاً، فحمل أصحابه أن يعبروه فعبروه، وعبرته الرجّالة سباحة، ووافوا السور فثلمُوا ثُلْمَةً واتسع لهم دخولها فدخلوا، فلقي أوّلهم سليمان بن جامع وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية، فحاربوه وكشفوه، وانتهوْا إلى النهر المعروف بابن سمعان، وهو نهر سِيق بالمدينة، وصارت الدار المعروفة بدار ابن سمعان في أيديهم، فأحرقوا ما كان فيها وهدموها.

فوقفت الزّنج على نهر ابن سَمْعان، وقوفاً طويلاً ودافعوا مدافعةً شديدة، وشد بعض موالي الموفق على عليّ بن أبان فأدبر عنه هارباً فقبض على مئزره، فحل علي المئزر ونبذه إلى الغلام،

ونجا بعد أنْ أشرف على الهلكة، وحمل أصحاب أبي أحمد على الزنج، فكشفوهم عن نهر ابن سمعان، حتى وافوْا بهم طرَفَ المدينة، وركب النّاجم بنفسه في جمع من خواصّه، فتلقّاه أصحاب الموفّق، فعرفوه وحملوا عليه، وكشفوا مَنْ كان معه حتى أفرد، وقرب منه بعضُ الرجّالة حتى ضرب وجه فرسه بتُرْسِه، وكان ذلك وقتَ غروب الشمس، وحَجَز اللّيل بينهم وبينه وأظلم، وهبّت ريح شمال عاصف، وقوِيَ الجَزْرُ، فلصق أكثر سفن الموفّق بالطين، وحرّض الناجم أصحابه، فثاب[1] منهم جَمْعٌ كثير، فشدّوا على سفن الموفّق، فنالوا منها نيلاً، وقتلوا نفراً، وصمد بهبوذ الزنجيّ لمسرور البلخيّ بنهر الغربيّ فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر أسرى، وصار في يده دوابّ من دوابّهم، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفّق، وقد كان هرب في هذا اليوم كثير من قوّاد صاحب الزّنج، وتفرّقوا على وجوههم نحو نهر الأمير وعبّادان وَغيرهما، وكان ممّن هرب ذلك اليوم منهم أخو سليمان بن موسى الشعرانيّ ومحمد وعيسى، فمضيا يؤمّان البادية، حتى انتهى إليهما رجوعُ أصحاب الموفّق، وما نيل منهم فرجعا، وهرب جماعة من العرب الذين كانوا في عسكر النّاجم، وصاروا إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان من أبي أحمد، فأمّنهم، ووجّه إليهم السفُن، وحملهم إلى الموفقيّة، وخلع عليهم، وأجرى لهم الأرزاق والأنزال.

وكان ممن رغب في الأمان من قوّاد الناجم القائد المعروف بريحان بن صالح المغربيّ، وكانت له رياسة وقيادة، وكان يتولّى حجبة أكلانيّ بن الناجم. فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه، فأجيب إلى ذلك، وأنفِذ إليه عدد كثير من الشّذَا والسُّميريّات والمعابر مع زيرك القائد، صاحب مقدّمة أبي العباس، فسلك نهر اليهودي إلى آخره، فألفَى به ريحان القائد ومَنْ كان معه من أصحابه، وقد كان الموعد تقدّم منه في موافاة ذلك الموضع. فسار زيرك به وبهم إلى دار الموفّق، فأمر لريحان بخلع جليلة، وحمِل على عدّة أفراس بآلتها وحليتها، وأجيز بجائزة سنيّة، وخَلع على أصحابه، وأجيزوا على أقدارهم ومراتبهم، وضمّ ريحان إلى أبي العباس، وأمر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار النّاجم، فوقفوا هنالك في الشّذَا، عليهم الخلع الملوّنة بصنوف الألوان والذّهب حتى عاينوهم مشاهدة، فاستأمن في هذا اليوم من أصحاب ريحان الذين كانوا تخلّفوا عنه ومن غيرهم جماعة، فألحِقوا في البرّ والإحسان بأصحابهم.

ثم استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسّجّان في أول يوم من سنة ثمان وستين ومائتين،

---

(١) ثاب: رجع. القاموس المحيط، مادة (ثوب).

وكان أحدَ ثقات الناجم، ففعل به من الخلَع والإحسان ما فعل بريحان، وحُمِل في سُميريّة حتى وقف بإزاء قصر الناجم، حتى يراه أصحابه، وكلّمهم وأخبرهم أنهم في غرورٍ من صاحبهم، وأعلمهم ما وقف عليه من كذبه وفجوره، فاستأمن في هذا اليوم خلقٌ كثير من قوّاد الزنج وغيرهم، وتتابع النّاس في طلب الأمان، وأقام أبوأحمد يُجِمّ[1] أصحابَه، ويُداوِي جراحهم، ولا يحارب ولا يعبُر إلى الزّنج إلى شهر ربيع الآخر.

ثم عبر جيشه في هذا الشهر المذكور مرتّباً على ما استصلحه من تفريقه في جهاتٍ مختلفة، وأمرهم بهدْم سور المدينة، وتقدّم إليهم أن يقتصرُوا على الهدْم، ولا يدخلوا المدينة، ووكَّلَ بكلّ ناحية من النواحي الّتي وجّه إليها قوّاده سفناً فيها الرّماة، وأمرهم أن يحمُوا بالسهام من يهدِم السّور من الفَعَلة، فثلمت في هذا اليوم من السور ثُلَمٌ كثيرة، واقتحم أصحاب أبي أحمد المدينة من جميع تلك الثّلَم وهزموا مَنْ كان عليها من الزّنج، وأوْغلوا في طلَبهم، واختلف بهم طرق المدينة، وتفرّقت بهم السّكَك والفِجَاج، وانتهوْا إلى أبعد من المواضع التي كانوا وصلوا إليها في المرّة التي قبلها، فتراجعت إليهم الزّنج، وخَرَج عليهم كمناؤهم من نواحٍ يهتدون إليها، ولا يعرفها جيش أبي أحمد. فتحيّر جيش أبي أحمد، فقتِل منهم خلق كثير، وأصاب الزّنج منهم أسلحة وأسلاباً، وأقام ثلاثون ديلميًا من أصحاب أبي أحمد يُدافعون عن النّاس ويحمونهم، حتّى خَلَص إلى السفن مَنْ خَلَص، وقتلت الديالمة عن آخرها، وعظُم على الناس ما أصابهم في هذا اليوم، وانصرف أبو أحمد إلى مدينته الموفقيّة، فجمع قوّاده، وعَذَلهم على ما كان منهم من مخالفة أمره، والإفساد عليه في رأيه وتدبيره، وتوعّدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لمثل ذلك، وأمر بإحصاء المقتولين من أصحابه، فأتِيَ بأسمائهم، فأقرّ ما كان جارياً لهم على أولادهم وأهاليهم، فحسُن موقع ذلك، وزاد في صحة نيّات أصحابه، لما رأوا من حياطته خلف مَنْ أصِيب في طاعته.

قال أبو جعفر: وشرع أبو أحمد في قطع المِيرة عن مدينة النّاجم من جميع الجهات، وقد كان يجلَب إليهم من السّمك الشيء العظيم من مواضع كثيرة، فمنِع ذلك عنهم، وقتِل القومُ الّذين كانوا يجلبونه، وأخذِتْ عليهم الطُّرق، وانسدّ عليهم كلّ مسلَكٍ كان لهم، وأضرّ بهم الحصار، وأضعف أبدانَهم وطالت المدّة، فكان الأسير منهم يؤسَر، والمستأمِن يستأمِن، فيُسأل عن عهده بالخبز، فيقول: مذ سنة أو سنتين، واحتاج مَنْ كان منهم مقيماً في مدينة النّاجم إلى الحيلة لقوّته، فتفرقوا في الأنهار النائية عن عسكرهم طلباً للقوت، وكَثُرت الأسارى منهم في عسكر أبي أحمد، لأنه كان يلتقطهم بأصحابه يوماً فيوماً، فأمر باعتراضهم لمّا رأى

(١) جَمَّ يَجِمُّ: كثر واجتمع. القاموس المحيط، مادة (جمم).

كثرتهم، فَمنْ كان منهم ذاقوّة وجَلَدٍ ونهوضٍ بالسّلاح منّ عليه، وأحسن إليه، وخلَطه بغِلْمانه السّودان، وعرّفهم ما لهم عنده من البرّ والإحسان ومَنْ كان منهم ضعيفاً لا حراك به، أو شيخاً فانياً لا يُطيق حَمْل السلاح، أو مجروحاً جراحة قد أزمنتْه، أمرَ بأن يكسَى ثوبين، ويوصَل بدراهم، ويزوّد ويحمل إلى عسكر النّاجم، فيلقى هناك بعد أن يوصى بوصف ما عاين من إحسان أبي أحمد إلى كلّ مَنْ يصير إليه، وأنّ ذلك رأيه في جميع مَنْ يأتيه مستأمناً، أو يأسره، فتهيّأ له بذلك ما أراد من استمالة الزّنج، حتى استشعروا الميلَ إلى ناحيته، والدخولَ في سِلْمه وطاعته.

قال أبو جعفر: ثم كانت الوقعة التي قتِل فيها بهبوذ الزنجي القائد وجرح أبو العباس، وذلك أن بهبوذ كان أكثرَ أصحاب الناجم غاراتٍ، وأشدّهم تعرّضاً لقطع السُّبل، وأخذ الأموال، وكان قد جمع من ذلك لنفسه مالاً جليلاً، وكان كثير الخروج في السُّميريّات الخِفَاف، فيخترق بها الأنهار المؤدّية إلى دجْلة، فإذا صادف سفينةً لأصحاب أبي أحمد أخذَها واستولَى على أهلها، وأدخلها النّهر الذي خرج منه، فإنْ تبعه تابع حتى توغّل في طلبه، خرج عليه من ذلك النّهر قومٌ من أصحابه، قد أعدّهم لذلك، فأقطعوه وأوقعوا به.

فوقع التحرُّز حينئذ منه، والاستعداد لغاراته، فركب شذاةً، وشبّهها بشذوات أبي أحمد، ونصب عليها علماً مثل أعلامه، وسار بها ومعه كثير من الزّنج، فأوقع بكثير من أصحاب أبي أحمد، وقَتَل وأسر. فندَب له أبو أحمد ابنَه أبا العباس في جمعٍ كثيف، فكانت بينهما وَقْعةٌ شديدة، ورُمِي فيها أبو العباس بسهْم فأصابه، وأصابت بهبوذ طَعنةٌ في بطنه من يدِ غلام من بعض سُميريّات أبي العباس، فهوَى إلى الماء، فابتدره أصحابه، فحملوه ورجعوا به إلى عسكر النّاجم، فلم يصلوا به إلاّ وهو ميت، فعظمت الفجيعة به على الناجم وأوليائه، واشتدّ عليه جزعهم، وخفيَ موته على أبي أحمد، حتى استأمن إليه رجلٌ من الملاحين، فأخبره بذلك، فسرّ، وأمر بإحضار الغلام الذي طعنه، فوصله وكساه وطوّقه، وزاد في رزقه. وأمر لجميع مَنْ كان في تلك السُّميريّة بصِلات وخِلعَ، وعولج أبو العباس مِنْ جُرْحِه مدّة حتى برأ، وأقام أبو أحمد في مدينته الموفقيّة ممسِكاً، عن حرب الزّنج، محاصراً لهم بسدّ الأنهار وسَكْرِها، واعتراض من يخرج منهم لجلب الميرة، ومنتظراً برء ولده، حتى كَمَل بعد شهور كثيرة، وانقضت سنة ثمان وستين.

ونُقل إسحاق بن كنداجيق عن البصرة وأعمالها، فوُلّي الموصلَ والجزيرة وديار ربيعة وديار مُضر.

ودخلت سنة تسع وستين وأبو أحمد مقيمٌ على الحصار، فلما أمِنَ على أبي العباس، وركب على عادته، عاود النهوضَ إلى حرب النّاجم.

قال أبو جعفر: وقد كان بهبوذ لَمّا هلك طمِعَ الناجم في أمواله لكثرتها ووفورها، وصحَّ عنده أنه تركَ مائتي ألف دينار عيناً، ومن الجواهر وغيرها بمثلِ ذلك، فطلب المالَ المذكور بكلّ حيلة، وحبَسَ أولياء بهبوذ وقرابته وأصحابَه، وضربهم بالسياط، وأثار دوراً من دوره، وهدم أبنيةً من أبنيته، طمعاً في أن يجد في شيء منها دفيناً، فلم يجد من ذلك شيئاً، فكان فعله هذا أحدَ ما أفسدَ قلوب أصحابه عليه، ودعاهم إلى الهرب منه، والزهد في صحبته، فاستأمَن منهم إلى أبي أحمد خلقٌ كثير، فوصَلَهم وخلع عليهم، ورأى أن يعبُر دجلة من الجانب الشرقيّ إلى الجانب الغربيّ، فيجعل لنفسه هناك معسكراً، ويبني به مدينةً أخرى، ويضيق خناق الناجم، ويتمكّن من مغاداته ومراوحته بالحرب، فقد كانت الريح العاصف تحولُ بينه وبين عبور دجلة في كثير من الأيام بالجيش، فأمر بقطع النخل المقارب لمدينة النّاجم لذلك، وإصلاح موضع يتخذه معكسراً، وأن يحفّ بالخنادق، ويحصر بالسور ليأمن بَيّات الزّنج، وجعل على قوّاده نوائب لذلك، ومعهم الفعلة والرجال، فقابل الناجم ذلك، بأن جعلَ عليّ بن أبان المهلبي وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ نُوَباً للحرب والمدافعة عن ذلك، وكان أنكلانيّ بن الناجم ربّما حضر في نَوْبة أيضاً، وضمّ إليه سليمان بن موسى بن الشعرانيّ، وقد كان صار إليه من المذار بعد الوقعة التي انهزم فيها، وعلم الناجم أنّ أبا أحمد إذا جاوره صعُب أمره، وقرُب على مَنْ يريد اللّحاق به من الزّنج المسافة مع ما يدخل قلوب أصحابه بمجاورته من الرّعب والرهبة، وفي ذلك انتقاض تدبيره، وفساد جميع أموره، فكانت الحرب بين قوّاد أبي أحمد وقوّاد الناجم متّصلة، على إصلاح هذا الموضع، ومدافعة الزّنج عنه.

واتفق أن عصفت الرياح يوماً وجماعة من قوّاد أبي أحمد بالجانب الغربي للعمل الذي يريدونه، فانتهز الناجم الفرصة في امتناع العبور بدَجْلة، لعصف الريح، فرماهم بجميع جيشه، وكاثرهم برَجله، فلم تجد الشّذوات التي مع قوّاد أبي أحمدَ سبيلاً إلى الوقوف بحيث كانت واقفة به، لحمل الرياح إياها على الحجارة، وخوّف أصحابها عليها من التكسّر، ولم يجدوا سبيلاً إلى العبور في دِجْلة، لشدّة الريح واضطراب الأمواج، فأوقعت الزّنج بهم، فقتلوهم عن آخرهم، وأفلت منهم نفر، فعبرُوا إلى الموفقيّة، فاشتدّ جزع أبي أحمد وأصحابه لما نالهم، ولما تهيّأ للزّنج عليهم، وعظُم بذلك اهتمامهم. وتعقّب أبو أحمد الرأي، فرأى أنّ نزوله ومقامه بالجانب الغربيّ، مجاور مدينة النّاجم خطأ، وأنه لا يؤمن منه حيلة، وانتهاز فرصة، فيوقع بالعسكر بياتاً، أو يجد مساغاً إلى ما يكون له قوة، لكثرة الأدغال في ذلك الموضع، وصعوبة المسالك، وأنّ الزّنج على التوغّل في تلك المواضع الوعرة الموحشة أقدَرُ وهو عليهم أسهل من أصحابه، فانصرف عن رأيه نزول الجانب الغربيّ، وصرف همّه وقصده إلى هدم سور مدينة الناجم، وتوسِعة الطريق والمسالك لأصحابه في دخولها، فندب القوّاد لذلك، وندب الناجم قوّاده للمدافعة عنها، وطال الأمَد، وتمادت الأيّام.

فلما رأى أبو أحمد تحاشُد الزَّنج وتعاوُنَهم على المنع من هدم السُّور، أزمَع على مباشرة ذلك بنفسه، وحضوره إياه، ليستدعيَ بذلك جِدّ أصحابه واجتهادهم، ويزيد في عنايتهم وهِمَمِهم، فحضر بنفسه، واتّصلت الحرب، وغلُظت على الفريقين، وكَثُرَ القتل والجراح في الحزبين، وأقام أبو أحمد أياماً كثيرة يُغاديهم الحرب ويراوحهم، فكانوا لا يفتُرون يوماً من الأيام، وصعُب على أصحاب أبي أحمد ما كانوا يرومونه، واشتدّت حماية الزنج عن مدينتهم، وباشر النّاجم الحرب بنفسه، ومعه نخبة أصحابه وأبطالهم، والمؤمّنون أنفسَهم على الصَّبْر معه، فحامَوْا جهدَهم، حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحداً منهم السَّهم أو الطعنة أو الضَّربة فيسقط، فيجذبه الّذي إلى جانبه، فينحّيه، ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخلُوَ موقفُ رجلٍ منهم، فيدخِل الخللَ عليهم.

واتفق في بعض الأيّام شدّة ضباب ستر بعضَ الناس عن بعض، فما يكاد الرجل يبصر صاحبه، وظهر أصحاب أبي أحمد، ولاحتْ تباشيرُ الفتح، ودخل الجندُ إلى المدينة وولَجوها، وملكوا مواضع منها، وإنّهم لعلى ذلك، حتى وصل سهم من سهام الزَّنج إلى أبي أحمد، رماه به روميّ كان مع الناجم، يقال له قِرْطاس، فأصابه في صدره وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين. فستر أبو أحمد وخواصّه ما ناله من ذلك عن الناس، وانصرف إلى الموفقيّة آخرَ نهار يومه هذا، فعولج في ليلته تلك وشدّت الجراحة، وغدا على الحرب على ما ناله من ألمها ليشدّ بذلك قلوبَ أصحابه من أن يدخلها وهنٌ أو ضعف، فزاد في قوّة علّته، بما حمل على نفسه من الحركة، فغلظت وعظم أمرها، حتى خيف عليه العَطَب، واحتاج إلى علاج نفسه بأعظم ما يعالَج به الجراح، واضطرب لذلك العسكرُ والجند والرعيّة، وخافوا قوّة الزّنج عليهم، حتى خرج عن الموفّقيّة جماعة من التجّار كانوا مقيمين بها لما وصل إلى قلوبهم من الرهبة.

قال أبو جعفر: وحدثت على أبي أحمد في حال صعوبة علّته، حادثة في سلطانه وأمور متعلّقة بما بينه وبين أخيه المعتمد، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرّحلة عن معسكره إلى بغداد، وأن يخلّف مَنْ يقوم مقامه، فأبى ذلك، وحاذر أن يكون فيه تلافي ما قد فَرّق من شمل صاحب الزّنج، فأقام على صعوبة علّته، وغلظ الأمر الحادث في سلطانه وصبر إلى أن عُوفِيَ، فظهر لقوّاده وخاصّته، وقد كان أطال الاحتجابَ عنهم، فقويتْ برؤيته مُنّتُهم، وأقام متماثلاً مودّعاً نفسه إلى شعبان من هذه السنة، فلما أبَلّ[1] وقوِيَ على الركوب والنهوض،

(١) أبل من مرضه: حَسُنَت حاله بعد الهزال. القاموس المحيط، مادة (بلل).

نهض وعاود ما كان مواظباً عليه من الحرب، وجعل النّاجم لما صحّ عنده الخبر بما أصاب أبا أحمد يَعِدُ أصحابَه العِدَات، ويمنّيهم الأمانيّ، واشتدّت شوكتهم، وقويَتْ آمالهم، فلما اتّصل به ظهور أبي أحمد، جعل يحلِف للزّنج على منبره، أنّ ذلك باطل لا أصلَ له، وأنّ الذي رأوْه في الشّذا مثالٌ مُوّه وشبِّه عليهم.

قلت: الحادث الذي حدث على أبي أحمد من جهة سلطانه، أنّ أخاه المعتمد، وهو الخليفة يومئذ، فارقَ دار ملكه، ومستقرّ خِلافته مغاضِباً له متجنّياً عليه، زاعماً أنه مستبدٌّ بأموال المملكة وجبايتها، مضطهد له مستأثر عليه، فكاتب ابن طولون صاحب مصر، وسأله أن يأذَنَ له في اللّحاق به، فأجابه ابنُ طولون إلى ذلك، فخرج من سامُرّاء في جماعة من قوّاده ومواليه، قاصداً مصر. وكان أبو أحمد هو الخليفة في المعنى، وإنّما المعتمد صورةٌ خالية من معاني الخلافة، لا أمرَ له ولا نهي، ولا حلّ ولا عَقْد، وأبو أحمد هو الذي يرتّب الوزراء والكتّاب، ويقوّد القوّاد، ويقطع الأقطاع، ولا يراجِع المعتمدَ في شيء من الأمور أصلاً، فاتّصل به خبر المعتمد في شخوصه عن سامُرّاء، وقصده ابن طولون، فكاتب إسحاق بن كنداجيق وهو يومئذ على الموصل والجزيرة، فأمره أن يعترضَ المعتمد، ويقبض عليه وعلى القوّاد والموالي الذين معه ويعيدَهم إلى سامُرّاء، وكتب لإسحاق بإقطاعه ضِياع أولئك القوّاد والموالي بأجمعهم، فاعترضهم إسحاق، وقد قَرُبوا من الرّقة، فأخذهم وقبض عليهم، وقَيّدهم بالقيود الثقيلة، ودخل على المعتمد فعنّفه، وهجّنه وعَذَله في شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه، ومفارقة أخيه على الحال التي هو بها، وحرب مَنْ يحاول قتلَه، وقتْل أهلِ بيته وزوال ملكهم.

ثم حملهم في قيودهم حتى وافَى بهم سامراء، فأقرّ المعتمد على خلافته، ومنعه عن الخروج، وأرسل أبو أحمد ابنَه هارون، وكاتبه صاعد بن مخلد من الموفقية إلى سامراء فخلعا على ابن كنداجيق، خِلعاً جليلة، وقلّد بسيفين من ذهب، ولُقّب ذا السيفين، وهو أول مَنْ قُلّد بسيفين، ثم خلع عليه بعد ذلك بيوم قباء دِيباج أسود، ووِشاحيْن مرصّعين بالجوهر الثمين، وتوّج بتاج من ذهب مرصع بنفيس الجوهر، وقلّد سيفاً من ذهب مرصّع بالجواهر العظيمة، وشيّعه إلى منزله هارون وصاعداً، وقعدا على طعامه، كلّ ذلك مكافأة له عن صنيعه في أمر المعتمد، فليعجب المتعجّب من همّة الموفق أبي أحمد، وقوّة نفسه، وشدّة شكيمته! أن يكون بإزاء ذلك العدوّ، ويقتل من أصحابه كلّ وقتٍ مَنْ يقتل، ثم يصاب ولده بسهم، ويصاب هو بسهم آخر في صدره يشارف منه على الموت، ويحدث من أخيه وهو الخليفة ما يحدُث، ولا تنكسِر نفسه ولايَهِي عزمُه، ولا تضعف قوّته. ويحقُّ ما سمِّيَ المنصورَ الثاني! ولولا قيامُه في حرب الزّنج، لانقرض مُلْك أهلِ بيته، ولكنّ الله تعالى ثبّته لما يريده من بقاء هذه الدولة.

قال أبو جعفر: ثم جدّ الموفّق في تخريب السّور، وإحراق المدينة، وجدّ الناجم إعداد المقاتلة والدفاع عن سُورِه ومدينته، فكانت بين الفريقين حروب عظيمة تجلّ عن الوصف، ورمى النّاجم سفنَ الموفّق المقاربة لسور مدينته بالرّصاص المذاب، والمجانيق والعرّادات، وأمر أبو أحمد بإعداد ظلّة من خشب [للشذا] وإلباسها جلودَ الجواميس، وتغطية ذلك بالخيوش المطليّة بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الإحراق، ففعل ذلك، وحُورب صاحب الزنج من تحتها، فلم تعمل نارُه ورصاصُه المذاب فيها شيئاً، واستأمن إلى أبي أحمد محمدُ بن سمعان، كاتب الناجم ووزيره في شعبان من هذه السنة، فهدّ باستئمانه أركانَ الناجم، وأضعف قوّته، وانتدب أبو العباس لقصد دار محمد بن يحيى الكرنبائيّ، وكانت بإزاء دار الناجم، وشرع في الحيلة في إحراقها، وأحرق الموفّق كثيراً من الرواشين[1] المظِلّة على سور المدينة وشعثها، وعلا غلمانُ أبي أحمد على دار النّاجم وولجوها وانتهبوها، وأضرموا النّار فيها، وفعل أبو العباس بدار الكرنبائي مثلَ ذلك، وجرح أنكلاني بن النّاجم في بطنه جراحة شديدة، أشفى منها على التّلف، واتّفق مع هذا الظفر العظيم أن غرِق أبو حمزة نُصَيْر صاحب جيش الماء عند ازدحام الشّذَوات وإكباب الزّنج على الحرب، فصعُب ذلك على أبي أحمد، وقوِيَ بغرقه أمر الزّنج، وانصرف أبو أحمد آخر نهار هذا اليوم، وعَرَضت له عِلّة أقام فيها بقيّة شعبان وشهر رمضان، وأيّاماً من شوال ممسِكاً عن حَرْب الزّنج، إلى أن استبلّ من علته.

قال أبو جعفر: فلما أحرقت دار النّاجم ودُور أصحابه، وشارفَ أن يؤخذ، وعرضت لأبي أحمد هذه العلّة، فأمسك فيها عن الحرب، انتقل النّاجم من مدينته التي بناها بغربيّ نهر أبي الخصيب إلى شرقيّه إلى منزل وَعْرٍ لا يخلُص إليه أحد لاشتباك القَصب والأدغال والأحطاب فيه، وعليه خنادق من أنها قاطعة معترضة، فقطن هناك في خواصّ ومَنْ تخلّف معه من جلّة أصحابه وثقاته، ومَنْ بقي في نُصْرته من الزّنج، وهم حدود عشرين ألف مقاتل، وانقطعت المِيرَة عنهم، وبان للناس ضعف أمرهم، فتأخرّ الجلَب الذي كان يصل إليهم، فبلغ الرطل من خبز البُرّ عندهم عشرة دراهم، فأكلوا الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر كذلك إلى أن كانوا يتبّعون الناس، فإذا خلا أحدٌ منهم بصبيّ أو امرأة أو رجل ذبحوه وأكلوه. ثم صار قويّ الزّنج يعدُو على ضعيفِهم، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه، ثم ذبحوا أولادَهم، فأكلوا لحومَهم، وكان النّاجم لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئاً من ذلك إلا بالحبس، وإذا تطاول حبسُه أطلقه.

---

(١) الروشن: الكوة. القاموس المحيط، مادة (رشن).

ولما أبلّ الموفّق من علّته، وعلم انتقال الناجم إلى شرقي نَهر أبي الخصيب واعتصامه به، أعمل فكرَه في تخريب الجانب الشرقيّ عليه، كما فعل بالجانب الغربيّ، ليتمكّن من قتله أو أسره، فكانت له آثار عظيمة من قطع الأدغال والدِّحال[1] وسدّ الأنهار، وطمّ الخنادق، وتوسيع المسالك وإحراق الأسوار المبنية، وإدخال الشّذَا، وفيها المقاتلة إلى حريم الناجم، وفي كلّ ذلك يدافع الزّنجُ عن أنفسهم بحرب شديدة، وقتال عظيم تذهب فيها النفوس، وتُراق فيها الدماء، وكان الظّفر في ذلك كلّه لأبي أحمد، وأمْر الزّنج يزداد ضعفاً وطالت الأيام على ذلك، إلى أن استأمن سليمان بن موسى الشعرانيّ، وهو من عظمائهم، وقد تقدّم ذكره، فوجّه يطلب الأمان من أبي أحمد، فمنعه ذلك لما كان سَلفَ منه من العيْثِ وسفْك الدماء بنواحي واسِط.

ثم اتّصل بأبي أحمد أنّ جماعةً من رؤساء الزّنج قد استوحشوا لمنعه الشّعرانيّ من الأمان، فأجاب إلى إعطائه الأمان استصلاحاً بذلك غيرَه من رؤساء الزّنج، وأمر بتوجيه الشّذا إلى موضِع وَقّع الميعاد عليه، فخرج سليمان الشعرانيّ وأخوه، وجماعة من قوّاده، فنزلوا الشّذا، فصاروا إلى أبي العباس، فحملهم إلى أبي أحمد، فخلع على سليمان ومَنْ معه، وحَمَله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها، وأنزل له ولأصحابه أنزالاً سنيّة، ووصله بمال جليل، ووصل أصحابه، وضمّه وضمّهم إلى أبي العباس، وأمر بإظهاره وإظهارهم في الشذا لأصحاب النّاجم، ليزدادوا ثقة بأمانته، فلم تبرح الشّذَا ذلك اليوم من موضعها، حتى استأمن جمع كثير من قواد الزّنج فوصلوا وألحقوا بإخوانهم، في الحِبَاء والبِرّ والخلع، والجوائز، فلما استأمن الشعرانيّ اختلّ ما كان النّاجم قد ضبطه به من مؤخر عسكره، وقد كان جعله على مؤخر نهر أبي الخصيب، فوهَى أمره وضعف، وقلّد ما كان سليمان يتولاّه القائد المعروف بشبل بن سالم - وهو من قوّادهم المشهورين - فلم يمسِ أبو أحمد حتى وافاه رسول شِبْل بن سالم يطلب الأمان، ويسأل أن يُوقف له شَذَوات عند دار ابن سمعان، ليكون قصده فيَ الليل إليها، ومعه مَنْ يثقُ به من أصحابه، فأجيب إلى سؤاله، ووافَى آخر الليل ومعه عياله وولده، وجماعة من قُوّاده، فصاروا إلى أبي أحمد، فوصَله بصِلةٍ جليلة، وخلعَ عليه خِلَعاً كثيرة، وحمله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها، ووصل أصحابه، وخلَع عليهم، وأحسن إليهم، وأرسله في الشّذَوات، فوقفوا بحيث يراهم النّاجم وأصحابه نهاراً، فعظُم ذلك عليه وعلى أوليائه، وأخلص شبل في مناصحة أبي أحمد، فسأل أنْ يضمّ إليه عسكراً يبيّت به عسكر النّاجم، ويسلك إليه مِنْ مسالكَ يعرفها هو ولا يعرفها أصحاب أبي أحمد، ففعل وكَبَس عسكر النّاجم سَحَراً، فأوقع بهم وهم غارُّون، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جمْعاً من قوّاد الزّنج وانصرف

(١) الدحل: ثقب ضيق فمه متّسع أسفله حتى يُمشى فيه. القاموس المحيط، مادة (دحل).

بهم إلى الموفّق، وذُعر الزّنج من شبل وما فعله، فامتنعوا من النَّوم، وخافوا خوفاً شديداً، فكانوا يتحارسون بعد ذلك في كلّ ليلة، ولا تزال النُّفْرة تقع في عسكرهم، لما استشعروا من الخوف، ووصل إلى قلوبهم من الوحشة، حتى لقد كان ضجيجُهم وتحارُسهم يسمع بالموفقيّة.

وصحّ عزم الموفّق على العبور لمحاربة الناجم في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب، فجلس مجلساً عاماً، وأمر بإحضار قوّاد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجّالتهم من الزّنج والبيضان فأدخلوا إليه، وعرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل، وانتهاك المحارم، وما كان صاحبهم زيّنه لهم من معاصي الله سبحانه، وأنَّ ذلك قد كان أحلّ له دماءهم، وأنه قد غفر الزّلّة وعفا عن العقوبة، وبذل الأمان، وعاد على من لجأ إليه بالفضل والإحسان فأجزل الصِّلاتِ، وأسنى الأرزاق، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة، وأنّ ما كان منه من ذلك يُوجب عليهم حقّه وطاعته، وأنهم لن يأتوا بشيء يتعرّضون به لطاعة ربِّهم، والاستدعاء لرضا سلطانهم أوْلَى بهم من الجدّ في مجاهدة الناجم وأصحابه، وأنّهم من الخبرة بمسالك عسكر النّاجم ومضايق طرق مدينته، والمعاقل التي أعدّها للحرب على ما ليس عليه غيرُهم، فهم أحرى أن يمحَضُوه نصحَهم، ويجهدوا على الولوج إلى الناجم، والتوغّل إليه في حصونه، حتى يمكّنَهم الله منه ومن أشياعه، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، ومن قصّر منهم استدعى من سلطانه إسقاط حاله، وتصغيرَ منزلته ووضعَ مرتبته.

فارتفعت أصواتهم جميعاً بالدّعاء للموفّق والإقرار بإحسانه، وبما هم عليه من صحّة الضمائر من السَّمْع والطاعة والجدّ في مجاهدة عدوّه، وبذل دمائهم ومُهَجهم في كلّ ما يقرِّبهم منه، وأنّ ما دعاهم إليه قد قَوّى مِنَنهم، ودلّهم على ثقته بهم، وإحلاله إياهم محلّ أوليائه، وسألوه أن يفردهم ناحيةً، ولا يخلطهم بعسكره، ليظهر من حُسْن جهادهم بين يديه، وخلوص نياتهم في الحرب، ونكايتهم في العدوّ ما يعرف به طاعتهم، وإقلاعهم عَمّا كانوا عليه من جهلهم.

فأجابهم إلى ذلك، وعرّفهم حسنَ ما ظهر له من طاعتهم فخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد.

قال أبو جعفر: ثم استعدّ أبو أحمد ورتّب جيشه، ودخل إلى عسكر النّاجم بشرقيّ نهر أبي الخصيب في خمسين ألف مقاتل، من البرّ والبحر، فرساناً ورجّالة، يكبّرون ويهلّلون ويقرؤون القرآن، ولهم ضجيج وأصوات هائلة. فرأى الناجم منهم ما هاله وتلقّاهم بنفسه وجيشه، وذلك في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين.

واشتبكت الحرب، وكثر القتل والجراح، وحامَى الزّنج عن صاحبهم وأنفسهم أشد محاماة، واستماتوا، وصبر أصحاب أبي أحمد، وصدقوا القتال، فمنّ الله عليهم بالنصر، وانهزم الزّنج، وقتِل منهم خَلقٌ عظيم، وأسِر منهم أسرى كثيرة، فضرب أبو أحمد أعناق الأسارى في المعركة، وقصد بنفسه دار النّاجم، فوافاها وقد لجأ الناجم إليها، ومعه أمجاد أصحابه للمدافعة عنه.

فلما لم يُغنوا شيئاً أسلموها، وتفرّقوا عنها، ودخلها غلمان الموفّق، وبها بقايا ما كان سلم له من مال وأثاث، فأخذوه وانتهبوه، وأخذوا حُرَمه وولده الذكور والإناث، وتخلّص الناجم بنفسه، ومضى هارباً نحو دار عليّ بن أبان المهلبيّ، لا يلوي على أهل ولا ولدٍ ولا مالٍ، وأحرقت دارُه، وحمل أولاده ونساؤه إلى الموفّقية في التوكيل، وقصد أصحاب أبي أحمد دار المهلبي، وقد لجأ إليها الناجم وأكثر الزّنج، وتشاغل أصحاب أبي أحمد بنهب الأموال من دور الزنج، فاغتنم الناجم تشاغلَهم بالنهب، فأمر قوّاده بانتهاز الفرصة، والإكباب عليهم، فخرجوا عليهم من عدّة مواضع، وخرج عليهم كُمناء أيضاً قد كانوا كمنوهم لهم، فكشفوهم واتّبعوهم حتى وافوْا بهم نهر أبي الخصيب، فقتلوا من فُرسانهم ورجّالتهم جماعة، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوه من المال والمتاع.

ثم تراجع الناس، ودامت الحرب إلى وقت العصر، فرأى أبو أحمد عند ذلك أن يصرِفَ أصحابه، فأمرهم بالرّجوع فرجعوا على هدوء وسكون، كي لا تكون هزيمة، حتى دخلوا سفنهم، وأحجم الزنج عن اتّباعهم، وعاد أبو أحمد بالجيش إلى مراكزهم.

قال أبو جعفر: ووافَى إلى أبي أحمد في هذا الشهر كاتبُه صاعد بن مخلد من سامُرّاء في عشرة آلاف، ووافَى إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون - وكان إليه أمرُ الرَّقة وديار مُضَر - في عشرة آلاف من نُخبة الفرسان وأنجادهم، فأمر أبو أحمد لؤلؤاً أن يخرج في عسكره فيحارب الزنج، فخرج بهم ومعه من أصحاب أبي أحمد مَنْ يدلّه على الطرق والمضايق، فكانت بين لؤلؤ وبين الزنج حرب شديدة في ذي الحجّة من هذه السنة، استظهر فيها لؤلؤ عليهم، وبان مِن نجدته وشجاعته وإقدام أصحابه، وصبرهم على ألم الجراح وثبات قلوبهم ما سرّ أبا أحمد وملأ قلبه.

قال أبو جعفر: فلما دخلت سنة سبعين ومائتين، تتابعت الأمداد إلى أبي أحمد من سائر الجهات، فوصل إليه أحمدُ بن دينار في جَمْع عظيم من المطّوعة، من كُور الأهواز ونواحيها، وقدِم بعده من أهل البحرين جمعٌ كثير من المطّوّعة زُهاء ألفي رجل، يقودهم رجلٌ من عبد القيْس، وورد بعد ذلك زُهاء ألف رجل من فارس، ورئيسهم شيخ من المطّوعة يكنى أبا سلمة،

وكان أبو أحمد يجلس لكلّ مَنْ يرد ويخلَع عليه، ويقيم لأصحابه الأنزال الكثيرة، ويصلهم بالصِّلات، فعظُم جيشه جدًّا، وامتلأت بهم الأرض، وصحّ عزمه على لقاء النّاجم بجميع عسكره، فرتّب جيوشه، وقسّمهم على القوّاد، وأمر كلّ واحدٍ من القوّاد أن يقصد جهة من جهات معكسر الناجم عيّنها له، وركب بنفسه، وركب جيشه، وتوغلّوا في مسالك شرقيّ نهر أبي الخصيب، ولقيَهم الزنج، وقد حشدوا واستقبلوا، فكانت بينهم وَقعة شديدة، منحهم الله تعالى فيها أكتاف الزنج، فولّوا منهزمين، فاتّبعهم أصحابُ أبي أحمد يقتلُون ويأسِرون، فقتِلَ منهم كثير، وغرِق كثير، وحوَى أصحابُ أبي أحمد معسكر الناجم ومدينته، وظفروا بعيال عليّ بن أبان المهلبيّ وداره وأمواله، فاحتَوَوْا عليه، وعَبَر أهلُه وأولادُه إلى الموفّقية مع كلابهم، ومضى النّاجم ومعه المهلبيّ وابنه أنكلانيّ، وسليمان بن جامع، والهمدانيّ وجماعة من أكابر القوّاد، عامدين إلى موضع كان النّاجم قد أعدّه لنفسه ملجأ إذا غُلِب على مدينته وداره في النهر المعروف بالسفيانيّ، فتقدم أبو أحمد ومعه لؤلؤ قاصدين هذا النهر، لأن أبا أحمد دلّ عليه، فأوْغل في الدّخول وفقده أصحابه، فظنوا أنه رجع، فرجعوا كلهم، وعَبَرُوا دجْلة في الشَّذَا ظانّين أنه عبر راجعاً، وانتهى أبو أحمد ومعه لؤلؤ، قاصدين هذا النهر، فاقتحمه لؤلؤ بفَرَسه، وعبَر أصحاب لؤلؤ خلْفه.

ووقف أبو أحمد في جماعة من أصحابه عند النّهر، ومضى النّاجم هارباً، ولؤلؤ يتبعه في أصحابه، حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريري، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه، فأوقعوا به وبمن معه فكشفوهم، فولوا هاربين حتى عبروا النهر المذكور، ولُؤلؤ وأصحابه يطردونهم من ورائهم، حتى ألجؤوهم إلى نهر آخر، فعبروه واعتصموا بِدِحالٍ وراءه، فولجوها، وأشرف لؤلؤ وأصحابه عليها فأرسل إليه الموفّق ينهاه عن اقتحامها، ويشكر سعيَه، ويأمره بالانصراف، فانفرد لؤلؤ هذا اليوم وأصحابُه بهذا الفعل، دون أصحاب الموفّق، فانصرف لؤلؤ محمودَ الفِعْل، فحمله الموفّق معه في شَذَاته وجدّد له من البرّ والكرامة ورَفْع المنزلة لِمَا كان منه في أمر النّاجم، حَسْبَما كان مستحقًّا له، ولهذا نادى أهلُ بغداد لما أدخل إليهم رأس الناجم بين يدي أبي العباس: ما شئتم قولوا، كان الفتح للؤلؤ.

قال أبو جعفر: فجمع الموفّق في غَدِ هذا اليوم قوّاده وهو حنِقٌ عليهم لانصرافهم عنه، وإفرادهم إياه، وكان لؤلؤ وأصحابه تولّوْا طلب النّاجم دونهم، فعنّفهم وعَذَلهم ووبّخهم على ما كان منهم، وعجّزهم وأغلظ لهم، فاعتذروا إليه بما توهّموه من انصرافه، وأنهم لم يعلموا أنه قد لجَّج وأوْغَل في طلب الناجم، وأنهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه.

ثم تحالفوا بين يديه، وتعاقدوا ألا يبرحوا في غدٍ موضعَهم إذا توجّهوا نحو الزّنج، حتى

يُظفرهم الله تعالى به، فإنّ أعياهم ذلك أقاموا حيث انتهى بهم النهار في أيّ موضع كان حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألوا الموفق أن يردّ السُّفن إلى الموفقية، بحيث لا يطمع طامع من العسكر في الالتجاء إليها والعبور فيها.

فقبِل أبو أحمد عذرَهم، وجزاهم الخير عن تنصُّلهم[1]، ووعدهم بالإحسان، وأمرهم بالتأهّب للعبور، ثم عَبَر بهم على ترتيب ونظام قد أحكمه وقرره، وذلك في يوم السبْت لليلتين خلَتا من صفر من سنة سبعين ومائتين، وقد كان النّاجم عاد من تلك الأنهار إلى معسكره بعد انصراف الجيش عنه، فأقام به، وأمّل أن تتطاول به وبهم الأيام، وتندفع عنه المُناجزة، فلقيَه في هذا اليوم سَرَعان العسكر، وهم مَغِيظون محنَقون من التقريع والتوبيخ اللاّحقينْ بهم بالأمس، فأوقعوا به وبأصحابه وقعةً شديدة، أزالوهم عن مواقفهم فتفرّقوا لا يلوِي بعضهم على بعض، واتّبعهم الجيش يقتلُون ويأسرونَ مَنْ لحقُوا منهم، وانقطع النّاجم في جماعة من كُمَاته من قُوّاد الزّنج، منهم المهلّبيّ، وفارقه ابنه أنكلانيّ وسليمان بن جامع، فكانا في أوّل الأمر مجتمعين، ثم افترقا في الهزيمة، فصادف سليمانَ بن جامع قومٌ من قوّاد الموفّق، فحاربوه وهو في جَمْع كثيف من الزّنج، فقتِل جماعة من كُمَاته، وظُفِرَ به فأسر، وحُمِل إلى الموفّق بغير عهد ولا عَقْد، فاستبشر النّاس بأسر سليمان، وكثر التكبير والضجيج، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحابه غناء، وأسِرَ بعده إبراهيم بن جعفر الهمدانيّ، وكان من عظماء قوّاده وأكابر أمراء جيوشه، وأسِرَ نادر الأسود المعروف بالحفَّار، وهو من قدماء قوّاد النَّاجم، فأمر الموفّق بتقييدهم بالحديد، وتصييرهم في شَذَاةٍ لأبي العباس، ومعهم الرّجال بالسلاح، وجدّ الموفّق في طلب النّاجم، وأمعن في نهر أبي الخصيب، حتى انتهى إلى آخره.

فبينا هو كذلك، أتاه البشير بقتل النّاجم فلم يصدق، فوافاه بشيرٌ آخر، ومعه كفٌّ زَعَم أنها كفّه، فقويَ الخبرُ عنده بعض القوّة، فلم يلبث أن أتاه غلام من غلمان لؤلؤ يركضُ ومعه رأسُ الناجم، فوضعه بين يديه، فعرضَه الموفّق على مَنْ كان حاضراً تلك الحال معه من قوّاد المستأمنة، فعَرفوه، وشهدوا أنّه رأس صاحبه فخرّ ساجداً، وسجَد ابنهُ أبو العباس، وسجَد القوّاد كلهم شكْراً لله تعالى، ورفعوا أصواتَهم بالتهليل والتكبير، وأمر برفع الرأس على قناة، ونصبه بين يديه فرآه الناس، وارتفعت الأصوات والضجيج.

قال أبو جعفر: وقد قيل: إنه لما أحِيطَ بالناجم، لم يبق معه من رؤساء أصحابه إلا المهلّبيّ، فلما علما أنّهما مقتولان افترقا، فوقف النّاجم حتى وصل إليه هذا الغُلام ومعه

(١) تنصل إليه من الجناية: خرج وتبرأ. القاموس المحيط، مادة (نصل).

جماعة من غلمان لؤلؤ، فمانَع عن نفسِه بسَيفه حتى عجز عن الممانعة، فأحاطوا به وضربوه بسيوفهم حتى سقط، ونزل هذا الغلام فاحتزّ رأسه، وأما المهلبيّ فإنّه قصد النهر المعروف بنهر الأمير، فقذف بنفسه يرومُ النّجاة، وقبْل ذلك كان ابن الناجم وهو المعروف بأنكلاني فارق أباه، ومضى يؤمّ النهر المعروف بالديناريّ، متحصناً فيه بالأدغال والآجام، فلم يظفر بهما ذلك اليوم، ودلّ الموفّق عليهما بعد ذلك.

وقيل له: إنّ معهما جَمْعاً من الزّنج وجماعة من جِلّة قوّادهم، فأرسل غلمانه في طلبهما، وأمرهم بالتّضييق عليهما، فلما أحاطت الغلمان بهم أيقنوا أن لا ملجأ لهم، وأعطوْا بأيديهم. فظفر بهم الغلمان، وحملوهم إلى الموفّق، فقتل منهم جماعة، وأمَرَ بالاستيثاق من المهلبيّ وأنكلاني بالحديد والرجال الموكّلين بهما.

قال أبو جعفر: وانصرف في هذا اليوم وهو يوم السبت، لليلتين خلَتا من صفر أبو أحمد من نهر أبي الخصيب، ورأس النّاجم منصوب بين يديه على قَناةٍ في شذاة يُخْترقُ به في النهر، والناس من جانبي النهر ينظرون إليه حتى وافَى دِجْلة، فخرج إليها، والرأس بين يديه، وسليمان بن جامع والهمدانيّ مصلوبان أحياءً في شذاتين عن جانبيه، حتى وافَى قصره بالموفقيّة. هذه رواية أبي جعفر وأكثر الناس عليها.

وذكر المسعوديّ في كتاب «مروج الذهب» أن الناجم ارتُثّ. وحُمِل إلى أبي أحمد وهو حيّ، فسلّمه إلى ابنه أبي العباس، وأمر بتعذيبه، فجعله كردناجاً[1] على النار وجلده ينتفخ، ويتفرقع حتى هلك.

والرواية الأولى هي الصحيحة، والذي جعل كردناجاً هو قرطاس الذي رمى أبا أحمد بالسهم، ذكر ذلك التنوخي في «نشوار المحاضرة»[2]، قال: كان الزّنج يصيحون لما رمى أبو أحمد بالسهم، وتأخّر لعِلاج جراحته عن الحرب: ملّحوه ملّحوه، أي قد مات وأنتم تكتمون موته، فاجعلوه كاللحم المكْسُود.

قال: وكان قرطاس الرامي لأبي أحمد يصيح بأبي العباس في الحرب إذا أخذتني فاجعلني كردناجاً، يهزأ به.

(١) الكردناج: السّفود الذي يُشوى به اللحم على النار. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (كرد).
(٢) نشوان المحاضرة: لأبي علي محسن بن علي القاضي التنوخي المتوفى سنة (٣٨٤هـ). «كشف الظنون» (٢/١٩٥٣).

قال: فلما ظفر به أدخل في دُبُره سيخاً من حديد، فأخرجه منْ فيه، وجعله على النار كردناجاً.

قال أبو جعفر: ثم تتابع مجيء الزّنج إلى أبي أحمد في الأمان، فحضر منهم في ثلاثة أيام نحو سبعة آلاف زنجيّ، لما عرفوا قتلَ صاحبهم، ورأى أبو أحمد بذلَ الأمان لهم، كي لا يبقى منهم بقيّة يخاف معرتّها في الإسلام وأهله، وانقطعت منهم قطعة نحو ألف زنجيّ مالت نحو البرّ، فمات أكثرها عطشاً، وظفر الأعراب بمَن سلِم منهم، فاسترقُّوهم، وأقام الموفّق بالموفقية، بعد قتل الناجم مدّة، ليزداد الناس بمقامه أنساً وأماناً، ويتراجع أهلُ البلاد إليها، فقد كان الناجم أجلاهم عنها. وقدِم ابنه أبو العباس إلى بغداد، ومعه رأس الناجم، فدخلَها يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقين من جُمادى الأولى من هذه السنّة، ورأس الناجم بين يديه على قَنَاة، والناس مجتمعون يشاهدونه.

وقد روى غير أبي جعفر، وذكره الآبي في مجموعه المسمى «نثر الدرر»(١) عن العلاء بن صاعد بن مخلد، قال: لما حُمِل رأس صاحب الزنج ودخل به المعتضد إلى بغداد دَخَلَ في جيش لم يُرَ مثله، واشتقّ أسواقَ بغداد، والرأس بين يديه، فلما صرنا بباب الطاق، صاح قوم من دَرْبٍ من تلك الدُّروب: رحم الله معاوية وزاد! حتى علَتْ أصواتُ العامّة بذلك فتغيّر وجهُ المعتضد، وقال: ألا تسمع يا أبا عيسى! ما أعجبَ هذا! وما الذي اقتضى ذكر معاوية في هذا الوقت! والله لقد بلغَ أبي إلى الموت وما أفلتّ أنا إلا بعد مشارفته، ولقينا كلّ جهد وبلاء، حتى أنجينا هؤلاء الكِلاب من عدوّهم، وحصّنّا حُرمَهم وأولادهم، فتركوا أن يترحموا على العبّاس وعبد الله ابنه ومَنْ وَلَد من الخلفاء، وتركوا الترحّم على عليّ بن أبي طالب، وحمزة وجعفر، والحسن والحسين، والله لا برحت أو أؤثّر في تأديب هؤلاء أثراً لايعاودون بعد هذا الفعل مثله! ثم أمر بجمع النفّاطين ليحرِق الناحية، فقلت له: أيّها الأمير، أطال الله بقاءك! إنّ هذا اليوم من أشرف أيام الإسلام فلا تفسِدْه بجهل عامّة لا أخلاق لهم. ولم أزل أداريه وأرفق به حتى سار.

فأما الّذي يرويه الناسُ من أن صاحب الزنج ملك سواد بغداد، ونزل بالمدائن، وأن الموفّق أرسل إليه من بغداد عسكراً، وأصحبهم دنان النبيذ، وأمَرهم أن ينهزموا من بين يدي الزنج عند اللقاء، ويتركوا خيامهم وأثقالهم لينتهبها الزنج وأنهم فعلوا ذلك، فظفر الزنج فيما ظفروا به من

(١) «نثر الدرر في المحاضرات»: لأبي سعيد منصور بن الحسين الآبي الوزير، المتوفى سنة (٤٢٢هـ) في سبع مجلدات، «كشف الظنون» (٢/ ١٩٢٧).

أمتعتهم بتلك الدِّنان، وكانت كثيرة جداً، فشربوا تلك الليلة وسكروا، وباتوا على غِرّة، فكبسهم الموفق وبيّتهم ليلاً وهم سكارَى، فأصاب منهم ما أراد - فباطل موضوع لا أصل له، والذي بيّتهم وهم سكارى فَنال منهم نيلاً تكين البخاري، وكان على الأهواز بيت أصحاب عليّ بن أبان في سنة خمس وستين ومائتين، وقد أتاه الخبر بأنّهم تلك الليلة قد عمِل النّبيذ فيهم، والصحيح أنه لم يتجاوز نهبَهم ودخولهم البلاد النُّعمانية. هكذا رواه الناس كلهم.

قال أبو جعفر: فأمّا عليّ بن أبان وأنكلانيّ بن الناجم ومَنْ أسِرَ معهما، فإنّهم حملوا إلى بغداد في الحديد والقِدّ[1]، فجعِلوا بيد محمد بن عبد الله بن طاهر، ومعه غلام للموفّق يقال له فتح السعيديّ، فكانوا كذلك إلى شوال من سنة اثنتين وسبعين ومائتين، فكانت للزنج حركة بواسط، وصاحوا: أنكلاني، يا منصورا! وكان الموفق يومئذ بواسط! فكتب إلى محمد بن عبد الله، وإلى فتح السعيدي يأمرهما بتوجيه رؤوس الزنج الذين في الأسر إليه، فدخل فتح السعيديّ إليهم، فجعل يخرج الأوّل فالأوّل فيذبحه على البالوعة كما تذبح الشاة، وكانوا خمسة: أنكلاني بن الناجم، وعليّ بن أبان المهلبي، وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمذانيّ، ونادر الأسود، وقلَع رأس البالوعة وطرحت فيها أبدانهم، وسدّ رأسها، ووجّه برؤوسهم إلى الموفق فنصبها بواسط، وانقطعت حركة الزّنج، ويئس منهم.

ثم كتب الموفق إلى محمد بن عبد الله بن طاهر في جُثث هؤلاء الخمسة، فأمر بصلبهم بحضرة الجسْر، فأخرِجوا من البالوعة، وقد انتفخوا وتغيّرت روائحهم، وتقشّرت جلودهم، فصلِب اثنان منهم على جانب الجسر الشرقيّ وثلاثة على الجانب الغربيّ، وذاك لسبع بقين من شوال من هذه السنة، وركب محمد بن عبد الله بن طاهر، وهو أمير بغداد يومئذ بنفسه حتى صُلِبوا بحضرته.

وقد قال الشعراء في وقائع الزنج فأكثروا كالبحتريّ وابن الرومي وغيرهما، فمن أراد ذلك فليأخذه من مظانه.

الأصل: منها في وصف الأتراك: **كَأَنّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المِجَانُّ المُطَرَّقَةُ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ ٱلْخَيْلَ ٱلْعِتَاقَ، وَيَكُونُ هُنَاكَ ٱسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ المَجْرُوحُ عَلَى المَقْتُولِ، وَيَكُونَ المُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ المَأْسُورِ.**

فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك عليه السلام وقال

للرجل - وكان كلبيًا: يا أخا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ، وَإِنَّمَا عِلْمُ ٱلْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ ٱللهُ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(١) الآيَةَ، فَيَعْلَمُ ٱللهُ سُبْحانَهُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ، مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ للنَّارِ حطباً أَوْ فِي ٱلْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً، فَهَذَا عِلْمُ ٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ ٱللهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ ٱللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي.

الشرح: المِجانّ: جمع مِجنّ بكسر الميم، وهو التُّرس، وإنما سمي مَجنًا، لأنه يُستَر به، والجُنَّة: السُّترة والجمع جُنَن، يقال استجنّ بِجُنّة، أي استتر بسترة.

المُطْرَقة، بسكون الطاء: التي قد أطرق بعضُها إلى بعض، أي ضُمّتْ طبقاتها، فجعل بعضُها يتلو بعضاً، يقال: جاءت الإبل مطاريق، أي يتلُو بعضها بعضاً. والنعل المطرَقة: المخصوفة، وأطرِقَتْ بالجلْد والعَصَب، أي ألبست، وتُرْسٌ مطرَق، وطِراق النعل: ما أطرقت وخرزت به. وريش طِراق، إذا كان بعضه فوقَ بعض، وطارق الرجلُ بين الثَّوْبَيْن، إذا لبس أحدَهما على الآخر، وكلّ هذا يرجع إلى مفهوم واحد وهو مظاهرة الشيء بعضه بعضاً. ويروى: «المجانّ المطرَّقة»، بتشديد الراء، أي كالتّرسة المتّخذة من حديد مطرَقٍ بالمطرَقة.

والسَّرَق: شُقَق الحرير، وقيل: لا تسمّى سَرَقاً إلا إذا كانت بِيضاً، الواحدة سَرَقة.

ويعتقبون الخيل، أي يجنبونها لينتقلوا من غيرها إليها. واستحرار القتل: شدّته، استحرّ وحَرّ بمعنى، قال ابن الزِّبَعْرَى:

حيث ألقت بِقُبَاءٍ بَرْكَها   واستحرّ القتل في عبد الأشَلّ

والمفلِت: الهاربَ.

يقول عليه السلام: إنّ الأمورَ المستقبلة على قسميْن:

أحدهما ما تفرّد الله تعالى بعلمه، ولم يطلِعْ عليه أحداً من خلقه، وهي الأمور الخمسة المعدودة في الآية المذكورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

والقسم الثاني ما يعلمُه بعضُ البشر بإعلام الله تعالى إيّاه، وهو ما عدا هذه الخمسة، والإخبار بملحَمة الأتراك من جُمْلة ذلك.

وتضطمّ عليه جوانحي: تفتعل، من الضمّ، وهو الجمع، أي تجتمع عليه جوانح صدري، ويروى: «جوارحي»، وقد روي أنّ إنساناً قال لموسى بن جعفر عليه السلام: إنّي رأيت الليلة في منامي أنّي سألتك: كم بقي من عمري؟ فرفعتَ يدك اليمنى، وفتحتَ أصابعها في وجهي مشيراً إليّ، فلم أعلم خمس سنين، أم خمسة أشهر، أم خمسة أيام! فقال: ولا واحدة منهنّ، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التي استأثر الله تعالى بها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[1] الآية.

فإن قلت: لم ضَحِك عليه السلام لمّا قال له الرجل: «لقد أوتيت علم الغيب»؟ وهل هذا إلا زهو في النّفس، وعُجْب بالحال!

قلت: قد رُوِيَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ضحِك في مناسب هذه الحال، لما استسقَى فسُقِيَ وأشرف درورُ المطر، فقام إليه الناس، فسألوه أن يسأل الله تعالى أن يحبِسه عنهم، فدعا، وأشار بيده إلى السحاب، فانجاب حول المدينة كالإكليل، وهو عليه السلام يخطب على المنبر، فضحك حتى بدت نواجذُه، وقال: أشهد أني رسول الله، وسرّ هذا الأمر أنّ النبيّ أو الوليّ إذا تَحْدُثُ عنده نعمة الله سبحانه، أو عرف الناسُ وجاهتَه عند الله، فلا بد أن يسرّ بذلك. وقد يحدُث الضحك من السرور، وليس ذلك بمذموم إذا خلا من التّيه والعُجب، وكان محضَ السّرور والابتهاج، وقد قال تعالى في صفة أوليائه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

فإن قلت: فإنّ من جملة الخمسة: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[3]، وقد أعلم الله تعالى نبيّه بأمور يكسبها في غده، نحو قوله: «ستفتح مكة»، وأعلم نبيُّه وصيّه عليه السلام بما يكسبه في غده، نحو قوله له: «ستقاتل بعدي الناكثين...»[4]، الخبر.

قلت: المراد بالآية أنّه لا تدري نفس جميع ما تكسبه في مستقبَل زمانها، وذلك لا ينفي جوازَ أن يعلم الإنسان بعضَ ما يكسبه في مستقبل زمانه.

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٠.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٤.
(٤) أخرجه بمعناه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٧٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٤٣٣)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٨٦).

واعلم أنّ هذا الغيب الذي أخبر ﷺ عنه قد رأيناه نحن عِياناً، ووقع في زماننا، وكان الناس ينتظرونه من أوّل الإسلام، حتى ساقه القضاء والقدر إلى عصرنا، وهم التتار الذين خرجُوا من أقاصي المشرق، حتى وردت خيلُهم العراق والشام، وفعلوا بملوك الخطا وقفجاق، وببلاد ما وراء النهر وبخُراسان وما والاها من بلاد العجم، ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله آدم إلى عصرنا هذا على مثله، فإنّ بابك الخُرّميّ لم تكن نكايتُه وإن طالتْ مدّته نحو عشرين سنة إلا في إقليم واحد وهو أذربيجان، وهؤلاء دَوَّخُوا المشرق كلّه، وتعدّت نِكايتهم إلى بلاد إرمينيّة وإلى الشام، ووردت خيلهم إلى العراق، وبُخْتَ نصّر الذي قتل اليهود إنما أخرب بيتَ المقدس، وقتل من كان بالشام من بني إسرائيل، وأيّ نسبة بين مَنْ كان بالبيت المقدس من بني إسرائيل إلى البلاد والأمصار التي أخربها هؤلاء، وإلى الناس الذين قتلوهم من المسلمين وغيرهم!

ونحن نذكر طرفاً من أخبارهم وابتداء ظهورهم على سبيل الاختصار، فنقول: إنّا على كثرة اشتغالنا بالتواريخ وبالكتب المتضمّنة أصناف الأمم، لم نجد ذكر هذه الأمّة أصلاً، ولكنا وجدنا ذكر أصناف الترك، ثم القِفْجاق، واليمك، والبرلو، والتفريه، واليتبه، والروس، والخطا، والقرغز، والتركمان، ولم يمرّ بنا في كتاب ذكر هذه الأمة سوى كتاب واحد، وهو كتاب «مروج الذهب» للمسعودي فإنّه ذكَرهم هكذا بهذا اللفظ «التتر»، والنّاس اليوم يقولون: «التتار» بألف، وهذه الأمة كانتْ في أقاصي بلاد المشرق في جبال «طمغاج» من حدود الصين، وبينهم وبين بلاد الإسلام التي ما وراء النهر ما يزيدُ على مسير ستة أشهر، وقد كان خوارزمشاه، وهو محمد بن تكش استولَى على بلاد ما وراء النّهر، وقَتَل ملوكها من الخطا الذين كانوا ببُخارَى وسَمَرْقَنْد وبلاد تركستان، نحو كاشغر، وبلاساغون، وأفناهم، وكانوا حِجاباً بينه وبين هذه الأمّة، وشَحَن هذه البلاد بقوّاده وجنوده، وكان في ذلك غالطاً، لأن ملوك الخطا كانوا وقايةً له ومَجِنًّا من هؤلاء، فلما أفناهم، صار هو المتولّي لحرب هؤلاء أو سِلْمِهِم، فأساء قوّاده وأمراؤه الّذين بتركستان السِّيرة معهم، وسدُّوا طرقَ التجارة عنهم، فانتدبتْ منهم طائفة نحو عشرين ألفاً مجتمعة، كلّ بيت منها له رئيس مفرَد، فهم متسانِدُون، وخرجوا إلى بلاد تركِسْتان، فأوقعوا بقوّاد خوارزم مشاه وعمّاله هناك، وملكوا البلادَ، وتراجع مَنْ بقِيَ من عسكر خُوارزمشاه، وسلِم من سيف التتار إلى خوارزمشاه، فأغضى على ذلك، ورأى أنّ سعة ملكه تمنعه عن مباشرة حربهم بنفسه، وأنّ غيرَه من قوّاده لا يقوم مقامه في ذلك، وترك بلاد تُرْكِسْتان لهم، واستقرّ الأمر على أنّ تركستان لهم، وما عدَاها من بلاد ما وراء النهر كسمرْقَنْد وبُخارى وغيرهما لخوارزمشاه، فمكثوا كذلك نحو أربع سنين.

ثم إن المعروف بجنكزخان - والناس يلفظونَهُ بالراء، وذكر لي جماعة من أهل المعرفة بأحوال التّتر أنه «جنكز» بالزاي المعجمة - عنّ له رأي في النّهوض إلى بلاد تركستان، وذلك أنّ جنكزخان هذا هو رئيس التّتار الأقصين في المشرق، وابن رئيسهم، وما زال سلفه رؤساء تلك الجهة، وكان شجاعاً عاقلاً موفّقاً منصوراً في الحرب، وإنّما عَنّ له هذا الرأي، لأنّه رأى أنّ طائفةً من التّتار - لا ملك لهم، وإنّما يقوم بكلّ فرقة منهم مدبّرٌ لها من أنفسها - قد نهضت فملكتْ بلادَ تركستان على جلالتها، غار من ذلك، وأراد الرّياسة العامة لنفسه، وأحبّ المُلْك، وطمِع في البلاد، فنهض بمنْ معه من أقاصي الصين، حتى صار إلى حدود أعمال تركستان، فحاربه التّتار الذين هناك، ومنعوه عن تطرّق البلاد، فلم يكن لهم به طاقة، وهزمهم وقتَل كثيراً منهم، وملك بلاد تِركستان بأجمعها، وصار كالمجاور لبلاد خوارزمشاه، وإن كان بينهما مسافةٌ بعيدة، وصار بينه وبين خُوارِزْمشاه سِلْمٌ ومهادنة، إلا أنّها هُدْنة على دَخَن.

فمكثت الحال على ذلك يسيراً، ثم فسدتْ بما كان يصلُ إلى خوارزمشاه على ألسنة التّجار من الأخبار، وأنّ جنكزخان على عَزْم النّهوض إلى سَمَرْقَنْد وما يليها، وأنه في التأهّب والاستعداد، فلو دَارَاه لكان أوْلَى له، لكنّه شرَع فسدّ طرق التجار القاصدين إليهم، فتعذّرَتْ عليهم الكسوات، ومُنِع عنهم المِيرة والأقوات التي تجلب وتحمَل من أعمال ما وراء النهر إلى تركستان، فلو اقتنع بذلك لكان قريباً، لكِنّه أنْهى إليه نائبه بالمدينة المعروفة بأوتران، وهي آخر ولايته بما وراء النهر، أنّ جنكزخان قد سيّر جماعة من تجّار التّتار، ومعهم شيء عظيم من الفِضّة إلى سَمَرْقَنْد، ليشتروا له ولأهله وبني عمّه كُسْوةً وثياباً وغير ذلك.

فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتل أولئك التجّار، وأخذِ ما معهم من الفضّة وإنفاذها إليه، فقتلَهم وسيَّر إليه الفِضّة. وكان ذلك شيئاً كثيراً جدًّا، ففرّقه خوارزمشاه على تجّار سَمْرقَنْد وبُخارى، وأخذ ثمنه منهم لنفسه. ثم علم أنّه قد أخطأ، فأرسل إلى نائبه بأوتران، يأمره أن ينفذ جواسيس من عنده إليهم، ليخبروه بعدّتهم، فمضت الجواسيسُ، وسلكت مفاوز وجبالاً كثيرة، وعادوا إليه بعد مدّة، فأخبروه، بكثرة عددهم، وأنهم لا يبلغهم الإحصاء ولا يدركهم، وأنهم من أصْبَر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار، ويعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، وأنّ خيلَهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعي، وأن عندهم من الخيل والبقر ما لا يُحصى، وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير، وهم أصبرُ خَلْق الله على الجوع والعطش والشَّقَاء، وثيابُهم من أخشن الثّياب مسًّا، ومنهم مَنْ يلبس جلود الكلاب والدوابّ الميّتة، وأنهم أشبهُ شيء بالوحش والسباع.

فأُنهيَ ذلك كلُّه إلى خُوارزمشاه، فندمَ على قتل أصحابهم، وعلى خَرْق الحجاب بينه وبينهم، وأخذ أموالهم، وغلَب عليه الفِكْر والوَجَل، فأحضر الشهاب الخيوقيّ، وهو فقيه

فاضل كبير المحلّ عنده، لا يخالف ما يشير به، فقال له: قد حَدَث أمرٌ عظيم لابدّ من الفكر فيه، وإجالة الرأي فيما نفعل، وذلك أنّه قد تحرّك إلينا خَصْمٌ من الترك في عدد لا يحصى، فقال له: عساكرك كثيرة، وتكاتِبُ الأطراف، وتجمع الجنود، ويكون من ذلك نفيرٌ عام، فإنّه يجب على المسلمين كافّة مساعدتُك بالأموال والرجال، ثم تذهب بجميع العساكر إلى جانب سَيْحُون، وهو نهر كبير يفصِلُ بين بلاد الترك وبين بلاد خوارِزْ مشاه، فتكون هناك، فإذا جاء العدوّ وقد سار مسافة بعيدة، لقيناه ونحن جامُّون[1] مستريحون، وقد مسّه وعساكرَه النصبُ واللُّغوب.

فجمع خُوارِزْمشاه أمراءه، ومَنْ عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم فقالوا: لا بل الرأيُ أن نتركهم ليعبُروا سيحون إلينا، ويسلُكوا هذه الجبال والمضايق، فإنهم جاهلون بطرقها، ونحن عارفون بها، فنظهرُ عليهم، ونهلِكُهم عن آخرهم.

فكانوا على ذلك حتى وصل رسول من جنكزخان ومعه جماعة، يتهدّد خُوارِزْمشاه، ويقول: تقتلُ أصحابي وتجاري، وتأخذ مالي منهم! استعدّ للحرب، فإني واصل إليك بجمْع لا قِبَل لك به.

فلما أدّى هذه الرسالة إلى خُوارِزْمشاه أمر بقتل الرسول فقتِل، وحلق لِحَى الجماعة الذين كانوا معه، وأعادَهم إلى صاحبهم جنكزخان ليخبِرُوه بما فعل بالرسول، ويقولوا له: إنَّ خُوارزمشاه يقول لك: إني سائر إليك، فلا حاجة لك أن تسير إليّ، فلو كنتَ في آخر الدّنيا لطلبتك حتى أقتلك، وأفعل بك وبأصحابك ما فعلتُ برسلك.

وتجهّز خُوارزمشاه، وسار بعد نفوذ الرّسول، مبادراً لسبْق خبرِه، ويكبس التتار على غِرّة، فقطع مسيرةَ أربعة أشهر في شهر واحد، ووصل إلى بيوتهم وخَرْكاواتهم[2] فلم يرَ فيها إلاّ النّساء والصِّبْيان والأثقال، فأوقَع بهم، وغَنِم الجميع، وسبَى النّساء والذرّية.

وكان سبب غيبوبة التّتار عن بيوتهم أنهم سارُوا إلى محاربة ملك من ملوك التّرك، يقال له «كشلوخان»، فقاتلوه فهزموه، وغَنِمُوا أمواله، وعادوا، فلقِيَهم الخبر في طريقهم بما فَعَل خوارزمشاه بمخلّفيهم، فأغذُّوا السيرَ فأدركوه، وهو على الخروج من بيوتهم، بعد فراغه من الغنيمة، فواقعوه وتصافُّوا للحرب ثلاثة أيام بلياليها، لا يفترون نهاراً ولا ليلاً، فقتِل من الفريقين ما لا يعدّ، ولم ينهزم منهم أحد.

---

(١) جُمَّ الفرس: تُرك فلم يُركب فَعَفَا من تعبه. القاموس، مادة (جمم).
(٢) خركاه: الخيمة الضخمة. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (خرك).

أما المسلمون فصبَرُوا حَمِيّةً للدين، وعلمُوا أنهم إن انهزموا لم يبقَ للإسلام باقية، ثم إنّهم لا ينجُون، بل يؤخَذون ويؤسَرون لبعدهم عن بلادٍ يمتنعون بها، وأما التّتار فصبروا لاستنقاذ أموالهم وأهلهم، واشتد الخطب بين الطائفتين، حتى إنّ أحدَهم كان ينزل عن فرسه، ويقاتل قِرْنه راجلاً، مضاربَةً بالسكاكين، وجرى الدَّمُ على الأرض، حتى كانت الخيل تزلق فيه لكثرته، ولم يحضر جنكزخان بنفسِه هذه الوقعة، وإنما كان فيها قاآن ولدُه، فأحصِيَ مَنْ قُتِل من المسلمين فكانوا عشرين ألفاً، ولم يحصَ عِدّةُ مَنْ قتِل من التتار.

فلما جاءت اللَّيلةُ الرابعة افترقوا، فنزل بعضُهم مقابل بعض، فلما أظلم الليل، أوقد التتار نيرانَهم، وتركوها بحالها، وساروا راجعين إلى جنكزخان ملكهم، وأمّا المسلمون فرجعوا ومعهم محمد خوارزمشاه، فلم يزالوا سائرين حتى وافَوْا بُخارى، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له بجنكزخان، لأنَّ طائفة من عسكره لم يلقوا خوارزمشاه بجميع عساكره بهم، فكيف إذا حشدوا وجاؤوا على بكرة أبيهم، وملكهم جنكزخان بينهم.

فاستعدّ للحصار، وأرسل إلى سمرقند يأمرُ قُوّاده المقيمين بها بالاستعداد للحصار، وجَمَع الذخائر للامتناع والمقام من وراء الأسوار، وجعل في بخارى عشرين ألف فارس يحمونها، وفي سمرقند خسمين ألفاً، وتقدّم إليهم بحفظ البلاد حتى يَعبر هو إلى خوارزم وخراسان، فيجمع العساكر، ويستنجد بالمسلمين والغزاة المطّوّعة ويعود إليهم.

ثم رحل إلى خُراسان، فعبَر جيحُون، وكانت هذه الوقعة في سنة ست عشرة وستمائة فنزل بالقرب من بَلْخ، فعسكر هناك، واستنفر النّاس.

وأما التتار فإنّهم رحلوا بعد أن استعدُّوا يطلبون بلاد ما وراء النهر، فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من رحيل خوارزمشاه عنها، وحصروها، فقاتلوا العسكر المرابط بها ثلاثة أيام قتالاً متتابعاً، فلم يكن للعسكر الخوارزميّ بهم قوة، ففتحوا أبواب المدينة ليلاً، وخرجوا بأجمعهم عائدين إلى خراسان، فأصبح أهلُ بخارى وليس عندهم من العسكر أحد أصلاً، فضعفت نفوسهم، فأرسلوا قاضي بخارى ليطلُب الأمان للرعيّة، فأعطاه التّتار الأمان، وقد كان بقي في قلعة بخارى خاصة طائفة من عسكر خوازمشاه معتصمون بها.

فلمّا رأى أهلُ بخارى بذلَهم للأمان، فتحوا أبوابَ المدينة، وذلك في رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل التتار بُخارَى، ولم يتعرّضوا لأحدٍ من الرعيّة، بل قالوا لهم: كلّ ما لخوارِزْمشاه عندكم من وديعةٍ أو ذخيرةٍ أخرجوه إلينا، وساعدونا على قتال مَنْ بالقلعة، ولا بأس عليكم. وأظهروا فيهم العدلَ وحسنَ السّيرة ودخل جنكزخان بنفسِه إلى البلد، وأحاط بالقلعة، ونادى مناديه في البلدان: لا يتخلّف أحدٌ، ومَنْ تخلّف قُتِل. فحضر النّاسُ بأسرهم، فأمرهم بطمّ الخندق فطمّوه بالأخشاب والأحطاب والتراب، ثم زحفوا نحو القلْعة، وكان عدّةُ

مَن بها من الجند الخوارزمية أربعمائة إنسان، فبذلوا جهدَهم، ومنعوا القلعة عشرة أيام إلى أنْ وصل النقّابون إلى سور القلعة، فنقبوه ودخلوا القلعة، فقتلوا كلَّ مَن بها من الْجند وغيرهم.

فلما فرغوا منها أمَر جنكزخان أن يكتُبَ له وجوهُ البلد ورؤساؤهم، ففعل ذلك، فلما عَرَضُوا عليه أمر بإحضارهم، فأحضَرُوا، فقال لهم: أريد منكم الفضّة النُّقْرة[1] التي باعها إياكم خوارزْمشاه، فإنّها لي، ومِنْ أصحابي أخِذَتْ. فكان كلّ مَنْ عنده شيء منها يحضِره، فلما فرغ من ذلك أمرهم بالخروج عن البلد بأنفسهم خاصّة، فخرجوا مجرّدين عن أموالهم، ليس مع كلِّ واحد منهم إلا ثيابُه الّتي على جسده، فأمرَ بقتلهم، فقتِلُوا عن آخرهم، وأمر حينئذٍ بنهب البلد، فنهب كلُّ ما فيه، وسبِيَت النساء والأطفال، وعذَّبُوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال. ثم رحلوا عنه نحو سَمَرْقَنْد، وقد تحققُوا عَجْزَ خوارزمشاه عنهم، واستصحبوا معهم مَنْ سَلِمَ من أهل بخارى، أسارى مشاةً على أقبح صورة، وكلُّ مَنْ أعيا وعجز عن المشي قتلوه.

فلما قاربوا سَمَرْقند، قدّموا الخيّالة، وتركوا الرجّالة والأسارى والأثقال وراءهم، حتى يلتحقوا بهم شيئاً فشيئاً، ليرعِبوا قلوبَ أهل البلد، فلمّا رأى أهلُ سَمَرْقند سوادَهم، استعظموهم، فلمّا كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجّالة والأثقال، ومع كلِّ عشرة من الأسارى عَلَم، فظنَّ أهلُ البلد أنّ الجميع عسكر مقاتلة، فأحاطوا بسَمَرْقَنْد، وفيها خمسون ألفاً من الخوارزمية، وما لا يحصى كثرة من عوامّ البلد، فأحجم العسكر الخوارزميّ عن الخروج إليهم، وخرجت العامّة بالسلاح، فأطمعهم التتار في أنفسهم، وتهقروا عنهم، وقد كمّنوا لهم كُمناء: فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم منْ ورائهم، وشدّ عليهم مِنْ ورائهم جمهورُ التتار، فقتلوهم عن آخرهم.

فلما رأى مَنْ تخلّف بالبلد ذلك، ضعفت قلوبهم، وخيّلَت للجند الخوارزمي أنفسهم أنّهم إن استأمنوا إلى التتار أبقَوْا عليهم للمشاركة في جنسية التركيّة، فخرجوا بأموالهم وأهليهم إليهم مستأمنين، فأخذوا سلاحهم وخيلهم، ثم وضعوا السيف فيهم، فقتلوهم كلّهم، ثم نادوْا في البلد: برئت الذمّة ممّن لم يخرج، ومن خرج فهو آمن. فخرج الناس إليهم بأجمعهم، فاختلطوا عليهم، ووضعوا فيهم السيف، وعذّبوا الأغنياء منهم، واستصفَوْا أموالهم، ودخلوا سَمَرْقَنْد، فأخربوها، ونقضوا دورها، وكانت هذه الوقعة في المحرّم سنة سبع عشرة وستمائة.

وكان خوارزمشاه مقيماً بمنزله الأوّل، كلّما اجتمع له جيش سَيّره إلى سمرقند، فيرجع ولا يقدم على الوصول إليها، فلما قضوا وطراً من سَمَرْقند، سيّر جنكزخان عشرين ألف فارس، وقال لهم: اطلبوا خوارزمشاه أينَ كان، ولو تعلّق بالسماء، حتى تدركوه وتأخذوه!

(١) النقرة: القطعة المذابة من الذهب والفضة. القاموس، مادة (نقر).

وهذه الطائفة تُسمِّيها التتار المغرّبة، لأنّها سارت نحو غرب خراسان، وهم الّذِين أوغلوا في البلاد، ومقدّمهم جرماغون، نسيب جنكزخان.

وحكي أنّ جنكزخان كانَ قد أمَّر على هذا الجيش ابنَ عمّ له شديد الاختصاص به، يقال له متْكلي نويرة، وأمَرَه بالجدّ وسرعة المسير، فلما ودّعه، عطف متكلي نويرة هذا، فدخل إلى خركاة، فيها امرأة له كان يهواها ليودّعها، فاتصل ذلك بجنكزخان، فصرفه في تلك الساعة عن إمارة الجيش، وقال: مَنْ يَثنِي عزمَه امرأة لا يصلح لقيادة الجيوش. ورتّب مكانه جرماغون، فساروا وقصدوا من جيحون موضعاً يسمى «بنج آب» أي خمسة مياه، وهو يمنع العبور، فلم يجدوا به سفناً، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، ولبّسوه جلود البقر، ووضعوا فيه أسلحتهم، وأقحموا خيولهم الماء، وأمسكوا بأذنابها، وتلك الأحواض مشدودة إليها، فكان الفرَس يجذب الرجل، والرجُل يجذب الحوض، فعبروا كُلُّهم ذلك الماء دَفْعَةً واحدة، فلم يشعر خوارزمشاه بهم إلاّ وهم معه على أرض واحدة، وكان جيشه قد مليء رعباً منهم، فلم يقدروا على الثّبات، فتفرّقوا أيدي سَبَا، وطلبَ كلّ فريق منهم جهة، ورحل خوارزمشاه في نفرٍ من خواصّه، لا يلوِي على شيء، وقصد نيسابور، فلمّا دخلها اجتمع عليه بعضُ عسكره فلم يستقرّ، حتى وصل جرماغون إليه، وكان لا يتعرّض في مسيره بنهب ولا قتل، بل يطوي المنازل طيًّا، يطلب خوارزمشاه ولا يمهله ليجمع عسكراً. فلما عرف قرب التّتار منه، هرب من نيسابور إلى مازندران، فدخلها ورحل جرماغون خلْفه، ولم يعرِّج على نيسابور، بل قصد مازندران، فخرج خوارزم شاه عنها، فكان كلّما رحل عن منزل نزله التتار، حتى وصل إلى بحر طَبَرِسْتَان، فنزل هو وأصحابه في سفن، ووصل التّتار، فلما عرفوا نزوله البحر، رجعوا وأيسوا منه.

وهؤلاء الّذين ملكوا عراق العجم وأذْرَبِيجان، فأقاموا بناحيةِ تِبْريز إلى يومنا هذا.

ثم اختلِف في أمر خوارزمشاه، فقوْمٌ يحكون أنّه أقام بقلعة له في بحر طَبَرِسْتان منيعة، فتوفِّيَ بها، وقوم يحكون أنه غرِق في البحر، وقوم يحكون أنّه غرق ونجا عُرياناً، فصعد إلى قرية من قرى طَبَرِستان، فعرَفه أهلها، فجاؤوا وقبّلوا الأرض بين يديه، وأعلموا عاملَهم به، فجاء إليه وخدَمه، فقال له خوارزم شاه: احْمِلْنِي في مركبٍ إلى الهند، فحمله إلى شمس الدين أنليمش ملك الهند، وهو نسيبه من جهة زوجته والدة منكبوني بن خوارزم شاه الملك جلال الدين، فإنّها هندية من أهل بيت الملك، فيقال إنه وصل إلى أنليمش، وقد تغيّر عقله مِمّا اعتراه من خوف التتار، أو لأمر سلّطه الله تعالى عليه، فكان يهذِي بالتّتار بكرةً وعشية، وكلّ وقت وكلّ ساعة، ويقول: هو ذا هم قد خرجوا من هذا الباب، قد هجموا من هذه الدرجة، ويُرْعَد ويحول لونه، ويختلّ كلامه وحركاته.

وحكى لي فقيه خُرَاسَاني وصل إلى بغداد يعرف بالبرهان، قال: كان أخي معه، وكان ممّن يثق خوارزمشاه به، ويختصُّه، قال: له خوارزمشاه لما تغيّر عقله بكلمة كان يقولها: «قراتتر كلدي» يكرّرها، وتفسيرها: «التتر السّود قد جاؤوا»، وفي التّتر صِنْف سود يشبهون الزّنج، لهم سيوف عريضة جداً على غير صورة هذه السيوف، يأكلون لحوم الناس، فكان خوارزم شاه قد أُهتِرَ[1] وأغرِيَ بذكرهم.

وحدّثني البرهان، قال: رَقِيَ به شمسُ الدّين أنليمش إلى قلعة من قلاع الهند، حصينة عالية شاهقة لا يعلوها الغيم أبداً، وإنما تمطر السحب من تحتها. وقال له: هذه القلعة لك وذخائرها أموالك، فكن فيها وادعاً آمناً إلى أن يستقيم طالعك، فالملوك ما زالوا هكذا، يُدْبِرُ طالعُهم ثم يقبل، فقال له: لا أقدر على الثّبات فيها، والمقام بها، لأنّ التتر سوف يطلبونني، ويقدمون إلى ها هنا، ولو شاؤوا لوضعوا سروج خيلهم واحداً على واحد تحت القلعة، فبلغت إلى ذروتها، وصعِدوا عليها، فأخذوني قبضاً باليد، فعلم أنليمش أنَّ عقله قد تغير، وأنّ الله تعالى قد بدّل ما به من نعمة، فقال: فما الّذي تريد؟ قال: أريد أن تحمِلني في البحر المعروف ببحر المعبر إلى كِرْمان، فحمله في نفر يسير من مماليكه إلى كِرْمان، ثم خرج منها إلى أطراف بلاد فارس، فمات هناك في قرية من قرى فارس، وأخفِيَ موتُه، لئلا يقصدَه التتر، وتطلبَ جثّته.

وجملة الأمر أنّ حاله مشتبهة ملتبِسة لم يتحقّق على يقين، وبقِيَ النّاس بعد هلاكه نحو سبع سنين ينتظرونه.

ويذهب كثير منهم إلى أنّه حيّ مستتر، إلى أن ثبت عند الناس كافّة أنه هلَك.

فأمّا جرماغون فإنّه لما يئس من الظّفَر بخُوارزمشاه، عاد من ساحل البحر إلى ما زندران، فملَكها في أسرع وقت، مع حصانتها وصعوبة الدُّخول إليها وامتناع قلاعها، فإنّها لم تزل ممتنعة على قديم الوقت، حتى إنّ المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة من العراق إلى أقصى خُراسان، بقيت أعمال مازندران بحالها تؤدّي الخراج، ولا يقدر المسلمون على دخولها، إلى أيّام سليمان بن عبد الملك.

ولما ملكت التّتار مازندران، قتلوا فيها ونهبوا وسلبوا، ثم سلكوا نحو الريّ فصادفوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه، ومعهنّ أموال بيت خوارزمشاه وذخائرهم، التي ما لا يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة، وهنّ قاصداتٌ نحو الرّيّ، ليعتصمن ببعض القلاع المنيعة،

(١) أهتر: أولع بالقول في الشيء. القاموس المحيط، مادة (هتر).

فاستولَى التّتار عليهنّ وعلى ما معهنّ بأسره، وسيّروه كلّه إلى جنكزخان بسمرْقَنْد وصمدوا صَمْد الرّيّ، وقد كان اتّصل بهم أنّ محمداً خوارزمشاه قَصَده كما يتسامع النّاس بالأراجيف الصحيحة والباطلة، فوصلوها على حين غفلة من أهلها، فلم يشعرْ بهم عسكر الرّيّ إلا وقد ملكوها ونهبوها، وسبوا الحرم، واسترقّوا الغلمان، وفعلوا كلّ قبيح منكر فيها، ولم يقيموا بها، ومضوْا مسرعين في طلب خُوارزمشاه، فنهبوا في طريقهم ما مرُّوا به من المدن والقرى، وأحرقوا وخربوا، وقتلوا الذّكران والإناث، ولم يبقوا على شيء، وقصدوا نحو هَمذان، فخرج إليهم رئيسها، ومعه أموال جليلة قد جمعها من أهل هَمَذان، عيْناً وعُروضاً وخيلاً، وطلب منهم الأمان لأهل البلد، فأمّنوهم، ولم يعرِضوا لهم وساروا إلى زَنْجان، واستباحوها، وإلى قزوين فاعتصم أهلها منهم بقصَبة مدينتهم، فدخلوها بالسيف عَنْوةً، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً بالسّكاكين - وهم معتادون بقتال السِّكين من حروبهم مع الإسماعيلية - فقتِل من الفريقين ما لا يحصى. ويقال: إنَّ القتلَى بلغت أربعين ألفاً من أهل قَزْوين خاصة.

ثم هجم على التّتار البردُ الشديد والثّلج المتراكم، فساروا إلى أذربيجانَ، فنهبوا القرى، وقتلوا مَنْ وقف بين أيديهم، وأخربوا وأحرقوا، حتى وصلوا إلى تِبْريز، وبها صاحب أذرَبيجان أزبك بن البهلوان بن أيلدكر، فلم يخرج إليهم، ولا حدّث نفسه بقتالهم، لاشتغاله بما كان عليه من اللّهْو وإدمان الشرب ليلاً ونهاراً. فأرسل إليهم، وصالح لهم على مال وثياب ودوابّ، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يطلبون ساحل البحر، لأنه مشتّى صالح لهم، والمراعي به كثيرة، فوصلوا إلى مُوقان، وهي المنزل الذي نزلته الخرَّميَّة في أيام المعتصم، وقد ذكره الطائيّان في أشعارهما في غير موضع، والناس اليوم يقولون بالغين المعجمة عوض القاف، وقد كانوا تطرّقُوا في طريقهم بعضَ أعمال الكرْج، فخرج إليهم منهم عشرة آلاف مقاتل، فحاربوهم، وقتلوا أكثرَهم.

فلما استقرُّوا بمُوقان، راسلت الكرج أزبك بن البهلوان في الاتّفاق على حربهم، وراسلوا موسى بن أيوب المعروف بالأشرف، وكان صاحب خِلاَط وإرمينيّة بمثل ذلك، وظنُّوا أنهم يصبرون إلى أيام الربيع وانحسار الثلوج، فلم يصبروا، وصاروا من مُوقان في صميم الشتاء نحو بلاد الكُرْج، فخرجت إليهم الكُرْج، واقتتلوا قتالاً شديداً، فلم يثبتوا للتتار، وانهزموا أقبح هزيمة، وقتل منهم مَنْ لا يحصى، فكانت هذه الوقعة في ذي الحجة من سنة سبع عشرة وستمائة.

ثم توجّهوا إلى المراغة في أوّل سنة ثماني عشرة، فملَكُوها في صفر، وكانت لامرأةٍ من بقايا ملوك المراغة تدبرها هي ووزراؤها، فنصَبُوا عليها المجانيق، وقدّموا أسارى المسلمين

بين أيديهم، وهذه عادتهم يتترّسون بهم في الحروب، فيصيبهم حدّها، ويسلَمُون هم من مضرّتها، فملكوها عَنْوَةً، ووضعوا السيف في أهلها، ونهبوا ما يصلح لهم، وأحرقوا ما لا يصلح لهم، وخذّل الناس عنهم، حتى كان الواحد منهم يقتل بيده مائة إنسان، والسيوف في أيديهم لا يقدرُ أحدٌ منهم أن يحرّك يده بسيفه نحو ذلك التتريّ، خذلانٌ صبّ على الناس، وأمر سمائيّ اقتضاه.

ثم عادوا إلى هَمَذَان، فطالبوا أهلها بمثل المال الذي بذلوه لهم في الدّفعة الأولى، فلم يكن في الناس فضل لذلك، لأنه كان عظيماً جدًّا، فقام إلى رئيس هَمَذَان جماعة من أهلها، وأسمعوه كلاماً غليظاً، فقالوا: أفقرتنا أوّلاً، وتريد أن تَسْتَصْفِينا دفعة ثانية! ثم لا بدّ للتتار أن يقتلونا، فدعْنا نجاهدهم بالسيف، ونموت كراماً. ثم وثبوا على شحنة كان للتتار بهمذان فقتلوه، واعتصموا بالبلد فحصرّهم التّتار فيه، فقلّت عليهم الميرة، وعدِمت الأقوات. وأضرّ ذلك بأهل همذان، ولم ينل التتار مضرَّة من عدم القوت، لأنهم لا يأكلون إلا اللحم، والخيل معهم كثيرة، ومعهم غنم عظيمة يسوقونها حيث شاؤوا، خيلهم لا تأكل الشعير، ولا تأكل إلاّ نبات الأرض، تحفر بحوافرها الأرض عن العروق، فتأكلها.

فاضطرّ رئيس همذان وأهلُها إلى الخروج إليهم، فخرجوا، والتحمت الحرب بينهم أياماً، وفُقِد رئيس همذان، هَرَب في سَرَب[1] قد كان أعدّه إلى موضع اعتصم به ظاهر البلد، ولم يُعْلم حقيقة حاله، فتحيّر أهلَ هَمَذان بعد فقده ودخلوا المدينة، واجتمعت كلمتهم على القتال في قَصَبة البلد إلى أن يموتوا. وكان التتار قَد عَزمُوا على الرّحيل عنهم لكثرة مَنْ قُتل منهم. فلمّا لم يروْا أحداً يخرج إليهم من البلد، طمِعُوا واستدلُّوا على ضعف أهله، فقصدوهم وقاتلوهم وذلك في شهر رجب من سنة ثماني عشرة وستمائة، ودخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم النّاس في الدُّروب، وبطل السلاح للازدحام، واقتتلوا بالسّكاكين، فقتِلَ من الفريقين ما لا يحصى، وظهر التّتار على المسلمين فأفنوْهم قتلاً، ولم يسلم منهم إلاّ من كان له نَفَقٌ في الأرض يستخفي فيه. ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوها، ورحلوا إلى مدينة أرْدَبِيل وأعمال أذربيجان، فملكوا أردِبيل، وقتلوا فيها، فأكثروا.

ثم ساروا إلى تِبْريز، وكان بها شمس الدين عثمان الطّغرائيّ، قد جمع كلمة أهلها بعد مفارقة صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان للبلاد، خوفاً من التّتار، ومقامه بنقْجُوان، فقوّى الطغرائيّ نفوسَ الناس على الامتناع، وحذَّرهم عاقبةَ التخاذل، وحَصّن البلد. فلما وصل التّتار، ورأوْا اجتماع كلمة المسلمين وحصانة البلد، طلبوا منهم مالاً وثياباً، فاستقرَّ الأمرُ بينهم

(١) السرب: الطريق. القاموس، مادة (سرب).

على شيء معلوم، فسيَّروه إليهم، فلما أخذوه رحلُوا إلى بَيْلَقَان. فقاتلهم أهلُها. فملكها التتار في شهر رمضان من هذه السنة، ووضعوا فيهم السيف حتى أفْنَوْهم أجمعين.

ثم ساروا إلى مدينة كَنْجَة، وهي أم بلاد أرّان، وأهلُها ذوو شجاعة وبأس وجلَد، لمقاومتهم الكُرْج، وتدرّبهم بالحرب، فلم يقدر التتار عليهم وأرسلوا إليهم يطلبون مالاً وثياباً، فأرسلوه إليهم. فساروا عنهم، فقصدوا الكُرْج، وقد أعدُّوا لهم، فلما صافّوهم هرب الكُرج، وأخذهم السيف، فلم يسلّم إلا الشريد، ونهبت بلادهم وأخربت ولم يُوغل التتار في بلاد الكُرْج، لكثرة مضايقها ودَرْبنداتها[1]، فقصدوا دَرْبَنْد شروان فحصروا مدينة شمَاخِي، وصعدوا سورَها في السّلاليم، وملكوا البلد بعد حَرْبٍ شديدة، وقتلوا فيه فأكثروا.

فلما فرغوا، أرادوا عبورَ الدّربَنْد، فلم يقدموا عليه، فأرسلوا إلى شروان شاه ملك الدربند، فطالبوه بإنفاذ رسولٍ يسعى بينه وبينهم في الصُّلح، فأرسل إليهم عشرة من ثقاته، فلمّا وصلوا إليهم جمعوهم، ثم قتلوا واحداً منهم بحضور الباقين، وقالوا للتسعة: إنْ أنتم عرّفتمونا طريقاً نعبرُ فيه فلكم الأمان، وإلاّ قتلناكم كما قتَلنا صاحبَكم، فقالوا لهم: لا طريق في هذا الدّربند، ولكن نعرّفكم موضعاً هو أسهل المواضع لعبور الخيل.

وساروا بين أيديهم إليه، فعَبروا الدربند، وتركوه وراء ظهورهم، وساروا في تلك البلاد، وهي مملوءة من طرائق مختلفة منهم اللأن واللّكر وأصناف من الترك، فنهبوها وقتلوا الكثير من ساكنيها، ورحلوا إلى اللأن - وهم أمم كثيرة - وقد وصلهم خبرُهم، وجمعوا وحذروا، وانضاف إليهم جموعٌ من قفجاق، فقاتلوهم فلم يظفرْ أحدُ العسكرين بالآخر، فأرسل التّتار إلى قفجاق: أنتم إخواننا، وجنسنا واحد، واللاّن ليسُوا من جنسكم لتنصروهم، ولا دينُهم دينكم، ونحن نعاهدكم ألا نعرِض لكم، ونحمل إليكم من المال والثيّاب ما يستقرّ بيننا وبينكم، على أن تنصرفوا إلى بلادكم.

فاستقرّ الأمر بينهم على مالٍ وثياب حَمَلها التتار إليهم، وفارقت قفجاق اللّان، فأوقع التتار باللأن، فقتلوهم، ونهبوا أموالهم، وسبوْا نساءهم. فلما فرغوا منهم ساروا إلى بلاد قفجاق وهم آمنون متفرّقون، لما استقرّ بينهم وبين التتار من الصُّلح، فلم يشعروا بهم إلا وقد طرقُوهم، ودخلوا بلادَهم، فأوقعوا بهم الأول فالأول، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم، وسمع ما كان بعيد الدار من قفجاق بما جرى.

ففرُّوا عن غير قتال، فأبعدوا، فبعضهم بالغياض وبعضهم بالجبال، وبعضهم لحقوا ببلاد

(١) دَرْبَنْد: زقاق مغلق الآخر، أو مضيق في جبل. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (درب).

الروس. وأقام التّتار في بلاد قَفْجاق، وهي أرض كثيرة المراعي في الشّتاء، وفيها أيضاً أماكن باردة في الصّيف، كثيرة المراعي، وهي غياضٌ[1] على ساحل البحر.

ثم سارت طائفة منهم إلى بلاد الرُّوس، وهي بلاد كثيرة عظيمة، وأهلها نصارى، وذلك في سنة عشرين وستمائة. فاجتمع الرُّوس وقفجاق عن منعهم عن البلاد، فلما قاربهم التتار، وعرفوا اجتماعهم، رجعوا القهقرى إيهاماً للروس، أنّ ذلك عن خوفٍ وحَذَر، فجدّوا في اتّباعهم، ولم يزل التتار راجعين، وأولئك يقْفُون آثارهم اثني عشر يوماً.

ثم رجعت التّتار على الرُّوس وقفجاق، فأثخنوا فيهم قتلاً وأسْراً، ولم يسلم منهم إلاّ القليل، ومن سلِم نزل في المراكب، وخرج في البحر إلى الساحل الشاميّ، وغرق بعض المراكب.

وهذه الوقائع كلّها تولاّها التّتر المغرّبة، الذين قادهم جرماغون، فأمّا ملكهم الأكبر جنكزخان، فإنه كان في هذه المدة بسمَرْقند ما وراء النهر، فقسم أصحابه أقساماً، فبعث قسماً منهم إلى فَرْغانة وأعمالها، فملكوها، وبعث قسماً آخر إلى تَرْمِذ وما يليها فملكُوها، وبعث قسماً آخر إلى بَلْخ وما يليها من أعمال خراسان.

فأمّا بلْخ، فإنهم آمّنوا أهلها، ولم يتعرّضوا لها بنهب ولا قتل، وجعلوا فيها شَحْنَة وكذلك فارِيات وكثير من المدن، إلا أنهم أخذوا أهلها، يقاتلون بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا إلى الطّالِقان، وهي عدّة بلاد، وفيها قلعة حصينة، وبها رجال أنجاد[2]، فأقاموا على حصارها شهوراً فلم يفتحوها، فأرسلوا إلى جنكزخان يعرّفونه عجزهم عنها، فسار بنفسه، وعَبَر جَيْحون، ومعه من الخلائق ما لا يحصى، فنزل على هذه القلعة، وبنى حَوْلها شِبْهَ قلعة أخرى من طين وتراب وخشب وحطب، ونَصَب عليها المنجنيقات، ورمى القلعة بها، فلما رأى أهلُها ذلك فتحوها، وخرجوا وحملوا حَمْلَةً واحدة، فقتِل منهم مَنْ قتل، وسلم مَنْ سَلم، وخرج السالمون فسلَكُوا تلك الجبال والشّعاب، ناجين بأنفسهم، ودخل التّتار القلعة، فنهبوا الأموال والأمتعة، وسَبَوُا النّساء والأطفال.

ثم سيّرجنكزخان جيشاً عظيماً مع أحد أولاده إلى مدينة مَرْو، وبها مائتا ألف من المسلمين، فكانت بين التتار وبينهم حروب عظيمة شديدة، صبَر فيها المسلمون ثم انهزموا، ودخلوا البلد، وأغلقوا أبوابه، فحاصره التتار حصاراً طويلاً، ثم آمنوا متقدم البلد، فلما خرج

(١) الغيضة: جمع غياض، مجتمع الشجر في مغيض ماء. القاموس، مادة (غاض).
(٢) النجيد: الأسد. القاموس، مادة (نجد).

إليهم في الأمان، خلع عليه ابن جنكزخان وأكرمه، وعاهده ألاّ يتعرض لأحدٍ من أهل مَرْو، ففتح الناس الأبواب فلما تمكنوا منهم استعرضوهم بالسيف عن آخرهم، فلم يُبْقُوا منهم باقية، بعد أن استصفوْا أرباب الأموال عقيب عذاب شديد عذّبوهم به.

ثم ساروا إلى نيسابور، ففعلوا به ما فعلوا بمرْوَ من القتل والاستئصال، ثم عمدوا إلى طوس فنهبوها وقتلوا أهلها، وأخرجوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضا عليه السلام والرشيد هارون بن المهديّ، وساروا إلى هَرَاة فحصروها، ثم أمّنوا أهلها، فلما فتحوها قتلوا بعضهم، وجعلوا على الباقين شِحْنة، فلما بعدُوا وثب أهلُ هَراة على الشّحنة فقتلوه، فعاد عليهم عسكر من التتار، فاستعرضوهم بالسيف، فقتلوهم عن آخرهم.

ثم عادوا إلى طالَقان، وبها ملكهم الأكبر جنكزخان، فسيّر طائفةً منهم إلى خُوارزم، وجعل فيها مقدّم أصحابه وكبراءهم، لأن خوارزم حينئذ كانت مدينة الملك، وبها عسكر كثير من الخوارزميّة، وعوامّ البلد معروفون بالبأس والشجاعة، فساروا ووصلوا إليها، فالتقى الفئتان، واقتتلوا أشد قتال سُمِع به، ودخل المسلمون البلد، وحصرتهم التتار خمسة أشهر، وأرسل التتار إلى جنكزخان يطلبون المدَد، فأمدهم بجيش من جيوشه، فلما وصل قويَتْ منّتهم به وزحَفُوا إلى البلد زحفاً متتابعاً، فملكوا طرَفاً منه، وولجوا المدينة، فقاتلهم المسلمون داخل البلد، فلم يكن لهم به طاقة، فملكوه وقتلوا كلَّ مَنْ فيه، فلما فرغوا منه وقضَوا وطرَهم من القتل والنهب، فتحوا السُّكْر الذي يمنع ماء جيحون عن خوارزم، فدخل الماء البلد، فغرق كله، وانهدمت الأبنية، فبقي بحراً، ولم يسلم من أهل خوارزم أحد البتّة، فإنّ غيره من البلاد كان يسلم نفرٌ يسير من أهلها، وأما خوارزم فمن وقَف للسيف قُتِل، ومن استخفَى غرّقه الماء أو أهلكه الهدْم، فأصبحت خوارزم يبابا[1].

فلما فرغ التّتر من هذه البلاد، سيَّروا جيشاً إلى غزنة، وبها حينئذ جلال الدين منكبري بن محمد خوارزم شاه مالكها، وقد اجتمع إليه من سَلِمَ من عسكر أبيه وغيرهم، فكانوا نحو ستين ألفاً، وكان الجيش الذي سار إليهم من التتار اثني عشر ألفاً، فالتقَوْا في حدود غَزْنة، واقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام، ثم أنزل الله النصر على المسلمين، فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وتحيّز الناجون منهم إلى الطالقان، وبها جنكزخان، وأرسل جلال الدين إليه رسولاً يطلب منه أن يعين موضعاً للحرب، فاتّفقوا على أن يكون الحرب بكابُل، فأرسل جنكزخان إليها جيشاً، وسار جلال الدين إليها بنفسه، وتصافُّوا هناك، فكان الظفر للمسلمين، وهرب

(١) أرض يباب: أي خراب. القاموس، مادة (يبب).

التتار فالتجؤوا إلى الطالقان، وجنكزخان مقيم بها أيضاً، وغَنم المسلمون منهم غنائمَ عظيمة، فجرت بينهم فتنة عظيمة في الغنائم، وذلك لأنّ أميراً من أمرائهم اسمه بغراق، كان قد أبلى في حرب التَّتَر هذه، جَرَتْ بينه وبين أمير يعرف بملك خان نسيب خوارزم شاه مقاولةٌ أفضتْ إلى أن قتل أخ لبغراق، فغضب وفارق جلال الدين في ثلاثين ألفاً، فتبعه جلال الدين واسترضاه واستعطفه، فلم يرجع، فضعُف جانب جلال الدين بذلك، فبينا هو كذلك وصلَه الخبر أنّ جنكزخان قد سار إليه من الطالقان بنفسه وجيوشه، فعجز عن مقاومته، وعلم أنه لا طاقة له به، فسار نحو بلاد الهند وعَبَر نهر السند، وترك غَزْنة شاغرة كالفريسة للأسد، فوصل إليها جنكزخان فملكها، وقتل أهلها وسَبَى نساءها، وأخرب القصور، وتركها كأمس الغابر.

ثم كانت لهم بعد ملك غزنة واستباحتها وقائعُ كثيرةٌ مع ملوك الروم بني قلج أرسلان لم يوغلوا فيها، في البلاد وإنما كانوا يتطرّقونها وينهبون ما تاخمهم منها، وأذعن لهم ملوك فارس وكِرْمان والتِّيز ومُكران بالطاعة، وحملوا إليهم الإتاوة، ولم يبق في البلاد الناطقة باللسان الأعجميّ بلد إلا حكم فيه سيفُهم أو كتابهم، فأكثر البلاد قتلوا أهلها، وسبق السيف فيهم العذَل، والباقي أدّى الإتاوة إليهم رغماً، وأعطى الطاعة صاغراً، ورجع جنكزخان إلى ما وراء النهر، وتوفي هناك.

وقام بعده ابنه قاآن مقامه، وثبت جرماغون في مكانه بأذرَبيجان. ولم يبقَ لهم إلا أصبهان، فإنهم نزلوا عليها مراراً في سنة سبع وعشرين وستمائة. وحاربهم أهلها. وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة، ولم يبلغوا منها غرضاً، حتى اختلَف أهلُ أصبهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان: حنفيّة وشافعيَّة، وبينهم حروب متَّصِلة وعصبيّة ظاهرة فخرج قومٌ من أصحاب الشافعيّ إلى من يجاورهم ويتاخمهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلّمه إليكم، فنقِل ذلك إلى قاآن بن جنكزخان بعد وفاة أبيه، والملْك يومئذ منوطٌ بتدبيره، فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدّة التي بنوْها وسمّوها قراحرم، فعبرت جيحون مغرّبة، وانضمّ إليها قوم ممّن أرسله جرماغون على هيئة المددِ لهم، فنزلوا على أصفهان في سنة ثلاث وثلاثين المذكورة وحصروها، فاختلف سيفاً الشافعية والحنفيّة في المدينة، حتى قتِل كثير منهم، وفتحت أبوابُ المدينة، وفتحَها الشافعيّة على عهد بينهم وبين التّتار أن يقتلوا الحنفيّة، ويعفوا عن الشافعيّة، فلمّا دخلوا البلد بدأوا بالشافعية، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفيّة، ثم قتلوا سائر الناس، وسَبَوْا النساء، وشقُّوا بطونَ الحبالى، ونهبوا الأموال، وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا أصبهان، حتى صارت تلولاً من الرماد.

فلمّا لم يبق لهم بلدٌ من بلاد العجم إلا وقدْ دوّخوه، صمدوا نحو إربل في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وقد كانوا طرقوها مراراً، وتحيّفوا بعضَ نواحيها فلم يُوغِلوا فيها، والأمير المرتّب

بها يومئذ باتكين الروميّ، فنزل عليها في ذي القعدة من هذه السنة منهم نحو ثلاثين ألف فارس، أرسلهم جرماغون، وعليهم مقدَّم كبير من رؤسائهم يعرف بجكتاي، فغاداها القتال وراوَحها، وبها عسكر جمّ من عساكر الإسلام، فقتِل من الفريقين خلق كثير، واستظهر التتار، ودخلوا المدينة، وهَرَب الناس إلى القلعة، فاعتصمُوا بها، وحصرهم التّتار، وطال الحصار حتى هلك الناس في القلعة عطشاً، وطلب باتكين منهم أن يصالحوه عن المسلمين بمالٍ يؤديه إليهم، فأظهروا الإجابة، فلما أرسل إليهم ما تقرّر بينهم وبينه، أخذوا المال وغدرُوا به، وحملوا على القلعة بعد ذلك حملاتٍ عظيمة، وزحفوا إليها زحفاً متتابعاً، وعلّقوا عليها المنجنيقات الكثيرة، وسيّر المستنصر بالله الخليفة جيوشَه مع مملوكه وخادم حضرته وأخصّ مماليكه به شرف الدين إقبال الشرامي، فساروا إلى تَكْرِيت، فلما عرف التّتر شخوصَهم رَحَلوا عن إربل، بعد أن قتلوا منها ما لا يُحصى، وأخربوها وتركوها كجوْف حمار، وعادوا إلى تِبريز، وبها مقام جرماغون، وقد جعلها دارَ مُلْكه.

فلما رَحَلُوا عن إربل، عاد العسكر البغداديّ إلى بغداد، وكانت للتتار بعد ذلك نهضات وسرايا كثيرة إلى بلاد الشام، قتلوا ونهبُوا وسَبَوْا فيها، حتى انتهت خيولهم إلى حلَب، فأوقعوا بها، وصانعهم عنها أهلُها وسلطانها، ثم عمدوا إلى بلاد كَيْ خِسْرُو صاحب الروم، وذلك بعد أن هلك جرماغون، وقام عوضه المعروف ببايايسيجو، وكان قد جمع لهم ملك الروم قضَّه وقضيضَه، وجيشه ولفيفَه، واستكثر من الأكراد العتمرية، ومن عساكر الشام وجُنْد حلب، فيقال: إنه جمع مائة ألف فارس وراجل، فلقَيه التّتار في عشرين ألفاً، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة، قتلوا فيها مقدّمته، وكانت المقدمة كلُّها أو أكثرها من رجال حلب، وهم أنجاد أبطال، فقتِلوا عن آخرهم، وانكسر العسكر الروميّ، وهرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكيّة، فاعتصم بها وتمزّقت جموعه، وقتِل منهم عدد لا يحصى، ودخلت التّتار إلى المدينة المعروفة بقيْساريّة، ففعلوا فيها أفاعيل منكَرة من القتل والنهب والتحريق، وكذلك بالمدينة المعروفة بسيواس وغيرها من كبار المدن الروميَّة، وبَخَع[1] لهم صاحب الروم بالطاعة، وأرسل إليهم يسألهم قبولَ المال والمصانعة، فضربوا عليه ضريبةً يؤدّيها إليهم كلّ سنة، ورجعوا عن بلاده.

وأقاموا على جُملة السّكون والموادعة للبلاد الإسلامية كلّها، إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة. فاتفّق أنّ بعض أمراء بغداد وهو سليمان بن برجم، وهو مقدّم الطائفة المعروفة بالإيواء، وهي من التركمان، قتلَ شِحْنة من شِحنهم في بعض قلاع الجبل يعرف

(١) بخع له: خضع له. القاموس، مادة (بخع).

بخليل بن بدر، فأثار قتلُه أن سار من تِبريز عشرة آلاف غلام منهم، يطوون المنازل، ويسبِقُون خبرهم، ومقدّمهم المعروف بجكتاي الصغير، فلم يشعر الناس ببغداد إلا وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة في فصل الخريف، وقد كان الخليفة المستعصم بالله، أخرَج عسكره إلى ظاهر سُور بغداد على سبيل الاحتياط، وكان التتر قد بلغهم ذلك، إلاّ أنّ جواسيسهم غرّتهم، وأوقعت في أذهانهم أنه ليس خارج السُّور إلا خيام مضروبة وفساطيطُ مضروبة، لا رجالَ تحتها، وأنكم متى أشرْفتم عليهم ملكْتم سوادَهم وثَقَلهم، ويكون قُصارَى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزمُوا إلى البلد، ويعتصموا بجدرانه، فأقبلت التتر على هذا الظنّ، وسارت على هذا الوهم.

فلما قربوا من بغداد، وشارفوا الوصول إلى المعسكر، أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه شرف الدين إقبالاً الشرابيّ إلى ظاهر السور، وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين، فإنّ التتار لو وصلُوا وهو بعد لم يخرج، لاضطرب العسكرُ، لأنّهم كانوا يكونون بغير قائد ولا زعيم، بل كلّ واحد منهم أمير نفسه، وآراؤهم مختلفة، لا يجمعهم رأي واحد، ولا يحكم عليها حاكم واحد، فكانوا في مظنّة الاختلاف والتفرّق، والاضطراب والتشتت، فكانَ خروج شرف الدين إقبال الشرابيّ في اليوم السادس عشر من هذا الشهر المذكور، ووصلت التّتر إلى سور البلد في اليوم السابع عشر، فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفًّا واحداً، وترتب العسكر البغداديّ ترتيباً منتظماً، ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعددهم وخيولهم، ما لم يكونوا يظنُّونه ولا يحسبونه، وانكشف ذلك الوَهْم الذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان.

وكان مدبّر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت، هو الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقميّ، ولم يحضر الحرْب، بل كان ملازماً ديوانَ الخلافة بالحضرة، لكنه كان يمدّ العسكر الإسلاميّ من آرائه وتدبيراته بما ينتهون إليه ويقفون عنده، فحملت التّتار على عسكر بغداد حملات متتابعة، ظنوا أنّ واحدةً منها تهزمهم، لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم، وأنّ الرعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم، فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثُبوت، ورشقوهم بالسهام، ورشقت التتار أيضاً بسهامها، وأنزل الله سكينتَه على عسكر بغداد، وأنزل بعد السكينة نصره، فما زال العسكر البغداديّ تظهر عليه أمارات القوّة، وتظهر على التّتار أمارات الضعف والخذلان إلى أن حَجَز اللّيْلُ بين الفريقين، ولم يصطدم الفيلقَان وإنما كانت مناوشاتٌ وحَمَلات خفيفة لا تقتضِي الاتصال والممازجة، ورشْقٌ بالنُّشّاب شديد.

فلما أظلم الليل، أوقد التتار نيراناً عظيمة، وأوهموا أنّهم مقيمون عندها، وارتحلوا في

الليل راجعين إلى جهة بلادهم، فأصبح العسكر البغداديّ، فلم ير منهم عيناً ولا أثراً، وما زالوا يطوُون المنازل، ويقطعون القُرى عائدين حتى دخلوا الدربند[1]، ولحقوا ببلادهم.

وكان ما جرى من دلائل النبوّة، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وَعَد هذه الملّة بالظهور والبقاء إلى يوم القيامة، ولو حَدَث على بغداد منهم حادثة، كما جرى على غيرها من البلاد، لانقرضت ملّة الإسلام، ولم يبق لها باقية.

وإلى أن بلغْنَا من هذا الشرح إلى هذا الموضع، لم يذعَر العراق منهم ذاعر بعد تلك النَّوْبة التي قدّمنا ذكرها.

قلت: وقد لاح لي من فحوى كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا بأس على بغداد والعراق منهم، وأن الله تعالى يكفي هذه المملكة شرّهم، ويردّ عنها كيدَهم، وذلك من قوله عليه السلام: «ويكون هناك استحرار قتل»، فأتى بالكاف، وهي إذا وقعت عقيب الإشارة أفادت البعد، تقول للقريب: هنا، وللبعيد هناك، وهذا منصوص عليه في العربية، ولو كان لهم استحرار قتل في العراق لما قال: «هناك» بل كان يقول: «هنا»، لأنه عليه السلام خطب بهذه الخطبة في البَصْرة، ومعلوم أن البصرة وبغداد شيء واحدٌ وبلد واحد، لأنهما جميعاً من إقليم العراق، وملكهما ملك واحد، فيلمح هذا الموضع، فإنه لطيف.

وكتبتُ إلى مؤيد الدين الوزير عقيب هذه الوقعة التي نصر فيها الإسلام، ورجع التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم أبياتاً أنسِب إليه الفتْح، وأشير إلى أنه هو الذي قام بذلك وإن لم يكن حاضراً له بنفسه، وأعتذر إليه عن الإغباب بمديحه، فقد كانت الشواغل والقواطع تصدّ عن الانتصاب لذلك:

أبْـقـى لَـنَـا الله الـوزيـرَ وحـاطـهُ ... بـكـتـائـبٍ من نـصـرِه ومـقـانـبِ[2]
وامـتـدّ وارفُ ظِـلّـه لـنـزيـلـه ... وصـفـتْ مـتُـونُ غـديـرِه لـلـشـارب
يـا كـالـىءَ الإسـلام إذ نـزلَـتْ بـه ... فـرغَـاءُ تـشـهـق بـالـنّـجـيـع الـسـالـبِ
فـي خُـطّـة بَـهْـمَـاءَ دَيْـمُـومِـيّـةٍ ... لا يـهـدي فـيـهـا الـسُّـلَـيْـكُ لـلاحـبِ

---

(١) الدربند: المضيق في الجبل. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (درب).
(٢) المقانب: الذئاب الضارية. القاموس، مادة (قنب).

لا يَمتطي سَلِسَاتُهَا مرهوبة الـ ـإبساسِ جَلْسٌ لا تدرّ لعاصبِ
فرّجتَ غمرتَها بقلبٍ ثابتٍ في حملة ذعرى ورأى ثاقب
ما غبتَ ذاك اليومَ عن تدبيرها كم حاضرٍ يُغْصَى بسيف الغائبِ!
عُمَرُ الَّذِي فتحَ العراق وإنّما سَعْدٌ حسام في يمين الضارب
أثني عليك ثناء غيرِ موارِبِ وأجيدُ فيك المدحَ غير مراقبِ
وأنا الذي يهواك حبًّا صادقاً متقادماً، ولربّ حبٌّ كاذبِ
حُبًّا ملأتُ به شعاب جوانحي يفعاً، وها أنا ذو عِذار شائبِ
إنّ القريض وإن أغبّ متيّمٌ بكُمُ، وربّ مجانبٍ كمواظبِ
ولقد يخالِصُك القَصِيّ وربّما يُمْنَى بودّ مماذقٍ متقاربِ
سدّت مسالِكه همومٌ جَعجعتْ بالفِكر حتّى لا يبضّ لحالبِ
ومن العناء مغلبٌ في حَظّه يبغي مغالَبة القضاء الغالبِ

وهي طويلة، وإنما ذكرنا منها ما اقتضته الحال.

١٢٩ - ومن خطبة له عليه السلام في ذكر المكاييل والموازين

الأصل: عِبَادَ ٱللهِ، إِنَّكُمْ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ ٱلدُّنْيَا أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ، أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ، فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاَ يَزْدَادُ ٱلْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَالشَّرُّ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَالشَّيْطَانُ فِي هَلاَكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً، فَهَذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ.

ٱضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيًّا بَدَّلَ نِعْمَةَ ٱللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً ٱتَّخَذَ ٱلْبُخْلَ بِحَقِّ ٱللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ ٱلْمَوَاعِظِ وَقْراً!

أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ، وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ، وَأَيْنَ ٱلْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ ٱلدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَٱلْعَاجِلَةِ ٱلْمُنَغِّصَةِ!

وَهَلْ خُلِّفْتُمْ إِلاَّ فِي حُثَالَةٍ لاَ تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ ٱلشَّفَتَانِ، ٱسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فَلاَ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلاَ زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا ٱللهَ فِي دَارِ

قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ! هَيْهَاتَ لاَ يُخْدَعُ ٱللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إلاَّ بِطَاعَتِهِ.

لَعَنَ ٱللهُ ٱلآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ ٱلْعَامِلِينَ بِهِ!

الشرح: أثوياء: جمع ثوِيّ، وهو الضيف، كقويّ وأقوياء. ومؤجّلون: مؤخّرون إلى أجَل، أي وقت معلوم.

ومدينُون: مُقْرَضُون، دِنْتُ الرجل أقرضتُه، فهو مدين ومديون، ودنت أيضاً، إذا استقرضت، وصار عليّ دين، فأنا دائن، وأنشد:

نَدِينُ ويقضِي الله عَنَّا، وقَدْ نَرَى ... مصارعَ قومٍ لا يدينُون ضُيَّعا

ومقتضَوْن: جمع مقتضَى، أي مطالَب بأداء الدين، كمرتَضَوْن جمع مرتَضى، ومُصْطَفَوْن جمع مصطفًى.

وقوله: «أجَل منقوص»، أي عمر، وقد جاء عنهم: أطالَ الله أجَلك، أي عمرَك وبقاءك.

والدائب: المجتهد ذو الجِدّ والتعب. والكادح: الساعي.

ومثل قوله: «فربّ دائب مضيّع، وربّ كادح خاسر»، قول الشاعر:

إذا لم يكنْ عونٌ من الله للفتَى ... فأكثَرُ ما يجنِي عليهِ اجتهادُهُ

ومثله:

إذا لم يكنْ عونٌ من الله للفتَى ... أتَتْهُ الرَّزايا من وجوه الفوائدِ

وهو كثير، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾(١) ويروى: «فربّ دائب مضِيع»، بغير تشديد.

وقوله: «وأمكنت فريستُه»، أي وأمكنته، فحذِف المفعول.

وقوله: «فاضرب بطرفك» لفظة فصيحة، وقد أخذَها الشاعر فقال:

فاضرِبْ بطرْفِك حيث شئت فلن ترى ... إلاّ بخيلاً..............

والوفر: المال الكثير، أي بخِل ولم يؤدّ حق الله سبحانه، فكثر مالُه.

والوَقْر، بفتح الواو: الثّقَل في الأذن. وروي «المنغَصة»، بفتح الغين.

الحُثالة: السّاقط الرديء من كلّ شيء.

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ٢-٤.

وقوله: «لا تلتقي بذمّهم الشفتان»، أي يأنف الإنسان أن يذمّهم، لأنه لا بدّ في الذمّ من إطباق إحدى الشفتين على الأخرى، وكذلك في كلّ الكلام.

وذهاباً عن ذكرهم، أي ترفّعاً، يقال: فلان يذهب بنفسه عن كذا، أي يرفعها.

ولا زاجر مزدجِر، أي ليس في الناس مَنْ يزجُر عن القبيح وينزجر هو عنه.

ودار القدْس: هي الجنّة. ولا يُخْدَع الله عنها، لأنه لا تَخْفى عليه خافية، ولا يجوز عليه النّفاق والتمويه. ثم لعن الآمر بالمعروف ولا يفعله، والناهيَ عن المنكر ويرتكبه، وهذا من قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(١).

ولست أرى في هذه الخطبة ذكراً للموازين والمكاييل، التي أشار إليها الرضيّ رحمه الله، اللّهم إلا أن يكون قوله عليه السلام: «وأين المتورّعون في مكاسبهم»، أو قوله: «ظهر الفساد»، ودلالتهما على الموازين والمكاييل بعيدة.

من أقوال الحكماء والصالحين

واعلم أنّ هذه الخطبة قد اشتملتْ عَلَى كلام فصيح، وموعظة بالغة من ذكر الدنيا وذكر أهلها، ونحن نذكر كلماتٍ وردت عن الحكماء والصالحين تناسبها: عَلَى عادتنا في إيراد الأشباه والنظائر.

قال بعضُ الصالحين: ما أدرِي كيف أعجب من الدنيا، أمِنْ حُسْن منظرِها وقبح مخبرِها، أم من ذمّ الناس لها، وتناحُرِهم عليها!

قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ قال: آسفاً عَلَى أمسي، كارهاً ليومي، متّهماً لغدي.

قيل لأعرابيّ: كيف ترى الدهر؟ قال: خَدُوعاً خلوباً، وَثُوباً غَلُوباً.

قيل لصوفيّ: لم ترَكْتَ الدنيا؟ قال: لأني مُنِعْتُ صفوَها، وامتنعت منْ كدرها.

وقيل لآخر: لم تركتَ الدّنيا؟ قال: لأنّي عدمت الوسيلة إليها إلا بعشقها، وأعشَقُ ما أكون لها أغدرُ ما تكون بي. وأنشد لبشر الحافي:

قرير العين لا ولدٌ يموتُ ... ولا حذِرٌ يبادِرُ ما يفوتُ
رخيّ البال ليس له عيالٌ ... خليٌّ من حُرِبت ومن دُهِيتُ
قضى وطر الصّبا وأفاد عِلماً ... فعاتبه التفرّد والسُّكُوتُ
وأكبر همّه مما عليه ... تذابحَ مَنْ ترى خلقٌ وقُوتُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

قال أبو حيّان: سمعت ابن القصّاب الصوفي، يقول: اسمعْ واسكت، وانظر واعجب، قال ابن المعتز:

مــلّ ســقــامــي عــوّدُهْ وخــان دَمْــعِــي مُــسْــعِــدُهْ
وضــاعَ مــن لــيــلــى غــدُهْ طــوبَــى لِــعَــيْــنٍ تَــجِــدُهْ
قــلّــت مــن الــدّهــرِ يــدُهْ يــفــنَــى ويــبــقــى أبَــدُهْ
والــمــوت ضــارٍ أسَــدُهْ وقــاتــلٌ مَــنْ يــلِــدُهْ

ومن الشّعر القديم المختلف في قائله:

قــصْــرُ الــجــديــد إلَــى بِــلًــى والــوصــل فــي الــدُّنــيــا انــقــطــاعُــهْ
أيّ اجــتــمــاعٍ لــم يَــعُــدْ بــتــفــرّقٍ مــنــهــا اجــتــمــاعُــهْ
أم أيّ شَــعْــبٍ ذي الــتــئــامٍ لــم يــبــدّدْهُ انــصــداعُــهْ
أم أيّ مــنــتــفــعٍ بــشــيءٍ ثــم تَــمّ لــه انــتــفــاعُــهْ
يــا بــؤسَ لــلــدّهــر الّــذِي مــا زال مــخــتــلــفــاً طــبــاعُــهْ
قــد قــيــل فــي مــثَــلٍ خَــلاَ: «يــكــفِــيــكَ مِــنْ شَــرٍّ سَــمــاعُــهْ»

قيل لصوفيّ: كيف ترى الدّنيا؟ قال: وما الدّنيا؟ لا أعرف لها وجوداً، قيل له: فأين قلبُك؟ قال: عند ربّي، قيل: فأين ربك؟ قال: وأين ليس هو!

قال ابن عائشة: كان يقال: مجالسةُ أهل الدّيانة تجلُو عن القلوب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تزكّي النفوس.

ومن كلام بعض الحكماء الفصحاء: كُنْ لنفسك نصيحاً، واستقبل توبةً نصوحاً، وازهَدْ في دارٍ سمّها ناقع، وطائرها واقع، وارغب في دارٍ طالبها مُنْجِح، وصاحبها مفلح. ومتى حقّقت وآثرت الصدق، بانَ لك أنّهما لا يجتمعان، وأنّهما كالضّدّين لا يصطلحان، فجرّدْ هَمّك في تحصيل الباقية، فإنّ الأخرى أنت فانٍ عنها وهي فانية عنك، وقد عرفت آثارَها في أصحابها ورفقائها، وصُنْعَها بطلاّبها وعشقائها معرِفة عيان، فأيّ حجة تبقى لك، وأيّ حجة لا تثبت عليك!

ومن كلام هذا الحكيم: فإنّا قد أصبحْنَا في دارٍ رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحُها عليل، والداخل إليها مخرَج، والمطمئنّ فيها مزعَج، والذائق من شرابِها سكران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غُرور، وباطنها شرور، وطالبها مكدود، وعاشقها مجهود، وتاركها محمود. العاقل مَنْ قَلاَها وَسَلا عنها، والظريفُ مَنْ عافها وأنِفَ منها، والسعيد مَنْ غمّض بصره عن زهرتها، وصرفه عن نَضْرتها، وليس لها فضيلة إلا دلاَلتُها على نفسها، وإشارتُها إلى نقصها، ولعمري إنّها لفضيلة لو صادفتْ قلباً عقولاً، لا لساناً قؤولاً،

وعملاً مقبولاً، لا لفظاً منقولاً، فإلى الله الشكوى منْ هوًى مُطاع، وعمر مضاع! فبِيَدِه الداء والدواء، والمرض والشفاء.

قال أبو حرّة: أتينا بكْر بن عبد الله المرّي نعوده، فدخلنا عليه وقد قام لحاجته، فجلسنا ننتظره، فأقبَل إلينا يتهادَى بين رجلين، فلما نظر إلينَا سلّم علينا، ثم قال: رحِم الله عبداً أعطِيَ قُوةً فعمِل بها في طاعة الله، أو قصّر به ضعف فكفّ عن محارم الله.

وقال بَكْر بن عبد الله: مثلُ الرّجل في الدنيا مثل رجل له ثلاثة خلاّن، قال له أحدهم: أنا خازنك خُذْ مِنّي ما شئت، فاعمل به ما شئت، وقال الآخر: أنا معك أحمِلك وأضَعُك، فإذا متّ تركتك، وقال الآخر: أنا أصحبك أبداً، حياتَك وموتَك. فأما الأوّل فمالُه، وأما الثاني فعشيرتُه، وأما الثالث فعمله.

قيل للزّهريّ: مَن الزّاهد في الدنيا؟ قال: مَنْ لم يمنع الحلال شكرَه، ومن لم يمنع الحرام صَبْرَه.

وقال سفيانُ الثوريّ: ما عبِد الله بمثل العقل، ولا يكون الرّجل عاقلاً حتى تكون فيه عشر خصال: يكون الكِبْر منه مأموناً، والخيْر منه مأمولاً، يقْتدِي بمنْ قبله، ويكون إماماً لمن بعده، وحتى يكون الذلّ في طاعة الله أحبَّ إليه من العزّ في معصية الله، وحتّى يكون الفقر في الحلال، أحبّ إليه من الغنى في الحرام، وحتّى يكون عيشه القوت، وحتّى يستقلّ الكثير من عمله، ويستكثر القليل من عمل غيره، وحتى لا يتبرّم بطلب الحوائج قِبله، والعاشرة وما العاشرة! بها شادَ مجدَه، وعلا ذكره، أن يخرج من بيته فلا يستقبله أحدٌ من الناس إلاّ رأى أنّه دونه.

قال يونس بن حبيب: كان عندنا بالبصرة جنديّ عابد، فأحبّ الغزو، فلما خرج شيّعتُه، فقلت: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله، وأوصيك بالقرآن، فإنّه نور الليل المظلم، وهُدَى النّهار المشرق، فاعمل به عَلَى ما كان من جهدٍ وفَاقة، فإن عَرَض بلاء فقدّم مالَك دون نفسِك، فإن تجاوز البلاء فقدّم مالَك ونفسَك دون دينك. واعلم أنّ المحروب من حُرِبَ دينه، والمسلوبَ مَنْ سُلِبَ يقينه. إنه لا غنى مع النار، ولا فقر مع الجنّة، وإنّ جهنم لا يفكّ أسيرها، ولا يَستغني فقيرها.

ابن المبارك، كان فيما مضى جَبَّار يقتل الناس على أكل لحوم الخنازير، فلم يزل الأمر يترقّى حتى بلغ إلى عابد مشهور، فأراده على أكلها، وهدّده بالقتل، فشقّ ذلك على الناس. فقال له صاحب شرطته: إنّي ذابح لك غداً جَدْياً، فإذا دعاك هذا الجبّار لتأكل، فكلْ فإنّما هو

(١) الماج من يسيل لعابه كِبَراً وهرماً. القاموس، مادة (مجج).

جَذي، فلما دعاهُ ليأكل أبى أن يأكُل، فقال: أخرجوه واضربوا عنقَه فقال له الشرطيّ: ما منعك أنْ تأكلَ من لحم جذي؟ قال: إنّي رجل منظور إليّ، وإني كرهت أنْ يتأسّى بيَ النّاس في معاصي الله. فقدّمه فقتله.

سفيان الثوريّ، كان رجل يبكي كثيراً، فقال له أهله: لو قتلتَ قتيلاً ثم أتيت وليّه فرآك تبكي هذا البكاء لعفا عنك، فقال: قد قتلتُ نفسي، فلعلّ وليَّها يعفو عني.

وكان أيّوب السّختيانيّ كثيرَ البكاء، وكان يغالط الناس عن بكائه، يبكي مرة فيأخذ أنفه، ويقول: الزكمة ربما عرضت لي، ويبكي مَرّة فإذا استبان مَنْ حوله بكاءه، قال: إن الشيخ إذا كبر مجّ.

ومن كلام أبي حيان التوحيدي في «البَصائر»[1]: ما أقول في عالَمٍ! الساكن فيه وَجِل، والصاحي بين أهله ثَمِل، والمقيم على ذنوبه خَجِل، والراحل عنه مع تماديه عَجِل. وإن داراً هذه من آفاتها وصروفها لمحقوقة بهجرانها وتركها، والصُّدُوف منها خاصّة، ولا سبيل لساكنها إلى دار القرار إلاّ بالزهد فيها، والرضا بالطفيف منها، كبُلْغة الثاوي، وزاد المنطلق.

١٣٠ - ومن كلام له عليه السلام لأبي ذرّ رحمه الله لما أخرج إلى الرّبَذة

الأصل: يا أبا ذَرّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ ٱلْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرَبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَأَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ!

وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَٱلأَكْثَرُ حَسَداً، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ ٱتَّقَى ٱللهَ لَجَعَلَ ٱللهُ لَه مِنْهُمَا مَخْرَجاً.

لاَ يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ ٱلْحَقُّ، وَلاَ يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ ٱلْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمَّنُوكَ.

الشرح: واقعة أبي ذرّ رحمه الله وإخراجه إلى الرَّبَذة، أحدُ الأحداث التي نُقِمَتْ على عثمان: وقد رَوَى هذا الكلامَ أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في كتاب «السقيفة» عن

(١) «بصائر القدماء وبشائر الحكماء»: للشيخ أبي حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي المتوفى سنة (٣٨٠هـ)، ويقال له «البصائر والذخائر»، «كشف الظنون» (١/ ٢٤٦).

عبد الرزّاق، عن أبيه، عن عِكْرِمة، عن ابن عبّاس، قال: لمّا أُخرِج أبو ذَرّ إلى الرَّبَذة، أمر عثمان، فنودي في الناس: ألاّ يُكَلِّم أحد أبا ذَرّ ولا يشيّعه. وأمر مَرْوان بن الحَكم أن يخرُج به. فخرج به، وتحاماه النّاس إلا عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعَقِيلاً أخاه، وحسناً وحسيناً عليهما السلام، وعمّاراً، فإنهم خرجوا معه يشيّعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلّم أبا ذَرّ، فقال له مرْوان: إيهاً يا حسن! ألا تَعلم أنّ أميرَ المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل! فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل عليّ عليه السلام عَلَى مَروان، فضرب بالسوط بين أذُنَيْ راحلته، وقال: تنحَّ لحاك الله إلى النار!

فرجع مَرْوان مغضَباً إلى عثمان، فأخبره الخبَر، فتلظّى على عليّ عليه السلام، ووقف أبو ذَرّ فودعه القوم، ومعه ذكوان مولى أمّ هانىء بنت أبي طالب.

قال ذكْوان: فحفظت كلام القوم - وكان حافظاً - فقال عليّ عليه السلام: يا أبا ذرّ، إنّك غضبتَ لله، إنّ القوم خافوك على دنياهم، وخفتَهم على دينك. فامتحنوك بالقِلَى، ونَفَوْك إلى الفلا، والله لو كانت السموات والأرض على عبدٍ رَتْقاً، ثمّ اتقى الله لجعل له منها مخرجاً. يا أبا ذرّ لا يؤنسنّك إلا الحقّ، ولا يوحشنّك إلاّ الباطل. ثم قال لأصحابه: ودّعوا عمّكم، وقال لعقِيل: ودّع أخاك.

فتكلّم عَقِيل، فقال: ما عسى أن نقول يا أبا ذرّ، وأنت تعلم أنّا نحبك، وأنت تحبّنا! فاتّق الله، فإنّ التقوى نجَاة، واصبر فإنّ الصبر كرَم. واعلم أن استثقالك الصّبر من الجزع، واستبطاءك العافيةَ من اليأس، فدع اليأس والجزع.

ثم تكلّم الحسن، فقال: يا عمّاه، لولا أنه لا ينبغي للمودّع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكّر فراغها، وشدّة ما اشتدّ منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تَلْقَى نبيّك صلى الله عليه وآله وهو عنك راضٍ.

ثم تكلم الحُسين عليه السلام، فقال: يا عمّاه، إنّ الله تعالى قادر أن يغير ما قَدْ ترى، والله كلَّ يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتَهم دينك، فما أغناك عمّا منعوك، وأحوجَهم إلى ما منعتهم! فاسأل الله الصبر والنصر، واستعِذْ به من الجشع والجزَع، فإنّ الصبر من الدين والكرم، وإنّ الجَشع لا يقدّم رزقاً، والجزع لا يؤخّر أجلاً.

ثم تكلّم عمّار رحمه الله مغضباً، فقال: لا آنس الله مَنْ أوحَشَك، ولا آمن مَنْ أخافك، أما والله لو أردتَ دنياهم لأمّنوك، ولو رضيت أعمالَهم لأحبُّوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت. مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمنْ غلَب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسرُوا الدّنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين!

فبكى أبو ذرّ رحمه الله - وكان شيخاً كبيراً - وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتُكم ذكرتُ بكم رسول الله صلى الله عليه وآله، ما لي بالمدينة سَكَنٌ ولا شَجَنٌ غيركم، إنّي ثَقُلت على عثمان بالحجاز، كما ثقُلت على معاوية بالشام، وكره أن أجاور أخاه وابنَ خاله بالمصرين، فأفسد الناس عليهما، فسيّرني إلى بلدٍ ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله، والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة.

ورجع القوم إلى المدينة، فجاء عليّ عليه السلام إلى عثمان، فقال له: ما حملك على ردّ رسولي، وتصغير أمري! فقال عليّ عليه السلام: أمّا رسولُك، فأراد أن يردّ وجهي فرددته، وأمّا أمرك فأصغِّره.

قال: أما بلغكَ نهيي عن كلام أبي ذرّ! قال: أو كلّما أمرت بأمْرٍ معصية أطعناك فيه! قال عثمان: أقِدْ مروان من نفسك، قال: ممّ ذا؟ قال: من شتمه وجذْب راحلته، قال: أمّا راحلتُه فراحلتي بها، وأما شتمُه إياي، فوالله لا يشتمني شَتْمة إلا شتمتُك مثلها، لا أكذب عليك.

فغضب عثمان، وقال: لم لا يشتِمك! كأنّك خير منه! قال عليّ: إي والله ومنك! ثم قام فخرج.

فأرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والأنصار وإلى بني أميّة، يشكو إليهم عليًّا عليه السلام، فقال القوم: أنت الوالي عليه، وإصلاحه أجمل. قال: ودِدْت ذاك، فأتوْا عليًّا عليه السلام، فقالوا: لو اعتذرتَ إلى مروان وأتيته! فقال: كلاّ، أمّا مروان فلا آتيه ولا أعتذر منه، ولكن إنْ أحبّ عثمان أتيته.

فرجعوا إلى عثمان، فأخبروه، فأرسل عثمان إليه، فأتاه ومعه بنو هاشم، فتكلّم عليّ عليه السلام، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا ما وجِدْتَ عليّ فيه من كلام أبي ذرّ ووداعه، فوالله ما أردت مَساءتك ولا الخلاف عليك، ولكن أردتُ به قضاء حقّه. وأمّا مرْوان فإنه اعترض، يريد ردّي عن قضاء حقّ الله عزّ وجلّ، فرددته ردَّ مثلي مثْله، وأمّا ما كان منّي إليك، فإنك أغضبتَني، فأخرج الغضب مني ما لم أُرِده.

فتكلّم عثمان، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا ما كان منك إليّ فقد وهبتُه لك، وأما ما كان منك إلى مروان، فقد عَفَا الله عنك، وأمّا ما حلَفْتَ عليه فأنت البَرّ الصادق، فأدنِ يدَك، فأخذ يده فضمّها إلى صدره.

فلما نهضَ قالت قريش وبنو أميّة لمرْوان: أأنتَ رجلٌ! جَبَهك عليّ، وضرب راحلتَك، وقد تفانت وائلٌ في ضَرْع ناقة، وذُبيان وعَبْس في لَطْمة فرس، والأوس والخزرج في نَسْعة! أفتحمل لعليّ عليه السلام ما أتاه إليك!

فقال مروان: والله لو أردت ذلك لما قدرت عليه(١).

واعلم أنّ الذي عليه أكثر أرباب السِّيرة وعلماء الأخبار والنّقل، أنّ عثمان نفى أبا ذرّ أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى المدينة لما شَكَا منه معاوية، ثم نفاه من المدينة إلى الرَّبَذة لَمّا عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام.

أصل هذه الواقعة أنّ عثمان لـمّا أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوتَ الأموال، واختصّ زيد بن ثابت بشيء منها، جعل أبو ذرّ يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشّر الكافرين بعذاب أليم، ويرفع بذلك صوتَه، ويتلُو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢)، فرُفِع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت.

ثم إنّه أرسل إليه مولًى من مواليه: أن انْتَهِ عَمَّا بلغني عنك، فقال أبو ذرّ: أوَينهانِي عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى، وعيبِ مَنْ تَرَك أمر الله تعالى! فوالله لأن أرضِي الله بسخط عثمان أحبُّ إليّ وخيرٌ لي من أن أسخط الله برضا عثمان.

فأغضب عثمانَ ذلك وأحفظه، فتصابر وتماسك، إلى أن قال عثمان يوماً، والناس حوله: أيجوزُ للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قَرْضاً، فإذا أيْسَرَ قضى؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذرّ: يابن اليهوديّين، أتعلِّمنا ديننا!

فقال عثمان: قد كَثُر أذاك لي وتولّعك بأصحابي، الحقْ بالشّام. فأخرجه إليها.

فكان أبو ذرّ ينكِر على معاوية أشياءَ يفعلها، فبعث إليه معاوية يوماً ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذرّ لرسوله: إن كانتْ مِنْ عطائي الَّذِي حرَمتمونيه عامِي هذا أقبَلُها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها، وردّها عليه.

ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق، فقال أبو ذرّ: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالِك فهي الإسراف. وكان أبو ذرّ يقول بالشام: والله لقد حدثَتْ أعمالٌ ما أعرِفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، والله إني لأرى حقًّا يُطْفَأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذَّباً، وأثَرةً بغير تقى، وصالحاً مستأثَراً عليه.

قال حبيبُ بن مسلمة الفِهْريّ لمعاوية: إن أبا ذرّ لمفسِد عليكم الشام، فتدارك أهلَه إن كان لك فيه حاجة.

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «السفيانية» عن جلاّم بن جندل الغِفاريّ، قال:

---

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

كنت غلاماً لمعاوية على قنّسرين والعواصم، في خلافة عثمان، فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملي، إذْ سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القِطَار تحمل النار! اللهمّ العن الآمرين بالمعروف، التاركين له. اللهمّ العن الناهين عن المنكر المرتكبين له. فَازْبأرّ[1] معاوية وتغَيَّرَ لونه وقال: يا جلاّم أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللهم لا. قال: مَنْ عذيري من جُندَب بن جنادة! يأتينا كلَّ يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال: أدخِلوه عليّ، فجيء بأبي ذرّ بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله! تأتينا في كلّ يوم فتصنع ما تصنع! أما إني لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتُك، ولكني أستأذن فيك.

قال جلاّم: وكنت أحبُّ أن أرى أبا ذرّ، لأنه رجلٌ من قومي، فالتفتّ إليه فإذا رجل أسمرُ ضَرْبٌ من الرّجال، خفيف العارضين، في ظهره جَنَأ، فأقبل على معاوية، وقال: ما أنا بعَدوٍّ لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله ﷺ، ودعا عليك مرّاتٍ ألاّ تشبع. سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إذا ولِيَ الأمّة الأعْيَنُ، الواسع البُلعوم، الذي يأكل ولا يشبع، فلتأخذ الأمة حِذْرَها منه»[2]. فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل، قال أبو ذرّ: بل أنت ذلك الرجل، أخبرَني بذلك رسول الله ﷺ، وسمعته يقول - وقد مررتَ به -: «اللهم العنه ولا تشبِعْه إلا بالتراب»[3]، وسمعته صلى الله عليه يقول: «است معاوية في النار»[4]. فضحك معاوية وأمر بحبسه، وكتب إلى عثمان فيه.

فكتب عثمان إلى معاوية: أن احمل جندباً إليّ، عَلَى أغلظِ مركب وأوعره. فوجّه به مع مَنْ سار به الليل والنهار، وحمله على شارفٍ ليس عليها إلا قَتَب، حتى قدِم به المدينة، وقد سقط لحم فخذَيْه من الجَهْد.

فلما قِدم بعَث إليه عثمان: الحقْ بأيّ أرض شئت. قال: بمكة؟ قال: لا، قال: بيت المقدس؟ قال: لا، قال: بأحد المصريْن؟ قال: لا، ولكنّي مسيّرك إلى رَبَذة، فسيّره إليها، فلم يزل بها حتى مات. وفي رواية الواقديّ، أنّ أبا ذرّ لما دخل على عثمان، قال له:

لا أنعم الله بِقَيْنٍ عينَا ... نعم ولا لقّاه يوماً زيْنَا
تحيةَ السُّخطِ إذا التقيْنَا

فقال أبو ذرّ: ما عرفتُ اسمي «قيناً» قطّ. وفي رواية أخرى: لا أنعم الله بك عيناً يا

---

(١) ازبأر الرجل للشر: تهيأ. القاموس، مادة (زبر).
(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٤.
(٣) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٥.
(٤) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٥.

جُنَيْدب! فقال أبو ذرّ: أنا جندُب، وسمّاني رسول الله ﷺ «عبد الله»، فاخترتُ اسمَ رسولِ الله ﷺ الّذي سمّاني به على اسمِي. فقال له عثمان: أنت الذي تزعُم أنّا نقول: يد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء! فقال أبو ذرّ: لو كنتُم لا تقولون هذا لأنفقتم مالَ الله على عباده، ولكنّي أشهدُ أنّي سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دُوَلاً، وعباده خَوَلاً، ودينه دَخَلا»[1]. فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟ قالوا: لا، قال عثمان: ويلك يا أبا ذرّ! أتكذِب على رسول الله! فقال أبو ذَرّ لمن حضر: أمَا تدرُون أنّي صدقت! قالوا: لا والله ما ندري، فقال عثمان: ادعُوا لي عليًا، فلما جاء قال عثمان لأبي ذرّ: اقصُصْ عليه حديثَك في بني أبي العاص، فأعاده، فقال عثمان لعليّ عليه السلام: أسمعت هذا من رسول الله ﷺ! قال: لا، وقد صدق أبو ذَرّ. فقال: كيف عرفتَ صدقه؟ قال: لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلّت الخضراءُ، ولا أقلّتِ الغبراء من ذي لَهْجَةٍ أصدَقَ من أبي ذرّ»[2]، فقال مَنْ حضر: أمّا هذا فسمعناه كلّنا من رسول الله، فقال أبو ذَرّ: أحدِّثُكم أنّي سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ فتتّهمونني! ما كنتُ أظنّ أنّي أعيش حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد ﷺ!

وروي الواقديّ في خبر آخرَ بإسناده، عن صَهْبان، مولَى الأسلميّين، قال: رأيت أبا ذرّ يوم دُخِل به على عثمان، فقال له: أنت الّذي فعلت وفعلت! فقال أبو ذرّ: نصحتُك فاستغششْتَني، ونصحت صاحبك فاستغشّني! قال عثمان: كذبْت، ولكنّك تريد الفتنة وتحبّها، قد أنْغَلت الشّام علينا، فقال له أبو ذرّ: اتّبِعْ سنّة صاحبيْك لا يكنْ لأحدٍ عليك كلام، فقال عثمان: مَا لك وذلك لا أمّ لك! قال أبو ذرّ: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فغضب عثمان، وقال: أشيرُوا عليّ في هذا الشَّيْخ الكذّاب، إمّا أن أضرِبَه، أو أحبسَه، أو أقتله، فإنه قد فرق جماعة المسلمين، أو أنفيَه من أرض الإسلام. فتكلّم عليّ عليه السلام - وكان حاضراً - فقال: أشيرُ عليك بما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[3]، فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه عليّ عليه السلام بمثله، ولم نذكر الجوابين تذمّماً منهما.

---

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٨٤٧٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: «المناقب» (٣٨٠١)، وابن ماجه في كتاب: المقدمة (١٥٦)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة (٦٤٨٣).

(٣) سورة غافر، الآية: ٢٨.

قال الواقديّ: ثم إن عثمان حَظَر على النّاس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ، أو يكلّموه. فمكث كذلك أياماً، ثم أتى به فوقف بين يديه، فقال أبو ذرّ: ويحكَ يا عثمان! أما رأيتَ رسول الله ﷺ، ورأيت أبا بكر وعمر! هل هديُك كهديهم! أما إنّك لتبطشُ بي بطش جبّار، فقال عثمان: اخْرُجْ عنّا من بلادنا، فقال أبو ذَرّ: ما أبغض إليّ جوارك! فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت، قال: أخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ قال: إنما جلبتُك من الشام لِمَا قد أفسدتها، أفأردّك إليها! قال: أفأخرُج إلى العراق؟ قال: لا، إنّك إن تخرج إليها تقدُم على قوم أولي شُبَهٍ وطعنٍ على الأئمة والولاة، قال: أفأخرج إلى مصر؟ قال: لا، قال: فإلى أين أخرج؟ قال: إلى البادية، قال أبو ذرّ: أصير بعد الهجرة أعرابيًّا! قال: نعم، قال أبو ذَرّ: فأخرج إلى بادية نجد؟ قال عثمان: بل إلى الشرق الأبعد، أقصَى فأقصى، امض عَلَى وجهك هذا فلا تعدوَنَّ الرَّبَذَة. فخرج إليها.

وروي الواقديّ أيضاً عن مالك بن أبي الرّجال، عن موسى بن ميسرة، أنّ أبا الأسود الدّؤليّ، قال: كنت أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خروجه إلى الرَّبذَة، فجئته فقلت له: ألا تخبرني، أخرجْتَ من المدينة طائعاً، أم أخرِجت كرهاً؟ فقال: كنتُ في ثَغْر من ثغور المسلمين أغنِي عنهم، فأخرِجت إلى المدينة، فقلت: دار هجرتي وأصحابي، فأخرِجْت من المدينة إلى ما ترى. ثم قال: بينا أنا ذاتَ ليلةٍ نائمٌ في المسجد عَلَى عهد رسول الله ﷺ، إذْ مرّ بي عليه السلام فضرَبني برجْله، وقال: لا أراك نائماً في المسجد، فقلت: بأبي أنت وأمي! غلبتْنِي عيني، فنمت فيه. قال: فكيف تصنَعُ إذا أخرجوك منه؟ قلت: إذاً ألحق بالشام، فإنّها أرضٌ مقدّسة، وأرضُ الجهاد. قال: فكيف تصنع إذا أخرِجت منها؟ قلت: أرجع إلى المسجد، قال: فكيفَ تصنعُ إذا أخرجوك منه؟ قلت: آخذُ سيفي فأضربهم به. فقال: ألا أدُلّك عَلَى خيرٍ من ذلك؟ انسَقْ معهم حيث ساقوك، وتسمعُ وتطيع. فسمعتُ وأطعتُ وأنا أسمع وأطيع، والله ليلقينّ الله عثمانُ وهو آثم في جَنْبِي.

واعلم أن أصحابنا رحمهم الله قد روَوْا أخباراً كثيرة، معناها أنه أخرِج إلى الرَّبَذَة باختياره.

وحكى قاضي القضاة رحمه الله في «المغني» عن شيخنا أبي عليّ رحمه الله، أنّ الناس اختلفُوا في أمرِ أبي ذَرّ، وأنّ الرواية وردت بأنه قيل له: أعثمانُ أنزلَك الرَّبَذَة؟ فقال: لا بل أنا اخترتُ لنفسي ذلك.

وروَى أبو عليّ أيضاً أنّ معاوية كتب يشكُوه وهو بالشام، فكتب إليه عثمانُ: أن صِرْ إلى المدينة. فلما صار إليها، قال له: ما أخرجك إلى الشام؟ قال: إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ

يقول: «إذا بلغتْ عِمارة المدينة موضعَ كذا فاخرُجْ منها»[١]، فلذلك خرجت. فقال: أيّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام؟ قال الرَّبَذة، فقال: صِرْ إليها.

وروى الشيخ أبو عليّ أيضاً عن زيد بن وهب، قال: قلت لأبي ذرّ وهو بالرّبَذة، ما أنزلَك هذا المنزل؟ قال: أخبرك أني كنت بالشام، فذكرت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾[٢]. فقال لي معاوية: هذه نزلتْ في أهلِ الكتاب، فقلت: فيهم وفينا. فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك، فكتب إليّ: أن أقدِمْ، فقدمتُ عليه، فانثال النّاس إليّ كأنّهم لم يعرفوني، فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيَّرني وقال: انزل حيث شئت، فنزلت الرَّبَذة[٣].

ونحن نقول: هذه الأخبارُ وإن كانت قد رُوِيَتْ، لكنّها ليست في الاشتهار والكثرة كتلك الأخبار، والوجه أنْ يقال في الاعتذار عن عثمان وحسن الظنّ بفعله: إنّه خاف الفتنة واختلاف كلمة المسلمين، فغلب على ظنّه أنّ إخراجَ أبي ذرّ إلى الرَّبَذة أحْسَمُ للشَّغَب، وأقطع لأطماع مَنْ يشرئبّ إلى شقّ العصا، فأخرجه مراعاةً للمصلحة، ومثل ذلك يجوز للإمام. هكذا يقول أصحابنا المعتزلة، وهو الأليَق بمكارم الأخلاق، فقد قال الشاعر:

إذا ما أتَتْ مِنْ صاحبٍ لَكَ زلّةٌ ... فكنْ أنتَ محتالاً لزلّتِه عُذْرَا

وإنّما يتأوّل أصابُنا لمن يحتمِل حاله التأويل كعثمان، فأما من لم يحتمل حاله التأويل، - وإن كانت له صحبة سالفة - كمعاوية وأضرابه، فإنهم لا يتأوّلون لهم إذا كانت أفعالهم وأحوالهم لا وَجه لتأويلها، ولا تقبل العلاج والإصلاح.

١٣١ - ومن كلام له عليه السلام في حال نفسه وأوصاف الإمام

الأصل: ومن كلام له عليه السلام: أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَٱلْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَٱلْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى ٱلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ ٱلْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ ٱلْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سِرَارَ ٱلْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ ٱعْوِجَاجَ ٱلْحَقِّ.

اَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِي مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلاَ ٱلْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ ٱلْحُطَامِ، وَلٰكِنْ لِنَرِدَ ٱلْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ ٱلْإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ، فَيَأْمَنَ ٱلْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ ٱلْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٢/٤١٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.
(٣) أخرجه الراوندي في فقه القرآن: ١/٢٤١.

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رسول الله ﷺ بِالصَّلاَةِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى ٱلْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَٱلأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ المُسْلِمِينَ ٱلْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ. وَلاَ ٱلْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الجَافي فَيَقْطَعَهُمْ بِجفَائِهِ، وَلاَ ٱلْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دونَ قَوْم، وَلاَ المُرْتَشِي فِي ٱلْحُكْمِ، فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دون المَقَاطِعِ، وَلاَ المُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ، فَيُهْلِكَ ٱلأُمَّةَ.

الشرح: اظأركم: أعطفكم، ظأرت الناقةَ ظأراً، وهي ناقة مظؤورة، إذا عطفْتَها على ولد غيرها، وفي المثل: «الطعن يظأر»[1] أي يعطِف على الصلح، وظأرت الناقة أيضاً إذا عطفت على البوّ، يتعدّى ولا يتعدّى، فهي ظؤور.

والوعوعة: الصوت، والوعواع مثله.

وقوله: «هيهات أن أطْلِع بكم سرار العدل»، يفسره الناس بمعنى هيهات أنْ أطلعكم مضيئين ومنوّرين لسرار العدل. والسِّرار: آخر ليلة في الشهر، وتكون مظلمة، ويمكن عندي أن يفسَّر على وجه آخر، وهو أن يكون السّرار ها هنا بمعنى السُّرور، وهي خطوط مضيئة في الجبهة، وقد نصَّ أهلُ اللغة على أنه يجوز فيها سُرر وسِرار، وقالوا: ويجمع سِرار على أسرّة، مثل حمار وأحمرة، قال عنترة:

بِزجاجةٍ صَفْراء ذات أسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بأزْهَرَ في الشمال مُفَدَّمِ

يصف الكأس، ويقول: إنّ فيها خطوطاً بيضاً، وهي زجاج أصفر. ويقولون: برَقَتْ أسِرّة وجهه وأسارير وجهه، فيكون معنى كلامه عليه السلام: هيهاتَ أن تلمع بكم لوامعُ العدل، وتنجلي أوضاحُه، ويبرق وجهه. ويمكن فيه أيضاً وجه آخر وهو أن ينصب «سِرار» ها هنا على الظّرفية، ويكون التقدير: هيهات أن أطلِع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه، فيكون قد حذف المفعول، وحذفه كثير.

ثم ذكر أنّ الحروبَ الّتي كانتْ منه لم تكن طلباً للملْك، ولا منافسة على الدّنيا، ولكن لتقامَ حدودُ الله على وجهها، ويجري أمر الشريعة والرعيّة على ما كان يجري عليه أيّام النبوّة.

ثم ذكر أنّه سبَق المسلمين كلَّهم إلى التوحيد والمعرفة، ولم يسبِقه بالصلاة أحدٌ إلاّ رسول الله ﷺ، وهكذا روى جمهور المحدثين، وقد تقدّم ذكْر ذلك.

فإن قلت: أيّ وجه لإدخال هذا الكلام في غُضُون مقصده في هذه الخطبة، فإنها مبنيّة على

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٢٨٦)، برقم (٢٢٧٩).

ذمّ أصحابه، وتقرير قاعدة الإمامة، وأنّه لا يجوز أن يليَها الفاسق، وأنّه لا بدّ للإمام من صفات مخصوصة، عدّدها عليه السلام، وكلّ هذا لا تعلّق لسبقه إلى الإسلام!

قلت: بل الكلامُ متعلّق بعضُه ببعض من وجهين: أحدُهما أنه لما قال: اللهمّ إنّك تعلم أني ما سَلَلْتُ السَّيْفَ طلباً للملك، أراد أن يؤكّد هذا القول في نفوس السامعين، فقال: أنا أوّل من أسْلَم، ولم يكن الإسلام حينئذ معروفاً أصلاً، ومن يكون إسلامه هكذا لا يكون قد قصد بإسلامه إلاّ وجه الله تعالى والقربة إليه، فمَنْ تكونُ هذه حاله في مبدأ أمره، كيف يخطُرُ ببال عاقل أنّه يطلُب الدنيا وحُطامها، ويجرّد عليها السَّيْفَ في آخر عمره، ووقت انقضاء مدّة عُمُره!

والوجه الثاني أنّه إذا كان أوّلَ السابقين، وجب أن يكون أقربَ المقرّبين، لأنّه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾[1]، ألا ترى أنه إذا قال الملك: «العالمون العاملون هم المختصّون بنا»، وجب أن يكون أعلمهم أشدّهم به اختصاصاً، وإذا كان عليه السلام أقربَ المقرّبين، وجب أن تنتفيَ عنه الموانع الستة، التي جعل كلّ واحد منها صادًّا عن الإمامة، وقاطعاً عن استحقاقها، وهي البخل والجهل والجفاء - أي الغِلْظة -، العصبية في دولته - أي تقديم قوم على قوم - والارتشاء في الحكْم، والتعطيل للسّنّة، وإذا انتفتْ عنه هذه الموانع الستّة تعين أن يكون هو الإمام، لأنّ شروط الإمامة موجودة فيه بالاتفاق، فإذا كانت موانعها عنه منتفيةً ولم يحصل لغيره اجتماع الشروط، وارتفاع الموانع، وجب أن يكون هو الإمام، لأنه لا يجوز خلوُّ العصر من إمامٍ، سواء كانت هذه القضيّة عقليّة أو سمعيّة.

فإن قلت، أفتراه عَنَى بهذا قوماً بأعيانهم؟

قلت: الإمامية تزعُم أنه رَمَز في الجفاء والعصبية لقوم دون قوم إلى عمر، ورمز بالجهل إلى مَنْ كان قبله، ورمز بتعطيل السّنة إلى عثمان ومعاوية، وأما نحن فنقول: إنّه عليه السلام لم يعن ذلك، وإنّما قال قولاً كلّيًا غير مخصوص، وهذا هو اللاّئق بشرفه عليه السلام، وقول الإماميّة دعوى لا دليل عليها، ولا يعدم كلّ أحد أن يستنبط من كلّ كلام ما يوافق غرضه وإن غمض، ولا يجوز أن تُبنَى العقائد على مثل هذه الاستنباطات الدقيقة.

والنَّهْمة: الهَمّة الشديدة بالأمر، قد نُهم بكذا بالضم، فهو منهوم، أي مولَع به حريص عليه، يقول: إذا كان الإمام بخيلاً كان حرصُه وجَشَعه على أموال رعيّته، ومن رواها «نَهَمَته»، بالتحريك فهي إفراط الشهوة في الطعام، والماضي نَهِم، بالكسر.

قوله عليه السلام: «فيقطعهم بجفائه» أي يقطعهم عن حاجاتهم لغلظته عليهم، لأنّ الواليَ إذا كان غليظاً جافياً أتعب الرعيّة وقطعهم عن مراجعته في حاجاتهم خوفاً من بادرته، ومعرّته.

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ١٠-١١.

قوله: «ولا الحائف للدول»، أي الظالم لها، والجائر عليها. والدّول: جمع دُولة بالضمّ وهي اسم المال المتداول به، ويقال: هذا الفيء دُولة بينهم، أي يتداولونه، والمعنى أنّه يجب أن يكونَ الإمام يقسم بالسويّة، ولا يخصّ قوماً دون قوم على وجهه العصبيّة لقبيلة دون قبيلة، أو لإنسان من المسلمين دون غيره، فيتّخذ بذلك بطانة.

قوله: «فيقف بها دون المقاطع»، المقاطع: جمع مقطع، وهو ما ينتهي الحقّ إليه، أي لا تصل الحقوق إلى أربابها لأجل ما أخِذ من الرشوة عليها.

فإن قلت: فما باله قال في المانع السادس: «فيهلك الأمة» وكلّ واحد من الموانع قبله يفضي إلى هلاك الأمة!

قلت: كلّ واحد من الموانع الخمسة يفضِي إلى هلاك بعض الأمّة، وأمّا مَنْ يعطّل السّنّة أصلاً، فإنه لا محالةَ مهلك للأمّة كلّها، لأنه إذا عطّل السنة مطلقاً، عادت الجاهلية الجهلاء كما كانت.

وقد روي: «ولا الخائف الدولَ» بالخاء المعجمة. ونصب «الدّول» أي مَنْ يخاف دول الأيام وتقلّبات الدهر فيتّخذ قوماً دون قووم ظِهْريًا، وهذا معنى لا بأس به.

١٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله تعالى

الأصل: ومن خطبة له عليه السلام: نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأعطى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَٱبْتَلَى، ٱلْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، ٱلْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ ٱلْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَن لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَبَعِيثُهُ، شهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ ٱلْإِعْلاَنَ، وَالقَلْبُ اللِّسَانَ.

الشرح: على ما أبلى، أي ما أعطى، يقال: قد أبلاه الله بلاء حسناً، أي أعطاه، قال زُهير:

جَزَى الله بالإحسان ما فعلاَ بكُمْ   وأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو

وأما قوله: «وابتلى» فالابتلاء إنزال مضرّة بالإنسان على سبيل الاختبار، كالمرض والفقر والمصيبة. وقد يكون الابتلاء بمعنى الاختبار في الخير، إلا أنه أكثر ما يستعمل في الشرّ.

والباطن: العالم، يقال: بطنت الأمر، أي خبرته. وتكِنّ الصدور: تستر، وما تخون العيون: ما تسترِقُ من اللحظات والرمزات على غير الوجه الشرعيّ.

والنَّجِيب: المنجَب. والبعيث: المبعوث.

الأصل: منها: فَإِنَّهُ وَٱللهِ الجِدُّ لاَ اللَّعِبُ، وَٱلْحَقُّ لاَ ٱلْكَذِبُ، وَمَا هُوَ إِلاَّ المَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلاَ يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ المَالَ وَحَذِرَ ٱلْإِقْلاَلَ، وَأَمِنَ ٱلْعَوَاقِبَ: طُولَ أَمَلٍ وَٱسْتِبْعَادَ أَجَلٍ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَى أَعْوَادِ المَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلاً عَلَى المَنَاكِبِ، وَإِمْسَاكاً بِالأَنَامِلِ.

أَمَا رَأَيْتُمُ ٱلَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً، أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ، لاَ فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلاَ مِنْ سَيِّئَةٍ يُسْتَعْتَبُونَ.

فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ، بَرَزَ مَهَلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَٱعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا، فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً، لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَى دَارِ ٱلْقَرَارِ.

فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ، وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ.

الشرح: قوله عليه السلام: «فإنّه والله الجدّ»، الضمير للأمر والشأن الّذي خاض معهم في ذكره ووعظهم بنزوله. ثم أوضحه بعد إجماله، فقال: إنّه الموتُ الّذي دعا فأسمع، وحَدَا فأعجل.

وسواد الناس: عامّتهم.

ومن ها هنا، إما بمعنى الباء، أي لا يغرّنك الناس بنفسك وصحتك وشبابك، فتستبعد الموت اغتراراً بذلك، فتكون متعلّقة بالظاهر، وإمّا أن تكون متعلّقة بمحذوف، تقديره: متمكّناً من نفسك، وراكناً إليها.

والإقلال: الفقر. وطولَ أملٍ، منصوب على أنه مفعول.

فإن قلت: المفعول له ينبغي أن يكون الفعل علّة في المصدر وها هنا ليس الأمنُ علّة طول الأمل، بل طول الأمل علّة الأمن؟

قلت: كما يجوز أن يكون طول الأمل علّة الأمن، يجوز أن يكون الأمنُ عِلّة طول الأمل، ألا ترى أنّ الإنسان قد يأمن المصائب فيطول أملُه في البقاء ووجوه المكاسب، لأجل ما عنده من الأمن. ويجوز أن ينصب «طولَ أملٍ» على البدل من المفعول المنصوب بـ«رأيت»، وهو

«مَنْ»، ويكون التقدير: قد رأيت طولَ أملِ مَنْ كان. وهذا بدل الاشتمال، وقد حذِف منه الضّمير العائد كما حذِف من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ...﴾[1].

وأعواد المنايا: النّعش. ويتعاطى به الرّجال الرّجال: يتداولونه: تارةً على أكتاف هؤلاء، وتارة على أكتاف هؤلاء، وقد فسر ذلك بقوله: «حملا على المناكب، وإمساكاً بالأنامل».

والمشيد: المبنيّ بالشِّيد، وهو الجصّ.

البُور: الفاسِد الهالك، وقوم بور، أي هَلْكى، قال سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[2]، وهو جمع، واحده بائر كحائل وحُول.

ويُستعتَبون ها هنا يفسّر بتفسيرين، على اختلاف الروايتين: فمن رواه بالضم على فعل ما لم يسمَّ فاعله، فمعناه لا يعاتَبون على فعل سيّئة صدرتْ منهم كما كانوا في أيّام حياتهم، أي لا يعاتبهم الناس أو لا يستطيعون - وهم موتى - أن يسيئوا إلى أحد إساءة عليها، ومن رواه «يَسْتَعتِبون» بفتح حرف المضارعة، فهو من استعتَب فلان، أي طلب أنْ يُعتَب، أي يرضَى، تقول: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني.

وأشعر فلانٌ التقوى قلبَه: جعله كالشعار له، أي يلازمه ملازمة شِعار الجسد.

وبرزَ مهلُه، ويروى بالرفع والنصب، فمن رواه بالرفع جعله فاعل «برز»، أي مَنْ فاق شَوْطَه برز الرجل على أقرانه، أي فاقهم، والمهلُ شوط الفرس، ومن رواه بالنصب جعل «برز» بمعنى أبرز، أي أظهر وأبان، فنصب حينئذ على المفعولية.

واهتبلت غِرّة زيد، أي اغتنمتها، والهَبال: الصيّاد الذي يهتبل الصيد أن يغرّه وذئب هِبَلٌّ أي محتال، «هبلها» منصوب على المصدر كأنه من هبل، مثل غضب غضباً، أي اغتنموا وانتهزوا الفرصة، الانتهاز الذي يصلح لهذه الحال، أي ليكن هذا الاهتبال بجدّ وهِمّة عظيمة، فإنّ هذه الحال حال عظيمة لا يليق بها إلاّ الاجتهاد العظيم.

وكذا قوله: «واعملوا للجنّة عملها»، أي العمل الذي يصلح أن يكون ثمرته الجنّة.

ودار مقام، أي دار إقامة. والمجاز: الطريق يجاز عليه إلى المقصد.

والأوفاز: جمع وفْز بسكون الفاء، وهو العجلة. والظُّهور: الرّكاب، جمع ظَهْر. وبنو فلان مظهرون، أي لهم ظهور ينقلون عليها الأثقال، كما يقال: منجِبون، إذا كانوا أصحاب نجائب. والزِّيال: المفارقة، زايلَه مزايلَة، وزِيالاً، أي فارقه.

---

(1) سورة البروج، الآيتان: ٤-٥.
(2) سورة الفتح، الآية: ١٢.

١٣٣ - ومن كلام له عليه السلام في أوصاف الدنيا

الأصل: وَانقَادَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلأَرَضُونَ مَقَالِيدَها، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَٱلآصَالِ ٱلأَشْجارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانُ المُضِيئَةُ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِماتِهِ ٱلثِّمَارُ ٱلْيَانِعَةُ.

الشرح: الضمير في «له» يرجع إلى الله تعالى، وقد كان تقدّم ذكره سبحانه في أول الخطبة، وإن لم يذكره الرضيّ رحمه الله، ومعنى انقياد الدنيا والآخرة له نفوذ حكمه فيهما، وشياع قدرته وعمومها.

وأزمّتها: لفظة مستعارة من انقياد الإبل بأزمّتها مع قائدها. والمقاليد: المفاتيح.

ومعنى سجود الأشجار الناضرة له تصرّفها حَسَب إرادته، وكونها مسخّرة له محكوماً عليها بنفوذ قدرته فيها، فجعل عليه السلام ذلك خضوعاً منها لمشيئته، واستعار لها ما هو أدلّ على خضوع لإنسان من جمع أفعاله، وهو السجود ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

قوله: «وقدحتْ له من قُضبانها» - بالضم - جمع قضيب، وهو الغصن، والمعنى أنّه بقدرته أخرج من الشجر الأخضر ناراً، والنار ضدّ هذا الجسم المخصوص، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[2] بعينه.

وآتت أكلها: أعطت ما يؤكل كل منها، وهو أيضاً من الألفاظ القرآنية.

واليانعة: الناضجة. وبكلماته، أي بقدرته ومشيئته، وهذه اللفظة من الألفاظ المنقولة على أحد الأقسام الأربعة المذكورة في كتبنا في أصول الفقه، وهو استعمال لفظة متعارَفة في اللغة العربية في معنى لم يستعملْها أهلُ اللغة فيه، كنقل لفظة «الصّلاة» الذي هو في أصل اللغة للدعاء إلى هيئاتٍ وأوضاع مخصوصة، ولم تستعمل العرب تلك اللفظة فيها. ولا يصحّ قولُ من قال: المراد بذلك قوله «كُن»، لأنه تعالى لا يجوز أن يخاطب المعدوم وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] من باب التوسّع والاستعارة المملوء منهما القرآن، والمراد سرعة المؤاتاة، وعجلة الإيجاد، وأنّه إذا أراد من أفعاله أمراً كان.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٠.
(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.

الأصل: منها: وَكِتَابُ ٱللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لاَ يَعْيَا لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لاَ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ.

الشرح: يقال: هو نازل بين أظهرهم، وبين ظَهْرَيْهِم، وبين ظَهْرَانَيْهم، بفتح النون، أي نازل بينهم. فإن قلت: لماذا قالت العرب «بين أظهرهم»، ولم تقل: «بين صدورهم»؟

قلت: أرادت بذلك الإشعار بشدة المحاماة عنه، والمرَاماةِ مِنْ دونه، لأنّ النّزيل إذا حامَى القوم عنه استقبلوا شَبَا الأسنّة، وأطراف السيوف عنه بصدورهم، وكان هو محروساً مصوناً عن مباشرة ذلك وراء ظهورهم.

ولا يعيا لسانه: لا يكِلّ، عَيِيت بالمنطق، فأنا عيِيٌّ، على «فَعِيل»، ويجوز: عَيّ الرجل في منطقه، بالتشديد، فهو «عَيّ» على «فَعْل».

الأصل: منها: أَرْسَلَهُ على حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ ٱلْأَلْسُنِ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ ٱلْوَحْيَ، فَجاهَدَ في الله المُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَٱلْعادِلِينَ بِهِ.

الشرح: الضمير في «أرسله»، راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله، وهو مذكور في كلام لم يحكِه جامع الكتاب.

والفترة: زمان انقطاع الوحي، والتنازع من الألسن، أنّ قوماً في الجاهليّة كانوا يعبدون الصنم، وقوماً يعبدون الشمس، وقوماً يعبدون الشيطان، وقوماً يعبدون المسيح، فكلّ طائفة تجادل مخالفيها بألسنتها لتقودها إلى معتقدها.

وقفّى به الرّسل: أتبعها به، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾[1]، ومنه الكلام المقفّى، وسمّيت قوافي الشعر، لأنّ بعضها يتبع بعضاً.

والعادلين به: الجاعلين له عَدِيلاً، أي مثلاً، وهو من الألفاظ القرآنية أيضاً، قال الله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2].

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١.

الأصل: منها: وَإنّما ٱلدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ ٱلأَعْمَى، لا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَٱلْبَصِيرُ يَنْفُذُها بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءهَا، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شاخِصٌ، وَٱلأَعْمَى إِلَيْها شاخِصٌ، وَٱلْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ.

الشرح: شَبّه الدنيا وما بعدها بما يتصوّره الأعمى، من الظُّلمة التي يتخيّلها، وكأنها محسوسة له، وليست بمحسوسة على الحقيقة، وإنما هي عدم الضَّوْء، كمن يطلع في جبّ ضيق، فيتخيّل ظلاماً، فإنه لم ير شيئاً، ولكن لَمّا عدم الضوء فلم ينفذ البصر تخيّل أنه يرى الظلمة، فأمّا من يرى المبصرات في الضياء، فإنّ بصره ينفذ فيشاهد المحسوسات يقيناً، وهذه حال الدنيا والآخرة، أهلُ الدنيا منتهى بصرهم دنياهم، ويظنّون أنّهم يبصرون شيئاً وليسوا بمبصرين على الحقيقة، ولا حواسّهم نافذَة في شيء، وأهلُ الآخرة قد نفذت أبصارهم، فرأوا الآخرة. ولم يقف إحساسهم على الدّنيا خاصّة، فأولئك هم أصحاب الأبصار على الحقيقة، وهذا معنى شريف من معاني أصحاب الطريقة والحقيقة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾[1]، فأما قوله: «فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص»، فمن مستحسَن التجنيس، وهذا هو الذي يسمِّيه أرباب الصناعة الجناس التام، فالشاخص الأوّل الراحل، والشاخص الثاني من شَخَص بصرُه، بالفتح، إذا فتح عينَه نحو الشيء مقابلاً له وجعل لا يطرف.

فصل في الجناس وأنواعه

واعلم أنّ الجناس على سبعة أضرب: أولها: الجِناس التّام كهذا اللفظ، وحدّه أن تتساوَى حروف ألفاظ الكلمتين في تركيبها وفي وزنها، قالوا: ولم يرد في القرآن العزيز منه إلا موضع واحد، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[2].

وعندي أن هذا ليس بتجنيس أصلاً، وقد ذكرته في كتابي المسمى «بالفلك الدائر على المثل السائر» وقلت: إنّ الساعة في الموضعيْن بمعنًى واحد، والتّجنيس أن يتّفق اللفظ ويختلف المعنى، ولا يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً، بل يكونان حقيقتين، وإنّ زمان القيامة وإن طال، لكنّه عند الله في حكم الساعة الواحدة، لأنّ قدرته لا يعجِزُها أمر، ولا يطول عندها زمان، فيكون إطلاق لفظ «الساعة» على أحد الموضعين حقيقة، وعلى الآخر مجازاً، وذلك يخرجُ الكلام عن حدّ التجنيس، كما لو قلت: ركبت حماراً، ولقيت حماراً، وأردت بالثاني البليد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩. (٢) سورة الروم، الآية: ٥٥.

وأيضاً، فلمَ لا يجوز أن يكون أراد بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾[١]، الأولى خاصّة من زمان البعث، فيكون لفظ «الساعة» مستعملاً في الموضعيْن حقيقة بمعنى واحد، فيخرج عن التجنيس، وعن مشابهة التجنيس بالكلّية.

قالوا: وورد في السّنة من التجنيس التّام خبر واحد، وهو قوله ﷺ لقوم من الصحابة، كانوا يتنازعون جَرِير بن عبد الله البَجَليّ في زِمام ناقته: «خَلُّوا بين جرير والجرير»[٢]، فالجرير الثاني الحبْل.

وجاء من ذلك في الشعر لأبي تمام قوله:

فـأصْـبَـحَـتْ غُـرَرُ الإسـلامِ مـشـرقَـةً ... بـالـنّصـر تَـضْـحَـكُ عـن أيـامِـكَ الـغُـرَرِ

فالغرر الأولى مستعارة من غُرّة الوجه، والغُرَرُ الثانية من غُرّة الشيء، وهي أكرمه.

وكذلك قوله:

مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أبيضُ الوجْهِ والنَّدَى ... وَلَـيْـسَ بَـنَـانٌ يُـجْـتَـدَى مـنه بـالْـجَـعْـدِ

فالجعْد الأولى السيّد، والثاني ضدّ السَّبْط، وهو من صفات البخيل.

وكذلك قوله:

بـكُـلِّ فـتًـى ضَـرْبٍ يُـعَـرِّضُ لِـلْـقَـنَـا ... مُحيًّا مُحلًّى حَلْيُهُ الطّعنُ والضَّرْبُ

فالضرب الأوّل الرجل الخفيف، والثاني مصدر «ضرب».

وكذلك قوله:

عَذَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المستضامةِ[٣] عنْ ... بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الحَصِبِ

ومن هذه القصيدة:

كَمْ أحْرَزَتْ قُضُبُ الهِنْدِيّ مُصْلَتَةً ... تـهـتـزّ مـن قُـضُـبٍ تـهـتـزّ فـي كُـثُـبِ

بِيضٌ إذا انتضِيتْ من حُجْبِها رَجَعَتْ ... أحـقّ بـالـبـيـضِ أبداناً مـن الـحُـجُـبِ

وقد أكثر الناس في استحسان هذا التجنيس وأطنبوا، وعندي أنه ليس بتجنيس أصلاً، لأن تسميةَ السيوف «قُضُبا» وتسمية الأغصان «قضباً» كلّه بمعنى واحد، وهو القطع، فلا تجنيس إذاً. وكذلك البيض للسيوف، والبيض للنساء، كلّه بمعنى البياض، فبطَل معنى التجنيس، وأظنني ذكرت هذا أيضاً في كتاب «الفلك الدائر».

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٥.

(٢) ذكره ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة (جرر).

(٣) استضامه: انتقصه. القاموس المحيط، مادة (ضمم).

قالوا: ومن هذا القسم قوله أيضاً:

إذا الخيلُ جابَتْ قَسْطَلَ الخيلِ صَدَّعُوا   صُدُورَ العوالِي في صدور الكتائب

وهذا عندي أيضاً ليس بتجنيس، لأن الصّدور في الموضعين بمعنى واحد، وهو جزء الشيء المتقدم البارز عن سائره، فأما قوله أيضاً:

عَامِي وعامُ العيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ   مَسْجُورة، وتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ[1]

حَتّى أغادِرَ كلّ يومٍ بالفَلاَ   للطَّيْرِ عيداً من بنات العِيد

فإنّه من التجنيس التّام، ولا شبهة في ذلك لاختلاف المعنى، فالعيد الأول هو اليوم المعروف من الأعياد، والعيد الثاني فحل من فحول الإبل.

ونحو هذا قول أبي نواس:

عَبّاسُ عباسٌ إذا احتدَم الْوَغَى   والفضلُ فضلٌ والرَّبيع ربيعُ

وقول البحتريّ:

إذا الْعَيْنُ راحتْ وهي عَيْنٌ على الهوى   فليس بسرٌ ما تُسِرُّ الأضالع

فالعين الثانية الجاسوس، والأولى العين المبصرة. وللغزّي المتأخر قصيدة أكثر من التجنيس التّام فيها، أولها:

لَو زَارَنا طيفُ ذاتِ الخال أحيانَا   ونحن في حُفَر الأجداث أحيانَا

وقال في أثنائها:

تقول أنتَ امرؤٌ جافٍ مغالطةً   فقلت لا هَوّمَتْ أجْفانُ أجفانا

وقال في مديحها:

لم يبقَ غيرُك إنسانٌ يُلاذُ بِهِ   فلا برِحت لعينِ الدّهر إنسانا

وقد ذكر الغانميّ في كتابه من صناعة الشعر باباً سمّاهُ ردّ الأعجاز عل الصدور، ذكر أنّه خارج عن باب التجنيس، قال: مثل قول الشاعر:

وَنَشْرِي بجميلِ الصُّنْـ   ـع ذكراً طيّب النَّشْرِ

وَنفْرِي بسيوف الهِنْـ   ـدِ مَنْ أشرَف في النَّفْرِ

ويحرِي في شرى الحمد   على شاكلة البَحْرِ

وهذا من التجنيس، وليس بخارج عنه ولكنه تجنيس مخصوص، وهو الإتيان به في طرفَي البيت. وعدّ ابن الأثير الموصليّ في كتابه من التجنيس قول الشاعر في الشيب:

---

(١) الصيخود: الصلب. القاموس، مادة (ضخد).

يَا بيـاضـاً أذْرَى دُمُـوعـيَ حَـتَّـى ... عَـادَ مـنـهـا سـوادُ عـيـنِـي بـيـاضَـا

وكذلك قول البحتريّ:

وأغـرّ فـي الـزمـن الـبـهـيـم مـحـجّـلٍ ... قـد رحـتُ مـنـه عـلـى أغـرّ مـحـجّـلِ

وهذا عندي ليس بتجنيس، لاتفاق المعنى. والعجب منه أنه بعد إيراده هذا أنكر على من قال: إن قول أبي تمّام:

أظُـنّ الـدمْـعَ فـي خَـدّي سَـيُـبْـقـي ... رسـومـاً مـن بـكـائـي فـي الـرّسـوم

من التجنيس، وقال: أيّ تجنيس ها هنا والمعنى متفق! ولو أمعن النظر لرأي هذا مثلَ البيتَيْن السابقَيْن.

قالوا: فأمّا الأجناس الستة الباقية، فإنها خارجة عن التجنيس التامّ ومشبّهة به. فمنها أن تكون الحروف متساويةً في تركيبها، مختلفة في وَزْنها، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «اللهمّ كما حسَّنت خَلْقي فحسّن خُلُقي»[1]، وقول بعضهم: لن تنالُوا غُرَر المعالي إلا بركوب الغَرَر، واهتبال الغُرر»، وقول البحتريّ:

وَفَـرّ الـحَـائـنُ الـمـغـرورُ يَـرْجُـو ... أمـانـاً، أيُّ سـاعـة مـا أمـانِ!

يَـهَـابُ الالـتـفـاتَ وقـد تـصـدّى ... لـلـحـظـة طـرفِـه طـرَفُ الـسّـنـانِ

وقال آخر:

قـد ذُبْـتُ بـيـن حُـشـاشـةٍ وذَمـاءِ ... مـا بـيـن حَـرّ هـوى وحَـرّ هـواءِ

ومنها: أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير، فإنْ زاد على ذلك خرج من باب التجنيس، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[2]. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[4]. ونحو هذا ما ورد عن النبي ﷺ من قوله: «الخَيْرُ معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»، وقال بعضهم: «لا تُنال المكارم إلا بالمكاره».

وقال أبو تمام:

يـمـدّون مـن أيـدٍ عـواصٍ عـواصـمِ ... تَـصُـول بـأسـيـافٍ قـواضٍ قـواضـبِ

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٩٥٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٠٧٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٤٢).

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢-٢٣. (٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٦.

(٤) سورة غافر، الآية: ٧٥.

وقال البحتريّ:

مـن كـلّ سـاجـي الـطّرف أغـيَـدَ أجْـيَـدٍ ومـهـفـهـفِ الـكـشـحـيـنِ أحْـوَى أحْـوَرِ

وقال أيضاً:

شَـواجِـرُ أرْمَـاحٍ تُـقَـطِّـعُ بـيـنـهـمْ شـواجـنَ أرحـامٍ مـلـوم قَـطُـوعُـهـا

وهذا البيت حَسَن الصنعة، لأنه قد جمع بين التجنيس الناقص وبين المقلوب، وهو أرماح، وأرحام.

ومنها: أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2]، وكقول النبي ﷺ: «المسلم مَنْ سلِم الناس من لسانه ويده»[3] وقول بعضهم: الصديق لا يحاسب، والعدوّ لا يحتَسب له، هكذا ذكر ابن الأثير هذه الأمثلة.

قال: ومن هذا القسم قول أبي تمام:

أيّـام تُـدمـي عَـيْـنَـهُ تـلـك الـدُّمَـى حُـسْـنـاً وَتَـقْـمُـرُ لـبّـه الأقـمـارُ

بِـيـضٌ فـهـنّ إذا رُمِـقـنَ سَـوافِـراً صُـوَرٌ وهـنّ إذا رَمـقْـنَ صِـوَارُ

وكذلك قوله أيضاً:

بَـذرٌ أطـاعـت فـيـك بـادرَةَ الـنـوى وَلَـعـاً وشـمـسٌ، أولِـعَـتْ بِـشَـمـاسِ

وقوله أيضاً:

جَـهِـلُـوا فـلـم يـسـتكْـثـروا من طـاعـةٍ مـعـروفـةٍ بـعـمـارة الأغـمَـارِ

وقوله أيضاً:

إنّ الـرّمـاحَ إذا غُـرِسْـن بـمَـشْـهـدٍ فـجـنَـى الـعـوالِـي فـي ذُرَاهُ مَـعـالِ

وقوله أيضاً:

إذا أحـسـن الأقـوامُ أن يـتـطـاولـوا بـلا نـعـمـةٍ أحـسـنـتَ أن تـتـطـوّلاَ

وقوله أيضاً:

شَـدّ مـا اسـتـنـزلـتـكَ عن دمـعـك الأظـ ـعـانُ حـتّـى اسـتـهـلّ صَـوبُ الـعـزالـي

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٩-٣٠. (٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٤٠)، والترمذي في كتاب: صفة القيامة في باب منه (٢٥٠٤)، والنسائي في كتاب: الإيمان وشرائعه باب صبغة المؤمن (٤٩٩٥).

أيّ رَبْـعٍ يـكـذبُ الـدهـر عَـنْـهُ ... وَهْوَ ملقًى على طريق اللّيالِي!
بـيـن حـالٍ جَـنَـتْ عـلـيـه وحـولٍ ... فـهـو نِـضْـوُ الأوحـالِ والأحـوالِ
أيّ حـسـنٍ فـي الـذاهـبـيـن تـولّـى ... وجـمـالٍ عـلـى ظـهـور الـجـمـالِ
ودلالٍ مـخـيّـم فـي ذُرَى الـخِـيمِ ... وحِجْـلٍ مُـقَـصَّـرٍ فـي الـحـجـالِ

فالبيت الثالث والخامس هما المقصودان بالتمثيل. ومن ذلك قول علي بن جَبلة:

وَكـم لـك مِـنْ يـومٍ رفـعـتَ عِـمـادَهُ ... بـذات جـفـونٍ، أو بـذاتِ جِـفـانِ

وكقول البحتريّ:

نـسـيـمُ الـرِوض فـي ريـح شَـمـالٍ ... وصَـوحـتُ الـمـزن فـي رَاحِ شَـمُـولِ

وكقوله أيضاً:

جَـديـرٌ بـأنْ تـنـشَـقّ عَـنْ ضـوء وجـهِـهِ ... ضَـبَـابـةُ نـقْـعٍ تـحـتـهَـا الـمـوتُ نـاقـعُ

واعلم أنّ هذه الأمثلة لهذا القسم، ذكرها ابن الأثير في كتابه، وهو عندي مستدرك، لأنه حدّ هذا القسم بما يختلف تركيبه، يعني حروفه الأصلية، ويختلف أيضاً وزنه، ويكون اختلاف تركيبه بحرف واحدٍ. هكذا قال في تحديده لهذا القسم، وليس بقمر والأقمار تختلف بحرف واحد، وكذلك عمارة والأعمار، وكذلك العوالي والمعالي. وأما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، فخارج عن هذا بالكلّية، لأن جميع أمثلة هذا القسم يختلف فيه الكلمات بالحروف الزائدة، وهذه الآية اختلاف كلمتيها بحروف أصلية، فليست من التجنيس الذي نحن بصددِه، بل هي من باب تجنيس التصحيف، كقول البحتريّ:

وَلَـمْ يـكُـن الـمـعـتـزّ بـالله إذْ سَـرَى ... لـيـعـجـز والـمـعـتَـزُّ بـالله طـالـبُـهْ

ثم قال ابن الأثير في هذا القسم أيضاً: ومن ذلك قول محمد بن وهيب الحميريّ:

قَـسَـمْـتَ صُروفَ الدَّهْـرِ بـأسـاً ونـائـلاً ... فـمـالـك مـوتـورٌ وسـيـفُـك واتـرُ

وهذا أيضاً عندي مستدرَك، لأنّ اللفظتين كلاهما من الوِتر، ويرجعان إلى أصل واحد، إلا أن أحد اللفظين مفعول والآخر فاعل، وليس أحدٌ يقول إن شاعراً لو قال في شعره: ضارب ومضروب، لكان قد جانس.

ومنها القسم المكنّى بالمعكوس، وهو على ضربين: عكس لفظ وعكس حرف، فالأول كقولهم: «عادات السادات، سادات العادات»، وكقولهم: شِيَمُ الأحرار أحرارُ الشِّيَم.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

ومن ذلك قول الأضبط بن قُرَيع:

قَدْ يجمعُ المالَ غَيْرُ آكلهِ ... ويأكلُ المالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهْ
وَيَقْطَعُ الثَّوْبَ غيرُ لابسهِ ... ويلبسُ الثَّوب غيرُ مَنْ قَطَعَهْ

ومثله قول المتنبي:

فلا مجدَ في الدّنيا لمن قلّ مالُه ... ولا مالَ في الدّنيا لمنْ قلّ مجدُهُ

ومثله قول الرضيّ رحمه الله من أبيات يذمّ فيها الزمان:

أسفّ بمن يطير إلى المعالي ... وطار بمن يُسِفُّ إلى الدّنايا

ومثله قول آخر:

إنّ اللّيالي للأنام مناهلٌ ... تُطْوَى وتُنْشَرُ بينها الأعمارُ
فَقِصارُهُنّ مع الهموم طويلةٌ ... وطوالهنّ مع السُّرور قِصَارُ

ولبعض شعراء الأندلس بذكر غلامه:

غَيَّرَتنا يدُ الزمان ... فقد شِبْتُ والْتَحى
فاستحالَ الضُّحَى دُجَى ... واستحال الدُّجَى ضُحى

ويسمّى هذا الضرب التبديل، و قد مثّله قدامة بن جعفر الكاتب بقولهم: «اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك».

ومثله قول النبي ﷺ: «جار الدار أحقّ بدار الجار»(١). قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾(٢)، ولا أراه منه، بل هو من باب الموازنة. ومثّلوه أيضاً بقول أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعدُ، فإنّ الإنسان يسرّه درْك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه. وبقول أبي تمام لأبي العميْثل وأبي سعيد الضرير، فإنهما قالا: لمّا امتدح عبدَ الله بن طاهر بقصيدة، وفي افتتاحها تكلّف وتعجرف: لم لا تقول ما يُفهم؟ فقال لهما: لم لا تفهمان ما يقال!

والضرب الثاني من هذا القسم عكس الحروف، وهو كقول بعضهم، وقد أهدى لصديق له كرسيًّا:

أهديتُ شيئاً يَقِلُّ لولا ... أُحْدُوثة الفالِ والتَّبَرُّكْ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: البيوع (٣٥١٧)، بنفس اللفظ، وأخرج الترمذي في كتاب: الأحكام (١٣٦٨)، وأحمد في كتاب: أول مسند الكوفيين (١٨٩٦٥)، بلفظ: «جار الدار أحق بالدار».
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٧.

«كُرْسي» تفاءلتُ فيه لَمّا رأيتُ مقلوبه «يسرّك»

وكقول الآخر:

كيف السرور بإقبالٍ وآخره إذ تأملتَه مقلوب إقْبالِ

أي لا بقاء.

وكقول الآخر:

جاذبتُها والريحُ تجذب عَقْرَباً من فوق خدّ مثل قَلْبِ العقربِ
وطفقتُ ألثِمُ ثَغرَها فتمنّعَتْ وتحجّبَتْ عَنّي بقَلب العقرب

يريد «برقعاً».

ومنها النوع المَسمى المجنّب، وهو أن يجمع بين كلمتين إحداهما كالجنيبة التابعة للأخرى، مثل قول بعضهم:

أبا الفيّاض لا تحسب بأنّي لفقري مِنْ حُلَى الأشعار عَارِ
فلي طبعٌ كسَلْسالٍ مَعِينٍ زلالٍ من ذُرَا الأحجارِ جارِ

وهذا في التحقيق هو الباب المسمى لزوم ما لا يلزم، وليس من باب التجنيس. ومنها المقلوب، وهو ما يتساوى وزنه وتركيبه إلا أنّ حروفه تتقدّم وتتأخر، مثل قول أبي تمام:

بِيضُ الصَّفائح لا سودُ الصَّحائِف في مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وقد ورد مثل ذلك في المنثور، نحو ما روي عن النبي ﷺ أنه يقال يوم القيامة، لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ»[1].

وقد تكلّمت في كتابي المسمى «بالعبقريّ الحسان» على أقسام الصناعة البديعة نثراً ونظماً، وبيّنت أنّ كثيراً منها يتداخل، ويقوم البعض من ذلك مقام بعض، فليلمح من هناك.

الأصل: منها: وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ، إِلاَّ ٱلْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لاَ يَجِدُ فِي ٱلْمَوْتِ رَاحَةً، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ ٱلْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ ٱلْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلأُذُنِ ٱلصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ: وَفِيهَا ٱلْغِنَى كُلُّهُ وَٱلسَّلاَمَةُ.

كِتَابُ ٱللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي ٱللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ ٱللهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأبو داود في كتاب: الصلاة (١٤٦٤)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة (٦٧٦٠).

قَدِ ٱصْطَلَحْتُمْ عَلَى ٱلْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ ٱلْمَرْعَىٰ عَلَى دِمَنِكُمْ، وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ ٱلْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ ٱلْأَمْوَالِ. لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكُمُ ٱلْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ ٱلْغُرُورُ، وَٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ.

الشرح: هذا الفصل ليس بمنتظم من أوله إلى آخره، بل هو فصول متفرّقة التقطها الرضيّ من خطبة طويلة على عادته في التقاط ما يستفصحه من كلامه عليه السلام، وإن كان كلّ كلامه فصيحاً، ولكن كلّ واحد له هوًى ومحبّة لشيء مخصوص، وضروب الناس عشاقٌ ضروباً.

أما قوله: «كل شيء مملول إلا الحياة»، فهو معنى قد طَرقه الناس قديماً وحديثاً، قال أبو الطيب:

وَلَذِيذُ الحيَاةِ أنفسُ في النّفْـ ... ـسِ وأشهى من أن يملّ وأحلَى
وإذا الشّيخ قال أفٍّ فما مـ ... ـلَّ حياةً ولكنِ الضّعفَ مَلاّ

وقال أيضاً:

أرى كُلّنا يبغِي الحياة لنفسه ... حَرِيصاً عليها مُسْتهاماً بها صَبّا
فحبّ الجبان النفسَ أورده البَقا ... وحبُّ الشجاع النفس أورده الحَرْبَا

وقال أبو العلاء:

فما رَغِبَتْ في الموت كُدْرٌ مسيرها ... إلى الوِرْدِ خِمْساً ثم تَشْرَبْنَ من أجْنِ
يُصَادِفْنَ صَقْراً كلّ يومٍ وليلةٍ ... وَيَلْقَيْنَ شرًّا من مخالبه الحُجْنِ
ولا قلقاتُ اللّيل باتت كأنها ... من الأيْنِ والإدلاج بعضُ القَنَا اللُّدنِ
ضَرَبْنَ مليعاً بالسّنابك أرْبَعاً ... إلى الماءِ لا يقدِرْنَ مِنهُ على مَعْنِ
وخوفُ الردَى آوى إلى الكهْفِ أهلَه ... وكلَّفَ نوحاً وابنَه عَمَل السُّفْنِ
وما استعذَبَتْهُ روحُ موسى وآدمٍ ... وقَدْ وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنّتَيْ عَدْنِ

ولي من قصيدة، أخاطب رجلَيْن فرّا في حرب:

عَذَرْتُكُمَا إنّ الحمام لمبغَضٌ ... وإنّ بقاء النّفسِ للنفس محبوبُ
ويُكْرَهُ طعم الموتِ والموتُ طالبٌ ... فكيف يلذّ الموتُ والموتُ مطلوبُ!

وقال أبو الطيب أيضاً:

طيبُ هذا النسيم أوْقَرَ في الأنـ ... ـفُسِ أنّ الحِمَامَ مُرُّ المذَاقِ
والأسى قَبْلَ فُرْقَة الرُّوح عجزٌ ... والأسَى لا يكونُ بَعْدَ الفِراقِ

البحتريّ:

مـا أطْـيَـبَ الأيـام إلا أنّـهـا ... يـا صـاحـبـيّ إذا مـضـت لـم تَـرْجِـعِ

وقال آخر:

أوفى يصفّق بالجناح مغلِّساً ... ويصيح من طرب إلى النَّدمانِ

يا طيب لذّة هذه الدُّنْيا لنا ... لو أنّها بقيتْ على الإنسان

وقال آخر:

أرى النّاس يهوَوْنَ البقاء سفاهةً ... وذلك شيء ما إليهِ سبيلُ

وَمَنْ يأمَنِ الأيامَ! أمّا بلاؤُها ... فجمٌّ، وأما خَيْرُهَا فقليلُ

وقال محمد بنِ وهيب الحميري:

ونحن بنُو الدّنيا خلِقْنَا لغيرِها ... وما كنت منه فهو شيء محبَّبُ

وهذا مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام، وقد قيل له: ما أكثر حبّ الناس للدنيا! فقال: هم أبناؤها، أيلامُ الإنسان على حبّ أمّه!

وقال آخر:

يَا مَوْتُ ما أفجاكَ من نازِلٍ ... تنزل بالمرءِ عَلَى رُغْمِهِ

تستلبُ العَذْرَاءَ مِنْ خِدْرِهَا ... وتأخذ الواحدَ مِنْ أمّهِ

أبو الطيب:

وهي معشوقة على الغدْرِ لا تحـ ... ـفظ عهداً ولا تُتَمِّمُ وَصْلاَ

كلّ دمعٍ يسيل منهَا عليْهَا ... وبفكِّ اليدَيْن عنها تُخَلَّى

شِيَمُ الغانياتِ فيها فلا أدْرِي ... لذا أنّث اسمَها الناس أم لا!

فإن قلت: كيف يقول: إنه لا يجد في الموت راحةً؟ وأين هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر»! ومن قوله عليه السلام: «والله ما أرجو الرّاحة إلا بعد الموت»! وماذا يعمل بالصالحين الذين آثرُوا فراقَ هذه العاجلة، واختاروا الآخرة، وهو عليه السلام سيّدهم وأميرهم!

قلت: لا منافاة، فإنّ الصالحين، إنّما طلبوا أيضاً الحياة المستمرّة بعد الموت، ورسول الله صلى الله عليه وآله إنما قال: «إنّ الدنيا سجن المؤمن»[1]، لأنّ الموتَ غير مطلوب للمؤمن

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: (٢٩٥٦)، والترمذي كتاب: الزهد، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٣)، وأحمد في «مسنده» (٦٨١٦).

لذاته، إنما يطلبه للحياة المتعقبة له، وكذلك قوله عليه السلام: «والله ما أرجو الرّاحة إلا بعد الموت»، تصريح بأنّ الراحة في الحياة التي تتعقّب الموت، وهي حياة الأبد، فلا منافاة إذاً بين هذه الوجوه وبين ما قاله عليه السلام، لأنه ما نفى إلا الرّاحة في الموت نفسه، لا في الحياة الحاصلة بعده.

فإن قلت: فقد تطرأ على الإنسان حالة يستصعبها فيودُّ الموت لنفسه، ولا يفكّر فيما يتعقّبه من الحياة التي تشير إليها ولا يخطر بباله؟

قلت: ذاك شاذٌ نادر فلا يُلتفت إليه، وإنما الحكْم للأعمّ الأغلب. وأيضاً فإنّ ذاك لا يلتذُّ بالموت، وإنّما يتخلّص به من الألم، وأمير المؤمنين قال: ما مِنْ شيء من الملذّات إلا وهو مملول، إلا الحياة، وبين الملذّ والمخلص من الألم فرْقٌ واضح، فلا يكون نقضاً على كلامه.

فإن قلت: قد ذكرت ما قيل في حبّ الحياة وكراهية الموت، فهل قيل في عكس ذلك ونقيضه شيء؟ قلت: نعم، فمن ذلك قول أبي الطيب:

كَفَى بكَ داءً أنْ تَرَى الموتَ شافِيًا ... وَحَسْبُ المنايَا أنْ يكنّ أمانِيَا
تمنّيتَها لَمّا تمنّيتَ أن ترى ... صديقاً فأعيَا، أو عدوًّا مُداجِيا

وقال آخر:

قد قلتُ إذْ مدحُوا الحياة فأسرفُوا ... في الموت ألف فضيلة لا تعرَفُ
منها أمانُ لقائه بلقائه ... وفراق كلّ معاشر لا ينصِفُ

وقيل لأعرابيّ وقد احتُضر: إنك ميت، قال: إلى أين يُذهب بي؟ قيل: إلى الله، قال: ما أكره أن أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلا منه.

إبراهيم بن مهديّ:

وإنّي وإنْ قُدِّمْتَ قبلي لعالمٌ ... بأنّي وإن أبطأتُ عنك قريبُ
وإنّ صباحاً نلتقي في مسائِه ... صباحٌ إلى قَلْبِي الغداةَ حبيبُ

وقال بعض السلف: ما من مؤمن إلاّ والموت خير له من الحياة، لأنه إن كان محسناً فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وإن كان مسيئاً فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾[2].

وقال ميمون بن مِهران: بتُّ ليلةً عند عمر بن عبد العزيز، فرأيته يبكي ويكثر من تمنّي الموت، فقلت له: إنّك أحييتَ سنناً، وأمتّ بدعاً، وفي بقائك خير للمسلمين، فما بالك تتمنّى الموت! فقال: ألاَ أكونُ كالعبد الصالح حين أقرّ الله له عينه، وجمع له أمره، قال: ﴿رَبِّ قَدْ

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١)!

وقالت الفلاسفة: لا يستكمِل الإنسانُ حدّ الإنسانية إلا بالموت، لأن الإنسان هو الحيّ الناطق الميّت.

وقال بعضهم: الصّالح إذا مات استراح، والطالح إذا مات استُريحَ منه.

وقال الشاعر:

جَزَى الله عَنّا الموتَ خَيراً فإنه ... أبَرُّ بنا من كُلِّ بَرٍّ وأرْأَفُ
يعجّلُ تخليصَ النّفوس من الأذى ... ويُدْنِي من الدّار التي هي أشرَفُ

وقال آخر:

مَنْ كانَ يَرْجُو أن يعيش فإنّني ... أصْبَحْتُ أرجُو أن أموتَ لأُعْتَقَا
في الموتِ ألفُ فضيلة لو أنها ... عُرِفتْ لكانَ سبيلُهُ أنْ يُعْشَقَا

وقال أبو العلاء:

جِسْمِي وَنفْسيَ لَمّا اسْتَجْمَعَا صَنَعَا ... شرًّا إليَّ، فَجَلّ الواحدُ الصَّمَدُ!
فالجسم يعذل فيه النفسَ مجتهداً ... وتلك تزعم أنّ الظالمَ الجَسَدُ
إذا هُمَا بَعْدَ طولِ الصُّحْبَةِ افترقا ... فإنّ ذاك لأحداث الزمان يَدُ

وقال أبو العتاهية:

المرء يأمُلُ أن يَعيشَ ... وطولُ عُمْرٍ قدَ يُضُرُّه
تفنَى بشاشَتُهُ وَيَبْقَى ... بعد حُلْوِ العيشِ مُرُّهْ
وتخونُهُ الأيامُ حتّى ... لا يَرى شيئاً يَسُرُّهْ
كَمْ شامتٍ بي إنْ هلكـ ... ـتُ وقائلٍ: لله دَرُّهْ!

وقال ابن المعتز:

ألستَ ترى يا صاحِ ما أعجبَ الدّهْرَا ... فذمًّا له... لكنّ للخالِق الشُّكْرَا
لَقَدْ حَبَّبَ الموتَ البقَاءُ الذي أرَى ... فيا حسداً مِنّي لمن يَسكُنُ القَبْرَا

فأما قوله عليه السلام: «وإنما ذلك بمنزلة الحكمة»، إلى قوله. «وفيها الغنى كلّه والسلامة»، ففصل آخر غير ملتئم بما قبله، وهو إشارة إلى كلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله رواه لهم، ثم

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

حضّهم على التمسّك به، والانتفاع بمواعظه، وقال: إنّه بمنزلة الحكمة التي هي حياة القلوب، ونور الأبصار، وسَمْع الآذان الصمّ، وريِّ الأكباد الحرّى، وفيها الغنى كلّه، والسلامة، والحكمة المشبَّه كلام الرسول ﷺ بها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١) وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾(٢)، وفي قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(٣) وهي عبارة عن المعرفة بالله تعالى، وبما في مبدعاته من الأحكام الدالّة على علمه، كتركيب الأفلاك، ووضع العناصر مواضعَها، ولطائف صنعة الإنسان وغيره من الحيوان، وكيفية إنشاء النبات والمعادن، وما في العالم من القوى المختلفة، والتأثيرات المتنوعة، الراجع ذلك كلُّه إلى حكمة الصانع وقدرته وعلمه، تبارك اسمه!

فأما قوله: «وكتابُ الله»، إلى قوله: «ولا يخالف بصاحبه عن الله»، ففصل آخر مقطوع عَمّا قبله، ومتّصل بما لم يذكره جامع «نهج البلاغة».

فإن قلتَ: ما معنى قوله: «ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله»؟ وهل بين هاتيْن الجملتيْن فرق؟

قلت: نعم، أما قوله: «ولا يختلف في الله»، فهو أنه لا يختلف في الدلالة على الله وصفاته، أي لا يتناقض، أي ليس في القرآن آيات مختلفة يدلُّ بعضها عَلَى أنّه يعلم كلّ المعلومات مثلاً، وتدلّ الأخرى على أنّه لا يعلم كلّ المعلومات، أو يدلّ بعضها على أنّه لا يرى، وبعضها على أنّه يرى، وليس وجودنا للآيات المشتبهة بقادح في هذا القول، لأنّ آيات الجبر والتشبيه لا تدلّ، وإنما توهِم، ونحن إنّما نفينا أن يكون فيه ما يدلّ عَلَى الشيء ونقيضه.

وأما قوله: «ولا يخالف بصاحبه عن الله»، فهو أنّه لا يأخذ بالإنسان المعتمد عليه إلى غيرِ الله، أي لا يهديه إلاّ إلى جناب الحقّ سبحانه، ولا يعرُج به إلى جناب الشيطان، يقال: خالفتُ بفلان عن فلان، إذا أخذت به غير نحوه، وسلكت به غير جهته.

فأما قوله: «قد اصطلحتم عَلَى الغِلّ...» إلى آخر الفصل، فكلامٌ مقطوع أيضاً عَمّا قبله، والغِلّ: الحِقْد.

والدِّمَن: جمع دِمْنة، وهي الحقد أيضاً، وقد دمِنت قلوبهم بالكسر، أي ضغِنت. ونبت المرعى عليها، أي دامت وطال الزمان عليها، حتى صارت بمنزلة الأرض الجامدة الثابتة الّتي تنبت النبات. ويجوز أن يريدَ بالدِّمَن ها هنا جمع دِمْن وهو البَعْر المجتمع كالمزبلة، أو جمع

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٣) سورة مريم، الآية: ١٢.

دِمْنة وهي آثار الناس وما سوّدوا من الأرض، يقال: قد دمّن الشاء الماء، وقد دمّن القوم الأرض، فشبّه ما في قلوبهم من الغلّ والحِقْد والضغائن بالمزبلة المجتمعة من البعر وغيره، من سُقَاطة الديار التي قد طال مكثها حتى نبت عليها المرعى، قال الشاعر:

وَقَدْ يَنْبُتُ المرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا

قوله عليه السلام: «لقد استهام بكم الخبيث»، يعني الشيطان. واستهام بكم: جعلكم هائمين، أي استهامكم، فعدّاه بحرف الجرّ، كما تقول في «استنفرت القوم إلى الحرب»: استنفرتُ بهم، أي جعلتهم نافرين. ويمكن أن يكون بمعنى الطّلب والاستدعاء، كقولك: استعلمت منه حَالَ كذا، أي استدعيت أن يعلمني، واستمنحت فلاناً، أي طلبت واستدعيت أن يعطيَني، فيكون قوله: «واستهام بكم الخبيث»، أي استدعى منكم أن تهيموا وتقعوا في التّيه والضلال والحيرة.

قوله: «وتاه بكم الغَرور» هو الشيطان أيضاً، قال سبحانه: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(١). وتاه بكم: جعلكم تائهين حائرين. ثم سأل الله أن يعينه على نفسه وعليهم.

ومن كلام بعض الصالحين: «اللهمّ انصرني على أقرب الأعداء إليّ داراً، وأدناهم مني جواراً، وهي نفسي».

١٣٤ - ومن كلام له عليه السلام
وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم

الأصل: وَقَدْ تَوَكَّلَ ٱللهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ ٱلْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ ٱلْعَوْرَةِ، وَٱلَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ.

إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَذَا ٱلْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لاَ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَهْفٌ دُونَ أَقْصَى بِلاَدِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَٱبْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَٱحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ ٱلْبَلاَءِ وَٱلنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ ٱللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ ٱلْأُخْرَى، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

الشرح: توكّل لهم: صار وكيلاً، ويروى: «وقد تكفّل»، أي صار كفيلاً.

(١) سورة الحديد، الآية: ١٤.

والحوْزة: الناحية، وحوْزة الملك بَيْضته، ويقول: إنما الذي نصرهم في الابتداء على ضَعْفهم هو الله تعالى، وهو حَيٌّ لا يموت، فأجدِرْ به أن ينصرَهم ثانياً، كما نصرهم أولاً!

وقوله: «فتنكبْ» مجزوم لأنه عطف على «تسِرْ».

وكهف، أي وكهفٌ يلجأ إليه. ويروى «كانفة» أي جهة عاصمة، من قولك: كنفت الإبل، جعلتَ لها كنيفاً من الشجر تستتر به وتعتصم.

ورجلٌ مِحْرَب، أي صاحب حروب.

وحفزتُ الرّجل أحفِزه: دفعتَه من خَلْفِه وسقتَه سوقاً شديداً.

وكنت ردءاً، أي عوناً، قال سبحانه: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾[1]. ومثابة، أي مرجعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[2]، أشار عليه السلام ألا يشخَص بنفسه، حذراً أن يصابَ، فيذهب المسلمون كلّهم لذهاب الرأس، بل يبعث أميراً من جانبه على الناس، ويقيم هو بالمدينة، فإن هُزِموا كان مرجعهم إليه.

فإن قلت: فما بالُ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشاهِد الحروبَ بنفسه، ويباشرها بشخصه؟

قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان موعوداً بالنصر، وآمناً على نفسه بالوعْد الإلهيّ في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[3]، وليس عمر كذلك.

فإن قلت: فما بالُ أميرِ المؤمنين عليه السلام شهد حَرْب الجمل وصِفّين والنَّهروان بنفسه، فهلاَّ بعث أميراً محرَباً، وأقام بالمدينة ردءاً ومثابة!

قلت: عن هذا جوابان: أحدهما أنّه كان عالماً من جهة النبي صلى الله عليه وآله أنّه لا يقتَل في هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتّفق عليه بين الناس كافّة: «يقاتل بعدي النّاكثين والقاسطين والمارقين»[4]. وثانيهما، يجوز أن يكون غَلَب على ظنّه أنّ غيره لا يقوم مقامَه في حرب هذه الفرق الخارجة عليه، ولم يجد أميراً محرَباً من أهل البلاء والنصيحة، لأنه عليه السلام هكذا قال لعمر، واعتبر هذه القيود والشروط، فمن كان من أصحابه عليه السلام مِحْرَباً لم يكن من أهل النّصيحة له، ومَنْ كان من أهل النصيحة له لم يكن محرباً، فدعتْه الضرورة إلى مباشرة الحرب بنفسه.

واعلم أنّ هذه الغَزَاة هي غزاة فلسطين، التي فتِح فيها بيت المقدس، وقد ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، وقال:

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٤) تقدم تخريجه.

إن عليًا عليه السلام هو كان المستخلف على المدينة لَمّا شخَص عمر إلى الشام، وإن علياً عليه السلام قال له: لا تخرج بنفسك، إنّك تريد عدوّاً كَلِباً، فقال عمر: إني أبادر بجهاد العدوّ موت العباس بن عبد المطلب، إنّكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشرّ كما ينتقض الحبل. فمات العباس لستّ سنين خلت من إمارة عثمان وانتقض بالناس الشرّ.

قال أبو جعفر: وقد كان الروم عرفوا من كتبهم أنّ صاحب فتح مدينة إيلِياء - وهي بيت المقدس - رجل، اسمه عَلَى ثلاثة أحرف، فكان مَنْ حضر من أمراء المسلمين يسألونَ عن اسمه، فيعلمون أنّه ليس بصاحبهم، فلما طال عليهم الأمر في حرب الروم، استمدُّوا عمر، وقالوا: إن لم تحضر بنفسك لم يُفتَحْ علينا، فكتب إليهم أن يَلْقَوْه برأس الجابية، ليوم سمّاه لهم، فلقوه وهو راكب حماراً، وكان أوَّل مَنْ لقِيه يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة بن الجراح، ثم خالد بن الوليد، على الخيول وعليهم الدّيباج والحرير، فنزل عمر عن حِماره، وأخذ الحجارة، ورماهم بها، وقال: سَرْعان ما لُفِتُّم عن رأيكم! إياي تستقبلون في هذا الزّيّ! وإنما شبعتم منذ سنتين، سَرْع ما ترّت بكم البِطْنة، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين، لاستبدلت بكم غيركم!

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنما هي يلامقة، وتحتها السلاح، فقال: فنعم إذاً!

قال أبو جعفر: فلما علم الروم مقدَم عمر نفسه، سألوه الصلح، فصالحهم، وكتب لهم كتاباً على أن يؤدّوا الجزية، ثم سار إلى بيت المقدس، فقصّر فرسُه عن المشي، فأتِيَ ببرذَوْنٍ فركبه، فهزّه وهَمْلَج تحته، فنزل عنه، وضرب وجهه بردائه، وقال: قبّح الله مَنْ عَلّمكَ هذا! ردُّوا عليّ فرسي، فركبه وسار حتى انتهى إلى بيت المقدس.

قال: ولم يركب برذوناً قبلَه ولا بعده، وقال: أعوذ بالله من الخُيَلاء!

قال أبو جعفر: ولقيَه معاوية، وعليه ثياب ديباج، وحوله جماعة من الغلمان والخوَل، فدنا منه فقبّل يده، فقال: ما هذا يابن هند! وإنك لعلى هذه الحال، مترَفٌ صاحب لَبُوس وتنعُّم، وقد بلغني أنّ ذوي الحاجات يقفون ببابك! فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللّباس فإنّا ببلاد عدوّ، ونحبّ أن يَرَى أثر نعمة الله علينا، وأما الحِجاب فإنّا نخاف من البِذْلة جرأة الرعيّة. فقال: ما سألتُك عن شيء إلا تركتَني منه في أضيق من الرّواجب، إن كنتَ صادقاً فإنه رأى لبيب، وإن كنت كاذباً، فإنها خدعة أريب[1].

---

(١) تاريخ الطبري: أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ١٠٤.

وقد روى الناس كلام معاوية لعمر على وجه آخر، قيل: لما قدم عمر الشام قدِمها، وهو راكب حماراً قريباً من الأرض، ومعه عبد الرحمن بن عوف راكب حمارٍ قريب أيضاً، فتلقّاهما معاوية في كَوْكَبَةٍ خشناء، فثنَى وركه، ونزل وسلّم بالخلافة فلمْ يردّ عليه. فقال له عبد الرحمن: أحصرتَ الفتى يا أمير المؤمنين، فلو كلّمته! قال: إنّك لَصاحِبُ الجيش الذي أرى! قال: نعم، قال: مع شدّة احتجابك، ووقوف ذوي الحاجات ببابك! قال: أجلْ، قال: لِمَ ويحك؛ قال لأنّا ببلاد عدوّ كثير فيها جواسيسهم، فإنْ لم نتخذ العُدّة والعَدَد استخفّ بنا، وهجم على عوراتنا، وأنا بعد عاملُك، فإن استنقصتَني نقصتُ، وإن استزدتني زدتُ، وإن استوقفتني وقفت. فقال: إن كنت كاذباً إنه لرأيُ أريب، وإن كنت صادقاً إنّه لتدبير لبيب، ما سألتك عن شيء قطّ إلا تركتَني منه في أضيق من رواجب الضّرس، لا آمرُك ولا أنهاك. فلما انصرف، قال عبد الرحمن: لقد أحسن الفَتى في إصدار ما أردتَ عليه، فقال: لحسْنِ إيراده وإصداره جشّمناه ما جشّمناه.

قال أبو جعفر: شخص عمر من المدينة إلى الشام أربعَ مرات، ودخلها مرة راكب فرسٍ، ومرة راكبَ بعيرٍ، ومرةً راكب بغل، ومرةً راكب حمار، وكان لا يعرَف، وربما استخبره الواحد: أين أمير المؤمنين؟ فيسكت، أو يقول: سل الناس، وكان يدخل الشام وعليه سَحْقُ فرو مقلوب، وإذا حضر الناس طعامه رأوْا أخشن الطعام.

قال أبو جعفر: وقدم الشام في إحدى هذه المرّات الأربع، فصادف الطاعون بها فاشياً، فاستشار الناس، فكلٌّ أشار عليه بالرجوع وألاّ يدخلها، إلا أبا عبيدة بن الجراح، فإنه قال: أتفرّ من قَدَرِ الله؟ قال نعم، أفرّ من قَدَرِ الله بقَدَر الله، لو غيرك قالها يا أبا عِبيدة! فما لبث أن جاء عبد الرحمن بن عوف، فروى لهم عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كنتم ببلادِ الطاعون فلا تخرجوا منها، وإذا قدمتم إلى بلاد الطاعون فلا تدخلوها»[1]، فحمِد الله على موافقة الخبر لما كان في نفسه، وما أشار به الناس، وانصرف راجعاً إلى المدينة، ومات أبو عبيدة في ذلك الطاعون وهو الطاعون المعروف بطاعون عِمْواس، وكان في سنة سبع عشرة من الهجرة.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٨)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨).

١٣٥ - ومن كلام له عليه السلام وقد وقع بينه وبين عثمان مشاجرة فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: انا أكفيكه فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة

الأصل: يابْنَ ٱللَّعِينِ ٱلأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتي لاَ أَصْلَ لَهَا وَلاَ فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِيني؟ فَوَالله ما أَعَزَّ ٱلله مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلاَ قامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ، ٱخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ ٱلله نَوَاكَ، ثُم ٱبْلُغْ جَهْدَكَ، فَلاَ أَبْقَى ٱلله عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!

الشرح: هو المَغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة الثقفيّ، حليف بني زهرة، وإنما قال له أمير المؤمنين عليه السلام: «يابنَ اللعين»، لأنّ الأخنس بن شريق كان من أكابر المنافقين، ذكره أصحاب الحديث كلّهم في المؤلّفة قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح بألسنتهم دون قلوبهم، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله مائةً من الإبل من غنائم حُنَين يتألّف بها قلبه، وابنه أبو الحكم بن الأخنس، قتله أمير المؤمنين عليه السلام يوم أُحُد كافراً في الحرب، وهو أخو المغيرة هذا. والحقْد الذي في قلب المغيرة عليه من هذه الجهة. وإنما قال له: «يابن الأبتر»، لأنّ من كان عقبه ضالّاً خبيثاً، فهو كمن لا عقِب له بل من لا عقب له خير منه، ويروى: «ولا أقام من أنت منهضه» بالهمزة.

ويروى «أبعد الله نوءك» من أنواء النجوم التي كانت العرب تنسب المطر إليها، وكانوا إذا دعوا على إنسان قالوا: أبعد الله نوءك! أي خيرك.

والجَهد بالفتح: الغاية، ويقال: قد جهد فلان جَهده بالفتح، لا يجوز غير ذلك، أي انتهى إلى غايته. وقد رُوِيَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لعن ثَقِيفاً.

وروي أنه عليه السلام قال: «لولا عروة بن مسعود للعنتُ ثقيفاً».

وروى الحسن البصريّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن ثلاثة بيوت: بيتين من مكة، وهما بنو أمية وبنو المغيرة، وبيتاً من الطائف وهم ثقيف.

وفي الخبر المشهور المرفوع وقد ذكر ثقيفاً «بئست القبيلة، يخرج منها كذّاب ومُبِير»[(١)] فكان كما قال صلى الله عليه وآله، الكذاب المختار، والمبِير الحجاج.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في ثقيف (٢٢٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٤٧٨)، والكبير (٢٤/ ٨١)، والحميدي (٣٢٦)، كلهم بدون قوله: «بئست القبيلة».

واعلم أن هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، ولكن عوانة روى عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبيّ، أن عثمان لما كثرت شكايته من عليّ عليه السلام، أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أحدٌ إلا شَكَا إليه عليًا، فقال له زيد بن ثابت الأنصاريّ - وكان من شيعته وخاصّته: أفلا أمشي إليه فأخبرَه بموجدتك فيما يأتي إليك؟ قال: بلى: فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي - وعِدادُه في بني زُهرة، وأمّه عمة عثمان بن عفان - في جماعة، فدخلوا عليه، فحمِد زيد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ فإن الله قدّم لك سلفاً صالحاً في الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كلّ الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمّك، ووالي هذه الأمّة، فله عليك حقّان: حقّ الولاية وحق القرابة، وقد شكا إلينا أنّ عليًا يعرِض لي، ويردّ أمري عليّ، وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهيَةَ أن يقع بينك وبين ابن عمّك أمرٌ نكرهه لكما.

قال، فحمِد عليٌّ عليه السلام الله، وأثنى عليه وصلّى على رسوله، ثم قال: أمّا بعد، فوالله ما أحبّ الاعتراض، ولا الردّ عليه، إلا أن يأبى حقاً لله لا يسعني أن أقول فيه إلاّ بالحق، ووالله لأكفنّ عنه ما وسعَني الكفّ.

فقال المغيرة بن الأخنس - وكان رجلاً وَقَاحاً، وكان من شيعة عثمان وخُلصائه: إنّك والله لتَكُفَّنّ عنه أو لتُكَفَّنّ، فإنّه أقدر عليك منك عليه! وإنما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين إعزازاً لتكون له الحجة عندهم عليكَ. فقال له عليٌّ عليه السلام: يابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفّني! فوالله ما أعزّ الله امرءًا أنت ناصره، اخرج أبعد الله نَوَاك، ثم اجهد جهدك، فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيْتم.

فقال له زيد: إنّا والله ما جئناك لنكونَ عليك شهوداً، ولا ليكون مَمْشَانا إليك حُجّةً، ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر أن يصلح الله ذاتَ بينكما، ويجمع كلمتكما ثم دعا له ولعثمان، وقام فقاموا معه[1].

وهذا الخبر يدلّ على أن اللفظة «أنت تكفُّني»، وليست كما ذكره الرضي رحمه الله «أنت تكفيني»، لكن الرضيّ طبّق هذه اللفظة على ما قبلها، وهو قوله: «أنا أكفيكه»، ولا شبهة أنها رواية أخرى.

نبذ من أخبار ثقيف

وإنما قال له: «والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع»، لأن ثقيفاً في نسبها طعن، فقال قومٌ

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١/ ٤٧٢.

من النسابين: إنّهم من هَوازن، وهو القول الذي تزعمه الثقفيُّون، قالوا: هو ثقيف، واسمه قسيّ بن منبّه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس بن عَيْلان بن مُضَر. وعلى هذا القول جمهور الناس.

ويزعم آخرون أنّ ثقيفاً من إياد بن نزار بن معد بن عدنان، وأنّ النَّخَع أخوه لأبيه وأمّه، ثم افترقا، فصار أحدهما في عِدَاد هَوَازن، والآخر في عداد مَذحِج بن مالك بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقد روى أبو العباس المبرد في «الكامل» لأخت الأشتر مالك بن الحارث النَّخَعِيّ تبكيه:

أبعد الأشتر النخعيّ نَرْجُو   مكاثرةً ونقطع بَطْنَ وادِ!

ونصحبُ مذحِجاً بإخاء صدقٍ   وإن ننسبْ فنحن ذُرَا إيادِ

ثقيفٌ عمّنا وأبو أبينا   وإخوتنا نزار أولو السَّدادِ

قال أبو العباس: وهجا يحيى بن نوفل - وكان هجّاء خبيث اللسان - العُريانَ بن الهيثم بن الأسود النَّخعيّ، وقد كان العريان تزوّج امرأة اسمها زَبادِ - مبني على الكسر، والزاي مفتوحة بعدها باء منقوطة بواحدة - وهي من ولد هانىء بن قبيصة الشيبانيّ، وكانت قبله تحت الوليد بن عبد الملك بن مروان فطلّقها، فأنكحها إياه أخ لها يقال له زياد، فقال يحيى بن نوفل:

أعُرْيَانُ ما يدري امرؤ سِيلَ عنكُمُ   أمِنْ مَذحج تُدْعَوْن أم مِنِ إيادِ

فإن قلتم من مذحجٍ إنّ مذحجاً   لبيضُ الوجوه غير جدّ جعادِ

وأنتم صغار الهام حُذْلٌ كأنّما   وجوهكُمُ مطليَّةٌ بمداد

وإن قلتُم الحيّ اليمانون أصْلُنَا   وناصُرنا في كلّ يوم جلاَدِ

فأطوِلْ بأيرٍ من مَعَدٍّ ونزوَةٍ   نزتْ بإيادٍ خَلْفَ دارِ مُراد

ضللتم كما ضلّت ثقيفٌ فما لكمْ   ولا لهم بين القبائل هادِ

لعمرُ بني شيبان إذْ يُنْكحونَهُ   زبادِ لَقَدْ ما قصّروا بزبادِ

أبعد وليد أنكحوا عَبْدَ مَذْحِجٍ   كَمُنْزِيَةٍ عَيْراً خِلاَفَ جوادِ

وأنكحها لا في كِفاءٍ ولا غنًى   زيادٌ، أضلّ الله سَعْيَ زياد

قال أبو العباس: وكان المغيرة بن شعبة، وهو والي الكوفة صار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر، وهي فيه عمياء مترهّبة، فاستأذن عليها، فقيل لها: أمير هذه المدَرَة بالباب. قالت: قولوا له: مِنْ ولد جبلة بن الأيهم أنت؟ قال: لا، قالتْ: أفمن ولَد المنذر بن ماء السماء أنت؟

قال: لا، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا المغيرة بن شعبة الثقفيّ، قالت: فما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً، قالت: لو كنت جئتني لجمال أو حالٍ لأطلبتُك، ولكن أردت أن تتشرّف بي في محافل العرب، فتقول: نكحتُ ابنةَ النعمان بن المنذر، وإلا فأيّ خيرٍ من اجتماع أعور وعمياء!

فبعث إليها: كيف كان أمركم؟ قالت: سأختصر لك الجواب، أمسيْنا وليس في الأرض عربيٌ إلاّ وهو يرهبنا أو يرغب إلينا، وأصبحنا وليس في الأرض عربيٌ إلا ونحن نرهبه ونرغب إليه. قال: فما كان أبوك يقول في ثقيف؟ قالت: أذكر، وقد اختصم إليه رجلان منهم، أحدهما ينتهي إلى إياد، والآخر إلى هوازن، فقضى للإياديّ وقال:

إنّ ثـقـيـفـاً لـم تَـكُـنْ هـوازنَـا ... ولـم تـنـاسِـبْ عـامـراً أو مـازنـا

فقال المغيرة: أمّا نحن فمن بكر بن هوازن، فليقل أبوك ما شاء، ثم انصرف.

وقال قوم آخرون: إن ثقيفاً من بقايا ثمود، من العرب القديمة التي بادت وانقرضت.

قال أبو العباس: وقد قال الحجاج على المنبر: يزعمون أنّا من بقايا ثمود، فقد كذبهم الله بقوله: ﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[1].

وقال مرة أخرى: ولئن كنّا من بقايا ثمود، لَمَا نجَا مع صالح إلا خيارهم.

وقال الحجّاج يوماً لأبي العَسوّس الطائيّ: أيٌّ أقدَم، أنزول ثقيف الطائف، أم نزول طيِّئ الجبلين؟ فقال له أبو العسوّس: إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيِّئ الجبلين قبلها، وإن كانت من بقايا ثمود، فهي أقدم، فقال الحجاج: اتَّقِني فإني سريع الخطفة للأحمق المتهوّر، فقال أبو العَسوّس - قال أبو العباس، وكان أعرابياً قحًّا إلا أنّه لطيف الطبع، وكان الحجاج يمازحه:

يـؤدّبـنـي الـحـجـاجُ تـأديـبَ أهْـلِـهِ ... فلو كنتُ من أولاد يوسفَ ما عدَا
وإنّـي لأخـشـى ضـربَـةً ثـقَـفـيَّـةً ... يُـقَـدّ بـهـا مـمّـن عـصـاه الـمـقـلّـدا
عـلـى أنّـنـي مـمـا أحـاذِرُ آمِـنٌ ... إذا قيلَ يوماً قد عصى المرء واعتدَى

وقتل المغيرة بن الأخنس مع عثمان يوم الدار، وقد ذكرنا مقتله فيما تقدّم.

تم الجزء الثامن من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء التاسع

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥١.

فهرس

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الجزء السابع

شرح
نهج البلاغة
لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

٩ ـ ١٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الكتاب العربي

بغداد - شارع المتنبي

تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

خليوي: ٠٣/٩٤٤١١١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٧٢٧٦٤٠٨

http://www.Dar-ALamira.com

email: info@dar-alamira.com

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق
محمد إبراهيم

المجلد الخامس
٩ - ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

ذكر ما شجر بين علي عليه السلام وعثمان

واعلَم أنّ هذا الكتاب يستدعي منّا أن نذكُر أطرافاً مِمّا شجَر بين أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان أيام خلافته، إذْ كان هذا الكلام الذي شرحناه من ذلك النَّمَط، والشيء يُذكر بنظيره، وعادتُنا في هذا الشرح أن نذكرَ الشيء مع ما يناسبِه ويقتضي ذكرَه.

قال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في كتاب «أخبار السقيفة»: حدثني محمد بن منصور الرماديّ، عن عبد الرزاق، عن معمَر، عن زياد بن جَبَل، عن أبي كعب الحارثيّ - وهو ذو الإداوة، قال أبو بكر أحمد بن العزيز: وإنما سمّيَ ذا الإداوة لأنّه قال: إني خرجتُ في طلب إبلٍ ضوالّ، فتزوّدتُ لبناً في إداوة، ثم قلت في نفسي: ما أنصفتُ ربّي! فأين الوضوء؟ فأرقتُ اللّبن وملأتها ماء، فقلت: هذا وضوء وشراب، وطفِقْت أبغي إبلِي، فلما أردتُ الوضوء اصطبيتُ من الإداوة ماء فتوضّأت، ثم أردتُ الشّرب، فلمّا اصطبيتُها، إذا لبن فشربت، فمكثت بذلك ثلاثاً: فقالت له أسماء النّحرانية: يا أبا كعب، أحقِيناً كان أم حليباً: قال: إنّك لبطّالة! كان يعصم من الجوع ويروِي من الظمأ، أما إنّي حَدّثت بهذا نفراً من قومي، منهم عليّ بن الحارث سيّد بني قنان، فلم يصدّقني، وقال: ما أظنّ الذي تقول كما قلت! فقلت: الله أعلمُ بذلك. ورجعت إلى منزلي، فبتّ ليلتِي تلك، فإذا به صلاةَ الصبح عَلَى بابي، فخرجت إليه، فقلت: رحمك الله! لم تعنّيت؟ ألا أرسلتَ إليّ فآتيَك، فإنّي لأحقّ بذلك منك قال: ما نمت اللّيلة إلا أتاني آتٍ فقال: أنت الّذي تكذّب مَنْ يحدّث بما أنعم الله عليه! قال أبو كعب: ثم خرجت حتى أتيت المدينة، فأتيت عثمانَ بن عفّان وهو الخليفة يومئذٍ فسألتُه عن شيء من أمْر ديني، وقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّي رجلٌ من أهل اليمن من بني الحارث بن كعب، وإنّي أريدُ أن أسألك فأمُر حاجبَك الأ يحجُبَني، فقال: يا وثّاب، إذا جاءك هذا الحارثيّ فأْذَنْ له. قال: فكنت إذا جئت، فقرعت الباب، قال: مَنْ ذا؟ فقلت: الحارثيّ. فيقول: ادخل، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس، وحوله نفرٌ سكوت لا يتكلّمون، كأنّ على رؤوسهم الطير، فسلّمت ثم جلست، فلم أسأله عن شيءٍ لِمَا رأيتُ من حالهم وحاله، فبينَا أنا كذلك إذْ جاء نفرٌ، فقالوا: إنّه أبى أتى أن يجيء. قال: فغضب وقال: أبى أن يجيىء! اذهبوا فجيئوا به، فإنْ أبَى فجرّوه جرًا.

قال: فمكثت قليلاً، فجاؤوا ومعهم رجل آدم طُوال أصلع، في مقدّم رأسه شعرات، وفي قفاه شعرات، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: عمّار بن ياسر، فقال له عثمان: أنتَ الذي تأتيك رسلُنا فتأبَى أن تجيء! قال: فكلّمه بشيء لم أدرِ ما هو، ثم خرج. فما زالوا ينفضّون من عنده حتى ما بَقِيَ غيري فقام، فقلت: والله لا أسألُ عن هذا الأمر أحداً أقول حدّثني فلان حتى أدرِي ما يصنع. فتبعتُه حتّى دخل المسجد، فإذا عمّار جالس إلى سارية، وحوله نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يبكون، فقال عثمان: يا وثّاب عليّ بالشُّرَط، فجاؤوا، فقال: فرّقوا بين هؤلاء، ففرّقوا بينهم.

ثم أقيمت الصلاة، فتقدّم عثمان فصلّى بهم، فلما كبّر قالت امرأة من حُجْرتها: يأيّها الناس. ثم تكلّمت، وذكرت رسول الله ﷺ، وما بعثَه الله به، ثم قالت: تركتم أمر الله، وخالفتم عهده... ونحو هذا، ثم صمتَتْ وتكلّمت امرأة أخرى بمثل ذلك، فإذا هما عائشة وحفصة.

قال: فسلّم عثمان، ثم أقبل على الناس، وقال: إنّ هاتيْن لَفتّانتان، يحلّ لي سبُّهما، وأنا بأصلهما عالم. فقال له سعد بن أبي وقّاص: أتقولُ هذا لحبائب رسول الله ﷺ! فقال: وفيمَ أنت! وما هاهنا، ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه، فانسلّ سعد. فخرج من المسجد، فاتّبعه عثمان، فلقِيَ عليًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بباب المسجد، فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: أين تريد؟ قال: أريد هذا الّذي كذا وكذا - يعني سعد يشتِمه - فقال له عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أيّها الرجل، دعْ عنك هذا. قال: فلم يَزلْ بينهما كلام، حتى غضبا، فقال عثمان: ألستَ الّذي خلّفك رسول الله ﷺ له يوم تَبُوك[1]! فقال عليّ: ألستَ الفارّ عن رسول الله ﷺ يوم أُحُد!

قال: ثم حَجَز النّاس بينهما. قال: ثم خرجتُ من المدينة حتى انتهيتُ إلى الكوفة فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شرّ، ونشبوا في الفتنة، وردّوا سعيدَ بن العاص فلم يَدَعُوه يدخل إليهم. فلمّا رأيتُ ذلك رجعتُ حتى أتيت بلادَ قومي.

وروى الزُّبير بن بَكّار في كتاب «الموفّقيات»[2] عن عمّه، عن عيسى بن داود، عن رجاله، قال: قال ابنُ عباس رحمه الله: لما بنى عثمان دارَه بالمدينة، أكثرَ النّاس عليه في ذلك فبلغه، فخطَبَنا في يوم جمعة، ثم صلّى بنا، ثم عاد إلى المِنْبر، فحمِد الله وأثنى عليه،

---

(١) وهو اليوم الذي أعطى رسول الله ﷺ فيه علياً وسام الأنبياء وشبهه بالنبي هارون حيث قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي.

(٢) الموفقيات في الحديث: للزبير بن بكار الأسدي المتوفى سنة (٢٥٦هـ)، «كشف الظنون» (٢/ ١٩١٠).

وصلّى عَلَى رسوله، ثم قال: أمّا بعدُ، فإنّ النعمة إذا حدثَتْ حدث لها حُسَاد حَسْبَها، وأعداء قَدْرَها، وإنّ الله لم يحدِثْ لنا نعماً ليَحْدُث لها حسّاد عليها، ومنافسون فيها، ولكنّه قد كان من بناء منزلنا هذا ما كان إرادة جمع المال فيه، وضمّ القاصية إليه، فأتانا عن أناس منكم أنّهم يقولون: أخذ فيْئنا، وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا، يمشون خَمَراً، وينطقون سِرًّا، كأنّا غُيَب عنهم، وكأنهم يهابون مواجَهتنا، معرفةً منهم بدُحوض حجّتهم، فإذ غابوا عَنّا يرُوح بعضهم إلى بعض بذكرنا. وقد وجدوا عَلَى ذلك أعواناً من نظرائهم، ومؤازرين من شبابهم، فبعداً بعداً! ورغماً رغماً. ثم أنشد بيتين كأنه يومىء فيهما إلى عليّ عليه السلام:

توقد بنارٍ أينما كُنْتَ واشتعِلْ فلستَ تَرى مما تعالج شافيا

تشُطّ فيقضي الأمرَ دونَك أهلُه وشيكاً، ولا تُدعَى إذا كنت نائيا

ما لِي ولفيئِكم وأخذ مالكم. ألستُ من أكثر قريش مالاً، وأظهرهم من الله نعمة. ألم أكنْ على ذلك قبل الإسلام وبعده. وهبُوني بنيتُ منزلاً من بيت المال، أليس هو لي ولكم. ألم أقِمْ أمورَكم، وأني من وراء حاجتكم! فما تفقدون من حقوقكم شيئاً، فلمَ لا أصنع في الفضل ما أحببت، فلمَ كنتُ إماماً إذاً. ألا وإنّ من أعجب العجَب، أنّه بلغني عنكم أنكم تقولون: لنفعلنّ به ولنفعلنّ. فبِمَنْ تفعلون، لله آباؤكم. أبنقَد البقاع، أم بفقع القاع! ألست أحراكم إن دعا أن يُجاب، وأقمَنَكم إن أمَرَ أنْ يُطاع. لهفي عَلَى بقائي فيكم بعد أصحابي، وحياتي فيكم بعد أترابي! يا ليتني تقدّمت قبل هذا، لكنّي لا أحبُّ خلاف ما أحبه الله لي عزّ وجلّ، إذا شئتم فإنّ الصادق المصدّق محمداً صلى الله عليه وسلم قد حدّثني بما هو كائن من أمري وأمركم، وهذا بدء ذلك وأوّله، فكيف الهرب مما حتّم وقدّر! أما إنّه عليه السلام قد بشّرني في آخر حديثه بالجنّة دونكم، إذا شئتُم فلا أفلح من نَدِم!

قال: ثمّ همّ بالنزول فبُصر بعليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعَه عمّار بن ياسر رضي الله عنه، وناسٌ من أهل هواه يتناجوْن، فقال: إيهاً إيهاً! أسِراراً لا جهازاً! أما والّذي نفسي بيده ما أحنِق عَلَى جِرّة، ولا أوتَى من ضعف مِرّة، ولولا النّظر لي ولكم والرّفق بي وبكم، لعاجلتكم، فقد اغتررتم، وأقلتم من أنفسِكم.

ثم رفع يديْه يدعو ويقول: اللهمّ قد تعلم حُبّي للعافية فألبِسْنيها، وإيثاري للسلامة فآتِنيها.

قال: فتفرّق القوم عن عليّ عليه السلام، وقام عديّ بن الخيار، فقال: أتمّ الله عليك يا أميرَ المؤمنين النعمة، وزادك في الكرامة، والله لأنْ تُحْسَد أفضلُ من أن تَحْسُد، ولأن تُنَافَس أجلّ من أنْ تنافِس! أنت والله في حَسَبِنا الصميم، ومنصبنا الكريم، إن دَعَوتَ أُجِبْت، وإن أمرت أطِعت، فقل نفعل، وادعُ تُجَبْ، جُعِلت الخِيرَة والشّورى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليختارُوا لهم ولغيرهم، وإنهم ليروْنَ مكانك، ويعرفون مكان غيرك، فاختاروك منيبين طائعين،

غير مكرهين ولا مجبَرين، ما غيّرت ولا فارقت، ولا بدّلت ولا خالفت، فعلامَ يقدمون عليك وهذا رأيهم فيك! أنت والله كما قال الأول:

إذهب، إليك فما للحسو ... دِ إلاّ طلابُك تحت العثارِ[1]
حكمت فما جُرتَ في خلّةٍ ... فحكمُك بالحق بادي المنار
فإن يسبعوك فسِرًّا وقد ... جَهَرتَ بسيفك كلّ الجهارِ

قال: ونزل عثمان فأتى منزله، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس، فلما أخذوا مجالسهم، أقبل علَى ابن عباس، فقال: ما لي ولكم يابن عباس! ما غراكم بي، وأولعكم بتعقب أمري! أتنقِمون عليّ أمرَ العامة، أتيتُ من وراء حقوقهم، أم أمركم؟ فقد جعلتُهم يتمنّوْن منزلتكم! لا والله لكن الحسد والبغي وتثوير الشرّ وإحياء الفتن! والله لقد ألقى النبيّ صلى الله عليه وسلم إليّ ذلك، وأخبرني به عن أهله واحداً واحداً، والله ما كذَبت ولا أنا بمكذوب.

فقال ابن عباس: على رسْلِك يا أمير المؤمنين، فوالله ما عهدتك جَهراً بسِرّك، ولا مظهراً ما في نفسك، فما الذي هيّجك وثوّرك! إنّا لم يولعنا بك أمر، ولم نتعقّبْ أمرَك بشيء، أتيتَ بالكذب، وتُسَوّق عليك بالباطل. والله ما نقمنا عليك لنا ولا للعامة، قد أوتيتَ من وراء حقوقنا وحقوقهم، وقضيتَ ما يلزمك لنا ولهم، فأما الحسد والبغْي وتثوير الفتن، وإحياء الشرّ فمتى رضيتْ به عِتْرة النبيّ وأهل بيته! وكيف وهم منه وإليه! على دين الله يثوّرون الشرّ، أم على الله يحيون الفتن، كلاّ ليس البغي ولا الحسد من طباعهم. فاتّئِدْ يا أميرَ المؤمنين وأبصرْ أمرك، وأمسك عليك، فإن حالتك الأولَى خير من حالتك الأخرى! لعمري أن كنتَ لأثيراً عند رسول الله، وأن كان ليفضي إليك بسره ما يطويه عن غيرك، ولا كذبت ولا أنت بمكذوب، اخسَأ الشيطان عنك ولا يركبْك، واغلب غضَبك ولا يغلبك، فمَا دعاك إلى هذا الأمر الذي كان منك!

قال: دعاني إليه ابنُ عمّك عليّ بن أبي طالب، فقال ابن عباس: وعسَى أن يكذِبَ مبلّغُك! قال عثمان: إنه ثقة، قال ابن عباس: إنه ليس بثقةٍ مَنْ بلّغ وأغرى. قال عثمان: يابن عباس، آلله إنّك ما تعلم من عليّ ما شكوتُ منه؟ قال: اللهم لا، إلا أن يقول كما يقول الناس، وينقِم كما ينقمون، فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم! فقال عثمان: إنما آفتي من أعظم الداء الذي ينصب نفسه لرأس الأمر، وهو عليٌّ ابن عمك، وهذا والله كلّه من نكده وشؤمه. قال ابن عباس: مهلاً، استثْن يا أمير المؤمنين، قلْ: إن شاء الله، فقال: إن شاء الله. ثم قال: إني

---

(١) العثار والعاثور: المهلكة من الأرضين، وما أُعِدّ ليقع فيه أحد. القاموس مادة (عثر).

أنشدك يابن عباس الإسلام والرَّحِم فقد والله غلبِت وابتليت بكم، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار إليكم دوني فحملتموُه عني، وكنت أحدَ أعوانِكم عليه، إذاً والله لوجدتموني لكم خيراً ممّا وجدتكم لي، ولقد علمتُ أنّ الأمر لكم، ولكنّ قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم، فوالله ما أدري أدَفعوه عنكم أم دفعوكم عنه!

قال ابن عباس: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنا ننشدك الله والإسلامَ والرَّحِم، مثل ما نشدتنا، أن تطمع فينا وفيك عدوًّا، وتُشمِت بنا وبك حسوداً! إنّ أمرَك إليك ما كان قولاً، فإذا صار فعلاً فليس إليك ولا في يديك. وإنّا والله لنخالفنّ إن خولفنا، ولننازعنّ إن نوزعنا، وما تمنيّك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس، ويعيب كما عابوا! فأمّا صرف قومنا عنّا الأمرَ فعن حسدٍ قد والله عرفته، وبغيٍ قد والله علمته، فالله بيننا وبين قومنا! وأما قولك: إنك لا تدري أدفعوه عنّا أم دفعونا عنه! فلَعمري إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلاً إلى فضلنا، ولا قدْراً إلى قدرنا، وإنا لأهلُ الفضل وأهل القدر، وما فَضَل فاضلٌ إلا بفضلنا، ولا سبَق سابق إلا بسبقنا، ولولا هدينا ما اهتدى أحد، ولا أبصرُوا من عمًى، ولا قصدوا من جَوْر.

فقال عثمان: حتى متى يابن عباس، يأتيني عنكم ما يأتيني! هبوني كنتُ بعيداً، أما كان لي من الحقّ عليكم أنْ أراقب وأن أناظر! بلَى وربّ الكعبة، ولكنَّ الفرقة سهّلت لكم القول فِيّ، وتقدّمت بكم إلى الإسراع إليّ. والله المستعان.

قال ابنُ عباسٍ: مهلاً، حتى ألقَى عليًّا ثم أحمِل إليك على قَدْر ما رأى. قال عثمان: افعل فقد فعلت، وطالما طلبت فلا أُطلَب، ولا أُجاب ولا أُعتب.

قال ابن عباس: فخرجت فلقيتُ عليًّا، وإذا به من الغضب والتلظّي[1] أضعاف ما بعثمان، فأردتُ تسكينَه فامتنع، فأتيتُ منزلي وأغلقت بابي واعتزلتهما.

فبلغ ذلك عثمان، فأرسل إليّ، فأتيته وقد هدأ غضبُه، فنظر إليّ ثم ضحك، وقال: يابن عباس، ما أبطأ بكَ عنّا! إنّ تركك العوْد إلينا لدليلٌ على ما رأيت عند صاحبك، وعرفت من حاله، فالله بيننا وبينه! خُذْ بنا في غير ذلك.

قال ابن عباس: فكان عثمان بعد ذلك إذا أتاه عن عليّ شيء، فأردتُ التكذيب عنه يقول: ولا يوم الجمعة حين أبطأتَ عنّا وتركت العوْد إلينا! فلا أدرِي كيف أردّ عليه.

---

(١) التلظي: تلظّت النار: التهبت. اللسان، مادة (لظي).

وروى الزُّبيرُ بن بكار أيضاً في «الموفّقيات»، عن ابن عباس رحمه الله، قال: خرجتُ من منزلي سَحَراً أسابِق إلى المسجد، وأطلب الفضيلة، فسمعت خَلْفي حِسًّا وكلاماً، فتسمّعتُه فإذا حسُّ عثمان وهو يدعو ولا يَرى أن أحداً يسمعه، ويقول: اللهمَّ قد تعلم نيَّتي فأعنّي عليهم، وتعلم الذين ابتليتُ بهم من ذَوِي رَحمي وقرابتي، فأصلحْني لهم، وأصلحهم لي.

قال: فقصَّرْت من خطوتي وأسرع في مشيته، فالتقينا فسلّم، فرددت عليه، فقال: إني خرجت ليلتَنا هذه أطلب الفَضْل والمسابقة إلى المسجد، فقلت: إنه أخرجني ما أخرجك، فقال: والله لئن سابقتَ إلى الخير، إنّك لمنْ سابقين مباركين، وإني لأحبُّكم وأتقرب إلى الله بحبّكم، فقلت: يرحُمك الله يا أميرَ المؤمنين! إنَّا لنحبُّك ونعرف سابقتك وسنّك وقرابتك وصهرك. قال: يابن عباس، فما لي ولابن عَمّك وابن خالي! قلت: أيّ بني عمومتي وبني أخوالك؟ قال: اللهم اغفر! أتسأل مسألة الجاهل! قلت: إن بني عمومتي من بني خؤولتك كثير، فأيّهم تعني؟ قال: أعني عليًا لا غيره، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم منه إلا خيراً، ولا أعرف له إلا حسناً. قال: والله بالحرَي أن يستر دونك ما يظهره لغيرك، ويقبض عنك ما ينبسط به إلى سواك.

قال: ورُمِينا بعمّار بن ياسر، فسلّم، فرددت عليه سلامه، ثم قال: مَنْ معك؟ قلت: أمير المؤمنين عثمان، قال: نعمْ، وسلّم بكنيته، ولم يسلّم عليه بالخلافة، فردّ عليه، ثم قال عَمّار: ما الذي كنتم فيه، فقد سمعت ذَرْواً منه؟ قلت: هو ما سمعتَ، فقال عمّار: رُبّ مظلوم غافل، وظالم متجاهل! قال عثمان: أما إنّك من شُنَّائِنا وأتباعهم، وايمُ الله، إنَّ اليدَ عليك لمنبسِطة، وإنّ السبيل إليك لَسهْلة، ولولا إيثار العافية، ولم الشّعث لزجرتُك زجرةً تكفي ما مضى، وتمنع ما بقِيَ.

فقال عمّار: والله ما أعتذِر من حبّي عليًا، وما اليدُ بمنبسطة، ولا السَبيل بسهلة، إني لازم حجّة، ومقيم على سنّة، وأمّا إيثارك العافيةَ ولَمّ الشعث، فلازم ذلك. وأما زجْرِي فأمسِكْ عنه، فقد كفاك معلّمي تعليمي. فقال عثمان: أمَا والله إنك ما علمتُ من أعوان الشّرّ الحاضّين عليه، الخذَلَة عند الخير، والمثبّطين عنه. فقال عمّار: مهلاً يا عثمان، فقد سمعتَ رسول الله ﷺ يصِفني بغير ذلك، قال عثمان: ومتى؟ قال: يوم دخلتُ عليه منصرَفَه عن الجمعة، وليس عنده غيرك، وقد ألقى ثيابه، وقعد في فُضُله، فقبّلتُ صدرَه ونحرَه وجبهته، فقال: «يا عمّار، إنّك لتحبّنا وإنّا لنحبّك، وإنك لمن الأعوان على الخير المثبّطين عن الشرّ»(١)، فقال عثمان: أجلْ ولكنّك غيّرت وبدّلت، قال: فرفع عمّار يدعُو، وقال: أمّنْ يابنَ عباس، اللهمّ مَنْ غَيّر فغيّر به! ثلاث مرات.

---

(١) أخرجه أحمد في مواقف الشيعة: ١/ ١٥٩.

قال: ودخلنا المسجِدَ، فأهوى عمّار إلى مصلاّه، ومضيت مع عثمان إلى القِبْلة، فدخل المحراب، وقال: تلبّثْ عليّ إذا انصرفنا، فلما رآني عمّار وحدي أتاني، فقال: أمَا رأيتَ ما بلغ بي آنفاً؟ قلت: أما والله لقد أصعبْتَ به وأُصْعِب بك، وإن له لسنَّه وفضلَه وقرابته، قال: إنّ له لذلك، ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه. وانصرف.

وصلّى عثمان، وانصرفت معه يتوكّأ عليّ، فقال: هل سمعتَ ما قال عمّار؟ قلت: نعم، فسرّني ذلك وساءني، أمّا مساءته إيّاي فما بلغ بك، وأما مسرّته لي فحلمك واحتمالُك. فقال: إن عليًّا فارقَني منذ أيامٍ على المقاربة، وإن عمّاراً آتيه فقائل له وقائل، فابدُره إليه، فإنّك أوثق عنده منه وأصدق قولاً، فألق الأمرَ إليه على وجهه، فقلت: نعم.

وانصرفت أريد عليًّا عليه السلام في المسجد، فإذا هو خارج منه، فلمّا رآني تفجّع لي من فَوْت الصَّلاة، وقال: ما أدركتها! قلت: بلى، ولكنّي خرجت مع أمير المؤمنين، ثم اقتصصْتُ عليه القصّة، فقال: أمَا والله يابنَ عباس، إنه ليقرف قَرْحةً، ليحورَنّ عليه ألمها. فقلت: إن له سنَّه وسابقتَه، وقرابتَه وصهره، قال: إنّ ذلك له، ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه.

قال: ثم رهقَنا عَمّار، فبشّ به عليّ، وتبسّم في وجهه، وسأله، فقال عمّار: يابن عباس، هل ألقيت إليه ما كنّا فيه؟ قلت: نعم، قال: أما والله إذاً لقدْ قلتَ بلسان عثمان، ونطقت بهواه! قلتُ: ما عدوتُ الحقّ جُهْدي، ولا ذلك من فعلي، وإنك لتعلم أيّ الحظّيْن أحبّ إليّ، وأيّ الحقّين أوجبُ عليّ!

قال: فظنّ عليّ أن عند عمار غيرَ ما ألقيتُ إليه، فأخذ بيده وترك يدي، فعلمت أنّه يكره مكاني، فتخلّفت عنهما، وانشعب بنا الطريق، فسَلكاه ولم يدعُني، فانطلقتُ إلى منزلي، فإذا رسول عثمان يدعوني، فأتيتُه، فأجد ببابه مَرْوان وسعيد بن العاص، في رجالٍ من بني أميّة، فأذِن لي وألطفني، وقرّبني وأدْنَى مجلسي، ثم قال: ما صنعت؟ فأخبرته بالخبر عَلَى وجهه وما قال الرجل، وقلت له - وكتمته قوله: «إنه ليقرِف قرْحةً ليحورنّ[1] عليه ألمُها» - إبقاءً عليه، وإجلالاً له، وذكرتُ مجيء عمار، وبَشّ عليّ له، وظنّ عليّ أن قِبَله غيْر ما ألقيت عليه، وسلوكهما حيث سلكا. قال: وفعلاً؟ قلت: نعم. فاستقبل القبلة، ثم قال: اللهمّ ربّ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، أصلِح لي عليًّا، وأصلحني له! أمِّنْ يابنَ عباس، فأمّنت. ثم تحدّثنا طويلاً، وفارقته وأتيت منزلي.

وروى الزّبير بن بكّار أيضاً في الكتاب المذكور، عن عبد الله بن عباس، قال: ما سمعتُ

(١) أي ليرجعن. اللسان، مادة (حور).

من أبي شيئاً قطّ في أمر عثمان يلومُه فيه ولا يعذِرُه، ولا سألته عن شيء من ذلك مخافَةَ أن أهجُم منه على ما لا يوافقه، فإنّا عنده ليلةً ونحن نتعشّى، إذْ قيل: هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب، فقال: ائذنوا له، فدخل فأوسع له على فراشِه، وأصاب من العشاء معه، فلما رُفِع قام مَنْ كان هناك، وثبتّ أنا. فحمِد عثمان الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا خالُ، فإنّي قد جئتُك أستعذِرك من ابن أخيك عليّ، سبّني، وشهرَ أمري، وقطع رحمِي، وطعن في ديني، وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطّلب! إن كان لكم حق تزعمون أنّكم غبتم عليه، فقد تركتموه في يديّ، مَنْ فعلَ ذلك بكم، وأنا أقربُ إليكم رحِماً منه! وما لمت منكم أحداً إلا عليًا، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه، فتركته لله والرّحِم، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه.

قال ابن عباس: فحمِد أبي الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يابن أختي، فإن كنتَ لا تحمَد عليًا لنفسِك فإنّي لا أحمدك لعلّي، وما عليٌّ وحده قال فيك، بل غيره، فلو أنك اتّهمت نفسك للناس، اتّهم الناس أنفسهم لك، ولو أنك نزلتَ مما رُقِيت وارتقوا مما نزلوا، فأخذتَ منهم وأخذوا منك،ما كان بذلك بأس. قال عثمان: فذلك إليك يا خال، وأنت بيني وبينهم. قال: افاذكُر لهم ذلك عنك قال: نعم، وانصرف، فما لَبِثْنا أن قيل: هذا أمير المؤمنين قد رَجع بالباب، قال أبي: ائذنوا له، فدخل فقام قائماً، ولم يجلس، وقال: لا تعجل يا خالِ حتى اوذنَك، فنظرنا فإذا مرْوان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج، فهو الذي ثناه عن رأيه الأول، فأقبل عليّ أبي، وقال: يا بني، ما إلى هذا من أمره شيء، ثم قال: يا بنيّ، أملك عليك لسانَك حتى ترى ما لا بدّ منه، ثم رفع يديه، فقال: اللهمّ اسبِق بي ما لا خير لي في إدراكه. فما مرّت جمعة حتى مات رحمه الله(١).

وروى أبو العباس المبرد في «الكامل»(٢) عن قنبر مولى عليّ عليه السلام قال: دخلت مع عليّ على عثمان، فأحبّا الخلوة، فأومأ إليّ عليّ عليه السلام بالتنحّي، فتنحّيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتبه وعليّ مطرِق، فأقبل عليه عثمان، وقال: ما لك لا تقول! قال: إن قلتُ لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحبّ.

قال أبو العباس: تأويلُ ذلك: إن قلتُ اعتددت عليك بمثل ما اعتددتَ به عليّ، فَلَذَعَكَ عتابي، وعقدي ألا أفعل - وإن كنت عاتباً - إلا ما تحبّ.

---

(١) أخرجه ابن شبة النمري في تاريخ المدينة: ٣/ ١٠٤٧.
(٢) الكامل في اللغة: لأبي عباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

وعندي فيه تأويل آخر، وهو: أنّي إن قلت واعتذرت فأيّ شيء حسّنته من الأعذار لم يكن ذلك عندك مصدَّقاً، ولم يكن إلا مكروهاً غير مقبول، والله تعالى يعلم أنه ليس لك عندي في باطني وما أطوي عليه جوانحي إلاّ ما تحبّ، وإن كنتَ لا تقبل المعاذير التي أذكرها، بل تكرهها وتنبو نفسك عنها.

وروى الواقدي في كتاب «الشورى» عن ابن عباس رحمه الله، قال: شهدت عِتَاب عثمان لعليّ عليه السلام يوماً، فقال له في بعض ما قاله: نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً! فلعهدي بك وأنت تطيع عتيقاً وابن الخطاب طاعتَك لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولستَ بدون واحد منهما، وأنا أمسّ بك رَحِماً، وأقرب إليك صهراً، فإن كنتَ تزعم أنّ هذا الأمر جعله رسول الله صلى الله عليه وآله لك، فقد رأيناك حين تُوفّي نازعت ثم أقررت، فإن كانا لم يركبا من الأمر جدَداً، فكيف أذعنت لهما بالبَيْعة، وبَخَعْتَ بالطاعة! وإن كانا أحسنا فيما وليا، ولم أقصّر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي، فكن لي كما كنت لهما.

فقال عليّ عليه السلام: أما الفرقة، فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، وأسهل إليها سبيلاً، ولكني أنهاك عمّا ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك، وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذا ما جعَله رسول الله صلى الله عليه وآله لي، فأنت أعلم بذلك والمسلمون، وما لي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين! فأمّا ألا يكون حقّي بل المسلمون فيه شرَعٌ فقد أصاب السهم الثُّغْرة، وأمّا أن يكون حقي دونهم فقد تركتُه لهم، طبت به نفساً، ونفضت يدي عنه استصلاحاً. وأما التّسوية بينك وبينهما، فلستَ كأحدهما، إنهما وليا هذا الأمر، فظلفا أنفسهما وأهلهما عنه، وعُمْتَ فيه وقومك عَوْم السابح في اللّجة، فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقي من عُمرك إلا كظِمْء الحمار! فحتى متى وإلى متى! ألا تنهي سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم! والله لو ظَلَم عاملٌ من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتبَى، وأفعل وأعْزِلُ من عمّالي كلّ مَنْ تكرهه ويكرهه المسلمون، ثم افترقا. فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك، وقال: يجترىءُ عليك النّاس، فلا تعزل أحداً منهم!

وروى الزبير بن بكار أيضاً في كتابه، عن رجال أسندَ بعضهم عن بعض، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: أرسلَ إليّ عثمان في الهاجرة، فتقنّعت بثوبي، وأتيته، فدخلت عليه وهو على سريره، وفي يده قضيب، وبين يديه مال دَثِر: صُبْرتان من ورِقٍ وذهب، فقال: دونك خُذْ

من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتَني. فقلت: وصلتْك رَحِم! إن كان هذا المال ورثتَه، أو أعطاكه معطٍ، أو اكتسبته من تجارة، كنتُ أحدَ رجلين: إما آخذ وأشكر، أو أوفّرَ وأُجْهَد، وإن كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السبيل، فوالله مالك أن تعطينيه ولا لي أن آخذه. فقال: أبيتُ والله إلا ما أبيتَ. ثم قام إليّ بالقضيب فضربني، والله ما أردّ يده، حتى قضى حاجته، فتقنّعت بثوبي، ورجعت إلى منزلي، وقلت: الله بيني وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروفٍ أو نهيت عن منكر!

وروى الزبير بن بكّار، عن الزهري، قال: لما أتي عمرُ بجوهر كسرى، وضع في المسجد، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمْر، فقال لخازن بيت المال: وَيْحك! أرِحْني من هذا، واقسِمه بين المسلمين، فإن نفسي تحدّثني أنّه سيكون في هذا بلاء وفتنة بين الناس، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنْ قسّمته بين المسلمين لم يسعهم، وليس أحد يشتريه لأن ثمنه عظيم، ولكن ندعه إلى قابل، فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمالٍ فيشتريه منهم من يشتريه. قال: ارفعه فأدخله بيت المال. وقتِل عمر وهو بحاله، فأخذه عثمان لما ولّي الخلافة فحلّى به بناته.

قال الزبير: فقال الزهريّ: كلٌّ قد أحسن، عمر حين حَرَم نفسَه وأقارِبه، وعثمان حين وصل أقارِبَه.

قال الزّبير. وحدّثنا محمد بن حرب، قال: حدّثنا سفيان بن عُيَينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: جاء رجل إلى عليّ عليه السلام يستشفِع به إلى عثمان، فقال: حمّال الخطايا! لا والله لا أعود إليه أبداً. فآيسه منه.

وروى الزبير أيضاً، عن شداد بن عثمان، قال: سمعت عَوْف بن مالك في أيام عُمر، يقول: يا طاعون خذني، فقلنا له: لم تقول هذا، وقد سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ المؤمن لا يزيدُه طول العمر إلا خيراً»[1]! قال: إني أخاف سِتًّا: خلافَةَ بني أميّة، وإمارة السّفهاء من أحداثهم، والرّشوة في الحكم، وسفْك الدم الحرام، وكثيرة الشُّرَط، ونَشْأ ينشأ، يتّخذون القرآن مزامير.

وروى الزّبير عن أبي غسّان، عن عمر بن زياد، عن الأسود بن قيس، عن عبيد بن حارثة،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٥٣).

قال: سمعت عثمان وهو يخطب، فأكبّ الناس حوله، فقال: اجلِسوا يا أعداء الله! فصاح به طلحة: إنهم ليسوا بأعداء الله، لكنهم عبادُه، وقد قرؤوا كتابه.

وروى الزّبير، عن سفيان بن عيينة، عن إسرائيل عن الحسن، قال: شهدتُ المسجد يوم جمعة، فخرج عثمان، فقام رجل، فقال: أنشد كتاب الله! فقال عثمان: اجلس، أما لِكتاب الله ناشدٌ غيرك! فجلس، ثم قام آخر فقال مثل مقالته، فقال: اجلس، فأبى أن يجلس، فبعث إلى الشُّرَط ليُجلِسوه، فقام الناس فحالوا بينهم وبينه، قال: ثم ترامَوْا بالبطحاء، حتى يقول القائل: ما أكاد أرى أديم السماء من البطحاء.

فنزل عثمان، فدخل دارَه ولم يصلِّ الجمعة.

المشاجرة بين عثمان وابن عباس بحضور علي

وروى الزّبير أيضاً في «الموفقيات» عن ابن عباس رحمه الله، قال: صلّيت العصر يوماً، ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفّان في أيّام خلافته في بعض أزقّة المدينة وحده، فأتيته إجلالاً وتوقيراً لمكانه، فقال لي: هل رأيتَ علياً؟ قلت: خلّفته في المسجد، فإن لم يكن الآن فيه فهو من منزله، قال: أما منزله فليس فيه فابغِه لنا في المسجد. فتوجّهنا إلى المسجد، وإذا عليٌّ عليه السلام يخرج منه، قال ابن عباس: وقد كنت أمس ذلك اليوم عند عليّ، فذكر عثمان وتجرّمه عليه، وقال: أما والله يابنَ عباس، إن من دوائه لقطع كلامه، وترك لقائه. فقلت له: يرحمك الله! كيف لك بهذا! فإن تركتَه ثم أرسل إليك فما أنت صانع؟ قال: أعتلّ، وأعتلّ، فَمن يَقْسِرني! قال: لا أحد.

قال ابن عباس: فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد، ظهر منه من التفلّت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان، فنظر إليّ عثمان، وقال: يابن عباس، أما ترى ابنَ خالنا يكره لقاءنا! فقلت: ولِمَ وحقّك ألزم، وهو بالفضل أعلم! فلما تقارَبا رماه عثمان بالسّلام، فردّ عليه، فقال عثمان. إنْ تدخلْ فإياك أردنا، وإن تمضِ فإيّاك طلَبنا. فقال عليّ: أي ذلك أحببتَ؟ قال: تدخل، فدخلا وأخذ عثمان بيده، فأهوى به إلى القِبْلة، فقصّر عنها، وجلس قُبَالتها، فجلس عثمان إلى جانبه، فنكصتُ عنهما، فدعَواني جميعاً، فأتيتهما، فحمِد عثمان الله، وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد يا بنيْ خاليّ وابنيْ عمّيّ، فإذْ جمعتكما في النداء فسأجمعكما في الشّكاية، عن رضايَ على أحد كما، ووجْدي على الآخر. إني

أستعذِركما من أنفسكما، وأسألكما فيئتَكُما، وأستوهبكما رَجْعتَكما، فوالله لو غالبني الناس ما انتصرت إلا بكما، ولو تهضّموني ما تعزّزت إلا بعزّكما. ولقد طال هذا الأمرُ بيننا حتى تخوّفت أن يجوزَ قدرَه، ويعظُم الخطر فيه، ولقد هاجَنِي العدوّ عليكما، وأغراني بكما، فمنعني الله والرحِم مما أراد، وقد خلوْنا في مسجد رسول الله ﷺ وإلى جانب قبره، وقد أحببتُ أنْ تظهِرَا لي رأيكما فيّ، وما تنطويان لي عليه وتصدُقا، فإنّ الصدق أنْجى وأسلم، وأستغفر الله لي ولكما.

قال ابن عباس: فأطرق عليّ عليه السلام، وأطرقت معه طويلاً، أمّا أنا فأجللتُه أن أتكلّم قبله، وأمّا هو فأراد أن أُجيب عنّي وعنه. ثم قلت له: أتتكلم أم أتكلم أنا عنك؟ قال: بل تكلم عنّي وعنك. فحمِدت الله وأثنيت عليه، وصلَّيت على رسوله، ثم قلت: أمّا بعد يابنَ عمّنا وعَمّتنا، فقد سمعنا كلامك لنا، وخلْطَك في الشكاية بيننا على رِضاك - زعمتَ - عن أحدنا ووجْدك على الآخر، وسنفعل في ذلك، فنذمّك ونحمَدك، اقتداءً منك بفعلك فينا، فإنّا نذمّ مثلَ تهمتك إيانا على ما اتّهمتنا عليه بلا ثقة إلا ظنًّا، ونحمَد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتَك، ثم نستعذرك من نفسك استعذارك إيانا من أنفسنا، ونستوهبك فيئتَك، استيهابك إيانا فيئتنا ونسألك رجْعتك مسألتك إيانا رجعتنا، فإنا معاً أيّما حمِدت وذممت منا، كمثلك في أمر نفسك، ليس بيننا فرق ولا اختلاف، بل كلانا شريك صاحبه في رأيه وقوله، فوالله ما تعلمنا غير معذرين فيما بيننا وبينك، ولا تعرِفنا غير قانتين عليك، ولا تجدُنا غيرَ راجعين إليك، فنحنُ نسألك من نفسك مثل ما سألتَنا من أنفسنا. وأمّا قولك: لو غالبتْني الناسُ ما انتصرتُ إلاّ بكما، أو تهضموني ما تعزّزت إلا بعزكما، فأين بنا وبك عن ذلك، ونحن وأنت كما قال أخو كنانة:

بـدا بُـحـتُـرٌ مـا رام نـال، وإن يُـرَمْ ... يـخُضْ دونه غـمْـراً من الـفـر رائـمـهْ[1]

لـنـا ولـهـم مـنّـا ومـنـهـم عـلـى الـعِـدَا ... مـراتـب عـزٍّ مـصـعِـدات سـلالـمـهْ

وأما قولك في هَيْج العدوّ وإياك علينا، وإغرائه لك بنا، فوالله ما أتاك العدوّ من ذلك شيئاً إلا وقد أتانَا بأعظمَ منه، فمنعنا مما أرادَ ما منعكَ من مراقبة الله والرحِم، وما أبقيت أنت ونحن إلا على أدياننا وأعراضنا ومروءاتنا، ولقد لعمْرِي طال بنا وبك هذا الأمر حتى تخوّفنا منه على أنفسنا، وراقبنا منه ما راقبت.

وأما مساءلتك إيانا عن رأينا فيك، وما ننطوِي عليه لك، فإنّا نخبرك أنّ ذلك إلى ما تحبّ، لا يعلم واحدٌ من صاحبه إلا ذلك، ولا يقبل منه غيرَه، وكلانا ضامنٌ على صاحبه ذلك وكفيلٌ به، وقد برّأتَ أحدَنا وزكيّته، وأنطقت الآخر وأسكتّه، وليس السقيمُ مِنّا ممّا كرهت بأنطقَ من البريء فيما ذكرت، ولا البريء منا ممّا سخِطْتَ بأظهرَ من السقيم فيما وصفت، فإمّا جمعتَنا في

(١) الفر: الروغان والهرب. القاموس، مادة (فرر).

الرضا، وإمّا جمعتَنا في السخط، لنجازيَك بمثل ما تفعل بنا في ذلك، مكايلة الصاع بالصاع، فقد أعلمناكَ رأينا، وأظهرنا لك ذاتَ أنفسنا، وصدَقْناك، والصدق كما ذكرت أنجى وأسلم، فأجِبْ إلى ما دعوتَ إليه، وأجْلِلْ عن النقضِ والغدْر مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وآله وموضع قبره، واصدق تنجُ وتسلم، ونستغفر الله لنا ولك.

قال ابنُ عباس: فنظر إلى عليّ عليه السلام نظرَ هيْبة، وقال: دعْهُ حتّى يبلغ رضاه فيما هو فيه، فوالله لو ظهرت له قلوبُنا، وبدت له سرائرنا، حتى رآها بعينه كما يسمعُ الخبرَ عنها بأذنه، ما زال متجرّماً منتقماً، والله ما أنا ملقىً على وَضَمة، وإني لمانع ما وراء ظهري، وإن هذا الكلام لمخالفةٌ منه وسوء عشرة.

فقال عثمان: مَهلاً أبا حسن، فوالله إنك لتعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصفَني بغير ذلك يوم يقول وأنت عنده: «إنّ من أصحابِي لقوماً سالمين لهم، وإن عثمان لمنهم، إنّه لأحسنُهم بهم ظنًّا، وأنصحُهم لهم حبًّا». فقال عليٌّ عليه السلام: فتصدّقْ قوله صلى الله عليه وآله بفعلك، وخالفْ ما أنت الآن عليه، فقد قيل لك ما سمعتَ، وهو كافٍ إن قبِلْتَ.

قال عثمان: فتثِق يا أبا الحسن؟ قال: نعم أثق ولا أظنّك إلاّ فاعلاً، قال عثمان: قد وثقت وأنت ممن لا يَخفِرُ صاحبه، ولا يكذّب لقيله.

قال ابن عباس: فأخذتُ بأيديهما، حتى تصافحا وتصالحا وتمازحا، ونهضت عنهما، فتشاورا تآمراً وتذاكراً، ثم افترقا، فوالله ما مرّت ثالثة حتّى لقيَني كلّ واحدٍ منهما، يذكر من صاحبه ما لا تبركُ عليه الأبل. فعلمتُ أن لاَ سبيل إلى صلحهما بعدها.

وروى أحمد بن العزيز الجوهريّ في كتاب «أخبار السقيفة» عن محمد بن قيس الأسديّ، عن المعروف بن سويد، قال: كنت بالمدينة أيّام بويع عثمان، فرأيت رجلاً في المسجد جالساً، وهو يَصْفِق بإحدى يديه على الأخرى، والناس حوله، ويقول: واعجبًا من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت، معدن الفضل، ونجوم الأرض، ونور البلاد! والله إنّ فيهم لرجلاً ما رأيت رجلاً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أولَى منه بالحقّ، ولا أقضَى بالعدل، ولا آمرَ بالمعروف، ولا أنهى عن المنكر، فسألت عنه فقيل: هذا المقداد، فتقدّمت إليه، وقلت: أصلحك الله! مَن الرجل الذي تذكر؟ فقال: ابن عمّ نبيك رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب!

قال: فلبثتُ ما شاء الله ثم إنّي لقيت أبا ذرّ رحمه الله، فحدّثته ما قال المقداد، فقال: صدق، قلتُ: فما يمنعكم أن تجعلوا هذا الأمر فيهم! قال: أَبَى ذلك قومهم، قلت: فما يمنعكم أن تُعينُوهم! قال: مه لا تَقُلْ هذا، إياكم والفرقة والاختلاف!

قال: فسكتّ عنه، ثمّ كان من الأمر بعدُ ما كان[١].

وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ في الكتاب الذي أورد فيه المعاذير عن أحداث عثمان، أنّ عليًّا اشتكى، فعاده عثمان من شكايته، فقال عليّ عليه السلام:

وعائدةٍ تعودُ لغيرِ وُدٍّ تودّ لو أنّ ذا دَنَفٍ يموتُ

فقال عثمان: والله ما أدرِي أحياتُك أحبّ إليّ أم موتك! إن مِتّ هاضني[٢] فقدُك، وإن حييت فتنتني حياتك، لا أعدِم ما بقيتَ طاعناً يتّخذك ربيئة يلجأ إليها.

فقال عليٌّ عليه السلام: ما الذي جعلني ربيئةً للطاعنين العائبين! إنّما سوء ظنّك بي أحلّني من قلبك هذا المحلّ، فإنْ كنتَ تخاف جانبي فلك عليّ عهدُ الله وميثاقه أن لا بأس عليك منّي، ما بلَّ بَحْرٌ صوفةً، وإني لك لراعٍ، وإني عنك لمحامٍ، ولكن لا ينفعني ذلك عندك. وأما قولك: «إن فقدي يَهيضُك»، فكلّا أن تُهاض لفقدي، ما بَقِيَ لك الوليد ومروان.

فقام عثمان فخرج.

وقد روي أن عثمان هو الذي أنشدَ هذا البيت، وقد كان اشتكى، فعاده عليّ عليه السلام فقال عثمان:

وعائدةٍ تعودُ بغيرِ نُصْحٍ تودّ لو أنّ ذا دَنَفٍ يموتُ

وروى أبو سعد الآبيّ في كتابه عن ابن عباس، قال: وقع بين عثمان وعليٍّ عليه السلام كلام، فقال عثمان: ما أصنع، إنْ كانت قريش لا تحبّكم، وقد قتلتم منهم يوم بَدْرٍ سبعين، كأنّ وجوههم شُنوف[٣] الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم!

وروى المذكور أيضاً أن عثمان لما نقَم النّاس عليه ما نقَموا، قام متوكّئاً على مَرْوان فخطب النّاس، فقال: إنّ لكل أمّة آفة، ولكلّ نعمة عاهة، وإنّ آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النعمة، قوم عَيّابون طعّانون، يظهِرُون لكم ما تحبُّون، ويسرّون ما تكرهون، طَغَام مثل النّعام، يتبَعُون أوّل ناعق، ولقد نقَموا عليّ ما نقَموا عَلَى عمر مثله، فقَمعهم ووقَمهم وإنّي لأقربُ ناصراً، وأعزّ نفراً، فما لي لا أفعلُ في فضول الأموال ما أشاء!

وروى المذكور أيضاً أنّ علياً عليه السلام اشتكى، فعاده عثمان، فقال: ما أراك أصبحت إلا

---

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٨٣.

(٢) هاضني: ردني في مرضي. اللسان، مادة (هيض).

(٣) شنوف: جمع شنف: الذي يلبس في أعلى الأذن، والذي في أسفلها القرط. اللسان، مادة (شنف).

ثقيلاً! قال: أجلْ، قال: والله ما أدري أموتُك أحبّ إليّ أم حياتُك! إنّي لأحبُّ موتَك، وأكره أن أعيش بعدك، فلو شئتَ جعلتَ لنا من نفسك مخرجاً، إمّا صديقاً مسالماً وإما عدوًّا مغالباً، وإنك لكما قال أخو إياد:

جَرَتْ لما بيننا حبلُ الشَّموسِ فلا ... يأساً مبيناً نرى منها ولا طَمعا

فقال عليّ عليه السلام: ليس لك عندي ما تخافه، وإن أجبتك لم أُجِبك إلاّ بما تكرهه.

وكتب عثمان إلى عليّ عليه السلام حين أحيط به، أما بعد: فقد جاوزَ الماءُ الزُّبى، وبلغ الحِزام الطُّبْيَيْن، وتجاوز الأمر فيّ قدْرَه، فطمِع فيّ من لا يدفعُ عن نفسه.

فإنْ كُنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ ... وإلاّ فأدركني ولمّا أُمَزَّقِ

وروى الزّبير خبر العيادة على وجه آخر قال: مرِض عليّ عليه السلام، فعاده عثمان ومعه مَرْوان بن الحكم، فجعل عثمان يسأل عليًّا عن حاله، وعليّ ساكتٌ لا يجيبه، فقال عثمان: لقد أصْبَحْتَ يا أبا الحسن مِنّي بمنزلة الولد العاقّ لأبيه! إن عاش عَقّه، وإن مات فجعه، فلو جعلتَ لنا من أمرك فَرَجاً، إما عدوًّا أو صديقاً، ولم تجعلنا بين السماء والماء! أمَا والله لأنا خيرٌ من فلان وفلان، وإن قتِلتُ لا تجد مثلي، فقال مروان: أما والله لا يُرام ما وراءنا حتى تَتَواصَلَ سيوفُنا، وتقطع أرحامنا.

فالتفت إليه عثمان، وقال: اسكتْ لاسكتّ! وما يُدخلك فيما بيننا!

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ، عن زيد بن أرقم، قال: سمعتُ عثمان وهو يقول لعليّ عليه السلام: أنكرتَ عَلَيَّ استعمالَ معاوية، وأنت تعلم أن عُمَر استعمله! قال عليٌّ عليه السلام: نشدتُك الله! ألا تَعلم أنّ معاويةَ كانَ أطوعَ لعمر من يَرْفَأ غلامه! إنّ عمرَ كان إذا استعمل عاملاً وطىء على صِماخِه، وإنّ القومَ ركبوك وغلبوك واستبدُّوا بالأمر دونك فسكت عثمان.

أسباب المنافسة بين علي عليه السلام وعثمان

قلت: حدثني جعفر بن مكي الحاجب رحمه الله، قال: سألت محمد بن سليمان حاجب الحجّاب - وقد رأيت أنا محمداً هذا، وكانت لي به معرفة غير مستحْكمة، وكان ظريفاً أديباً، وقد اشتغل بالرياضيّات من الفلسفة، ولم يكن يتعصّب لمذهب بعينه - قال جعفر: سألتُ عمّا

عنده في أمر عليّ وعثمان، فقال: هذه عداوة قديمة النَّسب بيْن عبد شمس وبين بني هاشم، وقد كان حرْب بن أميّة نافَرَ عبدَ المطلب بن هاشم، وكان أبو سفيان يحسُد محمداً ﷺ وحارَبُه، ولم تزل الثُّنْتان متباغضتين وإن جَمعتْهما المنافيّة. ثم إنّ رسول الله ﷺ زوّج علياً بابنته، وزوّج عثمان بابنته الأخرى، وكان اختصاصُ رسول الله ﷺ لفاطمة أكثرَ من اختصاصه للبنت الأخرى، وللثّانية التي تزوّجها عثمان بعد وفاة الأولى، واختصاصه أيضاً لعليّ وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه إيّاه لنفسه، أكثرَ وَأعظَمَ من اختصاصه لعثمان. فنفَس عثمان ذلك عليه، فتباعدَ ما بين قلبيْهما، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأختيْن من مُباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقَلُ من إحداهما إلى الأخرى، فيتكدّر قلبُها على أختها، ويكون ذلك التكّدير سبباً لتكدير ما بين البعلين أيضاً، كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الأعصار، وقد قيل: ما قَطَع من الأخَوَيْنَ كالزّوجتين. ثم اتفَق أن عليًا عَلَيْتَلِا قَتَلَ جماعةً كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله ﷺ، فتأكّد الشنآن[1]، وإذا استوحشَ الإنسانُ من صاحبه استوحش صاحبُه منه. ثم مات رسول الله ﷺ، فصبَا إلىْ عليّ جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم، ولا حضر في دار فاطمة مع مَنْ حضر من المخلّفين عن البيعة، وكانت في نفس عليّ عَلَيْتَلِا أمورٌ من الخلافة لم يمكنْه إظهارُها في أيام أبي بكر وعمر، لقوّة عمر وشدته، وانبساط يده ولسانه، فلما قتِل عمر وجَعَل الأمر شورى بين الستّة، وعدل عبد الرحمن بها عن عليّ إلى عثمان، لم يملكْ عليّ نفسَه، فأظهر ما كان كامناً، وأبدى ما كان مستوراً، ولم يزل الأمر بتزايد بينهما، حتى شرف وتفاقم، ومع ذلك فلم يكن عليّ عَلَيْتَلِا لينكر من أمره إلا منكَراً، ولا ينهاه إلا كما تقتضي الشريعة نهيه عنه، وكان عثمان مستضعفاً في نفسِه، رِخْواً قليل الحزم، واهيَ العقْدة، وسلّم عنانَه إلى مرْوان يصرّفه كيف شاء، الخلافة له في المعنى ولعثمان في الاسم. فلما انتقضَ على عثمان أمرُه، استصرخ عليًا وَلاَذَ به، وألقى زمام أمرِه إليه، فدافع عنه حيث لا ينفع الدّفاع، وذبّ عنه حينَ لا يغني الذّبّ، فقد كان الأمرُ فسد فساداً لا يُرْجَى صلاحه.

قال جعفر: فقلت له: أتقول إنّ عليًا وجَد من خلافة عثمان أعظم مما وَجَده من خلافة أبي بكر وعمر؟ فقال: كيف يكون ذلك، وهو فرع لهما، ولولاهما لم يصل إلى الخلافة، ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل، ولا يخطر له ببال! ولكن هاهنا أمر يقتضي في عثمان زيادَة المنافسة، وهو اجتماعهما في النسب، وكونُهما من بني عبد مناف، والإنْسَانُ ينافِس ابن عمّه الأدنى أكثر من منافسة الأبعد، ويهوّن عليه من الأبعد ما لا يهوّن عليه من الأقرب.

قال جعفر: فقلت له: أفتقول: لو أنّ عثمان خُلِع ولم يقتَل، أكان الأمرُ يستقيم لعليّ عَلَيْتَلِا إذا بويع بعد خلعه؟ فقال: لا، وكيف يتوّهم ذلك بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حيّ

(١) الشنآن: البغض. القاموس، مادة (شنأ).

مخلوع أكثرَ من انتقاضها عليه بعد قتله؛ لأنّه موجود يُرجَى ويُتوقّع عَوْده، فإن كان محبوساً عَظُم البلاء والخطْب، وهتف الناس باسمه في كلّ يوم، بل في كلّ ساعة، وإن كان مُخَلًى سِرْبُهُ، وممكناً من نفسه، وغير محولٍ بينه وبين اختياره، لجأ إلى بعض الأطراف، وذكر أنه مظلوم غُصِبت خلافتُه، وقهِر على خلع نفسه، فكان اجتماع الناس عليه أعظَمَ، والفتنة به أشدّ وأغلظ.

قال جعفر: فقلت له: فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في أمر الإمامة من مبدأ الحال، وما الذي تظنّه أصله ومنبَعه؟ لا أعلم لهذا أصلاً إلا أمريْن: أحدُهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهمَل[1] أمر الإمامة فلم يصرّح فيه بأحدٍ بعينه[2]، وإنما كان هناك رَمْزٌ وإيماء، وكناية وتعريض، لو أراد صاحبُه أن يحتجّ به وقت الاختلاف وحالَ المنازعة يُقم منه صورة حجّة تُغْني، ولا دلالة تحسب وتكفي، ولذلك لم يحتجّ عليٌّ عليه السلام يوم السقيفة بما وردفيه[3]؛ لأنه لم يكن نصًا جلياً يقطع العذر، ويوجب الحجة، وعادة الملوك إذا تمهّد مُلْكُهم، وأرادوا العَقْد لولد من أولادهم، أو ثقةٍ من ثقاتهم، أن يصرّحوا بذكره، يخطبوا باسمه على أعناق المنابر، وبين فواصل الخطب، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم، والأقطار النائية منهم، ومَنْ كان منهم ذا سرير وحصن ومدنٍ كثيرة، ضرب اسمه عَلَى صفَحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك، بحيث تزول الشبْهة في أمره، ويسقُط الارتياب بحاله، فليس أمرُ الخلافة بهيّن ولا صغيرٍ ليتركَ حتى يصيرَ في مظنّة الاشتباه واللّبس، ولعلّه كان لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك عذرٌ لا نعلمه نحن، إمّا خشيةً من فساد الأمر، أو إرجاف المنافقين، وقولهم: إنّها ليس بنبوّة وإنما هي مُلْك به أوْصَى لذريته وسلالته، ولمّا لم يكن أحدٌ من تلك الذرّية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصِغر السنّ، جعله لأبيهم، ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنته ولأولادهِ منها من بعده.

وأمّا ما تقوله المعتزلة وغيرُهم من أهل العدْل: إنّ الله تعالى علم أنّ المكلّفين يكونون عَلَى ترك الأمر مهمَلاً غير معيّن أقرب إلى فعل الواجب وتجنّب القبيح. قال: ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم في مرضِه أنّه يموت في ذلك المرض، وكان يرجو البقاء فيمهّد للإمامة قاعدة واضحَةً. ومما يدلّ عَلَى ذلك أنّه لما نوزع في إحضار الدواة والكتِف ليكتب لهم ما لا يضلّون

(١) معاذ الله أن يهمل النبي صلى الله عليه وآله هذا الأمر بل لا يجوز له، وأي عاقل يترك منزله أو عمله الصغير من دون خليفة أو نائب يقوم مقامه، أو ليس موسى غاب عن قومه أربعين يوماً فقال لهارون اخلفني في قومي.

(٢) عجباً أو ليس حادثة الغدير وتنصيبه ولياً عليهم في حجة الوداع كاف لمن أراد؟!

(٣) انظر الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/ ٢٩-٢٩، والاحتجاج للطبرسي: ١/ ٧٤-٨٣-١١٧، وفضائل الصحابة لأحمد: ٢/ ٦٨٥.

بعده، غضِب وقال: اخرجوا عنّي، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرّفهم رشدَهم، ويهديهم إلى مصالحهم، بل أرجأ الأمر إرجاءَ مَنْ يرتقب الإفاقة، وينتظر العافية.

قال: فبتلك الأقوال المحجمة، والكنايات المحتملة، والرموز المشتبهة، مثل الحديث خَصْف النعل، ومنزلة هارون من موسى، ومَنْ كنت مولاه، وهذا يعسوب الدين، ولا فتًى إلاّ عليّ، وأحبّ خلقك إليك، وما جرى هذا المجرى، مما لا يفصِل الأمر، ويقطع العذر ويُسكِت الخصم، ويفْحم المنازع، وَثَبت الأنصار فادّعتها، ووَثَب بنو هاشم فادّعَوْها، وقال أبو بكر: بايعوا عمرَ أو أبا عبيدة، وقال العبّاس لعليّ: امدد يدك لأبايعك، وقال قوم ممن رَعَف به الدّهر فيما بعد، ولم يكن موجوداً حينئذ: إنّ الأمر كان للعباس لأنّه العمّ الوارث، وإن أبا بكر وعمر غصباه حقّه، فهذا أحدهما.

وأما السبب الثاني: للاختلاف، فهو جَعْل عمرَ الأمر شورى في الستّة، ولم ينصّ عَلَى واحدٍ بعينه، إمّا منهم أو من غيرهم، فبقِيَ في نفس كلّ واحد منهم أنه قد رُشّح للخلافة وأهّل للملك والسلطنة، فلم يزل ذلك في نفوسهم وأذهانهم مصوّراً بين أعينهم، مرتَسِماً في خيالاتهم، منازعة إليه نفوسهم، طامحة نحوه عيونُهم، حتى كان من الشّقاق بين علي وعثمان ما كان، وحتى أفضى الأمرُ إلى قتل عثمان. وكان أعظم الأسباب في قتله طلحة، وكان لا يشكّ أنّ الأمر له من بعده لوجوه، منها سابقته، ومنها أنه ابن عمّ لأبي بكر، وكان لأبي بكر في نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة، أعظم منها الآن. ومنها أنه كان سَمْحاً جواداً، وقد كان نازع عمر في حياة أبي بكر، وأحبّ أن يفوّض أبو بكر الأمرَ إليه من بعده، فما زال يفتِل في الذّروة والغارب في أمر عثمان، وينكّر له القلوب، ويكدّر عليه النفوس، ويغرِي أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به. وساعده الزُّبير، وكان أيضاً يرجو الأمرَ لنفسه، ولم يكن رجاؤهما الأمرَ بدون رجاء عليّ، بل رجاؤهما كان أقوى؛ لأنّ علياً دحضَه الأوّلان، وأسقطاه، وكسرا ناموسه بيْن الناس، فصار نسياً منسيًّا، ومات الأكثر ممّن يعرف خصائصه التي كانت في أيام النبوّة وفضله، ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلا رجلاً من عُرْض المسلمين، ولم يبق له مما يمتّ به إلاّ أنه ابن عمّ لرسول، وزوْج ابنته، وأبو سِبْطَيْه، ونُسِيَ ما وراء ذلك كله، واتفق له من بُغْض قريش وانحرافها ما لم يتّفق لأحد، وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحبّ طلحة والزُّبير؛ لأنّ الأسباب الموجبة لبعضهم لم تكن موجودةً فيهما، وكانا يتألّفان قريشاً في أواخر أيام عثمان، ويعِدانهم بالعطاء والإفضال، وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوّة لا بالفعل؛ لأن عمر نصّ عليهما وارتضاهما للخلافة، وعمر متّبع القول مرضيّ الفعال، موفّق مؤيّد مطاع، نافذ الحكم في حياته وبعد وفاته، فلما قتِل عثمان، أرادها طلحة، وحَرَص عليها، فلولا الأشتر وقوم معه من شُجعان العرب جعلوها في عليّ لم تصل إليه

أبداً، فلما فاتت طلحة والزبير، فتقا ذلك الفتق العظيم عَلَى عليّ، وأخرجا أم المؤمنين معهما، وقصدا العراق، وأثارا الفتنة، وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف، ثم كانت حرب الجمل مقدّمةً وتمهيداً لحرب صِفّين، فإنّ معاوية لم يكن ليفعل ما فعل، لولا طمعُه بما جرى في البصرة، ثم أوْهَم أهلَ الشام أنّ عليًا قد فَسَق بمحاربة أم المؤمنين، ومحاربة المسلمين، وأنه قتل طلحة والزبير، وهما من أهل الجنّة، ومَنْ يقتل مؤمناً من أهل الجنّة فهو من أهل النار، فهل كان الفساد المتولّد في صِفّين إلا فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل! ثم نشأ مِن فساد صِفّين وضلال معاوية كلّ ما جرى من الفساد والقبيح في أيام بني أميّة، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع يوم الدار؛ لأن عبد الله كان يقول: إنّ عثمان لما أيقن بالقتل نَصّ عليّ بالخلافة، ولي بذلك شهود، ومنهم مروان بن الحكم أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعاً عَلَى أصل، وغصنا من شجرة، وجَذْرة من ضِرام! هكذا يدور بعضه عَلَى بعض، وكله من الشورى في الستّة.

قال: وأعجب من ذلك قول عمر وقد قيل له: إنك استعملت يزيد بن أبي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلاناً من المؤلّفة قلوبهم من الطُّلَقاء وأبناء الطلقاء، وتركت أنْ تستعمل عليًّا والعباس والزبير وطلحة! فقال: أمّا عليّ فأنبَهُ من ذلك، وأما هؤلاء النفر من قريش، فإني أخاف أن ينتشروا في البلاد، فيُكثروا فيها الفساد، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك، ويدّعيه كلّ واحد منهم لنفسه، كيف لم يَخَفْ من جعلهم ستّة متساوِين في الشورى، مرشّحين للخلافة! وهل شيء أقربُ إلى الفساد من هذا! وقد روي أنّ الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيْه يلعبان ويضحكان، فسرّ بذلك، فلما غابا عن عينه بكى، فقال له الفضل بن الربيع: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، وهذا مقامُ جَذل لا مقام حُزْن؟ فقال: أما رأيتَ لعبهما ومودّة بينهما؟ أما والله ليتبدلَنّ ذلك بغضاً وشنَفاً[1] وليختلسنّ كلّ واحد منهما نَفْس صاحبه عن قريب، فإن الملك عقيم. وكان الرشيد قد عقد الأمر لهما عَلَى ترتيب، هذا بعد هذا، فكيف مَنْ لم يرتِّبوا في الخلافة، بل جعلوا فيها كأسنان المشط!

فقلت أنا لجعفر: هذا كلّه تحكيه عن محمد بن سليمان، فما تقول أنت؟ فقال:

إِذَا قَالَتْ حَذامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإنّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حَذامِ

(١) الشَّنَف: الكره والبغض. اللسان، مادة (شنف).

١٣٦ - ومن كلام له عليه السلام في أمر البيعة

الأصل: لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً، إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ.

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَآيْمُ ٱللهِ لَأُنْصِفَنَّ ٱلْمَظْلُومَ وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ، حَتَّىٰ أُورِدَهُ مَنْهَلَ ٱلْحَقِّ وإن كَانَ كَارِهاً.

الشرح: الفَلْتة: الأمر يقع عن غير تدبّر ولا رويّة، وفي الكلام تعريض ببيعة أبي بكر، وقد تقدّم لنا في معنى قول عمر: «كانت بيعة أبي بكر فَلْتة وقى الله شرّها» كلام.

والخِزامة: حلْقه من شعر تُجعلُ في أنف البعير، ويُجعل الزمام فيها.

وأعينُوني على أنفسكم: خذوها بالعدل، واقْمعوها على اتّباع الهوى، وازْدَعُوها بعقولكم عن المسالك التي تُرْدِيها وتوبقُها، فإنّكُم إذا فعلتم ذلك أعنتموني عليها؛ لأنّي أعظكم وآمركم بالمعروف، وأنهاكم عن المنكر، فإذا كبحْتُم أنفسكم بلجام العقل الداعي إلى ما أدعو إليه، فقد أعنتموني عليها.

فإن قلت: ما معنى قوله «أريدكم لله وتريدونني لأنفسكم»؟

قلت: لأنه لا يريد من طاعتهم له إلا نصرة دين الله والقيام بحدوده وحقوقه، ولا يريدهم لحظّ نفسه، وأمّا هم فإنهم يريدونه لحظوظ أنفسهم من العطاء والتقريب، والأسباب الموصّلة إلى منافع الدنيا.

وهذا الخطاب منه عليه السلام لجمهور أصحابه، فأمّا الخواصّ منهم فإنّهم كانوا يريدونه للأمر الذي يريدهم له من إقامة شرائع الدين وإحياء معالمه.

---

١٣٧ - ومن كلام له عليه السلام في شان طلحة والزبير

الأصل: وَٱللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا ٱلطَّلِبَةُ إِلاَّ قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي، مَا لَبَسْتُ وَلاَ لُبِسَ عَلَيَّ.

وَإِنَّهَا لِلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ فِيهَا ٱلْحَمَأُ وَٱلْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ المُغْدَفَةُ. وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ لَوَاضِحٌ، وَقَدْ زَاحَ ٱلْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَايْمُ ٱللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أنا مَاتِحُهُ، لاَ يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلاَ يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حِسْيٍ.

الشرح: النَّصْفُ: الإنصاف، قال الفرزدق:

ولـكـنَّ نِـصْـفـاً لـو سببتُ وسَبَّنِـي ... بنُـو عـبـدِ شَـمْـسٍ مِنْ قُـرَيْـشٍ وَهَـاشِـمِ

وهو على حذف المضاف، أي ذا نِصْفٍ، أي حكَماً منصفاً عادلاً يحكم بيني وبينهم.

والطَّلِبة: بكسر اللام: ما طلبتَه من شيء. ولبَست على فلان الأمر، ولُبِس عليه الأمر، كلاهما بالتخفيف.

والحَمأ: الطين الأسود، قال سبحانه: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1].

وحُمَة العقرب: سمّها، أي في هذه الفئة الباغية الضلالُ والفساد والضرر، وإذا أرادت العربُ أن تعبّر عن الضلال والفساد قالت: الحَمْءُ، مثله الحمْأة بالتاء، ومن أمثالهم: «ثَأطَةٌ مدّت بماء»، يُضرب للرجل يشتدّ مُوقه وجهله، والثَّأطة: الحمْأة، وإذا أصابها الماء ازدادت فساداً ورطوبة.

ويروَى فيها: «الحما» بألف مقصورة وهو كناية عن الزُّبير؛ لأن كل ما كان بسبب الرجل فهم الأحماء، وأحدهم «حما» مثل قفا وأقفاء، وما كان بسبب المرأة فهم الأخاتن، فأما الأصهار فيجمع الجهتين جمعاً. وكان الزُّبير ابن عَمّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله أعلم عليًا بأنّ فئة من المسلمين تبغي عليه أيّام خلافته، فيها بعضُ زوجاته وبعض أحمائه، فكنَى عليّ عليه السلام عن الزَّوْجة بالحُمَة وهي سمّ العقرب، ويروى: «والحَمء» يضرب مثلاً لغير الطيّب ولغير الصافي، وظهر أنّ الحمْء الذي أخبر النبي صلى الله عليه وآله بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزّبير ابنُ عمته. وفي الحمأ أربع لغات: حَمَا مثل قفا، وحَمْء مثل كَمْء، وحَمُو مثل «أبو»، وحم مثل أبٍ.

قوله عليه السلام: «والشبهة المغدَفة» أي الخفيّة، وأصله المرأة تُغْدِف وجهها بقناعها، أي تستره. وروي: «المُغدِفة» بكسر الدال، من أغدف الليل، أي أظلم.

وزاح الباطل، أي بَعُد وذهب، وأزاحه غيره.

وعن نصابه: عن مركزه ومقرّه، ومنه قول بعض المحدّثين:

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

قد رجع الحقُّ إلى نصابِهِ وأنت من دون الورى أولى بِهِ

والشّغْب، بالتسكين: تهييج الشرّ، شَغَب الحقد بالفتح شَغْباً، وقد جاء بالتحريك في لغة ضعيفة، وماضيها شغِب، بالكسر.

ولَأفرِطنّ لهم حوضاً، أي لأملأنّ، يقال: أفرطتُ المزادة أي ملأتها، وغدير مفرَط، أي ملآن.

والماتح، بنقطتين من فوق: المستقِي من فوقُ، وبالياء: مالِيء الدّلاء من تحت.

والعَبّ: الشرب بلا مصّ كما تشرب الدابّة: وفي الحديث: «الكُبَاد من العَبّ»[1].

والحِسْي: ماء كامنٌ في رمل يحفَر عنه فيستخرَج، وجمعه أحساء.

يقول عليه السلام: والله ما أنكروا عليّ أمراً هو منكَر في الحقيقة، وإنّما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم، وحملَهم على ذلك الحسد وحبّ الاستئثار بالدنيا والتفضيل في العطاء، وغير ذلك مما لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يراه ولا يستجيزه في الدين. قال: ولا جعلوا بيني وبينهم نِصْفاً، يمني وسيطاً يحكم ويُنصف، بل خرجوا عن الطاعة ستة، وإنهم ليطلبون حقاً تركوه، أي يظهرون أنهم يطلبون حقاً بخروجهم إلى البصرة وقد تركوا الحق بالمدينة.

قال: ودماً هم سفكوه، يعني دم عثمان، وكان طلحة من أشدّ الناس تحريضاً عليه، وكان الزّبير دونه في ذلك.

روي أنّ عثمان قال: ويلي على ابن الحضرميّة - يعني طلحة - أعطيتُه كذا وكذا بُهاراً ذهباً، وهو يروم دمي يحرّض على نفسي، اللّهم لا تمتّعه به ولَقّه عواقب بغيه.

وروَى الناس الذين صنّفوا في واقعة الدّار أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنَّعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس، يرمي الدار بالسهام، ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين حَصَرُوه الدخول من باب الدار، حملَهم طلحة إلى دارٍ لبعض الأنصار، فأصعدهم إلى سطحها، وتسوّروا منها على عثمان داره فقتلوه.

ورووا أيضاً أنّ الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدّل دينكم. فقالوا: إن ابنك يحامِي عنه بالباب، فقال: ما أكره أن يقتَل عثمان ولو بُدِيء بابني، إن عثمان لجيفةٌ على الصراط غداً.

وقال مرْوان بن الحكم يوم الجمل: والله لا أترك ثأري وأنا أراه، ولأقتلنّ طلحة بعثمان، فإنه قتله. ثم رماه بسهم فأصاب مأبِضَه، فنزف الدم حتى مات.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٨٤)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ١١٥).

ثم قال عليه السلام: إن كنت شريكَهم في دم عثمان، فإن لهم نصيبَهم منه، فلا يجوز لهم أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه، وإن كانوا وَلُوه دوني، فهم المطلوبون إذَنْ به لا غيرهم.

وإنما لم يذكر القسم الثالث، وهو أن يكون هو عليه السلام وليّه دونهم؛ لأنه لم يقل به قائل، فإنّ النّاس كانوا على قولَيْن في ذلك: **أحدهما**: أنّ عليًا وطلحة والزبير مَسّهم لَطْخٌ من عثمان، لا بمعنى أنهم باشروا قتْله، بل بمعنى الإغراء والتحريض، **وثانيهما**: أنّ عليًا عليه السلام بريء من ذلك، وأنّ طلحة والزبير غير بريئَيْن منه.

ثم قال: وإنّ أوّل عدلهم لَلْحُكم على أنفسهم، يقول: إن هؤلاء خرجوا ونقضوا البيْعة، وقالوا: إنّما خرجنَا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار العدل وإحياء الحقّ وإماتة الباطل، وأوّل العدلَ أن يحكُموا على أنفسهم، فإنّه يجب على الإنسان أن يقضيَ على نفسه ثم على غيره، وإذا كان دم عثمان قبلهم، فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم.

قال: وإن معي لبصيرتي، أي عقلي، ما لَبَسْتُ على الناس أمرهم ولا لُبِس الأمر عليّ، أي لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بل أوضحه لي وعرّفنيه.

ثم قال: وإنها للفئة الباغية، لام التعريف في «الفئة» تشعِر بأنّ نصًا قد كان عنده: أنه ستخرج عليه فئة باغية، ولم يعيَّن له وقتها ولا كلّ صفاتها، بل بعض علاماتها، فلما خرج أصحاب الجمل ورأى تلك العلاماتِ موجودة فيهم، قال: وإنّها للفئة الباغية، أي وإنّ هذه الفئة، أي الفئة التي وُعِدت بخروجها عليّ، ولولا هذا لقال: «وإنها لفئة باغية»، على التنكير.

ثم ذكر بعض العلامات، فقال: إنّ الأمر لواضح، كلّ هذا يؤكّد به عند نفسه وعند غيره أنّ هذه الجماعة هي تلك الفئة الموعود بخروجها، وقد ذهب الباطلُ وزاحَ، وخرِس لسانه بعد شَغْبه.

ثم أقسم ليملأنّ لهم حوضاً هو ماتحه، وهذه كناية عن الحرب والهيجاء وما يتعقّبهما من القتل والهلاك. لا يصدرون عنه بريّ، أي ليس كهذه الحياض الحقيقية التي إذا وَرَدَها الظمآن صَدَر عن رِيّ ونقع غليله، بل لا يصدُرون عنه إلا وهم جَزَر السّيوف، ولا يعبّون بعده في حِسْي لأنهم هلكوا، فلا يشربون بعده البارد العذْب.

وكان عمرو بن الليث الصفّار أمير خراسان أنفذ جيشاً لمحاربة إسماعيل بن أحمد السامانيّ، فانكسر ذلك الجيش وعادوا إلى عمرو بن الليث، فغضب ولَقِيَ القوّاد بكلام غليظ، فقال له بعضهم: أيها الأمير، إنه قد طُبخَ لك مِرْجَلٌ عظيم، وإنما نلنا منه لُهمة يسيرة والباقي مذْخور لك، فعلام تتركه! اذهب إليهم فكُلْه. فسكت عمرو بن الليث عنه ولم يجب.

ومرادنا من هذه المشابهة والمناسبة بين الكنايتين.

الأصل: منه: فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ ٱلْعُوذِ المَطَافِيلِ عَلَى أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: ٱلْبَيْعَةَ ٱلْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا.

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ. فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَما، وَأَرِهِمَا المَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلاَ وَعَمِلاَ. وَلَقَدِ ٱسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ ٱلْقِتَالِ، وَٱسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ ٱلْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ وَرَدَّا ٱلْعَافِيَةَ.

الشرح: العُوذ: النّوق الحدِيثات النّتاج، الواحدة عائذ، مثل حائل وحُول، وقد يقال ذلك للخَيْل والظّباء، ويجمع أيضاً على «عُوذان» مثل راعٍ ورُعيان، وهذه عائذة بيّنة العُؤوذ، وذلك إذا ولدت عن قريب، وهي في عياذها، أي بِحَدثان نَتاجها.

والمطافيل: جمع مُطْفِل، وهي التي زال عنها اسمُ العِياذ ومعها طِفْلُها، وقد تسمّى المطافيل عُوذاً إلى أن يبعد العهد بالنتَّاج مجازاً، وعلى هذا الوجه قال أمير المؤمنين: «إقبال العوذ المطافيل»، وإلا فالاسمان معاً لا يجتمعان حقيقةً، وإذا زال الأول ثبت الثاني.

قوله: «وألّبا الناس عَلَيّ» أي حَرّضا، يقال: حسود مؤلّب.

واستثبتُهما، بالثاء المعجمة بثلاث: طلبت منهما أن يَثُوبا أي يرجعا، وسمّي المنزل مَثابة لأن أهله ينصرفون في أمورهم ثم يثوبون إليه، ويروي: «ولقد اسْتَتَبْتُهما»، أي طلبت منهما أن يتوبا إلى الله من ذنبهما في نقض البيعة.

واستأنيت بهما، من الأناةِ والانتظار.

والوِقاع، بكسر الواو: مصدر واقعتهم في الحرب وِقاعاً، مثل نازلتهم نِزالاً، وقاتلتهم قِتالاً.

وغمَط فلان النعمة، إذا حَقَرها وأزرى بها غمْطاً، ويجوز «غمِط» النّعمة بالكسر والمصدر غيرُ محرّك ويقال: إن الكسر أفصح من الفتح.

يقول عليه السلام: إنكم أقبلتم مزدحمين كما تقبل النُّوق إلى أولادها، تسألونني البيعة فامتنعت عليكم حتى علمت اجتماعكم فبايعتُكم. ثم دعا عليّ على طلحة والزبير بعد أن وصفهما بالقطيعة والنّكث والتأليب عليه، بأن يَحُلَّ الله تعالى ما عقدا، وألاّ يحكِم لهما ما أبرما، وأن يريَهما المساءة فيما أمّلا وعملا.

فأما الوصف لهما بما وصفهما به، فقد صدق عليه السلام فيه، وأمّا دعاؤه فاستجيب له، والمساءة التي دعابها هي مساءة الدنيا لا مساءة الآخرة، فإن الله تعالى قد وعدهما على لسان

رسوله بالجنّة، وإنما استوجباها بالتّوبة التي ينقلها أصحابنا رحمهم الله في كتبهم عنهما، ولولاها لكانا من الهالكين.

١٣٨ - ومن خطبة له عليه السلام يومىء فيها إلى ذكر الملاحم

الأصل: يَعْطِفُ ٱلْهَوَى عَلَى ٱلْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا ٱلْهُدَى عَلَى ٱلْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى ٱلْقُرْآنِ، إِذَا عَطَفُوا ٱلْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ.

الشرح: هذه إشارة إلى إمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان، وهو الموعود به في الأخبار والآثار، ومعنى «يعطف الهوى» يقهره ويثْنِيه عن جانب الإيثار والإرادة، عاملاً عَمَل الهدى، فيجعل الهدى قاهراً له، وظاهراً عليه.

وكذلك قوله: «ويعطف الرأي على القرآن»، أي يقهر حكم الرأي والقياس والعمل بغَلَبة الظنّ عاملاً عمل القرآن.

وقوله: «إذا عطفوا الهدى» و«إذا عطفوا القرآن» إشارة إلى الفِرَق المخالفين لهذا الإمام المشاقّين له، الذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى، ولا يحكمون بالقرآن بل بالرأي.

الأصل: منها: حَتَّى تَقُومَ ٱلْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلاَفُهَا حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا.

أَلاَ وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ ٱلْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِىءِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ ٱلأَرْضُ أَفالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَيُحْيي مَيِّتَ ٱلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الشرح: الساق: الشدّة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾(١).

والنواجذ: أقصى الأضراس، والكلام كناية عن بلوغ الحرب غايتَها، كما أنّ غاية الضحك أن تَبْدُو النواجذ.

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

قوله: «مملوءةً أخلافها»، والأخلاف للناقة حلمات الضرع، واحدها خِلْف.

وكذلك وقوله: «حلوا رضاعها، علقماً عاقبتها» قد أخذه الشاعر، فقال:

الحربُ أوّلَ ما تكون فتيّةً ... تسعى بزينتها لكلّ جهولِ
حتى إذا اشتعلتْ وشبّ ضِرَامُها ... عادتْ عجوزاً غير ذات حليلِ
شَمطاءُ جَزّت رأسَها وتنكّرت ... مكروهةً للشمّ والتقبيلِ

وهو الرَّضاع بالفتح، والماضي رضِع بالكسر، مثل سمِع سماعاً، وأهل نجد يقولون: «رَضَع» بالفتح «يرضِع» بالكسر رَضْعاً، مثل ضرب يضرِب ضرباً، وأنشدوا:

وَذَمُّوا لنا الدّنيا وهم يَرْضِعُونها ... أفاويقَ حتى ما يدرّ لها ثُعْلُ

بكسر الضاد.

فصل في الاعتراض

وقوله: «ألاَ وفي غدٍ» تمامه «يأخذ الوالي» وبين الكلام جملة اعتراضية، وهي قوله: «وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون» والمراد تعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه، ومثل ذلك في القرآن كثير، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجواب المتلقّى به قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، وقد اعترض بينهما قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، واعترض بين هذا الاعتراض قوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنك لو حذفته لبَقِي الكلام على إفادته، وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقسمٌ عَظِيمٌ﴾، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم، وتأكيد إجلاله في النفوس، ولا سيما بقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[2]؛ فقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ اعتراض، والمراد التنزيه. وكذلك قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، فـ «لَقَدْ علِمتم» اعتراض، والمراد به تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة.

وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾[4] فاعترض بين «إذا» وجوابها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، فكأنه أراد أن يجيبَهم عن دعواهم، فجعل الجواب اعتراضاً.

ومن ذلك قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ - ٧٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٠١.

لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[١] فاعترض بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ بين ﴿وَصَّيْنَا﴾ وبين الموصَى به، وفائدة ذلك إذْكارُ الولَد بما كابدتْه أمه من المشقّة في حمله وفصاله.

ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾[٢] فقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، والمراد أن يقرّر في أنفس السامعين أنّه لا ينفع البشرَ كتمانُهم وإخفاؤهم لما يريد الله إظهاره.

ومن الاعتراض في الشعر قول جَرير:

وَلَقَدْ أرانِي - والجديدُ إلى بِلًى - ... في موكِبٍ بيضِ الوجوه كرامِ

فقوله: «والجديد إلى بلًى» اعتِراض، والمراد تعزيته نفسه عمّا مضى من تلك اللذات.

وكذلك قول كُثَيِّر:

لو أنّ الباخِلين - وأنتِ منهم - ... رأوكِ تعلّموا منكِ المِطالا

فقوله: «وأنتِ منهم» اعتراض، وفائدته ألاّ تظن أنها ليست باخلة.

ومن ذلك قول الشاعر:

فلو سألتْ سَرَاةَ الحيِّ سلْمَى ... على أنْ قد تلوّن بي زَماني

لخبّره ذَوُو أحسابِ قومِي ... وأعدائي فكلٌّ قد بَلاني

بِذَبِّيَ الذّم عن حَسَبِي وَمَالِي ... وَزَبُّونات أشْوَسَ تيّحانِ

وإنِّي لاَ أزالُ أخا حُرُوبٍ ... إذَا لم أجْنِ كُنْتُ مَجِنَّ جاني

فقوله:

على أنْ قد تلوّن بي زماني

اعتراض، وفائدته الإخبار عن أنّ السنّ قد أخذت منه وتغيّرت بطول العمر أوصافُه. ومن ذلك قول أبي تمام:

رَدَدْتَ رَوْنقَ وجهي في صحيفتِهِ ... ردّ الصّقالِ بَهاءَ الصّارِمِ الخذِمِ[٣]

وما أبالِي - وَخَيْر القول أصدقُه - ... حقَنتَ لي ماء وجهي أم حقنت دمي

فقوله: «وخَيْر القولِ أصْدَقه» اعتراض، وفائدته إثبات صدقه في دعواه أنه لا يبالي أيّهما حقن.

فأما قول أبي تمام أيضاً:

وإنّ الْغِنَى لي إن لحظتَ مطالبي ... من الشعر - إلا في مديحك - أطوعُ

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٢.
(٣) الخذم: القاطع. القاموس، مادة (خذم).

فإنّ الاعتراض فيه هو قوله: «إلا في مديحك» وليس قوله: «إنْ لحظت مطالبي» اعتراضاً كما زعم ابن الأثير الموصليّ؛ لأنّ فائدة البيت معلّقة عليه؛ لأنه لا يريد أنّ الغني لي على كل حال أطوع من الشِّعْر، وكيف يريد هذا وهو كلام فاسد مختلّ! بل مراده أنّ الغني لي بشرط أن تلحظ مطالبي من الشعر أطوعُ لي، إلاّ في مديحك، فإنّ الشعر في مديحك أطوع لي منه، وإذا كانت الفائدة معلّقة بالشرط المذكور لم يكن اعتراضاً. وكذلك وَهم ابن الأثير أيضاً في قول امرىء القيس:

فـلـو أنّ مـا أسْـعَـى لأدنى مـعـيـشـةٍ   كفاني ولـم أطْـلـبْ قـلـيلٌ من الـمـالِ
ولـكِـنّـمـا أسْـعَـى لـمـجـدٍ مـؤثّـلٍ   وقـد يـدركُ الـمـجدَ الـمـؤثّـلَ أمثالِي

فقال: إن قوله: «ولم أطلبْ» اعتراض، وليس بصحيح؛ لأنّ فائدة البيت مرتبطة به، وتقديره: لو سعيتُ لأن آكلَ وأشرب لكفاني القليل، ولم أطلب المُلْك، فكيف يكون قوله: ولم أطلب الملك اعتراضاً، ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلةً تردُ لتحسين وتكملة، وليست فائدته أصلية!

وقد يأتي الاعتراض ولا فائدة فيه، وهو غير مستحسَن، نحو قول النابغة:

يـقـولُ رجـالٌ يـجـهـلـونَ خـلـيـقَـتِـي   لـعـلّ زيـاداً - لا أبـالـكَ - غـافـلُ

فقوله: «لا أبالك»، اعتراض لا معنى تحته هاهنا، ومثله قول زهير:

سئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يعشْ   ثمانينَ حَوْلاً - لا أبا لكَ - يسأمِ

فإن جاءت «لا أبالك» تعطي معنى يليق بالموضع فهي اعتراض جيد، نحو قول أبي تمام:

عِتَابَكِ عَني - لا أبَالكِ - وَاقْصِدِي

فإنه أراد زجرها وذمّها لما أسرفت في عتابه.

وقد يأتي الاعتراض على غايةٍ من القبح والاستهجان، وهو على سبيل التقديم والتأخير، نحو قول الشاعر:

فَـقَـدْ والـشَّـكُّ بَـيَّـنَ لِـي عَـنَـاءٌ   بِـوَشْـكِ فِـرَاقِـهِـمْ صُـرَدٌ فَـصِـيـحُ(١)

تقديره: فقد بَيّن لي صُرَدٌ يصيح بوشْك فراقهم، والشك عناء، فلأجل قوله: «والشك عناء» بين «قد» والفعل الماضي، وهو «بَيّن» عد اعتراضاً مستهجَناً.

وأمثال هذا للعرب كثير.

قوله عليه السلام: «يأخذ الوالي من غيرها عُمّالها على مساوىء أعمالها» كلام منقطع عما قبله،

(١) الصرد: طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير. القاموس، مادة (صرد).

وقد كان تقدم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمْرَة، فذكر عليه السلام أنّ الواليَ - يعني الإمام الذي يخلقه الله تعالى في آخر الزمان - يأخذ عمال هذه الطائفة على سوء أعمالهم. وعلى هاهنا متعلقة بـ «يأخذ» التي هي بمعنى «يؤاخذ» من قولك: أخذته بذنبه، وآخذنه، والهمز أفصح.

والأفاليذ: جمع أفلاذ، وأفلاذ جمع فِلْذ، وهي القطعة من الكِبد، وهذا كناية عن الكنوز التي تظهر للقائم بالأمر، وقد جاء ذكر ذلك في خبر مرفوع في لفظة: «وقاءت له الأرض أفلاذ كبدها»، وقد فسر قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(١) بذلك في بعض التفاسير.

والمقاليد: المفاتيح.

الأصل: منها: كأنّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّام، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَفَرَشَ ٱلْأَرْضَ بالرُّؤوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ ٱلْجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ.

وَٱللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْكُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ كَالْكُحْلِ فِي العَيْنِ، فَلاَ تَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى ٱلْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلاَمِهَا.

فَالْزَمُوا السُّنَنَ ٱلْقَائِمَةَ، وَالآثَارَ ٱلْبَيِّنَةَ، وَٱلْعَهْدَ ٱلْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ، إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لتتّبعوا عَقِبَهُ.

الشرح: هذا إخبار عن عبد الملك بن مَرْوان وظهوره بالشام ومُلْكه بعد ذلك العراق، وما قتلَ من العرب فيها أيّامَ عبد الرّحمن بن الأشعث، وقتله أيام مصعب بن الزبير.

ونعق الرعي بغنمه، بالعين المهملة، ونَغَق الغراب بالغين المعجمة. وفحص براياته هاهنا: مفعول محذوف تقديره: وفحص الناسع براياته، أي نحّاهم وقلّبهم يميناً وشمالاً.

وكوفان: اسم الكوفة. وضواحيها: ما قرب منها من القرى. والضَّروس: الناقة السيّئة الخلُق تعضّ حالبها، قال بشر بن أبي خازم:

عَطَفْنَا لَهُمْ عَطْفَ الضَّروسِ مِن الملاَ ... بشهْبَاء لا يمشي الضَّرَاءَ رقِيبُها

وقوله: «وفرش الأرض بالرؤوس»: غطّاها بها كما يغطّي المكان بالفراش.

وفغرت فاغرتُه، كأنه يقول: فتح فاه، والكلام استعارة، وفَغَر «فَعَل» يتعدّى ولا يتعدّى.

وثقُلتْ في الأرض وطأته، كناية عن الجوْر والظلْم.

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٢.

بعيد الجولة: استعارة أيضاً، والمعنى أنّ تطواف خيوله وجيوشه في البلاد، أو جَوَلان رجاله في الحرب على الأقران طويل جداً لا يتعقّبه السكون إلا نادراً.

وبعيد منصوب على الحال، وإضافته غير مَحْضة.

وعوازب أحلامها: ما ذهب من عقولها، عزَبَ عنه الرأي، أي بعُد.

ويسنّى لكم طرقَه، أي يسهل. والعقِب، بكسر القاف: مؤخّر القدم، وهي مؤنثة.

فإن قلت: فإنّ قوله: «حتى تؤوب» يدلّ على أن غاية ملكه أن تؤوب إلى العرب عوازب أحلامها، وعبد الملك مات في ملكه ولم يزُل الملك عند بأوْبَةِ أحلام العرب إليها فإنّ فائدة «حتى» إلى، وهي موضوعة للغاية.

قلت: إن مُلك أولاده مُلْكه أيضاً، وما زال الملك عن بني مَرْوان حتى آبت إلى العرب عوازب أحلامها، والعرب هاهنا: بنو العباس ومن اتّبعهم من العرب أيام ظهور الدولة، كقحطبة بن شبيب الطائيّ وابنيه: حُميد والحسن، وكبني رزتني، بتقديم الراء المهملة، الذين منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبيّ، وعِدادهم في خُزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بني العباس. وقد قيل: إن أبا مسلم أيضاً عربيّ أصله، وكلّ هؤلاء وآبائهم كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين في دولة بني أمية، لم ينهض منهم ناهضٍ، ولا وثب إلى الملك واثبٍ، إلى أن أفاء الله تعالى إلى هؤلاء ما كان عَزَب عنهم من إبائهم وحميّتهم، فغاروا للدّين والمسلمين من جَوْر بني مروان وظلمهم، وقاموا بالأمر، وأزالوا تلك الدولة التي كرهها الله تعالى، وأذِنَ في انتقالها.

ثم أمرهم عليه السلام بأن يلزموا بعد زوال تلك الدولة الكتابَ والسنة، والعهد القريب الذي عليه باقي النبوّة - يعني عهده وأيامه عليه السلام. وكأنّه خاف من أن يكون بإخباره لهم بأنّ دولة هذا الجبار ستنقضي إذا آبت إلى العرب عوازب أحلامها، كالأمر لهم باتباع ولاة الدولة الجديدة في كلّ ما تفعله، فاستظهرَ عليهم بهذه الوصية، وقال لهم: إذا ابتذلت الدَولة، فالزموا الكتاب والسنّة، والعهد الذي فارقْتكم عليه.

١٣٩ - ومن كلام له عليه السلام في وقت الشورى

الأصل: لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ، فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي. عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا ٱلأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا ٱلْيَوْمِ، تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ ٱلْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلاَلَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ ٱلْجَهَالَةِ.

الشرح: هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى بعد وفاة عمر.

وقد ذكرنا من حديث الشورى فيما تقدّم ما فيه كفاية، ونحن نذكر ها هنا ما لم نذكره هناك، وهو من رواية عوانة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبيّ في كتاب «الشورى»، و«مقتل عثمان»، وقد رواه أيضاً أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في زيادات كتاب «السقيفة» قال:

لما طُعِن عمرُ جَعَل الأمرَ شورى بين ستّة نفر: عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن مالك، وكان طلحة يومئذٍ بالشام، وقال عمر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وهو عن هؤلاء راضٍ، فهم أحقُّ بهذا الأمر من غيرهم، وأوصى صُهَيب بن سنان، مولى عبد الله بن جُدْعان - ويقال: إنّ أصلَه من حيّ من ربيعة بن نزار، يقال لهم عَنَزة - فأمره أن يصلّيَ بالناس حتى يرضَى هؤلاء القومُ رجلاً منهم، وكان عمر لا يشكّ أنّ هذا الأمر صائر إلى أحد الرّجُلين: عليّ وعثمان، وقال: إنْ قدِم طلحة فهو معهم، وإلاّ فلْتختَرِ الخمسةُ واحداً منها. وروي أن عمر قبل موته أخرج سعد بن مالك من أهل الشورى، وقال: الأمر في هؤلاء الأربعة، ودعُوا سعداً عَلَى حاله أميراً بين يَدَيِ الإمام. ثم قال: ولو كان أبو عبيدة بن الجرّاح حَيًّا لما تخالجتْني فيك الشكوك، فإن اجتمع ثلاثة على واحد فكونوا مع الثلاثة، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الذي فيه عبد الرحمن.

وقال لأبي طلحة الأنصاريّ: يا أبا طلحة، فوالله لطالما أعزّ الله بكم الدين، ونصر بكم الإسلام، اختر من المسلمين خمسين رجلاً، فائت بهم هؤلاء القوم في كلّ يوم مَرّة، فاستحِثُّوهم حتى يختاروا لأنفسهم وللأمّة رجلاً منهم.

ثم جمع قوماً من المهاجرين والأنصار - فأعلمهم ما أوصَى به، وكتب في وصيّته أن يولّيَ الإمام سعدَ بن مالك الكوفة، وأبا موسى الأشعريّ؛ لأنه كان عزل سعداً عن سَخْطَةٍ فأحبّ أن يطلب ذلك إلى مَنْ يقوم بالأمر من بعده استرضاء لسعد.

قال الشعبي: فحدثني من لا أتّهمه من الأنصار - وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ: هو سهل بن سعد الأنصاري - قال: مشيت وراء عليّ بن أبي طالب حيثُ انصرف من عند عمر، والعباس بن عبد المطلب يمشي في جانبه، فسمعتُه يقول للعباس: ذهبتْ منّا والله! فقال: كيف علمت؟ قال: ألا تسمعه يقول: كونوا في الجانب الذي فيه عبد الرحمن؛ لأنّه ابنُ عمّه، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره، فإذاً اجتمع هؤلاء! فلو أن الرجلين الباقيْين كانا معي لم يغنيا عنّي شيئاً، مع أنّي لست أرجو إلا أحدهما، ومع ذلك فقد أحبّ عمر أن يعلمنا أنّ لعبد الرحمن عنده فضلاً علينا. لعمرُ الله ما جعل الله ذلك لهم علينا، كما لم يجعله لأولادهم على أولادنا. أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرنّه ما أتى إلينا قديماً، ولأعلمته سوء رأيه فينا، وما أتى إلينا

حديثاً، ولئن ماتَ - وليموتَنّ - ليجتمعنّ هؤلاء القوم على أن يصرِفوا هذا الأمر عنّا، ولئن فعلوها - وليفعلُنّ - ليرونني حيث يكرهون، والله ما بي رغبة في السلطان، ولا حبّ الدنيا، ولكن لإظهار العدل، والقيام بالكتاب والسنّة.

قال: ثمّ التفتَ فرآني وراءه، فعرفت أنه قد ساءه ذلك، فقلت: لا تُرَعْ أبا حسن! لا والله لا يستمع أحدٌ الذي سمعتُ منك في الدنيا ما اصطحبنا فيها، فوالله ما سمعه منّي مخلوق حتى قبض الله عليًا إلى رحمته.

قال عوانة: فحدثنا إسماعيل، قال: حدّثني الشعبيّ، قال: فلما مات عمر، وأدرِج في أكفانه، ثم وضِع ليصلّى عليه، تقدّم عليّ بن أبي طالب، فقام عند رأسه، وتقدّم عثمان فقام عند رجليه، فقال عليّ عليه السلام: هكذا ينبغي أن تكون الصلاة، فقال عثمان: بل هكذا، فقال عبد الرحمن: ما أسرع ما اختلفتم! يا صُهَيْب، صلّ عَلَى عمر كما رضِيَ أن تصلّيَ بهم المكتوبة، فتقدّم صُهيب فصلّى عَلَى عمر.

قال الشعبيّ: وأُدخِل أهل الشورى داراً، فأقبلوا يتجادلون عليها، وكلّهم بها ضنين، وعليها حريص، إمّا لدنيا وإمّا لآخرة، فلما طال ذلك قال عبد الرحمن: مَنْ رجلٌ منكم يخرِجُ نفسَه عن هذا الأمر، ويختار لهذه الأمّة رجلاً منكم، فإنّي طيّبةٌ نفسِي أن أخرُج منها، وأختار لكم؟ قالوا: قد رضينا، إلاّ عليّ بن أبي طالب فإنّه اتهمَه وقال: أنظر وَأَرَى. فأقبل أبو طلحة عليه، وقال: يا أبا الحسن، ارْضَ برأي عبد الرحمن، كانَ الأمر لك أو لغيرِك، فقال عليّ: أعطِني يا عبدَ الرحمن موثِقاً من الله لتؤثرنّ الحقّ، ولا تتّبع الهوى، ولا تمِلْ إلى صِهْرٍ ولا ذي قَرابة، ولا تعملْ إلا لله، ولا تألُو هذه الأمة أن تختارَ لها خيرَها.

قال: فحلفَ له عبد الرحمن بالله الّذي لا إله إلا هو، لأجتهدنّ لنفسِي ولكم وللأمّة، ولا أميلُ إلى هوًى ولا إلى صهر ولا ذِي قرابة.

قال: فخرج عبدُ الرحمن، فمكث ثلاثة أيام يشاوِر الناس، ثم رجع واجتمع الناس، وكثروا عَلَى الباب لا يشكّون أن يبايع عليّ بن أبي طالب، وكان هَوَى قريش كافّة ما عدا بني هاشم في عثمان، وهَوَى طائفة من الأنصار مع عليّ وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقلّ الطائفتين، وطائفة لا يبالُون: أيّهما بُويع.

قال: فأقبل المقداد بن عمرو، والناس مجتمعون، فقال: أيّها الناسُ، اسمعوا ما أقول، أنا المقداد بن عمرو، إنّكم إن بايعتم علياً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا، فقام عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ، فنادى: أيّها الناس، إنّكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عليًا سمعنا وعصينا. فقال له المقداد: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ

كَتابه، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون! فقال له عبد الله: يابنَ الحليف العسيف[1]، ومتى كان مثلك يجترىء على الدخول في أمرِ قريش!

فقال عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح: أيّها الملأ، إن أردتم ألاّ تختلف قريش فيما بينها، فبايعوا عثمان، فقال عمّار بن ياسر: إن أردتم ألاّ يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً، ثم أقبل عَلَى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فقال: يا فاسق يابن الفاسق، أأنتِ ممّن يستنصِحه المسلمون، أو يستشيرونه في أمورهم! وارتفعت الأصوات ونادى منادٍ لا يُدْرَى مَنْ هو! فقريش تزعم أنه رجل من بني مخزوم والأنصار تزعم أنه رجل طوال آدم[2] مشرف على الناس - لا يعرفه أحد منهم: يا عبد الرحمن، فرِّغ من أمرك، وامضِ عَلَى ما في نفسك فإنه الصواب.

قال الشعبيّ: فأقبل عبد الرحمن عَلَى عليّ بن أبي طالب، فقال: عليك عهد الله وميثاقه، وأشدّ ما أخذ الله على النبيّين من عهد وميثاق: إن بايعتك لتعمَلَنّ بكتاب الله وسنّة رسوله، وسيرة أبي بكر وعمر! فقال عليّ عليه السلام: طاقتي ومبلغ علمي وجهد رأيي، والناس يسمعون.

فأقبل عَلَى عثمان، فقال له مثل ذلك، فقال: نعم لا أزولُ عنه ولا أدعُ شيئاً منه.

ثم أقبل عَلَى عليّ فقال له ذلك ثلاث مرات، ولعثمان ثلاث مرات، في كلّ ذلك يجيب عليّ مثل ما كان أجاب به، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به.

فقال: ابسُط يدك يا عثمان، فبسط يده فبايعه، وقام القوم فخرجوا، وقد بايعوا إلاّ عليّ بن أبي طالب، فإنّه لم يبايع.

قال: فخرج عثمان عَلَى النّاس ووجهه متهلّل، وخرج عليّ وهو كاسف البال مظلِم، وهو يقول: يابنَ عوف، ليس هذا بأوّل يومٍ تظاهر تمْ علينا، مِن دفْعِنا عن حقّنا والاستئثار علينا! وإنها لسنّة علينا، وطريقة تركتموها.

فقال المغيرة بن شعبة لعثمان: أما والله لو بُويع غيرك لما بايعناه، فقال عبد الرحمن بن عوف: كذبتَ، والله لو بويع غيره لبايعتَه، وما أنت وذاك يابن الدبّاغة! والله لو وليَها غيره لقلتَ مثَل ما قلت الآن، تقرّباً إليه وطمعاً في الدنيا، فاذهب لا أبا لك!.

فقال المغيرة: لولا مكانُ أمير المؤمنين لأسمعتُك ما تكره. ومضيا.

قال الشعبيّ، فلما دخل عثمان رَحْله دخل إليه بنو أميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حَرْب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، قال: يا بني أميّة،

(١) العسيف: الأجير، والعبد المستهان به. القاموس، مادة (عسف).
(٢) الآدم من الناس: الأسمر. اللسان مادة (آدم).

تلقّفوها تلّقف الكرة، فوالّذي يحلِف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب، ولا جنّة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة!

قال: فانتهره عثمان، وساءه بما قال، وأمر بإخراجه.

قال الشعبي: فدخل عبدُ الرحمن بن عوف على عُثْمان، فقال له: ما صنعت! فوالله ما وفّقت حيث تدخل رحلك قبل أنْ تصعد المنبر، فتحمَد الله وتثني عليه، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعِدُ النّاس خيراً.

قال: فخرج عثمان، فصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: هذا مقام لم نكن نقومه، ولم نعدّ له من الكلام الذي يقام به في مثله، وسأهيىء ذلك إن شاء الله، ولن آلو أمّةَ محمد خيراً، والله المستعان.

ثم نزل.

قال عوانة: فحدّثني يزيد بن جرير، عن الشعبيّ، عن شقيق بن مسلمة، أنّ عليّ بنَ أبي طالب، لما انصرف إلى رحْله، قال لبني أبيه: يا بني عبد المطّلب، إنّ قومَكم عادوْكم بعد وفاة النبيّ كعداوتهم النبيّ في حياته، وإن يطِعْ قومُكم لا تؤمَّروا أبداً، ووالله لا ينيب هؤلاء إلى الحقّ إلا بالسيف.

قال: وعبد الله بن عمر بن الخطاب، داخلٌ إليهم، قد سمع الكلام كلَّه فدخل، وقال: يا أبا الحسن، أتريد أنت أتضرب بعضهم ببعض! فقال: اسكت ويحك! فوالله لولا أبوك وما ركب منّي قديماً وحديثاً، ما نازعني ابنُ عفّان ولا ابنُ عوف. فقام عبد الله فخرج.

قال: وأكثَر النّاس في أمرِ الهُرْمزان وعبيد الله بن عمر، وقتله إياه، وبلَغ ما قال فيه عليّ بن أبي طالب. فقام عثمان فصعد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيّها الناس، إنّه كان من قضاء الله أنّ عُبيد الله بن عمر بن الخطاب أصاب الهرمزان، وهو رجل من المسلمين، وليس له وارثٌ إلا الله والمسلمون، وأنا إمامكم وقد عفوْت، أفتعفُون عن عبيد الله ابن خليفتكم بالأمس؟ قالوا: نعم، فعفا عنه، فلما بلغ ذلك عليًّا تضاحك، وقال: سبحان الله! لقد بدأ بها عثمان! أيعفُو عن حقّ امرىء ليس بواليه! تالله إنّ هذا لهو العجَب! قالوا: فكان ذلك أوّل ما بدا من عثمان مما نقِم عليه.

قال الشعبيّ: وخرج المِقْداد من الغدِ، فلقِيَ عبد الرحمن بن عوف، فأخذ بيده، وقال: إن كنت أردت بما صنعت وجهَ الله، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة، وإن كنت إنّما أردت الدنيا فأكثر الله مالك. فقال عبد الرحمن: اسمعْ، رحمك الله، اسمع! قال: لا أسمع والله، وجذب

يده من يده، ومضى حتى دخل على عليّ عليه السلام، فقال: قم فقاتل حتى نقاتلَ معك، قال عليّ: فبمن أقاتل رحمك الله! وأقبلَ عَمّار بن ياسر ينادي:

يـا نـاعـيَ الإسـلام قـم فـانْـعَـهُ قـد مـات عـرفٌ وبـدا نُـكْـرُ

أما والله لو أن لي أعواناً لقاتلتُهم، والله لئن قاتلهم واحد لأكوننّ له ثانياً. فقال عليّ: يا أبا اليقظان، والله لا أجِدُ عليهم أعواناً، ولا أحبّ أن أعرِّضكم لما لا تطيقون. وبقي عليه السلام في داره، وعنده نفر من أهل بيته، وليس يدخل إليه أحد مخافة عثمان.

قال الشعبيّ: واجتمع أهلُ الشورى عَلى أن تكونَ كلمتُهم واحدة على مَنْ لم يبايع، فقاموا إلى عليّ، فقالوا: قم فبايع عثمان، قال: فإنْ لم أفعل، قالوا: نجاهدُك، قال: فمشى إلى عثمان حتى بايعه، وَهو يقول: صدق الله ورسوله. فلما بايع أتاه عبدُ الرحمن بن عوف، فاعتذَر إليه، وقال: إن عثمان أعطانا يده ويمينه، ولم تفعل أنت، فأحببتُ أن أتوثّق للمسلمين، فجعلتُها فيه، فقال: إيهاً عِنك! إنّما آثرتَه بها لتنالها بعده، دقّ الله بينكما عطرَ مَنْشِم.

قال الشعبيّ: وقدم طلحة من الشام بعد ما بويع عثمان، فقيل له: رد هذا الأمر حتى ترى فيه رأيك، فقال: والله لو بايعتم شرّكم لرضيتُ، فكيف وقد بايعتم خيرَكم! قال: ثم عَدَا عليه بعد ذلك وصاحبه حتى قتلاه، ثم زعما أنهما يطلبان بدمه.

قال الشعبيّ: فأمّا ما يذكُره الناس من المناشدة، وقول عليّ عليه السلام لأهل الشورى: أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله كذا، فإنه لم يكن يوم البيعة، وإنما كان بعد ذلك بقليل، دخل عليٌّ عليه السلام عَلَى عثمان وعنده جماعة من الناس، منهم أهلُ الشورى، وقد كان بلغه عنهمَ هناتٌ وقوارصُ، فقال لهم: أفيكم أفيكم! كلّ ذلك يقولون لا، قال: لكنّي أخبركم عن أنفسكم، أمّا أنت يا عثمان ففررتَ يوم حُنَين، وتولّيت يوم التقى الجمعان، وأمّا أنت يا طلحة فقلت: إنْ مات محمد لنركضنّ بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا، وأمّا أنتَ يا عبد الرحمن، فصاحب قراريط، وأما أنت يا سعد فتدقّ عن أن تذكر.

قال: ثم خرج فقال عثمان: أما كان فيكم أحدٌ يردّ عليه! قالوا، وما منعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين! وتفرّقوا.

قال عوانة: قال إسماعيل: قال الشعبيّ: فحدثني عبد الرحمن بن جندَب، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزديّ، قال: كنت جالساً بالمدينة حيث بويع عثمان، فجئت فجلست إلى المقداد بن عمرو، فسمعته يقول: والله ما رأيت مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت! وكان عبد الرحمن بن عوف جالساً، فقال: وما أنت وذاك يا مقداد! قال المقداد: إنّي والله أحبّهم لحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإني لأعجب من قريش وتطاوُلهم على النّاس بفضل رسول الله، ثمّ انتزاعهم

سلطانه من أهله. قال عبد الرحمن: أمّا والله لقد أجهدتُ نفسي لكم. قال المقداد: أما والله لقد تركتَ رجلاً من الذين يأمُرون بالحق وبه يعدلون! أما والله لو أنّ لي على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالي إياهم ببدر وأحُد. فقال عبد الرحمن: ثكلتك أمّك، لا يسمعنّ هذا الكلامَ الناس، فإني أخاف أن تكون صاحب فتنة وفُرقة.

قال المقداد: إنّ مَنْ دعا إلى الحقّ وأهله وولاة الأمر لا يكون صاحب فتنة، ولكنْ مَنْ أقحم الناس في الباطل، وآثر لهوى على الحق، فذلك صاحب الفتنة والفُرْقة.

قال: فتربّد وجهُ عبد الرحمن، ثم قال: لو أعلم أنك إيايَ تعني لكان لي ولك شأن.

قال المقداد: إياي تهدّد يا بنَ أمّ عبد الرحمن! ثم قام عن عبد الرحمن، فانصرف.

قال جندب بن عبد الله: فاتّبعتُه، وقلت له: يا عبد الله، أنا مِنْ أعوانِك، فقال: رحمك الله! إنّ هذا الأمر لا يغني فيه الرجلان ولا الثلاثة، قال: فدخلت من فوري ذلك عَلَى عليّ عليه السلام، فلما جلست إليه، قلت: يا أبا الحسن، والله ما أصاب قومُك بصرف هذا الأمر عنك، فقال: صَبْرٌ جميل والله المستعان.

فقلت: والله إنك لصبور! قال: فإنْ لم أصبِرْ فماذا أصنع؟ قلت: إني جلست إلى المقداد بن عمرو آنفاً وعبد الرحمن بن عوف، فقالا كذا وكذا، ثم قام المقداد فاتّبعته، فقلت له كذا، فقال لي كذا. فقال عليّ عليه السلام: لقد صدَق المقداد، فما أصنع؟ فقلت: تقومُ في الناس فتدعوهم إلى نفسك، وتخبرهم أنّك أولى بالنبيّ صلى الله عليه وآله، وتسألهم النّصر على هؤلاء المظاهرين عليك، فإن أجابك عشرة من مائة شَدَدْتَ بهم على الباقين، فإن دانوا لك فذاك، وإلاّ قاتلتَهم وكنت أوْلَى بالعذر، قُتِلتَ أو بقيت، وكنت أعْلَى عند الله حجّة.

فقال: أترجو يا جندب أن يبايعَني من كلّ عشرة واحد؟ قلت أرجو ذلك، قال: لكني لا أرجو ذلك، لا والله ولا من المائة واحدة وسأخبرك، إنّ الناس إنما ينظرون إلى قريش فيقولون: هم قوم محمد وقبيلُه. وأما قريش بينها فتقول: إنّ آل محمد يروْن لهم على الناس بنبوّته فضلاً، ويروْن أنهم أولياءُ هذا الأمر دون قريش، ودون غيرهم من الناس، وهم إن وَلُوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولتْه قريش بينها، لا والله لا يدفعُ الناسُ إلينا هذا الأمر طائعين أبداً!

فقلت: جعلت فداك يابن عمّ رسول الله! لقد صدعْتَ قلبي بهذا القول، أفلا أرْجع إلى المصر، فأوذِنُ الناس بمقالتك، وأدعو النّاس إليك؟ فقال: يا جندب ليس هذا زمان ذاك.

قال: فانصرفتُ إلى العراق، فكنت أذكر فضل عليّ على الناس فلا أعدم رجلاً يقول لي ما أكره، وأحسن ما أسمعه قول مَنْ يقول: دع عنك هذا وخذ فيما ينفعك، فأقول: إنّ هذا مما ينفعني وينفعك، ف... ويدَعني.

وزاد أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري: حتى رُفِع ذلك من قولي إلى الوليد بن عُقْبة، أيام ولينا فبعث إلي فحبسني حتى كُلِّم فيّ، فخلّى سبيلي.

وروى الجوهريّ، قال: نادى عمّار بن ياسر ذلك اليوم: يا معشرَ المسلمين، إنا قد كُنّا وما كنّا نستطيع الكلام، قلّة وذلّة، فأعزّنا الله بدينه، وأكرمنا برسوله، فالحمد لله رب العالمين. يا معشرَ قريش، إلى مَتَى تصرفون هذا الأمْرَ عن أهل بيت نبيكم! تحوّلونه هاهنا مرّة، وهاهنا مرّة! ما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله!

فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة: يابن سميّة، لقد عَدَوْتَ طوْرك وما عرفتَ قدرك، ما أنت وما رأت قريش لأنفسها! إنك لستَ في شيء من أمرها وإماراتها، فتنحّ عنها.

وتكلّمت قريش بأجمعها، فصاحوا بعمار وانتهروه، فقال: الحمد لله رب العالمين، ما زال أعوانُ الحقّ أذلاء! ثم قام فانصرف[1].

١٤٠ - ومن كلام له عليه السلام في النهي عن غيبة الناس

الأصل: وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ ٱلْعِصْمَةِ وَالمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ ٱلذُّنُوبِ وَالمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ ٱلغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ الله عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُو أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ ٱلَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى ٱلله فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

وَايْمُ ٱلله لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجُرْأَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ.

يَا عَبْدَ ٱلله، لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ٱبْتُلِيَ غَيْرُهُ بِهِ.

الشرح: ليس في هذا الفصل من غريب اللغة ما نشرح.

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٩٢، وأخرجه محمد طاهر القمي في كتاب الأربعين: ٢١٩.

في ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين

ونحن نذكر مما وردَ في الغيبة لُمَعاً نافعة عَلَى عادتنا في ذكْر الشيء عند مرورنا على ما يقتضيه ويستدعيه.

وقد ورد في الكتاب العزيز ذمّ الغيبة. قال سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تحاسَدُوا ولا تباغضوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً»(٢).

وروى جابر وأبو سعيد عنه ﷺ: «إيّاكم والغيبة، فإن الغيبة أشدّ من الزّنى، إنّ الرجلَ يزني فيتوبُ الله عليه، وإنّ صاحبَ الغيبة لا يُغْفَرُ له حتى يغفر له صاحبه»(٣).

وروى أنس عنه ﷺ: «مررت ليلةَ أُسرِيَ بي، فرأيت قوماً يخمِشون وجوهَهم بأظافيرهم، فسألت جبريل عنهم، فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس»(٤).

وفي حديث سَلْمان، قلت: يا رسول الله، علّمْنِي خيراً ينفَعني الله به، قال: «لا تحقِرَنّ من المعروف شيئاً، ولو أرفضت من دلوك في إناء المستقي، والْقَ أخاك ببِشْرٍ حَسَن، ولا تغتابَنّه إذا أدبر»(٥).

وفي حديث البَرَاء بن عازب: خَطَبنا رسول الله ﷺ حتى أسمعَ العواتِقَ في بيوتهنّ، فقال: «ألا لا تغتابُوا المسلمين، ولا تتّبعوا عوراتهم، فإنّه مَنْ يتتبّع عورَة أخيه تتبَّع الله عورته، ومَنْ يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»(٦).

وفي حديث أنَس أنّ رسول الله ﷺ قال في يوم صوم: «إنّ فلانة وفلانة كانتا تَأكلان اليوم شحْمَ امرأةٍ مسلمة - يعني الغيبة - فمرْهما فليتّقيا، فقاءت كلّ واحدة منهما عَلَقة دم»(٧).

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما ينهى من التدابر والتحاسد (٦٠٦٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها (٢٥٦٢)، بدون قوله: «ولا يغتب بعضكم بعضاً».

(٣) أخرجه هناد في «الزهد» (١١٧٨)، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٩١٩)، ونسبه لأبي الشيخ في التوبيخ، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (٨٠٢٦)، وكذلك نسبه لأبي الشيخ.

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب: في الغيبة (٤٨٧٨)، وأحمد في «مسنده» (١٢٩٢٧).

(٥) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٢٢)، وأحمد في «مسنده» (١٥٥٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٣٨٥).

(٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: الغيبة (٤٨٨٠)، وأحمد في «مسنده» (١٩٢٧٧).

(٧) أخرج بنحو البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٢٢)، والطيالسي في «مسنده» (٢١٠٧).

وفي الصّحاح المجَمع عليها أنّه ﷺ مرَّ بقبرين جديديْن، فقال: «**إنّهما ليعذّبان وما يعذّبان بكبير، أمّا أحدُهما، فكان يغتاب الناس، وأمّا الآخر فكان لا يتنزّه من البوْل**»، ودعا بجريدة رطْبة فكسرها اثنتين - أو قال: دعا بجريدتين - ثم غرسهما في القبرين - وقال: «**أما إنه سيهُون من عذابهما ما دامَتَا رطبتيْن**»[1].

وفي حديث ابن عباس أنّ رجلين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلاً، وهو يمشي ﷺ، وهما يمشيان معه، فمرّ على جيفةٍ، فقال: «**انهشا منها**»، فقالا: يا رسول الله، أو ننهش الجيفة! فقال: «**ما أصبتُما من أخيكما أنتنُ من هذه**»[2].

وفي حديث أبي هريرة: «مَنْ أكل لحمَ أخيه حيًّا قُرّب إليه لحمه في الآخرة، فقيل له: كلْه ميتاً كما أكلتَه حيًّا، فيأكله ويضجّ ويكلح»[3].

ورُوي أن رَجُلين كانا عند باب المسجد، فمرّ بهما رجل كان مخنّثاً، فترك ذلك، فقالا: لقد بقيَ عنده منه شيء، فأقيمت الصلاة، فصّليا مع الناس، وذلك يجول في أنفسهما فأتيا عطاء بن أبي رباح، فسألاه، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، وإن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك اليوم.

وعن مجاهد: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[4]، الهُمَزَة: الطعّان في الناس، واللُّمْزة: النَّمّام.

وعن الحسن: والله لَلْغيبة أسرعُ في دين المؤمن من الأكلة في الجسد.

بعضهم: أدركنا السَّلف وهم لا يروْن العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكفّ عن أعراض الناس.

ابن عباس: إذا أردْتَ أن تذكُرَ عيوب صاحبك، فاذكُر عيوبك. وهذا مشتقّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أبو هريرة: يبصر أحدُهما القَذَى في عين أخيه، ولا يبصِرُ الجذْع في عين نفسه! وهذا كالأول.

الحسن: يابن آدم، إنّك إن قضيتَ حقيقة الإيمان فلا تَعِب النّاس بعيب هو فيك حتى تبدأ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول (٢١٨)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: الدليل أن نجاسة البول (٢٩٢).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: ٤/ ٢٧٨ رقم ٧١٦٧.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٦٥٦)، وذكره في كنز العمال (٨٠٤٥)، وعزاه للخرائطي في مساوىء الأخلاق.

(٤) سورة الهمزة، الآية: ١.

بإصلاح ذلك العيب من نفسك، فإذا فعلتَ ذلك كان شغلك في خاصة نفسك. وأحبّ العباد إلى الله مَنْ كان هكذا.

ويروى أنّ المسيح عليه السلام مَرّ على جيفة كلْب، فقال بعضُ التلامذة: ما أشدّ نتنه! فقال المسيح: ما أشد بياض أسنانه! كأنه نهاهم عن غيبة الكلب ونبّههم إلى أنه لا ينبغي أن يُذكر من كلّ شيء إلا أحسنُه.

وسمع عليّ بن الحسين عليه السلام رجلاً يغتاب آخر، فقال: إنّ لكلّ شيء إداماً، وإدام كلاب الناس الغِيبة.

وفي خطبة حجّة الوداع: «أيها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضَكم عليكم حرام كحُرْمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. إنّ الله حَرّم الغِيبة كما حَرّم المال والدم»[1].

عمر: ما يمنعكم إذا رأيتم مَنْ يخرِق أعراض الناس أن تعرّبوا عليه، أيْ تقبّحُوا قالوا: نخاف سفهه وشرّه، قال: ذلك أدنى ألاّ تكونوا شهداء.

أنس يرفعه: «مَنْ مات على الغيبة حُشِر يوم القيامة مزرّقة عيناه، ينادي بالويل والندامة، يعرف أهله ولا يعرفونه».

وقال هشام بن عبد الملك في بعض ولد الوليد بن عُقْبة:

أبـلـغْ أبـا وهـبٍ إذا مـا لـقـيـتَـهُ بأنـكَ شَـرّ الـنـاسِ غَـيْـبـاً لـصـاحـبِ
فـتـبـدي لـه بـشـراً إذا مـا لـقـيـتَـه وتـلـسـعـه بـالـغـيْـب لَسْـعَ الـعـقـاربِ

مَرّ الشعبيّ بقومٍ يغتابونه في المسجد، وفيهم بعض أصدقائه، فأخذ بُعضادَتِي الباب، وقال:

هـنـيـئـاً مـريـئـاً غـيـر داءٍ مُـخَـامـرٍ لـعَـزَّةَ مِـنْ أعـراضِـنـا مـا اسـتـحـلّـتِ

ومن كلام بعض الحكماء: أبصر الناس بالعَوار المِعوار، هذا مثل قول الشاعر:

وأجْـرَأُ مَـن رأيـتُ بـظـهـرِ غـيـبٍ عَـلَـى عـيـبِ الـرجـال ذَوُو الـعـيـوب

قيل لشبيب بن شَبّة بن عقال: ما بال عبد الله بن الأهتم يغتابك وينتقصِك! قال: لأنه شقيقي في النّسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصنعة.

دخل أبو العيناء على المتوكّل، وعنده جلساؤه، فقال له: يا محمّد كلّهم كانوا في غيبتك منذ اليوم، ولم يبق أحد لم يذمُمك غيري، فقال:

---

(١) أخرجه بدون الشطر الأخير: البخاري، كتاب العلم، باب: قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع» (٦٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب: حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

إذا رضيتْ عَنّي كَرامُ عشيرتِي فلا زالَ غَضْبَاناً عَليّ لِئامُها

قال بعضهم: بتّ بالبصرة ليلةً مع المسجديّين، فلما كان وقت السَّحَر، حرّكهم واحد، فقال: إلى كمْ هذا النوم عن أعراض الناس!

وقيل لشاعر وصله بعضُ الرؤساء، وأنعم عليه: ما صنع بك فلان؟ قال: ما وفَتْ نعمتُه بإساءته، منعني لذة الثَّلْب وحلاوة الشكوى.

أعرابيّ: مَنْ عاب سَفِلَة فقد رفعه، ومن عاب شريفاً فقد وضع نفسه.

نظر بعضُ السَّلف إلى رجل يغتاب رجلاً، وقال: يا هذا، إنك تملي على حافظيكَ كتاباً، فانظر ماذا تقول!

ابن عباس: ما الأسد الضارِي على فريسة بأسرعَ من الدنيء في عِرْض السّرِيّ. بعضهم:

ومطروفة عيناه عن عَيْب نفسه فإنْ لاح عيبٌ من أخيه تبصّرا

وقالت رابعة العَدويّة: إذا نصح الإنسان لله أطلعه تعالى على مساوىء عمله، فتشاغل بها عن ذكر مساوىء خلقه.

قال عبد الله بن عُروة بن الزبير لابنه: يا بنيّ، عليك بالدّين، فإنّ الدنْيا ما بنتْ شيئاً إلا هدَمه الدين، وإذا بَنَى الدّين شيئاً لم تستطع الدنيا هدمَه، ألا ترى عليّ بن أبي طالب وما يقول فيه خطباء بني أمية من ذَمّهِ وعيبه وغيبته! والله لكأنما يأخذون بناصيته إلى السماء! ألا تراهم كيف ينْدُبون موتاهم، ويرثيهم شعراؤهم، والله لكأنما يندبون جِيفَ الحُمُر!

ومن كلام بعض الصالحين: الورع في المنطق أشدّ منه في الذهب والفضة؛ لأنّك إذا استودعك أخوك مالاً لم تجُد بك نفسُك لخيانته فيه، وقد استودعك عِرْضه وأنت تغتابه، ولا تبالي. كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه، كلما اغتاب أحداً أن يتصدّق بدينار، وكان إذا مدح أحداً قال: هو كما يشاء الله، وإذا ذمّه قال: هو كما يعلم الله.

الأحنف: فيّ خَلّتان: لا أغتاب جليسي إذا قام عَنّي، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلوني فيه.

قيل لرجل من العرب: مَن السيّد فيكم؟ قال: الذي إذا أقبل هِبْناه، وإذا أدبر اغتبْناه.

قيل للربيع بن خُثَيْم: ما نراك تعيب أحداً! فقال: لست راضياً على نفسي، فأتفرّغ لذكر عيوب الناس! ثم قال:

لنفسيَ أبكِي لستُ أبكِي لغيرها لنفسيَ في نفسِي عن النّاس شاغل

عبد الله المبارك: قلت لسفيان: ما أبعد أبا حنيفة من الغِيبة! ما سمعته يغتاب عدوًا، قال: هو والله أعقل من أن يسلّط على حسناته ما يذهبُ بها.

سئل فُضَيل عن غِيبة الفاسق، فقال: لا تشتغِلْ بذكره، ولا تعوّد لسانك الغِيبة، اشغَل لسانك بذكر الله، وإياك ذكر الناس، فإنّ ذكر الناس داء، وذكر الله دواء.

بعض الشعراء:

ولستُ بذي نيربٍ في الصديقِ ... خؤونَ العشيرة سبّابَها
ولا مَنْ إذا كان في مجلس ... أضاع القبيلَة واغتابَها
ولكن أبجّلُ ساداتِها ... ولا أتعلّم ألقابها

وكان يقال: الغيبة فاكهة القرّاء.

وقيل لإسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة: أي اللّحمان أطيب؟ قال: لحوم الناس، هي والله أطيَب من لحوم الدجاج والدّراج - يعني الغيبة.

ابن المغيرة: لا تذكر الميّت بسوء، فتكون الأرض أكتَم عليه منك.

وكان عبد الملك بن صالح الهاشميّ إذا ذُكِر عنده الميّت بسوء، يقول: كُفّوا عن أسارى الثّرى.

وفي الأثر: سامعُ الغِيبة أحد المغتابيْن.

أبو نواس:

ما حطّك الواشونَ من رُتْبَةٍ ... عندي وما ضرّك مغتابُ
كأنهم أثنوْا ولم يعلَمُوا ... عليك عندِي بالّذي عابوا

الحسن: ذمُّ الرجل في السرّ، مدحٌ له في العلانية.

عليّ عليه السلام: الغِيبة جَهْد العاجز، أخذه المتنبي فقال:

وأكِبر نفسي عن جزاءٍ بغيبةٍ ... وكلّ اغتيابٍ جُهْدُ مَنْ ماله جُهْدُ

بلغ الحسن أنّ رجلاً اغتابه، فأهدى إليه طبقاً من رُطَب، فجاءه الرجل معتذراً، وقال: أصلحك الله! اغتبتُك فأهديت لي! قال: إنّك أهديت إليّ حسناتِك، فأردت أن أكافئك.

أتى رجلٌ عمرو بن عبيد الله، فقال له: إن الأسواريّ لم يزلْ أمس يذكُرك ويقول: عمرو الضّال، فقال له: يا هذا، والله ما رعيتَ حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا رعيت حقّي حين بلّغتَ عن أخي ما أكرهه. أعلِمْه أنّ الموت يعمّنا، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

واعلم أنّ العلماء ذكروا في حدّ الغِيبة: أنْ تذكُرَ أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصاناً في بدنه، مثل أن تقول: الأقرع، أو الأعور، أو في نَسبه نحو أن تقول: ابن النبَطيّ وابن

الإسكاف أو الزّبال أو الحائك أو خُلُقه، نحو سيء الخلُق أو بخيل أو متكبّر، أو في أفعاله الدنيئة نحو قولك: كذّاب وظالم ومتهاون بالصلاة، أو الدنيوية نحو قولك: قليل الأدب متهاون بالنّاس، كثير الكلام، كثير الأكل، أو في ثوبه كقولك: وسِخ الثياب، كبير العمامة، طويل الأذيال.

وقد قال قوم: لا غِيبةَ في أمور الدين؛ لأنّ المغتاب إنما ذمّ ذمّهُ الله تعالى، واحتجّوا بما روي أنه ذِكر لرسول الله ﷺ امرأةٌ وكثرة صومها وصلاتها، ولكنها تؤذي جارتَها، فقال: «هي في النار»[١]، ولم ينكِر عليهم غيبتَهم إياها.

ورُوِي أنّ امرأةً ذكِرت عنده عليه السلام بأنها بخيلة، فقال: «فما خيرها إذن»! وأكثر العلماء على أنّ الغيبة في أمور الدين محرَّمة أيضاً، وادّعوا الإجماع على أنّ من ذَكَر غيره بما يكرهه فهو مغتاب، سواء أكان في الدّين أو في غيره. قالوا: والمخالف مسبوق بهذا الإجماع، وقالوا: وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «هل تدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكرهه»، فقائل قال: أرأيت يا رسول الله، إن كان ذلك في أخِي؟ قال: «إن كان فيه فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فقد بهتّه»[٢].

قالوا: وَرَوى مُعاذ بن جبل أنّ رجلاً ذُكِر عند رسول الله ﷺ، فقال قوم: ما أعجزَه! فقال ﷺ: «اغتبتم صاحبَكم»، فقالوا: قلنا ما فيه، فقال: «إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه»[٣].

قالوا: وما احتجّ به الزاعمون أن لا غيبة في الدّين، ليس بحجّة؛ لأن الصحابة إنما ذكرتْ ذلك في مجلِس رسول الله ﷺ لحاجتها إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضُها التنقُّص.

واعلم أنّ الغيبة ليست مقصورة على اللّسان فقطْ، بل كلّ ما عرّفت به صاحبَك نقصَ أخيك فهو غيبة، فقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وبالمحاكاة، نحو أنْ تمشي خلْف الأعرج متعارجاً، وبالكتاب، فإنّ القلم أحدُ اللسانين.

وإذا ذكر المصنّف شخصاً في تصنيفه، وهجّن كلامه، فهو غيبة. فأما قوله: «قال قوم كذا»، فليس بغيبة؛ لأنه لم يعيّن شخصاً بعينه.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٣٨٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الغيبة (١٩٣٤)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الغيبة (٤٨٧٤)، وأحمد في «مسنده» (٧١٠٦).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦١٥١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٣٤).

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما بالُ أقوام يقولون كذا!»[١]، فكان لا يعيّن، ويكون مقصودُه واحداً بعينه.

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القُرّاء المرائين، وذلك نحو أن يُذْكر عندهم إنسان، فيقول قائلهم: الحمد لله الذي لم يبلنا بدخول أبواب السلطان، والتبذّل في طلب الحُطام، وقصده أن يفهِم الغير عيب ذلك الشخص، فتخرج الغيبة في مخرج الحمد والشكر لله تعالى، فيحصل من ذلك غيبة المسلم، ويحصل منه الرياء، وإظهار التعفّف عن الغيبة وهو واقع فيها، وكذلك يقول: لقد ساءني ما يذكَر به فلان، نسأل الله أن يعصمَه، ويكون كاذباً في دعوى أنّه ساءه، وفي إظهار الدعاء له، بل لو قصد الدّعاء له لأخفاه في خلوة عقِب صلواته، ولو كان قد ساءه إساءة أيضاً إظهارُ ما يكرهه ذلك الإنسان.

واعلم أنّ الإصغاء إلى الغِيبة على سبيل التعجّب كالغيبة، بل أشدّ؛ لأنه إنما يظهر التعجّب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها حكاية، يستخرج الغيبة منه بذلك، وإذا كان السامع الساكت شريك المغتاب، فما ظنّك بالمجتهد في حصول الغيبة، والباعث على الاستزادة منها! وقد روي أن أبا بكر وعمر ذكرا إنساناً عند رسول الله، فقال أحدهما: إنه لنؤوم، ثم أخرج رسول الله ﷺ خبزاً قَفَاراً، فطلبا منه أُدماً، فقال: قد ائتدمتما، قالا: ما نعلمه، قال: «بلى بما أكلتما من لحم صاحبكما»[٢]، فجمعهما في الإثم، وقد كان أحدهما قائلاً والآخر مستمِعاً، فالمستمِع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكِر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قَدَر على القيام أو قَطْع الكلام بكلام آخرَ لزمه ذلك، فإن قال بلسانه: اسكت وهو سريدٌ للغيبة بقلبه، فذلك نفاق، ولا يخرِجه عن الإثم إلاّ أن يكرهُه بقلبه، ولا يكفي أن يشير باليد، أي اكفف، أو بالحاجب والعين، فإنّ ذلك استحقار للمذكور، بل ينبغي أن يذبّ عنه صريحاً، فقد قال رسول الله ﷺ: «من أُذِلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصرّه فلم ينصره، أذلّه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق»[٣].

واعلم أنّ الأسباب الباعثة على الغِيبة على أمور: منها شفاء الغيظ، وذلك أن يجرِي من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر، فإذا هاج غضبه تشفّى بذكر مساوئه، وسبق إليها لسانه بالطبع

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة (٤٧٨٨).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/ ١٨٠)، وقال العراقي في تخريجه: أخرجه أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمٰن بن أبي ليلى مرسلاً نحوه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٥٥٥٤).

إن لم يكن هناك دين وازع، وقد يمنع تشفّي الغيظ عند الغضب، فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حِقْداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء.

ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم على الكَلاَم، فإنّهم إذا اجتمعوا ربّما أخذوا يتفكّهون بذكر الأعراض، فيرى أنه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه، ونفَرُوا عنه فيساعدهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظنّ أنه مجاملة في الصحبة. وقد يغضب رفقاؤه من أمرٍ فيحتاج إلى أنْ يغضب لغضبهم، إظهاراً للمساهمة في السرّاء والضرّاء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء.

ومنها أن يستشعر من إنسان أنّه سيذمّه ويطول لسانه فيه، ويقبّح حاله عند بعض الرؤساء، أو يشهد عليه بشهادة فيبادرَه قبل أن يقبّح حاله، فيطعن فيه ليسقط أثر شهادته عليه. وقد يبتدىء بذكر بعض ما فيه صَادقاً ليكذِب عليه بعد ذلك، فيروج كذبه بالصدق الأول.

ومنها أن ينسب إلى أمرٍ فيريد التبرّؤ منه، فيذكر الذي فعله، وكان من حقّه أن يبرّىء نفسَه، ولا يذكر الذي فعله، لكنّه إنما يذكر غيره تأكيداً لبراءة نفسه، وكيْلاَ يكونَ تبرّؤاً مبتوراً، وربما يعتذر بأن يقول: فلان فعله، وكنت شريكاً في بعض الأمر ليبرّىء نفسه بعض البراءة.

ومنها المباهاة وحبّ الرياسة، مثل أن يقول: كلامُ فلان ركيك، ومعرفته بالفنّ الفلانيّ ناقصة، وغرضه إظهار فضله عليه.

ومنها الحسد وإرادة إسقاط قَدْر مَنْ يمدحه الناس بذكر مساوئه؛ لأنه يشقّ عليه ثناء النّاس عليه، ولا يجدُ سبيلاً إلى سدّ باب الثناء عليه إلا بذكر عيوبه.

ومنها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضّحِك والسخرية، فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين على سبيل الهزء والمحاكاة.

واعلم أن الذي يقوّي في نفسي أنّ الغيبة لا تكون محرّمة إلا إذا كانت على سبيل القصْد إلى تنقّص الإنسان فقط وغضّ قدره، فأمّا إذا خرجت مخرجاً آخر، فليست بحرام، كمن يظلمه القاضي ويأخذ الرّشوة على إسقاط حقوقه، فإن له أن يذكر حالَه للسلطان متظلّماً من حَيْف الحاكم عليه، إذ لا يمكنه استيفاء حقوقه إلا بذلك، فقد قال ﷺ: «مَطْل الغنيّ ظلم»[١]، وقال: «ليّ الواجد يحلّ عقوبته وعِرْضه»[٢].

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحوالات، باب: الحوالة وهل يرجع في الحوالة (٢٢٨٧)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم مطل الغني (١٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب: الاستقراض وأداء الديون، باب: لصاحب الحق مقال، والنسائي، كتاب: البيوع، باب: مطل الغني (٤٦٨٩)، وأبو داود، كتاب: الأقضية، باب: في الحبس في الدين وغيره (٣٦٢٨).

وكذلك النهي عن المنكر واجب، وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغير على تغييره وردّ القاضي إلى منهج الصلاح فلا بدّ له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكِب المنكر، ومَنْ ذكَر الإنسان بلقب مشهور فعرِف عن عيبه، كالأعرج والأعمش المحدّثين، لم يكن مغتاباً إذا لم يقصد الغضّ والنقص. والصحيح أنّ المجاهر بالفسق لا غيبة له، كصاحب الماخور والمخنّث: ومن يدعو الناس إلى نفسه ابنَة، وكالعشّار والمستخرج بالضرب، فإن هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به، وربما تفاخروا بذلك، وقد قال النبي ﷺ: «من ألقى جلباب الحياء عن وجهه، فلا غيبة له»[1]، وقال عمر: ليس لفاجر حرمة، وأراد المجاهرَ بالفسق، دون المستتر. وقال الصّلت بن طريف: قلت للحسن رحمه الله: الرجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب، هل ذِكْري له بما فيه غيبة؟ فقال: لا، ولا كرامة له!

واعلم أنّ التوبة من الغِيبة تكفّر عقابها، والتوبة منها هي الندم عليها، والعزم على ألا يعود، فإن لم يكن الشخص المذكور قد بلغتْه الغيبة، فلا حاجة إلى الاستحلال منه، بل لا يجوز إعلامه بذلك، هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله؛ لأنه لم يؤلمه فيحتاج إلى أن يستوهب منه إثمَ ذلك الإيلام، وفي إعلامه تضييق صَدْرِه، وإدخال مشقّة عليه، وإن كان الشخص المذكور قد بلغتْه الغيبة، وجَب عليه أن يستحلّه ويستوهبَه. فإن كان قد مات سقط بالتوبة عقاب ما يختصّ بالباريء سبحانه من ذلك الوقت، وبقي ما يختصّ بذلك الميّت لا يسقط حتى يؤخذ العِوض له من المذنب يوم القصاص.

١٤١ - ومن كلام له عليه السلام في النهي بسوء الظن

الأصل: ومن كلام له عليه السلام أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِين وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أقاوِيلَ ٱلرِّجالِ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَتُخْطِىءُ السِّهامُ، وَيُحِيلُ ٱلْكَلامُ، وَباطلُ ذَلِكَ يَبُورُ، وَٱللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ إلاّ أَرْبَعُ أصابعَ.

فسُئِل عليه السلام عن معنى قَوله هذَا، فَجَمَعَ أصابَعه ووضعَها بَيْنَ أُذُنه وعينِه ثمّ قال: ٱلْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعَتْ وَٱلحَقَّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢١٠)، والشهاب في «مسنده» (٤٢٦)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥٩٢٥).

الشرح: هذا الكلام هو نَهْيٌ عن التسرّع إلى التصديق بما يقال من العيب والقدْح في حقّ الإنسان المستور الظاهر، المشتهرَ بالصلاح والخير، وهو خلاصة قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[1]. ثم ضرب عليه السلام لذلك مثلاً، فقال: قد يرمي الرامي فلا يصيب الغرض، وكذلك قد يطعن الطاعن فلا يكون طعنه صحيحاً، وربّما كان لغرض فاسدٍ أو سمعه ممّن له غرض فاسداً، كالعدوّ والحسود، وقد يشتبِه الأمر فيُظنّ المعروف منكَراً، فيعجّل الإنسان بقول لا يتحقّقه، كمن يرى غلام زيد يحمل في إناء مستورٍ مغطًّى خلًّا، فيظنه خمراً.

قال عليه السلام: «ويُحيل الكلام»، أي يكون باطلاً، أحال الرجلُ، في منطقه، إذا تكلّم الّذي لا حقيقة له، ومن الناس من يرويه: «ويُحِيك الكلام» بالكاف، من قولك: ما حاك فيه السيف، ويجوز «أحاك» بالهمزة، أي ما أثّر، يعني أنّ القول يؤثّر في العِرْض وإن كان باطلاً، والرواية الأولى أشهر وأظهر.

ويبور: يفسد. وقوله: «وباطل ذلك يبور»، مثل قولهم: للباطل جولة، وللحق دولة، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2].

والإصبع مؤنثة، ولذلك، قال: «أربع أصابع» فحذف الهاء.

فإن قلت: كيف يقول عليه السلام: الباطل ما يُسمع والحق ما يرى، وأكثر المعلومات إنما هي من طريق السماع، كعلمنا الآن بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله بما بلغنا من معجزاته التي لم نرها، وإنما سمعناها!

قلت: ليس كلامه في المتواتر من الأخبار، وإنما كلامه في الأقوال الشاذّة الواردة من طريق الآحاد، التي تتضمّن القَدْح فيمن قد غلَبت نزاهته، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بالمشكوك.

١٤٢ - ومن كلام له عليه السلام في وضع المعروف في غير أهله

الأصل: ولَيْسَ لِوَاضِعِ المَعْرُوفِ في غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ٱلحَظُّ فِيما أَتَى إِلاَّ مَحْمَدَةُ ٱللِّئامِ، وَثَنَاءُ ٱلأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ ٱلجُهَّال، ما دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: ما أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ ٱللهِ بَخِيلٌ.

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

فَمَنْ آتَاهُ آللهُ مالاً فَلْيَصِلْ بِهِ ٱلْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ والْعَانِي، وَلْيُعْطِ مِنْهُ ٱلْفَقِيرَ وَٱلْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ٱبْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ ٱلْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ ٱلدُّنْيَا، ودَرْكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

الشرح: هذا الكلام يتضمّن ذمّ من يُخرج ماله إلى الفتيان والأقران والشعراء، ونحوهم، ويبتغي به المدحَ والسمعة، ويعدل عن إخراجه في وجوه البر وابتغاء الثواب، قال عليه السلام: ليس له من الحظّ إلا محمَدة اللئام وثناء الأشرار، وقولهم: ما أجود يده! أي ما أسمحه! وهو بخيل بما يرجع إلى ذات الله - يعني الصدقات وما يجري مجراها من صلة الرَّحم والضيافة وفكّ الأسير والعاني، وهو الأسير بعينه، وإنما اختلف اللفظ.

والغارم: مَنْ عليه الديون ويقال: صَبَر فلان نفسَه على كذا مخفّفاً، أي حبسها، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾(١).

وقال عنترة يذكر حرباً:

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرّةً ... ترسُو إذا نفس الجبان تَطلّعُ

وفي الحديث النبويّ في رجل أمسك رجلاً، وقتله آخر فقال عليه السلام: «اقتلُوا القاتل واصبِرُوا الصابر»(٢)، أي احبسُوا الذي حبسه للقتل إلى أن يموت.

وقوله: «فإن فَوْزاً»: أفصح من أن يقول: «فإنّ الفوز» أو فإنّ في الفوز كما قال الشاعر:

إنّ شِواءً ونشوةً ... وخَبَبَ البازل الأمونِ

من لذّةِ العيْش، والفتى ... للدّهر، والدّهرُ ذو شؤون

ولم يقل: «إن الشواء والنّشوة»، والسرّ في هذا أنه كأنه يجعل هذا الشواء شخصاً من جملة أشخاص، داخلة تحت نوع واحد، ويقول: إنّ واحداً منها أيّها كان فهو من لذّة العيش، وإن لم يحصل له كلّ أشخاص ذلك النوع، ومراده تقرير فضيلة هذه الخصال في النفوس، أي متى حصل للإنسان فوزٌ ما بها، فقد حصل له الشرف، وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة «الفوز» بالألف واللام إذا قصد بها الجنسية إلا أنه قد يسبق إلى الذهن منها الاستغراق لا الجنسية، فأتى بلفظةٍ لا توهِم الاستغراق، وهي اللفظة المنكرة، وهذا دقيق، وهو من لباب علم البيان.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٥٠)، وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٩٨٣٩)، وعزاه لأبي عبيد في غريب القرآن.

١٤٣ - ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء

الأصل: أَلاَ وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتي تَحمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتي تُظِلُّكُمْ، مُطِيعتَانِ لِرَبِّكُمْ وَمَا أَصْبَحتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلاَ زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلاَ لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامتَا.

إِنَّ ٱللهَ يَبْتَلِي عِبادَهُ عِنْدَ الأَعْمالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ ٱلْبَرَكَاتِ، وَإِغْلاَقِ خَزَائِنِ ٱلْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ وَيَزْدَجِر مُزْدَجِرٌ.

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ ٱلْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(١).

فَرَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَأً ٱسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَٱسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!

ٱللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ وَالأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِيجِ ٱلْبَهَائِمِ وَٱلْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ.

ٱللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلاَ تَجْعَلْنَا مِنَ ٱلْقَانِطِينَ، وَلاَ تهلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلاَ تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!

ٱللَّهُمَّ إنا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ، ٱلجأَتْنَا المَضَايِقُ ٱلْوَعْرَةُ، وَأَجَاءَتْنَا المَقَاحِطُ المُجْدِبَةُ، وَأَعْيَتْنَا المَطَالِبُ المُتَعسِّرَةُ، وَتَلاَحَمَتْ عَلَيْنَا ٱلْفِتَنُ المُسْتَصْعَبَةُ.

ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُك أَلا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلاَ تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ، وَلاَ تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلاَ تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا.

ٱللَّهُمَّ ٱنشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَٱسْقِنَا سُقْيا نَاقِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً، تُنبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ، نَافِعَةَ ٱلْحَيَا، كَثِيرَةَ ٱلْمُجْتَنَى، تُرْوِي بِهَا ٱلْقِيعَانَ، وَتُسِيلُ ٱلْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ ٱلأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ ٱلأَسْعَارَ، إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ.

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ - ١٢.

الشرح: **تظلّكم: تعلو عليكم، وقد أظلّتني الشجرة واستظلّت بها. والزُّلْفة: القربة، يقول إنّ السماء والأرض إذا جاءتا بمنافعكم - أمّا السماء فبالمطر، وأمّا الأرض فبالنّبات - فإنهما لم تأتيا بذلك تقرُّباً إليكم، ولا رحمةً لكم، ولكنّهما أُمِرتا بنفعكم فامتثلتا الأمر؛ لأنه أمرُ مَنْ تجب طاعته، ولو أُمِرتا بغير ذلك لفعلتاه. والكلام مجاز واستعارة؛ لأنّ الجماد لا يؤمر، والمعنى أنّ الكلّ مسخّر تحت القدرة الإلهية، ومرادُه تمهيدُ قاعدةِ الاستسقاء، كأنه يقول: إذا كانت السماء والأرض أيام الخصْب والمطر والنبات لم يكن ما كان منهما محبّة لكم، ولا رجاء منفعةٍ منكم، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرَهما له، فكذلك السماء والأرض أيام الجذْب وانقطاع المطر وعدم الكلأ، ليس ما كان منهما بغضاً لكم، ولا استدفاعَ ضرر يُخاف منكم، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرَهما له، وإذا كان كذلك فبالحرى ألاّ نأمل السماء ولا الأرض، وأن نجعل آمالنا معلّقة بالملك الحقّ المدبّر لهما، وأن نسترحِمَه وندعُوَه ونستغفرَه، لا كما كانت العرب في الجاهلية يقولون: مُطِرنا بنوْء كذا، وقد سخِط النَّوء الفلانيّ على بني فلان فأمحلوا.**

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى يبتلي عبادَه عند الذنوب بتضييق الأرزاق عليهم، وحبس مطر السماء عنهم، وهذا الكلام مطابق للقواعد الكلامية؛ لأنّ أصحابنا يذهبون إلى أنّ الغلاء قد يكون عُقوبة على ذنْب، وقد يكون لطفاً للمكلّفين في الواجبات العقلّية وهو معنى قوله: «ليتوب تائب..»، إلى آخر الكلمات. ويُقلع: يكفّ ويمسِك.

ثم ذكر أنّ الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً في دُرور الرزق، واستدل عليه بالآية التي أمر نوح عليه السلام فيها قومه بالاستغفار، يعني التوبة عن الذنوب، وقدم إليهم الموعِد بما هو واقع في نفوسهم، وأحبّ إليهم من الأمور الآجلة، فمنّاهم الفوائد العاجلة، ترغيباً في الإيمان وبركاته، والطاعة ونتائجها، كما قال سبحانه للمسلمين: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[1]، فوعدهم بمحبوب الأنفس الذي يروْنه في العاجل عياناً ونقداً لا جزاءً ونسيئة. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[4].

الثواب والعقاب عند أهل الكتاب

وكلّ ما في التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدّنيا ومضارّها، أما منافعها فمثل أنْ

(١) سورة الصف، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٤) سورة الجن، الآية: ١٦.

يقول: إن أطعتم باركت فيكم، وكَثرت من أولادكم وأطلْتُ أعماركم، وأوسعت أرزاقكم، واستبقيتُ اتّصال نسلكم، ونصرتُكم على أعدائكم، وإن عصيتم وخالفتم اختَرَمْتُكم ونقضتُ من آجالكم وشَتتُّ شملَكم، ورميْتكم بالجوع والمحْلِ، وأذللت أولادكم، وأشمتّ بكم أعداءكم، ونصرت عليكم خصومكم، وشرّدتكم في البلاد، وابتليتكم بالمرض والذلّ، ونحو ذلك.

ولم يأت في التوراةِ وعد ووعيد بأمرٍ يتعلّق بما بعد الموت. وأمّا المسيح عليه السلام، فإنّه صرح بالقيامة وبعث الأبدان، ولكن جعل العقاب روحانيًا، وكذلك الثواب، أما العقاب فالوحشة والفزع وتخيّل الظلمة وخبث النّفس وكدرها وخوف شديد، وأمّا الثواب فما زاد على أن قال: إنهم يكونون كالملائكة، وربما قال: يصعدون إلى ملكوت السماء، وربما قال أصحابه وعلماء مِلّته: الضوْء واللّذة والسرور والأمن من زوال اللذة الحاصلة لهم. هذا هو قول المحقّقين منهم، وقد أثبت بعضُهم ناراً حقيقيّة، لأن لفظة «النار» وردت في الإنجيل، فقال محققوهم: نار قلبيّة، أي نفسيّة روحانية، وقال الأقلّون: نار كهذه النار. ومنهم من أثبت عقاباً غير النار وهو بدنيّ، فقال: الرّعدة وصَرِير الأسنان، فأمّا الجَنّة بمعنى الأكل والشرب والجماع، فإنه لم يقل منهم قائل به أصلاً، والإنجيل صرّح بانتقاء ذلك في القيامة تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب، وجاء خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله فأثبت المعادَ على وجه محقّق كامل، أكمل ممّا ذَكره الأوّلان، فقال: إنّ البدن والنفس معاً مبعوثان، ولكلٍّ منهما حظّ في الثواب والعقاب.

وقد شرح الرئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا هذا الموضع في رسالة له في المعاد، تعرف «بالرسالة الأضحوية» شرحاً جيّداً، فقال: إنّ الشّريعة المحمّدية أثبتت في القيامة ردّ النّفس إلى البدن، وجعلت للمثاب والمعاقَب ثواباً وعقاباً بحسب البدن والنفس جميعاً، فكان للمثاب لذّات بدنيّة من حور عين وولدان مخلّدين وفاكهة مما يشتهون، وكأس لا يصدّعون عنها ولا ينزُفون، وجنّات تجري من تحتها الأنهار، من لبنٍ وعسل وخمر وماء زلال، وسرُرٍ وأرائك وخيام وقِباب، فَرْشُها من سُندس وإستبرق، وما جرى مجرى ذلك. ولذّات نفسانيّة من السرور ومشاهدة المَلَكوت والأمنِ من العذاب والعلم اليقينيّ بدوام ما همّ فيه، وأنّه لا يتعقبّه عدم ولا زَوال، والخلوّ عن الأحزان والمخاوف وللمعاقَب عقاب بدنيّ، وهو المقامع من الحديد، والسلاسل، والحريق والحميم والغِسْلين والصُّراخ والجلود الّتي كلّما نضِجت بدّلوا جلوداً غيرها، وعقاب نفسانيّ من اللعن والخِزْي والخجل والندم والخوف الدائم واليأسي من الفَرج، والعلم اليقيني بدوام الأحوال السيّئة التي هم عليها.

قال: فوفّت الشريعة الحكْمَة حقّها من الوعد الكامل، والوعيد الكامل، وبهما ينتظم الأمر، وتقوم المّلة، فأمّا النصارى وما ذهبوا إليه من أمر بعث الأبدان، ثم خلوّها في الدار الآخرة من المطعم والملبس والمشرب والمنكح، فهو أركُّ ما ذهب إليه أرباب الشرائع

وأسخفه، وذلك أنّه إن كان السبب في البعث، هو أنّ الإنسان هو البدن، أو أنّ البدن شريك النفس في الأعمال الحسنة والسيئة، فوجب أن يبعث، فهذا القول بعينه إن أوجب ذلك، فإنه يوجب أن يثاب البدن، ويعاقب بالثواب والعقاب البدنيّ المفهوم عند العالم، وإن كان الثواب والعقاب روحانياً، فما الغرض في بعث الجسد؟ ثم ما ذلك الثواب والعقاب الروحانيان! وكيف تصوّر العامة ذلك حتى يرغبوا ويرهبوا! كلاّ بل لم تصورّ لهم الشريعة النّصرانية من ذلك شيئاً، غير أنّهم يكونون في الآخرة كالملائكة، وهذا لا يفي بالتّرغيب التام، ولا ما ذكروه من العقاب الروحانيّ - وهو الظلمة وخبث النفس - كافٍ في الترهيب والذي جاءت به شريعة الإسلام حسن لا زيادة عليه.

انقضى كلام هذا الحكيم.

فأمّا كون الاستغفار سبباً لنزول القطر ودرور الرزق، فإنّ الآية بصريحها ناطقة به، لأنّها أمرٌ وجوابه، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1]، كما تقول: قم أكرمْك، أي إن قمت أكرمتك. وعن عمر أنّه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال: لقد استسقيت بمجادِيح السماء التي يُستنزل بها المطر.

وعن الحسن أنّ رجلاً شكا إليه الجدْب، فقال: استغفر الله، فشكا آخرُ إليه الفقر، وآخر قلّة النسل، وآخر قلّة ريْع أرضه، فأمرهم كلّهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: رجال أتوْك يشكون أبواباً، ويشكون أنواعاً فأمرتهم كلّهم بالاستغفار، فتلا له الآية.

قوله: «استقبل توبته» أي استأنفها وجدّدها. واستقال خطيئته: طلب الإقالة منها والرحمة. وبادر منيّته: سابق الموت قبل أن يدهمه.

قوله عليه السلام: «لا تُهلكْنا بالسنين» جمع: سَنَة، وهي الجدْب والمحْل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾[2]، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله يدعو على المشركين: «اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسِني يوسف»[3]، والسّنة لفظ محذوف منه حرف، قيل إنه الهاء، وقيل الواو، فمن قال: المحذوف هاء، قال: أصله «سَنْهة» مثل جَبْهة؛ لأنهم قالوا: نخلة سَنْهاء، أي تحمل سَنَة ولا تحمل أخرى، وقال بعض الأنصار:

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٠، ١١. (٢)سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥).

فليست بسنهاءٍ ولا رُجَّبِيَّةٍ ولكنْ عرايا في السنين الجوائح

ومن قال أصلها الواو، احتجّ بقولهم: أسنَى القومُ يُسنون إسناءً، إذا لبثوا في المواضع سَنَة، فأمّا التصغير فلا يدلّ على أحد المذهبين بعينه؛ لأنه يجوز سُنَيَّة وسُنَيْهة، والأكثر في جمعها بالواو والنون «سِنون» بكسر السين كما في هذه الخطبة، وبعضهم يقول: «سُنُون» بالضم.

والمضايق الوَعْرة، بالتسكين، ولا يجوز التحريك، وقد وَعُر هذا الشيء بالضم وُعورة، وكذلك توعّر، أي صار وَعْراً، واستوعرتُ الشيء: استصعبتَه.

وأجاءتنا: ألجأتنا، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾(١).

والمقاحط المجدبة: السّنون الممحلة، جمع مَقْحَطة.

وتلاحمت: اتصلت.

والواجم: الذي قد اشتدّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام، والماضي «وَجَم» بالفتح يجِم وُجُوماً.

قوله: «ولا تخاطبنا بذنوبنا، ولا تقايسنا بأعمالنا»، أي لا تجعل جوابَ دعائنا لك ما تقتضيه ذنوبنا، كأنه يجعله كالمخاطِب لهم، والمجيب عمّا سألوه إياه، كما يفاوض الواحدُ منّا صاحبَه ويستعطفه، فقد يجيبه ويخاطبه بما يقتضيه ذنبُه إذا اشتدّت موجدته عليه ونحوه.

ولا تقايسنا بأعمالنا، قِسْتُ الشيء بالشيء إذا حذوتَه ومثّلته به، أي لا تَجعل ما تجيبنا به مقايساً ومماثلاً لأعمالنا السّيئة.

قوله: «سُقْيَا ناقعة» هي «فُعْلَى» مؤنثة غير مصروفة.

والحيا: المطر. وناقعة مروية: مسكّنة للعطش، نَقَع الماء العطش نَقْعاً ونُقوعاً سكّنه، وفي المثل: «الرّشْف أنقع» أيْ أنَّ الشراب الذي يُرْشَف قليلاً قليلاً أنجع وأقطع للعطش، وإن كان فيه بطء. وكثيرة المجتنى، أي كثيرة الكلأ، والكلأ: الذي يجتنى ويرعى. والقِيعان: جمع قاعٍ، وهو الفَلاَة. والبُطنان: جمع بَطْن، وهو الغامض من الأرض، مثل ظَهْر وظُهْران وعَبْد وعُبدان.

١٤٤ - ومن خطبة له عليه السلام في بعثة الأنبياء

الأصل: بَعَثَ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلاَّ تَجِبَ ٱلْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ ٱلإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ ٱلْحَقِّ.

(١) سورة مريم، الآية: ٢٣.

أَلاَ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ ٱلْخَلْقَ كَشْفَةً، لاَ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ: أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فَيَكُونَ ٱلثَّوَابُ جَزَاءً، وَٱلْعِقَابُ بَوَاءً.

أَيْنَ ٱلَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا ٱللهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ، بِنَا يُسْتَعْطَى ٱلْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى ٱلْعَمَى.

إِنَّ ٱلْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ، غُرِسُوا فِي هَذَا ٱلْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لاَ تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلاَ تَصْلُحُ ٱلْوُلاَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

الشرح: أول الكلام مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢).

فإن قلت: فهذا يناقضُ مذهبَ المعتزلة في قولهم بالواجبات عقلاً، ولو لم تبعث الرسل!

قلت: صحّة مذهبهم تقتضي أن تُحمل عمومُ الألفاظ على أنّ المراد بها الخصوص، فيكون التأويل: لئلا يكون للناس على الله حجّة فيما لم يدلّ العقل على وجوبه ولا قبحه، كالشرعيّات، وكذلك: «وما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولاً» على ما لم يكن العقل دليلاً عليه حتى نبعثَ رسولاً.

الإعذار: تقديم العذر. ثم قال: إن الله تعالى كشف الخلْق بما تعبّدهم به من الشرعيّات على ألسنة الأنبياء، ولم يكن أمرُهم خافياً عنه، فيحتاج إلى أن يكشفَهم بذلك، ولكنّه أراد ابتلاءهم واختبارهم، ليعلم أيُّهم أحسن عملاً، فيعاقب المسيء، ويثيب المحسن.

فإن قلت: الإشكال قائم؛ لأنّه إذا كان يعلم أيُّهم يحسن، وأيُّهم يسيء فما فائدة الابتلاء؟ وهل هو إلا محض العبث!

قلت: فائدة الابتلاء إيصال نَفْع إلى زيد لم يكن ليصحّ إيصاله إليه إلا بواسطة هذا الابتلاء، وهو ما يقوله أصحابنا: إنّ الابتلاء بالثواب قبيح، والله تعالى يستحيل أن يفعل القبيح.

قوله: «وللعقاب بَوَاء» أي مكافأة، قالت ليلى الأخيليّة:

فإن تكنِ القتلى بَواءً فإنّكم ... فتًى ما قتلتم آل عوف بن عامر

وأبأت القاتل بالقتيل واستبأته أيضاً، إذا قتلته به، وقد باء الرجل بصاحبه، أي قُتل به وفي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

المثل: «باءت عَرَارٌ بكَحْلَ» وهما بقرتان، قتِلت إحداهما بالأخرى وقال مهلهل لبُجير لما قتل: «بُؤْبشِسْعِ نعل كليب».

قوله عليه السلام «أين الذين زعموا»، هذا الكلام كناية وإشارة إلى قوم من الصحابة كانوا ينازعونه الفضل، فمنهم مَنْ كان يدّعي له أنه أفرَض، ومنهم من كان يدعي له أنه أقرأ، ومنهم كان يدّعي له أنه أعلم بالحلال والحرام. هذا مع تسليم هؤلاء له أنه عليه السلام أقضى الأمة، وأنّ القضاء يحتاج إلى كلّ هذه الفضائل، وكلّ واحدةٍ منها لا تحتاج إلى غيرها، فهو إذنْ أجمع للفقه وأكثرهم احتواء عليه، إلاّ أنّه عليه السلام لم يرض بذلك ولم يصدق الخبر الذي قيل: «أفرَضكم فلان» إلى آخره فقال: إنّه كذب وافتراء حمل قوماً على وضعه الحسدُ والبغي والمنافسة لهذا الحيّ مَن بني هاشم، أن رفعهم الله على غيرهم، واختصّهم دون مَنْ سواهم.

وأنْ هاهنا للتعليل، أي «لأنْ» فحذف اللام التي هي أداة التعليل على الحقيقة، قال سبحانه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[1]: وقال بعض النحاة لبعض الفقهاء الزاعمين أن لا حاجة لِلفقه إلى النحو: ما تقول لرجل قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ فقال: لا يقع إلاّ بالدخول، فقال: فإن فتح الهمزة؟ قال: كذلك، فعرّفه أنّ العربيّة نافعة في الفقه، وأنّ الطلاق منجّز لا معلّق، إن كان مرادُه تعليل الطلاق بوقوع الدخول لاشتراطه به.

ثم قال: «بنا يُستعطى الهُدَى، أي يطلب أن يعطَى، وكذلك «يستجلى» أي يطلَبُ جِلاؤه.

ثم قال: إنّ الأئمة من قريش. . . إلى آخر الفصل.

هل يتوجب أن يكون الأئمة من قريش؟

وقد اختلف الناس في اشتراط النسب في الإمامة، فقال قوم من قدماء أصحابنا: إنّ النسب ليس بشرط فيها أصلاً، وإنها تصلح في القرشيّ وغير القرشيّ إذا كان فاضلاً مستجمعاً للشرائط المعتبرة، واجتمعت الكلمة عليه، وهو قول الخوارج.

وقال أكثرُ أصحابنا وأكثرُ الناس: إنّ النسب شرط فيها، وأنها لا تصلح إلا في العرب خاصّة، ومن العرب في قريش خاصة. وقال أكثرُ أصحابنا: معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: «الأئمة من قريش»[2] إنّ القرشيّة شرط إذا وُجِد في قريش من يصلح للإمامة، فإن لم يكن فيها مَنْ يصلح، فليست القرشية شرطاً فيها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٦٩٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٩٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٢١).

وقال بعضُ أصحابنا: معنى الخَبر أنه لا تخلُو قريش أبداً ممنّ يصلح للإمامة، فأوجبوا بهذا الخبر وجود مَنْ يصلُح من قريش لها في كلّ عصر وزمان.

وقال معظم الزّيدية: إنها في الفاطميّين خاصة من الطالبيّين، لا تصلُح في غير البطنيْن، ولا تَصحّ إلاّ بشرط أن يقومَ بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس. وبعض الزيديّة يجيز الإمامة في غير الفاطميّين من ولد عليّ عليه السلام، وهو من أقوالهم الشاذّة.

وأما الراونديّة فإنّهم خَصّصُوها بالعبّاس رحمه الله وولده من بين بطون قريش كلها، وهذا القول هو الّذِي ظهر في أيام المنصور والمهديّ، وأما الإمامية فإنهم جعلوها ساريةً في ولد الحسين عليه السلام في أشخاص مخصوصين، ولا تصلح عندهم لغيرهم. وجعلها الكيّسانية في محمد بن الحنفيّة وولده، ومنهم مَنْ نقلها منه إلى ولد غيره.

فإن قلت: إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم، فما قولك في هذا الكلام وهو تصريح بأنّ الإمامة لا تصلح من قريش إلا في بني هاشم خاصّة، وليس ذلك بمذهب للمعتزلة، لا متقدّميهم ولا متأخريهم!

قلت: هذا الموضع مشكل، ولي فيه نظر، وإن صحّ أن علياً عليه السلام قاله، قلتُ كما قال؛ لأنه ثبت عندي أنّ النبي ﷺ قال: «إنه مع الحق، وإنّ الحق يدور معه حيثما دار»[1]، ويمكن أن يتأوّل ويطبّق على مذهب المعتزلة، فيحمل على أن المراد به كمالُ الإمامة كما حمِل قوله ﷺ: «لا صلاة لجارِ المسجد إلا في المسجد»[2]، على نفي الكمال، لا على نفي الصّحة.

الأصل: منها: آثَرُوا عَاجِلاً، وَأَخَّرُوا آجِلاً، وَتَرَكُوا صَافِياً، وَشَرِبُوا آجِناً، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِىءَ بِهِ وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلاَئِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لاَ يُبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لاَ يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ.

أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارُ اللاَّمِحَةُ إِلَى مَنَازِلِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ للهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ، وَتَشَاحُّوا عَلَى

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٨/ ٤٠، وأخرجه المولى حيدر في المناقب: ٤١٠.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٥٧)، والربيع في «مسنده» (٢٥٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩١٥).

ٱلْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ ٱلْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ ٱلْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!

الشرح: آثروا: اختاروا. وأخّروا: تركوا الآجن: الماء المتغيّر. أجَن الماء يأجُن ويأجِن.

وبَسِيء به: ألفه، وناقة بَسُوء: ألِفت الحالب ولا تمنعه. وشابت عليه مفارقه: طال عهده به مُذ زَمن الصّبا حتى صار شيخاً. وصبِغت به خلائقه ما صارت طبعاً لأنّ العادة طبيعة ثانية.

مُزْبداً، أي ذو زَبَدٍ، وهو ما يخرج من الفم كالرّغوة، يضرب مثلاً للرجل الصائل المقتحم.

والتيّار: معظم اللجّة، والمراد به هاهنا السّيل. والهشيم: دقاق الحطَب.

ولا يحفَل، بفتح حرف المضارعة؛ لأن الماضي ثلاثي، أي لا يبالي.

والأبصار اللامحة: الناظرة. وتشاحُّوا: تضايقوا، كلٌّ منهم يريد ألاّ يفوته ذلك، وأصله الشحّ وهو البخل.

فإن قلت: هذا الكلام يرجع إلى الصحابة الذين تقدّم ذكرهم في أوّل الخطبة!

قلت: لا، وإن زعم قوم أنّه عناهم، بل هو إشارة إلى قوم ممّن يأتي من الخلَف بعد السلَف، ألا تراه قال: كأنّي أنظرُ إلى فاسقهم قد صحب المنكر فألفه، وهذا اللفظ إنما يقال في حقّ من لم يوجَد بعد، كما قال في حقّ الأتراك: «كأنّي أنظُر إليهم قوماً كأنّ وجوهَهم المجانّ»[1]، وكما قال في حقّ صاحب الزنج: «كأنّي به يا أحنف قد سار في الجيش»[2]، وكما قال في الخطبة التي ذكرناها آنفاً: «كأني به قد نَعَق بالشام» يعني به عبد الملك. وحوشي عليه السلام أن يعني بهذا الكلام الصحابة؛ لأنهم ما آثروا العاجل، ولا أخّروا الآجل، ولا صحبوا المنكر، ولا أقبلوا كالتيّار، لا يبالي ما غرّق، ولا كالنار لا تبالي ما أحرقَتْ، ولا ازدحموا على الحُطام، ولا تشاحُّوا[3] عَلَى الحرام، ولا صَرَفوا عن الجنّة وجوههم، ولا أقبلوا إلى النار بأعمالهم، ولا دعاهم الرحمن فولّوْا، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا. وقد علم كلّ أحدٍ حُسْنَ سيرتهم، وسَدَاد طريقتهم وإعراضَهم عن الدنيا وقد ملوكها، وزهدَهم فيها وقد تمكّنوا منها، ولولا قوله: «كأنّي أنظر إلى فاسقهم» لم أبعد أن يعنيَ بذلك قوماً ممّن عليه اسم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٨/ ١٨٤. وأخرجه الترمذي في سننه رقم: ٢٣١٢.
(٢) أخرجه الطبرسي في تفسير مجمع البيان: ٥/ ٣٥٣.
(٣) الشح: البخل، وتشاحوا على الأمر: شح بعضهم على بعض حذر فوته. القاموس، مادة (شحح).

الصحابة وهو رديء الطريقة، كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، ومَرْوان بن الحكم، ومعاوية، وجماعة معدودة أحبُّوا الدنيا واستغواهُم الشَّيطان، وهم معدودون في كتب أصحابنا ومن اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم.

١٤٥ - ومن خطبة له عليه السلام في شؤون الدنيا والناس

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ المَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ، لاَ تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلاَ يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوماً مِنْ عُمُرِهِ إلا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلاَ تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إلاَّ بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ، وَلاَ يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ، إلاَّ مَاتَ لَهُ أَثَرٌ، وَلاَ يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ، إلاَّ بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ، وَلاَ تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ، إلاَّ وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِه!

الشرح: الغَرَض: ما ينصَب ليُرمَى، وهو الهدف وتنتضِل فيه المنايا: تترامى فيه للسَّبَق، ومنه الانتضال بالكَلام وبالشعْر، كأنه يجعل المنايا أشخاصاً تتناضل بالسهام، من الناس مَنْ يموت قتلاً، ومنهم مَنْ يموت غرقاً، أو يتردّى في بئرٍ، أو تَسقط عليه حائط، أو يموت على فراشه.

ثم قال: «مع كل جَرْعة شَرَق، وفي كلّ أكلة غَصص»: بفتح الغين، مصدر قولك: غَصِصْتَ يا فلان بالطعام، ورُوي: «غُصَص» جمع غُصّة، وهي الشجا، وهذا مثل قول بعضهم: المنحة فيها مقرونة بالمحنة، والنعمة مشفوعة بالنقمة. وقد بالغَ بعض الشعراء في الشكوى، فأتى بهذه الألفاظ، لكنه أسرف، فقال:

حَظّي من العيشِ أكْلٌ كلُّه غَصَصٌ ... مرّ المذاق، وشربٌ كلّه شَرَقُ

ومراد أمير المؤمنين عليه السلام بكلامه أنّ نعيم الدنيا لا يدوم، فإذا أحسنتْ أساءت، وإذا أنعمت أنقمت.

ثم قال: «لا ينالون منها نعمة إلا بفراق أخرى»، هذا معنى لطيف، وذلك أنّ الإنسان لا يتهيّأ له أن يجمع بين الملاذّ الجسمانية كلّها في وقت، فحال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً، وحال ما يشرب لا يأكل، وحال ما يركب للقَنَص والرّياضة، لا يكون جالساً على فراش وثير ممهد، وعلى هذا القياس لا يأخذ في ضَرْب من ضُروب الملاذّ إلاّ وهو تارك لغيره منها.

ثم قال: «ولا يعمَّر معمَّر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله»، وهذا أيضاً لطيف؛ لأنّ المسرور ببقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلا بعد أن قضى يوم السبت وقَطعه، ويوم السبت من أيام عمره، فإذاً قد هدم من عمره يوماً، فيكون قد قرب إلى الموت؛ لأنه قد قطع من المسافة جزءاً.

ثم قال: «ولا تجدّد له زيادة في أكله إلا بنفاذ ما قبلها من رزقه»، وهذا صحيح فإنّ فسّرنا الرزق بما وصل إلى البطن على أحد تفسيرات المتكلمين، فإن الإنسان لا يأكل لقمة إلا وقد فرغ من اللقمة التي قبلها، فهو إذاً لا يتجدد له زيادة في أكله إلا بنفاذ ما قبلها من رزقه.

ثم قال: «ولا يحيا له أثر، إلا مات له أثر»، وذلك أنّ الإنسان في الأعمّ الأغلب لا ينتشر صيتُه ويشيع فضُله إلا عند الشيخوخة، وكذلك لا تعرف أولاده ويصير لهم اسم في الدنيا إلا بعد كبره وعلو سنه، فإذاً ما حيي له أثر إلا بعد أن مات له أثر، وهو قوّته ونشاطه وشبيبته، ومثله قوله: «ولا يتجدّد له جديد، إلا بعد أن يخلَق له جديد».

ثم قال: «ولا تقوم له نابتة إلاّ وتسقط منه محصودة»، هذه إشارة إلى ذهاب الآباء عند حدوث أبنائهم في الأعمّ الأغلب، ولهذا قال: «وقد مضت أصولٌ نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله»، وقد نظر الشعراء إلى هذا المعنى، فقالوا فيه وأكثروا، نحو قول الشاعر:

فإنْ أنتَ لم تصدُقْكَ نفسك فانتسبْ ... لَعلّك تهديكَ القُرون الأوائلُ
فإنْ لم تجِدْ من دونِ عَدْنَانَ والداً ... ودون مَعدٍّ فَلْتَزَعْكَ العواذِلُ[1]

وقال الشاعر:

فعدّدت آبائي إلى عِرْق الثّرى ... فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
لابدّ من تلفٍ مصيب فانتظرْ ... أبأرضِ قومِك أم بأخرى تُصرَعُ!

وقد صرّح أبو العتاهية بالمعنى، فقال:

كلّ حياة إلى مماتٍ ... وكلّ ذي جِدّةٍ يحولُ
كيف بقاء الفروع يوماً ... وقد ذَوَتْ قبلَهَا الأصولُ!

الأصل: منها: وَمَا أُحدِثَتْ بدعَةٌ إلاَ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ، فَاتَّقُوا ٱلْبِدَعَ، وَٱلْزَمُوا ٱلْمَهْيَع. إنَّ عَوَازِمَ الأمُورِ أفْضَلُهَا، وَإنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا.

(١) زعا: عدل وأنصف. اللسان، مادة (زعور).

الشرح: البِدعة: كل ما أحدِث مما لم يكنْ على عهد رسول الله ﷺ، فمنها الحَسن كصلاة التراويح، ومنها القبيح كالمنكرات التي ظهرت في أواخر الخلافة العثمانية، وإن كانت قد تُكلّفت الأعذار عنها.

ومعنى قوله عليه السلام: «ما أحدِثتْ بدعة إلا تُرِكَ بها سنّة»، أنّ من السنَّة ألاّ تحدث البدعة، فوجود البدعة عدمٌ للسنّة لا محالة.

والمهيَع: الطريق الواضح، من قولهم: أرض هيعة، أي مبسوطة واسعة، والميم مفتوحة وهي زائدة:

وعوازم الأمور: ما تقادم منها، من قولهم: عجوزٌ عوْزم أي مسنّة، قال الراجز:

لقد غدوتُ خلَقَ الثيابِ ... أحمِلُ عِدْلين من التّرابِ
لِعَوزَمٍ وصِبْيَةٍ سِغَابِ ... فآكلٌ ولا حسٌّ وآبي

ويجمع «فوعل» على فواعل، كدورق، وهَوْ جل، ويجوز أن يكون «عوازم» جمع عازمة، ويكون فاعل بمعنى مفعول، أي معزوم عليها، أي مقطوع معلوم بيقين صحتها، ومجيء «فاعلة» بمعنى «مفعولة» كثيرة، كقولهم: عيشة راضية بمعنى مرضيّة، والأوّل أظهر عندي؛ لأنّ في مقابلته قوله: «وإن محدَثاتها شرارها»، والمحدَث في مقابلة القديم.

١٤٦ – ومن كلام له عليه السلام

وقد استشاره عمر في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

الأصل: إِنَّ هَذَا ٱلْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلاَ خُذْلاَنُهُ بِكَثْرَةٍ وَلاَ بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ ٱللهِ ٱلَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ ٱلَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُما طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ ٱللهِ، وَٱللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ، وَمَكَانُ ٱلْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ ٱلْخَرَزِ، يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ ٱنْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَٱلْعَرَبُ ٱلْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلاَمِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ، فَكُنْ قُطْباً وَٱسْتَدِرِ ٱلرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ ٱلْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ ٱلْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ ٱلْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ ٱلْعَرَبِ، فَإِذَا ٱقْتَطَعْتُمُوهُ ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ ٱلْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَٱلْمَعُونَةِ.

الشرح: نظام العِقْد: الخيط الجامع له، وتقول: أخذته كلّه بحذافيره، أي بأصله، وأصل الحذافير أعالي الشيء ونواحيه، الواحد جِذْفار.

وأصْلِهم نار الحرب: أجعلهم صالين لها، يقال: صليتُ اللحم وغيره أصْليه صَلْياً، مثل رميته أرميه رَمْياً، إذا شويتَه، وفي الحديث أنه ﷺ أتِيَ بشاة مَصْليّة[1]، أي مشويّة. ويقال أيضاً: صليت الرجل نَاراً إذا أدخلتَه النار وجعلته يصلاّها، فإن ألقيتَه فيها إلقاء كأنّك تريد الإحراق قلتَ: أصليتُه بالألف، وصلّيته تصلية، وقرىء ﴿وَيَصَلَّى سَعِيرًا﴾[2] ومن خفّف فهو من قولهم: صَلِيَ فلان بالنار - بالكسر - يَصْلَى صِلِيًّا احترق، قال الله تعالى: ﴿هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾[3] ويقال أيضاً: صَلِيَ فلانٌ بالأمر، إذا قاسى حَرّه وشدَّته، قال الطُّهَوِيّ:

وَلاَ تَبْلَى بَسالَتُهم وإنْ هُمْ   صَلُوا بالحرب حيناً بعد حينِ

وعلى هذا الوجه يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو مجاز من الإحراق، والشيء الموضوع لَهَا هذا اللفظ حقيقة.

والعورات: الأحوال التي يخاف انتقاضها في ثَغْر أو حرب، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾[4]. والكَلَب: الشرّ والأذى.

وقعة القادسية

واعلم أنّ هذا الكلام قد اختلف في الحال التي قاله فيها لعمر، فقيل: قاله له في غَزَاة القادسيّة، وقيل في غَزَاة نهاوَنْد. وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبريّ في «التاريخ الكبير». وإلى القول الأول ذهب المدائنيّ في كتاب «الفتوح»، ونحن نشير إلى ما جرى في هاتين الوقعتيْن إشارة خفيفةً على مذهبنا في ذكر السِّيَر والأيام.

فأما وقعة القادسيّة فكانت في سنة أربعَ عشرة للهجْرة، استشار عمر المسلمين في أمر

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الصوم، باب: ما جاء في كراهية يوم الشك (٦٨٦)، والنسائي، كتاب: الصيام، باب: صيام يوم الشك (٢١٨٨).
(٢) سورة الإنشقاق، الآية: ١٢.   (٣) سورة مريم، الآية: ٧٠.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

القادسيّة، فأشار عليه عليّ بن أبي طالب - في رواية أبي الحسن عليّ بن محمد بن سيف المدائنيّ - ألاّ يخرج بنفسه، وقال: إنّك إن تخرُجْ لا يكنْ للعجم هِمّةٌ إلا استئصالك، لعلمهم أنّك قطبُ رحا العرب، فلا يكون للإسلام بعدها دوْلة. وأشار عليه غيره من الناس أن يخرُج بنفسه، فأخذ برأي عليّ عليه السلام.

وروى غيرُ المدائنيّ أن هذا الرأي أشارَ به عبد الرحمن بن عوف، قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ: لما بدا لعمر في المقام بعد أنْ كان عزم على الشخوص بنفسه، أمّر سعد بن أبي وقّاص على المسلمين، وبعث يَزْدَجِرْد رستمَ الأرمنيَّ أميراً على الفرس، فأرسل سعدٌ النّعمانَ بن مقرّن رسولاً إلى يزدَجِرد، فدخل عليه، وكلّمه بكلام غليظ، فقال يَزْدَجِرد: لولا أنّ الرُّسل لا تقتَل لقتلتُك، ثم حَمّله وَقراً من تراب على رأسه، وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن، وقال: ارجع إلى صاحبك، فقد كتبتُ إلى رستم أن يَدفنه وجنده من العرب في خندَق القادسيّة، ثم لأشغلنّ العرب بعدها بأنفسهم، ولأصيبنّهم بأشدّ مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف. فرجع النّعمان إلى سعد فأخبره، فقال: لا تخفْ، فإن الله قد ملّكنا أرضَهم تفاؤلاً بالتراب.

قال أبو جعفر: وتثبّط رستم عن القتال وكرهه، وآثر المسالمة، واستعجله يزدَجِرْد مراراً، واستحثه على الحرب، وهو يدافع بها، ويرى المطاولة. وكان عسكره مائةً وعشرين ألفاً وكان عسكر سعد بضعاً وثلاثين ألفاً، وأقام رستمُ بريداً من الرجال، الواحد منهم إلى جانب الآخر، من القادسيّة إلى المدائن، كلّما تكلّم رستم كلمة أدّاها بعضُهم إلى بعض، حتى تصل إلى سمع يزدَجِرْد في وقتها، وشهد وقعة القادسيَّة مع المسلمين طُلَيحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب والشمّاخ بن ضرار، وعَبَدة بن الطبيب الشاعر، وأوْس بن معن الشّاعر، وقاموا في النّاس يُنشدونهم الشّعر ويُحرّضونهم، وقرن أهلُ فارس أنفسهم بالسّلاسل لئلا يهربوا، فكان المقرّنون منهم نحو ثلاثين ألفاً، والتحم الفريقان في اليوم الأوّل، فحملت الفِيَلة التي مع رستم على الخيل فطحنتها، وثبت لها جمع من الرّجالة، وكانت ثلاثة وثلاثين فيلاً، منها فيل الملك، وكان أبيضَ عظيماً، فضربت الرجال خراطيم الفيَلة بالسيوف فقطعتها، وارتفع عُواؤها، وأصيبَ في هذا اليوم - وهو اليوم الأول - خمسمائة من المسلمين، وألفان من الفرس. ووصل في الثاني أبو عبيدة بن الجراح من الشّام في عساكر من المسلمين، فكان مدداً لسعد، وكان هذا اليوم على الفرس أشدّ من اليوم الأوّل، قتل من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف. وأصبحوا [illegible] اليوم الثالث على القتال، وكان عظيماً على العرب والعجم معاً، وصبر الفريقان، وقامت [illegible] اليوم، وتلك الليلة جمعاء لا ينطِقُون، كلامُهم الهرير[1]، فسمّيت ليلة الهرير.

---

(١) هرير الكلب: صوته و[illegible] صبره على البرد. اللسان، مادة (هرر).

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وانقطع سعد إلى الصلاة والدّعاء والبكاء، وأصبح الناس حَسْرَى لم يغمضوا ليلتَهم كلّها، والحرب قائمة بعد إلى وقت الظهر، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفاً في اليوم الرابع، أمالت الغبار والنَّقْع على العجم، فانكسروا، ووصلت العرب إلى سرير رستم، وقد قام عنه ليركب جملاً، وعلى رأسه العلم، فضرب هلال بن علقمة الحِمْل الذي رُستم فوقه، فقطع حباله، ووقع على هلال أحد العدلين، فأزال فَقَار ظهره، ومضى رستَم نحو العقيق، فرمى نفسه فيه، واقتحم هلال عليه، فأخذ برجله، وخرج به يجرّه حتى ألقاه تحت أرجُل الخيل، وقد قتله وصعد السرير، فنادى: أنا هلال، أنا قاتل رستَم، فانهزمت الفرس، وتهافتوا في العقيق، فقتِل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونهبت أموالُهم وأسلابهم، وكانت عظيمة جدًّا، وأخذتِ العربُ منهم كافوراً كثيراً، فلم يعبئوا به؛ لأنهم لم يعرفوه، وباعوه من قوم بملْح، كيلاً بكيل، وسرُّوا بذلك وقالوا: أخذْنا منهم ملحاً طيّباً، ودفعنا إليهم ملحاً غير طيّب، وأصابوا من الجامات من الذهب والفضة ما لا يقع عليه العدّ لكثرته، فكان الرجل منهم يعرِض جامَيْن من ذهب على صاحبه، ليأخذ منه جاماً واحداً من فضة يعجبه بياضها ويقول: من يأخذ صَفْراوَيْن ببيضاء!

وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر، فكتب إلى سعد: لا تتبع الفُرْس، وقِفْ مكانك واتّخذه منزلاً. فنزل موضعَ الكوفة اليوم واختطّ مسجدَها، وبنى فيها الخطَط للعرب.

فأمّا وقعة نَهاوند، فإنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبريّ ذكر في كتاب التاريخ، أنّ عمر لما أراد أن يغزوَ العجم وجيوش كسرى وهي مجتمعة بنهاونْد، استشار الصحابة، فقام عثمان فتشهّد، فقال: أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وتكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يَمَنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرَمَيْن إلى المصريْن: البصرة والكوفة، فتلقَى جمعَ المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرتَ بمن معك ومَنْ عندك، قلّ في نفسك ما تكاثر من عدد القوم، وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر، إنك لا تستبقِي من نفسك بعد اليوم باقية، ولا تمتّعُ من الدنيا بعزيز، ولا تكون منها في حرز حريز. إنّ هذا اليوم له ما بعده، فاشهد بنفسِك ورأيك وأعوانك، ولا تغِبْ عنه.

قال أبو جعفر: وقام طلحة، فقال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتْك الأمور، وعجمتْك البلايا، وحنّكتك التجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا ننبو في يديك، ولا نَكلُ أمرَنا إلا إليك، فأمرْنا نُجبْ، وادعنا نُطِعْ، واحملنا نركبْ، وقُدْنا ننقَدْ، فإنك وليّ هذا الأمر، وقد بلوْتَ وجرّبت واختبرت، فلم ينكشفْ شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار.

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أمّا بعد، فإنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرةٍ

ولا قلّة، إنما هو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعزّه وأمدّه بالملائكة، حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعودٍ من الله، والله منجِزٌ وعدَه، وناصر جنده، وإنّ مكانك منهم مكانُ النظام من الخرَز، يجمعه ويمسكه، فإن انحلّ تفرّق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فإنهم كثير عزيز بالإسلام، أقم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة، فإنهم أعلامُ العرب ورؤساؤهم، وليشخص منهم الثلثان، وليقم الثلث، واكتُبْ إلى أهل البصرة أن يمدُّوهم ببعض مَنْ عندهم، ولا تُشخص الشام ولا اليمن، إنّك إن أشخصت أهل الشام مِنْ شامهم، سارت الروم إلى ذراريّهم، وإن أشخَصت أهلَ اليمن من يمنِهم سارت الحبشة إلى ذراريّهم، ومتى شخصتَ من هذه الأرض انقضتْ عليك العرب من أقطارها وأطرافها، حتى يكون ما تدع وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العَوْرات والعيالات. إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أميرُ العرب وأصلهم، فكان ذلك أشدَّ لكَلَبهم عليك. وأمّا ما ذكرتَ من مسير القوم، فإنّ الله هو أكرهُ لسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كُنّا نقاتل بالصبر والنصر.

فقال عمر: أجلْ! هذا الرأي، وقد كنت أحبّ أن أتابع عليه، فأشيروا عليّ برجل أولّيه ذلك الثَّغر. قالوا: أنت أفضل رأياً، فقال: أشيروا عليّ به، واجعلوه عراقيًّا قالوا: أنت أعلم بأهلِ العراق، وقد وَفَدُوا عليك، فرأيتَهم وكلّمتهم. قال: أما والله لأولّينّ أمرَهم رجلاً يكون عمْداً لأوّل الأسِنّة، قيل: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرّن، قالوا: هو لها.

وكان النّعمان يومئذٍ بالبصرة، فكتب إليه عمر، فولاّه أمرَ الجيش.

قال أبو جعفر: كتب إليه عمر: سِرْ إلى نهاوَنْد، فقد وليّتُك حربَ الفيروزان - وكان المقدّم على جيوش كسرى - فإن حَدَث بك حدَثٌ فعلى الناس حُذيفة بن اليمان، فإن حدث به حدث فعَلى الناس نعيم بن مقرّن، فإن فتح الله عليكم فاقِسمْ على الناس ما أفاء الله عليهم، ولا ترفع إليّ منه شيئاً، وإن نكث القوم فلا تراني ولا أراك، وقد جعلتُ معك طُلَيحة بن خويلد، وعَمرو بن معديكرب، لعلمهما بالحرب، فاستشرهما ولا تولّهما شيئاً.

قال أبو جعفر: فسارَ النّعمان بالعرب حتى وافى نَهاوند، وذلك في السنّة السابعة من خلافة عمر، وتراءى الجمعان، ونشب القتال، وحَجَزهم المسلمون في خنادقهم، واعتصموا بالحصون والمدُن، وشقّ على المسلمين ذلك، فأشار طليحة عليه، فقال: أرى أنْ تبعث خيلاً ببعض القوم وتحمّشهم[1]، فإذا استحمشوا خرج بعضهم، واختلطوا بكم فاستطرِدوا لهم، فإنّهم يطمعون بذلك، ثم تعطف عليهم حتى يَقْضِيَ الله بيننا وبينهم بما يحبّ.

---

(١) تحمشهم: تغضبهم. اللسان، مادة (حمش).

ففعل النعمان ذلك، فكان كما ظنّ طليحة، وانقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع، فلما أمعنوا في الانكشاف للمسلمين حَمَلَ النّعمان بالناس، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون مثله، وزلَق بالنعمان فرسه فصرع وأصيب، وتناول الراية نعيم أخوه، فأتى حذيفة لها فدفعها إليه، وكتَم المسلمون مُصابَ أميرهم، واقتتلوا حتى أظلم الليل، ورجعوا والمسلمون وراءهم، فعمِيَ عليهم قصدُهم فتركوه، وغشيَهم المسلمون بالسيوف، فقتلوا منهم ما لا يحصى، وأدرك المسلمون الفيروزانَ وهو هارب، وقد انتهى إلى ثنيّة مشحونة ببغال موقَرة عسلاً، فحبسته على أجَلِهِ، فقتل، فقال المسلمون: إن لله جنوداً من عسل.

ودخل المسلمون نهاوند فاحتوَوْا على ما فيها، وكانت أنفالُ هذا اليوم عظيمة، فحمِلت إلى عمر، فلما رآها بكى، فقال له المسلمون: إنّ هذا اليوم يوم سرور وجذَل، فما بكاؤك؟ قال: ما أظنّ أنّ الله تعالى زَوَى هذا عن رسول الله ﷺ وعن أبي بكر إلا لخيرٍ أراده بهما، ولا أراه فتحه عليّ إلا لشرٍّ أُريدَ بي، إنّ هذا المال لا يلبث أن يفتِن الناس.

ثم رفع يده إلى السماء يدعو ويقول: اللهمّ اعصمني ولا تكِلْني إلى نفسي، يقولها مراراً، ثم قسمه بين المسلمين عن آخره[١].

١٤٧ - ومن خطبة له عليه السلام في الغاية من بعثة الرسول

الأصل: **فَبَعثَ آللهُ مُحَمَّداً صَلَّى آللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالْحَقِّ، لِيُخرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ ٱلأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ ٱلْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ. وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلاَتِ، وَٱحْتَصَدَ مَنِ ٱحْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!**

الشرح: الأوثان: جمع وَثَن، وهو الصَّنَم، ويجمع أيضاً على وُثْن، مثل أسَد وآساد وأسْد، وسمي وَثَناً لانتصابه وبقائه على حال واحدة، من قولك: وثِنَ فلان بالمكان، فهو واثن، وهو الثابت الدائم.

قوله: «فتجلّى سبحانه لهم»، أي ظهر من غير أن يُرَى بالبصر، بل بما نبّههم عليه في القرآن من قِصص الأولين، وما حَل بهم من النقمة عند مخالفة الرسل.

(١) انظر تاريخ الطبري: ٣/ ٢١٩.

والمَثُلات، بضم الثاء: العقوبات.

فإن قلت: ظاهر هذا الكلام أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الناس ليقِرُّوا بالصانع ويثبتوه، وهذا خلاف قول المعتزلة، لأنّ فائدة الرسالة عندهم هي إلطاف المكلّفين بالأحكام الشرعيّة المقرّبة إلى الواجبات العقلية، والمبعّدة من المقبّحات العقلية، ولا مدخلَ للرسول في معرفة الباريء سبحانه؛ لأنّ العقل يُوجبها، وإن لم يبعث الرسل!

قلت: إنّ كثيراً من شيوخنا أوجبوا بعثة الرسل، إذا كان في حثّهم المكلّفين على ما في العقول فائدة، وهو مذهب شيخنا أبي عليّ رحمه الله، فلا يمتنع أن يكون إرسال محمد ﷺ إلى العرب وغيرهم، لأنّ الله تعالى علم أنّهم مع تنبيهه إياهم - على ما هو واجب في عقولهم من المعرفة - أقربُ إلى حصول المعرفة، فحينئذ يكون بعثه لطفاً، ويستقيم كلام أمير المؤمنين.

الأصل: وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ ٱلْحَقِّ، وَلاَ أَظْهَرَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَلاَ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْكَذِبِ عَلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ، وَلاَ أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ فِي ٱلْبِلاَدِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفَ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ، فَقَدْ نَبَذَ ٱلْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ، فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ، فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ فِي ٱلنَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ؛ لِأَنَّ ٱلضَّلاَلَةَ لاَ تُوَافِقُ ٱلْهُدَى وَإِنِ ٱجْتَمَعَا.

فَاجْتَمَعَ ٱلْقَوْمُ عَلَى ٱلْفُرْقَةِ، وَٱفْتَرَقُوا عَنِ ٱلْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُم أَئِمَّةُ ٱلْكِتَابِ، وَلَيْسَ ٱلْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنه إِلاَّ ٱسْمُهُ، وَلاَ يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ، وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى ٱللهِ فِرْيَةً، وَجَعَلُوا فِي ٱلْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ ٱلسَّيِّئَةِ، وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ، وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ ٱلْمَوْعُودُ ٱلَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ ٱلْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ ٱلتَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ ٱلْقَارِعَةُ وَٱلنِّقْمَةُ.

الشرح: أخبر عليه السلام أنّه سيأتي على الناس زمان من صفته كذا وكذا، وقد رأيناه ورآه مَن كان قبلنا أيضاً، قال شُعبة إمام المحدّثين: تسعة أعشار الحديث كذب. وقال الدارقطني: ما الحديث الصحيح في الحديثِ إلا كالشعرة البيضاء في الثّور الأسود. وأمّا غلَبة الباطل على الحقّ حتى يخفى الحق عنده، فظاهرة.

وأبُور: أفسد، من بار الشيء، أي هلك. والسلعة: المتاع، ونبذ الكتاب: ألقاه ولا يؤويهما: لا يضمّها إليه، وينزلهما عنده.

والزَّبْر: مصدر زبرت أزبُر بالضم، أي كتبت، وجاء يزبِر بالكسر، والزِّبْر بالكسر: الكتاب وجمعه زبور، مثل قِدْر وقدور، وقرأ بعضهم: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾(1)، أي كتبا. والزَّبُور، بفتح الزّاي: الكتاب المزبور، فَعُول بمعنى مفعول، وقال الأصمعيّ: سمعت أعرابياً يقول: أنا أعرف بِزِبْرَتي أي خطي وكتابتي.

ومَثَلوا بالصالحين، بالتخفيف: نَكَّلُوا بهم، مثَلت بفلان أمثُل بالضمّ مَثْلاً بالفتح وسكون الثاء، والاسم المُثْلة بالضم، ومن روى «مَثّلوا» بالتشديد، أراد جَدَعوهم بعد قتلهم.

«وعلى» في قوله: «وسمّوا صدقهم على الله فرية»، ليست متعلّقة بصدقهم، بل بفرية، أي وسمّوا صدقهم فرية على الله، فإن امتنع أنْ يتعلق حرف الجرّ به لتقدّمه عليه، وهو مصدر، فليكن متعلّقاً بفعل مقدّر دلّ عليه هذا المصدر الظاهر. وروي: «وجعلوا في الحسنة العقوبة السيئة» والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن.

والموعود هاهنا: الموت. والقارعة: المصيبة تقرَع، أي تلقي بشدّة وقوة.

الأصل: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَ ٱللهَ وُفِّقَ، وَمَنِ ٱتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فَإِنَّ جَارَ ٱللهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ.

وَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ ٱللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُه أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلاَمَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلاَ تَنْفِرُوا مِنَ ٱلْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ ٱلأَجْرَبِ، وَٱلْبَارِىءِ مِنْ ذِي السَّقَم.

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ. فَٱلْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ، وَمَوْتُ ٱلْجَهْلِ، هُمُ ٱلَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، لاَ يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ.

(1) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

الشرح: **من استنصح الله: من أطاع أوامره وعلم أنّه يهديه إلى مصالحه، ويردّه عن مفاسده ويرشده إلى ما فيه نجاته، ويصرفه عمّا فيه عَطَبُه.**

والتي هي أقوم: يعني الحالة والخَلّة التي اتّباعها أقوم، وهذا من الألفاظ القرآنية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[(١)]. والمراد بتلك الحالة المعرفة بالله وتوحيده ووعدِ له.

ثم نهى عيه السلام عن التكبر والتعظّم وقال: إنّ رفعةَ القَومِ الذِينَ يعرفون عظمة الله أن يتواضَعُوا له. وما هاهنا، بمعنى أيّ شيء، ومن روى بالنصب جعلها زائدة. وقد ورد في ذم التعظم والتكبّر ما يطول استقصاؤه، وهو مذموم على العباد، فكيف بمنْ يتعظّم على الخالق سبحانه وإنه لمن الهالكين! وقال رسول الله ﷺ لمّا افتخر: «أنا سيّد ولدِ آدم»، ثم قال: «ولا فَخْر»[(٢)]، فجهر بلفظة الافتخار، ثمّ أسقط استطالة الكبر، وإنّما جهر بما جهر به؛ لأنه أقامه مقام شكر النعمة والتحدّث بها، وفي الحديث المرفوع عنه ﷺ: **«إنّ الله قد أذهبَ عنكم حَمِيَّة الجاهلية وفخرَها بالآباء، الناس بنو آدم، وآدم من تراب، مؤمن تقيّ، وفاجر شقيّ لينتهِيَنَّ أقوامٌ يفخرون برجال، إنّما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكونُنّ أهون على الله من جُعلان تدفع النّتن بأنفها»**[(٣)].

قوله: «واعلَمُوا أنّكم لن تعرفوا الرّشد حتى تعرفوا الذي تَرَكه»، فيه تنبيه على أنه يجب البراءة من أهل الضلال، وهو قول أصحابنا جميعهم، فإنّهم بين مكفّر لمن خالف أصول التوحيد والعدْل - وهم الأكثرون - أو مفسّق، وهم الأقلون، وليس أحدٌ منهم معذوراً عند أصحابنا وإن ضلّ بعد النظر، كما لا تعذر اليهود والنصارى إذا ضلّوا بعد النظر.

ثم قال عليه السلام: «فالتمسوا ذلك عند أهله»، هذا كناية عنه عليه السلام، وكثيراً ما يسلك هذا المسلك، ويعرّض هذا التعريض، وهو الصادق الأمين العارف بأسرار الإلهيّة.

ثم ذكر أنّ هؤلاء الذين أمَرَ باتّباعهم ينبيء حكمهم عن علمهم؛ وذلك لأنّ الامتحان يظهر خبيئة الإنسان.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) أخرجه بالشطر الأول منه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا على جميع الخلق (٢٢٧٨)، وبكامله أخرجه الترمذي كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، وأحمد في «مسنده» (١٠٤٠٢).

ثم قال: «وصمتهم عن نطقهم»، صمت العارف أبلغُ من نطق غيره، ولا يخفى فضل الفاضل وإن كان صامتاً.

ثم ذكر أنّهم لا يخالفون الدّين لأنهم قُوّامه وأربابه، ولا يختلفون فيه؛ لأنّ الحقّ في التوحيد والعدل واحد، فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه، كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق.

وصامت ناطق؛ لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بدّ له من مترجم، فهو صامت في الصورة، وهو في المعنى أنطق الناطقين؛ لأن الأوامر والنواهي والآداب كلّها مبنيّة عليه، ومتفرّعة عليه.

١٤٨ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر أهل البصرة

الأصل: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاَ يَمُتَّانِ إِلَى ٱللهِ بِحَبْلٍ، وَلاَ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ.

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يَكْشِفُ قِنَاعَهُ بِهِ.

وَٱللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا.

قَدْ قَامَتِ ٱلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ ٱلْخَبَرُ، وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ.

وَٱللهِ لاَ أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ، وَيَحْضُرُ ٱلْبَاكِيَ، ثُمَّ لاَ يَعْتَبِرُ.

الشرح: ضمير التثنية راجعٌ إلى طَلْحةَ والزُّبيرِ رضي الله عنهما. ويمتّان: يتوسّلان، الماضي ثلاثيّ، مَتّ يَمُتُّ بالضم والضَّبّ: الحقد والمحتسبون: طالبوا الحِسْبة، وهي الأجر. ومستمع اللّدْم كناية عن الضبُع، تسمع وقع الحجر بباب جُحرها من يد الصائد فتنخذِل وتكفّ جوارحَها إليها حتى يدخل عليها فيربطها، يقول: لا أكون مقرًّا بالضيم راغناً، أسمع النّاعي المخبِر عن قتل عسكر الجمل الحكيم بن جبلة وأتباعه، فلا يكون عندي من التغيير والإنكار لذلك، إلا أن أسمعه وأحضر الباكين على قتلاهم.

وقوله: «لكل ضلّة علّة، ولكل ناكث شُبهة» هو جواب سؤال مقدّر، كأنه يقول: إن قيل: لأيّ سبب خرج هؤلاء؟ فإنّه لا بدّ أن يكون لهم تأويل في خروجهم، وقد قيل: إنهم يطالبون بدم عثمان، فهو عليه السلام قال: كلّ ضلالة فلا بدّ لها من علّة اقتضتها، وكلّ ناكثٍ فلا بدّ له من شبهة يستنِد إليها.

وقوله: «لينتزعَنّ هذا نفس هذا» قول صحيح لا ريبَ فيه؛ لأنّ الرياسة لا يمكن أنْ يدبّرها اثنان معاً، فلو صحّ لهما ما أراداه لوثب أحدهما على الآخر فقتله، فإن الملك عقيم، وقد ذكَرَ أربابُ السّيرة أنّ الرجلين اختلفا من قَبْلِ وقوع الحرب، فإنهما اختلفا في الصلاة، فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير، يصلي هذا يوماً، وهذا يوماً، إلى أن تنقضيَ الحرب.

ثم إنّ عبد الله بن الزبير ادّعى أن عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار، واحتجّ في ذلك بأنه استخلفه على الصلاة، واحتجّ تارة أخرى بنصٍّ صريح زعمه وادّعاه، وطلب طلحة من عائشة أن يسلّم الناسُ عليه بالإمْرة، وأدلَى إليها بالتيميّة، وأدلى الزبير إليها بأسماء أختها، فأمَرت الناس أنْ يسلّموا عليهما معاً بالإمْرَة.

واختلفا في تولّي القتال، فطلبه كلّ منهما أولاً، ثم نكَلَ كلٌّ منهما عنه وتفادَى منه.

وقد ذكرنا في الأجزاء المتقدمة قطعة صالحة من أخبار الجمل.

وقعة يوم الجمل

وروى أبو مخنف، قال: لما تزاحَفَ الناس يومَ الجمل والتقَوْا، قال عليّ عليه السلام لأصحابه: لا يرمِينّ رجل منكم بسهم، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح، حتى أحدث إليكم، وحتى يبدؤوكم بالقتال وبالقتل. فرمى أصحاب الجمل عسكر عليّ عليه السلام بالنّبل رمياً شديداً متتابعاً، فضجّ إليه أصحابه، وقالوا: عقرتْنا سهامهم يا أمير المؤمنين. وجيء برجل إليه، وإنه لفي فُسْطاطٍ له صغير، فقيل له: هذا فلان قد قُتِل. فقال: اللهمّ اشهد، ثم قال: أعْذِروا إلى القوم، فأتيَ برجل آخر فقيل: وهذا قد قتل: فقال: اللهمّ اشهد، أعذِروا إلى القوم، ثم أقبل عبد الله بنُ بدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، يحمل أخاه عبد الرحمن بنَ بُدَيْل، قد أصابه سهم فقتله، فوضعه بين يدي عليّ عليه السلام، وقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا أخي قد قتِل، فعند ذلك استرجع عليٌّ عليه السلام، ودعا بدِرْعِ رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفُضُول فلبسها، فتدلّت بطنه فرفعها بيده، وقال لبعض أهله، فحزم وسطَه بعمامة، وتقلّد ذا الفقار، ودفع إلى ابنه محمد راية رسول الله صلى الله عليه وآله السوداء، وتعرف بالعُقاب، وقال لحسن وحسين عليهما السلام: إنما دفعت الراية إلى أخيكما. وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال أبو مخنف: وطاف عليّ عليه السلام عَلَى أصحابه، وهو يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]. ثم قال: أفرَغَ الله علينا وعليكم الصبر، وأعزّ لنا ولكم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

النصر، وكان لنا ولكم ظهيراً في كلّ أمر. ثم رفع مصحفاً بيده، فقال: مَنْ يأخذ هذا المصحف، فيدعوهم إلى ما فيه، وله الجنة؟ فقام غلام شابّ اسمه مسلم، عليه قَبَاء أبيض، فقال: أنا آخذُه، فنظر إليه عليّ وقال: يا فَتى، إن أخذته، فإنّ يدك اليمنى تقطع، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل فقال: لا صبر لي على ذلك، فنادى عليّ ثانية، فقام الغلام، وأعاد عليه القول، وأعاد الغلام القول مراراً، حتّى قال الغلام: أنا آخذه، وهذا الذي ذكرتَ في الله قليل، فأخذه وانطلق، فلما خالطهم ناداهم: هذا كتابُ الله بيننا وبينكم. فضربه رجلٌ فقطع يده اليمنى، فتناوله باليسرى فضربه أخرى فقطع اليسرى، فاحتضنه فضربوه بأسيافهم، حتى قتل فقالت أم ذريح العبديّة في ذلك:

يا ربّ إنّ مسلماً أتاهُمُ بمصحفٍ أرسله مولاهمُ
للعدل والإيمان قد عادهمُ يتلو كتابَ الله لا يخشاهمُ
فخضبوا من دمه ظُبَاهُمُ وأمّهم واقفةٌ تَراهُمُ
تأمرُهم بالغيّ لا تنهاهمُ

قال أبو مخنف: فعند ذلك أمر علي عليه السلام ولده محمداً أن يحمَل الراية، فحمل وحمل معه النّاس، واستحرّ القتلُ في الفريقين وقامت الحرب على ساق.

مقتل طلحة والزبير

قال: فأما طلحة، فإنّ أهلَ الجمل لما تضعضعوا قال مروان: لا أطلُب ثأر عثمان من طلحة بعد اليوم! فانتحى له بسهْم فأصاب ساقه، فقطع أكحَله، فجعل الدم يَبِضُّ[1]، فاستدعى مِنْ مولًى له بغلة، فركبها وأدبر، وقال لمولاه: ويحك! أما من مكانٍ أقدِر فيه على النزول، فقد قتلني الدم! فيقول له مولاه: انجُ، وإلاّ لحقك القوم، فقال: بالله ما رأيت مصرَع شيخ أضيعَ من مصرعي هذا! حتى انتهى إلى دار من دُور البصرة، فنزلها ومات بها.

وقد رُوِي أنه رُمِي قبل أنْ يرميَه مروان، وجرح في غير موضع من جسده.

وروى أبو الحسن المدائنيّ أنّ علياً عليه السلام مرّ بطلحة، وهو يكيدُ بنفسه، فوقف عليه وقال: أما والله إن كنتُ لأبغض أنْ أراكم مصرّعين في البلاد، ولكن ما حتم واقع، ثم تمثّل:

وما تدري إذا أزمَعت أمراً بأيّ الأرض يدركك المقِيلُ
وما يدري الفقير مَتَى غِناهُ ولا يدري الغنيّ متى يَعِيلُ!
وما تدري إذا ألقحت شَوْلاً أتُنتَجُ بعد ذلك أم تَحِيلُ

---

(١) يَبِضُّ: يخرج قليلاً قليلاً. القاموس، مادة (بضض).

وأما الزُّبير فقتله ابن جُرموز غيلةً بوادي السباع، وهو منصرف عن الحرب، نادم على ما فرَط منه، وتقدّم ذكر كيفية قتله فيما سبق.

وروى الكلبيّ، قال: كان العِرْق الذي أصابه السهم إذا أمسكه طلحة بيده استمسك، وإذا رفع يده عنه سال، فقال طلحة: هذا سهم أرسله الله تعالى، وكان أمرُ الله قَدَراً مقدوراً، ما رأيت كاليوم دم قرشيّ أُضِيع!

قال: وكان الحسن البصريّ إذا سمع هذا وُحِكي له، يقول: ذُقْ عَقْعَق[1]!

وروى أبو مخنف، عن عبد الله بن عوف، عن نافع، قال: سمعت مَرْوان بن الحكم يقول: أنا قتلتُ طلحة.

وقال أبو مخنف: وقد قال عبد الملك بن مروان: لولا أن خبرني أنّه رمَى طلحة فقتله، ما تركت تيْميًّا إلا قتلتُه بعثمان قال: يعني أنّ محمد بن أبي بكر وطلحة قتلاه، وكانا تَيْميَّيْن.

قال أبو مخنف: وحدّثنا عبد الرحمن بن جُندَب، عن أبيه جندب بن عبد الله، قال: مررتُ بطلحة، وإنّ معه عصابة يقاتل بهم، وقد فَشَتْ فيهم الجراح، وكَثَرَهُم الناس، فرأيتُه جريحاً، والسيف في يده، وأصحابه يتصدّعون عنه رجلاً فرجُلاً، واثنين فاثنين، وأنا أسمعه، وهو يقول: عبادَ الله، الصبرَ الصبرَ، فإنّ بعد الصبر النّصر والأجر، فقلت له: النّجاء النجاء! ثكلتك أمّك! فوالله ما أجِرت ولا نُصِرت، ولكنك وُزِرْتَ وخسرت، ثم صِحْتُ بأصحابه، فانذعروا عنه، ولو شئتُ أن أطْعنه لطعنته، فقلت له: أما والله لو شئت لجدّلتك في هذا الصعيد، فقال: والله لهلكت هلاك الدنيا والآخرة إذَن! فقلت له: والله لقد أمسيتَ وإنّ دمك لحلال، وإنّك لمن النادمين، فانصرف ومعه ثلاثة نَفَر، وما أدري كيف كان أمره إلاّ أنّي أعلم أنّه قد هلك.

ورُوي أنّ طلحة قال ذلك اليوم: ما كنت أظن أنّ هذه الآية نزلت فينا: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[2].

وروى المدائنيّ، قال: لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكاناً ينزله، جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب عليّ عليه السلام: أنا طلحة، من يجيرني! يكررها. قال: فكان الحسن البصريّ إذا ذكر ذلك يقول: لقد كان في جوار عريض[3].

---

(١) العقعق: العَاقّ. اللسان، مادة (عقق).
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.
(٣) أخرجه السيد مرتضى العسكري في أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ٢٢٨.

١٤٩ - ومن كلام له عليه السلام قبل موته

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِىءٍ لاَقٍ ما يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الأَجَلُ مَساقُ النَّفْسِ، وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافاتُهُ.

كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُها عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الأمْرِ، فَأَبَى اللهُ إلاَّ إخْفاءَهُ. هَيْهات! عِلْمٌ مَخْزُونٌ.

أمَّا وَصِيَّتِي، فالله لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، ومحمداً صَلَّى الله عَلَيْه وَسلَّم فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْباحَيْن، وخَلاَكُمْ ذَمٌّ ما لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِىءٍ مِنكم مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنه الْجَهَلَةِ. رَبٌّ رَحِيمٌ، ودِينٌ قَوِيمٌ، وَإمامٌ عَلِيمٌ.

أنا بِالأمْسِ صاحِبُكُمْ، وأنا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وغَداً مُفارِقُكُمْ! غَفَرَ الله لِيَ وَلَكُمْ! إنْ ثَبَتَتِ الْوَطْأَةُ في هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذاكَ، وَإنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ، فَإنَّا كُنَّا في أَفْياءِ أَغْصانٍ، ومَهَبِّ رِياحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غمامٍ. اضْمَحَلَّ في الجَوِّ مُتَلَفِّقُها، وعَفا في الأرْضِ مَخَطُّها.

وإنَّما كُنْتُ جاراً جاوَرَكُمْ بَدَنِي أيَّاماً، وسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاءً، ساكِنَةً بَعْدَ حَراكٍ، وصامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ. لِيَعِظَكُمْ هُدُوئي، وخُفُوتُ إطْرَاقِي، وسُكُونُ أطْرَافي، فإنَّهُ أوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرينَ مِنَ المَنْطِقِ الْبَلِيغِ، والْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ.

وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِىءٍ مرْصَدٍ لِلتَّلاَقِي! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، ويُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكاني، وقِيامِ غَيْرِي مَقامِي.

الشرح: أطردتُ الرجل، إذا أمرتَ بإخراجه وطردِه، وطردتُه إذا نفيتَه وأخرجتَه، فالإطراد أدلّ على العزّ والقهر من الطرد، وكأنه عليه السلام جعل الإيام أشخاصاً يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه، أي ما زِلْتُ أبحث عن كيفيّة قتلي، وأيّ وقت يكون بعينه، وفي أيّ أرض يكون، يوماً يوماً، فإذا لم أجده في اليوم أطردته واستقبلت غده، فأبحث فيه أيضاً فلا أعلم، فأبعده وأطرده، وأستأنف يوماً آخر، هكذا حتى وقع المقدور. وهذا الكلام يَدُلّ على أنه لم يكن يعرف حال قتله معرفة مفصّلة من جميع الوجوه، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعلمه بذلك علماً مجملاً؛ لأنه قد ثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له: «ستضرَب على هذه - وأشار إلى هامته - فتخضب منها هذه -

وأشار إلى لحيته»[1]، وثبت أنه ﷺ قال له: «أتعلم مَنْ أشقىٰ الأولين»؟ قال: نعم، عاقر الناقة، فقال له: «أتعلم مَنْ أشقى الآخِرين»؟ قال: لا، قال: «من يضربك هاهنا، فيخضب هذه»[2].

وكلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ يدلّ على أنّه بعد ضرب ابن مُلجم له لا يقطع على أنه يموت من ضربته، ألا تراه يقول: إن ثبتت الوطأة في هذه المزلّة فذاك، وإن تدحَض فإنّما كُنّا في أفياء أغصان، ومهابّ رياح، أي إن سلمتُ فذاك الذي تطلبونه، يخاطب أهلَه وأولاده، ولا ينبغي أن يقال: «فذاك ما أطلبه»؛ لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يطلب الآخرة، أكثَر من الدنيا. وفي كلامه المنقول عنه ما يؤكّد ما قلناه، وهو قوله: «إن عشتُ فأنا وليّ دمي، وإن مِتّ فضربة بضربة».

وليس قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وأنا اليوم عِبْرة لكم، وغداً مفارقكم» وما يجري مجراه من ألفاظ الفصل بناقض لما قلنا، وذلك لأنّه لا يعني غداً بعينه، بل ما يستقبل من الزمان، كما يقول الإنسان الصحيح: أنا غداً ميّت، فمالي أحرص على الدنيا! ولأنّ الإنسان قد يقول في مرضه الشديد لأهله وولده: ودّعْتُكم وأنا مفارقكم، وسوف يخلو منزلي منّي، وتتأسّفون عَلَى فراقي، وتعرفون موضعي بعدي، كله على غَلَبة الظنّ، وقد يقصد الصالحون به العظة والاعتبار وجذب السامعين إلى جانب التقوى، وردْعهم عن الهوى وحبّ الدنيا.

فإن قلت: فما تصنع بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ لابن ملجَم:

أُرِيــدُ حِـبَـاءهُ وَيُـريــدُ قَـتْـلِـي   عَـذيـرَك مِـن خَـلِـيـلِـكِ مِـنْ مُـرَادِ[3]

وقول الخلّص من شيعته: فهلاّ تقتله! فقال: فكيف أقتل قاتلي! وتارة قال: إنّه لم يقتلني، فكيف أقتل من لم يقتُل! وكيف قال في البطّ الصائح خَلْفه في المسجد، ليلة ضرَبه ابن ملجم: دعوهنّ. فإنهنّ نوائح. وكيف قال تلك الليلة: إنّي رأيت رسول الله ﷺ، فشكوتُ إليه، وقلت: ما لقيتُ من أمتك من الأود واللّدد! فقال: ادع الله عليهم، فقلت: اَللهم أبدلْني بهم خيراً منهم، وأبدِلْهم بي شرًّا مني! وكيف قال: إني لا أُقتَلُ محارباً، وإنما أُقتَل فَتْكاً وغيلة، يقتلني رجلٌ خامل الذكر. وقد جاء عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذا الباب آثار كثيرة.

قلت: كلّ هذا لا يدلّ على أنه كان يعلم الأمر مفصّلاً من جميع الوجوه، ألا ترى أنه ليس

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٥٩٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٥٨)، والطبراني في «الكبير» (١٧٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣١١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٨٥)، والبزار في «مسنده» (١٤٢٤).

(٣) عذيرك: أي هات من يعذرك. السان، مادة (عذر).

في الأخبار والآثار ما يدلّ على الوقت الذي يقتل فيه بعينه، ولا على المكان الذي يقتل فيه بعينه! وأما ابنُ ملجم، فمن الجائز أن يكون علم أنه هو الذي يقتله، ولم يعلم علماً محققاً أن هذه الضربة تزهَق نفسه الشريفة منها، بل قد كان يجوز أن يُبِلّ ويُفيق منها، ثم يكون قتله فيما بعد عَلَى يد ابن ملجم، وإن طال الأمد. وليس هذا بمستحيل، وقد وقع مثله، فإنّ عبد الملك جرح عمرو بن سعيد الأشدق في أيام معاوية على منافرةٍ كانت بينهما فعفا عمرو عنه، ثم كان من القَضاء والقدر أنّ عبد الملك قتل عمراً أيضاً بيده ذبحاً، كما تذبح الشاة.

وأما قوله في البط: «دعوهنّ فإنهن نوائح» فلعلّه علم أنه تلك الليلة يصاب ويجرح، وإن لم يعلم أنّه يموت منه والنوائح قد ينحنّ على المقتول وقد ينحن على المجروح، والمنام والدّعاء لا يدلّ على العلم بالوقت بعينه، ولا يدلّ على أن إجابة دعائه تكون على الفور لا محالة.

ثم نعود إلى الشرح.

أمّا قوله: «كلّ امرئ لاق ما يفرّ منه في فراره»، أي إذا كان مقدوراً، وإلاّ فقد رأينا مَنْ يفرّ من الشيء ويسلم؛ لأنه لم يقدّر، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1]، وقوله: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[2] ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[3]، وفي القرآن العزيز مثل هذا كثير.

قوله: «والأجل مَسَاق النفس» أي الأمر الذي تساق إليه، وتنتهي عنده، وتقف إذا بلغته فلا يبقى له حينئذ أكلة في الدنيا.

قوله: «والهرب منه موافاتُه»، هذا كلام خارج مخرج المبالغة في عدم النّجاة، وكون الفرار غيرَ مغنٍ ولا عاصم من الموت، يقول: الهرب بعينه من الموت موافاة للموت، أي إتيان إليه، كأنه لم يرتض بأن يقول: الهارب لا بدّ أن ينتهيَ إلى الموت، بل جعل نفس الهرب هو ملاقاة الموت.

قوله: «أبحثها» أي أكشفها، وأكثر ما يستعمل «بحث» مُعَدًى بحرف الجر، وقد عدّاه هاهنا إلى «الأيام» بنفسه وإلى «مكنون الأمر» بحرف الجرّ، وقد جاء: بحثت الدّجاجة التراب، أي نبشته.

قوله: «فأبى الله إلا إخفاءه، هيهات علم مخزون»! تقديره: هيهات ذلك! مبتدأ وخبره، هيهات اسم للفعل، معناها بعد، أي علْم هذا العيب علم مخزون مصون، لم أطلّع عليه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة الجمعة، الآية: ٨.

فإن قلت: ما معنى قوله: «كم اطردت الأيام أبحثها»؟ وهل عِلم الإنسان بموته كيف يكون، وفي أيِّ وقت يكون، وفي أيِّ أرض يكون، مما يمكن استدراكه بالنظر والفكر والبحث؟

قلت: مراده عليه السلام أنّي كنت في أيام رسول الله ﷺ أسأله كثيراً عن هذا الغيب، فما أنبأني منه إلا بأمور إجمالية غير مفصّلة، ولم يأذن الله تعالى في إطّلاعي على تفاصيل ذلك.

قوله: «فالله لا تشركوا به شيئاً» الرواية المشهورة «فالله» بالنصب، وكذلك «محمداً» بتقدير فعل؛ لأنَّ الوصية تستدعي الفعل بعدها، أي وحّدُوا الله، وقد روي بالرفع، وهو جائز على المبتدأ والخبر.

قوله: «أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخَلاَكم ذمّ ما لم تشرُدوا»، كلام داخلٌ في باب الاستعارة، شبّه الكتاب والسنّة بعمودَيِ الخيْمة، وبمصباحَيْن يُستضاء بهما. وخَلاَكم ذمٌّ: كلمة جاريةٌ مجرى المثل، معناها: ولاَ ذمّ عليكم، فقد أعذرتمُ. وذمّ، مرفوع بالفاعلية، معناه: عَدَاكم وسقَط عنكم.

فإن قلت: إذا لم يشركوا بالله ولم يضيّعوا سنة محمد ﷺ فقد قاموا بكلّ ما يجب، وانتهوْا عن كلّ ما يقبّح، فأيّ حاجة له إلى أن يستثنَي ويقول: «ما لم تشردوا»، وإنما كانَ يحتاج إلى هذه اللفظة لو قال: وصيّتي إليكم أن توحّدوا الله، وتؤمنوا بنبوّة محمد ﷺ، كان حينئذٍ يحتاج إلى قوله: «ما لم تشردوا» ويكون مرادُه بها فعلَ الواجبات، وتجنّب المقبحات؛ لأنّه ليس في الإقرار بالوحدانية والرسالة العمل، بل العمل خارج عن ذلك، فوجب إذا أوصى أن يوصِيَ بالاعتقاد والعمل، كما قال عمر لأبي بكر في واقعة أهل الرِّدّة: كيف تقاتلهم وهم مقرّون بالشهادتين، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت بأن أقاتلَ النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1]، فقال أبو بكر: إنه قال تتمة هذا: «فإذا هم قالوها عَصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها». وأداء الزكاة من حقها!

قلت: مراده بقوله: «ما لم تشردوا» ما لم ترجعوا عن ذلك فكأنه قال: خلاكم ذمّ إن وحّدتم الله واتّبعتم سنة رسوله، ودمتم على ذلك ولا شبهة أنّ هذا الكلام منتظم، وأنّ اللفظتين الأوليين ليستا بمغنيتين عن اللفظة الثالثة وبتقدير أن يغنيا عنه، فإنّ في ذكره مزيد تأكيد وإيضاح غير موجودين لو لم يذكر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2]، وليس لقائل أن يقول: مَنْ لا يخشى الله لا يكون مطيعاً لله والرسول، وأيّ حاجة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ (٢٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢١).

(٢) سورة النور، الآية: ٥٢.

به إلى ذكر ما قد أغنى اللفظُ الأول عنه! قوله: «حُمّل كلّ امرىء مجهوده، وخُفّفَ عن الجهلة»، هذا كلام متّصل بما قبله؛ لأنّه لما قال: «ما لم تشردُوا» أنبأ عَن تكليفهم كلّ ما وردت به السّنة النبوية: وأن يدوموا عليه، وهذا في الظاهر تكليفُ أمورٍ شاقة، فاستدرك بكلامٍ يدلّ على التخفيف، فقال: إن التكاليف على قَدْرِ المكلّفين، فالعلماء تكليفهم غير تكليف العامة، وأرباب الجهل والمبادىء كالنساء وأهل البادية وطوائف من النّاس، الغالبُ عليهم البلادة وقلّة الفهم، كأقاصي الحبشة والتّرك ونحوهم، وهؤلاء عند المكلفين غير مكلّفين، إلا بحمل التوحيد والعدل، بخلاف العلماء الذين تكليفهم الأمور المفصّلة وحلّ المشكلات الغامضة. وقد روي «حَمَل» على صيغة الماضي، و«مجهودَه» بالنصب، و«خَفّفَ» على صيغة الماضي أيضاً، ويكون الفاعل هو الله تعالى المقدّم ذكره، والرواية الأولى أكثر وأليق.

ثم قال: «ربّ رحيم» أي ربّكم رب رحيم. ودين قويم، أي مستقيم. وإمام عليم، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن الناس من يجعل «ربّ رحيم» فاعل «خفّف» على رواية من رواها فعلاً ماضياً وليس بمستحسن لأنّ عطف «الدين» عليه يقتضي أن يكون الدين مخففاً، وهذا لا يصحّ.

ثم دعا لنفسه ولهم بالغفران.

ثم قسّم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلة قسمةً حسنة، فقال: «أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عِبْرة لكم، وغدا مفارقكم» إنما كان عبرةً لهم لأنهم يرَوْنه بين أيديهم ملقىً صريعاً بعد أن صَرَعَ الأبطال، وقتل الأقران، فهو كما قال الشاعر:

أكّـالُ أشـلاءِ الـفَـوارِس بـالْـقَـنـا　　　أضـحـى بـهـنّ وشِـلْـوه مـأكـول

ويقال: دَحَضت قدمُ فلان، أي زلّت وزَلَقت.

ثم شبّه وجوده في الدنيا بأفياء الأغصان ومهابّ الرياح وظلال الغمام، لأنّ ذلك كلّه سريع الانقضاء لإثبات له.

قوله: «اضمحلّ في الجوّ متلفّقُها، وعَفَا في الأرض مَخَطُّها»، اضمحلّ ذهب، والميم زائدة، ومنه الضّحْل وهو الماء القليل، واضمحلّ السحاب: تقشّع وذهب، وفي لغة الكلابيين امضحلّ الشيء بتقديم الميم. ومتلفقّها: مجتمعها، أي ما اجتمع من الغيوم في الجو، والتلفيق: الجمع: وعَفَا: دَرَس، ومخطّها: أثرها، كالخطة.

قوله: «وإنما كنتُ جاراً جاوركم بَدَني أياماً»، في هذا الكلام إشعاراً بما يذهب إليه أكثر العقلاء من أمر النّفس، وأنّ هويّة الإنسان شيء غير هذا البدَن.

وقوله: «ستعقَبون مِنّي» أي إنما تجدون عَقيب فقدي جُثّة، يعني بدناً خلاء، أي لا رُوح فيه، بل قد أقفر من تلك المعاني التي كنتم تعرفونها وهي العقل والنطق والقوّة وغير ذلك. ثم

وَصف تلك الجُثّة فقال: «ساكنة بعد حَرَاك» بالفتح، أي بعد حَرَكة «وصامتة بعد نطق». وهذا الكلام أيضاً يُشعِر بما قلناه من أمرِ النَّفس، بل يصرّح بذلك، ألا تراه قال: «ستعقبون مني جثّة»، أي تستبدلون بي جثّة صفتها كذا، وتلك الجثّة جثته عليه السلام، ومحال أن يكون العِوَض والمعوّض عنه واحداً، فدلّ على أنّ هويّته عليه السلام التي أعقِبنا منها الجثّة غير الْجثّة.

قوله: «ليعظكم هدوّي»، أي سكوني، وَخفوت إطراقي، مثله خَفَت خُفوتاً سكن، وَخفت خُفاتاً مات فجأة. وإطراقه: إرخاؤه عينيه ينظر إلى الأرض، لضعفه عن رفع جفْنه، وسكون أطرافه: يداه ورجلاه ورأسه عليه السلام.

قال: «فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ، والقول المسموع»، وصدق عليه السلام! فإن خَطْباً أخرس ذلك اللسان، وَهدّ تلك القُوَى لخطبٌ جليل، ويجب أن يتّعظ العقلاء به. وما عسى يبلغ قول الواعظين بالإضافة إلى مَنْ شاهد تلك الحال، بل بالإضافة إلى من سمعها، وأفكر فيها، فضلاً عن مشاهدتها عِياناً! وَفي هذا الكلام شَبَهٌ من كلام الحكماء الذين تكلموا عند تابوت الإسكندر فقال أحدهم: حرّكَنا بسكونه.

وقال الآخر: قد كان سيفك لا يجفّ، وكانت مراقيك لا ترام، وكانت نقِماتك لا تؤمَن، وكانت عطاياك يُفرَح بها، وكان ضياؤك لا ينكشف، فأصبح ضوءك قد خَمَد، وأصبحت نقماتك لا تخشى، وَعطاياك لا تُرجى، وَمَراقِيك لا تُمْنَعُ، وسيفك لا يقَطع.

وقال الآخر: انظروا إلى حلم المنام كيف انجلى، وإلى ظِلّ الغمام كيف انسلى!

وقال آخر: ما كان أحوجَه إلى هذا الحلم، وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته!

وقال آخر: القدرة العظيمة التي ملأت الدنيا العريضة الطويلة، طُوِيَتْ في ذراعين.

وقال الآخر: أصبح آسرُ الأسراء أسيراً، وقاهر الملوك مقهوراً. كان بالأمس مالكاً، فصار اليوم هالكاً.

ثم قال عليه السلام: «وَدّعتكم وَداع امرىءٍ مرصَداً للتّلاقي»، أرصدته لكذا، أي أعددته له، وفي الحديث: «إلاّ أن أرصدَه لدينٍ عَلَيّ»[1]. والتلاقِي هاهنا: لقاء الله. ويروى: «ودَاعِيكم» أي وداعي إياكم، والوَداع مفتوح الواو.

ثم قال: «غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعدَ خلوّ مكاني، وقيام غيري مقامي»، هذا معنًى قد تداوله الناس قديماً وحديثاً، قال أبو تمام:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: من أجاب لبيك وسعديك (٦٢٦٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩١).

رَاحَــتْ وُفُــودُ الأرْضِ عَــنْ قَـبْـرِهِ فــارغــةَ الأيــدي مِــلاَءَ ٱلْـقُـلُـوبْ
قــد عــلــمــت مــا رزئــت إنــمــا يُـعـرف قـدرُ الـشـمـس بـعـد الـغـروبْ

وقال أبو الطيب:

ونَـذمّـهـمْ وَبِـهِـمْ عَـرَفْـنَـا فـضْـلَـهُ وبــضــدّهــا تــتــبــيّــن الأشــيــاءُ

ومن أمثالهم:

الـضـدّ يـظـهـر حـسـنـه الـضـدّ

ومنها أيضاً: لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية.

وإنما قال عليه السلام: «ويكشف لكم عن سرائري»؛ لأنهم بعد فقده وموته يظهر لهم ويثبت عندهم إذا رأوا وشاهدوا إمرة مَنْ بعده، أنه إنما كان يريد بتلك الحروب العظيمة وجه الله تعالى، وألاّ يظهر المنكر في الأرض، وإن ظنّ قوم في حياته أنّه كان يريد الملك والدنيا.

١٥٠ - ومن خطبة له عليه السلام ويومىء فيها إلى الملاحم

الأصل: وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ ٱلْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ، فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ ٱلْغَدُ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ ٱلْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ!

يَا قَوْمِ، هَذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لاَ تَعْرِفُونَ. أَلاَ وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ، لاَ يُبْصِرُ ٱلْقَائِفُ أَثَرَهُ، وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ، ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحذَ ٱلْقَيْنِ النَّصْلَ، تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بالتفسير فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ ٱلْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ.

الشرح: يذكر عليه السلام قوماً من فرق الضلال أخذوا يميناً وشمالاً، أي ضلّوا عن الطريق الوسطى التي هي منهاج الكتاب والسنّة، وذلك لأنّ كلّ فضيلة وحقّ فهو محبوس بطرَفَيْن خارجين عن العدالة، وهما جانبا الإفراط والتفريط، كالفطانة التي هي محبوسة بالجربزة والغباوة، والشجاعة التي هي محبوسة بالتهوّر والجبن، والجود المحبوس بالتبذير والشحّ، فمن لم يقعْ على الطريق الوسطى وأخذ يميناً وشمالاً فقد ضلّ.

ثم فسّر قوله: «أخذ يميناً وشمالاً»، فقال: «ظعنوا ظعناً في مسالك الغيّ، وتركوا مذاهب الرشد تركاً». ونصب «تركاً» و «ظعناً» على المصدرية، والعامل فيهما من غير لفظهما، وهو قوله: «أخذوا». ثم نهاهم عن استعجال ما هو معدّ، ولا بدّ من كونه ووجوده، وإنما سماه كائناً لقرب كونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(١)، ونهاهم أن يستبطئوا ما يجيء في الغد لقرب وقوعه، كما قال:

وإن غـداً لـلـنـاظـريـن قـريـب

وقال الآخر:

غـدٌ مـا غـد مـا أقـرب الـيـوم مـن غـد

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(٢).

ثم قال: كم من مستعجلٍ أمراً ويحرص عليه، فإذا حصل وَدّ أنه لم يحصل! قال أبو العتاهية:

مَـنْ عـاش لاقـى مـا يـسـو ء مـن الأمـور ومـا يـسـرُّ
ولـرب حَـشْـفِ فـوقَـه ذهـبٌ ويـاقـوت ودُرُّ

وقال آخر:

فـلا تـتـمـنَّـيَـنَّ الـدهـر شـيـئـاً فـكـم أمـنـيّـةٍ جـلـبـت مَـنِـيّـةْ

وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣). وتباشير الصبح: أوائله.

ثم قال: يا قومُ قد دنَا وَقت القيامة، وَظهور الفتن التي تظهر أمامها.

وإبّان الشيء، بالكسر وَالتشديد: وَقته وَزمانه، وَكنى عن تلك الأهوال بقوله: «وَدُنُوٌّ من طلعة ما لا تعرفون»؛ لأن تلك الملاحم والأشراط الهائلة غير معهود مثلُها، نَحو دابّة الأرض، والدجّال وَفتنته، وَما يظهر على يده من المخاريق وَالأمور الموهِمة، وَواقعة السُّفيانيّ وَما يقتل فيها من الخلائق الذين لا يحصَى عددهم.

ثم ذكر أن مهديّ آل محمد ﷺ، وهو الذي عني بقوله: «وإنّ مَنْ أدركَها منّا يسري في ظلمات هذه الفتن بسراج منير»، وهو المهديّ، وأتْباع الكتاب والسنة.

ويحذُو فيها: يقتفي ويتّبع مثال الصالحين، ليحلّ في هذه الفتن. ورِبقاً: أي حبلاً معقوداً.

ويعتِقُ رِقًّا، أي يستفِكّ أسْرَى، وينقذ مظلومين من أيدي ظالمين.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٨١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

ويصدَع شَعباً، أي يفرّق جماعة من جماعات الضلال. ويشعَبُ صَدْعاً: يجمع ما تفرّق من كلمة أهل الهدى والإيمان.

قوله عليه السلام: «في سترة عن الناس»، هذا الكلام يدلّ على استتار هذا الإنسان المشار إليه، وليس ذلك بنافع للإمامية في مذهبهم، وإن ظنوا أنه تصريح بقولهم، وذلك لأنّه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان، ويكون مستتراً مدة، وله دعاء يدعُون إليه، ويقرّرون أمره، ثم يظهر بعد ذلك الاستتار، ويملك الممالك، ويقهر الدّول، ويمهّد الأرض، كما ورد في قوله: «لا يبصر القائف»، أي هو في استتار شديدٍ لا يدركه القائف، وهو الذي يعرِف الآثار، والجمع «قَافة»، ولا يعرف أثره ولو استقصى في الطلب، وتابع النّظر والتأمل.

ويقال: شَحَذْتُ السّكين أشحَذُه شَحْذاً، أي حدّدته، يريد: لَيُحَرّضنّ في هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال، ولتُشحَذنّ عزائمهم كما يشحَذ الصَّيْقل السيف، ويرقّق حَدّه.

ثم وصف هؤلاء القوم المشحوذِي العزائم، فقال: تجْلَى بصائرُهم بالتنزيل، أي يكشف الرَّيْن والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وإلهامهم تأويلَه ومعرفة أسراره.

ثم صرّح بذلك فقال: «ويرمي بالتفسير في مسامعهم»، أي يكشف لهم الغطاء، وتخلَق المعارف في قلوبهم، ويلهَمون فَهْمَ الغوامض والأسرار الباطنة، ويغبَقون كأسَ الحكم بعد الصّبوح، أي لا تزال المعارف الربّانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحاً ومساءً، فالغَبوق كناية عن الفيْض الحاصل لهم في الآصال، والصبّوح كناية عمّا يحصل لهم منه في الغَدَوات، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزهد والحكمة والشجاعة، وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لوليّ الله الذي يجتبيه، ويخلقه في آخر أوقات الدنيا، فيكون خاتمة أوليائه، والذي يلقي عصا التكليف عنده.

الأصل: منها: وَطَالَ ٱلْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا ٱلْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا ٱلْغِيَرَ، حَتَّى إِذَا ٱخْلَوْلَقَ ٱلْأَجَلُ، وَٱسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى ٱلْفِتَنِ، وَٱشْتَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى ٱللهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي ٱلْحَقِّ، حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ ٱلْقَضَاءِ ٱنْقِطَاعَ مُدَّةِ ٱلْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهِمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ.

الشرح: هذا الكلام يتّصل بكلام قبله، لم يذكره الرضيّ رحمه الله، وهو وصف فئة ضالّة قد استولتْ وملَكت، وأملي لها لله سبحانه. قال عليه السلام: وطال الأمدُ بهم ليستكملوا الخزْي، ويستوجبوا الغِيَر، أي النعم التي يغيّرها بهم من نعم الله سبحانه، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن

تِلْكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[١]، وكما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

حتى إذا اخلولَق الأجَل، أي قارب أمرُهم الانقضاءَ، من قولك: اخلولق السّحاب، أي استوى، وصار خليقاً بأن يمطر، واخلولق الرسمُ: استوى مع الأرض. واستراح قوم إلى الفتن، أي صبا قومٌ من شيعتنا وأوليائنا إلى هذه الفئة، واستراحوا إلى ضلالها وفتنتها، واتّبعوها.

واشتالوا عن لَقاح حَرْبهم، أي رفعوا أيديهم وسيوفهم عن أن يشبّوا الحرب بينهم وبين هذه الفئة. مهادَنةً لها وسلماً وكراهية للقتال، يقال: شال فلان كذا، أي رفعه، واشتال «افتعل» هو في نفسِه، كقولك: حَجَم زيد عمراً، واحتجم هو نفسُه. ولَقاح حربهم: هو بفتح اللام، مصدر من لَقحت الناقة.

قوله: «لم يمنُّوا»، هذا جواب قوله: «حتى إذا»، والضمير في «يمنُّوا» راجع إلى العارفين الذين تقدّم ذكرهم في الفصل السابق ذكره، يقول: حتى إذا ألقى هؤلاء السّلام إلى هذه الفئة عجزاً عن القتال، واستراحوا من منابذتهم بدخولهم في ضلالتهم وفتنتهم، إمّا تقيَّة منهم، أو لشبهة دخلت عليهم، أنهض الله تعالى هؤلاء العارفين الشجعان الّذين خصّهم بحكمته، وأطلعهم على أسرار ملَكوته فنهضوا، ولم يمنُّوا على الله تعالى بصبرِهم، ولم يستعظموا أن يبذُلوا في الحقّ نفوسَهم، قال: حتّى إذا وافق قضاء الله تعالى وقَدَره كي ينهض هؤلاء بقضاء الله وقدره في انقضاء مدة تلك الفئة، وارتفاع ما كان شَمِل الخلْق من البلاء بملكها وإمْرتها، حَمل هؤلاء العارفون بصائرَهم على أسيافهم. وهذا معنى لطيف، يعني أنّهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس، وكشفوها وجرّدوها من أجفانها، مع تجريد السيوف من أجفانها، فكأنها شيء محمول على السيوف يبصره مَنْ يبصرِ السيوف، ولا ريبَ أنّ السيوف المجرّدة من أجلى الأجسام للأبصار، فكذلك ما يكون محمولاً عليها، ومِن الناس مَنْ فسّرِ هذا الكلام، فقال: أراد بالبصائر جمع بصرة، وهو الدم، فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التي سفكتها هذه الفئة، وكأنّ تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم التي جَرّدوها للحرب، وهذا اللفظ قد قاله بعض الشعراء المتقدمين بعينه:

رَاحُوا بصائرَهُم عَلَى أكْتافِهِمْ ... وبَصِيرَتِي يَغْدُو بها عَتَدٌ وأي

وفسّره أبو عمرو بن العلاء، فقال: يريد أنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خَلْفَهم، أي لم يثأروا به، وأنا طلبت ثأري. وكان أبو عبيدة معمَر بن المثنّى يقول في هذا البيت: البصيرة: التّرس أو الدّرع، ويرويه: «حملوا بصائرهم».

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

الأصل: حَتَّى إِذَا قَبَضَ ٱللهُ رَسُولَهُ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى ٱلْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَٱتَّكَلُوا عَلَى ٱلْوَلَائِجِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ ٱلَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا ٱلْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِي ٱلْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ، عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى ٱلدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ.

الشرح: رجعوا على الأعقاب: تركوا ما كانوا عليه، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[(١)].

وغالتهم السُّبُل: أهلكَهُم اختلاف الآراء والأهواء، غاله كذا، أي أهلكه، والسُّبُل: الطرق.

والولائج: جمع وَلِيجة، وهي البِطانَة يتّخذها الإنسان لنفسه، قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[(٢)].

ووصلوا غير الرَّحِم، أي غير رحِم الرسول الله صلى الله عليه وآله، فذكرها عليه السلام ذِكْراً مطلقاً غير مضاف للعلْم بها، كما يقول القائل: «أهل البيت»، فيعلم السامع أنه أراد أهلَ بيت الرسول.

وهَجَرُوا السبب، يعني أهلَ البيت أيضاً، وهذه إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله: «خَلَّفْتُ فيكم الثَّقَلَين: كتاب الله وعِترتي أهل بيتي، حبْلان ممدودان من السماء إلى الأرض، لا يفترقان حتى يرِدَا عليّ الحوض»[(٣)]، فعبّر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ «السبب» لمّا كان النبي صلى الله عليه وآله قال: «حَبْلان»، والسبب في اللغة: الحبل.

عَنَى بقوله: «أمِرُوا بمودّته» قولَ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[(٤)].

قوله: «ونقلوا البناء عن رصّ أساسه،»، الرّصّ مصدر رَصَصْت الشيء أرصّه، أي ألصقت بعضه ببعض، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[(٥)]، وتَراصّ القوم في الصف، أي تلاصقوا. فبنوْه في غير موضعه! ونقلوا الأمر عن أهله إلى غير أهله.

ثم ذمّهم عليه السلام، وقال: «إنّهم معادن كلّ خطيئة، وأبواب كل ضاربٍ في غَمْرة»، الغمرة: الضّلال والجهل. والضّارب فيها: الداخل المعتقد لها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤. (٢) سورة التوبة، الآية: ١٦.

(٣) أخرج بنحوه النسائي في «السنن الكبرى» (٨١٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٤٢)، و«الصغير» (٣٧٦)، و«الكبير» (٤٩٢٢).

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٣. (٥) سورة الصف، الآية: ٤.

قد ماروا في الحيْرة، مارَ يمُور إذا ذهب وجاء، فكأنّهم يسبحون في الحيرة كما يَسْبَح الإنسان في الماء.

وذهَل فلان، بالفتح، يذْهَل. على سنّة من آل فرعون، أي على طريقة، وآل فرعون: أتباعه، قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(١).

من منقطِع إلى الدنيا: لا همّ له غيرها. راكن: مخلِد إليها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾(٢). أو مفارق للدين مباين: مزايل.

فإن قلت: أيّ فَرْق بين الرَّجُلين؟ وهل يكون المنقطِع إلى الدنيا إلاّ مفارقاً للدين؟

قلت: قد يكون في أهل الضلالَ مَنْ هو مفارق للدين مباين، وليس براكنٍ إلى الدنيا ولا منقطِع إليها، كما نرى كثيراً من أحْبَار النصارى ورهبانهم.

فإن قلت: أليس هذا الفصل صريحاً في تحقيق مذهب الإمامية؟

قلت: لا، بل نحمله على أنه عَنَى عليه السلام أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم من أفناء العرب، في أيام صِفّين، وهم الذين نقلوا البناء، وهجروا السبب، ووصلُوا غَير الرَّحِم، واتّكلوا على الولائج، وغالتهم السبُل، ورجعوا على الأعقاب، كعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومَرْوان بن الحكم، والوليد بن عُقْبة، وحبيب بن مسلمَة، وبُسْر بن أرطاة، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وحوشب، وذِي الكَلاع، وشُرَحْبيل بن السّمط، وأبي الأعور السلميّ، وغيرهم ممن تقدّم ذكرُنا له في الفصول المتعلّقة بصِفّين وأخبارها، فإنّ هؤلاء نقلوا الإمامة عنه عليه السلام إلى معاوية، فنقلوا البناء عن رصّ أصله إلى غير موضعه.

فإن قلت: لفظ الفصل يشهدُ بخلاف ما تأوّلته؛ لأنه قال عليه السلام: حتى إذا قبض الله رسوله رجع قوم على الأعقاب، فجعل رجوعَهم على الأعقاب عَقِيب قَبْض الرسول صلى الله عليه وآله، وما ذكرتَه أنتَ كان بعد قَبْض الرّسول بنيّف وعشرين سنة!

قلت: ليس يمتنع أن يكونَ هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب، لمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله، وأضمَرُوا في أنفسهم مشاقّة أمير المؤمنين وأذاه، وقد كان فيهم مَنْ يتحكّك به في أيام أبي بكر وعمر وعثمان، ويتعرّض له، ولم يكن أحدٌ منهم ولا من غيرهم يُقدِم على ذلك في حياة رسول الله. ولا يمتنع أيضاً أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدَادهم عن الإسلام بالكلّيّة، فإنّ كثيراً من أصحابنا يطعنون في إيمان بعض مَنْ ذكرناه ويعدّونهم من المنافقين، وقد كان سيفُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقمَعُهم ويردَعُهم عن إظهار ما في أنفسهم من

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٣.

النّفاق، فأظهر قومٌ منهم بعده ما كانوا يضمِرُونه من ذلك، خصوصاً فيما يتعلّق بأمير المؤمنين، الذي وَرَد في حقّه: «ما كنّا نعرفُ المنافِقِين عَلَى عَهْدِ رسول الله إلاّ ببغض عليّ بن أبي طالب»[١]، وهو خَبَرٌ محقّق مذكور في الصّحاح.

فإن قلت: يمنعك من هذا التأويل قوله: «ونقلوا البنّاء عن رصّ أساسه، فجعلوه في غير موضعه»، وذلك لأنّ «إذا» ظرف، والعامل فيها قوله: «رجع قومٌ على الأعقاب» وقد عطف عليه قوله: «ونقلوا البناء»، فإذا كان الرّجوع على الأعقاب واقعاً في الظرف المذكور، وهو وقت قبض الرسول، وجَب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في ذلك الوقت أيضاً؛ لأنّ أحد الفعلين معطوف على الآخر، ولم ينقلْ أحدٌ وقتَ قبض الرسول الله ﷺ البناء إلى معاوية عن أمير المؤمنين عَلَيْتَكْلِرْ، وإنّما نُقِل عنه إلى شخص آخر، وفي إعطاء العطف حقّه إثبات مذهب الإماميّة صريحاً!

قلت: إذا كان الرجوعُ على الأعقاب واقعاً وقت قبْض النبي ﷺ فقد قمنا بما يجبُ من وجود عامل في الظرف، ولا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في تلك الحال أيضاً، بل يجوز أن يكون واقعاً في زمان آخر، إمّا بأن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، أو بأن تكون للعطف في مطلق الحدث لا في وقوع الحدَث في عين ذلك الزّمان المخصوص، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[٢]، فالعامل في الظرف «استطعما» ويجب أن يكون استطعامهما وقت إتيانهما أهلَها لا محالة. ولا يجب أن تكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الإتيان أيضاً، ألا ترى أنّ من جملتها «فأقامه» ولم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخياً عنه بزمان ما، اللّهم إلا أن يقول قائل: أشار بيده إلى الجدار فقام، أو قال له: قم، فقام؛ لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً للإتيان إلاّ على هذا الوجه، وهذا لم يكن، ولا قاله مفسر ولو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[٣]؛ لأنّ الأجر إنما يكون على اعتمال عمل فيه مشقّة، وإنما يكون فيه مشقّة إذا بناه بيده، وباشره بجوارحه وأعضائه.

واعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عَلَيْتَكْلِرْ على ما يقتضيه سؤدُده الجليل، ومنصبه العظيم، ودينه القويم، من الإغضاء عَمّا سلف ممّن سلف، فقد كان صاحَبَهم بالمعروف بُرْهةً من الدهر، فإمّا أنْ يكون ما كانوا فيه حقَّهم أو حقه، فتركه لهم رفعاً لنفسه عن المنازعة، أو لما رآه من المصلحة، وعلى كلا التقديرين فالواجب علينا أن نطبّق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٤٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢١٢٥).
(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٧. (٣) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

وبين أولها، فإنّ بُعْد تأويل ما يتأوّله من كلامه، ليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة في القرآن، ولم يمنع بعدها من الخوض في تأويلها محافظةً على الأصول المقررة، فكذلك هاهنا.

١٥١ – ومن خطبة له عليه السلام في التحذير من الفتن

الأصل: وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ، وَالاعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ، لاَ يُؤَازَى فَضْلُهُ، وَلاَ يُجْبَرُ فَقْدُهُ، أَضَاءَتْ بِهِ ٱلْبِلاَدُ بَعْدَ الضَّلاَلَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَٱلْجَهَالَةِ ٱلْغَالِبَةِ، وَٱلْجَفْوَةِ ٱلْجَافِيَةِ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ ٱلْحَرِيمَ، وَيَسْتَذِلُونَ ٱلْحَكِيم، يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ.

ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلاَيَا قَدِ ٱقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَٱحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ ٱلْعِشْوَةِ، وَٱعْوِجَاجِ ٱلْفِتْنَةِ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَٱنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا، تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ، شِبَابُهَا كَشِبَابِ ٱلْغُلاَمِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلاَمِ، يَتَوَارَثُها الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ، يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ من الْمَتْبُوعِ، وَٱلْقَائِدُ مِنَ المَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلاَعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ.

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ ٱلْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَٱلْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ ٱسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلاَمَةٍ، وَتَخْتَلِفُ ٱلأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا.

مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكادُمَ الحُمُرِ فِي ٱلْعَانَةِ. قَدِ ٱضْطَرَبَ مَعْقُودُ ٱلحَبلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ ٱلأَمْرِ، تَغِيضُ فِيهَا ٱلحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ بِمَسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا، يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا ٱلْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ، تَرِدُ بِمُرِّ ٱلْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ ٱلْيَقِينِ.

يَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الأَرْجَاسُ. مِرْعادٌ مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَنْ ساقٍ، تُقْطَعُ فِيها الأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلاَمُ، بَرِيئُها سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ.

الشرح: مداحر الشيطان: الأمور التي يُدحَرُ بها، أي يطرد ويبعد، دحرتُه أدْحَرُهُ دُحوراً، قال تعالى: ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾[2]، أي مقصًى.

ومزاجره: الأمور يزجربها، جمع مَزْجر: ومَزْجرة، وكثيراً ما يبني عليه السلام من الأفعال «مَفْعلاً» و «مَفْعَلة» ويجمعه، وإذا تأمّلت كلامه عرفت ذلك.

وحبائل الشيطان: مكائده وأشراكه التي يُضِلّ بها البشر. ومخاتله: الأمور التي يخْتِل بها، بالكسر، أي يخدع.

لا يُؤازى فضله: لا يساوَى، واللفظة مهموزة، آزيت فلاناً: حاذَيْته، ولا يجوز «وازيته».

ولا يجبر فقدُه: لا يسدّ أحدٌ مسدّه بعده. والجفوة الجافية: غِلَظ الطّبع وبلادة الفهم.

ويستذِلّون الحكيم: يستضيمون العقلاء، واللام هاهنا للجنس، كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[3].

يحيوْن على فَتْرة: على انقطاع الوحي ما بين نبوّتين. ويموتون على كَفْرة، بالفتح، واحد الكَفَرات، كالضربة واحدة الضّربات.

ويروى: «ثم إنّكم معشر الناس». والأغراض: الأهداف. وسكَرات النعمة: ما تحدثه النّعم عند أربابها من الغَفْلة المشابهة للسُّكر، قال الشاعر:

خَـمْـس سَـكَـرات إذا مُـنِـيَ الـمـرْ ... ءُ بـهـا صـارَ عُـرْضَـةً لـلـزّمـانِ

سَـكْـرَةُ الـمـال والـحـداثـة والـعِـشْـ ... ـق وسـكْـر الـشّـراب وَالـسّـلـطـانِ

ومن كلام الحكماء: للوالي سَكْرة لا يُفيق منها إلاّ بالعزْل. والبوائق: الدّواهي، جمع بائقة، يقال: باقَتْهُم الدّاهية بَوْقاً، أي أصابَهم، وكذلك: باقتهم بؤوق على «فُعول»، وابتاقت عليهم بائقة شرّ، مثل انباحت، أي انفتقت، وانباقَ عليهم الدّهر: هجم بالداهية، كما يخرُج الصوت من البُوق، وفي الحديث: «لا يدخل الْجَنّة من لا يأمن جارُه بوائقَه»[4]، أي غوائله وشرّه. والقَتام، بفتح القاف: الغبار. والأقتم: الذي يعلوه قَتَمة، وهو لونٌ فيه غبرة وحُمْرة.

والعِشْوة، بكسر العين: ركوب الأمر على غير بيان ووضوح. ويروى: «وتبيّنوا في قَتَام العِشْوة» كما قرىء: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[5] و﴿فَتَثَبَّتُوا﴾، واعوجاج الفتنة: أخذها في غَيْرِ القَصْد، وعدولها عن المنهج.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨.
(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٢.
(٤) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم إيذاء الجار (٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٨٦٣٨).
(٥) سورة الحجرات، الآية: ٦.

ثم كَنَى عن ظهور المستور المخفيّ منها بقوله: «عند طلوع جنينها، وظهور كمينِها»، والجنين: الولد ما دام في البطْن، والجمع أجِنّة، ويجوز ألاّ يكون الكلام كناية بل صريحاً، أي عند طلوع ما استجنّ منها، أي استتر وظهور ما كمن، أي ما بطن.

وكَنَى عن استحكام أمر الفتنة بقوله: «وانتصاب قطبها، ومدار رحاها».

ثم قال: إنّها تبدو يسيرة، ثم تصير كثيرة.

والفظاعة مصدر فظُع بالضم، فهو فظيع أي شديد شنيع تجاوز المقدار، وكذلك أفظَع الرجل فهو مُفظع، وأُفظِعَ الرجل على ما لم يسمّ فاعله: نزل به أمر عظيم، وأفظعت الشيء: وجدته فظيعاً، ومثله استفظعته، وهذا المعنى كما قال الشاعر:

وَلَــرُبَّـــمــا هَـــاجَ الــكَــبِــيــ ـــرَ مــن الأمــور لــك الــصــغــيــرُ

وفي المثل: «الشر تبدؤه صغارهُ»، وقال الشاعر:

فــإنّ الــنَّــارَ بــالْــعُــودَيْــن تُــذْكَــى ... وَإنَّ الْــحِــرْبَ أوَّلُــهــا كَــلاَمُ

وقال أبو تمام:

ربّ قَــلِــيــل جَــدَا كَــثِــيــراً ... كَــم مــطــرٍ بَــدْؤهُ مَــطِــيــرُ

وقال أيضاً:

لا تــذيــلــنْ صــغــيــر هَــمِّــك وانــظُــرْ ... كــم بــذي الأسْلِ دوحــة مــن قَــضِــيــبِ

قوله: «شِبابها كشِباب الغلام» بالكسر، مصدر شبّ الفرس والغلام يشِبّ ويشَبّ شباباً وشبيباً، إذا قمص ولعب، وأشببتُه أنا، أي هَيّجْتُه.

والسِّلام: الحجارة جمع، واحده سَلِمة بكسر اللام، يذكر الفتنة، ويقول: إنّها تبدو في أوّل الأمر وأربابها يمرحون ويشِبّون كما يشِبّ الغلام ويمرح، ثم تؤول إلى أن تعقب فيهم آثاراً، كآثار الحجارة في الأبدان، قال الشاعر:

والــحــب مــثــل الــحــرب أوّلــهــ ـــا الــتــخــيّــل والــنّــشَــاطُ

وخــتــامــهــا أم الــرّبــيــ ـــق الــنّــكْــز والــضّــربُ الْــقَــطَــاطُ

ثم ذكر أن هذه الفتنة يتوارثها قوم من قوم، وكلّهم ظالم، أولهم يقود آخرهم، كما يقود الإنسان القطارَ من الإبل وهو أمامها وهي تتبعه. وآخرهم يقتدِي بأوّلهم، أي يفعل فعلَه، ويحذو حذوَه.

وجيفة مرِيحة: منتنة، أراحت: ظهر ريحُها. ويجوز أن تكون من أراحَ البعير، أي مات، وقد جاء في «أراح» بمعنى أنتن «راح» بلا همز.

ثم ذكر تبرّؤ التابع من المتبوع، يعني يوم القيامة.

فإن قلت: إنّ الكتاب العزيز إنما ذكر تبرؤ المتبوع من التابع في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾(١)، وهاهنا قد عكس ذلك، فقال: إنّ التابع يتبرّأ من المتبوع!

قلت: إنه قد ورد في الكتاب العزيز مثل ذلك، في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٢). ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾(٣)، فقولهم: ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ هو التبرؤ، وهو قوله حكاية عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٤)، وهذا هو التبرّؤ.

ثم ذكر عليه السلام أنّ القائد يتبرّأ من المقود، أي يتبرّأ المتبوع من التابع فيكون كلٌّ من الفريقين تبرّأ من صاحبه، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾(٥).

ويتزايلون: يتفرّقون.

قوله: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف». طالعها: مقدّماتها وأوائلها، وسمّاها «رَجوفاً» لشدّة الاضطراب فيها.

فإن قلت: ألم تكن قلتَ: إنّ قوله: «عن قليل يتبرّأ التابع من المتبوع» يعني به يوم القيامة، فكيف يقول: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة» وهذا إنّما يكون قبل القيامة!

قلت: إنّه لمّا ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهي الدنيا، أراد أن يقول بعده بلا فصل: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف»، لكنه لما تعجّب من تزاحم الناس وتكالبهم على تلك الجيفة، أراد أن يؤكّد ذلك التعجّب، فأتي بجملة معترضة بين الكلامين. تؤكد معنى تعجّبه منهم، فقال: إنّهم على ما قد ذكرنا من تكالُبهم عليها، عن قليل يتبرّأ بعضهم من بعض، ويلعن بعُضهم بعضاً، وذلك أدعى لهم - لو كانوا يعقلون - إلى أن يتركوا التكالُب والتهارُش على هذه الجيفةِ الخسيسةِ. ثم عاد إلى نظام الكلام، فقال: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرَّجوف»، ومثلُ هذا الاعتراض في الكلام كثير، وخصوصاً في القرآن، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم طرفاً.

قوله: «والقاصمة الزَّحوف» القاصمة: الكاسرة، وسماها زَحُوفاً تشبيهاً لمشيها قُدُماً بمشي الدَّبي الذي يهلك الزروع ويبيدها، والزحف: السير على تُؤَدة كسيرِ الجيوش بعضها إلى بعض.

قوله: «وتزيغ قلُوب» أي تميل، وهذه اللفظة والتي بعدها دالّتان على خلاف ما تذهب إليه الإماميّة من أنّ المؤمن لا يكفّر، وناصرتان لمذهب أصحابنا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٢.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

ونجومُها: مصدر نَجَم الشرّ إذا ظهر.

مَنْ أشرف لها: مَنْ صادَمها وقابلها. ومَنْ سعى فيها، أي في تسكينها وإطفائها، وهذا كلّه إشارة إلى الملحمة الكائنة في آخر الزمان.

والتكادُم: التعاضّ بأدْنى الفم، كما يكدِم الحمار، كَدَم يكدِم، والمكدَم: المعضّ.

والعانة: القطيع من حُمر الوحش، والجمع عُون.

تغيض فيها الحكمة: تنقُص.

فإن قلت: ليس قوله: «وتنطِق فيها الظلمة» واقعاً في نقيض قوله: «تغيض فيها الحكمة»، فأين هذا مِن الخَطابة التي هو فيها نسيجُ وحده!

قلت: بل المناقضة ظاهرة؛ لأنّ الحكمة إذا غاضت فيها لم ينطق بها أحد ولا بدّ من نطقٍ ما، فإذا لم تنطق الحكماء وجبَ أن يكون النطق لمن ليس من الحكماء، فهو من الظَّلَمة، فقد ثبت التناقض.

والمِسْحَل: المبرد. يقول: تنحت أهلَ البذو وتسحتُهم كما يُسحَتُ الحديد أو الخشب بالمبرد. وأهل البدْو: أهلُ البادية، ويجوز أن يريد بالمسْحَل الحلْقة التي في طَرف شَكيم اللّجام المعترضة بإزاء حَلْقة أخرى في الطرف الآخر، وتدخل إحداهما في الأخرى، بمعنى أنّ هذه الفتنة تصدم أهل البذو بمقدمة جيشها كما يصدِمُ الفارسُ الراجل أمامه بمسْحَل لجام فرسه.

والكَلْكَل: الصدر. وترضّهم: تدقُّهم دقًّا جريشاً.

قوله: «تضيع في غبارها الوُحْدان»، جمع واحد، مثل شابّ وشبّان، وراعٍ ورُعيان، ويجوز «الأُحدان» بالهمز، أي مَنْ كان يسير وحده فإنه يهلك بالكليَّة في غبارها، وأمّا إذا كانوا جماعة ركباناً فإنهم يضلّون، وهو أقربُ من الهلاك، ويجوز أن يكونَ الوُحدان جمع أوحد، يقال: فلان أوحد الدّهر، وهؤلاء الوُحدان أو الأحدان، مثل أسود وسُودان، أي يضلّ في هذه الفتنة، وضلالها الذي كنّي عنه بالغبار فضلاء عصرِها وعلماء عهدها، لغموض الشّبهة واستيلاء الباطل على أهل وقتها. ويكون معنى الفقرة الثانية على هذا التفسير أنّ الراكب الذي هو بمظنّة النّجاة لا ينجو. والركْبان: جمع راكب، ولا يكون إلا ذا بعير. قوله: تَرِدُ بمُرّ القضاء، أي بالبوار والهلاك والاستئصال.

فإنه قلت: أيجوز أن يقال للفتنة القبيحة: إنها من القضاء؟

قلت: نعم، لا بمعنى الخلْق بل بمعنى الإعلام، كما قال سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾(١) أي أعلمناهم، أي ترد هذه الفتنة بإعلام الله تعالى لمن يشاء

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.

إعلامه من المكلّفين أنها أمّ اللّهيم التي لا تبقي ولا تَذَر، فذلك الإعلام هو المرّ الذي لا يبلغ الوصفُ مرارتَه؛ لأنّ الإخبار عن حلول المكروه الذي لا مدفع عنه ولا محيص منهُ، مرٌّ جداً.

قوله: «وتحلُب عَبيط الدماء»، أي هذه الفتنة يحلبُها الحالب دماً عبيطاً، وهذه كناية عن الحرب، وقد قال عليه السلام في موضع آخر: «أما والله ليحلبنّها دماً، وليتبعنها ندماً» والعبيط: الدم الطريّ الخالص. ثَلَمت الإناء، أثلِمه بالكسر. والأكياس: العقلاء.

والأرجاس: جمع رِجْس، وهو القَذَر والنّجس، والمراد هاهنا الفاسقون، فإمّا أن يكون على حذف المضاف، أي ويدبّرها ذوو الأرجاس، أو أن يكون جعلهم الأرجاس أنفسها، لمّا كانوا قد أسرفوا في الفسق، فصاروا كأنهم الفسق والنجاسة نفسها كما يقال: رجل عَدْل، ورجل رضا.

قوله: «مِرْعادٌ مبراقٍ»، أي ذات وعيد وتهدّد، ويجوز أن يعني بالرّعد صوتَ السلاح وقعقعته، وبالبرق لونَه وضوءه. وكاشفة عن ساقٍ: عن شدّة ومشقة.

قوله: «بريئها سقيم»، يمكن أن يعني بها أنّها لشدّتها لا يكاد الجذي يبرأ منها وينفض يده عنها يبرأ بالحقيقة، بل لا بدّ أن يستثنيَ شيئاً من الفسق والضلال، أي لشدّة التباس الأمر واشتباه الحال على المكلّفين حينئذٍ.

ويمكن أن يعني به أنّ الهارب منها غير ناجٍ، بل لا بدّ أن يصيبه بعض معرّتها ومضرّتها.

وظاعنها مقيم، أي ما يفارق الإنسان من أذاها وشرّها، فكأنه غير مفارق له؛ لأنه قد أبقى عنده ندوباً وعقابيل من شرورها وغوائلها.

الأصل: منها: بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ ٱلأَيْمَانِ، وَبِغُرُورِ ٱلْإِيمَانِ، فَلاَ تَكُونُوا أَنْصَابَ ٱلْفِتَنِ، وَأَعْلاَمَ ٱلْبِدَعِ.

وَٱلْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ. وَٱقْدَمُوا عَلَى ٱللهِ مَظْلُومِينَ، وَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ، وَٱتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ، وَمَهَابِطَ ٱلْعُدْوَانِ، وَلا تُدْخِلوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ ٱلْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح: يقال: طُلّ دم فلان فهو مطلول، أي مُهدَر لا يُطْلَب به، ويجوز أطِلّ دمُه، وطلّه الله وأطلّه: أهدره، ولا يقال: طَلّ دم فلان بالفتح، وأبو عبيدة والكسائيّ يقولانه.

ويختِلون: يخدعون بالأيمان التي يعقِدونها ويُقسِمون بها، وبالإيمان الذي يظهرونه ويقرّون به.

ثم قال: «فلا تكونوا أنصار الفِتَن، وأعلام البدع»، أي لا تكونوا ممّن يشارُ إليكم في البدع كما يشار إلى الأعلام المبنيّة القائمة، وجاء في الخبر المرفوع: «كُنْ في الفتنة كابنِ اللّبُون، لا ظهرَ فيركب، ولا ضرْع فيحلب»[1]، وهذه اللفظة يرويها كثير من النّاس لأمير المؤمنين عليه السلام.

قوله: «واقدَموا على الله مظلومين»، جاء في الخبر: «كنْ عبدَ الله المقتول».

ومدارج الشيطان: جمع مَدْرَجة، وهي السبيل التي يدرج فيها. ومهابط العدوان: محالّهُ التي يهبط فيها.

ولُعَق الحرام: جمع لُعْقةٍ، بالضمّ، وهي اسم لما تأخذه الملْعقة، واللَّعقة، بالفتح: المرّة الواحدة.

قوله: «فإنكم بعين من حَرّم»، يقال: أنت بعين فلان، أي أنت بمرأى منه، وقد قال عليه السلام في موضع آخر بصِفّين: «فإنّكم بعين الله، ومع ابن عمّ رسول الله»، وهذا من باب الاستعارة، قال سبحانه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[2]، وقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[3].

١٥٢ - ومن خطبة له عليه السلام في صفات الله وائمة الدين

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ، لاَ تَسْتَلِمُهُ المَشَاعِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لاِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالمَصْنُوعِ، وَالحَادِّ وَالمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالمَرْبُوبِ، اَلْأَحَدِ بِلاَ تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالخَالِقِ لاَ بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لاَ بِأَدَاةٍ، وَالْبَصِيرِ لاَ بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لاَ بِمُمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لاَ بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ وَالظَّاهِرِ لاَ برُؤْيَةٍ، وَالْبَاطِنِ لاَ بِلَطَافَةٍ.

بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ»، فَقَدْ حَيَّزَهُ، عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لا مَقْدُورٌ.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٦١٢)، وحماد في «الفتن» (١٦٦).
(٢) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٣) سورة القمر، الآية: ١٤.

الشرح: في هذا الفصل أبحاث: أوّلُها في وجوده تعالى، وإثبات أنّ للعالم صانعاً، وهاتان طريقتان في الدّلالة على وجوده الأول سبحانه:

إحداهما: الطريقة المذكورة في هذا الفصل، وهي طريقة المتكلّمين، وهي إثبات أنّ الأجسام محدَثة، ولا بدّ للمحدَث من محدِث.

والثانية: إثبات وجوده تعالى من النظر في نفس الوجود.

وذلك لأنّ الوجود ينقسم بالاعتبار الأول إلى قسمين: واجب وممكن، وكلّ ممكن لا بدّ أن ينتهيَ إلى الواجب؛ لأنّ طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقلّ بنفسه في قوامه، فلا بدّ من واجب يستند إليه، وذلك الواجب الوجود الضروريّ الذي لا بدّ منه، هو الله تعالى.

وثانيها: إثبات أزليّته، وبيانه ما ذكره في هذا الفصل، وهو أن العالَم مخلوق له سبحانه حادث من جهته، والمحدَث لا بدّ له من محدِث، فإن كان ذلك المحدِث محدَثاً، عاد القول فيه كالقول في الأول، ويتسلّسل، فلا بدّ من محدِث قديم، وذلك هو الله تعالى.

وثالثها: أنه لا شبيه له، أي ليس بجسم كهذه الأجسام، وبيانه ما ذكر أيضاً أنّ مخلوقاته متشابهة، يعني بذلك ما يريده المتكلّمون من قولهم: الأجسام متماثلة في الجسمية، وأنّ نوع الجسمية واحد، أي لا يخالف جسمٌ جسماً بذاته، وإذا كانت متماثلة صحّ على كلّ واحد منها ما صح على الآخر، فلو كان له سبحانه شبيهٌ منها - أي لو كان جسماً مثلها - لوجب أن يكون محدَثاً كمثلها، أو تكون قديمة مثله، وكلاَ الأمرين محال.

ورابعها: أنّ المشاعر لا تستلمه، وروي «لا تلمسه»، والمشاعر الحواسّ، وبيانه أنه تعالى ليس بجسم لما سبق، وما ليس بجسم استحال أن تكون المشاعر لامسةً له؛ لأنّ إدراك المشاعر مدرَكاتِه مقصور على الأجسام وهيئاتها. والاستلام في اللغة: لمس الحجر باليد وتقبيله، ولا يهمز؛ لأن أصله من السِّلام وهي الحجارة، كما يقال: استنوَق الجملُ، وبعضهم يهمزه.

وخامسها: أنّ السواتر لا تحجبه، وبيانه أن السواتر والحجب، إنّما تحجب ما كان في جهة؛ وذلك لأنها ذوات أين ووضع فلا نسبة لها، إلى ما ليس من ذوات الأين والوضع.

ثم قال عليه السلام: «لافتراق الصانع والمصنوع»، إشارة إلى أنّ المصنوع من ذوات الجهة والصانع منزّه عن ذلك، بريء عن الموادّ، فلا يلزم فيه ما يلزم في ذوات المادة والجهة.

وسادسها: معنى قولنا: إنه أحد، «أنّه ليس بمعنى العدد كما يقوله الناس: أوّل العدد أحد وواحد، بل المراد بأحديّته كونه لا يقبل التجزّؤ، وباعتبار آخر كونه لا ثانيَ له في الربوبية.

وسابعها: أنّه خالق، لا بمعنى الحركة والنَّصَب، وهو التعب؛ وذلك لأن الخالقين منّا يحتاجون إلى الحركة من حيث كانوا أجساماً تفعل بالآلات، والباريء سبحانه ليس بجسمٍ،

ولا يفعل بالآلة، بل كونه قادراً إنّما هو لذاته المقدّسة، لا لأمرٍ زائد عليها، فلم يكن فاعلاً بالحركة.

وثامنها: أنّه سميع، لا بأداة، وذلك لأنّ حاجتنا إلى الحواسّ، إنما كانت لأمرٍ يخصّنا، وهو كوننا أحياء بحياة حالّة في أبعاضنا، والبارىء تعالى حيّ لذاته، فلم يحتجْ في كونه مدركاً إلى الأداة والجارحة.

وتاسعها: أنه بصير لا بتفريق آلة، والمراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذي باعتباره يكون الواحد منّا مبصراً، فإنّ القائلين بالشعاع يقولون: إنّه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعّة، وتكون آلة للحيّ في إبصار المبَصرات فيتفرّق عليها، فكلّ جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصَراً، والبارىء تعالى بصير لا بشعاع يجعله آلة في الإدراك، ويتفرّق على المرئيات فيدركها به، وذلك لما قدّمناه من أنّه حيّ لذاته، لا بمعنًى، فلا يحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدَركات.

وعاشرها: أنّه الشاهد لا بمماسّة، وذلك لأنّ الشاهد منّا هو الحاضر بجسمه عند المشهود، ألا ترى أنّ مَنْ في الصين لا يكون شاهداً مَنْ في المغرب؛ لأنّ الحضور الجسمانيّ يفتقر إلى القرب، والقرب من لوازم الجسمية، فما ليس بجسم - وهو عالم بكلّ شيء - يكون شاهداً من غير قرب ولا مماسّة، ولا أين مطلوب.

وحادي عشرها: أنّه البائن لا بتراخي مسافة بينونة المفارق عن المادّة بينونة ليست أينيّة، لأنه لا نسبةَ لأحدهما إلى الآخر بالجهة، فلا جرَم كان البارىء تعالى مبايناً عن العالم، لا بمسافة بين الذاتين.

وثاني عشرها: أنّه الظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة، وذلك لأنّ الظاهر من الأجسام ما كان مرئياً بالبصر، والباطن منها ما كان لطيفاً جداً، إما لصغره أو لشفافيّته، والبارىء تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار، باطن، أي غير مدرك بالحواسّ لأن ذاته لا تقبل المدركيّة إلاّ من حيث كان لَطيف الحجم أو شفّاف الْجرم.

وثالث عشرها: أنّه قال: بان من الأشياء بالقهر لها، والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له، والرجوع إليه، هذا هو معنى قول المتكلّمين والحكماء، والفرق بينه وبين الموجودات كلّها أنه واجب الوجود لذاته، والأشياء كلّها ممكنة الوجود بذواتها، فكلّه محتاجة إليه؛ لأنها لا وجود لها إلاّ به، وهذا هو معنى خضوعها له، ورجوعها إليه. وهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء، ومؤثّر في كلّ شيء، إمّا بنفسه، أو بأن يكون مؤثّراً فيما هو مؤثر في ذلك الشيء، كأفعالنا، فإنه يؤثر فينا، ونحن نؤثر فيها، فإذا هو قاهر لكلّ شيء، وقادر على كلّ شيء. فهذه هي البينونة بينه وبين الأشياء كلّها.

ورابع عشرها: أنّه لا صفة له زائدة على ذاته، ونعني بالصفة ذاتاً موجودة قائمة بذاته، وذلك لأنّ مَنْ أثبت هذه الصفة له فقد حدّه، ومن حَدّه فقد عدّه، ومن عَدّه فقد أبطل أزَله، وهذا كلام غامض، وتفسيره أن مَنْ أثبت له علماً قديماً أو قدرة قديمة، فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلوماتٍ محدودة، أي محصورة، وكذلك قد أوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدورات محدُودة، وهذه المقدّمة في كُتُب أصحابنا المتكلّمين مما يذكرونه في تقرير أنّ العلم الواحد لا يتعلّق بمعلومَيْن، وأنّ القدرة الواحدة لا يمكن أن تتعلّق في الوقت الواحد من الجنس الواحد في المحلّ الواحد إلا بجزءٍ واحد، وسواء فرض هذان المعنيان قديمين أو محدَثين، فإنّ هذا الحكم لازم لهما، فقد ثبت أنّ مَنْ أثبت المعاني القديمة فقد أثبت الباريء تعالى محدود العالميةِ والقادريّة، ومن قال بذلك فقد عدّه، أي جعله من جملة الجثة المعدودة فيما بيننا كسائر البشر والحيوانات، ومَنْ قال بذلك: فقد أبطل أزله؛ لأن كلّ ذات مماثلة لهذه الذوات المحدَثة، فإنها محدثة مثلها، والمحدث لا يكونو أزلياً.

وخامس عشرها: أنّ من قال: «كيف»، فقد استوصفَه، أي مَنْ قال لزيد: كيف الله؟ فقد استدعى أن يوصف الله بكيفيّة من الكيفيات، والباريء تعالى لا تجوز الكيفيّات عليه، والكيفيّات هي الألوان والطعوم ونحوها، والأشكال والمعاني وما يجري مَجْرَى ذلك، وكلّ هذا لا يجوز إلا على الأجسام.

فإن قلت: ينبغي أن يقول: «فقد وصفه»، ولا يقال: «فقد استوصفه»؛ لأنّ السائل لم يستوصف الله، وإنما استوصف صاحبه الذي سأله عن كيفيّة الله.

قلت: «استوصف» هاهنا بمعنى «وصف»، كقولك: استغنى زيد عن عمرو، أي غَني عنه، واستعلى عليه، أي علا، ومثله كثير.

وسادس عشرها: أنّ من قال: «أين» فقد حيّزه، لأنّ «أين» سؤال عن المكان، وليس الله تعالى في مكان، ويأتي أنّه في كلّ مكان بمعنى العلم والإحاطة.

وسابع عشرها: أنّه عالم إذ لا معلوم، وربّ إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور، وكلّ هذا صحيح ومدلول عليه؛ لأنه عالم فيما لم يزل وليس شيء من الأشياء بموجود، وهو ربّ كلّ شيء قبل أن يخلقه، كما تقول إنّه سميع يصير قبل أن يدرك المسموعات والمبصَرات، أي قبل أن يخلقها، وقادر على الأشياء قبل كونها؛ لأنه يستحيل حال كونها أن تكون مقدورة، لاستحالة إيجاد الموجود.

وقد شرحنا كل هذه المسائل التوحيدية في كتبنا المصنّفة في علم الكلام.

الأصل: منها: قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لاَمِعٌ، وَلاَحَ لاَئِحٌ، وَٱعْتَدَلَ مَائِلٌ، وَٱسْتَبْدَلَ ٱللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً، وَٱنْتَظَرْنَا ٱلْغِيَرَ، ٱنْتِظَارَ المُجْدِبِ ٱلْمَطَرَ.

وَإِنَّمَا ٱلْأَئِمَّةُ قُوَّامُ ٱللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَلاَ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ.

إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلاَمِ، وَٱسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ٱسْمُ سَلاَمَةٍ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ، ٱصْطَفَى ٱللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ وَبَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حُكْمٍ، لاَ تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ.

فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لاَ تُفْتَحُ ٱلْخَيْرَاتُ إِلاَّ بِمَفَاتِيحِهِ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إلا بِمَصَابِيحِهِ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ، فِيهِ شِفَاءُ المُشْتَفِي، وَكِفَايَةُ المُكْتَفِي.

الشرح: هذه خطبة خطب بها بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه.

قد طلع طالع، يعني عَوْد الخلافة إليه، وكذلك قوله: «ولمع لامع، ولاح لائح»، كلّ هذا يراد به معنًى واحد.

واعتدل مائل، إشارة إلى ما كانت الأمور عليه من الاعوجاج في أواخر أيام عثمان، واستبدل الله بعثمان وشيعته عليًا وشيعتَه، وبأيام ذاك أيام هذا.

ثم قال: «وانتظرنا الغِيَر انتظار المجدب المطر»، وهذا الكلام يدل على أنّه قد كان يتربّص بعثمان الدوائر، ويرتقب حلول الخطوب بساحتِهِ، لِيَلِيَ الخلافة.

فإن قلت: أليس هو الذي طلّق الدنيا، فأين هذا القول من طلاقها؟

قلت: إنه طلّق الدنيا أن يقبل منها حظًّا دنيويًا، ولم يطلقها، أن ينهى فيها عن المنكرات التي أمره الله تعالى بالنهي عنها، ويقيم فيها الدين الذي أمره الله بإقامته، ولا سبيل له إلى النهي عن المنكَر والأمر بالمعروف إلا بولاية الخلافة.

هل الإمام إذا عمي استحق الخلع

فإن قلت: أيجوز على مذهب المعتزلة أن يقال: إنه عليه‌السلام كان ينتظر قتل عَثمان، انتظار المجدِب المطر، وه' هذا إلا محض مذهب الشيعة!

قلت: إنه عليه‌السلام «وانتظرنا قتله» وإنما انتظر الغيرَ، فيجوز أن يكون أراد انتظار

خلعه وعزله عن الخلافة، فإنّ علياً عليه السلام عند أصحابنا كان يذهب إلى أنّ عثمان استحقّ الخلع بإحداثه، ولم يستحقّ القتل، وهذا الكلام إذا حُمِل على انتظار الخلع كان موافقاً لمذهب أصحابنا.

فإن قلت: أتقول المعتزلة إنّ علياً كان يذهب إلى فسْق عثمان المستوجب لأجله الخلع؟

قلت: كلاّ! حاش لله أن تقولَ المعتزلة ذلك! وإنما تقول إن علياً كان يرى أنّ عثمان يضعف عن تدبير الخلافة، وأنّ أهلَه غَلَبُوا عليه، واستبدّوا بالأمر دونه، واستعجزه المسلمون، واستسقطوا رأيه، فصار حكمه حكم الإمام إذا عَمِيَ، أو أسره العدوّ، فإنه ينخلِع من الإمامة.

ثم قال عليه السلام: «الأئمة قوّام الله على خلقه»، أي يقومون بمصالحهم، وقيّم المنزل: هو المدّبر له.

قال: «وعرفاؤه على عباده»: جمع عرِيف، وهو النقيب والرئيس، يقال: عَرُف فلان بالضم عرافةً بالفتح، مثل خَطُب خطابة أي صار عريفاً، وإذا أردت أنّه عمِل ذلك قلت: عَرَف فلان علينا سنين، يعرُف عِرافة بالكسر، مثل كَتَبَ يكتبُ كِتابة.

قال: «ولا يدخل الجنّة إلا مَنْ عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النّار إلا مَنْ أنكرهم وأنكروه»، هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[1]، قال المفسّرون: ينادى في الموقف: يا أتْبَاعَ فلان، ويا أصحاب فلان، فينَادَى كلّ قوم باسم إمامهم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: لا يدخل الجنّة يومئذٍ إلاّ مَنْ كان في الدّنيا عارفاً بإمامه، ومَنْ يعرفه إمامه في الآخرة، فإنّ الأئمة تعرف أتباعها يوم القيامة، وإن لم يكونوا رأوْهم في الدنيا، كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يشهد للمسلمين وعليهم، وإن لم يكُنْ رأى أكثرهم، قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[2] وجاء في الخبر المرفوع: «مَنْ مات بغير إمام مات مِيتة جاهليّة»[3]، وأصحابنا كافّة قائلون بصحّة هذه القضيّة، وهي أنه لا يدخل الجنّة إلا من عرَف الأئمة، ألا تَرَى أنهم يقولون: الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلان وفلان، ويعدّونهم وحداً واحداً، فلو أنّ إنساناً لا يقول بذلك، لكان عندهم فاسقاً، والفاسق لا يدخل الجنّة عندهم أبداً، أعني مَنْ مات على فسقه. فقد ثبت أنّ هذه القضية، وهي قوله: عليه السلام: «لا يدخل الجنّة إلاّ مَنْ عرفهم» قضيّة صحيحة على مذهب المعتزلة، وليس قوله: «وعرفوه» بمنكَر

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١. (٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٤٣٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٦٥٤)، و«الكبير» (١٩/ ٣٨٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٢٤).

عند أصحابنا، إذا فسرنا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[1] على ما هو الأظهر والأشهر من التفسيرات، وهو ما ذكرناه.

وبقية القضيّة الثانية ففيها الأشكال، وهي قوله عليه السلام: «ولا يدخل النَّار إلاّ مَنْ أنكرهم وأنكروه»، وذلك أنّ لقائل أن يقول: قد يدخل النار مَنْ لم ينكرهم، مثل أن يكون إنسان يعتقِد صحّة إمامة القوم الذين يذهب أنهم أئمة عند المعتزلة، ثم يزني أو يشربُ الخمر من غير توبة، فإنه يدخل النار، وليس بمنكر للأئمة، فكيف يمكن الجمع بين هذه القضية وبين الاعتزال!

فالجواب أن الواو في قوله «وأنكروه» بمعنى «أو» كما في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[2] فالإنسان المفروض في السؤال وإن كان لا ينكر الأئمة إلاّ أنّهم ينكرونه، أي يسخطون يوم القيامة أفعاله، يقال: أنكرت فعل فلان أي كرهته، فهذا هو تأويل الكلام على مذهبنا، فأمّا الإمامية فإنّهم يحملون ذلك على تأويل آخر، ويفسرون قوله: «ولا يدخل النار»، فيقولون: أراد ولا يدخل النار دخولاً مؤبداً إلا من ينكرهم وينكرونه.

ثم ذكر عليه السلام شرفَ الإسلام، وقال: إنه مشتقّ من السّلامة، وإنه جامع للكرامة، وإنّ الله قد بين حججه، أي الأدلة على صحّته.

ثم بين ما هذه الأدلة، فقال: «من ظاهر علم، وباطن حكم» أي حكمه، فـ«مِن» هاهنا للتبيين والتفسير، كما تقول: دفعت إليه سلاحاً من سيف ورمح وسهم، ويعني بظاهر عِلم وباطن حكم، والقرآن، ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا تكون إلا للقرآن، من قوله، «لا تفنى عزائمه» أي آياته المحكمة. و«براهينه العازمة» أي القاطعة ولا تنقضي عجائبه؛ لأنّه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بكفر غرائب عجائب لم تكن عنده من قبل.

«فيه مرابيع النّعم»، المرابيع الأمطار التي تجيء في أول الربيع فتكون سبباً لظهور الكلأ، وكذلك تدبّر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها.

قوله: «قد أحمى حماه، وأرعى مرعاه»، الضمير في «أحمى» يرجع إلى الله تعالى، أي قد أحمى الله حماه، أي عرّضه لأن يحمَى، كما تقول: أقتلت الرجل، أي عرّضته لأن يقتل وأضربته، أي عرّضته لأن يضرب، أي قد عرّض الله تعالى حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب ومكّن منها، وعرّض مَرْاعاه لأن يُرعى، أي مكّن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربي مبين، ولم يقنع ببيان ما لا نعلم إلا بالشرع حتى نبه في أكثره على أدلة العقل.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣.

١٥٣ - ومن خطبة له عليه السلام في تحذير الناس من الغفلة

الأصل: وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ ٱللهِ يَهْوِي مَعَ ٱلْغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ المُذْنِبِينَ، بِلاَ سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلاَ إمامٍ قائِدٍ.

الشرح: يصف إنساناً من أهل الضلال غير معيّن، بل كما تقول: رحم الله آمرأ اتّقى ربه وخاف ذنبه، وبئس الرجل رجل قلّ حياؤه، وعدم وفاؤه، ولست تعني رجلاً بعينه.

ويهوي: يسقط. وَالسبيل القاصد: الطريق المؤدية إلى المطلوب.

والإمام: إمّا الخليفة، وإما الأستاذ، أو الدين، أو الكتاب، على كلّ من هؤلاء تطلق هذه اللفظة.

الأصل: منها: حَتّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَٱسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمْ، ٱسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَٱسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِما أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلاَ بِما قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ.

وَإِنّي أُحَذِّرُكُمْ وَنَفْسِي هَذِهِ المَنْزِلَة، فَلْيَنْتَفِعِ ٱمْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنّما ٱلْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظر فَأَبْصَرَ، وَٱنْتَفَعَ بِالْعِبَر، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي المَهَاوِي، وَالضَّلاَلَ فِي المَغاوِي، وَلاَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ ٱلْغُوَاةَ بتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ.

فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَٱسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَٱخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنعِمِ ٱلْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ٱلأُمّيِّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ، وَلاَ مَحِيصَ عَنْهُ. وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَضَعْ فَخْرَكَ، وَٱحْطُطْ كِبْرَكَ، وَٱذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكُمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ ٱلْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غداً، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ.

فَالْحَذَرَ ٱلْحَذَرَا أَيُّهَا ٱلْمُسْتَمِعُ! وَٱلْجِدَّ ٱلْجِدَّ، أَيُّهَا ٱلْغَافِلُ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

الشرح: فاعل «كشف» هو الله تعالى، وقد كان سبق ذكره في الكلام، وإنما كشف لهم عن جزاء معصيتهم بما أراهم حال الموت من دلائل الشقوة والعذاب، فقد ورد في الخبر الصحيح أنّه: «لا يموت ميّت حتى يرى مقرّه من جنّة أو نار»[1].

ولما انفتحت أعين أبصارهم عند مفارقة الدنيا، سَمّى ذلك عليه السلام استخراجاً لهم من جلابيب غفلتهم، كأنهم كانوا من الغفلة والذهول في لباسٍ نُزِع عنهم.

قال: «استقبلوا مدبراً»، أي استقبلوا أمراً كان في ظنّهم واعتقادهم مدبراً عنهم، وهو الشقاء والعذاب. «واستدبروا مقبلاً» تركوا وراء ظهورهم ما كانوا خُوّلُوه من الأولاد والأموال والنّعم، وفي قوة هذا الكلام أن يقول: عرفوا ما أنكروه وأنكروا ما عرفوه:

وروي: «أحذّركم ونفسي هذه المزلّة» مفعلة، من الزّلل، وفي قوله: «ونفسي» لطافة رشيقة، وذلك لأنه طَيَّب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم في هذا التحذير، ليكونوا إلى الانقياد أقربَ، وعن الإباء والنُّفرة أبعد، بطريق جَدَدٍ لاحب.

والمهاوي: جمع مَهْواة، وهي الهوّة يتردّى فيها.

والمغاوي: جمع مَغْواة، وهي الشبهة التي يغوي بها النّاس، أي يضلّون.

ثم يصف الأمور التي يُعِين بها الإنسان أرباب الضلال على نفسه، وهي أن يتعسّف في حقّ يقوله، أو يأمرُ به، فإنّ الرفق أنجح، وأن يحرّف المنطق فإن الكذب لا يثمر خيراً، وأن يتخوّف من الصدق في ذات الله، قال سبحانه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[2]، فذمّ من لا يصدق ويجاهد في الحقّ.

قوله: «واختصِرْ من عجلتك»، أي لا تكن عَجَلتك كثيرة، بل إذا كانت لك عجلة فلتكن شيئاً يسيراً.

وتقول: أنعمت النظر في كذا، أي دقّقتُه، من قولك: أنعمت سَحْق الحجر، وقيل: إنه مقلوب «أمعن».

والنبي الأُمّيّ: إمّا الذي لا يحسن الكتابة، أو المنسوب إلى أمّ القرى، وهي مكّة.

ولا محيص عنه: لا مفرّ ولا مهرب، حاص، أي تخلّص من أمر كان نشب فيه.

قوله: «فإن عليه ممرّك» أي ليس القبر بدار مقام، وإنما هو مَمَرٌّ وطريق إلى الآخرة.

وكما تدين تدان، أي كما تجازِي غيرَك تجازَى بفعلك وبحسب ما عملت، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[3] أي مجزيُّون، ومنه الديّان في صفة الله تعالى.

---

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١/١١٨) بلفظ: لا تخرج روحه حتى يراني أو يرى موضعه من الجنة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الصافات، الآية: ٥٣.

قوله: «وكما تزرع تحصد» معنى قد قاله النّاس بعده كثيراً، قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تَزْرَعْ وأدْرَكْتَ حاصِداً ندمت على التقصير في زمن البذر

ومن أمثالهم: «من زرع شراً حصد ندماً».

فامهد لنفسك: أي سوّ ووطّىء.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1] من القرآن العزيز، أي ولا يخبرك بالأمور أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها.

الأصل: إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ ٱللهِ فِي ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ ٱلدُّنْيَا لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ ٱلْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِالله فِيمَا ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلاَكِ نَفْسٍ، أَوْ يُعَرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. ٱعْقِلْ ذَلِكَ، فَإِنَّ ٱلْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ.

إِنَّ ٱلْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا ٱلْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْفَسَادُ فِيها.

إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ، إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ، إِنَّ ٱلْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ.

الشرح: عزائم الله، هي موجباته والأمر المقطوع عليه، الذي لا ريبَ فيه ولا شبهة، قال عليه السلام: إنّ من الأمور التي نصّ الله تعالى عليها نصًا لا يحتمل التأويل - وهي من العزائم التي يقطع بها، ولا رجوع فيها ولا نسخ لها - أنّ مَنْ مات وهو على ذنْبٍ من هذه الذنوب المذكورة - ولو اكتفى بذلك عليه السلام لأغناه عن قوله: «لم يتب» إلاّ أنه ذكر ذلك تأكيداً وزيادة في الإيضاح - فإنّه لا ينفعه فعل شيء من الأفعال الحسنة ولا الواجبة، ولا تفيدُه العبادة، ولو أجهد نفسه فيها، بل يكون من أهل النار. والذنوب المذكورة هي أنْ يتّخذ مع الله إلهاً آخر فيشركه في العبادة، أو يقتل إنساناً بغير حقّ، بل ليشفي غيظه، أو يقذف غيره بأمرٍ قد فعله هو.

عرّه بكذا يعُرّه عرًّا، أي عابه ولطّخه، أو يروم بلوغ حاجةٍ من أحدٍ بإظهار بدعة في الدين،

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

كما يفعل أكثرُ النّاس في زماننا، أو يكون ذا وَجْهين، وهو أيضاً قوله: «أو يمشي فيهم بلسانين»، وإنما أعاده تأكيداً.

لما نصب معاوية ابنَه يزيد لوِلاية العهد، أقعده في قبّة حمراء، وأدخل النّاس يسلّمون على معاوية، ثم يميلون إلى قُبّة يزيد، فيسلّمون عليه بولاية العهد، حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، أما إنك لو لم تولّ هذا أمور المسلمينَ لأضعتَها، وكان الأحنف جالساً، فلما خَفّ الناس، قال معاوية: ما بالُك لا تقول يا أبا بحر! قال: أخافُ الله إن كذبتُك، وأخافك إنْ صدقتك، فماذا أقول! فقال: جَزاك الله عن الطّاعة خيراً، وأمر له بصِلَةٍ جزيلة. فلما خرَج لقيَه ذلك الرّجل بالباب، فقال: يا أبا بَحْر، إنّي لأعلمُ أنّ شرّ مَنْ خَلَق الله هذا الرّجل، ولكن هؤلاء قد استوثَقُوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعتَ فقال: يا هذا أمسِكْ عليك، فإنّ ذَا الوجهين خليق[1] ألاّ يكون وجيهاً عند الله غداً.

ثم أمرَ عليه السلام بأن يعقَل ما قاله، ويعلَم باطن خطابه، وإنما رَمَزَ بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل؛ لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين، وعَزُوه عليه السلام بأمرٍ هم فعلوه، وهو التأليب على عثمان وحصْرُه، واستنجحوا حاجتهم إلى أهلِ البصرة بإظهار البدعة والفتنة، ولقُوا الناس بوجهين ولسانين؛ لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به، ثم دَبّوا له الخمَرَ، فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشِّرك بالله سبحانه، في أنها لا تُغْفَر إلا بالتوبة، وهذا هو معنى قوله: «اعقل ذلك» فإنّ المِثْل دليل على شبهه. وَرُوي «فإنّ المثَل» واحد الأمثال، أي هذا الحكْم بعدم المغفرة لمن أتى شيئاً من هذه الأشياء عامّ، والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه.

فإن قلتَ: فهذا تصريحٌ بمذهب الإماميّة في طلْحة والزبير وعائشة.

قلت: كلاّ، فإنّ هذه الخطبة خَطب بها وهو سائر إلى البصرة، ولم تقع الحرب إلاّ بعد تعدّد الكبائر، ورَمز فيها إلى المذكورين، وقال: «إن لم يتوبوا»، وقد ثبت أنهم تابوا، والأخبار عنهم بالتوبة كثيرة مستفيضة.

ثم أراد عليه السلام أن يومىء إلى ذكر النّساء للحال التي كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بامرأة،

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٥/ ٣٢٥).

فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان، تمهيداً لقاعدة ذِكر النساء، فقال: إنّ البهائم همّها بطونها، كالحُمر والبقر والإبل الغَنم، وإنّ السّباع همّها العدوان عَلَى غيرها، كالأسود الضارية والنمور والفهود والبُزاة والصّقور. ثم قال: وإن النساء همّهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها.

نظر حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة عَلَى شَجرة، فقال: ليت كلّ شجرة تحمل مثل هذه الثمرة.

ومرّت امرأة بسُقراط وهو يتشرّق في الشمس، فقالت: ما أقبحك أيها الشيخ! فقال: لو أنكنّ [لستنّ] من المرائي الصدئة لغمّني ما بان من قبح صورتي فيكنّ.

ورأى حكيم امرأةً تعلّم الكتابة، فقال: سهم يسقَى سمًّا ليرمي به يوماً ما.

ورأى بعضهم جاريةً تحمِل ناراً، فقال: نار عَلَى نار، والحامل شرٌّ من المحمول.

وقيل لسقراط: أيّ السباع أحسن؟ قال: المرأة.

وتزوّج بعضهم امرأة نحيفة، فقيل له في ذلك، فقال: اخترتُ من الشرّ أقلّه.

ورأى بعضُ الحكماء امرأة غريقة قد احتملها السَّيْل، فقال: زادتِ الكَدر كَدَار، والشرّ بالشر يهلك.

ثم ذكر عليه السلام خصائص المؤمن، فقال: إن المؤمنين مستكينون، استكان الرجلُ، أي خَضَع وذلّ.

إنّ المؤمنين مشفقون، التقوى رأس الإيمان(1) كما ورد في الخبر.

ثم قال: «إن المؤمنين خائفون»، هو الأول وإما أكّده، والتأكيد مطلوب في باب الخطابة.

١٥٤ - ومن خطبة له عليه السلام في فضائل أهل البيت عليهم السلام

الأصل: وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ. دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ.

الشرح: يقول: إنّ قَلْبَ اللبيب له عين يبصر بها غايتَه التي يجري إليها، ويعرف من أحواله المستقبَلة ما كان مرتفعاً أو منخفضاً ساقطاً. والنَّجْد: المرتفع من الأرض، ومنه قولهم للعالم بالأمور: «طَلاّع أنجُد».

(1) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٠٩.

ثم قال: «داعٍ دعا»، موضع «داعٍ» رفع؛ ، لأنّه مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: «في الوجود داع دعا، وراعٍ رعى»، ويعني بالدّاعي رسول الله ﷺ، وبالراعي نفسَه عليه السلام.

الأصل: قَدْ خَاضُوا بِحَارَ ٱلْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ، وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ.

نَحْنُ الشِّعَارُ وَٱلْأَصْحَابُ، وَٱلْخَزَنَةُ وَٱلْأَبْوَابُ: وَلاَ تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلاَّ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً.

الشرح: هذا كلام متّصل بكلام لم يحكِه الرضيّ رحمه الله، وهو ذكْر قومٍ من أهل الضُّلال قد كان أخذ في ذمّهم، ونَعَى عليهم عيوبهم.

وأرزَ المؤمنون: أي انقبضوا، والمضارع «يأرِز» بالكسر أرْزا وأروزا، ورجل أرُوَز أي منقبض، وفي الحديث: «إنّ الإسلام ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِز الحيّة إلى جُحْرها»[1]، أي ينضمّ إليها ويجتمع.

ثم قال: «نحن الشّعار والأصحاب»، يشير إلى نفسه، وهو أبداً يأتي بلفظ الجمع مراده الواحد.

والشّعار: ما يلي الجسد من الثيابِ، فهو أقرب من سائرها إليه، ومراده الاختصاص برسول الله ﷺ.

والخَزَنَةُ والأبواب، يمكن أن يعني به خَزَنة العلم وأبواب العلم، لقولِ رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أرادَ الحكمة فليَأتِ الباب»[2].

وقوله فيه: «خازن علمي»[3] وقال تارة أخرى: «عَيْبة عِلْمي»[4]. ويمكن أن يريد خزنة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة (١٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً (١٤٧).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١١٠٦١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٠٦).

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٩/ ٢٠١.

(٤) أخرجه السيوطي في جامعة رقم: ٥٥٩٣، وأخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٢٩/ ٦٠٢.

الجنّة وأبواب الجنة، أي لا يدخل الجنة إلا مَنْ وافَى بولايتنا، فقد جاء في حقه الخبر الشائع المستفيض: إنه قَسِيم النار والجنة، وذكر أبو عبيد الهرويّ في «الجمع بين الغريبين»[١]، أنّ قوماً من أئمة العربية فسَّرُوه فقالوا: لأنّه لما كن مُحِبُّهُ من أهل الجنة، ومبغِضهُ من أهل النّار، كأنّه بهذا الاعتبار قسيمُ النار والجنة. قال أبو عبيد: وقال غير هؤلاء: بلْ هو قسيمها بنفسه في الحقيقة، يدخِل قوماً إلى الجنة، وقوماً إلى النار، وهذا الذي ذكره أبو عبيد أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه، يقول للنار: هذا لي فدعيه، وهذا لك فخذيه.

ثم ذكر أن البيوت لا تؤتَى إلاّ من أبوابها، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[٢].

ثم قال: مَنْ أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً، وهذا حقّ ظاهراً وباطناً، أمّا الظاهر فلأنّ مَنْ يتسوّر البيوت من غير أبوابها هو السارق، وأمّا الباطن فلأنّ مَنْ طلَب العلم من غير أستاذ محقّق فلم يأتِهِ من بابه، فهو أشبه شيء بالسارق.

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو فخرَ بنفسه، وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته، التي آتاه الله تعالى إياها، واختصّه بها، وساعده على ذلك فُصحاء العرب كافّة، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره، ولستُ أعني بذلك الأخبارَ العامّة الشائعة التي يحتجّ بها الإماميَّة على إمامته، كخبر الغدير، والمنزلة، وقصّة براءة، وخبر المناجاة، وقصّة خيبر، وخبر الدار بمكة في ابتداء الدعوة، ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصّة التي رواها فيه أئمة الحديث، التي لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره، وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً مما رواه علماء الحديث الذين لا يُتَّهمون فيه، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه، فروايتهم فضائلَه توجب من سكونِ النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم.

الخبر الأول: «يا عليّ، إنّ الله قد زيّنَك بزينةٍ لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى، الزّهد في الدنيا، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حبّ المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضوْن بك إماماً»[٣].

---

(١) الغريبين (يعني غريب القرآن والحديث): لأبي عبيد أحمد بن محمد بن محمد الهروي المتوفى سنة (٤٠١هـ)، «كشف الظنون» (٢/١٢٠٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٧١.

رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف بـ «حلية الأولياء»[1] وزاد فيه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في «المسند»[2]: «فطوبَى لمن أحبّك وصدق فيك، وويلٌ لمن أبغضك وكذّب فيك!»[3].

الخبر الثاني: قال لوفد ثَقِيف: «لَتُسْلِمُنّ، أو لأبعثَنّ إليكم رجلاً مني - أو قال: عديل نفسي - فليضرِنّ أعناقكم، ولَيسبِينّ ذراريّكم، وليأخذنّ أموالكم». قال عَمر: فما تمنيّت الإمارة إلاّ يومئذٍ، وجعلتُ أنصِب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا. فالتفت فأخذ بيد عليّ وقال: «وهو هذا!»، مرتين.

رواه أحمد في «المسند»[4]، ورواه في كتاب فضائل عليّ عليه السلام، أنّه قال: «لتنتهُنّ يا بنَى وليعة، أو لأبعثنّ إليكم رجلاً كنفسي، يُمضِي فيكم أمري. يقتل المقاتلة، ويسبي الذّرّيّة». قال أبو ذرّ: فما راعني إلاّ برْد كفّ عمر في حُجْزتي من خَلْفي، يقول: مَنْ تراه يعني؟ فقلت: إنه لا يَعْنيك، وإنّما يعني خاصفَ النعل، وإنه قال: «هو هذا»[5].

الخبر الثالث: «إنّ الله عَهِد إليّ في عليّ عهداً، فقلت: يا ربّ بيّنه لي، قال: اسمع، إنَّ عليًّا رايةُ الهدى، وإمامُ أوليائي، ونورُ من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتُها المتقين، مَنْ أحبّه فقد أحبّني، ومن أطاعه فقد أطاعني، فبشِّره بذلك. فقلت: قد بشرته يا ربّ فقال: أنا عبد الله وفي قبضته، فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً، وإن يتمَّ لي ما وعدني فهو أوْلى، وقد دعوت له فقلت: اللهمّ اجْلُ قلبَه، واجعلْ ربيعَه الإيمان بك. قال: قد فعلت ذلك، غير أني مختصّه بشيء من البلاء لم أختصّ به أحداً من أوليائي، فقلت: ربّ، أخي وصاحبي! قال: إنّه سبق في علمي: إنّه لمبتلٍ ومبتلًى».

ذكره أبو نعيم الحافظ في «حلْية الأولياء»[6] عن أبي بَرْزة الأسلميّ، ثم رواه بإسناد آخر

---

(١) حلية الأولياء في الحديث: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، المتوفى سنة (٤٣٠هـ)، «كشف الظنون» (١/ ٦٨٩).

(٢) مسند أحمد بن حنبل: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ)، يشتمل على ثلاثين ألف حديث «كشف الظنون» (٢/ ١٦٨٠).

(٣) مسند أحمد بن حنبل بنحوه (٦٤٣).

(٤) لم أجده في «مسند» أحمد، وهو في «السنن الكبرى» النسائي (٨٤٥٧)، وأحمد في فضائل الصحابة (٩٦٦).

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٤٠/ ٨٠.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٧).

بلفظٍ آخر، عن أنس بن مالك[١]: «إنّ رب العالمين عهد في عليّ إليّ عهداً، إنه راية الهدى، ومنار الإيمان، وإمام أوليائي، ونور جميع مَنْ أطاعني. إن عليًا أميني غداً في القيامة، وصاحب رايتي، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربّي».

الخبر الرابع: «مَنْ أراد أن ينظر إلى نوح في عَزْمه، وإلى آدم في عِلْمه، وإلى إبراهيم في حِلْمه، وإلى موسى في فِطْنته، وإلى عيسى في زهده، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب»[٢].

رواه أحمد بن حنبل في «المسند»، ورواه أحمد البيهقيّ في «صحيحه».

الخبر الخامس: «مَنْ سرّه أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويتمسّك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده، ثم قال لها: كوني فكانت، فليتمسَّكْ بولاء عليّ بن أبي طالب».

ذكره أبو نُعيم الحافظ في كتاب «حلية الأولياء»[٣] ورواه أبو عبد الله بن حنبل في «المسنَد» في كتاب فضائل عليّ بن أبي طالب، وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه: «مَن أحبَّ أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جَنّة عدن بيمينه، فليتمسّك بحبّ علي بن أبي طالب».

الخبر السادس: «والّذي نفسي بيده، لولا أن تقول طوائف مِن أمّتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً: لا تمرّ بملأٍ من المسلمين إلا أخذوا التّراب من تحت قديمك للبركة».

ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في «المسند»[٤].

الخبر السابع: خرج ﷺ عَلى الحجيج عشيّة عرَفة، فقال لهم: إنّ الله قد باهَى بكم الملائكة عامّة، وغفر لكم عامّة، وباهَى بعليّ خاصة، وغفر له خاصة. إني قائل لكم قولاً غير محابٍ فيه لقرابتي، إن السعيد كلّ السّعيد حقّ السعيد مَنْ أحبّ عليًا في حياته وبعد موته».

رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائل علي عليه السلام، وفي «المسند»[٥] أيضاً.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٦).

(٢) لم أجده عند أحمد والبيهقي، وقد رواه العسقلاني في «لسان الميزان» (٦/ ٢٤)، في ترجمة مسعر بن يحيى الهندي، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦/ ٤٠٩)، في ترجمة مسعر بن يحيى الهندي.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨٦)، ولم أجده في «مسند» أحمد.

(٤) لم أجده في مسند أحمد، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٩٥١).

(٥) لم أجده في «مسند» أحمد، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٤١٥).

الخبر الثامن: رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين: «أنا أوّل مَنْ يُدعى به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش في ظلّه، ثم أكسى حلّة، ثم يدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض، فيقومون عن يمين العرش ويكسَوْن حُلَلاً، ثم يدعى بعليّ بن أبي طالب لقرابته منّي ومنزلته عندي، ويدفع إليه لوائي لواء الحمد، آدم ومَنْ دونه تحت ذلك اللواء»، ثم قال لعليّ: «فتسير به حتى تقف بيني وبين إبراهيم الخليل، ثم تكسى حلّة، وينادِي منادٍ من العرش: نعم العبدُ أبوك إبراهيم! ونعم الأخ أخوك عليّ! أبشر فإنّك تُدْعَى إذا دعيت، وتُكْسَى إذا كسيت، وتحيًا إذا حيِّيت»[1].

الخبر التاسع: «يا أنَس، اسكب لي وضوءًا»، ثم قام فصلّى ركعتين، ثم قال: «أوّل من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقّين، وسيّد المسلمين، ويعسوب الدين، وخاتم الوصيين وقائد الغرّ المحجّلين». قال أنس: فقلت: اللّهمّ اجعله رجلاً من الأنصار، وكتبت دعوتي، فجاء عليّ، فقال: صلى الله عليك وسلّم: «مَنْ جاء يا أنس»؟ فقلت: عليّ، فقام إليه مستبشراً، فاعتنقه، ثم جعل يمسحُ عرق وجهه. فقال عليّ: يا رسول الله، صلّى الله عليك وآلك، لقد رأيت منك اليوم تصنع بي شيئاً ما صنعته بي قبل! قال: «وما يمنعني وأنت تؤدّي عني، وتسمعُهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي!».

رواه أبو نعيم الحافظ في «حلْية الأولياء»[2].

الخبر العاشر: «ادعُوا لي سيّدَ العرب عليًّا»، فقالت عائشة: ألستَ سيّد العرب؟ فقال: «أنا سيّد ولد آدم، وعليّ سيّد العرب»، فلما جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوْه، فقال لهم: «يا معشرَ الأنصار، ألا أدلكم على ما إن تمسّكْتم به لن تضلّوا أبداً» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا عليّ، فأحبّوه بحبّي، وأكرِموه بكرامتي، فإنّ جبرائيل أمرني بالّذي قلت لكم عن الله عزّ وجلّ».

رواه الحافظ أبو نعيم في «حلية الأولياء»[3].

الخبر الحادي عشر: «مرْحَباً بسيّد المؤمنين، وإمام المتقين»! فقيل لعليّ عليه السلام: كيف

(١) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٨/ ٢.
(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٣١).
(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ٦٣).

شكرُكَ؟ فقال: أحمد الله على ما آتاني، وأسأله الشُّكر على ما أولاني، وأنْ يزيدَني ممّا أعطاني.

ذكره صاحب «الحلية»(١) أيضاً.

الخبر الثاني عشر: «مَنْ سرّه أنْ يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكنَ جنّة عدن التي غرسها ربّي، فليوالِ عليًّا من بعدِي، وليوال وليّه، وليقتد بالأئمة من بعدي، فإنّهم عِتْرَتي، خلقُوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً. فويل للمكذبين من أمتي! القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهمُ الله شفاعتي».

ذكره صاحب «الحلية»(٢) أيضاً.

الخبر الثالث عشر: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد في سريّة، وبعث عليًّا عليه السلام في سريّة أخرى، وكلاهما إلى اليمن، وقال: «إن اجتمعتما فَعليّ عَلَى الناس، وإن افترقتما فكلّ واحدٍ منكما على جُنْده»، فاجتمعا وأغارا وسبيَا نساء، وأخذا أموالاً، وقتلا ناساً، وأخذ عليّ جارية فاختصّها لنفسه، فقال خالد لأربعة من المسلمين، منهم بُريدة الأسلميّ: اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فاذكروا له كذا، واذكروا له كذا، لأمور عدّدها على عليّ، فسبقوا إليه، فجاء واحد من جانِبه، فقال: إنّ عليًّا فَعَل كذا، فأعرَض عنه، فجاء الآخر من الجانب الآخر، فقال: إنَّ علياً فعل كذا، فأعرَض عنه فجاء بُريدة الأسلمي فقال: يا رسول الله، إنّ علياً فعل ذلك، فأخذ جاريةً لنفسه، فغضب صلى الله عليه وآله، حتى احمرّ وجهه، وقال: «دَعُوا لي عليًّا!»، يكررها، «إنّ علياً مِنّي وأنا مِنْ عليّ، وإنّ حظه في الخُمس أكثر مما أخذ، وهو وليّ كلّ مؤمن من بعدي».

رواه أبو عبد الله أحمد في «المسند»(٣) غير مرة، ورواه في كتاب فضائل عليّ، ورواه أكثر المحدّثين.

الخبر الرابع عشر: «كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خَلَق آدم قسّم ذلك فيه وجعله جزأين، فجزء أنا، وجزء عليّ».

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٥/ ٣٨). (٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ٦٦).
(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ٨٦).

رواه أحمد في «المسند» وفي كتاب فضائل علي عليه السلام، وذكره صاحب كتاب الفردوس[١]، وزاد فيه: «ثم انتقلنا حتى صرنا في عبد المطلب، فكان لي النبوّة ولعليّ الوصية»[٢].

الخبر الخامس عشر: «النّظر إلى وجهك يا عليّ عبادة، أنت سيّد في الدنيا وسيّد في الآخرة، مَنْ أحبّك أحبّني. وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوُّ الله، الويل لمنْ أبغضك!».

رواه أحمد في «المسند»[٣]، قال: وكان ابنُ عبّاس يفسره، ويقول: إنّ مَن ينظر إليه يقول: سبحان الله! ما أعلم هذا الفتى! سبحان الله ما أشجع هذا الفتى! سبحان الله، ما أفصح هذا الفتى!

الحديث السادس عشر: لما كانت ليلة بدر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ يستقي لنا ماء؟»، فأحجم الناس، فقام عليّ فاحتضن قربة، ثم أتى بئراً بعيدة القَعْر مظلمة، فانحدر فيها، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل: أن تأهبوا لنصْر محمد وأخيه وحزبه، فهبطوا من السّماء، لهم لغط يذعر مَنْ يسمعه، فلما حاذوا البئر، سلّموا عليه من عند آخرهم إكراماً له وإجلالاً.

رواه أحمد[٤] في كتاب فضائل عليّ عليه السلام، وزاد فيه في طريق أخرى عن أنس بن مالك: «لتؤتَينّ يا عليّ يوم القيامة بناقةٍ من نوق الجنة فتركبها، وركْبتك مع ركبتي، وفخِذُك مع فخذي، حتى تدخل الجنة»[٥].

الحديث السابع عشر: خَطَب صلى الله عليه وآله الناس يوم جمعة، فقال: «أيّها النّاس، قدّموا قريشاً ولا تقدموها، وتعلّموا منها ولا تعلموها، قوّة رجلٍ من قريش تعدِلُ قوّة رجُلين من غيرهم، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلَيْن من غيرهم. أيّها الناس أوصيكم بحبّ ذي

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٩٤٢٦).
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٣/ ٦٩.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٩/ ٢٥٠.
(٤) لم أجده في «مسند» أحمد، لكن روى بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٨٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٥٩).
(٥) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٤٠/ ٨٤.

قرباها، أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب، لا يحبّه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا منافق، مَنْ أحبّه فقد أحبّني، ومَنْ أبغضه فقد أبغضني، ومَنْ أبغضني عذّبه الله بالنار».

رواه أحمد(١) رضي الله عنه في كتاب فضائل عليّ عَلِيَّةِ.

الحديث الثامن عشر: الصدّيقون ثلاثة: «حبيب النّجار، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ومؤمن آل فرعون الّذي كان يكتم إيمانَه، وعليّ بن أبي طالب، وهو أفضلهم».

رواه أحمد(٢) في كتاب فضائل عليّ عَلِيَّةِ.

الحديث التاسع عشر: «أعطِيتُ في عليّ خمسا، هُنَّ أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها، أما واحدة فهو كابٍ بين يدي الله عزّ وجلّ، حتى يفرغ من حساب الخلائق، وأما الثانية فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولد تحته، وأما الثالثة فواقف عَلَى عَقْر حوضي، يسقِي مَنْ عرف من أمّتي، وأما الرابعة فساتر عورتي ومسلمي إلى رَبِّي، وأما الخامسة فإني لست أخشى عليه أن يعود كافراً بعد إيمان، ولا زانياً بعد إحصان».

رواه أحمد(٣) في كتاب الفضائل.

الحديث العشرون: كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة في مسجد الرسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام يوماً: «سدّوا كلّ باب في المسجد إلا باب عليّ»، فسدّت، فقال في ذلك قوم، حتى بلغ رسول الله ﷺ فقام فيهم، فقال: «إن قوماً قالوا في سدّ الأبواب وتركي باب عليّ، إني ما سددت ولا فتحت، ولكنّي أمِرْت بأمرٍ فاتبعته».

رواه أحمد في «المسند»(٤) مراراً، وفي كتاب الفضائل.

الحديث الحادي والعشرون: دعا ﷺ عليًا في غزاة الطائف، فانتجاه، وأطال نجواه

---

(١) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٤٩).
(٢) روى الشطر الأول منه الشافعي في «مسنده» (١/ ٢٧٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٥١٩).
(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في «فضائل الصحابة» (١٠٧٢).
(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في «فضائل الصحابة» (١١٢٧).

حتى كرِه قوم من الصحابة[١]، ذلك، فقال قائل منهم: لقد أطال اليَوم نَجْوى ابنِ عمّه، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك فجمع منهم قوماً، ثم قال: «إن قائلاً قال: لقد أطالَ اليوم نجوى ابن عمّه، أما إني ما انتجيتُه، ولكن الله انتجاه».

رواه أحمد رحمه الله في «المسند»[٢].

الحديث الثاني والعشرون: «أخصِمك يا عليّ بالنبوّة فلا نبوّة بعدِي، وتخصم الناس بسبع، لا يجاحد فيها أحد من قريش: أنت أوّلهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسويّة، وأعدلهم في الرعيّة، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزيّة».

رواه أبو نعيم الحافظ في «حليّة الأولياء»[٣].

الخبر الثالث والعشرون: قالت فاطمة: إنّك زَوَّجْتَنِي فقيراً لا مال له، فقال: «زوّجْتك أقدمهم سِلْماً، وأعظمهم حِلْماً، وأكثرهم عِلْماً! ألا تعلمين أنّ الله اطّلع إلى الأرض اطّلاعةً، فاختار منها أباك، ثم اطّلع إليها ثانية فاختار منها بعلَك!».

رواه أحمد[٤] في المسند.

الحديث الرابع والعشرون: لما أنزل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٥] بعد انصرافه عليه السلام من غزاة حُنَيْن، جعل يكثر من «سبحان الله! أستغفر الله»، ثم قال: «يا عليّ إنّه قد جاء ما وعدت به، جاء الفتح، ودخل النّاس في دين الله أفواجاً، وإنّه ليس أحد أحقّ منك بمقامي، لقِدَمك في الإسلام وقربك مني، وصهرِك، وعندك سيّدة نساء العالمين، وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن، فأنا حريصٌ عَلَى أن أراعي ذلك لولده».

رواه أبو إسحاق الثعلبيّ في «تفسير القرآن»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٨٠١).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٢٦).
(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٦٥).
(٤) لم أجده عند أحمد، وهو عند الطبراني في «الأوسط» (٦٥٤٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٣).
(٥) سورة النصر، الآية: ١.
(٦) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٤٠/ ٨٦، وأخرجه الماحوز في كتاب الأربعين: ٢٥٠.

واعلم أنّا إنما ذكرنا هذه الأخبار هاهنا، لأنّ كثيراً من المنحرفين عنه عليه السلام إذا مرُّوا عَلَى كلامه في «نهج البلاغة» وغيره المتضمّن التحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول له صَلى الله عليه وآله، وتمييزه إياه عن غيره، ينسبونه إلى التّيه والزّهْو والفخر، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة، قيل لعمر: وَلِّ عليًّا أمر الجيش والحرب، فقال: هو أتْيَهُ من ذلك! وقال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهَى من عليّ وأسامة.

فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله: «نحن الشعار والأصحاب، ونحن الخزنة والأبواب»، أن ننبّه عَلَى عِظَم منزلته عند الرسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ من قيل في حقه ما قيل لو رقى إلى السماء، وعَرَج في الهواء، وفخر عَلَى الملائكة والأنبياء، تعظماً وتبجّحاً، لم يكن ملوماً، بل كان بذلك جديراً، فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قطّ مسلك التعظّم والتكبّر في شيء من أقواله ولا من أفعاله، وكان ألطف البشر خلقاً، وأكرمهم طبعاً، وأشدّهم تواضعاً، وأكثرهم احتمالاً، وأحسنهم بِشْراً، وأطلقهم وجهاً، حتى نسبه من نسبه إلى الدُّعابة والمزاح، وهما خُلُقان ينافيان التكبّر والاستطالة، وإنما كان يذكر أحياناً ما يذكره من هذا النوع، نَفْثَة مصدُور، وشكوى مكروب، وتنفّس مهموم، ولا يقصِد به إذا ذكره إلا شكر النعمة، وتنبيه الغافل عَلَى ما خصّه الله به من الفضيلة، فإنَّ ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحضّ عَلَى اعتقاد الحقّ والصواب في أمره والنهي عن المنكر الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل، فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

الأصل: منها: فِيهِمْ كَرَائِمُ الإِيمَانِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمنِ، إنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا. فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، فَإنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإلَيْهَا يَنْقَلِبُ، فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فَإنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ، إنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، فَلاَ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إلا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ، وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ!

الشرح: قوله: «فيهم» يرجع إلى آل محمد صلى الله عليه وآله الذين عناهم بقوله: «نحن الشّعار

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

والأصحاب»، وهو يطلق دائماً هذه الصيغ الجمعية، ويعني نفسَه، وفي القرآن كثير من ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١).

وكرائم الإيمان: جمع كريمة وهي المنفسات منه، قال الشاعر:

ماض مِنَ العيش لو يفدى بذلت لَهُ ... كرائم المال من خيلٍ ومن نَعَمِ

فإن قلت: أيكون في الإيمان كرائم وغير كرائم؟ قلت: نعم لأنّ الإيمان عند أكثر أصحابنا اسم للطّاعات كلّها واجبها ونفلها، فمن كانت نوافله أكثرَ كانت كرائم الإيمان عنده أكثر، ومن قام بالواجبات فقط من غير نوافل، كان عنده الإيمان، ولم يكن عنده كرائم الإيمان.

فإن قلت: فعلى هذا تكون النّوافل أكرمَ من الواجبات؟

قلت: هي أكرم منها باعتبار، والواجبات أكرم منها باعتبار آخر، أمّا الأوّل فلأنّ صاحبَها إذا كان قد قام بالواجبات كان أعلى مرتبةً في الجنّة ممن اقتصر على الواجبات فقط، وأمّا الثاني فلأن المخلّ بها لا يعاقب، والمخلّ بالواجبات يعاقب.

قوله: «وهم كنوز الرحمن» لأن الكنز مال يدّخر لشديدة أو ملمّة تلّم بالإنسان، وكذلك هؤلاء قد ذخروا لإيضاح المشكلات الدينية على المكلفين.

ثم قال: إن نطقوا صدقوا، وإن سكتوا لم يكن سكوتهم عن عيّ يوجب كونَهم مسبوقين، لكنّهم ينطقون حُكْماً، ويصمُتون حلماً.

ثم أمر عليه السلام بالتقوى والعمل الصالح، وقال: «ليصدق رائدٌ أهلَه»، الرائد: الذاهب من الحيّ يرتاد لهم المرعى، وفي أمثالهم: «الرائد لا يكذِب أهلَه»، والمعنى أنه عليه السلام أمر الإنسان بأن يصدُق نفسَه ولا يكذبَها بالتسويف والتعليل، قال الشاعر:

أخيَّ إذا خاصمت نفسَك فاحتشِدْ ... لها وإذا حدّثْت نفسَك فاصدُقِ

وفي المثل: «المتشبّع بما لا يملك كلابس ثوبيْ زور».

فإنه منها قدم، قد قيل: إن الله تعالى خَلَق أرواح البشر قبل أجسادهم، والخبر في ذلك مشهور والآية أيضاً، وهي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٢). ويمكن أنْ يفسّر على وجه آخر، وذلك أنّ الآخرة اليوم عَدَمٌ محضٌ، والإنسان قَدِم من العدَم، وإلى العدم ينقلب، فقد صحّ أنه قَدِم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة.

وروى: «أنّ العالم بالبصَر» أي بالبصيرة، فيكون هو قوله: «فالناظر بالقلب»، سواء، وإنما

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

قاله تأكيداً، وعلى هذا الوجه لا يحتاج إلى تفسير وتأويل، فأمّا الرواية المشهورة فالوجه في تفسيرها أن يكون قوله: «فالناظر» مبتدأ و«العامل» صفة له، وقوله: «بالبصر يكون مبتدأ عمله» جملة مركبة من مبتدأ وخبر، موضعها رفع؛ لأنها خبر المبتدأ الذي هو «فالناظر»، وهذه الجملة المذكورة قد دخلت عليها «كان»، فالجار والمجرور وهو الكلمة الأولى منها منصوبة الموضع؛ لأنّها خبر «كان»، ويكون قوله فيما بعد: «أن يعلم» منصوب الموضع؛ لأنه بدل من «البصر» الذي هو خبر «يكون» والمراد بالبصر هاهنا البصيرة، فيصير تقدير الكلام: فالناظر بقلبه، العامل بجوارحه يكون مبتدأ عمله بالفكر والبصيرة، بأن يعلم: أعملُه له أم عليه!

ويروى: «كالسابل على غير طريق»، والسابل: طالب السبيلِ، وقد جاء في الخبر المرفوع: «مَنْ عمِل بغير هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً»، وفي كلام الحكماء: «العامل بغير علم كالرامي من غيرَ وتَر».

الأصل: وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِه، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ، طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: «إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ ٱلْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ»[١].

الشرح: هذا الكلام مشتقّ من قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[٢]، وهو تمثيل ضربه الله تعالى لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من البشر، ولمن لا يؤثر ذلك فيه مثّله بالأرض العذبة الطيبة تخرج النبْت، والأرض السبخة الخبيثة لا تنبت، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى يومِىء. يقول: إنّ لِكلتا حالتَي الإنسان الظاهرة أمراً باطناً يناسبها من أحواله، والحالتان الظاهرتان: ميله إلى العقل وميله إلى الهوى، فالمتّبع لمقتضى عقله يرزق السعادة والفوز، فهذا هو الذي طاب ظاهره، وطاب باطنه، والمتّبع لمقتضى هواه وعادته ودين أسلافه يرزق الشّقاوة والعطب، وهذا هو الذي خُبث ظاهره وخَبُث باطنه.

فإن قلت: فلم قال: «فما طاب»؟ وهلاّ قال: «فمن طاب»؟ وهلاّ قال: «فمن طاب»! وكذلك في «خَبُث»!

قلت: كلامه في الأخلاق والعقائد وما تنطوي عليه الضمائر، يقول: ما طاب من هذه

(١) ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (٢٤) بلفظ: من ازداد علماً ولم يزدد هدى -.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٨.

الأخلاق والملكات، وهي خلق النفس الربانيّة المريدة للحقّ، من حيث هو حقّ، سواء كان ذلك مذهب الآباء والأجداد أو لم يكن، وسواء كان ذلك مستقبَحاً مستهجناً عند العامّة أو لم يكن، وسواء نال به من الدنيا حظًّا أو لم ينل. يستطيب باطنه يعني ثمرته، وهي السعادة، وهذا المعنى من مواضع «ما» لا من مواضع «من».

فأما الخبر المرويّ، فإنه مذكور في كتب المحدّثين، وقد فسّره أصحابنا المتكلّمون، فقالوا: إنّ الله تعالى قد يحبّ المؤمن ومحبّته له إرادة إثابته، ويبغض عملاً من أعماله وهو ارتكاب صغيرة من الصغائر، فإنّها مكروهة عند الله، وليست قادحة في إيمان المؤمن؛ لأنها تقع مكفِّرة، وكذلك قد يبغض العبدَ بأن يريد عقابه، نحو أن يكون فاسقاً لم يتب، ويحبّ عملاً من أعماله، نحو أن يطيع ببعض الطاعات، وحبّه لتلك الطاعة، هي إرادته تعالى أن يُسقط عنه بها بعض ما يستحقّه من العقاب المتقدّم.

الأصل: وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً، وَكُلُّ نَبَاتٍ لاَ غِنَى بِهِ عَنِ ٱلْمَاءِ. وَٱلْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ.

الشرح: السَّقْي: مصدر سَقَيْت، والسِّقْي، بالكسر: النصيب من الماء.

أمرَّ الشيءُ، أي صار مرًّا.

وهذا الكلام مثل في الإخلاص وضدّه وهو الرياء وحبّ السمعة، فكلّ عمل يكون مدده الإخلاص لوجهه تعالى لا غير، فإنه زاكٍ حلو الجنَى، وكلّ عمل يكون الرياء وحبّ الشهرة مدده، فليس بزاكٍ، وتكون ثمرته مرّة المذاق.

١٥٥ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفاش

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَتِ ٱلأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ ٱلْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ.

هُوَ ٱللهُ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى ٱلْعُيُونُ. لَمْ تَبْلُغْهُ ٱلْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ ٱلأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً. خَلَقَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلاَ مَشُورَةِ

مُشِيرٍ، وَلاَ مَعونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَٱنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ ٱلْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ ٱلْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ ٱلْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ ٱلْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ. وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ المُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا، وَرَدَعَها بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ المُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ٱئْتِلاَقِهَا. وَهِيَ مُسْدَلَةُ ٱلْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ ٱللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ في ٱلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلاَ تَمْتَنِعُ مِنَ المُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ، فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَها، وَبَدَتْ أَوضاحُ نَهارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِها عَلَى الضِّبَابِ فِي وِجارِهَا، أطبَقَت الأَجْفَانَ عَلَى مآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِما ٱكْتَسَبَتْهُ مِنَ المَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهارَ سَكَناً وَقَرَاراً!

وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ ٱلْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا، لاجِىءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ ٱلْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ!

الشرح: الخفّاش، واحد جمعه خَفَافيش، وهو هذا الطائر الذي يطير ليلاً ولا يطير نهاراً، وهو مأخوذ من الخَفَش، وهو ضعف في البصر خِلْقة، والرجل أخفش، وقد يكون علّة، وهو الذي يبصر بالليل لا بالنهار، أو في يوم غيم لا في يوم صَحْو.

وانحسرت الأوصاف: كلّت وأعيت. وردعت: كفّت. والمساغ: المسلك.

قال: «أحقّ وأبيَن مما ترى العيون»، وذلك لأنّ العلوم العقلية إذا كانت ضرورية أو قريبة من الضروريّة، كانت أوثق من المحسوسات؛ لأنّ الحسّ يغلط دائماً، فيرى الكبير صغيراً كالبعيد، والصغير كبيراً كالعنبة في الماء تُرى كالإجّاصة، ويُرى الساكن متحرّكاً، كحرف الشّط

إذا رآه راكبُ السفينة متصاعداً، ويُرى المتحرك ساكناً كالظلّ، إلى غير ذلك من الأغاليط والقضايا العقلية الموثوق بها؛ لأنها بديهيّة أو تكاد، فالغلط غير داخل عليها. قوله: «يقبضها الضياء»، أي يقبض أعينها.

قوله: «وتتّصل بعلانية برهان الشمس» كلام جيّد في مذاهب الاستعارة.

وسُبُحات إشراقها: جلاله وبهاؤه. وأكنّها: سترها، وبُلَج ائتلافها: جمع بُلْجة، وهي أول الصبح، وجاء بَلْجة أيضاً بالفتح.

والحِدَاق: جمع حَدَقة العين. والأسداف: مصدر أسدف الليل، أظلم.

وغسق الدّجُنة: ظلام الليل. فإذا ألقت الشمس قناعها، أي سفرت عن وجهها وأشرقت.

والأوضاح: جمع وَضَح، وقد يراد به حليٌّ يعمل من الدراهم الصّحاح، وقد يراد به الدراهم الصِّحاح نفسها وإن لم يكن حُليًا. والضِّباب، جمع ضَبّ. ووِجارها: بيتها. وشظايا الآذان: أقطاع منها. والقصب هاهنا: الغُضروف.

وخلاصة الخُطْبة، التعجُّب من أعين الخفافيش التي تبصر ليلاً ولا تبصر نهاراً، وكلّ الحيوانات بخلاف ذلك، فقد صار الليل لها معاشاً، والنهار لها سكناً، بعكس الحال فيما عداها. ثم من أجنحتها التي تطير بها وهي لحم لا ريش عليه ولا غضروف، وليست رقيقة فتنشقّ ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران. ثم من ولدها إذا طارت احتملته وهو لاصق بها، فإذا وقعت وقع ملتصقاً بها هكذا، إلى أن يشتدّ ويقوى على النهوض فيفارقها.

أخبار غرائب الطيور وصفاتها

واعلم أنّه عليه السلام قد أتى بالعلة الطبيعية في عدم إبصارها نهاراً، وهو انفعال حاسّة بصرها عن الضوء الشديد، وقد يعرض مثل ذلك لبعض الناس، وهو المرض المسمّى «روز كور» أي أعمى النهار، ويكون ذلك عن إفراط التحلّل في الروح النوريّ، فإذا لقيَ حرّ النهار أصابه قمر، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيزول، فيعود الأبصار.

وأما طيرانها من غير ريش، فإنه ليس بذلك الطيران الشديد، وإنما هو نهوض وخِفّة، أفادها الله تعالى إياه بواسطة الطبيعة، والتصاق الولد بها؛ لأنها تضمّه إليها بالطبع، وينضمّ إليها كذلك، وتستعين على ضمّه برجليها، وبقصر المسافة. وجملة الأمر أنه تعجّب من عجيب. وفي الأحاديث العامية: قيل للخفاش: لماذا لا جناح لك؟ قال: لأني تصوير مخلوق، قيل: فلماذا لا تخرج نهاراً؟ قال: حياء من الطيور، يعنون أنّ المسيح عليه السلام صوّره، وأنّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾[1].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

وفي الطير عجائب وغرائب لا تهتدي العقول إليها، ويقال: إن ضربيْن من الحيوان أصمان لا يسمعان، وهما النعام والأفاعِي.

وتقول العرب: إن الظّليم يسمع بعينه وأنفِه، لا يحتاج معهما إلى حاسّة أخرى. والكراكيّ يجمعها أمير لها كيعسوب النحل، ولا يجمعها إلا أزواجاً. والعصافير آلفةٌ للناس آنسةٌ بهم، لا تسكن داراً حتى يسكنها إنسان، ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج الإنسان منها، فبفراقه تفارق، وبسكناه تسكن. ويذكر أهل البصرة أنّه إذا كان زمن الخروج إلى البساتين لم يبق في البصرة عُصفور إلاّ خرج إليها، إلاّ ما أقام على بَيْضه وفراخه، وقد يُدَرّب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويرجع.

وقال شيخنا أبو عثمان: بلغني أنّه درّب فيرجع مِنْ ميل. وليس في الأرض رأسٌ أشبه برأس الحية من رأس العصفور، وليس في الحيوان الذي يعايشُ الناس أقصرَ عمراً منه، قيل لأجل السّفاد الذي يستكثر منه. ويتميَّز الذكر في الأنثى في العصافير تميُّز الديك من الدجاجة؛ لأنّ له الحية، ولا شيء أحنَى على ولده منه، وإذا عَرَض له شيء صاح، فأقبلت إليه العصافير يساعدْنه، وليس لشيء في مثل جسم العصفور من شدّة وطئه إذا مشى أو على السطح ما للعصفور، فإنك إذا كنتَ تحت السطح ووقع، حسبت وقعتَه وقعت حجر، وذكور العصافير لا تعيش إلا سنة، وكثيراً ما تجلب الحيّاتِ إلى المنازل؛ لأنّ الحيّات تتبعها حرصاً على ابتلاع بيضها وفراخها.

ويقال: إن الدجاجة إذا باضت بيضتيْن في يوم واحد وتكرّر ذلك ماتت، وإذا هَرِمت الدجاجة لم يكن لأواخر ما تبيضهُ صفرة، وإذا لم يكن للبيضة محّ لم يخلق فيها فرُّوج. لأن غذاءه المحّ ما دام في البيضة، وقد يكون للبيضة مُحّانِ فتنفقص عن فَرُّوجَيْنِ يخلَقان من البياض، ويغتذيان بالمحَّين؛ لأن الفراريج تُخْلَق من البياض وتغتذي بالصُّفرة. وكلّ ديكٍ فإنه يلتقط الحبّة فيحذف بها إلى الدجاجة سماحاً وإيثاراً، ولهذا قالوا: «أسمح من لاقطة» يعنون الدِّيكة، إلا ديَكة مَرْو بخراسان، فإنّها تطرد دجاجها عن الحبّ وتنزعه من أفواهها فتبتلعه.

والحمامة بلهاء، وفي أمثالهم: «أحمق من حمامة»، وهي مع حُمْقِها مهتدية إلى مصالح نفسها وفراخها.

قال ابنُ الأعرابيّ: قلت لشيخ من العرب: مَنْ علَّمك هذا؟ قال: علَّمني الّذِي علّم الحمامة على بَلَهَهَا تقليبَ بيضها، كيْ تعطيَ الوجهين جميعاً نصيبهما من الحَضْن.

والهداية في الحمام لا تكُونُ إلا في الخُضر والسُّمْر، فأمّا الأسود الشديد السواد فهو كالزنجيّ القليل المعرفة، والأبيض ضعيف القوّة. وإذا خرج الجوزل عن بَيْضته علم أبواه أن

حلْقه لا يتسع للغذاء، فلا يكون لهما همّ إلا أن ينفخا في حَلْقه الريح لتتّسع حَوْصلته بعد التحامها، ثم يعلمان أنه لا يحتمل في أولّ اغتذائه أن يُزق بالطعْم، فيزقّانه باللعاب المختلط بقواهما وقوي الطُّعْم ثم يعلمان أنّ حَوْصلته تحتاج إلى دِباغ، فيأكلان من شَورج أصول الحيطان، وهي شيء من الملح الخالص والتراث فيُزّقانه به. فإذا علما أنه قد اندبغ زقّاه بالحبّ الذي قد غَبّ في حواصلهما، ثم بالذي هو أطرى فأطرى، حتى يتعوّد، فإذا علما أنه قد أطاق اللّقط منعاه بعضَ المنع، ليحتاج ويتشوّف، فتطلبه نفسه، ويحرص عليه، فإذا فطماه وبلغا منتهى حاجته إليهما، نزع الله تلك الرحمة منهما، وأقبل بهما على طلب نَسْل آخر.

ويقال: إنّ حيّة أكلَتْ بيض مُكّاء فجعل المُكّاء يشرشِر على رأسها، ويدنو منها حتى دَلَعت الحيّة لسانها، وفتحت فاها تريده وتهمّ به، فألقى فيها حَسَكة فأخذت بحلْقها حتى ماتت!

ومن دعاء الصالحين: يا رزّاق النّعّاب في عشّه! وذلك أنّ الغراب إذا فقص عن فراخه، فقص عنها بيض الألوان، فينفر عنها ولا يزقّها، فتتفتح أفواها، فيأتيها ذباب يتساقط في أفواهها، فيكون غذاءها إلى أن تسودّ، فينقطع الذباب عنها، ويعودُ الغراب إليها فيأنس بها ويغذّيها.

والحُبَارى تدبّق جناح الصقر بذرْقها، ثم يجتمع عليه الحُبَارَيات، فينتِفْنَ ريشه طاقةً طاقةً، حتى يموت، ولذلك يحاول الحُبارى العلوّ عليه، ويحاول هو العلوّ عليها، ولا يتجاسر أن يدنُوَ منها متسفِّلاً عنها. ويقال: إن الحبارَى تموت كَمَداً إذا انحسر عنها ريشها، ورأت صُوَيْحباتها تطير. وكلّ الطير يتسافَدُ بالأستاه إلا الحَجَل، فإن الحجلة تكون في سُفالة الريح، واليعقوب في عَلاَوتها، فتلقح منه كما تلقح النخلة من الفُحّال بالريح. والحُبارَى شديدُ الحمْق، يقال إنّها أحمق الطير، وهي أشدّه حِياطةً لبيضها وفراخها.

والعقعَق مع كونه أخبث الطير وأصدقها خبثاً، وأشدّها حَذَراً، ليس في الأرض طائر أشدّ تضييعاً لبيضِه وفراخه منه. ومن الطير ما يؤثر التفرّد كالعُقاب، ومنه ما يتعايش زوجاً كالقَطا.

والظليم يبتلِع الحديد المحمّى، ثم يميِعُه في قانصته حتى يُحيله كالماء الجاري، وفي ذلك أعجوبتان: التغذّي بما لا يغذّي به، واستمراؤه وهضمه شيئاً لو طبخ بالنار أبداً لما انحلّ.

وكما سُخّر الحديد لجوف الظليم فأحاله، سُخّر الصخر الأصمّ لأذناب الجراد، إذا أراد أن يلقي بيضَه غرس ذنَبه في أشدّ الأرض صلابة، فانصدع له، وذلك من فعل الطبيعة بتسخير الصانع القديم سبحانه، كما إنّ عود الحَلْفاء الرّخو الدقيق المنبت، يلقي في نباته الآجرّ والخزَف الغليظ، فيثقبه.

وقد رأيت في مسّناة سور بغداد، في حجر صلد نبعةَ نبات قد شقّت وخرجت من موضع، لو حاول جماعة أن يضربوه بالبيارم[١] الشديدة مدّة طويلة لم يؤثر فيه أثراً.

وقد قيل: إن إبْرة العقرب أنفذُ في الطّنْجير والطست.

وفي الظليم شَبَهٌ من البعير من جهة المنسِم والوظيف والعُنق والخِزامة التي في أنفه، وشَبَهٌ من الطائر من جهة الريش والجناحين والذنب والمنقار. ثم إنّ ما فيه من شَبَه الطير جَذَبه إلى البيض، وما فيه من شبَه البعير لم يجذبه إلى الولادة.

ويقال: إنّ النعامة مع عظم عظامها وشدّة عَدْوِها لا مخّ فيها، وأشدّ ما يكون عَدْوُها أن تستقبل الريح، فكلّما كان أشدّ لعصوفها كان أشدّ لحُضرها، تضع عنقها على ظهرها ثم تخرق الريح، ومن أعاجيبها أنّ الصيّف إذا دخل وابتدأ البسر في الحمرة ابتدأ لون وظيفها في الحُمْرة، فلا يزالان يزدادان حمرةً إلى أن تنتهيَ حُمْرة البُسر، ولذلك قيل للظليم: خاضب، ومن العجَب أنها لا تأنس بالطير ولا بالإبل مع مشاكلتها للنوعين، ولا يكاد يرى بيضها مبدَّد البتّة، بل تصفُّه طولاً صَفًّا مستوياً على غاية الاستواء، حتى لو مددْتَ عليه خيط المِسْطَر لما وجدت لبعضه خروجاً عن البعض، ثم تعطِي لكلّ وحدة نصيبَها من الحَضْن.

والذئب لا يعرض لبيض النعام ما دام الأبوَان حاضريْن، فإنهما متى نقفاه ركبه الذكر فَطحَره[٢] وأدركته الأنثى فركضته، ثم أسلمته إلى الذكر وركبته عِوَضه، فلا يزالان يفعلان به ذلك حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً. والنّعام قد يتخذ في الدوّر، وضرره شديد؛ لأنّ النعامة ربّما رأت في أذن الجارية قرطاً فيه حجر أو حبة لؤلؤ، فخطفته وأكلته، وخرمت الأذن، أو رأت في لبّتها فضربت بمنقارها اللّبة فخرقتها.

١٥٦ - ومن كلام له عليه السلام
خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم

الأصل: فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱللهِ فَلْيَفْعَلْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوني، فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَلَى سَبِيلِ ٱلْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ.

---

(١) البيرم: عَتَلة النجار، وهي قطعة حديد يوسع بها النجار شق الخشبة عند نشرها. لسان العرب والمعجم الوسيط، مادة (برم).

(٢) طحره: رمى به. القاموس، مادة (طحر).

وَأَمَّا فُلاَنَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ ٱلْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا ٱلْأُولَى، وَٱلْحِسَابُ عَلَى ٱللهِ!

الشرح: يعتقل نفسه على الله: يحبسها على طاعته. ثم ذكر أنّ السبيل التي حملهم عليها وهي سبيل الرشاد، ذات مشقّة شديدة ومذاقة مريرة؛ لأنّ الباطل محبوب النفوس، فإنه اللهو واللّذة، وسقوط التكليف، وأما الحقّ فمكروه النفس؛ لأن التكليف صعب وترك الملاذّ العاجلة، شاقّ شديد المشقّة. والضِّغن: الحقد. والمِرْجل: قِدْر كبيرة. والقَيْن: الحداد، أي كَغَليان قِدْر من حديد.

عائشة وبعض أخبارها

وفلانة كناية عن أمّ المؤمنين عائشة، أبوها أبو بكر، وقد تقدّم ذكر نسبه، وأمها أم رُومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سبيع بن دَهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة. تزوّجها رسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنتين، بعد وفاة خديجة، وهي بنت سبع سنين، وبَنَى عليها بالمدينة، وهي بنت تسع سنين وعشرة أشهر، وكانت قبله تذكر لجُبَير بن مطعِم، وتُسمَّى له، وكان رسول الله ﷺ رأى في المنام عائشة في سَرَقةٍ من حرير عند متوفَّى خَديجة، فقال: «إن يكن هذا من عند الله يُمْضِهِ»[(١)]، روي هذا الخبر في المسانيد الصحيحة، وكان نكاحُه إياها في شوّال، وبناؤه عليها في شوّال أيضاً، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحبّتها على أزواجهنّ في شوّال، وتقول: هل كان في نسائه أحظَى منّي! وقد نكحني، وبنى عليّ في شوال، ردًّا بذلك على مَنْ يزعم من النساء أنّ دخولَ الرجل بالمرأة بين العيدَيْن مكروه.

وتوفِّيَ رسول الله ﷺ عنها وهي بنت عشرين سنة. واستأذنت رسول الله ﷺ في الكُنْية، فقال لها: «اكتني بابنك عبد الله بن الزُّبير»[(٢)]، يعني ابنَ أختها، فكانت تكنَى أمّ عبد الله. وكانت فقيهةً راوية للشعر، ذات حظّ من رسول الله ﷺ، ومَيْلٍ ظاهر إليها، وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمِي ويستشري، حتى كان منها في قصّة مارية، ما كان من الحديث الذي أسرّه إلى الزوجة الأخرى، وأدّى إلى تظاهرهما عليه، وأنزل فيهما قرآناً يُتلى في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: نكاح الأبكار (٥٠٧٨)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة (٢٤٣٨)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة (٢٣٦٢٢).

(٢) أخرجه أحمد، كتاب: باقي الأنصار، باب: باقي المسند السابق (٢٥٠٠٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣١١)، والطبراني في «الكبير» (٣٦).

المحاريب، يتضمّن وعيداً غليظاً عَقِيب تصريح بوقوع الذنب، وصَغْو القلب، وأعقبتْها تلك الجرأة، وذلك الانبساط وحدث منها في أيام الخلافة العلويّة ما حدث، ولقد عفا الله تعالى عنها، وهي من أهل الجنة عندنا بسابق الوعد، وما صحَّ من أمر التوبة.

وروى أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستيعاب» في باب عائشة، عن سعيد بن نصر، عن قاسم بن أصبغ، عن محمد بن وضاح، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع عن عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ لنسائه: **«أيّتكنّ صاحبة الجملَ الأدْبب، يقتَل حولها قتلى كثير، وتنجو بعدما كادت»**[1]؟

قال أبو عمر بن عبد البر: وهذا الحديث من أعلام نبوّته ﷺ، قال: وعصام بن قدامة ثقة وسائر الإسناد، فثقةِ رجاله أشهر من أن تذكر.

ولم تحمل عائشة من رسول الله ﷺ، ولا وُلد له ولد من مَهِيرة[2] إلا من خديجة، ومن السَّراريّ من مارية.

وقُذِفت عائشة في أيام رسول الله ﷺ بصفوان بن المعطّل السُّلَميّ، والقصة مشهورة، فأنزل الله تعالى براءتها في قرآن يُتْلَى وينقل، وجُلِد قاذفوها الحدّ، وتوفيت في سنة سبع وخمسين للهجرة، وعمرها أربع وستون سنة، ودفنت بالبَقيع، في مُلْك معاوية، وصلّى عليها المسلمون ليلاً، وأمّهم أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة من أهلها: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وذلك لسبع عشرة خلتْ من شهر رمضان من السنة المذكورة.

فأما قوله: «فأدركها رأيُ النساء»، أي ضعف آرائهنّ وقد جاء في الخبر: «لا يفلح قوم أسندوا أمرَهم إلى امرأة»[3] وجاء: «إنهنّ قليلات عقل ودين»[4]، أو قال: «ضعيفات»، ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرجل الواحد، والمرأة في أصل الخلقة سريعة الانخداع سريعة الغضب، سيّئة الظن فاسدة التدبير، والشجاعة فيهنّ مفقودة، أو قليلة، وكذلك السخاء.

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٧٨٥)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤٠٢٩).

(٢) المهيرة: الحرة الغالية المهر. اللسان والقاموس، مادة (مهر).

(٣) أخرجه أحمد، كتاب: مسند البصريين، باب: حديث أبي بكرة (١٩٨٨٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٧٨٧)، والبزار في «المسند» (٣٦٤٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥٣٧٢).

(٤) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الحيض، باب: ترك الحائض الصوم (٣٠٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: نقص الإيمان بنقص الطاعات (٨٠)، والترمذي، كتاب: الإيمان، باب: استكمال الإيمان (٢٦١٣)، وأبو داود، كتاب: السنة باب: الدليل على زيادة الإيمان (٤٦٧٩).

وأما الضِّغن، فاعلم أنّ هذا الكلام يحتاج، إلى شرح، وقد كنت قرأته على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعانيّ رحمه الله أيام اشتغالي عليه بعلْم الكلام، وسألته عمّا عنده فيه، فأجابني بجواب طويل، أنا أذكر محصوله، بعضُه بلفظه رحمه الله، وبعضُه بلفظي، فقد شذّ عني الآن لفظه كلّه بعينه، قال: أول بدء الضِّغن كان بينها وبين فاطمة عليها السلام، وذلك لأنّ رسول الله ﷺ تزوّجها عَقِيب موت خديجة، فأقامها مقامها، وفاطمة هي ابنة خديجة، ومن المعلوم أنّ ابنة الرجل إذا ماتت أمّها، وتزوج أبوها أخرى، كان بين الابنة وبين المرأة كَدَرٌ وشنَآن، وهذا لا بدّ منه، لأن الزوجة تنفَس عليها ميل الأب، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة. كالضَّرّة لأمّها، بل هي ضرة على الحقيقة، وإن كانت الأمّ ميّتة. ولأنّا لو قدّرنا الأمّ حيّة، لكانت العداوة مضطرمة متسعّرة، فإذا كانت قد ماتت ورِثتْ ابنتها تلك العداوة، وفي المثل: «عداوة الحماة والكَنّة». وقال الراجز:

إن الحماة أولِعَتْ بالكَنَّهْ وأولِعَتْ كَنَّتُها بالظَّنَّهْ

ثم اتّفق أنّ رسول الله ﷺ مال إليها وأحبَّها، فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، وأكرم رسول الله ﷺ فاطمةَ إكراماً عظيماً أكثر مما كان الناس يظنونه، وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم، حتى خرج بها عن حدّ حبّ الآباء للأولاد، فقال بمحضر الخاصّ والعام مراراً لا مرة واحدة، وفي مقامات مختلفة لا في مقام واحد: «إنّها سيّدة نساء العالمين، وإنها عديلة مريم بنت عمران»(١)، «وإنها إذا مرّت في الموقف نادى منادٍ من جهة العرش: يا أهل الموقف، غضّوا أبصاركم لتعبُرَ فاطمة بنت محمد»(٢). وهذا من الأحاديث الصحيحة، وليس من الأخبار المستضعَفة، وإن إنكاحه علياً إيّاها ما كان إلا بعد أن أنكحه الله تعالى إياها في السماء بشهادة الملائكة(٣). وكم قال لامرّة: «يوذيني ما يؤذيها، ويغضبني ما يغضبها»(٤)، و«إنها بضعة منّي، يريبني ما رابها»، فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضّغن عند الزوجة حسب

---

(١) أخرج نحوه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: فضل فاطمة بنت محمد ﷺ (٣٨٧٣)، وأحمد، كتاب: باقي «مسند المكثرين»، باب: حديث أبي سعيد الخدري (١١٣٤٧).

(٢) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٤٧٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢٣٨٦)، و«الكبير» (١٨٠).

(٣) على ما أخرجه الديلمي في الفردوس: ٥/ ٣١٩ رقم ٨٣١٠-٨٣١٧.

(٤) أخرج نحوه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٤)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة (٢٤٤٩)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: فضل فاطمة (٣٨٦٩)، وأحمد، كتاب: أول مسند المدنيين، باب: حديث عبد الله بن الزبير بن العوام (١٥٦٩١).

زيادة هذا التعظيم والتبجيل، والنفوس البشرية تغيَّظُ على ما هو دون هذا، فكيف هذا!

ثم حصل عند بعلها ما هو حاصلٌ عندها - أعني عليًا عليه السلام - فإنّ النساء كثيراً ما يجعلنَ الأحقاد في قلوب الرجال، لا سيما وهنّ محدّثات الليل كما قيل في المثل، وكانت تكثر الشكوى من عائشة، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلنَ إليها كلماتٍ عن عائشة، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلنَ إليها كلماتٍ عن فاطمة، وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها، كانت عائشة تشكو إلى أبيها، لعلمها أنّ بعلَها لا يُشكِيها على ابنته، فحصل في نفس أبي بكر من ذلك أثرٌ ما، ثم تزايد تقريظُ رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام، وتقريبه واختصاصه، فأحدث ذلك حسداً له وغبطة في نفس أبي بكر عنه، وهو أبوها، وفي نفس طلحة وهو ابن عمّها، وهي تجلس إليهما، وتسمع كلامهما، وهما يجلسان إليها ويحادثانها، فأعدَى إليها منهما كما أعدتْهما.

قال: ولست أبرّىء عليًا عليه السلام من مثل ذلك، فإنّه كان ينفَسُ على أبي بكر سكونَ النبيّ صلى الله عليه وآله إليه وثناءه عليه، ويحبّ أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده، فتأكّدت البِغْضة بين هذين الفريقين. ثم كان من أمر القذف ما كان، ولم يكن عليٌّ عليه السلام من القاذفين، ولكنّه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله بطلاقها، تنزيهاً لعرضه عن أقوال الشَّنَأة والمنافقين.

قال لما استشاره: إن هي إلا شِسْع نعلِك، وقال له: سلِ الخادم وخوّفها وإن أقامت على الجحود فاضربْها. وبلغَ عائشة هذا الكلام كلّه، وسمعت أضعافه ممّا جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الواقعة، ونقل النساء إليها كلاماً كثيراً عن عليّ وفاطمة، وأنهما قد أظهرا الشماتة جهاراً وسرًّا بوقوع هذه الحادثة لها، فتفاقم الأمرُ وغَلُظ.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله صالَحها ورجع إليها، ونزل القرآن ببراءتها، فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قُهِر، ويستظهر بعد أن غُلِب، ويبرأ بعد أن اتُّهم، من بسط اللسان، وفَلَتاتِ القول، وبلغ ذلك كلُّه علياً عليه السلام وفاطمة عليها السلام، فاشتدّت الحال وغَلُظت، وطوى كلٌّ من الفريقين قلبَه عَلَى الشنآن لصاحبه. ثم كان بينها وبين عليّ عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أحوال وأقوال، كلُّها تقتضِي تهييج ما في النفوس، نحو قولها له - وقد استدناه رسول الله، فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما متلاصقان: أما وجدتَ مقعداً لكذا - لا تكنى عنه - إلاّ فخذِي! ونحو ما روي أنّه سايره يوماً وأطال مناجاته، فجاءت وهي سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما، وقالت: فيم أنتما فقد أطلتما! فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله غَضِبَ ذلك اليوم. وما روي من حديث الْجَفنة من الثريد التي أمرت الخادم فوقفت لها فأكفأتها، ونحو ذلك مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحمائها.

ثم اتفق أنّ فاطمة وَلَدَت أولاداً كثيرة بنين وبنات، ولم تلد هي ولداً، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

كان يُقيم بني فاطمة مقام بنيه، ويسمّى الواحد منهما «ابني» ويقول: «دعوا لي ابني ولا تُزْرِموا على ابني»[١]، و«ما فعل ابني؟» فما ظنُّك بالزوجة إذا حُرِمت الولد من البعل، ثمّ رأت البعل يتبنّى بني ابنتِه من غيرها، ويحنو عليهم حُنُوَّ الوالد المشفق! هل تكون مُحبّةً لأولئك البنين ولأمهم ولأبيهم، أم مبغِضة! وهل تودّ دوامَ ذلك واستمرارَه، أم زواله وانقضاءه!

ثم اتّفق أنّ رسول الله ﷺ سدّ باب أبيها إلى المسجد، وفتح باب صهره[٢]، ثم بعث أباها ببراءة إلى مكة، ثم عزله عنها بصهره، فقدح ذلك أيضاً في نفسها، وولد لرسول الله ﷺ إبراهيم من مارية، فأظهر عليّ عليه السلام بذلك سروراً كثيراً، وكان يتعصّب لمارية، ويقوم بأمرها عند رسول الله ﷺ ميلاً عَلَى غيرها، وجرت لمارية نكبة مناسبة لنكبة عائشة، فبرّأها عليّ عليه السلام منها، وكشف بطلانها، أو كشفه الله تعالى عَلَى يدِه، وكان ذلك كشفاً محسًّا بالبصر، لا يتهيّأ للمنافقين أن يقولوا فيه ما قالوه في القرآن المنزّل ببراءة عائشة، وكلّ ذلك مما كان يوغِرُ صدرَ عائشة عليه، ويؤكّد ما في نفسها منه، ثم مات إبراهيم فأبطنتْ شماتةً، وإن أظهرت كآبة، ووَجَم عليّ عليه السلام من ذلك وكذلك فاطمة، وكانا يؤثران، ويريدان أن تتميّز مارية عليها بالوَلد، فلم يقدّر لهما ولا لمارية ذلك، وبقيَت الأمور على ما هي عليه، وفي النفوس ما فيها، حتى مَرِض رسول الله ﷺ المرضَ الذي توفّي فيه.

وكانت فاطمة عليها السلام وعليّ عليه السلام يريدان أن يمرّضاه في بيتهما، وكذلك كان أزواجه كلّهنّ، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبّة القلبية التي كانت لها دون نسائه، وكره أن يزاحم فاطمة وبعلَها في بيتهما، فلا يكون عنده من الانبساط لوجودهما ما يكون إذا خلا بنفسه في بيت مَنْ يميل إليه بطبعه، وعلم أنّ المريض يحتاج إلى فضل مداراة، ونوم ويقظة وانكشاف، وخروج حَدَث، فكانت نفسه إلى بيته أسكنَ منها إلى بيت صهره وبنته، فإنه إذا تصوّر حياءهما منه استحيَا هو أيضاً منهما، وكلّ أحدٍ يحبُّ أن يخلُوَ بنفسه، ويحتشِم الصّهر والبنت، ولم يكن له إلى غيرها من الزوْجات مثل ذلك الميل إليه، فتمرّض في بيتها، فغُبطت على ذلك، ولم يمرض رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة مثل هذا المرض، وإنما كان مرضه الشّقِيقة يوماً أو بعض يوم ثم يبرأ، فتطاولَ هذا المرضُ، وكان عليّ عليه السلام لا يشكّ أنّ الأمر له، وأنّه لا ينازعه فيه أحد من الناس، ولهذا قال له عمّه وقد مات رسول الله ﷺ: امْدُد يدَك أبايعك، فيقول الناس: عمّ رسول الله ﷺ بايع ابنَ عمّ رسول الله ﷺ، فلا يختلف عليك اثنان.

قال: يا عمّ، وهل يطمع فيها طامع غيري! قال: ستعلم، قال: فإنّي لا أحبّ هذا الأمر من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: ذبّ الرجل عن ابنته (٥٢٣٠)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٢/ ٢٣٧، وأخرجه القمي في كتاب الأربعين: ٦١٨.

وراء رتاج، وأحبّ أن أضجرَ به. فسكت عنه، فلما ثقل رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضِه، أنفذ جيش أسامة، وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام المهاجرين والأنصار، فكان عليّ عليه السلام حينئذٍ بوصوله إلى الأمر - إن حدث برسول الله صلى الله عليه وآله حدث - أوثق، وتغلّب على ظنه أنّ المدينة لو مات لخلتْ من منازِع ينازعه الأمر بالكلّية، فيأخذ صفواً عفواً، وتتمّ له البيعة، فلا يتهيّأ فسخها لو رام ضدّ منازعته عليها، فكان - من عَوْدِ أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه، وإعلامه بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يموت - ما كان، ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف، فنسب عليٌّ عليه السلام عائشة أنها أمرت بلالاً مولَى أبيها أنْ يأمره فليصلّ بالناس؛ لأنّ رسول الله كما روي، قال: «ليصَلِ بهم أحدُهم»[1]، ولم يعيِّن، وكانت صلاة الصبح، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في آخر رَمَقٍ يتهادَى بين عليّ والفضل بن العباس، حتى قام في المحراب كما ورد في الخبر، ثم دخل فمات ارتفاع الضحىَ، فجعل يومُ صلاته حُجَّةً في صرف الأمير إليه. وقال: أيّكم يَطيبُ نفساً أن يتقدّم قَدَمَيْن قدّمهما رسول الله في الصلاة؟ ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصلاة لصرفه عنها، بل لمحافظته على الصّلاة مهما أمكن، فبويع عَلَى هذه النكتة التي اتّهمها عليّ عليه السلام على أنّها ابتدأت منها.

وكان عليّ عليه السلام يذكُر هذا لأصحابه في خَلَواته كثيراً، ويقول: إنّه لم يقلْ صلى الله عليه وآله: «إنّكم لَصُوَيحبات يوسف»[2] إلاّ إنكاراً لهذه الحال، وغضباً منها؛ لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما، وأنّه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب، فلم يُجْدِ ذلك، ولا أثّر، مع قوة الداعي الذي كان يدعو إلى أبي بكر ويمهّد له قاعدة الأمر، وتقرر حاله في نفوس الناس ومن اتّبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار. ولما ساعد على ذلك من الحظ الفَلَكيّ والأمر السمائيّ، الذي جَمَع عليه القلوب والأهواء، فكانت هذه الحال عند عليّ أعظم من كلّ عظيم، وهي الطامّة الكبرى، والمصيبة العُظمى، ولم ينسُبْها إلا إلى عائشة وحدَها، ولا علّق الأمر الواقع إلاّ بها، فدعا عليها في خَلَواتِه وبين خواصّه، وتظلّم إلى الله منها، وجرى له في تخلفه عن البيْعة ما هو مشهور، حتّى بايع، وكان يبلغه وفاطمة عنها كلّ ما يكرهانه منذ مات رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن توفّيَت فاطمة، وهما صابران على مضضٍ ورَمَض[3]، واستظهرت

---

(١) أخرج نحوه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٨٥)، وابن حجر في «تلخيص الحبير» (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ١٦٠ وروي بلفظ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: باب: حد المريض أن يشهد الجماعة (٦٦٤)، ومسلم، كتاب: الصلاة باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٨)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر (٣٦٧٢)، والنسائي، كتاب: الإمامة، باب: الائتمام بالإمام يصلي قاعداً (٨٣٣)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه (١٢٣٣).

بولاية أبيها، واستطالت وعَظُم شأنها، وانخذل عليّ وفاطمة وقُهِرا، وأخِذَت فَدَك، وخرجت فاطمة تجادل في ذلك مراراً فلم تظفر بشيء، وفي ذلك تبلّغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كلّ كلام يسوءها، ويبلّغنَ عائشة عنها وعن بعلها مثل ذلك، إلا أنه شتّان ما بين الحالين، وبعد ما بين الفريقيْن، هذه غالبة وهذه مغلوبة، وهذه آمرة وهذه مأمورة، وظهر التشفي والشماتة، ولا شيء أعظم مرارة ومشقّة من شماتة العدوّ.

فقلت له، رحمه الله: أفتقول أنت: إنّ عائشة عيّنت أباها للصلاة ورسول الله ﷺ لم يعيّنه!

فقال: أمّا أنا فلا أقول ذلك، ولكنّ عليًا كان يقوله، وتكليفي غير تكليفه، كان حاضراً ولم أكن حاضراً، فأنا محجوج بالأخبار التي اتصلت بي، وهي تتضمن تعيين النبيّ ﷺ لأبي بكر في الصلاة، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنّه من الحال التي كان حضرها.

قال: ثم ماتت فاطمة، فجاء نساء رسول الله ﷺ كلّهنّ إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة، فإنّها لم تأتِ، وأظهرت مرضاً، ونقل إلى عليّ عليه السلام عنها كلام يدلّ على السرور.

ثم بايع عليّ أباها فسرّت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البَيْعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا، واستمرّتِ الأمور على هذا مُدّة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان، والقلوب تغلِي، والأحقاد تذيب الحجارة، وكلّما طال الزمان على عَلِي تضاعفت همومه، وباح بما في نفسه، إلى أن قتِل عثمان وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليباً وتحريضاً، فقالت: أبعده الله! لمّا سمعت قتلَه، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة، فتعود الإمْرة تيميّة كما كانت أوّلاً، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب، فلما سمعت ذلك صرخت: واعثماناه! قتِل عثمان مظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده.

هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب رحمه الله، ولم يكن يتشيّع، وكان شديداً في الاعتزال، إلا أنه في التفضيل كان بغداديًا.

فأما قوله عليه السلام: «ولو دُعِيَتْ لتنال من غيري مثل ما أتت إليّ، لم تفعل» فإنما يعني به عمر، يقول: لو أنّ عمر وَلِيَ الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذي قتِل عليه، والوجه الّذي أنا وليت الخلافة عليه، ونسِب إلى عمر أنه كان يؤثر قتله، أو يحرّض عليه، ودعِيَتْ عائشة إلى أن تخرج عليه، في عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام، تثير فتنة وتنقض البيعة - لم تفعل، وهذا حق؛ لأنها لم تكن تَجِد على عمر ما تجده على عليّ عليه السلام، ولا الحال الحال.

فأما قوله: «ولها - بعدُ - حُرْمتها الأولى، والحساب على الله»، فإنه يعني بذلك حُرْمتَها بنكاح رسول الله ﷺ لها، وحبّه إياها. وحسابها على الله؛ لأنه غفور رحيم لا يتعاظم عفوه زلّة، ولا يضيق عن رحمته ذنب.

فإن قلت: هذا الكلام يدلّ على توقّفه عليه السلام في أمرها، وأنتم تقولون: إنّها من أهل الجنّة، فكيف تجمعون بين مذهبكم وهذا الكلام؟

قلت: يجوز أن يكون قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبرُ عنده بتوبتها، فإنّ أصحابنا يقولون: إنّها تابت بعد قتل أمير المؤمنين وندمت، وقالت: لوددْت أن لي من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة بنين، كلّهم ماتوا، ولم يكن يوم الجمل. وأنّها كانت بعد قتله تُثني عليه وتنشر مناقبَه، مع أنهم رووْا أيضاً أنها عَقِيب الجمل كانت تبكي حتى تبلّ خمارها، وأنها استغفرت الله وندمت، ولكن لم يبلغ أمير المؤمنين عليه السلام حديثُ توبتها عَقِيب الجمل بلاغاً يقطع العذر ويثبت الحجة، والذي شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياعاً مستفيضاً، إنما كان بعد قتله عليه السلام إلى أن ماتت وهي على ذلك، والتائب مغفور له، ويجب قبول التوبة عندنا في العدل، وقد أكّدوا وقوع التوبة، منها ما روي في الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله في الآخرة كما كانت زوجته في الدنيا، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أنْ نتكلّف إثبات توبتها ولو لم ينقل، فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر!

الأصل: منه: سَبِيلٌ أَبْلَجُ ٱلْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ ٱلسِّرَاجِ، فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى ٱلْإِيمَانِ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ ٱلْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ ٱلدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ ٱلْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ ٱلْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ ٱلْخَلْقَ لاَ مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ ٱلْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى.

الشرح: هو الآن في ذكر الإيمان، وعنه قال: «سبيل أبلج المنهاج»، أي واضح الطريق.

ثم قال: «فبالإيمان يستدلّ على الصالحات»، يريد بالإيمان هاهنا مسمّاه اللغويّ لا الشرعيّ لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[1] أي بمصدّق، والمعنى أنّ من حَصَل عنده التَّصديق، بالوحدانية والرسالة، وهما كلمتا الشهادة، استدلّ بهما على وجوب الأعمال الصالحة عليه أو ندبه إليها، لأنّ المسلم يعلم من دين نبيه صلى الله عليه وآله أنه أوجب عليه أعمالاً صالحة، وندبه إلى أعمال صالحة، فقد ثبت أنّ بالإيمان يستدلّ على الصالحات.

ثم قال: «وبالصالحات يستدلّ على الإيمان»، فالإيمان هاهنا مستعمل في مسمّاه الشرعيّ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.

لا في مسمّاه اللغويّ، ومسمّاه الشرعيّ هو العقد بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح، فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يستكمل فعل كل واجب، ويجتنب كل قبيح، ولا شبهة أنّا مَتَى علمنا أو ظننَّا من مكلّفٍ أنه يفعل الأفعال الصالحة، ويجتنب الأفعال القبيحة، استدللنا بذلك على حسن إطلاق لفظ المؤمن عليه، وبهذا التفسير الذي فسّرناه نسلم من إشكال الدَّوْر؛ لأنّ لقائل أن يقول: من شرط الدليل أن يعلم قبل العلم بالمدلول، فلو كان كلّ واحد من الإيمان والصالحات يستدلّ به على الآخر، لزم تقدّم العلم بكلّ واحد منهما على العلم بكلّ واحدٍ منهما، فيؤدّي إلى الدَّوْر، ولا شبهة أن هذا الدَّوْر غير لازم على التفسير الذي فسّرناه نحن.

ثم قال عليه السلام: «وبالإيمان يعمر العلم»، وذلك لأنّ العالم وهو غير عامل بعلمه، غير منتفع بما عِلم، بل مستضرّ به غاية الضرر، فكأنّ علمه خراب غير معمور، وإنّما يعمر بالإيمان وهو فعل الواجب وتجنّب القبيح على مذهبنا، أو الاعتقاد والمعرفة على مذهب غيرِنا أو القول اللسانيّ على قول آخرين، ومذهبنا أرجح؛ لأنّ عمارة العلم إنّما تكون بالعمل من الأعضاء والجوارح، وبدون ذلك يبقى العلم على خرابه كما كان.

ثم قال: «وبالعلم يُرْهب الموت»، هذا من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١).

ثم قال: «وبالموت تختم الدنيا»، وهذا حق لأنه انقطاع التكليف.

ثم قال: «وبالدنيا تحرز الآخرة»، هذا كقول بعض الحكماء: الدنيا متجر، والآخرة ربح، ونفسك رأس المال.

ثم قال: «وبالقيامة تزلف الجنّة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين»، هذا من القرآن العزيز. وتزلف لهم: تقدّم لهم وتقرّب إليهم.

ولا مقصر لي عن كذا: لا محبس ولا غاية لي دونه. وأرقل: أسرعَ. والمضمار: حيث تستبِق الخيل.

الأصل: . ...ا مَنْ مُسْتَقَرِّ ٱلْأَحْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ ٱلْغَايَاتِ، لِكُلِّ دَارٍ أ ...ا، وَلاَ يُنْقَلُونَ عَنْهَا، وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُ... وَإِنَّهُمَا لاَ يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلاَ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُمْ ...مَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ،

---

(١) سورة فاد

وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلاَ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلاَ يُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ.

الشرح: شَخَصُوا من بلد كذا: خرجوا. ومستقرّ الأجداث: مكان استقرارهم بالقبور، وهي جمع جَدَث.

ومصائر الغايات: جمع مَصِير، والغايات: جمع غاية وهي ما ينتهي إليه، قال الكميت:

فالآن صرت إلى أُمَيَّة والأمور إلى مصايِرْ

ثم ذكر أن أهل الثواب والعقاب، كلّ من الفريقين يقيم بدار لا يتحوّل منها، وهذا كما ورد في الخبر: «إنه ينادِي منادٍ: يا أهل الجنّة سعادة لا فناء لها، ويا أهل النار، شقاوة لا فناء لها»(1).

ثم ذكر أنّ الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر خُلقان من خُلُق الله سبحانه، وذلك لأنه تعالى ما أمر إلاّ بمعروف، وما نهى إلا عن منكر، ويبقى الفرق بيننا وبينه أنّا يجب علينا النهي عن المنكر بالمنع منه، وهو - سبحانه - لا يجب عليه ذلك؛ لأنه لو منع من إتيان المنكر لبطل التكليف.

ثم قال: «إنّهما لا يقرّبان من أجلٍ، ولا ينقصان من رزق»، وإنما قال عليه السلام ذلك؛ لأنّ كثيراً من الناس يكفّ عن نهي الظلمة عن المناكير، توهّماً منه أنّهم إمّا أن يبطشوا به فيقتلوه، أو يقطعوا رزقه ويحرِموه، فقال عليه السلام: إنّ ذلك ليس مما يقرّب من الأجل، ولا يقطع الرزق. وينبغي أن يحمَل كلامُه عليه السلام على حال السلامة وغلبة الظنّ بعدم تطرّق الضرر الموفِي على مصلحة النهي عن المنكر. ثم أمر باتباع الكتاب العزيز، ووصفه بما وصفَه به.

وماء ناقع، ينقع الغلة، أي يقطعها ويُروي منها. ولا يزيغ: يميل فيُستعتب: يطلب منه العتبى هي الرضا، كما يطلب من الظالم يميل فيسترضي.

قال: ولا يخلقه كثيرة الردّ وولوج السمع، هذا من خصائص القرآن المجيد شرّفه الله تعالى، وذلك أنّ كلّ كلام منثور أو منظوم إذا تكررت تلاوته وتردّد ولوجُه الأسماع ملّ وسُمج واستُهجن، إلا القرآن فإنه لا يزال غضاً طريًّا محبوباً غير مملول.

(1) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون (٢٨٥٠)، وأحمد، كتاب: «مسند المكثرين من الصحابة» (٥٩٥٧).

١٥٧ - وقام إليه عليه السلام رجل فقال:
أخبرنا عن الفتنة وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام

الأصل: إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾[1] عَلِمْتُ أَنَّ ٱلْفِتْنَةَ لاَ تَنْزِلُ بِنَا، وَرَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، مَا هَذِهِ ٱلْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ ٱللهُ بِهَا؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ ٱسْتُشْهِدَ مَنِ ٱسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً»! فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ ٱلْبُشْرَى وَالشُّكْرِ، وَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِن ٱلْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَه، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ ٱلْكَاذِبَةِ، وَٱلْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ ٱلْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، فَبِأَيِّ المَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ.

الشرح: قد كان عليه السلام يتكلم في الفتنة، ولذلك ذكر الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك قال: فعليكم بكتاب الله»، أي إذا وقع الأمر واختلط الناس، فعليكم بكتاب الله، فلذلك قام إليه مَنْ سأله عن الفتنة. وهذا الخبر مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قد رواه كثير من المحدّثين عن عليّ عليه السلام، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين، كما كتب عليّ جهاد المشركين»[2]، قال: فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال: «قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وهم مخالفون للسنّة». فقلت: يا رسول الله، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: «على الإحداث في الدّين، ومخالفة الأمر»، فقلت: يا رسول الله، إنك كنت وعدتّني الشهادة، فاسأل الله أن

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١، ٢.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ٧٩، وأخرجه القمي في كتاب الأربعين: ٢٤٦.

يعجّلها لي بين يديك، قال: «فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين! أما إنّي وعدتك الشهادة وستستشهد، تضربُ على هذه فتخضب هذه، فكيف صبرك إذاً!»، قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبرٍ، هذا موطن شكرٍ، قال: «أجلْ، أصبت، فأعدّ للخصومة فإنك مخاصَم»، فقلت: يا رسول الله، لو بينت لي قليلاً! فقال: «إن أمتي ستُفتَن من بعدي، فتتأوّل القرآن وتعمل بالرأي، وتستحلّ الخمر بالنبيذ، والسحت بالهديّة، والرّبا بالبيع، وتحرّف الكتاب عن مواضعه، وتغلب كلمة الضلال، فكن جليسَ بيتك حتى تقلّدَها، فإذا قُلّدتها جاشت عليك الصدور، وقلبت لك الأمور، تقاتل حينئذٍ عَلَى تأويل القرآن، كما قاتلتَ عَلَى تنزيله، فليست حالهم الثانية بدون حالهم الأولى». فقلت: يا رسولَ الله، فبأيّ المنازل أنزِل هؤلاء المفتونين من بعدك؟ أبمنزلة فتنة أم بمنزلة رِدّة؟ فقال: «بمنزلة فتنةٍ يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدْل». فقلت: يا رسولَ الله، أيدركهم العدل مِنّا أم من غيرها؟ قال: «بل منّا، بنا فتح وبنا يختَم، وبنا ألّف الله بين القلوب بعد الشرك، وبنا يؤلّف بين القلوب بعد الفتنة». فقلت: الحمد لله عَلَى ما وَهب لنا من فضله.

واعلم أنّ لفظه عَلَيْهِ السَّلَامُ المرويّ في «نهج البلاغة» يدلّ عَلَى أنّ الآية المذكورة وهي قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ أنزِلت بعد أُحُد، وهذا خلاف قول أرباب التفسير؛ لأنّ هذه الآية هي أوّل سورة العنكبوت وهي عندهم بالاتفاق مكيّة، ويوم أُحُد كان بالمدينة، وينبغي أن يقال في هذا: إنّ هذه الآية خاصّة أنزلت بالمدينة، وأضيفت إلى السورة المكية فصارتا واحدة، وغلب عليها نسب المكيّ لأنّ الأكثر كان بمكة، وفي القرآن مثل هذا كثير، كسورة النحل، فإنها مكيّة بالإجماع، وآخرها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة بعد يوم أُحُد، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾(١).

فإن قلت: فلِمَ قال: «علمت أن الفِتنَةَ لاَ تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ الله بين أظهرنا»؟

قلت: لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾(٢).

وقوله: «حيزتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ»، أي منعت.

قوله: «ليس هَذَا من مواطن الصبر» كلامٌ عالٍ جدًا يدلّ على يقين عظيم، وعرْفَانٍ تام، ونحوه قوله - وقد ضربه ابن ملجم -: فزتُ وربِّ الكعبة.

---

(١) سورة النحل، الآيات: ١٢٦ - ١٢٨. (٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

قوله: «سيُفتنون بعدِي بأموالهم» من قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(١).

قوله: «ويمنُّون بدينهم على ربّهم»، من قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾(٢).

قوله: «ويتمنّون رحمته» من قوله: «أحمق الحمقى من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله».

قوله: «وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ» من قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٣).

والأهواء الساهية: الغافلة. والسُّحت: الحرام، ويجوز ضم الحاء، وقد أسحت الرجل في تجارته، إذا اكْتَسَبَ السُّحْت.

وفي قوله: «بل بمنزلة فتنة» تصديق لمذهبنا في أهل البغي، وأنهم لم يدخلوا في الكفر بالكليّة، بل هم فسّاق، والفاسق عندنا في منزلة بين المنزلتين، خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر.

١٥٨ – ومن خطبة له عليه السلام في وصف الدهر

الأصل: ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلْحَمْدَ مُفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلاً عَلَى آلاَئِهِ وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ ٱلله، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لاَ يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلاَ يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ. آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِه، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلاَمُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ، فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَٱرْتَبَكَ فِي ٱلْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّءَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ.

ٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱلله، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَٱلْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لاَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلاَ يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلاَ وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ ٱلْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ ٱلْغَايَةُ ٱلْقُصْوَى.

عِبَادَ ٱلله، ٱلله ٱلله فِي أَعَزِّ ٱلأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ ٱلله قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

ٱلْحَقّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ: فَشِقْوَةٌ لاَزِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ. فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ ٱلفَنَاءِ، لِأَيَّامِ ٱلْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى ٱلزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعَنِ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى ٱلْمَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لاَ يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ ٱللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ ٱللهُ مِنَ ٱلْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلاَ فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ ٱللهِ، ٱحْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ ٱلْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ ٱلْأَطْفَالُ.

ٱعْلَمُوا - عِبَادَ ٱللهِ - أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لاَ تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلاَ يُكِنُّكُمْ منهم بَابٌ ذُو رِتَاجٍ، وَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ، يَذْهَبُ ٱلْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ ٱلْغَدُ لاَحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَالَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمَفْرَدِ غُرْبَةٍ!

وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ ٱلقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ ٱلْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ ٱلْعِلَلُ، وَٱسْتَحَقَّتْ بِكُمُ ٱلْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُم ٱلْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَٱعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

الشرح: جعل الحمد مفتاحاً لذكره؛ لأنّ أوّل الكتاب العزيز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، والقرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٢)، وسبباً للمزيد؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٣)، والحمد هاهنا هو الشكر، ومعنى جعله الحمدَ دليلاً على عظمته وآلائه أنه إذا كان سبباً للمزيد، فقد دلّ ذلك على عظمة الصانع وآلائه، أمّا دلالته عَلَى عظمته؛ فلأنه دالٌّ عَلَى أنّ قدرته لا تتناهى أبداً، بل كلّما ازداد الشكر ازدادت النعمة. وأمّا دلالته عَلَى آلائه؛ فلأنّه لا جودَ أعظمُ من جود مَنْ يعطي مَنْ يحمَده، لا حمداً متطوّعاً، بل حمْداً واجباً عليه.

قوله: «يجري بالباقين كجريه بالماضين»، من هذا أخذ الشعراء وغيرهم ما نظموه في هذا المعنى، قال بعضهم:

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

مـات مَـنْ مـات والـثـريّـا الـثـريّـا والـسِّـمـاك الـسّـمـاك والـنَّـسْـرُ نَـسْـرُ

ونـجـوم الـسـمّـاء تـضـحـك مِـنّـا كـيـفَ تَـبْـقَـى مِـنْ بـعـدِنَـا ونَـمُـرّا!

وقال آخر:

فـمـا الـدّهْـرُ إلا كـالـزّمـان الّـذي مَـضَـى ولا نـحـن إلا كـالـقـرون الأوائـلِ

قوله: «لا يعود ما قد ولّى منه»، كقول الشاعر:

مَـا أحْـسَـن الأيّـام إلاّ أنّـهَـا يـا صـاحـبـيّ إذا مَـضَـتْ لـم تـرجـعِ

قوله: «ولا يبقى سرمداً ما فيه»، كلام مطروق المعنى، قال عديّ:

لـيـس شـيءٌ عَـلَـى الـمـنـون بـبـاقِ غـيـر وجـه الـمـهـيـمـن الـخـلاّقِ

قوله: «آخر أفعاله كأوّله»، يروى: «كأوّلها»، ومن رواه: «كأوّله» أعاد الضمير إلى الدهر، أي آخر أفعال الدهر كأوّل الدهر، فحذف المضاف.

متشابهة أموره؛ لأنّه - كما كان من قبل - يرفع ويضع، ويغني ويفقر، ويوجد ويعدم، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة. وروي: «متسابقة» أي شيء منها قبل شيء، كأنّها خيلٌ تتسابق في مِضْمارٍ.

متظاهرة أعلامه، أي دَلالاته على سجيّته التي عامَل النّاس بها قديماً وحديثاً. متظاهرة: يقوي بعضها بعضاً. وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام عَلَى عادة العرب في ذكر الدّهر، وإنما الفاعل على الحقيقة ربُّ الدهر.

والشُّوْل: النُّوق التي خَفّ لبنها وارتفع ضَرْعها، وأتى عليها من نَتَاجها سبعة أشهر أو ثمانية، الواحدة شائلة، وهي جَمْعٌ عَلَى غير القياس. وشَوّلت الناقة، أي صارت شائلة، فأما الشائلة بغيرها، فهي الناقة تَشُول بذَنبها للقّاح ولا لبنَ لها أصلاً، والجمع شُوّل، مثل راكع وركّع، قال أبو النّجْمّ:

كـأنّ فـي أذنـابـهـنّ الـشُّـوّلِ

والزاجر: الذي يزجر الإبل بسوقها، ويقال: حدوتُ إبلي وحدوتُ بإبلي، والحدو سَوْقها، والغناء لها، وكذلك الحُداء، ويقال للشّمال: حَدْواء؛ لأنّها تحدو السحاب، أي تسوقه، قال العجاج:

حَـدْوَاءُ جـاءتْ مـن بـلاد الـطـورِ

ولا يقال للمذكر: «أحْدَى»، وربما قيل للحمار إذا قدم أتُنه: حادٍ، قال ذو الرُّمة:

حادي ثلاثٍ من الحُقْب السَّماحيج(١)

(١) الحقب: الحزام يلي حوق البعير، أو حبل يشد به الرحل في بطنه القاموس، مادة (حقب).

والمعنى أنّ سائقَ الشَّوْل يعسِف بها، ولا يتَّقي سَوْقها ولا يدّارك كما يسوق العِشار.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ شغَل نفسَه بغير نفسه هلك»، وذلك آنّ من لا يوفّي النظرَ حقّه، ويميل إلى الأهواء ونُصرة الأسلاف. والحجاج عَمّا رُبّيَ عليه بين الأهل والأستاذين الذين زرعوا في قلبه العقائد، يكون قد شغَل نفسَه بغير نفس؛ لأنّه لم ينظر لها، ولا قصد الحقّ من حيث هو حقّ، وإنّما قصد نُصْرة مذهب معيّن يشقُّ عليه فراقه، ويصعب عنده الانتقال منه، ويسوءه أن يردّ عليه حجةً تبطله، فيُسهر عينه، ويتعب قلبَه في تهويس تلك الحجة والقدح فيها بالغثّ والسمين، لا لأنه يقصد الحقّ، بل يقصد نصرة المذهب المعيّن، وتشييد دليله، لا جَرَم أنّه متحيّر في ظلمات لا نهاية لها!

والارتباك: الاختلاط، ربكت الشيء أربكه رَبكاً، خلطته فارتبك، أي اختلط، وارتبك الرَّجل في الأمر، أي نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه.

قوله: «ومدّت به شياطينه في طغيانه»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[1].

وروي: «ومدّت له شياطينه» باللّام، ومعناه الإمهال، مدَّ له في الغيّ، أي طوّل له، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[2].

قوله: «وزينت له سَيّء، أعماله»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[3].

قوله: «التقوى دار حصن عزيز»، معناه دار حَصَانة عزيزة، فأقام الاسم مقام المصدر، وكذلك في الفجور.

ويحرز مَنْ لجأ إليه: يحفظ من اعتصم به.

وحُمَّة الخطايا: سمّها، وتقطع الحمة، كما تقول: قطعت سَرَيان السمّ في بدن الملسوع بالبنزهيرات[4] والترياقات، فكأنه جعل سمّ الخطايا سارياً في الأبدان، والتَّقوى تقطع سريانه.

قوله: «وباليقين تدرك الغاية القصوى»، وذلك لأنّ أقصى درجات العرفان الكشف، وهو المراد هاهنا بلفظ اليقين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢. (٢) سورة مريم، الآية: ٧٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٤) بادزهر: حجر كريم، وأشهر خواصه زعماً أنه ترياق للسموم، شرباً ووضعاً على الجرح. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (باد).

وانتصب «الله، الله» على الإغراء. و«في» متعلّقة بالفعل المقدّر، وتقديره: راقبوا. وأعزّ الأنفس عليهم، أنفسهم.

قوله: «فشِقْوة لازمة»، مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فغايتكم، أو فجزاؤكم، أو فشأنكم، وهذا يدلّ على مذهبنا في الوعيد؛ لأنّه قَسَم الجزاء إلى قسمين، إمّا العذاب أبداً، أو النعيم أبداً، وفي هذا بطلان قول المرجئة: إنّ ناساً يخرجون من النّار فيدخلون الجنة؛ لأن هذا لو صَحّ لكان قسماً ثالثاً.

قوله: «فقد دُلِلتُم على الزّاد»، أي الطاعة.

وأمرتم بالظَّعن، أي أمرتم بهجْر الدنيا، وأنْ تظعَنُوا عنها بقلوبكم. ويجوز: «الظَّعْن» بالتسكين.

وحُثِثتم على المسير؛ لأنّ الليل والنهار سائقان عنيفان.

قوله: «وإنّما أنتم كركْب وقوف لا يَدْرُون مَتَى يؤمرون بالسير»، السَّيْر هاهنا، هو الخروج من الدنيا إلى الآخرة، بالموت، جعل الناس ومقامهم في الدنيا كركْب وقوف لا يدرون متى يقال لهم: سيروا فيسيرون؛ لأنّ النّاس لا يعلمون الوقت الذي يموتون فيه.

فإن قلت: كيف سمّي الموت والمفارقة سيراً؟

قلت: لأنّ الأرواح يُعْرَجُ بها إمّا على عالمها وهم السُّعداء، أو تهوي إلى أسفل السافلين وهم الأشقياء، وهذا هو السَّيْر الحقيقي، لا حركة الرجل بالمشي، ومَنْ أثبت الأنفس المجرّدة، قال: سَيْرها خلوصها من عالم الحسّ، واتّصالها المعنويّ لا الأبديّ ببارئها، فهو سير في المعنى لا في الصورة، ومَنْ لم يَقُلْ بهذا ولا بهذا قال: إنّ الأبدان بعذ الموت تأخذ في التحلّل والتزايل، فيعود كلّ شيء منها إلى عنصره، فذاك هو السَّيْر.

و«ما» في «عَمّا قليل» زائدة. وتَبِعتُه: إثمهُ وعقوبته.

قوله: «إنه ليس لما وعد الله من الخير مَتْرَك»، أي ليس الثواب فيما ينبغي للمرء أن يتركَه، ولا الشرّ فيما ينبغي أن يرغب المرء فيه.

وتفحَصُ فيه الأعمال: تكشف. والزَّلزال، بالفتح: اسم للحركة الشديدة والاضطراب، والزِّلْزال، بالكسر المصدر، قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[١].

قوله: «ويشيب فيه الأطفال» كلامٌ جارٍ مجرى المثل، يقال في اليوم الشديد: إنّه ليُشِيب نواصي الأطفال، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[٢]، وليس ذلك

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١١.
(٢) سورة المزمل، الآية: ١٧.

على حقيقته؛ لأنّ الأمّة مجمعة على أنّ الأطفال لا تتغيّر حالهم في الآخرة إلى الشيب، والأصل في هذا أنّ الهموم والأحزان إذا توالتْ على الإنسان شاب سريعاً، قال أبو الطيّب:

والهمُّ يخترِمِ الجسيمَ نحافةً ... ويُشيبُ ناصيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

قوله: «إنّ عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جواركم»؛ لأنّ الأعضاء تنطق في القيامة بأعمال المكلفين، وتشهد عليهم.

والرَّصَد: جمع راصد، كالحرس جمع حارس.

قوله: «وحفّاظ صدق»، يعني الملائكة الكاتبين، لا يعتصم منهم بسترة ولا ظلام ليل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إذا ما خلوتَ الدَّهر يوماً فلا تَقلْ ... خَلَوتُ، وَلكِن قُل: عليّ رقيبُ

قوله: «وإنّ غداً من اليوم قريب»، ومنه قول القائل:

فإنّ غَداً لناظِرِهِ قَريبُ

ومنه قوله:

غَدٌ ما غدٌ ما أقرب اليوم من غَدِ

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(١).

والصيحة: نفخة الصُّور.

وزاحت الأباطيل: بعدت. واضمحلّت: تلاشت وذهبت.

قوله: «واستحقّت»، أي حقت ووقعت، استفعل بمعنى «فعل»، كقولك: استمرّ على باطله، أي مَرّ عليه.

وصدرت بكم الأمور مصادرها، كلّ وارد فله صَدَر عن مورده، وصدَر الإنسان عن موارد الدنيا: الموت ثم البعث.

١٥٩ - ومن خطبة له عليه السلام في فضل الرسول والقرآن

الأصل: أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ، وَٱنْتِقَاضٍ مِنَ المبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ المُقْتَدَى بِهِ، ذَلِكَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ. . .

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

أَلاَ إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِه المَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح: الهجعة: النَّوْمة الخفيفة، وقد تستعمل في النَّوْم المستغرَق أيضاً والمبرَم: الحبل المفتول. والذي بين يديه: التوراة والإنجيل.

فإن قلت: التوراة والإنجيل قبله، فكيف جعلهما بين يديه؟

قلت: أحد جزأي الصلة محذوف وهو المبتدأ، والتقدير: بتصديق الذي هو بين يديه، وهو ضمير القرآن، أي بتصديق الذي القرآن بين يديه، وحذف أحد جزأي الصلة هاهنا، ثم حذفه في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾(١)، في قراءة مَنْ جعله اسماً مرفوعاً، وأيضاً فإن العرب تستعمل «بين يديه» بمعنى «قبل»، قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٢)، أي قبله.

الأصل: منها: فَعِنْدَ ذَلِكَ لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ وَأَدْخلهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً، فَيَوْمِئِذٍ لاَ يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّماءِ عَاذِرٌ، وَلاَ فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصْفَيْتُمْ بِالأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ ٱللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقِرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ، وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الخَطِيئات، وَزَوَامِلُ الآثَامِ.

فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لاَ تَذُوقُهَا وَلاَ تَتطعَّمُ بِطَعْمِهَا أَبداً، مَاكَرَّ الْجَدِيدَانِ!

الشرح: التَّرحة: الحزن، قال: فحينئذ لا يبقى لهم، أي يحيق بهم العذاب، ويبعث الله عليهم مَنْ ينتقم، وهذا إخبارٌ عن مُلْك بني أميّة بعده، وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم في الأرض.

ثم خاطب أولياء هؤلاء الظَّلَمة، ومَنْ كان يؤثر ملكَهم، فقال: «أصفيتُم بالأمر غير أهله، أصفيتُ فلاناً بكذا: خصصتَه به، وصفيّة المغنم: شيء كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة.

وأوردتموه غير ورْده: أنزلتموه عند غير مستحقّه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

ثم قال: سيبدّل الله مآكلَهم اللذيذة الشهيّة بمآكلَ مريرة علقميّة. والمِقر: المرّ. ومأكلاً منصوب بفعل مقدّر أي يأكون مأكلاً، والباء هاهنا للمجازاة الدالة على الصّلة، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾(١) وكقول أبي تمام:

فَبِـمـا قـد أراهُ رَيّـانَ مَـكْـسُـوّ   الـمـعـانِـي مِنْ كـلّ حُـسْـن وطـيـبِ

وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾(٢). وجعل شعارَهم الخوف؛ لأنّه باطن في القلوب، ودِثارهم السَّيْف لأنه ظاهر في البدن، كما أنّ الشّعار ما كان إلى الجسد والدّثار ما كان فوقه.

ومطايا الخطيّات: حوامل الذنوب. وزوامل الآثام: جمع زاملة، وهي بعير يستظهر به الإنسان يحمل متاعه عليه، قال الشاعر:

زَوامِـلُ أشـعَـارٍ وَلاَ عِـلْـمَ عِـنْـدَهُـمْ   بـجـيّـدِهـا إلاّ كـعِـلْـمِ الأبـاعـرِ

وتنخّمت النُّخامة: إذا تنخعتَها، والنُّخامة: النُّخاعة.

والجديدان: الليل والنهار، وقد جاء في الأخبار الشائعة المستفيضة في كتب المحدّثين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر أنّ بني أميّة تملك الخلافة بعده، مع ذمٍّ منه عليه والسلام لهم، نحو ما روي عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾(٣) فإنّ المفسرين قالوا: إنّه رأى بني أميّة ينزون على منبره نَزْوَ القردة، هذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله الذي فسرّ لهم الآية به، فساءه ذلك ثم قال: الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة، ونحو قوله صلى الله عليه وآله: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دُوَلاً وعباده خَوَلاً»(٤) ونحو قوله صلى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾(٥) قال: ألف شهر يملك فيها بنو أميّة. وورَد عنه صلى الله عليه وآله من ذّمهم الكثير المشهور نحو قوله: «أبغض الأسماء إلى الله الحَكَم وهشام والوليد»(٦)، وفي خبر آخر: «اسمان يُبْغضهما الله: مروان والمغيرة»(٧)، ونحو قوله: «إنّ ربكم يحبّ ويُبغض، كما يحبّ أحدكم ويبغض، وإنه يبغض بني أميّة ويحبّ بني عبد المطّلب»:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.   (٢) سورة القصص، الآية: ١٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٧٨)، وأبو يعلى نحوه (٦٥٢٣).

(٥) سورة القدر، الآية: ٣.

(٦) أخرجه المولى حيدر في المناقب: ٣٧٦.

(٧) أخرجه المولى حيدر في مناقب أهل البيت: ٣٧٦.

فإن قلت: كيف قال: «ثم لا تذوقها أبداً» وقد مَلَكوا بعد قيام الدولة الهاشميّة بالمغرب مدّة طويلة؟ قلت: الاعتبار بملك العراق. والحجاز، وما عداهما من الأقاليم لا اعتداد به.

١٦٠ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف حاله مع أصحابه

الأصل: وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ، وَأَحَطْتُ بِجُهدِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَأَعْتَقْتُكم مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ ٱلْقَلِيلِ، وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ ٱلْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ ٱلْبَدَنُ مِنَ المُنْكَرِ ٱلْكَثِيرِ.

الشرح: أحطت بجُهدي من ورائكم: حميتُكم وحضَنْتُكم. والجُهْد، بالضمّ الطاقة الرِّبَق جمع رِبْقة، وهي الحبل يُرْبَق به البهم.

وحلَق الضيم: جمع حَلْقه، بالتسكين، ويجوز: «حِلق» بكسر الحاء وحِلاق.

فإن قلت: يكف يجوز له أن يطرق ويغضي عن المنكر؟

قلت: يجوز له ذلك إذا علم أو غلب على ظنّه أنّه إن نهاهم عنه لم يرتدعوا، وأضافوا إليه منكراً آخر، فحينئذٍ يخرج الإطراق والإغضاء عن حدّ الجواز إلى حدّ الوجوب؛ لأنّ النهي عن المنكر يكون والحالة هذه مفسدة.

١٦١ - ومن خطبة له عليه السلام في عظمة الله تعالى

الأصل: أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اللَّهُمَّ لَكَ ٱلْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي، حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى ٱلْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ ٱلْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ ٱلْحَمْدِ عِنْدَكَ، حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ، حَمْداً لاَ يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلاَ يُقْصَرُ دُونَكَ، حَمْداً لاَ يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلاَ يَفْنَى مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ، لاَ تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ ٱلأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ ٱلأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَٱلأَقْدَامِ.

وَمَا ٱلَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَٱنْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ ٱلْغُيُوبِ بَيْنَنَا

وَبَيْنَهُ - أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي ٱلْهَوَاءِ سَمٰوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ ٱلْمَاءِ أَرْضَكَ - رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

الشرح: يجوز أن يكون أمره هاهنا هو الأمر الفعليّ، لا الأمر القوليّ، كما يقال: أمر فلان مستقيم، وما أمر كذا، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾[1] ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[2]، فيكون المعنى أنّ شأنه تعالى ليس إلاّ أحد شيئين وهما «أن يقول»، «وأن يفعل»، فعبّر عن «أن يقول» بقوله: «قضاء» لأن القضاء الحكم، وعبر عن «أن يفعل» بقوله: «وحكمة» لأنّ أفعاله كلّها تتبَع دواعيَ الحكمة. ويجوز أن يكون «أمره» هو الأمر القولي، وهو المصدر من «أمَر له بكذا أمراً» فيكون المعنى أنّ أوامره إيجاب وإلزام بما فيه حكمة ومصلحة، وقد جاء القضاء بمعنى الإلزام والإيجاب في القرآن العزيز في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3]، أي أوجب وألزم.

قوله: «ورضاه أمانٌ ورحمة»؛ لأنّ مَنْ فاز بدرجة الرضا فقد أمن وحصلت له الرحمة؛ لأنّ الرضا رحمة وزيادة.

قوله: «يقضي بعلم»، أي يحكم بما يحكم به لأنّه عالم بحسن ذلك القضاء، أو وجوبه في العدل.

قوله، «ويعفو بحلْم»، أي لا يعفو عن عجز وذلّ، كما يعفو الضعيف عن القويّ، بل هو قادر على الانتقام ولكنّه يحلم.

ثم حِمد الله تعالى على الإعطاء والأخذ، والعافية والبلاء؛ لأنّ ذلك كلّه من عند الله لمصالح للمكلّف، يعلمها وما يعلمها المكلّف، والحمد على المصالح واجب.

ثم أخذ في تفخيم شأن ذلك الحمد وتعظيمه والمبالغة في وصفه، احتذاء بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الحمد لله زنةَ عرشه، الحمد لله عددَ خلقه، الحمد لله ملءَ سمائه وأرضه»[4]، فقال عليه السلام: حمداً يكون أرضَى الحمد لك»، أي يكون رضاك له أوفَى وأعظم من

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٤) أخرج نحوه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: التسبيح أول النهار (٢٧٢٦)، والترمذي كتاب: الدعوات، باب: دعاء النبي صلى الله عليه وآله (٣٥٥٥)، والنسائي، كتاب: السهو، باب: نوع آخر من عدد التسبيح (١٣٥٢)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: التسبيح بالحصى (١٥٠٣).

رضاك بغيره، وكذلك القول في: «أحبّ» و«أفضل».

قوله: «ويَبْلُغ ما أردت»، أي هو غاية ما تنتهي إليه الإرادة، وهذا كقول الأعرابيّة في صفة المطر: غشينا ما شئنا، وهو من فصيح الكلام.

قوله: «لا يحجب عنك»؛ لأنّ الإخلاص يقارنه، والرياء منتفٍ عنه.

قوله: «ولا يُقْصَرُ دونك»، أي لا يحبَس، أي لا مانع عن وصوله إليك، وهذا من باب التوسّع، ومعناه، أنّه بريء من الموانع عن إثماره الثواب واقتضائه إياه، وروي «ولا يقُصر» من القصور، وروي «ولا يقصّر» من التقصير.

ثم أخذ في بيان أنّ العقول قاصرة عن إدراك الباري سبحانه والعلم به، وأنّا إنّما نعلم منه صفاتٍ إضافية أو سلبية، كالعلم بأنه حيّ، ومعنى ذلك أنّه لا يستحيل على ذاته أن يعلم ويقدّر، وأنّه قيوم بمعنى أن ذاته لا يجوز عليها العدَم، أي يقيم الأشياء ويمسكها، وكل شيء يقيم الأشياء كلّها ويمسكها، فليس بمحتاج إلى مَنْ يقيمه ويمسكه، وإلاّ لم يكُنْ مقيماً وممسكاً لكلّ شيء، وكلّ مَنْ ليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه، فذاته لا يجوز عليها العَدَم. وأنّه تعالى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم؛ لأنّ هذا من صفات الأجسام، وما لا يجوز عليه العَدَم لا يكون جِسْماً، ولا يوصف بخواصّ الأجسام ولوازمها، فإنّه لا ينتهي إليه نَظَر؛ لأن انتهاء النظر إليه يستلزم مقابلته وهو تعالى منزه عن الجهة، وإلا لم يكن ذاته مستحيلاً عليها العدم، وأنه لا يدركه بَصَر؛ لأن إبصار الأشياء بانطباع أمثلتها في الرطوبة الجليديّة كانطباع أشباح المرئيّات في المرآة، والباري تعالى لا يتمثّل، ولا يتشبّح، وإلاّ لم يكن قيوماً، وأنه يدرك الأبصار؛ لأنه إمّا عالم لذاته، أو لأنّه حيٌّ لا آفة به، وأنه يحصي الأعمال لأنّه عالم لذاته، فيعلم كلّ شيء حاضراً وماضياً ومستقبلاً، وأنّه يأخذُ بالنّواصي والأقدام؛ لأنّه قادر لذاته، فهو متمكّن من كلّ مقدور.

ثم خرج إلى فنٍّ آخر، فقال: وما الذي نعجب لأجله من قدرتك وعظيم ملكك، والغائب عنّا من عظمتك أعظم من الحاضر! مثال ذلك أن جِرْم الشمس أعظمُ من جِرْم الأرض مائة وستين مرّة. ولا نسبة لجِرْم الشمس إلى فَلَكها المائل، ولا نسبة لفلكها المائل إلى فلكها المِيل، وفلك تدوير المرّيخ الذي فوقها أعظمُ من مِيل الشمس، ولا نسبة لفلك تدوير المرّيخ إلى فلكه المِيل، وفلك تدوير المشتري أعظم من مميل المريخ، ولا نسبة لفلك تدوير المشتري إلى فلكه المِيل، وفلك تدوير زُحَل أعظم من مِميل المشتري، ولا نسبة لفلك تدوير زُحل إلى مِميل زحل، ولا نسبة لمميل زحل إلى كرة الثوابت، ولا نسبة لكرة الثوابت إلى الفلك الأطلس الأقصى، فانظر أيّ نسبة تكون الأرض بكليتها على هذا الترتيب إلى الفلك الأطلس، وهذا مما تقصر العقول عن فهمه، وتنتهي دونه، وتحول سواتُر الغيوب بينها وبينه، كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم ذكر أنّ مَنْ أعمل فكرَه ليعلم كيف أقام سبحانه العرش، وكيف ذَرَأ الخلق، وكيف علّق السماواتِ بغير علاقة ولا عمَد، وكيف مدّ الأرض على الماء، رجعَ طرفه حسيراً، وعقله مبهوراً. وهذا كلّه حقّ، ومن تأمل كتبَنا العقلية واعتراضنا على الفلاسفة الذين علّلوا هذه الأمور، وزعموا أنهم استنبطوا لها أسباباً عقلية، وادَّعوا وقوفَهم على كنهها وحقائقها، علم صحّة ما ذكره عليه السلام، من أنّ مَنْ حاول تقدير ملك الله تعالى، وعظيم مخلوقاته بمكيال عقله، فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وروي: «وفكره جائراً»، بالجيم، أي عادلاً عن الصواب والحسير: المتعَب. والمبهور: المغلوب. والواله: المتحيّر.

الأصل: منها: يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو ٱللهَ، كَذَبَ وَٱلْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لاَ يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ! فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ - إِلاَّ رَجَاءَ ٱللهِ - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ - إِلاَّ خَوْفَ ٱللهِ - فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ.

يَرْجُو ٱللهَ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَيَرْجُو ٱلْعِبَادَ فِي ٱلصَّغِيرِ، فَيُعْطِي ٱلْعَبْدَ مَا لاَ يُعْطِي الرَّبَّ! فَمَا بَالُ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ!

أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً، أَوْ تَكُونَ لاَ تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لاَ يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ ٱلْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً وَوَعْداً.

وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى ٱللهِ، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا.

الشرح: يجوز «بزُعمه»، بالضم و«بزَعْمه» بالفتح، و«بِزِعْمه» بالكسر، ثلاث لغات، أي بقوله فأما من «زعمت»، أي كفلت، فالمصدر «الزَّعم» بالفتح، والزّعامة.

ثم أقسم على ذكب هذا الزّاعم، فقال: «والعظيم»، ولم يقل: والله العظيم، تأكيداً لعظمة الباريء سبحان؛ لأنّ الموصوف إذا أُلقِيَ وتُرِك واعتمِد على الصّفة حتى صارت كالاسم، كان أدلّ على تحقّق مفهوم الصفة، كالحارث والعباس.

ثم بيّن مستنَد هذا التكذب، فقال: ما بالُ هذا الزاعم إنّه يرجو ربَّه، ولا يَظهر رجاؤه في عمله، فإنّا نَرَى مَنْ يَرجو واحداً من البشر يلازم بابه، ويواظب على خدمته ويتحبّب إليه،

ويتقرّب إلى قلبه بأنواع الوسائل والقُرَب، ليظفرَ بمراده منه، ويتحقّق رجاؤه فيه، وهذا الإنسان الذي يزعم أنّه يرجُو الله تعالى، لا يظهر من أعماله الدينية ما يدلّ على صدق دَعْواه، ومراده عليه السلام هاهنا ليس شخصاً بعينه، بل كلّ إنسان هذه صفته، فالخطاب له والحديث معه.

ثم قال: «كلّ رجاءٍ إلاّ رجاء الله فهو مدخول»، أي معيب، والدَّخل، بالتسكين: العيب والرّيبة. ومن كلامهم: «تَرَى الفتْيان كالنَّخل، وما يدريك ما الدّخل»، وجاء «الدَّخَل» بالتحريك أيضاً، يقال: هذا الأمر فيه دَخَل ودَغَل، بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾[1]، أي مكراً وخديعة، وهو من هذا الباب أيضاً.

ثم قال: «وكلّ خوف محقّق إلا خوف الله فإنه معلول»: محقّق، أي ثابت، أي كلّ خوفٍ حاصل حقيقة فإنّه مع هذا الحصول والتحقق معلول ليس بالخوف الصريح، إلا خوف الله وحده وتقواه، وهيبته وسطوته وسخطه، ذلك لأنّ الأمر الذي يُخاف من العبد سريع الانقضاء والزوال، والأمر الذي يُخاف من الباري تعالى لا غاية له ولا انقضاء لمحذوره، كما قيل في الحديث المرفوع: «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»[2].

ثمّ عاد إلى الرجاء، فقال: يرجو هذا الإنسان الله في الكثير، أي يرجو رحمتَه في الآخرة، ولا يتعلّق رجاؤه بالله تعالى إلاّ في هذا الموضع، فأمّا ما عدا ذلك من أمور الدنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسلطان واندفاع المضارّ والتوصّل إلى الأغراض بالشفاعات والتوسلات، فإنه لا يخطر له الله تعالى ببالٍ، بل يعتمد في ذلك على السُّفَراء والوسطاء، ويرجو حصول هذه المنافع، ودفعَ هذه المضارّ من أبناء نوعه من البشر، فقد أعطى العبادَ مِنْ رجائه ما لم يعطه الخالق سبحانه، فهو مخطىءٌ؛ لأنّه إمّا أن يكونَ هو في نفسه صالحاً لأن يرجوه سبحانه، وإمّا ألاّ يكون الباريء تعالى في نفسه صالحاً لأن يُرجَى، فإن كان الثاني فهو كُفْرٌ صُراح، وإن كان الأوّل فالعبد مخطىء حيث لم يجعل نفسه مستعدًّا لفعل الصالحات؛ لأن يصلحَ لرجاء الباريء سبحانه.

ثم انتقل عليه السلام إلى الخوف، فقال: وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبداً مثلَه، خافه أكثر من خوفه الباريء سبحانه؛ لأنّ كثيراً من الناس يخافون السلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذة الباريء سبحانه، وهذا مشاهَد ومعلوم من النّاس، فخوف بعضهم من بعض كالنقد المعجّل، وخوفهم من خالقهم ضِمَارٌ ووعد. والضِّمار: ما لا يرجَى من الوعود والديون. قال الراعي:

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٨)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦)، بلفظ: أيسر بدل أهون، وأخرجه بلفظه الديلمي في الفردوس (٤٣٩٥)، وأبو عبد الله القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٤٥).

حَمِـذْنَ مَـزَارَهُ وأَصَبْـنَ مِـنْـهُ ... عَـطَـاءً لـم يـكُـنْ عِـدَةً ضِمَـارا

ثم قال: «وكذلك من عظمت الدنيا في عينه» يختارها على الله، ويستعبده حبّها. ويقال: كبُر، بالضّمّ، يكبُر أي عَظُم، فهو كبير وكُبَار بالتخفيف، فإذا أفرط قيل: «كُبّار» بالتشديد، فأمّا كَبِر بالكسر، فمعناه أسنّ، والمصدر منهما كِبَراً، بفتح الباء.

الأصل: وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم كَافٍ لَكَ فِي ٱلْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ ٱلدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(١)، وَٱللهِ مَا سَأَلَهُ إِلاَّ خُبْزاً يَأْكُلُهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ ٱلْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ ٱلْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبِ ٱلْمَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ ٱلْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ ٱلشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ ٱلْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ ٱلْخشِنَ، وَيَأْكُلُ ٱلْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ ٱلْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ ٱلْقَمَرَ، وَظِلاَلُهُ فِي ٱلشِّتَاءِ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ ومغاربها، وَفَاكِهَتُهُ وريْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُه، وَلاَ وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلاَ مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلاَ طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلاَهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ.

الشرح: يجوز أُسوة وإِسوة، وقرىء التنزيل بهما، والمساوىء: العيوب، ساءه كذا يسوءه سَوْءاً بالفتح ومساءة ومسائية. وسوته سوايةً ومسايةً، بالتخفيف، أي ساءه ما رآه مني. وسأل سيبويه الخليل عن «سوائية»، فقال: هي «فعاليَة» بمنزلة علانيَة، والذين قالوا: «سواية» حذفوا الهمزة تخفيفاً، وهي في الأصل. قال: وسألته عن «مسائية»، فقال: هي مقلوبة وأصلها «مساوئة» فكرهوا الواو مع الهمزة، والذين قالوا، «مساية» حذفوا الهمزة أيضاً تخفيفاً، ومن أمثالهم: «الخيل تجري في مساويها»، أي أنها وإن كانت بها عيوب وأوصاب، فإنّ كرمَها يحملها على الجري.

(١) سورة القصص، الآية: ٢٤.

والمخازي: جمعُ مَخْزاة، وهي الأمر يستحَي من ذكره لقبْحه.

وأكنافُها: جوانبها، وزَوَى: قبض. وزخارف: جمع زُخرف، وهو الذهب، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عليّ كنوز الأرض ودُفِعت إليّ مفاتيح خزائنها، فكرهتُها واخترت الدار الآخرة»[1]، وجاء في الأخبار الصحيحة أنّه كان يجوعُ ويشدّ حجَراً عَلَى بطنه. وأنّه ما شبع آل محمد من لَحْم قط[2]، وأنّ فاطمة وبعلَها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير، وأنهم آثروا سائلاً بأربعة أقراص منه كانوا أعدُّوها لفطورهم، وباتوا جياعاً. وقد كان رسول الله ﷺ مَلَك قطعة واسعة من الدّنيا، فلم يتدنّس منها بقليل ولا كثير، ولقد كانت الإبل التي غنمها يوم حُنين أكثر من عشرة آلاف بعير، فلم يأخذ منها وبَرةً لنفسه، وفرّقها كلّها على الناس، وهكذا كانت شيمته وسيرته في جميع أحواله إلى أن توفّي.

والصّفاق: الجلد الباطن الذي فوقه الجلْد الظاهر من البطن. وشفيفه: رقيقه الذي يَشفّ ما وراءه، وبالتفسير الذي فسر عليه السلام الآية فَسّرها المفسرون، وقالوا: إنّ خضرة البقل كانت تُرَى في بطنه الهزال، وإنّه ما سأل الله إلا كلةً من الخبز. وما في ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ بمعني أيّ، أيْ إني لأيّ شيء أنزلتَ إليّ - قليل أو كثير، غثّ أو سمين - فقير.

فإن قلت: لم عدّي «فقيراً» باللام، وإنما يقال: «فقير إلى كذا»؟

قلت: لأنه ضمّن معنى «سائل» و «مطالب» ومن فسّر الآية بغير ما ذكره عليه السلام لم يحتجْ إلى الجواب عن هذا السؤال، فإنّ قوماً قالوا: أراد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزَلت إليّ من خير، أيّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين، فإنّ ذلك رضا بالبدل السنيّ، وفرحاً به وشكراً له.

وتشذُّب اللحم: تفرّقه.

والمزامير: جمع مزمار، وهو الآلة التي يزمر فيها، ويقال: زَمَر يزمِر ويزمُر، بالضمّ والكسر، فهو زمّار، ولا يكاد يقال: زامر، ويقال للمرأة: زامرة، ولا يقال زمّارة، فأما الحديث أنّه نَهَى عن كسْب الزمّارة، فقالوا: إنّها الزانية هاهنا. ويقال: إنّ داود أعطِيَ من طيب

---

(١) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الصلاة على الشهيد (١٣٤٤)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا وصفاته (٢٢٩٦)، وأحمد، كتاب: «مسند الشاميين»، باب: حديث عقبة بن عامر (١٦٨٩٣) بلفظ: «أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي...».

(٢) بمعناه أخرجه أحمد في المسند: ٤/ ٤٤٢، وابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ٥٨.

النّعم ولذّة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه، والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفِر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته. وقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي موسى، وقد سمعه يقرأ: «لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير داود»(١)، وكان أبو موسى شجيّ الصوت إذا قرأ وورد في الخبر: «داود قارىء أهل الجنة»(٢).

وسفائف الخوص: جمع سفيفة، وهي النسيجة منه، سفَّفت الخوصَ وأسففته بمعنى.

وهذا الذي ذكره عليه السلام عن داود يجب أن يحمل على أنّه شرح حاله قبل أن يملّك فإنه كان فقيراً، فأمّا حيث ملّك فإن المعلوم من سيرته غير ذلك.

فأما عيسى فحاله كما ذكرها عليه السلام، لا ريب في ذلك، على أنه أكل اللحم وشرب الخمر، وركب الحمار وخدمه التلامذة، ولكنّ الأغلب من حاله هي الأمور التي عدّدها أمير المؤمنين عليه السلام.

ويقال: حَزنني الشيء يحزُنني بالضم، ويجوز: «أحزنني» بالهمز يُحزنني، وقرىء بهما، وهو في كلامه عليه السلام في هذا الفصل بهما.

ويقال: لفته عن كذا، يَلْفِتُه بالكسر، أي صرَفه ولواه.

الأصل: فَتأسَّ بِنَبِيِّكَ ٱلأَطْيَبِ ٱلأَطْهَرِ، صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى. وَأَحَبُّ ٱلْعِبَادِ إِلَى ٱللهِ ٱلْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ. قَضَمَ ٱلدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ ٱلدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلاّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً للهِ تَعَالَى وَمُحَادَةً عَنْ أَمْرِ ٱللهِ تَعَالَى! وَلَقَدْ كَانَ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم يَأْكُلُ عَلَى ٱلأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ ٱلْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بيده ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ ٱلْحِمَارَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: حسن الصوت بالقراءة (٥٠٤٨)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والترمذي: كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي موسى (٣٨٥٥)، والنسائي، كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (١٠١٩).

(٢) انظر مستدرك سفينة البحار: ٣/ ١٢٥.

ٱلْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّترُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانَةُ - لإِحْدَى أَزْوَاجِهِ - غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدنيا وَزَخَارِفَهَا. فَأَعْرَضَ عَنِ ٱلدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِه، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَلاَ يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلاَ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنه ٱلْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ ٱلْبَصَرِ.

وَكَذٰلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ، وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ ٱلدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا، إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ ٱللهُ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْه وَسَلّم بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: «أَهَانَهُ» فَقَدْ كَذَبَ وَٱللهِ ٱلْعَظِيمِ بِالإِفْكِ ٱلْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: «أَكْرَمَهُ» فَلْيَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ، فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَٱقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلاَّ فَلاَ يَأْمَنِ ٱلْهَلَكَةَ، فَإِنَّ ٱللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ، خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ ٱلآخِرَةَ سَلِيماً، لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجابَ دَاعِيَ رَبِّهِ، فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ ٱللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ! وَٱللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلاَ تَنْبِذُهَا عَنْكَ! فَقُلْتُ: ٱغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ ٱلصَّبَاحِ يَحْمَدُ ٱلْقَوْمُ السُّرَى.

الشرح: المقتصّ لأثره: المتّبع له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾(١).

وقَضَم الدنيا: تناول منها قَدْر الكَفاف، وما تدعُو إليه الضرورة من خَشِن العيشة، وقال أبو ذَرّ رحمه الله: «يَخضِمون ونقضم، والموعد الله!». وأصلُ القَضْم، أكلُ الشيء اليابس بأطراف الأسنان، والخَضْم: أكلٌ بكلّ الفم للأشياء الرّطبة، وروي: «قصَم» بالصاد، أي كسر.

قوله: «أهضَمُ أهلِ الدّنيا كشحاً» الكشْحُ: الخاصرة، ورجلٌ أهضَم: بيِّن الهضَم، إذا كان خميصاً لِقلّةِ الأكل.

وروي: «وحقَر شيئاً فحقَره» بالتخفيف. والشّقاق: الخلاف.

---

(١) سورة القصص، الآية: ١١.

والمحادّة: المعَادة. وخَصَف النَّعْل: خرزها. والرياش: الزينة، والمِدْرعة. الدّرّاعة.

وقوله: «عند الصّباح يحمد القوم السرى»، مثل يضرب لمحتمِل المشقّة العاجلة، رجاء الراحة الآجلة.

الدنيا الفانية

جاء في الأخبار الصحّيحة أنه عليه الصلاة والسلام، قال: «إنّما أنا عبدٌ آكل أكلَ العبِيد، وأجلس جِلْسة العبيد»[١]، وكان يأكل على الأرض، ويجلس جلوسَ العبيد، يضع قصبَتيْ ساقيْه علَى الأرض، ويعتمد عليهما بباطني فَخِذيْه، وركوبه الحمار العاري آيةُ التواضع وهضْم النفس. وإرداف غيره خلفه آكد في الدلالة على ذلك.

وجاء في الأخبار الصحيحة النهيُ عن التصاوير وعن نصب الستور التي فيها التصاوير، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى سِتْراً فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس تلك الصورة.

وجاء في الخبر: «مَنْ صَوّر صورةً كُلِّف في القيامة أن ينفخ فيها الروح، فإذا قال: لا أستطيع، عُذِّب»[٢].

قوله: «لم يضع حَجَراً على حجَر» هو عين ما جاء في الأخبار الصحيحة، خَرَج رسول الله صلى الله عليه وآله من الدنيا ولم يضع حجَراً على حجر.

وجاء في أخبار عليّ عليه السلام التي ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائله، وهو روايتي عن قريش بن السبيع بن المهنّا العلويّ، عن نقيب الطالبيين أبي عبد الله أحمد بن علي بن المعمّر، عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيْرَفيّ المعروف بابن الطيوريّ، عن محمد بن عليّ بن محمد بن يوسف العلاف المزنيّ، عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعيّ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه أبي عبد الله أحمد رحمه الله، قال: قيل لعليّ عليه السلام: يا أميرَ المؤمنين، لم ترقّعُ قميصَك؟ قال: ليخشعَ القلبُ، ويقتديَ بي المؤمنون[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: بيع التصاوير (٢٢٢٥)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١٠)، والترمذي، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في المصورين (١٧٥١)، والنسائي، كتاب: الزينة، باب: ذكر ما يكلف أصحاب الصور يوم القيامة (٥٣٥٨). دون قوله: فإذا قال: لا أستطيع عذب.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦١.

وروَى أحمد رحمه الله أنّ علياً كان يطوفُ الأسواق مؤتزراً بإزار، مرتدياً برداء، ومعه الدِّرة كأنّه أعرابيٌ بدويّ، فطاف مرّة حتى بلغ سوقَ الكرابيس فقال لواحد: يا شيخ، بِعْنِي قميصاً تكون قيمتُه ثلاثة دراهم، فلما عرفه الشيخ لم يشترِ منه شيئاً، ثم أتى آخر، فلما عرفه لم يشترِ منه شيئاً، فأتى غلاماً حَدَثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم، فلما جاء أبو الغلام، أخبره، فأخذ دِرْهَماً. ثم جاء إلى عليّ عليه السلام ليدفعَه إليه، فقال له: ما هذا؟ أو قال ما شابَهَ هذا، فقال: يا مولاي، إنّ القميص الذي باعك ابني كان يساوي درهمين، فلم يأخذ الدّرهم، وقال: باعني رضاي وأخذ رضاه(١).

وروى أحمد رحمه الله عن أبي النوار بائع الخام بالكوفة، قال: جاءني عليّ بن أبي طالب إلى السوق، ومعه غلام له وهو خليفة، فاشترى مِنّي قميصيْن، وقال لغلامه: اختر أيُّهما شئت، فأخذ أحدَهما، وأخذ عليٌّ الآخر، ثم لبسه ومدّ يده، فوجد كُمّه فاضلة، فقال: اقطع الفاضل. فقطعته، ثم كفّه وذهب(٢).

وروى أحمد رحمه الله عن الصمال بن عمير، قال: رأيتُ قميص عليّ عليه السلام الذي أصيب فيه، وهو كرابيس سبيلاني، ورأيت دمَه قد سال عليه كالدّرديّ(٣).

وروى أحمد رحمه الله قال: لما أرسل عثمان إلى عليّ عليه السلام، وجده مؤتزراً بعباءة، محتجِزاً بعِقال، وهو يَهْنَأ بعيراً له(٤).

والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

١٦٢ – ومن خطبة له عليه السلام في أسرة الرسول وشرفه

الأصل: ٱبْتَعَثَهُ بِالنُّورِ المُضِيءِ، وَٱلْبُرْهَانِ ٱلْجَلِيِّ، وَٱلْمِنْهَاجِ ٱلْبَادِي، وَٱلْكِتَابِ ٱلْهَادِي.

أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ، عَلاَ بِهَا ذِكْرُهُ، وَٱمْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلاَفِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ المَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ ٱلْبِدَعَ المَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ ٱلْأَحْكَامَ

(١) أخرجه ابن أبي كثير في البداية والنهاية: ٨/ ٥، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٤٢/ ٤٨٦.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦١.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦٢.

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦٢.

المَفْصُولَةَ. فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلاَمِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ. وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مآبُهُ إِلَى ٱلْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَٱلْعَذَابِ ٱلْوَبِيلِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَى ٱللهِ تَوَكُّلَ الإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ المُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، ٱلْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح: بالنور المضيء، أي بالدين، أو بالقرآن. وأسرتُه: أهله. أغصانها معتدلة، كناية عن عدم الاختلاف بينهم في الأمور الدينية. وثمارها متهدّلة، أي متدلّية، كناية عن سهولة اجتناء العلم منها.

وطَيْبة اسم المدينة، كان اسمها يَثْرِبُ، فسمّاها رسول الله ﷺ طَيْبة.

ومما أكْفَر النَّاس به يزيدَ بن معاوية أنّه سماها «خبيثة» مراغَمة لرسول الله ﷺ.

علا بها ذكره؛ لأنه ﷺ إنّما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة. «ودعوة متلافية» أي تتلافى ما فسد في الجاهلية من أديان البشر.

قوله: «بيّن به الأحكام المفصولة»، ليس يعني أنها كانت مفصولة قبل أن بيّنها، بل المراد: بيَّن به الأحكام التي هي الآن مفصولة عندنا وواضحة لنا، لأجل بيانه لها.

والكبوة: مصدر كبا الجواد، إذا عثر فوقع إلى الأرض.

والمآب: المرجع. والعذاب الوبيل: ذو الوبال وهو الهلاك:

والإنابة: الرجوع. والسبيل: الطريق، يذكر ويؤنث. والقاصدة: ضدّ الجائرة. فإن قلت لم عدّى القاصدة بـ «إلى»؟

قلت: لأنها لمّا كانت قاصدة، تضمّنت معنى الإفضاء إلى المقصد، فعدّاها بـ «إلى» باعتبار المعنى.

الأصل: أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَالمَنْجَاةُ أَبداً، رَهَّبَ فَأَبْلَغَ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ، وَوَصَفَ لكمُ ٱلدُّنْيَا وَٱنْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَٱنْتِقَالَهَا، فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ ٱللهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رَضْوَانِ ٱللهِ.

فَغُضُّوا عَنْكُمْ عِبَادَ ٱللهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا، فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ، وَالمُجِدِّ ٱلْكَادِحِ.

وَٱعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ ٱلْقُرُونِ قَبْلَكُمْ، قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَٱنْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ ٱلْأَوْلاَدِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ ٱلْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَها، لاَ يَتَفَاخَرُونَ وَلاَ يَتَنَاسَلُونَ، وَلاَ يَتَزَاوَرُونَ وَلاَ يَتَحَاوَرُونَ.

فَاحْذَرُوا - عِبَادَ ٱللهِ - حَذَرَ ٱلْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، ٱلْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ، فَإِنَّ الأَمْرَ وَاضِحٌ، وَٱلْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح: المنجاة: مصدر نجا ينجُو نجاةً ومنجاة. والنَّجاة: النّاقة يُنْجَي عليها، فاستعارها هاهنا للطاعة والتّقوى، كأنها كالمطيّة المركوبة يخلص بها الإنسان من الهلَكة.

قوله: «رهّب فأبلغ»، الضمير يرجع إلى الله سبحانه، أي خوّف المكلّفين فأبلغ في التخويف، ورغّبهم فأتمّ الترغيب وأسبغه.

ثم أمر بالإعراض عما يسرُّ ويروق من أمر الدنيا، لقلة ما يصحب النّاس من ذلك.

ثم قال: إنّها أقربُ دار من سخط الله، وهذا نحو قول النبي ﷺ: «حبُّ الدّنيا رأسُ كلِّ خطيئة»(١).

قوله: «فغُضّوا عنكم عباد الله غمومها»، أي كُفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها ولاشتغال بها، يقال: غضضت فلاناً عن كذا أي كففته، قال تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾(٢).

قوله: «فاحذورها حَذَر الشفيق الناصح»، أي فاحذروها على أنفسكم لأنفسِكم كما يحذر الشفيق الناصح على صاحبه، وكما يحذر المجدّ الكادح، أي الساعي من خيبَة سعيه.

والأوصال: الأعضاء. والمحاورة: المخاطبة والمناجاة، وروي: «ولا يتجاورون» بالجيم. والعَلَم: ما يستدلّ به في المفازة.

وطريق جَدَد، أي سهل واضح. والسبيل قَصْد، أي مستقيم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٥٠١)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٠٩٩)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٨)، أنه من كلام سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

١٦٣ - ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه، وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال عليه السلام

الأصل: يا أخا بَني أسدٍ، إنَّكَ لَقَلِقُ الوَضِينِ، تُرْسِلُ في غَيْرِ سَدَدٍ، ولَكَ بَعْدُ ذِمامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ المَسْألَةِ، وَقَدِ اسْتَعْلَمْتَ فاعْلَمْ.

أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنا بِهذَا المَقام، وَنَحْنُ الأعْلَوْنَ نَسَباً، وَالأشَدُّونَ بالرَّسُولِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلّم نَوْطاً، فإنَّها كانَتْ أثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنها نُفُوسُ آخَرِينَ، وَالحَكَمُ الله، والْمَعْوَدُ إلَيْهِ يَوْمُ الْقِيامَةِ.

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ في حَجَرَاتِهِ ... وَلَكِنْ حَدِيثاً ما حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

وَهَلُمَّ الخَطْبَ في ابْنِ أبي سُفْيانَ، فَلَقَدْ أضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إبْكائِهِ، وَلاَ غَرْوَ وَالله، فَيالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الأَوَدَ!

حاوَلَ الْقَوْمُ إطْفاءَ نُورِ الله مِنْ مُصْباحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً، فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى، أحْمِلْهُمْ مِنَ الحَقِّ على مَحْضِهِ، وَإنْ تَكُنِ الأُخْرَى، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(١).

الشرح: الوضِين: بِطان الْقَتَب، وحزام السرج، ويقال للرجل المضطرب في أموره: إنَّهُ لقَلِقُ الوضِين، وذلك أنّ الوضِين إذا قلق، اضطرب القتَبُ أو الهودَجُ، أو السَّرج ومَنْ عليه.

ويرسِل في غير سَدد، أي يتكلَّم في غير قصد وفي غير صواب، والسَّدَدُ والاستداد: الاستقامة والصواب، والسديد: الذي يصيب السَّدد، وكذلك المُسِدّ، واستدّ الشيء، أي استقام. وذِمامة الصِّهر، بالكسر، أي حرمته، هو الذّمام، قال ذو الرُّمة:

تَكُنْ عَوْجَةً يجزيكها الله عِنْدَهُ ... بها الأجرَ تُقْضَى ذِمَامَةَ صَاحِبِ

ويروى: «ماتّة الصِّهر»، أيْ حرمته ووسيلته، متّ إليه بكذا، وإنّما قال عليه السلام له: «ولك بعد ذِمَامة الصّهر»؛ لأنّ زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسَديّة، وهي زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبِرة بن مرّة بن كثير بن غَنْم بن دودان بن أسد بن خزيمة. وأمّها

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

أميّة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فهي بنت عمّة رسول الله ﷺ، والمصاهرة المشار إليها، هي هذه.

ولم يفهم القطب الراونديّ ذلك، فقال في الشرح: «كان أمير المؤمنين عليه السلام قد تزوّج في بني أسد» ولم يصِبْ، فإنّ علياً عليه السلام لم يتزوّج في بني أسد البتّة. ونحن نذكر أولاده: أمّا الحسَنُ والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكُبرى، فأمّهم فاطمة بنت سيدنا رسول الله ﷺ. وأما محمّد فأمّه خَوْلة بنت إياس بن جعفر، من بني حَنيفة، وأمّا أبو بكر وعبد الله، فأمّهما ليلى بنت مسعود النَّهشليّة، من تميم وأما عمر ورقيّة فأمهما سَبِيَّة من بني تَغْلِب، يقال لها: الصَّهْباء، سُبِيت في خلافة أبي بكر وإمارة خالد بن الوليد بعيْنِ التمر. وأمّا يحيى وعون فأمّهما أسماء بنت عُمَيْس الخثعميّة. وأمّا جَعفر والعباس وعبد الله وعبد الرحمن فأمّهم أم البنين بنت حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد من بني كِلاب. وأمّا رملة وأمّ الحسن فأمّهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفيّ، وأما أمّ كلثوم الصغرى وزينب الصغرى وجُمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأمّ الكرام ونفيسة وأمّ سلَمة وأم أبيها وأمامة بنت عليّ عليه السلام فهنّ لأمهات أولاد شتى، فهؤلاء أولاده، وليس فيهم أحدٌ من أسديّة، ولا بلَغنا أنه تزوّج في بني أسَد، ولم يولد له، ولكن الراونديّ يقول ما يخطِر له ولا يحقّق.

وأما حقّ المسألة؛ فلأن للسائل على المسؤول حقًّا حيث أهّله لأن يستفيد منه.

والاستبداد بالشيء: التفرّد به. والنَّوْط: الالتصاق. وكانت أثَرة، أي استئثاراً بالأمر واستبداداً به، قال النبي ﷺ للأنصار: «ستلقوْنَ بعدي أثَرة»[1].

وشحّتْ: بخلت. وسَخَت: جادت، ويعني بالنّفوس التي سَخَتْ نفسَه، وبالنفوس التي شحّت، أمّا على قولنا فإنه يعني نفوسَ أهل الشورى بعد مقتل عُمَر، وأمّا على قول الإمامية، فنفوسَ أهلِ السَّقِيفة. وليس في الخبر ما يقتضِي صَرْفَ ذلك إليهم، فالأوْلَى أن يحمَل على ما ظهر عنه من تألّمه مِنْ عبد الرحمن بن عوف وميْله إلى عثمان.

ثم قال: إنّ الحكَم هو الله، وإنّ الوقت الذي يعود النّاس كلّهم إليه هو يوم القيامة. وروي: «يومَ» بالنّصب على أنه ظرف والعامل فيه «المَعْوَد»، على أن يكون مصدراً.

وأما البيتُ فهو لامرىء القيس بن حُجْر الكنديّ، وروِي أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يستشهد إلاّ بصدرِه فقط وأتمّه الرواة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ للأنصار اصبروا (٣٧٩٢)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، ومسلم، كتاب: آداب القضاة، باب: ترك استعمال من يحرص على القضاء (٥٣٨٣)، وأحمد، كتاب: باقي «مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١١١٥٣).

وكان من قصّة هذا الشّعر أنّ امرأ القيْس، لما تنقّل في أحياء العرب بعد قَتْل أبيه، نزل على رَجُلٍ من جَدِيلة طيّىء، يقال له طريف بن ملْء، فأجاره وأكرمه، وأحسن إليه، فمدحه وأقام عنده. ثم إنه لم يولِه نصيباً في الجبلين: أجأ وسَلْمَى، فخاف ألاّ يكون له مَنَعة، فتحوّل ونزل على خالد بن سَدُوس بن أصمع النّبهانيّ، فأغارتْ بنو جَدِيلة على امرىء القيس وهو في جوار خالد بن سَدُوس، فذهبوا بإبله، وكان الذي أغار عليه منهم باعث بن حُوَيص، فلما أتى امرأ القيس الخبر. ذكر ذلك لجارِه، فقال له: أعْطِني رواحلَك ألحق عليها القوم، فأردّ عليك إبلَك، ففعل. فركب خالد في إثر القوم حتى أدركهم، فقال: يا بني جَدِيلة، أغرتُمْ على إبل جاري! فقالوا: ما هو لك بجار، قال: بلَى والله وهذه رواحله، قالوا: كذلك! قال: نعم، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ، وذهبوا بهنّ وبالإبل. وقيل: بل انطوَى خالدٌ على الإبل فذهب بها، فقال امرؤ القيس:

دَعْ عنك نهباً صِيحَ في حَجَرَاتِه ... ولكن حديثاً ما حديثُ الرَواحِل
كأنّ دِثَاراً حَلَّقَتْ بِلَبُونِهِ ... عُقابُ تَنُوفَي لا عُقاب القواعِلَ
تَلَعَّبَ باعثٌ بِذِمَّةِ خالدٍ ... وأوْدَى دِثَارٌ في الخطوب الأوائل
وأعجبني مشيَ الحُزُقَّةِ خالدٍ ... كمشيِ أتانٍ حُلِّئَتْ بالمناهلِ
أبت أجَأُ أن تُسْلِمَ العامَ جَارَهَا ... فمن شاء فلينهَضْ لها من مقاتِلِ
تبيت لَبونِي بالقُرَيَّةِ أُمَّنا ... وأسْرَحُها غِبًّا بأكناف حائلِ
بنو ثُعَل جيرانُها وحُمَاتُهَا ... وتُمنَعُ من رُمَاةِ سعدٍ ونائل
تُلاعِبُ أولادَ الوُعولِ رِبَاعُهَا ... دُوَيْنَ السَّماء في رُؤوس المجادل
مكلَّلةً حمْرَاء ذاتَ أسِرَّةٍ ... لها حُبُكٌ كأنّها من وَصَائلِ

دِثار: اسم راعٍ كان لامرىء القيس. وتَنُوفَي والقواعل جبال. والحزُقّة: القصير الضخم البطن، واللّبون: الإبل ذوات الألبان. والقُريّة: موضع معروف بين الجَبَلَين. وحائل اسم موضع أيضاً. وسعد ونائل حيّان من طيّىء. والرِّباع: جمع رُبَع، وهو ما نتِج في الربيع. والمجادل: القصور. ومكللة، يرجع إلى المجادل مكلّلة بالصخر. والأسرّة: الطريق وكذلك الحبُك. والوصائل: جمع وَصِيلة، وهو ثوب أمْغر الغَزْل، فيه خطوط. والنَّهب: الغنيمة، والجمع النّهاب، والانتهاب مصدر انتهبتُ المال، إذا أبحتَه يأخذه من شاء، والنّهبَي: اسم ما أنهب. وحَجَراته: نواحيه، الواحدة حَجْرة، مثل جَمَرات وجَمْرة. وصيح في حَجَراته صياح الغارة. والرّواحل: جمع راحلة، وهي الناقة التي تصلح أن تُرْحَل، أيْ يشدّ الرَّحْل على ظهرها، ويقال للبعير: راحلة.

وانتصب «حديثاً» بإضمار فعل، أي هات حديثاً أو حدِّثني حديثاً. ويروي: «ولكن حديثٌ»، أي ولكن مرادي أو غرضي حديث فحذف المبتدأ، وما هاهنا، يحتمل أن تكون إبهاميّة، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة زادته إبهاماً وشياعاً، كقولك: أعطِني كتاباً ما، تريد أيّ كتاب كان، ويحتمل أن تكون صلة مؤكدة كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾(١). فأمّا «حديث» الثاني فقد ينصب وقد يرفع، فمن نصب أبدله من «حديث» الأوّل، ومَنْ رفع جاز أن يجعل «ما» موصولة بمعنى «الذي»، وصلتها الجملة، أي الذي هو حديث الرواحل، ثمّ حذف صدر الجملة كما حذف في ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾(٢) ويجوز أن تجعل «ما» استفهامية بمعنى «أيّ».

ثم قال: «وهلمّ الخطب»، هذا يقوّي رواية مَنْ روى عنه أنّه عليه السلام لم يستشهد إلاّ بصدر البيت، كأنّه قال: دع عنك ما مضى وهلمّ ما نحن الآن فيه من أمرِ معاوية، فجعل، «هَلُمّ» ما نحن فيه من أمر معاوية قائماً مقام قول امرىء القيس.

ولَكِنْ حديثاً ما حدِيثُ الرَّواحِلِ

وهلمّ، لفظ يستعمل لازماً ومتعدّياً، فاللازم بمعنى «تعالَ»، قال الخليل: أصلُه «لَمّ» من قولهم: «لمّ الله شعثَه» أي جَمَعه، كأنّه أراد «لُمّ نفسك إلينا» أي اجمعْها واقرُب مِنَّا، وجاءت «ها» للتنبيه قبلها، وحذفت الألف لكثرة الاستعمال، وجعلت الكلمتان كلمة واحدة، يستوي فيها الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكّر في لغة أهل الحجاز، قال سبحانه: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾(٣)، وأهل نجد يصرّفونها فيقولون للاثنين: «هلمّا» وللجمع: «هلمّوا» وعلى ذلك. وقد يوصل إذا كان لازماً باللام، فيقال: هلّم لك، وهلّم لكما، كما قالوا: هَيْت لك، وإذا قيل لك: هلُمّ إلى كذا أي تعال إليه، قلت: لا أَهَلُمّ مفتوحة الألف والهاء مضمونة الميم، فأمّا المتعدية فهي بمعنى «هات»، تقول: هلُمّ كذا وكذا، قال الله تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾(٤)، وتَقول لمن قال لك ذلك: لا أهلمّه، أي لا أعطيكه، يأتي بالهاء ضمير المفعول ليتميّز من الأولى.

يقول عليه السلام: ولكن هات ذكر الخطب، فحذف المضاف. والخطْب: الحادث الجليل، يعني الأحوال التي أدّت إلى أن صار معاوية منازعاً في الرياسة، قائماً عند كثير من النّاس مقامه، صالحاً لأنّ يقع في مقابلته، وأن يكون ندًّا له.

ثم قال: «فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه»، يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدّم مَنْ

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٠.

سلف عليه، فلم يقنع الدّهر له بذلك، حتى جعل معاوية نظيراً له، فضحك عليه السلام مما تحكُم به الأوقات، ويقتضيه تصرّف الدّهر وتقلّبه، وذلك ضَحِك تعجُّب واعتبار.

ثم قال: «ولا غَرْوَ والله»، أي ولا عَجَب والله.

ثم فسَّرَ ذلك فقال: يا له خطباً يستفرغُ العجب! أي يستنفده ويفنيه، يقول: قد صار العجبُ لا عجبَ لأنّ هذا الخَطْب استغرق التعجّبَ، فلم يبق منه ما يطلَق عليه لفظ التعجُّب، وهذا من باب الإغراق والمبالغة في المبالغة، كما قال أبو الطيب:

أَسَفِي على أسفِي الّذي دَلَّهتِني ... عن علمه فَبِهِ عليّ خفاءُ
وشَكِيّتي فَقْدُ السقام لأنّهُ ... قد كانَ لَمّا كانَ لي أعضاءُ

وقال ابن هانئ المغربيّ:

قَدْ سِرْتُ في الميدان يوم طِرَادِهِمْ ... فعجبتُ حتى كِدْتُ ألاَّ أعْجَبا

والأوَد: العوَج.

ثم ذكر تمالؤ قريش عليه، فقال: حاول القوْمُ إطفاء نور الله من مصباحه، يعني ما تقدّم من منابذة طَلْحة والزبير وأصحابهما له، وما شفع ذلك من معاوية وعمرو وشيعتهما. وفوّار اليَنْبوع: ثقب البئر.

قوله: «وجدحوا بيني وبينهم شِرْباً»، أي خلطوه ومزجوه وأفسدوه.

والوبيء: ذو الوباء والمرض، وهذا استعارة كأنّه جعل الحال التي كانت بينه وبينهم قد أفسدها القوم، وجعلوها مَظِنّه الوباء والسَّقَم، كالشرب الذي يخلط بالسمّ أو بالصَّبِر فيفسد ويوبيء.

ثم قال: فإن كشف الله تعالى هذه المحنَ التي يحصل منها ابتلاء الصابرين والمجاهدين، وحصل لي التمكّن من الأمر، حملتُهم على الحقّ المحض الذي لا يمازجُه باطل، كاللبن المحْضِ الذي لا يخالطه شيء من الماء، وإن تكُن الأخرى، أي وإنْ لم يكشف الله تعالى هذه الغمّة ومتّ أو قتلت - والأمور على ما هي عليه من الفتنة ودولة الضلال - ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[1]، والآية من القرآن العزيز.

وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلويّ نقيب البصرة، وقت قراءتي عليه، عن هذا الكلام، وكان رحمه الله على ما يذهب إليه من مذهب العَلَوّية منصفاً وافر العقل، فقلت له: مَنْ يعني عليه السلام بقوله: «كانت أثَرة شحَّت عليها نفوس قوم، وسَخَت عنها نفوس آخرين؟» ومَن القومُ الّذين عناهم الأسديّ بقوله: «كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به»؟ هل

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

المرادُ يوم السقيفة أو يوم الشورى؟ فقال: يوم السقيفة؟ فقلت: إنّ نفسي لا تسامحني أن أنسُب إلى الصحابة عصيان رسول الله ﷺ ودفع النص. فقال: وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول الله ﷺ إلى إهمال أمر الإمامة، وأنْ يترك النّاس فوضى سُدًى مهمَلين، وقد كان لا يغيبُ عن المدينة إلاّ ويؤمّر عليها أميراً وهو حيّ ليس بالبعيد عنها، فكيف لا يؤمّر وهو ميّت لا يقدر على استدراك ما يحدُث!

ثم قال: ليس يشكّ أحدٌ من الناس أنّ رسول الله ﷺ كان عاقلاً كامل العقل، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم، وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة، سديد الرأي، أقام ملّةً، وشرَع شريعة، فاستجدّ ملكاً عظيماً بعقله وتدبيره، وهذا الرّجل العاقل الكامل يعرفُ طباع العرب وغرائزهم وطلبَهم بالثّارات والذُّحول، ولو بعد الأزمان المتطاولة. ويقتُل الرجل من القبيلة رجلاً من بيت آخر، فلا يزال أهلُ ذلك المقتول وأقاربه يتطلّبون القاتل ليقتلوه، حتى يدركوا ثأرهم منه، فإن لم يظفروا به قَتلُوا بعضَ أقاربه وأهله، فإنْ لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحداً أو جماعة من تلك القبيلة به وإن لم يكونوا رهطه الأدنين. والإسلام لم يُحِلْ طبائعهم، ولا غيّر هذه السجيّة المركوزة في أخلاقهم، والغرائز بحالها، فكيف يتوهّم لبيب أنّ هذا العاقل الكامل وَتَر العرب، وعلى الخصوص قريشاً، وساعدَهُ على سَفْك الدماء وإزهاق الأنفس وتقلد الضغائن ابنُ عمّه الأدنى وصهرهُ، وهو يعلم أنّه سيموت كما يموت الناس، ويتركه بعدَه وعنده ابنته، وله منها ابنان يجريان عندَه مَجْرَى ابنيْن من ظَهْره حُنوًّا عليهما، ومحبّة لهما، ويعدل عنه في الأمر بعده، ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه، فيحقِنُ دمه ودم بنية وأهله باستخلافه! ألا يعلمُ هذا العاقل الكامل، أنّه إذا تركه وترك بنيه وأهلَه سُوقَةً ورعيّة، فقد عرَّض دماءهم للإراقة بعده، بل يكونُ هو عليه السلام هو الذي قتله، وأشاط بدمائهم؛ لأنّهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميهم، وإنّما يكونون مضغةً للآكل، وفريسةً للمفترِس، يتخطّفهم الناس، وتبلُغ فيهم الأغراض!

فأمّا إذا جَعَل السلطان فيهم، والأمر إليهم، فإنّه يكون قد عَصَمهم وحَقَن دماءهم بالرّياسة التي يَصُولون بها، ويرتدع النّاس عنهم لأجلها. ومثل هذا معلوم بالتجربة. ألا ترى أن ملِك بغداد أو غيرها من البلاد لو قَتَل النّاس ووتَرَهم، وأبقَى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه، ثم أهمل أمر ولده وذرّيته من بعده، وفَسَح للنّاس أن يقيموا مَلِكاً من عُرْضِهم، وواحداً منهم، وجعل بنيه سوقَةً كبعض العامّة، لكان بنوه بعده قليلاً بقاؤهم، سريعاً هلاكهم، ولَوثَب عليهم الناس ذوو الأحقاد والتّرات من كلّ جهة، يقتلونهم ويشرّدونهم كلّ مشرَّد ولو أنه عَيّن ولداً من أولاده للْملك، وقام خواصّه وخدمه وخَوَلُه بأمره بعده، لحُقنت دماء أهل بيْته، ولم تطلْ يد أحد من الناس إليهم لناموس الملك، وأبّهة السلطنة، وقوة الرياسة، وحرمة الإمارة!

أفترى ذهب عَنْ رسول الله ﷺ هذا المعنى، أم أحبّ أن يُستأصل أهله وذرّيته من بعده! وأين موضعُ الشَّفَقة على فاطمة العزيزة عنده، الحبيبة إلى قلبه!

أتقول: إنّه أحبّ أن يجعلها كواحدةٍ من فقراء المدينة، تتكفّفُ الناس، وأن يجعل عليًا، المكرّم المعظَّم عنده، الذي كانت حاله معه معلومةً، كأبي هريرة الدَّوْسِيّ وأنس بن مالك الأنصاريّ، يحكِّم الأمراء في دمه وعرْضِه ونفسه وولده، فلا يستطيع الامتناع، وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول، تتلظّى أكباد أصحابها عليه، ويودُّون أن يشربُوا دمه بأفواههم، ويأكلوا لحمه بأسنانهم، قد قتل أبناءَهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامَهم، والعهدُ لم يطُلْ، والقروح لم تتقرّف، والجروح لم تندمل!

فقلت له: لقد أحسنتَ فيما قلت، إلاّ أن لفظه عليه السلام يدلّ على أنه لم يكن نصّ عليه، ألا تراه يقول: «ونحنُ الأعلَون نسباً، والأشدُّون بالرسول نَوْطاً»، فجعل الاحتجاج بالنَّسب وشدّة القرْب، فلو كان عليه نصّ، لقال عِوَض ذلك: «وأنا المنصوص عليّ، المخطوب باسمي».

فقال رحمه الله: إنما أتاه من حيثُ يعلم، لا من حيث يجهل، ألاَ ترى أنه سأله، فقال: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام، وأنتم أحقّ به؟ فهو إنما سأل عن دفعهم عنه، وهم أحقّ به من جهة اللُّحمة والعِتْرة، ولم يكن الأسديُّ يتصوّر النّصّ ولا يعتقده، ولا يخطر بباله؛ لأنه لو كان هذا في نفسه، لقال له: لم دَفَعك النّاس عن هذا المقام، وقد نصّ عليك رسول الله ﷺ؟ ولم يَقُل له هذا، وإنما قال كلاماً عامًّا لبني هاشم كافّة: كيف دفعكم قومُكم عن هذا وأنتم أحقّ به! أي باعتبار الهاشميّة والقربَى. فأجابه بجوابٍ أعاد قبله المعنى الذي تعلق به الأسديّ بعينه، تمهيداً للجواب، فقال: إنّما فعلوا ذلك مع أنّا أقربُ إلى رسول الله ﷺ من غيرنا لأنّهم استأثروا علينا ولو قال له: أنا المنصوص عليّ، والمخطوب باسمِي في حياة رسول الله ﷺ، لما كان قد أجابه؛ لأنه ما سأله: هل أنت منصوص عليك أم لا؟ ولا هل نصّ رسول الله ﷺ بالخلافة على أحد أم لا؟ وإنّما قال: لم دَفَعكم قومُكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم؟ فأجابه جواباً ينطبق على السؤل ويلائمه أيضاً، فلو أخذ يصرّح له بالنصّ، ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لنَفَر عنه، واتّهمه ولم يقبل قوله، ولم ينجذب إلى تصديقه، فكان أولى الأمور في حكم السياسة وتدبير الناس، أن يجيب بما لا نُفْرة منه، ولا مطعن عليه فيه.

١٦٤ - ومن خطبة له عليه السلام في ذكر الخالق عزّ وجلّ

الأصل: الحَمْدُ لله خالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمِهادِ، وَمُسِيلِ الْوِهادِ، مُخْصِبِ النِّجادِ، لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِداءٌ، وَلاَ لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضاءٌ، هُوَ الأَوّلُ وَلَمْ يَزَلْ، والْبَاقي بِلاَ أَجَل، خَرَّتْ

لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ. حَدَّ الأَشْياءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إبانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِها، لاَ تُقَدِّرُهُ الأَوْهامُ بِالحدودِ وَالحَرَكَاتِ، وَلاَ بِالجَوَارِحِ وَالأَدوَاتِ، لاَ يُقالُ لَهُ: «مَتَى»؟ وَلاَ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بـ «حتَّى»، الظَّاهِرُ لاَ يُقالُ: «ممّ»؟ وَالْبَاطِنُ لاَ يُقالُ: «فيمَ»؟

لاَ شَبَحٌ فَيُتَقَصَّى، وَلا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأَشْياءِ بِالْتِصاقٍ، وَلَمْ يَبْعُد عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ، وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ، وَلاَ كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلاَ ازْدِلاَفُ رَبْوَةٍ، وَلاَ انْبِساطُ خُطوَةٍ. فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلاَ غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ المُنِيرُ، وَتَعقُّبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي ٱلأُفولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقْلِيبِ الأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهارٍ مُدْبِرٍ.

قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّة، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ، تَعَالى عَمَّا يَنْحَلُهُ المُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الأَقْدارِ، وَنِهاياتِ ٱلأَقْطاره، وَتَأَثُّلِ المَساكِنِ، وتَمكُّنِ الأَماكِنِ. فَالحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وإِلى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ.

لَمْ يَخْلُقِ الأَشياءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلاَ مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ ما خَلقَ فأَقامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ.

لَيْسَ لِشَيءٍ مِنْهُ امْتِناعٌ، وَلاَ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ، عِلمُهُ بِالأَمْوَاتِ المَاضِين كَعِلْمِهِ بِالأَحْياءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلاَ، كَعِلْمِهِ بِمَا فِي ٱلأَرَضِينَ السُّفْلَى.

الشرح: المهاد هنا: هو الأرض، وأصله الفراش: وساطحه باسطه، ومنه تسطيح القبور خلاف تَسْنيمها، ومنه أيضاً المِسْطَح، للموضع الذي يبسَط فيه التَّمر ليجفَّف.

والوِهاد: جمع وَهْدة، وهي المكان المطمئن. ومسيلها: مجرى السَّيْل فيها. والنِّجاد: جمع نَجْد، وهو ما ارتفع من الأرض. ومخصبها: مروّضها وجاعلها ذوات خِصْب.

واعلم أنّه عليه السلام أورَدَ في هذه الخطبة ضروباً من علم التوحيد، وكلها مبنيّة على ثلاثة أصول:

الأصل الأول: أنه تعالى واجب الوجود لذاته، ويتفرّع على هذا الأصل فروع:

أولها: أنه ليس لأوّليّته ابتداء؛ لأنه لو كان لأوّليته ابتداء لكان محدَثاً، ولا شيء من المحدَث بواجب الوجود؛ لأن معنى واجب الوجود، أنّ ذاته لا تقبل العَدَم، ويستحيل الجمع بين قولنا: هذه الذات محدَثة، أي كانت معدومة من قبل، وهي في حقيقتها لا تقبل العدَم.

وثانيها: أنّه ليس لأزليّته انقضاء؛ لأنه لو صحّ عليه العَدَمُ لكان لعدَمه سبب، فكان وجوده موقوفاً على انتفاء سبب عدمه، والمتوقِّف على غيره، يكون ممكنَ الذات، فلا يكون واجبَ الوجود. وقوله عليه السلام: «هو الأوّل لم يزَلْ، والباقي بلا أجَل» تكرار لهذين المعنين السابقيْن على سبيل التأكيد، ويدخل فيه أيضاً قوله: «لا يقال له مَتَى، ولا يضرب له أمد بحتَّى»؛ لأن «متى» للزمان وواجب الوجود يرتفع عن الزمان، و«حتى» للغاية وواجب الوجود لا غاية له. ويدخل أيضاً فيه قوله: «قبل كلّ غاية ومدّة، وكلّ إحصاء وعدّة».

وثالثها: أنه لا يشبهُ الأشياء البتّة؛ لأنّ ما عاده إمّا جسم أو عَرَض أو مجرّد، فلو أشبهَ الجِسْم أو العرض لكان إما جسماً أو عرضاً، ضرورة تساوي المتشابهين المتماثلين في حقائقهما. ولو شابهَ غيرَه من المجرّدات - مع أنّ كل مجرد غير مُمْكِن - لكان ممكناً، وليس واجب الوجود بممكن، فيدخل في هذا المعنى قوله عليه السلام: «حَدّ الأشياء عند خَلْقِهِ لها، إبانةً لَهُ من شبهها»، أي جعل المخلوقاتِ ذوات حدود ليتميّز هو سبحانه عنها، إذ لا حدّ له، فبطل أن يشبِهه شيء منها. ودخل فيه قوله عليه السلام: «لا تقدّره الأوهام بالحدود والحركات، ولا بالجوارح». والأدوات: جمع أداة وهي ما يعتمَد به، ودخل فيه قوله: «الظّاهر فلا يقال: مم»؟ أيْ لا يقال: من أيّ شيء ظَهَر، «والباطن فلا يقال: فيم»، أي لا يقال فيما ذا بطن؟ ويدخل فيه قوله: «لا شَبحٌ فيتقصّى» والشّبح: الشخص ويُتقصى يطلب أقصاه. ويدخل فيه قوله: «ولا محجوب فيحوَى» وقوله: «لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق»؛ لأنّ هذه الأمور كلّها من خصائص الأجسام وواجب الوجود لا يشبه الأجسام ولا يماثلها. ويدخل فيه قوله عليه السلام: «تعالى عما ينحَلُه المحدّدون من صفات الأقدار»، أي مما ينسبه إليه المشبهة والمجسّمة من صفات المقادير، وذوات المقادير.

ونهايات الأقطار، أي الجوانب. وتأثّلَ المساكن، مجدٌ مؤثّل، أي أصيل، وبيت مؤثّل، أي: معمور، وكانَ أصلَ الكلمة أن تبنى الدار بالأثْل، وهو شجر معروف. وتمكّن الأماكن: ثبوتها واستقرارها. وقوله: «فالحدّ لخلقه مضروب، وإلى غيره منسوب»، وقوله: «ولا له بطاعة شيء انتفاع»؛ لأنه ينتفع الجسم الذي يصحّ عليه الشهوة والنّفرة، كلُّ هذا داخل تحت هذا الوجه.

الأصل الثاني: أنّه تعالى عالم لذاته، فيعلم كلَّ معلوم، ويدخل تحت هذا الأصل قوله عليه السلام: «لا تخفَى عليه من عبادِه شخوص لحظة»، أن تسكن العين فلا تتحرّك. ولا «كرور لفظة»، أي رجوعها. «ولا ازدلاف ربوة»، صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض، وهي الموضع المرتفع «ولا انبساط خطوة. في ليل داج» أي مظلم. «ولا غسق ساج»، أي: ساكن.

ثم قال: «يتفيّأ عليه القمر المنير»، هذا من صفات الغسق، ومن تتمّة نعته، ومعنى: «يتفيّأ عليه» يتقلّب ذاهباً وجائياً في حَالتَيْ أخذه في الضوء إلى التبدّر، وأخذه في النقص إلى المحاق.

وقوله: «وتعقّبه»، أي وتتعقّبه، فحذف إحدى التاءين، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]، أي «تتوفّاهم»، والهاء في «وَتَعَقُّبُهُ» تَرجع إلى القمر، أي وتسير الشمس عقِبه في كروره. وأفوله، أي غيبوبته، وفي تقلب الأزمنة والدهور، من إقبال ليلٍ وإدبار نهار.

فإن قلت: إذا كان قوله: «يتفيّأ عليه القمر المنير» في موضع جَرّ؛ لأنه صفة «غسق»، فكيف تتعقّب الشمس القمر مع وجود الغسق؟ وهل يمكن اجتماع الشمس والغسق؟

قلت: لا يلزم من تعقّب الشمس للقمر ثبوتُ الغسق، بل قد يصدق تعقّبها له ويكون الغسق معدوماً، كأنه عليه السلام قال: «لا يخفي على الله حركةٌ في نهار ولا ليل، يتفيّأ عليه القمر، وتعقبه الشمس»، أي تظهر عقيبه، فيزول الغسق بظهورها.

وهذا التفسير الذي فسرناه يقتضي أن يكون حرف الجر وهو «في» التي في قوله: «في الكرور» متعلقاً بمحذوف، ويكون موضعه نصباً على الحال، أي وتعقبه كارًا وآفلاً. ويدخل تحته أيضاً قوله عليه السلام: «علمه بالأموات الماضين، كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السموات العلا، كعلمه بما في الأرضين السُفْلى».

الأصل الثالث: أنّه تعالى قادر لذاته، فكان قادراً على كلّ الممكنات، ويدخل تحته قوله: «لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة، ولا من أوائل أبدية، بل خلق ما خلق فأقام حدّه، وصوُّر ما صوّر فأحسن صورته»، والردّ في هذا على أصحاب الهيولى والطينة التي يزعمون قدَمها. ويدخل تحته قوله: «ليس لشيء امتناع»؛ لأنه متى أراد إيجادَ شيء أوجدَه، ويدخل تحته قوله: خرّت له نحباه»، أي سجدت. و«وحّدته الشفاه»، يعني الأفواه، فعبر بالجزء عن الكلّ مجازاً، وذلك لأنّ القادر لذاته هو المستحق للعبادة لخلقه أصول النِّعم. كالحياة والقدرة والشهوة.

واعلم أنّ هذا الفنّ هو الذي بان به أمير المؤمنين عليه السلام عن العرب في زمانه قاطبة واستحقّ به التقدّم والفَضل عليهم أجمعين، وذلك لأنّ الخاصّة التي يتميّز بها الإنسان عن البهائم هي العقل والعلم، الا ترى أنّه يشاركه غيرُه من الحيوانات في اللّحميّة والدمويّة والقوّة والقدرة، والحركة الكائنة على سبيل الإرادة والاختيار، فليس الامتياز إلاّ بالقوّة الناطقة، أي العاقلة

(١) سورة النحل، الآية: ٢٨.

العالمة، فكلّما كان الإنسانُ أكثر حظًّا منها، كانت إنسانيّتُه أتمّ، ومعلوم أن هذا الرجل انفرد بهذا الفن، وهو أشرفُ العلوم؛ لأنّ معلومَه أشرف المعلومات، ولم يُنْقَل عن أحدٍ من العرب غيره في هذا الفنّ حرف واحد، ولا كانت أذهانهم تَصِلُ إلى هذا، ولا يفهمونه بهذا الفنّ فَهُو منْفرد فيه، وبغيره من الفنون - وهي العلوم الشرعية - مشارك لهم، وراجحٌ عليهم، فكان أكملَ منهم؛ لأنا قد بيَّنا أنّ الأعلم أدخل في صورة الإنسانية، وهذا هو معنى الأفضليّة.

الأصل: منها: أَيُّهَا المَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالمُنْشَأُ المَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ ٱلْأَسْتَارِ. بُدِئْتَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لا تُحِيرُ دُعَاءً، وَلاَ تَسْمَعُ نِدَاءً. ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا، فَمَنْ هَدَاكَ لاجْتِرَارِ ٱلْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ!

هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي ٱلْهَيْئَةِ وَٱلْأَدَوَاتِ، فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ المَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ.

الشرح: السّويّ: المستوي الخلقة غير ناقص، قال سبحانه: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(١).

والمُنشَأ، مفعول من «أنشأ» أي خُلِق وأوجِد. والمرعيّ: المحوط المحفوظ. وظلمات الأرحام، ومضاعفات الأستار: مستقرّ النُّطَف، والرَّحِم موضوعة فيما بين المثانة والمِعَي المستقيم، وهي مربوطة برباطات على هيئة السّلسلة، وجسمها عصبيّ، ليمكِن امتدادها واتّساعُها وقتَ الحاجة إلى ذلك عند الولادة، وتنضمّ وتتقلّص إذا استُغْنِي عن ذلك، ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحد، وزائدتان يسمّيان قرنَي الرحم، وخَلْف هاتيْن الزائدتين بيضَتا المرأة، وهما أصغر من بيضتِي الرّجُل، وأشدّ تفرطُحاً، ومنهما ينصبّ مَنِيُّ المرأة إلى تجويف الرَّحِم، وللرّحِم رَقَبَةٌ منتهية إلى فَرْج المرأة، وتلك الرّقبة من المرأة بمنزلة الذَّكر من الرجل، فإذَا امتزج مَنِيُّ الرجل بمنِي المرأة في تجويف الرّحم كان العلوق، ثم ينمِي ويزيد من دم الطَّمْث، ويتصّل بالجنين عروق تأتي إلى الرَّحِم فتغذوه، حتى يتمّ ويكمُل، فإذا تَمّ لم يكْتَفِ بما تحته من تلك العروق فيتحرّك حركاتٍ قويّة، طلَباً للغذاء، فتنهتك أربطة الرَّحِم التي قلنا إنّها على هيئة السلسلة، وتكونُ منها الولادة.

(١) سورة مريم، الآية: ١٧.

قوله: «بُدِئت من سُلاَلة من طين»، أي كان ابتداء خلْقك من سلالة، وهي خلاصة الطين؛ لأنها سُلَّت من بيْن الكَدَر، و«فُعَالة» بناء للقلة، كالقُلامة والقُمامة. وقال الحسن: هي ما بين ظَهْرَانَيِ الطِّين.

ثم قال: «ووضعتَ في قرار مكين»، الكلام الأوّل لآدم الذي هو أصلُ البشر، والثاني لذرّيّته، والقرار المكين: الرَّحِم متمكّنة في موضعها برباطاتها؛ لأنّها لو كانت متحرّكة لتعذّر العُلُوق.

ثم قال: «إلى قَدَر معلوم، وأجَلٍ مقسوم»، إلى: متعلّقة بمحذوف، كأنّه قال: «منتهياً إلى قَدَرٍ معلوم»، أي مقدَّراً طوله وشكله إلى أجلٍ مقسوم مدّة حياته.

ثم قال: «تمور في بطْنِ أمّك»، أي تتحرّك. لا تُحِير، أي لا ترجع جواباً، أحار يُحِير.

إلى دار لم تشهدها، يعني الدنيا، ويقال: أشبه شيء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التي بعد الموت، انتقالُ الجنين من ظلمة الرَّحِم إلى فضاء الدنيا، فلو كان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلا الدّار التي هو فيها، ولايشعر بما وراءها، ولا يحسّ بنفسه إلاّ وقد حَصَل في دارٍ لم يعرفْها، ولا تخطِرُ بباله، فبقيَ هو كالحائر المبهوت، وهكذا حالنا في الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت.

ولقد أحسن ابن الروميّ في صفة خطوب الدنيا وصروفها بقوله:

لِمَا تُؤذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يكونُ بكاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يولَدُ
وإلاّ فما يُبكيه منها وإنَّها ... لأوْسَعُ مِمَّا كَانَ فيه وأرْغَدُ!
إذا أبْصَرَ الدنيا استهلَّ كأنّه ... بما سوفَ يلقَى من أذاها يهدّدُ

قال: «فَمَنْ هداك إلى اجترارِ الغِذَاء من ثذيِ أمّك؟»، اجترار: امتصاص اللبن من الثّدي، وذلك بالإلهام الإلهيّ.

قال: «وعرّفك عند الحاجة»، أي أعلمك بموضع الحَلَمة عند طلبكَ الرّضاع فالتقمتَها بفمِك.

ثم قال: «هيهات»، أي بَعُد أن يحيط علماً بالخالق مَنْ عجز عن معرفة المخلوق! قال الشاعر:

رَأيْتُ ٱلْوَرَى يَدَّعُونَ ٱلْهُدَى ... وَكَمْ يَدَّعِي الحقّ خَلْقٌ كَثِير
وما فِي البرايا امرُؤٌ عندَهُ ... من العلم بالحقّ إلا اليسيرْ
خَفِيٌّ فما نالَه ناظرٌ ... وما إن أشارَ إليهِ مشيرْ
ولا شيءَ أظهرُ من ذاته ... وكيف يرى الشَّمْسَ أعمَى ضريرْ!

١٦٥ - ومن كلام له عليه السلام لعثمان بن عفان قالوا: لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وشكوا إليه ما نقموه على عثمان، وسالوه مخاطبته واستعتابه لهم، فدخل عليه السلام على عثمان، فقال

الأصل: إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ ٱسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَٱللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لاَ تَعْرِفُهُ!

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَاسَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ٱبْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ٱبْنُ ٱلْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الخيرِ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالاَ، فَاللهَ ٱللهَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ وَٱللهِ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى، وَلاَ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلاَمَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ.

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ ٱللهِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وَإِنَّ السُّنَنَ لنيرة لَهَا أَعلاَمٌ، وَإِنَّ ٱلْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلاَمٌ، وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً! وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُولُ: يُؤْتَى يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِالإِمَامِ ٱلْجَائِرِ، وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا.

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ ٱللهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ ٱلأُمَّةِ المَقْتُولَ! فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ ٱلأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا ٱلْقَتْلَ وَٱلْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ ٱلْفِتَنَ فِيهَا، فَلاَ يُبْصِرُونَ ٱلْحَقَّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيها مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيها مَرْجاً. فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَان سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جُلاَلِ السِّنِّ، وَتَقَضِّي ٱلْعُمْرِ.

فقال له عثمان رضي الله عنه: كَلِّم النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ.

فقال عليه السلام: مَا كَان بِالْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ، وَما غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشرح: نقَمت على زيد، بالفتح، أنقَم فأنا ناقم، إذا عتبتَ عليه. وقال الكِسائيّ: نقِمت بالكسر أيضاً، أنقَم لغة، وهذه اللفظة تجيء لازمة ومتعدّية، قالوا: نقَمت الأمْرَ أي كرهته.

واستعتبتُ فلاناً، طلبت منه العُتْبى وهي الرّضا، واستعتابُهم عثمان: طلبُهم منه ما يرضيهم عنه. واستسفروني: جعلوني سفيراً ووسيطاً بينك وبينهم.

ثم قال له وأقسم على ذلك: إنّه لا يعلم ماذا يقول له؛ لأنّه لا يعرِف أمراً يجهله، أي من هذه الأحداث خاصة. وهذا حقّ؛ لأنّ علياً عليه السلام لم يكن يعلم منها ما يجهله عثمان، بل كان أحداث الصبيان فضلاً عن العقلاء المميّزين، يعلمون وجهَي الصواب والخطأ فيها.

ثم شرع معه في مسْلَك الملاطفة والقول اللّين، فقال: ما سبقنا إلى الصّحْبة، ولا انفردنا بالرَّسُول دونك، وأنت مثلنا ونحن مثلك.

ثم خرج إلى ذكر الشيْخَيْن، فقال قولاً معناه أنّهما ليسا خيراً منك، فإنّك مخصوص دونهما بقرْب النسب، يعني المنافيّة وبالصهر، وهذا كلام هو موضع المثل: «يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء»، ومراده تفضيل نفسه عليه السلام عليهما؛ لأنّ العلّة التي باعتبارها فضّل عثمان عليهما محققةٌ وزيادة؛ لأنّ له مع المنافيَّة الهاشميّة، فهو أقرب.

والوشيجة: عروقُ الشّجرة. ثم حذّره جانب الله تعالى ونبّهه على أن الطريق واضحة، وأعلام الهدى قائمة، وأنّ الإمام العادل أفضلُ الناس عند الله، وأنّ الإمام الجائر شرّ الناس عند الله. ثم روى له الخبر المذكور، وروى: «ثم يرتبك في قعرها»، أي ينشَب.

وخوّفه أن يكون الإمامَ المقتول الذي يفتح الفِتن بقتله، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال كلاماً هو هذا، أو يشبه هذا.

ومَرَج الدين، أي فسد. والسَّيِّقة: ما استاقه العدوّ من الدوابّ، مثل الوسيقة، قال الشاعر:

فـمـا أنـا إلاّ مـثـلُ سَـيِّـقـة الـعِـدَا ... إن اسْتَقْدَمَتْ بجرْوٍ إنْ جَبَاتْ عَقْرُ

والجُلال، بالضم: الجليل، كالطُّوال والطويل، أي بعد السنّ الجليل، أي العمر الطويل.

وقوله: «ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه، وما غاب فأجلُه وصول أمرك إليه»، كلامٌ شريف فصيح؛ لأنّ الحاضر أيّ معنى لتأجيله! والغائب فلا عذر بعد وصول الأمر في تأخيره؛ لأنّ السلطان لا يؤخّر أمره.

وقد ذكرنا من الأحداث التي نُقمت على عثمان فيما تقدّم ما فيه كفاية، وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ رحمه الله في «التاريخ الكبير» هذا الكلام، فقال: إنّ نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تكاتبوا، فكتب بعضُهم إلى بعض: أن أقدموا، فإنّ الجهاد بالمدينة لا بالروم، واستطال الناس على عثمان، ونالوا منه، وذلك في سنة أربع وثلاثين، ولم يكن أحدٌ من الصحابة يذبّ عنه ولا ينهي، إلاّ نفرٌ، منهم زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعديّ، وكعب بن

مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس، فكلّموا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وسألوه أن يكلّم عثمان، فدخل عليه، وقال له إنّ الناس. . . وروَى الكلام إلى آخره بألفاظه، فقال عثمان: وقد علمت أنّك لتقولنّ ما قلت! أما والله لو كنتَ مكاني ما عنّفتُك، ولأعتبت عليك. ولم آت منكراً، إنّما وصلتُ رَحماً، وسددتُ خَلّة، وآويت ضائعاً، وولّيت شبيهاً بمن كان عمر يولّيه، أُنشدك الله يا عليّ، ألاَ تعلم أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك! قال: بلى، قال: أفلا تعلم أنّ عمر ولاّه! قال: بلى، قال: فلم تلومني أنْ ولّيت ابنَ عامر في رحِمه وقرابته! فقال عليّ عليه السلام: إنّ عمرَ كان يطأ على صماخ مَنْ يولّيه، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة، وأنت فلا تفعل، ضعفت ورققت على أقربائك.

قال عثمان: هَم أقرباؤك أيضاً، فقال عليّ: لعمري إن رحِمهم منّي لقريبة، ولكنّ الفضل في غيرهم.

فقال عثمان: أفلا تعلم أنّ عمر ولّى معاوية! فقد ولّيته. قال عليّ: أنشدُك الله ألاَ تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من يَرْفأ غلامه له؟ قال: بلى، قال: فإنّ معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للناس: هذا بأمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه!

ثم قام عليّ، فخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر، فخطب الناس، وقال: أما بعد، فإنّ لكلّ شيء آفة، ولكلّ أمرٍ عاهة، وإن آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النّعمة عَيّابون طعّانون يُرُونكم ما تحبُّون، ويُسرُّون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتَقولون، أمثال النّعام يتبَعُ أوّلَ ناعق، أحبّ مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلا نَغصاً، ولا يردُون إلا عِكَراً. أما والله لقد عبْتم عليّ ما أقررتُم لابن الخطاب بمثله، ولكنّه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقَمَعَكُم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ولِنْت لكم، وأوطأتكم كَتِفي، وكففت يدِي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ. أما والله لأنا أقربُ ناصراً، وأعزّ نفراً، وأكثر عدداً، وأحرى إن قلت: هلمّ أن يُجاب صوتي. ولقد أعددت لكم أقراناً، وكشّرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلقاً لم أكنْ أحسنه، ومنطقاً لم أكن أنطق به. فكفّوا عني ألسنَتكم وطعنكم وعَيْبكم عَلَى ولاتكم، فما الذي تفقدون من حقّكم! والله ما قصّرت عن بلوغ مَنْ كان قبلي يبلغ، وما وجدتكم تختلفون عليه، فما بالكم!

فقام مروان بن الحكم، فقال: وإن شئتم حكّمنا بيننا وبينكم السيف.

فقال عثمان: اسكت لا سكتّ! دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا! ألم أتقدّم إليك ألاّ تنطق! فسكت مروان، ونزل عثمان(١).

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٣٧٨، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ١٨٩.

١٦٦ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس

الأصل: ٱبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَساكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ، وَأَقَامَ مِنْ شَواهِدِ ٱلْبَيِّناتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا ٱنْقادَتْ لَهُ ٱلْعُقُول مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنا دَلاَئِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَما ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ ٱلْأَطْيارِ ٱلَّتِي أَسْكَنَها أَخادِيدَ الأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِها، وَرَوَاسِيَ أَعْلاَمِها، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئاتٍ مُتَبايِنَةٍ، مصرَّفَةٍ فِي زِمامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِها فِي مَخارِقِ ٱلْجَوِّ ٱلْمُنْفَسِحِ، وَٱلْفَضَاءِ ٱلْمُنْفَرِجِ.

كَوَّنَها بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ، فِي عَجائِبِ صُورَ ظاهِرَةٍ، وَرَكَّبَها في حِقاقِ مَفاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً، وَنَسَقَهَا عَلَى ٱخْتِلاَفِهَا فِي الأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ، فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ في قَالَبِ لَوْنٍ لاَ يَشُوبُهُ غَيْرُ لون مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلاَفِ مَا صُبِغَ بِهِ.

الشرح: المَوات، بالفتح: ما لا حياة فيه. وأرضٌ موات، أي قَفْر، والساكن هاهنا كالأرض والجبال. وذو الحركات: كالنار والماء الجاري والحيوان.

ونعَقت في أسماعنا دلائله، أي صاحت دلائله، لظهورها كالأصوات المسموعة التي تعلَم يقيناً.

وأخاديد الأرض: شقوقها، جمع أخدُود. وفجاجها: جمع فَجّ، وهو الطريق بين الجبَلين. ورواسي أعلامها: أثقال جبالها. مصرَّفة في زمام التّسخير، أي هي مسخَّرة تحت القدرة الإلٰهية.

وحِقاق المفاصل: جمع حُقّ، وهو مجمع المفصِلين من الأعضاء كالركبة، وجعلها محتجبة لأنها مستورة بالجلد واللّحم.

وعَبَالَة الحيوان: كثافة جَسده. والخفوف: سرعة الحركة. والدفيف للطائر: طيرانه فُوَيق الأرض، يقال: عُقاب دَفُوف. قال امرؤ القيس يصف فرسه ويشبّهها بالعقاب:

كأني بِفَتْخاء الجناحين لِقْوَةٍ ... دفوفٍ من العقبان طاطأتِ شِمْلاَلي

ونسقها: رتبها. والأصابيغ: جمع أصْباغ، وأصباغ جمع صِبْغ.

والمغموس الأوّل: هو ذو اللون الواحد كالأسود والأحمر. والمغموس الثاني: ذو اللونين، نحو أن يكون أحمر وعنقه خضراء.

وروي: «قد طورق لون» أي لون على لون، كما تقول: طارقت بين الثوبين.

فإن قلت: ما هذه الطيور التي يسكن بعضها الأخاديد وبعضها الفِجاج، وبعضها رؤوس الجبال؟

قلت: أمّا الأول فكالقطا والصّدا، والثاني كالقبَج والطّيهوج، والثالث كالصّقر والعُقاب.

الأصل: وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُسُ، الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْسَنِ تَعْدِيل، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ في أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطالَ مَسْحَبَهُ، إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وسمَا بِهِ مُطِلاًّ عَلَى رَأْسِهِ، كأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ. يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ. يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ بِمَلاَقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ المغْتَلِمَةِ للضِّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ، لاَ كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لاَ مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ!

الشرح: الطاوس: فاعول، كالهاضوم، والكابوس، وترخيمُه «طُوَيس»: ونضّد: رتب.

قوله: «أشرج قصبَه»، القصب هاهنا: عروق الجناح. وغضاريفه: عظامه الصغار، وأشرَجها: ركّب بعضها في بعض كما تُشرَج العيبة، أي يداخِلُ بين أشراجها وهي عُراها واحدها، شَرَج، بالتحريك.

ثم ذكر ذَنَب الطاوس، وأنّه طويل المسحَب، وأنّ الطاوس إذا دَرَج إلى الأنثى للسِّفاد نَشَر ذَنَبه من طَيّه، وعَلاَ بِهِ مرتفعاً على رأسه. والقَلْع: شِراع السفينة، وجمعه قِلاع. والدّاريّ: جالب العطر في البحر من دَارِين، وهي فُرْضة بالبحرين، فيها سُوقٌ يحمل إليها المسْك من الهند، وفي الحديث: «الجليس الصالح كالدّارِيّ، إن لم يُحْذِك من عطره علقَك من ريحه»[1]. قال الشاعر:

إذا التّاجر الدّاريُّ جاء بِفَأْرَةٍ ... من المسك رَاحَتْ في مفارقهم تَجْري

والنُّوتي: الملاّح، وجمعه نواتيّ.

وعَنَجه: عَطَفه، وعَنَجْتِ خِطام البعير، رددته على رِجْليه، وأعنُجه بالضمّ، والاسم العَنَج، بالتحريك، وفي المثل «عَوْدٌ يُعَلَّم الْعَنَج» يضرب مثلاً لتعيم الحاذق.

(١) أخرجه أحمد، كتاب: مسند الكوفيين، باب: حديث أبي موسى الأشعري (١٩١٢٧) بلفظ: «مثل العطار»، وأخرجه بلفظه: القضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٨٧).

ويختال، من الخُيَلاء وهي العُجْبُ ويميس: يتبختر.

وَزَيفانه: تبختره، زافَ يزيف، ومنه ناقة زيّافة، أي مُختالة، قالَ عنترة:

زَيَّافَةٍ مثل الفنيق المكدَّم

وكذلك ذكر الحمام عند الحمامة إذا جَرّ الذُّنابَي، ودفع مقدّمة بمؤخره واستدار عليها.

ويفضي: يسفِد، والدِّيَكة جمع ديك، كالقِرَطة والجِحَرَة جمع قُرط وجُحْر.

ويؤرّ: يسفِد، والأرّ: الجماع، ورجل آرّ كثير الجماع، ومَلاقحه: أدوات اللقاح وأعضاؤه، وهي آلات التناسل.

قوله: «أرّ الفُحول»، أي أرًا مثل أرّ الفحول ذات الغلْمة والشَّبَق.

ثم ذكر أنه لم يقل ذلك عن إسناد قد يضعّف ويتداخله الطعن، بل قال ذلك عن عيان ومشاهدة.

فإن قلت: من أين للمدينة طواويس؟ وأين العرب وهذا الطائر حتى يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أحيلك من ذلك على معاينة»، لاسيما وهو يعني السِّفاد، ورؤية ذلك لمن تكثُر الطواويس في داره ويطول مكثُها عنده نادرة!

قلت: لم يشاهد أميرُ المؤمنين عليه السلام الطواويسَ بالمدينة بل بالكوفة، وكانت يومئذٍ تجبَى إليها ثمرات كلِّ شيء، وتأتي إليها هدايا الملوك من الآفاق، ورؤية المسافدة مع وجود الذّكر والأنثى غير مستبعَدة.

واعلم أنّ قوماً زعموا أنّ الذكر تدمع عينه، فتقف الدمعة بين أجفانه، فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقَح من تلك الدمعة، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يُحِلْ ذلك، ولكنه قال: ليس بأعجب من مطاعمة الغراب، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد، ومن أمثالهم: «أخفى من سِفاد الغراب»، فيزعمون أنّ اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى منهما، وانتقال جزء من الماء الذي في قانصته إليها من منقاره. وأما الحكماء فقلّ أن يصدّقوا بذلك، على أنّهم قد قالوا في كتبهم ما يقرب من هذا، قالوا في السمك البياض: إنّ سفاده خفيٌّ جداً، وإنه لم يظهر ظهوراً يعتدّ به ويحكم بسببه.

هذا لفظ ابن سينا في كتاب «الشفاء» ثم قال: والناس يقولون: إن الإناث تأخذ زرع الذكور في أفواها إلى بطونها، ثم قال: وقد شوهدت الإناث منها تتبع الذكور مبتلعة للزرع، وأما عند الولادة فإنّ الذكور تتبع الإناث مبتلعة بيضها.

قال ابن سينا: والقَبَجة تحبلها ريح تهبّ من ناحية الحَجَل الذكر، ومن سماع صوته.

قال: والنوع المسمّى مالاقيا، تتلاصق بأفواهها، ثم تتشابك، فذاك سِفادها، وسمعت أنّ الغراب يسفد وأنه قد شوهد سِفاده، ويقول الناس: إنّ من شاهد سِفاد الغراب يُثْرِي ولا يموت إلاّ وهو كثير المال موسر.

والضَّفّتان، بفتح الضاد: الجانبان، وهما ضفتا النّهر، وقد جاء ذلك بالكسر أيضاً، والفتح أفصح.

والمنبجس: المنفجر. ويسفحها: يصبها، وروي: «تنشجها مدامعه»، من النّشيج، وهو صوت الماء وغَلَيانه من زِقّ أو حُقّ أو قِدْر.

الأصل: تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ ٱلْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ ٱلْأَرْضُ قُلْتَ: جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلاَبِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ ٱلْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ ٱلْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ المُكَلَّلِ.

يَمْشِي مَشْيَ المَرِحِ المُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَهُ، فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ، فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ ٱسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ؛ لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ ٱلْخِلاَسِيَّةِ.

الشرح: قَصَبُه: عظام أجنحته، والمدارِي جمع مِدْرَي، وهو في الأصل القَرْن، قال النَّابغة يصف الثَّور والكلاب:

شَكَّ ٱلْفَرِيصَةَ بالمِدْرَى فأنفذَها ... شكَّ المبيطِر إذ يشفى من العَضَدِ

وكذلك المِدْرَاة، ويقال المِدْرَى لشيء كالمِسَلّة تصلِحُ بها الماشطة شُعُور النساء، قال الشاعر:

تَهْلِكُ المِدْرَاةُ في أكنافِه ... وَإذا ما أرسَلَتْهُ يَعْتَفِرْ

وتمدّرت المرأة، أي سَرّحت شَعْرَها. شبّه عظام أجنحة الطاوس بمدارى من فضة لبياضها، وشبّه ما أنبت الله عليه من تلك الدّارات والشموس الّتي في الرّيش بخالِصِ العِقْيان، وهو الذّهب.

وَفِلَذ الزَّبرْجَد: جمع فِلْذَة، وهي القطعة. والزَّبَرْجد: هذا الجوهر الذي تسمِّيه الناس البلخش.

ثم قال: إن شبّهتَه بنبات الأرض قلت: إنه قد جُنِيَ من زهرة كلّ ربيع في الأرض، لاختلاف ألوانه وأصباغه.

وإنْ ضاهيتَه بالملابس، المضاهاة: المشاكلة، يُهمز ولا يُهمز، وقرىء: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾(١)، و﴿يُضَٰهُونَ﴾، وهذا ضَهِيّ هذا، على «فَعِيل»، أي شبيهه.

وموْشِيّ الحُلَل: ما دُبّج بالوشي، وهو الأرقم الملوّن. والعَصْب: بُرود اليمن. والحُلِيّ: جمع حَلْي، وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضّة، مثل ثُدِيّ وثَدْي، ووزنه «فُعول»، وقد تكسر الحاء لمكان الياء، مثل «عِصِيّ». وقرىء: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾(٢) بالضمّ والكسر.

ونطِقَتْ باللّجين، جعلت الفضّة كالنُّطاق لها. والمكَلّل: ذو الإكليل.

وزَقَا: صَوّت، يزقو زَقْواً وزقياً وزُقاء، وكلُّ صائح زاقٍ. والزَّقْية: الصَّيْحة، وهو أثقلُ من الزَّواقي، أي الدِّيكة؛ لأنهم كانوا يسمُرون، فإذا صاحت الدِّيكة تفرّقوا.

ومُعوِلاً: صارخاً، أعولت الفرس صوّتت، ومنه العَويل والعَوْلة.

وقوائمه حُمْش: دِقاق، وهو أحمش السَّاقَيْن وحَمْش الساقين بالتَّسكين، وقد حمِشت قوائمه، أي دَقّت. وتقول العرب للغلام إذا كانت أمّه بيضاء وأبوه عربياً: آدم، فجاء لونه بين لونيهما.

خِلاسيّ، بالكسر والأنثى خِلاسيَّة وقال اللّيث: الدِّيكة الخِلاسيَّة، هي المتولّدة من الدجاج الهنديّ والفارسيّ.

يقول عليه السلام: إنّ الطاوس يُزْهَى بنفسه، ويتيه إذا نَظَر في أعطافه، ورأى ألوانَه المختلفة، فإذا نظر إلى ساقَيْه وَجَم لذلك وانكسر نشاطه وزهوه، فصاح صياح العويل لحزنه، وذلك لدِقّة ساقيه ونُتُوء عُرقوبَيْه.

الأصل: وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ ٱلْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضرَاءُ مُوَشَّاةٌ، وَمَخْرَجُ عَنُقِهِ كَالْإبرِيقِ، وَمَغْرِزُها إلى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ ٱلْوَسِمَةِ ٱلْيَمانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقالٍ، وَكأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ، إلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مائِهِ وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ ٱلْخُضرَةَ ٱلنَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ ٱلْقَلَمِ في لَوْنِ ٱلْأُقْحُوانِ، أَبْيَضُ يَقَقٌ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ في سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ، وَقَلَّ صِبْغٌ إلاَّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلاَهُ

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.

بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ المَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّها أَمْطارُ رَبِيعٍ، وَلاَ شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح: نَجَمَتْ: ظهرتْ. والظُّنبوب: حَرْف الساق، وهو هذا العظْم اليابس.

والصِّيصيَة في الأصل: شوكة الحائك التي يسوّي بها السّدَاةَ واللّحمة، ومنه قوله:

كَوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسيج المَمدَّدِ

ونقل إلى صِيصَيَة الديك لتلك الهيئة التي في رجله.

والعُرْف: الشعر المرتفع من عُنقه على رأسه. والقُنْزُعة، واحدة القنازع، وهي الشّعر حوالي الرأس، وفي الحديث: «غَطِّي عَنّا قناعَك يا أمّ أيمن»(١).

وموشّاة: ذات وشي.

والوسِمة، بكسر السين: العِظْلِم الّذي يُخْضَب به، ويجوز تسكينُ السّين.

والأسحم: الأسود. والمتلفّع: الملتحف، ويروي: «متقنّع بِمعْجَر»، وهو ما تشدُّه المرأة على رأسها كالرِّداء.

والأقحوان: البابونج الأبيض، وجمعه أقاح.

وأبيض يَقَق: خالص البياض، وجاء: «يقِق» بالكسر. ويأتلق: يلمع.

والبصيص: البريق، وبصّ الشيء: لَمَع.

وتربُّها الأمطار: تربّيها وتجمعها.

يقول عليه السلام: كأنّ هذا الطائرَ ملتحِفٌ بملحفة سوداء، إلاّ أنها لكثرة روْنقها يتوهّم أنه قد امتزج بها خضرة ناضرة، وقلّ أن يكون لون إلاّ وقد أخذ هذا الطائر منه بنصيب، فهو كأزاهير الربيع، إلاّ أنّ الأزهار تربّيها الأمطار والشموس، وهذا مستغنٍ عن ذلك.

الأصل: وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَي مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأغصانِ، ثُمَّ يَتَلاَحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ. لاَ يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلاَ يَقَعُ لَوْنٌ في غَيْرِ مَكَانِهِ، وَإذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ،

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٢٤).

أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ ٱلْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ ٱلْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ ٱلْوَاصِفِينَ، وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَٱلأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!

فَسُبْحَانَ ٱلَّذِي بَهَرَ ٱلْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيون، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وَأَعْجَزَ ٱلأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تأدِيَةِ نَعْتِهِ!

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَٱلْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهما مِنْ خَلْقِ ٱلْحِيتَانِ وَٱلْفِيلَةِ! وَوَأَى على نَفْسِهِ ألاّ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إلاّ وَجَعلَ الْحِمامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غايَتَهُ.

الشرح: ينحسر من ريشه: ينكشف فيسقط، ويروى: «يتحسّر».

تَتْرى، أي شيئاً بعد شيء وبينهما فترة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾(١)، لأنّه لم يرسلهم على تراسل، بل بعد فترات، وهذا مما يغلط فيه قومٌ، فيعتقدون أنّ «تَتْرَى» للمواصلة والالتصاق. وأصلها الواو من «الوَتْر» وهو الفرد وفيها لغتان، تنوّن ولا تنوّن، فمن ترك صَرْفها للمعرفة جعل ألفها ألف تأنيث، ومَنْ نوّنها جعل ألفها للإلحاق.

قال عليه السلام: «وينبُت تباعاً» أي لا فترات بينهما، وكذلك حال الريش الساقط، يسقط شيئاً بعد شيء، وينبت جميعاً.

وينحتّ: يتساقط، وانحتاتُ الورق: تناثرها. ونامياً: زائداً. يقول عليه السلام: إذا عاد ريشه عادَ مكان كلّ ريشة ريشةٌ ملوّنة بلون الريشة الأولى، فلا يتخالف الأوائل والأواخر.

والخضرة الزّبرجديَّة: منسوبة إلى الزمرّد، ولفظة «الزّبرجد» تارة تستعمل له، وتارة لهذا الحجَر الأحمر المسمّى «بلخش». والعسجد: الذهب. وعمائق الفِطَن: البعيدة القَعْر. والقريحة: الخاطر والذهن. وبَهَر: غَلَب، وجلاّه: أظهره، ويروى بالتخفيف. وأدمج القوائم: أحكمها، كالحبل المدمَج الشديد الفَتْل.

والذّرّة: النملة الصغيرة. والهَمَجة، واحدة الهمَج، هو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغَنَم والحمر وأعينها.

ووأى: وعد، والوأي: الوعد.

واعلم أنّ الحُكَماء ذكروا في الطاوس أموراً، قالوا: إنّه يعيش خمساً وعشرين سنة، وهي

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤٤.

أقصى عمره، ويبيض في السنة الثالثة من عمره عندما يتقش لونه، ويتمّ ريشه. ويبيض في السنة مرّة واحدة اثنتيْ عشرة بيضة في ثلاثة أيام، ويحضنها ثلاثين يوماً، فيفرخ ويلقي ريشَه مع سقوط ورق الشجر، وينبته مع ابتداء نبات الورق.

والدجاج قد يحضِن بيض الطاوس، وإنّما يختار الدجاج لحضانته، وإن وُجدت الطاوسة؛ لأنّ الطاوس الذّكر يعبث بالأنثى، ويشغلها عن الحضانة، وربّما انفقص البيض من تحتها، ولهذه العلّة يخبأ كثير من الإناث محاضنها عن ذُكرانها، ولا تقوى الدجاجة على أكثر من بيضتَيْ طاوس. وينبغي أن يتعهّد الدّجاجة حينئذ بتقريب العلَف منها.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله في كتاب «الحيوان»: إن الطاوسة قد تبيض من الريح، بأن يكونَ في سُفالة الريح وفوقها طاوس ذكَر، فيحمل ريحه فتبيض منه، وكذلك القَبَجة.

قال: وبيض الريح قلّ أن يُفرِخ.

الأصل: منها في صفة الجنة: فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا، لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى ٱلدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي ٱصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ ٱلْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ ٱلثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَٱلْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ.

قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ ٱلْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ ٱلْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ ٱلأَسْفَارِ، فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا ٱلْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ ٱلْقُبُورِ ٱسْتِعْجَالاً بِهَا، جَعَلَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ ٱلأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ!

قال الرضي رحمه الله تعالى: تفسير بعض ما في هذه الخطبة من الغريب

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «يؤُرُّ بِمَلاَقِحِهِ» الأَرُّ: كنايَةٌ عن النِّكاحِ، يُقَال: أَرَّ الرَّجُلُ المَرْأَةَ يَؤُرُّهَا، إِذَا نَكَحَهَا.

وَقَوْلُهُ عليه السلام: «كأنهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ»، ٱلْقَلْع: شِرَاعُ السفينَةِ. وَدَارِيٌّ: منسوب إِلَى

دَارِين، وهي بلدةٌ عَلَى البحر يُجْلَبُ منها الطِّيبُ. وَعَنَجَهُ، أي عَطَفَهُ، يقال: عَنَجْتُ الناقة، أَعْنُجُهَا عَنْجاً إذا عَطَفْتَهَا. وَالنُّوتِيُّ: ٱلْمَلاَّحُ.

وقوله عليه السلام: «صَفَّتَيْ جُفُونِهِ»، أراد جَانِبَيْ جُفُونِهِ، وَالصَّفَّتَانِ: ٱلْجَانِبَانِ.

وَقوله: «وَفِلَذ الزَّبَرْجَدِ»، ٱلْفِلَذُ: جمع فِلْذَةٍ وَهِيَ ٱلْقِطْعَة.

وقوله عليه السلام: «كَبَائِس ٱللُّؤلُؤِ الرَّطِبِ» ٱلْكِبَاسَةُ: ٱلْعِذْقُ. وَٱلْعَسَالِيجُ: ٱلْغُصون، وَاحدهَا عُسْلُوجٌ.

الشرح: رميتَ ببصرِ قلبك، أي أفكرْت وتأمّلت وعَزَفتْ نفسُك: كرهتْ وزهدت. والزخارف: جمع زُخرف، وهو الذهب وكلّ مموّه.

واصطفاف الأشجار: انتظامها صَفًّا، ويروي: «في اصطفاق أغصان» أي اضطرابها.

ويأتي على مُنْية مجتنيها: لا يترك له مُنْية أصلاً؛ لأنه يكون قد بلغ نهاية الأماني.

والعسل المصفّق: المصفَّى تحويلاً من إناء إلى إناء. والمونقة: المعجِبة. وزهقت نفسه: مات.

واعلم أنّه لا مزيد في التشويق إلى الجنّة على ما ذكره الله تعالى في كتابه، فكلّ الصَّيْد في جانب الفرَا.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك أخبار صحيحة، فروى أسامة بن زيد، قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر الجنّة فقال: «ألا مشترٍ لها! هي وربِّ الكعبة ريحانة تهتزّ، ونور يتلألأ، ونهر يطّرد، وزوجة لا تموت، مع حبور ونعيم، ومقام الأبد»[1].

وروى أبو سعيد الخدريّ عنه صلى الله عليه وآله: «إنّ الله سبحانه لما حوّط حائط الجنّة، لبِنَة من ذهب ولبنة من فضّة، وغرس غرسها، قال لها: تكلّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال: طوبَى لك منزل الملوك!»[2].

وروى جابر بن عبد الله عنه عليه الصلاة والسلام: «إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّة، قال لهم

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٥٢).

(٢) أخرج نحوه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٧)، والديلمي في «الفردوس» (٦٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٤).

ربُّهم تعالى: أتحبّون أن أزيدكم؟ فيقولون: وهلْ خيرٌ ممّا أعطيتَنا؟ فيقول: نعم، رِضْواني أكبر»[1].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «إنّ أحدَهم ليُعطَى قوّة مائة رجل في الأكل والشرب»، فقيل له: فهل يكون منهم حَدَث - أو قال خَبَث؟ قال: «عَرَقٌ يفيض من أعراضهم كريح المسك يضمُر منه البطن»[2].

وروى الزمخشريّ في «ربيع الأبرار» - ومذهبه في الاعتزال ونصرة أصحابنا معلوم، وكذلك في انحرافه عن الشّيعة وتسخيفه لمقالاتهم - أنّ رسول الله محمداً ﷺ، قال: «لما أسرِيَ بي، أخذني جبرائيل، فأقعدني على دُرْنوكٍ من درانيك الجنّة، ثم ناولني سَفرجلة، فبينا أنا أقلّبها انفلقتْ، فخرجت منها جارية لم أرَ أحسنَ منها، فسلّمت، فقلت: مَنْ أنتِ، قالت: أنا الراضية المرضيّة، خلقني الجبّار من ثلاثة أصناف: أعلاي من عَنْبر، وأوسطي من كافور، وأسفلي من مسك. ثم عجنني بماء الحيوان، وقال لي: كوني كذا، فكنت. خلقني لأخيك وابن عمّك علي بن أبي طالب»[3].

قلت: الدُّرنوك: ضرب من البُسط ذو خَمَل، ويشبّه به فَرْوة البعير، قال الراجز:

جعد الدَّرانيك رِفَلُّ الأجْلادْ

١٦٧ - ومن خطبة له عليه السلام في الحث على التآلف

الأصل: لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَلاَ تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ، لاَ فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلاَ عَنْ اللهِ يَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَداحٍ، يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرًّا.

الشرح: أمرهم عليه السلام أن يتأسّى الصغير منهم بالكبير في أخلاقه وآدابه، فإنّ الكبير لكثرة التّجربة أحزم وأكيس، وأن يرأف الكبير بالصغير. والرأفة: الرحمة؛ لأنّ الصغير مظنّة الضعف والرقة.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٦)، والطبراني في «الأوسط» (٩٠٢٥).

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٣٦٧، وابن أبي شيبة في المصنف: ٨/ ٧٣ رقم ٤١.

(٣) ربيع الأبرار: ١/ ٢٨٦ الباب الثامن، وانظر نزهة المجالس للسفوري: ٢/ ٢١١.

ثم نهاهم عن خُلُق الجاهليّة في الجفاء والقسوة، وقال: إنهم لا يتفقّهون في دين ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به، وهذا من قول الله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

وروي: «تتفقهون» بتاء الخطاب.

ثم شبّههم ببيض الأفاعي في الأعشاش، يظنّ بيض القطا فلا يحلّ لمن رآه أن يكسِره لأنه يظنّه بيض القطا، وحضانه يُخرج شرًّا؛ لأنه يفقصُ عن أفعى.

واستعار لفظة «الأداحي» للأعشاش مجازاً؛ لأنّ الأداحي لا تكون إلاّ للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها، ودَحْوها: توسيعها، من دَحَوْت الأرض.

والقَيْض: الكسر والفلق، قِضْتُ القارورة والبيضة، وانقاضت هي، وانقاض الجدار انقياضاً، أي تصدّع من غير أن يسقط، فإن سقط قيل: تقيّض تقيُّضاً، وتقوّض تقوضاً، وقوّضته أنا. وتقول للبيضة إذا تكّسرتِ فِلَقاً: تقيّضت تقيّضاً، فإنْ تصدّعت ولم تنفلق، قلت: انقاضت، فهي منقاضة، والقارورة مثله.

الأصل: منها: افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِم، فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ، أَيْنَما مالَ مالَ مَعَهُ، على أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لَشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَما يَجْتَمِعُ قَزَعُ الخَرِيفِ، يُؤَلِّفُ ٱللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكاماً كَرُكَامِ السَّحابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ ٱللهُ لَهُمْ أَبْوَاباً. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلاَ حِدَابُ أَرْضٍ، يُذَعْذِعُهُمُ الله فِي بُطُونِ أودِيَتِهِ، ثمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنابيعَ فِي الأرْضِ، يَأخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيارِ قَوْمٍ.

وَايْمُ ٱللهِ لَيَذُوبَنَّ ما فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ والتَّمْكِينِ، كما تَذُوبُ الأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

أَيُّها النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخاذَلُوا عَنْ نصرِ الحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ، لَكِنَّكُمْ تُهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرائِيلَ.

وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعافاً، بِمَا خَلَّفْتُمُ الحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ ٱلرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مئونة ٱلاِعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفادِحَ عَنِ الأَعْناقِ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

الشرح: هو عليه السلام : يذكر حال أصحابه وشيعتَه بعده، فيقول: افترقوا بعد أُلفَتِهم: أي بعد اجتماعهم.

وتشتّتوا عن أصلهم، أي عنّي بعد مفارقتي، فمنهم آخذ بغصن، أي يكون منهم مَنْ يتمسَّك بمن أخلّفه بعدِي من ذريّة الرسول، أينما سلكوا سلكوا معهم، وتقدير الكلام: ومنهم مَنْ لا يكون هذه حاله. لكنّه لم يذكره عليه السلام ، اكتفاءً بذكر القسم الأول لأنه دالٌّ على القسم الثاني.

ثم قال: على أنّ هؤلاء القوم: من ثبت منهم على عقيدته فينا ومن لم يثبت، لا بدّ أن يجمعهم الله تعالى لشرّ يوم لبني أميّة، وكذا كان، فإنّ الشيعة الهاشمية اجتمعت على إزالة ملك بني مَرْوان: مَنْ كان منهم ثابتاً على ولاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، ومَنْ حادَ منهم عن ذلك، وذلك في أواخر أيّام مَرْوان، عند ظهور الدّعوة الهاشميّة.

وقَزَع الخريف: جمع قَزَعة، وهي سُحُب صغار تجتمع فتصيرُ ركاماً، وهو ما كَثُف من السّحاب. وركمت الشيء أركُمه، إذا جمعتَه وألقيتَ بعضه على بعض.

ومستثارهم: موضع ثورتهم.

والجنّتان: هما اللتان قال الله تعالى فيهما: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾(١). وسلّط الله عليهما السيّل، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾(٢). فشبّه عليه السلام سَيلان الجيوش إلى بني أميّة بالسيل المسلَّط على تَيْنِك الجنّتين.

فإنه لم تسلم عليه قارة، وهي الجبَيل الصغير ولم تَثْبُتْ له أكمة، وهي التَّلْعَة من الأرض.

ولم يردّ سَنَنه، أي طريقه. طَوْد مرصوص، أي جَبَل شديد التصاق الأجزاء بعضِها ببعض. ولا حِدَاب أرض. جمع حَدَبة وهي الرّوابي والنِّجاد.

ثم قال: «يذعذعهم الله، الذَّعذعة بالذال المعجمة مرتين: التّفريق، وذعذعة الشرّ: إذاعته.

ثم يسلكُهم ينابيع في الأرض، من ألفاظ القرآن، والمراد أنه كما أنّ الله تعالى ينزل من السماء ماء فيستكنّ في أعماق الأرض، ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها، كذلك هؤلاء القوم، يفرّقهم الله تعالَى في بطون الأودية وغوامض الأغوار، ثم يظهرُهم بعد الاختفاء فيأخذ بهم من قومٍ حقوقَ آخرين، ويمكّن منهم قوماً من ملك قوم وديارهم.

ثم أقسم ليذُوبَنَّ ما في أيدِي بني أميّة بعد علوّهم وتمكينهم، كما تذوب الألْيَة على النار، وهمزة «الألْيَة» مفتوحة، وجمعها ألَيات، بالتحريك، والتثنية ألْيَان بغير تاء، قال الراجز:

تــرتــجّ ألْــيــاهُ ارتــجــاجَ الْــوَطْــبِ

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٥.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٦.

وجمع الألية ألاء على «فَعال» وكبش آلَي على «أفعَل» ونعجة «ألياء» والجمع أُليٌ على «فُعْل»، ويقال أيضاً: كبش ألَيَان بالتحريك، وكباش ألَيَانات، ورجل ألْيَا، أي عظيم الألية، وامرأة عجزاء ولا تقل: «ألْياء» وقد قاله بعضهم. وقد أليَ الرجُل بالكسر يألَي: عَظُمتْ ألْيَتُه.

ثم قال: لولا تخاذلكم لم يطمع فيكم مَنْ هو دونكم.

وتِهنُوا، مضارع وَهَن، أي ضعف، وهو من ألفاظ القرآن أيضاً.

وتِهتُم مَتَاه بني إسرائيل: حِرْتم وضَللتم الطريق، وقد جاء في المسانيد الصّحيحة أنّ رسول الله ﷺ، قال: «لتَرْكَبُنّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم حذْوَ النّعل النعل، والقَذّة بالقَذّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه»، فقيل: يا رسولَ الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن إذاً»[1]! ومن الأخبار الصحيحة أيضاً: «أمتهوّكُون أنتم كما تهوّكَت اليهودُ والنّصارى!»[2].

وفي صحيحي البخاريّ ومسلم رحمهما الله أنه سيجاء يوم القيامة بأناسٍ من أمّتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فإذا رأيتُهم اختلجوا دوني، قلت: أي ربّ، أصحابي! فيقال لي: إنّك لا تدري ما عملوا بعدك؟ فأقول ما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[3]: الإسناد في هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه.

وفي الصحيحين أيضاً، عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ يوماً من نومه محمرًّا وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله. ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب!»، فقلت: يا رسول الله، أنهلِك، وفينا الصالحون! فقال: «نعم، إذا كثر الخبَث»[4].

وفي الصحيحين أيضاً: «يُهلك أمتي هذا الحيُّ من قريش»، قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «لو أنّ الناس اعتزلوهم»[5]، رواه أبو هريرة عنه ﷺ.

ثم قال عليه السلام: «لَيُضَعَّفَنّ لكم التّيه من بعد». يعني الضلال، يضعّفه لكم الشيطان وأنفسكم

---

(١) أخرج نحوه الحاكم المستدرك (٨٤٤٨)، والبخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن نبي إسرائيل (٣٤٥٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧).

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٦)، ومسلم كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن (٢٨٨٠)، والترمذي، كتاب: الفتن، باب: خروج يأجوج ومأجوج (٢١٨٧)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: ما يكون من الفتن (٣٩٥٣).

(٥) أخرجه البخاري في «المناقب» (٣٦٠٤)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٧)، وأحمد في «مسنده» (٧٩٤٥).

بما خَلّفتم الحق وراء ظهوركم، أي لأجل ترككم الحق. وقطعكم الأدنى - يعني نفسه. ووصلكم الأبعد، يعني معاوية. ويروي: «إن اتبعتم الراعي لكم»، بالراء.

والاعتساف: سلوك غير الطريق. والفادح: الثِّقَل، فدحَه الدين: أثقله.

١٦٨ - ومن خطبة له عليه السلام في أول خلافته

الأصل: إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ ٱلْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ ٱلْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَٱصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدوا.

ٱلْفَرَائِضَ ٱلْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى ٱللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ. إِنَّ ٱللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلاَلاً غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ المُسْلِمِ عَلَى ٱلْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالإِخْلاَصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ المُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا. فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَلاَ يَحِلُّ أَذَى ٱلْمُسْلِمِ إِلاَّ بِمَا يَجِبُ.

بَادِرُوا أَمْرَ ٱلْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ المَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ.

تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ: ٱتَّقُوا ٱللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ ٱلْبِقَاعِ وَٱلْبَهَائِمِ، وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَلاَ تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ ٱلْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح: واصدِفوا عن سَمْت الشر، أي أعرِضوا عن طريقه. تَقْصِدوا، أي تعدلوا، والقَصْد: العدل.

ثم أمَر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها، كالصّلاة والزّكاة، وانتصب ذلك على الإغراء.

ثم ذكر أنّ الحرام غير مجهول للمكلّف بل معلوم، والحلال غير مدخول، أي لا عيب ولا نقص فيه، وأنّ حرمة المسلم أفضلُ من جميع الحرُمات. وهذا لفظ الخبر النبويّ: «حُرْمة المسلم فوق كلّ حُرْمة، دمه وعرضه وماله».

قال عليه السلام: «وشد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين في معاقدها»؛ لأنّ الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

قال: «فالمسلم مَنْ سلِم الناس»، هذا لفظ الخبر النبويّ بعينه[١].

قوله: «ولا يحلّ أذى المسلم إلا بما يجب»، أي إلاّ بحقّ، وهو الكلام الأوّل، وإنما أعاده تأكيداً.

ثم أمر بمبادرة الموت، وسماه الواقعة العامة؛ لأنه يعمّ الحيوان كلّه، ثم سمّاه خاصّة أحدكم؛ لأنه وإن كان عاماً إلا أن له مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم.

قوله: «فإنّ الناس أمامكم»، أي قد سبقوكم. والساعة تسوقُكم من خَلْفكم.

ثم أمر بالتخفّف، وهو القَنَاعة من الدنيا باليسير، وترك الحرص عليها، فإنّ المسافر الخفيف أحرى بالنجاة ولحاق أصحابه وبلوغ المنزل، من الثقيل.

وقوله: «فإنما يُنتظر بأوّلكم آخرُكم»، أي إنما ينتظر ببعث الموتى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضاً، فيبعث الكلّ جميعاً في وقت واحد.

ثم ذكر أنّهم مسؤولون عن كلّ شيء حتى عن البقاع: لم استوطنتم هذه، وزهِدتم في هذه؟ ولم أخربتم هذه الدار وعمرتم هذه الدار؟ وحتى عن البهائم، لم ضربتُموها؟ لم أوجعتموها؟

وروي: «فإن البأس أمامكم» يعني الفتنة، والرواية الأولى أظهر. وقد وَرَدَ في الأخبار النبوية «لَيُنتصَفَنّ للجمّاء من القرناء»[٢]، وجاء في الخبر الصحيح: «إنّ الله تعالى عذّب إنساناً بهرّ، حبسه في بيت وأجاعه حتى هلك»[٣].

---

١٦٩ - ومن كلام له عليه السلام بعد ما بويع له بالخلافة، وقد قال له قوم من الصحابة: لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان! فقال عليه السلام

الأصل: يَا إِخْوَتَاه! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَٱلْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلاَ نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ،

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب: الإيمان، باب: صفة المؤمن (٤٩٩٥)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٧١٤).

(٢) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٣٢٣١)، وابن عدي في «الكامل» (٤٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: المساقاة، باب: فضل سقي الماء (٢٣٦٥)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢).

وَٱلْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلاَلَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤوا، وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!

إِنَّ هَذَا الأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا ٱلْأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وفرقة ترىٰ ما لا ترون وَفِرْقَةٌ لاَ تَرَى هَذَا وَلاَ هَذَا. فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ وَتَقَعَ ٱلْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الحُقُوقُ مُسْمَحَةً.

فَاهْدَؤوا عَنِّي وَٱنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلاَ تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّة، وَتُسْقِطُ مُنَّةً، وَتُورِثُ وَهَناً وَذِلَّةً. وَسأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا، فَآخِرُ الدَّوَاءِ ٱلْكَيُّ.

الشرح: اجلَب عليه، وأجلبه: أعان عليه، وأجلبه: أعانه. والألف في «يا إخوتاه» بدل من ياء الإضافة، والهاء للسكت.

وعلى حدّ شوكتهم. شدّتهم، أي لم تنكسر سورتُهم.

والعِبْدان جمع عَبْد، بالكسر: مثل جَحْش وجِحشان، وجاء عُبدان بالضم، مثل تَمْر وتُمران، وجاء عبيد، مثل كَلْب وكَلِيب، وهو جمع عزيز، وجاء أعْبد وعِباد وعبدّان، مشددة الدال، وعبَداء بالمد، وعبُدّي بالقصر، ومعبوداء بالمدّ، وعُبُد بالضم، مثل سقْف وسُقُفُ، وأنشدوا:

أنسُبِ العبدِ إلى آبائه   أسْود الجلدة من قوم عُبُدْ

ومنه قرأ بعضهم: ﴿وَعَبُدَ ٱلطَّٰغُوتِ﴾(1) وأضافه.

قوله: «والتفّتْ إليهم أعرابكم»: انضمّت واختلطتْ بهم.

وهم حلالكم، أي بينكم يسومونكم ما شاؤوا: يكلّفونكم، قال تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾(2).

وتؤخذ الحقوق مُسمَحة، مِنْ أسمح، أي ذلّ وانقاد.

فاهدؤوا عنّي، أي فاسكنوا. هَدَأ الرجل هدْءاً وهدوءاً، أيْ سكن، وأهدأه غيره.

وتضعضِع قوّة: تضْعِف وتهدّ: ضعضعتُ البناء: هددته. والمنّة: القوة. والوَهن: الضعف. وآخر الدواء الكيّ، مثل مشهور، ويقال: «آخر الطبّ» يغلِط فيه العامة فتقول: «آخر الداء»، والكيّ ليس من الداء ليكون آخره.

---

(1) سورة المائدة، الآية: ٦٠.
(2) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

موقف الإمام علي عليه السلام من قتلة عثمان

واعلم أنّ هذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام كان في نفسه عِقابُ الذين حَصَرُوا عثمان والاقتصاص ممّن قتلَه، إن كان بقيَ ممن باشر قتله أحد، ولهذا قال: إنّي لستُ أجهل ما تعلمون، فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك، واعتذر بعدم التمكن كما ينبغي، وصدق عليه السلام، فإنّ أكثر أهل المدينة أجْلبُوا عليه، وكان مِن أهل مِصْر ومن الكوفة عالَم عظيم حضروا من بلادهم، وطووا المسالك البعيدة لذلك، وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية، وكان الأمرُ أمرَ جاهليّة، كما قال عليه السلام، ولو حرّك ساكناً لاختلف الناس واضطربوا، فقومٌ يقولون: أصابَ، وقوم يقولون: أخطأ، وقوم لا يحكُمون بصواب ولا خطأ. بل يتوقفون، ولا يأمن - لو شرع في عقوبة الناس والقبضِ عليهم - مِنْ تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم، فكان الأصوبُ في التدبير، والذي يوجهه الشرع والعقل الإمساك إلى حين سكون الفتنة، وتفرّق تلك الشعوب وعَوْد كلّ قوم إلى بلادهم.

وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعَه معاوية وغيرُه، وأن يحضُرَ بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم، ويعيّنون قوماً بأعيانهم، بعضهم للقتل، وبعضهم للحصار، وبعضهم للتسوّر، كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضي، فحينئذٍ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى، فلم يقع الأمر بموجب ذلك، وعَصَى معاوية وأهلُ الشام، والتجأ ورثة عثمان إليه، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعيًا، وإنما طلبوه مغالبة، وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية، ولم يأتِ أحدٌ منهم الأمر من بابه، وقبل ذلك ما كان من أمرِ طلحة والزبير، ونقضِهما البيعة، ونهبهما أموالَ المسلمين بالبصرة وقتلهما الصالحين من أهلها، وجرت أمور كلُّها تمنع الإمام عن التصدّي للقصاص، واعتماد ما يجب اعتماده، لو كان الأمر وَقَع على القاعدة الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكون والحكومة، وقد قال هو عليه السلام لمعاوية: «فأمّا طلبُك قَتَلة عثمان، فادخل في الطاعة، وحاكم القوم إليّ، أحملك وإياهم على كتاب الله وسنّة رسوله».

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله: وهذا عَيْن الحقّ، ومحضُ الصواب؛ لأنه يجب دخول الناس في طاعة الإمام، ثم تقع المحاكمة إليه، فإن حَكَم بالحق استديمت إمامته، وإن حَكَم بالجوْر انتقضَ أمره، وتعين خلعهُ.

فإن قلت: فما معنى قوله: «وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدواء الكيّ».

قلت: ليس معناه: وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكنَ الصبر، فإذا لم أجد بداً عاقبتهم،

ولكنه كلام قاله أول مسير طلحة والزبير إلى البَصْرة، فإنه حينئذٍ أشارَ عليه قوم بمعاقبة المجلِبين، فاعتذر بما قد ذكر، ثم قال: «وسأمسك الأمر ما استمسك»، أي أمسك نفسي عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكنني، وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم، واجتهد في ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب، فإذا لم أجد بدًّا من الحرب، فآخر الدواء الكيّ، أي الحرب؛ لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها.

١٧٠ - ومن خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة

الأصل: إِنَّ ٱللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتابٍ نَاطِقٍ، وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لاَ يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هَالِكٌ. وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ، إِلاَّ مَا حَفِظَ ٱللهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطانِ ٱللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلاَ مُسْتَكْرَهٍ بِهَا.

وَٱللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ ٱللهُ عَنْكُمْ سُلْطانَ الإِسْلاَمِ، ثُمَّ لاَ يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً، حَتَّى يَأْرِزَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

إِنَّ هَؤُلاَءِ قَدْ تَمَالَؤُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ، ٱنْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ، فَأَرادُوا رَدَّ ٱلْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا، وَلَكُمْ عَلَيْنَا ٱلْعَمَلُ بِكِتَابِ ٱللهِ تَعَالَى وَسنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسلّم، وَٱلْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح: وأمر قائم، أي مستقيم ليس بذي عَوَج. لا يهلك عنه إلا هالك، تقديره: لا يهلك عادلاً عنه إلا هالك، وهذا كما تقول: لا يعلم هذا الفنّ إلا عالم، أي مَنْ قد بلغ الغاية في العلم واستحقّ أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه، كذلك لا يهلك بعدوله عنه إلا مَنْ هو أعظم الهالكين، ومن يشارُ إليه بالهلاك، وقد بلغ الغاية في الهلاك.

ثم قال: «إنّ المبتدعاتِ المشبّهاتِ هنّ المهلكات»، المبتدَعات: ما أحدِث ولم يكن على عهد الرسول. والمشبَّهات: التي تشبِه السنن وليست منها، أي المشبَّهات بالسنن. وروي: «المشبِّهات» بالكسر، أي المشبّهات على الناس، يقال: قد شبَّه عليه الأمر، أي ألبِس عليه، ويروي: «المشتَبهات» أي الملتبَسات، لا يُعرف حقُّها من باطلها.

قال: «إلاّ مَنْ حفظ الله»، أي مَن عصمه الله بألطاف يمتنع لأجلها عن الخطأ. ثم أمَرهم بلزوم

الطّاعة، واتباع السلطان، وقال: إنّ فيه عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتَكم غير مُلَوّمة، أي مخلصين ذوي طاعة محضة لا يلامُ باذلها، أي لا ينسَب إلى النفاق. ولا مستكره بها، أي ليست عن استكراه، بل يبذلونها اختياراً ومحبّة، ويروي: «غير ملويّة» أي معوجة، من لَوَيْتُ العود.

ثم أقسم إنّهم إن لم يفعلوا وإلا نقل الله عنهم سلطان الإسلام - يعني الخلافة - ثم لا يعيده إليهم أبداً، حتى يأرز الأمر إلى غيرهم، أي حتى ينقبض وينضمّ ويجتمع، وفي الحديث: «إنّ الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جُحْرها»(١).

فإن قلت: كيف قال: إنّه لا يعيده إليهم أبداً، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية؟

قلت: لأنّ الشَّرْط لم يقع، وهو عدم الطاعة، فإنّ أكثرهم أطاعوه طاعةً غير ملوّمة ولا مستكرَه بها، وإذا لم يتحقّق الشرط لم يتحقّق المشروط.

وقد أجاب قوم عن هذا، فقالوا: خاطب الشّيعة الطالبيَّة، فقال: إنْ لم تُعطوني الطاعة المحضةَ نقل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يأرِز وينضمّ إلى بيت آخر، وهكذا وقع، فإنها انضمّت إلى بيت آخر من بني هاشم.

وأجاب قوم آخرون، فقالوا: أراد بقوله: «أبداً» المبالغة، كما تقول: احبِسْ هذا الغريم أبداً، والمراد بالقوم الذين يأرِز الأمر إليهم بنو أمية، كأنه قال: إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتى يجعلَها في قوم آخرين، وهم أعداؤكم من أهل الشام وبني أمية، ولا يعيده إليكم إلى مدّة طويلة، وهكذا وقع.

وقد تمالؤوا: قد اجتمعوا. وتساعدوا على سَخْطة إمارتي: على كراهيتها وبغضها. ثم وعد بالصبر عليهم ما لم يُخَفْ من فرقة الجماعة، وانتشار حبل الإسلام.

وفَيالة الرأي: ضعفه، وكذلك فُيولته، ورجل فِيلُ الرأي: أي ضعيفه، قال:

بني ربِّ الجواد فلا تَفِيلوا ... فما أنتم فنعذِرَكم لفِيلِ

أي لستم على رجل ضعيف الرأي. والجمع أفيال، ويقال أيضاً: رجل فال، قال:

رأيتُك يا أُخَيْطِلُ إذ جَرَيْنا ... وجُرِّبتِ الفَراسةُ كُنْتَ فالا

قال: إن تمّوا على هذا الرأي الضعيف قَطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم.

ثم ذكر أن الحسد دعاهم إلى ذلك، وأفاءها عليه: ردّها عليه، فاء يفِيء: رجع. وفلان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة (١٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً (١٤٧)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: فضل المدينة (٣١١)، وأحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٧٧٨٧)، كلهم بلفظ: «إن الإيمان...».

سريع الفيء من غَضَبه، أي سريع الرجوع. وإنه لحسن الفِيئة بالكسر، مثال «الفِيعة» أي حسن الرجوع، وهذا الكلام لا يشعر بأنّه عليه السلام يعتقد أنّ الأمر له، وأنه غُلِب عليه ثم رجع إليه، ولكنه محمول على أنّه من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة الجزء من الكل، وأنهما من جوهر واحد، فلما كان الوالي قديماً وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم تخلّل بين ولايته صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولايات غريبة، سمّى ولايته فيئاً ورجوعاً؛ لأنها رجعت إلى الدَّوْحة الهاشميّة، وبهذا يجب أن يتأوّل قوله: «فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها» أي أرادوا انتزاع الخلافة من بني هاشم، كما انتزعت أولاً، وإقرارها في بيوت بعيدة عن هذا البيت، أسوة بما وقع من قبل.

والنَّعش: مصدر نعش، أي رفع، ولا يجوز: «أنعش».

١٧١ - ومن كلام له عليه السلام كلم به بعض العرب، وقد أرسله قوم من أهلِ البصرة، لما قرب عليه السلام منها، ليعلَمَ لهم منه حقيقة حالِهِ مع أصحاب الجملِ لتزُولَ الشبهة من نفوسهم، فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنَّهُ عَلَى الحقِّ، ثمَّ قال له: بايع، فقالَ: إني رسول قوم، ولا أُحدِثُ حدثاً حتى أرجع إليهم. فقال عليه السلام

الأصل: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ ٱلَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً، تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ ٱلْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ ٱلْكَلأَ وَالمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى المَعَاطِشِ وَالمَجَادِبِ ما كُنْتَ صَانِعاً؟

قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى ٱلْكَلأَ وَالماءِ.

فقال عليه السَّلاَمُ: فَامْدُدْ إذاً يَدَكَ.

فقالَ الرَّجل: فَوَالله مَا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عند قيام ٱلْحُجَّةِ عليّ فبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلاَم.

والرَّجل يُعْرَفُ بِكُلَيْبِ ٱلْجَرْمِيّ.

الشرح: الجرميّ: منسوب إلى بني جَرْم بن رَبّان بن حُلوان بن عمران بن الحافِ بن قُضاعة من حِمْير. وكان هذا الرجل بعثه قومٌ من أهل البصرة إليه عليه السلام، يستعلم حاله: أهو على حجّة أم على شبهة؟ فلما رآه عليه السلام، وسمع لفظه، علم صدقه وبرهانه، فكان بينهما ما قد شرحه عليه السلام.

ولا شيء ألطفُ ولا أوقعُ ولا أوضحُ من المثال الذي ضربه عليه السلام، وهو حجّة لازمة لا مدفع لها.

قوله: «ولا أحدِث حدثاً» أي لا أفعل ما لم يأمروني به، إنما أمرت باستعلام حالك فقط، فأمّا المبايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلاً ما لم أندَب له.

ومساقط الغيث: المواضع التي يسقط الغيث فيها. والكلأ: النبت إذا طال وأمكن أن يُرْعَى، وأول ما يظهر يسمى الرُّطَب، فإذا طال قليلاً فهو الخَلا، فإذا طال شيئاً آخر فهو الكلأ. فإذا يبس فهو الحشيش. والمعاطش والمجادب: مواضع العطش والجدْب، وهو المحْل.

١٧٢ - ومن كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين

الأصل: اَللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ المَرْفُوعِ، وَٱلْجَوِّ المَكْفُوفِ، ٱلَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرًى لِلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ، لاَ يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ.

وَرَبَّ هَذِهِ ٱلْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَٱلأَنْعَامِ، وَمَا لاَ يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَالاَ يُرَى.

وَرَبَّ ٱلْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا ٱلْبَغْيَ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَٱعْصِمْنَا مِنَ ٱلْفِتْنَةِ.

أَيْنَ المَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَٱلْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ ٱلْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ ٱلْحِفَاظِ!

الْعَارُ وَرَاءَكُمْ، وَٱلْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح: السقف المرفوع: السماء. والجوّ المكفوف: السماء أيضاً، كَفّه، أي جمعه وضمّ بعضه إلى بعض، ويمرّ في كلامه نحو هذا، وأنّ السماء هواء جامد أو ماء جامد.

وجعلتَ مغيضاً لليل والنهار، أي غَيْضة لهمَا، وهي في الأصل الأَجَمة يجتمع إليها الماء، فتسمّى غَيْضة ومغيضاً، وينبت فيها الشجر، كأنّه جعل الفلك كالغَيضة، والليل والنهار كالشجر النابت فيها.

ووجه المشاركة أنّ المغِيض أو الغيْضة يتولّد منهما الشجر، وكذلك اللّيل والنهار يتولّدان من جَرَيان الفلك. ثم عاد فقال: «ومجرًى للشمس والقمر»، أي موضعاً لجريانهما.

ومختلَفاً للنجوم السيّارة، أي موضعاً لاختلافها، واللام مفتوحة.

ثم قال: «جعلت سكانه سِبْطاً من ملائكتك» أي قبيلة، قال تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًاۚ﴾[1].

لا يسأمون: لا يملّون. وقراراً للأنام، أي موضع استقرارهم وسكونهم. ومدَرجاً للهوامّ، أي موضع دُروجهم وسيرهم وحَركاتهم، والهوامّ: الحشرات والمخوف من الأحناش.

وما لا يحصى، أي لا يضبط بالإحصاء والعدّ، مما نراه ونعرفه وما لا نراه ولا نعرفه.

وقال بعض العلماء: إن أردت أن تعرف حقيقة قوله: «مما يُرى وما لا يُرى» فأوقد ناراً صغيرة في فلاةٍ في ليلة صيفيّة، وانظر ما يجتمع عليها من الأنواع الغريبة العجيبة الخلْق، التي لم تشاهدها أنت ولا غيرك قطّ.

قوله: «وللخلقِ اعتماداً»؛ لأنهم يجعلونها كالمساكن لهم، فينتفعون بها ويبنون منازل إلى جانبها، فيقوم مقام جدار قد استغنوْا عن بنيانه؛ ولأنها أمّهات العيون ومنابع المياه باعتماد الخلْق على مرافقهم ومنافعهم ومصالحهم عليها.

قوله: «وسدِّدنا للحق»، أي صوبنا إليه، من قولك: «سهم سديد»، أي مصيب، وسدد السنان إلى القِرْن، أي صوّبه نحوه.

والذّمار: ما يحامى عنه. والغائر: ذو الغَيْرة. ونزول الحقائق: نزول الأمور الشديدة كالحرب ونحوها. ثم قال: «العار وراءكم»، أي إن رجعتم القهقرى هاربين.

والجنة أمامكم، أي إن أقدمتم على العدو مجاهدين. وهذا الكلام شريف جداً.

١٧٣ - ومن خطبة له عليه السلام في من رماه بالحرص

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي لاَ تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلاَ أَرْضٌ أَرْضاً.

الشرح: هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضُها فوق بعض، كما أن السمٰواتِ كذلك، ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾[2]، وهو قول كثير من المسلمين.

وقد تأوّل ذلك أرباب المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة، فقالوا: إنها سبعة أقاليم، فالمثلية هي من هذا الوجه، لا من تعدد الأرَضين في ذاتها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فيقال: إنها وإن كانت أرضاً واحدة، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة، وهي كُرِويّة الشكل، فَمن على حَدَبة الكرة لا يرى مَنْ تحته، ومن تحته لا يراه، ومَنْ على أحد جانبيها لا يرى مَنْ على الجانب الآخر، والله تعالى يدركُ ذلك كله أجمع، ولا يحجَب عنه شيء منها بشيء منها.

فأما قوله عليه السلام: «لا تواري عنه سماءٌ سماءً»، فلقائل أن يقول: ولا يتوارى شيء من السموات عن المدركين منا؛ لأنها شفافة، فأي خصيصة للباري تعالى في ذلك؟ فينبغي أن يقال هذا الكلام على قاعدةٍ غير القاعدة الفلسفية، بل هو على قاعدة الشريعة الإسلاميّة التي تقتضي أنّ السمٰوات تحجب ما وراءها عن المدرِكين بالحاسّة، وأنها ليست طباقاً متراصّة، بل بينها خلْق من خلق الله تعالى لا يعلمهم غيره. واتّباعُ هذا القول واعتقاده أولى.

الأصل: منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الأَمْرِ يابْنَ أَبي طالِبٍ لَحرِيصٌ، فَقُلتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَالله لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ، فَلَما قَرَّعْتُهُ بِالحُجَّةِ فِي المَلإِ الحَاضِرِينَ، هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لاَ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

اَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي، ثُمَّ قَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشرح: هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ما جَرى يوم الشورى بعد مقتَل عمر. والذي قال له: «إنك على هذا الأمر لحريص» سَعْد بن أبي وقاص، مع روايته فيه: «أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى»[1]، وهذا عجب، فقال لهم: بل أنتم والله أحرصُ وأبعد... الكلام المذكور. وقد رواه الناس كافة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٠)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة باب: فضل علي بن أبي طالب (١٢١)، وأحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص (١٥٥٠).

وقالت الإماميّة: هذا الكلام يوم السقيفة، والذي قال له: إنَّك على هذا الأمر لحريص، أبو عبيدة بن الجراح، والرواية الأولى أظهر وأشهر.

وروي: «فلما قَرَعته» بالتخفيف، أي صدمته بها.

وروي: «هبّ لا يدري ما يجيبني»، كما تقول: استيقظ وانتبه، كأنّه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجة فهبّ لمّا ذكرتُها.

استعديك: أطلب أن تُعْدِيَني عليهم وأنْ تنتصف لي منهم. قطعوا رحِمِي: لم يرعَوْا قربه من رسول الله ﷺ. وصغّروا عظيم منزلتي: لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه. وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، أي بالأفضلية أنا أحقّ به منهم، هكذا ينبغي أن يُتأوّل كلامه.

وكذلك قوله: «إنما أطلب حقًّا لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه».

قال: «ثم قالوا: ألاَ إنّ في الحقّ أن تأخُذَه، وفي الحقّ أن تتركه»، قال: لم يقتصروا على أخذِ حَقّي ساكتين عن الدَّعْوى، ولكنّهم أخذوه وادّعوْا أنّ الحقّ لهم. وأنه يجبُ عليّ أن أترك المنازعة فيه، فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقّي، فكانت المصيبة به أخفّ وأهون.

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحوٍ من هذا القول، نحو قوله: «ما زلتُ مظلوماً منذ قبضَ الله رسولَه حتى يوم النّاس هذا».

وقوله: «اللهمّ أخزِ قريشاً فإنها منعتْني حقّي وغصبتْني أمري».

وقوله: «فجزى قريشاً عنّي الجوازِي، فإنهم ظلموني حقّي، واغتصبوني سلطان ابن أمّي».

وقوله، وقد سمع صارخاً ينادي: أنا مظلوم، فقال: «هلمّ فلنصرُخ معاً، فإني ما زلتُ مظلوماً».

وقوله: «وإنه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى». وقوله: «أرى تراثي نهباً». وقوله: «أصغيا بإنائنا، وحَمَلا الناس على رقابنا». وقوله: «إنّ لنا حقاً إن نُعْطَه نأخذه، وإن نمنعَه نركب أعجاز الإبل، وإن طال السُّرَى». وقوله: «ما زلت مستَأثَراً عليّ، مدفوعاً عمّا أستحقه وأستوجبه».

وأصحابنا يحملون ذلك كلّه على ادّعائه الأمر بالأفضليّة والأحقيَّة، وهو الحقّ والصواب، فإنْ حمله على الاستحقاق بالنصّ تكفيرٌ أو تفسيق لوجوه المهاجرين والأنصار، ولكنّ الإماميَّة والزيديّة حملوا هذه الأقوال على ظواهرها، وارتكبوا بها مركباً صعباً. ولعمري إنَّ هذه الألفاظ مُوهِمةٌ مغلّبة على الظن ما يقوله القوم، ولكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظنّ، ويدرأ ذلك الوهم، فوجب أن يجريَ مجرى الآيات المتشابهات الموهمة ما لا يجوز على الباريء، فإنه لا نعمل بها، ولا نعوّل على ظواهرها؛ لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ، وأن تحمل على التأويلات المذكورة في الكتب.

وحدثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبلي المعروف بابن عالية، من ساكني قَطُفْتا بالجانب الغربيّ من بغداد، وأحد الشهود المعدّلين بها، قال: كنت حاضراً مجلس الفخر إسماعيل بن عليّ الحنبلّي الفقيه المعروف بغلام ابن المنى، وكان الفخر إسماعيل بن علي هذا، مقدّم الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف، ويشتغل بشيء في علم المنطق، وكانَ حُلْوَ العبارة، وقد رأيته أنا وحضرت عنده، وسمعت كلامه، وتوفي سنة عشر وستمائة.

قال ابن عالية: ونحن عنده نتحدّث، إذ دخل شخص من الحنابلة، قد كان له دَيْن على بعض أهل الكوفة، فانحدر إليه يطالبه به، واتفق أن حضرت زيارة يوم الغدير، والحنبليّ المذكور بالكوفة، وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جُمُوعٌ عظيمة، تتجاوز حدّ الإحصاء.

قال ابن عالية: فجعل الشيخ الفخر يسائل ذلك الشخص: ما فعلت؟ ما رأيت؟ هل وصل مالُكَ إليك؟ هل بقيَ لك منه بقية عند غريمك؟ وذلك يجاوبه، حتى قال له: يا سيّدي لو شاهدتَ يوم الزيارة يوم الغدير، وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جِهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة! فقال إسماعيل: أيّ ذنب لهم! والله ما جرّأهم على ذلك، ولا فَتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر. فقال ذلك الشخص: ومَنْ صاحب القبر؟ قال: عليّ بن أبي طالب! قال: يا سيدي، هو الذي سنّ لهم ذلك، وعلّمهم إياه وطرّقهم إليه! قال: نعم والله، قال: يا سيّدي فإن كان محقاً فما لنا أن نتولّى فلاناً وفلاناً! وإن كان مبطلاً فما لنا نتولاه! ينبغي أن نبرأ إمّا منه أو منهما.

قال ابن عالية: فقام إسماعيل مسرعاً، فلبس نعليْه، وقال: لعن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة، ودخل دار حرمه، وقمنا نحن وانصرفنا(١).

الأصل: منها في ذكر أصحاب الجمل: فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله كَما تُجَرُّ الأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى ٱلْبَصْرَةِ. فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَ حَبِيسَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله لَهُمَا وَلِغَيْرِهِما، فِي جَيْش مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إلاَّ وَقَدْ أَعْطاني الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طائِفَةً صَبْراً، وَطائِفَةً غَدْراً.

---

(١) أخرجه القمي في كتاب الأربعين: ١٩٢، وأخرجه إبراهيم بن محمد الثقفي في الغارات: ٢/ ٨٦٥.

فَوَٱللهِ إِنْ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحلَّ لِي قَتْلُ ذَٰلِكَ ٱلْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلاَ بِيَدٍ، دَعْ مَا إِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمين مِثْلَ ٱلْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح: حُرْمة رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عن الزَّوجة، وأصله الأهل والحُرَم، وكذلك حَبيس رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عنها.

وقتلوهم صبراً، أي بعد الأسر. وقوله: «فوالله إنْ لو لم يصيبوا» إن هاهنا زائدة، ويجوز أن تكون مخفّفة من الثقيلة.

ويُسأل عن قوله عليه السلام: «لو لم يصيبوا إلا رجلاً واحداً لحلّ لي قتل ذلك الجيش بأسره؛ لأنهم حضروه فلم ينكروا»، فيقال: أيجوز قتلُ من لم ينكِر المنكر مع تمكّنه من إنكاره؟

والجواب، أنّه يجوز قتلُهم؛ لأنّهم اعتقدوا ذلك القتل مباحاً، فإنهم إذا اعتقدوا إباحته، فقد اعتقدوا إباحة ما حرّم الله، فيكون حالُهم حالَ من اعتقد أنّ الزنى مباح، أو أنّ شربَ الخمر مباح.

وقال القطب الراوندي: يريد أنهم داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾(1).

ولقائل أن يقول: الإشكال إنما وقع في قوله: «لو لم يصيبوا من المسلمين إلاّ رجلاً واحداً لحلّ لي قتل ذلك الجيش بأسره»؛ لأنهم حضروا المنكر ولم يدفعوه بلسانٍ ولا يدٍ، فهو علّل استحلاله قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر، ولم يعلل ذلك بعموم الآية.

وأما معنى قوله: «دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدّة التي دخلوا بها عليهم»، فهو أنه لو كان المقتول واحداً لحل لي قتلهم كلهم، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدّةً مثل عدّتهم التي دخلوا بها البصرة! وما هاهنا زائدة.

وصدق عليه السلام، فإنهم قتلوا من أوليائه وخُزّان بيت المال بالبَصْرة خلْقاً كثيراً، بعضهم غدراً وبعضهم صبراً، كما خطب به عليه السلام.

خروج عائشة ومسيرها إلى القتال

وروى أبو مخنف، قال: حدثنا إسماعيل بن خالد، عن قيس بن أبي حازم. وروى الكلبيّ

(1) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

عن أبي صالح، عن ابن عباس. وروى جرين بن يزيد، عن عامر الشعبي، وروى محمد بن إسحاق، عن حبيب بن عمير، قالوا جميعاً: لم خرجت عائشة وطَلْحةُ والزبير من مكة إلى البصرة، طرقت ماء الحوأب - وهو ماء لبني عامر بن صعصعة - فَنَبَحَتهم الكلاب، فنفرت صِعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لَعَن الله الحوأب فما أكثر كلابها! فلما سمعت عائشة ذِكْرَ الحوأب، قالت: أهذا ماء الحوأب؟ قالوا: نعم، فقالت: ردُّوني ردُّوني. فسألوها ما شأنها؟ ما بدا لها؟ فقالت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بكلاب ماء يدعَى الحوأب، قد نبحتْ بعض نسائي»، ثم قال لي: «إياك يا حميراء أن تكونيها» فقال لها الزبير: مهلاً يرحمك الله، فإنا قد جُزْنَا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك مَنْ يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟ فلفَّق لها الزّبير وطلحة خمسين أعرابيًّا جعلاً لهم جُعلاً، فحلفوا لها، وشهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوأب، فكانت هذه أوّل شهادة زُور في الإسلام.

فسارت عائشة لوجهها[1].

قال أبو مخنِف: وحدثنا عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنّ رسول الله ﷺ قال يوماً لنسائه، وهُنّ عنده جميعاً: «ليت شعري أيتكُنّ صاحبة الجمل الأذبب، تنبحُها كلابُ الحوأب، يُقتَلُ عن يمينها وشمالها قَتْلَى كثيرة، كلّهم في النار وتَنْجُو بعد ما كادت؟»[2].

قلت: وأصحابنا المعتزلة رحمهم الله، يحملون قوله عليه السلام: «وتنجو» على نجاتها من النار، والإماميّة يحملون ذلك على نجاتها، من القَتْل، ومحملنا أرجَح؛ لأن لفظة «في النار» أقرب إليه من لفظة «القتلى»، والقرْب معتَبر في هذا الباب، ألا ترى أنّ نحاة البصريين أعملوا أقرَب العاملين، نظراً إلى القرب!

قال أبو مخنف: وحدّثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أن الزبير وطلحة أغذّا السير بعائشة، حتى انتهَوْا إلى حَفَر أبي موسى الأشعريّ، وهو قريب من البصرة، وكتبا إلى عثمان بن حنيف الأنصاريّ، وهو عامل عليّ عليه السلام عَلَى البصرة: أن أخلِ لنا دارَ الإمارة، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأحْنف بن قيس، فقال له: إنّ هؤلاء القوم قدِموا علينا ومعهم زوجة

(١) أخرجه محمد الريشهري في ميزان الحكمة: ٣/ ٢٣١٧٠.
(٢) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٤)، وابن أبي شيبة نحوه (٣٧٧٨٥)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٤٠٢٩).

رسول الله، والناس إليها سراع كما ترى، فقال الأحنف: إنهم جاؤوك بها للطّلب بدم عثمان، وهم الذين ألّبوا على عثمان الناس، وسفكوا دمه، وأراهم والله لا يزايلون حتى يُلقوا العداوة بيننا، ويسفكوا دماءنا، وأظنُّهم والله سيركبون منك خاصة ما لا قبلَ لك به، إنْ لم تتأهّب لهم بالنهوض إليهم فيمَن معك من أهل البصرة، فإنّك اليوم الوالي عليهم، وأنت فيهم مطاع، فسر إليهم بالنّاس، وبادرهم أن يكونوا معك في دار واحدة، فيكون الناس لهم أطوعَ منهم لك؟

فقال عثمان بن حَنيف: الرأي ما رأيت، لكنّني أكره الشرّ، وأن أبدأهم به، وأرجو العافية والسّلامة إلى أن يأتِيَني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به. ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبديّ من بني عمرو بن وديعة، فأقرأه كتاب طلحة والزبير، فقال له مثل قول الأحنف، وأجابه عثمان بمثلِ جوابه للأحنف، فقال له حكيم: فأذَنْ لي حتى أسير إليهم بالناس، فإن دخلوا في طاعة أمير المؤمنين، وإلاّ نابذتهم على سواء.

فقال عثمان: لو كان ذلك رأيي لسرتُ إليهم بنفسي، قال: حكيم: أما والله إن دخلوا عليك هذا المِصْر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم، وليزيلنّك عن مجلسك هذا، وأنت أعلم. فأبى عليه عثمان.

قال: وكتبَ عليّ إلى عثمان لمّا بلغه مشارفَةُ القوم البصرة. من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عثمان بن حَنيف، أما بعد: فإنّ البغاة عاهدوا الله ثم نكثُوا، وتوجّهوا إلى مصرك، وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضَى الله به. والله أشدّ بأساً، وأشدّ تنكيلاً، فإذا قدِموا عليك فادعُهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإنْ أجابوا فأحسِنْ جوارَهم ما داموا عندك، وإن أبوْا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف، فناجزْهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين، وكتبت كتابي هذا إليك من الرَّبَذة، وأنا معجّل المسير إليك إن شاء الله. وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين.

قال: فلما وصلَ كتابُ عليّ عليه السلام إلى عثمان، أرسل إلى أبي الأسود الدؤليّ وعمران بن الحصين الخُزاعيّ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلْم القوم، وما الذي أقدمهم! فانطلقا حتى إذا أتيا حَفَر أبي موسى، وبه معسكر القوم، فدخلا على عائشة، فنالاها ووَعظاها، وأذْكراها وناشداها الله، فقالت لهما: القيَا طلحة والزّبير. فقاما من عندها، ولقيا الزبير فكلماه، فقال لهما: إنا جئنا للطلب بدم عثمان، وندعو الناس إلى أن يردُّوا أمرَ الخلافة شورى، ليختار الناس لأنفسهم. فقالا له: إن عثمان لم يُقتَل بالبصرة ليطلَبَ دمه فيها، وأنت تعلم قتلة عثمان مَنْ هم، وأين هم! وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشدَّ الناس عليه، وأعظمهم إغراء بدمه،

فاقِيدوا من أنفسكم. وأما إعادة أمر الخلافة شورى، فكيف وقد بايعتم عليًّا طائعين غير مكرَهين! وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله ﷺ، وأنت آخذ قائمَ سيفك، تقول: ما أحدٌ أحقّ بالخلافة منه ولا أولى بها منه! وامتنعت من بيعة أبي بكر. فأين ذلك الفعل من هذا القول!

فقال لهما: اذهبا فالقيا طلحة، فقاما إلى طلحة فوجَداه أخشَن الملمس، شديد العريكة، قوي العزم في إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف، فأخبراه وقال له أبو الأسود:

يا بنَ حنيف قد أتيت فانفرْ ... وطاعِنِ القوم وجالد واصبِرْ
وابرز لها مستلئماً وشَمِّرْ

فقال ابن حَنيف: إي والحرمين لأفعلنّ. وأمر مناديَه فنادى في الناس: السلاح السلاح! فاجتمعوا إليه، وقال أبو الأسود:

أتينَا الزبير فداني الكلام ... وطلحة كالنّجم أو أبعدُ
وأحسنُ قوليهما فادحٌ ... يضيق به الخطب مستنكدُ
وقد أوعدونا بجهدِ الوعيد ... فأهونْ علينا بما أوعَدُوا
فقلنا ركضتم ولم تُرمِلُوا ... وأصدرتُمُ قبل أن توردُوا
فإن تلقِحوا الحرب بين الرجال ... فملقِحها حده الأنكدُ
وإن عليًّا لكم مصحِرٌ ... ألاَ إنه الأسد الأسودُ
أما إنه ثالث العابدين ... بمكة والله لا يعبَدُ
فرخُّوا الخناق ولا تعجَلُوا ... فإن غدا لكُمُ موعدُ

قال: وأقبل القوم، فلما انتهوا إلى المربِد، قام رجل من بني جُشمَ فقال: أيها الناس، أنا فلان الْجُشَميّ، وقد أتاكم هؤلاء القوم، فإن كانوا أتوْكم خائفين، لقد أتوكم من المكان الذي يأمن فيه الطير والوحش والسباع، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب دم عثمان، فغيرُنا وليّ قتله. فأطيعوني أيها الناس وردُّوهم من حيث أقبلوا، فإنكم إن لم تفعلوا لم تسلَموا من الحرب الضَّرُوس والفتنة الصماء التي لا تُبْقي ولا تَذر.

قال: فحصَبه ناس من أهل البصرة، فأمسك.

قال: واجتمع أهلُ البصرة إلى المربِد حتى ملؤوه مشاة وركباناً، فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكون ليخطُب، فسكتوا بعد جهد. فقال: أمّا بعد، فإن عثمان بن عفّان كان من أهل السابقة والفضيلة، ومن المهاجرين الأولين الذي رضي الله عنهم ورضُوا عنه ونزل القرآن ناطقاً بفضله، وأحد أئمة المسلمين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحِبَي رسول الله ﷺ، وقد

كان أحدث أحداثاً نقِمنا عليه، فأتيناه فاستعتبنَاه فأعتبَنا، فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمة أمرَها غصباً بغير رضاً منها ولا مشورة، فقتله، وساعده على ذلك قومٌ غير أتقياء ولا أبرار، فقتِل مجرِماً بريئاً تائباً. وقد جئناكم أيّها الناس نطلب بدم عثمان، وندعوكم إلى الطلب بدمه، فإنْ نحنُ أمكننا الله من قَتَلِته قتلناهم به، وجعلْنا هذا الأمر شورَى بين المسلمين، وكانت خلافة رحمةً للأمة جميعاً، فإنّ كلّ مَنْ أخذ الأمر من غير رضاً من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً، كان ملكُه ملكاً عَضُوضاً، وحدَثاً كثيراً. ثم قام الزّبير، فتكلّم بمثل كلام طلحة.

فقام إليهما ناس من أهل البصرة، فقالوا لهما: ألم تبايعا علياً فيمن بايعه؟ ففيم بايعتما ثم نكثتما! فقالا: ما بايْعنا، وما لأحد في أعناقنا بيْعة، وإنما استُكرِهنا على بيْعة. فقال ناس: قد صدقا وأحسنا القوِل، وقطعا بالثّواب. وقال ناس: ما صَدقا ولا أصابا في القول، حتى ارتفعت الأصوات.

قال: ثم أقبلت عائشة على جَمِلها، فنادت بصوت مرتفع: أيُّها الناس، أقلّوا الكلام واسكتوا، فأسكت الناس لها، فقالت:

إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل، ثم لم يزل يغسِل ذلك بالتوبة، حتى قتِل مظلوماً تائباً وإنما نَقَمُوا عليه ضربه بالسوط، وتأميره الشّبّان، وحمايته موضع الغمامة، فقتلوه محرِماً في حرمة الشهور وحرمة البلد، ذبحاً كما يذبح الجمل. ألا وإنّ قريشاً رمتْ غَرضَها بنبالها، وأدمْت أفواهها بأيديها، وما نالت بقتلها إياه شيئاً، ولا سلكتْ به سبيلاً قاصداً، أما والله لَيرَوُنّها بلايا عقيمة تُنبّه النائم، وتقيم الجالس، ولَيُسَلَّطَنَّ عليهم قوم لا يرحمونهم، ويسومونهم سوء العذاب.

أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحلّ به دمه! مُصْتُموه كما يماصُ الثّوب الرحيض، ثم عدوتُم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه، وبايعتم ابنَ أبي طالب بغير مشورة من الجماعة، ابتزازاً وغصباً. تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم! ألاَ إنّ عثمان قتِل مظلوماً فاطلبوا قَتَلَته، فإذا ظفرتُمْ بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورَى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولا يدخل فيهم مَنْ شَرَك في دم عثمان.

قال: فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول: وما هي وهذا الأمر، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها! وارتفعت الأصوات، وكثُر اللّغط حتى تضاربُوا بالنعال، وترامَوْا بالحصى.

ثم إنّ الناس تمايزوا فصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حَنِيف، وفريق مع عائشة وأصحابها.

قال: وحدّثنا الأشعث بن سوّار، عن محمد بن سيرين، عن أبي الخليل، قال: لما نزل طلحة والزّبير المرِيد، أتيتهما فوجدتهما مجتمعيْن، فقلت لهما: ناشدتكما الله وصحبة رسول الله ﷺ! ما الذي أقدمكما أرضنا هذه؟ فلم يتكلّما، فأعذت عليهما، فقالا: بلغنا أنّ بأرضكم هذه دنيا، فجئنا نطلبها.

قال: وقد روَى محمد بن سيرين، عن الأحنف بن قيس أنّه لقيهما، فقالا له مثل مقالتهما الأولى: إنما جئنا لطلب الدنيا.

وقد روى المدائنيّ أيضاً نحواً ممّا روي أبو مخنف، قال: بعثَ عليٌّ عليه السلام ابنَ عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب فقال له: إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لكم: أَل تبايِعني طائعاً غير مكرَه، فما الذي رابك منّي، فاستحللت به قتالي؟ قال: فلم يكن له جواب إلا أنه قال لي: إنّا مع الخوف الشديد لنطمع، لم يقل غير ذلك.

قال أبو إسحاق: فسألت محمد بن عليّ بن الحسين عليه السلام: ما تراه يعني بقوله هذا؟ فقال: أما والله ما تركت ابن عباس حتى سألتُه عن هذا، فقال: يقول: إنّا مع الخوف الشديد ممّا نحن عليه، نطمع أن نلي مثل الذي وليتم.

وقال محمد بن إسحاق: حدّثني جعفر بن محمد عليه السلام، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: بعثني عليّ عليه السلام يوم الجمل إلى طلحة والزبير، وبعث معي بمصحف منشور، وإن الريح لتصفِق ورقه، فقال لي: قل لهما: هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فما تريدان؟ فلم يكن لها جواب إلا أن قالا: نريد ما أراد، كأنهما يقولان: المُلْك.

فرجعتُ إلى عليّ فأخبرته.

وقد روى قاضي القضاة رحمه الله في كتاب «المغنى» عن وهب بن جرير، قال: قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير: إنّ لكما فضلاً وصحبة، فأخبراني عن مسيركما هذا وقتاً لكما، أشيءٌ أمركما به رسول الله ﷺ، أم رأيٌ رأيتماه؟ فأمّا طلحة فسكَت وجعل ينكُت في الأرض، وأما الزّبير، فقال: ويحك! حُدِّثْنا أنّ هاهنا دراهم كثيرة، فجئنا لنأخذ منها[1].

وجعل قاضي القضاة هذا الخبر حجّة في أنّ طلحة تاب، وأنّ الزبير لم يكن مصرًّا على الحرب. والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف، وإنّ صحّ هو وما قبله، إنّه لدليل

(١) انظر بحار الأنوار: ٣٢/ ١٤٢.

على حُمْقٍ شديد وضعف عظيم، ونقص ظاهر. وليت شعري ما الذي أحوجهما إلى هذا القول! وإذا كان هذا في أنفسهما، فهّلا كَتَماه!

ثم نعود إلى خبرهما: قال أبو مخنف: فلما أقبل طلحة والزبير من المربِد، يريدان عثمان بن حَنيف، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السّكك، فمضوا حتى انتهوْا إلى موضع الدّباغين، فاستقبلهم أصحاب ابن حَنيف فشَجَرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرّماح، فحمل عليهم حكِيم بن جبلة، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة، فأخِذوا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها مليًا حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مُسَنّاة البصرة، حتى انتهوا إلى الرابوقة، ثم أتوا سَبَخة دار الرزق، فنزلوها.

قال: وأتاهما عبد الله بن حكيم التميميّ لما نزلا السَّبَخة بكتب كانا كتباها إليه، فقال لطلحة: يا أبا محمد، أما هذا كتبك إلينا؟ قال: بلَى، قال: فكتبتَ أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله، حتى إذا قتلتَه، أتيتنا ثائراً بدمه! فلعَمري ما هذا رأيك، لا تريد إلاّ هذه الدنيا. مهلاً إذا كان هذا رأيك، فلمَ قبلتَ من عليّ ما عرض عليك من البيْعة، فبايعته طائعاً راضياً، ثم نكثتَ بيعتك، ثم جئت لتدخِلنا في فتنتك! فقال: إنّ علياً دعاني إلى بيعته بعد ما بايع الناس، فعلمتُ لو لم أقبلْ ما عرضه عليّ لم يتمّ لي، ثم يغري بي مَنْ معه.

قال: ثم أصبحنا من غدٍ فصفًا للحرب، وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه، فناشدَهما الله والإسلام، وأذكرهما بيعتهما عليًا عليه السلام، فقالا: نطلب بدم عثمان، فقال لهما: وما أنتما وذاك! أين بنوه؟ أين بنو عمّه الذين هم أحق به منكم! كلاّ والله، ولكنّكما حسدتماه، حيث اجتمع الناس عليه، وكنتما ترجُوَان هذا الأمر، وتعملان له! وهل كان أحدٌ أشدّ على عثمان قولاً منكما! فشتَماه شتماً قبيحاً، وذكرا أمّه، فقال للزبير: أما والله لولا صفيّة ومكانُها من رسول الله فإنها أدنتك إلى الظل، وأنّ الأمر بيني وبينك - يابن الصعبة - يعني طلحة - أعظم من القول، لأعلمتكما من أمركما ما يسوءكما. اللهم إني قد أعذرت إلى هذين الرجلين!

ثم حمل عليهم، واقتتل النّاس قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتبَ بينهم كتاب صلْح فكتب:

هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حَنيف الأنصاريّ ومَنْ معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وطلحة والزّبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما، أنّ لعثمانَ بن حنيف دار الإمارة والرّحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأنّ لطلحة والزُّبير ومَنْ معهما أن

ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة، ولا يضارّ بعضُهم بعضاً في طريق ولا فُرْضة ولا سوق ولا شِرْعة ولا مِرْفق، حتى يقدَم أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب، فإنْ أحبُّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة، وإن أحبوا لحق كلُّ قوم بهواهم وما أحبوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه، وأشدّ ما أخذه على نبيٍّ من أنبيائه، من عهد وذمة.

وختم الكتاب، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه: الحقوا رحمكم الله بأهلكم، وضعوا سلاحكم، وداووا جَرْحاكم. فمكثوا كذلك أياماً.

ثم إن طلحة والزبير قالا: إن قدِم عليّ ونحن على هذه الحال من القلّة والضعف، ليأخذن بأعناقنا، فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب، فأرسلا إلى وجوه الناس وأهل الرياسة والشرف، يدعُوَانهم إلى الطلب بدم عثمان، وخلع عليّ، وإخراج ابن حنيف من البصرة. فبايعهم على ذلك الأزدُ وضَبّة وقَيْس بن عَيْلان كلّها إلا الرجُل والرجلين من القبيلة، كرهوا أمرهم فتوارَوْا عنهم، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمي فلم يأتهم، فجاءه طلحة والزبير إلى داره، فتوارى عنهما، فقالت له أمه: ما رأيت مثلَك! أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما! فلم تزلْ به حتى ظهر لهما، وبايعهما ومعه بنو عمرو بن تميم كلّهم وبنو حَنْظَلة إلا بني يربُوع، فإن عامّتهم كانوا شيعة لعليّ عليه السلام، وبايعهم بنو دارم كلّهم إلا نفراً من بني مُجاشع ذوِي دين وفضل.

فلما استوسق لطلحة والزبير أمرُهما، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر، ومعهما أصحابهما، قد ألبسوهم الدروع، وظاهروا فوقها بالثياب، فانتهوْا إلى المسجد وقتَ صلاة الفجر، وقد سَبَقهم عثمان بن حَنيف إليه، وأقيمت الصلاة، فتقدّم عثمان ليصلّيَ بهم، فأخّره أصحابُ طلحة والزبير، وقدموا الزبير فجاءت السبابجة - وهم الشُّرَط حرس بيت المال - فأخرجوا الزبير، وقدّموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزبير، فقدّموا الزبير وأخّروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلعُ، وصاح بهم أهلُ المسجد: ألا تتّقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس! فغلب الزّبير فصلى بالنّاس، فلما انصرف من صلاتِه، صاح بأصحابه المستسلِحين: أنْ خُذوا عثمان بن حُنَيف، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومرْوان بن الحكَم بسيفيهما، فلما أسر ضُرِب ضرب الموت، ونتِف حاجباه وأشفاز عينيه، وكلّ شعرة في رأسه ووجهه، وأخذوا السبابجةَ وهم سبعون رجلاً، فانطلقوا بهم وبعثمان بن حُنيف إلى عائشة، فقالت لأبان بن عثمان: اخرج إليه فاضرب عنقه، فإنّ الأنصار قتلتْ إياك، وأعانت على قتله. فنادى عثمان: يا عائشة، ويا طلحة، ويا زُبير، إن أخي سهل بن حُنيف خليفةُ عليّ بن أبي طالب على المدينة، وأقسم بالله إنْ قتلتُموني ليضعَنّ السيفَ في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم، فلا يُبقِي أحداً منكم. فكفُّوا عنه، وخافوا أن يقع سهل بن حُنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة، فتركوه.

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتلُ السُّبابجة، فإنّه قد بلغني الذي صنعوا بك.

قال: فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم، وليَ ذلك منهم عبدُ الله ابنه، وهم سبعون رجلاً، وبقيَتْ منهم طائفة مستمسكين ببيت المال. قالوا: لا ندفُعه إليكم حتى يقدَم أمير المؤمنين، فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً، فأوقع بهم، وأخذ منهم خمسين أسيراً، فقتلهم صَبْراً.

قال أبو مخنف: فحدّثنا الصقعب بن زهير، قال: كانت السبابجة القتلى يومئذٍ أربعمائة رجل، قال: فكان غَدْر طلحة والزبير بعثمانَ بن حُنيف أوّلَ غدر كان في الإسلام، وكان السبابجة أوّلَ قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صَبْراً. قال: وخيَّروا عثمانَ بن حُنَيف بيْن أن يقيم أو يلحق بعليّ، فاختار الرّحيل، فخلّوْا سبيلَه، فلحِق بعليّ عليه السلام، فلما رآه بكى، وقال له: فارقتك شيخاً، وجئتك أمرد، فقال عليّ: إنّا لله وإنا إليه راجعون! قالها ثلاثاً.

قلت: السبابجة لفظة معرّبة، قد ذكرها الجوهريّ في كتاب «الصّحاح» قال: هم قوم من السِّند، كانوا بالبصرة جَلاَوزة وحرّاس السجن، والهاء للعُجْمة والنسب، قال يزيدُ بن مفرِّغ الحِمَيريّ:

وَطَمَاطِيمَ من سَبَابيجَ خُزْرٍ يُلبِسُوني مع الصبَاح القُيودَا

قال: فلما بلغ حَكِيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حُنيف، خرج في ثلاثمائة من عَبْد القيس مخالفاً لهم ومنابذاً، فخرجوا إليه، وحملوا عائشة على جَمَلٍ، فسمّى ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر، ويوم عليّ يوم الجمل الأكبر.

وتجالدَ الفريقان بالسُّيوف، فشدّ رجل من الأزْد من عسكر عائشة عَلَى حَكِيم بن جبلة، فضرب رجله فقطعها، ووقع الأزديّ عن فرسه، فجثا حَكِيم، فأخذ رجله فرمى بها الأزديّ، فصرعه، ثم دبّ إليه فقتله متكئاً عليه، خانقاً له حتى زهقت نفسه، فمر بحَكِيم إنسانٌ وهو يجود بنفسه، فقال: مَنْ فعل بك؟ قال: وسادي، فنظر فإذا الأزديّ تحته، وكان حَكِيم شجاعاً مذكوراً.

قال: وقتل مع حَكِيم إخوَة له ثلاثة، وقتل أصحابه كلُّهم، وهم ثلاثمائة من عَبْدِ القيس، والقليل منهم مِنْ بكر بن وائل، فلما صفت البَصْرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرد ابن حُنَيف عنهما اختلفا في الصلاة، وأراد كلٌّ منهما أن يؤمّ بالناس، وخاف أن تكون صلاته خَلْفَ صاحبه تسليماً له ورضا بتقدّمه، فأصلحت بينهما عائشة، بأنْ جعلت عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصلّيان بالناس، هذا يوماً وهذا يوماً.

قال أبو مِخْنف: ثم دخلا بيت المال بالبصرة، فلما رأوْا ما فيه من الأموال، قال الزُّبير: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾[1]، فنحن أحق بها من أهل البصرة،

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٠.

فأخذا ذلك المال كلّه، فلما غلب عليٌّ عليه السلام ردّ تلك الأموال إلى بيت المال، وقَسَمها في المسلمين.

وقد ذكرنا فيما تقدّم كيفيّة الوقعة، ومقتل الزبير فارًّا عن الحرب خوفاً أو توبة - ونحن نقول: إنها توبة - وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أمّ المؤمنين وإحسان عليّ عليه السلام إليها وإلى مَنْ أسِر في الحرب، أو ظفر به بعدها.

منافرة بين ولدي علي عليه السلام وطلحة

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن عبيد الله التيمي - يلقّب أبا بعرة، وليَ شُرْطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس - كلّم إسماعيل بن جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام بكلام خرجا فيه إلى المنافرة، فقال القاسم بن محمد: لم يزلْ فضلُنا وإحساننا سابغاً عليكم يا بني هاشم وعلى بني عبد مناف كافّة، فقال إسماعيل: أيّ فضل وإحسانٍ أسْدَيْتُموه إلى بني عبد مناف؟ أغْضَب أبوك جدّي بقوله: ليموتَنّ محمد ولنجولَنّ بين خلاخيل نسائهِ كما جال بين خلاخيل نسائنا. فأنزل الله تعالى مُراغمة لأبيك: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾(١) ومنع ابنُ عمّك أمي حقها من فَدَك وغيرها من ميراث أبيها، وأجلَبَ أبوك على عثمان وحصره حتى قُتِل، ونكث بيعة عليّ وشام السيفَ في وجهه، وأفسد قلوب المسلمين عليه، فإنْ كان لبني عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم إليهم إحساناً، فعرّفني مَنْ هم جعلتُ فداك!

منافرة بين ابن الزبير وابن عباس

وتزوّج عبد الله بن الزبير أمّ عمرو ابنة منظور بن زبّان الفزاريّة، فلمّا دخل بها قال لها تلك الليلة: أتدرين مَنْ معك في حَجَلتك؟ قالت: نعم، عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى.

قال: ليس غير هذا! قالت: فما الذي تريد؟ قال: معكِ مَنْ أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسَد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس. قالت: أما والله لو أنّ بعض بني عبد مناف حَضَرك لقال لك خلافَ قولك. فغضب، وقال: الطعام والشراب عليّ حرام حتى أحضرك الهاشميّين وغيرهم من بني عبد مناف، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً. قالت: إن أطعتَني لم تفعل، وأنت أعلم وشأنك.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

فخرج إلى المسجد فرأى حَلقةً فيها قوم من قريش، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال لهم ابنُ الزُّبير: أحِبّ أن تنطلقوا معي إلى منزلي، فقام القوم بأجمعهم حتى وَقَفُوا على باب بيته، فقال ابنُ الزبير: يا هذه اطْرَحِي عليك سترَكِ، فلما أخذوا مجالَسهم دعا بالمائدة، فتغدّى القوم، فلما فرغوا قال لهم: إنما جمعتُكم لحديث ردّته عليّ صاحبة السّتر، وزعمتْ أنّه لو كان بعض بني عبد مناف حضرني لما أقرّ لي بما قلت، وقد حضرتم جميعاً. وأنت يا بنَ عباس، ما تقول؟ إني أخبرتُها أنّ معها في خِدْرها مَنْ أصبَح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، بل بمنزلة العينين من الرأس! فردَّتْ عليّ مقالتي، فقال ابن عباس: أراكَ قصدْتَ قصدي، فإن شئت أن أقولَ قلت، وإن شئتَ أن أكفّ كففت، قال: بل قل، وما عسى أن تقول! ألستَ تعلم أنّي ابنُ الزبير حواريّ رسول الله ﷺ، وأنّ أمّي أسماءُ بنت أبي بكر الصديق ذات النِّطاقين، وأنّ عمتي خديجة سيدة نساء العالمين، وأن صفيّة عمّة رسول الله ﷺ جدّتي، وأنّ عائشة أمّ المؤمنين خالتي! فهل تستطيع لهذا إنكاراً!

قال ابن عباس: لقد ذكرت شَرَفاً شريفاً، وفخراً فاخراً، غير أنّك تُفاخر مَنْ بفخره فخرتُ، وبفضله سموتُ. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله ﷺ، وأنا أولى بالفخر به منك. قال ابن الزبير: لو شئت لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوّة، قال ابن عباس:

قـد أنـصـفَ الـقَـارة مَـنْ رامـاهـا

نشدتكم الله أيُّها الحاضرون! أعبد المطّلب أشرف أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطّلب، قال: أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا: بل هاشم، قال: أفعبد مناف أشرف أم عبد العزَّى؟ قالوا: عبد مناف، فقال ابن عباس:

تـنـافـرنـي يـابـنَ الـزُّبـيـر وَقَـدْ قَـضَـى ... عـلـيـك رسـولُ الله لا قـول هـازلِ
ولـو غـيـرُنـا يـابـنَ الـزبـيـر فـخـرتَـه ... ولـكـنّـمـا سـامـيـتَ شـمـسَ الأصـائـل

قضى لنا رسول الله ﷺ بالفضل في قوله: «ما افترقت فرقتان إلا كنتُ في خيرهما»[1]، فقد فارقناك من بعد قصيّ بن كلاب، أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ إن قلت: نعم خُصِمْت، وإن قلت: لا كفرت!

فضحك بعض القوم، فقال ابن الزبير: أما والله لولا تحرّمك بطعامنا يابنَ عباس لأعرقت جبينك قبل أن تقومَ من مجلسك، قال ابن عباس: ولم؟ أبباطل فالباطل لا يغلب الحق، أم بحق؟ فالحقّ لا يخشى من الباطل!

---

(١) ذكره السمعاني في الأنساب: ١/ ٤٤ رقم ٥٩، والبغدادي في كتاب المنمق: ١٩.

فقالت المرأة من وراء السِّتر: إني والله لقد نهيتُه عن هذا المجلس، فأبى إلاّ ما ترون. فقال ابن عباس: مَهْ أيتها المرأة! اقنعي ببعلِك، فما أعظم الخطر، وما أكرم الخبر! فأخذ القوم بيد ابن عباس - وكان قد عَمِيَ - فقالوا: انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرَّة، فنهض وقال:

ألاَ يـاقَـوْمَـنَـا ارتـحـلُـوا وسـيـروا ... فـلـو تُـرِك الْـقَـطَـا لَـغَـفَـا ونَـامَـا

فقال ابن الزبير: يا صاحبَ القطا، أقبِلْ عليّ، فما كنتَ لتدَعني حتى أقول، وايمُ الله لقد عرف الأقوام أني سابقٌ غير مسبوق، وابن حواريّ وصدّيق، متبجّح في الشرف الأنيق، خيرٌ من طليق.

فقال ابن عباس: دَسَعتَ بجرّتك فلم تبق شيئاً؟ هذا الكلام مردود، من امرىءٍ حسود، فإنْ كنتَ سابقاً فإلى مَنْ سَبَقْت؟ وإن كنت فاخراً فبمَن فخرت؟ فإن كنتَ أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا، فالفخر لك علينا، وإن كنتَ إنّما أدركتَه بأسرتنا فالفخر لنا عليك، والكَثْكَث في فمك ويديك. وأمّا ما ذكرت من الطّليق، فوالله لقد ابتُلِيَ فصبر، وأنعم عليه فشكر، وإن كان والله لوفيًّا كريماً غير ناقض بيعةً بعد توكيدها، ولا مسلِم كتيبةً بعد التأمّر عليها.

فقال ابن الزبير: أتعيّر الزبير بالجبن، والله إنك لتعلّم منه خلاف ذلك!

قال ابن عباس: والله إني لا أعلم إلاّ أنّه فرّ وما كرّ، وحارب فما صبر، وبايع فما تمم، وقطع الرحم، وأنكر الفضل، ورام ما ليس له بأهل.

وَأَدْرَك مِـنْـهَـا بـعـضَ مـا كـان يـرتـجـى ... وقـصّـر عـن جَـرْيِ الـكـرام وبـلّـدَا

ومـا كـان إلا كـالـهـجـيـن أمـامـه ... عَـنَـاقٌ فـجـاراه الـعَـنَـاقُ فـأجـهـدا

فقال ابن الزبير: لم يبق يا بني هاشم غير المشاتمة والمضاربة.

فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث: أقمناه عنك يابن الزبير، وتأبى إلا منازعته! والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنتَ إلاّ كالسغِب الظمآن، يفتح فاه يستزيد من الريح، فلا يشبع من سَغَب، ولا يروى من عطش، فقل إن شئت، أو فدع. وانصرف القوم[1].

١٧٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الرسول ومن أجدر بالخلافة بعده

الأصل: أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاس بِهَذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ ٱللهِ فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ ٱسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبى قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَها عامَّةُ النَّاسِ، مَا إِلَى ذَلِكَ

(١) أخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ١/ ١١٦.

سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أهلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلاَ وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذي عَلَيْهِ.

الشرح: صَدْر الكلام في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتلوه فُصول:

أولها: أنّ أحقّ الناس بالإمامة أقواهم عليها، وأعلمهم بحكم الله فيها، وهذا لا ينافي مذهبَ أصحابِنا البغداديين في صحّة إمامة المفضول؛ لأنّه ما قال: إن إمامة غير الأقوى فاسدة، ولكنه قال: إنّ الأقوى أحقّ، وأصحابنا لا ينكرون أنّه عليه السلام أحقُّ ممن تقدّمه بالإمامة مع قولهم بصحّة إمامة المتقدمين؛ لأنه لا منافاة بين كونه أحقّ، وبين صحة إمامة غيره.

فإن قلت: أيّ فرق بين أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه؟ قلت: أقواهم أحسنُهم سياسة، وأعلمهم بأمر الله أكثرُهم علماً وإجراءً للتدبير بمقتضى العلم، وبين الأمرين فرق واضح، فقد يكون سائساً حاذقاً، ولا يكون عالماً بالفقه، وقد يكون سائساً فقيهاً، ولا يجري التدبير على مقتضى علمه وفقهه.

وثانيها: أنّ الإمامة لا يشترط في صحة انعقادها أن يحضرُها الناسُ كافّة؛ لأنه لو كان ذلك مشتَرطاً لأدّى إلى ألاّ تنعقد إمامة أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض، ولكنّها تنعقد بعقد العلماء وأهل الحلّ والعقد الحاضرين، ثم لا يجوز بعد عقدها لحاضريها أن يرجعُوا من غير سبب يقتَضِي رجوعَهم، ولا يجوز لمن غاب عنها أن يختار غير مَنْ عقد له، بل يكون محجوجاً بعقد الحاضرين، مكلّفاً طاعة الإمامة المعقود له، وعلى هذا جرت الحال في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وانعقد إجماع المسلمين عليه، وهذا الكلام تصريح بصحّة مذهب أصحابنا في أنّ الاختيار طريق إلى الإمامة، ومبطلٌ لما تقوله الإماميّة من دعوى النصّ عليه، ومن قولهم: لا طريق إلى الإمامة سوى النصّ أو المعجز.

وثالثها: أنّ الخارج على الإمام يستعتَب أولاً بالكلام والمراسلة، فإن أبى قُوتل، وهذا هو نصّ الكتاب العزيز: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾(1).

ورابعها: أنه يقاتِل أحدَ رجلين: إمّا رجلاً ادَّعى ما ليس له نحو أن يخرُج على الإمام مَنْ يدّعي الخلافة لنفسه، وإمّا رجلاً منع ما عليه، نحو أن يخرج على الإمام رجلٌ لا يدّعي الخلافة ولكنه يمتنع من الطاعة فقط.

---

(1) سورة الحجرات، الآية: ٩.

فإن قلت: الخارج عَلَى الإمام مدّعٍ الخلافة لنفسه، مانع ما عليه أيضاً لأنه قد امتنع من الطاعة، فقد دخل أحدُ القسمين في الآخر!

قلت: لمّا كان مدّعي الخلافة قد اجتمع له أمران: إيجابيّ وسلبيّ، فالإيجابي دعواه الخلافة، والسلبيّ امتناعُه من الطاعة، كان متميّزاً ممن لم يحصل له إلاّ القسم السلبيّ فقط، وهو مانع الطاعة لا غير، فكان الأحسن في فنّ علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب، فلذلك قال: «إمّا مدعياً ما ليس له، أو مانعاً ما هو عليه».

الأصل: أُوصِيكُمْ - عِبَادَ ٱللهِ - بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى ٱلْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الأمُورِ عِنْدَ ٱللهِ، وَقَدْ فُتِحَ بَابُ ٱلْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ، وَلاَ يَحْمِلُ هَذَا ٱلْعِلْمَ إِلاَّ أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ ٱلْحَقِّ، فَامْضُوا لما تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَمَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَلاَ تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً.

أَلاَ وَإِنَّ هَذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا، وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلاَ مَنْزِلِكُمُ ٱلَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ، وَلاَ ٱلَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ.

أَلاَ وَإِنهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ، وَلاَ تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ ٱلَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَٱنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا، وَلاَ يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ ٱلأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَٱسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ ٱللهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ.

أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ.

أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى ٱلْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

الشرح: لم يكن المسلمون قَبْلَ حربِ الجمل يعرفون كيفيّة قتالِ أهل القبلة، وإنما تعلّموا فقه ذلك من أمير المؤمنين عليه السلام.

وقال الشافعي: لولا عليّ لما عرِف شيء من أحكام أهل البغي.

قوله عليه السلام: «ولا يحمل هذا العلمَ إلا أهلُ البصر والصبر»، وذلك لأنّ المسلمين عَظُم عندهم حربُ أهل القبلة، وأكبروه، ومَنْ أقدم عندهم عليه أقدَم على خوف وحذر، وفقال عليه السلام: إن هذا العلم ليس يدركه كلّ أحدٍ، وإنّما له قوم مخصوصون.

ثم أمرهم بالمضيّ عندما يأمرهم به، وبالانتهاء عمّا ينهاهم عنه، ونهاهم عن أن يعجَلوا بالحكْم على أمر ملتبس حتى يتبيّن ويتّضح.

ثم قال: إنّ عندنا تغييراً لكلّ ما تنكرونه من الأمور التي يثبت أنه يجب إنكارها وتغييرها، أي لستُ كعثمان أصرّ على ارتكاب ما أنهى عنه، بل أغيّر كلّ ما ينكره المسلمون، ويقتضي الحال والشرع تغييرَه. ثم ذكر أنّ الدنيا التي تغضب الناس وترضيهم، وهي منتهى أمانيهم ورغبتهم، ليست دارهم، وإنما هي طريقٌ إلى الدار الآخرة، ومدّة اللبْث في ذلك الطريق يسيرة جداً.

وقال: إنها وإنْ كانت غرّارة فإنها منذرة ومحذّرة لأبنائها بما رأوه من آثارها في سلفَهم وإخوتهم وأحبائهم، ومناداتها على نفسها بأنها فاعلة بهم ما فعلت بأولئك من الفناء، وفراق المألوف.

قال: فدعوا غرورَها لتحذيرها، وذلك لأنّ جانب تحذيرها أوْلى بأن يعمل عليه من جانب غرورها؛ لأن غرورها إنما هو بأمرٍ سريع مع التصرّم والانقضاء، وتحذيرها إنما هو لأمر جليل عظيم، فإن الفناء المعجّل محسوس، وقد دلّ العقل والشرائع كافّة على أنّ بعد ذلك الفناء سعادة وشقاوة، فينبغي للعاقل أن يحذَر من تلك الشقاوة، ويرغب في تلك السعادة، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا برفض غُرور الدنيا، على أنه لو لم يكن ذلك لكان الواجب على أهل اللبّ والبصيرة رفضُها؛ لأن الموجود منها خيال، فإنه أشبه شيء بأحلام المنام، فالتمسك به والإخلاد إليه حُمْق.

والخنين: صوت يخرجُ من الإنف عند البكاء، وأضافه إلى الأمَة؛ لأنّ الإماء كثيراً ما يُضرَبْن فيكين، ويسمَع الخنين منهنّ؛ ولأن الحرّة تأنف من البكاء والخنين. وزوى: قبض.

ثم ذكر أنّه لا يضرّ المكلّف فوات قسط من الدنيا إذا حفظ قائمة دينه، يعني القيام بالواجبات والانتهاء عن المحظورات، ولا ينفعه حصولُ الدنيا كلّها بعد تضييعه دينه؛ لأن ابتياع لذّة متناهية بلذة غير متناهية يُخرج اللذة المتناهية من باب كونها نفعاً، ويدخلها في باب المضارّ، فكيف إذا انضاف إلى عدم اللذة غير المتناهية حصول مضارّ وعقوبات غير متناهية، أعاذنا الله منها!

تم الجزء التاسع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء العاشر

شرح نهج البلاغة

الجزء العاشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

١٧٥ - ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة بن عبيد الله

الأصل: قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ، وَأَنَا عَلَى مَا وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ، وَٱللهِ مَا ٱسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ ٱلْأَمْرُ، وَيَقَعَ الشَّكُّ.

وَوَٱللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ: لَئِنْ كَانَ ٱبْنُ عَفَّانَ ظَالِماً - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ ٱلْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ، وَيَرْكُدَ جَانِباً وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ. فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلاَثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح: كان ها هنا تامّة، والوا واو الحال، أي خُلِقت ووجدتُ وأنا بهذه الصفة، كما تقول: خلقني الله وأنا شجاع.

ويجوز أن تكون الواو زائدة، وتكون «كان» ناقصة، وخبرها «ما أهدّد»، كما في المثل: «لقد كنت وما أُخَشَّى بالذئب»[١].

فإن قلت: إذا كانت ناقصة، لزم أن تكون الآن بخلاف ما مضى، فيكون الآن يهدَّد ويُرَهَّب.

قلت: لا يلزم ذلك، لأنّ «كان» الناقصة للماضي من حيث هو ماضٍ، وليس يشترط في ذلك أن يكون منقطعاً، بل قد يكون دائماً، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٢].

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٩٢) برقم (٣٢٥٧).
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧.

ثم ذكَر عَلَيْتَلِا أنه على ما وعده ربُّه من النصر، وأنّه واثق بالظَّفَر والغَلبة الآن، كما كانت عادتُه فيما سبق.

ثم شرح حال طلحة، وقال: إنّه تجرّد للطّلب بدم عثمان، مغالطةً للنّاس، وإيهاماً لهم أنّه بريء من دمه، فيلتبِسُ الأمرُ، ويقع الشكّ.

وقد كان طلحةُ أجهَد نفسَه في أمرِ عثمان والإجلاب عليه، والحضرِ له، والإغراء به، ومنَّتْهُ نفسه الخلافة، بل تلبّس بها، وتسلّم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها، وقاتل النّاس، وأحدقوا به، ولم يبقَ إلا أن يَصْفِق بالخلافة على يده.

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في كتاب «التاريخ»(١) قال:

حدّثني عمر بن شبّة، عن عليّ بن محمد، عن عبد ربّه، عن نافع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حَكِيم بن جابر، قال: قال عليّ عَلَيْتَلِا لطلحة وعثمان محصور: أنشُدك الله إلاّ رددتَ الناس عن عثمان! قال: لا والله حتى تُعطِي بنو أميّة الحقَّ من أنفسها.

وروى الطبري أن عثمان كان له عَلَى طلحة خمسون ألفاً، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيّأ مالك فاقبِضْه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك.

قال: فكان عثمان يقولُ وهو محصور: جزاء سِنِمّار.

وروى الطبريّ أيضاً أنّ طلْحة باع أرضاً له من عثمان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فقال طلحة: إنّ رجلاً يبيت وهذه عنده وفي بيته، لا يدري ما يطرُقه من أمر الله لغريرٌ بالله؟ فبات ورسله تختلف بها في سِكَكِ المدينة يقسِمُها حتّى أصبح وما عنده منها درهمٍ واحد.

قال الطبريّ: روى ذلك الحسن البصريّ، وكان إذا روَى ذلك يقول: ثم جاء إلينا يطلب الدينار والدرهم - أو قال: والصفراء والبيضاء.

وروى الطّبريّ أيضاً، قال: قال ابنُ عباس رحمه الله: لما حَججْت بالنّاس نيابة عن عثمان وهو محصور، مررت بعائشة بالصُّلْصُل، فقالت: يابنَ عباس، أنشُدك الله فإنّك قد أُعطِيتَ لساناً وعقلاً، أن تُخَذِّل الناسَ عن طلحة، فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان وأنهجَت، ورفعت لهم المنار، وتحَلّبوا من البلدان لأمر قد حُمّ، وإن طلحة - فيما بلغني - قد اتّخذ رجالاً على بيوت الأموال، وأخذ مفاتيحَ الخزائن وأظنُّه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمّه أبي بكر، فقال: يا أمّه، لو حدَث بالرَّجل حدثٌ ما فزع الناس إلاّ إلَى صاحبنا، فقالت: إيهاً عنك يابن عباس، إني لستُ أريد مكابَرتك ولا مجادَلتك.

(١) تاريخ الطبري أو: «تاريخ الأمم والملك»: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة (٣١٠هـ). «كشف الظنون» (١/ ٢٩٧).

وروى المدائنيّ في كتاب «مقتل عثمان» أنّ طلحة مَنع من دفنه ثلاثة أيام، وأنّ علياً عليه السلام لم يبايع الناس إلاّ بعد قتل عثمان بخمسة أيام، وأن حَكِيم بن حزام أحدَ بني أسد بن عبد العُزّى، وجُبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدَ بعليّ عليه السلام على دفنه، فأقعد طلحةُ لهم في الطّريق ناساً بالحجارة، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يعرف بحَشّ كَوْكب كانت اليهود تَدْفِنُ فيه موتاهم، فلما صار هناك رَجَم سريره، وهمّوا بطرحه، فأرسل عليّ عليه السلام إلى النّاس يعزم عليهم ليكفُّوا عنه فكفُّوا، فانطلقوا به حتى دفنوه في حَشّ كوكب.

وروى الطبريّ نحو ذلك، إلاّ أنه لم يذكر طلحة بعينه، وزاد فيه أنّ معاوية لما ظَهَر على النّاس، أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البَقيع، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبرِه حتى اتّصل ذلك بمقابر المسلمين.

وروى المدائنيّ في هذا الكتاب، قال: دفن عثمان بين المغرب والعَتَمة، ولم يشهد جنازته إلاّ مَرْوان بن الحكَم وابنه عثمان وثلاثةٌ من مواليه، فرفعت ابنتُه صوتها تندُبه، وقد جعل طلحة ناساً هناك أكمنهم كميناً، فأخذتهم الحجارة، وصاحوا: نعثل نعثل! فقالوا: الحائط الحائط! فدفن في حائطٍ هناك.

وروى الواقديّ، قال: لما قتِل عُثمان، تكلّموا في دفنه، فقال طلحة: يُدفن بديْر سَلْع - يعني مقابر اليهود.

وذكر الطبريّ في تاريخه هذا، إلا أنه روي عن طلحة فقال: قال رجل: يدفن بدير سلْع - فقال حكيم بن حزام: والله لا يكون هذا أبداً وأحد من ولد قصيّ [حيّ] حتى كاد الشرُّ يلتحم، فقال ابن عُدَيْس البَلَوِيّ: أيها الشيخ، وما يضرّك أين دفن! قال: لا يدفن إلا ببقيع الغَرْقد، حيث دفن سَلَفُه ورهطه، فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً، منهم الزّبير بن العوام، فمنعهم الناس عن البقيع، فدفنوه بحَشّ كَوْكب.

وروى الطبريّ في التاريخ أنّ عثمان لما حُصِر، كان عليّ عليه السلام بخيْبر في أمواله، فلما قدم أرسل إليه يدعوه، فلما دخل عليه قال له: إنّ لي عليك حقوقاً: حقّ الإسلام، وحقّ النسب، وحقّ ما لي عليك من العهد والميثاق، ووالله أن لو لم يكنْ من هذا كلّه شيء وكنّا في جاهلية، لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتزّهم أخو تَيْم مُلْكَهم - يعني طلحة - فقال له عليه السلام: سيأتيك الخبر، ثم قام فدخل المسجد، فرأى أسامَة بن زيد جالساً، فدعاه فاعتمد على يدِه، وخرج يمشي إلى طلحة، فدخل داره، وهي دِحَاسٌ[1] من الناس، فقام عليه السلام، فقال: يا

(١) الدحس: الإمتلاء. القاموس، مادة (دحس).

طلحة، ما هذا الأمر الذي وقعتَ فيه؟ فقال: يا أبا حسن، أبعدَ ما مسّ الحِزام الطُّبيين! فانصرف عليّ عليه السلام ولم يُحِرْ إليه شيئاً حتى أتى بيت المال، فنادى: افتحُوا هذا الباب، فلم يقدروا على فَتْحِه، فقال: اكسِرُوه، فكسِر فقال: أخرجوا هذا المال، فجعلوا يخرجونه وهو يعطي الناس، وبلغ الذين في دار طلحة ما صنع عليّ عليه السلام، فجعلوا يتسلّلون إليه حتى بقي طلحة وحده، وبلغ الخبرُ عثمان، فسُرّ بذلك، ثم أقبل طلحة يمشي عامداً إلى دار عثمان، فاستأذن عليه، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، أستغفر الله وأتوبُ إليه، لقد رمت أمراً حال الله بيني وبينه. فقال عثمان: إنّك والله ما جئت تائباً، ولكن جئت مغلوباً، والله حسيبك يا طلحة(١)!

ثم قسم عليه السلام مالَ طلحة، فقال: لا يخلو إمّا أن يكون معتقِداً حلّ دم عثمان، أو حرمته، أو يكون شاكًّا في الأمرين، فإن كان يعتقد حلّه لم يجُزْ له أن ينقُضَ البَيْعة لنصرة إنسان حلال الدم، وإن كان يعتقد حرمته، فقد كان يجب عليه أن ينهِنهَ عنه الناس، أيْ يكفّهم.

وأن يعذّر فيه، بالتشديد أي يقصّر ولم يفعل ذلك، وإنْ كان شاكًّا، فقد كان يجب عليه أن يعتزِل الأمر، ويركد جانباً، ولم يعتزل وإنما صَلِيَ بنار الفتنة، وأصلاها غيرَه.

فإن قلت: يمكن أن يكون طلحةُ اعتقَد إباحة دم عثمان أوّلاً، ثم تبدّل ذلك الاعتقاد بعد قتله، فاعتقد أنّ قتلَه حرام، وأنه يجب أن يقتصّ من قاتليه!

قلت: لو اعترف بذلك لم يقِّسم عليّ عليه السلام هذا التقسيم، وإنّما قسّمه لبقائه على اعتقاد واحد، وهذا التقسيم مع فرض بقائه على اعتقاد واحدٍ صحيح لا مطعن فيه، وكذا كان حال طلحة فإنّه لم ينقل عنه أنه قال: ندمت على ما فعلت بعثمان.

فإن قلت: كيف قالَ أمير المؤمنين عليه السلام: «فما فعل واحدة من الثلاث»، وقد فعل واحدة منها، لأنّه وازر قاتليه حيث كان محصوراً!

قلت: مراده عليه السلام أنّه إن كان عثمان ظالماً، وجب أن يوازر قاتليه بعد قَتله، يحامي عنهم، ويمنعهم ممّن يروم دماءهم، ومعلوم أنّه لم يفعل ذلك، وإنما وازرهم وعثمان حيّ، وذلك غير داخل في التقسيم.

١٧٦ - من خطبة له عليه السلام في ذم الغافلين

الأصل: أَيُّهَا ٱلنَّاس غَيْرُ المَغْفول عَنْهمْ، وَالتَّارِكُونَ، وَالمَأخُوذُ مِنْهُمْ.

(١) تاريخ الطبري: أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٤٥٣.

مَالِي أَرَاكُمْ عَنِ ٱللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعًى وبِيٍّ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هي كَالمَعْلُوفَةِ للمُدَى، لاَ تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسِبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا.

وَٱللهِ لَوْ شِئْتُ ان أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِن أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم. أَلاَ وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنه. وَٱلَّذِي بَعَثَهُ بِٱلْحَقِّ، وَٱصْطَفَاهُ عَلَى ٱلْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً، وَلَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِمهلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنجي مَنْ يَنْجُو، وَمآل هَذَا الأمْرِ، وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَاسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ، وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاس، إِنِّي وَٱللهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلاَّ وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلاَ أَنهاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلاَّ وَأَتنَاهَى قَبْلَكمْ عَنْهَا.

الشرح: خاطب المكلّفين كافّة، وقال: إنّهم غافلون عَمّا يُراد بهم ومنهم، وليسوا بمغفول عنهم، بل أعمالهم محفوظة مكتوبة.

ثم قال: والتاركون: أي يتركون الواجبات.

ثم قابل ذلك بقوله: «والمأخوذ منهم»، لأنّ الأخذ في مقابلة التّرْك، ومعنى الأخذ منهم انتقاصُ أعمارهم، وانتقاض قواهم، واستلاب أحبابهم وأموالهم.

ثم شبههم بالنّعم التي تتبع نعماً أخرى.

سائمة، أي راعية، وإنّما قال ذلك لأنّها إذا اتّبعت أمثالها كان أبلغَ في ضرب المثل بجهلها من الإبل التي يُسِيمُها راعيها والمرعى الوبيّ: ذو الوَباء والمرض. والمشرب الدّويّ ذو الداء، وأصل «الوبى» اللّين الوبىء المهموز، ولكنه ليّنه، يقال: أرض وبيئة على «فعيلة»، ووبئة على «فَعِلة»، ويجوز أو بأتْ فهي موبئة.

والأصل في الدويّ «دَوٍ» بالتخفيف، ولكنه شدّده للازدواج.

ثم ذكر أن هذه النّعم الجاهلة التي أوقعت أنفسها في هذا المرتع والمشرب المذمومين كالغنم وغيرها من النّعم المعلوفة.

المُدَى: جمع مُدْية، وهي السّكين، لا تعرف ماذا يراد بها، وتظنّ أن ذلك العلف إحسان إليها على الحقيقة.

ومعنى قوله: «تحسب يومها دهرها»، أي تظن أن ذلك العلف والإطعام كما هو حاصلٌ لها ذلك اليوم، يكون حاصلاً لها أبداً.

و«شبعها أمرَها»، مثل ذلك، أي تظن أنه ليس أمرُها وشأنُها إلاّ أن يطعِمها أربابُها لتشبع وتحسُن وتسمن، ليس يريدون بها غير ذلك.

ثم خرج عليه السلام من هذا الفنّ إلى فنّ آخر، فأقسم أنّه لو شاء يخبر كلّ واحد منهم من أين خرج، وكيفية خروجه من منزله، وأين يلج، وكيفيّة ولوجه، وجميع شأنه من مطعمه ومشربه، وما عزم عليه من أفعاله، وما أكله، وما ادّخره في بيته، وغير ذلك من شؤونه وأحواله، لفعل.

وهذا كقولِ المسيح عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾(١).

قال: إلاّ أني أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله، أيْ أخاف عليكم الغلوّ في أمري، وأن تُفَضّلوني على رسول الله صلى الله عليه وآله، بل أخاف عليكم أن تدّعوا فيّ الإلهية، كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح لمّا أخبرهم بالأمور الغائبة.

ثم قال: «ألاَ وإنّي مُفْضِيه إلى الخاصّة» أي مفضٍ به ومودعٌ إياه خواصَّ أصحابي وثقاتي الذين آمنُ منهم الغلوّ، وأعلم أنّهم لا يكفرون فيّ بالرسول صلى الله عليه وآله لعلمهم أنّ ذلك من إعلام نبوّته، إذ يكون تابع من أتباعه، وصاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة.

ثم أقسم قسَماً ثانياً أنّه ما ينطق إلاّ صادقاً، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد بذلك كلّه إليه، وأخبره بمهلِك من يهلك من الصحابة وغيرهم من الناس، وبنجاةِ مَنْ ينجو، وبمآلِ هذا الأمر - يعني ما يفضي إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة - وأنّه ما ترك شيئاً يمرّ على رأسه عليه السلام إلا وأخبره به وأسرّه إليه.

رأي بعض الغلاة في أمير المؤمنين عليه السلام

واعلم أنه غيرُ مستحيل أن تكون بعض الأنفُس مختصّةً بخاصيّة تدرِك بها المغَيَّبات، وقد تقدّم من الكلام في ذلك ما فيه كفاية، ولكنْ لا يمكنُ أن تكون نفس تدرك كلّ المغيّبات، لأنّ القوة المتناهية لا تحيط بأمورٍ غير متناهية، وكلّ قوّة في نفس حادثة فهي متناهية، فوجب أن يحمَلَ كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام، لا على أن يريد به عموم العالِمَيّة بل بعلم أموراً محدودة من المغيّبات، مما اقتضت حكمة الباريء سبحانه أن يؤهّله لعلمه، وكذلك القول في

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

رسول الله ﷺ إنه إنّما كان يعلم أموراً معدودة لا أموراً غير متناهية، ومع أنّه عليه السلام قد كَتم ما علمه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله ﷺ، فقد كفر كثير منهم، وادّعوا فيه النبوّة، وادّعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة، وادعوا فيه أنّه هو كان الرسول، ولكنّ المَلك غلط فيه، وادّعوا أنه هو الذي بعث محمداً ﷺ إلى الناس، وادّعَوا فيه الحلول، وادّعوا فيه الاتحاد، ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه، وقال شاعرهم فيه من أبيات:

ومَـنْ أهـلَـكَ عـادا و ... ثـمـوداً بـدواهـيـهِ
وَمَـنْ كَـلّـم مُـوسَـى فَـوْ ... قَ طُـورٍ إذْ يُـنَـادِيـهِ
ومـن قـال عـلـى الـمـنـ ... ـبـر يـومـاً وهـو راقِـيـهِ:
سَـلُـونـي أيّـهـا الـنـاس ... فـحـاروا فـي مـعـانـيـهِ

وقال بعض شعرائهم:

إنّـمـا خـالـقُ الـخـلائـقَ مَـنْ زَعْـ ... ـزَعَ أركـان حـصـن خـيـبـرَ جَـذْبـا
قَـدْ رضِـيـنـا بـه إمـامـاً ومـولـى ... وسـجـدنـا لـه إلـهـاً وربّـا

أمير المؤمنين عليه السلام وإخباره بالأمور الغيبية

وقد ذكرنا فيما تقدّم من إخباره عليه السلام عن الغيوب طرفاً صالحاً، ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قولُه في الخطبة التي يذكر فيها الملاحم، وهو يشير إلى القَرامطة: «ينتحلُون لنا الحُبّ والهوى، ويضمِرُون لنا البغضَ والقِلى، وآية ذلك قتلهم ورّاثنا، وهجرهم أحداثنا»[1].

وصحّ ما أخبرَ به، لأن القرامِطة قتلتْ مِن آل أبي طالب عليه السلام خلْقاً كثيراً، وأسماؤهم مذكورة في كتاب «مقاتل الطالبيين»[2] لأبي الفرج الأصفهاني.

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابيّ في جيشه بالغَريّ وبالحاير، فلم يعرّج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف.

وفي هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة: كأنّي بالحجر الأسود منصوباً ها هنا. ويْحَهم. إن فضيلتَه ليست في نفسه، بل في موضعه وأسُسه، يمكث ها هنا برهة، ثم ها هنا برهة - وأشار إلى البحرين - ثم يعود إلى مأواه، وأمّ مثواه.

ووقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٠/ ١٩١.
(٢) مقاتل الطالبين: للإمام أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد الهيثم الأصبهاني، المتوفى سنة (٣٥٦هـ) الأعلام (٤/ ٣٥٦).

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه، ووجدت في كثير منها اختلالاً ظاهراً، وهذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة، بل من كلامٍ له وجدتُه متفرّقاً في كتب مختلفة، ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه، وهو يخطب على المنبر ويقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائة، أو تهدي مائة إلاّ نبّأتكم بناعقها وسائقها، ولو شئت لأخبرتُ كلّ واحدٍ منكم بمخرجه ومدخله وجمع شأنه». فقال: فكم في رأسي طاقة شعر؟ فقال له: أما والله إنّي لأعلم ذلك، ولكن أين برهانه لو أخبرتك به! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالِكَ. وقيل لي إنّ على كلّ شعرة من شعر رأسك ملكاً يلعنك وشيطاناً يستفزّك، وآيةُ ذلك أنّ في بيتك سخلاً[1] يقتل ابن رسول الله ﷺ، ويحضّ على قتله.

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام، كان ابنه حصين - بالصاد المهملة - يومئذٍ طفلاً صغيراً يرضع اللّبن، ثم عاش إلى أن صار على شُرْطة عبيد الله بن زياد، وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعّده على لسانه إن أرجأ ذلك، فقتِل عليه السلام صَبيحة اليوم الذي ورد فيه الحصين بالرسالة في ليلته.

ومن ذلك قوله عليه السلام للبرَاء بن عازب يوماً: يا براء، أيقتَل الحسين وأنت حيّ فلا تنصره! فقال البَرَاء: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين!

فلما قتِل الحسين عليه السلام كان البَراء يذكر ذلك، ويقول: أعظِمْ بها حَسْرة! إذْ لم أشهده وأقتل دونه!

وسنذكر من هذا النَّمَط - فيما بعد إذا مررنا بما يقتضي ذكره - ما يحضرنا إن شاء الله.

١٧٧ - ومن خطبة له عليه السلام في التحذير عن متابعة الهوى

الأصل: انْتَفِعُوا بِبَيانِ الله، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الله، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ الله، فإِنَّ الله قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالجَلِيَّةِ، واتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الحجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحابَّهُ مِنَ الأَعْمالِ، وَمَكارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ، فإِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلّم كانَ يَقُولُ: إِنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بِالمَكارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ ما مِنْ طاعَةِ الله شَيْءٌ إلاّ يَأتِي فِي كُرْهٍ، وَما مِنْ مَعْصِيَةِ الله شَيْءٌ إلاّ يَأتِي فِي

(١) السخل: الضعيف. القاموس، مادة (سخل).

شَهْوَةٍ، فَرَحِمَ الله امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فإنَّ هَذِهِ، النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وَإِنَّها لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ في هَوًى.

وَاعْلَمُوا عِبادَ الله أَنَّ المُؤمِنَ لاَ يُمْسِي وَلاَ يُصْبِحُ إلاّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلاَ يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا، وَمُسْتَزِيداً لَها. فَكُونُوا كالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالمَاضِينَ أمامَكُم، قَوِّضُوا مِنَ الدُّنْيا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْها طَيَّ المَنَازِلِ.

الشرح: أعذر إليكم: أوضَح عذره في عقابكم إذا خالفتم أوامره. والجلّية: اليقين، وإنّما أعذر إليهم بذلك، لأنّه مكّنهم من العلم اليقينيّ بتوحيده وعدله، وأوجب عليهم ذلك في عقولهم، فإذا تركوه ساغ في الحِكْمة تعذيبُهم وعقوبتهم، فكأنَّهُ قد أبان لهم عذره أنْ لو قالوا: لِمَ تعاقبنا؟

ومحابّه من الأعمال، هي الطاعات التي يحبّها. وحبّه لها إرادة وقوعها من المكلّفين. ومكارهه من الأعمال: القبائح التي يكرهها منهم، وهذا الكلام حجّة لأصحابنا على المجبِّرة. والخبر الذي رواه عليه السلام مرويّ في كتب المحدّثين، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «حُجبت الجنّة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات»[1]، ومن المحدّثين من يرويه: «حفّت» فيهما، وليس منهم من يرويه: «حُجبت» في النار، وذلك لأنّ لفظ «الحجاب» إنما يُستعمَلُ فيما يرام دخولُه وولوجه لمكان النفع فيه، ويقال: حُجِب زيد عن مأدُبة الأمير، ولا يقال: حُجِب زيد عن الحبْس.

ثم ذكر عليه السلام أنّه لا طاعة إلاّ في أمرٍ تكرهه النفس، ولا معصيةَ إلا بمواقعة أمرٍ تحبّه النفس، وهذا حق، لأنّ الإنسانَ ما لم يكن متردّد الدواعي لا يصحّ التكليف، وإنما تتردّد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقّة، أو نُهِيَ عمّا فيه لذّة ومنفعة.

فإن قلت: أليس قد أُمِر الإنسان بالنّكاح وهو لذة؟ قلت: ما فيه من ضرر الإنفاق ومعالجة أخلاق النساء يُرْبى على اللّذة الحاصلة فيه مراراً.

ثم قال عليه السلام: «رحم الله امرأ نزع عن شهوته»، أي أقلع. وقمع هَوَى نفسِه، أي قهره.
ثم قال: فإنّ هذه النفس أبعدُ شيء منزَعاً، أي مذهباً، قال أبو ذؤيب:

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إذا رغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٣)، والترمذي، كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء حفت الجنة بالمكاره (٢٥٥٩)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين (٨٧٢١)، والدارمي، كتاب الرقاق، باب: حفت الجنة بالمكاره (٢٨٤٣).

ومن الكلام المرويّ عنه عليه السلام ويروي أيضاً عن غيره: «أيّها الناس، إنّ هذه النفوسَ طُلَعة[1] فإلاّ تقدعوها[2] تنزع بكم إلى شرّ غاية».

وقال الشاعر:

وَمَا النَّفس إلاّ حيثُ يجعلُها الْفَتَى ... فإن أطمِعَتْ تاقَتْ وإلاّ تَسَلَّتِ

ثم قال عليه السلام: «نَفس المؤمن ظَنُون عنده»، الظَّنُون: البئر التي لا يدري أفيها ماء أم لا، فالمؤمن لا يصبح ولا يمسِي إلاّ وهو على حَذَرٍ من نفسه، معتقداً فيها التقصير والتضجيع في الطاعة، غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها. وزاريا عليها: عائباً، زريْتُ عليه: عبت.

ثم أمرهم بالتأسيّ بمن كان قبلهم، وهم الذين قَوّضُوا من الدّنيا خيامَهم، أي نقضوها، وطوَوْا أيّام العمر كما يطوِي المسافر منازلَ طريقه.

الأصل: وَٱعْلَمُوا أَنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ، وَٱلْهَادِي الَّذِي لاَ يَضِلُّ، وَالمُحَدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِبُ، وَمَا جَالَسَ هَذَا ٱلْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أو نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلاَ لِأَحَدٍ قَبْلَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ غِنًى، فَٱسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَٱسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ، وَهُوَ ٱلْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَٱلْغَيُّ وَالضَّلاَلُ، فَاسْأَلُوا ٱللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلاَ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ ٱلْعِبَادُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ ٱلْقُرْآنُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ ٱلْقُرْآنُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ: أَلاَ إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ ٱلْقُرْآنِ. فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَٱسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَٱسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَٱتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَٱسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الشرح: غشّه يغُشّه، بالضم، خلاف نصحَه. واللأْواء: الشّدّة.

---

(١) نفسٌ طُلَقَة: تكثر التطلع إلى الشيء. القاموس. مادة (طلع).

(٢) القدع: المنع. القاموس، مادة (قدع).

وشَفَع له القرآن شَفاعة، بالفتح، وهو ممّا يغلط فيه العامّة فيكسرونه، وكذلك شفعت بكذا، أتبعتَه، مفتوح أيضاً.

ومَحلَ به إلى السّلطان، قال عنه ما يضرّه، كأنّه جعلَ القرآن يَمْحَلُ يوم القيامة عند بقوم، أيْ يقول عنهم شرًّا، ويشفع عند الله لقوم، أي يُثْني عليهم خيراً.

والحارث: المكتسب، والحرْث: الكسب. وحَرَثَة القرآن: المتاجرون به الله. واستنص على أنفسكم، أي إذا أشار عليكم بأمر وأشارتْ عليكم أنفسكم بأمر يخالفه، فاقبلُوا مث القرآن دون مشورة أنفسكم، وكذلك معنى قوله: «واتّهموا عليه آراءكم، واستغشّوا أهواءكم».

القرآن الكريم وفضله

واعلم أنّ هذا الفصل من أحسنِ ما ورد في تعظيم القرآن وإجلاله، وقد قال النّاس في الباب فأكثروا.

ومن الكلام المرويّ عن أمير المؤمنين عَلَيْتَلِا في ذِكْر القرآن أيضاً، ما رواه ابن قتيبة كتاب «عيون الأخبار»(١) عنه عَلَيْتَلِا أيضاً، وهو: «مثل المؤمن الّذي يقرأ القرآن كمَثل الأترُ ريحها طيّب، وطعمها طيّب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التّمْرة طعمها طيّب ريح لها. ومثل الفاجر الّذي يقرأ القرآن كمثل الرّيحانة. ريحها طيبٌ، وطعمها مرّ. و الفاجر الّذِي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مرّ، وريحُها منتنة»(٢).

وقال الحسن رحمه الله: قرّاء القرآن ثلاثة: رجل اتّخذه بضاعة فنقله من مِصْر إلى مِط يطلب به ما عند الناس، ورجل حفظ حروفه، وضيّع حدوده، واستدرّ به الولاة واستطال به أهل بلاده، وقد كثر الله هذا الضّرب من حَملة القرآن - لا كثّرهم الله - ورجل قرأ القرآن بما يعلم من دواء القرآن، فوضعه على داء قلبه، فسهر ليله، وانهملت عيناه، وتس بالخشوع، وارتدى بالحزن، فبذاك وأمثاله يُسْقى النّاس الغيث، وينزل النّصْر، ويُدْفع البا والله لَهذا الضّرْب من حملة القرآن أعزّ وأقلّ من الكبريت الأحمر.

---

(١) عيون الأخبار: للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينوري، المتوفى (٢٧٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

(٢) هو حديث عن النبي ﷺ، رواه أبو موسى الأشعري، كما في البخاري، كتاب: فضائل القر باب: فضل القرآن على سائر الكلام (٥٠٢٠)، وأبو داود عن أنس، الأدب، باب: من يؤم يجالس (٤٨٢٩)، وأحمد باب: حديث أبي موسى الأشعري (١٩٠٥٥).

وفي الحديث المرفوع: «إنّ من تعظيم جلال الله إكرامَ ذي الشيْبة في الإسلام، وإكرام الإمام العادل، وإكرام حَمَلة القرآن»[١].

وفي الخبر المرفوع أيضاً: «لا تسافِرُوا بالقرآن إلى أرض العدوّ، فإني أخاف أن يناله العدوّ»[٢].

وكانت الصّحابة تكرهُ بيعَ المصاحف وتراه عظيماً، وكانوا يكرهون أن يأخُذَ المعلّم على تعليم القرآن أجراً.

وكان ابنُ عَبّاس يقول: إذا وقعتُ في آل حم، وقعتُ في روضات دمِثات[٣] أتأنّق فيهنّ.

وقال ابنُ مسعود: لكلّ شيء ديباجة، وديباجة القرآن آل حم.

قيل لابن عباس: أيجوز أن يحلّى المصحف بالذهب والفضة؟ فقال: حِلْيَته في جوفه.

وقال النبي ﷺ: «أصفر البيوت جوف صفِر من كتاب الله»[٤].

وقال الشعبيّ: «إياكم وتفسيرَ القرآن، فإنّ الذي يفسرّه إنما يحدّث عن الله».

الحسن رحمه الله: رحِم الله امرأ عرَض نفسه وعمله على كتاب الله، فإنْ وافق، حمِد الله وسأله الزيادة، وإن خالف، أعتب وراجع من قريب.

حفِظ عمر بن الخطاب سورة البقرة، فنحر وأطعم.

وفدَ غالبُ بن صعصعة على عليّ عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق، فقال له: مَنْ أنت؟ فقال غالب بن صعصعة المجاشعيّ، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: ما فعلت إبِلُك؟ قال: أذهبتْها النوائب، وذَعْذَعَتْها[٥] الحقوق. قال: ذاك خير سبلها. ثم قال: يا أبا الأخطل، مَنْ هذا الغلام معك؟ قال: ابني وهو شاعر، قال: علّمه القرآن فهو خير له من الشّعر، فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيّد نفسَه، وآلى ألا يحلَّ قيْدَه حتى يحفظ القرآن، فما حلّه حتى حفظه، وذلك قوله:

---

(١) أخرج نحوه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣)، والبيهقي في «سننه» (١٦٤٣٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٥٦١) والطبراني في «الأوسط» (٦٧٣٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار (١٨٦٩)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب (٤٤٩٣).

(٣) الدّمث: السهل اللين. القاموس، مادة (دمث).

(٤) أخرجه الدارمي، كتاب: فضائل القرآن، باب: التغني بالقرآن (٣٤٩٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٩٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٠٢٤).

(٥) ذعذع المال وغيره: برده وفرّقه. القاموس، مادة (ذرع).

وما صَبّ رجلي في حديد مجاشعٍ   مع القِدّ إلا حاجةٌ لي أريدها

قلت: تحت قوله عليه السلام: «ياأبا الأخطل»، قبل أن يعلم أنّ ذلك الغلام ولده وأنه شاعر، شرّ غامض، ويكاد يكون إخباراً عن غيب، فليْلمح.

الفُضيل بن عِياض: بلغني أنّ صاحب القرآن إذا وقف على معصية، خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال: ألهذا حملتَني!

قلت: وهذا القول على سبيل المثَل والتخويف من مواقعة المعاصي لمن يحفظ القرآن.

أنس قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا بن أمّ سليم، لا تغفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساءً، فإنّ القرآن يحي القلب الميّت، وينهى عن الفحشاء والمنكر**»(١).

كان سفيان الثوريّ إذا دخل شهرُ رمضان ترك جميع العبادة، وأقبلَ على قراءة القرآن من المصحف.

كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: مَثَل كتاب محمد في الكتب مثل سِقَاء فيه لبن، كلّما مخضته استخرجت منه زُبْداً(٢).

أسلم الخواص: كنتُ أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، فقلت لنفسي: يا أسلم، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت حلاوة قليلة، فقلت: اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام، فازدادت الحلاوة، فقلت: اقرأه كأنك تسمعه من الله عزّ وجلّ حين تكلم به، فجاءت الحلاوة كلها.

بعضُ أرباب القلوب: إن الناس يجمِزون(٣) في قراءة القرآن ما خلا المحبّين، فإن لهم خانَ إشارات، إذا مرُّوا به نزلوا. يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيفكّرون فيها.

في الحديث المرفوع: «ما مِنْ شفيع، من ملَكٍ ولا نبي ولا غيرهما، أفضل من القرآن»(٤).

وفي الحديث المرفوع أيضاً: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتِيَ أفضلَ مما أوتي فقد استصغر عظمةَ الله»(٥).

وجاء في بعض الآثار: إنّ الله تعالى خلَق بعض القرآن قبل أن يخلُقَ آدم، وقرأه على

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٤٥٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٣).

(٣) جمز الإنسان والبعير أي: عدا عدواً. القاموس، مادة (جكز).

(٤) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين» (١/ ٣٦٢) وقال العراقي: رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً.

(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦١٧).

الملائكة، فقالوا: طوبى لأمّةٍ ينزل عليها هذا! وطوبى لأجوافٍ تحمل هذا! وطوبى لألسنة تنطق بهذا![1]

وقال النبي ﷺ: «إن القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: يا رسول الله، وما جِلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت»[2].

وعنه ﷺ: «ما أذن الله لشيء أذنَه لنبيٍّ حسن الترنم بالقرآن»[3].

وعنه ﷺ: «إن ربكم لأشدُّ أذَناً إلى قارىء القرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنَتِه»[4].

وعنه ﷺ: «أنت تقرأُ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرؤه»[5].

ابن مسعود رحمه الله: ينبغي لحامِل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ النّاس مفطِرُون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبخشوعه إذ الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون سِكّيتاً زمّيتاً ليّناً، ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا ممارياً، ولا صيّاحاً ولا حدِيداً ولا صَخّاباً.

بعض السلف. إنّ العبد ليفتتح سورة فتصلّي عليه حتى يفرغ منها. وإنّ العبدَ ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، قيل: كيف ذاك؟ قال: إذا أحلّ حلالها، وحرّم حرامها، صلّت عليه وإلاّ لعنته.

ابن مسعود: أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به، فاتّخذوا دراسته عملاً، إنّ أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به.

ابن عباس: لأنْ أقرأ البقرة وآل عمران أرتّلهما وأتدبّرهما أحبُّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه هذْرَمةً[6].

ثابت البنانيّ: كابدت في القرآن عشرين سنة، وتنعّمت به عشرين سنة.

(١) أخرج بنحوه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب: في فضل سورة طه ويّس (٣٤١٤).
(٢) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١١٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠١٤).
(٣) أخرجه الشافعي في الأم (٦/ ٢١٠)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٢٣١).
(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة، باب: في حسن الصوت بالقرآن (١٣٤٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٤٢٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٥٤).
(٥) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٤٥)، والشهاب في مسنده (٣٩٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٢٨٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٦٥).
(٦) الهذرمة: سرعة الكلام والقراءة. القاموس، مادة (هذم).

الأصل: ٱلْعَمَلَ ٱلْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ، وَالاسْتِقَامَةَ الإِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ وَٱلْوَرَعَ ٱلْوَرَعَ!

إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلإِسْلاَمِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ، وَٱخْرُجُوا إِلَى ٱللهِ مِمَّا ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ.

أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْكُمْ. أَلاَ وَإِنَّ ٱلْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَٱلْقَضَاءَ ٱلْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ.

وَإِنِّي مُتَكَلِّم بِعِدَةِ ٱللهِ وَحُجَّتِهِ، قَالَ ٱللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، وَقَدْ قُلْتُم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ، ثُمَّ لاَ تَمْرقوا مِنْهَا، وَلاَ تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلاَ تُخَالِفُوا عَنها، فَإِنَّ أَهْلَ ٱلْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ ٱللهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ.

الشرح: النصب على الإغراء، وحقيقته فعل مقدّر، أي الزموا العمل، وكرّر الاسم لينوب أحدُ اللفظين عن الفعل المقدّر، والأشبه أن يكون اللفظ الأوّل هم القائم مقام الفعل، لأنه في رتبته. أمرهم بلزوم العمل ثم أمرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة، وعبّر عنها بالنهاية، وهي آخر أحوالِ المكلّف التي يفارق الدنيا عليها، إمّا مؤمناً أو كافراً، أو فاسقاً، والفعل المقدّر ها هنا: راعوا وأحسنوا وأصلحوا، ونحو ذلك.

ثم أمرهم بالاستقامة وأنْ يلزموها، وهي أداء الفرَائض.

ثم أمرهم بالصبر عليها وملازمته وبملازمة الوَرع.

ثم شرع بعد هذا الكلام المجمَل في تفصيله فقال: «إنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم»، وهذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيّها الناس، إنّ لكم معالَم فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ لكم غايةً فانتهُوا إلى غايتكم»[2]، والمراد بالنهاية والغاية أن يموتَ الإنسان على توبةٍ من فعل القبيح والإخلال بالواجب.

ثم أمرهم بالاهتداء بالعلَم المنصوب لهم، وإنما يعني نفسَه عليه السلام.

ثم ذكر أن للإسلام غاية، وأمرَهم بالانتهاء إليها، وهي أداء الواجبات، واجتناب المقبّحات.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١١٦)، وذكره أبو بكر بن الطيب في «إعجاز القرآن» (١/ ١٢٩).

ثم أوضح ذلك بقوله: واخرجوا إلى الله ممّا افترَض عليكم من حقِّه، وبيّن لكم من وظائفه»، فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التي أجملها أولاً. ثم ذكر أنّه شاهد لهم، ومحاجّ يوم القيامة عنهم، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾(١).

وحجيج: فعيل بمعنى «فاعل»، وإنّما سمّي نفسه حجيجاً عنهم، وإن لم يكن ذلك الموقف موقف مخاصمة، لأنّه إذا شهد لهم، فكأنّه أثبت لهم الحجّة، فصار محاجًّا عنهم.

قوله عليه السلام: «ألاَ وإنّ القَدَر السابق قد وقع»، يشير به إلى خلافته.

وهذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان، وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره أنّ الأمر سيُفضي إليه منتهى عمره، وعند انقضاء أجله.

ثم أخبرهم أنه سيتكلّم بوعد الله تعالى ومحجتّه على عباده في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . . . .﴾(٢) الآية، ومعنى الآية أنّ الله تعالى وعد الذين أقرُّوا بالربوبية. ولم يقتصروا على الإقرار، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزّل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى، ولفظة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي، والاستقامة مفضّلة على الإقرار باللسان، لأنّ الشأن كلّه في الاستقامة، ونحوها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾(٣)، أي ثمّ ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، والاستقامة ها هنا، هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية. وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين عليه السلام وأبي بكر، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أدُّوا الفرائض، وقال أبو بكر: استمرُّوا على التوحيد(٤).

وروي أن أبا بكر تلاها، وقال: ما تقولون فيها؟ فقالوا: لم يذنبوا، فقال: حملتُم الأمرَ على أشدّه، فقالوا: قل، قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. ورأيُ أبي بكر في هذا الموضع - إن ثبت عنه - يؤكد مذهب الإرجاء، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد مذهب أصحابنا.

وروى سفيان بن عبد الله الثقفيّ، قال: قلتُ يا رسول الله، أخبِرْني بأمْرٍ أعتصم به، فقال: «قُلْ: لا إله إلا الله، ثم استقمْ»، فقلت: ما أخوَفُ ما تخافُه عليّ؟ فقال: «هذا، وأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وآله»(٥).

وتتنزّل عليهم الملائكة، عند الموت، أو في القبر، أو عند النشور.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١. (٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(٤) ذكره القرطبي في تفسيره بما معناه: ١٥/٣٥٨.
(٥) أخرجه الترمذي، كتاب «الزهد»، باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٠)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٢)، وأحمد في «مسنده» (١٤٩٩٢).

وألا تخافوا «أن» بمعنى «أي»، أو تكون خفيفة من الثقيلة، وأصله «أنه لا تخافوا» والهاء ضمير الشأن.

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشترطة في الآية، فقال: قد أقررتم بأنّ الله ربكم فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته.

لا تمرقوا منها، مرق السهمُ، إذا خرج من الرميّة مروقاً.

ولا تبتدعوا: لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة.

ولا تخالفوا عنها، تقول: خالفت عن الطريق، أي عدلتُ عنها.

قال: فإنّ أهل المروق منقطع بهم، بفتح الطاء. انقُطِع بزيد بضم الهمزة، فهو منقطَعٌ به، إذا لم يجد بلاغاً ووصولاً إلى المقصد.

الأصل: ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ ٱلْأَخلاَقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَٱجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ، وَٱللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تقوى تَنْفَعُهُ حَتَّى يختزن لِسَانَهُ، وَإِنَّ لِسانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسانِهِ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِما أَتى عَلَى لِسانِهِ لاَ يَدْرِي ماذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»(١).

فَمَنِ ٱسْتَطاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى ٱللهَ سُبْحانَهُ، وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِماءِ الْمُسْلِمينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح: تهزيعُ الأخلاق: تغييرها، وأصل الهَزْع: الكسر، أسد مهزّع: يكسِر الأعناق ويرضّ العظام، ولمّا كانَ المتصرّف بخلْقه، الناقل له من حال قد أعدم سمته الأولى كما يعدم الكاسر صورة المكسور، اشتركا في مسمًّى شامل لهما، فاستعمل التهزيع في الخلْق للتغيير والتبديل مجازاً.

قوله: «واجعلوا اللّسان واحداً»، نهي عن النّفاق واستعمال الوجهين.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٦٣٦).

قال: «وليخزُن الرجل لسانه»، أي ليحبسّه، فإنّ اللسان يجمح بصاحبه فيلقيه في الهلكة.

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان، قال: فإنّ لسان المؤمن وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه، وشرَح ذلك وبيّنه.

فإن قلت: المسموع المعروف: «لسان العاقل من وراء قلبه، وقلْب الأحمق وراء لسانه»، كيف نقله إلى المؤمن والمنافق؟

قلت: لأنه قلّ أن يكون المنافق إلا أحمق، وقلّ أن يكون العاقل إلا مؤمناً فلأكثريّة ذلك، استعمل لفظ «المؤمن»، وأراد العاقل، ولفظ «المنافق» وأراد الأحمق.

ثم روى الخبر المذكور عن النبي ﷺ وهو مشهور.

ثم أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكلٌّ منهم نقيّ الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم، وقد قال النبيّ ﷺ: «إنما المسلِم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده»[1]، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم، وانتصاب «تهزيع» على التحذير، وحقيقته تقدير فعل، وصورته: جنّبوا أنفسكم تهزيعَ الأخلاق، فـ«إياكم» قائم مقام أنفسكم، والواو عوضٌ عن الفعل المقدّر، وأكثر ما يجيء بالواو، وقد جاء بغير واو في قول الشاعر:

إيّاكَ إيّاكَ المِراءَ فإنّهُ ... إلَى الشَّرِّ دَعّاءٌ ولِلشَّرِّ جالِبُ

وكان يقال: ينبغي للعاقل أن يتمسّك بستّ خِصال، فإنها من المروءة: أن يحفظَ دينه، ويصونَ عِرْضَه، ويَصِلَ رحِمه، ويحمِيَ جارَه، ويرعى حقوقَ إخوانه، ويخزُن عن البَذَاء لسانه.

وفي الخبر المرفوع: «مَنْ كُفِي شرّ قَبْقَبِه وذَبْذَبِه، ولَقْلَقِه، دخل الجنّة»[2].

فالقبقب البطن: والذبذب: الفرْج، واللقلق: اللسان.

وقال بعض الحكماء: مَنْ عَلِم أنّ لسانه جارحةٌ من جوارحه أقلَّ من اعتمالها، واستقبح تحريكَها، كل يستقبح تحريك رأسِه أو منكِبه دائماً.

الأصل: وَٱعْلَمُوا عِبادَ ٱللهِ أَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ ٱلْعَامَ ما ٱسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَيُحَرِّمُ ٱلْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ، وَأَنَّ ما أَحْدَثَ ٱلنَّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام وأي: أموره أفضل (٤٠).

(٢) أخرجه ابن معين في «تاريخه» (٤٦٨٦)، وذكره ابن الأثير في «النهاية» مادة (قبقب).

ٱلْحلاَلُ مَا أَحَلَّ ٱللهُ، وَٱلْحَرَامُ مَا حَرَّمَ ٱللهُ، فَقَدْ جَرَّبْتُمْ ٱلْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتْ الأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ ٱلْوَاضِح فَلاَ يَصمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ، وَلاَ يَعْمَى عنهُ إلاَّ أَعْمَى.

وَمَنْ لَمْ يَنفَعْهُ ٱللهُ بِالْبَلاَءِ وَالتَّجَارِبِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْعِظَةِ، وَأَتَاهُ ٱلتَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ، فَإِنَّ النَّاسَ رَجُلاَنَ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلاَ ضِيَاءُ حُجَّةٍ.

الشرح: يقول: إنّ الأحكام الشرعيّة لا يجوز بعد ثبوت الأدلّة عليها من طريق النصّ أن تُنقضَ باجتهاد وقياس، بل كلّ ما ورد به النصّ تُتّبع مورد النصّ فيه، فما استحللته عاماً أوّل، فهو في هذا العام حلال لك، وكذلك القول في التحريم، وهذا هو مذهب أكثر أصحابنا، أنّ النصّ مقدّم على القياس، وقد ذكرناه في كتبنا في أصول الفقه.

وأوّل ها هنا، لا ينصرف، لأنه صفة على وزن «أفعل».

وقال: «إنّ ما أحدث الناسُ لا يُحِلُّ لكم شيئاً مما حُرّم عليكم»، أي ما أحدثوه من القياس والاجتهاد، وليس هذا بقادحٍ في القياس، ولكنه مانعٌ من تقديمه على النص، وهكذا يقول أصحابنا.

قوله: «وضرّستموها» بالتشديد أي أحكمتموها تجربةً وممارسة، يقال: قد ضرّسته الحرب، ورجل مضرّس.

قوله: «في يَصمّ عن ذلك إلاّ أصمّ» أي لا يَصمّ عنه إلاّ من هو حقيق أن يقال عنه: إنه أصمّ، كما تقول: ما يجهل هذا الأمر إلاّ جاهل، أي بالغ في الجهل.

ثم قال: «مَنْ لم ينفعه الله بالبلاء» أي بالامتحان والتجربة، لم تنفعه المواعظ، وجاءه النقص من بين يديه حتى يتخيّل فيما أنكره أنه قد عرفه، وينكِر ما قد كان عارفاً به. وسمّي اعتقاد العرفان وتخيّله «عرفاناً» على المجاز.

ثُمَّ قسّم النّاس إلى رجلين: إما متّبع طريقةً ومنهاجاً، أو مبتدِعٌ ما لا يعرف، وليس بيده حجّة، فالأوّل المحقّ والثاني المبطِل.

والشّرعة: المنهاج. والبرهان: الحجة.

الأصل: فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هَذَا ٱلْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ ٱللهِ ٱلْمَتِينُ، وَسَبَبُهُ الأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ ٱلْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاَءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ ٱلْمُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَو الْمُتَنَاسُونَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَقُولُ: يَابْنَ آدَمَ، ٱعْمَلِ ٱلْخَيْرَ، وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ.

الشرح: إنما جعله حبْل الله، لأنّ الحبْل ينجو من تعلّق به من هوّة، والقرآن ينجو من الضلال مَن يتعلّق به.

وجعله متيناً، أي قويًا، لأنه لا انقطاع له أبداً، وهذه غاية المتانة والقوّة.

ومَتُن الشيء، بالضم، أي صلُب وقوِيَ. وسببه الأمين مثل حَبْله المتين، وإنّما خالف بين اللفظين على قاعدة الخطابة.

وفيه ربيع القلب، لأنّ القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برَعْيِ الربيع.

وينابيع العلم، لأنّ العلم منه يتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول.
والجلاء، بالكسر: مصدر جلوْتُ السيف، يقول: لا جِلاَء لصدأ القلوب من الشُّبُهات والغفلات إلا القرآن.

ثم قال: إنّ المتذكِّرين قد ذهبوا وماتوا، وبقِيَ النّاسون الَّذِين لا علوم لهم، أو المتناسون الذين عندهم العلوم، ويتكلفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم وروي: «والمتناسون» بالواو.

ثم قال: أعينوا على الخير إذا رأيتموه، بتحسينه عند فاعله، وبدفع الأمُور المانعة عنه، وبتسهيل أسبابه وتسنية سبله، وإذا رأيتم الشرّ فاذهبوا عنه، ولا تقاربوه ولا تقيموا أنفسَكم في مقام الراضي به، الموافق على فعله. ثم روى لهم الخبر.

والجواد القاصد: السهل السّيْر، لا سريع يتعَب بشرعته، ولا بطيء يفوتُ الغرض ببطئه.

الأصل: أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثلاثةٌ: فَظُلْمٌ لاَ يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لاَ يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لاَ يُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُغْفَرُ، فالشِّرْكُ بِالله، قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ، فَظُلْمُ ٱلْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ ٱلْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُتْرَكُ، فَظُلْمُ ٱلْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً.

ٱلْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى، وَلاَ ضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ.

فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ ٱللهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ ٱلْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيما تُحِبُّونَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضى، وَلاَ مِمَّنْ بَقِيَ.

يَأَيُّهَا النَّاسُ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ! وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَٱشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

الشرح: قسّم عليه السلام الظلم ثلاثة أقسام:

أحدها: ظلمٌ لا يغفر، وهو الشِّرْك بالله، أي أن يموت الإنسان مصِرًّا على الشِّرْك، ويجب عند أصحابنا أن يكون أراد الكبائر، وإنْ لم يذكرْها، لأنّ حكمها حكم الشِّرْك عندهم.

وثانيها: الهَنات المغفورة، وهي صغائر الذنوب، هكذا يفسّر أصحابنا كلامه عليه السلام.

وثالثها: ما يتعلّق بحقوق البَشر بعضهم على بعض، فإنّ ذلك لا يتركه الله هَمَلاً، بل لا بدّ من عقاب فاعله، وإنما أفردَ هذا القِسْم مع دخوله في القِسم الأول لتميُّزه بكونه متعلّقاً بحقوق بني آدم بعضِهم على بعض، وليس الأوّل كذلك.

فإن قلت: لفظه عليه السلام مطابقٌ للآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] والآية ولفظه عليه السلام صريحان في مذهب المرجئة، لأنكم إذا فسرتم قوله: «لمن يشاء» بأنّ المراد به أرباب التوبة قيل لكم: فالمشركون هكذا حالهم يقبل الله توبتَهم، ويسقط عقب شِرْكهم بها، فلأيّ معنى خصص المشيئة بالقسم الثاني وهو ما دون الشرك! وهل هذا إلا تصريح بأنّ الشرك لا يُغفر لمن مات عليه، وما دونه من المعاصي إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب، ولا لغيره بل أمْرُه إلى الله!

قلت: الأصوب في هذا الموضع ألا يجعل قوله: «لمن يشاء» معنيًّا به التائبون، بل نقول: المراد أنّ الله لا يستر في موقف القيامة مَنْ مات مشركاً، بل يفضحه على رؤوس الأشهاد كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة هود، الآية: ١٨.

وأمّا مَنْ مات على كبيرة من أهل الإسلام، فإنّ الله تعالى يستره في الموقف، ولا يفضحه بين الخلائق، وإن كان من أهل النار، ويكون معنى المغفرة في هذه الآية السّتر وتغطية حال العاصي في موقف الحشر، وقد يكون من أهل الكبائر ممّن يقرّ بالإسلام لعظيم كبائره جدًا، فيفضحه الله تعالى في الموقف كما يفضح المشرك، فهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١).

فأمّا الكلامُ المطوّل في تأويلات هذه الآية فمذكور في كتبنا الكلاميّة.

واعلم أنه لا تعلّق للمرجئة ولا جذوَى عليهم من عموم لفظ الآية، لأنهم قد وافقونا على أن الفلسفيّ غير مغفور له وليس بمشرك، فإذا أراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ومن جرى مجرَى المشركين، قيل لهم: ونحن نقول: إن الزانيَ والقاتل يجريان مَجْرى المشركين كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين، فلا تنكروا علينا ما لم تنكروه على أنفسكم.

ثم ذكر عَلَيْتَكْلاِ أنّ القِصاص في الآخرة شديدٌ، ليس كما يعهده الناس من عقاب الدّنيا الذي هو ضرب السوط، وغايته أنْ يذوق الإنسان طعم الحديد، وهو معنى قوله: «جرحاً بالمُدى»، جمع مُدية وهي السّكّين، بل هو شيء آخر عظيم لا يعبّر النطق عن كُنْهِه وشدّة نكاله وألمِه.

في عذاب جهنم

قال الأوزاعيّ في مواعظه للمنصور: «روِيَ لي عنْ رسول الله ﷺ: لو أنّ ثوباً من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأحرق أهلَ الأرض قاطبة، فكيف بمن يتقمّصه! ولو أنّ ذَنوباً من حميم جهنم صبّ على ماء الأرض كلّه لأجَنّه حتى لا يستطيع مخلوق شربه، فكيف بمن يتجرّعه! ولو أن حلْقةً من سلاسل النار وضِعَتْ على جبلٍ لذاب كما يذوب الرصاص، فكيف بمن يُسلَك فيها، ويُرَدُّ فضلها على عاتقه(٢)!

وروى أبو هُريرة عن النبي ﷺ: **«لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وأخرج إليهم رجلٌ من النار فتنفّس وأصابهم نَفَسُه لأحرق المسجد ومَنْ فيه»**(٣).

وروي أنّ رسول الله ﷺ قال لجبريل: «مالي لا أرى ميكائيل ضاحكاً! قال: إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار ورآها»(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٣٩)، وبنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٢٠).
(٣) ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٦٤) وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، وذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦/ ١٨١) في ترجمة محمد بن شبيب برقم (٧٦٦٨).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩٣٠)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (٣٨٤).

وعنه ﷺ : «لمّا أسرِيَ بي سمعت هَدّة، فسألت جبريل عنها، فقال: حَجر أرسله الله من شَفير جهنم، فهو يهوِي منذ سبعين خريفاً حتى بلغ الآن فيه»(١).

وروى عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾(٢). قال: «**تتقلّص شفتُه العليا حتى تبلغَ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السّفْلَى حتى تضرب سرَّته**»(٣).

وروي عُبيد بن عمير اللّيْثي عنه عَلَيْتَلِا : «لتزفَرَنّ جهنم زفرةً لا يبقى ملكَ ولا نبيّ إلاّ خرّ مرتعدةً فرائصُه، حتى إنّ إبراهيم الخليل، ليجْثُو على ركبتيه، فيقول: يارَبّ إنّي لا أسألك إلا نفسي»(٤).

أبو سعيد الخُذرِيَ مرفوعاً: «لو ضرِبتْ جبال الدنيا بمقمَع من تلك المقامع الحديد لصارت غُباراً»(٥).

الحسن البصريّ: قال: الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النّار لأنهم أعجزوا الربّ، ولكن إذا أصابهم اللّهب أرسبتهم في النار - ثم خرّ الحسن صِعِقاً، وقال - ودموعه تتحادَرُ: يابن آدم، نفسَك نفسَك! فإنّما هي نفس واحدة إن نجتْ نجوتَ، وإن هلكتَ لم ينفعك مَنْ نجا.

طاوس: أيّها الناس، إنّ النار لمّا خلِقَتْ طارت أفئدةُ الملائكة، فلمّا خلقتم سكنت.

مطرّف بن الشِّخّير: إنكم لتذكرون الجنَّة، وإنّ ذكر النّار قد حال بيني وبين أن أسأل الله الجنة.

منصور بن عَمّار: يا من البعوضة تقلقه، والبقّة تسهره، أمثلك يقوى على وَهَج السّعير، أو تطيق صفحةُ خدّه لفح سَمومها، ورقة أحشائه خشونة ضَريعها، ورطوبة كبده تجرُّع غَسَّاقها!

قيل لعطاء السُّلمي: أيسرّك أن يقال لك: قَعْ في جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث أبداً لا إليها ولا إلى غيرها؟ فقال: والله الذي لا إله إلاّ هو، لو سمعت أن يقال لي، لظننت أنّي أموت فرحاً قبل أن يقال لي ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: في شدة حر نار جهنم (٢٨٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٨٦٢٢).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٤.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١١٤٢٦).

(٤) أخرج بنحوه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٦٨)، وابن المبارك في «الزهد» (٢٢٥)، وابن رجب الحنبلي في التخويف من النار (١/ ٨٠).

(٥) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٣٧٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٥١٦) بلفظ «التفتت».

الحسن: والله ما يقدر العباد قَدْر حَرّها، روينا: لو أنّ رجلاً كان بالمشرق، وجهنم بالمغرب، ثم كشِف عن غطاء واحد منها لغَلَتْ جمجمته، ولو أنّ دلوا من صديدها صبّ في الأرض ما بقيَ على وجهها شيء فيه روح إلاّ مات.

كان الأحنف يصلي صلاةَ الليل، ويضع المصباح قريباً منه، فيضع إصبعَه عليه، ويقول: يا حُنَيْف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا! حتى يُصبح.

في الاجتماع والعزلة

ثم نهاهم عليه السلام عن التفرّق في دين الله، وهو الاختلاف والفرقة، ثم أمرهم باجتماع الكلمة، وقال: إنّ الجماعة في الحقّ المكروه إليكم، خير لكم من الفرقة في الباطل المحبوب عندكم، فإنّ الله لم يعطِ أحداً خيراً بالفرقة، لا ممّن مضى، ولا ممّن بَقِيَ.

وقد تقدم ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في الأمر بلزوم الجماعة، والنهي عن الاختلاف والفرقة.

ثم أمر عليه السلام بالعزلة، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة، ومجانبة الناس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوبهم.

وقد ورد في العزلة أخبار آثار كثيرة، واختلف الناس قديماً وحديثاً فيها، ففضّلها قوم على المخالطة، وفضّل قوم المخالطة عليها.

فممّن فضّل العزلة سفيان الثوريّ، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائيّ، والفُضيل بن عياض، وسليمان الخوّاص، ويوسف بن أسباط، وبشر الحافي، وحُذيفة المرعشي، وجمع كثير من الصوفية، وهو مذهبُ أكثر العارفين، وقول المتألّهين من الفلاسفة.

وممن فضّل المخالطة على العزلة ابن المسيّب، والشعبيّ، وابن أبي ليلى، وهشام بن عروة، وابن شبرُمة، والقاضي شُريح، وشريك بن عبد الله، وابن عُيَينة، وابن المبارك.

فأمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضي عند إمعان النظر فيه أنّ العزلة خيرٌ لقوم، وأن المخالطةَ خيرٌ لقوم آخرين عى حسب أحوال الناس واختلافهم.

وقد احتجّ أرباب المخالطة بقول الله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[1]، وبقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾[2]، وهذا ضعيف، لأنّ المراد بالآية تفرّق الآراء واختلاف المذاهب في أصول الدين، والمراد بتأليف القلوب، وبالأخوّة عدم الإحَن والأحقاد بينهم، بعد استعار نارها في الجاهلية، وهذا أمر خارج عن حديث العزلة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

واحتجُوا بقول النبي ﷺ: «المؤمن إلْفٌ مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلَف»[١]، وهذا أيضاً ضعيف؛ لأنّ المراد منه ذمّ سوء الخلُق والأمر بالرفق والبِشْر، فلا يدخل تحته الإنسان الحسَن الخلق الذي لو خولط لألِف وأُلِف، وإنما يمنعه من المخالطة طلبُ السّلامة من الناس.

واحتجُوا بقوله: «مَنْ شقّ عصا المسلمين فقد خلع رِبْقَة الإسلام عن عنقه»[٢]، وهذا ضعيف أيضاً؛ لأنه مختصّ بالبغاة والمارقين عن طاعة الإمام، فلا يتناول أهلَ العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة، إلاّ أنهم لا يخالطون الناس.

واحتجُوا بنهيه ﷺ عن هَجْر الإنسان أخاه فوق ثلاث[٣]، وهذا ضعيف؛ لأن المراد منه النهي عن الغضب، واللّجَاج، وقطع الكلام والسلام لثوران الغيظ، فهذا أمر خارج عن الباب الذي نحن فيه.

واحتجُوا بأنّ رجلاً أتى جَبَلاً يعبد فيه، فجاء أهله إلى رسول الله ﷺ فنهاه، وقال له: «إنّ صبْر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خيرٌ له من عبادة أربعين سنة»[٤].

وهذا ضعيف، لأنه إنما كان ذلك في ابتداء الإسلام والحثّ على جهاد المشركين.

واحتجُوا بما روي عنه ﷺ أنه قال: «الشَّيطان ذئب، والنّاس كالغنم يأخذ القاصية والشاذَّة، إياكم والشّعاب وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد»[٥]. وهذا ضعيف، لأنّ المراد به من اعتزل الجماعة وخالفها.

واحتجّ من رجح العزلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة في ذلك، نحو قول عمر: خذوا بحظّكم من العُزلة. وقول ابن سيرين: العزلة عبادة.

وقول الفُضيل: كفَى بالله محبوباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً، اتّخِذ الله صاحباً، ودع النّاس جانباً.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٣٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الصلاة والصيام (٢٨٦٣) وأبو داود، كتاب السنة، باب في قتل الخوارج (٤٧٥٨)، وأحمد في «مسنده» (١٦٧١٨).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٤)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٤٨).

(٤) أخرجه الميرزا النوري في مستدرك الوسائل: ١١/ ٢١.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٥٢٤)، والحارث في «مسنده» (٦٠٦)، الحميدي في «مسنده» (١٤ب)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٦٠)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٦٨٦).

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائيّ: عِظْني، فقال: صُمْ عن الدنيا واجعل فِطْرَك للآخرة، وفرّ من الناس فرارَك من الأسد.

وقال الحسن: كلمات أحفظهنّ من التوراة: قنَع ابن آدم فاستغنى، واعتزل النّاس فسلِم، ترَك الشهوات فصار حرًّا، ترَك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلاً فتمتّع طويلاً.

وقال وهب بن الورد: بلَغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها الصَّمْت، والعاشر في العُزْلة عن الناس.

وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة! وكان قد لزم البيت - فقال: كنت وأنا شابٌّ أصبِرُ على أشدَّ من هذا، كنت أجالس النَّاس ولا أكلّمهم.

وقال الثّوريّ: هذا وقت السّكوت وملازمة البيوت.

وقال بعضهم: كنت في سفينة، ومعنا شابٌّ عَلَويّ، فمكث معنا سبعاً لا نسمع له كلاماً، فقلنا له: قد جَمعنا الله وإياك منذ سبع، ولا نراك تخالطنا ولا تكلّمنا! فأنشد:

قليلُ الهمّ لا ولد يموتُ ... وليس بخائف أمراً يفُوتُ
قضى وطَر الصِّبا وأفاد علْماً ... فغايتُه التفرّد والسُّكوتُ
وأكبر هَمّهِ ممّا عليه ... تناجز من ترى خَلْقٌ وقوتُ

قال النَّخَعيّ لصاحب له: تفقّه ثم اعتزل.

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز، ويعودُ المرضى ويعطي الإخوان حقوقهم، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك، إلى أنْ ترك الجميع. وقال: ليس يتهيّأ للإنسان أن يخبر بكلّ عذر له.

وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرّغت لنا! فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلاّ عند الله تعالى.

وقال الفُضيل بن عياض: إني لأجد للرّجل عندي يداً، إذا لقيني ألاّ يسلّم عليّ، وإذا مرضت ألاّ يعودني.

وقال الدارانيّ: بينا ابن خُيثَم جالسٌ على باب داره، إذ جاء حجَر فصكّ وجهه، فسجد، وجعل يمسح الدم، ويقول: لقد وُعِظْت يا ربيع! ثم قام فدخل الدّار، فما جلس بعد ذلك على بابه حتى مات.

وكان سعدُ بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد قد لزما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لا لحاجة لهما ولا لغيرهما، حتى ماتا بالعقيق.

قال بشر: أقلِلْ من معرفة الناس، فإنّك لا تدري ما تكون يوم القيامة! فإنْ تكن فضيحة كان مَنْ يعرفك أقلّ.

وأحضر بعضُ الأمراء حاتماً الأصمّ فكلّمه، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، ألاّ تراني ولا أراك!

وقيل للفُضَيل: إنّ ابنَك يقول: لودِدْتُ أني في مكان أرَى الناس ولا يرونني! فبكى الفُضَيل، وقال: يا ويْح عليّ، ألاَ أتمَّها فقال: ولا أراهم!

ومن كلام الفُضَيل أيضاً: من سخافة عَقْل الرجل كثرة معارفه.

وقد جاء في الأحاديث المرفوعة ذكْر العُزْلة وفضلها، نحو قوله عليه السلام لعبد الله بن عامر الجُهنّي، لمّا سأله عن طريق النجاة، فقال له: «ليسَعك بيتُك، أمسِكْ عليك دينَك، وابكِ على خطيئتك»[١].

وقيل له ﷺ: أيُّ الناس أفضل؟ فقال: «رجل معتزل في شِعْب من الشّعاب، يعبد ربّه، ويدع الناس من شرّه»[٢].

وقال ﷺ: «إن الله يحب التَّقيّ النَّقيّ الخفِيّ»[٣].

في فوائد العزلة

وفي العزلة فوائد: منها الفراغ للعبادة، والذّكر والاستئناس بمناجاة الله من مناجاةِ الخلْق، فيتفرّغ لاستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدّنيا والآخرة وملَكوت السموات والأرض، لأنّ ذلك لا يمكن إلاّ بفراغ، ولا فراغَ مع المخالطة، ولذلك كان رسول الله ﷺ في ابتداء أمره يتبتّل في جبل حِراء، ويعتزل فيه، حتى أتته النبوّة.

وقيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلْوة والعُزْلة؟ فقال: دوام الفِكْر وثبات العلوم في قلوبهم، ليحيَوْا حياة طيّبة، ويموتوا موتاً طيّباً.

وقيل لبعضهم: ما أصبرك على الوَحْدة؟ فقال: لست وحدِي، أنا جليس ربي، إذا شئت أن يناجيَني قرأت كتابه، وإذا شئتُ أن أناجيَه صلّيت.

وقال سُفيان بن عيينة: لقيت إبراهيمَ بن أدهم في بلاد الشام، فقلت له: يا إبراهيم، تركتَ خراسان! فقال: ما تهنّأت بالعيش إلاّ ها هنا، أفرّ بديني من شاهق إلى شاهق، فمن رآني قال: موسوِس أو حمّال.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، ها هنا رجل لم نره قطّ جالساً إلا وحدَه خلْف سارية، فقال

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٦)، بلفظ: «السانك» بدل «دينك».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله (٢٧٨٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: فضل الجهاد والرباط (١٨٨٨).

(٣) أخرجه الميرزا النوري في مستدرك الوسائل: ١١/ ٣٩٢.

الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني، فنظروا إليه ذاتَ يوم، فقالوا للحسن - وأشاروا إليه، فمضى نحوه، وقال له: يا عبد الله، لقد حُبِّبت إليك العزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: أمرٌ شغَلني عنهم، قال: فما يمنعك أن تأتيَ هذا الرّجل الذي يقال له الحسن، فتجلس إليه؟ قال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن، قال: وما ذلك الشّغل يرحمك الله؟ قال: إنّي أمسي وأصبح بين نعمة وذنب، فأشغل نفسي بشكر الله على نِعَمِه، والاستغفار من الذنب، فقال الحسن: أنت أفقه عندي يا عبد الله من الحسن، فالزَمْ ما أنت عليه.

وجاء هِرَم بن حيّان إلى أُوَيْس، فقال له: ما حاجتُك؟ قال: جئت لآنس بك، قال: ما كنتُ أعرف أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره!

وقال الفُضَيْل: إذا رأيتُ اللّيل مقبلاً فرحتُ به، وقلت: أخلُو بربّي، وإذا رأيت الصبحَ أدركني، استرجعت كراهيَة لقاء الناس، وأن يجيء إليّ من يشغَلني عن ربّي.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنسْ بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قلّ علمُه، وعميَ قلبُه، وضاع عمره.

وقال بعض الصالحين: بينا أنا أسيرُ في بعض بلاد الشام، إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إليّ تنحّى إلى أصل شجرة، وتستّر بها: فقلت: سبحان الله! أتبخل عليّ بالنّظرِ إليك؟ فقال: يا هذا، إني أقمتُ في هذا الجبَل دهراً طويلاً، أعالج قلبي في الصبْر عن الدنيا وأهلها، فطال في ذلك تعبي، وفني عمري، ثم سألت الله تعالى ألاّ يجعل حظّي من أيّامي في مجاهدة قلبي فقط، فسكنّه الله عن الاضطراب، وآلَفَهُ الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك وتريدني خفت أن أقع في الأمر الأوّل فأعود إلى إلْف المخلوقين، فإليك عني فإنّي أعوذ من شرّك بربّ العارفين وحبيب التائبين. ثم صاح: واغمّاه من طول المُكْث في الدنيا! ثم حوّل وجهه عني، ثم نفض يده، وقال: إليكِ عني يا دنيا، لغيري فتزّيني، وأهلَكِ فغُرّي! ثم قال: سبحانه مَنْ أذاق العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبَهم عن ذكر الجِنان، ولحور الحسان، فإنّي في الخلوة آنس بذكر الله، واستلذ بالانقطاع إلى الله، ثم أنشد:

وإنّي لأسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لعلّ خَيَالاً منكِ يَلْقَي خَيَاليَا
وأخرجُ من بين البيوتِ لعلّني ... أحدِّثُ عنكِ النّفْس في السرّ خالياً

وقال بعض العلماء: إنما يتوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيتكثر حينئذٍ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بهم، فإذا كانت ذاتُه فاضلة طلب الوحدة ليستعينَ بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، وكان يقال: الاستئناس بالنّاس من علامات الإفلاس.

ومنها التخلّص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرّض الإنسان لها غالباً بالمخالطة، وهي الغيبة، والرّياء، وترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وسرِقة الطبع بعضَ الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من الغيْر.

أما الغِيبة فإنّ التحرّز منها مع مخالطة الناس صعبٌ شديد لا ينجو من ذلك إلا الصدّيقون، فإنّ عادة أكثر الناس التمضمض بأعراض من يعرفونه، والتنقّل بلذّة ذلك، فهي أنسهم الذي يستريحون إليه في الجلْوة والمفاوضة، فإن خالطتهم ووافقت أثمتْ، وإن سكتّ كنت شريكاً، فالمستمع أحد المغتابِينَ، وإن أنكرتَ تركوا ذلك المغتاب واغتابوك، فازدادوا إثماً على إثمهم.

فأمّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لا يخلُوا عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصَى الله، وإن أنكر تعرّض بأنواع من الضّرر، وفي العزلة خلاص عن ذلك، وفي الأمر بالمعروف إثارة للخِصام، وتحريك لكوامن ما في الصدور. وقال الشاعر:

وكم سُقْتُ في آثاركمْ من نصيحة   وقد يستفيدُ الظِّنَّةَ المتنصِّحُ

ومن تجرّد للأمر بالمعروف ندِم عليه في الأكثر، كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمَه وحده، فيوشك أن يقع عليه، فإذا سقط قال: يا ليتني تركتُه مائلاً! نعم لو وجدَ الأعوانَ حتى يحكِمَ ذلك الحائط ويدعمه استقام، ولكنك لا تجد القوم أعواناً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدع النّاس وانجُ بنفسك.

وأمّا الرّياء فلا شبهةَ أنّ مَنْ خالط الناس دَاراهم، ومَنْ دَاراهم راءاهم، ومن راءاهم كان منافقاً، وأنت تعلم أنّك إذا خالطت متعادِيين، ولم تلْق كلّ واحدٍ منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتَهما كنتَ من شرار النّاس، وصرت ذا وَجْهين، وأقلّ ما يجب في مخالطة الناس إظهارُ الشّوْق والمبالغة فيه، وليس يخلُو ذا وَجْهين، وأقلّ ما يجب في مخالطة الناس إظهارُ الشّوْق والمبالغة فيه، وليس يخلُو ذلك عن كذب، إمّا في الأصل وإمّا في الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال، فقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب عن همومه، نفاق محض.

قال السَّرِيّ السّقطيّ: لو دخلَ عليّ أخ فسوّيتُ لحيتي بيدي لدخوله، خشيتُ أن أكتب في جريدة المنافقين.

كان الفُضَيْل جالساً وحده في المسجد، فجاء إليه أخ له، فقال: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة، قال: هي والله بالمواحشة أشبه، هل تريد إلاّ أن تتزيّن لي وأتزيّن لك، وتكذِب لي وأكذِب لك! إمّا أن تقوم عنّي، وإمّا أن أقوم عنك.

وقال بعضُ العلماء: ما أحبّ الله عبداً ألاّ أحبّ ألاّ يشعر به خلقه.

ودخل طاوس على هِشام بن عبد الملك، فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب، وقال: لَم لَمْ

تخاطبني بإمْرة المؤمنين؟ قال: لأنّ جميع الناس ما اتَّفَقُوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذباً. فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحترازَ، فليخالط الناس، وإلا فليرضَ بإثبات اسمه في جريدة المنافقين إن خالطهم، ولا نجاة من ذلك إلا بالعزلة.

وأما سرقة الطبع من الغيْر، فالتجربة تشهد بذلك، لأنّ مَنْ خالط الأشرار اكتسب من شرّهم، وكلما طالت صحبةُ الإنسان لأصحاب الكبائر، هانت الكبائر عنده وفي المثل: «فإنّ الْقَرِينَ بالمقارن يقتدي»[١].

ومنها الخلاص من الفِتَن والحروب بين الملوك والأمراء على الدُّنيا.

روى أبو سعيد الخُدريّ عن النبيّ ﷺ، أنه قال: **«يوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلم غنيمات يتّبع بها شِعاف الْجبال، ومواضع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن»**[٢].

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص، أنّ رسول الله ﷺ ذكر الفِتن فقال: **«إذا رأيتَ الناس قد مَرِجت[٣] عهودهم، وخفّت أماناتهم، وكانوا هكذا»** - وشبّك بأصابعه - **فقلت ما تأمرني؟** فقال: **«الزم بيتك، واملِكْ عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودَعْ ما تنكر، وعليك بأمرِ الخاصّة، ودَعْ عنك أمر العامّة»**[٤].

وروى ابن مسعود عنه ﷺ أنه قال: **«سيأتي عَلَى الناس زمانٌ لا يسلم لذي دين دينُه إلاَّ مَنْ فَرّ من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، كالثعلب الروّاغ»** قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: **«إذا لم تُنَل المعيشة إلاّ بمعاصي الله سبحانه، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوْجَتِهِ وولده، وإن لم يكن فعلى يدِ قرابته»**، **قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يعيّرونه بالفقر وضيق اليد، فيكلّفونه ما لا يطيقه حتى يوردَه ذلك موارد الهلكة»**[٥].

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الدين الفرار من الفتن (١٩)، والنسائي كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: الفرار بالدين من الفتن (٥٠٣٦)، وأبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ما يرخص فيه من البداوة في الفتنة (٤٢٦٧).

(٣) مَرِجت: اختلطت. اللسان، مادة (خلط).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب: الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٢)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: التثبت من الفتنة (٣٩٥٧)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٧٢).

(٥) أخرج نحوه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥)، والديلمي في «مسنده» (٨٦٩٧)، والبيهقي في «الزهد» (٤٣٩).

وروى ابنُ مسعود أيضاً أنه ﷺ ذكر الفتنة، فقال: «**الهرْج**» فقلت: وما الهرْج يا رسول الله؟ قال: «**حين لا يأمن المرء جليسَه**»، قلت: فبمَ تأمرُني يا رسول الله، إن أدركتُ ذلك الزمان؟ قال: «**كفّ نفسَك ويَدك، وادخل دارك**»، قلت: أرأيتُ إن دُخِل عليّ داري! قال: «**ادخل بيتَك**»، قلت: إن دُخِل عليّ البيت، قال: «**ادخل مسجدَك، واصنع هكذا - وقبض على الكوع - وقل: ربِّيَ الله، حتى تموت**»[1].

ومنها الخلاصُ من شرّ الناس، فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة، وتارة بسوء الظنّ والتهمة وتارة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاءُ بها، وتارة بالنّميمة والكذِب مما يروْنَه منك من الأعمال والأقوال مما لا تبلغ عقولهم كنهَه، فيدّخرون ذلك في نفوسهم عدة، لوقت ينتهزون فيه فرصة الشر، ومن يعتزلهم يستغنِ عن التحفُّظ لذلك.

وقال بعض الحكماء لصاحبه: أعلّمك شعراً هو خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم! وهو:

اخفضِ الصّوْتَ إن نطقَت بليلِ ... والتفتْ بالنَّار قبل المقالِ

ليس للقول رجعةٌ حين يبدُو ... بقبيحٍ يكون أو بجمال

ومَنْ خالط الناس لا ينفكّ من حاسدٍ وطاعنٍ، ومَنْ جرّب ذلك عرف.

ومن الكلام المأثور عن عليّ عليه السلام: «أُخبُرْ تَقْلِهْ»[2] قال الشاعر:

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ ... ثم بلاهم ذمّ مَنْ يحمَدُ

وصار بالوحدة مستأنِساً ... يوحِشه الأقرب والأبعدُ

وقيل لسعد بن أبي وقاص: ألا تأتي المدينة؟ قال: ما بقيَ فيها إلا حاسد نعمة، أو فرِحٌ بنقمة.

وقال ابن السَّمَّاك: كتب إلينا صاحب لنا: أمّا بعد، فإنّ الناس كانوا دواءً يُتداوَى به، فصاروا داءً لا دواء لهم، ففِرّ منهم فِرارك من الأسد.

وكان بعضُ الأعراب يلازم شجرةً ويقول: هذه نديمي، وهو نديم فيه ثلاث خصال: إن سمِعَ لم ينمّ عليّ، وإن تفلْتُ في وجهه احتَمل، وإن عربدتُ عليه لم يغضب، فسمع الرشيد هذا الخبر، فقال: قد زهّدني سماعه في الندماء.

---

(١) أخرج بنحوه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب: النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٥٦)، وأحمد في «مسنده» (٤٢٧٤).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٧/ ١١١.

وكان بعضُهم يلازم الدّفاتر والمقابر، فقيل له في ذلك، قال: لم أرَ أسْلَمَ من الوحدة ولا أوْعظ من قبر، ولا أمتَع من دفْتر.

وقال الحسن مَرّة: إنّي أريد الحجّ، فجاء إليّ ثابت البُناني، وقال: بلغني أنّك تريد الحجّ، فأحببت أن نصطحب، فقال الحسن: دعْنَا نتعاشر بسَتْرِ الله، إنّي أخاف أن نصطحب فيرَى بعضُنا من بعض ما نتماقَتُ عليه.

وقال بعض الصالحين: كان النّاس ورَقاً لا شوكَ فيه، فالنّاس اليوم شوكٌ لا وَرَق فيه.

وقال سُفْيان بن عُيَينة: قال لي سفيان الثوريّ: في اليقظة في حياته، وفي المنام بعد وفاته: أقِللْ معرفة الناس، فإنّ التخلّص منهم شديد. ولا أحسِبُني رأيتُ ما أكره إلا ممنّ عرفت.

وقال بعضهم: جئتُ إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وعنده كلْب رابض قريباً منه، فذهبت أطرده فقال: دعْه فإنه لا يضرّ ولا يؤذي، وهو خير من الجليس السوء.

وقال أبو الدرداء: اتّقوا الله واحذروا الناس، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ولا ظهر جوادٍ إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه.

وقال بعضهم: أقِلْل المعارف، فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخفّ لظهرك، وأدعى إلى سقوط الحقوق عنك، لأنه كلّما كثرت المعارف كثرت الحقوق، وعسر القيام بالجميع.

وقال بعضهم: إذا أردتَ النجاةَ فأنكِرْ من تعرِف، ولا تتعرَّفْ إلى من لا تعرف.

ومنها، إنّ في العُزلة بقاء السّتر على المروءة والخلُق والفقر وسائر العورات، وقد مدح الله تعالى المتسترين فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾(١).

وقال الشاعر:

وَلاَ عارَ أنْ زالتْ عن الحرّ نعمةٌ ... ولكنّ عاراً أن يزولَ التَّجَمُّلُ

وليس يخلُو الإنسان في دينه ودنياه وأفعاله عن عَوْرات يُتَّقَيْنَ ويجب سترها، ولا تبقى السلامة مع انكشافها، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بترك المخالطة.

ومنها أن ينقطع طمعُ الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس، أما انقطاعُ طمع الناس عنك ففيه نفع عظيم، فإنّ رضا الخلْق غاية لا تُدرك، لأن أهونَ حقوق الناس وأيسرها حضورُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

الجنازة، وعيادة المريض، وحضور الولائم، والإملاكات، وفي ذلك تضييع الأوقات، والتعرّض للآفات، ثم يعوّق عن بعضها العوائق، وتستثقل فيها المعازير، ولا يمكن إظهار كل الأعذار، فيقول لك قائل: إنّك قمت بحقّ فلان، وقصّرت في حقّي، ويصير ذلك سبب عداوة، فقد قيل: إنّ مَنْ لَمْ يَعُد مريضاً في وقت العيادة، يشتهي موتَه خيفة من تخجيله إياه إذا برىء من تقصيره، فأما مَنْ يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضوْن كلُّهم عنه، ومتى خصّص وقع الاستيحاش والعتاب، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق، ممّا لا قدرة عليه للمتجرّد ليله ونهاره، فكيف مَنْ له مهمّ يشغَلُه دينيّ أو دنيويّ!

ومن كلام بعضهم: كثرة الأصدقاء زيادة الغرماء.

وقال الشاعر:

عَـدُوّكَ مِـنْ صـدِيـقِـك مُـسْـتَـفَـادٌ فـلا تـسـتـكـثـرنّ مـن الـصِّـحَـابِ

فـإنّ الـدّاء أكـثـر مـا تـراه يـكـونُ مـن الـطّـعـام أو الـشـرابِ

وأما انقطاع طمَعك عنهم، ففيه أيضاً فائدة جزيلة، فإنّ مَنْ نظر إلى زهرة الدّنيا وزخرفها، تحرّك حرصُه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، وأكثر الأطماع يتعقّبها الخيبة، فيتأذّى الإنسان بذلك، وإذا اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشتَهِ ولم يطمع، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[(١)].

وقال عليه السلام: «انظروا إلى مَنْ دونكم، ولا تنظُروا إلى مَنْ هو فوقكم، فإنه أجدَرُ ألا تزدرُوا نعمةَ الله عليكُمْ»[(٢)].

وقال عَوْن بن عبد الله: كنتُ أجالس الأغنياء، فلا أزال مغموماً أرى ثوباً أحسن من ثوبي، ودابّةً أفْرَهَ من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت.

وخرج المُزَنيّ صاحب الشافعيّ من باب جامع الفُسطاط بمصر، وكان فقيراً مقلاً، فصادف ابنَ عبد الحكم قد أقبل في موكبه، فبهره ما رأى من حاله، حسن هيآته، فتلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[(٣)] ثم قال: نعم أصبر وأرضى.

فالمعتزل عن النّاس في بيته لا يبتلَى بمثل هذه الفتن، فإنّ مَنْ شاهدَ زينة الدنيا، إمّا أن يقوي دينه ويقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرّع الصَّبْر، وهو أمرّ من الصَّبِر، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلِك دنيا وآخرة، أما في الدنيا فبالطبع الذي في أكثر الأوقات يتضمن الذلّ المعجل، وأمّا في الآخرة فلإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله، والتقرّب إليه، ولذلك قال الشاعر:

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر لله: ١٤٦ رقم: ١٥٩.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

إذَا كَانَ بـابُ الـذّلّ مـنْ جـانـبِ الـغنَـى سموتُ إلى العَلْياءِ منْ جَانِبِ الفَقْر

أشار إلى أنّ الطمع يوجب في الحال ذلاً.

ومنها الخلاص مِنْ مشاهدة الثّقلاء والحمقى ومعاناة أخلاقهم، فإنّ رؤية الثقيل هي العمى الأصغر، قيل للأعمش: بم عمِشتْ عيناك؟ قال: بالنّظر إلى الثقلاء.

ودخل على أبي حنيفة رحمه الله، فقال له: رَوَيْنا في الخبر أنّ «منْ سلِب كريمتيه عَوّضه الله ما هو خير منهما»(١)، فما الذي عوضك؟ قال: كفاني رؤية ثقيل مثلك يمازحه.

وقال الشافعي رحمه الله: ما جالستُ ثقيلاً إلاّ وجدت الجانب الذي يليه من بَدَني كأنّه أثقلُ عليّ من الجانب الآخر.

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيوناً، إلاّ أنها تضرِبُ في الدين بنصيب، وذلك لأنّ مَنْ تأذّى برؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه ويثلُبه، وذلك فساد في الدين، وفي العزلة السلامة عن جميع ذلك.

واعلم أنّ كلامَ أميرِ المؤمنين عليه السلام تَختلف مناهجه، فقد رجّح العزلَة في هذا الفصل على المخالطة، ونهى عن العزلة في موضع آخر سيأتي ذكره في الفصل الذي أوّله، «أنّه دخل على العَلاء بن زياد الحارثيّ عائداً»، ويجب أنْ يحمَل ذلك على أنّ مِنَ الناس مَنِ العزلةُ خيرٌ له من المخالطة، ومنهم مَنْ هو بالضدّ من ذلك، وقد قال الشافعيّ قريباً من ذلك، قال ليونس بن عبد الأعلَى صاحبِه: يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبةٌ للعداوة، والانبساط إليهمْ مجلبة لقرَناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

فإذا أرَدْتَ العزلة فينبغي للمعتزل أن ينويَ بعزلته كفّ شرّه عن الناسَ أولاً، ثم طلبَ السّلامة من شرّ الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثاً، ثم التجرّد بكنه الهمّة بعبادة الله تعالى رابعاً، فهذه آداب نيّته. ثم ليكُنْ في خَلوته مواظباً على العِلْم والعمل، والذّكر والفكر، ليجتنيَ ثمرة العزلة. ويجب أن يمنع الناس عن أن يكثِروا غشيانه وزيارته، فيتشوّش وقته، وأنْ يكفّ نفسه عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف النّاس وما الناس مشغولون به، فإنّ كلّ ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث على الخاطر والبال وقتَ الصلاة ووقت الحاجة إلى إحضار القلب، فإنّ وقوع الأخبار

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: فضل من ذهب بصره (٥٦٥٣)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب ما جاء في هاب البصر (٢٤٠٠)، وأحمد في «مسنده» (١٣٦٠٧).

في السمع كوقوع البَذر في الأرض، لا بدّ أن ينبت وتتفرّع عروقه وأغصانه، وإحدى مهمّات المعتزِل قطع الوساوس الصّارفة عن ذكر الله، ولا ريب أنّ الأخبار ينابيع الوساوس وأصولها.

ويجب أنْ يقنَع باليسير من المعيشة، وإلاّ اضطرّه التوسع إلى الناس، واحتاج إلى مخالطتهم.

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الْجِيران إذ يسدّ سمعه عن الإصغاء إلى ما يقول فيه مَنْ أثنى عليه بالعزلة، وقَدَح فيه بترك المخالطة، فإنّ ذلك لا بدّ أن يؤثر في القلب، ولو مدّة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لا بدّ أن يكون واقفاً عن سيره في طريق الآخرة، فإنّ السّير فيها إمّا يكون بالمواظَبة على وِرْد أو ذكْر مع حضور قلْب، وإمّا بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته، وإمّا بالتأمّل في دقائق الأعمال ومفسدات القلب وطلب طريق التخلُّص منها، وكلّ ذلك يستدعِي الفراغ، ولا ريب أنّ الإصغاء إلى ما ذكرناه يشوّش القلب.

ويجب أن يكون للمعتزل أهلٌ صالح أو جليس صالح، لتستريح نفسه إليه ساعةً عن كدّ المواظبة، ففي ذلك عونٌ له على بقيّة الساعات. وليس يتمّ للإنسان الصّبر على العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، وما النّاس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلاّ بقصَر الأمل، وألاّ يقدّر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي عَلَى أنّه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم، ولا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدّر تراخي أجله، وليكن كثير الذكْر للموت ووحدة القبر، مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقّق أن مَنْ لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، فإنه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، وأنّ مَنْ أنِس يذكر الله ومعرفته فإنّ الموت لا يزيل أنسه، لأنّ الموت ليس يهدم محلّ الأنس والمعرفة، بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1].

وكلّ من يجرد نفسه في ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت فالمجاهد مَنْ جاهد نفسَه وهواه، كما صرّح به ﷺ، وقال لأصحابه: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2]، فالجهاد الأصغر محاربة المشركين، والجهاد الأكبر جهاد النفس.

وهذا الفصل في العزلة نقلناه على طوله من كلام أبي حامد الغزاليّ في إحياء علوم الدين وهذّبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.
(٢) ذكره في «كنز العمال» (١١٢٦٠) وعزاه للخطيب في «تاريخه».

١٧٨ - ومن كلام له عليه السلام في معنى الحكمين

الأصل: فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ على أَنِ اخْتارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيهما أَنْ يُجَعْجِما عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلاَ يُجاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُما تَبَعَهُ، فَتاها عَنْهُ، وَتَرَكا الحَقَّ وَهُما يُبْصِرَانِهِ، وَكانَ الجَوْرُ هَوَاهُما، وَالاعْوِجاجُ دَأْبَهُمَا، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْناؤُنا عَلَيْهِما فِي الحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِما، وَجَوْرَ حُكْمِهِما، وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينا لِأَنْفُسِنا، حِينَ خالَفا سَبِيلَ الحَقِّ، وَأَتَيا بِما لاَ يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الحكْم.

الشرح: الملأ: الجماعة. ويجعجعا: يحبسا نفوسهما وآراءهما عند القرآن، جعجعت، أي حبست، أخذت عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في القرآن ولا يتجاوزاه.

فتاها عنه، أي عدلاً، وتركا الحق على عِلْم منهما به.

والدأب: العادة، و«سوءَ رأيهما» منصوب، لأنّه مفعول «سبق»، والفاعل «استثناؤنا».

ثم قال: «والثّقة في أيدينا»، أي نحن على برهان وثقة من أمرنا، وليس بضائرٍ لنا ما فعلاه لأنّهما خالفَا الحقّ، وعدلا عن الشرط وعكسا الحكم.

وروى الثوريّ، عن أبي عبيدة، قال: أمر بلال بن أبي بُرْدة وكان قاضياً، بتفريقٍ بين رجل وامرأته، فقال الرجل: يا آل أبي موسى، إنما خلقكم الله للتفريق بين المسلمين!

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مِصْر، قد قبضها بالشرْط الذي اشترط على معاوية: «أما بعد، فإنّ سؤّال أهل الحجاز وزوّار أهل العراق كثُروا عليّ، وليس عندي فضل عن أعطِيات الحجاز، فأعنّي بخراج مصر هذه السنة».

فكتب عمرو إليه:

معاويَ إنْ تدرِكْكَ نفسٌ شحيحةٌ ... فما مصر إلاّ كالهباءَةِ في التُّرْبِ
وما نلتُها عفواً ولكن شرَطتُها ... وقد دارت الحرب العَوَان على قُطْبِ
ولولا دفاعي الأشعريَّ ورهطه ... لَألفيتَها ترغُو كراغية السَّقْبِ[1]

ثم كتب في ظاهر الكتاب - ورأيت أنا هذه الأبيات بخط أبي زكريا يحيى بن عليّ الخطيب التبريزيّ رحمه الله -:

معاويَ حظّيَ لا تغفلِ ... وعن سنَنِ الحقّ لا تعدِلِ

(١) السقب: ولد الناقة، أو ساعة يولد. القاموس، مادة (سقب).

أتنسى مخادعتي الأشعريّ ... وما كان في دَوْمَةِ الجَنْدَلِ!
ألينُ فيطمع في غِرّتي ... وسهميَ قد خاض في المقتلِ
فألمظه عسلاً بارداً ... وأخبأ من تحته حَنْظَلِي
وأعليته المنبر المشمَخرّ ... كرجع الحُسام إلى المفصِلِ
فأضحى لصاحبه خالَعاً ... كخلع النّعال من الأرجُلِ
وأثبتها فيك موروثة ... ثبوتَ الخواتِم في الأنمُلِ
وهبت لغيريَ وزن الجبالِ ... وأعطيتني زِنَةَ الخرْدَلِ
وإنّ عليًّا غدا خصمنا ... سيحتجّ بالله والمرسَلِ
وما دَمُ عثمان منجٍ لنا ... فليس عن الحقّ من مَزْحَلِ

فلما بلغ الجوابُ إلى معاوية لم يعاوده في شيء من أمر مصر بعدها.

بعث عبد الملك رَوْح بن زنباع وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى، إلى زفر بن الحارث الكلابيّ بكلام، وحذّرهما من كيده، وخصّ بالتحذير رَوْحاً. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ أباه كان المخدوع يوم دوْمة الجندل لا أبي، فعلاَم تخوّفني الخداع والكيد. فغضب بلال وضحك عبد الملك.

---

١٧٩ - ومن خطبة له عليه السلام يذكران زوال النعم من سوء الفعال

الأصل: لاَ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلاَ يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلاَ يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلاَ يَصِفُهُ لِسَانٌ، لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ المَاءِ، وَلاَ نُجُومُ السَّمَاءِ، وَلاَ سَوَافِي الرِّيحِ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَلاَ دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا وَلاَ مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ ٱلْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ ٱلْأَحْدَاقِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلاَ مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلاَ مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلاَ مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، والمُجْتَبَى مِنْ خَلاَئِقِهِ، وَالمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ، وَالمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالاَتِهِ، وَالمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ ٱلْهُدَى، وَالمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ ٱلْعَمَى.

الشرح: لا يشغلُهُ أمر، لأنّ الحيّ الذي تشغله الأشياء هو الحيّ العالم بالبعض دون البعض، والقادر على البعض دون البعض، فأمّا من لا يغيب عنه شيء أصلاً، ولا يعجز عن شيء أصلاً، ولا يمنعه من إيجاد مقدوره - إذا أراد - مانع أصلاً، فكيف يشغَلُه شأن!

وكذلك لا يغيّره زمان؛ لأنّه واجب الوجود، ولا يحويه مكان؛ لأنه ليس بجسم، ولا يصفه لسان، لأنّ كُنْه ذاته غيرُ معلوم، وإنما المعلوم منه إضافات أو سلوب.

ولا يعزب عنه أمر من الأمور، أي لا يفوته عِلْم شيء أصلاً.

والسوافي: التي تَسْفِي التراب، أي تَذْرُوهُ.

والصفا، مقصور: الصخر الأملس، ولا وقف عليها ها هنا، لأنّ المقصور لا يكون في مقابلة الممدود، وإنما الفقرة المقابلة للهواء هي «الظلماء»، ويكون «الصفا» في أدراج الكلام أسْوة بكلمة من الكلمات. والذّرّ: صغار النّمل.

ويعلم مساقط الأوراق، من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[1]. وطَرْف الأحداق: مصدر طَرَف البصر يطرُف طَرْفا، إذا انطبق أحدُ الجفنين على الآخر، ولكونه مصدراً وقع على الجماعة كما وقع على الواحد، فقال عليه السلام: «طَرْف الأحداق»، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[2].

وغير معدول به: غير مسوًّى بينه وبين أحد.

والدِّخلة، بكسر الدال: باطن الأمر، ويجوز الدُّخْلَة بالضمّ.

والمعتام: المختار. والعِيمة بالكسر: خِيارُ المال، اعتام الرجل، إذا أخذَ العِيمة.

فإن قلت: لفظة «معتام» و«مختار» تصلح للفاعل والمفعول، فماذا يفصل بينَهما؟

قلت: بما يقترن باللّفظ من الكلام قبله وبعده.

فإن قلت: فهل يختلفان في التقدير في صناعة النحو، وإن اتّفقا في اللفظ؟

قلت: نعم، فإنّ عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها، فإن أردت الفاعل فهي مكسورة، وتقديره «مختير» مثل «مخترِع»، وإن كان مفعولاً فهي مفتوحة، وتقديره «مختَير» مثل «مخترَع» وعلى كلا التقديرين لا بدّ من انقلاب الياء ألفاً، واللفظ، واحد ولكن يقدّر على الألف كسرة للفاعل وفتحه للمفعول، وكذلك القول في «معتام» و«مضطر» ونحوهما.

وحُكِيَ أنّ بعض المتكلّمين من المجبرة، قال: أسمّي العبدَ مضطرّاً إلى الفعل إذا فعله، ولا أسمي الله تعالى مضطرّاً إليه.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.

قيل : فكيفَ تقول؟ قال : «مضطِر» بكسر الطاء ، فضحك أهل المجلس منه .

والعقائل : جمع عقيلة ، وهي كريمة كلّ شيء من الناس والإبل وغير ذلك ، ويقال للذرّة عقيلة البحر .

وأشراط الهدى : علاماته ، ومنه أشراط الساعة قال تعالى : ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1] .

والغِربيب : الأسود الشديد السواد . ويُجلى به غربيب العمى : تُكشَفُ به ظُلَم الضلال ، وتستنير بهدايته . وقوله تعالى : ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[2] ، ليس على أنّ الصفة قد تقدّمت على الموصوف ، بل يجعل السود بدلاً من الغرابيب .

فإن قلت : الهاء في «حقائقه» إلى ماذا ترجع؟

قلت : إلى الباريء سبحانه ، وحقائقه حقائق توحيده وعدله ، فالمضاف محذوف ، ومعنى حقائق توحيده الأمور المحقّقة اليقينيّة التي لا تعتريها الشكوك ، ولا تتخالجها الشبه ، وهي أدلّة أصحابنا المعتزلة التي استنبطوها بعقولهم بعد أنْ دلّهم إليها . ونبّههم على طرق استنباطها رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ لأنّه إمام المتكلّمين الذي لم يعرف علمَ الكلام من أحد قبله .

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ ، إنَّ الدُّنْيا تَغُرُّ المُؤَمِّلَ لَهَا ، وَالمُخْلِدَ إِلَيْهَا ، وَلاَ تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيها ، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا .

وَايْمُ ٱللهِ ما كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوها ، لأنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ .

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعم ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ .

وَإِنِّي لأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَة ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيها مَيْلَةً ، كُنْتُم فِيها عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ .

وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الجُهْدُ ، وَلَوْ أَشاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ : عَفَا ٱللهُ عَمَّا سَلَفَ!

---

(١) سورة محمد ، الآية : ١٨ .

(٢) سورة فاطر ، الآية : ٢٧ .

الشرح: المخلِد: المائل إليها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

ولا تنفس بمن نافس فيها: لا تضنّ به، أي من نافس في الدنيا فإنّ الدنيا تهينه ولا تضنّ به، كما يضنّ بالعلْق النفيس.

ثم قال: «وتغلب مَنْ غلَب عليها»، أيْ مَنْ غلَب على الدنيا مقاهرة فسوف تغله الدنيا وتهلكه.

ثم أقسم إنه ما كان قوم في غَضّ نعمة أي في نعمة غضه، أي طريّة ناضرة، فزالت عنهم إلا بذنوب اجترحوها، أي اكتسبوها، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ، ومن قال: إنَّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات إلا مستحقًّا، فأمّا مذهب أصحابنا فلا يتخرّج هذا الكلام عليه؛ لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعالى به في الآخرة، فيجب أن يحمل هذا الكلام لا على عمومه، بل على الأكثر والأغلب.

ثم قال عليه السلام: لو أنّ الناس عند حلول النّقم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين من ذنوبهم، لرفع عنهم النقمة، وأعاد إليهم النعمة.

والولَه، كالتحيّر يحدث عند الخوف أو الوجد. والشارد: الذاهب.

قوله: «وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة»، أي في أمر جاهليّة لغلَبة الضلال والجهل على الأكثرين منهم.

وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان في أول خلافته عليه السلام، وقد تقدّم ذكر بعضها، والأمور التي مالوا فيها عليه: اختيارهم عثمان وعدولهم عنه يوم الشّورى.

وقال: «لئن ردّ عليكم أمركم» أي أحوالكم التي كانت أيام رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ صلاح القلوب والنيّات إنّكم سعداء. والجُهد بالضم: الطاقة.

ثم قال: لو أشاء أن أقول لقلت، أي لو شئت لذكرتُ سبب التحامل عليّ وتأخري عن غيري، ولكني لا أشاء ذلك، ولا أستصلح ذكره.

ثم قال: «عفا الله عما سلف» لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾(٢).

وهذا الكلام يدلّ على مذهب أصحابنا في أنّ ما جرى من عبد الرحمن وغيره في يوم الشورى، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل، فإنه معفوّ عنه مغفور لفاعله، لأنّه لو كان فسقاً غير مغفور، لم يقلْ أمير المؤمنين عليه السلام: «عفا الله عمّا سلف».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦. (٢) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

١٨٠ - ومن كلام له عليه السلام وقد ساله ذِعلب اليمانيّ فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام افاعبد ما لا أرى! فقال: وكيف تراه، قال

الأصل: هل رأيتَ ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفاعبد ما لا أرى! فقال: وكيف تراه، قال: لاَ تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعيانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحقَائِقِ الإيمانِ، قَرِيبٌ مِنَ الأشْياءِ غَيْرَ مُلاَمِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبايِنٍ، مُتَكلِّمٌ بِلا رَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لاَ بِهِمَّةٍ، صانِعٌ لاَ بجارِحَةٍ.

لَطِيفٌ لاَ يُوصَفُ بِالخَفاءِ، كبِيرٌ لاَ يُوصَفُ بِالجَفاءِ، بَصِيرٌ لاَ يُوصَفُ بالحاسَّةِ، رَحِيمٌ لاَ يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ.

تَعْنُو الْوُجُوهُ لعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبِ مِنْ مخَافَتِهِ.

الشرح: الذِّعلب في الأصل، الناقة السريعة، وكذلك الذِّعلبة ثم نقل فسمّى به إنسان، وصار علماً، كما نقلوا «بكْراً» عن فتى الإبل إلى ابن بكْر وائل.

واليماني مخفّف النون، ولا يجوز تشديدها، جعلوا الألف عوضاً عن الياء الثانية، وكذلك فعلوا في «الشامي» والأصل «يمنّي وشامي».

وقوله عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟»، مقام رفيع جداً لا يصلح أن يقوله غيره عليه السلام.

ثم ذكر ماهيَّة هذه الرؤية، قال: إنّها رؤية البصيرة، لا رؤية البصر.

ثم شرح ذلك، فقال: إنّه تعالى قريب من الأشياء، غير ملامس لها؛ لأنه ليس بجسم، وإنما قُرْبه منها علمُه بها، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(١).

قوله: «بعيد منها غيرُ مباين»؛ لأنّه أيضاً ليس بجسم فلا يطلَق عليه البينونة، وبُعْدُه منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها، وذلك ما يصدُ على البعيد بالوضع، يصدق أفضل الصّدق على البعيد بالذّات الذي لا يصحّ والأينُ أصلاً عليه.

قوله: «متكلّم بلا رويّة»، الروّية: الفكرة يرتئي الإنسان بها ليصدر عنه ألفاظ سديدة دالّة على مقصده، والبارىء تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار، بل لأنّه إذا أراد تعريف [خلقه] من جهة الحروف والأصوات، وكان في ذلك مصلحة ولطف لهم، خلَق الأصوات والحروف في جسم جَماديّ، فيسمعها مَنْ يسمعها، ويكون ذلك كلامه؛ لأنّ المتكلّم في اللغة العربية فاعل الكلام

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٧.

لا من حَلّه الكلام. وقد شرحْنَا هذا في كتبنا الكلاميّة.

قوله: «مريدٌ بلا همّة»، أي بلا عَزم، فالعزم عبارة عن إرادةٍ متقدمّة للفعل، تفعل توطيناً للنفس على الفعل، وتمهيداً للإرادة المقارنة له، وإنّما يصحّ ذلك على الجسم الذي يتردّد فيها، تدعوه إلى الدواعي، فأمّا العالم لذاته، فلا يصحّ ذلك فيه.

قوله: «صانع لا بجارحة»، أي لا بِعُضوٍ؛ لأنه ليس بجسم.

قوله: «لطيف لا يوصف بالخفاء»، لأنّ العرب إذا قالوا لشيء: إنّه لطيف، أرادوا أنّه صغير الحجم، والباريء تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين:

أحدهما: أنّه لا يُرَى لعدم صحّة رؤية ذاته، فلما شابه اللّطيف من الأجسام في استحالة رؤيته، أطلق عليه لفظ «اللطيف» إطلاقاً للفظ السّبب على المسبّب.

وثانيهما: أنّه لطيفٌ بعباده، كما قال في الكتاب العزيز، أي يفعل الألطاف المقرّبة لهم من الطاعة، المبعّدة لهم من القبيح. أو لطيفٌ بهم بمعنى أنّه يرحمهم ويرفُق بهم.

قوله: «كبير لا يوصَفُ بالجفاء»، لمّا كان لفظ «كبير» إذا استعمِل في الجسم أفاد تباعد أقطاره، ثم لما وصف الباريء بأنّهُ كبير أراد أن ينزّهه عما يدلّ لفظ «كبير» عليه، إذا استعمل في الأجسام، والمراد من وصفه تعالى بأنّه كبير، عَظَمة شأنه وجلالة سلطانه.

قوله: «بصير لا يوصف بالحاسّة»، لأنّه تعالى يدرَك إمّا لأنّه حيّ لذاته، أو أن يكون إدراكه هو علمه، ولا جارحةَ له ولا حاسّة على كلّ واحد من القولين.

قوله: «رحيم لا يوصف بالرّقّة»؛ لأنّ لفظة الرحمة في صفاته تعالى تطلق مجازاً على إنعامه على عباده، لأنّ الملك إذا رقّ رعيّته وعطَف، أصابهم بإنعامه ومعروفه.

قوله: «تعنو الوجوه»، أي تخضع، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾(١).

قوله: «وتَجِبُ القلوب»، أي تخفِق، وأصله من وَجَب الحائط: سقط. ويروى: «تَوْجل القلوب» أي تخاف، وَجِل: خاف.

وروي: «صانع لا بحاسّة»، وروي «لا تراه العيون بمشاهدة العيان» عوضاً عن «لا تدركه».

١٨١ - ومن كلام له عليه السلام في ذم أصحابه

الأصل: أَحْمَدُ ٱللهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ٱبْتِلاَئِي بِكُمْ أَيَّتُها ٱلْفِرْقَةُ ٱلَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ.

(١) سورة طه، الآية: ١١١.

إِنْ أُهْمِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ، وَإِنِ ٱجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَةٍ نَكَصْتُمْ.

لاَ أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَٱلْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ!

المَوْتُ أَوِ الذُّلُّ لَكُمْ! فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلَيَأْتِيَنِّي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

للهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو ٱلْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلاَ عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ ٱلإِسْلاَمِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ - إِلَى المَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعَطَاءِ، فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي، وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ!

إِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضاً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلاَ سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاَقٍ إِلَيَّ المَوْتُ.

قَدْ دَارَسْتُكُمُ ٱلْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ ٱلْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ ٱلأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!

وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ، وَمُؤَدِّبُهُمُ ٱبْنُ النَّابِغَةِ!

الشرح: قضى وقدّر في هذا الموضع واحد.

ويروى: «على ما ابتلاني».

وأهمِلتُم: خُلّيتم وتركتم، ويروى: «أمِهلتم»، أي أخرتم.

وخرتم: ضعفتم، والخَوَرُ: الضّعف، رجل خَوّار، ورمح خوّار، وأرض خوّارة، والجمع خُور. ويجوز أن يكون «خرتم» أي صحتم، كما يخور الثّور، ومنه قوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[1]. ويروى: «جُرْتُم» أي عدلتم عن الحرب فراراً.

وأجِئتُم: ألجئتم، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[2].

والمشاقّة: المقاطعة والمصارمة.

ونكصتم: أحجمتم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[3]، أي رجع محجماً، أي دعيتم إلى كشف القناع مع العدو وجبنتم وهبتموه.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨. (٢) سورة مريم، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

قوله: «لا أبا لغيركم»، الأفصح «لا أب»، بحذف الألف، كما قال الشاعر:

أبـي الإسـلامُ لا أبَ لِـي سـواهُ   إذا افـتـخـروا بـقـيـسٍ أو تـمـيـمِ

وأما قولهم: «لا أبا لك»، بإثباته فدون الأوّل في الفصاحة، كأنّهم قصدوا الإضافة، وأقحموا اللام مزيدة مؤكّدة، كما قالوا: «يا تيمَ تيم عديّ»، وهو غريب، لأن حُكْم «لا» أن تعمل في النّكر فقط، وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة، والإضافة تعرّف، فاجتمع فيها حكْمهان متنافيان، فصار من الشواذّ كالملامح والمذاكير ولدن غدوة.

وقال الشيخ أبو البقاء رحمه الله: يجوزُ فيها وجهان آخران: أحدهُما: أنه أشبع فتحة الباء، فنشأت الألف والاسم باقٍ على تنكيره، والثاني: أن يكون استعمل «أباً» على لغة من قالها «أبا» في جميع أحوالها مثل «عصا»، ومنه:

إنَّ أبَـاهَـا وَأبَـا أبَـاهَـا

قوله: «الموت أو الذلّ لكم»، دعاء عليهم بأنْ يصيبَهم أحد الأمرين، كأنه شرعَ داعياً عليهم بالفناء الكليّ، وهو الموت، ثم استدرك فقال: «أو الذلّ»، لأنّه نظير الموت في المعنى، ولكنّه في الصورة دونه، ولقد أجيب دعاؤه عليه السلام بالدّعوة الثانية، فإنّ شيعته ذَلُّوا بعدُ في الأيّام الأمويّة، حتى كانوا كَفَقْعِ قَرْقر.

ثم أقسم أنّه إذا جاء يومُه لتكونَنّ مفارقته لهم عن قِلىً، وهو البغض، وأدخل حَشْوةً بين أثناء الكلام، وهي «ليأتينّي» وهي حشوة لطيفة؛ لأنّ لفظة «إنْ» أكثر ما تستعمل لما لا يُعلم حصوله، ولفظة «إذا» لما يُعلم أو يغلب على الظنّ حصوله، نقول: إذا طلعت الشمس جئت إليك، ولا تقول: إن طلعت الشمس جئتُ إليك، وتقول: إذا احمرّ البُسْر جئتك، ولا تقول: إن احمرّ البُسْر جئتك، فلمّا قال: «لئِنْ جاء يومي»، أتى بلفظة دالّة على أنّ الموضع موضع «إذا» لا موضع «إنْ»، فقال: «وليأتيّني». والواو في قوله: «وأبا لصحبتكم»، واو الحال، وكذلك الواو في قوله: «وبكم غير كثير»، وقوله: «غير كثير» لفظ فصيح، وقالَ الشاعر:

لِـيَ خَـمْـسُـون صَـدِيـقـاً   بـيـنَ قـاضٍ وأمـيـرِ
لـبـسـوا الـوفْـرَ فـلَـمْ أخـ   ـلَـعْ بـهـمْ ثـوبَ الـنّـفـيـرِ
لـكـثـيـرٌ هُـمْ وَلـ   ـكِـنـي بـهـمْ غَـيْـرُ كـثـيـرِ

قوله: «لله أنتم» لله، في موضع رفع؛ لأنّه خبر عن المبتدأ الذي هو «أنتم»، ومثله: لله دَرّ فلان! ولله بلادُ فُلان! ولله أبوك! واللام ها هنا فيها معنى التعجّب، والمراد بقوله: «لله أنتم» لله سعيكم، أو لله عملكم، كما قالوا: «لله دَرّك!»، أي عملك، فحُذِف المضاف، وأقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه.

فإن قلت: أفجاءت هذه الّلام بمعنى التعجّب في غير لفظ «لله»؟

قلت: لا، كما أنّ تاء القسم لم تأتِ إلاّ في اسم الله تعالى.

قوله عليه السلام: «أما دينٌ يجمعكم!» ارتفاع «دين» على أنّه فاعل فعلٍ مقدر له، أي أما يجمعكم دين يجمعكم! اللفظ الثّاني مفسر للأول كما قدرناه بعد «إذا» في قوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[1] ويجوز أن يكون «حَمِيّة» مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: أما لكم حميّة! والحمِيّة: الأنفة. وشحذتُ النّصل: أحددته.

فإن قلت: كيف قال: إنّ معاوية لم يكن يعطي جندَه وأنّه هو عليه السلام كان يعطيهم، والمشهور أنّ معاوية كان يمدّ أصحابَه بالأموال والرغائب!

قلت: إنّ معاويةِ لم يكن يعطِي جندَه على وجْهِ المعُونة والعطاء، وإنّما كان يعطي رؤساء القَبائل من اليمن وساكني الأموال الجليلة، يستعبدهم بها، ويدعو أولئك الرؤساءُ أتباعَهُمْ من العرب فيطيعونهم، فمنهم مَنْ يطيعُهم حميّة، ومنهم من يطيعهم لأيادٍ وعوارفَ من أولئك الرؤساء عندهم، ومنهم مَن يطيعهم دَيْناً، زعموا للطّلب بدم عثمان، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير. وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام، فإنّه كان يقسّم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرّزق، ولا يرى لشريف على مشروف فضلاً، فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممن ينصره ويقوم بأمره، وذلك لأنّ الرؤساء من أصحابه كانوا يجدُون في أنفسهم من ذلك - أعني المساواةَ بينهم وبين الأتباع - فيخذلونه عليه السلام باطناً، وإن أظهرُوا له النّصر، وإذا أحسّ أتباعُهم بتخاذُلهم وتواكلهم تخاذلوا أيضاً وتواكلوا أيضاً، ولم يُجد عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأتباع من الرزق، لأن انتصار الأتباع له وقتالهم دونه لا يتصوّر وقوعه، والرؤساء متخاذلون، فكان يذهب ما يرزقهم ضياعاً.

فإنْ قلت: فأيّ فرق بين المعونة والعطاء؟

قلت: المعونة إلى الجند شيء يسير من المال برسم ترميم أسلحتهم، وإصلاح دوابّهم، ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهراً فشهراً، والعطاء المفروض شهراً فشهراً يكون شيئاً له مقدار يصرف في أثمان الأقوات، ومؤنة العيال، وقضاء الديون.

والتَّريكة: بيضة النعام تتركها في مَجْثِمِها، يقول: أنتم خلفُ الإسلام وبقيّته كالبيْضة التي تتركها النعامة.

فإن قلت: ما معنى قوله: «لا يخرج إليكم من أمري رضاً فترَضوْنه، ولا سخط فتجتمعون عليه»؟

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١.

قلت: معناه أنّكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئاً، سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم، بل لا بدّ لكم من المخالفة والافتراق عنه.

ثم ذكر أنّ أحبّ الأشياء إليه أن يلقى الموت، وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال:

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أنْ تَكُنَّ أَمَانِيَا

تمنيتَها لَمّا تمنَّيْتَ أنْ تَرَى صَدِيقاً فأعْيَا، أو عدوًّا مُدَاجِيَا

قوله: «قد دارستُكم الكتاب»، أي درسته عليكم، دارستُ الكُتب وتدارستُها وأدرستُها، ودرستها، بمعنى، وهو من الألفاظ القرآنية.

وفاتحتُكم الحِجاج، أي حاكمتكم بالمحاجّة والمجادلة، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾[1] أي احكم، والفتّاح: الحاكم.

وعرفتكم ما أنكرتم: بّصرتكم ما عَمِيَ عنكم.

وسَوّغتُكم ما مَجَجْتُم، يقال: مججْتُ الشّراب من فَمِي، أي رميت به، وشيخٌ ماجّ: يمُجُّ ريقه، ولا يستطيع حبسه من كبره، وأحمق ماجّ: أي يسيل لعابه، يقول: ما كانت عقولكم وأذهانكم تنفر عنه من الأمور الدينيّة أوضحتُه لكم حتى عَرَفتمُوه واعتقدتموه وانطوتْ قلوبكم عليه.

ولم يجزم عليه السلام بحصول ذلك لهم، لأنه قال: لو كان الأعمى يلحظ، والنائم يستيقظ! أي أني قد فعلت معكم ما يقتضي حصولَ الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم لو أزلتم عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم، والمانع المشارُ إليه هو الهوى والعصبية والإصْرَار على اللَّجاج، ومحبّة نصره عقيدة قد سبقت إلى القلب، وَزَرَعها التعصّب، ومشقّة مفارقة الأسلاف الَّذين قد انغرس في النفس تعظيمهم، ومالت القلوب إلى تقليدهم لحسن الظنّ بهم.

ثم قال: «أقرِبْ بقومٍ!» أي ما أقربهم من الجهل! كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾[2] أي ما أسمعهم وأبصرهم!

فإن قلت: قد كان يجب أن يقول: «وأقرِبْ بقومٍ قائدهم معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة من الجهل» فلا يحولُ بيْن النَّكرة الموصوفة وصفتها بفاصل غريب، ولم يقل ذلك، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيٍّ منهما!

قلت: قد جاء كثير من ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾[3] في قول من لم يجعل «مَرَدُوا» صفة أقيمت مقام الموصوف؛

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ٣٨.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

لأنه يجعل «مردوا» صفة القوم المحذوفين المقدّرين بعد «الأعراب» وقد حال بين ذلك وبين «مردوا» قوله: «ومن أهل المدينة».

ونحوه قوله: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾[1].

فإن «قيّماً» حال من الكتاب وقد توسط بين الحال وذي الحال «ولم يجعل له عوجاً» والحال كالصفة، ولأنهم قد أجازوا: «مررت برجل - أيّها الناس - طويل»، والنداء أجنبيّ، على أنّا لا نسلّم أن قوله: «من الجهل» أجنبي؛ لأنّه متعلق بأقرِبْ، والأجنبي ما لا تعلّق له بالكلام.

١٨٢ - ومن كلام له عليه السلام وقد أرسل رجلاً من أصحابه يعلم له علم أحوال قوم من جند الكوفة قد هموا باللحاق بالخوارج وكانوا على خوفٍ منه عليه السلام، فلما عاد إليه الرجل قال له: أأمنوا فقطنوا أم جبنوا فظعنوا! فقال الرجل: بل ظعنوا يا أمير المؤمنين

الأصل: بُعْداً لَهُمْ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هاماتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ.

إِنَّ الشَّيْطانَ الْيَوْمَ قد ٱسْتَفَلَّهُمْ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ، ومُتَخَلٍّ عَنهم، فَحَسْبُهُمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكاسِهِمْ فِي الضَّلاَلِ وَالْعَمَى، وَصَدِّهِمْ عَنه الحَقِّ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ.

الشرح: قد ذكرنا قصّة هؤلاء القوم فيما تقدّم عند شرحنا قصّة مَصْقَلة بن هبيرة الشّيبانيّ.

وقَطَن الرجلُ بالمكان، يقطُن بالضمّ: أقام به وتوطّنه، فهو قاطن، والجمع قطّان وقاطنة وقطين أيضاً، مثل غازٍ وغزيّ. وعازب للكلأ البعيد وعزيب.

وظَعَن صار الرجل ظَعْناً وظعَنا، وقرىء بهما: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾[2]، وأظعنه: سيره، وانتصب «بُعْدا» على المصدر.

وثمود، إذا أردت القبيلة غيرُ مصروف، وإذا أردت الحيّ أو اسم الأب مصروف، ويقال: إنّه ثمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح، قيل سمّيَتْ ثمود لقلّة مائها، من الثّمْد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى.

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٠.

وأشرعتُ الرّمح إلى زيد، أي سدّدته نحوه، وشرع الرُّمح نفسه وصبّت السيوفُ على هاماتهم: استعارة من صببْتُ الماء، شبّه وقع السيوف وسرعة اعتوارها الرؤوس بصبّ الماء.

واستفلّهم الشيطانُ: وجدهم مَفْلولين، فاستزلّهم، هكذا فسروه.

ويمكن عندي أن يريد أنه وجدهم فَلاًّ، لاَ خير فيهم، والفلُّ في الأصل: الأرض لا نبات بها لأنّها لم تمطر، قال حسّان يصف العُزّى:

وإنّ الّتي بالجِذْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ ... ومَن دانها فِلٌّ من الخير مَعْزِلُ

أي خالٍ من الخير. ويروى «استفزّهم»، أي استخفّهم. والارتكاس في الضلال: الرجوع، كأنه جعلهم في تردّدهم في طبقات الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلّص منه.

والجماح في التّيه: الغلوّ والإفراط، مستعار من جِماح الفرس، وهو أن يعتزّ صاحبه ويغلبه، جَمَح فهو جَمُوح.

١٨٣ – ومن خطبة له عليه السلام في تنزيه الله وذكر آثار قدرته

الأصل: رُوِيَ عَنْ نَوْفٍ الْبَكالِيِّ، قالَ خَطَبنَا بِهَذِهِ الخُطْبَةِ أميرُ المُؤمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السَّلاَم بِالْكُوفَةِ، وَهُوَ قائِمٌ على حِجارَةٍ نَصبهَا لَهُ جَعْدَةُ بنُ هُبَيْرَةَ المَخْزُومِيُّ، وعليه مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ، وَحمَائِلُ سَيْفِهِ لِيفٌ، وَفي رِجْلَيْهِ نَعْلاَنِ من لِيفٍ، وَكَأَنَّ جبينَهُ ثَفِنَةُ بَعِيرٍ، فَقالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:

الحَمْدُ لله الَّذِي إِلَيْهِ مَصائِرُ الخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الأَمْرِ! نَحْمَدُهُ على عَظِيمِ إِحْسانِهِ، وَنَيِّرِ بُرْهانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لحقِّهِ قَضاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً، وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مؤمل لنفعه، واثِقٍ بدفعه، معترف له بالطول، مذعن له بالعمل والقول وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ رَجاهُ مُوقِناً، وَأَنابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلاَذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً.

الشرح: قال الجوهريّ في الصّحاح: نَوْف البَكاليّ، بفتح الباء، كان حاجبَ عليّ عليه السلام، ثم قال: وقال ثعلب: هو منسوب إلى بَكالة، قبيلة.

وقال القطب الراونديّ في شرح «نهج البلاغة»: بَكال وبَكيل شيء واحد، وهو اسم حيٍّ من هَمْدَان، وبكيل أكثر، قال الكُمَيت:

فَقَدْ شَرَكَتْ فِيهِ بَكيلٌ وأرْحَبُ

والصواب غيرُ ما قالاه، وإنّما بنو بِكال، بكسر الباء حيٌّ من حِمْيَرَ، منهم هذا الشخص، هو نَوْف بن فضالة، صاحب عليّ عليه السلام، والرواية الصحيحة الكسر، لأنّ نوف بن فضالة بِكاليّ، بالكسر، من حِمْير، وقد ذكر ابنُ الكلبيّ نسبَ بني بِكال الحميريّين، فقال: هو بِكال بن دُعْمِيّ بن غوث بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميْسع بن حِمْير.

نسب جعدة بن هبيرة

وأمّا جعدة بن هُبَيرة، فهو ابنُ أختِ أمير المؤمنين عليه السلام، أمّه أمّ هانىء بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وأبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب. وكان جَعدة فارساً شجاعاً، فقيهاً ووليَ خُراسان لأمير المؤمنين عليه السلام، وهو من الصّحابة الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح مع أمّه أمّ هانىء بنت أبي طالب، وهربَ أبو هبيرة بن أبي وهب ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزِّبَعْرَى إلى نجران.

وروى أهلُ الحديث أنّ أمّ هانىء كانتْ يوم الفتح في بيتها، فدخل عليها هُبيرة بن أبي وهب بعلُها، ورجل من بني عمّه هاربيْن من عليّ عليه السلام، وهو يتبعهما وبيده السَّيْف، فقامت أمّ هانىء في وجهه دونهما، وقالت: ما تريده منهما! ولم تكن رأتْه من ثماني سنين، فدفع في صدرها، فلم تَزُل عن موضعها، وقالت: أتدخلُ يا عليّ بيتي، وتهتك حرمتي، وتقتل بَعْلي، ولا تستحي منّي بعد ثماني سنين! فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهْدَر دمهما، فلا بدّ أن أقتلهما. فقبضت على يده الّتي فيها السيف، فدخلا بيتاً ثم خرجا منه إلى غيره، ففاتاه، وجاءت أم هانىء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يغتسل من جَفْنة فيها أثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبها، فوقفت حتى أخذ ثوبه، فتوشّح به، ثم صلّى ثمانَي ركعات من الضُّحى، ثم انصرف، فقال: مرحباً وأهلاً بأمّ هانىء! ما جاء بك؟ فأخبرته خبر بعلها وابن عمّه، ودخول عليّ عليه السلام بيتها بالسيف. فجاء عليّ عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله يَضْحك، فقال له: ما صنعت بأمّ هانىء؟ فقال: سلْهَا يا رسول الله ما صنعت بي! والّذي بعثك بالحقّ لقد قبضتْ على يدِي وفيها السيف، فما استطعتُ أن أخلّصها إلاّ بعْد لأي، وفاتني الرجلان. فقال صلى الله عليه وآله: «لو ولَدَ أبو طالب النّاسَ كلّهم لكانوا شجعاناً، وقد أجَرْنَا من أجارتْ أمّ هانىء، وأمّنا مَنْ أمّنت، فلا سبيلَ لك عليهما»[1].

فأمّا هبيرة فلم يرجع، وأمّا الرجل الآخر، فرجع فلم يعرِض له. قالوا: وأقام هُبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافراً، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازي شعراً أوله:

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠١٧) ولكن من غير قوله: «لو ولد أبو طالب...». والزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٣٩٥).

أشَاقَتْكَ هِنْدٌ أم أتاكَ سُؤَالُهَا ... كَذَاكَ النَّوى أسبابها وانفتالها

يذكر فيه أمَّ هانىء وإسلامها، وأنّه مهاجر لها إذ صَبتْ إلى الإسلام، ومن جملته:

فإنْ كنتِ قد تابعتِ دين محمّدٍ ... وقَطَّعَت الأرحامَ منك حبالُها

فكوني على أعلى سحوق بهضبةٍ ... ململمة غبراءَ يُبْسٌ قلالُها

وقال ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»(١):

ولدت أمّ هانىء لهبيرة بن أبي وهب بنين أربعة: جعدة، وعمراً، وهانئاً، ويوسف، قال: وجعدة الذي يقول:

أبي من بني مخزومَ إنْ كنتَ سائلاً ... ومن هاشمٍ أمّي، لخَيرُ قبيلِ

فمن ذا الّذي ينأى عليّ بخاله ... كخالي عليٍّ ذي النّدى وعَقِيلِ!

المدرعة: الجبّة، وتَدَرّع: لبسها، وربما قالوا: تمدرع. وثَفِنة البعير، واحدة ثفِنَاتة، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف، كالركبتين وغيرهما ويقال: ذو الثَّفِنات الثلاثة لعليّ بن الحسين، وعلي بن عبد الله بن العباس ﷺ، ولعبد الله بن وهب الراسبيّ، رئيس الخوارج، لأنّ طول السجود كان قد أثّر في ثِفناتهم، قال دِعْبل:

دِيارُ عَليّ والحُسَيْنِ وجَعْفَرٍ ... وَحَمْزَة والسَّجاد ذِي الثَّفِنات

ومصائر الأمور: جمع مَصِير، وهو مصدر «صار» إلى كذا، ومعناه المرْجع، قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢) فأما المصدر من «صار الشيء كذا» فمصير وصَيْرورة، والقياس في مصدر «صار إليه» أي رجع «مَصاراً»، كمعاش، وإنما جمَع المصدر ها هنا لأن الخلائق يرجعون إلى الله تعالى في أحوالٍ مختلفة في الدّنيا وفي الدار الآخرة، فجمَع المصدر، وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير، لاختلاف وجوهه، كقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾(٣).

وعواقب الأمر: جمع عاقبة، وهي آخر الشيء.

ثم قَسّم الحمد، فجعله على ثلاثة أقسام:

أحدُها: الحمد على عظيم إحسانه وهو أصول نعمه تعالى، كالحياة والقدْرة والشهوة وغيرها مما لا يدخل جنسه تحت مقدور القادر.

---

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر القرطبي المتوفى سنة (٤٦٣هـ). «كشف الظنون» (١/ ٨١).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

وثانيها: الحمد على نيّر برهانه، وهو ما نصبه في العقول من العلوم البديهية المفضِية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله.

وثالثها: الحمد على أرزاقه النّامية، أي الزائدة وما يجري مجراها من إطالة الأعمار، وكثرة الأرزاق، وسائر ضروب الإحسان الداخلة في هذا القسم.

ثم بالغ في الحمد حمداً يكون لحقّه قضاء، ولشكره أداء، وذلك لأنّ الحمد والشكر ولو بلغ أقصى غاياته لم يصلْ إلى أن يكون قاضياً لحقّ الله تعالى، ولا مؤدّياً لشكره، ولكنّه قال ذلك على سبيل المبالغة.

ثم قال: «وإلى ثوابه مقرّباً، ولحسن مزيده موجباً»، وذلك لأنّ الشكر يوجِب الثواب والمزيد، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(١)، أي «أثبكم»، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢).

ثم شرع في الاستعانة بالله ففصّلها أحسنَ تفصيل، فذكر أنه يستعين به استعانة راجٍ لفضله في الآخرة، مؤمّل لنفعه في الدنيا، واثقٍ بدفعه المضارّ عنه، وذلك لأنّه أراد أن يحتويَ على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله، فذكر الأمورَ الإيجابيَّة، وأعقبها بالأمور السلبيّة، فالأولى جلب المنافع، والثانية دفع المضارّ. والطَّول: الإفضال. والإذعان: الانقياد والطاعة.

وأناب إليه: أقبل وتاب. وخنع: خضع، والمصدر الخنوع. ولاذ به: لجأ إليه.

الأصل: لَمْ يَولَدْ سُبْحانَهُ فَيَكُونَ فِي ٱلْعزِّ مُشارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ موروثاً هالِكاً. وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلاَ زَمانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيادَةٌ وَلاَ نُقْصَانٌ بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَماتِ التَّدْبيرِ المُتْقَنِ، وَالقَضَاءِ المُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمواتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاَ عَمَدٍ، قَائِماتٍ بِلا سَنَدٍ، دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعاتٍ مُذْعِناتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلاَ مُبْطِئاتٍ. وَلَوْلاَ إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ وَلاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِهِ، وَلاَ مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَٱلْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

الشرح: نفى عليه السلام أن يكون الباريء سبحانه مولوداً فيكون له شريك في العزّ والإلهيّة، وهو أبوه الذي ولده، وإنما قال ذلك جرياً على عادة ملوك البشر، فإن الأكثر أنّ الملِك

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

يكونُ ابنَ ملك قبله، ونفى أن يكون له ولد، جرياً أيضاً على عادة البشَر، في أنّ كلّ والدٍ في الأكثر، فإنّ يهلِك قبل هلاك الولد، ويرثه الولد، وهذا النّمَط من الاحتجاج يسمّى خطابة، وهو نافع في مواجهة العرَب به، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة، فتارةً تثبت في نفوس العلماء بالبرهان، وتارة تثبت في نفوس العوام بالخطابة والجدَل.

ثم نفى أنْ يتقدّمه وقت أو زمان، والوقت هو الزمان، وإنّما خالف بين اللفظيْن، وأتى بحرف العطف، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١).

ونفي أن يتعاوره، أي تختلف عليه زيادة أو نقصان، يقال: عاورت زيداً الضّرب، أي فعلت به من الضَّرْب مثل ما فعل بي، واعتوروا الشيء، أي تداولوه فيما بينهم، وكذلك تعوَّرُوه وتعاوروه، وإنّما ظهرت الواو في «اعتوروا»، لأنه في معنى «تعاوروا» فبنى عليه، ولو لم يكن في معناه لاعتلّت، كما قالوا: «اجتوروا» لمّا كان في معنى: «تجاوروا» التي لا بدّ من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها. واعتورت الرّياح رسم الدار: اختلفت عليه.

فإن قلت: هذا يقتضي أن يقول: «ولم يتعاوره زيادة ونقصان»، لأنّ التعاور يستدعي الضدّين معاً، ولا ينبغي أن يقول: «ولا نقصان»، كما لا يجوز أن تقول: لم يختلف زيد ولا عمرو.

قلت: لمّا كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال: «لا يعتوره الزيادة»، فكذلك القول في جانب النقصان، وجرى كلّ واحد من النوعين مجرَى أشياء متنافية، تختلف على الموضع الموصوف بها. قوله عليه السلام: «موطّدات»، أي ممهّدات مثبتات.

والعَمَد: جمع عماد، نحو إهاب وأهَب، وإدام وأدَم، وهو على خلاف القياس، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(٣). والسَّنَد: ما يستند إليه.

ثم قال: «دعا هنّ فأجبن طائعاتٍ»، هذا من باب المجاز والتوسّع، لأنّ الجماد لا يُدْعى، وأمّا من قال: إنّ السماوات أحياء ناطقة، فإنّه لم يجعلهنّ مكلّفات ليقال: ولولا إقرارهنّ له بالربوبيّة لما فعل كذا، بل يقول ذلك على وجهٍ أخر، ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز، نحو قول الراجز:

امْتَلأَ الْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي ... مَهْلاً رويداً قَدْ مَلأْتَ بَطْنِي

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الهمزة، الآية: ٩.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٠.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١١.

ومنه قول مكاتَب لبني مِنْقر التميميّين، كان قد ظلَع[1] بمكاتبته، فأتى قبر غالب بن صعصعة، فاستجار به، وأخذ منه حَصَيات فشدّهن في عمامته، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره، وقال: إني قد قلت شعراً، قال: هاته، فأنشده:

بقبر ابنِ لَيْلَى غالبٍ عذتُ بعدما خشيت الرَّدَى أو أن أردّ على قَسْرِ

بقبر امرئٍ يَقرِي المئين عظامُه ولم يكُ إلاّ غالباً مَيِّتٌ يقْرِي

فقال لي استقدمْ أمامك إنّما فَكاكك أن تلقى الفرزدقَ بالمصْرِ

فقال: ما اسمك؟ فقال: لهذم، قال: يا لهذم حكمك مسمّطاً، قال: ناقة كَوْماء سوداء الحدَقة، قال: يا جارية اطرحي لنا حبلاً، ثم قال: يا لهذم اخرج بنا إلى المِرْبد فألقِه في عنق ما شئت من إبل الناس. فتخيّر لهذم على عينه ناقةً، ورمى بالحبل في عنقها، وجاء صاحبها، فقال له الفرزدق: اغد عليّ أُوَفِّك ثمنها، فجعل لهذم يقودها، والفرزدق يسوقها، حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء، فصاح به الفرزدق: يا لهذم، قبح الله أخسرَنا! فخبّر الشاعر عن القبر، بقوله: «فقال لي استقدم أمامك» والقبر والميّت الذي فيه لا يخبران، ولكن العرب وأهل الحكمة من العجم يجعلون كلّ دليل قولاً وجواباً، ألا ترى إلى قول زهير:

أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تكلَّمِ

وإنما كلامها عنده أن تبيّن ما يرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها.

ومن كلام بعض الحكماء: هلا وقفت على تلك الجنان والحيطان، فقلت: أيتها الجِنان، أين مَنْ شقّ أنهارَك، وغرس أشجارَك، وجنى ثمارَك! فإن لم تجبك حِواراً، أجابتك اعتباراً!.

وقَالَ النعمان بن المنذر ومه عديّ بن زيد، في ظلّ شجرات مونِقات يشرب، فقال عديّ: أبيت اللعن! وأراد أن يعظه: أتدري ما تقول هذه الشجرات؟ قال: ما تقول؟ قال:

رُبّ ركْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بالماءِ الزُّلاَلِ

ثم أضحَوْا عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ وكَذَاك الدّهرُ يودِي بالرجالِ

فتنغّص النعمان يومه ذلك. والمذعِن: المنقاد المطيع. والمتلكّىء: المتوقف.

والكلم الطيّب: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله رسوله. والعمل الصالح: أداء الواجبات والنوافل، واللفظات من القرآن العزيز.

والمَصْعَد: موضع الصعود، ولا شبهة أنّ السماء أشرف من الأرض على رأي المليِّين وعلى رأي الحكماء، أمّا أهل المِلّة، فلأنّ السماء مصعد الأعمال الصالحة، ومحلّ الأنوار،

(١) ظلع: غمز وعرج في مشيه. اللسان مادة (ظلع).

ومكان الملائكة، وفيها العرش والكرسيّ، والكواكب المدبِّرات أمراً، وأمّا الحكماء فلأمور أخرى تقتضيها أصولهم.

الأصل: جَعَلَ نُجُومَها أَعْلاَماً يَسْتَدِلُّ بِها الحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجاجِ الأَقْطارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِها ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، وَلاَ اسْتَطاعَتْ جَلاَبِيبُ سَوَادِ الحَنادِسِ أَنْ تَرُدَّ ما شاعَ فِي السَّمٰوَاتِ مِنْ تَلأْلُوِ نورِ الْقَمَرِ، فَسُبْحانَ مَنْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ سَوادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلاَ لَيْلٍ سَاجٍ، فِي بِقاعِ الأَرَضِينَ المُتَطَاطِئاتِ، وَلاَ فِي يَفَاعِ السُّفْعِ المُتَجاوِرَاتِ، وما يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّماءِ، وما تَلاَشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمامِ، وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُها عَنْ مَسْقَطِها عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وَانهِطالُ السَّماءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّها، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّها، وَما يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِها، وما تَحْمِلُ من الأُنْثَى فِي بَطْنِها.

الشرح: اعلاماً، أي يستدلّ بها. والفجاج: جمع فَجّ، وهو الطريق في الجبل.

ثم قال: إنّ ادْلهمام سواد الليل - أي شدّة ظلمته - لم يمنع الكواكب من الإضاءة، وكذلك أيضاً لم يمنع ظلام الليل القمر من تلألؤ نوره، وإنّما خصّ القمر بالذِّكر وإن كان من جملة الكواكب، لشرفه بما يظهر للأبصار من عظم حَجْمه، وشدّة إضاءته، فصار كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾(١)، وقد روى بعض الرواة «ادلهمامَ» بالنصب، وجعله مفعولاً، «وضوءُ نورها» بالرفع وجعله فاعلاً، وهذه الرواية أحسن في صناعة الكتابة لمكان الازدواج، أي لا القمر ولا الكواكب تمنع الليل من الظّلمة، ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة.

والسُّجف: جمع سِجْف، وهو السِّتر، ويجوز فتح السين.

وشاع: تفرّق، والتلألؤ: اللّمعان. والجلابيب: الثياب. والغَسق: الظلمة، والساجي. الساكن. والدّاجي: المظلم، والمتطأطىء: المنخفض. والسّفع المتجاورات ها هنا: الجبال، وسماها سُفْعاً لأنّ السُّفْعة سواد مشرب بحمرة، وكذلك لونها في الأكثر.

واليَفاع: الأرض المرتفعة. والتّجلجل: صوت الرعد.

وما تلاشت عنه بروق الغمام، هذه الكلمة أهمَل بناءها كثير من أئمة اللغة، وهي صحيحة وقد جاءت ووردت. قال ابنُ الأعرابيّ: لَشَا الرّجُل، إذا اتّضع، وخَسّ بعد رفعة، وإذا صَحّ أصلُها صحّ استعمال النّاس، تلاشى الشيءُ، بمعنى اضمحّل.

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٦٨.

وقال القطب الراونديّ: تلاشى مركّب من «لا شيء»، ولم يقف على أصل الكلمة، وقد ظهر الآن أنّ معنى كلامه عليه السلام أنه سبحانه يعلم ما يصوت به الرّعد، ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق.

فإن قلت: وهل يقصد الرّعد بجلجلته معنى معقولاً ليقال: إنّ الباريء يعلمه! ثم ما المراد بكونه عالماً بما يضمحلّ البرق عنه؟

قلت: قد يكون تعالى يحدِث في الرّعد جلجلة، أي صوتاً ليهلك به قوماً، أو لينفع به قوماً، فعلْمه بما تتضمنّه تلك الجلجلة هو معنى قولنا: يعلم ما يصوّت به الرعد، ولا ريب أنّ البرْق يلمع فيضيء أقطاراً مخصوصة، ثم يتلاشى عنها، فالباريء سبحانه عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرقِ عنها.

فإن قلت: هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق، وبما لا يضيئه، فلماذا خصّ بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق؟

قلت: لأنّ علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب وأغرب؛ لأنّ ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة، فأراد عليه السلام أنْ يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر، ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتمّ وأكمل.

والعواصف: الرّياح الشديدة، وأضافها إلى الأنواء، لأنّ أكثر ما يكون عَصَفَانُها في الأنواء، وهي جمع نَوْء، وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلاً له من ساعته، ومدة النّوء ثلاثة عشر يوماً، إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً.

قال أبو عبيد: ولم يسمع في النَّوْء أنّه المسقوط إلا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف الرياح والأمطار والحرّ والبرد إلى الساقط منها.

وقال الأصمعيّ: بل إلى الطالع في سلطانه، فتقول: مُطرنا بنوء كذا وكذا، ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك[1]، والجمع أنواء ونُوآن أيضاً، مثل بَطْن وبُطْنان وعَبْد وعُبدان، قال حسان بن ثابت:

وَيَشْرِبُ تَعْلَمُ أنَّا بِهَا ... إذا قَحَطَ القَطْرُ نُوآنُها

والانهطال: الانصباب. ومسقط القطرة من المطر: موضع سقوطها، ومقرّها: موضع قرارها، ومسحب الذّرة الصغيرة من النمل ومجرّها: موضع سحبها وجرّها.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الناس الإمام إذا سلم (٨٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مُطِرنا بالنوء (٧١).

وهذا الفصل من فصيح الكلام ونادره، ويتضمّن من توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ما يشهد لنفسه.

الأصل: والحَمْدُ لله الْكائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ او عَرْشٌ أَوْ سَماءٌ أَوْ أَرضٌ أَوْ جانٌّ أَوْ إنسٌ، لاَ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ، وَلاَ يَشْغَلُهُ سائِلٌ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نائِلٌ، وَلا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، ولا بأيْنٍ، وَلاَ يُوصَفُ بالأزْواجِ، وَلاَ يَخْلُق بِعلاَجٍ، وَلاَ يُدْرَكُ بِالحَواسِّ، وَلاَ يُقاسُ بِالنَّاسِ.

الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وأرَاهُ مِنْ آياتِهِ عَظِيماً، بِلاَ جَوَارِحَ وَلاَ أَدَواتٍ، وَلاَ نُطْقٍ وَلاَ لَهَوَاتٍ، بَلْ إنْ كُنْتَ صادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكِلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكائِيلَ، وَجُنُودَ المَلاَئِكَةِ المُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهةً عَقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الخَالِقِينَ. وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِفَّاتِ ذَوُو الْهَيْئاتِ والأدَوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَناء. فَلاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ أضاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

الشرح: ليس يعني بالكائن ها هنا ما يعنيه الحكماء والمتكلّمون، بل مراده الموجود، أي هو الموجود قبل أن يكون الكرسيّ والعرش وغيرهما. والأوائل يزعمون أنّ فوق السّموات السبع سماءً ثامنة، وسماء تاسعةً، ويقولون: إنّ الثامنة هي الكرسيّ، وإنّ التاسعة هي العرش.

قوله عليه السلام: «لا يدرَكُ بوهْم»، الوهم ها هنا: الفكْرة والتوهّم.

ولا يقدّر بفهم، أي لا تستطيع الأفهام أن تقدّره وتحدّه.

ولا يشغَلُه سائل كما يشغل السؤال مِنّا من يسألونه.

ولا ينقصه العطاء، كما ينقص العطاء خزائن الملوك.

ولا يبصَر بجارحة، ولا يحدّ بأيْن، ولفظة «أين» في الأصل مبنيّة على الفتْح، فإذا نكَّرتها صارت اسماً متمكّناً، كما قال الشاعر:

لَيْتَ شِعْرِي وأيـن مـنّـيَ ليتٌ ... إن «اليتاً» وإنّ «لوًّا» عناءُ

وإن شئت قلت: إنّه تكلّم بالاصطلاح الحكْميّ. والأين عندهم: حصول الجسم في المكان، وهو أحد المقولات العشر.

قوله عليه السلام : ولا يوصَف بالأزواج، أي صفات الأزواج، وهي الأصناف، قال سبحانه: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(١).

قوله: «ولا يَخْلُق بعلاج»، أي لا يحتاج في إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة.

قوله: «وكلّم مُوسى تكليماً» من الألفاظ القرآنية، والمراد ها هنا من ذكْر المصدر تأكيد الأمر وإزالة لَبْسٍ عساه يصلح للسامع، فيعتقد أنّه أراد المجاز، وأنّه لم يكن كلامٌ على الحقيقة.

قوله: «وأراه من آياته عظيماً»، ليس يريد به الآيات الخارجة عن التّكليم، كانشقاق البحر، وقلْب العصا، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله: «تكليماً»، وقوله: «بلا جوارح ولا أدوات، ولا نطق ولا لهوات»، مستهجَناً، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيماً من آياته، وذلك أنه كان يسمع الصوت من جهاتِه الستّ، ليس على حدّ سماع كلام البشر من جهة مخصوصة، وله دويٌّ وصلصلة كوقع السّلاسل العظيمة على الحصا الأصمّ.

فإن قلت: أتقول إنّ الكلام حلّ أجساماً مختلفة من الجهات الستّ؟

قلت: لا وإنّما حلّ الشّجرة فقط، وكان يُسمَع من كلّ جهة، والدليل على حلوله في الشّجرة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾(٢)، فلا يخلو إمّا أن يكونَ النداء حلّ الشّجرة، أو المنادي حلّها، والثاني باطل، فثبت الأوّل.

ثم قال عليه السلام لمن يتكلّف أن يصفَ ربّه: إن كنت صادقاً، أنّك قد وصلتَ إلى معرفة صِفَته، فصفْ لَنا الملائكة، فإنّ معرفة ذات الملك أهونُ من معرفة ذات الأول سبحانه.

وحُجُرات القدس: جمع حُجْرة. ومرجحِنِّين: مائلين إلى جهة «تحت» خضوعاً لجلال الباريء سبحانه، ارجحنّ الحَجر، إذا مال هاوياً، متولّهة عقولهم، أي حائرة.

ثم قال: إنّما يدرَك بالصفات، ويعرف كنه ما كان ذا هيئة وأداة وجارحة، وما ينقضي ويفنى ويتطرّق إليه العدم، وواجب الوجود سبحانه بخلاف ذلك.

وتحت قوله: «أضاء بنوره كلّ ظلام. . . .» إلى آخر الفصل، معنى دقيق وسرٌّ خفيّ، وهو أنّ كلّ رذيلة في الخلق البشريّ مع معرفته بالأدِلّة البرهانية غير مؤثّرة ولا قادحة في جلالة المقام الذي قد بلغ إليه، وذلك نحو أن يكون العارف بخيلاً أو جباناً، أو حريصاً أو نحو ذلك، وكلّ فضيلةٍ في الخلْق البشريّ مع الجهل به سبحانه، فليست بفضيلةٍ في الحقيقة ولا معتدَّ بها، لأنّ

(١) سورة قٓ، الآية: ٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠.

نقيصة الجهل به تكثيف تلك الأنوار، وتمحَقُ فضلها، وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جواداً، أو شجاعاً، أو عفيفاً، أو نحو ذلك، وهذا يطابق ما يقوله الأوائل، من أنّ العارف المذنب يشقَى بعد الموت قليلاً، ثم يعود إلى النعيم السرمديّ، وأنّ الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاء مؤبّداً ومذهب الخلّص من مُرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات، ويقال: إنّه مذهب أبي حنيفة رحمه الله. ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأنْ يقال: كلّ ظلام من المعاصي الصغائر، فإنه ينجلي بضياء معرفته وطاعته، وكلّ طاعة يفعلها المكلّف مع الكفر به سبحانه، فإنها غير نافعة ولا موجبة ثواباً، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومه إلى خصوصه.

الأصل: أوصِيكُمْ عِبَادَ ٱلله بِتَقْوَى ٱلله الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ المَعَاشَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ المَوْتِ سَبِيلاً، لَكانَ ذَٰلِكَ سُلَيْمانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ المَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيارُ مِنْهُ خالِيَةً، وَالمَساكِنُ مُعَطَّلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحابُ مَدَائِنِ ٱلرَّسِّ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَئُوا سُنَنَ ٱلْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ ٱلْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِين سَارُوا بِالْجُيُوش، وَهَزَمُوا الأُلُوفَ، وَعَسْكَرُوا ٱلْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا ٱلْمَدَائِنَ!

الشرح: الرّياش: اللّباس. وأسبغ: أوسع، وإنّما ضربَ المثل بسليمان عليه السلام، لأنه كان مَلِك الإنس والجنّ، ولم يحصل لغيره ذلك، ومن النّاس مَنْ أنكر هذا؛ لأن اليهود والنصارى يقولون: إنّه لم يتعدّ ملكُه حدود الشام، بل بعض الشام، وينكرون حديث الجنّ والطير والريح، ويحمِلُون ما ورد من ذلك على وجوهٍ وتأويلاتٍ عقلية معنوية، ليس هذا موضع ذكرها.

والزُّلْفة: القرب. والطُّعْمة، بضم الطاء: المأكلة، يقال: قد جعلت هذه الضيْعَة طُعمة لزيد.

والقِسِيّ: جمع قَوس، وأصلها «قووس» على «فعول»، كضرب وضروب، إلاّ أنهم قدمّوا اللام، فقالوا «قُسُوّ» على «فلوع»، ثم قلبت الواو ياء، وكسروا القاف كما كسروا عين «عصيّ» فصارت «قِسِيّ».

نسب العمالقة وعاد وثمود والفراعنة وأصحاب الرس

والعمالقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح، كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم، فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام، ومنهم طسم بن لاوذ أخوه.

ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما، وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسْم، فلما ملكهم عملاق بن طسم، بغي وأكثر الفساد في الأرض، حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بَعْلِها، وإن كانت بكراً افتضّها قبل وصولها إلى البعل، ففعل ذلك بامرأةٍ من جَدِيس، يقال لها غفيرة بنت غفار، فخرجت إلى قومها، وهي تقول:

لا أحـــدٌ أذلَّ مِـــن جـــديـــسِ[1] أهــكــذا يــفــعــل بــالــعــروسِ!

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار، وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته، فصنع الأسود طعاماً، ودعا عملاق الملك إليه، ثم وثب به وبطسْم، فأتى على رؤسائهم، ونجا منهم رياح بن مرّ، فصار إلى ذي جيشان بن تبّع الحميري ملك اليمن، فاستغاث به، واستنجده على جَدِيس، فسار ذو جيشان في حِمْيَر، فأتى بلاد جَوّ، وهي قصبة اليمامة، فاستأصل جديساً كلّها، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديسٍ باقية، ولا لطسْمٍ إلا اليسير منهم.

ثم ملك بعد طسْم وجديس وبار بن أُمَيم بن لاوذ بن إرم، فسار بولده وأهله، فنزل بأرض وبار، وهي المعروفة الآن برمل عالِج، فبغوْا في الأرض حيناً حتى أفناهم الله ثم مَلَك الأرضَ بعد وبار عبد ضَخْم بن أثَيْف بن لاوذ، فنزلوا بالطائف حيناً، ثم بادوا.

وممّن يعدّ مع العمالقة عاد وثمود، فأما عاد فهو عاد بن عويص بن إرم بن سام بن نوح، كان يعبد القمر، ويقال: إنه رأى من صُلْبِه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف، وإنه نكح ألف جارية، وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن، وهي من شِحْر عُمان إلى حَضَرموت، ومن أولاده شدّاد بن عاد، صاحب المدينة المذكورة.

وأمّا ثمود، فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانت دياره بين الشّام والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة.

قوله عليه السلام: «أين الفراعنة، وأبناء الفراعنة، جمع فِرْعون، وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن الريّان فرعون يوسف، ومنهم الوليد بن مُصْعب فرعون موسى.

ومنهم فرعون بن الأعرج الّذي غزا بني إسرائيل وأخربَ بيت المقدس.

(١) جديس: قبيلة كانت في الدهر الأول فانقرضت، اللسان، مادة (جدس).

قوله عليه السلام: «أين أصحاب مدائن الرسّ؟»، قيل: إنهم أصحابُ شعيب النبي عليه السلام، وكانوا عَبَدَة أصنام، ولهم مواشٍ وآبار يُسْقَوْن منها.

والرسّ: بئر عظيمة جداً انخسفت بهم، وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلّها وديارهم. وقيل: الرسّ قرية بفلْج اليمامة، كان بها قوم من بقايا ثمود بَغَوْا، فأهلكوا.

وقيل: قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز، وكانت العنْقاء تختطِف صبيانَهم فتقتلهم، فدعوُا الله أن ينقِذهم منها، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى الدّين على أن يقتل العنقاء، فشارطوه على ذلك فدعا عليها، فأصابتها الصاعقة، فلم يفُوا له وقتلوه، فأهلكوا.

وقل: هم أصحاب الأخدود، والرسّ، هو الأخدود. وقيل: الرسّ أرض بأنطاكيّة قتل فيها حَبيب النجار.

وقيل: بل كذّب أهلها نبيَّهم ورسُّوه في بئر، أي رمَوْه فيها.

وقيل: إن الرسّ نهر في إقليم الباب، والأبواب مبدؤه من مدينة طراز، وينتهي إلى نهر الكرّ، فيختلط به حتى يصبّ في بحر الخزر، كان هناك ملوك أولو بأس وقدرة، فأهلكهم الله ببغيهم.

الأصل: منها: قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَها، وَأَخَذَها بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الإِقْبالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا، فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُها، وَحاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْها، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الإِسْلاَمُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ، وَأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّةٌ مِنْ بَقايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلاَئِفِ أَنْبِيائِهِ.

الشرح: هذا الكلام فسّره كلّ طائفة على حسب اعتقادها، فالشِّيعة الإماميّة، تزعم أنّ المرادَ به المهدي المنتظر عندهم، والصوفيّة يزعمون أنه يعني به وليّ الله في الأرض، وعندهم أنّ الدنيا لا تخلُو عن الأبدال، وهم أربعون، وعن الأوتاد، وهم سبعة، وعن القطب وهو واحد، فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه، وصار أحد الأربعين وتِداً، عوض الوَتِد، وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم الله تعالى أبدالاً عوض ذلك البدَل.

وأصحابُنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلِي الأمة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدْل والتوحيد، وأنّ الإجماع إنّما يكون حجّةً باعتبار أقوال أولئك العلماء، لكنه لما تعذّرت معرفتهم بأعيانهم، اعتبر إجماع سائر العلماء، وإنّما الأصل قول أولئك.

قالوا: وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة، ولكنه يصف حال كلِّ واحد منهم، فيقول: من صفته كذا، ومن صفته كذا.

والفلاسفة يزعمون أنّ مرادَه عليه السلام بهذا الكلام العارف، ولهم في العرفان وصفات أربابه كلام يعرِفه مَنْ له أنس بأقوالهم. وليس يبعد عندي أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في آخر الوقت، إذا خلقه الله تعالى، وإن لم يكن الآن موجوداً، فليس في الكلام ما يدلّ على وجوده الآن، وقد وقع اتفاق الفِرَق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه.

قوله عليه السلام: «قد لبس للحكمة جُنّتها»، الْجُنّة: ما يستتر به من السّلاح كالدِّرْع ونحوها، ولبس جنّة الحِكْمة قمع النفس عن المشتهيات، وقطع علائق النفس عن المحسوسات، فإنّ ذلك مانع للنفّس عن أن يصيبها سهام الهوى، كما تمنع الدّرع الدَّارع عن أن يصيبه سهام الرِّماية.

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص، فقال: «وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها»، أي شدّة الحرص والهمة.

ثم قال: «والمعرفة بها»، أي والمعرفة بشرَفِها ونفاستها.

ثم قال: «والتفرّغ لها»؛ لأن الذهن متى وجّهته نحو معلومين تخبّط وفسد، وإنما يدرك الحكمة بتخلية السرّ من كلّ ما مرّ سواها.

قال: «فهيَ عند نفسه ضالّته التي يطلبها»، هذا مثل قوله صلى الله عليه وآله: «الحكْمة ضالّة المؤمن»[١] ومن كلام الحكماء: لا يمنَعْك من الانتفاع بالحكْمة حقارة مَنْ وجدتَها عنده، كما لا يمنعك خبث تراب المعدِن من التقاط الذّهب.

ووجدت بخط أبي محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله في تعاليق مسوّدة أبياتاً للعَطَويّ، وهي:

قد رأينا الغزّال والغصن والنَّجْمَيْـ ... ـن شمس الضحى وبدْر التّمام
فوحقّ البيان يعضُده البُرْ ... هانُ في مأقِطٍ شديد الخِصَام[٢]
ما رأينا سوى المليحة شيئاً ... جَمع الحسن كلَّه في نظامِ
هي تجري مجرى الأصالة في الرأ ... يِ ومَجْرَى الأرواح في الأجسام

(١) أخرجه الترمذي في العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٧)، وابن ماجه في «الزهد»، باب: الحكمة (٤١٦٩).

(٢) المأقِط: الموضع الذي يقتلون فيه. اللسان، مادة (أقط).

وقد كتب ابن الخشاب بخطّه تحت «المليحة»: ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة! قوله عليه السلام: «وحاجته التي يسأل عنها»، هو مثل قوله: «ضالّته التي يطلبها».

ثم قال: «هو مغترب إذا اغترب الإسلام»، يقول هذا الشخص يُخْفِي نفسَه ويحملها إذا اغترب الإسلام، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجوْر على الصَّلاَح والعدل، قال ﷺ: «بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود كما بدأ»(١).

قال: «وضرب بعسيب ذَنَبِه، وألصق الأرض بِجرانه»، هذا من تمام قوله: «إذا اغترب الإسلام»، أي إذا صار الإسلام غريباً مقهوراً، وصار الإسلام كالبعير البارِكِ يضرب الأرض بعَسِيبه، وهو أصلُ الذَّنَب، ويلصق جِرانه - وهو صدره - في الأرض، فلا يكون له تصرّف ولا نهوض.

ثم عاد إلى صفة الشخّص المذكور.

وقال: «بقيّة من بقايا حججه، خَلِيفة من خلائف أنبيائه»، الضمير ها هنا يرجع إلى الله سبحانه وإنْ لم يجرِ ذكره، للعلم به، كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(٢)، ويمكن أن يقال: إنّ الضمير راجع إلى مذكور وهو الإسلام، أي من بقايا حجج الإسلام وخليفة من خلائف أنبياء الإسلام.

فإن قلت: ليس للإسلام إلا نبيّ واحد.

قلت: بل له أنبياء كثير، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾(٤).

وكلّ الأنبياء دَعَوْا إلى ما دعا إليه محمد ﷺ من التوحيد والعدل، فكلّهم أنبياء للإسلام.

فإن قلت: أليس لفظ «الحجّة» ولفظ «الخليفة» مشعراً بما تقوله الإماميّة؟

قلت: لا، فإنّ أهل التصوف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة، وكذلك الفلاسفة، وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كلّ عصر، لأنّهم حجج الله، أي إجماعهم حجّة، وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكُموا بحكمه.

وعلى ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً (١٤٥). وابن ماجه في الفتن، باب: بدأ الإسلام غريباً (٣٩٨٦)، وأحمد في «مسنده» (١٦٢٤٩).

(٢) سورة صٓ، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٣.

الأصل: ثم قال عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ ٱلْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ بِهَا ٱلْأَنْبِيَاءُ أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ ٱلْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا.

لله أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ، أَلاَ إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ ٱللهِ ٱلْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لاَ يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْآخِرَةِ لاَ يَفْنَى!

مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا ٱلَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ بِصِفِّينَ أَلاَّ يَكُونُوا ٱلْيَوْمَ أَحْيَاءً، يُسِيغُونَ ٱلْغُصَصَ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ وَٱللهِ لَقُوا الله فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ ٱلْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ!

أَيْنَ إِخْوَانِي ٱلَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى ٱلْحَقِّ! أَيْنَ عَمَّارٌ! وَأَيْنَ ٱبْنُ التَّيِّهَانِ! وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ! وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى المنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى ٱلْفَجَرَةِ!

قال: ثُمَّ ضربَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بيده إِلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفة ٱلْكَرِيمَة، فَأَطال ٱلْبُكَاءَ، ثم قال عليه السلام: أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِي ٱلَّذِينَ قَرَؤوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا ٱلْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ! أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَأَمَاتُوا ٱلْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ. ثم نادى بأعلى صوته: ٱلْجِهَادَ ٱلْجِهَادَ عِبَادَ ٱللهِ! أَلاَ وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذا، فَمَنْ أَرادَ الرَّوَاحَ إِلَى ٱللهِ فَلْيَخْرُجْ.

قالَ نَوْفٌ: وَعقد للحسين عليه السلام في عَشَرة آلافٍ، ولقيس بن سعدٍ رحمه الله في عشرة آلافٍ، ولأبي أيُّوب الأنصاريّ في عشرةِ آلاف، ولغيرِهم على أعدادٍ أُخر، وهو يريد الرَّجْعَةَ إلى صِفّين فما دارت الجمعةُ حتى ضربه الملعون ابنُ الملجم لعنه ٱلله، فتراجعت العساكر، فكنا كأغنامٍ فقدت راعيَها، تختطفها الذئاب من كل مكانٍ!

الشرح: بثثتُ لكم المواعظ: فرّقتُها ونشرتُها. والأوصياء: الذين يأتمنُهم الأنبياء على الأسرار الإلٰهية، وقد يمكن ألاّ يكونوا خلفاء بمعنى الإمرة والولاية، فإنّ مرتبتهم أعلَى من مراتب الخلفاء.

وحدوتكم: سقتكم كما تحدَى الإبل. فلم تستوسقوا، أي لم تجتمعوا، قال:

مستوسقاتٍ لم يجِدْن سائِقاً

قوله: «يطأ بكم الطريق»، أي يحملكم على المِنْهاج الشرعيّ، ويسلك بكم مسلَك الحقّ، كأنّه جعلهم ضالّين عن الطريق التي يطلبونها.

وقال: أتريدون إماماً غيري يوقفكم على الطريق التي تطلبونها حتى تطؤوها وتسلكوها!

ثم ذكر أنّه قد أدبَر من الدّنيا ما كان مقبلاً، وهو الهدى والرشاد، فإنّه كان في أيّام رسول الله ﷺ وخلفائه مقبِلاً، ثم أدبر عند استيلاء معاوية وأتباعه، وأقبل منها ما كان مدبراً، وهو الضلال والفساد، ومعاوية عند أصحابنا مطعون في دينه، منسوبٌ إلى الإلحاد، قد طعن فيه ﷺ، وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصريّ في كتاب «نقض السُّفْيانيّة» على الجاحظ، وروي عنه أخباراً كثيرة تدلُّ على ذلك، وقد ذكرناها في كتابنا في «مناقضة السفيانيّة».

وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب «أخبار الملوك» أنّ معاوية سمع المؤذّن يقول «أشهد أن لا إله إلا الله»، فقالها ثلاثاً، فقال: أشهد أن محمداً رسول الله! فقال: لله أبوك يابن عبد الله! لقد كنتَ عاليَ الهمّة، ما رضيتَ لنفسك إلاّ أن يقرَنَ اسمُكَ باسم ربِّ العالمين!

قوله عليه السلام: «وأزمَع التّرحال» أي ثبت عزمُهم عليه، يقال: أزمعتُ الأمرَ، ولا يقال: أزمعتُ على الأمر، هكذا يقول الكسائيّ، وأجازه الخليل والفرّاء.

ثم قال عليه السلام: إنّه لم يضرّ إخواننا القتلَى بصِفّين كونهم اليوم ليسوا بأحياء حياتنا المشوبة بالنّغص والغُصَص.

ويقال: ماء رنْق، بالتسكين، أي كدر، رنِق الماء بالكسر، يرنق رنقاً فهو رَنْق، وأرنقته، أي كدّرته، وعيش رَنِق بالكسر، أي كَدِر.

ثم أقسم إنّهم لَقُوا الله فوفّاهم أجورهم، وهذا يدلّ عَلَى ما يذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر وعذابه.

ثم قال عليه السلام: «أين إخواني»؟ ثم عدّدهم، فقال: «أين عمار».

اخبار عمار بن ياسر

وهو عمّار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسيّ - بالنّون - المذحِجيّ، يكنى أبا اليقظان، حليف بني مخزوم.

ونحن نذكر طرَفاً من أمره من كتاب «الاستيعاب» لأبي عمر بن عبد البرّ المحدّث. قال أبو عمر: كان ياسر والد عَمّار عربيًّا قحطانياً، من عَنْس في مذحِج، إلاّ أنّ ابنَه عمّاراً كان مولى لبني مخزوم، لأنّ أباه ياسراً قدِمَ مكّة مع أخوين له، يقال لهما: مالك والحارث، في طلب أخ

لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكّة، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فزوّجه حذيفة أمَةً يقال لها سُمَيّة، فأولدها عمّاراً، فأعتقه أبو حذيفة، فمن ها هنا كان عمّار مولى بني مخزوم. وأبوه عربيّ، لا يختلفون في ذلك، وللحِلْف والوَلاء الّذي بين بني مخزوم وعمّار وأبيه ياسر كان احتمال بني مخزوم على عثمان، حين نالَ من عمّار غلمان عثمان ما نالوا من الضّرب، حتى انفتق له فَتْقٌ في بطنه، زعموا، وكسروا ضِلَعاً من أضلاعه، فاجتمعت بنو مخزوم، فقالوا: والله لئِنْ مات لا قتلْنا به أحداً غيرَ عثمان!

قال أبو عمر: كان عمّار بن ياسر ممّن عُذّب في الله ثم أعطاهم عَمّارٌ ما أرادوا بلسانه، واطمأنّ الإيمان بقلْبه، فنزل فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[١]، وهذا ممّا أجمع عليه أهل التفسير.

وهاجر إلى أرضِ الحبَشة، وصلى إلى القبْلتين، وهو من المهاجرين الأوّلين، ثم شهِد بدراً والمشاهِدَ كلّها، وأبلى بلاءً حسناً، ثم شهِدَ اليمامة، فأبلَى فيها أيضاً يومئذٍ، وقطِعَتْ أذُنه.

قال أبو عمر: وقد روى الواقديّ، عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر، قال: رأيتُ عمّاراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح: يا معشرَ المسلمين، أمِنَ الجنّة تفِرّون؟ أنا عمّار بن ياسر، هلمُّوا إليّ! وأنا أنظُر إلى أذنه قد قطعت، فهي تذبذب، وهو يقاتل أشدّ القتال.

قال أبو عمر: وكان عَمّار آدمَ طُوالاً مضطرباً أشْهَلَ[٢] العينين، بعيدَ ما بين المنكبين، لا يغيّر شيبه.

قال: وبلَغنا أنّ عَمّاراً قال: كنتُ تِرْباً لرسول الله ﷺ في سِنّه، لم يكن أحدٌ أقرَبَ إليه منّي سنًّا.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾: إنه عمار بن ياسر، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٣] إنه أبو جهل بن هشام.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «إنّ عمّاراً ملىء إيماناً إلى مُشَاشه»[٤].

ويروى إلى أخمص قدميه.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
(٢) الشهلة في العينين: أن يشوب سواهما زرقة. اللسان، اللسان، مادة (شهل).
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.
(٤) أخرجه الإمامة في المقدمة، باب: فضل عمار بن ياسر (١٤٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٩)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٩٥) والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤١٣) والنسائي في الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان (٥٠٠٧).

وروَى أبو عمر عن عائشة، أنها قالت: ما من أحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه إلاّ قلت، إلا عمار بن ياسر، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّه ملىء إيماناً إلى أخمص قدميه»(١).

قال أبو عمر: وقال عبد الرحمن بن أبزَى: شَهِدنا مع عليّ عليه السلام صِفّين ثمانمائة ممّن بايع بيْعة الرضوان، قتل مِنّا ثلاثة وستون، منهم عَمّار بن ياسر.

قال أبو عمر: ومن حديث خالد بن الوليد، أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أبغض عَمّاراً أبغضه الله»(٢)، فما زلتُ أحبّه من يومئذٍ.

قال أبو عمر: ومن حديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنّ عمّاراً جاء يستأذِنُ عَلَى رسول الله ﷺ يوماً، فعرف صوته، فقال: «مَرْحَباً بالطيّب المطيَّب - يعني عَمّاراً - ائذنوا له»(٣).

قال أبو عمر: ومن حديث أنَس عن النبي ﷺ: «اشتاقَتِ الجنّة إلى أربعة: عليّ، وعمار، وسلمان، وبلال»(٤).

قال أبو عمر: وفضائل عمّار كثيرة جداً يطول ذكرها.

قال: وروى الأعمش، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ، قال: شهِدْنا مع على عليه السلام صِفّين، فرأيت عمّار بن ياسر لا يأخذ في ناحية ولا وادٍ من أوْدِية صفّين، إلاّ رأيتُ أصحاب محمد ﷺ يتّبعونه، كأنه علَم لهم. وسمعتُه يقول يومئذ لهاشم بن عتبة: يا هاشم، تقدّم، الجنّة تحت البارقة.

الْيَوْم ألْقَى الأحِبَّهْ مُحَمَّداً وَحِزْبَهْ

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرَ لعلمنا أنّا على الحق، وأنهم على الباطل، ثم قال:

نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تنزيلِهِ فَالْيَوْمَ نضربُكُمْ على تأويلِهِ

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١٣٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٣٧٣) والحاكم في «مستدركه» (٣/ ٣٩١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب عمار بن ياسر (٣٧٩٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٤٦). وأحمد في «مسنده» (٧٨١).

(٤) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٦٦٦) بلفظ: «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان» والترمذي في المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل (٣٧٩٦).

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ ويُذْهِلُ الخليل عن خليلِهِ
أو يرجع الحق على سبيلِهِ

فلم أر أصحاب محمد ﷺ قتِلوا في موطن، ما قتلوا يومئذ.

قال: وقد قال أبو مسعود البدريّ وطائفة لحُذَيْفة حين احتُضِر، وقد ذكر الفتنة: إذا اختلَف النّاس فبِمنْ تأمرنا؟ قال: عليكم بابن سميّة، فإنّه لن يفارق الحقَّ حتى يموت - أو قال: فإنّه يزول مع الحقّ حيث زال.

قال أبو عمر: وبعضهم يجعل هذا الحديث عن حُذيفة مرفوعاً.

قال أبو عمر: وروى الشّعبيّ، عن الأحنف، أن عمّاراً حمِل يوم صِفّين، فحمل عليه ابن جَزْء السَّكْسَكِيّ، وأبو الغادية الفَزَاريّ، فأمّا أبو الغادية فطعنه، وأمّا ابن جزء فاحتزّ رأسه.

قلت: هذا الموضع ممّا اختلف فيه قول أبي عمر رحمه الله، فإنه ذكر في كتاب الكنى من «الاستيعاب» أبا الغادية - بالغين المعجمة - وقال: إنه جُهَنيّ من جُهينة، وجُهينة من قُضاعة، وقد نسبه ها هنا فَزاريًا.

وقال في كتاب الكنى: إنّ اسم أبي الغادية يسار، وقيل مسلم.

وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب «المعارف»(١) عن أبي الغادية أنّه كان يحدّث عن نفسه بقتل عمار، ويقول: إنّ رجلاً طعنه فانكشف المُغْفَر عن رأسه، فضربت رأسه، فإذا رأس عمّار قد نَدَر. وكيفية هذا القتل تخالف الكيفيّة التي رواها ابن عبد البرّ.

قال أبو عمر: وقد روى وَكيع، عن شعبة، عن عبد بن مرّة، عن عبد الله بن سلَمة، قال: لكأنّي أنظُر إلى عمّار يوم صِفّين وهو صريع، فاستسقَى، فَأُتِيَ بشربة من لبن فشرب، فقال:

اليوم ألقى الأحِبَّهْ

إن رسول الله ﷺ عهِد إليّ أنّ آخرَ شَرْبة أشرَبُها في الدّنيا شربة من لبن، ثم استسقى ثانية فأتته امرأة طويلة اليدين بإناء، فيه ضَيَاح من لبن، فقال حين شَرِبه: الحمدُ الله، الجنّة تحت الأسِنّة، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَفاتِ هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنهم على الباطل، ثم قاتل حتى قُتل.

قال أبو عمر: وقد رَوَى حارثة بن المضراب: قرأت كتابَ عمر إلى أهل الكوفة: أمّا بعد، فإنّي بعثت إليكم عَمّاراً أميراً، وعبد الله بن مسعود معلّماً ووزيراً، وهما من النُّجباء، من أصحاب محمّد، فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما، فإنّي قد آثرتكم بعبدِ الله عَلَى نفسي أثَرَةً.

---

(١) المعارف في التاريخ: لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المتوفى سنة (٢٦٧هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٧٢٤).

قال أبو عمر: وإنّما قال عمر: هُمَا من النُّجباء، لقول رسول الله ﷺ. «إنّه لم يكن نبيٌّ إلا أعْطِيَ سبعة من أصحابه نجباء وزراء فقهاء، وإنّي قد أعطيتُ أربعةَ عشر: حمزة، وجعفراً، وعليًّا، وحسناً، وحسيناً، وأبا بكر، وعمر، وعبد الله بن مسعود، وسلْمان، وعَمّاراً، وأبا ذرّ، وحُذَيفة، والمقْداد، وبلالاً»[1].

قال أبو عمر: وتواترتِ الأخبار عَنْ رسول الله ﷺ أنّه قال: «تقتُلُ عمّاراً الفئة الباغية»[2]، وهذا من إخباره بالغيب، وأعلام نبوّته ﷺ، وهو من أصح الأحاديث.

وكانت صِفين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين، ودفَنَه عليٌّ عليه السلام في ثيابه ولم يغسّله.

وروى أهلُ الكوفة أنّه صلّى عليه، وهو مذهبهم في الشّهداء، أنّهم لا يغسَّلون ولكن يصلى عليهم.

قال أبو عمر: وكانت سنّ عمّار يوم قُتِل نَيّفاً وتسعين، سنة، وقيل: إحدى وتسعين، وقيل: اثنتين وتسعين، وقيل: ثلاثاً وتسعين.

أخبار أبي الهيثم ابن التيهان

ثم قال عليه السلام: «وأين ابن التَّيِّهان»، هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، بالياء المنقوطة، باثنتين تحتها، المشددة المكسورة، وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، واسمه مالك، واسم أبيه مالك أيضاً، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري، أحدُ النُّقَباء ليلة العقَبة. وقيل: إنه لم يكن من أنفسِهم، وإنّه من بَلِيّ بن أبي الحارث بن قُضاعة، وإنَّه حليفٌ لبني عبد الأشهل، كان أحدَ النّقباء ليلة العقبة، وشهد بدراً.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»: اختلف في وقت وفاته، فذكر خليفة، عن الأصمعيّ، قال: سألتُ قومَه، فقالوا: مات في حياة رسول الله ﷺ.

قال أبو عمر: وهذا لم يتابع عليه قائله. وقيل: إنّه توفّيَ سنة عشرين، أو إحدى وعشرين. وقيل: إنه أدْرَك صِفّين، وشهدها مع عليّ عليه السلام، وهو الأكثر. وقيل: إنه قتل بها. ثم قال أبو عمر: حدّثنا خَلَف بن قاسم، قال: حدّثنا الحسن بن رشيق، قال: حدّثنا الدُّولابيّ، قال:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب: مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٣٧٨٥) وأحمد في «مسنده» (١٢٦٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٠٤٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٥).

حدثنا أبو بكر الوجيهيّ، عن أبيه، عن صالح بن الوجيه، قال: وممّن قُتِل بصفّين عمّار، وأبو الهيثم بن التَّيهان، وعبد الله بن بُدَيْل، وجماعة من البدريّن رحمهم الله.

ثم روى أبو عُمر روايةً أخرى، فقال: حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: حدثنا عثمان بن أحمد بن السمّاك، قال: حدّثنا حنبل بن إسحاق بن عليّ، قال: قال أبو نُعيم: أبو الهيثم بن التّيهان، اسمُه مالك، واسم التّيهان عمرو بن الحارث، أصيب أبو الهيثم مع عليّ يوم صفين. قال أبو عمر: هذا قول أبي نعيم وغيره.

قلت: وهذه الرّواية أصحّ من قول ابن قتيبة في كتاب المعارف، وذكر قوم أنّ أبا الهيثم شهد صِفّين مع علي عليه السلام، ولا يعرِفُ ذلك أهلُ العلم ولا يثبِتونه، فإنّ تعصُّب ابن قتيبة معلوم، وكيف يقول: لا يعرفه أهل العلم، وقد قاله أبو نعيم، وقاله صالح بن الوجيه، ورواه ابنُ عبد البرّ وهؤلاء شيوخ المحدّثين!

ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت

ثم قال عليه السلام: «وأين ذو الشّهادتين»، هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطْميّ الأنصاري من بني خَطْمة، من الأوْس جعل رسول الله صلى الله عليه وآله شهادته كشهادة رجلين، لقصّة مشهورة[1]، يكنَى أبا عُمارة، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وكانت رايةُ بني خَطْمة بيده يوم الفتح.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب: وشهد صِفّين مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلما قُتل عمار قاتل حتى قُتِل.

قال أبو عمر: وقد رُوِي حديثُ مقتله بصفّين من وجوه كثيرة، ذكرناها في كتاب «الاستيعاب» عن ولد ولده، وهو محمد بن عُمارة بن خزيمة ذي الشهادة، وأنّه كان يقول في صِفّين: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «تقتل عمّاراً الفئةُ الباغية»[2]، ثم قاتل حتى قُتِل.

قلت: ومن غريب ما وقعتُ عليه من العصبيّة القَبِيحة، أنّ أبا حيانٍ التوحيديّ قال في كتاب «البصائر»[3]: إن خُزيمة بن ثابت المقتول مع عليّ عليه السلام بصِفّين، ليس هو خزيمة بن ثابت ذا

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢١٨٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٤٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٨/ ١٨٦، وأخرجه النسائي في سننه رقم: ٨٥٥١.

(٣) بصائر القدماء وبشائر الحكماء: للشيخ أبي حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي، المتوفى سنة (٣٨٠هـ)، «كشف الظنون» (١/ ٢٤٦).

الشهادتين، بل آخر من الأنصار صحابيّ اسمه خزيمة بن ثابت، وهذا خطأ، لأن كتب الحديث والنّسب تنطق بأنّه لم يكن في الصحابة من الأنصار، ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين، وإنما الهوى لا دواءَ له، على أنّ الطبريّ صاحب التاريخ قد سَبَق أبا حيّان بهذا القول، ومن كتابه نقَل أبو حيان، والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه، ثم أيّ حاجة لناصري أمير المؤمنين أن يتكثَّرُوا بخُزيمة، وأبي الهيثم، وعمّار وغيرهم! لو أنصف الناس هذا الرجل ورأوه بالعين الصحيحة، لعلموا أنه لو كان وحده، وحاربه الناسُ كلهم أجمعون، لكان على الحقّ، وكانوا على الباطل.

ثم قال عليه السلام: «وأين نظراؤهم من إخوانهم»! يعني الذين قتِلُوا بصِفّين معه من الصحابة، كابن بُدَيل، وهاشم بن عتبة، وغيرهما ممّن ذكرناه في أخبار صِفّين.

وتعاقدوا على المنيّة: جعلوا بينهم عقداً، وروى «تعاهدوا».

وأبرِد برؤوسهم إلى الفَجَرة: حمِلت رؤوسهم مع البريد إلى الفَسقة للبشارة بها، والفجرة ها هنا: أمراء عسكر الشام، تقول: قد أبردت إلى الأمير، فأنا مبرِد، والرسول بريد، ويقال للفُرانق البريد[1]، لأنه ينذر قُدام الأسد.

قوله: «أوْهِ على إخواني» ساكنة الواو مكسورة الهاء، كلمة شكوى وتوجُّع، وقال الشاعر:

فـأوْهِ لـذكـراهـا إذا مـا ذكـرتُـهـا ... ومِـنْ بُـعْـدِ أرضٍ دونـهـا وَسَـمـاءِ

وربما قلبوا الواو ألفاً، فقالوا: آهِ من كذا، آه على كذا، وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء، فقالوا: أوِّهْ من كذا، وربما حذفوا الهاء مع التّشديد، وكسروا الواو، فقالوا: أوِّ من كذا بلا مدّ، وقد يقولون: آوّهْ، بالمد والتّشديد وفتح الألف وسكون الهاء، لتطويل الصوت بالشكاية، وربما أدخلوا فيه الياء تارةً يمدّونه، وتارة لا يمدونه، فيقولون: «أوياه» و«آوياه» وقد أوّهَ الرجلُ تأويهاً، وتأوه تأوُّهاً، إذا قال «أوْهِ»، والاسم منه «الآهة» بالمدّ، قال المثَقّب العبديّ:

إذَا مـا قـمـت أرْحَـلُـهَـا بـلـيـلٍ ... تـأوّه آهـة الـرّجُـل الـحـزيـنِ

قوله عليه السلام: «ووثِقُوا بالقائد فاتّبعوه»، يعني نفسه، أي وثقوا بأنّي على الحقّ، وتيقّنوا ذلك، فاتّبعوني في حرب مَنْ حاربت، وسِلْم مَنْ سالمت.

قوله: «الجهادَ الجهادَ»، منصوب بفعل مقدّر.

وإنّي معسكر في يومي، أي خارج بالعَسْكر إلى منزل يكونُ لهم معسكراً.

وقيس بن سعد بن عبادة بن دُليم الخزرجيّ. صحابيّ، يكني أبا عبد الملك، روى عن

---

(١) انظر لسان العرب، مادة (فرق).

رسول الله ﷺ أحاديث، وكان طُوالاً جدًّا سبطاً شجاعاً، جواداً، وأبوه سعد رئيس الخزرج، وهو الذي حاولت الأنصارُ إقامته في الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ولم يبايع أبا بكر حين بُويع، وخرج إلى حَوْران، فماتَ بها، قيل: قتلته الجنّ؛ لأنه بال قائماً في الصّحراء ليلاً، ورووْا بيتين من شعر، قيل إنهما سمعا ليلة قتْله، ولم يُرَ قائلهما:

نَحْنُ قتلْنَا سَيِّدَ الخزْ ... رَجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَهْ
ورميناهُ بِسَهْمَيْـ ... ـنِ فلم نُخْطِىء فؤادهْ

ويقول قوم: إنّ أمير الشام يومئذٍ كَمَن له مَنْ رماه ليلاً، وهو خارج إلى الصحراء بسهمين، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، وقد قال بعض المتأخرين في ذلك:

يقولونَ سعدَ شكّت الجنُّ قلْبَه ... ألاَ ربما صَحَّحْتَ دينك بالغَدْرِ
وما ذنبُ سَعْدٍ أنه بال قائماً ... ولكنّ سعداً لم يبايع أبا بكرِ
وقد صبرَتْ من لذّة العيش أنفسٌ ... وما صبرتْ عن لَذّة النّهي والأمر

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وقائلٌ بمحبَّته وولائه، وشهد معه حروبه كلها، وكان مع الحسن عليه السلام، ونقم عليه صلحه معاوية، وكان طالبيّ الرأي، مخلصاً في اعتقاده ودّه، وأكّد ذلك عنده فواتُ الأمر أباه وما نيل يوم السقيفة وبعده منه، فوجِد من ذلك في نفسه وأضمَره، حتى تمكّن من إظهاره في خلافة أمير المؤمنين، وكما قيل: «عدوّ عدّك صديق لك».

وأما أبو أيوب الأنصاريّ، فهو خالد بن يزيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجيّ، من بني النّجار، شهد العقَبة وبذْراً وسائر المشاهد وعليه نزل رسول الله ﷺ لمّا خرج عن بني عمرو بن عوف، حين قدم المدينة مهاجراً من مكّة، فلم يزل عنده حتى بنَى مسجده ومساكنه، ثم انتقل إليها، ويوم المؤاخاة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين مُصْعَب بن عمير.

وقال أبو عمر في كتاب «الاستيعاب»: إن أبا أيّوب شهد مع عليّ عليه السلام مشاهده كلّها، وروى ذلك عن الكلبيّ وابن إسحاق، قالاَ: شهد معه يوم الجمل وصِفّين، وكان مقدّمته يوم النَّهروان.

قوله «تخطفها الذئاب»، الاختطاف: أخذُك الشيء بسرعة، ويروى «تتخطّفها»، قال تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾[1].

ويقال: إن هذه الخطبة آخرُ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام قائماً.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

١٨٤ - من خطبة له عليه السلام في قدرة الله وفضل القرآن

الأصل: اَلْحَمْدُ لله المَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، الخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ، خَلَقَ ٱلْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَٱسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ ٱلْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَٱلإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهم مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهم عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلاَلِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَٱلْعُصَاةِ، مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ.

أَحْمَدُهُ إِلى نَفْسِهِ، كما ٱسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْر أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتاباً.

الشرح: المنصَبة، بالفتح والنَّصَب: التعب، والماضي نصِب بالكسرة، وهمّ ناصب في قول النابغة:

كِلِيني لِهمٍّ يا أُميمةَ ناصِبِ

ذو نَصَب، مثل رجل تامر ولابِن، ويقال: هو «فاعل» بمعنى «مفعول فيه» لأنه يُنْصَب فيه ويُتْعب، كقولهم: ليل نائم، أي يُنام فيه، ويوم عاصف، أي تعصف فيه الريح. واستعبدت فلاناً: اتّخذته عبداً. والضرّاء: الشدّة.

ومعتبر: مصدر بمعنى الاعتبار. ومصاحّها: جمع مصحّة «مفعلة» من الصحّة، كمضارّ جمع مضرّة. وصفَه سبحانه بأنّه معروف بالأدلّة، لا من طريق الرؤية كما تعرف المرئيّات، وبأنه يخلق الأشياء ولا يتعب كما يتعب الواحد منّا فيما يزاوله ويباشر من أفعاله. خلَق الخلائق بقدرته على خَلْقِهم، لا بحركة واعتماد. «وأسبغَ النِّعمة عليهم»: أوسَعها. واستعبد الّذين يُدْعَوْن في الدّنيا أرباباً بعزّه وقهرِه.

وساد كلّ عظيم بسَعة جوده، وأسكن الدنيا خلقه، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

وبعثَ رسلَه إلى الجنّ والإنس، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

قال: «ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا» أي عن عوراتها وعيوبها المستورة، وليخوّفوهم من مضرّتها وغرورها المفضِي إلى عذاب الأبد.

وليضربوا لهم أمثالها، كالأمثالِ الواردة في الكتاب العزيز، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ . . . .﴾[1] الآية.

قوله: «وليهجُموا عليهم»، هجمتُ على الرّجل: دخلت عليه بَغْتَةً، يقول: ليدخلوا عليهم بما في تصارِيف الدنيا، من الصحّة والسّقَم، وما أحلّ وما حرّم على طريق الابتلاء.

ثم قال: «وما أعدّ الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة»، يجوز أن تكون «ما» معطوفة على «عيوبها»، فيكون موضعها نصباً، ويجوز أن يكون موضعها جرًّا، ويكون من تتمّة أقسام ما يُعتَبَر به، والأوّل أحسن.

ثم قال عَلَيْتَكِلاِ: إني أَحمد الله كما استحمد إلى خلقه، استحمد إليهم فعلَ ما يوجب عليهم حمده.

ثم قال: إنّه سبحانه جعَل لكل شيء من أفعاله قَدْراً، أي فعله مقدَّراً محدود الغرض، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[2].

وجعل لكل شيء مقدّر وقتاً ينتهي إليه وينقطع عنده، وهو الأجَل.

ولكلّ أجل كتاباً، أي رُقوماً تعرفها الملائكة، فتعلم انقضاء عمر مَنْ ينقضي عمره، وعَدَم ما ألطافهُم في معرفة عدمه.

الأصل: منها في ذكر القرآن: فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ، حُجَّةُ ٱللهِ عَلَى خَلْقِهِ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَٱرْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ، أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى ٱلْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْهُدَى بِهِ.

فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلاَّ وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ ٱلرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤. (٢) سورة الرعد، الآية: ٨.

قَدْ كَفَاكُمْ مؤونَةَ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَٱفْتَرَضَ مِنَ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ.

فَاتَّقُوا ٱللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ، إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لاَ يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلاَ يُثْبِتُونَ بَاطِلاً.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ ٱلْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا ٱشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ ٱصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلاَئِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ.

فَبَادِرُوا المَعَادَ، وَسَابِقُوا الآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ ٱلأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ ٱلأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ، فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالارْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

الشرح: جعل القرآن آمراً وزاجراً، لمّا كان خالقه - وهو الله سبحانه - آمراً زاجراً به، فأسنَد الأمر والزجْر إليه، كما تقول: سيفٌ قاتل، وإنما القاتل الضارب به، وجعله صامتاً ناطقاً، لأنّه - من حيث هو حروف وأصوات - صامت، إذ كان العرَض يستحيل أن يكون ناطقاً لأنّ النطق حركة الأداة بالكلام، والكلام يستحيل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها، وهو من حيث يتضمّن الإخبار والأمر والنهي والنداء وغير ذلك من أقسام الكلام، كالناطق، لأنّ الفهم يقع عنده، وهذا من باب المجاز كما تقول: هذه الربوع الناطقة، وأخبرتْني الديار بعد رحيلهم بكذا.

ثم وصفه بأنّه حجّة الله على خلْقه؛ لأنّه المعجزة الأصليّة.

أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقَه، وارتهن عليه أنفسهم، لَمّا كانَ سبحانه قد قرّر في عقول المكلّفين أدلّة التوحيد والعدل، ومن جملة مسائل العدْل النبوّة، ويثبت نبوّة محمد ﷺ عَقلاً، كان سبحانه بذلك الآخذ ميثاقَ المكلّفين بتصديق دعوته، وقبول القرآن الّذي جاء، وجعل به نفسهم رَهْناً على الوفاء بذلك، فمن خالف خَسِرَ نفسَه، وهلَك هلاكَ الأبَد.

هذا تفسير المحقّقين، ومن الناس منْ يقول: المراد بذلك قصّة الذرّيّة قبل خلق آدم عليه السلام، كما ورد في الأخبار، وكما فسّر قوم عليه الآية.

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى قَبَض رسوله ﷺ، وقد فَرَغ إلى الخلْق بالقرآن من الإكمال

والإتمام، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾(١)، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه.

قال: فعظّموا من الله ما عظّم من نفسه؛ لأنه سبحانه وصفَ نفسه بالعظمة والجلال في أكثر القرآن، فالواجب علينا أن نعظّمه على حَسَبِ ما عظّم نفسه سبحانه.

ثم علّل وجوبَ تعظيمِه، وحَسَّنَ أمرَه لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يُخْفِ عنّا شيئاً من أمر ديننا، وذلك لأنّ الشرعيّات مصالح المكلّفين، وإذا فعل الحكيم سبحانه بنا ما فيه صلاحُنا، فقد أحَسنَ إلينا، ومن جملة صلاحِنا تعريفُنا من الشرعيّات ما فِعله لطفٌ ومفضٍ بنا إلى الثواب، وهذا أبلغ ما يكون من الإحسان، والمحسِنُ يجب تعظيمه وشكره.

قال: لم يترك شيئاً إلاّ وجعل له نصًا ظاهراً يدلّ عليه، أو عَلَماً يستدَلّ به عليه، أي إمّا منصوص عليه صريحاً، أو يمكن أن يستنبَط حكمه من القرآن إمّا بذكره أو بتركه، فيبقى على البراءة الأصليّة، وحكم العقل.

قوله: «فرضاه فيما بقيَ واحد» معناه أنّ ما لم ينصّ عليه صريحاً، بل هو في محلّ النّظر، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه، فيحلّه بعضُهم، ويحرّمه بعضهم، بل رضا الله سبحانه أمرٌ واحد، وكذلك سَخَطه، فليس يجوز أن يكونَ شيءٌ من الأشياء يفتِي فيه قوم بالحلّ وقوم بالحرْمة، وهذا قولٌ منه عليه السلام بتحريم الاجتهاد، وقد سبق منه عليه السلام مثلُ هذا الكلام مراراً.

قوله: «واعلموا أنه ليس يرضى عنكم. . .»، الكلام إلى منتهاه، معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف في الفتاوَي والأحكام، كما اختلف الأمم من قبلكم، فسَخِط اختلافَهم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾(٢).

وكذلك ليس يسخَطُ عليكم بالاتفاق والاجتماع الّذي رضيَه ممّن كان قبلكم من القرون.

ويجوز أن يفسَّر هذا الكلام بأنّه لا يرضى عنكم بما سَخِطه على الّذين من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد والعدل، ولا يسخط عليكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التي رضيَها مِمّن كان قبلكم في التّوحيد والعدل، فيكون الكلام مصروفاً إلى الأصول لا إلى الفروع.

قال: «وإنما تسيرون في أثر بَيّن»، أي أنّ الأدِلّة واضحة، وليس مراده الأمرَ بالتقليد، وكذلك قوله «وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم»، يعني كلمةَ التوحيد «لا إله إلا الله»، قد قالها الموحّدون من قبل هذه الملّة، لا تقليداً، بل بالنَّظر والدليل، فقولوها أنتم كذلك!

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

ثم ذكر أنّه سبحانه قد كفى الخلق مؤونة دنياهم، قال الحسن البصريّ: إن الله تعالى كفانا مؤونة دُنْيانا، وحثّنا على القيام بوظائف ديننا، فليتَه كفانا مؤونة ديننا وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا.

قوله: «وافترض من ألسنتكم الذِّكر»، افترض عليكم أنْ تذكُروه وتشكُروه بألسنتكم، و«من» متعلّقة بمحذوف دلّ عليه المصدر المتأخّر، تقديره: «وافترض عليكم الذِّكر من ألسنتكم الذكر».

ثم ذكر أنّ التقوى المفترَضة هي رضًا الله وحاجته من خَلْقه، لفظة «حاجته» مجاز، لأنّ الله تعالى غنيٌّ غير محتاج، ولكنه لما بالغ في الحثّ والحضّ عليها، وتوعدّ على تركها جعله كالمحتاج إلى الشيء، ووجْهُ المشاركة أنَّ المحتاج يحثّ ويحضّ على حاجته، وكذلك الآمر المكلّف إذا أكّد الأمر.

قوله: «أنتم بعينه»، أي يعلم أحوالكم، ونواصيكم بيده، الناصيّة: مقدّم شعر الرأس، أي هو قادر عليكم قاهرٌ لكم، متمكّن من التصرّف فيكم، كالإنسان القابض على ناصية غيره.

وتقلّبكم في قبضته، أي تصرّفكم تحت حكمه، لو شاءَ أن يمنعَكم منعكم، فهو كالشيء في قَبْضَة الإنسان، إن شاء استدام القبض عليه، وإنْ شاء ترَكه.

ثم قال: إن أسررتُم أمراً علمه، وأن أظهرتموه كَتَبَه، ليس على أنّ الكِتَابة غيرُ العلم، بل هما شيء واحد، ولكنّ اللفظ مختَلِف.

ثم ذكر أنّ الملائكة موكّلَة بالمكلّف، وهذا هو نص الكتاب العزيز، وقد تقدّم القول في ذلك.

ثم انتقل إلى ذكْر الجنّة، والكلام يدلّ على أنها في السماء، وأنّ العرش فوقها.

ومعنى قوله: «اصطنعها لنفسه» إعظامُها وإجلالُها، كما قال لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[1]، ولأنه لما تعارفَ النّاس في تعظيم ما يصنعونه، أن يقولَ الواحدُ منهم لصاحبه: قد وهبتك هذه الدّار التي اصطنعتها لنفسي، أي أحكمتها، ولم أكن في بنائها متكلفاً بأن أبنيها لغيري، صحّ وحَسُن من البليغ الفصيح أن يستعيرَ مثل ذلك فيما لم يصطنعه في الحقيقة لنفسه، وإنّما هو عظيم جليل عنده.

قوله: «ونورها بهجتهُ»، هذا أيضاً مستعار، كأنّه لما كان إشراقُ نورها عظيماً جدًّا نسبه إلى بهجة الباريّ، وليس هناك بهجة على الحقيقة، لأنّ البهجة حسن الخلقة، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ﴾[2]، أي من كلّ صنف حسن.

---

(١) سورة طه، الآية: ٤١.
(٢) سورة قٓ، الآية: ٧.

قوله: «وَزُوّارُها ملائكتُه» قد ورد في هذا من الأخبار كثير جدًّا، ورفقاؤها: رسلُه، من قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

ويوشِك، بكسر الشين، فعلٌ مستقبَل، ماضيه «أوشك»، أي أسرع.

ورهِقَه الأمر بالكسر: فاجأه.

ويُسَدّ عنهم باب التوبة، لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفاً فقط، لا لقبح القبيح، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾(٢).

وإنما قال: في مثل ما سأل إليه الرجعة مَنْ كان قبلكم، كقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(٣).

وبنو سبيل: أرباب طريق مسافرون. وأوذِنَ فلان بكذا: أعْلِم. وآذنته: أعلمته.

وقد تقدّم لنا كلام بالغ في التقوى وماهيتها وتأكيد وصاة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها.

ما جاء في التقوى من اخبار

روى المبرّد في الكامل أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب: اتّقِ الله يا أمير المؤمنين، فقال له رجل: أتألِتُ على أمير المؤمنين! أي أتَنْتَقِصه!، فقال عمر: دَعْهُ، فلا خيرَ فيهم إذا لم يقولُوها، ولا خيرَ فينا إذا لم تُقَلْ لنا.

وكتب أبو العتاهية إلى سَهْل بن صالح - وكان مقيماً بمكّة: أمّا بعد، فأنا أوصيك بتقوى الله الذي لا غَناء بك عن تقاته، وأتقدّم إليك عن الله، ونذكّرك مكرَ الله فيما دبّت به إليك ساعات الليل والنهار، فلا تُخدَعَنّ عن دينك، فإنّ ساعاتك وأوقاتك إن ظفرت بذلك منك، وجدتَ الله فيك أسرعَ مكراً، وأنفذ فيك أمراً، ووجدت ما مكرت به في غير ذات الله غير رادٌ عنك يدَ الله، ولا مانع لك من أمر الله، ولعمْرِي لقد ملأت عينك الفكر واضطربت في سمعك أصوات العبَر، ورأيت آثار نِعَم الله نسختْها آثارُ نِقَمِه حين استهزىء بأمره، وجُوهِر بمعاندته. ألا إنّ في حُكْم الله أنه مَنْ أكرمه الله، فاستهان بأمره، أهانه الله. السّعيد مَنْ وُعِظ بغيره، لا وعظك الله في نفسك! وجعل عظتك في غيرك، ولا جَعَل الدُّنيا عليك حسرة وندامة، برحمته!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٨.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

ومن كلام رسول الله ﷺ: «لا كرمَ كالتقوى، ولا مال أعْوَد من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل كالتدبير، ولا قرين كحسْنِ الخُلُق، ولا ميراثَ كالأدب، ولا فائدة كالتوفيق، ولا تجارَة كالعمل الصالح ولا ربحَ كثواب الله، ولا وَرَع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزّهد في الحرام، ولا عِلْم كالتفكّر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حَسَب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا مظاهرة أوفق من المشورة، فاحفظ الرّأس وما حوى، والبطن وما وعَى، واذكر الموت وطولَ البِلى».

الأصل: وَٱعْلَمُوا! أَنَّهُ لَيسَ لِهَذَا ٱلْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَٱلْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ. فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ!

أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ.

أَيُّها ٱلْيَفَنُ ٱلْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ ٱلْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا ٱلْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ ٱلْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ ٱلْجَوَامِعُ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ!

فَالله ٱلله مَعْشَرَ ٱلْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي ٱلْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا.

أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَٱسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ ٱلله سُبْحَانَهُ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(٢).

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، ٱسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ، وَٱسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١١.

فَبادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ ٱللهِ فِي دَارِهِ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلاَئِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(١).

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَٱللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ!

الشرح: الرّمضاء: الأرض الشديدة الحرارة، والرَّمَض، بالتحريك: شدّة وقع الشمس على الرّمل وغيره، وقد رَمِضَ يومُنا بالكسر، يرمِض رَمَضاً، اشتدّ حَرُّه، وارض رَمِضة الحجارة، ورمَضِتْ قدمُه من الرَّمْضاء: احترقت.

والطابَق، بالفتح: الآجرّة الكبيرة، وهو فارسيّ معرب.

وضجيع حَجَر: يوميء فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾(٢)، قيل: إنها حجارة الكبريت.

وقرين شيطان: يوميء فيه إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾(٣).

وحَطَم بعضُها بعضاً: كسره أو أكله، والحُطَمة من أسماء النّار؛ لأنّها تحطِم ما تَلْقَى، ومنه سُمّيَ الرَّجلُ الكثير الأكل: حُطَمة.

واليفَن: الشيخ الكبير، ولهزه: خالطه، ويقال له حينئذٍ: مَلْهوز، ثم أشمط، ثم أشيب، ولهزتُ القوم: خالطتهم ودخلت بينهم.

والقتير: الشَّيْب، وأصله رؤوس المسامير في الدُّروع تسمّى قتيراً.

والتحمت أطواق النار بالعظام: التفّتْ عليها، وانضمّت إليها، والتصقت بها.

والجوامع: جمع جامعة، وهي الغّل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.

ونَشِبت: علقَتْ. والسواعد: جمع ساعد، وهو الذراع.

و«في» من قوله: «في الصحة قبل السُّقْم»، متعلقة بالمحذوف الناصب لله، وهو اتّقوا، أي اتقوه سبحانه في زمان صحّتكم، قبل أن ينزِل بكم السَّقَم، وفي فسحة أعماركم قبل أن تبدَّل بالضِّيق.

وفَكاك الرِّقاب: بفتح الفاء: عتْقها قبل أن تغلَقَ رهائنها، يقال غَلِقَ الرهْن، بالكسر، إذا

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤.
(٣) سورة قٓ، الآية: ٢٧.

استحقّه المرتهن بألاّ يفُكّه الراهن في الوقت المشروط، وكان ذلك من شرع الجاهليّة، فنهى عنه النبي ﷺ، وقال: «لا يغلَق الرهن»[1].

وخذوا من أجسادكم، أي أتعبُوها بالعبادة حتى تَنْحَل.

والقَلّ: القِلّة. والذّل: الذّلة.

وحسيس النّار: صوتها. واللّغوب: النَّصب.

ونظير قوله عليه السلام: «استقرَضَكُم وله خزائن السموات والأرض»، ما رواه المبرد في «الكامل» عن أبي عثمان المازنيّ، عن أبي زيد الأنصاريّ، قال: وقف علينا أعرابيّ في حَلْقة يونس النحويّ، فقال: الحمدُ لله كما هو أهله، وأعوذ بالله أن أذكُر به وأنساه، خرجنا من المدينة، مدينة الرسول ﷺ، ثلاثين رجُلاً ممّن أخرجته الحاجة، وحُمِل على المكروه، ولا يمرِّضُون مرضاهم، ولا يدفنون ميّتهم، ولا ينتقلون من منزلٍ إلى منزلٍ وإن كرهوه، والله يا قوم لقد جُعْتُ حتى أكلْتُ النّوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلتُ الدّم، وحتى خرج من قدمي بَخَص[2] ولحم كثير، أفلا رجلٌ يرحم ابن سبيل وفَلّ طريق، ونِضْوَ سَفَر! فإنّه لا قليل من الأجر، ولا غنَى عن ثواب الله، ولا عمل بعد الموت، وهو سبحانه يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[3]، مَليٌ وفيٌ ماجد واجد، جواد لا يستقرض من عَوَز، ولكنه يبلُو الأخيار.

قال المازنيّ: فبلغني أنه لم يبرحْ حتى أخذ ستين ديناراً.

ومن كلام علي بن عبيدة الريحانيّ: الأيام مستودَعات الأعمال، ونِعْم الأرضون هي لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح!

وخطب الحجّاج، فقال: أيّها الناس، إنّكم أغراضُ حِمام وفُرَص هَلَكة. قد أنذركم القرآن، ونادى برحيلكم الجديدان[4]! ها إنّ لكم موعداً لا تؤخّر ساعتُه، ولا تُدْفَع هجمتُه، وكأنْ قد دلَفت إليكم نازلتُه، فتعلّق بكم رَيْبُ المنُون، وعلقَتْ بكم أمّ اللُّهَيْم الحيزبون[5]، فماذا هَيّأتُمْ للرّحيل؟ وماذا أعددتم للنّزيل؟ مَنْ لَمْ يأخذ أهبة الحذَر، نزل به مرهوب القَدَر!

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب من شهر السلاح (٢٤٤١)، مالك كتاب الأقضية، باب: ما لا يجوز من غلق الرهن (١٤٣٧).

(٢) البَخَص: لحم القدم وأصول الأصابع، اللسان، مادة (بخص).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٤) الجديدان: الليل والنهار، وذلك لأنهما لا يليان أبداً. اللسان، مادة (جدد).

(٥) الحيزبون: العجوز. اللسان، مادة (حزب).

قلت: وقد شُغِف الناس في المواعظ بكلام كاتب محدث، يعرف بابن أبي الشخباء العسقلانيّ وأنا أورد ها هنا خطبة من مواعظه، هي أحسن ما وجدتُه له، ليعلَم الفرق بين الكلام الأصيل والمولّد:

أيّها النّاس، فُكّوا أنفسَكم من حَلَقات الآمال المتعبة، وخفّفُوا ظهوركم من الآصار المستحقبة[1]، ولا تسيمُوا أطماعكم في رياض الأماني المتشعّبة، ولا تُميلوا صَغْوَاكُم إلى زبارج[2] الدنيا المحبّبة، فتظلّ أجسامكم في هشائمها عاملة نَصِبَة! أما علمتم أنّ طباعها على الغدر مركبّة، وأنّها لأعمار أهلها منتهبة، ولِمَا ساءهم منتظرة مرتقبة، في هَبّتها راجعة متعقّبة! فانضوا رَحِمكم الله ركائبَ الاعتبار مشرّقة ومغرّبة، وأجْرُوا خيول التفكّر مصعّدة ومصوّبة، هل تجدون إلا قصوراً على عروشها خَرِبة، وديارا معطشة من أهلها مجدبة! أين الأمم السّالفة المتشعّبة، والجبابرة الماضية المتغلّبة، والملوك المعظمة المرجّبة، أولوا الحَفَدة والحجبة، والزّخارف المعجبة، والجيوش الحرّارة اللّجبة والخيام الفضفاضة المطنّبة، والجياد الأعوجيّة المجنّبة، والمصاعب الشدقميّة المُصْحَبة، واللُّدان المثقّفَة المدّربة، والماذّية الحصينة المنتخبة، طرقت والله خيامهم غير منتهبة، وأزارتهم من الأسقام سيوفاً مُعْطبة، وسيّرت إليهم الأيامُ من نُوَبها كتائب مكتّبة، فأصبَحَتْ أظفار المنية من مُهَجهم قانية مختضِبة، وغدت أصوات النادبات عليهم مجلِبة، وأكلت لحومَهم هوامّ الأرض السَّغِبة. ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبل فيه عُذْرٌ ولا معتبة، وتجازى كلُّ نفس بما كانت مكتسبة، فسعيدة مقرَّبة تجري من تحتها الأنهار مثوّبة، وشقّية معذّبة في النار مكبكبة.

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب، وهي كما تراها ظاهرة التكلّف، بيّنه التوليد، تخطب على نفسها، وإنّما ذكرتُ هذا، لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من «نهج البلاغة» كلام محدَث، صنعه قومٌ من فُصحاء الشيعة، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسن وغيره، وهؤلاء قوم أعمت العصبيّة أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح وركبوا بُنيّات الطريق ضلالاً وقلة معرفة بأساليب الكلام، وأنا أوضّح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول:

لا يخلو إما أن يكون كل «نهج البلاغة» مصنوعاً منحولاً، أو بعضه. والأوّل باطل بالضّرورة لأنّا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدّثون

(١) الآصار: الأكسية التي ملؤوها من الكلأ وسدوها. والمستحقبة: كل ما حُمل من شيء من خلف. اللسان، مادة (أحر ـ حقب).

(٢) الزبرج: الذهب. اللسان، مادة (زبج).

كلُّهم أو جلّهم، والمؤرّخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسَبُوا إلى غرض في ذلك. والثاني يدلّ على ما قلناه؛ لأن مَنْ قد أنِسَ بالكلام والخطَابة، وشَدَا طَرَفاً من علم البيان، وصار له ذوقٌ في هذا الباب لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد، وإذا وقَف على كرّاسٍ واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء، أو لاثنين منهم فقط، فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين، ويميّز بين الطريقتين. ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده، لو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفْنا بالذّوْق مبايَنَتها لشعر أبي تمام نَفسه، وطريقتِه ومذهبه في القريض، ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حَذَفُوا من شِعْر أبي نُوَاس شيئاً كثيراً، لِمَا ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه، ولا من شعره، وكذلك غيرُهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلا عَلَى الذَّوْق خاصة.

وأنت إذا تأملت «نهج البلاغة» وجدته كلّه ماءً واحداً، ونَفَساً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البَسيط الذي ليس بعضٌ من أبعاضه مخالِفاً لباقي الأبعاض في الماهيّة، وكالقرآن العزيز، أوّله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكلّ سورة منه، وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقِي الآيات والسُّور، ولو كان بعض «نهج البلاغة» منحولاً وبعضه صحيحاً، لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلالُ مَنْ زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضَه منحولٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرُق على نفسه ما لا قِبَلَ له به؛ لأنّا متى فَتَحْنا هذا الباب، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النَّحو، لم نثِقْ بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً، وساغ لطاعنٍ أن يطعن ويقول: هذا الخبر منحول، وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقِل عن أبي بكر وعمر من الكَلام والخُطب والمواعظ والأدب وغير ذلك، وكلّ أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة الراشدين، والصحابة والتابعين، والشعراء والمترسّلين، والخطباء، فلناصِري أميرِ المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من «نهج البلاغة» وغيره، وهذا واضح.

١٨٥ – ومن كلام له عليه السلام قاله للبُرج بن مُسْهِر الطائيّ، وقد قال له بحيث يسمعه: «لا حكم إلا لله» وكان من الخوارج

الأصل: اسْكُتْ قَبَحَكَ ٱللهُ يَا أَثْرَمُ! فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ ٱلْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ، حَتَّى إِذَا نَعَرَ ٱلْبَاطِلُ، نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ المَاعِزِ.

الشرح: البرج بن مُسْهِر - بضم الميم وكسر الهاء - بن الجُلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندَب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طيّ بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. شاعر مشهور من شعراء الخوارج، نادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين عليه السلام، فزجره.

وقَبَحك الله، لفظة معناها كَسَرك، يقال: قَبَحْتُ الجوْزة، أي كسرتها، وقيل: قَبَحه: نحّاه عن الخير. وكان البرجُ ساقطَ الثنيّة، فأهانه بأن دعاه به، كما يُهان الأعور بأن يقال له: يا أعور.

والضئيل: الدقيقَ الخفيّ، ضَؤُل الرجل، بالضمّ ضآلة: نَحُفَ، وضَؤُل رأيه: صَغُرَ، ورجل متضائل، أي شَخْت، وكذلك: «ضُؤَالَة».

ونَعر الباطل: صاح، والمراد أهلُ الباطل، ونَعَر فلان في الفتنة: نهض فيها.

ونجَم: طلع، أي طلع بلا شرف ولا شجاعةٍ ولا قدم، بل على غفلة، كما ينبت قرن الماعز. وهذا من باب البديع، وهو أنْ يشبّه الأمر يراد إهانته بالمهين، ويشبّه الأمر يراد إعظامه بالعظيم، ولو كان قد تكلّم في شأن ناجمٍ يريد تعظيمه، لقال: نجم نجوم الكوكب من تحت الغَمام، نجومَ نَوْر الربيع من الأكمام، ونحو ذلك.

١٨٦ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف المتقين

الأصل: رُوِي أنَّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همَّامٌ، كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أمير المؤمنين: صفْ لي المُتَّقين حتى كأنّي أنظر إليهم، فَتَثَاقَلَ عليه السلام عن جوابِهِ، ثم قال: يا همَّامُ اتق ٱلله وأحْسن: فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(١).

فلم يقنعْ هَمَّامٌ بهذا القول حتى عزم عليه، فحمِد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله.

ثم قال عليه السلام: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ ٱلْخَلْقَ - حَيْثُ خَلَقَهُمْ - غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعَهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ،

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ ٱلْفَضَائِلِ، مَنطِقُهُمْ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمْ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُم التَّوَاضُعُ.

غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى ٱلْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي ٱلْبَلاَءِ، كَالَّذِي نُزِّلَتْ فِي ٱلرَّخَاءِ، لَوْلاَ ٱلأَجَلُ ٱلَّذِي كَتَبَ ٱللهُ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ.

عَظُمَ ٱلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَٱلْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ.

صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا ٱللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ ٱلْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسهمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصب أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بآيَةٍ فِيهَا تخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَار فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ ٱلْخَوْفُ بَرْيَ ٱلْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا، وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِم ٱلْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ ٱلْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَ زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي!

اَللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَٱجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَٱغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ!

الشرح: همّام المذكور في هذه الخطبة: هو همّام بن شُريح بن يَزِيد بن مرّة بن عمرو بن جَابر بن يحيى بن الأصهب بن كَعْب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذُهل بن مُرّان بن صيفيّ بن سعد العشيرة.

وكان همّام هذا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه، وكان ناسكاً عابداً، قال له: يا أميرَ المؤمنين، صِفْ لي المتّقين حتى أصيرَ بوصفك إيّاهم، كالنّاظر إليهم.

فتثاقل عن جوابه، أي أبطأ. فعزم عليه، أي أقسم عليه، وتقول لمن يكرّر عليكَ الطّلب والسّؤال: قد عزم عليّ، أي أصرّ وقَطع، وكذلك تقول في الأمر تُريد فعلَه وتَقْطع عليه: عزمت عَزْماً وعَزَماناً وعَزيمة وعزيماً.

فإن قلت: كيف جَازَ له عليه السلام أن يتثاقَل عن جواب المسترشِد؟

قلت: يجوز أن يكون تَثَاقل عن جوابه، لأنّه علم أنّ المصلحة في تأخير الجواب، ولعلّه كان حضر المجلس مَنْ لا يحِبّ أن يجيبَ وهو حاضر، فلمّا انصرف أجاب، ولعلّه رأى أنّ تثاقلَه عن الجواب يَشدّ تشوُّقَ همّام إلى سماعه، فيكون أنجعَ في موعظته، ولعلّه كان من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة، لا من باب تأخير البيان عَنْ وقت الحاجة، ولعلّه تثاقَل عن الجواب ليرتّب المعانيَ الّتي خطرت له في ألفاظ مناسبة لها، ثم ينطق بها كما يفعَلُه المتروّي في الخطبة والقريض.

فإن قلت: فما معنى إجابته له أولاً بقوله: يا همّام، اتّقِ الله وَأَحْسِنْ فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(١)؟ وأيّ جواب في هذا عن سؤال همام؟

قلت: كأنّه لم ير في باديء الحال شرح صفات المتقّين على التفصيل، فقال لهمام: ماهيّة التقوى معلومة في الجملة، فاتّق الله وأحسن، فإنّ الله قد وَعَد في كتابه أن يكون وليًّا وناصراً لأهل التقوى والإحسان، وهذا كما يقول لك قائل: ما صفاتُ الله الّذي أعْبُده أنا والناس؟ فتقول له: لا عَلَيْك ألا تعرف صفاته مُفَصّلة، بعد أن تعلَم أنّه خالق العالم، وأنّه واحدٌ لا شريك له! فلما أبى همّام إلا الخوض فيما سأله على وجه التّفصيل، قال له: إنّ الله تعالى خَلَق الخلق حين خلقهم، ويروى: «حيث خلقهم» وهو غَنِيٌّ عن طاعتهم، لأنّه ليس بجسمٍ فيستضرّ بأمرٍ أو ينتفع به.

وقَسَم بين الخلق معايشهم، كما قال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢).

وفي قوله: «ووضعهم مواضعهم» معنى قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(٣)، فكأنّه عليه السلام أخذ الألفاظ، فألغاها وأتى بمعناها.

فلما فرغ من هذه المقدّمة شَرَع في ذكر صفات المتقّين، فقال: إنّهم أهلُ الفضائل. ثم بيّن ما هذه الفضائل، فقال: «منطقهم الصواب».

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

فإن قلت: أيّ فائدة في تقديم تلك المقدّمة، وهي كون الباريء سبحانه غنياً لا تضرّه المعصية، ولا تنفعه الطاعة!

قلت: لأنّه لما تضمّنت الخطبة مدحَ الله تعالى للمتقين وما أعدّه لهم من الثواب، وذمّه للعاصين وما أعدّه لهم من العقاب العظيم، فربّما يتوهّم متوهّم أنّ الله تعالى ما رغّب في الطّاعة هذا الترغيب البالغ، وخوّف من المعصية هذا التخويف البالغ إلاّ وهو منتفع بالأولَى، مستضرٌّ بالثانية، فقدّم عليه السلام تلك المقدّمة نفياً لهذا الوهم.

في فضل الصمت وآفات اللسان

واعلم أنّ القول في خَطَر الكلام وفضْل الصّمت وفضْل الاقتصار في المنطق وسيعٌ جدًّا، وقد ذكرنا منه طرَفاً فيما تقدّم، ونذكر الآن منه طرفاً آخر.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ صَمَتَ نجا**»(١).

وقال أيضاً: «**الصمت حُكْم وقليل فاعله**»(٢).

وقال له ﷺ بعضُ أصحابه: أخبرني عن الإسلام بأمرٍ لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال: «**قل: أمنت بالله ثم استقم**» قال: فما أتّقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه(٣).

وقال له ﷺ عُقْبة بن عامر: يا رسولَ الله، ما النّجاة؟ قال: «**املِكْ عليكَ لسانك، وابْكِ على خطيئتك، وليسعْك بيتُك**»(٤).

وَرَوَى سهل بن سعد الساعديّ، عنه ﷺ: «**من يتوكّلْ لي بما بين لَحْيَيْه ورِجْلَيْه أتوكّل له بالجنّة**»(٥).

وقال: «**مَنْ وُقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ وَذَبذَبِهِ ولَقْلَقِهِ فَقَدْ وُقِيَ**»(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق، باب: منه، (٢٥٠١)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٤٥)، الدارمي في كتاب: الرقائق، باب: في الصمت (٢٧١٣).

(٢) أخرجه الشهاب في «مسنده» (٢٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٢٦)، وأحمد في «الزهد» (٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٩٩٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٤٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٨٩)، والطيالسي في «مسنده» (١٢٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٣٩٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرج بنحوه الحاكم في «مستدركه» (٨٠٥٨)، وابن ماجه في «صحيحه» (٥٧٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٤٩٨١).

(٦) تقدم تخريجه.

وروى سَعِيد بن جُبَير مرفوعاً: «إذا أصبَح ابنُ آدم أصبَحَتِ الأعضاء كلّها تشكو اللّسان، تقول: أي بني آدم، اتّق الله فينا، فإنّك إن استَقَمْتَ استقمنا، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا»(١).

وقد رُوِي أنّ عمر رأى أبا بكر وهو يمدّ لسانه، فقال: ما تصنع؟ قال: هذا الّذي أوردني الموارِدَ، إنّ رسول الله ﷺ، قال: «ليس شيء في الجسد إلاّ يشكو إلى الله تعالى اللّسان عَلَى حِدَّته»(٢).

وسُمِعَ ابنُ مسعودٍ يُلَبّي عَلَى الصَّفَا، ويقول: يا لسانُ، قلْ خيراً تَغْنَم، أو اصمت تَسْلَم من قبل أن تندَم. فقيل له: يا أبا عبدِ الرّحمن، أهذا شيء سمعتَه، أم تقوله مِنْ تلقاءِ نَفْسِك؟ قال: بل سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أكثر خطايا ابنِ آدم من لسانه»(٣).

وروى الحسنُ مرفوعاً: «رحم الله عبداً تكلّم فغنِم، أو سكت فَسَلِم»(٤).

وقالت التلامذةُ لعيسى عليه السلام: دلَّنا على عملٍ ندخل به الجنة، قال: لا تنطقوا أبداً، قالوا: لا نستطيع ذلك، قال: فلا تنطقوا إلاّ بخير.

وقال النّبي ﷺ: «إنّ الله عند لسان كلّ قائل، فاتّقى الله امرؤ علم ما يقول»(٥).

وكان يقول: لا شيء أحقُّ بطولِ سجنٍ من لسان(٦). وكان يقال: لسانك سَبُع، إن أطلقتَه أكَلك.

في حكمة آل داود: حقيقٌ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه، مقبِلاً على شأن. وكان يقال: مَنْ عَلِم أنّ كلامَه من عمله، أقلّ كلامَه فيما لا ينفعه.

وقال محمد بن واسع: حفْظُ اللّسان أشدّ على النّاس من حفظ الدينار والدرهم.

اجتمع أربعةُ حكماء: من الرّوم، والفرس، والهند، والصين، فقال أحدهم: أنا أندمُ على ما قلتُ ولا أندم على ما لم أقل: وقال الآخر: إذا تكلّمتُ بالكلمة ملكْتني، ولم أمْلِكها، وإذا لم أتكلّم ملكتُها ولم تملِكْني. وقال الآخر: عجبْتُ للمتكلّم، إن رجعتْ عليه كلمته ضَرّتْه، وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرّابع: أنا على ردّ ما لم أقل أقدَرُ منّي على ردّ ما قلت.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٧)، وأحمد في «مسنده» (١١٤٩٨).

(٢) أخرجه الديلمي في «مسنده» (٥١٧٢).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٣٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٣٤)، والشهاب في «مسنده» (٥٨٢)، والديلمي في «مسنده» (٣٢٠٤).

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل في «الزهد» (٣٢).

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٢٠).

واعلم أنّ آفاتِ اللّسان كثيرة:

فمنها الكلام فيما لا يعنيك، وهو أهوَنُ آفاتِ اللّسان، ومع ذلك فهو عَيبٌ، قال النبيّ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[١].

وروي أنّه عليه السلام مَرّ بشهيد يوم أحُد، فقال أصحابه: هنيئاً له الجنّة! قال: وما يدريكم لعلّه كانَ يتكلّم فيما لا يعنيه[٢]!

وقال ابنُ عباس: خمسٌ هي أحسنُ وأنفعُ من حُمْرِ النَّعم: لا تتكلّمْ فيما لا يعنيك، فإنّه فضل لا آمن عليه الوِزْر. ولا تتكلّم فيما يعنيك حتى تجدَ له موضعاً، فربّ متكلّم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فأساء. ولا تُمَارِ حليماً ولا سفيهاً، فإنّ الحليم يَقْليكَ، والسفيه يُؤْذيك. واذكر أخاكَ إذا تغيّب عنك بما تحبّ أن يذكرك به، وأعفه عَمّا تحبّ أن يُعْفيَك عنه. واعمل عمل رجلٍ يرَى أنّه مجازًى بالإحسان، مأخوذ بالجرائم.

ومنها فضولُ الكلام وكثرته، وترك الاقتصار، وكان يقال: فضول المنطق وزيادته نَقْص في العقل، وهما ضدّان متنافيان، كلّما زاد أحدُهما نقص الآخر.

وقال عبدُ الله بن مسعود: إيّاكُمْ وفضول الكلام، حَسْبُ امرىءٍ ما بلغ به حاجتَه.

وكان يقال: مَنْ كثر كلامُه كثير سقطُه.

وقال الحسن: فضولُ الكلام كفضول المال، كلاهما مهلِك.

ومنها الخوض في الباطل، والحديث فيما لا يحلّ، كحديث النّساء ومجالس الخمر. ومقامات الفُسّاق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[٣].

ومنها المِراءُ والجِدال، قال عليه السلام: «دَعِ المِراءُ وإن كنت محقًّا»[٤].

وقال مالك بن أنس: المِراءُ يقسِّي القلب، ويورّث الضَّغائن.

وقال سُفيان الثوريّ: لو خالفتُ أخي في رُمّانة فقال: حُلْوة، وقلت: حامضة، لَسُعِيَ بي إلى السلطان.

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب: الزهد، باب: فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٢٣١٧)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: صفة أمة محمد ﷺ (٣٩٧٦).
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٣٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٠١٧).
(٣) سورة المدثر، الآية: ٤٥.
(٤) أخرجه الدارمي في سننه بما معناه: ١/ ٩١.

وكان يقال: صافِ مَنْ شئت ثم أغضِبْه بالجدال والمِراء، فليْرمينّك بداهيةٍ تمنعُك العيش.

وقيل لميْمون بن مِهْران: مالك لا تفارق أخاً لك عن قِلًى؟ قال: لأنّي لا أشارِيه، ولا أماريه.

ومنها التقعّر في الكلام بالتشدّد، والتكلّف في الألفاظ، قال النبيّ ﷺ: «أبغضكم إليّ، وأبعدُكم منّي مجالسَ يوم القيامة الثّرثارون المتفيْهقون المتشدّقون»[١].

وقال ﷺ: «هلك المتنطّعون....»[٢]، ثلاث مرات، والتنطّع: هو التعمقّ والاستقصاء.

وقال عمر: إن شَقَاشِقَ الكلام من شقاشق الشيطان.

ومنها الفُحْش والسبّ والبَذاء قال النّبي ﷺ: «إيّاكم والفُحْش، فإنّ الله لا يحبّ الفحش، ولا يرضى الفُحش»[٣].

وقال ﷺ: «ليس المؤمنُ بالطّعان، ولا باللعان، ولا بالسّباب، ولا البذيء»[٤].

وقال ﷺ: «لو كان الفُحْشُ رجلاً لكان رجل سوء»[٥].

ومنها المُزاح الخارج عن قانون الشريعة، وكان يقال: مَنْ مزح استُخِفّ به.

وكان يقال: المُزاح فحل لا ينتِج إلا الشرّ.

ومنها الوعد الكاذب، وقد قال النبي ﷺ: «العِدَة ديْن»[٣]، وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨)، وأحمد في «مسنده» (١٧٧٢٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون (٢٦٧٠)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة (٤٦٠٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٥١).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في اللعنة (١٩٧٧)، وأحمد في «مسنده» (٣٨٢٩).

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٥١٣)، والصغير (٤١٩)، والشهاب في «مسنده» (٧).

(٦) سورة مريم، الآية: ٥٤. (٧) سورة المائدة، الآية: ١.

ومنها الكذب في القول واليمين، والأمر فيهما مشهور.

ومنها الغِيبَة، وقد تقدّم القول فيها.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وملبسهم الاقتصاد»، أي لبس بالثمين جِدًّا، ولا بالحقير جدًّا، كالخِرَق التي تُؤخَذُ من عَلَى المزابل، ولكنّه أمرٌ بين أمرين، وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يلبس الكَرَابيسَ، وهو الخام الغليظ، وكذلك كان عمر رضي الله عنه. وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَلْبَسُ اللَّيِّنَ تارةً، والخشِنَ أخرى[1].

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ومشْيُهم التّواضع»، تقديره: وصِفةُ مشيهم التواضع، فحذف المضاف، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[2].

رأى محمد بن واسع ابناً له يمشي، وهو يتبختَرُ ويميس في مِشْيتهِ، فصاح به، فأقبل، فقال له: وَيلك! لو عرفتَ نفسك لقَصَدْت في مَشيك، أمّا أُمُّكَ فأمَةٌ ابتعتُها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في الناس من أمثالِه!

والأصل في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[3].

وقوله: «غَضُّوا أبصارهم» أي خَفَضُوها وغَمَضُوها، وغضضت طرفي عن كذا: احتملت مكروهه.

وقوله: «وقفوا أسماعهم على العِلم النافع لهم» أي لم يشغَلَوا سمعَهم بشيء غير العلوم النافعة، أي لم يشتغلوا بسماع شِعْرٍ ولا غناء ولا أحاديث أهل الدنيا.

قوله: «نزلت أنفُسهم منهم في البَلاَء، كالَّذي نزلت في الرخاء»، يعني أنّهم قد طابوا نفساً في البلاء والشدَّة كطيب أنفسهم بأحوالهم في الرّخاء والنعمة، وذلك لقلَّة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها، وتقدير الكلام من جهة الإعراب: نَزَلَتْ أنفُسهم منهم في حالِ البلاء نزولاً كالنُّزُول الذي نزلته منهم في حال الرَّخاء، فموضع «كالذي» نصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف، والموصول قد حذف العائد إليه، وهو الهاء في «نزلتُه» كقولك: ضربت الذي ضربت، أي ضربت الذي ضربته.

ثم قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّهم من شدّة شوقهم إلى الجنة، ومن شدة خوفهم من النار، تكاد أرواحُهم أن تفارق أجسادَهم، لولا أنّ الله تعالى ضرب لهم آجالاً ينتهون إليها.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/١٤٨.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.

ثم ذكر أنّ الخالِقَ لمّا عظُم في أعينهم استصغروا كلَّ شيء دونه، وصاروا لشدَّة يقينهم ومكاشفتهم، كمن رأى الجنّة فهو يتنعّم فيها، وكمنْ رأى النار وهو يعذَّب فيها، ولا ريبَ أنّ من يشاهد هاتيْن الحالتين، يكون على قَدَم عظيمة من العبادة والخوف والرجاء، وهذا مقام جليل، ومثله عليه السلام في حق نفسه: «لو كُشِفَ الغِطاء ما ازددتُ يقيناً». والواو في «والجنة» واو «مع»، وقد روي بالعطف بالرفع على أنه معطوف على «هم»، والأوّل أحسن.

ثم وصفهم بحزن القلوب، ونحافة الأجسام، وعفّة الأنفس وخفّة الحوائج، وأنّ شرورهم مأمونة على الناس، وأنهم صَبَرُوا صبراً يسيراً أعقبهم نعيماً طويلاً.

ثم ابتدأهم فقال: تجارة مربحة، أي تجارتهم تجارة مربحة، فحذف المبتدأ، وروي: «تجارةً مربحةً»، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل.

قوله: «أمّا الليلَ» بالنصب على الظرفية، وروي «أمّا اللّيلُ» على الابتداء.

قوله: «تالين»، منصوب على أنّه حال، إمّا من الضمير المرفوع بالفاعلية في «صافُّون» أو من الضّمير المجرور بالإضافة في: «أقدامهم».

والترتيل: التبيين والإيضاح، وهو ضدّ الإسراع والعَجَل ويروى: «يرتلّونه» على أنّ الضمير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: «يحزنون به أنفسهم»، أي يستجلبون لها الحُزْن به، ويستثيرون به دواء دائهم، إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا إنَّ ٱلْبُكَاء لَرَاحَةٌ ... به يشتفي من ظنّ أنْ لا تلاقِيَا

وقال آخر:

شَجَاكَ مِنْ ليلتك الطُّولُ ... فالدّمْعُ من عينيك مَسْدُولُ
وهو إذا أنتَ تأمَّلْتَهُ ... حُزنٌ على الخدَّين مَحْلُولُ

ثم ذكر أنّهم إذا مَرُّوا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنّوا بها، طمعاً في نيله، وتطلّعت أنفسُهم إليها شَوْقاً، أي اشرأبّت.

«ونصبَ أعينهم» منصوب على الظرفية، وروي بالرفع، على أنه خبر إنّ، والظن ها هنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾(١).

وأصغى إلى الكلام: مال إليه بسمعه، وزفيرُ النّار: صوتها.

(١) سورة المطففين، الآية: ٤.

وقد جاء في فضل قراءة القرآن شيء كثير، روي عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أنّ أحداً أوتي أفضلَ ممّا أوتي فقد استصغر ما عظّمه الله»[1].

وقال ﷺ: «لو كان القرآن في إهاب ما مسّته النار»[2].

وقال: «أفضلُ عبادة أمّتي قراءة القرآن»[3].

وقال: «أهلُ القرآن أهل الله وخاصّته»[4].

وقال: «إنّ هذه القلوبَ تصْدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: فما جِلاؤها؟ قال: «تلاوة القرآن وذكر الموت»[5].

وقال ﷺ: «إنّ الله سبحانه لَأشدّ أذَناً إلى قارىء القرآن من صاحب القينة إلى قَيْنته»[6].

وقال الحسن رحمه الله: ما دون القرآن من غنًى، ولا بعد القرآن من فاقة.

ثم ذكر عليه السلام صورة صلاتهم وركوعهم، فقال: «حانُون على أوْسَاطهم»، حَنَيْتُ العُود: عَطَفته، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصّلاة.

مفترِشُون لجباههم: باسطون لها على الأرض.

ثم ذكر الأعضاء السّبعة التي مباشرتُها بالأرضِ فروضٌ في الصلاة، وهي: الجبهة، والكفّان، والرّكبتان، والقَدَمان.

قوله عليه السلام: «يطلُبون إلى الله»، أي يسألونه، قال: طلبتُ إليك في كذا، أي سألتُك، والكلام على الحقيقة، مقدَّرٌ فيه حال محذوفة يتعلّق بها حرف الجرّ، أي يطلبون سائلين إلى الله في فكاك رقابهم، لأنّ «طلب» لا يتعدّى بحرف الجرّ.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٩٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٧٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٠٠).
(٣) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١٢٨٤)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٥٥).
(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٥)، وأحمد في «مسنده» (١١٨٧٠).
(٥) أخرجه ابن سلامة في مسند الشهاب رقم: ١١٧٧. وأخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١/ ١٠٩.
(٦) أخرجه ابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في الصلاة على الجنائز في المسجد (١٣٤٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٤٢٩).

ثم لما فرغ من ذكر الليل، قال: «وأما النّهار فحلماء، علماء، أبراراً أتقياء»، هذه الصّفات هي التي يطلع عليها الناظرون لهم نهاراً، وتلك الصفات المتقدّمة من وظائف الليل.

ثم ذَكَر ما هُمْ عليه من الخوف، فقال عليه السلام: «إنّ خوفَهُم قد بَرَاهُمْ بَرْيَ القِداح»، وهي السّهام، واحدها قِدْح، فينظر إليهم الناظر فيحسبَهم مرضى وما بهم من مرض، نظير هذا قول الشاعر:

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ بَيْنَ البُيُوت من الحياءِ سَقيمَا
حَتَّى إذا رُفِعَ اللّواءُ رأيتَه تَحْتَ اللّواء عَلَى الخميس زَعِيماً

ويقال للمتقّين لشدّة خوفِهم: كأنهم مَرْضَى، ولا مَرَضَ بهم. وتقول العرب للكرام من النّاس، القليلي المأكل والمشرب، رافضي اللباس الرفيع، ذوي الأجسام النحيفة: مِراضٌ من غير مرض، ويقولون أيضاً للمرأة ذات الطرْف الغَضيض ٱلْفَاتِرِ، وذات الكَسل: مريضة من غير مرض، قال الشاعر:

ضعيفة كَرّ الطّرْف تحسِبُ أنّها حَدِيثَةُ عَهْدٍ بالإفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ

واعلم أنّ الخوفَ مقامٌ جليل من مقامات العارفين، وهو أحد الأركان التي هي أصولُ هذا الفنّ، وهو التَّقْوَى الّتي حثّ الله تعالى عليها، وقال: إنّ أكرَم الناس عنده أشدُّهم خوفاً له، وفي هذه الآية وحدها كفاية، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدتَ أكثره ذكرَ المتقين، وهم الخائفون، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ خافَ اللهَ خافَهُ كلّ شيء، ومَنْ خاف غيرَ الله خَوَّفه الله من كلّ شيء»**(١).

وقال عليه السلام: «أتمُّكُمْ عقلاً أشدّكم لله خوفاً، وأحسنُكم فيما أمَر به ونهى عنه نظراً».

وقال يحيى بن مُعاذ: مِسْكين ابن آدم، لو خاف النّار كما يخاف الفقر، دخل الجنة.

وقال ذُو النّون المصريّ: ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرّجاء، فإنّ الرّجاء إذا غلب تشوّش القلب.

وقيل لبعض الصالحين: مَنْ آمنُ الخلق غداً؟ قال: أشدُّهم خوفاً اليوم.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنعُ بمجالسة أقوام من أصحابك، يخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: إنّك والله لأن تَصْحَبَ قوماً يخوّفونك حتى تدرك الأمْن، خيرٌ لك من أن تصحَبَ قوماً يؤمّنونك حتى يدركك الخوف.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (٢/ ٣٧٦).

وقيل للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[1]: هم الذين يعصون ويخافون المعصية؟ قال: «لا، بل الرّجل يصوم، ويتصدّق، ويخاف ألاّ يُقبل منه».

وقال ﷺ: «ما من قَطْرةٍ أحبّ إلى الله تعالى من قَطْرة دمع من خشية الله، أو قطرةِ دمٍ أريقت في سبيل الله»[2].

وقال ﷺ: «سبعة يظلّهم الله بظلّه يومَ لا ظِلّ إلا ظلُّه»[3]، وذكر منهم رجلاً ذكر الله في خَلْوةٍ، ففاضت عيناه.

قوله عليه السلام: «ويقول قَدْ خولطُوا»، أي أصابتهم جِنّة.

ثم قال: «ولقد خالطهم أمر عظيم»، أي مازجهم خوف عظيم تولّهوا الأجْلِه، فصاروا كالمجانين.

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون في كثير من أعمالهم، ولا يرضيهم اجتهادهم، وأنهم يتهمون أنفسهم، وينسبونها إلى التقصير في العبادة، وإلى هذا نظر المتنبي، فقال:

يَسْتَصْغِرُ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ لِنَفْسِهِ ... ويظنّ دِجْلَةَ ليس تَكْفِي شارباً

قال: «ومن أعمالهم مشفقون»، أي مشفقون من عباداتهم ألاّ تُقبل، وإلى هذا نظر أبو تمام، فقال:

يتجنّب الآثام ثم يخافها ... فكأنما حسناتُهُ آثامُ

ومثل قوله: «أنا أعلَمُ بنفسي من غيري»[4]. قوله عليه السلام لمن زكّاه نفاقاً: «أنا دونَ ما تقول، وفوقَ ما في نفسك»[5].

وقوله: «اللّهمّ لا تؤخذاني بما يقولون....» إلى آخر الكلام مفرد مستقلّ بنفسه منقول عنه عليه السلام، أنه قال لقوم مرّ عليهم وهم مختلفون في أمره، فمنهم الحامِدُ له، ومنهم الذامّ،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٠٨)، والشهاب في «مسنده» (١٣٠٨)، وابن المبارك في «الزهد» (٦٧٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦١٠)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١٦/٦٤.

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٠٣/٤٦ رقم: ٦٢.

فقال: اللهمّ لا تؤاخذني. . .» الكلمات إلى آخرها، ومعناه: اللهم إن كان ما ينسُبُه الذامّون إليّ من الأفعال الموجبة الذم حقًّا، فلا تؤاخذني بذلك، واغفر لي ما لا يعلمونه من أفعالي، وإن كان ما يقوله الحامدون حَقًّا، فاجعلني أفضلَ ممّا يظنونه فيّ.

الأصل: فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحدِهِمْ، أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً في غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وطَلَباً فِي حَلاَلٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ، يَعْمَلُ ٱلأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمّا حُذِّرَ مِنَ ٱلْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ.

إِن ٱسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تكْرَهُ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فيما لا يزول، وزهادته فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ ٱلحِلْم بِالعِلْمِ، وَٱلْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ.

ٱلخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي ٱلْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي ٱلذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ.

فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي المَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ، لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لاَ يُضِيعُ مَا ٱسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي ٱلْبَاطِلِ، وَلاَ يَخرُجُ مِنَ ٱلْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

قال: فَصَعِقَ همَّامٌ صعْقةً كانت نَفْسهُ فيها، فقالَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلام: أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ.

ثم قال: هَكَذَا تَصْنَعُ المَوَاعِظُ ٱلْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا!

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يا أمير المؤمنينَ!

فقال عليه السلام: وَيْحَكَ! إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لاَ يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لاَ يَتَجَاوَزُهُ، فَمَهْلاً لاَ تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!

الشرح: هذه الألفاظ الّتي أولها: «قوّة في دين»، بعضها يتعلّق حرف الجر فيه بالظّاهر، فيكون موضعه نصباً بالمفعوليّة، وبعضها يتعلّق بمحذوف، فيكون موضعه نصباً أيضاً على الصّفة، ونحن نفصّلها.

فقوله: «قوة في دين» حرف الجرّ ها هنا متعلّق بالظاهر، وهو «قُوّة»، تقول: فلان قويّ في كذا وعلى كذا، كما تقول: مررتُ بكذا، وبلغت إلى كذا.

و«وحزماً في لين»، ها هنا لا يتعلّق حرْف الجرّ بالظاهر؛ لأنّه لا معنى له، ألا ترى أنّ لا تقول: فلان حازم في اللّين؛ لأن اللّين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه، وليس كما تقول: فلان حازمٌ في رأيه أو في تدبيره! فوجبَ أن يكون حرف الجر متعلّقاً بمحذوف، تقديره: وحزماً كائناً في لين.

وكذلك قوله: «وإيماناً في يقين»، حرف الجرّ متعلّق بمحذوفٍ: أي كائناً في يقين، أي مع يقين.

فإن قلت: الإيمان هو اليقينُ فكيف، قال: «وإيماناً في يقين»؟ قلت: الإيمانُ هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل، واليقين هو سكون القلْب فقط، فأحدُهما غير الآخر.

قوله: «وحرْصاً في علم»، حرف الجرّ ها هنا يتعلّق بالظاهر، و«في» بمعنى «على» كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[1].

قوله: «وقصداً في غنًى» حرف الجرّ متعلّق بمحذوف، أي هو مقتصدٌ مع كونه غنياً، وليس يجوز أن يكون متعلّقاً بالظاهر، لأنه لا معنى لقولك: اقتصِدْ في الغِنَى، إنما يقال: اقتصد في النّفقة، وذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن للغِنَى ومجامع له.

(١) سورة طه، الآية: ٧١.

قوله: «وخشوعاً في عبادة» حرف الجرّ ها هنا يحتمل الأمرين معاً.

قوله: «وتجمّلاً في فاقة»، حرف الجر هاهنا متعلّق بمحذوف، ولا يصحّ تعلقّه بالظّاهر، لأنّه إنما يقال: فلان يتجمّل في لباسه ومروءته، مع كونه ذا فاقة، ولا يقال: يتجمّل في الفاقة، على أن يكون التجمّل متعدّياً إلى الفاقة.

قوله: «وصَبْراً في شدّة»، حرف الجر ها هنا يحتمل الأمرين.

قوله: «وطلباً في حلال» حرف الجر ها هنا يتعلّق بالظّاهر و«في» بمعنى «اللام».. قوله: «ونشاطاً في هدًى» حرف الجرّ ها هنا يحتمل الأمرين.

قوله: «وتحرّجاً عن طمع»، حرف الجرّ ها هنا يتعلق بالظاهر لا غير.

قوله: «يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل» قدْ تقدّم مثله.

قوله: «يمسي وهمّه الشكر»، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين في كتابه في مواضع كثيرة، نحو قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(١) فقرن الشّكر بالذّكر.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(٣).

ولعلوّ مرتبة الشّكر طعن إبليس في بني آدم، فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(٤)، وقد صدّقه الله تعالى في هذا القول فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٥).

وقال بعضُ أصحاب المعاني: قد قَطَع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ، فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٦).

واستثنى في خمسة أمور: وهي الإغناء، والإجابة، والرزق، والمغفرة، والتوبة فقال: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾(٧).

وقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾(٨).

وقال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾(٩).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٥) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٤١.
(٩) سورة الشورى، الآية: ١٩.

وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(١)].

وقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[(٢)].

وقال بعضهم: كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلاً، وهو خُلُق من أخلاق الربوبيّة، قال تعالى في صفة نفسه: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[(٣)].

وقد جَعَل الله تعالى مفتاحَ كلام أهل الجنّة، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[(٤)] وجعله خاتمة كلامهم أيضاً فقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٥)].

وقيل للنبيّ ﷺ: قد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخّر فلِمَ تقوم الليل، وتتعِبُ نفسَك؟ قال: أفلا أكونُ عبداً شكوراً[(٦)]!.

قوله عليه السلام: «ويصبِحُ وَهَمُّه الذِّكر»، هذه أيضاً درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[(٧)] قال بعض العارفين لأصحابه: أنا أعلم متى يذكرني ربّي. ففزعوا منه فقال: إذا ذكرته ذكرني، وتلا الآية، فسكتوا.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[(٨)].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[(٩)].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[(١٠)].

وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[(١١)].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[(١٢)].

وقال في ذمّ المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(١٣)].

وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[(١٤)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٥.
(٣) سورة التغابن، الآية: ١٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٦) أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٨) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.
(٩) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.
(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.
(١١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(١٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(١٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(١٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

وقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١).

وقال النبيّ ﷺ: «ذاكرُ الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم»(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يرتع في رياض الجنّة، فليُكثِر من ذكر الله»(٣).

وسئل ﷺ: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموتَ ولسانُك رطب بذكر الله»(٤).

وقال ﷺ، حكايةً عن الله تعالى: «إذا ذكَرني عبدِي في نفسه، ذكرتُه في نفسِي، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأ خيرٍ من ملئه، وإذا تقرّب منّي شبراً تقرّبتُ منه ذراعاً، وإذا تقرَّبَ منّي ذراعاً تقرّبتُ منه باعاً، وإذا مَشَى إليّ هرولتُ إليه»(٥).

وقال ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلاّ حفَّت بهم الملائكة، وغشيَتْهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٦).

قوله عَلَيْتُلاِ: «يبيت حذِراً ويصبح فَرِحاً، حذراً لما حُذِّرَ من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفَضْل والرحمة».

وقد تقدّم ذكر الخوف.

وقد عرض عَلَيْتُلاِ هاهنا بالرّجاء المقابل للخوف، فإنّ فرَح العارف بما أصاب من الفضل والرحمة يمكن أن يحمل على أنّه فرح بمجرد ما أصاب من فضل الله ورحمته. ويمكِنُ أن يحمل على أنّه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه، لذا استدلّ على وصوله إليه وقوي ظنّه بظفره به، بما عَجّل الله تعالى ما من فضل والرحمة في الدنيا، ومقامُ الرجاء للعارفين مقام شريف، وهو في مقابلة مقام الخوف، وهو المقام الذي يوجد العارف فيه فرحاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾(٧).

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٦١).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٧١).
(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٨١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٩٣)، وفي «مسند الشاميين» (١٩١).
(٥) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.
(٦) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (٢٦٩٩)، والترمذي، كتاب: القراءات، باب: ما جاء في أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (٢٩٤٥).
(٧) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

وقال النبيّ ﷺ، حكايةً عن الله تعالى: «أنا عنْدَ ظنّ عبدي بي، فلْيظنّ بي ما شاءَ»[1].

ودخل ﷺ على رجل من أصحابه، وهو يجودُ بنفسه، فقال: «كيف تجدك؟» قال: أجِدُني أخاف ذنوبي، وأرجو رحمة ربّي. فقال ﷺ: «ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلاّ أعطاه الله ما رجاه، وأمّنه مما خافه»[2].

قوله عليه السلام: «إن استصعبَتْ عليه نفسُه»، أي صارت صعبة غير منقادة، يقول: إذا لم تطاوعه نفسُه إلى ما هي كارهة له لم يعطِها مرادها فيما تحبّه.

قوله عليه السلام: «قرّة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى»، يقال للفرِح المسرور: إنّه لَقَرِير العين، وقرّت عينُه تقرّ، والمراد بردُها، لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة.

وهذا الكلام يحتمل أمرين:

أحدُهما: أن يعنِيَ بما لا يزول الباريء سبحانه، وهذا مقام شريف جدًّا أعظم من سائر المقامات، وهو حبّ العارف لله سبحانه، وقد أنكره قومٌ فقالوا: لا معنى لمحبّة الباريء إلا المواظبة على طاعته، ونحوه قول أصحابنا المتكلّمين: إنّ محبّة الله تعالى للعبد هي إرادته لثوابه، ومحبّة العبد للباريء هي إرادته لطاعته، فليست المحبّة عندهم شيئاً زائداً على الإرادة ولا يجوز أن تتعلّق بذاتِ الله سبحانه، لأنّ الإرادة لا تتعلّق إلا بالحدوث، وخالفهم شيخنا أبو الحسن، فقال: إنَّ الإرادة يمكن أن تتعلّق بالباقي، ذكر ذلك في الكلام في الأكوان في أول التّصفُّح، فأمّا إثبات الحبّ في الجملة فقد نطقَ به القرآن قال سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾[3]. وقال أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[4] وقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[5].

وفي الحديث أن النبي ﷺ نظر إلى مُصعَب بن عمير مقبلاً وعليه إهابُ كبشٍ قد تمنطق به، فقال: «انظروا إلى الرّجل الذي قد نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوَيْن يغذُوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبّ الله ورسوله إلى ما ترون»[6].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب: الذكر والدعاء، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين (٩٨٣)، وابن ماجه، كتاب: «الزهد» (٤٢٦١).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٨٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٠٨).

ويقال: إنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلتْ أبدانهم، وتغيَّرت ألوانهم، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الخوف من النار، قال: حقٌّ على الله أن يؤمّن من يخافه، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدُّ نحولاً وتغيّراً، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشّوق إلى الجنة، فقال: حقٌّ على الله أن يعطي مَنْ رجاه. ثم مرّ إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدّ نحولاً، وعلى وجوههم، مثل المرائي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حبّ الله عزّ وجلّ، فقال: أنتم المقربون، ثلاثاً.

وقال بعض العارفين:

أحبّكَ حبّين: حبّ الهوى ... وحبًّا لأنّك أهلٌ لذاكا
فأمّا الّذي هوَ حبُّ الهوى ... فَشُغلي بذكرِكَ عمّن سواكا
وأمّا الّذِي أنتَ أهلٌ له ... فكشفكَ لي الحُجُبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ من ذا ولا ذاك لِي ... ولكنْ لَكَ الحمدُ في ذَا وذَاكا

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما يظنه الظاهريّون من أنها الإبصار بالعين، بل المعرفة التامّة، وذلك لأنّ المعارف النظرية يصحّ أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا، فهذا أحد محمَلي الكلام.

وثانيهما: أن يريد بما لا يزول، نعيمَ الجنة، وهذا أدونُ المقاميْن، لأنّ الخلّص من العارفين يحبّونه ويعشقونه سبحانه لذاته، لا خوفاً من النار، ولا شوقاً إلى الجنة، وقد قال بعضهم: لستُ أرضى لنفسي أن أكون كأجيرِ السوء، إن دُفِعت إليه الأجرة رضِيَ وفرح، وإن مُنعها سخط وحزن، إنّما أحبُّه لذاته.

وقال بعض شعرائهم شعراً من جملته:

فَهَجْرُهُ أعظمُ من نارِهِ ... وَوَصْلُه أطيَبُ مِنْ جَنّتِهْ

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، من هذا الكثير، نحو قوله: «لم أعبدْه خوفاً ولا طمعاً، لكنّي وجدته أهلاً للعبادة فعبدته».

قوله عليه السلام: «يمزج الحلم بالعلم»، أي لا يحلُم إلاّ عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون.

قوله: «والقول بالعمل»، أي لا يقتصر على القول، ومثل هذا قول الأحوص:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ ... مَذِقُ اللّسَانِ يَقُولُ مَا لاَ يَفْعَلُ

قوله عليه السلام: «تراه قريباً أملُه»، أي ليست نفسه متعلقةً بما عظُم من آمال الدنيا، وإنّما قُصارى أمره أن يؤمّل القوت والملبس. قليلاً زلله: أي خطؤه.

قوله: «منزوراً أكله»، أي قليلاً، ويحمَد من الإنسان الأكل النزر، قال أعشى باهلة:

تَكْفِيهِ حَزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشوّاء ويكفي شُرْبَهُ الْغُمَرُ

وقال متّمم بن نويرة:

لَقَدْ كَفَّنَ ٱلْمِنْهَالُ تحتَ رِدَائِهِ ... فَتًى غَيْرَ مِبْطَانِ ٱلْعَشِيَّاتِ أرْوَعَا

قوله عليه السلام: «مكظوماً غيظُه» كَظم الغيظِ من الأخلاق الشريفة، قال زيد بن عليّ عليه السلام: «ما سرّني بجرْعة غَيْظٍ أتجرّعها وأصبر عليها حُمْر النّعم».

وجاء رجل إلى الرّبيع بن زياد الحارثيّ، فقال: يا أبا عبدِ الرحمن، إنّ فلاناً يغتابُكَ وينالُ منك، فقال: والله لأغيظنّ مَنْ أمرَه بذلك، قال الرّجل: ومَنْ أمَرَهُ؟ قال: الشيّطان عدوّ الله، استغواه ليؤثمه، وأراد أن يُغضِبَني عليه فأكافئه، والله لا أعطيه ما أحبَّ من ذلك. غفر الله لنا وله.

وجَهِل إنسان على عمر بن عبد العزيز، فقال: أظنّك أردت أن يستفزّني الشيطان بعزّ السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله منّي غداً! انصرف عافاك الله.

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: «الغضَبُ يفسِد الإيمان، كما يفسِدُ الصَّبرِ العسل»[1].

وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني، فقال: «لا تغضب»، فأعاد عليه السؤال، فقال: «لا تغضب»، فقال: زدني، فقال: «لا أجد مزيداً»[2].

ومن كلام بعضِ الحكماء لا يفي عزُّ الغضب بذلّة الاعتذار.

قوله: «إن كان في الغافلين»، معناه أنّه لا يزال ذاكرَ الله تعالى، سواء كان جالساً مع الغافلين أو مع الذاكرين، أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلْبِه، وأمّا إذا كان مع الذّاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه.

قوله عليه السلام: «يعفو عمّن ظَلَمه، ويعطي من حرمه، ويصل مَنْ قطعه»، من كلام المسيح عليه السلام في الإنجيل: «أحبّوا أعداءكم، وصِلُوا قاطعيكم، واعفوا عن ظالِمِيكم، وباركوا عليّ لأعينَكم، لكي تكونوا أبناء أبِيكم الّذي في السماء، الذي تشرق شمسُه على الصّالحين والفَجَرة، وينزل مَطَرُه على المطيعين والأثمة».

---

(١) رجل مذاق: كذوب. اللسان، مادة (مذق).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٣٦)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٧٣).

قوله عليه السلام: «بعيداً فُحْشُه»، ليس يعني به أنّه قد يُفحِش تارة، ويترك الفحش تارات، بل لا فُحْشَ له أصلاً، فكني عن العَدم بالبعد، لأنّه قريب منه.

قوله: «ليّناً قوله»، العارف بسّام طلْق الوجه، ليّن القوْل، وفي صفات النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس بفظٍّ ولا صَخّاب»[١].

قوله: «في الزلازل وقور»، أي لا تحرّكه الخطوب الطارقة، ويقال: إنّ عليّ بن الحسين عليه السلام كان يصلّي، فوقعتْ عليه حيّة، فلم يتحرّك لها، ثم انسابت بين قدميه فما حرّك إحداهما عن مكانه، ولا تَغَيّر لونه.

قوله: «لا يحيفُ على منْ يبغض»، هذا من الأخلاق الشريفة النبويّة، وفي كلام أبي بكر في صفات مَنْ يصلح للإمامة: إن رضيَ لم يدخِلْه رضاه في باطل، وإن غضب لم يخرِجه غضبهُ عن الحق.

قوله: «يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه»، لأنه إن أنكر ثم شُهد عليه فقد ثبت كذبه، وإن سكت ثم شهد عليه فقدم أقام نفسَه في مقام الرِّيبة.

قوله: «ولا ينابز بالألقاب»، هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[٢].

قوله: «ولا يضارّ بالجار»، في الحديث المرفوع: «أوصانِي ربّي بالجار حتى ظَنَنتُ أن يورّثه»[٣].

قوله: «ولا يشمت بالمصائب»، نظير قول الشاعر:

فَلَسْتَ تَرَاهُ شَامِتاً بِمُصِيبَةٍ   وَلاَ جَزِعاً مِنْ طَارِقِ ٱلْحَدَثَان

قوله: «إن صمت لم يغمّه صمته»، أي لا يحزن لفوَات الكلام، لأنه يَرى الصَّمْت مغنماً لا مغرماً.

قوله: «وإن ضحك لم يعلُ صوتُه»، هكذا كان ضحكُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثره التبسّم، وقد يفرُّ أحياناً، ولم يكن من أهل القهقهة والكَرْكَرة.

قول: «وإن بغي عليه صَبَر»، هذا من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[٤].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥٨٥)، والدارمي، كتاب: المقدمة، باب: صفة النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب قبل مبعثه (٥).

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٣) أخرجه بلفظ: «جبريل» بدل «ربي»: البخاري، كتاب: الأدب، باب: الوصاة بالجار (٦٠١٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: الوصية بالجار (٢٦٢٤).

(٤) سورة الحج، الآية: ٦٠.

قوله: «نفسه منه في عناء لأنه يتعبُها بالعبادة، والناس لا يلقون منه عَنَتاً ولا أذًى» فحالهم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه.

قوله: «فصعق همام»، أغمي عليه ومات، قال الله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلأَرۡضِ﴾[1].

واعلم أنّ الوجدَ أمرٌ شريف، قد اختلف الناس فيه، فقالت الحكماء فيه أقوالاً، وقالت الصوفيّة فيه أقوالاً، أمّا الحكماء فقالوا: الوجْد هو حالة تحدُث للنّفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة، إذا كان قد وَرَدَ عليها وارد مُشوّق. وقال بعضُهم: الوجد هو اتّصال النفس بمبادئهما المجرّدة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتّصال.

وأمّا الصُّوفية فقد قال بعضهم: الوجد رفْع الحجاب، ومشاهدة المحبوب. وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السرّ، وهو فَناؤك من حيث أنت أنت. وقال بعضُهم: الوجدُ سِرّ الله عند العارفين ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء عن الحقّ.

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت العبارة، وقدمات كثير من الناس بالوجْد عند سماع وعظ، أو صفقة مطرِب، والأخبار في هذا الباب كثيرة جدًا، وقد رأينا نحنُ في زماننا مَنْ مات بذلك فجأة.

قوله: «كانت نفسه فيها»، أي مات. ونفثَ الشيطان على لسانك، أي تكلّم بلسانك، وأصله النفخ بالفم، وهو أقل من التّفل، وإنّما نهى أمير المؤمنين القائل: «فهلاّ أنت يا أمير المؤمنين!» لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض، وذلك أنه لا يلزم من موت العاميّ عند وعظ العارف أن يموتَ العارف عند وعظ نفسه، لأنّ انفعال العاميّ ذي الاستعداد التامّ للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام نفسه، أو الفكر في كلام نفسه، لأنّ نفس العارف قوية جدًا، والآلة التي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجَر.

فإن قلتَ: فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للسائل غيرُ هذا الجواب!

قلتُ: صدقت، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون، وتصِلُ أفهامهم إليه، فخرج معه إلى حديث الآجال، وأنّها أوقاتٌ مقدّرة لا تتعدّاها، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرْق بين نفسه ونفوسهم، ولا كانت الحال تقتضيه، فأجابه بجواب مُسْكِتٍ، وهو مع إسكانه الخصْم حقّ وعدل عن جواب يحصل منه اضطراب، ويقع فيه تشويش، وهذا نهاية السَّداد وصحة القول.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

١٨٧ - ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين

الأصل: نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ المَعْصِيَةِ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَلِحَبْلِه اعْتِصَاماً.

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وَخَلَعَتْ عليه الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ المَزَارِ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُم الضَّالُّونَ المُضِلُّونَ، وَالزالُّونَ المُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِناناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْصُدونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ.

قُلُوبُهُمْ دَوِيَةٌ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفاءَ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ، حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، وَمُؤَكِّدُو الْبَلاَءِ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ.

لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ. يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ، إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا.

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ، يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ.

قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا المَضِيقَ، فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ، وَحُمَةُ النِّيرَانِ: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

الشرح: الضمير في «له» وهو الهاء راجعٌ إلى «ما» التي بمعنى «الذي»، وقيل: بل هو راجع إلى الله سبحانه، كأنه قال: «نحمده على ما وفّق من طاعته»، والصحيح هو الأول؛ لأنّ «له» في الفقرة الأولى بإزاء «عنه» في الفقرة الثانية. والهاء في «عنه» ليست عائدة إلى «الله» وذاد: طرد، والمصدر الذِّياد.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

وخاض كلّ غَمْرة، مثل قولك: ارتكب كلّ مهلكة، وتقحّم كلّ هول. والغَمْرة: ما ازدحم وكثر من الماء، وكذلك من النّاس، والجمع غِمار.

والغُصّة: الشّجا، والجمع غُصَص.

وتلَوّن له الأدنَوْن: تغيّر عليه أقاربه ألواناً.

وتألّب عليه الأقصوْن: تجمّع عليه الأبعدون عنه نسباً.

وخلعت إليه العرب أعنّتها، مثل، معناه أوْجَفُوا إليه مسرعين لمحاربته؛ لأنّ الخيل إذا خلعتْ أعنّتها كان أسْرَع لجريها.

وضربتْ إلى محاربته بطونَ رواحِلها، كناية عن إسراف العرب نحوه للحرب؛ لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كانَ أوحى لها، ومراده أنّهم كانوا فرساناً وركباناً.

قوله: «حتى أنزلت بساحته عداوتها»، أي حَرْبها، فعبّر عنها بالعداوة؛ لأنّ العداوة سببُ الحرب، فعبّر بالسّبب عن المسبّب، ما زلنا نطأ السّماء حتى أتيناك، يعنون الماء، لمّا كان اعتقادُهم أنّ السماء سببُ الماء.

وأسحق المزار، أبعده، مكان سَحِيق، أي بعيد، والسُّحْق بضم السّين: البعد، يقال: «سُحْقاً له»، ويجوز ضم الحاء، كما قالوا: عُسْر وعسُر، وسَحُق الشيء، بالضم، أي بعد، وأسحقه الله أبعده. والمزار: المكان الذي يُزار منه، أو المكان الذي يزار فيه، والرماد هاهنا هو الأوّل ومن قرأ كتبَ السِّيرة علم ما لاقى رسول الله ﷺ في ذاتِ الله سبحانه من المشقّة، واستهزاء قريش به في أوّل الدعوة، ورميهم إياه بالحجارة، حتى أدْمَوْا عَقِبَيْه، وصياح الصّبيان به، وفَرْث الكرش على رأسِه، وفَتْل الثّوب في عُنُقه وحَصْره وحَصْر أهله في شِعْب بني هاشم سنين عدّة، محرّمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم، حتى كادوا يموتون جوعاً، لولا أن بعضَ مَنْ كان يحنُوا لرَحِم أو لسبب غيره، فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً، ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوَثاق في الشمس، وطردهم إياهم عن شِعاب مكة، حتى خرج مَنْ خرج منهم إلى الحبشة، وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف، وتارة ببني عامر، وتارة بربيعة الفَرَس، وبغيرهم. ثم أجمعوا على قتله والفتْك به ليلاً، حتى هرب منهم لائذاً بالأوْس والخزرج، تاركاً أهله وأولاده، ولأخوته يده، ناجياً بحُشاشة نفسه، حتى وصل إلى المدينة، فناصبوه الحرْب ورموْه بالمناسر[1] والكتائب، وضربوا إليه آباط الإبل، ولم يزل منهم في عناد شديد، وحروب متّصلة، حتى أكرمه الله تعالى ونَصَره، وأيّد دينَه وأظهره. ومَنْ له أنسٌ بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه.

---

(١) المناسر: قطعة من الجيش تسير أمامه الطليعة. المعجم الوسيط، مادة (نسر).

سمّي النِّفاق نِفاقاً من النّافقاء، وهي بيت اليَرْبُوع، له بابان يدخلُ من أحدهما، ويخرج من الآخر، وكذلك الّذي يُظهر ديناً ويبطن غيره.

والضالّون المضِلُّون: الذين يُضِلّون أنفسَهم ويُضِلّون غيرَهم، وكذلك الزالُّون المزِلُّون، زلّ فلان عن الأمر، أي أخطأ، وأزلّه غيرُه.

قوله: «يفتنُّون» يتشّعبون فنوناً، أي ضروباً.

ويعمِدونكم، أي يهدّونكم ويفدحونكم، يقال: عمَده المرض يعمِده، أي هدّه، ومنه قولهم للعاشق: عميد القلب.

قوله: «بعمادٍ»، أي بأمرٍ فادح وخطب مؤلم، وأصل العَمْد انشداخُ سَنَام البعير، وماضيه: عمِد السنام بالكسر، عَمْداً فهو عَمِد.

ويرصدونكم: يَعدّون المكايد لكم، أرصدت: أعددت، ومنه في الحديث: «إلاّ أنْ أرْصُدَ لديْنٍ عَليّ»(١).

وقلب دوٍ، بالتخفيف، أي فاسد، من داء أصابه، وامرأة دوِيَة، فإذا قلت: رجل دوَي، بالفتح، استوى فيه المذكر والمؤنث والجماعة؛ لأنه مصدر في الأصل، ومن روي: «دويّة» بالتشديد، عَلَى بُعده، فإنما شدده ليقابل «نقيّة».

والصِّفَاح: جمع صَفْحة الوجه وهي ظاهره، يقول: باطنهم عليل، وظاهرهم صحيح. يمشون الخَفاء، أي في الخفاء، ثم حذف الجار فنصب، وكذلك يدبّون الضَّرَاء، والضَّرَاء: شجر الوادي الملتفّ، وهذا مثل يضربُ لمن يختلُ صاحبه، يقال: هو يدبّ له الضَّرَاء ويمشي له الخمَر، وهو جَرْف الوادي.

ثم قال: «وصفهم داء، وقولهم شفاء، وفعلُهم الدّاء العَياء»، أي أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين، وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين. والدّاء العَياء: الذي يُعيي الأساة.

ثم قال: «حَسَدة الرخاء» يحسُدون عَلَى النّعم. «ومؤكّد والبلاء»، إذا وقع واحد من الناس في بلاءٍ أكّدوه عليه بالسّعايات والنّعائم، وإغراء السلطان به، ولقد أحسن أبو الطيب في قوله يذمّ البشر:

وَكَأنّا لَمْ يَرْضَ فينا بريب الدّ هـرِ حَتّى أعانه مَنْ أعَانَا
كُلّما أنبت الزمانُ قَنَاةً ركّب المرءُ في القَنَاةِ سِنَانا

«ومقنِطو الرّجاء»، أي أهل الرجاء، أي يبدّلون بشرورهم وأذاهم رَجَاء، الرّاجي قُنوطاً.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب: من أجاب بلبيك وسعديك (٦٢٦٨)، ومسلم كتاب: الزكاة، باب: تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩١).

قوله: «وإلى كلّ قلب شفيع»، يصف خلابة ألسنتهم وشدّة مَلقِهم، فقد استحوذُوا عَلَى قلوب الناس بالرّياء والتصنّع.

قوله: «ولكل شجو دموع»، الشجو: الحزن، أي يبكون تباكياً وتعمّلاً لا حقًّا، عند أهلِ كلّ حزن ومصاب.

يتقارضون الثناء، أي يثني زيد عَلَى عمرو، ليثنيَ عمرٌو عليه في ذلك المجلس، أو يبلغه فيثني عليه في مجلس آخر، مأخوذ من القَرْض.

ويتراقبون الجزاء: يرتقب كلّ واحدٍ منهم عَلَى ثنائه ومدْحِه لصاحبه جزاءً منه، إمّا بالمال أو بأمر آخر، نحو ثناء يثنى عليه، أو شفاعة يشفع له، أو نحو ذلك.

والإلحاف في السؤال: الاستقصاء فيه، وهو مذموم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[1].

قوله: «وإن عَذَلوا كشفوا»، أي إذا عذَلك أحدهم كشف عيوبَك في ذلك اللّوم والعَذَل، وجبّهك بها، وربّما لا يستحي أن يذكُرَها لك بمحضر ممّن لا تحبّ ذكرَها بحَضرته، وليسوا كالناصحين عَلَى الحقيقة، الذين يعرّضون عند العتاب بالذّنب تعريضاً لطيفاً ليقلع الإنسان عنه.

وإن حكموا أسرفُوا، إذا سألت أحدُهم ففوّضتَه في مالك أسرفَ ولم يقنع بشيء، وأحبّ الاستئصال.

قد أعدُّوا لكلّ حقٍّ باطلاً، يقيمون الباطل في معارضة الحقّ، والشبهة في مصادمة الحجّة.

ولكلِّ دليلٍ قائم وقول صحيح ثابت، احتجاجاً مائلاً مضادًّا لذلك الدليل، وكلاماً مضطرباً لذلك القول.

ولكلّ باب مفتاحاً، أي ألسنتهم ذلِقةٌ قادرةٌ عَلَى فَتْح المغلَقاتِ، لُلطْف توصّلهم، وظَرْف منطقهم.

ولكل ليل مصباحاً، أي كلّ أمرٍ مظلم فقد أعدُّوا له كلاماً ينيره ويضيئه، ويجعله كالمصباح الطارِد للّيل.

ويتوصلون إلى مطامعهم بإظهار اليأس عمّا في أيدي الناس، وبالزّهد في الدنيا. وفي الأثر: شرّكم مَنْ أخذ الدنيا بالدين[2].

ثم قال: إنّما فعلوا ذلك ليقيموا به أسواقَهم، أي لتنفق سِلْعَتُهم.

والأعلاق: جمع عِلْق، وهو السلعة الثمينة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

(٢) لم أجده.

يقولون فيشبّهون، يوقعون الشُّبَه في القلوب.

ويصفون فيموّهمون، التمويه التزيين، وأصله أن تطلي الحديدة بذهب يحسّنها قد هيّئوا الطريق، أي الطريق الباطل قد هيأوها لتُسلك بتمويهاتهم.

وأضلعوا المضيق: أمالوه، وجعلوه ضِلَعاً، أي معوجًا، أي جعلوا المسلك الضيّق معوجًا بكلامهم وتلبيسهم، فإذا أسلكوه إنساناً اعوجّ لاعوجاجه.

واللُّمَة: بالتخفيف: الجماعة، والحُمَة بالتخفيف أيضاً: السمّ، وكني عن إحراق النار بالحمة للمشابهة في المضرّة.

١٨٨ - ومن خطبة له عليه السلام في ذكر بعض صفات الله

الأصل: اَلْحَمْدُ لله اَلَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلاَلِ كِبْرِيَائِهِ، ما حَيَّرَ مُقَلَ اَلْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ. وَاشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اَللهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلاَصٍ وَإِذْعَانٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلاَمُ اَلْهُدَى دَارِسَةٌ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ!

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اَللهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ وَاسْتَنْجِحُوهُ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلاَ أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ.

وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ، لاَ يَثْلِمُهُ اَلْعَطَاءُ، وَلاَ يَنْقُصُهُ اَلْحِبَاءُ، وَلاَ يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلاَ يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلاَ يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلاَ يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلاَ تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلاَ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلاَ تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلاَ يُجِنُّهُ اَلْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلاَ يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ اَلْبُطُونِ.

قَرُبَ فَنَأَى، وَعَلاَ فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ.

لَمْ يَذْرَأ اَلْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، وَلاَ اَسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلاَلٍ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اَللهِ بِتَقْوَى اَللهِ، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَاَلْقِوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَاعْتَصِمُوا بِحقَائِقِهَا، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ اَلْحِرْزِ، وَمَنَازِلِ اَلْعِزِّ، فِي يَوْمٍ

تَشْخَصُ فِيهِ ٱلابْصَارُ، وَتُظْلِمُ لَهُ ٱلأَقْطَارُ، وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ ٱلْعِشَارِ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتُزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَاقاً، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً، فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلاَ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ.

الشرح: أظهر سبحانه من آثار سلطانه، نحو خلق الأفلاك ودخول بعضها في بعض، كالمَمِيل الذي يشتمِل على المائل، وذلك التّدْوير وغيرهما، ونحو خلْق الإنسان وما تدلّ كتب التشريح من عجيب الحكمة فيه، ونحو خلق النبات والمعادن، وترتيب العناصر وعلاماتها، والآثار العلوية المتجدّدة، حسب تجدد أسبابها، ما حير عقول هؤلاء، وأشعر بأنها إذا لم يحِط بتفاصيل تلك الحِكم مع أنّها مصنوعة، فالأوْلَى ألا تحيط بالصانع الذي هو برىءٌ عن المادة وعلائق الحسّ.

والمُقَل: جمع مُقْلة، وهي شحمة العين الّتي تجمع السواد والبياض، ومقلتُ الشيء: نظرت إليه بمقلتي، وأضاف المقل إلى «العقول» مجازاً، ومراده البصائر.

وردع: زجر ودفع. وهماهِم النفوس: أفكارها وما يهمهم به عند التمثيل والرويّة في الأمر، وأصل الهمهمة، صُوَيتٌ يسمع، لا يفهم محصوله.

والعِرْفَان: المعرِفة، وكُنْه الشيء: نهايته وأقصاه. والإيقان: العِلْم القطعيّ، والإذعان: الانقياد. والأعلام: المنارُ والجبال يستدلّ بها في الطرقات.

والمناهج: السُّبُل الواضحة والطامسة كالدارسة. وصدَع بالحقّ: بيّن، وأصله الشقّ يظهر ما تحته. ويقال: نَصحتُ لزيد، وهو أفصح من قولك: نصحتُ زيداً.

والقَصْد: العدل.

والعَبَث. ما لا غرض فيه، أو ما ليس فيه غرض مثله، والهمَل: الإبل بلا راع، وقد أهمَلْتُ الإبل: أرسلتها سدًى.

قوله: «علِم مبلغ نعمه عليكم، وأحصى إحسانه إليكم»، أي هو عالم بكميَّة إنعامه عليكم علماً مفصَّلاً، وكلّ مَنْ علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتدّ نقمته عليه عند عصيانه له وجرأته عليه، بخلاف مَنْ يجهل قدر نعمته على الغير، فإنه، لا يشتدّ غضبه لأنه لا يعلم قدر نعمته المكفورة.

قوله: «فاستفتحوه»، أي اطلبوا منه الفَتْح عليكم والنَّصْر لكم.

واستنجِحُوه: اطلبوا منه النجاح والظَّفَر.

واطلبوا إليه، أي اسألوه، يقال: طلبت إلى زيد كذا وفي كذا.

واستمنِحوه، بكسر النون: اطلبوا منه المِنْحة، وهي العطيّة. ويروى: «واستميحوه» بالياء، استمحتُ الرّجُل: طلبت عطاءه، ومحتُ بالرجل: أعطيته.

ثم ذكر عليه السلام أنّه لا حِجاب يمنَع عنه، ولا دونه باب يُغلق، وأنه بكلّ مكان موجود، وفي كلّ حين وأوانٍ، والمراد بوجوده في كلّ مكان إحاطة علمه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٢).

قوله: «لا يثلِمه العطاء» بالكسر: لا ينقص قدرته.

والحِباء: النَّوال ولا يستنفذه، أي لا يفنيه.

ولا يستقصيه: لا يبلغ الجود أقصى مقدوره وإن عَظُم الجود، لأنّه قادر على ما لا ناهية له.

ولا يلويه شخص عن شخص: لا يوجب ما يفعله لشخص أو مع شخص إعراضاً وذهولاً عن شخصٍ آخر، بل هو عالم بالجميع، لا يشغله شأن عن شأن. لوى الرجل وجهه، أي أعرض وانحرف، ومثل هذا أراد بقوله: «ولا يلهيه صوت عن صوت»، ألهاه كذا، أي شغَله.

ولا تحجُزه - بالضمّ - هِبة عن سَلْب، أي لا تمنعه، أي ليس كالقادرين بالقدرة مثلنا، فإنّ الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطيّة زيد عن سلب مال عمرو، حالَما يكون مهتمًّا بتلك العطيّة، لأنّ اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر.

ومثل هذا قوله: «ولا يشغله غضب عن رحمة، ولا تُولِهه رحمة عن عقاب»، أي لا تحدث الرحمة لمستحقها عنده ولَهاً، وهو التحيّر والتردّد، وتصرفه عن عقاب المستحقّ، وذلك لأنّ الواحد منا إذا رحِمَ إنساناً حدث عنده رقّة، خصوصاً إذا توالت منه الرحمة لقوم متعدّدين، فإنه تصير الرحمة كالمَلكة عنده، فلا يطيق مع تلك الحال أنْ ينتقم، والباريء تعالى بخلاف ذلك، لأنه ليس بذي مزاج سبحانه.

ولا يجنّه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون، هذه كلّها مصادر، بَطَن بُطُوناً أي خَفِيَ، وظهر ظهوراً، أي تجلّى، يقول: لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله وإنْ لم يكن ظاهراً بذاته، وكذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفي كُنْهه عن إبصار العقول وإدراكها له. ويقال: اجتننت كذا، أي سترته، ومنه الجنين، والجُنَّة للترس، وسمِّي الجنُّ جنًّا لاستتارهم.

ثم زاد المعنى تأكيداً فقال: «قرُب فنأى»، أي قرب فعلاً فنأى ذاتاً، أي أفعاله قد تُعلم، ولكنّ ذاته لا تعلم.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٧. (٢) سورة الحديد، الآية: ٤.

ثم قال: «وعلا فدنا»، أي لمّا علا عن أن تحيط به العقول عرفته العقول، لا أنّها عرفت ذاته، لكن عرفت أنّه شيء لا يصحّ أن يعرف، وذلك خاصّته سبحانه، فإن ماهيّته يستحيل أن تتصوّر للعقل لا في الدنيا ولا في الآخرة، بخلاف غيره من الممكنات.

ثم أكّد المعنى بعبارة أخرى، قال: «وظهر فبطَن، وبطن فعلَن»، وهذا مثل الأوّل، ودان: غلب وقَهر، ولم يُدَنْ: لم يقهر ولم يغلب.

ثم قال: «لم يذرأ الخلق باحتيال» أي لم يخلقْهم بحيلة توصّل بها إلى إيجادهم، بل أوجدَهُم على حسب عِلمه بالمصلحة خلقاً مخترعاً من غير سببٍ ولا واسطة.

قال: «ولا استعان بهم لكَلاَل»، أي لإعياء، أي لم يأمر المكلّفين بالجهاد لحاجته في قهر أعدائه، وجاحدي نعمته إليهم، وليس بكالٍّ ولا عاجز عن إهلاكهم، ولكنّ الحكمةَ اقتضتْ ذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾(١)، أي لبطل التكليف.

ثم ذكر أنّ التقوى قِوام الطاعات التي تقوم بها، وزمام العبادات؛ لأنها تمسِك وتحصّن، كزمام الناقة المانع لها من الخبْط.

والوثائق: جمع وثيقة، وهي ما يوثق به. وحقائقها جمع حقيقة، وهي الراية، يقال: فلان حامي الحقيقة.

قوله: «تَؤُلْ» بالجزم، لأنه جواب الأمر، أي ترجع.

والأكنان: جمع كِنّ وهو السّتر. والدّعة: الراحة. السَّعَة: الجِدَة. والمعاقل: جمع مَعْقِل، وهو الملجأ. والْحِرز: الحفظ. وتشخص الأبصار: تبقى مفتوحة لا تطرف.

والأقطار: الجوانب. والصُّروم: جمع صُرْم وصِرْمة، وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين.

والعِشار: النّوق أتىٰ عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تَضَع، والواحدة عُشَراء، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾(٢)، أي تركت مسيّبَة مهملَة لا يلتفت إليها أربابها، ولا يحلبونها لاشتغالهم بأنفسهم.

وتزهق كلّ مهجة: تهلك. وتبكَم كلّ لهجه، أي تخرس، رجل أبكم وبكيم، والماضي بكِمَ بالكسر.

والشُّمّ الشوامخ: الجبال العالية، وذُلّها: تدكْدكها، وهي أيضاً الصّمّ الرواسخ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة التكوير، الآية: ٤.

فيصير صلدها - وهو الصلب الشديد انصلابه - سراباً، وهو ما يتراءى في النهار فيظنّ ماءً.

والرَّقراق: الخفيف. ومعهدها: ما جعل منها منزلاً للناس. قاعاً: أرضاً خالية.

والسَّمْلق: الصفصف المستوي، ليس بعضه أرفعَ وبعضه أخفض.

١٨٩ - ومن خطبة له عليه السلام يحث على العمل الصالح

الأصل: بَعَثَهُ حِينَ لاَ عَلَمٌ قَائِمٌ، وَلاَ مَنَارٌ سَاطِعٌ، ولا مَنْهَجٌ واضِحٌ.

أوصِيكُمْ عِبادَ الله بِتَقْوَى الله، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا، فإِنَّها دَارُ شُخُوصٍ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، ساكِنُها ظاعِنٌ، وَقاطِنُها بائِنٌ.

تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ، تَقْصِفُها الْعَوَاصِفُ في لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي على بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّياحُ بِأَذْيالِها، وَتَحْمِلُهُ على أَهْوَالِها، فَما غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وما نَجا مِنْها فَإِلَى مَهْلَكٍ.

عِبَادَ الله، الآنَ فَاعْلَمُوا، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَعْضاءُ لَدْنَةٌ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، والْمَجالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهاقِ الْفَوْتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

الشرح: يقول: بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله لمّا لم يبق عَلَمٌ يهتدي به المكلّفون، لأنّه كان زمان الفترة وتبدّل المصلحة، واقتضاء وجوب اللّطف عليه سبحانه تجديداً لبعثه، ليعرّف المبعوثُ المكلّفين الأفعال التي تقرّبهم من فعل الواجبات العقلية، وتبعدهم عن المقبّحات الفعلية. والمنار الساطع: المرتفع. سطح الصُّبْحُ سطوعاً: ارتفع.

ودارُ شخوص: دار رِحْلة شَخَص عن البلد: رحل عنه.

والظاعن: المسافر. والقاطن: المقيم. والبائن: البعيد. يقول: ساكن الدنيا ليس بساكن على الحقيقة، بل هو ظاعن في المعنى وإن كان في الصورة ساكناً، والمقيم بها مفارق، وإنْ ظَنّ أنه مقيم.

وتميد بأهلها: تتحرّك وتميل والميَدان: حركة واضطراب.

وتصفقّها العواصفُ تضربها بشدّة، ضرباً بعد ضرب. والعواصف: الرياح القوية. اللَّجج: جمع لُجّة، وهي معظم البحر.

الوبِق: الهالك، وبَق الرجل بالفتح، يبِقُ وبوقاً: هلك، والموْبِق منه كالموعِد «مفعِل» عن وعد يعِد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾[1]، وفيه لغة أخرى: وَبَقَ الرجل يَوْبَق وَبقاً، وفيه لغة ثالثة: وَبِق الرّجل، بالكسر يبِق بالكسر أيضاً، وأوبقه الله، أي أهلكه.

وتحفزه الرياح، تدفعه. ضرب عليه السلام لأهل الدنيا مثلاً براكبي السَّفينة في البحر، وقد مادَتْ بهم، فمنهم الهالك على الفور، ومنهم مَنْ لا يتعجّل هلاكه، وتحمله الرياح ساعة أو ساعات، ثم مآله إلى الهلاك أيضاً.

ثم أمَرَ عليه السلام بالعمل وقتَ الإمكان قبل ألاّ يمكن العمل، فكنَى عن ذلك بقوله: والألسن منطلِقة، لأنّ المحتضَر يُعتقل لسانه، والأبدان صحيحة، لأنّ المحتضَر سقيم البدن. والأعضاء لدْنة، أي لينة، أي قبل الشيخوخة والهرَم ويبس الأعضاء والأعصاب. والمنقلَب فسيح، والمجال عريض، أي أيام الشبيبة وفي الوقت والأجل مهلة، قبل أن يضيق الوقت عليكم.

قبل إرهاق الفوت، أي قبل أن يجعلكم الفوت - وهو فوات الأمر وتعذّر استدراكه عليكم - مرهَقين، والمرهَق: الذي أدرك ليقتل، قال الكميت:

تَنْدَى أكُفُّهُمُ وَفِي أبْيَاتِهِمْ ... ثِقَةُ ٱلْمُجَاورِ والمضافِ المرْهَقِ

قوله: «فحقّقوا عليكم نزوله، ولا تنتظروا قدومه»، أي اعملوا عمل مَنْ يشاهد الموت حقيقة، لا عمل مَنْ ينتظره انتظاراً ويطاول الأوقات مطاولة، فإنّ التسويف داعية التقصير.

١٩٠ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر مواقفه من الرسول

الأصل: وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلّى ٱلله عَلَيْهِ وَسلّم، أَنّي لَمْ أَرُدّ عَلَى ٱلله وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ ساعَةً قَطُّ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيها الأَبْطالُ، وَتَتَأخَّرُ الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي ٱلله بِهَا.

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ الله صَلّى ٱلله عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي، وَلَقَدْ سالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُها عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صَلّى ٱلله عَلَيْهِ وسلّم وَالْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي،

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٢.

فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالأَفْنِيَةُ: مَلأٌ يَهْبِطُ، ومَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتاً!

فَانْفُذُوا عَلَى بَصائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهادِ عَدُوِّكُمْ، فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَى جادَّةِ الحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ لِي وَلَكُمْ.

الشرح: يمكن أن يعني بالمستحفَظين الخُلفاء الّذِين تقدّموا؛ لأنهم الّذِين استحفِظوا الإسلام، أي جُعِلوا حافظين له، وحارسين لشريعته ولحوزته، ويجوز أن يعني به العلماء والفُضَلاء من الصّحابة؛ لأنهم استحفِظوا الكتاب، أي كُلِّفوا حفظَه وحراسته.

والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام: «لم أردّ على الله، ولا على رسوله ساعة قطّ» إلى أمور وقعتْ من غيره، كما جرى يوم الحديبية عند سَطْر كتاب الصلح، فإنّ بعض الصحابة أنكر ذلك، وقال: يا رسولَ الله، ألسنا المسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوَليسُوا الكافرين؟ قال: «بلى»، قال: فكيف نُعطِي الدنيّة في ديننا! فقال صلى الله عليه وآله: «إنّما أعملَ بما أومَر به» فقال قوم من الصحابة: ألم يكن قد وعدنا بدخول مكة! وها نحن قد صُدِدنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطينَا الدنيّة في ديننا، والله لو أجد أعواناً لم أعطِ الدنيّة أبداً، فقال أبو بكر لهذا القائل: ويحك! الزَمْ غَرْزه، فوالله إنّه لرَسُولُ الله صلى الله عليه وآله، وإنّ الله لا يضيّعه.

ثم قال له: أقال لك: إنه سيدخلها هذا العام؟ قال: لا، قال: فسيدخلُها. فلما فتح النبيّ صلى الله عليه وآله مكة، وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال: هذا الذي وُعدتم به.

واعلم أنّ هذا الخبر صحيحٌ لا ريبَ فيه، والنّاس كلُّهم روَوْه، وليس عندي بقبيح ولا مستهجَن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وآله عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد، والتماساً لطُمأنينة النفس، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(1). وقد كانت الصّحابة تراجع رسول الله صلى الله عليه وآله في الأمور، وتسأله عمّا يستبهِم عليها وتقول له: أهذا منك أم من الله؟ وقال له السَّعْدان رحمهما الله يوم الخندق، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعْضِ تمر المدينة: أهذا مِن الله أم رأيٌ رأيتَه من نفسك؟ قال: بل من نفسي، قالا: لا، والله لا نعطيهم منها تمرةً واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا!

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

وقالت الأنصار له يوم بدر، وقد نزل بمنزلٍ لم يستصلحوه: أنزَلْتَ هذا المنزل عن رأيٍ رأيتَ أم بوحيٍ أُوحِيَ إليك؟ قال: بل عن رأيٍ رأيتُه، قالوا: إنّه ليس لنا بمنزلٍ، ارحل عنه فانزل بموضع كذا.

وأما قول أبي بكر له: «الزم غَرْزه، فوالله إنه لرسول الله ﷺ» فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه، ولا يدلّ ذلك على الشكّ، فقد قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾(١)، وكلُّ أحد لا يستغني عن زيادة اليقين والطمأنينة. وقد كانت وقعت من هذا القائل أمورٌ دون هذه القصّة، كقوله: دعْني أضرب عُنُق أبي سفيان. وقوله: دَعْني أضرب عُنق عبد الله بن أبيّ، وقوله: دَعْني أضرب عُنق حاطب بن أبي بَلْتعة. ونَهْي النبيّ ﷺ له عن التسرّع إلى ذلك، وجذبه ثوبَ رسول الله ﷺ حين قام على جنازة ابن سَلُول يصلّي، وقوله: كيف تستغفر لرأس المنافقين! وليس في ذلك جميعه ما يدلّ على وقوع القبيح منه، وإنما الرّجلُ كان مطبوعاً على الشّدة والشراسة والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجيّة التي طبع عليها. وعَلَى أيّ حال كان، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً.

قوله عليه السلام: «ولقد واسيتُه بنفسي»، يقال: واسيته وآسيته، وبالهمزة أفصح، وهذا مما اختصّ عليه السلام بفضيلته غير مدافَع، ثبت معه يوم أُحُد وفرّ الناس، وثبت معه يوم حُنين وفرّ الناس، وثبت تحت رايته يوم خَيْبر حتى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله.

وروى المحدّثون أنّ رسول الله ﷺ لما ارْتُثَّ يوم أُحُد، قال الناس: قتِل محمد، رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلاّ أنه حيٌّ، فصمَدتْ له فقال لعليٍّ عليه السلام: اكفني هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صَمَدت له كتِيبة أخرى، فقال: يا عليّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمَدت له كتيبة ثالثة، فكذلك، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يا محمد، إنّ هذه لَلْمواساة، فقلت: وما يمنعه وهو منّي وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكما(٢).

وروى المحدّثون أيضاً أنّ المسلمين سمِعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: «لا سيف إلا ذو الفَقار، ولا فتى إلاّ عليّ» فقال رسول الله ﷺ لمن حضره: «ألا تسمعون! هذا صوتُ جبريل».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٤١).

وأما يومُ حنين فثبت معه في نفرٍ يسير من بني هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامَى عنه، وقتَل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابتْ إليه الأنصار، وانهزمت هوازن وغنمت أموالها.

وأما يوم خيبَر فقصّته مشهورة.

قوله عليه السلام: «نجدةً أكرمني الله سبحانه بها»، النّجْدة: الشجاعة، وانتصابها ها هنا على أنّها مصدر، والعامل فيه محذوف.

ثم ذكر عليه السلام وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «القد قبِض وإنّ رأسَه لعَلَى صدري، وقد سالتْ نفسه في كفّي، فأمررتُها على وجهي»، يقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قاء دماً يسراً وقت موته، وإنّ عليًّا عليه السلام مَسَحَ بذلك الدّم وجهه.

وقد رُوِيَ أنّ أبا طيبة الحجّام شرب دمَه عليه السلام وهو حيّ، فقال له: إذن لا يجعْ بطنك.

قوله عليه السلام: «فضجّت الدار والأفنيَة»، أي النازلون في الدار من الملائكة، أي ارتفع ضَجيجُهم ولجبُهم، يعني أني سمعت ذلك ولم يسمعه غيري من أهل الدار.

والملأ: الجماعة، يهبط قومٌ من الملائكة ويصعد قوم. والعروج: الصعود. والهينمة: الصوْت الخفيّ. والضريح: الشقّ في القبر.

خبر موت الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

وقد روي مِنْ قصّة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه عرَضت له الشّكاة التي عرضت، في أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة، فجهّز جيش أسامة بن زيد، فأمرهم بالمسير إلى البَلْقاء حيث أصيب زيد وجعفر عليه السلام من الرّوم، وخرج في تلك الليلة إلى البقيع، وقال: إنّي قد أمِرْت بالاستغفار عليهم، فقال عليه السلام: السّلام عليكم يا أهلَ القبور، ليهنِكُم ما أصبحتم فيه مِمّا أصبح الناس فيه، أقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم، يتبع أوّلَها آخرُها. ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً، ثم قال لأصحابه: إن جبريل كان يعارِضُني القرآن في كلّ عام مرّة، وقد عارضني به العامَ مرتين، فلا أراه إلا لحضور أجلي. ثم انصرف إلى بيته، فخطب الناس في غدِه، فقال: معاشر الناس قد حان منّي خُفُوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عِدَة، فلْيأتني أعطه إياها، ومَنْ كان عليّ ديْن، فليأتني أقضِه. أيّها الناس، إنّه ليس بين الله وبين أحد نسبٌ ولا أمر يؤتيه به خيراً، أو يصرف عنه شرًّا إلا العمل، ألا لاَ يدّ عينٌ مدّع ولا يتمنَّينّ متمن. والذي بعثني بالحق لا ينجّي إلاّ عملٌ مع رحمة، ولو عَصَيْت لهويت. اللهم قد بلّغت.

ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خَفيفة، ثم دخل بيت أم سلَمة، ثمّ انتقل إلى بيت عائشة يعلّله النساء والرجال، أمّا النساء فأزواجه وبنته عليها السلام، وأمّا الرجال فعليّ عليه السلام والعبّاس

والحسن والحسين عليهما السلام، وكانا غلامين يومئذٍ، وكان الفضل بن العباس يدخل أحياناً إليهم، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مَرَضِه، فأوّل ذلك التنازع الواقع يوم قال صلى الله عليه وآله: «ائتوني بدواة وقرطاس»[1]، وتلا ذلك حديث التخلّف عن جيش أسامة، وقول عياش بن أبي ربيعة: أيولّى هذا الغلام على جلّة المهاجرين والأنصار!

ثم اشتدّ به المرض، وكان عند خفّة مرضه يصلّي بالناس بنفسه، فلما اشتدّ به المرض، أمر أبا بكر أن يصلّيَ بالناس.

وقد اختلف في صلاته بهم، فالشّيعة تزعم أنه لم يصلِّ بهم إلاّ صلاةً واحدة، وهي الصّلاة التي خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يتهادَى بين عليّ عليه السلام والفَضْل، فقام في المحراب مقامه، وتأخّر أبو بكر.

والصحيح عندي - وهو الأكثر الأشهر - أنّها لم تكنْ آخرَ صلاة في حياته صلّى الله عليه وآله بالنّاس جماعة، وأنّ أبا بكر صلّى بالناس بعد ذلك يومين، ثم مات صلّى الله عليه وآله، فمن قائل يقول: إنّه توفِّيَ لليلتين بقيَتا من صَفَر، وهو القول الذي تقوله الشّيعة، والأكثرون أنّه توفِّيَ في شهر ربيع الأول بعد مضيّ أيام منه.

وقد اختلفت الرّواية في موته، فأنكر عمر ذلك، وقال: إنّه لم يَمُتْ، وإنه غاب وسيعود، فثناه أبو بكر عن هذا القول، وتلا عليه الآيات المتضمّنة أنه سيموت، فرجع إلى قوله.

ثم اختلفوا في موضع دفنه، فرأى قوم أن يدفنوه بمكّة لأنّها مسقطُ رأسه، وقال مَنْ قال: بل بالمدينة، ندفنه بالبقيع عند شهداء أُحُد. ثم اتفقوا على دفنه في البيت الذي قبِض فيه، وصلّوا عليه أرسالاً لا يؤمّهم أحد.

وقيل: إن عليًا عليه السلام أشار بذلك فقبلوه.

وأنا أعجب من ذلك، لأنّ الصّلاة عليه كانت بعد بَيْعة أبي بكر، فما الذي منع من أن يتقدّم أبو بكر فيصلّي عليه إماماً!

وتنازعوا في تلحيدِه وتضريحِه، فأرسل العبّاس عمُّه إلى أبي عبيدة بن الجرّاح - وكان يحفِر لأهل مكّة ويضرَح على عادتهم - رجلاً، وأرسل عليّ رجلاً إلى أبي طلحة الأنصاري - وكان يَلحَد لأهل المدينة على عادتهم - وقال: اللهمّ اخترْ لنبيِّك، فجاء أبو طلحة فلحَد له، وأدخِل في اللّحد.

وتنازعوا فيمن ينزل معه القَبْر، فمنَع عليٌّ عليه السلام النّاس أن ينزلوا معه، وقال: لا ينزل قبرَه

(١) ذكره في «الملل والنّحل» (١/٢٢).

غيري وغير العبّاس، ثم أذن في نزولِ الفضل وأسامة بن زيد مولاهم، ثم ضجّت الأنصار، وسألت أن ينزل منها رجل في قبره. فأنزَلوا أوْس بن خوليّ - وكان بدريًا.

فأما الغسْل فإنّ علياً عليه السلام تولاّه بيده، وكان الفضل بن العباس يصبّ عليه الماء.

وروى المحدّثون عن عليّ عليه السلام، أنه قال: ما قَلّبْتُ منه عُضواً إلاّ وانقلب، لا أجدُ له ثِقلاً، كأنّ معي مَنْ يساعدني عليه، وما ذلك إلا الملائكة.

وأما حديث الهينمة وسماع الصّوت، فقد رواه خَلْق كثير من المحدّثين، عن عليّ عليه السلام، وتروِي الشيعة أنّ عليًا عليه السلام عَصَب عَيْنَي الفضْل بن العباس، حين صبّ عليه الماء، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاه بذلك، وقال: إنه لا يبصر عورتي أحدٌ غيرُك إلا عَمِيَ.

قوله عليه السلام: «فمن ذا أحقّ به منّي حيًا وميتاً!»، انتصابهما على الحال من الضمير المجرور في «به»، أي أيّ شخص أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله حال حياته وحال وفاته منّي! ومرادُه من هذا الكلام، أنّه أحق بالخلافة بعدَه وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه في الدنيا، وليس يجوز أن يكونا حالَين من الضمير المجرور في «منّي» لأنه لا يحسن أن يقول: أنا أحقّ به إذا كنت حيًا من كلّ أحد، وأحقّ به إذا كنت ميتاً من كلّ أحد، لأنّ الميت لا يوصَف بمثل ذلك، ولأنه لا حال ثبتت له من الأحقيّة إذا كان حيًا إلاّ وهي ثابتة له إذا كان ميتاً، وإن كان الميت يوصف بالأحقيّة، فلا فائدة في قوله.

و«ميتاً» على هذا الفرض، ولا يبقى في تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة، وأمّا إذا كان حالاً من الضمير في «به»، فإنه لا يلزم من كونه أحقّ بالمنزلة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ أن يكونَ أحقَّ بالخلافة بعد وفاته، أي ليس أحدُهما يلزم الآخر، فاحتاج إلى أن يبيّن أنّه أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله من كل أحدٍ إن كان الرسول حيًا، وإنْ كان ميّتاً، ولم يستهجن أن يقسّم الكلام إلى القسمين المذكورين.

قوله عليه السلام: «فانفذوا إلى بصائركم»، أي أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التي أنتم عليها، ولا يدخلنّ الشكّ والرَّيب في قلوبكم.

قوله عليه السلام: «إني لعلَى جادّة الحق، وإنّهم لعلَى مزلّة الباطل»، كلام عجيب على قاعدة الصناعة المعنوية، لأنّه لا يحسن أن يقول: وإنهم لَعَلَى جادّة الباطل، لأن الباطل لا يوصف بالجادّة، ولهذا يقال لمن ضلّ وقع في بُنَيّاتِ الطريق، فتعوّض عنها بلفظ «المزلّة»، وهي الموضع الذي يزلّ فيه الإنسان، كالمزلقة: موضع الزَّلَق، والمغرَقة: موضع الغرق، والمهلكة: موضع الهلاك.

١٩١ - ومن خطبة له عليه السلام في حث الناس على التقوى

الأصل: يَعْلَمُ عَجِيجَ ٱلْوُحُوشِ فِي ٱلْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ ٱلْعِبَادِ فِي ٱلْخَلَوَاتِ، وَٱخْتِلاَفَ النِّينَانِ فِي ٱلْبِحَارِ ٱلْغَامِرَاتِ، وَتَلاَطُمَ المَاءِ بِالرِّيَاحِ ٱلْعَاصِفَات.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ ٱللهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ ٱلَّذِي ٱبْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ، فَإِنَّ تَقْوَى ٱللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورُ دَنَسِ أنفسكم، وَجِلاَءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ.

الشرح: العجيج: رفع الصوت، وكذلك العَجّ، وفي الحديث: «أفضل الحجّ العَجّ والثَّجّ»(١)، أي التلبية وإراقة الدم، وعجيج، أي صوت، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت.

والنِّينان: جمع نُونٍ، وهو الحوت، واختلافها ها هنا: هو إصعادها وانحدارها.

ونجيب الله: منتجَبه ومختاره.

وسفير وحيِه: رسول وحيِه، والجمع سفَراء، مثل فقيه وفقهاء.

وإليه مرامي مفزعِكم: إليه تفزعون وتلجؤون، ويقال: فلان مرمَى قصدي، أي هو الموضع الذي أنحوه وأقصِده.

ويروى: «وجلاء عَشَى أبصاركم»، بالعين المهملة والألف المقصورة، والجأس: القلب، وتقدير الكلام: وضياء سواد ظلمة عقائدكم، ولكنّه حذف المضاف للعلم به.

الأصل: فَاجْعَلُوا طَاعَةَ ٱللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرْكِ طَلِبَتِكُمْ،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الحج، باب: ما جاء في فضل التلبية والحج (٨٢٧)، وابن ماجه، كتاب الحج، باب: من قدّم نسكاً قبل نسك (٢٩٢٤).

وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ، فَإِنَّ طَاعَةَ ٱللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ.

فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَٱحْلَوْلَتْ لَهُ ٱلْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَٱنْفَرَجَتْ عَنْهُ ٱلْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ ٱلْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا. وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ ٱلْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا. فَاتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَٱمْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَٱخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

الشرح: الشِّعار: أقرب إلى الجَسَد من الدِّثار. والدّخيل: ما خالط باطنَ الجسد، وهو أقرب من الشعار.

ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفاً بين الأضلاع، أي في القلب، وذلك أمسّ بالإنسان من الدخيل، فقد يكون الدّخيل في الجسد وإن لم يخامر القلب.

ثم قال: «وأميراً فوق أموركم»، أي يحكُم على أموركم كما يحكم الأمير في رعيّته.

والمنهل: الماء يرِده الوارد من الناس وغيرهم.

وقوله: «لحين ورودكم»، أي لوقت ورودكم.

والطَّلِبة بكسر اللام: ما طلبته من شيء.

قوله: «ومصابيح لبطون قبوركم»، جاء في الخبر: إن العمل الصالح يضِيء قبرَ صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة[1].

والسّكن: ما يسكن إليه.

قوله: «ونَفَساً لكرب مواطنكم»، أي سعَة ورَوْحاً.

ومكتنفة: محيطة. والأُوَار: حرّ النار والشمس.

وعَزَبت: بعُدت. واحلولت: صارت حلوة. وتراكُمها: اجتماعها وتكاثُفها. وأسهلت: صارت سهلة. بعد انصابها، أي بعد إتعابها لكم، أنصبته: أتعبته.

وهطلت: سالت. وقحوطها: قلّتها ووَتاحتها.

وتحدّبت عليه: عطفت وحَنَت.

نضوبها: انقطاعها. كنضوب الماء: ذهابه.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٧/ ٢٨٤.

ووبَل المطر: صار وابلاً، وهو أشدّ المطر وأكثره. وإرذاذها: إتيانها بالرَّذاذ وهو ضعيف المطر.

قوله: «فعبّدوا أنفسكم»، أي ذللوها. ومنه طريق معبّد.

واخرجوا إليه من حقّ طاعته، أي أدُّوا المفترَض عليكم من العبادة، يقال: خرجت إلى فلانٍ من دَيْنه، أي قضيته إياه.

الأصل: ثُمَّ إِنَّ هَذا الإِسْلاَمَ دِينُ ٱللهِ الَّذِي ٱصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَٱصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ.

أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ ٱلْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِرُكْنِهِ، وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وَأَتْاقَ ٱلْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ.

ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ ٱنْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلاَ فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلاَ ٱنْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ، وَلاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلاَ ٱنْقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلاَ ٱنْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلاَ عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلاَ جَذَّ لِفُرُوعِهِ، وَلاَ ضَنْكَ لِطُرُقِهِ، وَلاَ وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ، وَلاَ سَوَادَ لِوَضَحِهِ، وَلاَ عِوَجَ لانْتِصَابِهِ، وَلاَ عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلاَ وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَلاَ ٱنْطِفاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلاَ مَرَارَةَ لِحَلاَوَتِهِ.

فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي ٱلْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وَثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا، وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا، وَمَصَابِيحُ شُبَّتْ نِيرَانُهَا، وَمَنَارٌ ٱقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا، وَأَعْلاَمٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا.

جَعَلَ ٱللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ، فَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ، رَفِيعُ ٱلْبُنْيَانِ، مُنِيرُ ٱلْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ المَنَارِ، مُعْوِذُ المَثَارِ.

فَشَرِّفُوهُ وَٱتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الشرح: اصطنعه على عينه، كلمة تقال لما يشتدّ الاهتمام به، تقول للصانع: اصنع لي كذا على عيني، أي اصنعه صنعة كاملةً كالصنعة التي تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعيني، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾(١).

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

وأصفاه خيرَة خلقه، أي آثر به خيرَة خلقه، وهم المسلمون، وياء: «خِيرَة» مفتوحة.

قال: وأقام الله دعائم الإسلام على حبّ الله وطاعته.

والمحادّ: المخالف، قال تعالى: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾[1]، أي من يعادِ الله كأنه يكون في حدّ وجهَة، وذلك الإنسان في حدّ آخر وجهة أخرى، وكذلك المشاقّ، يكون في شقّ والآخر في شق آخر.

وأتأق الحياض: ملأها، وتَئِقَ السّقاء نفسه يتأق تأقاً، وكذلك الرجل، إذا امتلأ غضباً.

قوله: «بمواتحه»، وهي الدّلاء يمتَح بها، أي يسقَي بها.

والانفصام: الانكسار. والعفاء: الدُّروس.

والجَذّ: القطع، ويروى بالدال المهملة، وهي القطع أيضاً.

والضّنْك: الضيق.

والوعوثة: كثرة في السهولة توجب صعوبة المشي، لأن الأقدام تعِيث في الأرض. والوضَح: البياض.

والعَوَج، بفتح العين: فيما ينتصب كالنّخلة والرّمح، والعِوَج بكسرها: فيما لا ينتصب، كالأرض والرأي والديّن.

والعَصَل: الالتواء والاعوجاج، ناب أعْصَل وشجرة عصلة، وسهام عُصْل.

والفَجّ: الطريق الواسع بين الجبلين، يقول: لا وَعث فيه، أي ليس طريق الإسلام بوعث، وقد ذكرنا أنّ الوعوثة ما هي.

قوله: «فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها»، الأسْناخ: جمع سِنْخ، وهو الأصل، وأساخها في الأرض: أدخلها فيها، وساخت قوائم فرسه في الأرض تسوخُ وتَسِيخ: دخلت وغابت.

والآساس بالمدّ: جمع أسَس، مثل سَبَب وأسباب، والأسَس والأُسّ والأساس واحدة، وهو أصل البناء.

وغَزُرت عيونها، بضم الزاي: كثرت. وشُبّت نيرانها بضم الشين: أوقدت، والمنار: الأعلام في الفلاة.

قوله: «قصد بها فجاجها»، أي قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين في تلك الفجاج، فأضاف القصد إلى الفِجاج.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٣.

وروي: «روّادها» جمع رائد، وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء.

والذِّرْوَة: أعلى السنام والرأس وغيرهما.

قوله: «معوذ المثار»، أي يعجز الناس إثارته وإزعاجه لقوّته ومتانته.

الأصل: ثم إنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ، حِينَ دَنَا مِنَ ٱلدُّنْيَا الانْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاَعُ، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي ٱنْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَٱقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَٱنْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَٱنْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلاَمِهَا، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ٱلْكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُه، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُه، وَمِنْهَاجاً لاَ يَضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ.

فَهُوَ مَعْدِنُ ٱلْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ ٱلْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ ٱلْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ ٱلْإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ ٱلْحَقِّ وَغِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يَنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لاَ يَغِيضُهَا ٱلْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَإِكَامٌ لاَ يَجُوزُ عَنْهَا ٱلْقَاصِدُونَ.

الشرح: قوله عليه السلام: «حين دنا من الدنيا ٱلانقطاع»، أي أزِفَتِ الآخرة وقَرُب وقتها. وقد اختلف الناس في ذلك اختلافاً شديداً فذهب قوم إلى أنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة، قد ذهب بعضها وبقي بعضها.

واختلفوا في مقدار الذاهب والباقي، واحتجُّوا لقولهم بقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]، قالوا: اليوم هو إشارة إلى الدنيا، وفيها يكون عروج

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

الملائكة والروح إليه، واختلافهم بالأمر من عنده إلى خلقه، وإلى رسله، قالوا: وليس قول بعض المفسِّرين أنّه عَنَى يوم القيامة بمستحسَن، لأنّ يوم القيامة لا يكون للملائكة والرّوح عروج إليه سبحانه، لانقطاع التكليف، ولأنّ المؤمنين إمّا أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة، أو يكون هذا مختصًّا بالكافرين فقط، ويكون قصيراً على المؤمنين، والأوّل باطل، لأنّه أشدّ من عذاب جهنّم، ولا يجوز أن يلقى المؤمن هذه المشقّة، والثاني باطل، لأنّه لا يجوز أن يكون الزّمان الواحد طويلاً قصيراً بالنّسبة إلى شخصيْن، اللهمّ إلاّ أن يكون أحدُهما نائماً، أو ممنوًّا بعلّة تجري مجرَى النّوم، فلا يحسّ بالحركة، ومعلوم أنّ حال المؤمنين بعد بعثهمْ، ليست هذه الحال.

قالوا: وليستْ هذه الآية مناقضة للآية الأخرى، وهي قولُه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، وذلك لأنّ سياق الكلام يدلّ على أنه أراد به الدُّنيا، وذلك لأنّه قد وَرَد في الخبر أنّ بين الأرضِ والسماء مسيرة خمسمائة عام، فإذا نزل الملَك إلى الأرضِ، ثم عاد إلى السماء، فقد قطع في ذلك اليوم مسيرة ألف عام، ألاَ ترى إلى قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي ينزل الملَك بالوحي والأمر والحُكْم من السماء إلى الأرض، ثم يعود راجعاً إليه وعارجاً صاعداً إلى السماء، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدارُ مسير ألف سنة.

وذكر حمزة بن الحسن الأصفهانيّ في كتابه المسمى «تواريخ الأمم»: أنّ اليهود تذهب إلى أنّ عدد السنين من ابتداء التّناسل إلى سنة الهجرة لمحمد ﷺ أربعة آلاف واثنتان وأربعون سنة وثلاثة أشهر.

والنصارى تذهبُ إلى أنّ عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثة أشهر.

وأنّ الفرس تذهب إلى أنّ من عهد كَيومَرْت والد البشر عندهم إلى هلاك يَزْدَجِرد بن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذي جاء به زَرَدْشت، وهو الكتاب المعروف بأبستا.

فأمّا اليهود والنصارى فيسنِدُون ذلك إلى التوراة ويختلفون في كيفيّة استنباط المدّة.

وتزعم النّصارى واليهود أن مدّة الدّنيا كلّها سبعة آلاف سنة، قد ذهب منها ما ذَهَب وبقي ما بَقِيَ.

وقيل: إنّ اليهود إنما قصّرت المدّة لأنهم يزعمون أنّ شيخَهم الذي هو منتظرُهم، يخرج في

(١) سورة السجدة، الآية: ٥.

أوّل الألف السّابع، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أيّامها لتعجّل افتضاحهم، ولكن سيفتضحون فيما بعد عند مَنْ يأتي بعدنا من البشر.

قال حمزة: وأما المنجّمون فقد أتوا بما يغمز هذا كلّه، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارتْ فيه الكواكب، من رأس الحمل إلى اليوم الذي خرج فيه المتوكّل بن معتصم بن الرشيد من سامَرّاء إلى دمشق، ليجعلها دار الملك، وهو أوّل يوم من المحرّم سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة المحمدية، أربعة آلاف ألف ألف ألف - ثلاث لفظات - وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة، بسني الشمس.

قالوا: والذي مضى من الطّوفان إلى صبيحة اليوم الّذي خرج فيه المتوكّل إلى دمشق ثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوماً.

وذكر أبو الريحان البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية»[1]: أن الفرس والمجوس يزعمون أن عُمْر الدنيا اثنا عشرَ ألف سنة، على عدد البروج وعدد الشهور، وأنّ الماضيَ منها إلى وقت ظهور زَرَدُشت صاحب شريعتهم ثلاثة آلاف سنة، وبين ابتداء ظهور زَرَدُشت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التي كتبنا فيها شرح هذا الفصل - وهي سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة النبويّة - ألف وخمسمائة وسبعون سنة، فعلَى هذا يكون الماضي إلى يومنا هذا من أصل اثني عشر ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثماني عشرة سنة، فيكون الباقي من الدنيا عَلَى قولهم أكثر من الماضي.

وحكى أبو الريحان عن الهند في بعض كُتبه، أنّ مدّة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت في رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت.

فأما الأخباريّون من المسلمين، فأكثرهم يقولون: إنّ عمر الدّنيا سبعة آلاف سنة ويقولون إنّنا في السابع، والحق أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده، كما قال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝﴾[2]، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[3].

---

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية في النجوم والتواريخ لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروتي المتوفى سنة (٤٣٠هـ).

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٤٢، ٤٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

ونقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[(١)] و ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾[(٢)]، و﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾[(٣)].

ولا نعلم كميّة الماضي ولا كميّة الباقي، ولكنّا نقول كما أمِرْنا، ونسمع ونطيع كما أدّبنا، ومن الممكن أن يكون ما بقي قريباً عند الله، وغير قريب عندنا، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾[(٤)].

وبالجملة هذا موضع غامض يجب السكوت عنه.

قوله عليه السلام: «وقامت بأهلها على ساقٍ»، الضمير للدنيا، والساق الشدّة، أي انكشفت عن شدّة عظيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾[(٥)] أي التفّت آخر شدّة الدنيا بأول شدّة الآخرة.

والمِهاد: الفراش. وأزِف منها قياد، أي قرب انقيادُها إلى التقضّي والزوال.

وأشراط السّاعة: علاماتها، وإضافتها إلى الدّنيا لأنّها في الدّنيا تحدث، وإن كانت علامات للأخرى. والعَفاء: الدروس.

وروي: «من طِوَلها» والطِّوَل: الحبل.

ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال: جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته، أي ذا بلاغ، والبلاغ: التّبليغ، فحذف المضاف.

ولا تخبو: لا تنطفىء. والفرقان: ما يُفْرَق به بين الحقّ والباطل.

وأثافيّ الإسلام: جمع أُثفِيَّة، وهي الأحجار توضع عليها القِدْر، شكل مثلّث.

والغيطان: جمع غائط، وهو المطمئنّ من الأرض.

ولا يَغِيضها، بفتح حرف المضارعة، غامض الماء وغِضتُه أنا، يتعدّى ولا يتعدّى، وروي «لا يُغيضها» بالضمّ على قول من قال: أغضت الماء، وهي لغة ليست بالمشهورة.

والإكام: جمع أكَم، مثل جِبال جمع جَبَل، والأكَم جمع إكَمة، مثل عِنب جمع عِنَبة، والأكَمة: ما علا من الأرض، وهي دون الكثيب.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١.
(٣) سورة النحل، الآية: ١.
(٤) سورة المعارج، الآيتان: ٦، ٧.
(٥) سورة القيامة، الآية: ٢٩.

الأصل: جَعَلَهُ ٱللهُ رِيًّا لِعَطَشِ ٱلْعُلَمَاء، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ ٱلْفُقَهَاء، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاء، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلاَّهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنْ ٱئْتَمَّ بِهِ، وَعُذْراً لِمَنِ انتحله، وَبُرهاناً لِمَن تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَّةً لِمَنِ ٱسْتَلأَمَ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى.

الشرح: الضمير يرجع إلى القرآن، جعله الله رِيًّا لعطش العلماء، إذا ضلّ العلماء في أمر والتبس عليهم رجعوا إليه، فسقاهم كما يسقي الماء العطِش، وكذا القول في «ربيعاً لقلوب الفقهاء»، والربيع ها هنا: الجدول، ويجوز أن يريد المطر في الرّبيع، يقال: ربَعتِ الأرض فهي مربوعة.

والمحاجّ: جمع محجّة، وهي جادّة الطريق. والمعقِل: الملجأ.

وسِلْماً لمن دخله، أي مأمناً، وانتحله: دان به، وجعله نِحْلَته.

والبرهان: الحجّة، والفَلْج: الظَّفَر والفوز. وحاجّ به: خاصم.

قوله عليه السلام: «وحاملاً لمَنْ حَمَله»، أي أنّ القرآن ينجّي يوم القيامة مَنْ كان حافظاً له في الدنيا، بشرط أن يعمل به.

قوله عليه السلام: «ومطيّة لمن أعمله»، استعارة، يقول: كما أنّ المطية تنجّي صاحبَها إذا أعملها وبعثها على النَّجاء، فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه، ومعنى إعماله، اتّباع قوانينه والوقوف عند حدوده.

قوله: «وآية لمَنْ توسّم»، أي لمن تفرّس، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(١)

والجُنّة: ما يستَتَرُ به: واستلأم: لبس لأمة الحرب، وهي الدرع.

ووَعَى: حَفِظ.

قوله: «وحديثاً لمن روى». قد سمّاه الله تعالى حديثاً فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾(٢)، وأصحابنا يحتجّون بهذه اللفظة على أنّ القرآن ليس بقديم، لأنّ الحديث ضدّ القديم.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

وليس للمخالف أن يقول: ليس المراد بقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ما ذكرتم، بل المراد أحسنُ القول، وأحسن الكلام، لأنّ العرب تسمّي الكلام والقول حديثاً، لأنا نقول: لعمري إنه هكذا، ولكن العرب ما سمّت القول والكلام حديثاً إلاّ أنه مستحدَث متجدّد حالاً فحالاً، ألا ترى إلى قول عمرو لمعاوية: «قد مللتُ كلّ شيء إلاّ الحديث»، فقال: إنّما يُملّ العتيق، فدلّ ذلك على أنّه فهم معنى تسميتهم الكلام والقول حديثاً، وفطِن لمغزاهم ومقصدهم في هذه التسمية، وإذا كُنّا قد كلّفنا أن نجري على ذاته وصفاته وأفعاله ما أجراه سبحانه في كتابه، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفية التي أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث - وكان القرآن في عرف اللغة إنما سمّي حديثاً لحدوثه وتجدّده - فقد ساغ لنا أن نُطلِقَ على كلامه أنه محدَث ومتجدِّد، وهذا هو المقصود.

١٩٢ - ومن كلام له عليه السلام كان يوصي به أصحابه

الأصل: تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَٱسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً. أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝﴾(1).

وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ ٱلْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ.

وَشَبَّهَهَا رَسُولُ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم بِالحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي ٱلْيَوْمِ وَٱللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ!

وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلاَ قُرَّةُ عَيْنٍ، مِنْ وَلَدٍ وَلاَ مَالٍ، يَقُولُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾(2).

وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِباً بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(3)، فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ، وَيُصْبِرُ نَفْسَهُ.

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ ٱلْإِسْلاَمِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا،

---

(1) سورة المدثر، الآيتان: ٤٢، ٤٣.
(2) سورة النور، الآية: ٣٧.
(3) سورة طه، الآية: ١٣٢.

فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً، فَلاَ يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلاَ يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ ٱلأَجْرِ، ضَالُّ ٱلْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ. ثُمَّ أَدَاءَ ٱلْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، وَٱلأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ، وَٱلْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلاَ أَطْوَلَ وَلاَ أَعْرَضَ، وَلاَ أَعْلَى وَلاَ أَعْظَمَ مِنْهَا. وَلَوِ ٱمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ، أَوْ عَرْضٍ، أَوْ قُوَّةٍ، أَوْ عِزٍّ، لامْتَنَعْنَ، وَلَكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ ٱلْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُمْ، وَهُوَ ٱلإِنْسَانُ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا ٱلْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

الشرح: هذه الآية يستدلّ بها الأصوليّون من أصحابنا على أنّ الكفار يعاقبون في الآخرة على تَرْك الواجبات الشرعيّة، وعلى فعل القبائح، لأنّها في الكفار وردت، ألا ترى إلى قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[2]. فليس يجوز أن يعني بالمجرمين ها هنا الفاسقين من أهل القبلة، لأنه قال: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾[3].

قالوا: وليس لقائل أن يقول: معنى قوله: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة، لأنه قد أغنى عن هذا التعليل قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لأنّ أحد الأمرين هو الآخر، وحَمْل الكلام على ما يفيد فائدةً جديدة أولى من حمله على التكرار والإعادة، فقد ثبت بهذا التقرير صحّة احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على تأكيد أمر الصلاة، وأنّها من العبادات المهمّة في نظر الشارع.

قوله عليه السلام: «وإنّها لتحتُّ الذّنوب»، الحتّ: نثر الورق من الغصن، وانحاتّ، أي تناثر، وقد جاء هذا اللفظ في الخبر النبويّ بعينه[4].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢. (٢) سورة المدثر، الآيات: ٤٠، ٤٢.
(٣) سورة المدثر، الآيات: ٤٣، ٤٦.
(٤) أخرجه الدارمي، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء (٧١٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٣١٩٥).

والرِّبَق: جمع رِبْقة، وهي الحبل، أي تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقّدة، أي تحلّ ما انعقد على المكلَّف من ذنوبه، وهذا من باب الاستعارة.

ويروى: «تعهدّوا أمر الصلاة» بالتضعيف، وهو لغة، يقال: تعاهدت ضَيْعتي وتعهّدتها وهو القيام عليها، وأصله من تجديد العهد بالشيء، والمراد المحافظة عليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾(١)، أي واجباً، وقيل موقوتاً، أي منجّماً كلّ وقت لصلاة معيَّنة، وتؤدّى هذه الصلاة في نجومها.

وقوله: «كتاباً» أي فرضاً واجباً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(٢) أي أوجب.

والحَمَّةُ: الحفيرة فيها الحميم وهو الماء الحارّ، وهذا الخبر من الأحاديث الصحاح، قال ﷺ: «**أيسر أحدكم أن تكون على بابه حَمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس مرات، فلا يبقى عليه من دَرَنِه شيء! قالوا نعم، قال: فإنّها الصلوات الخمس**»(٣). والدَّرَن: الوسخ.

والتجارة في الآية، إمّا أنْ يراد بها: لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله. ثمّ أفرد البيع بالذكر، وخصّه وعطفه على التجارة العامة، لأنه أدخل في الإلهاء، لأنّ الربح في البيع بالكسب معلوم، والرّبح في الشراء مظنون، وإمّا أن يريد بالتجارة الشراء خاصة إطلاقاً لاسم الجنس الأعمّ على النوع الأخصّ، كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة، إذا اتجه له شراء صالح، فأما إقام الصلاة فإنّ التاء في «إقامة» عوض من العين الساقطة للإعلال، فإنّ أصله «إقوام» مصدر أقام، كقولك: أعرض إعراضاً، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض، فأسقطت التاء.

قوله عليه السلام: وكان رسول الله ﷺ نصِباً بالصّلاة، أي تَعِباً، قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾(٤).

وروي أنه عليه السلام قام حتى تورّمت قدماه مع التبشير له بالجنة.

وروي أنه قيل له في ذلك فقال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً!»(٥).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٣) أخرج بنحوه: البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلم، كتاب: المساجد، باب: المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا (٦٦٧).

(٤) سورة طه، الآية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: ٢/ ٤٤، وأخرجه ابن ماجه في سننه رقم ١٤٢٠.

ويُصبر نفسه: من الصبر، ويروى: «ويَصْبر عليها نفسه» أي يحبس، قال سبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾[1]. وقال عنترة يذكر حرباً كان فيها:

فَصَبَرْتُ عارِفَةً لذلك حُرَّةً ... تَرْسُو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

في الصلاة وفضلها

واعلم أنّ الصلاة قد جاء في فضلها الكثير الذي يُعجزنا حصره، ولو لم يكن إلا ما ورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيد الوصاة بها والمحافظة عليها، لكان بعضه كافياً.

وقال النبي ﷺ: **«الصَّلاةُ عمودُ الدِّين، فمن تركها فَقَدْ هَدَم الدين»**[2].

وقال أيضاً عليه السلام: **«عَلَم الإيمان الصّلاة، فمن فرّغ لها قلبه، وقام بحدودها، فهو المؤمن»**[3].

وقالت أمّ سلمة: كان رسول الله ﷺ يحدّثنا ونحدّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه[4].

وقيل للحسن رحمه الله: ما بال المتهجّدين مِنْ أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنّهم خَلَوْا بالرّحمن، فألبسهم نوراً من نوره.

وقال عمر: إنّ الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام ما أكمل الله له صلاة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لا يتمّ خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها.

وقال بعض الصالحين: إنّ العبد ليسجُد السّجدة عنده أنه متقرّب بها إلى الله، ولو قُسِم ذنبه في تلك السجدة على أهل مدينة لهلكوا، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يكون ساجداً وقلبه عند غير الله، إنّما هو مصغٍ إلى هوًى أو دنيا.

صلّى أعرابيّ في المسجد صلاة خفيفة، وعمر بن الخطاب يراه، فلمّا قضاها قال: اللهمّ زَوِّجْني الحور العين. فقال عمر: يا هذا لقد أسأت النَّقْد، وأعظمت الْخِطْبَة!

وقال عليّ عليه السلام: لا يزال الشيطان ذَعِراً من المؤمن ما حافظ على الخمس، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه، وأوقعه في العظائم[5].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٩٤).

(٣) أخرجه جار الله الزمخشري في الفايق من غريب الحديث: ١/ ٢٨٩.

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٧/ ٤٠٠ رقم: ٧٢.

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٩/ ٢٠٢.

وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الصلاة إلى الصلاة كفّارة لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر»[١].

وجاء في الخبر أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة.

وقال هشام بن عروة: كان أبي يطيل المكتوبة ويقول: هي رأس المال.

قال يونس بن عبيد: ما استخفّ أحد بالنوافل إلاّ استخف بالفرائض.

يقال: إنّ محمد بن المنكدر جزّأ الليل عليه وعلى أمّه وأخته أثلاثاً، فماتت أخته، فجزأه عليه وعلى أمه نصفين، فماتت أمّه فقام الليل كله.

كان مسلم بن يَسار لا يسمع الحديث إذا قام يصلّي، ولا يفهمه، وكان إذا دخل بيته سكت أهلُه فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة، فيتحدّثون ويلغطون، فهو لا يشعر بهم.

ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة، فلم يشعر به حتى حرق.

كان خلف بن أيوب لا يطردُ الذباب إذا وقع على وجهه وهو في الصلاة في بلاد كثيرة الذّبان، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: بلغني أنّ الشّطّار يصبرون تحت السّياط ليقال: فلان صبور، أفلا أصبر وأنا بين يدي ربيّ على أذى ذباب يقع عليّ!

قال ابن مسعود: الصلاة مكيال، فمن وَفّى وُفّيَ له، ومن طفّف، فويلٌ للمطفّفين!

قال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ادع لي أن يرزقني الله مرافقتك في الجنّة، فقال: «أعنّي على إجابة الدّعوة بكثرة السجود»[٢].

قوله عليه السلام: «قرباناً لأهل الإسلام»، القربان: اسم لما يتقرّب به من نَسِيكة أو صدقة.

وروي: «ومن النار حجازاً» بالزاي أي مانعاً. واللّهَف: الحسرة، ينهي عليه السلام عن إخراج الزكاة مع التسخّط لإخراجها والتهلف والتحسّر على دفعها إلى أربابها، ويقول: إنّ من يفعل ذلك يرجُو بها نَيْل الثّواب ضالّ مضيّع لماله، غير ظافر بما رجاه من المنوبة.

في فضل الزكاة والتصدق

وقد جاء في فضل الزكاة الواجبة وفضل صدقة التطوّع الكثير جداً، ولو لم يكن إلاّ أنّ الله تعالى قرنها بالصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفي.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة (٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: فضل السجود (٤٨٩)، والنسائي، كتاب التطبيق، باب: فضل السجود (١١٣٨)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣٢٠).

وروى بريدة الأسلميّ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«ما حَبَس قومٌ الزّكاة إلا حبس الله عنهم القَطْر»**(١).

وجاء في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهما في سبيل الله ما جاء في الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ . . . .﴾(٢) الآية، قال المفسرون: إنفاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها.

وروي الأحنف قال: قدمتُ المدينة، فبينا أنا في حَلْقةٍ فيها ملأ من قريش، إذ جاء رجل خَشِنُ الجسد، خَشِنُ الثياب، فقام عليهم، فقال: بشّر الكانزين برَضْف يحمَى عليها في نار جهنم، فتوضع على حَلَمة ثدي الرجل حتى تخرج من نُغْض كتفه، ثم توضع على نُغُض كتفه حتى تخرج من حلمة ثديه، فسألت عنه فقيل: هذا أبو ذرّ الغفاريّ، وكان يذكره ويرفعه.

ابن عباس يرفعه: **«مَنْ كان عنده ما يزكّي فلم يزكّ، وكان عنده ما يحجّ فلم يحج سأل الرجعة، يعني قوله: ﴿رب ارجعون﴾»**(٣).

أبو هريرة: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: **«أن تعطي وأنت صحيح، شحيح، تأمَل البقاء، وتخشى الفقر، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا»**(٤).

وقيل للشّبليّ: ما يجب في مائتي درهم؟ قال: أمّا من جهة الشرع فخمسة، وأمّا من جهة الإخلاص فالكلّ.

أمر رسول الله ﷺ بعضَ نسائه أن تقسِم شاة على الفقراء فقالت: يا رسول الله، لم يبق منها غير عُنُقِها، فقال ﷺ: **«كلّها بقيَ غير عنقها»**. أخذ شاعر هذا المعنى فقال:

يبكي على الذّاهب من مالِهِ   وإنّما يبقى الذي يذهبُ

السائب: كان الرجل من السلف يضع الصدقة، ويمثُل قائماً بين يدي السائل العقير ويسأله قبولها، حتى يصير هو في صورة السائل.

وكان بعضهم يبسط كفَّه ويجعلها تحت يد الفقير، لتكون يدُ الفقير العليا.

وعن النبيّ ﷺ: **«ما أحسن عبدٌ الصدقة إلاّ أحسنَ الله إليه في مخلّفيه»**(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣١٥). (٢) سورة التوبة، الآية: ٣٥.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: فضل صدقة الشحيح الصحيح (١٤١٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٠٣٢).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره بما معناه: ١٨/ ١٣٠، وذكره ابن كثير في تفسيره: ٤/ ٣٩٨.

(٥) ذكره في «الجامع الصغير» (٧٧٩٣) وعزاه لابن المبارك مرسلاً، وأخرجه الشهاب في «مسنده» (٧٨٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦١٩٦).

وعنه ﷺ: «الصدقة تسدّ سبعين باباً من الشرّ»(١).

وعنه ﷺ: «أذهبُوا مذمّة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام»(٢).

كان النبي ﷺ لا يكلُ خصلتين إلى غيره: لا يوضّئه أحد، ولا يعطي السائل إلاّ بيده.

بعض الصالحين: الصلاة تبلِغك نصفَ الطريق، والصوم يبلِغك باب الملِك، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن.

الشّعبي: من لم يَرَ نفسه أحوجَ إلى ثواب الصَدَقة من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه.

كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن، أعطاه زيتاً أو سمناً أو نحوهما مما ينتَفع به، فإن لم يكن، أعطاه كحلاً، أو خرج بإبرة وخاط بها ثوب السائل، أو بخرقة يرقّع بها ما تخرّق من ثوبه.

ووقف مرّة على بابه سائل ليلاً، ولم يكن عنده ما يدفعه إليه، فخرج إليه بقصبة في رأسها شُعلة، وقال: خذ هذه وتبلّغ بها إلى أبواب ناس لعلّهم يعطونك.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ثم أداء الأمانة»، هي العقد الذي يلزم الوفاء به، وأصحّ ما قيل في تفسير الآية أنّ الأمانة ثقيلة المحمل، لأنّ حاملها معرّض لخطر عظيم، فهي بالغة من الثقل وصعوبة المحمل ما لو أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعت من حملها. فأمّا الإنسان فإنه حمَلها وألزم القيام بها. وليس المراد بقولنا: إنها عرِضت على السموات والأرض أي لو عرضت عليها وهي جمادات، بل المراد تعظيم شأن الأمانة، كما تقول: هذا الكلام لا يحمله الجبال، وقوله:

امتلأ الحوض وقال قطني

وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾(٣). ومذهب العرب في هذا الباب. وتوسّعها ومجازاتها مشهور شائع.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٤٠٢) بلفظ: «السوء» بدل «الشر» وبلفظ: المصنف أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٨٣٥).

(٢) أخرجه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٣٥٤) في ترجمة إسحاق بن نجيح برقم (٧٩٦) بلفظ «الذباب» بدل «الطائر»، وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٣١)، بمثل رواية الذهبي.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.

١٩٣ - ومن كلام له عليه السلام في شأن معاوية

الأصل: وَٱللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأدهَى مِنّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ. وَٱللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالمكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بالشَّدِيدَةِ.

الشرح: الغُدَرَة، على «فُعَلة» الكثير الغَدْر، والفُجَرة والكُفَرة: الكثير الفجور والكفر، وكلّ ما كان على هذا البناء فهو للفاعل، فإن سكّنْت العين فهو للمفعول، تقول: رجل ضُحَكة أي يَضْحك، وضُحْكة يُضحَك منه، وسُخَرة يَسْخر، وسُخْرة يُسخَر به، يقول عليه السلام: كلّ غادر فاجر، وكلّ فاجر كافر. ويروي: «ولكن كلّ غَدْرة فجْرة، وكلّ فَجْرة كَفْرة» على «فَعْلة» للمرة الواحدة.

وقوله: «لكلّ غادر لواء يعرَف به يوم القيامة»(١)، حديث صحيح مرويّ عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم أقسم عليه السلام أنه لا يُستغفَل بالمكيدة، أي لا تجوز المكيدة عليّ، كما تجوز على ذوي الغَفْلة، وأنه لا يستغمَز بالشديدة، أي لا أهين وألين للخطب الشديد.

حُسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام

واعلم أنّ قوماً ممّن لم يعرف حقيقة فضلِ أمير المؤمنين عليه السلام، زعموا أنّ عمرَ كان أسوَس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو عليّ بن سينا بذلك في «الشفاء» في الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا، وقد عرّض به في كتاب «الغرر»، ثم زعم أعداؤه ومباغضوه أن معاوية كان أسوَس منه وأصحّ تدبيراً، وقد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام وصحّة تدبيره، ونحن نذكر ها هنا ما لم نذكره هناك ممّا يليق بهذا الفصل الذي نحن في شرحه.

اعلم أنّ السائس لا يتمكّن من السياسة البالغة إلاّ إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه، فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيَّداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتّباعها ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية، باب: إثم الغادر للبر والفاجر (٣١٨٧)، وفي «الحيل» (٦٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: تخريج الغدر (١٧٣٦)، وأحمد في «مسنده» (١٢٠٣٥).

والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسبين إليه ما هو منزّه عنه، ولكنّه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسانِ والمصالح المرسَلة، ويرى تخصيص عُمومات النصّ بالآراء وبالاستنباط من أصولٍ تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسّوْط مَن يتغلّب على ظنّه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب، كلّ ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر، ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة، ويطبّق أمورَ الدّنيا على أمور الدين، ويسوق الكلّ مساقاً واحداً، ولا يَضَيّع ولا يرفع إلا بالكتاب والنصّ، فاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة، وكان عمر مع ذلك شديد الغِلْظة والسياسة، وكان عليٌّ عليه السلام كثير الحِلْم والصّفح والتجاوز، فازدادت خلافة ذاك قوّة، وخلافة هذا ليناً، ولم يُمْنَ بما مُنِيَ به عليٌّ عليه السلام من فتنة عثمان، التي أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربتهم، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة. ثم تلا ذلك فتنة الجمل، وفتنة صِفّين ثم فتنة النّهروان، وكلّ هذه الأمور مؤثّرة في اضطراب أمر الوالي وانحلال معاقد ملكه، ولم يتّفق لعمر شيء من ذلك، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحّة تدبير الخلافة!

فإن قلت: فما قولك في سياسة الرسول الله صلى الله عليه وآله وتدبيره؟ أليس كان منتظماً سديداً مع أنه كان لا يعمل إلاّ بالنصوص والتوقيف من الوحي! فهلاّ كان تدبير عليٍّ عليه السلام وسياسته كذلك! إذا قلتم: إنه كان لا يعمل إلاّ بالنص، قلت: أما سياسة الرسول الله صلى الله عليه وآله وتدبيره فخارج عمّا نحن فيه، لأنه معصوم لا تتطرّق الغفلة إلى أفعاله، ولا واحدَ من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا. وأيضاً فإنّ كثيراً من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذِن للرسول الله صلى الله عليه وآله أن يحكم في الشرعيّات وغيرها برأيه، وقال له: احكم بما تراه، فإنّك لا تحكم إلاّ بالحق، وهذا مذهب يونس بن عمران، وعلى هذا فقد سقط السؤال، لأنه صلى الله عليه وآله يعمل بما يراه من المصلحة، ولا ينتظر الوحيَ. وأيضاً فبتقدير فساد هذا المذهب، أليس قد ذهب خلْق كثير من علماء أصول الفقه إلى أنّ الرسول الله صلى الله عليه وآله كان يجوز له أن يجتهدَ في الأحكام والتدبير، كما يجتهد الواحد من العلماء، وإليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمه الله، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ﴾[1].

والسؤال أيضاً ساقط على هذا المذهب، لأنّ اجتهاد عليّ عليه السلام لا يساوي اجتهادَ النبيّ صلى الله عليه وآله، وبين الاجتهادَيْن كما بين المنزلتَيْن.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسنيّ نقيب البصرة رحمه الله إذا حدّثناه في هذا يقول: إنّه لا فرقَ عندَ من قرأ السّيرتين: سيرة للنبيّ ﷺ وسياسة أصحابه أيام حياته، وبين سِيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيّام حياته، فكما أنّ عليًا عليه السلام لم يزلْ أمرُه مضطرباً معهم بالمخالفة والعصيان والهرب إلى أعدائه، وكثرة الفِتَن والحروب، فكذلك كان النبيّ ﷺ لم يزل ممنوًّا بنفاق المنافقين وأذاهم، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه، وكثرة الحروب والفتن.

وكان يقول: ألست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم، والتألّم من أذاهم له، كما أنّ كلام علي عليه السلام مملوءٌ بالشكوى من منافقي أصحابه والتألم من أذاهم له، والتوئهم عليه! وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢) الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ....﴾ السورة بأجمعها(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾(٧).

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٨.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٠.
(٣) سورة المنافقون، الآيتان: ١، ٢.
(٤) سورة محمد، الآية: ١٦.
(٥) سورة محمد، الآيتان: ٢٠، ٢١.
(٦) سورة محمد، الآية: ٢٩.
(٧) سورة الفتح، الآيتان: ١١، ١٢.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾(٢).

قال: وأصحابه هم الّذين نازعوا في الأنفال وطلبوها لأنفسهم، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

وهم الَّذِينَ ٱلْتَوَوْا عَلَيْهِ في ٱلْحَرْب يوم بدْر، وكرهوا لقاء العدوّ حتى خِيف خذلانُهم، وذلك قبل أن تتراءى الفئتان، وأنزل فيهم: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾(٤).

وهم الذين كانوا يتمنّوْن لقاء العِير دون لقاء العدوّ، حتى إنّهم ظفروا برجلين في الطريق، فسألوهما عن العِير، فقالا لا علم لنا بها، وإنّما رأينا جيشَ قريش من وراء ذلك الكثيب، فضربوهما ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلّي، فلمّا ذاقا مسَّ الضَّرْب قالا: بل العِير أمامكم فاطلبوها، فلما رفعوا الضّرْب عنهما، قالا: والله ما رأينا العِير ولا رأينا إلاّ الخيل والسلاح والجيش، فأعادوا الضّرْب عليهما مرة ثانية، فقالا وهما يُضربان: العِير أمامكم، فخلُّوا عنّا، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من الصّلاة، وقال: «**إذا صدقاكم ضربتموهُما، وإذا كذباكم خلّيتم عنهما!**» دعوهما، فما رأيا إلاّ جيش أهل مكة، وأنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٥). قال المفسّرون: الطّائفتان: العِير ذات اللّطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبةَ أبي سفيان بن حرب، وإليها كان خروج المسلمين، والأخرى: الجيش ذو الشّوْكة، وكان عليه السلام قد وعدهم بإحدى الطائفتين، فكرهوا الحرب، وأحبُّوا الغنيمة.

قال: وهم الذين فرّوا عنه صلى الله عليه وآله يوم أُحد، وأسلموه وأصعدوا في الجبل، وتركوه حتى شجَّ الأعداءُ وجهَه، وكسروا ثنيَّتَه، وضربوه على بَيْضَتِه، حتى دخل جماجمه، ووقع في فرسه إلى الأرض بين القتلى، وهو يستصرخ بهم، ويدعوهم فلا يجيبه أحدٌ منهم إلاّ مَنْ كان جارياً مجرى نَفْسِه، وشديد الاختصاص به، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾(٦)، أي ينادي فيسمَع نداءه آخر الهاربين لا أوّلهم، لأن أوّلهم

(١) سورة الفتح، الآية: ١٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٤، ٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ١.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٧.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

أوْغَلُوا في الفرار، وبعدوا عن أن يسمعوا صوته، وكان قصارى الأمر أن يبلُغَ صوتُه واستصراخه مَنْ كان على ساقة الهاربين منهم.

قال: ومنهم الّذين عَصَوْا أمره في ذلك اليوم، حيث أقامهم على الشِّعْب في الجبَل، وهو الموضع الذي خاف أن تكرّ عليه منه خيل العدوّ من ورائه، وهم أصحاب عبد الله بن جُبير، فإنّهم خالفوا أمره وعصوْه فيما تقدّم به إليهم، ورغِبوا في الغنيمة، ففارقوا مركزَهم، حتى دخل الوَهن على الإسلام بطريقهم، لأنّ خالد بن الوليد كرّ في عِصابة من الخيل، فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه فما أحسن المسلمون بهم إلا وقد غَشُوهم بالسيوف منْ خلْفهم، فكانت الهزيمة، وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾(١).

قال: وهمُ الذين عصوا أمرَه في غزاة تَبوك، بعد أن أكّد عليهم الأوامر، وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه، فأنزل فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين، وفيها أوضح دليل على أنّ أصحابه وأولياءه المصدّقين لدعوته كانوا يعصونه، ويخالفون أمره، وأكّد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٣).

ثم عاتب رسول الله ﷺ على كونه أذِنَ لهم في التخلّف، وإنّما أذِنَ لهم لعلمه أنهم لا يجيبونه في الخروج، فرأى أن يجعل المِنّة له عليهم في الإذن لهم، وإلاّ قعدوا عنه ولم تصل له المـِنّة، فقال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٤)، أي هلاّ أمسكت عن الأذن لهم حتى يتبيّن لك قعود مَنْ يقعد، وخروج مَنْ يخرج، صادقهم من كاذبهم! لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه كلّهم، وكان بعضُهم ينوي الغدر، وبعضهم يعزم على أن يخيس بذلك الوعد، فلو لم يأذن لهم لعلم من يتخلّف ومن لا يتخلّف، فعرف الصادق منهم والكاذب.

ثم بيّن سبحانه وتعالى أنّ الذين يستأذنونه في التخلُّفِ خارجون من الإيمان، فقال له: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٢.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[١].

ولا حاجة إلى التَّطويل بذكر الآياتِ المفصّلة فيما يناسب هذا المعنى، فمنْ تأمّل الكتاب العزيز علِمَ حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت، ولم ينقُله الله تعالى إلى جوارِه إلاّ وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف ما يضمرون من تصديقه في جهادٍ شديد، حتى لقد كاشفوه مراراً، فقال لهم يوم الحديبيّة: احلقوا وانحروا... مراراً، فلم يحلقوا ولم ينحروا، ولم يتحرّك أحد منهم عند قوله، وقال لهم بعضهم وهو يقسم الغنائم: «اعدل يا محمّد فإنك لم تعدل»[٢].

وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين: أتأخذُ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفَعه إلى أقاربك من أهل مكّة! حتى أفضَي الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته: «ائتوني بدواة وكَتِف أكتبْ لكم ما لا تضلّون بعده»[٣]، فعصوْه ولم يأتوه بذلك، وليتهم اقتصرُوا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا، وهو يسمع!

وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه، والقليل منه ينبيء عن الكثير، وكان يقول: إنّ الإسلام ما حلا عندهم ولا ثبت في قلوبهم إلاّ بعد موته، حين فتِحَتْ عليهم الفتوح، وجاءتهم الغنائم والأموال، وكثرت عليهم المكاسب، وذاقوا طعم الحياة، وعرفوا لذّة الدّنيا، ولبسوا الناعم، وأكلوا الطيّب، وتمتعوا بنساء الروم، ومَلَكُوا خزائن كسرى، وتبدلوا بذلك القَشْف والشّظف والعيش الخشِن وأكْل الضِّبَاب والقنافذ واليرابيع ولبْس الصوف والكَرابِيس، وأكل اللَّوْزِينجات والفالوذجات ولبس الحرير والديباج، فاستدلّوا بما فتحه الله عليهم، وأتاحه لهم على صحّة الدّعوة، وصدْق الرسالة، فقد كان ﷺ وعدَهم بأنّه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر، فلمّا وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظّموه وبجّلوه، وانقلبت تلك الشّكوك وذاك النّفاق وذلك الاستهزاء إيماناً ويقيناً وإخلاصاً، وطالب لهم العيش، وتمسّكوا بالدين، لأنه زادهم طريقاً إلى نَيْل الدنْيا، فعظّموا ناموسَه، وبالغوا في إجلاله وإجلال الرّسول الذي جاء به، ثم انقرض الأسلافُ وجاء الأخلاف على عقيدة ممهّدة، وأمرٍ أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين رُبُّوا في حجورهم، ثم انقرض ذلك القرن، وجاء مَن بعدهم كذلك، وهلمّ جَرّا.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: في ذكر الخوارج (١٧٢)، ونحوه البخاري في فرض الخمس (٣١٣٨)، وأحمد في «مسنده» (١٤٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في «العلم» (١١٤). ومسلم في الوصية: باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧) وأحمد في «مسنده» (١٤٣١٦).

قال: ولولا الفتوح والنّصر والظَّفر الَّذِي منحهم الله تعالى إياه، والدّولة التي ساقها إليهم، لا نقرض دينُ الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان يذكر في التواريخ، كما تُذكر الآن بنوّة خالد بن سنان العبسي، حيث ظهر ودعا إلى الدّين. وكانَ النّاس يعجَبُون من ذلك ويتذاكرونه كما يعجَبُون ويتذاكرون أخبارَ مَنْ نبغ من الرؤساء والملوك والدُّعاة الذين انقرض أمرهم، وبقيت أخبارهم.

وكان يقول: مَنْ تأمّل حال الرَّجلين وجدهما متشابهتيْن في جميع أمورهما أو في أكثرها، وذلك لأنّ حَرْب رسول الله ﷺ مع المشركين كانَتْ سِجَالاً، انتصر يوم بدر، وانتصر المشركون عليه يوم أُحُدٍ، وكان يوم الخندق كَفافاً خرج هو وهم سواء، لا عليه ولا له، لأنهم قتلوا رئيسُ الأوْس وهو سعد بن معاذ، وقتِل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدوَدّ، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت، ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح، فكان الظفر له.

وهكذا كانت حروبُ علي عليه السلام، انتصر يوم الجمل، وخرج الأمر بينه وبين معاوية على سواء، قتل من أصحابه رؤساء، ومن أصحاب معاوية رؤساء، وانصرف كلّ واحدٍ من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه، ثمّ حارب بعد صِفّين أهل النّهْروان، فكان الظَّفر له.

قال: ومن العَجَبِ أنّ أوّل حروب رسول الله ﷺ كانت بدراً، وكان هو المنصور فيها، وأوّل حروب عليّ عليه السلام الجمل، وكان هو المنصور فيها. ثم كان من صحيفة الصُّلْح والحكومة يوم صِفّين نظير ما كان من صحيفة الصّلح والهدنة يوم الحديبيّة. ثم دعا معاوية في آخر أيّام عليّ عليه السلام إلى نفسه وتسمَّى بالخلافة، كما أنّ مسيلمة والأسود العنسيّ دَعَوَا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله ﷺ وتسمَّيا بالنبوّة، واشتدّ على عليّ عليه السلام ذلك، كما اشتدّ على رسول الله ﷺ أمرُ الأسود ومُسَيلمة، وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي ﷺ، وكذلك أبطل أمر معاوية وبني أميّة بعد وفاة عليّ عليه السلام. ولم يحارب رسولَ الله ﷺ أحد من العرب إلا قريش ما عدا يوم حنين، ولم يحارب علياً عليه السلام من العرب أحَدٌ إلا قريش ما عدا يوم النّهروان ومات علي عليه السلام شهيداً بالسيف، ومات رسول الله ﷺ شهيداً بالسمّ. وهذا لم يتزوّجْ عَلَى خديجة أمّ أولاده حتى ماتت، وهذا لم يتزوج على فاطمة أمّ أشرف أولاده حتى ماتت. ومات رسول الله ﷺ عن ثلاث وستين سنة، ومات عليّ عليه السلام عن مثلها.

وكان يقول: انظروا إلى أخلاقهما وخَصائصهما، هذا شجاع وهذا شجاع، وهذا فصيح وهذا فصيح، وهذا سخيّ جواد وهذا سخيّ جواد، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلٰهية، وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الإلٰهية الدقيقة الغامضة، وهذا زاهداً في الدنيا غير نهِم ولا مستكثر منها، وهذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها. وهذا مُذيب نفسَه في الصّلاة

والعبادة، وهذا مثله. وهذا غير محبَّب إليه شيء من الأمور العاجلة إلاّ النّساء وهذا مثله، وهذا ابن عبد المطّلب بن هاشم، وهذا في قُعْدده[١]، وأبواهما أخَوان لأبٍ واحد دون غيرهما من بني عبد المطّلب، وربّي محمد ﷺ في حِجْر والد هذا وهذا أبو طالب، فكان جارياً عنده مجرى أحدِ أولاده. ثم لما شبّ ﷺ وكبر استخلصه من بني أبي طالب وهو غلام، فربّا في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به، فامتزج الخلُقان، وتماثلت السجيتان، وإذا كان القرين مقتدياً بالقرين، فما ظنُّك بالتربية والتثقيف الدائر الطويل! فواجب أن تكون أخلاق محمد ﷺ كأخلاق أبي طالب، وتكون أخلاقُ عليّ عليه السلام كأخلاق أبي طالب أبيه، ومحمد عليه السلام مربيّه، وأن يكون الكلّ شيمةً واحدة وسوساً واحداً، وطينة مشتركة، ونفساً غير منقسمة ولا متجزِّئةٍ، وألاّ يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرْق ولا فضلٌ، لولا أنّ الله تعالى اختصّ محمداً ﷺ برسالته، واصطفاه لوحيه، لما يعلَمُه من مصالح البريّة في ذلك، ومن أنّ اللطفَ به أكمل، والنفع بمكانه أتمّ وأعمّ، فامتاز رسول الله ﷺ بذلك عمّن سواه، وبَقيَ ما عدَا الرسالة على أمر الاتحاد، وإلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله: **«أخصِمُك بالنبوّة بعدي، وتخصِمُ للنّاس بسبع»**[٢]، وقال له أيضاً: **«أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي»**[٣]، فأبان نفسه منه بالنبوّة، وأثبت له ما عداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما.

وكان النقيب أبو جعفر رحمه الله، غزير العلم، صحيح العقل، منصفاً في الجدال، غيرَ متعصّب للمذهب - وإن كان عَلَوِيًا - وكان يعترف بفضائل الصّحابة، ويثني على الشَّيْخَيْن. ويقول: إنهما مَهّدَا دين الإسلام، وأرسيا قواعده، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله ﷺ، وإنّما مهداه بما تيسّر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما. وكان يقول في عثمان: إنّ الدولة في أيّامه كانت على إقبالها وعلوّ جدّها، بل كانت الفتوح في أيّامة أكثر، والغنائم أعظم، لولا أنّه لم يراع ناموسَ الشيخيْن، ولم يستطع أن يسلك مسلكهما، وكان مضعّفاً في أصل القاعدة، مغلوباً عليه، وكثير الحبّ لأهله، وأتيح له من مَرْوان وزير سوء أفسد القلوب عليه، وحَمَل النّاس على خلعه وقتله.

---

(١) القعدد: البعيد الآباء. القاموس، مادة (قعد).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٥). وذكره ابن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ١٩)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٣).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤)، والبخاري في المناقب (٣٧٠٦). والترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٠)، وابن ماجه في المقدمة، فضل علي بن أبي طالب (١٢١).

وكان أبو جعفر رحمه الله لا يجحد الفاضل فضله، والحديث شجون.

قلت له مرّة: ما سبب حبّ الناس لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعشقهم له، وتهالكهم في هواه؟ ودعْنِي في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة، وغير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيّب منها!

فضحك وقال لي: كم تجمع جراميزك عليّ!

ثم قال: ها هنا مقدّمة ينبغي أن تُعْلم، وهي أنّ أكثر النّاس موتورون من الدنيا، أمّا المستحقون فلا ريب في أنّ أكثرهم محرمون، نحو عالم يرى أنّه لاحظّ له في الدنيا، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً وموسّعاً عليه. وشجاعٍ قد أبلى في الحرْب، وانتُفع بموضعه، ليس له عطاء يكفيه، ويقوم بضروراته، ويرى غيره وهو جبان فشِل، يفرقُ من ظلّه، مالكاً لقُطْر عظيم من الدنيا، وقطعة وافرة من المال والرزق. وعاقلٍ سديد التدبير، صحيح العقل، قد قُدِر عليه رزقه، وهو يرى غيره أحمق مائقاً تدرّ عليه الخيرات، وتتحلّب عليه أخلاف الرزق. وذي دين قويم، وعبادة حَسَنة، وإخلاص وتوحيد، وهو محروم ضيّق الرزق ويرى غيره يهوديًا أو نصرانياً أو زنديقاً، كثيرَ المال حَسَن الحال، حتى إنّ هذه الطّبَقات المستحقّة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطبَقات التي لا استحقاق لها، وتدعوهم الضرورة إلى الذلّ لهم، والخضوع بين أيديهم. إمّا لدفع ضرر، أو لاستجلاب نفع، ودون هذه الطّبَقات من ذوِي الاستحقاق أيضاً، ما نشاهده عياناً من نجّار حاذق أو بنّاء عالم، أو نقّاش بارع، أو مصوّر لطيف، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم، وقعود الوقت بهم، وقلّة الحيلة لهم، ويُرَى غيرُهم ممن ليس يجري مجراهم، ولا يلحق طبقتهم، مرزوقاً مرغوباً فيه، كثير المكْسب طيّب العيش، واسعَ الرّزق. فهذا حال ذوي الاستحقاق والاستعداد. وأمّا الذين ليسوا من أهل الفضائل، كحشْو العامة، فإنّهم أيضاً لا يخلُون من الحقْد على الدنيا والذمّ لها، والحنَق والغيظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم فوق حاله.

قال: فإذا عرفت هذه المقدّمة، فمعلوم أنّ علياً عليه السلام كان مستحقاً محروماً، بل هو أميرُ المستحقّين المحرومين، وسيّدهم وكبيرهم، ومعلومٌ أنّ الذين ينالهم الضّيمُ، وتلحقهم المذلة والهضِيمة، يتعصّب بعضهم لبعض، ويكونون إلْباً ويداً واحدة على المرزوقين الذين ظفرُوا بالدنيا، ونالوا مآربهم منها، لاشتراكهم في الأمر الذي آلمهم وساءهم، وعضّهم ومضّهم، واشتراكهم في الأَنَفة والحميَّة والغضب والمنافسة لمن علا عليهم، وقَهَرَهُم، وبلغ من الدّنْيا ما لم يبلغوه، فإذا كان هؤلاء - أعني المحرومين - متساوين في المنزلة والمرتبة، وتعصّب بعضهم لبعض، فما ظنّك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيم القَدْر جليل الخطر كامل الشرف، جامع للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم محدود، وقد جرَّعتْه الدنيا

علاقمَها، وعلّته عَلَلاً بعد نَهَلٍ من صابها وصَبِرها، ولقي منها بَرْحاً بارحاً، وجهداً جهيداً، وعلا عليه مَنْ هو دونه، وحُكِّم فيه وفي بنيه وأهله ورهطه مَنْ لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان في حسابه، ولا دائراً في خَلَدِه، ولا خاطراً بباله، ولا كان أحدٌ من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له. ثمّ كان في آخر الأمر أن قتِل هذا الرجل الجليل في محرابِه، وقتِل بنوه بعدَهُ، وسُبِيَ حريمُه ونساؤه، وتُتبِّع أهلُه وبنو عمّه بالقتل والطّرد والتشريد والسجون، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم، وانتفاع الخلْق بهم. فهل يمكن ألا يتعصب البَشَرُ كلّهم مع هذا الشخص! وهل تستطيع القلوب ألا تحبَّه وتهواه، وتذوبَ فيه وتفنى في عشقه، انتصاراً له، وحَمِيّةً من أجله، وأنفَةً ممّا ناله، وامتعاضاً مما جرى عليه! وهذا أمرٌ مركوز في الطبائع، ومخلوق في الغرائز، كما يشاهد الناس على الجُرُف إنساناً قد وقع في الماء العميق، وهو لا يحسن السباحة، فإنّهم بالطبْع البشريّ يرِقّون عليه رقّة شديدة، وقد يُلقِي قومٌ منهم أنفسَهم في الماء نحوه، يطلبون تخليصَه، لا يتوقّعون على ذلك مجازاةً منه بمالٍ أو شكر، ولا ثواباً في الآخرة، فقد يكون منهم مَنْ لا يعتقد أمرَ الآخرة، ولكنها رقّة بَشرِيّة، وكأنّ الواحدَ منهم يتخيّل في نفسه أنّه ذلك الغريق، فكما يطلب خلاصَ نفسه لو كان هذا الغريق، كذلك يطلب تخليصَ مَنْ هو في تلك الحال الصعبة، للمشاركة الجنسيّة. وكذلك لو أنّ ملكاً ظلم أهل بلدٍ من بلاده ظلماً عنيفاً، لكان أهلُ ذلك البلد يتعصّب بعْضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك، والاستعداء عليه، فلو كان مِنْ جملتهم رجلٌ عظيمُ القدْر، جليل الشّأن، قد ظلمه الملك أكثَر من ظلْمه إيّاهم، وأخذَ أموالَه وضِياعَه، وقَتل أولادَه وأهله، كان لِياذُهم به، وانضواؤهم إليه، واجتماعهم والتفافهم به أعظمَ وأعظم، لأنّ الطبيعة البشريّة تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراريّ، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعاً.

وهذا محصول قولِ النّقيب أبي جعفر رحمه الله، قد حكيته والألفاظ لي والمعنى له، لأنّي لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها، إلاّ أنّ هذا هو كان معنى قوله وفحواه، رحمه الله. وكان لا يعتقد في الصّحابة ما يعتقده أكثر الإماميّة فيهم، ويسفِّه رأيَ مَنْ يذهب فيهم إلى النّفاق والتّكْفير. وكان يقول: حكمُهم حُكْم مسلم مؤمن، عَصَى في بعض الأفعال وخالف الأمر، فحكمه إلى الله، إنْ شاء آخذه، وإن شاء غفر له.

قلت له مَرّة: أفتقولُ إنّهما من أهل الجنّة؟ فقال: إي والله! أعتقد ذلك، لأنّهما إمّا أن يعفوَ الله تعالى عنهما ابتداء أو بشفاعة الرسول الله صلى الله عليه وآله، أو بشفاعة عليّ عليه السلام، أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب، ثم ينقلهما إلى الجنّة، لا أستريب في ذلك أصلاً، ولا أشكُّ في إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله وصحّةِ عقيدتهما.

فقلت له: فعثمان؟ قال: وكذلك عثمان. ثم قال: رحم الله عثمان! وهل كان إلا واحداً

منّا، وغصناً من شجرة عبد مناف! ولكنّ أهله كدّروه علينا، وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا.

قلت له: فيلزَمُك على ما تراه في أمرِ هؤلاء أن تجوِّزَ دخولَ معاوية الجنّة، لأنّه لم تكن منه إلا المخالفة وترك امتثال الأمر النبويّ!

فقال: كلاّ، إنّ معاوية من أهلِ النار، لا لمخالفته عليًّا، ولا بمحاربته إيّاه، ولكنّ عقيدتَه لم تكن صحيحة، ولا إيمانَه حقاً، وكان من رؤوس المنافقين هو وأبوه، ولم يسلِمْ قلبُه قطّ، وإنّما أسلم لسانه، وكان يذكُر مِنْ حديث معاوية ومن فَلتات قوله، وما حفِظ عنه من كلامٍ يقتضي فساد العقيدة شيئاً كثيراً، ليس هذا موضعَه فأذكره.

وقال لي مرّة: حاش لله أن يُثبتَ معاوية في جَرِيدة الشيْخيْن الفاضلين أبي بكر وعمر! والله ما هما إلاّ كالذّهب الإبريز، ولا معاوية إلاّ كالدّرهم الزائف - أو قال: كالدرهم القَسّيّ[1] - ثم قال لي: فما يقول أصحابُكم فيهما؟ قلت: أمّا الذي استقرّ عليه رأيُ المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل وغيره، أنّ علياً عليه السلام أفضلُ الجماعة، وأنّهم تركُوا الأفضلَ لمصلحة رأوْها، وأنه لم يكن هناك نصٌّ يقطع العُذْر، وإنّما كانت إشارة وإيماء لا يتضمّن شيء منها صريحَ النّص، وإنّ علياً عليه السلام نازَع ثم بايع، وجَمَح ثم استجاب، ولو أقام على الامتناع لم نقلْ بصحّة البيعة ولا بلزومها، ولو جرّد السيف كما جرّده في آخِر الأمر لقلنا بفسق كلِّ مَنْ خالفه على الإطلاق كائناً مَنْ كان، ولكنّه رضِيَ بالبيعة أخيراً، ودخل في الطاعة.

وبالجملة، أصحابنا يقولون: إنّ الأمر كان له، وكان هو المستحقّ والمتعين، فإن شاء أخذه لنفسه، وإن شاء ولاّه غيرَه، فلمّا رأيناه قد وافَق على ولاية غيره، اتّبعناه ورضِينا بما رضِيَ. فقال: قد بَقيَ بيني وبينكم قليل، أنا أذهب إلى النصّ وأنتم لا تذهبون إليه!

فقلت له: إنّه لم يثبت النصّ عندنا بطريق يوجب العلم، وما تِذكرونه أنتم صريحاً فأنتم تنفردون بنقله، وما عدَا ذلك من الأخبار التي نشارككم فيها، فلها تأويلات معلومة.

فقال لي وهو ضَجِر: يا فلان، لو فتحنا باب التأويلات، لجاز أن يَتناول قولنا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، دعني من التأويلات الباردة التي تعلم القلوب والنّفوس أنها غيرُ مرادة، وأنّ المتكلمين تكلفوها وتعسّفوه، فإنما أنا وأنت في الدار ولا ثالث لنا، فيستحيي أحدُنا من صاحبه أو يخافه.

فلما بلغنا إلى هذا الموضع، دخل قوم ممّن كان يخشاه، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث، وخضنا في غيره.

---

(١) الدرهم القسي: المزيف. القاموس، مادة (قسا).

سياسة الإمام علي عليه السلام ومعاوية

فأمّا القولُ في سياسة معاوية، وأنّ شَنَأة عليّ عليه السلام ومُبغضيه زعموا أنها خيرٌ من سياسة أمير المؤمنين، فيكفينا في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان، ونحن نحكيه بألفاظه.

قال أبو عثمان: وربّما رأيت بعضَ مَنْ يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتميز - وهو من العامّة ويظنّ أنّه من الخاصّة - يزعم أن معاوية كان أبعد غَوْراً، وأصحَّ فِكْراً، وأجود رويّة، وأبعدَ غاية، وأدقّ مسلكاً، وليس الأمرُ كذلك، وسأرْمي إليك بجملة تعرف بها موضع غَلَطه. والمكانَ الذي دخل عليه الخطأ من قِبَله.

كان عليّ عليه السلام لا يستعملُ في حَرْبه إلاّ ما وافق الكِتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلافَ الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميعَ المكايد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة مِلك الهند إذا لاقى كِسْرى، وخاقان إذا لاقى رُتْبِيل. وعليّ عليه السلام يقول: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم، ولا تتبِعوا مدبِراً، ولا تُجْهزوا عَلَى جريح، ولا تفتحوا باباً مغلَقاً، هذه سيرته في ذي الكَلاع، وفي أبي الأعور السُّلَميّ، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مَسْلَمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشيَة والحشْوِ والأتباع والسَّفِلة. وأصحاب الحروب، إنْ قَدَرُوا على البَيَات بَيّتوا، وإن قَدَرُوا على رَضْخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طَرْفة عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرْق أعجَل من الغرَق لم يقتصروا على الغَرَق ولم يؤخروا الحرْق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدْم لم يتكلفوا الحِصَار، ولم يدَعوا أن ينصِبُوا المجانِيق، والعَرّادات، والنقب، والتّسريب، والدّبابات، والكَمِين، ولم يدَعُوا دسّ السّموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب، وطرْح فكتب في عساكرهم بالسّعايات، وتوهيم الأمور، وإيجاش بعض من بعض، وقتلهم بكلّ آلةٍ وحيلة، كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال! فمن اقتصر - حفِظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويلَ العريضَ مِن التدبير، وما لا يتناهى من المكايد. والكذب - حفظك الله - أكثرُ من الصّدق، والحرامُ أكثر عدداً من الحلال، ولو سمّي إنسانٌ إنساناً باسمه لكان قد صدق، وليس له اسم غيره، ولو قال: هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كلّ ما خطر على البال، لكان كاذباً في ذلك، وكذلك الإيمان والكفر، وكذلك الطاعة والمعصية، وكذلك الحقّ والباطل، وكذلك السُّقم والصحّة، وكذلك الخطأ والصواب، فعليّ عليه السلام كان ملجَماً بالوَرَع عن جميع القول إلاّ ما هو لله عزّ وجلّ رضاً، وممنوع اليدين من كلّ بطش إلا ما هو لله رضاً، ولا يَرى الرِّضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه، ولا يرى الرّضا إلاّ فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يعوّل عليه أصحابُ الدّهاء والنكْراء

والمكايد والآراء، فلّما أبصرت العوامّ كثرة نوادر معاوية في المكايد، وكثْرةَ غرائبه في الخداع، وما اتفق له وتهيّأ عَلَى يده، ولم يروْ ذلك من عليّ عليه السلام، ظنُّوا - بقِصَرِ عقولهم، وقلة علُومهم - أنّ ذلك من رجحانٍ عند معاوية ونقصان عند عليّ عليه السلام. فانْظُر بعدَ هذا كله، هل يعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف! ثم انظر هل خَدَعَ بها إلا مَنْ عصى رأيَ عليّ عليه السلام، وخالف أمره!

فإنْ زعمت أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت، وليس في هذا اختلفنا، ولا عَنْ غرَارة أصحاب عليّ عليه السلام وعَجَلتهم وتسرّعهم وتنازعهم دفعنا، وإنما كان قولُنا في التميز بينهما في الدّهاء والنكراء وصحة العقل والرأي والبزلاء، عَلَى أنا لا نصفُ الصالحين بالدّهاء والنُّكراء، لا نقول: ما كان أنكرَ أبا بكر بن أبي قحافة! وما كان أنكر عمر بن الخطاب! ولا يقول أحدٌ عنده من الخيْر: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم، وأنْكر قريش وأمْكر كنانة، لأنّ هذه الكلمة إنما وُضِعَتْ في مديح أصحاب الأرب ومَنْ يتعمّق في الرأي في توكيد الدنيا وزبْرجها وتشديد أركانها، فأمّا أصحابُ الآخرة الّذين يروْن الناس لا يصلحون على تدبير البشَر، وإنما يصلُحون عَلَى تدبير خالق البَشَر، فإنّ هؤلاء لا يُمْدَحون بالدّهاء والنُّكراء، ولم يمنَعوا هذا إلاّ ليُعطَوْا أفضلَ منه. ألاَ ترى أنّ المغيرة بن شُعبة - وكان أحدَ الدهاة - حين ردّ على عمرو بن العاص قوله في عمر بن الخطاب - وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضاً: أأنت كنتَ تفعل، أو تُوهم عمر شيئاً فيلقّنه عنك! ما رأيت عمَر مستخلياً بأحدٍ إلاّ رحمته كائناً مَنْ كان ذلك الرجل، كان عمر والله أعقلَ من أن يُخْدَع، وأفضلَ من أن يَخْدَع. ولم يذكرْه بالدّهاء والنُّكراء وهذا مع عجبه بإضافة الناس ذلك إليه، ولكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأئمة الألفاظ التي لا تصلح في أهل الطهارة، كان ذلك غير مقبول منه، فهذا هذا.

وكذلك كان حُكْم قولِ معاوية للجميع: أخرِجُوا إلينا قَتَلة عثمان، ونحن لكم سِلْم. فاجْهَد كلّ جَهْدِك، واستعن بمَن شايعك إلى أن تتخلّص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله عليّ، حتى تعلم أن معاوية خادع، وأنّ عليًا عليه السلام كان المخدوع.

فإن قلت: فقد بلغ ما أراد، ونال ما أحبّ، فهل رأيت كتابنا وُضِع إلا عَلَى أنّ علياً كان قد امتُحِن في أصحابه وفي دهره، بما لم يمتَحَنْ إمام قبله من الاختلاف والمنازعة، والتّشاح من الرياسة والتسرّع والعجلة! وهل أتى عليه السلام إلا من هذا المكان! أوَ لسنا قد فرغنا من هذا الأمر، وقد علمنَا أنّ ثلاثة نفر تواطؤوا على قَتْل ثلاثة نفر، فانفرد ابنُ مُلْجَم بالتماس ذلك من عليّ عليه السلام، وانفرد البُرْك الصّريميّ بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد الآخر - وهو عمرو بن بكر التميميّ - بالتماس ذلك من معاوية، فكان من الاتفّاق أو من الامتحان، أنْ كان عليّ من بينهم هو المقتول.

وفي قياس مذهبكم أن تزعُمُوا أنّ سلامة عمرو ومعاوية إنّما كانتْ بحزْم منهما، وأنّ قتل عليّ عليه السلام إنّما هو من تضييع منه، فإذْ قد تبيّن لكم أنّه من الابتلاء والامتحان في نفسه بخلاف الذي قد شاهدتموه في عدوّه، فكلّ شيء سوى ذلك، فإنّما هو تَبَعٌ للنفس.

هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع، ومَنْ تأمّله بعين الإنصاف، ولم يتّبع الهوى علم صحّة جميع ما ذكره، وأنّ أمير المؤمنين دُفِع - من اختلاف أصحابه، وسوء طاعتهم له، ولزومه سنَن الشّريعة، ومنهج العدل، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشّرع في استمالة الناس إليهم بالرّغبة والرّهبة - إلى ما لم يُدْفَع إليه غيره. فلولا أنّه عليه السلام كان عارفاً بوجوه السّياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة، حاذقاً في ذلك، لم يجتمع عليه إلاّ القليل من النّاس، وهم أهلُ الآخرة خاصّة، الذين لا ميْلَ لهم إلى الدنيا، فلمّا وجدناه دبّر الأمر حين وَلِيَه، واجتمع عليه من العساكر والأتباع ما يتجاوز العدّ والحصر، وقاتل بهم أعداءه الذين حالُهم حالهم، فظفِر في أكثر حروبه، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء، وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار - علمنا أنّه من معرفةِ تدبير الدول والسلطان بمكان مكين.

أقوال من طعن في سياسة علي عليه السلام والرد عليها

وقد تعلّق مَنْ طَعن في سياسته بأمور:

منها قولُهم: لو كان حين بُويع له بالخلافة في المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقرّ الأمر له ويتوطّد، ويبايعه معاويةُ وأهلُ الشام ثم يعزله بعد ذلك، لكان قد كُفِيَ ما جرى بينهما من الحرب.

والجواب: أنّ قرائن الأحوال حينئذٍ، قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام منها أنّ معاوية لا يبايِع له وإن أقرّه على ولاية الشام، بل كان إقرارُه له على إمْرَةِ الشّام أقوى لحال معاوية، وآكدَ في الامتناع من البيْعة، لأنّه لا يخلو صاحب السؤال إمّا أن يقول: كان ينبغي أن يطالبَه بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام، فيكون الأمران معاً، أو يتقدّم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة. أو يتقدّم منه إقراره على الشام وتتأخّر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان. فإنْ كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاويةُ على أهل الشام تقليده بالإمْرَة، فيؤكّد حاله عندهم ويقرّر في أنفسهم، لولا أنه أهلٌ لذلك لما اعتمده عليّ عليه السلام معه، ثم يماطله بالبيعة، ويحاجزه عنها. وإن كان الثّاني فهو الذي فعله أمير المؤمنين عليه السلام. وإن كان الثّالث فهو كالقسم الأول، بل هو آكد فيما يريده معاوية من الخلاف والعصيان. وكيف يتوهّم مَنْ يعرف السِّيَر أنّ معاوية كان يبايع له، لو أقرّه على الشام وبينه وبينه ما لا تبرك الإبلُ عليه، من التِّراث القديمة، والأحقاد، وهو الّذي قتل حنظلة أخاه والوليد خاله، وعتبة جدّه في مقامٍ واحد، ثم ما جرى بينهما في أيّام عثمان، حتى أغلظ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، وحتى تهدّده معاوية، وقال له: إنّي شاخص إلى الشام وتارك

عندك هذا الشيخ - يعني عثمان - والله لئن انحصّت منه شعرة واحدة لأضربنّك بمائة ألف سيف. وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم.

وأما قول ابن عباس له عليه السلام: ولّه شهراً واعزله دهراً، وما أشار به المغيرة بن شعبة، فإنهما ما توهّماه، وما غلب على ظنونها وخطر بقلوبهما، وعليّ عليه السلام كان أعلمَ بحاله مع معاوية، وأنّها لا تقبل العلاج والتدّبير. وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكْره ودهائه، وما كان في نفسه من عليّ عليه السلام مِنْ قَتْل عثمان ومن قَبْل قَتْل عثمان، أنّه يقبل إقرار عليّ عليه السلام له على الشام، وينخدع بذلك، ويبايع ويعطي صَفْقة يمينه! إنّ معاوية لأدهى من أن يُكاد بذلك، وإن عليًا عليه السلام لأعرفُ بمعاوية ممن ظنّ أنه لو استماله بإقراره لبايع له، ولم يكن عند عليّ عليه السلام دواء لهذا المرض إلا السيف، لأن الحال إليه كانت تؤول لا محالة، فجعل الآخر أولاً.

وأنا أذكر في هذا الموضع خبراً رواه الزّبير بن بكار في «الموفقيّات» ليعلم من يقف عليه، أنّ معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة عليّ عليه السلام أبداً، ولا يعطيه البيعة، وأنّ مضادّته له، ومباينته إياه كمضادّة السّواد للبياض لا يجتمعان أبداً وكمباينة السّلْب للإيجاب، فإنّها مباينة لا يمكن زوالها أصلاً. قال الزبير:

حدّثني محمد بن محمد بن زكريا بن بسْطام، قال: حدثني محمد بن يعقوب بن أبي الليث، قال: حدّثني أحمد بن محمد بن الفضل بن يحيى المكّي، عن أبيه، عن جدّه الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد، عن قيس بن عرفجة، قال: لما حصِر عثمان أبرَد مروان بن الحكم بخبره بريديْن: أحدهما إلى الشام، والآخر إلى اليمن - وبها يومئذٍ يعلي بن منية - ومع كلّ واحدٍ منهما كتاب، فيه أنّ بني أمية في الناس كالشّامة الحمراء، وأنّ الناس قد قعدوا لهم برأس كلّ محجّة، وعلى كلّ طريق، فجعلوهم مرمَى العرّ والعضيهة، ومقذف القَشْبِ والأفيكة، وقد علمتم أنّها لم تأتِ عثمان إلا كرْهاً، تجبذ من ورائها. وإنّي خائف إن قتِل أن تكون من بني أمية بمناط الثريّا، إن لم نَصِرْ كرصيف الأساس المحكم، ولئن وَهي عمودُ البيت لتَتَداعَيَنَّ جدرانُه، والذي عيب عليه إطعامكما الشام واليمن، ولا شكَّ أنكما تابعاه إن لم تحذرا، وأما أنا فمساعفٌ كلّ مستشير، ومعين كلّ مستصرخ، ومجيبٌ كل داع، أتوقَّع الفرصة فأثب وثبة الفَهْد أبصرَ غفلة مقتَنصة، ولولا مخافة عَطَب البريد، وضياع الكتب، لشرحت لكما من الأمر ما لا تفزعان معه إلى أن يحدث الأمر، فجدّا في طلب ما أنتما وليّاه، وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله. وكتب في آخره:

وَمَا بَلَغَتْ عُثمانَ حَتّى تَخَطَّمَتْ ... رجالٌ ودانَتْ للصَّغار رجالُ
لقد رجعتْ عوْداً على بدء كونها ... وإن لم تجدّا فالمصيرُ زوالُ
سيبدىء مكنون الضمائر قولُهم ... ويظهر منهم بعد ذاك فعالُ

فإنْ تقعدا لا تطلبا ما ورثتما فليس لنا طول الحياة مقالُ
نعيش بدارِ الذلّ في كلّ بلدةٍ وتظهر منا كأبَةٌ وهُزالُ

فلمّا ورد الكتاب على معاوية، أذّن في الناس: الصّلاة جامعة! ثم خطبهم خطبة المستنصر المستصرخ.

وفي أثناء ذلك وورَد عليه قبل أن يكتب مرْوان بقتل عثمان، وكانت نسخته: وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوّة العزْم، وصلاحَ النيّة، ومنْ عليك بمعرفة الحقّ واتّباعه، فإنّي كتبت إليك هذا الكتاب بعد قَتْل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام، وأيّ قِتْلةٍ قُتِل! نُحِر كما ينْحَر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بِالحمْل، بعد أن نُقِبَتْ صفحتُه بطيّ المراحل وسَيْر الهجير، وإني معلِمُك من خبره غير مقصّر ولا مطيل: إنّ القوم استطالوا مدّته، واستقلُّوا ناصرَه، واستضعفوه في بدنه، وأمّلُوا بقتلِه بَسْطَ أيديهم فيما كان قَبَضه عنهم، واعصوصبوا عليه، فظلّ محاصَراً، قد مُنِع من صلاة الجماعة، وردّ المظالم، والنّظر في أمور الرعيّة، حتى كأنّه هو فاعل لما فعلوه. فلما دام ذلك أشرف عليهم، فخوّفهم الله وناشدَهم، وذكّرهم مواعيد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقوله فيه، فلم يجحدوا فضله، ولم ينكروه، ثم رمَوْه بأباطيلَ اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعةً إلى قتله، فوعدهم التوبة ممّا كرهوا، ووعدَهم الرّجعة إلى ما أحبُّوا. فلم يقبلوا ذلك، ونهبوا دارَه، وانتهكوا حرمتَه، ووثبوا عليه، فسفكوا دَمه، وانقشعوا عنه انقشاعَ سحابة قد أفرغَتْ ماءها، منكفئين قِبَل ابنِ أبي طالب، انكفاء الجرَاد إذَا أبصر المرعى. فأخلقْ ببني أميّة أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيُوق إن لم يثأره ثائر! فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنْه. والسلام.

فلما ورد الكتاب على معاوية، أمر بجمع الناس، ثمّ خطبهم خطبة أبكى منها العيون، وقلقل القلوب، حتى علت الرنّة، وارتفع الضّجيج، وهّم النساء أن يتسلّحن، ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عُقْبة، ويعلَى بن مُنْية - وهو اسم أمّه - وإنّما اسم أبيه أميّة.

فكان كتاب طلحة: أما بعد، فإنّك أقلّ قريش في قريش وِتراً، مع صباحة وجهك وسماحة كفّك، وفصاحة لسانك. فأنت بإزاء مَنْ تقدّمك في السابقة، وخامس المبشّرين بالجنَّة، ولك يوم أحُد وشرفه وفضلُه، فسارع رحمك الله إلى ما تقلّدك الرعيّة من أمرها ممّا لا يسعك التخلّف عنه، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به، فقد أحكمتُ لك الأمر قِبَلي، والزبير فغير متقدّم عليك بفضل، وأيكما قدّم صاحبه فالمقدّم الإمام، والأمر من بعده للمقدّم له، سلك الله بك قصد المهتدين، ووهب لك رشد الموفقين. والسلام.

وكتب إلى الزبير: أمّا بعد، فإنّك الزبير بن العوام، ابن أبي خديجة وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وحواريّه، وسلَفه، وصهر أبي بكر، وفارس المسلمين، وأنت الباذل في الله

مهجتَه بمكّة عند صيْحة الشيطان، بعثك المنبعث، فخرجت كالثّعبان المنسلِخ. بالسيف المنصلت، تخبط خَبْط الجمل الرديع، كلّ ذلك قوة إيمان، وصدق يقين، وسبقت لك من رسول الله ﷺ البشارة بالجنّة، وجعلك عمر أحد المستخلَفين على الأمّة. واعلم يا أبا عبد الله، أنّ الرعية أصبحت كالغنم المتفرّقة لغيبة الراعي، فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولمّ الشعث، وجَمْع الكلمة، وصلاح ذات البين، قَبْل تفاقم الأمر وانتشار الأمّة، فقد أصبح الناس على شفَا جُرفٍ هارٍ عمّا قليل ينهار إن لم يُرْأب. فشمّر لتأليف الأمة، وابْتَغِ إلَى ربّك سبيلاً، فقد أحكمتُ الأمر على من قِبَلِي لك ولصاحبك على أنّ الأمر للمقدّم، ثمّ لصاحبه من بعده. جعلك الله من أئمة الهدى، وبُغاة الخير والتقوى. والسلام.

وكتَب إلى مرْوان بن الحكم:

أما بعد، فقد وصل إليّ كتابك بشرْح خبر أمير المؤمنين، وما ركِبُوه به، ونالوه منه، جهلاً بالله وجراءة عليه، واستخفافاً بحقّه، ولأمانيّ لوَّح الشيطانُ بها في شَرَك الباطل ليدَهْدِهَهُم[١] في أهْوِيَات الفتن، ووهَدات[٢] الضّلال، ولعمْرِي لقد صدق عليهم ظنّه، ولقد اقتنصهم بأنشوطة فخّه. فعلى رِسْلك أبا عبد الله، يمشي الهوينَى ويكون أولاً، فإذَا قرأت كتابي هذا فكنْ كالفَهْد لا يصطاد إلاّ غِيلةً، ولا يتشازر إلا عن حيلة، وكالثعلب لا يفلِتُ إلاّ رَوَغاناً، وأخفِ نفسَك منهم إخفاء القنفذ رأسَه عند لمس الأكفّ، وامتهن نفسَك امتهان مَنْ يَيأس القوم من نصره وانتصاره، وابحث عن أمورهم بحثَ الدّجاجة عن حَبّ الدّخن عند فقاسها، وأنْغِل[٣] الحجاز فإني منغل الشام. والسلام.

وكتب إلى سعيد بن العاص:

أما بعد، فإنّ كتاب مَرْوان ورد عليّ من ساعة وقعت النازلة، تُقبِلُ به البرُد بسير المطيّ الوجِيف، تتوجّس توجُّس الحيّة الذّكر خوف ضربة الفأس، وقبضة الحاوِيَ، ومروان الرائد لا يكذِبُ أهلَه، فعلام الإفكاك يابن العاص، ولات حينَ مَناص! ذلك أنّكم يا بني أميّة عمّا قليلٍ تَسألون أدنى العيشِ من أبعد المسافة، فينكركم مَنْ كان منكم عارفاً، ويصدّ عنكم مَنْ كان لكم واصلاً، متفرّقين في الشعاب تتمنّون لمظة المعاش. إنّ أميرالمؤمنين عُتِب عليه فيكم، وقتِل في سبيلكم، ففيمَ القُعود عن نصرته، والطلب بدمه، وأنتم بنو أبيه، ذوو رحمه وأقربوه، وطلاَّب ثأره! أصبحتم متمسّكين بشظَف معاشٍ زهيد، عمّا قليل يُنزع منكم عند التخاذُل وضعف

(١) دَهْدَهَ الحجَرَ فَتَدَهْدَهَ: دحرجته فتدحرج. القاموس، مادة (دهده).
(٢) الوَهْدَةُ: الأرض المنخفضة، والهوّةُ في الأرض. القاموس، مادة (وهد).
(٣) النغل: الفساد. القاموس، مادة (فغل).

القوى. فإذا قرأتَ كتابي هذا فدبّ دبيب البُرْء في الجسَد النحيف، وسرْ سَيْر النجوم تحت الغَمَام، واحشد حشد الذرّة في الصيف لانجحارها في الصَّرْد[1]، فقد أيّدتكم بأسد وتَيْم.

وكتب في الكتاب:

تـالله لا يـذهـبُ شَـيْـخِـي بـاطِـلاً　　حـتـى أُبِـيـرَ مـالـكـاً وكـاهِـلا
الـقـاتِـلِـيـن الـمـلـك الـحُـلاحِـلا　　خـيـر مـعـدٍّ حـسـبـاً ونـائـلا

وكتب إلى عبد الله بن عامر:

أمّا بعد، فإنّ المنبَر مركبٌ ذلول، سهل الرّياضة، لا ينازعك اللّجام. وهيهات ذلك إلا بعد ركوب أثباج[2] المهالك، واقتحام أمواج المعاطب. وكأنّي بكم يا بني أميّة شَعَارِيرُ كالأوارك، تقودها الحُداة، أو كرخَم الخندمة تذرق خوف العُقاب، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشرِيَ الفساد وندْب السّوط جديد، والجرح لمّا يندمل، ومن قبل استضراء الأسَد، والتقاء لحيَيْه على فريسته. وساوِر الأمرَ مساورة الذئب الأطلس كسيرةَ القطيع. ونازل الرأيَ، وانصب الشَّرَك، وارم عن تمكّن، وضع الهناء مواضع النَّقَب، واجعل أكبر عدّتك الحذر، وأحدّ سلاحك التحريض. واغض عن العوراء، وسامح اللَّجوج، واستعطف الشارد، ولاين الأشْوَس، وقوّ عزم المريد، وبادر العقَبة، وازحف زَحْفَ الحيّة. واسبق قبل أن تُسبَق، وقمْ قبل أن يقام لك. واعلم أنّك غير متروك ولا مهمَل، فإنّي لكم ناصح أمين. والسّلام.

وكتب في أسفل الكتاب:

عَـلَـيْـكَ سَـلاَمُ ٱلله قـيـسَ بـن عـاصـمٍ　　ورحـمـتُـه مـا شـاءَ أنْ يـتـرحَّـمـا
تـحـيّـة مَـنْ أهـدى الـسـلام لأهـلِـه　　إذا شَـطّ داراً عـن مـزارك سـلَّـمـا
فـمـا كـان قـيـسٌ هُـلْـكـه هُـلْـكَ واحـدٍ　　ولـكـنّـه بـنـيـان قـوم تـهـدّمـا

وكتب إلى الوليد بن عقبة:

يابن عقبة، كنّ الجيش، وطيب العيش أطيب من سَفْع سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس في أفقها، إنّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسكِ ظلاًّ تستكنّ به، إني أراك على التراب رَقُوداً، وكيف بالرقاد بك! لارقاد لك، فلو قد استتبّ هذا الأمر لمريده ألفِيت كشريد النعام، يفزع من ظلّ الطائر، وعن قليل تشرب الرّنق، وتستشعر الخوف. أراك فسيح الصدر، مسترخِيَ اللَّبَبِ، رِخو الحزام، قليل الاكتراث، وعن قليل يُجتثّ أصلك. والسلام.

---

(١) الصرد: البرد. القاموس، مادة (حرد).
(٢) الثَّبَجُ: ما بين الكاهل إلى الظهر، ووسط الشيء. القاموس، مادة (ثبج).

وكتب في آخر الكتاب:

اخترت نومك أنْ هبّت شآمية ... عند الهجير وشرباً بالعشيّاتِ
على طلابك ثأراً من بني حكمٍ ... هَيْهَاتَ مِنْ راقِد طلاّبِ ثاراتِ

وكتب إلى يعلي بن أميّة:

حاطك الله بكلاءته، وأيّدك بتوفيقه، كتبتُ إليك صبيحة ورد عليّ كتاب مروان بخبرِ قتل أمير المؤمنين، وشرح الحال فيه. وإنّ أميرَ المؤمنين طال به العمْرُ حتى نقصتْ قواه، وثقلتْ نهضتُه، وظهرت الرّعشة في أعضائه، فلمّا رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعاً للإمامة والأمانة وتقليد الولاية، وثبوا به، وألّبوا عليه، فكان أعظم ما نقَموا عليه وعابوه به، ولايتك اليمن وطول مدّتك عليها. ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال، حتى ذبحوه ذبحَ النَّطيحة مبادراً بها الفَوْت، وهو مع ذلك صائم معانِقٌ المصحف، يتلُو كتابَ الله. فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرّسول، والإمام المقتول. على غير جُرْم سفكوا دمه، وانتهكوا حرمته، وأنت تعلم أنَّ بيعته في أعناقنا، وطلب ثأره لازم لنا، فلا خيرَ في دنيا تعدلُ بنا عن الحقّ، ولا في إمْرة توردُنا النار. وإن الله جلّ ثناؤُه لا يرضى بالتعذير في دينه، فشمّر لدخول العراق.

فأما الشام فقد كفيتُك أهلها، وأحكمتُ أمرها، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكّة، حتى يجتمع رأيُكما على إظهار الدعوة، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهّد لكم العراق، ويسهل لكم حُزونة عِقابها.

واعلم يا بن أُميّة أن القوم قاصدُوك باديء بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال، فاعلم ذلك واعمل على حَسَبِه إن شاء الله.

وكتب في أسفل الكتاب:

ظلّ الخليفة محصوراً يناشدُهُمْ ... بالله طوراً، وبالقرآن أحيانَا
وقد تألّف أقوامٌ على حَنَقٍ ... عن غير جُرْمٍ وقالوا فيه بُهتَانَا
فقام يُذكرهم وعدَ الرّسولِ له ... وقوله فيه إسراراً وإعلانَا
فقال كُفّوا فإني معتب لكمُ ... وصارف عنكم يَعْلَى ومَرْوانَا
فكذّبوا ذاك منه ثمّ ساوَرهُ ... من حاض لبّته ظلماً وعدوانا

قال: فكتب إليه مروان جواباً عن كتابه:

أما بعد، فقد وصل كتابُك، فنعمَ كتابُ زعيم العشِيرة، وحامي الذّمار! وأخبرُك أن القوم على سَنَنِ استقامةٍ إلاّ شظايا شعب، شَتَّتَ بينهم مِقْوَلي على غير مجابهة، حسب ما تقدّم من أمرك، وإنما كان ذلك رسيس العُصاة، ورمي أخدر من أغصان الدوحة، ولقد طويت أديمَهم على نَغَل يَحلُم منه الجِلد. كذبتْ نفس الظانّ بنا ترك المظلمة، وحبّ الهجوع، إلاّ تهويمه

الراكب العَجِل، حتى تجذّ جماجم وجماجم، جذّ العراجين المهدّلة حين إيناعها، وأنا على صحة نيتي، وقوّة عزيمتي وتحريك الرّحِم لي، وغلَيان الدم منّي، غيرُ سابقك بقولٍ، ولا متقدّمك بفعل، وأنت ابن حرب، طلاّب التِّرات، وآبي الضيم.

وكتابي إليك وأنا كحِرْباء السّبسَب في الهَجِير ترقب عين الغَزَالة، وكالسّبُع المفلِت من الشَّرَك يَفرَق من صوت نفسه، منتظراً لما تصحُّ به عزيمتك، ويَرِدُ به أمرك، فيكون العمل به، والمحتذَى عليه.

وكتب في أسفل الكتاب:

أيُقتَلُ عثمانُ وتَرْقَا دموعُنا ... ونرقدُ هذا الليلَ لا نتفزَّعُ!
ونشرب بَرْد الماءِ رِيًّا وقد مَضى ... على ظمأ يتلو القُرآنَ ويركعُ
فإنّي ومَنْ حَجّ الملبُّون بيته ... وطافوا به سعياً، وذو العرش يسمَعُ
سأمنعُ نفسي كلّ ما فيه لذّةٌ ... من العَيْش حتّى لا يُرى فيه مطمعُ
وأقتلُ بالمظلوم مَنْ كان ظالماً ... وذلك حكُم الله ما عنه مَدْفَعُ

وكتب إليه عبد الله بن عامر:

أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوي إليها فراخها تحتها، فلما أقْصَده السهم صرْنا كالنّعام الشارد. ولقد كنت مشترك الفكر، ضالّ الفهم، ألتمس دريئةً أستجنّ بها من خطأ الحوادث، حتّى وقع إليّ كتابُك، فانتبهت من غفلة طال فيها رقادي، فأنا كواجد المحجّة كان إلى جانبها حائراً، وكأني أعاين ما وصفتَ من تصرّف الأحوال.

والذي أخبرك به أنّ الناس في هذا الأمر، تسعة لك وواحد عليك. ووالله لَلموتُ في طلب العزّ أحسنُ من الحياة في الذلّة، وأنت ابنُ حَرْب فتَى الحروب، ونُضار بني عبد شمْس، والهِمَم بك منوطةٌ وأنت مُنهِضها، فإذا نهضتَ فليس حينَ قعود، وأنا اليوم على خلاف ما كانتْ عليه عزيمتي من طلب العافية، وحبّ السلامة قبل قَرْعك سويداء القلب بسوط الملام، ولنعم مؤدِّب العشيرة أنت! وإنّا لنرجوك بعد عثمان، وهٰأنا متوقّع ما يكون منك لأمثله، وأعمل عليه إن شاء الله. وكتب في أسفل الكتاب:

لا خيرَ في العيشِ في ذلٍّ ومنقصةٍ ... والموتُ أحسنُ من ضَيْم ومِنْ عَارِ
إنّا بنُو عبدِ شمس معشرٌ أُنُفٌ ... غُرٌّ جَحَاجِحَةٌ طُلاّبُ أوتارِ
والله لو كَانَ ذمّياً مجاورُنا ... ليطلب العزّ لم نقعدْ عن الجارِ
فكيف عثمان لم يُدفَنْ بمزْبَلَةٍ ... على القُمامة مطروحاً بها عارِ!
فازحف إليّ فإنّي زاحفٌ لهمُ ... بكلّ أبيضَ ماضي الحدّ بتّارِ

وكتب إليه الوليد بن عُقْبة:

أما بعد، فإنّك أسدُّ قريش عقلاً، وأحسنُهم فهماً، وأصوبهم رأياً، معك حسن السياسة، وأنت موضع الرّياسة، توردُ بمعرفة، وتُصْدِر عن منهل رويّ. مُنَاوئك كالمنقلب من العيُوق يَهْوِي به عاصف الشَّمال إلى لُجَّة البحر.

كتبتَ إليّ تذكرُ طيب الخيش[1]، ولين العيش، فمَلْءُ بطني عليّ حرام إلاّ مُسْكة الرّمَق حتى أفرِيَ أوْداج قَتَلة عثمان فَرْي الأهُب بشبَاة الشّفار. وأما اللّين فهيهات إلاّ خِيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب، إنّا على مُداجاة، ولمّا تَبْدُ صَفَحَاتُنَا بَعْد، وليس دون الدم بالدم مزْحَل. إنّ العار منقصة، والضعف ذل. أيخبط قَتَلة عثمان زَهْرة الحياة الدنيا، ويسقَوْن بَرْد المعين، ولمّا يمتطُوا الخوف، ويستحلسوا[2] الحذَر، بعد مسافة الطرْد وامتطاء العقبة الكؤود في الرحلة! لا دعيتُ لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حزباً تضع الحوامل لها أطفالها! قد ألوتْ بنا المسافة، ووردنا حياض المنايا، وقد عقلتُ نفسي على الموت عَقْلَ البعير، واحتسبت أنّي ثاني عثمان أو أقل قاتله! فعجّل عليّ ما يكون من رأيك، فإنّا مَنُوطون بك، متّبعون عَقِبَك، ولم أحسب الحال تتراخى بك إلى هذه الغاية، لما أخافه من إحكام القوْم أمرَهم!

وكتب في أسفل الكتاب:

نـومِـي عـلـيّ مـحـرَّمٌ إن لـم أقـم ... بـدمِ ابـن أمّـي مِـنْ بَـنِـي الـعَـلاَّتِ
قـامـت عـلـيّ - إذا قـعـدت ولـم أقُـمْ ... بـطِـلاب ذاك - مـنـاحـةُ الأمْـوَاتِ
عَذُبَتْ حياضُ الموت عندي بعدما ... كـانـتْ كـريـهـة مَـوْرِد الـنُّـهَـلاتِ

وكتب إليه يعلَى بن أميّة:

إنّا وأنتم يا بني أميّة كالحجَر لا يُبنَى بغير مَدَر وكالسّيف لا يَقطع إلاّ بضاربِه.

وصل كتابُك بخبَر القوم وحالهم، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النَّطيحة بُودِرَ بها الموت لَيُنْحَرَنَّ ذابحُه نحْرَ البَدَنة وافَى بها الهدْى الأجَل! ثكلتْني مَنْ أنا ابنُها إن نمت عن طلب وِتْر عثمان، أو يقال: لم يبق فيه رَمَق! إنّي أرى العيش بعد قَتْل عثمان مرًّا، إن أدلج القوم فإنّي مدلجٌ. وأما قصدهم ما حوته يدِي من المال، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان، وإن أبوْا ذلك أنفقنا المال على قتالهم، وإنّ لنا ولهم لمعركةً نتناحر فيها نَحْرَ القُدار النقائع، عن قليل تصل لحومها.

---

(١) الخيش: ثياب في نسجها رقة، وخيوطها غلاظ. القاموس، مادة (خيش).

(٢) لا يفارقونه. القاموس، مادة (حلس).

(٣) أخرجه ضامر بن شدقم المدني في الجمل: ٨٧.

وكتب في أسفل الكتاب:

لـمـثـل هـذَا الْـيَـوم أوصـى الـنّـاس   لا تـعـط ضـيـمـاً أو يـخـرّ الـراسُ

قال: فكلّ هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرّضونه، ويُغرونه، ويحرّكونه، ويَهيجونه، إلاّ سعيد بن العاص، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء، كان كتابه:

أما بعدُ، فإنّ الحزمَ في التثبّت، والخطأ في العجلة، والشؤم في البِدار، والسهمُ سهمك ما لم ينبضْ به الوَتر، ولن يردَّ الحالبُ في الضَرع اللّبن ذكرتَ حقّ أمير المؤمنين علينا، وقرابتَنا منه، وأنّه قُتِل فينا. فخصلتان ذكُرهما نقص، والثالثة تكذّب، وأمرتَنا بطلب دم عثمان، فأيّ جهة تسلك فيها أبَا عبد الرحمن! رُدِمت الفِجَاج، وأحكِم الأمرُ عليك، وولي زمامَه غيرُك، فدعْ مناوأةَ مَنْ لو كان افترش فراشَه صَدْر الأمر لم يعدَل به غيره. وقلت: كأنّا عن قليل لا نتعارف، فهل نحن إلاّ حيٌّ من قريش، إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنّا الحقّ، إنها خلافة مَنافيّة، وبالله أقسم قسماً مبروراً، لئن صحّت عزيمتُك على ما ورد به كِتابُك، لألقيّنك بين الحالبَين، طليحاً. وهبني إخالُك بعد خَوْض الدماء تنال الظّفر، هل في ذلك عوَض من ركوب المأتم ونقص الدّين!

أمّا أنا فلا عَلَى بني أميّة ولا لهم، أجعل الحزم دارِي، والبيت سجني، وأتوسَّد الإسلام، وأستشعر العافية. فاعدِل أبا عبد الرحمن زمامَ راحلتِك إلى محجّة الحق، واستوهب العافية لأهلك، واستعطف الناس على قومِك، وهيهات من قبولك ما أقول حتى يفجّر مَرْوانُ ينابيعَ الفِتَن تَأجّج في البلاد، وكأنّي بكما عند ملاقاة الأبطال تعتذران بالقَدَر، ولبئس العاقبة الندامة! وعمّا قليلِ يَضِحُ لك الأمر. والسلام.

هذا آخرُ ما تكاتب القوم به، ومَنْ وقف عليه علم أنّ الحال لم يكن حالاً يقبل العلاج والتدبير، وأنه لم يكن بدٌّ من السيف، وأنّ علياً عليه السلام كان أعرَف بما عَمِل.

وقد أجاب ابن سنان في كتابه الذي سمّاه «العادل» عن هذا السؤال، فقال: قد علم النّاس كافّة أنه عليه السلام في قصّة الشورى عرض عليه عبدُ الرحمن بن عوف، أن يعقد له الخِلافة على أن يعمَل بكتاب الله وسنّة رسوله وسِيرة أبي بكر وعمر، فلم يستجب إلى ذلك، وقال: بلى عَلَيّ أنْ أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله، وأجتهد رأيي.

وقد اختلَف النّاسُ في ذلك، فقالت الشّيعة: إنّما لم يدخل تحت الشَّرْط، لأنّه لم يستصوب سيرتَهما. وقال غيرهم: إنّما امتنع لأنّه مجتهد، والمجتهد لا يقلّد المجتهد، فأيّهما أقرب على القولين جميعاً إثماً، وأيسر وزراً! أن يقرّ معاوية على ولاية الشام مدّة إلى أن تتوطّد خلافته، مع ما ظِهر من جَوْر معاوية وعداوته، ومدّ يَدِه إلى الأموال والدّماء أيامَ سلطانه، أو أن يعاهِد عبدَ

الرّحمن على العمل بنسيرة أبي بكر وعمر، ثم يخالف بعضَ أحكامِها إذا استقرّ الأمر له، ووقع العقد! ولا رَيْبَ أنّ أحداً لا يخفي عليه فضلُ ما بين الموضعيْن، وفضل ما بيْن الإثمين، فمن لا يجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمّح بلفظة يتلفّظ بها، يجوز أن يتأوّلها أو يورّي فيها، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر، وتقوية يده مع تمكينه في سُلطانه، لتَحصُل له طاعة أهل الشام واستضافة طرَفٍ من الأطراف! وكأنّ معنى قولِ القائل: هلاّ أقرّ معاوية على الشّام، هو هلاّ كان عليه السلام متهاوناً بأمرِ الدّين راغباً في تشديد أمرِ الدّنيا!

والجواب عن هذا ظاهر، وجهل السائل عنه واضحٌ.

واعلم أنّ حقيقة الجواب هو أن عليًا عليه السلام، كان لا يرى مخالفة الشّرْع، لأجل السياسة، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيويّة، أما الدنيويّة فنحو أن يتوهّم الإمام في إنسان أنه يرومُ فسادَ خلافته من غير أنْ يثْبتَ ذلك عليه يقيناً، فإنّ عليًا عليه السلام لم يكن يستحِلّ قتله، ولا حبْسَه، ولا يعمل بالتوهّم وبالقول غير المحقّق، وأما الدينيّة فنحو ضرب المتّهم بالسَّرِقة، فإنَّه أيضاً لم يكن يعمل به، بل يقول: إن يثبت عليه بإقرار أو بيّنة، أقمت عليه الحدّ، وإلا لمْ أعترضه. وغيرُ عليٍّ عليه السلام قد كان منهم مَنْ يرَى خلاف هذا الرّأي، ومذهب مالك بن أنس العملُ على المصالح المرسَلة، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمّة لإصلاح الثلثين، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأي وبغالب الظنّ، وإذا كان مذهبه عليه السلام ما قلناه، وكان معاوية عنده فاسقاً، وقد سبق عنده مقدّمة أخرى يقينية، هي أنّ استعمال الفاسق لا يجوز ولم يكن ممّن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة، فقد تعين مجاهرته بالعزْل، وإنْ أفضى ذلك إلى الحرب.

فهذا هو الجواب الحقيقيّ، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقيّ، لكان لقائل أن يقول لابن سنان القولَ في عُدُوله عن الدّخول تحت شرط عبد الرحمن، كالقول في عدوله عن إقرار معاوية على الشّام، فإنّ مَنْ ذهب إلى تغليطه في أحد الموضعيْن، له أن يذهَب إلى تغليطه في الموضع الآخر.

قال ابن سنان: وجواب آخر، وهو أنّا قد علمنا أنّ أحدَ الأحداث التي نُقِمت على عثمان. وأفضت بالمسلمين إلى حِصاره وقتله، تَوْليةُ معاوية الشّام، مع ما ظهر من جَوْره وعُدوانه، ومخالفة أحكام الدين في سلطانه، وقد خوطب عثمان في ذلك، فاعتذر بأنّ عمر ولاّه قبله، فلم يقبل المسلمون عذرَه، ولا قنعوا منه إلاّ بعزله، حتى أفضى الأمرُ إلى ما أفضى، وكان عليّ عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهيّة، وأعرفهم بما فيه من الفَساد في الدّين.

فلو أنّه عليه السلام افتتح عقْد الخلافة له بتوليته معاوية الشام، وإقراره فيه، أليس كان يبتدىء في أوّل أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره، فأفضى إلى خلعه وقتله! ولو كان ذلك في حكم

الشريعة سائغاً، والوِزْر فيه مأموناً، لكان غلطاً قبيحاً في السياسة، وسبباً قويًّا للعصيان والمخالفة، ولم يكن يمكِنُه عليه السلام أن يقولَ للمسلمين: إنّ حقيقة رأيِي عزلُ معاوية عند استقرار الأمر، وطاعة الجمهور لي، وإنّ قصدي بإقراره على الولاية مخادعته، وتعجيل طاعته، ومبايعة الأجناد الذين قبَله، ثم استأنف بعد ذلك فيه ما يستحقّه من العزل، وأعمل فيه بموجب العدْل، لأنّ إظهارَه عليه السلام لهذا العزْم كان يتّصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذي شرع فيه وينتقض الرأي الذي عوّل عليه.

ومنها قولهم: إنّه ترك طلحةَ والزُّبير حتى خرجا إلى مكّة، وأذِنَ لهما في العُمْرة، وذهب عنه الرأي في ارتباطهما قبَله، ومنعهما من البعد عنه.

والجواب عنه، أنّه قد اختلفت الرّواة في خروج طلْحة والزبير من المدينة: هل كان بإذن عليٍّ عليه السلام أم لا! فَمنْ قال: إنّهما خرجا عن غير إذنه ولا علمه، فسؤاله ساقطٌ، ومن قال: إنّهما استأذناه في العُمرة، وأذِنَ لهما، فقد روي أنه قال: والله ما تريدان العُمرة، وإنّما تريدان الغَدْرة! وخوّفهما بالله من التسرّع إلى الفتنة. وما كان يجوز له في الشَّرْع أن يحبسهما، ولا في السياسة، أما في الشّرع فلأنّه محظور أن يعاقَب الإنسان بما لم يفعَل، وعلى ما يُظَنُّ منه، ويجوز ألاّ يقع. وأمّا في السياسة فلأنّه لو أظهر التهمة لهما - وهما من أفاضل السابقين، وجِلّة المهاجرين - لكان في ذلك من التنْفير عنه ما لا يخفى، ومن الطَّعْن عليه ما هو معلوم، بأن يقال: إنّه ليس من إمامته على ثقة، فلذلك يتّهم الرؤساء، ولا يأمن الفضلاء، لاسيّما وطلحة كانَ أوّلَ مَنْ بايعه، والزبير لم يزلْ مشهراً بنصرته، فلو حبسهما، وأظهر الشّكّ فيهما لم يسكن أحدٌ إلى جهته، ولنفَر النّاس كلُّهم عن طاعته.

فإن قالوا: فهلاّ استصلحهما وولاّهما، وارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما؟

قيل لهم: فحوى هذا أنّكم تطلُبون من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون في الإمامة مغلوباً على رأيه، مفتاتاً عليه في تدبيره، فيقرّ معاوية على ولاية الشام غصباً، ويولّي طلحة والزبير مِصْر والعراق كَرْهاً، وهذا شيء ما دخَلَ تحته أحد ممنّ قبله، ولا رضوا أن يكونَ لهم من الإمامة الاسم، ومن الخلافة اللفظ، ولقد حورب عثمان وحُصِر على أن يَعْزِل بعض ولاته فلم يجِب إلى ذلك، فيكف تسومُون عليًّا عليه السلام أن يفتتح أمره بهذه الدنية ويرضى بالدخول تحت هذه الخطة! وهذا ظاهر.

ومنها تعلُّقهم بتولية أميرِ المؤمنين عليه السلام محمدَ بن أبي بكر مِصْر، وعزله قيسَ بن سعد عنها، حتى قتِل محمّد بها، واستولى معاوية عليها.

والجواب أنّه ليس يمكن أن يقال: إنّ محمداً رحمه الله لم يكن بأهلٍ لولاية مصر، لأنّه كان شجاعاً زاهداً فاضلاً، صحيح العقل والرأي، وكان مع ذلك من المخلصين في محبته أمير المؤمنين عليه السلام، والمجتهدين في طاعته، وممن لا يتهَّم عليه، ولا يُرتاب بنصحه، وهو ربيبُه وخرّيجه، ويجري مجرى أحدِ أولاده عليه السلام، لتربيته له، وإشفاقه عليه.

ثمّ كان المصريون على غاية المحبة له، والإيثار لولايته، ولما حاصروا عثمانَ وطالبوه بعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرْح عنهم، اقترحوا تأميرَ محمد بن أبي بكر عليهم. فكتب له عثمان بالعهد على مِصْر وصار مع المصريين حتى تعقبَّه كتابُ عثمان إلى عبد الله بن سَعْد في أمره وأمر المصريين بما هو معروف. فعادُوا جميعاً، وكان منْ قتل عثمان ما كان، فلم يكن ظاهرُ الرأي ووجْهُ التّدبير إلاّ توليةَ محمد بن أبي بكر على مصر، لما ظهرَ من ميل المصريين إليه، وإيثارهم له، واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه، فكان الظَّنُّ قويًا باتفاق الرعيّة على طاعته، وانقيادهم إلى نصرته، واجتماعهم على محبّته، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان، وليس ذلك يعيب على أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ الأمور إنما يعتمدها الإمامُ على حسب ما يظنّ فيها من المصلحة، ولا يعلم الغيبَ إلاّ الله تعالى. وقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مؤتة جعفر فقتِل، وولّى زيداً فقتِل، وولّى عبد الله بن رواحة فقتل، وهزم الجيش، وعاد مَنْ عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال، فهل لأحدٍ أن يعيبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا، ويطعن في تدبيره!

ومنها قولهم: إنّ جماعةً من أصحابه عليه السلام فارقوه، وصاروا إلى معاوية، كعقِيل بن أبي طالب أخيه، والنَّجاشيّ شاعره، ورقَبَة بن مَصْقلة أحد الوجوه من أصحابه، ولولا أنّه كان يُوحشهم ولا يستمِيلُهم لم يفارقوه ويصيروا إلى عدوّه، وهذا يخالِفُ حكَم السياسة، وما يجب من تألُّف قلوب الأصحاب والرعيَّة.

والجواب: إنّا أولاً لا ننكر أنْ يكون كلّ من رَغب في حطام الدّنيا وزخرفها، وأحبّ العاجل من ملاذِّها وزينتها يميل إلى معاوية الذي يبذُل منها كلّ مطلوب، ويسمَحُ بكلّ مأمول، ويطعِم خراج مصر عمرو بن العاص، ويضمَن لذي الكَلاع وحبيب بن مسلمة ما يوفي على الرجاء والاقتراح، وعليّ عليه السلام لا يعدل فيما هو أمينٌ عليه من مال المسلمين عن قضية الشريعة وحكم الملّة، حتى يقول خالد بن معمر السدوسي لعلباء بن الهيثم، وهو يحمله على مفارقة عليّ عليه السلام، واللحاق بمعاوية: اتّقِ الله يا علباء في عشيرتك، وانظر لنفسك ولرَحِمك، ماذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيدَ في عطاء الحسن والحسين دريهمات يسيرة ريثما يرأبان بها ظلَف عيشهما، فأبى وغضب فلم يفعل.

فأما عَقِيل، فالصحيح الذي اجتمع ثقاتُ الرُّواة عليه أنّه لم يجتمع مع معاوية إلاّ بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، ولكنه لازم المدينة، ولم يحضر حرب الجمل وصِفّين، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين عليه السلام، وقد كتب عَقِيل إليه بعد الحكمين يستأذنه في القدوم عليه الكوفة بولده وبقية أهله، فأمره عليه السلام بالمقام، وقد رُوي في خبر مشهورٍ، أنّ معاوية وبّخ سعيد بن العاص على تأخيره عنه في صِفّين، فقال سعيد: لو دعوتَني لوجدتَني قريباً، ولكني جلست مجلس عَقِيل وغيره من بني هاشم، ولو أوعبنا لأوعَبُوا[١].

وأما النجاشيّ، فإنه شرِبَ الخمر في شهر رمضان، فأقام عليٌّ عليه السلام الحدَّ عليه، وزاده عشرين جَلْدة فقال النَّجاشيّ: ما هذه العِلاَوة؟ قال: لجرأتك على الله في شهر رمضان. فهرب النجاشيّ إلى معاوية[٢].

وأما رَقَبة بن مَصْقَلة، فإنه ابتاع سَبْيَ بني ناجية وأعتقهم، وألطّ بالمال وهرب إلى معاوية، فقال عليه السلام: فَعل فِعْل السادة، وأبق إباق العبيد، وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإضاعة مال المسلمين من التألف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى، والتلزّم بالدين، ولا يُظَنُّ بعليٍّ عليه السلام التساهل والتسامح في صغير من ذلك ولا كبير.

ومنها شبْهة الخوارج وهي التحكيم، وقد يحتجّ به على أنه اعتمد ما لا يجوز في الشرع، وقد يحتج: به على أنه اعتمد ما ليس بصواب في تدبير الأمر. أما الأول فقولهم: إنه حكم الرِّجال في دين الله، والله سبحانه يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٣] وأما الثاني فقولهم: إنه كان قد لاحَ له النّصر، وظهرت أمارات الظّفر بمعاوية، ولم يبق إلاّ أن يأخذ برقبته فترك التّصميم على ذلك، وأخلد إلى التَّحكيم. وربما قالوا: إنّ تحكيمه يدلُّ على شكٍّ منه في أمره، وربّما قالوا: كيف رضيَ بحكومةِ أبي موسى وهو فاسق عنده بتثبيطه أهل الكوفة عنه في حرب البَصرة؟ وكيف رضيَ بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟

والجواب: أمّا تحكيم الرجال في الدّين فليس بمحظور، فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة وزوْجها، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[٤]. وقال في جزاء الصَّيد: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[٥].

وأمّا قولُهم: كيف ترك التّصميم بعد ظهور أمارات النصر؟ فقد تواتر الخبرُ بأنّ أصحابه لما

(١) أوعب: جمع. القاموس، مادة (وعب).
(٢) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ٨/ ٤١٦، وأخرجه ابن حجر في الإصابة: ٦/ ٣٨٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٧. (٤) سورة النساء، الآية: ٣٥.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

رفَع أهلُ الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم، ومشارفة هلاك معاوية وأصحابه، انخدعوا برفْع المصاحف، وقالوا: لا يحلّ لنا التّصميم على حربهم، ولا يجوز لنا إلاّ وضع السّلاح ورفع الحرب والرّجوع إلى المصاحف وحكمها. فقال لهم: إنّها خديعة، وإنّها كلمة حقّ يُراد بها باطل، وأمرهم بالصّبر ولو ساعةً واحدة، فأبوْا ذلك، وقالوا أرسلْ إلى الأشتر فليعُدْ، فأرسل إليه، فقال: كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر! فقالوا له: ابعث إليه مرَّةً أخرى، فبعث إليه، فأعاد الجواب بنحو قوله الأول وسأل أن يُمهل ساعةً من النهار، فقالوا: إنَّ بينك وبينه وصيَّة ألاَّ يقبل، فإن لم تبعث إليه مَنْ يعيدُه، وإلاّ قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان، أو قبضنا عليك وأسلمناك إلى معاوية فعاد الرَّسول إلى الأشتر، فقال: أتحبّ أن تظفر أنت ها هنا وتكسر جنود الشام، ويقتل أمير المؤمنين عليه السلام في مَضْرَبه! قال: أو قَدْ فعلوها! لا بارك الله فيهم! أبعد أن أخذت بمخنَق معاوية، ورأى الموتَ عياناً أرجع! ثم عاد فشتم أهلَ العراق وسبّهم، وقال لهم وقالوا له، ما هو منقول مشهور، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم.

فإذا كانت الحال وقعت هكذا، فأيّ تقصير وقع من أمير المؤمنين عليه السلام! وهل ينسَب المغلوب على أمره، المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير!

وبهذا نجيب عن قولهم: إنَّ التحكيم يدلّ على الشكّ في أمره، لأنّه إنّما يدلّ على ذلك لو ابتدأ هو به، فأمّا إذا دعاه إلى ذلك غيرُه، واستجاب إليه أصحابُه، فمنعهم وأمرهم أن يمرّوا على وتيرتهم وشأنهم، فلم يفعلوا، وبين لهم أنها مكيدة فلم يتبيّنوا، وخاف أن يقتَلَ أو يسْلَم إلى عدوّه، فإنه لا يدلّ تحكيمهُ على شكّه، بل يدلّ على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيماً عن نفسه، ورجا أن يحكم الحكمان بالكتاب، فتزولَ الشبهة عمّن طلب التحكيم من أصحابه.

وأمّا تحكيمه عمْراً مع ظهور فسقه، فإنّه لم يرض به، وإنما رضِيَ به مخالفُه، وكرهه هو فلم يقبل منه. وقد قيل: إنّه أجابَ ابن عباس رحمه الله عن هذا، فقال للخوارج: أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾(١)! أرأيتم لو كانت المرأة يهوديّة فبعثتْ حكماً من أهلها، أكنَّا نسخط ذلك!

وأما أبو موسى فقد كَرِههُ أميرُ المؤمنين عليه السلام، وأراد أن يجعلَ بدله عبد الله بن عبّاس، فقال أصحابه: لا يكون الحكمان من مُضَر، فقال: فالأشتر. فقالوا: وهل أضرم النّار إلاّ الأشتر! وهل جرّ ما ترى إلاّ حكومة الأشتر! ولكن أبا موسى، فأباه فلم يقبلوا منه، وأثنوْا عليه، وقالوا: لا نرضى إلاّ به، فحكّمه على مضض.

ومنها قولُهم: ترك الرأي لمّا دعاه العبّاس وقتَ وفاة الرَّسول صلى الله عليه وآله إلى البيعة، وقال له:

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

امْدُدْ يدَك أبايِعك، فيقول الناس: عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله بايعَ ابنَ عمّه، فلا يختلف عليك اثنان، فلم يفعل، وقال: وهل يطمع فيها طامع غيري! فما راعه إلا الضّوضاء واللّغط في باب الدار، يقولون: قد بويع أبو بكر بن أبي قُحافة.

الجواب: إنّ صوابَ الرأي وفساده فيما يرجع إلى مثل هذه الوَاقعة، يستندانِ إلى ما قد كان غَلب على الظنّ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يغلِبْ على ظنّه أنّ أحداً يستأثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهدّها له رسول الله صلى الله عليه وآله، وما توهّم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجَه من البيت وحضوره، ولعلّه قد كان يخطر له أنه إمّا أن يكون هو الخليفة أو يشاوَر في الخلافة إلى مَنْ يفوض. وما كان يتوهّم أنّه يجري الأمر على ما جرى من الفلتة عند ثوران تلك الفتنة، ولا يشاوَر هو ولاَ العبّاس ولا أحدٌ من بني هاشم، وإنما كان يكون تدبيره فاسداً لو كان يحاذِرُ خروجَ الأمر عنه، ويتوهّم ذلك، ويغلِب على ظنّه إن لم يبادر تحصيله بالبيعة المعجّلة في الدار من وراء الأبواب والأغلاق، وإلاّ فاته، ثم يهمل ذلك ولا يفعلِه. وقد صرح هو بما عنده، فقال: وهل يطمع فيها طامعٌ غيري! ثم قال: إني أكره البيعة ها هنا وأحبّ أن أصْحِر بها، فبين أنه يستهجن أن يبايع سرًّا خلْف الحجُب والجدران، ويجب أن يبايع جَهْرةً بمحضَرٍ من الناس كما قال، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايَعهم في داره، فقال: لا، بل في المسجد، ولا يعلم ولا خطر له ما في ضمير الأيّام، وما يُحدث الوقتُ من وقوع ما لا يتوهّم العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه.

ومنها قولهم: إنّه قصّر في طلب الخلافة عند بيعة أبي بكر، وقد كان اجتمع له من بني هاشم وبني أميّة وغيرهم من أفْناء الناس مَنْ يتمكّن بهم من المنازعة وطلب الخلافة، فقصّر عن ذلك، لا جبناً، لأنه كان أشجع البَشر، ولكن قصور تدبير وضعف رأي، ولهذا أكفرته الكامليَّة وأكفرت الصحابة، فقالوا: كفرت الصحابة لتركهم بيعَته، وكفر هو بترك المنازعة لهم!

والجواب: أمّا على مذهبنا، فإنّه لم يكن عليه السلام منصوصاً عليه، وإنّما كان يدّعيها بالأفضليّة والقَرابة والسابقة والجهاد ونحو ذلك من الخصائص، فلمّا وقعت بيعةُ أبي بكر رأى هو عليّ عليه السلام أنّ الأصلح للإسلام تركُ النِّزاع، وأنه يخاف من النّزاع حدوثَ فتنة تحلّ معاقد المِلّة وتزعزع أركانها، فحضر وبايع طوعاً، ووجب علينا بعد مبايعته ورضاه أن نرضى بمنْ رضيَ هو عليه السلام، ونطيع مَنْ أطاعه؛ لأنّه القدوة، وأفضل مَنْ تركه صلّى الله عليه وآله بعده.

وأما الإمامية، فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم.

ومنها قولهم: إنّه قصّر في الرأي حيث دخل في الشُّورى، لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً

لعثمان وغيره من الخمْسة، وقد كان الله تعالى رفعه عنهم وعلى من كان قبلهم، فوهن بذلك قدرُه، وطأطأ من جلالته، ألا ترى أنّه يُستهجن ويقبُح من أبي حنيفة والشافعيّ رحمهما الله أن يجعلا أنفسهما نظراء لبعض من بدا طرقاً من الفقه، ويستهجَن ويقبح من سيبويه والأخفش أن يوازيا أنفسَهما بمن يعلم أبواباً يسيرة من النحو!

الجواب: أنّه عليه السلام وإن كان أفضلَ مِنْ أصحاب الشورى، فإنّه كان يظنّ أن وَليَ الأمر أحدهم بعد عمر، لا يسير سيرة صالحة، وأن تضطرب بعض أمور الإسلام، وقد كان يثني على سيرة عمر ويحمَدها، فواجب عليه بمقتضى ظنّه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه، توقّعاً لأنّ يفضيَ الأمرُ إليه، فيعمل بالكتاب والسنّة، ويحيي معالمَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وليس اعتماد ما يقتضيه الشرع ممّا يوجب تقصاً في الرأي، فلا تدبير أصحّ ولا أسدّ من تدبير الشرع.

ومنها قولهم: إنه ما أصاب حيث أقامَ بالمدينة وعثمان محصور، وقد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تنوط بنو أميّة به دمَ عثمان، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لكان من قذفِهِمْ إياه بذلك أبعدَ، وعنه أنزَه.

والجواب: أنّه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان، أنّ أهل الفساد من بني أميّة يرمونه بأمره، والغيب لا يعلمه إلا الله، وكان يرى مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان على المحاصرين له، فقد حضر هو بنفسه مراراً، وطرد الناس عنه، وأنفذ إليه ولديْه وابنَ أخيه عبد الله، ولولا حضور عليّ عليه السلام بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة، وما تراخى أمره وتأخره قتله، إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له، ويحامي عنه.

ومنها قولهم: كان يجب في مقتضى الرأي حيث قتِل عثمان، أن يغلق بابه، ويمنع النَّاس من الدخول إليه، فإنّ العرب كانت تضطرب اضطرابة ثم تؤول إليه، لأنه تعيّن للأمر بحكم الحال الحاضرة فلم يفعل، وفتح بابه، وترشَّح للأمر، وبسط له يده، فلذلك انتقضَتْ عليه العرب من أقطارها.

والجواب: إنه عليه السلام كان يرى أن القيام بالأمر يومئذٍ فرض عليه لا يجوز له الإخلال به، لعدم مَنْ يصلح في ظنّه للخلافة، فما كان يجوز له أن يغلِق بابه ويمتنع. وما الذي كان يومئذٍ أن يبايع الناسُ طلحة أو الزبير أو غيرهما ممن لا يراه أهلاً للأمر! فقد كان عبدُ الله بن الزبير يومئذٍ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة وهو محصور. وكان مروان يطمع أن ينحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة، وله من بني أميّة شيعة وأصحاب، بشبهة أنه ابنُ عمّ عثمان،

وأنّه كان يدبر أمر الخلافة على عهده. وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة، لأنّه من بني أميّة وابن عمّ عثمان، وأمير الشام عشرين سنة، وقد كان قومٌ من بني أميّة يتعصبّون لأولاد عثمان المقتول، ويرومون إعادة الخلافة فيهم وما كان يسوغ لعليٍّ عليه السلام في الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها، ويعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء، فلذلك فتح بابه، وامتنع امتناع مَنْ يحاول أن يعلم ما في قلوب الناس، هل لرغبتهم إليه حقيقة أم لا! فلمّا رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه، وقد قال في خطبته: «لولا حضورُ الحاضر ووجوب الحجّة بوجود الناصر. . . لألقيتُ حبلَها على غاربها، ولسقيت آخرَها بكأس أولها»، وهذا تصريح بما قلناه.

ومنها قولهم: هلّا إذْ ملك شريعة الفرات على معاوية، بعد أنْ كان معاوية ملكها عليه، ومنعه وأهلَ العراق منها، مَنَع معاوية وأهل الشام منها، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدي! فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء، بل فسح لهم في الورود، وهذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب.

الجواب، أنه عليه السلام لم يكن يستحلّ ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعَطَش، فإن الله تعالى ما أمر في أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك، ولا فسح فيه في نحو القصاص أو حدّ الزاني المحصن أو قتل قاطع الطريق، أو قتال البغاة والخوارج، وما كان أمير المؤمنين ممّن يترك حكم الله وشريعتَه، ويعتمد ما هو محرّم فيها لأجل الغَلَبة والقهر والظَّفَر بالعدوّ، ولذلك لم يكن يستحلّ البيَات ولا الغَدْر والنَّكث. وأيضاً فمن الجائز أنْ يكونَ عليه السلام غلب على ظنّه أنّ أهلَ الشام إن مُنِعوا من الماء كان ذلك أدْعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكَرة على عسكره، وأن يضعوا فيهم السيوف، فيأتوا عليهم ويكسِرُوهم بشدّة حَنَقِهم وقوّة داعيهم إلى ورود الماء، فإنّ ذلك من أشدَ الدّواعي إلى أن يستميت القوم ويستقتلوا. ومَنه الذي يقف بين يديّ جيش عظيم عَرَمرم حَنِقٍ قد اشتدّ بهم العطش، وهم يروْن الماء كبطون الحيّات، لا يحول بينهم وبينه إلا قوم مثلهم، بل أقل منهم عِدّة وأضعف عُدّة، ولذلك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال: لأمنعنّهم وروده فأقتلهم بشِفار الظمأ، قال له عمرو بن العاص: خلِّ بين القوم وبين الماء، فليسوا ممّن يرى الماء ويصبر عنه. فقال: لا والله لا أخلّي لهم عنه. فسفّه رأيه وقال: أتظنّ أنّ ابن أبي طالب وأهل العراق يموتون بإزائك عطشاً، والماء بمَعقد الأزُر، وسيوفهم في أيديهم! فلجّ معاوية، وقال: لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عطشاً. فلما مسَّ أهلَ العراق العطش، أشار عليٌّ عليه السلام إلى الأشعث أن احمِلْ، وإلى الأشتر أن احملْ، فحملا بمنْ معهما فضربا أهل الشام ضرباً أشاب الوليد، وفرّ معاوية ومَنْ رأى رأيه وتابعه على قوله عن الماء كما تفرّ الغنمُ خالطتْها السِّباع، وكان قصارَى أمره، ومنتهى همّته أن يحفظ رأسه، وينجوَ بنفسه. وملك أهلُ العراق عليهم الماء ودفعوهم عنه، فصارُوا في البرّ القفر، وصار

عليٌّ عليه السلام وأصحابه على شريعةِ الفرات، مالكين لها، فما الذي كان يؤمِّنُ عليًا عليه السلام لو أعطش القومَ أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقهم! وهل بعد الموت بالعطش أمرٌ يخافه الإنسان! وهل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما!

ومنها قولهم: أخطأ حيثُ محا اسمه بالخلافة من صحيفةِ الحكومة، فإنّ ذلك مما وهنّه عند أهل العراق، وقوّى الشبهة في نفوس أهل الشام.

والجواب، أنه عليه السلام احتذى في ذلك - لمّا دعي إليه واقترحه الخصم عليه - فعلَ رسول الله صلى الله عليه وآله في صحيفة الحديبية، حيث محا اسمه من النبوّة لمّا قال له سهيل بن عمرو: لو علمنا أنّك رسول الله صلى الله عليه وآله لما حاربْنَاك، ولا منعناك عن البيت، وقد قال له صلى الله عليه وآله وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة: «ستدعَى إلى مثلها فتجيب»[1]. وهذا من أعلام نبوّته صلوات الله عليه، ومن دلائل صدقه، ومثله جرى له حَذْو القُذّة بالقذّة.

ومنها قولهم: إنه كان غيرَ مصيب في ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثرة أعدائه، ولم يكن يحترس منهم، وكان يخرج ليلاً في قميص ورداء وحده، حتى كَمن له ابنُ مُلجم في المسجد فقتله، ولو كان احترس وحفِظَ نفسَه ولم يخرج إلاّ في جماعة. ولو خرج ليلاً كانت معه أضواء وشُرْطة، لم يوصل إليه.

والجواب، أنّ هذا إن كان قادحاً في السياسة والتدبير، فليكن قادحاً في تدبير عمر وسياسته، وهو عند الناس في الطبقة العليا في السيّاسة وصحّة التدبير، وليكن قادحاً في تدبير معاوية، فقد ضربه الخارجيّ بالسّيف ليلةَ ضرب أمير المؤمنين عليه السلام فجرحه ولم يأت على نفس، ومعاوية عند هؤلاء سديدُ التدبير، وليكن قادحاً في صحّة تدبير رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان يخرج وحده في المدينة ليلاً ونهاراً مع كثرة أعدائه، وقد كان يأكل مَا دُعِيَ إليه ولا يحترس، حتى أكل من يهودية شاة مشويَّة قد سمّته فيها فمرض، وخِيف عليه التلف، ولمّا برأ لم تزل تنتقض عليه حتى مات منها وقال عند موته: «إنّي ميت من تلك الأكْلة»[2]، ولم تكن العرب في ذلك الزمان تحترس، ولا تعرف الغِيلة والفَتْك، وكان ذلك عندهم قبيحاً يعيَّر به فاعله، لأن الشجاعة غير ذلك، والغِيلة فعل العَجَزة من الرجال، ولأنّ علياً عليه السلام كانت هيبته قد تمكّنت في صدور الناس، فلم يكن يظنّ أنّ أحداً يقدِم عليه غيلة أو مبارزة في حرب، فقد

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٠/ ٣٥٩.

(٢) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٢١١) بلفظ: «لا أزال أجد ألم ذلك السم الذي كان في تلك الأكلة»، وذكر هذه الرواية في «فتح الباري» (١٠/ ٢٤٧).

كان بلغ من الذّكر بالشجاعة مبلغاً عظيماً لم يبلغه أحد من الناس، لا مَنْ تقدّم ولا مَنْ تأخر، حتى كانت أبطال العرب تفزعُ باسمه، ألا ترى إلى عمر بن معديكرب وهو شجاع العرب، الذي تُضرب به الأمثال، كتب إليه عمر بن الخطاب في أمرٍ أنكره عليه، وغدر تخوفه منه: أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه، لأبعثنّ إليك رجلاً تستصغرُ معه نفسَك، يضع سيفَه على هامَتِك فيخرجه من بين فخذيك! فقال عمرو لما وقف على الكتاب: هدّدني بعليّ والله! ولهذا قال شبيب بن بجرة لابن مُلجم، لما رآه يشدّ الحرير على بطنه وصدره: ويلك! ما تريد أن تصنع! قال: أقتل علياً، قال هَبِلتْك الهبُول، لقد جئت شيئاً إدًّا! كيف تقدِر على ذلك! فاستبعد أن يتمّ لابن مُلجم ما عزم عليه، ورآه مراماً وعراً. والأمر في هذا وأمثاله مسند إلى غَلَبات الظُّنون، فمن غلبت على ظنّه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس، وإنما يجب الاحتراس على مَنْ يَغلب على ظنّه العطب إن لم يحترس.

فقد بان بما أوضحناه فسادُ قول من قال: إنّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة، وبان أنه أصح النّاس تدبيراً وأحسنهم سياسة، وإنّما الهوى والعصبية لا حيلة فيهما!

١٩٤ - ومن كلام له عليه السلام في الوعظ

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ ٱلْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ ٱجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النّاسُ، إِنّمَا يَجْمَعُ النّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَإِنّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ ٱللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا، فقالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾[1]، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالخَسْفَة خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْخَوَّارَةِ.

أَيُّهَا النّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ٱلْوَاضِحِ وَرَدَ ٱلْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ!

الشرح: الاستيحاش: ضدّ الاستئناس، وكثيراً ما يحدِثه التوحّد وعدم الرفيق، فنهى عليه السلام عن الاستيحاش في طريق الهدى لأجل قلّة أهله، فإنّ المهتديَ ينبغي أن يأنس بالهداية، فلا وحشة مع الحقّ.

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.

وعَنَى بالمائدة: الدّنيا، لذَّتها قليلة، ونغصتها كثيرة، والوجود فيها زمان قصير جدًا، والعدم عنها زمان طويل جداً.

ثم قال: ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجُرْم بعينه، بل لمن اجترمه ومَنْ رضي به، وإن لم يباشره بنفسه، فإنّ عاقِر ناقة صالح إنّما كان إنساناً واحداً، فعمّ الله ثمودَ بالسخط لما كانوا راضين بذلك الفعل كلّهم، واسم «كان» مضمَر فيها، أي ما كان الانتقام منهم إلاّ كذا.

وخارتْ أرضهم بالخسْفة: صوّتت كما يخور الثور، وشبّه عليه السلام ذلك بصوت السّكة المحمَاة في الأرض الخوّارة، وهي الليّنة، وإنّما جعلها محمَاة لتكون أبلغَ في ذهابها في الأرض. ومن كلامه عليه السلام يوم خيبر، يقوله لرسول الله ﷺ، وقد بعثه بالرّاية: أكون في أمرِك كالسّكة المحمّاة في الأرض، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال له: بل يرى الشّاهد ما لا يرى الغائب»[1].

وقال له أيضاً هذه اللفظة لمّا بعثه في شأن مارية القبطية، وما كانت اتُّهمت به من أمر الأسود القبطيّ، ولهذا علّة في العلم الطبيعي، وذلك أنّ السّكّة المحمّاة تخرق الأرض بشيئين: أحدهما تحدُّد رأسها، والثاني حرارته، فإنّ الجسم المحدّد الحارّ إذا اعتُمِد عليه في الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدّد على النفوذ بتحليلها ما تلاقي من صلابة الأرض، لأنّ شأن الحرارة التحليل، فيكون غوص ذلك الجسم المحدّد في الأرض أوحى وأسهل.

والتّيه: المفازة يتحيّر سالكها.

قصة ثمود وصالح

قال المفسّرون: إن عاداً لما أهلِكت عَمَرتْ ثمودُ بلادها، وخلَفُوهم في الأرض، وكثروا وعُمّروا أعماراً طوالاً، حتّى إنّ الرّجُل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت في الجبال، وكانوا في سَعة ورخاءٍ من العيش فعتوْا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون، فحذّرهم وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا - في يوم معلوم لهم من السّنة - فتدعُوا إلهك وندعو إلهنا، فإن استجيب لك اتّبعناك، وإن استجيب لنا اتّبعتَنا.

قال: نعم، فخرج معهم، ودعوا أوثانهم، وسألوها الاستجابة فلم تجبْ، فقال سيّدُهم

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٢٩) والبزار في «مسنده» (٢/ ٢٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٧٨).

جندع بن عمرو - وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الْجبل يسمونها الكاثبة: أخرِج لنا في هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وَبْراء - والمخترجة: التي شاكلت البُخت -. فإن فعلت صدّقناك وأجبناك.

فأخذ عليهم المواثيق، لئن فعلتُ ذلك لتؤمنُنّ ولتصدِّقُنّ؟ قالوا: نعم، فصلّى ودعا ربّه، فتمخّضت الصخرة تمخُّضَ النَّتُوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عُشَراء جَوْفاء وبَراء كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله، وعظماؤهم ينظرون. ثم نُتِجت ولداً مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهطٌ من قومه، ومنع أعقابَهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعَى الشّجر وتشرب الماء، وكانت تردُ غِبًّا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر، فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها ثمَ تتفجّج، فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدّخرون، فإذا وقع الحرّ تصيَّفَتْ بظهر الوادي، فتهربُ منها أنعامهم، فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتّت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشقّ ذلك عليهم، وزيّنَتْ عَقْرها لهم امرأتان: عنيزة أم غَنْم وصدفة بنت المختار، لما أضرّت به من مواشيهما، وكانتا كثيرتي المواشي، فعقروها، عَقَرها قدار الأحمر، واقتسموا لحمها وطبخوه.

فانطلق سَقْبها[1] حتى رقَى جبلاً اسمه قارة، فرغاً ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفَصِيل عسى أن يُرْفَع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبِحون غداً ووجوهكم مصفرّة، وبعد غدٍ وجوهكم محمرّة، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة، ثم يغشاكم العذاب.

فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين، فلمّا كان اليوم الرابع، وارتفعت الضحوة، تحنّطوا بالصَّبِر، وتكفّنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء وخسف شديد وزلزال، فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

وقد جاء في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ مرّ بالحجْر في غزوة تَبُوك، فقال لأصحابه: **«لا يدخلنّ أحدٌ منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ أن تمرُّوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**[2].

وروى المحدّثون أن النبيّ ﷺ قال لعليّ عليه السلام: **«أتدري مَنْ أشقى الأولين»**؟ قال: نعم،

---

(١) السقب: ولد الناقة. القاموس، مادة (سقب).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: نزول النبي الحجر (٤٤٢٠). ومسلم في الزهد والرقائق، باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا...» (٢٩٨٠)، وأحمد في «مسنده» (٥٣٨١).

عاقر ناقة صالح، قال: «أفتدري مَنْ أشقى الآخرين»؟ قال: الله ورسولُه أعلم، قال: «مَنْ يضربك على هذه، حتى تخضَب هذه»[١].

١٩٥ - ومن كلام له عليه السلام عند دفن السيدة فاطمة عليها السلام

الأصل: روي عنه أنه قاله عند دفن سيِّدة النساء فاطمة عليها السلام، كالمناجي به رسولَ الله صلى الله عليه وآله عند قبرِهِ.

السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحاقِ بِكَ! قلَّ يا رَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْري، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إلاَّ أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ. فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فإنَّا للهِ وَإنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! فَلَقَدْ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ!

أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتضافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِها. فأحْفِها السُّؤالَ، وَاسْتَخْبِرْها الحالَ، هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخلُ مِنْكَ الذِّكْرُ. وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُما سَلاَمَ مُوَدِّعٍ، لاَ قالٍ وَلاَ سَئِمٍ، فإنْ أَنْصَرِفْ فَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ، وَإنْ أُقِمْ فَلاَ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ!

الشرح: أما قول الرضيّ رحمه الله: «عند دفن سيدة النساء»، فلأنه قد تواتر الخبر عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «فاطمة سيدة نساء العالمين» إمَّا هذا اللفظ بعينه، أوَ لفظ يؤدّي هذا المعنى، روي أنه قال وقد رآها تبكي عند موته: «ألا ترضيْن أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمة!»[٢] وروي أنه قال: «سادات نساء العالمين أربع: «خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بن مزاحم، ومريم بنت عمران»[٣].

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٨٥) والطبراني في «الكبير» (٧٣١١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٣٦).
(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٣/ ١٧٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٢٥١)، وذكره أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٠).
(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٠١).

قوله عليه السلام: «وسريعة اللّحاق بك» جاء في الحديث، أنّه رآها تبكي عند موته فأسرّ إليها: «أنتِ أسرع أهلي لحُوقاً بي»، فضحكت[١].

قوله: «عن صفيّتك» أجلّه صلى الله عليه وآله عن أن يقول: «عن ابنتك»، فقال: «صفيّتك»، وهذا من لطيف عبارته، ومحاسن كنايته، يقول عليه السلام: ضَعُفَ جلدي وصَبْري عن فراقها، لكني أتأسّى بفراقي لك فأقول: كلُّ عظيم بعد فراقك جَلَل، وكلُّ خطب بعد موتك يسير.

ثم ذكر حاله معه وقتَ انتقاله صلواتُ الله عليه إلى جوار ربّه، فقال: لقد وسَّدْتُك في ملحودة قبرك، أي في الجهة المشقوقة من قبرك، واللّحْد: الشّقّ في جانب القبر، وجاء بضمّ اللام في لغة غير مشهورة.

قال: «وفاضتَ بين نحري وصدري نفسك»، يروى أنّه صلى الله عليه وآله قذف دماً يسيراً وقت موته. ومَنْ قال بهذا القول زعم أنّ مرضه كان ذات الجنْب، وأن القُرحة التي كانت في الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت في تلك الحال، وكانت فيها نفسُه صلّى الله عليه وآله. وذهبَ قومٌ إلى أنّ مرضه إنّما كان الحميّ والسّرسام الحارّ، وأنّ أهل داره ظنوا أنّ به ذاتَ الجنب فلدُّوه وهو مغمّى عليه، وكانت العرب تداوي باللّدود[٢] مَنْ به ذات الجنب، فلما أفاق علم أنهم قد لدُّوه، فقال: «لم يكن الله ليسلّطها عليّ، لُدّوا كلّ من في الدار»[٣]، فجعل بعضهم يَلُدّ بعضاً.

واحتجّ الذاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روي من انتصابه وتعذّر الاضطجاع والنّوم عليه، قال سلْمان الفارسيّ: دخلتُ عليه صبيحةَ يوم قبل اليوم الذي مات فيه، فقال لي: يا سلْمان، ألا تسألُ عَمّا كابدتُه الليلةَ من الألم والسهر أنا وعليّ! فقلت: يا رسول الله، ألا أسهرُ اللّيلة معك بَدَله؟ فقال: لا هو أحقّ بذلك منك.

وزعم آخرون أنّ مرضه كان أثراً لأكلة السمّ التي أكلها عليه السلام، واحتجُّوا بقوله صلى الله عليه وآله: «ما زالت أكلة خَيْبر تعاودني، فهذا أوانُ قطعت أبهرَي»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله (٢٤٥٠). وابن ماجه في ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وآله (١٦٢١)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٨٧٤).

(٢) اللدود: ما سقي الإنسان في أحد شقي الفم. اللسان، مادة (لدد).

(٣) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤/ ٢٢٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه أبو داود في الديات، باب: فيمن سقى رجلاً سماً (٤٥١٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٤١٥).

ومَنْ لم يذهبْ إلى ذات الجنْب، فأوّلوا قولَ عليّ عليه السلام: «وفاضت بين نحري وصدري نفسُك» فقالوا: أراد بذلك آخر الأنفاس التي يخرجُها الميّت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنها، ولا بدّ لكل ميّت من نفخةٍ تكون آخر حركاته.

ويقول قوم: إنّها الروح، وعبّر عليّ عليه السلام عنها بالنفس، لمّا كانت العرب لا ترى بين الرّوح والنفس فَرْقاً.

واعلم أن الأخبار مختلفة في هذا المعنى، فقد روى كثير من المحدثين عن عائشة أنها قالت: «توفّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرِي ونحْري»(١).

وروى كثير منهم هذا اللفظ عن عليّ عليه السلام، أنه قال عن نفسه، وقال في رواية أخرى: «ففاضت نفسُه في يدي، فأمررتها على وجهي».

والله أعلم بحقيقة هذه الحال، ولا يبعد عندي أن يصدُق الخبرانِ معاً، بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الوفاة مستنداً إلى عليّ وعائشة جميعاً، فقد وقع الاتفاق عَلَى أنه مات وهو حاضر لموته، وهو الذي كان يقلّبه بعد موته، وهو الذي كان يعلّله لياليَ مرضه، فيجوز أن يكون مستنداً إلى زوجته وابن عمّه، ومثل هذا لا يبعد وقوعه في زماننا هذا، فكيف في ذلك الزمان الذي كان النساء فيه والرجال مختلطين، لا يستتر البعض عن البعض.

فإن قلت. فكيف تعمل بآية الحجاب، وما صحّ من استتار أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الناس بعد نزولها؟

قلت: قد وقع اتّفاق المحدثين كلّهم على أن العباس كان ملازماً للرسول صلى الله عليه وسلم أيام مرضه في بيت عائشة، وهذا لا ينكره أحدٌ، فعلى القاعدة التي كان العباس ملازمه صلى الله عليه وسلم كان عليّ عليه السلام ملازمه، وذلك يكون بأحد الأمرين: إمّا بأن نساءه لا يستترن من العبّاس وعليّ لكونهما أهلَ الرجل وجزءاً منه، أو لعلّ النساء كن يختمْرن بأخمرتهنّ، ويخالطن الرجال فلا يروْنَ وجوههنّ، وما كانت عائشة وحدَها في البيت عند موته، بل كان نساؤه كلّهن في البيت، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وسلم.

فأما حديثُ مرضه صلوات الله عليه ووفاته، فقد ذكرناه فيما تقدم.

قوله: «إنا لله» إلى آخره، أي عبيده، كما تقول: هذا الشيء لزيد، أي يملكه.

ثم عقّب الاعترافَ بالملْكية بالإقرار بالرّجْعة والبعث، وهذه الكلمة تقال عند المصيبة، كما أدّب الله تعالى خَلْقه وعباده.

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب: ما جاء في بيوت أزواج النبي (٣١٠٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٦٩٦).

والوديعة والرهينة، عبارة عن فاطمة، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوابة الكاتب قولَه عن قَطْر النّدى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حمِلَتْ من مصر إلى المعتضد أحمد بن طلحة بن المتوكل: «وقد وصلت الوديعة سالمة، والله المحمود، وكيف يوصي الناظر بنوره أم كيف يحضّ القلب على حفظ سروره»!

وأخذ الصابي هذه اللفظة أيضاً، فكتب عن عزّ الدولة بختيار بن بويه، إلى عدّة الدّولة أبي تَغْلِب بن حمدان، وقد نقل إليه ابنته: «قد وجّهت الوديعة ياسيّدي، وإنما تقلب من وطن إلى سكن، ومن مغرس إلى مغرس، ومن مأوَى برٍّ وانعطاف، إلى مثوى كرامة وألطاف».

فأما الرّهينة فهي المرتهنَة، يقال للمذكّر: هذا رهين عندي على كذا، وللأنثى: هذه رهينة عندي على كذا، كأنها عليها السلام كانتْ عنده عوَضاً من رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله، كما تكونُ الرهينة عوَضاً عن الأمر الذي أخذت رهينةً عليه.

ثم ذكر عليه السلام أنّ حزنه دائمٌ، وأنه يسهر ليله ولا ينام إلى أن يلتحِقَ برسول الله صلى الله عليه وآله ويجاوره في الدار الآخرة، وهذا من باب المبالغة، كما يبالغ الخطباء والكتّاب والشعراء في المعاني، لأنه عليه السلام ما سهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى أن قتل عليه السلام، وإنما سهر ليلة أو شهراً أو سنة، ثم استمرّ مريرُه، وارعوى رسنُه، فأمّا الحزن فإنه لم يزل حزيناً إذا ذكرت فاطمة، هكذا وردت الرواية عنه.

قوله عليه السلام: «وستنبئك ابنتُك»، أي ستعلمك.

فأحفها السؤال، أي استقصِ في مسألتها، واستخبرها الحال، أحفيت إحفاءً في السؤال: استقصيت، وكذلك في الحجاج والمنازعة، قال الحارث بن حِلّزة:

إنّ إخــوانـنــا الأراقـم يَــغْــلُــو ... ن عـلـيـنـا فـي قِـيـلـهـمْ إحـفـاءُ

ورجل حفيّ، أي مستقصٍ في السؤال.

واستخبِرْها الحال، أي عن الحال، فحذف الجار، كقولك: اخترت الرجال زيداً، أي من الرجال، أي سَلْها عمّا جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا، ولا يدلّ هذا على وجود النصّ، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألّم من اطّراحهم وترك إدخالهم في المشاورة، فإنّ ذلك ممّا تكرهه النفوس وتتألّم منه، وهجا الشاعر قوماً، فقال:

وَيُـقْـضَـى الأمْـرُ حِـيـنَ تَـغِـيـبُ تَـيْـمٌ ... وَلاَ يُـسْـتَـأذَنُـونَ وَهُـمْ شُـهُـودُ

قوله: «هذا ولم يَطل العهد، ولم يخلُق الذّكر»، أي: لم ينس.

فإن قلت: فما هذا الأمر الذي لم ينس ولم يخلُق، إن لم يكن هناك نصّ؟

قلت: قوله ﷺ: «إنّي مخلّف فيكم الثَّقَلين»[1]، وقوله: «اللّهمّ أدِرِ الحقّ معه حيث دار»[2]، وأمثال ذلك من النصوص الدالّة على تعظيمه وتبجيله ومنزلته في الإسلام، فهو عليه السلام كان يريد أن يؤخّر عَقْد البيعة إلى أن يحضر ويُستشار، ويقع الوفاق بينه وبينهم، على أن يكون العَقْد لواحدٍ من المسلمين بموجِبه، إمّا له أو لأبي بكر، أو لغيرهما، ولم يكن ليليقَ أن يبرم الأمر وهو غير حاضر له، مع جلالته في الإسلام، وعظيم أثره، وما ورد في حقّه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله، فهذا هو الذي كان ينقِم عليه السلام، ومنه كان يتألّم ويُطيل الشّكوى، وكان ذلك في موضعه. وما أنكر إلاّ منكَراً. فأمّا النصّ فإنّه لم يذكره عليه السلام، ولا احتجّ به، ولما طال الزمان صَفَح عن ذلك الاستبداد الّذي وقع منهم، وحضر عندهم فبايعهم، وزال ما كان في نفسه.

فإن قلت: فهل كان يسوغُ لأبي بكر، وقد رأى وثوبَ الأنصار على الأمر أن يؤخّره إلى أن يخرج عليه السلام ويحضر المشورة؟

قلت: إنّه لم يلمْ أبا بكرٍ بعينه، وإنّما تألّم من استبداد الصحابة بالأمر دون حضوره ومشاورته. ويجوز أن يكون أكثر تألّمه وعتابه مصروفاً إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد، والتغلّب.

كلام مصنوع لأبي حيان في حديث السقيفة

وروى القاضي أبو حامد أحمد بن بشير المرورّوذيّ العامريّ فيما حكاه عنه أبو حيّان التوحيديّ، قال أبو حيّان: سمرنا عند القاضي أبي حامد ليلةً ببغداد بدار ابن جيشان، في شارع الماذيان، فتَصرّف الحديث بنا كلّ متصرّف، وكان والله مِعنًا مِزْيلاً مِخْلطاً عزيز الرواية، لطيف الدّراية له في كلّ جو متنفَّس، وفي كل نار مقتبَس، فجرى حديث السقيفة، وتنازع القوم الخلافة، فركب كلٌّ منّا فنّا، وقال قولاً، وعرّض بشيء ونزع إلى مذهب، فقالَ أبو حامد: هل فيكم من يحفَظ رسالة أبي بكر إلى عليّ، وجواب عليّ له ومبايعته إياه عَقِيب تلك الرسالة؟ فقالت الجماعة: لا والله، فقال: هي والله من دُرَر الحِقاق المصونة، ومخبّآت الصناديق في الخزائن المحوطة، ومنذ حفظتها ما رويتُها إلا للمهلّبي في وزارته، فكتبها عنّي في خَلوْة بيده، وقال: لا أعرف في الأرض رسالةً أعقل منها، ولا أبين، وإنّها لتدلّ على عِلْم وحُكْم، وفصاحة وفقاهة، في دين ودهاء، وبعد غَوْر، وشدّة غَوْص.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٠٧٢٠) وكليهما بلفظ: «إني تارك...».

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٤).

فقال له واحدٌ من القوم: أيها القاضي، فلو أتممت المنّة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك، فنحنُ أوْعَى لها من المهلّبيّ، وأوجب ذِماماً عليك!

فقال: هذه الرسالة رواها عيسى بن دأب، عن صالح بن كيسان، عن هشام بن عُروة، عن أبيه عُروة بن الزبير، عن أبي عبيدة بن الجراح.

قال أبو عبيدة: لما استقامت الخِلافة لأبي بكر بين المهاجرين والأنصار، ولحظ بعيْن الوقار والهيبة - بعد هَنَةٍ كادَ الشّيطان بها يُسَرّ فدفع الله شرّها، وأدحض عسرها، فركد كَيْدها، وتيّسر خيرها، وقصَم ظهر النفاق والفسق بين أهلها - بَلَغ أبا بكر عن عليّ عليه السلام تلكّؤٌ وشماس، وتهَمُهم ونِفَاس، فكرِه أن يتمادى الحال وتبدُوَ له العورة، وتنفرج ذاتُ البين، ويصيرَ ذلك دريئة لجاهل مغرور، أو عاقل ذي دَهاء، أو صاحب سلامة ضعيف القلب، خوّار العنان، دعاني في خلوة فحضرته، وعنده عمر وحدَه - وكان عمر قبساً له وظهيراً معه، يستضيء بناره، ويستملي من لسانه - فقال لي:

يا أبا عبيدة، ما أيْمَنَ ناصيتك، وأبيَن الخيرَ بين عارضيْك! لقد كنتَ مع رسول الله ﷺ بالمكان المحوط، والمحلّ المغبُوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة»(1)، وطالما أعزّ الله الإسلام بك، وأصلح ثَلْمه على يديك، ولـم تزلْ للدّين ناصراً وللمؤمنين رَوْحاً، ولأهلك ركناً، ولإخوانكَ مَرِدًا! قد أردتُك لأمر لَهُ بعده، خطرُه مخوف، وصلاحه معروف، ولئن لـم يندَمِل جرحُه بمِسبارك ورِفْقِك، ولم تُجَبَّ حيّته برقيتك، لقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعدك إلى ما هو أمرّ من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق، والله أسأل تمامَه بك، ونظامه على يدك. فتأتّ له يا أبا عبيدة، وتلطّفْ فيه، وانصح لله ولرسوله، ولهذه العِصَابة، غير آلٍ جهداً، ولا قالٍ حمداً، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبصِّرك.

امض إلى عليّ، واخفض جناحَك له، واغضُـض من صوتك عنده، واعلم أنه سُلالة أبي طالب، ومكانه ممّن فقدناه بالأمس مكانه، وقل له: البحر مغرقة، والبرّ مفرقة، والجوّ أكْلَف، والليل أغْلَف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصّعود متعذّر، والهبوط متعسّر، والحقّ عَطوف رؤوف، والباطل نَسوف عصوف، والعُجْب مقدَحة الشّرّ، والضِّغْن رائد البوار، والتّعريض شِجار الفتنة، والقِحة مفتاح العداوة، والشيطان متّكىء على شماله، باسط ليمينه، نافجٌ حِضْنَيه لأهله، ينتظر الشّتات والفرقة، ويدبّ بين الأمة بالشّحناء والعداوة، عناداً لله

(1) أخرج نحوه البخاري في المغازي، باب: قصة أهل نجران (٤٣٨٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي عبيدة بن الجراح (٢٤١٩)، والترمذي في المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل (٣٧٩٠).

ولرسوله ولدينه، يوسوِسُ بالفُجور، ويدلِيّ بالغرور، ويمنِّي أهلَ الشرور، ويوحي إلى أوليائه بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم، وعادة منه منذ أهانه الله في سالف الدّهر، لا يُنْجَى منه إلا بعضِ الناجذ على الحقّ، وغضّ الطرف عن الباطل، ووطء هامة عدوّ الله والدّين، بالأشدّ فالأشدّ، والأجدّ فالأجدّ، وإسلام النّفس لله فيما حاز رضاه، وجنّب سخطه.

ولا بدّ من قولٍ ينفع إذ قد أضرّ السكوت وخيف غِبُّه، ولقد أرشدك من أفاء ضالتَّك، وصافاك مَنْ أحيا مودّته لك بعتابك، وأراد الخيرَ بك مَنْ آثر البُقْيا معك.

ما هذا الذي تسوّل لك نفسُك، ويَدوَي به قلبُك، ويلتوي عليه رأيُك، ويتخاوص دونه طرفك، ويستشري به، ضغنك، ويترادُّ معه نَفَسُك، وتكثر لأجله صُعَداؤك، ولا يفيض به لسانُك! أعجمة بعد إفصاح، ألَبساً بعد إيضاح! أديناً غير دين الله! أخُلُقاً غير خُلق القرآن! أهَدْياً غير هدى محمد! أمثلي يُمشى له الضَّراء ويدبّ له الخمَر! أم مِثلُك يغَصّ عليه الفضاء، ويكسَف في عنيه القمر! ما هذه القَعْقعة بالشِّنان، والوَغوعة باللِّسان! إنك لجدّ عارف باستجابتنا لله ولرسوله، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبّتنا، هجرةً إلى الله ونُصرةً لدينه، في زمان أنت منه في كِنّ الصِّبا وخِدْر الغَرارة غافل، تُشبّب وتُربّب. لا تعِي ما يُشاد ويراد، ولا تحصّل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك، وسجايا الفتيان أشكالك، حتى بلغت إلى غايتك هذه التي إليها أجرِيت، وعندها حُطَّ رحلك، غير مجهولِ القَدْر ولا مجحود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيلُ الرواسي، ونقاسي أهوالاً تُشيب النواصي، خائضين غمَارها، راكبين تيّارها، نتجرّع صابها، ونُشرِجُ عِيابها، ونُحكِم آساسها، ونبرم أمراسَها، والعيون تحدّج بالحسد، والأنوف تعطس بالكِبْر، والصُّدُور تَستَعِر بالغَيْط، والأعناق تتطاول بالفخر، والأسنّة تشحذ بالمكر، والأرض تميدُ بالخوف، لا ننتظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع في نَحْر أمر إلاّ بعد أن نحسُوَ الموت دونه، ولا نبلغ إلى شيء إلاّ بعد تجرّع العذاب قبله، ولا نقوّم منآداً إلا بعد اليأس من الحياة عنده، فادِين في كلّ ذلك رسول الله ﷺ بالأب والأمّ، والخال والعمّ، والمال والنّشب والسَّبَد واللّبَد، والهِلّة والبِلّة، بطيب أنفس وقُرّة أعين، ورُحب أعطان، وثَبَات عزائم، وصحّة عُقول، وطلاقة أوْجُه، وذلاقة ألْسن. هذا إلى خبيئات أسرار، ومكنونات أخبار، كنت عنها غافلاً، ولولا سنُّك لم تكُ عن شيء منها ناكلاً. كيف وفؤادك مشْهُوم وعودك معجوم، وغيبك مخبور، والخير منك كثير! فالآن قد بلغ الله بك، وأرهصَ الخيرَ لك، وجعل مرادك بين يديك، فاسمع ما أقول لك، واقبل ما يعودُ قبوله عليك، ودع التحبّس، والتعبّس لمن لا يضلع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عطا، فالأمر غضّ، وفي النفوس مَضّ، وأنت أدِيمُ هذه الأمّة فلا تَحلَم لجاجاً، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجاً، وماؤها العذب فلا تَحُلْ أجاجاً، والله لقد

سألتُ رسول الله ﷺ عن هذا لمن هو؟ فقال هو لمن يرغب عنه، لا لمن يجاحش عليه، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمَخ إليه، وهو لمن يقال له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي.

ولقد شاورني رسولُ الله ﷺ في الصّهر، فذكر فتياناً من قريش، فقلت له. أين أنت من عليّ! فقال: إنّي لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه، وحِدّة سنجه. فقلت: متى كنفته يدُك، ورعتْه عينُك، حفّتْ بهما البركة، وأسبِغت عليهما النّعمة، مع كلام كثير خطبتُ به رغبته فيك، وما كنتُ عرفت منك في ذلك حَوْجاء ولا لوْجاء، ولكني قلت ما قلت، وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنتُ لك إذْ ذاك خيراً منك الآن لي. ولئن كان عرّض بك رسول الله ﷺ في هذا الأمر، فقد كَني عن غيرك، وإن قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن اختلج في نفسك شيء، فهلّم فالحكم مرضيّ، والصواب مسموع، والحق مُطاع.

ولقد نقل رسول الله ﷺ إلى ما عند الله وهو عن هذه العِصابة راض وعليها حَدِب، يسرّه ما سرّها، ويكيده ما كادها، ويُرضيه ما أرضاها، ويسخطه ما أسخطها. ألم تعلم أنه لم يَدَعْ أحداً من أصحابه وخلطائه، وأقاربه وسُجَرائه، إلا أبانَهُ بفضيلة، وخصّهُ بمزيّة، وأفرده بحالة، لو أصفقت الأمة عليه لأجْلِها لكان عنده إيالتها وكَفالتها.

أتظنّ أنه عليه السلام تركَ الأمة سُدًى بَدَداً، عِداً مباهلَ عباهلَ طلاحَي مفتونة بالباطل، ملويّة عن الحقّ: لا ذائد ولا رائد، ولا ضابط ولا خابط ولا رابط، ولا سافيَ ولا واقي، ولا حاديَ ولا هاديَ، كلاّ والله ما اشتاق إلى ربّه، ولا سأله المصير إلى رضوانه، إلاّ بعد أن أقام الصُّوى، وأوضح الهدى، وأمّن المهالك، وحَمَى المطارح والمبارك، وإلاّ بعد أن شَدَخَ يافوخ الشّرْك بإذن الله، وشرم وجه النّفاق لوجه الله، وجدَع أنف الفتنة في دين الله، وتَفَل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله.

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة جامعة، ودار واحدة، إن استقادوا لك وأشاروا بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى، فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكنت العونَ على مصالحهم، والفاتح لمغالِقهم، والمرشدَ لضالّهم، والرادع لغاويهم، فقد أمر الله بالتعاون على البرّ، وأهاب إلى التناصر على الحقّ. ودعنا نقضِ هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلّ ونلقى الله بقلوب سليمة من الضّغنْ.

وإنما النّاس ثُمامة فارفُق بهم، واحنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تسوّل لك نفسُك فرقتَهم، واختلاف كلمتهم، واترك ناجمَ الشرّ حصيداً، وطائر الحِقْد واقعاً، وباب الفتنة مغلَقاً، لا قال ولا قيل، ولا لومَ ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تثريب، والله على ما أقول وكيل، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تهيّأتُ للنهوض، قال لي عمر: كنْ على الباب هنيهةً فلي معك ذَرْوٌ من الكلام. فوقفت وما أدري ما كان بعدي، إلاّ أنه لحقني بوجه يَنْدَى تهلّلاً، وقال لي: قل لعلّي: الرّقاد محلمة، واللجاج ملحمة، والهوى مقحمة، وما منّا أحدٌ إلا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاع أو مقسوم، وبناء ظاهر أو مكتوم، وإنَّ أكْيَس الكيْسَى مَنْ منح الشّارد تألُّفاً، وقارب البعيد تلطّفاً، ووزَن كلَّ أمرٍ بميزانه، ولم يجعل خبره كعِيانه، ولا قاس فتره بشبره، ديناً كان أو دنيا، وضلالاً كان أو هدى، ولا خير في علم معتمل في جهل، ولا في معرفة مشوبة بنكر.

ولسنا كجلدة رُفْغِ[1] البعير بين العِجَان وبين الذنَبْ

وكلّ صالٍ فبناره يصلَى، وكلّ سيل فإلى قراره يجري. وما كان سكوت هذه العِصابة إلى هذه الغاية لعيّ وحصَر، ولا كلامها اليوم لفرَقٍ أو حَذَر، فقد جدع الله بمحمد ﷺ أنْفَ كل متكبِّر، وقصم به ظهرَ كلّ جبّار، وسلّ لسان كلّ كذوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال!

ما هذه الخنزوانة التي في فِرَاش رأسك؟ وما هذا الشُّجا المعترض في مدارج أنفاسك، وما هذه الوَحَرة الّتي أكلت شَرَاسِيفَك، والقَذَاة التي أعشَتْ ناظرك؟ وما هذا الدّحْس والدّس اللذان يدلاّن على ضيق الباع، وخوَر الطباع! وما هذا الذي لَبِسْت بسببه جِلْدَ النّمِر، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكر! لشدّ ما استسعيت لها، وسريت سُرَى ابن أنقد إليها، إنّ العَوان لا تعلّم الخِمْرة. ما أحوج الفرعاء إلى فالية، وما أفقر الصلعاء إلى حالية، ولقد قُبِضَ رسولُ الله ﷺ والأمر معبَّد مخيّسٌ، ليس لأحدٍ فيه ملمس، لم يسيّر فيك قولاً، ولم يستنزل لك قرآناً، ولم يجزم في شأنك حكماً، لسنا في كسرويَّة كِسْرى، ولا قيصرية قيصر، تأمّل إخوان فارس وأبناء الأصفر، قد جعلهم الله جَزَراً لسيوفنا، ودريئة لرماحنا، ومرمى لطعاننا! بل. نحن في نور نبوّة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة وأثر رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونة على الرّتق والفتق، لها من الله تعالى قلب أبيّ، وساعد قويّ، ويد ناصرة، وعين ناظرة.

أتظنّ ظنًّا أنّ أبا بكر وثبَ على هذا الأمر مُفتاتاً على الأمة، خادِعاً لها، ومتسلّطاً عليها! أتراه امتلخ أحلامها، وأزاغ أبصارها، وحلّ عقودها، وأحال عقولها، واستّل من صدورها حميّتها، وانتكث رشاءها، وانتصبَ ماءها، وأضلّها عن هداها، وساقها إلى رداها، وجعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقاداً، وصلاحها فساداً! إن كان هكذا، إنّ سحره لمبين، وإن كيده لمتينٌ. كلاّ والله، بأيّ خيل ورجْل، وبأيّ سنان ونصل، وبأيّ مُنة وقوّة، وبأيّ مال وعُدّة، وبأيّ أيدٍ وشدّة وبأي عشيرة وأسرة، وبأي قدرة ومُكْنَة، وبأي تدرّع وبسطة! لقد أصبح بما وسمتَه منيع الرّقبة، رفيع العتبة. لا والله لكن سَلاَ عنها فولهتْ نحوه، وتطامن لها فالتفت

---

(١) رفغ البعير: أصل فخذه، القاموس، مادة (رفغ).

به، ومال عنها، فمالت إليه، واشمأزّ دونها فاشتملت عليه، حبوةٌ حباه الله بها، وغايةٌ بلّغه الله إليها، ونعمة سربله جمالها، ويدٌ لله أوجب عليه شكرها، وأمةٌ نظر الله به لها وطالما حلّقت فوقه في أيام النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لِفْتَها، ولا يرتصد وقتها، والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان له الخيرَة. وأنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، وكهف الحكمة، ولا يجحد حقك فيما آتاك ربّك من العلم، ومنحك من الفقه في الدين، هذا إلى مزايا خُصِصْتَ بها، وفضائلَ اشتملت عليها، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمنكبٍ أضخمَ من مَنْكبك، وقُربى أمسَّ مِنْ قرباك، وسنّ أعلى من سنّك، وشَيْبة أروع من شيبتك، وسيادة معروفة في الإسلام والجاهلية، ومواقف ليس لك فيها جَمَل ولا ناقة، ولا تذكَر فيها في مقدّمة ولا ساقة، ولا تضرِبُ فيها بذراعٍ ولا إصبع، ولا تعدُّ منها ببازل ولا هُبَع.

إن أبا بكر كان حبّة قلب رسول الله ﷺ وعِلاقة هَمِّه، وعيْبة سرّه ومثوى حزنه، وراحة باله، ومرْمَق طرفه، شهرته مغنية عن الدلالة عليه.

ولعمري إنك لأقرب منه إلى رسول الله ﷺ قرابة، ولكنّه أقرب منك قُرْبة، والقرابة لحم ودم، والقُرْبة روح ونفس، وهذا فَرْقٌ يعرفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون.

ومهما شكَكْتَ فلا تشكّ في أنّ يدَ الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع غداً، والفِظْ مِن فيك ما هو متعلّق بَلهاتك، وانفُث سَخِيمة صدرك، فإن يكن في الأمد طُول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريئاً أو غير مريء، وستشرب به هنيئاً وغير هنيء، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيساً منك، ولا تابع لك إلا مَنْ كان طامعاً فيك، حين يمُضّ إهابَك، ويفْرِي أديمَك، ويزري على هَدْيك، هناك تَقْرَع السنّ من ندم، وتشرب الماء ممزوجاً بدم، حين تأسي على ما مضَى من عمرك، وانقضى وانقرض من دارِج قومك، وتودّ أن لو سقِيت بالكأس التي سقيتَها غيرك، ورُدِدت إلى الحال التي كنت تكرهها في أمْسِك، ولله فينا وفيك أمر هو بالغه، وعاقبة هو المرجّو لسرّائها وضَرّائها، وهو الوليّ الحميد الغفور الودود.

قال أبو عبيدة: فمشيت إلى عليّ مثَبِّطاً متباطئاً، كأنما أخطو على أمّ رأسي فَرَقاً من الفتنة، وإشفاقاً على الأمة، وحذراً من الفرقة، حتى وصلت إليه في خلاءٍ فأبثثته بثي كلّه، وبرئت إليه منه، ودفعته له. فلما سمعها ووعاها، وسرَت في أوصالِه حُميّاها قال: حلّت معلوّطة، وولت مخروّطة، ثم قال:

إحْدَى لـيـالـيكِ فـهِـيـسِي هـيـسِـي   لا تَـنْـعَـمِـي الـلَّـيْـلَـة بـالـتَّـعْـرِيـسِ

يا أبا عبيدة، أهذا كلّه في أنفس القوم يستنبطونه ويضْطَغنون عليه! فقلت: لا جواب عندي، إنّما جئتُك قاضياً حقَّ الدين، وراتقاً فتْق الإسلام، وسادًا ثُلْمة الأمة؟ يعلم الله ذلك من جُلجلان قلبي، وقرارة نفسي.

فقال: ما كان قعودي في كِسْر هذا البيت قصداً لخلاف، ولا إنكاراً لمعروف، ولا زراية على مُسلم، بل لما وقَذَني به رسول الله ﷺ من فراقه، وأودعني من الحزن لفقده، فإنّي لم أشهد بعده مشهداً إلا جدّد عليّ حزناً، وذكّرني شَجَناً، وإنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرّق منه، رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عمله، وسلّم لعلمه ومشيئته أمرَه، على أنّي أعلم أنّ التظاهر عليّ واقع، ولي عن الحق الذي سيق إليّ دافع، وإذ قد أُفعِمَ الوادي لي، وحُشِد النادي عليّ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين، وفي النّفس كلام لولا سابق قولٍ، وسالف عهد، لشفيتُ غيظي بخنصَري وبِنصَري، وخُضتُ لُجّتَه بأخمصِي ومَفْرَقي، ولكنّي ملجَم إلى أن ألقى الله تعالى، عنده أحتسب ما نزل بي، وأنا غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم، ومبايع لصاحبكم، وصابر على ما ساءني وسرّكم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان الله عَلَى كل شيء شهيداً.

قال أبو عبيدة: فعدت إلى أبي بكر وعمر، فقصَصْتُ القولَ عَلَى غرّه، ولم أترك شيئاً من حلوه ومُرّه، ذكرت غُدُوّه إلى المسجد، فلما كان صباح يومئذٍ وافَى عليّ فخرق الجماعة إلى أبي بكر وبايعه، وقال خيراً، ووصف جميلاً، وجلس زُمّيْناً، واستأذن للقيام ونهض، فتبعه عمر إكراماً له، وإجلالاً لموضعه، واستنباطاً لما في نفسه، وقام أبو بكر إليه فأخذ بيده، وقال: إنّ عِصابة أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة، وإنّ أمة أنت فيها لمرحومة، ولقد أصبحت عزيزاً علينا، كريماً لدينا، تخاف الله إن سخطت، ونرجوه إذا رضيت، ولولا أني شُدِهت لما أجبت إلى ما دعيت إليه، ولكني خفت الفرقة، واستئثار الأنصار بالأمر عَلَى قريش، وأعجِلت عن حضورك ومشاورتك ولو كنتَ حاضراً لبايعتك ولم أعدل بك، ولقد حطّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهِلي به، وما أسعد من ينظر الله إليه بالكفاية! وإنا إليك لمحتاجون، وبفضلك عالمون، وإلى رأيك وهَدْيِك في جميع الأحوال راغبون، وعَلَى حمايتك وحفيظتك معوّلون. ثم انصرف وتركه مع عمر.

فالتفت عليّ إلى عمر فقال: يا أبا حفص، والله ما قعدت عن صاحبك جزعاً عَلَى ما صار إليه، ولا أتيته خائفاً منه، ولا أقول ما أقول بعلّة، وإني لأعرف مَسْمَى طرْفي ومخَطّيْ قدميّ، ومنزع قوسي، وموقع سهمي، ولكني تخلّفت إعذاراً إلى الله، وإلى من يعلم الأمر الذي جعله لي رسول الله، وأتيت فبايعت، حفظاً للدّين، وخوفاً من انتشار أمر الله.

فقال له عمر: يا أبا الحسن، كَفْكِفْ من غرْبِك، ونَهْنِه من شرّتك، ودع العصا بلحائها، والدلو برشائها، فإنّا مِنْ خَلْفها وورائها. إن قَدَحْنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن قَرَحْنا أدمينا، وقد سمعت أمثالك التي ألغزت بها صادرة عن صدر دَوٍ، وقلب جَوٍ. زعمت أنّك قعدت في كِسرْ بيتك لِمَا وَقَذَكَ به فراق رسول الله. أفراق رسول الله ﷺ، وَقَذَكَ وحدك ولم

يقِذْ سواك! إنّ مصابه لأعزّ وأعظم من ذاك، وإنّ من حقّ مصابه ألاّ تصدع شَمْل الجماعة بكلمة لا عصام لها، فإنّك لَتَرَى الأعراب حولَ المدينة لو تَدَاعَتْ علينا في صبح يوم لم نَلْتَقِ في ممساه. وزعمت أنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، فمن الشّوق إليه نصرة دينه، وموازرة المسلمين عليه، ومعاونتهم فيه.

وزعمَت أنّك مكبٌّ على عهد الله تجمع ما تفرّق منه، فمن العكوف على عهدِه النصيحة لعباده، والرأفة على خلقه، وأن تبذل من نفسك ما يصلُحون به ويجتمعون عليه.

وزعمتَ أنّ التظاهر عليك واقع، أيّ تظاهر وقع عليك! وأيّ حقٍّ استُؤثر به دونك! لقد علمتَ ما قالت الأنصارُ أمس سرًّا وجهراً، وما تقلّبَتْ عليه ظهراً وبطناً، فهل ذكرتْك أو أشارت بك، أو طلبت رَضاها من عندك! وهؤلاء المهاجرون، مَن الّذي قال منهم إنّك صاحبُ هذا الأمر، أو أومأ إليك، أوهمهم بك في نفسه! أتظنّ أنّ الناس ضلُّوا من أجلك، أو عادوا كُفّاراً زهداً فيك، أو باعوا الله تعالى بهواهم بغضاً لك!

ولقد جاءني قوم من الأنصار، فقالوا: إنّ عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنّه أولَى بها من أبي بكر، فأنكَرتُ عليهم ورددتُ القول في نحورهم، حتى قالوا: إنّه ينتظر الوحيَ ويتوكّف مناجاة الملك! فقلت: ذاك أمر طواه الله بعد محمّد عليه السلام.

ومن أعجب شأنك قولك: «لولا سابق قول لشفيت غيظي بخنصري وبنصري»! وهل ترك الدّين لأحدٍ أن يشفيَ غيظه بيده أو لسانه! تلك جاهليّة استأصل الله شأفَتها، واقتلع جرثومتها، ونوّر ليلها، وغوّر سيلها، وأبدل منها الرّوح والريحان، والهدى والبرهان!

وزعمت أنّك ملجَم، فلعمري إنّ من اتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه، وأطبق فاه، وغلب عقلُه ودينه على هواه.

وأما قولُك: «إنّي لأعرف منزَع قوسي»، فإذا عَرَفْتَ مَنْزَع قوسِك عرف غيرك مضرَب سيفه، ومطعَن رمحه. وأمّا ما تزعمه من الأمر الذي جعله رسولُ الله صلى الله عليه وآله لك، فتخلّفت إعذاراً إلى الله، وإلى العارفة به من المسلمين، فلو عرفه المسلمون لجنحُوا إليه، وأصفقوا عليه، وما كان الله ليجمَعه على العَمى، ولا ليضرِبهم بالصبا بعد الهدى، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وآله فيك رأي، وعليك عزم، ثم بعثه الله، فرأى اجتماع أمّته على أبي بكر، لما سفّه آراءهم، ولا ضلّل أحلامهم، ولا آثرك عليهم، ولا أرضاك بسخطهم، ولأمَرك باتّباعهم، والدخول معهم فيما ارتضوْه لدينهم.

فقال عليّ: مهلاً أبا حفص أرشدك الله! خفّض عليك، ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد عنه حِوَلاً، وإن أخسرَ النّاس صفقة عند الله مَنْ استبطن النفاق، واحتضن الشّقاق، وفي الله خَلف

ن كلّ فائت، وعِوَضٌ من كلّ ذاهب، وسلْوة عن كلّ حادث، وعليه التوكّل في جميع حوادث. ارجع أبا حفصٍ إلى مجلس ناقعَ القلب، مبرود الغليل، فصيح اللسان، رحب صدر، متهلّل الوجه، فليس وراء ما سمعته منّي إلاّ ما يشدّ الأزر، ويحبط الوِزر، ويضع ضر، ويجمع الألفة، ويرفع الكلفة، إن شاء الله.

فانصرف عمر إلى مجلسه.

قال أبو عبيدة: فلم أسمع ولم أر كلاماً ولا مجلساً كان أصعبَ من ذلك الكلام والمجلس.

قلت: الذي يغلب على ظنّي أنّ هذه المراسلات والمحاورات والكلام كلّه مصنوع ضوع، وأنّهُ من كلام أبي حيان التوحيديّ، لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبَه، د حفظنا كلامَ عمر ورسائله، وكلام أبي بكر وخُطبه، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب، ولا لكان هذا السبيل في كلامهما، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفي، وأين أبو بكر وعمر البديع وصناعة المحدثين! ومَنْ تأمّل كلامَ أبي حيَّان عرف أنّ هذا الكلام من ذلك المعدِن رج، ويدلّ عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المرورّوذيّ، وهذه عادته في كتاب «البصائر» ند إلى القاضي أبي حامد كلّ ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه، إذا كان كارهاً لأن ينسب ه، وإنما ذكرناه نحن في هذا الكتاب، لأنّه وإن كان عندنا موضوعاً منحولاً، فإنّه صورة ما رت عليه حال القوم، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال، فقد نطقوا به بلسان الحال.

وممّا يوضّح لك أنّه مصنوع، أنّ المتكلّمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة لأشعريّة وأصحاب الحديث، وكلّ مَنْ صنّف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم مة واحدة من هذه الحكاية، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقِطُ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لفظة الشاذّة، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه السلام، في معرض التألّم والتظلّم، فيحتجّ بها، عتمِد عليها، نحو قوله: «ما زلت مظلوماً مذ قبِض رسول الله حتى يوم الناس هذا».

وقوله: «لقد ظُلِمْت عَدَد الحجر والمَدَر».

وقوله: «إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه، وإن نُمنعْه نركبْ أعجازَ الإبل، وإن طال السُّرى».

وقوله: «فصبرتُ وفي الحلق شجاً، وفي العين قذًى».

وقوله: «اللهم إني أستعديك على قريش فإنّهم ظلموني حقّي، وغصبوني إرْثي».

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه، فكأنما ظفر بملْك الدنيا ويودِعها كتبَه وتصانيفه، ين كان المرتضى عن هذا الحديث! وهلا ذُكِر في كتاب «الشافي في الإمامة» كلام أمير مؤمنين عليه السلام هذا، وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان، وبني نُوبخت، وبني بابويه غيرهم، وكذلك مَنْ جاء بعده متأخّري متكلّمي الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى

وقتنا هذا! وأين كانَ أصحابُنا عن كلام أبي بكر وعمر له عليه السلام! وهلاّ ذكره قاضي القضاة في «المغني» مع احتوائه على كلّ ما جرى بينهم، حتى إنّه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد في أخبار السقيفة! وهلاّ ذكره مَنْ كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومَنْ جاء بعده من متكلّمينا ورجالنا! وكذلك القول في متكلّمي الأشعريّة وأصحاب الحديث كابن الباقلانيّ وغيره، وكان ابنُ الباقلانيّ شديداً على الشّيعة، عظيم العصبيّة عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام، فلو ظفرَ بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث لملأت الكتب والتصانيف بها، وجعلها هِجّيراه ودَأبه.

والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصّة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان، ومعرفة كلام الرجال، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السِّيَر، وأقلّ أنس بالتواريخ.

قوله عليه السلام: «مودّع لا قالٍ ولا مبغض ولا سئم»، أي لا ملول، سئمت من الشيء أسأم سأماً وسآماً وسآمة، سئمته إذا مللته، ورجل سؤوم.

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى، فقال: «إن انصرفتُ فلا عن ملالة، وإن أقمت فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين»، أي ليست إقامتي عَلَى قبرِك وجزعي عليك، إنكاراً مني لفضيلة الصبر والتجلّد والتعزّي والتأسّي، وما وعد الله به الصابرين من الثواب، بل أنا عالم بذلك، ولكن يغلبني بالطَّبْع البشري.

وروي أن فاطمة بنت الحسين عليها السلام ضربت فسطاطاً على قبر بعلها الحسن بن الحسن عليه السلام سنة، فلما انقضت السنة قوّضت الفسطاس راجعةً إلى بيتها، فسمعت هاتفاً يقول: هل بلغوا ما طلبوا! فأجابه هاتف آخر، بل يئسوا فانصرفوا.

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتابه «الكامل» أن علياً عليه السلام تمثّل عند قبر فاطمة:

ذكرت أبا أرْوَى فبتّ كأنّني ... بردّ الهموم الماضيات وكيلُ
لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ ... وكلّ الذي دُون الفراق قليلُ
وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ عَلَى ألاّ يدوم خليلُ

والناس يرونه:

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ

تم الجزء العاشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ويليه الجزء الحادي عشر

فهرس

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الجزء التاسع

الجزء العاشر

شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق
محمد إبراهيم

المجلد السادس
١١ - ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الكتاب العربي

بغداد - شارع المتنبي

تلفون: (٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الأميرة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

خليوي: ٠٣/٩٤٦١٦٦١ - ٠٣/١١٥٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٧٢٧٦٤٠٨

http://www.Dar-ALamira.com

email:info@dar-alamira.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

١٩٦ - ومن كلام له عليه السلام في وصف الدنيا والآخرة

الأصل: أَيُّها النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ، وَالآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلاَ تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ، عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: «مَا تَرَكَ!» وَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ: «مَا قَدَّمَ!» لله آبَاؤُكُمْ! فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ، وَلاَ تُخْلِفُوا كُلاًّ فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ.

الشرح: ذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في «الكامل»[1] عن الأصمعيّ، قال: خطَبنا أعرابيّ بالبادية، فحمِد الله واستغفره، ووحّده وصلّى على نبيه صلى الله عليه وآله، فأبلغ في إيجاز، ثم قال: أيّها النّاس، إنّ الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار، فخذوا لمقرّكم من ممرّكم، ولا تهتكوا أستاركم، عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم. في الدّنيا أنتم، ولغيرها خلقتم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والمصلّى عليه رسول الله، والمدعوّ له الخليفة، والأمير جعفر بن سليمان.

وذكر غيره الزيادة الّتي في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهي: «إنّ المرء إذا هلك...»، إلى آخر الكلام. وأكثر النّاس على أنّ هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام.

ويجوز أن يكونَ الأعرابيّ حفظه فأورده كما يورِد النّاسُ كلامَ غيرهم.

قوله عليه السلام: «دار مجاز»، أي يُجَاز فيها إلى الآخرة، ومنه سمِّيَ المجاز في الكلام مجازاً، لأنّ المتكلّم قد عَبَر الحقيقة إلى غيرها، كما يَعبُر الإنسان من موضع إلى موضع.

(١) «الكامل في اللغة»: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالبرد النحوي، المتوفى سنة (٢٨٥هـ)، كشف الظنون (٢/ ١٣٨٢).

ودار القرار: دار الاستقرار الذي لا آخر له. فخذوا من سركم: أي من الدنيا، لمقركم: وهو الآخرة.

ودار القرار: دار الاستقرار الذي لا آخر له. فخذوا من ممرّكم، أي من الدنيا. لمقرّكم، وهو الآخرة.

قوله عليه السلام: «قال الناس: ما ترك!»، يريد أنّ بني آدم مشغولون بالعاجلة، لا يفكرون في غيرها، ولا يتساءلون إلا عنها، فإذا هلك أحدكم، فإنّما قولهم بعضهم لبعض: ما الذي ترك فلان من المال؟ ما الذي خلف من الولد؟ وأما الملائكة فإنّهم يعرفون الآخرة، ولا تستهويهم شهواتُ الدّنيا، وإنّما هم مشغولون بالذِّكر والتسبيح، فإذا هلك الإنسان، قالوا: ما قدّم؟ أي أيّ شيء قدّم من الأعمال؟

ثم أمرهم عليه السلام، بأنْ يقدّموا من أموالهم بعضها صدقة، فإنّها تبقى لهم، ونهاهم أن يخلّفوا أموالَهم كلَّها بعد موتهم، فتكون وبالاً عليهم في الآخرة.

١٩٧ - ومن كلام له عليه السلام كان كثيراً ما ينادي به أصحابه

الأصل: تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ، وَأَقِلُّوا ٱلْعَرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَٱنْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤوداً، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لاَ بُدَّ مِنَ ٱلْوُرُود عَلَيْهَا، وَٱلْوُقُوفِ عِنْدَهَا.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَلاَحِظَ المَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِمخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ منهَا مُفْظِعَاتُ الأمُورِ، وَمُضْلِعَاتُ المَحْذُورِ.

فَقَطِّعُوا عَلاَئِقَ الدُّنْيَا، وَٱسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى.

وقد مضى شيءٌ منْ هذا الْكلامِ فيما تقَدَّمَ يُخَالِف هذه الرِّوَايَةَ.

الشرح: تجهّزوا لكذا، أي تهيّؤوا له.

والعرْجة[1]: التعريج، وهو الإقامة، تقول: ما لي على ربعك عَرْجة، أي إقامة، وعرَّج فلان على المنزل، إذا حبَس عليه مطيّته.

---

(١) انظر القاموس المحيط، مادة (عرج).

والعقبة الكؤود[١]: الشاقّة المصعد. ودائبة: جادّة. والمخلب للسَّبُع بمنزلة الظّفر للإنسان. وأفظع الأمرُ، فهو مفظع، إذا جاوز المقدار شدّة.

ومضلعات[٢] المحذور: الخطوب التي تُضِلع، أي تجعل الإنسان ضليعاً، أي معوجًا، والماضي ضَلِع بالكسر يَضلع ضَلَعاً.

ومن رواها بالظاء، أراد الخطوب التي تجعل الإنسان ظالعاً، أي يغمز في مَشْيِه لثقلها عليه، والماضي ظَلَع بالفتح، يظلَع ظَلَعاً، فهو ظالع.

١٩٨ - ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا عليه من ترك مشورتهما والاستعانة في الأمور بهما

الأصل: لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً. أَلاَ تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُما فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُما عَنْهُ! أم أَيُّ قَسم ٱسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُما بِهِ! أَوْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهِلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ!

وَٱللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي ٱلْخِلاَفَةِ رَغْبَةٌ، وَلاَ فِي ٱلْوِلاَيَةِ إِرْبَةٌ، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ ٱللهِ وَمَا وَضعَ لَنَا، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْم بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، وَمَا ٱسْتَنَّ ٱلنَّبِيُّ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فَاقْتَدَيْتُهُ. فَلَمْ أَحْتَجْ إِلى رَأْيِكُما، وَلاَ رَأْيِ غَيْرِكُمَا، وَلاَ وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلاَ عَنْ غَيْرِكُمَا.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ ٱلأُسْوَةِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي، وَلاَ وَلِيتُهُ هَوًى مِنّي، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُما مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُما فِيمَا قَدْ فَرَغَ ٱللهُ مِنْ قَسْمِهِ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمَا وَٱللهِ عِنْدِي وَلاَ لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَى.

أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى ٱلْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

ثم قال عليه السلام: رَحِمَ ٱللهُ رَجلاً رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ، أَوْ رَأَى جَوْراً فَرَدَّهُ، وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِه.

---

(١) انظر القاموس المحيط، مادة (كأد).

(٢) انظر القاموس المحيط، (ضلع).

الشرح: **نقَمت عليه، بالفتح أنقِم، هذه اللغة الفصيحة، وجاء نقِمت بالكسر، أنقَم.**

وأرجأتما: أخرتما، أي نقَمتما من أحوالي اليسير، وتركتما الكثير الذي ليس لكما ولا لغيركما فيه مطعَن، فلم تذكراه، فهلاّ اغتفرتُما اليسير للكثير!

وليس هذا اعترافاً بأنّ ما نقَماه موضع الطّعن والعيْب، ولكنّه على جهة الجدَل والاحتجاج، كما تقول لمن يطعن في بيتٍ من شعر شاعر مشهور: لقد ظلمتَه إذْ تتعلّق عليه بهذا البيت، وتنسى ما له من المحاسن الكثيرة في غيره!

ثم ذكر وجوه العتاب والاستزادة، وهي أقسام: إمّا أن يكون لهما حقٌّ يدفعهما عنه، أو استأثر عليهما في قَسْم، أو ضَعُف عن السياسة، أو جَهِل حُكْماً من أحكام الشريعة، أو أخطأ بابه.

فإن قلت: أيّ فرق بين الأوّل والثاني؟

قلت: أما دفعهما عن حقهما، فمنْعهما عنه، سواء صار إليه عليه السلام أو إلى غيره، أو لم يصِرْ إلى أحد، بل بقيَ بحاله في بيت المال.

وأما القسم الثاني فهو أن يأخُذَ حقَّهما لنفسه، وبين القسمين فرق ظاهر، والثاني أفحش من الأوّل.

فإن قلت: فأيّ فرق بين قوله، «أم جهلته»، أو «أخطأت بابه»!

قلت: جَهْل الحُكْم أن يكونَ الله تعالى قد حكم بحرمة شيء، فأحَلّه الإمام أو المفتي، وكونه يخطىء بابه، هو أن يصيب في الحكم ويخطىء في الاستدلال عليه.

ثم أقسم أنّه لم يكن له في الخلافة رغبة ولا إرْبة، بكسر الهمزة، وهي الحاجة. وصدَق عليه السلام! فهكذا نَقَل أصحابُ التواريخ وأرباب عِلْم السِّير كلُّهم، وروى الطبريّ في التاريخ ورواه غيره أيضاً أنّ الناسَ غَشُوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته، وهو يأبى ذلك ويقول: دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تثبت عليه العقول، ولا تقوم له القلوب. قالوا: نَنْشُدك الله! ألاَ تَرَى الفِتنة! ألا ترى إلى ما حدث في الإسلام! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرى منكم، واعلموا أني إنْ أجبتُكم ركبتُ بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، بل أنا أسمَعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمرَكم إليه. فقالوا: ما نحن بمفارقيك حتى نبايَعك. قال: إن كان لا بدّ مِن ذلك ففي المسجد، فإن بَيْعتي لا تكون خَفياً، ولا تكون إلا عن رضَا المسلمين، وفي ملأ وجماعة. فقام والنّاس حوله، فدخل المسجد، وانثال عليه المسلمون فبايعوه، وفيهم طلْحة والزبير(١).

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٢٤.

قلت: قوله: «إن بيعتي لا تكون خَفياً، ولا تكون إلاّ في المسجد بمحضرٍ من جمهور النّاس»، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للعبّاس لمّا سامَه مدّ يدِه للبيعة: إنّي أحبُّ أن أُصحِر بها، وأكره أنْ أبايع من وراء رِتاج[1].

ثم ذكر عليه السلام أنّه لما بُويع عمِل بكتَاب الله وسنة رسوله، ولم يحتجْ إلى رأيهما ولا رأيِ غيرِهما، ولم يقع حُكْم يجهله فيستشيرهما، ولو وقع ذلك لاستشارهما وغيرهما، ولم يأنَف من ذلك.

ثم تكلّم في معنى التَّنفِيل في العطاء، فقال: إني عملت بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك. وصدق عليه السلام! فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوّى في العطاء بين الناس، وهو مذهب أبي بكر.

والعُتْبى: الرّضا، أي لست أرضيكما بارتكاب ما لا يحلّ لي في الشرع ارتكابه.

والضمير في «صاحبه»، وهو الهاء المجرورة يرجع إلى الجوْر، أي وكان عوناً بالعمل على صاحب الجوْر.

طلحة والزبير وبعض من أخبارهما

قد تقدّم منّا ذكرُ ما عتب به طلحة والزُّبير على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنهما قالا: ما نراه يستشيرنا في أمرٍ، ولا يفاوضنا في رأي، ويقطع الأمرَ دوننا، ويستبدّ بالحكم عنّا! وكانا يرجوان غير ذلك، وأراد طلحةُ أن يولّيَه البصرة، وأراد الزّبير أن يولّيَه الكوفة، فلما شاهدا صلاَبتَه في الدين، وقوّته في العزم، وهَجْرَه الادهان والمراقبة، ورفضه المُدَالسة والمواربة، وسلوكه في جميع مسالكه منهَج الكتاب والسنّة، وقد كانا يعلمان ذلك قديماً من طبعه وسجيّته، وكان عمر قال لهما ولغيرهما: إنّ الأجْلح إن وَلِيهَا ليحملنكم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل قال: «وإنّ تولّوها عليًّا، تجدوه هادياً مهديًّا»[2]، إلاّ أنه ليس الخبرُ كالعيان، ولا القول كالفعل، ولا الوعد كالإنجاز. وحالاَ عنه، وتنكّرا له، ووقعا فيه، وعاباه وغمَصاه، وتطلّبا له العلل والتأويلات، وتنقّما عليه الاستبداد وترك المشاورة، وانتقَلا من ذلك إلى الوقيعَة فيه بمساواة النّاس في قسمة المال، وأثنيا على عمرَ، وحمِدا سيرته، وصوّبا رأيه، وقالا: إنّه كان يفضّل أهلَ السوابق، وضلّلا عليًّا عليه السلام فيما رآه،

(١) الرتاج: الباب العظيم، وقيل: هو الباب المغلق، وقد أرتج الباب إذا أغلقه إغلاقاً وثيقاً. لسان العرب، مادة (رتج).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» في كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٨٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٤٤٣٤)، والبزار في «مسنده» (٢٨٩٥)،

وقالا: إنّه أخطأ، وإنّه خالف سيرة عمر، وهي السيرة المحمودة التي لم تفضحها النبّوة، مع قرب عهدنا منها، واتصالها بها. واستنجَدا عليه بالرّؤساء من المسلمين، كان عمر يفضّلهم وينفّلهم في القَسْم على غيرهم - والنّاس أبناءُ الدّنيا، ويحبّون المال حُبًّا جمّاً - فتنكَّرتْ على أمير المؤمنين عليه السلام بتنكُّرهما قلوبٌ كثيرة، ونغلِت عليه نيّاتٌ كانت من قبل سليمة، ولقد كان عمر موفَّقاً حيث منع قريشاً والمهاجرين وذوي السَّوابق من الخروج من المدينة، ونهاهم عن مخالطة النّاس، ونهى الناس عن مخالطتهم، ورأى أنّ ذلك أسُّ الفساد في الأرض، وأنّ الفتوح والغنائم قد أبطرت المسلمين، ومتى بَعُد الرؤوس والكبراء منهم عن دار الهجرة، وانفردوا بأنفسهم، وخالَطهم النّاس في البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسِنُوا لهم الوثوب، وطلب الإمْرة ومفارقة الجماعة، وحلّ نظام الألفة، ولكنّه رضيَ الله عنه نقضَ هذا الرأي السّديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمْرِ الشورى، فإنّ ذلك كان سبب كلّ فتنة وقعت، وتقع إلى أن تنقضيَ الدنيا. وقد قدّمنا ذكر ذلك، وشرحنا ما أدّى إليه أمرُ الشورى من الفساد بما حصل في نفس كلّ من الستّة من ترشيحه للخلافة.

وروى أبو جَعْفَرٍ الطبريّ في تاريخه، قال: كان عمر قد حَجَر على أعلام قريش من المهاجرين الخروجَ في البلدان إلاّ بإذن وأجَلٍ، فشكوْه، فبلغه، فقام فخطب، فقال: ألاَ إني قد سننتُ الإسلام سنّ البعير، يبدأ فيكون جذَعاً، ثم ثنيًّا، ثم يكون ربَاعيًا، ثم سَدِيساً، ثم بازلاً. ألا فهل يُنتَظر بالبازل إلا النقصان! ألا وإنّ الإسلام قد صار بازلاً، وإنّ قريشاً يريدون أن يتّخذوا مال الله معوناتٍ على ما في أنفسهم. ألا إنّ في قريش منْ يُضمِر الفرقة، ويروم خَلْع الرِّبقَة. أمّا وابنُ الخطاب حيّ فلا، إنّي قائم دون شِعْب الحَرّة، آخذ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتُوا في النار.

وقال أبو جعفر الطّبري في التّاريخ[1] أيضاً: فلما ولِّيَ عثمان لم يأخذْهم بالّذي كان عمر يأخذهم به، فخرجوا إلى البلاد، فلما نزلوها ورأوا الدُّنيا، ورآهم النّاس، خَمَل مَنْ لم يكن له طَولٌ ولا قَدَمٌ في الإسلام، ونُبه أصحاب السّوابق والفَضل، فانقطع إليهم النّاس، وصاروا أوزاعاً معهم، وأمّلُوهم، وتقرّبوا إليهم، وقالوا: يملكون فيكون لنا في مُلْكهم حظوة، فكان ذلك أوّل وَهَنٍ على الإسلام، وأوّلَ فتنة كانت في العامة.

وروى أبو جعفر الطبريّ، عن الشعبيّ، قال: لم يمت عمر حتى ملّتْه قريش، وقد كان حَصَرهم بالمدينة، وسألوه أنْ يأذَنَ لهم في الخروج إلى البلاد، فامتنع عليهم، وقال: إنّ أخوَف ما أخافُ على هذه الأمة انتشاركم في البلاد، حتى أنّ الرّجُل كان يستأذنه في غزو الروم

(١) انظره (٢/ ٦٧٩).

أو الفرس، وهو ممّنْ حبسه بالمدينة من قُريش، ولاسيما من المهاجرين فيقول له: إنّ لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكفيك ويبلغك ويُحْسِبُك، وهو خيرٌ لك من الغزو اليوم، وإنّ خيراً لك ألاّ ترى الدنيا ولا تراك.

فلما مات عمر وولي عثمان خلّى عنهم فانتشروا في البلاد واضطربوا، وانقطع إليهم الناس وخالطوهم، فلذلك كان عثمان أحبَّ إلى قريش من عمر.

فقد بان لك حسنُ رأي عمر في مَنْع المهاجرين وأهل السّابقة من قُريش من مخالطة النّاس والخروج من المدينة، وبان لك أنّ عثمان أرخى لهم في الطِّوَل، فخالطهم الناس، وأفسدوهم، وحبّبُوا إليهم الملك والإمرة والرئاسة، لاسيما مع الثورة العظيمة التي حصلت لهم، والثّراء مفسدة وأيّ مفسدة! وَحصل لطلحة والزبير منْ ذلك ما لم يحصل لغيرهما ثروة ويساراً، وقدما في الإسلام، وصار لهما لفيف عظيم من المسلمين يمنّونهما الخلافة، ويحسِّنون لهما طلب الإمْرة، لاسيما وقد رشّحهما عمر لها، وأقامهما مقام نفسه في تحمّلها، وأي امرىء منّى بها قطّ نفسَه ففارقها حتى يغيَّب في اللّحد! ولا سيما طلحة، قد كان يحدِّث بها نفسه وأبو بكر حيّ، ويروم أن يجعلها فيه، بشبهة أنّه ابنُ عمّه، وسخط خلافة عمر.

وقال لأبي بكر: ما تقول لربّك وقد ولّيتَ علينا فظًّا غليظاً، وكان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه، ويحادثونه سرًّا في معنى الخلافة، ويقولون له: لو مات عمر لبايعناك بَغْتةً، جلب الدّهرُ علينا ما جلب! ويلغ ذلك عمر، فخطب النّاس بالكلام المشهور، إنّ قوماً يقولون: إنّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتة[1]، وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا، أما أنّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتة، إلاّ إنّ الله وَقَى شرّها، وليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كأبي بكر، فأيّ امرىء بايع امرأ من غير مشورة من المسلمين، فإنّهما بغرّة أن يقتلا، فلما صارت إلى عثمان سخطِها طلحة بعد أنْ كان رضيها، وأظهر ما في نفسه، وألَّب عليه حتى قُتِل، ولم يشكّ أنّ الأمر له، فلمّا صارت إلى عليّ عليه السلام، حدث منه ما حدث، وآخر الدواء الكيّ.

وأما الزّبير فلم يكن إلاّ عَلَويّ الرأي، شديد الوَلاَء، جارياً من الرّجل مجرى نفسه.

ويقال: إنّه عليه السلام لما استنجد بالمسلمين عَقِيب يوم السّقِيفة وما جرى فيه، وكان يحمل فاطمة عليها السلام ليلاً على حمار، وابناها بين يدي الحمار، وهو عليه السلام يسوقه فيطرق بيوتَ الأنصار وغيرهم، ويسألهم النّصْرة والمعونة، أجابه أربعون رجلاً، فبايعهم على الموت، وأمرهم أن يصبحوا بكرةً محلّقي رؤوسهم ومعهم سلاحهم، فأصبح لم يوافِهِ منهم إلاّ أربعة: الزبير، والمقداد، وأبو ذَرّ، وسَلْمان. ثم أتاهم من الليل، فناشدهم، فقالوا: نصبّحك غدوة،

(١) الفَلْتة: الأمر يقع من غير إحكام. اللسان، مادة (فلت).

فما جاءه منهم إلا أربعة، وكذلك في الليلة الثالثة، وكان الزّبير أشدَّهم له نصرة، وأنفذهم في طاعته بصيرة، حلَق رأسه، وجاء مراراً وفي عنقه سيفه، وكذلك الثلاثة الباقون، إلاّ أنّ الزبير هو كان الرأس فيهم.

وقد نقل النّاس خبر الزّبير لما هَجَم عليه ببيت فاطمة عليها السلام، وكسر سيفه في صخرة ضربت به، ونقلوا اختصاصه بعليّ عليه السلام، وخلواته به. ولم يزل موالياً له، متمسّكاً بحبّه ومودّته، حتى نشأ ابنُه عبد الله وشبّ، فنزع به عِرْقٌ من الأمّ، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه، ومحبّة الوالد للولد معروفة، فانحرف الزُّبير لانحرافه، على أنّه قد كانت جرت بين عليّ عليه السلام والزّبير هَناتٌ في أيام عمر كدّرت القلوب بعض التكدير، وكان سببها قصّة موالي صفيّة ومنازعة عليّ للزبير في الميراث، فقضى عمر للزّبير، فأذعن عليّ عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه، لا رجوعاً عمّا كان يذهب إليه من حكم الشرع في هذه المسألة وبقيت في نفس الزّبير، على أنّ شيخنا أبا جعفر الإسكافيّ رحمه الله ذكر في كتاب «نقض العثمانية» عن الزبير كلاماً، إنْ صحّ، فإنّه يدلّ على انحراف شديد، ورجوع عن موالاة أمير المؤمنين عليه السلام.

قال: تفاخَر عليّ عليه السلام والزبير، فقال الزبير: أسلمتُ بالغاً، وأسلمتَ طفلاً، وكنتُ أوّلَ مَنْ سلّ سيفاً في سبيل الله بمكّة وأنت مستخف في الشّعب، يكفُلك الرجال، ويَمونك الأقارب من بني هاشم. وكنتُ فارساً، وكنتَ راجلاً، وفي هيئتي نزلت الملائكة، وأنا حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال شيخنا أبو جعفر: وهذا الخبر مفتعل مكذُوب، ولم يجر بين عليّ والزبير شيءٌ من هذا الكلام، ولكنّه من وضع العثمانية، ولم يسمع به في أحاديث الحشَويّة، ولا في كتب أصحاب السّيرة.

ولعليّ عليه السلام أن يقول: طفلٌ مسلم خير من بالغ كافر، وأمّا سلّ السيفَ بمكّة، فلم يكنْ في موضعه، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾[1] الآية، وأنا على منهاج الرسول في الكفّ والإقدام، وليس كفالة الرجال والأقارب بالشّعب عاراً عليّ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله في الشّعب يكفُله الرّجال والأقارب. وأمّا حربُك فارساً، وحربي راجلاً، فهلاّ أغنت فروسيّتك يوم عمرو بن عبد وَدّ في الخندق! وهلاّ أغنت فروسيّتك يوم طلحة بن أبي طلحة في أُحد! وهلاّ أغنت فروسيّتك يوم مرحب بخيبر! ما كانتْ فرسُك الّتي تحارب عليها في هذه الأيّام إلا أذلّ من العَنْز الجرْباءِ، ومَنْ سلّمتْ عليه الملائكة أفضل ممّن نزلتْ في هيئته، وقد نزلت الملائكة في صورة دِحْية الكلبي، أفيجب من ذلك أن يكون دحية أفضلَ منّي! وأما

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.

كونك حواريّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فلو عددت خصائصي في مقابلة هذه اللّفظة الواحدة لك، لاستغرقت الوقت، وأفنيْت الزمان، وربّ صمتٍ أبلغُ من نطق.

ثم نرجع إلى الحديث الأوّل، فنقول: إنّ طلحة والزبير لما أيِسا من جهة عليٍّ عليه السلام، ومن حصول الدنيا من قِبَله، قَلَبا له ظهر المجِنّ، فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لاذعاً، روى شيخنا أبو عثمان قال:

أرسل طلحةُ والزّبير إلى عليّ عليه السلام قبل خروجهما إلى مكّة مع محمد بن طلحة، وقالا: لا تقل له: «يا أمير المؤمنين»، ولكن قل له: «يا أبا الحسن»، لقد فَال فيك رأيُنا، وخاب ظنُّنا. أصلحنا لك الأمر، ووطّدنا لك الإمْرة، وأجلبنا على عثمان حتى قتِل، فلمّا طلبك النّاس لأمرهم، أسرعنا إليك، وبايعناك، وقُدْنا إليك أعناقَ العرب، ووطىء المهاجرون والأنصار أعقابنا في بَيْعتك حتى إذا ملَكت عنانك، استبدَدْت برأيك عنّا، ورفضتنا رفض التّرِيكة[1]، وأذلْتَنا إذالة الإماء، وملّكت أمرَك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونُزّاع الأمصار، فكنّا فيما رجوناه منك، وأمّلْنا. من ناحيتك، كما قال الأوّل:

فَكُنْتَ كُمهْرِيق الّذي في سِقَائِهِ لِرَقْراقِ آلٍ فوقَ رابِيَةٍ صَلْدِ

فلمّا جاء محمّد بن طلحة، أبلغه ذاك، فقال: اذهبْ إليهما، فَقُلْ لهما: فما الذي يرضيكما؟فذهب وجاءه، فقال: إنهما يقولان: وَلِّ أحدَنا البصرة والآخر الكوفة! فقال: لاها الله! إذَنْ يحلُم الأديم، ويستشري الفساد، وتنتقض عليّ البلاد من أقطارها، والله إني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة، فكيف آمنهما وقد ولّيتهما العراقين! اذهبْ إليهما فقل: أيها الشيخان، احذرا من سَطْوة الله ونقْمته، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيداً، وقد سمعتما قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]. فقام محمد بن طلحة فأتاهما، ولم يعد إليه، وتأخرا عنه أياماً، ثم جاءاه فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة، فأذِن لهما بعد أن حلفهما ألاّ ينقضا بيعتَه، ولا يغدِرَا به، ولا يشقّا عصا المسلمين، ولا يُوقِعَا الفرقة بينهم، وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة، فحلَفا على ذلك كلّه ثم خرجا ففعلا ما فعلا.

---

(١) التريكة: من النساء التي تُترك فلا تتزوج. لسان العرب، مادة (ترك).
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

وروى شيخنا أبو عثمان، قال: لمّا خرج طلحة والزبير إلى مكّة، وأوهَما الناس أنهما خرجا للعمْرة، قال عليّ عليه السلام لأصحابه: والله ما يريدان العمرة، وإنّما يريدان الغَدْرة ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١).

وروى الطّبري في التاريخ، قال: لمّا بايع طلحة والزبير عليًّا عليه السلام، سألاه أن يؤمّرهما على الكُوفة والبصرة، فقال: بل تكونان عندي أتجمّل بكما، فإنني أستوحش لفراقكما.

قال الطبريّ: وقد كان قال لهما قبل بيعتهما له: إنْ أحببتما أنْ تبايعاني، وإنْ أحببتما بايعتكما، فقالا: لا، بل نبايعك، ثم قالا بعد ذلك: إنما بايعناه خشية على أنفسنا، وقد عرفنا أنّه لم يكن ليبايعنا. ثم ظهرا إلى مكة، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر.

وروى الطبريّ أيضاً في التاريخ قال: لمّا بايع النّاس علياً، وتمّ له الأمر، قال طلحة للزبير: ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلاّ كحِسّة(٢) أنف الكلب.

وروى الطبريّ أيضاً في التاريخ(٣)، قال: لمّا بايَع النّاس علياً عليه السلام بعد قتل عثمان، جاء عليٌّ إلى الزبير، فاستأذن عليه. قال أبو حبيبة مولى الزبير: فأعلمتُه به، فسلّ السيفَ، ووضعه تحت فراشه، وقال: ائذن له، فأذنت له، فدخل فسلّم عَلى الزّبير وهو واقف. ثم خرج، فقال الزبير: لقد دخل لأمرٍ ما قضاه، قم مقامه وانظر: هل ترى من السيف شيئاً! فقمت في مقامه، فرأيت ذُباب السيف، فأخبرتُه وقلت: إن ذُباب السيف ليَظهر لمن قام في هذا الموضع، فقال: ذاك أعجلَ الرجل.

وروى شيخنا أبو عثمان، قال: كتب مُصْعب بن الزبير إلى عبد الملك:

مِنْ مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان: سلام عليك، فإني أحمَد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

سَتَعْلَمُ يَا فَتَى الزَّرْقَاء أنّي ... ساهتِك عن حلائلكَ الحِجَابا
وأترك بلدةً أصبحت فيها ... تَهوّر من جَوانبها خَرَابا

أمَا إن لله عليّ الوفاء بذلك، إلاّ أن تتراجع أو تتوب! ولعمري ما أنت كعبد الله بن الزبير، ولا مرْوان كالزّبير بن العوام، حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمّته. فسلّم الأمر إلى أهله، فإنّ نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتين. والسلام.

فكتب إليه عبد الملك:

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٢) الحِسُّ: الصوت الخفي أو الرّنة. لسان العرب، مادة (حسس).
(٣) انظره (٢/ ٦٩٩).

من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، إلى الذَّلول الذي أخطأ مَنْ سماه المُصْعَب، سلام عليك، فإنّي أحمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

أتُوعِدُني وَلَمْ أرَ مِثْلَ يومي خَشاش الطَير يوعدن العُقابا
مَتى تَلْقَ العُقاب خَشاشَ طيرٍ يهتّك عن مقاتِلها الحِجابا
أتوعد بالذئاب أسودَ غابٍ وأسْدُ الغاب تَلتَهِم الذئابا!

أمّا ما ذكرت من وفائك، فلعمري لقد وفّى أبوك لتيْم وعديّ بعداء قريش وزعانفها، حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان، الشريف النسب، الكريم الحسب، بغاه الغوائل، وأعدّ له المخاتل[1]، حتى نال منه حاجته، ثم دعا النّاس إلى عليٍّ وبايعه، فلما دانت له أمور الأمة، وأجمعت له الكلمة، وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف، فنقض عهدَه، ونكث بيعَته بعد توكيدها، «فكّر وقدّر، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ»، وتمزقت لحمه الضباع بوادي السباع. ولعمري إنّك تعلم يا أخا بني عبد العُزّى بن قصيّ، أنّا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام، ولكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت، ولم ترِثْ ذلك عن كلالة، بل عن أبيك، ولا أظنّ حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلاّ إلى ما آل إليه حسدُ أبيكما من قَبْل ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[2]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[3].

وروى أبو عثمان أيضاً، قال: دخل الحسن بن عليّ عليه السلام على معاوية، وعنده عبد الله بن الزبير - وكان معاوية يحبّ أن يغري بين قريش - فقال: يا أبا محمد، أيّهما كان أكبر سنًّا، عليّ أم الزبير؟ فقال الحسن: ما أقرب ما بينهما، وعليّ أسن من الزبير! رحم الله علياً! فقال ابن الزّبير رحم الله الزّبير - وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب، فقال: يا عبد الله، وما يهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه! قال: وأنا أيضاً ترّحمت على أبي! قال: أتظنه نِدًّا له وكفؤاً؟ قال: وما يُعدَلُ به عن ذلك! كلاهما من قريش، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتمّ له. قال: دع ذاك عنك يا عبد الله، إنّ علياً من قُريش ومن الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم، ولمّا دعا إلى نفسه أتبع فيه، وكان رأساً، ودعا الزّبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة، ولما تراءت الفئتان نكَص على عَقِبيه، وولّى مدبراً قبْل أنْ يظهر الحقّ فيأخذه، أو يدحض الباطل فيتركه، فأدركه رجل لو قيسَ ببعض أعضائه لكان أصغَر، فضرب عنقه، وأخذ سَلَبه، وجاء برأسه، ومضى عليّ قُدُماً كعادته مع ابن عمّه، رحم الله علياً! فقال ابن الزبير: أما لو أنّ غيرك تكلّم بهذا يا أبا سعيد، لعلم! فقال: إنّ الذي تعرِّض به يرغب عنك. وكفّه معاوية، فسكتوا.

---

(١) المخاتل: الخِداع. لسان العرب، مادة (ختل).
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣. (٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

وأخبرتْ عائشة بمقالتهم، ومرّ أبو سعيد بفِنائها، فنادته: يا أبا سعيد، أنت القائل لابن أختي كذا؟ فالتفت أبو سعيد، فلم ير شيئاً، فقال: إنّ الشيطان يرانا ولا نراه! فضحكت عائشة، وقالت: لله أبوك! ما أذلق لسانك[1]!

١٩٩ - ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيَّام حربهم بصفين

الأصل: إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُم إِيَّاهُمْ:

اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ!

الشرح: السبّ: الشتم، سبّه يسُبُّه بالضمّ، والتّسابّ: التشاتم، ورجلٌ مِسَبّ بكسر الميم: كثير السِّباب، ورجلٌ سُبَّة، أي يسبُّه الناس، ورجل سُبَبَة، أي يسبّ الناس، ورجل سَبّ: كثير السباب، وسِبُّك: الذي يسابّك، قال:

لاَ تَسُبَّنَّنِي فَلَسْتَ بِسِبِّي ... إنّ سِبِّي من الرجال الكريمُ

والذي كرهه عليه السلام منهم، أنهم كانوا يشتُمون أهلَ الشام، ولم يكن يكره منهم لعَنهم إياهم، والبذاءة منهم، لا كما يتوهّمه قومٌ من الحشوية، فيقولون: لا يجوز لعن أحدٍ ممّن عليه اسم الإسلام، وينكرون عَلَى مَنْ يلعن، ومنهم مَنْ يغالي في ذلك، فيقول: لا ألعن الكافر، ولا ألعن إبليس، وإن الله تعالى لا يقول لأحدٍ يوم القيامة: لم لم تلعن؟ وإنما يقول: لمَ لَعَنْت؟

واعلم أنّ هذا خلاف نصّ الكتاب، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

وقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[2].

وقال في إبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[3].

وقال: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا﴾[4].

---

(١) أخرجه الأحمدي الميانجي في مواقف الشيعة: ١/ ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٩. (٣) سورة صَ، الآية: ٧٨.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٦١.

وفي الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع.

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرّؤ ممّن يجب التبرّؤ منه! ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾[١]! وإنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله، فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحقّ بها اللعن والبراءة، فلا ضَير على مَنْ يلعنه. ويبرأ منه، وإن لم يكن قد قارف كبيرة لم يَجُز لعنُه، ولا البراءة منه.

وممّا يدلّ على أنّ مَنْ عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنُه، بل يجب في وقت، قول الله تعالى في قصّة اللِّعان: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾[٢].

وقال تعالى في القاذف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

فهاتان الآيتان في المكلّفين من أهل القبلة، والآيات قبلهما في الكافرين والمنافقين، ولهذا قنَت أمير المؤمنين عليه السلام على معاوية وجماعة من أصحابه، ولعنهم في أدبار الصلوات.

فإن قلت: فما صُورة السبّ الذي نَهَى أمير المؤمنين عليه السلام عنه؟

قلت: كانوا يشتمُونهم بالآباء والأمهات، ومنهم مَنْ يطعن في نسب قوم منهم، ومنهم مَنْ يذكرهم باللؤم، ومنهم مَنْ يعيّرهم بالجبن والبخل وبأنواع الأهاجي التي يتهاجَى بها الشعراء، وأساليبها معلومة، فنهاهم عليه السلام عن ذلك، وقال: إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكن الأصوب أن تصِفُوا لهم أعمالهم، وتذكروا حالهم، أي أن تقولوا: إنّهم فسّاق، وإنهم أهل ضلال وباطل.

ثم قال: اجعلوا عِوَض سبهم أن تقولوا: اللّهمّ احقنْ دماءَنا ودماءهم!

حقنت الدم أحقُنه، بالضمّ: منعت أن يسْفَك، أي ألهِمهم الإنابة إلى الحقّ والعدول عن الباطل، فإنّ ذلك إذا تمّ حقنت داء الفريقين.

فإن قلت: كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله؟ أليس من أصولكم أنّ الله تعالى لا يضطر المكلّف إلى اعتقاد الحق، وإنما يكله إلى نظره؟!

قلت: الأمر وإن كان كذلك، إلاّ أن المكلفين قد تُعبِّدُوا بأن يدعوا الله تعالى بذلك، لأنّ في دعائهم إياه بذلك لطفاً لهم ومصالح في أديانهم، كالدعاء بزيادة الرزق وتأخير الأجل.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(٢) سورة النور، الآيتان: ٦، ٧.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٣.

قوله: «وأصلح ذات بيننا وبينهم»، يعني أحوالنا وأحوالهم. ولمّا كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها: «ذات البين»، كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة للصدور قيل: «ذات الصدور»، وكذلك قولهم: اسقني ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابساً له، ويقولون للمتبرّز قد وضع ذا بطنه، وللحبلى تضع: ألقت ذا بطنها.

وارعوى عن الغيّ: رجع وكفّ. لهِج به بالكسر، يلهَج: أغرى به وثابر عليه.

٢٠٠ - ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صِفِّين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرّع إلى الحرب

الأصل: **ٱمْلِكُوا عَنِّي هَذَا ٱلْغُلاَمَ لاَ يَهُدَّنِي، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ بِهَذَيْنِ - يَعْنِي ٱلْحَسَنَ وَالحسَيْنَ عليهما السلام - عَلَى المَوْتِ لِئَلاَّ يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله.**

قَالَ الرَّضِيُّ أَبُو الحَسَن رَحِمَهُ ٱللهُ: قَوْله عليه السَّلاَمُ: «ٱمْلِكُوا عَنِّي هَذَا ٱلْغُلاَمَ» من أَعْلَى ٱلْكَلاَمِ وَأَفْصَحه.

الشرح: **الألف في «ٱمْلِكُوا» ألف وصل، لأن الماضي ثلاثيّ، من ملكت الفرس والعبد والدار، أملِك بالكسر، أي احجُروا عليه كما يحَجُر المالك على مملوكه.**

وعن، متعلّقة بمحذوف تقديره: استولوا عليه وأبعدوه عنّي. ولما كان الملك سبَب الحجْر على المملوك عبّر بالسبب عن المسبّب، كما عبّر بالنكاح عن العقد، وهو في الحقيقة اسم الوطء، لما كان العَقْدُ طريقاً إلى الوطء، وسبباً له.

ووجه علوّ هذا الكلام وفصاحته أنّه لما كان في: «املكوا» معنى البعد، أعقبه بعن، وذلك أنّهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ وقد أبعدوه عنه، ألا ترى أنّك إذا حجرت على زيد دون عمرو، فقد باعدت زيداً عن عمرو! فلذلك قال: املكوا عنّي هذا الغلام، واستفصح الشارحون قول أبي الطَّيب:

إذا كان شَمُّ الرَّوْحِ أدْنَى إليكمُ ... فلا برحتْنِي رَوْضَةٌ وقَبُول

قالوا: ولمّا كان في «فلا برحتني» معنى «فارقتني» عدّى اللفظة، وإن كانت لازمة، نظراً إلى المعنى.

قوله: «لا يَهدّني» أي لئلا يهدّني، فحذف كما حذف طَرَفة في قوله:

ألا أيُّهذا الزّاجري أحضرَ الوَغَى

أي: لأن أحضر. وأنفس: أبخل، نفِسْت عليه بكذا، بالكسر.

فإن قلت: أيجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما: أبناء رسول الله وولد رسول الله، وذريّة رسول الله، ونسل رسول الله؟

قلت: نعم، لأن الله تعالى سمّاهم «أبناءه» في قوله تعالى: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾[(١)]، وإنما عَنَى الحسن والحسين، ولو أوصى لولد فلان بمالٍ دخل فيه أولاد البنات، وسمّى الله تعالى عيسى ذريّة إبراهيم في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾[(٢)]، ولم يختلف أهل اللغة في أنّ وَلَدَ البنات من نسل الرجل.

فإن قلت: فما تصنع بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[(٣)]؟ قلت: أسألك عن أبوّته لإبراهيم ابن مارية، فكَمَا تجيب به عن ذلك، فهو جوابي عن الحسن والحسين عليهما السلام.

والجواب الشّامل للجميع أنه عَنَى زيدَ بن حارثة، لأنّ العرب كانت تقول: «زيد بن محمد» على عادتهم في تبنّي العبيد، فأبطل الله تعالى ذلك، ونهى عن سنّة الجاهلية، وقال: إنّ محمداً عليه السلام ليس أباً لواحدٍ من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتزى إليه بالنبوّة، وذلك لا ينفي كونه أباً لأطفال، لم تطلق عليهم لفظة الرجال، كإبراهيم وحسن وحسين عليهم السلام.

فإن قلت: أتقول إنّ ابنَ البنتِ ابْنٌ على الحقيقة الأصليّة أم على سبيل المجاز؟

قلت: لذاهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصليّة، لأنّ أصل الإطلاق الحقيقة، وقد يكون اللفظ مشترَكاً بين مفهومين وهو في أحدهما أشهر، ولا يلزم من كونه أشهر في أحدهما ألاّ يكون حقيقة في الآخر.

ولذاهبٍ أن يذهب إلى أنّه حقيقة عُرْفية، وهي التي كثر استعمالها، وهي في الأكثر مجاز، حتى صارت حقيقة في العرف، كالراوية للمزَادة، والسماء للمطر.

ولذاهب أن يذهب إلى كونه مجازاً قد استعمله الشارع، فجاز إطلاقه في كلّ حال، واستعماله كسائر المجازات المستعملة.

ومما يدلّ على اختصاص ولد فاطمة دون بني هاشم كافّة بالنبيّ عليه السلام، أنّه ما كان يحلّ عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريتهما، وإن بعدُن وطال الزمان، ويحلّ له نكاح بنات غيرهم من بني هاشم من الطالبيِّين وغيرهم، وهذا يدلّ على مزيد الأقربيّة، وهي كونهم أولاده، لأنه ليس هناك من القُرْبى غير هذا الوجه، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أخته، ولا هناك وجه يقتضي حرمَتهم عليه إلا كونه والداً لهم، وكونهم أولاداً له، فإن قلت قد قال الشاعر:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.
(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٤، ٨٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

بَنُونَا بنُو أبنائِنَا وبناتُنا بنوهُنَّ أبناء الرّجال الأباعد

وقال حكيم العرب أكثم بن صيفيّ في البنات يذمّهن: إنّهن يلدن الأعداء، ويورّثن البُعداء.

قلت: إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر، وليس في قول أكثم ما يدلّ على نفي بنوّتهم، وإنما ذكر أنهن يلدْن الأعداء، وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدواً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[1]، ولا ينفي كونه عدوًّا كونه ابناً، قيل لمحمد بن الحنفيّة عليه السلام: لِمَ يغرّر بك أبوك في الحرب، ولِمَ لا يغرر بالحسن والحسين؟ فقال: لأنهما عيناه، وأنا يمينه، فهو يذبّ عن عينيْه بيمينه[2].

٢٠١ - ومن كلام له عليه السلام قاله لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة

الأصل: **أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ، حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ، وَقَدْ وَاللهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ.**

لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيًّا. وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ!

الشرح: نهكتْكم، بكسر الهاء: أدنفتكم[3] وأذابتكم، ويجوز فتح الهاء، وقد نهك الرجل أي دنف وضَنِيَ، فهو منهوك. وعليه نَهْكة المرض، أي أثرة الحرب، مؤنثة.

وقد أخذتْ منكم وتركتْ، أي لم تستأصلكم، بل فيكم بعدُ بقيّة، وهي لعدوّكم أنهك، لأنّ القتل في أهل الشام كان أشدّ استحراراً، والوهَن فيهم أظهر، ولولا فساد أهل العراق برفْعِ المصاحف، لاستؤصل الشام، وخلص الأشتر إلى معاوية، فأخذه بعنقه، ولم يكن قد بقيَ من قوّة الشام إلا كحركة ذَنَب الوزغة[4] عند قتلها، يضطرب يميناً وشمالاً، ولكن الأمورَ السماويّة لا تغالب.

فأما قوله: «كنت أمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً»، فقد قدّمنا شرح حالهم من قبل،

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٢/ ٩٩.

(٣) أدنف: أثقل. لسان العرب، مادة (دنف).

(٤) الوزغة: سام أبرص، سميت بها لخفتها وسرعة حركتها. القاموس المحيط، مادة (وزغ).

وأنّ أهل العراق لمّا رفع عمرو بن العاص ومَنْ معه المصاحف على وجه المكيدة حين أحسّ بالعطب وعلوّ كلمة أهلِ الحقّ، ألزموا أمير المؤمنين عليه السلام بوضع أوزار الحرب، وكفّ الأيدي عن القتال، وكانوا في ذلك على أقسام:

فمنهم مَنْ دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف، وغلب على ظنّه أنّ أهل الشام لم يفعلوا ذلك خُدعة وحيلة، بل حقّاً ودعاء إلى الدين وموجب الكتاب، فرأى أنّ الاستسلام للحجّة أولى من الإصرار عَلَى الحرب.

ومنهم مَنْ كان قد ملّ الحرب، وآثر السِّلْم، فلمّا رأى شبهةً ما يسوغُ التعلّق بها في رفض المحاربة وحب العافية أخلد إليهم.

ومنهم مَنْ كان يُبْغِض علياً عليه السلام بباطنه، ويطيعه بظاهره، كما يطيع كثير من النّاس السلطان في الظاهر ويبغضه بقلبه، فلمّا وجدوا طريقاً إلى خذلانه وترك نصرته، أسرعوا نحوها، فاجتمع جمهور عسكره عليه، وطالبوه بالكفّ وترك القتال، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة، وقال لهم: إنها حيلة وخديعة، وإنّي أعرَفُ بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا دين، قد صحبتهم وعرفتهم صغيراً وكبيراً، فعرفت منهم الإعراض عن الدّين، والركون إلى الدنيا، فلا تُراعُوا برفع المصاحف، وصمّموا على الحرب، وقد ملكتموهم، فلم يبق منهم إلا حشاشة ضعفة، وذَماء قليل. فأبوا عليه، وألحّوا وأصرُّوا على القعود والخذلان، وأمروه بالإنفاذ إلى المحاربين من أصحابه، وعليهم الأشتر أن يأمَرهم بالرجوع، وتهدّدوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية. فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب، فأبى عليه فقال: كيف أرجع وقد لاحت أمارات الظفر! فقولوا له: «ليمهلني ساعة واحدة»، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت. فلمّا عاد إليه الرسول بذلك، غضبوا ونفروا وشغبوا، وقالوا: أنفذت إلى الأشتر سرًّا وباطناً، تأمره بالتصميم، وتنهاه عن الكفّ، وإن لم تعِدْهُ الساعة، وإلاّ قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرّسل إلى الأشتر فقالوا له: أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سُلَّ عليه خمسون ألف سيف! فقال: ما الخبر؟ قال: إنّ الجيش بأسره قد أحدق به، وهو قاعد بينهم على الأرض، تحته نِطَع، وهو مُطرِق، والبارقة تلمع على رأسه، يقولون: لئن لم تُعِد الأشتر قتلناك! قال: ويحكم! فما سبب ذلك؟ قالوا: رفع المصاحف، قال: والله لقد ظننت حين رأيتها رُفعت أنّها ستوقع فرقةً وفتنة.

ثم كرّ راجعاً على عَقِبيه، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر، قد ردّده أصحابه بين أمرَيْن: إما أن يُسلِموه إلى معاوية، أو يقتلوه، ولا ناصر له منهم إلاّ ولداه وابن عمّه ونفر قليل لا يبلغون عشرة، فلما رآهم الأشتر سبّهم وشتمهم، وقال: ويحكم! أبعد الظَّفَر والنّصر صبّ عليكم الخذلان والفرقة! يا ضعاف الأحلام! يا أشباه النساء! يا سفهاء العقول! فشتموه وسبّوه، وقهروه.

وقالوا: المصاحف المصاحف! والرّجوع إليها، لا نرى غير ذلك! فأجاب أميرُ المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحظور الأضعف، فلذلك قال: «كنت أميراً فأصبحت مأموراً، وكنت ناهياً فصرت منهيًّا». وقد سبق من شرح حالِ التحكيم وما جرى فيه ما يغني عن إعادته.

٢٠٢ - ومن كلام له عليه السلام بالبصرة، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي، وهو من أصحابه يعوده، فلما رأى سعة داره قال

الأصل: مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ في الدُّنْيَا، أما أَنْتَ إِلَيْهَا في الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ! وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ: تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا ٱلْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ!

فَقَالَ لَهُ ٱلْعَلاَءُ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عاصمَ بنَ زِيَادٍ.

قال: وما له؟

قال: لَبِسَ ٱلْعبَاءَ، وَتخلّى مِنَ الدنْيَا.

قال: عَلَيَّ بِهِ. فلما جاءَ، قال: يَا عُدَيّ نَفْسِهِ! لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكَ ٱلْخَبِيثُ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ! أَتَرَى ٱللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى ٱللهِ مِنْ ذَلِكَ!

قال: يَا أمير المؤمنين، هَذَا أَنْتَ في خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ، وَجُشُوبَةِ مأكَلِكَ!

قَال: وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كأَنْتَ، إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ ٱلْحَقِّ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ، كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ!

الشرح: كنت ها هنا زائدة، مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[١].

وقوله: «وبلى إن شئت بلغتَ بها الآخرة»، لفظ فصيح، كأنه استدرك، وقال: وبلى على

(١) سورة مريم، الآية: (٢٩).

أنك قد تحتاج إليها في الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخرة. بأن تَقرِيَ فيها الضيف، والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع، وقد يجمع فيقال: ضيوف وأضياف. والرّحِم: القرابة.

وتطلِع منها الحقوق مطالعها: توقعها في مظانّ استحقاقها.

والعَباء جمع عَباءة، وهي الكِساء وقد تُليّن، كما قالوا: عَظاءة وعَظاية[١]، وصلاءة وصلاية.

وتقول: عليّ بفلان، أي أحضِره، والأصل أعجلْ به عليّ، فحذف فعلَ الأمر، ودلّ الباقي عليه.

ويا عُدَيّ نفسه، تصغير «عدوّ»، وقد يمكن أن يراد به التّحقير المحض ها هنا، ويمكن أن يراد به الاستعظام لعداوته لها، ويمكن أن يخرج مخرج التحنّن والشّفقة، كَقولك: يا بنيّ.

واستهام بك الخبيث، يعني الشيطان، أي جعلك هائماً ضالاً، والباء زائدة.

فإن قيل: ما معنى قوله عليه السلام: «أنت أهون على الله من ذلك»؟

قلت: لأنّ في المشاهد قد يحلّ الواحد منا لصاحبه فعلاً مخصوصاً، محاباة ومراقبة له، وهو يكره أن يفعله، والبشر أهونُ على الله تعالى من أن يحِلّ لهم أمراً مجاملة واستصلاحاً للحال معهم، وهو يكره منهم فعله.

وقوله: «هذا أنت!»، أي فما بالنا نراك خشنَ الملبس! والتقدير: «فها أنت تفعل كذا، فكيف تنهى عنه!».

وطعام جَشِب، أي غليظ، وكذلك مجشوب، وقيل: إنّه الذي لا أُدْمَ معه.

قوله عليه السلام: «أن يقدّروا أنفسهم بضَعفة الناس»، أي يشبّهوا ويمثّلوا.

وتبيّغ الدم بصاحبه، وتبوّغ به، أي هاج به، وفي الحديث: «عليكم بالحجامة لا يتبيَّغ بأحدكم الدم فيقتله»[٢]، وقيل: أصل «يتبيغ» يتبغّى، فقلب، مثل جَذَب وجبَذ، أي يجب على الإمام العادل أنْ يشبّه نفسَه في لباسه وطعامه بضَعَفة الناس - جمع ضعيف - لكيلا يهلِك الفُقراء من الناس، فإنّهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطْعم، كان أدعى لهم إلى سُلْوان[٣] لذّات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس.

---

(١) العظاية: دويبة كسام أبرص، والعظاءة لغة فيها. لسان العرب، مادة (عظي).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣٠٦)، بلفظ: «عليكم بالحجامة في جوزة القمحدوة فإنه دواء من اثنين وسبعين داء وخمسة أدواء: من الجنون، والجذام، والبرص، ووجع الأضراس».

(٣) السلوان: ماءٌ كانوا يزعمون أن العاشق إذا شربه، سلا عن حبه، أو هو: أن يؤخذ ترابُ قبر ميت فيجعل في ماء فيموت حبه. القاموس المحيط، مادة (سلو)، والمعجم الوسيط، مادة (سلو).

اخبار بعض العارفين والزهاد

وروي أنّ قوماً من المتصوفة دخلُوا خراسان على عليّ بن موسى الرضا، فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين فكّر فيما ولآه الله من الأمور، فرآكم - أهلَ البيت - أولَى النّاس أن تؤمُّوا النّاس، ونظر فيك من أهل البيت، فرآك أوْلَى الناس بالناس، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشِب، ويلبس الخشن، ويركب الحمار، ويعود المريض. فقال لهم: إنّ يوسف كان نبيًّا، يلبس أقبية الديباج المزرّرة بالذهب، ويجلس على متّكآت آل فرعون، ويحكم، إنّما يراد من الإمام قِسْطه وعدْله، إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز. إنّ الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعماً، ثم قرأ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[1] الآية.

وهذا القول مخالف للقانون الذي أشار أمير المؤمنين إليه، وللفلاسفة في هذا الباب كلام لا بأس به، وقد أشار إليه أبو عليّ بن سينا في كتاب «الإشارات»[2] وعليه يتخرّج قولا أمير المؤمنين وعليّ بن موسى الرضا عليه السلام. قال أبو عليّ في مقامات العارفين: «العارفون قد يختلفون في الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر، على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبَر، فربّما استوى عند العارف القشَف والترف، بل ربما آثر القَشَف، وكذلك ربما سوّى عنده التَّفْل والعِطْر، بل ربما آثر التّفل، وذلك عند ما يكون الهاجس بباله، استحقار ما عدا الحقّ، وربما صغا إلى الزينة، وأحبّ من كلّ شيء عقيلته، وكره الخِداج والسَّقَط، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة، فهو يرتاد إليها في كلّ شيء، لأنه مزّية خطوة من العناية الأولى، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه، وقد يختلف هذا في عارفيْن، وقد يختلف في عارف بحسب وقتيْن.

واعلم أنّ الذي رويتُه عن الشيوخ، ورأيته بخطّ عبد الله بن أحمد بن الخشَاب رحمه الله، أنّ الربيع بن زياد الحارثيّ، أصابته نشّابة في جبينه، فكانت تنتقض عليه في كلّ عام، فأتاه عليّ عليه السلام عائداً، فقال: كيف تجدك أبا عبد الرحمن؟ قال: أجِدُني يا أميرَ المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلا بذهاب بصري لتمنيت ذهابه، قال: وما قيمة بصرك عندك! قال: لو كانت لي الدنيا لفديتُه بها، قال: لا جرم! لَيعطينّك الله على قدر ذلك. إنّ الله تعالى يُعطي على قدر الألم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٢) واسمه كتاب الإشارات والتنبيهات من المنطق والحكمة وهو صغير في حجمه لكنه كثير العلم مستصعب على الفهم منطو على كلام أولي الألباب، مبين للنكت العجيبة والفوائد الغريبة التي خلت عنها أكثر المبسوطات ا هـ. «كشف الظنون» (١/ ٩٤).

والمصيبة، وعنده تضعيف كثير. قال الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصمَ بن زياد أخي؟ قال: ما له، قال: لبس العَباء، وترك المُلاء، وغمّ أهلَه، وحَزَن ولده.

فقال عليّ: ادْعُوا لي عاصماً، فلما أتاه عبَس في وجهه، وقال: ويحك يا عاصم! أترى الله أباح لك اللّذات، وهو يكره ما أخذت منها! لأنتَ أهونُ على الله من ذلك. أوَ ما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[١]، ثم يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[٢] وقال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[٣]، أما والله إنّ ابتذال نعم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال، وقد سمعتم الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٤]، وقوله: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[٥]، إنّ الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٦]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[٧] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه: «ما لي أراكِ شَعْثاء مرهاء سلْتاء!»[٨].

قال عاصم: فلمَ اقتصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجشِب؟ قال: إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره[٩].

فما قام عليّ عليه السلام حتى نزع عاصم العَباء، ولبس مُلاءة.

والرّبيع بن زياد هو الذي افتتح بعضَ خُراسان، وفيه قال عمر: دُلّوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا كان في القوم ليس بأمير فكأنّه الأمير بعينه! وكان خيّراً متواضعاً، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحّش له الربيع، وتقشّف وأكل معه الجشِب من الطعام، فأقرّه على عمله، وصرف الباقين، وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم.

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان: إنّ أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرك أن تحرز الصَّفْراء والبيضاء وتقسم الْخُرْثِيّ[١٠] وما أشبهه على أهل الحرب. فقال له الربيع: إنّي وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، ثم نادى في الناس: أن اغدُوا على غنائمكم، فأخذ الخمس وقسّم الباقي على المسلمين، ثم دعا الله أن يميته، فما جمع حتى مات.

وهو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ١٩.
(٢) سورة الرحمٰن، الآية: ٢٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٢.
(٤) سورة الضحى، الآية: ١١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.
(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.
(٨) لم أعثر عليه.
(٩) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٤٧٧.
(١٠) الخرثي: أردأ المتاع والغنائم. القاموس المحيط، مادة (خرش).

كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك بن أدد. وأما العلاء بن زياد الذي ذكره الرضيّ رحمه الله فلا أعرفه، لعلّ غيري يعرفه.

٢٠٣ - ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع وعما في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فقال عليه السلام

الأصل: إِنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامًّا وَخَاصًّا، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهَماً.

وَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم عَلَى عَهْدِهِ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(1). وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ:

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالإِسْلاَمِ، لاَ يَتَأَثَّمُ وَلاَ يَتَحَرَّجُ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَه، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم، رَآهُ وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ ٱللهُ عَنِ المُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلاَلَةِ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوْهُمُ ٱلأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ المُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلاَّ مَنْ عَصَمَ ٱللهُ. فَهَذَا أَحَدُ ٱلأَرْبَعَةِ.

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم، فَلَوْ عَلِمَ المُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ (١٠٧)، ومسلم باب: تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ (٣)، والترمذي في كتاب: الفتن عن رسول الله ﷺ باب: ما جاء في النهي عن سب الرياح (٢٢٥٧)، وأبو داود في كتاب: العلم، باب: في التشديد في الكذب على رسول الله ﷺ (٣٦٥١)، وابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب: التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ (٣٠)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجن باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٥٨٥).

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم شَيْئاً، يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، فَحَفِظَ المَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ المُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ.

وَآخَرُ رَابِعٌ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى ٱللهِ وَلاَ عَلَى رَسُوله، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ ٱللهِ، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ ٱللهِ صَلى ٱللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم، وَلَمْ يَهِمْ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى سَمْعِهِ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ، وَحَفِظَ المَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ، وَعَرَفَ ٱلْخَاصَّ وَٱلْعَامَّ، وَالمُحْكَمَ وَالمُتَشَابِهَ، فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ، وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله ٱلْكَلاَمُ، لَهُ وَجْهَان، فَكَلاَمٌ خَاصٌّ، وَكَلاَمٌ عَامٌّ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ مَا عَنَى ٱللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ، وَلاَ مَا عَنَى رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله، فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ، وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قَصَدَ بِهِ، وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رسول الله صلى الله عليه وآله مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ، وَيَسْتَفْهِمُهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ ٱلأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِىءُ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي مِنْ ذٰلِكَ شَيْءٌ إِلاَّ سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَحَفِظْتُه.

فَهَذِهِ وُجوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي ٱخْتِلاَفِهِمْ وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ.

الشرح: الكلام في تفسير الألفاظ الأصوليّة، وهي العامّ والخاصّ، والناسخ والمنسوخ، والصدق والكذب. والمحكَم والمتشابه، موكول إلى فنّ أصول الفقه، وقد ذكرناه فيما أمليناه من الكتب الأصولية، والإطالة بشرح ذلك في هذا الموضع مستهجَنة.

قوله عليه السلام : «وحفظاً ووهَماً» الهاء مفتوحة، وهي مصدر وهمتُ، بالكسر، أوهَم، أي غلطت وسهوت، وقد روي: «وَهْماً» بالتسكين، وهو مصدر وهَمت بالفتح أوهُم، إذا ذهب وهْمُك إلى شيء وأنت تريد غيره، والمعنى متقارب.

وقول النبيّ صلى الله عليه وآله : «فليتبوّأ مقعده من النار» كلامٌ صيغته الأمر، ومعناه الخبر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[1]، وتبوّأت المنزلَ: نزلته، وبوّأتُه منزلاً: أنزلته فيه.

والتأثّم: الكفّ عن موجب الإثم، والتحرّج مثله، وأصله الضّيق، كأنه يضيق على نفسه. ولَقِفَ عنه: تناول عنه. وجَنّب عنه: أخذ عنه جانباً.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧٥.

و«إنْ» في قوله: «حتى إنْ كانوا لَيحبّون» مخففة من الثقيلة، ولذلك جاءت اللام في الخبر.

والطاريء، بالهمز: الطالع عليهم، طَرَأ أي طلع، وقد روي: «عللُهم»، بالرفع عطفاً على «وجوه»، وروي بالجرّ عطفاً على «اختلافِهم».

النفاق لم يمت بموت الرسول عليه السلام

واعلم أن هذا التقسيم صحيح، وقد كان في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منافقون، وبقُوا بعده، وليس يمكن أن يقال: إنّ النّفاق مات بموته، والسبب في استتار حالهم بعدَه أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يزال يذكرهم بما ينزل عليه من القرآن، فإنّه مشحون بذكْرهم، ألا تَرَى أنّ أكثر ما نزل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين، فكان السبب في انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن، فلما انقطع الوحيُ بموتِه صلّى الله عليه وآله لم يبقَ من ينْعَي عليهم سقطاتِهم ويُوبّخهم على أعمالهم، ويأمر بالحذَر منهم، ويجاهرهم تارةً، ويجاملهم تارة، وصار المتولّي للأمر بعده يحمِلُ النّاس كلَّهم على كاهل المجاملة، ويعاملهم بالظاهر، وهو الواجب في حكم الشرع والسياسة الدنيويّة، بخلاف حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنّه كان تكليفه معهم غيرَ هذا التكليف، ألا ترى أنّه قيل له: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[1]! فهذا يدلّ على أنّه كان يعرفهم بأعيانهم، وإلاّ كان النهْيُ له عن الصّلاة عليهم تكليفَ ما لا يطاق، والوالي بعده لا يعرفهم بأعينهم، فليس مخاطباً بما خُوطب به صلّى الله عليه وآله في أمرهم، ولسكوت الخلفاء عنهم بعده خَمَل ذكرُهم، فكان قُصارَى أمرِ المنافق أن يُسِرَّ ما في قلبه، ويعاملَ المسلمين بظاهره، ويعاملونه بحسب ذلك. ثم فُتِحت عليهم البلاد، وكثرت الغنائم، فاشتغلوا بها عن الحركات الّتي كانوا يعتمدونها أيّام رَسولِ الله، وبعثَهم الخلفاءُ مع الأمراء إلى بلاد فارس والرّوم، فألهتْهم الدّنيا عن الأمور الّتِي كانت تُنْقَم منهم في حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومنهم مَن استقام اعتقاده، وخلصت نيَّته، لمّا رأوا الفتوح وإلقاءَ الدّنيا أفلاذَ كبدها من الأموال العظيمة، والكنوز الجليلة إليهم، فقالوا: لو لم يكن هذا الدّين حقًّا لما وصلْنا إلى ما وصلنا إليه. وبالجملة لمّا تَركُوا تُركُوا، وحيث سُكِت عنهم سكَتوا عن الإسلام وأهله، إلاّ في دسيسة خفيّة يعملونها، نحو الكذب، الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّه خالط الحديث كذبٌ كثيرٌ، صدَر عن قومٍ غيرِ صحيحِي العقيدة، قصدوا به الإضلالَ وتخبيط القلوب والعقائد، وقَصَدَ به بعضُهم التنويه بذكر قوم كان لهم في التنويه بذكرِهم غرض دنيويّ. وقد قيل: إنَّه افتُعِل في أيّام معاوية خاصّة حديث كثير على هذا الوجه، ولم يسكت المحدّثون الراسخون في علم الحديث عن هذا، بل ذكروا كثيراً من هذه الأحاديث الموضوعة، وبيَّنوا وضعها، وأنّ رواتها غير موثوق بهم، إلاّ أن

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٤.

المحدّثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة، ولا يتجاسرون في الطعن على أحدٍ من الصحابة، لأنّ عليه لفظ «الصحبة»، على أنهم قد طعنوا في قومٍ لهم صُحْبة كبُسْر بن أرطاة وغيره.

فإن قلت: مَنْ هم أئمة الضلالة، الّذين يتقرّب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله، وصحبوه للزور والبهتان؟ وهل هذا إلا تصريح بما تذكره الإمامية، وتعتقده!

قلت: ليس الأمر كما ظننت وظنّوا، وإنما يعني معاوية وعمرو بن العاص، ومَن شايعهما على الضّلال، كالخبر الذي رواه مَنْ رَوَاه في حقّ معاوية: «اللهمّ قِهِ العذاب والحساب، وعلّمه الكتاب»، وكرواية عمرو بن العاص تقرُّباً إلى قلب معاوية: «إنْ آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنّما وليّي الله وصالح المؤمنين» وكرواية قوم في أيّام معاوية أخباراً كثيرة من فضائل عثمان، تقرُّباً إلى معاوية بها، ولسنا نجحَدُ فضلَ عُثْمان وسابقته، ولكنّا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه موضوع، كخبر عمرو بن مرّة فيه وهو مشهور، وعمرو بن مرة ممن له صحبة، وهو شاميّ.

وليس يجب من قولنا: إنّ بعضَ الأخبار الواردة في حقّ شخص فاضل مفتعَلة أن تكون قادحة في فضل ذلك الفاضل، فإنّا مع اعتقادنا أنّ عليًّا أفضلُ الناس، نعتقد أنّ بعضَ الأخبار الواردة في فضائله مفتعل ومختلق.

وقد رُوِي أنّ أبا جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال لبعض أصحابه: يا فلان، ما لقينا من ظلم قريش إيانا، وتظاهرهم علينا، وما لقي شيعتنا ومحبونا من الناس! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِضَ وقد أخبر أنّا أوْلى الناس بالناس، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معْدِنه، واحتجّت على الأنصار بحقّنا وحجّتنا. ثم تداولتْها قريش، واحدٌ بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنكثت بيعَتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحبُ الأمر في صعود كؤود، حتى قتِل، فبويع الحسن ابنُه وعُوهد ثم غدِر به، وأسْلِم، ووثب عليه أهلُ العراق حتى طعن بخنجر في جَنْبه، ونهبت عسكره، وعولجت خلاخيل أمّهات أولاده، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهمْ قليلُ حقٌّ قليل. ثم بايع الحسينَ عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفاً، ثم غدرُوا به، وخرجوا عليه، وبيعته في أعناقهم وقتلوه، ثم لم نزل - أهلَ البيتِ - نُسْتَذَلّ ونُستضام، ونقصَى ونمتهَن، ونحرَم ونقتَل، ونَخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كلّ بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووْا عنّا ما لم نقله وما لم نفعلْه، ليبغّضونا إلى الناس، وكان عُظْمُ ذلك وكُبره زمنَ معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقُتِلَتْ شيعتُنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظِّنّة، وكان مَنْ يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجِن أو نهِبَ ماله، أو هُدِمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد، إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتلِ

الحسين عليه السلام، ثم جاء الحجاج فقتلَهم كلّ قِتْلة، وأخذهم بكلّ ظِنّة وتهمة، حتى أنّ الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحبُّ إليه من أن يقال: شيعة عليّ، وحتى صار الرّجل الذي يذكر بالخير - ولعلّه يكون ورعاً صدوقاً - يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل بعض من قد سَلَف من الولاة، ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولاقعت وهو يحسب أنّها حقٌّ لكثرة مَنْ قد رَوَاها ممّن لم يعرف بكذب ولا بقلّة ورع[1].

وروَى أبو الحسن عليّ بن محمد بن أبي سيف المدائنيّ في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدةً إلى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمّة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته[2]، فقامت الخطباء في كلّ كُورة، وعلى كلِّ منْبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدَّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة، لكثرة مَنْ بها من شيعة عليّ عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد ابن سُمَيّة، وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبع الشّيعة هو بهمْ عارف، لأنّه كان منهم أيّام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حَجَر وَمَدَر، وأخافهم، وقطع الأيديَ والأرجل، وسَمَل العيون، وصَلَبهم على جُذوع النّخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاويةُ إلى عُمّاله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة. وكتب إليهم: أن انظروا مَن قِبَلكم من شِيعَةِ عثمان ومحبّيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائلَه ومناقبه، فأدنُوا مجالسَهم وقرّبُوهم وأكرمُوهم، واكتبُوا لي بكلّ ما يروِي كلّ رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثُه إليهم معاوية من الصّلات والكِساء والحِباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كلّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من النّاس عاملاً من عمال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلاّ كتب اسمه وقربه وشفّعه. فلبثوا بذلك حيناً.

ثم كتب إلى عمّاله أنّ الحديث في عثمان قد كَثُر وفَشَا في كل مصْر وفي كلّ وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعُوا الناس إلى الرواية في فضائل الصّحابة والخلفاءِ الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلاّ وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة، فإن هذا أحبّ إليّ وأقرُّ لعيني، وأدحضُ لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدُّ إليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقِيَ إلى معلّمي

---

(١) أخرجه الأحمد في الميانجي في مكاتيب الرسول: ١/ ٦٤٩.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ١٩١.

الكتاتيب، فعلّموا صبيانَهم وغلمانَهم من ذلك الكثير الواسع حتى رَووه، وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمَهم وحشمَهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدَان: انظروا مَنْ قامت عليه البيّنة أنه يحبّ علياً وأهل بيته، فامحُوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفَع ذلك بنسخة أخرى: مَن اتهّمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلُوا به، واهدِمُوا داره. فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتى أن الرجلَ من شيعة علي عليه السلام لَيأتيه مَنْ يثق به، فيدخل بيتَه، فيلقي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتُمَنّ عليه، فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظِمَ الناس في ذلك بليّةً القراء المراؤون، والمستضعَفون، الّذِين يُظهرون الخشوع والنُّسُك فيفتعلون الأحاديث ليحظوْا بذلك عند ولاتهم، ويقرّبوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضيّاع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلُّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورَووها، وهم يظنّون أنها حق، ولو علمُوا أنّها باطلة لما رَووها، ولا تدينُّوا بها.

فلم يزل الأمر كذلك حَتّى مات الحسنُ بن عليّ عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحدٌ من هذا القبيل إلا وهو خائف على دَمه، أو طريد في الأرض.

ثم تفاقم الأمر بعد قَتْلِ الحُسين عليه السلام، ووَلِّيَ عبد الملك بن مروان، فاشتدّ على الشّيعة، ووَلِّيَ عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهل النّسُك والصلاح والدّين ببغض علي وموالاة أعدائه، وموالاة مَنْ يدّعي من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلِهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغضّ من عليّ عليه السلام وعيبه، والطعن فيه، والشنآن له، حتى أن إنساناً وقف للحجاج - ويقال إنّه جدّ الأصمعيّ عبد الملك بن قُريب - فصاح به: أيُّها الأمير إن أهلِي عقُّوني فسمَّوْني عليًا، وإنّي فقير بائس، وأنا إلى صلَة الأمير محتاج. فتضاحك له الحجاج، وقال: لِلُطْفِ ما توسَّلت به قد ولّيتك موضع كذا.

وقد روى ابنُ عرفة المعروف بِنفطويه - وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افْتُعلت في أيام بني أمية، تقرُّباً إليهم بما يظّنون أنهم يُرغمون به أنوف بني هاشم.

قلت: ولا يلزم من هذا أن يكون عليّ عليه السلام يسوءه أن يذكر الصحابة والمتقدمون عليه بالخير والفضل، إلا أن معاوية وبني أمية كانوا يبنُون الأمر من هذا على ما يظّنونه في عليّ عليه السلام من أنه عدوّ مَنْ تقدم عليه، ولم يكن الأمر في الحقيقة كما يظنُّونه، ولكنه كان يرى أنه أفضلُ منهم، وأنّهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيقٍ منه لهم، ولا براءة منهم.

فأما قوله عليه السلام: «ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوهم فيه»، فقد وقع ذلك. وقال أصحابنا في الخبر الّذي رواه عبد الله بن عمر: «إن الميّت ليُعذّب ببكاء أهله عليه»[(١)]: إن ابن عباس لمّا رُوي له هذا الخبر، قال: ذَهَل ابن عمر، إنّما مَرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبر يهوديّ، فقال: «إن أهله ليبكون عليه، وإنه ليعذّب»[(٢)].

وقالوا أيضاً: إن عائشة أنكرت ذلك، وقالت: ذَهَل أبو عبد الرحمن، كما ذهل في خبر قَليب بدر، إنّما قال عليه السلام: «إنهم ليبكون عليه، وإنّه ليعذب بجرمه»[(٣)].

قالوا: وموضع غلطه في خبر القَلِيب أنه روي أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقف على قَلِيب بدر، فقال: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا»؟ ثم قال: «إنهم يسمعون ما أقول لهم»، فأنكرت عائشة ذلك، وقالت: إنما قال: «إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق»[(٤)]، واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(٥)].

فأما الرَّجل الثالث، وهو الذي يسمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ، فقد وقع كثيراً، وكتب الحديث والفقه مشحونة بذلك، كالذين أباحوا لحوم الحمرِ الأهلية لخبر رووه في ذلك، ولم يرووا الخبر الناسخ. وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون في العلم.

وأما قوله عليه السلام: «وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكلام له وجهان»، فهذا داخلٌ في القسم الثاني وغير خارج عنه، ولكنّه كالنّوع من الجنس، لأنّ الوهم والغلط جنس تحته أنواع.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» (١٢٨٨)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يعذب الميت ببكاء أهله عليه» (٩٢٨)، والترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في الرخصة في البكاء على الميت» (١٠٠٦)، والنسائي في كتاب: الجنائز، باب: النياحة على الميت (١٥٨٨)، وأبو داود في كتاب الجنائز، باب: في النوح (٣١٢٩).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الجنائز، باب: النياحة على الميت (١٨٥٥)، وأبو داود في كتاب: الجنائز، باب: في النوح (٣١٢٩)، وأحمد في كتاب: سند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب (٤٨٥٠).

(٣) أخرجه أحمد في كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة (٢٣٨٧١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٩٨١)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٣٢)، والنسائي في كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٧٦)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمر (٤٨٤٩).

(٥) سورة النمل، الآية: ٨٠.

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصاً من دون الصّحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلُو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يطّلع أحدٌ من النّاس على ما يدور بينهما، وكان كثيرَ السؤال للنبيّ صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلّى الله عليه وآله، وإذا لم يسأل ابتدأه النبيُّ صلى الله عليه وآله، بالتعليم والتثقيف ولم يكن أحدٌ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله كذلك، بل كانوا أقساماً: فمنهم مَنْ يهابه أن يسأله، وهم الذين يحبّون أن يجيء الأعرابيّ أو الطارىء فيسأله وهم يسمعون، ومنهم مَنْ كان بليداً بعيد الفهم قليل الهمّة في النظر والبحث، ومنهم مَنْ كانَ مشغولاً عن طلب العلم وفهم المعاني، إمّا بعبادة أو دنيا، ومنهم المقلّد يرى أنّ فرضه السكوت وترك السؤال، ومنهم المبغض الشّانىء الذي ليس للّدين عنده من الموقع ما يضيّع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه، وانضاف إلى الأمر الخاصّ بعليّ عليه السلام ذكاؤه وفطنته، وطهارة طينَته، وإشراق نفسِه وضوءها، وإذا كان المحلّ قابلاً متهيّئاً، كان الفاعل المؤثّر موجوداً، والموانع مرتفعة، حصل الأثر على أتمّ ما يمكن، فلذلك كان عليٌّ عليه السلام - كما قال الحسن البصريّ - ربّانيّ هذه الأمّة وذا فضلها، ولذا تسميّه الفلاسفة: إمام الأئمة وحكيم العرب.

واعلم أنّ أصلَ الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشّيعة، فإنّهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديثَ مختلفة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم، نحو حديث «السطل» وحديث «الرّمانة» وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين، وتعرف كما زعموا بـ«ذات العلَم»، وحديث غَسْل سلمان الفارسيّ، وطيّ الأرض، وحديث الجمجمة، ونحو ذلك. فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة، وضعت لصاحبها أحاديثَ في مقابلة هذه الأحاديث، نحو «لو كنت متّخذاً خليلاً»، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء، ونحو سدّ الأبواب، فإنّه كان لعليّ عليه السلام فقلبته البكْرية إلى أبي بكر، ونحو «ائتوني بدواة وبياض أكتب فيه لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان». ثم قال: «يأبَى الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر»، فإنهم وضعوه في مقابلة الحديث المرويّ عنه في مرضه: «ائتوني بدواةٍ وبياض أكتب لكم ما لا تضلّون بعده أبداً»، فاختلفوا عنده. وقال قوم منهم: لقد غلبه الوجع، حسْبنا كتاب الله ونحو حديث: «أنا راضٍ عنكَ فهل أنت عنّي راضٍ!»، ونحو ذلك. فلمّا رأت الشيعة ما قد وضعت البكْرية أوسعوا في وضع الأحاديث، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه فتله في عُنق خالد، وحديث اللّوح الذي زعموا أنه كان في غدائر الحنفيّة أم محمد، وحديث: «لا يفعلنّ خالد ما آمر به»، وحديث الصحيفة التي علّقت عام الفتح بالكعبة، وحديث الشيخ الذي صعد المنبر يوم بويع أبو بكر، فسبق النّاس إلى بيعته، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي نفاق قوم

من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم، وعليٌّ أدون الطبقات فيهم، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في عليّ وفي ولديه، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل، وتارة إلى ضعف السياسة، وتارة إلى حبّ الدنيا والحرص عليها. ولقد كان الفريقان في غُنْيَةٍ عمّا اكتسباه واجترحاه، ولقد كان في فضائل عليّ عليه السلام الثابتة الصحيحة، وفضائل أبي بكر المحقّقة المعلومة ما يغني عن تكلّف العصبيّة لهما، فإنّ العصبيّة لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساوىء والمقابح. ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبيّة، وأن يجرينَا على ما عوّدنا من حب الحقّ أين وجد وحيث كان، سخط ذلك من سخط، ورضي به من رضي، بمنّه ولطفه!

٢٠٤ – ومن خطبة له عليه السلام في عجيب صنعة الكون

الأصل: وَكَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ.

قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ. وَجَبَلَ جَلاَمِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا، وَأَطْوَادَهَا، فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَتَهَا، فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلاَلَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا! فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً، فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لاَ يَجْرِي، وَقَائِمٍ لاَ يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى!

الشرح: أراد أن يقول: «وكان من اقتداره» فقال: «وكان من اقتدار جبروته»، تعظيماً وتفخيماً، كما يقال للملك: أمرت الحضرةُ الشريفة بكذا.

والبحر الزاخر: الّذي قد امتد جدًّا وارتفع. والمتراكم: المجتمع بعضُه على بعض. والمتقاصف: الشديد الصوت، قصفَ الرّعد وغيره قصيفاً. واليَبَس، بالتحريك: المكان يكون رطباً ثم ييبس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾[١]، واليْبس بالسكون: اليابس خِلْقة، حطب يبْس، هكذا يقوله أهل اللغة وفيه كلام، لأنّ الحطب ليس يابساً خلْقة بل كان رطباً من قبل، فالأصوب أن يقال: لا تكون هذه اللفظة محركة إلاّ في المكان خاصّة.

وفطَر: خلق، والمضارع يفطُر بالضمّ، فَطْراً.

والأطباق: جمع طبَق، وهو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جماد، يقول: خلق منه أجساماً مجتمعة مرتتقة، ثم فتقها سبع سموات. وروي: «ثم فطر منه طِبَاقاً» أي أجساماً منفصلة في الحقيقة متّصلة في الصورة بعضها فوق بعض، وهي من ألفاظ القرآن المجيد.

والضمير في «منه» يرجعٌ إلى ماء البحر في أظهر النّظر، وقد يمكن أن يرجع إلى اليَبس.

واعلم أنه قد تكرّر في كلام أمير المؤمنين ما يماثل هذا القول ويناسبه، وهو مذهب كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء، منهم ثاليس الملطيّ، قالوا: أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبده، والسماء من بخاره، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا، قال سبحانه، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾[٢].

قال شيخُنا أبو عليّ وأبو القاسم رحمهما الله في تفسيريهما: هذه الآية دالّة على أنّ الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض، قالا: وكان الماء على الهواء، قالا: وهذا يدلّ أيضاً على أنّ الملائكة كانوا موجودين قبْل خلقِ السموات والأرض، لأنّ الحكيم سبحانه لا يجوز أن يقدّم خلْق الجماد على خلق المكلّفين، لأنه يكون عبثاً.

وقال علي بن عيسى الرمانيّ من مشايخنا: إنّه غيرُ ممتنع أن يخلق الجماد قبل الحيوان، إذا علم أنّ في إخبار المكلّفين بذلك لطفاً لهم، ولا يصحّ أن يخبرهم إلاّ وهو صادق فيما أخبر به، وإنّما يكون صادقاً إذا كان المخبر خبره على ما أخبر عنه، وفي ذلك حسن تقديم خلْق الجماد على خلق الحيوان. وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنه كان يذهب إلى أنّ الأرضَ موضوعة على ماء البحر، وأنّ البحر حامل لها بقدرة الله تعالى، وهو معنى قوله: «يحملها الأخضر المثعنجِر، والقمقام المسخّر»، وأنّ البحر الحامل لها قد كان جارياً فوقف تحتها، وأنّه تعالى خلَق الجبال في الأرض، فجعل أصولها راسخة في ماء البحر الحامل للأرض وأعاليها شامخة في الهواء، وأنّه سبحانه جعَل هذه الجبال عِمَاداً للأرض، وأوتاداً تمنعها من

(١) سورة طه، الآية: ٧٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.

الحركة والاضطراب، ولولاها لَمَاجَتْ واضطربت، وأنّ هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتحرّكه حركة عنيفة، وتموج السحب التي تغترف الماء منه لتمطر الأرض به، وهذا كلّه مطابق لما في الكتاب العزيز، والسنّة النبويّة، والنظر الحكميّ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾(١)، وهذا هو صريح قوله عليه السلام: «ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها»، وإلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾(٢)، وإلى ما ورد في الخبر من أنّ الأرض مدحوّة على الماء، وأنّ الرياح تسوق السحب إلى الماء نازلة، ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها، ثم تمطر.

وأما النّظر الحُكْمِيّ فمطابق لكلامه إذا تأمّله المتأمّل، وحمله على المحمل العقليّ، وذلك لأنّ الأرض هي آخر طبقات العناصر، وقبلها عنصر الماء، وهو محيط بالأرض كلّها إلاّ ما برز منها، وهو مقدار الربع من كُرَة الأرض، على ما ذكره علماء هذا الفنّ وبرهنوا عليه، فهذا تفسير قوله عليه السلام: «يَحْمِلُها الأخضر المثعنجِر».

وأما قوله: «ووقف الجاري منه لخشيته»، فلا يدلّ دلالة قاطعة على أنّه كان جارياً ووقف، ولكن ذلك كلامٌ خرج مخرج التعظيم والتبجيل، ومعناه أنّ الماء طبعه الجريان والسَّيلان، فهو جارٍ بالقوّة، وإن لم يكن جارياً بالفعل، وإنما وقف ولم يجرِ بالفعل بقدرة الله تعالى، المانعة له من السيلان، وليس قوله: «ورست أصولها في الماء» ممّا ينافي النظر العقليّ، لأنه لم يقل: «ورست أصولها في ماء البحر»، ولكنه قال: «في الماء»، ولا شبهة في أنّ أصولَ الجبال راسية في الماء المتخلخل بين أجزاء الأرض، فإنّ الأرض كلّها يتخلخل الماء بين أجزائها على طريق استحالة البخار من الصّورة الهوائيّة إلى الصورة المائيّة.

وليس ذكره للجبال وكونها مانعةً للأرض من الحركة بمُنافٍ أيضاً للنظر الحكميّ لأنّ الجبال في الحقيقة قد تمنع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة، فيكون ثقلها مانعاً من الهدّة والرجفة.

وليس قوله: «تكركره الرياح» منافياً للنظر الحكميّ أيضاً، لأنّ كرة الهواء محيطة بكرة، وقد تعصف الرياح في كرة الهواء للأسباب المذكورة في موضعها من هذا العلم، فيتموّج كثير من الكرة المائيّة لعصف الرياح.

وليس قوله عليه السلام: «وتمخضه الغمام الذّوارف» صريحاً في أنّ السحب تنزل في البحر، فتغترف منه، كما قد يعتقد في المشهور العامّي، نحو قول الشاعر:

كالبحرِ تُمْطِرُه السحاب وَمَا لَهَا ... فَضْلٌ عليه لأنّها من مائِهِ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣١.

بل يجوز أن تكون الغمام الذّوارف تمخضه وتحرّكه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها، فقد ثبت أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام موجّه، إن شئت فسرته بما يقوله أهلُ الظاهر، وإنْ شئت فسّرتَه بما يعتقده الحكماء.

فإن قلت: فكيف قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[1]، وهل كان الّذين كفروا رائين لذلك، حتى يقول لهم ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟

قلت: هذا في قوة قوله: «اعلموا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما»، كما يقول الإنسان لصاحبه: ألم تعلم أنّ الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه؟ أي اعلم ذلك إن كنت غير عالم، والرؤية هنا بمعنى العلم.

واعلم أنّه قد ذَهب قوم من قدماء الحكماء - ويقال: إنه مذهب سقراط[2] - إلى تفسير القيامة وجهنّم بما يبتني عليٍ وضع الأرض على الماء، فقالوا: الأرض موضوعة على الماء، والماء على الهواء، والهواء على النار، والنار في حشو الأفلاك، ولما كان العُنصران الخفيفان، - وهما الهواء والنار - يقتضيان صعودَ ما يحيطان به، والعنصران الثقيلان اللّذان في وسطهما، وهما الماء والأرض، يقتضيان النزول والهبوط، وقعت الممانعة والمدافعة، فلزم من ذلك وقوف الماء والأرض في الوسط.

قالوا: ثم إنّ النار لا تزال يتزايد تأثيرها في إسخان الماء، وينضاف إلى ذلك حرّ الشمس والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائيّ غايتهما في الغَليان والفَوَران، فيتصاعد بخارٌ عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة، وينضاف إلى ذلك حَرّ فَلَك الأثير الملاصق للأفلاك فتذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص، وتتهافت وتتساقط وتصير كالمهْل الشديد الحرارة. ونفوس البشر على قسمين: أحدهما ما تجوْهَر وصار مجرداً بطريق العلوم والمعارف وقطع العلائق الجسمانية حيث كان مدبّر للبدن، والآخر ما بقي على جسمانيته بطريق خلوّه من العلوم والمعارف، وانغماسه في اللّذات والشهوات الجسمانية، فأمّا الأول فإنه يلتحق بالنّفس الكلّية المجردة، ويخلص من دائرة هذا العالم بالكلّية. وأمّا الثاني فإنّه تنصبّ عليه تلك الأجسام الفلكية الذائبة، فيحترق بالكليّة، ويتعذب ويلقى آلاماً شديدة.

قالوا: هذا هو باطن ما وردت به الرّواية من العذاب عليها، وخراب العالم والأفلاك وانهدامها.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) هو فيلسوف يوناني من أثينا لم يترك أثراً مكتوباً لكن سجل حياته وتعاليمه تلميذه أفلاطون من محاوراته.

ثم نعود إلى شرح الألفاظ:

قوله عليه السلام: «فاستمسكت»، أي وقفت وثبتت.

والهاء في «حدّه» تعود إلى أمره، أي قامت على حدّ ما أمرت به، أي لم تتجاوزه ولا تعدّته.

والأخضر: البحر، ويسمّى أيضاً «خُضارة» معرفة غير مصروف، والعرب تسميه بذلك، إمّا لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر، أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ الأخضر، كمَا سمّوا الأخضر أسود، نحو قوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾[1]، ونحو تسميتهم قرى العراق سواداً لخضرتها وكثرة شجرها، ونحو قولهم للديْزج[2] من الدواب أخضر.

المثعنجر: السائل، ثعجرت الدّم وغيره فاثعنجر، أي صببتُه فانصبّ، وتصغير المثعنجر مُثَيعِج ومُثَيْعِيج.

والقُمقام، بالفتح: من أسماء البحر، ويقال لمن وقع في أمر عظيم: وقع في قمقام من الأمر، تشبيهاً بالبحر.

قوله عليه السلام: «وَجَبَلَ جلاميدَها»، أي وخلق صخورها، جمع جُلمود.

والنُّشُوز: جمع نَشْز، وهو المرتفع من الأرض. ويجوز فتح الشين.

ومتونها: جوانبها. وأطوادَها: جبالها: «ويروى»: «وأطوادِها» بالجر عطفاً على متونها.

فأرساها في مراسيها، أثبتها في مواضعها، رسا الشيء يرسُو: ثبت. ورست أقدامُهم في الحرب: ثبتت، ورست السفينةُ ترسُو رسوًّا ورسْوا، أي وقفت في البحر. وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[3]، بالضم من أجريت وأرسيت، ومن قرأ بالفتح فهو من «رست» هي، «وجرت» هي.

وألزمها قراراتها: أمسكها حيث استقرّت.

قوله: «فأنهد جبالها»، أي أعلاها. نهد ثديُ الجارية ينهُد بالضمّ، إذا أشرف وكَعَب، فهي ناهد وناهدة.

وسهولها: ما تطامن منها عن الجبال.

وأساخ قواعدها، أي غيَّبَ قواعد الجبال في جوانب أقطار الأرض، ساخت قوائم الفرس في الأرض تَسُوخ وتَسِيخ، أي دخلت فيها وغابت، مثل ثاخت، وأسختها أنا مثل أثختها.

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٦٤.

(٢) الدَّيْزَج: معرب دَيْزَه: وهي لون بين لونين غير خالص. اللسان، مادة (دزج).

(٣) سورة هود، الآية: ٤١.

والأنصاب: الأجسام المنصوبة، الواحد نُصُب بضم النون والصاد، ومنه سميت الأصنام نُصُباً في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[1]، لأنها نصبت فعبِدت من دون الله، قال الأعشى:

وذا النُّصُب المنصوب لا تنسكنّه لعاقبةٍ، والله ربّك فاعبُدا

أي وأساخ قواعد الجبالِ في متون أقطار الأرض، وفي المواضع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب المماثلة، وهي الجبال أنفسها.

قوله: «فأشهق قِلاَلها»، جمع قُلّة وهي ما علا من رأسِ الجبل، أشهقها: جعلها شاهقة، أي عالية.

وأرَزّها: أثبتها فيها، رزت الجرادة تَرُزُّ رَزًّا، وهو أن تدخِل ذنَبها في الأرض فتلقي بيضها، وأرَزّها الله: أثبت ذلك منها في الأرض، ويجوز «أرزت»، لازماً غير متّعد، مثلَ رزت، وارْتزَّ السهم في القرطاس: ثبت فيه. وروي «وآرزها» بالمد من قولهم: شجرة آرزة، أي ثابتة في الأرض، أرَزَت بالفتح، تأرِز بالكسر، أي ثبتت، وآرزها - بالمد - غيرُها، أي أثبتها.

وتميد: تتحرك. وتَسِيخ: تنزل وتهوِي.

فإن قلت: ما الفرق بين الثلاثة: تميد بأهلها، أو تسيخ بحملها، أو تزول عن مواضعها؟

قلت: لأنّها لو تحركت لكانت إمّا أن تتحرّك على مركزها أو لا على مركزها، والأوّل هو المراد بقوله: «تميد بأهلها»، والثاني تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أو لا تنزل إلى تحت، فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله: «أو تسيخُ بحمْلها» والقسم الثاني هو المراد بقوله: «أو تزول عن مواضعها».

فإن قلت: ما المراد بـ«على» في قوله: «فسكنت على حركتها»؟

قلت: هي لهيئة الحال، كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه، ودخلت إليه على شربه، أي سكنت، على أن من شأنها الحركة، لأنها محمولة على سائل متموّج.

قوله: «مَوَجان مياهها»، بنَاء «فَعَلان» لما فيه اضطراب وحركة كالغليان والنّزَوان والخَفَقان، ونحو ذلك.

وأجمدها، أي جعلها جامدة. وأكنافها: جوانبها. والمِهاد: الفراش.

فوق بحر لجيّ: كثير الماء، منسوب إلى اللّجة، وهي معظم البحر.

قوله: «يكركره الرياح»، الكركرة: تصريف الريح السّحاب إذا جمعته بعد تفريق وأصله «يكرّر» من التكرير، فأعادوا الكاف، كركرت الفارس عنّي أي دفعته ورددته.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

والرياح العواصف: الشديدة الهبوب. وتمخضه، يجوز فتح الخاء وضمّها وكسرها والفتح أفصح، لمكان حرف الحلق، من مَخَضت اللبن، إذا حركته لتأخذ زبده.

والغمام: جمع، والواحدة غمامة، ولذلك قال: «الذّوارف»، لأنّ «فواعل» أكثر ما يكون لجمع المؤنث، ذرفت عينه أي دمعت، أي السحب المواطر، والمضارع من «ذرفت» عينه «تذرِف» بالكسر، ذَرْفاً وذَرَفاً. والمذارف: المدامع.

٢٠٥ - ومن خطبة له عليه السلام في استنهاض أصحابه إلى الجهاد

الأصل: اَللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الجَائِرَةِ، وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَة، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إلاَّ النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ. ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَهُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ.

الشرح: ما في «أيما» زائدة مؤكّدة، ومعنى الفصل وعيدُ مَن استنصره فقعد عن نصرة، ووصف المقالَة بأنها عادلة، إمّا تأكيد، كما قالوا: شعر شاعر، وإمّا ذاتُ عَدْل، كما قالوا: رجل تامر ولابن، أي ذو تَمْر ولبن، ويجوز أيضاً أن يريد بالعادِلة المستقيمة التي ليست كاذبة ولا محرّفة عن جهتها، والجائرة نقيضها وهي المنحرفة، جارَ فلانٌ عن الطريق، أي انحرف وعدل.

والنكوص: التأخر.

قوله عليه السلام: «نستشهدُك عليه»، أي نسألك أن تشهد عليه، ووصفه تعالى بأنه أكبرُ الشاهدين شهادة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾[1]، يقول: اللّهمّ إنّا نستشهدك على خذلان من استنصرناه، واستنفرناه إلى نُصرتك، والجهاد عن دينك فأبى النّهوض، ونكث عن القيام بواجب الجهاد، ونستشهد عِبادَك، من البشر في أرضك، وعبادك من الملائكة في سمواتك عليه أيضاً، ثم أنت بعد ذلك المغني لنا عن نصرته ونهضته، بما تتيحه لنا من النصر، وتؤيدنا به من الإعزاز والقُوّة، والآخذ له بذنبه في القعود والتخلّف.

وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[2].

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣٨.

٢٠٦ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وتعظيمه

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ المَخْلُوقِينَ، ٱلْغَالِبِ لِمَقَالِ ٱلْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، وَٱلْبَاطِنِ بِجَلاَلِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ المُتَوَهِّمِينَ. ٱلْعَالِمِ بِلاَ ٱكْتِسَابٍ وَلاَ ٱزْدِيَادٍ، وَلاَ عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، المُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ بِلاَ رَوِيَّةٍ وَلاَ ضَمِيرٍ، الَّذِي لاَ تَغْشَاهُ الظُّلَمُ، وَلاَ يَسْتَضِيءُ بِالأَنْوَارِ، وَلاَ يَرْهَقُهُ لَيْلٌ وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ، لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالإِبْصَارِ، وَلاَ عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ.

الشرح: يجوز شَبَه وشِبْه، والرواية ها هنا بالفتح، وتعاليه سبحانه عن شَبَه المخلوقين، كونُه قديماً واجب الوجود، وكلّ مخلوق محدَث ممكن الوجود.

قوله: «الغالب لمقال الواصفين»، أي إنّ كُنْه جلاله وعظمته، لا يستطيع الواصفون وصفه وإنْ أطنبوا وأسهبوا، فهو كالغالب لأقوالهم لعجزها عن إيضاحه وبلوغ منتهاه، والظاهر، بأفعاله، والباطن بذاته، لأنه إنّما يعلم منه أفعاله: وأما ذاته فغير معلومة.

ثم وصف علمه تعالى فقال: إنّه غيرُ مكتسَب كما يكتسِب الواحد منّا علومَه بالاستدلال والنّظر، ولا هو علمٌ يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منّا ومعارفه، وتكثر لكثرة الطُّرُق التي يتطرّق بها إليها.

ثم قال: «وَلا علم مُستفاد»، أي ليس يعلم الأشياء بعلم محدث مجدّد كما يذهب إليه جَهْم وأتباعه وهشام بن الحكم، ومن قال بقوله.

ثم ذكر أنه تعالى قدّر الأمور كلّها بغير رويّة، أي بغير فكر ولا ضمير، وهو ما يطويه الإنسان من الرأي والاعتقاد والعزم في قلبه.

ثم وصفه تعالى بأنه لا يغشاه ظلامٌ، لأنه ليس بجسم، ولا يستضيء بالأنوار، كالأجسام ذوات البصر. ولا يَرْهقه ليل، أي لا يغشاه. ولا يجري عليه نهار، لأنه ليس بزمانيّ. ولا قابل للحركة، ليس إدراكه بالإبصار، لأنّ ذلك يستدعي المقابلة. ولا علمه بالإخبار مصدر أخبر، أي ليس علمه مقصوراً على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلّفين، بل هو يعلم كلّ شيء، لأنّ ذاته ذات واجبٌ لها أن تعلم كلّ شيء لمجرّد ذاتها المخصوصة، من غير زيادة أمر على ذاتها.

الأصل: منها في ذكر النبي ﷺ: أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ، وَقَدَّمَهُ فِي الاصْطِفَاءِ، فَرَتَقَ بِهِ المَفَاتِقَ، وَسَاوَرَ بِهِ المُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلاَلَ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

الشرح: أرسله بالضياء، أي بالحقّ، وسمّي الحقّ ضياء، لأنه يهتدَى به، أو أرسله بالضياء أي بالقرآن.

وقدّمه في الاصطفاء، أي قدّمه في الاصطفاء على غيره من العرب والعجم، قالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾[1]، أي على رجل من رجلين من القريتين عظيم، أي إمّا على الوليد بن المغيرة من مكّة، أو على عروة بن مسعود الثقفيّ من الطائف.

ثم قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[2]، أي هو سبحانه العالم بالمصلحة في إرسال الرسل، وتقديم من يرى في الاصطفاء على غيره.

فرتق به المفاتق، أي أصلح به المفاسد، والرّتْق ضدّ الفتق، والمفاتق: جمع مَفْتَق، وهو مصدر، كالمضرب والمقتل.

وساور به المغالب: ساورتُ زيداً أي واثبته، ورجل سَوار، أي وثّاب، وسَوْرة الخمر: وثوبها في الرأس.

والحزونة ضدّ السهولة، والحزْنُ: ما غُلظ من الأرض. والسّهل: ما لان منها، واستعير لغير الأرض كالأخلاق ونحوها.

قوله: «حتى سرح الضلال»، أي طرده وأسرع به ذهاباً.

عن يمين وشمال، من قولهم: ناقة سَرْح ومنسرحة، أي سريعة. ومنه تسريح المرأة، أي تطليقها.

٢٠٧ ومن خطبة له عليه السلام في صفة الرسول والعلماء

الأصل: وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ، وَحَكَمٌ فَصَلَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ، كُلَّمَا نَسَخَ ٱللهُ ٱلْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ، وَلاَ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ. أَلاَ وَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً، وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ، يَقُولُ عَلَى ٱلْأَلْسِنَةِ، وَيُثَبِّتُ بِهِ ٱلْأَفْئِدَةَ، فِيهِ كَفَاءٌ لِمُكْتَفٍ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ، يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلاَيَةِ، وَيَتَلاَقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ، وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ. لاَ تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ، وَلاَ تُسْرِعُ فِيهِمُ ٱلْغِيبَةُ، عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلاَقَهُمْ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ، فكانوا كَتَفَاضُلِ ٱلْبَذْرِ يُنْتَقَى، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ.

فَلْيَقْبَلِ ٱمْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا، وَلْيَنْظُرِ ٱمْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً، فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ.

فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلاَمَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ، وَبَادَرَ ٱلْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ، وَتُقَطَّعَ أَسْبَابُهُ وَٱسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ، وَأَمَاطَ ٱلْحَوْبَةَ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ.

الشرح: الضمير في «أنّه» يرجع إلى القَضاء والقَدر المذكور في صدْر هذه الخطبة، ولم يذكره الرضيّ رحمه الله، يقول: أشهد أنّ قضاءه تعالى عَدْل عَدلَ وحَكَم بالحق، فإنّه حَكَمٌ فصْل بين العباد بالإنصاف، ونسب العدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز، وهو بالحقيقة منسوب إلى ذي القضاء، والقاضي به هو الله تعالى.

قوله: «وسيّد عباده»، هذا كالمجمَع عليه بين المسلمين، وإن كان قد خالف فيه شذوذٌ منهم، واحتجّ الجمهور بقوله: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»[1]، وبقوله: «ادعوا لِي سيّدَ العرب عليًّا»، فقالت عائشة: ألستَ سيّد العرب! فقال: «أنا سيّد البشر، وعليّ سيّد العرب»[2]، وبقوله: «آدم ومَنْ دونه تحت لوائي»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٠٨)، وأحمد في كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٥٤٢).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» في كتاب: معرفة الصحابة، باب: ذكر إسلام أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه (٤٦٢٦، ٤٦٢٧). وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٥١٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة بني إسرائيل =

واحتجّ المخالف بقوله عليه السلام: «لا تفضّلوني على أخي يونس بن متّى»[(١)].

وأجاب الأولون تارةً بالطعن في إسناد الخبر، وتارة بأنه حكاية كلام حكاه ﷺ عن عيسى ابن مريم، وتارة بأنّ النهي إنّما كان عن الغلوّ فيه كما غلت الأمم في أنبيائها، فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول: لا تأكل من الخبز ولا درهماً، وليس مراده تحريمَ أكل الدّرهم والدرهمين، بل تحريم ما يستضرّ بأكله منه.

قوله عليه السلام: «كلّما نسخَ الله الخلْق فرقتيْن جعله في خيرهما»، النَّسْخ: النقل، ومنه نسخ الكتاب، ومنه نَسَخَت الرّيحُ آثار القوم، ونسخت الشمس الظّل، يقول: كلّما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين، جعل خيرهما وأفضلهما لولادة محمد عليه السلام، وسمّي ذلك نسخاً، لأنّ البطن الأول يزول، ويخلُفه البطن الثاني، ومنه مسائل المناسخات في الفرائض.

وهذا المعنى قد وردَ مرفوعاً في عدّة أحاديث، نحو قولِه ﷺ: «ما افترقت فرقتان منذُ نَسل آدم ولدَه إلاّ كنتُ في خيرهما»[(٢)].

ونحو قوله: «إنّ الله اصطفَى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل مُضَر، واصطفى من مُضَر كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش هاشماً، واصطفاني من بني هاشم»[(٣)].

قوله: «لم يُسهِمْ فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر»، لم يسهم: لم يضرب فيه عاهر بسهم، أي بنصيب، وجمعه سُهمان، والعاهر: ذو العَهَر، بالتحريك وهو الفجور والزنى، ويجوز تسكين الهاء، مثل نَهْر ونَهَر، وهذا هو المصدر، والماضي عَهَر بالفتح، والاسم العِهْر، بكسر العين وسكون الهاء، والمرأة عاهرة ومعاهِرة وعَيْهرة، وتعيْهَرَ الرّجل إذا زنى، والفاجر كالعاهر ها هنا، وأصلُ الفجور: الميْلُ، قال لَبِيد:

= (٣١٤٨)، وأحمد في كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٥٤٢).

(١) ذكره في تأويل مختلف الحديث (١/ ١١٦).

(٢) جاء في كنز العمال (٣٢٠١٠)، وعزاه لابن عساكر: «كنت لآدم في الجنة في صلبه، ورُكب بي السفينة في صلب أبي نوح، وقُذف بي في النار في صلب أبي إبراهيم، لم يلتف أبواي على سفاح، ولم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة، صفي مهدي، لا يتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما...».

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر إليه قبل النبوة (٢٢٧٦)، والترمذي، في كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: في فضل النبي ﷺ (٣٦٠٥)، وأحمد باب: حديث واثلة بن الأسقع (١٦٥٣٨).

فإنْ تَتَقدّمْ تَغْشَ مِنْهَا مقدّماً غليظاً، وإن أخّرْتَ فالكِفْلُ فاجِرُ

يقول: مقعد الرديف مائل.

كلام الجاحظ حول المطاعن عن النسب

وفي الكلام رمْز إلى الجماعة من الصّحابة في أنسابهم طعن، كما يقال: إنّ آل سعد بن أبي وقّاص ليسوا من بني زُهرة بن كلاب، وإنّهم من بني عُذْرة من قحطان، وكما قالوا: إن آل الزّبير بن العوام من أرض مصر من القِبْط، وليسوا من بني أسد بن عبد العُزّى. قال الهيثم بن عديّ في كتاب «مثالب العرب»[1]: إن خَوَيلد بن أسَد بن عبد العُزّى كان أتى مصر ثم انصرف منها بالعوّام، فتبنّاه، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خُويلد:

بَنـي أسدٍ ما بالُ آل خويلدٍ يحنّونَ شَوْقاً كلّ يوم إلى القِبْطِ!

مَتَى يذكروا قهْقَى يحنّوا لذكرها وللرّمَث المقرون والسّمَك الرّقِطِ

عيون كأمثال الزّجاج وضيعةٌ تخالف كعباً في لِحى كَثّةٍ ثُطّ

يُرَى ذاك في الشّبان والشيب منهمُ مبيناً وفي الأطفال والجلّة الشُّمْطِ

لَعَمْرُ أبي العوام إنّ خُوَيلداً غَدَاة تبنّاه ليُوثَق في الشُّرطِ

وكما يقال في قوم آخرين: نرفع هذا الكتاب عن ذكر ما يُطْعَنُ به في أنسابهم، كي لا يظنّ بنا أنّا نحب المقالة في النّاس.

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب «مفاخرات قريش»: لا خيرَ في ذكر العيوب إلا من ضرورة، ولا نجد كتاب مثالب قطّ إلا لدعيّ أو شعوبيّ، ولست واجدَه لصحيح النسب، ولا لقليل الحسد، وربّما كانت حكاية الفحش أفحشَ من الفحش، ونقلُ الكذب أقبحَ من الكذب. وقال النبي ﷺ: «اعف عن ذي قَبْر»، وقال: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات»[2]، وقيل في المثل: «يكفيك من شرّ سماعه». وقالوا: أسمعك مَنْ أبلغك، وقالوا: من طلَب عيباً وجده، وقال النابغة:

وَلَسْتَ بمستبقٍ أخاً لاَ تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أيُّ الرّجال المهذّب!

---

(١) «مثالب العرب» لمؤلفه الهيثم بن عدي بن عبد الرحمٰن الطائي الثعالبي البحتري الكوفي (أبو عبد الرحمٰن)، أديب، أخباري، نسابة، راويه. ولد بالكوفة سنة ١٣٠هـ وتوفي بفم الصلح (٢٠٧هـ) معجم المؤلفين للكحالة (١٣/ ١٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الشتم (١٩٨٢)، وأحمد في كتاب: أول مسند الكوفيين، باب: حديث المغيرة بن شعبة (١٧٧٤٣).

قال أبو عثمان: وبلغ عمرَ بن الخطّاب أنّ أناساً من رُواة الأشعار وحَمَلة الآثار يعيبون النّاس، ويثلبونهم في أسلافهم، فقام على المنبر، وقال: إياكُم وذكر العيوب، والبحث عن الأصول، فلو قلت: لا يخرجُ اليوم من هذه الأبواب إلاّ مَنْ لا وَصْمَة فيه لم يخرج منكم أحد. فقام رجلٌ من قريش - نكره أن نذكره - فقال: إذاً كنتُ أنا وأنت يا أمير المؤمنين نخرج! فقال: كذبت، بل كان يقال لك، ياقين ابن قين، اقعد!

قلت: الرّجل الذي قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ، كان عمرُ يبغِضه لبغضه أباه خالداً، ولأن المهاجر كان عَلَوِيّ الرأي جداً، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه، شهد المهاجر صِفّين مع عليّ عليه السلام، وشهدها عبدُ الرحمن مع معاوية، وكان المهاجر مع عليّ عليه السلام في يوم الجمل، وفقئت ذلك اليوم عينُه. ولأنّ الكلام الذي بلغ عمر بلغه عن المهاجر، وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش - وكونه يسمّى ريحانة قريش ويسمّى العدْل، ويسمى الوحيد - حدّاداً يصنع الدروع وغيرها بيده، ذكر ذلك عنه عبدُ الله بن قتيبة في كتاب «المعارف»[١].

وروى أبو الحسن المدائنيّ هذا الخبَر في كتاب «أمهّات الخلفاء» وقال: إنّه روَى عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة، فقال: لا تلمْه يابن أخي، إنه أشفق أن يُحْدَج بقضيّة نُفيل بن عبد العزى وصهاك أمَة الزبير بن عبد المطلب. ثم قال: رحم الله عمر! فإنه لم يعدُ السنّة، وتلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

أمّا قول ابن جرير الآمُليّ الطّبرستانيّ في كتاب «المسترشد»: إنّ عثمان والد أبي بكر الصديق كان ناكحاً أمّ الخير ابنة أخته، فليس بصحيح، ولكنّها ابنةُ عمّه، لأنها ابنة صخر بن عامر، وعثمان هو ابن عمرو بن عامر، والعجَب لمن اتّبعه من فضلاء الإماميّة على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب، وكيف تتصور هذه الواقعة في قريش، ولم يكن أحدٌ منهم مجوسيًا ولا يهوديًا، ولا كان من مذهبهم حِلّ نكاح بنات الأخ ولا بناتَ الأخت!

ثم نعود لإتمام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان، قال: ومتَى يقدر الناس - حفظك الله - على رجل مسلَّم من كلّ أبنة، ومبرّأ من كلّ آفة، في جميع آبائه وأمهاته وأسلافه وأصهاره، حتى تسلم له أخواله وأعمامه، وخالاته وعمّاته، وأخَواته وبناته، وأمّهات نسائه، وجميع مَنْ يناسبه من قِبَلِ جدّاته وأجداده، وأصهاره وأختانه! ولو كان ذلك موجوداً لما كان لنسب

(١) وهو في التاريخ لابن قتيبة عبد الله بن مسلم المتوفى سنة (٢٦٧هـ). «كشف الظنون (٢/ ١٧٢٤).
(٢) سورة النور، الآية: ١٩.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضيلة في النّقاء والتهذيب، وفي التّصفية والتنقيح، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما مسَّني عِرْقُ سِفَاحٍ قطّ، وما زلت أُنقَلُ من الأصلاب السليمة من الوُصوم، والأرحام البريئة من العيوب»، فلسنا نقضِي لأحدٍ بالنّقاء من جميع الوجوه، إلاّ لنسب من صدّقه القرآن، واختاره الله على جميع الأنام، وإلاّ فلا بدّ من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفيْه، أو في بعض أسلافه، أو في بعض أصهاره، ولكنّه يكون مغطًّى بالصلاح، ومحجوباً بالفضائل، ومغموراً بالمناقب.

ولو تأمّلت أحوالَ النّاس، لوجدت أكثرهم عيوباً أشدَّهم تعييباً، قال الزّبرقان بن بدْر: ما استَبّ رجُلان إلاّ غلب ألأمُهما. وقال: خَصْلتان كثيرتان في امرىء السّوء: كثرة اللّطام، وشدّة السِّباب، ولو كان ما يقوله أصحابُ المثالب حقًّا، لما كان على ظهرها عربيّ، كما قال عبد الملك بن صالح الهاشميّ: إنْ كَانَ ما يقول بعضٌ في بعض حقًّا، فما فيهم صحيح، وإن كان ما يقولُ بعضُ المتكلّمين في بعض حقًّا، فما فيهم مسلم!

قوله عليه السلام: «ألاَ وإنّ الله قد جَعل للخير أهلاً، وللحق دعائم، وللطاعة عَصَماً». الدعائم: ما يدعَم بها البيت لئلا يسقُط، والعِصَم: جمع عصْمَة، وهو ما يُحفظ به الشيء ويمنع، فأهل الخير هم المتّقون. ودعائم الحق: الأدِلّة الموصِّلة إليه المثبتة له في القلوب. وعِصَم الطّاعة: هي الإدمان على فعلها، والتمرّن على الإتيان بها، لأن المُرون على الفعل يكسب الفاعل ملَكَةً تقتضي سهولته عليه. والعون ها هنا: هو اللطف المقرِّب من الطاعة، المبعِد من القبيح.

ثم قال عليه السلام: «إنه يقولُ على الألسنة، ويثبّت الأفئدة»، وهذا من باب التوسّع والمجاز، لأنّه لما كان مسهلاً للقول أطلق عليه أنّه يقول على الألسنة، ولمّا كان الله تعالى هو الذي يثبّت الأفئدة، كما قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[1]، نسب التثبيت إلى اللّطف، لأنّه من فعل الله تعالى، كما ينسَب الإنبات إلى المطر، وإنما المنبِت للزّرع هو الله تعالى، والمطر فعله.

ثم قال عليه السلام: «فيه كِفاءٌ لمكتفٍ، وشفاء لمشتفٍ»، والوجه فيه «كفاية»، فإنّ الهمز لا وجه له ها هنا، لأنّه من باب آخر، ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين «كِفاء»، و«شفاء» كما قالوا: الغدايا والعشايا، وكما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مأزورات غير مأجورات»[2]، فأتى بالهمز، والوجه الواو، للازدواج.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب: ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في اتباع النساء الجنائز (١٥٧٨).

كلام حول العارفين والأولياء

ثم ذكر العارفين، فقال: «واعلموا أنّ عباد الله المستحفظين علمه»، إلى قوله: «وهذّبه التمحيص».

واعلم أن الكلام في العرفان لم يأخذه أهل المِلّة الإسلامية إلاّ عن هذا الرّجل، ولَعمري لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات وأبعد النّهايات. والعارفون هم القوم الّذين اصطفاهم الله تعالى، وانتخبهم لنفسه، واختصَّهم بانسه، أحبّوه فأحبّهم، وقربوا منه فقرُب منهم. قد تكلّم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان، فكلٌّ نطق بما وقع له، وأشار إلى ما وجده في وقته.

وكان أبو علي الدّقاق يقول: منْ أمارات المعرفة حصولُ الهيبة من الله، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته. وكان يقول: المعرفة توجب السّكينة في القلب، كما أنّ العلم يوجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

وسئل الشّبليّ عن علامات العارف، فقال: ليس لعارفٍ علامة، ولا لمحبٍّ سكون، ولا لخائف قرار. وسئل مرّة أخرى عن المعرفة، فقال: أوّلُها الله، وآخرها ما لا نهاية له.

وقال أبو حفص الحدّاد: منذُ عرفت الله ما دخل قلبي حقّ ولا باطل. وقد أشكَل هذا الكلامُ على أرباب هذا الشأن، وتأوّله بعضُهم، فقال: عند القوم أنّ المعرفة توجب غَيْبَة العبد عن نفسه لاستيلاء ذكْر الحق عليه، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلا إليه، وكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكّره وتذكّره فيما يسنح له من أمر، أو يستقبله من حالٍ، فالعارف رجوعه إلى ربّه، لا إلى قلبه، وكيف يدخل المعنى قلبَ مَنْ لا قلْبَ له!

وسئل أبو يزيد البِسْطاميّ عن العِرْفان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[1]، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفْص الحدّاد.

وقال أبو يزيد أيضاً: للخَلْق أحوال، ولا حال للعارف، لأنّه محيت رسومه وفنيَ هو، وصارت هوّيتُه هوّية غيره، وغيبت آثاره في آثار غيره.

قلت: وهذا هو القول بالاتحاد الذي يبحث فيه أهل النظر.

وقال الواسطيّ: لا تصحّ المعرفة وفي العبد استغناء بالله، أو افتقار إليه. وفسّر بعضُهم هذا الكلام، فقال: إنّ الافتقار والاستغناء من أمارات صَحْو العبد وبقاء رسومه على ما كانت عليه، والعارف لا يصحّ ذلك عليه، لأنّه لاستهلاكه في وجوده، أو لاستغراقه في شهوده، إنْ لم يبلغْ درجة الاستهلاك في الوجود مختطف عن إحساسه بالغنى والفقر وغيرهما من الصّفات، ولهذا

---

(١) سورة النمل، الآية: ٣٤.

قال الواسطيّ: منْ عَرَف الله انقطع وخرس وانقمع، قال ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك، أنتَ كما أثنَيْتَ على نفسك»(١).

وقال الحُسين بن منصور الحلاج: علامة العارف أن يكون فارغاً من الدّنيا والآخرة.

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَريّ: غاية العرفان شيئان: الدَّهَش والحيْرة.

وقال ذو النُّون: أعرَفُ النَّاس بالله أشدُّهم تحيُّراً فيه.

وقيل لأبي يزيد: بماذا وصلت إلى المعرفة؟ ببدنٍ عارٍ، وبطن جائع.

وقيل لأبي يعقوب السُّوسيّ: هل يتأسّف العارف على شيء غير الله؟ فقال: وهل يرى شيئاً غيره، ليتأسّف عليه!

وقال أبو يزيد: العارف طيّار، والزاهد سيّار.

وقال الجُنَيْد: لا يكون العارف عارفاً حتّى يكون كالأرض يَطَؤُها البَرّ والفاجر، وكالسحاب يُظلّ كلَّ شيء، وكالمطر يسقِي ما ينبت وما لا ينبت.

وقال يحيى بن معاذ: يخرُج العارف من الدّنيا، ولا يقضي وطره من شيئين: بكائه على نفسه، وحبّه لربه.

وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأنس.

وقال بعضهم: العارف أنِسَ بالله فأوحَشه من خلْقه، وافتقر إلى الله فأغناه عن خَلْقه، وذلّ لله فأعزّه في خلْقه.

وقال بعضهم: العارِف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

وقال أبو سُليمان الدّارَانيّ: إنّ الله يفتح للعارف على فراشِه، ما لا يفتح للعابد وهو قائم يصلّي. وكان رُوَيْم يقول: رياء العارفين أفضل من إخلاص العابدين.

وسئل أبو تراب النخشبيّ عن العارف، فقال: هو الّذي لا يكدّره شيء، ويصفُو به كلّ شيء.

وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتَحُطّ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦)، والترمذي في كتاب: الدعوات عن رسول الله ﷺ باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (٣٤٩٣)، والنسائي في كتاب: الطهارة، باب: ترك الوضوء من مسّ الرجل امرأته من غير شهوة (١٦٩)، وأبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٩)، وابن ماجه في كتاب: الصلاة والسنّة فيها، باب: ما جاء في القنوت في الوتر (١١٧٩).

وسئل يحيى بن مُعاذ عن العارف، فقال: الكائن البائن.

وقيل: ليس بعارف مَن وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا!

وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله.

وسئل أبو سعيد الخرّاز: هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء؟ قال: نعم، إنّما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله، فإذا صاروا إلى حقائق القرب، وذاقوا طعم الوصُول، زال عنهم ذلك.

واعلم أنّ إطلاق أمير المؤمنين عليه السلام عليهم لفظة «الولاية»، في قوله: «يتواصَلُون بالولاية، ويتلاقون بالمحبّة» يستدعي الخوْض في مقاميْن جليلين من مَقامات العارفين: المقام الأوّل الولاية، وهو مقام جليل، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

وجاء في الخبرَ الصّحيح عن النبي صلى الله عليه وآله، يقول الله تعالى: «مَنْ آذى لي وليًا فقد استحلّ محارِمي، وما تقرّب إليّ العبد بمثل أداء ما فرضتُ عليه، ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، ولا ترددت في شيء أنا فاعله كتردّدي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بُدّ لَهُ منه»(٢).

واعلم أنّ الوليّ له معنيان:

أحدهما «فَعِيل» بمعنى «مفعول»، كَقِيل وجَرِيح، وهو من يتولّى الله أمره كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(٣)، فلا يكِله إلى نفسه لحظة عين، بل يتولّى رعايته.

وثانيهما «فَعِيل» بمعنى «فاعل» كنَذِير وعَلِيم، وهو الَّذِي يتولّى طاعةَ الله وعبادته فلا يعصيه.

ومن شرط كون الولّي وليًا ألاّ يعصِيَ مولاه وسيّده، كما أن من شرط كون النبيّ نبياً العصمة، فمن ظنّ فيه أنّه من الأولياء، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض، فليس بوليّ عند أصحاب هذا العلم. بل هو مغرور مخادع.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٢.

(٢) أخرج البخاري قريباً منه في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢)، وأحمد في كتاب: باقي مسند الأنصار (٢٥٦٦١).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩.

ويقال: إنّ أبا يزيدَ البِسْطاميّ قصد بعض مَنْ يوصف بالولاية، فلما وافى مسجده، قعد ينتظر خروجه، فخرج الرجل وتنخّم في المسجد، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه، وقال: هذا رجلٌ غير مأمون على أدبٍ من آداب الشريعة، كيف يكون أميناً على أسرار الحق!

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أتحبّ أن تكون لله ولياً؟ قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدّنيا ولا من الآخرة، وفرّغ نفسك لله، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك.

وقال يحيى بن معاذ في صِفَة الأولياء: هم عبادٌ تسربَلُوا بالأنس بعد المكابدة، وادّرَعُوا بالرّوح بعد المجاهدة، بوصولهم إلى مقام الولاية.

وانِ أبو يزيدَ يقول: أولياء الله عرائس الله، ولا يرى العرائسَ إلاّ المحارم، فهم مخدّرون عنده في حجاب الانس، لا يراهم أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال أبو بكر الصّيْدلانيّ: كنت أصلِحُ لقبر أبي بكر الطمستاني لوحاً أنقر فيه اسمه، فيُسرَق ذلك اللوح، فأنقر له لوحاً آخر وأنصبه على قبره، فيُسرق، وتكرر ذلك كثيراً دون غيره من ألواح القبور، فكنت أتعجب منه، فسألت أبا عليّ الدّقاق عن ذلك، فقال: إن ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدنيا، وأنت تريد أن تشهره باللّوح الذي تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره، كما آثر هو سَتْر نفسه.

وقال بعضهم: إنّما سمي الوليّ ولياً، لأنّه توالت أفعاله على الموافقة.

وقال يحيى بن معاذ: الولي لا يرائي ولا ينافق، وما أقلّ صديق من يكون هذا خلُقه!

المقام الثاني المحبّة قال الله سبحانه: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، والمحبّة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة.

قال أبو يزيدَ البسطاميّ: المحبّة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال أبو عبد الله القرشيّ: المحبّة أن تهب كلَّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وأكثرهم على نفي صفة العشق، لأنّ العشق مجاوزة الحدّ في المحبّة، والبارىء سبحانه أجلُّ من أن يوصف بأنّه قد تجاوز أحد الحدّ في محبته.

سئل الشّبْليّ عن المحبّة، فقال: هي أن تَغارَ على المحبوب أن يحبَّه أحدٌ غيرك.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وقال سَمْنون: ذهب المحبُّون بشرف الدنيا والآخرة، لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»[(١)]، فهم مع الله تعالى.

وقال يحيى بن مُعاذ: حقيقة المحبّة ما لا ينقُص بالجفاء، ولا يزيد بالبرّ.

وقال: ليس بصادق من ادّعى محبّته ولم يحفظ حدوده.

وقال الجُنيد: إذا صحّت المحبّة سقطت شروط الأدب.

وأنشد في معناه:

إذا صَفَت المودّة بين قومٍ ... وَدَامَ ودادهم سَمُج الثَّناءُ

وكان أبو عليّ الدقاق يقول: ألست ترى الأب الشفيق لا يبجّل ولده في الخطاب، والناس يتكلّفون في مخاطبته، والأب يقول له: يا فلان، باسمه.

وقال أبو يعقوب السُّوسِي: حقيقة المحبّة أن ينسَى العبد حظَّه من الله، وينسى حوائجه إليه.

قيل للنصراباذيّ: يقولون: إنه ليس لك من المحبّة شيء. قال: صدقوا، ولكن لي حسراتهم، فهو ذو احتراق فيه.

وقال النصرأباذيّ أيضاً: المحبّة مجانية السلوّ على كل حال، ثم أنشد:

وَمَنْ كَانَ في طَوْلِ الهوى ذاقَ سَلْوَةً ... فإنيَ من ليلى لها غير ذائقِ

وأكثرُ شيء نلتُه في وصالها ... أمانيّ لم تصدق كلمحةِ بارقِ

وكان يقال: الحب أوله خبْل، وآخره قتل.

وقال أبو علي الدّقّاق في معنى قول النبيّ ﷺ: «حبّك الشيء يُعمي ويُصِمّ»[(٢)]، قال: يعمي ويصمّ عن الغير إعراضاً وعن المحبوب هَيْبة، ثم أنشد:

إذَا ما بدا لي تعاظمتُه ... فأصدر في حالِ مَنْ لم يَرَه

وقال الجُنيد: سمعتُ الحارث المحاسبيّ، يقول: المحبّة إقبالك على المحبوب بكليّتك، ثم إيثارك له على نفسك، ومالك وولدك، ثم موافقتك له في جميع الأمور سرًّا وجهراً، ثم اعتقادك بعد ذلك أنّك مقصّر في محبته.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨)، ومسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب (٢٦٤١)، والترمذي في كتاب: الزهد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء أن المرء مع من أحب (٢٣٨٥)، وأبو داود في كتاب: الأدب، باب: إخبار الرجلِ الرجلَ بمحبته إياه (٥١٢٧)، وأحمد في كتاب: المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٧١٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، في الهوى (٥١٣٠)، وأحمد في كتاب: مسند الأنصار، باب: باقي حديث أبي الدرداء (٢١١٨٦).

وقال الجُنيد: سمعتُ السريّ يقول: لا تصلح المحبّة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا.

وقال الشِّبلي: المحبّ إذا سكت هلك، والعارف إذا لم يسكت هلك.

وقيل: المحبّة نار في القلْب تحرق ما سوى ودّ المحبوب.

وقيل: المحبّة بذلُ الجهد، والحبيب يفعل ما يشاء.

وقال الثَّوْريّ: المحبّة هَتْك الأستار، وكشف الأسرار.

حبِس الشِّبْلي في المارستان بين المجانين، فدخل عليه جماعة فقال: مَنْ أنتم؟ قالوا: محبُّوك أيّها الشيخ. فأقبل يرميهم بالحجارة، ففرُّوا، فقال: إذا ادعيتم محبتي فاصبروا على بلائي.

كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيدَ البِسطاميّ: قد سكرتُ من كثرة ما شربتُ من كأس محبته. فكتب إليه أبو يزيد: غيرُك شرب بَحور السموات والأرض وما روِيَ بعد، ولسانه خارج، ويقول: هل من مزيد!

ومن شعرهم في هذا المعنى:

عجبتُ لمنْ يقولُ ذكرتُ ربِّي … وهَلْ أنسى فأذكر ما نَسِيتُ!
شربتُ الحبَّ كاساً بعد كأسٍ … فما نَفِدَ الشَّراب ولا رَويتُ

ويقال: إنّ الله تعالى أوْحَى إلى بعض الأنبياء: إذا اطّلعت على قلب عَبْدٍ فلم أجد فيه حبّ الدنيا والآخرة، ملأتُه من حبي.

وقال أبو عليّ الدّقاق: إنّ في بعض الكتب المنزّلة: عبدي، أنا وحقّك لك محبّ، فبحقّي عليك كن لي محبًّا.

وقال عبد الله بن المبارك: مَنْ أُعطِي قِسْطاً من المحبّة، ولم يعطَ مثله من الخشية، فهو مخدوع.

وقيل: المحبة ما تمحو أثرك، وتسلُبك عن وجودك.

وقيل: المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم إنّ السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يُوصف. وأنشد:

فأسكرَ القومَ دَوْرُ كأسٍ … وكان سُكْرِي من المدِيرِ

وكان أبو عليّ الدقّاق ينشد كثيراً:

لي سكرتان وللندمان واحدةٌ … شيء خصصتُ به من بينهم وحدي

وكان يحيى بن معاذ يقول: مثقالُ خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ.

وقال بعضهم: مَنْ أراد أن يكونَ محبًا، فليكن كما حُكِي عن بعض الهند أنه أحبّ جاريةً، فرحلت عن ذلك البلد، فخرج الفتَى في وداعها، فدمَعَتْ إحدى عينيْه دون الأخرى، فغمض التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة ولم يفتَحْها، عقوبة لأنها لم تبكِ على فراق حبيبته.

وأنشدوا في هذا المعنى:

بكتْ عيني غَدَاة البين دَمْعاً ... وأُخرى بالبكا بخلت علَيْنَا

فعاقبتُ التي بخِلَتْ علَيْنَا ... بأن غمّضتها يومَ ٱلتَقَيْنا

وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: إني حرمت على القلوب أن يدخلَها حبّي وحبّ غيري.

وقيل: المحبة إيثارُ المحبوب على النفس، كامرأة العزيز لما أفرط بها الحبّ، قالت: ﴿أَنَا رَوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1]، وفي الابتداء، قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾[2] فورّكت الذنب في الابتداء عليه، ونادت في الانتهاء على نفسها بالخيانة.

وقال أبو سعيد الخراز: رأيتُ النبي صلى الله عليه وآله في المنام، فقلت: يا رسول الله اعذرني، فإنّ محبّة الله شغلتني عن حبّك، فقال: يا مبارك، مَنْ أحب الله فقد أحبّني.

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل:

قوله عليه السلام: «يصونون مَصُونه»، أي يكتمون من العلم الذي استحفظوه ما يجب أن يُكتم. ويفجّرون عيونه: يظهرون منه ما ينبغي إظهاره، وذلك أنّه ليس ينبغي إظهار كلّ ما استودِع العارف من الأسرار، وأهلُ هذا الفنّ يزعمون أنّ قوماً منهم عجزوا عن أن يحمِّلوا بما حُمّلوه، فباحوا به فهَلكوا، منهم الحسين بن منصور الحلاج. ولأبي الفتوح الجَارُوديّ المتأخر أتباعٌ يعتقدون فيه مثلَ ذلك.

والوَلاية، بفتح الواو: المحبّة والنُّصرة، ومعنى«يتواصَلُون بالوَلاية» يتواصلون وهم أولياء، ومثله: «ويتلاقَوْن بالمحبّة» كما تقول: خرجت بسلاحي، أي خرجت وأنا متسلّح، فيكون موضع الجار والمجرور نصباً بالحال، أو يكون المعنى أدقّ وألطف من هذا، وهو أن يتواصلوا بالوَلاية، أي بالقلوب لا بالأجسام، كما تقول: أنا أرعاك بقلبي، وأزورك بخاطري، وأواصلك بضميري.

قوله: «ويتساقَوْن بكأس روِيّة»، أي بكأس المعرفة، والأنس بالله، يأخذ بعضهم عن بعض العلومَ والأسرار، فكأنهم شَرْبٌ يتساقَوْن بكأس من الخمر.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

قال: «ويصدُرون بريّة» يقال: من أين رَيّتكم؟ مفتوحة الراءَ، أي من أين ترتوون الماء؟

قال: «لا تشوبهم الرِّيبة»، أي لا تخالطهم الظِّنّة والتُّهمة، ولا تسرع فيهم الغِيبة، لأن أسرارهم مشغولةٌ بالحقّ عن الخلق.

قال: «على ذلك عقَد خَلْقهم وأخلاقهم»، الضمير في «عقَد» يرجع إلى الله تعالى، أي على هذه الصفات والطبائع عَقَد الخالق تعالى، خِلْقتهم وخُلُقهم، أي هم متهيئون لما صاروا إليه، كما قال عليه السلام: «إذا أرادك لأمر هيأك له».

وقال عليه السلام: «كلٌّ ميسّرٌ لما خلِق له»(١).

قال: «فعليه يتحابون، وبه يتواصلون»، أي ليس حبُّهم بعضهم بعضاً إلاّ في الله، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله، لا للهوى، ولا لغرضٍ من أغراض الدنيا، أنشد منشِدٌ عند عمر قولَ طَرَفة:

فَلَوْلاَ ثَلاَثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ ٱلْفَتَى ... وَجَدِّكَ لم أحفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي
فمنهنَّ سَبقى العاذلاتِ بشَرْبةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بالماء تُزْبِد
وَكَرِّي إذا نادَى المضاف مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضَا نبّهتَهُ المتورّدِ
وَتَقْصِيرُ يومِ الدَّجْن والدّجْنُ معجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الطِّرَاف المعمّد

فقال عمر: وأنا لولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى، لم أحفِل متَى قام عوّدي، حُبيّ في الله، وبغضي في الله، وجهادي في سبيل الله.

قوله عليه السلام: «فكانوا كتفاضل الْبَذْرِ»، أي مَثَلُهم مثل الحب الذي يُنتقى للبَذْر، يستصلح بعضه، ويسقط بعضه.

قد ميّزه التخليص: قد فرّق الانتقاء بين جيده ورديئه. وهذّبه التمحيص، قال النبي ﷺ: «إن المرض ليمحّص الخطايا كما تمحّص النار الذهب»(٢)، أي كما تخلّص النار الذهب مما يشوبه.

ثم أمر عليه السلام المكلفين بقبول كرامة الله ونصحه، ووعظه وتذكيره، وبالحذر مِنْ نزول القارعة بهم، وهي ها هنا الموت، وسميّت الداهية قارعةً لأنها تقرع، أي تصيب بشدّة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: فسنيسره للعسرى (٤٩٤٩)، ومسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزق وأجله (٢٦٤٧)، والترمذي في كتاب: القدر عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الشقاء والسعادة (٢١٣٦)، وأبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٧٠٩)، وابن ماجه في باب: القدر (٧٨).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ١٤٣).

قوله: «فليصنع لمتحوَّله»، أي فليعدّ ما يجب إعداده للموضع الذي يتحوّل إليه، تقول: اصنع لنفسك، أي اعمل لها.

قوله: «ومعارف منتقَلِه» معارف الدّار: ما يعرفها المتوسّم بها واحدها معرَف، مثل معاهد الدار، ومعالم الدار، ومنه معارف المرأة، وهو ما يظهر منها، كالوَجْه واليدين. والمنتقَل، بالفتح: موضع الانتقال.

قوله: «فطوبَى» هي «فُعْلَى» من الطّيب، قلبوا الياء واواً للضمّة قبلها، ويقال: طوبَى لك، وطوباك! بالإضافة.

وقول العامة: «طوبيك» بالياء غير جائز.

قوله: «الذي قلْب سلِيم»، هو من ألفاظ الكتاب العزيز، أي سليم من الغلّ والشك.

قوله: «أطاع مَنْ يهديه»، أي قبل مشورة الناصح الآمر له بالمعروف، والناهي له عن المنكَر.

وتجنّب مَنْ يُرْدِيه، أي يهْلكه بإغوائه وتحسين القبيح له.

والباء في قوله: «ببصرِ مَنْ بَصّره»، متعلّقة بـ«أصاب».

قوله: «قبل أن تغلق أبوابه»، أي قبل أن يحضره الموت فلا تقبل توبته.

والحوبة: الإثم. وإماطته: إزالته، ويجوز أمطتُ الأذى عنه، ومِطت الأذى عنه، أي نحيته، ومنع الأصمعيّ منه إلا بالهمزة.

٢٠٨ – ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيراً

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيّتاً وَلاَ سَقِيماً، وَلاَ مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ، وَلاَ مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي، وَلاَ مَقْطُوعاً دَابِرِي، وَلاَ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي، وَلاَ مُنْكِراً لِرَبّي، وَلاَ مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَلاَ مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَلاَ مُعَذَّباً بِعَذَابِ ٱلْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي.

أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً، ظَالِماً لِنَفْسِي، لَكَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيَّ - وَلاَ حُجَّةَ لِي - وَلاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلاَّ مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلاَ أَتَّقِيَ إِلاَّ مَا وَقَيْتَنِي.

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَٱلْأَمْرُ لَكَ!

اَللهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!

اَللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تتتابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

الشرح: قوله: «كثيراً» منصوب بأنه صفة مصدر محذوف، أي دعاء كثيراً. وميّتاً منصوب على الحال، أي لم يفلَق الصباح عليّ ميتاً، ولا يجوز أن تكون «يصبح» ناقصة، ويكون «ميتاً» خبرها، كما قال الراونديّ، لأنّ خبر «كان» وأخواتها، يجب أن يكونَ هو الاسم، ألا ترى أنّهما مبتدأ وخبر في الأصل واسم «يصبح» ضمير «الله» تعالى، و«ميتاً» ليس هو الله سبحانه.

قوله: «ولا مضروباً على عروقي بسوء»، أي ولا أبْرَص، والعرب تكنِي عن البرص بالسّوء، ومن أمثالهم: ما أُنكرُك من سوء، أي ليس إنكاري لك عن بَرَص حَدَث بك فغيّر صورتك.

وأراد بعُروقه أعضاءه، ويجوز أن يريد: ولا مطعوناً في نسبي، والتفسير الأوّل أظهر.

«ولا مأخوذاً بأسوإ عملي»، أي ولا معاقباً بأفحش ذنوبي.

ولا مقطوعاً دابري، أي عقبي ونسلِي. والدابر في الأصل: التابع، لأنه يأتي دبُراً، ويقال للهالك: قد قطع الله دابره، كأنّه يراد أنه عفا أثره، ومحا اسمه، قال سبحانه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾(١).

ولا مستوحشاً، أي ولا شاكّا في الإيمان، لأنّ مَنْ شكّ في عقيدةٍ استوحش منها.

ولا ملتبساً عقلي، أي ولا مختلطاً عقلي، لَبَسْتُ عليهم الأمر بالفتح، أي خلطته. وعذاب الأمم من قبلُ المسخُ والزّلزلة والظلمة ونحو ذلك.

قوله: «لك الحجة عليّ، ولا حجّة لي»، لأنّ الله سبحانه قد كلّفه بعد تمكينه وإقداره وإعلامه قبحَ القبيح ووجوب الواجب وترديد دواعيه إلى الفعل وتركه، وهذه حجّة الله تعالى على عباده، ولا حجّة للعباد عليه، لأنه ما كلّفهم إلاّ بما يطيقونه، ولا كان لهم لطف في أمرٍ إلا وفَعَله.

قوله: «لا أستطيع أن آخذ إلاّ ما أعطيتَني، ولا أتّقيَ إلا ما وقَيْتَني»، أي لا أستطيع أن

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٦٦.

أرزق نفسي أمراً، ولكنك الرزاق، ولا أدفع عن نفسي محذوراً من المرض والموت إلا ما دفعته أنتَ عنّي.

وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي ٱلْفَتَى كَيْفَ يتّقي ... نوائبَ هذا الدّهر أم كيف يحذَرُ!
يرى الشيء مِمّا يُتَّقَى فيخافُه ... وما لا يرى مما يقِي الله أكثَرُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله أجدَى مِنْ تَوَقّينَا ... وعادةُ الله في الأعداء تَكْفِينَا
كاد الأعادي فما أبقَوْا ولا تَرَكُوا ... عَيْباً وطعناً وتقبيحاً وتهجينَا
ولم نزد نحنُ في سرّ وفي علَن ... عَلَى مقالتِنَا: الله يكفينا
وكان ذاك - وردّ الله حاسدَنا ... بغيظه - لم ينل مأمولَه فينَا

قوله عليه السلام: «أن أفتقِر في غناك»، موضع الجار والمجرور نصب على الحال، و«في» متعلّقة بمحذوف، والمعنى أن أفتقِر وأنت الموصوف بالغنى الفائض على الخلق.

وكذلك قوله: «أو أَضِلّ في هداك»، معناه: أو أضل وأنت ذو الهداية العامّة للبشر كافّة، وكذلك: «أو أضام في سلطانك»، كما يقول المستغيث إلى السلطان: كيف أظلم في عدلك!

وكذلك قوله: «أو أُضطَهد والأمرُ لك»، أي وأنت الحاكم صاحبُ الأمر، والطاء في «أضطهد» هي تاء الافتعال، وأصل الفعل ضهدت فلاناً، فهو مضهود، أي قهرته. وفلان ضُهَدة لكلّ أحد، أي كلّ مَنْ شاء أن يقهره فعل.

قوله: «اللهمّ اجعلْ نفسي»، هذه الدعوة مثل دَعْوة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي قوله: «اللهمّ مَتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا، واجعله الوارث منّا»(١)، أي لا تجعل موتنا متأخّراً عن ذهاب حواسّنا. وكان عليّ بن الحسين يقول في دعائه: اللهمّ احفَظْ عليّ سمعي وبصري، إلى انتهاء أجَلي.

وفسّرُوا قوله عليه السلام: «واجعلْه الوارث مِنّا»، فقالوا: الضمير في «واجعله» يرجع إلى الإمتاع.

فإن قلت: كيف يتّقي الإمتاع بالسمع والبصر، بعد خروج الرّوح؟

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وآله، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (٣٥٠٢)، والنسائي في الكبرى في كتاب: عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا جلس في مجلس كثر فيه لغطه (١٠٢٣٤).

قلت: هذا توسّع في الكلام، والمراد: لا تبلُنا بالعمَى ولا الصَّمَم، فنكون أحياء في الصورة ولسنا بأحياء في المعنى، لأنّ مَنْ فقدهما لا خَيْر له في الحياة، فحملتْه المبالغة على أن طلب بقاءَهما بعد ذهاب النفس، إيذاناً وإشعاراً بحبّه ألاّ يُبْلَى بفقدهما.

ونُفْتَتن، على ما لم يسمّ فاعله: نصابُ بفتنة تُضِلّنا عن الدّين، وروي: «نَفْتَتن» بفتح حرف المضارعة على «نفتعل»، افتتن الرجل أي فتن، ولا يجوز أن يكون الافتتان متعدِّياً كما ذكره الراونديّ، ولكنه قرأ في «الصحاح» للجوهريّ: «والفتون: الافتتان، يتعدّى ولا يتعدّى»، فظنّ أن ذلك للافتتان وليس كما ظنّ، وإنما ذلك راجع إلى الفُتون.

والتتابع: التهافت في اللّجاج والشرّ، ولا يكون إلاّ في مثل ذلك، وروي أو «تتابع» بطرح إحدى التاءات.

٢٠٩ - ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ ٱلْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، وَٱلْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ. وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لله سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى ٱلْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ، تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ المَزِيدِ أَهْلُهُ.

الشرح: الذي له عليهم من الحق هو وجوب طاعته، والذي لهم عليه من الحقّ هو وجوب معدلته فيهم. والحقّ أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقُها في التناصف، معناه أنّ كلّ أحدٍ يصف الحقّ والعدل، ويذكر حسنه ووجوبه، ويقول: لو وُلّيت لعدلت، فهو بالوصف باللسان وسيع، وبالفعل ضيّق، لأن ذلك العالَم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه، ويعِدُون أنّ لوُلّوا باعتماده وفعله، لا تجدُ في الألف منهم واحداً لو وُلّيَ لعدل. ولكنه قول بغير عمل.

ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول، وهو وجوب الحقّ له وعليه، فقال: إنه لا يجرى لأحدٍ إلا وجرى عليه، وكذلك لا يجري عليه إلا وجرى له، أي ليس ولا واحد من الموجودين بمرتفع عن أن يجري الحق عليه، ولو كان أحدٌ من الموجودين كذلك لكان أحقّهم بذلك الباريء

سبحانه، لأنَّه غايةُ الشرف، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتمام، وهو مالك الكلّ، وسيّد الكلّ، فلو كان لجواز هذه القضية وجه، ولصحتها مساغ، لكان الباريء تعالى أوْلَى بها، وهي ألاّ يُستحقّ عليه شيء، وتقدير الكلام: لكنّه يُستحقّ عليه أمور، فهو في هذا الباب كالواحد منّا يَستحقّ ويُستحقّ عليه، ولكنّه عليه السلام حذف هذا الكلام المقدّر، أدباً وإجلالاً لله تعالى أن يقول: إنه يُستحق عليه شيء.

فإن قلت: فما بالُ المتكلّمين لا يتأدّبون بأدبه عليه السلام! وكيف يطلقون عليه تعالى الوجوب والاستحقاق!

قلت: ليست وظيفة المتكلّمين وظيفةَ أمير المؤمنين عليه السلام في عباراتهم، هؤلاء أربابُ صناعة، وعلم يحتاج إلى ألفاظ واصطلاح لا بدَّ لهم من استعماله، للإفهام والجدل بينهم، وأميرُ المؤمنين إمام يخطب على منبره، يخاطب عرباً ورعيّة ليسوا من أهل النظر، ولا مخاطبتُه لتعليم هذا العلم، بل لاستنفارهم إلى حرْب عدوّه، فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقّى كلّ لفظة توهم ما يستهجنه السامع في الأمور الإلٰهية وفي غيرها.

فإن قلت: فما هذه الأمور التي زعمتَ أنها تُستحقّ على الباريء سبحانه، وأن أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ، واللفظ يقتضيها؟

قلت: الثواب، والعوض، وقبول التوْبة، واللّطف، والوفاء بالوعد، والوعيد، وغير ذلك مما يذكُره أهلُ العدل.

فإن قلت: فما معنى قوله: «لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلْقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كلّ ما جرتْ عليه صروفُ قضائه»؟ وهب أنّ تعليل عدم استحقاق شيء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح، كيف يصحّ تعليلُ ذلك بعدله في كلّ ما جرت عليه صروف قضائه؟ ألا ترى أنّه ليس بمستقيم أن تقول لا يُستحق على الباريء شيء، لأنه عادل، وإنّما المستقيم أن تقول لا يُستحقّ عليه شيء، لأنّه مالك، ولذلك عللّت الأشعَريّة هذا الحكم بأنّه مالك الكلّ، والاستحقاق إنّما يكون على مَنْ دونه.

قلت: التعليل صحيح، وهو أيضاً مما عللّت به الأشعريّة مذهبها، وذلك لأنه إنما يتصوّر الاستحقاق على الفاعل المختار إذا كان ممّن يتوقّع منه أو يصحّ منه أن يظلم، فيمكن حينئذ أن يقال: قد وجب عليه كذا، واستُحقّ عليه كذا، فأمّا من لا يمكن أن يظلم، ولا يتصوّر وقوع الظلم منه، ولا الكذب، ولا خلف الوعد والوعيد، فلا معنى لإطلاق الوجوب والاستحقاق عليه، كما لا يقال: كذا الداعي الخالص يستحقّ عليه أن يفعل ما دعاه إليه الداعي، ويجب عليه أن يفعل ما دعاه إليه الداعي، مثل الهارب من الأسد، والشديد العطش إذا وجد الماء، ونحو ذلك.

فإن قلت: أليس يُشعر قوله عليه السلام: «وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلاً منه» بمذهب البغداديين من أصحابكم، وهو قولهم: إن الثواب تفضّل من الله سبحانه، وليس بواجب!

قلت: لا، وذلك لأنّه جعل المتفضَّل به، هو مضاعفة الثواب، لا أصل الثواب، وليس ذلك بمستنكَر عندنا.

فإن قلت: أيجوز عندكم أن يستحقّ المكلفّ عشرة أجزاء من الثّواب فيعطي عشرين جزءاً منه؟ أليس من مذهبكم أنّ التعظيم والتبجيل لا يجوز من البارىء سبحانه أن يفعلهما في الجنة إلا على قدر الاستحقاق، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل؟ فكيف قلت: إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة!

قلت: مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقّة من النعيم واللذة الجسمانية خاصة في الجنّة، فسمّى تلك اللذة الجسمانية ثواباً لأنّها جزء من الثواب، فأمّا اللذة العقلية فلا يجوز مضاعفتها.

قوله عليه السلام: «بما هو من المزيد أهله»، أي بما هو أهله من المزيد، فقدّم الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال، وفيه دلالة على أنّ حال المجرور تتقدّم عليه، كما قال الشاعر:

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ الماء حَرّانَ صادياً ... إليّ حبيباً إنّها لحبيبُ

الأصل: ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِن حُقُوقِهِ حُقُوقاً ٱفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَلاَ يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ.

وَأَعْظَمُ مَا ٱفْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ ٱلْوَالِي عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ ٱلرَّعِيَّةِ عَلَى ٱلْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ ٱلرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاَحِ ٱلْوُلاَةِ، وَلاَ تَصْلُحُ ٱلْوُلاَةُ إِلاَّ بِٱسْتِقَامَةِ ٱلرَّعِيَّةِ، فَإِذَا أَدَّتِ ٱلرَّعِيَّةُ إِلَى ٱلْوَالِي حقَّهُ، وَأَدَّى ٱلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا، عَزَّ ٱلْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ ٱلدِّينِ، وَٱعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلاَلِهَا ٱلسُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذَلِكَ ٱلزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ ٱلدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ ٱلْأَعْدَاءِ.

وَإِذَا غَلَبَتِ ٱلرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أَوْ أَجْحَفَ ٱلْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، ٱخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ ٱلْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ ٱلْجَوْرِ، وَكَثُرَ ٱلْإِدْغَالُ فِي ٱلدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ ٱلسُّنَنِ، فَعُمِلَ بِٱلْهَوَى، وَعُطِّلَتِ ٱلْأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ ٱلنُّفُوسِ، فَلاَ يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلاَ لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ، فَهُنَالِكَ تَذِلُّ ٱلْأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ ٱلْأَشْرَارُ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ ٱلْعِبَادِ.

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنِ ٱشْتَدَّ عَلَى رِضَا ٱللهِ حِرْصُهُ، وَطَالَ فِي ٱلْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ، بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ، مِنَ ٱلطَّاعَةِ لَهُ. وَلَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ ٱلنَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَٱلتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ بَيْنَهُمْ، وَلَيْسَ ٱمْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي ٱلْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْ فِي ٱلدِّينِ فَضِيلَتُهُ، بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ مِنْ حَقِّهِ، وَلاَ ٱمْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ ٱلنُّفُوسُ، وَٱقْتَحَمَتْهُ ٱلْعُيُونُ، بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ.

الشرح: تتكافأ في وجوهها: تتساوى وهي حقّ الوالي على الرعيّة، وحق الرعيّة على الوالي.

وفريضة، قد روي بالنصب وبالرفع، فمن رفع فخبر مبتدأ محذوف، ومن نصب فبإضمار فعل، أو على الحال.

وجرت على أذلالها السّنن، بفتح الهمزة، أي على مجاريها وطرقها.

وأجحف الوالي برعيّته: ظلمهم.

والإدغال في الدين: الفساد.

ومحاجّ السنن: جمع محجّة، وهي جادّة الطريق.

قوله: «وكثرت عِلَل النفوس»، أي تعلّلها بالباطل. ومن كلام الحجّاج: إيّاكم وعلل النفوس، فإنّها أدْوَى لكم من علل الأجساد.

واقتحمته العُيون: احتقرته وازدرته، قال ابن دُريد:

وَمِنْـهُ مَـا تَـقْـتَـحِـمُ ٱلْـعَـيْـنُ فَـإِنْ ذُقْـتَ جَـنَـاهُ سَـاغَ عَـذْبـاً فـي الـلّـهـا

ومثل قوله عليه السلام: «وليس امرؤ وإن عظمت في الحقّ منزلته»، قول زيد بن عليّ عليه السلام لهشام بن عبد الملك: إنه ليس أحدٌ وإنْ عظمت منزلته بفوقٍ أن يُذَكَّر بالله، ويحذَّر من سطوته، وليس أحدٌ وإن صغُر بدونٍ أن يذكِّر بالله ويخوّف من نقمته.

ومثل قوله عليه السلام: «وإذا غلبت الرعيّة واليَها» قولُ الحكماء: إذا علا صوت بعض الرعيّة على الملك فالملك مخلوع، فإن قال: نعم، فقال أحدٌ من الرعيّة: لا، فالملك مقتول.

وقد جاء في وجوب الطاعة لأولي الأمر الكثير الواسع، قال الله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(١).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ : «السمع والطاعة على المرء المسلِم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمَر بمعصية، فإذا أمِر بها فلا سمعَ ولا طاعة»(١).

وعنه ﷺ : «إن أمِّر عليكم عبدٌ أسودَ مجدّع فاسمعوا له وأطيعوا»(٢).

ومن كلام علي عليه السلام : «إنّ الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجَرة»(٣).

بعث سعد بن أبي وقاص جَرير بنَ عبد الله البَجَليّ من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة، فقال له عمر: كيف تركت الناس؟ قال: تركتهم كقِداح الجُعْبة، منها الأعصل الطائش، ومنها القائم الرائش. قال: فكيف سَعْدٌ لهم؟ قال: هو ثِقافها، الّذي يقيم أوَدَها، ويغمز عَصَلها. قال: فكيف طاعتهم؟ قال: يصلّون الصلاة لأوقاتها، ويؤدون الطاعة إلى ولاتها. قال: الله أكبر! إذا أقيمت الصلاة، أدِّيت الزكاة، وإذا كانت الطاعة، كانت الجماعة.

ومن كلام أبَرْويز الملك: أطعْ مَنْ فوقك يُطعك مَنْ دونك.

ومن كلام الحكماء: قلوب الرعيّة خزائن واليها، فما أودعه فيها وجَده.

وكان يقال: صنفان متباغضان متنافيان: السلطان والرعيّة، وهما مع ذلك متلازمان، إن صَلَحَ أحدهما صلح الآخر، وإن فسد فسد الآخر.

وكان يقال: محلّ الملك من رعيّته محلّ الروح من الجسد، ومحلّ الرعيّة منه محلّ الجسد من الرّوح، فالروح تألَم بألم كلّ عضو من أعضاء البدن، وليس كلّ واحدٍ من الأعضاء يألم بألم غيره، وفساد الروح فساد جميع البدن، وقد يفسد بعضُ البدن وغيره من سائر البدن صحيح.

وكان يقال: ظلم الرعية استجلاب البليّة.

وكان يقال: العَجَب ممّن استفسد رعيته، وهو يعلم أن عزّه بطاعتهم!

وكان يقال: موت الملك الجائر خِصْب شامل.

---

(١) أخرج البخاري قريباً منه في كتاب: الجهاد والسير، باب: السمع والطاعة للإمام (٢٩٥٥)، ومسلم في كتاب: الإمارة باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها (١٨٣٩)، والترمذي في كتاب: الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (١٧٠٧)، والنسائي في كتاب: البيعة، باب: جزاء من أمر بمعصية فأطاع (٤٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء من غير معصية (١٨٣٨)، والترمذي في كتاب: الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في طاعة الإمام (١٧٠٦)، وابن ماجه في كتاب الجهاد، باب: طاعة الإمام (٢٨٦١).

(٣) أخرجه مولى محمد صالح في شرح أصول الكافي: ٨/ ٢٤٠.

وكان يقال: لا قحْط أشدّ من جوْر السلطان.

وكان يقال: قد تعامَل الرعية المشمئزّة بالرفق، فتزول أحقادها، ويذلّ قيادها، وقد تعامَل بالخُرْق فتكاشف بما غيبت، وتقدم على ما عيبت، حتى يعود نفاقها شِقاقاً، ورذاذها سيلاً بُعاقاً. ثم إن غَلَبت وقهرت فهو الدّمار، وإن غُلبِت وقُهِرت لم يكن بِغلَبها افتخار، ولم يدرَك بقهرها ثار.

وكان يقال: الرعية وإن كانت ثماراً مجتناة، وذخائر مقتناة، وسيوفاً منتضاة، وأحراساً مرتضاة، فإن لها نفاراً كنفار الوحوش، وطغياناً كطغيان السيول، ومتى قَدَرَتْ أن تقول قدرت على أن تصول.

وكان يقال: أيدي الرعيّة تبع ألسنتها، فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبَها فتحبه، ولن تحبه حتى يعدل عليها في أحكامه عدلاً يتساوى فيه الخاصة والعامة، وحتى يخفّف عنها المؤن والكلف، وحتى يعفيهَا من رفع أوضاعها وأراذلها عليها، وهذه الثالثة تحقد على الملك العِلْية من الرعية، وتطمع السفلة في الرتب السنية.

وكان يقال: الرعية ثلاثة أصناف: صِنْف فضلاء مرتاضون بحكم الرياسة والسياسة، يعلمون فضيلة الملِك وعظيم غَنائه، ويرثُون له من ثقل أعبائه، فهؤلاء يحصِّل الملك موادّاتهم بالبِشر عند اللقاء، ويلقّى أحاديثهم بحسن الإصغاء. وصِنْف فيهم خير وشرّ ظاهران، فصلاحهم يكتسَب من معاملتهم بالترغيب والترهيب، وصِنْف من السفلة الرّعاع أتباع لكلّ داعٍ، لا يمتحَنون في أقوالهم وأعمالهم بنقْد، ولا يرجعون في الموالاة إلى عقد.

وكان يقال: ترك المعاقبة للسفلة على صغار الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظائم، ألا ترى أول نشُور المرأة كلمة سومحت بها، وأوّل حِران الدابّة حَيْدة سوِعدت عليها.

ويقال: إنّ عثمان قال يوماً لجلسائه، وهو محصور في الفتنة: ودِدْت أنّ رجلاً صدوقاً أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء! فقام إليه فتًى فقال: إنّي أخبرك، تطأطأتَ لهم فركبوك، وما جرّأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك. قال: صدقت، فهل تعلم ما يُشبّ نيران الفتن! قال: نعم، سألتُ عن ذلك شيخاً من تَنُوخ كان باقعة، قد نقّب في الأرض وعلم علماً جمًّا، فقال: الفتنة يثيرها أمران: أثَرَة تُضغِنُ على الملك الخاصّة، وحلم يجزّىء عليه العامّة. قال: فهل سألته عمّا يخمِدها؟ قال: نعم، زعم أن الذي يخمدها في ابتدائها استقالة العَثْرة وتعميم الخاصة بالأثَرة، فإذا استحكمت الفتنة أخمدها الصبر. قال عثمان: صدقت، وإنّي لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. ويقال: إن يَزْدَجرد بن بهرام سأل حكيماً: ما صلاح الملك؟ قال: الرفق بالرعيّة، وأخذ الحقّ منها بغير عنف والتودّد إليها بالعدل وأمن السبُل

وإنصاف المظلوم. قال: فما صلاح الملك؟ قال: وزراؤه، إذا صَلَحوا صَلَح. قال: فما الذي يثير الفتن؟ قال: ضغائن يظهرها جرأة عامّة، واستخفاف خاصة، وانبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق موسر، وأمن مُعْسر، وغفلة مرزوق، ويقظة محروم. قال: وما يسكِنُها؟ قال: أخذ العدّة لما يخاف، وإيثار الجد حين يلتذ الهزل، والعمل بالحزم، وإدراع الصبر، والرضا بالقضاء.

وكان يقال: خير الملوك مَنْ أشرَب قلوب رعيته محبتَه، كما أشعرها هيبتَه، ولن يُنال ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء: إكرام شريفها، ورحمة ضعيفها، وإغاثة لهيفها، وكفّ عدوان عدوّها، وتأمين سبُل رواحها وغدوّها، فمتى أعدمها شيئاً من ذلك، قد أحقَدها بقدر ما أفقدها.

وكان يقال: الأسباب التي تجرّ الهلك إلى الملْك ثلاثة:

أحدها من جهة الملِك، وهو أن تتأمّر شهواتُه على عقله، فتَستهويه نَشَوات الشّهوات فلا تسنَح له لذّة إلا اقتنصها، ولا راحة إلا افترصها.

والثاني من جهة الوزراء، وهو تحاسدهم المقتضي تعارض الآراء، فلا يسبق أحدُهم إلى حقّ إلا كُويد وعُورض وعُوند.

والثالث من جهة الجند المؤهلين لحراسة الملك والدّين، وتوهين المعاندين وهو نُكولهم عن الجلاد، وتضجيعهم في المناصحة والجهاد، وهم صنفان: صنف وسّع الملك عليهم فأبطرهم الإتراف، وضنّوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف، وصنف قَدر عليهم الأرزاق، فاضطغنوا الأحقاد واستشعروا النفاق.

أخبار في العدل والإنصاف

قوله عليه السلام: «أو أجحف الوالي برَعِيَّته»، قد جاء من نظائره الكثير جداً، وقد ذكرنا فيما تقدّم نكتاً حسنة في مدح العدل والإنصاف، وذمّ الظلم والإجحاف. وقال النبي صلى الله عليه وآله: «زيّن الله السماء بثلاثة: الشمس، والقمر، والكواكب. وزيّن الأرض بثلاثة: العلماء، والمطر، والسّلطان العادل».

وكان يقال: إذا لم يعمّر الملك ملكه بإنصاف الرعيّة خرب ملكه بعصيان الرعيّة.

وقيل لأنوشروان: أيّ الجُنن أوقى؟ قال: الدّين، قيل: فأيّ العُدَد أقوى؟ قال: العدل.

وقّع جعفر بن يحيى إلى عامل من عمّاله: كَثُر شاكوك، وقلّ حامدوك، فإمّا عدلت، وإمّا اعتزلت.

وُجد في خزانة بعض الأكاسرة سَفَط، ففُتح فوجد فيه حبّ الرمان، كل حبة كالنواة الكبيرة من نوى المشمش، وفي السَّفَط رُقعة فيها: هذا حبّ رمان عملنا في خراجه بالعدل.

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب متظلّماً، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا مكان العائذ بك. قال له: عذتَ بمعاذ، ما شأنك، قال: سابقتُ ولد عمرو بن العاص بمصرَ فسبقتُه، فجعل يعنّفني بسوطه، ويقول: أنا ابن الأكرمين! وبلغ أباه ذلك، فحبسني خشية أن أقدُم عليك، فكتب إلى عمرو: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وابنُك. فلمّا قدم عمرو وابنه، دفع الدِّرة إلى المصريّ، وقال: اضربه كما ضرَبك، فجعل يضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأمير، اضرب ابن الأمير! يردّدها، حتى قال: يا أميرَ المؤمنين قد استقدتُ منه، فقال - وأشار إلى عمرو: ضعْها على صَلْعَته، فقال المصريّ: يا أمير المؤمنين، إنما أضرب مَنْ ضربني، فقال: إنّما ضربك بقوّة أبيه وسلطانه، فاضربه إن شئت، فوالله لو فعلتَ لما منعك أحدٌ منه، حتى تكون أنت الذي تتبرع بالكفّ عنه! ثم قال: يابن العاص، متى تعبّدتم الناسَ وقد ولدتهمْ أمّهاتهمْ أحراراً!

خطب الإسكندر جنده، فقال لهم بالروميّة كلاماً تفسيره: يا عبادَ الله، إنما إلٰهكم الله الذي في السماء، الذي نصرنا بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب. والله لا يبلغني أن الله أحبّ شيئاً إلا أحببتُه وعملت به إلى يوم أجلي، ولا يبلغني أنه أبغض شيئاً إلا أبغضتُه وهجرته إلى يوم أجلي. وقد أنبِئت أن الله يحبّ العدل في عباده، ويُبغض الجور، فويل للظالم من سوطي وسيفي! ومَنْ ظهر منه العدل من عمّالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء، وليتمنّ عليّ ما شاء، فلن تخطئهُ أمنيّتُه والله المجازي كلاً بعمله.

قال رجلٌ لسليمان بن عبد الملك وهو جالس للمظالم: يا أميرَ المؤمنين، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١)! قال: ما خطبك؟ قال: وكيلك اغتصبني ضيْعتي وضمّها إلى ضيعتك الفلانية. قال: فإنّ ضيعتي لك، وضيعتكَ مردودة إليك. ثم كتب إلى الوكيل بذلك، وبصرْفه عن عمله.

ورقِيَ إلى كسرى قُباذ أن في بطانة الملك قوماً قد فسدت نياتهم، وخَبُثت ضمائرهم، لأنّ أحكام الملك جَرَت على بعضهم لبعضهم، فوقّع في الجواب: أنا أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالهوى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر.

وتظلم أهل الكوفة إلى المأمون مِنْ واليهم، فقال: ما علمت في عمالي أعدلَ ولا أقومَ بأمر الرعية، ولا أعْودَ عليهم بالرفق منه. فقال له منهم واحد: فلا أحد أولَى منك يا أمير المؤمنين

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.

بالعدل والإنصاف، وإذا كان بهذه الصفة فمن عدل أمير المؤمنين أن يولّيه بلداً بلداً، حتى يلحق أهلَ كلّ بلدٍ من عدله، مثل ما لحقنا منه، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سواهم، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثرُ من ثلاث سنين. فضحك وعزله.

كتب عديّ بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن قبَلنا قوماً لا يؤدّون الخراج إلا أن يمسَّهم نَصَبٌ من العذاب، فاكتب إلى أمير المؤمنين برأيك. فكتب: أما بعد، فالعجبُ لك كلّ العجب! تكتب إليّ تستأذنني في عذاب البشَر، كأن إذني لك جُنَّة من عذاب الله، أو كأنّ رضاي ينجيك من سَخَط الله! فمَنْ أعطاك ما عليه عفواً فخذ منه، ومن أبى فاستحلِفه، وكِلْه إلى الله، فلأن يلقَوُا الله بجرائمهم أحبُّ إليّ من أن ألقاه بعذابهم.

فُضَيل بن عياض: ما ينبغي أن تتكلّم بفيك كلّه! أتدري من كان يتكلم بفيه كله! عمر بن الخطاب كان يعدل في رعيّته، ويجور على نفسه، ويطعمهم الطيب، ويأكل الغليظ، ويكسوهم اللين ويلبس الخشن، ويعطيهم الحق ويزيدهم، ويمنع ولده وأهله، أعطى رجلاً عطاءه أربعة آلاف درهم، ثم زاده ألفاً، فقيل له: ألا تزيد ابنك عبد الله كما تزيد هذا؟ فقال: إن هذا ثبّت أبوه يوم أحُد، وإن عبد الله فرّ أبوه ولم يثبت.

وكان يقال: لا يكونُ العُمْران، إلاّ حيث يعدل السلطان.

وكان يقال: العدل حصن وثيق، في رأس نِيق، لا يحطّمه سيلٌ، ولا يهدمهِ منجنيق.

وقّع المأمون إلى عامل كثر التظّلم منه: أنصفْ مَنْ وليت أمرهم، وإلاّ أنصفهم منك مَنْ وليَ أمرَك.

بعض السلف: العدْل ميزان الله، والجور مكيال الشيطان.

٢١٠ - ومن كلام له عليه السلام رد على رجل أكثر الثناء عليه

الأصل: فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه، ويذكر سمعه وطاعته له، فقال عليه السلام: إِنَّ مِنْ حَقِّ من عَظُمَ جَلاَلُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ - لِعِظَمِ ذٰلِكَ - كلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذٰلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعمَةُ ٱللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُف إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ ٱللهِ عَلَى أَحَدٍ، إِلاَّ ٱزْدَادَ حَقُّ ٱللهِ عَلَيْهِ عِظَماً.

وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالاَتِ ٱلْوُلاَةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ ٱلْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى ٱلْكِبْرِ. وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ ٱلإِطْرَاءَ، وَٱسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ،

وَلَسْتُ بِحمْدِ ٱللهِ كَذٰلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَال ذٰلِكَ لَتَرَكْتُهُ ٱنْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ ٱلْعَظَمَةِ وَٱلْكِبْرِيَاء.

وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ ٱلْبَلاَءِ، فَلاَ تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ البَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لاَ بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلاَ تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ ٱلْجَبَابِرَةُ، وَلاَ تَتَحَفَّظُوا بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَادِرَةِ، وَلاَ تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلاَ تَظُنُّوا بِيَ ٱسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلاَ ٱلْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ ٱسْتَثْقَلَ ٱلْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ، أَو ٱلْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ ٱلْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ.

فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِىءَ، وَلاَ آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ ٱللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّما أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لاَ نَمْلِك مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحنَا عَلَيْهِ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلاَلَةِ بِالْهُدَى، وَأَعْطَانَا ٱلْبَصِيرَةَ بَعْدَ ٱلْعَمَى.

الشرح: هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلُها أن تشرَح، ففيه معانٍ مختلفة سبيلها أن تذكر وتوضّح، وتذكر نظائرها وما يناسبها.

فمنها قوله عليه السلام: إنّ من حقّ مَنْ عَظُمت نعمة الله عليه أن تعظُم عليه حقوق الله تعالى، وأنْ يعظُم جلال الله تعالى في نفسه، ومن حقّ مَنْ كان كذلك، أن يصغُر عنده كلُّ ما سوى الله.

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين، وهو استحقار كلّ ما سوى الله تعالى، وذلك أنّ مَنْ عرف الله تعالى فقد عرف ما هو أعظمُ من كلّ عظيم، بل لا نسبة لشيء مِن الأشياء أصلاً إليه سبحانه. فلا يظهر عند العارف عظمةُ غيره البتّة، كما أنّ مَنْ شاهد الشمس المنيرة يستحقر ضوء القمر والسراج الموضوع في ضوء الشمس، حال مشاهدته جرْم الشمس، بل لا تظهر له في تلك الحال صنوبرة السراج، ولا تنطبع صورتُها في بصره.

ومنها قوله عليه السلام: منْ أسخَف حالات الولاة أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويوضع أمرهم على الكِبْر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنّة مَنْ كان في قلبه مثقال حبّة من كِبْر»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١)، والترمذي في كتاب: البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٩٩٨)، وأبو داود في كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٩١)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٣).

وقال ﷺ : «لولا ثلاث مهلِكات لصلَح الناس: شحٌّ مطاع، وهوًى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه»[(١)].

وكان يقال: ليس لمعجَبٍ رَأي، ولا لمتكبّر صديق.

وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول: ما تاه إلا وضيع، ولا فاخر إلا لقيط، ولا تعصّب إلا دخيل.

وقال عمر لبعض ولده: التمس الرفعة بالتّواضع، والشّرف بالدين، والعفو من الله بالعفو عن الناس. وإياك والخُيَلاء فتضعَ من نفسك، ولا تحقِرنّ أحداً، لأنك لا تدري لعلّ مَنْ تزدَرِيه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك.

ومنها قوله عليه السلام : قد كرهتُ أن تظنّوا بي حبّ الإطراء واستماع الثناء. قد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «احثُوا في وجوه المدّاحين التراب»[(٢)]. وقال عمر: المدح هو الذبح.

وكان يقال: إذا سمعتَ الرّجُل يقول فيك من الخير ما ليس فيك، فلا تأمن أن يقول فيك من الشرّ ما ليس فيك.

ويقال: إنّ في بعض الكتب المنزّلة القديمة: عَجَباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ولمن قيل فيه الشرّ وليس فيه كيف يغضب! وأعجب من ذلك مَنْ أحبّ نفسه على اليقين، وأبغض النّاس على الظنّ.

وكان يقال: لا يغلبنّ جهلُ غيرك بك علمَك بنفسك.

وقال رجل لعبد الملك: إنّي أريد أن أسِرّ إليك يا أمير المؤمنين شيئاً، فقال لمنْ حولَه: إذا شئتم فانهضوا! فتقدّم الرجل يريد الكلام، فقال له عبد الملك: قِفْ، لا تمدحْني فإنّي أعلمُ بنفسي منك، ولا تكذبْنِي فإنّه لا رأي لمكذوب، ولا تغتبْ عندي أحداً، فإنّي أكره الغيبة، قال: أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف! قال: إذا شئت.

وناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجانيّ في مسألةٍ كلاميّة، فجعل النّوشجاني يخضع في الكلام، ويستخذِي له، فقال: يا محمد، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجّة لي عليك.

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٣٣٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط (٣٠٠٢)، والترمذي في كتاب: الزهد عن رسول الله ﷺ ، باب: ما جاء في كراهية المرحة والمداحين (٢٣٩٣)، وأبو داود في كتاب: الأدب، باب: في كراهية التمادح (٤٨٠٤)، وابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: المدح (٣٧٤٢)، وأحمد في كتاب: باقي مسند الأنصار (٢٣٣١٢) واللفظ له.

وقد ساءني منك ذلك، ولو شئت أن أفسّر الأمور بعزّة الخلافة، وهيبة الرياسة لصدِّقت وإن كنت كاذباً، وعدِّلت وإن كنت جائراً، وصوِّبت وإن كنت مخطئاً، ولكنّي لا أقنع إلا بإقامة الحجّة، وإزالة الشّبهة، وإن أنقص الملوك عقلاً، وأسخفهم رأياً مَنْ رضيَ بقولهم: صدق الأمير!

وقال عبد الله بن المقفّع في «اليتيمة»[1]: إياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حبّ المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثّلم يقتحمون عليك منها، وباباً يفتتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها، ويسخرون منك لها. واعلم أنّ قابل المدح كمادحِ نفسه، وأن المرء جديرٌ أن يكون حُبُّه المدح هو الذي يحملُه على ردّه، فإنّ الرادّ له ممدوح، والقابِل له مَعِيب.

وقال معاوية لرجل: مَنْ سَيّد قومك؟ قال: أنا، قال: لو كنتَ كذلك لم تقله.

وقال الحسن: ذمُّ الرّجل نفسَه في العلانية مدحٌ لها في السرّ.

كان يقال: مَنْ أظهر عيب نفسه فقد زكّاها.

ومنها قوله عليه السلام: لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من الكبرياء. في الحديث المرفوع: «مَنْ تواضع لله رفعه الله، ومَنْ تكبر خفضه الله»[2].

وفيه أيضاً: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمتُه[3].

ومنها قوله عليه السلام: «فلا تكلموني بما تكلَّم به الجبابرة، ولا تتحفّظُوا منّي بما يتحفظ به عند أهل البادرة».

أحسن ما سمعتُه في سلطان لا تخاف الرعية بادرتَه، ولا يتلجلج المتحاكمون عنده، مع سطوته وقوته، لإيثاره العدل. قول أبي تمام في محمد بن عبد الملك:

---

(١) واسمها الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة وهو كتاب: لم يصنف في فنه مثله لحصه بعض المتصوفة وسماه عظة الألباب وذخيرة الاكتساب ا. هـ «كشف الظنون» (١/ ٧٤٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٢٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ١١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٤٤).

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٦/ ٢٦٥.

وزيـرُ حَـقٍّ، ووالِـي شُـرْطَـةٍ ورحَـا ... ديوانِ مُلْكٍ، وشيعيٌّ، ومحتَسِبُ
كالأرحبيّ المذكّي سَيْرُه المرَطَى ... والوخْدُ والمَلْعُ والتَّقْرِيبُ والخَبَبُ
عَـوْدٌ تـسـاجـلُـه أيّـامـه فـبِـهَـا ... مِـنْ مَـسّـه وبِـه مِـنْ مَـسّـهَـا جُـلَـبُ
ثَبْت الخِطاب إذا اصْطَكّت بمظلَمةٍ ... فـي رَحْـلِـه ألْـسُـن الأقـوام والـرّكَـبُ
لا المنطق اللَّغْوُ يَزْكُو في مَقَاوِمِهِ ... يوماً، ولا حجة الملهوف تُسْتَلَبُ
كـأنّـمـا هُـوَ فـي نـادي قَـبِـيلَـتِـه ... لاَ ٱلْقَلْبُ يَهْفُو ولا الأحْشَاءُ تَضْطَرِبُ

ومن هذا المعنى قول أبي الجهم العدَوِيّ، في معاوية:

نُـقَـلِّـبُـهُ لِـنَـخْـبُـرَ حـالـتَـيْـهِ ... فـنـخـبـر مـنـهـمـا كَـرَمـاً وَلِـيـنـا
نـمـيـلُ عـلـى جـوانِـبِـهِ كـأنّـا ... إذا مِـلْـنَـا نـمـيـلُ عَـلَـى أبـيـنـا

ومنها قوله عليه السلام: لا تظنوا بي استثقالَ رفع الحقّ إليّ، فإنه مَن استثقل الحق أن يقال له، كان العملُ به عليه أثقلَ[1].

هذا معنى لطيف، ولم أسمع فيه شيئاً منثوراً ولا منظوماً.

ومنها قوله عليه السلام: ولا تكفّوا عن قول بحقّ أو مشورة بعدل[2].

قد ورد في المشورة شيء كثير: قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[3].

وكان يقال: إذا استشرت إنساناً صار عقله لك.

وقال أعرابيّ: ما غُبِنت قطّ حتى يُغْبَن قومي، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورَهم.

وكان يقال: من أعطي الاستشارة لم يمنَع الصواب، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرَة، ومنْ أعطي التوبة لم يمنع القبول، ومن أعْطي الشكر لم يمنَع المزيد.

وفي آداب ابن المقفّع: لا يُقذَفنّ في رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظَهر منك للناس حاجتك إلى رأي غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة، فإنّك لا تريد الرأي للفخْر، ولكن للانتفاع

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٥٤.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٧/ ٢٥٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

به، ولو أنّك أردته للذكْر لكان أحسنَ الذكر عند العقلاء أن يقال: إنه لا ينفرد برأيه دون ذوِي الرأي من إخوانه.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله: عَلَيْسَلِارْ: «وربّما استحلَى النّاسُ الثّناء بعد البلاء...» إلى قوله: «لا بدّ من إمْضائها»؟ فنقول: إنّ معناه أن بعض مَنْ يكره الإطراء والثناء، قد يحبّ ذلك البلاء والاختبار، كما قال مرْدَاس بن أديّة لزياد: إنّما الثناء بعد البلاء، وإنما نثني بعد أن نبتلي، فقال: لو فرضنا أن ذلك سائغ وجائز وغير قبيح، لم يجزْ لكم أن تثنوا عليّ في وجهي، ولا جاز لي أن أسمعه منكم، لأنه قد بقيتْ عليّ بقيّة لم أفرُغ من أدائها، وفرائض لم أمْضِها بعد، ولا بدّ لي من إمضائها، وإذا لم يتمّ البلاء الذي قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده، لم يحسن الثناء.

ومعنى قوله: «لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم» أي لاعترافي بين يدي الله وبمحضر منكم أن عليّ حقوقاً في إيالتكم، ورياستي عليكم، لم أقم بها بعد، وأرجو من الله القيام بها.

ومنها أن يقال: ما معنى قوله: «فلا تخالطوني بالمصانعة»؟ فنقول: إن معناه لا تصانعوني بالمدح والإطراء عن عمل الحق، كما يصانَع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم الإطراء والثناء، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأة لما صونعوا به من التقريظ والتزكية والنفاق.

ومنها قوله عَلَيْسَلِارْ: «فإنّي لست بفوْقِ أن أخطىء»، هذا اعتراف منه عَلَيْسَلِارْ بعدم العصمة، فإمّا أن يكون الكلام على ظاهره، أو يكون قاله على سبيل هضم النفس، كما قال رسول الله ﷺ: «ولا أنا إلا أن يتداركَني الله برحمته»[1].

ومنها قوله عَلَيْسَلِارْ: «أخرجنا مما كنا فيه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى». ليس هذا إشارة إلى خاصّ نفسه عَلَيْسَلِارْ، لأنه لم يكن كافراً فأسلم، ولكنه كلام يقوله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المرضى، باب: تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، ومسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحدكم الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوفي على العمل (٤٢٠١)، وأحمد في كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٧١٦٢).

ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس، فيأتي بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسُّعاً، ويجوز أن يكون معناه: لولا ألطافُ الله تعالى ببعثه محمد ﷺ لكنت أنا وغيري على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام، كما قال تعالى لنبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[1] ليس معناه أنه كان كافراً، بل معناه: لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحدٍ من قومك. ومعنى «ووجدك ضالاً»، أي ووجدك بعُرْضة للضلال، فكأنه ضالّ بالقوة لا بالفعل.

٢١١ - ومن كلام له عليه السلام يشكو فيه أمر قريش

الأصل: اَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَؤُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي اَلْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي اَلْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً.

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ، وَلاَ ذَابٌّ وَلاَ مُسَاعِدٌ، إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ اَلْمَنِيَّةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى اَلْقَذَى، وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ اَلْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ اَلْعَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ.

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَه ٱللهُ: وَقَدْ مَضَى هذا ٱلْكَلامُ في أَثْنَاءِ خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، إِلاّ أَنّي ذَكَرْتُهُ ها هنا لاخْتِلاَفِ الرِّوَايَتَيْن.

الشرح: العدوى: طلبك إلى والٍ ليُعديك على مَنْ ظلمك، أي ينتقم لك منه، يقال: استعديتُ الأميرَ على فلان فأعداني، أي استعنت به عليه فأعانني.

وقطعوا رحمي: وقطعوا قرابتي، أي أجروني مجرى الأجانب ويجوز أن يُريد أنّهم عدّوني كالأجنبيّ من رسول الله ﷺ. ويجوز أن يريد أنّهم جعلوني كالأجنبيّ منهم، لا ينصرونه، ولا يقومون بأمره.

وأكفؤوا إنائي: قلبوه وكبّوه، وحذْف الهمزة من أوّل الكلمة أفصح وأكثر، وقد روي كذلك، ويقال لمن قد أضيعت حقوقه: قد أكفأ إناءَهُ، تشبيهاً بإضاعة اللبن من الإناء.

وقد اختلفت الرواية في قوله: «ألا إنَّ في الحقّ أن تأخذه»، فرواها قوم بالنون، وقوم

(١) سورة الضحى، الآية: ٧.

بالتاء. وقال الراوندي: إنها في خطّ الرضيّ بالتاء. ومعنى ذلك أنّك إن وليت أنت كانت ولايتُك حقًّا، وإن وُلّي غيرُك كانت ولايته حقاً، على مذهب أهل الاجتهاد.

ومن رواها بالنون، فالمعنى ظاهر.

والرافد: المعين. والذابّ: الناصر.

وضننت بهم: بخلت بهم. وأغضيت على كذا: صَبَرت.

وجرِعت بالكسر. والشّجا: ما يعترض في الحلْق.

والوخز: الطعن الخفيف، وروي «من حزّ الشفار» والحزّ: القطع.

والشِّفار: جمع شفْرة، وهي حدّ السيف والسكّين.

واعلم أن هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يناسبه، ويجري مجراه، ولم يؤرَّخ الوقت الذي قاله فيه، ولا الحال التي عَناها به، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه عليه السلام قاله عَقِيب الشّورى وبيعة عثمان، فإنه ليس يرتاب أحدٌ من أصحابنا عَلَى أنّه تظّلم وتألّم حينئذ.

ويكره أكثر أصحابنا حملَ أمثال هذا الكلام على التألّم من يوم السقيفة.

ولقائل أن يقول لهم: أتقولون إن بيعة عثمان لم تكن صحيحة؟ فيقولون: لا، فيقال لهم: فعلَى ماذا تحملون كلامه عليه السلام، مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله؟ فيقولون: نحملُ ذلك على تألّمه وتظلّمه منهم إذا تركوا الأوْلَى والأفضل. فيقال لهم: فلا تكرهوا قول مَنْ يقولُ من الشّيعة وغيرهم: إن هذا الكلام وأمثاله صدَر عنه عقِيب السقيفة، وحملوه على أنّه تألم وتظلّم من كونهم تركوا الأوْلى والأفضل، فإنكم لستم تنكرون أنّه كان الأفضلَ والأحق بالأمر، بل تعترفون بذلك، وتقولون: ساغت إمامة غيره، وصحّت لمانع كان فيه عليه السلام، وهو ما غلب على ظنون العاقدين للأمر من أنّ العرب لا تطيعه، فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولِيَ الخلافة لأسباب يذكرونها، ويعدُّونها، وقد روى كثير من المحدّثين أنّه عقيب يوم السّقيفة تألّم وتظلّم، واستنجد واستصرخ، حيث ساموه الحضور والبيْعة، وأنّه قال وهو يشير إلى القبر: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾(١) وأنّه قال: واجعفراه! ولا جعفر لي اليوم! واحمزتاه ولا حمزة لي اليوم!

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدّم، وكلّ ذلك محمول عندنا على أنّه طلب الأمر من جهة الفضل والقرابة، وليس بدالٍّ عندنا على وجود النصّ، لأنه لو كان هناك نصّ لكان أقلّ كلفةً وأسهلَ طريقاً، وأيسرَ لِمَا يريدُ تناولاً أن يقول: يا هؤلاء إنّ العهد لم يَطُلْ، وإنّ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَكم بطاعتي، واستخلفني عليكم بعده، ولم يقع منه عليه السلام بعد ما علمتموه ونصّ ينسخ ذلك، ولا يرفعه، فما الموجب لتركي، والعدول عني!

فإن قالت الإمامية: كان يخاف القتل لو ذكر ذلك، قيل لهم: فهلا يخاف القتل وهو يعتلّ ويدفع ليبايع، وهو يمتنع، ويستصرخ تارة بقبر رسول الله صلى الله عليه وآله، وتارة بعمّه حمزة وأخيه جعفر - وهما ميتان - وتارة بالأنصار، وتارة ببني عبد مناف، ويجمع الجموع في داره، ويبثّ الرسل والدّعاة ليلاً ونهاراً إلى الناس، يذكّرهم فضله وقرابته، ويقول للمهاجرين: خَصَمْتُم الأنصار بكونكم أقربَ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا أخصِمكم بما خَصَمْتُم به الأنصار، لأن القرابة إن كانت هي المعتبرة، فأنا أقربُ منكم.

وهلاّ خاف من هذا الامتناع، ومن هذا الاحتجاج، ومن الخلوة في داره بأصحابه، ومِنْ تنفير الناس عن البيعة التي عقدت حينئذ لمن عقدت له!

وكلّ هذا إذا تأمّله المنصِف علم أنّ الشيعة أصابتْ في أمرٍ، وأخطأت في أمرٍ، أمّا الأمرُ الذي أصابت فيه فقولها: إنه امتنع وتلكأ، وأراد الأمر لنفسه، وأمّا الأمرُ الذي أخطأت فيه، فقولُها: إنه كان منصوصاً عليه نصًّا جليًّا بالخلافة، تعلمُه الصّحابة كلّها أو أكثرها، وإنّ ذلك النّصّ خولف طلباً للرئاسة الدنيوّية، وإيثاراً للعاجلة. وإنّ حال المخالفين للنصّ لا تعدُو أحدَ أمرين: إمّا الكفر أو الفسق، فإن قرائن الأحوال وأماراتها لا تدلّ على ذلك، وإنّما تدلّ وتشهد بخلافه، وهذا يقتضي أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان في مبدأ الأمر يظنّ أن العقْد لغيره كان عن غير نظر في المصلحة، وأنّه لم يقصَدْ به إلا صرفُ الأمرِ عنه، والاستئثار عليه، فظهر منه ما ظهر من الامتناع والقعود في بيته، إلى أن صحّ عنده، وثبت في نفسه، أنهم أصابوا فيما فعلوه، وأنّهم لم يميلوا إلى هوى، ولا أرادوا الدنيا، وإنما فعلوا الأصلح في ظُنونهم، لأنه رأى من بغض الناس له، وانحرافِهم عنه، وميلهم عليه، وثوران الأحقاد التي كانت في أنفسهم، واحتدام النيران التي كانتْ في قلوبهم، وتذكّروا التّراث التي وَتَرهم فيما قبل بها، والدماء التي سفكها منهم، وأراقها.

وتعلّل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغَر سنّه، واستهجانهم تقديمَ الشّباب على الكهُول والشيوخ.

وتعلّل طائفة أخرى منهم بكراهية الجمع بين النبوّة والخلافة في بيت واحد، فيجفَخُون على الناس كما قاله من قاله. واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تعدّيه وشدته، وعلمهم بأنّه لا يداجِي ولا يحابي، ولا يراقب ولا يجامل في الدّين، وأن الخلافة تحتاج إلى مَنْ يجتهد برأيه، ويعمل بموجب استصلاحه، وانحراف قوم آخرين عنه، للحسد الذي كان عندهم له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، لشدة اختصاصه له، وتعظيمه إياه، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالّة على

رفعة شأنه وعلو مكانه، وما اختصّ به من مصاهرته وأخوّته، ونحو ذلك من أحواله معه، وتنكّرُ قوم آخرين له لنسبتهم إليه العجب والتيه، كما زعموا، واحتقاره العرب، واستصغاره الناس كما عددوه عليه، وإن كانوا عندنا كاذبين، ولكنّه قولٌ قيل، وأمر ذكر، وحال نسبت إليه، وأعانهم عليها ما كان يصدُر عنه من أقوال تُوهم مثل هذا، نحو قوله: «فإنا صنائعُ ربّنا، والناس بعد صنائع لنا»، وما صحّ به عنده أنّ الأمر لم يكن ليستقيم له يوماً واحداً، ولا ينتظم ولا يستمرّ، وأنه لو ولي الأمر لفتقت العرب عليه فتقاً يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه، فأذعن بالبَيْعة، وجنَح إلى الطاعة وأمسك عن طلب الإمْرة، وإن كان على مَضَض ورَمَض.

وقد روي عنه عليه السلام أن فاطمةَ عليها السلام حَرّضته يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوتَ المؤذّن: «أشهد أن محمداً رسول الله»، فقال لها: أيسرّك زوال هذا النداء من الأرض! قالت: لا، قال: فإنّه ما أقول لك.

وهذا المذهب هو أقصَدُ المذاهب وأصحها، وإليه يذهب أصحابنا المتأخرون من البغداديين، وبه نقول.

واعلم أنّ حال علي عليه السلام في هذا المعنى أشهرُ من أن يحتاج في الدلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب، فقد رأيت انتقاضَ العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسٍ وعشرين سنة، وفي دون هذه المدّة تُنسَى الأحقاد، وتموت التّراث، وتبرُد الأكباد الحامية، وتسلُو القلوب الواجدة، ويعدَم قرْنٌ من الناس، ويوجد قَرْن، ولا يبقى من أرباب تلك الشّحناء والبغضاء إلاّ الأقلّ، فكانت حاله بعد هذه المدّة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابنِ عمّه صلى الله عليه وآله، من إظهار ما في النفوس، وهَيَجان ما في القلوب، حتى أنّ الأخلافَ من قريش، والأحداث والفتيان الّذِين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياءً لقصّرت عن فعله، وتقاعست عن بلوغ شأوِه، فكيف كانت تكونُ حاله لو جلس على مِنْبَر الخلافة، وسيفه بعد يقطُر دماً من مُهج العرب، لاسيما قريش الذين بهم كان ينبغي - لو دهمه خطب - أن يعتضد، وعليهم كان يجب أن يعتمد! إذن كانت تدرُس أعلام الملّة وتنعفي رسومُ الشريعة، وتعود الجاهليّة الجهلاء على حالها، ويفسدُ ما أصلحه رسول الله صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين سنة في شهر واحد، فكان من عناية الله تعالى بهذا الدّينِ أنْ ألهم الصحابة ما فعلوه، والله متمّ نوره ولو كره المشركون.

وسألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي يزيد رحمه الله، قلت له: أتقول: إنّ حمزة وجعفراً لو كانا حيّين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله، أكانا يبايعانه بالخلافة؟ فقال: نعم، كانا

أسرع إلى بيعته من النّار في يَبَس العَرْفج. فقلت له: أظنّ أنّ جعفراً كان يبايعه ويتابعه، وما أظنّ حمزة كذلك، وأراه جَبّاراً، قويّ النفس، شديدَ الشّكيمة، ذاهباً بنفسه، شجاعاً بُهمَةً، وهو العمّ والأعلى سِنًّا، وآثاره في الجهاد معروفة، وأظنُّه كان يطلب الخلافة لنفسه!

فقال: الأمر في أخلاقه وسجاياه كما ذكرتَ، ولكنّه كان صاحب دين متين، وتصديقٍ خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولو عاش لرأى من أحوال عليّ عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله ما يوجبُ أن يكسر له نخوَته، وأن يقيمَ له صَعَره، وأن يقدّمه على نفسه، وأن يتوخّى رضا الله ورضا رسوله فيه، وإن كان بخلاف إيثاره.

ثم قال: أين خُلُق حمزة السَّبُعيّ من خُلُق عليّ الروحانيّ اللطيف، الذي جمع بينه وبين خُلق حمزة، فاتّصفت بهما نفسٌ واحدة! وأين هَيُولانيّة نفس حمزة، وخلوها من العلوم من نفس عليّ القُدْسيّة التي أدركت بالفطرة لا بالقوة التعليميّة ما لم تدركه نفوس مدقّقي الفلاسفة الإلهيّين! لو أنّ حمزة حييَ حتّى رأى مِنْ عليّ ما رآه غيره، لكان أتبَع له من ظلّه، وأطوع له من أبي ذر والمقداد!

وأما قولك: هو العمّ والأعلى سِنًّا، فقد كان العباس العمّ والأعلى سنًّا، وقد عرفت ما بذله له وندبه إليه، وكان أبو سفيان كالعمّ، وكان أعلى سنًّا، وقد عرفت ما عرضه عليه. ثم قال: ما زالت الأعمام تخدُم أبناء الإخوة، وتكون أتباعاً لهم، ألست ترى داود بن عليّ، وعبد الله بن عليّ، وصالح بن عليّ، وسليمان بن عليّ، وعيسى بن عليّ، وإسماعيل بن عليّ، وعبد الصمد بن عليّ خَدمُوا ابن أخيهم - وهو عبد الله السّفّاح بن محمد بن عليّ - وبايعوه وتابعوه، وكانوا أمراءَ جيوشِه وأنصاره، وأعوانه! ألستَ ترى حمزة والعباس اتبعا ابن أخيهما صلوات الله عليه، وأطاعاه ورضيا برياسته، وصدَّقا دعوته! ألستَ تعلم أن أبا طالب كان رئيس بني هاشم وشيخَهم، والمطَاع فيهم، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمه ومكفوله، وجارياً مجرى أحد أولاده عنده، ثم خضع له، واعترف بصدقه، ودان لأمره، حتى مدحه بالشعر كما يمدحُ الأدنى الأعلَى، فقال فيه:

وَأَبيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمَامُ بوجْهِهِ ثِمالُ اليتامَى عِصمةٌ للأراملِ
يُطِيفُ به الهلاَّكُ من آل هاشمٍ فهمْ عندَه في نعمةٍ وفواضلِ

وإن سرّاً اختصَّ به محمد صلى الله عليه وآله، حتى أقام أبا طالب - وحاله معه حاله - مقام المادح له، لسرّ عظيم وخاصيّة شريفة، وإنّ في هذا لِمُعْتَبِرٍ عِبْرَةً أن يكون هذا الإنسان الفقير الذي لا أنصارَ له ولا أعوان معه، ولا يستطيع الدّفاع عن نفسه، فضلاً عن أن يقهر غيره، تعمل دعوته وَأقواله في الأنفس ما تعمله الخمْر في الأبدان المعتدلةِ المزاج، حتى تطيعه أعمامُه ويعظّمه مربيّه وكافلُه، ومَنْ هو إلى آخر عمره القيّم بنفقته، وغذاء بدنه، وكسوة جسده، حتى يمدحه بالشعر

كما يمدح الشُّعراء الملوك والرؤساء! وهذا في باب المعجزات عند المنصِف أعظمُ من انشقاق القمر، وانقلاب العصا، ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم.

ثم قال رحمه الله: كيف قلت: أظنّ أن جعفراً كان يبايعه ويتابعه، ولا أظنّ في حمزة ذلك! إنْ كنت قلت ذلك لأنه أخوه، فإنّه أعلى منه سنًّا، هو أكبر من عليّ بعشر سنين، وقد كانت له خصائصُ ومناقب كثيرة، وقال فيه النبي ﷺ قولاً شريفاً اتفق عليه المحدّثون، قال له لما افتخر هو وعليّ وزيد بن حارثة، وتحاكموا إلى رسول الله ﷺ: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي»[1] فخجل فرحاً، ثم قال لزيد: «أنت مولانا وصاحبنا»[2]، فخجل أيضاً، ثم قال لعليّ: «أنت أخي وخالصتي»[3]، قالوا: فلم يخجل، قالوا: كأنّ ترادف التعظيم له وتكرّره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع، وكان غيره إذا عُظِّم عُظِّم نادراً، فيحسن موقعه عنده. واختلف الناس في أي المدحتين أعظم.

فقلت له: قد وقفتُ لأبي حيّان التوحيدي في كتاب «البصائر»[4] على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب: سمعت قاضيَ القضاة أبا سعد بشر بن الحسين - وما رأيت رجلاً أقوى منه في الجدل - في مناظرة جرت بينه وبين أبي عبد الله الطبريّ وقد جرى حديث جعفر بن أبي طالب، وحديثُ إسلامه، والتفاضل بينه وبين أخيه عليّ، فقال القاضي أبو سعد: إذا أنعِم النظر علِم أنّ إسلام جعفر كان بعد بلوغ، وإسلام البالغ لا يكون إلاّ بعد استبصار وتبيّن ومعرفة بقبح ما يخرج منه، وحسن ما يدخل فيه، وإن إسلام عليّ مختلف في حاله، وذلك أنه قد ظنّ أنه كان عن تلقين لا تبيين إلى حين بلوغه، وأوان تعقبّه ونظره. وقد علم أيضاً أنهما قتلا، وإن قَتْلة جعفر شهادة بالإجمال، وقتلة عليّ فيها أشدّ الاختلاف. ثم خصّ الله جعفراً بأنْ قَبضَه إلى الجنّة قبل ظهور التباين، واضطراب الحبل، وكثرة الهرْج، وعلى أنه لو انعقد الإجماع، وتظاهرَ جميع الناس على أنّ القتلتين شهادة، لكانت الحال في الذي رفِع إليها جعفر أغلظ وأعظم، وذلك أنّه قتِل مقبلاً غيرَ مدبر، وأمّا عليّ فإنه اغتيل اغتيالاً، وقصِد من حيث لا يعلم، وشتّان ما بين مَنْ فوجىء بالموت وبين مَنْ عاين

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلح، باب: كيف يكتب هذا ما صالح فلان ابن فلان (٢٧٠٠)، والترمذي في كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: مناقب جعفر بن أبي طالب. وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٧٧٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ١٠٨، وذكره القرطبي في تفسيره: ١٥/ ٢١٥.

(٣) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٣/ ١١٨.

(٤) واسمه «بصائر القدماء وبشائر الحكماء» ويقال له أيضاً: «البصائر والذخائر». ا هـ «كشف الظنون» (١/ ٢٤٦).

مخايل الموت! وتلقاه بالنّحر والصدر، وعجل إلى الله بالإيمان والصدق! ألا تعلم أنّ جعفراً قطعت يمناه، فأمسك اللواء بيسراه، وقطعت يسراه، فضمّ اللواء إلى حشاه، ثم قاتِله ظاهر الشرك بالله وقاتِل عليٍّ ممن صلّى إلى القبلة، وشهد الشهادة، وأقدم عليه بتأويل، وقاتِل جعفر كافر بالنصّ الذي لا خلاف فيه! أما تعلم أنّ جعفراً ذو الجناحين، وذو الهجرتين إلى الحبشة والمدينة!

قال النقيب رحمه الله: اعلم - فِداك شيخك - أن أبا حيّان رجلٌ ملحِد زنديق، يحبّ التلاعب بالدّين، ويخرجُ ما في نفسه فيعزوه إلى قوم لم يقولوه. وأقسِم بالله أنّ القاضيَ أبا سعد لم يَقُلْ مِنْ هذا الكلام لفظة واحدة، ولكنّها من موضوعات أبي حيان وأكاذيبه وترّهاته، كما يسند إلى القاضي أبي حامد المروزيّ كلّ منكَر، ويروي عنه كلّ فاقرة.

ثم قال: يا أبا حيّان! مقصودُك أن تجعلها مسألة خلاف تثير بها فتنةً بين الطالبيّين، لتجعل بأسهم بينهم! وكيف تقلّبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم!

ثم ضحك رحمُه الله حتى استلقى ومدّ رجليه، وقال: هذا كلام يُستغنى عن الإطالة في إبطاله بإجماع المسلمين، فإنّه لا خلافَ بين المسلمين في أنّ علياً أفضلُ من جعفر، وإنّما سرق أبو حيان هذا المعنى الذي أشار إليه من رسالة المنصور أبي جعفر إلى محمد بن عبد الله، النفّس الزكيّة، قال له: وكانت بنو أميّة يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبات، كما تلعن الكفرة، فعنّفناهم وكفّرناهم، وبينا فضله وأشذْنا بذكره، فاتخذتَ ذلك علينا حجّة، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أنا قدّمناه على حمزة والعباس وجعفر، أولئك مضوْا سالمين مسلمين منهم، وابتلى أبوك بالدماء!

فقلت له رحمه الله: وإذاً لا إجماع في المسألة، لأن المنصور لم يقلْ بتفضيله عليهم، وأنت ادّعيت الإجماع، فقال: إنّ الإجماع قد سبق هذا القائل، وكلّ قول قد سبقه الإجماع لا يعتدّ به.

فلمّا خرجت من عند النقيب أبي جعفر بحثتُ في ذلك اليوم في هذا الموضوع مع أحمد بن جعفر الواسطيّ رحمه الله - وكان ذا فضل وعقل، وكان إماميّ المذهب - فقال لي: صدق النقيب فيما قال! ألست تعلم أنّ أصحابكم المعتزلة على قولَيْن: أحدهما أنّ أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر، والآخر أنّ أكثرَهم ثواباً عليّ، وأصحابنا يقولون: إنّ أكثرَ المسلمين ثواباً عليّ، وكذلك الزيدية. وأمّا الأشعريّة والكرّامية وأهل الحديث، فيقولون: أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر، فقد خلَص من مجموع هذه الأقوال أن ثواب حمزة وجعفر دون ثواب عليّ عليه السلام، أمّا علَى قول الإماميّة والزيديّة والبغداديين كافة، وكثير من البصريين من المعتزلة، فالأمر ظاهر، وأمّا الباقون فعندهم أن أكثرَ المسلمين ثواباً أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، ولم يذهب

ذاهبٌ إلى أن ثواب حمزة وجعفر أكثرُ من ثواب عليّ من جميع الفِرَق. فقد ثبت الإجماع الذي ذكره النقيب، إذا فَسّرْنَا الأفضليّة بالأكثرية ثواباً، وهو التفسير الذي يقع الحجاج والجدال في إثباته لأحد الرجلين. وأمّا إذا فَسّرْنَا الأفضليّة بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالّة على التعظيم، فمعلوم أن أحداً من الناس لا يقارب علياً عليه السلام في ذلك، لا جعفر، ولا حمزة ولا غيرهما.

ثم وقع بيدي بعد ذلك كتابٌ لشيخنا أبي جعفر الإسكافي، ذكر فيه أنّ مذهب بِشْر بن المعتمِر، وأبي موسى، وجعفر بن مُبَشّر، وسائر قدماء البغداديّين أن أفضلَ المسلمين عليُّ بن أبي طالب، ثمّ ابنُه الحسن، ثم ابنُه الحسين، ثم حمزةُ بن عبد المطلب، ثم جعفرُ بن أبي طالب، ثم أبو بكر بن أبي قُحافة، ثم عمرُ بن الخطاب، ثم عثمان بن عفّان.

قال: والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله، وأكثرهم ثواباً، وأرفعهم في دار الجزاء منزلةً.

ثم وقفت بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبي عبد الله البصريّ يذكر فيه هذه المقالة، وينسبها إلى البغداديين، وقال: إن الشيخ أبا القاسم البلخيّ، كان يقول بها، وقبله الشيخ أبو الحسين الخياط، وهو شيخ المتأخرين من البغداديين، قالوا كلّهم بها، فأعجبني هذا المذهب، وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه، ونظمته في الأرجوزة التي شرحت فيها عقيدة المعتزلة، فقلت:

وخير خلق الله بعد المصطفَى ... أعظمهم يوم الفخار شَرَفا
السيّد المعظّم الوصيّ ... بَعْلُ البتول المرتضَى عليّ
وابناه ثم حمزةٌ وجعفرُ ... ثم عتيق بعدهم لا ينكَرُ
المخلص الصدّيق ثم عمرُ ... فاروق دين الله ذاك القَسْوَرُ
وبعده عثمان ذو النُّورينِ ... هذا هوَ الحقّ بغير مَيْنِ

٢١٢ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام

الأصل: فَقَدِمُوا عَلَى عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مالِ المُسْلِمينَ الَّذِي في يَدَيَّ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي، وَعَلَى بَيْعَتِي، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي فَقَتَلُوا طائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً، وَطائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ، فَضَارَبُوا بِهَا، حَتَّى لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ.

الشرح: عَضُّوا على أسيافهم، كناية عن الصَّبْر في الحرب وترك الاستسلام، وهي كناية فصيحة، شبّه قبْضَهم على السيوف بالعضّ، وقد قدمنا ذكر ما جرى، وأنّ عسكر الجمل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة بعد أن آمّنوهم غدراً، وأن بعض الشيعة صبر في الحرب ولم يستسلم، وقاتل حتى قتل، مثل حكيم بن جبلة العبديّ وغيره. وروي: «وطائفةٌ عضّوا على أسيافهم» بالرفع، تقديره: ومنهم طائفة.

قرأت في كتاب «غريب الحديث» لأبي محمد عبد الله بن قتيبة في حديث حُذَيفة بن اليمان، أنّه ذكر خروج عائشة، فقال: «تقاتل معها مُضَر، مضّرها الله في النار، وأزد عُمان سلَت الله أقدامها، وإنّ قيساً لن تنفكّ تبغي دين الله شرّاً، حتى يركبها الله بالملائكة، فلا يمنعوا ذَنَب تَلْعة»[1].

قلت: هذا الحديث من أعلام نبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله، لأنه إخبار عن غيب تلقّاه حُذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وحُذَيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات في الأيام التي قتل عثمان فيها أتاه نعيُه وهو مريض فمات وعليّ عليه السلام لم يتكامل بيعة الناس، ولم يدرك الجمل.

وهذا الحديث يؤكّد مذهب أصحابنا في فسق أصحاب الجمل، إلاّ مَنْ ثبتت توبتُه منهم، وهم الثلاثة.

٢١٣ - ومن كلام له عليه السلام لما مرّ بطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل

الأصل: لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا المَكَانَ غَرِيباً! أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أن تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَنِي أَعْيَارُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ!

الشرح: هو عبد الرحمن بن عتّاب بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أميّة بن عبد شمس. ليس بصحابيّ، ولكنّه من التابعين، وأبوه عتّاب بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أميّة بن عبد شمس، من مُسلِمة الفتح، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من مكّة إلى حُنَين، استعمله عليها، فلم يزل أميرَها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وبقي على حاله خلافة أبي بكر الصديق، ومات هو

(١) أخرجه نعيم بن حمادة المروزي في الفتن برقم (١١٦٩).

وأبو بكر في يوم واحد، لم يعلم أحدُهما بموت الآخر، وعبد الرحمن هذا هو الّذِي قال أمير المؤمنين فيه، وقد مرّ به قتيلاً يوم الجمل: لهفي عليك يعسوب قريش! هذا فتى الفتيان، هذا اللّباب المحض من بني عبد مناف، شفيتُ نفسي، وقتلت معشري، إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي[1]! فقال له قائل: لَشدّ ما أطريتَ الفتى يا أمير المؤمنين منذ اليوم! قال: إنه قام عنّي وعنه نسوة لم يقمن عنك، وعبد الرحمن هذا هو الذي احتملت العُقاب كفّه يوم الجمل وفيها خاتَمُه، فألقتها باليمامة فعرفت بخاتمه، وعلم أهل اليمامة بالوقعة.

ورأيت في شرح «نهج البلاغة» للقطب الرّاونديّ في هذا الفصل عجائبَ وطرائف، فأحببتُ أن أورِدَها ها هنا. منها أنه قال في تفسير قوله عليه السلام «أدركْتِ وتْري من بني عبد مناف»، قال: يعني طلحةَ والزُّبير، كانا من بني عبد مناف، وهذا غلط قبيح، لأنّ طلحة من تَيْم بن مرّة، والزّبير من أسد بن عبد العزى بن قصي، وليس أحدٌ منهما من بني عبد مناف، وولد عبد مناف أربعة: هاشم، وعبد شمس، ونوفل، وعبد المطّلب، فكلّ مَنْ لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة، فليس من ولد عبد مناف.

ومنها أنه قال: إن مَرْوان بن الحكَم، من بني جُمَح، ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله بعيداً عن معرفة الأنساب! مرْوان من بني أميّة بن عبد شمس، وبنو جُمَح من بني هُصَيص بن كعب بن لؤيّ بن غالب، واسم جُمَح تَيْم بن عمرو بن هُصيص، وأخوه سهْم بن عمرو بن هُصَيص رهط عمرو بن العاص، فأين هؤلاء، وأين مروان بن الحكم!

ومنها أنه قال: «وأفلتتني أغْيار بني جُمح» بالغين المعجمة، قال: هو جَمْع «غَيْر» الّذي بمعنى «سوى»، وهذا لم يُرْوَ، ولا مثله ممّا يتكلّم به أمير المؤمنين لركّته وبعده عن طريقته، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول: «لم يفتني إلا بنو جُمح» إلى مثل هذه العبارة الركيكة المتعسّفة.

واعلم أنّه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج الذمّ لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله من بني جُمَح، فقال: «وأفلتني أعيارُ بني جُمَح»، جمع عَيْر وهو الحمار، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا، ولم يقتل منهم إلاّ اثنان، فممّن هرب ونجا بنفسه: عبد الله الطويل بن صفْوان بن أميّة بن خلَف بن وهب بن حُذَافة بن جُمح، وكان شريفاً وابن شريف، وعاش حتى قُتِل مع ابن الزبير بمكة.

---

(١) عجري وبجري: همومي وأحزاني، وقيل: ما أبدي وأخفي وكله على المثل. ويقال أفضيت إليه بعجري وبجري أي أطلعته من ثقتي به على معايبي. وأصل العجر: العروق المتعقدة في الجسد، والبجر: العروق المتعقدة في البطن خاصة. لسان العرب مادة (عجر).

ومنهم يحيى بن حكيم بن صَفْوان بن أميّة بن خلف، عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكّة، لما جمع له بين مكة والمدينة، فأقام عمرو بالمدينة، ويحيى بمكة.

ومنهم عامر بن مسعود بن أميّة بن خلف، كان يسمّى دُحروجة الجُعَل، لقصره وسواده، وعاش حتى ولاّه زياد صَدَقاتِ بكْر بن وائل، وولاّه عبد الله بن الزُّبير بن العوّام الكوفة.

ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعةَ بن الأعور بن أُهَيْب بن حُذافة بن جُمَح، عاش حتى قتل بقُديد، قتلتْه الخوارج.

فهؤلاء الذين أعرف حضورهم الجمل مع عائشة من بني جُمَح، وقتل من بني جُمَح مع عائشة عبد الرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَح، وعبد الله بن ربيعة بن دَرّاج العَنْبس بن وهبان بن وهب بن حُذافة بن جُمَح، لا أعرف أنّه قتِل من بني جُمح ذلك اليوم غيرهما، فإنْ صحّت الرواية: «وأفلتني أعيان بني جُمَح»، بالنون، فالمراد رؤساءهم وساداتهم.

وأتلعوا أعناقهم: رفعوها، ورجل أتْلَع: بيّن التَلع، أي طويل العنق، وجِيدٌ تلِيع أي طويل، قال الأعشى:

يوم تُبْدِي لنا قَتيلَة عَنْ جِيـ ـدٍ تَلِيعٍ تزينُهُ الأطواقُ

ووُقِص الرّجل، إذا اندقّت عنُقه، فهو موقوص، ووَقصتُ عنقَ الرّجل أقِصُها وَقْصاً، أي كسرتها، ولا يجوز وقصت العنق نفسها.

والضمير في قوله عليه السلام: «لقد أتلعوا» يرجع إلى قريش، أي راموا الخلافة فقتِلُوا دونها.

فإن قلت: أتقول إنّ طلحة والزبير لم يكونا من أهل الخلافة؟ إن قلتَ ذلك تركت مذهبَ أصحابِك، وإن لم تقله خالفت قول أمير المؤمنين «لم يكونوا أهله»!

قلت: هما أهلٌ للخلافة ما لم يطلبْها أميرُ المؤمنين، فإذا طلبَها لم يكونا أهلاً لها، لا هما ولا غيرهما، ولولا طاعته لمن تقدّم وما ظهر من رضاه به لم نحكم بصحّة خلافته.

٢١٤ - ومن كلام له عليه السلام يصف أحوال تقي عارف بالله

الأصل: قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ ٱلْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ ٱلْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلاَمَةِ، وَدَارِ ٱلْإِقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ ٱلْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا ٱسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ.

الشرح: يصف العارفَ، يقول: قد أحيا قلبه بمعرفة الحقّ سبحانه، وأمات نفسه بالمجاهدة ورياضة القوّة البدنية بالجوع والعطش، والسهر، والصّبْر عَلَى مشاقّ السفر، والسياحة.

حتى دقّ جليلُه، أي حتى نحَلَ بدنُه الكثيف.

ولطف غليظُه، تلطفت أخلاقه وصفتْ نفسه، فإن كَدر النفس في الأكثر إنّما يكون من كَدَر الجسد، والبطنة - كما قيل - تذهب الفطنة.

ويقول أرباب هذه الطريقة: مَنْ لم يكن في بدايته صاحبَ مجاهدة لم يجد من هذه الطريق شَمّة.

وقال عثمان المغربي الصوفيّ: مَنْ ظَنّ أنه يُفتَحُ عليه شيء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن سرٍّ من أسرارها من غير لزوم المجاهدة، فهو غالط.

وقال أبو علي الدقّاق: مِنْ لم يكن في بدايته قَوْمَة، لم يكن في نهايته جُلسة.

ومن كلامهم: الحركة بركة. حركاتُ الظّواهر، تُوجب بركات السرائر.

ومن كلامهم: مَنْ زيّن ظاهرَه بالمجاهدة حسّن الله سرائِرَه بالمشاهدة.

وقال الحسن الفرازينيّ: هذا الأمر على ثلاثة أشياء: ألاّ تأكل إلا عند الفاقة، ولا تنام إلا عند الغَلبة، ولا تتكلّم إلاّ عند الضرورة.

وقال إبراهيم بن أدْهَم: لن ينال الرّجل درجة الصالحين حتى يغلق عن نفسه باب النّعمة، ويفتحَ عليها باب الشّدّة.

ومن كلامهم: من كَرُمَتْ عليه نفسه، هان عليه دينه.

وقال أبو علي الرّوذْباري: إذا قال الصوفيّ بعد خمسة أيام: أنا جائع، فألزموه السوق، ومُروه بالكسب.

وقال حبيب بن أوس أبو تمام، وهو يقصد غيرَ ما نحن فيه، ولكنه يصلح أن يستعمل فيما نحن فيه:

خُذِي عَبَراتِ عينكِ عن زَمَاعِي ... وصُوني ما أزلْتِ من القِناع
أقِلّي قد أضاقَ بُكاك ذَرْعي ... وما ضاقتْ بنازلةٍ ذِرَاعي
آلِفَةَ النّحيبِ كم افتراقٍ ... أظلّ فكان داعيةَ اجتماع!
فليستْ فرحةُ الأوْبَاتِ إلاّ ... لموقوفٍ على تَرَح الوداعِ
تعجَبُ أنْ رأت جسمِي نحيلاً ... كأنّ المجد يُدْرَك بالصِّراع!
أخو النّكَبات مَنْ يأوِي إذا ما ... أطفْن به إلى خُلُقٍ وَساع

يشيرُ عجاجةً في كلّ فجّ ... يهيمُ به عديُّ بن الرّقاع
أبن مع السباع الماءَ حتّى ... لخالته السّباعُ من السّباع

وقال أيضاً:

فاطلُبْ هُدُوءاً بالتقَلْقُلِ واستثِرْ ... بالعيسِ منْ تحتِ السُّهاد هُجُودا
مَا إنْ تَرَى الأحساب بيضاً وُضَّحاً ... إلاّ بحيثُ تَرَى المنايا سُودا

وجاء في الحديث أن فاطمة جاءت إلى رسول الله ﷺ بكِسْرة خُبْز، فقال: ما هذه؟ قالت: قُرْص خبزته، فلم تطِبْ نفسي حتى أتيتُك منه بهذه الكِسْرة، فأكلها، وقال: «أما إنّها لأوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث»(١).

وكان يقال: ينابيع الحِكْمة من الجوع، وكسر عادية النفس بالمجاهدة.

وقال يحيى بن مُعاذ: لو أنّ الجوعَ يُباع في السوق لما كان ينبغي لطلاّب الآخرة إذا دخلوا السُّوق أن يشتَرُوا غيرَه.

وقال سهل بن عبد الله: لمّا خَلق الله الدّنيا جعل في الشّبَع المعصيةَ والجهل، وجعلَ في الجوع الطاعة والحكمة.

وقال يحيى بن مُعاذ: الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزّهاد سياسة، وللعارفين تكرمة.

وقال أبو سليمان الّداراني: مفتاح الدّنيا الشّبَع، ومفتاح الآخرة الجوع.

وقال بعضهم: أدب الجوع ألا ينقصَ من عادتك إلا مثل أذن السِّنَّور، هكذا على التدريج، حتى تصل إلى ما تريد.

ويقال: إنّ أبا تُراب النّخشبيّ خرج من البصرة إلى مكة، فوصل إليها على أكلتين: أكلةٍ بالنّباج، وأكْلةٍ بذات عِرْق.

قالوا: وكان سهل بن عبد الله التُّسْتَريّ إذا جاع قويَ، وإذا أكل ضعف.

وكان منهم مَنْ يأكلُ كلّ أربعين يوماً أكْلة واحدة، ومنهم مَنْ يأكل كلّ ثمانين يوماً أكْلة واحدة.

قالوا: واشتهَى أبو الخير العسقلانيّ السمك سِنين كثيرة، ثم تهيأ له أكلُه من وجهٍ حلال، فلما مدّ يدَه ليأكل أصابت أصبعه شوْكة من شوْك السمك، فقام وترك الأكل، وقال: يا ربِّ، هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى الحلال، فكيف بمن مدّ يدَه بشهوة إلى الحرام!

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» باب: في الزهد وقصر الأمل (١٠٤٣٠).

وفي الكتاب العزيز: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1]، فالجملة الأولى هي التقوى، والثانية هي المجاهدة.

وقال النبيّ ﷺ: «أخوفُ ما أخاف على أمّتي اتّباع الهوى وطول الأمل، أما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة»[2].

وسئل بعضُ الصوفيّة عن المجاهدة، فقال: ذَبْح النّفس بسيُوف المخالفة.

وقال: منْ نجمَتْ طوارقُ نفسِه، أفلتْ شَوارق أنسه.

وقال إبراهيم بن شيبان: ما بتّ تحت سقفٍ ولا في موضع عليه غَلَق أربعين سنة. وكنت أشتهي في أوقات أن أتناول شُبْعَة عدس فلم يتّفق، ثم حُملَتْ إليّ وأنا بالشّام غَضَارة فيها عدسيّة، فتناولت منها وخرجت، فرأيت قوارير معلّقة فيها شبه أنموذجات، فظننتها خَلاًّ، فقال بعض الناس: أتنظر إلى هذه وتظنّها خَلاًّ! وإنّما هي خمر، وهي أنموذجات هذه الدنان - لدنان هناك - فقلت: قد لزِمَني فرضُ الإنكار، فدخلت حانوت ذلك الخمّار لأكسِرَ الدّنَان والجِرار، فحمِلتُ إلى ابن طُولون، فأمر بضربي مائتي خَشَبة، وطرحِي في السِّجْن، فبقيت مدّة، حتى دخل أبو عبد الله الوباني المغربيّ أستاذ ذلك البلد، فعلم أنّي محبوس، فشفع فيّ، فأخرِجت إليه، فلما وقع بصرُه عليّ قال: أيّ شيء فعلت؟ فقلت: شُبعة عدس ومائتي خشبة، فقال: لقد نجوتَ مجّاناً.

وقال إبراهيم الخوّاص: كنتُ في جبلٍ، فرأيت رُمّاناً فاشتهيته، فدنوت فأخذت منه واحدةً، فشققتها فوجدتها حامِضَةً، فمضيت وتركت الرمّان، فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمع عليه الزّنابير، فسلّمت عليه، فردّ عليّ باسمي، فقلت: كيف عرفتَني؟ قال: مَنْ عَرَف الله لم يَخْفَ عليه شيء، فقلت له: أرى لك حالاً مع الله، فلو سألته أن يحميَك ويقيَك من أذى هذه الزّنابير! فقال: وأرَى لك حالاً مع الله، فلو سألتَه أن يقيَك من شهوة الرّمّان، فإنّ لذع الرّمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولذع الزنابير يجد الإنسان ألَمه في الدنيا، فتركته ومضيت على وجهي.

وقال يوسف بن أسباط: لا يمحو الشّهَواتِ من القلب إلاّ خوفٌ مزعج، أو شَوْق مقلِق.

وقال الخوّاص: مَنْ ترك شهوة فلم يجد عِوَضها في قلْبِهِ فهو كاذب في تركها.

وقال أبو عليّ الرّباطيّ: صحبت عبد الله المْروزيّ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبَه بلا

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، باب: في الزهد وقصر الأمل (١٠٦١٣).

زاد، فلما صحبتُه قال لي: أيّما أحبُ إليك؟ تكون أنتَ الأمير، أم أنا؟ قلت: بل أنت، فقال: وعليك الطاعة؟ قلت: نعم، فأخذ مِخْلاَةً ووضع فيها زاداً، وحملها على ظهره، فكنت إذا قلت له: أعطني حتى أحملها، قال: الأمير أنا، وعليك الطاعة، فقال: فأخذَنا المطرُ ليلة، فوقف إلى الصّباح على رأسي، وعليه كساء يمنع عنّي المطر، فكنت أقول في نفسي: يا ليتني متّ ولم أقل له: أنت الأمير! ثم قال لي: إذا صحبت إنساناً فاصحبه كما رأيتني صحبتك.

أبو الطيب المتنبيّ:

ذرِيني أنلْ ما لا يُنَال من العُلاَ ... فصعبُ العُلاَ في الصَّعْبِ والسَّهلُ في السهلِ

تريدينَ إدراكَ المعالي رخيصةً ... ولا بُدّ دونَ الشَّهْد من إبَر النَّحل

وله أيضاً:

وإذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً ... تعبتْ في مُرادِها الأجسام

ومن أمثال العامة: مَنْ لم يَغْلِ دماغُه في الصيّف لم تَغْلِ قِدْرُه في الشتاء.

مَنْ لم يركَب الأخطَار، لم ينل الأوطار.

إدراك السُّول وبُلوغ المأمول، بالصبرِ على الجوع، وفقدِ الهُجوع، وَسَيَلانِ الدموع.

واعلم أنّ تقليلَ المأكول لا ريب في أنّه نافعٌ للنفس والأخلاق، والتَّجْربة قد دلّتْ عليه، لأنّا نرى المكثِرَ من الأكل يغلبه النّومُ والكَسل وبلادة الحواسّ وتتبخّر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة، فتتصاعد إلى الدِّماغ فتفسد القوّى النفسانية. وأيضاً فإنّ كثرَة المأكل تُزِيل الرِّقة، وتورث القَسَاوة والسَّبْعية، والقياس أيضاً يقتضي ذلك، لأنّ كثرة المزاوَلات، سببٌ لحصولِ المَلكات، فالنفس إذا توفّرت على تدبير الغذاء وتصريفه، كان ذلك شغلاً شاغلاً لها، وعائقاً عظيماً عن انصبابها إلى الجهة الرُّوحانية العالية، ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حَدٍّ يوجب جوعاً قليلاً، فإنّ الجوع المفرِط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها، واختلال قُواها، وذلك يقتضي تشويشَ النَّفْس واضطراب الفكر، واختلال العقل، ولذلك تعرض الأخلاط السَّوْداوية لمن أفرط عليه الجوع، فإذَن لا بدّ من إصلاح أمر الغذاء، بأن يكون قليلَ الكَميّة، كثير الكيفيّة، فتؤثّر قلة كميّته في أنه لا يشغل النفس بتدبير الهضْم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية، وتؤثّر كثرة كيفيته في تدارُك الخلل الحاصل له من قلّة الكَمية، ويجب أن يكون الغِذاء شديدَ الإمداد للأعضاء الرئيسَة، لأنها هي المهمة من أعضاء البَدَن وما دامت باقيةً على كمال حالها لا يظهر كثير خللٍ من ضعف غيرها من الأعضاء.

واعلم أنّ الرّياضة والجوع هي أمرٌ يحتاج إليه المريد الذي هو بعدُ في طريق السّلوك إلى الله.

وينقسم طالبُو هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة:

أحدها: الَّذِين مارَسُوا العلومَ الإلٰهيّة، وأجهدُوا أنفسَهم في طلبها والوصول إلى كنهها، بالنّظر الدقيق، في الزمان الطويل، فهو لا يحصُلُ لهم شوق شديد، وميلٌ عظيم إلى الجهة العالية الشريفة، فيحملهم حبُّ الكمال عَلَى الرّياضة.

وثانيها: الأنفُس الّتي هي بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الرُّوحانية من غير ممارسة عِلْم ولا دربة بنظر وبحث، وقد رأينا مثلَهم كثيراً، وشاهدنا قوماً من العامّة متى سنَح لهم سانح مشوق، مثل صوت مطرب، أو إنشاد بيت يقع في النفس، أو سماع كلمةٍ توافق أمراً في بواطنهم، فإنّه يستولِي عليهم الوجْد، ويشتدّ الحنين، وتغشاهم غواشٍ لطيفة روحانيّة، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيات.

وثالثها: نفوس حَصَل لها الأمْران معاً: الاستعدادُ الأصليّ، والاشتغال بالعلوم النظريّة الإلهيّة.

ورابعها: النفوس التي لا استعداد لها في الأصْل ولا ارتاضت بالعلوم الإلهيّة، ولكنهم قومٌ سمعوا كمالَ هذه الطريقة، وأنّ السعادَة الإنسانية ليستْ إلا بالوصول إليها، فمالت نحوها، وحصل لها اعتقاد فيها.

فهذه أقسام المريدين، والرياضة التي تليقُ بكلّ واحدٍ من هذه الأقسام غير الرياضة اللائقة بالقسم الآخر.

ونحتاجُ قبل الخوضِ في ذلك إلى تقَديم أمرين:

أحدهما: أن النفحات الإلٰهية دائمة مستمرّة، وأنه كل مَنْ توصّل إليها وصل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(١) وقال النبيّ ﷺ: «إنّ لربّكم في أيام عصركم نفحاتٍ، ألا فتعرّضوا لنفحاته»(٢).

وثانيهما: أنّ النفوسَ البشريَّة في الأكثر مختلفةٌ بالنّوع، فقد تَكون بعض النفوس مستعدّة غاية الاستعداد لهذا المطلب، وربّما لم تكن البتّة مستعدّة له، وبين هذين الطرفين أوساط مختلِفة بالضّعف والقوّة.

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ القسميْن الأوّليْن لَمّا اختلفا فيما ذكرناه لا جرم، اختلفا في الكسْب والمكتَسب.

أمّا الكسْب فإنّ صاحب العِلْم الأوْلَى به في الأكثر العُزلة والانقطاع عن الخلْق، لأنه قد

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٨٧٧)، و«الكبير» (٥١٩).

حصلت له الهداية والرّشاد، فلا حاجة له إلى مخالطة أحدٍ يستعين به على حصول ما هو حاصل. وأمّا صاحبُ الفِطْرة الأصليّة من غير عِلْم فإنَّه لا يلِيقُ به العُزْلة، لأنه يحتاج إلى المعلّم والمرشِد، فإنه ليس يكفي الفطرة الأصليّة في الوصول إلى المَعَالم الإلْهية والحقائق الربّانية، ولا بدّ من موقف ومرشد في مبدأ الحال، هذا هو القول في الكسب بالنظر إليهما.

وأمّا المكتَسب، فإنّ صاحب العلم إذا اشتغل بالرّياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كَميّة، وأقل كيفية مِمّا لصاحب الفطرة المجردة، أما كثرة الكَمية، فلأن قوّته النظريَّة تُعِينه على ذلك، وأمّا قلَّة الكيفيّة، فلأن القوُّة النفسانية تتوزّع على تلك الكثرة، وكلّما كانت الكثرة أكثَرَ، كان توزّع القوّة إلى أقسام أكثر، وكان كلّ واحدٍ منها أضعف ممّا لو كانت الأقسامُ أقلّ عدداً، وإذا عرفتَ ذلك عرفت أنّ الأمر في جانب صاحب الفِطْرة الأصليّة بالعكس من ذلك، وهو أنّ مشاهداتِه ومكاشفاته تكون أقلّ كميّة، وأكثرَ كيفية.

وأمّا الاستعداد الثّالث، وهو النفس الّتي قد جمعت الفِطْرة الأصليّة والعلوم الإلْهية النظرية بالنظر، فهي النفس الشريفة الجليلة الكاملة.

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة في أنّ رياضتَها القلبية يجب أن تكون زائدة في الكَمّ والكيْف على رياضتها البدنيّة، لأن الغرض الأصليّ هو رياضةُ القلب وطهارة النفس، وإنَّما شرعت الرياضات البدنيّة، والعبادات الجسمانية، لتكون طريقاً إلى تلك الرياضة الباطنة، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرّياضة البدنية عبثاً، لأنّ الوسيلة بعد حصول المتوسَّل إليه فضلةٌ مستغنًى عنها، بل ربّما كانت عائقة عن المقصود. نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصّة، لئلا تعتاد النّفسُ الكسل، وربما أفضى ذلك إلى خَللٍ في الرياضة النفسانية، ولهذا حُكي عن كثير من كُبراء القوم قلّة الاشتغال بنوافل العبادات.

وأما القسم الرابع، وهو النفس التي خلت عن الوصْفَيْن معاً، فهذه النفْس يجب ألا تكون رياضتها في مبدأ الحال إلاّ بتهذيب الأخلاق بما هو مذكور في كُتب الحكمة الخلقية، فإذا لانت ومَرَنت واستعدّت للنفَحاتِ الإلْهيَّة حصل لها ذوق ما، فأوجب ذلك الذّوْق شوقاً، فأقبلت بكلّيتها على مطلوبها.

واعلم أنّ السّبب الطبيعي في كون الجوع مؤثراً في صفاء النفس، أنّ البلغم الغالبَ على مزّاج البدن يوجب بطبعه البلادة، وإبطاء الفَهْم لكثرة الأرضيَّة فيه، وثقَلِ جوهره، وكثرة ما يتولّد عنه من البخارات التي تسدّ المجاري، وتمنع نفوذ الأرواح، ولا ريبَ أن الجوع يقتضي تقليل البلغم، لأنّ القوّة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه، عمِلَتْ في الرطوبة الغريبة الكائنة في

الجسَد، فكلّما انقطع الغذاء استمرّ عملها في البلغم الموجود في البدن، فلا تزال تعمل فيه وتُذِيبه الحرارة الكائنة في البدن، حتى يفنى كلٌّ ما في البدن من الرطوبات الغريبة، ولا يبقى إلاّ الرطوبات الأصلِيّة، فإن استمرّ انقطاع الغذاء أَخَذَتْ الحرارة والقوّة الهاضمة في تنقيص الرطوبات الأصليّة من جوهر البدن، فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدّ ليس بمفرط، لم يضرّ ذلك بالبدن كلّ الإضرار، وكان ذلك هو غايةَ الرّياضة التي أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله: «حتى دق جليلهُ، ولطفُ غليظه»، وإن أفرط وقع الحيْف والإجحاف على الرطوبة الأصليَّة، وعطِب البدن ووقع صاحبه في الدّقّ والذبول، وذلك منهيٌّ عنه، لأنّه قتْل للنفس، فهو كمن يقتل نفسَه بالسّيف أو بالسّكين.

واعلم أن قوله عليه السلام: «وبرق له لامعٌ كثير البرق»، هو حقيقة مذهب الحكماء، وحقيقة قول الصوفيّة أصحاب الطريقة والحقيقة، وقد صرّح به الرئيس أبو عليّ بن سينا في كتاب «الإشارات» فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان: ثم إنّه إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدّاً ما عَنَّتْ له خُلْسات من اطّلاع نور الحق إليه لذيذة كأنها بروقٌ تُومِض إليه ثم تخمَد عنه، وهي التي تسمّى عندهم أوقاتاً، وكلّ وقتٍ يكتنفه وجْدٌ إليه، ووجد عليه. ثمّ إنه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعَن في الارتياض، ثمّ إنّه ليتوغّل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض فكلّمَا لَمح شيئاً عاج منه إلى جانب القدْس، فتذكّر منْ أمره أمراً فغشِيَهُ غاشٍ، فيكاد يرى الحق في كلّ شيء، ولعلّه إلى هذا الحدّ تستولي عليه غواشيه، ويزول هو عن سكينته، ويتنبّه جليسه لاستنفاره عن قراره، فإذا طالت عليه الريّاضة لم تستنفره غاشية، وهُدِيَ للتأنّس بما هو فيه. ثم إنّه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوبُ مألوفاً، والوميض شِهاباً بيّناً، ويحصل له معارف مستقرّة، كأنّها صحبة مستمرّة، ويستمتع فيها ببهجته، فإذا انقلب عنها انقلب حيران آسفاً.

فهذه ألفاظ الحكيم أبي علي بن سينا في «الإشارات»، وهي كما نراها مصرّح فيها بذكر البُرُوق اللامعة للعارف.

وقال القشيريّ في «الرّسالة»[1] لمّا ذكر الحال والأمور الواردة على العارفين، قال: هي بروق تلمع ثم تخمد، وأنوار تبدو ثم تخفى، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها! ثم تمثّل بقول البحتري:

خَطَرَتْ فِي النَّوْمِ مِنْهَا خطرةٌ خطرة البرق بدَا ثم اضمحلّ
أيّ زَوْرٍ لك لو قَصْداً سَرَى وملمٌّ بك لو حقّاً فَعَلْ!

---

(١) وهو للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الشافعي المتوفى سنة (٤٦٥). وشرح القاضي زكريا الأنصاري وغيره اهـ «كشف الظنون» (١/ ٨٨٢).

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حَسْبما ذكره الحكيم، وكلاهما يتّبع ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّه حكيم الحكماء وعارف العارفين، ومعلّم الصوفيّة، ولولا أخلاقه وكلامه وتعليمُه للناس هذا الفن تارةً بقوله، وتارة بفعله، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة، ولا علم كيف يُورد، ولا كيف يصدِر.

وقال القشيريّ أيضاً في «الرسالة»: المحاضرة قبل المكاشفة، فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة.

وقال: وهي أرفع الدرجات. قال: فالمحاضرة حضُور القلب، وقد تكون بتواتر البرهان، والإنسان بعد وراء الستر، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر.

وأما المكاشفة فهي حضور البيِّن غير مفتقر إلى تأمّل الدليل، وتطلّب السبيل، ثمّ المشاهدة، وهي وجود الحق من غير بقاء تهمة.

وأحسن ما ذكر في المشاهدة قول الجُنيد: هي وجود الحق مع فقدانك.

وقال عمرو بن عثمان المكيّ: المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلّي على القلب من غير أن يتخلّلها ستر ولا انقطاع، كما لو قدّر اتّصال البروق في الليلة المظلمة، فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار، فكذلك القلب إذا دام له التجلّي مع النهار فلا ليل.

وأنشدوا شعراً:

لَيْلي بوجهكَ مُشرقٌ ... وظلامُهُ في الناس سارِ
فالناس في سَدَفِ الظَّلا ... م ونحن في ضوء النهار

وقال الثوريّ: لا تصحّ للعبد المشاهدة وقد بقي له عِرْق قائم.

وقالوا: إذا طلع الصباح، استغنى عن المصباح.

وأنشدوا أيضاً:

فلما استنار الصبْح طوّح ضوءُه ... بأنوارِهِ أنوارَ ضوءِ الكواكب
فجرّعهم كأساً لو ابْتليتْ لظى ... بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

كأس وأيّ كأس، تصطلمهم عنهم، وتفنيهم وتخطفهم منهم ولا تبقيهم، كأس لا تبقي ولا تَذَر، تمحو بالكليّة، ولا تبقى شظية من آثار البشرية، كما قال قائلهم:

ساروا فلم يبق لا عينٌ ولا أثرُ

وقال القُشيريّ أيضاً: هي ثلاث مراتب: اللوائح، ثم اللوامع، ثم الطوالع. فاللوائح كالبروق، ما ظهرت حتى استترت، كما قال القائل:

فافترقنا حولاً فلما التقينا ... كان تسليمهُ عليَّ وداعا

وأنشدوا:

يـا ذا الّـذي زارَ ومـا زَارا　　كـأنـه مـقـتـبِـسٌ نـارَا
مـر بـبَـاب الـدار مـسـتـعـجـلاً　　مـا ضَـرَّه لـو دخـل الـدارا!

ثم اللوامع، وهي أظهر من اللوائح، وليس زوالها بتلك السرعة، فقد تبقى وقتين وثلاثة، ولكن كما قيل:

العـين بـاكـيـةٌ لـم تُـشبـع الـنَّـظـرا

أو كما قالوا:

وبـلائـي مـن مـشـهـدٍ ومـغـيـبِ　　وحـبـيـبٍ مـنّـي بـعـيـدٍ قـريـبِ
لـم تَـرِدْ مـاءَ وجـهـه الـعـينُ حتَّـى　　شَـرِقَـتْ قـبـل ريِّـهـا بـرقـيـب

فأصحاب هذا المقام بين رَوْح وفَوْح، لأنهم بين كشف وستر يلمع ثم يقطع، لا يستقر لهم نور النهار، حتى تكرّ عليه عساكر الليل، فهم كما قيل:

والـلَّـيْـلُ يـشـمـلُـنـا بـفـاضـلِ بُـرْدِه　　والـصـبّـح يـلـحـفُـنـا رداءً مـذهـبـا

ثم الطوالع، وهي أبقَى وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدوم مكثاً، وأذهب للظلْمة، وأنفى للتهمة.

أفلا ترى كلام القوم كلّه مشحون بالبروق واللمعان!

وكان مما نقم حامد بن العباس وزير المقتدر وعليّ بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على الحلاج أنهما وجدا في كتبه لفظ «النور الشعشعانيّ»، وذلك لجهالتهما مراد القوم واصطلاحهم، ومَنْ جهل أمراً عاداه.

ثم قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة»، أي لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه، حتّى وصل، وتلك المقامات معروفة عند أهلها، ومَنْ له أنس بها، وسنذكرها فيما بعد.

ثم قال: «وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه»، أي كانت الراحة الكلّية والسعادة الأبديّة مستثمرة من ذلك الذي تحمّله لما استعمل قلبه، وراض جوارحه ونفسه، حتى وصل، كما قيل:

عِـنْـدَ الـصَّـبَـاحِ يَـحْـمَـدُ الـقـومُ الـسُّـرَى　　وَتَـنْـجَـلِـي عَـنَّـا غَـيَـابَـاتُ الْـكَـرَى

وقال الشاعر:

تـقـولُ سُـلَـيْـمَـى لَـوْ أقَـمـتَ بـأرْضِـنَـا　　وَلَـمْ تَـدرِ أنّـي لـلـمـقـام أطـوّفُ

وقال آخر:

مـا ابـيـضّ وجـهُ الـمـرء فـي طـلـب الـعُـلاَ　　حـتّـى يـسـوّدَ وجـهـهُ فـي الـبـيـدِ

وقال:

فاطلب هُدُوءًا بالتقلقل واستثر بالعِيسِ من تحت السّهاد هجودا

ما إن ترى الأحساب بيضاً وُضّحاً إلا بحيث ترى المنايا سودا

٢١٥ – ومن كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد

الأصل: وَٱللهُ مُسْتأْدِيكُمْ شُكْرَهُ، وَمُورِّثُكُمْ أَمْرَهُ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمارٍ مَمْدُودٍ لِتَتَنازَعُوا سَبَقَهُ، فَشُدُّوا عُقَد المَآزِرِ، وَاطْوُوا فُضُولَ الخَوَاصِرِ، لاَ تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ. مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ، لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ! وَأَمْحَى الظُّلَمَ، لِتَذَاكِيرِ الْهِمَمِ!

الشرح: مستأديكم شكره، أي طالبٌ منكم أداء ذلك والقيام به، استأديت دَيْني عند فلان، أي طلبته.

وقوله: «ومورّثكم أمره»، أي سيرجع أمر الدولة إليكم، ويزول أمر بني أميّة. ثم شبّه الآجال التي ضُرِبَتْ للمكلّفين ليقوموا فيها بالواجبات، ويتسابقوا فيها إلى الخيرات، بالمضمار الممدود لخيل تتنازع فيه السبق.

ثم قال: «فشدّوا عُقَد المآزر»، أي شمّروا عن ساق الاجتهاد. ويقال لمن يوصَي بالجدّ والتشمير: اشدد عُقْدة إزارك، لأنّه إذا شدّها كان أبعَد عن العثار، وأسرع للمشي.

قوله: «واطووا فُضول الخواصر»، نهى عن كثرة الأكل، لأنّ الكثير الأكل لا يطوي فضول خواصره لامتلائها، والقليل الأكل يأكل في بعضها ويطوي بعضها، قال الشاعر:

كلُوا في بعض بطنِكُمُ وعفُّوا فإن زمانكم زَمنٌ خميصُ

وقال أعشى باهلة:

طَاوِي الْمَصِير على العزّاء مُنْصَلتٌ بالقوم ليلة لا ماءٌ ولا شَجَر

وقال الشنفَرى:

وأطوي على الخُمْص الحوايا كما انطوتْ خُيوطَه ماريّ تُغار وتُفتَل

ثم أتى عليه السلام بثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها، وإن كان قد سبق بمعناها، وهي قوله: «لا تجتمع عزيمة ووليمة». وقوله: «ما أنقض النوم العزائم اليوم!». وقوله: «وأمْحَى الظلم لتذاكير الهمم!».

فمما جاء للمحدثين من ذلك ما كتبه بعض الكتاب إلى ولده:

خِدْمَةُ السّلْطانِ والكا ... ساتِ في أيدي المِلاح
ليس يلتامان فاطلب ... رفعةً أو شرب راح

ومثله قول آخر لولده:

ما للمطيعِ هواهُ ... من الملامِ ملاذُ
فاختر لنفسك هَذَا ... مَجْدٌ، وهذا التِذَاذُ

وقال آخر:

وَلَيْسَ فَتَى الْفِتْيانِ مَنْ رَاحَ واغْتَدَى ... لشربِ صَبُوحٍ أو لشربِ غَبُوقِ
ولكن فتَى الْفِتيان مَنْ راحَ واغتدَى ... لضرِّ عدوٌّ أو لنفع صديقِ

وهذا كثير جداً يناسب قوله: «لا تجتمع عزيمة ووليمة».

ومثل قوله: «ما أنقضَ النوم لعزائم اليوم» قولُ الشاعر:

فَتًى لا ينامُ على عزمِه ... ومَن صَمَّمَ العزم لم يرقدِ

وقوله: «وأمحى الظّلم لتذاكير الهمم»، أي الظلم التي ينام فيها، لا كلّ الظلم، ألا ترى أنه إذا لم ينم في الظلمة بل كان عنده من شدّة العزم وقوة التصميم ما لا ينام معه، فإنّ الظلمة لا تمحو تذاكير همه. والتذاكير: جمع تَذْكار.

والمثلان الأوّلان أحسن من الثالث، وكأن الثالث من تتمة الثاني.

وقد قالت العرب في الجاهلية هذا المعنى، وجاء في القرآن العزيز: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١).

وهذا مثل قوله: «لا تجتمع عزيمة ووليمة»، أي لا يجتمع لكم دخول الجنة والدّعة، والقعود عن مشقّة الحرب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

٢١٦ - ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾(١)

الأصل: يا لَهُ مَراماً ما أَبْعَدَهُ! وَزَوْراً ما أَغْفَلَهُ! وَخَطراً ما أَفْظَعَهُ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مكانٍ بَعِيدٍ.

أَفَبِمَصَارِعِ آبائِهِمْ يَفْخَرُونَ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكاثَرُونَ!

الشرح: قد اختلف المفسرون في تأويل هاتين الآيتين، فقال قوم: المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم في التكاثُر بالأموال والأولاد، حتى أتاكم الموت، فكنَى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر.

وقال قوم: بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم، وتعدّى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات، فقالوا: منّا فلان وفلان - لقوم كانوا وانقرضوا.

وهذا هو التفسير الذي يدلُّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «يا له مراماً!»، منصوب على التمييز. ما أبعده! أي لا فخر في ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد، وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته.

وزوراً ما أغفله! إشارة إلى القوم الذين افتخروا، جعلهم بتذكّر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم. والزوْر: اسم للواحد والجمع، كالخَصْم والضَّيْف. قال: ما أغفلهم عمّا يراد منهم! لأنهم تركوا العبادة والطاعة، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى.

ثم قال: «وخطراً ما أفظعه!» إشارة إلى الموت أي: ما أشدّه! فَظُع الشيء بالضّم، فهو فظيع، أي شديد شنيع مجاوز للمقدار.

قوله: «لقد استخْلَوْا منهم أيّ مدكر»، قال الراوندي: أي وجدوا موضع التذكّر خالياً من الفائدة، وهذا غير صحيح، وكيف يقول ذلك وقد قال: «وخطراً ما أفظعه!» وهل يكون أمر أعظم تذكيراً من الاعتبار بالموتى! والصحيح أنه أراد بـ«استخلَوْا» ذكر منْ خلا من آبائهم، أي مَنْ مضى، يقال: هذا الأمر من الأمور الخالية، وهذا القرن من القرون الخالية، أي الماضية.

واستخلى فلان في حديثِهِ، أي حدّث عن أمور خالية، والمعنى أنّه استعظم ما يوجبه

---

(١) سورة التكاثر، الآيتان: ١، ٢.

حديثُهم عمّا خلا وعمّن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير، فقال: أيّ مذّكر وواعظ في ذلك! وروي أيّ مذكَر بمعنى المصدر، كالمعتقد بمعنى الاعتقاد، والمعتبر بمعنى الاعتبار.

«وتناوشوهم من مكان بعيد» أي تناولوهم، والمراد ذكروهم وتحدثوا عنهم، فكأنهم تناولوهم، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1]، وأنّى لهم تناولُ الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر!

الأصل: يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ. وَلأَنْ يَكُونُوا عِبَراً، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ.

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ ٱلْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ.

وَلَوِ ٱسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ ٱلدِّيَارِ ٱلْخَاوِيَةِ، وَٱلرُّبُوعِ ٱلْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ ضُلاَّلاً، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً، تَطَؤونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا ٱلْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

أُولئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، ٱلَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ ٱلْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ ٱلْفَخْرِ مُلُوكاً وَسُوَقاً.

الشرح: «يرتجعون منهم أجساداً»، أي يذكرون آباءهم، فكأنهم ردّوهم إلى الدنيا، وارتجعوهم من القبور. وخَوَتْ: خلت.

قال: وهؤلاء الموتى أحقُّ بأن يكونوا عبرة وعظةً من أن يكونوا فخراً وشرفاً، والمفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلّة منهم بالقيام مقام العزّ.

وتقول: هذا أحجَى من فلان، أي أوْلَى وأجدر. والجناب: الفِناء.

ثم قال: «لقد نظروا إليهم بأبصار العَشوة»، أي لم ينظروا النّظر المفضِيَ إلى الرؤية، لأنّ أبصارَهم ذات عَشوة، وهو مرض في العين ينقص به الإبصار، وفي عين فلان عَشَاءٌ وعشوة بمعنًى، ومنه قيل لكلّ أمرٍ ملتبس يركبه الرّاكب على غير بيان أمر عَشْوة، ومنه أوطأتني عُشْوة، ويجوز بالضّم والفتح.

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٢.

قال: «وضربوا بهم في غَمْرة جهالة»، أي وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى في بحر جهلٍ. والضرب ها هنا: استعارة، أو يكون من الضّرب بمعنى السير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، أي خاضوا وسبحوا من ذكرهم في غمرة جهالة، وكلٌّ هذا يرجع إلى معنى واحد، وهو تسفيه رأي المفتخرين بالموتى، والقاطعين الوقت بالتكاثر بهم، إعراضاً عمّا يجب إنفاقه من العمر في الطاعة والعبادة.

ثم قال: «لو سألوا عنهم ديارهم التي خلت منهم»، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور، «القالت ذهبوا في الأرض ضُلاّلاً»، أي هالكين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾[2].

وذهبتم في أعقابهم، أي بعدهم «جهالاً»، لغفلتكم وغروركم.

قوله عليه السلام: «تطؤون في هامهم»، أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعرّي، فقال:

خَفِّفِ الوطْء ما أظنّ أديمَ الـ ... أرضِ إلاّ مِنْ هَذِه الأجْسَادِ

رَبّ لحدٍ قَدْ صار لحداً مِرَاراً ... ضَاحكٍ من تزاحُم الأضْدَادِ

ودفينٍ على بقايا دفينٍ ... مِنْ عهود الآباء والأجدادِ

صَاحِ هذِي قبورنا تملأ الأرْ ... ضَ، فأين القبورُ من عهد عادِ!

سِرْ إن استطعْت في الهواء رُوَيْداً ... لا اختيالاً عَلَى رُفاتِ العبادِ

قوله: «وتستنبتون في أجسادهم»، أي تزرعون النَّبات في أجسادهم، وذلك لأن أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى، فالزرع لا محالة يكون نابتاً في الأجزاء التّرابية التي هي أبدان الحيوانات. وروي: «وتستثبتون»، بالثاء، أي وتنصبون الأشياء الثابتة كالعَمد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى.

ثم قال: «وترتعون فيما لفظوا»، لفَظتُ الشيء بالفتح: رميتُه من فمي، ألفِظه بالكسر، ويجوز أن يريد بذلك أنّكم تأكلون ما خلّفوه وتركوه. ويجوز أن يريد أنّكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابيّة خالطها الصديد الجاري من أفواههم.

ثم قال: «وتسكنون فيما خرّبوا»، أي تسكنون في المساكن التي لم يعمروها بالذكر والعبادة، فكأنهم أخربوها في المعنى، ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم. ويجوز أن يريد أنّ كلّ دار عامرة قد كانت من قبل خربة، وإنّما أخربها قوم بادوا وماتوا، فإذن لا ساكن منّا في عمارة إلا ويصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خراباً من قبل، والذين أخربوه الآن موتى. ويجوز أن يريد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠١.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٠.

بقوله: «وتسكنون فيما خربوا»، وتسكنون في دور فارقوها وأخلوْها، فأطلقَ على الخلوّ والفراغ لفظ «الخراب» مجازاً.

قوله: «وإنّما الأيّام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم»، يريد أن الأيام والليالي تشيّع رائحاً إلى المقابر وتبكي وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب.

قوله: «أولئكم سلف غايتِكم»، السلف: المتقدمون. والغاية: الحدّ الذي ينتهي إليه. إمّا حسّياً أو معنوياً، والمراد ها هنا الموت. والفرُط: القوم يسبقون الحيّ إلى المنهل.

ومقاوم العزّ: دعائمه، جمع مقوم، وأصلها الخشبة التي يمسكها الحرّاث. وحلَبات الفخر: جمع حَلْبة، وهي الخيل تجمع للسباق.

والسُّوَق، بفتح الواو: جمع سُوقة، وهو مَنْ دون الملِك.

الأصل: سَلَكُوا فِي بُطُونِ ٱلْبَرْزَخِ سَبِيلاً سُلِّطَتِ ٱلأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لاَ يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لاَ يُوجَدُونَ، لاَ يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ ٱلأَهْوَالِ، وَلاَ يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ ٱلأَحْوَالِ، وَلاَ يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلاَ يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ. غُيَّباً لاَ يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لاَ يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَأُلاَّفاً فَافْتَرَقُوا.

وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلاَ بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ٱرْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ.

جِيرَانٌ لاَ يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لاَ يَتَزَاوَرُونَ. بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ ٱلإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ ٱلْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلاَّءُ.

لاَ يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَلاَ لِنَهَارٍ مَسَاءً. أَيُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلاَ ٱلْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ ٱلْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ.

فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا. وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَٱنْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ ٱلْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ ٱلْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ ٱلْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ ٱلأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ

ٱلْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ المَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا ٱلْوَحْشَةَ، وَتَهَدَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ ٱلْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلاَ مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ ٱلْغِطَاء لَكَ، وَقَدِ ٱرْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وتَقطعت ٱلأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلاَقَتِهَا، وَهَمَدَتِ ٱلْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا، وَسَهَّلَ طُرُقَ ٱلآفَةِ إِلَيْهَا. مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلاَ أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلاَ قُلُوبٌ تَجْزَعُ - لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لاَ تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لاَ تَنْجَلِي.

فَكَمْ أَكَلَتِ الأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ وَرَبِيبَ شَرَفٍ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ في سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ، فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ، فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِىءَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ، وَنَقَضَتِ الأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ ٱلْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ، فَخَالَطَهُ بَثٌّ لاَ يَعْرِفُهُ، وَنَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ، آنَس ما كَانَ بِصِحَّتِهِ. فَفَزِعَ إِلَى ما كانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالحَارِّ، فلَمْ يُطْفِىءْ بِبَارِدٍ إِلاّ ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَلاَ حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلاَّ هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلاَ اعْتَدَل بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلاّ أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ، حَتَّى فَتَرَ مُعلِّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجَى خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ، فَقَائِلٌ: هُوَ لمَا بِهِ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الماضِينَ مِنْ قَبْلِهِ.

فَبَيْنَا هُوَ كَذٰلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ.

فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ! وَدُعاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ! مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كانَ يَرْحَمُهُ.

وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أو تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

الشرح: هذا موضع المثل: «ملْعاً يا ظليم وإلا فالتَّخْوِيَةُ»، مَنْ أراد أن يعظ ويخوّف، ويقرع صَفَاةَ القلب ويعرّف الناس قدر الدنيا وتصرّفها بأهلها، فليأتِ بمثل هذه الموعظة في

مثل هذا الكلام الفصيح وإلاّ فليمسِك، فإنّ السكوت أستر، والعيّ خير من منطق يفضح صاحبه. وَمَنْ تأمّل هذا الفصل، علم صدق معاوية في قوله فيه: «والله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره». وينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبةً في مجلس، وتُلِيَ عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عديّ بن الرّقاع:

قلم أصابَ من الدَّواة مِدَادها

فلما قيل لهم في ذلك، قالوا: إنا نعرف مواضع السجود في الشعر، كما تعرفون مواضع السجود في القرآن.

وإني لأطيل التعجّب من رجل يخطب في الحرْب بكلام يدلّ على أن طبعه مناسب لطباع الأسُود والنمور وأمثالها من السباع الضارية، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه، إذا أراد الموعظة بكلام يدلّ على أن طبعه مشاكل لطباع الرّهبان لابسي المُسوح الذين لم يأكلوا لحماً، ولم يريقوا دماً، فتارة يكون في صورة بِسْطام بن قيس الشيبانيّ وعُتَيبة بن الحارث اليربوعيّ، وعامر بن الطّفيل العامريّ، وتارةً يكون في صورة سُقراط الْحَبْر اليونانيّ، ويوحَنّا المعمَدَان الإسرائيليّ، والمسيح ابن مريم الإلٰهيّ.

وأقسم بمن تُقِسم الأمم كلّها به، لقد قرأتُ هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قط إلا وأحدثتْ عندي روعة وخوفاً وعظة، وأثَّرتْ في قلبي وجيباً، وفي أعضائي رِعْدة، ولا تأملتُها إلاّ وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي، وأرباب ودّي، وخيّلت في نفسي أني أنا ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حالَه.

وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء في هذا المعنى! وكم وقفت على ما قالوه وتكرّر وقوفي عليه! فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي، فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله، أو كانت نية القائل صالحة، ويقينه كان ثابتاً، وإخلاصه كان محضاً خالصاً، فكان تأثير قوله في النّفوس أعظم، وسريان موعظته في القلوب أبلغ.

ثم نعود إلى تفسير الفصل:

فالبرزخ: الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبْر، لأنه حاجز بين الميّت وبين أهل الدنيا، كالحائط المبنيّ بين اثنين، فإنّه برزخ بينهما، ويجوز أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النّشور، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام، لأنه قال: «في بطون البرزخ» ولفظة «البطون» تدلّ على التفسير الأولّ. ولفظتا «أكلت الأرض من لحومهم وشربت من دمائهم» مستعارتان.

والفَجَوات: جمع فَجْوة وهي الفُرْجة المتّسعة بين الشيئين، قال سبحانه: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾[1]، وقد تفاجَى الشيء، إذا صارت له فجوة.

وجماداً لا ينمون، أي خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجماد الذي لا ينمِي ولا يزيد. ويروى: «لا ينِمّون» بتشديد الميم، من النميمة وهي الهمس والحركة، ومنه قولهم: أسكتَ الله نامّته، في قول من شدّد ولم يهمز.

وضِماراً، يقال لكلّ ما لا يرجى من الدّيْن والوعد، وكلّ ما لا تكون منه على ثقة: ضِمَار.

ثم ذكر أنّ الأهوال الحادثة في الدنيا لا تُفزِعهم، وأنّ تنكّر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لا يحزنهم. ويروى «تُحْزِنهم» على أنّ الماضي رباعيّ.

ومثله قوله: «لا يحفلُون بالرواجف» أي لا يكترثون بالزلازل.

قوله: «ولا يأذنُون للقواصف» أي لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لكذا، أي سمعته.

وجمع الغائب غُيّب وغَيَب، وكلاهما مرويٌّ ها هنا، وأراد أنهم شهود في الصورة، وغير حاضرين في المعنى.

والآف، على فُعّال: جمع آلف، كالطُّرّاق جمع طارق، والسُّمّار: جمع سامر، والكُفّار جمع كافر.

ثم ذكر أنه لم تَعمَ أخبارهم، أي لم تستبهِم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم، ولا عن بعد منزل لهم، وإنّما سُقوا كأسَ المنون التي أخرستهم بعد النطق، وأصَمَّتْهُمْ بعد السمع، وأسكنتهم بعد الحركة.

وقوله: «وبالسَّمع صمماً»، أي لم يسمعوا فيها نداء المنادي، ولا نوح النائح، أو لم يسمع في قبورهم صوت منهم.

قوله: «فكأنهم في ارتجال الصّفة»، أي إذا وصفهم الواصف مرتجلاً غير متروّ في الصفة، ولا متهيىء للقول.

قال: «كأنهم صرعى سُبات»، وهو نوم، لأنّه لا فرق في الصورة بين الميّت حال موته والنائم المسبوت.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٧.

ثم وصفهم بأنّهم جيران إلا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا، وأنّهم أحبّاء إلا أنهم لا يتزاورون كالأحباب من أهل الدنيا.

وقوله «أحبّاء» جمع حبيب، كخليل وأخلاء، وصديق وأصدقاء.

ثم ذكر أن عُرا التعارف قد بليَتْ منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء، وهذه كلها استعارات لطيفة مستحسنة.

ثم وصفهم بصفة أخرى، فقال: كلّ واحدٍ منهم موصوف بالوحْدة، وهم مع ذلك مجتمعون، بخلاف الأحياء الذين إذا انضمّ بعضهم إلى بعض انتفى عنه وصف الوحدة.

ثم قال: «وبجانب الهجر وهم أخلاّء» أي وكلّ منهم في جانب الهجر وهم مع ذلك أهل خُلّة ومودة، أي كانوا كذلك. وهذا كله من باب الصناعة المعنوية، والمجاز الرشيق.

ثم قال: إنهم لا يعرفون للنهار ليلاً ولا لليل نهاراً، وذلك لأنّ الواحد من البَشَر إذا مات نهاراً لم يعرف لذلك النهار ليلاً أبداً، وإن مات ليلاً لم يعرف لذلك الليل صباحاً أبداً. وقال الشاعر:

لا بـد مـن يـومٍ بـلا لـيـلـةٍ ... أو لـيـلـة تـأتـي بـلا يـومِ

وليس المراد بقوله: «أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً» أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذي ماتُوا فيه ولا يشعرون بما يتعقّبه من الأوقات، بل المراد أن صورةَ ذلك الوقت لو بقيتْ عندهمْ لبقيت أبداً من غير أن يزيلها وقتٌ آخر يطرأ عليها. ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس، فيقال: إن النفس التي تفارق ليلاً تبقى الصورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبداً لا تزول بطرآنِ نهار عليها، لأنها قد فارقت الحواس، فلا سبيل لها إلى أن يرتسم فيها شيء من المحسوسات بعد المفارقة، وإنَّما حصل ما حصل من غير زيادة عليه، وكذلك الأنفس التي تفارق نهاراً.

بعض الأشعار والحكايات في وصف القبور والموتى

واعلم أنّ الناس قد قالوا في حال الموتى فأكثروا، فمن ذلك قول الرضيّ أبي الحسن رحمه الله تعالى:

أعِـززْ عَـلَـيّ بـأنْ نـزَلْـت بـمـنـزلٍ ... مـتـشـابـهِ الأمْـجـادِ بـالأوْغـادِ!
فـي عـصـبـة جُـنِـبُـوا إلـى آجـالـهـم ... والـدّهـر يـعـجـلـهـم عـن الإرْوَادِ
ضـربـوا بـمـدرجـة الـفـنـاء قـبـابَـهُـمْ ... مـن غـيـر أطـنـاب ولا أعـمـادِ
ركـبٌ أنـاخُـوا لاَ يُـرَجّـى مـنـهـمُ ... قَـصْـدٌ لاتـهـام ولا إنـجـادِ
كَـرِهُـوا الـنُّـزول فـأنـزلـتـهـم وقـعـةٌ ... لـلـدهـر بـاركـة بـكـلّ مـفـادِ

فتهافتُوا عن رَحْل كل مذلّلٍ ... وتطاوحُوا عن سرج كلّ جواد
بادون في صُوَرِ الجميع وإنّهم ... متفرّدون تفرُّدَ الآحاد

قوله: «بادون في صور الجميع» مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «فكلهم وحيد وهم جميع».

وقال أيضاً:

ولقد حفظت له فأين حِفَاظُه ... ولقد وفيتُ له فأين وفاؤه؟
أوَعَى الدعاء فلم يجبه قطيعةً ... أم ضَلّ عنه من البعاد دعاؤهُ
هيهات أصبح سمعُه وعيانه ... في الترب قد حجبْتهما أقذاؤهُ
يمسي ولينُ مهادِه حصباؤه ... فيه، ومؤنسُ ليله ظلماؤهُ
قد قُلِّبَتْ أعيانُه وتنكّرَتْ ... أعلامُه، وتكسَّفتْ أضواؤهُ
مُغفٍ وليس لِلَذّةٍ إغفاؤه، ... مغضٍ وليس لفكرةٍ إغضاؤهُ
وجهٌ كلمع البرق غاض وميضُه ... قلبٌ كصدر العَضْب فُلّ مَضَاؤهُ
حَكَم البلى فِيه فلو تلقى به ... أعداءه لرثى له أعداؤهُ

وقال أبو العلاء:

أستغفر الله ما عندي لكم خبرٌ ... وما خطابيَ إلاّ معشراً قُبِروا
أصبحتُم في البلى غُبْراً ملابسكُم ... من الهَباء، فأين البُرْدُ والقِطر
كنتم على كلّ خطب فادح صبُراً ... فهل شعرتم، وقد جادتكم الصُّبَرُ!
وما درى يوم أُحُدٍ بالذين ثوَوْا ... فيه، ولا يوم بدر أنّهم نُصِرُوا

وقال أبو عارم الكلابيّ:

أجازعةٌ رُدَيْنَةُ أنْ أتاها ... نعيّي أمْ يكون لها اصطبارُ!
إذا ما أهلُ قبري ودّعوني ... وراحوا والأكُفّ بها غُبَارُ
وغودر أعظُمِي في لحدِ قَبْرٍ ... تراوِحُهُ الجنائب والقِطَارُ
تهبّ الريح فوق محطّ قبري ... ويرعى حوله اللّهق النوار
مقيم لا يكلّمهُ صديقٌ ... بقبر، لا أزور ولا أزار
فذاك النأي لا الهجران حَوْلاً ... وحولاً ثم تجتمع الدّيار!

مرّ الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا، فسأل: هل بقيَ من نسلهم أحد؟ قالوا: بقي واحد، وهو يلزم المقابر، فدعا به فسأله: لم تلزم المقابر؟ قال: أردت أن أميّز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدتها سواء، قال: هل لك أن تلزمني حتى أنيلَك

بغيتك؟ قال: لو علمتُ أنك تقدر على ذلك للزمتك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت معها، قال: لن أقدرَ على ذلك، قال: فدعني أطلبه ممن يقدر عليه.

قال النبيّ ﷺ: «ما رأيت منظراً إلاّ والقبر أفظع منه»(١).

وقال ﷺ: «القبر أوّل منزلٍ من منازل الآخرة، فمن نجا منه فما بعده أيسر، ومن لم ينج فما بعده شرٌّ له»(٢).

مرّ عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمقبرةٍ فصلّى فيها ركعتين، وقال: ذكرت أهل القبور وأنّه حيل بينهم وبين هذا، فأحببت أنْ أتقرّب بهما إلى الله.

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام «وبجانب الهجر»؟ وأي فائدة في لفظة «جانب» في هذا الموضع؟

قلت: لأنّهم يقولون: فلان في جانب الهجر، وفي جانب القطيعة، ولا يقولون: «في جانب الوصل»، وفي «جانب المصافاة»، وذلك أنّ لفظة «جنب» في الأصل موضوعة للمباعدة، ومنه قولهم: «الجار الجنُب»، وهو جارك من قوم غرباء. يقال: جنبت الرجل، وأجنبته، وتجنّبته، وتجانبته، كلّه بمعنًى، ورجل أجنبيّ، وأجنب، وجُنب، وجانب، كلّه بمعنى.

قوله عليه السلام: «شاهدوا من أخطار دارهم»، المعنى أنه شاهد المتقون من آثار الرحمة وأماراتها، وشاهد المجرمون من آثار النقمة وأماراتها عند الموت، والحصول في القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنّون أيّام كونهم في الدنيا.

ثم قال: «فكلا الغايتين مدّت لهم»، المعنى مدّت الغايتان: غاية الشقيّ منهم وغاية السعيد.

إلى مباءة، أي إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف، أو رجاء راج، وتلك المباءة هي النّار أو الجنة. وتقول: قد استباء الرجل أي اتخذ مباءة، وأبأت الإبل: رددتها إلى مباءتها، وهي معاطنها.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٨)، وابن ماجه في كتاب: الزهد باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند عثمان بن عفان (٤٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٨)، وابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند عثمان بن عفان (٤٥٦).

ثم قال: «فلو كانوا ينطقون بها لعيُّوا»، بتشديد الياء، قال الشاعر:

عَيُّوا بأمرِهِمْ كَمَا ... عَيَّتْ ببيضَتِها الحَمَامَهْ

جَعَلَتْ لها عودينِ مِنْ ... نَشَمٍ وآخرَ من ثُمَامَهْ

وروي «لَعَيُوا» بالتخفيف، كما تقول: «حَيُوا» قالوا: ذهبت الياء الثانية لالتقاء الساكنين لأنّ الواو ساكنة، وضمّت الياء الأولى لأجل الواو، قال الشاعر:

وَكُنَّا حَسِبْنَاهم فَوَارِسَ كَهْمَسٍ ... حَيُوا بعدما ماتوا من الدهر أعصرا

قوله: «لقد رَجَعَتْ فيهم» يقال: رجع البصر نفسُه، ورجع زيد بصره، يتعدىّ ولا يتعدى، يقول: تكلّموا معنًى لا صورة، فأدركت حالهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسيّة. وكَلَحت الوجوه كلُوحاً وكُلاحاً، وهو تكشّر في عُبوس.

والنواضِر: النواعم، والنّضرة: الحسن والرونق.

وخوت الأجساد النواعِم: خلت من دمِها ورطوبتها وحشوتها. ويجوز أن يكون خوتْ أي سقطت. قال تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1]، والأهدام: جمع هِدْم، وهو الثوب البالي، قال أوس:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نواشِرُها ... تُصْمِتُ بالماء تَوْلَباً جَدِعا

وتكاءدَنا: شقّ علينا، ومنه: عقبة كؤود. ويجوز تكأّدنا، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها «تفعّل وتفاعَل» بمعنًى، ومثله تعهّد الضَّيعة، وتعاهدها.

ويقال: قوله: «وتوارثْنا الوحشة». كأنّه لمّا مات الأب فاستوحش أهله منه، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضاً، صار كأنّ الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تُورث الأموال، وهذا من باب الاستعارة.

قوله: «وتهدّمت علينا الربوع»، يقال: تهدم فلان على فلان غضباً، إذا اشتدّ غضبه، ويجوز أن يكون تهدّمت أي تساقطت وروي «وتهكمت» بالكاف، وهو كقولك: «تهدمت» بالتفسيرين جميعاً، ويعني بالرّبوع الصّموت، القبور، وجعلها صُموتاً لأنه لا نطق فيها، كما تقول: ليل قائم ونهار صائم، أي يقام ويصام فيهما، وهذا كلّه على طريق الهزّ والتحريك وإخراج الكلام في معرِض غير المعرِض المعهود، جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم لأتَوْا بما وصفه من أحوالهم. وورد في الحديث أنّ عمر حضر جنازة رجل، فلما دفن قال لأصحابه: قفوا، ثم ضرب فأمعن في القبور، واستبطأه الناس جداً ثم رجع وقد احمرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، فقيل: أبطأت يا أمير المؤمنين، فما الذي حبسك؟ قال: أتيت قبورَ الأحبّة، فسلّمتُ فلم يردّوا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٥.

عليّ السلام، فلما ذهبت أقفّي ناداني التراب، فقال: ألا تسألني يا عمر ما فعلتُ باليدين؟ قلت: ما فعلتَ بهما؟ قال: قطعتُ الكّفين من الرُّسغين، وقطعت الرّسغين من الذراعين، وقطعت الذراعين من المرفقين، وقطعت المرفقين من العضُدين، وقطعت العضُدين من المنكبين، وقطعت المنكبين من الكتِفين، فلما ذهبت أقفّي ناداني التراب، فقال: ألا تسألني يا عمر ما فعلتُ بالأبدان والرجلين؟ قلت: ما فعلتَ؟ قال: قطعت الكتفين من الجنبين، وقطعت الجنبين من الصّلْب، وقطعت الصلب من الورِكين، وقطعت الورِكين من الفخذين، وقطعت الفخِذين من الرّكبتيْن، وقطعت الرّكبتيْن من الساقين، وقطعت الساقين من القدميْن، فلمّا ذهبت أقفّي ناداني التراب، فقال: يا عمر، عليك بأكفانٍ لا تبلَى؟ فقلت: وما أكفانٌ لا تبلى، قال: تقوى الله، والعمل بطاعته. وهذا من الباب الذي نحن بصدده، نسب الأقوال المذكورة إلى التراب وهو جماد، ولم يكن ذلك، ولكنّه اعتبر فانقدَحَتْ في نفسه هذه المواعظ الحكمية، فأفرغها في قالب الحكاية، ورتّبها على قانون المسألة والإجابة، وأضافها إلى جماد موات، لأنه أهزُّ لسامعها إلى تدبّرها، ولو قال: نظرت فاعتبرت في حال الموتى، فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظته المبلغ الذي بلغتْه حيث أودعها في الصورة التي اخترعها.

قوله عليه السلام: «فلو مثّلتَهم بعقلك، أو كشف عنهم محجوبُ العطاء لك» إلى آخر جواب «لو». هذا الكلام أخذه ابن نُباتة بعينه فقال: فلو كشفتم عنهم أغطية الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث، لوجدتم الأحداق على الخدود سائلة، والألوانَ من ضيق اللُّحود حائلة، وهوامّ الأرض في نواعم الأبدان جائلة، والرؤوس الموسّدة على الأيمان زائلة، ينكِرُها مَنْ كان لها عارفاً، ويفرّ عنها مَنْ لم يزل لها آلفاً.

قوله عليه السلام: «ارتسخت أسماعهم» ليس معناه ثبتتْ كما زعمه الراونديّ، لأنّها لم تثبت، وإنما ثبتت الهوامّ فيها، بل الصحيح أنه من رسخ الغدير إذا نشّ ماؤه ونضب، ويقال: قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعته حتى يلتقي الثّريان.

واستكّت، أي ضاقت وانسدّت، قال النابغة:

ونُبّئتُ خيرَ الناسِ أنّكَ لُمْتَنِي ... وتلك الّتي تَسْتَكّ منها المسامعُ

قوله: «واكتحلتْ أبصارهم بالتراب فخسفت»، أي غارت وذهبت في الرأس.

وأخذ المتنبيّ قوله: «واكتحلت أبصارهم بالتراب»، فقال:

يُدَفِّنُ بعضُنا بعضاً ويَمْشِي ... أواخِرُنا على هَامِ الأوالِي

وكَمْ عينٍ مقبَّلةِ النَّواحِي كحيلٍ بالجنادلِ والرّمالِ!
ومغضٍ كان لا يغضي لخطبٍ وبالٍ كان يُفكِّرُ في الهزالِ

وذَلاقة الألسن: حدّتُها، ذَلِق اللسان والسنّان يذلَق ذَلَقاً، أي ذرِبَ، فهو ذلِق، وأذلق.

وهَمَدت، بالفتح: سكنتْ وخمدتْ. وعاث: أفسد. وقوله: «جديد بلًى»، من فنّ البديع، لأنّ الْجِدّة ضدّ البلى، وقد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال:

يا دارُ غادَرني جديدُ بلاكِ رثّ الجديدُ فهل رثيت لذاكِ!

وسَمّجها: قبّح صورتها، وقد سَمُج الشيء بالضمّ فهو سَمْج، بالسكون، مثل ضَخُم فهو ضخْم، ويجوز: فهو سَمِج، بالكسر، مثل خَشُن فهو خشِن.

قوله: «وسهلّ طرق الآفة إليها»، وذلك أنّه إذا استولى العنصر الترابيّ على الأعضاء، قوي استعدادها، للاستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها.

ومستسلمات، أي منقادة طائعة غير عاصية، فليس لها أيدٍ تدفع عنها، ولا لها قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها.

والأشجان: جمع شَجَن، وهو الحزن.

والأقْذاء: جمع قَذًى، وهو ما يسقط في العين فيؤذيها.

قوله: «صفة حال لا تنتقل»، أي لا تنتقل إلى حسن وصلاح، وليس يريد: لا تنتقل مطلقاً، لأنها تنتقل إلى فساد واضمحلال.

ورجل عزيز، أي حدث، وعزيز الجسد، أي طريّ، وأنيق اللون: معجب اللون. وغَذِيُّ تَرَف: قد غُذِي بالترف، وهو التنعم المطغِي.

وربيبُ شَرَف، أي قد ربِّيَ في الشرف والعز. ويقال: ربّ فلان ولدَه يَرُبّه ربًّا، وربّاه يربّيه تربيةً.

ويتعلّل بالسرور: يتلهّى به عن غيره. ويفزع إلى السّلْوة: يلتجيء إليها. وضَنًّا، أي بخلاً.

وغضارة العيش: نعيمه ولينه.

وشحاحة، أي بخلاً، شحِحْتُ بالكسر أشِحّ. وشَحَحْتُ أيضاً بالفتح، أشحُ وأشِحُّ، بالضم والكسر، شُحًّا وشَحاحةً. ورجل شحيح وشَحَاح بالفتح. وقوم شِحاحٌ وأشِحّة.

ويضحك إلى الدنيا وتضحكُ إليه، كناية عن الفرَح بالعمر والعيشة، وكذا كلّ واحدٍ منهما يضحك إلى صاحبه لشدّة الصفاء، كأن الدنيا تحبُّه وهو يحبُّها.

وعيش غَفول: قد غفل عن صاحبه، فهو مستغرق في العيش لم ينتبه له الدّهر، فيكدّر عليه وقته، قال الشاعر:

وكـان الـمـرءُ فـي غـفـلاتِ عـيـشٍ   كـأنّ الـدَّهـرَ عَـنْـهـا فـي وَثـاق

وقال آخر:

ألاَ إنّ أحْلَى العيش مَا سَمَحَتْ به   صروفُ اللّيالي، والحوادثُ نُوَّمُ

قوله: «إذ وَطِئ الدهر به حَسَكه»، أي إذا أوطأه الدهر حَسَكه. والهاء في «حَسَكه» ترجع إلى الدّهر، عدّي الفعل بحرف الجرّ، كما تقول: قام زيد بعمرٍو، أي أقامه.

وقُواه: جمع قوّة وهي المِرّة من مرائر الحبل. وهذا الكلام استعارة.

ومن كَثَب: من قرب. والبث: الحزن. والبثّ أيضاً: الأمر الباطن الدخيل ونجيّ الهمّ: ما يناجيك ويسارّك. والفَترات: أوائل المرض.

وآنس ما كان بصحته، منصوب على الحال. وقال الراونديّ في الشرح: هذا من باب: «أخطب ما يكون الأمير قائماً». ثم ذكر أن العامل في الحال «فتَرات»، قال: تقديره: «فترات آنس ما كان». وما ذكره الراونديّ فاسد، فإنّه ليس هذا من باب: «أخطب ما يكون الأمير قائماً، لأنّ ذلك حال سدّ مسدّ خبر المبتدأ، وليس ها هنا مبتدأ. وأيضاً فليس العامل في الحال «فترات» ولا «فتر»، بل العامل: «تولّدت». والقارّ: البارد.

فإن قلت: لم قال: «تسكين الحار بالقارّ، وتحريك البارد بالحار»؟ ولأيّ معنى جعل الأول التسكين والثاني التحريك؟ قلت: لأنّ من شأن الحرارة التهييج والتثوير، فاستعمل في قهرها بالبارد لفظة «التسكين»، ومن شأن البرودة التخدير والتجميد، فاستعمل في قهرها بالحارّ لفظة «التحريك».

قوله: «ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمدّ منها كل ذات داء»، أي ولا استعمل دواء مفرداً معتدل المزاج أو مركباً كذلك إلا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض زائد على الأول.

وينبغي أن يكون قوله: «ولا اعتدل بمُمازج»، أي ولا رام الاعتدال لممتزج، لأنه لو حصل له الاعتدال لكانَ قد بَرِىء من مرضه، فَسمّى محاولة الاعتدال اعتدالاً، لأنه باستدلال المعتدلات قدْ تهيّأ للاعتدال، فكان قد اعتدل بالقوّة.

وينبغي أيضاً أن يكون قد حذف مفعول «أمدّ»، وتقديره «بمرضٍ» كما قدّرناه نحن، وحذف المفعولات كثير واسع.

قوله: «حَتّى فَتَر معلّله»، لأنّ معلّلي المرض في أوائل المرض يكون عندهم نشاط، لأنّهم يرجُون البُرْء، فإذا رأوْا أمارات الهلاك فترت همتهم.

قوله: «وذَهَل ممرّضُه»، ذَهَل بالفتح، وهذا كالأوّل، لأنّ الممرّض إذا أعيا عليه المرض، وانسدّت عليه أبواب التدبير يذهَل.

قوله: «وتعايا أهله بصفة دائه»، أي تعاطوا العِيّ وتساكتوا إذا سُئِلوا عنه، وهذه عادة أهل المريض المُثقَل، يجمْجِمون(١) إذا سئلوا عن حاله.

قوله: «وتنازعوا دونه شَجَى خبر يكتمونه»، أي تخاصموا في خبر ذي شجى، أي خبر ذي غُصّة يتنازعونه وهم حول المريض ستراً دونه، وهو لا يعلم بنجواهم، وبما يُفيضون فيه من أمره.

فقائل منهم: هو لمآبه، أي قد أشفى على الموت. وآخر يمنّيهم إياب عافيته، أي عَوْدَها، آب فلان إلى أهله، أي عاد.

وآخر يقول: قد رأينا مثل هذا، ومَنْ بلغ إلى أعظمِ من هذا ثمّ عوفِيَ، فيمنّي أهلَه عَوْد عافيته.

وآخر يصبر أهله على فقده، ويذكر فضيلة الصّبْر، وينهاهم عن الجزع، ويروي لهم أخبار الماضين.

وأسى أهليهم، والأَسَى: جمع أسْوة، وهو ما يتأسّى به الإنسان. قالت: الخنساء:

وما يبكون مِثلَ أخِي ولكِنْ ... أُسلّي النّفسَ عنهُ بالتأسّي

قوله: «على جناح من فراق الدنيا»، أي سَرْعان ما يفارقها، لأنّ مَنْ كان على جناح طائر، فأوشِكْ به أن يسقط!

قوله: «إذْ عَرَض له عارض» يعني الموت ومن غُصصه: جمع غُصّة. وهو ما يعترض مَجْرى الأنفاس. ويقال: إنّ كلّ ميّتٍ من الحيوان لا يموت إلاّ خنقاً، وذلك لأنّه من النَّفَس يدخل، فلا يخرج عِوَضه، أو يخرج فلا يدخل عِوَضه، ويلزم من ذلك الاختناق، لأنّ الرّئة لا تبقى حينئذٍ مَرْوَحةً للقلب، وإذا لم تُروّحه اختنق.

قوله: «فتحيّرت نوافذ فطنته»، أي تلك الفطنة النافذة الثاقبة تحيّرت عند الموت، وتبلّدت.

قوله: «ويبست رطوبةُ لسانِه»، ولأنّ الرّطوبة اللعابية التي بها يكون الذوق تنشف حينئذٍ، ويبطل الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة.

قوله: «فكم من مهمٍّ من جوابه عرفه فعيّ عن ردّه!» نحو أن يكون له مالٌ مدفونٌ يُسأل عنه حال ما يكون محتضَراً، فيحاول أن يعرِّف أهلَه فلا يستطيع، ويعجز عن ردّ جَوابِهم، وقد رأينا مَنْ عَجزَ عن الكلام فأشار إشارةً فهموا معناها، وهي الدّواة والكاغَد، فلمّا حضر ذلك أخذ القلم وكتب في الكاغد ما لم يُفْهَم، ويده تُرْعَد. ثم مات.

قوله: «ودعاءٍ مؤلمٍ لقلبه سمعه فتصامّ عنه»، أظهر الصمَم، لأنه لا حيلة له.

---

(١) الجمجمة: أن لا يبين كلامه من غير عِيّ. لسان العرب، مادة (جمم).

ثم وصف ذلك الدعاء فقال: «من كبيرٍ كان يعظّمه»، نحو صُراخ الوالد على الولد والولد يسمع ولا يستطيع الكلام. «وصغير كان يرحمه»، نحو صراخ الولد على الوالد، وهو يسمع ولا قدرة له على جوابه.

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال: إنها أفْظَع من أن تحيط الصفاتُ بها. وتستغرقُها، أي تأتي على كُنهِها، وتُعبّر عن حقائقها.

قوله: «أو تعتدل على عقول أهل الدنيا»، هذا كلام لطيف فصيح غامض، ومعناه أنّ غمرات الموت وأهواله عظيمة جدّاً لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها ووصفت كما هي على الحقيقة، بل تنبو عنها، ولا تصدق بما يقال فيها، فعبّر عن عدم استقامتها على العقول بقوله: «أو يعتدل»، كأنه جعلها كالشيء المعوجّ عند العقل، فهو غير مصدّق به.

الموت وأحوال الموتى في شعر الشعراء

ومما يناسب ما ذكر، من حال الإنسان قول الشاعر:

بينا الفتَى مَرِحُ الخُطَا فرحاً بما ... يسْعى إذْ قيل قد مَرِضَ الفتَى
إذْ قيل باتَ ما نَامَها ... إذْ قيل أصْبَح مُثْقَلاً ما يُرتجَى
إذْ قيل أمسى شاخصاً وموجِّهاً ... إذْ قيلَ فارقهُمْ وحلّ به الرّدَى

وقال أبو النّجم العجليّ:

والمرء كالحالم في المنامِ ... يقول إنّي مدركٌ أمامِي
في قابلٍ ما فاتني في العامِ ... والمرء يُدْنِيهِ إلى الحِمَامِ
مرُّ الليالي السُّودِ والأيّامِ ... إنّ الفتى يُصبحُ للأسقامِ
كالغَرضِ المنصُوب للسِّهام ... أخطأ رامٍ، وأصاب رامِ

وقال عمران بن حِطّان:

أفي كلّ عام مَرْضَةٌ ثم نقهةٌ ... ويُنعَى، ولا ينعَى، مَتَى ذَا؟ إلى متى!
ولا بدّ من يوم يجيء وليلةٍ ... يَسُوقان حتفاً راحَ نحوك أو غدا

وجاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ مرّ بمقبرةٍ فنادى: «يا أهلَ القبور الموحِشة، والرُّبُوع المعطّلة، ألاَ أخبِرُكم بما حدَث بعدكم؟ تزوّج نِساؤكم، وتُبُوِّئت مساكنكم، وقُسِمت أموالُكم.

هلْ أنتم مخبِرون بما عاينتمْ! ثم قال: ألا إنّهم لَوْ أُذِن لهم في الجوابِ لقالوا: وجدنا خيرَ الزّاد التّقوى»[1].

ونظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال: إنّ أمراً هذا آخرُه، لجديرٌ أن يُزْهَد في أوّله، وإن أمراً هذا أوّله لجديرٌ أن يُخاف آخره.

وقال عَبَدة بن الطبيب - ويعجبني قوله على الحال التي كان عليها، فإنه كان أسود لصاً من لصوص بني سعد بن زيد مناة بن تميم -:

ولقد علمتُ بأن قصريَ حفرةٌ ... غبراءُ يحملني إليها شرجَعُ
فبكى بناتي شَجْوَهُنّ وزوجتي ... والأقربون إليّ، ثم تصدّعوا
وتُركتُ في غبراء يُكرَه وِرْدُها ... تسفِي عليّ الريح ثم أودَّعُ
إنّ الحوادث يخترمْن وإنّما ... عُمر الفتى في أهله مستودَعُ

ونظر هذه الأبيات في رَويّها وعَروضها قول متمّم بن نويرة اليربوعيّ:

ولقد علمتُ ولا محالةَ أنّني ... للحادثات، فهل ترينِي أجزعُ!
أهلكْنَ عاداً ثم آلَ مُحرّقٍ ... فتركنَهم بَلَداً وما قد جَمّعُوا
ولهنّ كان الحارِثان كلاهما ... ولهنّ كان أخو المصانع تبَّعُ
فعددت آبائي إلى عِرْق الثّرَى ... فدعوتُهمْ فعلمتُ أنْ لم يَسْمَعُوا
ذهبوا فَلَمْ أدركْهمُ ودعتْهمُ ... غُولٌ أتَوْها والطّريق المهْيَعُ
لا بدّ من تلفٍ مصيب فانتظِرْ ... أبارض قومك أم بأخرى تُصْرَعُ!
وليأتينَّ عليك يومٌ مرّةً ... يُبكَى عليك مُقنّعاً لا تَسْمَعُ

لمّا فتح خالد بن الوليد عَيْن التمر[2]، سأل عن الحُرَقَةَ بنت النّعمان بن المنذر، فدُلّ عليها، فأتاها - وكانت عَمْياءَ - فسألها عن حالها، فقالت: لقد طلعتْ علينا الشمس ما شيء يدبّ تحت الخورْنق[3] إلاّ تحت أيدينا، ثم غربت وقد رحِمنا كلُّ مَنْ يدورُ به، وما بيت دخلته حَبْرة، إلاّ دخلته عَبْرة، ثم قالت:

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٠/ ٢٤٢).
(٢) بلدة في العراق قريبة من الأنبار غربي الكوفة وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة (١٢هـ) وكان فتحها عنوة. معجم البلدان (٦/ ٣٦٩).
(٣) الخَوَرْنَق: فارسي معرب، اسم قصر في العراق بناه النعمان الأكبر. لسان العرب، مادة (خرنق).

وَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ والأَمْرُ أمرُنا ... إذا نحن فيه سُوقَةٌ نتنصّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها ... تقلّبُ تاراتٍ بنا وتَصرّفُ!

فقال قائل ممّن كان حول خالد: قاتل الله عديّ بن زيدا لكأنّه ينظر إليها حين يقول:

إنّ للدهر صَرْعةً فاحذرنْها ... لا تبيتنّ قد أمِنْتَ الدّهورا
قد يبيت الفتى معافى فيردَى ... ولقد كان آمناً مسرورا

دخل عبدُ الله بن العبّاس على عبد الملك بن مروان يوم قرٍّ، وهو على فُرُش يكاد يغيب فيها، فقال: يابنَ عباس، إنّي لأحسِب اليوم بارداً! قال: أجلْ، وإنّ ابن هند عاش في مثل ما تَرى، عشرين أميراً، وعشرين خليفة، ثم هو ذاك على قبره ثمامةٌ تهتزُّ.

فيقال: إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابتة.

كان محمّد بن عبد الله بن طاهر في قصره ببغداد على دِجْلة، فإذا بحشيش على وجه الماء في وسطه قصبة على رأسها رقعة، فأمر بها فوجد هذا:

تاه الأعيرجُ واستولى به البَطرُ ... فقل له خير ما استعملته الحذَرُ
أحسنتَ ظنّك بالأيّام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخفْ سوءَ ما يأتي بِهِ القَدَرُ
وسالمتْك الليالي فاغتررتَ بِها ... وعنْد صفو الليالي يحدُث الكدر

فلم ينتفع بنفسه أياماً.

عديّ بن زيد:

أيّها الشامت المعيّر بالدهْـ ... ـرِ أأنت المبرأ الموفور!
أم لديك العهد الوثيق من الأيامِ ... بل أنتَ جاهلٌ مغرور
مَنْ رأيت المنون خلّدْنَ أمْ مَنْ ... ذا عليه من أن يُضام خفير!
أين كسرى كسرى الملوك أنوشِرْ ... وان أم أين قَبْلَهُ سابور!
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ... ـروم ولم يبق منهمُ مذكورُ
وأخو الحضرِ إذْ بناه وإذ دِجْـ ... ـلةُ تجبَى إليه والخابور
لم يَهَبْه ريب المنون فباد الـ ... ـملْكُ عنه فبابُه مهجورُ
شادَهُ مرمراً وجَلّلَهُ كلْـ ... ـساً فللطّير في ذُرَاه وُكور

وتبيّن ربّ الخورنق إذْ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكيرُ
سرّه حالُه وكثرة ما يَمْلِـ ـكُ والبحرُ معرضاً والسّدير
فارعوى قلبُه وقال: فما غبـ ـطَةُ حيّ إلى الممات يصيرُ!
ثم بعد الفلاح والملك والأمّـةِ وارتْهمُ هناك القبورُ
ثم أضحوا كأنهم ورقٌ جـ ـفّ فألوتْ به الصَّبا والدّبور

قد اتفق الناس على أنّ هذه الأبيات أحسن ما قيل من القريض في هذا المعنى، وأنّ الشعراء كلهم أخذوا منها، واحتذوا في هذا المعنى حذوها.

وقال الرضيّ أبو الحسن رضي الله عنه:

انظر إلى هذا الأنام بعبرةٍ لا يعجبنّك خلقه ورُواؤهُ
فتراه كالورق النّضير تقصّفت أغصانُه، وتسلّبت شَجْراؤه
أنى تَحاماه المنون، وإنما خُلِقَتْ مَرَاعِي للردى خضراؤه
أم كيف تأمل فلتةً أجساده من ذا الزمان وحشوها أدواؤه!
لا تعجبنّ فما العجيب فناؤهُ بيدِ المنون، بل العجيب بقاؤهُ
إنا لنعجب كيف حُمّ حِمامُه عَنْ صحةٍ، يغيبُ عَنّا داؤه
مَنْ طاح في سبل الرّدَى آباؤه فليسلكنّ طريقَهمْ أبناؤه
ومؤمّرٍ نزلوا به في سُوقة لا شكله فيهم ولا نظراؤه
قد كان يَفْرَق ظلّه أقرانُه ويَغُضّ دُون جلاله أكْفاؤه
ومُحجّبٍ ضُربت عليه مهابةٌ يَغْشِي العيون بهاؤه وضياؤهُ
نادتْه من خلْف الحجاب منيّةٌ أمَمٌ فكان جوابَها حوباؤهُ
شقّت إليه سيوفه ورِمَاحَه وأمِيطَ عنه عبيدُه وإماؤه
لم يُغْنه مَنْ كان ودّ لو انّه قَبْلَ المنون مِنَ المنون فداؤه
حَرَم عليه الذلّ إلاّ أنّه أبداً لَيشهدُ بالجلال بِناؤه
متخشّع بعد الأنيس جنابُه متضائلٌ بعد القَطين فناؤهُ
عُريان تطرد كلّ ريح تُربه ويطيع أوّل أمرها حصباؤه
ولقد مررت بِبَرْزَخٍ فسألتُه أين الأُلى ضَمّتهمُ أرجاؤه!
مثل المطيّ بواركاً أجداثُهُ تَسْفِي عَلَى جنَباتها بَوْغَاؤه

نـاديتـه فَـخَـفـى عـلـيّ جـوابُـه ... بـالـقـولِ إلا مـا زَقَـتْ أصـداؤه
مِـنْ نـاظـر مـطـروفـةٍ ألـحـاظـه ... أو خـاطـرٍ مـطـلـولـة سـوداؤه
أو واجـدٍ مـكـظـومـة زَفَـراتُـه ... أو حـاقـدٍ مـنـسـيّـةٍ شَـحْـنـاؤه
ومـسـنَّـديـن عـلـى الـجـنـوب كـأنّـهـم ... شَـرْبٌ تـخـاذل بـالـطّـلاَ أعـضـاؤه
تـحـت الـصّـعـيـد لـغـيـر إشـفـاق إلـى ... يـوم الـمَـعَـاد يـضـمُّـهـم أحـشـاؤه
أكـلـتـهـمُ الأرض الّـتـي ولـدتـهـمُ ... أكـلَ الـضَّـروس حَـلَـتْ لـهُ أكْـلاَؤه

وقال أيضاً:

وتـفـرّقُ الـبُـعـداء بـعْـدَ تـجـمُّـعٍ ... صَـعْـبٌ، فـكـيـفَ تـفـرّقُ الـقُـربـاء!
وخـلائـقُ الـدّنـيـا خـلائـق مُـومـسٍ، ... لـلـمـنـع آونـةً، ولـلإعـطـاء
طَـوْراً تـبـادلـك الـصّـفـاء وتـارة ... تـلـقـاك تـنـكـرُهـا مـن الْـبَـغْـضَـاء
وتـداوُل الأيـام يُـبـلـيـنـا كَـمـا ... يُـبـلـي الـرّشـاءَ تـطـاوُحُ الأرْجـاء
وكـأنّ طـولَ الـعُـمْـر رَوْحـةُ راكـبٍ ... قـضـى الـلُّـغـوبَ وَجـدّ فـي الإسـراء
لـهـفِـي عـلـى الْـقَـوم الأولى غـادرتـهـمْ ... وعـلـيـهـمُ طَـبَـقٌ مـن الـبَـيْـداءِ
مـتـوسّـديـن عـلـى الـخـدودِ كـأنّـمـا ... كَـرَعُـوا عـلـى ظَـمَـإٍ مـن الـصَّـهْـبَـاءِ
صُـوَرٌ ضـنِـنـت عـلـى الـعُـيُـون بـحـلـظِـهـا ... أمـسـيـتُ أوقـرُهـا مـن الـبـوْغـاءِ
ونـواظـرٌ كَـحَـل الـتّـراب جـفـونَـهـا ... قـد كـنـت أحـرُسُـهـا مـن الأقـذاءِ
قَـرُبـت ضَـرَائِـحُـهُـمْ عَـلَـى زُوّارِهـا ... ونـأوْا عـن الـطُّـلاب أيّ تـنـاء
ولـبـئـس مـا يـلـقـى بـعُـقْـرِ ديـارهـمْ ... أذُنُ الـمـصـيـخِ بـهـا وَعـيـنُ الـرّائـي

٢١٧ - ومن كلام له عليه السلام: قاله عند تلاوته: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١)

الأصل: قاله عند تلاوته: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ **إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ،**

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٦ - ٣٧.

وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ ٱلْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بعد ٱلْمُعَانَدَةِ. وَمَا بَرِحَ لله - عَزَّتْ آلاَؤُهُ، فِي ٱلْبُرْهَةِ بَعْدَ ٱلْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ ٱلْفَتَرَاتِ - عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَٱلْأَبْصَارِ وَٱلْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ ٱللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ ٱلْأَدِلَّةِ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. مَنْ أَخَذَ ٱلْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطرِيقَ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ ٱلْهَلَكَةِ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ ٱلظُّلُمَاتِ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ ٱلشُّبُهَاتِ.

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ ٱلدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلهمْ تجارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ ٱلْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ ٱللهِ، فِي أَسْمَاعِ ٱلْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُون بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِه، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّهُمْ قَطَعُوا ٱلدُّنْيَا إِلَى ٱلْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ ٱلْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لاَ يَسْمَعُونَ.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِم المَحْمُودَةِ، وَمَجَالِسِهِم المَشْهُودَةِ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلاَلِ بِهَا، فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ - لَرَأَيْتَ أَعْلاَمَ هُدًى، وَمَصَابِيحَ دُجًى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ المَلاَئِكَةُ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ ٱلْكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ.

يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الأَسَى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ.

لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لاَ تَضِيقُ لَدَيْهِ المَنَادِحُ، وَلاَ يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ. فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ ٱلْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

الشرح: من قرأ ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا﴾ بفتح الباء ارتفع «رجال» عنده بوجهين: أحدهما أن يُضمر له فعل يكون هو فاعله، تقديره «يسبحه رجال»، ودلّ على «يسبّحه» يسبّح، كما قال الشاعر:

لِيَبْكِ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تُطيح الطوائحُ

أي يبكيه ضارع، ودلّ على «يبكيه» «لِيَبْكِ».

والثاني أن يكونَ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: «المسبّحون رجال». ومَنْ قرأ: «يسبِّح له فيها» بكسر الباء، فـ«رجال» فاعل، وأوقع لفظ «التجارة» في مقابلة لفظ «البيع» إمّا لأنه أراد بالتجارة ها هنا الشراء خاصّة، أو لأنه عمم بالتجارة المشتملة على البيع والشراء، ثم خصّ البيع، لأنه أدخلُ في باب الإلهاء، لأنّ البيع يحصل ربحه بيقين، وليس كذلك الشراء، والذكْر يكون تارةً باللسان، وتارةً بالقلب، فالّذي باللسان نحو التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء، والذي بالقلْب، فهو التعظيم والتبجيل والاعتراف والطاعة.

وجلوت السيف والقلْب جِلاء، بالكسر، وجلوت اليهودَ عن المدينةِ جَلاء بالفتح.

والوَقْرة: الثقل في الأذن. والعَشْوة، بالفتح: فَعْلة، من العشا في العين وآلاؤه: نعمه.

فإن قلت: أيّ معنى تحت قوله: «عزت آلاؤه» وعزّت بمعنى. «قلّت»؟ وهل يجوز مثل ذلك في تعظيم الله؟ قلت: عَزّت ها هنا ليس بمعنى «قلّت» ولكن بمعنى: «كرمت وعظمت»، تقول منه: عَزَزْتُ على فلان بالفتح، أي كرُمْت عليه، وعظُمت عنده، وفلان عزيز علينا، أي كريم معظم.

والبُرهة من الدهر: المدّة الطويلة، ويجوز فتح الباء.

وأزمان الفترات: ما يكون منها بين النَّوْبتين.

وناجاهم في فكرهم: ألهمهم، بخلاف مناجاة الرّسل يبْعث الملائكة إليهم، وكذلك «وكلّمهم في ذات عقولهم»، فاستصبحوا بنور يقظة»: صار ذلك النور مصباحاً لهم يستضيئون به.

قوله: «مَنْ أخذ القصد حَمِدوا إليهم طريقه»، إلى ها هنا: هي التي في قولهم: أحمَد الله إليك، أي مُنهياً ذلك إليه، أو مفضياً به إليك، ونحو ذلك، وطريقة العرب في الحذف في مثل هذا معلومة، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾[1]، أي لجعلنا بدلاً منكم ملائكة. وقال الشاعر:

فليس لنا من ماء زمزم شربة مبرّدة باتت على طَهَيَانِ

أي عِوَضاً من ماء زمزم.

قوله: «ومَن أخذ يميناً وشمالاً»، أي ضلّ عن الجادّة.

و«إلى» في قوله: «ذمّوا إليه الطريق» مثل «إلى» الأولى.

ويهتفون بالزواجر: يصوّتون بها، هتفت الحمامة تهتِف هتْفاً، وهتف زيد بالغنمِ هِتافاً

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٠.

بالكسر، وقوس هتافة وهتفى، أي ذات صوت. والقسْط: العدل. ويأتمرون به: يمتثلون الأمر.

وقوله: «فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة»، إلى قوله: «ويسمعون ما لا يسمعون»، هو شرح قوله عن نفسه عليه السلام : «لو كشِف الغطاء ما ازددت يقيناً».

والأوْزار: الذنوب. والنشيج: صوت البكاء. والمقعد: موضع القعود.

ويد قارعة: تطرق باب الرحمة، وهذا الكلام مجاز.

والمنادح: المواضع الواسعة.

و«على» في قوله: «ولا يخيب عليه الراغبون» متعلقة بمحذوف مثل «إلى» المتقدّم ذكرها، والتقدير «نادمين عليه». والحسيب: المحاسب.

واعلم أنَّ هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصاص والمتصدِّين لإنكار المنكَرات، ألا تراه يقول: «يذكرون بأيام الله»! أي بالأيام التي كانت فيها النقمة بالعصاة، ويخوّفون مقامه من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(١) ثم قال: فمن سلك القَصْد حمِدُوه، ومَنْ عدل عن الطريق ذمُّوا طريقه، وخوفوه الهلاك. ثم قال: يهتفون بالزواجر عن المحارم في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط وينهون عن المنكر.

وهذا كله إيضاح لما قلناه أولاً، إنّ ظاهرَ الكلام شرحُ حال القصّاص وأرباب المواعظ في المجامع والطرقات، والمتصدّين لإنكار القبائح، وباطن الكلام شرح حال العارفين، الذين هم صَفْوة الله تعالى من خلقه، وهو عليه السلام دائماً يكنى عنهم، ويرمز إليهم، على أنه في هذا الموضع قد صرح بهم في قوله: «حتّى كأنّهم يرون ما لا يَرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون».

وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل الذكر، ومحاسبة النفس، والبكاءَ والنحيب، والنّدم والتّوبة، والدعاء والفاقة، والذلة والحزن، وهو الأسى الذي ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله.

في مقامات العارفين

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدّم، وهذا موضعه، فنقول: إنّ أول مقام من مقامات العارفين، وأوّل منزل من منازل السالكين التوبة، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٤٦. (٢) سورة النور، الآية: ٣١.

وقال النبيّ ﷺ: «التائبُ من الذّنب كمنْ لا ذنْب له»(١).

قال عليّ عليه السلام: «ما من شيء أحبّ إلى الله من شابٌ تائب»(٢).

والتوبة في عرف أرباب هذه الطريقة النَّدَم على ما عمل من المخالفة وترْك الزلّة في الحال والعزم على ألاّ يعودَ إلى ارتكاب معصية، وليس النّدم وحده عند هؤلاء توبة، وإن جاء في الخبر: «الندم توبة»(٣)، لأنّه على وِزان قوله عليه السلام: «الحجّ عرفة»(٤)، ليس على معنى أنّ غيرها ليس من الأركان، بل المراد أنّه أكبر الأركان وأهمّها. ومنهم من قال: يكفي الندم وحده، لأنه يستتبع الرّكنين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ما هو مصرٌّ على مثله، أو ما هو عازم على الإتيان بمثله.

قالوا: وللتوبة شروط وترتيبات:

فأوّل ذلك انتباه القلب من رَقْدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، وإنَّما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زَواجر الحقّ سبحانه، بسمع قلبه، فإنّ في الخبر النبويّ عنه ﷺ: «واعظ كلّ حالٍ الله في قلب كلّ امرىء مسلم»(٥).

وفي الخبر: «إنّ في بدن المرء لَمُضغةً إذا صلَحت صلَح جميع البدن، ألا وهي القلب، وإذا فسدت فسد جميع البدن، ألا وهي القلب»(٦).

وإذا أفكر العبدُ بقلبه في سوء صنيعه، وأبصر ما هو عليه من ذميم الأفعال، سَنَحت في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة، فيمدّه الحقّ سبحانه بتصحيح العزيمة، والأخذ في طرق الرجوع والتأهّب لأسباب التوبة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٠)، والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب: الشهادات (١٠/ ١٥٤).

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» برقم (٩٦٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: التوبة (٤٢٥٢)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين مكن الصحابة، باب: مسند ابن مسعود (٣٥٥٨).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب؛ العلل، باب: عبد الله بن أبي زياد، والنسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فرض الوقوف بعرفة (٣٠١٦)، وابن ماجه في كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥)، وأحمد باب: حديث عبد الرحمٰن بن يعمر (١٨٢٩٧).

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك» في كتاب: الإيمان (٢٤٥).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم في كتاب: باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤)، والدارمي في كتاب: البيوع، باب: في الحلال بيّن والحرام بيّن (٢٥٣١).

وأوّل ذلك هِجران إخوان السوء، فإنّهم الذين يحملونه على ردّ هذا القصْد، وعكس هذا العزم، ويشوّشون عليه صحّة هذه الإرادة، ولا يتمّ ذلك له إلا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التي تزيده رغبة في التوبة، وتوفّر دواعيه إلى إتمام ما عَزَم عليه، ممّا يقوّي خوفَه ورجاءه، فعند ذلك تنحلُّ عن قلبه عُقْدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعال، فيقف عن تعاطي المحظورات، ويكبَح نفسَه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات، فيفارق الزلّة في الحال، ويلزم العزيمة على ألاّ يعود إلى مثلها في الاستقبال، فإنْ مَضَى على موجب قصدِه، ونفذ على مقتضى عزمِه، فهو الموفّق حقاً، وإن نقضَ التوبة مرةً أو مرات، ثم حملته إرادته عَلَى تجديدها، فقد يكون مثل هذا كثيراً، فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء، فإنّ لكلّ أجلٍ كتاباً. وقد حكِيَ عن أبي سليمان الدّارانيّ أنه قال: اختلفْتُ إلى مجلس قاصّ، فأثر كلامه في قلبي، فلمّا قمت لم يبق في قلبي شيء، فعدت ثانياً، فسمعت كلامَه، فبقيَ من كلامه في قلبي أثر في الطريق ثم زال، ثم عدتُ ثالثاً فوَقر كلامُه في قلبي، وثبتّ حتى رجعتُ إلى منزلي، وكسرت آلات المخالفة، ولزمت الطريق.

وحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ، فقال: عصفور اصطاد كُرْكيًا - يعني بالعصفور القاصّ، وبالكركيّ أبا سليمان.

ويحكى أنّ أبا حفصٍ الحدّاد ذكر بدايته، فقال: تركت ذلك العمل - يعني المعصية - كذا وكذا مرّة، ثم عدت إليها، ثم تركني العمل، فلم أعدْ إليه.

وقيل إنّ بعض المريدين تابَ، ثم وقعت له فترة، وكان يفكّر ويقول: أترى لو عدتُ إلى التوبة كيف كان يكون حكمي! فهتف به هاتف: يا فلان، أطعتَنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك، وإن عدتَ إلينا قبلناك، فعاد الفتى إلى الإرادة.

وقال أبو علي الدقّاق: التوبة عَلَى ثلاثة أقسام. فأوّلها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوْبة، فجعل التوبة بداية، والأوْبة نهاية، والإنابة واسطة بينهما. والمعنى أنّ مَنْ تاب خوفاً من العقاب فهو صاحب التوبة، ومَنْ تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب الإنابة، ومَنْ تاب مراعاة للأمر فقط، فهو صاحب الأوْبة.

وقال أبو عليّ أيضاً: التوبة صفة المؤمنين، قال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١). والإنابة صفة الأولياء، قال سبحانه: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾(٢)، والأوْبة صفة الأنبياء، قال سبحانه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾(٣).

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.
(٢) سورة قٓ، الآية: ٣٣.
(٣) سورة صٓ، الآية: ٣٠.

وقال الجُنيد: دخلت عَلَى السّرِيّ يوماً، فوجدته متغيّراً، فسألته فقال: دخل عليّ شابٌّ، فسألني عن التوبة، فقلت: ألاّ تنسى ذنبَك! فقال: بل التوبة ألا تذكر ذنبك. قال الجنيد: فقلتُ له: إنّ الأمر عندي ما قاله الشابّ، قال: كيف؟ لأني إذا كنتُ في حال الجفاء فنقلني إلى حال الصفاء، فذكْر الجَفاء في حال الصفَاء جفَاء. فسكت السرّيّ.

وقال ذو النّون المصريّ: الاستغفار من غير إقلاع توبةُ الكذّابين.

وسئل البوشنجيّ عن التوبة، فقال: إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره، فذاك حقيقة التوبة.

وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضِيق عليك الأرضُ بما رَحُبت، حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾[1].

وقيل لأبي حفص الحدّاد: لم تُبغِضُ الدّنيا؟ فقال: لأنّي باشرتُ فيها الذّنوب، قيل: فهلاّ أَحبَبْتَها لأنّك وُفّقت فيها للتوبة! فقال: أنا من الذّنب عَلَى يقين، ومن هذه التوبة عَلَى ظَنّ.

وقال رجل لرابعة العدويّة: إنّي قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصي، فهلْ يتوبُ عليّ إن تبتُ؟ قالت: لا بل لو تاب عليك لتبت.

قالوا: ولمّا كان الله يقول في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[2] دلّنا ذلك عَلَى محبّته لمن صحّت له حقيقة التوبة، ولا شبهة أنّ من قارف الزّلة فهو من خطئه عَلَى يقين، فإذا تاب فإنّه من القبول عَلَى شكّ، لاسيما إذا كان مِنْ شرط القبول محبّة الحقّ سبحانه له، وإلى أن يبلُغ العاصي محلاً يجدُ في أوصافه أمارة محبّة الله تعالى إيّاه مسافة بعيدة، فالواجب إذاً عَلَى العبد إذا علم أنّه ارتكب ما يجب عنه التوبة دوام الانكسار، وملازمة التنصّل والاستغفار، كما قيل: استشعار الوَجل إلى الأجَل.

وكان من سنّته ﷺ دوام الاستغفار. وقال: «إنّه لَيُغَانُ عَلَى قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرّة»[3].

وقال يحيى بن معاذ: زلّة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٨. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧)، ومسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢)، والترمذي في كتاب: تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة محمد (٣٢٥٩)، وأبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار (١٥١٥).

ويحكى أنّ عليّ بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: مَنْ هذا؟ من هذا؟ فقالت امرأة قائمة على السطح: إلى متَى تقولون: من هذا، من هذا! هذا عبد سقط من عينِ الله، فابتلاه بما ترون. فسمع عليّ بن عيسى كلامها، فرجع إلى منزله ولم يزل يتوصّل في الاستعفاء من الوزارة حتى أُعفِي، وذهب إلى مكّة فجاور بها.

ومنها المجاهدة، وقد قلنا فيها ما يكفي فيما تقدّم.

ومنها العزلة والخلوة، وقد ذكرنا في جزء قبل هذا الجزء مما جاء في ذلك طرفاً صالحاً.

ومنها التّقوى، وهي الخوف من معصية الله، ومن مظالم العباد، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١)، وقيل: إنّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أوصِني، فقال: «عليك بتقوى الله، فإنه جماع كلّ خير، وعليك بالجهاد، فإنّه رهبانيّة المسلم، وعليك بذكر الله، فإنّه نور لك»(٢).

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(٣): أن يُطاع فلا يعصى، ويُذكَر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يكفَر.

وقال النّصراباذيّ: من لزم التّقوى بادرَ إلى مفارقة الدّنيا، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾(٤).

وقيل: يستدلّ على تقوى الرجل بثلاث: التوكّل فيما لم ينلْ، والرضا بما قد نال، وحسن الصبر على ما فات.

وكان يقال: مَنْ كان رأس ماله التّقوى كَلّت الألسُنُ عن وصف ربحه.

وقد حكَوْا من حكايات المتقين شيئاً كثيراً، مثل ما يحكى عن ابن سيرين، أنّه اشترى أربعين حُبًّا سمناً، فأخرجَ غلامه فأرةً من حُبّ، فسأله: من أي حبٍّ أخرجَها؟ قال: لا أدري، فصبّها كلّها.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) أخرجه البيهقي في الزهد، مقتصراً أوله، ولم يذكر: عليك بالجهاد... إلخ، وأخرجه الطبراني في كتابه: الدعاء كاملاً برقم (١٨٥٨).
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

وحكي أنّ أبا يزيد البِسطاميّ غسل ثوبَه في الصحراء ومعه مصاحب له، فقال صاحبه: نضرِب هذا الوتِد في جدار هذا البُستان، ونبسط الثّوب عليه، فقال: لا يجوز ضرب الوتِد في جدار النّاس قال: فنعلّقه على شجرة حتى يجفّ، قال: يكسر الأغصان، فقال: نبسطه على الإذخر قال: إنه علف الدوابّ لا يجوز أن نستره منها. فولّى ظهره قِبَل الشمس، وجعل القميص على ظهره حتى جفّ أحدُ جانبيه، ثم قلبه حتى جفّ الجانب الآخر.

ومنها الورع، وهو اجتناب الشُّبهات، قال ﷺ لأبي هريرة: «كنْ ورِعاً تكنْ أعبد النّاس»(١).

وقال أبو بكر: كنا نَدَعُ سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب واحد من الحرام.

وكان يقال: الورع في المنطق أشدّ منه في الذّهب والفضة، والزّهد في الرياسة أشدّ منه في الذّهب والفِضّة، لأنك تبذلهما في طلب الرياسة.

وقال أبو عبد الله الجلاّء: أعرِف مَنْ أقام بمكّة ثلاثين سنة لم يشربْ من ماء زمزم إلاّ ما استقاه برَكْوتِه ورِشائه.

وقال بشر بن الحارث: أشدّ الأعمال ثلاثة: الجود في القلّة، والورع في الخلوة، وكلمة الحقّ عند من يُخاف ويرجَى.

ويقال: إنّ أخت بشر بن الحارث جاءت إلى أحمد بن حنبل، فقالت: إنَّا نغزِل على سطوحنا فتمرّ بنا مشاعل الطّاهرية، فيقع شعاعها علينا، أفيجوز لنا الغزل في ضوئها؟ فقال أحمد: مَنْ أنتِ يا أمَةَ الله؟ قالت: أختُ بشر الحافي، فبكى أحمد، وقال: من بيتِكم خرج الوَرَع، لا تغزلي في ضوء مشاعلهم.

وحكى بعضهم، قال: مررت بالبَصْرة في بعض الشوارع، فإذا بمشايخ قُعود وصبيان يلعبون، فقلت: أما تستحيون من هؤلاء المشايخ؟ فقال غلام من بينهم: هؤلاء المشايخ قلّ ورعُهم، فقلّت هيبتُهم.

ويقال: إنّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة، ما صحّ له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رُطَبها حتى مات ولم يذقه. وكان إذا انقضى أوان الرُّطَب يقول: يا أهل البصْرة، هذا بطني ما نقص منه شيء، سواء عليّ أكلت من رُطَبكم أو لم آكل!

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (٤٢١٧)، والترمذي في كتاب: الزهد عن رسول الله ﷺ باب: من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥)، وأحمد في باب: مسند أبي هريرة (٨٠٣٤). واللفظ لابن ماجه.

وقال الحسن: مثقالُ ذَرّة من الوَرَع خيرٌ من ألف مثقال من الصَّوْم والصلاة.

ودخل الحسن مكّة، فرأى غلاماً من ولَدِ عليّ بن أبي طالب، قد أسندَ ظهره إلى الكعبة وهو يعِظ النّاس، فقال له الحسن: ما مِلاك الدين؟ قال: الوَرَع، قال: فما آفته؟ قال: الطمع، فجعل الحسن يتعجّب منه.

وقال سهل بن عبد الله: مَنْ لم يصحبْه الورع، أكل رأس الفيل ولم يشبع.

وحُمِل إلى عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ من الغنائم، فقبض على مشمّه، وقال: إنما ينتفَع مِنْ هذا بريحه، وأنا أكره أن أجدَ رِيحه دون المسلمين.

وسئل أبو عثمان الحريريّ عن الورع فقال: كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو في النّزْع، فمات الرَجل، فنفث أبو صالح في السِّراج فأطفأه، فقيل له في ذلك، فقال: إلى الآن كان الدهن الذي في المسْرجة له، فلما مات صار إلى الورثة.

ومنها الزهد، وقد تكلّموا في حقيقته، فقال سفيان الثوريّ: الزهد في الدنيا قصرُ الأمل.

وقال الخوّاص الزهْد أن تتركَ الدُّنيا فلا تبالِي مَنْ أخذها.

وقال أبو سُلَيمان الدّارانيّ: الزهدُ ترك كلّ ما يشغل عن الله.

وقيل: الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(١).

وكان يقال: مَنْ صدق في زهده أتته الدنيا وهي راغمة، ولهذا قيل: لو سقطت قلنسُوة من السماء لما وقعتْ إلاّ عَلَى رأس من لا يريدها.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يُسْعطُك الخلّ والخردل، والعِرفان يُشِمّك المسك والعنبر.

وقيل لبعضهم: ما الزّهد في الدنيا؟ قال: تَرْك ما فيها على مَنْ فيها.

وقال رجل لذي النون المصريّ: متى تراني أزهد في الدنيا؟ قال: إذا زهدتَ في نفسك.

وقال رجل ليحيى بن معاذ: متى تراني أدخلُ حانوت التوكّل، وألبس رداءَ الزهد، وأقعد بين الزاهدين؟ فقال: إذا صرتَ من رياضتِك لنفسك في السرّ إلى حدّ لو قطعَ الله عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ولا في يقينِك، فأمّا ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فقعودك على بساط الزاهدين جهل، ثم لا آمن أن تفتضح.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

وقال أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام، وهو زهد العوامّ، وترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواصّ، وترك كلّ ما يشغلك عن الله، وهو زهد العارفين.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعَرُوس، فطالبها كماشِطتها تحسِّن وجهها وتعطّر ثوبها، والزاهد فيها كضَرَّتها تُسَخِّم وجهها، وتنتف شعرها، وتحرق ثوبها. والعارف مشتغل بالله، لا يلتفت إليها، ولا يشعر بها.

وكان النّصرأباذيّ يقول في مناجاته: يا من حقَنَ دماء الزاهدين، وسفَك دماء العارفين!

وكان يقال: إنّ الله تعالى جعل الخير كلّه في بيت، وجعل مفتاحه الزّهد، وجعل الشرّ كلّه في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا.

ومنها الصمت، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نكتاً نافعة في هذا المعنى، ونذكر الآن شيئاً آخر.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذيَن جاره، ومَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفه، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت»[١].

وقال أصحاب هذا العلم: الصمت من آداب الحضرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[٢].

وقال مخبراً عن الجن: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾[٣].

وقال الله تعالى مخبراً عن يوم القيامة: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٤].

وقالوا: كم بين عبد سكت تصوّناً عن الكذب والغيبة، وعبدٍ سكت لاستيلاء سلطان الهيبة!

وأنشدوا:

أرتّبُ ما أقولُ إذا افترَقْنا ... وأُحْكِم دائماً حُجَجَ المَقَالِ
فأنساها إذا نحن التقَينا ... وأنطقُ حين أنطق بالمحَالِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف (٤٧)، والترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ (٢٥٠٠)، وأبو داود في كتاب: الأدب، باب: في حق الجوار (٥١٥٤)، وأحمد (٤٥٠٩).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.

(٤) سورة طه، الآية: ١٠٨.

وأنشدوا:

فيا ليلُ كم من حاجةٍ لي مهمّةٍ إذا جئتكم لم أدرِ بالليل ماهيا!

قالوا: وربما كان سبب الصّمت والسكوت حيرة البديهية، فإنّه إذا ورد كَشْف بغتة، خرست العبارات عند ذلك، فلا بيان ولا نُطق، وطمست الشواهد فلا علم ولا حسٌّ، قال الله تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾(١)، فأمّا إيثار أرباب المجاهدة الصمت فلِمَا علموا في الكلام من الآفات، ثم ما فيه من حظّ النفس وإظهار صفات المدح، والميل إلى أن يتميّز من بين أشكاله بحسن النطق، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام. وهذا نعت أرباب الرياضة، وهو أحَدُ أركانهم في حكم مجاهدة النفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق.

ويقال: إن داود الطائيّ لما أراد أن يقعد في بيته، اعتقَد أن يحضر مجلس أبي حنيفة، لأنه كان تلميذاً له ويقعد بين أضرابه من العلماء، ولا يتكلم في مسألةٍ على سبيل رياضته نفسه، فلما قويَتْ نفسُه على ممارسة هذه الخصلة سنةً كاملة، قعد في بيته عند ذلك، وآثر العزلة.

ويقال: إنّ عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتاباً فاستحسن لفظه، مزّق الكتاب وغيّره.

وقال بشر بن الحارث: إذا أعجبك الكلام فاصمُت، فإذا أعجبَك الصمتُ فتكلّم.

وقال سهل بن عبد الله: لا يصحّ لأحدٍ الصّمت حتى يُلزِم نفسَه الخلوة، ولا يصحّ لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت.

ومنها الخوف، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(٣).

وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(٤).

وقال أبو علي الدقاق: الخوف على مراتب: خوف، وخشية، وهيبة.

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٥).

والخشية من شروط العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٦).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النحل، الآية: ٥٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٦) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

والهيبة من شروط المعرفة، قال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[(١)].

وقال أبو عمر الدمشقيّ: الخائف مَنْ يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال بعضُهم: مَنْ خاف من شيء هرب منه، ومَنْ خاف الله هَرَب إليه.

وقال أبو سليمان الدارانيّ: ما فارق الخوفُ قلباً إلا خرب.

ومنها الرجاء، وقد قدّمنا فيما قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحاً، قال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾[(٢)].

والفرق بين الرجاء والتمنّي، وكون أحدهما محموداً والآخر مذموماً، أنّ التمني ألا يسلك طريق الاجتهاد والجدّ، والرجاء بخلاف ذلك، فلهذا كان التمنّي يورث صاحِبَه الكسل.

وقال أبو علي الرُّوْذباريّ: الرجاء والخوف كجناحَيِ الطائر، إذ استويا استوى الطائر وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموتِ.

وقال أبو عثمان المغربيّ: من حَمَل نفسه على الرّجاء تعطّل، ومَنْ حمل نفسه على الخوف قَنَط، ولكن مِنْ هذا مرّة ومن هذا مرة.

ومن كلام يحيى بن معاذ - ويروى عن عليّ بن الحسين عليه السلام: يكاد رجائي لك مع الذنوب، يغلب رجائي لك مع الأعمال، لأني أجدُني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك! وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

ومنها الحزن، وهو من أوصاف أهل السّلوك.

وقال أبو عليّ الدّقاق: صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه مَنْ فقد الحزن في سنتين.

وفي الخبر النبوي ﷺ: «إنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين»[(٣)].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨. (٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» في كتاب: الرقاق برقم (٧٨٨٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان»، باب: الخوف من الله تعالى (٨٩٣).

وفي بعض كتب النبوّات القديمة: «إذا أحبّ الله عبداً نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مِزْماراً».

وروي أن رسول الله ﷺ كان متواصلَ الأحزان، دائم الفكْر. وقيل: إنّ القلب إذا لم يكن فيه حزن خَرِب، كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن خرِبت. وسمعت رابعة رجلاً يقول: واحُزْناه! فقالت: قُلْ واقلّة حُزْناه! لو كنتَ محزوناً ما تهيّأ لك أن تتنفّس!

وقال سُفيان بن عُيينة: لو أن محزوناً بكَى في أمّة، لرحِم الله تلك الأمّة ببكائه.

وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحدٌ من أصحابه يقول: إذا رأيت محزوناً فأقرئْه عنّي السلام.

وكان الحسن البصريّ لا يراه أحدٌ إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة.

وقال وكيع يوم مات الفُضَيل: ذهب الْحزن اليوم من الأرض.

وقال بعض السَّلَف: أكثر ما يجدُه المؤمن في صحيفته من الحسنات الحزنُ والهمّ.

وقال الفُضَيْل: أدركت السلفَ يقولون: إنّ لله في كلّ شيء زكاةً، وزكاة العقل طول الحزن.

ومنها الجوعُ وترك الشهوات، وقد تقدّم ذكر ذلك.

ومنها الخشوع والتواضع، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾(١).

وفي الخبر النبويّ عنه ﷺ: «لا يدخلُ الجنّة مَنْ في قلبه مثقال ذرّة من كبْر، ولا يدخل النار مَنْ في قلبه مثقال ذَرّة من إيمان»، فقال رجل: يا رسولَ الله، إنّ المرءَ لَيُحبّ أن يكون ثوبُه حسناً، فقال: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال، إنّما المتكبّر مَنْ بطر الحقّ، وغمص الناس»(٢).

وروى أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ «كان يعود المريضَ، ويشيّع الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبْد»(٣).

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١)، والترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الكبر (١٩٩٩)، وأحمد في مسند عبد الله بن مسعود (٣٧٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الجنائز (١٠١٧)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب: البراءة من الكبر (٤١٧٨).

وكان يوم قُرَيظة والنّضير على حمار مخطوم بحبل من ليفٍ، عليه إكاف من ليف.

ودخل مكة يوم فَتَحها راكب بعيرٍ، برَحْل خَلَق، وإنّ ذقنه لتمسّ وسط الرَّحْل خضوعاً لله تعالى وخشوعاً، وجيشه يومئذ عشرة آلاف.

قالوا في حدّ الخشوع: هو الانقياد للحقّ. وفي التواضع: هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم.

وقال بعضهم: الخشوع قيام القلْب بين يدي الحقّ بهمّ مجموع.

وقال حُذَيفة بن اليَمان: أوّل ما تفقدون من دينكم الخشوع.

وكان يقال: منْ علامات الخشوع أنّ العبد إذا أُغضِب أو خولف أو رُدَّ عليه استقبل ذلك بالقبول.

وقال محمد بن علي التِّرمذيّ: الخاشع مَنْ خمدت نيران شهوته، وسكن دخان صدره، وأشرق نور التعظيم في قلبه. فماتت حواسه وحَيِي قلبه، وتطامنت جوارحه.

وقال الحسن: الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب.

وقال الجُنَيْد: الخشوع تذلل القلوبِ لعلام الغُيوب، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[١]، أي خاشعون متواضعون.

ورأى بعضهم رجلاً منقبِض الظاهر، منكسر الشاهد، قد زوى منكبيه، فقال: يا فلان، الخشوع ها هنا - وأشار إلى صدره، لا ها هنا - وأشار إلى منكبيه.

ورُوِيَ أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعتْ جوارحه»[٢].

وقيل: شرط الخشوع في الصَّلاة ألا يعرف مَنْ على يمينه، ولا مَنْ على شماله.

وقال بعض الصوفية: الخشوع قُشَعْريرة تردُ على القَلْب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة.

وكان يقال: مَنْ لم يتّضِعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

وقيل: إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التراب.

وكان عمر بن الخطاب يُسرع في المشي، ويقول: هو أنجح للحاجة، وأبعد من الزَّهْو.

كان رجاء بن حَيْوة ليلةً عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فضعُف المصباح، فقام رجل

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) أخرجه الترمذي في «النوادر» (٢/ ١٧٢)، عن رسول الله ﷺ.

ليصلحه، فقال: اجلس، فليس من الكرم أن يستخدِم المرء ضيفَه، فقال: أنبِه الغلام، قال: إنّها أول نومةٍ نامها، ثم قام بنفسه فأصلَح السراج فقال رجاء: أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين! قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

وفي حديث أبي سعيد الخُدْريّ أن رسول الله ﷺ «كان يعلِفُ البعير ويقمُّ البيتَ، ويخصِف النّعل ويرقع الثّوب، ويحلُب الشاة، ويأكل مع الخادم. ويطحن معها إذا أعيت. وكان لا يمنعه الحياءُ أن يحمل بضاعته من السُّوق إلى منزل أهله، وكان يصافح الغنيّ والفقير، ويسلّم مبتدئاً، ولا يحقِرُ ما دُعيَ إليه ولو إلى حَشَف التّمر»[1].

وكان هين المؤنة، لَين الخُلق، كريم السجيّة، جميل المعاشرة، طلْق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عُبوس، متواضعاً من غير ذلّة، جواداً من غير سَرَف، رقيق القلْب، رحيماً لكلّ مسلم، ما تجشأ قطّ من شبع، ولا مدّ يدَه إلى طبَع.

وقال الفُضيل: أوحَى الله إلى الجبال أني مكلّم على واحد منكم نبياً، فتطاولتِ الجبال، وتواضع طور سيناء، فكلم الله عليه موسى لتواضِعه.

سئل الجُنيد عن التواضع، فقال: خَفْض الجناح، ولين الجانب.

ابن المبارك: التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع.

وقيل لأبي يزيد: متى يكونُ الرّجل متواضعاً؟ قال: إذا لم يرَ لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى أنّ في الخلْق مَنْ هو شرٌّ منه.

وكان يقال: التواضُع نعمة لا يحسد عليها، والتكبر محنة لا يرحَم منها، والعزّ في التواضع، فمن طلبه في الكِبر لم يجده.

وكان يقال: الشّرف في التواضع، والعزّ في التقوى، والحرّية في القناعة.

يحيى بن معاذ: التواضع حَسَنٌ في كلّ أحد، لكنّه في الأغنياء أحسن، والتكبر سمِجٌ في كلّ أحد، ولكنه في الفقراء أسمج.

وركب زيد بن ثابت، فدنا ابنُ عباس ليأخذ بركابه، فقال: مه يابن عَمِّ رسول الله! فقال: إنَّا كذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد: أرني يدَك، فأخرجها فقبّلها، فقال: هكذا أمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيِّنا.

وقَال عُروة بن الزبير: رأيتُ عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقِه قِرْبة ماء، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّه لا ينبغي لمثلك هذا! فقال: إنّه لما أتتني الوفود سامعةً مهادِنة،

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٠/٢٠٨.

دخلتْ نفسي نخوة، فأحببت أن أكسِرها. ومضى بالقربة إلى حُجْرة امرأة من الأنصار، فأفرغها في إنائها.

أبو سليمان الداراني: مَنْ رأى لنفسه قيمة، لم يذق حلاوة الخدْمة.

يحيى بن مُعاذ: التكبّر على مَنْ تكبر عليك تواضع.

بِشْر الحافي: سلّموا على أبناء الدّنيا بترك السلام عليهم.

بلغ عمرَ بن العزيز أنّ ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه: بلغني أنّك اشتريت خاتماً وفصُّه بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبِعْ الخاتم، وأشبع به ألف بطن، واتّخذْ خاتماً من درهمين، واجعل فصّه حديداً صينيًّا، واكتب عليه: «رحم الله امرأ عَرَف قدره».

قُوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطُب أيّام خلافته باثني عشر درهماً، وهي: قَباء، وعمامة، وقميص، وسراويل، ورداء، وخُفّان، وقلنسوة.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما سررت قطّ سروري في أيام ثلاثة: كنت في سفينة، وفيها رجل مضحِك، كان يلعَبُ لأهل السفينة، فيقول: كنّا نأخذ العِلْج من بلاد الترك هكذا، ويأخذ بشعر رأسي فيهزّني، فسرّني ذلك، لأنه لم يكن في تلك السفينة أحقر منّي في عينه. وكنت عليلاً في مسجد، فدخل المُؤَذِن وقال: اخرج فلم أطق، فأخذ برجْلي وجرّني إلى خارج المسجد. وكنت بالشام وعليّ فَرْو، فنظرت إليه فلم أميّز بين الشعر وبين القمْل لكثرته.

عُرِض على بعض الأمراء مملوكٌ بألوف من الدراهم، فاستكثر الثمن، فقال العبد: اشترني يا مولايَ، ففيّ خصلة تساوي أكثر من هذا الثمن. قال: ما هي؟ قال: لو قدّمتني على جميع مماليكك وخوّلتني بكلّ مالك لم أغلظ في نفسي، بل أعلم أنّي عبدُك. فاشتراه.

تشاجر أبو ذرّ وبلال، فعيّر أبو ذرّ بلالاً بالسّواد، فشكاه إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا ذرّ، ما علمتُ أنه قد بَقِيَ في قلبك شيء من كِبْر الجاهليّة. فألقى أبو ذرّ نفسه، وحلَف ألاّ يحمل رأسه حتى يطأ بلال خدّه بقدمه، فما رفع رأسه حتى فَعَل بلال ذلك[(١)].

مرّ الحسنُ بن عليّ عليه السلام بصبيان يلعبون، وبين أيديهم كِسَر خبز يأكلونها، فدعوْه فنزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: الفضل لهم، لأنّهم لم يجدوا غيرَ ما أطعموني، ونحن نجد أكثر ممّا أطعمناهم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل (١٦٦١)، بنحوه.

ومنها مخالفة النّفس، وذكر عيوبها، وقد تقدم ذكر ذلك

ومنها القناعة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾(١)، قال كثير من المفسرين: هي القناعة.

وفي الحديث النبوي - ويقال إنَّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «القناعة كنز لا ينفد»(٢).

وفي الحديث النبوي أيضاً، «كن ورِعاً تكنْ أعبدَ النّاس، وكن قنوعاً تكنْ أشكرَ الناس، وأحبّ للناس ما تحبّ لنفسك تكنْ مؤمناً، وأحسن مجاورة مَنْ جاورك تكنْ مسلماً، وأقلّ الضّحِك، فإنّ كثرة الضحك تميتُ القلب»(٣)

وكان يقال: الفقراء أمواتٌ إلاّ مَنْ أحياه الله تعالى بعزّ القناعة.

وقال ابو سليمان الداراني: القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزّهد، هذا أول الرّضا. وهذا أول الزهد.

وقيل: القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾(٤): إنّه القناعة.

وقال أبو بكر المراغيّ: العاقل مَنْ دبّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف، وأنكر أبو عبد الله بن خفيف، فقال: القناعة ترك التسويف بالمفقود، والاستغناء بالموجود.

وكان يقال: خرج العزّ والغنى يجولان، فلقيا القناعة، فاستقرّا.

وكان يقال: مَنْ كانت قناعته سمينةً طابت له كلُّ مرقة.

مرّ أبو حازم الأعرج بقصّاب، فقال له: خذ يا أبا حازم، فقال: ليس معي درهم، قال: أنا أنظِرُك، قال: نفسي أحسن نظرةً لي منك.

وقيل: وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع: العزّ في الطاعة، والذلّ في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي، والغنى في القناعة.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) أخرجه الذهبي في خيرات الاعتدال (٢٥٢٨)، وأورده البيهقي في الزهد الكبير (١٠٤)، بلفظ: «القناعة كنز لا يفنى».

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الورع والتقوى (٤٢١٧)، والترمذي في كتاب: الزهد عن رسول الله ﷺ باب: من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥)، وأحمد في باب: مسند أبي هريرة (٨٠٣٤).

(٤) سورة الحج، الآية: ٥٨

وكان يقال: انتقِم من فلان بالقناعة، كما تَنْتَقِم من قاتلك بالقصاص.

ذو النون المصري: مَنْ قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

وأنشدوا:

وَأَحْسَنُ بالفتى من يوم عارٍ ... يُنَالُ به الغنى، كَرَمٌ وجُوعُ

ورأى رجل حكيماً يأكل ما تساقط من البقْل على رأس الماء، فقال له: لو خدمت السلطان لم تَحْتَجْ إلى أكل هذا! فقال: وأنت لو قنعتَ بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان.

وقيل: العُقَاب عزيزٌ في مطاره، لا تسمو إليه مطامع الصيادين، فإذا طمع في جِيفةٍ علِقت على حبالة، نزل من مطاره فنشب في الأحبولة.

وقيل: لما نطق موسى بذكر الطمع، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[1]، قال له الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[2].

وفسّر بعضُهم قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[3]، فقال: مقاماً في القناعة لا يبلغه أحد.

ومنها التوكّل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[4].

وقال سهل بن عبد الله: أوّلُ مقام في التوكّل أن يكونَ العبد بين يدي الله تعالى، كالميت بين يدي الغاسل، يقلّبه كيف يشاء، لا يكون له حَركة، ولا تدبير.

وقال رجل لحاتم الأصَمّ: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[5].

وقال أصحاب هذا الشأن: التوكّل بالقلْب، وليس ينافيه الحركة بالجسد، بعد أن يتحقّق العبد أن التقدير من الله، فإن تعسّر شيء فبتقديره، وإنْ تسهّل فبتيسيره.

وفي الخبر النبوي أنه ﷺ قال للأعرابيّ الذي ترك ناقته مُهْمَلَةً فندّت، فلمّا قيل له، قال: توكّلت فتركتُها، فقال ﷺ: «اعقِلْ وتوكّل»[6].

وقال ذُو النّون: التوكّل الانخلاع من الحول والقوّة، وترك تدبير الأسباب.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٧.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٨.
(٣) سورة صٓ، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٥) سورة المنافقون، الآية: ٧.
(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٧)، وابن حبان في «صحيحه»، باب: ذكر الأخبار بأن المرء يجب عليه مع توكل القلب الاحتراز بالأعضاء ضد قول من كرهه (٧٣١).

وقال بعضُهم: التوكّل ردّ العيش إلى يوم واحدٍ بإسقاط همّ غدٍ.

وقال أبو عليّ الدقاق: التوكُّل ثلاثُ درجات: التوكّل وهو أدناها، ثم التسليم، ثم التفويض، فالأولى للعوامّ، والثانية للخواصّ، والثالثة لخواصّ الخواصّ.

جاء رجلٌ إلى الشّبليّ يشكو إليه كثرة العيال، فقال: ارجع إلى بيتك، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت.

وقال سهل بن عبد الله: مَنْ طَعَن في التوكّل فقد طعَن في الإيمان، ومَنْ طَعَن في الحرَكة، فقد طعن في السنة.

وكان يقال: المتوكّل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوِي إليه إلاّ ثدي أمّه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه.

ورأى أبو سليمان الدارانيّ رجلاً بمكّة لا يتناول شيئاً إلا شربةً من ماء زمزم، فمضت عليه أيام، فقال له يوماً: أرأيت لو غارت - أي زمزم - أيّ شيء كنت تشرب! فقام وقبّل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً حيث أرشدتني، فإنّي كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وقيل: التوكل نفْي الشُّكوك، والتفويض إلى مالك الملوك.

ودخل جماعة على الجُنيد، فقالوا: نطلب الرزق! قال: إن علمتم في أيّ موضع هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله ذلك، قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه، قالوا: لندخل البيت فنتوكّل، قال: التجربة شكّ، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

وقيل: التوكّل الثقة بالله واليأس عَمّا في أيدي الناس.

ومنها الشكر، وقد تقدّم منّا ذكر كثير مما قيل فيه.

ومنها اليقين وهو مقام جليل، قال الله: تعالى ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(١).

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً(٢).

وقال سهل بن عبد الله: حرام عَلَى قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه شكوى إلى غير الله.

وذكر للنبي صلى الله عليه وآله ما يقال عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنّه مشى على الماء، فقال: لو ازداد يقيناً لمشى عَلَى الهواء.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٠/ ١٥٣.

وفي الخبر المرفوع عنه ﷺ، أنه قال لعبد الله بن مسعود: «لا ترضين أحداً بسخط الله، ولا تحمَدَنّ أحداً عَلَى فضل الله، ولا تذمن أحداً عَلَى ما لم يؤتك الله. واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يردّه كراهة كاره، وأنّ الله جَعَلَ الرَّوْح والفرَج في الرِّضا واليقين، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط»[1].

ومنها الصبر، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[2].

وقال عليّ عليه السلام: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد[3].

وسئل الفُضَيل عن الصبر، قال: تجرّع المرارة من غير تعبيس.

وقال رويم: الصَّبْر ترك الشكوى.

وقال عليّ عليه السلام: الصَّبْر مطيّة لا تكبُو[4].

وقف رجل على الشِّبْليّ، فقال: أيّ صبرٍ أشدّ عَلَى الصابرين؟ قال الشِّبليّ: الصَّبر في الله تعالى، فقال: لا، قال: فالصبر لله، فقال: لا، قال: فالصبر مع الله تعالى، فقال: لا، قال: فأي شيء؟ قال الصبر عن الله. فصرخ الشّبليّ صرخة عظيمة، ووقع.

ويقال إنّ الشِّبليّ حُبِس في المارستان، فدخل عليه قوم، فقال: مَنْ أنتم؟ قالوا: محبّوك جئناك زائرين، فرماهم بالحجارة فهربوا، فقال: لو كنتم أحبّائيَ، لصبرتم على بلائي.

وجاء في بعض الأخبار، عن الله تعالى: بعيني ما يتحمّل المتحمّلون من أجلي.

وقال عمر بن الخطاب: لو كان الصَّبر والشكر بعيرَيْن لم أبالِ أيّهما ركبت.

وفي الحديث المرفوع: «الإيمان الصّبر والسخاء»[5].

وفي الخبر: العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، والبرّ أخوه، والصبر أمير جنوده. قالوا: فناهيك بشرف خصلة تتأمّر عَلَى هذه الْخصال! والمعنى أنّ الثبات عَلَى هذهِ الخصال واستدامة التخلّق بها إنما يكون بالصبر، فلذلك كان أمير الجنود.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» باب: القدر خيره وشره من الله عز وجل (٢٠٧).
(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٣) أخرجه السيوطي في جامعه رقم: ٥١٣٦.
(٤) أخرجه أبو الفتح الكراجكي في كنز الفوائد: ٥٨.
(٥) ورد عن الحسن في «شعب الإيمان» (٩٧٠٩)، وعن أبي الدرداء في صفوة الصفوة (١/ ٦٣٥): «الإيمان الصبر».

ومنها المراقبة، جاء في الخبر عن النبي ﷺ: أنّ سائلاً سأله عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنّك تراهُ، فإن لم تكن تراهُ، فإنه يراك»(١).

وهذه إشارة إلى حال المراقبة، لأنَّ المراقبة علم العبد باطلاع الربّ عليه، فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة للحق، وهو أصل كل خير، ولا يكاد يصل إلى هذه الرّتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة، فإذا حاسب نفسَه على ما سلف، وأصلح حالَه في الوقت، ولازم طريق الحقّ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس، راقبه تعالى في عموم أحواله، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه، يعلم أحواله، ويرى أفعالَه، ويسمع أقوالَه. ومَنْ تغافل عن هذه الجملة، فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة!

ويحكى أن ملكاً كان يتحظّى جارية له، وكان لوزيره ميل باطنٌ إليها، فكان يسعى في مصالحها، ويرجّح جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه. فاتفق أن عرض عليها الملك حَجَرَين من الياقوت الأحمر: أحدهما أنفس من الآخر، بمحضر من وزيره، فتحيّرت أيّهما تأخذ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس، وحانت من الملك التفاتة، فشاهد عين الوزير وهي مائلة إلى ذلك الجانب، فبقيَ الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسراً عينه نحو الجانب الذي كان طرفُه مائلاً إليه ذلك اليوم، أي كأنّ ذلك خِلْقة. وهذا عزم قويٌّ في المراقبة، ومثله فليكن حالُ من يريد الوصول.

ويحكى أيضاً أنّ أميراً كان له غلام يُقبِل عليه أكثر من إقباله على غيره من مماليكه، ولم يكن أكثرهم قيمة، ولا أحسنهم صورة، فقيل له في ذلك، فأحبّ أن يبيّن لهم فضل الغلام في الخدْمة على غيره، فكان يوماً راكباً، ومعه حشمه، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج فنظر الأمير إلى الثلج وأطرق، فركض الغلام فرسَه، ولم يعلم الغلمان لماذا ركض! فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء ومعه شيء من الثلج، فقال الأمير: ما أدراك أني أردت الثلج! فقال: إنك نظرتَ إليه، ونظرُ السلطان إلى شيء لا يكون إلا عن قصد. فقال الأميرُ لغلمانه: إنما أختصّه بإكرامي وإقبالي، لأنّ لكلٍّ واحد منكم شغلاً، وشغله مراعاة لَحَظَاتي، ومراقبة أحوالي.

وقال بعضهم: منْ راقب الله في خواطره، عصمه الله في جوارحه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإيمان والإحسان (٥٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨)، والترمذي في كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في وصف جبريل عليه السلام الإيمان والإحسان (٢٦١٠)، والنسائي في كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: نعت الإسلام (٤٩٩٠)، وأبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٩٥)، من حديث طويل عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومنها الرضا، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقضيها الله تعالى عليه، وليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصي والفواحش، أو نسبتها إلى الربّ تعالى عنها، فإنه سبحانه لا يرضاها، كما قال جلّ جلاله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[1].

وقال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[2].

قال رويم: الرّضا أن لو أدخلك جهنّم لما سخطت عليه.

وقيل لبعضهم: متى يكون العبد راضياً؟ قال: إذا سرّته المصيبة، كما سرّته النعمة.

قال الشبليّ مرة - والجنيد حاضر: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال الجنيد: أرى أنّ قولك هذا ضيقُ صَدْر، وضيق الصدر يجيء من ترك الرضا بالقضاء.

وقال أبو سليمان الداراني: الرضا ألاّ تسأل الله الجنة، ولا تستعيذ به من النار.

وقال تعالى فيمن سخط قسمته: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[3].

ثم نبّه على ما حرمُوه من فضيلة الرضا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[4]، وجواب «لو» ها هنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به.

وفي حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره «الرضي الله عنهم»، ولمّا كان رضاه عن عباده مقاماً جليلاً جداً حذف ذكره لأنّ الذكر له لا ينبىء عن كنهه، وحقيقة فضلِه، فكان الإضراب عن ذكره أبلَغ في تعظيم مقامه.

ومن الأخبار المرفوعة أنه ﷺ قال: «اللهمّ إنّي أسألك الرضا بعد القضاء»[5]، قالوا: إنّما قال: «بعد القضاء» لأنّ الرّضا قبل القضاء لا يتصوّر، وإنما يتصوّر توطين النفس عليه، وإنما يتحقق الرضا بالشيء بعد وقوع ذلك الشيء.

وفي الحديث أنّه قال لابن عباس يوصيه: «اعمل لله باليقين والرّضا، فإن لم يكن فاصبر، فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»[6].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٥) أخرجه النسائي في كتاب: السهو (١٣٠٥)، وأحمد في «مسنده»، كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث زيد بن ثابت (٢١١٥٨).

(٦) أخرجه أحمد في بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٨٠٠)، والحاكم في «المستدرك» في كتاب: معرفة الصحابة (٦٣٠٣).

وفي الحديث أنّه ﷺ رأى رجلاً من أصحابه، وقد أجهده المرض والحاجة، فقال: ما الّذي بلغ بك ما أرى؟ قال: المرض والحاجة، قال: أولا أعلّمك كلاماً إن أنت قلته أذهب الله عنك ما بك! قال: والّذي نفسي بيده ما يسرّني بحظّي منهما أن شهدت معك بدراً والحديبية! فقال ﷺ «وهل لأهل بدرٍ والحديبية ما للراضي والقانع!».

وقال أبو الدرداء: ذِروة الإيمان الصّبْر والرضا.

قدم سعد بن أبي وقاص مكّة بعد ما كُفّ بصره، فانثال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم، فقال له عبد الله بن السائب: يا عمّ إنك تدعُو للنّاس فيُستجاب لك، هلا دعوت أن يردّ عليك بصرك! فقال: يابن أخي، قضاء الله تعالى أحبُّ إليّ من بصري.

عمر بن عبد العزيز: أصبحتُ وما لي سرور إلا في مواقع القَدَر.

وكان يقال: الرضا اطراح الاقتراح على العالم بالصلاح، وكان يقال: إذا كان القَدَر حقًّا كان سخطه حمقاً.

وكان يقال: مَنْ رَضِيَ حَظِيَ. ومنْ اطّرح الاقتراح، أفلح واستراح.

وكان يقال: كنْ بالرّضا عاملاً، قبل أن تكون له معمولاً، وسر إليه عادلاً وإلا سرْت نحوه معدولاً.

وقيل للحسن: من أين أُتِيَ الخلق؟ قال: مِنْ قلّة الرضا عن الله، فقيل: ومِنْ أين دخلَتْ عليهم قلّة الرضا عن الله؟ قال: من قلّة المعرفة بالله.

وقال صاحب «سُلْوان المطاع»[1] في الرّضا:

يا مفزعي فيما يجيء ... وراجِمِي فيما مضَى
عندي لما تقضيه ما ... يرضيك من حُسْنِ الرضا
ومن القطيعة أستعيذُ ... مصرّحاً ومعرّضا

وقال أيضاً:

كن من مدبرك الحكيم علا وجَلّ على وَجَلْ
وارضَ القضاء فإنه ... حتم أجل وله أجل

وقال أيضاً:

يا من يرى حالي وأن ليس لي ... في غير قربي منه أوْطَارُ

---

(١) واسمه سلوان المطاع في عدوان الطباع لأبي عبد الله محمد بن محمد القرشي المعروف بابن ظفر المكي المتوفى سنة (٥٦٨هـ) اهـ «كشف الظنون» (٣/ ٩٩٨).

وليس لي ملتحدٌ دونهُ ... ولا عليه لي أنصارُ
حاشا لذاك العزّ والفضل أنْ ... يهلك مَنْ أنت له جارُ
وإن تشأ هُلْكي فهبْ لي رضاً ... بكلّ ما تقضي وتختارُ
عندي لأحكامك يا مالكي ... قلبٌ كما أنعمت صبّارُ
كلّ عذاب منك مستعذَبٌ ... ما لم يكن سخطك والنّارُ

ومنها العبودية، وهي أمر وراء العبادة، معناها التعبّد والتذلّل. قالوا: العبادة للعوامّ من المؤمنين، والعبوديّة للخواصّ من السالكين.

وقال أبو علي الدّقاق: العبادة لمن له علم اليقين، والعبوديّة لمن له عين اليقين.

وسئل محمد بن خفيف: متى تصحّ العبوديّة؟ فقال: إذا طرح كلّه على مولاه، وصَبَر معه على بلواه.

وقال بعضهم: العبوديّة معانقة ما أُمرتَ به، ومفارقة ما زجرت عنه.

وقيل: العبوديّة أن تسلّم إليك كُلّك، وتحمل عليه كَلّك.

وفي الحديث المرفوع: «تعس عبدُ الدّينار، وتَعِس عبدُ الخبيصة»(١).

رأى أبو يزيد البِسطاميّ رجلاً، فقال له: ما حرفتُك؟ قال خَرْبنده، قال: أمات الله حِمارك لتكون عبداً لله، لا عبداً للحمار.

وكان ببغداد في رِباط شيخ الشّيوخ، صوفيّ كبير اللّحية جدّاً، وكان مغرًى، ومعنًى بها أكثر زمانه، يدهنها ويسرّحها، ويجعلها ليلاً عند نومه في كيس، فقام بعض المريدين إليه في الليل وهو نائم، فقصّها من الأذن إلى الأذن، فأصبحت كالصَّريم. وأصبح الصوفيّ شاكياً إلى شيخ الرّباط، فجَمع الصوفيّة وسألهم، فقال المريد: أنا قصصْتُها، قال: وكيف فعلت، ويلك ذلك؟ قال: أيّها الشيخ، إنها كانت صنمَه، وكان يعبدها من دون الله، فأنكرت ذلك بقلبي، وأردت أن أجعلَه عبداً لله لا عبداً لِلّحية.

قالوا: وليس شيءٌ أشرفَ من العبوديّة، ولا اسم أتمّ للمؤمن من اسمه بالعبوديّة، ولذلك قال سبحانه في ذكر النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان ذلك الوقت أشرفَ أوقاته في الدنيا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة والغزو في سبيل الله (٢٨٨٧)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب: في المكثرين (٤١٣٥)، والبيهقي في الكبرى، كتاب: السير (١٥٩).

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾(١). وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾(٢)، فلو كان اسم أجلّ من العبودية لسمّاه به.

وأنشدوا:

لا تـدعـنـي إلاّ بـيـا عـبـدهـا فـإنّـه أشـرف أسـمـائـي

ومنها الإرادة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٣).

قالوا: الإرادة هي بَدْء طريق السّالكين، وهي اسم لأوّل منازل القاصدين إلى الله، وإنّما سُمّيت هذه الصفة إرادة، لأنّ الإرادة مقدّمة كلّ أمر، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله، فلمّا كان هذا الشأن أوّل الأمر لمن يسلك طريق الله سمّي إرادة، تشبيهاً له بالقصد إلى الأمور التي هو مقدّمتها.

قالوا: والمريد على موجب الاشتقاق: مَنْ له إرادة، ولكنّ المريد في هذا الاصطلاح مَنْ لا إرادة له، فما لم يتجرّد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أنّ من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً.

وقد اختلفوا في العبارات الدالّة على ماهية الإرادة في اصطلاحهم، فقال بعضهم: الإرادة ترْك ما عليه العادة، وعادة النّاس في الغالب التّعريج على أوْطان الغفْلة، والركون إلى اتباع الشهوة، والإخلاد إلى ما دعتْ إليه المنيّة، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة.

وقال بعضهم: الإرادةُ نهوض القلب، في طلب الربّ، ولهذا قيل: إنّها لوعة تهوّن كلّ روعة.

وقال أبو عليّ الدقّاق: الإرادة لوعةٌ في الفؤاد، ولذعةٌ في القلب، وغرامٌ في الضمير، وانزعاج في الباطن، ونيران تأجج في القلوب.

وقال ممشاذ الدينوريّ: مذ علمت أنّ أحوالَ الفقراء جِدٌّ كلّها لم أمازح فقيراً، وذلك أنّ فقيراً قدم عليّ، فقال: أيّها الشيخ، أريد أن تتّخذ لي عصيدة، فجرى على لساني «إرادة وعصيدة»، فتأخر الفقير ولم أشعر، فأمرتُ باتخاذ عصيدة، وطلبته فلم أجده، فتعرّفتُ خبرَه، فقيل: إنّه انصرف من فوره، وهو يقول «إرادة وعصيدة، إرادة وعصيدة!»، وهامَ علَى وجهِه، حتّى خرج إلى البادية، وهو يكرّر هذه الكلمة، فما زال يقول ويردّدها حتى مات.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.
(٢) سورة النجم، الآية: ١٠
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

وحكى بعضُهم، قال: كنتُ بالباديةِ وحدي. فضاق صدْري، فصحتُ: يا إنْس كلّموني، يا جنّ كلّموني! فهتف هاتفٌ: أيّ شيء ناديت؟ فقلت: الله، فقال الهاتف: كذبتَ، لو أردته لما ناديتَ الإنس، ولا الجن.

فالمريد هو الّذي لا يشغله عن الله شيء، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهار، فهو في الظّاهر بنعت المجاهدات، وفي الباطن بوصف المكابدات، فارق الفراش، ولازم الانكماش، وتحمّل المصاعب، وركب المتاعب، وعالج الأخلاق، ومارس المشاقّ، وعانق الأهوال، وفارق الأشكال، فهو كما قيل:

ثمّ قطعتُ الليلَ في مَهْمَهٍ لا أسداً أخشى ولا ذِيبا

يغلبني شوقي فأطوي السُّرَى ولم يزلْ ذو الشّوق مغلوبا

وقيل: من صفات المريدين التحبّب إليه بالتوكّل، والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والصبر على مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبّته، والتعرّض لكلّ سبب يوصّل إليه، والقناعة بالخمول، وعدم الفرار من القلْب، إلى أن يصلَ إلى الربّ.

وقال بعضهم: آفة المريد ثلاثة أشياء: التزويج، وكتْبه الحديث، والأسفار.

وقيل: من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومُه غَلبة، وأكلُه فاقة، وكلامه ضرورة.

وقال بعضهم: نهاية الإرادة أن يشيرَ إلى الله فيجده مع الإشارة، فقيل له: وأيّ شيء يستوعِبُ الإرادة؟ فقال: أن يجد الله بلا إشارة.

وسئل الجُنيد: ما للمريدين وسماع القصص والحكايات؟ فقال: الحكايات جندٌ من جند الله تعالى، يقوّي بها قلوبَ المريدين. فقيل له: هل في ذلك شاهد؟ فتلا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾(١).

وقال أصحابُ الطريقة: بين المريد والمُراد فَرْق، فالمريد مَنْ سلك الرياضة طلباً للوُصول، والمراد مَنْ فاضت عليه العناية الإلهية ابتداء، فكان مخطوباً لا خاطباً، وبين الخاطب والمخطوب فرق عظيم.

قالوا: كان مُوسى عليه السلام مريداً، قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾(٢) وكان محمد صلى الله عليه وآله مُراداً، قال له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(٣)، وسئل الجنيد عن المريد والمراد، فقال: المريد سائر، والمراد طائر، ومتى يلحَقُ السائرُ الطائر!

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة طه، الآية: ٢٥.

(٣) سورة الانشراح، الآية: ١.

أرسل ذو النّون المصريّ رجلاً إلى أبي يزيد، وقال له: إلَى مَتى النّومُ والرّاحة! قد سارت القافلة! فقال له أبو يزيد: قل لأخي: الرّجُل مَنْ ينامُ اللّيل كله، ثم يصبح في المنزل قبل القافلة. فقال ذو النون: هنيئاً له! هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا.

وقد تكلّم الحكماء في هذا المقام، فقال أبو عليّ بن سينا في كتاب «الإشارات»: أوّل درجات حركات العارفين ما يسمّونه همّ الإرادة، وهو ما يعتري المستبصر باليقين البرهانيّ، أو الساكن النفس إلى العقد الإيمانيّ، من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى، فيتحرّك سرّه إلى القدس، لينال من روح الاتّصال، فما دامت درجته هذه، فهو مريد.

ثم إنه ليحتاجُ إلى الرّياضة، والرّياضة، موجّهة إلى ثلاثة أغراض:

الأوّل: تنحية ما دون الحقّ عن سَنَن الإيثار.

والثاني: تطويع النفْس الأمّارة للنفس المطمئنة، لتَنجذب قوى التخيّل والوهم إلى التوهّمات المناسبة للأمر القدسيّ، منصرفة من التوهّمات المناسبة للأمر السفليّ.

والثالث: تلطيف السرّ لنفسه.

فالأول يعين عليه الزهد الحقيقي، والثاني يعينُ عليه عِدّة أشياء: العبادة المشفوعة بالفكْرة، ثم الألحان المستخدَمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القَبول من الأوهام، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكي، بعبارة بليغة، ونغمة رخيمة، وسمتٍ رشيد. والثالث يعين عليه الفكْر اللطيف، والعشق العفيف، الذي تتأمّر فيه شمائل المعشوق، دون سلطان الشهوة.

ومنها الاستقامة، وحقيقتها الدّوام والاستمرار على الحال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[١].

وسئل بعضُهم عن تارك الاستقامة، فقال: قد ذكر الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[٢].

وفي الحديث المرفوع: «شَيَّبَتْني هُود»، فقيل له في ذلك، فقال قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[٤]، فلم يقل «سقيناهم» بل «أسقيناهم»، أي جعلنا لهم سُقياً دائمة، وذلك لأنّ مَنْ دام عَلَى الخدمة دامت عليه النعمة.

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٢.
(٣) سورة هود، الآية: ١١٢.
(٤) سورة الجن، الآية: ١٦.

ومنها الإخلاص، وهو إفراد الحق خاصة في الطاعة بالقَصْد والتقرّب إليه بذلك خاصة، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شيء آخر من تصنّع لمخلوق، أو اكتساب مَحْمَدة بيْن النّاس، أو مَحبّة مدح، أو معنًى من المعاني، ولذلك قال أربابُ هذا الفنّ: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

وقال الخواصُّ من هؤلاء القوم: نقصانُ كل مخلِصٍ في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله أن يخلّص إخلاص عبد أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلَصاً لا مخلِصاً.

وجاء في الأثر عن مكحول: «ما أخلص عبدٌ لله أربعينَ صباحاً، إلا ظهرتْ ينابيع الحكمة من قلْبه على لسانه»[(١)].

ومنها الصدق، ويطلق على معنيين: تجنّب الكذِب، وتجنّب الرياء، وقد تقدّم القول فيهما.

ومنها الحياء، وفي الحديث الصحيح: «إذا لم تستحِ فاصنَعْ ما شئت»[(٢)].

وفي الحديث أيضاً: «الحياء من الإيمان»[(٣)]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[(٤)]، قالوا: معناه ألم يستحي!

وفي الحديث أنه قال لأصحابه: «استحيوا من الله حقّ الحياء» قالوا: إنا لنستحيي ونحمد الله. قال: «ليس كذلك، من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت وطول البِلى، وليترك زينَة الحياة الدنيا، فمن فعَل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في باب: البعث (٣٤٣٤٣)، وابن المبارك في الزهد (١٠١٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث النار (٣٤٨٤)، وأبو داود في كتاب: الأدب، باب: في الحياء (٣٧٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: الحياء من الإيمان (٢٤)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: عدد «شعب الإيمان وأفضلها (٣٥)، والترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الحياء (٢٠٠٩)، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه، باب الإيمان (٥٠٣٣).

(٤) سورة العلق، الآية: ١٤.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق (٢٤٥٨)، وأحمد في كتاب: سند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٦٦٢).

وقال ابنُ عطاء: العلم الأكبر الهيبة والحياء، فإذا ذهبا لم يبق خير.

وقال ذو النون: الحبّ ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق.

وقال السريّ: الحياء والأنس يطرُقان القلب، فإن وجدا فيه الزّهد والورع حطّا وإلاّ رَحَلا.

وكان يقال: تعامل القرن الأوّل من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقّ الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فَنِيَت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قلّ الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرّغبة والرهبة.

وقال الفضيل: خمسٌ من علامات الشقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلّة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

وفسَّر بعضُهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1] إنّها كان لها صنم في زاوية البيت، فمضتْ فألقت على وجهه ثوباً، فقال يوسف: ما هذا؟ قالت: أستحيي منه، قال: فأنا أولى أن أستحيي من الله!

وفي بعض الكتب القديمة: ما أنصفني عبدي! يدعوني فأستحيي أن أردّه، ويعصيني وأنا أراه، فلا يستحيي مني.

ومنها الحرية، وهو ألاّ يكون الإنسان بقلبه رقّ شيء من المخلوقات، لا من أغراض الدنيا، ولا من أغراض الآخرة، فيكون فرداً لفرد لا يسترقّه عاجل دنيا، ولا آجل مُنى، ولا حاصل هوى، ولا سؤال، ولا قصد، ولا أرَب.

قال له ﷺ بعضُ أصحاب الصُفّة: قد عزفتْ نفسِي يا رسولَ الله عن الدّنيا، فاستوى عندي ذهبُها وحَجَرُها. قال: صرتَ حرّاً[2].

وكان بعضهم يقول: لو صحّتْ صلاة بغير قرآن، لصحّت بهذا البيت:

أتمنَّى علَى الزَّمانِ مُحالاً ... أنْ ترى مقلتايَ طلعةَ حُرّ

وسئل الجُنيد عمّن لم يبق له من الدنيا إلا مقدار مصّ نواة! فقال: المكاتب عبد ما بَقِي عليه درهم.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير بما معناه: ٣/ ٢٦٦

ومنها الذكر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(١).

وروى أبو الدّرداء أنّ رسول الله ﷺ، قال: ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند خالقكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطائكم الذهب والفضة في سبيل الله، ومن أن تَلقَوْا عدوّكم فتضربوا أعناقَهم، ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: ما ذلك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله»(٢).

وفي الحديث المرفوع: «لا تقوم السّاعة على أحدٍ يقول: الله الله»(٣).

وقال أبو عليّ الدقاق: الذكر منشور الوِلاية، فمن وفّق للذكر فقد أعطيَ المنشور، ومن سلِب الذكر فقد عزل.

وقيل: ذكْر الله تعالى بالقلْب سيف المريدين، به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وإنّ البلاء إذا أظلّ العبدَ ففزع بقلبه إلى الله حاد عنه كلُّ ما يكرهه.

وفي الخبر المرفوع: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها»، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»(٤).

وفي الخبر المرفوع: «أنا جليسُ مَنْ ذكرني»(٥).

وسمع الشّبليّ وهو يُنشد:

ذكرتُك لا أنّي نسيتُك لمحةً ... وأيسر ما في الذّكْر ذكرُ لِساني
فكدت بلا وجدٍ أموت من الهوَى ... وهامَ عليّ القلبُ بالخفَقانِ
فلمّا أراني الوجد أنك حاضِري ... شهدتك موجوداً بكلّ مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلُّمٍ ... ولاحظتُ معلوماً بغير عِيان

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٧)، وابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل الذكر (٣٧٩٠)، وأحمد في كتاب: مسند الأنصار، باب: باقي حديث أبي الدرداء (٢١١٩٥).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان (١٤٨)، والترمذي في كتاب: الفتن عن رسول الله ﷺ (٢٢٠٧)، وأحمد في باب: مسند أنس بن مالك (١١٦٣٢).
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد (٣٥٠٩)، وأحمد في مسند أنس بن مالك (١٢١١٤).
(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، باب في محبة الله عز وجل (٦٨٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» في باب: الرجل يذكر الله وهو على الخلاء (١٢٢٤).

ومنها الفتوة، قال سبحانه مخبراً عن أصحاب الأصنام ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(١).

وقال تعالى في أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾(٢).

وقد اختلفوا في التعبير عن الفتوّة ما هي؟ فقال بعضهم: الفتوّة ألاّ تَرى لنفسك فضلاً على غيرك.

وقال بعضهم: الفتوة الصفح عن عَثرات الإخوان.

وقالوا: إنّما هتف الملَك يوم أحد بقوله:

لا سيفَ إلا ذو الفَقَار، ولا فتىً إلاّ عليّ

لأنه كسر الأصنام، فسمّيَ بما سمّيَ به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جُذَاذاً.

قالوا: وصنَم كلّ إنسان نفسُه، فمن خالفَ هواه فقد كسر صنَمَه، فاستحقّ أن يطلق عليه لفظ الفتوّة.

وقال الحارث المحاسبيّ: الفتوّة أن تنصف ولا تُنتصف.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سئل أبِي عن الفتوة، فقال: ترك ما تهوَى لما تخشى.

وقيل: الفتوة ألاّ تدخر ولا تعتذر.

سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، عن الفتوة، فقال: ما تقول أنت؟ قال: إن أُعطِينا شكرنا، وإن مُنِعنا صَبَرْنا. قال: إنّ الكلابَ عندنا بالمدينة هذا شأنها، ولكن قل: إن أعطِينا آثَرْنا، وإن مُنِعنا شكرنا(٣).

ومنها الفراسة، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(٤). أي للمتفرسين. وقال النبي صلى الله عليه وآله: «اتقوا فِراسة المؤمن، فإنها لا تخطىء»(٥).

قيل: الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدها الحقُّ إياها، وكلّ مَنْ كان أقوى إيماناً كان أشد فراسة.

وكان يقال: إذا صحت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٠. (٢) سورة الكهف، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه الصالحي الشامي في سبل الهدى: ١/ ٤٧٤.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٧٥.

(٥) أخرج الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر (٣١٢٧)، بلفظ: «فإنه ينظر بنور الله»، والطبراني في الأوسط برقم (٣٢٥٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٥٢٩)، كلهم بلفظ الترمذي.

ومنها حسن الخلق، وهو من صفات العارفين، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقيل له ﷺ: أيّ المؤمنين أفضل إيماناً؟ فقال: «أحسنهم خُلقاً»(٢)، وبالخلُق تظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخلقه مشهور بخُلقه.

وقال بعضهم: حسن الخلُق استصغار ما مِنْك، واستعظام ما إليك.

وقال النبي ﷺ: «إنكم لن تسعُوا النّاس بأموالكم، فسعُوهم بأخلاقكم»(٣).

قيل لذي النون: مَنْ أكبر الناس همًّا؟ قال: أسوؤهم خُلُقاً.

وكان يقال: ما تَخلّق أحد أربعين صباحاً بخُلُقٍ إلا صار ذلك طبيعة فيه.

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾(٤) أي وخلقك فحسن.

شتم رجلٌ الأحنفَ بن قيس، وجعل يتبعه ويشتُمه، فلما قرب الحيّ وقف، وقال: يا فتى، إن كان قد بقيَ في قلبك شيء فقله، كي لا يسمَعك سفهاءُ الحيّ فيجيبوك.

ويقال: إن معروفاً الكرخيّ نزل دِجلة ليسبّح، ووضع ثيابه ومصحَفه، فجاءت امرأة فاحتملتهما، فتبعها، وقال: أنا معروف الكرخيّ، فلا بأس عليك! ألك ابن يقرأ؟ قالت: لا، قال: أفلك بعل؟ قالت: لا، قال: فهاتي المصحف، وخذي الثياب.

قيل لبعضهم: ما أدَب الخلُق؟ قال: ما أدب الله به نبيّه في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(٥).

يقال: إنّ في بعض كتب النبوّات القديمة: يا عبدي اذكرني حين تغضَب، أذكرك حين أغضب.

قالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي! فقال: لقد وجدتِ اسمي الّذي أضلّه أهل البصرة.

قال بعضهم - وقد سئل عن غلام سوء له: لِمَ يُمْسِكه؟ قال: أتعلّم عليه الحِلْم.

وكان يقال: ثلاثة لا يعرَفُون إلا عند ثلاثة: الحليمُ عند الغضب، والشجاع عند الحرب، والصديق عند الحاجة إليه.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» في كتاب: معرفة الصحابة (٦٦٢٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» باب: ما ذكر في حسن الخلق وكرهة الفحش (٢٥٣٣٣)، وابن عدي في «الكامل» (٩٨٣)، كلاهما بلفظ: «... ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحُسن الخلق» بدل قوله: «فسعوهم بأخلاقكم».

(٤) سورة المدثر، الآية: ٤.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٩.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]: الظاهرة تسوية الخَلْق، والباطنة تصفية الخلُق.

الفُضَيل: لأنْ يصحبني فاجر حَسَنُ الخلق أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يصحبني عابد سيىء الخلق.

خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراريّ، فاستقبله جنديّ فسأله: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجّه وأدماه، فلمّا جاوزه قيل له: إنّ ذلك إبراهيم بن أدهم زاهدُ خراسان! فردّ إليه يعتذر. فقال إبراهيم: إنّك لمّا ضربتني سألتُ الله لك الجنة. قال: لمَ سألت ذلك؟ قال: علمتُ أنّي أوجر على ضربك لي، فلم أرِدْ أن يكونَ نصيبي منك الخيرَ، ونصيبك منّي الشر

وقال بعض أصحاب الجُنيد: قدِمْتُ من مكّة، فبدأت بالشيخ كي لا يتعنّى إليّ، فسلّمت عليه، ثم مضيت إلى منزلي، فلمّا صلّيت الصبح في المسجد، إذا أنا به خَلْفي في الصفّ، فقلت: إنّما جئتك أمِس لئلا تتعنّى! فقال: فضلُك، وهذا حقُّك.

كان أبو ذَرّ عَلَى حوضٍ يسقي إبله، فزاحمه إنسانٌ فكسر الحوض، فجلس أبو ذرّ ثم اضطجع فقيل له في ذلك، فقال: أمرنا رسول الله ﷺ: «إذا غضب الرجل وهو قائم فليَجلس، فإن ذهب عنه، وإلا فليضطجع»[2].

دعا إنسانٌ بعض مشاهير الصوفيّة إلى ضيافة، فلمّا حضر باب داره ردّه واعتذر إليه. ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة، والصوفيّ لا يغضب، ولا يضجر، فمدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخُلُق، فقال: إنما تمدحني على خلُقٍ تجد مثلَه في الكلب، إن دعوته حضر، وإن زجرته انزجر.

مرّ بعضُهم وقت الهاجرة بسكّة، فألقِيَ عليه من سطح طست رماد، فغضب مَنْ كان في صحبته، فقال: لا تغضبوا، من استحقّ أن يُصَبّ عليه النّار فصولح على الرماد، لم يَجُزْ له أن يغضب.

كان لبعض الخياطين جارٌ يدفع إليه ثياباً فيخيطها، ويدفع إليه أجرتها دراهم زُيوفاً، فيأخذها، فقام يوماً من حانوته، واستخلف ولَده، فجاء الجار بالدّراهم الزائفة، فدفعها إلى الولد فلم يقبلْها، فأبدلها بدراهم جيّدة، فلمّا جاء أبوه دفع إليه الدّراهم، فقال: وَيْحك! هل جرى بينك وبينه أمر؟ قال: نعم، إنه أحضَر الدّراهم زُيوفاً، فرددتها فأحضر هذه، فقال: بئس

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقال عند الغضب (٤٧٨٢)، وأحمد في كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث أبي ذر (٢٠٤١).

ما صنعت! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزائف وأصبر عليه، وألقيها في بئر، كي لا يغرّ غيري بها!

وقيل: الخلُق السّيىء هو أن يضِيقَ قلبُ الإنسان عنْ أن يتّسع لغير ما تحبُّه النفس وتؤثره، كالمكان الضيّق لا يسع غير صاحبه.

وكان يقال: منْ سوء الخلق أن تقف على سُوء خُلُق غيرك وتعيبه به.

قيل لرسول الله: ادعُ الله علَى المشركين، فقال: «إنما بعثتُ رحمةً، ولم أبعث عذاباً»[1].

دعا عليّ عليه السلام غلاماً له مراراً، وهو لا يجيبه، فقام إليه فقال: ألا تسمع يا غلام! قال: بلى، قال: فما حملك على ترك الجواب؟ قال: أمْني لعقوبتك، قال: اذهب فأنت حرّ.

ومنها الكِتمان، قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على أمورِكم بالكتمان»[2].

وقال السريّ: علامة الحب الصبر والكِتمان، ومن باح بسرّنا فليس منا.

وقال الشاعر:

كـتـمتُ حُـبّـك حتّـى مِـنْـكَ تـكـرِمـةً ... ثـم اسـتـوَى فـيـك إسـراري وإعـلانِـي

كـأنه غـاض حـتـى فـاض عـن جَـسَـدِي ... فـصـار سقـمـي بـه فـي جـسـم كِـتـمـانـي

وهذا ضدّ ما يذهب إليه القوم من الكتمان، وهو عذر لأصحاب السرّ والإعلان.

وكان يقال: المحبّة فاضحة، والدمع نَمّام.

وقال الشاعر:

لا جَـزى الله دمـع عـيـنِـيَ خـيْـراً ... وجـزى الله كـلّ خـيـرٍ لـسـانـي

فـاض دمـعـي فـلـيـس يـكـتُـم شـيـئـاً ... ووجـدتُ الـلـسـانَ ذا كـتـمـانِ

يقال: إن بعض العارفين، أوصَى تلميذه بكتمان ما يطّلع عليه من الحال، فلمّا شاهد الأمر غلب، فكان يطلع في بئر في موضع خال، فيحدّثها بما يشاهد، فنبتت في تلك البئر شجرة سمع منها صوت يحكي كلام ذلك التلميذ، كما يحكي الصدا كلام المتكلّم، فأسقط بذلك من ديوان الأولياء.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩)، بلفظ: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة». وعند الطبراني في «الأوسط» (٢٩٨١)، «إنما بعثت رحمة وهداة».

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٤٥٥)، و«الصغير» (١١٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٥٥)، كلهم بلفظ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان».

وأنشدوا:

أبـدا تـحـنّ إلـيـكـمُ الأرواحُ ... ووصـالـكـمْ رَيـحـانُـهـا والـرَّاحُ
وقـلـوب أهـلِ ودادكـم تـشـتـاقـكـمْ ... وإلـى لـقـاء جـمـالـكـم تـرتـاحُ
ورحـمـةً لـلـعـاشـقـيـن تـحـمّـلـوا ... ثـقـلَ الـمـحـبّـة والـهـوى فَـضَّـاحُ
بـالـسـرّ إن بـاحـوا تـبـاح دمـاؤهـمْ ... وكـذا دمـاء الـبـائـحـيـن تـبـاحُ

وقال الحسين بن منصور الحلاّج:

إنـي لأكـتـمُ مـن عـلـمـي جـواهـرَه ... كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتِننَا
وقـد تـقـدّمـنـي فـيـه أبـو حـسـن ... إلى الحسين، وأوصى قبلَه الحسَنَا
يـا ربّ مـكـنـونِ عـلـمٍ لـو أبـوحُ بـه ... لقيل لي أنتَ ممّن يعبُدُ الوثنا!
ولاسـتـحـلّ رجـالٌ صـالـحـونَ دمِـي ... يـروْن أقـبـحَ مـا يـأتـونَـهُ حـسـنـا

ومنها الجود والسّخاء والإيثار، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١):

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «السّخيّ قريبٌ من الله، قريب من الناس، والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيد من النّاس. وإنّ الجاهل السخيّ أحبُّ إلى الله من العابد البخيل»(٢).

قالوا: لا فرق بين الجود والسَّخاء في اصطلاح أهل العربية، إلاّ أنّ الباري سبحانه لا يوصَف بالسّخاء، لأنه يشعر بسماح النفس عَقِيب التردّد في ذلك، وأمّا في اصطلاح أرباب هذه الطريقة، فالسّخاء هو الرتبة الأولى، والجود بعده، ثم الإيثار، فمنْ أعْطَى البعض وأبقى البعض فهو صاحب السَّخاء، ومَنْ أعطَى الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود، والذي قاسى الضّرّاء وآثر غيره بالبُلْغَة فهو صاحب الإيثار.

قال أسماء بن خارجة الفزاريّ: ما أحبّ أنْ أردّ أحداً عن حاجة طَلبها، إن كان كريماً صُنْتُ عِرْضَه عن الناس، وإن كان لئيماً صُنْتُ عنه عرضي.

كان مؤرّق العجليّ يتلطّف في برّ إخوانه، يضع عندهم ألف درْهم، ويقول: امسكوها حتى أعودَ إليكم، ثم يرسِل إليهم: أنتم منها في حلّ.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٣٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» باب: الجود والسخاء (١٠٨٤٧).

وكان يقال: الجود إجابة الخاطر الأول.

وكان أبو الحسن البوشنجيّ في الخلاء، فدعا تلميذاً له، فقال انزع عنّي هذا القميص وادفعْه إلى فلان، فقيل له: هلاّ صبرت! فقال: لم آمن على نفسي أن تغير عَلَى ما وقع لي من التخلّق معه بالقميص.

رُئيَ عليّ عليه السلام يوماً باكياً، فقيل له. لم تبكي؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

أضاف عبد الله بن عامر رجلاً فأحسن قِرَاه، فلما أراد أن يرتحل لم يعنه غلمانه. فسئل عن ذلك، فقال إنهم يعينون مَنْ نزل علينا، لا من ارتحل عنا.

ومنها الغَيْرة، قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغيرُ من الله، إنّما حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن لغيْرته»(١).

وفي حديث أبي هريرة: «إنّ الله ليغار وإنّ المؤمن ليغار»(٢).

قال: والغيْرة هي كراهية المشاركة فيما هو حقك.

وقيل: الغيْرة الأنفة والحميّة.

وحكى عن السريّ أنه قرىء بين يديه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(٣).

فقال لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغَيْرة، ولا أحد أغير من الله.

قالوا: ومعنى حجاب الغَيْرة، أنّه لما أصرّ الكافرون على الجحود عاقبِهم بأن لم يجعلْهم أهلاً لمعرفة أسرار القرآن.

وقال أبو علي الدقّاق: إنّ أصحاب الكسل عن عبادته، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان، فاختار لهم البعد، وأخّرهم عن محل القرب، ولذلك تأخّروا.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠)، وأحمد في مسند عبد الله بن مسعود (٣٦٠٥)، والدارمي في كتاب: النكاح، باب: في الغيرة (٢٢٢٥).

(٢) أخرج أبو يعلى في «مسنده» نحوه عن ابن مسعود بلفظ: «إن الله ليغار لعبده المؤمن فليغفر لنفسه» وأخرج أحمد عن أبي هريرة قريباً منه: «قيل لرسول الله ﷺ: ألا تغار؟ قال: والله إني لأغار والله أغير مني... الحديث».

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

وفي معناه أنشدوا فقالوا:

أَنَا صَبٌّ بِمَنْ هَوِيتُ وَلَكِنْ ... ما آحتيالِي في سُوء رأي ٱلْمَوَالِي!

وفي معناه قالوا: سقيمٌ لا يعاد، ومريد لا يراد.

وكان أبو علي الدّقاق: إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوّش قلوبَ الحاضِرين، يقول: هذا من غَيْرة الحق، يريد به ألاّ يتم ما أمّلناه من صفاء هذا الوقت.

وأنشدوا في معناه:

هَمّتْ بإتيانِنا حتى إذا نظرت ... إلى المِرآة نهاها وجهُها الحسنُ

وقيل لبعضهم: أتريد أن تراه؟ قال: لا، قيل: لم؟ قال أنزّه ذلك الجمال عن نَظر مثلي.

وفي معناه أنشدوا:

إنّي لأحْسُدُ ناظريّ عَلَيْكَ ... حتى أغضّ إذا نظرتُ إليكَ

وأراك تخطِر في شمائِلِك الّتي ... هي فتنتي، فأغار منك عليكا

وسُئِل الشِّبْلِيّ: متى تستريح؟ قال: إذا لم أر له ذاكراً.

وقال أبو علي الدقّاق في قول النبيّ صلى الله عليه وآله عند مبايعته فرساً من أعرابيّ وأنّه استقاله فأقاله فقال الأعرابي: عمّرك الله فمن أنت؟ قال صلى الله عليه وآله: «أنا امرؤ من قريش»، فقال بعضُ الصحابة من الحاضرين للأعرابيّ: كَفَاكَ جَفَاءً ألاّ تعرِف نبيّك! فكان أبو عليّ يقول: إنما قال: «امرؤ من قريش» غَيْرةً ونوعاً من الأنفة، وإلا فقد كان الواجب عليه أن يتعرّف لكل أحد أنه مَنْ هو، لكن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابيّ التعريف للأعرابيّ بقوله: «كفاك جفاء ألاّ تعرف نبيك!».

وقال أصحاب الطريقة: مساكنة أحدٍ من الخلق للحقّ في قلبك تُوجِب الغَيْرة منه تعالى.

أذّن الشِّبليّ مرة، فلما انتهى إلى الشهادتين، قال: وحقّك لولا أنك أمرتني ما ذكرتُ معك غيرك.

وسمع رجلٌ رجلاً يقول: جلّ الله! فقال له: أحبّ أن تجلّه عن هذا.

وكان بعض العارفين يقول: لا إله إلا الله من داخل القلب، محمد رسول الله من قُرْط الأذن.

وقيل لأبي الفتوح السهروردي - وقد أخِذ بحلَب ليصلب على خشبة: ما الذي أباحهم هذا منك؟ قال: إنّ هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمداً شريكاً لله في الربوبية، فلم أفعل، فقتلوني.

ومنها التفويض، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فاستوقف مَنْ عقل أمره عن الاقتراح عليه، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه، فالعاقل تارك للاقتراح، على العالم بالصلاح.

وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2]، فبعث على تأكيد الرّجاء بقوله: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ولمّا فوّض مؤمن آل فرعون أمرَه إلى الله ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾[3] كما ورد في الكتاب العزيز.

وحقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحقّ سبحانه، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4]، فأسّ التفويض والباعث عليه هو اعتقاد العجز عن مغالبة القدر، وأنّه لا يكون في الخير والشر - أعني الرُّخص والصحّة وسعة الرزق والبلايا، والأمراض والعِلل وضيق الرزق، إلا ما أراد الله تعالى كونه، ولا يصحّ التفويض ممّن لم يعتقد ذلك ولم يعلمه علم اليقين.

وقد بالغ النبي ﷺ في التصريح به والنصّ عليه بقوله لعبد الله بن مسعود: «اليقلّ همُّك، ما قدّر أتاك وما لم يقدّر لم يأتِك، ولو جهد الخلق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جَهِدوا أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك»[5].

وفي صحيح مسلم بن الحجّاج أنه قال لأبي هريرة في كلام له: «فإنْ أصابَك شيء فلا تقل: لَوْ فعلت كذا لكان كذا، فإنّ «لو» تفتح عمل الشيطان، ولكن قل: ما قدر الله وما شاء فعل»[6].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن البَراء بن عَازب: «إذا أخذت مضجَعك فقل كذا...» إلى أن قال: «وجّهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا مَنجى ولا ملجأ منك [7].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥١.

(٥) لم أجده بهذا اللفظ، وقد أخرج الترمذي عن ابن عباس قريباً منه كتاب: صفة القيامة والرقائق (٢٥١٦)، وأحمد في باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٦٦٤).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: [illegible]، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله تعالى (٢٦٦٤)، وابن ماجه في [illegible]: القدر (٧٩)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين (٨٥٧٣).

(٧) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا نام (٦٣١٣)، ومسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: ما يقول عند النوم (٢٧١٠)، والترمذي في كتاب: الدعوات، =

وكان يقال: معارضة المريض طبيبَه، توجب تعذيبَه. وكان يقال: إنّما الكيّس الماهر من أمسى في قبضة القاهر.

وكان يقال: إذا كانت مغالبة القَدَر مستحيلة، فما من أعوان تقوده إلى الحيلة.

وكان يقال: إذا التبست المصادر، ففوّض إلى القادر.

وكان يقال: من الدّلالة على أنّ الإنسان مصرَّف مغلوب، ومدبَّر مربوب، أن يتبلّد رأيُه في بعض الخطوب، ويعمَى عليه الصواب المطلوب.

وإذا كان كذلك، فربّما كان تدميره في تدبيره، واغتيالُه من احتياله، وهلكته من حَرَكته.

وفي ذلك أنشدوا:

أيا مَنْ يعوّلُ في الْمُشْكِلاَتِ ... عَلَى ما رآه وما دَبَّرَهْ
إذا أعضلَ الأمرُ فافزعْ به ... إلى مَنْ يرى منه ما لم ترَهْ
تكن بين عطفٍ يقيل الخطوبَ ... ولطفٍ يهوّن ما قدّرَهْ
إذا كنت تجهل عُقْبَى الأمورِ ... وما لك حولٌ ولا مقدرهْ
فلِمْ ذَا العَنَا، وعلام الأسى ... وممّ الحِذار، وفيم الشَّرهْ!

وأنشدوا في هذا المعنى:

يا ربّ مغتبطٍ ومغـ ... ـبوطٍ بأمرٍ فيه هُلْكُهْ
وَمُنَافِسٍ فِي مُلْكِ مَا ... يُشْقِيه في الدّارَيْن مُلْكهْ
عِلْمُ العواقبِ دُونَهُ ... سِتْر، وليس يرامُ هَتْكُهْ
وَمُعَارِضُ الأقدَارِ بالـ ... آراءِ سَيِّئُ الحالِ ضَنْكُهْ
فكن امرأً محض اليقيـ ... ـنِ وزيّفَ الشبهات سَبْكهْ
تفويضه توحيدُه ... وعِنادُه المقدَار شِرْكُهْ

ومنها الولاية والمعرفة، وقد تقدم القول فيهما.

ومنها الدّعاء والمناجاة، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

وفي الحديث المرفوع: «الدعاء مخّ العبادة»[٢].

= باب: ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه (٣٣٩٤)، وأحمد في باب: حديث البراء بن عازب (١٨٠٤٤).

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ (٣٣٧١).

وقد اختلف أربابُ هذا الشأن في الدعاء، فقال قوم: «الدعاء مفتاح الحاجة، ومستروَح أصحاب الفاقات، وملجأ المضطرّين، ومتنفَّس ذوي المآرب.

وقد ذمّ الله تعالى قوماً فقال: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾(١) فسّروه وقالوا: لا يمدّونها إليه في السؤال.

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: خلق الله الخلق، وقال: تاجروا فيّ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منّي، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابي، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي

قالوا: وقد أثنى الله على نفسه، فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(٢)، قالوا: الدعاء إظهار فاقة العبوديّة.

وقال أبو حاتم الأعرج: لأن أحرَم الدّعاء أشد عليّ من أن أحرَم الإجابة.

وقال قوم: بل السكوت والخمود تحتَ جريان الحكْم والرّضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح أوْلى، ولهذا قال الواسطيّ: اختيار ما جَرَى لك في الأزَل، خير لك من معارضة الوقت.

وقال النبي ﷺ إخباراً عن الله تعالى: «مَنْ شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أعطي السائلين»(٣).

وقال قوم: يجب أن يكون العبدُ صاحبَ دعاءٍ بلسانه، وصاحب رضاً بقلبه، ليأتيَ بالأمرين جميعاً.

وقال قوم: إنّ الأوقاتَ تختلف، ففي بعض الأحوال يكون الدّعاء أفضل من السكوت، وفي بعض الأحوال يكون بالعكس، وإنّما يعرَف هذا في الوقت، لأنّ علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد في قلبه الإشارة إلى الدّعاء فالدعاء أولى، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتمّ وأوْلى.

وجاء في الخبر: «إنّ الله يُبغِض العبدَ فيسرع إجابته بغضاً لسماع صوته، وإنّه يحب العبد فيؤخّر إجابتهُ حبّاً لسماع صوته»(٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، عن رسول الله ﷺ، باب: كيف كانت قراءة النبي ﷺ (٢٩٢٦)، والدارمي في كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل كلام الله تعالى على سائر الكلام (٣٣٥٦).

(٤) ذكره في «فيض القدير» (١/ ٣٤٤).

ومن أدب الدعاء حضورُ القلب، فقد روي عنه ﷺ: «إن الله لا يستجيب دعاء قلب لاهٍ»(١).

ومن شروط الإجابة طِيب الطُّعمة وحلّ المكسب، قال ﷺ لسعد بن أبي وقّاص: «أطِبْ كسبك تُسْتَجَبْ دعوتك»(٢).

وينبغي أن يكون الدعاء بعد المعرفة، قيل لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام: ما بالُنا ندعو فلا يستجاب لنا! قال: لأنكم تدعون مَنْ لا تعرفونه.

كان صالح المرّيّ يقول كثيراً: ادعوا: فمن أدْمن قَرْع الباب يوشك أن يفتح له، فقالت له رابعة العدوية: ماذا تقول؟ أغْلِق هذا الباب حتى يستفتح! فقال صالح: شيخ جَهِل، وامرأة علمت.

وقيل: فائدة الدعاء إظهار الفَاقة من الخلْق، وإلاّ فالرّب يفعل ما يشاء.

وقيل: دعاء العامّة بالأقوال، ودعاء العابد بالأفعال، ودعاء العارف بالأحوال.

وقيل: خير الدعاء ما هيّجه الأحزان والوجد.

وقيل: أقربُ الدعاء إلى الإجابة دعاء الاضطرار، لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾(٣).

قال أصحاب هذه الطريقة: ألسنة المبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء، وألسنة المحققين الواصلين قد خرست عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك يقول: ما دعوتُه منذُ خمسين سنة، ولا أريد أن يدعوَ لي أحد.

وقيل: الدعاء سلّم المذنبين.

وقال مَنْ قال بنقيض هذا: الدعاء مراسلة، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد.

وقالوا: ألسنة المذنبين دمُوعهم.

وكان أبو علي الدّقاق يقول: إذا بكى المذنب فقد راسل الله.

وفي معناه أنشدوا:

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ (٣٤٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٩٥).

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٢.

دُمُوعُ الْفَتَى عَمّا يجنّ تترجمُ وأنفاسه تبدين ما القلبُ يَكْتُمُ

وقال بعضهم لبعض العارفين: ادعُ لي، فقال: كفاك من الإجابة ألاّ تجعل بينك وبينه واسطة.

ومنها التأسي، قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] أي في مصابه، وما نيل منه في نفسه وفي أهله يوم أُحُد، فلا تجزعوا إن أصيب بعضكم.

وجاء في الحديث المرفوع: «لا تنظروا إلَى مَنْ فَوْقَكُمْ، وانظروا إلى مَنْ دونكم، فإنّه أجدر ألاّ تزدروا نِعَم الله عليكم»[2].

وقالت الخنساء ترثي أخاها:

وَلَولاَ كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إخوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبكُونَ مَثْلَ أخِي ولَكِنْ أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتأسّي

وحقيقة التأسيّ تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك، ومن هو أرفعُ محلاً منك.

وقد فسَّر العلماء قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[3]، قال: إنّه لا يهون على أحدٍ من أهل النار عذابه، وإنْ تأسّى بغيره من المعذّبين، لأنّ الله تعالى جعل لهم التأسّي نافعاً في الدنيا، ولم يجعله نافعاً لأهل النار مبالغة في تعذيبهم، ونفياً لراحة تصل إليهم.

ومنها الفقر، وهو شعار الصالحين، قال رسول الله ﷺ: «اللهم أحْيِني مِسْكِيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني مع المساكين»[4].

قال لعليّ عليه السلام: «إنّ الله قد زيَّنك بزينة لم يزيِّن العبادَ بأحسنَ منها، وهَبَ لك حبّ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقاق (٢٩٦٣)، والترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٣)، وأحمد باب: مسند أبي هريرة (٧٤٠٠).

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٩.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٥٢)، وابن ماجه في كتاب: الزهد باب: مجالسته الفقراء (٤١٢٦).

المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضوْن بك إماماً»[١].

وجاء في الخبر المرفوع: «الفقراء الصُّبُرُ جُلساء الله يوم القيامة»[٢].

وسئل يحيى بن مُعاذ عن الفقرِ فقال: ألا تستغني إلا بالله.

وقال أبو الدّرداء: لأن أقَعَ من فوق قصرٍ فأتحطّم أحبّ إليّ من مجالسة الغنيّ لأني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إياكمْ ومجالسةَ الموتى»، فقيل له: وما الموتى؟ قال: «الأغنياء»[٣].

قيل للربيع بن خيثم: قَدْ غَلا السّعر، قال: نحنُ أهونُ على الله من أن يُجيعنا، إنّما يجيع أولياءه.

وقيل ليحيى بن معاذ: ما الفقرُ؟ قال: خوف الفقر.

وقال الشِّبْلِيّ: أدنى علاماتِ الفقير أن لوْ كانت الدّنيا بأسرها لواحدٍ فأنفقها في يوم واحِد، ثم خطر بباله: «لو أمسكت منها قوت يوم آخر!»، لم يصدق في فقره.

سئل ابن الجلاء عن الفَقْر، فسكت ثم ذهب قليلاً، وعاد فقال: كانت عندي أربعة دوانيق فضّة، فاستحييت من الله أن أتكلّم في الفقر وهي عندي، فذهبت فأخرجتها، ثم قعد فتكلّم في الفقر.

وقال أبو علي الدّقاق في تفسير قوله ﷺ : «مَنْ تَوَاضَع لِغنيّ ذهب ثلثا دينه، إنّ المرء بقلبه ولسانه وجوارحه، فمن تواضع لغني بلسانه وجوارحه، ذهب ثلثا دينه، فإن تواضع له مع ذلك بقلبه ذهب دينه كلّه»[٤].

ومنها الأدب، قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[٥]: حفظ أدب الحضرة.

قيل إنه عليه السلام لم يمدّ نظره فوق المقام الَّذي أوصل إليه ليلة شاهد السِّدرة، وهي أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه البشريّون.

وفي الحديث المرفوع: «أدّبني ربّي فأحسنَ تأديبي»[٦].

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٦/٣٤٧.
(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٩٩٣)، وابن عدي في «الكامل» (١٨٦٠).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥١).
(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٨٢٣٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥٤٤٩).
(٥) سورة النجم، الآية: ٦.
(٦) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٦٤).

وقيل: إنّ الجنيد لم يمدّ رجلَه في الخلوة عشرين سنة، وكان يقول: الأدب مع الله أَوْلَى من الأدب مع الخلق.

وقال أبو علي الدقاق: مَنْ صاحب الملوك بغير أدبٍ، أسلمه الجهلُ إلى القتل.

ومن كلامه عليه السلام: ترك الأدب يوجب الطّرد، فمن أساء الأدب على البساط، ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب، ردّ إلى ساحة الدّوابّ.

وقال عبد الله بن المبارك: قد أكثر النّاس في الأدب، وعندي أنّ الأدب معرفة الإنسان بنفسه.

وقال الثوري: من لم يتأدّب للوقت، فوقته مقْت.

وقال أبو علي الدّقاق في قوله تعالى، حكايةً عن أيوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1]. قال: لم يقل: «فارْحمني» لأنه حفظ آداب الخطاب، وكذلك قال في قول عيسى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾[2]، قال: لم يقل: «لم أقل» رعايةً لأدب الحضرة.

ومنها المحبّة، وهي مقام جليل، قالوا: المحبّة أن تهبَ كُلَّك لمن أحببتَ، فلا يبقَى لك منك شيء.

قيل لبعض العرب: ما وجدت من حبّ فلانة؟ قال: أرى القَمَر على جدارِها أحسنَ منه على جُدْران الناس.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَميّ: المحبّة أن تغار على محبوبك أن يحبّه غيرُك.

وقال النصرأباذي: المحبّة نوعان: نوع يُوجب حَقْنَ الدّماء، ونوع يوجب سفْك الدماء.

وقال يحيى بن معاذ: المحبّة الخالصة لا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبرّ.

وقيل للنصرأباذي: كيف حالك في المحبّة؟ قال: عدمتُ وصال المحبّين، ورزقتُ حسراتهم، فهو ذا أنا أحترق فيها. ثم قال: المحبّة مجانبة السلوّ على كلّ حال.

وأنشدوا:

وَمَنْ كان في طول الهوى ذاق سَلوةً ... فإنّيَ من ليلى لها غير ذائق

وأكثر شيء نلتُه مِن وصالها ... أمانيّ لم تصدُقْ كلمحة بارق

وجاء في الحديث المرفوع: «المرءُ مَعَ مَنْ أحبّ»[3]، ولما سمِعَ سمنون هذا الخبر، قال: فاز المحبّون بشرَف الدنيا والآخرة، لأنّهم مع الله تعالى.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله (٦١٦٨)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب: المرء مع من أحب (٢٦٤١)، والترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن المرء مع من أحب (٢٣٨٥)، وأبو داود في كتاب: الأدب، باب: إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه.

وفي الحديث المرفوع: «لأعطيّن الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسولُه»[(١)]، وهذا يتجاوز حدّ الجلالة والشرف.

وكان يقال: الحبّ أوّله خَتْلٌ، وآخره قتل.

قيل: كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد: سكرت من كثرة ما شربت من محبّته، فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرِب بحور السماوات والأرض، وما روي بعد، ولسانه خارج، وهو يقول: هل من مزيد!

وأنشد:

عَجِبْتُ لمن يقولُ ذكرتُ حِبّي   وهَلْ أنسَى فأذكر ما نسيتُ!
شربتُ الحبّ كأساً بعد كأسٍ   فما نَفِدَ الشّراب، ولا رَوِيتُ

وقيل: المحبّة سكر لا يصحو صاحبه إلاّ بمشاهدة محبوبه، ثمّ السكر الذي يحصلُ عند المشاهدة لا يوصف.

وأنشدوا:

فأسكرَ القومَ دَوْرُ كأسٍ   وكان سكرِي مِنَ ٱلْمُديرِ

ومنها الشوق، جاء في الخبر المرفوع: إنّ الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ، وسَلمان، وعَمّار.

الشوق مرتبة من مراتب القوم، ومقام من مقاماتهم. سئل ابن عَطاء: الشّوق أعلَى أم المحبة؟ فقال: المحَبة، لأنّ الشوق منها يتولّد.

ومن الأدعية النبويّة المأثورة الدّعاء الذي كان يدعُو به عمّار بن ياسر رضي الله عنه: «اللّهمّ بعلمك بالغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياةَ خيراً لي، وتوفّني ما كانت الوفاة خيراً لِي. اللهمّ إني أسألُك خشيَتك في الغيْب والشّهادة، وأسألك كَلِمَة الحقّ في الرّضا والغضب، وأسألك القصد في الغنى والفقر، وأسألك نعيماً لا يَبِيد، وقرة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرّضا بعدَ القضاء، وبَرْد العيش بعد الموت. وأسألك النَّظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، من غير ضرّاء مضرّة. اللهمّ زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل من أسلم على يديه رجل (٣٠٠٩)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد (١٨٠٧)، والترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧٢٤)، وابن ماجه في باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٧).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: السهو (١٣٠٥)، وأحمد في كتاب: أول مسند الكوفيين، باب: بقية حديث عمار (١٧٨٦١).

قالوا: الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب، وعَلَى قدْر المحبّة يكون الشوق، وعلامة الشوّق حب الموت.

وهذا هو السرّ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[(١)] أي أنّ مَنْ كان صاحب محبة يتمنّى لقاء محبوبه، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة.

قيل لبعض الصوّفية: هل تشتاق إليه؟ فقال: إنّما الشوّق إلى غائب، وهو حاضر لا يغيب.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[(٢)]: إنه تطييب لقرب المشتاقين.

ويقال: إنّه مكتوب في بعض كتب النبوّات القديمة: شوّقناكم فلم تشتاقوا، وزَمّرْنا لكم فلم ترقُصوا، وخوّفناكم فلم ترهبوا، ونُحْنَا لكم فلم تحزنوا.

وقيل: إن شعيباً بكَى حتّى عميَ، فردّ الله إليه بصره، ثم بكى حتى عمِيَ، فردّ عليه بصره، ثم كذلك ثلاثاً، فقال الله تعالى: «إنْ كان هذا البكاء شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتُها لك، وإن كان خوفاً من النار فقد أجَرْتُك منها». فقال: وحقّك لا هذا ولا هذا، ولكن شوقاً إليك، فقال له: «لأجل ذلك أخدمتك نبيّي وكَليمي عشر سنين».

ومنها الزهد ورفض الدنيا، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[(٣)].

وجاء في الخبر أنّ يوسف عليه السلام كان يجوع في سِنِي الجدْب، فقيل له: أتجوعُ وأنت على خزائن مصر! فقال: أخاف أن أشبَع فأنسى الجياع.

وكذلك قال عليّ عليه السلام، وقد قيل له: أهذا لباسُك، وهذا مأكولك، وأنت أمير المؤمنين! فقال: نعم، إن الله فرضَ عَلَى أئمة العدْل أن يقدّروا لأنفسهم كضَعَفة النّاسِ، كيْلاَ يتبيّغ بالفقير فقره[(٤)].

ومنع عمر بن الخطاب نفسَه عام الرّمادة الدّسم، وقال: لا آكله حتى يصيبَه المسلمون جميعاً.

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تنعُّماً، قبْل أن يليَ الخلافة، قوّمت ثيابه حينئذ بألف دينار، وقُوّمت وهو يخطب النّاس أيام خلافته بثلاثة دراهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٤. (٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٤٧٧.

واعلم أنّ بعض هذه المراتب والمقامات التي ذكرناها للقوم قد يكون متداخلاً في الظاهر، وله في الباطن عندهم فرق يعرفه مَنْ يأنس بكتبهم، وقد أتينا في تقسيم مراتبهم وتفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية.

٢١٨ – ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾(١)

الأصل: أَدْحَضُ مَسْؤولٍ حُجَّةً، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً. لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ يَا أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ، وَمَا أَنَسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ! أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقَظَةٌ! أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَم مِنْ غَيْرِكَ! فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ، أَوْ تَرَى المُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ!

فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ، وَعَزَّاكَ عَنِ ٱلْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ، وَهِيَ أَعَزُّ ٱلْأَنْفُسِ عَلَيْكَ، وَكَيْفَ لاَ يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ، وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ! فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ ٱلْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، وَمِنْ كَرَى ٱلْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ، وَكُنْ للهِ مُطِيعاً، وَبِذِكْرِهِ آنِساً. وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ، إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ.

فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ! فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ، فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ.

وَأَيْمُ ٱللهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي ٱلْقُوَّةِ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي ٱلْقُدْرَةِ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ ٱلْأَخْلاَقِ، وَمَسَاوِىءِ ٱلْأَعْمَالِ.

وَحَقًّا أَقُولُ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ، وَلَكِنْ بِهَا ٱغْتَرَرْتَ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ ٱلْعِظَاتِ، وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ.

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٦.

وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ ٱلْبَلاَءِ بِجِسْمِكَ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ. وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ. وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ ٱلْخَاوِيَةِ، وَٱلرُّبُوعِ ٱلْخَالِيَةِ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ، وَبَلاَغِ مَوْعِظَتِكَ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ، وَالشَّحِيحِ بِكَ! وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلاًّ!

وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ ٱلْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ، إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ، وَحَقَّتْ بِجَلاَئِلِهَا الْقِيَامَةُ، ولَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ، فَلَمْ يَجْرِ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِه يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ، وَلاَ هَمْسُ قَدَمٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ بِحَقِّهِ. فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ، وَعَلاَئِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ!

فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لاَ تَبْقَى لَهُ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ، وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ، وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ.

الشرح: لقائل أن يقول: لو قال: «ما غرك بربك العزيز أو المنتقم» أو نحو ذلك، لكان أولى لأنّ للإنسان المعاتب أن يقول: غرّني كرمُك الّذي وصفتَ به نفسك!

وجواب هذا أن يقال: إنّ مجموع الصفات صار كشيء واحد، وهو الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركّبك. والمعنى: ما غرّك بربٍّ هذه صفته، وهذا شأنه، وهو قادر على أن يجعلك في أي صورة شاء! فما الذي يؤمّنك من أن يمسخك في صورة القِرَدة والخنازير ونحوها من الحيوانات العجم. ومعنى الكريم ها هنا: الفيّاض على المواد بالصور، ومَنْ هذه صفته ينبغي أن يُخاف منه تبديل الصورة.

قال عليه السلام: «أدحض مسؤول حجة» المبتدأ محذوف، والحجة الداحضة: الباطلة.

والمعذِرة بكسر الذال: العذر.

ويقال: لقد أبرح فلان جهالةً، وأبرح لؤماً، وأبرح شجاعة، وأتى بالبرْح من ذلك، أي بالشّديد العظيم. ويقال: هذا الأمر أبرحُ من هذا، أي أشدّ، وقتلوه أبْرحَ قَتْل. وجهالةً منصوب على التميز.

وقال القطب الرّاوندي: مفعول به، قال معناه: جلب جهالةً إلى نفسه، وليس بصحيح، وأبرح لا يتعدّى ها هنا وإنّما يتعدّى «أبرح» في موضعين: أحدهما أبرحه الأمر، أي أعجبه، والآخر أبرحَ زيدٌ عمراً، أي أكرمه وعظّمه.

قوله: «ما جرّأك» بالهمزة، وفلان جريء القوم، أي مقدّمهم.

وما أنَّسك بالتشديد، وروي: «ما آنسك» بالمدّ، وكلاهما من أصل واحد، وتأنّست بفلان واستأنستُ بمعنًى، وفلان أنيسي ومؤانسي، وقد أنّسني وآنسني كلّه بمعنى، أي كيف لم تستوحش من الأمور الّتي تؤدي إلى هلكة نفسك.

والبُلُول: مصدر بلّ الرجل من مرضه، إذا برىء، ويجوز «أبلّ»، قال الشاعر:

إذا بلّ من داء به ظنّ أنه نجا وبه الدّاء الّذي هو قاتِلُهْ

والضَّاحي لحرّ الشمس: البارز. وهذا داء ممضّ، أي مؤلم، أمضني الجرح إمضاضاً، ويجوز «مَضّني».

وروي: «وجلّدك عَلَى مَصَائبك»، بصيغة الجمع.

وبَيَات نقْمة بفتح الباء: طروقها ليلاً، وهي من ألفاظ القرآن العزيز.

وتورّط: وقع في الورْطة، بتسكين الرّاء، وهي الهلاك، وأصل الورطة أرضٌ مطمئنّة لا طريق فيها، وقد أورَطه، ووّرطه توريطاً، أي أوقعه فيها.

والمدارج: الطرق والمسالك، ويجوز انتصاب «مدارج» ها هنا، لأنها مفعول به صريح، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه، أي في مدارج سطواته.

قوله: و«تَمثّل» أي وتصوّر.

ويتغمّدك بفضله، أي يسترك بعفوه، وسُمِّيَ العفو والصفح فضلاً، تسمية للنّوع بالجنس.

قوله: «مَطْرَف عين» بفتح الراء، أي زمان طرف العين، وطرْفها: إطباق أحدِ جفنيها على الآخر، وانتصابُ «مطرف» ها هنا على الظرفية، كقولك: وردت مقدمَ الحاجّ، أي وقت قدومهم.

قوله: «متوازِيَيْن في القُدرة»، أي متساويين، وروي: «متوازنين» بالنون.

والعظات: جمع عِظَة، وهو منصوب على نزع الخافض، أي كاشفتك بالعظات، وروي «العظاتُ» بالرفع على أنّه فاعل. وروي: «كاشفتك الغطاء».

وآذنْتك، أي أعلمتك.

وعلى سواء، أي على عَدْل وإنصاف، وهذا من الألفاظ القرآنية.

والراجفة: الصيْحة الأولى، وحقّتْ بجلائلها القيامة، أي بأمورها العظام. والمنسِك: الموضع الذي تذبح فيه النسائك، وهي ذبائح القربان ويجوز فتح السين، وقد قرىء بهما في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾[1].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٧.

فإن قلت: إذا كان يلحق بكلِّ معبود عَبَدتُه، فالنصارى إذن تلحق بعيسى، والغلاة من المسلمين بعليّ، وكذلك الملائكة، فما القول في ذلك؟

قلت، لا ضرر في التحاق هؤلاء بمعبوديهم، ومعنى الالتحاق أن يؤمَر الأتباع في الوقف بالتحيّز إلى الجهة التي فيها الرؤساء، ثم يقال للرؤساء: أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم؟ فحينئذ يتبرؤون منهم، فينجو الرؤساء، وتهلك الأتباع، كما قال سبحانه: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾(١)، أي إنّما كانوا يطيعون الشياطين المضلّة لهم، فعبادتهم في الحقيقة للشياطين لا لنا، وإنهم ما أطاعونا، ولو أطاعونا لكانوا مهتدين، وإنما أطاعوا شياطينهم.

ولا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(٢) من تخصيص العموم بالآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(٣).

فإن قلت: فما قولك في اعتراض ابن الزِّبَعْرَى على الآية، هل هو وارد؟

قلت: لا، لأنه قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ و«ما» لما لا يعقل، فلا يردُ عليه الاعتراض بالمسيح والملائكة: والذي قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تكلّف غير محتاج إليه.

فإن قلت: فما الفائدة في أن قَرَن القوم بأصنامهم في النّار؟ وأي معنى لذلك في زيادة التعذيب والسخط؟

قلت: لأنّ النظر إلى وجه العدوّ باب من أبواب العذاب، وإنّما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلُّوا بها، فكلّما رأوها معهم زاد غمّهم وحسرتهم.

وأيضاً فإنهم قدّروا أن يستشفعوا بها في الآخرة، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغضَ إليهم منها.

قوله: «فلم يَجْرِ» قد اختلف الرّواة في هذه اللفظة، فرواها قوم «فلم يَجْرِ» وهو مضارع «جَرى يجري»، تقول: ما الذي جرى للقوم؟ فيقول مَنْ سألته: قَدِم الأمير من السفر، فيكون المعنى على هذا: فلم يكن ولم يتجدّد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلاّ بالحقّ والإنصاف. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٤)، ورواه قوم «فلم

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٧.

يجز»، مضارع «جازَ يجوز»، أي لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحد من المكلّفين في حركة من الحركات المحقرات المستصغرات، إلا إذا كانت قد فعلها بحق، وعلى هذا يجوز فعل مثلها. ورواها قوم: «فلم يَجُرْ» من «جار»، أي عدل عن الطريق، أي لم يذهب عنه سبحانه، ولم يضلّ ولم يشذّ عن حسابه شيء من أمر محقّرات الأمور إلاّ بحقه، أي إلا ما لا فائدة في إثباته والمحاسبة عليه، نحو الحركات المباحة والعبثيّة التي لا تدخل تحت التكليف.

وقال الراونديّ: «خَرْقُ بصَرٍ» مرفوع لأنه اسم ما لم يسمّ فاعله، ولا أعرف لهذا الكلام معنى.

والهمس: الصوت الخفي.

قوله: «فتحرّ منْ أمرك»، تحرّيت كذا، أي توخيّته وقصدته واعتمدته.

قوله: «وتيسّر لسفرك»، أي هيىء أسباب السّفر، ولا تترك لذاك عائقاً.

والشّيم: النظر إلى البرق.

ورحلت مطيتي، إذا شددت على ظهرها الرّحل، قال الأعشى:

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غَدْوَةً أَجْمَالَهَا ... غَضْبَى عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَالَهَا

والتّشمير: الجدّ والانكماش في الأمر.

ومعاني الفصل ظاهرة، وألفاظه الفصيحة تعطيها وتدلّ عليها بما لو أراد المفسّر أن يعبّر عنه بعبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أوْلى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسّر.

٢١٩ - ومن كلام له عليه السلام في التبرؤ من الظلم

الأصل: وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ في الأَغْلالِ مُصَفَّداً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُها، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا!

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَماحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صاعاً، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ، غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ، كأَنَّما سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ، وَعاوَدَنِي مُؤَكِّداً، وكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وكادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيْسَمِهَا، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبه! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظًى!

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا، كَأَنَّمَا عجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ! فَقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ ٱلْهَبُولُ! أَعَنْ دِينِ ٱللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي! أَمُخْتَبِطٌ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ! وَٱللهِ لَوْ أُعْطِيتُ ٱلأَقَالِيمَ ٱلسَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ ٱللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ، تَقْضَمُهَا.

مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لاَ تَبْقَى! نَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ سُبَاتِ ٱلْعَقْلِ، وَقُبْحِ ٱلزَّلَلِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

الشرح: السَّعدَان: نبتٌ ذو شوك، يقال له: حَسَك السَّعْدان وحَسَكة السعْدان، وتشبّه به حلَمة الثّدي، فيقال: سَعْدانة الثنْدُوَة، وهذا النّبت من أفضل مراعي الإبل، وفي المثل «مَرْعًى ولا كالسَّعْدان»، ونونه زائدة، لأنه ليس في الكلام «فَعْلال» غير مضاعف، إلاّ «خَزْعال» وهو ظلْع يلحق الناقة، و«قهقّار»، وهو الحجر الصلب، و«قَسْطال» وهو الغبار.

والمسهّد: الممنوع النوم، وهو السهاد.

والأغلال: القيود. والمصفّد: المقيّد. والحُطَام: عروض الدنيا ومتاعها، شبّه لزواله وسرعة فنائه بما يتحطّم من العيدان ويتكسّر.

ثم قال: كيف أظلم الناس لأجل نَفْسٍ تموت سريعاً - يعني نَفْسه عليه السلام!

فإن قلت: أليس قوله: «عن نَفْسٍ يسرع إلى البِلى قُفولها» يشعر بمذهب من قال بقدم الأنفس، لأنّ القفُول الرجوع، ولا يقال في مذهبه للمسافرة: قافلة إلا إذا كانت راجعة.

قلت: لا حاجةَ إلى القول بقدَم الأنفس محافظةً على هذه اللفظة، وذلك لأن النفس إذا كانت حادثة فقد كان أصلها العدم، فإذا مات الإنسان عدمت نفسه فرجعت إلى العدم الأصليّ، وهو المعبّر عنه بالبِلى.

وأملق: افتقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾(١).

واستماحني: طلب منّي أن أعطيَه صاعاً من الحنطة، والصاع أربعة أمداد، والمُدّ رطل وثلث، فمجموع ذلك خمسة أرطال، وثلث رطل، وجمع الصاع أصوع، وإن شئت همزت. والصُّواع لغة في الصاع، ويقال: هو إناء يشرب فيه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

والعِظْلِم، بالكسرة في الحرفين: نَبْت يصبغ به ما يراد اسوداده، ويقال: هو الوَسمة:

وشعث الألوان، أي غُبْر.

وأصغيت إليه: أملْتُ سمعي نحوه.

واتّبع قياده: أطيعه وأنقاد له.

وأحميت الحديدة في النار، فهي محمَاة، ولا يقال: حَميت الحديدة.

وذي دَنف، أي ذي سقم مؤلم.

ومن ميسمها: من أثرها في يده.

وثكلتك الثّواكلُ، دَعاء عليه، وهو جمع ثاكلة، وفواعل لا يجيء إلا جمع المؤنث إلا فيما شذّ، نحو فوارس، أي ثكلتك نساؤك.

قوله: «أحماها إنسانُها»، أي صاحبها، ولم يقل «إنسان»، لأنّه يريد أن يقابل هذه اللّفظة بقوله: «جبّارها».

وسَجَرها، بالتخفيف: أوقدها وأحماها، والسَّجور ما يسجر به التنّور.

قوله: «بملفوفة في وعائها»، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الحَلْواء تأنّق فيه، وكان عليه السلام يُبغض الأشعث، لأنّ الأشعث كان يُبغِضه، وظنّ الأشعث أنّه يستميله بالمهاداة لغرض دنيويّ كان في نفس الأشعث، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يفطِن لذلك ويعلمه، ولذلك ردّ هديّة الأشعث، ولولا ذلك لقبِلها، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قبل الهديّة، وقد قِبل عليّ عليه السلام هدايا جماعةٍ من أصحابه، ودعاه بعضُ مَنْ كان يأنس إليه إلى حَلْوَاء عملها يوم نوروز فأكل وقال: لم عَمِلْتَ هذا؟ فقال: لأنه يوم نوروز، فضحك. وقال: نَوْرزُوا لنَا في كلّ يوم إن استطعتم.

وكان عليه السلام من لطافة الأخلاق وسجاحة الشيمَ على قاعدة عجيبة جميلة، ولكنه كان ينفر عن قومٍ كان يعلم من حالهم الشنآن له، وعمّن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين، وهيهاتَ حتى يلين لِضرْس الماضغ الحجر!

وقال: بملفوفة في وعائها، لأنّه كان طبق مغطى.

ثم قال: «ومعجونة شَنئتُها»، أي أبغضتها ونفرت عنها. كأنها عجنت بريق الحيّة أو بقيئها، وذلك أعظم الأسباب للنّفرة من المأكول.

وقال الراونديّ: وصفها باللطافة فقال: كأنها عُجِنَتْ بريق الحيّة، وهذا تفسير أبعد من الصحيح.

قوله: «أصِلَةٌ، أم زكاة أم صدقة، فذلك محرم علينا أهل البيت!»، الصّلة: العطيّة لا يراد

بها الأجر، بل يراد وصلة التقرب إلى الموصول، وأكثر ما تُفعَل للذِّكْر والصّيت. والزّكاة: هي ما تجب في النّصاب من المال.

والصدقة ها هنا هي صدقة التّطوّع، وقد تسمّى الزكاة الواجبة صدَقة، إلاّ أنها هنا هي النافلة.

فإن قلت: كيف قال: «فذلك محرّم علينا أهل البيت»، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة، ولا يحرم عليهم صدقة التطوّع، ولا قبول الصِّلات؟ قلت: أراد بقوله: «أهل البيت» الأشخاصَ الخمسة: محمداً، وعليًّا، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً عليهم السلام، فهؤلاء خاصّة دون غيرهم من بني هاشم، محرّم عليهم الصلة وقبول الصدقة، وأمّا غيرهم من بني هاشم فلا يحرُم عليهم إلا الزكاة الواجبة خاصّة.

فإن قلت: كيف قلت: إنّ هؤلاء الخمسة يحرُم عليهم قبول الصِّلات، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صِلَة معاوية؟

قلت: كلاّ لم يقبلا صلته، ومعاذ الله أن يقبلاها! وإنما قبِلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال، فإنّ سهم ذوي القربى منصوص عليه في الكتاب العزيز، ولهما غير سهم ذوي القربى سهم آخر للإسلام من الغنائم.

قوله: «هبلتك الهَبُول» أي ثكلتك أمّك، والهَبُول التي لها عادة بثُكْل الولد.

فإن قلت: ما الفرق بين مختبِط، وذي جنّة، ويهجُر؟

قلت: المختبط: المصروع من غَلَبة الأخلاط السوداويّة أو غيرها عليه، وذو الجِنّة مَنْ به مسٌّ من الشيطان. والذي يهجُر هو الذي يهذِي في مرض ليس بصرَع كالمحموم والمبرسَم ونحوهما.

وجُلب الشّعيرة، بضم الجيم: قشرها، والجُلب والجُلبة أيضاً جليدة تعلو الجرح عند البرء، يقال منه: جلب الجرح يجلِب ويجلُب، وأجلب الجرح أيضاً، ويقال للجليدة التي تجعل على القتب جُلْبة أيضاً.

وتقضَمها بفتح الضاد، والماضي قَضِم بالكسر.

وعَقِيل، هو عَقِيل بن أبي طالب - عليه السلام - بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمّه وأبيه، وكان بنو أبي طالب أربعة: طالب، وهو أسنّ من عَقيل بعشر

سنين، وعَقِيل وهو أسنّ من جعْفر بعشر سنين، وجعفر وهو أسنّ من عليّ بعشر سنين، وعليّ وهو أصغرهم سِنًّا، وأعظمهم قَدْراً، بل وأعظم النّاس بعد ابن عمّه قَدْراً.

وكان أبو طالب يحبّ عقِيلاً أكثر من حبّه سائرَ بنيه، فلذلك قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم وللعباس حين أتَيَاه ليقتِسمَا بنِيه عامَ المحْل، فيخفّفا عنه ثِقَلهم: «دَعُوا لي عَقِيلاً، وخذوا مَنْ شئتم»، فأخذ العبّاس جعفراً، وأخذ محمد صلى الله عليه وسلم علياً عليه السلام.

وكان عَقِيل يكنَى أبا يزيد، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا يزيد، إنّي أحبّك حُبّيْن: حبًّا لقرابتك منّي، وحبًّا لما كنت أعلم من حبّ عَمّي إياك»[1].

أخرج عَقِيلٌ إلى بدر مكرَهاً كما أخرج العبّاس، فأُسِرَ وفُدِيَ، وعاد إلى مكّة، ثم أقبل مسلماً مهاجراً قبل الحديبية، وشهد غزاة مُؤْتة مع أخيه جعفر عليه السلام، وتوفّيَ في خلافة معاوية في سنة خمسين، وعمره ست وتسعون سنة.

وله دارٌ بالمدينة معروفَة، وخرج إلى العراق، ثم إلى الشّام، ثم عاد إلى المدينة، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً من حروبه أيّام خلافته، وعرض نفسَه وولده عليه فأعفاه، ولم يكلّفْه حضور الحرب.

وكان أنسَب قريشٍ وأعلمَهم بأيامها، وكان مبغَضاً إليهم، لأنه كان يعدّ مساوئهم.

وكانت له طِنْفِسة تطرَحُ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيصلّي عليها، ويجتمع إليه الناس في علْم النسب وأيّام العرب، وكان حينئذ قد ذهب بصرُه، وكان أسرع النّاس جواباً؟ وأشدَّهم عارضةً.

كان يقال: إنّ في قريش أربعةً يُتَحاكم إليهم في علم النّسب وأيام قريش، ويرجع إلى قولهم: عَقِيل بن أبي طالب، ومَخرَمة بن نَوْفل الزّهريّ، وأبو الجهم بن حُذَيفة العدويّ، وحويط بن عبد العُزّى العامريّ.

واختلف الناس في عَقِيل، هل التحَق بمعاوية وأمير المؤمنين حيّ؟ فقال قوم: نعم، ورَوَوْا أنّ معاوية قال يوماً وعقيل عنده: هذا أبو زيد، لولا علمه أنّي خيرٌ له من أخيه لما أقام عندنا وتركه. فقال عَقِيل: أخي خيرٌ لي في ديني، وأنت خيرٌ لي في دنياي، وقد آثرتُ دنياي، أسأل الله خاتمة خير.

وقال قوم: إنه لم يَعُدْ إلى مُعاوية إلاّ بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، واستدلُّوا على ذلك

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٤٦٤)، والطبراني في «الكبير» (٥١٠).

بالكتاب الذي كتبه إليه في آخر خلافته، والجواب الذي أجابه عليه السلام، وقد ذكرناه فيما تقدم، وسيأتي ذكره أيضاً في باب كتبه عليه السلام، وهذا القول هو الأظهر عندي.

وروى المدائني، قال: قال معاوية يوماً لعَقِيل بن أبي طالب: هل مِن حاجة فأقضيها لك؟ قال: نعم جارية عُرِضت عليّ وأبى أصحابُها أن يبيعوها إلاّ بأربعين ألفاً، فأحبّ معاويةُ أن يمازحَه فقال: وما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفاً وأنت أعمى تجتزىء بجارية قيمتها خمسون درهماً! قال: أرجو أن أطأها فتلد لي غلاماً إذا أغضبتَه يضرب عنقك بالسيف. فضحك معاوية: وقال: ما زحناك يا أبا يزيد! وأمر فابتيَعت له الجارية التي أولد منها مُسلِماً، فلما أتت على مسلم ثماني عشرة سنة - وقد مات عَقِيل أبوه - قال لمعاوية: يا أميرَ المؤمنين، إنّ لي أرضاً بمكان كذا من المدينة، وإني أُعطيتُ بها مائة ألف، وقد أحببت أن أبيعَك إياها، فادفع إليّ ثمنها، فأمر معاوية بقبض الأرض، ودفع الثمن إليه.

فبلغ ذلك الحسين عليه السلام، فكتب إلى معاوية: أما بعدُ، فإنك غررتَ غلاماً من بني هاشم، فابتعتَ منه أرضاً لا يملكها، فاقبض من الغلام ما دفعتَه إليه، واردد إلينا أرضَنا.

فبعث معاوية إلى مسلم، فأخبره ذلك، وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام، وقال: اردُدْ علينا مالنا، وخذ أرضك، فإنّك بعتَ ما لا تملك، فقال مسلم: أمّا دونَ أن أضربَ رأسك بالسيف فلا، فاستلقى معاوية ضاحكاً يضرب برجليه، فقال: يا بنيّ، هذا والله كلام قاله لي أبوك حين ابتعتُ له أمّك.

ثم كتب إلى الحسين: إني قد رددت عليكم الأرض، وسوّغتُ مسلماً ما أخذ. فقال الحسين عليه السلام: أبيتم يا آل أبي سفيان إلاّ كرَماً!

وقال معاوية لعَقِيل: يا أبا يزيد، أين يكون عمّك أبو لهب اليوم؟ قال: إذا دخلت جهنم، فاطلبه تجده مضاجعاً لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية.

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة: يا بنِي هاشِم، لا يحبّكم قلبي أبداً، أين عَمّي؟ أين أخي؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة، ترى آنافهم الماء قبل شفاههم، قال: إذا دخلت جهنم، فخذِي عَلَى شمالك.

سأل معاوية عَقِيلاً عن قصّة الحديدة المحمّاة المذكورة، فبكى وقال: أنا أحدّثك يا معاوية عنه، ثم أحدثّك عمّا سألت، نزل بالحسين ابنه ضيف، فاستسلف درهماً اشترى به خبزاً،

واحتاج إلى الإدام فطلب من قَنبر خادمهم، أن يفتح له زِقًا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن، فأخذ منه رطلاً، فلمّا طلبها عليه السلام ليقسِمها، قال: يا قنبر، أظنّ أنه حدث بهذا الزقّ حدث! فأخبره، فغضب عليه السلام، وقال: عليّ بحسين! فرفع عليه الدرّة، فقال: بحقّ عمّي جعفر - وكان إذا سئل بحقّ جعفر سَكن - فقال له: ما حملك أنْ أخذت منه قبل القسمة؟ قال: إنّ لنا فيه حقاً، فإذا أعطيناه رددناه، قال: فداك أبوك! وإن كان لك فيه حق، فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم! أما لولا أنّي رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّل ثنيّتك لأوجعتُك ضرباً. ثم دفع إلى قَنبر درهماً كان مصروراً في ردائه، وقال: اشترِ به خير عسلٍ تقدر عليه.

قال عقيل: والله لكأني أنظر إلى يديْ عليّ، وهي عَلَى فم الزّق، وقنبر يقلِب العسل فيه، ثم شدّه وجعل يبكي، ويقول: اللهمّ اغفِرْ لحسين فإنه لم يعلم!

فقال معاوية: ذكرتَ من لا ينكر فضله، رحم الله أبا حسن، فلقد سبق مَنْ كان قبله، وأعجز مَنْ يأتي بعده! هلمّ حديث الحديدة.

قال: نعم، أقويت وأصابتني مخمصَة شديدة، فسألته فلم تندَ صَفاتُه، فجمعت صبياني وجئته بهم، والبؤس والضرّ ظاهران عليهم، فقال: ائتني عشيةً لأدفع إليك شيئاً، فجئته يقودني أحد ولدي، فأمره بالتنحّي، ثم قال: ألا فدونك، فأهويت - حريصاً قد غلبني الجشع، أظنها صرّة - فوضعتُ يدي عَلَى حديدة تلتهب ناراً، فلمّا قبضتها نبذتها، وخُرْت كما يخور الثور تحت يد جازره، فقال لي: ثكلتْك أمّك! هذا من حديدة أوقدت لها نار الدنيا، فكيف بك وبي غداً إن سُلِكنا في سلاسل جهنم! ثم قرأ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾(١).

ثم قال: ليس لك عندي فوق حقّك الذي فرضه الله لك إلا ما ترى، فانصرف إلى أهلك.

فجعل معاوية يتعجّب، ويقول: هيهات هيهات! عَقِمت النساء أن يلدْن مثله!

٢٢٠ ومن دعاء له عليه السلام كان يدعو به

الأصل: اَللهمَّ صُنْ وَجْهي بِالْيَسارِ، وَلاَ تَبْذُلْ جَاهِي بِالإِقْتَارِ، فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ، وَأُبْتلى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كلِهِ وَلِيُّ ٱلإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

(١) سورة غافر، الآية: ٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

الشرح: صُنْ وجهي باليسار، أي استره بأن ترزقَني يَساراً وثروة، أستغني بهما عن مسألة الناس.

ولا تبذل جاهي بالإقتار، أي لا تسقط مروءتي وحرْمتي بين الناس بالفقر الذي أحتاج معه إلى تكفّف الناس.

وروي أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رقّت حالُه في آخر عمره، لأنّ عبد الملك جفاهُ فراح يوماً إلى الجمعة، فدعا فقال: اللهمّ إنك عَوّدْتني عادة جريتُ عليها، فإن كان ذلك قد انقضى، فاقبضْني إليك. فلم يلحق الجمعة الأخرى.

وكان الحسنُ بن عليّ عليه السلام يدعو فيقول: «اللهمّ وسِّعْ عليّ فإنه لا يسعني إلا الكثير».

قوله: «فأسترزقَ» منصوب لأنه جواب الدعاء، كقولهم: ارزقني بعيراً فأحجَّ عليه. بيّن عليه السلام كيفية تبذّل جاهه بالإقتار، وفسّره فقال: بأن أطلب الرزق ممّن يطلب منك الرزق.

وأستعطف الأشرار من النّاس، أي أطلب عاطفتهم وإفضالهم، ويلزم من ذلك أمران محذوران:

أحدهما أن أبتلى بحمد المعطي.

والآخر أن أفتتن بذمّ المانع.

قوله عليه السلام: «وأنت من وراء ذلك كلّه» مثل يقال للمحيط بالأمر، القاهر له، القادر عليه، كما نقول للملك العظيم: هو من وراء وزرائه وكتّابه، أي مستعدّ متهيّىء لتتبّعهم وتعقّبهم، واعتبار حركاتهم، لإحاطته بها وإشرافه عليها.

ووليّ، مرفوع بأنّه خبر المبتدأ، ويكون خبراً بعد خبَر، ويجوز أن يكون «وليّ» هو الخبر، ويكون «من وراء ذلك»، جملة مركّبة من جار ومجرور منصوبة الموضع، لأنّه حال.

---

٢٢١ - ومن خطبة له عليه السلام في التنفر من الدنيا

الأصل: دَارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ، وَبالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ. لا تَدُومُ أَحْوَالُهَا، وَلاَ يَسْلَمُ نُزَّالُهَا. أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ، وَالأمانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ الله أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وَأَعْمَرَ دِيَاراً، وَأَبْعَدَ آثَاراً، أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وآثَارُهُمْ عافِيَةً، فاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسْنَدَةَ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ، الَّتي قَدْ بُنِيَ عَلَى الخَرَابِ فِنَاؤُهَا، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ، وساكِنُهَا مُغْتَرِبٌ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ، وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ، لاَ يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطانِ، وَلاَ يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الجِوَارِ، وَدُنُوِّ الدَّارِ، وَكَيْفَ يَكُونَ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى!

وَكَأنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى ما صارُوا إِلَيْهِ، وَارْتَهنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ.

فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ، وَبُعْثِرَتْ الْقُبُورُ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

الشرح: بالبلاء محفوفة: قد أحاط بها من كلّ جانب.

وتارات: جمع تارة، وهي المرّة الواحدة. ومتصرّفة: منتقلة متحوّلة.

ومستهدِفة بكسر الدال: منتصبة مهيّئة للرمي، وروي: «مستهدَفة» بفتح الدال على المفعولية، كأنها قد استهدفها غيرُها، أي جعلها أهدافاً.

ورياحهم راكدة: ساكنة. وآثارهم عافية: مندرسة.

والقصور المشيّدة. العالية، ومن روى: «المشِيدة» بالتخفيف وكسر الشين، فمعناه المعمولة بالشِّيد، وهو الجِصّ.

والنمارق: الوسائد.

والقبور المُلْحَدَة: ذوات اللحود.

وروي: «والأحجار المسنّدة» بالتشديد.

قوله عَلَيْتَلِارٌ: «قد بُنِي على الخراب فناؤها»، أي بنيت لا لتسكن الأحياء فيها كما تبنى منازل أهل الدنيا.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٠.

والكلكل: الصدر، وهو ها هنا استعارة.

والجنادل: الحجارة. وبعثرت القبور: أثيرت.

وتبلو كلّ نفس ما أسلفت: تخبر وتعلم جزاء أعمالها، وفيه حذف مضاف، ومن قرأ: «تتلو» بالتاء بنقطتين، أي تقرأ كلّ نفس كتابها. وضلّ عنهم ما كانوا يفترون: بطل عنهم ما كانوا يدّعونه ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء.

ذم الدنيا في شعر بعض الشعراء

ومن كلام بعض البلغاء في ذم الدنيا: أمّا بعد، فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرّفها، وأنبأت عن مساوئها بما أظهرت عن مصارع أهلها، ودلت على عوراتها بتغيّر حالاتها، ونطقت ألسنةُ العِبَر فيها بزوالها، وشهد اختلافُ شؤونها على فنائها، ولم يبق لمرتاب فيها ريب، ولا ناظر في عواقبها شكّ، بل عَرَفها جلُّ مَنْ عرفها معرفة يقين، وكشّفوها أوضحَ تكشيف، ثم اختلجتهم الأهواء عن منافع العلم، ودلّتهم الآمال بغرور، فلجّجت بهم في غمرات العجز، فسبحوا في بحورها موقنين بالهلَكة، ورتعوا في عِراصها عارفين بالخدْعة، فكان يقينهم شكًّا، وعلمهم جهلاً، لا بالعلم انتفعوا، ولا بما عاينوا اعتبروا. قلوبهم عالمة جاهلة، وأبدانهم شاهدة غائبة، حتى طرقتهم المنيّة، فأعجلتهم عن الأمنيّة، فبغتَتْهم القيامة، وأورثتهم الندامة، وكذلك الهوى حلَت مذاقَتُه، وسمّت عاقبتُه، والأمل يُنْسَى طويلاً، ويأخذ وشيكاً، فانتفع امرؤ بعلمه، وجاهد هواه أن يضلّه، وجانب أمله أن يغرّه، وقَويَ يقينه على العمل، ونفى عنه الشكّ بقطع الأمل، فإنّ الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين صَرَعاه، وإذا تعاونا على ذي غفلة خدعاه، فصريعهما لا ينهض سالماً، وخديعهما لا يزال نادماً، والقويّ مَنْ قوِيَ عليهما، والحازم من احترس منهما. ألبسنا الله وإياكم جُنّة السلامة، ووقانا وإياكم سوءَ العذاب!

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾(١).

قال منصور بن عمّار لأهل مجلس: ما أرى إساءة تكبُر على عفو الله فلا تيأس، وربما آخذ الله على الصغير فلا تأمن، وقد علمتَ أنّك بطول عفو الله عنك عمّرت مجالس الاغترار به، ورضيت لنفسك المقام على سخطه، ولو كنت تعاقِبُ نفسَك بقدر تجاوزُه عن سيئاتك، ما استمرَّ بك لجاج فيما نُهيتَ عنه، ولا قصرت دون المبالغة فيه، ولكنك رهين غفلتك، وأسير حَيْرتك.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٠٥ - ٢٠٧.

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب: قدم علينا بعبّادان راهبٌ من الشام، ونزل دير ابن أبي كَبْشة، فذكروا حكمة كلامه، فحملني ذلك على لقائه، فأتيته وهو يقول: إن لله عباداً سمَتْ بهم هممُهم فهووا عظيم الذخائر، فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقاً يُبلِغهم سُمُوَّ الهمم فإن استطعتم أيُّها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعضِ أمرهم، فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبَهم، فلم تجد الدنيا فيها ملبساً، فالحزن بثهم، والدمع راحتهم، والدؤوب وسيلَتُهم، وحسن الظنّ قربانهم، يحزنون بطول المكث في الدنيا إذا فرح أهلها، فهم فيها مسجونون، وإلى الآخرة منطلقون.

فما سمِعت موعظة كانت أنفعَ لي منها.

ومن جيد شعر أبي نواس في الزهد:

يا بني النَّقْصِ والغِيَرْ ... وبني الضَّعْفِ والخَوَرْ
وبني البعْدِ في الطّبا ... ع على القُرْبِ في الصُّوَرْ
والشُّكول الّتي تبا ... ينُ في الطُّول والقِصَرْ
أينَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ ... مِنْ ذَوِي البأْسِ والخَطَرْ
سائِلوا عنهمُ المدَا ... ئِنَ واستَبْحثُوا الخَبَر
سبقونا إلى الرّحيـ ... ـلِ وإنَّ لبالأثَرْ
مَنْ مَضَى عِبْرَةٌ لَنَا ... وَغَدا نَحْنُ مُعْتَبَرْ
إنّ للموت أخذَةً ... تسبق اللّمْح بالبَصَر
فكأني بكم غَداً ... في ثيابٍ من المَدَرْ
قد نُقِلْتُم من القُصُو ... ر إلى ظُلْمَةِ الحُفَرْ
حيث لا تضرب القِبا ... ب عليكم ولا الحُجَرْ
حيث لا تطربون منه ... لِلَهْوٍ ولا سَمَرْ
رحِم الله مسلِماً ... ذَكر الموت فازدَجرْ!
رحم الله مؤمناً ... خاف فاستشعر الحذَرْ!

ومن جيّد شعر الرضيّ أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها:

وهل نحن إلا مرامي السِّها ... م يحفزها نابلٌ دائبُ

نُسَرُّ إذا جازنا طائشٌ ونجزعُ إنْ مَسّنا صائبُ
ففي يومِنَا قَدَرٌ لابدٌّ وعند غدٍ قَدَرٌ واثِبُ
طرائد تطردُها النائبات ولا بدّ أنْ يدرِكَ الطَّالِبُ
أرى المرء يفعل فعل الحديد وهو غداً حَمَأٌ لازبُ
عواريُّ من سَلَبِ الهالكينَ يمدّ يداً نحوها السالبُ
لنا بالردى موعد صادقٌ ونيل المُنَى موعدٌ كاذبُ
حبائلُ للدهرِ مبثوثةٌ يُرَدّ إلى جذبِهَا الهاربُ
وكَيف نُجاوِز غاياتنا وقد بلغ المَوردَ القاربُ
نصبّح بالكأسِ مجدوحةً ذُعافاً، ولا يعلم الشاربُ

وقال أيضاً، وهي من محاسن شعره:

ما أقلّ اعتبارنَا بالزَّمَانِ وأشدّ اغترارنا بالأماني!
وقفاتٌ على غرورٍ، وإقدام على مُزلقٍ من الحدَثَانِ
في حروب مع الردى فكأنا اليومَ في هُدنَةٍ مع الأزمانِ
وكفانا مذكّراً بالمنايا عِلْمُنَا أننا من الحَيَوانِ
كلّ يوم رزيّةٌ بفلانِ ووقوعٌ من الرَّدَى بفُلانِ
كم تراني أُضِلُّ نفساً والهُو فكأني وثِقتُ بالوجدانِ
قل لهذي الهوامل استوقِفي السَّيْر أو استنْشِدِي عن الأغطَانِ
واستقيمي قد ضمّك اللَّقَمُ النَّهْج، وغنّى وراءك الحادِيان
كم مَحيداً عن الطريق وقد ضَرّح خَلْجُ البُرَى وجذب العِرَان
ننثني جازعين من عَذوة الدهْرِ ونرتاع للمنايا الرَّوَاني
جفلة السّرب في الظلام وقد ذُعِذع روعاً من عَدوة الذُّؤبَانِ
ثم نَنْسَى جرحَ الحِمَامِ وإنْ كان رغيباً يا قُرْب ذا النسيان!
كلّ يوم تَزايلٌ من خلَيطٍ بالرّدى، أو تباعدٌ من دانِ
وسواء مضى بنا القدر الجِدّ عَجُولاً، أو ماطل العَصْرانِ

وأيضاً من هذه القصيدة:

قد مررنا على الدّيار خُشوعاً ... ورأينا البنا، فأينَ الباني!
وجَهِلْنَا الرُّسومَ ثم عَلِمْنَا ... فذكَرْنا الأوْطارَ بالأوْطانِ
التفاتاً إلى القُرون الخوالِي ... هل ترى اليوم غير قَرْنٍ فانِ!
أين رب السّدير فالحيرة البيـ ... ضَاء، أم أين صاحبُ الإيوان!
والسّيوف الحداد من آل بدرٍ ... والقَنا الصمّ من بني الرّيّانِ
طردَتْهمْ وقائع الدّهر عن لعـ ... لع طرد السَّفَاف عن نَجْرَانِ
والمواضِي من آل جفنَة أرْسَى ... طُنُبَا ملكهمْ على الجولاَنِ
يكرعون العُقار في فلق الإبـ ... ريز كَرْع الظّماء في الغُدْرَانِ
من أباة اللّعْنِ الذين يُحيَّوْ ... ن بها في معاقِدِ التّيجانِ
تتراءاهُمُ الوفود بعيداً ... ضاربين الصُّدُور بالأذْقانِ
في رياضٍ من السَّماخ حَوالٍ ... وجبال من الحُلوم رزانِ
وهمُ الماء لَذَّ للناهل الظّمْـ ... آنِ بَرْداً والنّارُ للحيران
كُلُّ مستيقظِ الجنان إذا أظْلَـ ... مَ ليلُ النَّوّامة المِبْطَان
يغتدي في السَّبَاب غيرَ شجاع ... ويُرى في النِّزَال غير جَبان
ما ثنت عنهم المنون يداً شو ... كاءَ أطرافُها من المرّانِ
عَطَف الدَّهْرُ فَرْعَهُمْ فرآه ... بُعد بعد الذّرا قريب المجاني
وثنتهمْ بعدَ الجماح المنايا ... في عِنَانِ التّسليم والإذعان
عُطّلت منهم المقاري وباخَتْ ... في حماهمْ مواقِدُ النّيران
ليس يَبْقى على الزّمانِ جريء ... في إباء، أو عاجز في هَوَانِ
لا شبوب من الصوار ولا أعـ ... نق يرعى منابِتَ العِلّجَانِ
لا ولا خاضب من الزُّبْد يختا ... ل برِيطٍ أحمّ غيرَ يمانِ
يرتمي وِجهةَ الرئال إذا آ ... نس لون الإظلام والإدجان
وعُقاب الملاعِ تُلحم فَرْخَيْـ ... هَا بإزليقةٍ زلول القِنَانِ
نائلاً في مطامح الجوّ هاتيـ ... ك وذا في مهابط الغيطان

وهذا شعر فصيح نادر معرق في العربية.

ومن شعره الجيد أيضاً في ذكر الدنيا ومصائبها:

أو مـا رأيـت وقـائـع الـدّهـرِ أفـلا تـسـيء الـظّـنّ بـالـعُـمْـر!
بـيـنـا الـفـتـى كـالـطّـوْدِ تـكـنُـفُـه هـضـبـاتـه، والـعـضـب ذي الأثـرِ
يـأبَـى الـدنـيـة فـي عـشـيـرتـه ويـجـاذِبُ الأيـدي عـلـى الـفَـخْـرِ
وإذا أشـارَ إلـى قـبـائـلـه حُـشِـدت عـلـيـه بـأوجـهٍ غُـرّ
يـترادفـون عـلـى الـرمـاح فَـهُـمْ سـيـل يـعـبُّ وعـارضٌ يـسـرِي
إن نُـهْـنـهـوا زادوا مـقـاربـةً فـكـأنّـمـا يُـدعَـوْنَ بـالـزَّجْـرِ
عـدد الـنـجـوم إذا دُعِـي بـهـمُ يـتـزاحـمـون تَـزَاحُـم الـشّـعـر
عـقـدوا عـلـى الـجـلّـى مـآزِرَهُـمْ سَـبْـطـي الأنـامـل طَـيـبـي الـنَّـشْـرِ
زل الـزمـانُ بـوطء أخـمـصِـهِ ومـواطـىء الأقـدام لـلـعـثـر
نـزع الإبـاء وكـان شـمـلـتَـه وأقـر إقـراراً عَـلَـى صُـغْـرِ
صَـدع الـردى، أعـيـا تـلاحـمـه مـن ألـحـم الـصـدَفـيـن بـالـقَـطْـرِ
جر الـجـيـاد عـلـى الـوَجَـى ومَـضَـى أمـمـاً يـدق الـسَّـهْـل بـالـوَعْـرِ
حـتـى الْـتَـقـى بـالـشـمـس مُـغـمَـدَةً فـي قَـعْـر مـنـقـطـعٍ مـن الـبَـحْـرِ
ثـم انـثـنـتْ كـفُّ الـمـنـون بِـهِ كـالـضِّـغْـث بـيـن الـنّـاب والـظُّـفْـر
لـم تـشـتـجـرْ عـنـه الـرمـاح ولا ردّ الـقـضـاءَ بـمـالـه الـدَّثْـرِ
جَـمَـع الـجـنـود وراءه فـكـأنّـمـا لاقـتْـه وهْـو مـضـيّـع الـظَّـهْـرِ
وبـنَـى الـحـصـون تـمـتُّـعاً فـكـأنـمـا أمـسـى بـمـضـيَـعـةٍ ومـا يـدرِي
وبَـرى الـمـعـابِـل لـلـعِـدا فـكـأنّـمـا لـحِـمـامِـهِ كـانَ الّـذي يـبـرِي

إن الـتـوقّـي فـرط مَـعْـجـزةٍ فـدع الـقَـضَـاء يَـقُـدّ أو يَـفْـرِي
وحـمـى الـمـطـاعـم وذِي الْـ ـآجـال مـلء فُـروجـهـا تَـجْـرِي
لـو كـان حـفـظ الـنـفـس يـنـفـعُـنَـا كـانَ الـطّـبـيـب أحـقَّ بـالـعُـمْـرِ
الـمـوت داءٌ لا دواء لـه سِـيّـانِ مـا يـوبـي ومـا يُـمْـرِي

وهذا من حر الكلام وفصيحه ونادره، ولا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة، وهذا القبس من تلك النار!

٢٢٢ ومن دعاء له عليه السلام يطلب فيه إلى الرشاد

الأصل: اَللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ ٱلآنِسِينَ لأَوْلِيَائِكَ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ ٱلْغُرْبَةُ، آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى ٱلاسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ ٱلأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ.

اَللهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذٰلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلاَ بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ.

اَللهمَّ ٱحْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ، وَلاَ تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ.

الشرح: أنست: ضدّ وحشت، والإيناس: ضدّ الإيحاش، وكان القياس أن يقول: إنّك آنس المؤنسين، لأن الماضي «أفعل» وإنما الآنسون جمع آنس، وهو الفاعل من أنست بكذا، لا من «آنست»، فالرواية الصحيحة، إذاً «بأوليائك» أي أنت أكثرهم أنساً بأوليائك وعطفاً وتحنُّناً عليهم.

وأحضرهم بالكفاية، أي أبلغهم إحضاراً لكفاية المتوكّلين عليهم، وأقومهم بذلك تشاهدهم في سرائرهم، أي تطلع على غيبهم، والبصائر: العزائم، نفذت بصيرته في كذا، أي حقّ عزمه.

وقلوبهم إليك ملهوفة، أي صارخة مستغيثة.

وفهِهت عن مسألتي بالكسر: عَيِيت، والفهَّة والفَهاهةُ: العيّ، رجل أفِهٌ، ورجل فَه أيضاً، وامرأة فَهِهة، قال الشاعر:

فلم تُلفني فَهًّا ولم تُلْفِ حاجتي ملجلَجةً أبغي لها مَنْ يقيمها

وقد فَهِهْتَ يا رجل فَهَهاً، أي عييت، ويقال سفيه فهيه، وفههه الله، وخرجت لحاجة فأفهَّني عنها فلان، أي أنسانيها.

ويروى: «أو عمهت» بالهاء والميم المكسورة، والعَمَه: التحيّر والتردّد، عَمِه الرجل، فهو عَمِه وعامِهٌ والجمع عُمَّهٌ، وأرض عَمْهاء: لا أعلام بها. والنكر. العجب والبِدْع المبتدع، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]، أي لم آت بما لم أسبق إليه.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

ومثل قوله عليه السلام: «اللهم احمِلْنِي على عفوك، ولا تحملني على عَدْلك» قولُ المرْوانية للهاشميّة لما قُتل مروان في خبرٍ قد اقتصصناه قديماً. ليسْعنا عدْلُكم، قالت الهاشمية. إذنْ لا نُبقِي منكم أحداً، لأنكم حاربتم علياً عليه السلام، وسَممتم الحسن عليه السلام، وقتلتم الحسين وزيداً وابنه، وضربتم عليّ بن عبد الله، وخنقتم إبراهيم الإمام في جراب النورة.

قالت: قد يسعنا عفوكم، قالت. أما هذا فنعم.

أدعية أبي حيان التوحيدي

ومن الدعوات الفصيحة المستحسنَة فصولٌ من كلام أبي حيان التوحيديّ نقلتها.

فمنها: اللهمّ إنّي أبرأ من الثقة إلاّ بك، ومن الأمل إلاّ فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلاّ إليك، ومن التوكُّل إلاّ عليك، ومن الطلب إلاّ منك، ومن الرّضا إلاّ عنك، ومن الذلّ إلا في طاعتك، ومن الصبر إلا على بلائك، وأسألك أن تجعلَ الإخلاص قرين عقيدتي، والشكرَ على نعمك شعارِي ودثاري والنَّظر إلى ملكوتك دأبي وديدني، والانقياد لك شأني وشُغْلي، والخوف منك أمْنِي وإيماني، واللّياذَ بذكرك بَهْجتي وسروري.

اللهمّ تتابع برُّك، واتّصل خيرُك، وعَظُم رِفْدُك، وتناهى إحسانك، وصدق وعدُك، وبَرّ قَسَمُك، وعمّت فواضلك، وتمت نوافلك، ولم تبق حاجةٌ إلاّ وقد قضيتَها، أو تكفّلْت بقضائها، فاخِتم ذلك كلّه بالرضا والمغفرة، إنّك أهلُ ذلك، والقادر عليه، والمليّ به.

ومنها: اللهمّ إني أسألك خفايا لطفك، وفواتحَ توفيقك، ومألوفَ برّك، وعوائد إحسانك، وجاه المقدَّسين من ملائكتك، ومنزلة المصطفين من رسلك، ومكاثرة الأولياء من خلقك، وعاقبة المتقين من عبادك.

وأسألك القناعة برزقك، والرّضا بحكمك، والنزاهة عن محظورك، والوَرَع في شبهاتك والقيامَ بحجتك، والاعتبار بما أبديت، والتسليمَ لما أخفيت، والإقبالَ على ما أمرت، والوقوف عمّا زجرت، حتى أتَّخذ الحقّ حجة عندما خَفّ وثقل، والصدق سنة فيما عَسُر وَسُهل، وحتى أرى أنّ شعار الزهد أعزّ شعار، ومنظر الباطل أشْوَه منظر، فأتبختَر في ملكوتك بفضفاض الرداء بالدّعاء إليك، وأبلغَ الغاية القصوى بين خلقك بالثناء عليك.

ومنها: اللهمّ إليك أرفع عُجَرِي وبُجَري، وبك أستعين في عُسْرِي ويُسري، وإيّاك أدعو رَغَباً ورَهَباً، فإنّك العالم بتسويل النَّفس، وفتنة الشيطان، وزينة الهوى، وصرْف الدهر، وتلون الصديق، وبائقة الثّقة، وقنوط القلب، وضعف المُنّة، وسوء الجزَع.

فقِني اللّهم ذلك كلّه، واجمع من أمري شمله، وانظِمْ من شأني شتيتَه، واحرُسْني عند الغنى من البَطَر، وعند الفقر من الضّجَر، وعند الكفاية من الغَفْلة، وعند الحاجة من الحسْرة، وعند

الراحة من الفُسُولة، وعند الطّلب من الخيبة، وعند المنازلة من الطغيان، وعند البحث من الاعتراض عليك، وعند التسليم من التهمة لك.

وأسألُك أن تجعل صدري خِزانة توحيدك، ولساني مفتاح تمجيدك، وجوارحي خَدَم طاعتك، فإنه لا عزّ إلا في الذلّ لك، ولا غنَى إلا في الفقر إليك، ولا أمْنَ إلا في الخوف منك، ولا قرار إلا في القَلَق نحوك، ولا رَوح إلا في الكرْب لوجهك، ولا ثقةَ إلا في تهمة خلقك، ولا راحة إلا في الرضا بقَسْمك، ولا عيش إلا في جوار المقربين عندك.

ومنها: اللهم ببرهانك الصادع، وبنور وجهك الساطع، صلّ على محمد نبيّك نبي الرحمة، وقائد الأمّة، وإمام الأئمة، واحرس عليّ إيماني بك بالتسليم لك، وخفف عنّي مؤنة الصبر على امتحانك، وواصل لي أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك، واجعل بقيّة عمري في غنًى عن خلقك، ورضا بالمقدّم من رزقك.

اللهم إنك إن آخذتنا بذنوبنا خَسَفْت الأرض بنا، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابرنا، فإنك قلت: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا، وغلّ صدورنا، وفتنةَ أنفسنا، وطموحَ أبصارنا، ورفَث ألسنتنا، وسخف أحلامنا، وسوء أعمالنا، وفُحْش لجاجنا، وقبح دعوانا، ونَتْن أشرارنا، وخُبْث أخيارنا، وتلزّق ظاهرنا، وتمزّق باطننا.

اللهم فارحمنا، وارأفْ بنا، واعطف علينا، وأحسِن إلينا، وتجاوز عنّا، واقبل الميسورَ منّا، فإنّنا أهلُ عقوبة، وأنت أهل مغفرة، وأنتَ بما وصفت به نفسَك أحقّ منّا بما وَسَمْنا به أنفسنا، فإن في ذلك ما اقترن بكرَمِك، وأدّى إلى عفوك. ومن قبل ذلك وبعده، فأطب عيشنا بنعمتك، وأرحْ أرواحَنا من كَدّ الأمل في خلقك، وخذ بأزمّتنا إلى بابك، والْهِ قلوبنا عن هذه الدار الفانية، وازرع فيها محبّة الدار الباقية، وقلّبْنا على بساط لطفك، وحُثّنا بالإحسان إلى كنَفك، ورفّهنا عن التماس ما عند غيرك، واغضض عيونَنا عن ملاحظة ما حُجِب من غيرك، وصِلْ بيننا وبين الرّضا عنك، وارفع عنا مؤنة العَرْض عليك، وخفّف علينا كلّ ما أوصلَنا إليك، وأذِقْنا حَلاوة قُربك، واكشف عن سرائرنا سواتر حُجْبك، ووكّل بنا الحفَظة، وارزقنا اليقَظة، حتى لا نقترف سيِّئة، ولا نفارق حسنة، إنّك قائم على كلّ نفسك بما كسبت، وأنت بما نخفي وما نعلن خبير بصير.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

ومنها: اللهمّ أنت الحيّ القيّوم، والأوّل الدائم، والإله القديم، والباريء المصوّر، والخالق المقدّس، والجبّار الرفيع، والقهّار المنيع، والملك الصَّفُوح، والوهّاب المنُوح، والرحمن الرؤوف، والحنّان العَطُوف، والمنّان اللطيف مالك الذوائب والنّواصي، وحافظ الأداني والأقاصي، ومصرّف المطيع والعاصي.

اللهمّ أنت الظّاهر الذي لا يجحدك جاحد إلا زايلته الطُّمأنينة، وأسلمه اليأس، وأوحشه القُنوط، ورحلتْ عنه العِصْمة، وتردّد بين رجاء قد نأى عنه التّوفيق، وأمل قد حفّت به الخيبة، وطمع يحوم على أرجاء التكذيب، وسرّ قد أطاف به الشقاء، وعلانية قد أناف عليها البلاء، موهون المُنّة، منسوخ العقدة، مسلوب العدّة، تشنؤه العين، وتقليه النّفس، عَقْلُه عقلٌ طائر، ولبّه لُبُّ حائر وحكمه حكم جائر، لا يروم قراراً إلا أزعِج عنه، ولا يستفتح باباً إلا أرتِج دونه، ولا يقتبس ضَرَماً إلا أجّج عليه، عثرتُه موصولة بالعَثْرة، وحسرته مقرونة إلى حسرة، إن سمع زيّف، وإن قال حرّف، وإن قضى خرّف، وإن احتجّ زخرف، وَلَوْ فاء إلى الحقّ لوجد ظلّه ظليلاً، وأصاب تحته مثوًى ومقيلاً.

وأنت الباطن الذي لا يرومك رائم، ولا يحوم على حقيقتك حائم، إلا غشيَه من نور إلٰهيتك، وعزّ سلطانك، وعجيب قدرتك، وباهر برهانك، وغرائب غيوبك، وخفِيّ شأنك، ومخوف سطوتك، ومرجوّ إحسانك، ما يردّه خاسئاً من مزحزَحه عن الغاية، خجِلاً مَبْهوراً، ويردّه إلى عجزه، ملتحفاً بالندم، مرتدياً بالاستكانة، راجعاً إلى الصّغَار، موقوفاً مع الذلّة. فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطرار، وباطنك يحيّر فيك لسعة قضاء الاعتبار، وفعلك يدلّ عليك الأسماع والأبصار، وحكمتك تعجب منك الألباب والأسرار. لك السلطان والملكة، وبيدك النَّجاة والهلكة، فإليك المفرّ، ومعك المقرّ، ومنك صنوف الإحسان والبر، أسألك بأصحّ سرّ، وأكرم لفظ، وأفصح لغة، وأتمّ إخلاص، وأشرف همّة، وأفضل نيّة، وأطهر عقيدة، وأثبت يقين، أن تصدَّ عنّي كلّ ما يصدّ عنك، وتصلني بكلّ ما يصلَ بك، وتحبّب إليّ كلّ ما يحبّب إليك، فإنك الأوّل والثاني، والمشار إليه في جميع المعاني، لا إله إلا أنت.

ومنها: اللهمّ إني أسألك جَدّاً مقروناً بالتوفيق، وعلماً بريئاً من الجهْل، وعملاً عريًا من الرياء، وقولاً موشّحاً بالصواب، وحالاً دائرة مع الحقّ، وفطنةَ عقل مضروبة في سلامة صدور، وراحةَ جسم راجعةً إلى روح بال، وسكونَ نفس موصولاً بثبات يقين، وصحّة حجّةٍ بعيدة من مرض شبهة، حتى تكون غايتي في هذه الدنيا موصولةً بالأمثل فالأمثل، وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل، من حياة طيّبة أنت الواعد بها، ونعيم دائم أنت المبلّغ إليه.

اللهم لا تخيّب رجاء هو منوطٌ بك، ولا تُصفِرْ كفًّا هي ممدودة إليك، ولا تعذّب عيناً فتحتّها بنعمتك، ولا تذلّ نفساً هي عزيزة بمعرفتك، ولا تسلُبْ عقلاً هو مستضيء بنور

هدايتك، ولا تُخرس لساناً عودته الثّناء عليك، فكما كنت أوّلاً بالتفضّل، فكن آخراً بالإحسان.

الناصيةُ بيدِك، والوجه عانٍ لك، والخير متوقَّعٌ منك، والمصير على كلّ حالٍ إليك.

ألبِسني في هذه الحياة البائدة ثوب العِصْمة، وحَلّني في تلك الدّار الباقية بزينة الأمن، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائدة، وأجْرِني على العادة الفاضلة، ولا تجعلني ممّن سها عن باطن ما لَك عليه، بظاهر ما لَك عنده، فالشقيّ مَنْ لم تأخذ بيده، ولم تؤمّنه من غده، والسعيد من آويته إلى كنَف نعمتك، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك، غير مناقَشٍ في الحساب، ولا سائق له إلى العذاب، فإنّك على ذلك قدير.

ومنها: اللّهمّ اجعل غدوَّنا إليك مقروناً بالتوكّل عليك، ورواحَنا عنك موصولاً بالنجاح منك، وإجابَتنا لك راجعةً إلى التهالك فيك، وذكْرَنا إيّاك منوطاً بالسّكون معك، وثقتنا بك هاديةً إلى التّفويض إليك، ولا تخلِنا من يدٍ تستوعب الشُّكر، ومن شكر يمتري خِلْف المزيد، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترحين، وصنع يفوق ذَرْع الطالبين، حتى نلقاك مبشَّرين بالرّضا، محكّمين في المُنَى، غير مناقَشين ولا مطرودين.

اللهم أعِذْنا من جَشَع الفقير، وريبة المنافق، وتجليح المعاند، وطيشة العَجُول، وفَتْرة الكَسْلان، وحيلة المستبدّ وفتور العقل، وحَيْرة المخرج، وحَسْرةِ المحوَج، وفلْتَة الذُّهول، وحُرْقة النُّكول، ورقّة الخائف، وطمأنينة المغرور، وغفلة الغرور.

واكفنا مؤنة أخ يرصدُ مسكوناً إليه، ويمكُر موثوقاً به، يخيس معتمَداً عليه.

وصل الكفاية بالسُّلْوة عن هذه الدّنيا، واجعل التهافنا عليها حنيناً إلى دار السلام، ومحلّ القرار، وغلّب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعِيان، واحرسنا من أنفسنا، فإنّها ينابيعُ الشَّهْوة، ومفاتيح البلوى.

وأرِنَا من قُدْرتِك ما يحفظ علينا هيبتَك، وأوضِحْ لنا من حكمتك ما يقلّبُنا في ملَكوتك، وأسبِغ علينا من نعمتك ما يكون لنا عوْناً على طاعتك، وأشِعْ في صدورنا من نورك ما تَتجلّى به حقائق توحيدك.

واجعل ديدَنَنا ذكرك، وعادتنا الشّوْق إليك، وعلّمْنا النُّصح لخلْقك، واجعل غايتنا الاتصال بك، واحجبنا عن قول يبرىء من رضاك، وعَمَل يُعمِي صاحبه عن هداك، وألّفْ بيننا وبين الحق، وقرّبنا من معادن الصِّدْق، واعصمنا من بوائق الخلْق، وانقلنا من مضايق الرّقّ، واهدنا إلى فوائد العِتْق.

اللهم إنّك بدأت بالصُّنع وأنت أهله، فعُدْ بالتّوفيق فإنّك أهلُه.

اللهمّ إنا نتضاءلُ لك عند مشاهدة عظمتك، وندلّ عليك عند تواتر برّك، ونذِلّ لك عند ظهور آياتك، ونلحّ عليك عند علمنا بجودك.

ونسألك من فضلك ما لا يرزؤك ولا ينكؤك، ونتوسّل إليك بتوحيدٍ لا ينتمي إليه خَلق، ولا يفارقه حقّ.

ومنها: اللهمّ عليك أتوكّل، وبك أستعين، وفيك أوالي، وبك أنتسب، ومنك أفرَق، ومعك أستأنس، ولك أمجّد، وإياك أسأل: لساناً سَمْحاً بالصدق، وصدراً قد ملىء من الحقّ، وأمَلاً منقطعاً عن الخلق، وحالاً مكنونها يبوّىء الجنة، وظاهرها يحقّق المِنّة، وعاقبةً تنسِي ما سلف، وتتصل بما يُتمنّى ويُتوكّف.

وأسألك اللهمّ كبداً رجوفاً خؤوفاً، ودَمْعاً نَطُوفاً شوقاً إليك، ونفساً عزوفاً إذعاناً لك، وسرًّا ناقعاً ببَرْد الإيمان بك، ونهاراً مشتملاً على ما كُسِب من مرضاتك، وليلاً مالئاً بما أزلف لديك.

أشكو إليك اللهمّ تلهّفي على ما يفوتني من الدّنيا، وأنّني في طاعة الهوى، جاهلاً بحقّك، ساهياً عن واجبك، ناسياً ما تكرره من وعْظِك وإرشادك، وبيانك وتنبيهك، حتى كأنّ حلاوة وعدِك لم تلِجْ أذني، ولم تباشر فؤادي، وحتى كأنّ مرارة عتابك ولائمتك لم تهتِك حجابي، ولم تعرض عليّ أوصابي.

اللهمّ إليك المفرّ من دارٍ منهومُها لا يشبع، وحائمها لا ينقع، وطالبها لا يربع، وواجدها لا يقنع، والعيش عنك رقيق، وللأمل فيك تحقيق.

اللهمّ كما ابتليت بحكمتك الخفيّة التي أشكلَت على العقول، وحارت معها البصائر، فعاف برحمتك اللطيفة التي تطاولت إليها الأعناق، وتشوّفَت نحوها السرائر، وخُذ معنا بالفضل الذي إليك هو منسوب، وعنك هو مطلوب، وافطِم نفوسنا من رضاع الدّنيا، والطف بما أنت له أهلٌ، إنّك على كلّ شيء قدير.

اللهم قُدْنا بأزمّة التوحيد إلى محاضر طاعتك، واخلِطنا في زُمْرة المخلصين لذكرك، واجعل إجابتَك من قبيل ما يتصل بكرم عفْوك، ولا تجعل خيبتنا من قبَل جهلنا بقدْرك، وإضرابنا عن أمرك، فلا سائل أحوجُ منا، ولا مسؤول أجودُ منك.

اللهم احجر بيننا وبين كلّ ما دلّ على غيرك ببيانك، ودعا إلى سواك ببرهانك، وانقلنا عن مواطن العجز، مرتقياً بنا إلى شرفات العزّ، فقد استحوذ الشيطان، وخبثت النفس، وساءت العادة، وكثر الصادّون عنك، وقلّ الداعون إليك، وذهب المراعون لأمرك، وفقد الواقفون عند

حُدودك، وخلتْ ديار الحق من سُكّانها، وبيع دينك بَيْع الخلق، واستهزىء بناشر مجدك، وأُقصِيَ المتوسل بك.

اللهم فأعد نضارة دينك، وأفِضْ بين خلقِك بركاتِ إحسانك، وامدد عليهم ظلّ توفيقك، واقمع ذوي الاعتراض عليك، واخسف بالمقتحمين في دقائق غيبك، واهْتِك أستار الهاتكين لستْر دينك، والقارعين أبوابَ سرك، القاتسين بينك وبين خلقك.

اللهمّ إني أسألُك أن تخصّني بإلهام أقتبس الحق منه، وتوفيق يصحبني وأصحبه، ولطف لا يغيب عني ولا أغيب عنه، حتى أقول إذ قلت لوجهك، وأسكت إذا سكت بإذنك، وأسأل إذا سألتُ بأمرك، وأبين إذا أبنت بحجتك، وأبعُدُ إذا بعدت بإجلالك، وأقرُبُ إذا قربت برحمتك وأعبُد إذا عبدت مخلصاً لك، وأموت إذا متّ منتقلاً إليك.

اللهمّ فلا تكلني إلى غيرك، ولا تؤيّسني من خيرك.

ومنها: اللهمّ إنا بك نعزّ كما أنّا بغيرك نذلّ، وإياك نرجو كما أنّا من غيرك نيأس، وإليك نفوّض، كما أنّا من غيرك نعرض، أذنت لنا في دعائك، وأدنيتَنا إلى فنِائك، وهيّأتنا لعطائك، وخصصتَنا بحبائك، ووسمتنا بولائك، وعممْتَنا بآلائك، وغمسْتَنا في نعمائك، وناغيتَنا بألسُن ملكوتك عن دفائن ما في عالمك، ولاطَفتنا بظاهر قولك وتولّيتنا بباطنِ فعلك، فسمَتْ نحوك أبصارُنا، وشامت بروق جوْدك بصائرنا، فلمّا استقرّ ما بيننا وبينك، أرسلْت علينا سماء فضلك مدراراً، وفتحت لنا منّا أسماعاً وأبصاراً، فرأينا ما طاح معه تحصيلنا، وسمعنا ما فارقنا عنده تفضيلنا، فلمّا سِرْنا إلى خلقك من ذلك ذَرْواً، اتخذونا من أجله لعباً وهزوا فبقدرتك على بلوانا بهم، أرِنا بك الغِنَى عنهم.

اللهم قَيّض لنا فرجاً من عندك، وأتِح لنا مخلَصاً إليك، فإنا قد تعبنا بخلْقك، وعجزنا عن تقويمهم لك، ونحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقربُ منّا إلى منابذتهم في موافقتك، لأنّه لا طاقةَ لنا بدهمائهم، ولا صَبْرَ لنا على بلوائهم، ولا حيلَة لنا في شفائهم، فنسألك بالضَّراعة التامّة وبالإخلاص المرفود، إلاّ أخذتَ بأيدينا، وأرسلت رحمتك علينا، فما أقدرك على الإجابة، وما أجودك بكل مصون، يا ذا الجلال والإكرام!

ومنها: اللهمّ إنّا قرُبنا بك فلا تُنئنا عنك، وظهرنا لك فلا تبطنّا دونك، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك، وعزفنا عن كلّ ما لوانا عن بابك، ووثقنا بكلّ ما وعدتنا في كتابك، وتوكّلنا بالسرّ والعَلَن على لطيف صنعك.

اللهم إليك نظرت العيون فعادت خاسئةً عَبْرَى، وفيك تقسّمت الظنون فانقلبت يائسة حَسْرى، وفي قدرتك حارت الأبصار، وفي حكمتك طاحت البصائر، وفي آلائك غرِقت الأرواح، وعلى ما كان منك تقطّعت الأنفاس، ومن أجْلِ إعراضك التهبت الصدور، ولذكر ما مَضى منك هملت الدموع.

اللهم تولّنا فيما ولّيتَنا حتى لا نَتولّى عنك، وأمّنَا ممّا خوّفتَنَا حتى نقرّ معك، وأوسِعْنا رحمتك، حتى نطمئنّ إلى ما وعدتنا في كتابك، وفرّق بيننا وبين الغلّ حتى لا نعامل به خلقك، وَاغنِنا بك حتى لا نفتقر إلى عبادك، فإنّك إذا يسّرت أمراً تيسّر، ومهما بلوتنا فلا تبلُنا بهجرك، ولا تجرّعنا مرارة سُخطك. قد اعترفنا بربوبيتك عبوديّة لك، فعرّفنا حقيقتها بالعفو عنا، والإقبال علينا، والرفق بنا، يا رحيم!

ومنها: اللّهم إنّ الرغبات بك منوطة، والوسائل إليك متداركة، والحاجات ببابك مرفوعة، والثقة بك مستحصفة (أي مستحكمة)، والأخبار بجودك شائعة، والآمال نحوك نازعة، والأمانيّ وراءك منقطعة، والثناء عليك متّصل، ووصفك بالكرم معروف، والخلائق إلى لطفك محتاجة، والرجاء فيك قويّ، والظنون بك جميلة، والأعناق لعزّك خاضعة، والنّفوس إلى مواصلتك مشتاقة، والأرواح لعظمتك مبهوتة، لأنك الإله العظيم، والربّ الرّحيم، والجواد الكريم، والسميع العليم، تملك العالم كلّه، وما بعده وما قبله، ولك فيه تصاريف القدرة، وخفِيّات الحكمة، ونوافذ الإرادة، ولك فيه ما لا ندريه ممّا تخفيه ولا تبديه، جَللت عن الإجلال، وعظمت عن التعظيم، وقد أزف ورودُنا عليك، ووقوفُنا بين يديك، وظنُّنا ما قد علمت، ورجاؤنا ما قد عرفت، فكن عند ظنّنا بك، وحقق رجاءنا فيك، فما خالفناك جرأة عليك، ولا عصيناك تقحّماً في سخطك، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك، ولكن غلبت علينا جواذب الطّينة التي عجنتَنا بها، وبذور الفِطْرة التي أنبتنا منها، فاسترخت قيودنا عن ضبط أنفسنا، وعزبت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا، ولسنا ندّعي حُجّة، ولكن نسألك رأفة، فبسترك السّابغ الذّيال، وفضلك الذي يستوعب كلّ مقال، إلا تممت ما سلَف منك إلينا، وعطفْتَ بجودك الفيّاض علينا، وجذبت بأضبَاعنا، وأقررت عيوننا، وحققت آمالنا، إنك أهل ذلك، وأنت على كل شيء قدير!

تم الجزء الحادي عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

ويليه الجزء الثاني عشر

شرح نهج البلاغة

الجزء الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

٢٢٣ - ومن كلام له عليه السلام يريد به بعض أصحابه

الأصل: بِلادُ فلان، فَلَقَدْ قوّمَ الأوَدَ، وَدَاوى ٱلْعَمَدَ، وَأَقَامَ السُّنَّة، وَخَلَّف الفِتْنَةَ! ذَهَبَ نَقِيّ الثَّوْبِ، قَلِيلَ ٱلْعَيْبِ، أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا.

أَدّى إلى الله طاعته، وَٱتَّقَاهُ بِحَقِّه. رَحَل وتركَهُمْ فِي طرق مُتَشَعِّبَةٍ، لاَ يَهْتَدِي بِهَا الضّالّ، ولا يستيقنُ ٱلْمُهْتَدِي.

الشرح: العرب تقول: لله بلادُ فلان، ولله دَرُّ فُلان، ولله نادِي فُلاَنٍ، وَلله نائِحُ فُلانٍ! والمراد بالأول: لله الْبِلاَدُ الَّتِي أنشأتْهُ وانبتتْهُ، وبالثاني: لله الثَّدْيُ الذي أرْضَعَهُ وبالثالثِ: لله المْجْلِسُ الَّذِي رُبّيَ فيهِ، وبالرابع: لله النَّائِحَةُ الَّتي تَنُوحُ عَلَيْهِ وتَنْدَبه! ماذا تَعْهَدُ من مَحَاسِنِهِ.

ويُروى: «لله بلاءُ فلان»، أي لله ما صنع! وفلان المكنّى عنه عمر بن الخطاب، وقد وجدتُ النّسخة الَّتي بخطّ الرضيّ أبي الحسن جامع «نهج البلاغة» وتحت «فلان» «عمر»، حدّثني بذلك فخار بن معدّ الموسوي الأوديّ الشاعر، وسألتُ عنه النقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد العلَوِيّ، فقال لي: هو عمر، فقلت له أيُثني عليه أميرُ المؤمنين عليه السلام هذا الثناء؟ فقال: نعم، أمّا الإماميّة فيقولون: إنّ ذلك من التَّقيّة واستصلاح أصحابه. وأمّا الصّالحيون من الزيْدية فيقولون: إنه أثنى عليه حق الثناء، ولم يضع المدح إلا في موضعه ونصابه. وأمّا الجاروديَّة من الزيديّة فيقولون: إنه كلام قاله في أمر عثمان أخرجه مُخرَج الذمّ له، والتنقّص لأعماله، كما يُمدَحُ الآن الأميرُ الميّت في أيام الأمير الحيّ بعده، فيكون ذلك تعريضاً به.

فقلت له: إلا أنّه لا يجوز التعريض والاستزادة للحاضر بمدح الماضي، إلاّ إذا كان ذلك المدح صدقاً لا يخالطه ريبٌ ولا شبهة. فإذا اعترف أميرُ المؤمنين بأنّه أقام السنَّة، وذهب نقِيّ الثوْب، قليلَ العيْب، وأنّه أدّى إلى الله طاعتَه، واتّقاه بحقّه، فهذا غايةُ ما يكون من المدح. وفيه إبطالُ قول مَنْ طعن على عثمان بن عفّان. فلم يجبني بشيء، وقال: هو ما قلت لك!

فأمّا الراوندي، فإنّه قال في الشرح: إنه عليه السلام مدح بعض أصحابه بحسن السيرة، وأنّ الفتنة هي التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الاختيار والأثَرة.

وهذا بعيد، لأنّ لفظ أمير المؤمنين يشعر إشعاراً ظاهراً بأنه يمدح والياً ذا رعيّة وسيرة، ألا تراه كيف يقول: «فلقدْ قوّم الأود، وداوَى العمَد، وأقام السّنة، وخلّف الفتنة»! وكيف يقول: «أصاب خيرها وسبق شرها»! وكيف يقول: «أدّى إلى الله طاعته»! وكيف يقول: «رَحَل وتركهم في طرق متشعّبة»!

وهذا الضّمير، وهو الهاء والميم في قوله عَلَيْتَلِا: «وتركهم» هل يصحّ أن يعود إلاّ إلى الرعايا! وهل يسوغُ أن يقال هذا الكلام لسوقة مِنْ عُرْض الناس! وكلّ من مات قبل وفاة النبي ﷺ كان سوقةً لا سلطان له، فلا يصحّ أن يُحمَل هذا الكلام على إرادةِ أحدٍ من الّذين قُتِلوا أو ماتوا قبل وفاةِ النبي ﷺ، كعثمان بن مظعون، أو مُصعب بن عمير، أو حمزة بن عبد المطلب، أو عبيدة بن الحارث، وغيرهم من الناس. والتأويلاتُ البارِدة الغثّة لا تعجبني، على أنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبريّ قد صرح أو كاد يصرّح بأنّ المعنّي بهذا الكلام عمر، قال الطبريّ: لما مات عمر بكتْه النّساء، فقالت إحدى نوادبه: واحَزَناه على عمر! حزناً انتشر، حتى ملأ البشر. وقالت ابنة أبي حثمة: واعمراه! أقام الأوَد، وأبرأ العَمد، وأمات الفتن، وأحيا السّنن

خرج نقيّ الثّوب، بريئاً من العيب.

قال الطبريّ: فروى صالح بن كيسان، عن المغيرة بن شعبة، قال: لمّا دفن عمر أتيتُ عليًّا عَلَيْتَلِا، وأنا أحبّ أن أسمعَ منه في عمر شيئاً، فخرج ينفُض رأسه ولحيته، وقد اغتسَل، وهو ملتحِفٌ بثوب لا يشكّ أنّ الأمر يصير إليه، فقال: «رحم الله ابن الخطاب! لقد صدقت ابنَةُ أبي حَثْمة: ذهب بخيرها، ونجا من شرها، أما والله ما قالت، ولكن قُوّلت!»[(١)].

وهذا كما ترى يقوّي الظنّ، إن المراد والمعنيّ بالكلام إنّما هو عمر بن الخطاب.

قوله: «فلقد قَوّم الأوَد»، أي العِوَج، أوِد الشيء بالكسر يأوَدُ أوَداً، أي اعوجّ، وتأوّد العود، يتأوّد.

والعَمَد: انفضاخُ سنام البعير، ومنه يقال للعاشق: عَمِيد القلب ومعموده.

قوله: «أصَاب خيرَها» أي خير الولاية، وجاء بضميرها ولم يجرِ ذكرها لعادة العرب في أمثال ذلك، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٢٨٥، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ١٥٨.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٢.

وسبق شرّها، أي مات أو قتل قبل الأحداث والاختلاط الذي جرى بين المسلمين.

قوله: «واتّقاه بحقّه»، أي بأداء حقه والقيام به.

فإن قلت: وأيّ معنى في قوله: «واتقاه بأداء حقّه»؟ وهل يتقي الإنسان الله بأداء الحق! إنما قد تكون التقوى علّة في أداء الحقّ، فأما أن يتّقي بأدائه فهو غير معقول.

قلت: أراد عليه السلام أنّه اتقى الله، ودلّنا على أنه اتّقى الله بأدائه حقه، فأداء الحقّ علّة في علمنا بأنه قد اتّقى الله سبحانه.

ثم ذكر أنّه رَحَل وترك النّاس في طرق متشعّبة متفرّقة، فالضالّ لا يهتدي فيها، والمهتدي لا يعلم أنه على المنهج القويم، وهذه الصفات إذا تأمّلها المنصِف، وأماط عن نفسه الهوى، علم أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يَعْنِ بها إلاّ عمر، لو لم يكن قد روي لنا توقيفاً ونقلاً أنّ المعنيّ بها عمر، فكيف وقد رويناه عمّن لا يتّهم في هذا الباب!

سيرة عمر بن الخطاب

ونحن نذكر في هذا الموضع نُكتاً من كلام عمر وسيرته وأخلاقه.

أُتِيَ عمرُ بمالٍ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أميرَ المؤمنين، لو حبستَ من هذا المال في بيت المال لنائبةٍ تكون، أو أمر يحدث! فقال: كلمة ما عرَض بها إلا شيطان كفاني حُجّتها، ووقاني فتنتها. أعصِي الله العامَ مخافة قابل! أعدّ لهم تقوى الله، قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(١).

استكتب أبو موسى الأشعريّ نصرانيًا، فكتب إليه عمر: اعزله واستعمل بدلَه حَنيفيًا، فكتب له أبو موسى: إن من غنائه وخيره وخبرته كَيْت وكَيْت. فكتب له عمر: ليس لنا أنْ نأتمِنَهم، وقد خوّنهم الله، ولا أنْ نرفَعَهم وقد وضعهم الله، ولا أن نستنصِحَهم في الدّين وقد وتَرهم الإسلام، ولا أن نعِزَّهم وقد أُمِرنا بأن يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

فكتب أبو موسى: إنّ البلد لا يصلح إلاّ به. فكتب إليه عمر: مات النصرانيّ والسلام.

وكتب إلى معاوية: إيّاك والاحتجاب دون الناس، وائذن للضعيف، وادْنِه حتّى ينبَسط لسانه، ويجترىء قلبه، وتعهّد الغريب، فإنه إذا طال حبسه ودام إذنه، ضعُف قلبهُ، وترك حقّه.

عزل عمر زياداً عن كتابة أبي موسى الأشعريّ في بعض قَدَماته عليه، فقال له: عن عَجْزٍ أم عن خيانة؟ فقال: لا عن واحدةٍ منهما، ولكنّي أكره أن أحمِل على العامّة فضلَ عقلك.

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

وقال: إنّي والله لا أدعُ حقاً لله لشكاية تظهر، ولا لضهبٍ يحتمل، ولا محاباة لَبَشر. وإنّك والله ما عاقبتَ مَنْ عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وكتب إلى سعد بن أبي وقّاص: يا سعد سعد بني أُهَيْب! إن الله إذا أحبّ عبداً حبّبه إلى خلقه، فاعتبرْ منزِلَتك من الله بمنزلتك من الناس. واعلمْ أن ما لَك عند الله مثل ما لله عندك.

وسأل رجلاً عن شيء، فقال: الله أعلم، فقال: قد شقِينا إن كنّا لا نعلم أن الله أعلم! إذا سئِل أحدُكم عمّا لا يعلم، فليقلْ: لا أدري.

وقال عبد الملك على المنبر: أنصِفونا يا معشر الرّعية، تريدون منّا سيرةَ أبي بكر وعمر، ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كلاًّ على كلّ.

ودخل عمرُ على ابنه عبد الله، فوجد عنده لحماً عَبيطاً معلّقاً، فقال: ما هذا اللحم؟ قال: اشتهيتُ فاشتريت، فقال: أوَكُلّما اشتهيتَ شيئاً أكلتَه! كفى بالمرء سَرَفاً أنْ أكلَ كلَّ ما اشتهاه.

مرّ عمر على مزبلة، فتأذّى بريحها أصحابُه، فقال: هذه دنياكم الّتي تحرِصون عليها.

ومن كلامه للأحنف: يا أحنف، مَنْ كثُر ضحِكُه قلّت هيبتُه، ومَنْ مَزَح استُخِفَّ به، ومَنْ أكثر من شيء عرِف به، ومَنْ كثر كلامه كثر سقطُه، ومَنْ كثر سقطُه قلّ حياؤه، ومن قَلّ حياؤه قلّ ورعُه، ومَنْ قلّ ورعُه مات قلبه.

وقال لابنه عبد الله: يا بني اتقِ الله يقِكِ، وأقرِض الله يجزِك، واشكره يَزِدْك. واعلم أنّه لا مال لمن لا رِفق له، ولا جديد لمن لا خلَق له، ولا عمل لمن لا نيّة له.

وخطب يوم استخلِف، فقال: أيّها الناس، إنّه ليس فيكم أحدٌ أقوى عندي من الضّعيف حتى آخذ الحقّ له، ولا أضعف من القويّ حتّى آخذ الحقّ منه.

وقال لابن عبّاس: يا عبدَ الله، أنتم أهلُ رسول الله ﷺ وبنو عمّه، فما تقول مَنع قومكم

منكم؟ قال: لا أدري علّتها، والله ما أضمرنا لهم إلا خيراً. قال: اللّهمّ غَفراً، إنّ قومَكم كرهوا أن يجتمع لكم النبوّة والخلافة، فتذهبوا في السماء شمخاً وبذَخاً، ولعلكم تقولون: إنّ أبا بكر أوّل مَنْ أخّركم، أما إنّه لم يقصد ذلك، ولكن حضر أمرٌ لم يكن بحضرته أحزم ممّا فعل، ولولا رأي أبي بكر فيّ لجعلَ لكم في الأمر نصيباً، ولو فعل ما هنّأكم مع قومكم. إنّهم ينظرون إليكم نظرَ الثّور إلى جازره.

وكان يقول: ليت شعرِي مَتى أَشْفَى من غيظي! أحين أقدر فيقال لي: لو عفوتَ، أم حين أعجّلُ فيقال: لو صبرت!

ورأى أعرابيًّا يصلّي صلاة خفيفةً، فلمّا قضاها قال: اللهمّ زوّجني الحُورَ العِين. فقال له: لقد أسأت النَّقْد، وأعظمتَ الخِطْبة!

وقيل له: كان الناس في الجاهليّة يدعُون على مَن ظَلمهم فيُستجاب لهم، ولسنا نرى ذلك الآن. قال: لأنّ ذلك كان الحاجزَ بينهم وبين الظلم، وأمّا الآن فالساعة موعدُهم والساعة أدهى وأمرّ.

ومن كلامه: مَنْ عرّض نفسه للتّهمة فلا يلومنّ مَنْ أساء به الظنّ، ومَنْ كتم سرّه كانت الخِيرَة بيده.

ضع أمرَ أخيك على أحسَنِه، حتّى يأتِيَك منه ما يغلِبك، ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وعليك بإخوان الصِّدْق وكَيّسِ أكياسهم، فإنّهم زينة في الرخاء، وعُدّة عند البلاء، ولا تتهاوننّ بالخلْق فيهينك الله، ولا تعترض بما لا يعنيك، واعتزل عدوّك، وتحفّظْ من خليلك إلا الأمين، فإنّ الأمين من الناس لا يعادله شيء، ولا تصحب الفاجرَ فيعلّمك من فجوره، ولا تُفْشِ إليه سرّك، واستشرْ في أمرك أهْل التقوى، وكفى بك عيباً أن يبدُوَ لك من أخيك ما يخفى عليك من نفسك، وأن تؤذيَ جليسك بما تأتي مثله.

وقال: ثلاث يُصْفِين لك الوُدّ في قلب أخيك: أن تبدأه بالسّلام إذا لقيتَه، وأنْ تدعُوَه بأحبّ أسمائه إليه، وأن توسّع له في المجلس.

وقال: أحبّ أن يكون الرجل في أهلِه كالصبيّ، وإذا أُصِيخ إليه كان رجلاً.

بينا عُمر ذات يوم إذ رأى شابًا يخطر بيديه، فيقول: أنا ابنُ بَطْحاء مكة كُدَيُّها وكُدَاها. فناداه عمر، فجاء فقال: إن يكن لك دِينٌ فلك كرم، وإن يكن لك عقل فلك مروءة، وإن يكن لك مال فلك شرف، وإلا فأنت والحمار سواء.

وقال: يا معشَر المهاجرين، لا تكثروا الدخولَ على أهل الدنيا وأرباب الإمرة والولاية، فإنّه مسخَطَةٌ للربّ، وإياكم والبِطْنة، فإنّها مَكْسلة عن الصلاة، ومَفْسدة للجسد، مورّثة للسَقَم، وإن الله يُبغِض الحَبْر السّمين، ولكنْ عليكم بالقصد في قوتكم، فإنّه أدنى من الإصلاح، وأبعد من السّرف، وأقوى على عبادة الله، ولن يهلِك عبد حتى يؤثر شهوتَه على دينه.

وقال: تعلّمُوا أنّ الطمع فقر، وأن اليأس غِنًى، ومن ييْس من شيء استغنَى عنه، والتُّؤَدة في كلّ شيء خير إلاّ ما كان من أمر الآخرة.

وقال: مَن اتّقى الله لم يشفِ الله غيظه، ومَنْ خاف الله لم يَفْعَلْ ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترَوْن.

وقال: إنّي لأعلم أجودَ الناس، وأحلم الناس، أجودُهم مَنْ أعطى مَنْ حَرَمَه، وأحلمُهم مَنْ عفا عمّن ظلمه.

وكتب إلى ساكني الأمصار: أمّا بعدُ، فعلّموا أولادَكم العَوْم والفروسيّة، روُّوهم ما سار من المثل وحَسُن من الشعر.

وقال: لا تزالُ العربُ أعزّة ما نَزَعَتْ في القَوس، ونزَتْ في ظهور الخيل.

وقال وهو يذكر النساء: أكثروا لهنّ من قول: «لا» فإنّ «نعم» مفسدة تغريهن على المسألة.

وقال: ما بالُ أحدكم يثني الوسادة عند امرأة مِغزبة، إنّ المرأة لحم على وَضَم إلا ما ذُبّ عنه.

وكتب إلى أبي موسى: أما بعد، فإنّ للنّاس نفرةً عن سلطانهم، فأعوذُ بالله أن يدركَني وإياك عَمْياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواء متبعة، ودنيا مؤثرة. أقم الحدود، واجلس للمظالم ولو ساعة من نهار، وإذا عرَض لك أمران: أحدُهما لله، والآخر للدنيا، فابدأ بعمل الآخرة، فإنّ الدّنيا تفنى، والآخرة تبقى. وكن من مال الله عزّ وجل على حَذَرٍ، واجْفُ الفُسّاق، واجعلهُمْ يداً ويداً، ورجلاً ورجلاً، وإذا كانت بين القبائل نائرة يا لفلان يا لفلان! فإنّما تلك نجوى الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله، وتكون دعواهم إلى الله، وإلى الإسلام. وقد بلغني أن ضبّة تدعو: يا لَضَبة! وإني والله أعلم أنّ ضبّة ما ساق الله بها خيراً قطّ، ولا منَع بها من سوء قطّ. فإذا جاءك كتابي هذا فانهكْهم ضرباً وعقوبة، حتى يفرَقُوا إن لم

يفقهوا، والصق بغيلان بن خرَشة من بينهم. وَعُدْ مرضَى المسلمين، واشهد جنائزَهم، وافتح لهم بابك، وباشر أمورهم بنفسك. فإنّما أنت رجلٌ منهم، غير أنّ الله قد جعلك أثقلَهم حملاً. وقد بلغني أنّه فشا لك ولأهل بيتك هيئةٌ في لباسك ومطعمك، ومركبك، ليس للمسلمين مثلُها، فإيّاك يا عبد الله بن قيس أن تكون بمنزلة البهيمة التي مَرّت بواد خصيب، فلم يكن لها همة إلاّ السِّمَن، وإنّما حظّها من السِّمن لغيرها. واعلم أنّ للعامل مردًّا إلى الله، فإذا زاغ العامل زاغت رعيّته، وإن أشقَى الناس مَنْ شقيَتْ به نفسه ورعيّته. والسلام[1].

وخطب عمر، فقال: أما بعد، فإنّي أوصِيكم بتقوى الله الَّذِي يبقَى ويفنى ما سواه، والّذي بطاعته ينفع أولياءه، وَبمعصيته يضرُّ أعداءه. إنّه ليس لهالك هلك عذر في تعمّد ضلالة حسبها هدى، ولا تَرْكِ حقٍّ حسبه ضلالة. قد ثبتت الحجّة، ووضحَت الطرق، وانقطع العذر، ولا حجّة لأحدٍ على الله عزّ وَجلّ. ألاَ إنّ أحقّ ما تعاهد به الراعي رعيّته أن يتعاهدهم بالّذي لله تعالى عليهم في وظائف دينهم الذي هداهم به، وإنّما علينا أنْ نأمرَكم بالّذي أمركم الله به من طاعته، ونهاكم عمّا نهاكم الله عنه من معصيته، وأن نقيم أمر الله في قريب النّاس وبعيدهم، ولا نبالي على من قال الحق، ليتعلّم الجاهل، ويتّعظ المفرط، ويقتدي المقتدي. وقد علمت أنّ أقواماً يتمنّوْن في أنفسهم، ويقولون: نحن نصلّي مع المصلّين، ونجاهد مع المجاهدين. ألاَ إنّ الإيمان ليس بالتمنّي ولكنّه بالحقائق. ألاَ مَنْ قام على الفرائض، وسدّد نيّته، واتّقى الله، فذلكم الناجي. ومَنْ زاد اجتهاداً وجد عند الله مزيداً.

وإنّما المجاهدون الذين جاهدوا أهواءهم، والجهاد اجتناب المحارم. ألاَ إنّ الأمر جِدّ، وقد يقاتل أقوام لا يريدون إلاّ الذّكْر، وقد يقاتل أقوام لا يريدون إلا الأجر، وإن الله يرضَىَ منكم باليسير، وأثابكم على اليسير الكثيرَ.

الوظائف الوظائف! أدّوها تؤدّكم إلى الجنّة. والسنّة السنّة! الزموها تُنْجكم من البدْعة.

تعلّموا ولا تَعجزوا، فإنّ مَنْ عجز تكلّف، وإن شرار الأمور محدَثاتها. وإن الاقتصاد في السنّة خيرٌ من الاجتهاد في الضلالة، فافهموا ما توعَظون به، فإنّ الحرِيبَ من حُرِب دينه، وإنّ السّعيد مَنْ وعظ بغيره.

وقال: وعليكم بالسّمْع والطاعة، فإنّ الله قضى لهما بالعزّة، وإياكم والتفرّق والمعصية، فإنّ الله قضى لهما بالذّلة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ٥/ ٦٥٦.

بعث سعد بن أبي وقاص أيام القادسيّة إلى عمر قَباء كسرى وسيفَه، ومِنْطقته، وسراويله، وتاجه، وقميصَه، وخُفّيه، فنظر عمر في وجوه القوم عنده، فكان أجسمَهم وأمدّهم قامة سُراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجيّ. فقال: يا سراق، قُمْ فالبس، قال سراقة: طمعت فيه فقمت فلبست، فقال: أدبِرْ فأدبرت، وقال: أقبِل، فأقبلت، فقال: بخٍ بخٍ! أعرابيٌّ من بني مُدْلج، عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخُفّاه! ربّ يوم يا سراقُ لو كان فيه دون هذا من متاع كسرى وآل كسرى لكان شرفاً لك ولقومك. انزِعْ! فنزعتُ، فقال: اللهمّ إنك منعت هذا نبيّك ورسولك، وكان أحبّ إليك منّي وأكرم، ومنعتَه أبا بكر وكان أحبّ إليك منّي وأكرم، ثم أعطيتنيه، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكُر بي. ثم بكى حتّى رحمه من كان عنده.

وقال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمتُ عليك لَما بعْتَه ثم قسمتَه قبل أن تُمْسِي، فما أدركه المساء إلا وقد بيع وقُسِم ثَمنه على المسلمين.

جيء بتاج كِسْرى إلى عمر، فاستعظم الناس قيمتَه، للجواهر التي كانت عليه، فقال: إنّ قوماً أدّوا هذا لأمناء! فقال عليّ عليه السلام: إنّك عَفَفْتَ فعفُّوا، ولو رتَعْتَ لرتَعُوا[1].

كان عمر يَعُسّ ليلاً، فنزلت رفقة من التجار بالمصلّى، فقال لعبد الرحمن بن عوف: هلْ لك أن تحرسهم اللّيلة من السَّرَق؟ فباتا يحرُسانهم، ويصلّيان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبيّ، فأصغى نحوه، فطال بكاؤه، فتوجه إليه، فقال لأمّه: اتقي الله وأحسِني إلى صبيّك. ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فعاد إلى أمّه، فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فأتى أمّه، فقال: ويحك! إنّي لأراك أمّ سوء! لا أرى ابنك يقرّ منذ الليلة! فقالت: يا عبد الله، لقد آذيتني منذ اللّيلة، إنّي أريغُه على الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت: لأنّ عمر لا يفرِض لرضيع، وإنما يفرِض للفَطيم، قال: وكم له؟ قالت: اثنا عشر شهراً، قال: ويحك لا تعجليه! فصلّى الفجر وما يستبين النّاس قراءته من غَلَبة البكاء عليه، فلمّا سلّم قال: يا بؤسا لعُمَرِكم! كم قتل من أولاد المسلمين، فطلب منادياً فنادى: ألا لا تُعجِلوا صبيانكم عن الرّضاع، ولا تفطموا قبل أوان الفطام، فإنّا نفرض لكلّ مولود في الإسلام.

وكتب بذلك إلى سائر الآفاق.

مرّ عمر بشابّ من الأنصار وهو ظمآن، فاستسقاه، فخاض له عسلاً، فردّه ولم يشرب

(١) انظره في «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٦٦).

وقال: إنّي سمعتُ الله سبحانه، يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[1] فقال الفتى: إنّها والله ليست لك، فاقرأ يا أمير المؤمنين ما قبلها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾، أفنحن منهم! فشرب، وقال: كلّ النّاس أفقه من عمر!

وأوصى عمر حين طعنه أبو لؤلؤة مَنْ يستخلفه المسلمون بعده من أهل الشورى، فقال: أوصيك بتقوى الله لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً، أن تعرف لهم سابقَتهم، وأوصيك بالأنصار خيراً، اقبل من محسنهم، وتجاوزْ عن مسيئهم. وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردْء العدوّ وجُباة الفيء، لا تحمل فيْئَهمْ إلى غيرهم إلاّ عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيراً، فإنّهم أصلُ العرب، ومادّة الإسلام، أنّ يؤخذ من حواشي أموالهم، فيردّ على فقرائهم، وأوصيك بأهلِ الذمّة خيراً، أن تقاتل مِن ورائهم، ولا تكلّفهم فوق طاقتهم إذا أدّوا ما عليهم للمسلمين طوعاً أو عن يدٍ وهم صاغرون.

وأوصيك بتقْوى الله، وشدّة الْحَذَر منه ومخافة مقته، أن يطّلع منك على ريبة. وأوصيك أن تخشَى الله في الناس، ولا تخشى النّاس في الله، وأوصيك بالعدْل في الرعيّة، والتفرّغ لحوائجهم وثغورهم، وألاّ تعين غنيَّهم على فقيرهم، فإنّ في ذلك بإذن الله سلامةً لقلبك، وحطًّا لذنوبك، وخيراً في عاقبة أمرك. وأوصيك أن تشتدّ في أمر الله وفي حدوده، والزّجر عن معاصيه، على قريب النّاس وبعيدهم، ولا تأخذْك الرأفة والرحمة في أحدٍ منهم، حتى تنتهك منه مثل جُرْمه، واجعل النّاس عندك سواء، لا تبالِ على مَنْ وجب الحقّ، لا تأخذك في الله لومةُ لائم. وإيّاك والأثَرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المسلمين، فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسّعه الله عليك، فإنّك في منزلة من منازل الدنيا، وأنت إلى الآخرةِ جدُّ قريب، فإن صدقت في دنياك عِفّةً وعدلاً فيما بسط لك، اقترفت رضواناً وإيماناً، وإن غَلبك الهوى، اقترفت فيه سخط الله ومقته.

وأوصيك ألا ترخّصَ لنفسك ولا لغيرك في ظلْم أهل الذمّة.

واعلم أنّي قد أوصيتُك وخصصتُك ونصحت لك، أبتغي بذلك وجهَ الله والدار الآخرة، ودللتُك على ما كنتُ دالاً عليه نفسي، فإنْ عملت بالذي وعظتك، وانتهيت إلى الّذي أمرتُك، أخذتَ منه نصيباً وافراً، وحظاً وافياً، وإن لم تقبل ذلك، ولم تعمل ولم تترك معاظم الأمور عند الّذي يرضى الله به سبحانه عنك، يكن ذاك بك انتقاصاً، ويكن رأيك فيه مدخولاً،

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

فالأهواء مشتركة، ورأس الخطيئة إبليس الداعي إلى كلّ هَلَكة، قد أضلّ القرون السالفة قبلك، وأوردهم النّار، ولبئس الثمن أن يكون حظُّ امرىء من دنياه موالاةَ عدوّ الله، الداعي إلى معاصيه! اركب الحقّ، وخض إليه الغمراتِ، وكن واعظاً لنفسك.

وأنشدك لَمَا ترحّمت إلى جماعة المسلمين، وأجْلَلْتَ كبيرهم، ورحِمت صغيرهم، وقرّبت عالمهم. لا تضربْهم فيذلُّوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتُغضِبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلّها فتُفقرَهم، ولا تجمّرهم في البعوث فتقطع نسلَهم، ولا تجعل الأموال دُولة بين الأغنياء منهم، ولا تغلِق بابَك دونَهم، فيأكل قويُّهم ضعيفَهم.

هذه وصيّتي إياك، وأشهد الله عليك. وأقرأُ عليك السلام، والله على كلّ شيء شهيد.

وخطب عمر فقال: لا يَبْلغني أنّ امرأةً تجاوز صداقها صداقَ زوْجات رسول الله ﷺ إلا ارتجعتُ ذلك منها. فقامت إليه امرأة، فقالت: والله ما جعل الله ذلك لك، إنه تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾(١). فقال عمر: ألا تَعجبُون من إمام أخطأ، وامرأة أصابت! ناضلَتْ إمامَكم فَنَضَلَتْه(٢)!

وكان يَعُسُّ ليلةً، فمرّ بدارٍ سمع فيها صوتاً، فارتاب وتسوّر، فرأى رجلاً عند امرأة وزِقّ خمر، فقال: يا عدوّ الله، أظننت أن الله يستُرك وأنت على معصيته! فقال: لا تَعْجلْ يا أمير المؤمنين، إن كنتُ أخطأتُ في واحدة فقد أخطأتَ في ثلاث: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾(٣) وقد تجسّستَ، وقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾(٤) وقد تسوّرتَ، وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾(٥) وما سلّمت. فقال: هل عندك من خير إن عفوتُ عنك؟ قال: نعم، والله لا أعود، فقال: اذهب فقد عفوت عنك.

وخطب يوماً، فقال: أيّها النّاس، ما الجزع ممّا لا بدّ منه! وما الطمع فيما لا يرجَى! وما الحيلة فيما سيزول! إنّما الشيء من أصله، وقد مضت قبلكم الأصول ونحن فروعها، فما بقاءُ الفَرْع بعد ذهاب أصله!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٠.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» عند الآية ٢٠ من سورة النساء.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٥) سورة النور، الآية: ٦١.

إنما الناس في هذه الدّنيا أغراضٌ تنتَبِل فيهم المنايا نُصُب المصائب، في كلّ جرعة شَرَق، وفي كلّ أكلةٍ غَصَص، لا تنالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبِل معمّر من عُمره يوماً إلاّ بِهدم آخر من أجله، وهم أعوان الحتُوف على أنفسهم، فأين المهرب مما هو كائن! ما أصغر المصيبة اليوم، مع عظم الفائدة غداً! وما أعظم خَيْبة الخائب، وخسران الخاسر، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1]!

وأكثر النّاس روى هذا الكلام لعليٍّ عليه السلام، وقد ذكره صاحب «نهج البلاغة» وشرحناه فيما سبق.

حُمِل من العراق إلى عمر مالٌ فخرج هو ومولى له، فنظر إلى الإبل فاستكثرها، فجعل يقول: الحمد لله، يكرّرها ويردّدها، وجعل مولاه يقول: هذا من فضل الله ورحمته. ويكررها ويرددها.

فقال عمر: كذبتَ لا أمّ لك! أظنُّك ذهبت إلى أن هذا هو ما عناه سبحانه، بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾، وإنما ذلك الهدى، أما تسمعه يقول: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]! وهذا مما يجمعون.

وروى الأحنف بن قيس، قال: قدمنا على عمر بفتح عظيم نبشره به، فقال: أين نزلتُم؟ قلنا: في مكان كذا، فقام معنا حتّى انتهينا إلى مَنَاخ ركابنا، وقد أضعَفها الكَلال، وجهَدها السير، فقال: هلاّ اتّقيتم الله في ركابكم هذه؟ أمَا علمتم أن لها عليكم حقًّا! هلاّ أرحتُمُوها؟ هلّا حللتم بها فأكلتْ من نبات الأرض! فقلنا: يا أمير المؤمنين، إنّا قَدِمنا بفتح عظيم، فأحببنا التسرّع إليك وإلى المسلمين بما يسرّهم.

فانصرف راجعاً ونحن معه، فأتى رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين إنّ فلاناً، ظلمني، فأعْدِني عليه، فرفع في السماء دِرّته، وضرب بها رأسه، وقال: تدَعُون عمر وهو معرّض لكم، حتى إذا شغل في أمر المسلمين أتيتموه: أعْدِني أعْدِني! فانصرف الرّجل يتذمّر، فقال عمر: عليّ بالرجل، فجيء به فألقى إليه المخفقة، فقال: اقتصّ، قال: بل أدعه لله ولك، قال: ليس

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٨.

كذلك، بل تدَعُه إمّا لله وإرادة ما عنده، وإما تدَعُه لي، قال: أدعُه لله، قال: انصرف. ثم جاء حتى دخل منزله، ونحن معه، فصلّى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فقال: يابن الخطاب، كنتَ وضيعاً فرفعك الله، وكنتَ ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزّك الله، ثم حملك على رقاب الناس، فجاء رجلٌ يستعديك على مَنْ ظلمه، فضربتَه، ماذا تقول لربّك غداً! فجعل يعاتبُ نفسه معاتبةً ظننت أنه من خير أهل الأرض.

وذكر أبو عبيد القاسم بن سلاّم في «غريب الحديث» أن رجلاً أتى عمر يسأله، ويشكو إليه الفقر، فقال: هلكتُ يا أمير المؤمنين، فقال: أهلكتَ وأنت تَنِثُّ[1] نَثِيث الحمِيت[2]! أعطوه. فأعطوه رُبَعة من مال الصدّقة، تبَعها ظئراها. ثم أنشأ يحدّث عن نفسه، فقال: لقد رأيتُني وأختاً لي نرعَى على أبوَيْنا ناضحاً لنا، قد ألبستنا أمّنا نُقْبتَها، وزوّدتنا يَمْنَتَيْهَا هَبيداً فنخرج بناضحنا، فإذا طلعت الشمس، ألقيت النقبة إلى أختي، وخرجت أسعى عُريانَ، فنرجع إلى أمّنا، وقد جعلت لنا لَفِيتة من ذلك الهبيد، فياخِصْباه!

وروى ابنُ عباس رضي الله عنه، قال: دخلتُ على عُمَر في أوّل خلافته، وقد ألقِيَ له صاعٌ من تمر على خَصَفة، فدعاني إلى الأكل، فأكلت تمرة واحدة، وأقبل يأكل حتّى أتى عليه، ثم شرب من جَرٍّ كان عنده، واستلقى على مِرْفقةٍ له، وطفق يَحْمَدُ الله يكرر ذلك، ثم قال: من أين جئتَ يا عبد الله؟ قلتُ: من المسجد، قال: كيف خلّفت ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر، قلت: خلّفتُه يلعب مع أترابه، قال: لم أعْنِ ذلك، إنّما عنيتُ عظيمكم أهلَ البيت، قلت: خلّفته يمتح بالغَرْب على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال: يا عبد الله، عليك دماء البُدْن إن كتمتنيها! هل بقيَ في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله ﷺ نصّ عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك، سألت أبي عمّا يدّعيه، فقال: صدَق، فقال عمر: لقد كان من رسول الله ﷺ في أمره ذَرْوٌ من قول لا يُثبتُ حُجّة، ولا يقطع عذراً، ولقد كان يربَع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك إشفاقاً وحيْطة على الإسلام، لا وربّ هذه البنيّة لا تجتمع عليه قريش أبداً! ولو وليها لانتقضتْ عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله ﷺ أنّي علمت ما في نفسه، فأمسك، وأبى الله إلاّ إمضاء ما حتم.

---

(١) نَثَّ: عرق من سِمَنِه، ونَثَّ الزِّقُّ: إذا رشح بما فيه من السمن. لسان العرب، مادة (نثث).

(٢) الحميت: وعاء السمن، وقيل: الزّق المُشْعَر الذي يجعل فيه السمن والعسل والزيت، وقيل: الزّقُّ الذي لا شعر عليه، وهو للسمن. لسان العرب، مادة (حمت).

ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد في كتابه، مسنداً[1].

ابتنى أبو سفيان داراً بمكة فأتى أهلُها عمر، فقالوا: إنه قد ضيّق علينا الوادي، وأسالَ علينا الماء، فأتاه عمر فقال: خذْ هذا الحجر فضعه هناك، وارفع هذا واخفض هذا، ففعل، فقال: الحمدُ لله الّذِي أذلّ أبا سفيان بأبْطح مكة.

وقال عمر: والله لقد لان قلبي في الله حتى لَهُوَ ألين من الزّبد، ولقد اشتدّ قلبي في الله حتى لهوَ أشدّ من الحجَر.

كان عمر إذا أتاه الخصمان بَرَك على ركبتيه وقال: اللهمّ أعنّي عليهما. فإنّ كلاً منهما يريدني عن ديني.

وخطب عمر، فقال: أيّها الناس، إنما كنا نعرفكم والنبيّ صلى الله عليه وآله بين أظهرِنا، إذ ينزلُ الوحي، وإذ ينبّئنا الله من أخباركم، ألاَ وإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد انطلَق، والوحي قد انقطع، وإنما نعرِفكم بما يبدُو منكم. مَنْ أظهر خيراً ظننّا به خيراً، وأحببناه عليه، ومن أظهر شرًّا ظننّا به شرًّا، وأبغضناه عليه. سرائركم بينكم وبين ربكم. ألا إنّه قد أتى عليّ حينٌ، وأنا أحسب أنه لا يقرأ القرآن أحدٌ إلا يريدُ به وجه الله وما عند الله، وقد خُيّل إليّ بأخَرة، أنّ رجالاً قد قرؤوه يريدون به ما عند الناس، فأريدُوا الله بقراءتكم، وأريدوا الله بأعمالكم.

ألا وإنّي لا أرسلُ عُمّالي إليكم أيها الناس ليضربُوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالَكم، ولكن أُرسِلُهم إليكم ليعلّموكم دينَكم وسنّتكم، فمن فُعِل به سوى ذلك فليرفَعه إليّ لأقتصّ له، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقتصّ من نفسه.

ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تمنعوهم حقوقَهم فتفقروهم، ولا تُنزلوهم الغِياضَ فتضّيعوهم.

وقال مرّة: قد أعياني أهلُ الكوفة، إن استعملت عليهم ليّناً استضعفوه، وإن استعملتُ عليهم شديداً شكوْه! ولوددت أنّي وجدْتُ رجلاً قوياً أميناً أستعمله عليهم. فقال له رجل: أنا أدلّك يا أميرَ المؤمنين على الرّجل القويّ الأمين، قال: مَنْ هو؟ قال: عبد الله بن عمر، قال: قاتلك الله! والله ما أردتَ الله بها، لاها الله! لا أستعمله عليها ولا على غيرها، وأنت فقم فاخرج، فمذ الآن لا أسمّيك إلا المنافق. فقام الرجل وخرج.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٠/ ٥٥٥.

وكتب إلى سعد بن أبي وقّاص أن شاور طُليحة بن خويلد وعمرو بن معد يكرب فإنّ كلّ صانع أعلم بصنعته، ولا تولّهما من أمر المسلمين شيئاً.

وغضب عمر على بعض عمّاله، فكلّم امرأة من نساء عمر في أن تسترضيَه له، فكلمته فيه، فغضب، وقال: وفيمَ أنت من هذا يا عدوة الله؟ إنما أنتِ لعبة نلعب بك وتُفرَّكِين.

ومن كلامه: أشكو إلى الله جَلَد الخائن، وعجزَ الثقة.

قال عمر بن ميمون: لقد رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يُصاب بأيّام واقفاً على حُذيفة بن اليمان، وعثمان بن حُنيف، وهو يقول لهما: أتخافان أن تكونا حمّلتما الأرض ما لا تطيقه؟ فقالا: لا، إنّما حمّلناها أمراً هي له مُطِيقة، فأعاد عليهما القول: انظرا أن تكونا حمّلتما الأرض ما لا تطيقه! فقالا: لا، فقال عمر: إن عشتُ لأدعَنّ أرامل العراق لا يحتجْن بعدي إلى رجل أبداً، فما أتت عليه رابعة حتى أصيب.

كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً، وأشهد عليه رهطاً من المسلمين ألا يركب بِرْذُوناً، ولا يأكل نِقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين، ثم يقول: اللهمّ اشهد.

واستعمل عمر النعمانَ بن عديّ بن نضلة على مَيْسان، فبلغه عنه الشعر الذي قاله، وهو:

وَمَنْ مبلغ الحسناء أن حَليلَها ... بمَيسانَ يُسْقَى من زُجاج وحَنْتَمِ[1]!
إذا شئتُ غنّتني دَهاقينُ[2] قريةٍ ... وصنّاجةٌ[3] تحدُو على كلّ منسِمِ
فإن كنتَ نَدْماني فبالأكبر اسْقِنِي ... ولا تسقني بالأصغر المتثلّمِ
لعلّ أميرَ المؤمنين يسوءهُ ... تنادُمنا بالجَوْسق[4] المتهدّمِ

---

(١) الحنتم: جِرار خضر تَضرب إلى الحمرة. لسان العرب، مادة (حنتم).
(٢) دهاقين: جمع، مفردها: دِهقان ومعناه: القويُّ على التصرف مع حدة، والتاجر وزعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم. وهو فارسي معرب. القاموس المحيط، مادة (دهقن).
(٣) الصَّنْج: شيء يتخذ من صفر يضرب أحدهما على الآخر، وآلة بأوتار يضرب بها، وامرأة صنّاجة: ذات صنج. لسان العرب، مادة (صنج).
(٤) الجَوْسق: الحِصن، وقيل: هو شبيه بالحِصن، وهو القصر أيضاً، لسان العرب، مادة (جسق).

فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾[1] أما بعد، فقد بلغني قولك:

لَعلّ أميرَ المؤمنين يسوءه

وايمُ الله إنه ليسوءني، فاقدَم فقد عزلتُك.

فلما قدم عليه، قال: يا أميرَ المؤمنين، والله ما شربتُها قط، وإنّما هو شعر طَفَح على لساني وإني لشاعر.

فقال عمر: أظنّ ذاك، ولكن لا تعمل لي على عمل أبداً.

استعمل عمر رجلاً من قريش على عملٍ، فبلغه عنه أنّه قال:

اسقِنِي شَرْبةً تُروِّي عِظَامي ... واسقِ بالله مثلَها ابنَ هشامِ

فأشخصه إليه، وفطِن القرشيّ، فضم إليه بيتاً آخر، فلما مثل بين يديه، قال له أنت القائل:

اسقِنِي شَرْبةً تروّي عظامي

قال: نعم يا أمير المؤمنين، فهلاّ أبلغك الواشي ما بعده؟ قال: ما الذي بعده؟ قال:

عسلاً بارداً بماءِ غمامِ ... إنني لا أحبُّ شُرْبَ المُدامِ

قال: آلله آلله! ثم قال: ارجع إلى عملك.

قال عمر: أيّما عامل من عُمّالي ظلم أحداً، ثم بلغتني مظلمته، فلم أغيّرها، فأنا الذي ظلمتُه.

وقال للأحنف بن قيس، وقد قدم عليه فاحتبسه عنده حَوْلاً: يا أحنف، إنّي قد خبرتُك وبلوتُك، فرأيت علانيتَك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثلَ علانيتك، وإن كنّا لنحدّث أنّه إنما يُهلك هذه الأمّة كلّ منافق عليم.

وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: إن «مترس»[2] بالفارسية هو الأمان، فمن قلتم له ذلك ممن لا يفقُه لسانكم فقد أمّنتموه.

وقال لأمير من أمراء الشام: كيف سيرتُك؟ كيف تصنع في القرآن والأحكام؟ فأخبره،

---

(١) سورة غافر، الآيات: ١، ٣.

(٢) مترس: أي لا تخف، وهو ليس بعربي. لسان العرب، مادة (ترس).

فقال: أحسنتَ، اذهب، فقد أقررتك على عَمَلِك. فلما ولّى رجع فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت البارحة رؤيا أقصّها عليك، رأيت الشمس والقمر يقتتلان، ومع كلّ واحد منهما جنود من الكواكب، فقال: فمع أيّهما كنت؟ قال: مع القمر، فقال: قد عزلتُك، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾(١).

كان عمر جالساً في المسجد، فمرّ به رجل، فقال: ويل لك يا عمر من النار! فقال: قرّبوه إليّ، فدنا منه، فقال: لم قلت لي ما قلت؟ قال: تستعمل عمالك، وتشترط عليهم ثم لا تنظر هل وَفَّوْا لك بشروطِ أم لا؟ قال: وما ذاك؟ قال: عاملك على مصر اشترطت عليه، فترك ما أمرته به، وارتكب ما نهيتَه عنه، ثم شرح له كثيراً من أمره. فأرسل عمر رجلين من الأنصار، فقال لهما: انتهيا إليه، فاسألا عنه، فإن كان كَذَبَ عليه فأعلِماني، وإن رأيتما ما يسوءكما فلا تملّكاه من أمره شيئاً حتى تأتيا به، فذهبا فسألا عنه فوجداه قد صدق عليه، فجاءا إلى بابه، فاستأذنا عليه، فقال حاجبه: إنه ليس عليه اليوم إذن، قالا: ليخرجَنّ إلينا أو لنحرقنّ عليه بابه. وجاء أحدُهما بشعلة من نار، فدخل الآذن، فأخبره فخرج إليهما، قالا: إنّا رسولا عمر إليك لتأتيه، قال: إنّ لنا حاجةً، تمهلانني لأتزوّد، قالا: إنّه عزم علينا ألا نمهلك، فاحتملاه، فأتيا به عمر، فلمّا أتاه سلّم عليه فلم يعرفه، وقال: مَنْ أنت؟ - وكان رجلاً أسمر، فلما أصاب من ريف مصر ابيضّ وسمن - فقال: أنا عاملك على مصر، أنا فلان، قال: ويحك! ركبت ما نُهِيتَ عنه، وتركت ما أُمِرتَ به! والله لأعاقبنّك عقوبةً أبلغ إليك فيها، آتوني بكساء من صوف، وعصا وثلاثمائة شاة من غنم الصدقة، فقال: البَسْ هذه الدُّرّاعة، فقد رأيت أباك وهذه خير من دراعته، وخذ هذه العصا فهي خير من عصا أبيك، واذهب بهذه الشياه فارعها في مكان كذا - وذلك في يوم صائف - ولا تمنع السابلة من ألبانها شيئاً إلا آل عمر، فإني لا أعلم أحداً من آل عمر أصاب من ألبان غنم الصدقة ولحومها شيئاً.

فلمّا ذهب ردّه، وقال: أفهمت ما قلت! فضرب بنفسه الأرض، وقال يا أمير المؤمنين، لا أستطيع هذا، فإن شئت فاضربْ عنقي، قال: فإن رددتُك فأيّ رجل تكون؟ قال: والله لا يبلغُك بعدها إلاّ ما تحبّ. فردّه، فكان نعم الرجل. وقال عمر: والله لا أنزعنّ فلاناً من القضاء حتى أستعمل عِوَضه رجلاً إذا رآه الفاجرُ فَرِق.

وروى عبد الله بن بريدة، قال: بينا عمر يعُسّ ذَات ليلة انتهى إلى باب متجافٍ، وامرأةٌ تغني نسوة:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى خَمْرٍ فَأشْرَبَها ... أمْ هَل سَبِيلٌ إلى نَصْرِ بن حَجّاجِ

فقال عمر: أمّا ما عشت فلا.

فلمّا أصبح دعا نصر بن حجاج - وهو نصر بن الحجاج بن عُلابط البهزيّ السُّلَميّ - فأبصره وهو من أحسن الناس وجهاً، وأصبحهم وأملحهم حسناً، فأمر أن يُطمَّ شعره، فخرجت جبهته فازداد حسناً، فقال له عمر: اذهب فاعتمّ، فاعتمّ فبدت وفْرَته، فأمر بحلْقها فازداد حسناً، فقال له: فتنت نساءَ المدينة يابن حجّاج! لا تجاورْني في بلدة أنا مقيمٌ بها، ثم سيّره إلى البصرة.

فروى الأصمعيّ، قال: أبرَد عمر بريداً إلى عُتْبة بن أبي سفيان بالبصرة، فأقام بها أيّاماً، ثم نادى منادي عتبة: مَنْ أراد أن يكتُب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً، فليكتب، فإنّ بريد المسلمين خارجٌ.

فكتب النّاس، ودسّ نصر بن حجاج كتاباً فيه:

لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نَصْر بن حجّاج، سلام عليك، أمّا بعد، يا أمير المؤمنين:

لَعَمْري لئن سيَّرتَني أو حرمْتَني ... لَما نلتَ مِنْ عِرْضِي عليك حَرامُ

أئِنْ غنَّتِ الذَّلفاء[1] يوماً بمنْيَةٍ ... وبعضُ أمانيِّ النّساءِ غرَامُ

ظننتَ بي الظَّن الّذي ليس بعده ... بقاءٌ فما لي في النَّدِيِّ كلامُ

وأصبحتُ منفيًّا على غير ريبةٍ ... وقَدْ كانَ لي بالمكّتَيْنِ مُقامُ

سيمنعني ممّا تظنُّ تكرُّمي ... وآباء صدقٍ سالفُون كرامُ

ويمنعها ممَّا تمنَّتْ صَلاَتُهَا ... وحالٌ لها في دينها وصِيَامُ

فهاتانَ حالاَنَا فهل أنت راجعٌ ... فقد جُبَّ مِنّي كاهِلٌ وَسَنامُ

فقال عمر: أمّا ولي ولاية فلا. وأقطعه أرضاً بالبصرة وداراً.

فلما قتِل عمر ركب راحلته ولحق بالمدينة.

وذكر المبرّد محمد بن يَزِيد الثُّمالِيّ، قال: كان عمر أصلع، فلمّا حلَق وفرةَ نصر بن حجّاج، قال نصر، وكان شاعراً:

تَضِنّ ابنَ خَطّابٍ عليّ بُجمّةٍ ... إذا رُجِّلَتْ تَهتزُّ هزَّ السَّلاَسِلِ

فصَلَّع رأساً لم يصلِّعه ربُّهُ ... يرفّ رفيفاً بعد أسود جائلِ

لقد حَسَد الفُرْعَان أصلعُ لم يكنْ ... إذا ما مَشَى بالفرع بالمتخايِلِ

محمد بن سعيد، قال: بينا يطوف في بعض سِكَك المدينة، إذ سمع امرأة تهتف من خِدْرها:

---

(١) الذلفاء: هي المرأة التي قصر أنفها وصغر. لسان العرب، مادة (دلف).

هَلْ من سبيل إلى خمرٍ فأشربها ... أمْ هَلْ سبيلٌ إلى نَصْر بن حَجّاج
إلى فتًى ماجد الأعراق مقتبلٍ ... سهل المحيّا كريمٍ غير مِلْجَاج
تنميه أعراقُ صدق حين تنسبه ... أخي قداحٍ عن المكروب فرّاجِ
سامِي النَّوَاظرِ من بَهْز له قَدَمٌ ... تضيء صورته في الحالك الدّاجِي

فقال عمر: الا لا أرى معي رجلاً يهتف به العواتق في خدورهنّ! عليّ بنصر بن حجاج، فأُتي به، فإذا هو أحسنُ الناس وجهاً وعيناً وشعراً، فأمر بشعره فجزّ، فخرجت له وَجْنتان كأنه قمر، فأمره أن يعتمّ فاعتمّ، ففتن النساء بعينيه، فقال عمر: لا والله لا تساكنّني بأرض أنا بها، قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: هو ما أقول لك، فسيّره إلى البصرة.

وخافت المرأة التي سمع عمر منها ما سمع أن يبدر إليها منه شيء، فدست إليه أبياتاً:

قل للأمير الّذي تُخْشَى بوادرُه ... ما لي وللخمْرِ أو نصر بن حَجّاج
إني بُليتُ أبا حفص بغيرِهما ... شربِ الحليبِ وطرفٍ فاترٍ ساج
لا تجعل الظنّ حقًّا أو تبيِّنَه ... إنّ السبيل سبيلُ الخائف الراجي
ما مُنْيَةٌ قلتُها عرضاً بضائرةٍ ... والنّاس من هالكٍ قِدْماً ومن ناج
إنّ الهوى رِغْيَةُ التّقوى تقيّدُه ... حَتَّى أقرّ بإلجامٍ وإسراجِ

فبكى عمر، وقال: الحمدُ لله الذي قيّد الهوى بالتقوى.

وأتته يوماً أمّ نصر حين اشتدّت عليها غيبة ابنها، فتعرّضت لعمر بين الأذان والإقامة، فقعدتْ له على الطّريق، فلما خرج يريد الصلاة هتفتْ به، وقالت: يا أمير المؤمنين لأجاثينّك غداً بين يديِ الله عز وجل، ولأخاصمنّك إليه، يبيتُ عاصم وعبد الله إلى جانبيك وبيني وبين ابني الفَيافي والقفار، والمفاوز والجبال! قال: مَنْ هذه؟ قيل: أمّ نصر بن حِجّاج، فقال: يا أمّ نصر، إن عاصماً وعبد الله لم تهتِفْ بهما العواتق من وراء الخدور.

ويروى أنّ نصر بن الحجاج لما سيّره عمر إلى البصرة نزل بها على مُجاشع بن مسعود السُّلَميّ، وكان خليفة أبي موسى عليها، وكانت له امرأة شابّة جميلة فهوِيتْ نصراً، وهويَها فبينا الشيخ جالس ونصر عنده إذ كتب في الأرض شيئاً، فقرأته المرأة، فقالت: «أنا والله»، فقال مجاشع: ما قال لك؟ قالت: إنه قال: ما أصفَى لَقْحتكم هذه؟ فقال مجاشع: إنّ الكلمة التي قلتِ ليست أختاً لهذا الكلام، عزمت عليك لَمَا أخبرتني! قالت: إنه قال: ما أحسن سوار ابنتكم هذه؟ قال: ولا هذه، فإنه كتب في الأرض، فرأى الخط فدعا بإناء فوضعه عليه، ثم أحضر غلاماً من غلمانه، فقال: اقرأ فقرأه وإذا هو: أنا والله أحبّك، فقال: هذه لهذه، اعتدّي أيتها المرأة، وتزوّجها يابن أخي إن أردت.

ثم غدا على أبي موسى، فأخبره، فقال أبو موسى: أقسم ما أخرجه عمر عن المدينة من خير، ثم طرده إلى فارس وعليها عثمان بن أبي العاص الثقفيّ، فنزل على دهقانة[١]، فأعجبها فأرسلت إليه، فبلغ خبرها عثمان، فبعث إليه أن اخرج عن أرض فارس، فإنك لم تخرج عن المدينة والبصرة من خير، فقال: والله لئن أخرجتموني لألحقنّ ببلاد الشرك، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب أن جزُّوا شعرَه وشمِّروا قيمصه، وألزموه المساجد.

وروى عبد الله بن بُريدة أنّ عمر خرج ليلاً يعسُّ، فإذا نسوة يتحدّثن وإذا هنّ يقلن: أيّ فتيان المدينة أصبح؟ فقالتِ امرأة منهنّ: أبو ذؤيب والله. فلما أصبح عمر سأل عنه، فإذا هو من بني سُليم، وإذا هو ابن عمّ نصر بن حَجّاج، فأرسل إليه، فحضر، فإذا هو أجملُ الناس وأملحُهم، فلمّا نظر إليه قال: أنتَ والله ذئبها! يكرّرها ويردّدها، لا والذي نفسي بيده لا تجامعْني بأرض أبداً.

فقال: يا أميرَ المؤمنين إن كنت لا بدّ مسيّري فسيّرني حيث سيّرت ابن عمّي نصر بن حجاج، فأمر بتسييره إلى البصرة، فأشخص إليها.

خطب عمر في الليلة التي دُفن فيها أبو بكر، فقال: إن الله تعالى نهج سبيله، وكفانا برسوله، فلم يبْقَ إلاّ الدعاء والاقتداء. الحمد لله الذي ابتلاني بكم وابتلاكم بي، وأبقاني فيكم بعد صاحبي، وأعوذ بالله أنْ أزلّ أو أضلّع فأعادي له وليًّا، أو أوالي له عدواً. ألا إنّي وصاحبي كنفرٍ ثلاثة قفلُوا من طيبة، فأخذ أحدهم مهلة إلى داره وقراره فسلك أرضاً مضيئة متشابهة الأعلام، فلم يزلّ عن الطريق، ولم يحرَم السبيل، حتى أسلمه إلى أهله، ثم تلاه الآخر فسلك سبيله، واتّبع أثره، فأفضى إليه ولقيَ صاحبه، ثم تلاهما الثالث، فإن سلك سبيلهما واتبع أثرهما أفضى إليهما ولاقاهما، وإن زلّ يميناً أو شمالاً لم يجامعْهما أبداً.

ألا وإنّ العرب جَمَل أنِفٌ قد أُعطيتُ خِطامه، ألا وإني حاملُه على المحجّة ومستعين بالله عليه.

إلا وإنّي داع فأمّنوا، اللهمّ إنّي شحيح فسخّني. اللهمّ إني غليظٌ فليّنّي. اللهمّ إني ضعيف فقوّني. اللهمّ أوجب لي بموالاتك وموالاة أوليائك ولايتك ومعونتك، وأبرئْني من الآفات بمعاداة أعدائك، وتوفّني مع الأبرار، ولا تحشرني في زمرة الأشقياء. اللهمّ لا تُكثِرْ لي من الدنيا فأطغَى، ولا تقلّل لي فأشقَى، فإن ما قلّ وكفى خير مما كثُر وَألْهى.

---

(١) الدهقانة: التاجرة، فارسي معرب. لسان العرب، مادة (دهقن).

وفد على عمر قوم من أهل العراق، منهم جرير بن عبد الله، فأتاهم بجَفْنة قد صُبِغت بخلّ وزيت، وقال: خذوا، فأخذوا أخذاً ضفيفاً، فقال: ما بالكم تقرمون قَرْم الشاة الكسيرة! أظنكم تريدنَ حُلواً وحامضاً، وحارًّا وبارداً، ثم قذفاً في البطون، لو شئتُ أن أدهمق لكم لفعلتُ، ولكنا نستبقي من دُنيَانا ما نجده في آخرتنا، ولو شئنا أن نأمر بصغار الضّأن فتسمط، ولبّات الخبز فيخبَز، ونأمر بالزبيب فينْبذ لنا في الأسعان حتى إذا صار مثل عين اليعقوب، أكلنا هذا وشربنا هذا لفعلت! والله إنّي ما أعجز عن كراكر وأسنمة وصلائق وصنّاب، لكن الله تعالى قال لقوم عيّرهم أمراً فعلوه ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[1]. وإني نظرتُ في هذا الأمر، فجعلت إن أردتُ الدنيا أضررت بالآخرة، وإن أردتُ الآخرة أضررتُ بالدنيا، وإذا كان الأمر هكذا، فأضرُّوا بالفانية.

خرج عمرُ يوماً إلى المسجد، وعليه قميص في ظهره أربع رقاع، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[2]، فقال: ما الأبُّ؟ ثم قال: إنّ هذا لهو التكلّف! وما عليك يابن الخطّاب ألاّ تدري ما الأبّ!

وجاء قوم من الصحابة إلى حفصة فقالوا: لو كلّمتِ أباك في أن يليِّن من عيشه، لعلّه أقوى له على النَّظرِ في أمور المسلمين! فجاءته فقالت: إنّ ناساً من قومكَ كلّمُوني في أنْ أكلّمك في أن تليِّن من عيشك. فقال: يا بنيّة، غششتِ أباك، ونصحتِ لقومك.

وروى سالم بن عبد الله بن عمر، قال: لمّا وُلّيَ عمر قعد علىَ رِزْق أبي بكر الّذِي كان فرضه لنفسه، فاشتدّت حاجته، فاجتمع نفرٌ من المهاجرين، منهم علي وعثمان وطلحة والزبير، وقالوا: لو قلنا لعُمَر يزيد في رزقه! فقال عثمان: إنّه عمر، فهلمّوا فلْنستبِنْ ما عنده من وراء وراء، نأتي حفصة فنكلّمها ونستكتِمُها أسماءنا. فدخلُوا عليها، وسألوها أن تكلّمَه ولا تخبره بأسماء مَنْ أتاها إلا أن يقبل. فلقيتْ عمر في ذلك، فرأت الغضبَ في وجهه، وقال: مَنْ أتاكِ؟ قالت: لا سبيلَ إلى ذلك، فقال: لو علمتُ مَنْ هم لسوّت أوجههم، أنت بيني وبينهم! نشدتكِ الله ما أفضلُ ما اقتنى رسول الله ﷺ في بيتِك من الملبس؟ قالت: ثوبان ممشّقان، كان يلبسهما للوفد، ويخطب فيهما في الجُمَع، قال: فأيّ طعامٍ ناله عندك أرفع؟ قالت: خبَزْنا مرة

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة عبس، الآية: ٣١.

خَبْزة شعير، فصببت عليها - وهي حارّة أسفلها - عُكّة[١] لنا كان فيها سَمْن وعسل، فجعلتها هشّة حُلْوة دسِمة، فأكل منها فاستطابها، قال: فأيّ مبسط كان يبسط عندك أوطأ؟ قالت: كساءٍ ثخين كنا نرقعه في الصيف فنجعله ثخيناً، فإذا كان الشتاء بطنا نصفه، وتدثرنا بنصفِه، قال: فأبلغيهم أنّ رسول الله ﷺ قدّر فوضع الفُضُول مواضعَها، وتبلّغ ما أبرّ، وإنّي قدرت فوالله لأضعنَّ الفضولَ مواضعها، ولأتبلّغن ما أبرُّ حبّة[٢].

وفد على عمر وَفْدٌ فيه رجال الناس من الآفاق، فوضع لهم بسطاً من عَباء، وقدّم إليهم طعاماً غليظاً، فقالت له ابنتُه حفصة أمّ المؤمنين: إنّهم وجوهُ النّاس وكرام العرب، فأحسِنْ كرامتهم. فقال: يا حفصة، أخبريني بألْيَنِ فراش فرشتِه لرسول الله ﷺ، وأطيبِ طعام أكلَه عندك؟ قالت: أصبنا كساء ملبَّداً عام خَيْبر، فكنت أفرشه له فينام عليه، وإنّي رفعته ليلة، فلمّا أصبح قال: ما كان فراشِي الليلة؟ قلت: فراشك كلّ ليلة، إلاّ أنّي الليلة رفعته لك ليكون أوطأ، فقال: أعيدِيه لحالته الأولى، فإن وطاءته منعتْني اللّيلة من الصلاة.

وكان لنا صاع من دقيق سُلْتٍ[٣]، فنخلته يوماً وطبخته له، وكان لنا قعب من سمن فصببتُه عليه، فبينا هو عليه السلام يأكلُ إذ دخل أبو الدّرداء، فقال: أرى سمْنَكم قليلاً، وإنّ لنا لَقَعْباً من سمن، قال عليه السلام: فأرسِلْ فأت به، فجاء به فصبّه عليه فأكل، فهذا أطيبُ طعام أكله عندِي رسولُ الله ﷺ.

فأرسل عمر عينيه بالبكاء، وقال لها: والله لا أزيدُهم على ذلك العَباء وذلك الطعام شيئاً وهذا فراش رسول الله ﷺ، وهذا طعامُه.

لما قدِم عُتْبة بن مرثد أذْرَبيجان أُتِيَ بالخَبِيص، فلمّا أكله وجد شيئاً حلواً طيّباً، فقال: لو صنعتُ من هذا لأمير المؤمنين! فجعل له خبيصاً في منقلين عظيمين، وحملهما على بعيرَيْن إلى المدينة، فقال عمر: ما هذا؟ قالوا الخَبيص[٤]، فذاقه فوجده حُلْواً، فقال للرسول: ويحك! أكلّ المسلمين عندكم يشبع من هذا؟ قال: لا، قال: فارددهما. ثم كتب إلى عُتْبة: أمّا بعدُ،

---

(١) العُكَّة: آنية السمن أصغر من القِربة والجمع عُكَك وعِكَاك. القاموس المحيط، مادة (عكك).
(٢) ذكره الطبري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٤٥٤).
(٣) السُّلْتُ: الشعير، أو ضرب منه، أو الحامض منه. القاموس المحيط، مادة (سلت).
(٤) الخَبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن. القاموس المحيط، مادة (خبص).

فإن خَبِيصَك الذي بعثته ليس من كَدّ أبيك ولا من كَدّ أمّك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في رَحْلك ولا تستأثر، فإنّ الأثَرة شرّ والسلام.

وروى عُتْبة بن مَرْثَد أيضاً، قال: قدمتُ على عمر بحَلْواء من بلاد فارس، في سِلالٍ عظام، فقال: ما هذه؟ قلت: طعام طيّب، أتيتك به، قال: ويْحك! ولِمَ خصصتَني به؟ قلت: أنت رجلٌ تقضي حاجاتِ النّاس أوّلَ النهار، فأحببت إذا رجعت إلى منزلك أن ترجع إلى طعامٍ طيّب، فَتصيبَ منه فتقوَى على القيام بأمرك. فكشف عن سَلّةٍ منها فذاق فاستطاب، فقال: عزمتُ عليكَ يا عُتْبة إذا رجعت إلا رزقت كلّ رجل من المسلمين مثله! قلت: والّذي يصلحك يا أمير المؤمنين لو أنفقت عليه أموال قيس كلّها لما وسع ذلك، قال: فلا حاجة لي فيه إذاً. ثم دعا بقَصْعةٍ من ثريد، ولحم غليظ، وخبز خَشِن، فقال: كلْ، ثم جعل يأكل أكلاً شهيًّا، وجعلت أهوي إلى البَضْعة البيضاء أحسبها سناماً، وإذا هي عَصَبة، وأهوي إلى البَضْعة من اللحم أمضُغها، فلا أسيغُها، وإذا هي من عِلْبَاء العنق، فإذا غفل عنّي جعلتُها بين الخِوان والقَصْعة، فدعا بعُسٍّ من نبيذ كاد يكون خَلاً، فقال: اشْرَب، فلم أستِطعْه ولم أسِغْه أن أشرب، فشرب، ثم نظر إليّ وقال: ويْحك! إنه ليس بدَرْمك العراق وَوَدَكه، ولكن ما تأكله أنت وأصحابك.

ثم قال: اسمع إنّا ننحر كلّ يوم جَزوراً، فأما أوراكُها وَوَدكُها وأطايبها فلِمنْ حضرنا من المهاجرين والأنصار، وأما عُنُقها فلآل عمر، وأمّا عظامها وأضلاعها فلفقراء المدينة، نأكل من هذا اللحم الغثّ، ونشرب من هذا النبيذ الخاثر، وندع ليِّن الطعام ليوم تذهَلُ كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعتْ، وتضع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملها.

حضر عند عمر قومٌ من الصحابة، فأثنوا عليه، وقالوا: والله ما رأينا يا أميرَ المؤمنين رجلاً أقضى منك بالقِسْط، ولا أقوَلَ بالحقّ، ولا أشدّ على المنافقين منك! إنّك لخيرُ الناس بعد رسول الله ﷺ.

فقال عوف بن مالك: كذبتمْ والله، أبو بكر بعد رسول الله، خيرُ أمته رأينا أبا بكر.

فقال عمر: صدق عوف والله وكذبتم! لقد كان أبو بكر والله أطيَبَ من ريح المِسْك، وأنا أضلّ من بعير أهلي.

لما أتى عمرَ الخبرُ بنزول رستَم القادسية، كان يخرج فيستخبر الركبان كلّ يوم عن أهل القادسيّة من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله، فلمّا جاء البشيرُ بالفتح، لقيَه كما يلقى الركبان من قبل، فسأله فأخبره، فجعل يقول: يا عبد الله، إيه! حدّثني! فيقول له:

هزم الله العدوّ، وعمر يحثّ معه، ويسأله وهو راجل، والبشيرُ يسير على ناقته ولا يعرفه، فلمّا دخل المدينَة إذا الناس يسلّمون عليه باسمه بإمْرَة المؤمنين ويهنئونه، فنزل الرجل، وقال: هلاّ أخبرتني يا أمير المؤمنين رحمك الله! وجعل عمر يقول: لا عليك يابنَ أخي، لا عليك يابن أخي!

وروى أبو العالية الشاميُّ، قال: قدم عمر الجابيّة، على جمل أوْرَق، تلوحُ صلعته، ليس عليه قلنسوة، تصل رجلاه بين شعبتيْ رحله، بغير ركاب، وطاؤه كِساء أنبجانيّ[1] كثير الصوف، وهو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل وحقيبته نمرة محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميصٌ من كَرَابيس[2] قد دسم وتخرّق جيبه، فقال: ادعوا إليّ رأسَ القرية. فدعوْه له، فقال: اغسلوا قميصي هذا وخيّطوه، وأعيروني قميصاً ريثما يجفّ قميصي، فأتوْه بقميص كتّان، فعجب منه، فقال، ما هذا؟ قالوا: كتّان. قال وما الكتّان؟ فأخبروه، فلبسه ثم غسل قميصَه، وأتِيَ به فنزعَ قميصهم ولبس قميصه، فقال له رأس القرية: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا يصلح بها ركوب الإبل، فأتِيَ ببرذَوْن، فطرحت عليه قطيفة بغير سرْج فركبه، فهمْلَج، تحته، فقال للناس: احبسوا، فحبسوه، فقال: ما كنت أظنّ الناس يركبون الشيطان قبل هذا! قدّموا لي جملي. فجيء به فنزل عن البِرْذَوْن وركبه.

قدم عمرُ الشّام، فلقيَه أمراء الأجناد وعظماء تلك الأرض، فقال: وأين أخي؟ قالوا: مَنْ هو؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: سيأتيك الآن، فجاء أبو عبيدة على ناقة مخطومة بحبْل، فسلّم عليه، وردّ له، ثم قال للناس: انصرفوا عنّا، فسار معه حتى أتى منزله، فنزل عليه، فلم ير فيه إلاّ سيفاً وترْساً، فقال له: لو اتخذتَ متاع البيت! قال: حسبي هذا يبلّغني المقيل.

وروى طارق بن شهاب، أنّ عمر لما قدِم الشّام عَرَضَتْ له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع جرموقيْه فأمسكهما بيده، وخاض الماء وزمام بعيره في يده الأخرى، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليومَ صنيعاً عظيماً عند أهلِ هذه الأرض! فصكّ في صدره، وقال: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذلّ الناس، وأحقَر الناس، وأقلّ الناس، فأعزّكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزّ بغيره يرجعْكم إلى الذلّ.

وروى محمد بن سعد صاحب الواقديّ، أنّ عمر قال يوماً على المنبر: لقد رأيتُني وما لي من أكال يأكله الناس، إلاّ أنّ لي خالات من بني مخزوم، فكنت أستعذِب لهنّ الماء، فيقبضْنَ

---

(١) كساء أنبجاني: منسوب إلى منبج المدينة المعروفة، وقيل: إنها منسوبة إلى موضع اسمه أنبجان. وهو كساء يتخذ من الصوف له خمل ولا علم له. لسان العرب، مادة (نبج).

(٢) الكرابيس: جمع مفرده كرباس وهو القطن. لسان العرب، مادة (كربس).

لي القبضات من الزّبيب، فلمّا نزل قيل له: ما أردتَ بهذا؟ قال: وجدتُ في نفسي بأواً؟ فأردت أن أطأطىء منها.

ومن كلام عمر: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي[1].

قدم عمرو بن العاص على عُمر، وكان والياً لمصر، فقال له: في كمْ سرت؟ قال: في عشرين، قال عمر: لقد سرت سير عاشقٍ! فقال عمرو: إني والله ما تأبّطتْني الإماء، ولا حملتني في غُبّرات المآلي، فقال عمر: والله ما هذا بجواب الكلام الذي سألتُك عنه! وإنّ الدجاجة لتفحص في الرّماد فتضعُ لغير الفحل، وإنما تنسب البَيْضة إلى طِرْقها. فقام عمرو مربدّ الوجه.

قلت: المآلِي: خِرَقٌ سودٌ يحملها النوائح، ويسِرْنَ بها بأيديهنّ عند اللطم، وأراد خرَق الحيْض ها هنا، وشبهّها بتلك، وأنكر عمر فخره بالأمّهات، وقال: إن الفخر للأب الذي إليه النسب. وسألت النقيب أبا جعفر عن هذا الحديث في عمر، فقال: إن عمْراً فَخَر على عمر، لأنّ أمّ الخطاب زنجيّة، وتعرف بباطحلي، تسمّى صُهاك، فقلت له: وأمّ عمرو النّابغة أَمَةٌ من سَبايا العرب، فقال: أمّه عربية من عَنَزة، سُبِيت في بعض الغَارات، فليس يلحقها من النقص عندهم ما يلحق الإماء الزنجيات. فقلت له: أكان عمرٌو يُقدِم على عمرَ بمثل ما قلت؟ قال: قد يكون بلغه عنه قولٌ قدح في نفسه فلم يحتمله له، ونفث بما في صدره منه، وإن لم يكن جواباً مطابقاً للسؤال.

وقد كان عمر مع خشونته يحتمل نحو هذا، فقد جَبَهه الزبير مرّة، وجعل يحكي كلامه يمطّطه، وجبَهه سعدُ بن أبي وقاص أيضاً، فأغضى عنه. ومرّ يوماً في السوق على ناقةٍ له فوثب غلام من بني ضَبّة، فإذا هو خلفه، فالتفت إليه، فقال: فمّمن أنت؟ قال: ضَبّيّ، قال: جَسُورٌ[2] والله، فقال الغلام: على العدوّ، قال عمر: وعلى الصَّدِيق أيضاً، ما حاجتك؟ فقضى حاجتَه، ثم قال: دع الآن لنا ظهر راحلتنا.

ومن كلام عمر: اخشع عند القبور إذا نظرْت إليها، واستعصِ عند المعصية، وذلّ عند الطاعة، ولا تبذلَنّ كلامك إلاّ عند من يشتهيه ويتخِذه غُنْماً، ولا تستعنْ على حاجتك إلا بمن يحبّ نجَاحها لك، وآخِ الإخوانَ على التقوى، وشاورْ في أمرِك كلّه، وإذا اشترى أحدكم بعيراً فليشترِه جسيماً، فإنْ أخطأته النّجابة لم يخطئه السُّوق.

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ١٦٩)

(٢) جَسُور: شجاع. القاموس المحيط، مادة (جسر).

أوفَدَ بشر بن مروان وهو على العراق رجلاً إلى عبد الملك، فسأله عن بشر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هو اللّيِّن في غير ضَعْف، الشديد في غير عُنْف، فقال عبد الملك: ذاك الأحوذيّ ابن جِنْتمة الذي كان يأمن عنده البريء، ويخافه السقيم، ويعاقب على الذَّنْب، ويعرف موضع العقوبة، لا بشر بن مروان!

أذن عمر يوماً للناس، فدخل شيخ كبير يعرُج، وهو يقود ناقة رجيعاً يجاذبها، حتى وقف بين ظهرانَيِ الناس، ثم قال:

وإنّـك مـسـتـرعـى وإنّـا رَعـيَّـةٌ ... وإنّـك مـدعـوّ بـسـيـمـاك يـا عـمـرْ
لَـدَى يـومِ شـرّ شـرّه لـشـرارِه ... وخـيـر لـمـن كـانـت مؤانسَـه الـخـيرْ

فقال عمر: لا حول ولا قوّلا إلا بالله، مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن برّاقة، قال: ويحك! فما منعك أن تقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾(١). ثم قرأها إلى آخرها، وأمر بناقته فقبضت، وحَمَله على غيرها، وكساه وزوّده.

بينا عمر يسير في طريق مكة يوماً إذا بالشَّيخ بين يديه يرتجزُ، ويقول:

مـا إنْ رأيـتُ كـفـتـى الـخـطّـابِ ... أبـرّ بـالـدّيـن وبـالأحـسـاب
بـعـد الـنـبـيّ صـاحـب الـكـتـاب

فطعنه عمرُ بالسّوط في ظهره، فقال: ويلك! وأين الصّدّيق! قال: ما لِي بأمره علمٌ يا أمير المؤمنين، قال: أما إنّك لو كنت عالماً، ثم قلت هذا لأوجعتُ ظهرك.

قال زيد بن أسلم: كنت عند عمر، وقد كلّمه عمرو بن العاص في الحُطيئة، وكان محبوساً، فأخرجه من السجن، ثم أنشده:

مـاذا تـقـولُ لأفـراخٍ بـذي مَـرخٍ ... زُغْـبٍ(٢) الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألـقـيتَ كـاسبهمْ في قعرِ مُظْلمةٍ ... فـاغـفِرْ عـلـيـك سلامُ الله يـا عـمـرُ
أنـت الإمـام الّـذي مـن بـعـد صاحبِه ... ألـقـت إلـيـه مـقـاليدَ النُّهى الـبـشَرُ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٤١).
(٢) الزغب: أول ما يبدو من شعر الصبي والمهر وريش الفرخ واحدته زغبة. لسان العرب، مادة (زغب).

مـــا آثـــروك بـــهـــا إذ قـــدّمـــوك لـــهـــا ... لـــكـــن لأنـــفـــســـهـــم كـــانـــت بـــك الأَثَـــرُ

فبكى عمر لمّا قال له: «ماذا تقول لأفراخ»! فكان عمرو بن العاص بعد ذلك يقول: ما أقلّتِ الغبراءُ ولا أظلّت الخضراء أتقى من رجل يبكي خوفاً من حَبْس الحطيئة! ثم قال عمر لغلامه يرفأ: عليّ بالكرسيّ، فجلس عليه، ثم قال: عليّ بالطّست، فأُتِيَ بها، ثم قال: عليّ بالمِخْصف، لا بلْ بالسكين، فأُتِيَ بها، فقال: لا بل عليّ بالموسى، فإنها أوجى، فأُتِيَ بموسى، ثم قال: أشيروا عليّ في الشاعر، فإنه يقول الهُجْر، ويَنْسب بالْحُرَم، ويمدح الناس ويذّمهم بغير ما فيهم، وما أراني إلا قاطعاً لسانه! فجعل الحطيئة يزيد خوفاً، فقال من حضر: إنّه لا يعود يا أميرَ المؤمنين، وأشاروا إليه قل: لا أعود يا أمير المؤمنين، فقال: النّجاء النَّجاء! فلمّا ولّى ناداه: يا حطيئة! فرجع مرعوباً، فقال: كأنّي بك يا حُطَيئة عند فتًى من قريش، قد بسط لك نُمرقة، وكسر لك أخرى، ثم قال: غَنِّنا يا حطيئة، فطفقت تغنّيه بأعراض النّاس. قال: يا أميرَ المؤمنين، لا أعود، ولا يكون ذلك.

قال زيد بن أسلم: ثمّ رأيتُ الحطيئة يوماً بعد ذلك عند عُبيد الله بن عمر، قد بسط له نُمرقة وكسر له أخرى، ثم قال: تغنّينا يا حطيئة، وهو يغنّيه، فقلت: يا حُطيئة، أمَا تذكر قول عمر لك! ففزع، وقال: رحم الله ذلك المرء! أما لو كان حيًّا ما فعلنا هذا. قال: فقلت لعُبيد الله بن عمر: سمعت أباك يذكر كذا، فكنتَ أنت ذلك الفتى[1].

كان عمر يصادرُ خوَنة العمّال، فصادر أبا موسى الأشعريّ، وكان عامله على البَصْرة، وقال له: بلغني أنّ لك جاريتيْن، وأنّك تُطعم النّاس من جَفْنتين، وأعاده بعد المصادرة إلى عمله.

وصادر أبا هريرة، وأغلظ عليه، وكان عاملَه على البحرين، فقال له: ألا تعلم أنّي استعملتُك على البحريْن، وأنت حافٍ لا نعل في رجلك! وقد بلَغني أنّك بعتَ أفراساً بألف وستمائة دينار. قال أبو هريرة: كانت لنا أفراسٌ فتناتجتْ، فقال: قد حبستُ لك رزقك ومؤونتك، وهذا فضل. قال أبو هريرة: ليس ذلك لك، قال: بلى، والله وأوجعُ ظهرَك! ثم قام إليه بالدرّة فضرب ظهره، حتى أدماه، ثم قال: ائت بها، فلمّا أحضرها، قال أبو هريرة: سوف أحتِسبُها عند الله، قال عمر: ذاك لو أخذتَها من حِلّ، وأدّيتَها طائعاً، أما والله ما رَجَتْ فيك أُمَيمة أن تجبِيَ أموال هَجَر واليمامة وأقصى البحرين لنفسك، لا لله ولا للمسلمين، ولم ترجُ فيك أكثر من رِعْيَة الحمُر. وعَزَله.

---

(١) أخرجه المتقي الهندي بما معناه في كنز العمال: ٣/ ٨٤٤.

وصادر الحارث بن وهب أحدُ بني ليث بكر بن كنانة، وقال له: ما قِلاصٌ وأعبُدٌ بعتَها بمائة دينار؟ قال: خرجتُ بنفقةٍ لي فاتجرْتُ فيها، قال: وإنّا والله ما بعثناك للتجارة، أدّها، قال: أما والله لا أعمل لك بعدها. قال: أنا والله لا أستعملك بعدها. ثم صعد المنبر، فقال: يا معشرَ الأمراء، إن هذا المال لو رأينا أنّه يحلُّ لنا لأحللناه لكم، فأمّا إذْ لم نره يحلّ لنا وظَلَفْنا أنفسنا عنه، فاظلفوا عنه أنفسَكم، فإني والله ما وجدتُ لكم مثلاً إلا عطشان ورد اللُّجّة، ولم ينظر الماتح، فلمّا روي غرق.

وكتب عمر إلى عمرو بن العاص وهو عامله في مصر:

أمّا بعد، فقد بلغَني أنّه قد ظهر لك مالٌ من إبلٍ وغنم وخدمٍ وغلمان، ولم يكن لك قبله مال، ولا ذلك من رزقك، فأنّى لك هذا! ولقد كان لي من السابقين الأوّلين من هو خير منك، ولكني استعملتك لغَنائك، فإذا كان عملُك لك وعلينا، بم نؤثرك على أنفسنا! فاكتب إليّ من أين مالك؟ وعجّل. والسلام.

فكتب إليه عمْرو بن العاص: قرأتُ كتابَ أمير المؤمنين، ولقد صدق، فأمّا ما ذكره من مالي، فإنّي قدمت بلدة، الأسعار فيها رخيصة، والغزو فيها كثير، فجعلت فضولَ ما حصل لي من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين. والله يا أميرَ المؤمنين، لو كانت خيانتُك لنا حلالاً ما خنّاك، حيث ائتمنتَنا، فأقصِرْ عنا عناك، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتْنا عن العمل لك، وأمّا مَنْ كان لك من السابقين الأوّلين، فهلا استعملتهم! فوالله ما دققت لك باباً.

فكتب إليه عمر: أمّا بعد، فإنّي لست من تسطيرك وتشقيقك الكلام في شيء! إنّكم معشرَ الأمراء أكلتم الأموال، وأخلدتم إلى الأعذار، فإنما تأكلون النار، وتورّثون العار، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرَكَ على ما في يديْك. والسلام.

فلمّا قدم إليه محمد اتخذ له طعاماً وقدّمه إليه، فأبى أن يأكل، فقال: ما لك لا تأكل طعامنا؟ قال: إنّك عَمِلْتَ لي طعاماً هو تقدمة للشرّ، ولو كنتَ عملتَ لي طعام الضَّيْف لأكلته، فأبعدْ عنّي طعامك، وأحضر لي مالك. فلمّا كان الغد وأحضر ماله، جعل محمد يأخذ شطراً، ويعطي عمراً شطراً، فلمّا رأى عمرو ما حاز محمد من المال، قال: يا محمّد، أقول؟ قال: قل ما تشاء، قال: لعن الله يوماً كنتُ فيه والياً لابن الخطّاب! والله لقد رأيته ورأيت أباه، وإنّ على كلّ واحد منهما عباءة قطوانية[1]، مؤتزراً بها، ما تبلغ مأبِض ركبتيه، وعلى عنق كلّ واحد

(١) نسبة إلى موضع بالكوفة منه الأكسية. القاموس المحيط، مادة (قطو).

منهما حُزمة من حطب، وإنّ العاص بن وائل لفي مزرّرات الديباج. فقال محمد: إيهاً يا عمرو! فعمر والله خير منك، وأمّا أبوك وأبوه ففي النار، ووالله لولا ما دخلتَ فيه من الإسلام لألفِيت معتلفاً شاة يسرّك غَزْرها، ويسوءك بكؤها. قال: صدقت، فاكتم عليّ. قال: أفعل.

جاءت سُرّيّة لعبيد الله بن عمر إلى عمر تشكوه، فقالت: يا أمير المؤمنين، ألا تعذرني من أبي عيسى؟ قال: ومَنْ أبو عيسى؟ قالت: ابنك عبيد الله، قال: ويحك! وقد تكنّى بأبي عيسى! ودعاه، وقال: إيهاً اكتنيت بأبي عيسى! فحذر وفزع، فأخذ يده فعضّها حتى صاح، ثم ضربه وقال: ويلَك! هل لعيسى أب! أما تدري ما كنَى العرب؟ أبو سلمة، أبو حنظلة، أبو عرفطة، أبو مرّة.

كان عمر إذا غضب على بعض أهله لم يشتفِ حتى يعضّ يده، وكان عبد الله بن الزبير كذلك يقال: إنه لم يلِ ولاية من ولد عمر والٍ عادل.

وقال مالك بن أنس: إنّ عمر بن الخطاب استفرغ كلّ عدلٍ في ولده، فلم يعدل بعده أحدٌ منهم في ولاية وليَها.

كان عمر ومن بعده من الولاة إذا أخذوا العُصاة نزعُوا عمائمهم، وأقاموهم للناس، حتى جاء زياد فضربهم بالسِّياط، فجاء مُصعب فحلق مع الضرب، فجاء بشر بن مروان، فكان يصلب تحت الإبطين، ويضرب الأكفّ بالمسامير. فكتب إلى بعض الجند قوم من أهله يستزيرونه، ويتشوّقونه، وقد أخرجه بشر إلى الريّ فكتب إليهم:

لولا مخافةُ بشرٍ أوْ عقوبتُه ... أو أن يرى شانئٌ كفّي بمسمارِ
إذاً لعطّلتُ ثغري ثمَّ زُرْتُكمُ ... إنّ المحِبَّ المعنَّى جِدُّ زَوّارِ

فلمّا جاء الحجاج قال: كلّ هذا لَعِبٌ، فقتل العُصاةَ بالسّيف.

زيد بن أسْلم، عن أبيه، قال: خلا عُمَرُ لبعضِ شأنه، وقال: أمْسِكْ عليّ الباب، فطلع الزُّبير، فكرهتُه حين رأيتُه، فأرادَ أن يدخُلَ، فقلتُ: هُو على حَاجةٍ، فلمْ يلتفتْ إليّ، وأهْوَى ليدخُل، فوضعتُ يدي في صدْرِه، فضرب أنفي فأدْمَاه، ثم رجع فدخلتُ على عمر، فقال: ما بك؟ قلت: الزُّبير!

فأرسل إلى الزُّبير، فَلَمّا دخلَ جئتُ فقمتُ لأنظُر ما يقول له، فقال: ما حملك على ما

صنعت أذمَيْتني للناس. فقال الزُّبير يحكيه ويمطّط في كلامه: «أذميتَني!»، أتحتجب عنَّا يابن الخطاب! فوالله ما احتجب منّي رسول الله، ولا أَبُو بكر! فقال عمر كالمعتذِر: إني كنتُ في بعض شأني!

قال أسْلَم: فلمّا سمعتُه يَعْتذِر إليه، يئِستُ من أنْ يأخُذَ لي بحقّي منه.

فخرج الزُّبير، فقال عمر: إنّه الزبير وآثاره ما تعلَم! فقلت: حقّي حقّك!

وروى الزبير بن بكّار في كتاب «الموفّقيات»(١)، عن عبد الله بن عباس قال: إنّي لأمَاشي عمر بن الخطاب في سكّة من سِكك المدينة، إذ قال لي: يابن عباس، ما أرى صاحبَك إلاّ مظلوماً، فقلت في نفسي: والله لا يسبقُني بها، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، فارددْ إليه ظُلامته، فانتزعَ يدَه من يدي، ومضى يُهَمْهِم ساعة، ثمّ وقف فلحقتُه، فقال: يابنَ عباس؟ ما أظنّهم منعهم عنه إلاّ أنّه استصغره قومُه! فقلت في نفسي: هذه شرٌّ من الأولى! فقلت: والله ما استصغره الله ورسوله حين أمَرَاه أن يأخذ براءة من صاحبك.

فأعرض عنّي وأسرَع، فرجعت عنه.

وقال ابن عباس: قلت لعمر، لقد أكثرتَ التمنّي للموت، حتى خشيت أن يكون عليك غير سهل عند أوانِه! فماذا سئمتَ من رعيّتك، أن تعين صالحاً، أو تقوّم فاسداً!

قال: يابنَ عَبّاس، إنّي قائلٌ قولاً فخذه إليك، كيف لا أحبّ فراقهم، وفيهم من هو فاتحٌ فاه للشّهوة من الدّنيا، إمّا لحقٍّ لا ينوء بِهِ، وإمّا لباطلٍ لا ينالُه! والله لولا أنْ أُسْألَ عنكم لبرئتُ منكم فأصبحت الأرض مني بلاقع، ولم أقل: ما فعل فلان وفلان!

جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب، فقالت: يا أَميرَ المؤمنين، إنّ زوجي يصومُ النَّهار ويقوم الليل، وإنّي أكرَهُ أنْ أشكُوهَ وهو يعمل بطاعة الله! فقال: نِعْمَ الزّوج زوجُك! فجعلتْ تكرّر عليه القول، وهو يكرّر عليها الجواب.

فقال له كعب بن سَوْر: يا أميرَ المؤمنين، إنها تشكو زوجَها في مباعدته إياها عن فراشه، ففطِن عمر حينئذٍ، وقال له: قد ولّيتُك الحكْمَ بينهما!

---

(١) الموفقيات في الحديث للزبير بن بكار المتوفى سنة ست وخمسين ومائتين ا هـ. «كشف الظنون» (٢/ ١٩١٠).

فقال كعب: عليَّ بزوْجها، فأتِيَ به، فقال: إنّ زوجتك هذه تشكوك، قال: في طعام أو شراب؟ قال: لا، قالت المرأة:

أيُّهَا القاضِي الحكِيمُ رشَدُهْ ... ألْهَى خليلي عن فراشِي مَسْجِدُهْ
زهَّدَهُ في مضجعِي تَعبُّدُهْ ... نهارُه وليلُهُ ما يرقدُهْ
فلستُ في أمرِ النِّسَاء أحمَدُهْ

فقال زوجها:

زَهَّدني فِي فَرْشِها وفي الحجَلْ[1] ... أنّي امرؤٌ أذهَلَنِي ما قَدْ نَزَلْ
في سُورةِ النمل وفي السبع الطُّوَلْ ... وفِي كتابِ الله تخويفٌ جَلَلْ

وقال كعب:

إنّ لَهَا حَقًّا عَلَيْكَ يَا رَجُلْ ... تصيبُها من أربَعٍ لمن عَقَلْ
فأعْطِهَا ذَاك ودَعْ عَنكَ العِلَلْ

فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إنّ الله أحلّ له من النِّساء مَثْنَى وثلاثَ ورُبَاع، فله ثلاثة أيامٍ ولياليهنّ، يعبُد فيها ربّه، ولها يومٌ وليلة.

فقال عمر: والله ما أعلم من أيّ أمريْك أعجب! أمن فهمك أمرهما، أم من حكمك بينهما! اذهب فقد ولّيْتُك قضاءَ البصرة[2].

وروى زيد بن أسْلَم، عن أبيه، قال: خرجتُ مع عمر بن الخطاب وهو يطوف بالليل، فنظر إلى نار شرقيّ حَرّة المدينة، فقال: إن هؤلاء الرّكب لم ينزلوا ها هنا إلاّ اللّيلة! ثمّ أهْوى لهم، فخرجت معه حتى دنونا، فسمعنا تضاغِيَ الصّبيان وبكاءهم.

فقال: السّلام عليكم يا أصحابَ الضوء، هل ندنو منكم! واحتبسنا قليلاً، فقالت امرأة منهم: ادنُوَا بسلام! فأقبلنا حتى وقفنا عليها، فقال: ما يُبكِي هؤلاء الصبيان؟ قالت: الجوع، قال: فما هذا القِدْر على النار؟ قالت: ماءٌ أعلّلهم به، قال: انتظريني فإني بالغك إن شاء الله! ثم خرج يُهَرْوِل وأنا معه، حتّى جئنا دار الدّقيق - وكانت داراً يطرح فيها ما يجيء من دقيق العراق ومصر. وقد كان كتب إلى عمرو بن العاص وأبي موسى حين أمحلت السَّنَة: الغوث، الغوث! احملوا إليّ أحْمَال الدقيق، واجعلوا فيها جمائد الشحم ـ فجاء إلى عِدْلٍ منها، فطأطأ

(١) الحجل: بكسر الفاء وفتحها وسكون الجيم: الخلخال، وبفتح الحاء والجيم: طير معروف واحدة حجلة. لسان العرب، مادة (حجل).

(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٦/ ١٠٧، وذكره القرطبي في تفسيره: ٥/ ١٩.

ظهره، ثم قال: احملْه على ظهري يا أسْلَم! فقلت: أنا أحمله عنك! فنظر إليّ وقال: أنت تحمل عنّي وزْرِي يومَ القيامة؟ لا أبا لك! قلت: لا، قال: فاحمله على ظهري إذاً، ففعَلتُ، وخرج به يُذْلِجُ وأنا معه، حتّى ألقاه عند المرأة.

ثم قال لي: ذُرَّ عَلَيّ ذَرُور الدقيق لا يتعرّد وأنا أخْزِر، ثم أخذ المِسْواط يخزر، ثم جعل ينفخ تحت البُرْمة، وأنا أنظر إلى الدّخَان يخرج من خَلَل لحيته، ويقول: لا تعجل حتى ينضج، ثم قال: الْقِ عليّ من الشحم، فإن القَفار يُوجع البطن.

ثم أنزل القِدْر، وقال للمرأة: لا تعَجلي، لا تعطيهم حارًّا، وأنا أسطّح لك، فجعل يسطّح بالمسْوَاط، ويبرّد طعامهم، حتى إذا شبِعُوا ترك عندها الفضل، ثم قال لها: ائتي أميرَ المؤمنين غداً، فإنّك عَسيتِ أن تجدِيني قريباً منه، فأشفعَ لك بخير، وهي تقول: مَنْ أنتَ يرحمك الله! وتدعُو له وتقول: أنت أوْلَى بالخلافة من أمير المؤمنين، فيقول: قولِي خيراً يرحمُك الله! لا يزيدُ على هذا.

ثم انصرف حتى إذا كان قريباً جلس فأقْعى، وجعل يسمَع طويلاً، حتى سمع التّضَاحُك منها ومن الصبيان، وأنا أقول: يا أمير المؤمنين، قد فرَغت من هذه، ولك شغل في غيرِها، ويقول: لا تكلّمني، حتى إذا هدأ حسُّهم قام فتمطّى وقال: ويحك! إنّي سمعتُ الجوع أسهرهم، فأحببتُ ألاّ أبْرَح حتى أسمع الشّبَع أنامَهم!

ومن كلامه: الرجال ثلاثة: الكامل، ودون الكامل، ولا شيء. فالكامل ذو الرأي يستشير الناس، فيأخذ من آراء الرجال إلى رأيه، ودون الكامل من يستبدّ به ولا يستشير. ولا شيء مَن لا رأي له ولا يستشير.

والنساء ثلاث: تعين أهلَها على الدهر ولا تعين الدهر على أهلها، وقلّما تجدها. وامرأة وعاء للولد ليس فيها غيره. والثالثة غُلٌّ قَمِلٌ يجعله الله في قربة مَنْ يشاء، ويفكّه إذا شاء.

لما أخرج عُمَر الحطيئةَ من حَبْسه قال له: إيّاك والشعر! قال: لا أقدر على تركه يا أمير المؤمنين، مأكلةُ عيالي، ونملة تدِبّ على لساني. قال: فشبِّبْ بأهلك، وإياك وكل مدحة مُجحِفة. قال: وما المجحفة؟ قال: تقول: إن بني فلان خير من بني فلان، امْدحْ ولا تفضّل أحداً، قال: أنت والله يا أميرَ المؤمنين أشعر منّي!

وروى الزّبير في «الموفّقيات» عن عبد الله بن عباس، قال: خرجت أريد عمر بن الخطاب، فلقيتُه راكباً حماراً، وقد ارتسنه[1] بحبْل أسود، في رجليه نعلان مخصوفتان، وعليه إزار

(١) الرَّسن: الحَبْل، وما كان من زمام على أنف. القاموس المحيط، مادة (رسن).

وقميص صغير، وقد انكشفت منه رجلاه إلى ركبتيْه، فمشيت إلى جانبه، وجعلت أجذب الإزارَ وأسوّيه عليه، كلّما سترتُ جانباً انكشف جانب، فيضحك ويقول: إنّه لا يطيعك، حتى جئنا العالية، فصلّينا، ثمّ قدّم بعض القوم إلينا طعاماً من خبز ولحم، وإذا عمرُ صائم، فجعل ينبِذ إليّ طيّب اللحم، ويقول: كلْ لي ولك، ثمّ دخلنا حائطاً فألقى إليّ رداءَه، وقال اكفنيه، وألقى قميصه بين يديه، وجلس يغسله، وأنا أغسل رداءه، ثمّ جفّفْناهما وصلّينا العصر، فركب ومشيت إلى جانبه، ولا ثالث لنا.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إني في خِطْبة فأشرْ عليّ، قال: ومَنْ خطبتَ؟ قلت: فلانة ابنة فلان، قال: النَّسب كما تحبّ، وكما قد علمت، ولكن في أخلاق أهلها دِقّة لا تعدمك أن تجدَها في ولَدِك! قلت: فلا حاجة لي إذاً فيها، قال: فلمَ لا تخطبُ إلى ابنِ عمّك - يعْني علياً؟ قلت: ألم تسبقْني إليه؟ قال: فالأخرى، قلت: هي لابن أخيه. قال: يابن عباس، إنّ صاحبَكم إن وليَ هذا الأمر أخشى عُجْبه بنفسِه أن يذهب به، فليَتني أراكم بعدي!

قلت: يا أميرَ المؤمنينَ، إن صاحبَنا ما قد علمت، إنّه ما غيّر ولا بدّل، ولا أسخط رسول الله ﷺ أيّام صحبته له.

قال: فقطع عليّ الكلام، فقال: ولا في ابنة أبي جهل، لمَّا أراد أن يخطبها على فاطمة!

قلت: قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(١)، وصاحبُنا لم يعزِم على سخط رسول الله ﷺ، ولكن الخواطر التي لا يقدر أحدٌ على دفعها عن نفسه، وربما كان من الفقيه في دين الله، العالم العامل بأمر الله.

فقال: يابنَ عباس، مَنْ ظنّ أنه يردُ بحوركم فيغوص فيها معكم حتى يبلغ قعرها فقد ظنّ عجزاً! أستغفر الله لي ولك، خذ في غيرها.

ثم أنشأ يسألني عن شيء من أمور الفُتْيا وأجيبه فيقول: أصبتَ أصابَ الله بك! أنت والله أحقُّ أن تُتّبع!

أشرف عبدُ الملك على أصحابه، وهم يتذاكرون سيرَة عمر، فغاظه ذلك، وقال: إيهاً، عن ذِكْرِ سيرة عمر! فإنها مَزراة على الولاة، مفسدة للرعيّة.

قال ابن عباس: كنت عند عمر، فتنفّس نفساً ظننتُ أنّ أضلاعه قد انفرجت، فقلت: ما أخرج هذا النَّفسَ منك يا أميرَ المؤمنين إلا همٌّ شديد! قال: إي والله يابنَ عباس! إني فكّرتُ

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

فلم أدرِ فيمَنْ أجعلُ هذا الأمرَ بعدي! ثم قال: لعلّك ترى صاحبَك لها أهلاً! قلت: وما يمنعه من ذلك مع جهاده وسابقته وقرابته وعلمه! قال: صدقت، ولكنه امرؤ فيه دُعابة، قلت. فأين أنت عن طلحة! قال: ذو البَأْو، بإصبعه المقطوعة! قلت: فعبد الرحمن؟ قال: رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه في يد امرأته. قلت: فالزّبير؟ قال: شكِسٌ[١] لَقِس[٢] يُلاطم في النقيع في صاع من بُرّ! قلت: فسعد بن أبي وقّاص؟ قال: صاحب سلاح ومِقْنَب، قلت: فعثمان؟ قال: أوّه! ثلاثاً، والله لئن وليَها ليحملَنَّ بني أبي مُعَيط على رقاب الناس، ثم لتنهض العرب إليه.

ثم قال: يابن عباس، إنه لا يصلُح لهذا الأمر إلا خَصِيف العقدة، قليل الغرّة، لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم يكون شديداً من غير عنف، ليّناً من غير ضعف، سخيًّا من غير سرف، ممسكاً من غير وكَف. قال ابن عباس: وكانت والله هي صفات عمر.

قال: ثمّ أقبل عليّ بعد أن سكت هُنَيهَةً، وقال: أجرؤهم والله إن وليَها أن يحملهم على كتاب ربّهم وسنّةِ نبيّهم لَصاحبُك! أما إن وليَ أمرهم حملهم على المحجّة البيضاء والصراط المستقيم.

وروى عبد الله بن عمر قال: كنت عند أبي يوماً، وعنده نفر من الناس، فجرى ذكر الشعر، فقال: مَنْ أشعرُ العَرب؟ فقالوا: فلان وفلان، فطلع عبد الله بن عباس، فسلم وجلَس، فقال عمر: قد جاءكم الخبير! مَنْ أشعرُ النّاس يا عبدَ الله؟ قال: زهير بن أبي سلمى، قال: فأنشدْني مما تستجيده له. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّه مدح قوماً من غطفان، يقال لهم بنو سِنان، فقال:

لو كان يقعُد فوق الشمس من كرمٍ ... قومٌ بأوّلهمْ أو مجدِهمْ قعدوا

قوم أبوهم سنان حين تَنْسِبُهُمْ ... طابوا وطاب من الأولاد ما وَلَدُوا

إنسٌ إذا أمِنوا، جنٌّ إذا فزعوا ... مُرَزَّؤون بها ليلٌ إذا جُهِدوا

محسّدون على ما كان من نعمٍ ... لا ينزع الله منهم ما له حُسِدوا

فقال عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح يصلح إلاّ لهذا البيت من هاشم، لقرابتهم من رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: وفقّك الله يا أمير المؤمنين، فلم تزل موفّقاً، فقال: يابن عباس، أتدري ما منع الناس منكم؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: لكني أدري، قال: ما هو

(١) الشَّكِس: السَّيِّءُ الخلق في المبايعة وغيرها. لسان العرب، مادة (شكس).
(٢) اللَّقِس: الشَّره النفس الحريص على كل شيء. لسان العرب، مادة (لقس).

يا أمير المؤمنين؟ قال: كرهتْ قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة، فيجخِفوا جَخْفاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابتْ.

فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عنّي غضبه فيسمع! قال: قل ما تشاء، قال: أمّا قول أمير المؤمنين: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾(١).

وأما قولك: «إنّا كنّا نجخف»، فلو جَخَفْنا بالخلافة جَخَفْنا بالقرابة، ولكنّا قوم أخلاقنا مشتقة من خُلُق رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢)، وقال له: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وأما قولك: «فإن قريشاً اختارت»، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾(٤)، وقد علمتَ يا أمير المؤمنين أن الله اختار مِنْ خلقه لذلك مَن اختار، فلو نظرتْ قريش من حيث نظر الله لها لوفّقت وأصابت قريش.

فقال عمر: على رِسْلِك يابْنَ عباس، أبتْ قلوبُكم يا بني هاشم إلاّ غِشًّا في أمر قريش لا يزُول، وحقْداً عليها لا يحُول، فقال ابن عباس: مَهْلاً يا أمير المؤمنين! لا تنسُب هاشِماً إلى الغشّ، فإنّ قلوبَهم من قلب رسول الله الذي طهّره الله وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال له تعالى لهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٥)، وأما قولك: «حقداً» فكيف لا يحقد من غُصِبَ شيئه، ويراه في يد غيره!

فقال عمر: أما أنت يابن عباس، فقد بلَغني عنك كلامٌ أكره أن أخبرك به، فتزولَ منزلتُك عندي، قال: وما هوَ يا أمير المؤمنين؟ أخبرني به، فإنْ يكُ باطلاً فمثلي أماطَ الباطلَ عن نفسه، وإنْ يكُ حقًّا فإنّ منزِلتي عندك لا تزولُ به.

قال: بلغني أنّك لا تزال تقول: أُخِذَ هذا الأمر منكم حسداً وظلماً. قال: أمّا قولك يا أمير المؤمنين: «حسداً»، فقد حسد إبليس آدم، فأخرجه من الجنّة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: «ظلماً» فأمير المؤمنين يعلم صاحب الحقّ من هو!

ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، ألم تحتجّ العرب على العَجم بحقّ رسول الله، واحتجّت قريش على سائر العرب بحقّ رسول الله ﷺ! فنحن أحقُّ برسول الله من سائر قريش.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٩.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.
(٤) سورة القصص، الآية: ٦٨.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك. فقام، فلمّا ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، إنّي على ما كان منك لراعٍ حقك!

فالتفت ابن عباس فقال: إنّ لي عليك يا أمير المؤمنين وعلى كلّ المسلمين حقًّا برسول الله صلى الله عليه وآله، فمن حفظه فحقّ نفسه حفِظ، ومَنْ أضاعه فحقّ نفسه أضاع. ثم مضى.

فقال عمر لجلسائه: واهاً لابن عباس! ما رأيته لاَحَى[١] أحداً قطّ إلا خصَمه[٢]!

لما توفّيَ عبد الله بن أبيّ، رأس المنافقين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، جاء ابنه وأهله، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصلّيَ عليه، فقام بين يدي الصفّ يريد ذلك، فجاء عمر فجذبه من خلفه، وقال: ألم يَنْهَكَ الله أن تصلّيَ على المنافقين! فقال: إني خُيّرت فاخترت، فقيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٣]، ولو أنّي أعلم أنّي إذا زدت على السبعين غفر له لزدت. ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وآله عليه ومشى معه، وقام على قبره.

فعجب الناس من جراءة عمر على رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يلبث الناس إلا أن نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٤] فلم يصلّ عليه السلام بعدها على أحدٍ من المنافقين.

وروى أبو هريرة، قال: كنا قعوداً حولَ رسول الله صلى الله عليه وآله في نفرٍ، فقام من بين أظهرنا، فأبطأ علينا، وخشينا أن يقطع دوننا فُقمنا - وكنت أولَ مَنْ فزع - فخرجت أبتغيه حتى أتيتُ حائطاً للأنصار لقوم من بني النّجار، فلم أجد له باباً إلا ربيعاً، فدخلت في جوف الحائط - والربيع الجدول - فدخلت منه بعد أن احتفرْتُه، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: أبو هريرة! قلت: نعم، قال: ما شأنك؟ قلت: كنتَ بين أظهرنا، فقمت فأبطأت عنّا، فخشينا أن تقتطع دوننا، ففزعنا - وكنتُ أوّل من فزِع - فأتيتُ هذا الحائط فاحتفرْتُه كما يحتفرُ الثعلب، والناس من ورائي.

فقال: يا أبا هريرة، اذهب بنعليّ هاتين، فمن لقيته وراء هذا الحائط يشهد أن لا إلٰه إلا الله، مستيقناً بها قلبُه، فبَشره بالجنّة. فخرجت، فكان أوّلَ من لقيت عمر، فقال: ما هذان

(١) لاحاه: نازعه. القاموس المحيط، مادة (لحي).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/٤٠٩، أخرجه عبد الرحمن أحمد البكري في عمر بن الخطاب: ٣٥ ح: ٤٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٠.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٨٤.

النَّعلان؟ قلت: نعلا رسول الله ﷺ بعثني بهما، وقال: مَنْ لقيته يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبُه، فَبَشِّرْه بالجنة.

فضرب عمر في صدري فخررت لإسْتي، وقال: ارْجِعْ إلى رسولِ الله ﷺ.

فأجهشتُ بالبكاء راجعاً، فقال رسول الله: ما بالك؟ قلت: لقيتُ عمر فأخبرته بالذي بعثتني به، فضرب صدرِي ضربةً خررت لإسْتي، وقال: ارجع إلى رسول الله.

فخرج رسول الله، فإذا عمر، فقال: ما حَمَلك يا عمر على ما فعلت؟ فقال عمر: أنت بعثت أبا هريرة بكذا؟ قال: نعم، قال: فلا تفعَلْ، فإنّي أخشَى أن يتّكل الناس عليها فيتركوا العمل، خَلّهم يعملون.

فقال رسول الله ﷺ: خلّهم يعملون[١].

وروى أبو سعيد الخُدْري، قال: أصابت النّاسَ مجاعةٌ في غزاة تبوك، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنتَ فذبحنا نواضِحَنا، وأكلنا شحمَها ولحمَها! فقال: افعلوا، فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إنهم إن فعلوا قلّ الظَّهْر، ولكن ادعهم بفضَلات أزْوادهم فاجمعها، ثم ادعُ لهم عليها بالبركة، لعل الله يجعل في ذلكِ خيراً[٢].

ففعل رسول الله ﷺ ذلك، فأكل الخلق الكثير من طعام قليل، ولم تُذْبح النواضح.

وروى ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ يذكر له ذنباً أذنبه، فأنزل الله تعالى في أمره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[٣] فقال: يا رسول الله، لي خاصّة، أم للناس عامّة!

فضرب عمر صدره بيده وقال: لا، ولا نُعمى عين! بل للنّاس عامة. فقال رسول الله ﷺ: بل للناس عامة.

(١) أخرجه الأصبهاني في المسند المستخرج على صحيح مسلم (١/ ١٢٥).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على من مات على التوحيد دخل الجنة (٢٧)، وأحمد في باب: مسند أبي سعيد الخدري (١٠٦٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٣٠).
(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

وكان عمر يقول: وافقني رَبّي في ثلاث: قلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[١].

وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر، فلو أمرتَهنّ أن يحتجِبْن! فنزلت آية الحجاب.

وتمالأ عليه نساؤه غيرة، فقلت له: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[٢]، فنزلت بهذا اللفظ.

وقال عبد الله بن مسعود: فَضَل عمر النّاس بأربع: برأيه في أسارى بدر، فنزل القرآن بموافقته: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣]، وبرأيه في حجاب نساء النبيّ ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[٤] وبدعوة النبي ﷺ: «اللهم أيّد الإسلام بأحدِ الرجلين»[٥]، وبرأيه في أبي بكر، كان أول مَنْ بايعه.

وروت عائشة قالت: كنتُ آكل مع رسول الله ﷺ حَيْساً قبل أن تنزل آية الحجاب، ومرّ عمر فدعاه فأكل، فأصابت يده إصبعي، فقال: حَسِّ لو أطاعُ فيكنّ ما رأتكنّ عين! فنزلت آية الحجاب.

جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر، فقالا: يا خليفة رسول الله، إن عندنا أرضاً سَبِخة ليس فيها كلأٌ ولا منفعة، فإنْ رأيت أن تُقطعناها، لعلّنا نحرثُها أو نزرَعها! ولعلّ الله أن ينفَع بها بعد اليوم! فقال أبو بكر لمن حوله من الناس المسلمين: ما ترْون؟ قالوا: لا بأس، فكتب لهما بها كتاباً، وأشهد فيه شهوداً. وعمر ما كان حاضراً، فانطلقا إليه ليشهد في الكتاب، فوجداه قائماً يهنأ بعيراً، فقالا: إن خليفة رسول الله ﷺ كتب لنا هذا الكتاب، وجئناك لتشهد على ما فيه، أفتقرؤه أم نقرؤه عليك؟ قال: أعلى الحال التي تريان! إن شئتما فاقرآه، وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٥) أخرج الحاكم في «المستدرك» (٤٤٨٦) نحوه، وأحمد في «مسنده» باب: مسند عبد الله بن مسعود (٤٣٤٩)، والطبراني في «الكبير» (٨٨٢٨).

قالا: بل نقرؤه عليك، فلمّا سمع ما فيه، أخذه منهما، ثم تفَل فيه، فمحَاه، فتذامرا وقالا مقالة سيئة.

فقال: إنّ رسول الله ﷺ كان يتألّفكما والإسلام يومئذ ذَليل، وإنّ الله تعالى قد أعزّ الإسلام، فاذهبا فاجْهَدا جهدكما، لا رَعى الله عليكما إن رعيتما!

فذهبا إلى أبي بكر، وهما يتذمران، فقالا: والله ما ندري أنت أميرٌ أم عمر؟ فقال: بل هو لو شاء كان.

وجاء عمر وهو مغضَب، حتى وقف على أبي بكر، فقال: أخبرْني عن هذه الأرض التي أقْطعتَها هذين الرّجُليْن، أهي لك خاصّة، أم بين المسلمين عامّة! فقال: بين المسلمين عامّة، قال: فما حمَلك على أن تخصّ بها هذين دون جماعة المسلمين: قال: استشرتُ الذين حولي، فأشاروا بذلك، فقال: أفكلّ المسلمين أوسعتَهم مشورة ورضاً! فقال أبو بكر: فلقد كنتُ قلت لك: إنّك أقوى على هذا الأمر منّي، لكنّك غلبتني!

لمّا كتب النبي ﷺ كتابَ الصُلح في الحديبية بينَه وبين سُهيل بن عمرو، كان في الكتاب أنَّ من خَرَج من المسلمين إلى قريش لا يُردّ، ومَنْ خرج من المشركين إلى النبيّ ﷺ يُرَدّ عليهم، فغضِب عمر وقال لأبي بكر: ما هذا يا أبا بكر! أيردّ المسلمون إلى المشركين!، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ، فجلس بين يديْه، وقال يا رسول الله، ألستَ رسولَ الله حقًّا! قال: بلى، قال: ونحن المسلمون حقًّا! قال: نعم، قال: وهم الكافرون حقًّا! قال: نعم، قال: فعلامَ نعطِي الدنيّة في ديننا! فقال رسول الله: أنا رسول الله، أفعل ما يأمُرني به، ولن يضيّعَني. فقام عمر مغضَباً، وقال: لو أجد أعواناً ما أعطيتُ الدنيّة أبداً. وجاء إلى أبي بكر فقال له: يا أبا بكر، ألم يكن وعَدنا أننا سندخل مكّة، فأين ما وعدنا به؟ فقال أبو بكر: أقال لك: إنّه العام يدخلها؟ قال: لا، قال: فسيدخلها، فقال: فما هذه الصحيفة التي كتبت؟ وكيف نعطِي الدنيّة من أنفسنا! فقال أبو بكر: يا هذا، الزم غرزَه، فوالله إنّه لَرسولُ الله، وإن الله لا يضيّعه[(١)].

فلما كان يوم الفتح وأخذ رسولُ الله ﷺ مفتاح الكعبة، قال: ادعوا لِي عمر، فجاء فقال: هذا الذي كنتُ وعدتُكم به!

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٧٣٤). وأحمد في كتاب: المكيين، باب: حديث سهيل بن حنيف (١٥٥٤٥).

لمّا قُتِل المشركون يوم بدر أسِرَ منهم سبعون أسيراً، فاستشار رسول الله ﷺ فيهم أبا بكر وعمر، فقال أبو بكر: يا رسولَ الله، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان، وأرَى أن تأخذ منهم الفِدْية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على المشركين، وعسى أن يهديَهم الله بعد اليوم، فيكونوا لنا عذراً. فقال رسول الله ﷺ: ما تقول أنت يا عمر؟ قال: أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عَقِيل، فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنّه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين. اقتلهم يا رسول الله، فإنّهم صناديدهم وقادتهم. فلم يهوَ رسول الله ما قاله عمر.

قال عمر: فجئت رسول الله ﷺ، فوجدته قاعداً وأبو بكر، وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيكُما؟ حدّثاني، فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت، فقال رسول الله ﷺ: أبكي لأخذ الفداء، لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه.

قال عبد الله بن عمر: فكان رسول الله ﷺ يقول: كِدْنا أن يصيبنا شرٌّ في مخالفة عمر(١).

وقال عُمر في خلافته: لئن عشت إن شاء الله لأسيرنّ في الرعيّة حولاً، فإني أعلمُ أنَ للناس حوائجَ تقتطع دوني، أمّا عمّالهم فلا يرفعونها إليّ، وأمّا هم فلا يصلُون إليّ أسيرُ إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيمُ بها شهرين، ثم أسيرُ إلى مصر فأقيمُ شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيمُ بها شهرين، ثم إلى البصرة فأقيمُ بها شهرين، والله لنعم الحول هذا!

وقال أسْلَم: بعثني عمر بإبل من إبل الصّدقة إلى الحِمَى، فوضعت جهازي على ناقةٍ منها كريمة، فلمّا أردتُ أن أصدِرها قال: اعرضها عليّ، فعرضتها عليه، فرأى متاعي على ناقة حسناء، فقال: لا أمّ لكَ! عَمَدت إلى ناقة تُغْني أهلَ بيت من المسلمين! فهلاّ ابن لَبون بوّال، أو ناقة شَصوص!

وقيل لعمر: إن ها هنا رجلاً من الأحبار نَصرانيًا، له بصر بالديوان، لو اتّخذته كاتباً! فقال: لقد اتخذتُ إذاً بطانةً من دون المؤمنين!

---

(١) أخرج نحوه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ١٥٨)، والطبري في «تفسيره» نحوه أيضاً (١٠/ ٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٣).

قال، وقد خطب الناس: والذي بعث محمداً بالحق لو أنّ جملاً هَلك ضَيَاعاً بشط الفرات، خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب.

قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني بآل الخطاب نفسه، ما يعني غيرها.

وكتب إلى أبي موسى: إنه لم يزل للناس وجوه من الأمر، فأكرم مَنْ قبلك من وجوه النّاس، وبحسْب المسلم الضعيف من بين القوم أن ينصَف في الحكم وفي القَسْم.

أتى أعرابيّ عمر، فقال: إنّ ناقتي بها نَقَباً ودَبَراً، فاحملْني، فقال له: والله ما ببعيرك من نَقَبٍ ولا دَبَر، فقال:

أقْسَمَ بالله أبو حفصٍ عُمَرْ ... ما مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلاَ دَبَرْ

فاغفر له اللهمَّ إن كان فَجَرْ

فقال عمر: اللهم اغفر لي، ثم دعاه فحمله.

جاء رجل إلى عمر وكانت بينهما قرابة يسأله، فزَبره وأخرجه، فكلِّم فيه، وقيل: يا أميرَ المؤمنين زبرتَه وأخرجتَه. قال: إنّه سألني من مال الله، فما معذرتي إذا لقيتُه ملكاً خائناً؟ فلو سألَني من مالي!

ثم بعث إليه ألف درهم من ماله.

وكان يقول في عمّاله: اللهمّ إنّي لم أبعثهم ليأخذوا أموال المسلمين، ولا ليضربوا أبشارهم، مَنْ ظلَمه أميرُه فلا إمْرة عليه دوني!

بينا عمر ذات ليلة يُعسّ، سمع صوت امرأة من سطح وهي تنشد:

تَطَاوَلَ هذا اللَّيل وازْوَرَّ جانِبُهْ ... وليس إلى جنْبِي خليلٌ أُلاعِبُهْ

فوالله لولا الله تُخْشى عواقِبُهْ ... لَزُعْزِعَ من هَذَا السَّرير جوانبُهْ

مخافةَ رَبِّي والحياءُ يصدُّنِي ... وأُكرم بَعْلي أن تُنال مراكِبُهْ

ولكنَّنِي أخْشَى رقيباً موكَّلاً ... بأنفسنا لا يفترُ الدّهرَ كاتِبُهْ

فقال عمر: لا حول ولا قوة إلا بالله! ماذا صنعت يا عمر بنساء المدينة!

ثم جاء فضرب على حَفْصة ابنتِه، فقالت: ما جاء بك في هذه الساعة؟ قال: أخبريني كم تصبر المرأة المُغِيبة عن بعلها؟ قالت: أقصاه أربعة أشهر.

فلمّا أصبح كتب إلى أمرائه في جميع النواحي ألاّ تجمَّر البعوث، وألاّ يغيب رجلٌ عن أهله أكثر من أربعة أشهر[١].

وروى أسلم، قال: كنتُ مع عمر، وهو يُعسُّ بالمدينة، إذ سمع امرأةً تقول لبنتها: قومي يا بنيَّة إلى ذلك اللبن بعد المشرقين فامذُقيه[٢]، قالت: أو ما علمت ما كان من عزْمة أمير المؤمنين بالأمس؟ قالت: وما هو؟ قالت: إنّه أمر منادياً ينادي ألاّ يُشاب اللبن بالماء، قالت: فإنك بموضع لا يراك أمير المؤمنين ولا منادي أمير المؤمنين! قالت: والله ما كنت لأطيعه في الملأ، وأعصيه في الخلاء - وعمرٌ يسمع ذلك - فقال: يا أسلمُ، اعرف الباب، ثم مضى في عَسِّه، فلما أصبح، قال: يا أسلم، امض إلى الموضع، فانظر مَن القائلة ومَن المقول لها؟ وهل لهما من بَعْل؟

قال أسلم: فأتيت الموضع، فنظرت فإذا الجارية أيّم، وإذا المتكلّمة بنت لها، ليس لهما رجل.

فجئت فأخبرته، فجمع عمر ولده، وقال: هلْ يريدُ أحدٌ أن يتزوّج فأزوّجه امرأة صالحة فتاةً، ولو كان في أبيكم حركة إلى النساء لم يسبقه أحد إليها؟ فقال عاصم ابنه: أنا، فبعث إلى الجارية فزوّجها ابنه عاصماً، فولدت له بنتاً هي المكنّاة أم عاصم، وهي أمّ عمر بن عبد العزيز بن مروان.

حجّ عمر فلما كان بضجْنان[٣] قال: لا إله إلا الله العليّ العظيم، المعطي ما يشاء لمن يشاء، أذكُر وأنا أرعى إبل الخطّاب بهذا الوادي في مَدْرعة صوف - وكان فظًّا يُتْعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت - وقد أمسيت اليوم وليس بيني وبين الله أحدٌ ثم تمثّل:

لا شيءَ مِمّا يُرَى تَبقَى بشاشتُه ... يبقى الإله، ويودِي المالُ والولَدُ
لم تُغنِ عن هرمزٍ يوماً خَزَائِنُه ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خَلُدوا

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٤٦٣)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٥٩٤).

(٢) المزيق: اللبن الممزوج بالماء. القاموس المحيط، مادة (مذق).

(٣) ضجنان: هو موضع أو جبل بين مكة والمدينة. لسان العرب، مادة (ضجن).

ولا سليمان إذ تجري الرِّياحُ له | والإنس والجنّ فيما بينهما يردُ
أين الملُوك التي كانت منازلُها | مِنْ كُلّ أوبٍ إليها راكب يَفِدُ
حوض هنالِكَ مورودٌ بلا كَذِبٍ | لابدّ من وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

وروى محمّد بن سيرين أن عمرَ في آخر أيامه اعتراه نسيان حتى كان ينسى عددَ ركعات الصلاة، فجعل أمامه رجلاً يلقّنه، فإذا أومَى إليه أن يقوم أو يركع، فعل.

وسمع عمر منشداً ينشد قول طَرَفة:

فَلَوْلاَ ثَلاَثٌ هُنَّ مِنْ عشيةِ الْفَتَى | وَجَدِّكَ لَم أحِفل مَتَى قَامَ عُوَّدِي
فمنهنَّ سَبقِي العاذلاتِ بشَرْبةٍ | كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ
وكَرّي إذا نادى المضاف محنّباً | كسِيدِ الغَضَا نبّهتَه المتوسِّدِ
وتقصيرُ يوم الدَّجْن والدَّجْنُ معجِبٌ | ببهكَنَةٍ تحتَ الطّرافِ الممدّدِ

فقال: وأنا لولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى، لم أحفِلْ متى قام عُوّدي، أن أجاهدَ في سبيل الله، وأن أضع وجهي في التراب لله، وأن أجالس قوماً يلتقطون طيّب القول كما يُلتقط طيّب التمر.

وروى عبد الله بن بُريدة، قال: كان عمر ربّما يأخذ بيد الصبيّ، فيقول: ادعُ لي، فإنَّك لم تُذنب بعد!

وكان عمر كثير المشاورة، كان يشاور في أمور المسلمين حتى المرأة.

وروى يحيى بن سعيد، قال: أمر عمر الحسينَ بن علي عليه السلام أن يأتيَه في بعض الحاجة، فلقيَ الحسين عليه السلام عبدَ الله بن عمر، فسأله من أين جاء؟ قال: استأذنت على أبي فلم يأذن لي، فرجع الحسين ولقيَه عمر من الغد، فقال: ما منعك يا حسينُ أن تأتيَني؟ قال: قد أتيتُك، ولكن أخبرَني ابنُك عبد الله أنه لم يؤذَن له عليك، فرجعتُ، فقال عمر: أنت عندي مثله! وهل أنبت الشَّعر على الرأس غيرُكم[1]!

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ١٤/ ١٧٥.

قال عمر يوماً، والناس حوله: والله ما أدري أخليفة أنا أم مِلك! فإن كنتُ ملِكاً، فقد وُرّطتُ في أمرٍ عظيم، فقال له قائل: يا أميرَ المؤمنين إنّ بينهما فرقاً، وإنك إن شاء الله لعلى خير، قال: كيف؟ قال: إن الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق، وأنت بحمد الله كذلك، والمَلِك يعسِف النّاس ويأخذ مال هذا فيعطيه هذا.

فسكت عمر وقال: أرجو أن أكونه.

وروى مالك عن نافع، عن ابن عمر، أن عمر تعلّم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلمّا ختمها نحر جَزُوراً.

وروى أنس، قال: كان يُطرح لعمر كلّ يوم صاعٌ من تمر، فيأكله حتى حشَفه.

وروى يوسف بن يعقوب الماجشون، قال: قال لي ابن شهاب ولأخ لي وابن عمٍّ لنا، ونحن صبيان أحداث: لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإنّ عمر كان إذا نَزَل به الأمر المعضل، دعا الصبيان فاستشارهم، يبتغي حِدّة عقولهم.

وروى الحسن، قال: كان رجل لا يزال يأخذ من لحية عمر شيئاً فأخذ يوماً من لحيته، فقبض على يده فإذا فيها بشيء، فقال: إن المَلَق من الكذِب ثم عَلاه بالدِّرّة.

انقطع شِسْع نعل عمر، فاسترجع وقال: كلّ ما ساءك فهو مصيبة.

وقف أعرابيّ على عمر، فقال له:

يابن خطّابِ جُزيتَ الجنّهْ ... اكسُ بُنَيّاتِي وأمّهُنّه

أقسم بالله لتفعلنّه

فقال عمر: إن لم أفعل، يكون ماذا؟

قال:

إذاً أبا حَفْصٍ لأمضيّنهْ

فقال: إذا مضيت يكون ماذا؟

قال:

تكون عن حالي لتُسألنّهْ ... يوم تكونُ الأعطِياتُ جُنّهْ

والواقف المسؤولُ يُبْهَتنّهْ ... إمّا إلى نارٍ وإمّا جَنّهْ

فبكى عمر، ثم قال لغلامه: أعطه قميصي هذا لذلك اليوم، لا لشِعره، والله ما أملك ثوباً غيره.

وروى ابن عباس قال: قال لي عمر ليلة: أنشِدْني لشاعر الشعراء، قلت: ومَنْ هو؟ قال: زهير الذي يقول:

إذَا ابْـتَـدَرَتْ قـيـسُ بـن عَـيـلان غـايـةً ... مـن الـمـجـدِ مَـنْ يـسـبـق إلـيـهـا يـسـوّدِ

فأنشدته حتى بَرَق الفجر، فقال: إيهاً الآن! اقرأ يا عبد الله، قلت: ما أقرأ؟ قال: سورة الواقعة.

سمع عمر صوت بكاء في بيت، فدخل وبيده الدِّرّة، فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة، فضربها حتى سقط خِمارها، ثم قال لغلامه: اضرب النائحة، ويلك! اضربها فإنها نائحةٌ لا حرمةَ لها، لأنها لا تبكي بشجوِكم، إنّها تُهريق دموعَها على أخذ دراهمكم، إنها تؤذي أمواتكم في قبورهم، وأحياءكم في دورهم، إنها تنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه.

ومن كلامه: من اتجّرَ في شيء ثلاث مرات فلم يصِب فيه، فليتحوّل عنه إلى غيره.

ومن كلامه: لو كنتُ تاجراً لما اخترت على العطر شيئاً، إن فاتني ربْحُه لم يفتني ريحه.

ومن كلامه: تفقَّهوا قبل أن تسوَّدُوا.

ومن كلامه: تعلّموا المهنة، فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى مهنته.

ومن كلامه: مكسبة فيها بعض الدناءة، خير من مسألة الناس.

ومن كلامه: أعقلُ الناس أعْذَرُهم لهم.

رأى عمر ناساً يتبعون أبيّ بن كعب، فرفع عليه الدرّة، فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله، قال: فما هذه الجموع خلفك يابن كعب! أما علمتَ أنها فتنة للمتبوع، مذلّة للتابع.

جاء رجلٌ إلى عمر، فقال: إنّ بنتاً لي واريتُها في الجاهليّة، فاستخرجناها قبل أن تموتَ، فأدركت معنَا الإسلام، فأسلمت، ثم قارفتْ حدًّا من حدود الله، فأخذت الشَّفرة لتذبحَ نفسها، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها، فداويناها حتى برئت، وتابت توبةً حسنة، وقد خطبها قوم، أفأخبرهم بالذي كان من شأنها؟ فقال عمر: أتعمِد إلى ما ستره الله فتبديَه، والله لئن اخبرتَ بشأنها أحداً لأجعلنّك نكالاً لأهل الأمصار! أنكِحْها نكاح العفيفة السليمة.

أسلم غيلان بن سلَمة الثقفيّ عن عشر نسوة، فقال له النبيّ ﷺ: اخْتَرْ منهنّ أربعاً، وطلّق ستاً، فلمّا كان على عهد عمر طلّق نساءه الأربع، وقسّم ماله بين بنيه، فبلَغ ذلك عمر، فأحضره فقال له: إنّي لأظنّ الشيطان فيما يسترق من السمع، سمع بموتك فقذفه في نفسك، ولعلك لا تمكث إلا قليلاً! وايمُ الله لتراجعنّ نساءك، ولترجعنّ في مالك، أو لأورّثنهن منك، ولآمرنّ بقبرك فيرجَم، كما رجِم قبر أبي رِغال[1].

وقال عمر: إن الجزْف في المعيشة أخوَف عندي عليكم من العِيال، إنّه لا يبقى مع الفساد شيء، ولا يقلّ مع الإصلاح شيء.

وكان عمر يقول: أدّبُوا الخيل، وانتضِلوا، واقْعدوا في الشمس، ولا يجاورنّكم الخَنازير، ولا تقعدوا على مائدَةٍ يُشرب عليها الخمر، أو يرفع عليها الصليب، وإياكم وأخلاقَ العجم، ولا يحلّ لمؤمنٍ أن يدخل الحمّام إلا مؤتزراً، ولا لامرأة أن تدخُلَ الحمّام إلا من سَقَم، فإذا وضعت المرأة خِمارها في غير بيت زوجها، فقد هتكت السِّتر بينها وبين الله تعالى.

وكان يكره أن يتزيّا الرّجال بزِيّ النساء، وألاّ يزال الرّجل يُرى مكتحلاً مُدَّهناً، وأن يحُفّ لحيتَه وشاربَه كما تحُفّ المرأة.

سمع عمر سائلاً يقول: مَنْ يعشّي السائل؟ فقال: عَشّوا سائلكم، ثم جاء إلى دار إبِل الصّدقة يعشّيها، فسمع صوته مرة أخرى: من يعشّي السائل؟ فقال: ألم آمركم أن تعشوه! فقالوا: قد عشّيناه، فأرسل إليه عمر، وإذا معه جرابٌ مملوء خبزاً، فقال: إنّك لست سائلاً، إنما أنت تاجر تجمع لأهلك، فأخذ بطَرَف الجراب فنبذَه بين يَدَيِ الإبل.

وقال عمر: من مَزَح استُخِفّ به، وقال: أتدرُون لم سمّي المُزاح مُزاحاً؟ لأنه أزاح الناس عن الحقّ.

ومن كلامه: لن يعطَى أحدٌ بعد الكفر بالله شرًّا من زوجةٍ حديدة اللسان، سيّئة الخلْق، عقيم. ولن يعطَى أحدٌ بعد الإيمان بالله خيراً من زوجةٍ كريمة ودود وَلُود، حَسَنة الخلْق.

وكان يقول: إن شقاشق[2] الكلام من شقاشق اللسان، فأقلّوا ما استطعتم.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر نسوة (١١٢٨)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين، باب: مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب (٤٦١٧)، وابن حبان (٤١٥٦).

(٢) الشِقشقة: بالكسر شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج ومنه سمي الخطباء شقائق، شَبَّهوا المكثرا بالبعير الكثير الهدر. لسان العرب، مادة (شقق).

ونظر إلى شابّ قد نكّس رأسه خشوعاً، فقال: يا هذا، ارفع رأسك، فإنّ الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للخلْق خشوعاً فوق ما في قلبه، فإنما أظهر نفاقاً.

ومن كلامه: إنّ أحبّكم إلينا ما لم نركم أحسنكم أسماء، فإذا رأيناكم فأحبّكم إلينا أحسنكم أخلاقاً، فإذا بلوناكم فأحبكم إلينا أعظمكم أمانة، وأصدقكم حديثاً.

وكان يقول: لا تنظروا إلى صلاة امرىء ولا صيامِه، ولكن انظروا إلى عقله وصِدْقه.

ومن كلامه: إنّ العبد إذا تواضع لله رفع حَكَمَتَه، وقال له: انتعش نعشَك الله! فهو في نفسه صغير، وفي أعينِ الناس عظيم. وإذا تكبّر وعتَا وهَضه[1] الله إلى الأرض، وقال: اخْسَأ، خَسَأك الله! فهو في نفسه عظيم، وفي أعين الناس حقير، حتى يكون عندهم أحقر من الخنزير.

وقال: الإنسان لا يتعلّم العلم لثلاث، ولا يتركه لثلاث: لا يتعلّمه ليمارِيَ به، ولا ليباهيَ به، ولا ليرائيَ به. ولا يتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل بدلاً منه.

وقال: تعلّموا أنسابكم تَصِلوا أرحامكم.

وقال: إنّي لا أخاف عليكم أحد الرّجُلين، مؤمناً قد تبيّن إيمانُه، وكافراً قد تبيّن كفره، ولكن أخاف عليكم منافقاً يتعوّذ بالإيمان ويعمل بغيره.

ومن كلامه: إن الرّجف من كثرة الزنى، وإن قحوط المطر من قضاة السوء وأئمة الجوْر.

وقال في النساء: استعينوا عليهنّ بالعُرْيِ، فإن إحداهُنّ إذا كثرتْ ثيابها، وحسنت زينتها، أعجبها الخروج.

ومن كلامه: إن الجِبْت السّحر، وإنّ الطاغوت الشيطان، وإنّ الجبن والشجاعة غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمّن لا يعرف، ويفرّ الجبان عن أمّه، وإن كرَم الرّجل دينه، وحسبَ الرّجُل خُلُقه، وإن كان فارسيًا أو نبَطيًا.

وقال: تفهّموا العربيّة، فإنّها تشحذ العقل، وتزيد في المروءة.

وقال: النّساء ثلاث: امرأة هيّنة ليّنة عفيفة، وَدُود ولود، تعين بعلها على الدّهر، ولا تعينُ الدّهر على بعلها، وقلّما تجدها. وأخرى وِعاء للولد لا تزيد على ذلك شيئاً، والثالثة غلٌّ قَمِلٌ[2]، يجعله الله في عُنُق مَنْ يشاء، وينزعه إذا شاء.

والرجال ثلاثة: رجل عاقلٌ يُورِد الأمور ويُصدِرها، فيحسن إيراداً وإصداراً، وآخر يشاورُ الرجال، ويقف عند آرائهم، والثالث حائر بائر، لا يأتمر رشداً، ولا يُطيع مرشداً.

---

(١) وهضه ووهطه: أي كسره، لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة (وهط).

(٢) غُلٌّ قَمِلٌ: أصله أنهم كانوا يغلّون الأسير وعليه الشعر فيقمل. القاموس المحيط، مادة (قمل).

وقال: ما يمنعكم إذا رأيتم السّفيه يخرق أعراضَ النساء أن تُعرِّبوا عليه، قالوا: نخاف لسانه، قال: ذاك أدْنَى ألا تكونوا شهداء.

ورأى رجلاً عظيمَ البطن، فقال: ما هذا؟ قال: بركة من الله.

وقال: إذا رُزقت مودّة من أخيك فتشبَّث بها ما استطعت.

وقال لقوم يحصدون الزرع: إن الله جعل ما أخطأت أيديكم رحمةً لفقرائكم، فلا تعودوا فيه.

وقال: ما ظهرت قطُّ نعمة على أحدٍ إلا وجدتَ له حاسداً، ولو أنّ امرأً كان أقوم من قِدْحٍ، لوجدتَ له غامزاً.

وقال: إيّاكم والمدحَ، فإنه الذّبح.

وقال لقَبيصة بن ذؤيب: أنت رجل حديث السنّ، فصيح اللسان. وإنه يكون في الرجل تسعة أخلاق حسنة، وخلُق واحد سيّىء، فيغلب الواحد التسعة، فتوقّ عثراتِ السيّئات.

وقال: بحسب امرىء من الغيّ أن يؤذيَ جليسه، أو يتكلّف ما لا يعنيه، أو يعيب الناس بما يأتي مثله، ويظهر له منهم ما يخفى عليهم من نفسه.

وقال: احترسوا من النّاس بسوء الظنّ.

وقال في خطبة له: لا يعجبنّكم من الرجل طنطنته، ولكن مَنْ أدّى الأمانة، وكفَّ عن أعراض الناس فهو الرّجل.

وقال: الراحة في مُهاجرة خلَطاء السوء.

وقال: إنّ لؤماً بالرجل أن يرفع يديه من الطعام قبل أصحابه.

وأثنى رجل على رجل عند عمر، فقال له: أعاملتَه؟ قال: لا، قال: أصحبتَه في السفر؟ قال: لا، قال: فأنت إذاً القائل ما لا يعلم.

وقال: لأن أموت بين شُعبتي رَحْلي، أسعى في الأرض، أبتغي من فضل الله كَفاف وجهي، أحبّ إليّ من أن أموت غازياً.

وكان عمر قاعداً والدّرّة معه، والناس حوله، إذ أقبل الجارود العامريّ، فقال رجل: هذا سيّد ربيعة، فسمعها عمر ومَن حوله، وسمعها الجارود، فلمّا دنا منه، خفَقَه بالدّرّة! فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين! قال: ويلك! سمعتَها! قال: وسمعتُها، فمه! قال: خشيت أن تخالط القوم ويقال: هذا أمير، فأحببتُ أن أطأطىء منك.

وقال: من أحبَّ أن يصل أباه في قبره، فليصلْ إخوان أبيه من بعده.

وقال: إنّ أخوَف ما أخاف أن يكون، إعجابُ المرء برأيه، فمن قال: إنّي عالم فهو جاهل، ومن قال: إنّي في الجنّة فهو في النار.

وخرج للحجّ فسمع غناء راكبٍ يغنّي وهو مُحرِم، فقيل: يا أمير المؤمنين، ألا تنهاه عن الغناء وهو محرم؟ فقال: دعوه، فإنّ الغناء زادُ الراكب.

وقال: يُثغِر(١) الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، ويكمل عقله لثمانٍ وعشرين، ويصير رجلاً كاملاً لأربعين.

وروى سعيد بن المسيّب، أنّ عمر لما صدَر من الحجّ في الشهر الذي قتل فيه، كوّم كَوْمةً من بطحاء، وألقى عليها طرف ثوبه، ثم استلقى عليها، ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم كبِرت سنّي، وضعفت قُوّتي، وانتشرت رعيّتي، فاقبضني إليك غيرَ مضيّع ولا مفرّط.

ثم قدم المدينة فخطب الناس، فقال:

أيّها الناس قد فرضتُ لكم الفَرائض، وسنَنتُ لكم السُّنَن، وتركتكم على الواضحة، إلا أن تضِلّوا بالناس يميناً وشمالاً. إيّاكم أن تنتهوا عن آية الرّجْم، وأن يقول قائل: لا نجد ذلك حدًّا في كتاب الله، فقد رأيت رسول الله رجم ورجَمْنا بعده، ولولا أن يقول الناس: إنّ ابن الخطاب أحدث آيةً في كتاب الله لكتبتُها، ولقد كنا نقرؤها: «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة»(٢)، فما انسلخ ذو الحجة حتى طُعِن.

دُفع إلى عمرَ صكٌّ محلّه في شعبان، فقال: أيّ شعبان؟ الّذي مضى أم الذي نحن فيه؟ ثمّ جمع أصحَاب رسول الله ﷺ، وقال: ضَعُوا للنّاس تاريخاً يرجعون إليه، فقال قائل منهم: اكتبُوا على تاريخ الرّوم، فقيل: إنّه يطول، وإنّه مكتوبٌ من عهد ذي القرنين. وقال قائل: بل اكتبوا على تاريخ الفُرْس، فقيل إن الفرس كلّما قام ملك طرحوا ما كان قبلَه. فقال عليّ عليه السلام: اكتبُوا تاريخكم منذ خرج رسولُ الله ﷺ من دَار الشّرك إلى دار النُّصرة، وهي دار الهجرة(٣)، فقال عمر: نعم ما أشرت به، فكتب للهجرة، بعد مضيّ سنتين ونصف من خلافة عمر. قال المؤرخون: إنّ عمر أوّل مَنْ سنّ قيام رمضان في جماعة، وكتب به إلى البلدان، وأقام الحدّ في الخمر ثمانين، وأحرق بيت رُوَيشِد الثقفيّ، وكانَ نبّاذاً، وأقام في عمله بنفسه. وأوّل مَنْ حمل الدِّرّة وأدّب بها. وقيل بعده: كانت دِرّة عمر أهيَب من سيف الحجاج.

---

(١) ثُغِرَ الغلام ثَغراً: سقطت أسنانه الرواضع. لسان العرب، مادة (ثغر).

(٢) وهي الآية التي قيل أن عمر أراد وضعها في كتاب الله المنزل.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ١/ ٤٠.

وهو أوّل مَنْ فتح الفتوح، فتح العراق كلّه: السَّواد والجبال وأذرَبيجان، وكوّر البصرة، وكوّر الكوفة والأهواز، وفارس، وفتح الشّام كلّه ما خلا أجنادِين، فإنّها فُتِحت في خلافة أبي بكر. وفتح كُور الجزيرة والموصل ومصر والإسكندرية، وقتله أبو لؤلؤة وخيلُه على الرّيّ.

وهو أوّلَ مَنْ مَسَح السّواد ووضع الخراج على الأرض، والجزْية على جماجم أهل الذّمة فيما فتحه من البلدان، وبلغ خراجُ السّواد في أيامه مائة ألف ألف درهم وعشرين ألف ألف درهم بالوافية، وهي وزن الدّينار من الذهب.

وهو أوّل مَنْ مصّر الأمصار، وكَوّف الكوفة، وبصّر البصرة، وأنزلها العرب، وأوّل مَن استقضى القُضاة في الأمصار، وأوّل مَنْ دوّن الدواوين، وكتب الناس على قبائلهم، وفرضَ لهم الأعطية.

وهو أوّل مَنْ قاسم العمّال وشاطرهم أموالهم، وكان يستعمل قوماً ويدَع أفضل منهم لبصرهم بالعَمل، وقال: أكره أن أدنّس هؤلاء بالعمل.

وهو الّذِي هَدَم مسجد رسول الله ﷺ، وزاد فيه، وأدخل دار العباس فيما زاد.

وهو الّذِي أخرج اليهود من الحجاز، وأجْلاَهم عن جزيرة العرب إلى الشام.

وهو الّذِي فتح البيت المقدس، وحضَر الفتح بنفسه. وهو الذي أخّر المقام إلى موضعه اليوم، وكان مُلْصَقاً بالبيت. وحجّ بنفسه خلافتَه كلّها إلاّ السّنَة الأولى، فإنّه استخلف على الحجّ عبد الرحمن بن عوف.

وهو الّذِي جاء بالحصى من العقيق فبسطه في مسجد المدينة، وكان النّاسُ إذا رفعوا رؤوسهم من السجود نفضوا أيديَهم.

وروى أبو هريرة، قال: قدِمْتُ على عمر من عند أبي موسى بثمانمائة ألف درهم، فقال لي: بماذا قدمت؟ قلت: بثمانمائة ألف درهم، فقال: ألم أقل لك إنّك يمانٍ أحمق، ويحك! إنّما قدمتَ بثمانين ألف درهم، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما قدِمت بثمانمائة ألف درهم، فجعل يعجب ويكرّرها، فقال: ويحك! وكم ثمانمائة ألف درهم؟ فعدَدْتُ مائة ألف، ومائة ألف حتى بلغت ثمانية، فاستعظم ذلك، وقال: أطيِّبٌ هو ويَحْك! قلت: نعم، فبات عمر ليلته تلك أرِقاً حتّى إذا نُودي لصلاة الصبح، قالت له امرأته: ما نمتَ هذه الليلة، قال: وكيف أنام وقد جاء الناسَ ما لم يأتهم مثله منذ قام الإسلام، فظنّت المرأة أنّها داهية، فسألته، فقال: مالٌ جَمّ، حمله أبو موسى، قالت: فما بالك؟ قال: ما يؤمِّنُني لو متّ وهذا المال عندي لم أضعْه في حقه! فخرج يصلِّي الصبح، واجتمع النّاسُ إليه، فقال لهم: قد رأيتُ في هذا المال رأياً فأشيروا عليّ، رأيت أن أكيله للناس بالمكيال، قالوا: لا يا أمير المؤمنين، قال: لا بل أبداً

برسول الله ﷺ وبأهله، ثم الأقرب فالأقرب، فبدأ ببني هاشم، ثم ببني المطلّب، ثم بعبد شمس ونوفل، ثمّ بسائر بطون قريش.

قسّم عمر مُروطاً بين نساء المدينة فبقي مِرْطٌ جيّد له فقال بعض من عنده: أعْطِ هذا يا أمير المؤمنين ابنةَ رسول الله التي عندك - يعنون أمّ كلثوم ابنَة عليّ عليه السلام - فقال: أمّ سليط أحق به، فإنها مِمَّن بايع رسول الله ﷺ، وكانت تَزْفِر[1] لنا القِرب يوم أُحُد[2].

وروى زيد بن أسلَم عن أبيه، قال: خرجتُ مع عمر إلى السوق، فلحِقتْه امرأة شابة، فقالت: يا أميرَ المؤمنين، هَلَك زوجي، وترك صِبْيَةً صغاراً لا يُنْضِجون كُراعاً، لا زرع لهم ولا ضَرْع، وقد خَشِيت عليهم الضَّيْعة، وأنا ابنة خِفاف بن أسماء الغِفَارِيّ، وقد شهد أبي الحُديبيَة. فوقف عمر مَعها ولم يمضِ، وقال: مرحباً بنسيبٍ قريب! ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الدّار، فحمل عليه غِرَارتين ملأهما طعاماً، وجعل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خِطامه وقال: اقتاديه فلن يفنَى هذا حتى يأتيَكم الله بخير. فقال له رجل: لقد أكثرتَ لها يا أمير المؤمنين! فقال: ثكلتك أمّك! والله لكأنّي أرى أبا هذه وأخاها، وقد حاصرا حصناً فافتتحاه. فافترقنا، ثم أصبحنا نستقرِىء سُهمانَنا فيه.

وروى الأوْزاعيّ أن طلحة تبع عمر ليلةً، فرآه دخل بيتاً ثم خرج، فلمّا أصبح ذهب طلحة إلى ذلك البيت، فرأى امرأةً عمياء مقعَدة، فقال لها: ما بال رجُلٍ أتاك الليلة؟ قالت: إنّه رجلٌ يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلِحُني، فقال طلحة: ثكلتْك أمّك يا طلحة! تريد تَتَبُّع عمر!

خرج عمر إلى الشام، حتى إذا كان ببعض الطريق، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابُه، فأخبروه أنّ الوباء قد وقع بالشّام، فقال لابن عباس: ادْعُ لي المهاجرين، فدعاهم فسألهم، فاختلفوا عليه، فقال بعضهم: خرجتَ لأمرٍ ولا نرى أن ترجعَ عنه. وقال بعضهم: معك بقيّة النّاس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمَهم على هذا الوباء،

---

(١) أي تحمل القرب مملوءة ماء. لسان العرب، مادة (زفر).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو (٢٨٨١).

فقال: ارتفعوا عنّي، ثم قال لابن عباس: ادعُ لي الأنصار، فدعاهم فاستشارهم، فاختلفوا عليه اختلافَ المهاجرين، فقال لابن عباس: ادعُ لي مَنْ كان من مَشْيَخة قريش من مهاجِرة الفتح، فدعاهم فقالوا بأجمعهم: نرى أن تَرْجِع بالنّاس ولا تقدِمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ، فأصبحوا عليه، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قَدَر الله تعالى! فقال عمر: لو غيرُكَ قالها يا أبا عبيدة! نعمْ نفِرّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله، أرأيت لو كان لك إبلٌ فهبطت وادياً له عُدْوتان، إحدَاهما خِصْبة، والأخرى جَدْبة، أليس إنْ رعيتَ الخِصْبة رعيتَها بقدَر الله، وإن رعيت الجَدْبة رعيتَها بقدر الله! فجاء عبد الرحمن بن عَوْف - وكان متغيّباً في بعض حاجته - فقال: إنّ عندي مِنْ هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا سمعتُم به بأرضٍ فلا تُقْدِموا عليه، وإذا وقع بأرْضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»[١]. فحمد عمرُ الله عَزّ وجلّ وانصرف إلى المدينة.

وروَى ابن عبّاس، قال: خرجتُ مع عمر إلى الشّام في إحدى خرجاته، فانفرد يوماً يسير على بعيره فاتبعتُه، فقال لي: يابنَ عباس، أشكو إليك ابنَ عَمّك، سألتُه أن يخرُج معي فلم يفْعل، ولم أزل أراه واجداً، فيمَ تظنّ موجدته؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إنّك لَتعلم، قال: أظنه لا يزال كئيباً لفوت الخلافة، قلت: هو ذاك، إنّه يزعُم أنّ رسول الله أراد الأمر له، فقال: يابن عباس، وأراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد أمراً، وأراد الله غيرَه، فنفذ مراد الله تعالى ولم ينفذ مرادُ رسوله، أوَ كلّما أراد رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم كان! إنّه أرادَ إسلامَ عمّه ولم يُرِدْه الله فلم يسلمْ[٢]!

وقد رُوِي معنى هذا الخبر بغير هذا اللفظ، وهو قوله: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يذكره للأمر في مرَضِه، فصددتُه عنه خوفاً من الفتنة، وانتشار أمر الإسلام، فعلم رسول الله ما في نفسي وأمسك، وأبى الله إلا إمضاء ما حتم.

وحدثني الحسين بن محمد السِّنيّ، قال: قرأتُ على ظهر كتاب، أنّ عمر نزلت به نازلة، فقام لها وقعد، وترنّح لها وتقطّر، وقال لمن عنده: معشرَ الحاضرين، ما تقولون في هذا الأمر؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمنزع، فغضب وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[٣]، ثم قال: أما والله إني وإيّاكم لنعلم ابن بَجْدَتِها والخبيرَ بها، قالوا: كأنّك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٩)، ومسلم في كتاب: السلام، باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٩)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: حديث عبد الرحمٰن بن عوف الزهري (١٦٨٥).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٩/٦٣٩.

(٣) سورة الإحزاب، الآية: ٧٠.

أردت ابن أبي طالب! قال: وأنّى يعدَل بي عنه، وهل طفحت حرّة مثله! قالوا: فلو دعوتَ به يا أمير المؤمنين! قال: هيهات! إنّ هناك شمَخاً من هاشم، وأثَرةً من علم، ولحمة من رسول الله ﷺ، يُؤتَى ولا يأتِي، فامضوا بنا إليه. فانقصَفُوا نحوه وأفضَوْا إليه، فألفَوْه في حائط له، عليه تُبّان، وهو يتركّل على مسحاته، ويقرأ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[1] إلى آخر السورة، ودموعه تهمِي على خدّيه، فأجهش النّاس لبكائه فبكوْا، ثمّ سكت وسكتوا، فسأله عمر عن تلك الواقعة فأصدرَ جوابها، فقال عمر: أما والله لقد أرادك الحقّ، ولكن أبى قومُك، فقال: يا أبا حفص، خَفِّضْ عليك من هنا ومن هنا ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾[2]، فوضع عمر إحدَى يديْه على الأخرى، وأطرق إلى الأرض، وخرج كأنما ينظر في رماد.

قلت: أجدر بهذا الخبر أن يكون موضوعاً، وفيه ما يدلُّ على ذلك، من كَوْنِ عمر أتى علياً يستفتيه في المسألة، والأخبار كثيرة بأنّه ما زال يدعوه إلى منزله وإلى المسجد، وأيضاً فإنّ علياً لم يخاطب عمر منذ وَليَ الخلافة بالكُنْية، وإنما كان يخاطبه بإمرة المؤمنين، هكذا تنطق كتب الحديث وكتب السِّير والتواريخ كلّها.

وأيضاً فإنّ هذا الخبر لم يُسْنَد إلى كتاب معيّن، ولا إلى راوٍ معيّن، بل ذكر ذلك أنه قرأه على ظهر كتاب، فيكون مجهولاً، والحديث المجهول غيرُ الصحيح.

فأمّا ثناء عمر على أمير المؤمنين فصحيحٌ غيرُ منكَرٍ، وفي الروايات منه الكثير الواسع، ولكنا أنكرنا هذا الخبر بعينه خاصة، وقد روي عن ابن عباس أيضاً، قال: دخلتُ على عمرَ يوماً فقال: يابن العباس، لقد أجهدَ هذا الرّجلُ نفسَه في العبادة حتى نحلتْه، رياء. قلت: مَنْ هو؟ فقال: هذا ابنُ عمّك - يعني علياً - قلت: وما يقصد بالرّياء أميرَ المؤمنين؟ قال: يرشّح نفسَه بين الناس للخلافة، قلت: وما يصنع بالتّرْشيح! قد رشّحه لها رسول الله ﷺ فصُرِفَتْ عنه. قال: إنّه كان شابًا حَدَثاً، فاستصغرتِ العرب سنّه، وقد كَمل الآن، ألم تعلم أن الله تعالى لم يبعث نبيًا إلا بعد الأربعين! قلت: يا أمير المؤمنين، أمّا أهلُ الحجى والنّهى فإنهم ما زالوا يعدُّونه كاملاً منذ رفع الله منارَ الإسلام، ولكنّهم يعدونه محروماً مَجْدوداً، فقال: أما إنه سيليها بعد هِياط ومِياط، ثم تزِل فيها قدمه، ولا يقضي منها أربه، ولتكونَنّ شاهداً ذلك يا عبد الله، ثم يتبيّن الصُّبح لذي عينين، وتعلم العرب صحّة رأي المهاجرين الأوّلين الّذِينَ صرفوها عنه بادىء بدءٍ، فليتني أراكم بعدي يا عبد الله! إنّ الحِرْص محرّمة، وإن دُنياك كظلّك، كلّما هممت به ازداد عنك بعداً.

نقلت هذا الخبر من أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب، رحمه الله.

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة النبأ، الآية: ١٧.

ونقلتُ منه أيضاً ما رواه عن ابن عبّاس، قال: تبرّم عمرُ بالخلافة في آخر أيامه، وخاف العجز، وضجِر من سياسة الرعيّة، فكان لا يزال يدعو الله بأن يتوفّاه. فقال لكعب الأحبار يوماً وأنا عنده: إنّي قد أحببتُ أن أعهد إلى مَنْ يقوم بهذا الأمر، وأظنّ وفاتي قد دنتْ، فما تقول في عليٍّ؟ أشرْ عليّ في رأيك وأذكِرْني ما تجدونه عندكم، فإنّكم تزعمون أنّ أمرَنا هذا مسطورٌ في كتبكم، فقال: أما من طريق الرأي فإنّه لا يصلح، إنه رجل متين الدّين، لا يُغضي على عَوْرة، ولا يحلُم عن زلّة، ولا يعمل باجتهاد رأيه، وليس هذا من سياسة الرعيّة في شيء، وأما ما نجدُه في كتبنا فنجده لا يلِي الأمر ولا ولدُه، وإن وليَه كان هَرْجٌ شديد، قال: كيف ذاك؟ قال: لأنه أراق الدماء، فحرمه الله الملك. إن داود لما أراد أن يبنيَ حيطان بيت المقدس أوْحَى الله إليه: إنك لا تبنيه، لأنك أرقت الدماء، وإنما يبنيه سليمان. فقال عمر: أليس بحقٍّ أراقها؟ قال كعب: وداود بحقٍّ أراقها يا أميرَ المؤمنين. قال: فإلى مَنْ يُفضي الأمر تجدونه عندكم؟ قال: نجدُه ينتقل بعد صاحب الشريعة والاثنين من أصحابه، إلى أعدائه الّذين حاربهم وحاربوه، وحاربهم علَى الدّين. فاسترجع عمر مراراً، وقال: أتستمع يابنَ عباس! أما والله لقد سمعتُ من رسول الله ما يشابه هذا، سمعته يقول: «ليصعدَنّ بنو أميّة على مِنْبَري، ولقد أُريتهم في منامي ينزون عليه نَزْوَ القردة»[١]. وفيهم أنزل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[٢].

وقد روى الزبير بن بكار في «الموفقيّات» ما يناسب هذا عن المغيرة بن شعبة، قال: قال لي عمر يوماً: يا مغيرةُ، هل أبصرتَ بهذه عينك العوراء منذ أصيبتْ؟ قلت: لا، قال: أما والله ليُعْوِرَنّ بنُو أميّة الإسلام كما أعْوِرَتْ عينك هذه، ثم ليُعميَنّه حتى لا يدري أين يذهب ولا أين يجيء؟ قلت: ثم ماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: ثم يبعث الله تعالى بعْد مائة وأربعين أو بعد مائة وثلاثين وفداً كوفد الملوك، طيّبة ريحهم، يعيدون إلى الإسلام بصَره وشتاته. قلت: مَنْ هم يا أمير المؤمنين؟ قال: حجازيّ وعراقيّ، وقليلاً ما كان، وقليلاً ما دام[٣].

وروى أبو بكر الأنباريّ في أماليه[٤] أنّ عليًّا عليه السلام جلَس إلى عمر في المسجد، وعنده ناس،

(١) أخرج أبو يعلى في «مسنده» نحوه (٦٤٦١).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.
(٣) أخرجه عبد الرحمن البكري في عمر بن الخطاب: ٢٤٤.
(٤) ذكره في «كشف الظنون» (١/ ١٦٢).

فلمّا قام عرض واحد بذكره، ونسبه إلى التّيه والعُجْب، فقال عمر: حقّ لمثله أن يتيه! والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعدُ أقضى الأمّة وذو سابقتها وذو شَرَفها، فقال له ذلك القائل: فما منعكم يا أميرَ المؤمنين عنه؟ قال: كرهناهُ على حداثة السّن وحبّه بني عبد المطلب.

قلت: سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد - وقد قرأت عليه هذه الأخبار - فقلت له: ما أراها إلاّ تكاد تكون دالّةً على النصّ، ولكني أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نصّ رسول الله ﷺ على شخص بعينه، كما استبعدنا من الصحابة على رد نصّه على الكعبة وشهر رمضان وغيرهما من معالم الدّين، فقال لي رحمه الله: أبيتَ إلاّ مَيلاً إلى المعتزلة! ثم قال: إن القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنّها من معالم الدين، وأنّها جارية مجرى العبادات الشرعية، كالصلاة والصوم، ولكنهم كانوا يُجرونها مجرى الأمور الدنيويّة، ويذهبون لهذا، مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعيّة، وما كانوا يبالون في أمثال هذا من مخالفة نصوصه ﷺ إذا رأوا المصلحة في غيرها، ألا تراه كيف نصّ على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة، ولم يخرُجا لمّا رأيا أنّ في مقامهما مصلحةً للدولة وللملّة، وحفظاً للبَيْضة، ودفعاً للفتنة، وقد كانَ رسول الله ﷺ يخالَف وهو حيّ في أمثال ذلك فلا ينكره، ولا يرى به بأساً. ألستَ تعلم أنّه نزَل في غزاة بدر منزلاً على أن يحارب قريشاً فيه، فخالفته الأنصار وقالت له: ليس الرّأيُ في نزولك هذا المنزل فاتركه، وانزل في منزل كذا، فرجع إلى آرائهم! وهو الذي قال للأنصار عام قَدِم إلى المدينة: «لا تُؤَبِّروا النخل»، فعملوا على قوله فحالت نخلهم في تلك السنة ولم تُثمِر حتى قال لهم: «أنتم أعرف بأمر دنياكم وأنا أعرف بأمر دينِكم»، وهو الّذِي أخذ الفِدَاء من أسارى بدر، فخالفه عمر، فرجع إلى تصويب رأيه بعد أن فات الأمر وخلَص الأسرى ورجعوا إلى مكّة، وهو الذي أراد أن يصالح الأحزاب على ثُلث تَمْر المدينة ليرجعوا عنه، فأتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فخالفاه، فرجع إلى قولهما، وقد كان قال لأبي هريرة: اخرُج فناد في الناس: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة»، فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك فدفعه في صدره، حتى وقع على الأرض، فقال: لا تقلْها، فإنّك إنْ تقلْها يتّكلوا عليها، ويدَعُوا العمل، فأخبر أبو هريرة رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «لا تقلها وخلّهم يعملون»[1]، فرجع إلى قول عمر!

وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النّصوص لمّا رأوا المصلحة في ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣١). والأصبهاني في المسند المستخرج على صحيح مسلم (١٤١).

كإسقاطهم سهم ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلّفة قلوبهم، وهذان الأمران أدخلُ في باب الدّين منهما في باب الدنيا، وقد عملوا بآرائهم أموراً لم يكن لها ذكرٌ في الكتاب والسنّة، كحدّ الخمر فإنّهم عملوه اجتهاداً، ولم يحدّ رسول الله صلى الله عليه وآله شاربي الخمر، وقد شربها الجمّ الغفير في زمانه بعد نزول آية التحريم، ولقد كان أوصاهم في مرضه أن أخرِجوا نصارى نجْران من جزيرة العرب فلم يخرجوهم، حتى مضى صدرٌ من خلافة عمر، وعملوا في أيام أبي بكر برأيهم في ذلك باستصلاحهم، وهم الذين هدموا المسجد بالمدينة، وحوّلوا المقام بمكّة، وعمِلوا بمقتضى ما يغلب في ظنونهم من المصلحة، ولم يقِفُوا مع موارد النصوص، حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعدُ، فرجّح كثير منهم القياس على النصّ، حتى استحالت الشريعة، وصار أصحاب القياس أصحابَ شريعة جديدة.

قال النقيب: وأكثر ما يعملون بآرائهم، فيما يجري مَجْرى الولايات والتّأمير والتّدبير وتقرير قواعد الدّولة، وما كانوا يقفون مع نصوص الرسول صلى الله عليه وآله وتدبيراته إذا رأوا المصلحة في خلافها، كأنّهم كانوا يقيّدون نصوصه المطلقة بقيْد غير مذكور لفظاً، وكأنّهم كانوا يفهمونه من قرائن أحواله، وتقدير ذلك القيد: «افعلوا كذا إن رأيتموه مصلحة».

قال: وأمّا مخالفتهم له فيما هو محض الشّرع والدّين، وليس بمتعلّق بأُمور الدنيا وتدبيراتها، فإنه يقلُّ جدًّا، نحو أن يقول: «الوضوء شرط في الصلاة»، فيجمعوا على ردّ ذلك ويجيزوا الصلاة من غير وضوء، أو يقال: «صوْم شهر رمضان واجب»، فيطبِقوا على مخالفة ذلك ويجعلوا شوّالاً عَوضاً عنه، فإنه بعيد، إذ لا غرض لهم فيه، ولا يقدِرون على إظهار مصلحة عثروا عليها خَفِيَتْ عنه صلى الله عليه وآله. والقوم الذين كانوا قد غلب على ظنونهم أنّ العرب لا تطيع عليًّا عليه السلام، فبعضها للحسَد، وبعضها للوِتْر والثأر، وبعضها لاستحداثهم سِنَّه، وبعضها لاستطالته عليهم ورفعه عنهم، وبعضها كراهة اجتماع النبوّة والخلافة في بيت واحدٍ، وبعضها للخوف من شدّة وطأته وشدّته في دين الله، وبعضها خوفاً لرجاء تداوُلِ قبائل العرب الخلافة إذا لم يقتَصر بها على بيت مخصوص عليه، فيكون رجاء كل حيّ لوصولهم إليها ثابتاً مستمراً، وبعضها ببغضه، لبغضهم من قرابته لرسول الله صلى الله عليه وآله - وهم المنافقون من النّاس، ومَنْ في قلبه زيغٌ من أمر النبوّة - فأصفَق الكلّ إصفاقاً واحداً على صرْفِ الأمر عنه لغيره، وقال رؤساؤهم: إنّا خفنا الفتنة، وعلمنا أنّ العربَ لا تطيعه ولا تتركه، وتأوّلوا عند أنفسهم النصّ، ولا ينكر النصّ، وقالوا: إنه النصّ، ولكنّ الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، والغائب قد يُترك لأجل المصلحة الكليّة، وأعانهم عَلَى ذلك مسارعةُ الأنصار إلى ادّعائهم الأمرَ، وإخراجهم سعد بن عُبادة من بيته وهو مريض لينصّبوه خليفة - فيما زعموا - واختلط الناس، وكثر الخبْط، وكادت الفتنة أن تشتعِل نارُها، فوثب رؤساء المهاجرين، فبايعوا أبا بكر وكانت فَلْتة - كما قال

قائلهم - وزعموا أنّهم أطفؤوا بها نائرة الأنصار، فمن سكت من المسلمين، وأغضى ولم يتعرّض، فقد كفاهم أمرَ نفسه، ومن قال سرًّا أو جهراً: إنّ فلاناً قد كان رسول الله ﷺ ذكَره، أو نصّ عليه أو أشار إليه، أسكتوه في الجواب، بأنّا بادرنا إلى عَقْد البيعة مخافة الفتنة، واعتذروا عنده ببعض ما تقدّم، إمّا أنّه حديث السنّ أو تبغِضه العرب، لأنه وترها وسفك دماءها، أو لأنه صاحب زَهْوٍ وتيهٍ، أو كيف تجتمع النبوّة والخلافة في مغرِس واحد! بل قد قالوا في العذر ما هو أقوى من هذا وأوكد، قالوا: أبو بكر أقوَى على هذا الأمر منه، لاسيما وعمر يعضُده ويساعده، والعرب تحبّ أبا بكر ويعجبها لينُه ورفقه، وهو شيخ مجرّب للأمور لا يحسده أحدٌ، ولا يحقد عليه أحد، ولا يبغِضه أحد، وليس بذي شرف في النّسب فيشمَخ على النّاس بشرفه، ولا بذي قُربى من الرسول ﷺ فيدِلَّ بقربه، ودعْ ذا كلّه، فإنه فضل مستغنًى عنه. قالوا: لو نصبنا عليًّا عليه السلام، ارتد النّاس عن الإسلام وعادت الجاهليّة كما كانت، فأيّما أصلح في الدين؟ الوقوف مع النص المفضِي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهليّة أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدّين، وإن كان فيه مخالفة النصّ!

قال رحمه الله: وسكت الناس عن الإنكار، فإنّهم كانوا متفرّقين، فمنهم من هو مبغض شانىء لعليّ عليه السلام، فالذي تمّ من صرف الأمر عنه هو قرّة عينه، وبَرْد فؤاده، ومنهم ذو الدّين وصحّة اليقين، إلاّ أنه لمّا رأى كُبَراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عنه، ظنّ أنهم إنّما فعلوا ذلك لنصٍّ سمعوه من رسول الله ﷺ ينسخ ما قد كان سمِعه من النصّ عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام، لاسيّما ما رواه أبو بكر من قول النبي ﷺ: «الأئمة من قريش»(١)، فإنّ كثيراً من الناس توهّموا أنّه ناسخٌ للنصّ الخاصّ، وأنّ معنى الخبر أنّكم مباحون في نصْب إمامٍ من قريش، من أيّ بطون قريش كان، فإنّه يكون إماماً.

وأكّد أيضاً في نفوسهم رفضَ النصّ الخاصّ ما سمعوه من قول رسولَ الله ﷺ: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»(٢)، وقوله عليه السلام: «سألت الله ألاّ يجمع أمّتي على ضلال، فأعطانيها، فأحسِنوا الظنّ بعاقدي البيعة».

وقالوا: هؤلاء أعرف بأغراض رسول الله ﷺ من كلّ أحدٍ، فأمسكوا وكفُّوا عن الإنكار، ومنهم فرقة أخرى - وهم الأكثرون - أعراب وجُفاة، وطَغام أتباعُ كلّ ناعق، يميلون مع كلّ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أنس بن مالك (١١٨٩٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٦٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤٤٦٥)، وأحمد في المسند باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٥٨٩).

ريح، فهؤلاء مقلّدون لا يسألون ولا ينكرون، ولا يبحثون، وهم مع أمرائهم وولاتهم، لو أسقطوا عنهم الصلاة الواجبة لتركوها، فلذلك أمحِق النصّ، وخفي ودَرَس، وقويَت كلمة العاقدين لبيعة أبي بكر، وقوّاها زيادة على ذلك اشتغالُ عليّ وبني هاشم برسول الله ﷺ، وإغلاقُ بابهم عليهم، وتخليتهم الناسَ يعملون ما شاؤوا وأحبّوا، من غير مشاركة لهم فيما هم فيه، لكنّهم أرادوا استدراكَ ذلك بعد ما فات، وهيهات الفائت لا رجعة له!

وأراد عليّ عليه السلام بعد ذلك نقْضَ البيعة، فلم يتمّ له ذلك، وكانت العرب لا ترى الغَدْر، ولا تنقض البيعة صواباً كانت أو خطأً، وقد قالت له الأنصار وغيرها: أيّها الرجل، لو دعوتَنا إلى نفسك قبل البَيْعة لما عدَلنا بك أحداً، ولكنّا قد بايعنا، فكيف السبيل إلى نقض البيعة بعد وقوعها!

قال النقيب: وممّا جرّأ عمر على بيعة أبي بكر والعدول عن عليّ - مع ما كان يسمعه من الرسول ﷺ في أمره - أنّه أنكر مراراً عَلَى الرسول ﷺ أموراً اعتمدها فلم ينكِر عليه رسول الله ﷺ إنكارَه، بل رجع في كثير منها إليه، وأشار عليه بأمور كثيرة نزل القرآن فيها بموافقته، فأطمعه ذلك في الإقدام عَلَى اعتماد كثير من الأمور التي كان يرى فيها المصلحة، ممّا هي خلاف النصّ، وذلك نحو إنكاره عليه في الصّلاة عَلَى عبد الله بن أُبيّ المنافق، وإنكاره فداء أسارى بدْر، وإنكاره عليه تبرّجَ نسائه للناس، وإنكاره قضية الحديبيّة، وإنكاره أمانَ العبّاس لأبي سفيان بن حرب، وإنكاره واقعة أبي حُذيفة بن عتبة، وإنكاره أمره بالنداء: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، وإنكاره أمره بذبح النّواضح، وإنكاره عَلَى النّساء بحضرة رسول الله ﷺ هيبتهنّ له دون رسول الله ﷺ . . . إلى غير ذلك من أمور كثيرة تشتمِلُ عليها كتبُ الحديث، ولو لم يكن إلاّ إنكاره قول رسول الله ﷺ في مرضه: «ائتوني بدَواة وكتِفٍ أكتبْ لكم ما لا تضلّون بعدي»، وقوله ما قال، وسكوت رسول الله ﷺ عنه. وأعجب الأشياء أنّه قال ذلك اليوم: حسبنا كتاب الله، فافترق الحاضرون من المسلمين في الدّار، فبعضهم، يقول: القول ما قال رسول الله ﷺ، وبعضهم يقول: القول ما قال عمر، فقال رسول الله وقد كثر اللّغط، وعلت الأصوات: «قوموا عنّي فما ينبغي لنبيٍّ أن يكون عنده هذا التنازع»(١)! فهل بقي للنبوّة مزيّة أو فضل إذا كان الاختلاف قد وقع بين القولَيْن، وميْل المسلمون بينهما، فرجَّح قوم هذا، وقوم هذا! فليس ذلك دالاًّ على أن القوم سوّوا بينه وبين عمر، وجعلوا القولين مسألة خلاف، ذهب كلّ فريق إلى نصرة واحد منهما، كما يختلف اثنان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: كتابة العلم (١١٤)، ومسلم في كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧)، وأحمد في كتاب: مسند بني هاشم، باب: بداية مسند ابن عباس (١٩٣٦).

من عُرْض المسلمين في بعض الأحكام، فينصر قوم هذا وينصر ذاك آخرون، فمن بلغت قوّته وهمتّه إلى هذا، كيف ينكر منه أنّه يبايع أبا بكر لمصلحة رآها، ويعدل عن النصّ! ومَن الذي كان ينكر عليه ذلك، وهو في القول الذي قاله للرسول ﷺ في وجهه غير خائف من الأنصار، ولا ينكِر عليه أحدٌ، لا رسول الله ﷺ ولا غيره، وهو أشدّ من مخالفة النصّ في الخلافة وأفظع وأشنع.

قال النقيب: على أنّ الرجل ما أهمل أمر نفسه، بل أعدّ أعذاراً وأجوبة، وذلك لأنه قال لقومٍ عرّضوا له بحديث النص: إنّ رسول الله ﷺ رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر في الصلاة مقامه، وأوهمهم أن ذلك جارٍ مجرى النصّ عليه بالخلافة، وقال يوم السقيفة: أيّكم يطيب نفساً أن يتقدّم قدَمَيْن قدّمهما رسول الله ﷺ في الصلاة! ثم أكّد ذلك بأن قال لأبي بكر، وقد عرض عليه البيعة: أنت صاحبُ رسول الله ﷺ في المواطن كلها، شدّتها ورخائها، رضيَك لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا!

ثم عاب عليًّا بخطبته بنت أبي جهل، فأوهم أنّ رسول الله ﷺ كرهه لذلك ووجَد عليه، وأرضاه عمرو بن العاص، فروى حديثاً افتعله واختلقه على رسول الله، قال سمعته يقول: «إنّ آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء، إنّما وليِّيَ الله وصالح المؤمنين»[1]، فجعلوا ذلك كالناسخ لقوله ﷺ: «من كنت مولاه فهذا مولاه»[2].

قلت للنقيب: أيصح النّسخ في مثل هذا؟ أليس هذا نسخاً للشيء قبل تقضّي وقت فعله؟ فقال: سبحان الله! مِن أينَ تعرف العرب هذا؟ وأنىّ لها أن تتصوّره فضلاً عن أن تحكم بعدم جوازه! فهل يفهم حُذّاق الأصوليّين هذه المسألة، فضلاً عن حَمْقى العرب! هؤلاء قوم ينخدعون بأدنى شبهة، ويُستمالون بأضعف سبب، وتُبنَى الأمور معهم على ظواهر النصوص وأوائل الأدلة، وهم أصحاب جهل وتقليد، لا أصحاب تفضيل ونظر!

قال: ثم أكّد حسنَ ظنّ الناس بهم أنّهم أطلقوا أنفسهم عن الأموال، وزهِدوا في متاع الدنيا وزخرفها، وسلكوا مسلك الرّفض لزينتها، والرغبة عنها والقناعة بالطّفيف النَّزْر منها، وأكلوا الخشِن، ولبسوا الكَرابيس، ولمّا ألقت إليهم الدنيا أفلاذ كبدها، وفرّقوا الأموال على الناس،

---

(١) أخرج نحوه البخاري في كتاب: الأدب، باب: تبل الرحم ببلالها (٥٩٩٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم (٢١٥)، وأحمد في باب: بقية حديث عمرو بن العاص (١٧٣٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٣)، وابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١٢١)، وأحمد في كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٦٤٢).

وقسّموها بينهم، ولم يتدنّسوا منها بقليل ولا كثير، فمالت إليهم القلوب، وأحبّتهم النفوس، وحسُنت فيهم الظنون، وقال من كان في نفسه شبهة منهم، أو وقفة في أمرهم: لو كان هؤلاء قد خالفوا النصّ لهوى أنفسهم لكانوا أهلَ الدنيا، ولظهر عليهم الميل إليها، والرغبة فيها، والاستئثار بها. وكيف يَجمعون على أنفسهم مخالفة النصّ، وتركَ لذات الدنيا ومآربها، فيخسروا الدنيا والآخرة! وهذا لا يفعله عاقل، والقوم عقلاء ذوو ألباب وآراءٍ صحيحة، فلم يبق عند أحدٍ شكٌّ في أمرهم ولا ارتياب لفعلهم، وثبتت العقائد على ولايتهم، وتصويب أفعالهم، ونسوا لذّة الرياسة، وإن أصحاب الهِمم العالية لا يلتفتون إلى المأكل والمشرب والمنكَح، وإنما يريدون الرياسة ونفوذ الأمر، كما قال الشاعر:

وقد رغبَتْ عن لَذّة المال أنفسٌ ... وما رغبت عن لذّة النَّهي والأمرِ

قال رحمه الله: والفرق بين الرجلين وبين الثالث، ما أصِيب به الثالث، وقُتل تلك القتْلة، وخلَعه النّاس وحَصَروه، وضيّقوا عليه، بعد أن توالَى إنكارهم أفعَاله، وجبّهوه في وجهه وفسّقوه، وذلك لأنّه استأثر هو وأهله بالأموال، وانغمسوا فيها واستبدُّوا بها، فكانت طريقته وطريقتهم مخالفةً لطريق الأولين، فلم تصبر العرب على ذلك، ولو كان عثمان سلك طريق عمر في الزهد، وجمع الناس، وردَع الأمراء والولاة عن الأموال، وتجنّب استعمال أهل بيته، ووفّر أعراض الدّنيا وملاذّها وشهواتها على الناس، زاهداً فيها، تاركاً لها، معرِضاً عنها، لما ضرّه شيء قطّ، ولا أنكر عليه أحد قطّ، ولو حوّل الصلاة من الكعبة إلى بيت المقدس، بل لو أسقط عن الناس إحدى الصلوات الخمس، واقتنع منهم بأربع، وذلك لأنّ همم الناس مصروفة إلى الدنيا والأموال، فإذا وجدوها سكتوا، وإذا فقدوها هاجوا واضطربوا، ألست تَرى رسول الله صلى الله عليه وآله كيفَ قسّم غنائم هوازن على المنافقين، وعلى أعدائه الذين يتمنّوْن قتله وموتَه، وزوال دولته، فلمّا أعطاهم أحبُّوه، إمّا كلّهم أو أكثرهم، ومَنْ لم يحبّه منهم بقلبه جامله وداراه، وكفّ عن إظهار عداوته، والإجلاب عليه ولو أنّ علياً صانع أصحابه بالمال، وأعطاه الوجوه والرؤساء، لكان أمره إلى الانتظام والاطّراد أقربَ، ولكنه رفض جانبَ التدبير الدنيوي، وآثر لزومَ الدّين، وتمسّك بأحكام الشريعة، والملْك أمر آخر غير الدين، فاضطرب عليه أصحابه، وهرب كثير منهم إلى عدوّه.

وقد ذكرت في هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبي جعفر، ولم يكن إماميَّ المذهب، ولا كان يبرأ من السلَف، ولا يرتضي قول المسرِفين من الشيعة، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحثُ والجدل بيني وبينه، على أن العلويّ لو كان كرّاميًا، لا بدّ أن يكون عنده نوعٌ من تعصّب وميل على الصحابة وإن قلّ.

ولنرجع إلى ذكر كلام عمر من خطبته وسيرته.

كتب عمر إلى أبي موسى، لمّا استعمله قاضياً، وبعثه إلى العراق:

من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى عبد الله بن قَيْس. سلام عليك، أمّا بعدُ، فإنّ القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أُدْلِيَ إليك، فإنه لا ينفع تكلُّم بحقٍّ لا نفادَ له. آس بين الناس في وَجْهِك وعدلِك ومجلِسك، حتى لا يطمَع شريفٌ في حيفك، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عَدْلك. البيّنة علَى مَن ادّعى واليمين على مَنْ أنكر، والصُّلح جائز بين المسلمين، إلاّ صُلْحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً. لا يمنعنّك قضاء قضيته اليومَ فراجعت فيه عقلَك، وهُديتَ فيه لرشدِك، أن ترجعَ إلى الحقّ، فإنّ الحقّ قديم، ومراجعةُ الحق خيْرٌ من التمادِي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجْلَج في صدرك ممّا ليس في كتاب ولا سنّة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، وقِسِ الأمور عند ذلك، واعمِدْ إلى أقربها إلى الله عزّ وجلّ، وأشبهِها بالحقّ، واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أو بيّنة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقّه، وإلاّ استحْلَلْتَ عليه القضيَّة، فإنه أنْفَى للشكّ وأجْلَى للعمى. المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حدّ أو مجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاءٍ أو نسب، فإنّ الله عزّ وجلّ تولّى منكم السرائر، ودَرَأ عنكم بالبيّنات والأيمان الشُّبُهات. إيّاك والغَلقَ والضّجَرَ والتأذّيَ بالخصوم، والتنكرَ عند الخصومات، فإنّ الحقّ في مواطن الحقّ يُعظِم الله به الأجر، ويحسن به الذُّخر، فمن صحّت نيّته، وأقبَلَ على نفسه كَفاه الله ما بينَهُ، وبين الناس، ومَنْ تخلّق للنّاس بما يعلم الله عز وجل منه أنّه ليس من نفسِه، شانَهُ الله، فما ظنُّك بثواب الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته! والسلام[(١)].

ذكر هذه الرّسالة أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتاب «الكامل» وأطراها، فقال: إنه جمع فيها جُمَل الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتّخذونه، إماماً فلا يجد مُحقٌّ عنها مَعْدِلاً، ولا ظالم عن حدودها محيصاً.

وكتب عمرُ إلى عمّاله يُوصيهم، فقال في جملة الكتاب: ارتدُوا، واتّزرُوا، وانتعلوا وألقوا الخفاف والسّراويلات وألقوا الركب، وانزُوا نزواً على الخيل، واخشوشنوا، وعليكم بالمعديّة - أو قال: وتمعددوا - وارموا الأغراض، وعلّموا فتيانكم العوْم والرّماية، وذَرُوا التنعم وزيّ العجم، وإيّاكم والحريرَ، فإنّ رسول الله ﷺ نهى عنه، وقال: «لا تلبسوا من الحرير إلا ما كان هكذا»[(٢)]، وأشار بأصبعه.

(١) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١٤/ ٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأطعمة، باب: الأقل في إناء مفضض (٥٤٢٦)، ومسلم في كتاب: اللباس والزينة، باب: تحريم استعمال إناء الذهب والفضة (٢٠٦٧)، والنسائي في كتاب: الزينة، =

وكتب إلى بعض عماله: إنّ أسعد الرُّعاة مَنْ سعدت به رعيّته، وإنّ أشقى الرُّعاة من شَقِيتْ به رعيّته، فإياك أن تَزِيغ فتزيغ رعيّتك، فيكون مَثَلُك عندَ الله مِثْلَ البهيمة رأت الخُضْرة في الأرض فرعتْ فيها تبغي السِّمَن، وحتْفُها في سَمِنها.

وكتب إلى أبي موسى وهو بالبَصْرة: بلغَني أنّك تأذَنُ للنّاس الجمّاء الغفير، فإذا جاءك كتابي هذا فأْذَنْ لأهل الشرف وأهل القرآن والتّقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فأْذَنْ للعامّة، ولا تؤخّر عمل اليوم لغد، فتتداك عليك الأعمال فتضيع، وإيّاك واتّباعَ الهوى، فإنّ للناس أهواءً متّبعة، ودنيا مؤثرة، وضغائن محمولة. وحاسب نفسَك في الرّخاء قبل حساب الشّدّة، فإنّه مَنْ حاسب نفسَه في الرخاء قبل حساب الشدّة كان مرجعُه إلى الرضا والغِبْطة، ومن ألهتْه حياته، وشغلته أهواؤه، عاد أمرُه إلى النّدامة والحَسْرة، إنه لا يقيم أمر الله في الناس إلا خَصِيف العُقْدة بعيد القرارة لا يحنق على جِرّة، ولا يطلع الناس منه على عورة، ولا يخاف في الحق لومة لائم. الزم أربع خصال يسلم لك دينك وتحيط بأفضل حظّك: إذا حضر الخصمان فعليك بالبيّنات العُدول والأيمان القاطعة، ثم ائذن للضّعيف حتى ينبسط لسانُه، ويجترىء قلبه، وتعاهد الغَريب، فإنه إذا طال حبسُه ترك حاجته وانصرف إلى أهله، واحرص على الصُّلْح ما لم يبن لك القضاء، والسلام عليك.

وكان رجلٌ من الأنصار لا يزال يهدي لعمر فخِذَ جزور إلى أن جاء ذات يوم مع خَصْم له، فجعل في أثناء الكلام يقول: يا أميرَ المؤمنين، افصِل القضاء بيني وبينه كما يفصل فَخِذ الجزور.

قال عمر: فما زال يردّدها حتى خفت على نفسي. فقضيت عليه، وكتبت إلى عمّالي: أمّا بعد فإيّاكم والهدايا، فإنه من الرِّشا. ثم لم أقبل له هديّة فيما بعد، ولا لغيره.

وكان عمر يقول: اكتبوا عن الزاهدين في الدنيا ما يقولون، فإنّ الله عزّ وجلّ وكّل بهم ملائكة، واضعة أيديَهم على أفواههم، فلا يتكلّمون إلا بما هيّأه الله لهم.

وروى أبو جعفر الطبريّ في تاريخه، قال: كان عمر يقولُ: جرّدُوا القرآن ولا تفسّروه، وأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، وأنا شريككم.

وقال أبو جعفر: وكان عمر إذا راد أن ينهى النّاسَ عن شيء جمع أهله، فقال: إني عسيت

= باب ذكر النهي عن لبس الدباج (٥٣٠١). وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (٣٠٣)، واللفظ له.

أن أنْهَى الناس عن كذا، وإنّ الناس ينظرون إليكم نظر الطّير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجدُ أحداً منكم يفعل إلا أضعفت عليه العقوبة.

قال أبو جعفر: وكان عمر شديداً على أهل الرّيَب، وفي حقّ الله، صليباً حتى يستخرجه، وليّناً سهلاً فيما يلزمه حتى يؤدّيه، وبالضعيف رحيماً(١).

وروى زيد بن أسلم، عن أبيه أنّ نفراً من المسلمين كلّموا عبد الرحمن بن عوف، فقالوا: كلّمْ لنا عمر بن الخطاب، فقد والله أخشانا حتى لا نستطيع أن نديم إليه أبصارَنا، فذكر عبد الرحمن له ذلك، فقال: أو قد قالوا ذلك! والله لقد لنتُ لهم حتى تخوّفت الله في أمرهم، وقد تشدّدت عليهم حتى خفت الله في أمرهم، وأنا والله أشدّ فرَقاً لله منهم لي!

وروى جابر بن عبد الله، قال: قال رجلٌ لعمر: يا خليفةَ الله، قال: خالف الله بك، قال: جعلني الله فداك! قال: إذن يهينك الله.

وروى أبو جعفر، قال: استشار عمر في أمر المال كيف يقسمه، فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام: تقسِم كلّ سنة ما اجتمع معك من المال، ولا تمسِكْ منه شيئاً، وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يسعُ الناس، وإن لم يُحْصَوْا حتى يعرفَ من أخذ ممّن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر. فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أميرَ المؤمنين، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً، وجنّدوا جنوداً، وفرضوا لهم أرزاقاً، فأخذ بقوله، فدعا عَقِيل بن أبي طالب ومَخْرمة بن نَوْفل وجُبير بن مطعِم - وكانوا نسّاب قريش - وقال: اكتبوا النّاس على منازلهم، فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على ترتيب الخلافة، فلما نظر إليه قال: وددت أنّه كان هكذا، لكن أبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمرَ حيث وضعه الله.

قال أبو جعفر: جاءت بنو عديّ إلى عمر، فقالوا له: يا عمر، أنت خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: أو خليفة أبي بكر، وأبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وذاك، فلو جعلت نفسَك حيث جعلك هؤلاء القوم! فقال: بخ بخ يا بني عديّ! أردتم الأكْلَ على ظهري، وأنْ أذهِب حسناتي لكم! لا والله ولو كتِبتم آخر الناس، إنّ لي صاحبيْن سلكا طريقاً، فإن أنا خالفتُهما خُولِفَ بي، والله ما أدركنا الفضلَ في الدنيا إلا بمحمد، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو شرفنا، وقومه أشرف العرب ثم الأقرب منه فالأقرب، وما بيننا وبين أن نلْقاه ثم لا نفارقه إلى آدم إلاّ آباء يسيرة، والله لئِن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عملٍ فإنّهم أولى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم منّا يوم القيامة. لا ينظرَنَّ رجلٌ إلى قَرابته، ولْيعمل بما عند الله، فإنَّ مَنْ قصر به عمله لم يُسْرِع به نسبُه.

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٢٧٦.

وروى السائب بن يزيد، قال: سمعتُ عمر بن الخطاب، يقول: والله ما من أحدٍ إلا له في هذا المال حقّ أعطيَه أو مُنعِه، وما أحدٌ أحقّ به من أحدٍ إلا عبد مملوك، وما أنا فيه إلاّ كأحدكم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسْمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وغناؤه، والرجل وحاجته، والله لئن بقيتُ ليأتيَن الراعي بجبل صَنعاء، حظُّه من المال وهو مكانه.

وروى نافع مولى آل الزُّبير، قال: سمعتُ أبا هريرة يقول: رحم الله ابن حَنْتمة، لقد رأيته عامَ الرّمادة، وإنّه لَيحمِلُ على ظهره جِرابين، وعُكّة زيت في يده، وإنه ليعتقِب هو وأسلم، فلما رآني قال: مِن أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً، فأخذت أعقِبُه، فحملناه حتى انتهينا إلى ضرار فإذا صِرْم من نحو عِشرين بيتاً من محارب، فقال عمر: ما أقدمَكم؟ قالوا: الجَهْد، وأخرجوا لنا جِلْدَ الميتة مشويًّا كانوا يأكلونه، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يستفُّونها، فرأيت عمر طرح رداءه ثم برز، فما زال يطبخ لهم حتى شَبِعُوا، وأرسل أسلم إلى المدينة، فجاء بأبعِرة فحملهم عليها، ثم أنزلهم الجَبّانة، ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى كفى الله ذلك.

وروى راشد بن سعد أنّ عمر أُتِيَ بمال، فجعل يقسِم بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلَص إليه، فعلاه عمر بالدِّرة، وقال: إنّك أقبلت، لا تهابنّ سلطان الله في الأرض، فأحببتُ بأن أعلِمك أنّ سلطانَ الله لا يهابُك.

وقالت الشّفاء ابنة عبد الله - ورأيت فتياناً من النّساك يقتصدون في المشي، ويتكلّمون رويداً: ما هؤلاء؟ فقيل: نُسّاك، فقالت كان عمرُ بن الخطّاب هو الناسك حقاً، وكان إذا تكلّم أسمَع، وإذا مشى أسْرع، وإذا ضرب أوْجَع.

أعان عمرُ رجلاً على حَمْلِ شيء، فدعا له الرّجل، وقال: نفعك بنوك يا أمير المؤمنين! قال: بل أغناني الله عنهم.

ومن كلامه: القوّة في العمل ألا يؤخر عمل اليوم لغد، والأمانة ألاّ تخالف سريرتُك علانيتَك، والتقْوَى بالتوقّي، ومن يتق الله يقِهِ.

وقال عمر: كنا نعد المُقرِض بخيلاً، إنما كانت المواساة.

أتى رهطٌ إلى عمر، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، كَثُر العيال، واشتدّت المؤونة، فزدْنا في أعْطَيَاتِنَا، فقال: فعلتموها! جمعتم بين الضّرائر، واتخذتم الخدَم من مال الله! أما لوددت أني وإياكم في سفينتيْن في لُجّة البحر، تذهب بنا شرقاً وغرباً، فلن يعجز النّاسَ أن يولُّوا رجلاً منهم، فإن استقام اتّبعوه، وإن جَنَف[1] قتلوه. فقال طلحة: وما عليك لو قلت: وإن اعوجّ

(١) الجنف: الميل والجور. القاموس المحيط، مادة (جنف).

عزلوه! فقال: القتلُ أرهبُ لمن بعده، احذروا فتى قريش، فإنّه كريمها الذي لا ينام إلا على الرّضا، ويضحك عند الغضب، ويتناول ما فوقه من تحته.

وكان يقول في آخر أيامه عند تبرّمه بالأمر وضَجَره من الرعيّة: اللهمَّ ملّوني ومللتهُم، وأحسستُ من نفسي وأحسّوا منّي! ولا أدري بأيّنا يكون اللَّوْت، وقد أعلم أنَّ لهم قتيلاً منهم فاقبضني إليك.

وذكَر قومٌ من الصّحابة لعمر رجلاً، فقالوا: فاضلٌ لا يعرف الشرّ، قال: ذاك أوقع له فيه.

وروى الطبريّ في التاريخ[1]، أن عمرَ استعملَ عُتْبة بن أبي سفيان على عملٍ فقدِم منه بمال، فقال له: ما هذا يا عتبة؟ قال: مالٌ خرجت به معي وتجرت فيه، قال: وما لك تُخرج المال معك إلى هذا الوجه؟ فأخذ المال منه فصيّره في بيت المال، فلمّا قام عثمان قال لأبي سفيان: إنّك إن طلبت ما أخذه عمر من عُتْبة رددتُه عليك، فقال له أبو سفيان: إيّاك ما هممتَ به، إنّك إن خالفت صاحبك قبْلك ساء رأيُ الناس فيك. إياك أن تردّ على مَنْ كان قبْلك فيردّ عليك من بعدك.

وروى الطبريّ[2] أيضاً أنّ هنداً بنت عتبة بن ربيعة قامت إلى عمر، فسألته أن يُقرِضها من بيت المال أربعة آلاف درهم تتّجر فيها وتضمنها. فخرجت بها إلى بلاد كلب، فباعت واشترت، وبلغها أنّ أبا سفيان قد أتى معاوية يستمِيحه ومعه ابنة عمرو بن أبي سفيان، فعدلت إليه من بلاد كلْب - وكان أبو سفيان قد طلّقها - فقال معاوية: ما أقدَمك يا أمّه؟ قالت: النظر إليك يا بنيّ، إنه عمر، وإنّما يعمل لله، وقد أتاك أبوك فخشيت أن تُخرج إليه من كلّ شيء، وأهلُ ذلك هو! ولكن لا يعلم عمر من أين أعطيته، فيؤنّبوك ويؤنّبك، ولا تستقبلها أبداً. فبعث معاوية إلى أبيه وأخيه مائة دينار، وكساهما وحملهما. فسخطها عمر، فقال أبو سفيان: لا تسخطها، فإنها عطاء لم تغب عنه هند، ورجع هو وابنه إلى المدينة، فسأله عمر: بكم أجازك معاوية؟ فقال: بمائة دينار، فسكت عمر.

وروى الأحنف، قال: أتى عبد الله بن عمير عمرَ، وهو يُقرض الناس، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أقِرضْ لي، فلم يلتفت إليه، فنخسه، فقال عمر: حَسِّ، وأقبل عليه، فقال: مَنْ أنت؟ فقال: عبد الله بن عمير - وكان أبوه استُشهِدَ يوم حُنين - فقال: يا يَرْفأ، أعطه ستمائة، فأعطاه ستمائة فلم يقبلها، ورجع إلى عمر فأخبره فقال: يا يرفأ، أعطه ستمائة حُلّة، فأعطاه، فلبس الحُلّة التي كساه عمر، ورمى ما كان عليه، فقال له: خذ ثيابك هذه، فلتكن في مِهْنَة أهلك، وهذه لزينتك.

---

(١) انظره (٢/ ٢٧٦).
(٢) انظره (٢/ ٥٧٦).

وروى إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: مرّ عمر في السُّوق، ومعه الدِّرة، فخفقني خَفْقَةً، فأصاب طرف ثوبي، وقال: أمِطْ عن الطريق، فلمّا كان في العام المقبل لقيني، فقال: يا سلمة، أتريد الحجّ؟ قلت: نعم، فأخذ بيدي وانطلق بي إلى منزله، فأعطاني ستمائة دِرْهم، وقال: استعِنْ بها على حَجّك، واعلم أنّها بالخفقة التي خَفَقْتُك، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما ذكرتها، قال: وأنا ما نسيتُها.

وخطب عمرُ فقال: أيّتها الرعيّة، إنّ لنا عليكم حقًّا، النّصيحة بالغَيْب، والمعاونة على الخيْر. إنّه ليس مِن حلم أحبّ إلَى الله ولا أعمّ نفعاً من حِلْم إمام ورِفْقِه، وليس من جهل أبغض إلى الله من جهل إمامٍ وخَرَقه، أيّتها الرعية إنّه مَنْ يأخذ بالعافية من بين ظهرانَيْه فوّته الله العافية من فوقه.

وروى الرّبيع بن زياد، قال: قدِمْتُ على عمر بمالٍ من البَحْرين، فصلّيت معه العشاء ثم سلّمت عليه، فقال: ما قدمت به؟ قلت: خمسمائة ألف، قال: ويحك! إنما قدمت بخمسين ألفاً، قلت: بل خمسمائة ألف، قال: كم يكون ذلك؟ قلت: مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف، حتى عددت خمساً، فقال: إنك ناعس، ارجع إلى بيتك، ثم اغدُ عليّ، فغدوت عليه. فقال: ما جئت به؟ قلت: ما قلتُه لك، قال: كم هو؟ قلت: خمسمائة ألف، قال: أطيّب هو؟ قلت: نعم، لا أعلم إلاّ ذلك، فاستشار الصّحابة فيه، فأشِير عليه بنصْب الديوان فنصبَ، وقسّم المالَ بين المسلمين، ففضَلت عنده فَضْلة، فأصبح فَجمع المهاجرين والأنصار، وفيهم عليّ بن أبي طالب، وقال للناس: ما ترون في فَضْل فَضَل عندنا من هذا المال؟ فقال الناس: يا أمير المؤمنين، إنّا شغلناك بولاية أمورنا عن أهلك وتجارتك وصنعتك، فهو لك. فالتفت إلى عليّ فقال: ما تقول أنت؟ قال: قد أشاروا عليك، قال: فقل أنت، فقال له: لم تجعلُ يقينَك ظنًّا؟ فلم يفهم عمر قوله، فقال: لتخرُجَنّ ممّا قلت، قال: أجل والله، لأخرجَنّ منه، أتذكر حين بعثَك رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعياً، فأتيت العبّاس بن عبد المطلب، فمنعك صدَقَته، فكان بينكما شيء، فجئتما إليّ وقلتما: انطلق معنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئنا إليه، فوجدناه خاثراً[1] فرجعنا، ثم غدونا عليه، فوجدناه طيّب النفس، فأخبرتَه بالذي صنع العباس، فقال لك: يا عمر، أما علِمْت أنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه! فذكرنا له ما رأينا، من خُثوره في اليوم الأول، وطيب نفسه في اليوم الثاني، فقال: إنّكم أتيتمْ في اليوم الأول، وقد بقيَ عندي من مال الصّدقة ديناران، فكان ما رأيتم خُثُوري لذلك، وأتيتم في اليوم الثاني وقد وجّهتهما، فذاك الذي رأيتم من طِيب نفسي. أشيرُ عليك ألاّ تأخذ من هذا الفضل شيئاً، وأن تفضّه على فقراء المسلمين، فقال: صدقت والله لأشكرنّ لك الأولى والأخيرة.

---

(١) خاثر النفس: أي ثقيلها غير طَيِّب ولا نشيط. لسان العرب، مادة (خثر).

وروى أبو سعيد الخُدريّ قال: حَججْنا مع عمر أوّل حجة حَجّها في خِلافته، فلمّا دخل المسجدَ الحرام، دنا من الحجر الأسود فقبّله واستلمه، وقال: إني لأعلم أنّك حَجَر لا تضرّ ولا تنفعُ، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ قبّلك واستلَمك، لما قبّلتك ولا استلمتُك، فقال له عليّ: بلَى يا أمير المؤمنين، إنه ليضرُّ وينفع، ولو علمتَ تأويل ذلك من كتاب الله لعلمتَ أنّ الذي أقول لك كما أقول قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾(١). فلمّا أشهدهم وأقرُّوا له أنه الربّ عزّ وجلّ، وأنّهم العبيدُ، كتبَ ميثاقهم في رَقّ، ثم ألقمه هذا الحجر، وإن له لعينين ولساناً وشفتين، تَشهد لمن وافاه بالموافاة، فهو أمين الله عزّ وجلّ في هذا المكان. فقال عمر: لا أبقاني الله بأرض لستَ بها يا أبا الحسن.

قلت: قد وجَدْنا في الآثار والأخبار في سِيرة عمر أشياء تناسب قوله في هذا الحجر الأسود، كما أمرَ بقطع الشّجرة الّتي بويع رسول الله ﷺ تحتَها بيْعة الرضوان في عُمْرة الحديبِيَة، لأنّ المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ كانُوا يأتونها، فيَقِيلون تحتها، فلمّا تكرّر ذلك أوعدهم عمر فيها، ثم أمر بها فقطعت.

وروى المُغيرة بن سُويد، قال: خرجْنا مع عمر في حَجُّة حجها، فقرأ بنا في الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾(٢)، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾(٣)، فلمّا فرغ رأى الناس يبادِرُون إلى مسجدٍ هناك، فقال: ما بالهم؟ قالوا: مسجدٌ صلّى فيه النبي ﷺ والنّاس يبادرون إليه، فناداهم فقال: هكذا هَلَك أهلُ الكتاب قبلكم! اتخذوا آثار أنبيائهم بِيَعاً. مَنْ عَرَضتْ له صلاة في هذا المسجد فلْيُصَلّ، ومَنْ لم تعرِضْ له صلاة فلْيمضِ.

وأتى رجل من المسلمين إلى عمر، فقال: إنّا لما فتحنا المدائن أصبنا كتاباً فيه علْمٌ من علوم الفرس، وكلام معجِب، فدعا بالدِّرّة فجعل يضربه بها، ثم قرأ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾(٤)، ويقول: ويلك! أقصَصٌ أحسنُ من كتاب الله! إنّما هلك مَنْ كان قبلكم، لأنّهم أقبلوا على كتاب علمائهم وأساقفتهم، وتركوا التوراة والإنجيل حتى دَرَسا، وذهب ما فيهما من العلم.

وجاء رجلٌ إلى عمر، فقال: إن ضُبَيعاً التميميّ لقِيَنا يا أميرَ المؤمنين، فجعل يسألُنا عن تفسير حرُوف من القرآن، فقال: اللهمّ أمنّي منه، فبينا عمر يوماً جالس يغذّي الناس إذ جاءه الضُّبيع، وعليه ثياب وعمامة، فتقدّم فأكل، حتى إذا فرغ، قال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٢) سورة الفيل، الآية: ١.
(٣) سورة قريش، الآية: ١.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٣.

تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾[(١)]؟ قال: ويحك أنت هو! فقام إليه فحسَر عن ذراعيه، فلم يزل يجلِدُه حتى سقطت عمامته، فإذا له ضفيرتان، فقال: والذي نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسَك، ثم أمر به فجعل في بيت، ثم كان يُخرجه كلَّ يوم فيضربه مائة، فإذا برأ أخرجه فضربه مائة أخرى، ثم حمله على قَتَبٍ وسيّره إلى البصرة. وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحرِّم على الناس مجالسته، وأن يقوم في الناس خَطيباً، ثم يقول: إن صُبيعاً قد ابتغى العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه وعند الناس حتى هلك، وقد كان من قبل سيّد قومه.

وقال عمر على المنبر: ألاَ إنّ أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فأفتوْا بآرائهم، فضلّوا وأضلّوا. ألاَ إنَّا نقتدي ولا نبتدي، ونتّبع ولا نبتدع، إنه ما ضَلَّ متمسِّك بالأثر.

وروى زيد بن أسلم، عن أبيه قال: سمعتُ عمر يقول في الحجّ: فيم الرَّمَلانَ الآنَ والكَشف عن المناكب، وقد أظهر الله الإسلام، ونفى الكفر وأهله! ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ.

مرّ عمرُ برجل فسلّم عليه، فردّ عليه، فقال: ما اسمُك؟ قال: جمرة، قال: أبو من؟ قال: أبو شهاب، قال: مِمّن؟ قال: من الحُرَقة، قال: وأين مسكنُك؟ قال: بحرّة النار، قال: بأيّها؟ قال: بذات لَظَى، فقال: ويحك! أدرِكْ أهلَك فقد احترقوا. فمضى عليهم فوجدهم قد احترقوا.

وروَى اللّيثُ بنُ سعد، قال: أُتِيَ عمرُ بفتًى أمرَد، قد وجِد قتيلاً ملقى على وجه الطريق، فسأل عن أمره واجتهد، فلم يقف له على خبر، فشقّ عليه، فكان يدعُو ويقول: اللهمّ أظفِرْني بقاتله، حتى إذا كان رأسُ الحول أو قريباً من ذلك، وُجِد طفلٌ مولود ملقى في موضع ذلك القتيل، فأُتِيَ به عمر، فقال: ظفرت بدم القتيل، إن شاء الله تعالى! فدفع الطّفل إلى امرأة، وقال لها: قومي بشأنه، وخذي مِنّا نفقته، وانظري مَنْ يأخذه منك، فإذا وجدت امرأة تقبّله وتضمّه إلى صدرها فأعلميني مكانَها، فلمّا شبّ الصبيّ جاءت جارية، فقالت للمرأة: إنّ سيّدتي بعثتني إليك لتبعثِي إليها بهذا الصبيّ، فتراه وتردُّه إليك، قالت: نعم، اذهبي به إليها، وأنا معك، فذهبتْ بالصبيّ، حتى دخلت على امرأة شابّة، فأخذت الصبيّ، فجعلت تقبّله وتُفَدّيه وتضمّه إليها، وإذا هي بنت شَيْخ من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، فجاءت المرأة وأخبرت عمر، فاشتمل على سيفه وأقبل إلى منزلها، فوجد أباها متّكِئاً على الباب، فقال

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١، ٢.

له: ما الّذي تعلم من حال ابنتك؟ قال: أعرَفُ النّاس بحق الله وحقِّ أبيها، مع حسن صلاتها وصِيامها والقيام بدينها، فقال: إنّي أحبّ أن أدخل إليها وأزيدَها رغبة في الخير، فدخل الشيخ، ثم خرج فقال: ادخل يا أمير المؤمنين، فدخل وأمر أن يخرُجَ كلُّ مَنْ في الدار إلا أبَاها، ثم سألها عن الصبيّ، فلجْلَجت، فقال: لتصدُقِيني، ثم انتضى السيف، فقالت: عَلَى رِسْلك يا أمير المؤمنين! فوالله لأصدقنّك! إنّ عجوزاً كانت تدخل عليّ فاتخذتها أمًّا، وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة، وأنا لها بمنزلة البنت، فمكثت كذلك حيناً، ثم قالت: إنه قد عرض لي سفر، ولي بنت أتخوَّف عليها بعدي الضَّيْعة، وأنا أحبّ أن أضمّها إليك حتى أرجعَ من سفري، ثم عمدَت إلى ابنٍ لها أمْرد فهيّأته وزيّنته كما تزيَّن المرأة وأتتني به، ولا أشك أنّه جارية، فكان يرى منّي ما ترى المرأة من المرأة، فاغتفلني يوماً وأنا نائمة فما شعرت به حتى عَلاَني وخالطني، فمددت يدي إلى شَفْرَةٍ كانت عندي فقتلتُه، ثم أمرت به فألقِيَ حيث رأيت، فاشتملتُ منه على هذا الصبيّ، فلمّا وضعته ألقيته في موضع أبيه، هذا والله خبرهما على ما أعلمتُك!

فقال عمر: صدقتِ، بارك الله فيك! ثم أوصاها ووعظها وخرج.

وكان عمر يقول: لو أدركت عُروة وعَفْراء لجمعت بينهما.

ذكر عمرو بن العاص يوماً عمر فترحّم عليه، وقال: ما رأيتُ أحداً أتقى منه، ولا أعمَلَ بالحقّ منه، لا يبالي عَلَى مَنْ وقع الحقّ، من ولدٍ أو والدٍ، إنّي لفي منزلِي بمصر ضحًى، إذ أتاني آتٍ، فقال: قدم عبد الله وعبد الرحمن ابنا عمر غازيَيْن، فقلت: أين نزلا؟ قال: في موضع كذا - لأقصى مصر - وقد كان عمر كتب إليّ: إياك وأن يقدُم عليك أحدٌ من أهل بيتي فتجيزه أو تحْبوَه بأمرٍ لا تصنعه بغيره، فأفعلُ بك ما أنت أهلُه. فضقتُ ذَرْعاً بقدومهما، ولا أستطيع أن أهدِيَ لهما، ولا أن آتيهما في منزلهما، خوفاً من أبيهما، فوالله إنّي لعَلى ما أنا عليه، وإذا قائلٌ يقول: هذا عبد الرحمن بن عمر بالباب وأبو سروعة يستأذنان عليك، فقلتُ: يدخلان، فدخلا وهما منكسِران، فقالا: أقم علينا حدّ الله، فإنّا أصبنَا الليلة شراباً فسكِرْنا، فزبرتهما وطردتهما، وقلت: ابن أمير المؤمنين وآخر معه من أهل بدر! فقال عبد الرحمن: إنْ لم تفعلْ أخبرتُ أبي إذا قدمت عليه أنّك لم تفعل، فعلمت أني إن لم أقِمْ عليهما الحدّ غضب عمر وعزلني، فنحن عَلَى ما نحن عليه، إذ دخل عبد الله بن عمر، فقمت إليه ورحبّت به، وأردت أن أجلِسه في صدر مجلسي، فأبى عليّ وقال: إنّ أبي نهاني أن أدخلَ عليك إلاّ أجدَ من الدخول بُدًّا، وإني لم أجد من الدخول عليك بُدًّا، إن أخي لا يحلَق عَلَى رؤوس الناس أبداً، فأمّا الضّرب فاصنع ما بدا لك - قال: وكانوا يحلِقون مع الحدّ - فأخرجتُهما إلى صحن الدّار وضربتهما الحدّ، ودخل عبد الله بن عمر بأخيه عبد الرحمن إلى بيت من الدارِ فحلَق رأسه، وحلق أبا سروعة، والله ما كتبتُ إلى عمر بحرفٍ ممّا كان، وإذا كتابه قد ورد:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى العاصي ابن العاصي، عجبتُ لك يابن العاصي ولجراءتك عليّ ومخالفتك عهدي! أما إني خالفت فيك أصحابَ بدر ومَنْ هو خير منك، واخترتُك وأنت الخامِل[1]، وقدّمتُك وأنت المؤخر، وأخبرَني الناس بجراءتك وخلافك، وأراك كما أخبروا، وما أراني إلاّ عازلك فمسيء عزلكَ. ويحك! تضرب عبد الرحمن بن عمر في داخل بيتك، وتحلق رأسَه في داخل بيتك، وقد عرفتَ أنّ في هذا مخالفتي! وإنما عبد الرحمن رجل من رعيّتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفتَ ألا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عزّ وجلّ، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة عَلَى قَتَب، حتى يعرف سوءَ ما صنع. قال: فبعثت به كما قال أبوه، وأقرأت أخاه عبد الله كتاب أبيهما، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه وأخبرته أنّي ضربته في صَحْن الدار، وحَلفت بالله الّذي لا يُحْلَف بأعظم منه، أنه الموضع الذي أقيم فيه الحدود على المسلم والذّميّ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فذكر أسلم مولى عمر قال:

قدم عبدُ الله بأخيه عبد الرحمن على أبيهما، فدخل عليه في عَباءة، وهو لا يقدِر على المشي من مَرْكبه، فقال: يا عبد الرحمن، فعلت وفعلت! السِّياط السّياط! فكلّمه عبد الرحمن بن عوف، وقال: يا أميرَ المؤمنين، قد أقيم عليه الحدّ مرّة، فلم يلتفت إليه وزبَره، فأخذتْه السِّياط، وجعل يصيح: أنا مريض وأنت والله قاتلي! فلم يرقّ له، حتى استوفى الحدّ وحبسه. ثم مرض شهراً ومات.

وروى الزبير بن بكار، قال: خطب عمرُ أمّ كلثوم بنت عليّ عليه السلام، فقال له: إنّها صغيرة، فقال زوِّجنيها يا أبا الحسن، فإني أرصدُ من كرامتها ما لا يرصده أحد، فقال: أنا أبعثها إليك، فإنْ رضيتَها زوّجتكها. فبعثها إليه ببُرْد، وقال لها قولي: هذا البُرْد الذي ذكرتُه لك. فقالت له ذلك، فقال: قولي له: قد رضيتُه رضي الله عنك - ووضع يده على ساقها - فقالت له: أتفعل هذا! لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفَك، ثم جاءت أباها فأخبرته الخبر، وقالت: بعثتني إلى شيخ سوء! قال: مهلاً يا بنيّة، إنه زوْجك، فجاء عمر إلى مجلس المهاجرين في الروْضة، وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون، فقال: رفئوني[2]، رفئوني، قالوا: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: تزوّجت أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «كلّ سبب ونسب وصهر ينقطعُ يوم القيامة إلا سَبَبي ونسبي وصهري»[3].

---

(١) خامل: ساقط لا نباهة له. القاموس المحيط، مادة (خمل).

(٢) رَفَّأه: دعا له قال له: بالرِّفاء والبنين. لسان العرب، مادة (رفأ).

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٦٤)، وابن عدي في «الكامل» (١١١)، وابن حجر في «تلخيص الحبير» (١٤٧٧)، وأحمد في كتاب: أول مسند الكوفيين (١٨٤٢٨).

وكتب عثمان إلى أبي موسى: إذا جاءك كتابي هذا فأعْطِ النّاس أعطيَاتِهم، واحمل ما بقي إليّ. ففعل، وجاء زيد بن ثابت بالمال، فوضعه بين يدي عثمان، فجاء ابنٌ لعثمان، فأخذ منه أستاندانة من فضّه، فمضى بها فبكَى زيد، قال عثمان: ما يبكيك؟ قال: أتيت عمر مثل ما أتيتُك به، فجاء ابنٌ له فأخذ دِرْهماً فأمر به فانتزع منه، حتى أبكى الغلام، وإنّ ابنك قد أخذ هذه فلم أرَ أحداً قال شيئاً. فقال عثمان: إنّ عمر كان يمنعُ أهلَه وقرابته ابتغاء وجه الله، وأنا أعطِي أهلِي وأقاربي ابتغاء وجه الله، ولن تلقَى مثل عمر.

وروى إسماعيل بن خالد، قال: قيل لعثمان: ألاَ تكون مثل عمر! قال: لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم.

ذكرت عائشة عمرَ، فقالت: كان أجودَنا، نَسيجَ وحْدِه، قد أعَدَّ للأمور أقرانَها.

جاء عبد الله بن سَلاَم بعد أن صلّى النّاس على عمر، فقال: إن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه فلا تسبقوني بالثّناء عليه، ثم قال: نعم أخو الإسلام كنتَ يا عمر! جواداً بالحقّ بخيلاً بالباطل، ترضَى حين الرّضا، وتسخَط حين السّخط، لم تكن مدّاحاً ولا مِغياباً، طيّب الطَّرَف، عفيفَ الطّرْف.

وروى جُويرِية بن قُدامة، قال: دخلتُ مع أهل العراق على عمرَ حين أصيب، فرأيتُه قد عَصَب بطنَه بعمامة سوداء، والدّم يسيل، فقال له الناس: أوصِنا، فقال عليكم بكتاب الله، فإنّكم لنْ تضلّوا ما اتّبعتموه. فأعدنا القول عليه ثانية: أوْصِنَا، قال: أوصيكم بالمهاجرين، فإنّ الناس سيكثُرون ويقلّون، وأوصيكم بالأنصار، فإنهم شِعْب الإسلام الذي لجأ إليه، وأوصيكم بالأعراب، فإنهم أصلكم الذي لجأتم إليه ومأواكم. وأوصيكم بأهل الذمّة، فإنّهم عهد نبيّكم ورزق عيالكم، قوموا عنّي.

فلم أحفظ من كلامه إلا هذه الكلمات.

وروى عمرو سبن ميمون، قال: سمعتُ عمر وهو يقول - وقد أشار إلىَ الستّة، ولم يكلم أحداً منهم إلاّ عليّ بن أبي طالب وعثمان، ثم أمرهم بالخروج، فقال لمَن كان عنده: إذا اجتمعوا عَلَى رجل فمن خالف فلتضربَ رقبته، ثم قال: إن يولّوها الأجلح يسلك بهم الطريق، فقال له قائل: فما يمنعك من العهد إليه؟ قال: أكره أن أتحمّلها حيًّا وميتاً.

خطب لعمر بن الخطاب فيها بعض الطوّل

وقال الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»: لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال، وكان كلامه قصيراً، وإنما صاحب الخطب الطوال عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وقد وجدتُ أنا لعمر خطباً فيها بعض الطُّول، ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في التاريخ.

فمنها خطبة خَطب بها حين وليَ الخلافة، وهي بعد حَمْد الله والثّناء عليه وعَلَى رسوله:

أيُّها الناس، إنّي ولِّيتُ عليكم، ولولا رجاءُ أن أكون خيرَكم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدّكم استضلاعاً بما ينوب من مهمّ أموركم، ما تولّيت ذلك منك، ولكفى عمر فيها مجزي العطاء موافقة الحساب، بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضْعِها أين أضعها، وبالسَّيْر فيكم كيف أسير! فربّي المستعان، فإنّ عُمَر لم يصبح يثق بقوّة ولا حيلة، إنْ لم يتداركْه الله برحمته وعونه.

أيّها الناس إن الله قد ولاّني أمرَكم، وقد علمت أنفع ما لكم، وأسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسَني عنده، كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدْل في قَسْمكم كالذي أمر به، فإني امرؤ مسلم، وعبد ضعيف إلا ما أعان الله، ولن يغيّر الّذي وليت من خلافتكم من خُلُقي شيئاً إن شاء الله. إنما العظمةُ لله، وليس للعباد منها شيء، فلا يقولنّ أحدُكم إن عمر تغيّر منذ وَلِيَ، وإنّي أعقِلُ الحقَّ من نفسي، وأتقدَّم وأبيّن لكم أمرِي، فأيّما رجلٍ كان له حاجة أو ظلِم مظلمة أو عتب علينا في خلق، فليُؤْذِنّي، فإنّما أنا رجلٌ منكم، فعليكم بتقوى الله في سرّكم وعلانيتكم وحُرُماتكم وأعراضكم، وأعطُوا الحقَّ من أنفسكم، ولا يحمِلْ بعضُكم بعضاً عليّ ألا تتحاكموا إليّ، فإنه ليس بيني وبين أحد هَوادة، وأنا حبيب إليّ صلاحكم، عزيز عليّ عنَتُكم، وأنتم أناس عامّتكم حضَر في بلاد الله وأهل بلدٍ لا زرع فيه ولا ضَرْع إلاّ ما جاء الله به إليه، وإنّ الله عزّ وجلّ قد وعدكم كرامة كبيرة، وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلّع عَلَى ما يحضرني بنفسي إن شاء الله، لا أكِلُه إلى أحدٍ، ولا أستطيع ما بَعُد منه إلاّ بالأمناء وأهل النّصح منكم للعامة، ولست أحمل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله.

وخطب عمر مرة أخرى، فقال بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أيّها النّاس، إنّ بعض الطّمع فَقْر، وإنّ بَعْض اليأس غنى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتؤمّلون ما لا تدركون، وأنتم مؤجّلون في دار غرور، وقد كنت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحْي، ومن أسرّ شيئاً أخِذ بسريرته، ومَنْ أعلن شيئاً أخِذ بعلانيته، فأظهرُوا لنا حسن أخلاقكم، والله أعلم بالسرائر، فإنّه مَنْ أظهر لنا قبيحاً، وزعم أن سريرته حسنة لم نصدّقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننّا به حسناً. واعلموا أنّ بعض الشحّ شُعبة من النّفاق، فأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومَنْ يوقَ شحّ نفسِه فأولئك هم المفلحون.

أيّها الناس، أطيبوا مثواكم، وأصلحوا أموركم، واتّقوا الله ربّكم، ولا تُلبِسُوا نساءكم القُباطيّ، فإنّه إنْ لم يشفّ فإنه يَصِف.

أيّها الناس، إني لوددت أن أنجوَ كَفافاً لا لي ولا عليّ، إنّي لأرجو إن عُمِّرت فيكم يسيراً

أو كثيراً، أن أعمل فيكم بالحقّ إن شاء الله، وألاّ يبقى أحدٌ من المسلمين - وإن كان في بيته - إلا أتاه حقّه ونصبه من مال الله، وإن لم يعمِل إليه نفسَه، ولم ينصِبْ إليه بدَنه، فأصلِحوا أموالَكم التي رزقكم الله، فقليلٌ في رفق خير من كثير في عنف.

واعلموا أن القتلَ حتْفٌ من الحتوف يصيب البَرّ والفاجر - والشهيد من احتسَب نفسَه، وإذا أراد أحدُكم بعيراً فليعمِدْ إلى الطَّويل العظيم فليضربه بعصاه، فإن وجده حديد الفؤاد فليشترهْ.

وخطب عمر مرّة أخرى فقال:

إنّ الله سبحانه قد استوجبَ عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحجج فيما أتاكم من كرامة الدنيا والآخرة من غير مسألة منكم، ولا رغبةٍ منكم فيه إليه، فخلقكم - تبارك وتعالى - ولم تكونوا شيئاً لنفسِه وعبادته، وكان قادراً أن يجعَلكم لأهون خلقه عليه فجعلكم عامّة خلقه، ولم يجعلكم لشيء غيره، وسخّر لكم ما في السماوات والأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة، وحملكم في البرّ والبحر، ورزقكم من الطيّبات لعلّكم تشكرون. ثم جعل لكم سمعاً وبصراً. ومِنْ نعم الله عليكم نِعَمٌ عَمّ بها بني آدم ومنها نعمٌ اختصّ بها أهلَ دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصُّها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النّعم نعمةٌ وصلت إلى امرىء خاصّة إلا لو قسمتم ما وصل منها بين الناس كلّهم أتعبهم شكرُها، وفدحهم حقّها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مستخلَفون في الأرض قاهرون لأهلها، قد نصرَ الله دينَكم فلم تصبح أمّة مخالفة لدينكم، إلاّ أمتين أمّة مستعبدة للإسلام وأهلِه، يتّجرون لكم، تستصفون معايشهم وكدائحهم، ورشح جباههم، عليهم المؤونة، ولكن ٱلمنفعة، وأمّة تنتظر وقائع الله وسطواته في كلّ يوم وليلة، قد ملأ الله قلوبهم رُعْباً، فليس لهم معقل يلجؤون إليه، ولا مهرب يتقّون به، قد دهمتهم جنودُ الله ونزلت بساحتهم، مع رفاغة العيش واستفاضة المال، وتتابع البعوث وسدّ الثغور بإذن الله، في العافية الجليلة العامّة التي لم تكن الأمة على أحسن منها منذ كان الإسلام، والله المحمود مع الفتوح العظام في كلّ بلد، فما عسى أن يبلغ شكر الشاكرين، وذكر الذاكرين، واجتهاد المجتهدين، مع هذه النّعم التي لا يحصَى عددُها، ولا يقدر قدرُها، ولا يستطاع أداء حقّها إلا بعون الله ورحمته ولطفه! فنسأل الله الذي أبلانا هذا أن يرزقَنا العملَ بطاعته، والمسارعةَ إلى مرضاته. واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم، واستتمّوا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنَى وفرادى، فإنّ الله تعالى قال لموسى: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾(١) وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(٢) فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

تؤمنون بها، وتستريحون إليها، مع المعرفة بالله وبدينه، وترجون الخير فيما بعد الموت، ولكنكم كنتم أشدَّ الناس عيشة وأعظم الناس بالله جهالة، فلو كان هذا الذي ابتلاكم به لم يكن معه حظٌّ في دنياكم غير أنه ثِقَةٌ لَكُمْ في آخرتكم التي إليها المعادُ والمنقلَب، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه كنتم أحرِياء أن تشحّوا على نصيبكم منه، وأن تظهروه على غيره قَبْلَه. أما إنه قد جمع لكم فضيلة الدّنيا وكرامة الآخرة، أو لمن شاء أن يجمع ذلك منكم، فأذكّركم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم إلاّ ما عرفتم حقّ الله وعملْتم له، وسيّرتُم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنِّعم خوفاً لزوالها وانتقالها، ووجلاً من تحويلها، فإنه لا شيء أسلبُ للنعمة مِنْ كفرانها، وإنّ الشكر أمنٌ للغيَر، ونماءٌ للنّعمة، واستجلاب للزّيادة، وهذا عليّ في أمركم ونهيكم واجب إن شاء الله.

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنّى في كتاب مقاتل الفرسان[1] قال: كتب عمر إلى سلْمان بن ربيعة الباهليّ - أو إلى النّعمان بن مقرّن:

إن في جندك رجلَيْن من العرب: عمرو بن معديكرب وطُلَيْحة بن خويلد، فأحضِرْهما النّاس وأدّبهما وشاورِهُما في الحرب، وابعثهما في الطّلائع، ولا تولّهما عملاً من أعمال المسلمين، وإذا وضعت الحرب أوزارها، فضعهما حيث وضعا أنفسهما. قال: وكان عمرٌو ارتدّ، وطليحة تنبّأ.

وروى أبو عُبيدة أيضاً في هذا الكتاب، قال: قدِم عمرو بن معديكرب والأجْلَح بن وقّاص الفهميّ على عمر، فأتياه وبين يديه مالٌ يوزَنُ، فقال: متَى قدمتما؟ قالا: يومَ الخميس، قال: فما حَبَسكما عنّي؟ قالا: شغلنا المنزل يوم قدِمْنا، ثم كانت الجمعة، ثم غدوْنا عليك اليوم. فلمّا فَرَغ من وزن المال نحّاه، وأقبل عليهما، فقال: هيهِ! فقال عمرو بن معديكرب: يا أميرَ المؤمنين، هذا الأجلح بن وقّاص، الشديد المِرّة، البعيد الغرّة، الوشيك الكَرّة، والله ما رأيت مثله حين الرجال صارعٌ ومصروع! والله لكأنّه لا يموت. فقال عمر للأجلح - وأقبل عليه، وقد عرف الغضب في وجهه: هِيهِ يا أجْلَح! فقال الأجلح: يا أميرَ المؤمنين، تركتُ الناس خلفي صالحين، كثيراً نسلُهم، دارّة أرزاقهم، خصْبَةٌ بلادهم، أجرياء على عدوّهم، فاكلأْ عدوّهم عنهم، فسيمتّع الله بك، فما رأينا مثلك إلاّ مَنْ سبقك، فقال: ما منعك أن تقول في صاحبك مثل ما قال فيك؟ قال: ما رأيتُ من وجهك، قال: أصبْت، أما إنّك لو قلت فيه مثل الذي قال فيك لأوجعتُكما ضرباً وعقوبة، فإذ تركتك لنفسك فسأتركه لك، والله لوددت لو سَلِمَتْ لكم حالكم، ودامت عليكم أمورُكم. أما إنّه سيأتي عليك يوم تعضّه وينهشك، وتهرّه وينبَحُك، ولستَ له يومئذ وليس لك، فإن لا يكن بِعَهْدِكُمْ، فما أقربَه منكم!

---

(١) هو لأبي عبيدة معمر بن المثنى النحوي المتوفى سنة (٢١١)، ا. هـ «كشف الظنون» (٢/ ١٧٧٨).

لما أسِرَ الهُرمُزان صاحب الأهواز وتُسْتَر وحمِل إلى عمرَ، حُمل ومعه رجال من المسلمين، فيهم الأحنف بن قيس وأنس بن مالك، فأدخلوه في المدينة في هيئته، وعليه تاجُه الذهب وكسوته، فوجدوا عمر نائماً في جانب المسجد، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهَه، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا، قال: وأين حُرّاسه وحُجّابه؟ قالوا: لا حارس له ولا حاجب، قال: فينبغي أن يكون هذا نبيًا! قالوا: إنّه يعمل عمل الأنبياء.

فاستيقظ عمر، فقال: الهرمزان! قالوا: نعم، قال: لا أكلّمه حتى لا يبقى عليه من حليته شيء، فرمَوْا بالحلية وألبسوه ثوباً ضعيفاً، فقال عمر: يا هرمزان، كيف رأيتَ وبال الغدر؟ - وقد كان صالَح المسلمين مرة ثم نكث - فقال: يا عمر، إنّا وإيّاكم في الجاهلية كنّا نغلبكم إذْ لم يكن الله معكم ولا معنا، فلمّا كان الله معكم غلبتمونا، قال: فما عذرك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ قال: أخاف إن قلتُ أن تقتلَني، قال: لا بأس عليك! فأخبرني، فاستسقى ماء، فأخذه وجعلتْ يده تُرْعَد، قال: ما لك؟ قال: أخاف أن تقتلَني وأنا أشرب، قال: لا بأس عليك حتى تشرَبه، فألقاه من يده، فقال: ما بالك! أعيدوا عليه الماء ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش، قال: كيف تقتلني وقد أمّنتنِي؟ قال: كذبت! قال: لم أكذب، فقال أنس: صدَق يا أمير المؤمنين، قال: ويحك يا أنس! أنا أؤمّن قاتل مَجْزَأة بن ثور والبَراء بن مالك! والله لتأتينّي بالمخرج أو لأعاقبنّك! قال: إنّك قلت: «لا بأس عليك حتى تخبرَني ولا بأس عليك حتى تشرَب»! وقال له ناس من المسلمين مثل قول أنس، فأقبل على الهرُمزان، فقال: تخدعُني! والله لا تخدعني إلاّ أن تسلِم، فأسلم، ففرَض له ألفين، وأنزله المدينة.

بعث عمرُ عميرَ بن سعيد الأنصاري عاملاً على حِمْص، فمكث حولاً لا يأتيه خبره، ثم كتب إليه بعد حول: إذا أتاك كتابي هذا فأقبِلْ واحمل ما جبيْتَ من مال المسلمين، فأخذ عمير جرابه، وجعل فيه زاده وقَصْعته، وعلّق أداته، وأخذ عَنَزته، وأقبل ماشياً من حِمْص حتى دخل المدينة، وقد شحَب لونُه، واغبرّ وجهُه، وطال شعره. فدخل على عمر فسلّم، فقال عمر: ما شأنك يا عمير؟ قال: ما ترَى من شأني، ألستَ تراني صحيح البدن، ظاهر الدّم، معي الدنيا أجرّها بقرنَيْها؟ قال: وما معك - فظنّ عمر أنّه قد جاء بمالٍ -، قال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقَصْعتي آكل فيها وأغسل منها رأسي وثيابي، وأداتي أحمل فيها وَضوئي وشرابي، وعَنَزتي أتوكّأ عليها وأجاهد بها عدوًّا إن عَرَض لي.

قال عمر: أفجئت ماشياً؟ قال: نعم، لم يكن لي دابّة، قال: أفما كان في رعيّتك أحد يتبرّع لك بدابّة تركبها؟ قال: ما فعلوا، ولا سألتُهم ذلك، قال عمر: بئس المسلمون خرجتَ من عندهم! قال عمير: اتّق الله يا عمر، ولا تَقُلْ إلاّ خيراً، قد نهاك الله عن الغِيبة، وقد رأيتُهم يصلّون!

قال عمر: فماذا صنعت في إمارتك؟ قال: وما سؤالك؟ قال: سبحان الله! قال: أما إنّي لولا أخشى أن أعمل ما أخبرتك. أتيت البلد، فجمعت صُلَحاء أهله فولّيتهم جبايته، ووضعَه في مواضعه، ولو أصابك منه شيء لأتاك، قال: أفما جئت بشيء؟ قال: لا، فقال: جدِّدُوا لعمير عهداً، قال: إنّ ذلك لشيء لا أعلمه بَعْدُ لك، ولا لأحد بعدك، والله ما كدت أسْلَم - بل لم أسلَم، قلت لنصرانيّ معاهَد: أخزاك الله، فهذا ما عرّضتني له يا عمر! إن أشقى أيّامي ليوم صحبتُك! ثم استأذنه في الانصراف، فأذن له، ومنزله بقُباء بعيداً عن المدينة، فأمهله عمر أياماً ثمّ بعث رجلاً يقال له الحارث، فقال: انطلِق إلى عمير بن سعد وهذه مائة دينار، فإنْ وجدتَ عليه أثراً فأقبل عليّ بها، وإن رأيت حالاً شديدة فادفع إليه هذه المائة، فانطلق الحارث فوجد عُميراً جالساً يفلّي قميصاً له إلى جانب حائط، فسلم عليه، فقال عمير: انزل رحمك الله! فنزل فقال: مِنْ أين جئت؟ قال: من المدينة، قال: كيف تركتَ أمير المؤمنين؟ قال: صالحاً، قال: كيف تركت المسلمين؟ قال: صالحين، قال: أليس عمرُ يقيم الحدود؟ قال: بلَى، ضرب ابناً له على فاحشة فمات من ضَرْبه، فقال عمير: اللهمّ أعِنْ عمر، فإني لا أعلمُه إلاّ شديداً حبُّه لك! قال: فنزل به ثلاثة أيام، وليس لهم إلا قرصٌ من شعير كانوا يخصُّونه كلّ يوم به ويطوون، حتى نالهم الجَد، فقال له عمير: إنّك قد أجعتنا، فإن رأيت أن تتحوّل عنّا فافعل، فأخرج الحارث الدنانير فدفعها إليه، وقال: بعث بها أمير المؤمنين، فاستغْنِ بها، فصاحَ وقال: ردّها، لا حاجة لي فيها، فقالت المرأة: خذها ثم ضعها في موضعها، فقال: ما لي شيء أجعلها فيه! فشقّت أسفلَ درعها فأعطته خِرْقة فشدّها فيها، ثم خرج فقسّمها كلّها بين أبناء الشهداء والفقراء، فجاء الحارث إلى عمر فأخبره، فقال: رحم الله عميراً! ثم لم يلبث أن هَلَك، فعظم مهلكُه على عمر، وخرج مع رهط من أصحابه ماشين إلى بقيع الغَرْقد، فقال لأصحابه: ليتمنّينّ كلّ واحد منا أمنيّته، فكلّ واحد تمنى شيئاً، وانتهت الأمنيّة إلى عمر، فقال: وددت أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أمور المسلمين!

ومن كلام عمر: إيّاكم وهذه المجازِرَ، فإن لها ضَراوةً كضراوة الخمر.

وقال: إيّاكم والراحةَ فإنها غفلة. وقال: السِّمَن غَفْلة. وقال: لا تُسكِنُوا نساءكم الغُرَف، ولا تعلّموهنّ الكتابة، واستعينوا عليهنّ بالعُرْي، وعوّدوهنّ قول «لا»، فإنّ «نعم» تجرّئهنّ على المسألة.

وقال: تبيَّنْ عقلَ المرء في كلّ شيء، حتى في عِلّته، فإذا رأيتَه يتوقّى على نفسه الصبر عن شهوته، ويحتمي من مطعمه ومشربه، عرفتَ ذلك في عقله، وما سألني رجلٌ عن شيء قطّ إلا تبيّن لي عقله في ذلك.

وقال: إنّ للناس حدوداً ومنازل، فأنزلوا كلّ رجلٍ منزلته، وضعوا كلّ إنسان في حدّه، واحملوا كلَّ امرىء بفعله على قدره.

وقال: اعتبروا عزيمة الرّجُل بحميّته، وعقله بمتاع بيته. قال أبو عثمان الجاحظ: لأنه ليس من العقل أن يكون فرشه لِبْداً ومرقعتُه طَبَرِيّة.

وقال: مَنْ يئِسَ من شيء استغنى عنه، وعزُّ المؤمن استغناؤه عن النّاس.

وقال: لا يقوم بأمر الله إلاّ مَنْ يصانع، ولا يصارع، ولا يتبع المطامع.

وقال: لا تُضْعِفُوا هِمّتكم، فإنّي لم أر شيئاً أقعدَ برجل عن مكرُمةٍ مِنْ ضعف هِمّته.

ووعظ رجلاً فقال: لا تلهِكَ النّاس عن نفسك، فإنّ الأمور إليك تصلُ دونهم، ولا تقطع النّهارَ سادِراً، فإنه محفوظ عليك، فإذا أسأت فأحسِنْ، فإني لم أرَ شيئاً أشدّ طلباً، ولا أسرع إدراكاً من حسنةٍ حديثة لذنب قديم.

وقال: احذَر من فَلَتاتِ السّباب، وكلّ ما أورثك النّبْز، وأعلقَك اللقب، فإنه إن يعظم بعده شأنك يشتدّ على ذلك ندمك.

وقال: كلّ عمل كرهتَ من أجله الموت فاتركه، ثم لا يضرّك متى مِتّ.

وقال: أقللْ من الدَّيْن تعش حرًّا، وأقلل من الذّنوب يهَن عليك الموت، وانظر في أيّ نصاب تضع ولدك، فإنّ العِرْق دسّاس.

وقال: ترك الخطيئة أسهل من معالجة التوبة.

وقال: احذروا النّعمة حذرَكم المعصيةَ، وهي أخفُّهما عليكم عندي.

وقال: احذروا عاقبة الفَراغ، فإنه أجمع لأبواب المكروه من السّكر.

وقال: أجودُ النّاس مَنْ يجود عَلَى من لا يرجو ثوابه، وأحلمُهم مَنْ عفا بعد القدرة، وأبخلهم مَنْ بخل بالسّلام، وأعجزهم من عجز في دعائه.

وقال: ربَّ نظرة زرعت شهوة، ورب شهوة أورثت حزناً دائماً.

وقال: ثلاث خصالٍ مَنْ لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان: حِلْم يردّ به جهل الجاهل، ووَرَعٌ يَحجُزه عن المحارم، وخُلُق يدارِي به الناس.

عمر وعمرو بن معديكرب

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب مقاتل الفرسان أن سعد بن أبي وقاص أوفد عمرو بن معديكرب بعد فتح القادسيّة إلى عمر، فسأله عمر عن سعد: كيف تركتَه، وكيف رضا الناس عنه؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، هو لهم كالأب يجمع لهم جمْع الذّرّة، أعرابي في نَمرِته، أسد في تامورته، نَبَطِيٌّ في جِبايته، يقسِم بالسويّة، ويعدل في القضيّة، وينفِر في السريّة.

وكان سعد كتب يُثْنِي على عمرو، فقال عمر: لكأنما تعاوضْتما الثناء! كتبَ يثْني عليك، وقدِمْتَ تثني عليه! فقال: لم أُثْنِ إلاّ بما رأيت، فقال: دَعْ عنك سعداً، وأخبرني عن مَذْحِج قومك.

قال: في كلٍّ فضلٌ وخيْر، قال: ما قولُك في عُلَة بن خالد؟ قال: أولئك فوارس أعراضنا، أحثُّنا طلباً، وأقلنا هرَباً، قال: فسعد العشيرة؟ قال: أعظمنا خمِيساً، وأكبرنا رئيساً، وأشدّنا شَرِيساً. قال: فالحارث بن كعب؟ قال: حَكَمَةٌ لا ترام، قال: فمراد؟ قال: الأتقياء البررَة، والمساعير الفجَرة، ألزمُنا قراراً، وأبعدنا آثاراً.

قال: فأخبِرْني عن الحرب، قال: مرّة المذاق، إذا قلّصَتْ عن ساق، مَنْ صبر فيها عرف، ومن ضعف عنها تلِف، وإنّها لكما قال الشاعر:

الْـحَــرْبُ أوّل مَــا تَــكُــونُ فَــتِــيَّــةً ... تَــسْــعَــى بِــزِيــنَــتِــهــا لــكــلّ جَــهُــولِ
حــتــى إذا اســتــعــرَتْ وشَــبَّ ضِــرامــهــا ... عــادتْ عــجــوزاً غــيــر ذاتِ حــلــيــلِ
شَــمْــطــاء جَــزَّتْ رأسَــهــا وتــنــكّــرتْ ... مَــكْــرُوهــةً لــلــشَّــمّ والــتــقــبــيــل

قال: فأَخبرْني عن السّلاح، قال: سلْ عمّا شئت منه، قال: الرّمْح؟ قال: أخوك وربما خانك، قال النّبل؟ قال: منايا تخْطِئُ وتصيب، قال: التُّرس؟ قال: ذاك المِجنّ، وعليه تدور الدوائر، قال: الدرع؟ قال: مشغَلةٌ للراكب، متعَبةٌ للراجل، وإنها لحِصْنٌ حَصين. قال: السيف؟ قال: هناك قارعت أمّك الهَبَل، قال: بل أمّك، قال: بل أمّي، والحمّى أضْرَعَتْني لك.

عرض سليمان بن ربيعة الباهليّ جنده بأرمينيّة، فكان لا يقبل من الخيل إلاّ عتيقاً، فمرّ عمرو بن معديكرب بفرس غليظ، فردّه وقال: هذا هجين، قال عمرو: إنه ليس بهجين، ولكنه غليظ، قال: بل هو هجين، فقال عمرو: إنّ الهجين لَيَعْرِفُ الهجين. فكتب بكلمته إلى عمر، فكتب إليه: أمّا بعد يابن معديكرب، فإنّك القائل لأميرك ما قلت، فإنه بلَغني أنّ عندك سيفاً تسمّيه الصَّمْصامة، وأنّ عندي سيفاً أسميّه مصمّماً، وأقسم بالله لئن وضعتُه بين أذنيك لا يقلع حتى يبلغ قحفَك(١).

وكتب إلى سليمان بن ربيعة يلومُه في حلِمه عنه، فلما قرأ عمرو الكتاب، قال: مَنْ ترونه يعني؟ قالوا: أنت أعلم، قال: هدّدني بعليّ والله، وقد كان صَلِيَ بناره مَرّةً في حياةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفلت من يده بجُرَيْعة الذَّقَن، وذلك حين ارتدّت مذحِج، وكان

(١) القِحْف: العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان. القاموس المحيط، مادة (قحف).

رسول الله ﷺ أمّر عليها فَرْوة بن مسيك المراديّ، فأساء السيرة، ونابذ عمرو بن معديكرب ففارقه في كثير من قبائل مَذْحِج، فاستجاش فَرْوة عليه وعليهم رسول الله ﷺ، فأرسل خالد بن سعيد بن العاص في سريّة وخالد بن الوليد بعده في سريّة ثانية، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام في سريّة ثالثة، وكتب إليهم: كلّ واحد منكم أمير من معه، فإذا اجتمعتم فعليٌّ أميرٌ عَلَى الكلّ، فاجتمعوا بموضع من أرض اليمن يقال له «كسر»، فاقتتلوا هناك، وصَمَد عمرو بن معديكرب لعليّ عليه السلام - وكان يظنّ أن لا يثبت له أحدٌ من شجعان العرب - فثبت له، فعلا عليه، وعاين منه ما لم يكن يحتسبه، ففرّ من بين يديْه هارباً ناجياً بحُشاشة نفسه، بعد أن كاد يقتله، وفرَّ معه رؤساء مذحِج وفرسانهم، وغَنِم المسلمون أموالَهم، وسُبِيت ذلك اليوم ريحانة بنت معد يكرب أخت عمرو، فأدّى خالد بن سعيد بن العاص فِداءها من ماله، فأصابه عمرو أخوها الصَمْصامةَ، فلم يزل ينتقل في بني أميّة ويتداولونه واحداً بعد واحدٍ حتى صار إلى بني العباس في أيام المهديّ محمد بن المنصور أبي جعفر.

كلمات عمر الغريبة وتفسيرها

فأما ما نقل عن عمر من الألفاظ الغريبة اللّغوية التي شرحها المفسرون، فنحن نذكر من ذلك ما يليق بهذا الكتاب.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه: روى عبد الرحمن بن أبي زيد، عن عمران بن سودة الليثيّ، قال: صلّيت الصبح مع عمر، فقرأ «سبحان» وسورة معها، ثم انصرف، فقمت معه، فقال: أحاجة؟ قلت: حاجة، قال: فالحق، فلحقت، فلمّا دخل أذِن، فإذا هو عَلَى رمال سرير، ليس فوقه شيء، فقلت: نصيحة! قال: مرحباً بالناصح غدوًّا وعشيًّا، قلت: عابت أمّتك - أو قال رعيّتك - عليك أربعاً، قال: فوضع عود الدِّرة ثم ذقَن عليها - هكذا روى ابن قتيبة - وقال أبو جعفر: «فوضع رأس دِرّته في ذَقْنه» ووضع أسفلها على فخذه، وقال: هات - قال: ذكروا أنّك حرّمت المُتعة في أشهر الحج - وزاد أبو جعفر: «وهي حلال» - ولم يحرّمها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، فقال: أجل! إنّكم إذا اعتمرتم في أشهر حجّكم رأيتموها مجزئة عن حجّكم، فَقَرِع حَجُّكم، وكانت قابيَة قَوْب عامها والحجّ بهاء من بهاء الله، وقد أصبتَ. قال: وذكروا أنّك حرّمت مُتْعة النساء، وقد كان رخصة من الله نستمتع بقُبضة، ونفارق عن ثلاث، قال: إنّ رسول الله ﷺ أحلّها في زمان ضرورة، ورجع النّاس إلى السعة، ثم لم أعلم أحداً من المسلمين عاد إليها، ولا عمل بها، فالآن مَنْ شاء نكح بقُبْضة، وفارق عن ثلاثٍ بطلاق وقد أصبت.

وقال: ذكروا أنّك أعتقْتَ الأمَة إذا وضعتْ ذا بطنها بغير عَتاقة سيّدها. قال: ألحقتُ حرمة بحرمة، وما أردت إلاّ الخير، وأستغفر الله.

قال: وشكَوْا منك عُنْف السّياق، ونَهْرَ الرعية. قال: فنَزَعَ الدِّرَّة ثم مسحَها حتى أتى على سُيُورها، وقال: وأنا زميل محمد رسول الله ﷺ في غزاة قرقرة الكُدْر، فوالله إني لأرْتِع فَأُشبِع، وأسقي فأروي، وإني لأضرب العَرُوضَ، وأزجر العَجُول، وأُؤدّب قَدْرِي، وأسوق خَطوتي، وأردّ اللَّفُوت، وأضُمّ العَنود، وأكثر الضّجر، وأقلّ الضرب، وأشهر بالعصا، وأدفع باليد، ولولا ذلك لأعذرت.

قال أبو جعفر: فكان معاويةُ إذا حدّث بهذا الحديث يقول: كان والله عالماً برعيّته.

قال ابن قتيبة: رَمَلْت السرير وأرملتُه، إذا نسجتَه بشريط من خُوصٍ أو ليف.

وذقَن عليها، أي وضع عليها ذقنه يستمع الحديث.

وقوله: فقَرِع حَجُّكم، أي خلَتْ أيّام الحجّ من الناس، وكانوا يتعوذون مِن قَرَع الفِناء، وذلك ألاّ يكون عليه غاشية وزوّار، ومِن قَرَع المراح، وذلك ألاّ يكون فيه إبل.

والقابية: قشر البيضة إذا خرج منها الفرخ.

القُوبُ: الفَرْخ، قال الكُميت:

لـهـنّ ولـلـمـشـيـب ومَـنْ عـلاه   مـن الأمـثـال قـابـيـة وقُـوبُ

أراد أنّ النساء ينفرنَ من ذي الشيب ويفارقنه كما يفارق الفرخ البيضة، فلا يعود إليها بعد خُروجِه منها أبداً. وروي عن عمر: إنّكم إذا رأيتم العُمرة في أشهر الحجّ كافية من الحجّ خلت مكة من الحجّاج، فكانت كبيضةٍ فارقها فرخها.

قوله: «إنّي لأرتِعُ فأُشبِع، وأسقي فأروي» مثلٌ مستعار من رعيت الإبل، أي إذا أرتعت الإبل، أي أرسلتها ترعى تركتها حتى تشبع، وإذا سقيتها تركتها حتى تروى.

وقوله: «أضرب العَرُوض»، العروض: النّاقة تأخذ يميناً وشمالاً، ولا تلزم المحجّة، يقول: أضربها حتى تعود إلى الطريق. ومثله قوله: «وأضم العنود».

والعجول: البعير يندّ عن الإبل، يركب رأسه عجلاً ويستقبلها.

قوله: «وأؤدّب قَدْرِي»، أي قدر طاقتي.

وقوله: «وأسوق خَطوتي» أي قدر خَطوتي.

واللَّفُوت: البعير يلتفِت يميناً وشمالاً ويروغ.

وقوله: «وأكثِر الزَّجْر وأقلّ الضرب» أي أنه يقتصر من التأديب في السياسة على ما يكتفى به، حتى يضطر إلى ما هو أشدّ منه وأغلظ.

وقوله: «وأشهر بالعصا وأدفع باليد»، يريد أنّه يرفع العصا يُرْهب بها ولا يستعملها، ولكنّه يدفع بيده.

قوله: «ولولا ذلك لأغذَرْت» أي لولا هذا التدبير وهذه السياسة لخلفت بعض ما أسوق، ويقال: أغذَر الرّاعي الشاة والناقة إذا تركها، والشاة العذيرة وعذرتْ هي، إذا تخلّفَتْ عن الغنم.

قال ابن قتيبة، وهذه أمثال ضربها، وأصلها في رِعْيَة الإبل وسوقها، وإنّما يريد بها حُسْن سياسته للناس في الغَزَاة التي ذكرها، يقول: فإذا كنتُ أفعل كذا في أيام رسول الله ﷺ مع طاعةِ الناس له، وتعظيمهم إياه، فكيْفَ لا أفعله بعده!

وعندي أنّ ابنَ قتيبة غالطٌ في هذا التأويل، وليس في كلام عمر ما يدلّ على ذلك وليس عمر في غزاة قرقرة الكُدْر يسوسُ الناس ولا يأمرهم ولا ينهاهم، وكيف ورسول الله ﷺ حاضرٌ بينهم! ولا كان في غزاة قرقرة الكدر حرب، ولا ما يُحتاج فيه إلى السيّاسة، وهل كان لعمر أو لغير عمر ورسول الله ﷺ حيّ أن يُرْتِع فيشبع، ويسقي فيروي! وهل تكون هذه الصّفات وما بعدها إلا للرئيس الأعظم! والذي أراده عمر ذكر حاله في خلافته رادًا على عمران بن سوادة في قوله: «إنّ الرعيّة يشكُون منك عُنْف السِّياقِ وشدة النَّهر»، فقال: لَيشكون! فوالله إنّي لرفيق بهم، ومستقصٍ في سياستهم، ولا ناهكٍ لهم عقوبة، وإني لأقنع بالهيْبة والتهويل عليهم، ولا أغمِلُ العصا حيث يمكنني الاكتفاء باليد، وإني أردّ الشارد منهم وأعدل المائل. . . ، إلى غير ذلك من الأمور، التي عدّدها وأحسن في تعديدها.

وإنما ذكر قوله: «أنا زميل رسول الله ﷺ في غزاة قرقرة الكدر»، على عادة العرب في الافتخار وقت المنافرة وعندما تجيش النّفس ويحمى القلب، كما كان علي عليه السلام يقول وقت الحاجة: «أنا عبد الله وأخو رسوله»، فيذكر أشرَف أحواله، والمزيّة التي اختصّ بها عن غيره، وكان رسول الله ﷺ في غَزَاة قَرقرة الكدر أردَفَ عمر معه على بعيره، فكان عمر يفخَرُ به ويذكرها وقت الحاجة إليها.

وفي حديث عمر أنّه خرَج من الخلاء، فدعا بطعام فقيل له: ألا تتوضّأ؟ فقال: لولا التَّنطس ما باليت ألاّ أغسل يدي.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قال ابن عُلَيَّة: التنطس التقذُّر. وقال الأصمعيّ: هو المبالغة في التّطهر، فكلّ من أدقّ النظر في الأمور فاستقصى علمها فهو متنطّس، ومنه قيل للطبيب: النِّطاسيّ والنِّطّيس لدقّة علمه بالطب.

وفي حديث عمر حين سأل الأسقفَّ عن الخلفاء، فحدّثه، حتى إذا انتهى إلى الرابع، فقال: صَدْع من حديد، وقال عمر: وادفْراه!

قال أبو عبيدة، قال الأصمعيّ: كان حمّاد بن سلمة يقول: «صدَأ من حديد، وهذا أشبه بالمعنى، لأنّ الصَّدَأ له دَفَرٌ وهو النتن، والصّدْع لا دَفَر له، وقيل للدنيا أمّ دَفْرٍ، لما فيها من الدواهي والآفات، فأمّا الذَّفَر بالذّال المعجمة وفتح الفاء فهو الريح الذكيّة من طيب أو نَتْن.

وعندي في هذا الحديث كلام، والأظهر أن الرواية المشهورة هي الصحيحة، وهي قوله: «صدَع من حديد»، ولكن بفتح الدال، وهو ما كان من الوعول، بين العَظِيم والشَّخْت، فإن ثبتت الرواية بتسكين الدّال فغير ممتنع أيضاً، يقال: رجل صَدْع، إذا كان ضَرْباً من الرّجال، ليس برَهْلٍ ولا غليظ.

ورابع الخلفاء هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأراد بالأسقُفّ مدحه.

وقول عمر: «وادَفْراه!» إشارة إلى نفسه، كأنه استصغرَ نفسَه وعابها بالنسبة إلى ما وصفه الأسقُفّ من مدح الرابع وإطرائه.

فأمّا تأويلُ أبي عُبيدة فإنه ظنّ أنّ الرابع عثمان، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله معدوداً من الجملة ليصحّ كون عثمان رابعاً، وجعل الدَّفَر والنتن له، وصرف اللفظ عن الرواية المشهورة إلى غيرها، فقال: «صَدَأ حديد»، ليطابق لفظة النَّتْن على ما يليق بها، فغير خاف ما فيه من التعسّف، ورفض الرواية المشهورة.

وأيضاً فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز إدخالُه في لفظ الخلفاء، لأنه ليس بخليفة، لأن الخليفة من يخلفُ غيره، ورسول الله صلى الله عليه وآله مستخلِف الناس كلهم وليس بخليفة لأحد.

وفي حديث عمر، قال عند موته: «لو أنّ لي ما في الأرض جميعاً لافتديتُ به مِنْ هول المُطّلَع»[1].

قال أبو عُبيد: هو موضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار، أو من انحدار إلى إشراف، وهو من الأضداد، فشبّه ما أشرف عليه من أمر الآخرة.

وفي حديث عمر، حين بعث حذيفة وابن حنَيف إلى السّواد ففلَجا الجِزْية على أهله.

قال أبو عبيدة: فلجا أي قَسّما بالفِلْج، وأصله من الفِلْج، وهو المكيال الذي يقال له الفِلْج لأنّ خراجهم كان طعاماً.

وفي حديث عمر حين قال له حذيفة: إنّك تستعين بالرّجُل الذي فيه - وبعضهم يرويه بالرجل الفاجر - فقال: «استعمله لأستعين بقوته، ثم أكون على قَفّانه».

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٩)، وأبو يعلى في «المسند» (٥/ ١١٧).

قال أبو عبيد في الأصمعيّ: قُفّان كلّ شيء جُمّاعه واستقصاء معرفته، يقول: أكونُ على تتبُّع أمره حتى أستقصِيَ عمله وأعرفه.

قال: أبو عُبيد: ولا أحسِب هذه الكلمة عربية، وإنما أصلها «قَبّان»، ومنه قول العامة: فلان قَبّان على فلان، فإذا كان بمنزلة الأمين عليه والرئيس الذي يتتّبع أمره ويحاسبه، وبه سمّيَ هذا الميزان الذي يقال له القَبّان.

وفي حديث عمر حين قال لابن عباس وقد شاوره في شيء فأعجبه كلامه: نِشْنشة أعرفها من أخشن، هكذا الرواية، وأما أهل العلم فيقولون: «شنشنة أعرفها من أخزم»[1].

والشّنشنة في بعض الأحوال قد تكون بمعنى المُضْغة أو القطعة تُقطع من اللحم، والقول المشهور أنّ الشّنشنة مثل الطبيعة والسجيّة، فأراد عمر إني أعرف فيك مشابه من أبيك في رأيه، ويقال: إنّه لم يكن لقرشيّ مثل رأي العباس.

قال: وقد قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: يجوز «شنشنة» و«نشنشة»، وغيره ينكر «نشنشة».

وفي حديث عمر يوم السقيفة، قال: «وقد كنت زوّرت في نفسي قالةً، أقومُ بها بين يدي أبي بكر، فلم يترك أبو بكر شيئاً مما زوّرته إلاّ تكلّم به»[2].

قال أبو عُبيد: التّزوير إصلاح الكلام وتهيئته كالتزويق.

وفي حديث عمر حين ضرب الرجل الذي أقسم على أمّ سلمة ثلاثين سوطاً كلّها تَبْضَع وتحذُرُ.

قال أبو عبيد: أي تشّ وتورم، حَذَر الجلد يحذُره وأحدره غيرُه.

وفي حديثه أنه قال لمؤذّن بيت المقدس: «إذا أذّنت فترسّلْ»، وإذا أقمت فاحذم[3].

قال أبو عُبيدة: الحذْم بالحاء المهملة الحدر في الإقامة، وقطع التّطويل، وأصله في المشي، وهو الإسراع فيه، وأن يكون مع هذا كأنه يهوِي بيده إلى خلفه، والجَذْم بالجيم أيضاً القطع، وكذلك الخَذم بالخاء المعجمة.

---

(١) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ٦/ ٣٥٤.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ٤٤٦.

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٤٢٨)، والدارقطني في سننه (٢/ ٤٤٦).

وفي حديثه أنّه قال: «لا يقرّ رجل أنه كان يطأ جاريتَه إلا ألحقتُ به ولدها، فمن شاء فليُمْسِكها ومن شاء فليُرْسلها».

قال أبو عبيد: هكذا الرواية بالسّين المهملة والمعروف أنه: «الإرشال» بالشين المعجمة، ولعله حوّل الشين إلى السين كما يقال سَمّتُّ العاطش، أي شمّتّه.

وفي حديثه: «كذب عليكم الحجّ، كذب عليكم العمرة، كذب عليكم الجهاد، ثلاثة أسفار، كذبتْ عليكم».

قال أبو عبيد: معنى كذب عليكم الإغراء، أي عليكم به، وكان الأصل في هذا أن يكون نصباً، ولكنه جاء عنهم بالرفع شاذاً على غير قياس، ومما يحقق أنه مرفوع قول الشاعر:

كذبت عليك لا تزالُ تَقُوفنِي ... كما قاف آثار الوثيقة قَائِفُ

فقوله: «كذبت عليك»، إنّما أغراه بنفسه، أي عليك بي، فجعل «نفسه» في موضع رفع، الا تراه قد جاء بالباء فجعلها اسمه.

وقال معقّر بن حمار البارقيّ:

وُذْبيانيّة وصّتْ بنيها ... بأنْ كذب القراطفُ والقُروف

فرفع، والشعر مرفوع، ومعناه عليكم بالقراطف والقروف، والقراطف: القطف واحدها قُرْطُف. والقروف: الأوعية.

ومما يحقّق الرفع أيضاً قول عمر «كذبت عليكم»، قال أبو عبيد: ولم أسمَع النّصب في هذا إلاّ حرفاً، كان أبو عبيد يحكِيه عن أعرابيّ نظر إلى ناقةِ نضو لرجل، فقال: كذب عليك البزرُ والنّوى لم أسمع في هذا نصباً غير هذا الحرف.

قال: والعربُ تقول للمريض: كَذبَ عليك العسلُ، بالرفع، أي عليك به.

وفي حديثه: «ما يمنعكم إذا رأيتم الرّجُلَ يخرق أعراض النّاس ألا تعرّبوا عليه»؟ قالوا: نخاف لسانه، قال: «ذاك أدنى ألاّ تكونوا شهداء»(١).

قال أبو عبيد: «ألاّ تعرّبوا»، أي ألاّ تُفسِدوا عليه كلامه وتقبّحوه له.

وفي حديثه: أنّه نهى عن الفَرْس في الذبيحة.

قال أبو عُبيد: قيل في تفسيره: أن ينتهيَ بالذّبح إلى النّخاع وهو عَظْم في الرقبة، وربّما فسّر النّخاع بأنّه المخّ الذي في فَقَار الصُّلب متّصلاً بالقفا، فنَهى أن ينتهيَ بالذبح إلى ذلك.

(١) أخرجه معمر بن راشد الأزدي في كتابه «الجامع» (١١/ ١٧٨)، وأخرج نحوه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١١٢٠)، وبنحوه أيضاً ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥٥٣٦).

وقيل في تفسيره أيضاً: أن يكسر رقبة الذّبيحة قبل أن تبرد، ويؤكّد هذا التفسير قوله في تمام الحديث: «ولا تعجّلوا الأنفس حتى تَزْهَق».

وفي حديثه حين أتاه رجلٌ يسأله أيّام المحْل، فقال له: هَلَكْت وأهْلَكتُ، فقال عمر: «أهلَكتَ وأنت تَنِثّ نَثِيثَ الحميت، أعطوه رُبَعة من الصدقة»، فخرجت يتبعها ظئراها.

قال أبو عبيد: قد روي: «تمُثّ»، بالميم والمحفوظ بالنون. وتنِثّ، أي ترشَح وتعَرق من سِمَنِك وكثرة لحمك.

والحَمِيت: النِّحْي وفيه الرُّبّ أو السَّمْن أو نحوها. والرُّبَعة: ما ولد في أول النَّتاج، والذّكر رُبَع.

وفي حديثه أنَّه خرَج إلى المسجد للاستسقاء فصعِد المنبر، فلم يزدْ على الاستغفار حتى نزل فقيل: إنّك لم تَسْتَسْقِ، فقال: «لقد استسقيتُ بمجاديح السماء»[1].

قال أبو عبيد: جعل الاستغفَار استسقاء، تأوّل فيه قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾[2]. والمجاديح: جمع مِجْدَح وهو النّجم الذي كانت العرب تزعم أنها تُمْطَر بِهِ، ويقال: مُجْدَح بضم الميم، وإنّما قال عمر ذلك، على أنّها كلمةٌ جارية على ألسِنة العرب، ليس على تحقيق الأنواء، ولا التصديق بها وهذا شبيه بقول ابن عبَّاس في رجل جعل أمرَ امرأته بيدها، فقالت له: أنتَ طالق ثلاثاً، فقال: خطأ الله نوءَها! ألا طلقت نفسها ثلاثاً! ليس هذا دُعاء منه ألاّ تُمطِر، إنما ذلك على الكلام المقُول.

ومما يبيّن أنّ عمر أراد إبطالَ الأنواء والتّكذيب بها قوله: «لقد استسقيتُ بمجاديح السماء»، التي يستسقى بها الغيث، فجعل الاستغفار هو المجاديح لا الأنواء.

وفي حديثه، وهو يذكر حال صِباه في الجاهليّة: لقد رأيتُني مرةً وأختاً لِي نرعى على أبوَيْنا ناضحاً لنا، قد ألبستْنا أمّنا نُقْبتها، وزوّدتْنا يُمَيْنَتَيْها من الهَبيدِ، فنخرجُ بناضحنا، فإذا طلعت الشمس، ألقيت النُّقْبة إلى أختي، وخرجت أسعى عُريان فنرجع إلى أمّنا، وقد جعلتْ لنا لفيتَةً من ذلك الهبيد، فياخِصْباه!

قال أبو عُبَيد: النَّاضِح: البعير الذي يُسْنَى عليه فيسقى به الأرض، والأنثى ناضحة، وهي السانية أيضاً، والجمع سوانٍ، وقد سَنَتْ تَسْنُو، ولا يقال: ناضحٌ لغير المستقي.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (٦٢١٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٤٩٠٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٤٨٥).

(٢) سورة نوح، الآيتان: ١٠، ١١.

والنّقْبة أن تُؤخذ القطعة من الثوب قدْر السراويل فيجعل لها حُجْزة مخيطة من غير نَيْفق، وتُشَدُّ كما تشدّ حَجْزة السراويل، فإن كا لها نَيْفَق وساقان، فهي سراويل.

وقال: والذي وَرَدَتْ به الرّواية «زَوَّدتْنَا يُمَيْنَتَيْهَا»، والوجه في الكلام أن يكون «يُمَيِّنَتَيْهَا» بالتشديد، لأنه تصغير «يمين» بلا هاء، وإنما قال: «يمينتيْها» ولم يقل: يديها ولا كفيها لأنه لم يرد أنها جمعت كفَّيها ثم أعطتنا بهما، وإنما أراد أنها أعطت كلّ واحدٍ كفًّا كفًّا بيمينها، فهاتان يمينان.

الهبيد: حبّ الحنظل، زعموا أنه يعالج حتّى يمكن أكله ويطيب.

واللَّفيتة: ضرب من الطّبيخ كالحُساء.

وفي حديثه: «إذا مرّ أحدكم بحائط فليأكل منه، ولا يتخذ ثِباناً»(١).

قال أبو عبيد: هُو الوعاء الّذي يحمَل فيه الشيء، فإن حملتَه بين يديك فهو ثِبان، وإن جعلتَه في حُضْنك فهي خُبْنة.

وفي حديثه: «لو أشاء لدعوت بصِلاَء وصِنَابٍ وصلائق وكراكرة وأسْنِمة وأفلاذ».

قال أبو عبيد: الصِّلاء: الشّواء. والصِّناب: الخردل بالزبيب. والصَّلائق: الخبْز الرقيق، ومن رواه «سلائق» بالسين أراد ما يسلَق من البقول وغيرها. والكراكر، كراكر الإبل. والأفلاذ: جَمع فِلْذ وهو القطْعة من الكبد.

وفي حديثه: «لو شئتُ أن يُدَهْمَق لي لفعلت».

قال أبو عبيد: دهمقتُ الطعام، إذا ليَّنْته ورققته وطيّبته.

وفي حديثه: «لئن بقيتُ لأسَوّينَ بين الناس، حتى يأتيَ الرّاعيَ حقُّه في صُفْنه لم يعرق جبينه».

الصُّفْن: خريطةٌ للرّاعي فيها طعامُه وما يحتاج إليه. وروي بفتح الصّاد، ويقال أيضاً «في صَفِينه».

وفي حديثه: «لئن بقيتُ إلى قابل، ليأتينّ كلَّ مسلمِ حقُّه، حتى يأتيَ الراعي بسَرْوِ حِمْير، لم يعرَق جبينه»(٢).

السّرو مثل الخيْف، وهو ما انحدرَ عن الجبل وارتفع عن المسيل.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: من مر على ماشية أو حائط هل يصيب منه(٢٣٠)، والترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في الرخصة في أكل الثمرة للمار بها (١٢٨٧).

(٢) أخرجه معمر بن راشد في الجامع (١١/ ١٠١).

وفي حديثه: «لئِنْ عشتُ إلى قابل، لألحقنَّ آخر الناس بأوّلهم، حتى يكونوا ببّاناً واحداً»(١).

قال أبو عبيد: قال ابنُ مهديّ: يعني شيئاً واحداً، ولا أحسب هذه الكلمَة عربيّة، ولم أسمعْها في غير هذا الحديث.

وفي حديثه: أنّه خطب، فقال: «ألا إنّ الأُسَيْفِعَ - اُسَيْفِع جُهينة - رضيَ من دينه وأمانتِهِ بأن يقال: سابق الحاجّ - أو قال: سَبق الحاجّ - فادّان مُعْرضاً فأصبح قدْ رِينَ به، فمن كان له عليه دَيْنٌ فليغدُ بالغداة، فلنقسّم ماله بينهم بالحصص».

قوله: «فادّان مُعْرضاً» أي استدان مُعْرضاً، وهو الّذِي يعترض الناس فيستدين ممّن أمكنه، وكلّ شيء أمكنك من عرضِه فهو معرِض لك، كقوله: «وَالْبَحْر مُعْرِضاً والسَّدِير».

ورين بالرّجل، إذا وقع فيما لا يمكنه الخروج منه.

وفي حديثه: أنّه قال لمولاه أسلم - ورآه يحمل متاعه على بعير من إبل الصدقة - فقال: «فهلاّ ناقة شَصُوصاً وابنَ لبون بوّالاً!»(٢).

الشَّصُوص: التي قد ذهب لبنُها، ووصف ابن اللّبون بالْبول، وإن كانت كلُّها تبولُ، إنما أرادَ: ليس عنده سوى البول، أي ليس عنده ممّا ينتفع به من ظَهْرٍ ولا له ضَرْعٌ فيحلب، لا يزيد على أنه بوّال فقط.

وفي حديثه حين قيل له: إنّ النساء قد اجتمعنَ يبكين على خالد بن الوليد، فقال: «وما على نساء بني المغيرة أن يسْفِكن من دموعهنّ على أبي سليمان، ما لم يكن نَقْع ولا لَقْلَقة!».

قيل: النقع ها هنا طعام المأتم، والأشبه أن النَّقْع رفع الصوت، واللّقلقة مثله.

وفي حديثه: أنّ سلْمان بن ربيعة الباهليّ شكا إليه عاملاً من عماله، فضربه بالدِّرّة حتى أنهج.

قال أبو عبيد: أي أصابه النّفس والبُهْر من الإعياء.

---

(١) إشارة إلى العدول عن التمييز بين الناس في العطاء حيث كان يعطي القرشي أكثر غيره والمهاجرين أكثر من الأنصار.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠٦٥٠)، وذكره الطبري في «التاريخ» (٢/ ٥٦٦).

وفي حديثه حين قَدِم عليه أحدُ بني ثوْر، فقال له: هلْ مِنْ مغرِّبة خبر؟ فقال: نعم أخذنا رجلاً من العرب، كَفَر بعد إسلامه فقدّمناه فضرْبنا عنقه، فقال: «فهلا أدخلتموه جَوْف بيتٍ فألقيتُم إليه كل يوم رغيفاً ثلاثة أيام، لعله يتوب أو يراجع! اللهمّ لم أشهد ولم آمر، ولم أرض إذْ بلغني».

يقال: هل من مغرِّبة خبر بكسر الراء، ويروى بفتحها، وأصله البُعْد، ومنه شأوٌ مُغرّب.

وفي حديثه أنه قال: آلله ليضربنّ أحدكم أخَاه بمثل آكلة اللحم، ثم يرى أنه لا أُقيدُه، والله لأُقيدنّه».

قال أبو عبيد: آكلة اللحم: عصا محدّدة.

وفي حديثه: «أعضَل بي أهلُ الكوفة، ما يرضوْن بأمير، ولا يَرْضاهم أمير»[1]. هو من العُضَال، وهو الدّاء والأمر الشديد الذي لا يقوم له صاحبه.

وفي حديثه: أنه خطب فذكر الرّبا، فقال: «إن منه أبواباً لا تخفى على أحد منها السَّلَم في السّنّ، وأن تباع الثمرة وهي مغضفِة ولمّا تطب، وأن يباع الذهب بالورِق نَسَاءً».

قال أبو عبيد: السَّلَم في السّنّ أن يسلف الرجل في الرّقيق والدّواب وغيرها من الحيوان، لأنه ليس له حدّ معلوم.

والمغضِفة: المتدلّية في شَجَرها، وكلّ مسترخٍ أغضَف، أي تكون غير مدرِكة.

وفي حديثه: أنّه خطب، فقال: ألا لا تغالُوا في صَدَاق النّساء، فإنّ الرجل يغالِي بصدَاق المرأة، حتى يكون ذلك لها في قلبه عداوة، تَقول: جشِمت إليك عَرَق القربة.

قال: معناه تكلَّفت لك حتى عرِقتَ عَرَقَ القربة، وعرقُها: سَيَلان مائها.

وفي حديثه: أنه رفِع إليه غلام ابتهر جارية في شِعْره، فقال: «انظروا إليه»، فلم يوجد أنبت، فدرأ عنه الحدّ.

قال أبو عبيد: ابتهرها، أي قذَفَها بنفسه، فقال: فعلت بها.

وفي حديثه: أنه قَضَى في الأرنب بحُلاّنٍ إذا قتلها المحرم.

قال: الحُلاّن: الجدي.

وفي حديثه: أنه قال: «حَجّةً ها هنا، ثم احْدِجْ ها هنا حتى تَفْنى».

قال: يأمر بحجة الإسلام لا غير، ثم بعدها الغزو في سبيل الله.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٥٨).

حتى تفنى أي حتّى تهرم.

وفي حديثه: أنه سافر في عَقِب رمضان، وقال: «إنّ الشهر قد تسعْسَع، فلو صمنا بقيّته».

قال أبو عبيد: السين مكرّرة مهملة، والعين مهملة، أي أدبر وفَنِيَ.

وفي حديثه - وقد سمع رجلاً خطب فأكثر - فقال: «إنّ كثيراً من الخطب من شَقاشِق الشيطان».

الواحدة شِقْشقة، وهو ما يخرج من شِدقْ الفحل عند نزوانه، شبيهة بالرئة. والشيطان لا شقشقة له، إنّما هذا مثل لما يدخل في الخطب من الكلام المكذوب وتزوير الباطل.

وفي حديثه: أنه قدم مكّة، فأذّن أبو محذورة، فرفع صوتَه فقال له: «أما خشيت يا أبا محذورة أن ينشقَّ مُرَيْطاؤك!».

قال: المُرَيطاءُ: ما بين السرّة إلى العانة، ويروى بالقصر.

وفي حديثه: أنه سئل عن المذْي، فقال هو الفَطْر، وفيه الوضوء.

قال: سمّاه فَطراً من قولهم: فَطرْت الناقة فَطْراً، إذا حلبتَها بأطراف الأصابع يخرج اللّبن إلا قليلاً، وكذلك المَذْي، وليس المَنِيّ كذلك، لأنه يخرج منه مقدار كثير.

وفي حديثه: أنه سئل عن حدّ الأمة الزانية، فقال: «إن الأمَة ألقت فَرْوة رأسها من وراء الدّار».

قال: الفَرْوة: جلدة الرأس، وهذا مثل، إنما أراد أنها ألقت القناع وتركت الحجاب، وخرجت إلى حيث لا يمكنها أن تمتنع من الفجور، نحو رعاية الغنم، فكأنّه يرى أن لا حدّ عليها.

وفي حديثه، أنّه أتِيَ بشاربٍ، فقال لأبعثنّك إلى رجل لا تأخذه فيك هَوادَة، فبعث به إلى مطيع بن الأسْود العَدَوِيّ، فقال: إذا أصبحتَ غداً فاضربه الحدّ، فجاء عمر وهو يضرِبه ضرباً شديداً، فقال: قتلتَ الرجل! كم ضربته؟ قال: ستين، قال: «أقِصَّ عنه بعشرين».

قال: معناه اجعل شِدّة هذا الضرب قِصَاصاً بالعشرين التي بقيَت من الحدّ فلا تضربه إياها.

وفي حديثه أنّ رجلاً أتاه فذكر له أنّ شهادة الزور قد كثُرت في أرضهم، فقال: «لا يؤسَرُ أحدٌ في الإسلام بشهادة الزور، فإنّا لا نقبل إلاّ العدول»(١).

قال: لا يؤسَرُ: لا يحبس، ومنه الأسير: المسجون.

---

(١) أخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (١٠/١٦٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣٠٤٠).

وفي حديثه: أنه جَدَب السّمر بعدَ عَتمة. جَدَبه، أي عابه ووَصمه.

ومثل هذا الحديث في كراهيته السّمر حديثه الآخر، أنّه كان يَنُشّ الناس بعد العشاء بالدِّرَّة، ويقول: انصرفوا إلى بيوتكم.

قال: هكذا روي بالشين المعجمة، وقيل: إنّ الصحيح «ينُسّ» بالسين المهملة، والأظهر أنه يَنُوش النّاس بالواو، من التّناوش، قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾(١).

وفي حديثه: «هاجروا ولا تَهَجّروا، واتقوا الأرنب أن يحذِفها أحدُكم بالعصا، ولكن ليذكّ لكُم الأسلُ، الرماحُ والنَّبل».

قال: رواه زِرّ بن حُبيش، قال: قدمت المدينَة، فخرجت في يوم عيدٍ، فإذا رجل متلبّب أعسرُ أيْسَر، يمشي مع الناس كأنه راكب، وهو يقول: كذا وكذا، فإذا هو عمر، يقول: هاجِروا وأخلصوا الهِجْرة ولا تَهَجَّرُوا.

ولا تشبّهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم، كقولك: تحلّم الرجل، وليس بحليم، وتشجّع وليس بشجاع.

والذّكاة: الذبح. والأسَلُ أعمّ من الرماح، وأكثر ما يستعمل في الرّماح خاصّة.

والمتلبّب: المتحزّم بثيابه.

وفلان أعسر يَسَر: يعمل بكلتا يديه، والذي جاء في الرواية «أيسر» بالهمزة.

وفي حديثه: أنه أفطر في رمضان، وهو يرى أن الشمس قد غربت، ثم نظر فإذا الشمس طالعة، فقال: «لا نقضيه، ما تجانفنا فيه الإثم»(٢).

يقول: لم نتعمّد فيه الإثم، ولا مِلْنا إليه، والجَنَف: الميل.

وفي حديثه: أنّه قال لما مات عثمان بن مَظْعون على فراشه: «هَبَنَهُ الموتُ عندي منزلة حين لم يمت شهيداً، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على فراشه وأبو بكر، علمت أنّ موت الأخيارِ على فُرُشهم. هَبَنَه، أي طأطأه وحطّ من قدره.

وفي حديثه: أن رجلاً من الجنّ لقيَه، فقال: هل لك أن تصارِعَني، فإن صرعتَني علّمتُك آيةً إذا قرأتَها حين تدخل بيتك لم يدخلْه شيطان. فصارعه فصرعه عمر، وقال له: إنّي أراك ضئيلاً

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٢.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٢١٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٩٠٥٢).

شَخِيتاً، كأنّ ذراعيك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم كلُّكم أيها الجنّ، أم أنت من بينهم؟ فقال: إنّي من بينهم لضليع، فعاوِدْني، فصارعته فصرعه الإنسيّ، فقال: أتقرأ آية الكرسيّ؟ فإنّه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيتَه إلاّ خرج الشيطان منه، وله خَبَجٌ كخبَجِ الحمار.

قال: رواه عبدُ الله بن مسعود، وقال: خرج رجلٌ من الإنس، فلقيَه رجلٌ من الجنّ... ثم ذكر الحديث، فقيل له: هو عمر، فقال: ومَنْ عسى أن يكون إلا عُمَرا!

الشَّخِيت: النّحيف الجسم، ومثله الشَّخْت. والضّليع: العظيم الخلْق.

والخَبَج: الضّراط.

وفي حديثه: أنّه كان يطوف بالبيت، وهو يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(١)]، ما له هِجّيرَى غيرها.

قال: هِجّيرَى الرجل: دَأْبُه ودَيْدَنه وشأنه.

ومثلها من قول عمر: لو أطِيقُ الأذان مع الخلِّيقَى لأذنت.

ومثلها من قول عمر بن عبد العزيز: لا رِدِّيدَى في الصدقة، أي لا تردّ.

ومثلها قول العرب: كانت بينهم رمّيّا، أي مراماة، ثم حجزت بينهم حِجّيزى، أي محاجزة.

وفي حديثه حين قال للرجل الذي وُجد منبوذاً فأتاه به، فقال: عسى الغوير أبؤساً[(٢)]! قال عرِيفه: يا أمير المؤمنين، إنّه وإنه... فأثنى عليه خيراً، وقال: فهو حُرٌّ، ولاؤه لك.

الأبؤس: جمع بأس والمثل قديم مشهور، ومراد عمر: لعلك أنت صاحب هذا المنبوذ! كأنّه اتّهمه وساء ظنّه فيه، فلمّا أثنى عليه عَرِيفه - أي كفيله - قال له: هذا المَنبوذ حُرٌّ وولاؤه لك، لأنّه بإنقاذِهِ إيّاه من الهَلَكة كأنه أعتقه.

وفي حديثه: إنّ قريشاً تريد أن تكونَ مُغْوِياتٍ لمال الله.

هكذا يروى بالتّخفيف والكسر، والمعروف «مغوّيَاتٌ» بتشديد الياء وفتحها، واحدتها مُغوّاة، وهي حُفرة كالزُّبية تحفر للذئب، ويجعل فيها جَذْيٌ، فإذا نظر إليها الذئب سقَط يريده فيُصاد، ولهذا قيل: لكلِّ مَهْلَكة مُغَوّاة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٦٤٩٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٣٨٣٨).

وفي حديثه: «فَرّقوا عن المنيّة، واجعلوا الرأس رأسيْن، ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجَزة، وأصلحوا مثاوِيَكم، وأخيفوا الهوامّ قبل أن تخيفَكم، واخشوشنوا، واخشوشبوا وتمعددوا».

قال: «فرّقوا عن المنيّة، واجعلوا الرأس رأسين»، أي إذا أراد أحدكم أن يشتري شَيئاً من الحيوان كمملوك أو دابّة يغاليَنّ به، فإنّه لا يدري ما يحدث فيه، ولكن ليجعل ثمنه في رأسيْن، وإن كان كلُّ واحد منهما دون الأول، فإن مات أحدهما بقي الآخر.

وقوله: «ولا تُلِثُّوا بدار مَعْجَزة»، فالإلثاث الإقامة، أي لا تقيموا ببلد يعجزكم فيه الرّزق، ولكن اضطرِبُوا في البلاد للكَسْب.

وهذا شبيه بحديثه الآخر: «إذا اتّجر أحدُكم في شيء ثلاث مرّات فلم يرزَق منه فليَدَعْه».

والمثاوِي: المنازل، جمع مَثْوَى.

وأخيفوا الهوامّ، أي اقتلوا ما يظهر في دورِكم من الحيّات والعقارب لتخافكم، فلا تظهر.

واخشوشنوا: أمر بالخشونة في العَيْش، ومثله «اخشوشبوا» بالباء، أراد ابْتِذَال النّفس في العمل والاحتفاء في المشي ليغلظ الجلد، ويجسو.

وتمعددوا، قيل إنه من الغِلَظ أيضاً، يقال للغلام إذا أنبت وغلُظ: قد تمعدد.

وقيل: أراد تشبّهوا بمعدّ بن عدنان، وكانوا أهل قشف وغِلَظٍ في المعاش، أي دعوا التّنعُّم وزيّ العجم.

وقد جاء عنه في حديث آخر مثله: «عليكم باللُّبسة المعدّيّة».

وفي حديثه: أنّه كتب إلى خالد بن الوليد: «إنّه بلغني أنّك دخلت حَمّاماً بالشام، وأنّ مَنْ بها من الأعاجم أعدُّوا لكم دَلُوكاً عُجِن بخمْر، وإنّي أظنكم آل المغيرة ذَرْوُ النار».

الدّلُوك: ما يتدلّك به كالسَّحُور والفَطُور ونحوهما.

وذَرْو النار: خلق النار. ويروى: «ذرء النار» بالهمزة، من ذرأ الله الناس، أي صوّرَهم وأوْجَدهم.

وفي حديثه: «املكوا العجين، فإنه أحد الرَّيْعين».

ملكت العجين: أجدت عَجْنه.

والرّيع: الزيادة، والريع الثاني ما يزيدُ عنه خَبْزه في التَّنُور.

وفي حديثه حين طُعِن، فدخل عليه ابن عباس فرآه مغتمًّا بمن يستخلف بعده، فذكر عثمان فقال: كَلِفٌ بأقاربه، قال: فعليّ؟ قال: فيه دُعَابة، قال: فطلحة؟ قال: لولا بَأْوٌ فيه، قال: فالزبير؟ قال: وَعْقة لقِس. قال: فعبد الرحمن؟ قال: أوَّه! ذكرت رجلاً صالحاً ولكنّه ضعيف، وهذا الأمر لا يصلُح له إلاّ الليّن من غير ضَعْف، والقويّ من غير عنف، قال: فسعْد؟ قال: ذاك يكون في مِقْنَبٍ من مقانبكم.

قوله: «كلِف بأقاربه» أي شديد الحبّ لهم.

والدّعابة: المزاح.

والبأو: الكِبر والعظمة.

وقوله: «وعْقة لقِس» ويروى «ضبيس»، ومعناه كلّه الشراسة، وشدّ الخُلق وخُبْث النفس.

والمِقْنب: جَماعة من الفرسان.

وفي حديثه: أنه قال عامَ الرمادة: لقد هممت أن أجعلَ مع كلّ أهل بيت من المسلمين مثلَهم، فإنّ الإنسان لا يهلك على نِصْف شِبَعه، فقال له رجل: لو فعلتَ يا أمير المؤمنين ما كنتَ فيها ابن ثأداء.

قال: يريد أنّ الإنسان إذا اقتصر على نصفِ شبعه، لم يهلِكْ جوعاً. وابن ثأداء بفتح الهمزة: ابن الأمَة.

وفي حديثه: أنه قرأ في صلاة الفجر بالناس سورة يوسف، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)، بكى حتى سُمع نشيجُه.

النّشيج: صوت البكاء، يردّده الصبي في صَدْره ولا يخرجه.

وفي حديثه أنه أُتي في نِساء - أو إماء - ساعياتٍ في الجاهليّة، فأمر بأولادهن أن يقوَّموا على آبائهم، فلا يُسْتَرقوا.

المساعاة: زنى الإماء خاصّة. قضى عمر في أولادهنّ في الجاهليّة أن يسوَّمون على آبائهم، بدفع الآباء قيمتهم إلى سادات الإماء، ويصير الأولاد أحراراً لاحقي النسب بآبائهم.

وفي حديثه: «ليس على عَرَبيّ مِلْك، ولسنَا بنازعين من يد رجلٍ شيئاً أسلمَ عليهم، ولكنا نقوّمهم المِلّة خَمْساً من الإبل».

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

قال: كانت العرب تَسبي بعضُها بعضاً في الجاهلية، فيأتي الإسلام والمسبَى في يدِ الإنسان كالمملوك له، فقضى عمر في مثل هذا أن يردّ حُرًّا إلى نسبه، وتكون قيمته على نفسه يؤدّيها إلى الذي سباه، لأنه أسلم وهو في يده، وقيمته كائناً ما كان خمسٌ من الإبل.

قوله: «والمِلة» أي تقوم ملّة الإنسان وشرعها.

وفي حديثه لمّا ادّعى الأشعث بن قيس رقابَ أهل نجران، لأنه كان سباهم في الجاهليّة واستعبدهم تغلّباً فصاروا كمماليكه، فلما أسلموا أبَوْا عليه، فخاصموه عند عمر في رقابهم، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إنّما كنّا له عبيدَ مملَكة، ولم نكن عبيد قِنّ. فتغيّظ عمر عليه، وقال: «أردت أن تَغفَّلني!».

يعني أردت غَفْلتي.

وعبدِ قنّ مُلِك ومُلِك أبواه، وعبد ممَلُكة بفتح اللام وضمها: من غلِب عليه واستعبِد، وكان في الأصل حُرًّا، فقضى عمر فيهم أن صيّرهم أحراراً بلا عِوَض، لأنه ليس بسِباء على الحقيقة.

وفي حديثه: أنه قضى في ولد المغْرور بغُرّة.

قال: هو الرجل يزوّج رجلاً آخر مملوكةً لإنسان آخر على أنّها حُرّة، فقضى عمر أن يغرَم الزوج لمولى الأمَة غُرّة، أي عبداً أو أمَة، ويكون ولده حُرّاً، ثم يرجع الرجل الزوج على مَنْ غرّه بما غرِم.

وفي حديثه: أنه رأى جارية متكمكمة، فسأل عنها فقالوا: أمَة آل فلان، فضرَبَها بالدِّرّة ضربات، وقال: يا لكعاء! أتَشبَّهين بالحرائر!

قال: متكَمْكِمة: لابسةُ قناع، أصله من الكُمّة، وهي كالقلنسوة، والأصل مكممّة، فأعاد الكاف، كما قالوا: كفكف فلان عن كذا، وتصرصر الباب.

ولكعاء ولَكَاعِ بالكسر والبناء: شتْمٌ للأمَة، وللرجل يقال: يا لُكَع.

وفي حديثه: «وَرِّع اللّص ولا تُراعه».

يقول: ادفعه إذا رأيته في منزلك واكْفُفْه بما استطعت، ولا تنتظر فيه شيئاً، وكلُّ شيء كففته

فقد ورّعته، وكلُّ ما تنتظره فأنت تراعيه، والمعنى أنّه رخّص في الإقدام على اللصّ بالسلاح، ونهى أن يمسك عنه نائماً.

وفي حديثه: أنّ رجلاً أتاه، فقال: إنَّ ابنَ عمّي شُجّ مُوضِحة، فقال: أمن أهل القُرى أم من أهل البادية؟ قال: من أهل البادية، فقال عمر: إنا لا نتعاقل المُضَغ بيننا.

قال: سمّاها مُضَغاً، استصغاراً لها ولأمثالها كالسنّ والإصبع.

قال: ومثل ذلك لا تحمله العاقلة عند كثير من الفقهاء، وكذلك كلّ ما كان دون الثُّلُث.

وفي حديثه: أنه لمَّا حَصَّب المسجد، قال له فلان: لم فعلت؟ قال: هو أغفر للنُّخامة، وألْيَنُ في الموطىء.

أغفر لها: أسْتَرُ لها.

وحَصّب المسجد: فَرَشه، بالحَصْباء، وهي رمل فيه حصًى صغار.

وفي حديثه[1]: أنّ الحارث بن أوْس سأله عن المرأة تطوف بالبيت، ثم تنفِر من غير أن تطوفَ طوَافَ الصَّدَر إذا كانت حائضاً، فنهاه عمر عن ذلك، فقال الحارث: كذلك أفتاني رسول الله ﷺ، فقال عمر: أرِبَتْ يداك! أتسألني، وقد سمعت رسول الله ﷺ كي أخالفَه!

قال: دعا عليه بقطع اليديْن، من قولك: قطعت الشاة إرْباً إرْباً.

وفي حديثه: أنّه سمع رجلاً يتعوَّذ من الفِتَن، فقال عمر: اللهمَّ إنّي أعوذ بك من الضَفَاطة، أتسأل ربّك ألاّ يرزقك مالاً وولداً!

قال: أراد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2]. والضَّفَاطة: الحمْق وضَعْف العقل، رجل ضَفيط، أي أحمق.

وفي حديثه: «ما بالُ رجالٍ لا يزال أحدُهم كاسراً وسادة عند امرأة مُغْزِية، يتحدّث إليها وتتحدّث إليه! عليكم بالْجَنبة فإنّها عَفَاف، إنّما النساء لَحْمٌ على وَضم إلا ما ذُبّ عنه».

قال: مُغزِية، قد غزا زوجها، فهو غائب عنها، أغزَت المرأة، إذا كان بعلها غازياً، وكذلك أغابَتْ فهي مُغِيبة.

---

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٢٣٢).
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٥.

وعليكم بالْجَنبة، أي الناحية، يقول: تنحَّوْا عنهنّ وكلّموهن من خارج المنزِل. والوضَم: الخشبة أو البارية يُجعل عليها اللّحم.

قال: وهذا مثل حديثه الآخر: «ألاَ لا يدخلنّ رجلٌ على امرَأة وإن قيل حَمُوها، ألاَ حَمُوها الموت».

قال: دعا عليها. فإذا كان هذا رأيه في أبي الزوج وهو مَحْرَمٌ لها فكيف بالغَرِيب!

وفي حديثه: «إن بيعَة أبي بكر كانت فَلْتة وَقَى الله شرّها، فلا بيعة إلاّ عن مشورة، وأيُّما رجل بايع رجلاً عن غير مشورة فلا يؤمَّر واحدٌ منهما تَغِرّة أن يُقتلا»[1].

قال: التغرّة: التغرير، غرَّرت بالقوم تَغْريراً وتغرَّة، كقولك: حَلّلت اليمين تحليلاً وتحِلّة، ومثله في المضاعف كثير، أي أنّ في ذلك تغريراً بأنفسهما وتعريضاً لهما أن يُقتلا.

وفي حديثه: «إنّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حكَمَتَه، وقال: انتعشْ نَعَشك الله، وإذا تكبّر وعَدا طوْرَه وَهَصَه الله إلى الأرض».

قال: وهَصه أي كسره. وعدَا طورَه، أي قدْره.

وفي حديثه: «حجّوا بالذّرية، لا تأكلوا أرزاقَها، وتَذَروا أرْبَاقها في أعناقها».

قال: أراد بالذُّريّة هنا النساء ولم يرد الصبيان، لأنه لا حَجّ عليهم.

والأرباق: جمع رِبْق، وهو الحبل.

وفي حديثه: أنّه وقف بين الحَرّتيْن - وهما داران لفلان - فقال: «شَوَّى أخُوك، حتى إذا أنضج رَمَّد».

هذا مثل يضرَب للرجل يصنع معروفاً ثم يفسده.

وفي حديثه: «السائبة والصّدقة ليومهما».

قال: السّائبة: المعتَق.

وليومهما: ليوم القيامة الذي فعل ما فعله لأجله.

وفي حديثه: «لا تشترُوا رقيق أهلِ الذّمّة، فإنّهم أهل خراج يؤدّي بعضهم عن بعض: وأرضَهم فلا تتنازعوها، ولا يقِرّنّ أحدكم بالصَّغار بعد إذ نجّاه الله».

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٠/ ١٢٥.

قال: كره أن يشتريَ أرضَهم المسلمون وعليها خراج، فيصير الخراج منتقلاً إلى المسلم، وإنّما منع من شراء رقيقهم، لأنّ جزَيتهم تكثر على حسب رقيقهم، فإذا ابتيع رقيقُهم قلّت جزيتُهم، وإذا أقلّت جزيتهم يقلّ بيت المال.

وفي حديثه في قنوت الفَجْر: «وإليك نسعى ونحفِد، نرجو رحمتَك، ونخشى عذابك، إنّ عذابك بالكفار ملحِق».

قال: حَفَد العبد مولاه يحفِد أي خدم، ومنه قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[1] أي خدَماً.

وملحِق: اسم فاعل بمعنى لاحق من ألحق، وهو لغة في لَحِق، يقال: لحقت زيداً، وألحقتُه بمعنى.

وفي حديثه: «لا تشتروا الذّهب بالفضّة إلاّ يداً بيد، هاء وهاء، إنّي أخاف عليكم الرَّمَاء»[2].

قال: الرَّمَاء: الزيادة وهو بمعنى الرّبا، يقال: أرميت على الخمسين، أي زدت عليها.

وفي حديثه: «مَنْ لَبّد أو عَقّص أو ضَفّر، فعليه الحلْق».

قال: التلبيد أن تجعل في رأسك شيئاً من صَمْغ أو عَسل يمنع من أن يقمل.

والعَقْص والضَّفر: فَتْل الشعر ونَسْجُه.

وفي حديثه: «ما تصَعَدتني خِطْبة كما تصعدّتني خِطْبة النكاح».

قال: معناه ما شقّ عليّ، وأصلُه من الصَّعود، وهي العقبة المنكرة، قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾[3].

وفي حديثه أنه قال لمالك بن أوْس: «يا مالك، إنّه قد دفّت علينا من قومك دافّة، وقد أمرنا لهم برضْخٍ فاقسمه فيهم».

قال: الدافّة: جماعة تسير سيراً ليس بالشديد.

وفي حديثه: أنّه سأل جيشاً، فقال: «هل ثبت لكم العدوّ قدْرَ حلْب شاة بكيئة؟»

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٢.
(٢) انظر القاموس المحيط، مادة (رمي). والحديث أخرجه أحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة (٥٨٥١)، ومالك في «الموطأ» في كتاب: البيوع (١٣٢٨).
(٣) سورة المدثر، الآية: ١٧.

قال: البَكيئة: القليلة اللّبن.

وفي حديثه أنه قال في مُتْعة الحجّ: «قد علمت أن رسول الله ﷺ فعلها وأصحابه، ولكن كرهت أن يظلّوا بهنّ مُعرِّسين تحت الأراك، ثم يلبُّون بالحجّ تقطر رؤوسهم».

قال: المعرِّس: الذي يَغْشَى امرأته. قال: كره أن يحلّ الرجل من عُمْرته، ثم يأتي النّساء، ثم يهلّ بالحج.

وفي حديثه: «نعم المرء صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه».

قال: المعنى أنّه لا يتركُ المعصية خوفَ العقاب، بل يتركُها لقبْحها، فلو كان لا يخاف عقوبة الله لترك المعصية.

وفي حديثه: أنّه أُتِيَ بسكران في شهر رمضان، فقال: للمنخرَيْن، أصبيانُنا صيام وأنت مفطر!

قال: معناه الدعاء عليه، كقولك: كبَّه الله للمنخرَيْن! وكقولهم: لليدين وللفهم!

وفي حديثه: أنه قال لما توفّيَ رسول الله ﷺ، قام أبو بكر فتلا هذه الآية في خطبته: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾(١). قال عمر: فعقِرْتُ حتى وقَعْتُ إلى الأرض.

قال: يقال للرجل: إذا بُهِتَ وبقيَ متحيِّراً دهشاً: قد عقر، ومثله بعِل وخرِق.

وفي حديثه: أنّه كتَب إلى أبي عبيدة وهو بالشام حين وقع بها الطاعون: «إنّ الأُردنّ أرض غَمِقة، وإنّ الجابية أرض نزِهة، فأظهِرْ بمن معك من المسلمين إلى الجابية»(٢).

قال: الغَمِقة: الكثيرة الأنداء والوباء، والنَّزِهة: البعيدة من ذلك.

وفي حديثه: أنه قال لبعضهم في كلام كلّمه به: «بل تحُوسُك فتنة».

قال: معناه تخالطك وتحثُّك على ركوبها. قال: وتحُوس مثل: تجوس، بالجيم، قال تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾(٣).

وفي حديثه حين ذكر الجراد، فقال: «وددت أن عندنا منه قَفْعة أو قَفْعَتين».

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٠٥).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٥.

قال: القفعة: شيء شبيه بالزّنبيل، ليس بالكبير، يعمل من خوصٍ ليس له عُرى، وهو الذي يسمّى القُفّة.

وفي حديثه: إن أذينة العبديّ أتاه يسأله، فقال: إنّي حَجَجْت من رأس هزا وخازِك، أو بعض هذه المزالف، فمن أين أعتمر؟ فقال: ائت علياً، فاسأله، فسألته، فقال: من حيث ابتدأت.

قال: رأس هزا وخازِك موضعان من ساحل فارس، والمزالف: كلّ قرية تكون بين البرّ وبلاد الريف، وهي المزارع أيضاً، كالأنبار وعين التّمر والحيرة.

وفي حديثه: إنّه نَهى عن المكايلة.

قال: معناه مكافأة الفعل القبيح بمثله!

وفي حديثه: «ليس الفقير الذي لا مال له، إنما الفقير الأخلق الكسْب».

قال: أراد الرجل الذي لا يُرزأ في ماله، ولا يصاب بالمصائب، وأصله أن يقال للجبل المصمَت الذي لا يؤثرّ فيه شيء: أخلَق. وصخرة خلْقاء، إذا كانت كذلك، فأراد عمر أن الفقر الأكبر إنّما هو فَقْر الآخرة، لمن لم يقدّم من ماله لنفسه شيئاً يثاب عليه هناك. وهذا نحو قول النبي ﷺ: «ليس الرّقوب الذي لا يبقى له ولد، إنما الرَّقوب الذي لم يقدم من ولده أحداً»[1].

فهذا ما لخصته من غريب كلام عمر من كتاب أبي عبيد.

فأمّا ما ذكره ابن قتيبة من غريب حديثه في كتابه، فأنا ألخص منه ما أنا ذاكره.

قال ابنُ قُتيبة: فمن غريب حديث عمر أنّه خطب، فقال: إنّ أخوَف ما أخاف عليكم أن يؤخذ الرّجل المسلم البريء عند الله فيُدْسَر كَمَا يدْسر الجَزور، ويشاط لحمه كما يُشاط لحم الجَزور، يقال: عاصٍ وليس بعاص. فقال عليٌّ عليه السلام: فكيف ذاك ولمّا تشتدّ البليّة، وتظهر الحميّة، وتسبى الذرّية، وتدقّهم الفتن دقّ الرحى بثِفالها[2]!

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٨)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٢٧٩٣٥).

(٢) أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث: ١/ ٢٦١.

قال ابن قتيبة: يُدْسَر أي يُدْفع، ومنه حديث ابن عباس: ليس في العنبر زكاة، إنما هو شيء يدْسُره البحر.

ويُشاط لحمه، أي يقطع ويُبْضَع، والأصل في الإشاطة الإحراق، فاستعير، وفي الحديث: «إنّ زيد بن حارثة قاتل يوم مُؤتة حتى شاط في رماح القوم»[1].

والثُفَال: جلْدةٌ تبسط تحت الرّحى فيقع عليها الدقيق.

وفي حديث عمر: «القَسامة تُوجِب العَقْل، ولا تُشِيط الدم».

قال ابن قتيبة: العَقْل: الدية، يقول: إذا حلفت فإنما تجب الدِّية لا القَوَد، وقد روي عن ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز أنّهما أقادا بالقَسامة.

وفي حديثه: «لا تَفطروا حتى تروا الليل يغسق على الظّراب».

قال: يغسِق، أي يظلم.

والظِّرَاب: جمع ظرِب، وهو ما كان دون الجبل، وإنما خَصّ الظّراب بالذِّكْر لقصرها، أراد أنّ ظلمة الليل تقربُ من الأرض.

وفي حديثه: إنّ رجلاً كُسِرَ منه عظْم فأتى عمر يطلب القَوَد، فأبى أن يقتصّ له، فقال الرجل: فكاسِرُ عظمي إذن كالأرقم، إن يقتل يَنْقَم، وإن يترك يَلْقم، فقال عمر: «هو كالأرقم».

قال: كانت الجاهلية تزعم أنّ الجن يتَصوّر بعضهم في صُورة الحيَّات، وأنّ من قتل حيّة منها طلبت الحيّة بالثأر، فربّما مات أو أصابه خبَل، فهذا معنى قوله: «إن يقتل ينقم». ومعنى «يلقم» يقول: إن تركتَه أكلك، وهذا مثل يضرب للرجل يجتمع عليه أمران من الشرّ لا يدري كيف يصنع فيهما، ونحوه قولهم: هو كالأشقر إن تقدّم عَقَر وإن تأخر نحر.

قال: وإنما لم يقده لأنه يخاف من القصاص في العظم الموتَ، ولكن فيه الدِّيَة.

وفي حديثه: إنه أتى مسجد قُباء، فرأى فيه شيئاً من غُبار وعنكبوت، فقال لرجل: «ائتني بجريدَةٍ واتّق العوَاهِن»، قال: فجئته بها، فربط كمّيه بوذَمة، ثم أخذ الجريدة، فجعل يتتبّع بها الغبار.

قال: الجريدة: السعفة وجمعها جريد.

والعواهن: السعَفات التي يلِينَ الْقِلَبة، والقِلَبة جمع قُلْب، وأهل نجد يسمّون العواهن الْحَواني، وإنما نهاه عنها إشفاقاً على القلْب أن يضرَّ به قطعُها.

---

(١) أخرجه الحاكم في المسند المستدرك على الصحيحين (٣/ ٢٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٤٦٥٦).

والوَذَمة: سيرٌ من سيور الدلو يكون بين آذان الدلو والعَراقي.

وفي حديثه: «ألا لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفّروهم، ولا تجمّروهم فتفتنوهم».

قال: التّجْمير: ترك الجيش في مغازيهم لا يقفُلون.

وفي حديثه: إنه أتِيَ بمُرُوط، فقسمّها بين نساء المسلمين، ورفع مِرْطاً بقِيَ إلى أمّ سَليط الأنصاريّة، وقال: «إنها كانت تَزْفِر القِرَب يوم أحُد تسقي المسلمين».

قال: تَزْفِرُها: تحملها، ومنه زُفَر، اسم رجل كان يحمِل الأثقال.

وفي حديثه أنه قال: «أعطُوا من الصَّدَقة مَنْ أبقت له السَّنَة غنماً، ولا تعطوا مَنْ أبقت له السّنة غنمين».

قال: السنة: ها هنا الأزمنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾(١).

قال: وكان عمر لا يجيز نكاحاً في عام سنة، يقول: «لعلّ الضَّيْعة تحمِلُهم على أن ينكحوا غيرَ الأكفاء».

وكان أيضاً لا يقطع سارقاً في عام سنة.

وقوله: «غنماً» أي قطعة من الغنم، يقال لفلان: غَنَمان، أي قطعتان من الغنم، وأراد عمر أنّ مَنْ له قطعتان غَنِيّ لا يعطَى من الصدقة شيئاً، لأنها لم تكن قطعتين إلا لكثرتها.

وفي حديثه إنه انكفأ لونُه في عام الرَّمادة حين قال: «لا آكل سمناً ولا سميناً، وأنه اتخذ أيام كان يطعِم النّاس قِدْحاً فيه فرْض، فكان يطوف على القِصَاع فيغمز القِدْح، فإن لم تبلغ الثريدة الفَرْض قال: فانظر ماذا يفعل بصاحب الطعام.

قال: انكفأ: تغيّر عن حاله، وأصله الانقلاب، من كفأتُ الإناء.

وسمّيَ عام الرّمادة من قولهم: أرمَد الناس، إذا جُهدوا، والرمد: الهلاك.

والقِدْح: السّهم. والفَرْض: الحزّ، جعل عمر هذا الحزّ علامة لِعُمْق الثّريد في الصّحفة.

وفي حديثه: إنّ عطاء بن يسار، قال: قلت للوليد بن عبد الملك: رُوِي لي أنّ عمر بن الخطاب قال: ودِدْتُ أنّي سلمت من الخلافة كَفافاً لا عليّ ولا لي، فقال: كذبت! الخليفة يقول هذا! فقلت: أو كُذِبتُ؟ فأفْلَتُّ منه بُجرَيعة الذَّقَن.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

قال: يقال: خلص من خصمه كَفافاً، أي كف كلّ واحد منهما عن صاحبه، فلم ينل أحدهما من الآخر شيئاً.

وأفلتَ فلان بجُرَيعة ذَقَن، أي أنّ نفسه قد صارت في فيه. وجُرَيْعة: تصغير جُرْعة.

قلت: وإنما استعظم الوليد ذلك، لأن بني أميّة كانوا يروْن أنّ مَنْ وليَ الخلافة فقد وجبت له الجنّة، ولهذا خطب هشام يوم وليَ، فقال: الحمد لله الذي أنقذني من النّار بهذا المقام.

وفي حديثه: إنّ سِمَاك بن حَرْب، قال: رأيت عمر، فرأيت رجلاً أرْوَح كأنّه راكبٌ، والنّاس يمشون كأنه من رجال بني سَدُوس.

قال: الأرْوَح الذي تتدانى عقِباه، وتتباعد صدورُ قدميْه، يقال: أروح: بيّن الرَّوح، والأفحج: الذي تتدانى صدور قدميْه، وتتباعد عَقِباه وتتفحّج ساقاه، والأوْكع: الذي يميل إبهام رجله على أصابعه حتى يزول، فيرى شخص أصلها خارجاً، وهو الوكَع، ومنه أمةٌ وكْعاء.

وبنو سَدُوس: فخِذ من بني شيبان، والطُّول أغلب عليهم.

وفي حديثه عن ابن عبّاس، قال: دعاني فإذا حصير بين يديه، عليه الذهب منثور نثر الْحَثا، فأمرني بقسمه.

قال: الحَثا: التّبْن مقصور، قال الراجز يهجو رجلاً:

ويأكل التمر ولا يلقي النَّوَى ولا يواري فَرْجَه إذا اصطلَى
كأنّه غرارةٌ ملأى حَثا

وفي حديثه أنه قال: «النّساء ثلاث، فهينّة ليّنة عفيفة مسلمة، تعين أهلها على العيش، ولا تعينُ العيشَ على أهلها، وأخرى وعاءٌ للولَد، وأخرى غُلٌّ قَمِل يضعُه الله في عنق من يشاء، ويفكّه عمّن يشاء. والرجال ثلاثة: رجل ذو رأي وعقل، ورجل إذا حَزَبهُ أمر أتى ذَا رأي فاستشاره، ورجل حائر بائر، لا يأتمر رَشَداً، ولا يطيع مرشداً».

قال: البائر: الهالك، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾(١). والأصل في قوله: «غُلّ قمِل»، أنهم كانوا يغلّون بالقِدّ وعليه الشعر، فيقمُل على الرّجال.

ولا يأتمر رشداً، أي لا يأتي برشْدٍ من ذات نفسه، يقال لمن فعل الشيء من غير مشاورة: قد ائتمر، وبئس ما ائتمرت لنفسك، قال النّمر بن تَوْلب:

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٢.

واعــلــمــنْ أنّ كــلّ مــؤتــمــرٍ مــخــطــىء فــي الــرأي أحــيــانــا

وفي حديثه: إنه خرج ليلةً في شهر رمضان، والنّاس أوزاع، فقال: «إني لأظنّ لو جمعناهم على قارىء واحد كان أفضلَ»، فأمر أبي بن كعب فأمّهم، ثم خرج ليلة وهم يصلّون بصلاته، فقال: «نعم البدعة هذه! والتي ينامون عنها أفضلُ من التي يقومون».

قال: الأوزاع: الفرَق، يريد أنهم كانوا يصلّون فرادى، يقال: وزعتُ المال بينهم، أي فرّقته.

وقوله: «والتي ينامون عنها أفضل»، يريد صلاة آخر الليل، فإنها خير من صلاة أوّله.

وفي حديثه أنّ أصحابَ محمد ﷺ تذاكروا الوِتْر، فقال أبو بكر: أمّا أنا فأبدأ بالوِتْر، وقال عمر: لكنّي أوتِر حين ينام الضَّفْطَى.

قال: هو جمع ضَفِيط، وهو الرّجُل الجاهل الضعيف الرأي.

ومنه ما روِي عن ابن عباس، أنّه قال: لو لم يطلب النّاس بدِم عثمان لرُمُوا بالحجارة من السماء، فقيل: أتقول هذا وأنت عامل لفلان؟ فقال: إن فيّ ضَفَطات، وهذه إحدى ضَفَطاتي.

وفي حديثه: إنه قال في وصيته: «إن تُوُفِّيت وفي يدي صِرْمة ابن الأكوع، فسنّتُها سنَّة ثَمَغ».

قال: الصِّرمة ها هنا: قطعة من النخل، ويقال للقطعة الخفيفة من الإبل: صِرْمة، ويقال لصاحبها مُصْرِم، ولعله قيل للمقلّ، مُصْرِم من هذا.

وثَمَغ: مال كان لعمر، ووقفه.

وفي حديثه: إنه لما قدم الشام تفحّل له أمراء الشام.

قال: أي اخشوشنوا له في الزّي واللباس والمطعم تشبّهاً به، وأصله من الفحْل، لأنّ التصنّع في اللباس والقيام على نفسه، إنما هو عندهم للإناث لا للفحول.

وفي حديثه: إنه قدم مكّة، فسأل من يعلم موضع المقام - وكان السَّيْل احتمله من مكانه - فقال المطّلب بن أبي ودَاعة السهميّ: يا أميرَ المؤمنين، قد كنت قدّرته وذرعته بِمِقاطِ عندي.

قال: المِقاط: الحبل، وجمعه مقُط.

وفي حديثه: إنه قال للذي قتل الظبي وهو محرِم: «خذ شاةً من الغَنَم فتصدّق بلحمها، واسق إهابها».

قال: الإِهاب: الجلد.

وأسقه، أي اجعله سِقَاء لغيرك، كما تقول: اسقِنِي عسلاً، أي اجعله لي سِقاء وأقِدْ بي خيلاً، أي أعطني خيلاً أقودها، وأسقني إبلاً: أعطني إبلاً أسوقها.

وقالت بنو تميم للحجّاج: أقبِرْنا صالحاً، يعنون صالح بن عبد الرحمن، وكان قتله وصلبه، فسألوه أن يمكنّهم من دفنه.

وفي حديثه: إنَّه ذُكِر عنده التّمر والزبيب: أيّهما أفضل؟ ويروى أنه قال لرجل من أهل الطائف: الحَبْلة أفضل أم النخلة؟ فأرسل إلى أبي حَثْمة الأنصاريّ، فقال: إن هؤلاء اختلفوا في التمر والزبيب أيّهما أفضل.

وفي رواية أخرى: وجاء أبو عمرة عبد الرحمن بن محصن الأنصاريّ، فقال أبو حَثْمة: ليس الصَّقْر في رؤوس الرَّقْل، الراسخات في الوحْل، المطعمات في المحْل، تعلَّة الصبيّ، وقِرَى الضيف، وبه يُحترَش الضبّ في الأرض الصلعاء، كزبيب إن أكلته ضرست، وإن تركته غرثْت.

وفي الرواية الأخرى: فقال أبو عَمْرة: الزّبيب إن آكلْه أضرَس، وإن أتركه أغرث، ليس كالصقر في رؤوس الرّقلَ، الراسخات في الوحْل، والمطعمات في المحْل، خُرفة الصائم، وتحفة الكبير، وصُمْتة الصغير، وخُرْسة مريم، ويُحْتَرش به الضِّباب من الصَّلعاء.

قال: الحبْلة، بفتح الحاء وتسكين الباء: الأصل من الكَرْم، وفي الحديث: إنّ نوحاً لمّا خرج من السفينة غَرَس الحَبْلة، وكانت لأنس بن مالك حَبْلة تحمل كذا، وكان يسمّيها أمّ العيال، فأما الحُبْلة بالضم فثمر العضاه، ومنه الحديث: كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وآله وما لنا طعام إلا الحُبْلة، وورق السَّمُر. والحُبلة بالضم أيضاً: ضرب من الحَلْي يجعل في القلائد، شبّه بورق العضاه، لأنه يصاغ على صورته.

وأغرث: أجوع، والغرْث: الجوع.

والصَّقْر: عسل الرُّطَب. والرَّقْل: جمع رَقلة، وهي النخلة الطويلة.

وقوله: «خرْفة الصائم» اسم لما يختَرف، أي يجتنَى، ونسبها إلى الصائم، لأنهم كانوا يحبُّون أن يفطروا على التمر.

قوله: «وصُمْتة الصغير»، لأنّ الصغير كان إذا بكى عندهم سكّتُوه به. وتعلّة الصبيّ نحوه، من التّعليل.

وخُرْسة مريم، الخُرْسة ما تطعَمه النُّفَساء عند ولادتها، أشار إلى قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[1]، فأما الخُرْس بغيرها فهو الطعام الذي يصنع لأجل الولادة، كالإعذار للخِتان، والنَّقِيعة للقادم، والوكِيرة للبناء.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٥.

ويُحترَش به الضَّبّ أي يصطاد، يقال: إن الضبّ يعجب بالتمر، والحارش: صائد الضباب. والصَّلْعاء: الصحراء التي لا نبات بها كرأس الأصلع.

وفي حديثه: إنه قال للسائب: «وَرِّع عنّي بالدرهم والدرهمين».

قال: أي كفّ الخصوم عنّي في قدر الدرهم والدرهمين بأن تنظر في ذلك، وتقضي فيه بينهم، وتنوب عنّي. وكلّ مَنْ كففتَه فقد ورّعته، ومنه الوَرَع في الدين، إنّما هو الكفّ عن المعاصي. ومنه حديث عمر: لا تنظروا إلى صلاة الرَّجُل وصيامه، ولكن من إذا حَدّث صدق، وإذا ائتُمن أدّى، وإذا أشفى ورّع، أي إذا أشرف على المعصية كَفّ عنها.

وفي حديثه: إنّه خطب الناس، فقال: «أيّها النّاس، لينكح الرّجل منكم لُمَته من النّساء، ولتنكح المرأة لُمَتها من الرجال».

قال: لُمَة الرجل من النساء مثله في السنّ، ومنه ما رويَ أنّ فاطمة عليها السلام خرجت في لُمَة من نسائها تتوطّأ ذيلها، حتى دخلت على أبي بكر.

وأراد عمر بن الخطاب: لا تنكح الشابّة الشيخ الكبير، ولا ينكح الشابّ العجوزَ، وكان سبب هذه الخطبة أنّ شابّة زوّجها أهلُها شيخاً فقتلته.

وفي حديثه: إنّ رجلاً أتاه يشكو إليه النِّقْرِس(1)، فقال: كذبتك الظهائر.

قال: الظهائِر: جمع ظَهِيرة، وهي الهاجرة، ووقت زوال الشمس.

وكذبتك، أي عليك بها، وهي كلمة معناها الإغراء، يقولون: كذبك كذا، أي عليك به.

ومنه الحديث المرفوع: «الحجامة على الريق فيها شفاء وبركة، فمن احتجَم في يوم الخميس ويوم الأحد، كذباك»(2)!

أي عليك بهما، وإنما أمر عمر صاحب النّقرس أن يبرز للحرّ في الهاجِرة ويمشي حافياً، ويبتذل نفسه، لأن ذلك يُذهب النِّقرس.

وفي حديثه أنه قال: «مَنْ يدلّني على نسيج وحده؟»، فقال أبو موسى: ما نعلمه غيرك، فقال: ما هي إلا إبل مُوَقَّعٌ ظهورها.

قال: معنى قولهم: «نسيج وحده» أي لا عيب فيه، ولا نظير له. أصله من الثوب النَّفِيس لا ينسج على منواله غيره.

---

(١) النِّقْرِس: ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين. القاموس المحيط، مادة (نقرس).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: في أي الأيام يحتجم (٣٤٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٤٨١)، وابن عدي في «الكامل» (٤٤٧).

والبعير الموقّع الذي يكثر آثار الدَّبَر بظهره، لكثرة ما يركب، وأراد عمر أنّا كلّنا مثل ذلك في العيب.

وفي حديثه: إن الطبيب الأنصاريّ سقاه لبناً حين طُعِن، فخرج من الطعنة أبيضَ يصلِد.

قال: أي يبرق ولم يتغيّر لونه.

وفي حديثه: إنّ نادبة عمر، قالت: واعمراه! أقام الأوَد، وشَفَى العمَد. فقال عليّ عليه السلام: أما والله ما قالته ولكن قُوِّلَتْهُ.

والعمَد: ورم ودَبَر يكون في ظَهْر البعير، وأراد عليٌّ عليه السلام أنه كأنما أُلقي هذا الكلام على لسانها لصحّته وصدقه.

وفي حديثه: إنّه استعمل رجلاً على اليمن، فوفد إليه، وعليه حلّة مُشَهَّرة، وهو مرجَّل دَهِين، فقال: أهكذا بعثناك! ثم أمر بالحُلّة فنزِعت عنه، وألبِس جُبّة صوف، ثم سأل عن ولايته فلم يذكر إلاّ خيراً فردّه على عمله، ثم وفد إليه بعد ذلك، فإذا أشعث مغبّر عليه أطلاس، فقال: ولا كلّ هذا، إن عاملنا ليس بالشّعث ولا العافي، كلوا واشربوا وادّهنوا، إنّكم لتعلمون الذي أكره من أمركم!

قال: ثياب أطلاس، أي وسخة، ومنه قيل للذئب: أطلس.

والعافي: الطويل الشَّعر، يقال: عَفَى وبرُ البعير، إذا طال، ومنه الحديث المرفوع: «أمر أن تُعفَى اللّحى وتُحْفَى الشّوارب»[1].

وفي حديثه: إنه قال للرجل: أمَا تراني لو شئت أمرت بشاة فتيّة سمينة [أو قنيّة] فألقي عنها صوفها، ثم أمرت بدقيق فنخِل في خرقة، فجعِل منه خبز مرقّق، وأمرت بصاع من زبيب فجعل في سُعُن حتى يكون كدم الغزال.

قال: السُّعُن: قربة أو إداوة ينتبَذ فيها وتعلّق بجِذْع.

وفي حديثه: إنه رأى رجلاً يأنِح ببطنه، فقال: ما هذا؟ قال: بركة من الله، قال: بل هو عذاب من الله يعذّبك به.

قال: يأنح: يصوّت، وهو ما يعتري الإنسان السمين من البُهْر إذا مشى، أنَح يأنِح أنوحاً.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة (٢٥٩)، والترمذي في كتاب: الأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ما جاء في إعفاء اللحية (٢٧٦٤)، وأبو داود في كتاب: الترجل، باب: في أخذ الشارب (٤١٩٩)، واللفظ له.

وفي حديثه: إنّه لما دنا من الشام ولَقِيَه الناس، جعلوا يتراطنون، فأشكعَهُ ذلك وقال لأسلم مولاه: إنّهم لم يروا على صاحبك بِزّة قوم غضب الله عليهم.

قال: أشكَعه: أغضبه، قال: أراد أنّهم لم يتحاموا عنه اللغط، والكلام بالفارسية والنَّبطية بحضرته، لأنهم لم يَروْه بعين الإمارة والسلطان، كما يروْن أمراءهم، لأنهم لم يروا عليه بزّة الأمراء وزيّهم.

وفي حديثه: إنّ عاملاً على الطائف كتب إليه: إن رجالاً منهم كلّموني في خلايا لهم، أسلموا عليها، وسألوني أن أحميَها لهم. فكتب إليه عمر: «إنها ذُباب غَيْث، فإنْ أدَّوا زكاته فاحِمه لهم».

قال: الخلايا موضع النَّحل التي تعسل، الواحدة خليّة، وأراد بقوله: «إنّها ذُباب غيث» أنها تعيش بالمطر، لأنّها تأكل ما ينبت عنه، فإذا لم يكن غيث فقدتْ ما تأكل، فشبّهها بالسَّائم من النّعم لا مؤنة على صاحبها منها، وأوجب فيها الزكاة.

وفي حديثه: أنّ سعد بن الأخرَم، قال: كان بين الحيّ وبين عديّ بن حاتم تشاجُرٌ فأرسلوني إلى عمر فأتيته وهو يطعم الناس من كسور إبل، وهو قائم متوكىء على عصا، مؤتزر إلى أنصاف ساقيه، خِدَبٌ من الرجال كأنه راعي غنم، وعليّ حلة ابتعتُها بخمسمائة درهم، فسلّمت عليه، فنظر إليّ بذنَب عينه، وقال لي: أما لك مِعْوز؟ قلت: بلى، قال: فألقها، فألقيتُها وأخذت مِعْوزاً، ثم لقيته فسلّمت، فردّ عليّ السلام.

قال: كُسور الإبل: أعضاؤها.

والخِدَبّ: العظيم الجافي وكأنّه راعي غنم، يريد في الجفاء والبذاذة وخشونة الهيئة واللّبسة.

والمِعْوز: الثوب الخلَق، والميم مكسورة، وإنّما ترك ردّ السلام عليه أولاً، لأنه أشهر الحُلّة، فأدّبه بترك ردّ السلام، فلمّا خلعها ولبس المِعْوز ردّه عليه.

وفي حديثه: إنه ذكر فِتْيان قريش وسَرَفهم في الإنفاق، فقال: لَحِرْفة أحدهم أشدّ عَلَيّ من عَيْلته.

قال: الحرْفة ها هنا، أن يكون الرّجل لا يتّجر ولا يلتمس الرّزق، فيكون محدوداً لا يرزق إذا طلب، ومنه قيل: فلان محارَف. والعَيْلة: الفقر.

وفي حديثه: إنّه قال لرجل: ما مالُك؟ قال: أقْرُنٌ لي وآدمِة في المَنيئة، قال: قوِّمْها وزكِّها.

قال: الأقرن: جمع قرْن، وهي جعبة من جُلُود تكون للصيّادين يشقّ منها جانب ليدخلها الريح فلا يفسد الريش.

وآدمة: جمع أدِيم، كجرِيب وأجْرِبة.

والمَنيئة: الدّباغ، وإنما أمره بتزكيتها، لأنها كانت للتجارة.

وفي حديثه: إنّ أبا وجْزة السعديّ، قال: شهدته يستقي، فجعل يستغفر، فأقول: ألا يأخذ فيما خرج له! ولا أشعر أنّ الاستسقاء هو الاستغفار، فقلَدتنا السماء قِلْداً كلّ خمس عشرة ليلة، حتى رأيت الأرنبة يأكلها صغار الإبل من وراء حِقاق العُرْفط.

قال: فقلِدتنا: مطرتنا لوقت معيّن، ومنه قِلْد الحمَّى، وقلْد الزرع، سقيه لوقت وهو وقت الحاجة.

وقال: رأيت الأرنب يحتملها السيّل حتى تتعلق بالعُرْفط، وهو شجر ذو شوك وزاد في الأرنب هاء، كما قالوا: عقرب وعقربة، وحِقَاق العُرفط: صغارها، وقيل: الأرنب ضرب من النبت، لا يكاد يطول، فأراد أنه طال بهذا المطر حتى أكلته صغار الإبل من وراء شجر العُرْفط.

وفي حديثه: إنه قال: ما وَلِيَ أحدٌ إلاّ حامَى على قَرابته، وقَرَى في عيبته، ولن يليَ الناس قرشِيٌّ عضّ على ناجذه.

قال: حامىَ عليهم: عطف عليهم، وقَرَى في عيبته، أي اختان، وأصل قَرَى: جمع.

وفي حديثه: لن تخور قوى ما كان صاحبها ينزع وينزو.

يخور: يضعف. والنّزْع في القوس، والنُّزْو على الخيل.

وروي أن عمر كان يأخذ بيده اليمنى أذنه اليسرى، ثم يجمع جراميزه ويثِب، فكأنما خلِق على ظهر فرسه.

وفي حديثه: «تعلَّموا السنّة والفرائض واللَّحن، كما تتعلمون القرآن».

قال: اللّحن ها هنا: اللغة والنحو.

وفي حديثه: إنه مرّ على راعٍ، فقال: يا راعي، عليك بالظَّلِف من الأرض لا ترمِّض، فإنّك راعٍ وكلّ راعٍ مسؤول.

قال: الظّلف: المواضع الصلبة، أمره أن يرعى غنمه فيها، ونهاه أن يرمّض، وهو أن يرعى غنمه في الرّمضاء وهي تشتدّ جداً في الدّهاس[1] والرمل، وتخفّ في الأرض الصلبة.

وفي حديثه: إنّ رجلاً قرأ عليه حرفاً، فأنكره، فقال: مَنْ أقرأك هذا؟ قال: أبو موسى، فقال: إنّ أبا موسى لم يكن من أهل البَهْش.

قال: البَهْش المُقْل الرطب، فإذا يبس فهو الخَشْل، وأراد أنَّ أبا موسى: ليس من أهل الحجاز، لأنّ المُقْل بالحجاز نبت، والقرآن نزل بلغة الحجاز.

وفي حديثه: إن عقبة بن أبي مُعَيط، لمّا قال للنبي ﷺ: أأقتل مَن بين قريش؟ فقال عمر: حَنّ قِدْح ليس منها[2].

قال: هذا مثل يضرب للرجل يُدخل نفسَه في القوم وليس منهم، والقِدْح: أحد قِداح الميسر، وكانوا يستعيرون القِدْح يدخلونه في قِدَاحهم يتيمّنون به ويثقون بفوزه.

وفي حديثه: إنّ أهل الكوفة لمّا أوفدوا العِلْباء بن الهيثم السّدوسيّ إليه، فرأى عمر هيئته رثّة، وأعجبه كلامه وعمله، قال: لكلّ أناس في حمِيلهم خير.

قال: هذا مثل، والمراد أنهم سوّدوه على معرفةٍ منهم بما فيه من الخلال المحمودة، والمعنى أن خُبْره فوق منظره.

وفي حديثه: إنّه أخذ من القِطْنيّة الزكاة[3].

قال: هي الحبوب كالعدس والحِمّص، وفي أخذ الزكاة منها خلاف بين الفقهاء.

وفي حديثه: أنه كان يقول للخارص: «إذا وجدْت قوماً قد خَرَفوا في حائطهم، فانظر قدْر ما ترى أنّهم يأكلونه، فلا تخرِصه».

قال: خَرفُوا فيه، أي نزلوا فيه أيام اختراف الثمّرة.

وفي حديثه: «إذا أجريت الماء على الماء جَزى عنك».

قال: يريد صبّ الماء على البوْل في الأرض، فإنه يطهّر المكان، ولا حاجة إلى غسله. وجَزى: قضى وأغنى، من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾[4]، فإن أدخلت الألف قلت: «أجزأك» وهمزت، ومعناه كفاك.

---

(١) الدّهاس: المكان السهل ليس برمل ولا تراب. القاموس المحيط، مادة (دهس).
(٢) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١٣/ ١٣٠.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٧١٩١)، ومالك في المدونة الكبرى (٢/ ٣٤٩).
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٣.

وفي حديثه: إنه قال: «لا يعطى من المغانم شيء حتى تقسّم، إلا لراع، والدليل غيرُ مُوليه».

قال: الراعي ها هنا الطليعة، لأنه يرعَى القوم، أي يحفظهم.

وقوله: «غير مُوليه»، أي غير مُعْطِيه شيئاً لا يستحقه.

وفي حديثه: «إنّ من الناس مَنْ يقاتل رياءً وسمعة، ومنهم مَنْ يقاتل وهو ينوي الدّنيا، ومنهم مَنْ ألجمه القتال فلم يجد بدًّا، ومنهم مَنْ يقاتل صابراً محتسباً، أولئك هم الشهداء».

قال: ألجمه القتال، أي رهقه وغشِيه، فلم يجد مخلصاً.

وفي حديثه: إنهِ أرسل إلى أبي عبيدة رسولاً فقال له حين رجع: فكيف رأيتَ أبا عبيدة؟ قال: رأيتُ بللاً من عيش فقصّرَ من رزقه، ثم أرسل إليه، وقال للرسول حين قدم: كيف رأيتَه؟ قال: رأيته حَفُوفاً، قال: رحم الله أبا عبيدة، بسطْنا له فبَسط، وقبضنا له فقبض.

قال: الحَفُوف والحَفَف واحد، وهو ضِيق العيش وشدّته، يقال: ما عليهم حَفَفٌ ولا ضَفَ، أي ما عليهم أثر عَوَزٍ، والشَّظَف: مثل الحَفَف.

وفي حديثه: إنه رئي في المنام، فسئل عن حاله، فقال: «ثُلَّ عَرْشي لولا أني صادفت ربّي رحيماً».

قال: ثُلّ عرشُه، أي هدم.

وفي حديثه: إنه قال لأبي مريم الحنفيّ: «لأنا أشدُّ بغضاً لك من الأرض للدم»، قالوا: كان عمر عليه غليظاً، كان قاتِلَ زيد بن الخطاب أخيه، فقال: أينقُصُنِي ذلك من حقِّي شيئاً؟ قال: لا، قال: فلا ضَيْر.

قال: هذا مثل، لأن الأرض لا يغوص فيها الدم كما يغوص الماء، فهذا بغض الأرض له، ويقال: إنّ دم البعير تنشِفه الأرض وحده.

وفي حديثه: «إنّ اللبن يشبّه عليه».

قال: معناه أنّ الطّفل ربما نزع به الشَّبَه إلى الظِّئر من أجل لبنها، فلا تسترضعوا. إلاّ مَنْ ترضون أخلاقها.

وفي حديثه: «اغزوا، والغَزْو حلْو خضِر، قبل: أن يكون ثُماماً، ثم يكون رُماماً، ثم يكون حُطاماً».

قال: هذا مثل، والثُّمام: نبت ضعيف.

والرُّمام، بالضم والرميم واحد، مثل طُوال وطويل.

والحُطام: يبس النبت إذا تكسّر، ومعنى الكلام أنّه أمرهم بالغزو حين عزائمهم قويّة، وبواعثهم إليه شديدة، فإنّ مع ذلك يكون الظفر قبل أن يَهِي ويضعُف، فيكون كالثُّمام الضعيف، ثم كالرميم، ثم يكون حُطاماً فيذهب.

وفي حديثه: «إذا انتاطت المغازي، واشتدّت العزائم، ومنعت الغنائم أنفسها، فخير غزوكم الرّباط».

قال: انتاطت: بعدت، والنّطيء: البعيد.

واشتدّت العزائم: صعبت ومنعت أنفسَها، فخير غزوكم الرّباط في سبيل الله.

وفي حديثه: إنه وضع يده في كُشْية ضبّ، وقال: إنّ النبي ﷺ لم يحرّمه، ولكن قذّره.

قال: كُشْية الضبّ: شحم بطنه.

وقوله: «وضع» أي أكل منه.

وفي حديثه: «لا أوتَى بأحدٍ انتقص من سبل المسلمين إلى مثاباته شيئاً إلاّ فعلت به كذا».

قال: المثابات ها هنا: المنازل يثوب أهلها إليها، أي يرجعون، والمرادُ مَنْ اقتطعَ شيئاً من طريق المسلمين وأدخله في داره.

وفي حديثه: إنه كره النِّير.

قال: هو عَلَم الثوب، وأظنه كرهه إذا كان حريراً.

وفي حديثه: إنه انكسرت قَلُوص من إبل الصدقة فجَفَنها.

قال: اتخذ منها جَفْنة من طعام، وأجمع عليه.

وفي حديثه: «عجبت لتاجر هَجَر، وراكب البحر»!

قال: عجب كيف يختلف إلى هَجَر مع شدّة وبائها، وكيف يركب البحَر مع الخطار بالنفس!

وفي حديثه: إنه قال ليلةً لابن عباس في مسير له: أنشِدْنا لشاعر الشعراء، قال: ومَنْ هو؟ قال: الذي لم يعاظِلْ بين القول، ولم يتّبع حُوشِيّ الكلام، قال: ومَنْ هو؟ قال: زهير، فجعل يُنشِد إلى أن بَرَق الصبح.

قال: هو مأخوذٌ من تعاظُل الجراد، إذا ركب بعضُه بعضاً.

وحُوشِيّ الكلام: وحشيُّه.

وفي حديثه: إنّ نائلاً مولى عثمان، قال: سافرتُ مع مولايَ وعمر في حَجّ أو عُمرة، فكان عمر وعثمان وابن عمر لِفًّا، وكنت أنا وابنُ الزُّبير في شَبَبةٍ معنا لِفًّا، فكنّا نتمازَح ونترامَى بالحنظل، فما يزيدنا عمر على أن يقول لنا: كذاك لاَ تَذْعَرُوا علينا، فقلنا لرَياح بن العترف: لو

نصَبْت لنا نصْب العرب! فقال: أقول مع عمر فقلنا: افعل وإن نهاك فانتهِ، ففعل ولم يقل عمر شيئاً، حتى إذا كان في وجه السَّحر ناداه: يا رَياح، إيهاً، اكفُفْ فإنها ساعة ذكْر!

قال: لِفًّا، أي حزباً وفِرْقة.

وشَبَبَة: جمع شابّ، مثل كاتب وكَتَبَة، وكاذب وكَذَبة، وكافر وكَفَرة.

وقوله: «كذاك» أي حَسْبُكم.

وقوله: «لا تذْعَرُوا علينا»، أي لا تنفروا إبلنا.

ونصْب العرب: غناء لهم يشبه الحُداء، إلاّ أنه أرقّ منه.

وفي حديثه: إنه كتب في الصّدقة إلى بعض عمّاله كتاباً فيه: «ولا تحبِس الناس أوّلهم على آخرهم، فإن الرَّجْنَ للماشية عليها شديد، ولها مُهْلِك، وإذا وقف الرّجل عليكَ غَنَمه فلا تَعْتَمْ من غنمِه، ولا تأخذ من أدناها، وخذ الصدقة من أوسطها، وإذا وجَبَ على الرّجل سنٌّ لم تجدها في إبله فلا تأخذ إلا تلك السنّ من شَرْوى إبله أو قيمة عدْل، وانظر ذوات الدَّرّ والماخِض، فتنكّب عنها، فإنها ثمال حاضِرِيهم».

قال: الرَّجْن: الحبس، رجَن بالمكان: أقام به، ومثله دَجَن، بالدّال.

ولا تعتَم: لا تخْتر، اعتام اعتياماً، أي اختار.

وشَرْوى إبله، أي من مِثْلها.

وذوات الدّرّ: ذوات اللَّبن.

والماخِض: الحامل.

وثمال حاضريهم: عصمتهم وغياثهم، وحاضريهم: مَنْ يسكن الحضَر.

وفي حديثه: إنه كان يلقط النّوَى من الطريق والنُّكْث، فإذا مرّ بدار قوم ألقاها فيها، وقال: «ليأكل هذا داجنتكم وانتفعوا بباقيه».

قال: الداجنة ما يعلفه الناس في منازلهم، من الشّاة والدّجاج والطيّر.

والنُّكْث: الخيوط الخلَق من صوف أو شعر أو وَبر.

وفي حديثه: «ثلاثٌ من الفَواقر: جار مُقامة، إن رأى حسنةً دَفنها، وإن رأى سيّئة أذاعها، وامرأة إن دخلْتَ عليها لَسَنَتْك، وإن غِبت عنها لم تأمنها، وإمام إن أحسنتَ لم يرضَ عنك، وإن أسأت قتلك».

قال: الفواقر: الدواهِي، واحدتها فاقِرة، لأنها تكسر فقار الظّهر.

ولسنتك: أخذتك بلسانها.

وفي حديثه في خطبة له: «مَنْ أتى هذا البيت لا ينهره إليه غيره، رجع وقد غفر له».

قال: ينهره: يدفعه، يريد من حَجّ لا ينوي بالحجّ إلا الطاعة غفر له.

وفي حديثه: «اللبن لا يموت».

قال: قيل في معناه: إن اللبن إذا أخذ من ميتة لم يحرم، وكلّ شيء أخذ من الحيّ فلم يحرم فإنه إن أخذ من الميت لم يحرم.

وقيل في معناه: إنْ رَضَع الطّفل من امرأة ميّتة حَرُم عليه من أولادها وقرابتها مَنْ يحرم عليها منها لو كانتْ حَيّة.

وقيل: معناه: إنّ اللبن إذا انفصل من الضّرع فأوجر به الصبيّ أو أدم به أو دِيف له في دواء وسُقِيَه، فإنه وإن لم يسمّ في اللغة رضاعاً، إلا أنّه يحرم به ما يحرم بالرضاع، فقال: اللبن لا يموت، أي لا يبطل عمله بمفارقة الثدي.

وفي حديثه: «من حظّ المرء نَفاق أيّمه وموضع خُفّه».

قال: الأيّم الّتي لا بعل لها، والخُفّ: الإبل، كما تُسمّى الحمر والبغال حافراً، والبقر والغنم ظِلْفاً، يريد من حظ الإنسان أن يخطب إليه ويتزوّج بناتُه وأخواته وأشباهُهنّ، فلا يَبُرْن، ومن حظه أيضاً أن ينفق إبله، حتى ينتابه التّجار وغيرهم فيبتاعوها في مواضعها، يستطرقونه لا يحتاج أن يعرضها عليهم.

وفي حديثه: إنّ العباس بن عبد المطلب سأله عن الشعراء، فقال: امرؤ القيس سابقهم، خسف لهم عَيْن الشعر، فافتقر عن معانٍ عُورٍ أصَحّ بَصَرٍ.

قال: خسف لهم، من الخسِيف، وهي البئر تحفر في حجارة، فيخرج منها ماء كثير، وجمعها خُسُف.

وقوله: «افتقر» أي فتح، وهو من الفقير، والفقير: فم القناة.

وقوله: «عن معانٍ عور» يريد أنّ امرأ القيس من اليمن، واليمن ليسَت لهم فصاحة تزار، فجعل معانيهم عُوراً، وفتح امرؤ القيس عنها أصحّ بصر.

احاديث واردة في فضل عمر

فأما الحديث الوارد في فضل عمر، فمنه ما هو مذكور في الصّحاح، ومنه ما هو غير مذكور فيها. فممّا ذكر في المسانيد الصحيحة من ذلك، ما روت عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «كان في الأمَم محدَّثون، فإن يكن في أمّتي فعمر»[1]. أخرجاه في الصحيحين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار (٣٤٦٩)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة باب: من فضائل عمر (٢٣٩٨).

وروى سعد بن وقّاص، قال: استأذن عُمر على رسول الله ﷺ، وعنده نساء من قريش يكلّمنه، عاليةً أصواتهنّ، فلمّا استأذن قُمْنَ يبتدِرْن الحجاب، فدخل ورسول الله ﷺ يضحَك، قال: أضحَكَ الله سِنَّكَ يا رسول الله! قال: عجبتُ مِنْ هؤلاء اللّواتِي كنّ عندي فلمَّا سَمِعْنَ صوتَك ابتدرْنَ الحِجاب. فقال عمر: أنت أحقّ أن يهبْنَ، ثم قال: أي عَدُوّاتِ أنفسهنّ، أتهبْنني ولا تهبْنَ رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظّ، فقال رسول الله ﷺ: «والّذِي نفسي بيده، ما لقيَكَ الشّيْطان قطّ سالكاً فَجّاً إلا سلك فَجّاً غير فَجّك»[١]، أخرجاه في الصحيحين.

وقد روي في فضله من غير الصحاح أحاديث:

منها: «إن السكينة لتنطِق على لسان عمر»[٢].

ومنها: «إن الله تعالى ضرب بالحقّ على لسان عمر وقلبه»[٣].

ومنها: «إنّ بين عينيْ عمر مَلَكاً يسدّده ويوفقه»[٤].

ومنها: «لو لم أُبعَثْ فيكم لبعِث عمر»[٥].

ومنها: «لو كان بعدي نبيّ لكان عمر»[٦].

ومنها: «لو نزل إلى الأرض عذابٌ لما نجا منه إلاّ عمر»[٧].

ومنها: «ما أبطأ عنّي جبريل إلاّ ظننت أنه بعِث إلى عمر»[٨].

ومنها: «سراج أهل الجنّة عمر»[٩].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق باب: صفة إبليس وجنوده (٣٢٩٤)، ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر (٢٣٩٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥٤٩)، وأحمد في «المسند» (٨٣٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٤٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند باب: حديث أبي ذر الغفاري (٢٠٧٧٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٧).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٨٣١ - ٨٨٣٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٩٨٣).

(٥) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥١٢٧)، وابن عدي في «الكامل» (٦٦٩).

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: في مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٨٦)، وأحمد في باب: حديث عقبة بن عامر (١٦٩٥٢).

(٧) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ١٥٨)، والطبري في تفسيره (١٠/ ٤٨).

(٨) لم أعثر عليه.

(٩) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٣٣)، وابن عدي في «الكامل» (١٠٠٣).

ومنها: إن شاعراً أنشدَ النبيّ ﷺ شعراً، فدخل عمر، فأشار النبيّ ﷺ إلى الشاعر أن اسكُتْ، فلمّا خرج عمر، قال له: عُدْ فعاد، فدخل عمر فأشار النبي ﷺ بالسكوت مرّة ثانية، فلما خرج عمر سأل الشاعرُ رسول الله ﷺ عن الرّجل، فقال: «هذا عمر بن الخطاب، وهو رجل لا يحبّ الباطل»(١).

ومنها: إنّ النبي ﷺ قال: «وُزِنتُ بأمّتي فرجَحْت، ووزن أبو بكر بها فرجح، ووزن عمر بها فرجح، ثم رجح، ثم رجح»(٢).

وقد رووْا في فضله حديثاً كثيراً غير هذا، ولكنّا ذكرنا الأشهر. وقد طعن أعداؤه ومبغضوه في هذه الأحاديث، فقالوا: لو كان محدَّثاً وملهَماً لما اختار معاوية الفاسقَ لولاية الشام، ولكان الله تعالى قد ألهمه وحدّثه بما يُواقِع من القبائح والمنكرات والبَغْي والتغلّب على الخلافة، والاستئثار بمال الفيء، وغير ذلك من المعاصي الظاهرة.

قالوا: وكيف لا يزال الشّيطانُ يسلك فجّاً غير فجّه، وقد فرّ مراراً من الزحف في أحُدٍ وحُنَين وخَيْبر، والفِرار من الزّحْف من عمل الشيطان وإحدى الكبائر الموبقة!

قالوا: وكيف يُدْعى له أنّ السكينة تنطِق على لسانه! أترى كانت السّكينةُ تُلاحِيَ رسول الله ﷺ يوم الحُديبية، حتى أغضبه!

قالوا: ولو كان ينطق على لسانه ملَكٌ أو بين عينيه مَلَكٌ يسدّده ويوفّقه، أو ضرب الله بالحقّ على لسانه وقلبه، لكان نظيراً لرسول الله ﷺ، بل كان أفضلَ منه، لأنه ﷺ كان يؤدّي الرسالة إلى الأمّة عَنْ مَلك من الملائكة، وعمر قد كان ينطق على لسانه مَلَك، وزيدَ ملَكاً آخر بين عينيه يسدّده ويوفقه، فهذا الملك الثاني ممّا قد فضّل به على رسول الله ﷺ، وقد كان حكم في أشياء فيخطىء فيها حتى يُفهمه إياها عليُّ بن أبي طالب، ومُعاذ بن جبل وغيرهما، حتى قال: لولاَ عليّ لهلكَ عمر، ولولا معاذ لهلك عمر. وكان يُشكِل عليه الحكم، فيقول لابن عباس: غُصْ يا غوّاص، فيفرّج عنه، فأين كان المَلَك الثاني المسدّد له! وأين الحقّ الذي ضُرب به على لسان عمر؟ ومعلوم أنّ رسول الله ﷺ كان ينتظر في الوقائع نزولَ الوحي. وعمر على مقتضى هذه الأخبار لا حاجة به إلى نزولِ ملَك عليه، لأنّ الملَكين معه في كلّ وقت

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٦)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٣٣٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٨٦٤)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ١٣٧)، والهيثمي في مسند الحارث (٩٦٢).

وكلّ حال، ملَك ينطق على لسانه وملك آخر بين عينيه يسدّده ويوفقه. وقدْ عزّزا بثالث وهي السكينة، فهو إذاً أفضلُ من رسول الله ﷺ!

وقالوا: والحديث الذي مضمونه: لو لم أبعث فيكم لبعث عمر، فيلزم أن يكون رسول الله ﷺ عذاباً على عمر، وأذى شديداً له، لأنه لو لم يبعث لبعث عمر نبيًّا ورسولاً، ولم تعلم رتبةٌ أجلّ من رتْبة الرسالة، فالمزيل لعمر عن هذه الرّتبة التي ليس وراءها رتبة، ينبغي ألاّ يكون في الأرض أحدٌ أبغض إليه منه!

قالوا: وأمّا كونه سراج أهل الجنّة، فيقتضي أنّه لو لم يكن تجلّى عمر لكانت الجنّة مظلمة لا سراجَ لها.

قالوا: وكيف يجوز أن يقال: لو نزل العذابُ لم ينجُ منه إلا عمر، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾(١).

قالوا: وكيف يجوز أن يقال: إنّ النبيّ ﷺ كان يسمع الباطل ويحبّه ويشهده، وعمر لا يسمع الباطل ولا يشهده ولا يحبّه! أليس هذا تنزيهاً لعمر عمّا لم ينزّهْ عنه رسول الله ﷺ!

قالوا: ومن العَجَب أنْ يكون النبي ﷺ أرجحَ من الأمة يسيراً، وكذلك أبو بكر، ويكون عمر أرجح منهما كثيراً! فإن هذا يقتضي أن يكون فضلُه أبينَ وأظهرَ من فضل أبي بكر ومن فَضْل رسول الله ﷺ!

والجواب أنه ليس يجب فيمن كان محدّثاً ملهماً أن يكون محدَّثاً ملهَماً في كلّ شيء بل الاعتبار بأكثر أفعاله وظنونه وآرائه، ولقد كان عمر كثيرَ التوفيق، مصيبَ الرأي في جمهور أمرِه، ومَنْ تأمّل سيرته علم صحّة ذلك، ولا يقدَح في ذلك أن يختلف ظنُّه في القليل من الأمور.

وأما الفرار من الزَّحْف، فإنه لم يفرّ إلاّ متحيّزاً إلى فئة، وقد استثنى الله تعالى ذلك فخرج به عن الإثم.

وأمّا باقي الأخبار فالمراد بالملَك فيها الإخبار عن صحة ظنّه، وصدْق فراسته، وهو كلام يجري مجرى المثل، فلا يَقْدح فيه ما ذكروه.

وأما قوله ﷺ: «لو نزل إلى الأرض عذابٌ لما نجا منه إلا عمر»، فهو كلام قاله عَقِيب أخذ الفدية من أسارى بدْر، فإنّ عمر لم يُشِرْ عليه، ونهاه عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢). وإذا كان القرآن قد نطق بذلك وشهد، لم يُلتفتْ إلى طعن مَنْ طعن في الخبر.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٨.

وأما قوله عليه السلام: «سراج أهل الجنّة عمر»، فمعناه سراج القوم الذين يستحقّون الجنّة من أهل الدنيا أيّام كونهم في الدنّيا مع عمر، أي يستضيئون بعلمه، كما يستضاء بالسراج.

وأما حديث مَنْع الشّاعر، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله خاف أن يذكر في شعره ما يقتضي الإنكار فيعنُف به عمر، وكان شديد الغلْظة، فأراد النبيّ صلى الله عليه وآله أن ينكر هو على الشّاعر إن قال في شعره ما يقتضي ذلك على وجه اللّطف والرّفق، وكان عليه السلام رؤوفاً رحيماً، كما قال الله تعالى.

وأما حديث الرجحان، فالمراد به الفتوح ومُلْك البلاد، وتأويله أنّه عليه السلام أُرِيَ في منامه ما يدلّ على أنه يفتح الله عليه بلاداً وعلى أبي بكر مثله، ويفتح على عمر أضعاف ذلك، وهكذا وقع.

واعلم أن مَنْ تصدّى للعيب وجَده، ومن قصَر همّته على الطّعن على الناس انفتحت له أبواب كثيرة، والسعيد مَنْ أنصف من نفسه، ورفض الهوى، وتزوّد التقوى، وبالله التوفيق!

في إسلام عمر

وأمّا إسلام عمر، فإنه أسلم، فكان تمام أربعين إنساناً في أظهر الروايات، وذلك في السنة السادسة من النبوة، وسنّه إذ ذاك ست وعشرون سنة، وكان عمر ابنه عبد الله يومئذ ستّ سنين.

وأصحّ ما رويَ في إسلامه رواية أنس بن مالك عنه، قال: خرجتُ متقلّداً سيفِي، فلقيت رجلاً من بني زُهرة، فقال: أين تعمد؟ قلت: أقتل محمداً، قال: وكيف تأمنُ في بني هاشم وبني زهرة؟ فقلت: ما أراك إلا صَبَوْت! قال: أفلا أدلُّك على العَجَبِ! إنّ أختك وزوجها قد صَبَوَا. فمشى عمر فدخل عليهما ذامراً، وعندهما رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، يقال له: خبّاب بن الأرتّ، فلما سمع خَبّاب حِسّ عمر توارَى، فقال عمر: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ وكانوا يقرؤون «طه» على خَبّاب، فقال: ما عندنا شيء، إنّما هو حديثٌ كنّا نتحدّثه بيننا، قال: فلعّلكما قد صَبوتما فقال له خَتَنُه: أرأيت يا عمر إنْ كان الحق في غير دينك! فوثب عمر على ختنه فوطِئه وطأً شديداً، فجاءت أخته فدفعتْه عن زوجها، فنفحها بيده، فأدمى وجهها، فجاهرته، فقالت: إنّ الحقّ في غير دينك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فاصنع ما بدا لك! فلما يئس قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه - وكان عمر يقرأ الخطّ - فقالت له أخته: إنك رجس، وإنّ هذا الكتاب لا يمسُّه إلاّ المطهرون، فقمْ فتوضّأ، فقام فأصاب ماء، ثم أخذ الكتاب، فقرأ ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[1] إلى قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾، فقال عمرُ: دُلّوني على محمّد، فلما سمع خَبّابٌ قول عمر، ورأى منه الرّقة، خرج

(١) سورة طه، الآيات: ١، ١٤.

من البيت، فقال: أبشِرْ يا عمر، فإنّي لأرجو أن تكون دعوةُ رسول الله ﷺ ليلَة الخميس لك، سمعته يقول: «اللهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام»[١] - قال: ورسول الله ﷺ في الدّار التي في أصْلِ الصّفَا - فانطلق عمر حتى أتى الدّار، وعلى الباب حمزة بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وناس من أهل رسول الله ﷺ، فلمّا رأى النّاس عمرَ قد أقبلَ، كأنهم وجِدوا، وقالوا: قد جاء عمر، فقال حمزة: قد جاء عمر، فإن يرد الله به خيْراً يُسْلِم، وإن يرد غير ذلك كان قتلُه علينا هيِّناً، قال: والنبي ﷺ مِنْ داخل البيت يُوحَى إليه، فسمع رسول الله ﷺ كلامَ القوم، فخرج مسرعاً حتى انتهى إلى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: ما أنت منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك - يعني من الخزي والنّكال - ما أنزل بالوليد بن المغيرة. ثم قال: اللّهم هذا عمر، اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر! فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. فكبّر أهل الدار، ومن كان على الباب، تكبيرةً سمعها مَنْ كان في المسجد من المشركين[٢].

وقد روي أن عمر كان موعوداً ومبشّراً بما وصل إليه من قبل أن يظهر أمر الإسلام. قرأت في كتاب من تصانيف أبي أحمد العسكري رحمه الله، أنّ عمر خرج عَسِيفاً مع الوليد بن المغيرة إلى الشام في تجارة للوليد، وعمر يومئذ ابن ثماني عشرة سنة، فكان يرعى للوليد إبِلَهُ، ويرفع أحماله، ويحفظ مَتَاعه، فلمّا كان بالبَلْقاء لقيَه رجلٌ من علماء الرّوم، فجعل ينظر إليه، ويطيل النظر لعمر، ثم قال: أظنّ اسمك يا غلام «عامراً» أو «عمران» أو نحو ذلك؟ قال: اسمي «عمر»، قال: اكشف عن فَخِذيك، فكشف فإذا عَلَى أحدهما شامة سوداء في قَدْر راحة الكفّ، فسأله أن يكشف عن رأسه، فكشف فإذا هو أصْلَع، فسأله أن يعتمل بيده، فاعتمل فإذا أعسر أيْسَر، فقال له: أنت ملك العرب، وحقّ مريم البتول! قال: فضحك عمر مستهزئاً، قال: أو تضحك! وحقّ مريم البتول إنك ملك العرب، وملك الروم، وملك الفرس! فتركه عمر وانصرف مستهيناً بكلامه، وكان عمر يحدّث بعد ذلك، ويقول: تبعني ذلك الروميّ وهو راكب حماراً، فلم يزل معي حتى باع الوليد متاعه، وابتاع بثمنه عِطْراً وثياباً، وقَفل إلى الحجاز، والروميّ يتبعني، لا يسألني حاجة، ويقبّل يدي كلّ يوم إذا أصبحت كما تُقبّل يد الملك، حتى خرجنا من حدود الشام، ودخلنا في أرض الحجاز راجعين إلى مكة، فودّعني ورجع. وكان الوليد يسألني عنه فلا أخبره، ولا أراه إلا هلَك، ولو كان حيًّا لشخص إلينا[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٨٣).
(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٦٨)، دون قوله: «فكبر أهل الدار... إلخ».
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١/ ١١٠ بما معناه.

ما ورد في تاريخ موت عمر

فأما تاريخ موته، فإنّ أبا لؤلؤة طعنه يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجّة من سنة ثلاث وعشرين، ودُفِن يوم الأحد صباح هلال المحرّم سنة أربع وعشرين، وكانت ولايته عشر سنين وستّة أشهر، وهو ابن ثلاث وستين في أظهر الأقوال، وقد كان قال على المِنْبر يوم جُمعة، وقد ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر: إنّي قد رأيتُ رؤيا، أظنّها لحضور أجلي، رأيت كأنّ ديكاً نقرني نَقْرتين، فقصصتُها على أسماء بنت عُمَيس، فقالت: يقتلك رجلٌ من العَجَم، وإني فكرتُ فيمن أستخلف، ثم رأيتُ أنّ الله لم يكن ليضيّع دينَه وخلافته التي بعث بها رسوله[(١)].

وروى ابنُ شهاب، قال: كان عمر لا يأذن لصبيٍّ قد احتلم في دخول المدينة، حتى كتب المغيرة، وهو على الكوفة، يذكر له غلاماً صَنَعاً عنده، ويستأذنه في دخول المدينة، ويقول: إنّ عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، إنّه حدّاد نقّاش نجّار. فأذِن له أن يرسل به إلى المدينة، وضربَ عليه المغيرة مائة دِرْهم في كلّ شهر، فجاء إلى عمر يوماً يشتكي إليه الخراج، فقال له عمر: ماذا تحسنُ من الأعمال؟ فعدّ له الأعمال التي يحسن، فقال له: ليس خراجُك بكثير في كُنْه عملك.

هذا هو الذي رواه أكثر الناس من قوله له، ومن الناس مَنْ يقول: إنّه جَهَر بكلام غليظ، واتفقوا كلُّهم على أنَّ العبد انصرف ساخطاً يتذمّر، فلبث أياماً ثم مرّ بعمر فدعاه، فقال: قد حُدّثت أنّك تقول: لو أشاء لصنعتُ رحاً تطحَنُ بالريح، فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر، ومع عمر رهط من الناس، فقال: لأصنعنّ لك رحاً يتحدّث الناس بها، فلمّا ولّى أقبل عمر على الرَّهط، فقال: ألا تسمعون إلى العبد! ما أظنّه إلا أوعدني آنفاً! فلبث لياليَ، ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خِنْجَرٍ ذي رأسين، نصابُه في وسَطه، فكمَن في زاوية من زوايا المسجد في غلَس السّحر، فلم يزل هنالك حتى جاء عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر، كما كان يفعل، فلمّا دنا منه وثبَ عليه، فطعنه ثلاثَ طعنات: إحداهنّ تحت السّرّة، قد خرقت الصّفاق - وهي التي قتلته - ثم انحاز إلى أهل المسجد، فطعن فيهم مَنْ يليه حتى طعن أحدَ عشر رجلاً سوى عمر، ثم انتحر بخِنْجره، فقال عمر حين أدركه النّزف: قولوا لعبد الرحمن بن عوف، فليصلّ بالناس، ثم غلبه النّزف فأغمِيَ عليه، فاحتُمل حتى أدخل بيته، ثم صلّى عبد الرحمن بالنّاس، قال ابن عباس: فلم أزلْ عند عمر وهو مغمًى عليه لم يزل في غَشْيةٍ واحدة، حتى أسفر، فلمّا أسفر أفاق، فنظر في وجوه مَنْ حوله، وقال: أصلّى الناس؟ فقيل: نعم، فقال: لا إسلام لمن تَرَكَ الصلاة، ثم دعا بوضوء فتوضّأ وصلّى، ثم قال: اخرج يابنَ عباس، فاسأل مَنْ قتلني؟ فجئت

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١٥، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ٥/ ٧١٥.

حتى فتحت باب الدار، فإذا النّاس مجتمعون، فقلت: مَنْ طعن أمير المؤمنين؟ قالوا: طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة، قال ابن عباس: فدخلتُ فإذا عمر ينظر إلى الباب يستأني خبرَ ما بعثني له، فقلت: يا أمير المؤمنين، زعم الناس أنه عدوّ الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وأنّه طعن رهطاً ثم قتل نفسه، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجْدة سجدها له قط، ما كانت العرب لتقتُلَني، ثم قال: أرسلوا إلى طبيب ينظر جَرْحي، فأرسلوا إلى طبيب من العرب، فسقاه نبيذاً فخرج من الجرح، فاشتبه عليهم الدم بالنبيذ، ثم دَعَوْا طبيباً آخر فسقاه لبناً، فخرج اللبن من الطعنة صَلْداً أبيض، فقال الطّبيب: اعْهَد يا أمير المؤمنين عهدَك، فقال: لقد صدقني، ولو قال غير ذلك لكذب، فبكى عليه القوم حتى أسمعوا مَنْ خارج الدار، فقال: لا تبكوا علينا، ألاَ ومَنْ كان باكياً فليخرج، فإن النبي ﷺ قال: «إن الميّت ليعذّب ببكاء أهله عليه»[1].

وروي عن عبد الله بن عمر، أنه قال: سمعتُ أبي يقول: لقد طعنني أبو لؤلؤة طعنتيْن، وما أظنّه إلا كلباً حتى طعنني الثالثة.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف طرح على أبي لؤلؤة بعد أن طعن الناس خَمِيصة كانت عليه، فلما حصل فيها نحر نفسه، فاحتزّ عبد الرحمن رأسه واجتمع البدريّون وأعيان المهاجرين والأنصار بالباب، فقال عمر لابن عباس: اخرج إليهم، فاسألهم أعن ملأٍ منكم كان هذا الذي أصابني؟ فخرج يسألهم، فقال القوم: لا والله، ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا!

وروى عبد الله بن عمر، قال: كان أبي يكتبُ إلى أمراء الجيوش: لا تجلبُوا إلينا من العلُوج أحداً جرَتْ عليه المواسي، فلمّا طعنه أبو لؤلؤة، قال: منْ بي؟ قالوا: غلام المغيرة، قال: ألم أقل لكم: لا تجلبوا إلينا من العُلوج أحداً، فغلبتموني[2]!

وروى محمد بن إسماعيل البخاريّ في صحيحه عن عمرو بن ميمون، قال: إنّي لقائم ما بيني وبين عمر إلا عبدُ الله بن عباس غداةَ أصيب، وكان إذا مرَّ بين الصَّفّين، قال: استوُوا، حتى إذا لم ير بيننا خلَلاً تقدم فكبَّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل في الرَّكْعة الأولى أو نحو ذلك في الركعة الثانية حتى يجمع الناس، فما هو إلاّ أنْ كبّر، فسمعته يقول: قتلني - أو أكلني - الكلب، وذلك حين طعنه العِلْجُ بسكّين ذات طرفين، لا يمرُّ على أحد يميناً ولا شمالاً إلا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (١٢٨٨)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: يعذب الميت ببكاء أهله (٩٢٧)، والترمذي في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في كراهية البكاء على الميت (١٠٠٢)، والنسائي في كتاب: الجنائز، باب: النهي عن البكاء على الميت (١٨٤٨).

(٢) أخرجه ابن شبة النمري في تاريخ المدينة: ٣/ ٨٩٣.

طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم ستّة، فلمّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين طرح عليه بُرْنساً، فلما ظنّ العِلْج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر بيده عبد الرحمن بن عوف، فقدّمه، فمن يلي عمر، فقد رأى الذي رأى، وأمّا نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر، فهم يقولون: سبحان الله! فصلّى عبد الرحمن صلاة خفيفةً، فلمّا انصرفوا قال: يابن عباس، انْظُر مَنْ قتلني؟ فجال ساعةً، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصَّنَع! قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرتُ به معروفاً، الحمد لله الّذي لم يجعل منيّتي بيد رجل يدّعي الإسلام، وقد كنت أنت وأبوك تحبّان أن يكثر العُلوج - وكان العباس أكثرهم رقيقاً - فقال: إن شئت فعلنا، أي قتلناهم، قال: كذبت بعد أن تكلّموا بلسانكم وصلّوْا قِبْلتكم، وحجّوا حجكم! فاحتُمِل إلى بيته، وانطلقنا معه، وكأنّ الناس لم تضبهم مصيبة قبلَ يومئذ، فقائل. يقول: لا بأس عليه، وقائل يقول: أخاف عليه، فأُتِيَ بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أُتيَ بلَبَن فشربه فخرج من جَوْفه، فعلموا أنه ميّت، فدخل الناس يثنون عليه، وجاء [رجل] شابٌّ، فقال: أبشر يا أميرَ المؤمنين ببشرى الله، لك صحبة برسول الله وقدمٌ في الإسلام ما قد علمت، ثم ولِّيت فعدلْت، ثم الشهادة. فقال عمر: وددت أنّ ذلك كلّه كان كفافاً، لا عليّ ولا لي، فلمّا أدبر إذا رداؤه يمسّ الأرض، فقال: ردُّوا عليّ الغلام، فردوه، فقال: يابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك، وأتْقَى لربك، يا عبد الله بن عمر، انظر ما عليّ من دَيْن، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، فقال: إن وَفَى به مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلاّ فَسَلْ في بني عديّ بن كعب، فإن لم تَفِ به أموالهم، فسلْ في قريش ولا تعدُهم إلى غيرهم، وأدّ عنّي هذا المال، انطلق إلى عائشة، فقل لها: يقرأ عليك السّلام عمر - ولا تقل «أمير المؤمنين»، فإني اليومَ لستُ للمؤمنين أميراً - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفَن مع صاحبيه، فمضى وسلّم، واستأذنَ ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر السّلام ويستأذن أن يدفَن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي - يعني الموضع - ولأوثرنّه اليوم على نفسي. فلمّا أقبل قيل: هذا عبد الله قد جاء، قال: ارفعوني، فأسندوه إلى رجل منهم، قال: يا عبد الله ما لديك؟ قال: الذي تحبّ يا أميرَ المؤمنين، قد أذنتْ، قال: الحمد لله، ما كان شيء أهم إليّ من ذلك، إذا أنا قبِضت فاحملني، ثم سلِّم عليها، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإنْ أذنَتْ لي فأدخلوني، وإنْ ردّتني فردُّوني إلى مقابر المسلمين، وادفنوني بين المسلمين.

وجاءت ابنتُه حفصة، والنّساء معها، قال: فلمّا رأيناها قُمْنا، فولجت عليه فبكتْ عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجتْ بيتاً داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من البيت الدّاخل فقال: أوصِ يا أمير المؤمنين واستخلِفْ، فقال: ما أجدُ أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو قال: الرهط - الّذين توفّيَ رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمَّى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد

الرحمن، وقال: يَشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له - فإن أصابت الإمارة سعداً، فهو أهلٌ لذلك، وإلاّ فليستعِنْ به أيّكم أُمِّر، فإني لم أعزِلْه عن عَجْز ولا عن خيانة، ثم قال: أوصِي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقّهم، ويحفظ لهم حُرْمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوؤوا الدّار والإيمان من قبلهم، أن يقبَل من محسنهم وأن يعفوَ عن مسيئهم، وأوصيه بأهْلِ الأمصار خيراً، فإنّهم رِدْء الإسلام وجباة الأموال، وغَيْظ العدوّ، الاّ يأخذ منهم إلا فضلهم، عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنّهم أصل العرب، ومادّة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويردّ على فقرائهم، وأوصيه بذمّة الله وذمّة رسوله أن يوفي لهم بعدهم، وأن يقاتل مَنْ وراءهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم.

قال: فلما قبِض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلّم عبد الله بن عمر، وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، فقالت: أدخلوه، فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه.

وقال ابنُ عباس: أنا أوّل مَنْ أتى عمر حين طُعِن، فقال: احفظ عنّي ثلاثاً، فإنّي أخاف ألاّ يدركَني الناس، أمّا أنا فلم أقض في الكلالة، ولم أستخلف على الناس، وكلّ مملوك لي عتيق، فقلت له: أبشر بالجنة، صاحبتَ رسول الله ﷺ فأطلت صحبتَه، ووليت أمر المسلمين فقويت عليه، وأدّيت الأمانة.

قال: أما تبشيرك لي بالجنّة، فوالله الذي لا إله إلا هو، لو أن لي الدنيا بما فيها لافتديت به من هَوْل ما أمامي قبل أن أعلم ما الخبر، وأمّا ما ذكرت من أمر المسلمين فلوددِتُ أنّ ذلك كان كَفافاً لا عليّ ولا لي، وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ فهو ذلك.

وروى معمر، عن الزهريّ، عن سالم عن عبد الله، قال: دخلتُ على أبي، فقلت: سمعتُ الناس يقولون مقالة - وآليت أنْ أقولها لك - زعموا أنك غير مستخلف، وأنه لو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاءك وتركها رأيت أنه قد ضيّع، فرعاية الناس أشدّ، فوضع رأسه ثم رفعه، فقال: إن الله تعالى يحفظ دينَه، إن لم أستخلِف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلِفْ، وإن استخلفتُ فإن أبا بكر قد استخلف. فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله وأبا بكر، فعلمت أنه لم يكن يعدِل برسول الله ﷺ أحداً، وأنه غير مستخلِف.

وروي أنه قال: وقد أذِنَتْ له عائشة في أن يدفن في بيتها: إذا متّ فاستأذنوها مرّةً ثانية، فإن أذنت، وإلا فاتركوها، فإنّي أخشى أن تكونَ أذنت لسلطاني، فاستأذنوها بعد موته فأذنت.

وروى عمر بن ميمون، قال: لما طعِن عمر، دخل عليه كعب الأحبار، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن

رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[1]، قد أنبأتك أنك شهيد، فقال: من أين لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب!

وروى ابنُ عبّاس، قال: لما طُعِن عمر وجئته بخبر أبي لؤلؤة أتيته والبيت ملآن، فكرهت أن أتخطّى رقابهم - وكنت حديث السنّ - فجلست وهو مسجًّى، وجاء كعب الأحبار، وقال: لئن دعا أمير المؤمنين ليبقيَه الله لهذه الأمّة حتى يفعل فيها كذا وكذا! حتى ذكر المنافقين فيمن ذكر، فقلت: أبلغه ما تقول: قال: ما قلت إلا وأنا أريد أن تبلغه، فتشجّعت وقمت، فتخطّيت رقابَهم، حتى جلست عند رأسه، وقلت: إنّك أرسلتني بكذا، إنّ عبد المغيرة قتلك وأصاب معك ثلاثة عشر إنساناً، وإن كعباً ها هنا وهو يحلف بكذا، فقال: ادعو إليّ كعباً، فدُعِيَ فقال: ما تقول؟ قال: أقول كذا، قال: لا والله لا أدعو، ولكن شَقِي عمر إن لم يغفر الله له.

وروى المِسْوَر بن مخرَمة، أن عمر لما طعِن أُغمِيَ عليه طويلاً، فقيل إنكم لم توقظوه بشيء مثل الصّلاة إن كانت به حياة! فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، الصلاة قد صُلّيت! فانتبه، فقال: الصّلاة، لاها الله لا أتركها، لاحظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة! فصلّى، وإن جرحه لينثعب[2] دماً.

وروى المِسْور بن مخرمة، أيضاً، قال: لما طُعِن عمر، جعل يألم ويجزَع، فقال ابن عباس: ولا وكلّ ذلك يا أمير المؤمنين، لقد صحبت رسول الله ﷺ، فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، وصحبت أبا بكر وأحسنت صحبتَه، وفارقك وهو عنك راضٍ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت إليهم وفارقتهم وهم عنك راضون.

قال: أمّا ما ذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ وأبي بكر فذلك، ممّا مَنَّ الله به عليّ، وأما ما تَرى من جزعي فوالله لو أنّ لي بما في الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه. وفي رواية لافتديت به من هو المطلع. وفي رواية: المغرور مَنْ غررتموه! لو أنّ لي ما على ظهرها من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع. وفي رواية: في الإمارة عليّ تثني يابن عباس! قلتُ: وفي غيرها، قال: والذي نفسي بيده لوددت أنّي خرجت منها كما دخلت فيها، لا حَرَج ولا وزر. وفي رواية: لو كان لي ما طلعت عليه الشمس لافتديتُ به من كَرْب ساعة - يعني الموت - كيف ولم أرد النّاس بعدا! وفي رواية: لو أن لي الدنيا وما فيها لافتديت به من هَوْل ما أمامي، قبل أن أعلم ما الخبر.

قال ابن عباس: فسمعنا صوت أمّ كلثوم: واعمراه! وكان معها نسوة يبكِين، فارتجّ البيت

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٧.

(٢) ثَعَب الماء والدم ونحوهما يثعبه ثعباً فَجّرَه، فانثعب كما ينثعب الدم من الأنف، لسان العرب، مادة (ثعب).

بكاء، فقال عمر: ويلمّ عمر، إن الله لم يغفر له! فقلت: والله إني لأرجو ألاّ تراها إلا مقدار ما قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾(١)، إن كنتَ - ما علمنا - لأميرَ المؤمنين، وسيّد المسلمين، تقضِي بالكتاب، وتقسم بالسويّة.

فأعجبه قولي، فاستوى جالساً فقال: أتشهد لي بهذا يابن عباس؟ فكَعَعْت - أي جبنت - فضرب عليّ عليه السلام بين كتفي، وقال: اشهد. وفي رواية لِمَ تجزع يا أمير المؤمنين؟ فوالله لقد كان إسلامك عزًّا وإمارتك فتحاً، ولقد ملأت الأرض عدلاً فقال: أتشهد لي بذلك يابن عباس؟ قال: فكأنه كَرِه الشهادة، فتوقّف، فقال له عليّ عليه السلام: قل: نعم، وأنا معك، فقال: نعم.

وفي رواية أنه قال: مسست جلده وهو ملقّى، فقلت: جلد لا تمسُّه النّار أبداً، فنظر إليّ نظرة جعلت أرثي منها، قَال: وما علمك بذلك؟ قلت: صحبت رسول الله صلى الله عليه وآله فأحسنتَ صحبتَه. . . الحديث، فقال: لو أنّ لي ما في الأرض لافتديت به من عذاب الله قبل أن ألقاه أو أراه.

وفي رواية، قال: فأنكرنا الصّوت، وإذا عبد الرحمن بن عوف، وقيل: طُعِن أمير المؤمنين. فانصرف الناس وهو في دمه مسجًّى، لم يصلّ الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين: الصّلاة! فرفع رأسَه، وقال: لاها الله إذنْ، لا حظّ لامرىءٍ في الإسلام ضيَّع صلاته. ثم وثب ليقوم فانثَعب جرحُه دماً، فقال: هاتوا لي عمامة، فعصب بها جُرحه، ثم صلّى وذكر، ثم التفت إلى ابنه عبد الله، وقال: ضع خدِّي إلى الأرض يا عبد الله، قال عبد الله: فلم أعْجْ بها، وظننت أنّها اختلاس من عقله، فقالها مرة أخرى: ضع خَدِّي إلى الأرض يا بنيّ فلم أفعل، فقال الثالثة: ضَعْ خدِّي إلى الأرض، لا أمّ لك! فعرفت أنه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه هو إلاّ ما به من الغَلبة، فوضعت خدَّه إلى الأرض، حتى نظرت إلى أطراف شعر لحيته خارجةً من أضعاف التراب، وبكى حتى نظرت إلى الطّين قد لصق بعينه، فأصغيت أذني لأسمع ما يقول، فسمعته يقول: يا ويلَ عمر! وويل أمّ عمر، إن لم يتجاوز الله عنه!

وقد جاء في رواية، أنّ علياً عليه السلام جاء حتى وقف عليه، فقال: ما أحدٌ أحبَّ إليّ أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجّى!

ورُوي عن حفصة أم المؤمنين، قالت: سمعت أبي يقول في دعائه: اللهمَّ قتلاً في سبيلك، ووفاة في بلد نبيّك! قلت: وأنّى يكون هذا؟ قال: يأتي به الله إذا شاء.

ويروَى أن كعباً كان يقول له: نجدُك في كتبنا تموت شهيداً، فيقول: كيف لي بالشهادة وأنا في جزيرة العرب!

وروى المِقْدام بن مَعْدِيكرب، قال: لما أصيب عمر دخلتْ عليه حفصة ابنُته، فنادتْ: يا

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

صاحبَ الله، ويا صهرَ رسول الله، ويا أميرَ المؤمنين! فقال لابنه عبد الله: أجلِسْني، فلا صبْرَ لي على ما أسمع، فأسنده إلى صدره، فقال لها: إنّي أحرِّج عليك بما لِي عليكِ من الحقّ أن تندبيني بعد مجلسك هذا، فأما عينك فلنْ أملكَها، إنه ليس من ميّت يُندب عليه بما ليس فيه، إلا الملائكة تمقته!

وروى الأحنف، قال: سمعت عمر يقول: إن قريشاً رؤوس الناس، ليس أحد منهم يدخل من باب إلا دخل معه طائفة من الناس، فلما أصيب عمر أمر صُهيباً أن يصلّيَ بالناس ثلاثة أيام ويُطعمهم، حتى يجتمعوا على رجلٍ، فلما وُضِعت الموائد كفَّ الناس عن الطعام، فقال العباس بن عبد المطلب: أيّها الناس، إنّ رسول الله ﷺ مات فأكلْنا بعده، ومات أبو بكر فأكلْنا بعده، وإنه لا بدّ للناس من الأكل، ثم مدَّ يده فأكل من الطعام، فعرفت قول عمر.

ويروي كثير من الناس الشّعر المذكور في الحماسة، ويزعم أن هاتفاً من الجنّ هتف به وهو:

جُزِيتَ عن الإسلام خيراً وباركتْ ... يدُ الله في ذاك الأديم الممزَّقِ
فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ ... ليدرك ما قدّمت بالأمس يُسْبَقِ
قضيتَ أموراً ثم غادرت بعدَهَا ... بوائقَ في أكمامها لم تُفَتَّقِ
أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ ... له الأرض تهتزّ العضاه بأسؤُقِ!
وما كنتُ أخشى أن تكون وفاتُه ... بكَفَّيْ سَبَنْتَى أزرق العين مُطْرِقِ
تظلّ الحَصان البِكر يُلْقِي جنينَها ... نَثَا خبرٍ فوق المطيّ مُعلّقِ

والأكثرون يروونها لمزرّد أخي الشّماخ، ومنهم من يرويها للشماخ نفسه.

عشرة طعون في عمر والرد عليها

ونذكر في هذا الموضع ما طعن به على عمر في المُغني من المطاعن، وما اعترض به الشريف المرتضى على قاضي القضاة، وما أجاب به قاضي القضاة، في كتابه المعروف بالشافي، ونذكر ما عندنا في البعض من ذلك.

الطعن الأول: قال قاضي القضاة: أول ما طعِن به عليه قول من قال: إنّه بلغ من قلّة علمه أنه لم يعلم أنّ الموت يجوز على النبي ﷺ، وأنه أسوة الأنبياء في ذلك، حتى قال: والله ما مات محمد، ولا يموت حتى تُقطع أيدي رجال وأرجلهم، فلما تلا عليه أبو بكر قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ

(١) سورة المؤمنين، الآية: ١٥.

قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾[(١)] الآية، قال: أيقنت بوفاته، وكأنّي لم أسمع هذه الآية، فلو كان يحفظ القرآن أو يفكّر فيه لما قال ذلك، وهذا يدلّ على بعده من حفظ القرآن وتلاوته، ومَنْ هذا حاله لا يجوز أن يكون إماماً.

قال قاضي القضاة: وهذا لا يصحّ لأنّه قد روي عنه أنه قال: كيف يموت، وقد قال الله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[(٢)] وقال: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾[(٣)]، ولذلك نفى موتَه عليه السلام، لأنّه حمَل الآية على أنها خبر عنه في حال حياته حتى قال له أبو بكر: إنّ الله وعده بذلك وسيفعله، وتلا عليه ما تلا، فأيقن عند ذلك بموته، وإنما ظنّ أن موته يتأخّرُ عن ذلك الوقت، لا أنّه منعٌ من موته.

ثم سأل قاضي القضاة نفسَه، فقال: فإنْ قيل: فلم قال لأبي بكر عند قراءة الآية: كأنّي لم أسمعْها، ووصف نفسه بأنه أيقن بالوفاة!

وأجاب بأن قال: لمّا كان الوجه في ظنّه ما أزال أبو بكر الشُّبهة فيه، جاز أن يتيقّن.

ثم سأل نفسه عن سبب يقينه فيما لا يُعلم إلا بالمشاهدة.

وأجاب بأنّ قرينة الحال عند سماع الخبر أفادته اليقين، ولو لم يكن في ذلك إلاّ خبر أبي بكر وادّعاؤه لذلك، والناس مجتمعون، لحصل اليقين.

وقوله: كأنّي لم أقرأ هذه الآية، أو لم أسمعها، تنبيه على ذهوله عن الاستدلال بها، لا أنّه على الحقيقة لم يقرأها ولم يسمعها، ولا يجب فيمن ذهب عن بعض أحكام الكتاب ألا يعرف القرآن، لأن ذلك لو دلّ، لوجب ألا يحفظ القرآن إلا من يعرف جميع أحكامه. ثم ذكر أنّ حفظ القرآن كلّه غير واجب، ولا يقدح الإخلال به في الفضل.

وحكي عن الشيخ أبي عليّ أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يُحط علمُه بجميع الأحكام، ولم يمنع ذلك من فضله، واستدلّ بما روي من قوله: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله حديثاً نفعني الله به ما شاء أنْ ينفعني، وإذا حدّثني غيره أحلفته، فإن حلف لي صدّقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر. وذكر أنه لم يعرف أيّ موضع يدفن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى رجع إلى ما رواه أبو بكر، وذكر قصة الزبير في موالي صفيّة، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يأخذ ميراثَهم، كما أن عليه أن يحمل عقلَهم حتى أخبره عمر بخلاف ذلك من أنّ الميراث للأب، والعقل على العصبة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤. (٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

ثم سأل نفسه فقال: كيف يجوز ما ذكرتم على أمير المؤمنين عليه السلام، مع قوله: «سَلُوني قبل أن تفقدوني»، وقوله: «إن ها هنا علماً جمًّا»، يومىء إلى قلبه، وقوله: «لو ثنيت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزَّبور بزبورهم، وبين أهل القرآن بقرآنهم». وقوله: «كنت إذا سئلت أجبت وإذا سكت ابتديت».

وأجاب عن ذلك بأنّ هذا إنّما يدلُّ على عظم المحلّ في العلْم، من غير أن يدلّ على الإحاطة بالجميع.

وحكي عن أبي عليّ استبعاده ما روي من قوله: «لو ثنيت الوسادة»، قال: لأنه لا يجوز أن يصف نفسَه بأنّه يحكم بما لا يجوز، ومعلوم أنه عليه السلام لا يحكم بين الجميع إلا بالقرآن، ثنيت له الوسادة أو لم تُثْن، وهذا يدلّ على أن الخبر موضوع.

فاعترض الشريف المرتضَى، فقال: ليس يخلُو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كلّ حال، والاعتقاد بأنّ الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه، أو يكون منكراً لموته في تلك الحال، من حيث لم يُظْهر دينَه على الدّين كله، وما أشبه ذلك مما قال صاحب الكتاب: إنّها كانتْ شبهة في تأخر موته عن تلك الحال.

فإن كان الوجه الأوّل، فهو ممّا لا يجوز خلاف العقلاء في مثله، والعلم بجواز الموت على سائر البشر لا يشكّ فيه عاقل، والعلم من دينه عليه السلام بأنّه سيموت كما مات مَن قبله ضروريّ، وليس يحتاج في مثل هذا إلى الآيات التي تلاها أبو بكر، من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[١]، وما أشبهها.

وإن كان خلافه على الوجه الثاني، تأوّل ما فيه أنّ هذا الخلاف لا يليقِ بما احتجّ به أبو بكر من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، لأنه لم ينكر على هذا جواز الموت، وإنما خالف في تقدّمه، وقد كان يجب أن يقول له: وأي حُجّة في هذه الآيات عَلَى مَنْ جوّز عليه صلى الله عليه وآله وسلم الموت في المستقبل، وأنكره في هذه الحال!

وبعد، فكيف دخلت الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق! ومن أين زعم أنه لا يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم! وكيف حمل معنى قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[٢] وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[٣] على أنّ ذلك لا يكون في المستقبل بعد

---

(١) سورة المؤمنين، الآية: ١٥. (٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.

الوفاة! وكيف لم يخطر هذا إلاّ لعمر وحده، ومعلوم أنّ ضعف الشبهة إنما يكون من ضعف الفكرة، وقلّة التأمل والبصيرة! وكيف لم يوقن بموته لمّا رأى ما عليه أهل الإسلام من اعتقاد موته، وما ركبهم من الحزن والكآبة لفقده! وهلاّ دفع بهذا اليقين ذلك التأويل البعيد، فلم يحتج إلى مُوقف ومعرِّف! وقد كان يجب - إن كانت هذه شبهة - أن يقول في حال مرض رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد رأى جزع أهله وأصحابه وخوفهم عليه من الوفاة، حتى يقول أسامة بن زيد معتذراً من تباطئه عن الخروج في الجيش الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرّر ويردّد الأمر حينئذ بتنفيذه: لم أكن لأسأل عنكَ الرّكب: ما هذا الجزع والهلع، وقد أمنكم الله من موته بكذا في وجه كذا، وليس هذا من أحكام الكتاب التي يعذر من لا يعرفها على ما ظنّه صاحب الكتاب.

قلت: الذي قرأناه وَرَوَيْناه من كتب التواريخ، يدلّ على أن عمر أنكر موت رسول الله صلى الله عليه وآله من الوجهين المذكورين، أنكر أوّلاً أنْ يموت إلى يوم القيامة، واعتقد عمر أنه يعمّر كما يعتقد كثير من الناس في الخِضر، فلمّا حاجّه أبو بكر بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، وبقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾[2]. رجع عن ذلك الاعتقاد.

وليس يَرِدُ على هذا ما اعترض به المرتضَى، لأن عمر ما كان يعتقد استحالة الموت عليه كاستحالة الموت على الباريء تعالى - أعني الاستحالة الذاتيّة - بل اعتقد استمرار حياته إلى يوم القيامة، مع كون الموت جائزاً في العقل عليه، ولا تناقض في ذلك، فإنّ إبليس يبقى حيًّا إلى يوم القيامة، مع كونِ موته جائزاً في العقل، وما أورده أبو بكر عليه لازم على أن يكون نفيه للموت على هذا أوجه.

وأما الوجه الثاني، فهو أنّه لمّا دفعه أبو بكر عن ذلك الاعتقاد وقف مع شبهة أخرى، اقتضت عنده أنّ موته يتأخر، وإن لم يكن إلى يوم القيامة، وذلك أنّه تأوّل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[3]، فجعل الضمير عائداً على الرسول لا على الدين، وقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يظهر بعدُ على سائر الأديان، فوجب أن تستمرّ حياته إلى أن يظهر على الأديان بمقتضى الوعد الذي لا يجوز عليه الخلف والكذب، فحاجّه أبو بكر من هذا المقام، فقال له: إنّما أراد: ليظهر دينَه وسيظهِره فيما بعد، ولم يقل: «ليظهره الآن»، فمن ثَمّ قال له: ولو أراد ليظهر الرسولَ صلى الله عليه وآله على الدين كلّه لكان الجواب واحداً، لأنّه إذا ظهر دينه فقد أظهره هو.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة صَ، الآية: ٣٣.

فأمّا قولُ المرتضَى رحمه الله: «وكيف دخلت هذه الشُّبْهة على عمر من بين الخلق؟»، فهكذا تكون الخواطر والشُّبَه! والاعتقادات تسبق إلى ذهن واحد دون غيره، وكيف دخلت الشُّبهة على جماعة منعوا الزكاة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(1) دون غيرهم من قبائل العرب! وكيف دخلت الشبهة على أصحاب الجمل وصِفِّين دون غيرهم! وكيف دخلت الشبهة عَلَى خوارج النّهْروان دون غيرهم! وهذا باب واسع.

فأمّا قوله: «ومِنْ أين زعم أنه لا يموت حتى تُقطع أيدي رجال وأرجلهم»، فإنّ الذي ذكره المؤرخون أنه قال: ما مات رسول الله ﷺ، وإنّما غاب عنّا كما غاب موسى عن قومه، وسيعود فتُقطع أيدِي رجال وأرجلهم ممّن أرجف بموته، وهذه الرواية تخالف ما ذكره المرتضَى.

فأما قوله: وكيف حمل معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(2)، وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(3) على أنّ ذلك لا يكون في المستقبل! فقد بينّا الشّبهة الداخلة عليه في ذلك، وكونه ظنّ أن ذلك، يكون معجّلاً على الفور، وكذلك قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(4)، فإنه ظنّ أن هذا العموم يدخل فيه رسول الله ﷺ، لأنه سيّد المؤمنين، وسيّد الصالحين، أو أنّه لفظٌ عام، والمراد به رسول الله وحده، كما ورد في كثير من آيات القرآن مثل ذلك، فظنّ أنّ هذا الاستخلاف في جميع الأرض، وتبديل الخوف بالأمن إنّما هو على الفوز لا على التراخي، وليست هذه الشبهة بضعيفة جدًّا كما ظنّ المرتضى، بل هي موضع نظر.

فأما قوله: «كيف لم يؤمن بموته لما رأى من كآبة النّاس وحزنهم!» فلأنّ النّاس يبنون الأمر على الظّاهر، وعمر نظر في أمرٍ باطن دقيق، فاعتقد أن الرسول لم يمُتْ، وإنما ألقى شبهَه على غيره، كما ألقي شبَه عيسى على غيره، فصلِبَ، وعيسى قد رفع ولم يصلب.

واعلم أنّ أوّل مَنْ سنّ لأهلِ الغيبة من الشيعة القول بأنّ الإمام لم يمُت ولم يقتل، وإنْ كان في الظاهر وفي مرأى العين قد قتل أو مات، إنّما هو عمر، ولقد كان يجب على المرتضَى وطائفته أن يشكروه على ما أسّس لهم من هذا الاعتقاد.

فأمّا قوله: فهلاّ قال في مرض رسول الله ﷺ لمّا رأى جزعهم لموته: «قد أمّنكم الله من موته»! فغير لازم، لأنّ الشبهة لا تجب أن تخطر بالبال في كلّ الأوقات، فلعلّه قد كان في ذلك

(1) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(2) سورة صّ، الآية: ٣٣.
(3) سورة النور، الآية: ٥٥.
(4) سورة النور، الآية: ٥٥.

الوقت غافلاً عنها مشغول الذهن بغيرها، ولو صحّ للمرتضى هذا لوجب أن يدفع ويبطل كلّ ما يتجدّد ويطرأ على الناس من الشبهة في المذاهب والآراء، فنقول: كيف طرأت عليهم هذه الشبهات الآن، ولم تطرأ عليهم من قبل؟ وهذا من اعتراضات المرتضَى الضعيفة، على أنا قد ذكرنا نحن في الجزء الأول من هذا الكتاب ما قصده عمر بقوله: «إنّ رسول الله لم يمُتْ»، وقلنا فيه قولاً شافياً لم نسبَق إليه، فليعاوَد.

ثم قال المرتضَى: فأمّا ما رُوِيَ عن أمير المؤمنين عليه السلام من خَبر الاستحلاف في الأخبار، فلا يدلّ على عدم عِلْم أمير المؤمنين بالحكم، لأنه يجوز أن يكون استحلافه ليرهب المخبِر ويخوّفه من الكذب على النبي صلى الله عليه وآله، لأنّ العلم بصحّة الحكم الذي يتضمّنه الخبر لا يقتضي صدق المخبر، وأيضاً فلا تاريخ لهذاالحديث، ويمكن أن يكون استحلافه عليه السلام للرّواة إنما كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي تلك الحال لم يكن محيطاً بجميع الأحكام.

فأمّا حديثُ الدّفن وإدخاله في باب أحكام الدين التي يجب معرفتها فطريف، وقد يجوز أن يكون أميرُ المؤمنين عليه السلام سمِع من النبي صلى الله عليه وآله في باب الدّفن مثل ما سمعه أبو بكر، وكان عازماً على العمل به، حتى روى أبو بكر ما رواه فعمِل بما كان يعلمه لا من طريق أبي بكر، وظنّ الناس أنّ العمل لأجله. ويجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله خيّر وصيّه عليه السلام في موضع دفنه، ولم يعيّن موضعاً بعينه، فلمّا روى أبو بكر ما رواه رأى موافقته، فليس في هذا دلالة على أنّه عليه السلام استفاد حكماً لم يكن عنده.

وأمّا موالي صفيّة فحكم الله فيهم ما أفتى به أمير المؤمنين عليه السلام، وليس سكوته حيث سكت عند عمر رجوعاً عمّا أفتى به، ولكنه كسكوته عن كثير من الحقّ تقيَّةً ومداراة للقوم.

وأما قوله عليه السلام: «سلُونِي قبل أن تفقدوني»، وقوله: «إنّ ها هنا لعِلْماً جَمًّا»، إلى غير ذلك، فإنه لا يدلّ على عِظَم المحلّ في العلم فقط، على ما ظنّه صاحب الكتاب، بل هو قول واثق بنفسه، آمن من أن يُسأل عمّا لا يعلمه، وكيف يجوز أن يقول مثله على رؤوس الأشهاد وظهور المنابر: «سلوني قبل أن تفقدوني»، وهو يعلم أنّ كثيراً من أحكام الدين يعزب عنه! وأين كان أعداؤه والمنتهزون لفرصته وزلّته عن سؤاله عن مشكل المسائل، وغوامض الأحكام! والأمر في هذا ظاهر.

فأمّا استبعاد أبي عليّ لما روي عنه عليه السلام من قوله: «لو ثُنيت لي الوسادة» للوجه الذي ظنّه فهو البعيد، فإنه لم يفطن لغرضه عليه السلام، وإنما أراد: أنّي كنت أقاضيهم إلى كتبهم الدالة على البشارة بنبيّنا صلى الله عليه وآله وصحّة شرعه، فأكون حاكماً حينئذ عليهم بما تقتضيه كتبهم من هذه الشريعة وأحكام هذا القرآن، وهذا من جليل الأغراض وعظيمها.

الطعن الثاني: أنه أَمَرَ برجْم حاملٍ حتّى نبّهه معاذ، وقال: إن يكن لك عليها سبيلٌ فلا سبيلَ لك على ما في بطنها، فرجع عن حكمه، وقال: لولا مُعاذ لهلك عمر. ومَنْ يجهل هذا القدر لا يجوز أن يكون إماماً، لأنه يجري مجرى أصول الشرع، بل العقل يدلّ عليه، لأنّ الرّجم عقوبة، ولا يجوز أن يعاقب من لا يستحقّ.

اعتذر قاضي القضاة عن هذا، فقال: إنّه ليس في الخبَر أنه أمر برجْمها، مع علمه بأنّها حامل، لأنه ليس ممّن يخفى عليه هذا القدر، وهو أنّ الحامل لا تُرْجَم حتى تضع، وإنما ثبت عنده زناها، فأمر برجمها على الظاهر، وإنما قال ما قال في معاذ لأنه نبّهه على أنها حامل.

ثم سأل نفسه فقال: فإن قيل: إذا لم تكن منه معصية، فكيف يهلك لولا مُعاذ! وأجاب بأنه لم يرد: لهلك من جهة العذاب، وإنّما أراد: أنه كان يجري بقوله قتل من لا يستحقّ القتل. ويجوز أن يريد بذلك تقصيره في تعرّف حالها، لأنّ ذلك لا يمتنع أن يكون بخطيئة وإن صغرت.

اعترض المرتضَى على هذا الاعتذار، فقال: لو كان الأمر على ما ظننته لم يكن تنبيه معاذ له على هذا الوجه، بل كان يجب أن ينبّهه بأن يقول له: هي حامل، ولا يقول له: إن كان لك سبيلٌ عليها فلا سبيل لك على ما في بطنها، لأنّ هذا قول من عنده أنه أمر برجمها مع العلم بحملها، وأقلّ ما يجب لو كان الأمر كما ظنّه صاحب الكتاب أن يقول لمعاذ: ما ذهب عليّ أن الحامل لا تُرجم، وإنما أمَرْت برجمها لفقد علمي بحمْلها، فكان ينْفي بهذا القول عن نفسه الشبهة! وفي إمساكه عنه مع شدّة الحاجة إليه دليل على صحّة قولنا. وقد كان يجب أيضاً أن يسأل الحمْل، لأنه أحدُ الموانع من الرَّجْم، فإذا علم انتفاءه وارتفاعه أمَرَ بالرجم، وصاحب الكتاب قد اعترف بأن ترك المسألة عن ذلك تقصير وخطيئة، وادعى أنها صغيرة، ومن أين له ذلك ولا دليل يدلّ عنده في غير الأنبياء عليهم السلام أن معصيةً بعينها صغيرة.

فأمّا إقراره بالهلاك لولا تنبيه مُعاذ، فإنه يقتضي التعظيم والتفخيم لشأن الفعل، ولا يليق ذلك إلا بالتقصير الواقع، إمّا في الأمر برجمها مع العلم بأنّها حامل، أو ترك البحث عن ذلك والمسألة عنه، وأيّ لوم عليه في أن يجري بقوله قتل من لا يستحق القتل إذا لم يكن ذلك عن تفريط منه ولا تقصير!

قلت: أمّا ظاهر لفظ مُعاذ فيشعر بما قاله المرتضَى، ولم يمتنع أن يكون عمر لم يعلَم أنّها حامل وأنّ معاذاً قد كان من الأدب أن يقول له: حامل يا أمير المؤمنين، فعدَل عن هذا اللفظ بمقتضى أخلاق العرب وخشونتهم، فقال له: إنْ كان لك عليها سبيل فلا سبيل لك عَلَى ما في بطنها، فنبّهه على العلة والحكم معاً، وكان الأدب أن ينبّهه على العلّة فقط.

وأمّا عدول عمر عن أن يقول: أنا أعلم أنّ الحامل لا تُرْجَم، وإنما أمرت برجمها، لأني لم أعلم أنها حامل، فلأنه إنما يجب أن يقول مثل هذا مَنْ يخاف من اضطراب حاله، أو نقصان ناموسه وقاعدته إن لم يقله، وعمر كان أثبتَ قدماً في ولايته، وأشد تمكّناً من أن يحتاج إلى الاعتذار بمثل هذا.

وأما قول المرتضَى: كان يجب أن يَسأل عن الحمْل، لأنه أحدُ الموانع من الرَّجْم، فكلام صحيح لازم، ولا ريب أنّ ترك السؤال عن ذلك نوع من الخطأ، ولكن المرتضى قد ظلم قاضي القضاة، لأنه زعم أنه ادّعى أنّ ذلك صغيرة، ثم أنكر عليه ذلك، ومن أين له ذلك! وأيّ دليل دلّ على أنّ هذه المعصية صغيرة، وقاضي القضاة ما ادّعى أنّ ذلك صغيرة! بل قال: لا يمتنع أن يكون ذلك خطيئة وإن صَغُرت. والعجب أنّه حكَى لفظ قاضي القضاة بهذه الصورة، ثم قال: إنّه ادّعى أنّها صغيرة، وبين قول القائل: «لا يمتنع أن يكون صغيرة»، وقوله: «هي صغيرة» لا محالة فرق عظيم.

وأما قول عمر: لولا مُعاذ لهلَك عمر، فإنّ ظاهر اللفظ يُشعِر بما يريده المرتضَى، وينحو إليه، ولا يمتنع أن يكون المقصود به ما ذكره قاضي القضاة وإن كان مرجوحاً، فإن القائل خطأ قد يقول: هلكت، ليس يعني به العقاب يوم القيامة، بل لوم النّاس وتعنيفهم إيّاه على ترك الاحتراس وإهمال التثبّت.

الطعن الثالث: خبر المجنونة التي أمر برجْمها، فنبّهه أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: إنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يُفِيق. فقال: لولا عليّ لهلكَ عمر! وهذا يدلّ على أنّه لم يكن يعرف الظّاهِرَ من الشريعة.

أجاب قاضي القضاة فقال: ليس في الخَبر أنّه عرف جنونها، فيجوز أن يكون الذي نبّه عليه هو جنونها دون الحكم، لأنه كان يعلم أنّ الحدّ لا يقام في حال الجنون، وإنما قال: لولا عليّ لهلك عمر، لا من جهة المعصية والإثم، لكن لأنّ حكمه لو نفذ لعظُم غمُّه، ويقال في شدّة الغمّ: إنه هلاك، كما يقال في الفقر وغيره، وذلك مبالغة منه لما كان يلحقه من الغمّ الذي زال بهذا التنبيه. على أنّ هذا الوجه ممّا لا يمتنع في الشرع أن يكون صحيحاً، وأن يقال: إذا كانت مستحقّة للحدّ، فإقامته عليها تصح، وإن لم يكن لها عقل، لأنّه لا يخرج الحدّ من أن يكون واقعاً موقعه، ويكون قوله عليه السلام: «رفع القلم عن ثلاث»[1]، يراد به زوالُ التكليف عنهم دون

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الحدود، باب: ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد (١٤٢٣)، والنسائي في كتاب: الطلاق، باب: من لا يقع طلاقه من الأزواج (٣٤٣٢)، وأبو داود في كتاب: الحدود،=

زوال إجراء الحكم عليهم، ومن هذه حالُه لا يمتنع أن يكونَ مشتبهاً، فرجع فيه إلى غيره، ولا يكون الخطأ فيه ممَّا يعظم فيمنع من صحّة الإمامة.

اعترض الشريف المرتضى هذا فقال: لو كان أمر برجْم المجنونة من غير علم بجنونها لمّا قال له أمير المؤمنين: أما علمت أنّ القلم مرفوعٌ عن المجنون حتى يفيق! بل كانَ يقول له بدلاً من ذلك: هي مجنونة، وكان ينبغي أن يقول عمر متبرّئاً من الشبهة: ما علمت بجنونها، ولست ممن يذهب عليه أن المجنون لا يرجم، فلمّا رأيناه استعظم ما أمر به، وقال: لولا عليٌّ لهَلك عمر، دلّنا على أنه كان تأثّم وتحرّج بوقوع الأمر بالرجم، وأنّه مما لا يجوز ولا يحلّ، وإلاّ فلا معنى لهذا الكلام. وأمّا ذكر الغمّ، فأي غمٍّ كان يلحقه إذا فعل ما له أن يفعله! ولم يكن منه تفريط ولا تقصير، لأنّه إذا كان جنونها لم يعلم به، فكانت المسألة عن حالها والبحث لا يجبان عليه، فأيّ وجه لتألمه وتوجّعه واستعظامِه لما فعله! وهل هذا إلاّ كرجْم المشهود عليه بالزّنى في أنّه: لو ظهر للإمام بعد ذلك براءة ساحته لم يجب أن يندَم على فعله ويستعظمه، لأنه وقع صواباً مستحقاً.

وأما قوله: إنّه كان لا يمتنع في الشرع أن يقام الحدّ عَلَى المجنون، وتأوّله الخبر المرويّ على أنه يقتضي زوال التكليف دون الأحكام، فإنْ أراد أنّه لا يمتنع في العقل أن يقام على المجنون ما هو من جنس الحدّ بغير استخفاف ولا إهانة، فذلك صحيح، كما يقام على التائب وأمّا الحدّ في الحقيقة، وهو الذي يتضمّنه الاستخفاف والإهانة فلا يجوز إلاّ على المكلّفين ومستحقّي العقاب، وبالجنون قد أزيلَ التكليف، فزال استحقاقُ العقاب الذي تبعه الحدّ.

وقوله: لا يمتنع أن يرجع فيما هذه حاله من المشتّبه إلى غيره، فليس هذا من المشتَبه الغامض، بل يجبُ أن يعرفَه العوّام فضلاً عن العلماء، عَلَى أنّا قد بيّنا أنه لا يجوز أن يرْجع الإمام في جَليٍّ ولا مشتَبه من أحكام الدين إلى غيره.

وقوله: إنّ الخطأ في ذلك لا يعظم فيمنع من صحّة الإمامة، اقتراح بغير حُجّة لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيلَ للقطع على أنه صغير.

قلت: لو كان قد نُقل أنّ أمير المؤمنين قال له: «أما علمت»، لكان قول المرتضى قويًا ظاهراً، إلا أنه لم ينقل هذه الصيغة بعينها، والمعروف المنقول: أنه قال له: قال

= باب: في المجنون يسرق أو يصيب حداً (٤٣٩٨)، وابن ماجه في كتاب: الطلاق، باب: طلاق المعتوه والصغير والنائم (٢٠٤١).

رسول الله ﷺ: «رُفِع القلم عن ثلاث»، فرجع عن رَجْمها، ويجوز أن يكون أشعَره بالعلّة والحُكم معاً، لأنّ هذا الموضع أكثر اشتباهاً من حديث رَجْم الحامل، فغلب على ظنّ أمير المؤمنين أنه لو اقتصر على قوله: إنها مجنونة لم يكن ذلك دافعاً لرجمها، فأكّده برواية الحديث. واعتذار قاضي القضاة بالغمّ جيّد، وقول المرتضى: أيّ غمٍّ كان يلحقه إذا فعل ما له أن يفعله! ليس بإنصاف، ولا مثل هذا يقال فيه إنه فعل ما له أن يفعله، ولا يقال في العرف لمن قتل إنساناً خطأً: إنه فعل ما له أن يفعله، والمرجوم في الزنى إذا ظهر للإمام بعد قتله براءة ساحته يغتمّ بقتله غمًّا كثيراً بالطبع البشريّ، ويتألم وإنْ لم يكن آثماً، وليس من توابع الإثم ولوازمه.

وقول المرتضى: لم يجب أن يندم على ما فعلَهُ كلامٌ خارج عمّا هو بصدده، لأنّه لم يجرِ ذكر للنّدم، وإنما الكلام في الغمّ ولا يلزم أن يكون كلّ مغتمٍّ نادماً.

وأمّا اعتراضُه على قاضي القضاة في قوله: لا يمتنع في الشرع أن ترجم المجنونة، فلما اشتبه على عمر الأمر سأل غيره عنه بقوله: «إن أردت الحدّ الحقيقي فمعلوم، وإن أردت ما هو جنسُ الحدّ فمسلَّم» فليس بجيّد، لأن هذا إنّما يكون طعناً على عمر بتقدير ثلاثة أمور: أحدها أن يكون النبي ﷺ قد قال: أقيموا الحد على الزاني بهذا اللفظ، أعني أن يكون في لفظ النصّ ذكر الحدّ، وثانيها أن يكون الحدّ في اللغة العربية أو في عرف الشرع الذي يتفاهمه الصحابة هو العقوبة المخصوصة التي يقارنها الاستخفاف والإهانة. وثالثها ألا يصحّ إهانة المجنون والاستخفاف به، وأنْ يعلم عمر ذلك، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة ثم أمر عمر بأن يقام الحدّ على المجنونة فقد توجّه الطعن، ومعلوم أنه لم تجتمع هذه الأمور الثلاثة، فإنه ليس في القرآن ولا في السنّة ذكر الحدّ بهذا اللفظ، ولا الحد في اللغة العربية هو العقوبة التي يقارنها الاستخفاف والإهانة ولا عُرْف الشرع ومواضعة الصّحابة يشتمل على ذلك، وإنما هذا شيء استنبطه المتكلّمون المتأخرون بأذهانهم وأفكارهم، ثم بتقدير تسليم هذين المقامين لم قال: إن المجنون لا يصحّ عليه الاستخفاف والإهانة؟ فمن الجائز أن يصحّ ذلك عليه وإنْ لم يتألم بالاستخفاف والإهانة كما يتألم بالعقوبة، وإذا صحّ عليه أن يتألم بالعقوبة صح عليه أن يتألم بالاستخفاف والإهانة، لأنّ الجنون لا يبلغ - وإن عظم - مبلغاً يبطل تصوّر الإنسان لإهانته ولاستخفافه، وبتقدير ألا يصح على المجنون الاستخفاف والإهانة، من أين لنا أن عمر علم أن ذلك لا يصحّ عليه! فمن الممكن أن يكون ظنّ أن ذلك يصحّ عليه، لأن هذا مقام اشتباه والتباس.

فأمّا قوله: «قد بيّنا أنه لا يجوز أن يرجع الإمام أصلاً إلى غيره»، فهو مبنيٌّ على مذهبهم وقواعدهم. وقوله معترضاً على كلام قاضي القضاة: إن الخطأ في ذلك قد لا يعظمُ ليمنع من

صحّة الإمامة إنّ هذا اقتراح بغير حجة، لأنه إذا اعترف بالخطأ فلا سبيل إلى القطع على أنّه صغير غير لازم، لأن قاضي القضاة لم يقطع بأنه صغير، بل قال: لا يمتنع، وإذا جاز أن يكون صغيراً لم نكن قاطعين على فساد الإمامة به.

فإن قال المرتضى: كما أنكم لا تقطعون على أنه صغير، فتكون الإمامة مشكوكاً فيها، قيل له: الأصل عدم الكبير، فإذا حصل الشكّ في أمر: هل هو صغير أم كبير؟ تساقط التعارضُ، ورجعْنا إلى الأصل، وهو عدم كون ذلك الخطأ كبيراً، فلا يمنع ذلك من صحّة الإمامة.

الطعن الرابع: حديث أبي العجفاء، وأنّ عمر منع من المغالاة في صدُقات النّساء، اقتداء بما كانَ من النبي ﷺ في صَدَاقِ فاطمة، حتى قامت المرأة ونبهته بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾(١)، على جواز ذلك، فقال: كلّ النساء أفقه من عمر! وبما روِيَ أنه تسوّر على قوم، ووجدهم على منكَر، فقالوا له: إنّك أخطأت من جهات: تجسّست، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾(٢)، ودخلت بغير إذن، ولم تسلِّم.

أجاب قاضي القضاة، فقال: علِمنا بتقدّم عمر في العلم وفضله فيه ضروريّ، فلا يجوز أن يقدَح فيه بأخبار أحاديث غير مشهورة، وإنما أراد في المشهور أنّ المستحبّ الاقتداء برسول الله ﷺ، وأنّ المغالاة فيها ليس بمكرُمة، ثم عند التنبيه، علِم أنّ ذلك مبنيٌّ على طيب النفس، فقال ما قاله على جهة التّواضع، لأنّ مَنْ أظهر الاستفادة من غيره - وإن قلّ علمُه - فقد تعاطَى الخضوع، ونبّه على أنّ طريقتَه أخذ الفائدة أينما وجدها، وصيّر نفسَه قدوةً في ذلك وأسْوة، وذلك حَسَن من الفضلاء. وأما حديث التجسّس فإن كان فعله فقد كان له ذلك، لأنّ للإمام أن يجتهد في إزالة المنكَر بهذا الجنس من الفعل، وإنّما لحقه - على ما يروى في الخبر - الخجل، لأنه لم يصادف الأمر على ما أُلقِيَ إليه في إقدامهم على المنكر.

اعترض المرتضَى على هذا الجواب، فقال له: أمّا تعويلُك على العلْم الضروريّ بكونه من أهل العلم والاجتهاد، فذلك إذا صحّ لم ينفعْك، لأنّه قد يذهب على مَنْ هو بهذه الصفة كثيرٌ من الأحكام حتى ينبّه عليها ويجتهد فيها، وليس العلم الضروريُّ ثابتاً بأنّه عالم بجميع أحكام الدّين، فيكون قاضياً على هذه الأخبار. فأما تأوّله الحديث وحمْله على الاستحباب فهو دفْع للعيان، لأن المرويّ أنه مَنَع من ذلك وحَظره حتى قالت المرأة ما قالت، ولو كان غيرَ حاظرٍ

(١) سورة النساء، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

للمغالاة لما كان في الآية حُجّة، ولا كان لكلام المرأة موقع، ولا كان يعترف لها بأنّها أفقَهُ منه، بل كان الواجب أن يردَّ عليها ويوبّخها ويعرفها أنه ما حظر لذلك، وإنما تكون الآية حُجّةً عليه لو كان حاظر مانعاً، فأمّا التواضع فلا يقتضي إظهارَ القبيح وتصويب الخطأ. ولو كان الأمر على ما توهّمه صاحبُ الكتاب لكان هو المصيب والمرأة مخطئة، فكيف يتواضع بكلام يُوهِم أنه المخطىء، وهي المصيبة! فأمّا التجسّس فهو محظور بالقرآن والسّنّة، وليس للإمام أن يجتهد فيما يؤدّي إلى مخالفة الكتاب والسنّة، وقد كان يجب إن كان هذا عذراً صحيحاً يعتذر به إلى من خَطّأه في وجهه وقال له: إنك أخطأت السنّة من وجوه، فإنه بمعاذير نفسه أعلم من صاحب الكتاب، وتلك الحال حال تدعو إلى الاحتجاج وإقامة العُذْر.

قلت: قُصارى هذا الطعن أنّ عمر اجتهد في حُكْم أو أحكام فأخطأ، فلمّا نُبّه عليها رجع، وهذا عند المعتزلة وأكثر المسلمين غير منكَر، وإنّما ينكر أمثال هذا من يبطِلُ الاجتهاد، ويوجِب عصمة الإمام، فإذن هذا البحث ساقط على أصول المعتزلة، والجواب عنه غير لازم علينا.

الطعن الخامس: أنه كان يعطِي من بيت المال ما لا يجوز، حتّى أنه كان يعطي عائشة وحفصة عشرة آلاف درهم في كلّ سنة، ومنَع أهل البيت خمسَهم الذي يجري مجرى الواصل إليهم من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وآله. وأنّه كان عليه ثمانون ألف درهم من بيت المال على سبيل القَرْض.

أجاب قاضي القضاة، بأنّ دفعه إلى الأزواج جائز من حيث إنّ لهنّ حقًّا في بيت المال، وللإمام أن يدفع ذلك على قَدْر ما يراه، وهذا الفعل قد فعلَه منْ قبله ومن بعده، ولو كان منكراً لما استمرّ عليه أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ثبت استمرارُه عليه، ولو كان ذلك طعناً لوجب - إذ كان يدفع إلى الحسن والحسين وإلى عبد الله بن جعفر وغيرهم من بيت المال شيئاً - أن يكونَ في حكم الخائن، وكلّ ذلك يبطِل ما قالوه، لأنّ بيت المال إنما يُراد لوضع الأموال في حُقوقها ثمّ الاجتهاد إلى المتولّي للأمر في الكثرة والقلّة.

فأمّا أمر الخمس فمن باب الاجتهاد، وقد اختلف النّاس فيه، فمنهم مَنْ جعله حقًّا لذوي القربى وسهماً مفرداً لهم على ما يقتضيه ظاهر الآية، ومنهم مَنْ جعله حقًّا لهم من جهة الفقر، وأجراهم مجرَى غيرهم، وإن كانوا قد خُصُّوا بالذكر، كما أجرى الأيتام - وإن خُصّوا بالذكر - مجرى غيرهم في أنهم يستحقّون بالفقر. والكلام في ذلك يطول، فلم يخرجْ عمر بما حَكَم به عن طريقة الاجتهاد، ومَنْ قَدَح في ذلك فإنّما يقدح في الاجتهاد الذي هو طريقة الصحابة.

فأمّا اقتراضُه من بيت المال، فإنْ صحّ فهو غير محظور، بل ربّما كان أحوَط، إذا كان على ثقةٍ من ردّه بمعرفة الوجه الذي يمكنه منه الردّ، وقد ذكر الفقهاء ذلك، وقال أكثرهم: إنّ الاحتياط في مال الأيتام وغيرهم أن يجعَل في ذمّة الغنيّ المأمون، لبعده عن الخطر، ولا فرق بين أن يقرض الغير أو يقترضه لنفسه. ومَنْ بلغ في أمره أن يطعن على عمر بمثل هذه الأخبار - مع ما يعلم من سريرته وتشدّده في ذات الله واحتياطه فيما يتّصل بملك الله، وتنزّهه عنه، حتى فعل بالصبيّ الذي أكل من تمر الصدقة واحدة ما فعل، وحتى كان يرفع نفسه عن الأمر الحقير ويتشدّد على كلّ أحد، حتى على ولده - فقد أبعدَ في القول.

اعترض المرتَضى، فقال: أمّا تفضيلُ الأزواج، فإنه لا يجوز، لأنه لا سبب فيهنّ يقتضي ذلك، وإنما يفضّل الإمام العَطاء ذوِي الأسباب المقتضية لذلك، مثل الجهاد وغيره من الأمور العامّ نفعها للمسلمين.

وقوله: إنّ لهنّ حقًّا في بيت المال صحيح، إلا أنه لا يقتضي تفضيلَهنّ على غيرهنّ، وما عِيبَ بدفع حقهنّ إليهنّ، وإنما عِيب بالزيادة عليه، وما يُعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استمرّ على ذلك - وإن كان صحيحاً كما ادّعى - فالسّبب الداعِي إلى الاستمرار عليه، هو السبب الداعي إلى الاستمرار على جميع الأحكام، فأمّا تعلّقه بدفع أمير المؤمنين إلى الحسن والحسين وغيرهما شيئاً من بيت المال فعَجَب! لأنه لم يفضّل هؤلاء من العطيّة فيشبه ما ذكرناه في الأزواج، وإنما أعطاهم حقوقَهم، وسوّى بينهم وبين غيرهم.

فأما الخُمس، فهو للرّسول ولأقربائه، على ما نطق به القرآن، وإنما عنى تعالى بقوله ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1] من كَانَ مِنْ آلِ الرسول خاصّة، لأدلّة كثيرة لا حاجةَ بنا إلى ذكرها ها هنا. وقد رَوَى سُلَيم بن قيس الهلاليّ، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نحن والله الذي عَنَى الله بذي القربى، قَرنَهم الله بنفسه ونبيّه صلى الله عليه وآله فـقـال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]، كلّ هؤلاء منّا خاصّة، ولم يجعل لنا سهماً في الصدقة، أكرم الله تعالى نبيّه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخَ ما في أيدي الناس. وروى يزيد بن هرم، قال: كتب نجْدة إلى ابن عباس، يسأله عن الخمس لمن هُو؟ فكتب إليه: كتبت تسألني عن الخمس لمن هُو؟ وإنّا نزعم أنّه لنا، فأبى قومُنا علينا ذلك، فصبرنا عليه.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

قال: وأمّا الاجتهاد الذي عوّل عليه، فليس عذراً في إخراج الخمس عن أهله فقد أبطلناه.

وأما الاقتراض من بيت المال فهو ممّا يدعو إلى الريبة، ومَنْ كانَ من التشدّد والتحفّظ والتقشّف على الحدّ الذي ذكره، كيف تطيب نفسه بالاقتراض من بيت المال، وفيه حقوق وربّما مسّت الحاجة إلى الإخراج منها، وأيّ حاجة لمن كان جَشِب المأكل، خشنَ الملبس، يتبلّغ بالقوت إلى اقتراض الأموال!

فأمّا حكايته عن الفقهاء، أنّ الاحتياط أن يحفَظ مال الأيتام في ذمّة الغَنّي المأمون، فذلك إذا صحّ لم يكن نافعاً له، لأن عمرَ لم يكن غنيًا، ولو كان غنيًا لما اقترض، فقد خرج اقتراضهُ عن أن يكون من باب الاحتياط، وإنما اشترط الفقهاء مع الأمانة الغِنَى، لئلا تمسّ الحاجة إليه، فلا يمكن ارتجاعه، ولهذا قلنا: إنّ اقتراضَه لحاجته إلى المال لم يكن صواباً وحسنَ نظر المسلمين.

قلت: أما قوله: لا يجوز للإمام أن يفضّل في العطاء إلا لسبب يقتضي ذلك كالجهاد، فليست أسبابُ التفضيل مقصورةً على الجهاد وحدَه، فقد يستحقّ الإنسان التفضيل في العطاء على غيره لكثرة عبادته، أو لكثرة علمه، أو انتفاع النّاس به، فلم لا يجوز أن يكونَ عمر فضّل الزوجات لذلك!

وأيضاً: فإن الله تعالى فرضَ لذوِي القربى مِنْ رسول الله ﷺ نصيباً في الفيء والغنيمة، ليس إلا لأنهم ذوو قرابته فقط، فما المانع من أن يقيس عمر عَلَى ذلك ما فعله في العطاء، فيفضّل ذوِي قرابة رسول في ذلك عَلَى غيرهم، ليس إلاّ لأنهم ذوُو قرابته، والزوجاتُ وإن لم يكن لهنّ قُربى النّسب فلهنّ قُربى الزوجيّة! وكيف يقول المرتضَى: ما جاز أن يفضّل أحداً إلا بالجهاد! وقد فضّل الحسن والحسين على كثير من أكابر المهاجرين والأنصار وهما صبيّان، ما جاهدا ولا بلغا الحُلم بعد، وأبوهما أمير المؤمنين موافق على ذلك، راضٍ به، غير منكِر له! وهل فعل عمرُ ذلك إلا لقُربهما من رسول الله ﷺ!

ونحن نذكر ما فعله عمر في هذا الباب مختصَراً نقلناه من كتاب أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي المحدّث في أخبار عمر وسيرته.

روى أبو الفَرج، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: استشار عمر الصحابة بمن يبدأ في القَسْم والفريضة، فقالوا: ابدأ بنفسك، فقال: بل أبدأ بآل رسول الله ﷺ وذَوِي قرابته، فبدأ بالعباس.

قال ابن الجَوزيّ: وقد وقع الاتّفاق على أنّه لم يفرِضْ لأحدٍ أكثر مما فَرَض له.

وروي أنه فرَض له اثني عشر ألفاً، وهو الأصحّ، ثم فرض لزوجات رسول الله ﷺ لكلّ واحدة عشرة آلاف، وفضّل عائشة عليهن بألفين فأبت، فقال: ذلك بفضل منزلتك عند رسول الله ﷺ، فإذا أخذتِ فشأنك، واستثنى من الزوجات جُويريَة وصفيّة وميمونة، ففرض لكلّ واحدةٍ منهنّ ستة آلاف، فقالت عائشة: إنّ رسول الله ﷺ كان يعدِل بيننا، فَعدَل عمر بينهنّ، وألحق هؤلاء الثلاث بسائرهنّ، ثم فرض للمهاجرين الّذين شهدوا بدراً لكلّ واحد خمسة آلاف، ولمن شهدها من الأنصار لكلّ واحد أربعة آلاف.

وقد روي أنه فرض لكلّ واحدٍ ممّن شهد بدراً من المهاجرين أو من الأنصار أو من غيرهم من القبائل خمسة آلاف، ثم فرض لمن شهد أحُداً وما بعدها إلى الحديبية أربعة آلاف، ثم فرض لكلّ مَنْ شهد المشاهد بعد الحديبية ثلاثة آلاف، ثم فرضَ لكلّ مَنْ شهد المشاهد بعد وفاة رسول الله ﷺ ألفيْن وخمسمائة، وألفين، وألفاً وخمسمائة، وألفاً واحداً إلى مائتين، وهم أهل هَجَر، ومات عمر على ذلك.

قال ابن الجوزيّ: وأدخل عمر في أهلِ بدر ممّن لم يحضر بدراً أربعة، وهم الحسن، والحسين، وأبو ذَرّ، وسلْمان، ففرض لكلّ واحد منهم خمسة آلاف.

قال ابن الجوزيّ: وروى السّديّ أن عمرَ كسا أصحابَ النبي ﷺ، فلم يرتضِ في الكُسوة ما يستصلحه للحسن والحسين عليهما السلام، فبعث إلى اليمن، فأتِيَ لهما بكسوة فاخرة، فلمّا كساهما قال: الآن طابتْ نفسي.

قال ابن الجوزي: فأمّا ما اعتمده في النّساء فإنه جعل نساء أهلِ بدر على خمسمائة، ونساء مَنْ بعد بدر إلى الحديبية على أربعمائة، ونساء من بعد ذلك على ثلاثمائة، وجعل نساء أهل القادسيّة على مائتين مائتين، ثم سوّى بين النساء بعد ذلك.

ولو لم يدلّ على تصويب عمر فيما فعلَه إلا إجماع الصحابة واتفاقِهم عليه وترك الإنكار لذلك كان كافياً.

فأما الخمس والخلاف فيه فإنها مسألة اجتهادية، والذي يظهر لنا فيه ويغلب عندنا من أمرها، أنّ الخمس حقٌّ صحيح ثابت، وأنّه باقٍ إلى الآن على ما يذهب إليه الشافعيّ، وأنّه لم يسقط بموت رسول الله ﷺ، ولكنّا لا نرى ما يعتقده المرتضَى مِنْ أن الخمس لآل الرسول ﷺ، وأنّ الأيتام أيتامهم، والمساكين مساكينهم وابن السبيل منهم، لأنه على خلاف ما يقتضيه ظاهر الآية والعطف، ويمكن أن يحتجّ على ذلك بأنّ قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[1] يبطل هذا القول، لأن هذه اللام لا بدّ أن تتعلق بشيء، وليس قبلها ما

(١) سورة الحشر، الآية: ٨.

تتعلّق به أصلاً، إلا أن تجعل بدلاً من اللام التي قبلها في قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾(١). وليس يجوز أن تكون بدلاً من اللام في «لله»، ولا من اللام في قوله: «وللرسول» فبقيَ أن تكون بدلاً من اللام في قوله «ولذي القربى»، أما الأول فتعظيماً له سبحانه، وأما الثاني فلأنه تعالى قد أخرج رسولَه من الفقراء بقوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾(٢)، ولأنه يجب أن يرفع رسول الله ﷺ عن التّسمية بالفقير. وأمّا الثالث، فإما أن يفسّر هذا البدَل وما عطف عليه المبدل منه، أو يفسّر هذا البدل وحده دون ما عُطِف عليه المبدل منه، والأوّل لا يصحّ لأنّ المعطوف على هذا البدل ليس من أهل القرى وهم الأنصار، ألا ترى كيف قال سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(٣) وهم الأنصار. وإنْ كان الثاني صار تقدير الآية أنّ الخمس لله وللرسول ولذي القربى الذينَ وصفهم الله ونَعتَهم بأنّهم هاجروا وأخرِجوا من ديارهم، وللأنصار، فيكون هذا مبطِلاً لما يذهب إليه المرتضَى في قَصْر الخُمُس عَلَى ذوي القربى.

ويمكن أن يعترضَ هذا الاحتجاج، فيقال: لِمَ لا يجوز أنْ يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، ليس بعطف، ولكنّه كلام مبتدأ، وموضع «الَّذِينَ» رفع بالابتداء وخبره «يحبون»؟

وأيضاً فإنّ هذه الحجّة لا يمكن التمسّك بها في آية الأنفال، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾(٤).

فأما رواية سُلَيم بن قيس الهلاليّ، فليست بشيء، وسُليم معروف المذهب، ويكفي في ردّ روايته كتابه المعروف بينهم المسمى كتاب سُلَيم.

على أنّي قد سمعت من بعضِهم مَنْ يذكر أنّ هذا الاسم على غير مسمّى، وأنه لم يكن في الدنيا أحدٌ يعرَف بسليم بن قيس الهلاليّ، وأن الكتاب المنسوب إليه منحول موضوع لا أصل له، وإن كان بعضُهم يذكره في اسم الرجال، والرواية المذكورة عن ابن عباس في كتابه إلى نَجْدة الحَروريّ صحيحة ثابتة، وليس فيها ما يدلّ على مذهب المرتضى من أن الخمس كلّه لذوي القربى، لأنّ نجدة إنما سأله عن خمس الخمس لا عن الخمس كله.

وينبغي أن يذكر في هذا الموضع اختلاف الفقهاء في الخُمُس:

أمّا أبو حنيفة فعنده أنّ قسمة الخُمس كانت في عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ، وسهم لذوِي قرباه من بني هاشم وبني المطلب دون بني عبد شمس

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٨.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

ونوفل، استحقُّوه حينئذ بالنّصرة والمظاهرة، لما روي عن عثمان بن عفّان وجُبَير بن مطعِم أنّهما قالا لرسول الله ﷺ: هؤلاء إخوتُك من بني هاشم لا ننكر فضلهم، لمكانك الّذِي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا! وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة(١).

فقال ﷺ: «إنّهم لم يفارقونا في جاليّةٍ ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» وشبَّك بين أصابعه. وثلاثة أسهم ليتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم، وأمّا بعد رسول الله ﷺ فسهمُه ساقط بموته، وكذلك سَهْم ذوي القربى، وإنما يُعطَوْن لفقرهم، فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنياؤهم، فيقسَّم الخمس إذن على ثلاثة أسهم: اليتامى، والمساكين وابن السبيل.

وأما الشافعيّ فيقسّم الخمس عنده بعد وفاة رسول الله ﷺ على خَمْسَةِ أسهم: سهم لرسول الله ﷺ يُصرف إلى ما كان يصرفه إليه رسول الله ﷺ أيّام حياته من مصالح المسلمين، كعُدّة الغزاة من الكُراع والسلاح ونحو ذلك، وسهمٌ لذوي القُرْبَى من أغنيائهم وفقرائهم، يقسّم بينهم للذّكَر مثل حظّ الأنثيين من بني هاشم وبني المطلب، والباقي للفرق الثلاث.

وأمّا مالك بن أنس، فعنده أنّ الأمر في هذه المسألة مفوّض إلى اجتهاد الإمام، إن رأى قَسَمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضَهم دون بعض، وإن رأى الإمام غيرَهم أولى وأهمّ، فغيرهم.

وبقِيَ الآن البحث عن معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾(٢)، وما المراد بسهم الله سبحانه؟ وكيف يقول الفقهاء: الخمس مقسوم خمسة أقسام، وظاهر الآية يدلّ على ستّة أقسام؟ فنقول:

يحتمل أن يكون معنى قوله سبحانه: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾(٣) لرسول الله، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(٤)، أي ورسول الله أحقّ، ومذهب أبي حنيفة والشافعيّ يجيء على هذا الاحتمال.

ويحتمل أن يريد بذكره إيجاب سهم سادس يصرَف إلى وجهٍ من وجوه القُرَب، ومذهب أبي العالية يجيء على هذا الاحتمال، لأنّه يذهب إلى أنّ الخمس يقسّم ستة أقسام: أحدها سهمه تعالى يُصْرَف إلى رتاج الكعبة، وقد روي أنّ رسول الله ﷺ كان يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه قَبْضة فيجعلها للكعبة، ويقول: «سهم الله تعالى، ثم يقسم ما بقي على خمسة أقسام».

وقال قوم: سهم الله لبيتِ الله.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢٥٠٧)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٤٠٤٤).

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧. (٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٣.

ويحتمل احتمالاً ثالثاً، وهو أن يراد بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[١] أنّ من حقّ الخمس أن يكون متقرَّباً به إليه سبحانه لا غير، ثم خصّ من وجوه القُرَب هذه الخمسة، تفضيلاً لها على غيرها، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[٢]. ومذهب مالك يجيء على هذا الاحتمال.

وقد رُوِيَ عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه كان على ستّة: لله وللرّسول سهمان، وسهم لأقاربه، وثلاثة أسهم للثّلاثة، حتى قبض عليه السلام، فأسقط أبو بكر ثلاثة أسهم، وقسّم الخمس كلّه على ثلاثة أسهم، وكذلك فعل عمر.

ورُوِيَ أنّ أبا بكر مَنَع بني هاشم الخمس، وقال: إنّما لكم أن نعطيَ فقيرَكم، ونزوّج أيّمَكم، ونخدُم من لِا خادم له منكم، وأمّا الغنيُّ منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غنيّ، لا يعطى شيئاً، ولا يتيم مُوسر.

وقد روي عن زيد بن عليّ عليه السلام مثل ذلك، قال: ليس لنا أن نبنيَ منه القصور، ولا أنْ نركب منه البراذين. فأمّا مَذهب الإماميّة، فإنّ الخمس كلّه للقرابة.

ويروون عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: أيتامنا ومساكيننا! إنْ صحّ عنه ذلك، فقوله عندنا أوْلَى بالاتّباع، وإنما الكلام في صحته.

فأما اقتراض عمر من بيت المال ثمانين ألفاً، فليس بمعروف، والمعروف المشهور أنه كان يَظلِف نفسه عن الدّرهم الواحد منه.

وقد روى ابن سعد في كتاب «الطبقات»[٣] أن عمر خطب، فقال: إنّ قوماً يقولون: إنّ هذا المال حلال لعمر، وليس كما قالوا، لاها الله إذن! أنا أخبركم بما أستحلّ منه، يحل لي منه حُلّتان: حُلّة في الشتاء، وحُلّة في القَيْظ، وما أحجّ عليه وأعتمر من الظَّهر، وقوتي وقوتُ أهلي كقوتِ رجل من قريش، ليس بأغناهم ولا أفقرهم، ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين يُصِيبُني ما أصابهم.

وروى ابنُ سعد أيضاً أن عمر كان إذا احتاج أتى إلى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربّما عسر عليه القضاءُ، فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه، فيحتال له، وربما خرج عطاؤه فقضاه، ولقد اشتكى مرّةً فوصف له الطبيبُ العسَل، فخرج حتّى صعد المنبر، وفي بيت المال عُكّة، فقال: إن أذنتم لي فيها أخذتُها، وإلاّ فهي عليّ حرام، فأذنوا له فيها، ثم قال: إنّ مَثَلِي وَمَثَلكم كقوم سافروا، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم لينفق عليهم، فهل يحلّ له أن يستأثر منها بشيء!

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٨.
(٣) انظره (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).

وروى ابن سعد أيضاً، قال: مكث عمر زماناً لا يأكل من مال المسلمين شيئاً، حتى أصابته خَصَاصة، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فاستشارهم فقال لهم: قد شَغَلْتُ نفسِي بأمركم، فما الذي يصلح أن أصيبَه من مالكم؟ فقال عثمان: كلْ واطعم، وكذلك قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فتركهما وأقبل على عليّ عليه السلام، فقال: ما تقول أنت؟ قال: غداء وعشاء، قال: أصبت، وأخذ بقوله.

وروى أبو الفرج بن الجوزي في كتاب سيرة عمر عن نائلة عن ابن عمر، قال: جمع عمر النّاس لما انتهى إليه فتح القادسيّة ودمشق، فقال: إنّي كنتُ امرأً تاجراً يغني الله عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني عن التجارة بأمركم، فما تروْن أنه يحلّ لي من هذا المال؟ فقال القوم فأكثروا، وعليٌّ عليه السلام ساكت، فقال عمر: ما تقول أنت يا أبا الحسن؟ قال: ما أصلحَك وأصلح عيالك بالمعروف، وليس لك من هذا المال غيره، فقال: القول ما قاله أبو الحسن، وأخذ به.

وروى عبد الله بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدّه أن عبد الله وعبيد الله ابنيْ عمر مَرا بأبي موسى، وهو على العراق وهما مقبلان من أرض فارس، فقال: مرحباً بابْنَيْ أخي، لو كان عندي شيء، وبلى قد اجتمع هذا المال عندي: فخذاه واشتريا به متاعاً، فإذا قدِمْتُما فبيعاه ولكما ربحُه، وأدّيا إلى أمير المؤمنين رأس المال، ففعلا، فلمّا قدما على عمر بالمدينة أخبراه، فقال: أكلّ أولاد المهاجرين يصنَع بهم أبو موسى مثل ذلك! فقالا: لا، قال: فإنّ عمر يأبى أن يجيز ذلك وجعل قرضاً.

ورُوِيَ عن قتادة، قال: كان معيقيب على بيت المال لعمر، فكَسَح عمر بيت المال يوماً، وأخرجه إلى المسلمين، فوجدَ معيقيب فيه دِرْهماً، فدفعه إلى ابن عمر، قال معيقيب: ثم انصرفت إلى بيتي، فإذا رسول عمر قد جاء يدعوني، فجئت فإذا الدّرهم في يده، فقال: ويحك يا معيقيب! أوجَدْتَ عليّ في نفسك شيئاً! قلت: وما ذاك؟ قال: أردت أن تخاصِمَني أمّة محمد في هذا الدرهم يوم القيامة!

وروى عمر بن شبَّة، عن عبد الله بن الأرقم - وكان خازن عمر - فقال: إن عندنا حِلْيَةً من حلية جلولاء وآنية من فضة، فانظر ما تأمر فيها؟ قال: إذا رأيتَني فارغاً فآذِنّي، فجاءه يوماً فقال: إني أراك اليوم فارغاً، فما تأمر بتلك الحلية؟ قال: ابسط لي نِطَعاً، فبسطه ثم أتى بذلك المال، فصبّ عليه، فرفع يديه وقال: اللهمّ إنك ذكرت هذا المال، فقلت: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾(١) ثم قلت: ﴿لِكَيْلَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1] اللهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنت لنا. اللهمّ إني أسألك أن تضعه في حقه، وأعوذ بك من شرّه، ثم ابتدأ فقسّمه بين الناس، فجاءه ابن بنت له، فقال: يا أبتاه! هب لي منه خاتماً، فقال: اذهب إلى أمّك تَسْقِك سَوِيقاً، فلم يعطه شيئاً.

وروى الطبريّ في تاريخه أنّ عمرَ خطبَ أمّ كلثوم بنت أبي بكر، فأرسل فيها إلى عائشة، فقالت: الأمر إليها، فقالت أمّ كلثوم: لا حاجة لي فيه، قالت لها عائشة: ويلك! أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنّه يغلِق بابه، ويمنع خيره، ويدخل عابساً، ويخرج عابساً، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص، فأخبرته، فقال: أنا أكفيك، فأتى عمر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، بلغني خبرٌ أعيذك بالله منه! قال: ما هو؟ قال: خطبتَ أمّ كلثوم بنت أبي بكر؟ قال: نعم، أفترغب بي عنها أم ترغبُ بها عنّي؟ قال: لا واحدة، ولكنها حَدَثة، نشأتْ تحت كنَف أم المؤمنين في لينٍ ورفق، وفيك غلظة ونحن نهابُك، ولا نستطيع أن نردّك عن خُلُقٍ من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها! كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحقّ عليك، قال: فكيف لي بعائشة وقد كلّمتها فيها؟ قال: أنا لك بها، وأدُلّك على خيرٍ منها، أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب، تعلّقْ منها بسببٍ من رسول الله. فصرَفه عنها إلى أم كلثوم بنت فاطمة.

وروى عاصم بن عمر، قال: بعث إليّ عمر عند الهاجرة - أو قال عند صلاة الصبح - فأتيتُه، فوجدته جالساً في المسجد فقال: يا بنيّ، إني لم أكن أرى شيئاً من هذا المال يحلّ لي قبل أن أليَ إلاّ بحقه، وما كان أحرم عليّ منه حين وليته، فعاد أمانتي، وإني كنت أنفقت عليك من مال الله شهراً، ولست بزائدك عليه، وقد أعطيتك تمْري بالعالية، فبعه وخذ ثمنه، ثم ائت رجلاً من تجّار قومك، فكن إلى جانبه، فإذا ابتاع شيئاً فاستشركه، وأنفق ما تربحه عليك وعلى أهلك. قال: فذهبت ففعلت.

وروى الحسن البصريّ أنّ عمر كان يمشي يوماً في سكّة من سِكك المدينة، إذ صبيّة تَطِيش على وجه الأرض، تقعد مرّة، وتقوم أخرى من الضّعف والجهد، فقال عمر: ما بال هذه؟ قال عبد الله ابنه: أما تعرف هذه؟ قال: لا، قال إنّها إحدى بناتِك، فأنكر عمر ذلك، فقال: هذه ابنتي من فلانة! قال: ويحك ما صيّرها إلى ما أرى؟ قال: منعك ما عندك، قال: أنا منعتُك ما عندي، فما الذي منعك أن تطلب لبناتك ما يكسب الأقوام لبناتهم! والله ما لكَ عندي غيرُ سهمك في المسلمين، وسعَك أو عجز عنك، وكتاب الله بيني وبينك.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

وروى سعيد بن المسيّب، قال: كتب عمر لما قسّم العطاء وفضل مَنْ فضّل للمهاجرين الذين شهِدُوا بدراً خمسة آلاف، وكتب لمن لم يشهد بدراً أربعة آلاف، فكان منهم عمر بن أبي سلمة المخزوميّ، وأسامة بن زيد بن حارثة، ومحمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله بن عمر بن الخطاب. فقال عبد الرحمن بن عوف - وهو الذي كان يكتبُ -: يا أميرَ المؤمنين، إن عَبد الله بن عمر، ليس من هؤلاء، إنّه وإنه... يُطرِيه ويُثني عليه، فقال له عمر: ليس له عندي إلا مثل واحد منهم، فتكلّم عبد الله وطلب الزيادة، وعمر ساكت، فلمّا قضى كلامَه، قال عمر لعبد الرحمن: اكتبه على خمسة آلاف، واكتبني على أربعة آلاف، فقال عبد الله: لا أريد هذا، فقال عمر: والله لا أجتمع أنا وأنت على خمسة آلاف، قمْ إلى منزلك، فقام عبد الله كئيباً.

وقال أبو وائل: استعملني ابنُ زياد على بيت المال بالكوفة، فأتاني رجلٌ بصكّ يقول فيه: أعطِ صاحب المطبخ ثمانمائة درهم، فقلت له: مكانكَ. ودخلتُ على ابن زياد، فقلت له: إنّ عمر استعمل عبد الله بن مسعود بالكوفة على القضاء وبيت المال، واستعمل عثمان بن حُنَيف على سِقْي الفرات، واستعمل عمّار بن ياسر على الصلاة والجند، فرزقهم كلّ يوم شاة واحدة، فجعل نصفها وسقطها وأكارعها لعمّار، لأنه كان على الصلاة والجند، وجعل لابن مسعود رُبعها، ولابنُ حُنيف ربعها، ثم قال: إنّ مالاً يؤخذ منه كلّ يوم شاة، إنّ ذلك فيه لسريع، فقال ابن زياد: ضع المفتاح فاذهب حيث شئت.

وروى أبو جعفر الطبري في التاريخ، أنّ عمر بعث سلَمة بن قيس الأشجعيّ إلى طائفة من الأكراد، كانوا على الشِّرْك، فخرج إليهم في جيش سَرّحه معه من المدينة، فلمّا انتهى إليهم، دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية، فأبوْا، فقاتلهم، فنصره الله عليهم، فقتل المقاتلة وسَبَى الذريّة، وجمع الرِّثة، ووجد حلية وفصوصاً وجواهر، فقال لأصحابه: أتطيب أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين؟ فإنه غير صالح لكم، وإنّ عَلَى أمير المؤمنين لمؤونة وأثقالاً! قالوا: نعم، قد طابت أنفسنا، فجعل تلك الجواهر في سَفَط، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سِرْ، فإذا أتيتَ البصرة، فاشترِ راحلتين فأوْقِرْهما زاداً لك ولغلامك، وسرْ إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت، فأتيت عمر وهو يغدّي الناس، قائماً متكئاً على عصا كما يصنع الراعي، وهو يدور على القِصاع، فيقول: يا يَرْفأ زِدْ هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزاً، زد هؤلاء مَرَقة، فجلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خشونة، طعامي الذي معي أطيَب منه، فلمّا فرغ أدبر فاتّبعته، فدخل داراً فاستأذنت، ولم أعلِم حاجبه مَنْ أنا، فأذن لي، فوجدته في صُفّة جالساً على مِسْح، متكئاً على وسادتين من أدَم محشوّتين ليفاً، وفي الصُّفة عليه سِتْر من صوف، فنبذ إليّ إحدى الوسادتين، فجلست عليها، فقال: يا أمّ كلثوم، ألا تغدّوننا! فأخرج إليه خُبْزة بزيت في عرضها ملح لم يدقّ، فقال: يا أمَّ كلثوم، ألا تخرُجين إلينا تأكلين معنا؟ فقالت: إنّي أسمع

عندك حِسّ رجل، قال: نعم، ولا أراه من أهل هذا البلد - قال: فذاك حين عرفت أنّه لم يعرفني - فقالت: لو أردت أن أخرج إلى الرّجال لكسوتَني كما كسا الزُّبير امرأته، وكَمَا كسا طلحة امرأته.

قال: أو ما يكفيك أنّك أمّ كلثوم ابنة عليّ بن أبي طالب وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب! قالت: إنّ ذاك عَنّي لقليل الغَناء، قال: كلْ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيبَ من هذا، فأكلتُ قليلاً، وطعامي الذي معي أطيب منه، وأكل، فَما رأيت أحداً أحسنَ أكلاً منه، ما يتلبَّس طعامه بيده ولا فمه.

ثم قال: اسقونا، فجاؤوا بعُسّ من سُلْت، فقال: أعط الرّجُل، فشربت قليلاً، وإنّ سَويقي الذي معي لأطيبُ منه، ثم أخذه فشربه حتى قَرَع القَدَحُ جبهته، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا، إنّك يا هذا لضعيف الأكل، ضعيف الشرب، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّ لي حاجة، قال: ما حاجتُك؟ قلت: أنا رسول سلمة بن قيس، فقال: مرحباً بسلَمة ورسوله! فكأنما خرجتَ من صُلْبه، حَدِّثْني عن المهاجرين كيف هم؟ قلت: كما تحبُّ يا أميرَ المؤمنين، من السلامة والظَّفر والنَّصر على عدوّهم، قال: كيف أسعارهم؟ قلت: أرخص أسعار، قال: كيف اللّحم فيهم، فإنه شجرة العرب، ولا تصلح العرب إلاّ على شَجَرتها؟ قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا، ثم سِرْنا يا أميرَ المؤمنين حتى لقِينا عدوَّنا من المشركين، فدعوناهم إلى الّذي أمَرْت به من الإسلام فأبَوْا، فدعوناهم إلى الخراج فأبَوْا، فقاتلناهم فنصرَنا الله عليهم، فقتلنا المقاتِلة، وسبيْنا الذرّيّة وجمعنا الرِّثّة، فرأى سلمة في الرِّثة حِلْية، فقال للناس: إنّ هذا لا يبلغُ فيكم شيئاً، أفتطيب أنفسكم أن أبعثَ به إلى أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم، ثم استخرجت سَفَطِي ففتحته.

فلما نظر إلى تلك الفُصوص، من بين أحمر وأخضر وأصفر، وثب وجعل يده في خاصرته يصيح صياحاً عالياً، ويقول: لا أشبع الله إذنْ بطن عمر! يكرّرها، فظنّ النّساء أني جئت لأغتالَه، فجئن إلى السّتر فكشفنه، فسمعنه يقول: لفّ ما جئت به يا يرفأ جَأْ عنقه، قال: فأنا أصْلِحُ سفَطِي، ويرفأ يَجأ عنقي، ثم قال: النّجاء النّجاء! قلت: يا أمير المؤمنين انزعْ بي فاحملني، فقال: يا يرفأ، أعطه راحلتين من إبل الصدقة، فإذا لقيت أفقر إليهما منك فادفعهما إليه، وقال: أظنّك ستبطىء، أما والله لئن تفرّق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يُقْسَم هذا فيهم، لأفعلنّ بك وبصاحبك الفاقرة.

قال: فارتحلت حتى أتيتُ إلى سلَمة بن قيس، فقلت: ما بارك الله فيما اختصَصْتَني به، اقْسِمْ هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقرة، فقسمه فيهم. فإنّ الفصّ ليباع بخمسة دراهم وبستّة، وهو خير من عشرين ألفاً.

وجملة الأمر أنّ عمر لا يجوز أن يُطعَن فيه بمثل هذا، ولا ينسب إلى شَرَهٍ وحبٍّ للمال، فإنّ طريقته في التعفّف والتقشّف وخشونة العيش والزهد أظهرُ من كلّ ظاهر، وأوضح من كلّ واضح، وحاله في ذلك معلومة، وعلى كلّ تقدير، سواء كان يفعل ذلك ديناً أو ورعاً - كما هو الظاهر من حاله - أو كان يفعل ذلك ناموساً وصناعة ورياءً وحيلة، - كما تزعم الشّيعة - فإنه عظيم، لأنه إمّا أن يكون على غاية الدين والتُّقى، أو يكون أقوى النّاس نفساً، وأشدَّهم عزماً، وكلا الأمرين فضيلة.

والّذي ذكره المحدّثون وأرباب السِّير أنّ عمر لما طُعِن واحتُمل في دمِه إلى بيته، وأوصَى بما أوصَى، قال لابنه عبد الله: انظروا ما عليّ من دَيْن، فحسبوه فوجدوه ستمائة وثمانين ألف درهم، هكذا ورد في الأخبار أنها كانت ديوناً للمسلمين، ولم تكن من بيتِ المال. فقال عمر: انظرْ يا عبدَ الله، فإن وفّى به مالُ آل عمر، فأدِّهِ من أموالهم، وإلاّ فسَلْ في بني عديّ بن كعب، فإن لم تفِ به أموالُهم، فسلْ في قريش، ولا تعدُهم إلى غيرهم. فهكذا وردت الرواية، فلذلك قال قاضي القضاة: فإنْ صحّ فالعذر كذا وكذا، لأنه لم يثبت عنده صحّة اقتراضه هذا المقدار من بيت المال.

وقد رُوِيَ أنّ عمر كان له نَخْل بالحجاز غَلّته كلّ سنة أربعون ألفاً، يُخرجها في النّوائب والحقوق، ويصرِفها إلى بني عديّ بن كعب إلى فقرائهم وأراملهم وأيتامهم، روى ذلك ابن جرير الطبري في التاريخ.

فأما قول المرتضَى: أي حاجة بخشن العيش وجَشِب المأكل إلى اقتراض الأموال؟

فجوابه أنّ المتزهّد المتقشّف قد يضيّق على نفسه ويوسّع على غيره، إمّا من باب التكرّم والإحسان، أو من باب الصدقة وابتغاء الثواب، وقد يصل رحِمه وإنْ قتّرَ على نفسه.

وقد روى الطبريّ أنّ عمر دفع إلى أمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام صداقها يوم تزوّجها أربعين ألف درهم، فلعلّ هذا الاقتراض من الناس كان لهذا الوجه ولغيره من الوجوه التي قلّ أن يخلوَ أحد منها.

الطعن السادس: إنه عطّل حدّ الله في المغيرة بن شعبة، لما شُهِد عليه بالزّنى، ولقّنَ الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة، اتّباعاً لهواه، فلما فعل ذلك عاد إلى الشهود فحدّهم وضربهم، فتجنّب أن يفضح المغيرة، وهو واحد، وفضح الثلاثة مع تعطيله لحكم الله، ووضعه في غير موضعه.

أجاب قاضي القضاة، فقال: إنه لم يعطّل الحدّ إلاّ من حيثُ لم تكمل الشهادة وبإرادة الرابع، لئلا يشهد لا تكمل البيّنة، وإنما تكمل بالشهادة.

وقال: إن قوله: «أرى وجهَ رجل لا يفضحُ الله به رجلاً من المسلمين»، يجري في أنه سائغ صحيح مجرَى ما روِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وآله من أنّه أُتي بسارقٍ، فقال: «لا تُقِرّ». وقال عليه السلام لصفْوان بن أميّة لما أتاه بالسارق، وأمر بقطعه، فقال: هو له - يعني ما سرق: هلاّ قبل أن تأتِيَني به[1]! فلا يمتنع من عمر ألاّ يحبّ أن تكمل الشهادة وينبه الشاهد على ألاّ يشهد، وقال: إنه جلد الثلاثة من حيث صارُوا قَذَفة، وإنه ليس حالهم - وقد شهدُوا - كحالِ مَنْ لم تتكامل الشهادة عليه، لأنّ الحيلة في إزالة الحدّ عنه - ولمّا تتكامل الشهادة عليه - ممكِنة بتلقين وتنبيه غيره، ولا حيلة فيما قد وقع من الشهادة، فلذلك حدّهم.

قال: وليس في إقامة الحدّ عليهم من الفضيحة ما في تكامل الشّهادة على المغيرة، لأنه يتصوّر بأنه زانٍ، ويحكم بذلك، وليس كذلك حال الشهود، لأنهم لا يتصوّرون بذلك، وإن وجبَ في الحُكْم أن يُجعَلُوا في حُكْم القَذَفة.

وحكي عن أبي عليّ أن الثلاثة، كان القذف قد تقدّم منهم للمغيرة بالبصرة، لأنهم صاحوا به من نواحي المسجد: بأنّا نشهد أنّك زانٍ، فلو لم يعيدوا الشهادة لكان يحدّهم لا محالة، فلم يكن في إزالة الحدّ عنهم ما أمكن في المغيرة.

وحكي عن أبي عليّ في جواب اعتراضه عن نفسه بما روي عن عُمر أنه كان إذا رآه يقول: لقد خفتُ أن يرميَني الله عزّ وجلّ بحجارة من السماء، أنّ هذا الخبر غير صحيح، ولو كان حقًّا لكان تأويله التخويف، وإظهار قوة الظّن، لصدق القوم الذين شهدوا عليه، ليكون ردعاً له. وذكر أنّه غيرُ ممتنع أن يحبّ ألاّ يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قِبَله.

ثم أجاب عن سؤال مَنْ سأله عن امتناع زياد من الشهادة، وهل يقتضي الفسق أم لا؟ فإن قال: لا نعلم أنّه كان يتمّم الشهادة، ولو علمنا ذلك لكان حيث ثبت في الشرع أنّ له السكوت، لا يكون طعناً، ولو كان ذلك طعناً، وقد ظهر أمرُه لأمير المؤمنين عليه السلام لمَّا ولاه فارس، ولمّا ائتمنه على أموال الناس ودمائهم.

اعترض المرتضَى فقال: إنّما نسِب إلى تعطيل الحدّ من حيث كان في حكم الثابت، وإنما بتلقينه لم تكمُل الشهادة، لأن زياداً ما حضر إلا ليشهد بما شهد به أصحابه، وقد صرّح بذلك كما صرّحوا قبل حضورهم، ولو لم يكن هذا لما شهد القوم قبلَه وهم لا يعلمون: هل حاله في ذلك الحكم كحالهم، لكنّه أحجم في الشَّهادة لمّا رأى كراهَية متولّي الأمر لكمالها، وتصريحه بأنّه لا يريد أن يعمل بموجبها.

---

(١) حديث صفوان أخرجه النسائي في قطع السارق (٤٨٧٩). وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٥).

ومن العجائب أن يطلبَ الحيلة في دفع الحدّ عن واحدٍ، وهو لا يندفع إلاّ بانصرافه إلى ثلاثة، فإن كانَ دزء الحدّ والاحتيال في دفعه من السُّنن المتّبعة، فدرؤه عن ثلاثة أوْلَى من درئه عن واحد!

وقوله: إنّ دفع الحدّ عن المغيرة ممكِنٌ ودفعه عن ثلاثة - وقد شهدوا - غيرُ ممكن، طَريف، لأنّه لو لم يلقّن الشاهد الرابع الامتناع عن الشهادة لاندفع الحدّ عن الثلاثة، وكيف لا تكون الحيلة ممكنة فيما ذكره!

وقوله: إن المغيرة يُتصوّر بصورة زانٍ لو تكاملت الشهادة، وفي هذا من الفضيحة ما ليس في حدّ الثلاثة غيرُ صحيح، لأنّ الحكم في الأمرين واحدٌ، لأنّ الثلاثة إذا حُدُّوا يُظَنّ بهم الكذب، وإن جُوّز أن يكونوا صادقين، والمغيرة لو تكاملت الشهادة عليه بالزّنى لظُنّ به ذلك مع التجويز لأنْ يكون الشُّهود كَذَبة، وليس في أحدٍ إلاّ ما في الآخر.

وما روي عنه عليه السلام من أنّه أُتِيَ بسارق، فقال له: «لا تُقِرّ» إن كان صحيحاً لا يشبه ما نحن فيه، لأنه ليس في دفع الحدّ عن السارق إيقاع غيره في المكروه.

وقصّة المغيرة تخالف هذا لما ذكرناه.

فأما قوله عليه السلام: «هلاّ قبل أنْ تأتيني به!» فلا يشبه كلّ ما نحن فيه، لأنّه بيّن أن ذلك القول يُسْقط الحدّ لو تقدّم، وليس فيه تلقين يوجب إسقاطَ الحدّ.

فأمّا ما حكاه عن أبي عليّ من أنّ القذف من الثلاثة كان قد تقدّم، وأنّهم لو لم يُعيدوا الشهادة لكان يحدّهم لا محالة، فغير معروف، والظاهر المرويّ خلافُه، وهو أنه حدّهم عند نُكُول زيادٍ عن الشهادة، وأنّ ذلك كان السّبب في إيقاع الحدّ بهم. وتأوله عليه: لقد خفتُ أن يرميَني الله بحجارة من السماء، لا يليق بظاهر الكلام، لأنّه يقتضي التندّم والتأسّف على تفريطٍ وقع، ولِمَ يخافُ أن يرمَى بالحجارة وهو لم يدرأ الحدّ عن مستحق له! ولو أراد الرّدْع والتخويف للمغيرة لأتي بكلام يليق بذلك، ولا يقتضي إضافة التّفريط إلى نفسه. وكونه والياً من قبَله لا يقتضي أن يدرأ عنه الحدّ، ويعدِل به إلى غيره.

وأما قوله: إنّا ما كنّا نعلم أنّ زياداً يتمّم الشهادة، فقد بيّنا أنّ ذلك كان معلوماً بالظاهر، ومَنْ قرأ ما روِي في هذه القصّة علم بلا شكٍّ أن حال زياد كحال الثلاثة، في أنّه إنّما حضر للشهادة، وإنما عدل عنها لكلام عمر.

وقوله: إنّ الشّرع يبيح السكوت، ليس بصحيح، لأنّ الشرع قد حظَر كتمان الشهادة.

فأمّا استدلالُه على أن زياداً لم يفسَّق بالإمساك عن الشهادة بتولية أمير المؤمنين عليه السلام له

فارسَ، فليس بشيء يُعتمَد، لأنه لا يمتنع أن يكون قد تاب بعد ذلك، وأظهر توبتَه لأمير المؤمنين عليه السلام، فجاز أن يولّيه. وقد كان بعضُ أصحابنا يقول في قصّة المغيرة شيئاً طيّباً، وإن كان معتملاً في باب الحجّة، كان يقول: إنّ زياداً إنّما امتنع من التصريح بالشهادة المطلوبة في الزنى، وقد شهد بأنه شاهدَه بين شُعَبها الأربع، وسمع نَفَساً عالياً، فقد صحّ على المغيرة بشهادة الأربع جلوسهُ منها مجلس الفاحشة، إلى غير ذلك من مقدّمات الزنى وأسبابه. فهلاّ ضمّ عمر إلى جلْد الثلاثة تعزيرَ هذا الذي قد صحّ عنده بِشهادة الأربعة ما صحّ من الفاحشة، مثل تعريك أذنه، أو ما يجري مجراه من خفيفِ التّعزير ويسيره! وهل في العدول عن ذلك - حتّى عن لومه وتوبيخه والاستخفاف - به إلاّ ما ذكرُ من السّبب الذي يشهد الحال به!

قلت: أمّا المغيرة فلا شكَّ عندي أنه زنَى بالمرأة، ولكني لست أخطّىء عمر في دَرْء الحدّ عنه، وإنّما أذكر أولاً قصتّه من كتابيْ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وأبي الفرج علي بن الحسن الأصفهانيّ، ليعلم أنّ الرجل زَنَى بها لا محالة، ثم أعتذر لعمر في درء الحدّ عنه.

قال الطّبري في تاريخه: وفي هذه السّنة - يعني سنة سبع عشرة - ولّى عمر أبا موسى البصرة، وأمره أن يُشخص إليه المغيرة بن شعبة، وذلك لأمر بلغه عنه. قال الطبريّ: حدّثني محمد بن يعقوب بن عتبة، قال: حدثني أبي، قال: كان المغيرة يخالف إلى أمّ جميل، امرأة من بني هلال بن عامر، وكان لها زوج من ثقيف هلك قبل ذلك، يقال له الحجاج بن عبيد، وكان المغيرة - وكان أميرَ البصرة - يختلف إليها سرًّا، فبلغ ذلكَ أهَل البصرة، فأعظموه، فخرج المغيرة يوماً من الأيام إلى المرأة، فدخل عليها وقد وضعوا عليهما الرَّصَد، فانطلق القوم الذين شهدوا عند عمر فكشفوا السِّتر، فرأوْه قد واقعها، فكتبوا بذلك إلى عمر، وأوفدوا إليه بالكتاب أبا بَكْرة. فانتهى أبو بكرة إلى المدينة، وجاء إلى باب عمر فسمع صوتَه وبينه وبينه حجاب، فقال: أبو بكرة! فقال: نعم، قال: لقد جئت لشرّ! قال: إنما جاء به المغيرة، ثم قصّ عليه القصة، وعرض عليه الكتاب، فبعث أبا موسى عاملاً، وأمره أن يبعث إليه المغيرة، فلمّا دخل أبو موسى البصرة، وقعد في الإمارة، أهدى إليه المغيرة عقيلَة، وقال: إنّني قد رضيتها لك، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر.

قال الطبريّ: وروى الواقديّ، قال: حدّثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن أبيه، عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: قدم المغيرة على عُمر، فتزوّج في طريقه امرأةً من بني مُرّة، فقال له عمر: إنّك لفارغ القلب، شديد الشَّبَق، طويل الغُرمول، ثم سأل عن المرأة فقيل له - يقال لها الرقطاء: كان زوجها من ثَقيف وهي من بني هلال.

قال الطبريّ(١): وكتب إليّ السريّ، عن شعيب، عن سيف، أنّ المغيرة كان يُبغِض أبا بَكْرة وكان أبو بكرة يُبغضه، ويناغي كلّ واحد منهما صاحبَه وينافره عند كلّ ما يكون منه، وكانا متجاورين بالبصرة، بينهما طريق، وهما في مشرَبتيْن متقابلتين، فهما في داريهما في كلّ واحدة منهما كُوّة مقابلة الأخرى، فاجتمع إلى أبي بكْرة نَفَرٌ يتحدّثون في مَشْربته، فهبّت ريح ففتحت باب الكُوّة، فقام أبو بكْرة ليُصْفِقه، فبصر بالمغيرة وقد فتَحت الرّيح باب الكُوّة التي في مَشْرَبته، وهو بين رِجْليِ امرأة، فقال للنّفر: قوموا فانظروا، فقاموا فنظروا، ثم قال: اشهدوا، قالوا: ومَنْ هذه؟ قال: أمّ جميل، إحدى نساء بني عامر بن صعصعة، فقالوا: إنما رأينا أعجازاً ولا ندري الوجوه! فلمّا قامت صَمّموا، وخرج المغيرة إلى الصلاة، فحال أبو بكْرة بينه وبين الصلاة، وقال: لا تصلّ بنا. وكتبوا إلى عمر بذلك، وكتب المغيرة إليه أيضاً، فأرسل عمر إلى أبي موسى، فقال: يا أبا موسى، إنّي مستعمِلك، وإني باعثُك إلى الأرض التي قد باضَ بها الشيطان وفرّخ، فالزمْ ما تعرف، ولا تستبدلْ فيستبدل الله بك. فقال: يا أميرَ المؤمنين، أعنيّ بعدّة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فإنّي وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملْح لا يصلح الطعام إلاّ به. قال عمر: فاستعِنْ بمن أحببتَ، فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً، منهم أنس بن مالك، وعمران بن حصين، وهشام بن عامر. وخرج أبو موسى بهمْ حتى أناخ بالبصرة في المِرْبد، وبلغ المغيرةَ أن أبا موسى قد أناخ بالمِرْبد، فقال: والله ما جاء أبو موسى زائراً، ولا تاجراً، ولكنه جاء أميراً. فإنّهم لَفِي ذلك إذْ جاء أبو موسى، حتى دخَل عليهم، فدفع إلى المغيرة كتاباً من عمر، إنه لأوجز كتابٍ كتب به أحدٌ من الناس، أربع كَلِم، عزل فيها وعاتب، واستحثّ وأمّر: «أما بعدُ، فإنه بلَغني نبأٌ عظيم، فبعثتُ أبا موسى، فسلّم ما في يديك إليه، والعَجَل».

وكتب إلى أهل البَصْرة: «أمّا بعد، فإنّي قد بعثتُ أبا موسى أميراً عليكم، ليأخذ لضعيفكم من قويّكم، وليقاتل بكم عدوّكم وليدفع عن ذِمّتِكمَ، وليجْبِي لكم فيئَكم، وليقسم فيكم، وليحميَ لكم طُرقكم».

فأهدى إليه المغيرة وليدةً من مولّدات الطائف تدعى عَقيلة، وقال: إني قد رضيتُها لك - وكانت فارهة - وارتحل المغيرة، وأبو بكْرة، ونافع بن كَلَدَة، وزياد، وشِبْل بن معبَد البَجَليّ، حتى قدموا على عمر، فجمع بينهم وبين المغيرة، فقال المغيرة: يا أميرَ المؤمنين، سَلْ هؤلاء الأعبد: كيف رأوْني؟ مستقبلَهم أم مستدبرهم! وكيف رأوا المرأة وعرفوها فإن كانوا مستقبليّ فكيف لم أستتر! وإن كانوا مستدبريّ فبأيّ شيء استحلّوا النّظر إليّ في منزلي على امرأتي! والله ما أتيتُ إلا امرأتي، فبدأ بأبي بَكرة فشهد عليه أنّه رآه بين رجليْ أمّ جميل، وهو يدخِله

(١) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٩٣).

ويخرجه، قال عمر: كيف رأيتَهما؟ قال: مستدبرَهما، قال: كيف استثبتَّ رأسها؟ قال: تجافيتُ. فدعا بِشِبْل بن معبد، فشهد مثل ذلك، وقال، استقبلتُهما واستدبرتُهما. وشهد نافع بمثل شهادة أبي بَكرة، ولم يشهد زياد بمثل شَهادتهم. قال: رأيته جالساً بين رجلِي امرأة، ورأيت قدمين مرفوعتين تَخفقان، واستَين مكشوفتين، وسمعت حَفَزاً شديداً، قال عمر: فهل رأيته فيها كالمِيل في المكحلة؟ قال: لا، قال: فهلْ تعرف المرأة؟ قال: لا، ولكن أشبّهها، فأمر عمر بالثلاثة فجُلدوا الحدّ، وقرأ: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1].

فقال المغيرة: الحمد لله الذي أخزاكم! فصاح به عمر: اسكتْ أسكت الله نَأمَتَك! أما والله لو تمّت الشهادة لرجمتك بأحجارك. فهذا ما ذكره الطبري.

وأمّا أبو الفرج علِي بن الحسين الأصفهانيّ، فإنه ذكر في كتاب الأغاني أنّ أحمد بن عبد العزيز الجوهري، حدّثه عن عمر بن شبّة، عن عليّ بن محمد، عن قتادة، قال: كان المغيرةُ بن شُعبة - وهو أمير البصرة - يختلف سرًّا إلى امرأة من ثقَيف، يقال لها الرقطاء، فلقيَه أبو بَكرة يوماً، فقال له: أين تريد؟ قال: أزور آل فلان، فأخذ بتلابيبه، وقال: إن الأمير يُزار ولا يزور.

قال أبو الفرج: وحدّثني بحديثه جماعة - ذكر أسماءهم بأسانيد مختلفة، لا نرى الإطالة بذكرها - أنّ المغيرة كان يخرج من دار الإمارة وَسَط النهار، فكان أبو بَكْرة يلقاه، فيقول له: أين يذهب الأمير؟ فيقول له: إلى حاجة، فيقول: حاجة ماذا؟ إنّ الأميرَ يُزار ولا يزور!

قالوا: وكانت المرأة التي يأتيها جارةً لأبي بَكْرة، فقال: فبينا أبو بكْرة في غُرفة له مع أخويه: نافع وزياد ورجل آخر يقال له شِبْل بن معبد - وكانت غرفة جارته تلك محاذيةً غرفة أبي بكْرة - فضربت الريح باب غرفة المرأة، ففتحته، فنظر القوم فإذا هم بالمغيرة يَنْكحها، فقال أبو بكرة: هذه بليّة قد ابتلِيتم بها، فانظروا، فنظروا حتى أثبتُوا، فنزل أبو بكْرة، فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة، فقال له أبو بَكْرة: إنه قد كان من أمركما ما قد علمت، فاعتزلْنا. فذهب المغيرة وجاء ليصلّي بالناس الظهر، فمنعه أبو بَكْرة وقال: لا والله لا تصلّي بنا، وقد فعلت ما فعلت! فقال الناس: دعوه فليصلِّ، إنه الأمير! واكتبوا إلى عمر، فكتبوا إليه، فورد كتابه أن يقدَموا عليه جميعاً، المغيرة والشهود.

قال أبو الفرج: وقال المدائنيّ في حديثه: فبعث عمر بأبي موسى، وعزم عليه ألاّ يضع كتابه من يده حتى يرحّل المغيرة.

قال أبو الفرج: وقال عليّ بن هاشم في حديثه: إنّ أبا موسى قال لعمر لما أمره أن يرحّل المغيرة من وقته: أوَ خَيرٌ من ذلك يا أمير المؤمنين؟ نتركه فيتجهزّ ثلاثاً ثم يخرج.

---

(١) سورة النور، الآية: ١٣.

قالوا: فخرج أبو موسى حتى صلّى صلاة الغداة بظهر المِرْبد، وأقبل إنسان فدخل على المغيرة، فقال: إنّي رأيتُ أبا موسى قد دخل المسجد الغداة، وعليه بُرنس، وها هو في جانب المسجد، فقال المغيرة: إنه لم يأت زائراً ولا تاجراً.

قالوا: وجاء أبو موسى، حتى دخل على المغيرة ومعه صَحيفة ملء يده، فلمّا رآه قال: أمير! فأعطاه أبو موسى الكتاب، فلمّا ذهب يتحرّك عن سريره قال له: مكانك! تجهّز ثلاثاً.

قال أبو الفرج: وقال آخرون: إنّ أبا موسى أمره أن يرحَل من وقته، فقال المغيرة: قد علمت ما وجُهت له، فالاّ تقدمت وصلّيت! فقال: ما أنا وأنت في هذا الأمر إلاّ سواء، فقال المغيرة: إنّي أحبّ أن أقيم ثلاثاً لأتجهّز، فقال أبو موسى: قد عزم عليّ أمير المؤمنين ألاّ أضع عهدي في يدي، إذا قرأته حتى أرحّلك إليه. قال: إن شئت شفّعتني، وأبررت قَسَم أمير المؤمنين بأن تؤجّلني إلى الظّهر، وتمسِك الكتاب في يدك.

قالوا: فلقد رئيَ أبو موسى مقبلاً ومدبراً، وإنّ الكتاب في يده معلّق بخيط، فتجهّز المغيرة، وبعث إلى أبي موسى بعَقيلة، جارية عربية من سَبْي اليمامة، من بني حنيفة، ويقال: إنها مولّدة الطائف، ومعها خادم، وسار المغيرة حين صلّى الظهر، حتى قدم على عمر.

قال أبو الفرج: فقال محمد بن عبد الله بن حزم في حديثه: إنّ عمر قال له لما قدم عليه: لقد شُهِد عليك بأمرٍ، إن كان حَقًّا لأَنْ تكون متَّ قبل ذلك كان خيراً لك!

قال أبو الفرج: قال أبو زيد عُمر بن شبّة: فجلس له عمر، ودعا به وبالشهود، فتقدّم أبو بَكْرة، فقال: أرأيتَه بين فخِذيها؟ قال: نعم والله، لكأنّي أنظر إلى تَشريم جدريّ بفخذيها، قال المغيرة: لقد ألطفت النَّظر. قال أبو بَكْرة: لم آلُ أن أثبت ما يخزيك الله به! فقال عمر: لا والله حتى تشهد: لقد رأيتَه يلجُ فيها كما يلج المِرْود في المكحلة، قال: نعم أشهد على ذلك، فقال عمر: اذهَب عنك مغيرة، ذهب رُبْعك.

قال أبو الفرج: ويقال إن علیًّا عليه السلام هو قائل هذا القول. ثم دعا نافعاً فقال: علام تشهد؟ قال: على مثل شهادة أبي بكْرة، فقال عمر: لا حتّى تشهد أنك رأيتَه يَلِج فيها ولوجَ المِرْود في المكحلة، قال: نعم، حتى بلغ قُذَذه فقال: اذهب عنك مغيرة، ذهب نصفُك، ثم دعا الثالث وهو شِبْل بن معبد، فقال: علام تشهد؟ قال: عَلَى مثل شهادة صاحبيّ، فقال: اذهب عنك مغيرة، ذهب ثلاثةُ أرباعك. قال: فجعل المغيرة يبكي إلى المهاجرين، وبكى إلى أمّهات المؤمنين حتى بكيْن معه، قال: ولم يكن زيادٌ حضر ذلك المجلس، فأمر عمر أن ينحّى الشهود الثلاثة، وألاّ يجالسهم أحدٌ من أهل المدينة، وانتظر قدومَ زياد، فلمّا قدم جلس في المسجد، واجتمع رؤوس المهاجرين والأنصار. قال المغيرة: وكنت قد أعددت كلمةً أقولها، فلمّا رأى عمر زياداً مقبلاً، قال: إنّي لأرَى رجلاً لن يخزيَ الله على لسانه رجلاً من المهاجرين.

قال أبو الفرج: وفي حديث أبي زيد بن عمر بن شبّة، عن السريّ، عن عبد الكريم بن رشيد، عن أبي عثمان النّهديّ، أنه لما شهد الشاهد الأول عند عمر، تغيّر لذلك لونُ عمر، ثم جاء الثاني فشهِد، فانكسر لذلك انكساراً شديداً، ثم جاء الثالث فشهِد، فكأنّ الرَّماد نُثر على وجه عمر، فلمّا جاء زياد، جاء شابٌّ يخطِر بيديه، فرفع عمر رأسه إليه وقال: ما عندك أنت يا سَلْح العُقاب - وصاح أبو عثمان النهديّ صيحةً تحكِي صيحة عمر - قال عبد الكريم بن رشيد: لقد كدتُ أن يُغشَى عليّ لصيحته.

قال أبو الفرج: فكان المغيرة يحدّث، قال: فقمتُ إلى زياد، فقلت: لا مخبأ لعِطْرٍ بعد عَرُوس يا زياد، أذكّرك الله وأذكّرك موقفَ القيامة وكتابه ورسوله، أن تتجاوز إلى ما لم ترَ! ثم صحت: يا أمير المؤمنين إنّ هؤلاء قد احتقروا دمي فالله الله في دمي! قال: فترنقّت[1] عينا زياد واحمرّ وجهه، وقال: يا أمير المؤمنين، أما إنّ أحقّ ما حقّ القوم، فليس عندي، ولكني رأيت مجلساً قبيحاً، وسمعت نَفَساً حثيثاً، وانتهاراً، ورأيته متبطّنها، فقال عمر: أرأيته يدخِل ويخرج كالميل في المكحلة؟ قال: لا!

قال أبو الفرج: وروى كثير من الرواة أنه قال: رأيته رافعاً برجليها، ورأيت خُصيتيه متردّدتين بين فخذيها، وسمعت حَفزاً شديداً، وسمعت نفَساً عالياً، فقال عمر: أرأيتَه يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة؟ قال: لا، فقال عمر: الله أكبر! قم يا مغيرة إليهم فاضْربهم، فجاء المغيرة إلى أبي بكْرة فضربه ثمانين وضرب الباقين.

وروى قومٌ أن الضارب لهم الحدّ لم يكن المغيرة، وأعجبَ عمر قولُ زيادٍ ودرأ الحدّ عن المغيرة، فقال أبو بكرة بعد أن ضُرب: أشهد أنّ المغيرة فَعَل كذا وكذا! فهمّ عمر بضربه، فقال له عليّ عليه السلام: إنْ ضربته رجمت صاحبَك! ونهاه عن ذلك.

قال أبو الفرج: يعني إنْ ضربه تصير شهادته شهادتين، فيوجب بذلك الرّجمَ على المغيرة.

قال: فاستتاب عمر أبا بكْرة، فقال: إنّما تستتيبني لتقبل شهادتي، قال: أجل! قال: فإنّي لا أشهد بين اثنين ما بقيتُ في الدنيا! قال: فلمّا ضُربوا الحدّ قال المغيرة: الله أكبر، الحمد لله الذي أخزاكم! فقال عمر: اسكت أخزى الله مكاناً رأوْك فيه[2]!

قال: وأقام أبو بكْرة على قوله، وكان يقول: والله ما أنسى قط فخِذيْها، وتاب الاثنان، فقبل شهادتهما، وكان أبو بَكْرة بعد ذلك إذا طُلب إلى شهادة قال: اطلبوا غيري، فإنّ زياداً أفسد عليّ شهادتي.

---

(١) التّرنيق: إدامة النظر. لسان العرب، مادة (رنق).

(٢) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٩٥.

وقال أبو الفرج: وروى إبراهيم بن سعيد، عن أبيه، عن جده، قال: لما ضُرِب أبو بكرة أمرت أمّه بشاة فذبحت وجعل جِلْدَها على ظهره، قال إبراهيم: فكان أبي يقول: ما ذاك إلاّ من ضربٍ شديد.

قال أبو الفرج: فحدّثنا الجوهريّ، عن عمر بن شبّة، عن عليّ بن محمد عن يحيى بن زكريا، عن مجالد، عن الشعبيّ، قال: كانت الرقطاء التي رُمِي بها المغيرة تختلف إليه في أيّام إمارته الكوفة، في خلافة معاوية في حوائجها، فيقضيها لها.

قال أبو الفرج: وحجّ عمر بعد ذلك مَرّةً، فوافق الرقطاء بالموسم، فرآها، وكان المغيرة يومئذ هناك، فقال عمر للمغيرة: ويحك! أتتجاهل عليّ! والله ما أظنّ أبا بكْرة كَذَب عليك، وما رأيتكَ إلاّ خفت أن أرمى بحجارة من السماء!

قال: وكان عليٌّ عليه السلام بعد ذلك يقول: إن ظفرتُ بالمغيرة لأتبعتُه الحجارة[1].

قال أبو الفرج: فقال حَسّان بن ثابت يهجو المغيرة ويذكر هذه القصّة:

لو أنّ اللؤمَ ينسَبُ كان عبداً ... قبيحَ الوجه أعورَ من ثقيفِ

تركتَ الدين والإسلام لَمّا ... بدت لك غُدْوة ذاتُ النّصِيفِ

وراجعت الصِّبا وذكرت لهواً ... مع القَيْنات في العُمْرِ اللّطيف

قال أبو الفرج: وروى المدائنيّ أن المغيرة لما شخص إلى عمر في هذه الوقعة، رأى في طريقه جاريةً فأعجبته، فخطبها إلى أبيها، فقال له: وأنت على هذه الحال! قال: وما عليك! إن أبْقَ فهو الذي تريد، وإن أقتل تَرِثْني. فزوّجه.

وقال أبو الفرج: قال الواقديّ: كانت امرأة من بني مُرّة، تزوّجها بالرَّقم، فلما قدِم بها على عُمر، قال: إنك لفارغ القلب، طويل الشَّبَق.

فهذه الأخبار كما تراها تدلّ متأمّلَها على أنّ الرجل زَنَى بالمرأة لا محالة، وكلّ كتب التواريخ والسِّيَر تشهد بذلك، وإنما اقتصرنا نحنُ منها على ما في هذين الكتابين.

وقد روى المدائنيّ أنّ المغيرة كان أزنى الناس في الجاهليّة، فلمّا دخل في الإسلام قيّده الإسلام، وبقيتْ عنده منه بقية ظهرت في أيام ولايته البصرة.

وروى أبو الفرج في كتاب الأغاني عن الجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر، قال: كان المغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وجَرير بن عبد الله البجَليّ يوماً متوافِقين بالكُناسة في نفر، وطلع عليهم أعرابيّ، فقال لهم المغيرة: دعوني أحرّكه، قالوا: لا تفعل، فإنّ للأعراب جواباً يُؤْثَر، قال: لا بدّ، قالوا: فأنت أعلم، فقال له: يا أعرابيّ، أتعرف المغيرة بن شعبة؟ قال:

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٠/٦٤٨.

نعم أعرفه، أعورَ زانياً، فوجَم ثمّ تجلّد، فقال: أتعرف الأشعث بن قيس؟ قال: نعم ذاك رجل لا يغْرَى قومه، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنّهم حاكَة. قال: فهل تعرف جرير بن عبد الله؟ قال: كيف لا أعرف رجلاً لولاه ما عرفت عشيرته! فقالوا: قَبَحك الله، فإنك شرّ جليس، هل تحب أن يُوقَر لك بعيرُك هذا مالاً وتموت أكرم العرب موتة؟ قال: فمن يبلّغه إذن أهلي؟ فانصرفوا عنه فتركوه.

قال أبو الفرج: وروى عليّ بن سليمان الأخفش، قال: خرج المغيرة بن شعبة وهو يومئذ على الكُوفة، ومعه الهيثم بن التَّيِّهان النَّخَعِيّ غبّ مطر يسير، في ظهر الكوفة والنَّجَف، فلقي ابن لسان الحمّرة، أحد بني تيم الله بن ثعلبة، وهو لا يعرف المغيرة ولا يعرفه المغيرة، فقال له: من أينَ أقبلت يا أعرابيّ؟ فقال: من السَّماوة؟ قال: كيف تركتَ الأرض خلْفك؟ قال: عريضة أريضة، قال: فكيف كان المطر؟ قال: عَفّى الأثر، وملأ الحُفَر، قال: فمن أنتَ؟ قال: من بكر بن وائل، قال: كيف علمُك بهم؟ قال: إن جهلتُهم لم أعرف غيرَهم، قال: فما تقول في بني شيبان؟ قال: سادتنا وسادة غيرنا، قال: فما تقول في بني ذُهْل؟ قال: سادة نَوْكى، قال: فقيس بن ثعلبة؟ قال: إن جاورتهم سرقوك، وإن ائتمنتهم خانوك، قال: فبنو تَيْم الله بن ثعلبة؟ قال: رعاء النَّقَد وعراقيب الكلاب، قال فبني يَشْكُر؟ قال: صريح تحسبُه مولى.

قال هشام بن الكلبي: لأنّ في ألوانهم حُمرة. قال: فعِجْل؟ قال: أحلاس الخيل، قال: فعبد القيس؟ قال: يطعمون الطعام ويضربون الهام، قال: فَعَنَزة؟ قال: لا تلتقي بهم الشفتان لؤماً، فضُبَيعة أضجَم؟ قال: جَدْعاً وعَقْراً! قال: فأخبرني عن النّساء، قال: النساء أربع: ربيع مُربِع، وجميع مجمع، وشيطان سَمَعْمع، وغلّ لا يخلَع، قال: فَسِّر، قال: أما الربيع المربع، فالتّي إذا نظرتَ إليها سرّتك، وإذا أقسَمت عليها برّتك، وأما التي هي جَميع مجمع، فالمرأة تتزوّجها ولها نسب فيجتمع نسبُها إلى نسبك، وأما الشيطان السَّمعمع فالكالحة في وجهك إذا دخلْت، المولولة في أثرك إذا خرجت، وأما الغُلّ الذي لا يُخلع، فبنت عَمّك السوداء القصيرة، الفوْهاء الدّميمة، التي قد نثرت لك بطنَها، إن طلقتَها ضاع ولدُك، وإن أمسكتها فعَلى جَدْع أنفك. قال المغيرة: بل أنفُك. قال: فما تقول في أميرك المغيرة بن شعبة؟ قال: أعور زانٍ، فقال الهيثم بن الأسود: فضّ الله فاك! ويلك إنه الأمير المغيرة! قال: إنها كلمة تقال. فانطلق به المغيرة إلى منزله، وعنده يومئذ أربع نسوة وستون - أو سبعون - أمة، وقال: ويحك! هل يزني الحرّ وعنده مثل هؤلاء! ثم قال لهنّ: ارمين إليه بحلْيكنّ، ففعلن، فخرج بملء كسائه ذهباً وفضة.

وإنما أوردنا هذين الخبرين ليعلم السامع أن الخبر بزناه كان شائعاً مشهوراً مستفيضاً بين الناس، ولأنهما يتضمّنان أدباً، وكتابنا هذا موضوع للأدب.

وإنما قلنا: إن عمر لم يخطىء في دَرْء الحدّ عنه، لأن الإمام يستَحبُّ له ذلك، وإن غلب على ظَنّه أنه قد وجب الحدّ عليه، روى المدائنيّ أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام أتِيَ برجلٍ قد وجب عليه الحدّ، فقال: أها هنا شهود؟ قالوا: نعم، قال: فأتوني بهم إذا أمسيتم، ولا تأتوني إلا معتمِين، فلمّا اعتموا جاؤوه، فقال لهم: نشدت الله رجلاً ما لي عنده مثل هذا الحدّ إلا انصرف! قال: فما بَقِيَ منهم أحدٌ. فدرأ عنه الحدّ. ذكر هذا الخبر أبو حيّان في كتاب البصائر في الجزء السادس منه.

والخبر المشهور الّذي كاد يكون متواتراً أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ادرؤوا الحدود بالشبُهات»[1]. ومَنْ تأمّل المسائل الفقهيّة في باب الحدود، علم أنها بنيتْ على الإسقاط عند أدنى سببٍ وأضعفه، ألا ترى أنه لو أقرّ بالزنى ثم رجع عن إقراره قبل إقامة الحدّ، أو في وسطه قُبِل رجوعه وخلّي سبيله!

وقال أبو حنيفة وأصحابه: يستحبّ للإمام أن يلقّن المقرّ الرجوع، ويقول له: تأمّل ما تقول، لعلك مَسَسْتَها، أو قبّلتها. ويجب على الإمام أن يسأل الشهود: ما الزنى؟ وكيف هو؟ وأين زنى؟ وبمن زنى؟ ومتى زنى؟ وهل رأوه وطئها في فَرْجها كالمِيل في المكْحُلة؟ فإذا ثبت كلّ ذلك سأل عنهم، فلا يقيم الحدّ حتى يعدّلهم القاضي في السرّ والعلانية، ولا يقام الحدّ بإقرار الإنسان على نفسه، حتى يقرّ أربعَ مرات في أربعة مجالس، كلما أقرّ ردّه القاضي، وإذا تمّ إقراره سأله القاضي عن الزّنى؟ ما هو؟ وكيف هو؟ وأين زنى؟ وبمن زنى؟ ومتى زنى؟

قال الفقهاء: ويجب أن يبتدىء الشهود برجْمه إذا تكاملت الشهادة، فإن امتنعوا من الابتداء برجْمه سقط الحدّ.

قالوا: ولا حدّ على مَنْ وطِىء جارية ولده، أو ولد ولده، وإن قال: علمت أنّها عَلَيّ حرام، وإن وطىء جارية أبيه أو أمّه أو أخته، وقال: ظننت أنها تحلّ لي فلا حدّ عليه، ومَنْ أقرّ أربعَ مرات في مجالسَ مختلفة بالزّنى بفلانة، فقالت هي: بل تزوّجني، فلا حدّ عليه، وكذلك إن أقرّت المرأة بأنّه زنى بها فلانٌ، فقال الرجل: بل تزوّجتها، فلا حدّ عليها، قالوا: وإذا شَهِد الشهود بحدّ متقادم من الزنى لم يمنعهم عن إقامته بعدُهم عن الإمام، لم تقبل شهادتهم إذا كان حدّ الزنى، وإن شهدوا أنه زنى بامرأة ولا يعرفونها لم يحدّ، وإن شهد اثنان أنّه زنى بامرأةٍ بالكوفة، وآخران أنه زنَى بالبصرة دُرِىء الحدُّ عنهما جميعاً، وإن شهد أربعة على رجل أنه زنى بامرأة بالنُّخَيلة عند طلوع الشمس من يوم كذا وكذا، وأربعة شهدُوا بهذه المرأة عند طلوع

(١) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (٣١٤)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٦٦)، والمتقي الهندي، في «كنز العمال».

الشمس ذلك اليوم بدير هنْد دُرِىء الحدّ عنه وعنها وعنهم جميعاً، وإن شهد أربعة على شهادة أربعة بالزنى لم يحدُّ المشهود عليه.

وهذه المسائل كلُّها مذهب أبي حنيفة، ويوافقه الشافعيّ في كثير منها، ومَنْ تأمّلها علم أنَّ مبنى الحدود على الإسقاط بالشبهات، وإن ضعفت.

فإن قلت: كلّ هذا لا يلزم المرتضى، لأن مذهبه في فروع الفقه مخالف لمذهب الفقهاء.

قلت: ذكر محمد بن النعمان - وهو شيخ المرتضى، الذي قرأ عليه فقه الإمامية - في كتاب المقنعة أن الشهود الأربعة إن تفرقوا في الشهادة بالزنى ولم يأتوا بها مجتمعين في وقت في مكان واحد، سقط الحدّ عن المشهود عليه، ووجب عليهم حدّ القذف.

قال: وإذا أقرّ الإنسان على نفسه بالزنى أربعَ مرات على اختيارٍ منه للإقرار وجب عليه الحدّ، وإن أقرّ مرّة أو مرّتين أو ثلاثاً لم يجبْ عليه الحدّ بهذا الإقرار، وللإمام أن يؤدّبه بإقراره على نفسه حسب ما يراه، فإن كان أقرّ على امرأة بعينها جُلد حدّ القذف.

قال: وإن جعل في الحفرة ليرجَم وهو مقرٌّ على نفسه بالزنى ففرّ منها، ترك ولم يردّ، لأن فِراره رجوعٌ عن الإقرار، وهو أعلم بنفسه.

قال: ولا يجب الرّجم على المحصَن الذي يعدّه الفقهاء محصَناً، وهو من وطىء امرأة في نكاحٍ صحيح، وإنما الإحصان عندنا مَنْ له زوجة أو مِلْك يمينٍ يستغني بها عن غيرها، ويتمكّن من وطئها، فإن كانت مريضَة لا يصل إليها بنكاح، أو صغيرة لا يوطأ مثلها، أو غائبة عنه أو محبوسة لم يكن محصَناً بها، ولا يجب عليه الرّجم.

قال: ونكاح المتْعة لا يحصِّن عندنا، وإذا كان هذا مذهب الإماميّة، فقد اتفّق قولهم وأقوال الفقهاء في سقوط الرّجم بأدنى سبب، والذي رواه أبو الفرج الأصفهاني: إن زياداً لم يحضر في المجلس الأول، وأنه حضر في مجلس ثانٍ، فلعلّ إسقاط الحدّ كان لهذا.

ثم نعود إلى تصفّح ما اعترض به المرتضى كلام قاضي القضاة.

أما قوله: كان الحدّ في حكم الثابت، فإن الله تعالى لم يوجب الحدّ إلا إذا كان ثابتاً، ولم يوجبه إذا كان في حكم الثابت، ويسأل عن معنى قوله: «في حكم الثابت»: هل المراد بذلك أنه قريب من الثبوت، وإن لم يثبت حقيقة، أم المراد أنه قد ثبت وتحقق؟ فإن أراد الثاني، قيل له: لا نُسلّم أنه ثبت، لأن الشهادة لم تتمّ، وقد اعترف المرتضى بذلك، وأقرّ بأن الشهادة لم تكمُل، ولكنه نسب ذلك إلى تلقين عمر، وإن أراد الأوّل قيل له: ليس يكفي في وجوب الحدّ أن يكون قريباً إلى الثبوت، لأنه لو كفى ذلك لحدّ الإنسانُ بشهادة ثلاثة من الشهود.

وأما قوله: إنّ عمر لقّنه وكره أن يشهد، فلا ريب أنّ الأمر وقع كذلك، وقد قلنا: إنّ هذا

جائز بل مندوب إليه، ورَوينا عن أمير المؤمنين ما رويناه، وذكرنا قول الفقهاء في ذلك وأنهم استحبُّوا أن يقول القاضي للمقرّ بالزنى: تأمّل ما تقوله، لعلك مسستَها أو قبّلتها!

فأما قول المرتضى: إنه درأ الحدّ عن واحد، وكان درؤه عن ثلاثة أوْلى، فقد أجاب قاضي القضاة عنه بأنّه ما كان يمكن دفعه عنهم.

فأما قول المرتضى: بل قد كان يمكن دفعه عنهم، بألاّ يلقّن الرّابع الامتناع من الشهادة، فقد أجاب قاضي القضاة عنه: بأنّ الزّنى ووسْم الإنسان به أعظم وأشنعُ وأفحشُ من أن يوسَم بالكذب والافتراء، وعقوبة الزاني أعظم من عقوبة الكاذب القاذف عند الله تعالى في دار التّكليف، يبيّن ذلك أنّ الله تعالى أوجبَ جلْد ثلاثة من المسلمين، لتخليص واحد شهد الثلاثةُ عليه بالزّنى، فلو لم يكن هذا المعنى ملحوظاً في نظر الشّارع لما أوجبه، فكيف يقول المرتَضى: ليس لأحدِ الأمرين إلا ما في الآخر!

وأما خبرُ السارق الذي رَواه قاضي القضاة، وقول المرتضَى في الاعتراض عليه: ليس في دفع الحدّ عن السارق إيقاع غيره في المكروه، وقِصّة المغيرة تخالف هذا، فليس بجيّد لأنّ في دفع الحدّ عن السارق إضاعة مال المسلم الذي سرق السارق في زمانه. وفيه أيضاً إغراء أهل الفساد بالسَّرِقة، لأنّهم إذا لم يقم الحدّ عليهم لمكان الجحود أقدموا على سرِقة الأموال، فلو لم يكن عناية الشارع بالدماء أكثر من عنايته بغيره من الأموال والأبشار لما قال للمكلّف: لا تقرّ بالسرقة ولا بالزنى، ولما رجّح واحداً على ثلاثة، وهان في نظره أن تضرَب أبشارهم بالسياط، وهم ثلاثة حفظاً لدم واحد.

وأمّا حديثُ صَفْوان وقول المرتضَى فلا يشبه كلّ ما نحن فيه، لأنّ الرسول ﷺ بيّن أن ذلك القوْل يسقط الحدّ لو تقدم، وليس فيه تلقين يوجب إسقاط الحدّ.

فجوابه أنّ قاضي القضاة لم يقصد بإيراد هذا الخبر إلاّ تشييدَ قول عمر: أرى وجهَ رجلٍ لا يفضح الله به رجلاً من المسلمين، لأن عمر كرِه فضيحة المغيرة، كما كره رسول الله ﷺ فضيحة السارق الذي قال صفوان: «هو له»، وقال ﷺ: «هلا قبل أن تأتيني به!»[1] أي هلاّ قلتَ ذلك قبل أن تحضره، فلم يفتضح بين الناس! فإنّ قولك: «هو له»، وإن درأ الحدّ إلا أنّه لا يدرأ الفضيحة!

فأمّا ما حكاه قاضي القُضاة عن أبي عليّ، من أن القذف قد كان تقدّم منهم وهم بالبصرة،

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٣٩٤)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٥)، والنسائي في قطع السارق، باب الرجل يتجاوز للسارق عن سرقته (٤٨٧٩).

فقد ذكرنا في الخبر ما يدلّ على ذلك، فبطل قول المرتضى: إن ذلك غير معروف، وإنّ الظاهر المرويّ خلافه.

وأما قول عمر للمغيرة: ما رأيتكَ إلاّ خفت أن يرميَني الله بحجارة من السماء(١)، فالظاهر أن مراده ما ذكره قاضي القضاة من التخويف وإظهار قوة الظنّ بصدق الشهود، ليكونَ ردْعاً له، ولذلك وَرَد في الخبر: ما أظنّ أبا بَكْرة كذب عليك، تقديره: أظنّه لم يكذب، ولو كان كما قال المرتضى ندماً وتأسّفاً على تفريط وقع، لأقام الحدّ عليه، ولو بعد حين، ومَن الّذي كان يمنعه من ذلك لو أراده!

وقوله: لِمَ يخافُ أن يرمَى بالحجارة وهو لم يدرأ الحدّ عن مستحق له؟ جوابه أنّ هذا القول يجري مجرى التّهويلَ والتخويف للمغيرة، كيلا يقدم على أن يعرّض نفسه لشبهة فيما بعد.

فأما قول قاضي القضاة: إنّه غيرُ ممتنع أن يحبّ ألاّ يفتضح لما كان متولياً للبصرة من قبَله، وقول المرتضى معترضاً عليه: إن كونه والياً من قبَله لا يقتضي أن يدرأ عنه الحدّ، فغير لازم، لأنّ قاضي القضاة ما جعل كونه والياً من قبَله مقتضياً أن يدَرأ عنه الحدّ، وإنما قاله في جواب مَنْ أنكر على عمر محبّته لدرء الحدّ عنه، فقال: إنه غير قبيح، ولا يحرم محبّة درء الحدّ عنه لأنه والٍ من قبَله! فجعل الولاية للبصرة مسوّغة لمحبّة عمر لدفع الحدّ عنه، لا مسوّغة لدفع الحدّ عنه، وبين الأمرين فرق واضح.

وأما قول المرتَضى: إنّ الشرع حَظَر كتمان الشهادة، فصحيح فيما عدا الحدود، فأما في الحدود فلا، وقد وَرَد في الخبر الصحيح: «مَنْ رأى على أخيه شيئاً من هذه القاذورات وستر، ستره الله يوم يفتضح المجرمون»(٢).

فأما قول المرتضَى: هب أنّ الحدّ سقط، أمَا اقتضت الحال تأديبَ المغيرة بنوع من أنواع التعزير وإن خفّ! فكلام لازم لا جواب عنه، ولو فعله عمر لبرِىء من التهمة براءة الذئب من دم يوسف، وما أدري كيف فاته ذلك مع تشدّده في الدين وصلابته في السياسة! ولعله كان له مانع عن اعتماد ذلك لا نعلمه!

الطعن السابع: أنه كان يتلوّن في الأحكام، حتى رُوِي أنّه قضَى في الجَدّ بسبعين قضيّة -

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ٣٠/٦٤٩.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب: الحدود، باب: ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنى (١٥٦٢).

ورُوِي مائة قضيّة - وأنّه كَان يفضّل في القسمة والعطاء وقد سوّى الله تعالى بين الجميع، وأنه قال في الأحكام من جهة الرأي والحَدْس والظنّ.

أجاب قاضي القضاة عن ذلك، فقال: مسائل الاجتهاد يسوغ فيها الاختلاف والرجوع عن رأي إلى رأي بحسَب الأمارات وغالب الظنّ، وقد ذكر أنّ ذلك طريقة أمير المؤمنين عليه السلام في أمّهات الأولاد، ومقاسمة الجدّ مع الإخوة، ومسألة الحرام.

قال: وإنما الكلام في أصل القياس والاجتهاد، فإذا ثَبت ذلك خرج من أن يكون طعناً، وقد ثبت أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كَان يولّي من يرَى خلاف رأيه، كَابن عباس وشُريح، ولا يمنع زيداً وابن مسعود من الفُتْيا مع الاختلاف بينه وبينهما.

فأما ما رُوِي من السبعين قضيّة، فالمراد به في مسائل من الجدّ، لأنّ مسألة واحدة لا يوجَد فيها سبعون قضيّة مختلفة، وليس في ذلك عيْب، بل يدلّ على سعَة علمه.

وقال: قد صحّ في زمانِ الرسول صلى الله عليه وآله مثلُ ذلك، لأنه لمّا شاور في أمر الأسرى أبا بكر أشار ألاّ يقتلهم، وأشار عمر بقتلهم، فمدحهما جميعاً، فما الذي يمنع من كون القولين صواباً من المجتهديْن، ومن الواحد في حاليْن؟

وبعد، فقد ثبت أن اجتهاد الحسن عليه السلام في طلب الإمامة كَان بخلاف اجتهاد الحسين عليه السلام، لأنّه سلّم الأمر وتمكُّنه أكثرُ من تمكّن الحسين عليه السلام، ولم يمنع ذلك من كونهما عليهما السلام مُصيبيْن.

اعترض المرتضَى هذا الجواب، فقال: لا شكّ أن التلوّن في الأحكام والرجوع من قضاء إلى قضاء، إنما يكون عَيْباً وطعناً إذا أبطِل الاجتهاد الذي يذهبون إليه فأمّا لو ثبت لم يكن ذلك عيباً، فأما الدعوى على أمير المؤمنين عليه السلام أنّه تنقّل في الأحكام ورجع مِنْ مذهب إلى آخر، فإنها غيرُ صحيحة، ولا نسلّمه، ونحن ننازعه فيها، وهو لا ينازعنا في تلوّن صاحبه وتنقله، فلم يشتبه الأمران.

وأظهرُ ما رُوِي في ذلك خَبَر أمّهات الأولاد، وقد بينا فيما سلف من الكتاب ما فيه، وقلنا: إنّ مذهبه في بيعهنّ كان واحداً غير مختلف، وإن كان قد وافق عمر في بعض الأحوال لضرْب من الرّأي، فأمّا توليتُه لمن يرى خلاف رأيه، فليس ذلك لتسويغه الاجتهاد الذي يذهبون إليه، بل لما بيّناه من قبل، أنه عليه السلام كان غير متمكّن من اختياره، وأنّه يجري أكثر الأمور مجراها المتقدّم للسياسة والتدبير، وهذا السّبب في أنّه لم يمنع مَنْ خالفه في الفُتيا.

فأما قوله: إنّ السّبعين قضيّة لم تكن في مسألة واحدة، وإنّما كانت في مسائل من الجدّ، فكلا الأمرين واحد فيما قصدناه، لأنّ حكم الله تعالى لا يختلِف في المسألة الواحدة

والمسائل، فأمّا أمرُ الأسارَى فإنْ صحّ فإنّه لا يشبه أحكام الدين المبنية على العلم واليقين، لأنّه لا سبيلَ لأبي بكر وعمر إلى المشورة في أمر الأسارى إلاّ من طريق الظنّ والحُسْبان، وأحكامُ الدين معلومة وإلى العلم بها سبيل.

وما ادّعاه من اجتهاد الحَسن بخلاف اجتهاد الحُسين ليس على ما ظنّه، لأنّ ذلك لم يكن عن اجتهاد وظنّ، بل كَان عن علْم ويقين، فمن أين له أنهما عملا على الظّن! فما نراه اعتمد على حُجّة! ومن أينَ له أنّ تمكُّنَ الحسَن كان أكثر من تمكن الحسين! عَلَى أنّ هذا لو كان عَلَى ما قاله لم يحسن من هذا التّسليم ومن ذاك القتال، لأنّ المقاتل قد يكون مغرّراً مُلْقِياً بيديْه إلى التهلُكة، والمسالم مضيّعاً للأمر مفرّطاً، وإذا كان عند صاحب الكتاب التّسليم والقتال إنّما كانا عن ظنّ وأمارات فليس يجوز أن يغلِب على الظنّ بأنّ الرأي في القتال مع ارتفاع أمارات التمكن، ولا أن يغلب في الظنّ المسالمة مع قوّة أمارات التمكن.

قلت: أمّا القولُ في صحّة الاجتهاد وبطلانه، فله مواضع غير هذا الموضع، وكذلك القول في تقيّة الإمام واستصلاحه وفعله ما لا يسوغ لضرب من السيّاسة والتدبير.

وأمّا مسائل الجدّ فلم يعترض المرتضى قولَ قاضي القضاة فيها، وأمّا قاضي القُضاة فقد استبعد، بل أحال أن تكون مسألة واحدة بعينها تحتمل سبعين حُكْماً، مختلفة، فحمل الحديث على أنّ عُمر أفتى في باب ميراث الأجداد والجدّات بسبعين فتيا في سبعين مسألة مختلفة الصّور، وذلك دليل على علمه وفقهه، وتمكّنه من البحث في تفاريع المسائل الشرعية.

هذا هو جواب قاضي القضاة، فكيف يعترض بقوله: كلا الأمرين واحد فيما قصدناه، لأن حكم الله لا يختلف في المسألة الواحدة والمسائل المتعددة، أليس هذا اعتراض مَنْ ظَنّ أنّ قاضي القضاة قد اعترض بتناقض أحكامه، ولكن لا في مسألة بعينها، بل في مسائل من باب ميراث الجدّ! ولم يقصد قاضي القضاة ما ظنّه، والوجه أن يعترض قاضي القضاة فيقال: إن الرّواة كلّهم اتفقوا على أنّ عمر تلوّن تلوناً شديداً في الجدّ مع الإخوة كيف يقاسمهم؟ وهي مسألة واحدة، فقضى فيها بسبعين قضيّة، فأخرجوا الرواية مخرج التعجّب من تناقض فتاويه، ولم يخرج أحدٌ من المحدّثين الرواية مخرج المدح له بسعة تفريعه في الفقه والمسائل، فلا يجوز صرفُ الرّواية عن الوضع الذي وردت عليه.

وقول قاضي القضاة: كيف تحتمل مسألة واحدة سبعين وجهاً! جوابه أنّه لم يقع الأمر بموجب ما توهّمه، بل المراد أنّ قوماً تحاكموا إليه في هذه المسألة مثلاً اليوم، فأفتى فيها بفُتيا، نحو أن يقول في جدّ وبنت وأخت: للبنْت النّصف والباقي بين الجدّ والأخت، للذّكرِ

مثل حظ الأنثيين، وهو قول زيد بن ثابت، ثم يتحاكم إليه بعد أيام في هذه المسألة بعينها، قد وقعت لقوم آخرين، فيقول: للبنت النصف وللجدّ السدس، والباقي للأخت، وهو المذهب المحكيّ عن عليٍّ عليه السلام، وذلك بأن يتغلّب على ظنّه ترجيحُ هذه الفُتيا على ما كان أفتى به من قبل، ثم تقع هذه المسألة بعينها بعد شهر آخر، فيفتِي فيها بفتيا أخرى، فيقول: للبنت النصف والباقي بين الجدّ والأخت نصفيْن، وهو مذهب ابن مسعود، ثم تقع المسألة بعينها بعد شهر آخر، فيقضي فيها بالفُتْيا الأولى، وهي مذهب زيد، بأنْ يعود ظنُّه مترجّحاً متغلّباً لمذهب زيد، ثم تقع المسألة بعينها بعد وقت آخر، فيفتي فيها بقول عليٍّ عليه السلام، وهكذا لا تزال المسألة بعينها تقع، وأقواله فيها تختلف، وهي ثلاثة لا مزيد عليها، إلا أنه لا يزال يفتي فيها فتاوَى مختلفة، إلى أن توفِّيَ فأحصيت، فكانت سبعين فتيا.

فأمّا احتجاجُ قاضي القضاة بقصّة أسرى بدر فجيّد، وأمّا ما اعترض به المرتضى فليس بجيّد، لأن المسألة من باب الشّرع، وهو قتل الأسرى أو تخليتُهم بالفداء، والقَتل وإراقة الدم من أهم المسائل الشرعية، وقد علم من الشارع شدة العناية بأمر الدنيا، فإن كانت أحكام الشرع لا يجوز أن تتلقّى، وأن يفتى فيها إلا بطريق معلومة، وأن الظن والاجتهاد لا مدخلَ له في الشّرع - كما يذهب إليه المرتضَى - فكيف جَازَ مِن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يشاورَ في أحكام شرعيّة مَنْ لا طريق له إلى العلم، وإنّما قصارَى أمره الظنّ والاجتهاد والحسبان! وكيف مدحهما جميعاً، وقد اختلفا، ولا بد أن يكون أحدهما مخطئاً!

وأما قول المرتضَى: مِنْ أينَ لقاضي القُضاة أنّ ما اعتمدَه الحسنُ والحسين من الكفّ والإقدام كان عن الاجتهاد! فجيّد، وجواب صحيح على أصول الإمامية، لأنه ليس بمستحيل أن يعتمدا ذلك بوصيّة سابقة من أبيهما عليه السلام.

وأما قوله لقاضي القضاة: كلامُك مضطرب، لأنّك أسندت ما اعتمداه إلى الاجتهاد، ثم قلت: وقد كان تمكُّن الحسن أكثر من تمكن الحسين عليه السلام، وهذا يؤدّي إلى أن أحدهما غرّر بنفسه والآخر فرَّط في تسليم حَقِّه، فليس بجيّد. والذي أراده قاضي القضاة الدلالة على جواز الاجتهاد، وأنه طريقة المسلمين كلهم، وأهل البيت عليهم السلام، وأومأ إلى ما اعتمده الحسن من تسليم الأمر إلى معاوية، وما اعتمده الحسين من مُنازعة يزيد الخلافة، فعمِلا فيها بموجب اجتهادهما، وما غلَب على ظنونهما من المصلحة، وقد كان تمكن الحسن عليه السلام في الحال الحاضرة أكثرَ من تمكن الحسين عليه السلام في حالِه الحاضرة، لأن جند الحسن كان حوله ومُطيفاً به - وهم كما روي مائة ألف سيف - ولم يكن مع الحسين عليه السلام ممّن يحيط به ويسير بمسيره إلى العراق إلا دون مائة فارس، ولكن ظنهما في عاقبة الأمر ومستقبل الحال كان مختلفاً، فكان الحسن يظنّ خذلان أصحابه عند اللقاء والحرب، وكان الحسين عليه السلام يظنّ نُصرة

أصحابه عند اللقاء والحرب، فلذلك أحجم أحدهما وأقدم الآخر، فقد بان أنّ قول قاضي القضاة غيرُ مضطرب ولا متناقض.

الطعن الثامن: ما روي عن عمر من قوله: «مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما»(١)، وهذا اللفظ قبيح لو صحّ المعنى، فكيف إذ افَسَد! لأنه ليس ممّن يشرّع فيقول هذا القول، ولأنّه يُوهم مساواة الرسول ﷺ في الأمر والنّهي، وأنّ اتّباعه أَوْلى من اتّباع رسول الله ﷺ.

أجاب قاضي القضِاة، فقال: إنه إنما عَنَى بقوله: «وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما» كراهتَه لذلك، وتشدّده فيه، من حيث نهى رسول الله ﷺ عنهما بعد أن كانتا في أيامه، منبِّهاً بذلك على حصول النَّسْخ فيهما وتغيُّر الحكْم، لأنّا نعلم أنه كان متبعاً للرّسول، متديّناً بالإسلام، فلا يجوز أن نحمل قوله على خلاف ما تواتر من حاله. وحكي عن أبي عليّ أن ذلك بمنزلة أن يقول: إني أعاقب مَنْ صلّى إلى بيت المقدس، وإن كان صُلِّيَ إلى بيت المقدس في حياة رسول الله ﷺ. واعتمد في تصويبه على كفّ الصحابة عن النّكير عنه. وادّعى أن أميرَ المؤمنين عليه السلام أنكَر على ابن عباس إحلال المُتْعة، وروي عن النبي ﷺ تحريمهما، فأمّا مُتْعة الحج فإنما أراد ما كانوا يفعلون من فَسْخ الحجّ، لأنه كان يحصل لهم عنده التمتع، ولم يرد بذلك التمتع الّذِي يجري مجرى تقدّم العمرة وإضافة الحجّ إليها بعد ذلك، لأنّه جائز لم يقع فيه قبح.

اعترض المرتضى هذا الكلام فقال: ظاهر الخبر المرويّ عن عمر في المتعتَيْن يبطل هذا التأويل، لأنه قال: «مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما»، فأضاف النّهي إلى نفسه، ولو كان الرسول نَهَى عنهما لأضاف النّهي إليه، فكان آكد وأوْلَى، فكان يقول: فنهى عنهما أو نسخهما وأنا من بعده أنهى عنهما وأعاقب عليهما.

وليس يشبه ما ذكره من الصّلاة إلى بيت المقدس، لأنّ نسخ الصلاة إلى بيت المقدس معلومٌ ضرورةً من دينه ﷺ، وليس كذلك المتعة، على أنّه لو قال: إنَّ الصلاة إلى بيت المقدس كانت في أيام النبي ﷺ جائزةً وأنا الآن أنهى عنها لكان قبيحاً شنيعاً، مثل ما استقبحنا من القول الأوّل، وليس هذا القول منه ردًّا على الرسول ﷺ، لأنه لا يمتنع أن يكون استحسن

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٧/ ٢٠٦)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٥٢).

حَظْرها في أيّامه لوجهٍ لم يكن فيما تقدم، واعتقد أنَّ الإباحة في أيام رسول الله ﷺ كان لها شرط لم يوجَد في أيامه، وقد روي عنه أنّه صرّح بهذا المعنى، فقال: إنما أحلَّ الله المتعةَ للنّاس على عهد رسول الله ﷺ، والنساء يومئذ قليلة، ولذلك روي عنه في مُتْعة الحجِّ أنَّه قال: قد علمت أنَّ رسول الله ﷺ فعلَها وأصحابه، ولكن كرهت أن يظلُّوا بها معرِسين تحت الأراك، ثم يرجعوا بالحجّ تقطر رؤوسهم.

وأمّا اعتمادُه على الكفّ عن النكير، فقد تقدّم أنه ليس بحجّة إلا على شرائط شرحناها، عَلَى أنّه قد رُوِي أنّ عمر قال بعد نهيه عن المتعة: لا أوتَى بأحدٍ تزوّج متعة إلا عذّبته بالحجارة، ولو كنت تقدمت فيها لرجمت. وما وجدنا أحداً أنكر عليه هذا القول، لأنّ المتمتّع عندهم لا يستحقّ الرّجم، ولم يدل ترك النّكير على صوابه.

فأما ادّعاؤه على أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أنكر على ابن عباس إحلالها، فالأمر بخلافه وعكسه، فقد روي عنه عليه السلام من طرق كثيرة أنَّه كان يفتي بها، وينكر على محرِّمها والناهي عنها، وروى عمر بن سعد الهمدانيّ، عن حُبيش بن المعتمر، قال: سمعتُ عليًّا عليه السلام يقول: لولا ما سبق من ابن الخطاب في المُتعة ما زنى إلا شقيّ. وروى أبو بصير، قال: سمعتُ أبا جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام يروي عن جدّه أميرَ المؤمنين عليه السلام: لولا ما سبقني به ابن الخطاب ما زنى إلا شقي. وقد أفتى بالمتعة جماعة من الصحابة والتّابعين كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله الأنصاريّ، وسلَمة بن الأكوع، وأبي سعيد الخُدريّ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وغير ما ذكرناه ممّن يطول ذكره، فأمّا سادةُ أهلِ البيت عليهم السلام وعلماؤهم فأمرُهم واضح في الفُتْيا بها، كعليّ بن الحسين زين العابدين، وأبي جعفر الباقر عليه السلام، وأبي عبد الله الصادق عليه السلام، وأبي الحسن موسى الكاظم، وعليّ بن موسى الرضا عليهم السلام. وما ذكرنا من فُتيا مَنْ أشرنا إليه من الصحابة بها يدلّ على أوضح بطلان ما ذكره صاحب الكتاب من ارتفاع النّكير لتحريمها، لأنّ مقامهم على الفُتْيا بها نكير.

فأمّا مُتعة الحجّ فقد فعلها النبي ﷺ والنّاس أجمع من بعده، والفقهاء في أعصارنا هذه لا يروْنها خطأً بل صواباً.

فأمّا قول صاحب الكتاب: إنَّ عمر إنما أنكر فسخ الحجّ فباطل، لأن ذلك أوّلاً لا يسمى مُتْعة، ولأن ذلك ما فعِل في أيام النبي ﷺ، ولا فعله أحدٌ من المسلمين بعده، وإنما هو من سُنَن الجاهليّة، فكيف يقول عمر: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وكيف يغلظ ويشدد فيما لم يفعل، ولا فعل!

قلت: لا شبهة أنّ الظاهر من كلام عمر إضافة النّهي إلى نفسه، لكنّا يجب علينا أن نترك ظاهر اللفظ إذا علمنا من قائله ما يوجب صرف اللفظ عن الظاهر كما يعتمده كلُّ أحد في القرائن المقترنة بالألفاظ، والمعْلوم من حال عمر أنَّه لم يكن يدَّعي أنه ناسخ لشريعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّه كان متديّناً بالإسلام وتابعاً للرسول الذي جاء به، فوجب أن يحمَل كلامُه على أنّه أراد أنهما كانتا ثم حُرِّمتا، ثم أنا الآن أعاقب مَنْ فعلهما، لأنه قد كان بلَغه عن قوم من المسلمين بعد علمهم بالتّحريم. وقول المرتضى: لعلّه كان اعتقدَ أنَّ الإباحة أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت مشروطةً بشرط لم يُوجد في أيامه، قولٌ يبطل طعنه في عمر، ويمهّد له عذراً ويصيّر المسألة اجتهاديَّة.

وأمّا طعنُه في الاحتجاج على تصويب عمر بترك الإنكار عليه وقوله: فهلاّ أنكروا عليه قوله: لا أرى أحداً يستمتع إلاّ رجمته، فليس بطعن مستقيم، وإنما يكون طعناً صحيحاً لو كان أُتِيَ بمتمتّع فأمر برجمه، فأمّا أن ينكروا عليه وعيدَه وتهديدَه، لا لإنسان معيّن، بل كلاماً مطلقاً، وقولاً كليًّا يقصد به حَسْم المادة في المتعة، وتخويف فاعلها، فإنه ليس بمحلّ للإنكار عليه، وما زالت الأئمة والصالحون يتوعّدون بأمرٍ ليس في نفوسهم فعله، على طريق التأديب والتهذيب، على أنّ قوماً من الفقهاء قد أوجبوا إقامة الحدّ على المتمتّع، فلا يمتنع أن يكون عمر ذاهباً إلى هذا المذهب.

فأما ما رواه عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن الطّاهرين من أولاده، من تحليل المتعة، فلسنا في هذا المقام نناكره في ذلك وننازعه فيها، والمسألة فقهيّة من فروع الشريعة، وليس كتابنا موضوعاً لذكره، ولا الموضع الذي نحن فيه يقتضي الحجاج فيها، والبحث في تحليلها وتحريمها، وإنّما الموضع موضع الكلام في حال عمر، وما نقل عنه من الكلمة، هل يقتضي ذلك الطعن في دينه أم لا؟

فأمّا متعة الحجّ فقد اعتذر لنفسه، وقال ما قدّمنا ذكره، من أن الحجّ بهاء من بهاء الله، وأن التمتّع يكسفه ويذهب نوره ورونقه، وأنهم يظلون معرِسين تحت الأراك، ثم يُهلون بالحجّ ورؤوسهم تقطر، وإذا كان قد اعتذر لنفسه فقد كفانا مؤونة الاعتذار.

الطعن التاسع: ما روي عنه من قصّة الشورى، وكونه خرج بها عن الاختيار والنصّ جميعاً، وأنه ذمّ كلّ واحد، بأن ذكر فيه طعناً ثم أهّله للخلافة بعد أنْ طَعن فيه، وأنّه جعل الأمر إلى ستّة، ثم إلى أربعة، ثم إلى واحد، قد وصفَه بالضعف والقصور، وقال: إن اجتمع عليّ وعثمان فالقول ما قالاه، وإن صاروا ثلاثة فالقولُ للذين فيهم عبد الرحمن، وذلك لعلمه بأن

علياً وعثمان لا يجتمعان، وأن عبد الرحمن لا يكاد يعدل بالأمر عَنْ خَتَنه وابن عمه، وأنه أمر بضرب أعناقهم إن تأخروا عن البيعة فوق ثلاثة أيام، وأنه أمر بقتل مَنْ يخالف الأربعة منهم أو الذين فيهم عبد الرحمن.

أجاب قاضي القضاة عن ذلك، فقال: الأمور الظاهرة لا يجوز أن يعترَض عليها بأخبارٍ غيرِ صحيحة، والأمر في الشّورى ظاهرٌ، وإنّ الجماعة دخلتْ فيها بالرّضا، ولا فرْق بين من قال في أحدهم: إنّه دخل فيها لا بالرضا وبين من قال ذلك في جميعهم، ولذلك جعلنا دخولَ أمير المؤمنين عليه السلام في الشّورى أحد ما يعتمد عليه في أن لا نص يدل عليه، أنه المختصّ بالإمامة، لأنه قد كان يجب عليه أن يصرّح بالنصّ على نفسه، بل يحتاج إلى ذكر فضائله ومناقبه، لأن الحال حالُ مناظرة، ولم يكن الأمر مستقرًا لواحد، فلا يمكن أن يتعلّق بالتقيّة، والمتعَالَم من حاله أنّه لو امتنع من هذا الأمر في الشورى أصلاً لم يلحقه الخوف فضلاً عن غيره، ومعلوم أنّ دلالة الفعل أحسنُ من دلالة القول، من حيث كان الاحتمال فيه أقلّ، والمرويّ أن عبد الرحمن أخذ الميثاق على الجماعة بالرضا بمن يختاره، ولا يجب القدْح في الأفعال بالظنون، بل يجبُ حملُها على ظاهر الصحة دون الاحتمال، كما يجب مثله في غيرها، ويجب إذا تقدمت للفاعل حالةٌ تقتضي حسنَ الظنّ به، أن يُحمل فعلُه على ما يطابقها، وقد علمنا أن حالَ عمر وما كان عليه من النّصيحة للمسلمين، منع من صَرْف أمره في الشورى إلى الأغراض التي يظنّها أعداؤه، فلا يصحّ لهم أن يقولوا: كان مراده في الشورى بأن يجعل الأمر إلى الفِرقة التي فيها عبد الرحمن عند الخلاف، أن يتم الأمر لعثمان، لأنه لو كان هذا مرادَه لم يكن هنا ما يمنعه من النصّ على عثمان، كما لم يمنع ذلك أبا بكر، لأنّ أمره إن لم يكن أقوى من أمر أبي بكر لم ينقص عنه، وليس ذلك بدعة، لأنه إذا جاز في غير الإمام إذا اختار أن يفعل ذلك، بأن ينظر في أماثل القوم فيعلم أنهم عشرة، ثم ينظر في العشرة، فيعلم أنّ أمثلَهم خمسة، ثم ينظر في واحد من الخمسة، فما الذي يمنع من مثله في الإمام، وهو في هذا البابَ أقوى اختياراً، لأنّ له أن يختار واحداً بعينه!

ثم ذكر أنّه إنما حصره في الجماعة الذين انتهى إليهم الفضْل، وجعله شورى بينهم، ثم بيّن أن الانتقال من السّتة إلى الأربعة، ومن الأربعة إلى الثلاثة، لا يكون متناقضاً، لأنّ الأقوال مختلفة، وليست واحدة، ولو كانت أيضاً واحدة لكان كالرجوع، وللإمام أن يرجع في مثل ذلك، لأنّه في حكم الوصيّة.

قال: وقولهم: إنّه كان يعلم أنّ عثمان وعلياً لا يجتمعان، وأنّ عبد الرحمن يميل إلى عثمان، قلّةُ دين، لأنّ الأمور المستقبلة، لا تُعلَم وإنما يحصل فيها أمارة. قال: والأمارات توجب أنه لم يكن فيهم حرص شديد على الإمامة بل الغالب من حالهم طلب الاتفاق

الائتلاف والاسترواح إلى قيام الغير بذلك. وإنما جعل عمر الأمر إلى عبد الرحمن عند الاختلاف، لعلمه بزهده في الأمر، وأنّه لأجل ذلك أقرب أن يتثبّت، لأنَّ الراغب عن الشيء يحصل له من التثبُّت ما لا يحصل للراغب فيه، ومَنْ كانت هذه حاله كَان القوم إلى الرضا به أقرب.

وحكي عن أبي عليّ أنَّ المخادعة إنما تظنّ بمن قصْده في الأمور طريق الفساد، وعُمر بريء من ذلك.

قال: والضعف الذي وُصِف به عبد الرحمن، إنما أراد به الضّعف عن القيام بالإمامة، لا ضعف الرأي، ولذلك ردّ الاختيار والرأي إليه. وحكي عن أبي عليّ ضَعْف ما روي من أمره بضرب أعناق القوم إذا تأخّروا عن البيعة، وأنَّ ذلك لو صحّ لأنكره القوم، ولم يدخلوا في الشورى بهذا الشرط، ثم تأوّله إذا سلم صحتّه، على أنّهم إن تأخروا عن البَيْعة على سبيل شقّ العصا وطلب الأمر من غير وجهه. وقال: ولا يمتنع أن يقول ذلك على طريق التّهديد، وإن بَعدُ عنده أن يقدموا عليه، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١).

اعترض المرتضى هذا الكلام، فقال: إنّ الذي رتّبه عمر في قصة الشورى، من ترتيب العدد واتفاقه واختلافه، يدلّ أوّلاً على بُطلان مذهب أصحاب الاختيار في عدد العاقدين للإمامة، وأنه يتمّ بعقد واحد لغيره برضا أربعة، وأنه لا يتمّ بدون ذلك، فإنَّ قصّة الشُورى تصرّح بخلاف هذا الاعتبار، فهذا أحد وجوه المطاعن فيها.

ومن جملتها أنه وصف كلّ واحد منهم بوصفٍ زعم أنه يمنع من الإمامة، ثم جعل الأمر فيمن له تلك الأوصاف، وقد روى محمد بن سعد، عن الواقديّ، عن محمد بن عبد الله الزهريّ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة، عن ابن عباس، قال: قال عمر: لا أدري ما أصنع بأمة محمد ﷺ؟ وذلك قبل أن يُطعَن، فقلت: ولِمَ تهتمُّ وأنت تجد مَن تستخلفه عليهم؟ قال: أصاحبُكم؟ يعني عليًا، قلت: نعم، هو لها أهل، في قرابتِه من رسول الله ﷺ، وصهره وسابقته وبلائه، قال: إنَّ فيه بَطالة وفكاهة، فقلت: فأين أنت من طلحة؟ قال: فأين الزَّهو والنَّخوة! قلت: عبد الرحمن؟ قال: هو رجل صالح على ضَعْفٍ فيه، قلت: فسعد، قال: ذاك صاحب مِقْنَبٍ وقتال لا يقوم بقرْية لو حمل أمرها، قلت: فالزبير، قال: وعْقَة لَقِس مؤمن الرِّضا، كافر الغضب، شحيح، وإنّ هذا الأمر لا يصلح إلاّ لقويّ في غير عنف، رفيق في غير ضعف، وجواد في غير سرَف، قلت: فأين أنت عن عثمان؟ قال: لو وليَها لحمل بني أبي مُعَيط على رقاب الناس، ولو فعلها لقتلوه.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

وقد يُروَى من غير هذا الطَّريق أنَّ عمر قال لأصحاب الشورَى: رُوحوا إليَّ، فلمَّا نظر إليهم قال: قد جاءني كلُّ واحدٍ منهم يهزّ عِفْرِيته، يرجو أن يكون خليفة، أما أنت يا طلْحة، أفلست القائل: إنْ قُبِض النبي ﷺ أنكح أزواجَه من بعده؟ فما جعل الله محمداً أحقَّ ببنات أعمامنا منّا، فأنزل الله تعالى فيك: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾[1]. وأمَّا أنت يا زُبير، فوالله ما لاَنَ قلبُك يوماً ولا ليلةً. وما زلت جِلْفاً جافياً، وأمَّا أنت يا عثمان، فوالله لَرَوثةٌ خير منك، وأمَّا أنت يا عبد الرحمن، فإنَّك رجل عاجز تحبُّ قومك جميعاً، وأما أنت يا سعد، فصاحب عصبيّة وفتنة، وأمَّا أنت يا عليّ، فوالله لو وزن إيمانك بإيمان أهل الأرض لرجَحهم، فقام عليٌّ مولّياً يخرج، فقال عمر: والله إنِّي لَأعلم مكان رجلٍ لو ولَّيتموه أمرَكم لحملكم على المحجَّة البيضاء، قالوا: مَنْ هو؟ قال: هذا المولّي من بينكم، قالوا: فما يمنعك من ذلك؟ قال: ليس إلى ذلك سبيل.

وفي خبر آخر، رواه البلاذريّ في تاريخه، أنَّ عمر لمّا خرج أهل الشورى من عنده، قال: إنْ ولَّوْها الأجلحَ سلك بهم الطريق، فقال عبد الله بن عمر: فما يمنعك منه يا أمير المؤمنين؟ قال: أكره أن أتحمّلها حيًّا وميّتاً.

فوصف كما ترى كلّ واحد من القوم بوصف قبيح يمنع من الإمامة، ثم جعلها في جملتهم، حتى كأنَّ تلك الأوصاف تزول في حال الاجتماع، ونحن نعلم أنَّ الذي ذكره إن كان مانعاً من الإمامة في كلّ واحد على الانفراد، فهو مانع من الاجتماع، مع أنَّه وصف علياً عليه السلام بوصفٍ لا يليق به، ولا ادّعاه عدوٌّ قطّ، بل هو معروف بضدّه، من الرّكانة والبعد عن المُزاح والدُّعابة، وهذا معلوم ضرورة لمن سمع أخباره عليه السلام، وكيف يُظنّ به ذلك، وقد رُوِي عن ابن عبّاس أنه قال: كان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام إذا أتى هِبْنا أن نبتدئه بالكلام، وهذا لا يكون إلا من شدَّة التزمُّت والتوقُّر، وما يخالف الدُّعابة والفكاهة.

ومما تضمَّنته قصّة الشورى من المطاعن، أنه قال: لا أتحمّلها حيًّا وميتاً، وهذا إن كان علّة عدوله عن النصّ إلى واحدٍ بعينه، فهو قول متلمس متخلّص، لا يفتات على الناس في آرائهم، ثم نقض هذا بأن نصَّ على ستَّة من بين العالم كلّه، ثم رتَّب العدد ترتيباً مخصوصاً، يؤول إلى أنَّ اختيار عبد الرحمن هو المتقدِّم، وأيّ شيء يكون من التحمُّل أكثر من هذا! وأيّ فرق بين أن يتحمّلها، بأنْ ينصّ على واحدٍ بعينه، وبين أن يفعل ما فعله من الحصر والترتيب!

ومن جملة المطاعن أنَّه أمر بضرب الأعناق إن تأخّروا عن البيعة أكثر من ثلاثة أيام، ومعلوم أنهم بذلك لا يستحقُّون القتل، لأنهم إذا كانوا إنما كُلِّفُوا أن يجتهدوا آراءهم في اختيار

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

الإمام، فربما طال زمان الاجتهاد، وربما قصر بحسب ما يعرض فيه من العوارض، فأيّ معنى للأمر بالقتل إذا تجاوزوا الأيّام الثلاثة! ثم إنه أمر بقتل مَنْ يخالف الأربعة، ومَنْ يخالف العدد الذي فيه عبد الرحمن، وكلُّ ذلك ممّا لا يستحقّ به القتل.

فأما تضعيف أبي عليٍّ لذكر القَتْل فليس بحجَّة، مع أنَّ جميع مَنْ روى قصة الشورى روى ذلك، وقد روى الطبري ذلك في تاريخه وغيره.

فأمّا تأوّله الأمر بالقتل على أنّ المراد به إذا تأخّروا على طريق شقّ العصا، وطلب الأمر من غير وجهه، فبعيد من الصواب، لأنه ليس في ظاهر الخبر ذلك، ولأنهم إذا شقُّوا العصا، وطلبوا الأمر من غير وجهه من أوّل يوم، وجب أن يُمنَعوا ويقاتلوا، فأيّ معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً!

فأما تعلُّقه بالتهديد، فكيف يجوز أن يتهدّد الإنسان على فعل بما لا يستحقّه، وإن علم أنه لا يعزم عليه!

فأما قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١)، فيخالف ما ذكر، لأنّ الشرك يستحقّ به إحباط الأعمال، وليس يستحقّ بالتأخير عن البيعة القتل.

فأمّا ادّعاء صاحب الكتاب أنّ الجماعة دخلوا في الشّورى على سبيل الرضا، وأنّ عبد الرحمن أخذ عليهم العهد أن يرضوْا بما يفعله، فمن قرأ قصّة الشورى على وجهها، وعَدَل عمَّا تُسَوِّله النفس من بناء الأخبار على المذاهب، علم أنّ الأمر بخلاف ما ذكر. وقد روى الطبريّ في تاريخه عن أشياخه من طرق مختلفة، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال حين خرج من عند عمر بعد خطابه للجماعة بما تقدّم ذكره لقوم كانوا معه من بني هاشم: إنْ طمع فيكم قومكم لم تؤمَّرُوا أبداً. وتلقّاه العبّاس بن عبد المطلب، فقال: يا عمّ عُدِلت عنّا! قال: وما علمك؟ قال: قُرِن بي عثمان، وقال: كونوا مع الأكثر، وإن رضي رجلان رجلاً، ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابنَ عمِّه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان، فيوليها عبدُ الرحمن عثمان، أو يوليها عثمانُ عبد الرحمن، فلو كانَ الآخران معي لم ينفعاني بَلْ إني لا أرجو إلا أحدهما. فقال له العباس: لم أدفعْك عن شيء إلاّ رجعتَ إليّ مستأخراً! أشرتُ عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن تسأله فيمن هذا الأمر؟ فأبيت، وأشرت عليك عند وفاته أن تعاجِل الأمر فأبيت، وأشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى ألاّ تدخل معهم، فأبيت! فاحفظ عليّ واحدة، كلّما عَرَض عليك القوم فقلْ: لا، إلا أن يولّوك، واحذر هؤلاء الرهط، فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر، حتى يقوم لنا به غيرنا وغيرهم، وايمُ

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

الله لا تناله إلا بشرٌ لا ينفع معه خير. فقال عليّ عليه السلام: أما والله لئن بقيَ عمر لأذكّرنه ما أتى إلينا، ولئن مات ليتداولُنّها بينهم، ولئن فعلوا ليجدُنّني حيث يكرهون، ثم تمثّل:

حلفتُ بربّ الرّاقصاتِ عَشيّةً   غَدَوْنَ خِفافاً فابتدرن المحصّبا
ليَحتلبن رهط ابن يعمرَ مارئاً   نَجيعاً، بنو الشُّدّاخ ورداً مصلّبا

فالتفت فرأى أبا طلحة الأنصاريّ فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لا تُرَع أبا حسَن.

قال المرتضى: فإن قال قائل: أيّ معنى لقول العبّاس: إني دعوتُك إلى أنْ تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله فيمن هذا الأمر من قبل وفاته؟ أليس هذا مبطلاً لما تدعونه من النص!

قلنا: غير مُمتنع أن يريد العباس سؤالَه عمّن يصير الأمر إليه، وينتقل إلى يديه، لأنه قد يستحقّه من لا يصل إليه، وقد يصل إليه مَنْ لا يستحقه، وليس يمتنع أن يريد: إنما كنّا نسأله صلى الله عليه وآله إعادة النّصّ قبل الموت، ليتجدّد ويتأكّد، ويكونَ لقرب العهد إليه بعيداً من أن يُطرح.

فإن قيل: أليس قد أنكرتُم على صاحب الكتاب من التأويل بعينه فيما استعمله من الرّواية عن أبي بكر من قوله: ليتني كنت سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله هل للأنصار في هذا الأمر حق؟

قلنا: إنما أنكرناه في ذلك الخبر، لأنه لا يليق به من حيث قال، فكنّا لا ننازعه أهلَه، وهذا قول مَنْ لا علم له بأنه ليس للأنصار حقٌّ في الإمامة، ومن كان يرجع في أن لهم حقًّا في الأمر أو لا حقّ لهم فيه، إلى ما يسمعه مستأنفاً، وليس هذا في الخبر الذي ذكرناه.

وروى العباس بن هشام الكلبيّ، عن أبيه، عن جدّه، في إسناده، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام شكا إلى العباس ما سمع من قول عمر: كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وقال: والله لقد ذهب الأمر منّا، قال: وكيف قلت ذلك يابن أخي! قال: إنّ سعداً لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن، وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره، فأحدهما يختار لصاحبه لا محالة، وإن كان الزُّبير وطلحة معي، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابن عوف في الثلاثة الآخرين.

قال ابن الكلبي: عبد الرحمن زوج أمّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط، وأمّها أرْوَى بنت كريز، وأرْوَى أمّ عثمان، فلذلك قال: صهره.

وفي رواية الطبريّ[1] أنّ عبد الرحمن دعا علياً عليه السلام، فقال: عليك عهدُ الله وميثاقه لتعمَلنّ بكتاب الله وسنّة رسوله، وسيرة الخليفتين؟ فقال: أرجو أن أفعلَ وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي.

وفي خبر آخر عن أبي الطفَيل، أنّ عبد الرحمن قال لعليّ عليه السلام: هلمّ يدَك خذها بما فيها،

(١) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٥٨٣).

على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فقال: آخذها بما فيها، عَلَى أن أسيرَ فيكم بكتاب الله وسنة نبيّه جهدي. فترك يده، وقال: هلّم يدَك يا عثمان، أتأخذها بما فيها على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر؟ قال: نعم، قال: هي لك يا عثمان[١].

وفي رواية الطبريّ أنه قال لعثمان مثل قوله لعليّ، فقال: نعم، فبايعه، فقال عليّ عليه السلام: خُتونة حنّت دهراً[٢].

وفي خبر آخر: نفعت الختونة يابن عوف! ليس هذا أوّل يوم تظاهرتُم فيه علينا! ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٣]، والله ما ولّيتَ عثمان إلا ليردّ الأمر إليك، والله كلَّ يوم هو في شأن.

وفي غير رواية الطبريّ أنّ عبد الرحمن قال له: لقد قلتَ ذلك لعمر، فقال عليه السلام: أوَ لَمْ يكُن ذلك كما قلت!

وروى الطبريّ[٤] أن عبد الرحمن قال: لا تجعلنّ يا عليّ عَلَى نفسك سبيلاً، فإنّي نظرتُ وشاورت النّاس، فإذا هم لا يعدِلون بعثمان، فقام عليٌّ عليه السلام، وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجَله.

وفي رواية الطبريّ أنّ الناس لمّا بايعوا عثمان تلكّأ عليٌّ عليه السلام، فقال عثمان: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[٥]. فرجع عليٌّ عليه السلام حتى بايعه، وهو يقول خُدْعة وأيّ خدعة!

وروى البلاذريّ في كتابه، عن ابن الكلبيّ، عن أبيه، عن أبي مِخْنف، في إسناد له، أن علياً عليه السلام لما بايع عبدُ الرحمن عثمان كان قائماً، فقال له عبد الرحمن: بايع وإلاّ ضربتُ عنقَك، ولم يكن يومئذ مع أحد سيف غيره، فخرج عليّ مغضباً، فلحقه أصحاب الشورى، فقالوا له: بايع وإلاّ جاهدناك، فأقبل معهم يمشي حتى بايع عثمان.

قال المرتضَى: فأيّ رضاً ها هنا، وأيّ إجماع! وكيف يكون مختاراً من تهدّد بالقتل وبالجهاد! وهذا المعنى وهو حديث ضرب العنق لو روتْه الشيّعة لتضاحك المخالفون منه وتغامزوا، وقالوا: هذا من جملة ما تدّعونه من المحال، وتروونه من الأحاديث، وقد أنطق الله به رواتهم، وأجراه على أفواه ثقاتهم، ولقد تكلّم المِقداد في ذلك اليوم بكلام طويل، يفنّد فيه

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١/ ٣٦٩ رقم: ٢٠.
(٢) أخرجه الطبري في تاريخه بما معناه: ٣/ ٢٩٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٨.
(٤) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٥٨٣).
(٥) سورة الفتح، الآية: ١٠.

ما فعلوه من بَيْعة عثمان، وعدولهم بالأمر عن أمير المؤمنين إلى أنْ قال له عبد الرحمن: يا مقداد، اتّق الله، فإنّي خائف عليك الفتنة. ثم إن المقداد قام فأتى عليًا، فقال: أتقاتل فنقاتل معك؟ فقال عليّ: فبمن أقاتل! وتكلّم أيضاً عمّار - فيما رواه أبو مخنف - فقال: يا معشرَ قريش، أين تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيّكم؟ تحوّلونه ها هنا مرة وها هنا مرة! أما والله ما أنا بآمن أن ينزعه الله منكم فيضعَه في غيركم كما انتزعتموه من أهله، ووضعتموه في غير أهله. فقال له هشام بن الوليد: يابن سميّة، لقد عدوت طورَك، وما عرفت قدرَك، وما أنت وما رأته قريش لأنفسها إنّك لست في شيء من أمرها وإمارتها، فتنح عنها. وتكلّمت قريش بأجمعها، وصاحت بعمّار وانتهرته، فقال: الحمد لله ما زال أعوانُ الحقّ قليلاً.

روى أبو مخنف أيضاً أن عمّاراً قال هذا البيت ذلك اليوم:

يا ناعيَ الإسلام قُمْ فانْعَهُ قدْ مات عُرْفٌ وأتى منكَرُ!

أما والله لو أنّ لي أعواناً لقاتلتهم، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: لئن قاتلتَهم بواحدٍ لأكوننّ ثانياً، فقال: والله ما أجدُ عليهم أعواناً، ولا أحبّ أن أعرّضكم لما لا تطيقون.

وروى أبو مخنف، عن عبد الرحمن بن جُندَب، عن أبيه، قال: دخلت على عليّ عليه السلام، وكنت حاضراً بالمدينة يوم بويع عثمان، فإذا هو واجم كئيب، فقلت: ما أصاب قوم صَرَفوا هذا الأمر عنكم!، فقال صَبْرٌ جَمِيلٌ! فقلت: سبحان الله! إنك لصبور! قال: فأصنع ماذا؟ قلت: تقوم في النّاس خطيباً فتدعوهم إلى نفسك، وتخبرُهم أنك أوْلى بالنبيّ صلى الله عليه وآله بالعمل والسابقة، وتسألهم النّصر على هؤلاء المتظاهرين عليك، فإنْ أجابَك عشرة من مائة شددت بالعشرة على المائة، فإن دانُوا لك كان ما أحببت، وإنْ أبوْا قاتلتهم، فإنْ ظهرت عليهم فهو سلطان الله آتاه نبيّه صلى الله عليه وآله، وكنتَ أوْلَى به منهم إذْ ذَهَبُوا بذلك، فردّه الله إليك، وإن قتِلتَ في طلبه فقتلتَ شهيداً، وكنت أولى بالعذر عند الله تعالى في الدنيا والآخرة. فقال عليه السلام: أوَ تراه كان تابعي من كلّ مائة عشرة! قلت: لأَرجو ذلك، قال: لكنّي لا أَرجو ولا والله من المائة اثنين، وسأخبرك من أين ذلك! إنّ الناس إنّما ينظرون إلى قريش، فيقولون: هم قوم محمد صلى الله عليه وآله وقبيلته، وإنّ قريشاً تنظر إلينا فتقول: إنّ لهم بالنبوّة فضلاً عَلَى سائر قريش، وإنّهم أولياء هذا الأمر دون قريش والناس، وإنّهم إن ولّوه لم يخرج هذا السلطان منهم إلى أحدٍ أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولتمُوه بينكم، فلا والله لا تدفع قريش إلينا هذا السلطان طائعة أبداً. قلت: أفلا أرجع إلى المِصْر فأخبر الناس بمقالتك هذه، وأدعو النّاس إليك! فقال: يا جندَب: ليس هذا زمان ذلك، فرجعت فكلّما ذكرت للناس شيئاً من فضل عليّ زبرُوني ونهروني، حتى رفع ذلك من أمري للوليد بن عُقْبة، فبعث إليّ فحبسني.

قال: وهذه الجملة التي أوردناها قليل من كثير، في أن الخلاف كان واقماً، والرضا كان

مرتفعاً، والأمر إنّما تمّ بالحيلة والمكر والخداع، وأوّلُ شيء مكَر به عبد الرحمن أنّه ابتدأ فأخرَج نفسه من الأمر، ليتمكّن من صَرْفه إلى من يريد، وليقال: إنّه لولا إيثاره الحقّ، وزهده في الولاية لما أخرج نفسه منها، ثم عرض على أمير المؤمنين عليه السلام ما يعلم أنه لا يجيب إليه، ولا تلزمه الإجابة إليه، من السّيْر فيهم بسيرة الرجلين، وعلم أنه عليه السلام لا يتمكّن من أن يقول: إنّ سيرتهما لا تلزمني، لئلا ينسَب إلى الطعن عليهما. وكيف يلزم سيرتهما، وكلّ واحد منهما لم يسِرْ بسيرة الآخر! بل اختلفا وتباينا في كثير من الأحكام، هذا بعد أنْ قال لأهل الشورى: وثقوا إليّ من أنفسكم بأنّكم ترضوْن باختياري إذا أخرجت نفسي، فأجابوه - على ما رواه أبو مخنف بإسناده - إلى ما عرض عليهم، إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام، فإنه قال: أنظر، لعلمه بما يجرّ هذا المكْر، حتى أتاهم أبو طلحة، فأخبره عبد الرحمن بما عرض وما جاء به القوم إياه إلا عليًا، فأقبل أبو طلحة على عليّ عليه السلام، فقال: يا أبا الحسن، إنّ أبا محمد ثقة لك وللمسلمين، فما بالك تخافه وقد عَدَل بالأمر عن نفسه، فلن يتحمّل المأثم لغيره! فأحلَف عليٌّ عليه السلام عبدَ الرحمن بما عرض ألاّ يميل إلى الهوى وأن يؤثر الحقّ ويجتهد للأمة، ولا يحابي ذا قَرابة، فحلَف له، وهذا غاية ما يتمكّن منه أمير المؤمنين عليه السلام في الحال، لأنّ عبد الرحمن لمّا أخرج نفسه من الأمر، وظنّت به الجماعة الخير، وفوّضت إليه الاختيار لم يقدر أمير المؤمنين عليه السلام على أن يخالفَهم وينقض ما اجتمعوا عليه، فكان أكثر ما تمكّن منه أن أحلفَه، وصرّح بما يخافه من جهته، من الميل إلى الهوى، وإيثار القرابة، غير أن ذلك كلّه لم يُغْنِ شيئاً!

قال: وأما قولُ صاحب الكتاب: إنَّ دخولَه في الشُورى دلالة على أنّه لا نص عليه بالإمامة، ولو كان عليه نصٌّ لَصرّح به في تلك الحال، كان ذِكرُه أوْلَى من ذكر الفضائل والمناقب، فإنّ المانع من ذكْر النصّ كونه يقتِضي تضليل مَنْ تقدّم عليه وتفسيقهم، وليس كذلك تعديد المناقب والفضائل.

وأما دخوله عليه السلام في الشُورى، فلو لم يدخل فيها إلا ليحتجّ بما احتجّ به من مقاماته وفضائله، ودرايته ووسائله إلى الإمامة وبالأخبار الدالة عندنا عليها على النصّ والإشارة بالإمامة إليه، لكان غرضاً صحيحاً، وداعياً قويًا. وكيف لا يدخل في الشُورى وعندَهم أن واضعها قد أحسن النَّظر للمسلمين، وفعل ما لم يسبَق إليه من التحرز للدِّين!

فأوّلُ ما كان يقال له لو امتنعَ منها: إنّك مصرّح بالطعن على واضعها وعلى جماعة المسلمين بالرّضا بها، وليس طعنُك إلا لأنّك ترى أن الأمر لك، وأنك أحقُّ به! فيعود الأمر إلى ما كان عليه السلام يخافُه، من تفرّق الكلمة ووقوع الفتنة.

قال: وفي أصحابنا القائلين بالنصّ مَنْ يقول: إنه عليه السلام إنما دخل في الشورى لتجويزه أن ينال الأمر منها، وعليه أنْ يتوصّل إلى ما يلزمه القيامُ به من كلّ وجهٍ يظن أن يوصّله إليه.

قال: وقولُ صاحب الكتاب إنّ التقيّة لا يمكن أن يتعلّق بها، لأنّ الأمر لم يكن استقرّ لواحد طَريف، لأنّ الأمر وإن لم يكن في تلك الحال مستقرًا لأحد، فمعلوم أن الإظهار بما يطعن في المتقدمين من ولاة الأمر لا يمكن منه، ولا يرضى به، وكذلك الخروجُ مما يتّفق أكثرهم عليه، ويرضَى جمهورهم به، ولا يُقرُّون أحداً عليه، بل يعدّونه شذوذاً عن الجماعة، وخلافاً على الأمة.

فأمّا قوله: إنّ الأفعال لا يقدَح فيها بالظنون، بل يجب أن تحمل على ظاهر الصحّة، وإنّ الفاعل إذا تقدّمت له حالة تقتضي حسنَ الظنّ به، يجب أن تحمَل أفعاله على ما يطابقها، فإنّا متَى سلّمنا له بهذه المقدّمة لم يتمّ قصدُه فيها، لأنّ الفعل إذا كان له ظاهر وجب أن يحمَل على ظاهره، إلا بدليل يعدل بنا عن ظاهره، كما يجب مثلُه في الألفاظ، وقد بيّنا أنّ ظاهر الشُّورى وما جَرى فيها، يقتضي ما ذكرناه للأمارات اللائحة، والوجوه الظاهرة، فما عدلْنا عن ظاهر إلى محتمَل، بل المخالف هو الذي يسومُنا أن نعدِل عن الظاهر، فأمّا الفاعل وما تقدّم له من الأحوال، فمتى تقدّم للفاعل حالة تقتضي أن يُظنّ به الخير من غير علم ولا يقين، فلا بدّ أن يؤثّر فيها، ويقدح أن يرى له حالة أخرى تقتضي ظنّ القبيح به، لدلالة ظاهرها على ذلك. وليس لنا أن نقضِيَ بالأولى على الثانية، وهما جميعاً مظنونتان، لأنّ ذلك بمنزلة أن يقول قائل: اقضوا بالثانية على الأولى، وليس كذلك إذا تقدّمت للفاعل حالة تقتضي بالخير منه، ثم تليها حالة تقتضي ظنّ القبيح به، لأنّا حينئذ نقتضي بالعلم على الظنّ، ونبطل حكمه لمكان العلم، وإذا صحّت هذه الجملة فما تقدّمت لمن ذكر حالة تقتضي العلم بالخير، وإنما تقدم ما يقتضي حسن الظنّ، فليس لنا ألاّ نسيء الظنَّ به عند ظهور أمارات سوء الظنّ، لأنّ كلّ ذلك مظنون غير معلوم.

وقوله: لو أراد ذلك ما منَعه من أن ينصّ على عثمان مانع، كما لم يمنع ذلك أبا بكر من النصّ عليه، فليس بشيء، لأنّه قد فعل ما يقوم مقام النصّ على مَنْ أراد إيصاله إليه، وصرفه عمّن أراد أن يصرفه عنه، من غير شناعة التصريح، وحتى لا يقال فيه ما قيل في أبي بكر، ويُرَاجَع في قصّته كما رُوجع أبو بكر، ولِمَ يتعسّف أبعد الطريقين وغرضه يتمّ من أقربهما!

قال: فأمّا بيانُ صاحب الكتاب أن الانتقال من الستّة إلى الأربعة في الشورى، ومن الأربعة إلى الثلاثة، لا يكون تناقضاً، فهو ردٌّ على مَنْ زعم أن ذلك تناقض، وليس من هذا الوجه طعنًا، بل قد بينّا وجوه المطاعن وفصّلناها.

وأمّا قوله: إنّ الأمور المستقبلة لا تعلم، وإنما يحصُل فيها أمارة ردًا على من قال: إنّ عمر كان يعلم أن عليًا عليه السلام وعثمان لا يجتمعان، وأنّ عبد الرحمن يميل إلى عثمان، فكلام في غير موضعه، لأنّ المراد بذلك الظنُّ لا العلم، وإنّ عُبّر عن الظنّ بالعلم على طريقةٍ في الاستعمال

معروفة، لا يتناكرها المتكلمون. ولعلَّ صاحب الكتاب قد استعمل العلم في موضع الظنّ فيما لا يحصى كثرة من كتابه هذا وغيره، وقد بينّا فيما ذكرْناه من رواية الكلبيّ عن أبي مخنف، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أوّل مَنْ سبق إلى هذا المعنى في قوله للعباسِ شاكياً إليه: ذهبَ والله الأمر منّا، لأن سعداً لا يخالف ابنَ عمّه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان، فأحدهما مختار لصاحبه لا محالة، وإن كان الزُّبير وطلحة معي، فلن أنتفع بذلك إذا كان ابنُ عوف في الثلاثة الآخرين.

فأما قوله: إن عبد الرحمن كان زاهداً في الأمر، والزاهد أقربُ إلى التثبّت، فقد بينّا وجه إظهاره الزهد فيه، وأنّهُ جعله الذريعة إلى مراده.

فأمّا قولُ صاحبِ الكتاب: إنّ الضعفَ الَّذِي وصفه به إنّما أراد به الضَّعف عن القيام بالإمامة لا ضعف الرأي، فهب أنّ الأمر كذلك، أليس قد جعله أحد مَنْ يجوّز أن يُختار للإمامة، ويفوّض إليه مع ضعفه عنها! وهذا بمنزلة أن يصِفَه بالفسق، ثم يدخله في جملة القوم، لأنّ الضعف عن الإمامة مانع منها، كما أنّ الفِسْق كذلك.

قلت: الكلامُ في الشُّورى والمطاعن فيها طويل جدًّا، وقد ذكرت من ذلك في كتبي الكلامية وتعليقاتي ما قاله النّاسُ وما لم أسبَق إليه، ولا يحتمل هذا الكتاب الإطالة باستقصاء ذلك، لأنه ليس بكتاب حِجَاج ونظر، ولكني أذكر منه نُكتاً يسيرة، فأقول:

إن كانت أفعالُ عمر وأقواله قد تناقضتْ في واقعة الشورى - كما زعم المرتضى رحمه الله - فكذلك أفعال أمير المؤمنين - إن كان منصوصاً عليه كما تقولُه الإمامية - قد تناقضت أيضاً. أمّا أوّلاً فإن كان منصوصاً عليه، فكيف أدخل نفسه في الشورى المبنية على صحة الاختيار وعدم النصّ! أليس هذا إيهاماً ظاهراً لأكثر المسلمين، خصوصاً الضَّعَفة منهم، ومَنْ لا نظر له في دقائق الأمور عنده أنه غير منصوص عليه! فكيف يجوز له إضلال المكلّفين وأن يوقع في نفوسهم عدم النصّ مع كون النصّ كان حاصلاً!

وأمّا عذر المرتضَى عن هذا، بأنّه دخل في الشورى، ليتمكّن من الاحتجاج على أهل الشورى بمقاماته وفضائله، فيقال له: قد كان الدَّهرَ الأطول مخالطاً لأهل الشورى وغيرهم، مجتمعاً معهم في المسجد وغيره من مواطن كلّ يوم بل كلّ ساعة، فلا يجوز أن يقال: دخل ليضمّه وإيّاهم أو يظلّهم سقف، فيتمكّن بذلك من ذكر مقاماته وفضائله بينهم، لأنَّ العاقل لا يجوز أن يرتكبَ أمراً يُوهم القبيح، ليفعل فعلاً قد كان من قبله بثلاث عشرة سنة متمكّناً من أن يفعله من غير أن يرتكب ذلك الأمر الموهم للقبيح، وليت شعري مَن الَّذِي كان يمنعه أيَّام أبي

بكر وعمر من أن يذكر مقاماته وفضائله ويفتخر بها! وَلَمَ انفك عليه السلام من ذكر فضائله والفخر بمناقبه في تلك المدة الطويلة وقد كان عمر وهو المعروف المشهور بالغلظة والفظاظة يذكر فضائله ويعترف بها! فلست أرى لعذر المرتضى أصلاً بهذا الوجه أو معنى! فأما عذره الثاني عن دخوله في الشورى بقوله: لو لم يدخل فيها لقيل له: إنك قد طعنت على واضع الشورى، وليس ذلك إلا لأنَّك ترى الأمر لك، فليس بعذر جيّد، لأنه لو امتنعَ من الدخول فيها على وجه الزُّهد وقلّة الالتفات إلى الولاية والإعراض عن السلطان والإمرة لما نسبَه أحدٌ إلى ما ذكره المرتَضى أصلاً، ولقال الناس: رجلٌ زاهد لا يريد الدنيا، ولا يرغب في الريّاسة، ثم ما المانع من أن يقول لعمر وهو حيٌّ: نشدتُك الله لا تدخِلْني فيها، فإنِّي لا أريدها ولا أوثرها! أتراه كان في جواب هذا الكلام يأمر بقتله، ويقول له: إنما امتناعك لأنَّك تدّعي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصَّ عليك، فلا ترى أخذ الأمر من جهتي وتوليه من طريقي، وإنَّما تريده بمحض النصّ الأول لا غير! ما أظنُّ أن عاقلاً يخطر له أنَّ ذلك كان يكون، فهذا العذر بارد لا معنى له كالعذر الأول.

فأما عذرُه الثالث، وهو قوله: إنَّه كان يجب عليه أن يتوصَّل إلى القيام بالأمر بكلِّ طريق، لأنه يلزمه القيام به، فعذرٌ جيّد لا بأس به.

وأما ثانياً فيقال للمرتَضى: هب أنَّا نزلنا عن الدخول في الشورى، هلاّ عرض للجماعة وهم مجتمعون، وهو يعدُّ لهم مناقبَه وفضائله بذكر النصّ، وذلك بأن يكنّي عنه كناية لطيفة، فيقول لهم: قد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمس في حقّي ما تعلمون! أتراهم كانوا في جواب هذه الكلمة يقتلونه! ما أظنُّ أنهم كانوا يجتمعون على ذلك. ولا بدّ لو عرّض بشيء من ذلك كان من كلام يدور بينهم في المعنى، نحو أن يقولوا: إنَّ ذلك النصَّ رجع عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، أو يقولوا: رأى المسلمون تركه للمصلحة، أو يجري بينه وبينهم جِدال ونزاع، ولم يكن هناك خليفة يخاف جانبَه، وإنما كان مجلس مناظرة وبحث، ولم يستقرّ الأمر لأحد.

وقول المرتضى: إنه وإن كان كذلك، إلا أنَّهم كانوا لا يرضوْن أن يطعن في المتقدّمين منهم، ويكرهون منه ذلك، ولا يُقِرّونه عليه، ويعدّونه شذوذاً له عن الجماعة، وخلافاً للأمة قول صحيح، إذا كان القائل يقوله على وجه شقّ العصا والمنابذة، وكشف القناع، وإذا قاله على وجه الاستعطاف لهم، والادكار بما عسَاهم نسُوه، وحسن التلطّف والرفق بهم، والاستمالة لهم، وتذكيرِهم حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله، وميثاقه الذي واثقهم به، فإنه لا يقع منهم في مقابلة ذلك قتله، ولا قطع عضو من أعضائه، ولا إقامة الحدّ عليه. وأقصى ما في الباب أنّهم كانوا يردّون ذلك عليه بكلامٍ مثل كلامه، ويجيبونه بجواب يناسب جوابَه، ويدفعونه عمّا يرومُه بوجهٍ من وجوه الدفع، إن كانوا مقيمين على الإصرار على غصب الحق منه.

وأما ثالثاً، فإن كان عليه السلام - كما تقوله الإمامية - منصوصاً عليه، فما الذي منَعه لمّا قال له

عبد الرحمن: أبايعك على أن تسيرَ فينا بسيرة الشيخين، أن يقول: نعم! فإنه لو قال: نعم، لبايعه عبدُ الرحمن، ووصل إلى الأمر الّذي يلزمه القيام به، وإلى الحال التي كان يتوصّل بكلّ طريق إلى الوصول إليها.

وقول المرتضى: إن سيرتَهما كانت مختلفة، لأنّ أحدهما حكَم بكثير ممّا حكم الآخر بضدّه ليس بجيّد، لأنّ السيرة التي كان عبد الرحمن يطلبُها ذلك اليوم، هو الأمر الكليّ في إيالة الرعيّة وسياستهم، وجباية الفيء، وظَلَف الوالي نفسَه وأهلَه عنه وصرفه إلى المسلمين، ورمّ الأمور، وجمْع العمال، وقهر الظَلَمة وإنصاف المظلومين، وحماية البَيْضة، وتسريب الجيوش إلى بلاد الشّرك، هذه هي السيرة التي كان عبد الرحمن يشترطها، وهي التي طلبها الناس بعد ذلك، فقالوا لمعاوية في آخر أيامه، ولعبد الملك ولغيرهما وصاحوا بهم تحت المنابر: نطلب سيرة العُمَريْن، ولم يريدوا في الأحكام والفتاوَى الشرعية، نحو القول في الجَدّ مع الإخوة، والقول في الكَلالة، والقول في أمّهات الأولاد، فما أعلم الذي منَع أمير المؤمنين عليه السلام من أن يقول لعبد الرحمن: نعم، فيأخذها! ثم كان إذا أخذها أقدر الناس على هذه السِّيرة، وأقواهم عليها. فواعجبا! بينا هو يطلب الخلافة أشدّ الطلب، فإذا هو ناكص عنها، وقد عرضت عليه على أمرٍ هو قيّم به! ولهذا كان الرأي عندي أن يدخل فيها حينئذ، ومَن الذي كان يناظره بعد ذلك ويجادله، فيقول: قد أخللتَ بشيء من سيرة أبي بكر وعمر! كلاّ إن السَّيْف لِضاربه، والأمر لمالكه، والرعيّة أتباع، والحُكْم لصاحب السلطان منهم!

ومن العجَب أنْ يقول المرتضَى: إنه لأجل التقيَّة وافق عَلَى الرّضا بالشّورى! فهلاّ اتقى القوم، وقد ذكروا له سيرة الشيخين فأباها وكرهها! ومَنْ كان يخاف على نفسه أن لو أظهر الزّهد في الخلافة والرغبة عن الدخول في أمر الشورى! كيف لم يخفْ على نفسه، وقد ذكرت له سيرة الشيخين فتركها، ولم يوافق عليها، وقال: لا بل عَلَى أن أجتهد رأيي!

وأما قول المرتضى: إنه وصف القوم بصفاتٍ تمنع من الإمامة، ثم عيّنهم للإمامة، فنقول في جوابه: إنّ تلك الصفات لا تمنع من الإمارة بالكليَّة، بل هي صفات تنقص في الجملة، أي لو لم تكن هذه الصفات فيهم، لكانوا أكمل، ألاَ ترى أنه قال في عبد الرحمن: رجل صالح عَلَى ضعف فيه! فذكَر أنّ فيه ضعفاً يسيراً، لأنه لو كان يرى ضعفه مانعاً من الإمامة لقال: ضعيف عنها جدًا، أو لا يصلح لها لضعفه. وكذلك قوله في أمير المؤمنين: فيه فُكاهة، لأن ذلك لا يمنع من الإمامة، ولا زهو طلحة ونخوته، ولا ما وصف به الزبيرُ من أنه شديد السّخط وقت غضبه، وأنه بخيل، ولا تولّيه الأقارب عَلَى رقاب الناس إذا لم يكونوا فسّاقاً. وأقوى عيب ذكره ما عاب به سعداً في قوله: صاحب مِقْنب وقتال، لا يقوم بقرْيَةٍ لو حَمَل أمرها. ويجوز أن يكون قال ذلك عَلَى سبيل المبالغة في استصلاحه، لأن يكون صاحب جيش يقاتل به

بين يدي الإمام، وأنه ليس له دُرْبة ونظر في تدبير البلاد والأطراف، وجباية أموالها، ألا تراه كيف قال: لا يقوم بقَرْيةٍ! ويجوز أن يليَ الخلافة مَنْ هذه حاله، ويستعين في أمر العباد والبلاد وجباية الأموال بالكُفاة الأمناء.

فأما الرواية الأخرى التي قال فيها لعثمان: لَرَوْثة خير منك! فهي من روايات الشّيعة، ولسنا نعرفها من كتب غيرهم.

فأما قوله: كيف قال: لا أتحمّلها حيًّا وميّتاً، فحصر الخلافة في العدد المخصوص، ثم رتّبها ذلك الترتيب، إلى أن آلت إلى اختيار عبد الرحمن وحده! فنقول في جوابه: إنه كان يحبّ ألاّ يستقلّ وحده بأمر الخلافة، وأن يشاركه في ذلك غيرُه من صلحاء المهاجرين، ليكون أعذرَ عند الله تعالى وعند الناس، وإذا كان قد وضع الشورى عَلَى ذلك الوضع المخصوص، فلم يتحمَّلها استقلالاً، بل شَرَكه فيها غيره، فهو أقلّ، لتحمله أمرها لو كان عيّن عَلَى واحد بعينه.

وأما حديث القتل، فليس مراده إلاّ شقّ العصا، ومخالفة الجماعة، والتوثُّب على الأمر مغالبة.

وقول المرتضَى: لو كان ذلك من أوّل يوم لوجب أن يمنع فاعله ويقاتل، فأيّ معنى لضرب الأيام الثلاثة أجلاً! فإنه يقال له: إنّ الأجل المذكور لم يضرَبْ لقتل مَن يشقّ العصا، وإنما ضُرِب لإبرامهم الأمر وفصله قبل أن تتطاول الأيام بهم، ويتسامع مَنْ بَعُدَ عن دار الهجرة أن الخليفة قد قتل، وأنهم مضطربون إلى الآن، لم يقيموا لأنفسهم خليفَةً بعده، فيطمع أهل الفساد والدَّعارة، ولا يؤمَن وقوع الفتن، ولا يؤمَن أيضاً أن يستردّ الروم وفارس بلاداً قد كان الإسلام استولَى عليها، لأنّ عدم الرئيس مطمِعٌ للعدوّ في ملكه ورعيّته.

فأمّا الأخبار والآثار التي ذكرها المرتضى في مبايعة عليّ عليه السلام لعثمان، وأنَّه كان مكرَهاً عليها أو كالمكرَه، وأنّ الرّضا كان مرتفعاً، والخلاف كان واقعاً، فكلام في غير موضعه، لأنّ قاضي القضاة لم ينحُ بكلامه هذا النّحو، ولا قصد هذا القصد، ليناقضه بما رواه وأسنده من الأخبار والآثار، ولا هذا الموضع من كتاب المغني موضع الكلام في بيعة عثمان وصحتها ووقوع الرّضا بها، فيطعن المرتضى في ذلك بما رواه من الأخبار والآثار الدّالة على تهضّم القوم لأمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه وشيعته وتهدّدهم، وإنما الرضا الذي أشار إليه قاضي القضاة، فهو رضا أمير المؤمنين عليه السلام بأن يكون في جملة أهل الشورى، لأن هذا الباب من كتاب المغني هو باب نفي المطاعن عن عمر، وقد تقدّم ذكر كثير منها.

ثم انتهى إلى هذا الطّعن، وهو حديث الشورى، فذكر قاضي القضاة أنّ الشورى مِمّا طُعِن بها عليه، وادّعِي أنّها كانت خطأ من أفعاله، لأنها لا نصّ ولا اختيار، ألا تراه كيف قال في أوّل الطعن: فخرج بها عن النصّ والاختيار! فنقول في الجواب:

لو كانت خطأً لما دخَل عليٌّ عليه السلام فيها، ولا رَضِيَ بها، فدخوله فيها ورضاه بها دليل عَلَى أنها لم تكن خطأً، وأين هذا من بَيْعة عثمان، حتى يخلط أحد البابين بالآخر!

فأمّا دعواه أنّ عمر عمل هذا الفعل حيلةً، ليصرف الأمر عن عليّ عليه السلام من حيث علم أنّ عبد الرحمن صهرُ عثمان، وأنّ سعداً ابنُ عمّ عبد الرحمن فلا يخالفه، فجعل الصواب في الثلاثة الذين يكون فيهم عبد الرحمن، فنقول في جوابه:

إنّ عمر لو فعل ذلك وقَصَده لكان أحمق النّاس وأجهلَهم، لأنه من الجائز ألاّ يوافق سعدٌ ابنَ عمّه لعداوة تكون بينهما، خصوصاً من بني العمّ، ويمكن أن يستميل عليٌّ عليه السلام سعداً إلى نفسه، بطريق آمنة بنت وهب، وبطريق حمزة بن عبد المطلب، وبطريق الدّين والإسلام، وعهد الرسول صلى الله عليه وآله، ومن الجائز أن يعطف عبدُ الرحمن عَلَى عليّ عليه السلام لوجهٍ من الوجوه، ويعرض عن عثمان، أو يبدوَ من عثمان في الأيام الثلاثة أمرٌ يكرهه عبد الرحمن، فيتركه ويميل إلى عليّ عليه السلام. ومن الجائز أن يموتَ عبد الرحمن في تلك الأيام، أو يموت سعد، أو يموت عثمان، أو يقتل واحد منهم فيخلص الأمر لعليّ عليه السلام، ومن الجائز أن يخالف أبو طلحة أمرَه له أن يعتمِد عَلَى الفِرْقة التي فيها عبد الرحمن، ولا يعمل بقوله، ويميل إلى جهة عليّ عليه السلام، فتبطل حيلتُه وتدبيره!

ثم هب أنّ هذا كلّه قد أسقطناه، مَن الذي أجبر عمر وأكرهَه وقَسرَهُ عَلَى إدخال عليّ عليه السلام في أهل الشورى؟ وإن كان مراده - كما زعم المرتضى - صرفَ الأمر بالحيلة، فقد كان يمكنه أن يجعل الشورى في خمسة، ولا يذكر علياً عليه السلام فيهم، أتراه كان يخاف أحداً لو فعل ذلك ومَنِ الذي كان يجسر أن يراجعه في هذا أو غيره! وحيث أدخله مَنِ الذي أجبره عَلَى أن يقول: إن وليَها ذلك لحمَلهم عَلَى المحجّة البيضاء، وحملَهم عَلَى الصراط المستقيم، ونحو ذلك من المدح! قد كان قادراً ألا يقول ذلك، والكلام الغثّ البارد لا أحبّه.

فأما قوله: إنّ عبد الرحمن فَعل ما فَعل من إخراج نفسه من الإمامة حيلة ليسلّم الأمر إلى عثمان، ويصرفه عن عليٍّ عليه السلام: فكلام بعضُه صحيح وبعضه غير صحيح. أما الصحيح منه فميلُ عبد الرحمن إلى جهة عثمان، وانحرافُه عن عليٍّ عليه السلام قليلاً، وليس هذا بمخصوص بعبد الرحمن، بل قريش قاطبة كانت منحرفةً عنه.

وأمّا الذي هو غير صحيح، فقوله: إنه أخرج نفسَه منها لذلك، فإنّ هذا عندي غيرُ صحيح، لأنه قد كان يمكنه ألاّ يخرج نفسه منها، ويبلغ غرضه، بأن يتجاوز هو وابن عمّه إلى عثمان، ويَدَع علياً وطلحة والزبير طائفة أخرى، فيولّي المسلمون الأمر الطائفة التي فيها عبد الرحمن، بمقتضى نصّ عمر عَلَى ذلك، ثم يعتمد عبد الرحمن بعد ذلك ما يشاء، إن شاء وليَها هو أو

أحد الرجلين، فأي حاجةٍ كانت به إلى أن يخرج نفسه منها ليبلغ غرضاً قد كان يمكنه الوصول إليه بدون ذلك!

وأيضاً فإن كان غرضه ذلك، فإنه من رجال الدنيا قد كان لا محالة، ولم يكن من رجال الآخرة، ومَنْ هو من رجال الدنيا ومحبِّيها كيف تسمح نفسه بترك الخلافة ليعطيها غيره! وهلاّ واطأ سعداً ابن عمّه، وطلحة صديقه، على أن يولّياه الخلافة، وقد قال عمر: كونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن، لاسيما وطلحة منحرفٌ عن عليّ عليه السلام وعثمان، لأنهما ابنَا عبد مناف، وكذلك سعد وعبد الرحمن منحرفان عنهما لذلك أيضاً، ولما اختصّا به من صِهْر رسول الله صلى الله عليه وآله. والصحيح أن عبد الرحمن أخرج نفسَه منها، لأنه استضعف نفسه عن تحمّل أثقالها وكُلَفها، وكرِه أن يدخل فيها، فيقصّر عن عمر، ويراه الناس بعين النقص، ولا يستطيع أن يقوم بما كان عمر يقوم به، وكان عبد الرحمن غنيًّا موسراً كثير المال، وشيخاً قد ذهب عنه ترفُ الشّباب، فنفض عنها يده، استغناء عنها، وكراهيّة لخلل يدخل عليه إن وليَها.

وأما ميلُه عن عليٍّ عليه السلام، فقد كان منه بعضُ ذلك، والطباع لا تملَك، والحسد مستقرٌّ في نفوس البشر، لاسيما إذا انضاف إليه ما يقتضي الازدياد في الأمور.

فأما تنزيه المرتضَى لعليٍّ عليه السلام عن الفُكاهة والدّعابة فحقّ، ولقد كان عليه السلام على قَدَمٍ عظيمة من الوقار والجدّ والسّمْت[1] العظيم، والهدى الرّصين[2]، ولكنّه كان طَلْق الوجهِ، سمْحَ الأخلاق، وعمر كان يريد مثلَه من ذوي الفظاظة والخشونة، لأنّ كلّ واحد يستحسن طبعَ نفسِه، ولا يستحسن طبع مَنْ يباينه في الخُلق والطبع. وأنا أعجب من لفظة عمر - إن كان قالها: «إنّ فيه بَطالة»، وحاش لله أن يوصفَ عليٌّ عليه السلام بذلك! وإنّما يوصَف به أهل الدُّعابة واللهو، وما أظنّ عمر - إن شاء الله - قالها، وأظنّها زيدت في كلامه، وإنّ الكلمة ها هنا لدالّةٌ على انحراف شديد.

فأما قول أمير المؤمنين عليه السلام للعبّاس ولغيره: ذهب الأمر منّا، إنّ عبدَ الرحمن لا يخالِف ابن عمّه، فليس معناه أنّ عمر قصد ذلك، وإنما معناه أنّ من سوء الاتفاق أن وقع الأمر هكذا، ويوشك ألاّ يصل إلينا حيث قد اتفّق فيه هذه النكتة.

فأما قول قاضي القضاة: إذا تقدّمت للفاعل على حالة تقتضي حسنَ الظّنّ، وجب أن يحمَل فعله على ما يطابقها، واعتراض المرتضَى عليه بقوله: إن ذلك إنما يجب إذا كان الخير معلوماً منه فيما تقدّم لا مظنوناً، ومتَى كان مظنوناً ثم وجدنا له فعلاً يظنّ به القبيح لم يكن لنا أن نقضِيَ

(١) السَّمْت: الطريق، وهيئة أهل الخير، القاموس المحيط، مادة (سمت).
(٢) أرصن الشيء: أثبته وأحكمه. لسان العرب، مادة (رصن).

بالسابق على اللاحق، فنقول في جوابه: إنّ الإنسان إذا كان مشهوراً بالصّلاح والخير، وتكرّر منه فعل ذلك مدّة طويلة، ثم رأيناه قد وقعت منه حركة تنافي ذلك فيما بعد، فإنه يجب علينا أن نحمِلها على ما يطابق أحواله الأولى ما وجدنا لها محمَلاً، لأن أحواله الأولى كثيرة، وهذه حالة مفردة شاذّة، وإلحاق القليل بالكثير وحمله عليه أولى من نقض الكثير بالقليل، وقد كانت أحوال عمر مدّة عشرين سنة منتظمة في إصلاح الرعيّة ومناصحة الدّين، وهذا معلوم منه ضرورة - أعني ظاهرَ أحواله - فإذا وقعت عنه حالةٌ واحدة، وهي قصة الشُّورى فيها شبهةٌ ما، وجب أن نتأوّلها ما وجدنا لها في الخير محملاً، ونلحقها بتلك الأحوال الكثيرة التي تكرّرت منه في الأزمان الطويلة، ولا يجوز أن نضع اليدَ عليها ونقول: هذه لا غيرها، ونقبّحها، ونهجّنها، ونسدّ أبواب هذه التأويلات عنها، ثم نحمل أفعاله الكثيرة المتقدمة كلّها عليها في التقبيح والتهجين، فهذا خلاف الواجب، فقد بان صحّة ما ذكره قاضي القضاة، لأنه لا حاجة بنَا في القضاء بالسّابق على اللاحق، إلا أن يكون خيرُه معلوماً، وعلِم علماً يقيناً، فإنّ الظنّ الغالب كافٍ في هذا المقام على الوجه الذي ذكرناه.

وأما قوله عن عمر: إنّه بلغ ما في نفسه من إيصال الأمر إلى مَنْ أراد، وصرْفه عمّن أراد، من غير شناعة بالصريح، وحتى لا يقال فيه ما قيل في أبي بكر، أو يراجع في نصّه كما روجع أبو بكر، ولأي حالٍ يتعسّف أبعد الطريقين، وغرضه يتمّ من أقربهما، فقد قلنا في جوابه ما كفى، وبيّنا أنّ عمر لو أراد ما ذُكر لصرَف الأمر عمّن يريد صرفَه عنه، ونصّ على مَنْ يريد إيصال الأمر إليه، ولم يبال بأحدٍ، فقد عرف النّاس كلُّهم كيف كانت هيبته وسطوته وطاعة الرعيّة له، حتى أنّ المسلمين أطاعوه أعظَم من طاعتهم رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، ونفوذ أمره فيهم أعظم من نفوذ أمره عليه السلام، فمن الذي كان يجسُر أو يقدر أن يراجعَه في نصّه، أو يرادّه، أو يلفظ عنده أو غائباً عنه بكلمة تنافي مراده! وأيّ شيء ضَرّ أبا بكر من مراجعة طلحة له حيث نصّ، ليقول المرتضى: خاف عمر من أن يراجَع كما روجع أبو بكر، وقد سمع الناس ما قال أبو بكر لطلحة لما راجعه، فإنّه أخزاه وجبّهه، حتى دخل في الأرض، وقام مِنْ عنده وهو لا يهتدي إلى الطريق! وأين كانت هيبةُ الناس لأبي بكر من هيبتهم لعمر! فلقد كان أبو بكر وهو خليفة يهابُه وهو رعيَّة وسُوقة بين يديه، وكلُّ أفاضل الصحابة كان يهابه، وهو بعدُ لم يل الخلافة، حتى أن الشّيعة تقول: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله يهابه، فَمن كانت هذه حاله وهو رعيَّة وسُوقة، فكيف يكونُ وهو خليفة، قد ملك مشارق الأرض ومغاربها، وخُطب له على مائة ألف منبر! ولو أراد عمر أن يخطُب بالخلافة لأبي هريرة لما خالفه أحدٌ من الناس أبداً! فيكف يقول المرتضى: لماذا يتعسّف عمر أبعدَ الطريقين، وغرضه يتمّ من أقربهما!

والعجَب منه كيف يقول: خاف شناعةَ التصريح فمن لم يخَفْ عندهم شناعة المخالفة

لرسول الله ﷺ وهو يعلم أنّ المسلمين يعلمون أنه مخالف لله تعالى ولرسوله قائم في مقام لم يجعله الله تعالى له، كيف يخاف شناعة التصريح باسم عثمان لو كان يريد استخلافه! إن هذا لأعجبُ من العَجَب!

الطعن العاشر: قولهم: إنه أبدع في الدين ما لا يجوز، كالتّراويح، وما عمله في الخراج الذي وضعه على السّواد، وفي ترتيب الجِزْية، وكلُّ ذلك مخالف للقرآن والسّنّة، لأنه تعالى جَعَل الغنيمة للغانمين، والخمس منها لأهل الخُمُس، فخالف القرآن، وكذلك السنّة تنطق في الجزية أنّ على كلّ حالم ديناراً، فخالف في ذلك السنة، وأنّ الجماعة لا تكون إلا في المكتوبات، فخالف السنة.

أجاب قاضي القضاة عن ذلك، بأنّ قيام شهر رمضان، قد رُوِي عن النبي ﷺ أنه عمله ثم تركه، وإذا علِم أن الترك ليس بنسْخ، صار سنَّة يجوز أن يعمل بها، وإذا كان ما لأجله ترَكه من التنبيه بذلك على أنه ليس بفرض، ومِنْ تخفيف التعبدّ ليس بقائم في فعل عمر لم يمتنع أن يدوم عليه، وإذا كان فيه الدعاء إلى الصلاة والتشدد في حفظ القرآن، فما الذي يمنع أن يعمل به!

فأمّا أمر الخراج، فأصله السنّة، لأنّ النبي ﷺ بيَّن أنّ لمن يتولّى الأمر ضرباً من الاختيار في الغنيمة، ولذلك فصَّل بين الرجال والأموال، فجعل الاختيار في الرجال إلى الإمام في القتل والاسترقاق والمفاداة، وفصّل بينه وبين المال، وإن كان الجمع غنيمةً.

ثم ذكر أنّ الغنيمة لم تُضَف إلى الغانمين إضافة الملك، وإنما المراد أنّ لهم في ذلك من الاختصاص والحقّ ما ليس لغيرهم، فإذا عرض ما يقتضي تقديم أمرٍ آخر، جاز للإمام أن يفعله، ورأى عمر في أمر السّواد الاحتياط للإسلام، بأن يقرّ في أيديهم علَى الخراج الذي وضَعه، وإن كان في النَّاس مَنْ يقول: فعل ذلك برضا الغانمين، وبأن عوّض. ويدلّ على صحّة فعله إجماع الأمة ورضاهم به، ولمَّا أفضى الأمرُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام تركه على جملته، ولم يغيّره.

ثم ذكر في الجزية أن طريقها الاجتهاد، فإن الخبر المرويّ في هذا الباب ليس بمقطوع به، ولا معناه معلوم.

اعترض المرتضَى هذا الجواب، فقال: أمَّا التراويح فلا شبهة أنها بدْعة، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس، إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة جماعة بدعة وصلاة الضحى بدعة، ألاَ فلا تجتمعوا ليلاً في شهر رمضان في النافلة، ولا تصلّوا صلاة

الضحى فإنّ قليلاً من سنّة خير من كثير في بدْعة، ألا وإنّ كلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة سبيلها في النار»[(١)].

وقد روي: أنّ عمرَ خرج في شهر رمضان ليلاً، فرأى المصابيح في المسجد، فقال: ما هذا؟ فقيل له: إن الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوّع، فقال: بِدْعة، فنعمتِ البِدْعة! فاعترف كما ترَى بأنّها بِدعة، وقد شهد الرسول صلى الله عليه وآله أنّ كل بدعةٍ ضلالة.

وقد رُوِي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا اجتمعوا إليه بالكوفة، فسألوه أن ينصب لهم إماماً يصلّي بهم نافلة شهر رمضان، زجرهم وعرّفهم أنّ ذلك خلاف السنة، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم، وقدّموا بعضهم، فبعث إليهم ابنه الحسن عليه السلام، فدخل عليهم المسجد، ومعه الدِّرّة، فلمّا رأوْه تبادروا الأبواب، وصاحوا: واعمراه!

قال: فأمّا ادّعاؤه أنّ قيام شهر رمضان كان في أيّام الرسول صلى الله عليه وآله، ثم تركه فمغالطة منه، لأنّا لا ننكر قيام شهر رمضان بالنّوافل على سبيل الانفراد، وإنّما أنكرنا الاجتماع على ذلك، فإن ادَّعى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله صلاّها جماعةً في أيامه، فإنّها مكابَرة ما أقدم عليها أحدٌ، ولو كان كذلك ما قال عمر: إنّها بدعة، وإن أراد غير ذلك فهو ممّا لا ينفعه، لأنّ الذي أنكرناه غيره.

قال: والذي ذكره من أنّ فيه التشدّد في حفظ القرآن، والمحافظة على الصّلاة، ليس بشيء، لأنّ الله تعالى ورسوله بذلك أعلم، ولو كان كما قاله لكانا يسنّان هذه الصلاة، ويأمران بها، وليس لنا أن نبدع في الدِّين بما نظنّ أنّ فيه مصلحة، لأنه لا خلاف في أنّ ذلك لا يسوغ ولا يحلّ.

وأمّا أمر الخراج فهو خلاف لنصّ القرآن، لأن الله تعالى جعل الغنيمة في وجوهٍ مخصوصة، فمنْ خالفها فقد أبدع، وليس للإمام ولا لغيره أن يجتهد فيخالف النصّ، فبطل قوله: إنه رأى من الاحتياط للإسلام أن يقرّ في أيديهم على الخراج، لأنّ خلاف النصّ لا يكون من الاحتياط ورسوله أعلم بالاحتياط منه، ولو كان لرضا الغانمين عن ذلك أو عِوَضهم منه على ما ادّعاه صاحب الكتاب لوجب أن يظهر ذلك ويُعْلَم، وما عرفنا في ذلك شيئاً، ولا نقله الناقلون.

وأما ما ادّعاه من الإجماع، فمعوَّله فيه على ترك النكير، وقد تقدم الكلام عليه وتكرّر، وكذلك قد تقدّم الكلام في وجه إقرار أمير المؤمنين عليه السلام ما أقرّه من أحكام القوم، وما ادّعاه أنّ خبر الجزية غير معلوم ولا مقطوع به، فهبْ أنّ ذلك مسلّم على ما فيه، أليس من مذهبه أنّ أخبار الآحاد في الشريعة يعمل بها، وإن لم تكن معلومة! فهلاّ عمل عمرُ بالخبر المرويّ في هذا الباب، وعدل عن اجتهاده الذي أدّاه إلى مخالفة الله تعالى!

---

(١) لم أعثر عليه.

أما كونُ صلاة التَّراويح بدعة وإطلاق عمر عليها هذا اللفظ، فإنَّ لفظة البدعة يطلق على مفهومين:

أحدهما ما خولف به الكتاب والسُّنَّة، مثل صوم يوم النحر وأيام التشريق، فإنه وإن كان صوماً إلاّ أنه منهيٌّ عنه.

والثاني لم يردْ فيه نصٌّ، بل سُكِت عنه، ففعله المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ. فإن أريد بكون صلاة التراويح بدعةً المفهوم الأوّل، فلا نسلّم أنّها بدعة بهذا التفسير، والخبر الذي رواه المرتضى غير معروف، ولا يمكنه أن يسنده إلى كتاب من كتب المحدثين، ولو قَدَر على ذلك لأسنده، ولعلّه من أخبار أصحابه من محدّثي الإمامية والإخباريين منهم، والألفاظ التي في آخر الحديث، هي: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» مرويّة مشهورة، ولكنْ على تفسير البدعة بالمفهوم الأول. وقول عمر: «إنها لَبِدعة» خبر مرويٌّ مشهور، ولكن أراد به البدعة بالتفسير الثاني، والخبر الذي رواهُ أمير المؤمنين عليه السلام ينفرد هو وطائفته بنقله، والمحدّثون لا يعرفون ذلك ولا يثبتونه.

فأمّا إنكاره أن تكون نافلة شهر رمضان صلاّها رسول الله ﷺ في جماعة، فإنكارٌ لست أرتضيه لمثله، فإنّ كتبَ المحدّثين مشحونة برواية ذلك، وقد ذكره أحمد بن حنبل في مسنده غير مرّة بعدة طرق، ورواه الفقهاء، ذكره الطّحاوي في كتاب اختلاف الفقهاء[1]، وذكره أبو الطيب الطبريّ الشافعيّ في شرحه كتاب المزنيّ، وقد ذكره المتأخرون أيضاً.

ذكره الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين وقال: إنّ رسول الله ﷺ صلى التراويح في شهر رمضان في جماعة ليلتين أو ثلاثاً، ثم ترك، وقال: أخاف أن يوجب عليكم.

وأجاز لي الشيخُ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزيّ، بروايته عن شيخه محمد بن ناصر، عن شيوخه ورجاله أنّ رسول الله ﷺ صلّى نافلة شهر رمضان في جماعة يأتمّون به ليالي ثم لم يخرج وقام في بيته، وصلّى الناس فرادَى بقيّة أيامه وأيام أبي بكر وصَدْراً من خلافة عمر، فخرج عمر ليلة، فرأى الناس أوزاعاً يصلّون في المسجد، فقال: لو جمعتهم على إمام! فأمر أبي بن كعب أن يصلّيَ بهم، فصلّى بهم تلك الليلة ثم خرج، فرآهم مجتمعين إلى أبيّ بن كعب يصلّي بهم، فقال: بدعة ونعمت البدعة! أما إنها لفضلٌ، والتي ينامون عنها أفضل.

قال: يعني قيام آخر الليل، فإنه أفضل من قيام أوله.

وأما قول قاضي القضاة إنّ في التراويح فائدة وهي التشدّد في حفظ القرآن والدعاء إلى

---

(١) ذكره في «كشف الظنون» (١/ ٣٢)، باسم اختلاف العلماء وهو للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي الحنفي المتوفى سنة ثلاثمائة وإحدى وعشرين.

الصلاة، واعتراض المرتضى إياه بقوله: الله أعلم بالمصلحة، وليس لنا أن نسنّ ما لم يسنّه الله ورسوله، فإنه يقال له: أليس يجوز للإنسانِ أن يخترع من النّوافل صلواتٍ مخصوصة بكيفيّات مخصوصة، وأعدادِ ركعات مخصوصة، ولا يكون ذلك مكروهاً ولا حراماً، نحو أن يصلّي ثلاثين ركعة بتسليمة واحدة، ويقرأ في كلّ ركعة منها سورةً من قِصار المفصّل! أفيقول أحدٌ: إنّ هذا بدعة، لأنه لم يرد فيه نصّ ولا سبق إليه المسلمون من قبل! فإن قال: هذا يسوغ، فإنه داخل تحت عموم ما ورد فضل صلاة النافلة، قيل له: والتراويح جائزة ومسنونة لأنها داخلة تحت عموم ما ورَد في فضل صلاة الجماعة.

فإن قال: كيف تكون نافلة، وهي جماعة! قيل له: قد رأينا كثيراً من النّوافل تصلّى جماعة، نحو صلاة العيد، وصلاة الكسوف، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الجنازة، إذا لم يتعيّن للمصلّي بأن يقوم غيره مقامهَ فيها.

فأمّا ما أشار إليه قاضي القضاة من التشدّد في حفظ القرآن، فهو أنّه روي أنّ عمر أُتِيَ بسارق، فأمر بقطعه، فقال: لم أعلم أنّ الله أوجب القطع في السَّرِقة، ولو علمت لم أسرق، فأحلفه على ذلك. وسنّ التراويح ليتكرّر سماع القرآن على أسماع المسلمين.

وقد اختلف الفقهاء أيّما أفضل في نافلة شهر رمضان؟ الاجتماع عليها أم صلاتها فرادى؟ فقال قوم: الجماعة أفضل لأنّ الاجتماع بركة وله فضيلة، ولولا فضيلته لم يسنّ في المكتوبة، ولأنه ربّما يكسل في الانفراد، وينشط عند مشاهدة الجمع.

وقال قوم: الانفراد أفضل، لأنّها سنّة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بتحيّة المسجد أوْلَى، وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معاً، ثم لم يصلّوا التحيّة بالجماعة.

وروى القائلون بهذا القول عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «فضل صلاة المتطوّع في بيته على صلاة المتطوّع في المسجد، كفضلِ صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت»[١].

وقد روي عنه عليه السلام: إنّ أفضل النوافل ركعتان يصلّيهما المسلم في زاوية بيته لا يعلمهما إلا الله وحده.

قالوا: ولأنها إذا صلّيت فرادَى كانت الصلاة أبعَد من الرّياء والتصنّعِ. وبالجملة الاختلاف في أيّهما أفضل، فأما تحريم الصلاة ولزوم الإثم بفعلها، فممّا لم يذهب إليه إلا الإمامية، وقد روى الرواة أن عليًّا عليه السلام خرج ليلاً في شهر رمضان في خلافة عثمان بن عفان، فرأى المصابيح في المساجد، والمسلمون يصلّون التراويح، فقال: نوّر الله قبر عمر كما نوّر مساجدنا! والشّيعة يروون هذا الخبر، ولكن بحمل اللفظ على معنى آخر.

---

(١) ذكره الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء في كتاب: أسرار الصلاة، باب: السابع.

فأما حديث الخراج فقد ذكره أرْبابُ علم الخراج والكتّاب، وذكره الفقهاء أيضاً في كتبهم، وذكره أرباب السيرة وأصحاب التاريخ. قال قدامة بن جعفر في كتاب الخراج: اختلف الفقهاء في أرض العَنْوة، فقال بعضهم: تخمّس، ثم تقسّم أربعة أخماس على الّذين افتتحُوها، وقال بعضهم: ذلك إلى الإمام، إن رأى أن يجعلَها غنيمة ليخمّسها ويقسم الباقي كما فعل رسول الله ﷺ بخيبر فذلك إليه، وإن رأى أن يجعلَها فيئاً فلا يخمّسها ولا يقسمها، بل تكون موقوفةً على سائر المسلمين، كما فعل عمر بأرض السَّوَاد وأرض مصر وغيرهما، ممّا افتتحه عَنْوةً، فعلى الوجهين جميعاً، فيهما قدوة ومتّبع، لأن النبيّ ﷺ قسّم خيبر وصيّرها غنيمة، وأشار الزُّبير بن العوام على عُمر في مصر وبلاد الشام بمثل ذلك، وهو مذهب مالك بن أنس، وجعل عمر السواد وغيره فيئاً موقوفاً على المسلمين، مَنْ كان منهم حاضراً في وقته، ومَنْ أتى بعده ولم يقسمه، وهو رأيٌ رآه عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعاذ بن جبل، وأشارا عليه، وبه كان يأخذ سُفيان بن سعيد، وذلك رأي مَنْ جعل الخيار إلى الإمام في تصيير أرض العَنْوة غنيمة أو فيئاً راجعاً للمسلمين في كل سنة.

قال قدامة رحمه الله: فأمّا ما فعله رسول الله ﷺ من تصييره خَيْبر غنيمة، فإنّه عليه السلام اتّبع فيه آيةً محكمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[1] فهذه آية الغنيمة وهي لأهلها دون الناس، وبها عمل رسول الله ﷺ، وأمّا الآية التي عمل بها عمر وذهب إليها علي عليه السلام ومعاذ بن جبل فيما أشارا عليه به، فهي قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾[2]. انتهت ألفاظ قدامة.

وروى محمد بن جرير الطبري في تاريخه، أنّ عمر هَمّ أن يقسّم أرضَ السَّواد بين الغانمين، كما يقسم الغنائم، ثم قال: فكيف بالآجام ومناقع المياه والغياض والهضب المرتفع والغائط المنخفض؟ وكيف يصنع هؤلاء بالماء وقسمته بينهم؟ أخاف أن يضرب بعضهم وجوهَ بعض! ثم جمع الغانمين فقال لهم ذلك، فرضُوا أن تقرّ الأرض حبيساً لهم يولونها مَنْ تراضوْا عليه، ثم يقتسمون غلّتها كلّ عام، فقال عمر: اللهمّ إنّي قد اجتهدت، وقد قضيت ما عليّ، اللهم إني أشهدُك عليهم فاشهد.

فأما قول قاضي القضاة: إنّ النبي ﷺ جعل لمتوليّ أمر الأمّة ضرباً من الاختيار في الغنيمة، وما ذكره من الفرق بين الرّجال والأموال، وما ذكره من أنّ الغانمين ليسوا مالكِي

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.
(٢) سورة الحشر، الآيات: ٧، ١٠.

الغنيمة ملكاً صريحاً، وإنما هو ضرب من الاختصاص، فكلّه جيّد لا كلام عليه، ولم يعترضه المرتضى بشيء ولا تعرّض له.

وأما قول قاضي القضاة: إنه رُوِيَ أنّ عمر فعل ما فعل برضا الغانمين، وبأن عوّضهم عنه، وإنكار المرتضى وقوعَ ذلك، وقوله: إنه لم ينقل، فقد بيّنا أن الطبريّ ذكر في تاريخه أنّ عمر فعل ذلك برضا الغانمين، وبعد أن جمعهم وقال لهم ما استصلحه، وما أدّى إليه اجتهاده، فرضُوا به، وأشهدوا الله عليهم والحاضرين.

وقد ذكر كثير من الفقهاء أنّ عمر عوّض الغانمين عن أرض السّواد، ووقفه على مصالح المسلمين، وهذا ما رواه الشافعيّ، وذكر حديث التعويض أبو الحسن عليّ بن حبيب الماورديّ في كتاب الحاوي في الفقه، وذكره أيضاً أبو الطّيب طاهر بن عبد الله الطبريّ في شرح المزنيّ.

وأما تعلّق قاضي القضاة بإجماع المسلمين، فتعلّقٌ صحيح، وطعن المرتضى فيه بالتقيّة وموافقة الإمام المعصوم عَلَى الباطل طعنٌ يسمُج التعلّق به، وللبحث فيه سبْح طويل.

وأمّا أمر الجزية، فطريقه الاجتهاد، وللإمام أن يرى فيه رأيه بمشاورة الصلحاء والفقهاء، وقد قال قاضي القضاة: إنّ الخبر الذي ذكره المرتضى، وذكر أنه مرفوع، وهو «عَلَى كلّ حالمٍ دينار»[1] خبر مظنون غير معلوم، واعتراض المرتضى عليه بقوله: هب أنّ الأمر كذلك، ألستم تزعمون أنّ خبر الواحد معمول عليه في الفروع! فهلاّ عملِ عمر بهذا الخبر، وإن كان خبر واحد - اعتراض ليس بلازم، لأنه إذا كان خبرَ واحد عندنا لم يلزم أن يكون أيضاً خبر واحد عند عمر، بل من الجائز أنّ يكون مفتعلاً بعد وفاة عمر، ولو كان قد ثبت أن عمر سمع هذا الخبر من واحدٍ أو اثنين من الصحابة، ثم لم يعمل به، كان الاعتراض لازماً، ولكنّ ذلك ممّا لم يثبت.

تم الجزء الثاني عشر من شرح نهج البلاغة

ويليه الجزء الثالث عشر

---

(١) أخرج نحوه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في زكاة البقر (٦٢٣)، والنسائي في كتاب: الزكاة، باب: زكاة البقر (٢٤٥٠)، وأبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في زكاة السائمة (١٥٧٦).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الجزء الحادي عشر

الجزء الثاني عشر

شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح

نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

١٣ ـ ١٤

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الكتاب العربي
دار الكتاب العربي
بغداد - شارع المتنبي
تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٠٧٩٠١٤١٩٢٧٥

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
خلوي: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٤٠٨
http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق
محمد إبراهيم

المجلد السابع

١٣ - ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

٢٢٤ - ومن كلام له عليه السلام
في وصف بيعته بالخلافة، وقد تقدم مثله بالفاظ مختلفة

الأصل: وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ ٱلْإِبِلِ ٱلْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، حَتَّى ٱنْقَطَعَتِ ٱلنَّعْلُ، وَسَقَطَ الرِّدَاءُ، وَوُطِىءَ الضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ٱبْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا ٱلْكَبِيرُ، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا ٱلْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا ٱلْكِعَابُ.

الشرح: التّداكّ: الازدحام الشديد. والإبل الهِيم: العِطاش.

وهَدَج إليها الكبير: مشى مشياً ضعيفاً مرتعشاً، والمضارع يهدِج، بالكسر، وتحامل نحوها العليل: تكلّف المشي على مشقّة.

وحَسَرتْ إليها الكَعاب: كشفتْ عن وجهها حِرْصاً على حضور البيعة، والكَعاب: الجارية التي قد نَهَد ثديُها، كعَبت تكعُب، بالضمّ.

قوله: «حتى انقطع النّعل وسقط الرّداء»، شبيه بقوله في الخطبة الشِّقشقيّة: «حتى لقد وُطىء الحَسَنان وشُقّ عِطْفايَ».

وقد تقدّم ذكر بيعتِه عليه السلام بعد قَتْلِ عثمان وإطباق الناس عليها، وكيفيّة الحال فيها، وشُرِح شرحاً يَستغنَي عن إعادته.

٢٢٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الوصية بالتقوى

الأصل: فَإِنَّ تَقْوَى ٱللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ، وَيَنْجُو ٱلْهَارِبُ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ.

فَاعْمَلُوا وَٱلْعَمَلُ يُرْفَعُ، وَٱلتَّوْبَةُ تَنْفَعُ، وَٱلدُّعَاءُ يُسْمَعُ، وَٱلْحَالُ هَادِئَةٌ، وَٱلْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ.

وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمْراً نَاكِساً، أَوْ مَرَضاً حَابِساً، أَوْ مَوْتاً خَالِساً، فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ. زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ، قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حبَائِلُهُ، وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ، وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ، فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ، وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ، وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ، وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ، وَدُجُوُّ إِطْبَاقِهِ، وَخُشُونَةُ مَذَاقِهِ. فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ، وَعَفَى آثَارَكُمْ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ، يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ، بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ.

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ، وَالتَّأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ، وَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَما غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا، وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً، لاَ يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ، وَلاَ يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ، وَلاَ يُجِيبُونَ مَنْ دَعَاهُمْ.

فاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ، لاَ يَدُومُ رَخَاؤُهَا، وَلاَ يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا، وَلاَ يَرْكُدُ بَلاَؤُهَا.

الشرح: عِتقٌ من كلّ ملَكة، هو مثل قوله عليه السلام: «التوبة تجبُّ ما قبلها»[1]، أيّ كلّ ذنب موبِق يملك الشيطان فاعله ويستحوذ عليه، فإنّ تقوى الله تعتِق منه، وتكفر عقابه، ومثله قوله: «ونَجاةٌ من كلّ هَلَكة».

قوله عليه السلام: «والعمل ينفع»، أي اعملوا في دارِ التّكليف، فإنّ العمل يوم القيامة غير نافع.

قوله عليه السلام: «والحال هادئة»، أي ساكنة ليس فيها ما في أحال الموقف من تلك الحركات الفظيعة، نحو تطاير الصحف، ونطق الجوارح، وعنف السياق إلى النار.

قوله عليه السلام: «والأقلام جارية»، يعني أنّ التكليف باقٍ، وأنّ الملائكة الحفَظة تكتب أعمال العباد، بخلاف يوم القيامة، فإنه يبطل ذلك، ويستغنى عن الحفظة لسقوط التكليف.

قوله: «عمراً ناكساً»، يعني الهرَم، من قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ﴾[2]، لرجوع الشيخ الهرِم إلى مثل حال الصبيّ الصغير في ضعف العقل والبنية.

---

(١) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (٣/ ٤٣). (٢) سورة يس، الآية: ٦٨.

والموت الخالس: المختطِف. والطِّيّات: جمع طِيّة بالكسر، وهي منزل السفر.

والواتر: القاتل، والوِتْر، بالكسر: الذَّحْل.

وأعلقتكم حبائله: جعلتكم معتلقين فيها، ويروي: «قد عَلِقَتْكم» بغير همز.

وتكنّفتكم غوائله: أحاطت بكم دواهيه ومصائبه. وأقصدتكم: أصابتكم.

والمعابل: نصال عِرَاض، الواحدة مِعْبَلة، بالكسر.

وعَدْوته، بالفتح: ظُلْمه. ونَبْوَته: مصدر نَبَا السَّيف، إذا لم يؤثِّر في الضريبة.

ويوشِك، بالكسر: يقرب. وتَغْشاكم: تحيط بكم.

والدّواجي: الظُّلَمَ، الواحدة داجية. والظُّلل: جمع ظُلّة، وهي السحاب. والاحتدام: الاضطرام. والحنادس: الظلمات.

وإرهاقه: مصدر أرهقته، أي أعجلته، ويروي: «إزهاقه» بالزاي.

والأطباق: جمع طَبَق، وهذا من باب الاستعارة، أي تكاثف ظلماتِها طبق فوق طبق.

ويروي: «وجُشوبة مذاقه» بالجيم والباء، وهي غلظ الطعام.

والنّجِيّ: القوم يتناجوْن. والندي: القوم يجتمعون في النادي.

واحتلبوا دِرّتها: فازوا بمنافعها، كما يحتلب الإنسان اللَّبَن.

وهذه الخطبة من محاسن خطبه عليه السلام، وفيها من صناعة البديع ما هو ظاهر للمتأمّل.

الأصل: منها في صفة الزهاد: كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا، عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ، تُقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ ٱلْآخِرَةِ، وَيَرَوْنَ أَهْلَ ٱلدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ، وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ.

الشرح: بين ظهرانَيْ أهل الآخرة، بفتح النون، ولا يجوز كسرها، ويجوز «بين ظهرَيْ أهل الآخرة»، لو روي، والمعنى في وسطهم.

قوله عليه السلام: «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها»، أي هم من أهلها في ظاهر الأمر وفي مرأى العيْن وليسوا من أهلها، لأنه لا رغبة عندهم في ملاذّها ونعيمها، فكأنّهم خارجون عنها.

قوله: «عملوا فيها بما يبصرون»، أي بما يرونه أصلح لهم، ويجوز أن يريد أنهم لشدّة اجتهادهم قد أبصروا المآل، فعملوا فيها على حسب ما يشاهدونه من دار الجزاء، وهذا كقوله عليه السلام: «لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقيناً».

قوله عليه السلام: «وبادروا فيها ما يحذرون»، أي سابقوه، يعني الموت. قوله عليه السلام: «تُقلّب أبدانهم»، هذا محمول تارة على الحقيقة، وتارة على المجاز، أما الأول فلأنهم لا يخالطون إلاّ أهلَ الدين ولا يجالسون أهل الدنيا، وأمّا الثاني فلأنّهم لما استحقُّوا الثواب كان الاستحقاق بمنزلة وصولهم إليه، فأبدانُهم تتقلّب بين ظهرانيْ أهل الآخرة، أي بين ظهرانَيْ قوم هم بمنزلة أهل الآخرة، لأنّ المستحقّ للشيء نظيرٌ لمن فعل به ذلك الشيء.

ثم قال: هؤلاء الزّهّاد يرون أهل الدنيا إنما يستعظمون موت الأبدان، وهم أشدُّ استعظاماً لموت القلوب، وقد تقدّم من كلامنا في صفات الزهاد والعارفين ما فيه كفاية.

٢٢٦ - ومن خطبة له عليه السلام خطبها بذي قار وهو متوجّه إلى البصرة، ذكرها الواقديّ في كتاب «الجمل»(١)

الأصل: فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالاتِ رَبِّهِ، فَلَمَّ ٱللهُ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَقَ بِهِ ٱلْفَتْقَ، وَأَلَّفَ بِهِ الشَّمْلَ بَيْنَ ذَوِي ٱلْأَرْحَامِ، بَعْدَ ٱلْعَدَاوَةِ ٱلْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ ٱلْقَادِحَة فِي ٱلْقُلُوبِ.

الشرح: ذو قارٍ: اسم موضع قريب من البصرة، وفيه كانت وقْعة للعرب مع الفرس قبل الإسلام.

وصدَع بما أمر به، أي جهر، وأصل الصَّدْع الشقّ.

ولمّ به: جمع. ورتق: خاط وألحم.

والعداوة الواغرة: ذات الوغْرة، وهي شدة الحرّ.

والضغائن: الأحقاد.

والقادحة في القلوب، كأنها تقدح النار فيها كما تقدح النّار بالمِقْدَحة.

---

(١) الجمل: لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المتوفى سنة (٢٠٧هـ)، «الأعلام» للزركلي (٦/ ٣١١).

٢٢٧ - ومن كلام له عليه السلام كلم به عبد الله بن زمعة، وهو من شيعته، وذلك أنه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً، فقال عليه السلام

الأصل: إِنَّ هَذَا المَالَ لَيْسَ لِي وَلاَ لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلاَّ فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لاَ تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ.

الشرح: هو عبد الله بن زمَعة، بفتح الميم، لا كما ذكره الراونديّ، وهو عبد الله بن زَمَعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ.

كان الأسود من المستهزئين الّذين كفى الله رسوله أمرهم بالموت والقتل، وابنه زَمَعة بن الأسود، قُتِل يوم بدر كافراً، وكان يدعى زاد الركب، وقُتل أخوه عُقَيل بن الأسود أيضاً كافراً يوم بَدْر، وقُتل الحارث بن زَمَعة أيضاً يوم بدر كافراً، والأسود هو الذي سمع امرأة تبكي على بعير تضلّه بمكة بعد يوم بدر، فقال:

أتَبْكي أنْ يَضِلَّ لها بعيرٌ ... ويمنعُها من النّوم الهجودُ
ولا تبكي عَلَى بَدْرٍ ولكنْ ... عَلَى بَدْرٍ تقاصَرَتِ الجدودُ
ألاَ قَدْ سادَ بعدهمُ أناسٌ ... ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

وكان عبد الله بن زَمَعة شيعةً لعليّ عليه السلام. ومن أصحابه، ومن ولد عبد الله هذا أبو البختريّ القاضي، وهو وهب بن وهب بن كبير بن عبد الله بن زَمَعة، قاضي الرشيد هارون بن محمد المهديّ، وكان منحرفاً عن عليّ عليه السلام، وهو الذي أفتى الرشيد ببطلان الأمان الذي كتبه ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأخذه بيده فمزّقه.

وقال أميّة بن أبي الصلت يرثي قتلى بدر، ويذكر زَمَعة بن الأسود:

عَيْنِ بكّي لنوفلٍ ولعمرٍو ... ثم لا تبخَلِي على زَمَعَهْ

نوفل بن خويلد من بني أسد بن عبد العُزّى، ويعرف بابن العدويّة، قتله علي عليه السلام، وعمرو أبو جهل بن هشام، قتله عوف بن عَفْراء، وأجْهز عليه عبد الله بن مسعود.

قوله عليه السلام: «وجَلْب أسيافهم» أي ما جلبتْه أسيافهم وساقته إليهم، والجلَب: المال المجلوب. وجَناة الثمر ما يُجْنَى منه، وهذه استعارة فصيحة.

٢٢٨ – ومن كلام له عليه السلام في أحجام اللسان عن الكلام

الأصل: أَلاَ وَإِنَّ ٱللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ، فَلاَ يُسْعِدُهُ ٱلْقَوْلُ إِذَا ٱمْتَنَعَ، وَلاَ يُمْهِلُهُ ٱلنُّطْقُ إِذَا ٱتَّسَعَ، وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ ٱلْكَلاَمِ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ.

وَٱعْلَمُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ ٱلْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ، وَٱللِّسَانُ عَنِ ٱلصِّدْقِ كَلِيلٌ، وَٱللاَّزِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ، أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى ٱلْعِصْيَانِ، مُصْطَلِحُونَ عَلَى ٱلْإِدْهَانِ[١]، فَتَاهُمْ عَارِمٌ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ[٢]، لاَ يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ، وَلاَ يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ.

الشرح: بَضعة من الإنسان: قطعة منه، والهاء في «يسعده» ترجع إلى اللسان.

والضمير في «امتنع» يرجع إلى الإنسان، وكذلك الهاء في «لا يمهله» يرجع إلى اللّسان.

والضمير في «اتسع» يرجع إلى الإنسان، وتقديره: فلا يُسعِد اللسان القول إذا امتنع الإنسان عن أن يقول، ولا يمهل اللسان النطق إذا اتّسع للإنسان القول، والمعنى: إن اللسان آلةٌ للإنسان، فإذا صرفه صارفٌ عن الكلام، لم يكن اللسان ناطقاً، وإذا دعاه داعٍ إلى الكلام نطق اللّسان بما في ضمير صاحبه.

وتنشّبت عروقه، أي علِقت، وروي: «انتشبت»، والرواية الأولى أدخل في صناعة الكلام، لأنّها بإزاء تهدّلت، والتهدّل: التدلّي، وقد أخذ هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراساني، فخطب بها في خطبةٍ مشهورة من خطبه.

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في واقعة اقتضت أن يقوله، وذلك أنه أمر ابن أخته جَعْدة بن هُبيرة المخزوميّ أن يخطب الناس يوماً، فصعد المنبر، فحصِر ولم يستطع الكلام، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فتسنّم ذروة المنبر، وخطب خطبة طويلة، ذكر الرضيّ رحمه الله منها هذه الكلمات، وروى شيخنا أبو عثمان في كتاب «البيان والتبيين»[٣] أن عثمان صعِد

(١) الإدهان: أدهن: أظهر خلاف ما أضمر. أو الإدهان: الإبقاء، اللسان، مادة (دهن).

(٢) مماذق: غير مخلص. اللسان، مادة (مذق).

(٣) البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المعتزلي، المتوفى سنة (٢٥٥هـ). «كشف الظنون» (١/ ٢٦٣).

المنبر فأرتج عليه فقال: «إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل، أحوج منكم إلى إمام خطيب، وستأتيكم الخطبة على وجهها». ثم نزل.

قال أبو عثمان: وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: صعد ابنٌ لعديّ بن أرطاة المنبر، فلمّا رأى الناس حَصِر فقال: «الحمد لله الذي يُطعم هؤلاء ويسقيهم».

وصعد رَوْح بن حاتم المنبر، فلمّا رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم، وصرفوا أسماعهم نحوه، قال: «نكّسوا رؤوسكم، وغضّوا أبصاركم، فإنّ أوّل مركب صَعب، فإذا يسّر الله عزّ وجلّ فَتحَ قُفْلٍ تيسر». ثم نزل.

وخطب مُصْعب بن حَيّان أخو مقاتل بن حَيّان خطبة نكاح فحصِر، فقال: «لقنّوا موتاكم لا إله إلا الله»، فقالت أمّ الجارية: عجّل الله موتك، ألهذا دعوناك!

وخطب مَرْوان بن الحكَم فحصِر، فقال: «اللهمّ إنّا نحمَدك ونستعينك، ولا نشرك بك».

ولما حَصِر عبد الله بن عامر بن كُريز على المنْبر بالبصرة - وكان خطيباً - شَقّ عليه ذلك، فقال له زياد بن أبيه، وكان خليفته: أيها الأمير لا تجزع، فلو أقمت على المنبر عامّة مَنْ ترى أصابهم أكثر ممّا أصابك. فلمّا كانت الجمعة تأخّر عبد الله بن عامر وقال زياد للناس: إنّ الأمير اليوم مؤعوك، فقيل لرجل من وجوه أمراء القبائل: قم فاصعدَ المنبر، فلما صعد حَصِر، فقال: الحمد لله الذي يرزق هؤلاء. وبقيَ ساكتاً، فأنزلوه، وأصعدوا آخر من الوجوه، فلما استوى قائماً قابل بوجهه النّاس، فوقعت عينه على صَلْعة رجل، فقال: أيّها الناس، إنّ هذا الأصلع قد منعني الكلام، اللهمّ فالْعَن هذه الصلعة. فأنزلوه. وقالوا لوازع اليشكري: قم إلى المنبر فتكلّم، فلمّا صعد ورأى الناس قال: أيها الناس إني كنت اليوم كارهاً لحضور الجمعة، ولكن امرأتي حملتني على إتيانها، وأنا أشهدكم أنّها طالق ثلاثاً، فأنزلوه، فقال زياد لعبد الله بن عامر: كيف رأيت؟ قم الآن فاخطب الناس.

وقال سهل بن هارون: دخل قُطْرب النحويّ على المخلوع، فقال: يا أميرَ المؤمنين، كانت عِدتُك أرفع من جائزتك - وهو يتبسّم - فاغتاظ الفضل بن الربيع فقلت له: إنّ هذا من الحَصر والضعف، وليس من الجلَد والقوّة، أما تراه يفتلُ أصابعَه ويرَشح جبينُه!

ودخل معبد بن طوْق العنبريّ على بعض الأمراء، فتكلّم وهو قائم فأحسن، فلمّا جلس تَلَهْيَع[1] في كلامه، فقال له: ما أظرفك قائماً، وأمْوَقك قاعداً! قال: إني إذا قُمت جَدَدْت، وإذا قعدت هَزَلت، فقال: ما أحسن ما خرجت منها!

---

(١) تَلَهْيَع: أفرط وتَبَلْتَعَ. اللسان، مادة (لهع).

وكان عمرو بن الأهتم المِنْقريّ والزِّبرقان بنُ بدْر عند رسول الله ﷺ، فسأل عليه السلام عَمْراً عن الزبرقان فقال: يا رسولَ الله، إنّه لمانعٌ لحوْزتِه، مطاعٌ في أدانِيه، فقال الزِّبرقان: حسدني يا رسول الله! فقال عمرو: يا رسول الله، إنه لزمِر[1] المروءة، ضيّق العطن[2]، لئيم الخال. فنظر رسول الله ﷺ إلى وَجْه عمرو، فقال: يا رسول الله، رضيتُ فقلت أحسن ما علمتُ، وغضبتُ فقلت أقبحَ ما علمت، وما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الأخرى. فقال عليه السلام: إنّ من البيان لسحراً[3].

وقال خالد بن صَفْوان: ما الإنسان لولا اللّسان إلاّ صورة ممثَّلة أو بهيمة مهمَلة.

وقال ابن أبي الزّناد، كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز، فكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعه، فكتب إليه: إنه يخيّل إليّ أني لو كتبت إليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليّ: أضأناً أم معزاً؟ فإذا كتبتُ إليك بأحدهما، كتبت إليّ: أذكراً أم أنثى! وإذا كتبت إليك بأحدهما، كتبت إليّ: صغيراً أم كبيراً! فإذا كتبتُ إليك في مظلمة، فلا تراجعنْي والسلام.

وأخذ المنصور هذا فكتب إلى سلْم بن قتيبة عامله بالبصرة يأمره بهدْم دور مَنْ خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وعَقْر نخلهم، فكتب إليه: بأيّهما أبدأ بالدّور أم بالنّخل يا أمير المؤمنين؟ فكتب إليه: لو قلت لك بالنّخل لكتبت إليّ بماذا أبدأ؟ بالشُّهريز أم بالبَرْنيّ! وعزله، وولى محمد بن سليمان.

وخطب عبد الله بن عامر مرّة فأرتِج عليه، وكان ذلك اليوم يوم الأضحى، فقال: لا أجمع عليكم عيًّا ولؤماً: مَنْ أخذ شاة من السُّوق فهي له وثمنها عليّ.

وخطب السّفّاح أوّل يوم صعد فيه المنبر فأرتج عليه، فقام عمّه داود بن عليّ، فقال: أيّها النّاس إنّ أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قولُه فيكم فعله، ولأثر الأفعال أجْدَى عليكم من تشقيق[4] المقال، وحسبكم كتاب الله علماً فيكم، وابن عمّ رسول الله ﷺ خليفةً عليكم.

قال الشاعر:

وما خيرُ مَنْ لا ينفع الدّهر عيشُه ... وإن مات لم يحزُن عليه أقاربُهْ

---

(١) زَمِرُ المروءة: قليلها، القاموس، مادة (زمر).

(٢) ضيق العطن: قليل المال ضيق الرحل والذراع. اللسان، مادة (عطن).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط: ٣٤١/٧، وأخرجه ابن سلامة في مسند ابن شهاب: رقم ٩٦٣.

(٤) شقق الكلام: إذا أخرجه أحسن مخرج. اللسان، مادة (شقق).

كَهامٌ على الأقصى كليلٌ لسانُه وفي بَشَرِ الأدنى حديدٌ مخالبُهْ

وقال أُحَيحة بن الجُلاَح:

والصمت أجملُ بالفتى ما لم يكن عِيٌّ يشينُهْ
والقولُ ذو خَطَلٍ إذا ما لم يكن لُبٌّ يزينُهْ

٢٢٩ - ومن كلام له عليه السلام عند اختلاف الناس

الأصل: روى ذُعْلب اليماميّ عن أحمد بن قتيبة، عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دِحْية، قال: كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام، فقال وقد ذكر عنده اختلاف الناس:

إنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهمْ مبادِىءُ طِينِهِمْ، وذَلِك أَنَّهمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وعَلَى قَدْرِ اخْتِلافِها يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وماذُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ. وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبيحُ المَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بعِيدُ السَّبْرِ، ومعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْجَلِيبَةِ، وتائِهُ القَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ. وَطَلِيقُ اللِّسانِ حَدِيدُ الجَنَانِ.

الشرح: ذعلب وأحمد وعبد الله ومالك، رجال من رجال الشّيعة ومحدّثيهم. وهذا الفصل عندي لا يجوز أن يحمَل على ظاهره، وما يتسارع إلى أفهام العامّة منه، وذلك لأن قوله: «أنّهم كانوا فِلْقة من سَبَخ أرض وعَذْبها»، إمّا أن يريد به أنّ كلّ واحد من النّاس رُكّب من طين، وجعِل صورة بشرية طينيّة برأس وبطن ويدين ورجلين، ثم نفخت فيه الرُّوح كما فعل بآدم، أو يريد به أنّ الطّين الذي ركّبت منه صورة آدم فقط كان مختلطاً من سَبَخ وعَذْب، فإن أريد الأول فالواقع خلافه، لأنّ البَشر الذين نشاهدهم، والذين بلغتْنا أخبارهم لم يخلقوا من الطين كما خلق آدم، وإنّما خلقوا من نُطَفِ آبائهم. وليس لقائل أن يقول: لعلّ تلك النُّطَف افترقت لأنّها تولّدت من أغذية مختلفة المنبت من العذوبة والملوحة، وذلك لأنّ النطفة لا تتولّد من غذاء بعينه، بل من مجموع الأغذية، وتلك الأغذية لا يمكن أن تكون كلّها من أرض سَبِخة محضة في السبخيّة، لأنّ هذا من الاتفاقات التي يعلم عدم وقوعها، كما يعلم أنّه لا يجوز أن يتّفق أن يكون أهل بغداد في وقت بعينه على كثرتهم لا يأكلون ذلك اليوم إلاّ السّكباج[1] خاصة، وأيضاً فإنّ الأرض السَّبِخة، أو التي

(١) السكباج: طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل وأفاويه، معرب: المعجم الوسيط، مادة (سكبج).

الغالب عليها السبخيّة، لا تنبت الأقوات أصلاً. وإن أريد الثاني، وهو أن يكون طين آدم عليه السلام مختلطاً في جوهره، مختلفاً في طبائعه، فلم كان زيدٌ الأحمق يتولّد من الجزء السبخيّ وعمرو العاقل يتولّد من الجزء العذبي؟ وكيف يؤثّر اختلاف طين آدم من ستّة آلاف سنة في أقوام يتوالدون الآن.

والذي أراه أنّ لكلامه عليه السلام تأويلاً باطناً، وهو أن يريد به اختلاف النّفوس المدبّرة للأبدان، وكنّى عنها بقوله: «مبادىء طينهم»، وذلك أنّها لمّا كانت الماسكة للبدن من الانحلال، العاصمة له من تفرّق العناصر، صارت كالمبدأ وكالعلة له من حيث إنّها كانت علّة في بقاء امتزاجه واختلاط عناصره بعضها ببعض، ولذلك إذا فارقت عند الموت افترقت العناصر، وانحلت الأجزاء، فرجع اللطيف منها إلى الهواء، والكثيف إلى الأرض.

وقوله: «كانوا فِلْقة من سبخ أرض وعذبها، وحَزْن تربة وسهلها» تفسيره أنّ الباريء جلّ جلاله لمّا خلق النّفوس، خَلَقها مختلفة في ماهيّتها، فمنها الزكيَّة ومنها الخبيثة، ومنها العفيفة ومنها الفاجرة، ومنها القوّية ومنها الضعيفة، ومنها الجريئة المقدِمة، ومنها الفَشْلة الذليلة، إلى غير ذلك من أخلاق النفوس المختلفة المتضادّة.

ثم فسّر عليه السلام وعلّل تساوي قوم في الأخلاق وتفاوت آخرين فيها، فقال: إنّ نفس زيد قد تكون مشابهةً أو قريبة من المشابهة لنفس عمرو، فإذا هما في الأخلاق متساويتان، أو متقاربتان، ونفس خالد قد تكون مضادّة لنفس بكْر أو قريبة من المضادّة، فإذا هما في الأخلاق متباينتان أو قريبتان من المباينة.

والقول باختلاف النفوس في ماهيّاتها هو مذهب أفلاطون، وقد اتَّبعه عليه جماعة من أعيان الحكماء، وقال به كثير من مثبِتي النفوس من متكلّمي الإسلام.

وأمّا أرسطو وأتباعه، فإنّهم لا يذهبون إلى اختلاف النفوس في ماهيّتها. والقول الأوّل عندي أمثل.

ثم بيّن عليه السلام اختلاف آحاد الناس، فقال: منهم من هو تام الرّواء، لكنه ناقص العقل. والرّواء بالهمز والمد: المنظر الجميل، ومن أمثال العرب: «ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل»[1].

وقال الشاعر:

عـقـلـه عـقـل طـائـرٍ ... وهـو فـي خِـلْـقَـة الـجـمـلِ

وقال أبو الطيب:

وما الحسنُ في وجهِ الْفَتَى شرفٌ له ... إذا لم يكن في فِعْلِه والخلائقِ

(١) الدخل: العيب والرّيبة. اللسان، مادة (دخل).

وقال الآخر:

وما ينفع الفتيانَ حُسْنُ وجوهِهِمْ ... إذا كانت الأخلاق غيرَ حِسانِ
فلا يغررنْك المرءُ راق رُواؤه ... فما كلّ مصقول الغِرّارِ بماني

ومن شعر الحماسة:

لَقَوْمِيَ أرْعَى للعُلاَ مِنْ عِصَابَةٍ ... من النّاس يا حار بن عمرو تسودُها
وأنتم سماءٌ يُعجِب الناس رِزُّها ... بآبدةٍ تُنْحِي شديدٍ ونيدُها
تقطّع أطناب البيوت بحاصبٍ ... وأكذب شيء برقُها ورعودُها
فويل أمّها خيلاً بهاءً وشارة ... إذا لاقتِ الأعداءَ لولا صدُودُهَا!

ومنه أيضاً:

وكاثرْ بسعدٍ إنّ سعداً كثيرةٌ ... ولا ترجُ من سَعْدٍ وفاء ولا نَصْرَا
يروعُكَ من سَعْدِ بن زيد جسومُها ... وتَزْهَدُ فيها حين تَقْتُلُها خُبْرا

قوله عليه السلام: «ومادّ القامة قصير الهِمّة»، قريب من المعنى الأول، إلاّ أنه خالف بين الألفاظ، فعل الناقص بإزاء التامّ، والقَصِير بإزاء الماد. ويمكن أن يجعل المعنيان مختلفين، وذلك لأنه قد يكون الإنسان تامّ العقل، إلا أنّ همته قصيرة، وقد رأينا كثيراً من النّاس كذلك، فإذَنْ هذا قسم آخر من الاختلاف غير الأوّل.

قوله عليه السلام: «وزاكي العمل قبيح المنظر» يريد بزكاء أعماله حسنَها وطهارتَها، فيكون قد أوقع الحسَن بإزاء القبيح، وهذا القسم موجود فاش بين الناس.

قوله: «وقريب القعر بعيد السَّبْر»، أي قد يكون الإنسان قصير القامة، وهو مع ذلك داهية باقعة، والمراد بقربِ قعره تقارب ما بين طرفيْه، فليست بطنه بمديدة ولا مستطيلة، وإذا سبرته واختبرت ما عنده وجدتَه لبيباً فَطِناً، لا يوقَف على أسراره، ولا يدرك باطنه، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فتزدَرِيه ... وفي أثوابه أسَدٌ مَزِيرُ(١)
ويعجُبك الطَّرِيرُ فتبتليهِ ... فيخلف ظنَّك الرجلُ الطَّرير(٢)

(١) المزير: الشديد القلب النافذ، القاموس، مادة (مزر).
(٢) الطرير: ذو المنظر والرّواء، القاموس، مادة (طرر).

وقيل لبعض الحكماء: ما بال القصارِ من الناس أدهى وأحذق؟ قال: لقرْب قلوبهم من أدمغتهم.

ومن شعر الحماسة:

إلا يكُنْ عظمِي طويلاً فإنّني ... له بالخصال الصالحات وَصولُ
ولا خيرَ في حُسْنِ الجُسُوم وطُولها ... إذا لم تَزِنْ حسنَ الجُسوم عقولُ

ومن شعر الحماسة أيضاً وهو تمام البيتين المقدّم ذكرهما:

فما عِظَمُ الرجال لهم بفخْرٍ ... ولكن فخرهُمْ كرم وخيرُ
ضِعاف الطير أطولُها جسوماً ... ولم تَطُلِ البزاة ولا الصُّقُور
بُغاث الطير أكثرها فِراخاً ... وأمّ الصقر مِقْلاتٌ نَزُور[1]
لقد عَظُم البعير بغير لُبٍّ ... فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَم البعيرُ

قوله عليه السلام: «ومعروف الضريبة، منكر الجليبة»، الجليبة هي الخلقُ الَّذِي يتكلّفه الإنسان ويستجلبه، مثل أن يكون جباناً بالطبع فيتكلّف الشجاعة، أو شحيحاً بالطبع فيتكلف الجود، وهذا القسم أيضاً عام في النّاس.

ثم لما فرغ من الأخلاق المتضادة ذكر بعدها ذوِي الأخلاق والطبع المتناسبة المتلائمة، فقال: «وتائه القلب متفرق اللّب»، وهذان الوصفان متناسبان لا متضادّان.

ثم قال: «وطليق اللّسان حديد الْجَنان»، وهذان الوصفان أيضاً متناسبان، وهما متضادان للوصفين قبلهما، فالأوّلان ذمٌّ، والآخران مدح.

٢٣٠ - ومن كلام له عليه السلام قاله وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه

الأصل: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي يَا رَسُولَ ٱللهِ! لَقَدِ ٱنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَٱلْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ. خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً، وَلَوْلاَ أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ ٱلْجَزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً، وَٱلْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلاَّ لَكَ! وَلَكِنَّهُ مَا لاَ يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلاَ يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ!

---

(١) نزور: قليلة الولد. القاموس، مادة (نزر).

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اُذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!

الشرح: بابي انت وامّي! أي بأبي انت مفدًّى وامّي.

والإنباء: الإخبار، مصدر أنبأ ينبيء، وروي: «والأنباء» بفتح الهمزة جمع نَبأ، وهو الخبر.

وأخبار السماء: الوحي.

قوله عليه السلام: «خصّصت وعمّمت»، أي خصّت مصيبتك أهل بيتك حتى إنهم لا يكترثون بما يصيبهم بعدك من المصائب، ولا بما أصابهم من قَبْل، وعمّت هذه المصيبة أيضاً النّاس، حتى استوى الخلائق كلُّهم فيها، فهي مصيبة خاصّة بالنسبة، وعامّة بالنسبة.

ومثل قوله: «حتى صرت مسليًا عمّن سواك» قول الشاعر:

رُزِئنا أبا عمرٍ ولا حيّ مثلُه ... فللّه درُّ الحادثات بمن تقعْ!

فإن تكُ قد فارقتنا وتركتَنا ... ذوي خَلّة ما في انسدادٍ لها طمعْ

لقد جَرّ نفعاً فقدُنا لك أنّنا ... أمنّا على كلّ الرزايا من الجزَعْ(١)

وقال آخر:

أقول للموتِ حين نازله ... والموت مِقْدامة على البهَمِ

اظفَرْ بمن شئتَ إذ ظفرتَ به ... ما بعد يحيى للموت من ألمِ

ولي في هذا المعنى كتبته إلى صديق غاب عني من جملة أبيات:

وقد كنت أخشى من خطوبٍ غوائلٍ ... فلمّا نأى عنّي أمنتُ من الحذَرْ

فاعجب لجسمٍ عاش بعد حياتِهِ ... واعجب لنفعٍ حاصل جَرّه ضررْ

وقال إسحاق بن خَلَف يرثي بنتاً له:

أمست أميمة معموراً بها الرَّجمُ ... لَقًا صعيدٍ عليها التّرب مرتكمُ(٢)

يا شِقّة النّفسِ إنّ النفس والهةٌ ... حَرّى عليك، وإنّ الدّمع منسجمُ

قد كنتُ أخشى عليها أن تُقدّمَني ... إلى الحِمام فيبدي وجهَها العدمُ

---

(١) الرزايا: المصائب. القاموس مادة (رزأ).

(٢) اللقى: ما طرح على الأرض. القاموس مادة (لقي).

فالآن نمتُ، فلا همٌّ يؤرّقني ... تهدا العيون إذا ما أودت الحُرَمُ
للموت عندي أيادٍ لست أكفرُها ... أحيَا سروراً وبي ممّا أتي ألمُ

وقال آخر:

فلو أنها إحدى يديَّ رزيتُها ... ولكن يدي بانت على إثرها يدِي
فآليتُ لا آسى على إثر هالكٍ ... قدِي الآن من حُزنٍ على هالكٍ قدِي

وقال آخر:

أجاري ما أزداد إلاّ صَبابة ... عليكَ، وما تزداد إلاّ تنائيا
أجاري لو نفس فدت نفسَ مَيّتٍ ... فديتُك مسروراً بنفسِي وماليَا
وقد كنت أرجو أن أمّلاك حقبة ... فحالَ قضاءُ الله دونَ رجائيا
ألاَ فليمُتْ مَنْ شاء بعدك إنّما ... عليك من الأقدار كان حذاريا

وقال آخر:

لتغدُ المنايا حيث شاءت فإنّها ... محلّلة بعد الفتى ابن عَقِيلِ
فتًى كان مولاه يحلّ بنجوةٍ ... فحلّ الموالي بعده بمسيلِ(١)

قوله عليه السلام: «ولكان الداء مماطلاً»، أي مماطلاً بالبرء، أي لا يجيب إلى الإقلاع. والإبلال: الإفاقة.

لمع من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله عند موته

فأما وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وما ذكره أرباب السيرة فيها قد ذكرنا طرفاً منه فيما تقدّم، ونذكر ها هنا طرفاً آخر مما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه.

قال أبو جعفر: روي أبو مويهبة مولَى رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: أرسل إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله في جوف الليل، فقال: «يا أبا مُويهبة، إنّي قد أمِرْت أن أستغفرَ لأهل البقيع، فانطلق معي»،

(١) النجوة: ما ارتفع من الأرض فلم يعله السيل فظننته نجاءك. اللسان، مادة (نجو).

فانطلقت معه، فلمّا وقف بين أظهرهم، قال: «السَّلام عليكم يا أهلَ المقابر، ليهنِ لكم ما أصبحتُمْ فيه ممّا أصبح النّاس فيه! أقبلتِ الفِتَن كَقِطع اللّيل المظلم، يتبع آخرُها أوّلَها، الآخرة شرٌّ من الأولى». ثم أقبل عليّ، فقال: «يا أبا مُوَيهبة إني قد أُوهِبْت مفاتيح خزائن الدُّنيا والخلْد فيها والجنّة، فخيِّرتُ بينها وبين الجنّة، فاخترت الجنّة»، فقلت: بأبي أنتَ وأمّي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلْد فيها والجنّة جميعاً، فقال: «لا يا أبا مويهبَة، اخترت لقاء ربّي»، ثم استغفَر لأهل البقيع وانصرف، فبدأ بوجعه الذي قبضه الله فيه[1].

وروى محمدُ بن مسلم بن شهاب الزهريّ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة، عن عائشة، قالت: رجع رسول الله ﷺ تلك اللّيلة من البقيع، فوجدني وأنا أجدُ صُداعاً في رأسي، وأقول: وارأساه! فقال: بل أنا وارأساه! ثم قال: «ما ضرّكِ لو مِتِّ قبلِي، فقمت عليكِ فكفّنتكِ، وصلّيت عليك ودفنتكِ»! فقلت: والله لكأنّي بك - لو كانَ ذلك - رجعتَ إلى منزلي، فأعرستَ ببعض نسائك! فتبسّم عليه السلام، وتتامّ به وجعُه، وهو مع ذلك يدور على نسائه، حتى اسْتُعِزَّ به، وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهنّ أن يمرّض في بيتي، فأذنّ له، فخرج بين رجلَيْن من أهله، أحدهما الفَضْل بن العبّاس ورجل آخر، تخطّ قدماه في الأرض، عاصباً رأسه حتى دخل بيته[2].

قال عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة: فحدّثت عبد الله بن العباس بهذا الحديث، فقال: أتدرِي مَن الرجل الآخر؟ قلت: لا، قال: عليّ بن أبي طالب، لكنّها كانتْ لا تقدرُ أن تذكره بخير وهي تستطيع. قالت: ثم غُمِرَ رسول الله ﷺ واشتدّ به الوجع، فقال: «أهرِيقوا عليّ سبعَ قِرَبٍ من آبار شتىٰ حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم»، قالت: فأقعدته في مِخْضَب لحفصة بنت عمر، وصببنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده: «حسبُكم حسبكم»[3].

قلت: المخضب: المِرْكن.

وروى عطاء، عن الفضل بن عباس رحمه الله: قال: جاءَني رسول الله ﷺ حين بدأ به مرضُه، فقال: اخرج، فخرجت إليه، فوجدته موعوكاً قد عُصِب رأسه، فقال: خذ بيدي، فأخذت بيده حتى جلس على المنْبر، ثم قال: ناد في النّاس، فصِحْت فيهم فاجتمعوا إليه، فقال: «أيّها الناس، إني أحمد إليكم الله، إنّه قدْ دَنا منّي حقوق من بين أظهركم، فمنْ كنتُ جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقِدْ منه، ومَنْ كنت شتمت له عِرْضاً فهذا عِرْضي فليستقدْ منه،

---

(١) ذكره أبو جعفر الطبري في «تاريخه» (٢/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (٤/ ٢٥٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٨٦). والطبري في «تاريخه» (٢/ ٢٢٦).

(٣) انظره في «تاريخ» الطبري (٢/ ٢٢٦) وأخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (٤/ ٢٥٤).

ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يقلْ رجلٌ: إني أخاف الشحناء مِنْ قِبَل رسول الله. ألاَ وإنّ الشَّحْناء ليست من طبيعتي ولا من شأني، ألاَ وإنّ أحبّكم إليّ مَنْ أخذ منّي حقاً إن كان له، أو حلّلَنِي فلقيتُ الله وأنا طيّب النفس، وقد أراني أنّ هذا غيرُ مغْنٍ عنّي حتى أقوم فيكم به مراراً». ثم نزل فصلّى الظهر. ثم رجعَ فجلس على المنبر، فعاد لمقالته الأولى في الشَّحناء وغيرها، فقام رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله، إنّ لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: إنّا لا نكذّب قائلاً ولا نستحلفه على يمين، فيم كانتْ لك عندي؟ قال: أتذكر يا رسولَ الله يوم مرّ بك المسكين، فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم؟ قال: أعطِه يا فضل، فأمرتُه فجلس، ثم قال: «أيّها الناس مَنْ كان عنده شيء فليؤدّه ولا يقلْ: فضُوح الدّنيا، فإن فضوح الدنيا أهونُ من فضُوح الآخرة». فقام رجل فقال: يا رسولَ الله، عندي ثلاثة دراهم غللتُها في سبيل الله، قال: ولم غللتَها؟ قال: كنت محتاجاً إليها، قال: خذْها منه يا فضل، ثم قال: «أيّها النّاس، مَنْ خشيَ من نفسه شيئاً فليقم أدعو له»، فقام رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إنّي لكذّاب، وإنّي لفاحش، وإني لنئوم. فقال: «اللّهم ارزقه صِدْقاً وصلاحاً، وأذهب عنه النوم إذا أراد». ثم قام رجل، فقال: يا رسولَ الله، إنّي لكذّاب، وإني لمنافق، وما شيء - أو قال: وإن من شيء - إلا وقد جئته. فقام عمر بن الخطاب فقال: فضحتَ نفسك أيّها الرجل! فقال النبي ﷺ: «**يابن الخطاب: فضُوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصيّر أمرَه إلى خير**»[(١)].

وروى عبد الله بن مسعود، قال: نَعَى إلينا نبيّنا وحبيبُنا نفسَه قبل موته بشهر، جمعنا في بيت أمنا عائشة فنظر إلينا وشدّد ودمعت عينه، وقال: مرحباً بكم! حيّاكم الله، رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، رزقكم الله، هداكم الله، نصركم الله، سلّمكم الله، تقبّلكم الله! أوصيكم بتقوى الله، وأوصى الله بكم، وأستخلفه عليكم، إنّي لكم منه نذير وبشير، ألاّ تعلُوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)]. فقلنا: يا رسولَ الله، فمتى أجلك؟ قال: «قد دنا الفراق، والمنقلَب إلى الله وإلى سدرة المنتهى، والرفيق الأعلى وجنّة المأوى العيش المهنّا»، قلنا: فمن يغسّلُك يا رسول الله؟ قال: «أهلِي الأدنى فالأدنى»، قلنا: ففيم نكفّنك؟ قال: «في ثيابي هذه إن شئتم، أو في بياض مصر، أو حلّة يمنيّ»، قلنا: فَمَنْ يصلّي عليك؟ فقال: «إذا غسّلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا، على شفير قبرِي، ثم اخرجوا عنّي ساعة، فإنّ أوّلَ مَنْ يصلّي جليسي وحبيبي وخليلي جبرائيل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم مَلَك الموت مع جنوده من الملائكة، ثم ادخلوا عليّ فوجاً فوجاً، فصلوا عليّ

(١) ذكره الطبري في «تاريخه» (٢/ ٢٢٧). (٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

وسلّموا ولا تؤذوني بتزكية ولا ضجّة ولا رنّة، وليبدأ بالصّلاة عليّ رجالُ أهل بيتي ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم منّي السلام، ومَنْ غاب من أهلي فأقرئوه منّي السلام، ومَنْ تابعكم بعدي على ديني فأقرؤوه منّي السلام، فإنّي أشهدكم أنّي قد سلّمت على من بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة». قلنا: فمَنْ يدخلُك قبرَك يا رسول الله؟ قال: «أهلي مع ملائكة كثيرة يرونكم ولا ترونهم»[(١)].

قلت: العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك السّاعة: فمَنْ يلي أمورنا بعدك! لأنّ ولاية الأمر أهمّ من السؤال عن الدّفن، وعن كيفية الصلاة عليه، وما أعلى ما أقول في هذا المقام!

قال أبو جعفر الطبريّ: وَرَوى سَعِيد بن جُبَير، قال: كان ابنُ عبّاس رحمه الله يقول: يومُ الخميس وما يومُ الخميس! ثم يبكي حتى تبلّ دموعُه الحصْباءَ، فقلنا له: وما يوم الخميس؟ قال: يوم اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعُه، فقال: «ائتوني باللّوْح والدّواة - أو قال: بالكتِف والدواة - أكتب لكم ما لا تضلُّون بعدِي»، فتنازعوا، فقال: «اخرجُوا ولا ينبغي عند نبيّ أن يتنازع»، قالوا: ما شأنه، أهَجر؟ استفهموه، فذهبوا يُعيدون عليه، فقال: «دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه»، ثم، أوصى بثلاث، قال: «أخرجوا المشركينَ من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفْدَ بنحوِ ممّا كنت أجيزهم»، وسكت عن الثالثة عَمْداً، أو قالها ونسيتها[(٢)].

وروى أبو جعفر، عن ابن عبّاس. قال: خرج عليّ بن أبي طالب عليه السلام من عندِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في وَجَعِه الّذِي تُوفّيَ فيه، فقال له الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبَح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ العبّاس بيده، وقال: ألا تَرَى أنّك بعد ثلاث عبدُ العصا! إنّي لأعرِف الموت في وجوه بني عبد المطلب، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسَلْه فيمنْ يكون هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا وصّى بنا، فقال عليّ: أخشى أن أسأله فيمنعنَاها فلا يعطيناها الناسُ أبداً[(٣)].

وروت عائشة قالت: أغْمِيَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم والدّار مملوءةٌ من النّساء: أمّ سلمة، وميمونة، وأسماء بنت عُميس، وعندنَا عمّه العبّاس بن عبد المطلب، فأجمعوا على أن يلدُّوه[(٤)]، فقال العباس: لا ألُدّه فلدُّوه، فلمّا أفاق قال: «مَنْ صنع بي هذا»؟ قالوا: عمّك قال لنا: «هذا دواء جاءنا من نحو هذه الأرض» - وأشار إلى أرض الحبشة - قال: «فلم فعلتمْ

(١) ذكره ابن سعيد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٥٦)، والطبري في «تاريخه» (٢/ ٢٢٨).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم (٣٠٥٣)، ومسلم، كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: ٧/ ١٣٦، وأخرجه البيهقي في سننه بما معناه: ٨/ ٤٩.
(٤) اللدود: ما يصب بالمسقط من السقي والدواء في أحد شقي الفم فيمر على اللديد.

ذلك؟» فقال العبّاس: خشينا يا رسولَ الله، أن يكون بك ذات الْجَنبِ[1]، فقال: «إنّ ذلك لداءٌ ما كان الله ليقذفني به، لا يبقى أحدٌ في البيت إلا لُدّ إلا عمّي». قال: فلقد لُدّت ميمونة وإنّها لصائمة لقسَم رسول الله ﷺ عقوبة له بما صنعُوا[2].

قال أبو جعفر: وقد وردت رواية أخرى عن عائشة، قالت: لدَدْنا رسول الله ﷺ في مرضه، فقال: «لا تلدّوني»، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلمّا أفاق قال: «**لا يبقى أحدٌ إلا لُدّ غير العبّاس عمّي فإنه لم يشهدكم**».

قال أبو جعفر: والّذِي تولى اللّدُود بيده أسماء بنت عميس.

قلت: العَجَب من تناقُض هذه الروايات! في إحداها أن العبّاس لم يشهد اللّدود، فلذلك أعفَاه رسول الله ﷺ من أن يُلَدَّ ولُدّ مَنْ كان حاضراً، وفي إحداها أنّ العبّاس حضر لدّه عليه السلام، وفي هذه الرواية التي تتضمّن حضور العباس في لَدّه كلام مختلف، فيها أن العباس قال: لا ألدّه، ثم قال: فلدّ فأفاق، فقال: «مَنْ صنع بي هذا؟» قالوا: عمّك، إنه قال: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لذات الجَنْب، فكيف يقول: «لا ألدّه»، ثم يكون هو الذي أشار بأن يلَدّ، وقال: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة لكذا!

وسألت النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد البصريّ عن حديث اللّدود، فقلت: أَلُدَّ عليّ بن أبي طالب ذلك اليوم؟ فقال: معاذ الله! لو كان لُدّ لذكرتْ عائشة ذلك فيما تذكره وتنعَاه عليه. قال: وقد كانت فاطمة حاضرةً في الدار، وابناها معها، أفتراها لُدّت أيضاً، ولدّ الحسنُ والحسين! كلاّ، وهذا أمر لم يكن، وإنما هو حديث ولّده مَنْ ولّده تقرباً إلى بعض الناس، والذي كان أنّ أسماء بنت عُميس أشارت بأنْ يُلدّ، وقالت: هذا دواء جاءنا من أرض الحبشة جاء به جعفر بن أبي طالب، وكان بعلها، وساعدتْها على تصويب ذلك والإشارة به ميمونة بنت الحارث، فلدّ رسول الله ﷺ، فلمّا أفاق أنكره، وسأل عنه فذُكر له كِلام أسماء، وموافقة ميمونة لها، فأمر أن تُلَدّ الامرأتان لا غير، فلُدّتا ولم يجرِ غير ذلك. والباطل لا يكاد يخفى على مستبصر.

وروت عائشة، قالت: كثيراً ما كنتُ أسمع رسول الله يقول: إنّ الله لم يقبِض نبيًّا حتى يخيّره، فلما احتضِر رسولُ الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتُها منه: «بل الرفيق الأعلَى»، فقلت: إذاً والله لا يختارنا، وعلمتُ أنّ ذلك ما كان يقوله من قبل[3].

---

(١) ذات الجنب: قرحة تصيب الإنسان داخل جَنْبِه. اللسان، مادة (جنب).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٨)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: كراهية التداوي باللدود (٢٢١٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦٥٧).

وروى الأرقم بن شُرَحْبِيل، قال: سألتُ ابنَ عباس رحمه الله: هل أوصَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: لا، قلت: فكيف كان؟ فقال: إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال في مرضه: «ابعثوا إلى عليّ فادعوه»، فقالت عائشة: لو بعثتَ إلى أبي بكر! وقالت حفصة: لو بعثتَ إلى عمر! فاجتمعوا عنده جميعاً - هكذا لفظ الخبر على ما أورده الطبريّ في التاريخ، ولم يقل: «فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليهما» - قال ابن عباس: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «انصرفوا، فإن تكن لي حاجة أبعثْ إليكم» فانصرفوا. وقيل لرسول الله: الصلاة! فقال: «مروا أبا بكرٍ أن يصلّيَ بالناس»، فقالت عائشة: إنّ أبا بكر رجل رقيق فمرْ عمر، فقال: «مُرُوا عمر»، فقال عمر: ما كنت لأتقدّم وأبو بكر شاهد، فتقدّم أبو بكر، فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله خفّة، فخرج، فلمّا سمع أبو بكر حركَتَهُ تأخّر، فجذب رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فأقامه مكانه، وقعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقرأ من حيث انتهى أبو بكر[1].

قلت: عندي في هذه الواقعة كلام، ويعترضني فيها شكوك واشتباه، إذا كان قد أراد أن يبعث إلى عليّ ليوصِيَ إليه، فنفَسَتْ عائشة عليه، فسألت أن يحضُرا أبوها، ونَفَست حفصة عليه فسألت أن يحضر أبوها، ثم حضرا ولم يُطلبا، فلا شبهة أنّ ابنتيهما طلبتاهُما. هذا هو الظاهر، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وقد اجتمعوا كلّهم عنده «انصرفوا فإنْ تكن لي حاجة بعثت إليكم»، قول مَنْ عنده ضَجَر وغضب باطن لحضورهما، وتُهمة للنّساء في استدعائهما، فكيف يطابق هذا الفعل وهذا القول ما روِيَ من أنّ عائشة قالت لما عيّن على أبيها في الصلاة: إنّ أبي رجلٌ رقيق، فمر عمر! وأين ذلك الحرص من هذا الاستعفاء والاستقالة! وهذا يُوهم صحّة ما تقوله الشّيعة من أنّ صلاة أبي بكر كانت عن أمرِ عائشة، وإن كنت لا أقول بذلك، ولا أذهب إليه إلا أنّ تأمّل هذا الخبر ولَمْحَ مضمونه يُوهِم ذلك، فلعلّ هذا الخبر غير صحيح[2].

وأيضاً ففي الخبر ما لا يجيزه أهلُ العدل، وهو أن يقول: «مروا أبا بكر»، ثم يقول عَقِيبه: «مروا عمر»، لأنّ هذا نسخُ الشيء قبل تقضّي وقت فعله[3].

فإن قلتَ: قد مضى من الزّمان مقدارُ ما يمكّن الحاضرين فيه أن يأمروا أبا بكر، وليس في الخبر إلاّ أنه أمرهم أن يأمروه، ويكفي في صحّة ذلك مضيّ زمان يسير جداً يمكن فيه أن يقال: يا أبا بكر صلّ بالناس.

---

(١) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: الأذان، باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٦٦٤)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر (٤١٨).

(٢) مع أنه موجود في الصحيحين بل أكثر الصحاح.

(٣) بل هناك أشكال أقوى وهو أن رسول الله بات يأخذ أوامره من امرأه لا من جبرائيل، فمرة يقول مروا فلان ومرة فلان، فهل يراد أن يقال أن النبي كان يقول ما يقول في آخر حياته والعياذ بالله.

قلتُ: الإشكال ما نشأ من هذا الأمر، بل من كون أبي بكر مأموراً بالصلاة، وإن كان بواسطة، ثم نُسِخ عنه الأمر بالصلاة قبل مضيّ وقت يمكن فيه أن يفعل الصلاة.

فإن قلتَ: لم قلتَ في صدر كلامك هذا: إنه أراد أن يبعث إلي عليّ ليوصيَ إليه؟ ولم لا يجوز أن يكون بعث إليه لحاجة له؟

قلت: لأنّ مخرج كلام ابن عباس هذا المخرج، ألا ترى أنّ الأرقم بن شُرحبيل الراوي لهذا الخبر قال: سألتُ ابن عباس: هلْ أوصَى رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، فقلت: فكيف كان؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال في مرضه: «**ابعثوا إلى عليّ فادعُوه**»، فسألته المرأة أن يبعث إلي أبيها، وسألته الأخرى أن يبعث إلى أبيها، فلولا أن ابنَ عباس فَهِم من قوله ﷺ: «**ابعثوا إلى عليّ فادعوه**» أنه يريد الوصية إليه، لما كان لإخبار الأرقم بذلك متّصلاً بسؤاله عن الوصية معنى.

وروي القاسم بن محمد بن أبي بكر، عن عائشة، قالت: رأيتُ رسول الله ﷺ يموت وعنده قَدَحٌ فيه ماء يُدْخل يده في القَدَح ثم يمسح وجهه بالماء، ويقول: «**اللهم أعنّي على سَكْرة الموت!**»[1].

وروي عُروة عن عائشة، قالت: اضطجع رسول الله ﷺ يوم موتِه في حِجْري، فدخل عليّ رجلٌ من آل أبي بكر، في يدِه مسواك أخضر، فنظر رسول الله ﷺ إليه نظراً عرفت أنه يريده، فقلت له: أتحبّ أن أعطيَك هذا المسواك؟ قال: نعم، فأخذته فمضغتُه حتى ألنته ثم أعطيته إياه، فاستنّ به كأشدّ ما رأيته يستنّ بسواك قبل، ثم وضعه، ووجدتُ رسول الله ﷺ يثقُل في حِجْري، فذهبت أنظر في وجهِه، فإذا بصرُه قد شخص، وهو يقول: «**بل الرفيق الأعلى من الجنة**»! فقلت: لقد خُيِّرتَ فاخترت والّذي بعثك بالحق! وقبض رسول الله ﷺ[2].

قال الطبريّ: وقد وقع الاتفّاق على أنه كان يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، واختلف في أيّ الأثانين كان؟ فقيل: لليلتين خَلَتا من الشهر، وقي: لاثنتيْ عشرة خَلتْ من الشهر. واختلف في تجهيزه أيّ يوم كان! فقيل: يوم الثلاثاء الغد من وفاته، وقيل: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام، اشتغل القوم عنه بأمر البيعة.

وقد روى الطبريّ ما يدلُّ عَلَى ذلك عن زياد بن كُلَيب، عن إبراهيم النَّخَعِيّ أن أبا بكرٍ جاء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٩)، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في التشديد عند الموت (٩٧٨).

(٢) تقدم بنحوه.

بعد ثلاث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد اربدّ[١] بطنُه، فكشف عن وجهه، وقبّل عينيه، وقال: بأبي أنت وأمّي! طبت حيًّا وطبت ميّتاً![٢]

قلت: وأنا أعجبُ من هذا! هبْ أنّ أبا بكر ومَنْ معه اشتغلوا بأمر البيعة، فعليّ بن أبي طالب والعبّاس وأهل البيت بماذا اشتغلُوا حتى يبقَى النبي صلى الله عليه وآله مسجًّى بينهم ثلاثة أيامٍ بلياليهنّ لا يغسلونه ولا يمسّونه!

فإن قلت: الرواية الّتي رواها الطبريّ في حديث الأيام الثلاثة، إنما كانت قبل البيعة، لأن لفظ الخبر عن إبراهيم، وأنّه لما قبِض النبيّ صلى الله عليه وآله كان أبو بكر غائباً فجاء بعد ثلاث، ولم يجترىء أحدٌ أن يكشِفَ عن وجهه عليه السلام حتى ارْبدّ بطنه، فكشف عن وجهه وقبّل عينيه، وقال: بأبي أنت وأمي! طَبْت حيًّا وطبت ميّتاً، ثم خرج إلى الناس، فقال: مَنْ كان يعبدُ محمّداً فإنّ محمداً قد مات... الحديث بطوله.

قلت: لَعمري، إنّ الرواية هكذا أوردها، ولكنها مستحيلة، لأن أبا بكرٍ فارق رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ، ومضى إلى منزله بالسُّنْح في يوم الإثنين، وهو اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه رآه بارئاً صالح الحال. هكذا روى الطبريّ في كتابه، وبين السُّنْح وبين المدينة نصف فرسخ، بل هو طائفة من المدينة، فكيف يبقَى رسول الله صلى الله عليه وآله ميّتاً يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء لا يعلم به أبو بكر، وبينهما غَلْوة ثلاثة أسهم! وكيف يبقى طريحاً بين أهله ثلاثة أيام لا يجترىء أحدٌ منهم أنْ يكشِف عن وجهه، وفيهم عليّ بن أبي طالب وهو روحه بين جنبيه، والعبّاس عمّه القائم مقام أبيه، وابنا فاطمة، وهما كولديه، وفيهم فاطمة بَضْعة منه، أفما كان في هؤلاء مَنْ يكشف عن وجهه، ولا مَنْ يفكّر في جهازه، ولا مَنْ يأنف له من انتفاخ بطنه واخضرارها وينتظر بذلك حضورَ أبي بكر ليكشِفَ عن وجهه!

أنا لا أصدّق ذلك، ولا يسكنُ قلبي إليه. والصحيح أنّ دخول أبي بكر إليه وكشفه عن وجهه، وقوله ما قال، إنما كان بعد الفراغ من البيْعة، وأنهم كانوا مشتغلين بها كما ذكر في الرواية الأخرى.

وبقي الإشكال في قعود عليّ عليه السلام عن تجهيزه. إذا كان أولئك مشتغلين بالبيْعة، فما الذي شغله هو؟

فأقول: يغلب على ظنّي - إنْ صحّ ذلك - أن يكون قد فعله شناعة على أبي بكر وأصحابه،

---

(١) اربد: احمر حمرة فيها سواد، اللسان، مادة (ربد).

(٢) أخرجه مطولاً البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي صلى الله عليه وآله: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٠).

حيث فاته الأمر، واستُؤثر عليه به، فأراد أن يتركه ﷺ بحاله لا يحدث في جهازه أمراً ليثبت عند الناس أنّ الدنيا شغلتهم عن نبيّهم ثلاثة أيام، حتى آل أمره إلى ما تروْن، وقد كان عليه السلام يتطلّب الحيلة في تهجين أمرِ أبي بكر حيث وقع في السقيفة ما وقع بكلّ طريق، ويتعلّق بأدنى سبب من أمورٍ كان يعتمدها، وأقوالٍ كان يقولها، فلعلّ هذا من جُمْلة ذلك، أو لعلّه إن صحّ ذلك، فإنما تركه ﷺ بوصيّة منه إليه وسرٌّ كانا يعلمانه في ذلك.

فإن قلت: فلم لا يجوز أن يقال - إنْ صَحّ ذلك: إنه أخّرَ جهازه ليجتمع رأيه ورأي المهاجرين على كيفيّة غسله وتكفينه، ونحو ذلك من أموره؟

قلت: لأنّ الرواية الأولى تبطل هذا الاحتمال، وهي قوله ﷺ لهم قبل موته: «يغسلني أهلي الأدنى منهم فالأدنى، وأكفّن في ثيابي أو في بياض مصر أو في حلّة يمنيّة».

قال أبو جعفر: فأمّا اللذين تولّوْا غَسْله فعليّ بن أبي طالب، والعبّاس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وقُثَم بن العبّاس، وأسامة بن زيد، وشُقْران مولى رسول الله ﷺ، وحضر أوْس بن خوليّ أحد الخزرج، فقال لعليّ بن أبي طالب: أنشدك الله يا عليّ وحظّنا من رسول الله! وكان أوْس من أصحاب بدر، فقال له: ادخل، فدخل فحضر غسله عليه الصلاة والسلام، وصبّ الماء عليه أسامة وشُقران، وكان عليّ عليه السلام يغسله وقد أسنده إلى صدره، وَعليه قميصُه يدلّكه من ورائه، لا يفضِي بيده إلى بدن رسول الله ﷺ، وكان العباس وابناه الفضل وقُثَم يساعدونه على قَلْبه من جانب إلى جانب.

قال أبو جعفر: وروت عائشة أنّهم اختلفوا في غَسْله: هل يجرَّد أم لا؟ فألقى الله عليهم السِّنة حتى ما منهم رجل إلاّ وذقنه على صدره، ثم كلّمهم متكلّم من ناحية البيت لا يدرَي مَنْ هو: غسّلوا النبيّ وعليه ثيابه. فقاموا إليه فغسلوه، وعليه قميصه فكانت عائشة تقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما غسّله إلا نساؤه.

قلت: حضرتُ عند محمد بن معد العلويّ في داره ببغداد، وعنده حسن بن معالي الحِلّي المعروف بابن الباقلاويّ وهما يقرآن هذا الخبر، وهذه الأحاديث من تاريخ الطبري فقال محمد بن معدّ لحسن بن معالي: ما تراها قصدَتْ بهذا القول؟ قال: حسدت أباك على ما كان يفتخر به من غَسْل رسول الله ﷺ! فضحك محمد، فقال: هبْها استطاعت أن تزاحمه في الغسل، هل تستطيع أن تزاحمه في غيره من خصائصه!

قال أبو جعفر الطبري: ثم كُفّن عليه الصلاة والسلام في ثلاثة أثواب: ثوبين صُحاريّين[1]

---

(١) نسبة إلى صحار، قرية باليمن. اللسان، مادة (صحر).

وبُرْد حِبَرة[1]. أدْرِج فيها إدراجاً، ولُحِد له على عادة أهل المدينة، فلمّا فرغوا منه وضعوه على سريره.

واختلفوا في دَفْنه، فقال قائل: ندفنه في مسجدِه، وقال قائل: ندفنه في البَقيع مع أصحابه، وقال أبو بكر: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ما قُبِض نبيٌّ إلا ودُفن حيث قُبِض»[2]، فرفِع فراش رسول الله الذي تُوفِّيَ فيه، فحفِر له تحته.

قلت: كيف اختلفوا في موضع دفنه، وقد قال لهم: «فضعوني على سريري في بيتي هذا، على شفير قبري»، وهذا تصريح بأنّه يُدفن في البيت الذي جمعهم فيه، وهو بيت عائشة، فإمّا أن يكونَ ذلك الخبر غيرَ صحيح، أو يكون الحديث الذي تضمّن أنّهم اختلفوا في موضع دفنه، وأنّ أبا بكر رَوَي لهم أنه قال: «الأنبياء يدفنون حيث يموتون» غيرَ صحيح، لأنّ الجمع بين هذين الخبرين لا يمكن.

وأيضاً، فهذا الخبر ينافِي ما ورَد في موت جماعةٍ من الأنبياء نقُلوا من موضع موتهم إلى مواضع أُخَر، وقد ذكر الطّبري بعضهم في أخبار أنبياء بني إسرائيل.

وأيضاً فلو صحّ هذا الخبر لم يكن مقتضياً إيجاب دفنِ النبيّ صلّى الله عليه وآله حيث قُبِض، لأنّه ليس بأمرٍ بل هو إخبار محض، اللهمّ إلا أن يكونوا فهمُوا من مخرج لفظه عليه السلام ومن مقصده أنّه أراد الوصيّة لهم بذلك، والأمر بدفنه حيث يقبض.

قال أبو جعفر: ثم دخل النّاس فصلّوا عليه أرسالاً، حتى إذا فرغ الرّجال أدخل النساء، حتى إذا فرغ النّساء أدخل الصبيان، ثم أدخِل العبيد، ولم يؤمّهم إمام، ثم دفن صلى الله عليه وآله وَسَطَ اللّيل من ليلة الأربعاء.

قال أبو جعفر: وقد روت عَمْرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زُرارة، عن عائشة قالت: ما علمْنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وآله حتى سمعنا صوت المساحي[3] في جَوْف الليل، ليلَة الأربعاء[4].

قلت: وهذا أيضاً من العجائب، لأنه إذا مات يوم الإثنين وقتَ ارتفاع الضُّحَى - كما ذكر في الرواية - ودفن ليلة الأربعاء وسَط الليل، فلم يمض عليه ثلاثة أيام كما ورد في تلك الرواية.

وأيضاً فمن العجَب كون عائشة، وهو في بيتها لا تعلم بدفنه حتى سمعتْ صوتَ المساحي،

---

(١) الحِبَرة والحبير: ضرب من برود اليمن منمر. اللسان، مادة (حبر).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: ما جاء في ذكر الجنائز، باب: ذكر وفاته ودفنه (١٦٢٨).

(٣) المساحي: جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد. اللسان، مادة (مسح).

(٤) أخرجه أحمد في المسند: ٦/ ٦٢، وأخرجه البيهقي في سنه: ٣/ ٤٠٩.

أتراها أين كانت! وقد سألتُ عن هذا جماعة، فقالوا: لعلّها كانت في بيت يجاور بيتها عندها نساء كما جرت عادة أهل الميّت، وتكون قد اعتزلت بيتّها وسكنت ذلك البيت، لأنّ بيتّها مملوء بالرجال من أهل رسول الله ﷺ وغيرهم من الصحابة، وهذا قريب، ويحتمل أن يكون.

قال الطبريّ: ونزل في قبر رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والفضل بن عباس، وقُثَم أخوه، وشُقْران مولاهم. وقال أوس بن خوليّ لعليّ عليه السلام: أنشدُك الله يا عليّ وحَظّنا من رسول الله ﷺ! فقال له: انزل، فنزل مع القوم، وأخذ شُقران قطيفة كان رسول الله ﷺ يلبسها، فقذفها معه في القبر، وقال: لا يلبَسُها أحد بعده.

قلت: مَنْ تأمّل هذه الأخبار، علم أنّ عليًّا عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل في أمر رسول الله ﷺ وجهازه، ألا ترى أنّ أوسَ بن خوليّ لا يخاطب أحداً من الجماعة غيرَه، ولا يسأل غيره في حضور الغسل والنّزول في القبر! ثم انظر إلى كرم عليّ عليه السلام وسَجاحة[1] أخلاقه وطهارة شيمته، كيف لم يضنّ بمثل هذه المقامات الشريفة عن أوس، وهو رجل غريب من الأنصار، فعرف له حقَّه وأطلبه بما طلبه! فكم بين هذه السجيّة الشريفة، وبين قول مَنْ قال: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلاّ نساؤه! ولو كان في ذلك المقام غيره من أولِي الطباع الخشنة، وأرباب الفظاظة والغلظة، وقد سأل أوْس ذلك - لزجر وانتهر ورجع خائباً!

قال الطبريّ: وكان المغيرة بن شُعبة يدّعي أنّه أحدثُ النّاس عهداً برسول الله ﷺ، ويقول للناس: إنني أخذت خاتمي فألقيته في القبر، وقلت: إنّ خاتمي قد سقط منّي، وإنّما طرحته عمداً، لأمسّ رسول الله ﷺ، فأكون آخر الناس به عهداً.

قال الطبريّ: فرَوَي عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: اعتمرتِ مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام في زمان عمر - أو عثمان - فنزل على أخته أمّ هانىء بنت أبي طالب، فلمّا فرغ من عُمرته رجع وقد سكب له غسل، فلما فرغ من غسله دخل عليه نَفَرٌ من أهل العراق، فقالوا: يا أبا الحسن، جئناك نسألك عن أمر نحبّ أن تخبرنا به! فقال: أظنّ المغيرة يحدّثكم أنّه أحدَثُ الناس عهداً برسول الله ﷺ! قالوا: أجل، عن ذا جئنا نسألك! قال: كذب! أحدثُ النّاس عهداً برسول الله ﷺ قُثَم بن العباس، كان آخرنا خروجاً من قبره.

قلت: بحقّ ما عاب أصحابُنا رحمهم الله المغيرة وذمّوه وانتقصوه! فإنه كان على طريقة غير محمودة، وأبى الله إلاّ أن يكونَ كاذباً على كلّ حال، لأنّه إن لم يكن أحدثهم بالنبيّ عهداً، فقد

(١) خلق سجيح: ليّن سهل. اللسان، مادة (سجح).

كذب في دعواه أنّه أحدثهم به عهداً، وإن كان أحدثهم به عهداً كما يزعم فقد اعترف بأنّه كذب في قوله لهم: «سقط خاتمي منّي»، وإنما ألقاه عمداً، وأين المغيرةُ ورسول الله ﷺ ليدّعي القرب منه، وأنّه أحدث الناس عهداً به! وقد علم الله تعالى والمسلمون أنّه لولا الحدَثُ الّذي أحدث، والقوم الذين صحبهم فقتلهم غَدْراً، واتخذ أموالهم، ثم التجأ إلى رسول الله ﷺ ليعصِمَه لم يُسلم، ولا وطيء حصا المدينة.

قال الطبريّ: وقد اختلف في سنّ رسول الله ﷺ، فالأكثرون أنه كان ابنَ ثلاث وستين سنة، وقال قوم: ابن خمس وستين سنة، وقال قوم: ابن ستين.

فهذا ما ذكره الطبرَي في تاريخه.

وروي محمّد بن حبيب في «أماليه» قال: تولّى غسل النبيّ ﷺ عليٌّ عليه السلام والعبّاس رضي الله عنه.

وكان عليّ عليه السلام يقول بعد ذلك: ما شممت أطيبَ من ريحه، ولا رأيت أضوأ من وجهه حينئذٍ، ولم أره يعتاد فاه ما يعتاد أفواه الموتى.

قال محمد بن حبيب: فلمّا كشف الأزار عن وجهه بعد غَسْله انحنى عليه فقبّله مراراً، وبكى طويلاً وقال: بأبِي أنت وأمّي! طبتَ حيًّا وطبت ميتاً! انقطع بموتك ما لم ينقطِعْ بموت أحد سواك من النبوّة والأنباء وأخبار السماء! خصّصت حتى صرت مسلّياً عمن سواك، وعمّمت حتى صارت المصيبة فيك سواء! ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون[1]، ولكن أتى ما لا يُدْفع! أشكو إليك كمداً وإدباراً مخالفين وداء الفتنة، فإنها قد استعرت نارها وداؤها الداء الأعظم! بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من بالك وهَمّك!

ثم نظر إلى قَذَاة في عينه فلفظها بلسانه، ثم ردّ الإزار على وجهه.

وقد روى كثير من الناس ندبة فاطمة عليها السلام أباها يومَ موته وبعد ذلك اليوم، وهي ألفاظ معدودة مشهورة، منها: «يا أبتاه! جنّة الخلد مثواه، يا أبتاه! عند ذي العرش مأواه! يا أبتاه! كان جبرائيل يغشاه! يا أبتاه لست بعد اليوم أراه!».

ومن الناس مَنْ يذكر أنها كانت تشوبُ هذه الندبة بنوع من التظلّم والتألّم لأمر يغلبها. والله أعلم بصحّة ذلك.

---

(١) الشؤون: جمع شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين، اللسان، مادة (شأن).

والشّيعة تروي أن قوماً من الصحابة أنكروا بكاءها الطويل، ونهوْها عنه، وأمروها بالتنحّي عن مجاورة المسجد إلى طرف من أطراف المدينة.

وأنا أستبعد ذلك، والحديث يدخله الزيادة والنقصان، ويتطرقّ إليه التحريف والافتعال، ولا أقول أنا في أعلام المهاجرين إلا خيراً!

٢٣١ - ومن خطبة له عليه السلام في صفة خلق بعض الحيوانات

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ اَلَّذِي لاَ تُدْرِكُهُ اَلشَّوَاهِدُ، وَلاَ تَحْوِيهِ اَلْمَشَاهِدُ، وَلاَ تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ اَلسَّوَاتِرُ، اَلدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ، وَباشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ.

اَلَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَاْرتَفَعَ عَنْ ظُلْم عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ اَلْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ اَلْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اَضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ اَلْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ.

وَاحِدٌ لاَ بِعَدَدٍ، وَدَائِمٌ لا بأَمَدٍ، وَقَائمٌ لاَ بِعَمَدٍ. تَتَلَقَّاهُ اَلْأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ اَلْمَرَائي لاَ بِمُحَاضَرَةٍ. لَمْ تُحِطْ بِهِ بِهَا اَلْأَوْهَامُ، بَلْ تَجَلَّىٰ لَهَا بِهَا. وَبِهَا اَمْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا.

لَيسَ بِذِي كِبَرٍ اَمْتَدَّتْ بِهِ اَلنِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً، وَلاَ بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ اَلْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً، وَعَظُمَ سُلْطَاناً.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ اَلرَّضِيُّ، صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ اَلْحُجَجِ، وَظُهُورِ اَلْفَلَجِ، وَإِيضَاحِ اَلْمَنْهَجِ، فَبَلَّغَ اَلرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى اَلْمَحَجَّةِ دَالاًّ عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلاَمَ الاهْتِدَاءِ، وَمَنَارَ اَلضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ اَلْإِسْلامِ مَتِينَةً، وَعُرَا اَلْإِيمَانِ وَثِيقَةً.

الشرح: الشواهد ها هنا، يريد بها الحواسّ، وسمّاها «شواهد» إما لحضورها، شهد فلان كذا أي حضره، أو لأنها تشهد على ما تدركه وتثبته عند العقل، كما يشهد الشاهد بالشيء ويثبته عند الحاكم. والمشاهد ها هنا: المجالس والنوادي، يقال: حضرت مشهد بني فلان، أي

ناديهم ومجتمعهم. ثم فسّر اللفظة الأولى وأبان عن مراده بها بقوله: «ولا تراه النواظر»، وفسّر اللفظة الثانية وأبان عن مرادها، فقال: «ولا تحجبه السواتر».

ثم قال: «الدّال على قِدَمه بحدُوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده»، هذا مشكل، لأن لقائلٍ أن يقول: إذا دلّ على قِدَمه بحدوث خلقه، فقد دخل في جملة المدلول كونهُ موجوداً، لأنّ القديم هو الموجود ولم يزل، فأيّ حاجة إلى أن يعود فيقول: وبحدوث خَلْقه على وجوده!

ولمجيب أن يجيب على طريقة شيوخنا أصحاب أبي هاشم، فيقول: لا يلزم من الاستدلال بحدوث الأجسام على أنّه لا بدّ من محدِث قديم كونه موجوداً، لأنّ عندهم أنّ الذات المعدومة قد تتّصف بصفات ذاتيّة، وهي معدومة، فلا يلزم من كون صانع العالم عندهم عالماً قادراً حيًّا أن يكون موجوداً، بل لا بدّ من دلالة زائدة، على أنّ له صفة الوجود وهي والدلالة التي يذكرونها، من أن كونه قادراً عالماً تقتضي تعلّقه بالمقدور والمعلوم، وكل ذاتٍ متعلّقة، فإنّ عدمها يخرجها عن التعلّق كالإرادة، فلو كان تعالى معدوماً لم يجز أن يكون متعلّقاً، فحدوث الأجسام إذاً قد دلّ على أمرين من وجهين مختلفين:

أحدهما: أنّه لا بدّ من صانع له، وهذا هو المعنيّ بقدمه.

والثاني: أنّ هذا الصانع له صفة، لأجلها يصحّ على ذاته أن تكون قادرة عالمة، وهذا هو المعنيّ بوجوده.

فإن قلت: أيقول أصحابُ شيخكم أبي هاشم إنّ الذات المعدومة الّتي لا أوّل لها تسمّى قديمة؟

قلت: لا، والبحث في هذا بحث في اللفظ لا في المعنى.

والمراد بقوله عليه السلام: «الدالّ بحدوث الأشياء على قدمه»، أي على كونه ذاتاً لم يجعلها جاعل، وليس المراد بالقدم هاهنا الوجود لم يزل، بل مجرد الذاتيّة لم يزل.

ثم يستدل بعد ذلك بحدوث الأشياء على أنّ له صفة أخرى لم تزل زائدة على مجرّد الذاتيّة، وتلك الصفة هي وجوده، فقد اتّضح المراد الآن.

فإن قلت: فهل لهذا الكلام مساغٌ على مذهب البغداديين؟ قلت: نعم، إذا حمل على منهج التأويل بأن يرد بقوله: «وبحدوث خلقه على وجوده»، أي على صحّة إيجاده له فيما بعد، أي إعادته بعد العدَم يوم القيامة، لأنه إذا صحّ منه تعالى إحداثه ابتداءً صحّ منه إيجاده ثانياً على وجه الإعادة، لأنّ الماهيّة قابلة للوجود والعدم، والقادر قادرٌ لذاته، فأمّا من روى بحدوث خلقه على وجوده، فإنه قد سقطت عنه هذه الكلف كلّها. والمعنى على هذا ظاهر، لأنه تعالى دلّ المكلفين بحدوث خلقه على أنه جواد منعم، ومذهب أكثر المتكلّمين أنه خلق العالم جوداً وإنعاماً وإحساناً إليهم.

قوله عليه السلام : «وباشتباههم على أن لا شبَه له» هذا دليل صحيح، وذلك لأنّه إذا ثبت أن جسماً مَا محدَث، ثبت أنّ سائر الأجسام محدَثة، لأن الأجسام متماثلة، وكلّ ما صحّ على الشيء صحّ على مثله، وكذلك إذا ثبت أنّ سواداً مَا أو بياضاً ما محدَث، ثبت أن سائر السوادات والبياضات محدَثة، لأن حكم الشيء حكم مثله، والسّواد في معنى كونه سواداً غير مختلف، وكذلك البياض، فصارت الدلالة هكذا الذوات التي عندنا يشبِه بعضها بعضاً، وهي محدَثة، فلو كان الباري سبحانه يشبه شيئاً منها لكان مثلها، ولكان محدَثاً لأنّ حكم الشيء حكم مثله، لكنه تعالى ليس بمحدَث، فليس بمشابه لشيء منها، فقد صحّ إذاً قوله عليه السلام : «وباشتباههم على أن لا شبه له».

قوله عليه السلام : «الّذي صدق في ميعاده»، لا يجوز ألاّ يصدق، لأنّ الكذب قبيحٌ عقلاً، والباري تعالى يستحيل منه من جهة الدّاعي والصارف أن يفعل القبيح.

قوله عليه السلام : «وارتفع عن ظلم عباده»، هذا هو مذهب أصحابنا المعتزلة، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أخذوه، وهو أستاذهم وشيخهم في العدل والتوحيد، فأمّا الأشعريّة، فإنها وإن كانت تمتنع عن إطلاق القول بأنّ الله تعالى يظلم العباد إلاّ أنّها تعطي المعنى في الحقيقة، لأن الله عندهم يكلّف العباد ما لا يطيقونه، بل هو سبحانه عندهم لا يكلفهم إلا ما لا يطيقونه، بل هو سبحانه عندهم لا يقدر على أن يكلّفهم ما يطيقونه، وذلك لأنّ القدرة عندهم مع الفعل، فالقاعد غير قادر على القيام، وإنما يكون قادراً على القيام عند حصول القيام، ويستحيل عندهم أن يوصَف الباري تعالى بإقدار العبد القاعد على القيام، وهو مع ذلك مكلّف له أن يقوم، وهذا غاية ما يكون من الظُّلم سواء أطلقوا هذه اللفظة عليه أو لم يطلقوها.

ثم أعاد الكلام الأول في التوحيد تأكيداً، فقال: حدوث الأشياء دليل على قدمه، وكونها عاجزة عن كثير من الأفعال دليل على قدرته، وكونها فانية دليل على بقائه.

فإن قلت: أمّا الاستدلال بحدُوث الأشياء على قدمه فمعلوم، فكيف يكون الاستدلال على الأمرين الأخيرين!

قلت: إذا شاركه سبحانه بعض الموجودات في كونه موجوداً، وافترقا في أنّ أحدهما لا يصح منه فعل الجسم، ولا الكون، ولا الحياة، ولا الوجود المحدَث - ويصحّ ذلك من الموجودات القديمة - دلّ على افتراقهما في أمرٍ لأجله صَحّ من القديم ذلك، وتعذّر ذلك على المحدَث، وذلك الأمر هو الذي يسمَّى من كان عليه قادراً، وينبغي أن تحمل لفظة «العجز» ها هنا على المفهوم اللغويّ، وهو تعذّر الإيجاد، لا على المفهوم الكلاميّ.

وأما الاستدلال الثاني، فينبغي أن يحمل الفناء ها هنا على المفهوم اللّغويّ، وهو تغير الصفات وزوالها، لا على المفهوم الكلاميّ، فيصير تقدير الكلام: لما كانت الأشياء التي بيننا

تتغيّر وتتحوّل وتنتقل من حالٍ إلى حال، وعلمنا أنّ العلّة المصحّحة لذلك كونها محدثة، علمنا أنّه سبحانه لا يصحّ عليه التنقلّ والتغيّر لأنه ليس بمحدَث.

ثم قال: «واحد لا بعدد» لأن وحدته ذاتيّة، وليست صفة زائدة عليه، وهذا من الأبحاث الدقيقة في علم الحكمة، وليس هذا الكتاب موضوعاً لبسط القول في أمثاله.

ثم قال: «دائم لا بأمَد»، لأنه تعالى ليس بزمانيّ ولا داخل تحت الحركة والزمان، وهذا أيضاً من دقائق العلم الإلهي، والعرب دون أن تفهم هذا أو تنطق به، ولكن هذا الرجل كان ممنوحاً من الله تعالى بالفَيْض المقدّس والأنوار الربانيّة.

ثم قال: «قائم لا بعَمد»، لأنّه لما كان في الشاهد كلّ قائم فله عماد يعتمِد عليه، أبان عليه السلام تنزيهَه تعالى عن المكان، وعمّا يتوهمه الجهلاء من أنه متسقرٌّ على عرشه بهذه اللفظة. ومعنى القائم ها هنا ليس ما يسبق إلى الذهن من أنه المنتصب؟ بل ما تفهمه من قولك: فلان قائم بتدبير البلد، وقائم بالقسط.

ثم قال: «تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة»، أي تتلقاه تلقّياً عقلياً، ليس كما يتلقى الجسمُ الجسمَ بمشاعره وحواسّه وجوارحه، وذلك لأن تعقّل الأشياء وهو حصول صورها في العقل بريئة من المادة، والمراد بتلقّيه سبحانه ها هنا تلقي صفاته، لا تلقي ذاته تعالى، لأنّ ذاته تعالى لا تتصوّرها العقول، وسيأتي إيضاح أنّ هذا مذهبه عليه السلام.

ثم قال: «وتشهد له المرائي لا بمُحاضرة»، المرائي: جمع مرئيّ، وهو الشيء المدرَك بالبَصر، يقول: المرئيّات تشهدُ بوجود الباريء، لأنه لولا وجوده لما وُجدت، ولو لم توجد لم تكن مرئيّات، وهي شاهدة بوجوده لا كشهادتها بوجود الأبصار، لأنّها شهدت بوجود الأبصار لحضورها فيها. وأما شهادتها بوجود الباريء فليستْ بهذه الطريق، بل بما ذكرناه. والأولى أن يكون «المرائي» ها هنا جمع «مَرْآة» بفتح الميم، من قولهم: هو حسن في مَرآة عيني، يقول: إنّ جنس الرؤية يشهد بوجود الباريّ من غير محاضرة منه للحواس.

قوله عليه السلام: «لم تُحط به الأوهام» إلى قوله عليه السلام «وإليها حاكَمَها»، هذا الكلام دقيق ولطيف، والأوهام ها هنا هي العقول يقول: إنّه سبحانه لم تحط به العقول، أي لم تتصوّر كنهَ[1] ذاته، ولكنه تجلّي للعقول بالعقول، وتجلّيه ها هن هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبيّة لا غير، وكشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من أسرار مخلوقاته، فأما غير ذلك فلا، وذلك لأنّ البحث النظريّ قد دلّ على أنّا لم نعلم منه سبحانه إلا الإضافة والسلب، أما الإضافة فكقولنا: عالم قادر، وأمّا السّلب فكقولنا: ليس بجسم ولا

(١) كنه الشيء: جوهره وحقيقته. اللسان، مادة (كنه).

عرَض ولا يُرى، فأمّا حقيقة الذات المقدسة المخصوصة من حيث هي هي، فإنّ العقل لا يتصوّرها، وهذا مذهب الحكماء وبعض المتكلّمين من أصحابنا ومن غيرهم.

ثم قال: «وبالعقول امتنع من العقول»، أي وبالعقول وبالنظر، علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول.

ثم قال: «وإلى العقول حاكم العقول»، أي جعل العقول المدعية أنها أحاطت به وأدركته كالخصم له سبحانه، ثم حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة النظر، فحكمت له سبحانه على العقول المدّعية لما ليست أهلاً له.

واعلم أنّ القول بالحيرة في جلال ذات الباري والوقوف عند حدٍّ محدود لا يتجاوزه العقل قولٌ ما زال فضلاء العقلاء قائلين به.

ومن شعري الذي أسلك فيه مسلك المناجاة عند خلَواتي وانقطاعي بالقلب إليه سبحانه قولي:

والله لا موسى ولا عيـ ... ـسى المسيحُ ولا محمّدْ
علِمُوا ولا جبريل وهْـ ... ـو إلى محلّ القدس يصعَدْ
كلاّ ولا النفس البسيـ ... ـطة، لا ولا العقل المجرّدْ
من كُنْه ذاتك غير أنّـ ... ـك واحديّ الذاتِ سَرْمَدْ[1]
وَجَدُوا إضافاتٍ وسَلْـ ... ـباً والحقيقة ليس تُوجَدْ
ورأوا وجوداً واجباً ... يَفْنَي الزّمان وليس يَنْفَدْ
فلتخسأ الحُكَماء عَنْ ... جِرْمٍ له الأفلاك تَسْجُدْ
مَنْ أنت يا رِسْطو ومَنْ ... أفلاطُ قبلك يا مبلَّدْ!
ومَن ابنُ سينا حين قرّ ... ر ما بنيتَ له وشَيَّدْ
هل أنتمُ إلا الفرا ... ش رأى الشّهابَ وقد توقَّدْ
فدنا فأحرَق نفسَهُ ... ولو اهتدى رُشْداً لأبْعَدْ!

ومما قلته أيضاً في قصور العقل عن معرفته سبحانه وتعالى:

فيك يا أعجوبة الكوْن غـ ... ـدَا الفكر كَليلاَ

---

(١) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع. اللسان، مادة (سرمد).

أنــت حــيّــرت ذوي الــلُّــب ويــلْــبَــلْــتَ[١] الــعُــقُــولاَ
كــلّــمــا أقــدم فِــكْــرِي فــيــك شــبــراً فــرّ مــيــلاً
نــاكــصــاً[٢] يــخــبــط فــي عَــمْــيــاء لا يُــهْــدَى الــسَّــبِــيــلا

ولي في هذا المعنى:

فــيــك يــا أغــلــوطــة الــفــكــرِ تــاه عــقــلِــي وانــقــضــى عُــمْــري
ســافــرتْ فــيــك الــعــقــولُ فــمــا ربــحــتْ إلا أذى الــسَّــفــرِ
رجــعــتْ خَــسْــرَى ومــا وقــفــتْ لا عــلــى عــيــنٍ ولا أثــرِ
فــلَــحَــى[٣] الله الأُلَــى زَعــمُــوا أنّــك الــمــعــلــومُ بــالــنَّــظــرِ
كــذبــوا إنّ الــذِي طــلــبُــوا خــارجٌ عــن قــوّة الــبَــشَــرِ

وقلت أيضاً في المعنى:

أفنيتُ خمسين عاماً معملاً نظرِي فــيــه، فــلــم أدرِ مــا آتــي ومــا أذرُ
مَنْ كانَ فوق عقول القايسين فمَا ذا يدرك الفكر أو ما يبلغ النظرُ

ولي أيضاً:

حــبــيــبــي أنــت لا زيــدٌ وعــمْــرٌو وإن حَــيَّــرتَــنِــي وفــتــنْــتَ ديــنِــي
طــلــبــتــك جــاهــداً خــمــســيــن عــامــاً فــلــم أحــصُــلْ عــلــى بــردِ الــيــقــيــنِ
فــهــل بــعــد الــمــمــات بــك اتّــصــالٌ فــأعــلــمُ غــامــض الــسّــرّ الــمــصــونِ!
نــوَى قُــذُفٌ وكــم قــد مــات قــبــلــي بــحــســرتــه عــلــيــك مــن الــقــرونِ!

ومن شعري أيضاً في المعنى، وكنت أنادي به ليلاً في مواضع مقفرة خالية من النّاس، بصوت رفيع، وأجدح قلبي أيام كنت مالكاً أمري، مطلقاً من قيود الأهل والولَد وعلائق الدنيا:

(١) البلبلة: تفريق الآراء. اللسان، مادة (بلل).
(٢) الناكص: الذي أحجم ورجع عما كان عليه من الخير. اللسان، مادة (مكص).
(٣) لحى: قبح وأهلك ولعن. اللسان، مادة (لحو).

يـا مُـذهِـشَ الألـبـاب والـفـطَـنِ ومـحـيِّـر الـتَّـقْـوَالـةِ الـلَّـسِـنِ
أفـنـيـتُ فـيـك الـعـمـرَ أنـفـقُـهُ والـمـال مـجّـانـاً بـلا ثـمـنِ
أتـتـبـع الـعـلـمـاء أسـألـهـمْ وأجـولُ فـي الآفـاق والـمُـدُنِ
وأخـالِـط الـمِـلـلَ الَّـتـي اخـتـلـفَـتْ فـي الـدّيـن حـتـى عـابـدَ الـوَثَـنِ
وظـنـنـتُ أنـي بـالـغٌ غَـرَضِـي لـمـا اجـتـهـدت ومـبـرئٌ شَـجَـنِـي
ومـطَـهّـرٌ مـن كـلّ رجـس هـوى قـلـبـي بـذاك وغـاسِـلٌ درَنِـي
فـإذا الـذي اسـتـكـثـرت مـنـه هـو الـ ـجـانـي عـلـيّ عـظـائـمَ الـمـحـنِ
فـضـلـلـتُ فـي تـيـهٍ بـلا عـلَـم وغـرقـت فـي يَـمٍّ بـلا سُـفُـنِ
ورجـعـت صِـفْـرَ الـكـفّ مـكـتـئـبـاً حـيـرانَ ذا هَـمٍّ وذا حَـزَنِ
أبـكـي وأنـكـت فـي الـثـرى بـيـدِي طـوراً وأدعـم تـارةً ذَقَـنـي
واصـيـح يـا مَـنْ لـيـس يـعـرِفُـه أحـدٌ مـدى الأحـقـاف والـزَّمَـنِ!
يـا مَـنْ لـه عَـنَـتِ الـوجـوهُ ومَـنْ قـرنـت لـه الأعـنـاق فـي قَـرَنِ
آمـنـت يـا جـذر الأصـمّ فـي الـ أعـداد بـل يـا فـتـنـة الـفـتـنِ
أن لـيـس تـدرِكُـكَ الـعـيـون و أنّ الـرّأي ذو أفْـنِ وذو غَـبَـن
والـكـلّ أنـت فـكـيـف يـدركـه بـعـضٌ وأنـت الـسـرّ فـي الـعـلَـنِ!

ومما قلته في المعنى:

نـاجـيـتـه ودعـوتُـه اكـشـف عـن عـشـا قـلـبـي وعـن بـصـري وأنـت الـنـورُ
وارفـعْ حـجـابـاً قـد سَـدَلْـت سـتُـورَه دونـي، وهـل دون الـمـحـبّ سـتـور!
فـأجـابـني: صهْ يـا ضـعـيـف فـبـعـض ذا قـد رامـه مُـوسـى فـدُكّ الـطـور

أعجبني هذا المعنى، فنقلته إلى لفظ آخر فقلت:

حَـبِـيـبـي أنْـتَ مِـنْ دُونِ الْـبـرايَـا وإن لـم أحـظَ مـنـك بـمـا أريـدُ
قـنـعـتُ مـن الـوصـال بـكـشـف حـالٍ فـقـيـل ارجـعْ فـمـطـلـبـهـا بـعـيـدُ
ألـم تـسـمـعْ جـوابَ سـؤال مـوسـى ولـيـس عـلـى مـكـانـتـه مـزيـدُ
تـعـرّض لـلـذي حَـاوَلْـتُ يـومـاً فـدُكّ الـصـخـر واضـطـرم الـصَّـعِـيـدُ

ولي في هذا المعنى أيضاً:

قـد حـار فـي الـنَّـفـس جـمـيـعُ الـورى والـفـكـر فـيـهـا قـد غـدا ضـائـعـا

وبَرْهَنَ الْكُلّ على ما ادَّعَوْا ... وَلَيْسَ بُرْهانُهم قَاطِعَا
مَنْ جَهِلَ الصَّنْعَةَ عَجْزاً فَما ... أجدَرهُ أن يجهل الصَّانِعَا!

ولي أيضاً في الردّ على الفلاسفة الذين علّلوا حركة الفَلَك بأنه أراد استخراج الوضع أولاً، ليتشبه بالعقل المجرّد في كماله، وأنّ كلّ ما له بالقوة فهو خارج إلى الفعل:

تحيّر أربابُ النُّهَى وتعجَّبُوا ... من الفَلَكِ الأقصى لماذا تحرّكا
فقيل بطبعٍ كالثقيل إذا هَوَى ... وقيل اختياراً والمحقق شكّكا
فردَّ حديثَ الطبع إذ كان دائراً ... وليس على سَمْتٍ قويم فيسلكا
وقيل لمن قال اختياراً فما الّذي ... دعاه إلى أن دار ركضاً فأوْشكا
فقالوا لوضع حادثٍ يستجدّه ... يعاقب منه مطلباً ثم متركا
فقيل لهم: هذا الجنون بعينه ... ولو رامه منّا امرؤ كان أعْفَكَا
ولو أن إنساناً غدا ليس قصده ... سوى الوضع واستخراجه عُدَّ مضحكا

ولي أيضاً في الردّ على مَنْ زعم أنّ النبي صلى الله عليه وآله رأى الله سبحانه بالعين، وهو الذي أنكرته عائشة(١)، والعجَب لقوم من أرباب النظر جهلوا ما أدركته امرأة من نساء العرب:

عجبتُ لقوم يزعمون نبيَّهُمْ ... رَأَى رَبَّهُ بالعين، تبًّا لهمْ تَبًّا!
وهل تُدرِكُ الأبصارُ غيرَ مكيَّفٍ ... وكيف تبيحُ العينُ ما يمنَعُ القلبا!
إذا كان طرف القلب عن كنهه نَبا ... حَسيراً، فطرف العين عن كنهه أنْبَى!

والمقطّعات التي نظمتها في إجلال الباريء سبحانه عن أن تحيط به العقول كثيرة، موجودة في كتبي ومصنَّفاتي، فلتُلمح من مظانّها، وغرضنا بإيراد بعضها أن لها هنا تشييداً لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام عليٌّ في هذا الباب.

قوله عليه السلام: «ليس بذي كِبَرٍ» إلى قوله «وعظُم سلطاناً»، معناه أنه تعالى يطلق عليه من أسمائه الكبير والعظيم، وقد ورد بهما القرآن العزيز، وليس المراد بهما ما يستعمله الجمهور من قولهم: هذا الجسم أعظم وأكبر مقداراً من هذا الجسم، بل المراد عِظَمُ شأنه وجلالة سلطانه.

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٧٧).

والفلَج: النُّصرة، وأصله سكون العين، وإنّما حرّكه ليوازن بين الألفاظ، وذلك لأن الماضي، منه فلَج الرجلُ على خَصمه بالفتح، ومصدره الفَلْج بالسكون، فأما من روي: «وظهور الفُلُج» بضمتين فقد سقط عنه التأويل، لأن الاسم من هذا اللفظ: «الفُلج» بضم أول الكلمة، فإذا استعملها أو الخطيب جاز له ضمّ الحرف الثاني.

وصادعاً بهما: مظهراً مجاهداً، وأصله الشق.

والأمراس: الجبال، والواحد مَرَس، بفتح الميم والراء.

الأصل: منها في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان: وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ ٱلْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ ٱلنِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى ٱلطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ، وَلٰكِنِ ٱلْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَٱلْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ. أَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ ٱلْعَظْمَ وَٱلْبَشَرَ!

ٱنْظُرُوا إِلَى ٱلنَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ ٱلْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ ٱلْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ ٱلْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا، لاَ يُغْفِلُهَا ٱلْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا ٱلدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي ٱلصَّفَا ٱلْيَابِسِ، وَٱلْحَجَرِ ٱلْجَامِسِ!

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي ٱلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي ٱلرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً!

فَتَعَالَى ٱلَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ.

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ ٱلدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ ٱلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ ٱلنَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ ٱخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ.

وَمَا ٱلْجَلِيلُ وَٱللَّطِيفُ، وَٱلثَّقِيلُ وَٱلْخَفِيفُ، وَٱلْقَوِيُّ وَٱلضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ.

وَكَذٰلِكَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْهَوَاءُ، وَٱلرِّيَاحُ وَٱلْمَاءُ. فَٱنْظُرْ إِلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ، وَٱلنَّبَاتِ وَٱلشَّجَرِ، وَٱلْمَاءِ وَٱلْحَجَرِ، وَٱخْتِلاَفِ هٰذَا ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هٰذِهِ ٱلْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هٰذِهِ ٱلْجِبَالِ، وَطُولِ هٰذِهِ ٱلْقِلاَلِ، وَتَفَرُّقِ هٰذِهِ ٱللُّغَاتِ، وَٱلْأَلْسُنِ ٱلْمُخْتَلِفَاتِ.

فَٱلْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ ٱلْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ ٱلْمُدَبِّرَ!

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلاَ لِاخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلاَ تَحْقِيقٍ لِمَا دَعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ!

الشرح: مدخولة: معيبة. وفلَق: شقَّ وخلق. والبَشَر: ظاهر الجلد.

قوله عليه السلام: «وصُبّت على رزقها»، قيل: هو على العكس، أي وصب رزقُها عليها، والكلام صحيح ولا حاجة فيه إلى هذا، والمراد: كيف همّت حتى انصبّت على رزقها انصباباً، أي انحطت عليه. ويروي: «وضنّت على رزقها» بالضاد المعجمة والنون، أي بخلت. وجُحْرها: بيتها.

قوله عليه السلام: «وفي وِرْدِها لصَدَرها»، أي تجمع في أيام التمكن من الحركة لأيام العجز عنها، وذلك لأن النمل يظهر صيفاً ويخفي في شدّة الشتاء لعجزه عن ملاقاة البرد.

قوله عليه السلام: «رزقُها وفقُها» أي بقدر كفايتها، ويروي «مكفول برزقها مرزوقة بوفقها».

والمنّان، من أسماء الله تعالى العائد إلى صفاته الفعلية، أي هو كثير المنّ والإنعام على عباده.

والديّان: المجازي للعباد على أفعالهم، قال تعالى: ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[(1)] أي مجزيّون.

والحجَر الجامس: الجامد. والشراسيف: أطراف الأضلاع المشرفة على البطن.

في ميزات وصفات الذرة والنملة

واعلم أن شيخنا أبا عثمان قد أورد في كتاب «الحيوان»[(2)] في باب النملة والذرّة - وهي الصغيرة جدًا من النمل - كلاماً يصلح أن يكون كلام أمير المؤمنين عليه السلام أصله، ولكنّ أبا عثمان قد فرّع عليه.

قال: الذرّة تدّخر في الصيف للشتاء، وتتقدّم في حال المهلة، ولا تُضِيع أوقات إمكان الحزم، ثم يبلغ من تفقّدها وصحّة تمييزها، والنظر في عواقب أمورها، أنها تخاف على الحبوب التي ادّخرتها للشتاءِ في الصيف، أن تعفّن وتسوّس في بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتنشرها وتعيد إليها جفوفها، ويمر بها النسيم فينفي عنها اللّخَن[(3)] والفساد.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٣.

(٢) كتاب: الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المتوفى سنة (٢٥٥هـ) «كشف الظنون» (١/ ٦٩٦).

(٣) اللَّخن محركة: قبح ريح الفرج القاموس، مادة (لخن).

ثم ربما - بل في الأكثر - تختار ذلك العمل ليلاً، لأن ذلك أخفَى، وفي القمر لأنها فيه أبصر، فإن كان مكَانها نديًا وخافت أن تنبت الحبّة نقرت موضع القِطْمير[١] من وسطها، لعلمها أنها من ذلك الموضع تنبت، وربما فلقت الحبّة نصفين. فأمّا إن كان الحب من حب الكُزْبَرة فإنها تفلقه أرباعاً، لأنّ أنصاف حبّ الكُزبرة تنبت من بين جميع الحبوب، فهي من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوانات، حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس، ولها مع لطافة شخصها وخفّة وزنها في الشمّ والاسترواح ما ليس لشيء، فربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد، فيسقط من يده الواحدة أو صدر واحدة، وليس بقربه ذَرّة ولا له عهد بالذرّ في ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل ذَرّة قاصدة إلى تلك الجرادة، فترومها وتحاول نقلها وجرّها إلى جُحْرها، فإذا أعجزتها بعد أن تُبلِيَ عُذْراً مضت إلى جُحْرها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يجدها قد أقبلت وخلْفها كالخيطِ الأسود الممدود، حتى يتعاونَّ عليها فيحملْنَها. فاعجب من صدق الشمّ لما لا يشمّه الإنسان الجائع! ثم انظر إلى بُعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة، وأكثر من مائة مرّة، بل أضعاف أضعاف المائة، وليس شيء من الحيوان يحمل ما يكون أضعاف وزنه مراراً كثيرة غيرها.

فإن قال قائل: فمن أين علمتم أنّ التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي أخبرت صواحباتها من الذرّ، وأنها الّتي كانت على مقدّمتهن؟

قيل له: لطول التجربة، ولأنّا لم نر قط ذرّةً حاولت جرّ جرادة فعجزتْ عنها، ثم رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك، وإن كنّا لا نفصل في مرأى العين بينها وبين أخواتها، فإنّه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا، فدلّنا ذلك على أنّها في رُجوعها عن الجرادة أنّها إنما كانت لأشباهها كالرائد الذي لا يكذب أهله.

قال أبو عثمان: ولا يُنكر قولُنا: إن الذرّة توحي إلى أخواتها بما أشرنا إليه إلا من يكذّب القرآن، فإنه تعالى قال في قصّة سليمان: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[٢]، فهل بعد هذا ريب أو شكٌّ في أن لها قولاً وبياناً وتمييزاً!

فإن قلت: فلعلّها مكلّفة، ومأمورة ومنهيّة، ومطيعة وعاصية!

قيل: هذا سؤال جاهل، وذلك أنّه لا يلزم أن يكون كلّ ذي حسٍّ، وتمييز مكلّفاً مأموراً

---

(١) القطمير: شق النواة، أو القشرة التي فيها، أو القشرة التي بين النواة والتمرة، أو النكة البيضاء في ظهرها. ا.هـ. القاموس مادة (قطر).

(٢) سورة النمل، الآيتان: ١٨، ١٩.

منهيًا، مطيعاً عاصياً، لأنّ الإنسان غير البالغ الحلم قد يحفظ القرآن وكثيراً من الآثار، وضروباً من الأخبار، ويشتري ويبيع، ويخدع الرجالَ ويسخَر بالمعلّمين، وهو غير مكلّف ولا مأمور، لا منهيٌّ ولا عاص ولا مطيع، فلا يلزم مما قلناه في الذّرّة أن تكون مكلّفة.

قال أبو عثمان: ومن عجيب ما سمعتُه من أمر النّملة، ما حدّثني به بعضُ المهندسين عن رجل معروفٍ بصنعة الإسطرلابات، إنه أخرج طَوْقاً من صُفْر - أو قال من حديد - من الكِير، وقد أحماه، فرمَى به على الأرض ليبرد، فاشتمل الطّوْق على نملة، فأرادت أن تنفر يمنةً فلقيها وهجُ النار، فأخذت يَسْرةً فلقيَها وهجُ النّار، فمضت قُدُماً فكذاك، فرجعت إلى خلفها فكذلك، فرجعت إلى وسط الدائرة، فوجدها قد ماتت في موضع رجل البِرْكار[1] من الدائرة، وهذا من العجائب.

قال أبو عثمان: وحدّثني أبو عبيد الله الأفوَه، وما كنت أقدّم عليه في زمانه من مشايخ المعتزلة إلا القليل، قال: قد كنت ألقَى من الذّرّ والنمل في الرُّطب يكون عندي وفي الطعام عنتاً كثيراً، وذلك لأني كنت لا أستقذر النملة ولا الذّرة، ثم وجدت الواحدة منهما إذا وقعت في قارورة بانٍ أو زئبق أو خِيريّ، فسد ذلك الدّهن وزنخ، فقذرتها ونفرت منها، وقلت: أخلِقْ بطبيعتها أن تكون فاسدةً خبيثة، وكنت أرى لها عضًّا منكراً، فأقول: إنّها من ذوات السّموم، ولو أنّ بدَن النملة زيد في أجزائه حتى يلحَق ببدن العقرب، ثم عضّت إنساناً لكانت عضّتُها أضرّ عليه من لَسْعَةِ العقرب.

قال: فاتخذت عند ذلك لطعامي منملة وقيَّرتُها، وصببت في خندقها الماء، ووضعت سلّة الطعام على رأسها، فغبرت أياماً أكشف رأس السلّة بعد ذلك، وفيها ذرٌّ كثير، ووجدت الماء في الخندق على حاله، فقلت: عسى أن يكون بعض الصبيان أنزلها، وأكل مما فيها! وطال مكثها في الأرض، وقد دخلها الذّرّ ثم أعيدت على تلك الحال، وتكلمتُ في ذلك وتعرّفت الحال فيه، فعرفت البراءة في عذرهم، والصّدق في خبرهم، فاشتد تعجّبي، وذهبتْ بي الظّنُون والخواطر كلّ مذهب، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها، وأتثبت في أمري، وأتعرّف شأني، فإذا هي بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانباً، وصعدت في الحائط، ثم مرّت عَلَى جِذْع السقف، فلما صارت محاذيةً للسّلّة أرسلت نفسها فقلت في نفسي: انظر كيف اهتدتْ إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة!

ثم قلت: وما عليها أنْ تبقى محصورة؟ بل أيّ حصار على ذَرّةٍ وقد وجدت ما تشتهي.

---

(١) البركار: آلة مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى، ترسم بها الدوائر والأقواس ا. هـ. «المعجم الوسيط» (١/ ٤٧).

قال أبو عثمان: ومن أعاجيب الذرّة لا تعرض لجُعَل ولا لجرادة ولا لخُنفساء ولا لبنت وَرْدان[1]، ما لم يكن بها حبل أو عقل أو قطع رجل أو يد، فإن وجدت بها من ذلك أدنى علّة، وثبتْ عليها، حتى لو أن حيّة بها ضربة أو خَرْق أو خدش، ثم كانت من ثعابين مِصْر، لوثب عليها الذرّ حتى يأكلها، ولا تكاد الحيّة تسلَمُ من الذرّ إذا كان بها أدنى عقر.

قال أبو عثمان: وقد عذّب الله بالذّرّ والنمل أمماً وأمماً، وأخرج أهل قرًى من قراهم، وأهل دُروبٍ من دروبهم.

وحدّثني بعضُ مَنْ أصدّق خبره، قال: سألتُ رجلاً كان ينزل ببغداد في بعض الدروب التي في ناحية باب الكوفة التي جلا أهلها عنها، لغلَبة النمل والذرّ عليها، فسألته عن ذلك، فقال: وما تصنع بالحديث! امضِ معي إلى دارِي التي أخرجني منها النمّل.

قال، فدخلتُها معه فبعث غلامه، فاشترى رؤوساً من الرأسين ليتغذى بها، فانتقلنا هرباً من النمل في أكثر من عشرين مكاناً، ثم دعا بطسْتٍ ضخمة، وصبّ فيها ماءً صالحاً، ثم فرّق عظام الرؤوس في الدّار، ومعه غلمانه، فكان كلّما اسودّ منها عظم لكثرة النمل واجتماعه عليه - وذلك في أسرع الأوقات - أخذه الغلام ففرّغه في الطست بعود ينثُر به ما عليه في جوف الطسْت، فما لبثنا مقدار ساعة من النّهار حتى فاضت الطست نملاً، فقال: كم تظنّ أني فعلت مثل هذا قبل الجلاء طمعاً في أن أقطع أصلها! فلما رأيت عددها إمّا زائداً، وإما ثابتاً، وجاءنا ما لا يصبِر عليه أحد، ولا يمكن معه مقام، خرجت عنها.

قال أبو عثمان: وعذّب عمرُ بن هُبيرة سعيدَ بن عمرو الحَرَشِيّ بأنواع العذاب، فقيل له: إن أردت ألاّ يفلح أبداً فمرْهم فلينفخوا في دُبره النمل، ففعلوا فلم يفلح بعدها.

قال أبو عثمان: ومن الحيوان أجناسٌ يشبه الإنسان في العقل والرويّة والنّظر في العواقب والفكر في الأمور، مثل النمل، والذرّ، والفأر، والجِرْذان، والعنكبوت، والنحل إلاّ أنّ النحل لا يدّخر من الطّعم إلا جنساً واحداً وهو العسل.

قال: وزعم البقطري أنك لو أدخلت نَمْلةً في جُحْر ذرٍّ لأكلتها حتى تأتيَ على عامّتها، وذكر أنه قد جرّب ذلك.

قال: وزعم صاحب المنطق أنّ الضُّبَع تأكل النّمل أكلاً ذريعاً، لأنّها تأتي قرية النمل وقت اجتماع النمل على باب القرية، فتلحس ذلك النمل كلّه بلِسانها، بشهوة شديدة وإرادة قوية.

(١) هي دويبة نحو الخنفساء حمراء اللون وأكثر ما تكون في الحمامات وفي الكنف ا .هـ. «المعجم الوسيط» (٢/ ١٠٢٥).

قال: وربّما أفسدت الأرضة[١] على أهل القرى منازلهم، وأكلت كلّ شيء لهم، فلا تزال كذلك حتى ينشأ في تلك القرى النمل، فيسلّط الله عزّ وجلّ ذلك النمل على تلك الأرَضة، حتى تأتي على آخرها، على أنّ النمل بعد ذلك سيكون له أذًى، إلا أنه دون أذى الأرضة بعيداً، وما أكثر ما يذهب النمل أيضاً من تلك القُرى، حتى يتمّ لأهلها السلامة من النوعين جميعاً.

قال: وقد زعم بعضهم أنّ تلك الأرَضة بأعيانها تستحيل نملاً، وليس فناؤها لأكل النّمل لها، ولكنّ الأرَضة نفسها تستحيل نملاً، فعلى قدر ما يستحيل منها يرى الناس النقصان في عددها ومضرّتها على الأيام.

قال أبو عثمان: وكان ثُمامة يرى أنّ الذرّ صغار النمل، ونحن نراه نوعاً آخر كالبقر والجواميس.

قال: ومن أسباب هلاك النمل نبات أجنحته، وقال الشاعر:

وإذا استوتْ للنّمل أجنحةٌ حتى يطيرَ فقد دنا عَطَبُهْ

وكان في كتاب عبد الحميد إلى أبي مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جناحاً، فيقال: إن أبا مسلم لمّا قرأ هذا الكلام في أول الكتاب لم يتمّ قراءته وألقاه في النار، وقال: أخاف إن قرأته أن ينخب قلبي.

قال أبو عثمان: ويُقتل النمل بأن يصبّ في أفواه بيوتها القَطِران والكِبْريت الأصفر، وأن يدسّ في أفواهها الشّعر، على أنّا قد جرّبْنَا ذلك فوجدناه باطلاً.

فأما الحكماء، فإنهم لا يثبتون للنّمل شَراسيف ولا أضلاعاً، ويجب إن صحّ قولهم أن يحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام عَلَى اعتقاد الجمهور ومخاطبة العرب بما تتخيّله وتتوهّمه حقًّا، وكذلك لا يثبت الحكماء للنّمل آذاناً بارزة عن سطوح رؤوسها، ويجب إنْ صحّ ذلك أن نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام عَلَى قوّة الإحساس بالأصوات، فإنه لا يمكن الحكماء إنكار وجود هذه القوّة للنمل، ولهذا إذا صيح عليهنّ هربن.

ويذكر الحكماء من عجائب النمل أشياء، منها أنّه لا جلد له، وكذلك كلّ الحيوان المخرّز.

ومنها أنه لا يوجد في صِقِليّة نمل كبار أصلاً.

ومنها أنّ النمل بعضه ماشٍ وبعضه طائر.

ومنها أن حراقة النمل إذا أضيف إليها شيء من قشور البيض وريش هدهد وعلقت عَلَى العضُد منعت من النوم.

---

(١) الأرضة: دويبة بيضاء تشبه النملة تظهر أيام الربيع. ا هـ «المعجم الوسيط»، مادة (أرض)، (١/ ١٤).

قوله عليه السلام: «ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته»، أي غايات فكرك، وضربت بمعنى سرت، والمذاهب: الطرق. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) وهذا الكلام استعارة.

قال: لو أمعنتَ النّظرَ لعلمتَ أنّ خالق النملة الحقيرَة هو خالق النّخلة الطويلة لأن كلّ شيء من الأشياء تفصيل جسمه وهيئته تفصيل دقيق، واختلاف تلك الأجسام في أشكالها وألوانها ومقاديرها اختلافٌ غامض السبب، فلا بدّ للكلّ من مدبّر يحكم بذلك الاختلاف ويفعله، على حسب ما يعلمه من المصلحة.

ثم قال: «وما الجليل والدقيق في خلْقه إلا سواء! لأنه تعالى قادرٌ لذاته، لا يعجزه شيء من الممكنات».

ثم قال: «فانظر إلى الشمس والقمر» إلى قوله: «والألسن المختلفات»، هذا هو الاستدلال بإمكان الأعراض على ثبوت الصانع. والطرق إليه أربعة:

أحدها: الاستدلال بحدوث الأجسام.

والثاني: الاستدلال بإمكان الأعراض والأجسام.

والثالث: الاستدلال بحدوث الأعراض.

والرابع: الاستدلال بإمكان الأعراض.

وصورة الاستدلال هو أنّ كلّ جسم يقبل - للجسميّة المشتركة بينه وبين سائر الأجسام - ما يقبله غيره من الأجسام، فإذا اختلفت الأجسام في الأعراض فلا بدّ من مخصّص خصّص هذا الجسم بهذا العرَض دون أن يكون هذا العرَض لجسم آخر، ويكون لهذا الجسم عرَض غير هذا العرَض، لأن الممكنات لا بدّ لها من مرجّح يرجّح أحد طرفيها على الآخر، فهذا هو معنى قوله: «فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرّق هذه اللغات، والألسن المختلفات»، أي أنّه يمكن أن تكون هيئة الشمس وضوءها ومقدارها حاصلاً لجِرْم القمر، ويمكن أن يكون النّبات الّذي لا ساقَ له شجراً، والشجر ذو الساق نباتاً، ويمكن أن يكون الماء صُلْباً والحجر مائعاً، ويمكن أن يكون زمان الليل مضيئاً وزمان النهار مظلماً، ويمكن ألاّ تكون هذه البحار متفجّرة بل تكون جبالاً، ويمكن ألاّ تكون هذه الجبال الكبيرة كبيرةً، ويمكن ألاّ تكون هذه القلال طويلة. وكذلك القول في اللغات واختلافها. وإذا كان كل هذا ممكناً فاختصاصُ الجسم المخصوص بالصّفات والأعراض والصّوَر المخصوصة لا يمكن

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠١.

أن يكون لمجرد الجسميّة لتماثل الأجسام فيها، فلا بدّ من أمرٍ زائد، وذلك الأمر الزائد هو المعنيّ بقولنا: صانع العالم.

ثم سفّه آراء المعطّلة، وقال: «إنهم لم يعتصموا بحجّة، ولم يحقّقوا ما وعوْه» أي لم يرتّبوا العلوم الضروريّة ترتيباً صحيحاً يفضي بهم إلى النتيجة الّتي هي حق.

ثم أخذ في الردّ عليهم من طريق أخرى، وهي دعوى الضَّرُورة، وقد اعتمد عليها كثيرٌ من المتكلّمين، فقال: نعلم ضرورة أنّ البناء لا بدّ له من بانٍ.

ثم قال: «والجناية لا بدّ لها من جانٍ»، وهذه كلمة ساقته إليها القرينة، والمراد عموم الفعليّة لا خصوص الجناية، أي مستحيل أن يكون الفعلُ من غير فاعل، والذين ادَّعَوْا الضرورة في هذه المسألة من المتكلّمين استغنوْا عن الطرق الأربع التي ذكرناها، وأمير المؤمنين عليه السلام اعتمد أوّلاً على طريق واحدة، ثم جنح ثانياً إلى دعوى الضرورة، وكلا الطريقين صحيح.

الأصل: وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي ٱلْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا ٱلسَّمْعَ ٱلْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا ٱلْفَمَ ٱلسَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا ٱلْحِسَّ ٱلْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا ٱلزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ ٱلْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِها، وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لاَ يُكَوِّنُ إِصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً.

فَتَبَارَكَ ٱلَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي ٱلْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً!

فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ، أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَٱلنَّفَسِ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى ٱلنَّدَى وَٱلْيَبَسِ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا، فَهٰذَا غُرَابٌ، وَهٰذَا عُقَابٌ، وَهٰذَا حَمَامٌ، وَهٰذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ.

وَأَنْشَأَ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا، فَبَلَّ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

الشرح: قوله: «وأسْرَج لها حَدقتين» أي جعلهما مضيئتين كما يضيء السراج، ويقال: حدقة قمراء أي منيرة، كما يقال: ليلة قمراء أي نيّرة بضوء القمر. و«بهما تقْرِض» أي تقطع،

والراء مكسورة. والمِنْجلان: رجلاها، شبّههما بالمناجل لعوجهما وخشونتهما. ويَرْهبها: يخافها. ونزواتها: وثباتها. والجذب: المحل.

غرائب الجراد

قال شيخنا أبو عثمان في كتاب «الحيوان»: من عجائب الجرادة التماسُها لبيضها الموضع الصلْد، والصخور المُلْس، ثقةً منها أنها إذا ضرَبتْ بأذنابها فيها، انفرجت لها، ومعلوم أنّ ذنَب الجرادة ليس في خلقة المنشار ولا طرف ذنبه كحدّ السنان، ولا لها من قوّة الأسْر، ولا لذنبها من الصَّلابة ما إذا اعتمدتْ به على الكُدْية[1] خرج فيها، كيف وهي تتعدّى إلى ما هو أصلبُ من ذلك، وليس في طَرفها كإبرة العقرب.

وعلى أنّ العقربَ ليس تخرِقُ القُمْقم، من جهد الأيْد وقوّة البدن، بل إنما ينفرج لها بطبع مجعول هناك، وكذاك انفراج الصُّخور لأذناب الجراد.

ولو أنّ عُقاباً أرادت أن تخرِق جلد الجاموس لما انخرق لها إلاّ بالتكلّف الشديد، والعُقاب هي التي تنكدر على الذئب الأطلس، فتقدّ بدابرتها ما بين صَلاهُ إلى موضع الكاهل.

فإذا غرّزت الجرادة، وألقت بيضَها، وانضمّت عليها تلك الأخاديد الّتي هي أحدثها، وصارت كالأفاحيص[2] لها صارت حاضنةً لها ومربيّة، وحافظة وصائنة وواقية، حتى إذا جاء وقت دَبيب الرُّوح فيها حدث عَجَب آخر، وذلك لأنه يخرج من بيضه أصْهبَ[3] إلى البياض، ثم يصفرّ وتتلون فيه خطوط إلى السواد، ثم يصير فيه خطوط سودٌ وبيض، ثم يبدو حَجْم جناحه، ثم يستقلّ فيموجُ بعضه في بعض.

قال أبو عثمان، ويزعمُ قوم أنّ الجرَاد قد يريد الخضرة ودونه النهر الجاري، فيصير بعضه جسراً لبعض حتى يعبر إلى الخضرة، وأن ذلك حيلة منها.

وليس كما زعموا، ولكن الزحف الأوّل من الدّبا يريد الخُضرة فلا يستطيعُها إلاّ بالعبور إليها، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت لعمري أرضاً للزحف الثاني الذي يريد الخضرة، فإن سمّوا ذلك جسراً استقام، فأما أن يكون الزّحف الأول مهّد للثاني ومكّن له وآثره بالكفاية فهذا ما لا يعرف، ولو أنّ الزحفين جميعاً أشرفا على النهر، وأمسك أحدهما عن تكلّف العبور حتى يمهد له الآخر لكان لما قالوه وجه.

---

(١) الكدية: الشيء الصلب بين الحجارة والطين. القاموس، مادة (كدي).

(٢) الأفاحيص: جمع أفحوص: وهو مبيض القطا؛ لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه. اللسان. مادة (فحص).

(٣) الأصهب: الذي يخالط بياضة حمرة. اللسان، مادة (صهب).

قال أبو عثمان: ولعاب الجراد سمٌّ على الأشجار لا يقع على شيء إلا أحرقه.

فأمّا الحكماء فيذكرون في كتبهم أنّ أرجل الجراد تقلع الثآليل، وأنه إذا أخذت منه اثنتا عشرة جرادة ونزعت رؤوسها وأطرافها، وجعل معها قليل آس يابس، وشربت للاستسقاء كما هي، نفعت نفعاً بيّناً، وأن التبخّر بالجراد ينفع من عسر البول، وخاصّة في النساء، وأن أكله ينفع من تقطيره، وقد يبخّر به للبواسير، وينفع أكله من لَسْعة العقرب.

ويقال: إن الجراد الطوال إذا عُلّق على مَنْ به حُمّى الرِّبْع[1] نفعه.

٢٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام: في التوحيد، وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة غيرها

الأصل: مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ، وَلاَ حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلاَ إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلاَ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لاَ بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لاَ بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لاَ بِاسْتِفَادَةٍ، لاَ تَصْحَبُهُ الأَوْقَاتُ، وَلاَ تَرْفِدُهُ الأَدَوَاتُ، سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ، وَالابْتِدَاءَ أَوَّلُهُ.

الشرح: هذا الفصل يشتمل على مباحث متعدِّدة:

أولها قوله: «ما وحّدَهُ مَنْ كيّفه»، وهذا حقّ لأنه إذا جعله مكيّفاً جعله ذا هيئة وشكل، أو ذا لونٍ وضوء، إلى غيرهما من أقسام الكَيْف، ومتى كان كذلك كان جسماً ولم يكن واحداً، لأنّ كلّ جسم قابل للانقسام، والواحد حقاً لا يقبل الانقسام، فقد ثبت أنه ما وحّده مَنْ كيّفه.

وثانيها قوله: «ولا حقيقته أصاب مَنْ مثّله» وهذا حقّ، لأنّه تعالى لا مثل له، وقد دلّت الأدلّة الكلاميّة والْحُكْميّة على ذلك، فَمنْ أثبت له مثلاً، فإنه لم يصب حقيقته تعالى، والسَّجعة الأخرى تعطي هذا المعنى أيضاً من غير زيادة عليه، وهي قوله عليه السلام: «ولا إيّاه عَنَى مَنْ شبّهه» ولهذا قال شيوخنا: إنّ المشبّه لا يعرف الله، ولا تتوجّه عباداتُه وصلواته إلى الله تعالى، لأنّه يعبد شيئاً يعتقده جسماً، أو يعتقده مشابهاً لبعض هذه الذوات المحدَثة، والعبادة تنصرف إلى المعبود بالقصد، فإذا قُصِد بها غيرُ الله تعالى لم يكن قد عبدَ الله سبحانه ولا عرفه، وإنّما يتخيّل ويتوهّم أنه قد عرفه وعبده، وليس الأمر كما تخيّل وتوهّم.

---

(١) حمى الرِّبع: إتيانها في اليوم الرابع، وذلك أن يحم يوماً ويترك يومين لا يحم، ويحم في اليوم الرابع، اللسان، مادة (ربع).

وثالثها قوله عليه السلام : «ولا صَمَده مَنْ أشار إليه» أي أثبته في جهة، كما تقول الكَرّامية. الصَّمَد في اللغة العربيّة: السّيّد. والصمَد أيضاً الذي لا جوف له، وصار التّصميد في الاصطلاح العرفيّ عبارة عن التنزيه، والذي قال عليه السلام حقّ، لأنّ مَنْ أشار إليه - أي أثبته في جهة كما تقوله الكرّامية - فإنه ما صَمَده، لأنّه ما نزّهه عن الجهات، بل حكم عليه بما هو من خواصّ الأجسام، وكذلك مَنْ توهّمه سبحانه، أي مَنْ تخيّل له في نفسه صورة أو هيئة أو شكلاً، فإنّه لم ينزهه عمّا يجب تنزيهه عنه.

ورابعها قوله: «كلّ معروف بنفسه مصنوع»، هذا الكلام يجب أن يتأوّل، ويحمل على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع، وذلك لأنّ الباري سبحانه معروف من طريقين: إحداهما من أفعاله، والأخرى بنفسه، وهي طريقة الحكماء الّذين بحثُوا في الوجود من حيث هو وجود، فعلموا أنّه لا بدّ من موجودٍ واجبِ الوجود، فلم يستدلّوا عليه بأفعاله، بل أخرج لهم البحث في الوجود أنه لا بدّ من ذات يستحيل عدمها من حيث هي هي.

فإن قلت: كيف يحمل كلامُه على أنّ كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع وهذا يدخل فيه كثير من الأعراض كالألوان؟ وإذا دخل ذلك فسدت عليه الفقرة الثانية، وهي قوله عليه السلام : «وكلّ قائم فيما سواه معلوم» لأنها للأعراض خاصّة، فيدخل أحد مدلول الفقرتين في الأخرى، فيختلّ النظم!

قلت: يريد عليه السلام بالفقرة الأولى كلّ معروف بنفسه من طريق المشاهدة مستقلاً بذاته، غير مفتقر في تقوّمه إلى غيره فهو مصنوع، وهذا يختصّ بالأجسام خاصّة، ولا يدخل الألوان وغيرها من الأعراض فيه، لأنّها متقوّمة بمحالها.

وخامسها قوله: «وكلّ قائم في سواه معلول»، أي وكلّ شيء يتقوّم بغيره فهو معلول، وهذا حقٌّ لا محالة، كالأعراض، لأنها لو كانت واجبةً لاستغنت في تقومها عن سواها، لكنّها مفتقرة إلى المحلّ الذي يتقوّم به ذواتها، فإذا هي معلولة، لأنّ كل مفتقر إلى الغير فهو ممكن فلا بدّ له من مؤثر.

وسادسها قوله: «فاعل لا باضطراب آلة» هذا لبيان الفرق بينه وبيننا، فإنّنا نفعل بالآلات وهو سبحانه قادر لذاته فاستغنى عن الآلة.

وسابعها قوله: «مقدّر لا بجوْل فكرة»، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه، لأنّا إذا قدّرنا أجَلْنا أفكارنا، وتردّدت بنا الدواعي، وهو سبحانه يقدّر الأشياء على خلاف ذلك.

وثامنها قوله: «غنيّ لا باستفادة»، هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه، لأن الغنيّ منّا مَنْ يستفيد الغني بسبب خارجي، وهو سبحانه غني بذاته من غير استفادة أمر يصير به غنياً، والمراد بكونه غنيًا أن كل شيء من الأشياء يحتاج إليه، وأنّه سبحانه لا يحتاج إلى شيء من الأشياء أصلاً.

وتاسعها قوله: «لا تصحبه الأوقات»، هذا بحث شريف جداً، وذلك لأنه سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة، فذاته فوق الزمان والدهر، أمّا المتكلمون فإنهم يقولون: إنّه تعالى كان ولا زمان ولا وقت، وأما الحكماء فيقولون: إن الزمان عَرَض قائم بعرَض آخر، وذلك العرَض الآخر قائم بجسم معلول لبعض المعلولات الصادرة عنه سبحانه، فالزمان عندهم - وإن كان لم يزل - إلاّ أن العلّة الأولى ليست واقعة تحته، وذلك هو المراد بقوله: «لا تصحبه الأوقات» إن فسّرناها على قولهم، وتفسيره على قول المتكلّمين أوْلَى.

وعاشرها قوله: «ولا تَرْفِدُه الأدوات»، رفدت فلاناً إذا أعنتَه، والمراد الفرق بيننا وبينه، لأنّنا مرفودون بالأدوات، ولولاها لم يصح منا الفعل، وهو سبحانه بخلاف ذلك.

وحادي عشرها قوله: «سبق الأوقات كونُه. . . .» إلى آخر الفصل، هذا تصريح بحدوث العالم.

فإن قلت: ما معنى قوله: «والعدل وجوده»، وهل يسبق وجوده العدم مع كون عدم العالم في الأزَل لا أوّلَ له؟

قلت: ليس يعني بالعدم ها هنا عدم العالم بل عدم ذاته سبحانه، أي غلب وجود ذاته عدمها وسبقها، فوجب له وجود يستحيل تطرّق العدم إليه أزلاً وأبداً بخلاف الممكنات، فإنّ عَدمها سابق بالذّات على وجودها، وهذا دقيق!

الأصل: بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لاَ مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ.

ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرْدِ. مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا. لاَ يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الآلاَتُ إِلَى نَظَائِرِهَا.

الشرح: المشاعر الحواسّ، قال بَلْعاء بن قَيْس:

والرّأسُ مُرْتَفِعٌ فيهِ مشاعِرُهُ   يَهْدِي السّبيلَ له سَمعٌ وعَيْنَانِ

قال: بجعله تعالى المشاعر عُرِف أن لا مشعرَ له، وذلك لأنّ الجسم لا يصحّ منه فعل الأجسام، وهذا هو الدليل الذي يعوّل عليه المتكلّمون في أنّه تعالى ليس بجسم.

ثم قال: «وبمضادّته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له»، وذلك لأنّه تعالى لما دلّنا بالعقل على

أن الأمور المتضادة إنّما تتضادّ على موضوع تقوم به وتحلّه كان قد دلّنا على أنّه تعالى لا ضد له، لأنه يستحيل أن يكون قائماً بموضوع يحلّه كما تقوم المتضادّات بموضوعاتها.

ثم قال: «وبمقارنته بين الأشياء عُرِف أن لا قرين له»، وذلك لأنّه تعالى قَرن بين العَرَض والجوْهر، بمعنى استحالة انفكاك أحدهما عن الآخر، وقَرَن بين كثير من الأعراض، نحو ما يقوله أصحابنا في حيَاتيَ القلب والكبِد، ونحو الإضافات التي يذكرها الحكماء كالبنوّة والأبوّة والفوقيّة التحتيّة، ونحو كثير من العلل والمعلولات، والأسباب والمسبَّبات، فيما ركبه في العقول من وجوب هذه المقارنة واستحالة انفكاك أحد الأمرين عن الآخر، علمنا أنه لا قرينَ له سبحانه، لأنه لو قارن شيئاً على حسب هذه المقارنة لاستحال انفكاكه عنه، فكان محتاجاً في تحقق ذاته تعالى إليه، وكلّ محتاج ممكن، فواجب الوجود ممكن! هذا محال.

ثم شرع في تفصيل المتضادات، فقال: «ضاد النّورَ بالظُّلْمة»، وهما عَرَضان عند كثير من النّاس، وفيهم مَنْ يجعل الظلمة عدميّة.

قال: «والوضوحَ بالبُهْمة» يعني البياض والسواد.

قال: «والجمودَ بالبَلَل»، يعني اليبوسة والرطوبة.

قال: «والحَرورَ بالصَّرْد» يعني الحرارة والبرودة، والحرور ها هنا مفتوح الحاء، يقال: إني لأجد لهذا الطعام حَروراً وحَرورة في فمي، أي حرارة، ويجوز أن يكون في الكلام مضاف محذوف، أي وحَرارة الحَرور بالصَّرْد، والحررور ها هنا يكون الريح الحارّة، وهي بالليل كالسَّموم بالنهار، والصَّرْد: البرْد.

ثم قال: وإنّه تعالى مؤلِّف بين هذه المتباعدات، المتعاديات: المتباينات، وليس المراد من تأليفه بينها جمعه إيّاها في مكان واحد، كيف وذلك مستحيل في نفسِه، بل هو سبحانه مؤلف لها في الأجسام المركّبة حتى خلع منها صورة مفردة، هي المزاج، ألا ترى أنّه جمع الحارّ والبارد والرطب واليابس، فمزجه مَزْجاً مخصوصاً حتى انتزع منه طبيعة مفردة، ليست حارّة مطلقة، ولا باردة مطلقة، ولا رطبة مطلقة، ولا يابسة مطلقة، وهي المِزاج، وهو محدود عند الحكماء بأنّه كيفيّة حاصلة من كيفيّات متضادة، وهذا هو محصول كلامه عليه السلام بعينه.

والعَجب من فصاحته في ضمْن حكمته، كيف أعطى كلّ لفظةٍ من هذه اللّفظات ما يناسبُها ويليق بها، فأعطى المتباعدات لفظة «مقرّب»، لأنّ البعد بإزاء القرب، وأعطى المتباينات لفظة «مقارن»، لأنّ البينونة بإزاء المقارنة، وأعطى المتعاديات لفظة «مؤلّف» لأنّ الائتلاف بإزاء التعادي.

ثم عاد عليه السلام فعكس المعنى، فقال: «مفرّق بين متدانياتِها»، فجعل الفساد بإزاء الكوْن،

وهذا من دقيق حكمته عليه السلام، وذلك لأنّ كلّ كائن فاسد، فلما أوضح ما أوضح في الكَوْن والتركيب والإيجاد، أعقبه بذكر الفساد والعدم، فقال: «مفرّق بين متدانياتها»، وذلك لأنّ كلّ جسم مركّبٌ من العناصر المختلفة الكيفيّات المتضادّة الطباعة، فإنه سيؤول إلى الانحلال والتفرّق.

ثم قال: «لا يُشمَل بحدّ»، وذلك لأنّ الحدّ الشامل ما كان مركَّباً من جنس وفصل، والباري تعالى منزّه عن ذلك، لأنه لو شمِله الحدّ على هذا الوجه يكون مركَّباً، فلم يكن واجب الوجود، وقد ثبت أنّه واجب الوجود، ويجوز أن يعني به أنّه ليس بذي نهاية، فتحويه الأقطار وتحدّه.

ثم قال: «ولا يحسب بعدّ»، يحتمل أن يريد: لا تحسب أزليّته بعدّ، أي لا يقال له: منذ وُجد كذا وكذا، كما يقال للأشياء المتقاربة العهد، ويحتمل أن يريد به أنّه ليس مماثلاً للأشياء فيدخل تحت العدد، كما تعدّ الجواهر، وكما تعدّ الأمور المحسوسة.

ثم قال: «وإنّما تحدّ الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها»، هذا يؤكّد معنى التفسير الثاني، وذلك لأنّ الأدواتِ كالجوارح، إنّما تحدّ وتقدر ما كان مثلها من ذوات المقادير، وكذلك إنّما تشير الآلات - وهي الحواسّ - إلى ما كان نظيراً لها في الجسمية ولوازمها، والباري تعالى ليس بذي مقدار ولا جسم، ولا حالّ في جسم، فاستحال أن تحدّه الأدوات وتشير إليه الآلات.

الأصل: مَنَعَتْهَا مُنْذُ ٱلْقِدْمة، وَحَمَتْهَا قَدُ ٱلْأَزَلِيَّةَ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلاَ ٱلتَّكْمِلَةَ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا ٱمْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ ٱلْعُيُونِ، وَلاَ تَجْرِي عَلَيْهِ ٱلْحَرَكَةُ وَٱلسُّكُونُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ!

إذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ ٱلْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ، وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ المَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ ٱلامْتِنَاعِ مِنْ أَن يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ.

الشرح: قد اختلف الرواة في هذا الموضع من وجهين:

أحدهما: قول مَنْ نصب «القِدمة» و«الأزليّة» و«التكملة» فيكون نصبها عنده على أنّها مفعول ثانٍ، والمفعول الأوّل الضمائر المتصلة بالأفعال، وتكون «منذ» و«قد» و«لولا» في موضع رفع بأنّها فاعلة، وتقدير الكلام: إنّ إطلاق لفظة «منذ» على الآلات والأدوات يمنعها

عن كونها قديمة، لأنّ لفظة «منذ» وضعت لابتداء الزمان كلفظة «من» لابتداء المكان والقديم لا ابتداء له وكذلك إطلاق لفظة «قد» على الآلات، والأدوات تحميها وتمنعها من كونها أزليّة، لأن «قد» لتقريب الماضي من الحال، تقول: قد قام زيد، فقد دلّ على أن قيامه قريب من الحال التي أخبرت فيها بقيامه، والأزليّ لا يصحّ ذلك فيه، وكذلك إطلاق لفظة «لولا» على الأدوات والآلات يجنّبها التكملة، ويمنعها من التمام المطلق، لأنّ لفظة «لولا» وضعت لامتناع الشيء لوجود غيره، كقولك: لولا زيد لقام عمرو، فامتناع قيام عمرو إنّما هو لوجود زيد، وأنت تقول في الأدوات والآلات وكلّ جسم: ما أحسنه لولا أنه فان! وما أتمّه لولا كذا! فيكون المقصد والمنحَى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان أنّ الأدوات والآلات محدَثة ناقصة، والمراد بالآلات والأدوات أربابُها.

الوجه الثاني: قول مَنْ رفع «القِدمة» و«الأزلية» و«التكملة» فيكون كلّ واحد منها عنده فاعلاً، وتكون الضمائر المتّصلة بالأفعال مفعولاً أوّلاً، و«منذ» و«قد» و«لولا» مفعولاً ثانياً، ويكون المعنى أنّ قِدَم الباري وأزليّته وكماله منعت الأدوات والآلات من إطلاق لفظة «منذ» و«قد» و«لولا» عليه سبحانه، لأنه تعالى قديم كامل، ولفظتا «منذ» و«قد» لا يطلقان إلاّ على محدَث، لأنّ إحدَاهما لابتداء الزمان والأخرى لتقريب الماضي من الحَال، ولفظة «لولا» لا تطلق إلاّ على ناقص، فيكون المقصد والمنحَى بهذا الكلام على هذه الرواية بيان قِدَم الباري تعالى وكماله، وأنه لا يصحّ أن يطلق عليه ألفاظ تدلّ على الحدوث والنَّقص.

قوله عليه السلام: «بها تجلّى صانعُها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون»، أي بهذه الآلات والأدوات التي هي حواسّنا ومشاعرنا، وبخلْقِه إياها، وتصويرِه لها، تجلّى للعقول وعُرِف، لأنه لو لم يخلقها لم يعرف، وبها امتنع عن نظر العيون، أي بها استنبطْنا استحالة كونه مرئيًا بالعيون، لأنّا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنّه لا تصحّ رؤيته، فإذن بخلقه الآلات والأدوات لنا عرفناه عقلاً، وبذلك أيضاً عرفنا أنّه يستحيل أن يعرَف بغير العقل، وأنّ قول من قال: إنا سنعرفه رؤيةً ومشافهة بالحاسّة باطل.

قوله عليه السلام: «لا تجري عليه الحركة والسكون»، هذا دليلٌ أخذَه المتكلّمون عنه عليه السلام فنظموه في كتبهم وقرروه، وهو أنّ الحركة والسكون معانٍ محدَثة، فلو حلّت فيه لم يخلُ منها، وما لم يخل من المحدَث فهو محدث.

فإن قلت: إنه عليه السلام لم يخرج كلامه هذا المخرج، وإنما قال كيف يجري عليه ما هو أجراه، وهذا نَمَطٌ آخر غير ما يقرّره المتكلّمون!

قلت: بل هو هو بعينه، لأنّه إذا ثبت أنّه هو الذّي أجرَى الحركة والسكون، أي أحدثهما لم يجز أن يجريا عليه، لأنهما لو جرَيا عليه لم يخلُ إمّا أن يجرِيا عليه على التعاقب، وليسا ولا واحد منهما بقديم، أو يجريا عليه على أنّ أحدَهما قديم ثم تلاه الآخر، والأول باطل بما يبطل به حوادث لا أوّل لها، والثاني باطل بكلامه عليه السلام، وذلك لأنّه لو كان أحدهما قديماً معه سبحانه لما كان أجراه، لكن قد قلنا: إنّه أجراه أي أحدثه، وهذا خُلْف محال وأيضاً فإذا كان أحدُهما قديماً معه لم يَجُزْ أن يتلوَه الأخر، لأنّ القديم لا يزول بالمحدَث.

ثم قال عليه السلام : «إذاً لتفاوتت ذاتُه، ولتجزّأ كُنهه[1]، ولامتنع من الأزَل معناه»، هذا تأكيد لبيان استحالة جَرَيان الحركة والسّكون عليه، تقول: لو صحّ عليه ذلك لكان محدَثاً، وهو معنى قوله: «لامتنع من الأزَل معناه»، وأيضاً كان ينبغي أن تكون ذاته منقسمة، لأنّ المتحرّك الساكن لا بدّ أن يكون متحيّزاً، وكلّ متحيّز جسم، وكلّ جسم منقسم أبداً، وفي هذا إشارة إلى نفي الجوْهر الفرد.

ثم قال عليه السلام : «ولكان له وراء إذا وُجِدَ له أمام» هذا يؤكّد ما قلناه إنه إشارة إلى نفي الجوْهر الفرْد، يقول: لو حلّته الحرَكة لكان جرْماً وحَجْماً، ولكان أحدُ وجهيه غيرَ الوجه الآخر لا محالة، فكان منقسماً، وهذا الكلام لا يستقيم إلا مع نفي الجوهر الفرد، لأنّ مَنْ أثبته يقول: يصحّ أن تحلّه الحركة، ولا يكون أحد وجهيْه غير الآخر، فلا يلزم أن يكون له وراء وأمام.

ثم قال عليه السلام : «ولا التمس التمام إذ لزمه النقصان»، هذا إشارة إلى ما يقوله الحكماء، منْ أن الكوْن عدم ونقْص، والحركة وجود وكمال، فلو كان سبحانه يتحرّك ويسكن لكان حال السكون ناقصاً قد عدم عنه كماله، فكان ملتمَساً كمالُه بالحرَكة الطارئة على السّكون، وواجب الوجود، يستحيل أن يكون له حالة نقصان، وأن يكون له حالة بالقوّة وأخرى بالفعل.

قوله عليه السلام : «إذاً لقامت آية المصنوع فيه»، وذلك لأنّ آية المصنوع كونه متغيّراً منتقلاً من حالٍ إلى حال، لأنا بذلك استدللنا على حدوث الأجسام، فلو كان تعالى متغيراً متحرّكاً منتقلاً من حال إلى حال لتحقّق فيه دليل الحدوث، فكان مصنوعاً، وقد ثبت أنّه الصّانع المطلق سبحانه.

قوله عليه السلام : «ولتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه»، يقول: إنا وجدنا دليلنا على الباري سبحانه، إنما هو الأجسام المتحرّكة، فلو كان الباري متحرّكاً لكان دليلاً على غيره، وكان فوقه صانع آخر صنعه وأحدثه، لكنه سبحانه لا صانعَ له ولا ذات فوق ذاته، فهو المدلول عليه والمنتهي إليه.

قوله عليه السلام : «وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما أثر في غيره»، في هذا الكلام

(١) كنه الشيء: جوهره وحقيقته. اللسان، مادة (كنه).

يتوهّم سامعه أنه عطف على قوله: «لتفاوتت» و«لتجزأ» و«لامتنع» و«لكان له» و«لالتمس» و«لقامت» و«لتحوّل» وليس كذلك، لأنه لو كان معطوفاً عليها لاختلّ الكلام وفسد، لأنها كلها مستحيلات عليه تعالى، والمراد لو تحرّك لزم هذه المحالات كلّها.

وقوله: «وخرج بسلطان الامتناع» ليس من المستحيلات عليه، بل هو واجب له، ومن الأمور الصادقة عليه، فإذا فسد أن يكون معطوفاً عليها وجب أن يكون معطوفاً على ما كان مدلولاً عليه، وتقدير الكلام: كان يلزم أن يتحوّل الباري دليلاً على غيره، بعد أن كان مدلولاً عليه، وبعد أن خرج بسلطان الامتناع من أن يؤثّر فيه ما أثّر في غيره، وخروجه بسلطان الامتناع المراد به وجوب الوجود والتجريد وكونه ليس بمتحيّز ولا حالّ في المتحيّز، فهذا هو سلطان الامتناع الذي به خرج عن أن يؤثّر فيه ما أثّر في غيره من الأجسام والممكنات.

الأصل: ٱلَّذِي لاَ يَحُولُ ولا يَزُولُ، وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ ٱلْأُفُول. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً، وَلَمْ يُولَدْ فيصيرَ مَحْدُوداً. جَلَّ عَنِ ٱتِّخاذِ ٱلْأَبْنَاءِ، وَطَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ ٱلنِّسَاءِ، لاَ تَنَالُهُ ٱلْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ، وَلاَ تَتَوهَّمُهُ ٱلْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ، وَلاَ تُدْرِكُهُ ٱلْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلاَ تَلْمِسُهُ ٱلْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ، وَلاَ يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلاَ يَتَبَدَّلُ فِي ٱلْأَحْوَالِ، وَلاَ تُبْلِيهِ ٱللَّيَالِي وَٱلْأَيَّامُ وَلاَ يُغَيِّرُهُ ٱلضِّيَاءُ وَٱلظَّلاَمُ.

الشرح: هذا الفصل كلّه واضح مستغنٍ عن الشرح، إلا قوله عليه السلام: «لم يلد فيكون مولوداً»، لأنّ لقائل أن يقول: كيف يلزم من فرض كونه والداً أن يكون مولوداً؟ في جوابه: إنه ليس معنى الكلام أنه يلزم من فرض وقوع أحدهما وقوع الآخر، وكيف وآدم والداً وليس بمولود! وإنّما المراد أنه يلزم من فرض صحّة كونه والداً صحّةُ كونه مولوداً، والتالي محال والمقدّم محال، وإنما قلنا: إنه يلزم من فرض صحة كونه والداً صحّة كونه مولوداً، لأنه لو صحّ أن يكون والداً على التفسير المفهوم من الوالديّة، وهو أن يتصوّر من بعض أجزائه حيّ آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما نعقله في النُّطفة المنفصلة من الإنسان المستحيلة إلى صورة أخرى، حتى يكون منها بشر آخر من نوع الأول لصحّ عليه أن يكون هو مولوداً من والد آخر قبله، وذلك لأنّ الأجسام متماثلة في الجسميّة، وقد ثبت ذلك بدليل عقليّ واضح في مواضعه التي هي أملَك به، وكلّ مِثْلَيْن فإنّ أحدهما يصحّ عليه ما يصحّ على الآخر، فلو صحّ كونُه والداً يصحّ كونه مولوداً.

وأمّا بيان أنّه لا يصح كونه مولوداً، فلأنّ كلّ مولود متأخّر عن والده بالزّمان، وكلّ متأخر عن غيره بالزّمان محدَث، فالمولود محدَث والباري تعالى قد ثبت أنه قديم، وأنّ الحدوث عليه محال، فاستحال أن يكون مولوداً، وتمّ الدليل.

الأصل: وَلاَ يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلأَجْزَاءِ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَٱلأَعضاءِ، وَلاَ بِعَرَضٍ مِنَ ٱلأَعْرَاضِ، وَلاَ بِالْغَيْرِيَّةِ والأبْعاضِ، وَلا يُقالُ: لَهُ حَدٌّ ولا نِهايَةٌ، ولا ٱنْقِطاعٌ وَلا غَايَةٌ، ولا أَنَّ الأشياءَ تَحْوِيهِ، فَتُقِلَّهُ أوْ تُهْوِيهُ، اوْ أنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يَعْدِلَهُ. لَيْسَ فِي الأشياءِ بِوَالِجٍ، وَلا عَنْهَا بِخَارِجٍ.

يُخْبِرُ لا بِلِسانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لا بِخُرُوقٍ وأدَوَاتٍ. يَقُولُ ولا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ ولا يَتَحَفَّظُ، ويُرِيدُ ولا يُضمِرُ. يُحِبُّ ويَرْضَى مِن غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِن غَيْرِ مَشَقَّةٍ، يَقُولُ لِمَنْ أرادَ كَوْنَهُ: كُنْ فَيَكُونُ. لا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ، ولا بِنِداءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلامُهُ سُبْحانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أنْشأهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كائِناً، ولَوْ كانَ قَدِيماً لَكانَ إلٰهاً ثانِياً.

الشرح: في هذا الفصل مباحث:

أولها: أنّ الباري سُبْحانه لا يوصَف بشيء من الأجزاء، أي ليس بمركّب، لأنه لو كان مركّباً لافتقر إلى أجزائه، وأجزاؤه ليست نفس هوّيته، وكلّ ذاتٍ تفتقر هويّتها إلى أمر من الأمور فهي ممكنة، لكنّه واجب الوجود، فاستحال أن يوصَف بشيء من الأجزاء.

وثانيها: أنّه لا يوصَف بالجوارح والأعضاء كما يقول مثبتو الصورة، وذلك لأنّه لو كان كذلك لكان جسماً، وكلّ جسم ممكن، وواجب الوجود غير ممكن.

وثالثها: أنّه لا يوصَفُ بعرَض من الأعراض كما يقوله الكرّاميّة، لأنه لو حلّه العَرَض لكان ذلك العَرَض ليس بأنْ يُحلّ فيه أوْلى من أن يَحُلّ هو في العرَض، لأنّ معنى الحلول حصول العَرَض في حيّز المحلّ تبعاً لحصول المحلّ فيه، فما ليس بمتحيّز لا يتحقّق فيه معنى الحُلول، وليس بأن يُجعَل محلاً أوْلَى من أن يُجعَل حالاً!

ورابعها: أنّه لا يوصف بالغيريّة والأبعاض، أي ليس له بَعْض، ولا هو ذو أقسام بعضها غيراً للبعض الآخر، وهذا يرجع إلى البحث الأوّل.

وخامسها: أنّه لا حدّ له ولا نهاية، أي ليس ذا مقدار، ولذلك المقدار طرَف ونهاية، لأنه لو كان ذا مقدار لكان جسماً، لأن المقدار من لوازم الجسميّة، وقد ثبت أنّه تعالى ليس بجسم.

وسادسها: أنّه لا انقطاع لوجوده، ولا غاية، لأنه لو جاز عليه العدم في المستقبَل لكان وجوده الآن متوقّفاً على عدم سبب عدمه، وكلّ متوقف على الغير فهو ممكن في ذاته، والباري تعالى واجب الوجوب، فاستحال عليه العدَم، وأن يكون لوجوده انقطاع، أو ينتهي إلى غاية يعدم عندها.

وسابعها: أنّ الأشياء لا تحويه فتقلّه، أي ترفعه، أو تهويه، أي تجعله هاوياً إلى جهة تحت، لأنه لو كان كذلك لكان ذا مقدار أصغر من مقدار الشيء الحاوي له، لكنْ قد بيّنا أنه يستحيل عليه المقادير، فاستحال كونه محويًا.

وثامنها: أنّه ليس يحمله شيء فيميله إلى جانب، أو يعد له بالنسبة إلى جميع الجوانب، لأنّ كلّ محمول مقدّر، وكل مُقدّر جسم، وقد ثبت أنّه ليس بجسم.

وتاسعها: أنه ليس في الأشياء بوالج، أي داخل. ولا عنها بخارج، هذا مذهب الموحّدين، والخلاف فيه مع الكرّامية والمجسّمة، وينبغي أن يفهم قوله عليه السلام: «ولا عنها بخارج» أنّه لا يريد سلبَ الولُوج، فيكون قد خلا من النقيضين، لأنّ ذلك محال، بل المراد بكونه ليس خارجاً عنها أنه ليس كما يعتقده كثيرٌ من الناس، أنّ الفلك الأعلى المحيط لا يحتوِي عليه، ولكنّه ذاتٌ موجودة متميّزة بنفسها، قائمة بذاتها، خارجة عن الفلك في الجهة العليا، بينها وبين الفلك بعد، إمّا غير متناهٍ - على ما يحكَى عن ابن الهيصم - أو متناهٍ على ما يذهب إليه أصحابه، وذلك أنّ هذه القضيّة، وهي قولنا: الباري خارج عن الموجودات كلّها على هذا التفسير ليست مناقضة للقضية الأولى، وهي قولنا: الباري داخل العالم، ليكون القول بخلوّه عنهما قولاً بخلوه عن النقيضيْن، الا ترى أنه يجوز أن تكون القضيّتان كاذبتين معاً، بألاّ يكون الفلك المحيط محتوياً عليه، ولا يكون حاصلاً في جهة خارج الفلك، ولو كانت القضيتان متناقضتيْن لما استقام ذلك، وهذا كما تقول: زيد في الدار زيد في المسجد، فإنّ هاتين القضيتيْن ليستا متناقضتيْن، لجواز ألا يكون زيد في الدار، ولا في المسجد، فإنّ هاتين لو تناقضتا لاستحال الخروج عن النقيضيْن، لكن المتناقض: «زيد في الدار، زيد ليس في الدار»، والذي يستشنعه العوامّ من قولنا: «الباري لا داخل العالم ولا خارج العالم» غلط مبنيّ على اعتقادهم وتصوّرهم أنّ القضيتيْن تتناقضان، وإذا فهِم ما ذكرناه بانَ أنه ليس هذا القول بشنيع، بل هو سهل وحقّ أيضاً، فإنه تعالى لا متحيّز ولا حالّ في المتحيّز، وما كان كذلك استحال أن يحصُل في جهة، لا داخل العالم ولا خارج العالم، وقد ثبت كونُه غير متحيّز ولا حالّ في المتحيّز، من حيث كان واجب الوجود، فإذن القولُ بأنه ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج صواب وحقّ.

وعاشرها: أنه تعالى يخبر بلا لسان ولهَوات[1]، وذلك لأنّ كونه تعالى مخبراً هو كونه فاعلاً للخبر، كما أنّ كونه ضارباً هو كونه فاعلاً للضرب، فكما لا يحتاج في كونه ضارباً إلى أداة وجارحة يَضرب بها كذلك لا يحتاج في كونه مخبراً إلى لسان ولهَوات يخبر بها.

---

(١) لهوات: جمع لهاة: وهي اللحمة المشرفة على الحلق. القاموس، مادة (لهو).

وحادي عشرها: أنه تعالى يسمع بلا حروف وأدوات، وذلك لأنّ الباري سبحانه حيٌّ لا آفة به، وكلّ حيٍّ لا آفة به، فواجب أن يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات، ولا حاجة به سبحانه إلى حروف وأدوات، كما نحتاج نحن إلى ذلك، لأنّا أحياء بحياة تحلّنا، والباري تعالى حيٌّ لذاته، فلمّا افترقنا فيما به كان سامعاً ومبصراً، افترقنا في الحاجة إلى الأدوات والجوارح.

وثاني عشرها: أنّه يقول ولا يتلفّظ، هذا بحث لفظيّ، وذلك لأنه قد ورد السمع بتسميته قائلاً، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكر هذه اللفظة، نحو قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى﴾[١] ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾[٢]، ولم يرد في السمع إطلاق كونه متلفّظاً عليه، وفي إطلاقه إيهام كونه ذا جارحة، فوجب الاقتصار على ما ورد، وتركُ ما لم يرد.

وثالث عشرها: **أنّه تعالى يحفظُ ولا يتحفّظ، أمّا كونه يحفظ فيطلَق على وجهين: أحدهما:** أنه يحفظ بمعنى أنه يحصِي أعمال عباده ويعلمها، والثاني: كونه يحفظُهم ويحرسهم من الآفات والدّواهي. وأمّا كونه لا يتحفّظ فيحتمل معنيين. أحدهما: أنّه لا يجوز أن يطلق عليه أنه يتحفّظ الكلام، أي يتكلّف كونه حافظاً له، ومحيطاً وعالماً به، كالواحد منا يتحفّظ الدرس ليحفَظه، فهو سبحانه حافظٌ غير متحفّظ. والثاني: أنه ليس بمتحرّز ولا مشفق على نفسه خوفاً أن تبدر إليه بادرة من غيره.

ورابع عشرها: أنه يريد ولا يضمر، أمّا كونه مريداً فقد ثبت بالسّمع نحو قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾[٣]، وبالعقل لاختصاص أفعاله بأوقات مخصوصة، وكيفيّات مخصوصة، جاز أن تقع على خلافها، فلا بدّ من مخصّص لها بما اختصّت به، وذلك كونه مريداً. وأمّا كونه لا يضمر فهو إطلاق لفظيّ لم يأذن فيه الشّرع، وفيه إيهام كونه ذا قلب، لأنّ الضمير في العرْف اللغويّ ما استكنّ في القلب، والباري ليس بجسم.

وخامس عشرها: أنه يحبّ ويرضى من غير رقّة، ويبغِض ويغضب من غير مشقّة، وذلك لأنّ محبته للعبد إرادته أن يثيبه، ورضاه عنه أن يحمَد فعله، وهذا يصحّ ويطلق على الباري، لا كإطلاقه علينا، لأنّ هذه الأوصاف يقتضي إطلاقها علينا رقّة القلب، والباري ليس بجسم، وأما بغضه فإرادة عقابه وغضبِهِ كراهية فعله ووعيده بإنزال العقاب به، وفي الأغلب إنما يطلّق ذلك علينا ويصحّ منا مع مشقّة تنالنا من إزعاج القلب وغَلَيان دمه، والباري ليس بجسم.

وسادس عشرها: أنه يقول لما أراد كونه: كن، فيكون من غير صوت يقرع، ولا نداء يسمع، هذا مذهب شيخنا أبي الهُذيل، وإليه يذهب الكرّامية وأتباعها من الحنابلة وغيرهم،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦. (٢) سورة المائدة، الآية: ١٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

والظّاهر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أطلَقه حملاً على ظاهر لفظ القرآن في مخاطبة الناس بما قد سمعوه وأنسوا به، وتكرّر على أسماعهم وأذهانهم، فأمّا باطن الآية وتأويلها الحقيقيّ فغير ما يسبق إلى أذهان العوامّ، فليطلب من موضعه.

وسابع عشرها: أنّ كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قدماً لكان إلٰهاً ثانياً، هذا هو دليل المعتزلة على نفي المعاني القديمة التي منها القرآن، وذلك لأنّ القِدَم عندهم أخصّ صفات الباري تعالى، أو موجب عن الأخصّ، فلو أنّ في الوجود معنًى قديماً قائماً بذات الباري، لكان ذلك المعنى مشاركاً للباري في أخصّ صفاته، وكان يجب لذلك المعنى جميع ما وجب للباري من الصّفات، نحو العالميّة والقادريّة وغيرهما، فكان إلٰهاً ثانياً.

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام «ومثّله»؟

قلت: يقال: مثّلت له كذا تمثيلاً، إذا صوّرتَ له مثاله بالكتابة أو بغيرها، فالباري مثّل القرآنَ لجبريل عليه السلام بالكتابة في اللّوح المحفوظ فأنزله على محمد صلى الله عليه وآله. وأيضاً يقال: مثل زيد بحضرتي إذا حضر قائماً، ومثّلته بين يدي زيد أي أحضرته منتصباً فلمّا كان الله تعالى فعل القرآن واضحاً بينا كان قد مثّله للمكلّفين.

الأصل: لاَ يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ ٱلصِّفَاتُ ٱلْمُحْدَثَاتُ وَلاَ يَكُون بَيْنَهَا وبينه فَصْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ ٱلصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَٱلْبَدِيعُ.

خَلَقَ ٱلْخَلاَئِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْشَأَ ٱلْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ ٱشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ، وَحَصَّنَهَا مِنَ ٱلْأَوَدِ وَٱلاعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ ٱلتَّهَافُتِ وَٱلانْفِرَاجِ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَٱسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا، فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ وَلاَ ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ.

الشرح: عاد عليه السلام إلى تنزيه الباريء تعالى عن الحدُوث، فقال: لا يجوز أن يوصَف به فتجري عليه الصّفات المحدَثات كما تجري على كلّ محدَث، وروي: «فتجري عليه صفات المحدَثات» وهو ألَيق، ليعود إلى المحدَثات ذوات الصفات ما بعده، وهو قوله عليه السلام: «ولا يكون

بينه وبينها فصل»، لأنه لا يحسن أن يعود الضمير في قوله: «وبينها» إلى «الصفات» بل إلى «ذوات الصفات».

قال: لو كان محدَثاً لجرت عليه صفات الأجسام الحدَثة، فلم يكن بينه وبين الأجسام المحدَثة فرْق، فكان يستوي الصانع والمصنوع، وهذا محال.

ثم ذكر أنّه خلق الخلْق غير محتذٍ لمثال، ولا مستفيد من غيره كيفيّة الصنعة، بخلاف الواحد منّا، فإنّ الواحد منّا لا بدّ أن يحتذيَ في الصّنعة، كالبنّاء والنّجار والصّانع وغيرها.

قال عليه السلام : «ولم يستعنْ على خلْقها بأحدٍ من خلقه»، لأنه تعالى قادر لذاته لا يُعجِزه شيء.

ثم ذكر إنشاءه تعالى الأرض، وأنه أمسكها من غير اشتغال منه بإمساكها، وغير ذلك من أفعاله ومخلوقاته، ليس كالواحد منّا يمسك الثقيل فيشتغل بإمساكه عن كثير من أموره.

قال: «وأرساها»، جعلها راسية على غير قرار تتمكّن عليه، بل واقفة بإرادته التي اقتضت وقوفها، ولأنّ الفلَك يجذبها من جميع جهاتها - كما قيل - أو لأنّه يدفعها من جميع جهاتها، أو لأنّ أحد نصفيها صاعد بالطّبْع، والآخر هابط بالطبع، فاقتضى التعادل وقوفها، أو لأنّها طالبة للمركز فوقفتْ.

والأوَد: الاعوجاج، وكرّر لاختلاف اللفظ. والتّهافت: التساقط. والأسداد: جمع سَدّ، وهو الجبل، ويجوز ضمّ السين.

واستفاض عيونَها، بمعنى أفاض، أي جعلها فائضة.

وخدّ أوديَتها، أي شقَّها. فلم يَهُنْ ما بناه، أي لم يضعف.

الأصل: هُوَ ٱلظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ ٱلْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَٱلْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجلاَلِهِ وَعِزَّتِهِ، لاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ، وَلاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ، وَلاَ يَفُوتُهُ ٱلسَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ، وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقَهُ.

خَضَعَتِ ٱلْأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاَ تَسْتَطِيعُ ٱلْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِن نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلاَ نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ.

هُوَ ٱلْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وجُودِهَا حَتى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا، وَلَيْسَ فَنَاءُ ٱلدُّنْيَا بَعْدَ ٱبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا - مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِها، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِها، وَأَصْنَاف أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا

وَأَكْيَاسِهَا - عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلاَ عَرَفَتْ كَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا!

الشرح: الظاهر: الغالب القاهر، والباطن: العالم الخبير.

والمُراح بضم الميم: النَّعم تُردُّ إلى المُراح، بالضمّ أيضاً، وهو الموضع الذي تأوي إليه النّعم، وليس المُراح ضدّ السائم على ما يظنّه بعضهم، ويقول: إنّ عطف أحدهما على الآخر عطف على المختلف والمتضادّ، بل أحدهما هو الآخر وضدهما المعلوفة، وإنما عطف أحدهما على الآخر على طريقة العرب في الخطابة، ومثله في القرآن كثير، نحو قوله سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1].

وأسناخها: جمع سِنْخ بالكسر، وهو الأصل.

وقوله: «لو اجتمع جميع الحيوان على إحداث بعوضة»، هو معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾[2].

فإن قلت: ما معنى قوله: «لا تستطيع الهربَ من سُلْطانه إلى غيره فتمتنع مِنْ نَفْعِه وضرّه»؟ وهلاّ قال: «من ضرّه»؟ ولم يذكر النفع، فإنه لا معنى لذكره ها هنا!

قلت: هذا كما يقول المعتصم بمعقِل حصين عن غيره: ما يقدر اليوم فلان لي على نفع ولا ضرّ، وليس غرضه إلاّ ذكر الضّرر، وإنما يأتي بذكر النّفع على سبيل سلْب القدرة عن فلان على كلّ ما يتعلق بذلك المعتصم، وأيضاً فإنّ العفو عن المجرم نفعٌ له، فهو عليه السلام يقول: إنه ليس شيء من الأشياء يستطيع أن يخرج إذا أجرم من سلطان الله تعالى إلى غيره فيمتنع من بأس الله تعالى، ويستغني عن أن يعفو عنه لعدم اقتداره عليه.

الأصل: وَإِنّه سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ ٱلدُّنْيَا وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبلَ ٱبْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمَانٍ.

عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ ٱلْآجَالُ وَٱلْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ ٱلسُّنُونُ وَٱلسَّاعَاتُ، فَلاَ شَيْءَ إِلا ٱللهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ، ٱلَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ.

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ ٱمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى ٱلامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا. لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا بَرَأَهُ وَخَلَقَهُ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلاَ لِلاْسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ، وَلاَ لِلاْحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلاَ لِلازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلاَ لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا. ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لاَ لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلاَ لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلاَ لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، لاَ يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَها بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ ٱلْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلاَ ٱسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلاَ لانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ ٱسْتِئْنَاسٍ، وَلاَ مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى عِلْمٍ وَٱلْتِمَاس، وَلاَ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ، إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ، إِلى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

الشرح: شرع أوّلاً في ذكر إعدام الله سبحانه الجواهر وما يتبعها ويقوم بها من الأعراض قبل القيامة، وذلك لأنّ الكتاب العزيز قد ورد به، نحو قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾(١)، ومعلوم أنه بدأه عن عدم، فوجب أن تكون الإعادة عن عدم أيضاً. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾(٢)، وإنّما كان أوّلاً لأنه كان موجوداً، ولا شيء من الأشياء بموجود، فوجب أن يكون آخراً كذلك، هذا هو مذهب جمهور أصحابنا وجمهور المسلمين.

ثم ذكر أنّه يكون وحده سبحانه بلا وقت ولا مكان، ولا حين ولا زمان، وذلك لأنّ المكان إمّا الجسم الذي يتمكّنّ عليه جسم آخر، أو الجهة، وكلاهما لا وجودَ له بتقدير عدم الأفلاك وما في حشوها من الأجسام، أما الأوّل فظاهر، وأما الثاني فلأنّ الجهة لا تتحقّق إلا بتقدير وجود الفلَك، لأنها أمرٌ إضافيٌ بالنسبة إليه، فبتقدير عدمه لا يبقى للجهة تحقّق أصلاً، وهذا هو القوْل في عدم المكان حينئذٍ، وأما الزّمان والوقت والحين فكلّ هذه الألفاظ تعطي معنًى واحداً، ولا وجود لذلك المعنى بتقدير عدم الفلك، لأنّ الزمان هو مقدار حركة الفلك، فإذا قدّرنا عدم الفلك فلا حركة ولا زمان.

ثم أوضح عليه السلام ذلك وأكّده، فقال: «عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات»، لأنّ الأجل هو الوقت الذي يحلّ فيه الدَّيْن أو تبطل فيه الحياة، وإذا ثبتَ أنّه لا وقت، ثبت أنه لا أجل، وكذلك لا سنَة ولا ساعة، لأنها أوقات مخصوصة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٣.

ثم عاد عليه السلام إلى ذكر الدنيا، فقال: «بلا قدرة منها كان ابتداء خلْقها، وبغير امتناع منها كان فناؤها»، يعني أنّها مسخّرة تحت الأمر الإلٰهي.

قال: «ولو قَدَرت على الامتناع لدام بقاؤها»، لأنها كانت تكون ممانعة للقديم سبحانه في مراده، وإنّما تمانعه في مراده لو كانت قادرة لذاتها، ولو كانت قادرة لذاتها وأرادت البقاء لبقيت.

قوله عليه السلام: «لم يتكاءده» بالمدّ، أي لم يشقّ عليه، ويجوز «لم يتكأّده» بالتشديد والهمزة، وأصله من العقبة الكئود، وهي الشّاقة.

قال: «ولم يؤده» أي لم يثقله.

ثم ذكر أنّه تعالى لم يخلق الدنيا ليشدّ بها سلطانه، ولا لخوفه من زوال أو نقص يلحقه، ولا ليستعين بها على ندٍّ مماثل له، أو يحترز بها عن ضدٍّ محارب له، أو ليزداد بها ملكه ملكاً، أو لِيُكاثر بها شريكاً في شركته له، أو لأنّه كان قبل خلقها مستوحشاً فأراد أن يستأنس بمَنْ خلَق.

ثم ذكر أنه تعالى: «سيُفنيها بعد إيجادها» لا لضجرٍ لحقه في تدبيرها، ولا لراحة تصلُه في إعدامها، ولا لثقل شيء منها عليه حال وجودها، ولا لملل أصابه فبعثه على إعدامها.

ثم عاد عليه السلام، فقال: إنّه سبحانه سيعيدها إلى الوجود بعد الفناء، لا لحاجة إليها ولا ليستعين ببعضها على بعض، ولا لأنّه استوحش حال عدمها فأحبّ أن يستأنس بإعادتها، ولا لأنه فقد علْماً عند إعدامها فأراد بإعادتها استجداد ذلك العلم، ولا لأنّه صار فقيراً عند إعدامها فأحبّ أن يتكثّر ويُثرى بإعادتها، ولا لذلٍّ أصابه بإفنائها فأراد العزّ بإعادتها.

فإن قلت: إذا كان يفنيها لا لكذا ولا لكذا، وكان من قبْلُ أوجدها لا لكذا ولا لكذا، ثم قلتم: إنه يعيدها لا لكذا ولا لكذا، فلأيّ حال أوجدها أولاً، ولأيّ حال أفناها ثانياً، ولأيّ حال أعادها ثالثاً؟ خَبِّرُونا عن ذلك، فإنكم قد حكيتم عنه عليه السلام الحكْم ولم تحكُوا عنه العلّة!

قلت: إنما أوجدها أولاً للإحسان إلى البشر ليعرفوه، فإنّه لو لم يوجدهم لبقيَ مجهولاً لا يعرف، ثم كلّف البشر ليعرّضهم للمنزلة الجليلة التي لا يمكن وصولهم إليها إلا بالتكليف وهي الثواب، ثم يفنيهم لأنّه لا بدّ من انقطاع التكليف ليخلص الثواب من مشاقّ التكاليف، وإذا كان لا بدّ من انقطاعه فلا فرقَ بين انقطاعه بالعدم المطلق، أو بتفريق الأجزاء، وانقطاعه بالعدم المطلق قد ورد به الشرع، وفيه لطف زائد للمكلّفين، لأنّه أردع وأهيَب في صدورهم من بقاء أجزائهم، واستمرار وجودها غير معدومة.

ثم إنه سبحانه يبعثهم ويعيدُهم ليوصَل إلى كلّ إنسان ما يستحقّه من ثواب أو عقاب، ولا

يمكن إيصال هذا المستحق إلاّ بالإعادة، وإنّما لم يذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه التعليلات، لأنه قد أشار إليها فيما تقدّم من كلامه، وهي موجودة في فرش خُطَبه، ولأنّ مقام الموعظة غير مقام التعليل، وأمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة يسلُك مسلك الموعظة في ضمْن تمجيد الباري سبحانه وتعظيمه، وليس ذلك بمظنّة التعليل والحِجاج.

٢٣٣ - ومن خطبة له عليه السلام تختص بذكر الملاحم

الأصل: أَلاَ بِأَبِي وَأُمّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ! أَسْماؤُهُمْ فِي السَّماءِ مَعْرُوفَةٌ، وَفِي ٱلأَرْضِ مَجْهُولَةٌ أَلاَ فَتوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إدبارِ أُمُورِكُمْ، وَٱنْقِطَاعِ وُصَلِكُمْ، وَٱسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ.

ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى المُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدِّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ! ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ المُعْطَى أعْظَمَ أجراً من المُعْطِي، ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إحْرَاجٍ. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمُ ٱلْبَلاَءُ، كَمَا يَعَضُّ ٱلْقَتَبُ غارِبَ ٱلْبَعِيرِ. ما أَطْوَلَ هَذَا ٱلْعَنَاءَ! وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجاءَ!

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الأَزِمَّةَ الَّتي تَحْمِلُ ظُهُورُها ٱلأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلاَ تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ، وَلاَ تَقْتَحِمُوا ما ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نارِ ٱلْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا، فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ في لَهَبِهَا المُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ المُسْلِمِ. إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السِّرَاجِ في الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا. فاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا وَأَحْضِرُوا آذانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشرح: الإمامية تقول: هذه العدّة هم الأئمة الأحد عشر من ولده عليه السلام. وغيرهم يقول: إنه عَنَى الأبدال الذين هم أولياء الله في الأرض، وقد تقدّم منّا ذكر القطب والأبدال، وأوضحنا ذلك إيضاحاً جليًّا.

قوله عليه السلام: «أسماؤهم في السماء معروفة»، أي تعرفها الملائكة المعصومون، أعلمهم الله تعالى بأسمائهم.

وفي الأرض مجهولة، أي عند الأكثرين لاستيلاء الضلال على أكثر البشَر.

ثم خرج إلى مخاطبة أصحابه على عادته في ذكر الملاحم والفتن الكائنة في آخر زمان الدنيا، فقال لهم: توقّعوا ما يكون من إدبار أموركم، وانقطاع وُصَلكم - جمع وُصْلة -.

واستعمال صغاركم، أي يتقدّم الصغار على الكبار، وهو من علامات الساعة.

قال: ذاك حيث يكون احتمال ضربة السيف على المؤمن أقلَّ مشقة من احتمال المشقة في اكتساب درهم حلال، وذلك لأنّ المكاسب تكون قد فسدت واختلطت، وغلَب الحرام الحلال فيها.

قوله: «ذاك حيث يكون المعطَى أعظم أجراً من المعطِي»، معناه أن أكثر من يعطي ويتصدّق في ذلك الزمان يكون ماله حراماً فلا أجرَ له في التصدّق به، ثم أكثرهم يقصِد الرّياء والسُّمعة بالصدقة أو لهوَى نفسه، أو لخطرة من خطراتِه، ولا يفعل الحسن لأنّه حَسَن، ولا الواجب لوجوبه، فتكون اليدُ السفْلى خيراً من اليد العليا، عكس ما ورد في الأثر، وأما المعطَى فإنه يكون فقيراً ذا عيال، لا يلزمه أن يبحث عن المال أحرام هو أم حلال! فإذا أخذه ليسدّ به خلّته، ويصرفه في قوت عياله، كان أعظم أجراً ممن أعطاه.

وقد خطر لي فيه معنى آخر، وهو أنّ صاحب المال الحرام إنّما يصرفه في أكثر الأحوال وأغلبها في الفساد وارتكاب المحظور كما قال: «مَنِ اكتسب مالاً من نَهَاوِشٍ[1]، أذهبه الله في نَهَابِرَ[2]». فإذا أخذه الفقير منه على وجه الصدقة فقد فوت عليه صرفه في تلك القبائح والمحظورات التي كان بعرضته صرف ذلك القدر فيها لو لم يأخذه الفقير، فإذاً قد أحسن الفقير إليه بكفّه عن ارتكاب القبيح، ومن العصمة ألاّ يقدر فكان المعطَى أعظمُ أجراً من المعطِي.

قوله عليه السلام: «ذاك حيث تَسْكَرُونَ من غير شراب، بل من النَّعمة»، بفتح النون، وهي غَضارة العيش، وقد قيل في المثل: سُكْر الهوى أشدّ من سُكْر بالخمر.

قال: «تحلفون من غير اضطرار»، أي تتهاونون باليمين وبذكر الله عزّ وجلّ.

قال: «وتكذبون من غير إحراج»، أي يصير الكذب لكم عادة ودُرْبة، لا تفعلونه لأنّ آخر منكم قد أحرجكم واضطركم بالغيظ إلى الحلِف. وروي من غير «إحواج» بالواو، أي من غير أن يُحوجكم إليه أحد.

قال: ذلك إذا عَضّكم البلاء كما يعضّ القَتَبُ غاربَ البعير. هذا الكلام غير متصل بما قبله، وهذه عادة الرضيّ رحمه الله يلتقط الكلام التقاطاً، ولا يتلو بعضه بعضاً، وقد ذكرنا هذه الخطبة أو أكثرها فيما تقدّم من الأجزاء الأول، وقبل هذا الكلام ذكر ما ينالُه من البؤس والقنُوط ومشقّة انتظار الفرج.

قوله عليه السلام: «ما أطوَلَ هذا العناء، وأبعد هذا الرجاء»! هذا حكاية كلام شعيته وأصحابه.

---

(١) النهاوش: المظالم والإجحافات بالناس. القاموس، مادة (نهش).

(٢) النهابر: المهالك. القاموس، مادة (نهبر).

ثم قال مخاطباً أصحابه الموجودين حوله: أيّها الناس، ألقُوا هذه الأزمّة التي تَحمل ظهورُها الأثقَال عن أيديكم. هذه كناية عن النَّهي عن ارتكاب القبيح وما يوجب الإثم والعقاب. والظّهور ها هنا: هي الإبل أنفسها. والأثقال: المآثم. وإلقاء الأزمّة: ترك اعتماد القبيح، فهذا عمومه، وأمّا خصوصه فتعريضٌ بما كان عليه أصحابه من الغدْر ومخامرة العدوّ عليه، وإضماء الغِلّ والغشّ له، وعصيانه والتلوّي عليه، وقد فسّره بما بعده فقال: «ولا تصدّعوا عن سلطانكم» ي لا تفرّقوا، «فتذمّوا غِبّ فعالكم»، أي عاقبته.

ثم نهاهم عن اقتحام ما استقبلوه من فَوْر نارِ الفتنة وفَوْر النار: غلَيانها واحتدامُها، ويروي: «ما استقبلَكم».

ثم قال: «وامِيطوا عن سَنَنها» أي تنحَّوْا عن طريقها، وخلّوا قصْد السبيل لها، أي دعوها تسلك طريقها ولا تقفوا لها فيه فتكونوا حطباً لنارها.

ثم ذكر أنّه قد يهلك المؤمن في لَهبها، ويسلَم فيه الكافر، كما قيل: المؤمن ملقًّى والكافر مرقًّى. ثم ذكر أن مثله فيهم كالسُّرُج يستضيء بها من وَلَجها، أي دخل في ضوئها.

وآذانُ قلوبكم، كلمة مستعارة، جعل للقلب آذاناً كما جعل الشاعر للقلوب أبصاراً، فقال:

يَدِقّ على النواظر ما أتاهُ فتُبصره بأبصار القلوبِ

٢٣٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الوصية بالتقوى

الأصل: أُوصِيكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ بِتَقْوَى ٱللهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آلاَئِهِ إِلَيْكُمْ، وَنَعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلاَئِهِ لَدَيْكُمْ، فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدَارَكَكُم بِرَحْمَةٍ!

أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ!

وَأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ وَإِقْلاَلِ ٱلْغَفْلَةِ عَنْهُ، وَكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ، فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، كَأَنَّ ٱلآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً. وَأَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ ٱنْتَقَلُوا، لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱنْتِقَالاً، وَلاَ فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ٱزْدِيَاداً، أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ ٱللهُ إِلَى مَنَازِلِكُمُ ٱلَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ

إِلَيْهَا، وَٱسْتَتِمُّوا نِعَمَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، الْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ ٱلسَّاعَاتِ فِي ٱلْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ ٱلْأَيَّامَ فِي ٱلشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ ٱلشُّهُورَ فِي ٱلسَّنَةِ، وَأَسْرَعَ ٱلسِّنِينَ فِي ٱلْعُمْرِ!

الشرح: أعورتم، أي انكشفتم وبدتْ عوراتكم، وهي المَقاتِل، تقول: أعور الفارس، إذا بدت مَقاتله، وأعورك الصَّيْدُ إذا أمكنك منه.

قوله عليه السلام: أوْحَشوا ما كانوا يوطنون أي أوطنوا قبورهم التي كانوا يوحشونها.

قوله عليه السلام: «واشتغلوا بما فارقوا»، أي اشتغلوا وهم في القبور بما فارقوه من الأموال والقيْنات، لأنها أذًى وعقاب عليهم في قبورهم، ولولاها لكانوا في راحة، ويجوز أن يكون حكاية حالهم وهم بعد في الدنيا، أي اشتغلوا أيام حياتهم من الأموال والمنازل بما فارقوه، وأضاعوا من أمر آخرتهم ما انتقلوا إليه.

ثم ذكر أنّهم لا يستطيعون فعل حسنة، ولا توبةً من قبيح، لأنّ التكليف سقط، والمنازل التي أمروا بعمارتها، والمقابر، وعمارتها الأعمال الصالحة.

وقوله عليه السلام: «إن غداً من اليوم قريب» كلام يجري مجرى المثل، قال:

غدٌ ما غدٌ ما أقرب اليوم من غدِ

والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(١) وقوله عليه السلام: «ما أسرع الساعات في اليوم...» إلى آخر الفصل، كلام شريف وجيز بالغ في معناه، والفصل كلّه نادر لا نظير له.

٢٣٥ - ومن خطبة له عليه السلام في الإيمان ووجوب الهجرة

الأصل: مِنَ ٱلْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرًّا فِي ٱلْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوارِيَ بَيْنَ ٱلْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ ٱلْبَرَاءَةِ.

وَٱلْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الأَوَّلِ، مَا كَانَ للهِ فِي أَهْلِ الأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ ٱلْأُمَّةِ

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

وَمُعْلِنِهَا. لاَ يَقَعُ ٱسْمُ ٱلْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ ٱلْحُجَّةِ فِي ٱلأَرْضِ، فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ، وَلاَ يَقَعُ ٱسْمُ الاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ ٱلْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ، وَوَعَاهَا قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لاَ يَحْمِلُهُ إِلاَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلاَ يَعِي حَدِيثَنَا إِلاَّ صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلاَمٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ. سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا، وَتَذْهَبُ بِأَحْلاَمِ قَوْمِهَا.

الشرح: هذا الفصل يُحمَل على عدّة مباحث:

أوّلها: قوله عليه السلام: فمن الإيمان ما يكون كذا. فنقول: إنه قسّم الإيمان إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: الإيمان الحقيقي، وهو الثابت المستقرّ في القلوب بالبرهان اليقينيّ.

الثاني: ما ليس ثابتاً بالبرهان اليقينيّ بل بالدليل الجدَليّ، كإيمان كثير ممن لم يحقّق العلوم العقلية، ويعتقد ما يعتقده عن أقيسة جدليّة لا تبلغ إلى درجة البرهان، وقد سمّي عليه السلام هذا القسم باسم مفرد، فقال: إنه عواري في القلوب، والعواري: جمع عاريّة أي هو وإن كان في القلب وفي محل الإيمان الحقيقيّ إلا أن حكمه حكم العاريّة في البيت، فإنّها بعرضة الخروج منه، لأنها ليست أصلية كائنة في بيت صاحبها.

والثالث: ما ليس مستنداً إلى برهان ولا إلى قياس جدليّ، بل على سبيل التقليد وحسن الظنّ بالأسلاف، وبمن يحسن ظنّ الإنسان فيه من عابدٍ أو زاهد أو ذي وَرَع، وقد جعله عليه السلام عواريَ بين القلوب والصدور لأنه دون الثاني، فلم يجعله حالاً في القلب، وجعله مع كونه عاريّة حالاً بين القلب والصدر. فيكون أضعفَ مما قبله.

فإن قلت: فما معنى قوله: «إلى أجل معلوم»؟

قلت: إنه يرجع إلى القسمين الأخيرين، لأنّ من لا يكون إيمانُه ثابتاً بالبرهان القطعيّ قد ينتقل إيمانه إلى أن يصير قطعياً، بأن ينعم النّظر ويرتّب البرهان ترتيباً مخصوصاً، فينتج له النتيجة اليقينيّة، وقد يصير إيمان المقلّد إيماناً جدليًّا فيرتقي إلى ما فوقه مرتبته، وقد يصير إيمان الجدليّ إيماناً تقليدياً بأن يضعف في نظره ذلك القياس الجدليّ، ولا يكون عالماً بالبرهان، فيؤول حالُ إيمانه إلى أن يصير تقليديًّا، فهذا هو فائدة قوله: «إلى أجل معلوم» في هذين القسمين.

فأمّا صاحب القسم الأوّل فلا يمكن أن يكون إيمانه إلى أجل معلوم، لأنّ مَنْ ظفر بالبرهان

استحال أن ينتقل عن اعتقاده، لا صاعداً ولا هابطاً، أمّا لا صاعداً، فلأنّه ليس فوق البرهان مقام آخر، وأما لا هابطاً، فلأن مادّة البرهان هي المقدّمات البديهيّة والمقدّمات البديهيّة يستحيل أن تضعف عند الإنسان حتى يصير إيمانه جدليًّا أو تقليدياً.

وثانيها قوله عليه السلام: «فإذا كانت لكم براءة»، فنقول: إنّه عليه السلام نهى عن البراءة من أحدٍ ما دام حيًّا، لأنه وإن كان مخطئاً في اعتقاده، لكن يجوز أن يعتقد الحقّ فيما بعد، وإن كان مخطئاً في أفعاله، لكن يجوز أن يتوبَ. فلا تحلّ البراءة من أحد حتى يموت على أمرٍ، فإذا مات على اعتقادٍ قبيح أو فعل قبيح جازت البراءة منه، لأنه لم يبق له بعد الموت حالة تُنتظَر، وينبغي أن تحمل هذه البراءة التي أشار إليها عليه السلام على البراءة المطلقة، لا على كلّ براءة، لأنا يجوز لنا أن نبرأ من الفاسق وهو حيٌّ، ومن الكافر وهو حيٌّ، لكن بشرط كونه فاسقاً، وبشرط كونه كافراً، فأما مَنْ مات ونعلم ما مات عليه فإنا نبرأ منه براءة مطلقة غير مشروطة.

وثالثها قوله: «والهجرة قائمة على حدّها الأوّل»، فنقول: هذا كلام يختصّ به أمير المؤمنين عليه السلام، وهو من أسرار الوصيّة؛ لأنّ الناس يروُون عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**لا هجرة بعد الفتح**»[1]، فشفع عمّه العباس في نعيم بن مسعود الأشجعيّ أن يستثنيَه، فاستثناه، وهذه الهجرة التي يشيرُ إليها أمير المؤمنين عليه السلام ليست تلك الهجرة، بل هي الهجرة إلى الإمام، قال: إنها قائمة على حدها الأوّل ما دام التكليف باقياً، وهو معنى قوله: «ما كان لله تعالى في أهل الأرض حاجة».

وقال الراونديّ: ما هاهنا نافية، أي لم يكن لله في أهل الأرض من حاجة، وهذا ليس بصحيح؛ لأنّه إدخال كلام منقطع بين كلامين متّصل أحدهما بالآخر.

ثم ذكر أنّه لا يصحّ أن يعدَّ الإنسان من المهاجرين إلا بمعرفة إمام زمانه، وهو معنى قوله: «إلا بمعرفة الحجّة في الأرض». قال: «فمن عرف الإمام وأقرّ به فهو مهاجر».

قال: ولا يجوز أن يسمّى مَنْ عرف الإمام مستضعفاً، يمكن أن يشير به إلى آيتين في القرآن:

إحداهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير (٢٧٨٣)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (١٨٦٤).

ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾[1]، فالمراد على هذا أنّه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعَف كما كان هؤلاء مستضعَفين، وإن كان في بلده وأهله لم يخرج ولم يتجشّم مشقّة السفر.

ثانيهما قوله تعالى في الآية التي تلي الآية المذكورة: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾[2] فالمراد عَلى هذا أنّه ليس من عرف الإمام وبلغه خبره بمستضعَفٍ كهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى من الظالمين؛ لأنّ أولئك كانت الهجرة بالبدن مفروضةً عليهم، وعُفَي عن ذوي العجْز عن الحَركة منهم، وشيعة الإمام عليه السلام ليست الهجرة بالبدن مفروضةً عليهم، بل تكفي معرفتهم به وإقرارهم بإمامته، فلا يقع اسم الاستضعاف عليهم.

فإن قلت: فما معنى قوله: «من مستسرّ الأمة ومعلنها»، وبماذا يتعلّق حرف الجر؟

قلت: معناه: ما دام لله في أهل الأرض المستسرّ منهم باعتقاده والمعلن حاجة، فـ«من على هذا زائدة، فلو حذفت لجر المستسرّ بدلاً من أهل الأرض، ومن إذا كانت زائدة لا تتعلّق، نحو قولك: ما جاءني من أحد.

ورابعها: قوله عليه السلام: «إن أمرَنا هذا صعب مستصعَب» ويروى: «مستصعِب - بكسر العين - لا يحتمله إلا عبد امتحن الله تعالى قلبَه للإيمان»، هذه من ألفاظ القرآن العزيز، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾[3]، وهو من قولك: امتُحِن فلان لأمر كذا وجُرّب ودُرِّب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وانٍ عنه، والمعنى أنهم صُبّرٌ على التقوى أقوياء على احتمال مشاقّها، ويجوز أن يكون وضع الامتحان موضع المعرفة؛ لأنّ تحققك الشيء إنما يكون باختباره كما يوضع الخبر موضع المعرفة، فكأنه قيل: عرف الله قلوبَهم للتقوى، فتتعلّق اللام بمحذوف، أي كائنة له، وهي اللام التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي مختصٌّ به كقوله:

أعداء مَنْ لليعمَلات على الوَجا

وتكون مع معمولها منصوبة على الحال، ويجوز أن يكون المعنى: ضرب الله قلوبَهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى، أي لتثبت فيظهر تقواها، ويعلم أنهم متقون؛ لأن

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ٣.

حقيقة التقوى لا تعلَم إلاّ عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. ويجوز أن يكون المعنى أنه أخلصَ قلوبهم للتقوى، من قولهم: امتحن الذّهب، إذا أذابه فخلّص إبريزه من خَبَثه ونَقّاه.

وهذه الكلمة قد قالها عليه السلام مراراً، ووقفت في بعض الكتب على خُطبة من جملتها: إن قريشاً طلبت السعادة فشقِيتْ، وطلبت النجاة فهلكَت، وطلبت الهدَى فضلّت، ألم يسمعوا ويحهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1] فأين المعدَل والمنزع عن ذرّية الرسول، الذين شيّد الله بنيانهم فوق بنيانهم، وأعلى رؤوسهم فوق رؤوسهم، واختارهم عليهم! ألاَ إنّ الذرّية أفنانٌ أنا شجرتها، ودوحةٌ أنا ساقها، وإنّي مِن أحمَدَ بمنزلة الضّوء من الضّوء، كنّا ظلالاً تحت العرش قبل خلق البشر، وقبل خلق الطِّينة التي كان منها البشر، أشباحاً عالية، لا أجساماً نامية، إن أمرنا صعب مستصعَب، لا يعرِف كنهه إلا ثلاثة: ملكٌ مقرّب، أو نبيٌّ مرسَل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فإذا انكشف لكم سرٌّ أو وضح لكم أمر فاقبلوه، وإلا فاسكُتوا تسلموا، وردُّوا علمَنا إلى الله فإنكم في أوسع مما بين السماء والأرض.

وخامسها: قوله: «سلُوني قبل أن تفقِدوني»، أجمع النّاس كلُّهم على أنه لم يقلْ أحد من الصحابة، ولا أحد من العلماء: «سلوني» غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ذكر ذلك ابن عبد البر المحدّث في كتاب «الاستيعاب»[2].

والمراد بقوله: «فلأنا أعلم بطرُق السماء منّي بطرق الأرض»، ما اختصّ به من العلم بمستقبل الأمور، ولاسيّما في الملاحم والدّول، وقد صدّق هذا القولَ عنه ما تواتر عنه من الإخبار بالغيوب المتكرّرة، لا مرة ولا مائة مرة، حتى زال الشكّ والرّيب في أنه إخبار عن علم، وأنه ليس على طريق الاتفاق، وقد ذكرنا كثيراً من ذلك فيما تقدّم من هذا الكتاب.

وقد تأوّله قوم على وجه آخر قالوا: أراد أنا بالأحكام الشرعيّة والفتاوى الفقهية أعلمُ منّي بالأمور الدنيويّة، فعبّر عن تلك بطرق السماء؛ لأنها أحكام إلهيّة، وعبّر عن هذه بطرق الأرض لأنها من الأمور الأرضيّة. والأوّل أظهر؛ لأنّ فحوى الكلام وأوّله يدلّ على أنه المراد.

قصة واعظ مشهور ببغداد

وعلى ذكر قوله عليه السلام: «سلوني»، حدّثني مَنْ أثق به من أهل العلم حديثاً، وإنْ كان فيه بعض الكلمات العاميّة، إلاّ أنه يتضمّن ظَرفاً ولطفاً، ويتضمّن أيضاً أدباً.

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢١.

(٢) أنظر أسد الغابة: ٤/ ٢٢، والاستيعاب: ٣/ ١١٠٤.

قال: كان ببغداد في صدْرَ أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بالله، واعظ مشهور بالحِذْق ومعرفة الحديث والرجال، وكان يجتمع إليه تحت منبره خَلْق عظيم من عوامّ بغداد ومن فضلائها أيضاً، وكان مشتَهراً بذمّ أهل الكلام وخصوصاً المعتزلة وأهل النظر، على قاعدة الحشويّة، ومبغضي أرباب العلوم العقلية، وكان أيضاً منحرفاً عن الشّيعة برضا العامّة بالميل عليهم، فاتفق قوم من رؤساء الشّيعة عَلَى أن يضعوا عليه مَنْ يبكّته ويسأله تحت منبره، ويُخجِله ويفضحه بين الناس في المجلس، وهذه عادة الوعّاظ، يقوم إليهم قوم فيسألونهم مسائل يتكلّفون عنها، وسألوا عمّن ينتدب لهذا، فأشير عليهم بشخص كان ببغداد يعرف بأحمد بن عبد العزيز الكزّيّ، كان له لَسَن، ويشتغل بشيء يسير من كلام المعتزلة، ويتشيّع، وعنده قِحِةٍ، وقد شدا أطرافاً من الأدب، وقد رأيت أنا هذا الشَّخْص في آخر عمره، وهو شيخ، والنّاسُ يختلفون إليه في تعبير الرؤيا، فأحضروه وطلبوا إليه أن يعتمد ذلك، فأجابهم، وجلس ذلك الواعظ في يومه الذي جرت عادته بالجلوس فيه، واجتمع الناس عنده على طبقاتهم، حتى امتلأت الدنيا بهم، وتكلّم على عادته فأطال، فلما مرّ في ذكر صفات الباريء سبحانه في أثناء الوعظ، قام إليه الكزيّ، فسأله أسئلة عقليّة، على منهاج كلام المتكلّمين من المعتزلة، فلم يكن للواعظ عنها جواب نظريّ، وإنما دفعه بالخطابة والجدل، وسجع الألفاظ، وتردّد الكلام بينهما طويلاً، وقال الواعظ في آخر الكلام أعينُ المعتزلة حُول، وصوتي في مسامعهم طُبول، وكلامي في أفئدتهم نُصول، يا من بالاعتزال يصول، ويحك كم تحوم وتجول، حولَ من لا تدركه العقول! كم أقول، كم أقول! خلّوا هذا الفضول!

فارتجّ المجلس، وصرخ الناس، وعلت الأصوات، وطاب الواعظ وطرب، وخرج من هذا الفصل إلى غيره فشطَح شَطْح الصوفيّة، وقال: سلوني قبل أن تفقدوني، وكرّرها، فقام إليه الكزيّ، فقال: يا سيّدي ما سمعنا أنّه قال هذه الكلمة إلاّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتمام الخبر معلوم. وأراد الكزّيّ بتمام الخبر قوله عليه السلام: «لا يقولُها بعدِي إلاّ مدّع».

فقال الواعظ وهو في نشوة طربه، وأراد إظهار فضله ومعرفته برجال الحديث والرواة: مَنْ عليّ بن أبي طالب؟ أهو عليّ بن أبي طالب بن المبارك النيسابوريّ؟ أم عليّ بن أبي طالب بن إسحاق المروزيّ؟ أم عليّ بن أبي طالب بن عثمان القيروانيّ؟ أم عليّ بن أبي طالب بن سليمان الرازيّ؟ وعدّ سبعةً أو ثمانية من أصحاب الحديث، كلّهم عليّ بن أبي طالب.

فقام الكزيّ، وقام مِنْ يمين المجلس آخر، ومن يسار المجلس ثالث، انتدبوا له، وبذلوا أنفسهم للحميّة ووطّنوها عَلَى القتل.

فقال الكزيّ: أشّا يا سيدي فلان الدين، أشّا! صاحب هذا القول هو عليّ بن أبي طالب زوج فاطمة سيدة نساء العالمين عليها السلام، وإن كنتَ ما عرفته بعد بعينه، فهو الشخص الذي لما

آخى رسول الله ﷺ بين الأتباع والأذناب آخى بينه وبين نفسه، وأسجل عَلَى أنّه نظيره ومماثله، فهل نقل في جهازكم أنتم من هذا شيء؟ أو نبت تحت خبكم من هذا شيء؟

فأراد الواعظ أن يكلّمه، فصاح عليه القائم من الجانب الأيمن، وقال: يا سيدي فلان الدين، محمد بن عبد الله كثير في الإسماء، ولكن ليس فيهم من قال له رب العزّة: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾[1]. وكذلك عليّ بن أبي طالب كثير في الأسماء، ولكن ليس فيهم من قال له صاحب الشريعة: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي»[2].

وقد تَلتقِي الأسماءُ في الناس والكُنَى ... كثيراً ولكن مُيِّزوا في الخلائقِ

فالتفت إليه الواعظ ليكلّمة، فصاح عليه القائم من الجانب الأيسر، وقال: يا سيّدي فلان الدين، حقّك تجهله، أنت معذور في كونك لا تعرفه:

وإذا خفيتُ على الغبيّ فعاذرٌ ... ألاّ تراني مقلة عمياءُ!

فاضطرب المجلس وماج كما يموج البحر، وافتتن الناس، وتواثبت العامّة بعضها إلى بعض، وتكشفت الرؤوس، ومزّقت الثياب، ونزل الواعظ، واحتُمل حتى أُدخل داراً أغلق عليه بابها، وحضر أعوان السلطان فسكّنوا الفتنة، وصرفوا النّاس إلى منازلهم وأشغالهم، وأنفذ الناصر لدين الله في آخر نهار ذلك اليوم، فأخذ أحمد بن عبد العزيز الكزيّ والرجلين اللّذين قاما معه، فحبسهم أياماً لتطفأ نائرة الفتنة. ثم أطلقهم.

٢٣٦ - ومن خطبة له عليه السلام في الأمر بالتقوى

الأصل: أَحْمَدُهُ شُكْراً لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ ٱلْجُنْدِ، عَظِيمَ ٱلْمَجْدِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ، جِهاداً عَنْ دِينِهِ، لاَ يَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ ٱجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَٱلْتِمَاسٌ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ.

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى ٱللهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ. وَبَادِرُوا ٱلْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَٱمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ، فَإِنَّ ٱلْغَايَةَ ٱلْقِيَامَةُ، وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ. وَقَبْلَ بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ ٱلْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ

(١) سورة النجم، الآيات: ٢، ٤.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك (٤٤١٦)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤).

ٱلإِبْلاَسِ، وَهَوْلِ ٱلْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ ٱلْفَزَعِ، وَٱخْتِلاَفِ ٱلْأَضْلاَعِ، وَٱسْتِكَاكِ ٱلْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ ٱللَّحْدِ، وَخِيفَةِ ٱلْوَعْدِ، وَغَمِّ ٱلضَّرِيحِ، وَرَدْمِ ٱلصَّفِيحِ.

فَالله ٱلله عِبادَ ٱلله! فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ، وَأَنْتُمْ وَٱلسَّاعَةَ فِي قَرَنٍ، وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلاَزِلِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلاَكِلِهَا، وَٱنْصَرَفَتِ ٱلدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى، وَشَهْرٍ ٱنْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًّا، وَسَمِينُهَا غَثًّا.

فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ ٱلْمُقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُها، عَالٍ لَجَبُهَا، سَاطِعٍ لَهَبُهَا، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكٍ وُقُودُهَا، مَخُوف وَعِيدُهَا، عَمٍ قَرَارُهَا، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا. ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾(١). قَدْ أُمِنَ ٱلْعَذَابُ، وَٱنْقَطَعَ ٱلْعِتَابُ، وَزُحْزِحُوا عَنِ ٱلنَّارِ، وَٱطْمَأَنَّتْ بِهِمُ ٱلدَّارُ، وَرَضُوا ٱلْمَثْوَى وَٱلْقَرَارَ، ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً، تَخَشُّعاً وَٱسْتِغْفَاراً، وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً، تَوَحُّشاً وَٱنْقِطَاعاً، فَجَعَلَ ٱلله لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ مَآباً، وَٱلْجَزَاءَ ثَوَاباً، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

فَارْعَوْا عِبَادَ ٱلله مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ، وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ، وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ ٱلْمَخُوفُ، فَلاَ رَجْعَةً تَنَالون، وَلاَ عَثْرَةً تُقَالُونَ.

ٱسْتَعْمَلَنَا ٱلله وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

ٱلْزَمُوا ٱلْأَرْضَ، وَٱصْبِرُوا عَلَى ٱلْبَلاَءِ، وَلاَ تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ، وَلاَ تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ ٱلله لَكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱلله، وَٱسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ ٱلنِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاَتِهِ لِسَيْفِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً.

الشرح: وظائف حقوقه: الواجبات المؤقّتة، كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان، والوظيفة ما يُجعل للإنسان في كلّ يوم، أو في كل شهر، أو في كلّ سنة، من طعام، أو رزق.

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

وعزيز منصوب؛ لأنه حال من الضمير في «أستعينه»، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المجرور في «حقوقه» وإضافة «عزيز» إلى «الجند» إضافة في تقدير الانفصال، لا توجب تعريفه ليمتنع من كونه حالاً.

وقاهَر أعداءه: حاربهم، وروي «وقهَر أعداءه».

والمعقل: ما يعتَصم به. وذروته: أعلاه.

وأمهدوا له: اتخذوا مهاداً، وهو الفراش، وهذه استعارة.

قوله عليه السلام: «فإنّ الغاية القيامة»، أي فإنّ منتهى كلّ البشر إليها، ولا بدّ منها.

والأرماس: جمع رَمْس وهو القبر. والإبلاس مصدر «أبلس» أي خاب ويئس، والإبلاس أيضاً: الانكسار والحزْن. واستكاك الأسماع: صممها.

وغمّ الضريح: ضيق القبر وكَرْبه. والصفيح: الحجَر، وردمُه: سدّه.

والسَّنَن: الطريق. والقرَن: الحبلُ.

وأشراط الساعة: علاماتها. وأزفت: قربت. وأفراطها: جمع فَرط، وهم المتقدّمون السابقون من الموتى، ومن روى «بإفراطها» فهو مصدر أفرط في الشيء، أي قربت الساعة بشدّة غُلَوائها وبلوغها غاية الهول والفظاعة، ويجوز أن تفسّر الرواية الأولى بمقدماتها وما يظهر قبلها من خوارق العادات المزعجة، كالدّجال ودّابة الأرض ونحوهما، ويرجع ذلك إلى اللفظة الأولى، وهي أشراطها، وإنما يختلف اللفظ.

والكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر، ويقال للأمر الثقيل: «قد أناخ عليهم بكلكله»، أي هدّهم ورضّهم كما يهدّ البعير البارك من تحته إذا أنحى عليه بصدره.

قوله عليه السلام: «وانصرفت الدنيا بأهلها» أي ولّت، ويروى: «وانصرمت» أي انقضت.

والحِضْن، بكسر الحاء: ما دون الإبط إلى الكَشْح.

والرّثّ: الخَلق، والغثّ: الهزيل.

ومقام ضنْك، أي ضيّق.

وشديد كلَبها، أي شرّها وأذاها. واللجَب: الصوت. ووُقودها هاهنا، بضم الواو، وهو الحدَث، ولا يجوز الفتح؛ لأنه ما يوقد به كالحطب ونحوه، وذاك لا يوصف بأنه ذاكٍ.

قوله عليه السلام: «عَم قرارُها»، أي لا يهتدَى فيه لظلمته، ولأنه عميق جداً، ويروى: «وكأنّ ليلهم نهار» وكذلك أُختها على التشبيه.

والمآب: المرجع، ومدينون: مجزيّون.

قوله عليه السلام: «فلا رجعة تُنالون» الرّواية بضم التاء، أي تعطوْن، يقال: أنلت فلاناً مالاً، أي منحته، وقد روي: «تَنالون» بفتح التاء.

ثم أمر أصحابه أن يثبتُوا ولا يعجلوا في محاربةِ مَنْ كان مخالطاً لهم من ذوِي العقائد الفاسدة كالخوارج، ومَن كان يُبطِنُ هَوى معاوية، وليس خطابه هذا تثبيطاً لهم عن حرب أهل الشام، كيف وهو لا يزال يقرّعُهم ويوبّخُهم عن التقاعد والإبطاء في ذلك! ولكنّ قوماً من خاصّته كانوا يطّلعون على ما عند قوم من أهل الكوفة، ويعرفون نفاقهم وفسادهم، ويرومون قتلهم وقتالهم، فنهاهم عن ذلك، وكان يخاف فرقة جُنْده وانتشار حَبْل عسكره، فأمرهم بلزوم الأرض، والصبر على البلاء.

وروي بإسقاط الباء من قوله: «بأيديكم» ومَنْ رَوى الكلمة بالباء جعلها زائدة، ويجوز ألاّ تكون زائدة، ويكون المعنى: ولا تحرّكوا الفتنة بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم، فحذف المفعول. والإصلات بالسيف: مصدر أصلت، أي سلّ.

واعلم أنّ هذه الخطبة من أعيان خُطَبه عليه السلام، ومن ناصع كلامه ونادره، وفيها من صناعة البديع الرائقة المستحسنة البريئة من التكلّف ما لا يخفى، وقد أخذ ابنُ نُباتة الخطيب كثيراً من ألفاظها فأودعها خطبه، مثل قوله: «شديد كلَبُها، عال لجبها، ساطع لهبها، متغيّظ زفيرها، متأجج سعيرها، بعيد خمودها، ذاكٍ وقودها، مخوف وعيدها، عمٌ قَرارها، مظلمة أقطارُها، حامية قدورها، فظيعة أمورها»، فإنّ هذه الألفاظ كلّها اختطَفها، وأغار عليها واغتصبها، وسمَّط بها خطبه، وشذّر بها كلامه.

ومثل قوله: «هول المطّلع، وروعات الفزع، واختلاف الأضلاع، واستكاك الأسماع، وظلمة اللّحد، وخيفة الوعد، وغمّ الضريح، وردم الصفيح». فإن هذه الألفاظ أيضاً تمضي في أثناء خطبه، وفي غضون مواعظه.

---

٢٣٧ - ومن خطبة له عليه السلام في وصيته بالزهد

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ اَلْفَاشِي فِي اَلْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَاَلْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَاَلْمُتَعَالِي جَدُّهُ، أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ اَلتُّوءَامِ، وَآلاَئِهِ اَلْعِظَامِ، اَلَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ بِمَا يَمْضِي وَمَا مَضَىٰ، مُبْتَدِعِ اَلْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلاَ اَقْتِدَاءٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ، وَلاَ اَحْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَلاَ إِصَابَةِ خَطَإٍ، وَلاَ حَضْرَةِ مَلإٍ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ٱبْتَعَثَهُ وَٱلنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ ٱلْحَيْنِ، وَٱسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ ٱلرَّيْنِ.

عِبَادَ ٱللهِ! أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنَّهَا حَقٌّ عَلَيْكُمْ، وَٱلْمُوجِبَةُ عَلَى ٱللهِ حَقَّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى ٱللهِ، فَإِنَّ ٱلتَّقْوَى فِي ٱلْيَوْمَ ٱلْحِرْزُ وَٱلْجُنَّةُ، وَفِي غَدٍ ٱلطَّرِيقُ إِلَى ٱلْجَنَّةِ، مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِينَ مِنكُمْ، وَٱلْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً، إِذَا أَعَادَ ٱللهُ مَا أَبْدَى، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى، وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَها، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولَئِكَ ٱلْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا، وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَٱعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً.

أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَٱقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَٱرْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا ٱلْأَسْقَامَ، وَبَادِرُوا بِهَا ٱلْحِمَامَ، وَٱعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلاَ يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا.

أَلاَ فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ ٱلدُّنْيَا نُزَّاهاً، وَإِلَى ٱلْآخِرَةِ وُلاَّهاً، وَلاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ ٱلتَّقْوَى، وَلاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ ٱلدُّنْيَا، وَلاَ تَشِيمُوا بَارِقَهَا، وَلاَ تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلاَ تُجِيبُوا نَاعِقَهَا، وَلاَ تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلاَ تُفْتَنُوا بِأَعْلاَقِهَا، فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ، وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلاَقَهَا مَسْلُوبَةٌ.

أَلاَ وَهِيَ ٱلْمُتَصَدِّيَةُ ٱلْعَنُونُ، وَٱلْجَامِحَةُ ٱلْحَرُونُ، وَٱلْمَائِنَةُ ٱلْخَؤُونُ، وَٱلْجَحُودُ الكَنُودُ، وَالعَنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ! حَالُهَا انْتِقَالٌ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ.

دَارُ حَرْبٍ وَسَلَبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ، أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ، قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا، فَأَسْلَمَتْهُمُ ٱلْمَعَاقِلُ، وَلَفَظَتْهُمُ المَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمُ المَحَاوِلُ، فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ، وَزَارٍ عَلى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ، وَأَقْبَلَتِ الغِيلَةُ، وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾[(١)].

الشرح: الفاشي: الذائع، فشا الخبرُ يفشو فشوًّا، أي ذَاعَ، وأفشاه غيرُه. وتفشّى الشيءُ، أي اتّسع، والفواشي: كلُّ متتشر من المال مثل الغنم السائمة والإبل وغيرهما، ومنه الحديث: «ضمُّوا فواشيَكم حتى تذهب فحمة العشاء»[(٢)]، فيجوز أن يكون عَنَى بفشوّ حمده إطباق الأمم قاطبةً على الاعتراف بنعمته، ويجوز أن يريد بالفاشي سبب حمده، وهو النّعم التي لا يقدر قدرها، فحذف المضاف.

قوله: «والغالب جنده»، فيه معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[(٣)].

قوله: «والمتعالي جَدّه» فيه معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾[(٤)]، والجَدّ في هذا الموضع وفي الآية: العظمة.

والتؤام: جمع توْم على فَوْعل، وهو الولد المقارن أخاه في بطنٍ واحد، وقد أتأمت المرأة إذا وضعت اثنين كذلك، فهي متئِم، فإن كان ذلك عادتها فهي مِتْآم، وكلّ واحد من الولدين توءم، وهما توأمان، وهذا توأم هذا، وهذه توأمته، والجمع توائم، مثل قشعم وقشاعم، وجاء في جمعه «تُؤَام» على فُعال، وهي اللفظة التي وردت في هذه الخطبة، وهو جمع غريب لم يأت نظيره إلا في مواضع معدودة، وهي عرْق العظمْ يؤخذ عنه اللحم وعُراق، وشاة رُبّى للحديثة العهد بالولادة وغنم رُباب، وظئر للمرضعة غير ولدها وظُؤار، ورَخِل للأنثى من أولاد الضأن ورُخال، وفَرِير لولد البقرة الوحشية، وفُرار.

والآلاء: النّعم.

قوله عليه السلام: «مبدِع الخلائق بعلْمه»، ليس يريد أنّ العلم علة في الإبداع، كما تقول: هوى الحجَر بثقله، بل المراد: أبدع الخلق وهو عالم، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، أي خرج متسلحاً، فموضع الجار والمجرور على هذا نصب بالحالية وكذلك القول في: «ومنشئهم بحُكمِه» والحُكم هاهنا: الحِكْمة.

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الأشربة، باب: الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء (٢٠١٣)، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في كراهية السير في أول الليل (٢٦٠٤).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٦. (٤) سورة الجن، الآية: ٣.

ومنه قوله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»[١].

قوله: «بلا اقتداء، ولا تعليم ولا احتذاء» قد تكرّر منه عليه السلام أمثاله مراراً.

قوله: «ولا إصابة خطأ» تحته معنى لطيف، وذلك لأنّ المتكلّمين يورِدون على أنفسهم سؤالاً في باب كونه عالماً بكل معلوم إذا استدلّوا على ذلك فإنه علم بعض الأشياء لا من طريق أصلاً، لا من إحساس ولا من نظر واستدلال، فوجب أن يعلم سائرها؛ لأنه لا مخصّص، فقالوا لأنفسهم: لم زعمتم ذلك؟ ولم لا يجوز أن يكون فَعَل أفعاله مضطربة، فلمّا أدركها علم كيفيّة صنعها بطريق كونه مدركاً لها فأحكمها بعد اختلالها واضطرابها! وأجابوا عن ذلك بأنه لا بدّ أن يكون قبل أن فعلها عالماً بمفرداتها من غير إحساس، ويكفي ذلك في كونه عالماً بما لم يتطرّق إليه، ثم يعود الاستدلال المذكور أوّلاً.

قوله عليه السلام: «ولا حَضرهُ مَلأ»، الملأ: الجماعة من النّاس وفيه معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[٢].

قوله: «يضربون في غَمْرة»، أي يسيرون في جَهْل وضلالة، والضرب: السير السريع.

والْحَيْن: الهلاك. والرَّين: الذنب عَلَى الذنب حتى يسودّ القلب، وقيل: الرَّيْن: الطَّبَع والدنس، يقال. رانَ عَلَى قلبه ذنبُه، يرين رَيْناً، أي دنّسه ووسّخه، واستغلقت أقفالُ الرَّيْن عَلَى قلوبهم: تعسّر فتحها.

قوله: «فإنّها حقُّ الله عليكم، والموجِبة عَلَى الله حقَّكم» يريدُ أنّها واجبة عليكم، فإن فعلتموها وجبَ عَلَى الله أن يجازيَكم عنها بالثّواب، وهذا تصريح بمذهب المعتزلة في العدْل، وأنّ من الأشياء ما يجب عَلَى الله تعالى من باب الحكمة.

قوله: «وأنْ تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها عَلَى الله»، يريد: أوصيكم بأنْ تستعينوا بالله عَلَى التقوى بأن تدْعوه وتبتهلوا إليه أن يعينكم عليها، ويوفّقكم لها وييسّرها ويقوّي دواعيَكم إلى القيام بها، وأوصيكم أن تستعينوا بالتقوى عَلَى لقاء الله ومحاكمته وحسابه، فإنّه تعالى يوم البعث والحساب كالحاكم بين المتخاصمين: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾[٣]، فالسعيدُ مَن استعان عَلَى ذلك الحساب وتلك الحكومة والخصومة بالتقوى في دار التكليف، فإنّها نعم المعونة ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾[٤]. والجُنّة: ما يستتر به.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الآداب، باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحداء (٦١٤٥)، والترمذي، كتاب: الآداب، باب: ما جاء أن من الشعر حكمة (٢٨٤٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥١. (٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

قوله: «ومستودعها حافظ»، يعني الله سبحانه؛ لأنّه مستودع الأعمال، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[1]، وليس ما قاله الراونديّ من أنه أراد بالمستودَع قلب الإنسان بشيء.

قوله: «لم تبرح عارضةً نفسها»، كلام فصيح لطيف، يقول: إنّ التقوى لم تزل عارضةً نفسها عَلَى مَنْ سلف من القرون، فقبِلها القليل منهم، شبّهها بالمرأة العارضة نفسها نكاحاً على قوم، فرغب فيها مَنْ رغب، وزَهِد مَنْ زهد، وعلى الحقيقة ليست هي العارضة نفسَها، ولكنّ المكلّفين ممكّنون من فعلها ومرغّبون فيها، فصارت كالعارضة.

والغابر هاهنا: الباقي، وهو من الأضداد يستعمل بمعنى الباقي، وبمعنى الماضي.

قوله عليه السلام: «إذا أعاد الله ما أبدى»، يعني أنشر الموتى وأخذ ما أعطى وورث الأرض مالك الملوك فلم يبقَ في الوجود مَنْ له تصرُّف في شيء غيره، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2]. وقيل في الأخبار والحديث: إنّ الله تعالى يجمع الذهب والفضة كلّ ما كان منه في الدنيا، فيجعله أمثالَ الجبال، ثم يقول: هذا فتنة بني آدم، ثم يسوقه إلى جهنّم فيجعله مكاويَ لجباه المجرمين.

«وسأل عمّا أسدى»، أي سأل أرباب الثروة عمّا أسدى إليهم من النّعم فيم صرفوها؟ وفيم أنفقوها؟

قوله عليه السلام: «فما أقلّ مَنْ قبلها!»، يعني ما أقلّ مَنْ قبِل التقوى العارضة نفسها على الناس.

وإذا في قوله: «إذا أعاد الله»، ظرف لحاجتهم إليها؛ لأنّ المعنى يقتضيه، أي لأنهم يحتاجون إليها وقت إعادة الله الخلق، وليس كما ظنّه الراونديّ أنه ظرْف لقوله: «فما أقل مَنْ قَبلها»؛ لأنّ المعنى على ما قلناه؛ ولأنّ ما بعد الفاء لا يجوز أن يكون عاملاً فيما قبلها.

قوله: «فأهطِعوا بأسماعكم»، أي أسرعوا، أهطع في عَدْوه أي أسرع. ويروى: «فانقطعوا بأسماعكم إليها»، أي فانقطعوا إليها مصغِين بأسماعكم.

قوله: «وألِظُّوا بجدّكم»، أي ألحّوا، والإلظاظ: الإلحاح في الأمر، ومنه قول ابن مسعود: ألِظُّوا في الدعاء بياذا الجلال والإكرام، ومنه الملاظّة في الحرب، ويقال: رجل مِلَظّ ومِلْظاظ، أي ملحاح، وألظّ المطر، أي دام.

وقوله: «بجِدّكم» أي باجتهادكم، جددتُ في الأمر جدًّا بالغت واجتهدت، ويروى:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٦.

«وأكظوا بحدّكم» والمواكظة: المداومة على الأمر. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾(١) قال: أي مواكظاً.

قوله: «وأشعروا بها قلوبكم»، يجوز أن يريد: اجعلوها شعاراً لقلوبكم، وهو ما دون الدّثار وألصق بالجسد منه، ويجوز أن يريد: اجعلوها علامةً يعرَف بها القلب التقيّ من القلب المذنب كالشّعار في الحرب يعرَف به قومٍ من قوم، ويجوز أن يريد أخرِجوا قلوبَكم بها من أشعار البدن، أي طهروا القلوب بها، وصفُّوها من دَنَس الذنوب، كما يصفّي البدن بالفصاد من غَلبة الدم الفاسد، ويجوز أن يريد الإشعار بمعنى الإعلام، من أشعرت زيداً بكذا، أي عرّفته إياه، أي اجعلوها عالمة بجلالة موقعها وشرف محلها.

قوله: «وارحَضُوا بها» أي اغسلوا، وثوب رَحِيض ومَرْحوض، أي مغسول.

قال: «وداووا بها الأسقام»، يعني أسقام الذّنوب.

وبادروا بها الحِمام: عجّلوا واسبقوا الموت أن يدرككم وأنتم غير متّقين.

واعتَبروا بمن أضاع التقوى فهلك شقيًّا، ولا يعتبرنّ بكم أهلُ التقوى، أي لا تكونوا أنتم لهم معتبراً بشقاوتكم وسعادتهم.

ثم قال: وصونوا التقوى عن أن تمازجها المعاصي، وتصوّنوا أنتم بها عن الدناءة وما ينافي العدالة.

والنُّزّه: جمع نَزيه، وهو المتباعد عمّا يوجب الذمّ. والولّاه: جمع وَالِهٍ، وهو المشتاق ذو الوجْد حتى يكاد يذهب عقله.

ثم شرع في ذكر الدّنيا، فقال: «لا تشيموا بارقَها»، الشيْم: النظر إلى البرق انتظاراً للمطر.

ولا تسمعوا ناطقها: لا تصغوا إليها سامعين، ولا تجيبوا مناديَها.

والأعلاق: جمع عِلْق وهو الشيء النفيس. وبرقٌ خالب وخُلّب: لا مطرَ فيه. وأموالها محروبة، أي مسلوبة.

قوله عليه السلام: «ألاَ وهي المتصدّية العَنُون»، شبّهها بالمرأة المومِس تتصدّى للرجال تريد الفجور. وتتصدّى لهم، تتعرّض. والعَنُون: المتعرّضة أيضاً، عنّ لي كذا أي عرض.

ثم قال: «والجامحة الحَرُون» شبهها بالدّابة ذات الجِماح، وهي التي لا يُستطاع ركوبها لأنها تعثرُ بفارسها وتغلبُه، وجعلها مع ذلك حَرُوناً وهي التي لا تنقاد.

ثم قال: «والمائنة الخَئُون»، مان، أي كذب، شبّهها بامرأة كاذبة خائنة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

والجَحود الكَنُود، جحد الشيء أنكره، وكَنَد النّعمة: كفرها، جعلها كامرأة تجحد الصنيعة ولا تعترف بها وتكفر النعمة. ويجوز أن يكون الجَحُود من قولك: رجل جَحِد وجَحْد، أي قليل الخير، وعام جَحْد، أي قليل المطر، وقد جحد النَّبْت، إذا لم يَطُل.

قال: «والعَنُود: الصَّدُود»، العَنُود: الناقة تعدل على مرعى الإبل وترعى ناحية، والصَّدُود: المعرضة، صدّ عنه، أي أعرض، شبَّهها في انحرافها وميلها عن القصد بتلك.

قال: «والحَيُود المَيُود»، حادت الناقة عن كذا تَحِيد فهي حَيُود، إذا مالت عنه. ومادت تميد فهي مَيُود، أي مالت، فإن كانت عادتها ذلك سُمّيت الحَيُود المَيُود في كلّ حال.

قال: «حالها انتقال»، يجوز أن يعني به أنّ شيمتَها وسجيّتها الانتقال والتغيّر، ويجوز أن يريد به معنًى أدقّ وهو أنّ الزمان على ثلاثة أقسام: ماض، وحاضر، ومستقبل، فالماضي والمستقبل لا وجود لهما الآن، وإنّما الموجود أبداً هو الحاضر، فلمّا أراد المبالغة في وصف الدنيا بالتغيّر والزّوال قال: «حالها انتقال»، أي أنّ الآن الذي يحكم العقلاء عليه بالحضور منها ليس بحاضر على الحقيقة، بل هو سيّال متغيّر، فلا ثبوت إذاً لشيء منها مطلقاً، ويروى: «وحالُها افتعال»، أي كذب وزور، وهي رواية شاذّة.

قال: «ووطأتها زلزال»، الوطأة كالضَّغْطة، ومنه قوله ﷺ: «اللهم اشدُدْ وطأتَك على مُضَر»[(١)]، وأصلها موضع القدم. والزلزال: الشدّة العظيمة، والجمع زَلاَزِل.

وقال الراونديّ في شرحه: يريد أنّ سكونها حَرَكة، من قولك: وَطُؤَ الشيء، أي صار وطيئاً ذا حال ليّنة، وموضعٌ وطِيء، أي وثير، وهذا خطأ؛ لأن المصدر من ذلك وطاءة بالمد، وهاهنا وطْأة ساكن الطاء، فأين أحدهما من الآخر!

قال: «وعُلوّها سُفْل»، يجوز ضمّ أوّلهما وكسره.

قال: «دار حَرْب» الأحسن في صناعة البديع أن تكون الرّاء ها هنا ساكنة ليوازي السكون هاء «نهْب» ومن فتح الراء، أراد السلب. حربتُهُ أي سلبت ماله.

قال: «أهلها على ساق وسياق» يقال: قامت الحرب على ساق، أي على شدّة ومنه قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[(٢)] والسِّياق: نَزْع الروح، يقال: رأيت فلاناً يسوق، أي ينزع عند الموت، أو يكون مصدر ساق الماشية سوقاً وسياقاً وقال الراونديّ في شرحه: يريد أنّ بعض

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الآذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب: القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥).

(٢) سورة القلم، الآية: (٤٢).

أهلها في أثر بعض كقولهم: ولَدت فلانة ثلاثة بنين على ساقٍ، وليس ما قاله بشيء؛ لأنهم يقولون ذلك للمرأة إذا لم يكن بين البنين أنثى، ولا يقال ذلك في مطلع التّابع: أين كان.

قال عليه السلام: «ولَحاق وفراق»، اللام مفتوحة، مصدر لَحق به، وهذا كقولهم: «الدّنيا مولود يولَد، ومفقود يفقَد».

قال عليه السلام: «قد تحيّرَت مذاهبها»، أي تحيّر أهلها في مذاهبهم، وليس يعني بالمذاهب هاهنا الاعتقادات، بل المسالك.

وأعجزت مهاربها: أي أعجزتهم جعلتهم عاجزين، فحذف المفعول. وأسلمتهم المعاقل: لم تحصّنهم. ولفَظَتهم، بفتح الفاء: رَمَتْ بهم وقذفتهم. وأعيتهم المحاوِل، أي المطالب.

ثم وصف أحوال الدنيا فقال: «هم مِن ناجٍ معقور»، أي مجروح كالهارب من الحرب بحشاشة نفسه، وقد جرح بدنه.

ولحم مجزور، أي قتيل قد صار جَزَراً للسباع.

وشِلْوٍ مذبوح: الشِّلْو، العضو من أعضاء الحيوان، المذبوح أو الميّت. وفي الحديث: «ائتوني بشِلْوها الأيمن»[1].

ودم مسفوح، أي مسفوك. وعاضٍّ عَلَى يديه، أي ندماً. وصافقٍ بكفَّيْه، أي تعسفاً أو تعجباً. ومرتفق بخدّيه: جاعل لهما عَلَى مرفقيه فكراً وهمًّا. وزارٍ على رأيه، أي عائب، أي يرى الواحد منهم رأياً ويرجع عنه ويعيبه، وهو البَداء الذي يذكره المتكلّمون. ثم فسّره بقوله: «وراجع عن عزمه».

فإن قلت: فهل يمكن أن يفرق بينهما، ليكون الكلام أكثر فائدة؟

قلت: نعم، بأنْ يريدَ بالأوّل مَنْ رأى رأياً وكشفه لغيره، وجامعه عليه ثم بدَا له وعابه، ويريد بالثاني مَنْ عزم نفسه عزماً ولم يظهر لغيره ثم رجع عنه، ويمكن أيضاً بأن يفرّق بينهما بأن يعني بالرّأي الاعتقاد، كما يقال: هذا رأي أبي حنيفة، والعزم أمر مفرد خارج عن ذلك، وهو ما يعزم عليه الإنسان من أمور نفسه، ولا يقال: عزم في الاعتقادات.

ثم قال عليه السلام: «وقد أدبرت الحيلة» أي ولّت، وأقبلت الغِيلة، أي الشرّ، ومنه قولهم: فلان قليل الغائلة. أو يكون بمعنى الاغتيال، يقال: قتله غيلة، أي خديعة. يذهب به إلى مكان يوهمه أنه لحاجة ثم يقتله.

قال عليه السلام: «ولاتَ حين مناص»، هذه من ألفاظ الكتاب العزيز، قال الأخفش: شبّهوا

---

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية (٢/ ٤٩٨)، مادة (شله).

«لات» بليس، وأضمروا فيها اسم الفاعل، قال: ولا تكون «لات» إلا مع «حين»، وقد جاء حذف «حين» في الشعر، ومنه المثل: «حنّت ولات هنّت»، أي ولات حين حنّت، والهاء بدل من الحاء، فحذف الحين وهو يريده. قال: وقرأ بعضهم ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[1] بالرفع، وأضمر الخبر. وقال أبو عبيد: هي لا، والتاء إنّما زيدت في «حين»، لا في «لا»، وإن كتبت مفردة، والأصل «تحين» كما قال في «ألان» «تلان». فزادوا التاء، وأنشد لأبي وجزة:

العاطفون تَحِينَ ما من عاطف   والمطعِمُون زمانَ أين المطعمُ

وقال المؤرّج: زيدت التاء في «لات» كما زيدت في «ربّت» و«ثمّت».

والمناص: المهرب، ناص عن قرْنه ينُوص نَوْصاً ومناصاً، أي ليس هذا وقت الهرب والفرار. ويكون المَناص أيضاً بمعنى الملجأ والمفزع، أي ليس هذا حين تجد مفزعاً ومعقلاً تعتصم به.

هيهات: اسم للفعل ومعناه بَعُد، يقال: هيهات زيد فهو مبتدأ وخبر، والمعنى يعطي الفعلية، والتاء في «هيهات» مفتوحة مثل كيف، وأصلها هاء، وناس يكسرونها على كلّ حال بمنزلة نون التثنية، وقال الراجز:

هَيْهاتِ من مُصْبَحِها هيهاتِ   هيهاتِ حَجْرٌ من صُنَيْعاتِ

وقد تبدل الهاء همزة، فيقال: «أيهات» مثل هراق وأراق، قال:

أيْهاتَ منك الحياة أيْهاتا

قال الكسائيّ: فمن كسر التاء وقف عليها بالهاء، فقال: «هَيْهَاه»، ومَنْ فتحها وقف إن شاء بالتاء وإن شاء بالهاء.

قوله عليه السلام: «ومضت الدنيا لحال بالِهَا»، كلمة تقال فيما انقضى وفرط أمره، ومعناها مضى بما فيه إن كان خيراً، وإن كان شرًّا.

قوله عليه السلام: «فما بكت عليهم السماء»، هو من كلام الله تعالى، والمراد أهل السماء وهم الملائكة وأهل الأرض وهم البشر، والمعنى أنّهم لا يستحقون أن يتأسّف عليهم، وقيل: أراد المبالغة في تحقير شأنهم؛ لأنّ العرب كانت تقول في العظيم القدر يموت: بكته السماء، وبكته النجوم، قال الشاعر:

فالشَّمْسُ طالعةٌ لَيْسَتْ بكاسِفَةٍ   تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ والْقمرَا

فنفى عنهم ذلك، وقال: ليسوا من يقال فيه مثل هذا القول، وتأوّلها ابن عبّاس رضي الله عنه لما قيل له: أتبكي السّماءُ والأرض على أحد؟ فقال: نعم يبكيه مصلاّه في الأرض ومصعد

(١) سورة صّ، الآية: ٣.

عمله في السماء، فيكون نفي البكاء عنهما كناية عن أنه لم يكن لهم في الأرض عمل صالح يرفع منهما إلى السماء.

٢٣٨ - ومن خطبة له عليه السلام في ذم الكبر

الأصل: (ومن الناس مَنْ يسمّي هذه الخطبة بالقاصِعة، وهي تتضمن ذمَّ إبليس لعنه الله، على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأنه أول من أظهر العصبية وتبع الحمية وتحذيرَ الناس من سلوك طريقته):

اَلْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ اَلْعِزَّ وَاَلْكِبْرِيَاءَ، وَاَخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِه، وَجَعَلَهُمَا حِمًى وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاَصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ، وَجَعَلَ اَللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ.

ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلائِكَتَهُ المُقَرَّبِينَ، لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِين، فَقَالَ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ اَلْقُلُوبِ وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[1]، اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ، فَعَدُوُّ الله إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيّة، وَنَازَعَ الله رِدَاءَ الْجَبَرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ.

أَلاَ يَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اَللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَأَعَدَّ لَهُ فِي اَلآخِرَةِ سَعِيراً.

الشرح: يجوز أن تسمّى هذه الخطبة «القاصعة» من قولهم: قَصَعت الناقة بجِرّتها، وهو أن تردّها إلى جوفها، أو تخرجها من جوفها فتملأ فاها، فلمّا كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مردّدة من أولها إلى آخرها، شبّهها بالناقة التي تقصع الجِرَّة. ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبيّة، من قولهم: قَصَعت القملة، إذا هشمتَها وقتلتها. ويجوز أن تسمَّى القاصعة؛ لأنّ المستمع لها المعتبر بها يذهب كِبْره ونخوته، فيكون من قولهم: قصع الماءُ عطشه، أي أذهبه وسكنه، قال ذو الرُّمّة بيتاً في هذا المعنى:

(١) سورة صَ، الآيات: ٧١، ٧٤.

فَانْصَاعَتِ ٱلْحُقْبُ لم تَقْصَعْ صرائِرَها   وقـد تـشـحّ فَـلاَ رِيٌّ ولا هِـيـمُ

الصّرائر: جمع صَرِيرة، وهي العطش، ويجوز أن تسمَّى القاصعة؛ لأنّها تتضمّن تحقير إبليس وأتباعَه وتصغيرَهم، من قولهم: قصعت الرجل إذا امتهنتَه وحقّرتَه، وغلام مقصوع، أي قميء لا يشبُّ ولا يزداد.

والعصبيّة على قسمين: عصبيّة في الله وهي محمودة، وعصبيّة في الباطل وهي مذمومة، وهي الّتي نهى أمير المؤمنين عليه السلام عنها، وكذلك الحميّة. وجاء في الخبر: «العصبيّة في الله تورث الجنة، والعصبية في الشيطان تورث النار».

وجاء في الخبر: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته»[١]، وهذا معنى قوله عليه السلام: «اختارهما لنفسه دون خلْقه...» إلى آخر قوله: «من عباده».

قال عليه السلام: «ثم اختبر بذلك ملائكته المقرّبين» مع علمه بمضمراتهم، وذلك لأنّ اختباره سبحانه ليس ليعلَم، بل ليعلم غيره من خلقه طاعة مَنْ يطيع وعصيان من يعصي، وكذلك، قوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[٢]، النون في «لنعلم» نون الجمع لا نون العظمة، أي لتصير أنت وغيرك من المكلّفين عالمين لمن يطيع ومن يعصي، كما أنا عالم بذلك، فتكونوا كلُّكم مشاركين لي في العلم بذلك.

فإن قلت: وما فائدة وقوفهم على ذلك وعلمهم به؟

قلت: ليس بممتنع أن يكون ظهورُ حال العاصي والمطيع وعلم المكلّفين أو أكثرهم أو بعضهم به يتضمّن لُطفاً في التكليف!

فإن قلت: إنّ الملائكة لم تكن تعلم ما البشر، ولا تتصور ماهيّته، فكيف قال لهم ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[٣]؟

قلت: كان قال لهم: إني خالق جسماً من صفته كيت وكيت، فلمّا حكاه اقتصر على الاسم. ويجوز أن يكون عرّفهم من قَبْل أنّ لفظة «بشر» على ماذا تقع، ثم قال لهم: إنّي خالقٌ هذا الجسم المخصوص الذي أعلمتكم أن لفظة «بَشَر» واقعةٌ عليه من طين.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾[٤]، أي إذا أكملت خلقه.

فقعوا له ساجدين: أمرهم بالسجود له. وقد اختلف في ذلك فقال قوم: كان قبلة، كما

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤)، بلفظ «ألقيته في جهنم» بدل «قصمته».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة صٓ، الآية: ٧١.

(٤) سورة صٓ، الآية: ٧٢.

الكعبة اليوم قبلة، ولا يجوز السّجود إلا لله. وقال آخرون: بل كان السُّجود له تكرمةً ومحنة، والسجود لغير الله غير قبيح في العقل إذا لم يكن عبادة ولم يكن فيه مفسدة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(١)، أي أحللتُ فيه الحياة، وأجريت الرُّوح إليه في عروقه، وأضاف الروح إليه تبجيلاً لها، وسمّي ذلك نفخاً على وجه الاستعارة؛ لأنّ العرب تتصوّر من الروح معنى الريح، والنّفخ يصدق على الريح، فاستعار لفظة «النفخ» توسُّعاً.

وقالت الحكماء: هذا عبارة عن النّفس الناطقة.

فإن قلت: هل كان إبليس من الملائكة أم لا؟

قلت: قد اختُلف في ذلك، فمن جعله منهم احتجّ بالاستثناء، ومَنْ جعله من غيرهم احتجّ بقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾(٢)، وجعل الاستثناء منقطعاً، وبأنّ له نسلاً وذرّية، قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾(٣)، والملائكة لا نسل لهم ولا ذرّية، وبأنّ أصلَه نار والملائكة أصلها نور، وقد مرّ لنا كلام في هذا في أول الكتاب.

قوله: «فافتخر على آدم بخلْقه، وتعصّب عليه لأصله»، كانت خلقتُه أهونَ من خلقة آدم عليه السلام، وكان أصلُه من نار وأصل آدم عليه السلام من طين.

فإن قلت: كيف حكم على إبليس بالكفر، ولم يكن منه إلا مخالفة الأمر، ومعلوم أنّ تارك الأمر فاسق لا كافر!

قلت: إنّه اعتقد أنّ الله أمره بالقبيح ولم ير أمْره بالسجود لآدم عليه السلام حكمة وامتنع من السجود تكبُّراً، وردَّ على الله أمره، واستخفّ بمن أوجب الله إجلاله، وظهر أنّ هذه المخالفة عن فساد عقيدة، فكان كافراً.

فإن قلت: هل كان كافراً في الأصل أم كان مؤمناً ثمّ كفر؟

قلت: أمّا المرجئة فأكثرهم يقول: كان في الأصل كافراً؛ لأنّ المؤمن عندهم لا يجوز أن يكفر، وأمّا أصحابنا فلمّا كان هذا الأصل عندهم باطلاً توقّفوا في حال إبليس، وجوّزوا كلا الأمرين.

قوله عليه السلام: «رداء الجبَريّة» الباءُ مفتوحة، يقال: فيه جبَريّة، وجبروّة، وجَبَروت، وجَبُّورة، كفرُّوجة، أي كِبْر، وأنشدوا:

فإنّك إن عاديتَني غَضِبَ الحصا ... عليك وذو الجَبُّورة المتغَطْرِفُ

وجعله مدحوراً، أي مطروداً مبعداً، دحره الله دُحوراً، أي أقصاه وطرده.

---

(١) سورة صۤ، الآية: ٧٢.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

الأصل: وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ ٱلْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ ٱلْأَنْفَاسَ عَرْفُه، لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ ٱلْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ ٱلْبَلْوَى فِيهِ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ، وَلَكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يبتلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالاخْتِيَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ مِنْهُمْ، فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ ٱلْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ ٱللهَ سِتَّةَ آلاَفِ سَنَةٍ، لاَ يُدْرَى أَمِنْ سِنِي ٱلدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي ٱلْآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى ٱللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ!

كَلاَّ مَا كَانَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً، إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَوَاحِدٌ، وَمَا بَيْنَ ٱللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ.

الشرح: خَطِفت الشيء بكسر الطاء، أخطَفه، إذا أخذته بسرعة استلاباً، وفيه لغة أخرى: خَطَف بالفتح، ويخطَف بالفتح ويخطِف بالكسر، وهي لغة رديئة قليلة لا تكاد تعرف، وقد قرأ بها يونس في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾(١).

والرُّواء، بالهمزة والمد: المنظر الحسن. والعَرْف: الريح الطيبة.

والخُيلاء، بضم الخاء وكسرها: الكِبْر، وكذلك الخالُ والمخيلة، تقول: اختال الرجل وخال أيضاً، أي تكبّر.

وأحبِط عمله: أبطل ثوابه، وقد حبط العمل حَبْطاً بالتسكين وحبُوطاً. والمتكلّمون يسمُّون إبطال الثواب إحباطاً وإبطال العقاب تكفيراً.

وجَهْده بفتح الجيم: اجتهاده وجِدّه، ووصفه بقوله: «الجَهيد» أي المستقصى، من قولهم: مرعى جَهِيد، أي قد جَهده المال الراعي واستقصى رَعْيه.

وكلامه عليه السلام يدلّ على أنّه كان يذهب إلى أنّ إبليس من الملائكة لقوله: «أخرج منها ملَكاً».

والهوادة: الموادعة والمصالحة، يقول: إن الله تعالى خلق آدم من طين، ولو شاء أن يخلقه من النور الذي يخطف أو من الطيب الذي يعبق لَفعل، ولو فعل لهال الملائكة أمرُه وخضعوا له، فصار الابتلاء والامتحان والتكليف بالسّجود له خفيفاً عليهم، لعظمته في نفوسهم، فلم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

يستحقُّوا ثواب العمل الشاق، وهذا يدلُّ على أنّ الملائكة تشمّ الرائحة كما نشمّها نحن، ولكنّ الله تعالى يبتلي عباده بأمور يجهلون أصلها اختباراً لهم.

فإن قلت: ما معنى قوله عليه السلام: «تمييزاً بالاختبار لهم».

قلت: لأنه ميّزهم عن غيرهم من مخلوقاته، كالحيوانات العُجْم، وأبانهم عنهم، وفَضّلهم عليهم بالتكليف والامتحان.

قال: «ونفياً للاستكبار عنهم»؛ لأن العبادات خضوع وخشوع وذلّة، ففيها نفي الخُيَلاء والتكبّر عن فاعليها، فأمرهم بالاعتبار بحال إبليس الذي عَبَد الله ستة آلاف سنَة، لا يُدْرَى أمِنْ سِني الدنيا أم من سني الآخرة! وهذا يدلّ على أنه قد سمع فيه نصًّا من رسول الله صلى الله عليه وآله مجملاً لم يفسّره له، أو فسَّره له خاصة، ولم يفسّره أميرُ المؤمنين عليه السلام للناس لما يعلمه في كتمانه عنهم من المصلحة.

فإن قلت: قوله: «لا يُدْرَى» على ما لم يسمّ فاعله يقتضي أنه هو لا يدرِي!

قلت: إنه لا يقتضي ذلك، ويكفي في صدق الخبر إذا ورد بهذه الصيغة أن يجهله الأكثرون.

فأمّا القولُ في سِني الآخرة كم هي؟ فاعلم أنه وَرَدَ في الكتاب العزيز آيات مختلفات.

إحداهن قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(١).

والأخرى قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢).

والثالثة قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٣).

وأوْلى ما قيل فيها أنّ المراد بالآية الأولى مدّة عمر الدنيا، وسمّي ذلك يوماً، وقال: إنّ الملائكة لا تزال تعرُج إليه بأعمال البشر طول هذه المدة حتى ينقضيَ التكليف، وينتقل الأمر إلى دار أخرى. وأمّا الآيتانِ الأخيرتان فمضمونهما بيان كميّة أيام الآخرة، وهو أنّ كل يوم منها مثل ألف سنة من سني الدنيا.

فإن قلت: فعلى هذا كم تكون مدّة عبادة إبليس إذا كانت ستة آلاف سنة من سني الآخرة؟

قلت: يكون ما يرتفع من ضرب أحد المضروبين في الآخرة، وهو ألفَا ألف ألف، ثلاث لفظات، الأولى منهنّ مثناة، ومائة ألف ألف لفظتان، وستون ألف ألف سنة لفظتان أيضاً من

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٥.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٧.

سني الدنيا. ولما رأى أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبلغ عظيماً جداً علِم أنّ أذهان السامعين لا تحتمله، فلذلك أبْهَمَ القول عليهم، وقال: «لا يُدْرَى أمِنْ سِنِي الدّنْيا أم مِنْ سِني الآخرة».

فإن قلت: فإذا كنتم قد رجَّحتم قولَ مَنْ يقول: إنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة، فكم يكون عمرُها إن كان الله تعالى أراد خمسين ألف سنة من سني الآخرة؟ لأنه لا يؤمَن أن يكونَ أراد ذلك إذا كانت السنة عنده عبارة عن مدّة غير هذه المدة التي قد اصطلح عليها الناس؟

قلت: يكون ما يرتفع من ضرب خمسين ألفاً في ثلاث مائة وستين ألف سنة من سنِي الدنيا ومبلغ ذلك ثمانية عشر ألف ألف ألف سنة من سنِي الدنيا ثلاثة لفظات، وهذا القول قريب من القول المحكيّ عن الهند.

وروى أبو جعفرَ محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه رواياتٍ كثيرة بأسانيد أوردها عن جماعة من الصّحابة أنّ إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض، وكان من قبيلةٍ من الملائكة يقال لهم الجنّ، وإنما سُمُّوا الجن لأنّهم كانوا خُزّان الجِنان، وكان إبليس رئيسهم ومقدَّمهم. وكان أصلُ خَلْقهم من نار السَّموم، وكان اسمه الحارث، قال: وقد روي أنّ الجنّ كانت في الأرض، وأنهم أفسدوا فيها، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار، ثم تكبّر في نفسه، ورأى أنه قد صنع شيئاً عظيماً لم يصنعه غيره. قال: وكان شديد الاجتهاد في العبادة[1].

وقيل: كان اسمه عزازيل، وأنّ الله تعالى جعله حَكماً وقاضياً بين سكان الأرض قبل خلق آدم، فدخله الكِبْر والعُجب لعبادته واجتهاده وحكمه في سكان الأرض وقضائه بينهم، فانطوَى على المعصية حتّى كان من أمره مع آدم عليه السلام ما كان.

قلت: ولا ينبغي أن نصدّق من هذه الأخبار وأمثالها إلا ما ورد في القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه، أو في السنة، أو نقل عمّن يجب الرجوع إلى قوله، وكلّ ما عدا ذلك فالكذب فيه أكثر من الصدق، والباب مفتوح، فليقل كلُّ أحدٍ في أمثال هذه القصص ما شاء.

واعلم أنّ كلام أمير المؤمنين في هذا الفصل يطابقُ مذهبَ أصحابنا في أنّ الجنّة لا يدخلها ذو معصية، ألا تسمع قوله: «فمن بَعْد إبليس على الله بمثل معصيته! كَلاّ، ما كان الله ليُدخِل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها ملَكاً، إنّ حكمه في أهل السماء والأرض لواحد».

فإن قلت: أليس من قولكم: إن صاحب الكبيرة إذا تاب دخل الجنة! فهذا صاحب معصية وقد حكمتم له بالْجنّة!

---

(١) أنظر جامع البيان للطبري: ١/ ٢٩٣، وتاريخ الطبري: ١/ ٥٥.

قلت: إن التوبة أحبطت معصيته فصار كأنه لم يعص.

فإن قلت: إن أمير المؤمنين عليه السلام إنما قال: «فمن ذا بعد إبليس يَسْلَم على الله بمثل معصيته!»، ولم يقل: بالمعصية المطلقة، والمرجئة لا تخالف في أن مَنْ وافى القيامة بمثل معصية إبليس لم يكن من أهل الجنّة.

قلت: كلّ معصية كبيرة فهي مثل معصيته، ولم يكن إخراجه من الجنّة لأنه كافر، بل لأنه عاصٍ مخالف للأمر، ألا ترى أنه قال سبحانه: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[1]، فعلّل آخراجَه من الجنة بتكبّره لا بكفرِه.

فإن قلت: هذا مناقض لما قدّمت في شرح الفصل الأول.

قلت: كلاّ؛ لأني في الفصل الأوّل علّلت استحقاقه اسم الكفر بأمرٍ زائد على المعصية المطلقة، وهو فساد اعتقاده، ولم أجعل ذلك علّة في خروجه من الجنة، وهاهنا عللت خروجه من الجنة بنفس المعصية، فلا تناقض.

فإن قلت: ما معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمر أخرج به منها مَلَكاً»؟ وهل يظنّ أحد أو يقول: إن الله تعالى يُدخل الجنة أحداً من البشر بالأمر الذي أخرج به هاهنا إبليس! كلاّ، هذا ما لا يقوله أحد، وإنما الذي يقوله المرجئة: إنه يدخل الجنة مَنْ قد عصى وخالف الأمر - كما خالف الأمر إبليس - برحمته وعفوه، وكما يشاء، لا أنّه يدخِله الجنّة بالمعصية، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يقتضي نفيَ دخول أحد الجنّة بالمعصية لأنّ الباء للسببية؟

قلت: الباء هاهنا ليست كما يتوهّمه هذا المعترض، بل هي كالباء في قولهم: خرج زيد بثيابه، ودخل زيد بسلاحه، أي خرج لابساً، ودخل متسلّحاً، أي يصبحه الثياب ويصحبه السلاح، فكذلك قوله عليه السلام: «بأمر أخرج به منها ملَكاً»، معناه أنّ الله تعالى لا يدخِل الجنة بشراً يصحبه أمر أخرج الله به مَلَكاً منها.

الأصل: فَاحْذَرُوا عِبَادَ ٱللهِ عَدُوَّ ٱللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ ٱلْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ ٱلْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ فِيهِ ٱلْحَالُ مِنَ السِّرِّ ٱلْخَفِيِّ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٩.

إِلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْجَلِيِّ، ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ ٱلْقَتْلِ، وَأَوْطَؤُوكُمْ إِثْخَانَ ٱلْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزًّا فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ ٱلْقَهْرِ، إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَرْجاً، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ.

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ وَلَهُ جِدَّكم. فَلَعَمْرُ ٱللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ. يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لاَ تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلاَءٍ.

فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ ٱلْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَٱتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجْلاً وَفُرْسَاناً، وَلاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ ٱللهُ فِيهِ، سِوَى مَا أَلْحَقَتِ ٱلْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ ٱلْحَسَبِ، وَقَدَحَتِ ٱلْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ ٱلْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ ٱلْكِبْرِ، الَّذِي أَعْقَبَهُ ٱللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ ٱلْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ.

الشرح: موضع «أن يُعدِيَكم» نصب على البدَل من «عدوّ الله». وقال الراونديّ: يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً، وهذا ليس بصحيح لأن «حذر» لا يتعدى إلى المفعولين، والعَدْوَى: ما يُعدِي من جَرَبٍ أو غيره، أعدى فلانٌ فلاناً من خُلُقه أو من علّته، وهو مجاوزته من صاحبه إلى غيره، وفي الحديث: «لا عَدْوَى في الإسلام»[1].

فإن قلت: فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله قد أبطل أمر العَدْوَى، فكيف قال أمير المؤمنين: «فاحذروه أن يُعدِيَكم»؟

قلت: إنّ النبي صلى الله عليه وآله أبطلَ ما كانت العرب تزعُمه من عَدْوَى الجرَب في الإبل وغيرها، وأميرُ المؤمنين عليه السلام حذّر المكلّفين من أن يتعلّموا من إبليس الكِبْرَ والحميّة، وشبّه تعلّمهم ذلك منه بالعدْوَى لاشتراك الأمرين في الانتقال من أحدِ الشّخصين إلى الآخر.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده بما معناه: ٢/ ١٥٣.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يستفزّكم» أي يستخفّكم، وهو من ألفاظ القرآن: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾(١)، أي أزعجه واستخفّه وأطِرْ قلبَه. والخيل: الخيّالة، ومنه الحديث: «يا خَيْلَ ٱللهِ ٱرْكَبِي»(٢).

والرَّجْل: اسم جَمْع لراجل كَرَكْب اسم جمع لراكِب، وصَحْب اسمِ جمع لصاحب، وهذه أيضاً من ألفاظ القرآن العزيز: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾(٣) وقرىء ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسر الجيم على أن «فعِلاً» بالكسر بمعنى فاعل نحو تَعِب وتَاعِب، ومعناه، وجمعك الرجل وقد تضمّ الجيم أيضاً، فيكون مثل قولك: رجل حَدِث وحَدُث ونَدِس ونَدُس.

فإن قلت: فهل لإبليس خيل تركبها جنده؟

قلت: يجوز أن يكون ذلك، وقد فسّره قوم بهذا. والصحيح أنه كلام خرج مخرج المثَل، شبّهت حاله في تسلّطه على بني آدم بمن يُغِير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم. وقيل: بصوتك، أي بدعائك إلى القبيح. وخيله ورجله: كلّ ماش وراكب من أهل الفساد من بني آدم.

قوله: «وفوّقت السهم» جعلت له فُوقاً، وهو موضع الوَتَر، وهذا كناية عن الاستعداد، ولا يجوز أن يفسّر قوله: «فقد فوّق لكم سهم الوعيد» بأنّه وضع الفُوق في الوتر ليرميَ به؛ لأنّ ذاك لا يقال فيه: قد فَوّق، بل يقال: أفقت السَّهْم وأوفقته أيضاً ولا يقال: أفوقته، وهو من النوادر.

وقوله: «وأغرق إليكُمْ بالنَّزْع»، أي استوفى مدّ القوس وبالغ في نَزْعِها ليكون مرماه أبعدَ، ووقعُ سهامِهِ أشدّ.

قوله: «ورماكم من مكان قريب»، لأنه كما جاء في الحديث: «يجري من ابن آدم مجرى الدم، ويخالط القلب»(٤)، ولا شيء أقرب من ذلك.

والباء في قوله: «بما أغويتَنِي» متعلّق بفعل محذوف تقديره: أجازيك بما أغويتَني تزييني لهم القبيح، فـ«ما» على هذا مصدريّة، أي أجازيك بإغوائك لي تزيينيَ لهم القبيح، فحذف المفعول. ويجوز أن تكون الباء قَسماً، كأنّه أقسم بإغوائه إياه ليزَيِّنَنّ لهم.

فإن قلت: وأيّ معنى في أن يقسم بإغوائه؟ وهل هذا مما يقسم به!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٦)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٣٥٥)، وهناد في «الزهد» (٢٥).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة وكانت زوجته (٢١٧٤).

قلت: نعم؛ لأنه ليس إغواء الله تعالى إيّاه خلْق الغيّ والضلال في قلبه، بل تكليفه إيّاه السّجود الذي وقع الغيّ عنده من الشيطان، لا من الله، فصار حيث وقع عنده، كأنه موجب عنه، فنسب إلى الباريء، والتّكليف تعريض للثّواب ولذّة الأبد، فكان جدير أن يقسم به، وقد أقسم في موضع آخر، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، فأقسم بالعزّة، وهاهنا أقسم بالأمر والتّكليف. ويجوز فيه وجهٌ ثالث، وهو ألاّ تكون الباء قَسماً، ويقدّر قَسَمٌ محذوف، ويكون المعنى: بسبب ما كلّفتني فأفضى إلى غَوايتي أقسِمُ لأفعلنّ بهم نحو ما فعلتَ بي، وهو أن أزيّنَ لهم المعاصيَ التي تكون سبب هلاكهم.

فإن قلت: ليس هذا نحو ما فعله الباريء به؛ لأنّ الباريء أمره بالحسن فأباه، وعَدَل عنه إلى القبيح، والشيطان لا يأمرنا بالحسن فنكرهه ونعدل عنه إلى القبيح، فكيف يكون ذلك نحو واقعته مع الباريء!

قلت: المشابهة بين الواقعتين في أنّ كلّ واحدةٍ منهما تقع عندها المعصية، لا على وجه الإجبار والقَسْر، بل على قَصْد الاختيار؛ لأنّ معصية إبليس كانت من نفسه، ووقعت عند الأمر بالسجود اختياراً منه لا فعلاً من الباريء، ومعصيتنا نحن عند التزيين والوسوسة تقع اختياراً منّا لا اضطراراً يضطرنا إبليس إليه، فلمّا تشابهت الصورتان في هذا المعنى حَسُن قوله: «بِمَا فَعَلْتَ بي كذا لأفعلنّ بهم نحوه».

فإن قلت: ما معنى قوله: «في الأرض»؟ ومن أين كان يعلم إبليس أنّ آدم سيصير له ذرّية في الأرض!

قلت: أمّا علمه بذلك فمن قول الله تعالى له وللملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] وأما لفظة «الأرض»، فالمراد بها هاهنا الدنيا التي هي دار التكليف، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾[3]، ليس يريد به الأرض بعينها بل الدنيا وما فيها من الملاذّ وهوى الأنفس.

قوله عليه السلام: «قَذْفاً بغيْبٍ بعيد»، أي قال إبليس هذا القول قَذْفاً بغيب بعيد، والعرب تقول للشيء المتوهّم على بعد: هَذَا قَذْفٌ بغيب بعيد، والقذفُ في الأصل: رَمْي الحجر وأشباهه، والغيْب الأمر الغائب، وهذه اللفظة من الألفاظ القرآنية، قال الله تعالى في كفّار قريش: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[4]، أي يقولون: هذا سحر، أو هذا من تعليم أهل الكتاب، أو هذه كهانة، وغير ذلك ممّا كانوا يرمُونه عليه الصلاة والسلام به. وانتصب «قَذْفاً» على المصدر الواقع موقع الحال، وكذلك «رَجْماً» وقال الراوندي: انتصبا لأنّهما مفعول له، وليس

---

(١) سورة صٓ، الآية: ٨٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٥٣.

بصحيح؛ لأنّ المفعول له ما يكون عذراً وعلّة لوقوع الفعل، وإبليس ما قال ذلك الكلام لأجل القَذْف والرَّجْم، فلا يكون مفعولاً له.

فإن قلت: كيف قال عَلَيْتَلِلْ : «قَذْفاً من مكان بعيد، ورَجْماً بظنٍّ غير مصيب»، وقد صحّ ما توهّمه وأصاب في ظنّه، فإن إغواءه وتزيينه تمّ على النّاس كلّهم إلا على المخلصين!

قلت: أمّا أولاً فقد رُوي: «ورجماً بظنٍّ مصيب» بحذف «غير»، ويؤكد هذه الرواية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾[1] وأما ثانياً على الرواية التي هي أشهر فنقول: أما قَذْفاً من مكانٍ بعيد، فإنه قال ما قال على سبيل التوهُّم والحسبان لأمرٍ مستبعَد لا يعلم صحته ولا يظنها، وليس وقوع ما وقع من المعاصي وصحة ما توهّمه بمخرج لكوْن قوله الأول: «قذفاً بغيب بعيد»، وأمّا «رَجْماً بظنّ غير مصيب»، فيجب أن يحمل قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] على الغواية بمعنى الشِّرْك أو الكفر، ويكون الاستثناء وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3] معنا: إلا المعصومين من كلّ معصية، وهذا ظنٌّ غير مصيب لأنه ما أغوى كلّ البشر الغواية الّتي هي الكفر والشّرك إلا المعصومين العصمة المطلقة، بل أغوى بعضهم كذلك، وبعضهم بأنْ زيّنَ له الفسق دون الكفر، فيكون ظنّه أنه قادر على إغواء البشر كافّة بمعنى الضَّلال بالكفر ظنًّا غير مصيب.

قوله: «صدّقه به أبناء الحميّة»، موضع «صدّقه» جرّ؛ لأنه صفة «ظنّ»، وقد روي: «صدّقه أبناءُ الحميّة» من غير ذكر الجارّ والمجرور، ومَنْ رواه بالجارّ والمجرور كان معناه: صدقة في ذلك الظن أبناء الحميّة، فأقام الباء مقام «في».

قوله: «حتى إذا انقادت له الجامِحة منكم»، أي الأنفس الجامحة أو الأخلاق الجامحة.

قوله «فنَجمت فيه الحال» أي ظهرت، وقد روي: «فنجمت الحال من السرّ الخفيّ» من غير ذكر الجار والمجرور، ومن رواه بالجارّ والمجرور فالمعنى: فنجمت الحال في هذا الشأن المذكور بينه وبينكم من الخفاء إلى الجَلاء.

واستفحل سلطانه: قويَ واشتدّ وصار فَحْلاً، واستفحل جواب قوله: «حتى إذا».

دلف بجنوده: تقدّم بهم.

والوَلَجات: جمع ولَجَة بالتحريك، وهي موضع، أو كهف يستتِر فيه المارّة من مطر أو غيره. وأقحموكم: أدخلوكم. والورْطة: الهلَكة.

قوله: «وأوطؤوكم إثخان الجراحة»، أي جعلوكم واطئين لذلك، والإثخان: مصدر أثخَن

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٠.
(٢) سورة صَ، الآية: ٨٢.
(٣) سورة صَ، الآية: ٨٣.

في القتل، أي أكثر منه وبالغ حتى كثف شأنه، وسار كالشيء الثَّخين، ومعنى إيطاء الشيطان بني آدم ذلك إلقاؤه إيّاهم فيه، وتوريطهم وحمله لهم عليه. بالإثخان على هذا منصوب لأنه مفعول ثانٍ، لا كما زعم الراونديّ أنه انتصب بحذف حرف الخفض.

قوله عليه السلام: «طَعْناً في عيونكم»، انتصب «طعناً» على المصدر، وفعله محذوف، أي فعلوا بكم هذه الأفعال فطعنوكم في عيونكم طعناً، فأمّا من روي: «وأوطؤوكم لإثخان الجراحة» باللّام فإنه يجعل «طعناً» منصوباً على أنّه مفعول به، أي أوطؤوكم طعناً وحزًّا، كقولك: أوطأته ناراً، وأوطأته عَشوةً، ويكون «لإثخان الجراحة» مفعولاً له، أي أوطؤوكم الطعن ليثخنوا جراحَكم. وينبغي أن يكون «قصداً» و«سوقاً» خالصيْن للمصدرية؛ لأنه يبعد أن يكون مفعولاً به.

واعلم أنّه لمّا ذكر الطعنَ نسبه إلى العيون، ولمّا ذكر الحزّ، وهو الذبح نسبه إلى الحلوق، ولما ذكر الدّقّ، وهو الصدم الشديد أضافه إلى المناخر، وهذا من صناعة الخطابة التي علّمه الله إيّاها بلا تعليم، وتعلّمها الناس كلّهم بعده منه.

والخزائم: جمع خزامة، وهي حلقه من شعر تجعل في وَتْرة أنف البعير فيشدّ فيها الزّمام.

وتقول: قد وَرَى الزّند، أي خرجت ناره، وهذا الزند أوْرَى من هذا، أي أكثر إخراجاً للنار يقول: فأصبح الشيطان أضرَّ عليكم وأفسد لحالكم من أعدائكم الّذين أصبحتم مناصبين لهم، أي معادين، وعليهم متألبين، أي مجتمعين.

فإن قلت: أمّا أعظم في الدين حرجاً فمعلوم، فأي معنى لقوله: «وأورى في دنياكم قدْحاً»، وهل يُفسد إبليسُ أمرَ الدّنيا كما يفسد أمر الدين!

قلت: نعم؛ لأنّ أكثر القبائح الدينيّة مرتبطة بالمصالح والمفاسد الدنيويّة، ألا ترى أنّه إذا أغرى السارق بالسرقة أفسدَ حال السارق من جهة الدّين وحال المسروق منه من جهة الدّنيا، وكذلك القول في الغصْب والقَتْل وما يحدُث من مضارّ الشرور الدنيويّة من اختلاط الأنساب واشتباه النّسْل، وما يتولّد من شرب الخمر والسكر الحاصل عنها من أمور يحدثها السكران خبطاً بيده، وقذفاً بلسانه، إلى غير ذلك من أمثال هذه الأمور وأشباهها.

قوله عليه السلام: «فاجعلوا عليه حَدّكُمْ»، أي شَبَاتكم وبأسكم.

وله جِدّكم: من جددت في الأمر جدًّا، أي اجتهدت فيه وبالغت.

ثم ذكر أنّه فَخَر على أصلِ بني آدم، يعني أباهم آدم عليه السلام حيث امتنع من السجود له، وقال: «أنا خير منه».

ووقع في حَسَبِكم، أي عاب حَسَبَكم وهو الطين، فقال: إنّ النّار أفضلُ منه. ودفع في نسبكم مثله.

وأجلب بخيله عليكم، أي جمع خَيَّالته وفُرْسانه وألّبها.

ويقتنصونكم: يتصيّدونكم. والبَنان: أطراف الأصابع، وهو جمع، واحدته بَنَانة، ويجمع في القلّة على بَنَانات، ويقال: بنان مخضَّب؛ لأنّ كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يذكّر ويوحّد.

والحَوْمة: معظم الماء والحرب وغيرهما، وموضع هذا الجارّ والمجرور نصب على الحال، أي يقتنصونكم في حومة ذلّ.

والجَولة: الموضع الّذي تجول فيه.

وكَمَن في قلوبكم: استتر، ومنه الكمين في الحرْب.

ونزغات الشيطان: وساوسه الّتي يفسد بها. ونفثاته مثله.

قوله: «واعتمدوا وضع التذلّل على رؤوسكم، وإلقاء التعزّز تحت أقدامكم» كلامٌ شريف جليل المحلّ، وكذلك قوله عليه السلام: «واتخذوا التواضع مسلحةً بينكم وبين عدوّكم إبليس وجنوده»، والمسلحة: خيلٌ معدّة للحماية والدفاع.

ثم نهاهم أن يكونوا كقابيل الّذي حَسَد أخاه هابيل فقتَله، وهما أخَوانِ لأب وأمّ، وإنما قال: «ابن أمّه»، فذكر الأمّ دون الأب؛ لأنّ الأخَوين من الأمّ أشدّ حُنُوًّا ومحبة والتصاقاً من الأخوين من الأب؛ لأنّ الأمّ هي ذات الحضانة والتّربية.

وقوله: «من غير ما فضل»، ما هاهنا زائدة، وتعطي معنى التأكيد، نهاهم عليه السلام أن يحسدوا النّعم، وأن يبغوا ويفسدوا في الأرض، فإنّ آدم لما أمَر ولده بالقربان قرّب قابيلُ شرَّ ماله - وكان كافراً - وقرّب هابيلُ خَيْرَ مالِه - وكان مؤمناً - فتقبَّل الله تعالى من هابيل، وأهبط من السماء ناراً فأكلته، قالوا: لأنه لم يكن في الأرض حينئذٍ فقير يصل القربان إليه، فحسده قابيل - وكان أكبر منه سنًّا - فقال: لأقتلنّك، قال: هابيل إنّما يتقبل الله من المتقين، أي بذنبك وجرمك كان عدم قبول قُربانك لانسلاخك من التقوى، فقتَله فأصبح نادماً، لا ندم التّوبة بل ندم الحيْرة ورقّة الطبع البشريّ، ولأنه تعب في حمله كما ورد في التنزيل أنه لم يفهم ماذا يصنع به حتى بعث الله الغراب.

قوله عليه السلام: «وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة»؛ لأنه كان ابتدأ بالقتل، ومَنْ سنّ سنّة شرٌّ كان عليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة، كما أنّ مَنْ سَنّ سنّة خير كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة[1].

---

(١) هذا الكلام مقتبس من حديث النبي ﷺ وهو الذي أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٧)، والنساء، كتاب: الزكاة، باب: التحريض على الصدقة (٢٥٥٤).

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه، أنّ الروايات اختلفت في هذه الواقعة، فروى قوم أنّ الرجلين كانا من بني إسرائيل وليسا من ولد آدم لصُلبه، والأكثرون خالفوا في ذلك.

ثم اختلف الأكثرون، فروى قوم أنّ القربان من قابيل وهابيل كان ابتداء، والأكثرون قالوا: بل أراد آدم عليه السلام أن يزوّج هابيل أخت قابيل توأمته، ويزوّج قابيل أخت هابيل توأمته، فأبى قابيل؛ لأنّ توأمته كانت أحسنَ، فأمرهما أبوهما بالقربان، فمن تُقبّل قربانه نكح الحسناء. فتقبّل قربان هابيل، فقتله أخوه كما ورد في الكتاب العزيز.

وروى الطبريّ مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم عليه السلام الأوّل كِفْل منها، وذلك بأنه أول من سنَّ القتل**»[1]، وهذا يشيّد قول أمير المؤمنين عليه السلام.

الأصل: **أَلاَ وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي ٱلْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ، مُصَارَحَةً لله بِالْمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ. فَاللهَ ٱللهَ فِي كِبْرِ ٱلْحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ ٱلشَّنَآنِ، وَمَنَافِخُ ٱلشَّيْطَانِ، ٱلَّتِي خَدَعَ بِهَا ٱلْأُمَمَ ٱلْمَاضِيَةَ، وَٱلْقُرُونَ ٱلْخَالِيَةَ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ، أَمْراً تَشَابَهَتِ ٱلْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ ٱلْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ ٱلصُّدُورُ بِهِ.**

أَلاَ فَالْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ! ٱلَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوْا ٱلْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا ٱللهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لآلاَئِهِ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ آسَاسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ ٱلْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ ٱعْتِزَاءِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ.

فَاتَّقُوا ٱللهَ وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً، وَلاَ تُطِيعُوا الأَدْعِيَاءَ ٱلَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ آسَاسُ ٱلْفُسُوقِ، وَأَحْلاَسُ ٱلْعُقُوقِ، ٱتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى ٱلنَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، ٱسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِىءَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ ٱلأُمَمَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلاَتِهِ، وَوَقَائِعِهِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ (٦٨٦٧)، ومسلم، كتاب: القسامة والمحاربين، باب: بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧).

وَمَثُلاَتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَما تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

الشرح: أمعنتم في البغي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض، أي ذهب فيها بعيداً. ومصارحة لله، أي مكاشفة.

والمناصبة المعاداة.

وملاقح الشنآن، قال الراونديّ: الملاقح هي الفُحول التي تلقح، وليس بصحيح، نصّ الجوهريّ على أنّ الوجْه لواقح كما جاء في القرآن: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾(١).

وقال: هو من النّوادر؛ لأن الماضي رباعيّ. والصحيح أن ملاقح هاهنا جمع مَلْقح وهو المصدر، من لَقَحت كضربت مضرباً وشربت مشرباً.

ويجوز فتح النون من الشنآن وتسكينها، وهو البغض.

ومنافخ الشيطان: جمع مَنْفَخ، وهو مصدر أيضاً، من نفخ، ونَفْخ الشيطان ونَفْثه واحد، وهو وسوسته وتسويله، ويقال للمتطاول إلى ما ليس له: قد نفخ الشيطان في أنفه.

وفي كلامه عليه السلام، يقوله لطلحة وهو صريع، وقد وقف عليه، وأخذ سيفه: «سيفٌ طالما جلّي به الكُرَب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الشيطان نفخ في أنفه!»(٢).

قوله: وأعنقوا: أصرعوا، وفرس مِعْناق، والسَّيْر العَنَق، قال الراجز:

يَا نَاقُ سِيري عَنَقاً فَسِيحَا ... إلى سُلَيمانَ فَنستريحَا

والحنادس: الظلَم. والمهاوي: جمع مَهْواة بالفتح، وهي الهُوَّة يتردّى الصيد فيها، وقد تهاوَى الصَّيْد في المهواة، إذا سقط بعضه في أثر بعض.

قوله عليه السلام: «ذللاً عن سياقه»، انتصب على الحال، جمع ذَلُول، وهو السهل المقادة، وهو حال من الضمير في «أعنقوا»، أي أسرعوا منقادين لسوْقه إياهم.

وسُلُساً: جمع سَلِس، وهو السَّهْل أيضاً، وإنما قسم «ذللا» و«سلساً» بين «سياقه» و«قياده» لأنّ المستعمل في كلامهم: قدتُ الفرس فوجدته سَلِساً أو صعباً، ولا يستحسنون: سقته فوجدته سلساً أو صعباً، وإنّما المستحسَن عندهم: سقته فوجدته ذَلُولاً أو شَمُوساً.

قوله عليه السلام: «أمراً» منصوب بتقدير فعل، أي اعتمدوا أمراً، «وكبراً»، معطوف عليه، أو ينصب «كبراً» على المصدر بأن يكون اسماً واقعاً موقعه، كالعطاء موضع الإعطاء.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٥٤٠.

وقال الرّاوندي: «أمراً» منصوب هاهنا لأنّه مفعول به. وناصبه المصدر الذي هو سياقه وقياده، تقول: سقت سياقاً وقدت قياداً، وهذا غير صحيح لأنّ مفعول هذين المصدريْن محذوف تقديره: عن سياقه إيّاهم، وهذا هو معنى الكلام، ولو فرضنا مفعول أحد هذين المصدرين «أمراً» لفسد معنى الكلام. وقال الراونديّ أيضاً: ويجوز أن يكون «أمراً» حالاً. وهذا أيضاً ليس بشيء؛ لأنّ الحال وصف هيئة الفاعل أو المفعول، و«أمراً» ليس كذلك.

قوله عليه السلام: «تشابهت القلوب فيه»، أي أنّ الحمية والفخر والكبر والعصبيّة ما زالت القلوب متشابهة متماثلة فيها.

وتتابعت القُرون عليه: جمع قَرْن بالفَتْح، وهي الأمّة من الناس.

وكِبْراً تضايقت الصدور به، أي كبر في الصدور حتى امتلأت به وضاقت عنه لكثرته.

ثم أمر بالحذر من طاعة الرؤساء أرباب الحمية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[1].

وقد كان أمَرَ في الفصل الأوّل بالتّواضع لله، ونهى ها هنا عن التواضع للرؤساء، وقد جاء في الخبر المرفوع: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء! وأحسنُ منه تكبّر الفقراء على الأغنياء»[2].

الذي تكبّروا عن حسبهم، أي جهلوا أنفسهم، ولم يفكّروا في أصلهم من النُّطَف المستقذَرة من الطين المنتن، قال الشاعر:

مـا بـال مـن أوّلـه نُـطْـفَـةٌ ... وجـيـفـةٌ آخـرهُ يَـفْـخَـرُ
يُـصـبـحُ لا يـمـلـك تـقـديـمَ مـا ... يـرجُـو ولا تـأخـيـر مـا يـحـذَرُ

قوله عليه السلام: «وألقوا الْهَجِينةَ على ربهم» روي «الهَجِينة» على «فَعِيلة»، كالطبيعة والخليقة، وروي «الهُجْنَة» على «فُعْلة»، كالمضغة واللُّقمة، والمراد بهما الاستهجان، من قولك: هو يهجّن كذا، أي يقبّحه، ويستهجنه أي يستقبحه. أي نسبوا ما في الأنساب من القبح بزعمهم إلى ربّهم، مثل أن يقولوا للرجل: أنت عجميّ ونحن عرب، فإنّ هذا ليس إلى الإنسان، بل هو إلى الله تعالى، فأيّ ذنب له فيه!

قوله: «وجاحدوا الله»، أي كابروه وأنكروا صنعَه إليهم. وآساس بالمد: جمع أساس.

واعتزاء الجاهلية: قولهم: يا لَفلان! وسمع أبيّ بن كعب رجلاً يقول: يا لفلان! فقال:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٢) لم أجده مرفوعاً وإنما روي عن علي بن أبي طالب كما في «تاريخ بغداد» (٩/ ٤٢٥)، و«صفوة الصفوة» (٢/ ٤٠٣).

عَضِضْتَ بهَنِ أبيك! فقيل له: يا أبا المنذر ما كنت فَحّاشاً، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَعَزَّى بعَزَاء الجاهليّة فأعِضّوه بهَن أبيه ولا تكْنُوا»(١).

قوله: «فلا تكونوا لنعمة الله أضداداً»؛ لأنّ البغيَ والكِبْر يقتضيان زوالَ النعمة وتبدّلها بالنقمة.

قوله: «ولا تطيعوا الأدعياء»، مراده هاهنا بالأدعياء الذين ينتحلون الإسلام ويبطنون النفاق.

ثم وصفهم فقال: «الذين شربتم بصفوِكم كدَرَهم»، أي شربتم كدَرَهم مستبدلين ذلك بصفوكم. ويروي: «الذين ضربتم»، أي مزجتم. ويروي، «شَرَيْتُم» أي بعتم واستبدلتم.

والأحلاس: جمع حِلْس، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، فقيل لكل ملازم أمر: هو حِلْس ذلك الأمر.

والتَّرجمان، بفتح التاء: هو الّذي يفسّر لساناً بلسان غيره، وقد تُضَمّ التاء. ويروي: «ونثًا في أسماعكم» من نَثّ الحديث، أي أفشاه.

الأصل: فَلَوْ رَخَّصَ ٱللهُ فِي ٱلْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ، وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ ٱلتَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ ٱلتَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي ٱلتُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ ٱللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَٱبْتَلاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَّصَهُمْ بِالْمَكَارِهِ.

فَلاَ تَعْتَبِرُوا ٱلرِّضَا وَٱلسُّخْطَ بِالْمَالِ وَٱلْوَلَدِ، جَهْلاً بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ، وَٱلاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ ٱلْغِنَى وَٱلْإِقْتَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾(٢).

الشرح: التكبر: التعاظُم، والغرض مقابلة لفظة «التواضع» لتكون الألفاظ مزدوجةً.

وعفّر وجهَه: ألصقه بالعَفَر.

وخَفَضُوا أجنحتهم: ألانُوا جانبَهم.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٢٨).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٦.

والمخمصَة: الجوع. والمجهدة: المشقّة، وأمير المؤمنين عليه السلام كثير الاستعمال لمفعل ومَفْعَلة بمعنى المصدر، إذا تصفّحت كلامه عرفت ذلك.

ومحّصهم، أي طهّرهم، وروي «مخضهم» بالخاء والضاد المعجمة، أي حرّكهم وزلزلهم. ثم نهى أن يعتبر رضا الله وسخطه بما نراه من إعطائه الإنسان مالاً وولداً، فإن ذلك جهل بمواقع الفتنة والاختبار.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ...﴾، الآية دليل على ما قاله عليه السلام، والأدلة العقلية أيضاً دلّت على أنّ كثيراً من الآلام والغموم والبلوى إنما يفعله الله تعالى للألطاف والمصالح. وما الموصولة في الآية يعود إليها محذوف ومقدّر لا بدّ منه، وإلاّ كان الكلام غير منتظم، وغير مرتبط بعضه ببعض، وتقديره: نسارع لهم به في الخيرات.

الأصل: فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، بِأَوْلِيَائِهِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ - صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِمَا - عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ ٱلصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا ٱلْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ - إِنْ أَسْلَمَ - بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ، فَقَالَ: أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ ٱلْعِزِّ، وَبَقَاءَ ٱلْمُلْكِ، وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ ٱلْفَقْرِ وَالذُّلِّ! فَهَلاَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِعْظَاماً لِلذَهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ!

وَلَوْ أَرَادَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ، وَوُحُوشَ الأَرَضِينَ، لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، وَلاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ الأَسْمَاءَ مَعَانِيَها، وَلٰكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنًى، وَخَصَاصَةٍ تَمْلأُ الأَبْصَارَ وَالأَسْمَاعَ أَذًى.

الشرح: مدارع الصوف: جمع مِدْرَعة، بكسر الميم، وهي كالكساء، وتدرّع الرجل وتمدرع إذا لبسها. والعصيّ: جمع عصا.

وتقول: هذا سِوار المرأة، والجمع أسوِرة، وجمع الجمع أساورة، وقرىء: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ

﴿عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[1]. وقد يكون جمع أساور، قال سبحانه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[2]، قال أبو عمرو بن العلاء: أساور هاهنا: جمع إسوار وهو السِّوار.

والذِّهْبان، بكسر الذال: جمع ذهب، كَخَرب لذكر الحُبارى وخِرْبان. والعِقْيان: الذهب أيضاً.

قوله عليه السلام: «واضمحلّت الأنباء»، أي تلاشت وفنِيت. والأنْباء: جمع نَبأ، وهو الخبر، أي لسقط الوعد والوعيد وبطلاً.

قوله عليه السلام: «ولا لزمت الأسماءَ معانيَها»، أي مَنْ يسمّى مؤمناً أو مسلماً حينئذ، فإنّ تسمِيتَه مجاز لا حقيقة؛ لأنّه ليس بمؤمن إيماناً مِنْ فعِله وكَسْبه، بل يكون ملجأً إلى الإيمان بما يشاهده من الآيات العظيمة.

والمبتَليْن، بفتح اللاّم: جمع مبتلًى، كالمعطَيْن والمرتَضَيْن، جمع معطًى ومرتضى والخصاصة: الفقر.

وهذا الكلام هو ما يقوله أصحابنا بعينِه في تعليل أفعال الباريء سبحانه بالحكمة والمصلحة، وأنّ الغرض بالتكليف هو التعريض للثواب، وأنه يجب أن يكون خالصاً من الإلجاء، ومِنْ أن يفعل الواجب بوجه غير وجه وجوبه، يرتدع عن القبيح لوجه غير وجه قبحه.

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، أنّ موسى قدم هو وأخوه هارون مصر على فِرْعون، لما بعثهما الله تعالى إليه حتى وقَفَا على بابه يلتمسان الإذْن عليه، فمكثا سنين يغدُوَان على بابه ويروحان، لا يعلم بهما، ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما - وقد كانا قالا لمن بالباب: إنّا رسولاً ربّ العالمين إلى فرعون - حتى دخل عليه بطّال له يلاعبه ويضحكه، فقال له: أيها الملك إنّ على الباب رجلاً يقول قولاً عجيباً عظيماً، ويزعم أن له إلٰهاً غيرك، قال: ببابي! قال: نعم، قال: أدخِلوه، فدخل وبيده عصاه، ومعَه هارون أخوه، فقال: أنا رسول رب العالمين إليك... وذكر تمام الخبر.

فإن قلت: أيّ خاصيّة في الصوف ولُبْسه؟ ولم اختاره الصالحون على غيره؟

قلت: ورد في الخبر أنّ أول لباس لبسه آدم لما هبط إلى الأرض صوف كبش قيّضه الله له، وأمره أن يذبحه فيأكل لحمه ويلبس صوفه؛ لأنّه أهبط عريانَ من الجنة فذبحه، وغزلت حواء صوفَه، فلبس آدم منه ثوباً، وألبس حواء ثوباً آخر، فلذلك صار شعار الأولياء وانتسبت إليه الصوفيّة.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٣. (٢) سورة الكهف، الآية: ٣١.

الأصل: وَلَوْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لاَ تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لا تُضامُ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْناقُ الرِّجالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ على الْخَلْقِ فِي الاعْتِبارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الاسْتِكْبَارِ، وَلآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالحَسَناتُ مُقْتَسَمَةً، وَلَكِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَالاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالاسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خاصَّةً، لاَ يَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِها شائِبَةٌ.

الشرح: تمدّ نحوه أعناق الرجال، أي لعظمته، أي يؤمّله المؤمّلون ويرجوه الراجون، وكلّ مَنْ أمّل شيئاً فقد طمَح ببصره إليه معنًى لا صورة، فكنَى عن ذلك بمدّ العنق.

وتُشدّ إليه عُقَد الرحال: يسافر أرباب الرغبات إليه، يقول: لو كانَ الأنبياء ملوكاً ذوي بأس وقَهْر لم يمكن إيمان الخلق وانقيادهم إليهم؛ لأنّ الإيمان في نفسه واجب عقلاً، بل كان لرهبة لهم أو رغبة فيهم، فكانت النيّات مشتركة. هذا فرض سؤال وجواب عنه، كأنه قال لنفسه: لم لا يجوز أن يكون إيمانهم على هذا التقدير لوجوبه، ولخوف ذلك النبيّ، أو لرجاء نفع ذلك النبي ﷺ؟ فقال: لأنّ النيات تكون حينئذ مشتركة، أي يكون المكلّف قد فعل الإيمان لكلا الأمرين. وكذلك تفسير قوله: «والحسنات مقتسمة»: قال: ولا يجوز أن تكون طاعة الله تعالى تعلو إلاّ لكونها طاعة له لا غير، ولا يجوز أن يشوبها ويخالطها من غيرها شائبة.

فإن قلت: ما معنى قوله: «لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم من الاستكبار»؟

قلت: أي لو كان الأنبياء كالملوك في السَّطْوة والبطش، لكان المكلّف لا يشقّ عليه الاعتبار والانزجار عن القبائح مشقّتَه عليه إذا تركه لقبحه لا لخوف السيف، وكان بعدُ المكلفين عن الاستكبار والبغي لخوف السّيف والتأديب أعظمَ من بعدهم عنهما إذا تركوهما لوجه قبحهما، فكان يكون ثواب المكلّف، إما ساقطاً، وإمّا ناقصاً.

الأصل: وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْبَلْوَى وَالاخْتِبَارُ أَعْظَمَ، كَانَتِ المَثُوبَةُ وَٱلْجَزَاءُ أَجْزَلَ، أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ ٱخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ إِلَى الآخِرِينَ مِنْ هَذَا ٱلْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلاَ تُبْصِرُ وَلاَ تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ ٱلْحَرَامَ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً، ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ ٱلْأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ قُطْراً. بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ، لاَ يَزْكُوبِهَا خُفٌّ، وَلاَ حَافِرٌ وَلاَ ظِلْفٌ،

ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ، تهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الأَفْئِدَةِ، مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً، يُهَلِّلُونَ للهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، شُعْثاً غُبْراً لَهُ، قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلاَءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ.

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَه الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الأَشْجَارِ، دَانِيَ الثِّمَارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَزُرُوعٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءِ.

وَلَوْ كَانَ الأَسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، مِنْ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ.

وَلَكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِه، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِه.

الشرح: كانت المثوبة، أي الثواب.

وأجزل: أكثر، والجزيل: العظيم، وعطاء جَزْل وجَزِيل والجمع جزالَ، وقد أجزلت له من العطاء، أي أكثرت.

وجعله للناس قياماً، أي عماداً، وفلان قيام أهله، أي يقيم شؤونهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾(١).

وأوعرُ بقاع الأرض حجراً، أي أصعبها، ومكانٌ وعْر، بالتسكين: صعب المسلك أو المقام.

وأقلُّ نتائق الدُّنيا مدَراً، أصل هذه اللفظة من قولهم: «امرأة مِنْتاق»، أي كثيرة الحَبل

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

والوِلادة، ويقال: ضيْعة مِنْتَاق أي كثيرة الرّيع، فجعل عليه السلام الضّياع دوات المدَر التي تثار للحرْث نتائق وقال: إنّ مكّة أقلها صلاحاً للزرع؛ لأنّ أرضها حجرية.

والقُطْر: الجانب، ورمالٌ دمِثة: سهلة، وكلّما كان الرَّمْل أسهَل، كان أبعد عن أن ينبت.

وعيون وشِلة، أي قليلة الماء، والوَشَل، بفتح الشين: الماء القليل، ويقال: وشَل الماء وَشَلاناً، أي قطر.

قوله: «لا يزكُو بها خُفّ»، أي لا تزيد الإبل فيها أي لا تسمن، والخُفّ هاهنا هو الإبل، والحافر: الخيل والحمير، والظِّلْف: الشاة، أي ليس حولها مرعًى يرعاه الغنم فتسمَن.

وأن يَثنو أعطافهم نحوه، أي يقصِدُوه ويحجّوه، وعِطْفا الرَّجل: جانباه.

وصار مثابة، أي يُثاب إليه ويُرْجَع نحوه مرّة بعد أخرى، وهذه من ألفاظ الكتاب العزيز.

قوله عليه السلام: «المنتجَع أسفارِهم»، أي لنُجْعتها، والنُّجعَة: طلب الكلأ في الأصل، ثم سمي كلّ مَنْ قصد أمراً يروم النفع منه منتجِعاً.

قوله: «وغاية لمُلقي رحالهم» أي صار البيت هو الغاية التي هي الغرض والمقصد، وعنده تلقى الرِّجال، أي تحطّ رحال الإبل عن ظهورها، ويبطل السفر؛ لأنهم قد انتهوْا إلى الغاية المقصودة.

قوله: «تَهْوِي إليه ثمار الأفئدة»، ثمرة الفؤاد: هو سويداء القلْب، ومنه قولهم للولد: هو ثمرة الفؤاد، ومعنى «تهوِي إليه» أي تتشوّقه وتحنّ نحوه.

والمفاوز: هي جمع مَفَازة، الفلاة سُمِّيَتْ مَفازة، إمَّا لأنها مهلَكة، من قولهم: فَوّز الرَّجُل، أي هلك، وإمّا تفاؤلاً بالسلامة والفوز، والرّواية المشهورة. «منْ مفاوزِ قفار» بالإضافة. وقد روي قوم: «من مفاوزَ» بفتح الزاء؛ لأنه لا ينصرف، ولم يضيفوا، جعلوا «قفار» صفة. والسحيقة: البعيدة. والمهاوِي: المساقط. والفِجاج: جمع فَجّ، وهو الطريق بين الْجَبَلين.

قوله عليه السلام: «حتّى يهزُّوا مناكبهم»، أي يحرّكهم الشوق نحوه إلى أن يسافروا إليه، فكنَى عن السّفَر بهزّ المناكب.

وذُللا، حال، إمّا منهم وإمّا من المناكب، وواحد المناكب، منكِب بكسر الكاف، وهو مجمع عظم العَضُد والكتف.

قوله: «ويهلّلون»، يقولون: لا إله إلا الله، وروي: «يُهِلُّون لله» أي يرفعون أصواتهم بالتلبية ونحوها. ويرمُلون، الرَّمَل: السعي فوق المشي قليلاً. شُعْثاً غُبْراً، لا يتعهدون شعورهم ولا ثيابهم ولا أبدانهم، قد نبذوا السرابيل، ورموا ثيابهم وقمصانهم المخيطة.

وشوّهوا بإعفاء الشعور، أي غيّروا وقبحوا محاسن. صورهم، بأنْ أعفَوْا شعورهم فلم يَحلِقوا ما فضل منها وسقط على الوجه ونبت في غيره من الأعضاء التي جرت العادة بإزالتها عنها.

والتمحيص: التَّطْهير، من محّصت الذهب بالنار إذا صفّيته مما يشوبه، والتمحيص أيضاً: الامتحان والاختبار. والمشاعر: معالم النُّسُك.

قوله: «وسهل وقرار»، أي في مكان سهل يستقرّ فيه الناس ولا ينالهم من المقام به مشقّة.

وجمّ الأشجار: كثيرها. وداني الثمار: قريبها. وملتفّ البِنَى: مشتبك العمارة. والبُرَّة: الواحدة من البُرّ، وهو الحنطة. والأرياف. جمع ريف وهو الخِصْبِ والمرعى في الأصل، وهو هاهنا السّواد والمزارع. ومحدِقة: محيطة. ومغدِقة: غزيرة، والغَدَق: الماء الكثير.

وناضرة: ذات نضارة وَروْنق وحُسْن.

قوله: «ولو كانت الإساس»، يقول: لو كانت إساس البيت التي حمل البيت عليها وأحجاره التي رفع بها من زمردة وياقوتة فالمحمول والمرفوع كلاهما مرفوعان؛ لأنهما صفة اسم كان والخبر «من زمردة»، وروي: «بين زمردة»، ويجوز أن تحمل لفظتا المفعول وهما المحمول والمرفوع ضمير البيت، فيكون قائماً مقام اسم الفاعل، ويكون موضع الجار والمجرور نصباً، ويجوز ألاّ تحملهما ذلك الضمير، ويجعل الجار والمجرور هو السادّ مسدّ الفاعل، فيكون موضعه رفعاً.

وروي: «مضارعة الشكّ» بالضاد المعجمة، ومعناه مقارنة الشك ودنّوه من النفس، وأصله من مضارعة القِدْر إذا حان إدراكها، ومن مضارعة الشمس إذا دنت للمغيب.

وقال الراونديّ في تفسير هذه الكلمة: من مضارعة الشك، أي مماثلته ومشابهته، وهذا بعيد؛ لأنه لا معنًى للمماثلة والمشابهة هاهنا، والرواية الصحيحة بالصاد المهملة.

قوله عليه السلام: ولَنَفَى معتلَج الرّيب»، أي اعتلاجه، أي ولنفى اضطراب الشك في القلوب. وروي «يستعبدهم» و«يتعبّدهم»، والثانية أحسن.

والمَجَاهد: جمع مَجْهدة، وهي المشقة. وأبواباً فُتُحاً، أي مفتوحة. وأسباباً ذُلُلاً، أي سهلة.

واعلم أنّ محصول هذا الفصل أنّه كلّما كانت العبادة أشقّ كان الثواب عليها أعظم، ولو أنّ الله تعالى جعل العبادات سهلة على المكلّفين لما استحقُّوا عليها من الثواب إلاّ قدراً يسيراً، بحسب ما يكون فيها من المشقّة اليسيرة.

فإن قلت: فهل كان البيت الحرام موجوداً أيام آدم عليه السلام، ثم أمِر آدم وولده أن يَثنوا أعطافهم نحوه؟

قلت: نعم هكذا روى أرباب السِّيَر وأصحاب التواريخ، روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في «تاريخه» عن ابن عباس، أنّ الله تعالى أوحى إلى آدم لمّا أهبطه إلى الأرض: أنّ لي حَرَماً حِيَال عَرْشي، فانطلِق فابنِ لي بيتاً فيه، ثم طُفْ به كما رأيت ملائكتي تحف بعرشي، فهنالك أستجيبُ دعاءك ودعاء مَنْ يحفّ به من ذُرّيتك. فقال آدم: إنّي لستُ أقوى على بنائه، ولا أهتدي إليه، فقيّض الله تعالى له مَلكاً، فانطلق به نحو مكّة - وكان آدم في طريقه كلّما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن ينزلِ به هناك ليبني فيه، فيقول الملَك: إنه ليس هاهنا حتى أقدمه مكة - فبنى البيت من خمسة جبال: طور سيناء، وطور زيتون، ولُبنان، والجوديّ، وبني قواعدَه من حِراء. فلمّا فرغ خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسكَ كلَّها التي يفعلها الناس اليوم، ثم قدِم به مكة وطاف بالبيت أسبوعاً، ثم رجع إلى أرض الهند فمات(١).

وروى الطبري في التّاريخ أن آدم حجّ من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجّة على رجليه.

وقد روي أنّ الكعبة أنزلت من السماء وهي ياقوتة أو لؤلؤة، على اختلاف الروايات وأنّها بقيَتْ على تلك الصورة إلى أن فسدت الأرض بالمعاصي أيّام نوح، وجاء الطوفان فرفع البيت، وبنى إبراهيم هذه البنيّة على قواعده القديمة.

وروى أبو جعفر، عن وهب بن منبّه أنّ آدم دَعَا ربَّه فقال: يا ربّ أما لأرضك هذه عامرٌ يسبّحك ويقدّسك فيها غيري! فقال الله: إنّي سأجعل فيها من ولدك من يسبّح بحمدي ويقدّسني، وسأجعل فيها بُيُوتاً تُرفَع لذكري، يسبّحني فيها خلقي، ويُذكر فيها اسمي، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصّه بكرامتي، وأوثره باسمي، فأُسميّه بيتي، وعليه وضعت جلالتي وخصصتُه بعظمتي، وأنا مع ذلك في كلّ شيء، أجعل ذلك البيت حَرَماً آمناً يحرّم بحرمته من حوله، ومن تحته، ومَنْ فوقه فمَنْ حرّمه بحُرْمتي استوجب كرامتي، ومن أخاف أهلَه فقد أباح حُرْمتي، واستحقّ سَخَطِي، وأجعله بيتاً مُباركاً يأتيه بنُوك شُعْثاً غُبْراً على كل ضامر من كلّ فجّ عميق، يرجّون بالتلبية رَجيجاً، ويعجّون بالتكبير عجيجاً، من اعتمده لا يريد غيره، ووفد إليّ وزارني واستضاف بي، أسعفته بحاجته، وحقٌّ على الكريم أن يكرِم وفدَه وأضيافه، تعمره يا آدم ما دمت حيًّا، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن.

قال: ثم أمر آدم أن يأتِيَ إلى البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض فيطوف به كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش، وكان البيت حينئذٍ من دُرَّةٍ أو من ياقوتة، فلمّا أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه، وبقي أساسه فبوّأه الله لإبراهيم فبَناه(٢).

---

(١) ذكره القرطبي بما معناه في تفسيره: ٢/ ١٢١.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٧/ ٤٢٥.

الأصل: فَاللهَ اللهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيس الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَبَداً، وَلاَ تُشْوِي أَحَداً، لاَ عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلاَ مُقِلاًّ فِي طِمْرِهِ.

وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي الأَيَّامِ المَفْرُوضَاتِ، تَسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ، وَتُخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلاَءِ عَنْهُمْ، وَلِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَالْتِصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالأَرْضِ تَصَاغُراً، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِيامِ تَذَلُّلاً، مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الأَرْضِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالفَقْرِ.

انْظُرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الأَفْعالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الفَخْرِ، وَقَدْعِ طَوَالِعِ الكِبْرِ!

الشرح: بلدة وخِمة ووخيمة: بيّنة الوخامة، أي وبيئة.

مصْيَدَة إبليس، بسكون الصاد وفتح الياء: آلته الّتي يصطاد بها. وتُساوِر قلوب الرجال: وسار إليه يَسُور، أي وثب، والمصدَر السَّوْر، ومصدر «تَسَاور» المساورة، ويقال: إن لغضبه سَوْرة، وهو سَوّار، أيْ وثّاب معربد، وسَوْرة الشراب: وثوبه في الرأس، وكذلك مساورة السموم التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

وما تكدِي: ما تردّ عن تأثيرها، من قولك: أكدى حافر الفرس، إذا بلغ الكُدْية وهي الأرض الصُلْبَة، فلا يمكنه أنْ يحفر.

ولا تُشوِي أحداً: لا تخطيء المقْتَل وتصيب غيره، وهو الشَّوَى، والشوى: الأطراف، كاليد والرجل.

قال: لا تردّ مكيدته عن أحد لا عن عالم لأجل علمه، ولا عن فقير لطمْره، والطّمْر: الثوب الخلَق.

و«ما» في قوله: «وعن ذلك ما حرس الله» زائدة مؤكدة، أي عن هذه المكائد التي هي البغْي والظّلم والكِبْر حَرَس الله عباده، فـ«عن» متعلقة بـ«حرس». وقال الرّاوندي: يجوز أن تكون مصدرية، فيكون موضعها رفعاً بالابتداء، وخبر المبتدأ قوله: «لما في ذلك». وقال أيضاً: يجوز أن تكون نافية، أي لم يحرس الله عباده عن ذلك إلجاءً وقَهْراً، بل فعلوه اختياراً من أنفسهم، والوجه الأول باطل؛ لأن «عن» على هذا التقدير تكون من صلة المصدر، فلا يجوز تقديمها عليه، وأيضاً فإنّ «لما في ذلك» لو كان هو الخبر؛ لتعلّق لام الجر بمحذوف، فيكون

التقدير: حراسة الله لعباده عن ذلك كائنة لما في ذلك من تعفِير الوجوه بالتراب، وهذا كلام غير مُفِيد ولا منتظم إلا على تأويل بعيد لا حاجة إلى تعسّفه، والوجه الثاني باطل؛ لأنّ سياقة الكلام تدلّ على فساده، ألا ترى قوله: «تسكيناً وتخشيعاً»، وقوله: «لما في ذلك من كذا»، وهذا كلُّه تعليل الحاصل الثابت لا تعليل المنفيّ المعدوم.

ثم بيّن عليه السلام الحكمة في العبادات، فقال: إنه تعالى حَرَس عباده بالصلوات التي افترضها عليهم من تلك المكائد، وكذلك بالزكاة والصَّوم ليسكِّن أطرافهم، ويخشّع أبصارهم، فجعل التسكين والتخشيع عذراً وعلّة للحراسة، ونصب اللفظات على أنها مفعول له.

ثم علل السكُوْن والخشوع الذي هو علّة الحراسة لما في الصلاة من تعفير الوجه على التراب، فصار ذلك علّة العلة. قال: وذلك لأن تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً يوجب هَضْم النفس وكسرها وتذليلها. وعتاق الوجوه: كرائمها.

وإلصاق كرائم الجوارح بالأرض كاليدين والساقين تصاغراً يوجب الخشوع والاستسلام، والجوع في الصوم الذي يلحق البطن في المتن يقتضي زوال الأشَر والبطَر، ويوجب مذلّة النفس وقمْعها عن الانهماك في الشهوات، وما في الزكاة من صَرْف فواضل المكاسب إلى أهل الفقر والمسكنة يوجبُ تطهيرَ النفوس والأموال ومواساة أرباب الحاجات بما تسمحُ به النفوس من الأموال، وعاصم لهم من السرقات وارتكاب المنكرات، ففي ذلك كلّه دفع مكائد الشيطان.

وتخفيض القلوب: حطها عن الاعتلاء والتيه. والخُيَلاء: التكبّر. والمسكنة: أشدّ الفقر في أظهر الرّأيين. والقَمْع: القهر. والنَّوَاجم: جمع ناجمة، وهي ما يظهر ويطلع من الكبر وغيره.

والقَدْع، بالدال المهملة: الكفّ، قدعت الفرس وكبحته باللجام، أي كففته، والطوالع، كالنواجم.

الأصل: وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ العالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلاَءِ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّة. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ. وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ، وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ، بِالْأَخْلاَقِ الرَّغِيبَةِ، وَالْأَحْلاَمِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَالْآثَارِ الْمَحْمُودَةِ.

فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ، مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَالأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالكَفِّ عَنِ البَغْيِ، وَالإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ.

الشرح: قد روي: «تحتمل» بالتاء، وروي «تحمل»، والمعنى واحد.

والتمويه: التلبيس من مَوَّهت النّحَاس، إذا طليتَه بالذهب ليخفى. ولاط الشيء بقلبي يلوط ويليط، أي التصق. والمترَف: الذي أطغته النعمة. وتفاضلت فيها، أي تزايدت. والمُجداء: جمع ماجد، والمجْد الشرف في الآباء، والحسب والكرم يكونان في الرَّجل وإن لم يكونا في آبائه. هكذا قال ابنُ السّكّيت، وقد اعترِض عليه بأن المجيد من صفات الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾[1] على قراءة مَنْ رفع، والله سبحانه يتعالى عن الآباء، وقد جاء في وصف القرآن المجيد، قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾[2].

والنُّجداء: الشجعان، واحدهم نَجِيد، وأمّا نَجِد ونَجُد، بالكسر والضم، فجمعه أنجاد، مثل يَقِظ وأيقاظ.

وبيوتات العرب: قبائلها. ويعاسيب القبائل: رؤساؤها، واليَعسوب في الأصل: ذكَر النحل وأميرها. والرغيبة: الخَصْلة يُرغَب فيها. والأحلام: العقول. والأخطار: الأقدار.

ثم أمرهم بأن يتعصّبُوا لخلال الحمد وعددها، وينبغي أن يحمل قوله عليه السلام: «فإنكم تتعصّبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علّة»، على أنّه لا يعرف له سبب مُناسب، فكيف يمكن أن يتعصّبوا لغير سبب أصلاً!

وقيل: إنّ أصل هذه العصبية، وهذه الخطبة، أنّ أهلَ الكوفة كانوا قد فسدُوا في آخر خلافة أمير المؤمنين، وكانوا قبائلَ في الكوفة، فكان الرَّجل يخرج من منازل قبيلته فيمرّ بمازل قبيلة أخرى، فينادِي باسم قبيلته: يا للنَّخع! مثلاً، أو يالَكِندة! نداءً عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشرّ، فيتألّب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون: يا لَتميم! ويالربيعة! ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتُسلّ السيوف وتثُور الفِتَن، ولا يكون لها أصل في الحقيقة إلاّ تعرُّض الفِتْيان بعضهم ببعض.

(١) سورة البروج، الآية: ١٥.
(٢) سورة البروج، الآية: ٢١.

الأصل: وَٱحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ المَثُلاَتِ بِسُوءِ ٱلْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ ٱلْأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي ٱلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَٱحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ ٱلعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ، وَزَاحَتِ ٱلْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ ٱلْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَٱنْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ ٱلْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ، مِنَ ٱلاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَٱللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا.

وَٱجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ، مِنْ تَضَاغُنِ ٱلْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ ٱلْأَيْدِي.

الشرح: المَثُلات: العُقوبات.

وذميم الأفعال: ما يذمّ منها. وتفاوت حالَيْهم: اختلافهما. وزاحت الأعداء: بعدت. وله، أي لأجله.

والتحاضّ عليها: تفاعل يستدعي وقوعَ الحضّ، وهو الحثّ من الجهتين، أي يحثّ بعضهم بعضاً. والفِقْرة: واحدة فِقَر الظّهر، ويقال لمن قد أصابته مصيبة شديدة: قد كُسرت فِقرته. والمُنّة: القوّة.

وتضاغُن القلوب وتشاحنها واحد. وتخاذل الأيدي: ألاّ ينصُر الناس بعضهم بعضاً.

الأصل: وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ المَاضِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالبَلاَءِ! أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلاَئِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ العِبَادِ بَلاَءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً! اتَّخَذَتْهُمُ الفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ العَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمْ جُرَعَ المُرَارِ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الهَلَكَةِ وَقَهْرِ الغَلَبَةِ، لاَ يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ، وَلاَ سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ، حَتَّى إِذَا رَأَى الله سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالاِحْتِمالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاَءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ العِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وَأَئِمَّةً أَعْلاَماً، وَقَدْ بَلَغَتِ الكَرَامَةُ مِنَ الله لَهُمْ، مَا لَمْ تَذْهَبِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشرح: تدبّروا، أي تأمّلوا. والتَّمحيص: التطهير والتصفية. والأعباء: الأثقال: واحدها عِبْء. وأجهد العباد: أتعبهم. والفراعنة: العُتاة، وكلّ عاتٍ فرعون. وساموهم سوء

العذاب: ألزموهم إيّاه، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(١).

والمُرار: بضمّ الميم: شجر مُرٌّ في الأصل، واستعير شرب المُرار لكلّ مَنْ يلقى شديد المشقّة. ورأى الله منهم جدّ الصبر، أي أشدّه. وأئمة أعلاماً، أي يُهتدَى بهم، كالعلَم في الفَلاَة.

الأصل: فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلاَءُ مُجْتَمِعَةً، وَالأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً.

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ، وَمُلُوكاً عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ!

فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ، تَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعَمِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ.

الشرح: الأملاء: الجماعات، الواحد ملأ.

ومترادفة: متعاونة. البصائر نافذة، يقال: نفذت بصيرتي في هذا الخَبر، أي اجتمع همّي عليه، ولم يبق عندي تردّد فيه، لعلمي به وتحقيقي إياه.

وأقطار الأرَضين: نواحيها، وتشتّت: تفرَّقت.

وتشعّبوا: صاروا شُعوباً وقبائل مختلفين.

وتفرّقوا متحزّبين: اختلفوا أحزاباً، وروي: «متحازبين».

وغضارة النّعمة: الطيِّب الليِّن منها. والقَصَصُ: الحديث.

يقول: انظروا في أخبار مَنْ قبلكم من الأمم، كيف كانت حالهم في العزّ والمُلْك لمّا كانت كلمتُهم واحدة، وإلى ماذا آلتْ حالهم حين اختلفت كلمتُهم! فاحذروا أن تكونوا مثلَهم، وأن يحلّ بكم إن اختلفتم مثل ما حلّ بهم.

الأصل: فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الأَمْثَالِ!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لَيَالِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الآفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ، وَمَهَافِي الرِّيحِ، وَنَكَدِ المَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ، إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ. أَذَلَّ الْأُمَمِ دَاراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً، لاَ يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلاَ إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا، فَالأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ وَالأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاَءِ أَزْلٍ، وَأَطْبَاقِ جَهْلٍ، مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغَارَاتٍ مشْنُونَةٍ.

الشرح: لقائل أن يقول: ما نعرف أحداً من بني إسحاق وبني إسرائيل احتازتْهم الأكاسرة والقياصرة عن ريف الآفاق إلى البادية ومنابت الشيح، إلا أن يقال: يهود خيْبر والنّضير وبني قُرَيظة وبني قيْنُقَاع، وهؤلاء نفرٌ قليل لا يعتدّ بهم. ويُعلَم من فَحْوَى الخطبة أنّهم غيرُ مرادين بالكلام؛ ولأنّه عليه السلام قال: تركوهم إخوان دَبَر وَوَبَر، وهؤلاء لم يكونوا من أهل الوبَر والدَّبَر، بل من أهل المَدَر؛ لأنهم كانو ذوِي حصون وآطام. والحاصل أنّ الذين احتازتْهم الأكاسرة والقياصِرة من الرّيف إلى البادية، وصاروا أهل وَبَر ولدُ إسماعيل، لا بنو إسحاق وبنو إسرائيل!

والجواب أنه عليه السلام ذكر في هذه الكلمات، وهي قوله: «فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل المقهورين والقاهرين جميعاً»، أما المقهورون فبنو إسماعيل، وأما القاهرون فبنوا إسحاق وبنو إسرائيل؛ لأن الأكاسرة من بني إسحاق، ذكر كثير من أهل العلم أنّ فارس من ولد إسحاق، والقياصرة من ولد إسحاق أيضاً؛ لأنّ الرّوم بنو العِيص بن إسحاق، وعلى هذا يكون الضمير في «أمرهم»، و«تشتتهم» و«تفرقهم» يرجع إلى بني إسماعيل خاصة.

فإن قلت: فبنوا إسرائيل، أيّ مدْخلٍ لهم هاهنا؟

قلت: لأن بني إسرائيل لما كانوا ملوكاً بالشّام في أيام أجاب الملك وغيره، حاربوا العرب من بني إسماعيل غير مرّة، وطردوهم عن الشام، وألجؤوهم على المقام ببادية الحجاز. ويصير تقدير الكلام: فاعتبروا بحال ولد إسماعيل مع بني إسحاق وبني إسرائيل، فجاء بهم في صدر الكلام على العموم، ثم خصّص فقال: الأكاسرة والقياصرة، وهم داخلون في عموم ولد إسحاق، وإنما لم يخصّص عموم بني إسرائيل لأن العرب لم تكن تعرف ملوك ولد يعقوب، فيذكر لهم أسماءهم في الخُطْبة، بخلاف ولد إسحاق فإنهم كانوا يعرفون ملوكهم من بني ساسان ومن بني الأصفر.

قوله عليه السلام: «فما أشدّ اعتدال الأحوال!»، أي ما أشبه الأشياء بعضها ببعض! وإنّ حالكم لشبيهة بحال أولئك فاعتبروا بهم.

قوله: «يحتازونهم عن الريف» يبعدونهم عنه، والريف: الأرض ذات الخِصْب والزّرع، والجمع أرياف، ورافت الماشية أي رعت الرِّيف، وقد أرفنا أيْ صرنا إلى الريف، وأرافت الأرض أي أخصبت، وهي أرض ريِّفة، بتشديد الياء.

وبحر العِراق: دجلة والفرات، أمّا الأكاسرة فطردُوهم عن بَحْر العراق، وأما القياصرة فطردُوهم عن ريف الآفاق، أي عن الشام وما فيه من المرعى والمنتجَع.

قوله عليه السلام: «أرباباً لهم»، أي ملوكاً، وكانت العرب تسمّي الأكاسرة أرباباً، ولمّا عظم أمر حُذَيفة بن بدر عندهم سمّوْه ربَّ مَعَدّ.

ومنابت الشِّيح: أرض العرب، والشِّيحُ: نَبْت معروف.

ومَهافِي الريح: المواضع التي تهفو فيها، أي تهبّ وهي الفيافي والصحارى.

ونكَد المعاش: ضيقه وقلّته.

وتركوهم عالَةً، أي فقراء، جمع عائل، والعائل ذو العَيْلة والعَيْلة: الفقر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[1]، قال الشاعر:

تُعَيِّرنا أنّنا عالةٌ ... صَعَاليكُ نحن وأنتمْ ملوكْ

نظيره قائد وقادة، وسائس وساسة.

وقوله: «إخوانَ دَبَر ووَبَر»، الدّبر مصدر دَبِر البعيرُ، أي عقره القَتَب. والوبرَ للبعير بمنزلة الصوف للضأن والشعر للمعز.

قوله: «أذلّ الأمم داراً»، لعدَم المعاقل والحصون المنيعة فيها.

وأجذبهم قراراً، لعدم الزَّرع والشجر والنخل بها. والجدْب: المحْل.

ولا يأوون: لا يلتجئون ولا ينضمّون.

والأزل: الضِّيق. وأطباق جهل: جمع طَبَق، أي جَهْل متراكم بعضُه فوق بعض.

وغارات مشنونة: متفرّقة، وهي أصعب الغارات.

أسباب وأد البنات

مِنْ بنات موأودة، كان قومٌ من العرب يئِدُون البنات، قيل: إنهم بنو تميم خاصّة، وإنه استفاض منهم في جيرانهم. وقيل: بل كان ذلك في تميم، وقيس، وأسد، وهُذَيل، وبكر بن

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

وائل، قالوا: وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم، فقال: «اللهمّ اشدد وطأتك على مُضَر، واجعل عليهم سنين كسِنِي يوسف»[1]، فأجدَبُوا سبع سنين حتى أكلوا الوَبَر بالدم، وكانوا يسمُّونه العِلْهز، فوأدوا البناتِ لإملاقهم وفقرهم، وقد دلّ على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾[2]، قال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾[3].

وقال قوم: بل وأدوا البنات أنفةً، وزعموا أنّ تميماً منعت النعمان الإتاوة سنة من السنين، فوجّه إليه أخاه الريّان بن المنذر، وجُلّ مَنْ معه من بَكْر بن وائل، فاستاق النَّعَم وسَبَى الذراريّ، وفي ذلك يقول بعض بني يَشْكُر:

لـمّـا رأوْا رايـةَ الـنُّـعـمـان مـقـبِـلـةً ... قـالـوا: ألاَ لَـيْـتَ أدْنـى دارِنـا عَـدَنُ!
يـا لـيـتَ أمَّ تـمـيـم لـم تَـكُـنْ عَـرَفَـتْ ... مُـرًّا، وكـانـتْ كـمـن أودَى بـه الـزَّمَـنُ
إنْ تَـقْـتُـلـونـا فـأعـيـارٌ مـخـدّعـةٌ ... أو تُـنْـعِـمـوا فـقـديـمـاً مـنـكـم الـمِـنَـنُ
مـنـكـم زُهَـيْـرٌ وعـتّـاب ومـحـتـضِـنٌ ... وابـنـا لَـقِـيـطٍ وأوْدى فـي الـوغَـى قَـطَـنُ

فوفدت بنو تميم إلى النعمان، واستعطفوه، فرقّ عليهم، وأعاد عليهم السَّبْي، وقال: كلّ امرأة اختارت أباها ردّت إليه، وإن اختارت صاحبها تركت عليه، فكلّهن اخترن آباءهنّ، إلا ابنةَ قيس بن عاصم، فإنها اختارت مَنْ سباها، وهو عمرو بن المشمرخ اليشكريّ، فنذر قيس بن عاصم المِنقَريّ التميميّ ألا يولد له بنت إلا وأدها، والوأد أن يخنُقَها في التراب ويُثْقِل وجهها به حتى تموت. ثم اقتدى به كثير من بني تميم، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[4]، أي على طريق التبكيت والتوبيخ لمن فعل ذلك أو أجازه، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5].

ومن جيّد شعر الفرزدق قوله في هجاء جرير:

ألَـمْ تَـرَ أنّـا بَـنِـي دَارِمٍ ... زُرارة مِـنّـا أبـو مَـعْـبَـدِ
ومـنّـا الّـذي مـنـع الـوائـداتِ ... وأحـيـا الـولـيـدَ فـلـم يُـوأَدِ
ألـسـنـا بـأصـحـاب يـوم الـنِّـسـارِ ... وأصـحـاب ألـويـة الـمِـرْبَـدِ
ألـسْـنـا الّـذيـن تـمـيـمٌ بـهـمْ ... تَـسَـامَـى وتـفـخـر فـي الـمَـشْـهـدِ!
ونـاجـيـة الـخـيـر والأقـرَعَـا ... نِ وقـبـرٌ بـكـاظـمـة الـمَـوْرِدِ
إذا مـا أتـى قـبـرَه عـائـذٌ ... أنـاخ عـلـى الـقَـبْـرِ بـالأسْـعَـدِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: ٣/ ٢٣٤، وأخرجه أبو داود في سننه رقم: ١٤٤٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣١.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.
(٤) سورة التكوير، الآيتان: ٨، ٩.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٦.

أيطلب مجد بني دارمٍ عطية كالجُعَل الأسودِ!
فَرَنْبَى يَحُكُّ قَفَا مُقْرِفٍ لئيم مآثره قُعْدُدِ
ومجد بني دارم فوقَهُ مكان السِّماكَيْن والفَرْقَدِ

وفي الحديث: أنّ صَعصعة بن ناجية بن عِقال لمّا وفد على رسول الله ﷺ، قال: يا رسولَ الله، إنّي كنتُ أعملُ في الجاهليّة عملاً صالحاً، فهل ينفعني ذلكَ اليوم؟ قال عليه السلام: وما عملت؟ قال: ضَلَلْت ناقتين عُشَرَاوين، فركبت جَمَلاً ومضيت في بُغائهما، فرفع لي بيت حَريد، فقصدته، فإذا شيخ جالس بفنائه فسألته عن الناقتين، فقال: ما نارُهما؟ قلت: مِيسم بني دَارِم، قال: هما عندي، وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مُضَر، فجلست معه ليخرجهما إليّ، فإذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت، فقال لها: ما وضعتْ، إن كان سَقْباً شاركنا في أموالنا، وإن كان حائلاً وَأَدْناها، فقالت العجوز: وضعت أنثى، فقلت له: أتبيعها؟ قال: وهل تبيع العرب أولادَها! قلت: إنّما أشتري حياتَها، ولا أشتري رقّها، فبكم؟ قلت: احتكِم، قال: بالناقتين والجمل، قلت: أذاكَ لك على أن يبلغني الجمل وإياها! قال: بعتُك، فاستنقذتها منه بالجمل والناقتين، وآمنت بك يا رسول الله، وقد صارتْ لي سنّة في العرب أن أشتريَ كلّ موؤُودَة بناقتين عُشَراوين وجمل، فعندي إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موؤودة قد أنقذتهنّ، فقال عليه السلام: «لا ينفعك ذاك لأنك لم تبتغ به وجهَ الله، وإنْ تعمل في إسلامك عملاً صالحاً تثب عليه».

وروى الزُّبير في «الموفّقيات»[(١)] أنّ أبا بكر قال في الجاهليّة لقيس بن عاصم المِنْقريّ: ما حملك على أن وأدت؟ قال: مخافة أن يخلُف عليهن مثلك[(٢)].

الأصل: **فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ ٱللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ، كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَٱلْتَفَّتِ المِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ، وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَاكِهِينَ، قَدْ تَرَبَّعَتِ الأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، وَآوَتْهُم الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ، فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى العَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ**

(١) الموفقيات في الحديث: للزبير بن بكار الأسدي المتوفى سنة (٢٥٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٩١٠).
(٢) أخرجه المولى حيدر في مناقب آل البيت: ٣٠٨.

الأَرَضِينَ، يَمْلِكُونَ الأُمورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيها فِيهِمْ، لاَ تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ، وَلاَ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَاةٌ.

الشرح: لمّا ذكر ما كانت العرب عليه من الذلّ والضَّيْم والجهل، عاد فذكر ما أبدل الله به حالهم، حين بعث إليهم محمداً صلى الله عليه وآله. فعقد عليهم طاعتهم كالشيء المنتشر المحلول فعقدها بملة محمد صلى الله عليه وآله.

والجداول: الأنهرُ. التفّت الملة بهم، أي كانوا متفرّقين فالتفّت ملّة محمد بهم، أي جمعتهم، ويقال: التفّ الحبل بالحطَب، أي جمعه، والتفّ الحطب بالحبل، أي اجتمع به.

و«في» في قوله: «في عوائد بركتها» متعلّقة بمحذوف، وموضع الجار والمجرور نصب على الحال، أي جمعتهم الملة كائنةً في عوائد بركتها، والعوائد: جمع عائدة، وهي المنفعة. تقول: هذا أعْوَدُ عليك، أي أنفع لك. وروي: «والتقت الملة» بالقاف أي اجتمعت بهم، من اللقاء. والرواية الأولى أصحّ.

وأصبحوا في نعمتها غرِقين، مبالغة في وصف ما هم فيه من النعمة.

وفاكهين: ناعمين. وروي «فكهين» أي أشِرين وقد قرىء بهما في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ﴾[1]، وقال الأصمعيّ: فاكهين: مازحين، والمفاكهة الممازحة، ومن أمثالهم: «لا تفاكِهْ أمَة، ولا تَبُلْ عَلَى أكمة»، فأما قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[2]، فقيل: تندمون، وقيل: تعجبون.

و«عن» في قوله: «وعن خضرة عيشها»، متعلّقة بمحذوف، تقديره: فأصبَحوا فاكهين فكاهة صادرة عن خضرة عيشها، أي خطرة عيش النعمة سبب لصدور الفكاهة والمُزاح عنه.

وتربّعت الأمور بهم، أي أقامت، من قولك. رَبَع بالمكان، أي أقام به. وآوتهم الحال، بالمدّ أي ضمتهم وأنزلتهم، قال تعالى: ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾[3]، أي ضمّه إليه وأنزله، ويجوز «أوتهم» بغير مدّ. أفعلت في هذا المعنى وفعلت واحد، عن أبي زيد.

والكنَف: الجانب، وتعطّفت الأمور عليهم: كناية عن السيادة والإقبال، يقال: قد تعطّف الدّهر على فلان، أي أقبل حظُّه وسعادته، بعد أنْ لم يكن كذلك.

وفي ذُرَا مُلْكٍ: بضم الذال أي في أعاليه، جمع ذروة، ويكنى عن العزيز الذي لا يُضام،

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٥.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

فيقال: لا يغمز له قناة، أي هو صلب. والقناة إذا لم تلِن في يد الغامز كانتْ أبعدَ عن الحطم والكَسْر.

ولا تُقرع لهم صفاة، مثَل يضرب لمن لا يطمع في جانبه لعزّته وقوّته.

الأصل: أَلاَ وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ ٱللهِ المَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الأُلْفَةِ الَّتِي يَنْقَلِبُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِها، بِنِعْمَةٍ لاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ المَخْلُوقِينَ لَهَا قِيمَةً؛ لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الهِجْرَةِ أَعْرَاباً، وَبَعْدَ المُوَالاَةِ أَحْزَاباً، مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلاَمِ إِلاَّ بِاسْمِهِ، وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمانِ إِلاَّ رَسْمَهُ، تَقُولُونَ: النَّارَ وَلاَ الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْإِسْلاَمَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ ٱللهُ لَكُمْ حَرَماً فِي أَرْضِهِ، وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ.

وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لاَ جَبْرَائِيلَ وَلاَ مِيكَائِيلَ، وَلاَ مُهَاجِرِينَ وَلاَ أَنْصَارَ يَنْصُرُونَكُمْ، إِلاَّ المُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ ٱللهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَلاَ تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ، وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ ٱلْقُرُونَ المَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ ٱلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، فَلَعَنَ ٱللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ المَعَاصِي، وَٱلْحُلَمَاءِ لِتَرْكِ التَّنَاهِي.

الشرح: نفضتم أيديكم: كلمة تقال في اطّراح الشيء وتركه، وهي أبلغ من أن تقول: تركتم حبلَ الطاعة؛ لأنّ مَنْ يخلي الشيء من يده ثم ينفض يده منه يكون أشدّ تخلية له ممّن لا ينفضها بل يقتصر على تخليته فقط؛ لأن نفضها إشعار وإيذان بشدّة الأطراح والإعراض.

والباء في قوله. «بأحكام الجاهليّة» متعلقة بـ«ثلمتُم»، أي ثلمتم حصن الله بأحكام الجاهلية التي حكمتم بها في ملّة الإسلام.

والباء في قوله: «بنعمة لا يَعْرِف»، متعلقة بـ«امتنّ». و«في» من قوله «فيما عقد» متعلّقة بمحذوف، وموضعها نصب على الحال، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ

جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(١). وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾(٢).

وروي: «تتقلّبون في ظلها».

قوله: «صرتم بعد الهجرة أعراباً»، الأعراب على عهد رسول الله ﷺ مَنْ آمن به من أهل البادية، ولم يهاجر إليه، وهم ناقصوا المرتبة عن المهاجرين لجفائهم وقسوتهم وتوحّشهم، ونشئهم في بُعْدٍ من مخالطة العلماء، وسماع كلام الرسول الله ﷺ، وفيهم أنزل: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾(٣)، وليست هذه الآية في كلّ الأعراب بل خاصّة ببعضهم، وهم الّذين كانوا حول المدينة، وهم جُهَينة، وأسلم، وأشجع، وغِفَار، وإليهم أشار سبحانه بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾(٤). وكيف يكون كلُّ الأعراب مذموماً، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٥)، وصارت هذه الكلمة جارية مجرى المثل.

وأنشد الحجاج على منبر الكوفة:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بَعَصْلَبِيّ … أَرْوَعَ خَرّاجٍ مِنَ الدَّوِّيّ

مُهاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيّ

وقال عثمان لأبي ذرّ: أخشى أن تصير بعد الهجرة أعرابيًا.

وروي: «ولا يعقلون من الإيمان».

وقولهم: «النارَ ولا العارَ»، منصوبتان بإضمار فعل، أي ادخلوا النار ولا تلتزموا العار، وهي كلمة جارية مجرى المثل أيضاً، يقولها أرباب الحميّة والإباء، فإذا قيلت في حقٍّ كانت صواباً، وإذا قيلت في باطل كانت خطأ.

وأكفأت الإناء وكفأته: لغتان، أي كببتُه.

قوله: «ثم لا جبرائيلَ ولا ميكائيلَ ولا مهاجرين»، الرواية المشهورة هكذا بالنصب، وهو جائز على التشبيه بالنكرة، كقولهم: معضلة ولا أبا حسن لها. قال الراجز،

لا هَيْثَمَ اللَّيْلَةَ لِلْمَطِيّ

وقد روي بالرفع في الجميع.

والمقارعة منصوبة على المصدر. وقال الراونديّ: هي استثناء منقطع، والصواب ما ذكرناه، وقد روي: «إلا المقارعةُ» بالرفع، تقديره: ولا نصير لكم بوجه من الوجوه إلا المقارعة.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٩٩.

والأمثال التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام هي ما تضمّنه القرآن من أيام الله ونقماته على أعدائه، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].

والتناهي: مصدر تناهى القوم عن كذا، أي نهى بعضهم بعضاً، يقول: لعن الله الماضين من قبلكم؛ لأنّ سُفَهاءهم ارتكبُوا المعصية، وحلماءهم لم ينهوهم عنها، وهذا من قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[2].

الأصل: أَلاَ وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ ٱلإِسْلاَمِ، وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ.

أَلاَ وَقَدْ أَمَرَنِي ٱللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ وَٱلنَّكْثِ وَٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ، فَأَمَّا ٱلنَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا ٱلْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ ٱلرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ، وَرَجَّةُ صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ، وَلَئِنْ أَذِنَ ٱللهُ فِي ٱلْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ، لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلاَّ مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ ٱلْبِلاَدِ تَشَذُّراً.

الشرح: قد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال له عليه السلام: «ستقاتلُ بعدِي النَّاكِثين والقاسطين والمارقين»[3]، فكان النّاكثون أصحابَ الجمل؛ لأنّهم نكثوا بيعته عليه السلام، وكان القاسطون أهلَ الشام بصفّين، وكان المارقون الخوارج في النَّهروان، وفي الفرق الثلاث قال الله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[4]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[5]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «يخرج من ضئضِىء هذا قوم يمرُقون من الدين كما يمرق السَّهم من الرميّة، ينظر أحدكم في النَّصل فلا يجد شيئاً، فينظر في الفُوق، فلا يجد شيئاً، سبق الفرث والدم»[6]. وهذا الخبر من أعلام نبوّته صلى الله عليه وآله ومن أخباره المفصلة بالغيوب.

وأما شيطانُ الرَّدْهة، فقد قال قوم: إنّه ذُو الثُّدَيَّة صاحب النَّهروان، وروَوْا في ذلك خبراً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وممّن ذكر ذلك واختاره الجوْهريّ صاحب «الصحاح» وهؤلاء يقولون: إن ذا

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥. (٢) سورة المائدة، الآية: ٧٩.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٧٤)، والطبراني في «الكبير» (٤٠٤٩)، و«الأوسط» (٩٤٣٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٩).

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠. (٥) سورة الجن، الآية: ١٥.

(٦) أخرج بنحوه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ (٣٣٤٤).

الثُّدَيَّة لم يقتَلْ بسيف، ولكنّ الله رماه يوم النّهروان بصاعِقة، وإليها أشار عليه السلام بقوله: «فقد كُفِيته بصَعْقة سمُعت لها وَجْبَة قلبه»، وقال قوم: شيطان الرَّدْهة أحد الأبالسة المرَدَة من أعوان عدوّ الله إبليس، ورووْا في ذلك خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله، وأنّه كان يتعوّذ منه. والرَّدْهة: شبه نُقْرة في الجَبَل يجتمع فيها الماء، وهذا مثل قوله عليه السلام: «هذا أزبّ العقبة»، أيْ شيطانُها، ولعلّ أزبّ العَقَبة هو شيطان الردْهة بعينه، فتارة يردُ بهذا اللفْظ، وتارة يردُ بذلك اللفظ. وقال قوم: شيطان الرَّدْهة ماردٌ يتصوّر في صورةِ حيّة، ويكون عَلَى الرَّدْهة. وإنما أخذوا هذا من لَفْظة «الشيطان» لأنّ الشيطان الحيّة، ومنه قولهم: شيطان الحماطة، والحماطة شجرة مخصوصة، ويقال: إنها كثيرة الحيّات.

قوله: «ويتشذّر في أطراف الأرض»، يتمزّق ويتبدّد، ومنه قولهم: ذهبوا شَذَرَ مَذَر.

والبقيّة التي بقيَتْ من أهل البغي: مُعاوية وأصحابه؛ لأنه عليه السلام لم يكن أتى عليهم بأجمعهم، وإنما وقفت الحربُ بينه وبينهم بمكيدة التحكيم.

قوله عليه السلام: «ولئن أذنَ الله في الكَرَّة عليهم»، أي إن مُدّ لي في العمر لأديلنّ منهم، أي لتكونّن الدَّوْلة لي عليهم، أدلت من فلان أي غلبته وقهرته، وصرت ذَا دولةٍ عليه.

القول في إمامة أبي بكر والرد عليه

واعلم أن أصحابنا قد استدلّوا على صحّة إمامة أبي بكر بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[1]، ثم قال قاضي القضاة في المعنى: وهذا خبر من الله تعالى، ولا بدّ أن يكون كائناً على ما أخبر به، والذين قاتلوا المرتدّين هم أبو بكر وأصحابُه، فوجب أن يكونوا همُ الّذِين عَنَاهم الله سبحانه بقوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وذلك يوجب أن يكونوا على صواب.

واعترض المرتضى رحمه الله على هذا الاحتجاج في «الشافي» فقال: من أينَ قلت: إنّ الآية نزلتْ في أبي بكر وأصحابه؟ فإن قال: لأنّهم الّذين قاتلوا المرتدّين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا أحدَ قاتلهم سواهم، قيل له: ومَنِ الّذي سلّم لكَ ذلكَ؟ أوَ ليس أميرُ المؤمنين عليه السلام قد قاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين بعد الرسول صلى الله عليه وآله وهؤلاء عندنا مرتدّون عن الدين؟ ويشهد بصحّة التأويل زائداً على احتمال القول له، ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله يوم البصرة: والله ما قوتل أهلُ الآية حتى اليوم، وتلاها، وقد رُوي عن عَمّار وحُذيفة وغيرهما مثل ذلك[2].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) أخرجه علي بن يونس في الصراط المستقيم: ١/ ٢٨٧.

فإن قال: دليلي على أنّها في أبي بكَر وأصحابه قول أهل التفسير، قيل له: أو كلّ أهل التفسير قال ذلك؟ فإن قال: نعم، كابَر لأنّه قد رُوي عن جماعةِ التأويل الذي ذكرناه، ولو لم يكن إلاّ ما رُوِي عن أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه أصحابه الذين ذكرناهم لكفى، وإن قال: حجّتِي قولُ بعض المفسرين، قلنا: وأيّ حجّة في قول البعض! ولم صار البعضُ الّذي قال ما ذكرت أوْلَى بالحق من البعض الذي قال ما ذكرنا!

ثم يقال له: قدْ وجدْنا الله تعالى قد نعتَ المذكورين في الآية بنعوت يجب أن نراعيَها، لنعلم أفي صاحبنا هي أم في صاحبك! وقد جعله الرَّسُولُ صلى الله عليه وآله في خَيْبر حينَ فرّ مَنْ من القوم عن العدوّ صاحب هذه الأوصاف، فقال: لأعطيَنّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسولُه، كرّاراً غير فرّاراً، فدفعها إلى أمير المؤمنين عليه السلام [1].

ثم قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2]، يقتضي ما ذكرنا، لأنه من المعلوم بلا خلاف حالُ أمير المؤمنين عليه السلام في التّخاشع والتواضع، وذمّ نفسه، وقمع غضبه، وأنه ما رُئِى قطّ طائشاً ولا متطيّراً في حالٍ من الأحوال، ومعلومٌ حال صاحبَيْكم في هذا الباب، وأما العزّة على الكافرين، فإنّما تكون بقتالهم وجهادهم والانتقام منهم، وهذه حالٌ لم يسبق أميرَ المؤمنين عليه السلام إليها سابق، ولا لحقه فيها لاحق.

ثم قال تعالى: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[3]، وهذا وصفُ أمير المؤمنين المستحقّ له بالإجماع، وهو فيه نظر؛ لأنّه لا قَتيل لهما في الإسلام، ولا جهاد بين يدي الرّسُول صلى الله عليه وآله، وإذا كانت الأوصاف المراعاة في الآية حاصلة لأمير المؤمنين عليه السلام، وغير حاصلة لمن ادّعيتم؛ لأنّها فيهم على ضربيْن: ضرب معلوم انتفاؤه كالجهاد، وضَرْب مختلَف فيه كالأوصاف التي هي غير الجهاد، وعلى مَنْ أثبتها لهم الدلالة على حصولها، ولا بدّ أن يرجع في ذلك إلى غير ظاهر الآية، لم يبق في يده من الآية دليل.

هذه جُمْلة ما ذكره المرتضى رحمه الله، ولقد كان يمكنه التخلّص من الاحتجاج بالآية على وجهٍ ألطفَ وأحسن وأصحّ ممّا ذكره، فيقول: المراد بها مَن ارتدّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في واقعة الأسود العَنْسِيّ باليمن، فإنّ كثيراً من المسلمين ضلّوا به وارتدّوا عن الإسلام، وادّعوْا له النبوّة، واعتقدوا صدقَه، والقوم الّذين يحبّهم الله ويحبونه القوم الّذين كاتَبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأغراهم بقتله، والفتك به، وهم فيروز الديلميّ وأصحابُه. والقصّة مشهورة.

وقد كان له أيضاً أن يقول: لم قلت: إن الذين قاتلهم أبو بكر وأصحابُه كانوا مرتدين! فإنّ

(١) أخرجه الطبري في تفسير المجمع: ٣/ ٣٥٨.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤. (٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

المرتدّ من ينكِر دينَ الإسلام بعد أن كان قد تديّن به، والذين منعوا الزكاة لم ينكروا أصلَ دين الإسلام، وإنّما تأوّلوا فأخطأوا؛ لأنهم تأوّلوا قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[1]، فقالوا: إنّما ندفع زكاة أموالنا إلى مَنْ صلاته سَكَنٌ لنا، ولم يبق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ هُوَ بهذه الصفة، فسقط عنّا وجوب الزكاة، ليس هذا من الردّة في شيء، وإنما سمّاهم الصحابة أهل الردّة على سبيل المجاز، إعظاماً لما قالوه وتأوّلوه.

فإن قيل: إنّما الاعتمادُ على قتال أبي بكر وأصحابه لمسيْلمة وطُلَيحة اللّذيْنِ ادّعيا النبوّة، وارتدّ بطريقهما كثيرٌ من العرب، لا على قتال ما نِعِي الزكاة!

قيل: إنّ مُسَيْلِمَة وطُلَيْحة جَاهَدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بالكُتُب والرّسل، وأنفذ لقتلهما جماعةً من المسلمين، وأمرهم أن يفتكوا بهما غِيلةً إن أمكنهم ذلك، واستنفر عليهما قبائلَ من العرب، وكلُّ ذلك مفصّل مذكور في كتب السّيرة والتواريخ، فلم لا يجوز أن يكون أولئك النّفر الّذين بعثهمْ رسول الله صلى الله عليه وسلم للفتْك بهما، هم المعنيّون بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2] إلى آخر الآية! ولم يقلْ في الآية: «يجاهدون فيقتلون»، وإنّما ذكر الجهاد فقط، وقد كان الجهاد من أولئك النفر حاصلاً وإن لم يبلغوا الغرض، كما كان الجهاد حاصلاً عند حِصار الطائف وإنْ لم يبلغ فيه الغرض.

وقد كان له أيضاً أن يقول: سياقُ الآية لا يدلّ على ما ظنّه المستدلُّ بها، من أنّه مَنْ يرتدد عن الدين، فإن الله يأتي بقوم يحبّهم ويحبّونه يحاربونه لأجل رِدّته، وإنما الذي يدلّ عليه سياق الآية أنّه مَنْ يرتدّ منكم عن دينه بترك الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - وسمّاه ارتداداً على سبيل المجاز - فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه، يجاهدون في سبيل الله معه عِوَضاً عنكم، وكذلك كان كلّ مَنْ خَذَل النبيّ صلى الله عليه وسلم وقَعَد عن النهوض معه في حروبه، أغناه الله تعالى عنه بطائفة أخرى من المسلمين جاهدوا بين يديه!

وأما قول المرتَضى رحمه الله: إنّها أنزلت في النّاكثين والقاسطين والمارقين الذين حاربهم أميرُ المؤمنين عليه السلام فبعيد؛ لأنّهم لا يطلق عليهم لفظ «الردّة» عندنا، ولا عند المرتضى وأصحابه، أما اللّفظ فبالاتفّاق، وإن سمّوهم كفاراً. وأمّا المعنى فلأنّ في مذهبهم أنّ من ارتدّ - وكان قد ولد على فطرة الإسلام - بانت امرأتُه منه، وقسم ماله بين ورثته، وكان على زوجته عدّة المتوفّى عنها زوجها، ومعلوم أنّ أكثر محاربي أمير المؤمنين عليه السلام كانوا قد وُلِدُوا في الإسلام، ولم يحكم فيهم بهذه الأحكام.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣. (٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

وقوله: «إنّ الصفات غير متحقّقة في صاحبكم»، فلَعمري إنّ حظ أمير المؤمنين عليه السلام منها هو الحظُّ الأوفى، ولكن الآية ما خصّت الرئيس بالصّفات المذكورة، وإنما أطلقها على المجاهدين، وهم الذين يباشرون الحرب، فهب أنّ أبا بكر وعمر ما كانا بهذه الصفات، لم لا يجوز أن يكون مدحاً لمن جاهد بين أيديهما من المسلمين، وباشر الحرب، وهم شجعان المهاجرين والأنصار الّذين فتحُوا الفتوح، ونشروا الدّعوة، وملكوا الأقاليم!

وقد استدلّ قاضي القضاة أيضاً عن صحّة إمامة أبي بَكر، - وأسند هذا الاستدلال إلى شيخنا أبي عليّ - بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[(٣)]، يعني قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾[(٤)]. ثم قال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(٥)]، فبيَّن أنّ الذي يدعو هؤلاء المخلفين من الأعراب إلى قتال قوم أولي بأس شديدٍ غير النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأنه تعالى قد بيّن أنهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون معه عدوًّا، بآية متقدّمة، ولم يدعُهم بعد النبي صلى الله عليه وآله إلى قتال الكفار إلا أبو بكر وعمر وعثمان؛ لأنّ أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غيرَ وجهين من التأويل، فقال بعضهم: عَنَى بقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفة، وقال بعضهم: عَنَى فارس والرّوم، وأبو بكر هو الذي دعا إلى قتال بني حنيفة وقتال آل فارس والروم، ودعاهم بعده إلى قتال فارس والرّوم عُمر، فإذا كان الله تعالى قد بيَّن أنهم بطاعتهم لهما يؤتهم أجراً حسناً، وإن تولّوا عن طاعتهما يعذبهم عذاباً أليماً، صحّ أنهّما على حقٍّ، وأن طاعتهما طاعةٌ لله تعالى - وهذا يوجب صِحّة إمامتهما.

فإن قيل: إنما أراد الله بذلك أهل الجمل وصِفّين!

قيل: هذا فاسد من وجهين: أحدُهما قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، والذين حاربوا أمير المؤمنين كانوا على الإسلام، ولم يقاتلوا على الكفر. والوجه الثاني أنا لا نعرف مِن الذين عناهم الله تعالى بهذا مَنْ بقي إلى أيام أمير المؤمنين عليه السلام، كما علمنا أنهم كانوا باقين في أيام أبي بكر.

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٨٣.
(٥) سورة الفتح، الآية: ١٦.

اعترض المرتضى رحمه الله على هذا الكلام من وجهين: أحدهما أنه نازع في اقتضاء الآية داعياً يدعو هؤلاء المخلّفين غير النبي صلى الله عليه وآله، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾[1] إنّما أراد به سبحانه الّذين تخلّفوا عن الحُدَيبيَة بشهادة جميع أهل النقل وإطباق المفسّرين.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وإنّما التمس هؤلاء المخلّفون أن يخرجُوا إلى غنيمة خيبر، فمنعهم الله تعالى من ذلك، وأمر نبيّه أن يقول لهم: لن تتبعونا إلى هذه الغزاة، لأنّ الله تعالى كان حكَم من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، وأنه لاحظ لمن لم يشهدها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، وإنّما أراد أنّ الرسولَ سيدعُوكم فيما بعد إلى قتال قومٍ أولي بأسٍ شديد، وقد دعاهم النبي صلى الله عليه وآله بعد ذلك إلى غزوات كثيرة، إلى قوم أولي بأسٍ شديد، كمؤتة وحُنين وتَبُوك وغيرهما، فمن أين يجب أن يكونَ الداعي لهؤلاء غير النبي صلى الله عليه وآله، مع ما ذكرناه من الحروب التي كانت بعد خيبر!

وقوله: إن معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، إنّما أراد به ما بيّنه في قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾[3]، بتبوك سنة تسع، وآية الفتح نزلت في سنة ستّ، فكيف يكون قبلها!

وليس يجب أن يقال في القرآن بالإرادة، وبما يحتمل من الوجوه في كلّ موضع دون الرجوع إلى تاريخ نزول الآي، والأسباب التي وردت عليها، وتعلّقت بها.

وممّا يبيّن لك أنّ هؤلاء المخلّفين غيرُ أولئك لو لم نرجع في ذلك إلى نقل وتاريخ، قوله تعالى في هؤلاء: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[4]، فلم يقطع منهم على طاعة ولا معصية، بل ذكر الوعد والوعيدَ عَلَى ما يفعلونه من طاعة أو معصية، وحكم المذكورين في آية سورة التوبة بخلاف هذه لأنه تعالى بعد قوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.
(٢) سورة الفتح، الآية: ١٥.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٦.

إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[١]، واختلاف أحكامهم وصفاتهم يدلّ على اختلافهم، وأنّ المذكورين في آية سورة الفتح غيرُ المذكورين في آية سورة التوبة.

وأما قوله: لأنّ أهل التأويل لم يقولوا في هذه الآية غير وجهين من التأويل فذكرهما باطل؛ لأنّ أهل التأويل قد ذكروا شيئاً آخر لم يذكره؛ لأنّ المسيَّب روى عن أبي رَوْق عن الضحّاك في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . . .﴾[٢] الآية، قال: هم ثَقيف. وروى هُشَيم عن أبي بَشر، سعيد بن جُبَير، قال: هم هَوَازن يوم حُنين.

وروى الواقديّ، عن معمر، عن قتادة، قال: هم هوازن وثَقيف، فكيف ذكر من أقوال المفسرين ما يوافقه مع اختلاف الرواية عنهم! على أنّا لا نرجع في كلّ ما يحتمله تأويل القرآن إلى أقوال المفسِّرين، فإنهم ربما تركوا مما يحتمله القول وجهاً صحيحاً، وكما استخرج جماعةٌ من أهلِ العدل في متَشابه القرآن من الوجوه الصحيحة التي ظاهر التنزيل بها أشبه، ولها أشدّ احتمالاً، ممّا لم يسبق إليه المفسرون، ولا دخل في جملة تفسيرهم وتأويلهم.

والوجه الثاني سلّم فيه أنّ الداعي هؤلاء المخلفين غير النبيّ ﷺ، وقال: لا يمتنعُ أن يعني بهذا الدّاعي أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّه قاتل بعدَه النّاكثين والقاسطين والمارقين. وبشّره النبي ﷺ بأنّه يقاتلهم، وقد كانوا أولى بأس شديد بلا شبهة.

قال: فأمّا تعلق صاحب الكتاب بقوله: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، وأنّ الذين حاربهم أمير المؤمنين عليه السلام كانوا مسلمين، فأوّل ما فيه أنهم غير مسلمين عنده وعند أصحابه؛ لأنّ الكبائر تُخرج من الإسلام عندهم كما تخرج عن الإيمان إذ كان الإيمان هو الإسلام على مذهبهم. ثم إنّ مذهبنا في محاربي أمير المؤمنين عليه السلام معروفٌ؛ لأنهم عندنا كانوا كفّاراً بمحاربته لوجوه:

الأول منها: أن مَنْ حاربه كان مستحلاً لقتاله، مظهراً أنّه في ارتكابه على حقّ، ونحن نعلم أنّ مَنْ أظهر استحلال شرب جُرْعة خمر هو كافر بالإجماع، واستحلال دماء المؤمنين فضلاً عن أفاضلهم وأكابرهم أعظم من شرب الخمر واستحلاله، فيجب أن يكونوا من هذا الوجه كفّاراً.

الثاني: أنّه عليه السلام قال له بلا خلاف بين أهل النقل: «حَرْبك يا عليّ حَرْبي، وسِلْمك سلمي»[٣]، ونحن نعلم أنّه لم يرد إلا التشبيه بينهما في الأحكام، ومن أحكام محاربي النبيّ ﷺ الكفر بلا خلاف.

الثالث: أنّ النبيّ ﷺ قال له بلا خلاف أيضاً: «اللهمّ والِ مَنْ وَالاَه، وعادِ مَنْ عاداه

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٨٣، ٨٥. (٢) سورة الفتح، الآية: ١٦.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ٢٥.

وانصر مَنْ نصره، واخذل من خذله»[1]، وقد ثبت عندنا أنّ العداوة من الله لا تكون إلاّ للكفّار الذين يعادونه دون فُسّاق أهل الملّة.

الرابع: قوله: إنّا لا نعلمُ ببقاء هؤلاء المخلّفين إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام فليس بشيء؛ لأنّه إذا لم يكن ذلك معلوماً ومقطوعاً عليه، فهو مجوّز وغير معلوم خلافه، والجواز كافٍ لنا في هذا الموضع.

ولو قيل له: منْ أين علمتَ بقاء المخلّفين المذكورين في الآية على سبيل القطع إلى أيام أبي بكر؟ لكان يفزع إلى أن يقول: حكم الآية يقتضي بقاءَهم حتى يتمّ كونُهم مدعوّين إلى قتال أولي البأس الشديد على وجه يلزمهم فيه الطاعة، وهذا بعينه يمكن أن يقال له، ويعتمد في بقائِهم إلى أيّام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يوجبه حكم الآية.

فإن قيل: كيف يكونُ أهل الجمل وصِفّين كفّاراً ولم يسرْ أميرُ المؤمنين عليه السلام فيهم بسيرة الكفّار؛ لأنّه ما سباهم، ولا غنِم أموالهم، ولا تبع مولّيهم!

قلنا: أحكام الكفر تختلفُ، وإن شمِلهم اسمُ «الكفْر»؛ لأنّ في الكفار مَنْ يُقتَل ولا يستبقَى، وفيهم مَنْ يُؤخذ منه الجزية ولا يحلّ قتله إلا بسبب طارىء غير الكفر، ومنهم من لا يجوز نكاحه على مذهب أكثر المسلمين، فعلَى هذا يجوز أن يكون أكثر هؤلاء القوم كُفّاراً، وإن لم يسِرْ فيهم بجميع سيرة أهل الكفر؛ لأنّا قد بيّنا اختلاف أحكام الكفّار، ويرجع في أنّ حكمهم مخالف لأحكام الكفار إلى فعله عليه السلام وسيرته فيهم. على أنّا لا نجدُ في الفُسّاق مَنْ حكْمه أن يقتل مقبِلاً، ولا يقتل مولّياً، ولا يجهز على جريحه، إلى غير ذلك من الأحكام التي سيّرها في أهل البَصْرة وصِفّين.

فإذا قيل في جواب ذلك: أحكامُ الفسق مختلفة، وفعلُ أمير المؤمنين هو الحجّة في أنّ حكم أهل البصرة وصفّين ما فعله.

قلنا مثل ذلك حرفاً بحرف، ويمكن مع تسليم أنّ الداعي لهؤلاء المخلّفين أبو بكر، أن يقال: ليس في الآية دلالةٌ على مدح الداعي ولا على إمامته؛ لأنّه قد يجوز أن يدعوَ إلى الحقّ والصواب مَنْ ليس عليهما، فيلزم ذلك الفعل مِنْ حيث كان واجباً في نفسه، لا لدعاء الدّاعي إليه، وأبو بكر إنّما دعا إلى دفع أهل الرّدّة عن الإسلام، وهذا يجب على المسلمين بلا دعاءِ داع، والطاعة فيه طاعة لله تعالى، فمِنْ أين له أنّ الداعي كان على حقّ وصواب! وليس في كونِ ما دعا إليه طاعةً ما يدلُّ على ذلك.

---

(١) أخرج الشطر الأول ابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٦)، وأحمد في «مسنده» (٩٥٣).

ويمكن أيضاً أن يكون قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾، إنما أراد به دعاء الله تعالى لهم بإيجاب القتال عليهم؛ لأنه إذا دلّهم على وجُوب قتال المرتدّين، ورفعهم عن بيضة الإسلام، فقد دعاهم إلى القتال، ووجَبت عليهم الطاعة، ووجب لهم الثواب إن أطاعوا، وهذا أيضاً تحتمله الآية.

فهذه جملة ما ذكره المرتضى رحمه الله في هذا الموضع، وأكثره جيّد لا اعتراض عليه، وقد كان يمكنه أن يقول: لو سلّمنا بكلّ هذا لكان ليس في قوله: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ الآية ما يدلّ على أن النبي ﷺ لا يكون هو الداعي لهم إلى القوم أولي البأس الشديد؛ لأنه ليس فيها إلا محض الأخبار عنهم بأنّهم لا يخرجون معه، ولا يقاتلون العدوّ معه، وليس في هذا ما ينفي كونه داعياً لهم، كما أنه عليه السلام قال: «أبو لهب لا يؤمن بي»، لم يكن هذا القول نافياً لكونه يدعوه إلى الإسلام.

وقوله: ﴿فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ليس بأمر على الحقيقة، وإنما هو تهديد كقوله: ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[1] ولا بدّ للمرتضى ولقاضي القضاة جميعاً من أن يحملا صيغة «افعلْ» على هذا المحمل؛ لأنه ليس لأحدهما بمسوّغ أن يحمل الأمر على حقيقته؛ لأنّ الشارع لا يأمر بالقعود وترك الجهاد مع القدرة عليه، وكونه قد تعيّن وجوبه.

فإن قلت: لو قدّرنا أن هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[2]، أنزلت بعد غزوة تبوك، وبعد نزول سورة «براءة»، التي تتضمّن قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾، وقدرنا أنّ قوله تعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ ليس إخباراً محضاً كما تأوّلته أنت وحملت الآية عليه، بل معناه لا أخرجكم معي ولا أشهدكم حرب العدوّ، هل كان يتم الاستدلال؟

قلت: لا؛ لأنّ للإماميّة أن تقول: يجوز أن يكون الداعي إلى حرب القوم أولي البأس الشديد مع تسليم هذه المقدمات كلّها هو رسول الله ﷺ؛ لأنّه دَعاهم إلى حرب الرّوم في سَرِيّة أسامة بن زيد في صفر من سنة إحدى عشرة، لمّا سيّره إلى البلقاء، وقال له: سر إلى الروم مقتل أبيك فأوطئهم الخيول وحشد معه أكثر المسلمين، فهذا الجيش قد دُعِي فيه المخلّفون من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد في غزاة تبوك إلى قوم أولى بأس شديد، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ ولا حاربوا معه عدوًّا.

فإن قلت: إذا خرجوا مع أسامة، فكأنما خرجوا مع رسول الله، وإذا حاربوا مع أسامة العدوّ، فكأنما حاربوا مع رسول الله ﷺ، وقد كان سبق أنّهم لا يخرُجون مع رسول الله ﷺ ولا يحاربون معه عَدُوًّا.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الفتح، الآية: ١٦.

قلت: وإذا خرجوا مع خالد بن الوليد وغيره في أيّام أبي بكر، ومع أبي عُبيدة وسعد في أيام عمر، فكأنما خرجوا مع رسول الله ﷺ، وحاربوا العدوّ معه أيضاً.

فإن اعتذرت بأنه وإن شابه الخروج معه والحرب معه إلا أنه على الحقيقة ليس معه، وإنما هو مع امرىءٍ من قبل خلفائه.

قيل لك: وكذلك خروجهم مع أسامة ومحاربة العدوّ معه، وإن شَابَهُ الخروج مع النبي ﷺ ومحاربة العدوّ معه، إلا أنه على الحقيقة ليس معه، وإنما هو مع بعض أمرائه.

ويمكن أن يعترض الاستدلال بالآية، فيقال: لا يجوز حملُها على بني حنيفة؛ لأنّهم كانوا مسلمين، وإنما منعوا الزكاة مع قولهم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﷺ، ومنع الزكاة لا يخرج به الإنسان عنَ الإسلام عند المرجئة، والإماميّة مرجئة، ولا يجوز حملها على فارسَ والرّوم؛ لأنه تعالى أخبر أنه لا واسطة بين قتالهم وإسلامهم، كما تقول: إمّا كذا وإمّا كذا، فيقضي ذلك نفي الواسطة، وقتال فارس والروم بينه وبين إسلامهم واسطة، وهو دفع الجزية، وإنما تنتفي هذه الواسطة في قتال العرب؛ لأنّ مشركي العرب لا تؤخذ منهم الجزية، فالآية إذنْ دالّة على أنّ المخلّفين سيُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد الحكم فيهم، إمّا قتالهم وإمّا إسلامهم، وهؤلاء هم مشركو العرب، ولم يحارب مشركي العرب إلاّ رسول الله ﷺ، فالدّاعي لهم إذاً هو رسولُ الله ﷺ، وبطل الاستدلال بالآية.

الأصل: أَنَا وَضَعْتُ بِكَلاَكِلِ ٱلْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَر. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْقَرَابَةِ ٱلْقَرِيبَةِ، وَٱلْمَنْزِلَةِ ٱلْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ، وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ ٱللهُ بِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ ٱلْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ ٱلْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ ٱتِّبَاعَ ٱلْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ، وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ ٱلْوَحْيِ وَٱلرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ ٱلنُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ ٱلشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ ٱلْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقُلْتُ: يَا

رَسُولَ ٱللهِ، مَا هَذِهِ ٱلرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هَذَا ٱلشَّيْطَانُ، قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ.

الشرح: الباء في قوله: «بكلاكل العرب» زائدة. والكلاكل: الصُّدُور، الواحد كَلْكل، والمعنى أنّي أذللتهم وصرعتهم إلى الأرض.

ونواجم قرون ربيعة ومضر: مَنْ نجم منهم وظهر، وعلا قدرُه، وطار صيته.

فإن قلت: أمّا قهره لِمُضرَ فمعلوم، فما حال ربيعة، ولم نعرف أنه قتل منهم أحداً؟ قلت: بلَى قد قتل بيده وبجيشه كثيراً من رؤسائهم في صِفّين والجمل، فقد تقدم ذكر أسمائهم من قبل، وهذه الخطبة بها بعد انقضاء أمر النهروان.

والعَرْف بالفتح: الرّيح الطّيبة، ومضَغ الشيء يمضَغه بفتح الضاد.

والخطْلة في الفعل: الخطأ فيه، وإيقاعه على غير وجهه.

وحِراء: اسم جبل بمكّة معروف.

والرّنّة: الصوت.

صلة علي برسول الله ﷺ في صغره

والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله ﷺ دون غيره من الأعمام، كونه ربّاه فيي حِجْره، ثم حامَى عنه ونصره عند إظهار الدّعوة دونَ غيره من بني هاشم، ثمّ ما كان بينهما من المُصاهرة التي أفضتْ إلى النّسل الأطْهر دون غيره من الأصهار. ونحن نذكر ما ذكره أرباب السِّيَر من معاني هذا الفصل.

روى الطبريّ في تاريخه، قال: حدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سلَمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق قال: حدثني عبدُ الله بن نَجيح، عن مجاهد، قال: كان من نعمة الله عزّ وجلّ عَلَى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وما صنع الله له، وأراد به من الخيْر، أنّ قريشاً أصابتْهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثير، فقال رسول الله ﷺ للعبّاس - وكان من أيسر بني هاشم: يا عبّاس، إنّ أخاك أبا طالب كثيرُ العيال، وقد تَرى ما أصاب النّاسَ من هذه الأزمة، فانطلق بنا، فلنخفّف عنه من عِياله، آخذُ من بيته واحداً، وتأخذُ واحداً، فنكفِيهما عنه. فقال العبّاس: نعم، فانطلقا حتى أتَيا أبا طالب، فقالا له: إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشفَ عن النّاس ما هم فيه، فقال لهما: إنْ تركتما لي عَقِيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفراً رضي الله عنه، فضمّه إليه، فلم يزل

عليّ بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى بعثه الله نبيًّا، فاتبعه عليٌّ عليه السلام، فأقرّ به وصدّقه، ولم يزل جعفرٌ عند العبّاس حتى أسلم واستغنى عنه(١).

قال الطبريّ: وحدّثنا ابنُ حميد، قال: حدّثنا سَلمة، قال: حدّثنا محمد بن إسحاق، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا حضرت الصَّلاة خرَج إلى شعاب مكّة، وخرج معه عليّ بن أبي طالب عليه السلام مستخفياً من عمّه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصلّيان الصّلوات فيها، فإذا أمسَيا رجَعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكُثا.

ثم إنّ أبا طالب عثر عليهما وهُما يصلّيان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله: يابنَ أخي، ما هذا الذي أراك تدين به؟ قال: يا عمّ هذا دينُ الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت يا عمّ أحقّ مَنْ بذلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهدى، وأحقّ مَنْ أجابني إليه، وأعانني عليه - أو كما قال - فقال أبُو طالب: يابنَ أخي، إنّي لا أستطيع أن أفارقَ ديني ودين آبائي، وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلُص إليك شيء تكرهُه ما بقيتُ.

قال الطبريّ: وقد روى هؤلاءُ المذكورون أنّ أبا طالب قال لعليّ عليه السلام: يا بنيّ، ما هذا الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبتِ، إنّي آمنتُ بالله وبرسوله، وصدّقته بما جاء به، وصلّيت لله معه، قال: فزعموا أنه قال له: أمَا إنّه لا يدعُو إلاّ إلى خير، فالزمه.

وروى الطّبريّ في تاريخه أيضاً، قال: حدثنا أحمدُ بن الحسين التِّرمِذِيّ، قال: حدّثنا عبد الله بن موسى، قال: أخبرنا العَلاء، عن المِنهال بن عمرو، عن عبد الله بن عبد الله، قال: سمعتُ عليًّا عليه السلام، يقول: أنا عبدُ الله، وأخو رسوله، وأنا الصّديق الأكبر، لا يقولُها بعدي إلا كاذب مُفْتَرٍ، صَلَّيْتُ قَبْلَ الناس بِسبْع سنين(٢).

وفي غير رواية الطبريّ: أنا الصّديق الأكبر وأنا الفاروق الأوّل، أسلمت قبل إسلام أبي بكر، وصلّيت قبل صلاته بسبع سنين(٣). كأنّه عليه السلام لم يرتَضِ أنْ يذكر عمر ولا رآه أهلاً لمقايسة بينه وبينه، وذلك لأنّ إسلام عمر كان متأخراً.

وروى الفضلُ بن عبّاس رحمه الله، قال: سألتُ أبي عن ولد رسول الله صلى الله عليه وآله الذُّكور، أيّهم كان رسول الله صلى الله عليه وآله له أشدَّ حبًّا؟ فقال: عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، فقلت له: سألتُك عن بَنِيه،

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ٢٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ١٢٠، وأخرجه الطبراني في الأوسط: ٧/ ٢٥٤.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٨/ ٢٦٠.

فقال: كان أحبَّ إليه من بنيه جميعاً وأرأف، ما رأيناه زايله يوماً من الدّهر منذ كان طِفلاً، إلاّ أنْ يكون في سفر لخديجة، وما رأينا أباً أبرّ بابنٍ منه لعليّ، ولا ابناً أطوع لأبٍ من عليّ له[1].

وروى الحُسين بن زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام، قال: سمعتُ زيداً أبي عليه السلام يقول: كان رسول الله يمضغ اللَّحمة والتّمره حتى تلين، ويجعلهما في فم عليّ عليه السلام وهو صغير في حِجْره، وكذلك كان أبي عليّ بنُ الحسين عليه السلام يفعل بي، ولقد كان يأخذ الشيء من الورك وهو شديد الحرارة، فيبرّده في الهواء، أو ينفخ عليه حتى يبرد، ثم يُلْقِمُنيه، أفيشفقُ عليّ من حرارة لقمة ولا يشفق عليّ من النار! لو كان أخي إماماً بالوصيّة كما يزعم هؤلاء، لكان أبي أفضَى بذلك إليّ وَوَقاني من حرّ جهنم.

وروى جبير بن مُطْعِم، قال: قال أبي مُطعم بن عديّ لنا ونحن صبيان بمكة: ألا تروْن حبّ هذا الغلام - يعني عليًا - لمحمد واتّباعه له دون أبيه! واللّات والعُزّى، لوددتُ أنّ ابني بفتيان بني نوفل جميعاً!

وروى سَعيد بن جُبير، قال: سألت أنسَ بن مالك، فقلت: أرأيتَ قولَ عمر عن السّتّة: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو عنهم راضٍ؟ ألم يكن راضياً عن غيرهم من أصحابه؟ فقال: بلَى، مات رسول الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عن كثير من المسلمين، ولكن كان عن هؤلاء أكثر رضاً، فقلت له: فأيّ الصّحابة كان رسول الله صلى الله عليه وآله له أحمد؟ أو كما قال - قال: ما فيهم أحدٌ إلا وقد سخط منه فعلاً، وأنكر عليه أمراً، إلا اثنان: عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة، فإنهما لم يقترفا منذ أتى الله بالإسْلام أمراً أسخطا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

حياة الرسول صلى الله عليه وآله في بدء نشأته

وينبغي أنْ نذكُر الآن ما ورد في شأن رسول الله صلى الله عليه وآله .وعِصْمته بالمِلائكة، ليكونَ ذلك تقريراً وإيضاحاً لقوله عليه السلام: «ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملكٍ من ملائكته»، وأن نذكر حديث مُجاورته عليه السلام بحراء، وكون عليّ عليه السلام معه هناك، وأن نذكر ما وردَ في أنه لم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غيرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وعليًا وخديجة، وأن نذكُرَ ما ورد في سماعه رنّة الشيطان، وأن نذكر ما ورد في كونه عليه السلام وزيراً للمصطفى صلوات الله عليه.

أما المقام الأول فروى محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب «السيرة النبوية»، ورواه أيضاً محمد بن جرير الطبري في تاريخه، قال: كانتْ حليمة بنت أبي ذُويب السَّعْدية أمّ

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٨/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه أحمد بما معناه في مسنده: ١/ ١٥.

رسول الله ﷺ التي أرضعته تحدّث أنها خرجت من بلدها ومعها زوجُها وابنٌ لها ترضِعه في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسْنَ الرُّضّاع بمكّة، في سنة شَهْباء لم تُبْقِ شيئاً، قالت: فخرجتُ على أتان لنا قَمْرَاء عجفاء، ومعنا شارفٌ لنا، ما تُبِضّ بقطرة، ولا ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيّنا الذي معنا من الجوع، ما في ثديَّي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذّيه، ولكنّا نرجُو الغيث والفَرَج. فخرجت على أتاني تلك، ولقد أراثت بالركب ضعفاً وعَجَفاً، حتى شقّ ذلك عليهم، حتى قدمْنا مكة نلتمس الرُّضّاع فما منّا امرأة إلاّ وقد عُرِض عليها محمد ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنّه يتيم، وذلك أنّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فكنا نقول: يتيم، ما عسى أن تصنع أمّه وجدّه! فكنّا نكرهه لذلك، فما بقيَت امرأة ذهبتْ معي إلا أخذتْ رضيعاً غيري، فلمّا اجتمعنا للانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجعَ من بين صواحبي لم آخذ رَضيعاً، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، قال: لا عليك أن تفعلي! وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبت إليه فأخذته، وما يحملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلمّا أخذته رجعت إلىَ رَحْلِي، فلمّا وضعته في حِجْري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فرضع حتى رَوِيَ وشرب معه أخوه حتى روِيَ، وما كنا ننام قبل ذلك من بكاء صبيّنا جوعاً فنام، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فنظر إليها فإذا أنّها حافِل، فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريًّا وشبَعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحْنا: أتعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نَسَمة مباركة، فقلت: والله إني لأرجُو ذلك، ثم خرجنا وركبت أتاني تلك، وحملْتُه معي عليها، فوالله لقطعتُ بالركّب ما يقدر عليها شيء حميرهم حتى إنّ صواحبي لَيَقُلْن لي: ويحكِ يا بنت أبي ذؤيب! اربَعِي علينا، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها! فأقول لهنّ: بلَى والله، إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأناً.

قلت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد - وما أعلم أرضاً من أرض العرب أجدب منها - فكَانت غنمي ترُوح عَلَيّ حين قدمنا به معنا شباعاً ملأى لبناً، فكنا نحتلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضَرْع، حتى إنّ الحاضر من قومنا ليقولون لرعاتهم: ويلكم؟ اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب! فيفعلون، فتروح أغنامُهم جياعاً ما تُبِضّ بقطرة، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزلْ نعرف من الله الزيادة والخير به حتى مضت سنتاه وفصَلْتُه، فكان يشِبّ شَباباً لا يشِبّه الغلمان فلم يبلغ سنتيه، حتى كان غلاماً جَفْراً، فقدمنا به على أمّه آمنة بنت وهب، ونحن أحرصُ شيء على مكثه فينا، لما كنّا نرى من برَكته، فكلّمنا أمّه، وقلنا لها: لو تركتِه عندنا حتى يغلظ! فإنا نخشى عليه وباء مكّة، فلم نزل بها حتى ردّته معنا.

فرجعنا به إلى بلاد بني سعد، فوالله إنّه لبَعْد ما قدمنا بأشهر مع أخيه في بَهْم لنا خلْف بيوتنا، إذا أتانا أخوه يشتدّ، فقال لي ولأبيه: ها هو ذاك أخي القرشيّ، قد جاءه رجلاَن عليهما

ثياب بياض، فأضجعاه وشقّا بطنه، فهما يَسُوطانه. قالت: فخرجت أنا وأبُوه نشتد نحوه، فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا: ما لك يا بنيّ! قال: جاءني رجُلان عليهما ثياب بيض فأضجعني ثم شقّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو!

قالت: فرجعنا به إلى خِبائنا، وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله.

قالت: فاحتملته حتى قدمتُ به على أمّه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت لها: قد بلغ الله بابنيّ، وقضيت الّذي عليّ، وتخوّفت عليه الأحداث وأدّيته إليكِ كما تحبّين. قالت: أتخوّفتِ عليه الشيطان؟ قلت: نعم، قالت: كلاّ والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابني شأناً، أفلا أخبرك خبرَه؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملتُ به أنّه خرج منّي نورٌ أضاءت له قصورُ بُصْرَى من الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت حَمْلاً قطّ كان أخفَّ ولا أيسرَ منه، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض، ورافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقي راشدة[1].

قال: وروَى الطّبري في «تاريخه» عن شدّاد بن أوْس، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يحدّث عن نفسِه، ويذكر ما جرى له وهو طِفْلٌ في أرض بني سعد بن بكر، قال: لمّا وُلدت استرضِعْتُ في بني سعد، فبينا أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن وادٍ مع أترابٍ لي من الصبيان، نتقاذف بالجِلّة، إذا أتاني رهط ثلاثة، معهم طشْت من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذوني من بين أصحابي، فخرج أصحابي هُرّاباً حتى انتهوْا إلى شفير الوادي، ثم عادوا إلى الرَّهْط، فقالوا: ما أرَبُكُم إلى هذا الغلام، فإنه ليس منّا! هذا ابن سيّد قريش، وهو مسترضَع فينا، غلام يتيم ليس له أب، فماذا يردُّ عليكم قتلُه، وماذا تصيبون من ذلك! ولكن إن كنتم لا بد قاتليه، فاختاروا منّا أيّنا شِئْتم فاقتلوه مكانه، ودَعُوا هذا الغلام، فإنه يتيم.

فلمّا رأى الصّبيان أنّ القوم لا يحِيرون لهم جواباً، انطلقوا هُرّاباً مسرعين إلى الحيّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القَوْم، فعمَد أحدهم، فأضجعاني إضجاعاً لطيفاً، ثم شقّ ما بين مفرِق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حِسًّا، ثم أخرج بطنِي فغسلها بذلك الثّلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني منهم، فقال لصاحبه: تنحَّ، فنحّاه عنّي، ثم أدخل يده في جوفِي، وأخرج قلبي، وأنا أنظر إليه، فصدَعه ثم أخرج منه مُضْغة سوداء فرَماها، ثم قال بيده: يمنةً منه وكأنه يتناول شيئاً، فإذا في يده خاتم من نور، تحارُ أبصار الناظرين دونه، فختم به قلبي، ثم أعاده مكانه فوجدتُ بَرْدَ ذلك الخاتم في قلبي دهراً، ثم قال

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ١/ ٥٧٥.

الثالث لصاحبه: تنحّ عنه، فأمرّ يدَه ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشقّ، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً، وقال للأوّل الّذي شقّ بطني: زنْه بعشَرة من أمّته، فوزنني بهم فرجحتهم، فقال: دعوه، فلو وزنتموه بأمّته كلّها لرجحهم، ثم ضمُّوني إلى صدرهم، وقبّلوا رأسي وما بين عينيّ، وقالوا: يا حبيبَ الله، لا تُرَعْ، إنك لو تدرِي ما يُراد بك من الخير لقرّت عيناك! فبينا أنا كذلك إذا أنا بالحيّ قد جاؤوا بحذافيرهم، وإذا أمّي - وهي ظئري - أمام الحيّ تهتف بأعلى صوتها، وتقول: يا ضعيفاه! فانكبّ عليّ أولئك الرّهط فقبّلوا رأسي وما بيْن عينيّ، وقالوا: حبّذا أنت من ضعيف! ثم قالت ظئري: يا وحيداه! فانكبُّوا عليّ، وضمّوني إلى صدورهم، وقبّلوا رأسي وما بين عينيّ، ثم قالوا: حَبّذا أنتَ من وحيد! وما أنت بوحيد! إن الله وملائكتَه معك والمؤمنين من أهل الأرض، ثم قالت ظئري: يا يتيماه! استضعَفْتَ من بين أصحابك، فقتِلْتَ لضعفك، فانكبوا عليّ وضمّوني إلى صُدورهم، وقبّلوا رأسي وما بين عينيّ، وقالوا: حبّذا أنت من يتيم! ما أكرمك على الله لو تعلَمُ ما يراد بك من الخير! قال: فوصَل الحيّ إلى شفير الوادي، فلمّا بَصُرَتْ بي أمّي - وهي ظئري - نادتْ: يا بنّي، ألا أراك حيًّا بعد! فجاءت حتى انكبّت عليّ، وضمَّتني إلى صدرها، فوالّذي نفسِي بيده، إنّي لفي حجرها قد ضمّتني إليها، وإنّ يدي لفي يد بعضهم، فجعلت ألتفت إليهم، وظننت أنّ القوم يبصرونهم، فإذا هم لا يبصرونهم، فيقول بعض القوم: إنّ هذا الغلام قد أصابه لَمَم، أو طائف من الجنّ، فانطلقوا به إلى كاهن بني فلان، حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت: ما بي شيء ممّا يذكرون، نفسي سليمة، وإن فؤادي صحيحٌ، ليست بي قَلَبة. فقال أبي - وهو زوج ظئري: ألا ترَوْن كلامَه صحيحاً! إني لأرجو ألاّ يكونَ على ابني بأس.

فاتفق القوم على أن يذهَبُوا إلى الكاهن بي، فاحتملوني حتى ذهبوا بي إليه، فقصّوا عليه قصّتي، فقال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فهو أعلمُ بأمره منكم، فسألني فقصصتُ عليه أمري، وأنا يومئذٍ ابن خمس سنين، فلمّا سمع قولي وَثَب وقال: يا للعرب! اقتُلوا هذا الغلام فهو واللاّتِ والعُزّى لئن عاش ليبدِّلنّ دينَكم، وليخالِفَنّ أمرَكم، وليأتينّكم بما لم تسمعوا به قط، فانتزعتني ظئري من حجره، وقالت: لو علمت أنّ هذا يكون من قولك ما أتيتُك به، ثم احتملوني فأصبحتُ وقد صار في جَسَدِي أثر الشّقّ، ما بين صدري إلى منتهى عانتي كأنه الشّراك[1].

ورُوِي أنّ بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام سأله عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾[2]. فقال عليه السلام: يوكل الله

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٥/ ٣٦٨.
(٢) سورة الجن، الآية: ٢٧.

تعالى بأنبيائه ملائكةً يُحصُون أعمالهم، ويؤدُّون إليه تبليغَهم الرّسالة، ووكّل بمحمّد ﷺ مَلَكاً عظيماً منذ فُصِل عن الرّضاع يُرشِده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوىء الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: السّلام عليك يا محمد يا رسول الله وهو شابٌّ لم يبلغ دَرَجة الرّسالة بعد، فيظنّ أنّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمّل فلا يرى شيئاً[1].

وروى الطبريّ «التاريخ» عن محمّد ابن الحنفيّة، عن أبيه عليّ عليه السلام، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيءٍ ممّا كان أهل الجاهليّة يعمَلون به غير مرّتين، كل ذلك يحولُ الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوءٍ حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلةً لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمُرَ بها كما يسمُر الشباب، فخرجت أريد ذلك، حتى إذا جئت أوّل دارٍ من دُور مكة، سمعت عَزْفاً بالدُّفّ والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا فلان تزوّج ابنة فلان، فجلست أنظر إليهم، فضرب الله على أذني فنِمْت، فما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما صنعتُ شيئاً، ثم أخبرته الخبَرَ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، فقال: أفعل، فخرجت فسمعت حين دخلت مكّة مثلَ ما سمعت حين دخلتُها تلك الليلة، فجلست أنظر، فضرَب الله على أذني، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فأخبرته الخبر، ثم ما هممتُ بعدها بسوء، حتى أكرمني الله برسالته»[2].

وروى محمد بن حبيب في «أماليه» قال: قال رسول الله ﷺ: «أذكُر وأنا غلام ابن سبع سنين، وقد بنى ابن جُدْعان داراً له بمكّة، فجئت مع الغلمان نأخذ التراب والمدرَ في حُجورنا فننقله، فملأت حِجْري تُراباً فانكشفت عورتي، فسمعت نداءً من فوق رأسي: يا محمد، أرْخِ إزارك، فجعلت أرفع رأسي فلا أرى شيئاً، إلا أني أسمع الصوت، فتماسكت ولم أُرْخِ، فكأنَّ إنساناً ضربني عَلَى ظَهْري، فخررت لوجهي، وانحلّ إزاري فسترني، وسقط التراب إلى الأرض، فقمت إلى دار أبي طالب عمّي ولم أعد»[3].

وأما حديثُ مجاورته عليه الصلاة والسلام بحِراء فمشهور، وقد ورد في الكتب الصحاح أنه كان يجاور في حِراء من كلّ سنة شهراً، وكان يُطعِم في ذلك الشهر مَنْ جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من حِراء، كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة قَبل أن يدخُلَ بيته،

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٥/ ٣٦٢.
(٢) أنظر «تاريخ الطبري» (١/ ٥٢٠).
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: (١٥/ ٣٦٢).

فيطوفَ بها سبعاً، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى جاءت السّنَة الّتي أكرمه الله فيها بالرّسالة، فجاور في حِراء شهر رمضان، ومعه أهلُه: خديجة وعليّ بن أبي طالب وخادم لهم، فجاءه جبريل بالرسالة، وقال عليه والصلاة والسلام: «جاءني وأنا نائم بنَمَط فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ، فغتنّي حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]. فقرأته، ثم انصرف عَنّي فانتبهت من نومي، وكأنما كتِب في قلبي كتاب» وذكر تمام الحديث.

وأما حديث أنّ الإسلام لم يجتمع عليه بيت واحدٌ يومئذٍ إلا النبيّ وهو عليه السلام وخديجة، فخبر عفيف الكنديّ مشهور، وقد ذكرناه من قبل، وأنّ أبا طالب قال له: أتدرِي من هذا؟ قال: لا قال: هذا ابنُ أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، وهذا ابني عليّ بن أبي طالب، وهذه المرأة خَلْفهما خديجة بنت خويلد، زوجة محمد ابن أخي، وايمُ الله ما أعلم على الأرض كلِّها أحداً على هذا الدّين غير هؤلاء الثلاثة.

وأمّا رنّة الشيطان، فروى أبو عبد الله أحمد بن حنبل في مُسنَده، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله صبيحَة اللّيْلة التي أسريَ به فيها، وهو بالحِجْر يصلّي، فلما قضَى صلاتَه، وقضيتُ صلاتي، سمعت رَنّةً شديدةً، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرّنة؟ قال: «ألا تعلم! هذه رنّة الشيطان، علم أنّي أسرِي بي الليلة إلى السماء، فأيس من أن يُعْبَد في هذه الأرض»[3].

وقد رُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وآله ما يشابه هذا، لمّا بايعه الأنصار السّبْعون ليلة العَقبة سُمع من العقبة صوتٌ عالٍ في جوف الليل: يا أهلَ مكّة، هذا مذمّم والصباة معه قد أجمعوا على حربكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار: «ألا تسمعون ما يقول! هذا أزَبُّ العقبة» - يعني شيطانها، وقد روي: «أزيب العقبة». ثم التفت إليه، فقال: «استمع يا عدوَّ الله، أما والله لأفرغنّ لك»[4].

وروي عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: كان عليٌّ عليه السلام يَرَى مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبلَ الرسالة الضَّوء ويسمع الصوت، وقال له صلى الله عليه وآله: «لولا أني خاتم الأنبياء لكنتَ شريكاً في النبوّة، فإن لا تكن نبيًّا فإنّك وصيّ نبيّ ووارثه، بل أنت سيّد الأوصياء وإمام الأتقياء»[5].

وأما خبر الوزارة، فقد ذكره الطبريّ في تاريخه، عن عبد الله بن عباس عن عليّ بن أبي

(١) سورة العلق، الآية: ١. (٢) سورة العلق، الآية: ٥.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٨/ ٢٢٤.
(٤) أنظر الغدير: ٣/ ٢٤٢، والإمام علي الهمداني: ٥٣٢.
(٥) أخرجه ابن البطريق في العمدة: ١٢.

طالب عليه السلام، قال لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[١]، عَلَى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعاني، فقال: يا عليّ، إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرَتك الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً، وعلمت أني متى أنادهم بهذا الأمر أرَى منهم ما أكره، فصمتُّ حتى جاءني جبريل عليه السلام، فقال: يا محمّد، إنّك إن لم تفعل ما أُمِرْتَ به يعذّبك ربُّك، فاصنع لنا صاعاً من طعام، واجعل عليه رِجْلَ شاة، واملأ لنا عُسًّا من لَبَن، ثم أجمع بني عبد المطلب حتى أكلّمهم، وأبلّغهم ما أمرت به. ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، وفيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب، فلمّا اجتمعوا إليه دعا بالطّعام الّذي صنعت لهم، فجئت به، فلمّا وضعتُه تناول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بَضْعَةً من اللّحم فشقّها بأسنانه، ثم ألقاها في نَواحي الصَّحْفة، ثم قال: كلُوا باسم الله، فأكلوا حتّى ما لهم إلى شيء من حاجة، وايمُ الله الّذي نفس عليّ بيده، إن كان الرّجُل الواحد منهم ليأكل ما قدّمته لجميعهم، ثم قال: اسقِ القومَ يا عليّ، فجئتهم بذلك العُسّ فشربوا منه، حتى رووا جميعاً، وايمُ الله إنْ كان الرجل منهم ليَشرب مثله، فلمّا أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكلّمهم بدَره أبو لهب إلى الكلام، فقال: لَشَدَّ ما سحرَكم صاحبُكم! فتفرّق القومُ، ولم يكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال من الغد: يا عليّ، إنّ هذا الرّجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول، فتفرّق القوم قبل أن أكلّمَهم، فعد لنا اليوم إلى مثل ما صنعت بالأمس، ثم أجمعهم لي. ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطّعام، فقرّبته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتّى ما لهم بشيء حاجة، ثم قال: أسقِهم، فجئتهم بذلك العُسّ، فشربوا منه جميعاً، حتى رووا، ثم تكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: **«يا بنِي عبدِ المطلب، إنّي والله ما أعلمُ أنّ شابًا في العَرَب جاء قومه بأفضل مِمَّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدُّنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوَكم إليه، فأيّكم يوازرني على هذا الأمر، عَلَى أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟»** فأحجم القوم عنه جميعاً، وقلت أنا - وإنّي لأحدَثهم سِنًّا وأرمصُهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمَشُهم ساقاً: أنا يا رسول الله أكونُ وزيرَك عليه، فأعاد القول، فأمسكوا وأعدت ما قلت، فأخذ برقبتِي، ثم قال لهم: **«هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»**. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[٢].

ويدلّ على أنّه وزيرُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نصّ الكتاب والسنة قول الله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾[٣]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الخبر

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ٦٣، وذكره ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٣٦٤.

(٣) سورة طه، الآيات: ٢٩ - ٣١.

المجمع عَلَى روايته بين سائرِ فرَق الإسلام: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيّ بعدي»[١]، فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى، فإذن هو وزير رسول الله صلى الله عليه وآله، وشادّ أزره، ولولا أنه خاتم النبيين لكان شريكاً في أمره.

وروى أبو جعفر الطبري أيضاً في «التاريخ»، أنّ رجلاً قال لعليّ عليه السلام: يا أميرَ المؤمنين، بم ورثْت ابن عمّك دون عَمّك؟ فقال عليّ عليه السلام: هاؤم ثلاث مرات، حتى اشرأبّ الناس، ونَشَرُوا آذانهم، ثم قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وآله بني عبد المطلب بمكّة، وهم رهطه كلهم، يأكل الجَذَعة، ويشرب الفِرْق، فصنع مُدًّا من طعام، حتى أكلوا وشبِعوا وبقِيَ الطعام كما هو، كأنه لم يمسّ، ثم دعا بغُمَر، فشربوا ورَووا، وبقي الشراب كأنه لم يشرب، ثم قال: يا بني عبد المطلب، إنّي بُعِثتُ إليكم خاصّة، وإلى النّاس عامّة، فأيكم يبايُعني على أن يكون أخي وصاحبي، ووارثي؟ فلم يقُمْ إليه أحدٌ، فقمت إليه، وكنت مِنْ أصغر القوم، فقال: اجلس، ثم قال ذلك ثلاث مرّات، كلّ ذلك أقوم إليه، فيقول: اجلس، حتى كان في الثالثة، فضرب بيده على يدي، فعند ذلك ورثْتُ ابنَ عَمّي دون عمّي[٢].

الأصل: وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لَمَّا أَتَاهُ ٱلْمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ، وَلاَ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: وَمَا تَسْأَلُونَ؟ قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ، حَتّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ ٱللهُ لَكُمْ ذٰلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ! قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لاَ تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ، وَأَنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي ٱلْقَلِيبِ، وَمَنْ يُحَزِّبُ ٱلأَحْزَابَ، ثُمَّ قَالَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يٰأَيَّتُهَا ٱلشَّجَرَةُ، إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ ٱللهِ، وَٱلَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لاَنْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ ٱلطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرَفْرِفَةً، وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا ٱلأَعْلَى عَلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠٦)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤).

(٢) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال رقم ٣٦٥٢.

وَآلِهِ وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ ٱلْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ، قَالُوا عُلُوًّا وَٱسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا، وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَقَالُوا كُفْراً وَعُتُوًّا: فَمُرْ هَذَا ٱلنِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ صَلَّى عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ، فَقُلْتُ أَنَا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ ٱلشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ ٱللهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ، وَإِجْلاَلاً لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ ٱلْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ ٱلسِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلاَّ مِثْلُ هٰذَا! يَعْنُونَنِي - وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لاَ تَأْخُذُهُمْ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ، سِيمَاهُمْ سِيمَا ٱلصِّدِّيقِينَ، وَكَلاَمُهُمْ كَلاَمُ ٱلْأَبْرَارِ، عُمَّارُ ٱللَّيْلِ، وَمَنَارُ ٱلنَّهَارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ ٱلْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ ٱللهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ، لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَلاَ يَعْلُونَ، وَلاَ يَغُلُّونَ وَلاَ يُفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي ٱلْجِنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي ٱلْعَمَلِ.

الشرح: الملأ الجماعة. ولا تفيئون: لا ترجعون. ومن يُطرح في القَليب، كعُتْبة وشَيْبة ابني ربيعة بن عبد شمس وعمرو بن هشام بن المغيرة، المكنّى أبا جهل وغيرهم، طُرحوا في قلَيب بدْر بَعد انقضاء الحرْب، ومن يحزّب الأحزاب، أبو سفيان صخر بن حرب بن أميّة.

والقَصْف والقصيف: الصوت. وسيماهم: علامتهم، ومثله «سيمياء».

ومعنى قوله عليه السلام: «قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»، أنّ قلوبهم ملتذّة بمعرفة الله تعالى وأجسادهم نصِبة بالعبادة.

وأمّا أمرُ الشجرة التي دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله، فالحديث الوارد فيها كثيرٌ مستفيض، قد ذكره المحدّثون في كتبهم، وذكره المتكلّمون في معجزات الرسول الله صلى الله عليه وآله، والأكثرون رووا الخبر فيها على الوَضْع الّذي جاء في خطبة أمير المؤمنين، ومنهم من يروي ذلك مختصراً أنّه دعا شجرة فأقبلت تخُدّ إليه الأرض خَدًّا.

وقد ذكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» حديث الشجرة، ورواه أيضاً محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي على وجْه آخر، قال محمد بن إسحاق: كان رُكانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدَّ قريش كلّها، فخلا يوماً برسول الله صلى الله عليه وآله في بعض شِعاب مكة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا رُكانة، ألا تتقي الله، وتقبل ما أدعوك إليه؟» قال: لو أعلم أنّ الذي تقول حقٌّ لاتّبعتك، قال: «أفرأيت إن صرعتُك، أتعلم أنّ ما أقول لك حقّ؟» قال: نعم، قال: «فقم حتى أصارعَك»، فقام رُكانة، فلمّا بطش به رسول الله صلى الله عليه وآله

أضْجَعه لا يملك مِنْ نفسه شيئاً، فقال: عُدْ يا محمد، فعادَ فصرعه، فقال: يا محمّد، إن هذا لعجبٌ حينَ تصرعُني، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وأعجب من ذلك إن شئت أريتُكَه، إن اتقيتَ الله، واتّبعت أمري»، قال: ما هو؟ قال: «أدعو لك هذه الشجرة التي تراها، فتأتي»، قال فادْعُها، فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يديّ رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: «ارجعي إلى مكانك»، فرجعتْ إلى مكانها، فرجع رُكانة إلى قومه، وقال: يا بني عبد مناف، ساحِروا بصاحبكم أهلَ الأرض! فما رأيت أسحَر منه قط، ثم أخبرهم بالذي رأى، والذي صنع[1].

في إسلام أبي بكر وعلي عليهما السلام

وينبغي أن نذكرَ في هذا الموضع ملخّص ما ذكره الشيخ أبو عثمان الجاحظ في كتابه المعروف بكتاب «العثمانية» في تفضيل إسلام أبي بكر على إسلام عليّ عليه السلام؛ لأنّ هذا الموضع يقتضيه، لقوله عليه السلام حكاية عن قريش لما صدق رسول الله صلى الله عليه وآله: وهل يصدقك في أمرك إلاّ مثل هذا لأنّهم استصغروا سنّه، فاستحقروا أمر محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله حيث لم يصدّقه في دعواه إلا غلام صغير السنّ، وشُبْهة العُثْمانية التي قررها الجاحظ من هذه الشُّبْهة نشأت، ومن هذه الكلمة تفرّعت؛ لأن خلاصتها أن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة، وعليّ أسلم ولم يبلغ الحُلم، فكان إسلام أبي بكر أفضل.

ثم نذكر ما اعترض به شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ على الجاحظ في كتابه المعروف بـ«نقض العثمانية» ويتشعّب الكلام بينهما حتى يخرج عن البحث في الإسلامَيْن إلى البحث في أفضليّة الرَّجُلين وخصائصهما، فإنّ ذلك لا يخلُو عن فائدة جليلة، ونكتة لطيفة، لا يليق أن يخلوَ كتابُنا هذا عنها؛ ولأن كلامهما بالرسائل والخطابة أشبه، وفي الكتابة أقصد وأدخل، وكتابنا هذا موضوع لذكر ذلك وأمثاله.

قال أبو عثمان: قالت العثمانية: أفضل الأمّة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبي قُحافة لإسلامه على الوجه الذي لم يسلِمْ عليه أحد في عصره، وذلك أنّ النّاس اختلفوا في أوّل النّاس إسلاماً، فقال قوم: أبو بكر، وقال قوم: زيد بن حارثة، وقال قوم: خبّاب بن الأرتّ.

وإذا تفقدّنا أخبارهم، وأحصينا أحاديثَهم، وعددنا رجالهم، ونظرنا في صحّة أسانيدهم، كان الخبر في تقدّم إسلام أبي بكر أعمّ ورجاله أكثر، وأسانيده أصحّ، وهو بذاك أشهر، واللفظ فيه أظهر، مع الأشعار الصحيحة، والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته، وليس بين الأشعار والأخبار فرْق إذا امتنع في مجيئها، وأصل مخرجها التباعد والاتفاق

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٣/ ١٢٨.

والتواطؤ، ولكن نَدَع هذا المذهب جانباً، ونضرب عنه صفحاً، اقتداراً على الحجّة، ووثوقاً بالفلَج والقوّة، ونقتصر على أدنى نازل في أبي بكر، وننزل على حكم الخَصْم، فنقول: إنا وجدْنا مَنْ يزعم أنه أسلم قبل زيد وخبّاب، ووجدنا من يزعُم أنهما أسلما قبله، وأوسط الأمور أعدلُها، وأقربها من محبّة الجميع، ورضا المخالف، أن نجعل إسلامهم كان معاً، إذ الأخبار متكافئة، والآثار متساوية على ما تزعمون، وليستْ إحدى القضيّتين أولَى في صحّة العقل من الأخرى، ثم نستدّل على إمامة أبي بكر بما ورد فيه من الحديث، وبما أبانه به الرّسول صلّى الله عليه وآله من غيره.

قالوا: فممّا روِيَ من تقدّم إسلامه ما حدّث به أبو داود وابن مهديّ عن شعبة، وابن عيينة: عن الجريري، عن أبي هريرة، قال أبو بكر: أنا أحقّكم بهذا الأمر - يعني الخلافة - ألستُ أولَ مَنْ صلّى!

روى عباد بن صُهَيْب، عن يحيى بن عمير، عن محمد بن المنكدِر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة»، فقالوا: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت»[(١)].

وروى يعلَى بنُ عُبَيد، قال: جاء رجل إلى ابن عَبّاس، فسأله: مَنْ كان أوّل الناس إسلاماً؟ فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت!

إذا تذكّرتَ شجواً من أخي ثقةٍ ... فاذْكُر أخاك أبا بكرٍ بما فَعَلا
الثانيَ التاليَ المحمودَ مشهدُه ... وأوّلَ النّاس منهمْ صدّق الرسلا

وقال أبو مِحْجَن:

سبقتَ إلى الإسلام والله شاهدٌ ... وكنتَ حبيباً بالعريش المشهّرِ

وقال كعب بن مالك:

سبقتَ أخا تَيْمٍ إلى دين أحمدٍ ... وكنتَ لدى الغيرانِ في الكهف صاحباً

وروى ابنُ أبي شَيْبَة، عن عبد الله بن إدريس ووكيع، عن شعبة، عن عمرو بن مرّة، قال: قال النّخعيّ: أبو بكر أوّلُ مَنْ أسلم.

وروى هيثم بن يعلَى بن عطاء، عن عمرو بن عنبسة، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو بُعكاظ، فقلت: مَنْ بايعك على هذا الأمر؟ فقال: بايعني حُرٌّ وعبدٌ، فلقد رأيتُني يومئذ وأنا رابعُ الإسلام.

قال بعضُ أصحاب الحديث: يعني بالحرّ أبا بكر وبالعبد بلالاً.

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٣٨٣).

وروى اللّيث بن سعد، عن معاوية بن صالح، عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة، قال: حدّثني عمرو بن عَنْبسة، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم وهو بُعكاظ، فقال له: مَنْ تَبِعك؟ قال: تبِعني حرٌّ وعبد: أبو بكر وبلال.

وروى عمرو بن إبراهيم الهاشميّ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن أسيد بن صَفْوان، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما قُبِضَ أبو بكر جاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال: رحمك الله أبا بكر! كنتَ أوّلَ النّاس إسلاماً[١].

وروى عبّادٌ، عن الحسن بن دينار، عن بشر بن أبي زينب، عن عِكْرِمة مولى ابن عبّاس، قال: إذا لقيت الهاشميّين قالوا: عليّ بن أبي طالب أوّل مَنْ أسلَم، وإذا لقيت الّذين يعلمون، قالوا: أبو بكر أوّل مَنْ أسلم[٢].

قال أبو عثمان الجاحظ: قالت العثمانية: فإن قال قائل: فما بالُكم لم تذكُروا عليّ بن أبي طالب في هذه الطبَقة، وقد تعلمون كثرة مقدِّميه والرواية فيه!

قلنا: قد علمْنا الرواية الصحيحة، والشهادة القائمة، أنه أسلَم وهو حَدَثٌ غرير، وطفل صغير، فلم نكذّب الناقلين، ولم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين؛ لأنّ المقلّل زَعم أنّه أسلم. وهو ابن خمس سنين، والمكثر زعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين، فالقياسُ أنْ يؤخذ بالأوسط بين الروايتين، وبالأمر بين الأمرين، وإنما يُعْرَفُ حقُّ ذلك من باطله، بأنْ نحصى سنيه الّتي ولِيَ فيها الخلافة، وسِني عمر، وسني عثمان، وسني أبي بكر، ومقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ومقامه بمكة عند إظهار الدعوة، فإذا فعلنا ذلك صحّ أنه أسلَم وهو ابن سبع سنين، فالتاريخ المجمَع عليه أنّه قُتِل عليه السلام في شهر رمضان سنة أربعين.

قال شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ: لولا ما غلبَ على النّاس من الجهل وحبّ التقليد، لم نحتجْ إلى نقض ما احتجّت به العثمانية، فقد علم النّاس كافّةً، أن الدولة والسلطان لأرباب مقالتهم، وعرف كلّ أحدٍ علوّ أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم، وظهور كلمتهم، وقهر سلطانهم وارتفاع التقيّة عنهم والكرامة، والجائزة لمنْ روَى الأخبار والأحاديث في فضل أبي بكر، وما كان من تأكيد بني أمية لذلك، وما ولّده المحدّثون من الأحاديث طلباً لما في أيديهم، فكانوا لا يألونَ جَهداً في طول ما ملكوا أن يُخمِلُوا ذكرَ عليّ عليه السلام وولده، ويطفئوا نورهم، ويكتموا فضائلهم ومناقبَهم وسوابقهم، ويحملوا على شتمهم وسبهّم ولعنهم على المنابر، فلم

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق بما معناه: ٤٦/ ٢٥١.

(٢) يراجع ما تقدم.

يزل السيف يقطرُ من دمائهم، مع قلّة عددهم وكثرة عدوّهم، فكانوا بين قتيلٍ وأسير، وشريد وهارب، ومستخفٍ ذليل، وخائف مترقّب، حتى إن الفقيه والمحدّث والقاضي والمتكلّم، لَيتقدّم إليه ويتوعد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة، ألاّ يذكروا شيئاً من فضائلهم، ولا يرخّصوا لأحدٍ أن يُطيف بهم، وحتى بلغ من تقيّة المحدّث أنّه إذا ذكر حديثاً عن عليّ عليه السلام كَنَى عن ذكره، فقال: قال رجلٌ من قريش، وفعل رجل من قريش، ولا يذكر علياً عليه السلام، ولا يتفوّه باسمه.

ثم رأينا جميعَ المختلفين قد حاولوا نقضَ فضائله، ووجّهوا الحِيَل والتأويلات نحوها، من خارجيّ مارق، وناصب حَنِق، وثابت مستبهم، وناشىء معاند، ومنافق مكذّب، وعثمانيّ حسود، يعترض فيها ويطعن، ومعتزلي قد نقض في الكلام، وأبصر علم الاختلاف، وعرف الشبّه ومواضع الطّعن وضروب التأويل، قد التمس الحِيلَ في إبطال مناقبه وتأوّل مشهور فضائله، فمرّة يتأوّلها بما لا يحتمل، ومرّة يقصد أن يضع مِنْ قدرها بقياس منتقضٍ، ولا يزداد مع ذلك إلاّ قوّة ورفعة، ووضوحاً واستنارة، وقد علمت أنّ معاوية ويزيد ومَنْ كان بعدهما من بني مرْوان أيام ملكهم - وذلك نحو ثمانين سنة - لم يدَعُوا جهداً في حَمْل الناس على شتمه ولعْنه وإخفاء فضائله، وستْر مناقبه وسوابقه.

روى خالد بن عبد الله الواسطيّ، عن حصين بن عبد الرحمن، عن هلال بن يساف، عن عبد الله بن ظالم، قال: لما بُويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباءَ يلعنون علياً عليه السلام، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل: ألا ترون إلى هذا الرجل الظّالم يأمر بلعْن رجلٍ من أهل الجنّة[1]!

روى سليمان بن داود، عن شُعْبة، عن الحرّ بن الصبّاح، قال: سمعتُ عبد الرحمن بن الأخنس، يقول: شهدتُ المغيرة بن شُعبة خطب فذكر عليًا عليه السلام، فنال منه.

روى أبو كُريب، قال: حدّثنا أبو أسَامة، قال: حدّثنا صدقة بن المثنّىَ النَّخعيّ عن رياح بن الحارث، قال: بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر، وعنده ناس إذ جاءه رجلٌ يقال له: قيس بن علقمة، فاستقبل المغيرة، فسبّ علياً عليه السلام.

روى محمد بن سعيد الأصفهانيّ، عن شريك، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن علي بن الحسين، عن أبيه عليّ بن الحسين عليه السلام، قال: قال لي مَرْوان: ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا مِن صاحبكم. قلت: فما بالكم تسبّونه على المنابر؟ قال: إنه لا يستقيم لنا الأمر إلاّ بذلك[2].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ١٨٩، وأخرجه النسائي في سننه رقم: ٨٢٠٨.
(٢) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف: ١٨٤.

روى مالك بن إسماعيل أبو غسّان النّهديّ، عن ابن أبي سيف، قال: خطب مَرْوان والحسن عليه السلام جالسٌ فنال من عليٍّ عليه السلام، فقال الحسن: ويلك يا مروان! أهذا الذي تشتم شرّ الناس! قال: لا، ولكنّه خيرُ الناس.

وروى أبو غَسّان أيضاً، قال: قال عمرُ بن عبد العزيز: كان أبي يخطُب فلا يزال مستمرًّا في خطبته، حتى إذا صار إلى ذكر عليّ وسبّه تقطّع لسانه، واصفرّ وجهُه، وتغيّرت حاله، فقلت له في ذلك، فقال: أوقد فطنتَ لذلك؟ إنّ هؤلاء لو يعلمون من عليّ ما يعلمه أبوك ما تبِعنا منهم رجل(١).

وروى أبو عثمان، قال: حدّثنا أبو اليقظان، قال: قام رجلٌ من ولد عثمان إلى هشام بن عبد الملك يوم عَرَفة، فقال: إنّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي تراب(٢).

وروى عمرو بن الفَنّاد، عن محمد بن فُضَيل، عن أشعث بن سَوّار، قال: سبّ عدي بن أوطاة عليًّا عليه السلام على المنبر، فبكى الحسن البصريّ وقال: لقد سبّ هذا اليوم رجلٌ إنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وآله في الدنيا والآخرة(٣).

وروى عديّ بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم، قال: كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسَيْن في الجمعة ممّا يلي أبواب كندْة فخرج المغيرة فخطب، فحمِد الله، ثم ذكر ما شاء أن يذكُر، ثم وقع في عليّ عليه السلام، فضرب إبراهيم على فخذي أو ركبتي، ثم قال: أقبلْ عليّ، فحدّثني فإنا لسنا في جمعة، ألا تسمع ما يقول هذا(٤)!

وروى عبد الله بن عثمان الثّقفيّ، قال: حدّثنا ابنُ أبي سيف، قال: قال ابن لعامر بن عبد الله بن الزبير لولده: لا تذكر يا بُنَيَّ علياً إلا بخير، فإن بني أمّية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة، فلم يزدْه الله بذلك إلا رفعة، إن الدنيا لم تبنِ شيئاً قطّ إلا رجعت على ما بَنَتْ فهدمتْه، وإن الدّين لم يبْنِ شيئاً قطّ وهَدَمه(٥).

وروى عثمان بن سعيد، قال: حدّثنا مطلّب بن زياد، عن أبي بكر بن عبد الله الأصبهانيّ، قال: كان دعيّ لبني أمية يقال له خالد بن عبد الله، لا يزال يشتُم علياً عليه السلام، فلمّا كان يوم جمعة، وهو يخطب الناس، قال: والله إن كان رسول الله ليستعمله، وإنه لَيعلم ما هو! ولكنّه

(١) أخرجه الشيخ مهدي فقيه في الإمام علي في آراء الخلفاء: ١٧٢.
(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٧/ ١٤٨.
(٣) أنظر الغدير للأميني: ١٠/ ٢٦١، والإصابة: ١/ ٢٨٧ رقم ٢٩٧.
(٤) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير: ٣/ ٧٢.
(٥) أخرجه البري في الجوهر في نسب علي: ٩٥.

كان ختَنه، وقد نعس سعيد بن المسيّب ففتح عينيه، ثم قال: ويحكم! ما قال هذا الخبيث! رأيت القبر انصدَع ورسول الله ﷺ يقول: كذبت يا عدوّ الله[١]!

وروى القَنَّاد، قال: حدّثنا أسباط بن نصر الهمدانيّ، عن السّديّ، قال: بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزّيت، إذ أقبل راكب على بعير، فوقف فسبّ علياً عليه السلام، فخفّ به الناس ينظرُون إليه، فبينما هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبي وقّاص، فقال: اللهمّ إن كان سبَّ عبداً لك صالحاً، فأرِ المسلمين خزيه، فما لبث أن نَفَرَ به بعيرُه فسقط، فاندقّت عنقه.

وري عثمان بن أبي شيبة، عن عبد الله بن موسى، عن فُطْر بن خليفة، عن أبي عبد الله الجدَليّ، قال: دخلتُ على أمّ سلمة رحمها الله فقالت لي: أيسَبّ رسول الله ﷺ فيكم وأنتم أحياء! قلت: وأنى يكون هذا؟ قالت: أليس يسبّ علي عليه السلام ومَنْ يحبّه[٢]!

روى العبّاس بن بَكّار الضّبيّ، قال: حدّثني أبو بكر الهُذَلِيّ، عن الزُّهريّ، قال: قال ابنُ عبّاس لمعاوية، ألا تكفّ عن شتم هذا الرجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يربوَ عليه الصغير ويهرَم فيه الكبير، فلمّا وُلّيَ عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه، فقال الناس: ترك السنّة.

قال: وقد روي عن ابن مسعود إمّا موقوفاً عليه أو مرفوعاً، كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير، يجري عليها النّاس فيتخذونها سنّة، فإذا غيّر منها شيء قيل: غيّرت السنّة[٣]!

قال أبو جعفر: وقد تعلمون أنّ بعض الملوك ربّما أحدثوا قولاً، أو ديناً لهوى فيحملون النّاس على ذلك، حتى لا يعرفوا غيره، كنحو ما أخذ النّاس الحجّاجُ بن يوسف بقراءة عثمان، وترك قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب، وتوعدّ على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بني أميّة وطغاة مَرْوان بولد عليّ عليه السلام وشيعته، وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة، فما مات الحجاج حتى اجتمع أهلُ العراق على قراءة عثمان، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها، لإمساك الآباء عنها، وكفّ المعلمين عن تعليمها، حتى لو قرأت عليهم قراءة عبد الله وأبيّ ما عرفوها، ولظنّوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان، لإلف العادة وطول الجهالة؛ لأنه إذا استولَت على الرعيّة الغلَبة، وطالت عليهم أيام التسلّط، وشاعت فيهم المخافة، وشملتهم التقيّة، اتّفقوا على التخاذل والتساكُت، فلا تزال الأيّام تأخذ من بصائرهم، وتنقص من ضمائرهم، وتنقض من

(١) أنظر تاريخ دمشق: ٢٠/ ٣٤٨.
(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ١٢/ ٤٤٥، رقم: ٧٠١٣، وأخرجه الطبراني في الكبير: ٢٣/ ٣٢٣.
(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٤٧)، و«شعب الإيمان» (٦٩٥١)، ومعمر بن راشد في «جامعه» (٢٠٧٤٢)، والشاشي في «مسنده» (٦١٣).

مرائرهم، حتى تصير البِدْعة التي أحدثوها غامرة للسنّة التي كانوا يعرفونها، ولقد كان الحجّاج ومَنْ ولاّه، كعبد الملك والوليد ومَنْ كان قبلهما وبعدهما من فراعنة بني أميّة على إخفاء محاسن عليّ عليه السلام وفضائله وفضائل ولده وشيعته، وإسقاط أقدارهم، أحرَص منهم على إسقاط قراءة عبد الله وأُبَيّ؛ لأنّ تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم، وفساد أمرهم، وانكشاف حالهم، وفي اشتهار فضل عليّ عليه السلام وولده إظهار محاسنهم بوارُهم، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم، فحرصوا واجتهدوا في إخفاء فضائله، وحملوا النّاس على كتْمانها وسترها، وأبى الله أن يزيد أمرُه وأمْر ولده إلاّ استنارة وإشراقاً، وحبُّهم إلاّ شغَفاً وشدة، وذكرهُم إلا انتشاراً وكثرة، وحجّتهم إلا وضوحاً وقوّة، وفضلهم إلاّ ظهوراً، وشأنُهم إلا عُلوًّا، وأقدارهم إلا إعظاماً، حتى أصبحوا بإهانتهم إيّاهم أعزّاء، وبإماتتهم ذكرهم أحياء، وما أرادوا به وبهم من الشرّ تحول خيراً، فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ومزاياه وسوابقه ما لم يتقدّمه السابقون، ولا ساواه فيه القاصدون، ولا يلحقه الطالبون، ولولا أنّها كانت كالقِبْلة المنصوبة في الشُّهرة، وكالسُّنن المحفوظة في الكثرة، لم يصلْ إلينا منها في دهرنا حرف واحد، إذا كان الأمر ما وصفناه.

قال: فأمّا ما احتجّ به الجاحظ بإمامة أبي بكر، بكوْنه أوّل النّاس إسلاماً، فلو كان هذا احتجاجاً صحيحاً، لاحتجّ به أبو بكر يوم السقيفة، وما رأيناه صنَع ذلك لأنّه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح، وقال للناس: قد رضيتُ لكم أحد هذيْن الرَّجُلين، فبايعوا منهما مَنْ شئتم، ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها، ولو كان احتجاجاً صحيحاً لادّعى واحدٌ من النّاس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره، بكونه سبق إلى الإسلام، وما عرفنا أحداً ادّعى له ذلك، على أن جمهورَ المحدّثين لم يذكروا أنّ أبا بكر أسلم إلاّ بعد عدّة من الرّجال، منهم عليّ بن أبي طالب، وجعفر أخوه، وزيد بن حارثة، وأبو ذرّ الغفاري، وعمرو بن عَنْبسة السلميّ، وخالد بن سعيد بن العاص، وخبّاب بن الأرتّ، وإذا تأمّلنا الرّوايات الصحيحة، والأسانيد القويّة والوثيقة، وجدناها كلّها ناطقةً بأنّ عليًّا عليه السلام أوّلُ من أسلم.

فأمّا الرواية عن ابن عباس أنّ أبا بكر أولُهم إسلاماً فقد روي عن ابن عَبّاس خلاف ذلك، بأكثر مما رووا وأشهر، فمن ذلك ما رواه يحيى بن حمّاد، عن أبي عوانة وسعيد بن عيسى، عن أبي داود الطيالسيّ، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عبّاس، أنه قال: أوّلُ مَنْ صلّى من الرّجال عليّ عليه السلام [1].

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٨/ ١٩٠.

وروى الحسن البصريُّ، قال: حدّثنا عيسى بن راشد، عن أبي بصير، عن عِكْرمة، عن ابن عبّاس، قال: فرض الله تعالى الاستغفار لعليّ عليه السلام في القرآن على كلّ مسلم، بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾(١)، فكلّ مَنْ أسلم بعد عليّ فهو يستغفر لعليّ عليه السلام.

وروى سفيان بن عُيينة، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عبّاس، قال: السُّبّاق ثلاثة: سَبق يوشع بن نون إلى موسى، وسبق صاحب «يس» إلى عيسى، وسبق عليُّ بن أبي طالب إلى محمد عليه وعليهم السلام(٢).

فهذا قول ابن عبّاس في سبْق عليّ عليه السلام إلى الإسلام، وهو أثبت مِنْ حديث الشَّعْبيّ وأشهر، على أنّه قد رُوِيَ عن الشعبيّ خلاف ذلك من حديث أبي بكر الهذليّ وداود بن أبي هند عن الشعبيّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «هذا أوّل مَنْ آمن بي وصدّقني وصلّى معي»(٣).

قال: فأمّا الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام المذكورة في الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها، فمنها ما روى شَرِيك بن عبد الله، عن سليمان بن المغيرة، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، أنّه قال: أوّلُ شيء علِمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي قدمت مكّة مع عمومة لي وناس من قومي، وكان من أنفسنا شراء عِطْر، فأرشِدْنا إلى العبّاس بن عبد المطلب، فانتهينا إليه، وهو جالس إلى زمزم، فبينا نحن عنده جلوساً، إذ أقبل رجل من باب الصَّفا، وعليه ثوبان أبيضان، وله وفْرة إلى أنصاف أذنيه جَعدة، أشمّ أقنى، أدعَجُ العينين، كثّ اللحية، برّاق الثنايا، أبيض تعلوه حمرة، كأنّه القمر ليلة البدر، وعلى يمينه غلام مُراهِق أو محتلم، حسن الوجه، تقفوهم امرأة، قد سترت محاسنَها، حتى قصدوا نحو الحِجْر، فاستلمه واستلمه الغلام، ثم استلمته المرأة، ثم طاف بالبيت سبعاً، والغلام والمرأة يطوفانَ معه، ثم استقبل الحِجْر، فقام ورفع يديه وكبّر، وقام الغلام إلى جانبه، وقامت المرأة خلْفها، فرفعت يديها، وكبّرت، فأطال القنوت، ثم ركع وركع الغلام والمرأة، ثم رفع رأسه فأطال، ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثل ما يصنع، فلمّا رأينا شيئاً ننكره، لا نعرفه بمكة، أقبلنا على العباس، فقلنا: يا أبا الفضل، إنّ هذا الدّين ما كنّا نعرفه فيكم، قال: أجلْ والله، قلنا: فمن هذا؟ قال: هذا ابنُ أخي، هذا محمّد بن عبد الله، وهذا الغلام ابن أخي أيضاً، هذا عليّ بن أبي طالب،

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار بما معناه: ٢٤/٨.
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦١٨٤).

وهذه المرأة زوْجة محمّد، هذه خديجة بنت خويلد، والله ما عَلَى وجهِ الأرض أحدٌ يَدِين بهذا الدين، إلا هؤلاء الثلاثة[١].

ومنْ حديث موسى بن داود، عن خالد بن نافع، عن عُفَيف بن قيس الكِنديّ، وقد رواه عن عُفَيف أيضاً، مالك بن إسماعيل النهديّ والحسن بن عَنْبسة الورّاق وإبراهيم بن محمّد بن ميمونة، قالوا جمعياً: حدّثنا سعيد بن جُشم، عن أسَد بن عبد الله البَجَليّ، عن يحيى بن عُفَيف بن قيس، عن أبيه، قال: كنتُ في الجاهلية عطّاراً، فقدمت مكّة، فنزلت على العبّاس بن عبد المطلب، فبينا أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة، وقد تحلّقت الشمس في السماء، أقبل شابٌّ كأنّ في وجهه القمر، حتى رَمَى ببصره إلى السماء، فنظر إلى الشمس ساعة، ثم أقبل حتى دنَا من الكعبة، فصفّ قدميْه يصلّي، فخرج على أثره فتًى كأنّ وَجْهه صفيحة يمانيّة، فقام عن يمينه، فجاءت امرأة متلفّفة في ثيابها، فقامت خلفهما، فأهوى الشاب راكعاً، فركعا معه، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً، فسجدا معه، فقلت للعباس: يا أبا الفضْل، أمر عظيم! فقال: أمر والله عظيم! أتدري مَنْ هذا الشّاب؟ قلت: لا، قال هذا ابنُ أخي، هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، أتدري مَنْ هذا الفتى؟ قلت: لا، قال: هذا ابن أخي عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب، أتدري من المرأة؟ قلت: لا، قال: هذه ابنة خُويلِد بن أسَد بن عبد العُزّى، هذه خديجة زوْج محمّد هذا، وإن محمداً هذا يذكر أن إلهه إله السماء والأرض، وأمره بهذا الدّين، فهو عليه كما ترى، ويزعم أنّه نبيّ، وقد صدّقه على قوله عليٌّ ابن عمه هذا الفتى، وزوجته خديجة، هذه المرأة، والله ما أعلمُ على وجه الأرضِ كلّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة: قال عُفَيف: فقلت له: فما تقولون أنتم؟ قال: ننتظر الشيخ ما يصنع! يعني أبَا طالب أخاه[٢].

وروى عُبيد الله بن موسى، والفضل بن دَكين، والحسن بن عَطيّة، قالوا: حدّثنا خالد بن طَهْمان، عن نافع بن أبي نافع، عن معقل بن يسار، قال: كنت أوصي النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال لي: هل لك أن تَعود فاطمة؟ قلت: نعم يا رسول الله، فقام يمشي متوكّئاً عليّ، وقال: أما إنه سيحمل ثقلها غيرُك، ويكون أجرُها لك، قال: فوالله كأنّه لم يكن عليّ من ثقل النبي صلى الله عليه وآله شيء، فدخلنا عَلَى فاطمة عليها السلام، فقال لها صلى الله عليه وآله: «كيف تجدينك؟» قالت: لقد طال أسفي، واشتدّ حُزْني، وقال لي النساءُ: زوّجك أبوك فقيراً لا مال له! فقال لها: أما ترضَيْنَ أني زوّجتك أقدَم أمتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً! قالت: بلى رضيت يا رسول الله[٣].

(١) أخرجه مولى محمد صالح في شرح أصول الكافي: ٦/ ٣٧٦.
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم: ٨٣٩٤.
(٣) أخرجه السيد جعفر مرتضى في الصحيح من السيرة: ٥/ ٢٨١.

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد وعبد السلام بن صالح، عن قيس بن الربيع، عن أبي أيوب الأنصاريّ، بألفاظه أو نحوها.

وروى عبد السلام بن صالح، عن إسحاق الأزرق، عن جعفر بن محمد، عن آبائه، أنّ رسول الله ﷺ لمّا زوّج فاطمة، دخل النساء عليها، فقلن: يا بنتَ رسول الله، خَطَبك فلانٌ وفلان، فردّهم عنك، وزوَّجك فقيراً لا مال له، فلمّا دخل عليها أبُوها ﷺ رأى ذلك في وجهها، فسألها فذَكَرتْ له ذلك، فقال: يا فاطمة، إنّ الله أمرني فأنكحتُك أقدمَهم سلماً، وأكثرهم عِلْماً، وأعظمهم حِلْماً، وما زوّجتك إلاّ بأمرٍ من السماء، أما علمت أنه أخي في الدنيا والآخرة[1]!

وروى عثمان بن سعيد عن الحكَم بن ظُهَيْر، عن السّديّ، أنّ أبا بكر وعمر خطبا فاطمةَ عليها السلام، فردّهما رسول الله ﷺ، وقال: لم أومَرْ بذلك، فخطبها عليّ عليه السلام، فزوّجه إياها، وقال لها: زوّجتك أقدمَ الأمّة إسلاماً.. وذكر تمام الحديث. قال: وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة، منهم أسماء بنت عُميس، وأمّ أيْمن، وابنُ عبّاس وجابر بن عبد الله.

قال: وقد روى محمد بن عبد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن جدّه أبي رافع، قال: أتيتُ أبا ذرّ بالرّبذَة أودّعه، فلما أراد الانصراف، قال لي ولأناسٍ معي: ستكون فتنة، فاتّقوا الله، وعليكم بالشيخ عليّ بن أبي طالب، فاتّبعوه، فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول له: «أنت أوّل مَنْ آمن بي، وأول مَنْ يصافحني يوم القيامة، وأنت الصدّيق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرِق بين الحقّ والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين، وأنت أخي ووزيري، وخير مَنْ أترك بعدي، تقضي دَيْني وتنجِز موعدي»[2].

قال: وقد روى ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن نُمَيْر، عن العَلاء بن صالح، عن المِنْهال بن عمرو، عن عبّاد بن عبد الله الأسديّ، قال: سمعتُ عليّ بن أبي طالب، يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصّدّيق الأكبر، لا يقولها غيري إلاّ كذّاب، ولقد صلّيت قبل النّاس سبع سنين[3].

وروت معاذة بنت عبد الله العدَويّة، قالت: سمعتُ علياً عليه السلام، يخطب على مِنْبر البصرة، ويقول: أنا الصديق الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم[4].

وروى حَبّة بن جُوين العُرَنيّ أنّه سمع علياً عليه السلام، يقول: أنا أوّلُ رجل أسلم مع

(١) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ٤٣/ ١٤٩.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ٣١/ ٣٣٥.
(٣) أخرجه السيد محمد باقر الصدر في فدك في التاريخ: ١٠٧.
(٤) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ٣٧٠.

رسول الله صلى الله عليه وآله. رواه أبو داود الطيالسيّ، عن شعبة، عن سفيان الثّوريّ، عن سلمة بن كُهَيل، عن حبّة بن جُوَين[١].

وروَى عثمان بن سعيد الخرّاز، عن عليِّ بن حرّار، عن عليّ بن عامر، عن أبي الحجّاف، عن حكيم مولى زاذان، قال: سمعت علياً عليه السلام، يقول: صلّيتُ قبل الناس سبعَ سنين، وكنّا نسجُد ولا نركع، وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاةُ العصر، فقلت: يا رسولَ الله، ما هذا؟ قال: أمِرْت به[٢].

وروى إسماعيل بن عمرو، عن قيس بن الربيع، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن جابر بن عبد الله، قال: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الإثنين، وصلّى عليّ يوم الثلاثاء بعده. وفي الرواية الأخرى، عن أنس بن مالك: استُنبِىء النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الإثنين، وأسلَم عليّ يوم الثلاثاء بعده[٣].

وروى أبو رافع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى أوّل صلاة صلاّها غداة الإثنين، وصلّتْ خديجة آخر نهار يومها ذلك، وصلّى عليٌّ عليه السلام يوم الثلاثاء غداً ذلك اليوم[٤].

قال: وقد رُوِي بروايات مختلفة كثيرة متعددة، عن زيد بن أرقم، وسلمان الفارسيّ، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، أنّ علياً عليه السلام: أوّل مَنْ أسلم، وذكر الروايات والرجال بأسمائهم[٥].

وروى سلمة بن كُهَيل، عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر في الكتاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أوّلكم وروداً علي الحوض أوّلكم إسلاماً، عليّ بن أبي طالب»[٦].

وروى ياسين بن محمد بن أيمن، عن أبي حازم، مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: سمعتُ عمرَ بن الخطاب وهو يقول: كفُّوا عن عليّ بن أبي طالب، فإنّي سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فيه خِصالاً، لو أنّ خصلة منها في جميع آل الخطاب، كان أحبّ لي ممّا طلعت عليه الشمس، كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة مع نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله نطلبه، فانتهينا إلى باب أمّ سلمة، فوجدنا عليًّا متّكئاً على نجاف

---

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٣/ ٢٢١، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه: ٤/ ٢٣٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ١٢٠، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم: ٢١.

(٣) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٣/ ٢٢٤.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير رقم: ٩٥٢، وأخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ٥٥.

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٨/ ٢٢٥.

(٦) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٩١).

الباب، فقلنا: أردنا رسول الله ﷺ، فقال: هو في البيت، رويدكم! فخرج رسول الله ﷺ، فقال: هو في البيت، رويدكم! فخرج رسول الله ﷺ فسِرْنا حوله، فاتّكأ على عليّ عليه السلام، وضرب بيده على منكبه، فقال: أبشرْ يا عليّ بن أبي طالب، إنك مخاصم، وأنك تخصم الناس بسبع لايجاريك أحدٌ في واحدة منهنّ، أنت أوّلُ النّاس إسلاماً، وأعلمهم بأيام الله...»[1] وذكر الحديث.

قال: وقد روى أبو سعيد الخُدريّ، عن النبي ﷺ مثل هذا الحديث.

قال: روى أبو أيوب الأنصاريّ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ عليه السلام، سبعَ سنين**»[2]، **وذلك أنّه لم يصلِّ معي رجل فيها غيره.**

قال أبو جعفر: فأما ما رواه الجاحظ من قوله ﷺ: «**إنّما تبِعني حرّ وعبد**»، فإنه لم يسمّ في هذا الحديث أبا بكر وبلالاً، وكيف وأبو بكر لم يشترِ بلالاً إلا بعد ظهور الإسلام بمكّة، فلما أظهر بلال إسلامه عذّبه أميّة بن خلَف! ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله ﷺ الدّعوة، ولا في ابتداء أمر الإسلام، وقد قيل: إنه عليه السلام إنما عَنَى بالحرّ عليّ بن أبي طالب، وبالعبد زيد بن حارثة[3].

وروى ذلك محمد بن إسحاق، قال: وقد روي إسماعيل بن نصر الصفّار، عن محمد بن ذَكْوان، عن الشعبيّ، قال: قال الحجّاج للحسن، وعنده جماعة من التابعين وذكر عليّ بن أبي طالب: ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول! هو أوّل منْ صلّى إلى القِبْلة، وأجاب دعوة رسول الله ﷺ، وإنّ لعليٍّ منزلةً من ربّه، وقرابة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ. فغضب الحجاج غضباً شديداً، وقام عن سريره، فدخل بعض البيوت وأمر بصرفنا[4].

قال الشعبيّ: وكنا جماعةً ما منّا إلاّ مَنْ نال منْ عليٍّ عليه السلام مقاربةً للحجّاج، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله.

وروى مُحْرِز بن هشام، عن إبراهيم بن سلمة، عن محمد بن عبيد الله، قال: قال رجل للحسن: ما لنا لا نراك تُثنى على عليّ وتقرّظه! قال: كيف وسيفُ الحجاج يقطر دماً! إنّه لأوّلُ مَنْ أسلم، وحسبُكم بذلك!

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١١٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٧٩).

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٣٣١).

(٣) أنظر تاريخ دمشق: ٧/ ٢٠٩.

(٤) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٣/ ٢٣٤.

قال: فهذه الأخبار.

وأما الأشعار المرويّة فمعروفة كثيرة منتشرة، فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيباً للوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط:

وإنَّ وليّ الأمر بعد محمدٍ ... عليٌّ وفي كلّ المواطن صاحبُهْ
وصيُّ رسول الله حقًّا وصنْوه ... وأوّل مَنْ صلّى ومَنْ لان جانبُهْ

وقال خزيمة بن ثابت في هذا:

وصِيُّ رسولِ الله مِنْ دون أهلِه ... وفارسُه مُذْ كان في سالف الزَّمَنْ
وأوّلُ مَنْ صلّى من الناس كلّهِمْ ... سوى خيرة النّسوان والله ذو مِنَنْ

وقال أبو سفيان بَن حرب بن أميّة بن عبد شمس، حين بويع أبو بكر:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرفٌ ... عن هاشم ثم منها عن أبي حَسَنِ
أليس أوّلَ مَنْ صلّى لقبلتهمْ ... وأعلمَ النّاس بالأحكام والسُّنَنِ!

وقال أبو الأسود الدؤليّ يهدّد طلحة والزبير:

وإن عليًّا لكم مُصْحِرٌ ... يماثله الأسد الأسوَدُ
أما إنه أوّلُ العابدين ... بمكّة والله لا يعبد!

وقال سعيد بن قيس الهمْدانيّ يرتجز بصفين:

هذا عليٌّ وابنُ عمّ المصطفى ... أوّل مَنْ أجابه فيما رَوَى
هو الإمام لا يبالِي مَن غَوَى

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسديّ:

فحُوطُوا عليًّا وانصروه فإنّه ... وصيٌّ وفي الإسلام أوّل أولُ
وإن تخذلوه والحوادث جمّةٌ ... فليس لكم عن أرضكم متحوّلُ

قال: والأشعار كالأخبار، إذا امتنع في مجيء القبيلين التواطؤ والاتفاق، كان ورودهما حجة.

فأمّا قولُ الجاحظ: فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهما معاً، فقد أبطل بهذا ما احتج به لإمامة أبي بكر، لأنه احتجّ بالسَّبْق، وقد عدل الآن عنه.

قال أبو جعفر: ويقال لهم: لسْنَا نحتاج من ذكر سبق عليٍّ عليه السلام إلا مجامعتكم إيّانا على أنه أسلم قبل النّاس، ودعْواكم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة لا بحجة.

فإن قلتم: ودعوتكم أنّه أسلم وهو بالغ دعوَى غير مقبولة إلا بحجّة!

قلنا: قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم، ولو كان طفلاً لكان في الحقيقة غير مسلم، لأنّ اسم

الإيمان والإسلام والكفر والطاعة والمعصية إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين، وإذا أطلقتم وأطلقنا اسم الإسلام، فالأصل في الإطلاق الحقيقة، كيف وقد قال النبي ﷺ، «أنت أوّل مَن آمن بي، وأنت أوّل من صدقني»[1]. وقال لفاطمة: «زوّجتك أقدمهم سِلْماً - أو قال: إسلاماً -»[2] فإن قالوا: إنما دعاه النبيّ ﷺ إلى الإسلام على جهة العَرْض لا التكليف.

قلنا: قد وافقتمونا على الدّعاء، وحكم الدّعاء حكم الأمر والتكليف. ثم أدّعيتم أن ذلك كان على وجْه العرض، وليس لكم أن تقبلوا الدّعاء عن وجهه إلا لحجة.

فإن قالوا: لعلّه كان على وجه التأديب والتعليم، كما يُعتمد مثل ذلك مع الأطفال!

قلنا: إنّ ذلك إنما يكون إذا تمكّن الإسلام بأهله، أو عند النشوء عليه والولادة فيه، فأمّا في دار الشِّرْك فلا يقع مثل ذلك، لاسيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم، على أنه ليس من سنّة النبي ﷺ دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم، قبل أن يبلغوا الحلم.

وأيضاً فمِن شأن الطفل اتّباع أهله وتقليدُ أبيه، والمضيُّ على من منشئه ومولده، وقد كانتْ منزلة النبيّ ﷺ حينئذ منزلة ضيق وشدّة ووحدة، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلاّ مَن ثبت الإسلام عنده بحجّة، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة.

فإن قالوا: إن عليًا عليه السلام كان يألفُ النبي ﷺ، فوافقه على طريق المساعدة له.

قلنا: إنه وإن كان يألَفه أكثرَ من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته، ولم يكن الإلف ليخرجَه عما نشأ عليه، ولم يكن الإسلام مما غُذِّيَ به وكرر على سمعه، لأنّ الإسلام هو خلْع الأنداد والبراءة ممّن أشرك بالله، وهذا لا يجتمع في اعتقاد طفل.

ومن العجَب قولُ العبّاس لعُفيف بن قيس: ننتظر الشَّيْخ وما يصنع! فإذا كَان العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب، ويصدُران عن رأيه، فكيف يخالفه ابنُه، ويؤثر القلّة على الكثرة، ويفارق المحبوبَ إلى المكروه، والعزّ إلى الذلّ، والأمْن إلى الخوف، عن غير معرفة ولا علم بما فيه!

فأمّا قوله: إنّ المقلّل يزعُم أنه أسلَم وهو ابن خمس سنين، والمكثِر يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين، فأول ما يقال في ذلك: إنّ الأخبار جاءت في سِنّه عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام فجعلناه في قسمين:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

القسم الأوّل: الّذين قالوا: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، حدّثنا بذلك أحمد بن سعيدالأسَديّ، عن إسحاق بن بشر القرشيّ، عن الأوزاعيّ، عن حمزة بن حبيب، عن شدّاد بن أوس، قال: سألتُ خبّاب بن الأرتّ عن إسلام عليّ، فقال: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، ولقد رأيتُه يصلّي قبل النّاس مع النبي صلى الله عليه وآله وهو يومئذٍ بالغٌ مستحكم البلوغ. وروى عبد الرزّاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، أنّ أوّل مَنْ أسلم عليّ بن أبي طالب، وهو ابن خمس عشرة سنة.

القسم الثاني: الّذين قالوا إنه أسلم وهو ابن أربعَ عشرة سنة، رواه أبو قتادة الحرّانيّ، عن أبي حازم الأعرج، عن حُذَيفة بن اليمان، قال: كنّا نبعد الحجارة، ونشربُ الخمر وعليٌّ من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وآله ليلاً ونهاراً، وقريش يومئذٍ تسافِه رسول الله صلى الله عليه وآله، ما يَذُبّ عنه إلا عليّ عليه السلام. وروى ابن أبي شَيْبة عن جرير بن عبد الحميد، قال: أسلم عليّ وهو ابن أربع عشرة سنة[1].

القسم الثالث: الّذين قالوا: أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة، رواه إسماعيل بن عبد الله الرَّقّي، عن محمد بن عمر، عن عبد الله بن سمعان، عن جعفر بن محمد عليه السلام، عن أبيه عن محمد بن عليّ عليه السلام، أنّ علياً حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة. وروى عبدُ الله بن زياد المدنيّ، عن محمد بن عليّ الباقي عليه السلام، قال: أوّلُ مَنْ آمن بالله عليّ بن أبي طالب، وهو ابن إحدى عشرة سنة، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة[2].

القسم الرابع: الذين قالوا: إنه أسلم وهو ابن عشر سنين. رواه نوح بن درّاج، عن محمد بن إسحاق، قال: أوّل ذكرٍ آمَنَ وصدّق بالنبوّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن عشرِ سنين، ثمّ أسلم زيد بن حارثة، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ستّ وثلاثين سنة فيما بلغنا[3].

القسم الخامس: الّذين قالوا إنه أسلَم وهو ابن تسع سنين، رواه الحسَن بن عنْبسة الورّاق، عن سليم مولى الشُّعبيّ، قال: أوّلُ مَنْ أسلم من الرّجال عليُّ بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله تسعٌ وعشرون سنة[4].

قال شيخنا أبو جعفر: فهذه الأخبار كما تراها، فإمّا أن يكونَ الجاحظ جهلها، أو قصد العناد.

(١) أخرجه الشيه الأميني في الغدير: ٣/ ٢٢٨.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار بما معناه: ٢٢/ ٤٩٧.
(٣) أخرجه الطبري في تاريخه بما معناه: ٢/ ٦٠.
(٤) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٣/ ٢٣٣.

فأمّا قوله: «فالقياس أن نأخذ بأوسط الأمرين من الرّوايتين»، فنقول: إنه أسلم وهو ابن سبع سنين. فإنّ هذا تحكّم منه، ويلزمه مثله في رجلٍ ادّعى قِبَل رجل عشرة دراهم، فأنكر ذلك وقال: إنما يستحقُّ قبلي أربعة دراهم، فينبغي أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم، ويلزمه في أبي بكر حيث قال قوم: كان كافراً، وقال قوم: كان إماماً عادلاً أنّ نقول: أعدلُ الأقاويل أوسطُها وهو منزلة بين المنزلتين، فنقول: كان فاسقاً ظالماً، وكذلك في جميع الأمور المختلَف فيها.

فأما قولُه: وإنّما يُعرف حقّ ذلك من باطله، بأن نحصي سِنِي ولاية عثمان وعمر وأبي بكر وسِني الهجرة، ومُقَام النبيّ ﷺ بمكّة بعد الرّسالة إلى أن هاجر، فيقال له: لو كانت الروايات متفقة على هذه التأريخات، لكان لهذا القول مساغٌ، ولكن الناس قد اختلفوا في ذلك، فقيل: إن رسول الله ﷺ أقام بمكّة بعد الرّسالة خمس عشرة سنة، رواه ابنُ عباس، وقيل ثلاث عشرة سنة، وروي عن ابن عبّاس أيضاً، وأكثر الناس يرونه. وقيل عشر سنين، رواه عُرْوة بن الزبير، وهو قول الحسَن البَصْريّ وسعيد بن المسيّب. واختلفوا في سنّ رسول الله ﷺ، فقال، قوم: كان ابنَ خمس وستين، وقيل كان ابنَ ثلاث وستين، وقيل: كان ابن ستّين. واختلفوا في سنّ عليّ عليه السلام، فقيل: كان ابن سبع وستين، وقيل: كان ابن خمس وستين. وقيل ابن ثلاث وستين، وقيل: ابن ستين، وقيل ابن تسع وخمسين.

فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيقُ هذه الحال! وإنّما الواجبُ أن يرجع إلى إطلاق قولهم: أسلم عليّ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقاً إلاّ على البالغ، كما لا يطلَق اسم الكافر إلاّ على البالغ، على أنّ ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً، ويولدُ له الأولاد، فقد رَوَت الرّواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسنّ من ابنه عبد الله إلا باثنتي عشرة سنة، وهذا يوجب أنه احتَلم وبلَغ من أقلّ من إحدى عشرة سنة.

وروي أيضاً أنّ محمد بن عبد الله بن العباس، كان أصغرَ من أبيه عليّ بن عبد الله بن العباس بإحدى عشرة سنة، فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العبّاس حين مات رسول الله ﷺ غير مسلم على الحقيقة، ولا مثاب ولا مطيع بالإسلام، لأنه كا يومئذٍ ابن عشر سنين. رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: توفّي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين.

قال الجاحظ: فإن قالوا: فلعلّه وهو ابن سبع سنين أو ثماني سنين، قد بلغ من فطنَتِه وذكائه وصحة لُبّة وصدق حَدْسه وانكشاف العواقب له وإن لم يكن جرّب الأمور، ولا فاتح الرّجال، ولا نازع الخصُوم، ما يعرف به جميع ما يجب على البالغ معرفتُه والإقرار به!

قيل لهم: إنما نتكلّم على ظواهر الأحوال، وما شاهدنا عليه طبائع الأطفال، فإنا وجدنا حكْمَ ابن سبع سنين أو ثمان - ما لم يعلم باطن أمره وخاصّة طبعه - حكْمَ الأطفال، وليس لَنا أن نُزيل ظاهرَ حكمه والذي نعرف من حال أفناء جنسه بلعلّ وعسى، لأنا وإن كنّا لا ندري، لعلّه قد كان ذا فضيلة في الفِطْنة فلعلّه قد كان ذا نقص فيها!

هذا على تجويز أن يكون عليٌّ عليه السلام في الغيب قد أسلم وهو ابن سبع أو ثمان إسلامَ البالغ، غير أنّ الحكم على مجرى أمثاله وأشكاله الّذين أسلموا وهم في مثل سنّه إذ كان إسلام هؤلاء عن تربية الحاضن، وتلقين القيّم، ورياضة السائس.

فأمّا عند التحقيق، فإنّه لا تجويز لمثل ذلك، لأنه لو كان أسلم، وهو ابن سبع أو ثمان وعرف فضل ما بين الأنبياء والكَهنة، وفرق ما بين الرّسل والسّحرة، وفرق ما بين خبر النبيّ والمنجّم، وحتى عرف كيد الأريب، وموضع الحجّة، وبعد غور المتنبي، كيف يلبّس على العقلاء، وتستمال عقول الدَّهْماء، وعرف الممكن في الطّبع من الممتنع، وما يحدث بالاتفاقِ ممّا يحدث بالأسباب، وعرف قدر القُوى وغاية الحيلة ومنتهى التّمويه والخديعة، وما لا يحتمل أن يحدثه إلاّ الخالق سبحانه، وما يجوز على الله في حِكْمته ممّا لا يجوز، وكيف التحفّظ من الهوى والاحتراس من الخِداع، لكان كَونُه على هذه الحال وهذه مع فرط الصِّبَا والحدَاثة وقلّة التجارب والممارسة خروجاً من العادة. ومن المعروف ممّا عليه تركيب هذه الخِلْقة، وليس يصلُ أحد إلى معرفة نبيّ وكذب متنبىء، حتى يجتمع فيه هذه المعارف التي ذكرناها، والأسباب التي وصفناها وفصّلناها، ولو كان عليٌّ عليه السلام على هذه الصّفة ومعه هذه الخاصيّة لكان حجّةً على العامّة، وآية تدلّ على النبوّة، ولم يكن الله عزّ وجلّ ليخصّه بمثل هذه الأعجوبة إلاّ وهو يريد أن يحتجّ بها، ويجعلها قاطعةً لعذر الشّاهد وحجة على الغائب. ولولا أن الله أخبر عن يحيى بن زكريا أنّه أتاه الحكْم صبياً، وأنه أنطق عيسى في المَهْد ما كانا في الحُكْم وَلاَ في المغيّب، إلا كسائر الرّسل، وما عليه جميع البشر. فإذا لم ينطق لعلي عليه السلام بذلك قرآن، ولا جاء الخبرُ به مجيءَ الحجّة القاطعة والمشاهدة القائمة، فالمعلوم عندنا في الحُكْم أن طباعه كطباع عَمّيْه حمزة والعباس، وهما أمسّ بمعدن جمَاع الخير منه، أو كطباع جعفر وعَقِيل من رجال قومه، وسادة رهطه. ولو أنّ إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفر أو لعمّيْه حمزة والعباس، ما كان عندنا في أمره إلا مثل ما عندنا فيه.

أجاب شيخُنا أبو جعفر رحمه الله، فقال: هذا كلُّه مبنيٌّ على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان، ونحن قد بيّنا أنّ أسلم بالغاً ابن خمس عشرة سنَة أو ابن أربع عشرة سنة، على أنّا لو نزلنا على حُكْم الخصوم، وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية، وهو أنّه أسلَم وهو ابن عشرٍ

لم يلزم ما قاله الجاحظ، لأنّ ابن عشرٍ قد يستجمع عقله، ويعلم من مبادىء المعارف ما يستخرج به كثيراً من الأمور المعقولة، ومتى كان الصبيّ عاقلاً مميّزاً كان مكلّفاً بالعقليّات، وإن كان تكليفُه بالشرعيّات موقوفاً على حدّ آخر وغاية أخرى، فليس بمنكرٍ أن يكون عليٌّ عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة، فلزمه الإقرار بالنبوّة، وأسلم إسلام عالم عارف، لا إسلام مقلّد تابع، وإن كان ما نسّقه الجاحظ وعدّده من معرفة السّحر والنّجوم والفصل بينهما وبين النبوّة، ومعرفة ما يجوز في الحكمة ممّا لا يجوز، وما لا يحدِثه إلاّ الخالق، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقُدْرة، ومعرفة التّمويه والخديعة، والتّلبيس والمماكرة، شرطاً في صحّة الإسلام لما صحّ إسلام أبي بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب، وإنّما التّكليف لهؤلاء بالجمل ومبادىء المعارف لا بدقائقها والغامض منها، وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرّجال وجرّب الأمور ونازع الخصوم، وإنما يفتقر إلى صحّة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطْرة، ألا ترى أنّ طفلاً لو نشأ في دارٍ لم يعاشر النّاس بها، ولا فاتح الرجال، ولا نازع الخصوم، ثم كَمَل عقلُه، وحصلت العلوم البديهيّة عنده، لكان مكلّفاً بالعقليات!

فأمّا توهّمه أن عليًّا عليه السلام أسلَم عن تربية الحاضن، وتلقين القيّم، ورياضة السّائس، فلَعمرِي إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان حاضنَه وقيّمه وسائسَه، ولكن لم يكن منقطعاً عن أبيه أبي طالب، ولا عن إخوته طالب وعَقِيل وجعفر، ولا عن عُمومته وأهلِ بيته، وما زال مخالطاً لهم، ممتزجاً بهم، مع خدمته لمحمّد صلى الله عليه وآله، فما باله لَم يمِلْ إلى الشّرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله، وهم كثير ومحمد صلى الله عليه وآله واحد! وأنت تعلم أن الصبيّ إذا كان له أهلٌ ذوو كثرة، وفيهم واحد يذهب إلى رأي مفرد، لا يوافِقُه عليه غيره منهم، فإنّه إلى ذَوِي الكثرة أميَلُ، وعن ذي الرأي الشّاذ المنفرد أبْعَد، وعَلَى أنّ عليًّا عليه السلام لم يولَد في دارِ الإسلام، وإنّما ولد في دار الشّرك ورُبّيَ بين المشركين، وشاهد الأصنامَ، وعاين بعينيه أهلَه ورهطه يعبدونها، فلو كان في دار الإسلام لكان في القول مجالٌ، ولقيل إنه ولد بين المسلمين، فإسلامه عن تلقين الظِّئر وعن سماع كلمة الإسلام ومشاهدة شعاره لأنه لم يسمع غيرَه، ولا خطر بباله سواه، فلمّا لم يكن ولد كذلك، ثبت أنّ إسلامه إسلام المميّز العارف بما دخل عليه. ولولا أنّه كذلك لما مدحه رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجِدت من تزيجه بقوله لها: زوّجتُك أقدمَهم سِلْماً، ولا قرن إلى قوله: «وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً»، والحلم العقل، وهذان الأمرانِ غاية الفضل، فلولا أنه أسلم إسلامَ عارف عالم مميّز لما ضمّ إسلامه إلى العلم والحِلْم اللَّذيْن وصفه بهما! وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مُثاباً عليه، ولا معاقباً به لو تركه، ولو كان إسلامُه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام به على رؤوس الأشهاد، ولا خطب عَلَى المنبر، وهوَ بين عدوٍّ ومحارب، وخاذل منافق، فقال: أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق

الأكبر والفاروق الأعظم، صلّيْتُ قبلَ الناس سبع سنين، وأسلمت قبل إسلام أبي بكر، وآمنت قبل إيمانه! فهلْ بَلغَكم أن أحداً من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابَهُ أو ادعاه لغيره، أو قال له: إنما كنتَ طفلاً أسلمت على تربية محمد صلى الله عليه وآله ذلك، وتلقينه إياك، كما يُعَلَّم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعاً! فلا فخر له في تعلم ذلك، وخصوصاً في عصرٍ قد حارب فيه أهلَ البصرة والشام والنهروان، وقد اعتورتْه الأعداء وهَجَتْه الشعراء، فقال فيه النّعمان بن بشير:

لَـقـدْ طَـلَـبَ الـخـلافـة مـن بـعـيـدٍ ... وسـارعَ فـي الـضَّـلالِ أبـو تُـرَابِ
مـعـاويـة الإمـامُ وأنـت مِـنْـهـا ... عـلـى وتـح[1] بـمـنـقـطَـع الـسـرابِ

وقال فيه أيضاً بعض الخوارج:

دَسَسْنا له تحتَ الظلام ابنَ مُلْجَم ... جـزاء إذا مـا جـاء نـفـسـاً كـتـابُـهـا
أبا حسن خذها على الرأس ضَرْبَةً ... بـكـفّ كـريـمٍ، بـعـد مـوتٍ ثـوابُـهـا

وقال عِمران بن حِطّان يمدح قاتله:

يـا ضـربـةً مِـنْ تـقـيٍّ مـا أراد بـهـا ... إلاّ لـيـبـلُـغَ مـن ذِي الـعـرش رضـوانـاً
إنــي لأذْكُـره حـيـنـاً فـأحـسِـبُـه ... أوْفَـى الـبـريّـة عـنـد الله مـيـزانـاً

فلو وجد هؤلاء سبيلاً إلى دَحْض حجّة فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه، لبدأوا بذلك، وتركوا ما لا معنى له.

وقد أوردنا ما مدحه الشعراء به مِنْ سبقه إلى الإسلام، فكيف لم يُرَدّ على هؤلاء الذين مدحُوه بالسّبق شاعرٌ واحد من أهل حرْبه! ولقد قال في أمّهات الأولاد قولاً خالف فيه عمر، فذكروه بذلك وعابوه، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به ممّا لا فخر فيه عندهم، وعابوه بقوله في أمّهات الأولاد.

ثم يقال له: خَبّرنا عن عبد الله بن عمر - وقد أجازه النبيُّ صلى الله عليه وآله يوم الخَنْدق، ولم يجزه يوم أُحُد - هل كان يُميّز ما ذكرته؟ وهل كان يعلم فَرْق ما بين النبيّ والمتنبي، ويفصل بين السِّحر والمعجزة، إلى غيره مما عدّدت وفصّلت!

فإن قال: نعم، وتجاسر على ذلك، قيل له: فعليٌّ عليه السلام بذلك أوْلى من ابن عمر، لأنّه أذْكَى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء، وأنّى يُشكّ في ذلك، وقد رويتم أنه لم يميّز بين الميزان والعُود بعد طُول السنّ، وكثرة التجارب، ولم يميّز أيضاً بين إمام الرّشد وإمام الغيّ، فإنه امتنع من بَيْعة عليٍّ عليه السلام. وطرَق على الحجّاج بابه ليلاً ليبايع لعبد الملك، كيلاً يبيت تلك الليلة بلا

(١) الوتح: القليل التافه من الشيء. القاموس، مادة (وتح).

إمام، زعم. لأنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية»[1]، وحتى بلغ من احتقار الحجّاج له واسترذاله حاله، أن أخرج رجله من الفراش، فقال: أصفق بيدك عليها، فذلك تمييزه بين الميزان والعود، وهذا اختياره في الأئمة، وحال عليّ عليه السلام في ذكائه وفطنته، وتوقّد حسّه، وصدق حدْسه، معلومة مشهورة، فإذا جاز أن يصحّ إسلام ابن عمر، ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التي سردها الجاحظ ونسّقها، وأظهر فصاحته وتشدُّقَه فيها، فعليّ بمعرفة ذلك أحق، وبصحة إسلامه أوْلَى.

وإن قال: لم يكن ابن عمر يعلمُ ويعرف ذلك، فقد أبطل إسلامه، وطعن في رسول الله ﷺ حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق، لأنه ﷺ كان قال: «لا أجيز إلاّ البالغ العاقل»، ولذلك لم يجزه يوم أُحُد.

ثم يقال له: إنّ ما نقوله في بلوغ عليّ عليه السلام الحدّ الذي يحسن فيه التّكليف العقليّ بل يجب - وهو ابن عشر سنين - ليس بأعجب من مجيء الولد لستّة أشهر، وقد صحّح ذلك أهلُ العلم، واستنبطوه من الكتاب، وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة. وكذلك مجيء الولد لسنتيْن خارج أيضاً عن التعارف والعادة، وقد صحّحه الفقهاء والناس.

ويُرْوَى أنّ معاذاً لمّا نهى عمر عن رَجْم الحامل تركها حتى ولدتْ غلاماً قد نبتت ثنيّتاه، فقال أبوه: ابني وربّ الكعبة! فثبت ذلك سنّةً يعمل بها الفقهاء، وقد وجدنا العادة تقضي بأنّ الجارية تحيض لاثنتيْ عشرة سنة، وأنّه أقلّ سنٍّ تحيض فيه المرأة، وقد يكون في الأقلّ نساء يحِضْن لعشر ولتسع، وقد ذكر ذلك الفقهاء، وقد قال الشافعيّ في اللّعان: لو جاءت المرأة بحمْل وزوجها صبيّ له دون عشر سنين، لم يكن ولداً له، لأنّ من لم يبلغ عشر سنين من الصّبْيان لا يولد له، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له، وكان بينهما لِعان إذا لم يقرّ به.

وقال الفقهاء أيضاً: إن نساء تهامة يحضْنَ لتسع سنين، لشدّة الحرّ ببلادهنّ.

قال الجاحظ: ولو لم يعرف باطل هذه الدّعوى مَنْ آثر التقوى، وتحفّظ من الهوى، إلا بترك عليّ عليه السلام ذكرَ ذلك لنفسه والاحتجاجَ به على خصمه، وقد نازع الرجالَ وناوَى الأكفاء، وجامعَ أهلَ الشّورى، لكان كافياً، ومَتى لم تصحّ لعليّ عليه السلام هذه الدعوى في أيّامه، ولم يذكرْها أهلُ عصره، فهي عن ولده أعجز، ومنهم أضعف!

ولم يُنقل أنّ عليًا عليه السلام احتجّ بذلك في موقف، ولا ذكره في مجلس، ولا قام به خطيباً،

(١) أخرجه الأميني في الغدير: ١٠/ ٣٦٠.

ولا أذلَى به واثقاً، لاسيّما وقد رضيَه الرّسولُ ﷺ عندكم مفزعاً ومعلّماً، وجعله للناس إماماً. ولا ادّعى له أحدٌ ذلك في عصره، كما لم يدّعه لنفسه، حتى يقول إنسان واحد: الدليل عَلَى إمامته أنّ النبي ﷺ دعاه إلى الإسلام أو كلّفه التصديق قبل بلوغه، ليكون ذلك آيةً للنّاس في عصره، وحجّة له ولولده من بعده، فهذا كان أشدّ على طلحة والزبير وعائشة من كلّ ما ادّعاه من فضائله وسوابقه وذكر قرابته.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إن مثلَ الجاحظ مع فضله وعلمه، لا يخفى عليه كذب هذه الدّعوى وفسادها، ولكنّه يقول ما يقوله تعصُّباً وعناداً، وقد روى الناس كافّة، افتخارَ، عليّ عليه السلام بالسّبْق إلى الإسلام، وأنّ النبيّ ﷺ استنبِىء يوم الإثنين، وأسلم عليٌّ يومَ الثلاثاء، وأنه كان يقول: صلّيت قبل الناس سبع سنين، وأنه ما زال يقول: أنا أوّلُ مَنْ أسلمَ، ويفتخر بذلك، ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته في عصره وبعد وفاته. والأمر في ذلك أشهرُ من كلِّ شهير، وقد قدّمنا منه طَرَفاً، وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخفّ بإسلام عليّ عليه السلام، ولا تهاوَن به، ولا زعم أنه أسلم إسلام حَدَثٍ غرير، وطفل صغير، ومن العَجَب أن يكون مثل العبّاس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله، ليُصدِرا عن رأيه، ثم يخالفه عليّ ابنه لغير رغبة ولا رهبة، يؤثر القلّة على الكثرة، والذّلّ على العزّة، من غير علم ولا معرفة بالعاقبة.

وكيف ينكر الجاحِظ والعثمانيّة أنّ رسول الله ﷺ دَعاه إلى الإسلام وكلّفه التّصديق!

وقد روي في الخبر الصّحيح أنّه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنَع له طعاماً، وأن يدعوَ له بني عبد المطّلب، فصنع له الطعام، ودعاهم له، فخرجوا ذلك اليوم، ولم ينذرهم صلّى الله عليه وآله لكلمة قالها عمّه أبو لهب، فكلّفه في اليومَ الثاني أن يصنَع مثل ذلك الطعام، وأنْ يدعوَهم ثانية، فصنعه، ودعاهم فأكلوا، ثم كلّمهم ﷺ فدعاهم إلى الدّين، ودعاه معهم لأنّه من بني عبد المطلب، ثم ضمِن لمن يؤازره منهم وينصره على قوله، أن يجعَله أخاه في الدين، ووصيَّه بعد موته، وخليفتَه من بعده، فأمسكوا كلُّهم وأجابه هو وحده، وقال: أنا أنصرُك على ما جئت به، وأوازرك وأبايعك، فقال لهم لمّا رأى منهم الخِذْلان، ومنه النصر، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة، وعاين منهم الإباء ومنه الإجابة: هذا أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي[1]، فقاموا يسخرون ويضحكون، ويقولون لأبي طالب: أطِعْ ابنَك، فقد أمّره عليك، فهل يكلّف عملَ الطعام ودعاء القوم صغير مميّز وغِرٌّ غير عاقل! وهل يؤتمن على سرّ النبوّة طفلٌ ابن خمس سنين أو ابن سبع! وهل يُدْعى

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٤٣)، وذكره في «كنز العمال» (٣٦٣٧١) ونسبه للطبري.

في جملة الشيوخ والكهول إلاّ عاقل لبيب! وهل يضع رسول الله ﷺ يده في يده، ويعطيه صَفْقَة يمينه، بالإخُوّة والوصيّة والخلافة إلاّ وهو أهلٌ لذلك، بالغٌ حدّ التكليف، محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه! وما بالُ هذا الطفل لم يأنس بأقرانه، ولم يلصَقْ بأشكاله، ولم يُرَ مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه، وهو كأحدهم في طبقته، كبعضهم في معرفته!

وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته، فيقال: دعاهُ داعي الصِّبَا وخاطر من خواطر الدنيا، وحملته الغِرّة والحداثة على حضور لهوهم والدخول في حالهم، بل ما رأيناه إلاّ ماضياً على إسلامه، مصمّماً في أمره، محققاً لقوله بفعله، قد صدّق إسلامه بعفافه وزُهْده، ولصق برسول الله ﷺ من بين جميع مَنْ بحضرته، فهو أمينه وأليفه في دنياه وآخرته، وقد قهر شهوته، وجاذب خواطره، صابراً على ذلك نفسَه، لما يرجو من فوز العاقبة وثواب الآخرة، وقد ذكر هو عليه السلام في كلامه وخُطَبه بدء حاله، وافتتاحَ أمره، حيث أسلم لما دعا رسول الله ﷺ الشّجرة، فأقبلت تخدّ[1] الأرض[2]، فقالت قريش: ساحر خفيف السّحر! فقال عليٌّ عليه السلام: يا رسولَ الله، أنا أوّل مَنْ يؤمن بك، آمنت بالله ورسوله وصدّقتك فيما جئتَ به، وأنا أشهد أنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمرِ الله تصديقاً لنبوّتك، وبرهاناً على صحّة دعوتك[3]، فهل يكون إيمان قطّ أصحّ من هذا الإيمان وأوثقَ عُقْدةً، وأحكم مِرّة! ولكن حَنَقُ العثمانيّة وغيظُهم، وعصبيّة الجاحظ وانحرافه مما لا حيلة فيه. ثم لينظر المنصف وليدَع الهوَى جانباً، ليعلم نعمة الله على عليّ عليه السلام بالإسلام حيث أسلَم على الوضع الّذي أسلم عليه، فإنه لولا الألطاف التي خُصّ بها، والهداية التي مُنِحَها، لما كان إلاّ كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وأهله، فقد كان ممازجاً له كممازجته، ومخالطاً له كمخالطة كثير من أهله ورهطه، ولم يستجبْ منهم أحدٌ له إلاّ بعد حين. ومنهم من لم يستجِبْ له أصلاً، فإنّ جعفراً عليه السلام كان ملتصقاً به، ولم يُسلم حينئذٍ، وكان عُتْبة بن أبي لهب ابن عمّه وصهره زوج ابنته ولم يصدّقه، بل كان شديداً عليه، وكان لخديجة بنون من غيره، ولم يسلموا حينئذٍ، وهم ربائبة ومعه في دار واحدة. وكان أبو طالب أباه في الحقيقة وكافله وناصرَه، والمحامِيَ عنه، ومَنْ لولاه لم تقم له قائمة، ومع ذلك لم يُسلم في أغلب الروايات، وكان العبّاس عمَّه وصنو أبيه، وكالقرين له في الولادة والمنشأ والتربية، ولم يستجبْ له إلاّ بعد حين طويل، وكان أبو لهب عمَّه، وكدمه ولحمه، ولم يسلم، وكان شديداً عليه، فكيف ينسَب إسلام عليّ عليه السلام إلى الإلف والتربية

---

(١) تخد: تشق. اللسان، مادة (خدد).

(٢) أخرج نحوه الدارمي في كتاب: المقدمة، باب: ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به (١٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٠٥).

(٣) أخرجه الأميني في الغدير: ٢/ ٢٨٧.

والقرابة واللّحمة والتلْقين والحَضَانة، والدار الجامعة، وطول العشرة والأنس والخلوة! وقد كان كلّ ذلك حاصلاً لهؤلاء أو لكثير منهم، ولم يهتدِ أحدٌ منهم إذ ذاك، بل كانوا بين من جَحَد وكَفَر ومات على كفره، ومَنْ أبطأ وتأخر، وسُبق بالإسلام وجاء سُكَيْتاً(١)، وقد فاز بالمنزلة غيرهُ.

وهل يدلّ تأمّل حال عليّ عليه السلام مع الإنصاف إلاّ على أنّه أسلم، لأنه شاهد الأعلام، ورأى المعجزات، وشمّ ريح النبوة، ورأى نور الرسالة، وثبت اليقينُ في قلبه بمعرفة وعلم ونظر صحيح، لا بتقليد ولا حَمِيَّةٍ، ولا رغبة ولا رهبة، إلا فيما يتعلّق بأمور الآخرة.

قال الجاحظ: فلو أنّ علياً عليه السلام كان بالغاً حيث أسلم، لكان إسلام أبي بكر وزيد بن حارثة وخبّاب بن الأرتّ أفضلَ من إسلامه، لأن إسلام المقتضب الّذي لم يعتدّ به ولم يعوّده، ولم يمرَّن عليه، أفضلُ من إسلام الناشىء الذي رُبِّيَ فيه، ونشأ وحبّب إليه، وذلك لأنّ صاحب التربية يبلُغ حيث يبلغ وقد أسقط إلفه عنه مؤنة الرّوية والخاطر، وكفاه علاج القلب واضطراب النفس، وزيد وخبّاب وأبو بكر يعانون من كُلْفة النظر ومؤنة التأمّل ومشقة الانتقال من الدّين الذي قد طال الفهم له ما هو غير خافٍ. ولو كان عليٌّ حيث أسلم بالغاً مقتضباً كغيرِه ممّنْ عددنا، كان إسلامُهم أفضلَ من إسلامه، لأنّ من أسلم وهو يعلم أنّ له ظهراً كأبي طالب، وردءًا كبني هاشم، وموضعاً في بني عبد المطلب، ليس كالحِليف والمولَى، والتّابع والعَسِيف(٢)، وكالرجل من عُرْض قريش. أولستَ تعلم أنّ قريشاً خاصّةً وأهل مكة عامّة لم يقدروا على أذى النبيّ صلى الله عليه وآله، ما كان أبو طالب حيًّا! وأيضاً فإنّ أولئك اجتمع مع فراق الإلف مشقة الخواطر، وعليٌّ عليه السلام كان بحضْرة رسول الله صلى الله عليه وآله، يشاهد الأعلام في كلّ وقت، ويحضر منزل الوحي، فالبراهين له أشدُّ انكشافاً، والخواطر على قلبه أقلُّ اعتلاجاً، وعلى قَدْر الكُلْفة والمشقّة يعظُم الفضل ويكثر الأجر.

قال أبو جعفر رحمه الله: ينبغي أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصل، ويقفوا على قول الجاحظ والأصمّ في نصرة العثمانية واجتهادهما في القصد إلى فضائل هذا الرجل، وتهجينها، فمرّة يبطِلان معناها، ومرّة يتوصّلان إلى حطّ قدرها، فلينظر في كلّ باب اعترضا فيه، أين بلغت

(١) السُّكَيْت: الذي يجيء في آخر الحلبة، اللسان، مادة (سكت).
(٢) العسيف: الأجير، والعبد المستعان به. القاموس، مادة (عسف).

حيلتهما، وما صنعا في احتيالهما في قصصهما وسجعهما! أليس إذا تأملتها علمتَ أنها ألفاظ ملفقة بلا معنى، وأنها عليها شجًى وبلاء! وإلا فما عسى أن تبلغَ حيلةُ الحاسد ويغني كيد الكائد الشانيء لمن قد جلّ قدره عن النقص، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس! وأين قول الجاحظ، من دلائل السماء، وبراهين الأنبياء، وقد علم الصغيرُ والكبير، والعالم والجاهل، ممّن بلغه ذكرُ عليٍّ ﷺ، وعلم مبعثَ النبيّ ﷺ أنّ علياً ﷺ لم يولد في دارِ الإسلام، ولا غُذّي في حِجْر الإيمان، وإنما استضافه رسول الله ﷺ إلى نفسه سَنَة القَحْط والمجاعة، وعمْره يومئذٍ ثماني سنين، فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرائيل بالرسالة، فدعاه وهو بالغ كاملُ العقل إلى الإسلام، فأسلَم بعد مشاهدة المعجزة، وبعد إعمال النّظر والفكرة، وإن كان قد ورد في كلامه أنه صلّى سبعَ سنين قَبْل الناس كلّهم، فإنما يعني ما بين الثمان والخمس عشرة، ولم يكن حينئذٍ دعوة ولا رسالة، ولا ادّعاء نبوّة، وإنما كان رسول الله ﷺ يتعبّد على ملّة إبراهيم ودين الحنيفيّة، ويتحنث[1]، ويجانب الناس، ويعتزل ويطلب الخلْوة، وينقطع في جبل حراء، وكان عليٌّ ﷺ معه كالتّابع والتلميذ، فلمّا بلغ الحُلُم، وجاءت النبيَّ ﷺ الملائكةُ، وبشّرَته بالرسالة، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام المعجزة، فكيف يقول الجاحظ إن إسلامَه لم يكن مقتضباً!

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره في الفضيلة لِمَا كان يمرّن عليه من التعبّد مع رسول الله ﷺ قبل الدعوة، لتكونَنَّ طاعة كثير من المكلّفين أفضلَ من طاعة رسول الله ﷺ وأمثاله من المعصومين، لأنّ العصمة عند أهلِ العدْل لطف يمنع من اختصّ به من ارتكاب القبيح، فمن اختصّ بذلك اللّطف كانت الطاعة عليه أسهل، فوجب أن يكون ثوابُه أنقصَ من ثواب مَن أطاع مع تلك الألطاف!

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقصٌ عن إسلام غيره، وقد جاء في الخبر أنّه أسلم يومَ الثلاثاء، واستنِيء النبيّ ﷺ يوم الإثنين، فمَن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه، ولا تواترت أعلام النبوّة على مشاهدته، ولا تطاول الوقت عليه لتخفّ محنته، ويسقط ثقل تكليفه، بل بان فضلُه، وظهر حسنُ اختياره لنفسه، إذا أسلم في حال بلوغه، وعانى نوازعَ طبعه، ولم يؤخِّر ذلك بعد سماعه.

وقد غمر الجاحظ في كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكوراً، ورئيساً معروفاً، يجتمع إليه كثير من أهل مكّة فينشدون الأشعار، ويتذاكرون الأخبار، ويشربون الخمر، وقد كان سمع دلائل النبوّة وحُجج الرّسل، وسافر إلى بلدان، ووصلت إليه الأخبار، وعرف دعوَى

(١) يتحنث: يتعبد الليالي ذوات العدد ويعتزل الأصنام. القاموس، مادة (حنث).

الكَهَنة وحِيَل السحرة، ومنْ كان كذلك كان انكشافُ الأمور له أظهر والإسلامُ عليه أسهَل، والخواطر على قلبه أقلَّ اعتلاجاً، وكلُّ ذلك عَوْنٌ لأبي بكر على الإسلام، ومسّهل إليه سَبيله، ولذلك لمّا قال النبيّ ﷺ: «أتيتُ بيتَ المقدس»[١] سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه، فصدّقه وبان له أمرُه، وخفّت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت، فخرج إذاً إسلام أبي بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب. وفي ذلك رويتم عَنْهُ ﷺ أنه قال: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا وكان له تردّد ونَبْوَة، إلاّ ما كان من أبي بكر، فإنّه لم يتلعثم حتى هجَم به اليقينُ إلى المعرفة والإسلام»، فأين هذا وإسلام من خُلّيَ وعقله، والجيء إلى نظره، مع صغَر سنّة، واعتلاج الخواطر على قلبِه ونشأته، في ضدّ ما دخل فيه، والغالب على أمثاله وأقرانه حبُّ اللعب واللهو، فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدّعوة، ولم يتأخّر إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصيَة، فقهر شهوته، وغالب خواطِرَه، وخرج من عادته وما كان غُذّيَ به لصحّة نظره، ولطافة فكِره وغامض فهمه، فعظُم استنباطُه، ورجح فضلُه، وشرُف قدر إسلامه، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب، ولا تنعّم فيها بنعيم حَدَثاً ولا كبيراً، وحمى نفسَه عن الهوَى، وكسر شِرّة حداثته بالتَّقْوى، واشتغل بهمّ الدين عن نعيم الدنيا، وأشغل همّ الآخرة قلبَه، ووجّه إليه رغبته، فإسلامه هو السّبيلُ الذي لم يُسلم عليه أحدٌ غيره، وما سبيله في ذلك إلا كسبيلِ الأنبياء، ليعلم أن منزلتَه من النبي ﷺ كمنزلةِ هارون من موسى، وأنّه وإن لم يكن نبيًّا، فقد كان في سبيل الأنبياء سالكاً، ولمنهاجهم متبّعاً، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام، فإن أهل العلم ذكروا أنّه لما كان صغيراً جعلتْه أمّه في سَرَب لم يطّلع عليه أحد، فلمّا نشأ ودرَج وعقلَ قال لأمه: مَنْ ربّي؟ قالت: أبوك، قال: فمن ربّ أبي؟ فزبَرته ونهرتْه، إلى أن طلع من شقّ السَّرَب، فرأى كوكباً، فقال: هذا ربّي، فلما أفل قال: لا أحبّ الآفلين، فلمّا رأى القمر بازغاً قال: هذا ربّي، فلما أفَل قال: لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضالّين، فلما رأى الشمس بازغةً قال: هذا ربّي هذا أكبر، فلما أفلتْ قال: يا قوم إني بريءٌ مما تشركون، إنّي وجهت وجهي للّذِي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[٢]، وعلى هذا كان إسلام الصّديق الأكبر عليه السلام، لسنا نقول إنّه كان مساوياً له في الفضيلة، ولكن كان مقتدياً بطريقِهِ على ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. وأما اعتلال الجاحظ بأن له ظهراً كأبي طالب وردءًا كبني هاشم، فإنه يوجب عليه أنْ تكون مِحْنة أبي بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله ﷺ، لأن أبا

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٢).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥. (٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

طالب ظهره، وبني هاشم ردْؤه، وحسبك جهلاً من معاند لم يستطع حطّ قدر عليّ عليه السلام إلا بحطّه من قَدْر رسول الله صلى الله عليه وسلم! ولم يكن أحدٌ أشد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قراباته، الأدْنى منهم فالأدنى، كأبي لهب عمه وامرأة أبي لهب، وهي أم جميل بنت حَرْب بن أميّة وإحدى أولاد عبد مناف، ثم ما كان من عُقْبة بن أبي مُعَيط، وهو ابن عمه، وما كان من النّضر بن الحارث، وهو من بني عبد الدار بن قُصَيّ، وهو ابن عمه أيضاً، وغير هؤلاء ممن يطوف تعداده، وكلّهم كان يطرحُ الأذى في طريقه، وينقل أخباره، ويرميه بالحجارة، ويرمي الكَرش والفَرْث عليه، وكانوا يؤذُون عليًا عليه السلام كأذاه، ويجتهدون في غمّه ويستهزؤن به، وما كان لأبي بكر قرابة تؤذيه كقرابة عليّ، ولما كان بين عليّ وبين النّبيّ صلى الله عليه وسلم من الاتحاد والإلف والاتفاق، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذَى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً من سيفه، ولأنّه صاحب الدار والجيش، وأمره مطاع، وقوله نافذ، فخافوا على دمائهم، منه، فاتّقَوْه، وأمسكوا عن إظهار بغضه، وأظهروا بغضَ عَلِيٍّ عليه السلام وشنآنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه في الخبر الّذي روي في جميع الصّحاح: **«لا يحبُّك إلا مؤمن، ولا يُبغِضك إلى منافق»**[(١)].

وقال كثير من أعلام الصحابة - كما رُوِيَ في الخبر المشهور بين المحدّثين: **«ما كنا نعرِف المنافقين إلاّ ببغضِ عليّ ابن أبي طالب»**[(٢)]. وأين كان ظهر أبي طالب عن جعفر، وقد أزعجه الأذى عن وطنه، حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر، أيَتوهّم الجاحظ أن أبا طالب نصر علياً، وخذل جعفراً!

قال الجاحظ: ولأبي بكر فضيلة في إسلامه أنّه كان قبل إسلامه كثير الصّدق، عريضَ الجاه، ذا يسارٍ وغِنًى، يعظَّم لماله، ويُستفاد من رأيه، فخرج من عزّ الغِنَى وكثرة الصدق إلى ذُلّ الفاقة وعجز الوحدة، وهذا غير إسلام مَنْ لا حَرَاك به، ولا عزّ له، تابع غير متبوع، لأنّ مِنْ أشدّ ما يبتلَى الكريم به، السب بعد التحيّة، والضَّرب بعد الهيبة، والعُسْر بعد اليسر. ثم كان أبو بكر دعيةً من دعاء الرّسول، وكان يتلوه في جميع أحواله، فكان الخوف إليه أشدّ، والمكروه نحوه أسرع، وكان مِمّن تحسُن مطالبته، ولا يستحيي من إدراك الثأر عنده، لنباهته، وبعد ذكره، والحدَث الصغير يزدري ويحتقر لصِغَر سنّه وخمول ذكره.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧٣٦)، والنسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٨).

(٢) أخرجه مطولاً: الحاكم في «المستدرك» (٤٦٤٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢١٢٥).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا ما ذُكِرَ من كثرة المال والصدق، واستفاضة الذّكْر وبعد الصِّيت وكِبَر السنّ، فكلُّه عليه لا له، وذلك لأنه قد علِم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظَ الصديق والوفاء بالذّمام والتهيّب لذي الثَّرْوة واحترام ذي السنّ العالية، وفي كلّ هذا ظَهْر شديد، وسنَد وثقة يعتمد عليها عند المحن، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكّن من صديقه أبقى عليه، واستحيا منه، وكان ذلك سبباً لنجاتِه والعفو عنه، عَلَى أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام إنْ لم يكن شَهَرَه سنُّه، فقد شهره نسبه وموضعه من بني هاشم، وإن لم يستفِضْ ذكره بلقاء الرّجال، وكثرة الأسفار استفاض بأبي طالب، فأنتم تعلمون أنه ليس تَيْم في بعد الصِّيت كهاشم، ولا أبو قحافة كأبي طالب، وعلى حَسَب ذلك يعلُو ذكر الفتى على ذي السنّ ويبعد صيت الحدَث على الشيخ، ومعلومٌ أيضاً أنّ علياً على أعناق المشركين أثقلُ، إذ كان هاشميًّا، وإن كان أبوه حاميَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمانعَ لحوزته، وعليٌّ هو الّذِي فتح عَلَى العرب باب الخلاف، واستهان بهم، بما أظهر من الإسلام والصلاة، وخالف رهطه وعشيرته، وأطاع ابن عمّه فيما لم يعرَف من قبلُ، ولا عهد له نظيرغ كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1]. ثم كان بعدُ صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومشتكَى حَزَنه، وأنيسه في خَلْوته، وجليسَه وأليفه في أيّامه كلِّها، وكلّ هذا يوجب التحريضَ عليه، ومعاداة العرب له، ثم أنتمْ معاشرَ العثمانيّة، تُثْبِتُون لأبي بكر فضيلةً بصحبة الرّسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب، ودخوله معه في الغار، فقلتم: مرتبة شريفة وحالة جليلة، إذ كان شريكَه في الهجرة، وأنيسَه في الوحشة، فأين هذه من صُحْبة علي عليه السلام لهُ في خَلْوته، وحيث لا يجد أنيساً غيره، ليلَه ونهاره، أيام مُقامِه بمكّة يعبد الله معه سرًّا، ويتكلّف له الحاجة جَهْراً، ويخدمه كالعبْد يخدم مولاه، ويشفِقُ عليه ويحوطه، وكالولد يبرّ والده، ويعطف عليه. ولمّا سئلت عائشة مَنْ كان أحبَّ النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: أمّا مِن الرجال فعليّ، وأمّا من النِّساء ففاطمة[2].

قال الجاحظ: وكان أبو بكر من المفتونين المعذّبين بمكة قبل الهجرة، فضربه نوفل ابن خويلد بابن العدَويّة مرتين، حتى أدماه وشدّه مع طلحة بن عبيد الله في قَرن، وجعلهما في الهاجرة عمير بن عثمان بن مرة بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرّة، ولذلك كانا يُدعيان القرينين، ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً، وبلوغ منزلته شديداً، ولو كان يوماً واحداً لكانَ عظيماً، وعليّ بن أبي طالب رافِهٌ وادع، ليس بمطلوب ولا طالب، وليس أنه لم يكن في طبعه

---

(١) سورة يّس، الآية: ٦.

(٢) ذكره الجرجاني في «تاريخ جرجان» (١/ ٢١٣).

الشَّهامة والنَّجدة، وفي غريزته البَسالة في الشَّجاعة، لكنه لم يكن قد تمّت أداته، ولا استكملت آلته، ورجال الطلب وأصحاب الثأر يُغمصون ذا الحَداثة ويزدرون بذي الصِّبَا والغرارة، إلى أن يلحق بالرجال، ويخرج من طَبْع الأطفال.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا القولُ فممكن والدعوى سهلة، سيّما على مثل الجاحظ، فإنّه ليس على لسانه من دينه وعَقْله رقيب، وهو من دَعْوَى الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، وقوله لغو، ومطلبه سجع، وكلامه لعبٌ ولهو، يقول الشيء وخلافه، ويُحْسِنُ القول وضدّه، ليس له من نفسه واعظ ولا لدعواه حدٌّ قائم، وإلاّ فكيف تجاسر على القول بأنّ علياً حينئذٍ لم يكن مطلوباً ولا طالباً، وقد بيّنا بالأخبار الصحيحة، والحديث المرفوع المسنَد أنه كان يوم أسلم بالغاً كاملاً منابذاً بلسانه وقلبه لمشركي قريش، ثقيلاً على قلوبهم، وهو المخصوص دون أبي بكر بالحِصَار في الشِّعْب، وصاحب الخلَوات برسول الله ﷺ في تلك الظلمات، المتجرّع لُغصص المرار من أبي لهب وأبي جهل وغيرهما، والمصطلِي لكلّ مكروه والشَّرِيك لنبيّه في كلّ أذى، قد نهض بالحِمْل الثَّقِيل، وبان بالأمر الجليل، ومَنِ الذي كان يخرج ليلاً من الشِّعْب على هيئة السارق، ويخفِي نفسه، ويضائل شخصه، حتى يأتيَ إلى مَنْ يبعثه إليه أبو طالب من كُبَراء قريش، كمطعِم بن عديّ وغيره، فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح، وهو على أشدّ خوف من أعدائهم، كأبي جهل وغيره، لو ظفروا به لأراقوا دَمه. أعليٌّ كان يفعل ذلك أيّام الحصار في الشِّعب، أم أبو بكر؟ وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذٍ، فقال في خطبة له مشهورة: فتعاقدوا ألاّ يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانَها، واضطرونا إلى جبل وَعر، مؤمننا يرجُو الثواب، وكافُرنا يحامي عن الأصل، ولقد كانَتِ القبائلُ كلُّها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارّة والميرة[1]، فكانوا يتوقّعُون الموت جوعاً، صباحاً ومساءً، لا يروْن وجهاً ولا فَرَجاً، قد اضمحلّ عزمهم، وانقطع رجاؤهم، فَمَنِ الذي خلص إليه مكروه تلك المحَن بَعد محمد ﷺ إلاّ عليٌّ عليه السلام وحدَه! وما عسى أن يقول الواصف والمطنب في هذه الفضيلة، مِنْ تقصّي معانيها، وبلوغ غاية كُنْهها، وفضيلة الصابر عندها! ودامت هذه المحنة عليهم ثلاث سنين، حتى انفرجت عنهم بقصّة الصحيفة، والقصة مشهورة.

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقولَ في عليٍّ عليه السلام: إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافهاً لم يكن مطلوباً ولا طالباً، وهو صاحب الفِراش الّذِي فَدَى رسول الله ﷺ بنفسه، ووقاه

---

(١) المير: جَلَبُ الطعام. القاموس، مادة (مير).

بمهجته، واحتمل السّيوف ورضح الحجارة دونه. وهل ينتهي الواصف وإن أطنب، والمادح وإن أسهب، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة، والإيضاح بمزيّة هذه الخصيصة!

فأمّا قوله: إنّ أبا بكرٍ عُذِّبَ بمكّة، فإنا لا نعلم أنّ العذاب كان واقعاً إلا بعبدٍ أو عسيفٍ، أو لمن لا عشيرة له تمنعه، فأنتم في أبي بكر بين أمرين: تارة تجعلونه دخيلاً ساقطاً، وهجيناً رذيلاً مستضعَفاً ذليلاً، وتارة تجعلونه رئيساً متَّبعاً، وكبيراً مطاعاً، فاعتمِدوا على أحد القولين لنكلِّمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم. ولو كان الفضلُ في الفتنة والعذاب، لكان عمّار وخبّاب وبلال وكلّ معذّب بمكة أفضلَ من أبي بكر، لأنهم كانوا من العذاب في أكثر ممّا كان فيه، ونزل فيهم من القرآن ما لم ينزل فيه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾(١)، قالوا: نزلت في خبّاب وبلال، ونزل في عمّار قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾(٢)، وكان رسول الله ﷺ يمرّ على عمّار وأبيه وأمّه، وهم يعذّبون، يعذّبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم، فيقول: «صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة»(٣)، وكان بلال يقلَّب على الرَّمْضاء، وهو يقول: أحد أحد! وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكراً، ولقد كان لعليّ عليه السلام عنده يد غرّاء، إن صحّ ما رويتموه في تعذيبه، لأنه قتل نوفلَ بن خويلد وعمير بن عثمان يوم بَدْر، ضرب نوفلاً فقطع ساقة، فقال: أذكّرك الله والرحم! فقال: قد قطع الله كلَّ رَحِمٍ وصِهْر إلاّ مَنْ كان تابعاً لمحمّد، ثم ضربه أخرى ففاضت نفسُه، وصمد لعمير بن عثمان التميمّ، فوجده يروم الهرب، وقد ارتجّ عليه المسلك، فضربه على شراسيفِ(٤) صدره، فصار نصفُه الأعلى بين رجليه، وليس أنّ أبا بكر لم يطلب بثأره منهما، ويجتهد، لكنّه لم يقدر عَلَى أن يفعل فعلَ عليٍّ عليه السلام، فبان عليٌّ عليه السلام بفعله دونه.

قال الجاحظ: ولأبي بكر مراتبُ لا يشركه فيها عليٌّ ولا غيره، وذلك قبلَ الهجرة فقد علم النّاس أن علياً عليه السلام إنما ظهر فضلُه، وانتشر صيتُه، وامتحِن ولقِيَ المشاقّ منذ يوم بدر، وأنه إنما قاتل في الزّمان الذي استوفى فيه أهل الإسلام، وأهل الشرك، وطمِعوا في أن يكون الحرب بينهم سِجالاً، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبَة للمتقين، وأبو بكر كان قبل الهجرة معذّباً ومطروداً مشرَّداً، في الزمان الذي ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حرَكة، ولذلك قال أبو بكر في خلافته: طوبَى لمن مات في فأفاة الإسلام! يقول: في ضعفه.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤١. (٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٤٠)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ١٦٢).

(٤) الشراسيف: جمع شرسوف: وهو غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف. اللسان، مادة (شرسف).

قال أبو جعفر رحمه الله: لا أشُكّ أنّ الباطل خان أبا عثمان، والخطأ أقعده، والخذلان أصاره إلى الْحَيْرَة، فما علم وعرف حتى قال ما قال، فزعم أن علياً عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاقّ، وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحَن الابتلاء منذ يوم بدر، ونسيَ الحصار في الشِّعب، وما مُنِي به منه، وأبو بكر وادع رافِهٌ، يأكل ما يريد، ويجلس مع من يحبّ، مخلّى سِربُه، طيّبة نفسه، ساكناً قلبه، وعليّ يقاسي الغَمَرات، ويكابد الأهوال، ويجوع ويظمأ، ويتوقّع القتل صباحاً ومساءً، لأنه كان هو المتوصّل المحتال في إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرًّا، ليقيم به رمَق رسول الله صلى الله عليه وآله وبني هاشم، وهم في الحِصار، ولا يأمن في كلّ وقتٍ مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله بالقَتْل، كأبي جهل بن هشام وعُقْبة بن أبي مُعَيط، والوليد بن المغيرة، وعُتْبة بن ربيعة وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها، ولقد كان يجيع نفسَه ويطعِم رسول الله صلى الله عليه وآله زاده، ويُظْمِيء نفسَه ويسقيه ماءه، وهو كان المعلّل له إذا مرض، والمؤنس له إذا استوحش، وأبو بكر بنجْوة عن ذلك لا يمسّه مما يمسّهم ألم، ولم يلحقه ممّا يلحقهم مشقّة، ولا يعلم بشيء من أخبارهم وأحوالهم، إلاّ على سبيل الإجمال دون التفصيل، ثلاث سنين، محرّمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم، محبوسين محصورين ممنوعين من الخروج والتصرّف في أنفسهم، فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة، ونسيَ هذه الخَصِيصة، ولا نظير لها! ولكن لا يبالي الجاحظ بعد أن يُسوّغ لفظُه، وتنسق له خطابته، ما ضيّع من المعنى، ورجع عليه من الخطأ!

فأمّا قولُه: واعلموا أنّ العاقبة للمتقين، ففيه إشارة إلى معنى غامضٍ قصده الجاحظ - يعني أن لا فضيلة لعليّ عليه السلام في الجهاد، لأنّ الرسول كان أعلمه أنه منصور، وأنّ العاقبة له - وهذا من دسائس الجاحظ وهَمَزاته ولمزاته، وليس بحقٍّ ما قاله، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم أصحابه جملةً أنَ العاقبة لهم، ولم يعلم واحداً منهم بعينه أنه لا يُقتل، لا علياً ولا غيره، وإن صحّ أنه كان أعلمه أنه لا يُقتل، فلم يعلمه أنّه لا يقطع عضو من أعضائه، ولم يعَلمه أنه لا يمسّه ألم الجراح في جسده، ولم يُعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد. وعلى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر - وهو يومئذٍ بمكّة - أنّ العاقبة لهم، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك، فإن لم يكن لعليّ والمجاهدين فضيلة في الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إياهم ذلك، فلا فضيلة لأبي بكر وغيره في احتمال المشاقّ قبل الهجرة لإعلامه إيّاهم بذلك، فقد جاء في الخبر أنّه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنَّصْر، وأنّه قال له: أرسِلت إلى هؤلاء بالذّبح، وإن الله تعالى سيغنّمنا أموالَهم، ويملّكنا ديارهم، فالقول في الموضعين متساوٍ ومتفق.

قال الجاحظ: وإنّ بين المحنة في الدهر الذي صار فيه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله مقرنين لأهل

مكة ومشركي قريش، ومعهم أهلُ يثرِب أصحاب النخيل والآطام[1] والشجاعة والصبر والمواساة، والإيثار والمحاماة والعدد الدَّثْر، والفعل الجَزْل، وبين الدهر الذي كانوا فيه بمكّة يُفتَنون ويُشتمون، ويضربون ويشرّدون، ويجوعون ويعطشون، مقهورين لا حراك بهم، وأذلاّء لا عزّ لهم، وفقراء لا مالَ عندهم، ومستخفِين لا يمكنهم إظهار دعوتهم، لفَرقاً واضحاً، ولقد كانوا في حالٍ أحوجت لوطاً وهو نبيّ إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[2]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: **«عجبت من أخي لوط، كيف قال: أو آوي إلى ركن شديد، وهو يأوى إلى الله تعالى!»**[3] ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومين ولا شهراً ولا شهرين، ولا عاماً ولا عامين، ولكنّ الستين بعد السنين. وكان أغلَظ القوم وأشدّهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر، لأنه أقام بمكّة ما أقام رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث عشرة سنة، وهو أوسط ما قالوا في مُقام النبي صلى الله عليه وآله.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما نَرَى الجاحظ احتجّ لكون أبي بكر أغلظهم وأشدهم محنة، إلا بقوله: لأنه أقام بمكّة مدة مُقام الرسول الله صلى الله عليه وآله بها، وهذه الحجة لا تخصُّ أبا بكر وحده، لأن علياً عليه السلام أقام معه هذه المدة، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخَبّاب وغيرهم، وقد كان الواجب عليه أن يخصّ أبا بكر وحدَه بحجّةٍ تدلّ على أنه كان أغلظَ الجماعة، وأشدَّهم مِحْنَةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فالاحتجاج في نفسه فاسد.

ثم يقال له: ما بالك أهملتَ أمر مَبيت عليّ عليه السلام على الفراش بمكّة ليلة الهجرة! هل نسيته أم تناسيتَه! فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة الّتي متى امتحنها الناظر، وأجال فكره فيها، رأى تحتها فضائل متفرقة ومناقب متغايرة، وذلك أنه لما استقرّ الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وآله مجمِع على الخروج من بينهم للهجرة إلى غيرهم قصدوا إلى معالجته، وتعاقدوا على أن يبيّتوه في فِرَاشه، وأن يضربُوه بأسياف كثيرة، بيد كلّ صاحب قبيلة من قريش سيف منها، ليضيع دمُه بين الشعوب، ويتفرّق بين القبائل، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلةً واحدة بعينها من بطون قريش، وتحالفوا على تلك الليلة، واجتمعوا عليها، فلمّا علم رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من أمرهم، دعا أوثق النّاس عنده، وأمثلهم في نفسِه، وأبذلهم في ذات الإله لمهجته، وأسرعهم إجابة إلى طاعته، فقال له: «إنّ قريشاً قد تحالفَتْ على أن تبيّتني هذه الليلة، فامض إلى فراشي، ونَمْ في مضجعي، والتفّ في بُرْدِي الحضرميّ ليروا أني لم أخرج،

(١) الآطام: الحصون المبنية باحجارة. اللسان، مادة (أطم).
(٢) سورة هود، الآية: ٨٠.
(٣) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الأحاديث: ٩٢.

وإنّي خارج إن شاء الله». فمنعه أوّلاً من التحرّز وإعمال الحيلة، وصدّه عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات التي يحتاط بها النّاس لنفوسهم، وألجأه إلى أن يعرِّض نفسه لظُباتِ السّيوف الشّحِيذة من أيدي أرباب الحَنَق والغيظة، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطِيعاً طيّبة بها نفسُه، ونام على فراشه صابراً محتسباً، واقياً له بمهجته، ينتظر القتل، ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتمسها صابر، ولا يبلغها طالب، «والجود بالنّفس أقصى غاية الجود»، ولولا أنّ رسول الله ﷺ علم أنّه أهلٌ لذلك، لَمَا أهّلَه، ولو كان عنده نقصٌ في صبره أو في شجاعته أو في مناصحته لابن عمّه، واختير لذلك، لكان من اختاره ﷺ منقوصاً في رأيه، مضِرًّا في اختياره، ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام، وكلُّهم مجمعون على أنّ الرسول ﷺ عمل الصواب، وأحسن في الاختيار.

ثم في ذلك - إذا تأمله المتأمّل - وجوهٌ من الفَضْل:

منها أنه وإن كان عندَهُ في موضع الثّقة، فإنه غيرُ مأمونٍ عليه ألاّ يضبط السرّ فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء.

ومنها أنّه وإن كان ضابطاً للسرّ وثقة عند من اختاره، فغيرُ مأمونٍ عليه الجُبْنُ عند مفاجأة المكروه، ومباشرة الأهوال، فيفرّ من الفراش، فيفطَنَ لموضع الحيلة، ويطلب رسول الله ﷺ فيظفر به.

ومنها أنّه وإن كان ثقةً ضابطاً للسرّ، شجاعاً نَجْداً، فلعلّه غير محتمل للمبيت على الفراش، لأنّ هذا أمرٌ خارج عن الشجاعة إن كان قد قامه مقام المكتُوف الممنوع، بل هو أشدُّ مشقّة من المكتوف الممنوع، لأنّ المكتوفَ الممنوع يعلَم من نفسه أنّه لا سبيل له إلى الهرب، وهذا يجدُ السّبيل إلى الهرب وإلى الدّفع عن نفسه، ولا يهرُب ولا يدافع.

ومنها أنّه وإن كان ثقةً عنده، ضابطاً للسرّ، شجاعاً محتملاً للمبيت علىَ الفراش، فإنه غير مأمون أن يذهب صبرُه عند العقوبة الواقعة، والعذاب النازل بساحتِه، حتى يبوح بما عندَهُ، ويصير إلى الإقرار بما يعلمه، وهو أنه أخذ طريق كذا فيطلب فيُؤخذ، فلهذا قال علماء المسلمين: إنّ فضيلَة عليٍّ عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها، إلا ما كان من إسحاق وإبراهيم عن استسلامه للذّبح، ولولا أن الأنبياء لا يفضلُهم غيرهم لقلنا: إنّ محنة عليٍّ أعظمُ، لأنه قد روي أن إسحاق تلكّأ أمرَه أن يضطجع، وبكى عَلَى نفسه، وقد كان أبوه يعلم أنّ عنده في ذلك وقفة، ولذلك قال له: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[1]، وحال عليٍّ عليه السلام بخلاف ذلك، لأنه ما تلكّأ ولا تتعتع، ولا تغيّر لونُه ولا اضطربت أعضاؤه، ولقد كان أصحابُ النبيّ ﷺ

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢).

يُشيرون عليه بالرّأي المخالف لما كان أمر به، وتقدّم فيه، فيتركه ويعمل بما أشاروا به، كما جرى يومَ الخندق في مصانعتِه الأحزاب بثلث تَمْر المدينة، فإنّهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه، وهذه كانت قاعدتُه معهم، وعادته بينهم، وقد كان لعليّ عليه السلام أن يعتلّ بعلّة، وأن يقِفَ ويقول: يا رسول الله، أكون معك أحمِيك من العدوّ، وأذبُّ بسيفي عنك، فلستَ مستغنياً في خروج عن مثلي، ونجعلُ عبداً من عبيدنا في فراشك، قائماً مقامك، يتوهّم القوم - برؤيته نائماً في بُرْدِك - أنّك لم تخرج، ولم تفارق مركزَك، فلم يقل ذلك، ولا تحبّس ولا توقّف، ولا تلعثم، وذلك لعلم كلِّ واحدٍ منهما صلّى الله عليه وآله أن أحداً لا يصبر على ثِقَلِ هذه المحنة، ولا يتورّط هذه الهلَكة، إلا مَنْ خَصّه الله تعالى بالصّبْر عَلَى مشقّتها والفوزِ بفضيلتها، وله من جِنْس ذلك أفعالٌ كثيرة، كيومِ دعا عمرو بن عبد ودّ المسلمين إلى المبارزة، فأحجم النّاس كلُّهم عنه، لما علموا من بأسه وشدَّته، ثم كرّر النداء، فقام عليٌّ عليه السلام، فقال: أنا أبرزُ إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إنه عمرو! قال: نعم، وأنا عليّ! فأمره بالخروج إليه، فلمّا خرجَ قال صلى الله عليه وآله: «برز الإيمانُ كلّه إلى الشّرك كله»[1]، وكيوم أحُد حيث حَمَى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبطال قُريش وهم يقصدون قتله، فقتلهم دونَه، حتى قال جبريل عليه السلام: «يا محمّد إنّ هذه هي المواساة»، فقال: «إنه مني وأنا منه»، فقال جبريل: «وأنا منكما»[2]. ولو عددنا أيامه ومقاماته الّتي شَرَى فيها نفسَه لله تعالى لأطلْنا وأسهبنا.

قال الجاحظ: فإن احتجّ محتجٌّ لعليّ عليه السلام بالمبيت على الفراش، فبيْن الغارِ والفِراشَ فَرْقٌ واضح، لأنّ الغارَ وصحبة أبي بكر للنبيّ صلى الله عليه وآله قد نَطَق به القرآن، فصار كالصّلاة والزّكاة وغيرهما ممّا نطق به الكِتاب، وأمْر عليّ عليه السلام ونومُه على الفراش، وإن كان ثابتاً صحيحاً، إلاّ أنه لم يذكَرْ في القرآن، وإنّما جاء مجيء الروايات والسِّير، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا فرق غير مؤثِّر، لأنه قد ثبتَ بالتواتُر حديث الفِراش، فلا فرق بينه وبين ما ذكر في نصّ الكتاب، ولا يجحَدُه إلاّ مجنون أو غير مخالِطٍ لأهل الملّة، أرأيت كونَ الصلواتِ خمساً، وكون زكاة الذّهب ربعَ العشر، وكون خروج الريح ناقضاً للطهارة، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتُر حكمه؟ هل هو مخالف لما نصّ في الكتاب عليه من الأحكام! هذا ممّا لا يقوله رشيد ولا عاقل، على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي بكر في الكتاب، وإنما قال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾[3]، وإنّما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد في السيرة، وقد قال أهل التفسير: إن قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[4] كناية عن

---

(١) أخرجه محمد هادي اليوسفي في موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢/ ٤٩١.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٤١).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠. (٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

عليّ عليه السلام، لأنه مكر بهم، وأوّل الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]، أنزلت في ليلة الهجرة، ومكرُهم كان توزيعَ السّيوف على بطون قريش، ومكرُ الله تعالى ومنامُ عليّ عليه السلام على الفِراش، فلا فرق بين الموضعين في أنّهما مذكوران كِناية لا تصريحاً. وقد روى المفسّرون كلّهم أن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[2]، أنزلت في عليّ عليه السلام ليلةَ المبيت على الفِراش، فهذه مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾، لا فرق بينهما.

قال الجاحظ: وفرقٌ آخر، وهو أنه لو كان مبيتُ عليّ عليه السلام على الفِراش، جاء مجيء كون أبي بكر في الغار، لم يكن له في ذلك كبير طاعة، لأنّ الناقلين نقلوا أنه صلّى الله عليه وآله قال له: «نَمْ فلَنْ يخلُص إليك شيء تكرهه»[3]، ولم ينقُلْ ناقل أنه قال لأبي بكر في صُحبته إياه وكونه معه في الغار مثل ذلك، ولا قال له: أنفِقْ وأعتِق، فإنك لن تفتقر، ولن يصلَ إليك مكروه.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا هو الكذِب الصُّراح، والتحريف والإدخال في الرّواية ما ليس منها، والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له: «اذْهَبْ فاضطجع في مضجعي، وتغَشّ ببُرْدِي الحضرمي، فإنّ القوم سيفقدونني، ولا يشهدون مضجعي، فلعلّهم إذا رأوك يسكِنهم ذلك حتى يصبحوا، فإذا أصبحت فاغدُ في أداء أمانتي»[4]، ولم ينقل ما ذكره الجاحظ، وإنما ولّده أبو بكر الأصمّ، وأخذه الجاحظ، ولا أصلَ له، ولو كان هذا صحيحاً لم يصلْ إليه منهم مكروه، وقد وقع الاتّفاق على أنه ضُرِب ورمي بالحجارة قبل أنْ يعلموا مَنْ هو حتى تضوّر[5]، وأنهم قالوا له: رأينا تضوّرك، فإنا كنا نرمي محمداً ولا يتضوّر، ولأن لفظة المكروه إن كان قالها إنما يراد بها القتْل، فهب أنه أمِن القتل، كيف يأمن من الضّرب والهوان، ومنْ أن ينقطع بعض أعضائه، وبأن سلمت نفسه! أليس الله تعالى قال لنبيّه: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[6] ومع ذلك فقد كسرت رَباعيته وشجّ وجهه،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(٣) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٦٧).

(٤) أخرجه السيد جعفر مرتضى في الصحيح من السيرة: ٤/ ٣٦.

(٥) التضوّر: التلوح والصياح من وجع الضرب أو الجوع. اللسان، مادة (ضور).

(٦) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

وأدميت ساقه، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصّة، وكذلك المكروه الذي أومن عليٌّ عليه السلام منه - وإن كان صحّ ذلك في الحديث - إنما هو مكروه القتل.

ثم يقال له: وأبو بكر لا فضيلة له أيضاً في كونه في الغار، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال له: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾(1)، ومَنْ يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كلّ سوء، فكيف قلت: ولم ينقل ناقل أنه قال لأبي بكر في الغار مثل ذلك! فكلّ ما يجيب به عن هذا فهو جوابنا عمّا أورده، فنقول له: هذا ينقلبُ عليك في النبيّ صلى الله عليه وآله لأن الله تعالى وعده بظهور دينه، وعاقبة أمرِه، فيجب على قولك ألاّ يكونَ مثاباً عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه، ولا ما يصيبه من الأذى إذْ كان قد أيقَنَ بالسّلامة والفتح في عِدَته.

قال الجاحظ: ومَنْ جحد كون أبي بكر صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كَفَر، لأنه جَحَد نصَّ الكتاب، ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ من الفضيلة لأبي بكر، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله في كون الله تعالى معه وإنزال السكينة، قال كثير من الناس: إنه في الآية مخصوص بأبي بكر، لأنه كان محتاجاً إلى السّكينة لما تداخَله من رقّة الطبع البشري، والنبي صلى الله عليه وآله كان غيرَ محتاج إليها، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى، فلا معنى لنزول السكينة عليه، وهذه فضيلة ثالثة لأبي بكر.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إن أبا عثمان يجرّ عَلَى نفسه ما لا طاقةَ له به من مطاعِن الشّيعة، ولقدك ان في غُنْية عن التعلّق بما تعلّق به، لأنّ الشيعة تزعمُ أنّ هذه الآية، بأن تكون طعناً وعيباً على أبي بكر، أوْلى من أن تكون فضيلة ومنقبة له، لأنه لما قال له: ﴿لَا تَحْـزَنْ﴾ دلّ على أنه قد كان حزن وقنِط وأشفق على نفسه، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين، ولا يجوز أن يكون حزنه طاعةً، لأنّ الله تعالى لا ينهى عن الطاعة، فلو لم يكن ذنباً لم ينهَ عنه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشكّ، كما يقول الرجل لصاحبه: لا تضمرنّ سوءاً ولا تنوِيَنّ قبيحاً، فإنّ الله تعالى يعلم ما نسرُّه وما نعلنه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾(2)، أي هو عالم بهم، وأمّا السكينة فكيف يقول: إنّها ليستْ راجعة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وبعدها قوله: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾(3)، أترى المؤيَّد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وآله!

---

(1) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(2) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(3) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

وقوله: إنّه مستغن عنها، ليس بصحيح ولا يستغني أحد عن ألطاف الله وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه، وقد قال الله تعالى في قصّة حُنين: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾(١).

وأما الصّحبة فلا تدلّ إلاّ على المرافقة والاصطحاب لا غير، وقد يكون حيث لا إيمان، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾(٢)، ونحن وإنْ كنّا نعتقد إخلاص أبي بكر وإيمانه الصّحيح السليم وفضيلته التّامة، إلاّ أنا لا نحتجّ له بمثل ما احتجّ به الجاحظ من الحجج الواهية، ولا نتعلّق بما يجرّ علينا دواهيَ الشيعة ومطاعنها.

قال الجاحظ: وإن كان المبيتُ على الفراش فضيلة، فأين هي من فضائل أبي بكر أيام مكة، من عِتْق المعذّبين وإنفاق المال وكثرة المستجيبين، مع فرق ما بين الطاعتَيْن، لأنّ طاعةَ الشابّ الغرير والحدَث الصغير الذي في عزّ صاحبه عزّه، ليست كطاعة الحليم الكبير الذي لا يرجع تسويدُ صاحبه إلى رهطه وعشيرته.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا كثرة المستجيبين، فالفضل فيها راجع إلى المجيب لا إلى المجاب، على أنّا قد علمنا أنّ من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممّن استجاب لنوح عليه السلام، وثواب نوح أكثر، لصبره على الأعداء، ومقاساة خلافهم وعَنَتهم. وأمّا إنفاق المال، فأين مِحْنَة الغَنِيّ من محنة الفقير! وأين يعتدل إسلام من أسلم وهو غنيّ، إن جاع أكل، وأن أعيا ركب، وإن عريَ لبس، قد وثق بيساره واستغنى بماله، واستعان على نوائب الدنيا بثروته، ممّن لا يجد قوتَ يومه، وإن وجد لم يستأثر به، فكان الفقرُ شعاره، وفي ذلك قيل: الفقر شعار المؤمن. وقال الله تعالى لموسى: «يا مُوسَى إذا رأيت الفقر مقبلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين»(٣)، وفي الحديث: «إن الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»(٤)، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهمّ احشرني في زمرة الفقراء»(٥)، ولذلك أرسَل الله محمداً صلى الله عليه وسلم فقيراً، وكان بالفقر سعيداً، فقاسى مِحْنة الفقر ومكابدة الجوع، حتى شدّ الحجر على بطنه، وحسبك بالفقر فضيلة في عين الله لمن صبَر عليه، فإنك لا تجدُ صاحبَ الدنيا يتمنّاه، لأنه منافٍ لحال الدنيا وأهلها، وإنما هو شعار أهل الآخرة.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٧.
(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٤٦٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٣٧).
(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل (٢٣٥٣)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: منزلة الفقراء (٤١٢٢).
(٥) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ١٦٧).

وأما طاعةُ عليٍّ عليه السلام، وكون الجاحظ زَعَم أنّها كانت لأنّ في عزّ محمد عزّه وعزّ رهطه، بخلاف طاعة أبي بكر، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك، وجهاد عُبيدة بن الحارث، وهجرة جعفر إلى الحبشة، بل لعلّ محاماة المهاجرين من قُريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانتْ لأنّ في دولته دولتهم، وفي نصرته استجدادَ ملكٍ لهم، وهذا يجرّ إلى الإلحاد، ويفتح باب الزندقة، ويُفضي إلى الطعن في الإسلام والنبوة.

قال الجاحظ: وعلى أنّا لو نزلنا إلى ما يريدونه، جعلنا الفراش كالغارِ، وخلصت فضائل أبي بكر في غير ذلكِ عن معارض.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: قد بيّنا فضيلَة المبيت على الفراش على فضيلة الصُّحبة في الغار، بما هو واضح لمن أنصف، ونزيد ها هنا تأكيداً بما لم نذكره فيما تقدّم، فنقول: إنّ فضيلة المبيت على الفراش على الصُّحبة في الغار لوجهين:

أحدهما: أنّ عليًّا عليه السلام قد كان أنِس بالنبيّ صلى الله عليه وآله وحصل له بمصاحبته قديماً أنسٌ عظيم، وإلف شديد، فلما فارقه عُدِم ذلك الأنس، وحصل به أبو بكر، فكان ما يجده عليٌّ عليه السلام من الوَحشة وألم الفرقة موجباً زيادة ثوابه، لأنّ الثواب على قدر المشقّة.

وثانيهما: أنّ أبا بكر كان يؤثر الخروجَ من مكّة، وقد كان خرج من قبل فرْداً، فازداد كراهية للمقام، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وافق ذلك هوى قلبه، ومحبوبَ نفسه، فلم يكن له من الفضِيلة ما يوازي فضيلة مَن احتمل المشقّة العظيمة، وعرّض نفسه لوقع السيوف، ورأيه لرضْخ الحجارة، لأنّه على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب.

قال الجاحظ: ثمّ الذي لقي أبو بكر في مسجده الّذي بناه على بابه في بني جُمَح، فقد كان بَنَى مسجداً يصلي فيه، ويدعو النّاس إلى الإسلام، وكان له صوْت رقيق، ووجه عتيقٌ، وكان إذا قرأ بكى، فيقف عليه المارّة من الرجال والنساء والصبيان والعَبيد، فلمّا أوذِيَ في الله، ومُنِع من ذلك المسجد، استأذَن رسول الله صلى الله عليه وآله في الهجرة فأذن له، فأقبل يريد المدينة، فتلقّاه الكنانيّ، فعقد له جواراً، وقال: والله لا أدَعُ مثلك يخرج من مكة، فرجع إليها وعاد لصنيعه في المسجد، فمشت قريش إلى جاره الكنانيّ، وأجلبوا عليه، فقال له: دع المسجد وادخل بيتَك، واصنع فيه ما بدا لك.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كيف كانت بنو جُمَح تؤذي عثمان بن مَظعون وتضربه، وهو فيهم ذو سَطْوة وقَدْر، وتترك أبا بكر يبني مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم، وأنتم الّذِين رويتم عن ابن مسعود أنه قال: «ما صلّينا ظاهرِين حتّى أسلم عمر بن الخطاب»، والذي تذكرونه من بناء المسجد كان قبل إسلام عمر، فكيف هذا!

وأما ما ذكرتم من رقة صوته وعَتَاق وجهه، فكيف يكون ذلك وقد روى الواقديّ وغيره أنّ عائشة رأتْ رجلاً من العرب خفيفَ العارضيْن، معروقَ الخدّين، غائر العينين، أجْناً[1] لا يمسك إزاره، فقالت: ما رأيت أشبَه بأبي بكر من هذا؟ فلا نراها دلّت على شيء من الجمال في صفته!

قال الجاحظ: وحيث ردّ أبو بكر جوارَ الكنانيّ، وقال: لا أريد جاراً سوى الله، لقيَ من الأذى والذلّ والاستخفاف والضَّرْب ما بلغكم، وهذا موجود في جميع السِّيَر، وكان آخر ما لقيَ هو وأهله في أمر الغار، وقد طلبته قريش وجعلتْ فيه مائة بعير، كما جعلت في النبيّ ﷺ، فلقي أبو جهل أسماءَ بنت بكر، فسألها فكتمتْه، فلطَمها حتى رَمَتْ قُرْطاً كان في أذنها.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا الكلام وهُجْر السّكران سواء، في تقارب المخرَج، واضطراب المعنى، وذلك أنّ قريشاً لم تقدِر على أذى النبيّ ﷺ، وأبو طالب حَيٌّ يمنعه، فلما مات طلبته لتقتله، فخرج تارةً إلى بني عامر، وتارة إلى ثقِيف، وتارة إلى بني شيبان، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكّة إلا مستتراً، حتى آجره مطعِم بن عديّ، ثم خرج إلى المدينة، فبذلتْ فيه مائة بعير لشدّة حَنَقِها عليه حين فاتَها، فلم تقدر عليه، فما بالها بذلك في أبي بكر مائة بعير أخرى، وقد كان ردّ الجوار، وبقي بينهم فرْداً لا ناصر له ولا دافع عنده، يصنعون به ما يريدون! إمّا أن يكونوا أجهلَ البريّة كلّا أو يكون العثمانية أكذبَ جيلٍ في الأرض وأوقحه وجهاً! فهذا مما لم يذكر في سيرة ولا رُوِي في أثرٍ، ولا سمع به بَشَر، ولا سبق الجاحظَ به أحد!

قال الجاحظ: ثمّ الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجِه، حتى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن، لأنه ساعة أسلَم دعا إلى الله وإلى رسوله.

---

(١) الجنأ: ميل في الظهر، وقيل: في العنق. اللسان، مادة (جنأ).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما أعجب هذا القول، إذ تدّعي العثمانية لأبي بكر الرّفق في الدّعاء وحسن الاحتجاج، وقد أسلم ومعه في منزله ابنُه عبد الرحمن، فما قدر أن يُدخله في الإسلام طوعاً برفقه ولطف احتجاجه، ولا كَرْهاً بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه، ولا كَان لأبي بكر عند ابنه عبد الرحمن من القَدْر ما يطيعه فيما يأمره به، ويدعوه إليه، كما روي أنّ أبا طالب فقد النبي ﷺ يوماً، وكَان يخاف عليه من قريش أن يغتالُوه، فخرج ومعه ابنه جعفر يطلُبان النبيّ ﷺ، فوجده قائماً في بعض شِعاب مكة يصلّي، وعليٌّ عليه السلام مَعَه عن يمينه، فلما رآهما أبو طالب، قال لجعفر: تقدّم وصِلْ جناح ابن عمّك، فقام جعفر عن يسار محمد ﷺ، فلما صاروا ثلاثة تقدّم رسول الله ﷺ وتأخّر الأخَوَان، فبكى أبو طالب، وقال:

إنّ عليّاً وجعفراً ثقتي ... عند مُلِمّ الخطوب والنُّوَب
لا تخذُلاَ وانصرا ابنَ عمّكما ... أخي لأمّي من بينهم وأبِي
والله لا أخذُلُ النّبيّ وَلاَ ... يخذَله من بَنيّ ذو حَسَبِ

فتذكُر الرواة أنّ جعفراً أسلم منذ ذلك اليوم، لأنّ أباه أمره بذلك وأطاع أمره، وأبو بكر لم يقدر على إدخال ابنه عبد الرحمن في الإسلام حتى أقام بمكّة على كفره ثلاث عشرة سنة، وخرج يوم أُحُد في عسكر المشركين ينادي: أنا عبد الرحمن بن عَتِيق، هل من مبارز؟ ثم مكث بعد ذلك على كُفره، حتى أسلم عام الفتح، وهو اليوم الذي دخلتْ فيه قريش في الإسلام طوعاً وكرهاً، ولم يجد أحدٌ منها إلى ترك ذلك سبيلاً! وأين كَان رِفْق أبي بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبي قُحافة وهما في دار واحدة! هلاّ رفَق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم! وقد علمتم أنه بقيَ على الكُفر إلى يوم الفتح، فأحضره ابنُه عند النبي ﷺ وهو شيخ كبير رأسه كالثُّغامة[1]، فنفر رسول الله ﷺ منه، وقالَ: غيّرُوا هذا، فخضبوه، ثم جاؤوا به مرة أخرى، فأسلم[2]. وكان أبو قحافة فقيراً مدقِعاً سيّء الحال، وأبو بكر عندهم كان مثرياً فائض المال، فلم يمكنه استمالتَه إلى الإسلام بالنّفقة والإحسان، وقد كانت امرأة أبي بكر أمّ عبد الله ابنه - واسمها نمْلة بنت عبد العُزّى بن أسعد بن عبد بن ودّ العامرية - لم تسلم، وأقامت على شركها بمكّة، وهاجر أبو بكر وهي كافرة، فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[3]، فطلقها أبو بكر، فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته فهو عن غيرهم من الغرماء أعجز، ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته

---

(١) الثغامة: نبت أبيض الثمر والزهر يشبَّهُ بياض الشيب به. اللسان، مادة (ثغم).

(٢) أخرج نحوه مسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: استحباب خضاب الشيب (٢١٠٢)، والنسائي، كتاب: الزينة، باب: النهي عن الخضاب بالسواد (٥٠٧٦)، وأبو داود، كتاب: الترجل باب: في الخضاب (٤٢٠٤).

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

لا برفق واحتجاج، ولا خوفاً من قطع النفقة عنهم، وإدخال المكروه عليهم فغيْرهم أقلّ قبولاً منه، وأكثر خلافاً عليه!

قال الجاحظ: وقالت أسماء بنت أبي بكر: ما عرفتُ أبي إلا وهو يَدِين بالدين، ولقد رجع إلينا يوم أسلَم، فدعانا إلى الإسلام، فما رِمْنا حتى أسلمْنا، وأسلم أكثرُ جلسائه، ولذلك قالوا: مَنْ أسلم بدعاء أبي بكر أكثرُ ممّن أسلم بالسيف، ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد، بل عَنَوْا الكثرة في القَدْر، لأنه أسلم على يديه خمسةٌ من أهل الشُّورى، كلهم يصلُح للخلافة، وهم أكفاء عليّ عليه السلام، ومنازعوه الرّياسة والإمامة، فهؤلاء أكثرُ من جميع الناس.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أخبرونا مَنْ هذا الّذي أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبي بكر؟ إذا كانت امرأته لم تسلِمْ وابنُه عبد الرحمن لم يسلِم، وأبو قحافة لم يسلم، وأخته أمّ فَرْوة لم تسلِم، وعائشة لم تكن قد ولدَتْ في ذلك الوقت، لأنها وُلدت بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وآله بخمس سنين، ومحمد بن أبي بكر ولِدَ بعد مَبْعَث رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة، لأنه ولد في حَجّة الوداع، وأسماء بنت أبي بكر الّتي قد رَوَى الجاحظ هذا الخبر عنها كانت يوم بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنتَ أربع سنين - وفي روايةٍ مَنْ يقول: بنت سنتين - فمن الذي أسلم من أهل بيته يوم أسلَم! نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة! وكيف أسلَم سَعْدٌ والزُّبير وعبد الرحمن بدعاء أبي بكر وليسوا من رهطه ولا من أتْرَابِه ولا من جُلَسائه، ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدّمة، ولا أنس وَكِيد! وكيف ترك أبو بكر عُتْبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، لم يدخلهما في الإسلام برفقه وحسن دعائه، وقد زعمتم أنّهما كانَا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه! وما باله لم يدخل جبير بن مطعِم في الإسلام، وقد ذكرتم أنه أدّبه وخَرّجه، ومنه أخذ جُبَير العلم بأنساب قريش ومآثرها! فكيف عَجَز عن هؤلاء الذين عَدَدْناهم، وهم منه بالحال التي وصفنا، ودعا من لم يكن بينه وبينه أُنس ولا معرفة، إلا معرفة عيان! وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب، وقد كان شكلَه، وأقربَ النّاس شبهاً به في أغلب أخلاقه! ولئن رجعتم إلى الإنصاف لتعلمنّ أنّ هؤلاء لم يكن إسلامُهم إلاّ بدعاء الرسول الله صلى الله عليه وآله لهم، وعلى يديه أسلموا، ولو فكرتم في حسن التأتيّ في الدعاء، لَيصحّنّ لأبي طالب في ذلك على شِرْكه أضعاف ما ذكرتموه لأبي بكر، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعليّ عليه السلام: يا بنيّ الزمْه، فإنه لن يدعوَك إلا إلى خير، وقال لجعفر: صِلْ جناحَ ابن عمّك، فأسلم بقوله، ولأجله أصفق[1] بنو عبد مناف على نُصرة رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة من بني مخزوم، وبني سَهْم، وبني جُمَح،

(١) أي أطبقوا: القاموس، مادة (صفق).

ولأجله صَبَر بنو هاشم على الحِصار في الشِّعب، وبدعائه وإقباله عَلَى محمد ﷺ أسلمت امرأتُه فاطمة بنت أسَد، فهو أحسن رِفقاً، وأيمن نَقِيبَةً[١] من أبي بكر وغيره، وإنّما منعه عن الإسلام أنْ ثبت أنه لم يسلِم إلا تقيّة، وأبو بكر لم يكن له إلا ابنٌ واحد، وهو عبد الرحمن، فلم يمكنْه أن يدخله في الإسلام، ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلّة الأذى لرسول الله ﷺ، وفيه أنزل: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢]، وإنما يعرَف حسن رِفْق الرجل وتأتّيه بأن يصلح أوّلاً أمرَ بيته وأهله، ثم يدعو الأقرب فالأقرب، فإنّ رسول الله ﷺ لمّا بُعِث كان أوّل مَنْ دعا زوجته خديجة، ثم مكفوله وابن عمّه علياً عليه السلام، ثم مولاه زيداً، ثم أمّ أيمن خادمته، فهل رأيتم أحداً ممّن كان يأوي إلى رسول الله ﷺ لم يسارعْ! وهل التّاث[٣] عليه أحد من هؤلاء! فهكذا يكون حسن التأتّي والرّفق في الدّعاء! هذا ورسول الله مُقِلٌّ، وهو من جمْلة عيال خديجة حينَ بعثه الله تعالى، وأبو بكر عندكم كان مُوسِراً، وكان أبوه مقتّراً، وكذلك ابنه وامرأته أمّ عبد الله، والموسر في فِطْرة العقول أولى أن يتبع من المقتّر، وإنما حُسْن التأتّي والرّفق في الدّعاء ما صنعه مُصْعب بن عمير لسعد بن مُعاذ لما دعاه، وما صنع سعد بن مُعاذ ببني عبد الأشهل لما دعاهم وما صنع بُريدة بن الحصيب بأسلم لمّا دعاهم، قالوا: أسلم بدعائه ثمانون بيتاً من قومه، وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سَعْدٍ في يومٍ واحد، وأمّا من لم يسلم ابنه ولا امرأته، ولا أبوه ولا أختُه بدعائه فهيهات أن يوصفَ ويذكر بالرفق في الدعاء وحسن التأتيّ والأناة!

قال الجاحظ: ثم أعتق أبو بكرٍ بعد ذلك جماعةً من المعذّبين في الله، وهم ستّ رقاب، منهم بلال، وعامر بن فُهيرة، وزِنّيرَة النَّهْدية، وابنتها. ومرّ بجارية يعذّبها عمر بن الخطاب فابتاعها منه، وأعتقها، وأعتق أبا عيسى فأنزل الله فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾[٤]، إلى آخر السورة.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا بلال وعامر بن فُهَيرة، فإنّما أعتقهما رسول الله ﷺ، روى ذلك الواقديّ وابن إسحاق وغيرهما، وأمّا باقي مواليهم الأربعة، فإن سامحناكم في دعواكم لم يبلغ ثمنهم في تلك الحال لشدّة بغض مواليهم لهم إلا مائة درهم أو نحوها، فأيّ فخرٍ في هذا! وأما الآية فإنّ ابن عباس قال في تفسيرها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾، أي لأن يعود.

---

(١) النقيبة: النفس، وقيل: الخليقة. اللسان، مادة (نقب).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٧.

(٣) التاث: أبطأ. اللسان، مادة (لوث).

(٤) سورة الليل، الآيات: ٥، ٧.

وقال غيرُه: نزلت في مُصْعَب بن عمير.

قال الجاحظ: وقد علمتم ما صنَع أبو بكر في مالِه، وكان ماله أربعين ألف درهم، فأنفقه في نوائب الإسلام وحقوقه، ولم يكن خفيفَ الظَّهر، قليل العيال والنَّسْل، فيكون فاقد جميع اليساريْن، بل كان ذا بنين وبنات وزوجة وخدم وحشم، ويعول والديه وما ولدا، ولم يكن النبيّ ﷺ قبل ذلك عنده مشهوراً، فيخاف العارَ في ترك مواساته، فكان إنفاقه على الوجْه الذي لا نجد في غاية الفضل مثلَه، ولقد قال النبي ﷺ: «ما نفعني مالٌ كما نفعني مال أبي بكر»(١).

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله، أخبِرونا على أيّ نوائب الإسلام أنفق هذا المال، وفي أي وجه وضعه؟ فإنه ليس بجائز أن يخفى ذلك ويدرُس حتى يفوتَ حِفظه، وينسى ذكره، وأنتم فلم تقفُوا على شيء أكثر من عِتْقه بزعمكم ستّ رقاب لعلها لا يبلغ ثمنها في ذلك العصر مائة درهم. وكيف يدّعي له الإنفاق الجليل، وقد باع من رسول الله ﷺ بعيريْن عند خروجه إلى يثرب، وأخذ منه الثمن في مثل تلك الحال، وروى ذلك جميع المحدّثين، وقد رويتم أيضاً أنّه كان حيث كان بالمدينة غنيًّا موسراً، ورويتم عن عائشة أنّها قالت: هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم، وقلتم إن الله تعالى أنزل فيه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾(٢)، قلتم: هي في أبي بكر ومِسْطح بن أُثاثة، فأين الفقر الذي زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة! ورويتم أنّ لله تعالى في سمائه ملائكة قد تخلّلوا بالعَباءة. وأنّ النبي ﷺ رآهم ليلة الإسراء، فسأل جبرائيل عنهم فقال: هؤلاء ملائكة تأسَّوْا بأبي بكر بن أبي قُحافة صديقك في الأرض، فإنه سينفق عليك ماله، حتى يخَلّل عباءه في عنقه، وأنتم أيضاً رويتم أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . .﴾(٣)، الآية لم يعمل بها إلاّ علي بن أبي طالب وحدَه(٤)، مع إقراركم بفقره وقلّة ذات يده، وأبو بكر في الحال التي ذكرنا من السَّعة أمسك عن مناجاته، فعاتب الله المؤمنين في ذلك، فقال: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾(٥)، فجعله سبحانه ذنباً يتوب عليهم منه، وهو إمساكهم عن تقديم الصّدقة، فكيف سخَتْ نفسُه بإنفاق أربعين ألفاً، وأمسك عن مُناجاة الرّسول، وإنما كان يحتاج فيها إلى إخراج درهمين!

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر (٣٦٦١)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل أبي بكر الصديق (٩٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٣٩٧).

(٢) سورة النور، الآية: ٢٢.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٤) أنظر مسند أبي يعلى: ١/ ٣٢٢ رقم ٤٠٠، وصحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٩٠. وتفسير الطبري: ٢٨/ ٢٧.

(٥) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

وأما ما ذُكر من كثرة عياله ونفقته عليهم، فليس في ذلك دليل على تفضيله، لأن نفقتَه على عياله واجبة، مع أن أرباب السِّيرة ذكروا أنّه لم يكن ينفِقُ على أبيه شيئاً، وأنّه كان أجيراً لابن جُدْعان على مائدته يطرد عنها الذّبان.

* * *

قال الجاحظ: وقد تعلمون ما كان يلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ببطن مكّة من المشركين، وحسن صنيع كثيرٍ منهم، كصنيع حمزة حين ضرب أبا جهل بقوسِه ففلَق هامَته، وأبو جهل يومئذٍ سيّد البطحاء ورئيس الكُفْر، وأمنع أهل مكة، وقد عرفتم أنّ الزُّبير سلّ سيفَه، واستقبل به المشركين، لمّا أرجِفَ أنّ محمداً صلى الله عليه وآله قد قتِل، وأن عمر بن الخطاب قال حين أسلم: لا يُعبَد الله سرًا بعد اليوم، وأنّ سعداً ضرب بعض المشركين بلحْي جمل، فأراق دمَه، فكلُّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ بن أبي طالب فيها ناقة ولا جمل، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُواْ﴾[1]، فإذا كان الله تعالى قد فضَّل مَنْ أنفق قبل الفتح، لأنه لا هجرة بعد الفتح، على مَنْ أنفق بعد الفتح، فما ظنُّكم بمَنْ أنفق من قبل الهجرة، ومن لَدُنْ مَبْعَث النّبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة وإلى بعد الهجرة.

* * *

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: إنّنا لا ننكِرُ فَضْلَ الصَّحابة وسوابقَهم، ولسنا كالإماميّة الذين يحملهم الهوى على جَحْد الأمور المعلومة، ولكنّنا ننكر تفضِيلَ أحدٍ من الصَّحَابة على عليّ بن أبي طالب، ولسنا ننكِرُ غير ذلك، وننكر تعَصُّب الجاحظ للعثمانيّة، وقصدُه إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالردّ والإبطال. وأمّا حَمْزة فهو عندنا ذو فضلٍ عظيم، ومقامٍ جليلٍ، وهو سيّد الشهداء الذين استشهدوا على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمّا فضل عُمر فغيرُ منكر، وكذلك الزُّبير وسعد، وليس فيما ذكر ما يقتضي كونَ عليٍّ عليه السلام مفضولاً لهم أو لغيرهم، إلا قوله: «وكلّ هذه الفضائل لم يكن لعليّ عليه السلام فيها ناقةٌ ولا جَمَل»، فإنّ هذا من التعصّب البارد، والحيْف الفاحش، وقد قدّمنا من آثار عليّ عليه السلام قَبْل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص، ما هو أفضلُ وأعظم وأشرف من جميع ما ذكر لهؤلاء، على أنّ أرباب السِّيرة يقولون: إنّ الشَّجّة الّتي شُجّها سعد، وإنّ السيف الذي سلّه الزبير، هو الذي جلب الحِصَار في الشِّعب على النبيّ صلى الله عليه وآله وبني هاشم، وهو الذي سَيَّر جعفراً وأصحابه إلى الحبشة، وسلُّ السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسلّ السيف غير جائز، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

﴿ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[1]، فتبيّن أنّ التكليف له أوقات، فمنها وقت لا يصلح فيه سلّ السيّف، ومنها وقت يصلُح فيه ويجب، فأما قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾[2]، فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأبي بكر إنفاقَ المال. وأيضاً فإنّ الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفرداً، وإنّما قرن به القتال، ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحَرْب، فلا تشمله الآية، وكان عليٌّ عليه السلام صاحبَ قتال وإنفاق قبل الفَتْح، أما قتاله فمعلومٌ بالضرورة، وأمّا إنفاقه فقد كان على حَسَب حاله وفقره، وهو الذي أطعم الطعام على حبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وأنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورةٌ كاملة من القرآن، وهو الّذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها دِرْهماً سرًّا ودرهماً علانية ليلاً، ثم أخرج منها في النهار درهماً علانية، فأنزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[3]، وهو الذي قدم بين يدي نجواه صدقة دون المسلمين كافّة، وهو الذي تصدق بخاتمه وهو راكع، فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[4].

قال الجاحظ: والحجّة العظمى للقائلين بتفضيلِ عليٍّ عليه السلام قتلُه الأقران، وخوضُه الحربَ، وليس له في ذلك كبير فضيلة، لأنّ كثرة القتل والمشي بالسيف إلى الأقران، لو كان من أشدّ المحن وأعظم الفضائل، وكان دليلاً على الرياسة والتقدّم، لوجب أن يكون للزّبير وأبي دُجَانة ومحمّد بن مسلمة، وابن عَفْراء، والبَرَاء بن مالك من الفَضْل ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً ولم يحضر الحرب يوم بدر، ولا خالط الصفوف. وإنما معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر، وأنت ترى الرجل الشجاع قد يقتل الأقران، ويجندِل الأبطال، وفوقه من العسكر مَنْ لا يقتل ولا يبارز، وهو الرئيس أو ذو الرأي، والمستشير في الحرب، لأنّ للرّؤساء من الاكتراث والاهتمام وشَغْل البال والعناية والتفقّد ما ليس لغيرهم، ولأن الرئيس هو المخصوص بالمطالبة، وعليه مدارُ الأمور، وبه يستبصر المقاتل، ويستنصر، وباسمه ينهزم العدوّ، ولو لم يكن له إلا أنّ الجيش لو ثبت وفرّ هُو لم يغن ثبوت الجيش كلّه، وكانت النّبرة عليه، ولو ضيّع القوم جميعاً وحفظ هو لانتصر وكانت الدولة له، ولهذا لا يضافُ النّصر والهزيمة إلاّ إليه، ففضل أبي بكر بمقامه في العريش مع رسول الله يوم بدر أعظمُ من جهاد عليٍّ عليه السلام ذلك اليوم، وقتله أبطال قريش.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: لقد أُعطِي أبو عثمان مقوَلاً، وحُرِم معقولاً، إن كان يقول هذا على اعتقاد وجدّ، ولم يذهب به مذهب اللّعب والهزل، أو على طريق التّفاصح والتّشادق وإظهار القوّة، والسلاطة وذلاَقة اللسان وحدّة الخاطر والقوّة على جِدال الخصوم، ألم يعلم أبو عثمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانَ أشجَع البَشر، وأنّه خاضَ الحرُوب، وثبت في المواقف التي طاشتْ فيها الألباب، وبلغت القلوب الحناجر، فمنها يوم أُحُد، ووقوفه بعد أن فرّ المسلمون بأجمعهم، ولم يبق معه إلا أربعة: عليّ، والزُّبير، وطلْحة، وأبو دُجانة، فقاتل ورمى بالنَّبْل حتى فنيَتْ نبلُه، وانكسرت سِيَةُ[١] قوسِه، وانقطع وَتَرُه، فأمر عُكّاشة بن مِحْصن أن يوتِرَها، فقال: يا رسول الله: لا يبلغ الوتَر، فقال: أوتر ما بلغ. قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحقّ أوترت حتى بلغ، وطويت منه شبراً على سِيَة القوس، ثم أخذها فما زال يرمِيهم، حتى نظرت إلى قوسه قد تحطّمت. وبارز أبيّ بن خلف، فقال له أصحابُه: إن شئتَ عطف عليه بعضُنا! فأبى، وتناولَ الحربة من الحارث بن الصِّمّة ثم انتقضَ بأصحابه، كما ينتقِض البعير، قالوا: فتطايرْنا عنه تطايُر الشَّعارير[٢]، فطعنه بالحرْبة، فجعل يخورُ كما يخور الثور، ولو لم يدلّ على ثباتِه حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[٣]، فكونُه عليه السلام في أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون، هاربين، دليل على أنّه ثبت ولم يفرّ، وثبت يوم حُنَين في تسعة من أهلِه ورهطه الأدنْين، وقد فرَّ المسلمون كلُّهم والنّفر التِّسعة محدقون به: العباس آخذ بحكَمة بغلتِه، وعليّ بين يديه مصلِت سيفه، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يَمْنةً ويَسْرة، وقد انهزم المهاجرون والأنصار، وكلّما فرُّوا أقدم هُو صلى الله عليه وآله وسلم وصمَّم مستقدماً، يلْقَى السيوف والنّبال بنحرِه وصدره، ثم أخذ كفًّا من البَطْحاء، وحَصبَ المشركين، وقال: شاهت الوجوه! والخبر المشهور عن عليّ عليه السلام، وهو أشجع البَشَر: «كنّا إذا اشتد البأس، وحَمِي الوطيسُ اتقَينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولُذْنا به»[٤].

فكيف يقول الجاحظ: إنه ما خاضَ الحرْب، ولا خالطَ الصُّفوف! وأيّ فِرْية أعظمُ من فِرْية مَنْ نسب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإحجام واعتزال الحرب! ثم أيّ مناسبة بين أبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى ليقيسَه وينسُبَه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الجيش والدعوة، ورئيس الإسلام والملّة، والملْحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسِّيادة، وإليه الإيماء والإشارة، وهو الذي أحنَق قريشاً والعرب، وورى أكْبادهم بالبراءة من آلهتهم، وعيب دينهم وتضليل أسلافهم،

(١) سية القوس: طرف قابها، وقيل: رأسها. اللسان، مادة (سيي).

(٢) الشعارير: لعبة للصبيان، القاموس، مادة (شعر).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

(٤) ذكره الأثير في «النهاية» (١/ ٨٩)، مادة (بأس).

ثم وترهم فيما بعدُ بقتل رؤسائهم وأكابرهم! وحقّ لمثله إذا تنحّى عن الحرب واعتزلها أن يتنحّى ويعتزل، لأنّ ذلك شأن الملوك والرؤساء، إذا كان الجيش منوطاً بهم وببقائهم، فمتى هلك الملك هلك الجيش، ومتَى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكُه، وإن عَطِب جيشُه فإنه يستجدّ جيشاً آخر، ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه، وخطّأوا الإسكندر لما بارز قوسراً ملك الهند، ونسبوه إلى مجانبة الحِكْمة ومفارقة الصواب والحزْم، فليقلْ لنا الجاحظ: أيُّ مدخل لأبي بكر في هذا المعنى؟ ومَن الذي كان يعرفه من أعداء الإسلام ليقصده بالقتل؟ وهل هو إلا واحدٌ من عُرْض المهاجرين، حُكْمه حكم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وغيرهما! بل كان عثمانُ أكثر منه صيتاً، وأشرفَ منه مركباً، والعيون إليه أطمح، والعدوّ إليه أحنَق وأكلب، ولو قتل أبو بكر في بعض تلك المعارك، هَلْ كان يؤثر قتله في الإسلام ضَعْفاً، أو يحدث فيه وهْناً! أو يخاف على الملّة لو قتل أبو بكر في بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفّى آثارُها، وينطمس منارها! ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله ﷺ في مجانبة الحروب واعتزالها، نعوذ بالله من الخذْلان! وقد علم العقلاء كلّهم ممن له بالسِّير معرفة، وبالآثار والأخبار ممارسة، حال حروب رسول الله ﷺ كيف كانت، وحاله عليه السلام فيها كيف كان، ووقوفه حيث وقف، وحربه حيث حارب، وجلوسه في العريش يوم جَلَس، وإنّ وقوفه ﷺ وقوف رياسة وتدبير، ووقوف ظهر وسنَد، يتعرّف أمور أصحابه، ويحرس صغيرَهم وكبيرَهم بوقوفه من ورائهم، وتخلّفه عن التقدّم في أوائلهم، لأنهم متى علموا أنه في أخراهم اطمأنتْ قلوبهم، ولم تتعلّق بأمره نفوسهم، فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوّهم، ولا يكون لهم فئة يلجاؤون إليها، وظهْر يرجعون إليه، ويعلمون أنه متى كان خلْفهم تفقّد أمورهم، وعلم مواقفهم، وآوى كلّ إنسان مكانه في الحماية والنكاية وعند المنازلة في الكرّ والحملة، فكان وقوفُه حيث وقف أصلحَ لأمرهم، وأحمى وأحرس لبيْضتهم[1]، ولأنه المطلوب من بينهم، إذ هو مدبّر أمورهم، ووالي جماعتهم، ألا ترون أنّ موقف صاحب اللّواء موقف شريفٌ، وأنّ صلاح الحرب في وقوفه، وأن فضيلته في ترك التقدّم في أكثر حالاته، فللرئيس حالات:

الأولى: حالة يتخلّف ويقف آخر ليكون سنداً وقوّة، ورِدءاً وعدّة، وَليتولّى تدبير الحرب، ويعرف مواضع الخلل.

والحالة الثانية: يتقدّم فيها في وسط الصفّ ليقوي الضعيف، ويشجّع الناكص.

وحالة ثالثة: وهي إذا اصطدم الفيْلقان، وتكافَحَ السَّيفان، اعتمد ما تقتضيه الحال من

---

(١) البيضة: أصل القوم ومجتمعهم، اللسان مادة (بيض).

الوقوف حيث يستصلح، أو من مباشرة الحرب بنفسه، فإنها آخر المنَازل، وفيها تظهر شجاعة الشُّجَاع النَّجْد، وفَسَالَة الجبان المموّه.

فأين مقام الرّئاسة العظمى لرسول الله ﷺ! وأين منزلة أبي بكر ليسوّيَ بين المنزلتين، ويناسب بين الحالتيْن!

ولو كان أبو بكر شريكاً لرسول الله ﷺ في الرّسالة، وممنوحاً من الله بفضيلة النبوّة، وكانت قُريش والعرب تطلبه كما تطلب محمّداً ﷺ، وكا يدبِّر من أمرِ الإسلام وتَسْرِيب العساكر وتجهيز السَّرَايا، وقتل الأعداء، ما يدبّره محمّد ﷺ، لكان للجاحظ أن يقول ذلك، فأمّا وحالُه حاله، وهو أضعف المسلمين جناناً، وأقلّهم عند العرب ترةً، لم يَرْم قطُّ بَسهْم، ولا سلّ سيفاً، ولا أراق دماً، وهو أحد الأتباع، غير مشهور ولا معروف، ولا طالب ولا مطلوب، فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله ﷺ ومنزلته! ولقد خرج ابنُه عبدُ الرحمن مع المشركين يوم أُحُد فرآه أبو بكرٍ، فقام مغيظاً عليه، فسلّ من السّيْف مقدار أصبع، يريد البرُوز إليه، فقال له رسول الله ﷺ : **«يا أبا بكر، شِمْ سيفك وأمْتِعْنا بنفسك»**[١]، ولم يقل له: **«وامتعنا بنفسك»** إلا لعلمه بأنّه ليس أهلاً للحرب وملاقاة الرجال، وأنّه لو بارز لقُتل.

وكيف يقول الجاحظ: لا فضيلة لمباشرة الحرب، ولقاء الأقران، وقتْل أبطال الشرك! وهل قامت عُمُد الإسلام إلاّ على ذلك! وهل ثبت الدِّينُ واستقرّ إلا بذلك! أتراه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[٢] والمحبة من الله تعالى هي إرادة الثواب، فكلُّ مَنْ كان أشدّ ثبوتاً في هذا الصف، وأعظم قتالاً، كان أحبَّ إلى الله، ومعنى الأفضل هو الأكثر ثواباً فعليٌّ عليه السلام إذاً هو أحبُّ المسلمين إلى الله، لأنه أثبتُهم قدماً في الصفّ المرصوص، لم يفرّ قطُّ بإجماع الأمّة، ولا بارزه قرْن إلا قتله.

أتراه لم يسمع قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾[٤]، ثم قال سبحانه مؤكِّداً لهذا البيع والشراء: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٥]، وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾[٦].

---

(١) ذكره المحب الطبري في «الرياض النضرة» (٢/ ٤٦).
(٢) سورة الصف، الآية: ٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

فمواقف النَّاس في الجهاد على أحوال، وبعضهم في ذلك أفضلُ من بعض، فمن دَلَف إلى الأقران، واستقبل السُّيُوف والأسِنّة، كان أثقلَ على أكتاف الأعداء، لشدّة نِكايته فيهم، ممّن وقف في المعركة، وأعان ولم يُقْدِم، وكذلك مَنْ وقف في المعركة، وأعان ولم يُقْدِم، إلاّ أنه بحيث تنالُه السهام والنّبل أعظم غَنَاءٍ، وأفضل ممّن وقف حيث لا يناله ذلك، ولو كان الضَّعِيف والجبال يستحقّان الرياسة بقلّة بَسْط الكَفّ وترك الحرب، وأنّ ذلك يشاكل فِعْلَ النبيّ ﷺ، لكان أوفرَ النّاس حظًّا في الرياسة، وأشدّهم لها استحقاقاً حسّان بن ثابت، وإن بَطَل فضلُ عليٍّ عليه السلام في الجهاد، لأنّ النبيّ ﷺ كان أقلّهم قتالاً، كما زعم الجاحظُ ليبطلنّ على هذا القياس فضلُ أبي بكر في الإنفاق، لأنّ رسول الله ﷺ كان أقلّهم مالاً!

وأنت إذا تأمّلْتَ أمرَ العرب وقريش، ونظرت السِّيَر، وقرأت الأخبار، عرفت أنها كانت تطلب محمّداً ﷺ وتقصِدُ قَصْده، وترُوم قتلَه، فإن أعجزها وفاتها طلبتْ عليًّا عليه السلام، وأرادت قتله، لأنّه كان أشبَههم بالرّسول حالاً، وأقربهم منه قرباً، وأشدَّهم عنه دفعاً، وأنهم متى قصدُوا عليًّا فقتلوه أضعفوا أمرَ محمّد ﷺ وكسروا شوكته، إذْ كان أعلى مَنْ ينصرُ في البأس والقوّة والشجاعة والنّجدة والإقدام والبسالة. ألا ترى إلى قول عُتْبة بن ربيعة يوم بدر، وقد خرج هو وأخوه شَيْبة وابنه الوليد بن عتبة، فأخرج إليه الرّسولُ نفراً من الأنصار، فاستنسبوهم فانتسبوا لهم، فقالوا: ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا: يا محمّد أخرِجْ إلينا أكفَاءنا من قومِنا، فقال النبي ﷺ لأهله الأدنين: «قومُوا يا بني هاشم، فانصرُوا حقَّكم الذي أتاكم الله على باطل هؤلاء، قُمْ يا عليّ، قم يا حمزة، قمْ يا عبيدة»[1].

ألاَ ترى ما جعلتْ هند بنت عتبة لمن قتله يوم أحد، لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر، ألم تسمع قولَ هند ترثي أهلها:

مَا كَانَ عَنْ عُتْبةَ لِي مِنْ صَبْرِ ... أبِي وعَمِّي وشَقِيقِ صَدْرِي

أخِي الذي كان كضوءِ البَدْرِ ... بِهِمْ كسرتَ يا عَليُّ ظَهْرِي

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عُتبة، وشرك في قتل أبيها عُتْبة، وأمّا عمّاه شيبة، فإن حمزة تفرّد بقتله.

وقال جُبير بن مطعِم لوحشيّ مولاه يوم أُحُد: إن قتلْت محمّداً فأنت حرٌّ، وإن قتلت عليًّا فأنت حُرّ وإن قتلت حمزة فأنت حرّ، فقال: أمّا محمد فسيمنعه أصحابه، وأما عليٌّ فرجلٌ حذِر كثير الالتفات في الحرب، ولكنّي سأقتل حمزة، فقعد له وَزَرَقه[2] بالحرْبة فقتله.

ولما قلنا من مقاربة حال عليّ عليه السلام في هذا الباب لحالِ رسول الله ﷺ ومُناسبتها إيّاها

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم: ٢٦٦٥.

(٢) زَرَقه: رماه. القاموس، مادة (زرق).

ما وجدناه في السِّيَر والأخبار، من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وآله وحذرِه عليه، ودعائه له بالحفْظ والسلامة، قال صلى الله عليه وآله يوم الخندق، وقد برز عليّ إلى عمرو، ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه: «اللهمّ إنك أخذتَ منّي حمزة يوم أُحُد، وعُبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليَّ عليًّا»[١] ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[٢]، ولذلك ضنّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو النّاس إلى نفسه مراراً، في كلّها يحجمون ويُقدِم عليّ، فيسأل الإذنَ له في البِراز حتّى قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّه عمرو!»، فقال: «وأنا عليّ»، فأدناه وقبّله بعمامته، وخرج معه خطواتٍ كالمودّع له، القلِق لحاله، المنتظر لما يكون منه، ثم لم يزل صلّى الله عليه وآله رافعاً يديْه إلى السّماء، مستقبلاً لها بوجهه، والمسلمون صُموتٌ حولُه، كأنّما على رؤوسهم الطّيْر، حتى ثارت الغَبَرة، وسمعِوا التّكبير من تحتها، فعلموا أنّ علياً قتلَ عمراً، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وكبّر المسلمون تكبيرةً سمعها مَنْ وراء الخندق من عساكر المشركين، ولذلك قال حُذَيفة بن اليمان: لو قُسِمت فضيلة عليّ عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بيْن المسلمين بأجمعهم لوسعتهم[٣].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[٤]، قال: بعليّ بن أبي طالب[٥].

قال الجاحظ: عَلَى أنّ مشي الشّجاع بالسيف إلى الأقران، ليس على ما توهّمه من لا يعلم باطن الأمر، لأنّ معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى لا يبصرُها النّاس، وإنّما يقضون على ظاهر ما يروْن من إقدامه وشجاعته، فربّما كان سبب ذلك الهوَج، وربما كان الغرارةَ والحَداثة، وربّما كان الإحراج والحميّة، وربما كان لمحبّة النفخ والأحدوثة، وربما كان طباعاً كطباع القاسي والرحيم والسخيّ والبخيل.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال للجاحظ: فعلى أيّها كان مشي عليّ بن أبي طالب إلى الأقران بالسيف؟ فأيّما قلت من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ولرسوله، وإن كان مشيُه ليس على وجهٍ ممّا ذكرت، وإنّما كان على وجه النُّصرة والقَصْد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة،

---

(١) أخرجه الأميني في الغدير: ٧/ ٢١٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) أخرجه الأميني في الغدير: ٧/ ٢١٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

(٥) أنظر الغدير: ٧/ ٢١٢، والدر المنثور: ٥/ ١٩٢.

والجهاد في سبيل الله، وإعزاز الدّين، كنتَ بجميع ما قلت معانداً، وعن سبيل الإنصاف خارجاً، وفي إمام المسلمين طاعناً، وإن تطرّق مثلُ هذا الوهم على عليّ عليه السلام ليتَطرّقنّ مثله على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال، الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسِهم ووقوْه بمُهَجِهِم، وفدوْه بأبنائهم وآبائهم، فلعلّ ذلك كان لعلّة من العلل المذكورة، وفي ذلك الطّعْنُ في الدين، وفي جماعة المسلمين.

وَلو جاز أن يتوهّم هذا في عليّ عليه السلام وفي غيره، لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى لأهل بدر: «اَعْمَلُوا مَا شِئتم فَقَدْ غفرتُ لَكُمْ»[1]، ولا قال لعليّ عليه السلام: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كله»[2]، ولا قال: «أوجَب طلحة»[3].

وقد علمنا ضرورةً من دين رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيمه لعليّ عليه السلام تَعظيماً دينياً، لأجل جهاده ونُصرته، فالطاعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ زعم أنه قد يمكن أن يكونَ جهاده لا لوجه الله تعالى، بل لأمر آخر من الأمور التي عدّدها، وبعثه على التفوّه بها إغواءُ الشيطان وكيدُه، والإفراط في عَدَاوَة مَن أمر الله بمحبّته، وَنهى عن بغضه وَعداوَته.

أترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خفِيَ عليه من أمر عليّ عليه السلام ما لاح للجاحظ والعثمانيّة، فمدحه وهو غير مستحقّ للمدح!

قال الجاحظ: فصاحبُ النفس المختارة المعتدلة يكون قتالُه طاعة، وفراره معصية، لأنّ نفسه معتدِلة، كالميزان في استقامة لسانه وكفّتيْه، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامُه طباعاً، وفراره طباعاً.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: فيقال له: فلعلّ إنفاق أبي بكر على ما تزعم أربعينَ ألف درهم لا ثوابَ له، لأنّ نفسَه ربّما تكون غير معتدلة، لأنّه يكون مطبوعاً علَى الجود والسَّخاء، ولعلّ خروجه مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجْرة إلى الغار لا ثوابَ له فيه، لأن أسبابه كانتْ له مهيّجة، ودواعيه غالبة، محبّة الخروج، وبغض المقام، ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه إلى الإسلام وإكبابه على الصّلَوات الخمس في جوف الليل، وتدبيره أمرَ الأمّة لا ثواب له فيه، لأنّه قد تكون

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر وقصة حاطب (٢٤٩٤).

(٢) أنظر ينابيع المودة: ١/ ٢٨١، والطرائف لابن طاووس: ٣٥ رقم ٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الدرع (١٦٩٢)، وأحمد في «مسنده» (١٤٢٠).

نفسه غير معتدلة، بل يكون في طباعه الرياسة وحبُّها، والعبادة والالتذاذ بها، ولقد كنّا نعجَب من مذهب أبي عثمان أنّ المعارف ضرورة، وأنّها تقعُ طباعاً، وفي قوله بالتولّد وحركة الحجْر بالطَّبْع! حتى رأينا من قوله ما هو أعجب منه، فزعم أنه ربما يكون جهادُ عليّ عليه السلام وقتْلُه المشركين لا ثوابَ له فيه، لأنه فعله طَبْعاً، وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفي التولّد.

قال الجاحظ: وَوجهٌ آخر أنّ علياً لو كان كما يزعمُ شيعتُه، ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة، ولا عظيم طاعة، لأنّه قد رويَ عن النبيّ ﷺ أنّه قال له: «ستقاتل بعدي النَّاكِثِين والقاسِطِين والمارقِين»[1]، فإذا كان قد وعدَه بالبقاء بعده فقد وثِق بالسّلامة من الأقران، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم، فعَلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظمَ طاعةً منه.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: هذا راجع على الجاحِظ في النبيّ ﷺ، لأنّ الله تعالى قال له: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2]، فلم يكن له في جهاده كبير طاعة، وكثير من النـاس يروي عنه ﷺ: «اقتدوا بالّذين من بعدي أبي بكر وعمر»[3] فوجب أن يبطل جهادهما، وقد قال للزبير: «ستقاتل عليًّا، وأنت ظالم له»[4]، فأشعره بذلك أنّه لا يموت في حياة رسول الله ﷺ، وقال في الكتاب العزيز لطلحة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[5]، قالوا: نزلت في طلحة، فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده، فوجب ألاّ يكون لهما كبير ثواب في الجهاد، والذي صحّ عندنا من الخبر وهو قوله: «ستقاتل بعدي الناكثين»، أنه قال لمّا وضعت الحرب أوزارها، ودخل النّاس في دين الله أفواجاً، ووضعت الجزية، ودانت العرب قاطبة.

قال الجاحظ: ثم قصد النّاصرون لعليّ، والقائلون بتفضيله إلى الأقران الّذين قتلهم فأطروهم وغلوْا فيهم، وليسوا هناك! فمنهم عمرو بن عبدود تركتموه أشجع من عامر بن الطفيل

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر وعمر كليهما (٣٦٦٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٧٣٤).
(٤) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٥١٥).
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

وعتبة بن الحارث وبسطام بن قيس، وقد سمعنا بأحاديث حُروب الفجار وما كان بين قريش ودَوْس وحِلْف الفُضُول، فما سمعتُ لعمرو بن عبدودّ ذكراً في ذلك.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمرُ عمرو بن عبدوَدّ أشهر وأكثر من أن يُحتجّ له، فلتُتلمّح كتب المغازي والسِّيَر، ولينظر ما رثته به شعراء قريش لما قتل، فمن ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في مغازيه، قال: وقال مُسافع بن عبد مناف بن زهرة بن حُذَافة بن جُمَح يبكي عمرو بن عبد الله بن عبدود حين قتلَه عليّ بن أبي طالب عليه السلام مبارزة لما جزع المذاد أي قطع الخندق.

عمرو بن عبدٍ كان أول فارسٍ ... جَزَع المذاد وكان فارس مَلْيَلِ
سمحُ الخلائِق ماجِدٌ ذو مِرَّةٍ ... يبغي القتالَ بشكّة لم يَنْكُلِ
ولقد علمتم حينَ ولّوْا عنكُمُ ... أنّ ابن عبدٍ منهمُ لم يَعْجل
حتّى تكنَّفَهُ الكُماة وكلُّهُمْ ... يبغِي القتال له وليس بموْئلِ
ولقد تكنّفت الفوارسُ فارساً ... بجنوبِ سَلْعٍ غير نِكْسٍ أمْيلِ
سال النّزال هناك فارس غالبٍ ... بجنوب سَلْعٍ ليته لم ينزلِ
فاذهب عليٌّ ما ظفرتَ بمثِلها ... فخراً ولو لاقيت مثل المعْضلِ
نفسي الفداء لفارسٍ من غالب ... لاقَى حمام الموت لم يتَحلْحَلِ
أعنِي الّذِي جَزَع المذاد ولم يكن ... فَشِلاً وليس لَدَى الحروب بزُمّلِ

وقال هُبيرة بن أبي وهب المخزوميّ، يعتذر من فراره عن عليّ بن أبي طالب، وتركه عمراً يوم الخندق ويبكيه:

لعمرُك ما ولّيت ظهري محمّداً ... وأصحابه جُبْناً ولا خيفةَ القتلِ
ولكنّني قلّبت أمري فلم أجِدْ ... لسيفي غَنَاءً إن وقفتُ ولا نَبْلِي
وقفتُ فلمّا لم أجد لي مقدَّماً ... صدرتُ كضرغامٍ هزبرٍ إلى شِبْلِ
ثَنَى عِطفَه عَنْ قِرْنهِ حين لم يَجِد ... مجالاً وكان الحزمُ والرأي من فِعْلِي
فَلاَ تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حيًّا وهالكاً ... فقد مِتّ محمودَ الثّنَا ماجِدَ الفعْلِ
ولا تبعدنْ يا عمرو حيّا وهالكاً ... فقد كنتَ في حرب العِدَا مُرهَف النَّصْلِ
فمن لِطرادِ الخيل تُقْدَعُ بالقَنَا ... وللبذل يوماً عند قرقرة البُزْلِ
هنالك لو كان ابن عمرٍو لزارها ... وَفَرّجَها عنهم فتًى غير ما وغْلِ
كفتك عليّ لن ترى مثل موقفٍ ... وقفتَ على شِلْو المقدّم كالفحلِ
فما ظفرت كفّاك يوماً بمثلها ... أمنتَ بها ما عشت من زلّة النّعْلِ

وقال هُبيرة بن أبي وهب أيضاً، يرثي عَمْراً ويبكيه:

لقد علمتْ عُلياً لؤيّ بنِ غالبٍ ... لَفارسها عمرٌو، إذا ناب نائبُ
وفارسها عمرو إذا ما يسوقه ... عليّ، وإن الموت لا شك طالب
عشيّةَ يدعوه عليٌّ وإنه ... لفارسُها إذ خام عنه الكتائب
فيا لهف نفسي، إنَّ عَمْراً لكائنٌ ... بيثرب، لا زالت هناك المصائبُ
لقد أحرَزَ العَلْيا عليٌّ بقتله ... وللخير يوماً لا محالة جالبُ

وقال حسان بن ثابت الأنصاري يذكر عمراً:

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ ناظراً ... كيف العُبُور وليتَه لم ينظُرِ
ولقد وجدت سيوفنا مشهورةً ... ولقد وجدت جيادنا لم تُقْصَرِ
ولقد لقيتَ غداة بدرٍ عُصْبةً ... ضَرَبوك ضَرْباً غير ضرب الحسَّرِ
أصبحتَ لا تُدْعَى ليومِ عظيمةٍ ... يا عَمْرُو أو لجسيم أمرٍ مُنْكَرِ

وقال حسان أيضاً:

لقد شَقِيَتْ بنو جُمَح بنِ عمرو ... ومخزوم وتَيْمٌ ما نُقِيلُ
وعمرو كالحسام فتى قريش ... كأن جبينَه سيف صقيلُ
فتًى من نسل عامر أريحيٌّ ... تطاوله الأسنَّةُ والنُّصُولُ
دعاه الفارس المقدام لَمّا ... تكشَّفَتِ المقانِبُ والخُيُولُ
أبو حسنٍ فقنّعه حُسَاماً ... جُرازاً لا أفلُّ ولا نَكُولُ
فغادره مكبًّا مُسْلحِبًّا[1] ... على عَفْراءَ، لا بَعِدَ القتيلُ

فهذه الأشعار فيه بل بعض ما قيل فيه.

وأمّا الآثار والأخبار، فموجودة في كتب السِّيَر وأيام الفرسان ووقائعهم، وليس أحدٌ من أرباب هذا العلم يذكر عمراً إلا قال: كان فارسَ قريش وشُجاعها، وإنما قال له حسان:

ولقد لقيتَ غَدَاة بدرٍ عصبة

لأنَّهُ شهد مع المشركين بدراً، وقتل قوماً من المسلمين. ثم فرّ مع مَنْ فرّ، ولحق بمكّة، وهو الذي كان قال وعاهدَ الله عند الكعبة ألا يدعوَهُ أحدٌ إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه. وآثاره في أيام الفِجار مشهورة تنطِق بها كتُب الأيّام والوقائع، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم: عُتْبة وبِسطام وعامر، لأنهم كانوا أصحابَ غاراتٍ ونَهب، وأهلَ بادية، وقريش أهل مدينة وساكنو مَدَر وحجر، لا يروْن الغارات، ولا ينهبون غيرَهم من العرب، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حَرَمهم، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء.

(١) مسلحباً: ممتداً. اللسان، مادة (سلحب).

ويقال له: إذا كان عمرو كما تذكُر ليس هناك، فما باله لما جَزَع الخندق في ستّة فرسان هو أحدُهم، فصار مع أصحاب النبيّ ﷺ على أرْض واحدة، وهم ثلاثة آلاف، ودعاهم إلى البراز مراراً لم ينتدب أحدٌ منهم للخورج إليه، ولا سمح منهم أحدٌ بنفسه، حتى وبّخهم وقرّعهم، وناداهم: ألستم تزعمون أنّه مَن قُتل منّا فإلى النار، ومَن قتِل منكم فإلى الجنة! أفلا يشتاقُ أحدُكم إلى أنْ يذهب إلى الجنة، أو يقدّم عدوّه إلى النار فجبنوا كلُّهم ونَكلوا، وملَكهم الرّعب والوهل، فإمّا أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه، أو يكون المسلمون كلّهم أجبن العرب وأذلّهم وأفشَلهم! وقد روى النّاس كلهم الشعر الذي أنشده لمّا نكل القوم بجمعهم عنه، وأنّه جال بفرسه واستدار وذهب يَمنْة، ثم ذهب يَسْرة، ثم وقف تُجاه القوم، فقال:

ولقد بححتُ من النّدا ... ء بجَمْعِهِمْ: هل من مبارزْ!
ووقفتُ إذْ جَبُن المشيِّع ... وِقْفة القِرْن المناجزْ
وكذاك أنّي لم أزلْ ... متسرّعاً نحو الهزاهِزْ
إن الشجاعة في الفَتَى ... والجودَ من خيرِ الغرائزْ

فلما برز إليه عليٌّ أجابه، فقال له:

لا تعجلنّ فقد أتا ... كَ مجيب صوتِك غير عاجزْ
ذُو نيَّةٍ وبصيرةٍ ... يرجُو الغداةَ نجاةَ فائِزْ
إنّي لأرجو أن أقِيـ ... ـيم عليك نائحة الجنائزْ
من ضربةٍ تفني ويَبْـ ... ـقَى ذكرُها عند الهزاهِزْ

ولعمري لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جُهّال الأنصاري، لمّا رجع رسول الله من بدْر، وقال فتى من الأنصار شهد معه بدراً: إن قتلْنا إلاّ عجائز صُلْعاً! فقال له النبي ﷺ: **«لا تقل ذلك يابن أخ، أولئك الملأ»**[1]!

قال الجاحظ: وقد أكثروا في الوليد بن عُتْبة بن ربيعة قتيله يوم بدر، وما علمنا الوليد حضر حرْباً قطّ قبْلها، ولا ذكر فيها.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: كلُّ مَنْ دوّن أخبارَ قريش وآثار رجالِها، وصف الوليد بالشّجاعة والبَسالة، وكان مع شجاعته أنّه يصارع الفتيان فيصرعُهم، وليس لأنه لم يشهد حَرْباً

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٨٦).

قبلها ما يجب أن يكون بطلاً شجاعاً، فإنّ علياً عليه السلام لم يشهدْ قبل بدرٍ حرباً، وقد رأى الناس آثاره فيها.

قال الجاحظ: وقد ثبت أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وآله يوم أُحد، كما ثبت عليّ، فلا فخرَ لأحدهما على صاحبه في ذلك اليوم.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أمّا ثباتُه يومَ أُحد: فأكثر المؤرّخين وأربابُ السِّيَر ينكِرُونه، وجمهورهم يروِي أنّه لم يبقَ مع النبيّ صلى الله عليه وآله إلا عليٌّ وطلحة والزبير، وأبو دُجَانة، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ولهم خامسٌ وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم مَنْ أثبت سادساً، وهو المقْداد بن عمرو، وروى يحيى بن سلمة بن كُهَيل قال: قلت لأبي: كم ثبتَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد؟ فقال: اثنان، قلت: مَنْ هُمَا؟ قال: عليٌّ وأبو دُجانة.

وهب أنّ أبا بكر ثبت يوم أُحد كما يدّعيه الجاحظ، أيجوز له أن يقول: ثبت كما ثبت عليّ، فلا فخر لأحدهما على الآخر، وهو يعلم آثار عليّ عليه السلام ذلك اليوم، وأنّه قتل أصحاب الألوية من بني عبد الدّار، منهم طلحة بن أبي طلحة، الّذي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في منامِه أنه مردِفٌ كبشاً، فأوّله وقال: كبش الكتيبة نقتلُه. فلما قتله عليّ عليه السلام مبارزةً - وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم - كبّر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: «**هذا كبش الكتيبة**»[1].

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد فرَّ الناس وأسلموه، فتصمد له كتيبة من قريش، فيقول: «يا عليّ، اكفني هذه»[2] فيحمل عليها فيهزمها، ويقتل عميدَها، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتاً من قبَل السَّمَاء.

لا سَـيْـفَ إلا ذو الـفـقـا ... رِ ولا فـتـى إلا عـلـي

وحتّى قال النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل ما قال.

أتكون هذه آثاره وأفعاله، ثم يقول الجاحظ: لا فخر لأحدهما على صاحبه!

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[3].

قال الجاحظ: ولأبي بكر في ذلك اليوم مقام مشهور، خرج ابنه عبد الرحمن فارساً مكفَّراً في الحديد، يسأل المبارزة، ويقول: أنا عبدُ الرحمن بن عتيق! فنهض إليه أبو بكر يَسْعَى بسيفه، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: «**شِمْ سيفَك وارجع إلى مكانك، ومتّعنا بنفسك**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٨٨).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٠/١٢٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٤) تقدم تخريجه.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبي بكر، فإنّه لو تسمعُه الإمامية لأضافته إلى ما عندها من المثالب، لأنّ قول النبي ﷺ: «ارجع» دليل على أنّه لا يحتمِل مبارزة أحدٍ، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه، وأنت تعلم حنوّ الابن على الأب وتبجيله له، وإشفاقه عليه وكفّه عنه، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبي.

وقوله له: «ومتّعنا بنفسك»، إيذان له بأنّه كان يقتَلُ لو خرج، ورسول الله كان أعرفَ به من الجاحظ، فأين حالُ هذا الرّجل من حال الرجل الذي صَلِيَ بالحرب، ومشى إلى السيف بالسيف، فقتَل السادَة والقادَة والفُرسان والرّجّالة!

قال الجاحظ: على أن أبا بكر - وإن لم تكن آثاره في الحرب كآثار غيره - فقد بذل الجهد، وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوّته، وإذا بذل المجهودَ فلا حال أشرف من حاله.

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله: أما قوله إنّه بذل الجهد، فقد صدق، وأما قوله: «لا حال أشرف من حاله»، فخطأ، لأنّ حال من بلغت قوته فأعملها في قتل المشركين أشرفُ من حال من نَقَصَتْ قوّته عن بلوغ الغاية، ألاَ تَرَى أن حال الرجل أشرفُ في الجهاد من حال المرأة، وحال البالغ الأيِّد أشرف من حال الصبيّ الضعيف!

فهذه جملة ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي رحمه الله في نقض العثمانية، اقتصرنا عليها ها هنا، وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه، إذا اقتضت الحال ذكره.

---

٢٣٩ - ومن كلام له عليه السلام قالَه لعبد الله بن عباس، وقد جاءهُ برسالةٍ من عثمانَ، وهو محصورٌ يسالهُ فيها الخروجَ إلى مالِهِ بينبُع، ليقلَّ هتفُ الناسِ باسمِهِ للخلافةِ، بعد أن كان سأله مثل ذلك من قبل

الأصل: فقال عليه السلام: يَابْنَ عَبَّاسٍ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إلاَّ أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ، أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ! بَعَثَ إلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إلَيَّ أَنْ اقْدَمَ، ثُمَّ هُوَ الآنَ يَبْعَثُ إلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ! وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً.

الشرح: ينبُع على «يفعلُ» مثل يحلُم ويحكم: اسم موضع، كان فيه نخلٌ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وينبُع الآن بلد صغير من أعمال المدينة.

وهتْف الناس باسمه: نداؤهم ودعاؤهم، وأصله الصوت، يقال: هَتف الحمامُ يهتفِ هَتْفاً، وهَتَف زيد بعمرو هُتافاً، أي صاح به، وقوس هتّافة وهَتْفى، أي ذات صوت.

والناضح: البعير يُستَقى عليه، وقال معاوية لقيس بن سعد - وقد دخل عليه في رَهْطٍ من الأنصار -: ما فعلت نواضحكم! يهزأ به، فقال: أنصبناها في طلب أبيك يوم بدر. والغرْب: الدلو العظيمة.

قوله: «أقبلْ وأدبر»، أي يقول لي ذلك، كما يقال: للناضح، وقد صرّح العبّاس بن مِرْداس بهذه الألفاظ فقال:

أرَاكَ إذا أصبحت للقوم ناضحاً ... يقال له بالغرب أدبر وأقبلِ

قوله: «لقد دفعتُ عنه حتى خشيتُ أن أكونَ آثماً»، يحتمل أن يريدَ بالغتُ واجتهدت في الدّفاع عنه، حتى خشيت أن أكون آثماً في كثرة مبالغتي واجتهادي في ذلك، وإنّه لا يستحقّ الدفاع عنه لجرائمه وأحداثه، وهذا تأويل مَنْ ينحرِف عن عثمان، ويحتمل أن يريد: لقد دفعتُ عنه حتى كدت أن ألقِيَ نفسي في الهلكة، وأن يقتلني النّاس الذين ثاروا به، فخِفْتُ الإثم في تغريري بنفسي وتوريطها في تلك الورْطة العظيمة، ويحتمل أن يريد: لقد جاهدت الناس دونَه ودفعتهم عنه، حتى خشيت أن أكونَ آثماً بما نلتُ منهم من الضّرب بالسَّوْط، والدفع باليد، والأعانة بالقول، أي فعلت من ذلك أكثرَ مما يحب.

وصية العباس لعلي عليه السلام قبل موته

قرأتُ في كتاب صنّفه أبو حَيَّان التوحيديّ في تقريظ الجاحظ، قال: نقلت من خَطّ الصُّوليّ: قال الجاحظ: إنّ العبّاس بن عبد المطلب أوصَى عليّ بن أبي طالب عليه السلام في عِلّته الّتي مات فيها، فقال: أي بنيّ إني مُشْفٍ[1] على الظّعن عن الدُّنيا إلى الله، الذي فاقتي إلى عفوه وتجوُّزه أكثر من حاجتي إلى ما أنصحك فيه، وأشير عليك به، ولكنّ العِرْق نَبُوض، والرّحم عَرُوض، وإذا قضيتُ حقّ العمومة، فلا أبالي بعدُ إنّ هذا الرجل - يعني عثمان - قد جاءني مراراً بحديثك، وناظرني ملايناً ومخاشناً في أمرِك، ولم أجِدْ عليك إلا مثل ما أجد منك عليه، ولا رأيتُ منه لك إلا مثل ما أجدُ منك له، ولستَ تؤتَى من قلّة علم، ولكن من قلّة قَبُول، ومع هذا كلّه فالرأي الّذي أودعك به أن تمسِك عنه لسانَك ويدك، وهمْزَك وغمْزَك، فإنّه لا يبدؤك ما لم تبدأه، ولا يجيبُك عمّا لم يبلغه، وأنت المتجنّي وهو المتأنّي، وأنت العائب وهو الصامت. فإن قلت: كيف هذا وقد جلَس مجلساً أنا به أحقّ، فقد قاربتَ! ولكنّ ذاك بما كسبتْ يداك، ونكَصَ عنه عَقِباك، لأنّك بالأمْس الأدنى، هرولْت إليه تظنّ أنّهم يُحَلُّون جيدَك،

---

(١) مشف: يقال أشفى على الهلاك: أشرف عليه. اللسان، مادة (شفي).

ويختِّمون أصبعَك، ويطئون عَقِبك، ويروْن الرُّشد بك، ويقولون: لا بدّ لنا منك، ولا معدَل لنا عنك، وكان هذا من هفواتِك الكُبَر، وهناتِك التي ليس لك منها عذر، والآن بعد ماثللت عرشَك بيدك، ونبذْتَ رأي عَمّك في البيداء يتدَهْدَه[١] في السَّافياء، خذ بأحزم ممّا يتوضّح به وجهُ الأمر، لا تشارِ هذا الرجل ولا تمارِه، ولا يبلغنّه عنك ما يُحنِقه عليك، فإنه إنْ كاشفَك أصاب أنصاراً، وإن كاشفتَه لم ترَ إلا ضراراً، ولم تستلج إلا عثاراً، واعرِفْ مَنْ هو بالشام له، ومن هاهنا حوله من يطيع أمرَه، ويمتثل قوله، لا تغترِرْ بناسٍ يُطِيفون بك، ويدَّعون الحنوّ عليكَ والحبّ لك، فإنهم بين مولًى جاهلٍ، وصاحبٍ متمنٍّ، وجليس يرعى العين ويبتدر المحضَر، ولو ظنّ النّاس بك ما تظنّ بنفسك لكان الأمر لك، والزّمام في يدك، ولكنْ هذا حديثٌ يوم مَرَض رسول الله ﷺ فاتَ، ثم حَرُم الكلام فيه حين مات، فعليك الآن بالعُزوف عن شيء عَرّضك له رسول الله ﷺ، فلمْ يتم، وتصدّيْتَ له مرّة بعدة مرّة فلم يستقمْ، ومن ساوَر الدّهر غَلب، ومَنْ حَرَص على ممنوع تَعِب، فعلى ذلك فقد أوصيتُ عبدَ الله بطاعتك، وبعثتُه على متابعتك، وأوجَرْته محبتَك، ووجدت عنده من ذلك ظنّي به لك، لا توترْ قوسَك إلا بعد الثقّة بها، وإذا أعجبتك فانظر إلى سِيَتِها[٢]، ثم لا تفوّق إلا بعد العلم ولا تغرق في النّزْع إلا لتصيب الرميّة، وانظر لا تطرف يمينُك عينَك، ولا تَجنِ شمالُك شينكَ، ودَّعْني بآياتٍ من آخر سورة الكهف، وقم إذا بدا لك.

قلت: النّاس يستحِسنُون رأيَ العباس لعليّ عليه السلام في ألاّ يدخل في أصحاب الشورى وأمّا أنا فإنّي استحسنه إن قصد به معنًى، ولا أستحسنه إن قصد به معنًى آخر، وذلك لأنّه إن أجرى بهذا الرأي إلى ترفّعه عليهم، وعلّو قدره عن أن يكون مماثلاً لهم، أو أجْرى به إلى زُهده في الإمارة، ورغبته عن الولاية، فكلّ هذا رأى حسنٌ وصواب، وإن كان منزَعه في ذلك إلى أنّك إن تركت الدخول معهم، وانفردت بنفسك في دارك، أو خرجت عن المدينة إلى بعض أموالك، فإنّهم يطلبونك، ويضربون إليك آباط الإبل، حتى يولُّوك الخلافة، وهذا هو الظاهر من كلامه، فليس هذا الرأي عندي بمستحْسن، لأنّه لو فعل ذلك لولّوا عثمان أو واحداً منهم غيره، ولم يكن عندهم من الرغبة فيه عليه السلام ما يبعثهم على طلبه، بل كان تأخّره عنهم قرّة أعينهم، وواقعاً بإيثارهم، فإنّ قريشاً كلّها كانت تُبغضه أشدّ البغض، ولو عمّر عمر نوح، وتوصّل إلى الخلافة بجميع أنواع التوصّل، كالزهد فيها تارة، والمناشدة بفضائله تارة، وبما فعله في ابتداء الأمر من إخراج زوجته وأطفاله ليلاً إلى بيوت الأنصار، وبما اعتمده إذ ذاك من تخلّفه في بيته، وإظهار أنّه قد انعكف على جمع القرآن، وبسائر أنواع الحيَل فيها، لم تحصل له

---

(١) يتدهده: يتدحرج. القاموس، مادة (دهده).

(٢) سية القوس: طرف قابها، وقيل: رأسها. اللسان، مادة (سي).

إلاّ بتجريد السيف، كما فعل في آخر الأمر، ولست ألوم العربَ، لاسيّما قريشاً في بغضها له، وانحرافها عنه، فإنه وترها، وسفك دماءها، وكشفَ القناعِ في منابذتها، ونفوس العرب وأكبادها كما تعلم وليس الإسلام بمانع من بقاء الأحقاد في النُّفوس، كما نشاهده اليوم عياناً، والنّاس كالناس الأول، والطبائع واحدة، فأحسب أنّك كنت من سنتيْن أو ثلاث جاهليًا أو من بعض الروم، وقد قتَل واحدٌ من المسلمين ابنك أو أخاك، ثم أسلمت، أكان إسلامُك يُذهب عنك ما تجدُه من بغض ذلك القاتل وشنآنه؟ كلاّ. إنّ ذلك لغيرُ ذاهب، هذا إذا كان الإسلام صحيحاً، والعقيدة محققة، لا كإسلام كثير من العرب، فبعضهم تقليداً، وبعضهم للطمع والكسْب، وبعضهم خوفاً من السّيف، وبعضهم على طريق الحميّة والانتصار، أو لعداوة قوم آخرين من أضداد الإسلام وأعدائه.

واعلم أنّ كلّ دم أراقه رسول الله صلى الله عليه وآله بسيف عليّ عليه السلام وبسيف غيره، فإن العرب بعد وفاته عليه السلام عصبت تلك الدماء بعليّ بن أبي طالب عليه السلام وحده، لأنه لم يكن في رهطه مَنْ يستحقّ في شرعهم وسنتهم وعادتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا بعليٍّ وحده، وهذه عادة العرب إذا قُتل منها قتلى طالبتْ بتلك الدماء القاتل، فإن مات، أو تعذّرت عليها مطالبتُه، طالبت بها أمثَل النّاس من أهله.

لما قتل قوم من بني تميم أخاً لعمرو بن هند، قال بعض أعدائه يحرِّض عمراً عليهم:

مَنْ مبلغٌ عمراً بأن ... المرْءَ لَمْ يُخلَقْ صُبَارَهْ[1]

وحوادثُ الأيّام لا ... يَبْقَى لها إلاّ الحجارهْ

ها إنّ عجْزَةَ أمّه ... بالسفْحِ أسْفلَ من أوارَهْ

تسفي الرياح كَشْحَيْه[2] ... وقد سَلَبُوا إزارَهْ

فاقتل زُرارة لا أرَى ... في القوم أمثلَ من زُرَارَهْ

فأمره أن يقتل زُرارة بن عُدَس رئيس بني تميم، ولم يكن قاتلاً أخا الملك ولا حاضراً قَتْله.

ومَنْ نظر في أيّام العرب ووقائعها ومَقاتِلها عرف ما ذكرناه.

سألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبي زيد رحمه الله، فقلت له: إنّي لأعجبُ من عليّ عليه السلام كيف بَقِيَ تلك المدّة الطويلة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكيف ما اغتيلَ وفُتِك به في جَوْف منزله، مع تلظّي الأكباد عليه!

---

(١) الصُّبارة: الحجارة، وقيل: الحجارة المُلس. اللسان، مادة (صبر).

(٢) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وهو من لدن السرة إلى المتن، اللسان، مادة (كشح).

فقال: لولا أنّه أرغم أنفه بالتُّراب، ووضع خَدّه في حضيض الأرض لقتل، ولكنه أخمل نفسه، واشتغل بالعبادة والصّلاة والنَّظر في القرآن، وخرج عن ذلك الزيّ الأوّل، وذلك الشّعار ونسيَ السيف، وصار كالفاتك يتُوب ويصير سائحاً في الأرض، أو راهباً في الجبال، ولما أطاع القوم الّذين ولّوا الأمر، وصار أذّل لهم من الحذاء، تركوه وسكتوا عنه، ولم تكن العرب لتقدُم عليه إلاّ بمواطأةٍ من متولّي الأمر، وباطنٍ في السرّ منه، فلمّا لم يكن لولاة الأمر باعثٌ وادعٍ إلى قتله وَقَع الإمساك عنه، ولولا ذلك لقُتلَ، ثم أجّل بعد معقل حصين.

فقلت له: أحق ما يقال في حديث خالد؟ فقال: إن قوماً من العلَويّة يذكرون ذلك.

ثم قال: وقد روي أنّ رجلاً جاء إلى زفر بن الهُذَيل، صاحب أبي حنيفة، فسأله عمّا يقول أبو حنيفة في جواز الخروج من الصَّلاة بأمرٍ غير التّسليم، نحو الكلام والفعل الكثير أو الحدَث! فقال: إنّه جائز، قد قال أبو بكر في تشهُّده ما قال، فقال الرجل: وما الّذي قاله أبو بكر؟ قال: لا عليك، فأعاد عليه السؤال ثانيةً وثالثةً، فقال: أخرجوه أخرجوه، قد كنت أحدّث أنّه من أصحاب أبي الخطاب.

قلت له: فما الذي تقوله أنت! قال: أنا أستبعدُ ذلك وإن روتْه الإماميّة.

ثم قال: أمّا خالدٌ فلا أستبعد منه الإقدام عليه بشجاعته في نفسِه، ولبغضه إيّاه، ولكنّي أستبعده من أبي بكر، فإن كان ذا ورعٍ، ولم يكن ليجمع بين أخذ الخلافة ومنع فَدَك، وإغضاب فاطمة وقَتْل عليٍّ عليه السلام، حاش لله من ذلك! فقلت له: أكان خالدٌ يقدِرُ على قتله؟ قال: نعم، ولم لا يقدر على ذلك، والسيف في عنقه، وعليّ أعزَلُ غافل عَمّا يراد به، قد قتله ابن ملجم غيلةً، وخالد أشجعُ من ابن ملجم(١)!

فسألته عمّا ترويه الإمامية في ذلك، كيف ألفاظه؟ فضحك وقال:

كم عالم بالشيء وهو يسائلُ

ثم قال: دعنا من هذا، ما الذي تحفَظُ في هذا المعنى؟ قلت: قول أبي الطيِّب:

نَحنُ أدْرَى وَقَدْ سَألْنَا بِنَجدٍ ... أطويلٌ طريقُنَا أم يَطُولُ
وكثيرٌ مِن السُّؤَالِ اشتياقٌ ... وكثيرٌ من ردِّهِ تعليلُ

فاستحسن ذلك، وقال: لمن عَجُزُ البيت الذي استشهدتَ به؟ قلت: لمحمد بن هانيء المغربي، وأوله:

في كلّ يوم أستزيدُ تجارِباً ... كم عالم بالشَّيء وهو يسائلُ!

---

(١) أنظر إرشاد القلوب: ٢/ ٣٧٨. والإيضاح لابن شاذان: ٨٠. والإستغاثة: ١٩.

فبارك عليّ مراراً، ثم قال: نترك الآن هذا ونتمم ما كنّا فيه، وكنت أقرأ عليه في ذلك الوقت «جمهرة النسب» لابن الكلبيّ، فعدنا إلى القراءة، وعدَلْنا عن الخوض عما كان اعترض الحديث فيه.

٢٤٠ - ومن كلام له عليه السلام اقتص فيه ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله ثم لحاقه به

الأصل: فَجَعَلْتُ أَتْبَعُ مَأْخَذَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى العَرْجِ.

في كلام طويل. قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ الله تَعَالَى: قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «فَأَطَأُ ذِكْرَهُ»، مِنَ الْكَلاَمِ الَّذِي رُمِيَ بِهِ إِلَى غَايَتَي الإِيجَازِ وَالْفَصَاحَةِ، أَرَادَ أَنِّي كُنْتُ أُعْطَى خَبَرَهُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ خُرُوجِي إلى أن انتهَيْتُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعُ، فَكَنَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْعَجِيبَةِ.

الشرح: العَرْج: منزل بين مكّة والمدينة، إليه ينسب العَرْجيّ الشاعر، وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس.

قال محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي»: لم يُعلِمْ رسول الله صلى الله عليه وآله أحداً من المسلمين ما كان عزم عليه من الهجْرة إلاّ عليّ بن أبي طالب وأبا بكرِ بن أبي قحافة، أمّا عليّ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرَه بخروجه، وأمره أن يبيتَ على فراشه، يُخادِع المشركين عنه ليروْا أنه لم يبرحْ فلا يطلبوه، حتى تبعُد المسافة بينهم وبينه، وأنْ يتخلّف بعده بمكّة حتّى يؤدّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع الّتي عنده للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله استودَعه رجالٌ من مكّة ودائعَ لهم، لما يعرفونه من أمانته، وأما أبو بكر فخرج معه.

وسألتُ النّقِيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد الحسنيّ، رحمه الله فقلت: إذا كانتْ قُريش قد محّصت رأيها، وألقى إبليس - كما رُوِي - ذلك الرأي، وهو أن يضربوه بأسيافٍ من أيدي جماعة من بُطون مختلفة، ليضيع دمُه في بُطون قريش فلا تطلبه بنو عبد مناف، فلماذا انتظروا به تلك الليلة الصّبح! فإنّ الرواية جاءت بأنّهم كانوا تسوّروا الدّار، فعاينوا فيها شخصاً مسجّى بالبُرْد الحضرميّ الأخضر، فلم يشكُّوا أنّه هو، فرصدوه إلى أن أصبحوا، فوجدوه عليًا. وهذا طريفٌ، لأنّهم كانوا قد أجمعوا على قتله تلك الليلة، فما بالهم لم يقتلوا ذلك الشخص المسجّى، وانتظارهم به النهار دليل على أنّهم لم يكونوا أرادوا قتله تلك الليلة!

فقال في الجواب: لقد كانوا همُّوا من النّهار بقتله تلك الليلة، وكان إجماعهم على ذلك،

وعزمُهم في حَقْنه من بني عبد مناف، لأنّ الذين محّصوا هذا الرأي واتفقوا عليه: النضْر بن الحارث من بني عبد الدّار، وأبو البخْتَريّ بن هشام، وحكيم بن حزام، وزَمْعة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء الثلاثة من بني أسد بن عبد العُزَّى، وأبو جهل بن هشام، وأخوه الحارث، وخالد بن الوليد بن المغيرة، هؤلاء الثلاثة من بني مخزوم، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج، وعمرو بن العاص، هؤلاء الثلاثة من بني سَهْم، وأميّة بن خلَف وأخوه أبيّ بن خلَف، هذان من بني جُمَح، فنَما هذا الخبرُ من اللّيْل إلى عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس، فلقيَ منهم قوماً، فنهاهم عنه، وقال: إنّ بني عبد مناف لا تمسِك عَنْ دمِه، ولكن صفّدُوه في الحديد، واحبسوه في دارٍ من دوركم، وتربَّصُوا به أن يصيبَه من الموت ما أصاب أمثالَه من الشعراء. وكان عتْبة بن ربيعة سيّد بني عبد شمس ورئيسهم، وهم من بني عبد مناف، وبنو عمّ الرجل ورهطُه، فأحجم أبو جهل وأصحابُه تلك الليلة عن قَتْله إحجاماً، ثم تسوَّروا عليه، وهم يظنّونه في الدّار، فلما رأوا إنساناً مسجًّى بالبُرْد الأخضر الحضرميّ لم يشكُّو أنه هُوَ، وائتمروا في قتله، فكان أبو جهل يذمُرهم[١] عليه فيهمُّون ثم يحجمون. ثم قال بعضهم لبعض: ارمُوا بالحجارة، فرمَوْه، فجعل عليٌّ يتضوّر منها، ويتقلّب تأوُّهاً خفيفاً، فلم يزالوا كذلك في إقدام عليه وإحجامٍ عنه، لما يريده الله تعالى من سلامته ونجاته، حتّى أصبح وهو وقيذٌ[٢] من رَمْي الحجارة، ولو لم يخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأقام بينهم بمَكّة، ولم يقتلوه تلك الليلة، لقَتلوه في الليلة التي تلِيها، وإنْ شبّت الحرب بينهم وبين عبد مناف، فإنّ أبا جهل لم يكنْ بالّذي ليمسِك عن قتله، وكان فاقدَ البصيرة، شديدَ العزْم على الولوغ في دمه!

قلت للنقيب: أفعِلم رسول الله ﷺ وعليٌّ عليه السلام بما كان من نهى عُتْبة لهم؟ قال: لا، إنّهما لم يعلَما ذلك تلك الليلة، وإنّما عرفاه من بعد، ولقد قال رسول الله ﷺ يوم بدر، لمّا رأى عتبةَ وما كان منه: «إن يكُنْ في القوم خيرٌ ففي صاحب الجمل الأحمر»[٣].

ولو قدّرنا أن علياً عليه السلام علم ما قال لهم عُتْبة لم يُسقط ذلك فضيلتَه في المبيت، لأنه لم يكن على ثقةٍ من أنهم يقبلون قول عُتْبة، بل كان ظنُّ الهلاك والقتل أغلَب.

وأما حالُ عليٍّ عليه السلام، فلمّا أدّى الودائع، خرج بعد ثلاثٍ من هجرة النبي ﷺ، فجاء إلى المدينة راجلاً قد تورَّمَتْ قَدَماه، فصادف[٤] رسول الله ﷺ نازلاً بقُباء على كُلْثوم بن الهدْم،

---

(١) يذمرهم: يحضهم. اللسان، مادة (ذمر).
(٢) الوقيذ: البطيء الثقيل، أو الشديد المرض. اللسان، مادة (وقذ).
(٣) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١/ ١٦٣).
(٤) لم يكن الأمر محض مصادفة بل النبي أقام بقباء منتظراً علياً عليه السلام كما روي في بحار الأنوار: ١٩/ ١٢٢.

فنزل معه في منزله. وكان أبو بكر نازلاً بقُباء أيضاً في منزل حبيب بن يساف، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهُما معه من قُباء، حتى نزل بالمدينة على أبي أيّوب خالد بن يزيد الأنصاريّ، وابتنى المسجد.

٢٤١ - ومن خطبة له عليه السلام في المسارعة إلى العمل

الأصل: فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ ٱلْبَقَاءِ، وَٱلصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَٱلتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَٱلْمُدْبِرُ يُدْعَى، وَالْمُسِيءُ يُرْجَى، قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ ٱلْعَمَلُ، وَيَنْقَطِعَ المَهَلُ، وَتَنْقَضِيَ ٱلْمُدَّةُ، وَيُسَدَّ بَابُ ٱلتَّوْبَةِ، وَتَصْعَدَ المَلاَئِكَةُ، فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ مِن نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَأَخَذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ، ٱمْرُؤٌ خَافَ ٱللهَ، وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ، ٱمْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا، وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي ٱللهِ، وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ ٱللهِ.

الشرح: في نفَس البقاء، بفتح الفاء، أي في سعته، تقول: أنت في نَفَسٍ من أمرك، أي في سَعَة. والصحف منشورة، أي وأنتم بعد أحياء، لأنه لا تطوى صحيفة الإنسان إلاّ إذا مات. والتوبة مبسوطة لكم غير مقبوضة عنكم، ولا مردودة عليكم إن فعلتم، كما تردّ على الإنسان توبته إذا احتُضر.

والمدبِر يدعَى، أي مَنْ يدبِر منكم، ويولّي عن الخير يُدعَى إليه، وينَادي: يا فلان أقبل على ما يُصلِحك! والمسيء يُرجَى، أي يرجَى عوده وإقلاعه.

قبل أن يجمد العمل، استعارة مليحة، لأنّ الميت يجمد عمله ويقف، ويروي: «يخمد» بالخاء، من خمدت النار، والأول أحسن. وينقطع المهَل، أي العمر الذي أمهلتم فيه. وتصعد الملائكة، لأنّ الإنسان عند موته تصعد حفَظته إلى السماء، لأنه لم يبق لهم شغل في الأرض.

قوله: «فأخذ امرؤ» ماضٍ يقوم مقام الأمر، وقد تقدّم شرحُ ذلك، والمعنى أنّ مَنْ يصوم ويصلّي فإنّما يأخذ بعض قوّة نفسه مما يلقَى من المشقة. لنفسه أي عُدّة وذخيرة لنفسه يوم القيامة، وكذلك مَنْ يتصدّق، فإنه يأخذ من ماله، وهو جار مجرى نفسه لنفسه.

وأخذ من حيّ لميت، أي من حال الحياة لحال الموت، ولو قال: من ميت لحيّ، كان جيّداً أيضاً، لأنّ الحيّ في الدّنيا ليس بحيّ على الحقيقة، وإنّما الحياة حياة الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[1]. وروي: «أمسكها بلجامها» بغير فاء.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

٢٤٢ - ومن خطبة له عليه السلام في شان الحكمين وذم أهل الشام

الأصل: جُفَاةٌ طَغَامٌ، عَبِيدٌ أَقْزَامٌ، جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ، وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسُوا مِنَ المهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، وَلاَ مِنَ ٱلَّذِينَ تَبَوَّؤُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ.

أَلاَ وَإِنَّ القومَ ٱخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ ٱلْقَوْمِ مِمَّا يُحِبُّونَ، وَإِنَّكُمْ ٱخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ ٱلْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ. وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ قَيْسٍ، بِالْأَمْسِ يَقُولُ: إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ، فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَدْ لَزِمَتْهُ ٱلتُّهَمَةُ.

فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بنِ ٱلْعَاصِ بِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ، وَخُذُوا مَهلَ ٱلْأَيَّامِ، وَحُوطُوا قَوَاصِيَ ٱلْإِسْلَامِ. أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى بِلاَدِكُمْ تُغْزَى، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى!

الشرح: جفاة: جمع جافٍ، أي هم أعراب أجلاف. والطّغام: أوغاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء. ويقال للأشرار واللئام: عبيد، وإن كانوا أحراراً.

والأقزام، بالزاي: رُذال وسِفْلتهم، والمسموع قَزَم، الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء، لأنه في معنى المصدر، قال الشاعر:

وهُمْ إذا الخيل جالُوا في كتائبها ... فوارسُ الخيل لا مِيلٌ ولا قَزَمُ

ولكنه عليه السلام قال: «أقزام» ليوازن بها قوله: «طغام»، وقد روي: «قِزَام»، وهي رواية جيدة، وقد نطقت العرب هذه اللفظة وقال الشاعر:

أحصَنُوا أمّهمُ من عَبْدِهِمْ ... تلك أفعال القِزام الوَكَعَهْ(١)

وجُمعوا من كلّ أوب، أيْ من كلّ ناحية. وتُلقُّطوا من كلّ شوب أي من فِرقٍ مختلطة.

ثم وصف جهلهم وبعدَهم عن العِلْم والدّين، فقال: ممّن ينبغي أن يفقّه ويؤدّب، أي يعلّم الفقه والأدب، ويدرّب، أي يعوّد اعتماد الأفعال الحسَنة والأخلاق الجميلة.

ويولّى عليه، أي لا يستحقّون أن يولّوْا أمراً، بل ينبغي أن يحجَر عليهم كما يحجر على الصبيّ والسّفيه لعدم رُشْده. وروي: «ويولَى عليه»، بالتّخفيف. ويؤخذ على يديه، أي يمنع من التصرّف.

(١) الوكع: ركوب الإبهام على السبابة من الرجل. اللسان، مادة (وكع).

قوله عليه السلام : «ولا الذين تبوؤوا الدّار والإيمان»، ظاهر اللفظ يشعر بأن الأقسام ثلاثة وليست إلا اثنين، لأن الّذين تبوؤوا الدّار والإيمان الأنصار، ولكنه عليه السلام كرر ذكرهم تأكيداً، وأيضاً فإن لفظة «الأنصار» واقعة على كلّ مَنْ كان من الأوس والخزرج، الذين أسلَمُوا على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وآله، والذين تبوؤوا الدار والأيمان في الآية، قوم مخصوصون منهم، وهم أهل الإخلاص والإيمان التّام فصار ذكرُ الخاصّ بعد العام، كذكره تعالى جبريل وميكائيل، ثم قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾(١)، وهما من الملائكة. ومعنى قوله: «تبوؤوا الدار والإيمان» سكنوهما، وإن كان الإيمان لا يسكن كما تسكن المنازل، لكنّهم لما ثبتوا عليه، واطمأنّوا سمّاه منزلاً لهم ومتبوّأً، ويجوز أن يكون مثل قوله:

وَرَأَيْتُ زَوجَكِ فِي الْوَغى مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحا

ثم ذكر عليه السلام أنّ أهل الشام اختارُوا لأنفسهم أقربَ القوم مما يحبّونه، وهو عمرو بن العاص، وكرّر لفظة «القوم»، وكان الأصل أن يقول: ألا وإنّ القومَ اختاروا لأنفسهم أقربَهم مما يحبُّون، فأخرجه مخرج قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٢). والذي يحبّه أهل الشام هو الانتصار على أهلِ العراقِ والظَّفر بهم، وكان عمرو بن العاص أقربَهم إلى بلوغ ذلك، والوصول إليه بمكْره وحيلته وخدائِعه.

والقوم في قوله ثانياً: «أقربُ القوم»، بمعنى النّاس كأنّه قال: واخترتم لأنفسكم أقربَ الناس، ممّا تكرهونه، وهو أبو موسى الأشعري، واسمه عبد الله بن قيس، والذي يكرهه أهلُ العراق هو ما يحبّه أهل الشام، وهو خذلان عسكر العراق وانكسارهم، واستيلاء أهل الشام عليهم، وكان أبو موسى أقرَب النّاس إلى وقوع ذلك، وهكذا وقع لَبلهِه وغفْلته وفساد رأيه، وبغضه عليًا عليه السلام من قبل.

ثم قال: أنتم بالأمس، يعني في واقعة الجمل، قد سمعتم أبا موسى ينهى أهل الكوفة عن نُصْرَتي، ويقول لهم: هذه هي الفتنة التي وعدنا بها، فقطّعوا أوتار قِسيّكم. وشيموا سيوفكم، أي أغمدوها فإن كان صادقاً فما باله سَار إليّ، وصار معي في الصفّ، وحضر حرب صِفّين، وكثّر سواد أهل العراق وإن لم يحارب، ولم يسلّ السيف، فإنّ مَنْ حَضر في إحدى الجهتين وإن لم يحارب كمن حارب، وإن كان كاذباً فيما رواه من خَبَر الفتنة فقد لزمتْه التُّهم وقُبْح الاختلاف إليه في الحكومة، وهذا يؤكّد صحة إحدى الروايتين في أمرِ أبي موسى، فإنه قد اختلفت الرواية: هل حضر حرب صِفّين مع أهل العراق أم لا؟ فمن قال: حضر، قال: حضر ولم يحارب، وما طلبه اليمانيّون من أصحاب عليّ عليه السلام ليجعلوه حَكماً كالأشعث بن قيس

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧.

وغيره إلا وهو حاضِرٌ معهم في الصفت، ولم يكن منهم على مسافة، ولو كان على مسافة لما طلبوه، ولكان لهم فيمن حضر غَناء عنه، ولو كان على مسافة لَمَا وافق عليّ عليه السلام على تحكيمه، ولا كان عليٌّ عليه السلام ممّن يحكّم من لم يحضر معه.

وقال الأكثرون: إنّه كان معتزلاً للحرب بعيداً عن أهل العراق وأهل الشام.

فإن قلت: فلم لا يحمَلُ قوله عليه السلام: «فإن كان صادقاً فقد أخطأ بسيره غير مستكرَه» على مسيره إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل العراق حيث طلبوه وليفوّضوا إليه أمرَ الحُكومة؟

قلت: لو حمْلنَا كلامَه عليه السلام على هذا لم يكن لازماً لأبي موسى، وكان الجواب عنه هيّناً، وذلك لأنّ أبا موسى يقول: إنما أنكرت الحربَ وما سرت لأحارب ولا لأشهد الحرب، ولا أغرِي بالحرْب، وإنما سرتُ للإصلاح بيْن النّاس، وإطفاء ثائرة الفتنة، فليس يناقض ذلك ما رويتُه عن الرسول من خبر الفتنة، ولا ما قلته في الكوفة في واقعة الجمل: «قطّعوا أوتار قِسِيِّكُمْ».

قوله عليه السلام: «فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن العباس»، يقال لمن يرام كفّه عن أمر يتطاول له: ادفع في صدره، وذلك لأنّ من يقدم على أمر ببدنه فيدفع دافع في صدره حقيقة، فإنه يردّه أو يكاد، فنقِل ذلك إلى الدفع المعنويّ.

قوله عليه السلام: «وخذوا مَهَل الأيّام»، أي اغتنموا سَعَة الوقت. وخذوه مناهَبَةً قبل أن يضيق بكم أو يفوت.

قوله عليه السلام: «وحوطوا قواصِيَ الإسلام»: ما بَعُدَ من الأطراف والنواحي.

ثم قال لهم: «ألا ترون إلى بلادِكم تُغْزَى!»، هذا يدلّ عَلَى أن هذه الخطبة بعد انقضاء أمرِ التحكيم، لأن معاوية بعد أن تمّ عَلَى أبي موسى من الخديعة ما تمّ استعجل أمرَه، وبعث السّرايا إلى أعمال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

وتقول: قد رمي فلان صَفاة فلان، إذا دهاه بداهية، قال الشاعر:

والدَّهرُ يُوتِر قوسَه ... يرمي صَفاتك بالمعابِلْ[1]

وأصل ذلك الصخرة الملساء، لا يؤثّر فيها السهام ولا يرميها الرامي، إلا بعد أن نَبَلَ غيرها، يقول: قد بلغت غاراتُ أهل الشام حدودَ الكوفة التي هي دار الملك وسرير الخلافة، وذلك لا يكون إلا بعد الإثخان في غيرها من الأطراف.

---

(١) المعابل: جمع مِعبلة، وهي نصل طويل عريض. اللسان، مادة (عبل).

نسب أبي موسى الأشعري

ونحن نذكر نسب أبي موسى وشيئاً من سيرته وحاله نقلاً من كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر المحدّث، ونتبع ذلك بما نقلناه من غير الكتاب المذكور. قال ابن عبد البر:

هو عبد الله بن قيس بن سلَيم بن حضارة بن حَرْب بن عامر بن عَنز بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجيه بن الجماهر بن الأشعر، وهو نَبْت بن أدد بن زيد بن يشجُب بن عريب بن كَهْلان بن سَبَأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان. وأمّه امرأة من عَكّ، أسلمت وماتت بالمدينة، واختلف في أنّه هل هو من مهاجِرة الحبشة أم لا؟ والصحيح أنّه ليس منهم، ولكنه أسلَم ثم رجع إلى بلاد قومه، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريّين على رسول الله صلى الله عليه وآله، فوافق قدومُهم قدومَ أهل السفينتين جعفر بن أبي طالب وأصحابه من أرض الحبشة، فوافَوْا رسول الله صلى الله عليه وآله بخيْبر، فظنّ قومٌ أنّ أبا موسى قدِم من الحبشة مع جعفر.

وقيل إنه لم يهاجر إلى الحبشة، وإنّما أقبل في سفينة مع قوم من الأشعريّين، فرمت الريح سفينَتهم إلى أرض الحبشة، وخرجوا منها مع جعفر وأصحابه، فكان قدومهم معاً، فظنّ قومٌ أنه كان من مهاجرة الحبشة.

قال: وولاّه رسول الله صلى الله عليه وآله من مَخاليف اليمن زَبِيد، وولاّه عمر البصرة، لمّا عزل المغيرة عنها، فلم يزل عليها إلى صدر من خلافة عثمان فعزله عثمان عنها، وولاّها عبدَ الله بن عامر بن كُريز، فنزل أبو موسى الكوفة حينئذٍ، وسكنها، فلمّا كره أهلُ الكوفة سعيد بن العاص ودفعوه عنها، ولَّوْا أبا موسى، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولّيه، فأقرّه على الكوفة، فلما قتل عثمان عزله عليّ عليه السلام عنها، فلم يزل واجداً لذلك على عليّ عليه السلام، حتى جاء منه ما قال حذيفة فيه، فقد روى حُذَيفة فيه كلاماً كرهت ذكرَه والله يغفر له.

قلت: الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البرّ ولم يذكره قوله فيه، وقد ذكره عنده بالدّين، أما أنتم فتقولون ذلك، وأمّا أنا فأشهد أنّه عدوّ لله ولرسوله، وحرْب لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللّعنة ولهم سوء الدار. وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين، أسرّ إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَهم، وأعلمه أسماءهم.

وروي أن عماراً سئل عن أبي موسى، فقال: لقد سمعتُ فيه من حُذَيفة قولاً عظيماً، سمعته يقول: صاحب البُرْنس الأسود، ثم كلَح كُلُوحاً علمت منه أنّه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط.

وروي عن سويد بن غفلة: قال: كنت مع أبي موسى على شاطىء الفرات في خلافة عثمان، فروي لي خبراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: سمعته يقول: «إن بني إسرائيل اختلفوا، فلم يزل الاختلاف بينهم، حتى بعثوا حَكمين ضالّين ضلاّ وأضلّا مَن اتبعهما، ولا ينفكّ أمرا

متّى حتى يبعثوا حكَمين يَضلاّن ويُضلاّن من تبعهما»[1]، فقالت له: احذر يا أبا موسى أن تكون أحدَهما! قال: فخلع قميصه، وقال: أبرأ إلى الله من ذلك، كما أبرأ من قميصي هذا.

فأما ما تعتقده المعتزلة فيه، فأنا أذكر ما قاله أبو محمد بن متّويه في كتاب «الكفاية» قال رحمه الله:

أما أبو موسى فإنه عظم جُرْمه بما فعله، وأدّى ذلك إلى الضّرر الذي لم يخف حالُه، وكان عليٌّ عليه السلام يقنتُ عليه وعلى غيره، فيقول: اللهمّ العنْ معاوية أولاً وعَمْراً ثانياً، وأبا الأعور السُّلميّ ثالثاً، وأبا موسى الأشعريّ رابعاً[2].

روي عنه عليه السلام: أنه كان يقول في أبي موسى: صبغ بالعلم صبغاً وسلخ منه سلخاً[3].

قال: وأبو موسى هو الذي روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: كان في بني إسرائيل حكمان ضالان، وسيكون في أمتّي حكمان ضالان، ضالّ من اتبعهما. وأنه قيل له: ألا يجوز أن تكون أحدهما؟ فقال: لا - أو كلاماً، ما هذا معناه - فلمّا بُلِيَ به، قيل فيه: البلاء موكّل بالمنطق، ولم يثبت في توبته ما ثبت في توبة غيره، وإن كان الشيخ أبو عليّ قد ذكر في آخر كتاب الحكَمين أنه جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام في مرض الحسن بن عليّ، فقال له: أجئتنا عائداً أم شامتاً؟ فقال بل عائداً، وحدّث بحديث في فضل العيادة[4].

قال ابن متويه: وهذه أمارة ضعيفة في توبته.

انتهى كلام ابن متويه، وذكرته لك لتعلم أنه عند المعتزلة من أرباب الكبائر، وحكمه حكم أمثاله ممن واقع كبيرة ومات عليها.

قال أبو عمر بن عبد البرّ: واختلف في تاريخ موته، فقيل: سنة اثنتين وأربعين، وقيل: سنة أربع وأربعين، وقيل سنة خمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين.

واختلف في قبره، فقيل: مات بمكّة ودفن بها، وقيل مات بالكوفة ودفن بها.

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ٢٤١.
(٢) أنظر الإيضاح لابن شاذان: ٦٤، والغدير: ١٢/ ١٣١، وكتاب صفين لنصر: ٣٠٢ - ٦٣٦.
(٣) أخرجه الثقفي في الغارات: ١/ ١٧٨ بلفظ: صبغ بالعلم صبغة ثم خرج منه.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ١/ ٨١، وأخرجه أبو يعلى في مسنده رقم: ٢٦٢.

٢٤٣ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد صلى الله عليه وآله

الأصل: هُمْ عَيْشُ ٱلْعِلم، وَمَوْت ٱلْجَهْلِ، يخبركُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ حُكْمِ مَنْطِقِهِمْ. لاَ يُخَالِفُونَ ٱلْحَقَّ، وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَهُمْ دَعَائِمُ ٱلْإِسْلاَمِ، وَوَلاَئِجُ الاعْتِصَامِ، بِهِمْ عَادَ ٱلْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وَٱنْزَاحَ ٱلْبَاطِلُ عَنْ مَقَامِهِ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ، عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ، لاَ عَقْلَ سَمَاعٍ ورواية، فَإِن رُوَاةَ ٱلْعِلْمِ كثير، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

الشرح: يقول: بهم يحيا العلم ويموت الجهل، فسمّاهم حياة ذاك، وموت هذا، نظراً إلى السببيّة، يدلّكم حلمهم وصفحهم عن الذنوب على علمهم وفضائلهم، ويدلّكُمْ ما ظهر منهم من الأفعال الحسنة على ما بطن من إخلاصهم، ويدلّكم صمتهم وسكوتُهم عَمَّا لا يعنيهم، عن حكمة منطقهم.

ويروي: «ويدلّكم صمتُهم على منطقهم»، وليس في هذه الرواية لفظة «حكم».

لا يخالفون الحقّ: لا يعدلون عنه، ولا يختلفون فيه كما يختلف غيرهم من الفرق وأرباب المذاهب، فمنهم من له في المسألة قولان وأكثر، ومنهم من يقول قولاً ثم يرجع عنه، ومنهم من يرى في أصول الدين رأياً ثم ينفيه ويتركه.

ودعائم الإسلام: أركانه.

والولائج: جمع وَلِيجة، وهي الموضع يدخل إليه ويستتر فيه، ويعتصم به.

وعاد الحق إلى نصابه: رجع إلى مستقرّه وموضعه: وانزاح الباطل: زال. وانقطع لسانه: انقطعت حجّته.

عقلوا الدين عقل رعاية، أي عرفوا الدين وعلموه معرفة مَن وعى الشيء وفهمه وأتقنه. ووعاية، أي وعوا الدين وحفظوه وحاطوه، ليس كما يعقله غيرهم عن سماع ورواية، فإن من يروي العلم ويسنده إلى الرجال ويأخذه من أفواه الناس كثير، ومن يحفظ العلم حفظ فهم وإدْرَاكٍ، أصالةً لا تقليداً قليل.

تم الجزء الثالث عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ويليه الجزء الرابع عشر

شرح نهج البلاغة

الجزء الرابع عشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باب الكتب والرسائل

الأصل: باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأولياء بلاده، ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهل وأصحابه.

الشرح: لمّا فَرَغ من إيراد المختار من خطَب أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه الجاري مَجْرَى الخُطب من المواعظ والزواجر، شرع في إيراد بابٍ من مختار كلامه عليه السلام، وهو ما كان جارياً مَجْرَى الرّسائل والكُتب، ويدخل في ذلك العهود والوصايا. وقد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأوَّل أشبَه، نحو كلامه عليه السلام لشُرَيح القاضي لمّا اشترى داراً، وكلامه لشريح بن هانىء لمّا جعله على مقدّمته إلى الشام.

وسمي ما يكتب للولاة عهداً اشتقاقاً من قولهم: عهدت إلى فلان، أي أوصيته.

١ - من كتاب له عليه السلام
إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

الأصل: مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ، جَبْهَةِ ٱلْأَنْصَارِ وَسَنَامِ ٱلْعَرَبِ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ.

إِنَّ ٱلنَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ ٱسْتِعْتَابَهُ. وَأُقِلُّ عِتَابَهُ، كَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِما فِيهِ ٱلْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا ٱلْعَنِيفُ. وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ قَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي ٱلنَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ، وَلاَ مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ ٱلْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ ٱلْمِرْجَلِ، وَقَامَتِ ٱلْفِتْنَةُ عَلَى ٱلْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ. إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

الشرح: قوله: «جبهة الأنصار»، يمكن أن يريدَ جماعة الأنصار، فإنّ الجبهة في اللغة الجماعة ويمكن أن يريد به سادة الأنصار وأشرافهم، لأنّ جبهة الإنسان أعلَى أعضائه، وليس يريد بالأنصار هاهنا بني قَيْلة، بل الأنصار هاهنا الأعوان.

قوله عليه السلام: «وسَنام العرب»، أي أهل الرفعة والعلوّ منهم؛ لأنّ السنام أعلى أعضاء البعير.

قوله عليه السلام: «أكثِر استعتابه وأُقلُّ عتابه»، الاستعتاب: طلب العُتْبى، وهي الرّضا، قال: كنت أكثر طلبَ رضاه، وأقل عتابه وتعنيفه على الأمور، وأمّا طلحة والزبير فكانا شديديْن عليه.

والوجيف: سير سريع، وهذا مَثَلٌ للمشمرين في الطعن عليه، حتى إنّ السّير السريع أبطأ ما يسيران في أمره، والحُداء العنيف أرفق ما يحرّضان به عليه. ودار الهجرة: المدينة.

وقوله: «قد قلعت بأهلها وقلعوا بها»، الباء هاهنا زائدة في أحد الموضعين، وهو الأول، وبمعنى «من» في الثاني، يقول: فارقت أهلها وفارقوها، ومنه قولهم: «هذا منزل قُلْعة» أي ليس بمستوطن. وجاشت: اضطربت. والمِرْجل: القِدْر.

ومن لطيف الكلام قوله عليه السلام: «فكنتُ رجلاً من المهاجرين»، فإن في ذلك من التخلّص والتبرّي ما لا يخفي على المتأمّل، ألا ترى أنه لم يبق عليه في ذلك حجّة لطاعن، حيث كان قد جعل نفسه كواحدٍ من عُرْض المهاجرين، الذين بنفرٍ يسير منهم انعقدت خلافة أبي بكر، وهم أهل الحلّ والعقد، وإنما كان الإجماع حجّةً لدخولهم فيه.

ومن لطيف الكلام أيضاً قوله: «فأتيحَ له قوم قتلوه»، ولم يقل: «أتاح الله له قوماً»، ولا قال: «أتاحَ له الشيطان قوماً»، وجعل الأمر مبهماً.

وقد ذكر أنّ خط الرضيّ رحمه الله «مستكرِهين» بكسر الراء، والفتح أحسن وأصوب، وإن كان قد جاء: استكرهتُ الشيء بمعنى كرهته.

وقال الراونديّ: المراد بدار الهجرة هاهنا الكوفة التي هاجر أمير المؤمنين عليه السلام إليها، وليس بصحيح، بل المراد المدينة، وسياق الكلام يقتضي ذلك، ولأنّه كان حين كتب هذا الكتاب إلى أهل الكوفة بعيداً عنهم، فكيف يكتب إليهم يخبرهم عن أنفسهم.

الإمام علي عليه السلام في طريقه إلى البصرة

وروى محمّد بن إسحاق عن عمّه عبد الرحمن بن يسار القرشيّ، قال: لمّا نزل عليّ عليه السلام الرّبَذة متوجّهاً إلى البصرة بعث إلى الكوفة محمّد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق، وكتب إليهم هذا الكتاب، وزاد في آخره:

فحسبي بكم إخواناً، وللدين أنصاراً، فـ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وروى أبو مِخْنف، قال: حدّثني الصَّقْعب، قال: سمعتُ عبد الله بن جُنادة يحدّث أنّ عليًا عليه السلام لمّا نزل الرَّبذَة بعث هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص إلى أبي موسى الأشعريّ، وهو الأمير يومئذٍ على الكوفة، لينفِر إليه النّاس، وكتب إليه معه:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. أمّا بعد، فإنّي قد بعثت إليك هاشم بن عُتْبة لتُشْخِص إليّ مَنْ قَبِلك من المسلمين ليتوجَّهُوا إلى قوم نكثوا بيعتي، وقتلوا شيعتي، وأحدثوا في الإسلام هذا الحدَث العظيم، فاشخَص بالنّاس إليّ معه حين يقدم عليك، فإني لم أولِّك المصر الّذِيَ أنت فيه، ولم أقرّك عليه إلاّ لتكون من أعواني على الحقّ، وأنصاري على هذا الأمر، والسّلام.

فأما رواية محمد بن إسحاق فإنه قال: لمّا قدِم محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكْر الكوفة، استنفرا النّاس، فدخل قومٌ منهم على أبي موسى ليلاً، فقالوا له: أشِرْ علينا برأيك في الخروج مَعَ هذين الرجلين إلى عليّ عليه السلام، فقال: أمّا سبيلُ الآخرة فالزموا بيوتكم، وأمّا سبيلُ الدُّنيا فاشخصوا معهما. فمنع بذلك أهلَ الكوفة من الخروج. وبلغ ذلك المحمديْن، فأغلظا لأبي موسى، فقال أبو موسى: والله إن بيعة عثمان لفي عنق عليّ وعنقِي وأعناقكما، ولو أردنا قتالاً ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قَتَلة عثمان. فخرجا من عنده، فلحقا بعليّ عليه السلام، فأخبراه الخبر.

وأمّا رواية أبي مِخْنف، فإنه قال: إنّ هاشم بن عُتْبة لـمّا قدِم الكوفة، دعا أبو موسى السَّائبَ بن مالك الأشعريّ، فاستشاره، فقال: اتّبع ما كتب به إليك. فأبى ذلك، وحبس الكتاب، وبعث إلى هاشم يتوعدّه ويخوّفه.

قال السائب: فأتيتُ هاشماً فأخبرتُه برأي أبي موسى، فكتب إلى عليّ عليه السلام: لعبد الله علي أمير المؤمنين من هاشم بن عُتْبة. أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين، فإني قدمت بكتابك على امرىء مُشاقّ بعيد الوُدّ، ظاهر الغلّ والشنآن، فتهددني بالسجن، وخوّفني بالقتل، وقد كتبتُ إليك هذا الكتاب مع المحلّ بن خليفة، أخي طيّئ، وهو من شيعتك وأنصارك، وعنده علمُ ما قبلَنا، فاسأله عمّا بدا لك، واكتب إليّ برأيك والسلام.

قال: فلما قدم المحلّ بكتاب هاشم على عليّ عليه السلام سلّم عليه، ثم قال: الحمدُ لله الّذِي أدّى الحقّ إلى أهله، ووضعه موضعه، فكرهَ ذلك قوم قد والله كرهوا نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله، ثم بارزوه وجاهدوه، فردّ الله عليهم كيدَهم في نحورهم، وجعل دائرة السّوْء عليهم. والله يا أميرَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٤١.

المؤمنين لنجاهدنّهم معك في كلِّ موطن، حفظاً لرسول الله ﷺ في أهل بيته، إذ صاروا أعداءً لهم بعده.

فرحّب به عليّ عليه السلام، وقال له خيراً، ثم أجلسه إلى جانبه، وقرأ كتاب هاشم، وسأله عن النّاس وعن أبي موسى، فقال: والله يا أميرَ المؤمنين، ما أثقُ به ولا آمَنه على خلافك، إن وجد مَنْ يساعده على ذلك. فقال عليٌّ عليه السلام: والله ما كان عندي بمؤتمَن ولا ناصح، ولقد أردت عَزْله فأتاني الأشتر، فسألني أن أقرّه، وذكر أنّ أهل الكوفة به راضون فأقررتُه[1].

وروى أبو مِخْنَف، قال: وبعث عليٌّ عليه السلام من الرَّبَذة بعد وصول المحلّ بن خليفة، أخي طيّئ، عبدَ الله بن عباس ومحمدَ بن أبي بكر إلى أبي موسى، وكتب معهما:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، أمّا بعد يا بن الحائك، يا عاضّ أيْرِ أبيه، فوالله إني كنت لأرى أن بُعْدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلاً، ولا جعل لك فيه نصيباً، سيمنعك من ردّ أمري والانتزاء[2] عليّ. وقد بعثت إليك ابنَ عباس وابنَ أبي بكر فخلّهما والمِصر وأهلَه، واعتزل عملنا مذؤوماً مدحوراً. فإن فعلت وإلاّ فإنّي قد أمرتُهما أن ينابذاك على سواء، إنّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين. فإذا ظهرا عليك قطّعاك إرْباً إرْباً، والسلام على مَنْ شكر النعمة، ووفّى بالبيْعَة، وعمِل برجاء العاقبة.

قال أبو مِخْنَف: فلمّا أبطأ ابنُ عبّاس وابنُ أبي بكْر عن عليٍّ عليه السلام، ولم يدرِ ما صنعا، رحل عن الرَّبذة إلى ذي قارٍ فنزلها، فلمّا نزل ذا قارٍ، بعث إلى الكوفة الحسنَ ابنَه عليه السلام وعمّارَ بن ياسر وزيد بن صُوحان وقيسَ بن سعد بن عُبادة، ومعهم كتاب إلى أهل الكوفة، فأقبلوا حتى كانوا بالقادسيّة، فتلقّاهم النّاس، فلما دخلوا الكوفة قرؤوا كتاب عليّ، وهو من عبد الله عليّ أمير المؤمنين، إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين:

أمّا بعدُ، فإني خرجت مخرجي هذا، إمّا ظالماً، وإمّا مظلوماً، وإما باغياً، وإما مبغيًّا عليّ، فأنشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلاّ نَفَر إليّ، فإن كنتُ مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً استعتبني. والسلام.

قال أبو مخنف: فحدّثني موسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلَى، عن أبيه، قال: أقبلنا مع الحسن وعَمّار بن ياسر من ذي قار، حتى نزلنا القادسيّة، فنزل الحسن وعمّار، ونزلنا معهما،

(١) أمالي المفيد: ٢٩٦.

(٢) التوثب علي، القاموس المحيط، مادة (نزو).

فاحتبى عَمّارٌ بحمائل سيفه، ثم جعل يسأل الناس عن أهل الكوفة وعن حالهم، ثم سمعتُه يقول: ما تركت في نفسي حزّة أهمّ إليّ من ألاّ نكون نبشنا عثمان من قبره، ثم أحرقناه بالنار.

قال: فلمّا دخلَ الحسن وعمّار الكُوفة، اجتمع إليهما النّاس، فقام الحسن، فاستنفر النّاس، فحمِد الله وصلّى على رسوله، ثم قال: أيّها الناس، إنّا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنّة رسوله، وإلى أفقه مَنْ تفقّه من المسلمين، وأعدل مَنْ تعدّلون، وأفضِل من تفضّلُون، وأوْفَى مَنْ تبايعون، مَنْ لم يَعِبْه القرآن، ولم تُجَهِّلْه السّنّة ولم تقعد به السابقة، إلى مَنْ قرّبه الله تعالى إلى رسوله قرابتين: قرابة الدين وقرابة الرَّحم، إلى مَنْ سبق النّاس إلى كلّ مأثُرة، إلى مَنْ كفى الله به رسوله والنّاس متخاذلون، فقرب منه وهم متباعدون، وصلّى معه وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزِمون، وبارز معه وهم محجِمون، وصدّقه وهم يكذّبون. إلى مَنْ لم تُرَدّ له رواية ولا تُكافأ له سابقة، وهو يسألكم النّصر، ويدعوكم إلى الحقّ، ويأمركم بالمسير إليه، لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا بيعتَه، وقتلوا أهْلَ الصلاح من أصحابه، ومثّلوا بعمّاله، وانتهبوا بيت ماله. فاشخصوا إليه رحمكم الله، فمروا بالمعروف وانهَوْا عن المنكر، واحضُروا بما يحضر به الصالحون.

قال أبو مخنف: حدثني جابر بن يزيد، قال: حدثني تميم بن حذيم الناجيّ، قال: قدم علينا الحسنُ بن عليّ عليه السلام وعمّار بن ياسر، يستنفران النّاس إلى عليّ عليه السلام، ومعهما كتابه، فلما فرغا من قراءة كتابه، قام الحسن - وهو فتًى حَدَث، والله إني لأرثي له من حداثة سنّه وصعوبة مقامه - فرماه النّاسُ بأبصارهم وهم يقولون: اللهمّ سدّد منطق ابن بنت نبيّنا! فوضع يده على عمود يتساند إليه، وكان عليلاً من شكوى به، فقال: الحمدُ لله العزيز الجبّار، الواحد القهّار، الكبير المتعال، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[1]. أحمَدُه على حسن البلاء، وتظاهر النّعماء، وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدّة ورخاء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، امتنّ علينا بنبوّته، واختصّه برسالته، وأنزل عليه وحيَه، واصطفاه على جميع خَلْقِه، وأرسله إلى الإنس والجنّ، حين عُبِدت الأوثان وأطيع الشيطان، وجُحِد الرحمن، فصلّى الله عليه وعلى وآله وجزاه أفضل ما جزى المسلمين. أمّا بعد فإني لا أقول لكم إلاّ مَا تعرفون، إن أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب - أرشدَ الله أمرَه، وأعزّ نصره - بعثني إليكم يدعوكم إلى الصواب، وإلى العمل بالكتاب، والجهاد في سبيل الله، وإن كان في عاجل ذلك ما تكرهون، فإنّ في آجله ما تحبّون إن شاء الله. ولقد علمتم أنّ عليًا صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحدَه، وإنه يومَ صَدّق به لفي

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٠.

عاشرة من سنّه، ثم شهد مع رسول الله ﷺ جميعَ مشاهده. وكان من اجتهاده في مرضاة الله وطاعة رسوله وآثاره الحسنة في الإسلام ما قد بلغكم، ولم يزل رسول الله ﷺ راضياً عنه، حتى غمّضه بيدِه وغسله وحده، والملائكة أعوانه، والفضل ابن عمّه ينقل إليه الماء، ثم أدخله حفرته، وأوصاه بقضاء دَيْنه وعِدَاته، وغير ذلك من أموره، كلّ ذلك من منّ الله عليه. ثم والله ما دعا إلى نفسه، ولقد تداكّ الناس عليه تداكَّ الإبل الهِيم عند ورُودها، فبايعوه طائعين، ثم نكث منهم ناكثون بلا حدَثٍ أحدَثه، ولا خلافٍ أتاه حسداً له وبغياً عليه. فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعتِه، والجدّ والصبر والاستعانة بالله والخفوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين. عَصَمنا الله وإيّاكم بما عصم به أولياءه وأهل طاعته، وألهمنا وإيّاكم تقواه، وأعاننا وإيّاكم على جهاد أعدائه. وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

ثم مضى إلى الرُّحبة، فهيَّأ منزلاً لأبيه أمير المؤمنين.

قال جابر: فقلت لتميم: كيف أطاق هذا الغلام ما قد قصصتَه من كلامه؟ فقال: وَلَمَا سقط عَنّي من قوله أكثر، ولقد حفظت بعض ما سمعت[1].

قال: ولمّا نزل عليٌّ عليه السلام ذا قارٍ كتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر: أمّا بعد، فإني أخبرك أن عليًا قد نزل ذا قارٍ، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عُدّتنا وجماعتنا، فهو بمنزلة الأشقر، إن تقدم عُقِر، وإن تأخر نُحِر، فدعت حفصة جواريَ لها يتغنّين ويضربن بالدّفوف، فأمرتهنّ أن يقلن في غنائهنّ: ما الخبر ما الخبر، عليّ في السفر، كالفرس الأشقر إن تقدم عُقِر، وإن تأخر نُحِر.

وجعلتْ بناتُ الطُّلَقاء يدخلْن على حفْصة، ويجتمعن لسماع ذلك الغناءِ.

فبلغ أمّ كُلثوم بنت عليّ عليه السلام، فلبست جلابيبها، ودَخلت عليهنّ في نسوة متنكّرات، ثم أسفرتْ عن وجهها، فلمّا عرفتها حَفْصة خجلت، واسترجعت فقالت أم كلثوم: لئن تظاهرتُما عليه منذُ اليوم، لقد تظاهرتما على أخيه من قبل، فأنزل الله فيكما ما أنزل!

فقالت حَفْصة: كفى رحمك الله! وأمرَتْ بالكتاب فمزّق، واستغفرت الله[2].

قال أبو مِخْنف: روى هذا جرير بن يزيد، عن الحكم، ورواه الحسن بن دينار، عن الحسن البصريّ.

---

(١) أنظر بحار الأنوار للمجلسي: ٣٢/ ٨٩ رقم ٦١.
(٢) أنظر مواقف الشيعة: ٢/ ٢٣٨.

وذكر الواقديّ مثل ذلك، وذكر المدائنيّ أيضاً مثله، قال: فقال سهلُ بن حُنَيف في ذلك هذه الأشعار:

عَـذَرْنَـا الـرِّجَـال بـحـرْبِ الـرِّجَـالِ   فـمـا لـلـنـسـاء ومـا لـلـسِّـبـابِ!
أمَـا حـسـبُـنـا مـا أتـيـنـا بـه!   لكِ الخيرُ من هَتْك ذاك الحِجَابِ
ومـخـرجُـهـا الـيـومَ مِـنْ بـيـتِـهـا   يُـعَـرِّفـهـا الـذَّنْـبَ نَـبْـحُ الـكِـلابِ
إلـى أن أتـانـا كـتـابٌ لـهـا   مـشـومٌ، فـيـا قـبْـحَ ذاك الـكـتـابِ!

قال: فحدّثنا الكلبيّ، عن أبي صالح أنّ علياً عليه السلام، لمّا نزل ذا قارٍ في قلّة من عسكره، صعِد الزُّبير مِنْبَر البصرة، فقال: ألا ألف فارس أسير بهم إلى عليّ، فأبيّته بياتاً، وأصبّحه صباحاً، قبل أن يأتِيَه المدد! فلم يجبه أحدٌ، فنزل واجماً، وقال: هذه والله الفتنة التي كُنّا نحدَّث بها! فقال له بعض مواليه: رحمك الله يا أبا عبد الله! تسمّيها فتنة ثم نقاتل فيها! فقال: ويحك! والله إنا لنُبصر ثمّ لا نَصْبِر. فاسترجع المولَى ثم خرج في اللّيل فارًّا إلى عليّ عليه السلام فأخبره، فقال: اللهمّ عليك به!

قال أبو مِخْنَف: ولمّا فرغ الحسن بن عليّ عليه السلام من خُطبته، قام بعده عمّار، فحمِد الله وأثنى عليه، وصلّى على رسوله، ثم قال: أيُّها النّاس، أخو نبيّكم وابن عمّه يستنفركم لنصر دين الله، وقد بلاكم الله بحقّ دينكم، وحرمة أمّكم، فحقّ دينكم أوجبُ، وحرمته أعظم. أيها الناس، عليكم بإمام لا يؤدَّب، وفقيه لا يعلَّم، وصاحب بأس لا ينكِل، وذي سابقة في الإسلام ليست لأحد، وإنّكم لو قد حضرتموه بيّن لكم أمرَكم إن شاء الله.

قال: فلمّا سمع موسى خطبة الحسَن وعمّار، قام فصعِد المنبر، وقال: الحمدُ لله الّذي أكرَمنا بمحمّد، فجمعنا بعد الفُرْقة، وجعلنا إخواناً متحابيّن بعد العدواة، وحرّمَ علينا دماءنا وأموالنا، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾[2]. فاتّقوا الله عباد الله، وضعوا أسلحتَكم، وكفُّوا عن قتال إخوانكم.

أمّا بعد يا أهلَ الكوفة، إن تطيعوا الله بادياً، وتطيعوني ثانياً، تكونوا جُرثومةً من جراثيم العرب، يأوِي إليكم المضطر، ويأمَنُ فيكم الخائف. إنّ علياً إنّما يستنفِركم لجهاد أمّكم عائشة وطلحة والزُّبير حواريّ رسول الله ومَنْ معهم من المسلمين، وأنا أعلم بهذه الفِتَن أنّها إذا أقبلت شَبّهت، وإذا أدبرت أسفرت، إنّي أخاف عليكم أن يلتقي غارّان منكم فيقتتلا ثم يتركا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

كالأحلاس الملقاء بنجوةٍ من الأرض. ثم يبقى رجْرجة من النّاس، لا يأمُرُون بالمعروف، ولا ينهوْن عن منكر. إنها قد جاءتكم فتنة كافرةٌ لا يدرَى من أين تؤتَى! تترك الحليم حيران! كأنّي أسمعُ رسول الله ﷺ بالأمس يذكر الفِتَن، فيقول: «**أنت فيها نائماً خيرٌ منك قاعداً، وأنت فيها جالساً خير منك قائماً، وأنت فيها قائماً خيرٌ منك ساعياً**»(١). فثلّموا سيوفكم وقصّفوا(٢) رماحكم، وانصِلوا سهامَكم، وقطّعوا أوتارَكم، وخلُّوا قريشاً ترتُقْ فَتقها، وترأبْ صَدْعها، فإن فعلتْ فلأنفسها ما فعلت، وإن أبت فعلى أنفسِها ما جَنَتْ، سمنُها في أديمها. استنصحوني ولا تستغشّوني، وأطيعوني ولا تعصوني، يتبيّن لكم رشدُكم، ويَصْلَى هذه الفتنة مَنْ جناها.

فقام إليه عمّار بن ياسر، فقال: أنت سمعتَ رسول الله ﷺ يقول ذلك! قال: نعم هذه يدي بما قلت، فقال: إن كنت صادقاً فإنّما عَنَاك بذلك وحدك، واتّخذ عليك الحجّة، فالزم بيتَك ولا تدخلنّ في الفتنة، أما إنّي أشهدُ أن رسول الله ﷺ أمر عليًّا بقتال الناكثين، وسمّى له فيهم مَنْ سمّى، وأمره بقتال القاسطين، وإن شئت لأقيمنّ لك شهوداً يشهدونَ أنّ رسول الله ﷺ إنّما نهاك وحدَك، وحذّرك من الدخول في الفتنة. ثم قال له: أعطني يدَك على ما سمعت. فمدّ إليه يده، فقال له عمّار: غلب الله مَنْ غالبه وجاهده! ثم جذبه فنزل عن المنبر.

وروى محمد بن جرير الطبري في «التاريخ» قال: لما أتى عليًّا عليه السلام الخبرُ وهو بالمدينة بأمرِ عائشة وطلحة والزبير، وأنّهم قد توجّهوا نحو العراق، خرج يُبادر، وهو يرجو أن يدرِكَهم ويردّهم، فلمّا انتهى إلى الرَّبَذة أتاه عنهم أنّهم قد أمعنوا، فأقام بالرَّبَذة أيّاماً، وأتاه عنهم أنّهم يريدون البَصْرة، فسُرّ بذلك، وقال: إنّ أهل الكوفة أشدُّ لي حُبًّا، وفيهم رؤساء العرب وأعلامهم. فكتب إليهم: إنّي قد اخترتكم على الأمصار، وإني بالأثر.

قال أبو جعفر محمد بن جرير رحمه الله: كتب عليٌّ عليه السلام من الرَّبَذة إلى أهل الكوفة: أما بعد، فإني قد اخترتُكم، وآثرت النُّزولَ بين أظهركم، لما أعرف من مودّتكم وحبّكم لله ورسوله، فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحقّ، وقضى الذي عليه.

قال أبو جعفر: فأوّلُ مَنْ بعثه عليٌّ عليه السلام من الرَّبَذة إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، فجاء أهلُ الكوفة إلى أبي موسى، وهو الأمير عليهم ليستشيروه في الخروج إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال لهم: أمّا سبيلُ الآخرة فأنْ تقعدُوا، وأمّا سبيلُ الدنيا فأن تخرجُوا.

---

(١) ذكر نحوه المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣١٤٩٨).
(٢) كسّروها. القاموس المحيط، مادة (قصف).

وبلغ المحمديْن قولُ أبي موسى الأشعريّ، فأتياه وأغلظا له، فأغلظ لهما، وقال: لا يحلّ لك القتال مع عليّ حتىٰ لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلاّ قتل حيث كان.

وقالت أخت عليّ بن عديّ، من بني عبد العُزّى بن عبد شمس، وكان أخوها عليّ بن عديّ من شيعة عليّ عليه السلام، وفي جملة عسكره:

لاهمّ فاعقِرْ بعليّ جَمَلَهْ ولا تبارِكْ في بعيرٍ حَمَلَه
ألاّ عليّ بن عديّ ليس لَهْ

قال أبو جعفر: ثم أجمع عليٌّ عليه السلام على المسير من الرَّبذة إلى البصرة، فقام إليه رفاعة بن رافع، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا؟ قال: أمّا الذي نريد وننوي فإصلاح، إن قبلوا مَنّا وأجابوا إليه، قال، فإن لم يقبلوا، قال: ندعوهم ونعطيهم من الحقّ ما نرجو أن يرضَوْا به، قال: فإن لم يرضوا! قال: نَدَعُهم ما تركونا: قال: فإن لم يتركونا، قال: نمتنع منهم، قال: فنعْم إذا.

وقام الحجّاج بن غَزِيَّة الأنصاريّ، فقال: والله يا أميرَ المؤمنين لأرضينَّك بالفعل، كما أرضيتَني منذ اليوم بالقول. ثم قال:

دَرَاكِها دَرَاكِها قَبْلَ الفَوْتْ وانفرْ بنا واسمُ بِنَا نحوَ الصَّوتْ
لا وألتْ نفسي إن خفت الموتْ

والله لننصرنّ الله عزّ وجلّ كما سمّانا أنصاراً.

قال أبو جعفر رحمه الله: وسار عليٌّ عليه السلام نحو البَصْرة، ورايتُه مع ابنه محمّد بن الحنفيّة، وعلى ميمنته عبدُ الله بن عباس، وعلى ميسرته عُمَر بن أبي سَلمة، وعليٌّ عليه السلام في القلْب على ناقة حَمْراء، يقودُ فرساً كُمَيْتاً. فتلقّاه بِفَيدٍ غلامٌ من بني سعد بن ثعلبة، يدعى مُرّة، فقال: مَنْ هؤلاء؟ قيل: هذا أمير المؤمنين، فقال: سَفرةٌ قانية، فيها دماء من نفوس فانية. فسمعها عليٌّ عليه السلام فدعاه، فقال: ما اسمُك؟ قال: مُرّة، قال أمرَّ الله عيشك! أكاهن سائر اليوم؟ قال: بل عائف، فخلّى سبيله. ونزل بَفيْد فأتَتْه أسدٌ وطيّئ، فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا قراركم، ففي المهاجرين كفاية.

وقدِم رجلٌ من الكوفة فَيْداً، فأتى علياً عليه السلام، فقال له: من الرّجل؟ قال: عامر بن مطرّف، قال: الليثي؟ قال: الشيْبَانيّ، قال: أخبرْني عمّا وراءك؟ قال: إن أردت الصّلح فأبو موسى حاصبُك، وإن أردتَ القتال فأبو موسى ليس لك بصاحب. فقال عليه السلام: ما أريد إلاّ الصلح إلاّ أن يُرَدّ علينا.

قال أبو جعفر: وقدم عليه عثمان بن حُنَيف، وقد نتف طلحة والزبير شعرَ رأسه ولحيتَه وحاجبيْه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، بعثتَني ذا لحية، وجئتك أمرد، فقال: أصبت خيراً وأجراً.

ثم قال: أيُها النّاس، إنّ طلحة والزُّبَير بايعاني، ثم نكثاني بيعتي، وألّبا عليّ النّاس، ومن العجَب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ، والله إنّهما ليعلمان أنّي لستُ بدونهما. اللهمّ فاحلُل ما عقَدا، ولا تبرم ما قد أحْكما في أنفسهما، وأرِهما المساءة فيما قد عملا.

قال أبو جعفر: وعاد محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى عليٍّ عليه السلام، فلقيَاه وقد انتهى إلى ذي قارٍ، فأخبراه الخبر، فقال عليّ عليه السلام لعبد الله بن العباس: اذهب أنت إلى الكوفة، فادعُ أبا موسى إلى الطاعة، وحَذِّره من العصيان والخلاف، واستنفِر النّاس. فذهب عبد الله بن عباس حتى قدِم الكوفة، فلقيَ أبا موسى، واجتمع الرؤساء من أهل الكوفة. فقام أبو موسى فخطبهم، وقال: إنّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله صحبُوه في مواطن كثيرة، فهم أعلم بالله ممن لم يصحبْه، وإنّ لكم عليّ حقًّا، وأنا مؤدّيه إليكم، أمر ألاّ تستخفُّوا بسلطان الله، وألاّ تجترئوا على الله أن تأخذوا كلّ مَنْ قدم عليكم من أهل المدينة في هذا الأمر، فتردُّوه إلى المدينة، حتى تجتمع الأمّة على إمام ترتضي به، إنها فتنة صَمّاء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جُرثومةً من جراثيم العرب، أغمِدوا سيوفَكم، وأنصلوا أسنّتكم، واقطعوا أوتار قسيّكم، حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلِيَ هذه الفتنة.

قال أبو جعفر رحمه الله: فرجع ابنُ عبّاس إلى عليٍّ عليه السلام، فأخبره، فدعا الحسن ابنَه عليه السلام وعمّار بن ياسر، وأرسلهما إلى الكوفة، فلمّا قدماها كان أوّل مَنْ أتاهما مسروق بن الأجدَع، فسلّم عليهما، وأقبل على عمّار، فقال: يا أبا اليقظان، علامَ قتلتم أمير المؤمنين؟ قال: علَى شتمِ أعراضنا، وضرْب أبشارنا. قال: فوالله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين. ثم خرج أبو موسى فلقيَ الحسن عليه السلام فضمّه إليه، وقال لعمّار: أيا أبا اليقظان، أغدوْتَ فيمَنْ غَدَا على أمير المؤمنين، وأحللت نفسك مع الفُجّار؟ قال: لم أفعل، ولِمَ تَسُوءني؟ فقطع عليهما الحسن، وقال لأبي موسى: يا أبا موسى. لم تثبِّطُ النّاس عنّا، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء، قال أبو موسى: صدقت بأبي وأمّي! ولكنّ المستشار مؤتمن، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ستكونُ فتنةٌ...»[1] وذكر تمام الحديث. فغضب عمار وساءه ذلك، وقال: أيها الناس، إنّما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك له خاصّة، وقام رجلٌ من بني تميم فقال لعمّار: اسكت أيّها العبد! أنت أمسِ مع الغوغاء، وتسافِه أميرنا اليوم! وثار زيد بن صُوحان وطَبَقته، فانتصروا لعمّار، وجعل أبو موسى يكفُّ النّاس ويردعُهم عن الفتنة. ثم انطلق حتى صعِد المنبر، وأقبل زيد بن صُوحان

---

(١) تقدم تخريجه.

ومعه كتاب من عائشة إليه خاصة، وكتاب منها إلى أهل الكوفة عامّة، تثبّطهم عن نُصرة عليّ، وتأمرهم بلزوم الأرض، وقال: أيُّها الناس، انظروا إلى هذه، أُمِرَتْ أن تَقَرّ في بيتها، وأُمِرنا نحن أن نقاتِل، حتى لا تكون فتنة، فأمرتْنا بما أُمِرتْ به، وركبت ما أُمِرْنا به، فقام إليه شَبَث بن رِبْعيّ. فقال له: وما أنت وذاك أيها العُمانيّ الأحمق! سرَقْتَ أمس بجَلُولاء فقطَعكَ الله، وتسبّ أم المؤمنين! فقام زيد، وشال يدَه المقطوعة وأومأ بيده إلى أبي موسى وهو على المِنْبر، وقال له: يا عبدَ الله بن قَيْس، أتردّ الفرات عن أمواجِهِ! دَعْ عنك ما لست تدرك، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾(١) الآيتين، ثم نادى: سيرُوا إلى أمير المؤمنين وصراط سيّد المرسلين، وانفِرُوا إليه أجمعين. وقام الحسن بن عليّ عليه السلام، فقال: أيُّها الناس، أجيبوا دعوةَ إمامكم، وسيرُوا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر مَنْ ينفر إليه، والله لأن يليَه أولُوا النّهى أمثلُ في العاجلة، وخيرٌ في العاقبة، فأجيبوا دعوتَنا، وأعينونَا على أمرنا، أصلحكم الله!

وقام عبد خير فقال: يا أبا موسى، أخبِرْني عن هذين الرجليْن، ألم يبايعا علياً! قال: بلَى، قال: أفأحدَث عليّ حدثاً يحلّ به نقض بيعته؟ قال: لا أدري، قال: لادَرَيت ولا أتيت! إذا كنت لا تدري فنحن تاركوك حتى تدري. أخبرني: هل تعلم أحداً خارجاً عن هذه الفرق الأربع: عليّ بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة رابعة بالحجاز قعود لا يجبى بهم فَيْء، ولا يقاتَل بهم عدوا فقال أبو موسى: أولئك خيرُ الناس، قال عبد خير: اسكت يا أبا موسى، فقد غلب عليك غشُّك.

قال أبو جعفر: وأتت الأخبار عليًّا عليه السلام باختلاف الناس بالكوفة، فقال للأشتر: أنت شفعتَ في أبي موسى أن أُقِرّه على الكوفة، فاذهب فأصلِحْ ما أفسدتَ، فقام الأشتر، فشخص نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلَها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلاّ دعاهم، وقال: اتَّبِعوني إلى القصر، حتى وصل القصر، فاقتحمه وأبو موسى يومئذٍ يخطب النّاس على المنبر، ويثبّطهم، وعمار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزلْ عملنا وتنحَّ عن منبرنا، لا أمّ لك!

قال أبو جعفر: فروى أبو مَرْيم الثَّقَفيّ، قال: والله إنّي لفي المسجدِ يومئذ] إذْ دخل علينا غِلمان أبي موسى يشتدّون ويبادِرُون أبا موسى: أيُّها الأمير، هذا الأشتر قد جاء، فدخل القصر، فضربنا وأخرجنا. فنزل أبو موسى من المِنْبَر، وجاء حتى دخل القصر، فصاح به الأشتر: أخرُج من قصرنا لا أمّ لك، أخرج الله نفسَك! فوالله إنّك لمن المنافقين قديماً. قال:

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١، ٢.

أجِّلْني هذه العشيّة، قال: قد أجّلتك، ولا تبيتنّ في القصر الليلة. ودخل النَّاسُ ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشتر، وقال: إن قد أخرجتُه وعزلتُه عنكم. فكفّ الناس حينئذٍ عنه.

قال أبو جعفر: فروى الشعبيّ، عن أبي الطُّفيل، قال: قال عليٌّ عليه السلام: يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجُل واحد، فوالله لقعدت على نَجَفَة ذي قار، فأحصيتهم واحداً واحداً، فما زادوا رجلاً، ولا نقصوا رجلاً[١].

نبذة من حياة عائشة ونسبها

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع طرفاً من نَسب عائشة وأخبارها، وما يقوله أصحابنا المتكلِّمون فيها، جرياً على عادتنا في ذكر مثل ذلك كلّما مررنا بذكر أحد من الصحابة.

أمّا نسبُها، فإنها ابنةُ أبي بكر، وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم، وأمُّها أم رُومان ابنة عامر بن عُوَيمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سُبيع بن دُهمان بن الحارث بن تميم بن مالك بن كنانة. تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين - وقيل بثلاث - وهي بنت ست سنين - وقيل بنت سبع سنين - وبنَى عليها بالمدينة وهي بنت تسع، لم يختلفوا في ذلك.

وكانت تذكر لجبير بن مطعِم وتسميَّ له، وورد في الأخبار الصَّحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرِيَ عائشة في المنام في سَرَقةِ حرير[٢]، متوفّى خديجة رضي الله عنها، فقال: إن يكن هذا من عند الله يُمْضِهِ، فتزوّجها بعد موت خديجة بثلاث سنين، وتزوّجها في شوال، وأعرس بها بالمدينة في شوال، على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجَره إلى المدينة.

وقال ابن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»: كانت عائشة تحبّ أن تدخُل النّساءُ من أهلها وأحبّتها في شوال على أزواجهنّ، وتقول: هلْ كان في نسائه أحظَى عندهُ مني وقد نكحَني وبنى عليّ في شوال[٣]!

قلت: قرىء هذا الكلام على بعض الناس، فقال: كيف رأت الحال بينها وبين أحمائها وأهل بيت زوجها[٤]!

---

(١) أنظر تاريخ الطبري: ٣/ ٥١٣ بعثة علي من ذي قار ابنه الحسن وعمار.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: النكاح، باب: نكاح الأبكار (٥٠٧٨)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (٢٤٣٨)، وأحمد في «مسنده» (٢٤٧٥٧).
(٣) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٨٨٢).
(٤) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٨٨٢).

وروى أبو عمر بن عبد البرّ، في الكتاب المذكور: أنَّ رسول الله ﷺ تُوفِّيَ عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة، فكان سنّها معه تسع سنين، ولم ينكح بِكْراً غيرها، واستأذنتْ رسول الله ﷺ في الكُنية، فقال لها: اكتَنِي بابنك عبد الله بن الزُّبير - يعني ابن أختها - فكانت كنيتُها أم عبد الله، وكانت فقيهةً عالمة بالفرائض والشعر والطب.

وروي أنّ النبيّ ﷺ، قال: «فضلُ عائشة على النّساء كفضل الثّريد على الطعام»[1]، وأصحابنا يحملون لفظة النّساء في هذا الخبر على زوجاته، لأنّ فاطمة عليها السلام عندهم أفضلُ منها، لقوله ﷺ: «إنّها سيّدة نساء العالمين»[2].

وقذِفت بصفوان بن المعطّل السُّلَمِيّ في سنة ستّ، منصَرفَ رسول الله ﷺ من غزاة بني المصطلق - وكانت معه - فقال فيها أهل الإفك ما قالوا، ونزل القرآن ببراءتها.

وقوم من الشيعة زعموا أنّ الآيات التي في سورة النور لم تنزل فيها، وإنما أنزلت في ماريَة القبطيّة، وما قذفت به مع الأسود القبطيّ. وجَحْدهم لإنزال ذلك في عائشة جَحْدٌ لما يعلم ضرورة من الأخبار المتواترة. ثم كان من أمرها وأمر حفصة وما جرى لهما مع رسول الله ﷺ في الأمر الّذي أسرّه على إحداهما ما قد نطق الكتاب العزيز به. واعتزل رسول الله ﷺ نساءه كلهنّ، واعتزلهما معهنَّ ثم صالحهنّ، وطلّق حفصة ثم راجعها، وجرت بين عائشة وفاطمة إبلاغات، وحديث يُوغر الصُّدور، فتولّد بين عائشة وبين عليّ عليه السلام نوع ضغينة، وانضمّ إلى ذلك إشارته على رسول الله ﷺ في قصّة الإفك بضرب الجارية وتقريرها وقوله: «إن النساء كثير».

ثم جرى حديث صلاة أبي بكر بالناس، فتزعم الشّيعة أنَّ رسول الله ﷺ لم يأمر بذلك، وأنَّه إنما صلى بالناس عن أمر عائشة ابنته، وأنّ رسول الله ﷺ خرج متحامِلاً وهو مثقَل، فنحّاه عن المحراب. وزعم معظم المحدّثين أن ذلك كان عن أمر رسول الله ﷺ وقوله، ثم اختلفوا، فمنهم من قال: نحّاه وصلّى هُوَ بالناس، ومنهم من قال: بل ائتمّ بأبي بكر كسائر الناس، ومنهم من قال: كان الناس يصلّون بصلاة أبي بكر، وأبو بكر يصلّي بصلاة رسول الله ﷺ[3].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ (٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة (٢٤٣١)، والترمذي في الأطعمة، باب: ما جاء في فضل الثريد (١٨٣٤)، والنسائي في عشرة النساء، باب: حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض (٣٩٤٧)، وابن ماجه في الأطعمة، باب: فضل الثريد (٣٢٨٠).

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٣/ ١٧٠)، ونحوه الديلمي في الفردوس (٣/ ١٤٥).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٣/ ٨٠، باب ما روي في صلاة المأموم قائماً، وعبد الرزاق في المصنف رقم ٤٠٧٦.

ثم كان منها في أمر عثمان، وتضريب الناس عليه، ما قد ذكرناه في مواضعه، ثم تلا ذلك يوم الجمل.

واختلف المتكلمون في حالها وحال مَنْ حضر واقعة الجمل، فقالت الإماميّة: كَفَر أصحابُ الجمل كلُّهم، الرؤساء والأتباع. وقال قوم من الحشِويّة والعامّة: اجتهدوا فلا إثم عليهم، ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ عليّ عليه السلام وأصحابه.

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول: أصحاب الجمل أخطؤوا، ولكنه خطأ مغفور، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند مَنْ قال بالأشبه، وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية.

وقال أصحابنا المعتزلة: كلّ أهلِ الجمل هالكون إلاّ مَنْ ثبتت توبته منهم، قالوا: وعائشة ممّن ثبتت توبتها، وكذلك طلحة والزبير، أمّا عائشة فإنها اعترفت لعليّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ، وسألته العفوَ، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنها كانت تقول: ليتَه كان لي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنون عشرة، كلّهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - وثكلتُهم - ولم يكن يومُ الجمل! وأنّها كانت تقول: ليتني مِتّ قبل يوم الجمل، وأنّها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبلّ خمارها. وأمّا الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ لمّا أذكره عليٌّ عليه السلام ما أذكره. وأمّا طلحة فإنه مرّ به - وهو صريع - فارس، فقال له: قف، فوقف، قال: من أيّ الفريقين أنت؟ قال: من أصحابِ أميرِ المؤمنين، قال: أقعِدْني، فأقعده، فقال: امدُد يدَك أبايعْك لأمير المؤمنين، فبايعه.

وقال: شيوخنا: ليس لقائل أن يقولَ: ما يروي من أخبار الآحاد بِتوبتهم لا يعارض ما علم قطعاً من معصيتهم. قالوا: لأنّ التوبة إنما يحكم بها للمكلّف على غالب الظنّ في جميع المواضع، لا على القطع، ألا ترى أنا نجوّز أن يكون من أظهر التوبة منافقاً وكاذباً، فبان أن المرجع في قبولها في كلّ موضع إنما هو إلى الظنّ، فجاز أن يعارض ما علم من معصيتهم بما يظنّ من توبتهم.

---

٢ - ومن كتاب له عليه السلام إليهم بعد فتح البصرة

الأصل: وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

الشرح: موضع قوله: «من أهل مصر» نصب على التميز، ويجوز أن يكون حالاً.

فإن قلت: كيف يكون تمييزاً وتقديره: وجزاكم الله متمدّنين أحسن ما يجزي المطيع، والتمييز لا يكون إلا جامداً، وهذا مشتقّ!

قلت: إنهم أجازوا كونَ التمييز مشتقاً في نحو قولهم: «ما أنت جارةً»، وقولهم: «يا سيّداً ما أنت من سيّد».

وما يجوز أن تكون مصدرية، أي أحسن جزاء العاملين، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، ويكون قد حذف العائد إلى الموصول، وتقديره أحسن الذي يجزي به العاملين.

٣ - ومن كتاب له عليه السلام كتبه لشريح بن الحارث قاضيه

الأصل: رُوِيَ أَنَّ شُرَيْحَ بن الحَارِث قَاضِيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمْ ٱشْتَرَى عَلَى عَهْدِهِ داراً بِثَمَانِينَ دِيناراً، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحاً، وَقَالَ لَهُ: بَلَغَنِي أَنَّكَ ٱبْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِيناراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً. فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لاَ يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلاَ يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً. فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لاَ تَكُون ٱبْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكِ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حلاَلِكَ، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ ٱلدُّنْيَا وَدَارَ ٱلآخِرَةِ.

أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا ٱشْتَرَيْتَ، لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَى هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِالدِّرْهَم فما فَوْقُ، والنسخَةُ هَذِهِ:

«هَذَا مَا ٱشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ. ٱشْتَرى مِنْهُ داراً مِنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ ٱلْفَانِينَ، وَخِطَّةِ ٱلْهَالِكِين. وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: ٱلْحَدُّ الأوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الآفَاتِ، وَٱلْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَٱلْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى ٱلْهَوَى الْمُرْدِي، وَٱلْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي. وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ. ٱشْتَرَى هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالأَمَلِ، مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالأَجَلِ هَذِهِ ٱلدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ ٱلْقَنَاعَةِ، وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا ٱشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ. فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ ٱلْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ ٱلْمَالَ عَلَى ٱلْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَى وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَٱدَّخَرَ وَٱعْتَقَدَ، وَنَظَرَ

بِرَغْمِهِ لِلْوَلَدِ - إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ ٱلْعَرْضِ وَٱلْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ ٱلثَّوَابِ وَٱلْعِقَابِ، إِذَا وَقَعَ الأَمْرُ بِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(١).

شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ ٱلْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مَنْ أسرِ ٱلْهَوَى، وَسَلِمَ مِنْ عَلاَئِقِ ٱلدُّنْيَا».

الشرح: هو شُرَيح بن الحارث بن المنتجع بن معاوية بن جَهْم بن ثَوْر بن عُفير بن عديّ بن الحارث بن مُرّة بن أُدَد الكنديّ، وقيل إنه حَليفٌ لِكِنْدة من بني الرائش.

وقال ابنُ الكلبيّ: ليس اسم أبيه الحارث، وإنّما هو شريح بن معاوية بن ثَوْر.

وقال قوم: هو شُرَيح بن هانىء.

وقال قوم: هو شريح بن شَرَاحيل. والصحيح أنّه شُرَيح بن الحارث، ويكنى أبا أميّة. استعمله عمر بن الخطاب على القضاء بالكوفة، فلم يزل قاضياً ستّين سنة، لم يتعطّل فيها إلا ثلاث سنين في فِتْنة ابن الزّبير، امتنع فيها من القضاء، ثم استعفى الحجاجَ من العمل فأعفاه، فلزم منزله إلى أن مات، وعُمّر عمراً طويلاً، قيل: إنه عاش مائة سنة وثمانياً وستين، وقيل مائة سنة، وتوفّيَ سنة سبع وثمانين.

وكان خَفيف الرّوح، مَزّاحاً، فقدم إليه رجلان، فأقرّ أحدهما بما ادّعى به خصمه، وهو لا يعلم فقضى عليه، فقال لشُرَيْح: مَنْ شهد عندك بهذا؟ قال: ابن أخت خالك.

وقيل: إنه جاءته امرأته تبكي وتتظلّم على خَصْمها، فما رقّ لها حتى قال له إنسان كان بحضرته: ألا تنظرُ أيّها القاضي إلى بكائها! فقال: إنّ إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون.

وأقرّ علي عليه السلام شُرَيحاً على القضاء: مع مخالفته له في مسائل كثيرة من الفقه مذكورة في كتب الفقهاء.

واستأذنه شُرَيح وغيره من قُضاة عثمان في القضاة أوّل ما وقعت الفُرْقة، فقال: اقضوا كما كنتم تَقْضُون حتى تكون للنّاس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي.

وسخط عليٌّ عليه السلام مرّة عليه فطرده عن الكوفة ولم يعزله عن القضاء، وأمره بالمقام ببانقيا - وكانت قرية قريبة من الكوفة أكثر ساكنها اليهود - فأقام بها مدّة، حتى رضي عنه وأعاده إلى الكوفة.

وقال أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»: أدرك شُريح الجاهليّة، ولا يعدّ من الصحابة، بل من التابعين، وكان شاعراً محسناً، وكان سِناطاً لا شعر في وجهه.

(١) سورة غافر، الآية: ٧٨.

قوله عليه السلام: «وخِطّة الهالكين» بكسر الخاء، وهي الأرض التي يختطّها الإنسان، أي يُعْلِم عليها علامة بالخَطّ ليعمرها، ومنه خطط الكوفة والبصرة.

وزخرف البناء، أي ذهّب جدرانه بالزّخرف، وهو الذهب.

ونجدّ: فرش المنزل بالوسائد، والنّجّاد الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما، والتنجيد: التزيين بذلك، ويجوز أن يريد بقوله: «نجدّ» رفع وعلا، من النَّجْد، وهو المرتفع من الأرض.

واعتقد: جعل لنفسه عُقدة كالضيْعة أو الذّخيرة من المال الصامت.

«وإشخاصهم» مرفوع بالابتداء وخبره الجار المجرور المقدّم، وهو قوله: «فعلى مبلبل أجسام الملوك». وموضع الاستحسان من هذا الفصل - وإن كان كله حسناً - أمران:

أحدُهما: أنّه عليه السلام نظر إليه نظر مغضَب، إنكاراً لابتياعه داراً بثمانين ديناراً، وهذا يدلّ على زهد شديدٍ في الدنيا واستكثار للقليل منها، ونسبه هذا المشتري إلى الإسراف، وخوف من أن يكون ابتاعها بمال حرام.

الثاني: أنه أملى عليه كتاباً زهديًا وعظياً، مماثلاً لكتب الشُّروط التي تكتب في ابتياع الأملاك، فإنهم يكتبون: «هذا ما اشترى فلان من فلان، اشترى منه داراً من شارع كذا وخطة كذا، ويجمع هذه الدار حدود أربعة، فحدّ منها ينتهي إلى دار فلان، وحدٌّ آخر ينتهي إلى ملك فلان، وحدّ آخر ينتهي إلى ما كان يعرف بفلان، وهو الآن معروف بفلان، وحدٌّ آخر ينتهي إلى كذا. ومنه شروع باب هذه الدار، وطريقها: «اشترى هذا المشتري المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا ديناراً، أو درهماً، فما أدرك المشتري المذكور من دركٍ فمرجوع به على من يُوجب الشرع الرجوع به عليه». ثم تكتب الشهود في أخر الكتاب. شهد فلان ابن فلان بذلك، وشهد فلان ابن فلان به أيضاً، وهذا يدلُّ على أنّ الشروط المكتوبة الآن قد كانت في زمن الصحابة تكتبت مثلها أو نحوها، إلا أنّا ما سمعنا عن أحد منهم أنه نقل صيغة الشرط الفقهيّ إلى معنى آخر كما قد نظمه هو عليه السلام، ولا غرْو فما زال سبّاقاً إلى العجائب والغرائب!

فإن قلت: لم جعل الشيطان المغوي في الحدّ الرابع؟

قلت: ليقول: وفيه يشرع باب هذه الدار، لأنه إذا كان الحدّ إليه ينتهي كان أسهل لدخوله إليها ودخول أتباعه وأوليائه من أهل الشيْطنة والضلال.

٤ - ومن كتاب له كتبه عليه السلام إلى بعض أمراء جيشه

الأصل: فَإنْ عَادُوا إلَى ظِلِّ ٱلطَّاعةِ، فَذَاكَ ٱلَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ ٱلْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إلَى ٱلشِّقَاقِ وَٱلعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَك إِلَى مَن عَصَاكَ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ ٱنْقَادَ مَعَك، عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ المُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ من مَشْهَدِه، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ.

الشرح: انهدَ: أي انهض. وتقاعس، أي أبطأ وتأخر.

والمتكارِه: الذي يخرج إلى الجهاد من غير نيّة وبصيرة، وإنما يخرج كارهاً مرتاباً، ومثل قوله عليه السلام: «فإنّ المتكاره مغيبه خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه» قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[1].

٥ - ومن كتاب له عليه السلام إلى الأشعث بن قيس، وهو عامل أذْرَبيجان

الأصل: وَإنّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ، وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرعًى لِمَنْ فَوْقَكَ، لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلاَ تُخَاطِرَ إلاّ بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ ٱللهِ تعالَى، وَأَنْتَ مِنَ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلاَّ أَكُونَ شَرَّ وُلاَتِكَ لَكَ. وَٱلسَّلاَمُ.

الشرح: قد ذكرنا نسب أشعث بن قيس فيما تقدم.

وأذربيجان: اسم أعجميٌّ غير مصروف، الألف مقصورة، والذال ساكنة. قال حبيب:

وأذْرَبِيجَانَ احتيالٌ، بعد ما ... كانت معرَّس عِبرةٍ ونَكالِ[2]

وقال الشمّاخ:

تَذكَّرتُها وَهْناً وقد حال دونها ... قُرَى أذْرَبِيجانَ المَسالحُ والجالُ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٢) البيت المعرس الذي له عرس وهو الحائط يجعل بين حائطي البيت لا يبلغ به أقصاه. اللسان، مادة (عرس).

والنّسبة إليه أذْرِيّ بسكون الذال، هكذا القياس، ولكن المرويّ عن أبي بكر في الكلام الذي قاله عند موته: «ولتألمُنَّ النّومَ على الصُّوف الأذَرِيّ» بفتح الذال.

والطُّعمة بضم الطاء المهملة: المأكلة، ويقال: فلان خبيث الطُّعمة، أي رديء الكسب. والطِّعمة بالكسر لهيئة التطعّم، يقول: إنّ عملَك لم يسوّغه الشرع والوالي من قِبَلي إياه، ولا جعله لك أكلاً، ولكنه أمانة في يدك وعنقك للمسلمين، وفوقك سلطان أنتَ له رعيّة فليس لك أن تفتاتَ في الرعيّة الذين تحت يدك، يقال: افتاتَ فلان على فلان، إذا فعل بغير إذنه ما سبيلُه أن يستأذنَه فيه، وأصلُه من الفَوْت وهو السَّبْق، كأنّه سبقه إلى ذلك الأمر.

وقوله: «ولا تخاطرْ إلاّ بوثيقةٍ»، أي لا تُقدِم على أمرٍ مَخوفٍ فيما يتعلّق بالمال الذي تتولاّه إلا بعد أن تتوثَّق لنفسك، يقال: أخذ فلان بالوثيقة في أمره، أي احتاط.

ثم قال له: «ولعلّي لا أكون شرَّ ولاتِك»، وهو كلام يطيِّب به نفسَه ويسكِّن به جاشَه؛ لأنّ في أوّل الكلام إيحاشاً له، إذ كانت ألفاظه تدلّ على أنّه لم يره أميناً على المال، فاستدرك ذلك بالكلمة الأخيرة، أي ربّما تحمد خلافتي وولايتي عليك، وتصادف منّي إحساناً إليك، أي عسى ألاّ يكون شكرُك لعثمان ومَنْ قبله أكثرَ من شكرك لي، وهذا من باب وعدك الخفيّ، وتسمّيه العرب المَلْث.

وأول هذا الكتاب: «من عبد الله عليٍّ أميرِ المؤمنين إلى الأشعث بن قيس. أمّا بعدُ، فلولا هَنات وهَنات كانت منك، كنت المقدّم في هذا الأمر قبل الناس، ولعلّ أمراً كان يحمل بعضه بعضاً إنْ اتّقيت الله عزّ وجلّ، وقد كان من بيعة الناس إيّاي ما قد علمت، وكان من أمر طلحة والزبير ما قد بلغكَ، فخرجت إليهما، فأبلغت في الدُّعاء، وأحسنت في البقيّة، وإن عملك ليس لك بطعمة...»، إلى آخر الكلام، وهذا الكتاب كتبه إلى الأشعث بن قيس بعد انقضاء الجمل.

٦ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ ٱلّذِين بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، فَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لله رِضاً، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلاَّهُ ٱلله مَا تَوَلَّى.

وَلَعَمْري يَا مُعَاوِيَةُ، لئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ، لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ، إِلاَّ أَنْ تَتَجَنَّى، فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ! وَالسَّلاَمُ.

الشرح: قد تقدّم ذكرُ هذا الكلام في أثناء اقتصاص مراسلة أمير المؤمنين عليه السلام معاويةَ بجرير بن عبد الله البَجَليّ، وقد ذكره أرباب السّيرة كلُّهم، وأورده شيوخنا المتكلّمون في كتبهم احتجاجاً على صحة الاختيار، وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأول الكتاب:

«أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني القومُ الّذين بايعوا...» إلى آخر الفصل.

والمشهور المرويّ: «فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن أو رغبة»، أي رغبة عن ذلك الإمام الذي وقع الاختيار له.

والمرويّ بعد قوله: «ولاّه الله بعد ما تولّى»، «وأصلاه جهنّمَ وساءت مصيراً»، وإنّ طلحةَ والزُّبَيرَ بايعاني ثم نقَضَا بَيْعتي، فكان نقضُهما كردّتهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخلَ فيه المسلمون، فإنّ أحبَّ الأمور إليّ فيك العافية، إلاّ أن تتعرّض للبلاء، فإن تعرّضْتَ له قاتلتك، واستعنت بالله عليك، وقد أكثرتَ في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل النّاسُ فيه، ثم حاكم القوم إليّ أحمِلْك وإيّاهم على كتاب الله، فأمّا تلك الّتي تريدها فخدْعة الصبيّ عن اللّبن، ولعمري يا معاوية إن نظرت بعقلك...» إلى آخر الكلام.

وبعده: «واعلم أنّك من الطُّلقاء الذين لا تحلّ لهم الخلافة، ولا تعترض بهم الشورى، وقد أرسلتُ جريرَ بن عبد الله البَجَليّ، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع ولا قوة إلا بالله».

واعلم أن هذا الفصلَ دالّ بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلّمون؛ لأنه احتجّ على معاوية ببيعة أهل الحلّ والعَقْد له، ولم يراعِ في ذلك إجماعَ المسلمين كلّهم، وقياسه على بيعة أهل الحلّ والعقد لأبي بكر، فإنه ما رُوعِي فيها إجماع المسلمين؛ لأنّ سعد بن عُبادة لم يبايعْ، ولا أحدٌ من أهل بيته وولده، ولأنّ عليًّا وبني هاشم ومَنِ انضوَى إليهم لم يبايعوا في مبدأ الأمر، وامتنعوا، ولم يتوقّف المسلمون في تصحيح إمامة أبي بكر وتنفيذ أحكامه على بيعتهم، وهذا دليل على صحة الاختيار وكونه طريقاً إلى الإمامة، وأنه لا يقدح في إمامته عليه السلام امتناعُ معاوية من البيعة وأهل الشام، فأما الإماميَّة فتحملُ هذا الكتابَ منه عليه السلام على التقيّة، وتقول: إنه ما كان يمكنه أن يصرّح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال، ويقول له: أنا منصوص عليّ من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعهود إلى المسلمين أن أكون خليفةً فيهم بلا فصل، فيكون في ذلك طعن على الأئمة المتقدّمين، وتفسد حاله مع الذين بايعوه من أهل المدينة، وهذا القول من الإماميّة دعوى لو عضدَها دليل لوجب أن يقال بها، ويُصار إليها، ولكن لا دليل لهم على ما يذهبون إليه من الأصول التي تسوقهم إلى حَمْلِ هذا الكلام على التقيّة.

فأما قوله عليه السلام : «وقد أكثرتَ في قَتَلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله»، فيجب أن يذكر في شرحه ما يقول المتكلّمون في هذه الواقعة.

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله: هذا الكلام حقّ وصواب؛ لأن أولياء الدّم يجب أن يبايعوا الإمام ويدخلوا تحت طاعته، ثم يرفعوا خصومهم إليه، فإنْ حَكَم بالحقّ استديمت إمامته، وإن حادَ عن الحق انقضت خلافته، وأولياءُ عثمان الذين هم بنُوه لم يبايعوا عليًا عليه السلام ، ولا دَخلوا تحت طاعته ثَمّ، وكذلك معاويةُ ابنُ عمّ عثمان لم يبايِع ولا أطاع، فمطالبتهم له بأن يقتصّ لهم من قاتلي عثمان قبل بيعتهم إياه وطاعتهم له ظلم منهم وعدوان.

فإن قلت: هب أنّ القصاص من قتلة عثمان موقوفٌ على ما ذكره عليه السلام ، أما كان يجبُ عليه لا من طريق القصاص أن ينهي عن المنكر! وأنتم تذهبون إلى أنّ النّهي عن المنكر واجب على مَنْ هو سُوقة، فكيف على الإمام الأعظم!

قلت: هذا غير وارد هاهنا؛ لأنّ النهي عن المنكر إنّما يجب قبل وقوع المنكَر، لكيلا يقع، فإذا وقع المنكر، فأيّ نهي يكونُ عنه! وقد نهى عليّ عليه السلام أهلَ مصر وغيرَهم عن قتل عثمان قبل قتلِه مراراً، ونابذهم بيده ولسانه وبأولاده فلم يغنِ شيئاً، وتفاقم الأمر حتى قُتِل، ولا يجب بعد القتل إلا القصاص، فإذا امتنع أولياءُ الدم من طاعة الإمام لم يجبْ عليه أن يقتصَّ من القاتلين؛ لأنّ القصاص حقّهم، وقد سقط ببغيهم على الإمام وخروجهم عن طاعته. وقد قلنا نحن فيما تقدّم: إنّ القصاص إنّما يجب على مَنْ باشر القتل، والذين باشروا قتل عثمان قُتِلوا يوم قتل عثمان في دار عثمان، والذين كان معاوية يطالبُهم بدم عثمان لم يباشروا القتل، وإنّما كثّروا السّواد وحَصَروا عثمان في الدار، وأجلبوا عليه وشتموه وتوعّدوه، ومنهم مَنْ تسوّر عليه داره ولم ينزل إليه، ومنهم مَنْ نزل فحضر محضر قتله ولم يشرك فيه، وكلّ هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشّرع.

إرسال علي عليه السلام جريراً إلى معاوية

وقد ذكرنا فيما تقدّم شرحَ حال جرير بن عبد الله البَجَليّ في إرسال عليّ عليه السلام إيّاه إلى معاوية مستقصى. وذكَرَ الزّبير بن بكّار في «الموفقيات»[1] أنّ علياً عليه السلام لما بعث جريراً إلى معاوية، خرج وهو لا يرى أحداً قد سبقه إليه، قال: فقدمت على معاوية فوجدتُه يخطب النّاس وهو حوله يبكون حول قيمص عثمان وهو معلّق على رُمح مخضوب بالدّم، وعليه أصابع زوجته

(١) الموفقيات: كتاب في الحديث للزبير بن بكار الأسدي المتوفى سنة (٢٥٦هـ).

نائلة بنت الفَرافصة مقطوعة، فدفعت إليه كتاب عليّ عليه السلام، وكان معي في الطريق رجلٌ يسير بسيري، ويقيم بمقامي، فمَثُل بين يديه في تلك الحال وأنشده:

إنّ بني عمّك عبدِ المطّلبْ هم قتلُوا شيخَكُمْ غيرَ كَذِبْ
وأنت أوْلى النّاس بالوَثْب فثِبْ

وقد ذكرنا تمامَ هذه الأبيات فيما تقدم.

قال ثم دفع إليه كتاباً من الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعِيط، وهو أخو عثمان لأمّه، كتبه مع هذا الرجل من الكوفة سراً أوله:

مُعَاوِيَ إنّ المُلْكَ قد جُبَّ غارِبُهْ

الأبيات التي ذكرنا فيما تقدم.

قال: فقال لي معاوية: أقمْ فإنّ الناس قد نفروا عند قتل عثمان حتى يسكنُوا. فأقمت أربعة أشهر، ثم جاءه كتاب آخر من الوليد بن عُقبة، أوّله:

ألا أبلِغْ معاويةَ بنَ حَرْب فإنّكَ مِن أخِي ثقةٍ مُلِيمُ
قَطعتَ الدّهرَ كالسَّدِمِ المعنَّى تُهَدِّر في دمشقَ ولا تَرِيمُ
وإنّك والكتابَ إلى عليٍّ كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ
فلو كنتَ القتيلَ وكان حيًّا لشَمّرَ لا ألفُّ ولا سَؤومُ

قال: فلمّا جاءه هذا الكتاب وصل بين طُومارين أبيضين، ثم طواهما وكتب عنوانهما.

«من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب».

ودفعهما إليّ، لا أعلم ما فيهما، ولا أظنّهما إلا جواباً، وبعث معي رجلاً من بني عَبْس لا أدري ما معه، فخرجنا حتى قدمنا إلى الكوفة، واجتمع النّاس في المسجد، لا يشكُّون أنّها بيعة أهل الشام، فلما فتح عليّ عليه السلام الكتاب لم يجد شيئاً، وقام العبسيّ، فقال: مَنْ هاهنا من أحياءُ قيس، وأخصّ من قيس غطفان، وأخصّ من غَطَفان عَبْساً؟ إني أحلف بالله لقد تركت تحت قميص عثمان أكثرَ من خمسين ألف شيخ خاضبي لحاهم بدموع أعينهم، متعاقدين متحالفين، ليقتُلن قَتَلَته في البرّ والبحر، وإني أحلف بالله ليقتحمنَّها عليكم ابنُ أبي سفيان بأكثر من أربعين ألفاً من خِصْيان الخيل، فما ظنّكم بعد بما فيها من الفُحول. ثم دفع إلى عليّ عليه السلام كتاباً من معاوية ففتحه فوجد فيه.

أتانيَ أمرٌ فيه للنفس غُمّةٌ وفيه اجتداعٌ للأنوف أصيلُ
مصابُ أمير المؤمنين وَهَدّةٌ تكادُ لها صُمُّ الجبالِ تَزولُ

وقد ذكرنا هذا الشعر فيما تقدّم.

٧ - ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً

الأصل: **أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَها بِضَلاَلِكَ، وَأَمْضَيْتَها بِسُوءِ رَأْيِكَ. وَكِتَابُ امْرِىءٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلاَ قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجابه، وَقادَهُ الضَّلاَلُ فاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لاَغِطاً، وَضَلَّ خابِطاً.**

الشرح: **موعظة موصّلة، أي مجموعة الألفاظ من هاهنا وهاهنا، وذلك عيب في الكتابة والخطابة، وإنما الكاتب من يرتجل فيقول قولاً فصلاً، أو يَرْوِي فيأتي بالبديع المستحسَن، وهو في الحالَين كليهما يُنفِق من كِيسه، ولا يستعير كلامَ غيره.**

والرسالة المحبّرة: المزيّنة الألفاظ، كأنه عليه السلام يشير إلى أنه قد كان يظهر عليها أثر التكلّف والتصنّع. والتّنميق: التزيين أيضاً. وهَجَرَ الرّجل، أي هَذَى، ومنه قوله تعالى في أحد التفسيرين: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[١]. واللّاغط: ذو اللغط، وهو الصوت والجلبة.

وخَبَط البعير فهو خابط، إذا مشى ضالاً فخبط بيديه كلَّ ما يَلْقاه، لا يتوقّى شيئاً.

وهذا الكتاب كتبه عليٌّ عليه السلام جواباً عن كتاب كتبه معاويةُ إليه في أثناء حرب صِفِّينَ بل في أواخرها، وكان كتاب معاوية:

«من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب، أما بعد، فإنّ الله تعالى يقول في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢]، وإني أحذّرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشقّ عصا هذه الأمّة وتفريق جماعتها، فاتق الله واذكر موقف القيامة، وأقلع عمّا أسرفتَ فيه من الخوض في دماء المسلمين، وإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**لو تمالأ أهلُ صَنْعاء وعَدَن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبّهم الله على مناخرهم في النار**»[٣]، فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين، بلهَ ما طَحنتْ رَحَا حربه من أهل القرآن، وذي العبادة والإيمان، من شيخ كبير، وشابٍّ غَرير، كلّهم بالله تعالى مؤمن، وله مخلص، وبرسوله مقرّ عارف! فإن كنتَ أبا حسن إنما تحارب على الإمْرة والخلافة، فَلَعَمْرِي لو صحّت خلافتك

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٣) رواه المجلسي في بحار الأنوار: ٣٣/ ٨١، والأميني في الغدير: ١٠/ ٣٥٧.

لكنتَ قريباً من أن تعذَر في حرب المسلمين، ولكنّها ما صحّت لك، أنّى بصحّتها وأهلُ الشام لم يدخلوا فيها، ولم يرتضوا بها! وخف الله وسَطَواتِه، واتّق بأسَه، ونكاله، وأغمِدْ سيفك عن الناس، فقد والله أكلتْهم الحرب، فلم يَبقَ منهم إلا كالثّمد في قَرارة الغَدِير. والله المستعان»:

فكتب عليّ عليه السلام إليه جواباً عن كتابه.

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: «أمّا بعد فقد أتتْني منك موعظةٌ موصّلة، ورسالة محبّرة، نمقّتها بضلالك، وأمضيتَها بسوء رأيك، وكتاب امرىء ليس له بَصَرٌ يَهديه، ولا قائد يُرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده الضلال فاتّبعه، فَهجَر لاغِطاً، وضلّ خابطاً، فأمّا أمرُك لي بالتقوى فأرجو أن أكونَ من أهلها، وأستعيذ بالله من أن أكونَ من الّذين إذا أمِرُوا بِها أخذتْهم العزّة بالإثم. وأمّا تحذيرُك إيّاي أن يحبَط عملي وسابقتِي في الإسلام، فَلَعمري لو كنتُ الباغيَ عليك، لكان لك أن تحذِّرَني ذلك، ولكنّي وجدت الله تعالى يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1]، فنظرنا إلى الفئتيْن، أما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها، لأن بيعتي بالمدينة لزمَتك وأنت بالشام، كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام، وكما لزمتْ يزيد أخاك بيعةُ عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام، وكما لزمتْ يزيد أخاك بيعةُ عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام. وأمّا شق عصا هذه الأمّة، فأنا أحقّ أن أنهاك عنه. فأمّا تخويفُك لي من قَتْل أهل البغي، فإن رسول الله ﷺ أمرني بقتالهم وقَتْلِهم، وقال لإصحابه: «إنّ فيكم مَنْ يقاتل عَلَى تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»[2]، وأشار إليّ وأنا أوْلَى من اتّبع أمره.

وأما قولك: إنّ بيعتي لم تصحّ لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها! كيف وإنما هي بيعة واحدة، تلزم الحاضر والغائب، لا يُثنَّى فيها النظر، ولا يستأنف فيها الخيار، الخارج منها طاعنٌ، والمرَوِّي فيها مُداهن. فاربَعْ على ظَلْعِك، وانزِعْ سِربالَ غَيّك، واترك ما لا جَدوَى له عليك، فليس لك عندي إلاّ السيف، حتى تفيء إلى أمر الله صاغراً، وتدخل في البيعة راغماً. والسلام».

الأصل: ومن هذا الكتاب: **لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لاَ يُثَنَّى فِيهَا ٱلنَّظَرُ، وَلاَ يُسْتَأْنَفُ فِيهَا ٱلْخَيَارُ، ٱلْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ.**

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٦٢١).

الشرح: لا يثنى فيها النظر، أي لا يعاود ولا يراجع ثانية. ولا يستأنف فيها الخيار: ليس بعد عقدها خيار لمن عقدها ولا لغيرهم؛ لأنها تلزم غيرالعاقدين كما تلزم العاقدين، فيسقط الخيار فيها، الخارج منها طاعن على الأمّة؛ لأنهم أجمعوا على أن الاختيار طريق الإمامة.

والمروّي فيها مداهن، أي الذي يرتئي ويبطىء عن الطاعة ويفكّر، وأصله من الرويّة. والمداهن: المنافق.

---

٨ - ومن كتاب له عليه السلام
إلى جرير بن عبد الله البَجَليّ لما أرسله إلى معاوية

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى ٱلْفَصْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ ٱلْجَزْمِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ، فَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنِ ٱخْتَارَ ٱلسِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ. وَٱلسَّلَامُ.

الشرح: قد تقدّم ذكر نَسب جرير بن عبد الله البَجَليّ.

وقوله عليه السلام: «فاحمل معاوية على الفَصْل»، أي لا تتركه متلكّئاً متردّداً، يُطْمِعُك تارة ويؤيسك أخرى، بل احمله على أمر فَيْصَلٍ، إمّا البَيْعة، أو أن يأذن بالحرب.

وكذلك قوله: «وخذه بالأمر الجزم»، أي الأمر المقطوع به، لا تكنْ ممنّ يُقدِّم رِجْلاً ويؤخّر أخرى، وأصل الجزم القطع.

وحرب مُجْلِيَة: تُجْلِي المقهورين فيها عن ديارهم، أي تُخرِجهم.

وسِلْم مخزية، أي فاضحة، وإنما جعلها مخزية لأن معاوية امتنع أولاً من البَيْعة، فإذا دخل في السِّلْم فإنما يدخل فيها بالبيعة، وإذا بايع بعد الامتناع، فقد دخل تحت الهَضْم ورَضيَ بالضَّيم، وذلك هو الخِزْي.

قوله «فانبِذ إليه» من قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[(١)] وأصله العهد والهدنة وعقد الحِلف يكون بين الرجلين أو بين القبيلتين، ثم يبدو لهما في ذلك فينتقلان إلى الحرب فينبذ أحدُهما إلى الآخر عهده، كأنه كتاب مكتوب بينهما قد نبذه أحدُهما يوم الحرب وأبطله، فاستعير ذلك للمجاهرة بالعداوة والمكاشفة، ونسخ شريعة السلام السابقة بالحرب المعاقبة لها.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَٱجْتِيَاحَ أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا ٱلْهُمُومَ، وَفَعَلُوا بِنَا ٱلأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا ٱلْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا ٱلْخَوْفَ، وَٱضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ ٱلْحَرْبِ.

فَعَزَمَ ٱللهُ لَنَا عَلَى ٱلذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَٱلرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حَوْمَتِهِ، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ ٱلأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ ٱلأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ ٱلْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ.

وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَاسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتَهُ أُخِّرَتْ.

فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لاَ يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلاَّ أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لاَ أَعْرِفُهُ، وَلاَ أَظُنُّ ٱللهَ يَعْرِفُهُ. وَٱلْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا ٱلأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلاَ إِلَى غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ، لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لاَ يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلاَ بَحْرٍ، وَلاَ جَبَلٍ وَلاَ سَهْلٍ، إِلاَّ أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لاَ يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ وَالسَّلاَمُ لِأَهْلِهِ

الشرح: قوله عليه السلام: «فأراد قومنا»، يعني قريشاً.

والاجتياح: الاستئصال، ومنه الجائحة وهي السَّنَة، أو الفتنة التي تجتاح المال أو الأنفس.

قوله: «ومنعونا العذب»، أي العيش العذب. لا أنّهم منعوهم الماء العَذْب، على أنه قد نقل أنّهم منعوا أيام الحصار في شِعْب بني هاشم من الماء العذب. وسنذكر ذلك.

قوله: «وأحلسونا الخوف»، أي ألزموناه. والحِلْس: كساء رقيق يكون تحت برذعة البعير.

وأحلاس البيوت: ما يُبسَط تحت حُرِّ الثياب، وفي الحديث: «كن حِلْس بيتك»[1]، أي لا تخالط النّاس واعتزلْ عنهم، فلما كان الحِلْس ملازماً ظهرَ البعير، وأحلاس البيوت ملازمة لها، قال: «وأحلسونا الخوف»، أي جعلوه لنا كالْحِلس الملازم.

قوله: «واضطرونا إلى جبل وعر»، مَثَل ضرَبَه عليه السلام لخشونة مُقامِهم وشَظَف منزلهم، أي كانت حالنا فيه كحال من اضطر إلى ركوب جبل وَعْر، ويجوز أن يكون حقيقة لا مثلاً؛ لأن الشّعب الذي حصروهم فيه مَضِيق بين جبلين.

قوله: «فعزم الله لنا»، أي قضى الله لنا، ووفقّنا لذلك، وجعلنا عازمين عليه.

والحوْزة: الناحية، وحوزة الملك: بَيْضته.

وحومة الماء والرمل: معظمه.

والرمي عنها: المناضلة والمحاماة، ويروى: «والرمي من وراء حرمته»، والضمير في «حوزته» و«حومته» راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سبق ذكره، وهو قوله: «نبينا» ويروى «والرّميا».

وقال الراوندي: «وهمُّوا بنا الهمومَ»، أي همُّوا نزول الهمّ بنا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. وليس ما قاله بجيّد بل «الهموم» منصوب هاهنا على المصدر، أي همّوا بنا هموماً كثيرة، وهمّوا بنا أي أرادوا نهبَنا، كقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾[2]، على تفسير أصحابنا، وإنما أدخل لام التعريف في الهموم، أي هموا بنا تلك الهموم التي تعرفونها، فأتى باللام ليكون أعظم وأكبر في الصدور من تنكيرها، أي تلك الهموم معروفة مشهورة بين الناس لتكرّر عزم المشركين في أوقات كثيرة مختلفة على الإيقاع.

وقوله: «وفعلوا بنا الأفاعيل»، يقال لمن أثروا آثاراً منكرة: فعلوا بنا الأفاعيل، وقلّ أن يقالَ ذلك في غير الضرر والأذى، ومنه قول أميّة بن خلَف لعبد الرحمن بن عوف وهو يذكر حمزة بن عبد المطلب يوم بدر: «ذاك الّذي فعل بنا الأفاعيل».

قوله: «يحامي عن الأصل»، أي يدافع عن محمد ويذبُّ عنه حميّةً ومحافظة على النسب.

قوله: «خِلْو مما نحن فيه»، أي خالٍ والحِلْف: العهد.

واحمرّ البأس، كلمة مستعارة، أي اشتدّت الحرب حتى احمرّت الأرض من الدم، فجعل البأس هو الأحمر مجازاً، كقولهم: الموت الأحمر.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال (١٥١٦٣)».
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.

قوله: «وأحجم الناس»، أي كَفُّوا عن الحرب وجَبُنوا عن الإقدام، يقال: حجمت فلاناً عن كذا أحجُمه بالضمّ فأحجم هُوَ، وهذه اللفظة من النوادر، كقولهم: «كبيته فأكبّ».

ويوم مؤتة بالهمز، ومؤتة: أرض معروفة.

وقوله: «وأرادَ مَنْ لو شئتُ لذكرت اسمَه»، يعني به نفسَه.

قوله: «إذ صرتُ يقرَنُ بي مَنْ لم يَسْعَ بقدمي» إشارة إلى معاوية في الظّاهر، وإلى مَنْ تقدّم عليه من الخلفاء في الباطن، والدليل عليه قوله: «التي لا يُدْلِي أحد بمثلها»، فأطلق القول إطلاقاً عامًّا مستغرقاً لكلّ الناس أجمعين.

ثم قال: «إلا أنْ يدّعِي مدّعٍ ما لا أعرفه، ولا أظن الله يعرفه»، أي كلّ من ادّعى خلاف ما ذكرته فهو كاذب؛ لأنه لو كان صادقاً لكان عليّ عليه السلام يعرفه لا محالة، فإذا قال عن نفسه: إنّ كل دعوة تخالف ما ذكرت فإنّي لا أعرف صحّتها، فمعناه أنها باطلة.

وقوله: «ولا أظنّ الله يعرفه»، فالظنّ هاهنا بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾(١)، وأخرج هذه الكلمة مخرج قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٢)، وليس المراد سلْب العلم بل العلم بالسلب، كذلك ليس مراده عليه السلام سَلْبَ الظّن الذي هو بمعنى العلم، بل ظن السلب، أي علم السلب، أي وأعلم أن الله سبحانه يعرف انتفاءه، وكلّ ما يعلم الله انتفاءه فليس بثابت.

وقال الراونديّ: قوله عليه السلام: «ولا أظنّ الله يعرفه»، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(٣).

والله يعلم كلَّ شيء قبل وجوده، وإنما معناه: حتّى نعلم جهادهم موجوداً، وليست هذه الكلمة من الآية بسبيل لتجعل مثالاً لها، ولكنّ الراونديّ يتكلّم بكلّ ما يخطر له من غير أن يميز ما يقول.

وتقول: أدلَى فلان بحجّته، أي احتجّ بها، وفلان مُدْلٍ برَحِمِه، أي مَتَّ بها. وأدْلَى بماله إلى الحاكم: دفعه إليه ليجعله وسيلة إلى قضاء حاجته منه، فأمّا الشّفاعة فلا يقال فيها: «أدليت»، ولكن «دلوت بفلان» أي استشفعت به، وقال عمر لمّا استسقَى بالعباس رحمه الله: «اللهمّ إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيّك وقفيّة آبائه، وكُبْر رجاله، دلوْنا به إليك مستشفعين».

قوله عليه السلام: «فلم أره يسعُني» أي لم أرَ أنه يحلّ لي دفعهم إليك. والضمير في «أرَهُ» ضمير الشأن والقصّة، و«أره» من الرأي لا من الرؤية، كقولك: لم أرَ الرّأي الفلاني.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

ونزع فلان عن كذا، أي فارقه وتركه، ينزع بالكسر، والغيّ: الجهل والضلال.

والشّقاق: الخلاف.

الوجْدان: مصدر وجدت كذا، أي أصبته. والزّوْر: الزائر.

واللُّقيان: مصدر لقيت، تقول: لقيته لقاءً ولقياناً.

ثم قال: «والسلام لأهله» لم يستجز في الدين أن يقول له: «والسلام عليك» لأنّه عنده فاسق لا يجوز إكرامه، فقال: «والسلام لأهله»، أي على أهله.

ويجب أن نتكلّم في هذا الفصل في مواضع:

منها ذكر ما جاء في السيرة من إجلاب قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله وبني هاشم وحَصْرهم في الشعب.

ومنها: الكلام في المؤمنين والكافرين من بني هاشم الّذين كانوا في الشّعْب محصورين معه صلى الله عليه وآله مَنْ هم. ومنها: شرح قصّة بدر. ومنها: شرح غزاة أُحُد. ومنها: شرح غزاة مُؤْتة.

قريش وبنو هاشم

فأما الكلام في الفصل الأول فنذكر منه ما ذكره محمد بن إسحاق بن يَسار في كتاب «السيرة» والمغازي، فإنه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرّخين، ومصنّفه شيخ الناس كلهم.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: لم يسبق عليًّا عليه السلام إلى الإيمان بالله ورسالة محمد صلى الله عليه وآله أحدٌ من الناس، اللّهمّ إلاّ أن تكون خديجة زوجةُ رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: وقد كان صلى الله عليه وآله يخرج ومعه عليّ مستخفين من الناس، فيصلّيان الصلواتِ في بعض شِعاب مكة، فإذا أمسيا رَجعا فمكثا بذلك ما شاء الله أن يمكثا، لا ثالث لهما. ثم إنّ أبا طالب عَثَر عليهما يوماً وهما يصلّيان، فقال لمحمد صلى الله عليه وآله: يابن أخي، ما هذا الذي تفعله! فقال: «أيْ عمّ، هذا دين الله ودين ملائكته ورسله، ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال عليه السلام - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عمّ أحقُّ من بذلتُ له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحقّ مَنْ أجابني إليه، وأعانني عليه». أو كما قال. فقال أبو طالب: إني لا أستطيع يابن أخي أنْ أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلُص إليك شيء تكرهه ما بقيتُ. فزعموا أنه قال لعليّ: أيْ بنيّ، ما هذا الذي تصنع؟ قال: يا أبتاه، آمنتُ بالله ورسوله وصدّقتُه فيما جاء به، وصلّيتُ إليه، واتبعت قول نبيّه. فزعموا أنّه قال له: أما إنه لا يدعوك - أو لن يدعوَك - إلاّ إلى خير، فالزمه.

قال ابن إسحاق: ثم أسلَم زيدُ بن حارثة مولَى رسول الله صلى الله عليه وآله، فكانَ أوّلَ مَنْ أسلَم، وصلّى معه بعد عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ثم أسلم أبو بكر بن أبي قُحافة، فكان ثالثاً لهما، ثم أسلم عثمان بن عفان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن، وسعد بن وقّاص، فصاروا ثمانية، فهم الثمانية الذين سَبَقوا النّاس إلى الإسلام بمكّة، ثم أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو سلمةَ بن عبد الأسد وأرقم بن أبي أرقم، ثم انتشر الإسلام بمكّة، وفشا ذكره، وتحدّث النّاس به، وأمر الله رسولَه أن يصدَع بما أمر به، فكانت مدّة إخفاء رسول الله ﷺ نفسه وشأنه إلى أن أمر بإظهار الدين ثلاث سنين - فيما بلغني.

قال محمد بن إسحاق: ولم تكن قريش تنكِر أمرَه حينئذ كلّ الإنكار، حتّى ذكر آلهتهم وعابَها، فأعظموا ذلك وأنكروه، وأجمعوا على عداوته وخلافه، وحدب عليه عمُّه أبو طالب فمنَعه، وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لا يردّه عنه شيء. قال: فلما رأتْ قريش محامَاةَ أبي طالب عنه وقيامَه دونه، وامتناعَه من أن يسلمه، مشى إليه رجالٌ من أشراف قريش، منهم عُتْبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وأبو سفيان بن حَرْب، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطّلب، والوليد بن المُغيرة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعاص بن وائل، ونبيه ومنّبه ابنا الحجاج، وأمثالهم من رؤساء قريش. فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابنَ أخِيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامَنا، وضلّل آراءنا، فإمّا أنْ تكفَّه عنّا، وإمّا أن تُخلّيَ بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم ردًا جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ عَلَى ما هو عليه، يظهرُ دينَ الله، ويدعو إليه، ثم شرَّق الأمرُ بينه وبينهم، تباعداً وتضاغنا، حتى أكثرت قريش ذكرَ رسول الله ﷺ بينها، وتذامروا فيه، وحضَّ بعضُهم بعضاً عليه، فمشوْا إلى أبي طالب مرةً ثانية، فقالوا: يا أبا طالب، إنّ لك سنًّا وشرَفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنْهيناك من ابن أخيك فلم تنهَه عنّا، وإنا والله لا نصْبر على شتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيْب آلهتنا، فإمّا أن تكفَّه عنّا أو ننازله وإيّاك حتى يهلك أحدُ الفريقين. ثم انصرفوا، فعظُم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم تطِبْ نفسه بإسلام ابن أخيه وخذلانه، فبعث إليه فقال: يابنَ أخي، إنّ قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا - للّذي قالوا - فأبق عليّ وعَلَى نفسِك، ولا تحمّلْني من الأمر ما لا أطيقه. قال: فظنَّ رسول الله ﷺ أنّه قد بدا لعمّه فيه بَداء، وأنّه خاذله ومسلِمه، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام دونه، فقال: يا عمّ، والله لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في شِمالي على أنْ أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلِك. ثم استعبر باكياً وقام، فلما ولّى ناداه أبو طالب: أقبل يابن أخي، فأقبَل راجعاً، فقال له: اذهب يابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

قال ابن إسحاق: وقال أبو طالب يذكر ما أجمعت عليه قريش من حَرْبه لمّا قام بنصر محمد ﷺ:

والله لـنْ يَصِلُوا إليك بجمعهمْ حتى أُوَسَّدَ في التُّراب دفِينَا
فانفُذ لأمرك ما عليك مخافةٌ وابشر وقرّ بذاك منه عيونا
ودعوتَنِي وزعمت أنّك ناصحي ولقد صدقت وكُنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنّه من خيرِ أديان البرّية دِينَا
لولا الملامَةُ أو حذاري سُبّةً لوجدتَني سَمحاً بذاك مبينا

قال محمد بن إسحاق: ثم إنّ قريشاً حين عرفت أنّ أبا طالب قد أبى خِذلان رسول الله ﷺ وإسلامه إليهم ورأوْا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم، مشوْا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة المخزوميّ - وكان أجمل فتًى في قريش - فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد، أَبهى فتًى في قُرَيش وأجمله، فخذه إليك، فاتخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا هذا ابن أخيك الذي قد خالف دينَك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك لنقتله، فإنّما هو رجلٌ برجل. فقال أبو طالب! والله ما أنصفتُوني! تعطوني ابنَكم أغذُوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعِم بن عديّ بن نوفل - وكان له صديقاً مصافِياً - والله يا أبا طالب ما أراك تريدُ أن تقبل من قومك شيئاً! لعمري قد جهدوا في التخلص ممّا تكره وأراك لا تُنصفهم! فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولا أنصفْتني، ولكنّك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم عليّ! فاصنع ما بدا لك!

قال: فعند ذلك تنابذَ القوم وصارت الأحقاد، ونادى بعضهم بعضاً، وتذامروا بينهم على مَن في القبائل من المسلمين الذين اتبعوا محمداً ﷺ. فوثبت كلّ قبيلة عَلَى منْ فيها منهم، يعذّبُونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنعَ الله رسوله منهم بعمّه أبي طالب، وقام في بني هاشم وبني عبد المطلب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع، فدعاهم إلى ما هو عليه من مَنْع رسول الله ﷺ، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الدّفاع عن رسول الله ﷺ إلاّ ما كان من أبي لهب، فإنه لم يجتمع معهم على ذلك، فكان أبو طالب يرسل إليه الأشعار، ويناشده النصر، منها القطعة التي أولها:

حديثٌ عن أبي لَهَبٍ أتانا وكانَفَهُ على ذَاكُمْ رجالُ

ومنها القطعة التي أولها:

أظننت عَنّي قد خذلت وغالنِي منك الغوائلُ بعد شيب المكبرِ

ومنها القطعة التي أولها:

تستعرض الأقوام توسِعهمْ عُذْراً وما إن قلتَ مِن عُذرِ

قال محمد بن إسحاق: فلم يؤثَر عن أبي لهب خير قطّ إلا ما يروي أنّ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ، لمّا وثب عليه قومه ليعذّبوه ويفتنوه عن الإسلام هرب منهم، فاستجار بأبي

طالب، وأمّ أبي طالب مخزوميّة، وهي أمّ عبد الله والد رسول الله ﷺ فأجاره، فمشى إليه رجالٌ من بني مخزوم وقالوا له: يا أبا طالب، هَبْكَ منعتَ منّا ابنَ أخيك محمّداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منّا! قال: إنّه استجار بي وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابنَ أختي لم أمنع ابنَ أخي، فارتفعت أصواتهم وأصواته، فقام أبو لهب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها، فقال: يا معشرَ قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، لا تزالون تتوثّبون عليه في جواره من بين قومه! أمَا والله لتنتهُنّ عنه أو لنقومنّ معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أراد. فقالوا: بل ننصرف عمّا تكره أيا أبا عُتْبة. فقاموا فانصرفوا، وكان وليًّا لهم ومعيناً على رسول الله ﷺ وأبي طالب، فاتّقوه وخافوا أن تحمله الحميّة على الإسلام، فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ما قال، وأمّل أن يقوم معه في نُصرة رسول الله ﷺ، فقال يحرّضه على ذلك:

وإنّ امـرأً أبـو عُـتَـيـبـة عَـمُّـه ... لَفِي مَعْزِلٍ من أن يُسام المظالِمَا
ولا تقبلنّ الدّهرَ ما عشتَ خطّةً ... تُسبّ بها إمّا هبطتَ المواسمَا
أقول له وأين مِنْهُ نصيحتي ... أبا عُتْبَة ثَبّتْ سوادَك قائما
وولّ سبيل العجز غيرك منهمُ ... فإنّك لم تخْلَقْ على العجزِ لازما
وحاربْ فإنّ الحربّ نصف ولن تَرى ... أخا الحرب يُعطي الخسف حتى يُسَالما
كذبتم وبيت الله نُبْزَاً محمداً ... ولمّا تروْا يوماً من الشِّعْب قائما[1]

وقال يخاطب أبا لهب أيضاً:

عَجِبتُ لحلمٍ يا بن شيبة عازبٍ ... وأحلام أقوامٍ لديك سِخَافِ
يقولون شايعْ مَنْ أراد محمّداً ... بظلم وقُمْ في أمرِه بخلافِ
أضاميمُ[2] إما حاسد ذو خيانة ... وإما قريب عنك غير مصاف
فلا تركبنّ الدهر منه ذِمامةً ... وأنت امرؤٌ من خير عبد مناف
ولا تتركنْه ما حييتَ لمعظِم ... وكنْ رَجُلاً ذا نجدةٍ وَعَفافِ
يذودُ العدا عن ذروةٍ هاشميَّةٍ ... إلافُهُمْ في النّاس خيرُ إلافِ
فإنّ له قُربى لديكَ قريبةً ... وليس بذي حِلْفٍ ولا بمُضافِ
ولكنّه من هاشمٍ ذي صميمها ... إلى أبحرٍ فوق البُحور طوافِ
وزاحمْ جميع الناس عنه وكنْ له ... وزيراً على الأعداء غير مُجافِ

(١) نُبْزَى محمداً: نسلب كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢١٧).
(٢) الأضاميم: جماعات الخيل. استعير هنا لجماعات المشركين. القاموس، مادة (ضمم).

وإن غضبت منه قريشٌ فقلْ لها … بني عمّنا ما قومُكُمْ بضعافِ
وما بالُكمْ تَغْشَوْنَ منه ظُلامَةً … وما بالُ أحقادٍ هناك خوافِي
فما قومُنا بالقوم يخشَوْن ظلمنَا … وما نحنُ فيما ساءهم بخِفافِ
ولكنّنا أهل الحفائظ والنّهى … وعزٌّ ببطحاء المشاعر وافِ

قال محمد بن إسحاق: فلمّا طال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب، وارتدّ كثير عن الدين باللسان لا بالقلب، كانوا إذا عذّبوهم يقولون: نشهد أنّ هذا الله، وأن اللّات والعُزّى هي الآلهة، فإذا خلوْا عنهم عادوا إلى الإسلام، فحبسوهم وأوثقوهم بالقِدّ. وجعلوهم في حرّ الشّمس على الصّخر والصّفا، وامتدّت أيّام الشقاء عليهم ولم يَصِلوا إلى محمّد ﷺ لقيام أبي طالب دونه، فأجمعت قريش على أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم صحيفةً يتعاقدون فيها ألاّ يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، فكتبوها وعلّقوها في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم، وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ. فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطّلب، فدخلوا كلّهم مع أبي طالب في الشّعب، فاجتمعوا إليه، وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهرها على قومه.

قال محمد بن إسحاق: فضاق الأمر ببني هاشم وعدموا القوت، إلاّ ما كان يحمل إليهم سرًّا وخفية، وهو شيء قليل لا يُمْسِك أرماقهم، وأخافتْهم قريش، فلم يكن يظهر منهم أحدٌ، ولا يدخل إليهم أحد، وذلك أشدّ ما لقِيَ رسول الله ﷺ وأهل بيته بمكة.

قال محمد بن إسحاق: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ألاّ يصل إليهم شيء إلا القليل سرًّا ممّن يريد صلَتهم من قريش، وقد كان أبو جهل بن هشام لقي حَكِيم بن حزام بن خُويلد بن أسَد بن عبد العُزّى، معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجة بنت خويلد - وهي عند رسول الله محاصَرة في الشّعب - فتعلّق به، وقال: أتحمل الطّعام إلى بني هاشم! والله لا تبرح أنت وطعامُك حتى أفضحك بمكة! فجاءه أبو البختريّ العاص بن هشام بن الحارث بن أسَد بن عبد العُزّى، فقال: ما لك وله! قال: إنه يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال أبو البختريّ: يا هذا، إنّ طعاماً كان لعمته عنده بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيهَا بطعامها! خلّ سبيل الرّجل، فأبى أبو جهل حتى نال كلٌّ منهما مِنْ صاحبه، فأخذ له أبو البختريّ لَحْيَ بعيرٍ فضربه به فشجّه ووطئه وطأً شديداً.

فانصرف وهو يكره أنْ يعلم رسول الله ﷺ وبنو هاشم بذلك، فيشتموا، فلما أراد الله تعالى من إبطال الصّحِيفة، والفَرَج عن بني هاشم من الضّيق والأزْل الذي كانوا فيه، قام هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤيّ في ذلك أحسن قيام، وذلك أنّ أباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضْلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ

من أمه، فكان هشام بن عمرو يحسب لذلك واصلاً ببني هاشم، وكان ذا شرفٍ في قومه بني عامر بن لؤي، فكان يأتي بالبعير ليلاً وقد أوْقره طعاماً، وبنو هاشم وبنو المطّلب في الشّعب، حتى إذا أقبل به فم الشّعب فمنع بخطامه من رأسه، ثم يضربه علَى جَنْبه، فيدخل الشّعب عليهم ثم يأتي به مرّة أخرى، وقد أوقره تمراً، فيصنع به مثل ذلك.

ثم أنّه مشى إلى زُهير بن أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّ، فقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وتلبس الثيّاب، وتنكح النّساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، ولا يواصلون ولا يزارون! أما إنّي أحلف لو كان أخوالك أبو الحكم بن هشام ودعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك أبداً. قال: ويحكَ يا هشام! فماذا أصنع! إنّما أنا رجلٌ واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمتُ في نقض هذه الصحيفة القاطعة. قال: قد وجدت رجلاً، قال: مَنْ هو؟ قال: أنا، قال زهير: ابغنا ثالثاً، فذهب إلى المطعِم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعِم، أرضِيت أن يهلك بطنان من عبد مناف جوعاً وجَهْداً وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنّ قريشاً إلى مساءتكم في غيره سريعة. قال: ويحك! ماذا أصنع! إنما أنا رجل واحد، قال قد وجدتُ ثانياً، قال: مَنْ هو؟ قال: أنا، قال: ابغني ثالثاً، قال: قد وجدت، قال: مَنْ هو؟ قال: زهير بن أميّة، قال أنا، قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختريّ بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعِم، قال: وهل مِنْ أحدٍ يعين على هذا؟ قال: نعم وذكرهم، قال: فابغنا خامساً، فمضى إلى زَمْعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلّمه، فقال: وهل يعين على ذلك من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى له القوم، فاتّعدُوا خَطْم الحَجُون ليلاً بأعلى مكة، فأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم وأكون أوّلكم يتكلّم، فلمّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أميّة، عليه حلّة له. فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكّة، أنأكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب وبنو هاشم هَلْكى! والله لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!

وكان أبو جهل في ناحية المسجد، فقال: كذبت والله لا تشقّ! فقال زمعة بن الأسود لأبي جهل: والله أنتَ أكذب، ما رضينا والله بها حين كُتِبتْ. فقال أبو البختريّ معه: صدق والله زَمْعة، لا نرضى بها ولا نقرّ بما كتب فيها! فقال المطعِم بن عديّ: صَدَقا والله، وكذب مَنْ قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها وممّا كتب فيها. وقال هشام بن عمرو مثل قولهم، فقال أبو جهل: هذا أمر قضِيَ بليل، وقام معطِم بن عديّ إلى الصحيفة فحطّها وشقّها، فوجد الأرَضة قد أكلتْها، إلا ما كان من «باسمك اللهم» قالوا: وأمّا كاتبها منصور بن عكرمة فشلّت يده فيما يذكرون. فلمّا مزّقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشّعب.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمرًّا على نصر رسول الله صلى الله عليه وآله وحمايته والقيام دونه، حتى مات في أوّل السنة الحادية العشرة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله فطمعت فيه قريش حينئذ، ونالت منه، فخرج عن مكّة خائفاً يطلُب أحياء العرب، يعرض عليهم نفسَه، فلم يزل كذلك حتى دخل مكة في جوار المطعِم بن عديّ، ثم كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة[١].

قال: ومن شعر أبي طالب الذي يذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وقيامه دونه:

أرقتَ وقدْ تَصوَّبَتِ النُّجُومُ ... وبتّ ولا تسالمُك الهمومُ
لِظُلمِ عشيرةٍ ظلموا وعَقُّوا ... وغبّ عقوقهم لهمُ وخيمُ
همُ انتهَكوا المحارمَ من أخيهمْ ... وكلّ فعالهم دَنسٌ ذميمُ
وراموا خطّة جوراً وظُلماً ... وبعضُ القول ذو جَنَفٍ مُليمُ
لتخرِجَ هاشماً فتكونَ منها ... بلاقعَ بطنُ مكّة فالحَطِيمُ
فمهلاً قومنا لا تركبونَا ... بمظلمة لها خَطْبٌ جَسِيمُ!
فيندمَ بعضُكم ويذِلَّ بعضٌ ... وليس بمفلحٍ أبداً ظَلُومُ
أرادوا قتل أحمدَ زاعِميه ... وليس بقتلهِ منهمْ زَعِيمُ
وَدُونَ مُحَمَّدٍ منّا نديٌّ ... همُ العرنين والعُضْوُ الصَّمِيمُ

ومن ذلك قوله:

وقالوا لأحمدَ أنت امرُؤٌ ... خَلُوفُ الحديثِ، ضَعيفُ السَّبَبْ
وإن كان أحمدُ قد جاءهُمْ ... بصدقٍ ولم يأتِهِمْ بالكَذِبْ
فإنّا ومَنْ حَجَّ مِنْ رَاكِبٍ ... وكعبة مكّة ذات الحُجُبْ
تنالون أحمدَ أو تصطلَوا ... ظُبَاةَ الرِّمَاحِ وحَدَّ القُضُبْ
وتغترفوا بين أبياتِكُمْ ... صُدورَ العوالِي وخَيْلاً شُزُبْ
تراهنّ من بين ضَافِي السَّبِيبِ ... قصير الحِزَام طويل اللُّبَبْ
عليها صناديدُ مِنْ هَاشِمٍ ... همُ الأنجبُون مع المنتجَبْ

وروى عبد الله بن مسعود، قال: لمّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من قَتْلى بدر، وأمر بطرحِهِم في القَلِيب، جعل يتذكّر من شعر أبي طالب بيتاً فلا يحضرهُ، فقال له أبو بكر: لعلّه قولُه يا رسول الله:

---

(١) أنظر مناقب أهل البيت عليهم السلام لحيدر الشيرواني: ٥٨.

وإنّا لعمرُ الله إنْ جَدَّ جَدُّنا ... لتلتبسنْ أسيافُنا بالأماثل

فسُرّ بظفره بالبيت، وقال: إي لعمر الله، لقد التبست. ومن شعر أبي طالب قوله:

ألا أبلِغا عَنّي لُؤيًّا رِسالةً ... بحقٍّ وما تغنِي رسالةُ مرسلِ

بني عَمِّنَا الأدْنَيْن فيما يخصُّهُمْ ... وإخواننا من عبدِ شمس ونوفلِ

أظاهرتُمُ قوماً علينا سَفَاهَةً ... وأمرا غَويًّا من غُواةٍ وَجُهَّلِ

يقولون لو أنّا قَتَلْنَا مُحَمَّداً ... أقرّتْ نواصِي هاشم بالتذلُّلِ

كذبتم وربِّ الهَدْيِ تَدمَى نحورُه ... بمكّة، والبيتِ العتيقِ المُقَبَّلِ

تنالونَهُ، أو تصطلوا دونَ نَيْلِهِ ... صوارمَ تَفرِي كلَّ عُضْوِ ومفصِلِ

فمهلاً ولمّا تنتج الحربُ بكْرَها ... بخيلٍ تمام، أو بآخر مُعْجِلِ

وتلقوْا بيع الأبطحين محمّداً ... على رَبوةٍ في رأس عَنْقَاء عَيْطَلِ[1]

وتأوِي إليه هاشمٌ، إن هاشماً ... عَرانين كعبٍ آخرٌ بَعْدَ أوّلِ

فإن كنتمُ ترجون قتلَ محمّدٍ ... فرُوموا بما جَمَّعتُمُ نَقْلَ يَذْبُلِ

فإنّا سنحميه بكُلِّ طِمِرَّةٍ ... وذي مَيْعةٍ نَهْدِ المراكِل هَيْكَلِ

وكلّ رُدَيْنِيّ ظِماءٍ كعوبُه ... وعضب كإيماض الغَمَامة مِفْصَلِ

قلت: كان صديقنا عليّ بن يحيى البطريق رحمه الله، يقول: لولا خاصّ النبوّة وسرّها لما كان مثلُ أبي طالب – وهو شيخ قريش ورئيسُها وذو شرفها – يمدح ابنَ أخيه محمداً، وهو شابٌّ قد رُبِّيَ في حِجْره وهو يتيمه ومكفوله، وجارٍ مجرَى أولادِه بمثل قوله:

وتلقوا رَبيعَ الأبطحين محمّداً ... على رَبْوةٍ في رأسِ عَنْقاء عَيْطَلِ

وتأوي إليه هاشم، إنّ هاشماً ... عرانين كعبٍ آخرٌ بعدَ أوّلِ

ومثل قوله:

وأبيَضَ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهِهِ ... ثِمَالُ اليتامَى عِصْمَةٌ للأرامِلِ

يُطِيف به الهُلاّكُ من آل هاشم ... فهم عنده في نعمةٍ وفواضلِ

فإن هذا الأسلوب من الشعر لا يمدح به التّابع والذُّنَابي من الناس، وإنما هو من مديح الملوك والعظماء، فإذا تصوّرت أنه شعر أبي طالب، ذاك الشيخ المبجّل العظيم في محمد ﷺ، وهو شابٌّ مستجير به، معتصم بظلّه من قريش، قد ربّاه في حِجْره غُلاماً، وعلى عاتقه طفلاً، وبين يديه

---

(١) العيطل: الطويلة العنق في حسن جسم، القاموس، مادة (عطل).

شابًا، يأكل من زاده، ويأوي إلى داره، علمت موضع خاصيّة النبوّة وسرّها، وأن أمره كان عظيماً، وأنّ الله تعالى أوقع في القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً.

وقرأت في «أمالي أبي جعفر محمد بن حبيب» رحمه الله[1]، قال: كان أبو طالب إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أحياناً يبكي ويقول: إذا رأيتُه ذكرت أخي، وكان عبد الله أخاه لأبويْه، وكان شديد الحُبّ والحنوّ عليه، وكذلك كان عبدُ المطلب شديدَ الحبّ له، وكان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله صلى الله عليه وآله البيات إذا عرف مضجعه، يقيمُه ليلاً من منامه، ويُضجِع ابنَه عليًا مكانه، فقال له عليٌّ ليلة: يا أبت، إنّي مقتول، فقال له:

اصبرنْ يا بُنيّ فالصبر أحْجَى ... كلّ حيٍّ مصيرُه لِشَعُوبِ
قدّر الله والبلاء شديدٌ ... لفداءِ الحبيب وابن الحبيبِ
لفِدَاءِ الأغرّ ذي الحسَب الثّا ... قب والباعِ والكريم النجيبِ
إن تصبْك المنون فالنّبل تَبْري ... فمصيبٌ منها، وغيرُ مصيبِ
كلُّ حيّ وإن تملَّى بعمرٍ ... آخذٌ من مَذَاقِها بنصيبِ

فأجاب عليٌّ عليه السلام، فقال له:

أتأمرني بالصَّبْرِ في نصرِ أحمدٍ ... ووالله ما قلت الّذي قلت جازعا
ولكنّني أحببتُ أن تَرَى نُصْرَتِي ... وتعلم أني لم أزلْ لك طائعَا
سأسعَى لوجه الله في نَصْرِ أحمدٍ ... نبيّ الهُدَى المحمود طِفْلاً ويَافِعَا

الفصل الثاني: في تفسير قوله عليه السلام «مؤمننا يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يحامي عن الأصل، ومن أسلم من قريش خلوٌ ممّا نحن فيه لحلف يمنعُه، أو عشيرة تقوم دونه فهم من القتل بمكان أمن»، فنقول: إنّ بني هاشم لما حُصِروا في الشّعب بعد أن مَنَعُوا رسول الله صلى الله عليه وآله من قُريش، كانوا صِنْفين: مسلمين وكفاراً، فكان عليٌّ عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمَيْن.

واختلف في جعفر بن أبي طالب: هل حُصِر في الشّعب معهم أم لا؟ فقيل: حُصِر في الشّعب معهم، وقيل: بل كان قد هاجر إلى الحبشة، ولم يشهد حِصَار الشّعب، وهذا هو القول الأصحّ. وكان من المسلمين المحصورين في الشّعب مع بني هاشم عُبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف، وهو وإن لم يكن من بني هاشم إلاّ أنه يجري مجراهم؛ لأن بني المطّلب وبني هاشم كانوا يداً واحدة، لم يفترقوا في جاهليّة ولا إسلام.

---

(١) أنظر الغدير لم أعثر عليه. لم أعثر عليه للأميني: ٧/ ٣٥٧.

وكان العبّاس رحمه الله في حِصَار الشِّعب معهم إلاّ أنّه كان على دين قومه، وكذلك عَقِيل بن أبي طالب، وطالب بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وكان شديداً على رسول الله ﷺ، يُبغضه ويَهْجوه بالأشعار، إلاّ أنه كان لا يرضى بقتله، ولا يقارّ قريشاً في دمه، محافظة على النسب - وكان سَيّد المحصورين في الشّعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطلب، وهو الكافل والمحامي.

واختلف الناس في إيمان أبي طالب، فقالت الإمامية وأكثر الزّيدية: ما مات إلاّ مسلماً.

وقال بعض شيوخنا المعتزلة بذلك، منهم الشيخ أبو القاسم البلخيّ وأبو جعفر الإسكافيّ وغيرهما.

وقال أكثر الناس من أهل الحديث والعامّة من شيوخنا البصريين وغيرهم: مات على دين قومه ويروُون في ذلك حديثاً مشهوراً، أنّ رسول الله ﷺ قال له عند موته: «**قُلْ يا عمّ كلمةً أشهد لك بها غداً عند الله تعالى**»[1]، فقال: لولا أن تقول العرب: إنّ أبا طالب جَزِع عند الموت لأقررت بها عينَك.

وروي أنّه قال: أنا على دين الأشياخ[2].

وقيل إنّه قال: أنا على دين عبد المطلب[3]. وقيل غير ذلك.

وروى كثير من المحدّثين أنّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[4] الآية، أنزلت في أبي طالب، لأنّ رسول الله استغفر له بعد موته.

ورووْا أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[5] نزلت في أبي طالب.

---

(١) أخرج البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله (١٣٦٠)، ومسلم، في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت. (٢٤)، والنسائي، كتاب: الجنائز، باب: النهي عن الاستغفار للمشركين (٢٠٣٥).

(٢) أنظر تفسير ابن كثير: ٣١.

(٣) انظر أنساب الأشراف للبلاذري: ٢٤، وبحار الأنوار: ٣٥/ ١٥٥.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ١١٣، ١١٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥٦.

ورووا أنّ علياً عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، فقال له: إنّ عمك الضال قد قَضى، فما الّذي تأمرني فيه؟

واحتجُوا بأنه لم يَنْقُل أحدٌ عنه أنه رآه يصلّي، والصلاة هي المفرِّقة بين المسلم والكافر[(١)]، وأنّ علياً وجعفراً لم يأخذا من تركته شيئاً، ورووا عن النبيّ ﷺ أنه قال **«إنّ الله قد وعدني بتخفيف عذابه لِمَا صنَع في حقي، وإنّه في ضَحْضاح من نار»**[(٢)].

ورووا عنه أيضاً أنّه قيل له: لو استغفرتَ لأبيك وأمّك! فقال: «لو استغفرتَ لهما لاستغفرتُ لأبي طالب، فإنه صنع إليّ ما لم يصنعا، وإنّ عبد الله وآمنة وأبا طالب جمراتٌ من جمرات جهنّم»[(٣)].

فأما الّذين زعموا أنه كان مسلماً، فقد روَوْا خلاف ذلك، وأسندوا خبراً إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال لي جبرائيل: إن الله مشفّعك في ستّة: بطنٍ حملتْك، آمنة بنت وهب، وصُلْب أنزلك، عبد الله بن عبد المطلب، وحِجْر كَفَلك، أبي طالب، وبيتٍ آواك، عبد المطلب، وأخ كان لك في الجاهلية - قيل: يا رسولَ الله، وما كان فعله؟ قال: كان سخيًّا يطعم الطعام، ويجود بالنّوال - وثَدْي أرضعتْك، حليمة بنت أبي ذؤيب»**[(٤)].

قلت: سألتُ النّقيب أبا جعفر يحيى بن أبي زيد عن هذا الخبر، وقد قرأتُه عليه: هل كان لرسول الله ﷺ أخٌ من أبيه أو من أمّه أو منهما في الجاهليّة، فقال: لا، إنما يعني أخاً له في المودّة والصحبة، قلت له: فمن هو؟ قال: لا أدري.

قالوا: وقد نقل النّاس كافّة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«نُقِلْنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكيّة»**[(٥)]. فوجب بهذا أن يكون آباؤه كلُّهم منزَّهين عن الشِّرْك، لأنهم لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهرين.

---

(١) سيأتي الجواب من المصنف عن ذلك.

(٢) أخرج البخاري نحوه، كتاب: المناقب، باب: قصة أبي طالب (٣٨٨٣)، ومسلم، في كتاب: الإيمان، باب: شفاعة النبي لأبي طالب (٢٠٩)، وأحمد، كتاب: مسند بني هاشم، باب: حديث العباس (١٧٦٦).

(٣) لم أجده.

(٤) أنظر كتاب أبو طالب حامي الرسول للعسكري: ٢٠٥، ذكر نحوه ابن حجر في «لسان الميزان» (٨٧٧).

(٥) رواه المجلسي في بحار الأنوار: ٣٥/ ١٥٦.

قالوا: وأمّا ما ذكر في القرآن من إبراهيم وأبيه آزر، وكونه كان ضالاً مشركاً، فلا يقدح في مذهبنا؛ لأنّ آزر كان عمّ إبراهيم، فأما أبوه فتارخ بن ناحور، وسُمّيَ العمُّ أبا، كما قال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾(١)، ثم عدّ فيهم إسماعيل وليس من آبائه، ولكنّه عمّه.

قلت: وهذا الاحتجَاج عندي ضعيف؛ لأن المراد من قوله ﷺ: «**نُقِلْنا من الأصلاب الطّاهرة إلى الأرحام الزكيّة**» تنزيه آبائه وأجداده وأمهاته عن السِّفاح لا غير، هذا مقتضى سياقة الكلام؛ لأنّ العرب كان يعيبُ بعضها بعضاً باختلاط المياه واشتباه الأنساب ونكاح الشبهة.

وقولهم: لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهرين، يقال لهم: لم قلتم: إنهم لو كانوا عبَدة أصنام لما كانوا طاهري الأصلاب! فإنه لا منافاةَ بين طهارة الأصلاب وعبادة الصنم، ألا تَرَى أنّه لو أراد ما زعموه لما ذكر الأصلاب والأرحام، بل جعل عوَضها العقائد. واعتذارُهم عن إبراهيم وأبيه يقدح في قولهم في أبي طالب؛ لأنه لم يكن أبا محمد ﷺ، بل كان عمّه، فإذا جاز عنهم أن يكون العمّ - وهو آزر - مشركاً كما قد اقترحوه في تأويلهم، لم يكن لهم حُجّة من هذا الوجه على إسلام أبي طالب.

واحتجُوا في إسلام الآباء بما روي عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: يبعث الله عبدَ المطلّب يوم القِيامة وعليه سِيما الأنبياء وبهاء الملوك.

وروي أنّ العبّاس بن عبد المطلب قال لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا رسولَ الله، ما ترجو لأبي طالب؟ فقال: «**أرجو له كلّ خير من الله عزّ وجلّ**»(٢).

وروي أنّ رجلاً من رجال الشّيعة، وهو أبان بن محمود كتب إلى عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام: جُعلتُ فداك! إني قد شككتُ في إسلام أبي طالب! فكتب إليه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) الآية، وبعدها إنك إن لم تقرّ بإيمان أبي طالب كان مصيرُك إلى النار(٤).

وقد روي عن عليّ بن محمد الباقر عليه السلام أنه سئل عمّا يقوله الناس: إنّ أبا طالب في ضَحْضاح من نار، فقال: لو وضع إيمان أبي طالب في كفّة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.
(٢) رواه المجلسي في البحار: ٣٥/ ١٥٦، وأنظر كتاب إيمان أبي طالب للشيخ المفيد: ٢٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.
(٤) أنظر بحار الأنوار: ٣٥/ ١١٠، والغدير: ٧/ ٣٨١.

الأخرى لرجح إيمانه. ثم قال: ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يأمر أن يحَجّ عن عبد الله وأبيه أبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيته بالحجّ عنهم[1]!

وروي أنّ أبا بكر جاء بأبي قُحافة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله عامَ الفتح يقوده، وهو شيخ كبير أعمى، فقال رسول الله: ألا تركت الشيْخ حتى نأتَيه! فقال: أردتُ يا رسول الله أن يأجره الله! أما والّذي بعثك بالحقّ لأنا كنت أشدّ فرحاً بإسلام عمّك أبي طالب منّي بإسلام أبي، ألتمس بذلك قُرّة عينك، فقال: صدقت[2].

ورويَ أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام سئِل عن هذا، فقال: واعجبا! إن الله تعالى نَهَى رسوله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السَّابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحتَ أبي طالب حتى مات[3].

ويَروِي قوم من الزيدية أنّ أبا طالب أسند المحدّثون عنه حديثاً ينتهي إلى أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: سمعتُ أبا طالب يقول بمكة: حدّثني محمد بن أخي أنّ ربّه بعثه بصلَة الرّحم، وأن يعبدَه وحده لا يعبد معه غيره، ومحمد عندي الصادق الأمين[4].

وقال قوم: إن قولَ النبيّ صلى الله عليه وآله: «**أنا وكافلُ اليتيم كهاتين في الجنة**»[5] إنما عنى به أبا طالب[6].

وقالت الإماميّة: إن ما يرويه العامّة من أنّ علياً عليه السلام وجعفراً لم يأخذا من تركة أبي طالب شيئاً حديث موضوع، ومذهب أهلِ البيت بخلاف ذلك، فإن المسلِم عندهم يرثُ الكافر، ولا يرثُ الكافرُ المسلم، ولو كان أعلى درجة منه في النسب.

قالوا: وقوله صلى الله عليه وآله: «لا توارث بين أهل ملّتين»[7]، نقول بموجبه، لأنّ التوارث تفاعل،

---

(١) أنظر مناقب أهل البيت للمولى حيدر الشيرواني: ٥١.

(٢) أنظر بحار الانوار: ٣٥/ ١١٤، وكتاب أبو طالب حامي الرسول للعسكري: ١٨١!.

(٣) رواه النعماني في شرح الأخبار: ٣/ ٢٢١، والأميني في الغدير: ٧/ ٣٨٠.

(٤) رواه الكراجكي في كنز الفوائد: ٨١، وابن حجر في الإصابة: ٧/ ١٩٨.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة اليتيم (١٩١٨)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: من ضم اليتيم (٥١٥٠)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث أبي مالك (٢٢٣١٣).

(٦) رواه علي بن يونس في الصراط المستقيم: ١/ ٣٣٦.

(٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الفرائض، باب: لا يتوارث أهل ملتين (٢١٠٨)، وأبو داود، كتاب: الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر (٢٩١١)، وابن ماجه، كتاب: الفرائض، باب: ميراث أهل الإسلام (٢٧٣١)، بلفظ: لا يتوارث أهل ملتين.

ولا تفاعل عندنا في ميراثهما، واللفظ يستدعِي الطّرَفين، كالتضارب لا يكون إلاّ من اثنين، قالوا: وحُبُّ رسول الله ﷺ لأبي طالب معلوم مشهور، ولو كان كافراً ما جاز له حبّه، لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[١] الآية[٢].

قالوا: وقد اشتهر واستفاض الحديث وهو قوله ﷺ لعَقِيل: «**أنا أحبّك حُبّين: حبًّا لك وحبًّا لحبِّ أبي طالب فإنه كان يحبّك**»[٣].

قالوا: وخطبة النّكاح مشهورة، خطبها أبو طالب عند نِكاح محمد ﷺ خديجة، وهي قوله: «الحمدُ لله الّذي جَعلنا من ذرّية إبراهيم وزرعِ إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً، وجعلَنا الحكّام على الناس. ثم إنّ محمدَ بن عبد الله أخِي مَنْ لا يوازَن به فتًى من قريش إلا رجَح عليه برًّا وفضلاً، وحزماً وعقلاً، ورأياً ونُبْلاً، وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظلّ زائل، وعاريّةٌ مسترجَعة، وله في خديجة بنت خُوَيلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أَحببتم من الصَّدَاق فعليّ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل».

قالوا: أفتراه يعلَم نبأه الشّائع وخطبه الجليل، ثم يعانده ويكذّبه، وهو من أولى الألباب! هذا غير سائغ في العقول.

قالوا: وقد روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ أصحابَ الكهف أسرُّوا الإيمان، وأظهروا الكفر فآتاهم الله أجرَهم مرتين، وإنّ أبا طالب أسرّ الإيمان، وأظهر الشرك، فآتاه الله أجره مرتين**»[٤].

وفي الحديث المشهور: إنّ جبرائيل عليه السلام قال له ليلة مات أبو طالب: «اخرج منها فقد مات ناصرُك»[٥].

قالوا: وأما حديث الضّحضاح من النار، فإنما يرويه النّاس كلُّهم عن رجل واحد، وهو المغيرة بن شعبة، وبغضه لبني هاشم وعلى الخصوص لعليّ عليه السلام مشهور معلوم، وقصته وفسقه أمر غير خاف[٦].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢. (٢) أنظر بحار الأنوار: ٣٥/ ١٥٧.

(٣) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٦٤٦٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٧٣)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٨٣٤)، وابن سعد في «الطبقات (٤/ ٤٣).

(٤) رواه الحر العاملي في الوسائل: ١٦/ ٢٣١ رقم ٢١٤٣٨، والراوندي في الخرائج: ٣/ ١٠٧٨.

(٥) رواه جملى من الحفاظ أنظر ينبابيع المودة للقندوزي: ١/ ٤٥٥، والبحار: ٣٨/ ٢٩٣، والصراط المستقيم: ١/ ٢٢٦.

(٦) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ١٥٨.

وقالوا: وقد رُويَ بأسانيد كثيرة بعضها عن العباس بن عبد المطلب، وبعضها عن أبي بكر بن أبي قُحافة، أنّ أبا طالب ما مات حتى قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. والخبر مشهور أنّ أبا طالب عند الموت قال كلاماً خفيًّا، فأصغى إليه أخوه العباس، ثم رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يابن أخي، والله لقد قالها عمُّك، ولكنه ضعف عن أن يبلغك صوته[١].

وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال: ما مات أبو طالب حتّى أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله من نفسه الرّضا[٢].

قالوا: وأشعار أبي طالب تدلّ على أنه كان مسلماً، ولا فرق بين الكلام المنظوم والمنثور إذا تضمنا إقرار بالإسلام، ألا ترى أنّ يهوديًّا لو توسط جماعة من المسلمين، وأنشد شعراً قد ارتجله ونظمه يتضمّن الإقرار بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، لكنّا نحكم بإسلامه كما لو قال: أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله! فمن تلك الأشعار قوله:

يُرجُون منّا خُطّةً دون نيْلِها ... ضِرابٌ وطعنٌ بالوشيجِ المقوَّمِ
يرجُون أن نسخَى بقتلِ محمّد ... ولم تختضب سمرُ العوالي من الدّمِ
كذبتم وبيتِ الله حتى تُفلّقوا ... جَمَاجمَ تُلقَى الحطيم وزمزم
وتُقطَع أرحامٌ وتَنسى حليلةٌ ... حليلاً، ويُغشى محرَمٌ بعد محرَمِ
على ما مضى من مقتكم وعقوقكم ... وغشيانكم في أمرِكم كلّ مأثَمِ
وظلم نبيٍّ جاء يدعُو إلى الهدى ... وأمر أتى مِنْ عند ذي العرش قَيِّم
فلاَ تحسبونا مُسلِميه فمِثلُه ... إذا كان في قوم فليس بمسلَمَ[٣]

ومن شعر أبي طالب في أمر الصحيفة التي كتبتها قريش في قطيعة بني هاشم:

ألاَ أبلغَا عنّي على ذاتِ بينها ... لؤيًّا وخُصَّا من لؤيٍّ بني كعبِ
ألم تعلمُوا أنّا وجدْنا محمّداً ... رسولاً كموسى خُطّ في أوّل الكتْبِ
وأنّ عليه في العباد محبّة ... ولا حيْف فيمن خصّه الله بالحبّ
وأنّ الذي رَقشْتُمُ في كتابكم ... يكون لكم يوماً كراغيةِ السَّقْب
أفيقوا أفيقوا قبل أن تُحفَر الزُّبَى ... ويصبحَ من لم يجنِ ذنباً كذي ذنب
ولا تتبعوا أمر الغواة وتقطعُوا ... أواصرَنا بعد المودّة والقرب

(١-٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ١٥٨.

وتستجلبوا حَرْباً عَوَاناً وربّما ... أمرّ على مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ الحربِ
فلسنا وبيتِ الله نُسلِم أحمدا ... لِعَزّاء من عَضّ الزّمان ولا كرب
ولمّا تَبِنْ مِنّا ومنكمْ سوالفٌ ... وأيدٍ أُتِرَّت بالمهنَّدة الشُّهُبِ
بمعترَكٍ ضَيْف ترى قِصَد القَنا ... به والضباعَ العُرْجَ تعكِف كالشّرب
كأنّ مجال الخيل في حَجَراته ... وغمغمة الأبطال معركة الحرب
أليسَ أبونا هاشم شدّ أزرَهُ ... وأوصى بنيه بالطّعان وبالضرب!
ولسنا نملّ الحرب حتى تملّنا ... ولا نشتكي ممّا ينوب من النُّكُبِ
ولكنّنا أهلُ الحفائظ والنُّهى ... إذا طار أرواح الكُماة من الرُّعبِ

ومن ذلك قوله:

فلا تُسفِهوا أحلامَكُم في محمّدٍ ... ولا تُتْبعوا أمرَ الغُواة الأشائم
تمنّيتُم أن تقتلوه وإنّما ... أمانيّكم هذِي كأحلام نائمِ
وإنّكمُ والله لا تقتلونَهُ ... ولمّا تروا قَطْفَ اللّحى والجماجِمِ
زعمتم بأنّا مسلمون محمّداً ... ولمّا نقاذف دونه ونزاحمِ
من القومِ مفضالٌ أبِيٌّ على العِدَا ... تمكّن في الفرعين من آل هاشمِ
أمينٌ حبيبٌ في العباد مسوّمٌ ... بخاتم رَبٍّ قاهرٍ في الخواتمِ
يَرَى الناسُ برهاناً عليه وهيبةً ... وما جاهلٌ في قومه مثلُ عالمِ
نبيٌّ أتاه الوحْيُ من عند رَبّه ... ومن قال لا يقرع بها سنَّ نادمِ

ومن ذلك قوله - وقد غضب لعثمان بن مظعون الجُمحيّ، حين عذّبته قريش ونالت منه:

أمِنْ تذكّر دهر غير مأمونِ ... أصبحتَ مكتئباً تبكِي كمحزونِ
أمْ مِنْ تذكُّر أقوام ذوِي سفهٍ ... يغشوْن بالظّلم مَنْ يدعو إلى الدّينِ
ألا يرون - أذلّ الله جَمْعَهُمُ ... أنّا غضبنا لعثمان بن مَظْعُونِ
ونمنع الضَّيْم مَنْ يبغِي مَضَامَنَنا ... بكلّ مطّرِدٍ في الكفّ مسنُونِ
ومُرْهفاتٍ كأنّ المِلْحَ خالَطها ... يُشفَى بها الدّاءُ من هام المجانين
حتى تُقرّ رجالٌ لا حلومَ لها ... بعد الصُّعوبة بالإسماح واللّينِ
أو تؤمنوا بكتابٍ مُنْزَلٍ عَجَبٍ ... عَلَى نبيٍّ كموسَى أو كذِي النّونِ

قالوا: وقد جاء في الخبر أنّ أبا جهل بن هشام جاء مرّة إلى رسول الله ﷺ وهو ساجد وبيده حَجَر يريد أن يَرْضَخ به رأسَه، فلصق الحَجرُ بكفّه فلم يستطع ما أراد، فقال أبو طالب في ذلك من جملة أبيات:

أفيقوا بني عمّنا وانتهوا عن الغيّ من بعض ذا المنطقِ
وإلاّ فإنّي إذاً خائف بوائقَ في داركمْ تلتقِي
كما ذاق مَنْ كان من قَبْلِكم ثمود وعاد وماذا بَقِي!

ومنها:

وأعجبُ من ذاك في أمركمْ عجائب في الحَجَر المُلصَقِ
بكفّ الذي قام من جِنبهِ إلى الصابر الصادق المتَّقِي
فأثبته الله في كفّه على رَغْمَهِ الخائن الأحمقِ

قالوا: وقد اشتهر عن عبد الله المأمون رحمه الله أنّه كان يقول: أسلم أبو طالب والله بقوله:

نصرتُ الرّسولَ رسولَ المليكِ ببِيضٍ تلالأ كلمع البُروقِ
أذُبُّ وأحمِي رسولَ الإلهِ حماية حامٍ عليه شفيقِ
وما إنْ أدِبُّ لأعدائِه دبيبَ البِكارِ حذار الفَنِيقِ[1]
ولكن أزيرُ لهمْ سامياً كما زارَ ليثٌ بغِيلٍ مضيقِ

قالوا: وقد جاء في السّيرَة، وذكره أكثر المؤرخين، أنّ عمرو بن العاص لمّا خرج إلى بلاد الحبشة ليكِيد جعفرَ بن أبي طالب وأصحابَه عند النجاشيّ، قال:

تقول ابنتِي: أين أين الرحيلُ؟ وما البينُ منّي بمستنكَرِ
فقلتُ: دعيني فإنّي امرؤٌ أريدُ النّجاشيّ في جَعْفَرِ
لأكوِيَه عنده كَيّةً أقيمُ بها نخوة الأصعَرِ
ولن أنثني عن بَني هاشمٍ بما اسطعت في الغَيْب والمحضَرِ
وعن عائب الّلات في قوله ولولاَ رضا الّلات لم تمطرِ
وإنّي لأشنَى قريشٍ له وإن كان كالذّهب الأحمرِ

قالوا: فكان عمرو يُسمى الشانىء ابن الشانىء، لأن أباه كان إذا مرّ عليه رسول الله ﷺ بمكة يقول له: والله إنّي لأشنؤك، وفيه أنزل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[2]. قالوا: فكتب أبو طالب إلى النجاشيّ شعراً يحرّضه فيه على إكرام جعفر وأصحابه والإعراض عمّا يقوله عمرو فيه وفيهم، من جملته:

ألا ليتَ شعرِي كيف في الناس جعفرٌ وعمرو وأعداءُ النّبي الأقاربُ!

---

(١) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب. القاموس المحيط، مادة (فنق).

(٢) سورة الكوثر، الآية: ٣.

وهلْ نال إحسانُ النجاشيّ جعفراً وأصحابه، أمْ عاق عن ذاك شاغبُ!

في أبيات كثيرة.

قالوا: وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال: قال لي أبي: يا بنيّ الزم ابن عَمّك، فإنك تسلم به من كلّ بأس عاجل وآجل، ثم قال لي:

إنّ الوثيقةَ في لزومِ محمّدٍ فاشدُدْ بصحبتِهِ على أيْدِيكا(١)

ومن شعره المناسب لهذا المعنى قوله:

إن علياً وجعفراً ثقتي عند ملمّ الزّمانِ والنُّوَبِ

لا تخذلا وانصرا ابنَ عمّكما أخي لأمّي من بينهمْ وأبي

والله لا أخذل النبيّ ولا يخذله من بنيّ ذو حَسَب

قالوا: وقد جاءت الرّواية أنّ أبا طالب لمّا مات جاء عليٌّ عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فآذنه بموته، فتوجّع عظيماً وحزن شديداً، ثم قال له: امض فتولّ غسله، فإذا رفعته على سريره فأعلمني، ففعل، فاعترضه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو محمول على رؤوس الرّجال، فقال: وصلتْك رَحم يا عمّ، وجُزيت خيراً! فلقد رَبّيْت وكَفَلْت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً، ثم تبعه إلى حفرته، فوقف عليه، فقال: أما والله لأستغفرنّ لك ولأشفعنّ فيك شفاعةً يعجب لها الثقلان(٢).

قالوا: والمسلم لا يجوز أن يتولّى غسل الكافر، ولا يجوز للنبيّ أن يرقّ لكافر، ولا أن يدعوَ له بخير، ولا أن يعدَه بالاستغفار والشفاعة، وإنما تولّى عليٌّ عليه السلام غسله؛ لأن طالباً وعَقِيلاً لم يكونا أسلما بعد، وكان جعفر بالحبشة، ولم تكُنْ صلاة الجنائز شُرعت بعد، ولا صلى رسول الله صلى الله عليه وآله على خديجة، وإنما كان تشييعٌ ورقّةٌ ودعاء.

قالوا: ومن شعر أبي طالب يخاطب أخاه حمزة، وكان يكنى أبا يعلَى:

فصبراً أبا يعلَى على دينِ أحمدٍ وكن مظهراً للدين وفّقت صابرَا

وحُطْ من أتى بالحق من عند ربه بصدق وعزم لا تكن حَمْزُ كافرا

فقد سرّني إذ قلت إنك مؤمنٌ فكن لرسول الله في الله ناصرَا

وبادِ قريشاً بالّذي قد أتيته جهاراً وقل ما كان أحمد ساحرا

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ١٢٠ ح ٦٢.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره بما معناه: ٢/ ٤٠٩ وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ١٦٣.

قالوا: ومن شعره المشهور:

أنتَ النبيُّ محمدُ ... قَرمٌ أعزّ مسوَّدُ(١)
لمسوّدين أكارمٍ ... طابوا وطاب المولدُ
نعم الأرومة أصلُها ... عمرو الخِضَمّ الأوحدُ
هشم الرَّبيكة في الجِفا ... ن وعيشُ مكة أنكدُ
فجرت بذلك سُنّةٌ ... فيها الخبيزة تُثْرَدُ

ولنا السقاية للحجيج بها يُماثُ العُنجدُ(٢)

والمازِمان وما حوتْ ... عرَفاتُها والمسجدُ
أنّي تُضامُ ولم أمُتْ ... وأنا الشُّجاع العِرْبدُ(٣)
وبِطاحُ مكّة لا يرى ... فيها نجيعٌ أسودُ
وبنو أبيكَ كأنّهمْ ... أسدُ العَرينِ تَوَقَّدُ
ولقد عهدتُك صادقاً ... في القول لا تتزيّد
ما زلتَ تنطق بالصَّوا ... بِ وأنت طِفلٌ أمردُ

قالوا: ومن شعره المشهور أيضاً قوله يخاطب محمداً، ويسكّن جأشه، ويأمره بإظهار الدعوة:

لا يمنعنّك من حقٍّ تقوم به ... أيدٍ تصولُ ولا سَلْق بأصوات
فإن كفك كفي إن بليت بهم ... ودون نفسك نفسي في الملمّاتِ

ومن ذلك قوله، ويقال إنها لطالب بن أبي طالب:

إذا قيل مَن خيرُ هذا الورى ... قَبيلاً وأكرمُهم أسْرةْ؟
أناف لعبدِ منافٍ أبٌ ... وفضّله هاشم العِزّةْ
لقد حلّ مجد بني هاشمٍ ... مكان النعائم والنَّثرة
وخير بني هاشم أحمد ... رسول الإله على فترةْ(٤)

ومن ذلك قوله:

---

(١) القَرْم: السيد المعظم. اللسان، مادة (قرم).
(٢) العُنجد: الزبيب. اللسان، مادة (عنجد).
(٣) العِرْبدُ: الشديد، وقيل: الحية الخبيثة. اللسان، مادة (عربد).
(٤) أخرجه نجم الدين العسكري في أبو طالب حامي الرسول: ٤٠.

لـقـد أكـرم الله الـنـبـيَّ مـحـمـداً فـأكـرمُ خـلـق الله فـي الـنّـاس أحـمـدُ
وشـق لـه مِـنْ اسـمـهِ لـيُـجِـلَّـه فـذُو الـعـرش مـحـمـود وهـذا مـحـمّـد

وقوله أيضاً، وقد يروى لعلي عليه السلام:

يـا شـاهـد الله عـلـيَّ فـاشـهـدِ أنّـي عـلـى ديـن الـنـبـيّ أحـمـدِ
مَـنْ ضـلّ فـي الـديـن فـإنـي مـهـتـدِ(١)

قالوا: فكلّ هذه الأشعار قد جاءت مجيء التواتر؛ لأنه إن لم تكن آحادها متواترة، فمجموعها يدلّ على أمر واحد مشترك، وهو تصديق محمد صلّى الله عليه وآله، ومجموعها متواتر، كما أنّ كلّ واحدة من قتلات عليّ عليه السلام الفرسان منقولة آحاداً، ومجموعها متواتر، يفيدنا العلم الضّروريّ بشجاعته، وكذلك القول فيما رُوِي من سخاء حاتم، وحلْم الأحنف ومعاوية، وذكاء إياس وخلاعة أبي نواس، وغير ذلك، قالوا: واتركوا هذا كلّه جانباً، ما قولكم في القصيدة اللّامية التي شهرتها كشهرة «قفا نبك» وإن جاز الشكّ فيها أوفى شيء من أبياتها، جاز الشك في «قفا نبك» وفي بعض أبياتها، ونحن نذكر منها هاهنا قطعة وهي قوله:

أعُـوذ بـربّ الـبـيْـت مـن كـلّ طـاعـنٍ عـلـيـنـا بـسـوءٍ أو يـلـوح بـبـاطـلِ
ومـن فـاجـر يـغـتـابُـنـا بـمـغـيـبـةٍ ومنْ ملحق في الدّين ما لم نحاولِ
كَـذَبْـتُـم وبـيـتِ الله يُـبْـزَى مـحـمـدٌ ولَـمّـا نـطـاعـنْ دونـه ونـنـاضـل
ونـنـصـره حـتـى نـصـرّع دُونـه ونَـذْهَـل عـن أبـنـائـنـا والـحـلائـلِ
وحـتّـى نـرى ذا الـرَّدْع يـركـب رَدْعَـهُ من الطّعن فعل الأنكب المتحامل
ويـنـهـض قـومٌ فـي الـحـديـد إلـيـكـمُ نهوض الرّوايا تحت ذات الصّلاصل
وإنّـا وبـيـت الله مَـنْ جَـدّ جـدُّنـا لـتـلـتـبـسـنْ أسـيـافُـنـا بـالأمـاثـل
بـكـلّ فـتّـى مـثـلِ الـشّـهـاب سَـمَـيْـدَع أخِي ثقةٍ عند الحفيظة باسلِ(٢)
ومـا تَـرْك قـومٍ لا أبـالـك سَـيّـداً يـحُـوط الـذّمـار غـيـرُ نكْـسٍ مواكـلِ
وأبـيـض يُـسـتـسقى الـغـمـام بـوجـهِـه ثِـمـالُ الـيـتـامـى عِـصْـمَـةٌ لـلأرامـل
يَـلُـوذُ بـه الـهُـلّاكُ مـن آل هـاشـم فـهـم عـنـده فـي نـعـمـة وفـواضِـلِ
ومـيـزان صِـدْقٍ لا يـخـيـس شَـعـيـرةً ووزّان صـدق وزنه غـيـر عـائـل
ألـم تـعـلـمـوا أن ابـنـنـا لا مـكـذَّب لَـدَيْـنـا، ولا يـعـبـا بـقـول الأبـاطـلِ!

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٣٥٣.
(٢) السَّمَيْدَعُ: الكريم السيد الجميل الجسيم الموطأ الأكتاف، وقيل: هو الشجاع. اللسان، مادة (سمدع).

لعمري لقد كلِّفت وجداً بأحمدٍ ... وأحببته حبّ الحبيب المواصِل
وجُدتُ بنفسي دونه فحميتُه ... ودافعتُ عنه بالذُّرَى والكواهل
فلا زال للدّنيا جمالاً لأهلها ... وشَيْناً لمنْ عادَى وزينَ المحافِل
وأيّده ربّ العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقّه غير باطل[1]

ورود في السيرة والمغازي أنّ عتبة بن ربيعة أو شيبة لمّا قطع رجْل عبيدة بن الحارث بن المطلب يوم بدر أشبل عليه عليّ وحمزة فاستنقذاه منه وخبطا عتبة بسيفيهما حتى قتلاه، واحتملا صاحبهما من المعركة إلى العريش، فألقياه بين يديْ رسول الله ﷺ، وإنّ مخ ساقه ليسيل، فقال: يا رسول الله، لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أنّه قد صدق في قوله:

كَذبتمْ وبيتِ الله نُخلي محمداً ... ولمّا نطاعِنْ دُونَه ونُناضِلِ
وننصرهُ حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

فقالوا: إن رسول الله ﷺ استغفر له ولأبي طالب يومئذٍ، وبلغ عبيدة مع النبي ﷺ إلى الصَّفْراء فمات فدفن بها[2].

قالوا: وقد روي أنّ أعرابيًّا جاء إلى رسول الله ﷺ في عام جَدْب، فقال: أتيناك يا رسول الله ولم يبق لنا صبيٌّ يرتضع، ولا شارف يجترّ ثم أنشده:

أتيناك والعذراءُ تَدْمَى لبانُها ... وقد شغلت أمّ الرضيع عن الطّفل
وألقى بكفيّهِ الفتى لاستكانةٍ ... من الجوع حتى ما يُمرُّ ولا يُخلِي
ولا شيء مما يأكل النّاس عندنا ... سوى الحنظل العاميِّ والعِلْهِز الفَسْلِ[3]
وليسَ لنا إلا إليك فرارُنا ... وأين فِرارُ النَّاس إلا إلى الرسل!

فقام النبيّ ﷺ يجرّ رداءه، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «**اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، مريئاً هنيئاً، مريعاً سَحًّا سجالاً، غدقاً طبقاً قاطباً دائماً، درًّا تحيي به الأرض، وتنبت به الزرع، وتدرّ به الضَّرع، واجعله سقياً نافعاً عاجلاً غير رائث**». فوالله، مارذّ رسول الله ﷺ يدَه إلى نحره حتى ألقت السَّمَاء أرواقها، وجاء الناس يضجّون: الغرق الغرق

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٣/ ٧٤، وذكره ابن كثير في السيرة النبوية: ١/ ٤٩١.
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٣٨/ ٢٥٨.
(٣) العِلْهِز: طعام من الدَّم والوبر كان يتخذ في المجاعة. القاموس، مادة (علهز).

يا رسول الله! فقال: «اللهمّ حوَالَينا ولا علينا»[١]، فانجاب السَّحَاب عن المدينة حتى استدارَ حولها كالإكليل.

فضحك رسول الله حتى بدت نواجذُه، ثم قال: «لله درُّ أبي طالب! لو كان حيًّا لقرّت عينه. منْ يُنشِدنا قوله»؟ فقام عليّ فقال: يا رسولَ الله، لعلك أردت:

وأبيض يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه

قال: «أجلْ»، فأنشده أبياتاً من هذه القصيدة، ورسول الله يستغفر لأبي طالب على المنبر[٢]، ثم قام رجل من كنانة فأنشده:

لك الحمدُ والحمدُ ممّن شَكَرْ ... سُقِينَا بوجهِ النَّبيّ المَطَرْ
دعا الله خالقَه دعوةً ... إليه، وأشخصَ منه البصرْ
فَمَا كَانَ إلاّ كما ساعةٍ ... أو أقصَرَ حتى رَأيْنا الدّرر
دِفاقَ العَزَالِي وَجمّ البِعاق ... أغاثَ به الله عُلْيَا مُضَرْ
فكان كما قاله عَمُّه ... أبو طالبٍ ذُو رُواءٍ غُرَرْ
به يَسّر الله صَوْبَ الغمام ... فهذا العِيان وذاك الخَبَرْ
فمن يَشكُرِ الله يَلْقَ المزيدَ ... وَمَنْ يَكْفُرِ الله يَلْقَ الغِيَرْ

فقال رسول الله: «إن يكن شاعر أحسن فقد أحسنت»[٣].

قالوا: وإنّما لم يظهِر أبو طالب الإسلامَ ويجاهر به؛ لأنه لو أظهره لم يتهيّأ له من نُصْرة النبيّ ﷺ ما تهيّأ له، وكان كواحدٍ من المسلمين الّذين اتّبعوه، نحو أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما ممّن أسلم، ولم يتمكّن من نُصْرته والقيام دونه حينئذٍ، وإنّما تمكّن أبو طالب من المحاماة عنه بالثبات في الظاهر على دين قريش وإن أبطن الإسلام، كما لو أنّ إنساناً كان يُبْطِن التشيّع مثلاً، وهو في بلد من بلاد الكرّامية، وله في ذلك البلد وَجاهةٌ وقدَم، وهو يُظْهر مذهبَ الكرّامية، ويحفظُ ناموسه بينهم بذلك، وكان في ذلك البلد نفرٌ يسير من الشّيعة لا يزالون يُنالون بالأذى والضّرر من أهل ذلك البلد ورؤسائه، فإنّه ما دام قادراً على إظهار مذهب أهلِ البلد، يكون أشدَّ تمكُّنا من المدافعة والمحاماة عن أولئك النّفر، فلو أظهر ما يجوز من التشيّع، وكاشف أهل البلد بذلك، صار حكمُه حكم واحد من أولئك النّفر، ولحقه من الأذى والضّرر ما يلحقهم، ولم يتمكّن من الدفاع أحياناً عنهم كما كان أولاً.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢/ ٦٤)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٠٨).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٢/ ٩٢، وأخرجه البخاري في صحيحه: ٢/ ١٥ بما معناه.
(٣) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢/ ٦٥).

قلت: فأمّا أنا فإنّ الحال ملتبسةٌ عندي، والأخبار متعارضة، والله أعلم بحقيقة حاله كيف كانت.

ويقف في صدري رسالة النفس الزكية إلى المنصور، وقوله فيها: فأنا ابنُ خير الأخيار، وأنا ابن شرّ الأشرار، وأنا ابن سيّد أهل الجنّة، وأنا ابن سيّد أهل النار.

فإنّ هذه شهادة منه على أبي طالب بالكُفر، وهو ابنه وغير متّهم عليه، وعهده قريب من عهد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، لم يطل الزمان فيكون الخبر مفتعلاً.

وجملة الأمر أنه قد رُوِي في إسلامه أخبار كثيرة، وروي في موته على دين قومه أخبار كثيرة، فتعارَض الجرْح والتّعديل، فكانَ كتعارض البيّنتين عند الحاكم، وذلك يقتضي التوقُّف، فأنا في أمره من المَتوقّفين.

فأمّا الصّلاة وكونه لم يُنقل عنه أنه صلّى، فيجوز أن يكون لأنّ الصلاة لم تكن بعد قد فرضت، وإنما كانت نفْلاً غير واجب، فمن شاء صلّى، ومن شاء ترك، ولم تفرض إلاّ بالمدينة. ويمكن أنْ يقول أصحابُ الحديث: إذا تعارض الجرح والتعديل كما قد أشرتم إليه، فالترجيح عند أصحاب أصولِ الفقه لجانب الجرح؛ لأن الجارح قد اطّلع على زيادة لم يطلّع عليها المعدِّل.

ولخصومهم أن يجيبوا عن هذا فنقول: إنّ هذا إنما يقال ويذكر في أصول الفقه في طعن مفصّل في مقابلة تعديل مجمل، مثاله أن يروِيَ شُعبةُ مثلاً حديثاً عن رجل، فهو بروايته عنه قد وثّقه، ويكفي في توثيقه له أن يكون مستور الحال، ظاهرُه العدالة، فيطعن فيه الدّارقطني مثلاً بأن يقول: كان مدلّساً، أو كان يرتكب الذّنب الفلانيّ، فيكون قد طعن طعناً مفصّلاً في مقابلة تعديل مجمل، وفيما نحن فيه وبصدده الرّوايتان متعارضتان تفصيلاً لا إجمالاً؛ لأن هؤلاء يروُون أنّه تلفّظ بكلمَتي الشهادة عند الموت، وهؤلاء يروُون أنه قال عند الموت: أنا على دين الأشياخ.

وبمثل هذا يجاب على مَنْ يقول من الشيعة: روايتنا في إسلامه أرجح؛ لأنا نروِي حكماً إيجابياً ونشهد على إثبات، وخصومنا يشهدون على النّفي، ولا شهادة على النفي، وذلك أن الشهادة في الجانبيْن معاً، إنما هي على إثبات، ولكنه إثبات متضادّ.

وصنّف بعض الطالبيين في هذا العصر كتاباً في إسلام أبي طالب، وبعثه إليّ، وسألني أن أكتب عليه بخطّي نظماً أو نثراً، أشهد فيه بصحّة ذلك، وبوثاقة الأدلّة عليه، فتحرّجت أن أحكم بذلك حكماً قاطعاً، لما عندي من التوقف فيه، ولم أستجز أنْ أقعدَ عن تعظيم أبي طالب، فإنّي أعلم أنه لولاه لما قامت للإسلام دِعامة. وأعلم أنّ حقّه واجب عل كلّ مسلم في الدنيا إلى أن تقوم الساعة، فكتبت على ظاهر المجلّد:

ولَــوْلاَ أبـــو طـــالـــبٍ وابـــنُـــهُ　　لـمـا مُـثِّـل الـدّيـن شَـخْـصاً فـقـامَـا
فــذَاكَ بــمــكّـــةَ آوى وحـــامَـــى　　وهــذا بــيــثْــربَ جسّ الـحِـمـامـا
تــكــفَّــلَ عــبــدُ مــنــاف بــأمــرٍ　　وأودَى فــكــان عــلــيٌّ تــمــامــا
فــقــل فــي ثَــبــيــرٍ مــضــى بــعــد مــا　　قَــضــى مــا قــضــاه وأبــقــى شَــمــامــا
فــلــلــه ذا فــاتــحــاً لــلــهــدى　　ولله ذا لــلــمــعــالــي خــتــامــا
ومــا ضَــرَّ مــجــدَ أبــي طــالــب　　جــهــولٌ لَــغَــا أو بــصــيــرٌ تــعــامَــى
كــمــا لا يــضــرّ إيــاةَ الــصــبــا　　حِ مَنْ ظنّ ضوء النهار الظلاما[1]

فوفّيته حقَّه من التعظيم والإجلال، ولم أجزم بأمر عندي فيه وقفة.

في غزوة بدر

الفصل الثالث: في شرح القصّة في غزاة بدر، ونحن نذكر ذلك من كتاب «المغازي» لمحمد بن عمر الواقديّ، ونذكر ما عساه زاده محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي»، وما زاده أحمد بن يحيى بن جابر البلاذُريّ في «تاريخ الأشراف».

قال الواقديّ: بلغ رسول الله ﷺ أن عِيرَ قريشٍ قد فصَلت من مكّة تريد الشام، وقد جمعت قريش فيها أموالها، فندب لها أصحابه، وخرج يعترضُها على رأس ستّة عشر شهراً من مهاجَرِه ﷺ، فخرج في خمسين ومائة - ويقال في مائتين - فلم يلقَ العِير، وفاتته ذاهبةً إلى الشام... وهذه غزاة ذي العُشَيرة، رجع منها إلى المدينة فلم يلقَ حرباً، فلما تحيّن انصراف العِير من الشام قافلةً ندب أصحابه لها، وبعث طلحة بن عُبيد الله وسَعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل قبل خروجه من المدينة بعشرِ ليال، يتجسّسان خبر العِير، حتى نزلاً على كشد الجهنيّ بالموضع المعروف بالنّخبار، وهو من وراء ذِي المَرْوة على السَّاحل، فأجارهما وأنزلهما، فلم يزالا مقيمين في خباء وبَرٍ حتى مرّت العِير، فرفعهما على نَشْزٍ[2] من الأرضَ، فنظرا إلى القوم وإلى ما تحمل العِير، وجعل أهل العير يقولون لكشد: يا كشد، هل رأيتَ أحداً من عيون محمد؟ فيقول: أعوذ بالله، وأنّى لمحمد عيون بالنخبار! فلمّا راحت العير باتا حتى أصبَحا ثم خرجا، وخرج معهما كشد خفيراً، حتى أوردهما ذا المرْوَة، وساحلت العِير فأسرعت، وسار بها أصحابُها ليلاً ونهاراً، فَرَقاً من الطَّلب، وقدم طلحة وسعيد المدينة في اليوم الّذِي لَقِيَ رسول الله ﷺ قريشاً ببدر، فخرجا يعترِضَانِ رسول الله ﷺ، فلقياه بتربان - وتُربان بين

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٧/ ٣٣٠، وأخرجه نجم الدين العسكري في أبو طالب حامي الرسول: ٩٢.
(٢) النَّشزُ: المكان المرتفع. القاموس المحيط، مادة (نشز).

مَلَل والسَّالة على المحجّة، وكانت منزل عروة ابن أذينة الشاعر - وقدِم كشد بعد ذلك على النبي ﷺ، وقد أخبر طلحة وسعيد رسول الله ﷺ بما صَنَع بهما، فحباه وأكرمه، وقال: ألا أقطع لك ينبُع؟ قال: إني كبير، وقد نفد عمري، ولكن أقطِعها لابن أخي، فأقطَعَها له.

قالوا: وندب رسول الله ﷺ المسلمين، وقال: هذه عِير قريش، فيها أموالُهم: لعلّ الله أن يغنّمَكُموها. فأسرع مَنْ أسرع، حتّى إنْ كان الرجل ليُساهِم أباه في الخروج، فكان ممّن ساهم أباه سعد بن خَيْثمة، فقال سعد لأبيه: إنّه لو كان غير الجنة آثرتك به، إنّي لأرجُو الشهادة في وجهي هذا، فقال خيثمة: آثرني وقرّ مع نسائك، فأبى سعد، فقال خيثمة: إنه لا بدّ لأحدنا من أن يقيم، فاستَهما، فخرج سهم سعد، فقتِل ببدر. وأبطأ عن النبي ﷺ بشرٌ كثير من أصحابه، وكرهوا خروجَه، وكان في ذلك كلام كثير واختلاف، وبعضهم تخلّف من أهل النّيات والبصائر، لم يظنّوا أنّه يكون قتال، إنّما هو الخروجُ للغنيمة، ولو ظنّوا أنّه يكون قتال لما تخلّفوا، منهم أُسَيْد بن حُضَير، فلما قدِم رسول الله ﷺ، قال أُسَيْد: الحمد لله الّذي سرّك وأظهرَك على عدوّك، والّذي بعثك بالحقّ ما تخلّفتُ عنك رغبةً بنفسِي عن نفسك، ولا ظننت أنّك تلاقي عَدُوًّا، ولا ظننتُ إلاّ أنها العِير! فقال له رسول الله ﷺ: «صدقت».

قال: وخرجَ رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى المكان المعروف بالبُقْع وهي بيوت السُّقيا، وهي متصلة ببيوت المدينة، فضرب عسكره هناك، وعرض المقاتلة، فعرض عبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبَرَاء بن عازب، وأُسَيد بن ظُهَير، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، فردّهم ولم يُجِزْهُم.

قال الواقديّ: فحدثني أبو بكر بن إسماعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: رأيتُ أخِي عمير بن أبي وقّاص قبل أن يعرضَنا رسول الله ﷺ يتوارَى، فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إنّي أخافُ أن يَراني رسول الله ﷺ فيستصغرَني، فيردّني، وأنا أحبّ الخروجَ، لعلّ الله أن يرزقَني الشهادة. قال: فعُرِض على رسول الله ﷺ، فاستصغره، فقال: ارجعْ، فبكى عمير، فأجازه[1].

قال: فكان سعد يقول: كنت أعقِد له حمائلَ سيفِهِ من صِغَرِه، فقتِل ببدر وهو ابن ستّ عشرةَ سنة.

قال: فلمّا نزلَ عليه السلام بيوت السُّقْيا أمرَ أصحابَه أن يستقُوا من بئرهم: وشرب عليه السلام منها، كان أوّل مَنْ شرِب وصلّى عندها، ودعا يومئذٍ لأهل المدينة، فقال: «اللهمّ إن إبراهيم عبدُك

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٦٩)، والبزار في «مسنده» (١١٠٦)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٤٩)، واللفظ له.

وخليلُك ونبيّك، دعاك لأهلِ مكة، وإنّي محمد عبدُك ونبيك، أدعوك لأهلِ المدينة، أن تبارك لهم في صاعِهم ومُدّهم وثمارهم، اللهمّ حَبّب إلينا المدينة، واجعل ما بها من الوباء بخُمّ[١]. اللهمّ إني حرّمت ما بين لابَتَيْها، كما حرّم إبراهيم خليلك مكة»[٢].

قال الواقديّ: وخُمّ على ميلين من الجُحفة.

وقدّم رسول الله ﷺ أمامه عديّ بن أبي الزغباء وبسيس بن عمرو، وجاء إليه عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، لقد سرّني منزلُك هذا، وعرضُك فيه أصحابَك، وتفاءلت به، إنّ هذا منزلنا في بني سلِمة، حيث كان بيننا وبين أهل حُسَيكة ما كان.

قال الواقديّ: هي حُسَيْكة الذّباب، والذّباب: جبل بناحية المدينة، وكان بحُسَيكة يهود، وكان لهم بها منازل.

قال عبد الله بن عمرو بن حرام فعرضنا يا رسول الله هاهنا أصحابنا، فأجزنا مَنْ كان يطيق السلاح، ورددْنا مَنْ صغُر عن حمل السلاح، ثم سرنا إلى يهود حُسَيكة، وهم أعزّ يهود كانوا يومئذ، فقتلناهم كيف شئنا، فذلّت لنا سائرُ يهود إلى اليمن، وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقِيَ نحن وقريش، فيقرّ الله عينَك منهم.

قال الواقديّ: وكان خلاّد بن عمرو بن الجَمُوح لمّا كان من النهار رجع إلى أهله بخُرْباء، فقال له أبوه عمرو بن الجموح: ما ظننت إلا أنكم قد سِرْتم، فقال: إنّ رسول الله ﷺ يعرِض الناس بالبقيع، فقال عمرو: نعم الفأل! والله إني لأرجو أن تغنموا وأن تظفرُوا بمشركي قريش، إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى حسُيكة. قال: فإنّ رسول الله ﷺ قد غيّر اسمه، وسمّاه السقيا. قال: فكانت في نفسي أن أشترِيها، حتى اشتراها سعدُ بن أبي وقّاص ببَكْريْن، ويقال بسبع أواق، فذكر للنبي ﷺ أن سعداً اشتراها، فقال: «ربح البيع»[٣]!

قال الواقدي: فراح رسول الله ﷺ من بيوت السّقْيَا، لاثنتي عشرة ليلة مضت من رَمضان، وخرج المسلمون معه ثلاثمائة وخمسة، وتخلّف ثمانية، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم، فكانت الإبل سبعين بعيراً، وكانوا يتعاقبون الإبل: الاثنين، والثلاثة، والأربعة، فكان رسول الله ﷺ وعليّ بن أبي طالب عليه السلام ومَرْثد بن أبي مَرْثد - ويقال زيد بن حارثة

---

(١) خُمّ: موضع بيت مكة والمدينة تصب فيه عين هناك. اللسان، مادة (خمم).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: فضل المدينة (١٣٦٥)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا رأى الباكورة من الثمر (٣٤٥٤)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق (١٥٩٦).
(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٨٥).

مكان مَرْثَد - يتعاقبون بعيراً واحداً، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة، موالي النبي ﷺ على بعير، وكان عُبيدة بن الحارث والطفيل والحصين ابنا الحارث، ومسطح بن أُثاثة على بعِير لعبيدة بن الحارث ناضح ابتاعه من أبي داود المازنيّ، وكان معاذ وعوف ومعوّذ بنو عَفْراء ومولاهم أبو الحمراء على بعيرٍ، وكان أُبيّ بن كعب وعمارة بن حِزام وحارثة بن النّعمان على بعير.

وكان خِراش بن الصِّمّة وقُطبة بن عامر بن حديدة وعبد الله بن عمرو بن حزام على بعير، وكان عُتْبة بن غَزْوان وطليب بن عمير على جَمَلٍ لعتبة بن غزوان يقال له العبْس، وكان مصعب بن عمير وسُويبط بن حَرْملة ومسعود بن رَبيع عَلَى جمل لمُصعب، وكان عمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعودَ على بعيرٍ، وكان عبد الله بن كعب وأبو داود المازنيّ وسليط بن قيس على جملٍ لعبد الله بن كعب، وكان عثمان بن عفّان وقُدامة بن مظعون وعبد الله بن مَظْعون والسائب بن عثمان على بعيرٍ يتعاقبون، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرّحمن بن عوف على بعيرٍ، وكان سعد بن مُعاذ وأخوه وابن أخيه الحارث بن أوْس والحارث بن أنس على جمل لسعْد بن مُعاذ ناضحٍ يقال له الذيّال، وكان سعيد بن زيد، وسلمة بن سلامة بن وقش وعباد بن بشر ورافع بن يزيد على ناضحٍ لسعيد بن زيد، ما تزوّدُوا إلاّ صاعاً من تمر.

قال الواقديّ: فروى مُعاذ بن رفاعة، عن أبيه، قال: خرجت مع النبيّ ﷺ إلى بدر، وكان كلّ ثلاثة يتعاقبون بعيراً، فكنت أنا وأخي خلاّد بن رافع على بكْر لنا ومعنا عُبيدة بن يزيد بن عامر، فكنّا نتعاقب، فسِرْنَا حتّى إذا كنّا بالرَّوْحاء إذ مرّ بنا بَكْرنا وبرك علينا وأعيا، فقال أخي: اللهم إن لك عليّ نذراً، لئن رددتّنا إلى المدينة لأنحرنّه، فمرّ بنا النبيّ ﷺ ونحن على تلك الحال، فقلنا: يا رسول الله، بَرَكَ علينا بكرُنا، فدعا بماءٍ فتمضمض وتوضأ في إناء، ثم قال: افتحَا فاه، ففعلنا فصبّه في فيه، ثم على رأسِه ثم على عنقه ثم على حارِكه[1]، ثم على سَنَامه، ثم على عَجُزه، ثم على ذَنَبه، ثم قال: اركبا، ومضى رسول الله ﷺ فلحقناه أسفلَ من المنصرف، وإنّ بكرنا لينفِر بنا، حتى إذا كنّا بالمصلّى راجعين من بدر، برك علينا، فنحرَه أخي، فقسم لحمه وتصدّق به.

قال الواقديّ: وقد رُوِي أنّ سعد بن عُبادة حَمَل في بدر على عشرين جملاً.

قال: ورُوِي عن سعد بن أبي وقّاص، أنّه قال: فخرجنا إلى بَدْرٍ مع رسول الله ﷺ ومعنا سبعون بعيراً، فكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة والاثنان على بعير، وكنتُ أنا من أعظم أصحابِ النبيّ عَلَيْتَلِلِهِ عنه غَناءً، وأرجلهم رُجْلَة، وأرْمَاهم لِسَهْمٍ، لم أركب خطوة ذاهباً ولا راجعاً.

(١) الحارك: أعلى الكاهل. القاموس، مادة (حرك).

قال الواقديّ: وقال رسول الله ﷺ حين فَصَل من بيوت السُّقْيا: «**اللهمّ إنهم حُفاةٌ فاحملْهم، وعراةٌ فاكسُهم، وجياع فأشبِعْهم، وعالةٌ فأغنِهم من فضلك**»[١]، فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلاّ وجد ظهراً، للرّجُل البعير والبعيران، واكتسى مَنْ كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزوادهم، وأصابوا فداء الأسرى، فأغنى به كلّ عائل.

قال: واستعمل رسول الله ﷺ على المشاة قيس بن أبي صعصعة - واسم أبي صعصعة عمر بن يزيد بن عوف بن مبذول - وأمره النبيّ ﷺ حين فَصَل من بُيُوت السقيا أن يعدّ المسلمين، فوقف لهم ببئر أبي عبيدة يعدّهم، ثم أخبر النبيّ ﷺ، وخرج من بُيوت السقيا، حتى سلك بطن العقيق، ثم سلك طريق المكْيمن، حتى خرج على بطحاء بن أزهر، فنزل تحت شجرة هناك، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك، فبنى منها مسجداً، فصلّى فيه رسول الله ﷺ، وأصبح يوم الإثنين وهو هناك، ثم صار إلى بطن مَلَل وتُرْبان بين الحفيرة وملَل.

قال الواقديّ: فكان سعد بن أبي وقّاص، يقول: لما كنّا بتُرْبان، قال لي رسول الله ﷺ: «**يا سعْد، انظر إلى الظّبي، فأفوّق له بسهم**»، وقام رسول الله ﷺ فوضع رأسَه بين مَنكبِي وأذني، ثم قال: «**اللهمّ سدّد رمْيته**»[٢] - قال: فما أخطأ سهمي عن نحره، فتبسّم رسول الله ﷺ، وخرجت أعدُو فأخذته وبه رَمَق فذكّيته، فحملناه حتى نزلنا قريباً، وأمر به رسول الله ﷺ فقسِم بين أصحابه.

قال الواقديّ: وكان معهم فَرَسان: فرس لمرثَد بن أبي مرثَد الغنويّ، وفرس للمقداد بن عمرو البهرانيّ، حليف بنيْ زُهرة، ويقال فرس للزبير، ولم يكن إلاّ فَرَسان لاختلاف عندهم، أن المقداد له فرس، وقد روى عن ضُباعة بنت الزُّبير عن المقداد، قال: كان معي يوم بَدْر فرس يقال له سبحة. وقد روى سعد بن مالك الغَنَويّ عن آبائه أن مرثد بن أبي مرثد الغَنَوي شهد بدراً على فرس له يقال له السيْل.

قال الواقديّ: ولحقت قريش بالشام في عيرها، وكانت العير ألف بعيرٍ، وكان فيها أموال عظام، ولم يبق بمكّة قرشيٌّ ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العِير، حتى إنّ المرأة لتبعثُ بالشيء التافه، وكان يقال: إن فيها لخمسين ألف دينار. وقالوا: أقلّ، وإن كان ليقال: إنّ أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أُحَيْحة إمّا مال لهم أو مال مع قوم قُرَّاض

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب: الجهاد، باب: نفل السرية تخرج من العسكر (٢٧٤٧)، والحاكم في المستدرك(٢٥٩٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٢٥٣٨).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٣١٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١١٣)، والبزار في «مسنده» (١٢١٣)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٠٤٨).

على النّصف، وكان عامّة العير لهم، ويقال: بل كان لبني مخزوم فيها مائتا بعيرٍ وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهباً، وكان يقال للحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفَا مثقال.

قال الواقديّ: وحدّثني هشام بن عمارة بن أبي الحُويرث، قال: كان لبني عبد مناف فيها عشرة آلاف مثقال، وكان مَتْجَرُهم إلى غَزّة من أرض الشام.

قال الواقديّ: وحدثني عبد الله بن جعفر، عن أبي عوْن مولى المِسْور، عن مَخْرمة بن نَوْفل، قال: لما لحقنا بالشّام أدركَنا رجلٌ من جُذام، فأخبرنا أنّ محمداً قد كان عرض لعيرنا في بدأتنا، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجعتنا، قد حالف علينا أهلَ الطريق ووادَعهم. قال مخرمة: فخرجنا خائفين نخاف الرّصَد، فبعثنا ضمضم بن عمرو حين فَصَلْنا من الشام.

قال الواقديّ: وكان عمرو بن العاص مع العير، وكان يحدّث بعد ذلك يقول: لمّا كنا بالزّرقاء - والزّرقاء بالشام من أذْرِعات على مرحَلتين - ونحنُ منحدِرون إلى مكّة لقينا رجلاً من جُذام، فقال: قد كان عرض محمد لكم في بدأتكم في أصحابه، فقلنا: ما شعرنا، قال: بلى، فأقام شهراً، ثم رجع إلى يثرب، وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفّون فهو الآن أحرى أن يعرِض لكم، إنّما يَعُدُّ كم الأيام عدًّا، فاحذروا على عيركم، وارتؤوا آراءكم، فوالله ما أرى من عَدد ولا كُراع ولا حَلْقة. فأجمع القوم أمرهم، فبعثوا ضَمْضَم بن عمرو، وكان في العير، وقد كانت قريش مرّت به وهو بالساحل، معه بكران، فاستأجروه بعشرين مثقالاً، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشاً أنّ محمداً قد عَرَض لعيرهم، وأمره أن يجدَع[١] بعيره إذا دخل، ويحوّل رحله، ويشقّ قميصَه من قُبُلِهِ ودُبُره، ويصيح: الغوث الغوث! ويقال: إنّما بعثوه من تَبُوك، وكان في العير ثلاثون رجلاً من قريش، فيهم عمرو بن العاص، ومَخرمة بن نوفل.

قال الواقديّ: وقد كانت عاتكة بنت عبد المطلب رأتْ قبل مجيء ضَمْضَم بن عمرو رؤيا أفزعتْها، وعظُمت في صدرها، فأرسلت إلى أخيها العباس، فقالت: يا أخي، لقد والله رأيت رؤيا أفزعتْني، وتخوّفتُ أن يدخل على قومِك منها شرّ ومصيبة، فاكتم عليّ ما أحدّثك منها، رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: يا آل غُدَر، انفروا إلى مصارعكم في ثلاث، فصرخ بها ثلاث مرات، فأرَى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد، والناس يتبعونه إذ مثل به بعيرُه على ظهر الكعبة، فصرخ مثلها ثلاثاً، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها ثلاثاً، ثم أخذ صخرةً من أبي قبيس فأرسلها، فأقبلت تهوِي، حتى إذا كانت في أسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكّة ولا دارٌ من دورها إلا دخلتْه منها فِلْذة.

---

(١) الجَدْع: قطع الأنف أو الأذن أو اليد أو الشفة. القاموس، مادة (جدع).

قال الواقدي: وكان عمرو بن العاص يحدّث بعد ذلك فيقول: لقد رأيتُ كلّ هذا، ولقد رأيت في دارنا فلْقة من الصّخرة التي انفلقت من أبي قبيس، ولقد كان ذلك عبرة، ولكن الله لم يرِدْ أن نُسلم يومئذٍ، لكنه أخّر إسلامنا إلى ما أراد.

قلت: كان بعض أصحابنا يقول: لم يكفِ عمراً أن يقول: رأيتُ الصّخرة في دُور مكة عِياناً، فيخرِج ذلك مخرج الاستهزاء باطناً على وَجْه النفاق واستخفافه بعقول المسلمين زعم، حتّى يضيف إلى ذلك القول بالخبر الصُّراح فيقول: إنّ الله تعالى لم يكن أراد منه الإسلام يومئذٍ.

قال الواقديّ: قالوا: ولم يدخل داراً ولا بيتاً من دُور بني هاشم ولا بني زُهرة من تلك الصخرة شيء! قال: فقال العبّاس: إنّ هذه لرؤيا، فخرج مغتماً، حتى لقي الوليد بن عتبة بن ربيعة - وكان له صديقاً - فذكرها له واستكتمه، ففشا الحديث في الناس، قال العباس: فغدوتُ أطوف بالبيت، وأبو جهل في رَهْطٍ من قريش يتحدّثون برؤيا عاتكة، فقال أبو جهل: ما رأت عاتكة هذه؟ فقلت: وما ذاك؟ فقال: يا بني عبد المطّلب، أما رضيتم بأن تتنبّأ رجالكم حتى تتنبّأ نساءكم! زعمت عاتكة أنّها رأت في المنام كذا وكذا - للذي رأت - فسنتربّص بكم ثلاثاً، فإن يكن ما قالت حقًّا فسيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن، نكتبْ عليكم أنكم أكذبُ أهل بيت في العرب! فقال له العباس: يا مصفّر استه، أنت أوْلَى بالكذب واللؤم منّا! فقال أبو جهل: إنا استبقْنا المجد وأنتم فقلتم: فينا السقاية، فقلنا: لا نُبالي، تسقون الحجّاج، ثم قلتم: فينا الحجابة، فقلنا: لا نبالي تحجبون البيت، ثم قلتم: فينا النّدْوة، قلنا: لا نبالي يكون الطعام فتطعمون الناس. ثم قلتم: فينا الرِّفادة، فقلنا: لا نبالي، تجمعون عندكم ما ترفدون به الضعيف، فلمّا أطعمنا الناس وأطعمتم، وازدحمت الرّكب واستبقْنا المجد، فكنا كفرسَيْ رِهان، قلتم: منا نبيٌّ، ثم قلتم: منّا نبيّة! فلا واللّات والعُزّى لا كان هذا أبداً!

قلت: لا أرى كلام أبي جهل منتظماً؛ لأنه إذا سلّم للعباس أنّ هذه الخصال كلّها فيهم، وهي الخصال التي تشرُف بها القبائل بعضُها على بعض، فكيف يقول: لا نبالي لا نبالي! وكيف يقول: فلمّا أطعمنا للناس وأطعمتم، وقد كان الكلام منتظماً، لو قال: ولنا بإزاء هذه المفاخر كذا وكذا، ثم يقول بعد ذلك: استبقنا المجد فكنّا كفرسَيْ رهان، وازدحمت الرّكب، ولم يقل شيئاً ولا عدّ مآثره، ولعلّ أبا جهل قد قال ما لم ينقل.

قال الواقديّ: قال العبّاس: فوالله ما كان منّي غير أنّي جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون عاتكة رأتْ شيئاً، فلما أمسيتُ لم تبق امرأة أصابتْها ولادة عبد المطلب إلا جاءت، فقلن لي: أرضيتم بهذا الفاسق الخبيث يقع في رجالكم، ثم قد تناول نساءكم! ولم تكن لك عند ذلك غيرة! فقلت: والله ما قلت إلا لأنّي لا أبالي به، ولايمُ الله لأعرِضنّ له غداً، فإن عاد كفيتُكُنّ

إياه. فلما أصبحوا من ذلك اليوم الّذي رأت فيه عاتكة ما رأتْ، قال أبو جهل: هذه ثلاثة أيام ما بقي. قال العباس: وغدوتُ في اليوم الثالث، وأنا حديد مغضَب، أرى أن قد فاتني منه أمر أحبّ أن أدركه، وأذكر ما أحفظني به النساء من مقالتهنّ، فوالله إنّي لأمشي نحوه - وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر - إذ خرج نحو باب بني سَهْم يشتدّ، فقلت: ما باله لعنه الله! أكلّ هذا فَرَقا من أن أشاتمه! فإذا هو قد سمع صوت ضَمْضم بن عمرو وهو يقول: يا معشر قريش، يا آل لؤيّ بن غالب، اللّطيمة قد عرض لها محمد في أصحابه! الغوث الغوث! والله ما أرى أن تدركوها، وضمضم ينادي بذلك في بطن الوادي، وقد جَدَع أذني بعيره وشقّ قميصه قُبُلاً ودُبراً، وحوّل رحله، وكان يقول: لقد رأيتُني قبل أن أدخل مكّة وإني لأرى في النّوم وأنا علىَ راحلتي كأنّ وادي مكّة يسيل من أسفله إلى أعلاه دماً، فاستيقظت فزعاً مذعوراً، فكرهتُها لقريش، ووقع في نفسي أنّها مصيبة في أنفسهم.

قال الواقديّ: وكان عمير بن وهب الجُمَحيّ يقول: ما رأيت أعجبَ من أمر ضمضم قطّ، وما صرّح على لسانه إلاّ شيطان! كأنه لم يملّكْنا من أمورنا شيئاً، حتى نفَرنا على الصَّعْب، والذلول، وكان حكيم بن حزام يقول: ما كان الّذي جاءنا فاستنفرنا إلى العير إنساناً! إن هو إلا شيطان، قيل: كيف يا أبا خالد؟ قال: إني لأعجب منه، ما ملكنا من أمرنا شيئاً.

قال الواقديّ: فجهز النّاس وشُغل بعضهم عن بعض، وكان النّاس بين رجلين: إمّا خارج وإما باعث مكانَه رجلاً، وأشفقت قريش لرؤيا عاتكة، وسرّ بنو هاشم. وقال قائلهم: كلاّ، زعمتم أنّا كذبنا وكذبتْ عاتكة! فأقامت قريش ثلاثاً تتجهّز - ويقال: يومين - وأخرجت أسلحَتها واشترَوا سلاحاً، وأعان قويُّهم ضعيفَهم، وقام سُهَيل بن عمرو في رجال من قريش، فقال: يا معشرَ قريش، هذا محمّد والصُّباة معه من شبّانكم وأهل يثرب قد عرضوا لعيركم ولطيمتكم، فمن أراد ظهراً فهذا ظهر، ومَنْ أراد قوّة فهذه قوّة. وقام زمعة بن الأسود، فقال: إنّه واللّات والعزّى ما نزل بكم أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرِضوا لعيركم فيها خزائنكم، فأوعِبوا ولا يتخلّف منكم أحد، ومَنْ كان لا قوّة له فهذه قوة، والله لئن أصابها محمّد وأصحابه لا يروعكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم. وقال طُعيمة بن عديّ: يا معشر قريش، والله ما نزل بكم أمرٌ أجلّ من هذه! أن يستباح عيركم، ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم، والله ما أعرف رجلاً ولا امرأة من بني عبد مناف له نَشٌّ فصاعداً، إلاّ وهو في هذه العير، فمن كان لا قوّة به فعندنا قوّة نحمله ونقوّيه. فحمل على عشرين بعيراً وقوى بهم، وخلّفهم في أهلهم بمعونة. وقام حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فحضّا الناس على الخروج، ولم يدعُو إلى قوة ولا حُمْلان، فقيل لهما: ألا تدعُوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان؟ قالا: والله ما لنا مال، وما المال إلا لأبي سفيان. ومشى نوفل بن معاوية الديلميّ

إلى أهل القوّة من قريش، وكلّمهم في بذْل النفقة والحملان لمن خَرج، فكلّم عبد الله بن أبي ربيعة، فقال: هذه خمسمائة دينار تضعُها حيث رأيت، وكلّم حُوَيطب بن عبد العزى، فأخذ منه مائتي دينار أو ثلاثمائة، ثم قويَ بها في السلاح والظهر.

قال الواقديّ: وذكروا أنّه كان لا يتخلّف أحدٌ من قريش إلا بعث مكانه بَعثاً، فمشت قريش إلى أبي لهب، فقالوا له: إنك سيّد من سادات قريش، وإنّك إن تخلّفت عن النفير يعتبر بك عيرُك من قومك، فاخرج أو ابعث رجلاً، فقال: واللّات والعُزّى لا أخرجُ ولا أبعث أحداً، فجاءه أبو جهل فقال: أقم يا أبا عتبة، فوالله ما خرجنا إلا غضباً لدينك ودين آبائك! وخاف أبوجهل أن يُسْلِم أبو لهب، فسكت أبو لهب ولم يخرج ولم يبعث، وما منع أبا لهب أن يخرج إلا الإشفاق من رُؤيا عاتكة، كان يقول: إنما رؤيا عاتكة أخذٌ باليد، ويقال إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان له عليه ديْن، فقال: اخرج وديني عليك لك، فخرج عنه[1].

وقال محمد بن إسحاق في المَغازي: كان دَيْن أبي لهب على العاص بن هشام أربعة آلاف درهم، فمطله بها وأفلس، فتركها له على أن يكون مكانه، فخرج مكانه.

قال الواقديّ: وأخرج عُتْبة وشيبة دروعاً لهما، فنظر إليهما مولاهما عدّاس وهما يصلِحان دروعهما وآلةَ حربهما، فقال: ما تريدان؟ فقالا: ألم تر إلى الرّجل الذي أرسلناك إليه بالعنَب في كَرْمنا بالطّائف؟ قال: نعم، قالا: نخرج فنقاتله، فبكى، وقال: لا تخرجا، فوالله إنه لنبيّ، فأبيا فخرجا، وخرج معهما فقُتِل ببدر معهما.

قلت: حديث العِنب في كَرْم ابني ربيعة بالطائف قد ذكره أرباب السيرة، وشرحه الطّبري في التاريخ، قال: لما مات أبو طالب بمكة طمعت قريش في رسول الله ﷺ ونالت منه ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب، فخرج من مكة خائفاً على نفسه مهاجراً إلى ربّه يوْمّ الطائف، راجياً أن يدعوَ أهلَها إلى الإسلام فيجيبوه، وذلك في شوال من سنة عشر من النبوة، فأقام بالطائف عشرة أيام، وقيل شهراً، لا يدَع أحداً من أشراف ثقِيف إلا جاءه وكلّمه، فلم يجيبوه، وأشاروا عليه أن يخرج عن أرضهم، ويلحق بمَجاهل الأرض وبحيث لا يعرف، وأغرَوْا[2] به سفهاءَهم، فرمَوْه بالحجارة، حتى إنّ رجليْه لتدمَيان، فكان معه زيد بن حارثة، فكان يقيه بنفسه، حتى لقد شُجّ في رأسه.

والشّيعة تروي أنّ عليّ بن أبي طالب كان معه أيضاً في هجرة الطائف، فانصرف رسول الله ﷺ عن ثَقِيف وهو محزون، بعد أن مشى إلى عبد ياليل ومسعود وحبيب ابني

(١) أنظر مغازي الواقدي: ٢٦، وتاريخ الطبري: ٢/ ١٣٧، والسيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٤٧٨.
(٢) أوْلَعُوهم بإيذائه. اللسان، مادة (غرو).

عمرو بن عمير، وهم يومئذٍ سادة ثقيف، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله وإلى نصرته والقيام معه على قومه، فقال له أحدهم: أنا أمرُط بباب الكعبة، إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسلَه غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلّمك كلمة أبداً، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظمُ خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنتَ كاذباً على الله ما ينبغي أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خَيْر ثقيف، واجتمع عليه صِبيانهم وسفهاؤهم، وصاحوا به وسبُّوه وطردوه، حتى اجتمع عليه الناس يعْجَبون منه، وألجؤوه بالحجارة والطّرد والشّتم إلى حائط لعُتْبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما يومئذٍ في الحائط، فلمّا دخل الحائط رجع عنه سفهاء ثَقِيف، فَعَمد إلى ظل حَبَلة[1] منه فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران ويرَيان ما لقيَ من سفهاء ثقيف.

قال الطبريّ[2]: فلمّا اطمأنّ به قال - فيما ذُكِر لي: «اللهمّ إليك أشكو ضعفَ قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلِني! إلى بعيد فيتجهّمني، أم إلى عدوّ ملّكته أمري، فإن لم يكن منك غضب عليّ فلا أبالي! ولكن عافيتُك هي أوسع لي، أعوذ بنورِ وجهك الّذي أشرقَتْ به الظُّلمات، وصلَح عليه أمرُ الدّنيا والآخرة، من أن ينزِل بي غضبُك، أو يحلّ عليّ سَخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك»[3]!

فلمّا رأى عُتبة وشيبة ما لقيَ تحرّكت له رحِمُهما، فدعَوا غلاماً نَصرانيًّا لهما، يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قِطْفاً من هذا العنب وضعْه في ذلك الطّبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرّجل، وقل له فليأكل منه، ففعل وأقبل به حتى وضعه بين يديه، فوضع يده فيه، فقال: بسم الله، وأكل، فقال عدّاس: والله إن هذه الكلمة لا يقولُها أهلُ هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: «مِنْ أيّ البلاد أنت؟ وما دينُك؟» قال: أنا نصرانيّ من أهل نينَوى، قال: «أمِنْ قرية الرجل الصالح يونس بن مَتّى»؟ قال: وما يدرِيكَ مَنْ يونس بن متّى؟ قال: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبيّ»[4]. فأكبّ عدّاس على يديه ورجليه ورأسه يقبّلها، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسدَه عليك، فلمّا جاءهما قالا: ويلك يا عدّاس! مالك تقبّل رأسَ هذا الرجل ويديْه وقدميه! قال: يا سيّدي، ما في الأرض خير من هذا، فقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلاّ نبيّ.

---

(١) أي شجرة عنب، اللسان، مادة (حبل).
(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ٨١.
(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٥)، وابن عدي في «الكامل» (١٦٢٣).
(٤) أخرجه أبو حاتم في «الثقات» (١/ ٧٨).

قال الواقدي: واستقسمت قريش بالأزلام[١] عند هُبَل للخروج، واستقسم أميّة بن خلَف وعُتْبة وشيْبة بالآمر والناهي، فخرج القِدْح الناهي، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل، فقال: ما استقسمتُ ولا نتخلّف عن عِيرنا.

قال الواقديّ: لما توجّه زمْعة بن الأسود خارجاً، فكان بذي طُوًى أخرج قِداحه، واستقسم بها، فخرج النّاهي عن الخروج، فلقي غيظاً، ثم أعادها الثانية فخرج مثل ذلك فكسرها، وقال: ما رأيت كاليوم قِدْحاً أكذب! ومرّ به سُهَيل بن عمرو وهو على تلك الحال، فقال: ما لي أراك غضبان يا أبا حُكَيمة؟ فأخبره زمْعة، فقال: امضِ عنك أيّها الرجل، قد أخبرني عُمير بن وهب أنّه لقيَه مثل الّذي أخبرتني، فمضوا على هذا الحديث.

قال الواقديّ: وحدَّثني موسى بن ضمْرة بن سعيد، عن أبيه، قال: قال أبو سفيان بن حرب لضَمْضَم: إذا قدمت على قريش فقل لها: لا تستقسم بالأزلام.

قال الواقديّ: وحدّثني محمد بن عبد الله، عن الزُّهريّ، عن أبي بكر بن سُليم بن أبي خَيْثمة، قال: سمعتُ حكيم بن حزام يقول: ما توجّهتُ وجهاً قطّ كان أكرهَ إليّ من مسيري إلى بدر، ولا بان لي في وجه قطّ ما بان لي قبل أن أخرج، ثم قال: قدم ضمضم، فصاح بالنّفير فاستقسمت بالأزلام، كلُّ ذلك يخرج الذي أكره، ثم خرجت على ذلك حتى نزلنا مَرّ الظّهْران، فنحَر ابنُ الحنظلية جَزُوراً منها بها حياة، فما بقيَ خِباء من أخبيه العسكر إلاّ أصابه من دمها، فكان هذا بيّن، ثم هممتُ بالرجوع، ثم أذكر ابن الحنظليّة وشؤمه، فيردّني حتى مضيت لوجهي. وكان حكيم يقول: لقد رأينا حين بلغنا الثنيّة البيضاء - وهي الثنيّة التي تهبطك على فَخّ وأنت مُقْبِل من المدينة - إذا عدّاس جالس عليها. والناس يمرُّون، إذ مَرّ علينا ابنا ربيعة، فوثب إليهما، فأخذ بأرجلهما في غَرْزِهما، وهو يقول: بأبي أنتما وأمّي! والله إنه لرسولُ الله صلى الله عليه، وما تُساقانِ إلاّ إلى مصارعكما! وإن عينيْه لتسيل دمعاً على خدّيه، فأردت أن أرجع أيضاً، ثم مضيت. ومرّ به العاص بنُ منبّه بن الحجّاج، فوقف عليه حين ولّى عُتْبة وشَيْبة، فقال: ما يُبْكيك؟ قال: يبكيني سيّدي - أو سيّدا أهل الوادي - يخرجان إلى مصارعهما، ويقاتلان رسول الله ﷺ! فقال العاص: وإنّ محمداً لرسول الله! فانتفض عدّاس انتفاضة واقشعرّ جلدُه، ثم بكى، وقال: إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافّة. قال: فأسلم العاص بن منبّه، ومضى وهو على الشكّ، حتى قُتِل مع المشركين على شكّ وارتياب. ويقال: رجع عدّاس ولم يشهد بدراً، ويقال: شهد بدراً وقتل.

قال الواقدي: والقول الأوّل أثبت عندنا.

(١) الأزلام: سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية. القاموس، مادة (زلم).

قال الواقديّ: وخرج سعد بن مُعاذ معتمراً قَبْل بدر، فنزل على أميّة بن خلف، فأتاه أبو جهل، وقال: أتترك هذا وقد آوَى محمداً وآذَنَنا بالحرب! فقال سعد بن معاذ: قل ما شئت، أما إنّ طريق عيركم علينا، قال أميّة بن خلف: مَهْ! لا تقلْ هذا لأبي الحكم فإنه سيّد أهل الوادي. قال سعد بن معاذ: وأنت تقول ذلك يا أميّة؟ أما والله لَسمِعت محمداً يقول: لأقتلنّ أمية بن خلَف، قال أمية: أنت سمعتَه؟ قال سعد بن معاذ: فقلت: نعم، قال: فوقع في نفسه، فلما جاء النّفير أبَى أميّة أن يخرج معهم إلى بدر، فأتاه عُقْبة بن أبي مُعَيْط وأبو جهل، ومع عقبة مَجْمرة فيها بَخور، ومع أبي جهل مكحلة ومِرْود[1]، فأدخلها عقبة تحته، فقال: تبخّر، فإنما أنت امرأة، وقال أبو جهل: اكتحل فإنما أنت امرأة. فقال أميّة: ابتاعوا لي أفضل بعيرٍ في الوادي، فابتاعوا له جملاً بثلاثمائة دينار من نَعم بني قُشير، فغنِمه المسلمون يوم بَدْر، فصار في سهم خُبَيب بن يساف.

قال الواقديّ: وقالوا: ما كان أحد ممّن خرج إلى العِير أكرَه للخروج من الحارث بن عامر، وقال: ليت قريشاً تعزم على القعود وأن مالي في العير تلف ومال بني عبد مناف أيضاً. فيقال له: إنّك سيّدٌ من ساداتها، أفلا تردعها عن الخروج؟ قال: إنّي أرى قريشاً قد أزمعت على الخروج، ولا أرى أحداً به طِرْق تخلّف إلاّ من علّة، وأنا أكره خلافها، وما أحبّ أن تعلم قريش ما أقول، على أنّ ابن الحنظليّة رجل مشؤوم على قومه، ما أعلمه إلاّ يحرز قومه أهل يثرب، ولقد قسم الحارث مالاً من ماله بين ولده، ووقع في نفسه أنه لا يرجع إلى مكة، وجاءه ضمضم بن عمرو، وكانت للحارث عنده أياد، فقال: أبا عامر، إني رأيت رؤيا كرهتُها، وإني لكاليَقْظان على راحلتي وأراكم أنّ واديَكم يسيل دماً من أسفله إلى أعلاه، فقال الحارث: ما خرج أحد وجهاً من الوجوه أكرَه له من وجهي هذا، قال: يقول ضمضم: والله إني لأرى لك أن تجلس، فقال: لو سمعت هذا منك قبل أن أخرُج ما سرت خطوة، فاطوِ هذا الخبر أن تعلمه قريش، فإنها تتهم كلّ مَنْ عوّقها عن المسير - وكان ضمضم قد ذكر هذا الحديث للحارث ببطن يأجج - قالوا: وكرهت قريش أهل الرّأي منهم المسيرَ، ومشى بعضُهم إلى بعض، وكان ممّن أبطأ بهم عن ذلك الحارث بن عامر، وأميّة بن خلف، وعُتْبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام وأبو البَخْتريّ، وعليّ بن أميّة بن خلف، والعاص بن منبّه، حتى بكّتهم أبو جهل بالجُبن، وأعانه عُقْبة بن أبي مُعَيط والنّضر بن الحارث بن كلَدة، وحضُّوهم على الخروج، وقالوا: هذا فعل النساء. فأجمعوا المَسير، وقالت قريش: لا تدَعُوا أحداً من عدوّكم خَلْفكم.

قال الواقديّ: وممّا استدلّ به على كراهة الحارث بن عامر للخروج وعُتْبة وشَيْبة، أنّه ما عرض رجل منهم حُملاناً، ولا حملوا أحداً من الناس، وإن كان الرجل ليأتيهم حليفاً أو

(١) المِرْود: الميل. اللسان، مادة (رود).

عديداً، ولا قوّة له، فيطلب الحملان منهم، فيقولون: إن كان لك مال وأحببتَ أن تخرج فافعل وإلاّ فأقم، حتى كانت قريش تعرف ذلك منهم.

قال الواقديّ: فلما اجتمعت قريش إلى الخروج والمسير، ذكروا الذي بينهم وبين بني بَكْر من العداوة، وخافوهم على مَنْ يخلفونه، وكان أشدّهم خوفاً عُتْبة بن ربيعة، وكان يقول: يا معشَر قريش، إنكم وإن ظفرتم بالّذي تريدون، فإنّا لا نأمن على مَنْ نخلّف، إنّما نخلِّف نساء ولا ذرّيّة ومن لا طَعم به فارتؤوا آراءكم، فتصوّر لهم إبليس في صورة سُراقة بن جعشم المدلجيّ فقال: يا معشر قريش، قد عرفتم شرفي ومكاني في قومي، أنا لكم جار أن تأتِيَكم كنانة بشيء تكرهونه، فطابت نفس عُتْبة، وقال له أبو جهل: فما تريد؟ هذا سيّد كنانة، هو لنا جارٌ عَلَى من نخلّف، فقال عتبة: لا شيء، أنا خارج.

قال الواقديّ: وكان الّذي بين بني كنانة وقريش أنّ ابناً لحفص بن الأحنف أحد بني مُعَيط بن عامر بن لؤي، خرج يبغي ضالّة، وهو غلام في رأسه ذؤابة، وعليه حُلّة، وكان غلاماً وضيئاً، فمرّ بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوّح بن يعمر، أحد رؤساء بني كنانة - وكان بضَجْنان - فقال: مَنْ أنت يا غلام؟ قال: ابن لحفص بن الأحنف، فقال: يا بني بكْر، ألكم في قريش دم؟ قالوا: نعم، قال: ما كان رجل يقتل هذا برجله إلاّ استوفى، فاتبعه رجلٌ من بني بكر فقَتله بدمٍ له في قريش، فتكلّمت فيه قريش، فقال عامر بن يزيد: قد كانت لنا فيكم دماء، فإن شئتم فأدُّوا ما لنا قبَلكم ونؤدّي إليكم ما كان فينا، وإن شئتم فإنّما هو الدّم، رجل برجل، وإن شئتم فتجافَوْا عنّا فيما قبَلنا، ونتجافى عنكم فيما قبلَكم. فهان ذلك الغلام على قريش، وقالوا: صدق! رجل برجل، فلهَوْا عنه أن يطلبوا بدمه، فبينا أخوه مكرز بن حفص بمرّ الظَّهران، إذ نظر عامر بن يزيد وهو سيّد بني بكْر على جمل له، فلما رآه قال: ما أطلب أثراً بعد عين! وأناخ بعيره، وهو متوشّح سيفَه، فعلاه به حتى قتله، ثم أتى مكّة من الليل، فعلّق سيف عامر بن يزيد بأستار الكعبة، فلما أصبحت قريش رأوْا سيف عامر بن يزيد، فعرفوا أن مكْرز بن حفص قتله، وقد كانت تسمع من مكْرز في ذلك قولاً، وجزعت بنو بكْر من قتل سيّدها، فكانت معدّة لقتل رجلين من قريش سيّدين أو ثلاثة من ساداتها، فجاء النّفير وهم على هذا الأمر، فخافوهم على مَنْ تخلّف بمكة من ذراريّهم، فلما قال سراقة ما قال، وهو ينطق بلسان إبليس شجُع القوم.

قال الواقديّ: وخرجت قريش سِراعاً، وخرجوا بالقيان والدّفوف، سارة مولاة عمرو بن هاشم بن عبد المطلب وعزّة مولاة أسود بن المطلب، وفلانة مولاة أميّة بن خلَف، يغنّين في كلّ منهل، وينحرون الجُزر، وخرجوا بالجيش يتقاذفون بالحراب، وخرجوا بتسعمائة وخمسين مقاتلاً، وقادوا مائة فَرَس، بطراً ورئاء الناس، كما ذكر الله تعالى في كتابه، وأبو جهل يقول: أيظنّ محمد أن يصيب منّا ما أصاب بنخْلة وأصحابه، سيعلم أنمنع عيرنا أم لا!

قلت: سرّية نخلة سرّية قبل بَدْر، وكان أميرها عبدَ الله بن جَحْش قتل فيها عمرو بن الحضرميّ، حليف بن عَبْد شمس، قتله واقد بن عبد الله التميميّ، رماه بسهم فقتله، وأسر الحكم بن كَيْسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، واستاق المسلمون العِير، وكانت خمسمائة بعير فخمّسها رسول الله ﷺ، وقسّم أربعمائة فيمنْ شهدها من المسلمين، وهم مائتا رجل، فأصاب كلّ رجل بعيران.

قال الواقديّ: وكانت الخيل لأهل القوّة منهم، وكان في بني مخزوم منها ثلاثون فرساً، وكانت الإبل سبعمائة بعير، وكان أهل الخيل كلّهم دارع، وكانوا مائة، وكان في الرّجالة دروع سوى ذلك.

قال الواقديّ: وَأقبل أبو سفيان بالعير، وخاف هو وأصحابه خوفاً شديداً حين دنوْا من المدينة، واستبطؤوا ضمضماً والنّفير، فلمّا كانت الليلة التي يُصْبحون فيها على ماء بدر، جعلت العير تقبِلُ بوجوهها إلى ماء بدر، وكانوا باتوا من وراء بدر آخرَ ليلتهم، وهم على أن يُصبحوا بدراً، إن لم يعترض لهم، فما أقرّتهم العير حتى ضربوها بالعُقُل على أن بعضها ليُثْنَى بعِقَالين، وهي ترجّع الحنين، توارداً إلى ماء بدر، وما إنْ بها إلى الماء من حاجة، لقد شربت بالأمس، وجعل أهل العير يقولون: إن هذا شيء ما صَنَعَتْه الإبل منذ خرجنا، قالوا: وغشينا تلك الليلة ظُلمة شديدة حتى ما نبصر شيئاً.

قال الواقديّ: وكان بسبس بن عمرو وعديّ بن أبي الزّغبار وَرَدَا على مجديّ بدراً يَتَجسّسان الخبر، فلما نزلا ماء بدر، وأناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء، ثم أخذا أسقيتهما، يسقيان من الماء، فسمعا جاريتين من جواري جُهينة، يقال لإحداهما برزة وهي تلزم صاحبتها في درهم، كان لها عليها وصاحبتها تقول: إنّما العير غداً أو بعد غد قد نزلت، ومجديّ بن عمر يسمعها، فقال: صدقت، فلما سمع ذلك بسبس وعديّ انطلقا راجعين إلى النبيّ ﷺ حتى أتياه بعرْق الظبية، فأخبراه الخبر.

قال الواقديّ: وحدّثني كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المُزَنيّ، عن أبيه، عن جدّه - وكان أحدَ البكّائين - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد سلك فَجّ الرَّوحاء موسى النبي عليه السلام في سبعين ألفاً من بني إسرائيل وصلُّوا في المسجد الذي بعِرق الظَّبْية**»(١).

قال الواقديّ: وهي من الرَّوْحاء على ميلين ممّا يلي المدينة، إذا خرجت على يسارك.

قال الواقديّ: وأصبح أبو سفيان ببدْر، قد تقدم العِير وهو خائف من الرَّصَد فقال: يا مجديّ، هل أحسست أحداً! تعلّم والله ما بمكة قرشيّ ولا قرشية له نُشّ فصاعداً - والنّش

---

(١) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٤١٦٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩٦١٨).

نصف أوقية وزن عشرين درهماً - إلاّ وقد بعث به معنا! ولئن كتمتَنا شأن عدوّنا لا يصالحك رجلٌ من قريش ما بلّ بحْر صوفة. فقال مجديّ: والله ما رأيت أحداً أنكره، ولا بينك وبين يثرب من عدوّ، ولو كان بينك وبينها عدوّ لم يخْفَ علينا، وما كنت لأخفيَه عنك، إلاّ أني قد رأيت راكبيْن أتيا إلى هذا المكان - وأشار إلى مناخ عديّ وبسبس - فأناخا به، ثم استقيا بأسقيتهما، ثم انصرفا. فجاء أبو سفيان مناخهما، فأخذ أبعاراً من أبعار بعيريْهما ففتّها، فإذا فيها نوًى، فقال: هذه والله علائف يثرب! هذه والله عيون محمد وأصحابه، ما أرى القوم إلا قريباً، فضرب وجه عيره، فساحل بها، وترك بدراً يساراً وانطلق سريعاً، وأقبلت قريش من مكّة ينزلون كلّ منهل يطعمون الطعام مَنْ أتاهم، وينحرون الجزور، فبينا هم كذلك في مسيرهم إذ تخلّف عتبة وشَيْبة، وهما يتردّدان.

قال أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب! لقد خشيتُ منها، قال الآخر: فاذكرها، وذكرها، فأدركهما أبو جهل، فقال: ما تتحادثون به؟ قالا: نذكر رؤيا عاتكة، قال يا عجباً من بني عبد المطلّب! لمْ يرضَوْا أن تتنبّأ علينا رجالهم حتى تنبأت علينا النساء! أما والله لئن رجعنا إلى مكة لنفعلنّ بهم ولنفعلنّ! قال عتبة: إنّ لهم أرحاماً وقرابة قريبة. ثم قال أحدهما لصاحبه: هل لك أن ترجع؟ قال أبو جهل: أترجعان بعد ما سرنا فتخذلان قومكما، وتقطعان بهم بعد أن رأيتم ثأركم بأعينكم! أتظنّان أنّ محمداً وأصحابه يلاقونكما! كلاّ والله، إن معي مِنْ قومي مائة وثمانين كلّهم من أهل بيتي يحلّون إذا أحللت، ويرحلون إذا رحلت، فارجعا إن شئتما. قالا: والله لقد هلكت وأهلكت قومك.

ثم قال عتبة لأخيه شيبة: إن هذا رجل مشؤوم - يعني أبا جهل - وإنه لا يمسّه من قرابة محمد ما يمسّنا، مع أنّ محمداً معه الولد فارجع بنا ودع قوله.

قلت: مراده بقوله «مع أن محمداً معه الولد»، أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة، كان أسلم وشهد بدراً مع رسول الله ﷺ.

قال الواقدي: فقال شيبة: والله تكون علينا سُبّة يا أبا الوليد أن نرجع الآن بعد ما سرنا فمضينا. ثم انتهى إلى الجُحفة عشاء، فنام جُهيم بن الصّلْت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال: إنّي لأرى بين النّائم واليقظان، أنظرُ إلى رجل أقبل على فرسٍ معه بعير له، حتى وقف عليّ، فقال: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وزمعة بن الأسود، وأميّة بن خلف، وأبو البختريّ، وأبو الحكم، ونوفل بن خويلد، في رجال سمّاهم من أشراف قريش، وأسر سهيل بن عمرو، وفرّ الحارث بن هشام عن أخيه، قال: وكأنّ قائلاً يقول: والله إني لأظنّهم الذين يخرجون إلى مصارعهم. ثم قال: أراه ضرب في لَبّة بعيره فأرسله في العسكر، فقال أبو جهل: وهذا نبيّ آخر من بني عبد مناف! ستعلم غداً مَن المقتول، نحن أو محمد وأصحابه! وقالت

قريش لجُهيم: إنّما يلعب بك الشيطان في منامِك، فسترى غداً خلافَ ما رأيت! يُقتَل أشراف محمد ويؤسرون. قال: فخلا عتبة بأخيه شيبة، فقال له: هل لك في الرّجوع؟ فهذه الرؤيا مثل رؤيا عاتكة، ومثل قول عدّاس، والله ما كذبَنَا عدّاس، ولعمري لئن كان محمد كاذباً إنّ في العرب لمن يكفيناه، ولئن كان صادقاً إنّا لأسعد العرب به لِلُحمته. فقال شيبة: هو على ما تقول، أفنرجع من بين أهل العسكر؟ فجاء أبو جهل وهما على ذلك فقال: ما تريدان؟ قالا: الرجوع، ألا ترى إلى رؤيا عاتكة، وإلى رؤيا جُهيم بن الصلت مع قول عدّاس لنا! فقال: لا تَخذُلان والله قومكما وتقطعان بهم. قالا: هلكت والله وأهلكت قومَك! فمضيا على ذلك.

قال الواقديّ: فلما أفلت أبو سفيان بالعير، ورأى أنْ قد أحرزها وأمِن عليها، أرسل إلى قريش قيسَ بن امرئ القيس - وكان مع أصحاب العِير - خرج معهم من مكّة، فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع، ويقول: قد نجتْ عيرُكم وأموالُكم، فلا تحرزوا أنفسَكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، إنما خرجتم لتمنعوا عِيرَكم وأموالَكم، وقد نجّاها الله. فإن أبوا عليك فلا يَأبَوْن خَصْلة واحدة، يردّون القيان. فعالج قيس بن امرىء القيس قريشاً، فأبت الرجوع. قالوا: أمّا القِيان فسنردّهن، فردّوهن من الجُحفة.

قلت: لا أعلم مراد أبي سفيان بردّ القيان، وهو الذي أخرجهنّ مع الجيش يوم أُحُد يحرّضن قريشاً على إدراك الثأر، ويغنّين، ويضربْنَ الدّفوف، فكيف نهى عن ذلك في بدر وفعله في أُحد! وأقول: مَنْ تأمّل الحال علم أنّ قريشاً لم يمكن أن تنتصرَ يوم بدر؛ لأنّ الذي خالطها من التخاذُل والتّواكل وكَراهيَة الحرب وحبّ الرجوع وخوف اللقاء وخُفوق الهِمَم وفتور العزائم، ورجوع بني زُهرة وغيرهم من الطريق، واختلاف آرائهم في القتال، يكفي بعضه في هلاكهم وعدم فلاحهم، لو كانوا قد لَقُوا قوماً جُبناء، فكيف وإنما لَقُوا الأوْس والخزْرج، وهم أشجع العرب، وفيهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام وحَمْزة بن عبد المطلب، وهما أشجع البَشَر، وجماعة من المهاجرين أنجاد أبطال، ورئيسهم محمد بن عبد الله، رسول الله صلى الله عليه وآله، الداعي إلى الحق والعدل والتوحيد، المؤيّد بالقوّة الإلهيّة، دع ما أضيف إلى ذلك من ملائكة السماء، كما نطق به الكتاب!

قال الواقدي: ولحِق الرسول أبا سفيان بالهَدّة - والهَدّة على سبعة أميال من عُقبة عُسفان، على تسعة وثلاثين ميلاً من مكّة - فأخبره بمضي قريش، فقال: واقوماه! هذا عمل عمرو بن هشام، يكره أن يرجع لأنه قد ترأس عَلَى الناس وبغى، والبغي منقصة وشؤم، والله لئن أصاب أصحابَ محمد النّفير ذللنا إلى أن يدخل مكّة علينا.

قال الواقديّ: وقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرِدَ بدراً - وكانت بدر موسماً من مواسم العرب في الجاهليّة، يجتمعون بها وفيها سوق - تسمع بنا العرب وبمسيرنا، فنقيم على بَدْر ثلاثاً،

ننحر الجزُر ونطعم الطّعام، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، فلن تزال العرب تهابنا أبداً.

قال الواقديّ: وكان الفرات بن حيّان العِجليّ أرسلته قريش حين فَصَلت من مكّة إلى أبي سفيان بن حرب يخبره بمسيرها وفصولها، وما قد حشدت. فحالف أبا سفيان في الطريق، وذلك أنّ أبا سفيان لصِق بالبحر، ولزم الفُرات بن حيّان المحجّة، فوافَى المشركين بالْجُحْفة، فسمع كلام أبي جهل، وهو يقول: لا نرجع، فقال: ما بأنفسِهم عن نفسك رغبة! وإن الذي يرجع بعد أن رأى ثأره من كَثَب لضعيف، فمضى مع قريش، فترك أبا سفيان، وجرح يوم بَدْر جراحات كثيرة، وهرب على قدميْه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم أمراً أنكد! إنّ ابن الحنظليّة لغير مُبارك الأمر.

قال الواقديّ: وقال الأخنس بن شَريق - واسمه أُبَيّ، وكان حليفاً لبني زُهْرة: يابني زهرة، قد نجّى الله عِيرَكم، وخلّص أموالكم، ونجّى صاحبَكم مَخْرمة بن نوفل، وإنما خرجتم لتمنعوه وماله، وإنما محمد رجل منكم، ابن أختكم، فإن يك نبيًّا فأنتم أسعد به، وإن يك كاذباً يلي قتله غيركم خير من أن تَلُوا قتل ابن أختكم، فارجعوا واجعلوا خَبْنها لي، فلا حاجة لكم أن تخرجوا في غير ما يهمّكم، ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعني أبا جهل - فإنه مهلِك قومَه، سريع في فسادهم، فأطاعته بنو زُهرة، وكان فيهم مُطاعاً، وكانوا يتيّمنون به، فقالوا: فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع؟ فقال الأخنس: نسير مع القوم، فإذا أمسيت سقطت عن بعيري، فيقولون: نحل الأخنس، فإذا أصبحوا فقالوا: سيروا، فقولوا: لا نفارق صاحبَنا، حتى نعلم أحيّ هو أم ميت، فندفنه، فإذا مضوْا رجعنا إلى مكة. ففعلت بنو زهرة ذلك، فلمّا أصبحوا بالأبواء راجعين تبيّن للناس أنّ بني زُهرة رجعوا فلم يشهدها زُهريّ البَتّة، وكانوا مائة، وقيل: أقلّ من مائة وهو أثبت. وقال قوم: كانوا ثلاثمائة ولم يثبت ذلك.

قال الواقديّ: وقال عديّ بن أبي الزغباء منحدَرَه من بدر إلى المدينة، وانتشرت الركاب عليه، فجعل عديّ يقول:

أقِمْ لها صدورَها يا بَسْبَسُ ... إنّ مَطايا القومِ لا تُحَبَّسُ
وَحَمْلُها على الطَّريقِ أكْيَسُ ... قد نصرَ الله وفرّ الأخنسُ

قال الواقدي: وذكر أبو بكر بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، إنّ بني عديّ خرجوا من النَّفِير حتى كانوا بثنيّة لَفْت، فلمّا كان في السَّحَر عدلوا في الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان، فقال: كيف رجعتم يا بني عديّ! ولا في العير ولا في النفير! قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع، فرجع مَنْ رجع ومضى من مضى، فلم يشهدها أحد من بين عديّ. ويقال: إنه لاقاهم بمرّ الظَّهْران، فقال تلك المقالة لهم.

قال الواقديّ: وأمّا رسول الله ﷺ، فكان صبيحة أربع عشرة من شهر رمضان بعرق

الظَّبْية، فجاء أعرابيٌ قد أقبل من تِهامة، فقال له أصحاب النبي ﷺ: هل لك علم بأبي سفيان بن حرب؟ قال: ما لي بأبي سفيان عِلْم، قالوا: تعال، فسلم على رسول الله ﷺ، قال: أوَفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: فأيّكم رسول الله؟ قالوا: هذا، فقال: أنت رسول الله؟ قال: نعم، قال: فما في بطن ناقتي هذه إن كنت صادقاً؟ فقال سلمة بن سلامة بن وقش: نكحتَها وهي حُبْلى منك! فكره رسول الله ﷺ مقالته، وأعرض عنه[1].

قال الواقديّ: وسار رسول الله ﷺ حتّى أتى الرَّوْحاء ليلةَ الأربعاء، للنّصف من شهر رمضان، فقال لأصحابه: هذا سجاسج - يعني وادي الروحاء - هذا أفضل أودية العرب.

قال الواقديّ: وصلّى رسول الله ﷺ بالرَّوحاءِ، فلمّا رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتْره لعنَ الكفَرة، ودَعا عليهم، فقال: **«اللهّم لا تفلتنّ أبا جهل بن هشام فِرْعون هذه الأمة، اللهمّ لا تفلتنّ زَمْعة بن الأسود، اللهمّ أسخِنْ عين أبي زَمْعة! اللهمّ أعم بصر أبي دبيلة. اللهمّ لا تفلتنّ سهيل بن عمرو!»**[2] ثم دعا لقوم من قريش، فقال: **«اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين»**[3]، ولم يدع للوليد بن المغيرة يومئذٍ، وأسر ببدر، ولكنّه لما رجع إلى مكّة بعد بدر أسلم، وأراد أن يخرج إلى المدينة فحبس، فدعا له النبي ﷺ بعد ذلك.

قال الواقديّ: وكان خُبيب بن يِسَاف رجلاً شجاعاً، وكان يأبَى الإسلام، فلما خرج النبيّ ﷺ إلى بدْر خرج هو وقيس بن محرّث - ويقال ابن الحارث - وهما على دين قومهما، فأدركا رسول الله ﷺ بالعقيقي، وخُبَيب مقنّعٌ في الحديد، فعرفه رسول الله ﷺ من تحتِ المغْفَر، فالتفت إلى سعد بن معاذ وهو يسير إلى جَنْبه، فقال: أليس بخُبيب بن يِساف؟ قال: بلى، فأقبل خُبيب حتى أخذ ببِطان ناقة رسول الله ﷺ، فقال له ولقيس بن محرّث: ما أخرجَكما؟ قال: كنتَ ابنَ اختنا وجارنا، وخرجنا مع قومنا للغنيمة، فقال ﷺ: **«لا يخرجنّ معنا رجلٌ ليس على ديننا»**، فقال خُبَيب: لقد علم قومي أنّي عظيم الغَناء في الحرب، شديد النّكاية، فأقاتل معك للغنيمة ولا أسلم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لا ولكن أسْلِم ثم قاتل»**[4]،

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٧٦٧).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٩/ ٣٣٢.

(٣) أخرجه البخاري كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة (٦٧٥)، والنسائي، كتاب: التطبيق، باب: القنوت في صلاة الصبح (١٠٧٣)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في «القنوت» (١٢٤٤).

(٤) أخرجه محمد الريشهري في ميزان الحكمة: ٢/ ١٤٣٧.

فلما كان بالروحاء جاء فقال: يا رسولَ الله، أسلمت لربّ العالمين، وشهدت أنّك رسول الله، فسرّ بذلك، وقال: امضِه، فكان عظيم الغَناء في بدْر وفي غير بدر. وأمّا قيس بن الحارث فأبى أن يُسلم، فرجع إلى المدينة، فلما قدم النبيّ ﷺ من بَدْر أسلم وشهد أحُداً فقتل.

قال الواقديّ: ولما خرج رسول الله ﷺ صامَ يوماً أو يومين، ثم نادى مناديه: يا معشرَ العصاة، إني مفطر، فأفطِرُوا، وذلك أنه قد كان قال لهم قبل ذلك: أفطروا فلم يفعلوا.

قلت: هذا هو سرّ النبوّة وخاصيّتها، إذا تأمّل المتأملون ذلك، وهو أن يبلغ بهم حبُّه وطاعتُه وقبولُ قوله على أن يكلّفهم ما يشقّ عليهم فيمتثلوه امتثالاً صادراً عن حبّ شديد وحرص عظيم على الطاعة، حتى إنه لينسخه عنهم ويسقط وجوبَه عليهم، فيكرهون ذلك ولا يُسقِطونه عن أنفسهم، إلاّ بعد الإنكار التّام، وهذا أحسن من المعجزات الخارقة للعادات، بل هذا بعينه معجزة خارقة للعادة أقوى وآكد من شقّ البحر وقلب العصا حيّة!

قال الواقديّ: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دُوَيْن بدر، أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبر رسول الله ﷺ بمسيرهم، واستشار الناس فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قال: يا رسولَ الله، إنها قريش وعزّها والله ما ذلّت منذ عزت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنّك، فاتّهب لذلك أهبته، وأعدّ عدّته، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[1]، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا معكم مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى برك الغِماد لسرنا.

قال الواقدي: بِرْك الغِماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم قال ﷺ: «أشيروا عليّ أيّها الناس» - وإنما يريد الأنصار، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلا في الدار، وذلك أنهم شرطوا أن يمنعوه ممّا يمنعون منه أنفسهم وأولادهم، فقال رسول الله ﷺ: «أشيرُوا عليّ»، فقام سعد بن مُعاذ، فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسولَ الله تريدنا! قال: أجَل، قال: إنك عسى أن تكون خرجت عن أمر قد أوحِيَ إليك، وإنا قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حق، وأعطيناك مواثيقَنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبيّ الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك ما بقيَ منّا رجل، وصِلْ مَنْ شئت، وخذ من أموالنا ما أردت، فما أخذته من أموالنا أحبُّ إلينا ممّا تركتَ، والذي نفسي

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

بيده ما سلكت هذه الطريق قطّ، وما لي بها من علم، وإنا لا نكره أن نلقى عدوّنا غداً، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُق عند اللّقاء، لعل الله يريك منا بعضَ ما تقرّ به عينك[(١)].

قال الواقديّ: وحدّثني محمد بن صالح عن عاصم بن عمر بن قَتادة، عن محمود بن لَبِيد قال: قال سعد بن مُعاذ يومئذٍ: يا رسولَ الله، إنا قد خَلّفنَا من قومنا قوماً ما نحنُ بأشدّ حبًّا لك منهم، ولا أطوعَ رغبة ونيّة في الجهاد، ولو ظنُّوا أنّك يا رسولَ الله ملاقٍ عدوًّا ما تخلّفوا عنك، ولكن إنّما ظنوا أنّها العِير. نبني لك عريشاً، فتكونُ فيه ونُعِدّ عندك رواحلك، ثم نلقى عدوّنا، فإنْ أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا، كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى، جلستَ على رواحِلك، فلحقت منْ وراءنا. فقال له النبيّ ﷺ خيراً، ثم قال: «**أو يقضي الله خيراً يا سعد**»!

قال الواقديّ: فلمّا فرغ سعد من المشُورة، قال رسول الله ﷺ: «**سيرُوا على بَرَكةِ الله، فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم**».

قال الواقديّ: وقالوا: لقد أرانا رسول الله ﷺ مصارعَهم يومئذٍ، هذا مصرع فلان، وهذا مَصْرع فلان، فما عدا كلّ رجل منهم مصرعه[(٢)]، قال: فعلم القوم أنّهم يلاقون القتال، وأنّ العير تفلّتُ، ورجا القوم النّصر لقول النبي ﷺ.

قال الواقديّ: فمن يومئذٍ عَقَد رسول الله ﷺ الألوية، وكانت ثلاثة، وأظهر السّلاح، وكان خرج من المدينة على غيرِ لواءٍ معقودٍ، وسار فلقيَ سُفْيان الضَّمْريّ، ومع رسول الله ﷺ قتادة بن النّعمان ومعاذ بن جبل، فقال رسول الله ﷺ: «**من الرّجل؟**» فقال الضّمريّ: بل ومَنْ أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**تخبرُنا ونخبرُك**»، فقال الضّمري: وذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الضَّمْريّ: فاسألوا عمّا شئتم، فقال له ﷺ: «**أخبِرْنا عن قُريش**»، قال الضمري: بلغني أنّهم خرجوا يوم كذا من مكة، فإن كان الخبر صادقاً، فإنهم بجنْبِ هذا الوادي، ثم قال الضَّمْرِيّ: فمن أنتم؟ فقال النبيّ ﷺ: «**نحن مِنْ ماء**»[(٣)]، وأشار بيده نحو العِراق، فجعل الضّمْرِيّ يقول: من ماء! من أي ماء؟ من العراق أم من غيره؟ ثم انصرفَ رسول الله ﷺ إلى أصحابِه.

قال الواقديّ: فبات الفريقانِ كلّ منهم لا يعلم بمنزل صاحبه، إنما بينهم قَوْزٌ من رمل.

قال الواقديّ: ومرّ رسول الله ﷺ بجبَلين، فسأل عنهما فقالوا: هذا مُسْلِح ومُخرِىء،

---

(١) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١/ ١٥٨)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٤).

(٢) أخرج نحوه النسائي، كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٤٧)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (١٨٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١/ ١٥٩)، وابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ١٦٣).

فقال: مَنْ ساكنهما؟ فقيل: بنو النّار وبنو حرّاق، فانصرف عنهما وجعلهما يساراً. ولقيه بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء فأخبراه خبرَ قريش، ونزل رسول الله ﷺ وادي بدْر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، فبعث علياً عليه السلام والزّبير وسعد بن أبي وقاص وبَسْبس بن عمرو يتحسّسون على الماء، وأشار لهم إلى ظُرَيب، وقال: أرجو أن تجدُوا الخير عند القليب الذي يَلي هذا الظّريب، فاندفعوا تلقاءه، فوجدوا على تلك القليب رَوايا قريش فيها سُقّاؤهم، فأسروهم، وأفلت بعضُهم، فكان مِمّن عرف أنه أفلت عجير، فكان أوّلَ مَنْ جاء قريشاً بخبر النبي ﷺ وأصحابه، فنادى: يا آل غالب! هذا ابنُ أبي كبْشة وأصحابه، وقد أخذوا سُقّاءكم، فماج العسكر وكرِهُوا ما جاء به.

قال الواقديّ: فكان حكيم بن حزام يحدّث، قال: كنّا يومئذٍ في خِباء لنا على جَزُور نشوِي من لحمها، فما هو إلا أنْ سمِعْنَا الخبر، فامتنع الطعام منّا، ولقي بعضُنا بعضاً، ولقيني عُتْبة بن ربيعة، فقال: يا أبا خالد، ما أعلم أحداً يسير أعجبَ من مسيرنا، إنّ عيرنا قد نجتْ، وإنا جئنا إلى قوم في بلادهم بغياً عليهم، فقلت: أراه لأمرٍ حُمّ، ولا رأي لمن لا يطاع! هذا شؤم ابن الحنظليّة، فقال عتبة: أبا خالد، أتخاف أنْ تبيّتنا القوم؟ قلت: لأنت آمن من ذلك، قال: فما الرأي يا أبا خالد؟ قلت: نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم.

قال عُتْبة: هذا الرّأي، قال: فتحارسْنا حتى أصبحنا، فقال أبو جهل: هذا عن أمرِ عُتْبة كره قتال محمد وأصحابه، إنّ هذا لهو العجَب، أتظنون أن محمداً وأصحابه يعترضون لجمعكم! والله لأنتحيَن ناحية بقومي فلا يحرسنا أحد، فتنحّى ناحية، وإنّ السماء لتمطِرُ عليه، قال: يقول عتبة: إنّ هذا لهو النَّكَد.

قال الواقديّ: أُخِذَ من السُّقّاء من على القَلِيب يَسار غلام سعيد بن العاص، وأسلم غلام منبّه بن الحجّاج، وأبو رافع غلام أميّة بن خلف، فأتى بهم النبيّ ﷺ وهو قائم يصلّي، فسألهم المسلمون، فقالوا: نحن سُقّاء قريش، بعثونا نسقِيهم من الماء، فكره القوم خبرَهم، ورجوا أن يكونوا لأبي سفيان وأصحاب العير، فضربوه، فلمّا أذلقوهم بالضّرْب، قالوا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العِير، وهذا العير بهذا القَوز، فكانوا إذا قالوا ذلك يُمسِكُون عَنْ ضربهم، فسَلّم رسولُ الله ﷺ من صلاته، ثم قال: «**إن صدقوكم ضربتموهم، وإن كذبوكم تركتموهم**»(١)! فقال أصحابُه: إنّهم يا رسولَ الله يقولون: إن قريشاً قد جاءت، فقال: «**لقد صدقوكم! خرجت قريش تمنعُ عيرها وخافوكم عليها**»(٢)، ثم أقبلَ ﷺ على السُّقّاء، فقال:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٧٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ١٤٢، وذكره ابن كثير تفسيره: ٢/ ٣٢٧.

«أين قريش؟» فقالوا: خلف هذا الكثيب الّذِي ترى، قال: «كم هم؟» قالوا: كثير، قال: «كم عددهم؟» قالوا: لا ندري، قال: «كم ينحَرُون؟» قالوا: يوماً عشرة ويوماً تسعة، فقال: القوم ما بين الألف والتسعمائة، ثم قال للسُّقّاء: «كم خرج من أهلِ مكة؟» قالوا: لم يبق أحد به طعم إلا خرج، فأقبل رسول الله ﷺ على النّاس، فقال: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبِدها»[١]، ثم سألهم رسول الله ﷺ: «هل رجع منهم أحد»؟ قالوا: نعم رجع بن أبي شريق ببني زهرة، فقال ﷺ: «راشدهم، وما كان برشيد، وإن كان ما علمت لمعادياً لله ولكتابه»، ثم قال: «فأحد غيرهم»؟ قالوا: نَعمْ بنو عدِيّ بن كعب، فتركهم رسول الله ﷺ ثم قال لأصحابه: «أشيروا عليّ في المنزل»، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت منزلك هذا، أهو منزل أنزَلَكه الله، فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرّاي والحرْب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرّأيُ والحرْب والمكيدة»، قال: فإنّ هذا ليس بمنزل! انطلق بنا إلى أدْنَى مياه القوم، فإنّي عالم بها وبقُلبها، فإن بها قَلِيباً قد عرفت عذوبة مائها، وماؤها كثير لا ينزح، نبني عليها حَوْضاً، ونقذف فيها بالآنية فنشرب، ونقاتل، ونعوّر ما سواها من القُلُب[٢].

قال الواقديّ: فكان ابن عباس يقول: نزل جبريل عَلَى النبي ﷺ فقال: الرأي ما أشار به الحُباب فقال: يا حباب، أشرت بالرّأي، ونهض، وفعل كلّ ذلك.

قال الواقديّ: وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً - أي كثير الرمل - فأصاب المسلمين ما لبّد الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا معه أن يرتحلوا منه، وإنما بين الطائفتين قَوْز من رمل.

قال الواقديّ: وأصاب المسلمين تلك الليلة النُّعاس ألقيَ عليهم، فناموا ولم يصبهم من المطر ما يؤذيهم.

قال الزُّبير بن العوام: لقد سلّط الله عليهم النعّاس تلك الليلة، حتى إنّي كنت لأتشدّد، والنّعاس يجلد بي الأرض فما أطيق إلا ذلك، فكان رسول الله ﷺ وأصحابه على مثل ذلك الحال. وقال سعدُ بن أبي وقّاص: لقد رأيتُني، وإن ذَقني بين ثديي، فما أشعر حتى أقع على جنبي.

وقال رفاعة بن رافع بن مالك: لقد غلَبني النّوم، فاحتلمت حتى اغتسلت آخر الليل.

قال الواقديّ: فلمّا تحوّل رسول الله ﷺ إلى المنزل بعد أن أخذ السّقاء، أرسل عمار بن

---

(١) الأفلاذ: جمع فِلذة: وهي قطعة الكبد. اللسان، مادة (فلذ).

(٢) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١/ ١٦١)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ١٦٨).

ياسر وعبد الله بن مسعود، فأطافا بالقوم، ثم رجعا إليه فقالا له: يا رسولَ الله، القوم مذعورون فزِعون، إن الفرس ليريد أن يصهل فيضرب وجهه، مع أن السماءَ تَسُحُّ[1] عليهم.

قال الواقديّ: فلمّا أصبحوا قال منبِّه بن الحجّاج - وكان رجلاً يبصر الأثَر: هذا والله أثر ابنِ سُمَيّة، وابن أم عبْد، أعرفهما، لقد جاءنا محمد بسفهائنا وسفهاء أهل يثرب، ثم قال:

لم يترك الجوع لنا مَبيتَا   لا بدّ أن نَموت أو نُميتا

يا معشرَ قريش، انظروا غداً إن لقيَنا محمد وأصحابه، فاتّقوا على شبّانكم وفتيانكم، بأهل يثرب، فإنا إن نرجع بهم إلى مكة يبصروا من ضلالتهم ما فارقوا من دين آبائهم.

قال الواقديّ: ولما نزلَ رسولَ الله ﷺ على القَليب بُني له عريش من جَرِيد، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشحاً سيفَه، فدخلَ النبيّ ﷺ وأبو بكر.

قلت: لأعجبُ من أمرِ العريش، من أين كان لهم، أو معهم من سعَفِ النّخل ما يبنون به عريشاً، وليس تلك الأرض - أعني أرض بدر - أرضَ نخل، والّذي كان معهم من سعَف النخل يجري مجرى السلاح كان يسيراً جداً! قيل إنه كان بأيدي سبعة منهم سِعاف عوَضَ السيوف، والباقون كانوا بالسيّوف والسهام والقِسيّ، وهذا قول شاذّ، والصحيح أنه ما خلا أحدٌ منهم عن سلاح، اللهمّ إلا أنْ يكون معهم سعافات يسيرة، وظلل عليها بثوب أو سِتْر، وإلاّ فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجهاً!

قال الواقديّ: وصفّ رسول الله ﷺ أصحابه قبل أن تنزل قريش، فطلعت قريش ورسول الله ﷺ يصف أصحابه وقد أترعوا حوضاً يفرطون فيه من السحر، وقذفت فيه الآنية، ودفع رسول الله ﷺ رايتَه إلى مصعب بن عمير، فتقدم بها إلى الموضع الّذي أمره أن يضعها، ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغارب، وجعل الشمس خَلْفَه، وأقبل المشركون، فاستقبلوا الشمس، ونزل بالعُدْوة الدنيا من الوادي، ونزلوا بالعُدْوة اليمانيّة، وهي القصوى، وجاءه رجل من أصحابه فقال: يا رسولَ الله، إن كان هذا عن وحَيٌ فامض له، وإلا فإنّي أرى أن تعلوا الوادي، فإني أرى ريحاً قد هاجت من أعلاها، وأراها بعثت بنصرك. فقال رسول الله ﷺ: **«قد صففت صفوفي ووضعت رايتي، فلا أغيّر ذلك»**[2]. ثم دعا رسول الله ﷺ، فأمدّه الله بالملائكة.

قال الواقديّ: وروى عروة بن الزبير، قال: عَدّل رسول الله ﷺ الصّفوف يومئذٍ، فتقدم سواد بن غَزِيّة أمام الصفّ، فدفع النبي ﷺ بقِدْح في بطنه، وقال: استوِ يا سواد، فقال: أوجعتنِي والذي بعثك بالحقّ، أقِدْني، فكشف ﷺ عن بطنه، وقال: استقِدْ فاعتنقه وقبّله،

(١) تصب عليهم. القاموس المحيط، مادة (سحم).
(٢) أخرجه الصالحي الشامي في سبل الهدى: ٤/ ٣٣.

فقال: «ما حملك على ما صنعت»؟ قال: حَضَر يا رسول الله من أمر الله ما قد ترى، وخشِيت القتل، فأردت أن يكون آخرَ عهدي بك، وأن أعتنقك[١].

قال الواقديّ: فحدثني موسى بن يعقوب، عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبير بن مُطعم، عن رجل من بني أَوْد قال: سمعت عليًا عليه السلام يخطب على منبر الكوفة، ويقول: بينا أنا أمِيح في قَلِيب بدر جاءت ريح لم أرَ مثلها قطّ شدّة، ثم ذهبت فجاءت أخرى لم أرَ مثلها إلاّ التي كانت قبلها، ثم جاءت ريح أخرى لم أرَ مثلها إلا الأولَيَيْن، فكانت الأولى جبريل في ألف مع رسول الله صلى الله عليه وآله، والثانية ميكائيل في ألف عن ميمنته، والثالثة إسرافيل في ألف عن مَيْسرته، فلمّا هزَم الله أعداءه، حملني رسول الله صلى الله عليه وآله على فرس، فجرتْ بي، فلمّا جرتْ بي خررتُ على عنقها، فدعوت ربّي، فأمسكني حتى استويتُ، ومالي وللخيل، وإنما كنت صاحب الحشَم، فلما استويت طعنت فيهم بيدي هذه حتى اختضبت مني ذي يعني إبطه.

قلت: أكثر الرواة يروُونه: «فحملني رسول الله على فرسه»، والصحيح ما ذكرناه، لأنه لم يكنْ لرسول الله صلى الله عليه وآله فرس يوم بدر، وإنما حضرها راكب بعير، ولكنه لمّا اصطدم الصفّان، وقتل قوم من فرسان المشركين، حملَ رسول الله صلى الله عليه وآله عليًا عليه السلام على بعض الخيل المأخوذة منهم.

قال الواقديّ: قالوا: كان على ميمنة رسول الله صلى الله عليه وآله أبو بكر، وكان على ميسرته عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان على ميمنة قريش هُبيرة بن أبي وهب المخزوميّ، وعَلَى ميسرتهم عمرو بن عبد وَدّ. قيل: كان زَمْعة بن الأسود عَلَى ميسرتهم، وقيل: بل كان على خير المشركين، وقيل: الذي كان على الخيل الحارث بن هشام، وقال قوم: لم يكن هبيرة على الميمنة، بل كان عليها الحارث بن عامر بن نوفل.

قال الواقديّ: وحدّثني محمد بن صالح عن يزيد بن رُومان وابن أبي حَبيبة، قالا: ما كان على ميمنة النبي صلى الله عليه وآله يوم بَدْر ولا على ميسرته أحدٌ يسمّى، وكذلك ميمنة المشركين وميسرتهم ما سمعنا فيها بأحدٍ.

قال الواقديّ: وهذا هو الثّبت عندنا قال: وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ الأعظم لواء المهاجرين مع مُصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحُباب بن المنذر ولواء الأوْس مع سعد بن معاذ، وكان مع قريش ثلاثة ألوية، لواء مع أبي عَزيز، ولواء مع المنذر بن الحارث، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة.

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» بألفاظ قريبة منه (١٦٦١)، وذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ١٧٤).

قال الواقديّ: وخطب رسول الله ﷺ المسلمين يومئذٍ، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أمّا بعد، فإني أحثّكم على ما حثّكم الله عليه، وأنهاكم عمّا نهاكم الله عنه فإنّ الله عظيمٌ شأنه، يأمر بالحقّ، ويحبّ الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحقّ، لا يقبل الله فيه من أحدٍ إلا ما ابتغى به وجهه. وإنّ الصبر في البأس مما يفرّج الله به الهمّ، وينجّي به من الغمّ، تدركون به النّجاة في الآخرة، فيكم نبيّ الله يحذّركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإنه تعالى يقول: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وما أعزّكم به بعد الذّلة، فاستمسكوا به يرض ربّكم عنكم، وابلُوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبون به الّذي وعَدَكم من رحمته ومغفرته، فإنّ وعده حقّ، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحيّ القيّوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكّلنا، وإليه المصير، ويغفر الله لي وللمسلمين»[2].

قال الواقديّ: ولمّا رأى رسول الله ﷺ قريشاً تصوّب من الوادي، وكان أوّل مَنْ طلع زَمْعة بن الأسود على فرسٍ له يتبعه ابنه، فاستجال بفرسِه، يريد أن يبنُوا للقوم منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ إنّك أنزلت عليّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتّني إحدَى الطائفتين، وأنت لا تخلِف الميعاد. اللهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها، تخاذِلُ وتكذّب رسولك. اللهمّ نصرَك الذي وعدتّني. اللهم أَحِنهم الغداة»[3]! وطلع عُتبة بن ربيعة على جَمَلٍ أحمر، فقال رسول الله ﷺ: «إنْ يكُ في أحدٍ من القوم خيرٌ ففي صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشُدوا»[4].

قال الواقديّ: وكان إيماءُ بن رَحْضَة قد بعث إلى قريش ابناً له بعشر جزائر حين مرُّوا به أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن يمدّكم بسلاح ورجال فإنّا معدّون لذلك، مؤدون فعلنا، فأرسلوا: أن وصلتْك رحِم، قد قضيتَ الّذي عليك، ولعمري لئن كنّا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، ولئن كنّا نقاتِل الله - بزعم محمد - فما لأحدٍ بالله طاقة.

قال الواقديّ: فروى خفاف بن إيماء بن رَحضة، قال: كان أبي ليس شيء أحبّ إليه من إصلاح بين الناس، موكّلاً بذلك، فلمّا مرّت به قريش أرسلني بجزائر عشر هدية لها، فأقبلتُ

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٩/ ٣٣٣.

(٣) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ١٦٨).

(٤) أخرج نحوه في «مسنده» كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي (٩٥١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٧٦).

أسوقها، وتبعني أبي، فدفعتها إلى قريش فقبلوها ووزّعوها في القبائل، فمرّ أبي على عُتْبة بن ربيعة، وهو سيّد الناس يومئذٍ، فقال: يا أبا الوليد، ما هذا المسير؟ قال: لا أدري والله غُلِبت، قال: فأنت سيّد العشيرة، فما يمنعك أن ترجع بالناس، وتحمل دم حليفِك، وتحمل العير التي أصابوا بنخلة، فتوزّعها على قومك! فوالله ما يطلبون قبل محمد إلاّ هذا، والله يا أبا الوليد ما تقتلون بمحمد وأصحابه إلاّ أنفسَكم!

قال الواقديّ: وحدّثني ابن أبي الزّناد، عن أبيه، قال: ما سمعنا بأحدٍ سار بغير مال إلا عتبة بن ربيعة.

قال الواقدي: وروى محمد بن جبير بن مطعِم، قال: لما نزل القومُ أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلى قريش، فقال: ارجعوا، فلأن يلي هذا الأمرَ منّي غيرُكم أحبُّ إليّ من أن تلُوه منّي، وأن ألَيه من غيركم أحبُّ إليّ من أن ألَيه منكم، فقال حكيم بن حزام: قد عرض نَصَفاً، فلبّوه، والله لا تُنصَرون عليه بعد أن عرض عليكم من النَّصفَ ما عَرَض. وقال أبو جهل: لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم، ولا نطلب أثراً بعد عَيْن، ولا يعرض لعيرنا بعد هذا أبداً.

قال الواقديّ: وأقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوضَ، منهم حكيم بن حزام، فأراد المسلمون تنحيتهم عنه، فقال النبي ﷺ: «دعوهم»، فوردُوا الماء، فشربوا، فلم يشرب منهم أحد إلاّ قتِل، إلاّ ما كان من حكيم بن حِزام.

قال الواقديّ: فكان سعيد بن المسيّب، يقول: نجا حكيم من الدّهر مرتين، لما أراد الله تعالى به من الخير، خرج رسول الله ﷺ على نفر من المشركين وهم جلُوس يريدونه، فقرأ «يَس»، ونثر على رؤوسهم التراب، فما أفلت منهم أحدٌ إلا قتِل، ما عدا حكيم بن حزام. وورد الحوض يوم بدر مع مَنْ ورده مع المشركين، فما ورده إلا من قتل إلا حكيم بن حزام.

قال الواقديّ: فلمّا اطمأنّ القوم بعثوا عُمير بن وهب الجُمحيّ، كان صاحب قِداح، فقالوا: احزُر لنا محمداً وأصحابه، فاستجال بفرسه حول العسكر، وصوّب في الوادي وصعّد، يقول: عسى أن يكون لهم مدد أو كمين! ثم رجع فقال: لا مدد ولا كمين، والقوم ثلاثمائة، إن زادوا قليلاً، ومعهم سبعون بعيراً ومعهم فرسان، ثم قال: يا معشرَ قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، ألا ترونَهم خُرساً لا يتكلّمون، يتلمّظون[1] تلمّظ الأفاعي! والله ما أرى أن يقتَل منهم رجل حتى يقتُل رجُلاً، فإذا أصابوا منكم عددهم، فما خيرٌ في العيش بعد ذلك! فرُوا رأيكم.

(١) تلمظ: أخرج لسانه فمسح شفتيه. القاموس، مادة (لمظ).

قال الواقديّ: وحدّثني يونس بن محمد الظَّفريّ، عن أبيه، أنه قال: لما قال لهم عُمير بن وهب هذه المقالة، أرسلوا أبا أسامة الجشَمِيّ، وكان فارساً، فأطاف بالنبيّ ﷺ وأصحابه، ثم رجع إليهم، فقالوا له: ما رأيت؟ قال: والله ما رأيتُ جَلَداً ولا عدداً ولا حَلْقة ولا كُراعاً، ولكنّي والله رأيت قوماً لا يريدون أن يردُّوا إلى أهلهم! رأيت قوماً مستميتين، ليست معهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زُرْق العيون، كأنهم الحصا تحت الحَجَف[1]، ثم قال: أخشى أن يكون لهم كمين أو مدد، فصوّب في الوادي ثم صعّد، ثم رجع إليهم، فقال: لا كمين ولا مَدد! فرُوا رأيكم.

قال الواقديّ: ولما سمع حكيم بن حزام ما قال عُمير بن وهب، مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، أنت كبير قريش وسيّدها والمطاع فيها، فهل لك ألا تزال تُذكر فيها بخير آخر الدهر، مع ما فعلت يوم عُكاظ! وعتبة يومئذٍ رئيس الناس، فقال: وما ذاك يا أبا خالد؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك، وما أصابه محمد من تلك العِير ببطن نخلة، إنكم لا تطلبون من محمد شيئاً غير هذا الدّم والعير. فقال عتبة: قد فعلت، وأنت عليّ بذلك. ثم جلس عتبة على جمله، فسار في المشركين من قريش يقول: يا قوم أطيعوني، ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه، واعصبوا هذا الأمر برأسي، واجعلوا جبنَها فيّ، فإنّ منهم رجالاً قرابتهم قريبة، ولا يزال الرّجل منكم ينظر إلى قاتل أبيه وأخيه فيورث ذلك بينكم شحناء وأضغاناً، ولن تخلصوا إلى قتلهم حتى يصيبوا منكم عددهم، مع أنّه لا آمن أن تكون الدائرة عليكم، وأنتم لا تطلبون إلاّ دمَ القتيل منكم، والعِير التي أصيبت، وأنا أحتمل ذلك، وهو عليّ.

يا قوم إن يك محمد كاذباً يكفيكموه ذؤبان العرب، وإن يك مَلِكاً كنتم في ملك ابن أخيكم، وإن يك نبيًّا كنتم أسعدَ الناس به! يا قوم لا تردُّوا نصيحتي، ولا تسفّهوا رأيي. فحسده أبو جهل حين سمع خطبته، وقال: إن يرجع النّاس عن خطبة عتبة يكن سيّد الجماعة وكان عتبة أنطقَ الناس، وأطولَهم لساناً، وأجملهم جمالاً، ثم قال عتبة لهم: أنشدكم الله في هذه الوجوه التي كأنها المصابيح، أن تجعلوها أنداداً لهذه الوجوه التي كأنّها وجوهُ الحيّات! فلمّا فرغ عتبة من كلامه قال أبو جهل: إن عتبة يشير عليكم بهذا لأنّ محمداً ابن عمه، وهو يكره أن يقتل ابنه وابن عمه، امتلأ والله سَحْرُكَ يا عتبة وجَبُنت حين التقت حَلقتَا البِطان. الآن تخذّل بيننا وتأمرنا بالرجوع! لا والله لا نرجع حتى يحكُم الله بيننا وبين محمد. فغضب عتبة، فقال: يا مصفّرا أستِه، ستعلم أيّنا أجبن والأم! وستَعلم قريش مَنِ الجبان المفسد لقومه! وأنشد:

هـذايَ وأمـرت أمـرِي فـبشّري بـالـثّـكـل أم عـمـرو

قال الواقديّ: وذهب أبو جهل إلى عامر بن الحضرميّ، أخي عمرو بن الحضرميّ المقتول

---

(١) الحَجَف: التروس من جلود بلا عقب ولا خشب. القاموس المحيط، مادة (حجف).

بنخلة، فقال له: هذا حليفك - يعني عتبة - يريد أن يرجع بالنّاس، وقد رأيت ثأرك بعينك، وتخذل بين النّاس! أقد تحمل دم أخيك، وزعم أنّك قابل الدّية، ألا تستحي؟ تقبل الدية وقد قدرت على قاتل أخيك! قمْ فانشد خُفْرتك، فقام عامر بن الحضرميّ فاكتشف، ثم حثا على إسته التراب، وصرخ: واعمراه! يخزّي بذلك عتبة؛ لأنّه حليفه من بين قريش، فأفسد على النّاس الرأيَ الذي دعاهم إليه عُتْبة، وحلف عامر لا يرجع حتّى يقتل من أصحاب محمد. وقال أبو جهل لعُمَير بن وهب: حرّش بين الناس، فحمل عمير فناوش المسلمين، لأن ينفضّ الصفّ، فثبت المسلمون على صفّهم، ولم يزولوا، وتقدّم ابن الحَضْرميّ فشدّ على القوم، فنشبت الحرب.

قال الواقديّ: فروى نافع بن جبير عن حكيم بن حزام، قال: لما أفسد الرأي أبو جهل على النّاس، وحرّش بينهم عامر بن الحضرميّ فأقحم فرسه، كان أوّل من خرج إليه من المسلمين مهجّع مولى عمر بن الخطاب، فقتله عامر، وكان أوّلَ قتيل قتِل من الأنصار حارثة بن سراقة، قتله حيّان بن العرِقة.

قال الواقديّ: وقال عمر بن الخطاب في مجلس ولايته: يا عميرَ بن وهب، أنت حاذِرُنا للمشركين يوم بدْر، تصعّد في الوادي وتصوّب، كأنّي أنظر إلى فرسك تحتكَ تخبر المشركين أنه لا كمين لنا ولا مدد! قال: إي والله يا أمير المؤمنين، وأخرى، أنا والله الذي حرّشت بين الناس يومئذٍ، ولكن الله جاءنا بالإسلام، وهدانا له، وما كان فينا من الشّرْك أعظم من ذلك، قال عمر: صدقت

قال الواقديّ: وكان عتبة بن ربيعة كلّم حكيم بن حزام، وقال: ليس عند أحد خلاف إلا عند ابن الحنظليّة، فاذهب إليه، فقل له: إن عتبة يحمل دم حليفه، ويضمن العير. قال حكيم: فدخلت على أبي جهل، وهو يتخلّق بخلَوق طيب، ودرعه موضوعة بين يديه، فقلت: إن عتبة بن ربيعة بعثني إليك، فأقبلَ عليّ مغضباً، ما وجد عتبة أحداً يرسله غيرك، فقلت: والله لو كان غيره أرسلني ما مشيت في ذلك، ولكني مشيتُ في إصلاح بين الناس - وكان أبو الوليد سيّد العشيرة - فغضب غضبة أخرى. قال: وتقول أيضاً سيّد العشيرة، فقلت: أنا أقوله، وقريش كلها تقوله، فأمر عامراً أن يصيح بخفرته، واكتشف، وقال: إنّ عُتبة جاع، فاسقوه سويقاً، وجعل المشركين يقولون: عتبة جاع، فاسقوه سويقاً، وجعل أبو جهل يسرّ بما صنع المشركون بعتبة. قال حكيم: فجئت إلى منبه بن الحجاج فقلت له مثل ما قلت لأبي جهل، فوجدته خيراً من أبي جهل، قال نعمّا مشيت فيه وما دعا إليه عتبة، فرجعت إلىٰ عتبة فوجدت قد غضب من كلام قريش، فنزل عن جمله، وقد كان طاف عليهم في عسكرهم يأمرهم بالكفّ عن القتال، فيأبوْن، فحمِي، فنزل فلبس دِرْعه، وطلبوا له بَيْضَةً فلم يوجد في الجيش بَيْضة تسع رأسه من

عِظَم هامته، فلما رأى ذلك اعتَجَر، ثم برز راجلاً بين أخيه شيبة وبين ابنه الوليد بن عتبة فبينا أبو جهل في الصف على فرس أنثى، حاذاه عُتْبة، وسلَّ سيفه، فقيل: هو والله يقتله، فضرب بالسيف عُرقوب فرس أبي جهل، فاكتسعت الفرس، وقال: انزل، فإنَّ هذا اليوم ليس بيوم ركوب، ليس كلّ قومك راكباً، فنزل أبو جهل وعُتْبة يقول: سيعلم أيّنا شؤوم عشيرته الغداة! قال حكيم: فقلت: تالله ما رأيتُ كاليوم!

قال الواقديّ: ثم دعا عُتْبة إلى المبارزة ورسول الله ﷺ في العَرِيش، وأصحابه على صفوفهم، فاضطجع، فغشيَه النوم، وقال: لا تقاتلوا حتى أوذنَكم، وإن كثبوكم فارمُوهم ولا تسلُّوا السيوفَ حتى يغشَوْكم. فقال أبو بكر: يا رسول الله قد دنا القوم، وقد نالوا مِنّا، فاستيقظ، وقد أراه الله إيّاهم في منامه قليلاً، وقلّل بعضهم في أعين بعض، ففزع رسول الله ﷺ وهو رافع يديه يناشد ربّه ما وعده من النّصر، ويقول: «اللهمّ إن تظهر عليّ هذه العصابة يظهر الشّرك، ولا يقم لك دين»(١)، وأبو بكر يقول: والله لينصرنّك الله وليبيّضنّ وجهك. قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، إنّي أشيرُ عليك، وأنت أعظم وأعلم بالله من أن يشارَ عليك، إنّ الله أجلّ وأعظم من أن ينشَد وعده! فقال عليه السلام: يابن رواحة، ألاَ أنشدُ الله وعدَه، إن الله لا يخلف الميعاد! وأقبل عُتْبة يعمِد إلى القتال، فقال له حكيم بن حزام: مهلاً مهلاً يا أبا الوليد! لا تنهَ عن شيء وتكون أوّله.

قال الواقديّ: قال خُفاف بن إيماء: فرأيت أصحابَ النبيّ ﷺ يوم بدْر، وقد تصافّ النّاس وتزاحفوا، وهم لا يسلّون السيوف، ولكنهم قد انتضوا القِسِيّ، وقد تترّس بعضهم عن بعض بصفوفٍ متقاربة، لا فرج بينها، والآخر من قد سلُّوا السيوف حين طلعوا، فعجبت من ذلك، فسألت بعد ذلك رجلاً من المهاجرين، فقال: أمرَنا رسول الله ﷺ ألاّ نسلّ السيوف حتى يغشونا.

قال الواقديّ: فلما تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي حين دنا من الحوض: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه. فشدّ حتى دنا من الحوض، واستقبله حمزة بن عبد المطلب، فضرَبه فأطنّ قدمه، فزحف الأسود ليبرّ قسمه زعم، حتى وقف في الحوض فهدَمه برجله الصحيحة، وشرب منه، وأتبعه حمزة، فضربه في الحوض فقتله، والمشركون ينظرون ذلك على صفوفهم.

---

(١) ذكره جعفر الطبري في الرياض النضرة (٢/ ٣٥)، وأخرج نحوه مسلم، كتاب: الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة (١٧٦٣)، والترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨١)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (٢٠٨).

قال الواقديّ: ودَنا النّاس بعضُهم من بعض، فخرج عتبة وشيبة والوليد حتى فَصَلوا من الصفّ، ثم دعوْا إلى المبارزة، فخرج إليهم فتيان ثلاثة من الأنصار، وهم بنو عَفْراء: مُعاذ ومعوّذ وعوف، بنو الحارث - ويقال: إنّ ثالثهم عبد الله بن رواحة، والثّابت عندنا أنهم بنو عَفْراء - فاستحى رسول الله ﷺ من ذلك، وكره أن يكون أوّل قتال لقِيَ المسلمون فيه المشركين في الأنصار، وأحبّ أن تكون الشوْكة لبني عمّه وقومه، فأمرهم، فرجعوا إلى مصافّهم، وقال لهم خيراً، ثم نادى منادي المشركين: يا محمد، أخرِجْ إلينا الأكفاء من قومنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**يا بني هاشم، قوموا فقاتلوا بحقّكم الذي بعث الله به نبيّكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله**»(١). فقام حمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب وعُبيدة بن الحارث بن المطلِّب بن عبد مناف، فمشوْا إليهم، فقال عتبة: تكلّموا نعرفْكم - وكان عليهم البِيض، فأنكروهم - فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم(٢).

وروى محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي» خلاف هذه الرواية، قال: إن بني عَفْراء وعبد الله بن رَوَاحة برزوا إلى عُتبة وشَيْبة والوليد، فقالوا لهم: مَن أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا: ارجعوا فما لنا بكم من حاجة! ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان**»(٣).

قلت: وهذه الرواية أشهر من رواية الواقديّ، وفي رواية الواقديّ ما يؤكد صحّة رواية محمد بن إسحاق، وهو قوله: إن منادي المشركين نادى: يا محمد، أخرِج إلينا الأكفاء من قومنا. فلو لم يكن قد كلّمهم بنو عفراء وكلّموهم وردّوهم، لما نادى مناديهم بذلك. ويدلّ على ذلك قول بعض القرشيين لبعض الأنصار في فخرٍ فخرَ به عليه: أنا من قوم لم يرضَ مشركوهم أن يقتلوا مؤمِني قومك.

قال الواقدي: فقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، فقال عتبة: كفءٌ كريم، وأنا أسد الحلْفاء، من هذان معك؟ قال: عليّ بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب، فقال: كفآن كريمان.

قال الواقديّ: قال ابن أبي الزّناد: حدّثني أبي، قال: لم أسمع لعُتْبة كلمةً قطّ أوهَن من قوله: «أنا أسد الحَلْفاء» يعني بالحَلْفاء الأجَمَة.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٧).

(٢) تاريخ الواقدي: أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٣٨/ ٢٥٧.

(٣) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٣/ ٣٣٣.

قلت: قد روى هذه الكلمة على صيغة أخرى: «وأنا أسد الحُلَفاء»، وروي: «أنا أسد الأحْلاَف».

قالوا في تفسيرهما: أراد أنا سيد أهل الحلْف المطيّبين، وكان الذين حضروه بني عبد مناف وبني أسد بن عبد العزّى وبني تَيْم وبني زُهْرة وبني الحارث بن فهر، خمس قبائل. وردّ قوم هذا التأويل، فقالوا: إن المطيّبين لم يكن يقال لهم: الحلَفاء ولا الأحلاف، وإنما ذلك لقب خصومهم وأعدائهم الّذين وقع التحالف لأجلهم، وهم بنو عبد الدار، وبنو مخزوم، وبنو سَهم، وبنو جُمَح، وبنو عديّ بن كعب، خمس قبائل. وقال قوم في تفسيرهما: إنما عنَى حِلْف الفُضول، وكان بعد حلف المطيّبين بزمان، وشهد حلْف الفُضول رسول الله ﷺ وهو صغير في دار ابن جُدْعان، وكان سببه أن رجلاً من اليمن قدم مكّة بمتاع، فاشتراه العاص بن وائل السهميّ ومطَله بالثّمن حتى أتعبه، فقام بالحِجْر وناشد قُريشاً ظلامته، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد بن عبد العُزّى وبنو زهرة، وبنو تميم، في دار بن جُدْعان، فتحالفوا، وغمسوا أيديَهم في ماء زمزم، بعد أن غسلوا به أركان البيت، أن ينصروا كلّ مظلوم بمكة، ويردُّوا عليه ظلامته، ويأخذوا على يد الظالم، وينهَوْا عن كلّ منكر، ما بلَّ بحرٌ صوفة، فسمّى حلْف الفضول لفضله، وقد ذكره رسول الله ﷺ فقال: «**شهدته وأما أحبُّ أن لي به حُمْرَ النعم، ولا يزيده الإسلام إلاّ شدة**»[1]، وهذا التفسير أيضاً غير صحيح؛ لأن بني عبد الشمس لم يكونوا في حِلْف الفضول، فقد بان أن ما ذكره الواقديّ أصح وأثبت.

قال الواقديّ: ثم قال عتبة لابنه: قم يا وليد، فقام الوليد وقام إليه عليّ - وكانا أصغرَ النفر - فاختلفا ضربتين، فقتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثم قام عتبة، وقام إليه حمزة فاختلفا ضربتيْن، فقتله حمزة رضي الله عنه، ثم قام شيبة، وقام إليه عُبيدة - وهو يومئذٍ أسنّ أصحاب رسول الله ﷺ - فضرب شَيْبة رِجْلَ عبيدة بذُباب السيف، فأصاب عضلة ساقه، فقطعها وكرّ حمزة وعليّ على شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة فحازاه إلى الصفّ، ومخّ ساقه يسيل، فقال عبيدة: يا رسول الله، ألستُ شهيداً؟ قال: بلى، قال: أما والله لو كان أبو طالب حيًا لعلم أنّي أحق بما قال حين يقول:

كذبتمْ وبيتِ الله نُخْلِي محمَّداً ... ولمّا نطاعنْ دَونهُ ونناضِلِ

ونَنصرُه حتى نصرّع حولَه ... ونذهَل عن أبنائنا والحلائِل

ونزلت فيهم هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾[2].

وروى محمد بن إسحاق أن عتبة بارزَ عُبيدة بن الحارث، وأنّ شيبة بارز حمزة بن عبد

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٩٠).

(٢) سورة الحج، الآية: ١٩.

المطلب، فقتل حمزة شيبة، لم يمهله أن قتله، ولم يمهل عليٌّ الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضرْبتين، كلاهما أثبتَ صاحبه، وكرّ حمزة وعليٌّ عليه السلام على عُتْبة بأسيافهما، حتى وقعا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى الصف.

قلتُ: وهذه الرواية توافق ما يذكره أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه، إذ يقول لمعاوية: وعندي السيفُ الذي أعضضْتُ به أخَاك وخالك وجدّك يوم بدر. ويقول في موضعٍ آخر: قد عرفت مواقع نصالِها في أخيك وخالِك وجدّك، وما هي من الظالمين ببعيد. واختار البلاذُريّ رواية الواقديّ: وقال: إن حمزة قتل عتبة، وإنّ علياً عليه السلام قتل الوليد، وشرك في قتل شيبة.

وهذا هو المناسب لأحوالهم من طريق السنّ؛ لأن شيبة أسنّ الثلاثة، فجُعل بإزاء عبيدة وهو أسنّ الثلاثة، والوليد أصغر الثلاثة سنًّا، فجُعل بإزاء عليٍّ عليه السلام، وهو أصغر الثلاثة سناً، وعتبة أوسطهم سنًّا، فجعل بإزاء حمزة وهو أوسطهم سنًّا. وأيضاً فإنّ عتبة كان أمثَلَ الثلاثة، فمقتضى القياس أن يكونَ قرنه أمثلَ الثلاثة، وهو حمزة إذ ذاك؛ لأنّ عليًّا عليه السلام لم يكن قد اشتهر أمره جداً، وإنما اشتهر الشُّهرة التامّة بعد بدر. ولمن روي أنّ حمزة بارز شيبة - وهي رواية ابن إسحاق - أن ينتصر بشعر هند بنت عتبة ترثي أباها:

أعيـنَـيّ جـواداً بـدمـع سَـرِبْ ... عـلـى خيـر خِنْـدف لـم ينـقـلـبْ
تـداعَـى لـه رهـطُـه قُـضـرةً ... بـنـو هـاشـم وبـنـو المـطّـلـبْ
يـذيـقـونـه حـرّ أسـيـافـهـمْ ... يـعـلُّـونـه بـعـد مـا قـد عَـطِـبْ

فإذا كانت قد قالت إن عتبة أباها أذاقه بنو هاشم وبنو المطلب حرّ أسيافهم، فقد ثبت أن المبارز لعتبة إنما هو عُبيدة لأنه من بني المطلب جرح عتبة، فأثبته ثم ذفّف عليه حمزة وعليٌّ عليه السلام. فأما الشّيعة، فإنها تروي أن حمزة بادر عتبة فقتله، وأنّ اشتراك عليّ وحمزة إنما هو في دم شيبة بعد أن جرحه عبيدة بن الحارث، هكذا ذكر محمد بن النعمان في كتاب «الإرشاد»، وهو خلاف ما تنطق به كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية، والأمر عندي مشتبه في هذا الموضع.

وروى محمد بن النّعمان، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه كان يذكر يوم بدر ويقول: أختلف أنا والوليد بن عتبة ضربتيْن، فأخطأتني ضربتُه، وأضربه فاتقّاني بيده اليسرى، فأبانها السيف، فكأني أنظر إلى وميض خاتم في شماله، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبتُه، فرأيت به الرّدْع من خَلُوق، فعلمت أنه قريب عهد بعرس[1].

---

(١) أنظر مغازي الواقدي: ٦٤ - ٦٥.

قال الواقديّ: وقد رويَ أن عُتبة بن ربيعة حين دعا إلى البراز، قام إليه ابنه أبو حُذَيفة بن عتبة يبارزه، فقال له النبي ﷺ: «اجلس»، فلمّا قام إليه النَّفر أعان أبو حذيفة على أبيه عُتْبة بضربة.

قال الواقديّ: وأخبرني ابن أبي الزّناد، عن أبيه، قال: شَيبة أكبر من عتبة بثلاث سنين، وحمزة أسنّ من النبي ﷺ بأربع سنين، والعبّاس أسنّ من النبيّ ﷺ بثلاث سنين.

قال الواقدي: واستفتح أبو جهل يوم بدر، فقال: اللهمّ أقطعُنا للرّحم وآتانا بما لا يعلم، فأحِنه الغداة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾[1] الآية.

قال الواقديّ: وروى عُروة عن عائشة أنْ النبيّ ﷺ جعل شعار المهاجرين يوم بدر: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبد الله.

قال: وَرَوَى زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام، أنّ شعارَ رسول الله ﷺ كان يوم بدر: يا منصور أمِتْ.

قال الواقديّ: ونهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختريّ، وكان قد لبس السلاح بمكّة يوماً قبل الهجرة في بعض ما كان ينال النبي ﷺ من الأذى، وقال: لا يعرض اليوم أحدٌ لمحمّد بأذى إلا وضعت فيه السّلاح. فشكر ذلك له النبيّ ﷺ. قال أبو داود المازنيّ: فلحقتُه يوم بدر، فقلت له: إنّ رسول الله ﷺ قد نهى عن قتلِك إن أعطيت بيدك، قال: وما تريد إليّ! إنْ كان قد نهى عن قتلي، فقد كنت أبليتُه ذلك، فأمّا أن أعطيَ بيدي، فواللات والعزّى لقد علمتْ نسوة بمكّة أني لا أعطِي بيدي، وقد عرفتُ أنك لا تدَعني، فافعل الذي تريد. فرماه أبو داود بسهم، وقال: اللهمّ سهمك، وأبو البختري عبدك، فضعه في مقلته: وأبو البختري دارع، ففتق السهم الدرع فقتله.

قال الواقديّ: ويقال إنّ المجذّر بن زياد قتل أبا البختريّ ولا يعرفه، وقال المجذّر في ذلك شعراً عُرِف منه أنه قاتله.

وفي رواية محمد بن إسحاق، أنّ رسول الله ﷺ نهى يوم بدر عن قتل أبي البختريّ، واسمه الوليد بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى؛ لأنه كان أكفَّ الناس عن رسول الله ﷺ بمكّة، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم، فلقيه المجذّر بن زياد البلَويّ حليف الأنصار، فقال

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٩.

له: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهانا عن قتلك، ومع أبي البختريّ زميل له خرج معه من مكّة يقال له جُنادة بن مُلَيْحة، فقال أبو البختريّ: وزميلي! قال المجذّر: والله ما نحن بتاركي زميلك، ما نهانا رسول الله صلى الله عليه وآله إلا عنك وحدك، قال: إذاً والله لأموتنّ أنا وهو جميعاً، لا تتحدّث عني نساء أهل مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة، فنازله المجذّر. وارتجز أبو البختري فقال:

لـن يُـسـلِـم ابـن حـرّة زمـيـلَـهُ   حـتـى يـمـوت أو يـرى سـبـيـلَـهُ

ثم اقتتلا، فقتله المجذّر، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأخبره، وقال: والذي بعثك بالحقّ لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلاّ القتال فقاتلته فقتلته.

قال الواقديّ: ونهى النبيّ صلى الله عليه وآله عن قتل الحارث بن عامر بن نوفل، وقال: ائسروه ولا تقتلوه، وكان كارهاً للخروج إلى بدر، فلقيه خبيب بن يساف فقتله ولا يعرفه، فبلغ النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك، فقال: لو وجدته قبل أن يقتَل لتركته لنسائه. ونهى عن قتل زَمْعة بن الأسود فقتله ثابت بن الجذع، ولا يعرفه.

قال الواقدي: وارتجز عديّ بن أبي الزّغباء يوم بدر، فقال:

أنـــا عـــديّ والـــسَّـــحَـــلْ   أمـــشـي بـهـا مَـشْـيَ الـفَـحَـلْ

يعني درعه. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ عديّ»؟ فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: وماذا؟ قال: ابن فلان، قال: لست أنت عديًا، فقال عديّ بن أبي الزغباء: أنا يا رسول الله عديّ، قال: وماذا؟ قال: «والسَّحَل، أمشي بها مشي الفَحَل»، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: وما السَّحَل، قال: درعي، فقال صلى الله عليه وآله: «نعم العديّ، عديّ بن أبي الزغباء»[1].

قال الواقديّ: وكان عقبة بن أبي مُعَيْط قال بمكة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة:

يـا راكـب الـنـاقـة الـقَـصْـواءِ هـاجِـرَنـا   عـمّـا قـلـيـلٍ تـرانـي راكـبَ الْـفَـرَسِ

أعِـلُّ رُمْـحِـيَ فـيـكـمْ ثـم أُنْـهِـلُـهُ   والـسَّـيْـفُ يـأخـذ مـنـكـم كـلَّ مـلـتـبِـسِ

فبلغ قولُه النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: «اللهم أكبّه لمنخرِه واصرعه»[2]، فجمحَ به فرسُه يوم بدر بعد أن ولّى الناس، فأخذه عبد الله بن سلَمة العَجْلانيّ أسيراً، وأمر النبي صلى الله عليه وآله عاصم بن أبي الأقلح، فضرب عنقه صَبْراً.

قال الواقديّ: وكان عبد الرحمن يحدّث يقول: إني لأجمع أدراعاً يوم بدر، بعد أن ولّى الناس، فإذا أميّة بن خلَف - وكان ليس صديقاً في الجاهليّة، وكان اسمي عبد عمرو، فلما جاء الإسلام تسمّيت عبدَ الرحمن، فكان يلقاني بمكة فيقول: يا عبد عمرو، فلا أجيبه، فيقول: أن

---

(١) لم أجده.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٩/ ٣٣٥.

لا أقول لك عبد الرحمن، إنّ مسيلِمة باليمامة تسمّى بالرحمن، فأنا لا أدعوك إليه، فكان يدعوني عبد الإله، فلما كان يوم بدر رأيتُه وكأنه جمل يُساق، ومعه ابنه عليّ، فناداني: يا عبد عمرو، فأبيت أن أجيبَه، فناداني: يا عبد الإله، فأجبته، فقال: أما لكم حاجة في اللّبن؟ نحن خير لك من أدرعك هذه، فقلت: امضيا فجعلت أسوقهما أمامي، وقد رأى أميّة أنه قد أمِن بعضَ الأمن، فقال لي أميّة: رأيت رجلاً فيكم اليوم معلِماً في صدره بريشة نعامة، من هو؟ فقلت: حمزة بن عبد المطلب فقال: ذاك الّذي فعل بنا الأفاعيل! ثم قال: فمن رَجُلٌ دحداح قصير معلَم بعصابة حمراء؟ قلت: ذاك رجل من الأنصار، يقال له: سِماك بن خَرَشة، قال: وبذاك أيضاً يا عبد الإله صرنا اليوم جَزَراً لكم! قال: فبينا هو معي أزجّيه أمامي، ومعه ابنه، إذ بصر به بلال وهو يعجن عجيناً له، فترك العجين، وجعل يفتِلُ يديه منه فتلاً ذريعاً، وهو ينادي: يا معشر الأنصار، أميّة بن خلَف رأس الكفر! لا نجوتُ إن نجوتَ - قال: لأنه كان يعذّبه بمكة، فأقبلت الأنصار كأنّهم عُوذٌ حَنّت إلى أولادها، حتى طرحوا أميّة على ظهره، واضطجعت عليه أحمِيه منهم، فأقبل الخبّاب بن المنذر، فأدخل سيفَه، فاقتطع أرنبة أنفه، فلمّا فقد أميّة أنفه، قال لي: إيهاً عنك! أي خلّ بيني وبينهم، قال عبد الرحمن فذكرت قول حسان:

أو عَـــنْ ذلـــك الأنـــف جـــادعُ

قال: ويقبل إليه خُبَيب بن يَساف، فضربه حتى قتله، وقد كان أميّة ضرب خُبيب بن يساف حتى قطع يده من المنكِب، فأعادها النبيّ ﷺ فالتحمت واستوت، فتزوّج خَبيب بن يساف بعد ذلك ابنة أمية بن خلف، فرأت تلك الضربة، فقالت: لا يشلّ الله يدَ رجلٍ فعل هذا! فقال خبيب: وأنا والله قد أوردتُه شَعُوب، فكان خَبَيب يحدّث يقول: فأضربه فوق العاتِق، فأقطع عاتقه حتى بلغت مؤتزره، وعليه الدّرع، وأنا أقول: خذها وأنا ابن يساف! وأخذت سلاحه ودرعه، وأقبل عليّ ابن أميّة فتعرّض له الخبّاب، فقطع رجله، فصاح صيحة ما سمع مثلها قطّ، ولقيه عمّار فضربه ضربة فقتله. ويقال: إن عمّاراً لاقاه قبل ضربة الخبّاب، فاختلفا ضربات، فقتله عمّار. والأولَى أثبت، أنه ضربه بعد أن قطعت رجله.

قال الواقديّ: وقد سمعنا في قتل أميّة غير ذلك، حدثني عُبيد بن يحيى، عن معاذ بن رفاعة، عن أبيه، قال: لمّا كان يوم بدر وأحدقنا بأميّة بن خلف، وكان له فيهم شأن، ومعي رمحي، ومعه رمحه، فتطاعنّا حتى سقطتْ أزجّتُها، ثم صرنا إلى السَّيْفين فتضاربنا بهما حتى انثلما، ثم بصرت بفَتْق في درعه تحت إبطه، فحششت السيف فيه حتى قتلته، وخرج السيف عليه الوَدك.

قال الواقديّ: وقد سمعنا وجهاً آخر: حدثني محمد بن قُدامة بن موسى، عن أبيه، عن عائشة بنت قدامة، قالت: قال صفوان بن أميّة بن خلَف يوماً: يا قُدَام - لقدامة بن مظعون -

أنت المشلِي بأبي يوم بدر النّاس! فقال قدامة: لا والله ما فعلت، ولو فعلت ما اعتذرت من قتل مشرك. قال صفوان: فمن يا قدام المشلِي به يوم بدر؟ قال: رأيت فتيةً من الأنصار أقبلوا إليه، فيهم معمر بن حُبيب بن عبيد الحارث، يرفع سيفه ويضعه فيه، فقال صفوان: أبو قرد! وكان مَعْمر رجلاً دميماً، فسمع بذلك الحارث بن حاطب، فغضب له، فدخل على أمّ صفوان، فقال: ما يدَعُنا صفوان من الأذى في الجاهليّة والإسلام! قالت: وما ذاك؟ فأخبرها بمقالةِ صفوان لمعمر حين قال: أبو قرد! فقالت أمّ صفوان: يا صفوان، أتنتقص معمر بن خبيب من أهل بدْر! والله لا أقبل لك كرامة سنةً. قال صفوان: يا أمّة، لا أعود والله أبداً، تكلّمتُ بكلمة لم ألقِ لها بالاً.

قال الواقديّ: وحدّثني محمد بن قُدامة، عن أبيه، عن عائشة بنت قدامة، قالت: قيل لأمّ صفْوان بن أميّة - ونظرت إلى الخبّاب بن المنذر بمكّة: هذا الذي قطع رِجْل عليّ بن أمية يومَ بدْر، قالت: دعونا عن ذكر مَنْ قُتِل عَلَى الشِّرْك، قد أهان الله علياً بضربة الخبّاب بن المنذر، وأكرم الله الخبّاب بضربته علياً، ولقد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك.

فأمّا محمد بن إسحاق، فإنه قال: قال عبد الرحمن بن عوف: أخذت بيدِ أميّة بن خلَف ويد ابنه عليّ بن أمية أسيرين يوم بَدْر، فبينا أنا أمشي بينهما، رآنا بلال - وكان أميّة هو الذي يعذّب بلالاً بمكّة، يخرجه إلى رَمْضاء مكة إذا حميت، فيضجِعه على ظهره، ثم يأمرُه بالصَّخْرة العظيمة فتوضع بحرارتها على صدره، ويقول له: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد! فيقول بلال: أحدٌ أحد! لا يزيده عَلَى ذلك - فلمّا رآه صاح: رأس الكفر أميّة بن خَلَف، لا نجوتُ إن نجوتَ! قال عبد الرحمن: فقلت أي بلال، أسيري! فقال: لا نجوتُ إن نجَا، فقلت: استمع يابن السوداء، قال: لانجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، أميّة بن خلَف رأس الكفر، لانجوتُ إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المُسْكة، وأنا أذبّ عنه، ويحذف عمّار بن ياسر علياً ابنه بالسيف، فأصاب رجله، فوقع وصاح أميّة صيحةً ما سمعت مثلَها قط، فخلّيت عنه، وقلت: انجُ بنفسك ولا نجاء به! فوالله ما أغنِي عنك شيئاً، قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما. قال: فكان عبد الرحمن بن عوف، يقول: رحِم الله بلالاً! أذهب أدرعِي، وفجعني بأسيرِي[1]!

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٩/ ٣٣٦.

قال الواقديّ: وكان الزُّبير بن العوام يحدّث فيقول: لمّا كان يومئذٍ لقيتُ عبيدة بن سعيد بن العاص على فرس، عليه لأمة كاملة لا يُرى منه إلا عيناه، وهو يقول - وكانت له صبيّة صغيرة، يحملها وكان لها بُطين وكانت مقسّمة: أنا أبو ذات الكرش، أنا أبو ذات الكرش. قال: وفي يدي عَنَزة[1] فأطعن بها في عنيه ووقع، وأطؤه برجلي عَلَى خَدّه، حتى أخرجت العَنَزة متعقفة[2]، وأخرجت حدقته، وأخذ رسول الله ﷺ تلك العَنَزة، فكانت تجمل بين يديه، ثم صارت تحمَل بين يدي أبي بكر وعمر وعثمان.

قال الواقديّ: وأقبل عاصم بن أبي عوف بن صُبَيرة السَّهمِيّ، لما جال الناس واختلطوا، وكأنه ذئب، وهو يقول: يا معشرَ قريش، عليكم بالقاطع مفرّق الجماعة، الآتي بما لا يعرف، محمد، لانجوتُ إن نجا! ويعترضه أبو دُجانة، فاختلفا ضربتيْن، ويضربه أبو دجانة فقتله، ووقف عَلَى سَلبه يسلبه، فمرّ به عمر بن الخطاب، فقال: دع سلَبه حتى يُجهِض العدوّ، وأنا أشهد لك به.

قال الواقديّ: ويقبل معبد بن وهب، أحد بني عامر بن لؤيّ، فضرب أبا دُجانة ضربة بَرَكَ منها أبو دُجانة كما يبرك الجمل، ثم انتهض، وأقبل عَلَى معبد، فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئاً، حتى يقع معبد بحفرة أمامه لا يراها، ونزل أبو دُجانة عليه، فذبحه ذبحاً، وأخذ سلبه.

قال الواقديّ: ولما كان يومئذٍ، ورأت بنو مخزوم مقتَل مَنْ قُتِل، قالت: أبو الحكم! لا يخلص إليه، فإنّ ابنَيْ ربيعة عجلاً وبطرا: ولم تحام عنهما عشيرتهما. فاجتمعت بنو مخزوم، فأحدقوا به، فجعلوه في مثل الحرَجة، وأجمعوا أن يلبِسوا لأمة أبي جهل رجلاً منهم، فألبسوها عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، فصمد له عليّ عليه السلام، فقتله وهو يراه أبا جهل، ومضى عنه وهو يقول: أنا ابن عبد المطلب! ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة، فصمَد له حمزة وهو يراه أبا جهل، فضربه فقتله وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب! ثم ألبسوها حَرْملة بن عمرو، فصمَد له علي عليه السلام فقتله، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم، فأبى أن يلبسها، قال معاذ بن عمرو بن الجموح: فنظرت يومئذٍ إلى أبي جَهْل في مثل الحَرَجَة، وهم يقولون: أبو الحكم! لا يخلص إليه، فعرفت أنه هو، فقلت: والله لأموتنّ دونه اليوم أو لأخلصنّ إليه، فصمدت له، حتى إذا أمكنتني منه غِرّة حملت عليه، فضربته ضربةً طرحت رجلَه من السّاق، فشبّهتها النّواة تنزو من تحت المراضخ، فأقبل ابنهُ عكرمة عليّ فضربني على عاتقي، فطرح يدي من العاتق، إلا أنه بقيت جلدة، فذهبت أسحب يدِي بتلك الجلدة خلفِي،

---

(١) العنزة: رُمَيح بين العصا والرمح، القاموس المحيط، مادة (عنز).
(٢) أي ملتوية، القاموس المحيط، مادة (عقف).

فلما آذتني وضعت عليها رجلي، ثم تمطيت عليها فقطعتها، ثم لاقيت عِكْرِمة وهو يلوذ كلّ ملاذ، ولو كانَتْ يدي معي لرجوت يومئذٍ أن أصيبَه. ومات معاذ في زمن عثمان.

قال الواقديّ: فروي أنّ رسول الله ﷺ نفّل معاذ بن عمرو بن الجموح سيفَ أبي جهل، وأنه عند آل معاذ بن عمرو اليوم وبه فلّ، بعد أن أرسل النبيّ ﷺ إلى عكرمة بن أبي جهل، يسأله: مَنْ قتل أباك؟ قال: الذي قطعت يده، فدفع رسول الله ﷺ سيفَه إلى معاذ بن عمرو؛ لأن عَكرمة بن أبي جهل قطع يده يوم بدر.

قال الواقديّ: وما كان بنو المغيرة يشكّون أن سيف أبي الحكَم صار إلى مُعاذ بن عمرو بن الجَموح، وأنه قاتله يوم بدر.

قال الواقديّ: وقد سمعت في قتله وأخذ سَلَبه غير هذا، حدّثني عبد الحميد بن جعفر، عن عمر بن الحكم بن ثوبان، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: عبّأنا رسول الله ﷺ بليل، فأصبحنا ونحن على صُفوفنا، فإذا بغلامَيْن، ليس منهما واحد إلا قد ربطت حمائل سيفه في عنقه لصغره، فالتفت إليّ أحدهما، فقال: يا عمّ، أيّهم أبو جهل؟ قال: قلت: وما تصنع به يا ابن أخي؟ قال: بلغني أنه يسبّ رسول الله ﷺ، فحلفت: لئن رأيتُه لأقتلنّه أو لأموتنّ دونه. فأشرت إليه، فالتفت إليّ الآخر، وقال لي مثل ذلك، فأشرت له إليه، وقلت له: من أنتما؟ قالا: ابنا الحارث، قال: فجعلا لا يطرفان عن أبي جهل، حتى إذا كان القتال خَلَصا إليه فقتلاه وقتلهما.

قال الواقديّ: فحدّثني محمد بن عوف، عن إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت، قال: لما كان يومئذٍ، قال عبد الرحمن، ونظر إليهما عن يمينه وعن شماله: ليته كان إلى جنبي مَنْ هو أبدن من هذين الصبيّين! فلم أنشب أن التفتَ إلى عوف، فقال: أيّهم أبو جهل؟ فقلت: ذاك حيث ترى، فخرج يعدو إليه كأنه سَبُع، ولحقه أخوه، فأنا أنظر إليهم يضطربون بالسيوف، ثم نظرت إلى رسول الله ﷺ يمرّ بهم في القتلى، وهما إلى جانب أبي جهل.

قال الواقديّ: وحدّثني محمد بن رفاعة بن ثعلبة، قال: سمعتُ أبي ينكر ما يقول الناس في ابني عَفْراء من صِغَرهما، ويقول: كانا يوم بدر أصغرهما ابن خمس وثلاثين سنة، فهذا يربطُ حمائل سيفه! قال الواقديّ: والقول الأوّل أثبت.

وروى محمّد بن عمار بن ياسر، عن رُبَيّع بنت معوّذ، قالت: دخلتُ في نسوةٍ من الأنصار على أسماء أمّ أبي جهل في زمن عمر بن الخطاب، وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها بعِطْرٍ من اليمن، فكانت تبيعه إلى الأعطية، فكنّا نشتري منها، فلمّا جعلت لي في قواريري، ووزنت لي كما وزنت لصواحبي، قال: اكتبنّ لي عليكنّ حقي، قلت: نعم، اكتب لها على الرّبَيّع بنت معوذ، فقالت: أسماء خلفي: وإنك لابنة قاتل سيده! فقلت: لا، ولكن ابنة قاتل

عبده، فقالت: والله لا أبيعك شيئاً أبداً، فقلت: أنا والله لا أشتري منك أبداً، فوالله ما هو بطِيب ولا عَرْف، والله يا بنيّ ما شممت عطراً قطّ كان أطيبَ منه، ولكنّي يا بنيّ غضبت.

قال الواقديّ: فلما وضعت الحرب أوزارها، أمر رسول الله ﷺ أن يلتمَس أبو جهل، قال ابن مسعود: فوجدته في آخر رَمَق، فوضعت رجلي على عنقه، فقلت: الحمدُ لله الذي أخزاك! قال: إنما أخزى الله العبد ابن أمّ عَبْد! لقد ارتقيتَ يا رويعيّ الغنم مرتقى صعباً! لمن الدَّبَرة[1]؟ قلت: لله ولرسوله، قال ابن مسعود: فأقلع بيضتَه عن قفاه، وقلت: إني قاتلك، قال: لستَ بأوّل عبد قتل سيّدَه، أما إنّ أشدّ ما لقيتُه اليوم لقَتلك إيّاي، ألاّ يكون وُلّيَ قتلي رجلٌ من الأحلاف أو من المطيّبين! قال: فضربه عبد الله ضربةً وقع رأسه بين يديه، ثم سلبه، وأقبل بسلاحه ودِرْعه وبيضته، فوضعها بين يديْ رسول الله ﷺ، فقال: أبشِرْ يا نبيّ الله بقتل عدوّ الله أبي جهل! فقال رسول الله: «أحقًّا يا عبد الله! فوالّذي نفسي بيده لهو أحبُّ إليّ من حُمْر النّعم»[2]! أو كما قال. ثم قال: إنه أصابه جَحْش من دفعٍ دفعته في مأدبة ابن جُدْعان، فجحشت ركبتُه فالتمسوه؟ فوجدوا ذلك الأثر.

قال الواقديّ: وروي أنّ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ كان عند النبي ﷺ تلك السّاعة، فوجَد في نفسه، وأقبل على ابن مسعود، وقال: أنت قتلته؟ قال: نعم، الله قتله! قال أبو سلمة: أنت وُلّيت قتله؟ قال: نعم، قال: لو شاء لجعلك في كُمّه! فقال ابن مسعود: فقد والله قتلتُه وجرّدتُه، فقال أبو سلمة: فما علامته؟ قال: شامة سوداء ببطن فخذه اليمني، فعرف أبو سلمة النَّعْت، فقال: أجرّدته، ولم يجرّد قرشي غيره! فقال ابن مسعود: إنه والله لم يكن في قريش ولا في حُلفائها أحدٌ أعدَى لله ولا لرسوله منه، وما أعتذر من شيء صنعته به. فأمسك أبو سلمة.

قال الواقديّ: سُمع أبو سلَمة بعد ذلك يستغفر الله من كلامه في أبي جهل، وقال: اللهمّ إنك قد أنجزت ما وعدتَني، فتمّم عليّ نعمتك. قال: وكان عبد الله بن عتبةِ بن مسعود، يقول: سيف أبي جهل عندنا محلًّى بفضّة، غنمه عبد الله بن مسعود يومئذٍ.

قال الواقديُّ: اجتمع قولُ أصحابنا أنّ معاذ بن عمرو وابنيْ عَفْراء أثبتوه، وضرب بن مسعود عنقَه في آخر رَمق، فكلّ شرَك في قتله.

قال الواقديّ: وقد روي أن رسول الله ﷺ وقف على مصرع ابنيْ عفراء، فقال: «يرحم الله ابنيْ عَفْراء، فإنهما قد شركا في قتل فِرعون هذه الأمّة»[3]، ورأس أئمة الكفر، فقيل: يا

(١) الظَّفَر والنصرة. اللسان، مادة (دبر).

(٢) أخرج أحمد قريباً منه، كتاب: المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٨٤٦).

(٣) لم أجده.

رسولَ الله ومَنْ قتله معهما؟ قال: الملائكة، وذفّف عليه ابن مسعود، فكان قد شرك في قتله.

قال الواقديّ: وحدثني معمر، عن الزهريّ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر: «اللهمّ اكفني نوفل بن العدوّية» وهو نوفل بن خُويلد، من بني أسد بن عبد العُزّى - وأقبل نوفل يومئذٍ يصيحُ وهو مرعوب، قد رأى قتل أصحابه، وكان في أوّل ما التقوْا هم والمسلمون، يصيح بصوت له زَجَل، رافعاً عقيرته: يا معشر قريش، إن هذا اليوم يوم العَلاء والرفعة. فلما رأى قريشاً قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار: ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون مَنْ تقتلون؟ أما لكم في اللبن من حاجة! فأسره جَبّار بن صَخْر، فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبّار، ورأى علياً عليه السلام مقبلاً نحوه: يا أخا الأنصار، مَنْ هذا واللات والعزّى! إنّي لأرى رجلاً، إنه ليريدني قال جبار: هذا علي بن أبي طالب، قال نوفل: تالله ما رأيتُ كاليوم رجلاً أسرع في قومه! فصمَد له علي عليه السلام فيضربه فينشب سيف عليّ في حَجَفته ساعة، ثم ينزعه فيضرب به ساقيه، ودِرْعه مشتمرة، فيقطعها، ثم أجهز عليه فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ له علم بنوفل بن خويلد؟» قال عليّ عليه السلام: أنا قتلته، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: «الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه»[1].

قال الواقديّ: وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث للقتال، فالتقى هو وعليّ عليه السلام، وقتله عليّ، فكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص: ما لي أراك معرِضاً، تظن أنّي قتلت أباك! فقال سعيد: لو قتلتَه لكان على الباطل وكنتَ على الحقّ، قال: فقال عمر: إنّ قريشاً أعظم الناس أحلاماً، وأكثرها أمانة، لا يبغيهم أحدٌ الغوائلَ إلا كبّه الله لفيه.

قال الواقديّ: وروي أنّ عمر قال لسعيد بن العاص: ما لي أراك معرضاً كأني قتلت أباك يوم بدر، وإن كنت لا أعتذر من قتل مشرك، لقد قتلت خالي بيدي العاص بن هاشم بن المغيرة.

ونقلت من غير كتاب الواقدي أنّ عثمان بن عفان وسعيد بن العاص حضرا عند عمر في أيام خلافته، فجلس سعيد بن العاص حَجْرة فنظر إليه عمر، فقال: ما لي أراك مُعَرِضاً كأني قتلت أباك! إنّي لم أقتله، ولكنه قتله أبو حسن! وكان علي عليه السلام حاضراً، فقال: اللهمّ غَفْراً! ذهب الشِّرْك بما فيه، ومحا الإسلام ما قبله، فلماذا تهاجُ القلوب! فسكت عمر، وقال سعيد: لقد قتله كفءٌ كريم، وهو أحبّ إليّ من أن يقتله من ليس من بني عبد مناف.

قال الواقديّ: وكان عليّ عليه السلام يحدّث، فيقول: إنّي يومئذٍ بعد مَا متَع النهار، ونحن

---

(١) أخرج بمعناه أحمد عن عبد الله بن مسعود، مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٨٤٦).

والمشركون قد اختلطت صفوفنا وصفوفهم، خرجت في إثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كثيب رمل وسعد بن خَيثمة، وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة، والمشرك مقنّع في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه، فعرفني وهو معلِم، فناداني: هلمّ يابن أبي طالب إلى البراز! فعطفت إلى البراز، فعطفت عليه، فانحطّ إليّ مقبلاً، وكنت رجلاً قصيراً، فانحططت راجعاً لكي ينزل إليّ، كرهت أن يعلوني، فقال: يابن أبي طالب، فررت! فقلت: قريباً مفرّ ابن الشتراء. فلما استقرّت قدماي وثبتُّ أقبل فاتّقيتُ فلما دنا مني ضربني بالدَّرقة، فوقع سيفه، فلحِج[1] فأضربه على عاتقه وهو دارع، فارتعش، ولقد قطّ سيفي درعَه، فظننت أن سيفي سيقتله، فإذا بريق سيف من ورائي، فطأطأت رأسي، ويقع السيف، فأطنَّ قِحْف رأسه بالبيضة، وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فالتفتّ من ورائي، فإذا هو حمزة عمّي، والمقتول طُعيمة بن عديّ.

قلت: في رواية محمد بن إسحاق بن يسار أنّ طُعَيمة بن عديّ قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثم قال: وقيل: قتله حمزة.

وفي رواية الشّيعة قتله عليّ بن أبي طالب شَجَره بالرمح، فقال له: والله لا تخاصمنا في الله بعد اليوم أبداً، وهكذا روى محمد بن إسحاق.

وروى محمد بن إسحاق قال: وخرج النبي ﷺ من العريش إلى الناس منظر القتال، فحرّض المسلمين وقال: «كلّ امرىء بما أصاب»، وقال: «والّذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل في جملة، فيقتَل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلاّ أدخله الله الجنة»[2]. فقال عُمَير بن الحُمام أخو بني سَلِمة، وفي يده تَمَرات يأكلهنّ: بخ بخ! فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يَقتُلني هؤلاء! ثم قذف التّمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل.

قال محمد بن إسحاق: وحدّثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن الحارث - وهو ابن عفراء - قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، ما يُضحِكُ الرّب من عبده؟ غمْسه يده في العدوّ حاسراً[3]. فنزع عوف درعاً كانت عليه وقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتِل.

قال الواقديّ وابن إسحاق: وأخذ رسول الله ﷺ كفًّا من البَطْحاء، فرماهم بها، وقال: شاهت الوجوه! اللهمّ أرعب قلوبهم، وزلزلْ أقدامهم[4]. فانهزم المشركون لا يلوُون على شيء، والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون.

---

(١) لحج: أي نَشِب فيه فلم يخرج. اللسان، مادة (لحج).
(٢) أخرجه ابن حبان في الثقات (١/ ١٦٨)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١٢١٤).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩٤٩٩).
(٤) أخرج نحوه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٥١).

قال الواقديّ: وكان هبيرة بن أبي وهب المخزوميّ لما رأى الهزيمة انخزل ظهره فعُقر، فلم يستطيع أن يقوم، فأتاه أبو أسامة الجشميّ حليفُه، ففتق درعه واحتمله - ويقال: ضربه أبو داود المازنيّ بالسّيف فقطع درعه، ووقع لوجهه، وأخلد إلى الأرض، وجاوزه أبو داود وبصُر به ابنا زهير الجشميان مالك، وأبو أسامة، وهما حليفاه، فذبّا عنه حتى نجوَا به، واحتمله أبو أسامة ومالك يذبّ عنه، حتى خلّصاه. فقال رسول الله ﷺ: «حماه كلباه الحليفان»(١).

قال الواقديّ: وحدثني عمر بن عثمان عن عُكّاشة بن محصن، قال: انقطع سيفي يوم بدر، فأعطاني رسول الله ﷺ عوداً، فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين، ولم يزل ذلك السيف عند عُكّاشة حتى هلك.

قال: وقد روى رجالٌ من بني عبد الأشهل عدّة، قالوا: انكسر سيف سَلَمة بن أسلم بن حريش يوم بدر، فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده من عراجين ابن طالب، فقال: اضرب به، فإذا هو سيف جيّد، فلم يزل عنده حتى قتل يوم جسر أبي عبيد.

قال الواقديّ: وأصاب حارثة بن سُراقة، وهو يكرع في الحوض سهمٌ غَرَبٌ من المشركين فوقع في نحره، فمات، فلقد شرب القوم آخرَ النهار من دمه، وبلغ أمّه وأختَه - وهما بالمدينة مقتله - فقالت أمّه: والله لا أبكي عليه، حتى يقدم رسول الله ﷺ فأساله، فإن كان في الجنّة لم أبك عليه، وإن كان في النّار بكيته لَعَمرُ الله فأعولتُه! فلّما قدم رسول الله ﷺ من بدر جاءت أمّه إليه، فقالت: يا رسول الله، قد عرفت موضع حارثة في قلبي، فأردت أن أبكيَ عليه، ثم قلت: لا أفعلُ حتى أسأل رسول الله ﷺ عنه، فإن كان في الجنّة لم أبكِه، وإن كان في النار بكيتُه فأعولته! فقال النبي ﷺ: «هُبِلْتِ: أجنّة واحدة! إنها جنان كثيرة، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى»(٢)، قالت: فلا أبكي عليه أبداً.

قال الواقديّ: ودعا رسول الله ﷺ حينئذٍ بماءٍ في إناء، فغمس يده فيه ومضمض فاه، ثم ناول أمّ حارثة بن سراقة، فشربت ثم ناولت ابنتها فشربت، ثم أمرهما فنضحَتا في جُيوبهما، ثم رجعتا من عند النبيّ ﷺ، وما بالمدينة امرأتان أقرّ عيناً منهما ولا أسَرّ.

قال الواقديّ: وكان حكيم بن حزام يقول: انهزمنا يوم بدر، فجعلت أسعى وأقول: قاتل الله ابن الحنظليّة! يزعم أن النهار قد ذهب، والله إن النهار لكما هو، قال حكيم: وما ذا بي إلا

---

(١) أنظر مغازي الواقدي: ٨٩ بتفاوت.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٦٧)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين باب: باقي المسند السابق (١٣٣٧٦)، والترمذي قريباً منه، كتاب التفسير (٣١٧٤).

حبًّا أن يأتيَ الليلُ فيقصّر عنا طلب القوم، فيدرك حكيم عبيد الله وعبد الرحمن بني العوام على جمل لهما، فقال عبد الرحمن لأخيه: انزل فاحمل أبا خالد، وكان عُبيد الله رجلاً أعرج، لا رُجْلة به، فقال عبيد الله: إنه لا رُجْلة بي كما ترى، وقال عبد الرحمن: والله أن منه لا بدّ. ألا نحمل رجلاً، إن متنا كفانا ما خلّفنا من عيالنا، وإن عشنا حملنا كلّنا! فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج، فحملاه، فكانوا يتعاقبون الجمل، فلما دنا من مكة وكان بمرّ الظّهران، قال: والله لقد رأيتُ هاهنا أمراً ما كان يخرج على مثله أحد له رأي، ولكنه شؤوم ابن الحنظليّة! إنّ جَزورا نحرت هاهنا فلم يبق خباء إلاّ أصابه من دمها. فقالا: قد رأينا ذلك، ولكن رأيناك وقومك قد مضيتم فمضينا معكم، ولم يكن لنا معكم أمر.

قال الواقديّ: فحدّثني عبد الرحمن بن الحارث عن مخلد بن خفاف، عن أبيه، قال: كانت الدّروع في قريش كثيرة يومئذٍ، فلمّا انهزموا جعلوا يلقونها، وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطون ما طرحوا، ولقد رأيتني يومئذٍ التقطت ثلاث أدرع جئت بها أهلي، فكانت عندنا بعد، فزعم لي رجلٌ من قريش - ورأى دِرْعاً منها عندنا فعرفها - قال: هذه درْع الحارث بن هشام.

قال الواقديّ: وحدّثني محمد بن حميد، عن عبد الله بن عمرو بن أميّة، قال: أخبرني من انكشف من قريش يومئذٍ منهزماً، وإنه ليقول في نفسه، ما رأيتُ مثل هذا فرّ منه إلاّ النساء!

قال الواقدي: كان قَباث بن أشيَم الكنانيّ يقول: شهدت مع المشركين بدراً، وإني لأنظر إلى قُلّة أصحاب محمد في عيني، وكثرة مَنْ معنا من الخيل والرّجْل، فانهزمتُ فيمن انهزم، فلقد رأيتُني وإنّي لأنظر إلى المشركين في كلّ وجه، وإني لأقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء! وصاحبني رجل، فبينا هو يسير معي إذا لحقنا من خلْفنا، فقلت لصاحبي: أبِك نهوض؟ قال: لا والله ما بي! قال وعُقِر وترفعت، فلقد صبَّحت غَيْقَة - قال: وغَيْقةُ عن يسار السّقيا بينها وبين الفُرع ليلة وبين الفُرع والمدينة ثمانية بُرُد - قبل الشمس، كنت هادياً بالطريق، ولم أسلك المحاجّ، وخفت من الطّلَب فتنكّبت عنها، فلقيَني رجل من قومي بغيقَة، فقال: ما وراءك؟ قلت: لا شيء؟ قُتِلْنا وأسرنا وانهزمنا، فهل عندك من حُملان؟ قال: فحملني على بعير، وزوّدني زاداً، حتى لقيت الطريق بالجُحفة، ثم مضيت حتى دخلت مكّة، وإني لأنظر إلى الحَيسُمان بن حابس الخُزاعي بالغَمِيم، فعرفت أنه تقدم ينعَي قريشاً بمكة، فلو أردت أن أسبقه لسبقته، فتنكّبت عنه حتى سبقني ببعض النهار، فقدمت وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم، وهم يلعنون الخُزاعيّ، ويقولون: ما جاءنا بخير! فمكثت بمكّة، فلما كان بعد الخندق، قلت: لو قدمت المدينة، فنظرت ما يقول محمد! وقد وقع في قلبي الإسلام، فقدمت المدينة، فسألت عن رسول الله ﷺ، فقالوا: هو ذاك في ظلّ المسجد مع ملأ من أصحابه، فأتيته وأنا لا أعرفه من بينهم، فسلّمت فقال: يا قَباث بن أشيم، أنت القائل يوم بدر: «ما رأيت

مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء»! قلت: أشهد أنّك رسول الله، وأنْ هذا الأمر ما خرج منّي إلى أحد قطّ وما ترمرمت به، إلا شيئاً حدّثت به نفسي، فلولا أنك نبيّ ما أطلعك الله عليه، هلم حتى أبايعك فأسلمت[١].

قال الواقديّ: وقد روي أنه لما توجّه المشركون إلى بدر كان فتيان ممّن تخلف عنهم بمكة سمّاراً يسمرون بذي طُوًى في القمر حتى يذهب الليل، يتناشدون الأشعار ويتحدّثون، فبينا هم كذلك إذ سمعوا صوتاً قريباً منهم ولا يرون القائل، رافعاً صوته يتغنّى:

أزاد الحنيفيُّون بدراً مصيبة ... سينقضّ منها ركنُ كِسْرى وقَيْصَرَا
أرنّت لها صُمّ الجبال وأفزعتْ ... قبائل ما بين الوَتِير فخَيْبَرا
أجازت جبال الأخشبيْن وجُرّدتْ ... حرائرُ يضربن الترائبَ حُسّرا

قال الواقديّ: أنشدَنيه، ورواه لي عبد الله بن أبي عُبيدة، عن محمّد بن عمّار بن ياسر، قال: فاستمعوا الصّوت، فلا يروْن أحداً، فخرجوا في طلبه، فلم يروْا أحداً، فخرجوا فزِعين، حتى جازوا الحِجْر، فوجدوا مشيخةً منهم جِلّةً سمّارًا، فأخبروهم الخبر، فقالوا لهم: إنْ كان ما تقولون، فإنّ محمداً وأصحابه يسمّوْن الحنيفيّة. قال: فلم يبقَ أحدٌ من الفتيان الّذين كانوا بذي طوًى إلا وَعِك، فما مكثُوا إلاّ ليلتين أو ثلاثاً، حتى قدم الحيْسُمان الخزاعيّ بخبر أهل بَدْر، ومن قتل منهم، فجعل يخبرهم، فيقول: قتِل عُتبة وشَيْبة ابنا ربيعة، وقتِل ابنا الحجاج وأبو البختريّ، وزمْعة بن الأسود - قال: وصفوان بن أمية في الحِجْر جالس يقول: لا يعقل هذا شيئاً مما يتكلّم به! سلوه عنّي، فقالوا: صفوان بن أميّة لك به علم؟ قال: نعم، هو ذاك في الحِجر، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولَين، ورأيت سُهيل بن عمرو والنّضر بن الحارث أسيريْن، رأيتهما مقرونَين في الحبال.

قال الواقديّ: وبلغ النجاشيَّ مقتلُ قريش وما ظفّر الله به رسوله، فخرج في ثوبَين أبيضين، ثم جلس على الأرض، ودعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فقال: أيّكم يعرف بدراً؟ فأخبروه، فقال: أنا عارف بها، قد رعيتُ الغنم في جوانبها، هي من الساحل على بعض نهار، ولكني أردتُ أن أتثبّت منكم، قد نصر الله رسوله ببدر، فاحمَدوا الله على ذلك. فقال بطارقته: أصلح الله الملك! إن هذا شيء لم تكن تصنعه، يريدون لبسَ البياض والجلوس على الأرض، فقال: إن عيسى ابن مريم كان إذا حدثَتْ له نعمة ازداد بها تواضعاً.

قال الواقديّ: فلمّا رجعت قريش إلى مكّة، قام فيهم أبو سفيان بن حرْب، فقال: يا معشرَ قريش، لا تبكوا على قتلاكم، ولا تنحْ عليهم نائحة، ولا يندبهم شاعر، وأظهِروا الجَلد

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٧٢).

والعَزَاء، فإنكم إذا نُحتم عليهم وبكيتموهم بالشّعر أذهب ذلك غيظكم فأكلّكُم ذلك عن عداوة محمد وأصحابه، مع أن محمداً إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا بكم، فتكون أعظم المصيبتيْن، ولعلّكم تدركون ثأركم، فالدّهن والنساء عليّ حرام حتى أغزو محمداً. فمكثتْ قريش شهراً لا يبكيهم شاعر، ولا تنوح عليهم نائحة.

قال الواقديّ: وكان الأسود بن المطلب قد ذهب بصره، وقد كَمِد على مَنْ قتل من ولده، وكان يحبّ أن يبكي عليهم فتأبى عليه قريش ذلك، فكان يقول لغلامه بين اليومين: ويلك! احمل معي خمراً، واسلُك لي الفجّ الذي سلكه أبو حَكِيمة - يعني زمْعة ولده المقتول ببدر - فيأتي به غلامه على الطريق عند ذلك الفجّ فيجلس، فيسقيه الخمر حتى ينتشي، ثم يبكي على أبي حَكِيمة وإخوته، ثم يحثي التراب على رأسه، ويقول لغلامه: ويحك! اكتم عليّ، فإني أكره أن تعلم بي قريش، إنّي أراها لم تجمع البكاء على قتلاها.

قال الواقدي: حدثني مصعب بن ثابت عن عيسى بن معمر، عن عبّاد بن عبد الله بن الزبير، عن عائشة قالت: قالت قريش حين رجعوا إلى مكة: لا تبكُوا على قتلاكم، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم، فيأرب بكم القوم، ألا فأمسكوا عن البكاء.

قال: وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده: زمْعة وعُقَيْل والحارث بن زَمْعة، فكان يحبّ أن يبكي على قتلاه فبينا هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل، فقال لغلامه - وقد ذهب بصره -: انظر، هل بكت قريش على قتلاها! لعلّي أبكي على أبي حَكِيمة - يعني زَمْعة - فإنّ جوفي قد احترق، فذهب الغلام ورجع إليه، فقال: إنّما هي امرأة تبكي على بعيرها قد أضلّته، فقال الأسود:

تبكّي أن يضلّ لها بعيرٌ ... ويمنعها من النّوم السهودُ
فلا تبكي على بَكْرٍ ولكن ... على بَكْرٍ تصاغرت الخدُود
فبكّى إن بكيت على عقِيلٍ ... وبكّى حارثاً أَسَد الأسودِ
وبكّيهم ولا تَسِمي جميعاً ... فما لأبي حَكيمةَ من نَدِيدِ
على بدر سَراة بني هُصيصٍ ... ومخزوم ورهط أبي الوليد
ألاَ قد سادَ بعدهُم رجالٌ ... ولولا يومُ بدرٍ لم يسودُوا

قال الواقديّ: ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة، فقلن: ألا تبكِين عَلَى أبيك وأخيك وعمّك وأهل بيتك! فقالت: حَلّأني[1] أنْ أبكيَهم، فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمَتوا بنا ونساء بني الخزرج، لا والله حتى أثأر محمداً وأصحابه، والدّهن عليّ حرام إن دخل رأسي

(١) حبسني ومنعني. اللسان، مادة (حلأ).

حتى نغزُو محمداً! والله لو أعلم أن الحزن يذهب عن قلبي لبكيتُ، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأري بعيني من قتلة الأحبّة، فمكثت عَلَى حالها لا تقرب الدّهن، ولا قربت فراش أبي سفيان من يوم حلفتْ حتّى كانت وقعة أُحُد.

قال الواقديّ: وبلغ نوفل بن معاوية الدّيليّ وهو في أهله - وقد كان شهد معهم بدراً - أنّ قريشاً بكتْ على قتلاها، فقدم مكة، فقال: يا معشرَ قريش، لقد خفّت أحلامكم، وسفِه رأيكم، وأطعتم نساءكم، أمثل قتلاكم يبكَي عليهم! همْ أجلّ من البكاء، مع أنّ ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه، فلا ينبغي أن يذهب الغيظ عنكم، إلاّ أن تدركوا ثأركم من عدوّكم. فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه، فقال يا أبا معاوية، غُلبت، والله ما ناحت امرأة من بني عبد شمس علىَ قتيل لها إلى اليوم، ولا بكاهم شاعر إلا نهيتُه حتى ندرك ثأرنا من محمد وأصحابه، وإني لأنا الموتور الثائر، قتِل ابني حنظلة، وسادة أهل هذا الوادي، أصبح هذا الوادي مقشعرًا لفقدهم!

قال الواقديّ: وحدّثني معاذ بن محمد الأنصاريّ، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: لما رجع المشركون إلى مكّة، وقد قتل صناديدهم وأشرافهم، أقبل عمير بن وهب بن عمير الجُمَحيّ حتى جلس إلى صفوان بن أمية في الحِجْر، فقال صفوان بن أمية: قُبّح العيش بعد قتلَى بدر! قال عمير بن وهب: أجل والله، ما في العيش بعدهم خيرٌ، ولولا ديْن عليّ لا أجد له قضاء، وعيال لا أدَع لهم شيئاً، لرحلتُ إلى محمد حتى أقتلَه إن ملأتُ عيني منه، فإنّه بلَغني أنه يطوف في الأسواق، فإنّ لي عندهم علّة، أقول: قدمت على ابني هذا الأسير. ففرح صفوان بقوله، وقال: يا أبا أميّة، وهل نراك فاعلاً؟ قال: إي وربّ هذه البنيّة! قال صفوان: فعليّ دينُك، وعيالك أسوة عيالي، فأنت تعلم أنه ليس بمكّة رجل أشدّ توسّعاً على عياله منّي. قال عمير: قد عرفت ذلك يا أبا وهب، قال صفوان: فإنّ عيالك مع عيالي، لا يسعني شيء ونَعجز عنهم، ودينك عليّ. فحمله صفوان على بعيره، وجهّزه وأجرى على عياله مثل ما يجري على عيال نفسه، وأمر عمير بسيفه فشحِذ وسمّ، ثم خرج إلى المدينة، وقال لصفوان: اكتم عليّ أياماً حتّى أقدمها، وخرج فلم يذكره صفوان.

وقدم عُمير، فنزل على باب المسجد، وعَقَل راحلته، وأخذ السيف فتقلّده، ثم عمَد نحو رسول الله صلى الله عليه وآله، وعمر بن الخطاب في نفرٍ من المسلمين يتحدّثون، ويذكرون نعمةَ الله عليهم في بَدْر، فرأى عميراً وعليه السّيف، ففزع عمر منه، وقال لأصحابه: دونكم الكلب! هذا عمير بن وهب عدوّ الله الذي حَرّش بيننا يوم بدر، وحزرنا للقوم، وصعّد فينا وصوّب، يخبر قريشاً أنه لا عدد لنا ولا كمين. فقاموا إليه فأخذوه، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسولَ الله، هذا عمير بن وهْب، قد دخل المسجد ومعه السّلاح، وهو الغادر الخبيث الذي

لا يؤمَن على شيء، فقال النبيّ ﷺ: «أدخِلْه عليّ»، فخرج عمر فأخذ بحمائل سيفه، فقبض بيده عليها، وأخذ بيده الأخرى قائم السيف، ثم أدخله عَلَى رسول الله ﷺ، فلمّا رآه، قال: يا عمر، تأخّر عنه، فلما دنا عمير إلى النبي ﷺ قال: أنعِم صباحاً، فقال له النبي ﷺ: «قد أكرمنا الله عن تحيّتك، وجعل تحيّتنا السّلام، وهي تحيّة أهل الجنّة».

قال عمير: إن عهدك بها لحديث، فقال النبي ﷺ: «قد أبدلنا الله خيراً، فما أقدمك يا عمير؟» قال: قدمت في أسيري عندكم تفادونه وتقاربوننا فيه، فإنكم العشيرة، والأصل! قال النبي ﷺ: «فما بالُ السيف!» قال عمير: قبحَها الله من سيوف! وهل أغنتْ من شيء! إنما نسيته حين نزلت وهو في رقبتي، ولعمري إنّ لي لهمًّا غيره، فقال رسول الله ﷺ: «اصدق يا عمير، ما الذي أقدمك»؟ قال: ما قدمت إلاّ في أسيري، قال ﷺ: «فما شرطتَ لصفوان بن أميّة في الحِجْر»؟ ففزع عمير، وقال: ماذا شرطتُ له؟ قال: تحمّلْتَ بقتلِي، على أن يقضيَ دينَك، ويعول عيالَك، والله حائل بينك وبين ذلك! قال عمير: أشهد أنّك صادق، وأشهد أن لا إله إلا الله، كنّا يا رسول الله نكذّبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان كما قلت، لم يطّلع عليه غيره وغيري، وقد أمرتُه أن يكتمه ليالي، فأطلعك الله عليه، فآمنت بالله ورسوله، وشهدت أن ما جئتَ به حق. الحمد لله الذي ساقني هذا المساق!

وفرح المسلمون حين هداه الله، وقال عمر بن الخطاب: لخنزيرٌ كان أحبَّ إليّ منه حين طلع، وهو الساعة أحبّ إليّ من بعض ولدِي. وقال النبي ﷺ: «علّموا أخاكم القرآن، وأَطلِقوا له أسيرَه»[1]، فقال عمير: يا رسول الله، إنّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله، فله الحمد أن هداني، فأذنْ لي فألحق قريشاً فأدعوَهم إلى الله وإلى الإسلام، فلعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة، فأذن له فخرج، فلحق بمكة. وكان صفوان يسأل عَن عمير بن وهب كل راكبٍ يقدم من المدينة، يقول: هل حدَث بالمدينة من حدث؟ ويقول لقريش: أبشروا بوقعةٍ تنسيكم وَقْعة بدر، فقدم رجل من المدينة، فسأله صفوان عن عمير، فقال: أسلَم، فلعنه صفوان ولعنه المشركون بمكة، وقالوا: صَبأ عميْر، وحلف صفوان ألاّ يكلمه أبداً، ولا ينفعه، وطرح عياله. وقدم عمير، فنزل في أهله، ولم يأتِ صفوان، وأظهر الإسلام، فبلغ صفوانَ. فقال: قد عرفت حين لم يبدأ بي قبل منزله، وقد كان رجل أخبرني أنه ارتكس، لا أكلّمه من رأسي أبداً، ولا أنفعه ولا عياله بنافعةٍ أبداً، فوقع عليه عُمَير وهو في الحِجْر فقال: يا أبا وهْب. فأعرض صفوان عنه، فقال عمير: أنت سيّد من ساداتنا، أرأيت الّذي كنّا عليه من عبادة حَجَر، والذبح

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٧)، والأصبهاني في «دلائل النبوة» (١/ ١٤١).

له! أهذا دين! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فلم يجبه صَفْوان بكلمة، وأسلم مع عمير بشر كثير.

قال الواقديّ: وكان فِتْيةٌ من قريش خمسة قد أسلموا، فاحتبسهم آباؤهم، فخرجوا مع أهلهم وقومهم إلى بدر، وهم على الشكّ والارتياب، لم يخلِصوا إسلامهم، وهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زَمْعة بن الأسود، وعليّ بن أمية بن خلف، والعاص بن منبّه بن الحجاج، فلما قدموا بدراً ورأوا قلّة أصحاب النبي ﷺ، قالوا: غرّ هؤلاء دينهم، ففيهم أنزل: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾(١)، ثم أنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾(٢) إلى تمام ثلاث آيات.

قال: فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى من أقام بمكة مسلِماً، فقال جندب بن ضمرة الخُزاعيّ: لا عذر لي ولا حجّة في مقامي بمكة - وكان مريضاً - فقال لأهله: أخرجوني، لعلي أجد رَوْحاً! قالوا: أيّ وجهٍ أحبّ إليك؟ قال: نعم التنعيم! فخرجوا به إلى التنعيم، وبين التنعيم ومكة أربعة أميال من طريق المدينة - فقال: اللهم إني خرجت إليك مهاجراً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٣) الآية، فلما رأى ذلك مَنْ كان بمكة مِمّن يطيق الخروجَ، خرجوا فطلبهم أبو سفيان في رجال من المشركين، فردُّوهم وسجنوهم، فافتتن منهم ناس، وكان الذين افتتنوا إنّما افتتنوا حين أصابَهم البلاء فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾(٤) الآية وما بعدها.

فكتب بها المهاجرون بالمدينة إلى مَنْ كان بمكّة مسلماً، فلما جاءهم الكتاب بما أنزل فيهم، قالوا: اللهمّ إنّ لك علينا إن أفلتنا ألاّ نعدل بك أحداً، فخرجوا الثانية، فطلبهم أبو سفيان والمشركون، فأعجزوهم هرباً في الجبال، حتى قدِموا المدينة، واشتدّ البلاء على مَنْ ردُّوا من المسلمين، فضربوهم وآذوهم وأكرهوهم على ترك الإسلام، ورجع ابن أبي سَرْح مشركاً، فقال لقريش: ما كان يعلّم محمداً إلا ابن قمطة، عبد نصرانيّ، لقد كنت أكتب له فأحوّل ما أردت، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾(٥) الآية.

اختلف المسلمون في ذلك، فقال الجمهور منهم: نزلت الملائكة حقيقة، كما ينزل الحيوان والحجر من الموضع العالي إلى الموضع السافل.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٠٠.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

وقال قوم من أصحاب المعاني غير ذلك.

واختلف أرباب القول الأوّل، فقال الأكثرون: نزلت وحاربت، وقال قوم منهم: نزلت ولم تحارب، وروَى كلّ قومٍ في نُصْرة قولهم روايات.

فقال الواقديّ في كتاب «المغازي»: حدثني عمر بن عُقْبة، عن شُعبة مولى ابن عباس، قال: سمعت ابن عباس يقول: لما تواقف النّاس أُغْمِيَ على رسول الله ﷺ ساعة، ثم كشِف عنه فبّشر المؤمنين بجبرائيل في جُنْد من الملائكة في ميمنة الناس، وبمكائيل في جند آخر في ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر في ألف، وكان إبليس قد تصور للمشركين في صورة سُراقة بن جعشم المدلجيّ، يذمر المشركين، ويخبرهم أنّه لا غالب لهم من الناس، فلما أبصر عدوّ الله الملائكةَ نكص على عقِبيه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾[1]، فتشبّث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سُراقة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث، فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر، ورفع يديه قائلاً: يا ربّ موعدك الّذي وعدتَني! وأقبل أبو جهل على أصحابه يحضّهم على القتال وقال: لا يغرّنكم خذلان سراقة بن جعشم إيّاكم، فإنما كان على ميعاد من محمد وأصحابه، سيعلم إذا رجعنا إلى قُدَيد ما نصنع بقومه! ولا يهولنّكم مقتل عُتْبة وشيبة والوليد، فإنهم عجلوا وبطروا حين قاتلوا، وايمُ الله لا نرجع اليوم حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال، فلا ألفينّ أحداً منكم قتَل منهم أحداً، ولكن خذوهم أخذاً نعرّفهم بالّذي صنعوا، لمفارقتهم دينكم ورغبتهم عمّا كان يعبد آباؤهم.

قال الواقديّ: وحدّثني عُتبة بن يحيى، عن معاذ بن رفاعة بن رافع، عن أبيه، قال: إن كنا لنسمع لإبليس يومئذٍ خُواراً ودعاء بالثُّبور والويل، وتصوّر في صورة سراقة بن جعشم حتى هرب، فاقتحم البحر، ورفع يديه مادًّا لهما، يقول: يا رب ما وعدتني! ولقد كانت قريش بعد ذلك تعيّر سراقة بما صنع يومئذٍ، فيقول: والله ما صنعت شيئاً!

قال الواقديّ: فحدثني أبو إسحاق الأسلميّ، عن الحسن بن عبيد الله، مولى بني العباس، عن عمارة الليثيّ، قال: حدّثني شيخٌ صيّاد من الحيّ - وكان يومئذٍ على ساحل البحر - قال: سمعت صياحاً: يا ويلاه! يا ويلاه! قد ملأ الوادي: يا حرباه يا حرباه! فنظرتُ فإذا سراقة بن جعشم، فدنوت منه، فقلت: مالك فداك أبي وأمي! فلم يَرجع إليّ شيئاً، ثم أراه اقتحم البحر، ورفع يديه مادًّا، يقول: يا ربّ ما وعدتَني! فقلت في نفسي: جُنّ وبيت الله سراقة! وذلك حين زاغت الشمس، وذلك عند انهزامهم يوم بدر.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

قال الواقديّ: قالوا: كانت سيماء الملائكة عمائم قد أرخوْها بين أكتافهم، خضراء وصفراء وحمراء من نور، والصوف في نواصي خيلهم.

قال الواقديّ: حدّثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر، عن محمود بن لبيد، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**إن الملائكة قد سوّمت فسوّموا**»(١)، فأعلم المسلمون بالصُّوف في مغافِرهم وقلانسهم.

قال الواقديّ: حدثني محمد بن صالح قال: كان أربعة من أصحاب محمد ﷺ يعلِمُون في الزُّحوف: حمزة بن عبد المطلب كان يوم بدر معلِماً بريشة نعامة، وكان عليّ عليه السلام معلِماً بصوفة بيضاء، وكان الزبير معلِماً بعصابة صفراء، وكان أبو دجانة يعلِم بعصابة حمراء، وكان الزبير يحدّث أن المَلائكة نزلت يوم بدر على خيْل بلق عليها عمائم صفر فكانت على صورة الزبير.

قال الواقديّ: فروي عن سُهيل بن عمرو، قال: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلِمين يقبلون ويأسرون.

قال الواقديّ: وكان أبو أسد الساعديّ يحدّث بعد أن ذهب بصرُه، ويقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأريتكم الشّعب الذي خرجتْ منه الملائكة، لا أشكّ فيه ولا أمتري! قال: وكان أسيّد يحدّث عن رجل من بني غفار حدّثه، قال: أقبلت أنا وابن عمٍّ لي يوم بدر، حتى صعدنا على جبل، ونحن يومئذٍ على الشرك ننظر الوقعة على من تكون الدبرة فننتهب مع منْ ينتهب إذ رأيت سحابة دنت منّا، فسمعت منها همهمة الخيل، وقعقعة الحديد، وسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم! فأما ابنُ عمّي، فانكشف قناع قلبه، فمات، وأما أنا فكدت أهلك، فتماسكت وأتبعت بصري حيث تذهب السحابة، فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وأصحابه: ثم رجعت، وليس فيها شيء مما كنت أسمع.

قال الواقديّ: وحدّثني خارجة بن إبراهيم بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس، عن أبيه، قال: سأل رسول الله ﷺ جبرائيل: «**مَنْ القائل يوم بدر: أقبل حيزوم؟**» فقال جبرائيل: يا محمد، ما كلّ أهل السماء أعرف(٢).

قال الواقديّ: وحدثني عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، عن جده، عبيدة بن أبي عبيدة، عن أبي رُهْم الغفاري عن ابن عمٍّ له، قال: بينا أنا وابن عمّ لي على ماء بدر، فلما رأينا قِلّة منْ

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٦).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره: ٤/ ١٩٣ لم أجده، وقد أخرج مسلم بمعناه، كتاب: الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة (١٧٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٩٣).

مع محمد وكثرة قريش، قلنا: إذا التقت الفئتان عمَدنا إلى عسكر محمد وأصحابه فانتهبناه، فانطلقنا نحو المجنّبة اليسرى من أصحاب محمد، ونحن نقول: هؤلاء ربع قريش، فبينا نحن نمشي في الميسرة إذ جاءت سحابة فغشيتنا، فرفعنا أبصارنا لها، فسمعنا أصوات الرجال والسلاح وسمعنا قائلاً يقول لفرسه: «أقدم حيزوم»، وسمعناهم يقولون: «رويداً تتاءم أخراكم»، فنزلوا على ميمنة رسول الله ﷺ، ثم جاءت أخرى مثل تلك فكانت مع النبي ﷺ، فنظرنا إلى أصحاب محمد وإذا هم على الضّعف من قريش، فمات ابنُ عمّي، وأمّا أنا فتماسكت، وأخبرت النبي ﷺ بذلك، وأسلمت.

قال الواقديّ: وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدْحر ولا أغضب منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من نزول الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام، إلا ما رأى يوم بَدْر». قيل: وما رأى يا رسول الله يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل يوزّع الملائكة»**[1]. قال: وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال يومئذٍ: **«هذا جبرائيل يسوق بريح، كأنه دِحْية الكلبيّ، إنّي نُصرت بالصّبَا وأُهلِكَتْ عاد بالدّبور»**[2].

قال الواقديّ: وكان عبد الرحمن بن عوف يقولُ: رأيتُ يوم بَدْر رجلين، أحدهما عن يمين النبيّ صلى الله عليه وسلّم، والآخر عن يساره، يقاتلان أشدّ القتال، ثم ثلثهما ثالث مِنْ خَلْفه، ثم ربَعهما رابع أمامه.

قال: وقد روى سعد بن أبي وقاص مثل ذلك، قال: رأيت رجلَيْن يوم بدر، يقاتلان عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم، أحدُهما عن يمينه، والآخر عن يساره، وإني لأراه ينظر إلى ذا مَرّةً، وإلى ذا مرّةً، سروراً بما فتحه الله تعالى.

قال الواقديّ: وحدّثني إسحاق بن يحيى، عن حمزة بن صُهَيب، عن أبيه، قال: ما أدري كم يد مقطوعة وضربة جائفة لم يَدْم كَلْمُها يوم بَدْر، قد رأيتها.

قال الواقديّ: وروى أبو بُرْدة بن نِيَار، قال: جئتُ يوم بدْر بثلاثة رؤوس فوضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فقتلتهما، وأمّا الثالث فإنّي رأيتُ رجلاً طويلاً

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب: الحج، باب: جامع الحج (٩٦٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٦٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١١٥).

(٢) أخرجه الصالحي الشامي في سبل الهدى: ٤/ ٤٠، لم أجده، بجزئه الأول، أما جزءه الثاني: «نصرت بالصبا» أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة باب: قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا، ومسلم، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: في ريح الصبا والدبور (٩٠٠).

أبيض ضربه فتدهده أمامه، فأخذت رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك فلان من الملائكة»[١].

قال الواقديّ: وكان ابنُ عباس رحمه الله، يقول: لم تقاتل الملائكة إلاّ يوم بدر.

قال: وحدّثني ابن أبي حبيبة عن داود بن الحُصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان الملك يتصوّر في صورة مَنْ يعرفه المسلمون من الناس ليثبتهم، فيقول: إنّي قد دنوتُ من المشركين، فسمعتهم يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا لهم، وليسوا بشيء، فاحملوا عليهم، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢].

قال الواقديّ: وحدّثني موسى بن محمد، عن أبيه، قال: كان السائب بن أبي حُبَيش الأسديّ يحدّث في زمن عمر بن الخطاب، فيقول: والله ما أسَرني يوم بدر أحدٌ من النّاس، فيقال: فمن؟ فيقول: لمّا انهزمتْ قريش انهزمتُ معها فيدركني رجل أبيض طويل، على فرس أبلق بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر: مَنْ أسَرَ هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني، حتى انتهى بي إلى رسول الله ﷺ، فقال لي رسول الله: يابن أبي حُبيش، مَنْ أسَرك؟ قلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول الله ﷺ: «أسره مَلَك من الملائكة كريم، اذهب يابن عوف بأسيرك»[٣]، فذهب بي عبد الرحمن. قال السائب: وما زالت تلك الكلمة أحفظُها، وتأخر إسلامي حتّى كان من إسلامي ما كان.

قال الواقديّ: وكان حكيم بن حزام، يقول: لقد رأيتُنا يوم بدر، وقد وقع بوادي خلْص بجاد من السماء قد سدّ الأفق - قال ووادي خلص ناحية الرُّوَيثة - قال: فإذا الوادي يسيل نملاً، فوقع في نفسي أنّ هذا شيء من السماء أيّد به محمد، فما كانت إلاّ الهزيمة، وهي الملائكة.

قال الواقديّ: وقد قالوا: إنه لمّا التحم القتال، ورسول الله ﷺ رافع يديْه يسأل الله النّصر وما وعده، ويقول: «اللهم إن ظَهَرت عليّ هذه العصابة، ظهر الشّرْك، ولا يقوم لك دين»، وأبو بكر يقول: والله لينصرنّك الله وليبيّضنّ وجهك، فأنزل الله تعالى ألفاً من الملائكة مردفين عند أكتاف العدو، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، أبشِرْ، هذا جبرائيل معتجرٌ بعمامة صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض»[٤]، ثم قال: إنه لما نزل الأرض تغيّب عنّي ساعة، ثم طلع على ثناياه النقع، يقول: أتاك النّصر من الله إذ دعوتَه.

---

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٣/ ٣٤٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

(٣) أخرجه أبو جعفر الطبري في «الرياض النضرة» (٢/ ٣٥).

(٤) أخرجه أبو جعفر الطبري في «الرياض النضرة» (٢/ ٣٥)، والطبراني نحوه في «الكبير» (٢٣٠)

قال الواقديّ: وحدّثني موسى بن يعقوب، عن عمّه، قال: سمعتُ أبا بكر بن سليمان بن أبي خَيْثَمة، يقول: سمعت مَرْوان بن الحكَم يسأل حكيم بن حِزام عن يوم بدرٍ، فجعل الشيخ يكره ذلك، حتى ألحّ عليه، فقال حكيم: التقينا فاقتتلنا، فسمعت صوتاً وقع من السماء إلى الأرض مثل وقع الحصاة في الطَّسْت، وقبض النبي ﷺ القبضة، فرمى بها فانهزمنا.

قال الواقديّ: وقد روى عبد الله بن ثعلبة بن صغير، قال: سمعتُ نوفل بن معاوية الدؤليّ، يقول: انهزمنا يوم بَدْر، ونحن نسمع كوقع الحصا في الطّساس بين أيدينا ومنْ خلفنا، فكان ذلك أشدّ الرّعب علينا.

فأما الذين قالوا: نزلت الملائكة ولم تقاتل، فذكر الزمخشريّ في كتابه في تفسير القرآن المعروف «بالكشاف» أن قوماً أنكروا قتال الملائكة يوم بَدْر، وقالوا: لو قاتل واحدٌ من الملائكة جميع البشر لم يثبتوا له ولاستأصلهم بأجمعهم ببعض قوته، فإنّ جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ رفع مدائن قوم لوط - كما جاء في الخبر - على خافقة من جناحه، حتى بلغ بها إلى السماء، ثم قلبها فجعل عاليَها سافلها، فما عسى أن يبلغ قوّة ألف رجل من قريش ليحتاج في مقاومتها وحربها إلى ألف ملك من ملائكة السماء مضافين إلى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من بني آدم! وجعل هؤلاء قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾[1] أمراً للمسلمين لا أمراً للملائكة.

ورووا في نصرة قولهم روايات، قالوا: وإنّما كان نزول الملائكة ليكثّروا سواد المسلمين في أعين المشركين، فإنّهم كانوا يرونهم في مبدأ الحال قليلين في أعينهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ﴾[2]، ليطمَع المشركون فيهم ويجترؤوا على حربهم، فلمّا نشبت الحرب كثّرهم الله تعالى بالملائكة في أعين المشركين ليفرّوا ولا يثبتوا. وأيضاً فإنّ الملائكة نزلت وتصوّرت بصُوَر البشر الّذين يعرفهم المسلمون، وقالوا لهم ما جرت العادة أن يقال مثله من تثبيت القلوب يوم الحرب، نحو قولهم: ليس المشركون بشيء، لا قوّة عندهم، لا قلوب لهم، لو حملتم عليهم لهزمتموهم. . . . وأمثال ذلك.

ولقائل أن يقول: إذا كان قادراً على أن يقلّل ثلاثمائة إنسان في أعين قريش حتى يظنّوهم مائة، فهو قادر على أن يكثّرهم في أعين قريش بعد التقاء حَلْقَتي البطان، فيظنّوهم ألفين وأكثر من غير حاجة إلى إنزال الملائكة.

فإنْ قلت: لعلّ في إنزالهم لطفاً للمكلّفين.

قلت: ولعلّ في محاربتهم لطفاً للمكلّفين، وأما أصحاب المعاني فإنهم لم يحملوا الكلام على ظاهره، ولهم في تأويله قول ليس هذا موضع ذكره.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٢. (٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

في الغنيمة والأسرى بعد انتصار المسلمين في بدر

قال الواقديّ: لما تصافّ المشركون والمسلمون، قال النبي ﷺ: «مَنْ قتَل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا»(١)، فلمّا انهزم المشركون كان النّاس ثلاث فرق، فرْقة قامت عند خَيْمة رسول الله ﷺ - وكان أبو بكر معه في الخَيْمة - وفرقة أغارت على النّهْب تنتهب، وفرقة طلبت العدوّ فأسروا وغنموا، فتكلّم سعد بن مُعاذ - وكان ممّن أقام على خيمة رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما منعنا أن نطلب العدوّ زهادةٌ في الأجر، ولا جبنٌ عن العدوّ، ولكنا خفنا أن نعرِي موضعك، فيميل عليك خيلٌ من خيل المشركين ورجال من رجالهم، وقد أقام عند خيمتك وجوهُ الناس من المهاجرين والأنصار، والناس كثير، ومتى تُعْطِ هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء، والقتلى والأسرى كثير، والغنيمة قليلة، فاختلفوا فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(٢) الآية، فرجع المسلمون، وليس لهم من الغنيمة شيء ثم أنزل الله فيما بعد: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ..﴾(٣) فقسمه عليهم بينهم.

قال الواقديّ: وقد روى عبادة بن الوليد بن عبادة عن جدّه عبادة بن الصامت، قال: سلّمنا الأنفال يوم بدر لله وللرسول، ولم يخمّس رسول الله ﷺ بدراً، ونزلت بعد: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ بالمسلمين الخُمس فيما كان من أول غنيمة بعد بدر. قال الواقديّ: وقد روي عن أبي أُسيد الساعديّ مثله.

وروى عكرمة، قال: اختلف النّاس في الغنائم يوم بَدْر، فأمر رسول الله ﷺ بالغنائم أن تردّ في المقسم، فلم يبق منها شيء إلا ردّ. وظن أهلُ الشجاعة أنّه ﷺ يخصّهم بها دون غيرهم من أهل الضّعف، ثم أمر رسول الله ﷺ أن تقسّم بينهم على سواء، فقال سعد بن أبي وقّاص: يا رسولَ الله تعطِي فارس القوم الّذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف؟ فقال ﷺ: «ثكلتْك أمّك! وهل تُنْصَرون إلاّ بضعفائكم!»(٤).

قال الواقديّ: فروى محمد بن سهل بن خيثمة، قال: أمر رسول الله ﷺ أن تردّ الأسرَى والأسلاب، وما أخذوا من المغنم، ثم أقرع بينهم في الأسرى، وقسّم أسلاب المقتولين الّذِين يُعرف قاتلوهم بين قاتليهم، وقسّم ما وجده في العسكر بين جميع المسلمين عن فراق.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، بابٌ في النفل (٢٧٣٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٢٥٩٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢٦٧٥).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

(٤) أخرجه أحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص (١٤٩٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٢٤٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٦٩١).

قال الواقديّ: وحدّثني عبد الحميد بن جعفر، قال: سألتُ موسى بن سعد بن زيد بن ثابت: كيف فعل النبي ﷺ يوم بدر في الأسرى والأسلاب والأنفال؟ فقال: نادى مناديه يومئذٍ: مَنْ قتل قتيلاً فله سلبُه، ومن أسَر أسيراً فهو له، وأمر بما وجد في العسكر وما أخذ بغير قتال، فقسّمه بينهم عن فراق. فقلت لعبد الحميد: فلمنْ أعطى سلَب أبي جهل! فقال: قد قيل: إنه أعطاه مُعاذ بن عمرو بن الجَموح، وقيل: أعطاه ابنَ مسعود. قال: وأخذ عليّ عليه السلام دِرْع الوليد بن عُتْبة وبيضته ومِغْفره، وأخذ حمزة سلاح عُتْبة، وأخذ عُبيدة بن الحارث سلاحَ شيبة، ثم صار إلى ورثته.

قال الواقديّ: فكانت القسمة على ثلاثمائة وسبعة عشر سهماً؛ لأنّ الرجال كانت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان معهم فرسان لهما أربعة أسهم، وقسم أيضاً فوق ذلك لثمانية أسهم، لم يحضروا، ضرب لهم بسهامهم وأجورهم، ثلاثة من المهاجرين لا خلاف فيهم، وهم: عثمان بن عفان خلّفه رسول الله ﷺ على ابنتِه رقيّة وماتت يوم قدم زيد بن حارثة بالبِشارة إلى المدينة، وطلحة بن عُبيد الله وسعد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، بعثهما رسول الله ﷺ يتجسّسان خبر العِير. وخمسة من الأنصار هم: أبو لُبابة بن عبد المنذر، خلّفه على المدينة وعاصم بن عديّ، خلّفه على قُباء وأهل العالية، والحارث بن حاطب أمره بأمرٍ في بني عَمْرو بن عَوْف، وخوّات بن جُبير كُسِر بالروحاء، والحارث بن الصِّمة مثله، فلا اختلاف في هؤلاء. واختلف في أربعة غيرهم، فروي أنّه ضرب لسعد بن عبادة بسهمه وأجره، وقال: لئن لم يشهدها لقد كان فيها راغباً، وذلك أنّه كان يحضّ النّاس على الخروج إلى بدْر، فنُهش فمنعه ذلك من الخروج.

وروي أنّه ضرب لسعد بن مالك الساعديّ بسهمه وأجره، وكان تجهّز إلى بدر، فمرض بالمدينة، فمات خلاف رسول الله ﷺ، وأصى إليه عليه السلام.

وروي أنّه ضرب لرجلَيْن آخرين من الأنصار ولم يسمّهما الواقديّ وقال: هؤلاء الأربعة غير مجمع عليهم كإجماعهم على الثمانية.

قال: وقد اختلف: هل ضرب بسهم في الغنيمة لقتلى بدر؟ فقال الأكثرون: لم يضرب لهم، وقال بعضهم: بل ضرب لهم، حدّثني ابن أبي سبْرة، عن يعقوب بن زيد، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ ضرب لشهداء بدر أربعة عشر رجلاً. قال: وقد قال عبد الله بن سعد بن خَيْثمة: أخذنا سَهْم أبي الذي ضرب له رسول الله ﷺ حين قسم الغنائم، وحمله إلينا عُوَيمر بن ساعدة. قال: وقد روى السّائب بن أبي لُبابة، أن رسول الله ﷺ أسْهَم لمبشّر بن عبد المنذر، قال: وقد قدم بسهمه علينا مَعْن بن عديّ.

قال الواقديّ: وكانت الإبل الّتي أصابوا يومئذٍ مائة وخمسين بعيراً، وكان معه أدَمٌ كثير،

حملوه للتجارة، فمنعه المسلمون يومئذٍ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء، فقال بعضهم: مالنا لا نرى القطيفة! ما نرى رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ أخذها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[1]. وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: يا رسول الله، إن فلاناً غلّ قطيفة، فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله الرّجُلَ، فقال: لم أفعل، فقال الدالّ: يا رسولَ الله، احفروا هاهنا، فحفرنا فاستخرجت القطيفة، فقال قائل: يا رسولَ الله، استغفر لفلان مرّتَيْن، أو مراراً، فقال عليه السلام: دعونا من أبي حرّ.

قال الواقديّ: وأصاب المسلمون من خيولهم عشرة أفْرَاس، وكان جمل أبي جهل فيما غنموه، فأخذه النبي صلى الله عليه وآله، فلم يزل عنده يضرب في إبله ويغزو عليه حتى ساقه في هدْي الحديبية، فسأله يومئذٍ المشركون الجمل بمائة بعير، فقال: لولا أنّا سمّيْناه في الهَدْي لفعلنا.

قال الواقديّ: وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله صَفِيّ من الغنيمة قبل القسمة، فتنفّل سيفه ذا الفَقار، يومئذٍ، كان لمنبّه بن الحجاج. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد غزا إلى بدر بسيف وهبه له سعد بن عبادة يقال له العَضْب.

قال: وسمعت ابن أبي سَبْرة، يقول: سمعت صالح بن كيسان، يقول: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بَدْر، وما معه سيف، وكان أول سيف قلّده سيف منبّه بن الحجاج غنمه يوم بدر.

وقال البلاذُرِيّ: كان ذُو الفقار للعاص بن منبّه بن الحجّاج، ويقال: لمنبّه، ويقال لشيبة، والثَّبَت عندنا أنه كان للعاص بن منبّه.

قال الواقديّ: وكان أبو أُسَيْدٍ الساعديّ إذا ذُكِر الأرقم بن أبي الأرقم، يقول: ما يومي منه بواحد، فيقال: ما هذا هو؟ فيقول: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين أنَ يردّوا يومَ بدر ما في أيديهم من المغنم، فرددت سيف أبي عائذ المخزوميّ - واسم السيف المرزبان، وكان له قيمة وقدْرٌ - وأنا أطمع أن يردّ إليّ، فكلّم الأرقم رسول الله صلى الله عليه وآله فيه - وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يمنع شيئاً يسأله - فأعطاه السيف. وخرج بنيّ له يَفعة، فاحتمله الغُول، فذهبت به متوركة ظهراً، فقيل لأبي أسيد: وكانت الغِيلان في ذلك الزمان؟ فقال: نعم، ولكنها قد هلكت، فلقي بني الأرقم بن أبي الأرقم، فبهش إليه باكياً مستجيراً به، فقال: مَنْ أنت؟ فأخبره، فقالت الغول: أنا حاضنتُه، فلها عنه والصبيّ يكذبها، فلم يعرّج عليه حتى الساعة، فخرج من دارِي فرس لي، فقطع رَسَنه، فلقيه الأرقم بالغابة فركبه، حتى إذا دنا من المدينة أفلت منه فتعذر إليّ أنه أفلت مني، فلم أقدِر عليه حتى الساعة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

قال: وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سأل رسول الله ﷺ يومَ بدر سيف العاص بن منبه، فأعطاه، قال: وأخذ عليه السلام مماليك حضروا بدراً، ولم يسهم لهم وهم ثلاثة أعبد، غلام لحاطب بن أبي بلتعة، وغلام لعبد الرحمن بن عوف، وغلام لسعد بن معاذ، واستعمل ﷺ شُقران غلامه على الأسرى، فأخذوا من كلّ أسير ما لو كان حُرًّا ما أصابه في المقسم.

وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: رميتُ سهيل بن عمرو يوم بدْر فقطعت نساءه، فاتبعت أثر الدم حتى وجدتُه قد أخذه مالك بن الدخشم، وهو ممسك بناصيته، فقلت: أسيري رميتُه! فقال: أسيري أخذته! فأتينا رسول الله ﷺ فأخذه منا جميعاً، وأفلت سهل الرَّوحاء، فصاح عليه السلام بالناس، فخرجوا في طلبه، فقال ﷺ: مَنْ وجده فليقتله، فوجده هو ﷺ فلم يقتله.

قال الواقديّ: وأصاب أبو بردة بن نِيَار أسيراً من المشركين، يقال له معبد بن وَهْب، من بني سعد بن ليث فلقيه عمر بن الخطاب وكان عمر يحضّ على قتل الأسرى، لا يرى أحداً في يديه أسير إلاّ أمر بقتله، وذلك قبل أن يتفرق الناس، فلقّيه معبد وهو أسير مع أبي بُرْدة، فقال: أترون يا عمر أنّكم قد غلبتم! كلاّ واللاّت والعزّى! فقال عمر: عباد الله المسلمين، أتتكلم وأنت أسير في أيدينا! ثم أخذه من أبي بُرْدة فضرب عنقه - ويقال: إن أبا بُرْدة قتله.

قال الواقديّ: وروى أبو بكر بن أسماعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، قال: قال النبي ﷺ يومئذٍ: «**لا تخبروا سعداً بقتل أخيه، فيقتلَ كل أسير في أيديكم**»[1].

قال الواقديّ: ولمّا جيء بالأسرى كرِه ذلك سعد بن معاذ، فقال له رسول الله ﷺ: «**كأنه شقّ عليك أن يؤسروا!**»[2] قال: نعم يا رسول الله، كانت أوّلَ وقعة التقينا فيها بالمشركين فأحببتُ أن يُذلّهم الله، وأن يثخن فيهم القتل.

قال الواقديّ: وكان النّضر بن الحارث أسَره المقداد يومئذٍ، فلمّا خرج رسول الله ﷺ من بدر، فكان الأُثَيْل عُرِض عليه الأسرى، فنظر إلى النَّضْر بن الحارث فأبّده البصر، فقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي! لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت! فقال الذي إلى جنبه: والله ما هذا منك إلا رعب، فقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب، أنت أقرب مَنْ هاهنا بي رِحماً، كلّم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي، هو والله قاتلي إن لم تفعل. قال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا كذا، وتقول في نبيّه كذا وكذا، قال: يا مصعب، فليجعلني كأحد

(١) أخرجه الشيباني في السير الكبير: ٣/ ١٠٢٨.

(٢) لم أجده.

أصحابي. إن قتِلوا قتلت، وإن منّ عليهم منّ عليّ. قال مصعب: إنك كنت تعذّب أصحابه، قال: أما والله لو أسرتْك قريش ما قتلت أبداً وأنا حيّ. قال مصعب: والله إني لأراك صادقاً، ولكن لست مثلك قطع الإسلام العهود.

قال الواقديّ: وعرضت الأسرى على رسول الله ﷺ، فرأى النَّضر بن الحارث، فقال: اضربوا عنقه، فقال المقداد: أسيري يا رسول الله! فقال اللهمّ أغنِ المقداد من فَضْلك، قم يا عليّ فاضرب عنقه، فقام عليّ فضرب عنقه بالسيف صَبْراً، وذلك بالأُثيل، فقالت أخته:

يا راكباً إن الأثيلَ مَظِنَّةٌ ... مِنْ صُبْحِ خامسة وأنت مُوَفَّقُ
بلِّغْ به مَيْتاً فإنّ تحيّةً ... ما إنْ تزالُ بها الرّكائب تخفِقُ
منّي إليه وعَبرةً مسفوحةً ... جادتْ لمائِحها، وأُخرَى تَخْنُقُ
فليسمعنّ النّضر إن ناديتُه ... إن كان يسمع ميّت أو ينطقُ
ظَلّتْ سيوفُ بني أبيه تنُوشُهُ ... لله أرحامٌ هناك تمزّقُ!
صبراً يقاد إلى المدينة راغماً ... رَسْفَ المقيّد وهو عانٍ مُوثَقُ
أمحمدٌ ولأنتَ نَجْلُ نجيبة ... في قومها، والفَحْلُ فحلٌ معرِقُ
ما كان ضرّك لو مننتَ وربّما ... مَنّ الفَتَى وهو المغيظُ المحْنَقُ
والنضر أقربُ مَنْ قتلت وسيلةً ... وأحقّهم إن كان عتق يُعْتَقُ

قال الواقدي: وروي أن النبي ﷺ لما وصل إليه شِعْرُها رقّ له، وقال: «لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله لما قتلته»[1].

قال الواقديّ: ولما أُسِرَ سهيل بن عمرو، قال عمرو بن الخطاب: يا رسولَ الله، انزع ثَنِيّتيْه يدَلعْ لسانه، فلا يقوم عليه خطيباً أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثّل به فيمثّل الله بي وإن كنت نبياً، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهُه»[2]. فقام سهيل بن عمرو بمكة حين جاءه وفاة النبي ﷺ بخطبة أبي بكر بالمدينة، كأنه كان يسمعها، فقال عمر حين بلغه كلام سُهيل: أشهد أنك رسول الله - يريد قوله ﷺ: «لعله يقوم مقاماً لا تكرهه».

قال الواقديّ: وكان علي عليه السلام يحدّث، فيقول: أتى جبريل النبيّ ﷺ يوم بدر، فخيّره في الأسرى أن يضرب أعناقهم، أو يأخذ منهم الفداء، ويستشهد من المسلمين في قابل عِدّتهم، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه، وقال: «هذا جبريل يخيّركم في الأسرى، بين أن

(١) أخرجه الآمدي في الأحكام (٤/ ٢١٦)، وابن حجر في «الإصابة» (٨/ ٨٠).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٧٣٩)، والطبري في «تاريخه» (٢/ ٤١).

تُضرب أعناقهم أو تؤخذ منهم الفدية ويستشهد منكم قابلاً عدّتهم». قالوا: بل نأخذ الفِدْية ونستعين بها، ويستشهد منا مَنْ يدخل الجنة، فقبل منهم الفداء، وقتل من المسلمين قابلاً عدّتهم بأُحُد.

قلت: لو كان هذا الحديث صحيحاً لما عوتبوا، فقيل لهم: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾(١)، ثم قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢)؛ لأنه إذا كان خيّرهم، فقد أباحهم أخذ الفداء، وأخبرهم أنّه حسن، فلا يجوز فيما بعد أن ينكره عليهم، ويقول إنه قبيح.

قال الواقديّ: لما حبِس الأسرى وجعل عليهم شُقران مولَى رسول الله ﷺ طمِعوا في الحياة، فقالوا: لو بعَثنا إلى أبي بكر! فإنه أوصلُ قريش لأرحامنا! فبعثوا إلى أبي بكر، فأتاهم فقالوا: يا أبا بكر، إنّ فينا الآباء والأبناء والإخوان، والعُمومة وبني العمّ، وأبعدنا قريب، كلّم صاحبَك فليمنّ علينا ويفادِنا، فقال: نعم إن شاء الله، لا آلوكم خيراً. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ. قالوا: وابعثوا إلى عمر بن الخطاب، فإنّه مَنْ قد علمتم، ولا يؤمَن أن يفسِد عليكم لعله يكفّ عنكم! فأرسلوا إليه، فجاءهم فقالوا له مثلَ ما قالوا لأبي بكر، فقال: لا آلوكم شرًّا! ثم انصرف إلى النبي ﷺ، فوجَد أبا بكر عنده، والنّاس حوله، وأبو بكر يُليّنه ويغشاه، ويقول: يا رسولَ الله، بأبي أنت وأمّي! قومُك فيهم الآباء والأبناء والعُمومة والإخوان وبنو العمّ، وأبعدهم عنك قريب! فامنن عليهم، منّ الله عليك، أو فادِهم قوةً للمسلمين، فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك! ثمّ قام فتنحّى ناحيةً، وسكت رسول الله ﷺ فلم يجِبْه، فجاء عمر فجلس مجلسَ أبي بكر، فقال يا رسول الله، همْ أعداء الله، كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابَهم، فهم رؤوسُ الكفر وأئمة الضلالة، يوطىء الله بهم الإسلام، ويذلّ بهم الشِّرْك! فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبْه.

وعاد أبو بكر إلى مَقْعده الأوّل، فقال: بأبي أنت وأمّي! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العمّ، وأبعدهم منك قريب! فامنن عليهم أو فادِهم. هم عشيرتك وقومك لا تكن أوّلَ من يستأصلهم، وأن يهديهم الله خيرٌ من أن يهلكهم. فسكت ﷺ عنه فلم يردّ عليه شيئاً، وقام ناحية. فقام عمر فجلس مجلسه، فقال: يا رسولَ الله، ما تنتظر بهم! اضربْ أعناقَهم، يوطىء الله بهم الإسلام، ويذلّ أهل الشرك، هم أعداء الله، كذّبوك وأخرجوك يا رسولَ الله، اشف صدور المؤمنين، لو قدرُوا منّا على مثل هذا ما أقالونا أبداً. فسكتَ رسول الله ﷺ فلم يجبْ، فقام ناحية، فجلس وعاد أبو بكر، فكلّمه مثل كلامه الأوّل فلم

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٨.

يجبه، ثم تنحى، فجاء عمر فكلّمه بمثل كلامه الأول فلم يجبه، ثم قام رسول الله ﷺ، فدخل قُبّته، فمكث فيها ساعة، ثم خرج، والناس يخوضون في شأنهم، يقول بعضهم: القولُ ما قال أبو بكر، وآخرون يقولون: القولُ ما قال عمر. فلمّا خرج قال للناس: ما تقولون في صاحبيْكم هذين؟ دعوهما فإنّ لهما مثلاً، مثلُ أبي بكر في الملائكة كميكائيل ينزل برضَا الله وعفوه على عباده، ومثلُه في الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألينَ على قومه من العَسَل، أوقدَ له قومُه النار فطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] وقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] وكعيسى إذا يقول: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]. ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسّخط من الله والنِّقمة على أعداء الله، ومثلُه في الأنبياء كمثل نوح، كان أشدّ على قومه من الحجارة، إذ يقول: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[4] فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعاً، ومثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[5] وإنّ بكم عَيْلة، فلا يفوتنّكم رجل من هؤلاء إلا بفداءٍ أو ضربة عنق. فقال عبدُ الله بن مسعود: يا رسولَ الله، إلاّ سهيل بن بيضاء.

قال الواقديّ: هكذا روى ابن أبي حبيبة، وهذا وَهَم، سهيل بن بيضاء مسلم من مهاجرة الحبشة، وشهد بدراً، وإنما هو أخ له. ويقال له سهيل. قال: قال عبد الله بن مسعود: فإنّي رأيته يُظهِر الإسلام بمكّة - قال: فسكتَ النبيُّ ﷺ، قال عبد الله: فما مرّت عليّ ساعة قطّ كانت أشدّ عليَّ من تلك الساعة، جعلت أنظر إلى السَّماء أتخوّف أن تسقط عليّ الحجارة لتقدّمي بين يدي الله ورسوله بالكَلام، فرفع رسول الله ﷺ رأسَه، فقال: «إلاّ سُهَيل بن بيضاء»[6]، قال: فما مرّت عليّ ساعة أقرّ لعيني منها، إذ قالها رسول الله ﷺ. ثم قال: «إن الله عز وجل ليشدّد القلْب حتى يكونَ أشدَّ من الحجارة، وَإنه لَيُلِين القلبَ حتّى يكونَ أليَنَ من الزّبد»[7]، فقبل الفداء ثم قال بعد: «لو نزلَ عذابٌ يوم بدر لما نجا منه إلاّ عمر»[8]، كان يقول: اقتُل ولا تأخذ الفداء. وكان سعد بن معاذ يقول: اقتل ولا تأخذ الفداء.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٨.
(٤) سورة نوح، الآية: ٢٦.
(٥) سورة يونس، الآية: ٨٨.
(٦) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٢٦٢٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٠).
(٧) أخرجه أحمد، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند ابن مسعود (٦٢٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠٢٥٨)، نحوه.
(٨) أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ١٥٨).

قلت: عندي في هذا كلام، أما في أصل الحديث فلانّ فيه أن رسول الله ﷺ قال، ومثله كعيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١)، وهذه الآية من المائدة، والمائدة أنزلت في آخر عمره، ولم ينزل بعدها إلا سورة براءة، وبدر كانت في السنة الثانية من الهجرة، فكيف هذا! اللهم إلا أن يكون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾(٢) الآيات، قد كانت أنزلت إما بمكّة أو بالمدينة قبل بدر، فلما جمع عثمان القرآن ضمّها إلى سورة المائدة، فلعلّه قد كان ذلك فينبغي أن ننظر في هذا، فهو مشكل!

وأما حديث سُهَيْل بن بيضاء فإنّه يُوهم مذهب موسى بن عمران في أنّ النبي ﷺ كان يحكم في الوقائع بما يشاء، لأنه قيل له: احكم بما تشاء، فإنّك لا تحكم إلا بالحق، وهو مذهب متروك إلا أنه يمكن أن يقال: لعلّه لما سكت ﷺ عندما قال ابن مسعود ذلك القول، نزل عليه في تلك السكتة الوحْي وقيل له: إلا سهيل بن بيضاء، فقال حينئذٍ: «إلاّ سهيل بن بيضاء»، كما أوحي إليه.

وأمّا الحديثُ الّذي فيه: «لو نزل عذاب لما نجا منه إلاّ عمر»، فالواقديّ وغيره من المحدّثين اتفقوا على أن سعد بن معاذ كان يقول مثل ما قاله عمر، بل هو المبتدىء بذلك الرأي، ورسول الله ﷺ بعدُ في العريش، والمشركون لم ينفضّ جمعهم كلَّ ذلك الانفضاض، فكيف خصّ عمر بالنجاة وحده دون سعد! ويمكن أن يقال: إنّه كان شديد التأليب والتحريض عليهم، وكثير الإلحاح على رسول الله ﷺ في أمرهم، فنسب ذلك الرأي إليه لاشتهاره به، وإن شركه فيه غيره.

قال الواقديّ: وحدّثني معمَر عن الزُّهريّ، عن محمد بن جُبَير بن مَطعِم، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: **«لو كان مطعم بن عديّ حيًّا لوهبتُ له هؤلاء النَّتْنَى»**(٣). قال وكانت لمطعِم بن عديّ عند النبي ﷺ يدٌ أجاره حين رجع من الطائف.

قال الواقديّ: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهريّ، عن سعيد بن المسيّب، قال: أمّن رسول الله ﷺ من الأسرى يوم بدْر أبا عزّة عمرو بن عبد الله بن عُمَيرالجُمَحِيّ - وكان

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨. (٢) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: فرض الخمس باب من منّ النبي على الأسارى من غير أن يخمّس (٣١٣٩)، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في المن على الأسير (٢٦٨٩)، وأحمد، كتاب: أول مسند المدنيين، باب: حديث جبير بن مطعم (٢٧٥٤٦).

شاعراً -، فأعتقه رسول الله ﷺ، وقال له: إنّ لي خمسَ بنات، ليس لهنّ شيء، فتصدّق بي عليهنّ يا محمد، ففعل رسول الله ﷺ ذلك. وقال أبو عزّة: أعطيك موثقاً ألاّ أقاتلك، ولا أكثر عليك أبداً. فأرسله رسول الله ﷺ، فلما خرجت قريش إلى أُحد، جاء صفوان بن أميّة، فقال: اخرج معنا، قال: إني قد أعطيتُ محمداً موثقاً ألاّ أقاتله، ولا أكثر عليه أبداً. وقد منّ عليّ ولم يمنّ على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفِداء. فضمِن له صفوان أن يجعَل بناتِه مع بناته إن قتل، وإن عاش أعطاه مالاً كثيراً لا يأكله عياله. فخرج أبو عزّة يدعو العرب ويحشرها، ثم خرج معَ قريش يوم أُحُد، فأُسِر ولم يؤسَر غيرهُ من قريش، فقال: يا محمد، إنما خرجت كرهاً ولي بنات، فامننْ عليّ. فقال رسول الله ﷺ: «**أين ما أعطيتّني من العهد والميثاق! لا والله لا تمسح عارضيكِ بمكة تقول: سخرتُ بمحمد مرتين**»[1]. فقتله.

قال: وروَى سعيد بن المسيّب أنّ رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: «**إنّ المؤمن لا يُلدَغ من جُحْرٍ مرتين، يا عاصم بن ثابت، قدّمه فاضرب عنقه**»[2]، فقدّمه عاصم فضرب عنقه.

قال الواقديّ: وأمر رسول الله ﷺ يوم بدر بالقُلُب أن تغوّر ثم أمر بالقتلى، فطرحوا فيها كلّهم إلا أميّة بن خلف فإنه كان مسيِناً انتفخ من يومه. فلما أرادوا أن يلقوه تزايلَ لحمه، فقال النبيّ ﷺ: اتركوه.

وقال ابن إسحاق: انتفخ أميّة بن خلف في دِرْعه حتى ملأها، فلما ذهبوا يحرّكونه تزايل، فأقرّوه وألقوْا عليه التراب والحجارة ما غيّبه.

قال الواقديّ: ونظر رسول الله ﷺ إلى عُتْبة بن ربيعةَ يجرّ إلى القلِيب - وكان رجلاً جسيماً، وفي وجهه أثر الجُدَرِيّ - فتغيّر وجه ابنه أبي حذيفة بن عتبة، فقال له: النبيّ ﷺ: «**مالك! كأنّك ساءك ما أصاب أباك**»! قال: لا والله يا رسولَ الله، ولكني رأيتُ لأبي عقلاً وشرفاً، كنت أرجو أن يَهْدِيَه ذلك إلى الإسلام، فلما أخطأه ذلك، ورأيت ما أصابه غاظني. فقال أبو بكر: كان والله يا رسول الله أبقى في العشيرة من غيره، ولقد كان كارهاً لوجهه، ولكن الحيْن ومصارع السوء. فقال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذّي جعل خدّ أبي جهل الأسفل وصرَعه وشفانا منه**»[3]. فلما توافوْا في القليب وقد كان رسول الله ﷺ يطوف عليهم وهم

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٨٠٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب: الأدب، باب: لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين (٦١٣٣)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين (٢٩٩٨)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: الحذر من الناس (٤٨٦٢)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: العزلة (٣٩٨٢) وكلهم من غير قوله: «يا عاصم...».

(٣) أنظر مغازي الواقدي: ١٠٦، وسيرة ابن هشام: ٢/ ٢٨٢.

مصرَّعون، جعل أبو بكر يخبره بهم رجلاً رجلاً، ورسول الله ﷺ يحمَد الله ويشكره ويقول: **الحمدُ لله الذي أنجز لي ما وعدني! فقد وعدني إحدى الطائفتين، ثم وقف عَلَى أهل القلِيب فناداهم رجلاً رجلاً: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أميّة بن خلفَ، ويا أبا جهل بن هشام! هلْ وجدتُم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً! بئس القوم كنتم لنبيّكم! كذبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصَرَني الناس، فقالوا: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد ماتوا! فقال: «لقد علموا أنّ ما وعدهم ربّهم حقّ».**

وقال ابن إسحاق في كتاب «المغازي»: إن عائشة كانت تروي هذا الخبر، وتقول: فالنّاس يقولون: إنّ رسول الله ﷺ. قال: **«لقد سمعوا ما قلتُ لهم»**، وليس كذلك، إنّما قال: **«لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حقّ»**[(١)].

قال محمد بن إسحاق: وحدثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: لما ناداهم رسول الله ﷺ قال له المسلمون: يا رسولَ الله، أتنادي قوماً قد أنتنوا! فقال: **«ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»**[(٢)].

قلت: لقائل أن يقول لعائشة: إذا جاز أن يعلموا وهم موتَى، جاز أن يسمعوا وهم موتَى، فإن قالت: ما أخبرت أن يعلَموا وهم موتى، ولكن تعود الأرواح إلى أبدانهم، وهي في القليب، ويروْن العذاب، فيعلمون أنّ ما وعدهم به الرّسول حقّ! قيل لها: ولا مانع من أن تعود الأرواح إلى أبدانهم وهي في القَليب، فيسمعوا صوتَ رسول الله ﷺ، فإذن لا وجْهَ لإنكارها ما يقوله النّاس!

ويمكن أن يُنتصر لقول عائشة على وجه حكميّ، وهو أنّ الأنفس بعد المفارقة تعلم ولا تسمع؛ لأنّ الإحساس إنما يكون بواسطة الآلة، وبعد الموت تفسد الآلة، فأمّا العلم فإنه لا يحتاج إلى الآلة، لأنّ النفس تعلم بجوهرها فقط.

قال الواقديّ: وكان انهزام قريش وتولّيها حين زالت الشمس، فأقام رسول الله ﷺ ببدر، وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحمْلها وأمر نفراً من أصحابه أن يعينوه، فصلّى العصر

---

(١) أخرجه أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: باقي المسند السابق (٢٥٨٢٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٠) عن ابن عمر، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (٢٨٧٣)، والنسائي، كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٧٤)، وأحمد، كتاب: العشرة المبشرين بالجنة (١٨٣)، كلهم عن سيدنا عمر بن الخطاب.

ببدر ثم راح فمر بالأُثَيل قبل غروب الشمس فنزل به، وبات به وبأصحابه جراح، وليست بالكثيرة، وقال: مَنْ رجلٌ يحفظنا الليلة؟ فأسكت القوم، فقام رجل فقال: مَنْ أنت؟ قال: ذكْوان بن عبد قيس، قال: اجلس، ثم أعاد القول الثانية، فقام رجل، فقال: من أنت؟ قال: ابن عبد القيس، فقال: اجلس، ثم مكث ساعة وأعاد القول، فقام رجل فقال: مَنْ أنت؟ قال: أبو سَبُع، فسكت ثم مكث ساعة، وقال: قوموا ثلاثتكم. فقام ذَكْوان بن عبد قيس وحده، فقال له: وأين صاحباك؟ قال: يا رسول الله الذي كنت أجيبك الليلة، فقال رسول الله ﷺ: «فحفظك الله!» فبات ذكوان يحرُس المسلمين تلك الليلة، حتى كان آخر الليل فارتحل.

قال الواقديّ: ورويَ أن رسول الله ﷺ صلّى العصر بالأُثيل، فلمّا صلى ركعة تبسّم، فلما سلّم سئل عنَ تبسمه فقال: مرّ بي ميكائيل وعلى جَناحه النَّقْع، فتبسّم إليّ، وقال: إني كنت في طلب القوم، وأتاني جبريل على فرس أنثى معقود الناصية، قد عمّ ثنيّتيْه الغبار فقال: يا محمد إنّ ربي بعثني إليك، وأمرني ألاّ أفارقك حتى ترضى، فهل رضيت؟ فقلت: نعم.

قال الواقديّ: وأقبل رسول الله ﷺ بالأسرى، حتى إذا كان بعرْق الظَّبْية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأقْلح أي يضرب عنق عُقْبة بن أبي مُعَيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، وكان أسرَه عبد الله بن سلمة العجلانيّ، فجعل عقبة يقول: يا ويلي! علام أُقتل يا معشر قريش من بين من هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعداوتك لله ولرسوله»، فقال: يا محمد، منّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتَهم قتلتني، وإن مَنَنْتَ عليهم مننتَ عليّ، وإن أخذت منهم الفداء كنتُ كأحدهم، يا محمد مَنْ للصبية؟ فقال: النار، قدّمه يا عاصم، فاضْرب عنقه، فقدمه عاصم فضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «بئس الرجل كنتَ والله ما علمتُ كافراً بالله وبرسوله، وبكتابه مؤذياً لنبيه، فأحمد الله الذي قتلك وأقرّ عيني منك»(١).

قال محمد بن إسحاق: وروى عِكْرِمة مولى ابن عباس، عن أبي رافع، قال: كنتُ غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد فشا فينا أهلَ البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل زوجته، وكان العبّاس يهاب قومه ويكره خلافهم، فكان يكتم إسلامه، وكان ذا مالٍ كثير متفرّق في قومه، وكان عدوّ الله أبو لهب قد تخلّف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلّف رجل إلا بعث مكانه رجلاً، فلمّا جاء الخبر عن مُصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزًّا.

قال: وكنتُ رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل القِداح، أنحتها في حُجْرة زمزم، فوالله إني لجالس أنحت قِداحي، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سَرّنا ما جاءنا من الخبَر، إذ أقبل الفاسق أبو

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٩/ ٣٤٧.

لهب يجرّ رجليه بشرّ، حتى جلس إلى طُنُب[1] الحجْرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال للناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدِم - وكان شهد مع المشركين بدراً - فقال أبو لهب: هلمّ يابنَ أخي فعندك والله الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام حوله، فقال: يابن أخي، أخبِرْني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء، والله إن هو إلاّ أن لقيناهم فمنحناهم أكتافَنا، فقتلونا كيف شاؤوا، وأسرونا كيف شاؤوا، وايمُ الله مع ذلك ما لمت النّاس، لقِينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق بين السماء والأرض. لا والله ما تبقي شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعتُ طُنُب الحجرة، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يدَه، فضرب بي الأرض ثم برَك عليّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة، فأخذته فضربتْه على رأسه، فشجّته شجّة منكرة، وقالت: استضعفته إذ غاب سيّده، فقام مولّياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلاّ سبعَ ليال، حتى رماه الله بالعدَسة فقتله.

ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً وما يدفنانه، حتى أنتن في بيته - وكانت قريش تتّقي العَدَسة وعدْواها، كما يتّقي النّاس الطاعون - حتى قال لهما رجل من قريش: ويْحكما! ألا تستحيان أنّ أباكما قد أنتن في بيته لا تغيّبانه! قالا: إنّا نخشى هذه القُرْحة، قال: فانطلقا وأنا معكما، فوالله ما غسلوه إلاّ قذفا عليه بالماء من بعيد، ما يمسّونه، وأخرجوه فألقوْه بأعلى مكة إلى كنان هناك، وقذفوا عليه بالحجارة حتى واروْه.

قال محمد بن إسحاق: فحضر العبّاس بدراً، فأسِر فيمن أسِر، وكان الّذي أسره أبو اليسر كعب بن عمرو أحد بني سلِمة، فلمّا أمسى القوم والأسارى محبوسون في الوَثاق، وبات رسول الله ﷺ تلك الليلة ساهراً، فقال له أصحابه: مالكَ لا تنامُ يا رسول الله؟ قال: «سمعتُ أنينَ العبّاس من وَثاقه»[2]، فقاموا إليه فأطلقوه، فنام رسول الله ﷺ.

قال: وروى ابنُ عباس رحمه الله، كان أبو اليسر رجلاً مجموعاً، وكان العبّاس طويلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أبا اليسر، كيف أسرْتَ العبّاس؟»** قال: يا رسولَ الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيتُه من قبل، من هيئته كذا، قال ﷺ: **«لقد أعانك عليه مَلَك كريم»**[3].

قال محمد بن إسحاق: قد كان رسول الله ﷺ في أوّل الوقْعة، فنهى أن يقتل أحد من بني

---

(١) الطنب: حبل طويل يشدّ به سرادق البيت، أو الوتد. القاموس، مادة (طنب).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٩٢٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٣)، وابن عبد البر نحوه في الاستيعاب» (٢/ ٨١٢).

(٣) أخرجه أحمد، كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: باقي المسند السابق (٣٣٠٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٥).

هاشم، قال: حدّثني بذلك الزُّهريّ، عن عبد الله بن ثعلبة حليف بني زُهرة، قال: وحدّثني العبّاس بن عبد الله بن معبد بن العباس، عن بعض أهله، عن عبد الله بن عبّاس رحمه الله، قال: وقال النبيّ ﷺ لأصحابه: «إنّي قد عرفت أنّ رجالاً من بني هاشِم وغيرهم قد أخرِجُوا كَرْهاً، لا حاجة لنا بقتلهم، فمَنْ لقيَ منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ومن لقيَ أبا البختريّ فلا يقتله، ومَنْ لقيَ العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنّه إنما خرج مستكرهاً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنَقْتُلُ آباءَنا وإخوانَنا وعشائرنا ونترك العباس! والله لئن لقيتُه لألحمنّه السيف، فسمعها رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص. يقول عمر: والله إنّه لأوّل يوم كنّاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص - أيضرَبُ وجهُ عمّ رسول الله ﷺ بالسّيف؟ فقال عمر: يا رسولَ الله، دعني أضرب عنقَه بالسيف، فوالله لقد نافق، قال: فكان أبو حذيفة يقول: والله ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً أبداً إلا أن يكفّرها الله عنّي بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

قال محمد بن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ لما استشار أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ في أمر الأسارى، غلظ عمر عليهم غلظة شديدة، فقال: يا رسولَ الله أطعْني فيما أشير به عليك، فإني لا آلوك نصحاً، قدّم عمّك العباس فاضربْ عنقَه بيدك، وقدّم عَقِيلاً إلى عليّ أخيه يضرب عنقه، وقدّم كلّ أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله، قال: فكرِه رسول الله ﷺ ذلك ولم يعجبه.

قال محمد بن إسحاق: فلمّا قدم بالأسرى إلى المدينة قال رسول الله ﷺ: «افْدِ نفسَك يا عبّاس وابني أخويك عَقِيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عُقْبة بن عمرو، فإنّك ذو مال، فقال العبّاس: يا رسولَ الله، إني كنت مسلماً، ولكن القوم استكرهوني، فقال ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، إن يكن ما قلتَ حقّاً فإن الله يجزيك به، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافتدِ نَفسك»، وقد كان رسول الله ﷺ أخذ منه عشرين أوقيّة من ذهب أصابها معه حين أسِر، فقال العباس: يا رسولَ الله، احسبِها لي من فدائي، فقال ﷺ: «ذاك شيء أعطانا الله منك»[1]، فقال: يا رسولَ الله، فإنه ليس لي مال، قال: فأين المال الذي وضعتَه بمكة حين خرجتَ عند أمّ الفضل بنت الحارث، وليس معكما أحد، ثم قلت: إن أصِبْتُ في سفري هذا فللفضْل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقُثَم كذا وكذا! فقال العباس: والّذي بعثك بالحقّ يا رسولَ الله، ما علم بهذا أحدٌ غيري وغيرها، وإنّي لأعلم أنّك رسول الله، ثم فدى نفسَه وابني أخويه، وحليفه.

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٨٦).

قال الواقديّ: قدم رسول الله ﷺ من الأثَيل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشّران النّاس بالمدينة فجاء يوم الأحد في الضّحى، وفارق عبد الله زيداً بالعَقِيق، فجعل عبد الله ينادي عوالي المدينة: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله وقتْل المشركين وأسْرهم، قتِل ابنا ربيعة، وابنا الحجّاج، وأبو جهل، وزمْعة بن الأسود، وأميّة بن خلف، وأسِر سُهيل بن عمرو ذو الأنياب، في أسرى كثير. قال عاصم بن عديّ: فقمت إليه فنحوته، فقلت: أحقًّا ما تقول يابن رواحة؟ قال: إي والله، وغداً يقدُم رسول الله إن شاء الله، ومعه الأسرى مقرّنين، ثم تتبّع دورَ الأنصار بالعالية يبشّرهم، داراً داراً، والصّبْيان يشتدّون معه، ويقولون: قُتِل أبو جهل الفاسق، حتى انتهوْا إلى دُور بني أميّة بن زيد.

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ القَصْوَاء، يبشر أهل المدينة، فلما جاء المصلّى صاح على راحلته: قتِل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجّاج وأبو جهل، وأبو البختريّ وزمْعة بن الأسود وأميّة بن خلف، وأسِرَ سُهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة، فجعل النّاس لا يصدقون زيد بن حارثة، ويقولون: ما جاء زيد إلا فَلاً حتى غاظ المسلمين ذلك، وخافوا، قال: وكان قدومُ زيد حين سوّوا على رقيّة بنت رسول الله ﷺ التّراب بالبقِيع، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد: قتل صاحبكم ومَنْ معه، وقال رجل من المنافقين لأبي لُبابة بن عبد المنذر: قد تفرّق أصحابكم تفرّقاً لا يجتمعون معه أبداً، وقد قتل عِلْية أصحابكم، وقتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرّعب، وقد جاء فَلاً، فقال أبو لُبابة: كذَّب الله قولك، وقالت يهود: ما جاء زيد إلا فَلاً. قال أسامة بن زيد: فجئت حتّى خلوتُ بأبي، فقلت: يا أبَتِ، أحقٌّ ما تقول؟ فقال إي والله حقاً يا بنيّ، فقويَتْ نفسي، فرجعت إلى ذلك المنافق، فقلت: أنت المرجِف برسول الله وبالمسلمين! لنقدمنّك إلى رسول الله ﷺ إذا قدم، فليضربنّ عنقَك، فقال: يا أبا محمد، إنّما هو شيء سمعت الناس يقولونه.

قال الواقديّ: فقدم بالأسْرى وعليهم شُقران وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين أحصوا، وهم سبعون في الأصل، مجمع عليه لا شك فيه، إلاّ أنهم لم يحص سائرهم، ولقي النّاس رسول الله ﷺ بالرَّوْحاء يهنئونه بفتح الله عليه، فلقيه وجوه الخزرج، فقال سلمة بن سلامة بن وَقْش: ما الذي تهنّؤونه؟ فوالله ما قتلنا إلاّ عجائز صُلْعاً! فتبسّم النبي ﷺ فقال: يابن أخي، أولئك الملأ، لو رأيتهم لهِبتَهم، ولو أمروك لأطَعْتَهم، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرتها! وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيّهم! فقال سلمة: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، إنّك يا رسولَ الله لم تزل عنّي معرضاً منذ كنّا بالرّوْحاء في بدأتنا، فقال ﷺ: أمّا ما قلت للأعرابي: وقعتَ على ناقتك فهي حبلى منك، ففحشت وقلت ما لا علم لك به، وأما مَا قلت في القوم،

فإنَّك عمَدت إلى نعمةٍ من نعم الله تزهدها، فقبل رسول الله ﷺ معذرته، وكان من عِلْية أصحابه.

قال الواقديّ: فروى الزهريّ، قال: لقي أبو هند البياضيّ مولى فَرْوة بن عمرو رسول الله ﷺ ومعه حَمِيت مملوء حَيْساً أهداه له، فقال رسول الله ﷺ: **«إنما أبو هند رجلٌ من الأنصار فأنكحوه وأنكحوا إليه»**[(١)].

قال الواقديّ: ولقيه أسَيد بن حُضَير، فقال: يا رسولَ الله، الحمد لله الذي ظفّرك وأقرّ عينك، والله يا رسولَ الله، ما كان تخلّفي عن بدر وأنا أظنّ بك أنك تلقى عدوًّا، ولكني ظننت أنّها العير، ولو ظننت أنّه عدوّ لما تخّلفت، فقال رسولُ الله: صدقت.

قال: ولقيه عبد الله بن قيس بتُرْبان، فقال: يا رسول الله الحمد لله على سلامتك وظفرك، كنتُ يا رسولَ الله ليالِيَ خرجتَ موروداً - أي محموماً - فلم تفارقني حتى كان بالأمس، فأقبلت إليك، فقال: آجرك الله.

قال الواقديّ: وكان سُهيل بن عمرو لما كان بتنوكة بين السُّقْيا ومَلَل، كان مع مالك بن الدّخشم الّذي أسره، فقال له: خلّ سبيلي للغائط، فقام معه، فقال سهيل: إنّي أحتشم فاستأخِرْ عنّي، فاستأخر عنه، فمضى سهيل على وجهه، انتزع يدَه من القرآن، ومضى، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدّخشم، أقبل فصاح في النّاس، فخرجوا في طلبه، وخرج النبيّ ﷺ في طَلَبه بنفسه، وقال: مَنْ وجده فليقتله، فوجَده رسول الله ﷺ بنفسه أخفى نفسَه بين شجرات، فأمر به فَربطَتْ يداه إلى عنقه، ثم قرنه إلى راحلته، فلم يركب سهيل خطوة حتى قدم المدينة.

قال الواقديّ: فحدّثني إسحاق بن حازم بن عبد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ، قال: لقيَ رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، ورسول الله ﷺ على ناقته القصوى، فأجلسه بين يديه وسهيل بن عمرو مجبوب، ويداه إلى عنقه، فلمّا نظر إلى سهيل قالوا: يا رسول الله، أبو يزيد! قال: نعم، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة.

وقال البلاذُريّ: قال أسامة - وهو يومئذٍ غلام - يا رسول الله، هذا الذي كان يطعم الناس بمكة السريد - يعني الثريد.

قلت: هذه لثغة مقلوبة، لأنّ الألثغ يبدل السين ثاء، وهذا أبدل الثاء سيناً، ومن الناس من يرويها: «هذا الذي كان يطعم الناس بمكّة الشريد» بالشين المعجمة.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٧٧٢).

قال البلاذريّ: وحدّثني مُصعب بن عبد الله الزُّبيريّ، عن أشياخه أنّ أسامة رأى سُهَيلاً يومئذٍ، فقال: يا رسولَ الله هذا الذي كان يطعم السّريد بمكّة، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أبو يزيد الذي يطعِم الطعام، ولكنه سعى في إطفاء نور الله، فأمكن الله منه**»[1].

قال: وفيه يقول أميّة بن أبي الصّلت الثقفيّ:

يـأبـا يـزيـد رأيـت سـيـبَـك واسـعـاً ... وسـمـاء جـودك تـسـتـهـلّ فـتـمـطـرُ

قال: وفيه يقول مالك بن الدخشم، وهو الذي أسره يوم بدر:

أسـرتُ سـهـيـلاً فـلا أبـتـغِـي ... بـه غـيـرَه مـن جـمـيـع الأمَـمْ

وخـنـدف تـعـلـم أنَّ الـفـتـى ... سُـهَـيـلاً فـتـاهـا إذا تـظّـلِـمْ

ضـربـت بـذي الـشـفـر حـتـى انـثـنى ... وأكـرهـت نـفـسـي عـلـى ذي الـعـلَـمْ

أي على ذي العلْم بسكون اللام، ولكنه حرّكه للضرورة.

وكان سهيل أعلَم مشقوق الشّفَة العليا، فكانت أنيابه، بادية، فلذلك قالوا: ذو الأنياب.

قال الواقديّ: ولمّا قدم بالأسرى كانت سوْدة بنت زمْعة زوْج النبيّ ﷺ عند آل عَفْراء في مناحتهم على عوف ومعوّذ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب، قالت سودة: فأتينا فقيل لنا: هؤلاء الأسرى قد أتى بهم، فخرجت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد مجموعة يداه إلى عنقه في ناحية البيت، فوالله ما ملكت نفسي حين رأيته مجموعةً يداه إلى عنقه أن قلت: أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم! ألا متم كراماً فوالله ما راعني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت: «**يا سودة، أعلى الله وعلى رسوله**»[2]، فقلت: يا نبيّ الله، والذي بعثك بالحقّ إني ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أنْ قلت ما قلت.

قال الواقديّ: وحدثني خالد بن إلياس، قال: حدّثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي جَهْم، قال: دخل يومئذٍ خالد بن هشام بن المغيرة وأميّة بن أبي حُذيفة منزلَ أم سلَمة وأُمُّ سلمة في مناحة آل عَفْراء، فقيل لها: أتِيَ بالأسرى، فخرجت فدخلت عليهم فلم تكلّمهم حتى رجعت، فتجِد رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فقالت: يا رسولَ الله، إن بني عمّي طلبوا أن يدخل بهم

---

(١) أخرجه الصالحي الشامي في سبل الهدى: ٤/ ٦٦.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٩٢٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٨٩)، والطبراني (٩٢).

عليّ فأضيفهم، وأدهن رؤوسهم وألمّ من شعثهم، ولم أحبّ أن أفعل شيئاً من ذلك حتى استأمرك، فقال ﷺ: «لست أكره شيئاً من ذلك، فافعلي مِنْ هذا ما بدا لك». قال الواقديّ: وحدّثني محمد بن عبد الله، عن الزهريّ، قال: قال أبو العاص بن الربيع: كنت مستأسِراً مع رَهْط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنّا إذا تعشّينا أو تغدّينا آثروني بالخبر، وأكلوا التّمر، والخبز عندهم قليل والتمر زادهم، حتى إنّ الرجُلَ لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد. قال: وكانوا يحملوننا ويمشون.

وقال محمد بن إسحاق في كتابه: كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس خَتن رسول الله ﷺ زوْج ابنته زينب، وكان أبو العاص من رجال مكّة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وكان ابناً لهالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد، وكان الرّبيع بن عبد العُزّى، بعلَ هذه فكانت خديجة خالته، فسألتْ خديجة رسول الله ﷺ أن يزوّجه زينبَ، وكان رسول الله ﷺ لا يخالف خديجة، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحْيُ، فزوّجه إيّاها، فكان أبو العاص من خديجة بمنزلة ولدها، فلمّا أكرم الله رسَوله بنبوّته آمنت به خديجة وبناته كلّهنّ وصدّقنه وشهدْن أن ما جاء به حق ودِنّ بدينه، وثبَت أبو العاص على شِركه، وكان رسول الله ﷺ قد زوّج عُتبة بن أبيّ إحدى ابنتيه رقيّة أو أم كلثوم، وذلك من قبل أن ينزل عليه، فلمّا أنزل عليه الوحي ونادى قومه بأمر الله باعدوه.

فقال بعضهم لبعض: إنكم قد فرّغتم محمد من همّه، أخذتم عنه بناته وأخرجتموهنّ من عياله، فردّوا عليه بناته، فاشغَلوه بهنّ فمشوْا إلى أبي العاص بن الربيع، فقالوا: فارقْ صاحبتَك بنت محمد، ونحن نزوّجك أيّ امرأة شئت من قريش، فقال: لاها الله! إذن لا أفارق صاحبتي، وما أحبّ أنّ لي بها امرأةً من قريش! فكان رسول الله ﷺ إذا ذكره يُثْني عليه خيراً في صهره، ثم مشوا إلى الفاسق عُتْبة بن أبي لهب، فقالوا له: طلّق بنت محمّد، ونحن ننكحك أيّ امرأة شئت من قريش، فقال: إن أنتم زوّجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص، أو ابنةَ سعيد بن العاص فارقتُها، فزوّجوه ابنة سعيد بن العاص، ففارقها ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامةً لها وهواناً له ثم خلف عليها عثمان بن عفان بعده.

وكان رسول الله ﷺ مغلوباً على أمره بمكّة لا يُحلّ ولا يُحرّم، وكان الإسلام قد فرّق بين زينب وأبي العاص، إلاّ أنّ رسول الله ﷺ كان لا يقدر وهو بمكّة أن يفرّق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شِرْكه، حتّى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبقيتْ زينب بمكّة مع أبي العاص، فلمّا سارتْ قريش إلى بدْر سار أبو العاص معهم، فأصيب في الأسرى يوم بدر، فأتى به النبيّ ﷺ، فكان عنده مع الأساري، فلمّا بعث أهل مكة في فداء أساراهم، بعثت زينب في فداء أبي العاص بعلها بمالٍ، وكان فيما بعثت به قلادة كانت خديجة أمّها

أدخلتها بها على أبي العاص ليلة زفافها عليه، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقّ لها رقّة شديدة، وقال للمسلمين: **«إنْ رأيتم أن تطلِقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا»**، فقالوا: نعم يا رسولَ الله، نفديك بأنفسنا وأموالنا، فردُّوا عليها ما بعثت به، وأطلقوا لها أبا العاص بغير فداء[١].

قلت: قرأت على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد البصريّ العلويّ رحمه الله هذا الخبر، فقال: أترى أبا بكر وعمر لم يشهدا هذا المشهد! أما كان يقتضي التكريم والإحسان أن يطيّب قلب فاطمة بفدَك، ويستوهب لها من المسلمين، أتقصر منزلتُها عند رسول الله ﷺ عن منزلة زينب أختها وهي سيّدة نساء العالمين! هذا إذا لم يثبُت لها حقّ، لا بالنِّحلة ولا بالإرث، فقلت له: فدَك بموجب الخبر الذي رواه أبو بكر قد صار حقًّا من حقوق المسلمين فلم يَجُز له أن يأخذه منهم، فقال: وفداء أبي العاص بن الربيع قد صار حقًّا من حقوق المسلمين، وقد أخذه رسول الله ﷺ منهم! فقلت: رسول الله ﷺ صاحبُ الشريعة، والحُكم حكمُه، وليس أبو بكر كذلك، فقال: ما قلتُ: هَلاّ أخذه أبو بكر من المسلمين قهراً فدفعه إلى فاطمة، وإنما قلت: هلاّ استنزل المسلمين عنه واستوهبه منهم لها كما استوهب رسول الله ﷺ المسلمين فداء أبي العاص! أتراه لو قال: هذه بنت نبيّكم قد حضرتْ تطلب هذه النَّخلات، أفتطيبون عنها نفساً؟ أكانوا منعوها ذلك! فقلت له: قد قال قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبّار بن أحمد نحو هذا، قال: إنّهما لم يأتيا بحسن في شَرْع التكرّم، وإن كان ما أتياه حَسَناً في الدّين.

قال محمد بن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ لمّا أطلق سبيل أبي العاص أخذ عليه فيما نرى أو شرط عليه في إطلاقه، أو أنّ أبا العاص وعد رسول الله ﷺ ابتداء بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة، ولم يظهر ذلك من أبي العاص، ولا من رسول الله ﷺ إلاّ أنّه لما خُلِّيَ سبيله، وخرج إلى مكّة بعث رسول الله ﷺ بعده زيد بن حارثه ورجلاً من الأنصار، فقال لهما: كونا بمكان كذا حتى تمرّ بكما زينب فتصحبانها حتى تأتياني بها، فخرجا نحو مكّة، وذلك بعد بدر بشهرٍ أو شيعه، فلما قدم أبو العاص مكّة أمرها باللّحوق بأبيها، فأخذت تتجهّز.

قال محمد بن إسحاق: فحدّثت عن زينب أنّها قالت: بينا أنا أتجهّز للحوق بأبي، لقيتْني هند بنت عُتْبة، فقالت: ألم يبلغني يا بنت محمد أنّك تريدين اللّحوق بأبيك! فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أيْ بنت عم لا تفعلي إن كانت لك حاجة في متاع أو فيما يرفق بك في سفرك أو مال تبلغين به إلى أبيك فإن عندي حاجتك، فلا تَضْطَني منّي، فإنّه لا يدخل بين النّساء ما يدخل بين الرجال، قالت: وايمُ الله، إني لأظنها حينئذٍ صادقة، ما أظنها قالت حينئذٍ إلا لتفعل،

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٢١٤.

ولكن خفتُها فأنكرت أن أكون أريد ذلك. قالت: وتجهّزتُ حتى فرغت من جهازي، فحملني أخو بَعْلي وهو كنانة بن الربيع.

قال محمد بن إسحاق: قدّم لها كنانة بن الربيع بعيراً فركبتْه، وأخذ قوسه وكنانته، وخرج بها نهاراً يقود بعيرها، وهي في هَوْدَج لها، وتحدّث بذلك الرّجال من قريش والنساء، وتلاومت في ذلك، وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال، فخرجوا في طلبها سِراعاً حتى أدركوها بذي طوى، فكان أوّل مَنْ سبق إليها هبّار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ، ونافع بن عبد القيس الفِهْرِيّ، فروّعها هبّار بالرّمح وهي في الهودج، وكانت حاملاً، فلما رجعت طرحت ما في بطنها، وقد كانت من خوفها رأت دماً وهي في الهودجَ، فلذلك أباح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكّة دمَ هبّار بن الأسود.

قلت: وهذا الخبر أيضاً قرأته على النّقيب أبي جعفر رحمه الله، فقال: إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله أباح دم هبّار بن الأسود؛ لأنّه روّع زينب فألقتْ ذا بطنها، فظهر الحال أنه لو كان حيًّا لأباح دم مَنْ رَوّع فاطمة حتى ألقت ذا بطنها. فقلت: أروي عنك ما يقوله قومٌ أنّ فاطمة روِّعت فألقت المحسن، فقال: لا تروِه عَنّي ولا تَرْوِ عَنّي بطلانه.

فإنّي متوقّف في هذا الموضع لتعارض الأخبار عندي فيه(١).

قال الواقديّ: فبركَ حَمُوها كنانة بن الربيع، ونثلَ كنانته بين يديه، ثم أخذ منها سهماً فوضعه في كبد قوسه، وقال: أحلف بالله لا يدنُو اليوم منها رجلٌ إلاّ وضعتُ فيه سهماً، فتكرّ الناس عنه.

قال: وجاء أبو سفيان بن حرب في جِلّةٍ من قُريش، فقال: أيّها الرّجل، اكفُفْ عنّا نَبْلَك حتى نكلّمك، فكفّ. فأقبل أبو سفيان حتّى وقف عليه، فقال: إنّك لم تحسن ولم تُصِبْ، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهاراً، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد أبيها، فيظنّ الناس إذا أنت خرجت بابنته إليه جهاراً أنّ ذلك عن ذلّ أصابنا، وأنّ ذلك منّا وَهَن، ولعمري مالنا في حبسهما عن أبيها من حاجة، وما فيها من ثأر، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدّث الناس بردّها سُلّها سَلاً خفيًّا، فالحقها بأبيها. فردها كنانة بن الربيع إلى مكة، فأقامت بها لياليَ حتى إذا هدأ الصوت عنها حملها على بعيرها، وخرج بها ليلاً حتى سلّمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) ممن روى سقوط المحسن ابن كثير في أسد الغابة: ٤/ ٣٠٧، والسيوطي في الحاوي للفتاوى: ٢/ ٨١، رسالة السلالة الزينبية، والجزائري في الأنوار النعمانية: ١/ ٣٧١.

قال محمد بن إسحاق: فروى سليمان بن يسار، عن أبي إسحاق الدَّوْسي، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ سريّة أنا فيها إلى عيرٍ لقريش، فيها متاع لهم وناس منهم، فقال: إن ظفرتم بهبّار بن الأسود ونافع بن عبد قيس، فحرّقوهما بالنار، حتى إذا كان الغدُ بعث فقال لنا: «إني كنت قد أمرتكم بتحريق الرّجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يعذّب بالنّار إلا الله تعالى، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما، ولا تحرّقوهما»[1].

قلت: لقائل من المجبرة أنْ يقول: أليس هذا نسخ الشّيء قبل تقضّي وقت فعله، وأهل العدل لا يجيزون ذلك! وهذا السؤال مشكِل، ولا جوابَ عنه إلاّ بدفع الخبر إمّا بتضعيف أحد من رواته، أو إبطال الاحتجاج به لكونه خبرٍ واحد، أو بوجه آخر، وهو أن نجيز للنبي الاجتهاد في الأحكام الشرعية كما يذهب إليه كثير من شيوخنا، وهو مذهب القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ومثل هذا الخبر حديث براءة وإنفاذها مع أبي بكر، وبعث عليّ عليه السلام، فأخذها منه في الطريق، وقرأها على أهلِ مكّة بعد أن كان أبو بكر هو المأمور بقراءتها عليهم.

فأمّا البلاذريّ فإنه روى أن هبّار بن الأسود كان ممّن عرّض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين حُملِتْ من مكّة إلى المدينة، فكان رسول الله ﷺ يأمر سراياه إن ظفروا به أن يحرّقوه بالنار، ثم قال: لا يعذّب بالنّار إلا ربّ النار، وأمرهم إن ظفروا به أن يقطعوا يديْه ورجليه ويقتلوه، فلم يظفروا به، حتى إذا كان يوم الفتح هرب هبّار، ثم قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة - ويقال: أتاه بالجِعرانة - حين فرغ من أمر حُنَين، فمثّلَ بين يديه، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقبل إسلامه وأمر ألاّ يُعرَض له، وخرجت سَلْمى مولاة رسول الله ﷺ فقالت: لا أنعم الله بك عيناً! فقال رسول الله ﷺ: «مهلا، فقد محا الإسلام ما قبله»!

قال البلاذريّ: فقال الزبير بن العوام: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ بعد غلظته على هبّار بن الأسود يطأطيء رأسه استحياءً منه وهبّار يعتذر إليه، وهو يعتذر إلى هبّار أيضاً.

قال محمد بن إسحاق: فأقام أبو العاص بمكّة على شِرْكه، وأقامت زينب عند أبيها ﷺ بالمدينة، قد فرّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بمالٍ له، وأموال لقريش أبضعوا بها معه، وكان رجلاً مأموناً، فلمّا فرغ من تجارته وأقبل قافلاً

(١) أخرجه البخاري كتاب: الجهاد، باب: لا يعذب بعذاب الله (٣٠١٦)، والترمذي، كتاب: السير، باب: ما جاء في النهي عن قتل النساء (١٥٧١)، وأحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٨٠٠٧).

لقيتْه سريّة لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه وأعجزهم هو هارباً، فخرجت السريّة بما أصابت من ماله، حتّى قدمت به على رسول الله ﷺ، وخرج أبو العاص تحت الليل، حتى دخل على زينب - ابنة رسول الله ﷺ - منزلَها، فاستجار بها فأجارتْه، وإنما جاء في طلب ماله الذي أصابته تلك السريّة، فلمّا كبّر رسول الله ﷺ في صلاة الصبح، وكبّر الناس معه، صرخت زينب من صُفَّةِ النساء: أيّها الناس، إنّي قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فصلّى رسول الله ﷺ بالنّاس الصبح، فلمّا سلم من الصلاة، أقبل عليهم فقال: «أيّها الناس، هل سمعتم ما سمعتُ؟»، قالوا: نعم، قال: «أمَا والّذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعتم، إنه يجير على الناس أدناهم».

ثم انصرف ودَخل على ابنته زينب، فقال: «أيْ بنيّة، أكرمي مثواه، وأحسِني قِراه، ولا يصلَنّ إليك، فإنّك لا تَحِلّين له»[1].

ثم بعث إلى تلك السريّة الذين كانوا أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: إنّ هذا الرجل منّا بحيث علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردّوا عليه الذي له، فإنّا نحبّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الذي أفاء عليكم، وأنتم أحقّ به. فقالوا: يا رسولَ الله، بل نردّه عليه، فردُّوا عليه ماله ومتاعه، حتى إنّ الرجل كان يأتي بالحبْل، ويأتي الآخر بالشنّة، ويأتي الآخر بالإداوة، والآخر بالشِّظاظ، حتى ردُّوا مالَه ومتاعه بأسرِه من عند آخره ولم يفقد منه شيئاً. ثم احتمل إلى مكّة، فلما قدمها أدّى إلى كلّ ذي مال من قريش مالَه ممّن كان أبضع معه بشيء، حتى إذا فرغ من ذلك، قال لهم: يا معشرَ قريش، هل بقيَ لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا فجزاك الله خيراً، لقد وجدناك وفيًّا كريماً، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله ما منعني من الإسلام إلاّ تخوّف أن تظنّوا أني أردتُ أن آكل أموالكم، وأذهب بها فإذ سلّمها الله لكم، وأدّاها إليكم، فإني أشهدكم أنّي قد أسلمتُ واتبّعت دين محمد. ثم خرج سريعاً حتى قدم على رسول الله المدينة.

قال محمد بن إسحاق: فحدّثني داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ ردّ زينب بعد ستّ سنين على أبي العاص بالنكاح الأول لم يحدث شيئاً.

قال الواقديّ: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من أمر الأسارَي، وفرّق الله عزّ وجلّ ببدر بين الكفر والإيمان، أذلّ رقاب المشركين والمنافقين واليهود، ولم يبق بالمدينة يهوديّ ولا منافق إلا خضعت عنقه.

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣/ ٢٦٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (٩/ ٩٥).

وقال قوم من المنافقين: ليتنا خرجْنَا معه حتى نصيب غنيمة. وقالت يهود فيما بينها: هو الذي نجد نعته في كتبنا، والله لا تُرْفع له راية بعد اليوم إلاّ ظهرت.

وقال كعب بن الأشرف: بطن الأرض اليوم خير من ظهرها، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم، وملوك العرب وأهل الحرَم والأمْن قد أصيبوا. وخرج إلى مكّة، فنزل على أبي وَدَاعة بن ضُبَيْرة، وجعله يرسل هجاء المسلمين، ورثى قتلى بدر من المشركين، فقال:

طَحَنَتْ رَحَا بدر لِمُهْلَكِ أهلِه ... ولِمِثْلِ بدر يُستهلّ ويُدْمَعُ
قُتِلَتْ سراةُ النّاس حول حياضِهِ ... لا تبعَدُوا إنَّ الملوكَ تُصَرَّعُ
ويقولُ أقوامٌ أذل بعزّهم: ... إن ابن أشرفَ ظلّ كعبًا يجزَعُ
صدقُوا فليتَ الأرض ساعةَ قتِّلُوا ... ظلّتْ تسيخُ بأهلها وتصَدَّعُ
نُبِّئْتُ أنّ الحارث بن هِشَامِهِمْ ... في النّاس يبني الصالحات ويَجْمَعُ
ليزورَ يثرب بالجموع وإنَّما ... يسعى على الحسبِ القديم الأرْوَعُ

قال الواقديّ: أملاها عليّ عبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح وابن أبي الزّناد. فلمّا أرسل كعب هذه الأبيات أخذَها الناس بمكة عنه، وأظهروا المراثي - وقد كانوا حرّموها كيلا يشمت المسلمون بهم - وجعل الصبيان والجواري ينشدونَها بمكة، فناحت بها قريش على قتلاها شهراً، ولم تبقَ دارٌ بمكة إلاّ فيها النوْح - وجزّ النساء شعورهنّ، وكان يؤتى براحلة الرّجل منهم أو بفرسه، فتوقَف بين أظهرهم، فينوحون حولها، وخرجن إلى السّكك، وضربْنَ الستور في الأزقّة، وقطعن فخرجن إليها ينحْن، وصدّق أهلُ مكة رؤيا عاتكة وجهيم بن الصَّلْت.

قال الواقديّ: وكان الّذين قدموا من قريش في فداء الأسرَى أربعة عشر رجلاً، وقيل خمسة عشر رجلاً، وكان أوّل مَنْ قدِم المطّلب بن أبي وداعة، ثم قدم الباقون بعده بثلاث ليال.

قال: فحدّثني إسحاق بن يحيى، قال: سألت نافع بن جُبَير: كيف كان الفداء؟ قال: أرفعهم أربعة آلاف إلى ثلاث آلاف إلى ألفين إلى ألف، إلا قوماً لا مال لهم منّ عليهم رسول الله ﷺ.

قال الواقديّ: وقال رسول الله ﷺ في أبي وداعة، إنّ له بمكّة ابناً كيّساً له مال، وهو مُغْلٍ فدَاءه، فلمّا قدم افتداه بأربعة آلاف، وكان أوّل أسير افتُدي، وذلك أنّ قريشاً قالت لابن المطلب بن أبي وداعة - ورأته يتجهزّ، يخرج إليه -: لا تعَجْل، فإنّا نخاف أن تفسد علينا في أسارانا، ويرى محمّد تهالكنا فيُغلي علينا الفدية، فإن كنت تجد فإنّ كلّ قومك لا يجدون من السّعة ما تجد. فقال: لا أخرج حتى تخرجوا، فخادعهم حتى إذا غفلوا خرج من اللّيل على راحلته، فسار أربعة ليال إلى المدينة فافتدى أباه بأربعة آلاف، فلامه قريش في ذلك، فقال: ما كنت لأترك أبي أسيراً في أيدي القوم وأنتم مضجعون، فقال أبو سفيان بن حرب: إن هذا غلام

حدَث يعجب بنفسه وبرأيه، وهو مفسد عليكم، إني والله غير مفتدٍ عمرو بن أبي سفيان، ولو مكث سنة أو يرسله محمد: والله ما أنا بأعوذكم، ولكنّي أكره أن أُدخِل عليكم ما يشقّ عليكم، ولكن يكون عمرو كأسوتكم.

قال الواقديّ: فأمّا أسماء القوم الّذين قدموا في الأسرى، فإنّه قدم من بني عبد شمس الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيط، وعمرو بن الربيع أخو أبي العاص بن الربيع. ومن بني نوفل بن عبد مناف جُبَير بن مطعِم: ومن بني عبد الدار بن قُصيّ طلحة بن أبي طلحة، ومن بني أسد بن عبد العُزّى بن قصِيّ عثمان بن أبي حُبيش. ومن بني مخزوم عبد الله بن أبي ربيعة وخالد بن الوليد وهشام بن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبي جهل. ومن بني جُمَح أبيّ بن خلَف وعُمير بن وهب. ومن بني سهم المطلّب بن أبي وداعة وعمرو بن قيس. ومن بني مالك بن حِسْل مكرز بن حفْص بن الأحنف، كلّ هؤلاء قدموا المدينة فداء أهلهم وعشائرهم.
وكان جبير بن مطعِم يقول: دخل الإسلام في قلبي منذ قدمت المدينة في الفِداء، سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾[1]، فاستمعت قراءته، فدخل الإسلام في قلبي منذ ذلك اليوم.

في أسماء أُسارى بدر وأسماء من أسرهم

قال الواقديّ: أسِر من بني هاشم العبّاس بن عبد المطلب، أسره أبو اليسَر كعب بن عمرو، وعَقِيل بن أبي طالب أسره عَبيد بن أوس الظّفَريّ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب أسَره جَبّار بن صخر، وأسِر حليف لبني هاشم من بني فهر، اسمه عُتْبة فهؤلاء أربعة.

ومن بني المطلّب بن عبد مناف السّائب بن عبيد، وعبيد بن عمرو بن علقمة، رَجُلان أسرهما سلمة بن أسلم بن حريش الأشهليّ.

قال الواقديّ: حدثني بذلك ابن أبي حبيبة، قال: ولم يقدم لهما أحد، وكانا لا مال لهما، ففكّ رسول الله ﷺ عنهما بغير فدْية.

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف عُقْبة بن أبي مُعَيط المقتول صَبْراً، على يد عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بأمر رسول الله، أسره عبد الله بن أبي سلمة العجلانيّ، والحارث بن أبي وخرة بن أبي عمرو بن أمية، أسره سعد بن أبي وقّاص، فقدم في فدائه الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط فافتداه بأربعة آلاف.

---

(١) سورة الطور، الآيتان: ١، ٢.

قال الواقديّ: وقد كان الحارث هذا لما أمر النبي ﷺ بردّ الأسارى، ثم أقرع بين أصحابه عليهم، وقع في سهم سعد بن أبي وقاص الّذي كان أسره أوّل مرة - وعمرو بن أبي سفيان، أسره عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وصار بالقُرْعة في سهم رسول الله ﷺ، فأطلقه بغير فدْية، أطلقه بسعد بن النعمان بن أكال من بني معاوية، خرج معتمراً، فحبس بمكة، فلم يطلقه المشركون حتى أطلق رسول الله ﷺ عمرو بن أبي سفيان.

وروى محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي»: أن عمرو بن أبي سفيان أسره عليّ عليه السلام يوم بَدْر، وكانت أمّه ابنة عُقْبة بن أبي مُعَيط، فمكث في يد رسول الله ﷺ، فقيل لأبي سفيان: ألا تفتدِي ابنك عمراً؟ قال: أيجمع عليّ دمي ومالي! قتلوا حنظلَة وأفتدي عمراً! دعوه في أيديهم فليمسكوه ما بدا لهم. فبينا هو محبوس بالمدينة، خرج سعد بن النعمان بن أكّال أخو بني عمرو بن عوف معتمراً، ومعه امرأة له، وكان شيخاً كبيراً لا يخشى ما صنع به أبو سفيان: وقد عهِد قريشاً ألا يعرِض لحاجّ ولا معتمِر، فعدَا عليه أبو سفيان، فحبسه بمكة بابنه عمرو بن أبي سفيان، وأرسل إلى قوم بالمدينة هذا الشعر:

أرهط ابن أكّالٍ أجيبوا دعاءه ... تعاقدتمُ لا تُسلِموا السّيّد الكَهْلاَ

فإنّ بني عمرو لئام أذِلّةٌ ... لئن لم يفكّوا عن أسيرهُم الكَبْلا

فمشى بنو عمرو بن عوف حين بلغهم الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه بذلك، وسألوه أن يعطيَهم عمرو بن أبي سفيان ليفكُّوا به صاحبَهم، فأعطاهم إياه، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلّى سبيل سعد. وقال حسان بن ثابت يجيب أبا سفيان:

ولو كان سعدٌ يوم مكّة مطلقاً ... لأكثر فيكُمْ قبل أن يؤسر القتلَى

بعَضْبٍ حُسام أو بصفراء نَبْعةٍ ... تحنّ إذا ما أنبِضت تحفزُ النَّبْلاَ

وأبو العاص بن الربيع، أسَره خِرَاش بن الصّمة، فقدم في فدائه عمرو بن أبي الربيع أخوه، وحليف لهم، يقال له أبو ريشة افتداه عمرو بن الربيع أيضاً. وعمرو بن الأزرق افتكّه عمرو بن الربيع أيضاً، وكان قد صار في سهم تميم مولى خراش بن الصّمة، وعُقْبة بن الحارث الخضرميّ أسره عمارة بن حزم، فصار في القرعة لأبيّ بن كعب، افتداه عمرو بن أبي سفيان بن أميّة، وأبو العاص بن نوفل بن عبد شمس، أسره عمّار بن ياسر قدم في فدائه بن عمّه. فهؤلاء ثمانية.

ومن بني نوفل بن عبد مناف عديّ بن الخيار، أسره خراش بن الصّمة، وعثمان بن عبد شمس، ابن أخي عتبة بن غَزْوان حليفهم، أسره حارثة بن النّعمان، وأبو ثور، أسره أبو مَرْثد الغنَويّ، فهؤلاء ثلاثة افتداهم جُبير بن مطعِم.

ومن بني عبد الدار بن قصيّ أبو عزيز بن عُمير، أسره أبو اليَسَر، ثم صار بالقرعة لمحرِز بن نَضْلة - قال الواقديّ: أبو عزيز هذا هو أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمّه، وقال مصعب

لمحرز بن نضلة: اشدد يديْك به، فإنّ له أمّا بمكة كثيرة المال، فقال له أبو عزيز: هذه وصاتك بي يا أخي! فقال مصعب: إنّه أخي دونك، فبعثتْ فيه أمّه أربعة آلاف، وذلك بعد أن سألتْ: ما أغلى ما تُفادِي به قريش؟ فقيل لها: أربعة آلاف - والأسود بن عامر بن الحارث بن السبّاق، أسره حمزة بن عبد المطلب، فهذان اثنان قدم في فدائهما طَلْحة بن أبي طلحة.

ومن بني أسد بن عبد العُزّى بن قُصيّ، السائب بن أبي حُبَيش بن المطّلب بن أسد بن عبد العزّى، أسره عبد الرحمن بن عوف. وعثمان بن الحويرث بن عثمان بن أسد بن عبد العزّى، أسره حاطب بن أبي بَلْتعة، وسالم بن شمّاخ أسره سعد بن أبي وقّاص، فهؤلاء ثلاثة قدِم في فدائهم عثمان بن أبي حبيش بأربعة آلاف لكلّ رجل منهم.

ومن بني تميم بَن مرّة، مالك بن عبد الله بن عثمان، أسره قُطْبة بن عامر بن حديدة، فمات في المدينة أسيراً.

ومن بني مخزوم خالد بن هشام بن المغيرة، أسره سواد بن غزيّة. وأميّة بن أبي حذيفة بن المغيرة، أسره بلال. وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وكان أفلت يوم نَخْلة، أسره واقد بن عبد الله التميميّ يوم بدر، فقال له: الحمدُ لله الّذي أمكنني منك، فقد كنت أفلتّ يوم نخلة - وقدم في فداء هؤلاء الثلاثة عبد الله بن أبي ربيعة، افتدى كلّ واحد منهم بأربعة آلاف - والوليد بن الوليد بن المغيرة، أسره عبد الله بن جحش، فقدِم في فدائه أخواه خالد بن الوليد وهشام بن الوليد، فتمنّع عبد الله بن جحش حتى افتكّاه بأربعة آلاف، فجعل هشام بن الوليد يريد ألاّ يبلغ ذلك - يريد ثلاثة آلاف فقال خالد لهشام: إنه ليس بابن أمّك، والله لو أبَى فيه إلاّ كذا وكذا لفعلت، فلمّا افتدياه خرجا به حتى بلغا به ذا الحُليفة، فأفلت، فأتى النبيّ ﷺ فأسلم، فقيل: ألا أسلمتَ قبل أن تفتدي! قال: كرهتُ أن أسلِم حتّى أكونَ أسوةً بقومي. - قال الواقديّ: ويقال إن الذي أسر الوليد بن الوليد سليط بن قيس المازنيّ - وقيس بن السائب، أسره عبدة بن الحسحاس، فحبسه عنده حيناً، وهو يظنّ أنّ له مالاً، ثم قدم في فدائه أخوه فَرْوة بن السائب، فأقام أيضاً حيناً، ثم افتداه بأربعة آلاف فيها عُروض.

ومن بني أبي رفاعة صيْفيّ بن أبي رفاعة بن عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، وكان لا مال له، أسره رجلٌ من المسلمين، فمكث عندهم، ثم أرسله. وأبو المنذر بن أبي رفاعة بن عائذ افتُدي بألفين - ولم يذكر الواقدي مَنْ أسره - وعبد الله، وهو أبو عطاء بن السائب بن عائذ بن عبد الله، افتُدي بألف درهم، أسره سعد بن أبي وقاص، والمطلب بن حنظلة بن الحارث بن عبيد بن عمير بن مخزوم، أسره أبو أيوب الأنصاريّ - ولم يكن له مال فأرسله بعد حين - وخالد بن الأعلم العقيليّ، حليف لبني مخزوم، وهو الذي يقول:

وَلَسْنَا على الأعقاب تدمَى كلُومُنا ... ولكِنْ على أقدامِنا تقطُر الدِّما

وقال محمد بن إسحاق: روي أنّه كان أوّل المنهزمين، أسره الخبّاب بن المنذر بن الجَمُوح، وقدم في فدائه عكرمة بن أبي جهل، فهؤلاء عشرة.

ومن بني جُمح عبد الله بن أبي بن خلف، أسره فَرْوة بن أبي عمرو البياضيّ، قدم في فدائه أبوه أبيّ بن خَلَف فتمتّع به فروة حيناً. وأبو عزّة عمرو بن عبد الله بن وهب، أطلقه رسول الله ﷺ بغير فِدْية، وكان شاعراً خبيث اللسان، ثم قتله يوم أُحُد، بعد أن أسره - ولم يذكر الواقدي الّذي أسره يوم بدر - ووهب بن عمير بن وهب، أسره رفاعة بن رافع الزرقي، وقدم أبوه عمير بن وهْب في فدائه، فأسلم فأرسل النبيّ ﷺ له ابنه بغير فداء، وربيعة بن درّاج بن العنبس بن وهبان بن وهب بن حُذافة بن جمح، وكان لا مال له، فأخذ منه بشيء يسير، وأرسل به - ولم يذكر الواقدي مَنْ أسره - والفاكه مولى أميّة بن خلف، أسره سعد بن أبي وقّاص، فهؤلاء خمسة.

ومن بني سَهْم بن عمرو أبو وَدَاعة بن صُبَيْرة وكان أوّل أسير افتدي، قدم في فدائه ابنُه المطلب، فافتداه بأربعة آلاف - ولم يذكر الواقدي مَنْ أسره - وفَرْوة بن قَيْس بن عديّ بن حذافة بن سعيد بن سهم، أسره ثابت بن أقزم، وقدم في فدائه عمرو بن قيس، افتداه بأربعة آلاف، وحنظلة بن قبيصة بن حُذَافة بن سعد، أسره عثمان بن مظعون. والحجّاج بن الحارث بن قيس بن سعد بن سَهْم، أسره عبد الرحمن بن عوف، فأفلت، فأخذه أبو داود المازني. فهؤلاء أربعة.

ومن بني مالك بن حِسْل سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وَدّ بن نصر بن مالك، أسره مالك بن الدّخشم، وقدم في فدائه مكرز بن حَفْص بن الأحنف، وانتهى في فدائه إلى إرضائهم بأربعة آلاف، فقالوا: هات المال، فقال: نعم، اجعلوا رجلاً مكان رجل، وقوم يروونها: «رِجْلاً مكان رِجل»، فخلّوا سبيل سُهيل، وحبسوا مِكْرز بن حفص عندهم، حتى بعث سهيل بالمال من مكّة. وعبد الله بن زَمْعة بن قيس بن نصر بن مالك، أسره عمير بن عوف، مولى سُهَيل بن عمرو. وعبد العزّى بن مشنوء بن وقدان بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ سمّاه رسول الله ﷺ بعد إسلامه عبد الرحمن، أسره النعمان بن مالك. فهؤلاء ثلاثة.

ومن بني فِهْر الطّفيل بن أبي قُنَيع، فهؤلاء ستّة وأربعون أسيراً.

وفي كتاب الواقديّ أنّه كان الأسارى الّذين أحصوا وعرفوا تسعة وأربعين، ولم نجد التفصيل يلحق هذه الجملة.

وروى الواقدي عن سعيد بن المسيّب، قال: كانت الأساري سبعين، وإنّ القتلى كانت زيادة على سبعين إلاّ أنّ المعروفين من الأسرى هم الذين ذكرناهم، والباقون لم يذكر المؤرخون أسماءهم.

في ذكر أسماء المطعمين في بدر من المشركين

قال الواقديّ: المتفق عليه ولا خلاف بينهم فيه تسعة، فمن بني عبد مناف الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس.

ومن بني أسد بن عبد العزّى، زمْعة بن الأسود بن المطلّب بن أسد، ونوفل بن خويلد المعروف بابن العدوّية.

ومن بني مخزوم، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة.

ومن بني جُمح، أميّة بن خلَف.

ومن بني سَهْم نبيه ومنبّه ابنا الحجاج.

فهؤلاء تسعة.

قال الواقديّ: وكان سعيد بن المسيّب يقول: ما أطعَم أحد ببدر إلا قتِل.

قال الواقديّ: قد ذكروا عدّة من المطعمين، اختلف فيهم، كسُهيل بن عمرو وأبي البختري وغيرهما.

قال: حدثني إسماعيل بن إبراهيم، عن موسى بن عتبة، قال: أوّل مَنْ نحر لهم أبو جهل بمرّ الظَهران عشراً، ثم أميّة بن خلف بعُسْفان تسعاً، ثم سهيل بن عمرو بقُدَيد عشراً، ثم مالوا إلى مياه من نحو البحر ضلّوا الطريق، فأقاموا بها يوماً، فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر له قيس الجمحيّ تسعاً، ثم نحر عتبة عشراً، ونحر لهم الحارث بن عمرو تسعاً، ثم نحر لهم أبو البختريّ على ماء بدر عشراً، ونحر لهم مقيس بن ضبابة على ماء بدر تسعاً، ثم شغلتهم الحرب.

قال الواقديّ: وقد كان ابن أبي الزّناد يقول: والله ما أظنّ مقيساً كان يقدر على قَلُوص واحدة.

قال الواقديّ: وأمّا أنا فلا أعرف قيساً الجمحيّ. قال: وقد روت أم بكر، عن المسور بن مخرمة ابنها، قال: كان النّفر يشتركون في الإطعام، فينسب إلى الرّجل الواحد ويسكت عن سائرهم.

وروى محمد بن إسحاق أنّ العباس بن عبد المطلب كان من المطعمين في بدر، وكذلك طُعَيمة بن عديّ بن نوفل، كان يعتقب هو وحكيم والحارث بن عامر بن نوفل، وكان أبو البختري يعتقِب هو وحكيم بن حزام في الإطعام، وكان النّضر بن والحارث بن كلَده بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدّار من المطعمِين. قال: وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يكره قتل الحارث بن

عامر، قال يوم بدر: «مَنْ ظفر به منكم فليتركه لأيتام بني نوفل»(١)، فقتِل في المعركة.

أسماء المستشهدين من المسلمين ببدر

قال الواقديّ: حدّثني عبد الله بن جعفر، قال: سألت الزهريّ: كم استشهد من المسلمين ببدر؟ قال: أربعة عشر، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

قال: فمن بني المطلب بن عبد مناف عبيدة بن الحارث، قتله شيبة بن ربيعة.

وفي رواية الواقدي قتله عتبة، فدفنه النبي ﷺ بالصفراء.

ومن بني زُهرة عمير بن أبي وقاص، قتله عمرو بن عبد وَدّ، فارس الأحزاب، وعمير بن عبد وَدّ ذو الشمالين، حليف لبني زُهرة بن خُزاعة، قتله أبو أسامة الجشميّ.

ومن بني عديّ بن كعب عاقل بن أبي البُكير، حليف لهم من بني سعد بن بكر، قتله مالك بن زهير الجُشَمِيّ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، قتله عامر بن الحضرميّ، ويقال: إنّ مهجعاً أوّل من قتل من المهاجرين.

ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء، قتله طُعَيمة بن عديّ.

وهؤلاء الستة من المهاجرين.

ومن الأنصار، ثمّ من بني عمرو بن عوف، مبشّر بن عبد المنذر، قتله أبو ثور. وسعد بن خيثمة، قتله عمرو بن عبدودّ - ويقال طعيمة بن عديّ - ومن بني عديّ بن النجار حارثة بن سراقة رماه حبان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته، فقتله.

ومن بني مالك بن النجار، عوف ومعوّذ ابنا عفراء، قتلهما أبو جهل.

ومن بني سلِمة بن حرام عمير بن الحمام بن الجموح، قتله خالد بن الأعلم العقيليّ - ويقال إن عمير بن الحمام أول قتيل قتل من الأنصار، وقد روي أن أوّل قتيل منهم حَارث بن سراقة.

ومن بني زُرَيق، رافع بن المُعلّي، قتله عكرمة بن أبي جهل.

ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث بن قسحم، قتله نوفل بن معاوية الديليّ.

فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

قال الواقديّ: وقد روي عن عكرمة، عن ابن عباس أن أنسة مولى النبي ﷺ قتل ببدر.

وروي أن معاذ بن ماعص جرِح ببدر، فمات من جراحته بالمدينة، وأن عبيد بن السكن جرح فاشتكى جُرحه، فمات منه حين قدم.

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة: ٢/ ٣١١.

أسماء المشركين المقتولين ببدر وأسماء قاتليهم

قال الواقديّ: فمن بني عبد شمس بن عبد مناف حنظلة بن أبي سفيان بن حرب، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والحارث بن الحضرميّ قتله عمار بن ياسر، وعامر بن الحضرمي قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وعمير بن أبي عمير وابنه، موليان لهم، قتل سالم مولى أبي حذيفة منهم عمير بن أبي عمير - ولم يذكر الواقديّ من قتل ابنه - وعبيدة بن سعيد بن العاص، قتله الزبير بن العوام، والعاص بن سعيد بن العاص، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعقبة بن أبي معيط، قتله عاصم بن ثابت صبْراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله.

وروى البلاذُري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلبه بعد قتله، فكان أول مصلوب في الإسلام. قال: وفيه يقول ضرار بن الخطاب:

عيــن بكّــي لعُــقْـبَـة بــن أبـانِ فــرع فــهــرٍ وفــارس الــفــرســانِ

وعتْبة بن ربيعة، قتله حمزة بن عبد المطلب. وشيبة بن ربيعة، قتله عُبيدة بن الحارث وحمزة وعليّ، الثلاثة اشتركوا في قتله. والوليد بن عتْبة بن ربيعة، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وعامر بن عبد الله حليف لهم من أنمار، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله سعد بن معاذ، فهؤلاء اثنا عشر.

ومن بني نوفل بن عبد مناف الحارث بن نوفل، قَتَله خُبَيْب بن يِساف، وطَعَيْمَة بن عديّ، ويكنى أبا الرّيان، قتله حمزة بن عبد المطلّب في رواية الواقديّ، وقتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن إسحاق. وروى البلاذُريّ رواية غريبة، أن طُعَيْمة بن عديّ أُسِرَ يوم بدر، فقتله النبيّ صلى الله عليه وآله صَبْراً على يد حمزة، فهؤلاء اثنان.

ومن بني أَسَد بن عبد العزّى زَمْعة بن الأسود، قتله أبو دُجَانة، وقيل: قتله ثابت بن الْجِذْع، والحارث بن زمعة بن الأسود، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وعَقيل بن الأسود بن المطّلب، قتله عليّ وحمزة، شرِكا في قتله.

قال الواقديّ: وحدّثني أبو معشر، قال: قتَله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وحده، وقيل: قتله أبو داود المازنيّ وحده. وأبو البختريّ، وهو العاص بن هشام، قتله المجذَر بن زياد، وقيل: قتله أبو اليسَر. ونوفل بن خُويلد بن أسَد بن عبد العزّى، وهو ابن العَدَوِيّة، قتَله عليٌّ عليه السلام، فهؤلاء خمسة.

ومن بين عبد الدار بن قصيّ، النّضر بن الحارث بن كلَدة، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام صَبْراً بالسيف بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الّذي أسَره المقداد بن عمرو، فوعد المقداد - إن استنقذه - بفداء جليل، فلمّا قدّم ليُقتل، قال المقداد: يا رسولَ الله، إنّي ذُو عيال، وأحبّ الدين، فقال: اللهم أغنِ المقدادَ من فضلك! يا عليّ، قم فاضرب عنقه. وزيد بن مُلَيص مولى

عمرو بن هاشم بن عبد مناف، من عبد الدار، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله بلال. فهؤلاء اثنان.

ومن بني تيم بن مرّة عُمير بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيْم بن مرّة، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وعثمان بن مالك بن عبيد الله بن عثمان، قتله صُهيب، فهؤلاء اثنان - ولم يذكر البلاذريّ عثمان بن مالك.

ومن بني مخزوم بن يَقَظَة ثم من بني المُغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم، أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة، ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوّذ وعوْف ابنا عفراء، وذفّف عليه عبد الله بن مسعود. والعاص بن هاشم بن المغيرة، خال عمر بن الخطاب، قتله عمرو بن يزيد بن تميم التميميّ، حليف لهم، قتله عمّار بن ياسر، وقيل: قتله عليّ عليه السلام.

ومن بني الوليد بن المُغيرة، أبو قيس بن الوليد بن الوليد، أخو خالد بن الوليد، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ومن بني الفاكه بن المغيرة أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، قتله حمزة بن عبد المطلب، وقيل: قتله الحُباب بن المنذر.

ومن بني أميّة بن المغيرة بن أبي أميّة، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ومن بني عائذ بن عبد الله بن عمير بن مخزوم ثم من بني رفاعة، أميّة بن عائذ بن رفاعة بن أبي رفاعة. قتله سعد بن الربيع. وأبو المنذر بن أبي رفاعة، قتله معن بن عديّ العجلانيّ. وعبد الله بن أبي رفاعة، قتله عليُّ بن أبي طالب عليه السلام. وزُهير بن أبي رفاعة، قتله أبو أسيد الساعديّ. والسائب بن أبي رفاعة، قتله عبد الرحمن بن عوف.

ومن بني أبي السائب المخزوميّ - وهو صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم - السائب بن السائب، قتله الزبير بن العوام. والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قتله حمزة بن عبد المطلّب. وحليف لهم من طيئ، وهو عَمرو بن شيبان، قتله يزيد بن قيس. وحليف آخر، وهو جبّار بن سفيان، أخو عمرو بن سفيان المقدّم ذكره، قتله أبو بُرْدة بن نِيَار.

ومن بني عمران بن مخزوم حاجز بن السّائب بن عُويمر بن عائذ، قتله عليّ عليه السلام.

وروى البَلاَذُرِيّ أنّ حاجزاً هذا وأخاه عُويمر بن السائب بن عُويمر، قتلهما علي بن أبي طالب عليه السلام وعُوَيمر بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، قتله النُّعمان بن أبي مالك، فهؤلاء تسعة عشر.

ومن بني جُمَح بن عمرو بن هصيص، أميّة بن خلَف قتله خَبيب بن يساف وبلال، شركا فيه.

قال الواقديّ: وكان معاذ بن رفاعة بن رافع يقول: بل قتله أبو رفاعة بن رافع وعليّ بن

أمية بن خلف، قتله عمّار بن ياسر. وأوس بن المُغيرة بن لوذان، قتله علي عليه السلام، وعثمان بن مظعون، شركا فيه، فهؤلاء ثلاثة.

ومن بني سَهْم، منبّه بن الحجاج، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقيل: قتله أبو أسيد الساعديّ. ونبيه بن الحجّاج قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام. والعاص بن منّبه بن الحجاج، قتله عليّ عليه السلام. وأبو العاص بن قَيْس بن عديّ بن سعد بن سهم، قتله أبو دُجَانة - قال الواقديّ: وحدثني أبو معشر عن أصحابه، قالوا: قتله عليّ عليه السلام - وعاص بن أبي عوف بن صبيرة بن سعيد بن سعد، قتله أبو دُجانة، فهؤلاء خمسة.

ومن بني عامر بن لؤيّ، ثمَّ من بني مالك بن حسل، معاوية بن عبد قيس حليف لهم، قتله عكاشة بن محصن. وَمعبد بن وهب، حليف لهم من كلْب، قتله أبو دُجَانة فهؤلاء اثنان.

فجميع مَنْ قتل ببدر في رواية الواقديّ من المشركين في الحرب صبراً، اثنان وخمسون رجلاً، قتَل عليٌّ عليه السلام منهم مع الذين شرك في قتلهم أربعة وعشرين رجلاً. وقد كثرت الرواية أنّ المقتولين ببدر كانوا سبعين، ولكن الذين عرفوا وحفظت أسماؤهم من ذكرناه، وفي رواية الشيعة أنّ زَمَعة بن الأسود بن المطلب قتله عليّ، والأشهر في الرواية أنه قتله الحارث بن زمعة، وأن زمعة قتله أبو دُجانة.

أسماء المسلمين ممن شهدوا بدراً

قال الواقديّ: كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً مع القوم الذين ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله بسهامهم وهم غائبون وعدّتهم ثمانية. قال: وهذا هو الأغلب في الرواية، قال: ولم يشهد بدراً من المسلمين إلاّ قرشيّ أو حليف لقرشيّ أو أنصاريّ أو حليف لأنصاريّ أو مولى واحد منهما، وهكذا من جانب المشركين، فإنه لم يشهدها إلا قرشيّ أو حليف لقرشيّ أو مولى لهم.

قال: فكانت قريش ومواليها وحلفاؤها ستة وثمانين رجلاً، وكانت الأنصار ومواليها وحلفاؤها مائتين وسبعة وعشرين رجلاً.

فأما تفصيل أسماء من شهدها من المسلمين فله موضع في كتب المحدثين أملك به من هذا الموضع.

الفصل الرابع: في شرح قصة غزاة أُحُد. ونحن نذكر ذلك من كتاب الواقديّ رحمه الله على عاداتنا في ذكر غزاة بدر، ونضيف إليه من الزيادات التي ذكرها بن إسحاق والبلاذريّ ما يقتضي الحال ذكره.

قال الواقدي: لما رجع مَنْ حضر بدراً من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار النّدوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحرّكها أبو سفيان ولم يفرّقها لغيبة أهل العير، ومشت أشراف قريش إلى أبي سفيان: الأسودُ بن عبد المطلب بن أسد، وجُبير بن مطعِم، وصفوان بن أميّة، وعِكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة، وحويطب بن عبد العزَّى، فقالوا: يا أبا سُفيان، انظر هذه العير التي قدِمْت بها فاحتبستَها، فقد عرفتَ أنها أموال أهل مكة ولَطِيمة قريش، وهم طيِّبوا الأنفس، يجهزّون بهذه العير جيشاً كثيفاً إلى محمد، فقد ترى منْ من قُتل آبائنا وأبنائنا وعشائرنا. فقال أبو سفيان: وقد طابت أنفس قريش بذلك؟

قالوا: قال: فأنا أوّل من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فأنا والله المَوْتُور[1] والثائر، وقد قتِل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي. فلم تزل العِير موقوفةً حتى تجهّزوا للخروج، فباعوها فصارت ذهباً عيناً، ويقال: إنما قالوا: يا أبا سفيان، بِع العير ثم اعزل أرباحها، فكانت العِيرُ ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجاراتهم للدينار ديناراً، وكان متجرُهم من الشام غزّة، لا يعدونها إلى غيرها، وكان أبو سفيان، قد حبس عير بني زهرة؛ لأنهم رجعوا من طريق بدر، وسلّم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبني أبيه وبني عبد مناف بن زُهرة، فأبى مخرمة أن يقبل عِيره حتى يسلّم إلى بني زُهْرة جميعاً، وتكلم الأخنس، فقال: وما لعير بني زُهرة من بين عيرات قريش! قال أبو سفيان: لأنهم رجعوا عن قريش، قال الأخنس: أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزْنا العير، لا تخرجوا في غير شيء، فرجعنا، فأخذت بنو زُهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة، كلّ ما كان لهم في العير.

قال الواقدي: وهذا يبين أنه إنما أخرج القومَ أرباح العير. قال: وفِيهم أنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] الآية.

قال: فلما أجمعوا على المسير، قالوا: نسير في العرب فنستنصرهم، فإنّ عبد مناة غير متخلّفين عنّا، هم أوصلُ العرب لأرحامنا ومن اتّبعنا من الأحابيش فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسيرون في العرب، يدعونهم إلى نصرهم، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب وابن الزِّبعرى وأبا عزّة الجُمَحِي، فأبى أبو عزّة أن يسيرَ وقال: منّ عليّ محمد يوم بدر، وحلفت ألاّ أظاهر عليه عدوًّا أبداً. فمشى إليه صفوان بن أمية فقال: اخرج فأبى، وقال:

---

(١) الموتور: من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه، القاموس، مادة (وتر).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

عاهدتُ محمداً يوم بدر ألاّ أظاهر عليه عدوًّا أبداً، وأنا أفِي له بما عاهدته عليه، مَنَّ عليّ ولم يمُنّ على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء. فقال صفوان: اخرج معنا، فإن تسلَم أعطك من المال ما شئت، وإن تُقتَل تكنْ عيالك مع عيالي. فأبى أبو عزّة، حتى كان الغد، وانصرف عنه صفوان بن أمية آيساً منه، فلمّا كان الغد جاءه صفوانُ وجبير بن مطعِم، فقال له صفوان الكلام الأوّل فأبى، فقال جبير: ما كنتُ أظنّ أني أعيش حتى يمشيَ إليك أبو وهب في أمرٍ تأبى عليه! فأحفظه، فقال: أنا أخرج، قال: فخرج إلى العرب يجمعها، ويقول:

إيـهِ بـنـي عـبـد مـنـاةِ الـرزّامْ أنـتـمْ حـمـاةٌ وأبـوكـمْ حـامْ

لا تُـسـلِـمـونـي لا يـحـلُّ إسـلامْ لا يـعـدُوَنّـي نـصـرُكـم بـعـد الـعـامْ

وخرج النَّفر مع أبي عزّة فألّبوا العربَ وجمعوا، وبلغوا ثَقِيفاً فأوعبوا. فلمّا أجمعوا المسير وتألّب مَنْ كان معهم من العرب وحضروا، واختلفتْ قريش في إخراج الظُّعن معهم، قال صفوان بن أميّة: اخرجوا بالظُّعُن فأنا أول من فعل، فإنه أقمن أن يحفظْنكُم ويذكّرنكم قتلَى بدر، فإنّ العهد حديث، ونحن قوم موتورون مستميتون، لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندركَ ثأرنا أو نموت دونه. فقال عكرمة بن أبي جهل: أنا أوّل من أجاب إلى ما دعوتَ إليه، وقال عمرو بن العاص مثل ذلك، فمشى في ذلك نوفل بن معاوية الدِّيليّ، فقال: يا معشرَ قريش، هذا ليس برأي، أن تعرِّضوا حُرَمكم لعدوّكم، ولا آمن أن تكون الدَّبْرة لهم فتفتضحوا في نسائكم. فقال صفوان: لا كان غير هذا أبداً! فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرْب، فقال له تلك المقالة، فصاحت هند بنت عتبة: إنك والله سلِمت يوم بدر، فرجعتَ إلى نسائك، نعم نخرج فنشهد القتال، فقد رُدّت القيان من الجحفة في سفرهم إلى بدر، فقتِلت الأحبّة يومئذٍ. فقال أبو سفيان: لستُ أخالف قريشاً، أنا رجلٌ منها، ما فعلتْ فعلت. فخرجوا بالظُّعُن، فخرج أبو سفيان بن حرب بامرأتين: هند بنت عتبة بن ربيعة وأمَيْمة بنت سعد بن وهب بن أشيَم بن كنانة.

وخرج صفوان بن أمية بامرأتين: برْزة بنت مسعود الثقفيّ وهي أم عبد الله الأكبر والبغوم بنت المعذل من كنانة، وهي أمّ عبد الله الأصغر، وخرج طلحة بن أبي طلحة بامرأته سُلافة بنت سعد بن شهيد، وهي من الأوس، وهي أمّ بنيه: مسافع، والحارث، وكلاب والجلاس بني طلحة بن أبي طلحة، وخرج عكْرمة بن أبي جهل بامرأته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبّه بن الحجاج، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص - وقال محمد بن إسحاق: اسمها ريْطة -.

وخرجت خُناس بنت مالك بن المضرّب إحدى نساء بني مالك بن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير، أخي مُصْعب بن عمير من بني عبد الدار، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد

الأسد بامرأته رَمْلة بنت طارق بن علقمة الكنانية، وخرج كنانة بن عليّ بن ربيعة بن عبد العُزَّى بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته أمّ حكيم بنت طارق، وخرج سفيان بن عُوَيف بامرأته قُتَيلة بنت عمرو بن هلال، وخرج النعمان بن عمرو وجابر مسك الذئب أخوه، بأمّهما الدُّغَينة، وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط حتى تراجعت قريش إلى لوائها، وفيها يقول حسان:

ولولا لواءُ الحارثَّيةِ أصبَحُوا ... يباعون في الأسواق بالثَّمَن البَخْسِ

قالوا: وخرج سُفْيان بن عويف بعشرة من ولده، وحَشَدت بنو كنانة. وكانت الألوية يومَ خرجوا من مكّة ثلاثة عقدوها في دار النَّدوة، لواء يحمله سُفيان بن عويف لبني كنانة، ولواء الأحابيش يحمِله رجل منهم، ولواء لقريش يحمِلُه طلحة بن أبي طلحة.

قال الواقديّ: ويقال خرجت قريش ولفُّها كلّهم، من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحدٍ، يحملُه طلحة بن أبي طلحة. وهو الأثبت عندنا.

قال: وخرجت قريش وهم ثلاثة آلاف بمن ضَوَى إليها، وكان فيهم من ثَقِيف مائة رجل، وخرجوا بعدّة وسلاح كثير، وقادوا مائتي فرس، وكان فيهم سبعمائة دراعٍ وثلاثة آلاف بعير. فلما أجمعوا على المسير كتب العبّاس بن عبد المطلب كتاباً وختَمه، واستأجر رجلاً من بني غِفار، وشرط عليه أن يسيرَ ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ يخبره أنّ قريشاً قد اجتمعت للمسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حَلّوا بك فاصنعه. وقد وجّهوا وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مائتي فرس، وفيهم سبعمائة دراعٍ، وثلاثة آلاف بعير، وقد أوعبوا من السِّلاح. فقدم الغفاريّ فلم يجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وجده بقُبَاء، فخرج حتى وجدَ رسول الله ﷺ على باب مسجد قُباء يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبيّ بن كعب، واستكتَم أبيًا ما فيه، ودخل منزلَ سعد بن الربيع، فقال: أفي البيت أحد؟ فقال سعد: لا، فتكلّمْ بحاجتك، فأخبره بكتابِ العبّاس بن عبد المطلب، فجعل سعد يقول: يا رسولَ الله، والله إنّي لأرجُو أن يكونَ في ذلك خير، وأرجعت يهود المدينة والمنافقون.

وقالوا: ما جاء محمداً شيءٌ يحبّه، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقد استكتم سعدَ بن الربيع الخبَر. فلمّا خرج رسول الله ﷺ من منزله، خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه، فقالت: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قال: مالك ولذاك، لا أمّ لك! قالت: كنت أستمع عليكم، وأخبرتُ سعد الخبر، فاسترجع سعد، وقال: لا أراكِ تستمعين علينا وأنا أقولُ لرسول الله ﷺ: تكلّم بحاجتك! ثم أخذ بِجُمْع لُمّتِها، ثم خرج يعدُو بها حتى أدرك رسول الله ﷺ بالجسر، وقد بَلَحتْ[1]، فقال: يا رسولَ الله، إنّ امرأتي سألتني عمّا قلتُ

(١) أعيت. القاموس المحيط، مادة (بلح).

فكتمتُها، فقالت: قد سمعتُ قولَ رسول الله ﷺ، ثم جاءت بالحديث كلّه - فخشيت يا رسولَ الله أن يظهر من ذلك شيء فتظنّ أنّي أفشيتُ سرّك، فقال ﷺ: «خلّ سبيلَها»(١). وشاع الخبر بين النّاس بمسير قريش. وقدم عمرو بن سالم الخزاعيّ في نفرٍ من خُزاعة، ساروا من مكّة أربعاً، فوافَوْا قريشاً وقد عسكروا بذي طُوَى، فأخبروا رسول الله ﷺ الخبَر، ثمّ انصرفوا ولقوا قريشاً ببطن رابغ، وهو أربع ليال من المدينة، فنكّبوا عن قريش.

قال الواقديّ: فلمّا أصبح أبو سفيان بالأبواء أخبِر أنّ عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس مُمْسين إلى مكة، قال أبو سفيان: أحلف بالله أنهم جاؤوا محمّد فخبّروه بمسيرنا وعَدَدنا، وحذّروه منّا، فهم الآن يلزمون صياصِيَهم(٢)، فما أرانا نصيب منهم شيء في وجهنا. فقال صفوان بن أميّة: إنْ لم يُصحِرُوا لنا عَمَدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم، فلا يختارونها أبداً، وإن أصحروا لنا فعددُنا أكثرُ من عددهم، وسلاحُنا أكثرُ من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيَل معهم، ونحن نقاتل على وِتْر عندهم ولا وِتْر لهم عندنا.

قال الواقديّ: وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلاً من الأوْس، حتى قدِم بهم مكّة حين قدم النّبيّ ﷺ يحرّضها ويُعلمها أنّها على الحقّ. وما جاء به محمد باطل، فسارت قريش إلى بدْر، ولم يسرْ معها، فلمّا خرجت قريش إلى أحُد سارَ معها، وكان يقول لقريش: إنّي لو قدمت على قومي لم يختلفْ عليكم منهم اثنان، وهؤلاء معي نفرٌ منهم خمسون رجلاً. فصدّقوه بمال قال، وطمِعوا في نصره.

قال الواقديّ: وخرج النّساء معهنّ الدّفوف يحرّضْنَ الرجال ويذكّرْنهم قتلَى بدر في كلّ منزل، وجعلت قريش تنزل كلّ منهَل، ينحرون ما نحروا من الجُزُر ممّا كانوا جمعوا من العين، ويتقوّوْن به في مسيرهم، ويأكلون من أزوادهم ممّا جمعوا من الأموال.

قال الواقديّ: وكانت قريش لما مرّت بالأبواء، قالت: إنّكم قد خرجتم بالظُّعن معكم، ونحن نخاف على نسائنا، فتعالوْا ننبش قبر أمّ محمد، فإنّ النّساء عورة، فإن يصبْ من نسائكم أحداً قلتم هذه رمّة أمّك، فإن كان برًّا بأمّه - كما يزعم - فلعمري لنفادينكم برمّة أمّه، وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمري ليفدينّ رمّة أمّه بمال كثير إن كان بها بَرًّا. فاستشار أبو سفيان بن حرب أهلَ الرأي من قريش في ذلك، فقالوا: لا تذكر من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشتْ بنو بكر وخُزاعة موتانا.

قال الواقديّ: وكانت قريش بذي الحُليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرَجهم من مكّة،

---

(١) أخرجه اليوسفي في موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢/ ٢٥٧.

(٢) الصياصي: الحصون، القاموس المحيط، مادة (صيص).

وذلك لخمس ليال مضيْن من شَوّال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، فلمّا أصبحوا بذي الحُليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوِطاء، وبعث النبيّ ﷺ عينين له، آنساً ومؤنساً ابني فضالة ليلة الخميس، فاعترضا لقريش بالعَقيق، فسارا معهم، حتى نزلوا الوِطاء، وأتَيا رسول الله ﷺ فأخبراه، وكان المسلمون قد ازدرعوا العِرْض - والعرض ما بين الوطاء بأُحُد إلى الْجُرْف إلى العَرْصة، عرصة البقل اليوم، وكان أهلُه بنو سلِمة وحارثة وظَفَر وعبد الأشهل، وكان الماء يومئذٍ بالجرف نشطة لا يرمم سابق الناضح مجلساً واحداً ينفتل الجمل في ساعته، حتى ذهبت بمياهه عيون الغابة التي حفرها معاوية بن أبي سفيان، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرْعهم ليلة الخميس المدينة، فقدم المشركون على زرعهم فخلّوا فيه إبلَهم وخيولهم، وكان لأسيد بن حُضير في العرض عشرون ناضحاً تسقي شعيراً، وكان المسلمون قد حذِروا على جمالهم وعمالهم وآلة حرثِهم، وكان المشركون يرعَوْن يوم الخميس، فلما أمسَوْا جِمعوا الإبل وقصلوا عليها القصيل وقَصَلوا على خيولهم ليلة الجمعة، فلما أصبحوا يوم الجمعة خلّوا ظهرهم في الزرع وخيلهم، حتى تركوا العِرض ليس به خضراء.

قال الواقديّ: فلمّا نزلوا وحلّوا العُقَد، واطمأنّوا بعثَ رسول الله ﷺ الحُباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم وحَزَر ونظر إلى جميع ما يريد، وكان قد بعثه سرًّا، وقال له: إذا رجعت فلا تخبرْني بين أحد من المسلمين إلاّ أنْ ترَى في القوم قِلّة، فرجع إليه فأخبره خالياً، وقال له: رأيت عدداً حزرتُهم ثلاث آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتا فرس، ورأيت دُروعاً ظاهرة حَزَرتُها سبعمائة درع. قال: هل رأيت ظُعُناً؟ قال: نعم رأيت النّساء معهن الدفاف والأكبار - وهي الطّبول - فقال رسول الله ﷺ: «**أردْنَ أن يحرّضن القوم ويذكّرْنهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم، لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل! اللهمّ بك أحول، وبك أصول**»(١)!

قال الواقديّ: وخرج سَلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة، حتى إذا كان بأدنى العِرض إذا طليعة خيل المشركين عشرة أفراس ركضوا في أثره، فوقف لهم على نَشز من الحَرّة، فرشقهم بالنَّبل مرة، وبالحجارة أخرى حتى انكشفوا عنه، فلما ولّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العِرض، فاستخرج سيفاً كان له، ودرع حديد كان له، دفنا في ناحية المزرعة، وخرج بهما يعدُو، حتى أتى بني عبد الأشهل، فخبّر قومه بما لقي.

قال الواقديّ: وكان مقدم قريش يوم الخميس لخمس خلوْن من شوال، وكانت الوقعة يوم

(١) أخرج نحوه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: ما يدعى عند اللقاء (٢٢٣٢)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث صهيب (٢٣٤١٠)، وأبي شيبة في «المصنف» (٣٣٤٢٤).

السبت لسبع خلوْن من شوال، وباتت وجوهُ الأوس الخزرج: سعد بن مُعاذ وأسيد بن حُضير، وسعد بن عبادة، في عدّة منهم ليلة الجمعة، عليهم السلاح في المسجد بباب النبي ﷺ خوفاً من تبييت المشركين، وحُرِست المدينة تلك الليلة، حتى أصبحوا، ورأى رسول الله ﷺ رؤيا ليلة الجمعة، فلمّا أصبح واجتمع المسلمون خطبهم.

قال الواقديّ: فحدّثني محمّد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: ظهر النبي ﷺ المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيّها النّاس، إني رأيتُ في منامي رؤيا، رأيت كأنّي في درعٍ حصينة، ورأيت كأنّ سيفي ذا الفقار انفصم من عند ظُبَته، ورأيت بقراً تذبح، ورأيت كأنّي مردِف كبشاً، فقال النّاس: يا رسولَ الله، فما أوَّلْتَها؟ قال: «**أما الدّرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأمّا انفصام سيفي عند ظُبَتِه فمصيبة في نفسي، وأمّا البقر المذبَّح فقتلَى في أصحابي، وأما أنّي مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله**»[١].

قال الواقديّ: وروى عن ابن عباس، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أما انفصام سيفي فقتْل رجل من أهل بيتي**»[٢].

قال الواقديّ: وروي المسور بن مَخْرَمة، قال: قال النبيّ ﷺ: «**ورأيت في سيفي فَلاًّ فكرهته**»[٣]، هو الذي أصاب وجهه عليه السلام.

قال الواقديّ: وقال النبي ﷺ: أشيروا عليّ، ورأى ﷺ ألاّ يخرج من المدينة لهذه الرؤيا، ورسول الله ﷺ يحبّ أن يوَافَق على مثل ما رأى، وعلى ما عبّر عليه الرؤيا، فقام عبد الله بن أبيّ، فقال: يا رسول الله، كنّا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة، ونجعل النّساء والذراريّ في هذه الصّياصي، ونجعل معهم الحجارة، والله لربّما مكث الولْدان شهراً ينقلُون الحجارة، إعداداً لعدوّنا، ونشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كلّ ناحية، وترمي المرأة والصبيّ من فوق الصياصي والآطام[٤]، ونقاتل بأسيافنا في السكك. يا رسول الله إنّ مدينتنا عذْراء ما فُضّت علينا قطّ، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منها إلا أصاب منّا، وما دخل علينا قطّ إلا أصبناه، فدعْهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن رجعوا رجعوا خاسرين

---

(١) أخرجه أحمد، كتاب: مسند بني هاشم، باب: مسند عبد الله بن عباس (٢٤٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٨٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٠٦١)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٨)، واللفظ له.

(٢) هو عند ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٨): «فمصيبة في نفسي».

(٣) أخرجه أحمد، كتاب: مسند بني هاشم، باب: مسند عبد الله بن عباس (٢٤٤١). والحاكم في «المستدرك» (٢٥٨٨)، دون قوله: «فكرهته».

(٤) الآطام: الحصون المبنية بحجارة، والبيوت المربعة المسطحة. القاموس المحيط، مادة (أطم).

مغلوبين، لم ينالوا خيراً. يا رسول الله، أطعني في هذا الأمر، واعلم أني ورثتُ هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهلَ الحرب والتجربة.

قال الواقديّ: فكان رأيُ رسول الله ﷺ مع رأي ابن أبيّ، وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فقال رسول الله ﷺ: «**امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دُخِل علينا قاتلناهُم في الأزقّة، فنحنُ أعلمُ بها منهم، وارْمُوا من فوق الصياصي والآطام**»[1] - وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كلّ ناحية، فهي كالحصن - فقال فِتْيان أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا من رسول الله الخروجَ إلى عدوّهم، ورغبوا في الشهادة، وأحبّوا لقاء العدوّ، وقالوا: اخرج بنا إلى عدوّنا، وقال رجال من أهل النّبَه وأهل السنّ، منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج: إنا نخشى يا رسول الله، أن يظنّ أنّا كرهنا الخروج إليهم جُبْناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنتَ يوم بدر في ثلاثمائة رجل، فظَفَّرَك الله بهم، ونحن اليوم بشرٌ كثير، وكنا نتمنّى هذا اليوم، وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه - ورسول الله ﷺ لِمَا رأى من إلحاحهم كاره، وقد لبِسُوا السّلاح يخطرون بسيوفهم، يتساوَمُون كأنهم الفحول. وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخُدْريّ: يا رسولَ الله، نحن والله بين إحدى الحُسْنَيَيْن، إمّا يظفّرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشّريد، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسولَ الله، ما نبالي أيّهما كان، إنّ كلاً لفيه الخير. فلم يبلغنا أنّ النبي ﷺ رجع إليه قولاً، وسكت. وقال حمزة بن عبد المطلب: والذي أنزِل عليه الكتاب، لا أطعَم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة، وكان يقال: كان حمزة يوم الجمعة صائماً، ويوم السبت، فلاقاهم وهو صائم.

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم: يا رسول الله، أنا أشهد أنّ البقر المذبَّح قتلَى من أصحابك، وأنّي منهم، فلم تحرِمُنا الجنّة! فوالله الذي لا إله إلاّ هو لأدْخُلنّها. قال رسول الله: بم؟ قال: إنّي أحبّ الله ورسوله، ولا أفِرُّ يوم الزّحف. فقال: صدقت، فاستُشهد يومئذٍ.

وقال إياس بن أوْس بن عَتِيك: يا رسولَ الله، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبَّح، نرجو يا رسولَ الله أن نذبح في القوم، ويُذبح فينا، فنصير إلى الجنة، ويصيرون إلى النار، مع أنّي يا رسولَ الله لا أحبّ أن ترجعَ قريش إلى قومها، فتقول: حصرْنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها، فتكون هذه جُرْأة لقريش، وقد وطئُوا سعَفنا، فإذا لم نذبّ عن عِرْضنا، فلم ندّرع؟

(١) أخرج ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٨) نحوه.

وقد كُنّا يا رسول في جاهليّتنا، والعرب يأتوننا، فلا يطمعون بهذا منّا حتى نخرُجَ إليهم بأسيافنا فنذبّهم عنّا، فنحن اليوم أحقّ إذ أمدّنا الله بك، وعرفنا مصيرَنا، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا.

وقامَ خَيثمة، أبو سعد بن خَيْثمة فقال: يا رسول الله، إن قريشاً مكثتْ حولاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومَن اتّبعها من أحابيشها ثم جاؤونا قد قادوا الخيل، واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا، فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعون وافرين لم يكْلمُوا، فيجرّئهم ذلك علينا حتى يشنّوا الغارات علينا، ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا، ويجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم، فنذبّهم عن حريمنا، وعسى الله أن يُظفرَنا بهم، فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى، فهي الشهادة. لقد أخطأتْني وقعة بدر، وقد كنت عليها حريصاً، لقد بلغ من حرصِي أنْ ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمُه، فرُزِق الشهادة وقد كنت حريصاً على الشهادة، وقد رأيت ابني البارحةَ في النّوم في أحسن صورة يسرَحُ في ثمار الجنة وأنهارها، وهو يقول الحق بنا ترافقْنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقد والله يا رسولَ الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقتِه في الجنّة، وقد كبرتْ سنّي، ودقّ عظمي، وأحببت لقاء ربّي، فادعُ الله يا رسول الله أن يرزقَنِي الشهادة، ومرافقة سعد في الجنّة، فدعا له رسولُ الله بذلك، فقتِل بأحُدٍ شهيداً.

قال أنس بن قَتادة: يا رسولَ الله، هي إحدى الحسنيَيْن، إمّا الشهادة وإما الغنيمة والظّفَر بقتلهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّي أخافُ عليكم الهزيمة»(١).

فلما أبَوْا إلاّ الخروج والجِهاد، صلّى رسول الله يوم الجمعة بالناس، ثم وعظهم، وأمرهم بالجدّ والاجتهاد، وأخبرهم أنّ لهم الصَّبْرَ ما صبروا، ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله بالشُّخوص إلى عدوّهم، وكرِه ذلك المخرَج بشرٌ كثير من أصحاب رسول الله، وأمرهم بالتهيُّؤ لعدوّهم، ثم صلّى العصرَ بالناس، وقد حشد الناسُ، وحضَر أهلُ العوالي، ورفعوا النّساء إلى الآطام، فحضرت بنو عمر بن عوف بِلِفّها، والنّبيت ولِفّها، وتلبسوا السّلاح، فدخَل رسول الله صلى الله عليه وآله بيته، ودخل معه أبو بكر وعمر فعمّماه ولبّساه وصُفّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره، ينتظرون خروجه، فجاءهم سعد بن مُعاذ، وأسيْد بن حُضَير، فقالا لهم: قلتُم لرسول الله ما قلتم، واستكرهتموه على الخروج. والأمر ينزّل عليه من السماء، فردُّوا الأمر إليه، فما أمرَكم فافعلوه، وما رأيتم فيه له هوًى أو أدباً فأطيعوه.

فبينا القومُ على ذلك من الأمر، وبعض القوم يقول: القول ما قال سعد، وبعضهم على البصيرة على الشخوص، وبعضهم للخروج كارهٌ، إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله قد لبس لأمَته، وقد

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار بما معناه: ٢٠/ ١٢٥.

لبس الدِّرع فأظهرها، وحزم وسطها بِمنْطقة من حمائل سيف من أدَم كانت بعدُ عند آل أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، واعتمَّ، وتقلّد السيف. فلمّا خرج رسول الله ﷺ ندمُوا جميعاً على ما صنعوا، وقال الذين يلحُّون على رسول الله ﷺ: ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرِهَك والأمرُ إلى الله ثم إليك، فقال: قد دعوتُكم إلى هذا الحديث فأبيتُم، ولا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمتَه أن يضعها حتى يحكُمَ الله بينه وبين أعدائه - قال: وكانت الأنبياء قبله إذا لبس النبيّ لأمتَه لم يضعها حتى يحكم الله بينه وبينه أعدائه - ثم قال لهم: انظروا ما أمرتُكم به فاتّبعوه، امضُوا على اسم الله، فلكم النَّصر ما صبرتم.

قلت: فمَنْ تأمّل أحوال المسلمين في هذه الغزاة، من فشلهم وخَوَرهم واختلافهم في الخروج من المدينة والمقام بها، وكراهة النبيّ ﷺ للخروج، ثمّ خروجه على مضض، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج، ثم انخزال طائفةٍ كثيرة من الجيش عن الحرب، ورجوعهم إلى المدينة، علم أنّه لا انتصارَ لهم على العدوّ أصلاً، فإنّ النّصر معروف بالعزْم والجدّ والبصيرة في الحرب، واتفاق الكلمة. ومَنْ تأمّل أيضاً هذه الأحوال، علم أنّها ضدّ الأحوال التي كانت في غزاة بدر، وأنّ أحوال قريش لما خرجت إلى بدر كانت مماثلةً لأحوال المسلمين لمّا خرجوا إلى أحُد، ولذلك كانت الدَّبْرة في بدر على قريش.

قال الواقديّ: وكان مالك بن عمرو النّجّاريّ مات يوم الجمعة، فلمّا دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج وهو موضوع عند موضع الجنائز، صلّى عليه، ثم دعا بدابته، فركِب إلى أحُد.

قال الواقديّ: وجاء جُعَيْل بن سُراقة إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وهو متوجّه إلى أحُد، فقال: يا رسول الله، قيل لي: إنّك تُقتَل غداً - وهو يتنفس مكروباً - فضرب النبي ﷺ بيده إلى صدره، وقال: «أليس الدهر كلّه غداً»[1]! قال: ثم دعا بثلاثة أرماح، فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوْس إلى أسَيْد بن حُضَير، ودفع لواء الخزرج إلى الحُباب بن المنذر بن الجَمُوح - ويقال إلى سعد بن عبادة - ودفع لواء المهاجرين إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام - ويقال إلى مصعب بن عُمَير - ثم دعا بفرسه، فركبه، وتقلّد القوس وأخذ بيده قناة - زجُّ الرّمح يومئذٍ من شَبَهٍ - والمسلمون متلبّسون السلاح، قد أظهروا الدروع، فهم مائة دارع، فلّما ركب ﷺ

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٤٥).

خرج السَّعْدان أمامه يعدُوان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، كلّ واحدٍ منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله حتى سلَك على البدائع، ثم زقاق الحُسَى، حتى أتى الشَّيْخين - وهما أُطُمَان كانا في الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدّثان، فسمِّيَ الأُطُمَن الشيخين - فلمّا انتهى إلى رأس الثنيّة، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجَل خلْفه، فقال: ما هذه؟ قال: هذه حُلَفاء بن أبيّ من اليهود. فقال رسول الله ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشّرْك على أهل الشّرْك».

ومضى رسول الله ﷺ وعرض عسكره بالشَّيْخين، فعُرِض عليه غلمان، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنّعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبَرَاء بن عازب، وأسَيْد بن ظهير، وعَرابة بن أوْس، وأبو سعيد الخدريّ، وسَمُرة بن جندب، ورافع بن خَديج.

قال الواقديّ: فردّهم رسول الله ﷺ، قال رافع بن خُديج: فقال ظهير بن رافع: يا رسولَ الله، إنه رام يعينني. قال: وجعلتُ أتطاول، وعليّ خُفّان لي، فأجازني رسول الله ﷺ، فلمّا أجازني قالَ سَمُرة بن جندب لمريّ بن سنان الحارثيّ - وهو زوج أمّه: يا أبيَهْ، أجاز رسول الله ﷺ رافعَ بن خَدَيج، وردّني وأنا أصرع رافعاً! فقال مرّيّ: يا رسولَ الله، رددتَ ابني، وأجزتَ رافع بن خَدَيج وابني يصرعه! فقال رسول الله ﷺ: «تصارعا»، فصرع سَمُرة رافعاً، فأجازه رسولُ الله ﷺ.

قال الواقديّ، وأقبل ابنُ أبيّ، فنزل ناحية العسكر، فجعل حلفاؤه ومَنْ معه من المنافقين يقولون لابن أبيّ: أشرتَ عليه بالرأي، ونصحتَه وأخبرته أنّ هذا رأي مَنْ مضى من أبائك، وكان ذلك رأيه مع رأيك، فأبى أن يقبله، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه. قال: فصادفوا من ابن أبيّ نفاقاً وغشًّا، فبات رسول الله ﷺ بالشَّيْخين، وبات ابنُ أبيّ في أصحابه، وفرغ رسول الله ﷺ من عَرْض مَنْ عَرَض، وغابت الشمس، فأذّن بلال بالمغرب، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه، ثم أذّن بالعشاء، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه، ورسول الله ﷺ نازل في بني النّجّار، واستعمل على الحرس محمّد بن مسلمة في خمسين رجلاً يُطِيفون بالعسكر، حتى ادّلَجَ رسول الله ﷺ، وكان المشركون قد رأوْا رسول الله ﷺ حيث ادّلَجَ، ونزل بالشَّيْخين، فجمعوا خيلَهم وظهرَهم، واستعملوا على حَرَسهم عِكْرِمة بن أبي جهل في خيلٍ من المشركين، وباتت صاهلة خيلهم لا تهدأ، تدنو طلائعهم، حتى تلصق بالحَرّة، فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلُهم، ويهابون موضع الحَرّة، ومحمد بن مسلمة.

قال الواقديّ: وقد كان رسول الله ﷺ قال حين صلّى العشاء: «مَنْ يحفظنا الليلة؟» قال رجل: أنا يا رسول الله فقال: «مَنْ أنت؟» قال: ذكوان بن عبد القيس، فقال: «اجلس»، ثم قال ثانية: مَنْ رجلٌ يحفظنا الليلة؟ فقام رجل، فقال: «مَنْ أنت؟» قال: أبو سَبُع، قال: «اجلس»،

ثم قال ثالثة مثل ذلك، فقام رجل، فقال: «مَنْ أنت؟» فقال: أنا ابن عبد قيس، فمكث رسول الله ﷺ ساعةً، ثم قال: قوموا ثلاثتكم، فقام ذكْوان بن عبد قيس، فقال رسول الله: «وأين صاحباك؟» فقال ذكوان: أنا الّذي كنت أجيبُك الليلةَ! قال: «فاذهب حفظك الله».

قلت: قد تقدّم هذا الحديث بذاته في غزوة بدر، وظاهر الحال أنّه مكرّر، وأنّه إنّما كان في غزاة واحدة، ويجوز أن يكون قد وقع في الغزاتين، ولكن على بعد.

قال الواقديّ: فلبِس ذكوان دِرْعه، وأخذ دَرَقته، فكان يطوف على العسكر تلك الليلة، ويقال: كان يحرُس رسول الله ﷺ لم يفارقه.

قال: ونامَ رسول الله ﷺ حتى ادّلج، فلمّا كان في السَّحَر، قال رسول الله: «أين الأدلاّء؟» مَنْ رجلٌ يدلّنا على الطريق، وخرجنا على القوم من كَثَب؟ فقام أبو خثيمة الحارثيّ، فقال: أنا يا رسولَ الله، ويقال: أوس بن قيظيّ ويقال: محيِّصة.

قال الواقديّ: وأثبت ذلك عندنا أبو خثيمة خرج برسول الله ﷺ، وركب فرسه، فسلك به في بني حارثة، ثم أخذ في الأموال حتى مرّ بحائط مِرْبع بن قيظيّ، وكان أعمَى البصر منافقاً، فلمّا دخلَ رسول الله ﷺ حائطه، قام يحثي التراب في وجُوه المسلمين، ويقول: إن كنتَ رسولَ الله فلا تدخلْ حائطي، فلا أحِلّه لك.

قال محمد بن إسحاق: وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب، وقال: والله لو أعلم أني لا أصيب غيرَك يا محمّد لضربت بها وجهك.

قال الواقديّ: فضربه سعد بن زيد الأشهليّ بقوْسٍ في يده فشجّه في رأسه، فنزل الدّم، فغضب له بعض بني حارثة ممّن هو على مثل رأيه، فقال: هي على عداوتكم يا بني عَبْد الأشهل، لا تدَعونها أبداً لنا! فقال أسيد بن حُضَير: لا والله، ولكن نفاقكم، والله لولا أنّي لا أدري ما يوافق النبيّ ﷺ لضربت عنقه وعنق مَنْ هو على مثل رأيه.

قال: ونهاهم النبيّ ﷺ عن الكلام فأُسكِتوا.

وقال محمد بن إسحاق: قال رسول الله ﷺ: «دعوه، فإنّه أعمى البصر، أعمى القلب». يعني مِرْبع بن قيظيّ.

قال الواقديّ: ومضى رسول الله ﷺ، فبينا هو في مسيرة إذ ذبّ فرس أبي بردة بن نِيار بذنبه فأصاب كُلاّب سيفه، فسلّ سيفَه، فقال رسول الله ﷺ: «يا صاحبَ السيف، شِمْ سيفَك، فإني أخال السيوفَ ستسلّ اليوم فيكثُر سَلُّها». قال: وكان رسول الله ﷺ يحبّ

الفأل، ويكره الطِّيَرة[١]، قال: ولبس رسول الله ﷺ من الشَّيْخين درعاً واحدة، حتى انتهى إلى أُحُد، فلبس درعاً أخرى ومغفراً، وبيضةً فوق المِغْفر، فلمّا نهض رسول الله ﷺ من الشَّيْخين، زحف المشركون على تعبيةٍ حتى انتهوْا إلى موضع أرض ابن عامر اليوم، فلمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى موضع القنطرة اليوم جاءه وقد حانت الصّلاة، وهو يرى المشركين، فأمر بلالاً فأذّن، وأقام وصلّى بأصحابه الصُّبْح صفوفاً.

وانخزل عبدُ الله بن أبيّ من ذلك المكان في كتيبته، كأنه هَيْقه[٢] تقدّمهم، فاتّبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: أذكّركم الله ودينكم ونبيّكم، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم! فقال ابنُ أبيّ: ما أرى أنّه يكون بينهم قتال، وإن أطعتَني يا أبا جابر لترجعنّ، فإنّ أهلَ الرأي والحِجَى قد رجعوا، ونحن ناصروه في مدينتنا، وقد خالَفنا، وأشرتُ عليه بالرأي فأبَى إلا طواعية الغِلْمان. فلمّا أبى على عبد الله بن عمرو أن يرجِع، ودخل هو وأصحابه أزقّة المدينة، قال لهم أبو جابر: أبعدكم الله! إنّ الله سيُغني النّبي والمؤمنين عن نصركم. فانصرف ابنُ أبيّ وهو يقول: أيعصِيني ويطيع الولدان! وانصرف عبدُ الله بن عمرو يعدُو حتى لحق رسولَ الله وهو يسوّي الصفوف، فلما أصيب أصحاب رسول الله ﷺ سُرّ ابنُ أبيّ، وأظهر الشماتة، وقال: عصاني وأطاع مَنْ لا رأي له!

قال الواقديّ: وجعلَ رسول الله ﷺ يصفّ أصحابه، وجعل الرماة خمسين رجلاً على عينين، عليهم عبد الله بن جُبير - ويقال: سعد بن أبي وقّاص، والثَّبْت أنه عبد الله بن جُبَير - قال: وجعل أُحُداً خلْف ظهرِهِ، واستقبل المدينة وجعل عينين عن يساره، وأقبل المشركون، واستدبروا المدينة في الوادي، واستقبلوا أُحُداً، ويقال: جعل عينين خلْف ظهره، واستدبر الشمس، واستقبلها المشركون.

قال: والقول الأوّل أثبت عندنا، أنّ أُحُداً كان خلْف ظهره، وهو عليه السلام مستقبل المدينة.

قال: ونهى أن يقاتل أحدٌ حتى يأمرهم بالقتال، فقال عُمارة بن يزيد بن السّكَن: أنّي نُغير على زرع بني قَيْلة ولمّا نضارب! وأقبل المشركون قد صفّوا صفوفَهم، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميَسرة عِكْرمة بن أبي جهل، ولهم مجنّبتان، مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صَفْوان بن أمية - ويقال عمرو بن العاص - وعلى الرّماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام، ودفعوا اللّواء إلى طلحة بن أبي طلحة - واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدّار بن قصيّ - وصاح أبو سفيان يومئذٍ: يا بني عبد الدّار، نحن نعرف أنّكم

(١) أخرجه أحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: المسند السابق (٨١٩٢).
(٢) الهيق: ذكر النعام، يريد سرعة ذهابه. اللسان، مادة (هيق).

أحقّ باللواء منّا، وأنّا إنّما أتينا يومَ بدر من اللواء، وإنما يُؤتَى القوم من قِبَل لوائهم، فالزموا لواءكم، وحافظوا عليه، وخلّوا بيننا وبينه، فإنّا قوم مستميتون موتورون، نطلب ثأراً حديثَ العهد. وجعل يقول: إذا زالت الألوية، فما قَوام الناس وبقاؤهم بعدها! فغضبت بنو عبد الدّار، وقالوا: نحن نسلّم لواءنا! لا كان هذا أبداً! وأمّا المحافظة عليه فسترى. ثم أسندوا الرّماح إليه، وأحدقت به بنو عبد الدّار، وأغلظوا لأبي سفيان بعضَ الإغلاظ، فقال أبو سفيان: فنجعل لواء آخر؟ قالوا: نعم، ولا يحمله إلاّ رجل من بني عبد الدار، لا كان غير ذلك أبداً.

قال الواقديّ: وجعل رسول الله ﷺ يمشي على رجليه، يسوّي تلك الصفوف، ويبّوىء أصحابَه مقاعد للقتال، يقول: تقدّم يا فلان، وتأخّر يا فلان، حتّى إنه لَيَرى منكب الرجل خارجاً فيؤخّره، فهو يقوّمهم كأنما يقوم القِداح، حتى إذا استوت الصفوف، سأل: مَنْ يحمل لواء المشركين؟ قيل: عبد الدار، قال: نحن أحقّ بالوفاء منهم، أين مُصعَب بن عمير؟ قال: ها أنذا. قال: خذ اللواء، فأخذه مصعب فتقدم به بين يدي رسول الله ﷺ.

قال البلاذُريّ: أخذه من عليّ عليه السلام، فدفعه إلى مصعب بن عمير؛ لأنه من بني عبد الدار.

قال الواقديّ: ثمّ قام عليه السلام، فخطب النّاس، فقال ﷺ: «أيّها النّاس، أوصِيكم بما أوصاني به الله في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهِي عن محارمه، ثم إنّكم اليوم بمنزل أجر وذُخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطّن نفسه على الصّبرِ واليقين والجِدّ والنشاط، فإنّ جهاد العدوّ شديد كريه، قليل مَنْ يصبر عليه، إلاّ مَنْ عزم له على رشده. إنّ الله مع مَنْ أطاعه، وإن الشّيطان مع مَنْ عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصّبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالّذي آمركم به، فإنّي حريص على رشدكم. إنّ الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العَجْز والضّعْف، وهو مما لا يحبّه الله، ولا يعطي عليه النّصر والظّفَر. أيّها الناس إنه قُذِف في قلبي أنّ مَنْ كان على حرام فرغِب عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه، ومَنْ صلّى عَلَى محمد صلى الله عليه وملائكته عشراً، ومَنْ أحسنَ، من مسلم أو كافر وقع أجرُه على الله في عاجل دنياه أو في أجلِ آخرته، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة، إلاّ صبيًّا أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومَن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غنيّ حميد. ما أعلم من عمل يقرّبكم إلى الله إلاّ وقد أمرتُكم به، ولا أعلم من عمل يقرّبكم إلى النار إلاّ وقد نهيتُكم عنه، وإنّه قد نَفَث الرُّوح الأمين في رُوعي أنّه لن تموت نفس حتى تستوفيَ أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها، فاتّقوا الله ربّكم، وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملّنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربّكم، فإنه لا يُقْدر على ما عنده إلا بطاعته، قد بيّن لكم الحلال والحرام، غير أنّ بينهما شُبَهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلاّ مَنْ عصم، فمن تركها حفظ عِرْضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالرّاعي إلى جنب الحِمَى أوشك أن يقع فيه

ويفعله، وليس مَلِك إلاّ وله حمًى، ألاَ وإنّ حمى الله محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرّأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده. والسلام عليكم»[١].

قال الواقديّ: فحدّثني ابنُ أبي سَبْرة، عن خالد بن رَبَاح، عن المطّلب بن عبد الله، قال: أوّل مَنْ أنشب الحرب بينهم أبو عامر، طلع في خمسين من قومه، معه عبيد قريش فنادى أبو عامر - واسمه عبد عمرو - يا للأوس! أنا أبو عامر، قالوا: لا مرحباً بك ولا أهلاً، يا فاسق! قال: لقد أصاب قومي بعدي شرّ. قال: ومعه عبيد أهل مكة، فتراموْا بالحجارة هم والمسلمون، حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولّى أبو عامر وأصحابه، ويقال: إن العبيد لم يقاتلوا، وإنهم أمروهم بحفظ عسكرهم.

قال الواقديّ: وجعل نساء المشركين قبل أن يلتقيَ الجمعان أمام صفوف المشركين يضربْنَ بالأكْبَار والدّفاف والغرابيل، ثمّ يرجعن فيكنّ إلى مؤخّر الصّفّ، حتى إذا دنَوا من المسلمين تأخّر النساء، فقمن خَلْف الصّفوف، وجعل كلّما ولّى رجل حرَّضْنه، وذكّرنه قتلى بدر.

وقال الواقديّ: وكان قُزمان من المنافقين، وكان قد تخلّف عن أحُد، فلما أصبح عَيّره نساء بني ظَفَر، فقلن: يا قُزمان، قد خرج الرجال وبقيت! استحي يا قُزمان، ألا تستحْيي ممّا صنعت! ما أنت إلاّ امرأة، خرج قومك وبقيت في الدار! فأحفظنَه، فدخل بيته، فأخرَج قوسه وجُعبته وسيفَه - وكان يعرف بالشجاعة - وخرج يعدو، حتّى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يسوّي صفوف المسلمين، فجاء من خلْف الصفّ، حتى انتهى إلى الصفّ الأول، فكان فيه، وكان أوّل مَنْ رَمى بسهم من المسلمين، جعل يرسلُ نَبْلاً كأنّها الرماح، وإنه ليكِتّ كتيت الجمل ثم صار إلى السيف، ففعل الأفاعيل، حتى إذا كان آخر ذلك قَتَل نفْسَه. وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره قال: من أهل النار. قال: فلما انكشف المسلمون، كسر جفن سيفه وجعل يقول: الموتُ أحسن من الفِرار. يا للأوْس! قاتلوا على الأحساب، واصنعوا مثل ما أصنع. قال: فيدخل بالسّيف وسط المشركين، حتى يقال: قد قتِل، ثم يطلع فيقول: أنا الغلام الظَّفريّ، حتى قَتَل منهم سبعة، وأصابته الجراحة، وكثُرت فيه، فوقع فمرّ به قَتادة بن النعمان، فقال له: أبا الغيداق، قال قزمان: لبَّيك، قال: هنيئاً لك الشهادة! قال قزمان: إنّي والله ما قاتلتُ يا أبا عمرو على دين ما قاتلت إلا على الحِفاظ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سعَفنا، قال: فآذته الجراحة فقتل نفسه، فقال النبيّ ﷺ: «إنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٢].

(١) أخرجه الترمذي في سننه رقم: ١٢٢١.
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٣٠٦٢) ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١١)، وأحمد في مسنده (٨٠٢٩) والدارمي في السير، باب إن شاء الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر (٢٥١٧).

قال الواقديّ: وتقدّم رسول الله ﷺ إلى الرّماة، فقال: «احموا لنا ظهورَنا، فإنا نخاف أن نؤتَى مِنْ ورائنا، والزموا مكانَكم، لا تبرحُوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانَكم، وإن رأيتمونا نقتَل، فلا تعينونا، ولا تدفعوا عنّا. اللهمّ إني أشهدك عليهم، ارشقُوا خيلهم بالنّبل، فإن الخيل لا تقدم على النّبل»(١)، وكان للمشركين مجنّبتان: ميمنة عليها خالد بن الوليد، وميسرَة عليها عِكْرمة بن أبي جهل.

قال الواقديّ: وعمل رسول الله ﷺ لنفسه مَيمنة وميسرة، ودفع اللّواء الأعظم إلى مصعب بن عُمَير، ودفع لواء الأوْس إلى أسَيْد بن حُضَير، ولواء الخزرج إلى سعد بن عبادة - وقيل: إلى الحُباب بن المنذر - فجعلت الرماة تحمِي ظهور المسلمين، وترشق خيلَ المشركين بالنَّبل، فولّت هاربه، قال بعض المسلمين: والله لقد رَمَقْتُ نبلنا يومئذٍ، ما رأيت سهماً واحداً ممّا يرمى به خيلُهم يقع في الأرض، إمّا في فرس أو في رجل، ودنا القوم بعضهم من بعض، وقدّموا طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم، وصفّوا صفوفهم، وأقاموا النّساء خلْف الرجال يضربن بين أكتافهم بالأكْبار والدّفوف، وهند وصواحبها يحرّضْن ويذمّرن الرجال، ويذكرن مَنْ أصيب ببدر، ويقلن:

نحنُ بناتِ طارِقْ ... نمشي على النّمارِقْ
إنْ تُقبلوا نعانِقْ ... أو تدبرُوا نفارِقْ
فراقَ غيرَ وامِقْ

قال الواقديّ: وبرز طلحة، فصاح: مَنْ يبارز؟ فقال عليٌّ عليه السلام له: هل لك في مبارزتي؟ قال: نعم، فبرزا بين الصّفّين ورسول الله ﷺ جالس تحت الرّاية، عليه دِرْعان ومغفر وبيضته، فالتقيا، فبدره عليٌّ عليه السلام بضربة على رأسه، فمضى السيف حتى فلَق هامَته إلى أن انتهى إلى لحيته فوقع، وانصرف عليٌّ عليه السلام، فقيل له: هلاّ ذفّفْت عليه! قال: إنه لما صرع استقبلني بعورته، فعطفتْني عليه الرّحم، وقد علمت أن الله سيقتله، هو كبش الكتيبة.

قال الواقديّ، ورويِ أنّ طلحة حمل على عليٍّ عليه السلام، فضربه بالسيف، فاتقاه بالدّرَقة، فلم يصنع شيئاً، وحمل عليّ عليه السلام وعلى طلحة درْع ومغْفر، فضربه بالسيف، فقطع ساقيه، ثم أراد أن يذفّف عليه، فسأله طلحة بالرَّحم ألا يفعل، فتركه ولم يذفّف عليه.

قال الواقديّ: ويقال: إنّ علياً عليه السلام ذفّف عليه، ويقال: إنّ بعض المسلمين مرّ به في المعركة فذفّف عليه. قال: فلما قتل طلحة سرّ رسول الله ﷺ وكبّر تكبيراً عالياً وكبّر

---

(١) أخرج أحمد، نحوه في «المسند»، كتاب: مسند بني هاشم، باب: مسند عبد الله بن عباس (٢٦٠٤)، والطبراني في «الكبير» (١٠٧٣١) دون قوله: «اللهم إني أشهدك... إلخ».

المسلمون، ثم شدّ أصحاب رسول الله ﷺ على كتائب المشركين، فجعلوا يضربون وجوهَهم، حتى انتقضت صفوفهم، ولم يقتل إلاّ طلحة بن أبي طلحة وحده.

قال الواقديّ: ثم حمل لواءَ المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبي طلحة، وهو أبو شيبة، فارتجز وقال:

إنّ عَلَى ربّ اللواء حقًّا   أن تُخضبَ الصَّعْدة أو تَندقَّا

فتقدّم باللواء والنسوة خلفه، يحرّضن ويضربن بالدفوف، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله، فضربه بالسيف على كاهله، فقطع يده وكتِفه، حتى انتهى إلى مُؤتَزرِه فبدا سَحْره، ورجع، فقال: أنا ابن ساقي الحجيج، ثم حمل اللواء أخوهما أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته - وكان دراعاً، وعليه مغفر لا رفرف عليه، وعلى رأسه بيضته فأدلع لسانه إدلاَع الكلب.

قال الواقديّ: وقد روي أنّ أبا سعد لما حمل اللواء، قام النساء خلفه يقلن:

ضرباً بني عبدِ الدّارْ   ضَرْباً حُماةَ الأدْبارْ
ضرباً بكلّ بتّارْ

قال سعد بن أبي وقاص: فأحمِل عليه فأقطع يدَه اليمنى، فأخذ اللواء باليد اليسرى، فأضربه على يده اليسرى، فقطعتها، فأخذ اللواء بذراعيه جميعاً وضَمّه إلى صدره، وحنى عليه ظهرَه. قال سعد: فأُدخِلُ سيَة القوس بين الدّرع والمِغفر، فأقلع المغفر، فأرمي به وراء ظهره، ثم ضربته حتى قتلته، وأخذت أسلبُه درعه، فنهض إليّ سُبيع بن عبد عوف ونفر معه فمنعوني سلبه، وكان سلبه أجود سلب رجل من المشركين. درع فضفاضة، ومِغْفر وسيف جيّد، ولكن حيل بيني وبينه.

قال الواقديّ: وهذا أثبَت القولين.

قلت: شتّان بين عليّ وسعد! هذا يجاحش على السَّلَبِ ويتأسّف على فواته، وذلك يقتل عمرو بن عبد وَدّ يوم الخندق، وهو فارس قريش وصنديدها ومبارزه، فيعرض عن سلبه، فيقال له: كيف تركت سَلَبه وهو أنفس سلب! فيقول: كرهت أن أبزّ السّبيّ ثيابه، فكأنّ حبيباً عناه بقوله:

إنّ الأسودَ أسودُ الغابِ همّتُها   يوم الكريهة في المسلوب لا السَّلبِ

قال الواقديّ: ثم حمل لواء المشركين بعد أبي سعد بن أبي طلحة مسافع بن أبي طلحة،

فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح فقتله، فحمل إلى أمّه سلافة بنت سعد بن الشهيد، وهي مع النساء بأُحُد، فقالت: من أصابك؟ قال: لا أدري، سمعته يقول: خُذْها وأنا ابن الأقلح، فقالت: أقْلَحِيّ والله! أي هو من رهطي - وكانت من الأوس.

قال الواقديّ: ورويَ أنّ عاصماً لما رماه، قال له: خذها وأنا ابن كسرة، وكانوا يقال لهم في الجاهلية: بنو كِسَر الذهب، فقال لأمه: لا أدري، إلاّ أني سمعته يقول: خذها وأنا ابن كسرة، فقالت سُلافة: أوسيّ والله كسريّ، أي أنه منّا، فيومئذٍ نذرت سلافة أن تشرب في قَحْف رأس عاصم بن ثابت الخمر، وجعلت لمن جاءها به مائة من الإبل.

قلت: فلما قتله المشركون في يوم الرَّجيع أرادوا أن يأخذوا رأسَه، فيحملوه إلى سُلافة فحمته الدَّبْر يومه ذلك، فلما جاء اليل فظنوا أنّ الدَّبْر لا تحميه ليلاً، جاء الوادي بسيل عظيم، فذهب برأسه وبدنه. اتفق المؤرخون على ذلك.

قال الواقديّ: ثم حمل اللواء بعد الحارث أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله الزُّبير بن العوّام، ثم حمله أخوه الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله، ثم حمله أرطاة بن عبد شُرحبيل، فقتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثم حمله شريح بن قانط، فقتل لا يُدرى مَنْ قتله، ثم حمله صُواب، غلام بني عبد الدار، فاختلف في قاتله فقيل: قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقيل سعد بن أبي وقاص. وقيل: قُزمان، وهو أثبت الأقوال.

قال الواقديّ: انتهى قُزمان إلى صُواب، فحمل عليه، فقطع يده اليمنى، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى، فاحتضن اللواء بذراعيه وعَضُديْه، وحَنَى عليه ظهره، وقال: يا بني عبد الدّار، هل اعْذَرْت؟ فحمل عليه قُزمان فقتله.

قال الواقديّ: وقالوا: ما ظفَّر الله تعالى نبيّه في موطن قَطّ ما ظفّره وأصحابه يوم أحُد، حتى عصوا الرسول صلى الله عليه وآله، وتنازعوا في الأمر، لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهم لا يلوون، ونساؤهم، يدعون بالويل بعد ضرب الدّفاف والفرح.

قال الواقديّ: وقد روى كثير من الصحابة ممّن شهد أحُداً، قال كلّ واحد منهم: والله إنّي لأنظر إلى هند وصواحبها منهزماتٍ، ما دون أخذهنّ شيءٌ لمن أراده، ولكن لا مردّ لقضاء الله. قالوا: وكان خالد بن الوليد كلّما أتى من قِبَل ميسرة النبي صلى الله عليه وآله ليجوز حتى يأتيهم من قبل السَّفح، تردّه الرُّماة، حتى فعل وفعلوا ذلك مراراً، ولكن المسلمين أُتوا من قبل الرّماة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوعز إليهم فقال: «**قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نُقتلُ فلا تنصرونا**». فلمّا انهزم المشركون، تبعهم المسلمون

يضعون السّلاح فيهم حيث شاؤوا حتى أجهزوهم عن المعسكر، ووقعوا ينتهبونه. قال بعض الرماة لبعض: لم تقيمون هاهنا في غير شيء! قد هزم الله العدوَّ، وهؤلاء إخوانكم ينهبون عسكرهم، فادخلوا عسكر المشركين، فاغنموا مع إخوانكم، فقال بعضهم: ألم تعلموا أنّ رسول الله ﷺ قال لكم: «احمُوا ظهورنا، وإن غنمنا فلا تشركونا»، فقال الآخرون: لم يُرِدْ رسول الله ﷺ هذا، وقد أذلّ الله المشركين وهزمهم، فادخلوا العسكر، فانتهبوا مع إخوانكم. فلمّا اختلفوا خطبَهم أميرُهم عبد الله بن جُبَير، وكان يومئذٍ معلَماً بثياب بيض، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله، وألاّ يخالف أمره، فعصوْه، وانطلقوا فلم يبقَ معه إلاّ نفيْرٌ ما يبلغون العشرة، منهم الحارث بن أنس بن رافع، يقول: يا قوم، اذكروا عهد نبيّكم إليكم، وأطيعوا أميرَكم. فأبَوْا، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلّوا الْجَبَل، وانتقضت صفوف المشركين، واستدارت رحالهم، ودارت الريح - وكانت إلى أن انتقض صفُّهم صباً، فصارت دَبُوراً - فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلّة أهله، فكرّ بالخيل، وتبعه عكرمة بالخيل، فانطلقا إلى موضع الرماة، فحملوا عليهم، فرماهم القوم حتى أصيبوا، ورمى عبد الله بن جُبير حتى فنيتْ نَبْله، ثم طاعن بالرمّح حتى انكسر، ثمّ كسر جفن سيفه، فقاتل حتى قتِل، وأفلت جُعَيل بن سراقة وأبو بُرْدة بن نِيَار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جُبَير، وكان آخر من انصرف من الخيل، فلحقا بالمسلمين.

قال الواقديّ: فروى رافع بن خديج، قال: لما قتل خالد الرّماة أقبلَ بالخيل وعكرمة بن أبي جهل يتلوه، فخالطَنا وقد انتقضت صفوفنا، ونادى إبليس - وتصور في صورة جُعِيل بن سراقة: إنّ محمداً قد قتِل! ثلاث صرخات، فابتلِيَ يومئذٍ جُعَيل بن سراقة ببليّة عظيمة حين تصوّر إبليس في صورته، وإن جُعَيلاً ليقاتل مع المسلمين أشدّ القتال، وإنّه إلى جنب أبي بُرْدة بن نِيَار وخوّات بن جُبير. قال رافع بن خُدَيج: فوالله ما رأينا دوْلةً كانت أسرع من دولة المشركين علينا، وأقبل المسلمون على جُعَيل بن سراقة يريدون قتله، يقولون: هذا الذي صاح أنّ محمداً قد قُتِل، فشهد له خَوّات بن جبير وأبو بُرْدة، أنّه كان إلى جنبهما حين صاح الصائح، وأنّ الصائح غيره.

قال الواقديّ: فروى رافع، قال: أُتِينا من قِبَل أنفسنا، ومعصية نبيّنا، واختلط المسلمون، وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً، وما يشعرون بما يصنعون من الدَّهَش والعَجَل، وقد جرح يومئذٍ أُسَيْد بن حُضَير جرحيْن، ضربه أحدهما أبو بردة بن نِيَار، وما يدري، يقول: خذها وأنا الغلام الأنصاريّ، وكرّ أبو زعنة في حَوْمة القتال، فضرب أبا بردة ضربتيْن، ما يشعر أنه هو، يقول: خذها وأنا أبو زَعْنة، حتى عرفه بعد، فكان إذا لقيَه، قال: انظر ما صنعت بي، فيقول أبو زَعْنة: وأنت فقد ضربت أسَيْد بن خضير ولا تشعر! ولكن هذا الجرح في سبيل الله،

فذكِر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**هو في سبيل الله يا أبا بُردة، لك أجره، حتى كأنّك ضربك أحد المشركين، ومَنْ قُتِل فهو شهيد**».

قال الواقديّ: وكان الشيخان: حُسيل بن جابر ورفاعة بن وَقْش شيخين كبيرين، قد رفعا في الآطام مع النّساء، فقال أحدهما لصاحبه: لا أبالك! ما نستبقي من أنفسنا! فوالله ما نحنُ إلاّ هامة اليوم أو غدٍ، وما بقي من أجلنا قدر ظِمْء دابة، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا برسول الله ﷺ لعلّ الله يرزقنا الشهادة! قال: فلحقا برسول الله ﷺ، فأمّا رفاعة فقتله المشركون، وأما حُسَيل بن جابر فالتقَت عليه سيوفُ المسلمين، وهم لا يعرفونه حين اختلطوا، وابنه حذيفة يقول: أبي أبي! حتى قتِل، فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، ما صنعتم! فزاد به عند رسول الله ﷺ خيراً، وأمر رسول الله بديته أن تخرج، ويقال: إنّ الذي أصابه عتبة بن مسعود، فتصدّق حذيفة ابنه بدمه على المسلمين.

قال الواقديّ: وأقبل يومئذٍ الحُباب بن المنذر بن الجَموح يصيح: يا آل سلمة! فأقبلوا عُنُقاً واحداً: لبّيك داعي الله، لبّيك داعيَ الله! فيضرب يومئذٍ جَبّار بن صخر ضربة في رأسه مثقلة وما يدري، حتى أظهروا الشعّار بينهم، فجعلوا يصيحون: أمِتْ أمِتْ! فكفّ بعضُهم عن بعض.

قال الواقديّ: وكان نسطاس مولى ضرار بن أميّة ممنّ حضر أُحُداً مع المشركين، ثم أسلم بعد، وحسُن إسلامه، فكان يحدّث، قال: قد كنت ممّن خلف في العسكر يومئذٍ، ولم يقاتل معهم عبد إلاّ وحشيّ وصُواب غلام بني عبد الدّار، فكان أبو سفيان صاح فيهم: يا معشرَ قريش، خلّوا غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين يقومون على رحالكم، فجمعنا بعضها إلى بعض، وعَقَلْنا الإبل، وانطلق القوم على تعبيتهم، ميمنة وميسرة وألبسنا الرحال الأنطاع[(١)]، ودنا القوم بعضهم من بعض، فاقتتلوا ساعة، وإذا أصحابنا منهزمونَ، فدخل المسلمون معسكرنا، ونحن في الرحال، فأحدقوا بنا، فكنت فيمن أسِرُوا، وانتهبوا المعسكر أقبح انتهاب، حتى إنّ رجُلاً منهم قال: أين مالُ صفوان بن أميّة؟ فقلت: ما حمل إلاّ نفقة في الرَّحْل، فخرج يسوقني حتى أخرجتُها من العَيْبة[(٢)] خمسين ومائة مثقال ذهباً، وقد ولّى أصحابنا وأيسنا منهم، وانحاش النّساء، فهنّ في حُجُرهنّ سِلْمٌ لمن أرادهنّ، فصار النهب في أيدي المسلمين.

قال نسطاس: فإنّا لعلَى ما نحنُ عليه من الاستسلام، ونظرتُ إلى الجبل، فإذا خيل مقبلة تركض، فدخلوا العسكر، فلم يكن أحد يردّهم، قد ضيّعت الثغور التي كان بها الرّماة وجاؤوا

(١) الأنطاع: جمع نِطَع: وهو بساط من الأديم. القاموس المحيط، مادة (نطع).
(٢) العيبة: وعاء من أدم، يكون فيها المتاع. اللسان، مادة (عيب).

إلى النّهب والرماة ينتهبون، وأنا أنظر إليهم متأبّطي قسيِّهم وجعابَهم، كلّ واحد منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلما دخلتْ خيلنا دخلت على قوم غارّين آمنين، فوضعوا فيهم السيوف، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وتفرّق المسلمون في كلّ وجه، وتركوا ما انتهبوا، وأجلوا عن عسكرنا، فارتجعنا بعد، لم نفقد منه شيئاً، وخلّوا أسرانا، ووجدنا الذّهب في المعركة، ولقد رأيت يومئذٍ رجلاً من المسلمين ضمّ صفوان بن أميّة إليه ضَمّةً ظننت أنه سيموت، حتى أدركته وبه رَمَق، فوجأت ذلك المسلم بخنجر معي، فوقع، فسألت عنه، فقيل: رجل من بني ساعدة. ثم هداني الله بعد للإسلام.

قال الواقديّ: فحدثني ابن أبي سبْرة، عن إسحاق بن عبد الله، عن عمر بن الحكم، قال: ما علمنا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين أغاروا على النَّهْب فأخذوا ما أخذوا من الذهب بقي معه من ذلك شيء يرجع به حيث غشِيَنا المشركون، واختلفوا إلا رجلين: أحدهما عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، جاء بِمنطقة وجدها في العسكر، فيها خمسون ديناراً فشدّها على حَقْويه من تحت ثيابه، وجاء عبّاد بن بشر بصُرّة فيها ثلاثة عشر مثقالاً ألقاها في جَيْب قميصه، وفوقها الدّرع وقد حزم وسطه، فأتيا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يخَمسه ونفّلهما إياه.

قال الواقديّ: وروى يعقوب بن أبي صعصعة، عن موسى بن ضمرة، عن أبيه، قال: لما صاح الشَّيْطان أزبُّ العقبة، أن محمداً قد قتل لما أراد الله عزّ وجلّ من ذلك، سُقِط في أيدي المسلمين، وتفرّقوا في كلّ وجه، وأصعدوا في الجبل، فكان أوّل مَنْ بشّرهم بكونِ رسول الله صلى الله عليه وآله سالماً كعبُ بن مالك. قال كعب: عرفته، فجعلت أصيح: هذا رسول الله! وهو يشير إليّ بإصبعه على فيه: أن أسكت.

قال الواقديّ: وروت عميرة بنت عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيها، قالت: قال أبي لمّا انكشف الناس: كنت أوّل مَنْ عرف رسول الله صلى الله عليه وآله وبشّرت به المسلمين حيًّا سويًّا، عرفت عينيه من تحت المِغْفر، فناديت: يا معشرَ الأنصار! أبشروا، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله، فأشار إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله أن أصمت: قال: ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله بكعب، فلبس لأمته، وألبس كعباً لأمة نفسِه، وقاتل كعب يومئذٍ قتالاً شديداً، جرح سبعة عشر جرحاً.

قال الواقديّ: وحدّثني ابنُ أبي سَبْرة عن خالد بن رباح، عن الأعرج، قال: لما صاح الشيطان إنّ محمداً قد قُتِلَ، قال أبو سفيان بن حرب: يا معشرَ قريش، أيّكم قتل محمداً؟ قال ابن قميئة: أنا قتلته. قال: نسوِّرك كما تفعل الأعاجم بأبطالها. وجعل أبو سفيان يطوفُ بأبي عامر الفاسق في المعركة، هل يرى محمداً بين القتلى! فمرّ بخارجة بن زيد بن أبي زُهير، فقال: يا أبا سفيان، هل تدرِي مَنْ هذا؟ قال: لا، قال: هذا خارجة بن زيد، هذا أسيد بني الحارث بن الخزرج، ومرّ بعباس بن عبادة بن نَضْلة إلى جنبه، قال: أتعرفه؟ قال: لا، قال:

هذا ابن قوقل، هذا الشريف في بيت الشرف، ثم مرّ بذكوان بن عبد قيس، فقال: وهذا من ساداتهم، ثم مرّ بابنه حنظلة بن أبي عامر، فوقف عليه، فقال أبو سفيان: مَن هذا؟ قال: هذا أعزّ مَن هاهنا عليّ، هذا ابني حنظلة. قال أبو سفيان: ما نرى مصرع محمد، ولو كان قُتِل لرأيناه، كذب ابن قميئة. ولقي خالد بن الوليد، فقال: هل تبيّن عندك قتل محمد؟ قال: لا، رأيتُه أقبل في نفر من أصحابه مصعدين في الجبل، فقال أبو سفيان: هذا حقّ، كذب ابن قميئة، زعم أنه قتله!

قلت: قرأت على النقيب أبي يزيد رحمه الله هذه الغَزَاة من كتاب الواقديّ، وقلت له: كيف جرى لهؤلاء في هذه الوقعة؟ فإني أستعظم ما جَرَى! فقال: وما في ذلك ممّا تستعظمه! حَمَل قلب المسلمين من بعد قتل أصحاب الألوية على قَلْب المشركين، فكسره فلو ثبتت مجنّبتا رسول الله اللّتان فيهما أسيد بن حُضَير والحُباب بن المنذر بإزاء مجنّبتي المشركين، لم ينكسر عسكر الإسلام، ولكن مجنّبتا المسلمين أطبقت إطباقاً واحداً على قَلْب المشركين، مضافاً إلى قلب المسلمين، فصار عسكر رسول الله ﷺ قَلْباً واحداً، وكتيبة واحدة، فحطمه قلب قريش حَطْمة شديدة. فلمّا رأت مجنّبتا قريش أنّه ليس بإزائها أحدٌ، استدارت المجنّبتان من وراء عسكر المسلمين، وصمد كثير منهم للرّماة الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين، فقتلوهم عن آخرهم؛ لأنهم لم يكونوا ممّن يقومون لخالد وعكرمة، وهما في ألفيْ رجل، وإنما كانوا خمسين رجلاً، لاسيّما وقد ترك كثير منهم مركزه وشرِه إلى الغنيمة، فأكبّ على النهب.

قال رحمه الله: والذي كسر المسلمين يومئذٍ، ونال كلّ منال خالد بن الوليد، وكان فارساً شجاعاً، ومعه خيل كثيرة، ورجال أبطال موتورون، واستدار خَلْف الجبل، فدخل من الثّغرة التي كان الرّماة عليها، فأتاه من وراء المسلمين، وتراجع قلب المشركين بعد الهزيمة، فصار المسلمون بينهم في مثل الحلْقة المستديرة، واختلط النّاس، فلم يعرف المسلمون بعضُهم بعضاً، وضرب الرجل منهم أخاه وأباه بالسّيف وهو لا يعرفه لشدّة النَّقْع والغبار، ولما اعتراهم من الدَّهَش والعَجَلة والخوف، فكانت الدَّبْرة عليهم، بعد أن كانت لهم، ومثل هذا يجري دائماً في الحرْب.

فقلت له رحمه الله: فلمّا انكشفَ المسلمون، وفرّ منهم مَنْ فَرّ، ما كانت حال رسول الله ﷺ؟ فقال: ثبَت في نفرٍ يسير من أصحابه يحامون عنه.

فقلت: ثم ماذا، قال: ثم ثابت إليه الأنصار، وردّت إليه عُنُقاً واحداً بعد فرارهم وتفرّقهم، وامتاز المسلمون عن المشركين وكانوا ناحية، ثم التحمت الحرب، واصطدم الفَيْلَقان.

قلت: ثمّ ماذا؟ قال: لم يزل المسلمون يحامُون عن رسول الله ﷺ، والمشركون يتكاثرون عليهم، ويقتلون فيهم حتى لم يبقَ من النهار إلاّ القليل والدّوْلة للمشركين.

قلت: ثمّ ماذا؟ قال: ثمّ علم الذين بقوا من المسلمين أنّه لا طاقة لهم بالمشركين، فأصعدوا في الجبل فاعتصموا به.

فقلت له: فرسول الله صلى الله عليه وآله ما الذي صنع؟ فقال: صعّد في الجبال.

قلت له: أفيجوز أن يقال: إنه فرّ؟ فقال: إنّما يكون الفرار ممّن أمعن في الهرب في الصحراء والبَيْداء، فأمّا من الجبل مطلٌّ عليه وهو في سفحه، فلمّا رأى مالا يعجبه أصعد في الجبل، فإنّه لا يسمّى فارًا. ثم سكت رحمه الله ساعة، ثم قال: هكذا وقعت الحال، فإن شئتَ أن تسمّي ذلك فراراً فسمِّه، فقد خرج من مكة يوم الهجرة فارًا من المشركين، ولا وَصْمَة عليه في ذلك.

فقلت له: قد روى الواقديّ عن بعض الصحابة، قال: لم يبرحْ رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك اليوم شبراً وحداً، حتى تَحاجزت الفئتان! فقال: دعْ صاحب هذه الرواية فلْيقل ما شاء، فالصحيح ما ذكرته لك، ثم قال: كيف يقال: لم يزلْ واقفاً حتى تحاجزت الفئتان! وإنما تحاجزا بعد أن ناداه أبو سفيان، وهو في أعلى الجبل بما ناداه، فلما عرف أنّه حيٌّ وأنّه في أعلى الجبل، وأن الخيل لا تستطيع الصُّعود إليه، وأنّ القوم إن صعدوا إليه رجّالة لم يثقُوا بالظَّفَر به؛ لأنّ معه أكثر أصحابه وهم مستميتون إن صعّد القوم إليهم، وأنهم لا يقتلون منهم واحداً حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة؛ لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرَب، لكونهم محصورين في ذَرْو واحد، فالرجل منهم يحامي عن خَيْط رقبته - كفّوا عن الصعود وقنعوا بما وصلوا إليه منْ قتل مَنْ قتلوه في الحرب، وأمَّلُوا يوماً ثانياً يكون لهم فيه الظَّفر الكلّيّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله، فرجعوا عنهم وطلبوا مكّة.

وروى الواقديّ عن أبي سَبْرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فرْوة، عن أبي الحويرث، عن نافع بن جُبير، قال: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أُحُداً، فنظرت إلى النَّبل يأتي من كلّ ناحية، ورسول الله صلى الله عليه وآله في وسطها كلّ ذلك يصرف عنه، ولقد رأيتُ عبدَ الله بن شهاد الزهريّ يقول يومئذٍ: دُلّوني على محمّد، فلا نجوتُ إن نجا! وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، ولقي عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية، فقال له صفوان: تَرِحتَ! هلا ضربت محمداً، فقطعت هذه الشأفة، فقد أمكنك الله منه! قال ابن شهاب: وهل رأيتَه؟ قال: نعم أنتَ إلى جنبه، قال: والله ما رأيتُه، أحلف بالله إنّه منّا لممنوع، خرجنا أربعة تعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك.

قال الواقديّ: فروى نملة - واسم أبي نملة عبد الله بن معاذ، وكان أبوه معاذ أخا البَرَاء بن معرور لأمّه - قال: لمّا انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وما معه أحد إلا نُفَير قد أحدقُوا به من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فانطلقوا به إلى الشِّعْب وما للمسلمين لواء قائم ولا فِئة ولا جمع، وإنّ كتائبَ المشركين لتحوشهم مقبلة ومُدْبرة في الوادي، يلتقون ويفترقون ما يرَوْن أحداً يردّهم.

قال الواقديّ: وحدثني إبراهيم بن محمد بن شُرحبيل العبدريّ، عن أبيه، قال: حمل مصعب اللّواء، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب قبل ابن قميئة، وهو فارس، فضرب يد مصعب فقطعها، فقال مصعب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾(١) وأخذ اللواء بيده اليسرى، وحنَى عليه فضربه فقطع اليسرى، فضمّه بعضديه إلى صدره، وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه، واندق الرمح، ووقع مُصْعَب وسقط اللّواء، وابتدرَه رجلان من بني عبد الدّار، سويبط بن حَرْملة وأبو الرُّوم، فأخذه أبو الرُّوم، فلم يزل بيده حتّى دخل به المدينة، حين انصرف المسلمون.

قال الواقديّ: وقالوا: إنّ رسول الله لما لحمه القتال، وخلص إليه وذبّ عنه مصعب بن عمير وأبو دُجَانة، حتى كَثُرت به الجِراحة، جعل رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رجلٌ يشرِي نفسه؟» فوثب فئة من الأنصار خمسة، منهم عُمارة بن زياد بن السَّكن، فقاتل حتى أُثبِت، وفاءت فئة من المسلمين حتى أجهضوا أعداء الله، فقال رسول الله ﷺ لعُمارة بن زياد: «ادْنُ منّي»، حتى وسّده رسول الله ﷺ قدَمه، وإنّ به لأربعة عشر جُرْحاً حتى مات، وجعل رسول الله ﷺ يذمُر النّاس ويحضّهم عَلَى القتال، وكان رجالٌ من المشركين قد أذْلَقُوا المسلمين بالرّمي: منهم حبّان بن العرقة وأبو أسامة الْجُشمِيّ، فجعل النبي ﷺ يقول لسعد: «ارم فداك أبي وأمّي!» فرمى حبّان بن العرقة بسهم فأصاب ذَيْل أمّ أيمن، وكانت جاءت يومئذٍ تسقِي الجرحى، فقلبها، وانكشف ذَيلُها عنها، فاستغرب حبّان بن العرقة ضحكاً، وشقّ ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصلَ له، وقال: ارم به، فرمى فوضع السّهم في ثغرة نحر حبّان، فوقع مستلقياً، وبدت عورته. قال سعد: فرأيت النبيّ ﷺ ضحِك يومئذٍ حتى بدت نواجذه، وقال استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتَك، وسدّد رميّتك، ورمى يومئذٍ مالك بن زهير الْجُشمِيّ أخو أبي أسامة الْجُشَمِيّ المسلمين رمياً شديداً، وكان هو وريّان بن العرقة قد أسرعَا في أصحاب رسول الله ﷺ، وأكثرا فيهم القتل يستتران بالصّخْر. ويرميان، فبيناهم على ذلك أبصر سعد بن أبي وقّاص مالكَ بن زهير يرمِي من وراء صخرة قد رمي، وأطلع رأسَه، فيرميه سعد، فأصاب السَّهمُ عينه، حتى خرج من قَفاه، فنزى في السماء قامة، ثم رجع فسقط، فقتله الله عزَّ وجلّ.

قال الواقديّ، : ورمى رسول الله ﷺ عن قوسِه يومئذٍ حتى صارت شَظَايا، فأخذها قتادة بن النعمان، وكانت عنده، وأصيبت يومئذٍ عن قَتادة حتى وقعت على وَجْنَتِه. قال قتادة: فجئت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله، إن تحتي امرأة شابّة جميلة، أحبّها وتحبُّني،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

وأنا أخشى أن تقذر مكان عينيّ، فأخذها رسول الله ﷺ فردّها وانصرف بها، وعادت كما كانت، فلم تضرب عليه ساعة من ليل ونهار، وكان يقول بعد أن أسنّ: هي أقوى عينيّ - وكانت أحسنهما.

قال الواقديّ: وباشر رسول الله ﷺ القتالَ بنفسه، فرمي بالنّبل حتى فنيت نبلُه، وانكسرت سِيَةُ قوسِه، وقبل ذلك انقطع وتره، وبقيَتْ في يده قطعة تكون شبراً في سِيَة القوس، فأخذ القوس عُكّاشة بن مِحْصن يُوتِره له، فقال: يا رسولَ الله، لا يبلغ الوتر، فقال مدّه يبلغ، قال عُكّاشة: فوالذي بعثه بالحقّ لمددته حتى بلغ، وطويت منه ليتين أو ثلاثة على سِيَة القوس، ثمّ أخذَه رسول الله ﷺ، فما زال يرامي القوم، وأبو طلحة أمامه يستره مترساً عنه، حتى نظرت إلى سيَة قوسه قد تحطّمَتْ، فأخذها قتادة بن النعمان.

قال الواقديّ: وكان أبو طلحةَ يوم أُحُد قد نَثَلَ كِنانته بين يدي النبي ﷺ، وكان رامياً، وكان صيّتاً فقال رسول الله ﷺ: «الصَوْتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من أربعين رجلاً»، وكان في كنانته خمسون سهماً نَثَلها بين يدي رسول الله ﷺ، وجعل يصيح: نفسي دون نفسك يا رسول الله! فلم يزل يرمي بها سهماً سهماً، وكان رسول الله ﷺ يطلع رأسه من خلْف أبي طلحة بين أذنِه ومنكبه، ينظر إلى مواقع النّبْل حتى فنيت نبلُه، وهو يقول: نحري دون نحرِكَ! جعلني الله فداكَ! قالوا: إنه كان رسول الله ﷺ، لَيأخذُ العود من الأرض فيقول: «ارمِ يا أبا طلحة»، فيرمي به سهماً جَيِّداً.

قال الواقديّ: وكان الرُّماة المذكورون من أصحاب رسول الله ﷺ جماعة: منهم سعد بن أبي وقّاص، وأبو طلحة، وعاصم بن ثابت، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمقداد بن عمرو، وزيد بن حارثة، وحاطب بن أبي بَلْتعة، وعُتْبة بن غَزْوان، وخِراش بن الصّمّة، وقطبة بن عامر بن حديدة، وبِشْر بن البَرَاء بن معرور، وأبو نائلة مَلكان بن سلامة، وقتادة بن النعمان.

قال الواقديّ: ورمي أبو رِهْم الغِفاريّ بسهم فأصاب نحرَه، فجاء إلى رسول الله ﷺ فبصق عليه، فبرأ، فكان أبو رهم بعد ذلك يسمى المنحور[1].

وروى أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد اللغويّ، غلام ثعلب، ورواه أيضاً محمد بن حبيب في أماليه، أنّ رسول الله ﷺ لما فرّ معظمُ أصحابه عنه يوم أُحُد، كثرتْ عليه كتائب المشركين، وقصدته كتيبة من بني كنانة، ثم من بني عبد مناة بن كنانة، فيها بنو سفيان بن عُوَيف، وهم: خالد بن سفيان، وأبو الشعثاء بن سفيان وأبو الحمراء بن سفيان، وغراب بن سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «يا عليّ اكفِني هذه الكتيبة»، فحمل عليها وإنها لتُقارب خمسين

(١) أخرجه الصالحي الشامي في سبل الهدى: ٤/ ٢٤٢.

فارساً، وهو عليه السلام راجل، فما زال يضربها بالسيف حتى تتفرّق عنه ثم تجتمع عليه، هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة، وتمام العشرة منها، ممن لا يُعرف بأسمائهم، فقال جبرائيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا محمد، إن هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما يمنعه وهو منّي وأنا منه! فقال جبرائيل عليه السلام: وأنا منكما. قال: وسمع ذلك اليوم صوت من قِبَل السماء، لا يرى شخص الصارخ به، ينادي مراراً:

لا سيف إلا ذو الفقا ... ر ولا فتى إلا علي

فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عنه، فقال: «هذا جبرائيل»[1].

قلت: وقد روى هذا الخبر جماعةٌ من المحدِّثين وهو من الأخبار المشهورة، ووقفت عليه في بعض نسخ مغازي محمد بن إسحاق، ورأيت بعضها خالياً عنه، وسألت شيخي عبد الوهاب بن سكينة رحمه الله عن هذا الخبر، فقال: خبر صحيح، فقلت: فما بالُ الصّحاح لم تشتمل عليه؟ قال: أو كلّما كان صحيحاً تشتمل عليه كتب الصحاح؟ كم قد أهمل جامعو الصّحاح من الأخبار الصحيحة!

قال الواقديّ: وأقبل عثمانُ بن عبد الله بن المغيرة المخزومي يُحضِر فرساً له أبْلَق، يريد رسول الله صلى الله عليه وآله، عليه لأمة كاملة، ورسول الله صلى الله عليه وآله متوجّه إلى الشِّعب وهو يصيح: لا نجوتُ إن نجوتَ! فيقفُ رسول الله صلى الله عليه وآله، ويعثر بعثمان فرسُه في بعض تلك الحُفر التي حفرها أبو عامر الفاسق للمسلمين، فيقع الفرس لوجهه، وسقط عثمان عنه، وخرج الفرس غائراً، فيأخذه بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، ويمشي إليه الحارث بن الصمّة، فاضطربا ساعة بالسيفيْن، ثم يضرب الحارث رجله، وكانت درعه مشمّرة فبرك، وذفّف عليه، وأخذ الحارث يومئذٍ سلَبه: درعاً جيّداً، ومغفراً، وسيفاً جيّداً، ولم يسمع بأحد من المشركين سلب يومئذٍ غيره، ورسول الله صلى الله عليه وآله ينظر إلى قتالهما، فسأل عن الرجل، قيل: عثمانُ بن عبد الله بن المغيرة، قال: الحمدُ لله الذي أحانه، وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل ببطن نخلة، حتى قدم به على رسول الله صلى الله عليه وآله، فافتدى ورجع إلى قريش، وغزا معهم أحداً، فقتل هناك، ويرى مصرع عثمان عبيد بن حاجز العامري أحدُ بني عامر بن لؤيّ، فأقبل يعدو كأنه سبع، فيضرب حارث بن الصّمة ضربةً على عاتقه، فوقع الحارث جريحاً حتى احتمله أصحابه، ويقبل أبو دجانة على عبيد بن حاجز، فتناوشا ساعة من نهار، وكلّ واحد منهما يتّقي بالدرَقة سيف صاحبه، ثم حمل عليه أبو دُجَانة فاحتضنه، ثم جلد به الأرض، وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة، ثم انصرف، فلحق برسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٠/ ١٢٨.

قال الواقديّ: ويروى أن سهل بن حُنيف، جعل ينضح بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: نبّلوا سهلاً فإنه سهل، ونظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي الدرداء، والناس منهزمون في كلّ وجه، فقال: نعم الفارس عُويمر، غير أنه لم يشهد أحُداً!

قال الواقديّ: وروى الحارث بن عبيد الله بن كعب بن مالك، قال: حدثني من نظر إلى أبي سَبْرة بن الحارث بن علقمة، ولقي أحد المشركين، فاختلفا ضربات، كلّ ذلك يرُوغ أحدهما عن الآخر، قال: فنظر الناس إليهما كأنهما سُبعان ضاريان يقفان مرّة ويقتلان أخرى، ثم تعانقا، فوقعا إلى الأرض جميعاً، فعلاه أبو سَبْرة فذبحه بسيفه كما تذبح الشاة، ونهض عنه فيقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغرّ محجّل، يجرّ قناة طويلة، فطعن أبا سبرة من خلفه، فنظرت إلىَ سنان الرمح خرج من صدره، ووقع أبو سبْرة ميّتاً، وانصرف خالد بن الوليد، يقول: أنا أبو سليمان!

قال الواقديّ: وقاتل طلحة بن عبيد الله يومئذٍ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قتالاً شديداً، وكان طلحة يقول: لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله حيث انهزم أصحابه، وكثر المشركون، فأحدقوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله من كلّ ناحية، فما أدري أقوم من بين يديه أو من ورائه؟ أم عن يمينه أم شماله؟ فأذبّ بالسيف عنه هاهنا وهاهنا حتى انكشفوا، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ يقول لطلحة: «لقد أوجب» وروي: «لقد أنحَب» أي قضى نذره.

قال الواقديّ: وروي أنّ سعد بن أبي وقاص ذكر طلحة فقال: يرحمه الله! إنه كان أعظَمنا غناء عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحُد، قيل: كيف يا أبا إسحاق؟ قال: لزم النبي صلى الله عليه وآله وكُنا نتفرق عنه، ثم نثوب إليه، لقد رأيته يدورُ حول النبي صلى الله عليه وآله يُترّس بنفسه.

قال الواقديّ: وسئِل طلحة: يا أبا محمد، ما أصاب إصبَعك؟ قال: رَمى مالك بن زهير الجشميّ بسهم يريدُ رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان لا تخطي رميّته - فاتقيتُ بيدِي عن وجْهِ رسول الله صلى الله عليه وآله، فأصاب خِنْصَرِي فشُلّ.

قال الواقديّ وقالوا: إنّ طلحة قال لما رمي: حَسٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو قال: بسم الله لدخل الجنة، والناس ينظرون إليه، منْ أحبّ أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنّة، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله، طلحة ممنّ قضى نحبه».

قال الواقديّ: وكان طلحة يحدّث يقول: لمّا جال المسلمون تلك الجوْلة، ثم تراجعوا أقبل رجل من بني عامر بن لؤيّ يدعى شيبة بن مالك بن المضرّب، يجرّ رمحه، وهو على فرس أغرّ كُميت مدجّجاً في الحديد، يصيح: أنا أبو ذات الوذع، دلّوني على محمّد، فأضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت به، ثم أتناول رمحه، فوالله ما أخطأت به عن حَدَقته، فخار كما يخور الثور، فما برحت به واضعاً رجلي على خَدّه حتى أزرْتُه شَعُوب.

قال الواقديّ: وكان طلحة قد أصابته في رأسه المصلّبة ضربه رجل من المشركين، ضربتين، ضربة وهو مقبل، وضربه وهو معرِض عنه، وكان نَزَف منها الدم، قال أبو بكر: جئت النبي صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد، فقال: عليك بابن عمّك، فأتى طلحة بن عبيد الله، وقد نزف الدم، فجعلت أنضحُ في وجهه الماء وهو مغشيٌّ عليه، ثم أفاق، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقلت: خيراً، هو أرسلني إليك، فقال: الحمد لله، كلّ مصيبةٍ بعده جَلَل.

قال الواقديّ: وكان ضرار بن الخطّاب الفهريّ يقول: نظرتُ إلى طلحة بن عبيد الله قد حلق رأسه عند المروة في عُمرة، فنظرت إلى المصلّبة في رأسه، فكان ضرار يقول: أنا والله ضربتُه، هو استقبلني فضربته، ثم أكرّ عليه، وقد أعرض، فأضربه ضربة أخرى.

قال الواقديّ: ولما كان يوم الجمل، وقتلَ عليّ عليه السلام مَنْ قتل من الناس، ودخل البصرة، جاءه رجل من العرب، فتكلّم بين يديه، ونال من طلحة، فزبَره[1] عليّ عليه السلام، وقال: إنّك لم تشهد يوم أُحُد، وعِظَم غنائه عن الإسلام، مع مكانه من رسول الله ﷺ، فانكسر الرجلُ وسكت، فقال له قائل من القوم: وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أُحُد؟ فقال عليٌّ عليه السلام: نعم، يرحمه الله، لقد رأيته وإنه ليترّس بنفسه دون رسول الله ﷺ وإنّ السيوف لتغشاه، والنَّبْل من كلّ ناحية، وما هو إلا جُنّة لرسول الله ﷺ، يقيه بنفسه، فقال رجل: لقد كان يوم أُحُد يوماً قتِل فيه أصحاب رسول الله ﷺ، وأصابت رسول الله ﷺ فيه الجراحة، فقال عليٌّ عليه السلام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليت أنّي غودرت مع أصحابي بنُحْص الجبل»، ثم قال علي عليه السلام: لقد رأيتني يومئذٍ وإني لأذبُّهم في ناحية، وإن أبا دُجَانة لفي ناحية يذبّ طائفة منهم، حتى فرج الله ذلك كلّه، ولقد رأيتُني وانفردت منهم يومئذٍ فرقة خَشناء، فيها عكرمة بن أبي جهل، فدخلت وسطهم بالسيف، فضربت به، واشتملوا عليّ حتى أفضيت إلى آخرهم، ثم كررت فيهم الثانية، حتى رجعت من حيث جئت، ولكنّ الأجل استأخر، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً.

قال الواقديّ: وحدّثني جابر بن سُليم عن عثمان بن صفوان، عن عُمارة بن خزيمة، قال: حدّثني مَنْ نظر إلى الحُباب بن المنذر بن الجموح، وإنه ليحُوشهم يومئذٍ كما تحاش الغنم، ولقد اشتملوا عليه حتى قيل: قد قتل، ثم برز والسيف في يده، وافترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم، وإنه ليهربون منه إلى جَمْع منهم، وصار الحُباب إلى النبيّ ﷺ، وكان الحُباب يومئذٍ معلّماً بعصابة خضراء في مِغْفَره.

قال الواقديّ: وطلع يومئذٍ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس مدجّجاً لا يُرى منه إلا

(١) زجره ونهره، اللسان، مادة (زبر).

عيناه، فقال: مَنْ يبارز؟ أنا عبد الرحمن بن عتيق! فنهض إليه أبو بكر، وقال: أنا أبارزه، وجرّد سيفه فقال له رسول الله ﷺ: «شِمْ سيفَك، وارجع إلى مكانك، ومتّعنا بنفسك».

قال الواقديّ: وقال رسول الله ﷺ: «ما وجدتُ لشماس بن عثمان شبهاً إلاّ الجُنّة»، يعني مما يقاتل عن رسول الله يومئذٍ، وكان رسول الله ﷺ لا يأخذ يميناً ولا شمالاً إلاّ رأى شماس بن عثمان في ذلك الوجه، يذبّ بسيفه عنه، حتى غشي رسول الله ﷺ، فترّسَ بنفسه دونه، حتى قتل، فذلك قول رسول الله ﷺ: «ما وجدت لشماس شبهاً إلاّ الجُنّة».

قال الواقديّ: ولمّا ولى المسلمون حين عطف عليهم خالد بن الوليد مِنْ خلفهم، كان أوّل مَن أقبل من المسلمين بعد التّولية قيس بن محرث مع طائفة من الأنصار، وقد كانوا بلغوا بني حارثة فرجعوا سراعاً فصادفوا المشركين في كثرتهم، فدخلوا في حَوْمتهم، فما أفلت منهم رجل حتى قُتِلوا كلهم، ولقد ضاربهم قيس بن مِحْرث، فامتنع بسيفه حتى قتل منهم نفراً، فما قتلوه إلا بالرّماح، نظموه، ولقد وجد به أربع عشرة طعنة جائفة وعشر ضربات بالسيف.

قال الواقديّ: وكان عباس بن عبادة بن نَضْلة المعروف بابن قَوْقل، وخارجة بن زيد بن أبي زهير، وأوس بن أرقم بن زيد، وعبّاس رافع صوتَه يقول: ما معشرَ المسلمين، الله ونبيّكم! هذا الذي أصابكم بمعصية نبيّكم، وعدَكم النصر فما صبرتم. ثم نزع مِغْفره عن رأسِه، وخلع دِرْعه وقال لخارجة بن زيد: هل لك في دِرْعِي ومِغْفَري؟ قال خارجة: لا، أنا أريد الذي تريد، فخالطوا القوم جميعاً، وعبّاس يقول: ما عذرُنا عند ربّنا إن أصيب نبيُّنا ومنّا عينٌ تطرف! قال: فيقول خارجة: لا عذرَ لنا والله عند ربّنا ولا حُجّة، فأمّا عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السُّلَمِيّ، ولقد ضربه عباس ضربتيْن، فجرحه جرحيْن عظيمين، فارتُثّ[1] يومئذٍ جريحاً، فمكث جريحاً سنة، ثم استبلّ وأخذَتْ خارجة بن زيد الرماح، فجرح بضعة عشر جرحاً، فمرّ به صفوان بن أميّة، فعرفه فقال: هذا من أكابر أصحاب محمد، وبه رَمق، فأجهز عليه. وقَتَل أوس بن أرقم، وقال صفوان: مَنْ رأى خبيب بن يساف؟ وهو يطلبه فلا يقدر عليه. ومثّل يومئذٍ بخارجة، وقال: هذا ممّن أغرى بأبي يوم بدر - يعني أميّة بن خلف - وقال: الآن شفيتُ نفسي حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد، قتلت ابن قوقل، وقتلت ابن أبي زهير، وقتلت أوس بن أرقم.

قال الواقديّ: وقال رسول الله ﷺ يومئذٍ: «مَنْ يأخذ هذا السيف بحقّه؟» قالوا: وما حقُّه يا رسول الله؟ قال: يضرب به العدوّ، فقال عمر: أنا يا رسول الله، فأعرض عنه، ثم عَرَضه رسول الله ﷺ بذلك الشّرْط، فقام الزّبير، فقال: أنا، فأعرض عنه، حتى وجدَ عمر والزبير

---

(١) ارتث: حُمِل من المعركة جريحاً وبه رمق، القاموس المحيط، مادة (رثث).

في أنفسهما، ثم عرضه الثالثة، فقام أبو دُجَانة، وقال: أنا يا رسول الله آخذه بحقّه، فدفعه إليه. فصدق حين لقي به العدوّ، وأعطى السيف حقّه، فقال أحدُ الرجلين - إمّا عمر بن الخطاب أو الزّبير: والله لأجْعَلَنّ هذا الرجل الذي أعطاه السيف ومنَعنيه من شأني، قال: فاتّبعته، فوالله ما رأيت أحداً قاتل أفضلَ من قتاله، لقد رأيتُه يضرب به حتى إذا كلّ عليه وخاف ألا يُحيك عمدَ به إلى الحجارة، فشحذه، ثم يضرب به العدوّ، حتى يردّه كأنّه مِنْجل، وكان حين أعطاه رسول الله ﷺ السّيف مشى بين الصَّفّيْن، واختال في مشيته، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يمشي تلك المشية: «إنّ هذه لَمِشْيةٌ يُبغضها الله تعالى إلاّ في مثل هذا الموطن»، قال: وكان أربعة من أصحاب النبيّ ﷺ يعلِمون في الزُّحوف، أحدُهم أبو دُجانة، كان يعصب رأسه بعصابة حمراء، وكان قومه يعلَمون أنّه إذا اعتصبَ بها أحسن القتال، وكان عليٌّ عليه السلام يعلِم بصوفةٍ بيضاء، وكان الزُّبير يعلِم بعصابة صفراء، وكان حمزة يعلِم بريش نعامة.

قال الواقديّ: وكان أبو دُجانة يحدّث يقول: إنّي لأنظر يومئذٍ إلى امرأة تقذِف النّاس وتحُوشهم حَوْشاً منكراً، فرفعتُ عليها السيف، وما أحسبها إلا رجلاً، حتى علمت أنّها امرأة، وكرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة - والمرأة عمْرة بنت الحارث.

قال الواقديّ: وكان كعب بن مالك يقول: أصابني الجراح يوم أحُد، فلمّا رأيت المشركين يمثّلون بالمسلمين أشدّ المُثَل وأقبحها، قمتُ فتنحّيت عن القتْلى، فإنّي لفي موضعي أقبلَ خالد بن الأعلم العقيليّ جامعَ اللأمة يحوش المسلمين، يقول استوسقوا كما يستوسق جُرْب الغنم، وهو مدجّج في الحديد، يصيح: يا معشرَ قريش، لاتقتلوا محمداً، ائسروه أسراً حتى نعرّفه ما صنع، ويصمُد له قُزمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقِه رأيت منها سَحْره، ثم أخذ سيفه وانصرف، فطلع عليه من المشركين فارس ما أرى منه إلا عينيْه، فحمل عليه قُزمان، فضربه ضربةً جزّله اثنين، فإذا هو الوليد بن العاص بن هشام المخزوميّ، ثم يقول كعب: إني لأنظر يومئذٍ وأقول: ما رأيتُ مثل هذا الرجل أشجع بالسيف، ثم ختم له به! فيقال له: فما ختم له به؟ فيقول: من أهل النار، قتل نفسَه يومئذٍ.

قال الواقديّ: وروى أبو النَّمْر الكنانيّ، قال: أقبلت يوم أحُد وأنا من المشركين، وقد انكشف المسلمون، وقد حضرتُ في عشرة من إخوتي، فقتل منهم أربعة، وكان الريح للمسلمين أوّل ما التقينا، فلقد رأيتُني وانكشفنا مولّين، وأقبل أصحاب النبي ﷺ على نهب العسكر، حتى بلغت الجمّاء، ثم كرّت خيلنا، فقلت: والله ما كرّت الخيلُ إلا عن أمر رأته، فكررنا على أقدامنا كأنّنا الخيل، فنجِد القوم قد أخذ بعضُهم بعضاً، يقاتلون على غير صفوف، ما يدري بعضهم مَنْ يضرب، وما للمسلمين لواء قائم، ومع رجل من بني عبد الدار لواء المشركين، وأنا أسمع شعار أصحاب محمد بينهم: «أمِتْ أمِتْ»، فأقول في نفسي: ما «أمت»؟

وإنّي لأنظر إلى رسول الله ﷺ وإنّ أصحابه محدقُون به، وإنّ النبْل ليمرّ عن يمينه ويساره، ويقع بين يديه، ويخرج من ورائه، ولقد رميت يومئذٍ بخمسين مِرْماة، فأصبت منها بأسهم بعض أصحابه، ثم هداني الله إلى الإسلام.

قال الواقديّ: وكان عَمْرو بن ثابت بن وَقْش شاكًا في الإسلام، وكان قومُه يكلّمونه في الإسلام، فيقول: لو أعلم ما تقولون حقاً ما تأخرت عنه، حتى إذا كان يوم أحُد بدَا له الإسلام ورسول الله ﷺ بأحُد، وأخذ سيفَه وأسلم، وخرج حتى دخل في القوم، فقاتل حتى أثبِت، فوجِد في القتلى جريحاً ميّتاً، فدنوْا منه وهو بآخر رَمق، فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟ قال: الإسلام، آمنت بالله وبرسوله، وأخذت سيفي وحضرت فرزقني الله الشهادة، ومات في أيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه لمن أهل الجنّة».

قال الواقديّ: فكان أبو هُريرة يقول، والناس حوله: أخبروني برجل يدخل الجنّة لم يصلّ لله تعالى سجدة؟ فيسكت النّاس، فيقول أبو هريرة: هو أخو بني عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقْش.

قال الواقديّ: وكان مخيرق اليهوديّ من أحبار يهود، فقال يومَ السَّبْت ورسول الله ﷺ بأحُد: يا معشرَ يهود، والله إنّكم لتعلمون أنّ محمّداً نبيّ، وأنّ نصره عليكم حقّ. فقالوا: ويحك! اليوم يوم السبت، فقال: لا سبْت، ثم أخذ سلاحه وحضر مع النبي ﷺ، فأصِيب، فقال رسول الله ﷺ: «مخيرق خير يهود».

قال الواقديّ: وكان مخيرق قال حين خرج إلى أحُد: أن أصِبت فأموالي لمحمّد يضعُها حيث أراه الله فيه، فهي عامّة صدقات النبيّ ﷺ.

قال الواقديّ: وكان حاطب بن أميّة منافقاً، وكان ابنه يزيد بن حاطب رجلَ صِدْق، شهد أحُداً مع النبيّ ﷺ فارتُثّ جريحاً، فرجع به قومه إلى منزله، قال: يقول أبوه وهو يرى أهلَ الدّار يبكون عنده: أنتم والله صنعتم هذا به، قالوا: كيف؟ قال: أغررتموه من نفسِه حتى خرج فقتِل، ثم صرتم معه إلى شيء آخر تعدُونه جَنّة، يدخل فيها حبّة من حَرْمل، قالوا: قاتلك الله! قال هو ذاك، ولم يقرّ بالإسلام.

قال الواقديّ: وكان قزمان عَسِيفاً من بني ظَفَر، لا يدري ممّن هو، وكان لهم محبًا، وكان مقلاً ولا ولد له ولا زوجة، وكان شجاعاً يُعرف بذلك في حروبهم التي كانت تكون بينهم، فشهد أحداً، وقاتل قتالاً شديداً، فقتل ستة أو سبعة، فأصابته الجِراح فقيل للنبي ﷺ: إن قزمان قد أصابته الجِراح، فهو شهيد، فقال: بل من أهلِ النّار، فجاؤوا إلى قزمان، فقالوا: هنيئاً لك أبا الغيداق الشهادة! فقال: بمَ تبشّرونني! والله ما قاتلنا إلاّ على الأحساب، قالوا: بشّرناك بالجنة، قال حبّة والله من حَرْمل، إنّا والله ما قاتلنا على جَنّة ولا على نار، إنما قاتلنا

على أحسابنا، ثمّ أخرج سهماً من كنانته. فجعل يتوجّأ به نفسه، فلما أبطأ عليه المِشْقَص، أخذ السيف، فاتكأ عليه، حتى خرج من ظهره، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «هو من أهل النار».

قال الواقديّ: وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج، فلمّا كان يوم أُحُد، وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبيّ ﷺ المشاهد أمثال الأسد، أراد قومُه أن يحبسوه، وقالوا: أنت رجل أعرَج، ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبيّ ﷺ قال: بخ! يذهبون إلى الجنَّة وأجلس أنا عندكم! فقالت هند بنت عمرو بن حزام امرأته: كأنّي أنظر إليه مولّياً قد أخذ دَرَقته، وهو يقول: اللهمّ لا تردّني إلى أهلي، فخرج ولحقه بعضُ قومه يكلّمونه في القعود، فأبى وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنّ قومِي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله إنّي لأرجو أن أطأ بعَرْجتي هذه في الجنة، فقال له: أمّا أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك، فأبى، فقال النبيّ ﷺ لقومه وبنيه: «لا عليكم أن تمنعوه، لعلّ الله يرزقه الشهادة، فخلُّوا عنه». فقتِل يومئذٍ شهيداً. وكان أبو طلحة يحدّث، يقول: نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون، ثم ثابوا وهو في الرّعيل الأوّل. لكأنّي أنظر إلى ضِلعه وهو يعرُج في مشيته، وهو يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنّة، ثم أنظر إلى ابنه يعدُو في أثره، حتى قُتِلا جميعاً.

قال الواقديّ: وكانت عائشة خرجت في نسوة تستروح الخبر، ولم يكن قد ضُرِب الحجاب يومئذٍ، حتى كانت بمنقطع الحرّة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي، لقيتْ هنداً بنت عمرو بن حزام، أخت عبد الله بن عمرو بن حزام، تسوق بعيراً لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاّد بن عمرو بن الجموح، وأخوها عبدُ الله بن عمرو بن حزام أبو جابر بن عبد الله، فقالت لها عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خير، أمّا رسول الله ﷺ فصالح، وكلّ مُصيبة بعده جَللٌ، واتّخذ الله من المؤمنين شهداء: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾(١).

قلت: هكذا وردت الرواية، وعندي أنها لم تقل كلّ ذلك، ولعلها قالت: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾، لا غير، وإلاّ فكيف يواطىء كلامُها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق والخندق بعد أحُد! هذا من البعيد جدًّا.

قال: فقالتْ لها عائشة: فمَنْ هؤلاء؟ قالت: أخي وابني وزَوْجي قَتْلَى، قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرُهم بها «حلْ حلْ»، تزجُر بعيرها، فبرك البعير، فقالت عائشة: لثقْل ما حمِّل، قالت هند: ما ذاك به، لربّما حمل ما يحمله البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

فقام، فلما وجهت به إلى المدينة برك، فوجّهته، راجعة إلى أحُد، فأسرع، فرجعت إلى النبيّ ﷺ فأخبرته بذلك، فقال: إنّ الجمل لمأمور، هل قال عمرو شيئاً؟ قالت: نعم، إنه لما وجّه إلى أحُد استقبل القبلة، ثم قال: اللّهمّ لا تردّني إلى أهلي، وارزقني الشهادة، فقال ﷺ: فلذلك الجمل لا يمضي، إنّ منكم يا معشرَ الأنصار من لو أقسم على الله لأبرَّه، منهم عمرو بن الجموح، يا هندُ، ما زالت الملائكة مظلّة على أخيك من لدن قُتِل إلى الساعة، ينظرون أين يدفن! ثم مكث رسول الله ﷺ في قبرهم، ثم قال: يا هند، قد ترافقوا في الجنّة جميعاً، عمرو بن الجموح بعلك، وخلاّد ابنُك، وعبد الله أخوك. فقالت هند: يا رسول الله، فادع الله لي عسى أن يجعلني معهم!

قال الواقديّ: وكان جابر بن عبد الله، يقول: اصطبح ناسٌ يوم أحُد الخمرَ، منهم أبي، فقتِلوا شهداء.

قال الواقديّ: وكان جابرٌ يقول: أوّل قتيل من المسلمين يوم أحُد أبي، قتله سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السُّلَميّ، فصلى عليه رسول الله ﷺ قبلَ الهزيمة.

قال الواقديّ: وكان جابر يحدّث، ويقول: استشهد أبي، وجعلتْ عَمّتِي تبكي، فقال النبيّ ﷺ: ما يبكيها! ما زالت الملائكة تظلّ عليه بأجنحتها حتى دُفِن.

قال الواقديّ: وقال عُبيد الله بن عمرو بن حزام: رأيتُ في النّوم قبل يوم أحُد بأيام مبشّرَ بن عبد المنذر، أحد الشهداء ببدر، يقول لي: أنت قادم علينا في أيّام! فقلت: فأين أنت؟ قال: في الجنّة نسرح منها حيث نشاء، فقلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى، ثم أحييت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال: «هذه الشهادة يا جابر».

قال الواقديّ: وقال رسول الله ﷺ يوم أحُد: ادفنوا عبد الله بن عمرو بن حَزَام وعمرو بن الجموح في قبرٍ واحد، ويقال: إنهما وجدا وقد مُثّل بهما كلّ مُثْلة قطعت آرابهما عضواً عضواً، فلا تعرف أبدانهما. فقال النبيّ ﷺ: «ادفنوهما في قبر واحد»، ويقال: إنما أمر بدفنهما في قبر واحد، لما كان بينهما من الصفاء، فقال: ادفنوا هذين المتحابيَّن في الدنيا في قبر واحد.

وكان عبد الله بن عمرو بن حزام رجلاً أحمر أصلَع، ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح طويلاً، فعُرفا ودخل السَّيل بعد عليهما، وكان قبرهما ممّا يلي السّيل، فحفِر عنهما، وعليهما نمِرتان وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه، فيدُه على وجهه، فأميطت يده عن جرحه، فثعب الدم، فردت إلى مكانها فسكن الدّم.

قال الواقديّ: وكان جابر بن عبد الله يقول: رأيت أبي في حفرته، وكأنه نائم، وما تغيّر من

حاله قليل ولا كثير، فقيل له: أفرأيتَ أكفانه؟ قال: إنما كُفّن في نمِرة خُمِّر بها وجهُه، وعلى رجليه الحرْمل فوجدنا النَّمِرة كما هي، والحرمل على رجليه كهيئته، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة، فشاورهم جابر في أن يطيّبه بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبيّ ﷺ وقالوا: لا تحدّثوا فيهم شيئاً.

قال: ويقال إنّ معاوية لما أراد أن يُجْرِيَ العين التي أحدثها بالمدينة، وهي كظامة نادى مناديه بالمدينة: من كان له قتيل بأحُد فليشهد. فخرج النّاس إلى قتلاهم فوجدوهم رطاباً يتثنّون، فأصابت المسحاةُ رِجْل رجلٍ منهم، فثعَبت دماً، فقال أبو سعيد الخُدْريّ: لا ينكر بعد هذا منكر أبداً.

قال: ووُجد عبد الله بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ووُجد خارجة بن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع في قبر واحدٍ، فأما قبرُ عبد الله وعمرو فحوّل، وذلك أنّ القناة كانت تمرّ على قبرهما، وأما قبر خارجة وسعد فترك، وذلك لأنّ مكانه كان معتزلاً، وسُوّيَ عليهما التراب، ولقد كانوا يحفِرون التّراب، فكلّما حفروا قُتْرَةً من تُراب، فاح عليهم المسك.

قال: وقالوا: إنّ رسول الله ﷺ قال لجابر: «يا جابر، ألا أبشّرك؟» فقال: بلَى، بأبي وأمّي! قال: «فإنّ الله أحيا أباك، ثم كلّمه كلاماً، فقال له: تمنّ على ربّك ما شئت!» فقال: أتمنّى أن أرجع فأقتَل مع نبيّك، ثم أحيا فأقتل مع نبيّك، فقال: إنّي قد قضيت أنّهم لا يرجعون.

قال الواقديّ: وكانت نَسيبه بنت كعب أمّ عمارة بن غزِيّة بن عمرو قد شهدت أحُداً، وزوجها غزيَّة وابناها عُمارة بن غزيّة وعبد الله بن زيد، وخرجت ومعها شنّ لها في أوّل النهار تريد تسقي الجرْحى، فقاتلت يومئذٍ وأبلتْ بلاءً حسناً، فجرحت اثنيْ عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف، فكانت أمّ سعد بنت سعد بن الرّبيع تحدّث، فتقول: دخلتُ عليها، فقالت لها: يا خالة، حديثني خبَرك، فقالت: خرجت أوّل النهار إلى أحُد، وأنا أنظر ما يصنع النّاس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيتُ إلى رسولِ الله ﷺ وهو في الصحابة والدّوْلة والريح للمسلمين، فلمّا انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشرِ القِتال، وأذبُّ عن رسول الله ﷺ بالسَّيف، وأرمي بالقوس، حتى خلصت إلى الجراح، فرأيت على عاتقها جُرحاً أجوفَ له غوْر، فقلت: يا أمّ عُمارة، مَنْ أصابك بهذا؟ قالت: أقبل ابن قمِيئة، وقد ولّى النّاس عن رسول الله ﷺ يصيح: دلّوني على محمدٍ، لا نجوتُ إنْ نجا! فاعترض له مُصعب بن عمير وناس معه، فكنت فيهم، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضرَبات، ولكنّ عدو الله كان عليه دِرْعان. فقالت لها: يدكِ ما أصابها؟ قالت: أصيبتْ يوم اليمامة، لمّا جعلت الأعراب تنهزم بالنّاس، نادت الأنصار، أخلصونا. فأخلصت الأنصار،

فكنت معهم، حتى انتهينا إلى حديقة الموت، فاقتتلنا عليها ساعة، حتى قُتل أبو دُجانة على باب الحديقة، ودخلتها وأنا أريد عدوّ الله مُسيلمة، فيعرض لي رجل، فضرب يدي فقطعها، فوالله ما كانت ناهية، ولا عرّجت عليها، حتى وقفت عل الخبيث مقتولاً، وابني عبد الله بن زيد المازنيّ يمسحُ سيفه بثيابه، فقلت: أقتلتَه؟ قال: نعم، فسجدتُ شكراً لله عزّ وجلّ وانصرفت.

قال الواقديّ: وكان ضَمْرة بن سعيد يحدّث عن جَدّته، وكانت قد شهدت أُحُداً تسقي الماء، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يومئذٍ: «لَمقام نَسيبة بنت كعب اليوم خيرٌ من مُقام فلان وفلان». وكان يراها يومئذٍ تقاتل أشدّ القتال، وإنّها لحاجزة ثوبَها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً.

قلت: ليت الرّاوي لم يكنِّ هذه الكناية، وكان يذكرهما باسمهما حتى لا تترامى الظنون إلى أمور مشتبهة! ومن أمانة المحدّث أن يذكر الحديث على وجهه ولا يكتم منه شيئاً، فما باله كتم اسم هذين الرجلين!

قال: فلما حضرت نَسيبة الوفاة، كنت فيمن غسّلها فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر، وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربُها على عاتقها - وكان أعظم جِراحها، لقد داوته سنة - ثم نادى منادي النبيّ ﷺ بعد انقضاء أُحُد: إلى حَمراء الأسد! فشدّت عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدّم، ولقد مكثنا ليلتنا نكمّد الجراح، حتى أصبحْنا، فلمّا رجع رسولُ الله من حَمْراء الأسد، لم يصلْ إلى بيته حتى أرسلَ إليها عبد الله بن كعب المازنيّ يسأل عنها، فرجع إليه فأخبره بسلامتها، فسرّ بذلك.

قال الواقديّ: وحدثني عبد الجبار بن عُمارة بن غزيّة، قال: قالت أمّ عُمارة لقد رأيتُني وانكشف النّاس عن رسول الله ﷺ فما بقيَ إلا نُفَيْرٌ ما يتمُّون عشرة، وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه نذبّ عنه، والناس يمرُّون عنه منهزمين، فرآني ولا تُرْس معي، ورأى رجلا مولّياً معه تُرس، فقال: يا صاحبَ التُّرس، الق ترسك إلى مَنْ يقاتل. فألقى ترسه فأخذته، فجعلت أترّس به على النبيّ ﷺ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رجّالة مثلنا أصبناهم، فيقبل رجل على فرس، فضربني وترّست له، فلم يصنع سيفه شيئاً، وولّى وأضرب عُرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح: يابن عُمارة، أمّك أمّك! قالت: فعاونني عليه حتى أوْرَدْتُه شَعُوب.

قال الواقديّ: وحدّثني ابنُ أبي سَبْرة، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن عبد الله بن زيد

المازنيّ، قال: جرحت يومئذٍ جرحاً في عضدِي اليسرى، ضربني رجل كأنه الرَّقْل ولم يعرّج عليّ، ومضى عنّي، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول الله ﷺ: «اعصب جُرحك»، فتقبِل أمّي إليّ، ومعها عصائب في حَقْوَيْها قد أعدّتها للجراح، فربطت جرحي والنبيّ ﷺ واقف ينظر، ثم قالت: انهض يا بنيّ، فضارب القوم، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أمّ عُمارة!» قالت: وأقبل الرّجل الّذي ضربني، فقال رسول الله ﷺ: «هذا ضارب ابنك»، فاعترضت أمّي له، فضربت ساقه، فبرَك، فرأيت النبي ﷺ تبسم حتى بدت نواجذُه، ثم قال: «استقدتِ يا أمّ عُمارة». ثم أقبلنا نعلُوه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفّرك وأقرّ عينك من عدوّك، وأراك ثأرك بعيْنك»!

قال الواقديّ: وروى موسى بن ضمرة بن سعد، عن أبيه، قال: أتى عمر بن الخطاب في أيام خلافته بِمُروط كان فيها مِرط واسع جيّد، فقال بعضهم: إنّ هذا المرْط بثمن كذا، فلو أرسلتَ به إلى زوجة عبد الله بن صفيّة بنت أبي عبيد، وذلك حِدْثان ما دخلت على ابن عمر، فقال: بل أبعث به إلى مَنْ هو أحقّ منها، أمّ عمارة نسيبة بنت كعب سمعت رسول الله ﷺ يوم أحُد يقول: «ما التفتُ يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني».

قال الواقديّ: وروى مَرْوان بن سعيد بن المعلّي، قال: قيل لأم عمارة: يا أمّ عمارة، هل كنّ نساء قريش يومئذٍ يقاتلنَ مع أزواجهنّ؟ فقالت: أعوذ بالله، لا والله ما رأيتُ امرأة منهنّ رمتْ بسهم ولا حَجَر، ولكن رأيت معهنّ الدِّفاف والأكبار يضربن ويذكّرن القوم قتلَى بدر، ومعهنّ مكاحل ومراود، فكلّما ولّى رجل أو تكعكع ناولته إحداهنّ مروداً ومكحلة، يقلن: إنّما أنت امرأة، ولقد رأيتهنّ ولّين منهزماتٍ مشمّرات، ولها عنهنّ الرّجال أصحاب الخيل، ونجوا على متون خيلهم، وجعلْنَ يتبعنَ الرّجال على أقدامهنّ، فجعلن يسقطن في الطريق، ولقد رأيت هنداً بنت عتبة، وكانت امرأة ثقيلة، ولها خلُق، قاعدة خاشيةً من الخيل، ما بِها مشي، ومعها امرأة أخرى، حتى كثر القوم علينا، فأصابوا منّا ما أصابوا، فعند الله نحتسب ما أصابنا يومئذٍ من قِبَل الرماة ومعصيتهم لرسول الله ﷺ.

قال الواقديّ: وحدثني ابنُ أبي سَبْرة، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة، عن الحارث بن عبد الله، قال: سمعتُ عبد الله بن زيد بن عاصم، يقول: شهدتُ أحُداً مع رسول الله ﷺ، فلمّا تفرّق الناس عنه، دنوت منه، وأمي تذبّ عنه، فقال: يابن عُمارة، قلت: نعم، قال: ارمِ، فرميتُ بين يديه رجلاً من المشركين بحجَر، وهو على فرس، فأصيبت عين الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه، وجعلت أعلوه بالحجارة، حتى نضّدت عليه منها وقْراً، والنبي ﷺ ينظر إليّ ويتبسم، فنظر إلى جرح بأمّي على عاتقها، فقال: «أمّك أمّك! اعصب جُرحها، بارك الله عليكم من أهلِ بيت! لمقامُ أمّك خيرٌ من مقام فلان وفلان،

ومقام ربيبك - يعني زوج أمه - خيرٌ من مقام فلان، رحمكم الله من أهل بيت»! فقالت أميّ: ادع لنا الله يا رسول الله أن نرافقَك في الجنة، فقال: «اللهم اجعلهم رُفقائي في الجنة»، قالت: فما أبالي ما أصابني من الدنيا.

قال الواقديّ: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أُبيّ بن سَلول، فأدخِلت عليه في الليلة التي في صبيحتها قتال أُحُد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها، فأذِنَ، فلمّا صلّى الصبح غدا يريد النّبيّ ﷺ، فلزمتْه جميلة، فعاد فكان معها، فأجْنَب منها، ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها، فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعد: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيتُ كأنّ السماء فُرِجَتْ، فدخل فيها ثم أطبقت. فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بي، فعلِقت منه بعبد الله بن حنظلة. ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد، فولدت له محمد بن ثابت بن قيس: وأخذ حنظلة بن أبي عامر سلاحه، فلحق برسول الله ﷺ بأحُد، وهو يسوّي الصفوف، فلما انكشف المشركون، اعترض حنظلة لأبي سفيان بن حَرْب، فضرب عُرقوب فرسه، فاكتسعت[1] الفَرس، ويقع أبو سفيان إلى الأرض، فجعل يصيح: يا معشر قريش، أنا أبو سفيان بن حرب! وحنظلة يريد ذبحه بالسيف، فأسمع الصوت رجالاً لا يلتفتون إليه من الهزيمة، حتى عاينه الأسود بن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح. فأنفذه، ومشى حنظلة إليه في الرمح فضربه ثانية فقتله، وهرب أبو سفيان يعدُو على قدميه، فلحق ببعض قريش، فنزل عن صدر فرسه، وردف وراءه أبا سفيان، فذلك قول أبي سفيان يذكر صَبْره ووقوفه وأنه لم يفرّ، وذكره محمد بن إسحاق:

ولو شئتُ نجتّني كُميتٌ طِمِرّةٌ ولم أحمل النَّعماء لابن شَعُوب
وما زال مُهري مزجرَ الكلب فيهمُ لدن غُدْوَةً حتى دنت لغُروب
أقاتلهم وأدّعِي يَالَ غالبٍ وأدفعُهم عنّي بركن صليبِ
فبكّي ولا ترعَيْ مقالة عاذلٍ ولا تسأمي من عَبْرةٍ ونحيبِ
أباك وإخواناً لنا قد تتابعوا وحقّ لهم من حسرة بنصيب
وسلّي الذي قد كان في النفس إنّني قتلتُ من النّجّار كلّ نجيب
ومن هاشم قَرْماً كريماً ومُصعباً وكان لَدَى الهيجاء غير هيوب
ولو أنني لم أشفِ نفسيَ منهمُ لكانت شجاً في الصّدْر ذات ندوبِ
فآبوا وقدْ أودى الجلابيبُ منهم بهم كمد من واجمٍ وكئيب
أصابهم من لم يكن لدمائهم كِفاءً ولا في سِنْخِهم بضريب

(١) سقطت من ناحية مؤخرها ورمت به، اللسان، مادة (كسع).

قال الواقديّ: مرّ أبو عامر الراهب على حنظلة ابنه وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، فقال: إن كنت لأحذرك هذا الرجل - يعني رسول الله ﷺ - من قبل هذا المصرع، والله إن كنت لبرًّا بالوالد، شريف الخلق في حياتك، وإنّ مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم، إنْ جَزى الله هذا القتيل - يعني حمزة - خيراً، أو جزى أحداً من أصحاب محمد خيراً، فليجزك، ثم نادى: يا معشرَ قريش، حنظلة لا يمثّل به، وإن كان خالفني وخالفكم، فلم يألُ لنفسه فيما يرى خيراً، فمثّل بالناس وترِك حنظلة فلم يمثّل به.

وكانت هندُ بنت عُتْبة أوّلَ مَنْ مثّل بأصحاب النبي ﷺ، وأمرت النساء بالمثل، وبجَذْع الأنوف والآذان، فلم تبق امرأة إلاّ عليها مِعْضدانِ ومَسَكتان وخدَمتان إلاّ حنظَلة لم يمثلّ به، وقال رسول الله ﷺ: **«إنّي رأيتُ الملائكة تغسل حنظَلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفِضّة»**[1].

قال أبو أسَيْد الساعديّ: فذهبنا فنظرنا إليه، فإذا رأسه يقطُر ماء، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرتُه، فأرسل إلى امرأته فسألها، فأخبرته أنّه خرج وهو جنُب.

قال الواقديّ: وأقبل وَهْب بن قابوس المُزنيّ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقْبة بن قابوس بغنم لهما من جَبَل مُزَينة، فوجد المدينة خِلْواً، فسألا: أين الناس؟ قالوا: بأحُد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قُريش، فقال: لا نبتغي أثراً بعد عين، فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحُد، فيجدان القوم يقتتلون والدّولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النَّهْب، وجاءت الخيل من ورائهم، خالد بن الوليد وعكْرمة بن أبي جهل، فاختلط الناس، فقاتلا أشدّ القتال، فانفرقت فرقة من المشركين، فقال رسول الله ﷺ: **«مَن لهذه الفرقة»**؟ فقال وهْب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنَّبْل حتى انصرفوا، ثم رجع فانفرقت فرقة أخرى، فقال رسول الله ﷺ: **«مَن لهذه الكتيبة؟»** فقال المُزنيّ: أنا يا رسول الله، فقام فذبّها بالسيف حتى ولّت، ثم رجع فطلعت كتيبة أخرى، فقال النبي ﷺ: **«مَن يقوم لهؤلاء»**؟ فقال المُزَنيّ: أنا يا رسولَ الله فقال: **«قم وأبشرْ بالْجَنّة»**. فقام المزنيّ مسروراً يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيْف ورسول الله ﷺ ينظر إليه والمسلمون، حتّى خرج من أقصى الكتيبة، ورسول الله ﷺ يقول: **«اللهمَّ ارحمه، ثم يرجع فيهم»**، فما زال كذلك وهم محدقُون به، حتى اشتملت عليه أسيافُهم ورماحهم، فقتلوه فوجد به يومئذٍ عشرون طعنة بالرماح، كلّها قد خلصت إلى مقتل، ومُثّل به أقبحَ المثل يومئذٍ. ثم قام ابنُ أخيه، فقاتل كنحو قتاله، حتى قُتِل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إنّ أحبّ ميتة أموتُ عليها لما مات عليها المزنيّ.

---

(١) أخرجه السيوطي في جامعه رقم: ٢٦٤٦.

قال الواقديّ: وكان بلال بن الحارث المزنيّ يحدّث يقول: شهدنا القادسيّة مع سعد بن أبي وقّاص، فلمّا فتح الله علينا، وقسمت بيننا غنائمنا، أسقط فتى من آل قابوس من مُزَينة، فجئت سعداً حين فزع من نومه، فقال: بلال! قلت: بلال، قال: مرحباً بك، مَنْ هذا معك؟ قلت: رجل من قومي، قال: ما أنتَ يا فتًى من المزنيّ الذي قتِل يوم أحُد! قال: ابنُ أخيه. قال سعد: مرحباً وأهلاً، أنعم الله بك عيناً! لقد شهدتُ من ذلك الرجل يوم أحُد مشهداً ما شهدتُ من أحدٍ قطّ، لقد رأيتُنا وقد أحدق المشركون بنا من كلّ ناحية، ورسول الله ﷺ وسطنا، والكتائب تطلع من كلّ ناحية، وإن رسول الله ﷺ يرمي ببصره في الناس يتوسّمهم، ويقول: «مَنْ لهذه الكتيبة؟» كلّ ذلك يقول المُزَني: أنا يا رسول الله، كلّ ذلك يردّ الكتيبة، فما أنسى آخر مرة قالها، فقال له رسول الله ﷺ: «قم وأبشرْ بالجنّة»، فقام وقمت على أثره، يعلم الله أني أطلب مثل ما يطلب يومئذٍ من الشهادة، فخضنا حَوْمَتَهم، حتى رجعنا فيهم الثانية، فأصابوه رحمه الله، ووددت والله أني كنتُ أصِبت يومئذٍ معه، ولكن أجل استأخر، ثم دعا من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحبّ الرجوع، فرجع.

قال الواقديّ: وقال سعد بن أبي وقاص: أشهدُ لرأيتُ رسول الله ﷺ واقفاً علىٰ المُزَنيّ، وهو مقتول، وهو يقول: «رضي الله عنك، فإنّي عنك راضٍ»، ثم رأيتُ رسول الله ﷺ قام على قدميه، وقد ناله عليه السلام من ألم الجراح ما ناله، وإني لأعلم أنّ القيام يشقّ عليه على قبره، حتى وُضع في لحده وعليه بُرْدة، لها أعلام حُمْر، فمدّ رسول الله ﷺ البردة على رأسه، فخمره وأدرجه فيها طولاً، فبلغت نصف ساقيْه، فأمرنا فجمعنا الحرْمل، فجعلنا على رجليه وهو في لحدِه، ثم انصرف فما حال أحبّ إليّ من أن أموت عليها وألقى الله عليها من حال المزَنيّ.

قال الواقديّ: وكان رسول الله ﷺ يوم أحُد قد خاصم إليه يتيم من الأنصار أبا لبابة بن عبد المنذر في عِذقٍ بينهما، فقضى رسول الله ﷺ لأبي لُبابة، فجزع اليتيم على العِذق، فطلب رسول الله ﷺ العِذق إلى أبي لُبابة لليتيم، فأبى أن يدفعه إليه، فجعل رسول الله ﷺ يقول لأبي لبابة: «ادفعه إليه ولك عِذقٌ في الجنّة»، فأبى أبو لبابة، وقال ثابت بن أبي الدّحداحة: يا رسول الله أرأيت إن أعطيتُ اليتيمَ عِذقه من مالي! قال: «لك به عِذق في الجنة»، فذهب ثابت بن الدحداحة، فاشترى من أبي لبابة ذلك العِذق بحديقة نخل، ثم ردّ العِذق إلى الغلام، فقال رسول الله ﷺ: «ربَّ عذق مذلّل لابن الدحداحة في الجنة»، فكانت ترجى له الشهادة بذلك القول، فقتِل يوم أحُد.

قال الواقديّ: ويقبل ضرار بن الخطاب فارساً يجرّ قناةً له طويلة، فيطعن عمرو بن معاذ،

فأنفذه، ويمشي عمرو إليه حتى غُلب، فوقع لوجهه، قال: يقول ضرار: لا تعدمنّ رجلاً زوّجك من الحور العين، وكان يقول: زوّجت يوم أُحُد عشرة من أصحاب محمد الحُور العين.

قال الواقديّ: فسألت شيوخَ الحديث: هل قتل عشرة؟ قالوا: ما بلغنا أنه قتل إلاّ ثلاثة، ولقد ضرب يومئذٍ عمر بن الخطاب حين جال المسلمون تلك الجولة بالقناة، وقال: يابن الخطاب، إنها نعمة مشكورة، ما كنت لأقتلك.

قال الواقديّ: وكان ضرار يحدّث بعد، ويذكر وقعة أحد، ويذكر الأنصار فيترحّم عليهم، ويذكر غَناءهم في الإسلام، وشجاعتهم وإقدامهم على الموت، ثم يقول: «**لقد قتل أشرافُ قومي ببدر**»، فأقول: مَنْ قتل أبا الحكم؟ فيقال: ابن عفراء. من قتل أمية بن خلف؟ فيقال: خُبيب بن يساف. من قتل عُقْبة بن أبي معيط؟ فيقال: عاصم بن ثابت. من قتل فلان بن فلان؟ فيسمى لي من الأنصار، مَنْ أسرَ سهيل بن عمرو؟ فيقال: مالك بن الدخشم. فلما خرجنا إلى أحد، وأنا أقول: إن قاموا في صياصيهم فهي منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياماً ثم ننصرف، وإن خرجوا إلينا من صياصيهم أصبنا منهم، فإنّ معنا عدداً أكثر من عددهم، ونحن قوم موتورون، خرجنا بالظُّعن يذكّرْننا قتلى بدر، ومعنا كُراع ولا كُراع معهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، فقُضيَ لهم أن خرجوا، فالتقينا، فوالله ما قمنا لهم حتى هزمنا وانكشفنا مولّين، فقلت في نفسي: هذه أشدّ من وقعة بدر، وجعلت أقول لخالد بن الوليد: كُرّ على القوم، فيقول: وترى وجهاً نكرّ فيه! حتى نظرت إلى الجبل الذي كان عليه الرّماة خالياً، فقلت: يا أبا سليمان، انظر وراءك، فعطف عنان فرسه، وكررنا معه، فانتهينا إلى الجبل، فلم نجد عليه أحداً له بال، وجدنا نُفَيْراً فأصبناهم، ثم دخلنا العسكر، والقوم غارُّون ينتهبون عسكرنا، فأقحمنا الخيل عليهم، فتطايروا في كلّ وجه، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قتلة الأحبّة، فلا أرى أحداً، هربوا فما كان حلَب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان، فصبرنا لهم، وصبروا لنا، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسي، وترجّلت فقتلت منهم عشرة ولقيت مِن رجُل منهمُ الموت الناقع، حتى وجدتُ ريح الدم، وهو معانقي ما يفارقني، حتى أخذته الرماح من كل ناحية، فوقع. فالحمد لله الذي أكرمهم بيدي، ولم يهنّي بأيديهم.

قال الواقديّ: وقال رسول الله ﷺ يوم أُحُد: مَنْ له علْم بذكوان بن عبد قيس؟ فقال عليّ عليه السلام: أنا رأيت يا رسولَ الله فارساً يركُض في أثره حتى لحقه، وهو يقول: لانجوتُ إن نجوتَ! فحمل عليه فرسه وذكوان راجل، فضربه وهو يقول: خذها وأنا ابن علاج! فأهويت إلى الفارس، فضربت رجله بالسيف، حتى قطعتها من نصف الفخِذ، ثم طرحته عن فرسه فذففّت عليه، وإذا هو أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفيّ.

قال الواقديّ: وقال عليّ عَلَيْتَلِا: لما كان يوم أُحُد وجال الناس تلك الجوْلة أقبل أميّة بن أبي حذيفة بن المغيرة، وهو دارع مقنّع في الحديد ما يرى منه إلاّ عيناه، وهو يقول: يوم بيوم بدر! فيعرض له رجل من المسلمين، فقتله أميّة، قال عليّ عَلَيْتَلِا: وأصمِد له، فأضربه بالسّيف على هامتِه، وعليه بيضة، وتحت البيضة مِغْفر، فنبا سيفي، وكنت رجلاً قصيراً ويضربني بسيفه، فأتقي بالدّرقة، فلحج سيفه، فأضربه، وكانت درعه مشمّرة، فأقطع رجليه، فوقع وجعل يعالج سيفه، حتى خلّصه من الدّرقة، وجعل يناوشني وهو بارك حتى نظرت إلى فَتْق تحت إبطه فأحُشّ فيه بالسيف، فمال فمات، وانصرفت.

قال الواقديّ: وفي يوم أُحُد انتمى رسول الله ﷺ، فقال: «أنا ابن العواتك»، وقال أيضاً:

أنا النبيّ لا كذبْ أنا ابن عبد المطّلبْ

قال الواقديّ: بينا عمر بن الخطاب يومئذٍ في رهطٍ من المسلمين قعود، مرّ بهم أنس بن النَّضْر بن ضمضم عمّ أنس بن مالك، فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتِل رسول الله ﷺ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم قام، فجالد بسيفه حتى قتِل، فقال عمر بن الخطاب: إنّي لأرجو أن يبعثه الله أمّةً وحده يوم القيامة، وُجِد به سبعون ضربةً في وجهه ما عُرِفَ حتى عرفته أخته.

قال الواقديّ: وقالوا: إنْ مالك بن الدُّخشم مرّ على خارجة بن زيد بن زهير يومئذٍ وهو قاعد، وفي حُشْوَته ثلاثة عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل، فقال له مالك: أما علمتَ أنّ محمداً قد قتل! قال خارجة: فإن كان محمّد قد قتِل، فإن الله حيٌّ لا يُقتل ولا يموت، وإنّ محمّداً قد بلّغ رسالة ربّه، فاذهب أنت فقاتل عن دينك.

قال: ومرّ مالك بن الدخشم أيضاً على سَعْد بن الربيع، وبه اثنا عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل، فقال: أعلمت أن محمداً قد قتل! فقال سعد: أشهد أن محمداً قد بلّغ رسالة ربّه، فقاتِلْ أنت عن دينك، فإنّ الله حيٌّ لا يموت.

قال محمد بن إسحاق: وحدّثني محمّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصعة المازنيّ، أخو بني النّجّار، قال: قال رسول الله ﷺ يومئذٍ: «مَنْ رجلٌ ينظر ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟»، فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر يا رسول الله ما فعل، فنظر فوجده جريحاً في القَتْلى، وبه رَمَق، فقال له: إنّ رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في الأموات، قال: أنا في الأموات، فأبلِغ رسول الله ﷺ منّي السلام، وقل له: إن سعد بن الرّبيع يقول: جزاك الله خيراً عنّا ما جزى نبيًّا عن أمّته وأبلغ قومَك السلام

عنّي، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذرَ لكم عند الله أن يخلُص إلى نبيّكم ومنكم عين تطرُف، قال: فلم أبرح عنده حتى مات، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «اللهمّ ارضَ عن سعد بن الربيع».

قال الواقديّ: وحدّثني عبد الله بن عمار، عن الحارث بن الفُضَيل الخطميّ، قال: أقبل ثابت بن الدّحداحة يومئذٍ والمسلمون أوزاع، قد سقِط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشرَ الأنصار، إليّ إليّ أنا ثابت بن الدحداحة! إن كان محمد قد قُتِل، فإن الله حيّ لا يموت! قاتلوا عن دينكم، فإنّ الله مظهركم، وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمَنْ معه من المسلمين، وقد وقفت لهم كتيبة خَشْناء فيها رؤساؤهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وجعلوا يناوشونهم، ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه، فأنفذه فوقع ميتاً، وقتل مَنْ كان معه من الأنصار، فيقال: إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين في ذلك اليوم.

وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى يذكر يوم أُحُد:

ألا ذرفتْ من مُقلتيك دُمُوعُ ... وقد بان في حبل الشَّبَاب قطوعُ
وشطّ بمَنْ تهوَى المزارُ وفرَّقتْ ... نوى الحيّ دارٌ بالحبيب فَجُوعُ
وليس لما ولّى على ذي صَبَابة ... وإن طال تَذرافُ الدموع رجوعُ
فدعْ ذا ولكن هلْ أتى أمّ مالكٍ ... أحاديثُ قومي والحديث يشيعُ!
ومُجنبُنا جُرْداً إلى أهل يثربٍ ... عَناجيجَ فيها ضامرٌ وبديع
عشيّة سِرْنا من كَدَاء يقودُها ... ضَرورُ الأعادي للصديق نَفوع
يشدّ علينا كلّ زحف كأنّها ... غَدِيرٌ نضوح الجانبين نقيعُ
فلمّا رأونا خالطتْهم مهابةٌ ... وخامرهم رعبٌ هناك فظيعُ
فودّوا لو أنّ الأرض ينشقّ ظهرُها ... بهم، وصَبورُ القوم ثَمّ جَزُوع
وقد عرّيتْ بيضٌ كأنّ وميضَها ... حريقٌ وشيكٌ في الأباء سريع
بأيماننا نعلُو بها كلّ هامةٍ ... وفيها سمام للعدوّ ذريعُ
فغادرن قتلَى الأوس عاصبة بهمْ ... ضباعٌ وطير فوقهنّ وقوعُ
ومرّ بنو النّجّار في كلّ تلْعةٍ ... بأثوابهم من وقعهنّ نجيعُ
ولولا علوّ الشّعب غادَرْن أحمداً ... ولكن علا والسّهريّ شرُوع
كما غادَرت في الكَرّ حمزة ثاوياً ... وفي صدرِه ماضي الشَّبَاةِ وقيعُ

وقال ابن الزّبعرَى أيضاً من قصيدة مشهورة، وهي:

يا غرابَ البين أسمعتَ فَقُلْ ... إنما تندبُ أمراً قد فعِلْ
إنّ للخير وللشرّ مدًى ... وسواء قبر مثرٍ ومُقِلّ
كلّ خير ونعيم زائلٌ ... وبنات الدّهر يلعبن بكلّ
أبلغا حسّانَ عنّي آيةً ... فقريض الشعر يشفِي ذا الغُللْ
كم ترى بالجَسْر من جُمْجمة ... وأكُفًّا قد أتِرَّت ورِجلْ
وسرابيلَ حسانٍ شُقّقَتْ ... عَنْ كُمَاةٍ غُودِرُوا في المنتزلَ
كَمْ قتلْنا منْ كَريم سيّد ... ماجد الجدّين مقدام بَطَلْ
صادق النَّجدةِ قَرْمٍ بارعٍ ... غير ملْطَاطٍ لدى وقع الأسَلْ
فسلِ المِهْراسَ مَنْ ساكنُه؟ ... من كراديس وهامٍ كالحجَلْ
ليت أشياخي ببدرٍ شهدُوا ... جَزَع الخزرج منْ وقع الأسَلْ
حين حطّت بِقُباءٍ بَرْكَها ... واستحرّ القتل في عبد الأشَلْ
ثم خفّوا عند ذاكُمْ رُقّصاً ... رَقَصَ الحَفّانِ تَعْدُو في الجَبْل
فقَتلْنَا النّصف من سَادَاتِهِمْ ... وَعَدَلْنَا ميْل بدرٍ فاعْتدلْ
لا ألوم النَّفْس إلاّ أننا ... لَو كَرَرْنَا لَفَعَلْنا المفْتَعَلْ
بسيوفِ الهند تَعْلُو هامَهُمْ ... تبرد الغَيْظَ ويَشْفِينَ الغُللْ

قلت: كثيرٌ من النّاس يعتقدون أن هذا البيت ليزيد بن معاوية، وهو وقوله: «ليت أشياخي»، وقال مَنْ أكره التصريح باسمه: هذا البيت ليزيد، فقلت له: إنما قاله يزيدُ متمثّلاً لمّا حُمِل إليه رأس الحسين عليه السلام، وهو لابن الزّبعرَى، فلم تسكن نفسه إلى ذلك، حتى أوضحته له، فقلت ألا تراه يقول: «جزع الخزرج من وقع الأسل»[1]، والحسين عليه السلام لم تحارب عنه الخزرج، وكان يليق أن يقول: «جزع بني هاشم من وقع الأسَل»، فقال بعض من كان حاضراً: لعله قاله في يوم الحرّة! فقلت: المنقول أنه أنشدَه لما حمل إليه رأسُ الحسين عليه السلام، والمنقول أنه شعر ابن الزَّبعرَى، ولا يجوز أن يترك المنقول إلى ما ليس بمنقول.

وعلى ذكر هذا الشعر فإنيّ حضرت وأنا غلام بالنِّظامية ببغداد في بيت عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بالمحبّ، خازن دار الكتب بها وعنده في البيت باتكين الروميّ الذي ولي إربل أخيراً وعنده أيضاً جعفر بن مكّي الحاجب، فجرى ذكر يوم أُحُد وشعرُ ابن الزبعرَى هذا وغيره، وأنّ المسلمين اعتصموا بالجبل، فأَصْعَدوا فيه، وإن الليل حال أيضاً بين المشركين وبينهم، فأنشد ابن مكي بيتين لأبي تمام متمثلاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه: ٦/ ٦٤، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور: ١/ ٣١٢.

لولاَ الظَّلام وقُلّةٌ عَلّقوا بها　　باتتْ رِقابهمُ بغيرِ قِلاَلِ
فليشكروا جُنحَ الظَّلام ودَرْوَذاً　　فهمُ لدَرْوَذَ والظلامُ مُوالِي

فقال باتكين: لا تقل هذا، ولكن قل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وكان باتكين مسلماً، وكان جعفر سامحه الله مغموصاً عليه في دينه.

تم الجزء الرابع عشر من شرح نهج البلاغة
لابن أبي الحديد ويليه الجزء الخامس عشر

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥١.

الفهرس

الجزء الرابع عشر

شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

١٥ - ١٦

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي

بغداد - شارع المتنبي

تلفون: (٤١٥٤٥٦١ - ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥)

الأميرة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

خليوي: ٠٣/٩٤٦١٦١١ - ٠٣/٨١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠٧٢٧٦٤-٨٠

http://www.Dar-ALamira.com

email:info@dar-alamira.com

مكتبة الجوادين العامة
مؤسسة ثقافية دينية لابن الحسين
الشهرستاني
تأسست سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م
مركز الكاظمية - العراق

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق

محمد إبراهيم

المجلد الثامن

١٥ - ١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي الحمد لله الواحد العدل

القول في أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه به في المعركة يوم الحرب

قال الواقدي: تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله عبدُ الله بن شهاب الزُّهريّ وابنُ قَمِيئة أحدُ بني الحارث بن فهر، وعُتْبة بن أبي وقّاص الزُّهريّ، وأُبَيّ بن خلَف الْجُمَحِيّ. فلمّا أتى خالدُ بن الوليد من وراء المسلمين، واختلطت الصّفوف، ووضع المشركون السيفَ في المسلمين، رمى عُتْبة بن أبي وقّاص رسولَ الله صلى الله عليه وآله بأربعة أحجار، فكسر رباعيتَه، وشجّه في وجهه حتى غاب حَلَق المِغْفر في وجنتيه، وأدمى شفتيْه.

قال الواقديّ: وقد رُويَ أن عتبة أشْظَى باطنَ رباعيتَه السّفلى. قال: والثَّبت عندنا أنّ الذي رمى وجنَتيْ رسول الله صلى الله عليه وآله ابنُ قَمِيئة، والذي رمى شفته وأصاب رَباعيَته عتبة بن أبي وقّاص. قال الواقديّ: أقبَل ابنُ قَمِيئة يومئذٍ وهو يقول: دُلّوني على محمد، فوالّذي يُحلَف به، لئن رأيتُه لأقتلنّه، فوصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فعَلاه بالسّيف، ورماه عتبة بن أبي وقّاص في الحال الّتي جَلّله ابنُ قَمِيئة فيها السيفَ، وكان عليه السلام فارساً، وهو لابسٌ دِرْعين مُثقَل بهما، فوقع رسول الله صلى الله عليه وآله عن الفَرَس في حُفرة كانت أمامه.

قال الواقديّ: أصيبَ ركبتاه، جُحِشتا لمّا وَقَع في تلك الحفرة، وكانت هناك حُفَر حفَرها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله واقفاً على بعضها وهو لا يَشعُر، فجُحِشت رُكبتاه، ولم يصنع سيفُ ابنُ قَميئة شيئاً إلاّ وَهز الضَّربة بثِقل السّيف، فقد وقع رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم انتَهض وطلحةُ يَحمِله من ورائه، وعليّ عليه السلام آخِذٌ بيديه حتى استوى قائماً.

قال الواقديّ: فحدّثني الضّحّاك بنُ عثمانَ عن حمزةَ بنِ سعيد، عن أبي بشر المازنيّ، قال: حضرتُ يومَ أُحُد وأنا غلام، فرأيت ابنَ قميئة عَلا رسول الله صلى الله عليه وآله بالسّيف، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وَقَع على ركبتيه في حفرةٍ أمامَه حتى توارى في الحفرة، فجعلت أصيح وأنا غلام حتى رأيتُ النّاس ثابُوا إليه. قال: فأنظُر إلى طلحة بن عُبيد الله آخِذاً بحضْنِه حتى قام.

قال الواقديّ: ويقال: إن الذي شَجَّ رسول الله صلى الله عليه وآله في جبهته ابنُ شِهاب، والّذي أشظَى رَباعيَتَه وأدمَى شفَتَيه عتبةُ بنُ أبي وَقّاص، والّذِي أدمَى وَجْنَتَيْه حتى غاب الحَلَق فيهما ابنُ

قميئة، وإنه سال الدمُ من الشّجّة التي في جَبهته حتى أخضلَ لحيتَه. وكان سالم مولى أبي حذيفة يَغسل الدمَ عن وجهه ورسولُ الله ﷺ، يقول: كيف يُفلح قومٌ فعلوا هذا بنبيِّهم، وهو يدعوهم إلى الله تعالى! فأنزَل الله تعالى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية[1].

قال الواقديّ: ورَوَى سعدُ بنُ أبي وَقّاص قال: قال رسولُ الله ﷺ يومئذٍ: اشتدّ غضب الله على قومٍ دَمّوْا فَا رسول الله ﷺ، اشتدّ غَضبُ الله علَى قوم دَمّوا وجهَ رسول الله، اشتدّ غضبُ الله علَى رجل قَتَلَه رسول الله ﷺ. قال سعد: فلقد شفاني من عتبةَ أخي دعاءُ رسول الله ﷺ، ولقد حَرَصتُ عَلَى قتلِهِ حِرْصاً ما حَرَصتُ على شيء قطّ، وإن كان ما علمتُ لعاقًّا بالوالد، سيِّىء الخُلُق، ولقد تخرّقتُ صفوفَ المشركين مرّتين أطلبُ أخي لأقتُلَه، ولكنّه راغَ منّي رَوَغانَ الثعلب، فلمّا كان الثالثة قال رسول الله ﷺ: يا عبد الله ما تريد؟ أتريد أن تقتُل نفسَك؟ فكففتُ. فقال رسول الله ﷺ: اللهمّ لا تَحولنّ الحَوْلَ عَلَى أحدٍ منهم. قال سعد: فوالله ما حالَ الحَوْلُ عَلَى أحدٍ ممّن رَماه أو جرحه. مات عتبةُ، وأما ابنُ قَمِيئة فاختُلِف فيه، : فقائل يقول: قتل في المعَرَكة وقائل يقول: إنه رمى بسَهْم في ذلك فأصاب مصعبَ بنَ عُمَير فقتله، فقال: خُذْها وأنا ابنُ قَمِيئة، فقال رسول الله ﷺ: أقماه الله[2]، فعَمَد إلى شاة يحتلِبها فتنطحه بقَرْنها وهو معتلِقها فقتلَتْه. فوُجِد ميّتاً بين الجبال لدعوةِ رسول الله ﷺ، وكان عدوّ الله رجع إلى أصحابه فأخبرَهم أنه قتَل محمداً. قال: وابن قميئة رجل من بني الأدْرَم من بني فِهرْ.

وزاد البلاذُرِيّ في الجماعة التي تعاهدتْ وتعاقدتْ عَلَى قتل رسول الله ﷺ يوم أُحد عبدَ الله بن حُمَيد بنِ زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ.

قال: وابن شهاب الَّذي شَجَّ رسول الله ﷺ في جَبْهته هو عبدُ الله بن شهاب الزُّهري، جدُّ الفقيه المحدّث محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، وكان ابنُ قَميئةَ أدْرَم ناقصَ الذَّقَن، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقديّ أيضاً.

قلتُ: سألت النقيبَ أبا جعفر عن اسمه فقال: عمرو، فقلتُ له: أهو عَمرو بن قُميئة الشاعر؟ قال: لا، هو غيرهُ. فقلت له: ما بالُ بني زُهرة في هذا اليوم فعلوا الأفاعيل برسول الله ﷺ وهم أخوالُه، ابنُ شهاب وعتبةُ بنُ أبي وقَّاص! فقال: يابنَ أخي، حرّكهم أبو سفيانَ وهاجَهُم على الشرّ لأنّهم رجعوا يومَ بدر من الطريق إلى مكّة فلم يَشهدُوها، فاعترض عِيرَهم ومنَعهم عنها، وأغرَى بها سفهاءَ أهلِ مكة، فعيَّروهم برُجوعهم، ونسبوهم إلى الجُبْن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.
(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (٤/ ٣٠).

وإلى الإذهان في أمرِ محمد صلى الله عليه وآله، واتفق أنّه كان فيهم مثل هذين الرجلين، فوقع منهما يومَ أحُد ما وقع.

قال البَلاذريّ: مات عتبة يوم أُحد من وجعٍ أليمٍ أصابه، فتعذَّب به، وأصيب ابنُ قميئة في المعركة، وقيلَ: نطحتْه عَنْز فمات.

قال: ولم يذكر الواقديّ ابنَ شهاب كيف مات، وأحسب ذلك بالوَهْم منه. قال: وحدّثني بعضُ قريش أنّ أفعى نهشتْ عبد الله بن شهاب في طريقه إلى مكة، فمات. قال: وسألتُ بعضَ بني زُهرة عن خبره، فأنكرَوا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله دعا عليه، أو يكون شجَّ رسول الله صلى الله عليه وآله. وقالوا: إن الذي شجّه في وجهه عبد الله بن حُمَيد الأسَديّ.

فأمّا عبدُ الله بنُ حُميد الفِهْريّ، فإنّ الواقديّ وإن لم يذكرْه في الجماعة الذين تَعاقَدوا عَلَى قتلِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله إلاّ أنّه قد ذَكَر كيفيّة قتلِه.

قال الواقديّ: ويُقبِل عبدُ الله بن حُميد بن زهير حين رأى رسول الله صلى الله عليه وآله على تلك الحال - يعني سقوطَه من ضربةِ ابن قميئة - يركض فرسه مقنَّعاً في الحديد يقول: أنا ابن زهير، دُلُّوني على محمد، فوالله لأقتلنّه أو لأموتَنّ دونه! فتعرّض له أبو دُجانَة فقال: هلمّ إلى مَن يَقِي نفسَ محمد صلى الله عليه وآله بنفسِه، فضرب فرسه فعرْقَبها، فاكتَسعتْ[1]، ثم علاه بالسّيف وهو يقول: خذها وأنا ابن خَرَشة، حتى قتلَه، ورسول الله صلى الله عليه وآله ينظُر إليه ويقول: اللهمّ ارضَ عن ابن خَرَشة كما أنا عنه راضٍ. هذه رواية الواقديّ، وبها قال البَلاذُريّ: إنّ عبد الله بن حُميد قتَلَه أبو دُجانة.

فأما محمد بنُ إسحاق فقال: إنّ الذي قَتَل عبدَ الله بنَ حُميد عليُّ بن أبي طالب عليه السلام. وبه قالت الشّيعة.

وروَى الواقديّ والبَلاذُريّ أن قوماً قالوا: إنّ عبدَ الله بنَ حُميد هذا قتِل يومَ بدر. فالأوّل الصحيح أنه قُتِل يومَ أُحُد. وقد رَوَى كثيرٌ من المحدِّثين أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام حين سَقَط ثم أُقيم: اكفِني هؤلاء - لجماعَة قصدتْ نحوَه - فحَمَل عليهم فهزَمَهم، وقَتَل منهم عبد الله بن حميد من بني أسَد بن عبد العُزّى، ثم حملتْ عليه طائفةٌ أخرى، فقال له: اكفِني هؤلاءِ، فحَمَل عليهم فانهَزَموا من بين يديه، وقتَل منهم أميّة بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

قال: فأمّا أبيّ بن خلف فروَى الواقديّ أنه أقبَل يركُض فرسَه، حتى إذا دنا من

---

(١) اكتسعت: سقطت من ناحية مؤخرها ورمت به. اللسان، مادة (كسع).

رسول الله ﷺ، اعترضَ له ناس من أصحابه ليَقْتلوه، فقال لهم: استأخروا عنه. ثم قام إليه وحرْبَتُه في يده، فرماها بها بين سابغَة البَيْضة والدِّرْع، فطعنه هناك، فوقَع عن فرسه، فانكسر ضِلع من أضلاعه، واحتمله قومٌ من المشركين ثقيلاً حتّى ولّوْا قافِلين، فمات في الطّريق، وقال: وفيه أنزلَتْ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[١]، قال: يعني قَذفه إيّاه بالْحَرْبَة.

قال الواقديّ: وحدّثني يونسُ بنُ محمّد الظَّفريّ، عن عاصم بن عمر، عن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: كان أُبيُّ بن خَلَفٍ قدم في فداءِ ابنِه، وكان أُسِر يومَ بَدْر، فقال: يا محمّد، إن عندي فرساً لي أعلِفها فَرَقاً من ذرَة كلّ يوم لأقتلك عليها. فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلكَ عليها إن شاء الله تعالى»[٢].

ويقال: إنّ أُبيًّا إنّما قال ذلك بمكّة، فَبلَغ رسول الله ﷺ بالمدينة كلمتُه فقال: بل أنا أقتلُهُ عليها إن شاء الله. قال: وكان رسول الله ﷺ في القتال لا يَلتفِت وراءَه، فكان يومَ أُحُد يقول لأصحابه: إنّي أخشَى أن يأتيَ أُبيُّ بن خلف من خَلْفي، فإذا رأيتموه فآذِنوني، وإذا بأُبيّ يَركُضُ على فرسه، وقد رأى رسول الله ﷺ فعَرَفه، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا محمد لانجوتُ إنْ نَجَوْتَ! فقال القوم: يا رسول الله ما كنتَ صانعاً حين يغشاك أُبيّ؟ فاصنع، فقد جاءك، وإن شئت عطف عليه بعضنا، فأَبى رسول الله ﷺ، ودَنا أُبيّ، فتناول رسول الله ﷺ الحَرْبة من الحارث بن الصِّمَّة، ثم انتَفَض كما ينتفض البعير. قال: فتطايَرْنا عنه تطايُر الشَّعارِير، ولم يكن أحدٌ يُشبِهُ رسول الله ﷺ إذا جدّ الجدّ، ثم طعنه بالحرْبة في عنقِه وهو على فرسه لم يَسقط، إلا أنه خارَ كما يخور الثَّوْر، فقال له أصحابه: أبا عامر، والله ما بك بأسٌ، ولو كان هذا الذي بك بعينِ أحدِنا ما ضَرّه. قال: واللّات والعُزّى، لو كان الّذي بي بأهل ذي المجاز لماتُوا كلُّهم أجمعون، أليس قال: لأقتلنّه! فاحتملوه، وشَغَلهم ذلك عن طلب رسول الله ﷺ حتى التَحق بعظم أصحابه في الشِّعب[٣].

قال الواقديّ: ويقال: إنّه تناول الحربةَ من الزُّبير بن العوّام. قال: ويقال إنّه لما تناول الحربة من الزُّبير حمل أُبيٌّ على رسول الله ﷺ ليضربه بالسيف، فاستقبله مصعبُ بنُ عُمَير حائلاً بنفسه بينهما، وإنّ مصعباً ضَرَب بالسيف أُبيًّا في وجهه، وأبصر رسول الله ﷺ فرجةً من بين سابغة البَيْضة والدّرْع، فطعنه هناك، فوقع وهو يخُور.

قال الواقديّ: وكان عبدُ الله بنُ عمرَ يقول: مات أُبيُّ بنُ خَلَف ببطن رابغ منصَرفهم إلى

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٤٦).
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٢١).

مكّة. قال: فإنّي لأسيرُ ببَطْن رابغ بعد ذلك، وقد مضى هُوِيٌّ من اللّيل إذا نارٌ تأجَّجُ، فهِبْتُها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبُها يصيح: العَطَش، وإذا رجل يقول: لا تَسقِه، فإن هذا قتيلُ رسول الله ﷺ، هذا أبيُّ بنُ خَلَف، فقلتُ: ألا سُحْقاً! ويقال: إنه مات بسرِف.

القول في الملائكة هل نزلت بأُحد وقاتلت أم لا؟

قال الواقدي: حدثني الزُّبيرُ بنُ سعيد، عن عبدِ الله بن الفَضْل، قال: أعطى رسول الله ﷺ مصعبَ بنَ عمير اللواء فقتل، فأخذَه ملَك في صورة مُصعبٍ فَجَعل رسول الله ﷺ يقول له في آخر النهار: تقدّم يا مصعب[1]، فالتَفَت إليه الملَك، فقال: لستُ بمصعبٍ، فعرف رسول الله ﷺ أنّه ملَك أُيّد به.

قال الواقديّ: سمعتُ أبا معشر يقول مِثلَ ذلك.

قال: وحدثتني عبيدةُ بنتُ نائل، عن عائشةُ بنت سعد بن أبي وقّاص، عنه، قال: لقد رأيتُني أرمَى بالسّهم يومئذٍ، فيردّه عني رجلٌ أبيضُ حسن الوجه لا أعرفه، حتى كان بعد، فظننتُ أنه ملَك.

قال الواقديّ: وحدّثني إبراهيم بنُ سَعْد، عن أبيه، عن جدّه سعدِ بن أبي وقاص، قال: رايتُ ذلك اليومَ رَجُلين عليهما ثيابٌ بيض، أحدُهما عن يمين رسول الله ﷺ، والآخَر عن شماله يقاتلان أشدَّ القتال، ما رأيتُهما قبلُ ولا بعدُ. قال: وحدّثني عبدُ الملك بنُ سليمانَ، عن قَطَر بن وَهْب، عن عُبيد بن عُميْر، قالَ: لمّا رجعتْ قريشٌ من أُحد جعلوا يتحدّثون في أندِيتهم بما ظَفِروا، يقولون: لم نَرَ الخيلَ البُلْق ولا الرِّجال البِيض الّذين كنّا نراهم يومَ بدر.

قال: وقَال عُبيدُ بنُ عمير: لم تقاتل الملائكةُ يومَ أُحُد.

قال الواقديّ: وحدثني ابن أبي سَبْرة، عن عبد المجيد بن سُهَيل، عن عُمَر بن الحكم، قال: لم يُمَدّ رسول الله ﷺ يومَ أُحد بملَك واحد، وإنما كانوا يومَ بدر. قال: ومثله عن عِكْرمة.

قال: وقال مجاهد: حضرَت الملائكة يوم أُحد ولم تقاتل، وإنما قاتلتْ يوم بدر.

قال: وروي عن أبي هُريرة أنه قال: وعَدَهم الله أن يُمدّهم لو صَبَروا، فلما انكشفوا لم تُقاتِل الملائكة يوَمئذٍ.

---

(١) أخرجه الصالحي الشامي في سبل الهدى (٤/ ٢٠٨).

القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

قال الواقديّ: كان وَحْشيّ عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، ويقال: كان لجُبَير بن مُطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف، فقالت له ابنة الحارث: إنّ أبي قتل يومَ بدر، فإن أنتَ قتلتَ أحد الثلاثة فأنتَ حرّ: محمَّد، وعليّ بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، فإني لا أرى في القوم كُفْؤاً لأبي غيرهم. فقال وحشيّ: أمّا محمّد فقد علمت أنّي لا أقدر عليه، وإنّ أصحابه لن يُسلِموه، وأما حمزة فوالله لو وجدتُه نائماً ما أيقظْته من هَيْبته، وأمّا عليّ فألتمسه. قال وَحْشيّ: فكنتُ يومَ أُحُد ألتمِسه، فبينا أنا في طلبه طلع عليّ، فطلع رجلٌ حَذِرٌ مَرِس كثيرُ الالتفاتِ، فقلتُ: ما هذا بصاحبي الّذي ألتمس، إذْ رأيت حمزة يَفْرِي الناسَ فَرْياً، فكَمِنتُ له إلى صَخْرة وهو مكبّس له كتيت، فاعترَض له سباع بنُ أمّ نِيَار، وكانت أمّه خَتّانة بمكّة، مولاة لشريفِ بن علاج بن عَمْرو بن وَهْب الثَّقَفيّ، وكان سِباع يُكنَى أبا نِيار، فقال له حَمْزة: وأنت أيضاً يابنَ مقطِّعة البُظُور ممّن يكثُر علينا! هلُم إليّ، فاحتَمَله، حتى إذا برقتْ قَدَماه رمَى به فبرَك عليه، فشَحَطه شحط الشّاة، ثم أقبَل عليّ مكبًّا حين رآني، فلمّا بلغ المسيل، وَطِيءَ على جُرُفٍ فزلّت قدمُه، فهززتُ حربتي حتى رضيتُ منها، فأضرب بها في خاصرته حتى خرجتْ من مثّانته، وكرّ عليه طائفةٌ من أصحابه فأسمَعُهم يقولون: أبا عمارة، فلا يجيب فقلتُ: قد والله ماتَ الرجل، وذكرتُ هِنداً وما لقيتْ على أبيها وعمِّها وأخيها، وانكَشَف عنه أصحابُه حين أيقَنوا بموته، ولا يَرَوْني، فأكُرّ عليه فشققتُ بطنَه، فاستخرجتُ كبدَه، فجئتُ بها إلى هند بنتِ عُتْبة، فقلتُ: ماذا لي إنْ قتلتُ قاتلَ أبيك؟ قالت: سَلْني، فقلتُ: هذه كبدُ حمزةَ، فمضغَتْها ثم لفظتْها، فلا أدري: لم تُسِغها أو قذرتْها، فنزعتْ ثيابَها وحليَّها فأعطتنيه، ثم قالت: إذا جئتَ مكّة فلك عشرةُ دنانير، ثم قالت: أرني مَصرَعه، فأرَيْتها مصرعه، فقطَعتْ مَذاكيره، وجدَعَتْ أنفَه، وقطعت أُذُنيه، ثم جعلت ذلك مَسَكَتين ومِعْضَدَين وخَدَمَتَيْن، حتى قدِمتْ بذلك مكة وقدِمتْ بكبدِه أيضاً معها[1].

قال الواقديّ: وحدَّثني عبدُ الله بنُ جعفر، عن ابن أبي عَوْن، عن الزّهريّ، عن عُبيد الله بن عديّ بن الخيار، قال: غزوْنا الشامَ في زمن عثمانَ بنِ عفّانَ، فمررْنا بحِمْصَ بعد العصر، فقلنا: وحشيّ، فقيل: لا تَقدِرون عليه، هو الآن يَشرب الخمر حتى يُصبح، فبتْنا من أجله، وإنّنا لثمانون رجلاً، فلمّا صلّينا الصبحَ جئنا إلى منزله، فإذا شيخٌ كبير قد طرحتْ له زربية قدر مجلسه، فقلنا له: أخبرنا عن قتل حمزة وعن قتل مُسيلِمة، فكره ذلك، وأعرض عنه، فقلنا: مابتْنا هذه الليلة إلاّ من أجلك. فقال: إنّي كنت عبداً لجُبَير بن مُطعِم بن عديّ، فلمّا خرج

---

(١) أخرجه اليوسفي في موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢/ ٣١٥.

الناسُ إلى أحُد دعاني فقال: قد رأيتَ مقتلَ طُعَيمة بنَ عَدِي، قتَله حمزةُ بنُ عبد المطّلب يومَ بدر، فلم تزل نساؤنا في حُزْن شديدٍ إلى يَومي هذا، فإن قتلتَ حمزةَ فأنتَ حرّ، فخرجتُ مع الناس ولي مَزاريق كنت أمرّ بهند بنتِ عتبة فتقول: إيه أبا دُسْمة! اشفِ واشتَف. فلمّا وردْنا أُحداً نظرتُ إلى حمزةَ يقدُم الناسَ يهدّهم هدًّا، فرآني وقد كمنتُ له تحت شجرة، فأقبَل نحوي، وتعرَّض له سباع الخُزاعيّ، فأقبَل إليه وقال: وأنتَ أيضاً يابنَ مقطّعة البظُور ممّن يكثر علينا! هَلُمّ إليّ، وأقبَل نحوه حتّى رأيتُ برقانَ رجليه، ثم ضَرَب به الأرضَ وقتَلَه، وأقبل نحوِي سريعاً، فيعترض له جرفٌ فيقع فيه، وأزرُقه بمزراق[1] فيقع في لبَّته حتى خرج من بين رجليه. فقتَلَه، ومررتُ بهند بنت عُتْبة فآذنتُها، فأعطتْني ثيابَها وحليَّها، وكان في ساقَيْها خدَمتان من جَزْع ظَفارِ ومَسَكتان من ورق، وخواتيم من ورق كنَّ في أصابع رجليها، فأعطَتْني بكلّ ذلك، وأما مُسيلمة فإنّا دخلْنا حديقة الموت يومَ اليمامة فلّما رأيتُه زرقته بالمزراق، وضرَبَه رجل من الأنصار بالسّيف، فربُّك أعلم أيُّنا قتَلَه! إلاّ أنّي سمعتُ امرأةً تصيحُ فوق جِدار: قتَلَه العبدُ الحَبشيّ. قال عبيد الله: فقلتُ: أتعرفُني؟ فأكَرَّ بصرَه عليّ وقال: ابن عديّ لعاتكة بنتِ العيص؟ قلتُ: نعم، قال: أما والله ما لي بك عَهدٌ بعد أن دفعتُك إلى أمّك في مَحفَّتِك التي كانت ترضعك فيها، ونظرت إلى برَقانِ قدميك حتّى كأنّه الآن.

وروى محمدُ بن إسحاقَ في كتاب المغَازي، قال: علتْ هِند يومئذٍ صخرة مشرِفة، وصرختْ بأعلى صوتها:

نحنُ جزَيناكُمْ بيومِ بَدْرِ ... والحربُ بعد الحرب ذات سُعْرِ
ما كان عن عتبةَ لي من صبرِ ... ولا أخـي وعمّه وبِكْرِي
شفَيتُ نفسي وقضيتُ نَذْري ... شفَيتَ وحشيُّ غليلَ صدرِي
فشكرُ وَحْشيّ عليَّ عمرِي ... حتّى تَرِمّ أعظُمي في قَبرِي

قال: فأجابتْها هند بنت أثاثة بن المطّلب بنِ عبد مناف:

خزيتِ في بدرٍ وغيرِ بدرِ ... يا بنتَ غَدّارٍ عظيمِ الكُفرِ
أفحمكِ الله غَداة الفَجرِ ... بالهاشميّين الطوالِ الزُّهْرِ
بكلّ قطّاعٍ حُسامٍ يَفرِي ... حمزةُ لَيْثِي وعليٌّ صَقرِي
إذ رامَ شيبٌ وأبوك قَهرِي ... فخضّبا منه ضواحي النَّحرِ

قال محمد بن إسحاق: ومن الشّعر الّذي ارتجزتْ به هند بنت عُتْبة يومَ أحُد:

شفَيتُ من حمزةَ نفسِي بأُحُدْ ... حين بقَرتُ بطنَه عن الكبِدْ

(١) المزراق: رمح قصير. القاموس المحيط، مادة (زرق).

أذهبَ عنّي ذاكَ ما كنتُ أجِدْ　　من لوعةِ الحزنِ الشديدِ المعتَمِدْ
والحرب تَعلوكمْ بشؤبوبٍ[١] بَرِدْ　　نُقْدِم إقداماً عليكمْ كالأُسُد

قال محمد بن إسحاق: حدَّثني صالح بنُ كيسانَ، قال: حُدِّثتُ أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب قال لحسَّان: يا أبا الفُرَيْعة، لو سمعتَ ما تقول هندٌ! ولو رأيتَ شرّها قائمةً على صخرة ترتجز بنا، وتَذكُر ما صنعت بحمزة! فقال حسَّان: والله إني لأنظر إلى الحَرْبة تَهوِي وأنا على فارع - يعني أطمة - فقلت: والله إن هذه لَسِلاح ليس بسلاح العرب، وإذا بها تَهوِي إلى حمزةَ ولا أدري، ولكن أسمعني بعض قولها أكفيكموها، فأنشَده عمر بعضَ ما قالت، فقال حسَّان يهجوها:

أشِرَتْ لَكَاعِ وكان عادتُها　　لؤماً إذا أشِرَتْ مع الكُفْرِ
أخرجت مرقصةً إلى أحُدٍ　　في القوم مُقْتبةً على بَكْرِ
بَكْرٍ ثَفَالٍ لا حَراك به　　لا عن معاتَبةٍ ولا زجرِ
أخرجت ثائرةً محاربةً　　بأبيك وابنك بعدُ في بدرِ
وبعمّك المتروكِ منجدِلاً　　وأخيك منعفرَيْن في الجَفْرِ[٢]
فرجعتِ صاغرةً بلا تِرَةٍ　　منّا ظفرتِ بها ولا وَتْرِ

وقال أيضاً يهجوها:

لمن سَواقطُ ولْدانٍ مطرَّحَةٌ　　باتت تفحَّص في بطحاء أجيادِ
باتت تمخّض لم تَشْهد قوابلها　　إلّا الوحوش وإلّا جنَّة الوادي
يظلّ يرجُمه الصبيانُ منعفِراً　　وخالُه وأبوه سيِّدا النادي

في أبيات كرهتُ ذكرَها لفُحْشها.

قال: وروى الواقديّ، عن صفيّة بنتِ عبد المطّلب، قالت: كنّا قد رفَعنا يومَ أُحد في الآطام، ومعنا حسَّان بنُ ثابت، وكان من أجبن الناس، ونحن في فارع، فجاء نفر من يهودَ يرومون الأُطم، فقلت: دُونَك يابن الفُرَيْعة، فقال: لا والله لا أستطيع القتال، ويصعَد يهوديّ إلى الأُطمِ، فقلتُ: شدّ على يدي السيف، ثم برئت، ففعل، فضربتُ عنق اليهودي ورميتُ برأسه إليهم، فلما رأوْه انكشفوا، قالت: وإنّي لفي فارع أوَّل النهار مشرِفة على الأُطم، فرأيتُ المزراق، فقلتُ أو من سلاحهم المَزاريق! أفلا أراه هوى إلى أخي ولا أشعر! ثم خرجت آخر

---

(١) الشؤبوب: الدفعة من المضر وغيره. اللسان، مادة (شأب).
(٢) منعفرين: ممرَّغين في التراب. القاموس المحيط، مادة (عفر).

النهار حتى جئتُ رسول الله ﷺ، وقد كنت أعرف انكشافَ المسلمين وأنا على الأطُم برجوع حسَّان إلى أقصى الأطُم، فلمَّا رأى الدولة للمسلمين أقبَل حتى وقف على جدار الأطُم. قال: فلما انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ ومعي نسوةٌ من الأنصار لقيتُه وأصحابه أوزاع، فأوّل من لقيتُ عليّ ابن أخي فقال: ارجعي يا عمَّة، فإنَّ في الناس تكشُّفاً، فقلت: رسول الله ﷺ؟ قال صالح، قلت: ادلُلني عليه حتى أراه، فأشار إليه إشارةً خفيَّة، فانتهيتُ إليه وبه الجراحة.

قال الواقديّ: وكان رسول الله ﷺ يقول يومَ أُحُد: «ما فعل عمِّي، ما فعل عمِّي!» فخرج الحارث بن الصِّمَّة يطلبه فأبطأ، فخرج عليٌّ عليه السلام يَطلبُه فيقول:

يا ربِّ إنَّ الحارثَ بنَ الصِّمَّهْ ... كان رفيقاً وبنا ذا ذِمَّهْ
قد ضلَّ في مهامهٍ مُهِمَّهْ ... يلتمسُ الجنَّةَ فيها ثَمَّهْ

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولاً، فجاء فأخبرَ النبيَّ ﷺ، فأقبل يمشي حتّى وقف عليه فقال: ما وقفتُ موقفاً قطّ أغيَظ إليّ من هذا الموقف. فطلعتْ صفيّة، فقال: يا زُبير، اغن عنّي أمّك، وحمزة يُحفَر له، فقال الزبير يا أُمّه، إنّ في الناس تكشفاً، فارجِعي، فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أَرَى رسول الله ﷺ، فلمّا رأته قالت: يا رسولَ الله، أين ابنُ أمي حمزة؟ فقال: هو في الناس؛ قالت: لا أرجع حتى أنظر إليه، قال الزبير: فجعلت أطِدُها إلى الأرض حتى دُفن وقال رسول الله ﷺ: لولا أنْ تحزنَ نساؤنا لذلك لتركناه للعافية، يعني السِّباعَ والطيْرَ حتى يحشرَ يوم القيامة من بطونِها وحَواصِلِها.

قال الواقديّ: ورُوِي أن صفيّة لمّا جاءت حالت الأنصارُ بينها وبين رسول الله ﷺ، فقال: دَعُوها، فجلستْ عنده، فجعلتْ إذا بكت يبكي رسول الله ﷺ، وإذا نَشَجت ينشج رسول الله ﷺ، وجعلتْ فاطمةُ عليها السلام تبكي، فلمّا بكتْ بكى رسول الله ﷺ ثم قال: لن أُصابَ بمثل حمزة أبداً، ثم قال ﷺ لصفيّة وفاطمة: أبشِرَا، أتاني جبرائيلُ عليه السلام فأخبرَني أنّ حمزة مكتوبٌ في أهل السّماوات السَّبْع: حمزةُ بنُ عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله.

قال الواقديّ: ورأى رسول الله ﷺ بحمزةَ مَثْلاً شديداً، فحزنه ذلك وقال: إن ظفرت بقريش لأمثلنّ بثلاثين منهم، فأنزل الله عليه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾[1] فقال ﷺ: «بل نصبر، فلم يمثّل بأحد من قريش».

قال الواقديّ: وقام أبو قَتادةَ الأنصاريُّ فجعل ينال من قريش لما رأى من غَمّ رسول الله ﷺ، وفي كلٍّ ذلك يشير إليه أن اجلس ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا قَتادة، إنّ قريشاً أهلُ أمانة، من بغَاهم العواثِر كبَّه الله لفِيه، وعسى إن طالت بك مدّة أن تحقِر عملك

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

مع أعمالهم، وفعالَك مع فعالهم، لولا أن تبطَر قريشٌ لأخبرتُها بما لها عند الله تعالى. فقال أبو قتادة: والله يا رسول الله ما غضبتُ إلا لله ورسولِه حين نالوا منه ما نالوا، فقال: صدقتَ. بئس القومُ كانوا لنبيِّهم.

قال الواقديّ: وكان عبدُ الله بن جحش قبل أن تقع الحربُ قال: يا رسول الله، إن هؤلاء القومَ قد نزلوا بحيث ترى، فقد سألت الله فقلت: اللهمّ أقسِم عليك أن نَلقى العدوَّ غداً فيقتلوني ويبقَروا بطني ويمثّلوا بي، فتقول لي: فيمَ صُنِع بك هذا؟ فأقول: فيك. قال: وأنا أسألك يا رسولَ الله أخرى، أن تَلِي تَركتي من بعدي. فقال له: نعم، فخرج عبدُ الله فقُتِل ومُثِّل به كل المثْل، ودُفِن هو وحمزةُ في قبرٍ واحد، ووَلِي تركتَه رسول الله ﷺ، فاشترى لأمِّه مالاً بخيْبر.

قال الواقديّ: وأقبلتْ أختُه حَمْنة بنتُ جَحْش، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا حَمْن، احتسبي»، قالت: مَن يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة»، قالت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ غفر الله له ورَحمه، وهنيئاً له الشهادة، ثم قال لها: «احتَسبي». قالت: مَن يا رسولَ الله، قال: «أخوكِ عبد الله»، قالت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1] غفر الله له ورحمه وهنيئاً له الشهادة، ثم قال: «احتسبي»، قالت: مَن يا رسول؟ قال: «بَعلك مُصعب بن عُمير»، فقالت: واحُزناه! ويقال: إنها قالت: واعُقْراه.

قال محمد بن إسحاق في كتابه: فصرخَتْ وولْوَلَتْ. قال الواقديَ: فقال رسول الله ﷺ: «إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد». وهكذا روَى ابن إسحاق أيضاً.

قال الواقديّ: ثم قال لها رسول الله ﷺ: «لم قلت هذا؟» قالت: ذكرتُ يتم بنيه فراعني. فدعا رسول الله ﷺ لولده أن يُحسِن الله عليهم الخلف، فتزوَّجتْ طلحة بن عبيد الله، فولدتْ منه محمد بن طلحة، فكان أوصَل الناس لولد مُصعب بن عُمير.

القول فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحد

قال الواقديّ: حدثني موسى بن يعقوب، عن عمّته، عن أمّها، عن المِقداد، قال: لما تصافّ القوم للقتال يومَ أحد، جلس رسول الله ﷺ تحت راية مُصعب بن عمير، فلما قُتل أصحابُ اللواء وهُزم المشركون الهزيمة الأولى، وأغارَ المسلمون على معسكَرهم ينهَبونه، ثم كَرّ المشركون على المسلمين، فأتَوهم من خلفهم، فتفرّق الناس، ونادى رسول الله ﷺ في أصحاب الألوِية، فقُتل مُصعبُ بن عُمَير حاملُ لوائِه ﷺ، وأخذَ راية الخزرج سَعدُ بنُ عُبادة، فقام رسول الله ﷺ تحتها، وأصحابه محدِقون به، ودفع لواءَ المهاجرين إلى أبي الرّدم أحد بني

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

عبد الدّار آخرَ نهار ذلك اليوم، ونظرتُ إلى لواء الأوْس مع أسيْد بن حُضَير، فناوَشوا المشركين ساعة، واقتتَلوا على اختلاط من الصُفوف، ونادى المشركون بشعارهم: يا لَلعُزّى! يا لَهُبَل! فأوجعوا والله فينا قتلاً ذَريعاً، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا، لا والذي بَعثه بالحقّ ما زال شِبراً واحداً، إنه لفي وجه العدوّ وتثُوب إليه طائفةٌ من أصحابه مرّة، وتتفرّق عنه مرّة، فربما رأيته قائماً يَرمي عن قوسِه أو يرمي بالحجر حتى تحاجزوا، وكانت العِصابة التي ثبتتْ مع رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، أما المهاجرون فعليٌّ عليه السلام وأبو بكر وعبد الرحمن بنُ عوف وسعدُ بن أبي وقّاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجرّاح والزّبير بن العوّام، وأما الأنصار فالحُباب بن المنذر وأبو دُجانة وعاصمُ بنُ ثابت بن أبي الأقلح والحارث بنُ الصِّمّة وسهل بن حُنيف وسعدُ بن معاذ وأُسَيْد بنُ حُضَير.

قال الواقديّ، وقد رُوِي أن سعد بن عبادة ومحمد بن مَسْلَمة ثبتا يومئذٍ ولم يفرًّا. ومن روى ذلك جَعلهما مكانَ سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَير.

قال الواقديّ: وبايَعه يومئذٍ على الموت ثمانية: ثلاثة من المهاجرين، وخمسة من الأنصار، فأمّا المهاجرون فعليٌّ عليه السلام، وطلحةُ، والزُّبير، وأما الأنصار فأبو دجانة والحارثُ بن الصمّة والحُباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحد، وأمّا باقي المسلمين ففرّوا ورسول الله ﷺ يدعوهم في أخراهم حتى انتهى منهم إلى قريب من المِهْرَاس.

قال الواقديّ: وحدّثني عتبة بنُ جبير عن يعقوبَ بن عُمير بن قَتادة قال: ثبت يومئذٍ بين يديه ثلاثون رجلاً كلهم يقول: وَجهي دون وجهك، ونفسي دونَ نفسك، وعليك السلام غير مودَّع.

قلت: قد اختلف في عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذٍ أم لا، مع اتفاق الرُّواة كافَّة على أن عثمانَ لم يثبت، فالواقديّ ذكر أنه لم يثبت، وأما محمد بن إسحاق والبلاذريّ فجعلاه مع من ثبت ولم يفرَّ، واتفقوا كلّهم على أن ضرارَ بن الخطاب الفهريّ قرَع رأسه بالرمح وقال: إنها نعمة مشكورة يا بن الخطّاب، إني آليت الا أقتل رجلاً من قريش.

وَرَوَى ذلك محمد بن إسحاق وغيرُه، ولم يختلفوا في ذلك، وإنما اختلفوا، هل قَرَعه بالرُّمح وهو فارٌّ هارب، أم مقدِم ثابت! والذين رَوَوْا أنه قَرَعه بالرمح وهو هارب لم يقل أحدٌ منهم إنّه هرَب حين هرب عثمانُ ولا إلى الجهة الّتي فرّ إليها عثمان، وإنّما هرب معتصِماً بالجبل، وهذا ليس بعيب ولا ذَنْب، لأنّ الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ اعتَصَموا بالجبل كلّهم وأصعدوا فيه، ولكن يبَقى الفرقُ بين من أصعَد في الجبل في آخر الأمر ومَنْ أصعَد فيه والحربُ لم تضعْ أوزارها، فإن كان عمرُ أصعد فيه آخر الأمر، فكلّ المسلمين هكذا صنعوا حتى رسول الله ﷺ، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد تفرّق.

ولم يختلف الرُّواة من أهل الحديث في أنّ أبا بكر لم يفرّ يومئذٍ، وأنّه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال، والثبوت جهاد، وفيه وحدَه كفاية.

وأمّا رُواة الشّيعة فإنهم يروون أنّه لم يثبت إلاّ عليّ وطلحة والزبير وأبو دُجانة وسهلُ بنُ حنيف وعاصمُ بنُ ثابت، ومنهم من رَوى أنّه ثبت معه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، ولا يعدّون أبا بكر وعمرَ منهم. رَوَى كثير من أصحاب الحديث أنّ عثمان جاء بعد ثالثة إلى رسول الله ﷺ فسأله إلى أين انتهيت؟ فقال: إلى الأعرَض، فقال: لقد ذهبتَ فيها عَريضة[١].

رَوَى الواقديّ قال: كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه، فقال: اذهب إلى أخيك فأبلِغه عني ما أقول لك، فإنّي لا أعلم أحداً يبلّغه غيرك. قال الوليد: أفعَل. قال: قل له: يقول لك عبد الرحمن: شهدتُ بدراً ولم تَشهدْها. وثبتُّ يومَ أُحُد وولّيتَ، وشهدتُ بيعةَ الرّضوان ولم تشهدْها، فلمّا أخبره قال عثمان: صدَق أخي، تخلّفتُ عن بدر على ابنةِ رسول الله ﷺ وهي مريضة، فضَرَب لي رسول الله ﷺ بسَهْمي وأجْري، فكنتُ بمنزلة من حضر بدراً، ووليت يومَ أحد، فعفا الله عني في مُحكَم كتابه. وأمّا بَيعة الرِّضوان فإنّي خرجتُ إلى أهل مكّة، بعثَني رسول الله ﷺ وقال: إنّ عثمان في طاعة الله وطاعة رسوله، وبايَعَ عنّي بإحدى يديه على الأخرى، فكان شِمال النبيّ خيراً من يَميني. فلمّا جاء الوليدُ إلى عبد الرحمن بما قال قال: صَدَق أخي.

قال الواقديّ: ونظر عمرُ إلى عثمان بن عفّان فقال: هذا ممّن عفا الله عنه، وهم الذين تولّوْا يومَ الْتقى الجَمْعان، والله ما عفا الله عن شيء فردّه. قال: وسأل رجل عبد الله بن عمر عن عثمانَ فقال: أذنَبَ يومَ أُحُدٍ ذنباً عظيماً، فعفا الله عنه، وأذنب فيكم ذنباً صغيراً فقتلتموه، واحتجّ مَن رَوَى أن عمَر فرّ يوم أحد بما روي أنّه جاءته في أيام خلافته امرأة تطلب بُرْداً من بُرود كانت بين يديه، وجاءت معها بنتٌ لعمر تطلب بُرْداً أيضاً، فأعطى المرأة وردّ ابنته، فقيل له في ذلك، فقال: إن أبا هذه ثبَتَ يومَ أُحُد، وأبا هذه فَرّ يومَ أُحُد ولم يَثبُت.

ورَوَى الواقديّ أن عمر كان يحدِّث فيقول: لمّا صاح الشيطان: قُتِل محمد، قلت: أرْقى في الجبل كأنّي أُرْوِيّة، وجعل بعضُهم هذا حجّةً في إثبات فرار عمر، وعندي أنه ليس بحجة، لأن تمام الخبر: فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ. وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[٢]، وأبو سُفيانَ في سفح الجبل في كَتيبته يَرُومون أن يعلُوا الجبل، فقال

(١) أخرجه الطبرسي في تفسير مجمع البيان: ٢/ ٤٢٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

رسول الله ﷺ: «اللهم إنه ليس لهم أن يَعْلونا». فانكشفوا، وهذا يدل عَلَى أن رُقيَّه في الجبل قد كان بعد إصعاد رسول الله ﷺ فيه، وهذا بأن يكون مَنقبةً له أشبه.

ورَوَى الواقديّ قال: حدثني ابنُ أبي سَبْرة، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جَهْم، اسمُ أبي جهم عُبَيد، قال: كان خالد بنُ الوليد يحدِّث وهو بالشام فيقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام، لقد رأيْتني ورأيتُ عمرَ بن الخطاب حين جال المسلمون وانهزَموا يومَ أُحُد وما معه أحَد، وإني لفي كَتيبةٍ خَشناءَ، فما عرفه منهم أحد غيري، وخشيتُ إن أغريت به من معي أن يَصمَدوا له، فنظرتُ إليه وهو متوجِّه إلى الشِّعب.

قلت: يجوز أن يكون هذا حقّاً، ولا خلاف أنه توجّه إلى الشِّعب تاركاً للحرب، لكن يجوز أن يكون ذلك في آخر الأمر لما يئس المسلمون من النُّصْرة، فكلهم توجه نحوَ الشِّعب حينئذ، وأيضاً فإن خالداً متَّهم في حقّ عمرَ بن الخطاب لما كان بينه وبينه من الشَّحْناء والشَّنآن، فليس بمنكَر من خالد أن يَنعى عليه حركاته، ويؤكِّد صحة هذا الخبر، وكون خالد عفَّ عن قتل عمر يومئذٍ، ما هو معلوم من حال النسب بينهما من قبَل الأمّ، فإن أمّ عمر حَنتمةُ بنتُ هاشم بن المغيرة، وخالد هو ابن الوَليد بن المغيرة، فأمّ عمر ابنة عم خالد لَحّاً، والرَّحِم تعطف.

حضرتُ عندَ محمد بن معدّ العلويّ الموسويّ الفقيه على رأي الشِّيعة الإماميّة رحمه الله في داره بدرب الدوابّ ببغدادَ في سنة ثمانٍ وستِّمائة، وقارىءٌ يقرأ عنده مَغازي الواقدي، فقرأ: حدثنا الواقديّ قال: حدثني ابنُ أبي سَبْرة، عن خالد بن رياح، عن أبي سُفْيان مولى ابن أبي أحْمد قال: سمعتُ محمدَ بن مَسلمة يقول: سمعتْ أُذُناي وأبصرتْ عيناي رسول الله ﷺ يقول يومَ أُحُد وقد انكشف الناس إلى الجبل، وهو يدعوهم وهم لا يَلْوُون عليه، سمعتُه يقول: إليَّ يا فلان، إليَّ يا فلان، أنا رسول الله، فما عرَّج عليه واحدٌ منهما ومضَيا، فأشار ابنُ معدّ إليَّ، أن اسمَعْ، فقلت: وما في هذا؟ قال: هذه كناية عنهما، فقلتُ: ويجوز ألا يكون عنهما، لعلّه عن غيرهما. قال: ليس في الصحابة من يحتشم ويُستحيَا من ذكره بالفرار وما شابَهه من العيب، فيضطر القائل إلى الكناية إلا هما قلتُ له: هذا وَهم، فقال: دَعْنا مِن جَدَلك ومنعِك، ثم حلف أنّه ما عنى الواقديُّ غيرَهما، وأنه لو كان غيرهما لذكَرَه صريحاً، وبان في وجهه التنكّر من مخالفَتي له.

رَوَى الواقديّ قال: لـمّا صاح إبليس: إن محمداً قد قُتِل، تفرّق الناس، فمنهم من ورد المدينة، فكان أول مَن وردها يُخبر أن محمداً قد قُتل، سعدُ بن عثمان أبو عُبادة، ثم ورد بعدَه رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن: أعَن رسولِ الله تفِرّون! ويقول لهم ابنُ

أمّ مكتوم: أعن رسول الله تفرون؟ يؤنّب بهم، وقد كان رسول الله ﷺ خَلفَه بالمدينة يصلّي بالناس، ثم قال: دُلّوني عَلَى الطريق - يعني طريقَ أُحُد - فدَلّوه، فجعل يستخبر كلَّ من لقيَ في الطريق حتى لَحِق القوم، فَعلِم بسلامةِ النبي ﷺ، ثم رجع. وكان ممن ولّى عمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة بن حاطب وسواد بن غزية وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر بلغ مَلَل، وأوس بن قَيْظي في نفر من بني حارثة بلغوا الشّقرة ولقيتهم أمّ أيْمَن تَحثِي في وجوههم التراب وتقول لبعضهم: هاك المِغزَل فاغزِل به، وهلّم. واحتجّ من قال بفِرار عمرَ بما رواه الواقديّ في كتاب المغازي في قصّة الحُديبية، قال: قال عمر يومئذٍ: يا رسول الله، ألم تكن حدّثتَنا أنك ستدخل المسجدَ الحرام وتأخذُ مفتاحَ الكعبة وتُعَرِّف مع المعرّفين، وهذْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نُحِرَ! فقال رسول الله ﷺ: أقلتُ لكم في سفركم هذا؟ قال عمر: لا، قال: أما إنكم ستدخلونه وآخذُ مفتاحَ الكعبة وأحلق رأسي ورؤوسكم ببطن مَكة وأعرِّف مع المعرّفين، ثم أقبَل على عمر وقال: أنسيتم يوم أُحُد، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾[1] وأنا أدعوكم في أخراكم! أنَسيتم يوم الأحزاب ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[2]! أنسيتم يومَ كذا! وجعل يذكُرهم أموراً، أنَسِيتم يوم كذا! فقال المسلمون: صدق الله وصَدَق رسولُه، أنتَ يا رسول الله أعلمُ بالله منّا، فلمّا دخل عام القضيّة وحلق رأسَه قال: هذا الذي كنتُ وعدتُكم به، فلما كان يوم الفَتْح وأخذ مفتاح الكَعْبة قال: ادعُوا إليّ عمرَ بنَ الخطّاب، فجاء فقال: هذا الذي كنتُ قلتُ لكم. قالوا: فلو لم يكن فرَّ يومَ أُحُد لما قال له: أنَسيتم يومَ أحد إذ تُصعِدون ولا تَلْوونَ.

القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم في الجبل

قال الواقدي: حدّثني موسى بنُ محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: لمّا صاح الشيطانُ لعنه الله: إن محمداً قد قتل يحزّنهم بذلك، تفرّقوا في كلّ وجه، وجعل الناسُ يمرّون على النبي ﷺ لا يَلوِي عليه أحدٌ منهم، ورسولُ الله يدعوهم في أخراهم، حتى انتهت هزيمةُ قوم منهم إلى المِهْراس، فتوجّه رسول الله ﷺ يريد أصحابَه في الشّعب فانتهى إلى الشّعب وأصحابه في الجبل أوْزاع، يذكرونَ مقتَل مَن قُتل منهم، ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فكنتُ أول من عَرَفه وعليه المِغفَر، فجعلت أصيحُ وأنا في الشّعب: هذا رسول الله ﷺ حَيٌّ، فجعل يُومِىء إليّ بيَدِه على فيه أي اسكُت، ثم دعا بلأمتي فلَبِسها ونزع لأمَتَه.

قال الواقدي: طلع رسول الله ﷺ على أصحابه في الشّعب بين السّعدَيْن: سَعدِ بنِ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣. (٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

عُبادة، وسعد بن مُعاذ يتكفَّأ في الدِّرع، وكان إذا مشى تكفأ تكفُّؤاً، ويقال: إنه كان يتوكّأ على طلحة بن عُبيد الله.

قال الواقديّ: وما صلى يومئذٍ الظهر إلا جالساً للجُرْح الذي كان أصابه.

قال الواقديّ: وقد كان طلحة قال له: إن بي قوة، فقم لأحمِلَك، فحمَله حتّى انتهَى إلى الصَّخرة التي عَلَى فم شِعب الجبَل، فلم يزل يَحمِله حتى رفَعَه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه النّفر الذين ثَبَتوا معه، فلمّا نظر المسلمون إليهم ظنّوهم قُرَيْشاً، فجعلوا يولُّون في الشّعب هاربين منهم، ثم جعل أبو دُجانة يُليح إليهم بعمامةٍ حمراءَ على رأسه، فعَرَفوه فرجعوا، أو بعضُهم.

قال الواقديّ: ورُوي أنه لما طلع عليهم في النّفر الذّين ثبتوا معه - وهم أربعة عشر، سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار - جعلوا يولون في الجبل خائفين منهم يظنّونهم المشركين، جعل رسول الله ﷺ يتبسّم إلى أبي بكر وهو على جنْبه ويقول له: ألِحْ إليهم، فجعل أبو بكر يليح إليهم وهم لا يُعرِّجون حتى نزع أبو دجانة عصابةً حمراء على رأسه فأوْفَى على الجبل، فجعل يصيح ويُليح، فوقفوا حتى عرفوهم، ولقد وَضع أبو بردة بن نِيَار سهماً على كَبِد قوسه، فأراد أن يرمي به رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما تكلّموا وناداهم رسول الله ﷺ أمسك، وفرح المسلمون برؤيته حتى كأنَّهم لم تُصبهم في أنفسهم مصيبة، وسُرُّوا لسلامته وسلامتِهِم من المشركين.

قال الواقديّ: ثم إنّ قوماً من قريش صعدوا الجبلَ فعَلَوا على المسلمين وهم في الشِّعب. قال: فكان رافعُ بن خديج يحدِّث فيقول: إني يومئذٍ إلى جنْب أبي مسعود الأنصاري وهو يذكر من قتل من قومه، ويسأل عنهم، فيخبر برجال منهم سعدُ بن الرّبيع، وخارجة بن زهير، وهو يسترجع ويترحّم عليهم، وبعض المسلمين يسأل بعضاً عن حميه وذي رحمه فيهم، يخبر بعضهم بعضاً، فبينا هم على ذلك ردَّ الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم، فإذا عدوّهم فوقهم قد علَوْا، وإذا كتائب المشركين بالجبل، فنسوا ما كانوا يذكرون، وندبنَا رسول الله ﷺ وحضَّنا على القتال، والله لكأني أنظرُ إلى فلان وفلان في عرض الجبل يَعْدوان هاربيْن.

قال الواقديّ: فكان عمرُ يحدِّث يقول: لمَّا صاح الشيطان: قتِل محمد، أقبلتُ أرقى إلى الجبل، فكأني أرْوِية، فانتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾(١)، وأبو سفيانَ في سَفْح الجبل، فقال رسول الله ﷺ يدعو ربَّه: «اللهم ليس لهم أن يَعلُوا». فانكَشَفوا.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

قال الواقديّ: فكان أبو أسَيْد الساعديّ يحدِّث فيقول: لقد رأيتُنا قبل أن يلقى النُّعاس علينا في الشِّعب وإنَّا لسلْم لمن أرادَنا، لِما بنا من الحُزن، فألقي علينا النُّعاس، فنمنا حتى تَناطح الحَجَف، ثم فزِعنا وكأنَّا لم يصبنا قبلَ ذلك نَكْبة. قال: وقال الزبير بنُ العوّام: غشينا النعاس فما منَّا رجل إلا وذَقنه في صدرِه من النوم، فأسمَع معتّب بن قُشَير - وكان من المنافقين - يقول: وإنّي لكالحالم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾(١)، فأنزل الله تعالى فيه ذلك.

قال: وقال أبو اليُسْر: لقد رأيتني ذلك اليومَ في رجال من قومي إلى جنب رسول الله ﷺ وقد أنزل الله علينا النّعاس أمَنةً منه، ما منهم رجل إلا يغطّ غَطِيطاً حتّى أن الحَجَف لتناطَح، ولقد رأيتُ سيفَ بشرِ بن البراء بن مَعْرور سَقَط من يده ما يشعر به حتى أخذه بعد ما تثلّم، وإنّ المشركين لتحتَنا، وسقَط سيفُ أبي طلحة أيضاً ولم يُصِب أهلَ الشكّ والنِّفاق نُعاسٌ يومئذٍ، وإنّما أصاب النّعاس أهلَ الإيمان واليقين، فكان المنافقون يتكلّم كلّ منهم بما في نفسه، والمؤمنون ناعسون(٢).

قلت: سألتُ ابن النجّار المحدِّث عن هذا الموضع فقلت له: تأمُّل مثل قصّة أُحد يُدَلّ على أنّ المسلمين كانت الدولة لهم بادىء الحال، ثم صارت عليهم، وصاح الشيطان: قُتل محمد، فانهزم أكثرهم، ثم ثاب أكثرُ المنهزِمين إلى النبيّ ﷺ، فحاربوا دونه حَرْباً كثيرة طالت مدَّتُها حتى صار آخرُ النهار ثم أصعدوا في الجبل معتصمين به، وأصعد رسول الله ﷺ معهم، فتحاجز الفريقان حينئذ، وهذا هو الّذي يدلّ عليه تأمُّل قصَّة أحد، إلاّ أنَّ بعض الروايات الّتي ذكرها الواقديّ يقتضي غير ذلك، نحو روايته في هذا الباب أنّ رسول الله ﷺ، لمّا صاح الشيطان: إنَّ محمداً قد قُتِل، كان ينادي المسلمين فلا يعرّجون عليه، وإنّما يُصعدون في الجبل، وإنّه وجّه نحو الجبل، فانتهى إليهم وهم أوزاع يتذاكرون بقتْل مَن قُتل منهم، وهذه الرواية تدلّ على أنّه أصعد ﷺ في الجبل من أوّل الحرب، حيث صاح الشيطان، وصياحُ الشيطان كان حال كون خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لمّا غشيهم وهم مشتغلون بالنهْب اختلط الناسُ، فكيف هذا!!.

فقال: إنَّ الشيطان صاح: قتل محمد دفعتين: دفعة في أوّل الحرب، ودفعة في آخر الحرب، لمَّا تصرّم النهار وغشِيت الكتائب رسول الله ﷺ وقد قُتل ناصروه وأكلتْهم الحرب، فلم يبق معه إلّا نفر يسير لا يبلغون عشرة، وهذه كانت أصعبُ وأشدُّ من الأولى، وفيها

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٢) أخرجه الصالحي الشامي في سبل الهدى: ٤/ ٢٠٥.

اعتصم، وما اعتصم في صرخة الشيطان الأولى بالجبل، بل ثبت وحامَى عنه أصحابه، ولقد لقي في الأولى مشقّة عظيمة من ابن قميئة وعُتْبة بن أبي وقّاص وغيرهما، ولكنّه لم يفارق عرصة الحرب، وإنما فارقها وعَلِم أنّه لم يبق له وجه مُقام في صرخته الثانية.

قلت له: فكان القومُ مختلطين في الصّرخة الثانية حتى يَصرُخ الشيطان: قُتِل محمد! قال: نعم، المشركون قد أحاطوا بالنبيّ صلى الله عليه وآله وبمن بقِيَ معه من أصحابه، فاختلط المسلمون بهم، وصاروا مغمورين بينهم، لقلّتهم بالنسبة إليهم، وظنّ قوم من المشركين أنّهم قد قَتلوا النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّهم فقدوا وجهه وصورتَه، فنادى الشيطان: قُتِل محمّد، ولم يكن قُتِل صلى الله عليه وآله، ولكن اشتبهتْ صورتُه عليهم وظنّوه غيرَه، وأكثر من حامَى عنه في تلك الحال عليٌّ عليه السلام وأبو دُجانة وسهلُ بنُ حنيفَ، وحامَى هو عن نفسه، وجرح قوماً بيده تارة بالسهام، وتارة بالسيف ولكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم وثوران النَّقْع، وكانت قريشٌ تظنّه واحداً من المسلمين، ولو عرفوه بعينه في تلك الثورة لكان الأمر صعباً جدّاً، ولكنّ الله تعالى عَصمه منهم بأن أزاغ أبصارَهم عنه، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه، وهو يقْرُب من الجبل حتّى صار في أعلى الجبل، أصعَد من فم الشّعب إلى تدريج هناك في الجبل، ورَقِي في ذلك التدريج صاعداً حتى صار في أعلى الجبل، وتبعه النفر الثلاثة فلَحِقوا به.

قلتُ له: فما بال القوم الّذين صعدوا الجبلَ من المشركين، وكيف كان إصعادهم وعَوْدُهم؟

قال: أصْعَدُوا لحرب المسلمين لا لِطَلب رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّهم ظنوا أنه قد قُتِل، وهذا هو كان السبب في عَوْدهم من الجبل، لأنهم قالوا: قد بلغْنا الغرضَ الأصليّ وقتلْنا محمداً، فما لنا والتصميم على الأوْس والخَزْرج وغيرهم من أصحابه، مع ما في ذلك من عظم الخطر بالأنفس!.

قلت له: فإذا كان هذا قد خَطَر لهم، فلماذا صعدوا في الجبل؟

قال: يخطر لك خاطر، ويدْعوك داعٍ إلى بعض الحركات، فإذا شرعتَ فيها خَطَر لك خاطرٌ آخر يصرفك عنها، فترجع ولا تتمها!.

قلت: نعم فما بالهم لم يَقصِدوا قصدَ المدينة ويَنهبوها؟

قال: كان فيها عبدُ الله بن أبيّ في ثلاثمائة مقاتل وفيها خَلْق كثير من الأوس والخَزْرج، لم يحضروا الحربَ وهم مسلمون، وطوائف أخرُ من المنافقين لم يخرجوا، وطوائف أخرى من اليهود، أولُو بأسٍ وقوة، ولهم بالمدينة عيال وأهلٌ ونساء، وكلُّ هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة، ولم تكن قريش تَأمَن مع ذلك أن يأتيَها رسول الله صلى الله عليه وآله من ورائها بمن يُجامعه من أصحابه فيحصلوا بين الأعداء من خلفهم ومن أمامهم، فكان الرأيُ الأصوَبُ لهم العدول عن المدينة وترك قصدها.

قال الواقديّ: حدّثني الضحاك بن عثمان، عن حمزة بن سعيد، قال: لما تحاجزوا وأراد أبو سفيانَ الانصرافَ، أقبل يسيرُ على فرس له حوراء، فوقف على أصحاب النبيّ ﷺ وهم في عرض الجبل، فنادى بأعلى صوته: اعل هُبَل، ثم صاح: أين ابن أبي كَبْشة؟ يومٌ بيوم بدر، ألا إن الأيام دُوَل.

وفي رواية أنه نادى أبا بكر وعمر أيضاً، فقال: أين ابنُ أبي قحافة؟ أين ابن الخطّاب؟ ثم قال: الحربُ سِجال، حنظلةٌ بحنظلة، يعني حنظلة بن أبي عامر بحنظلة بن أبي سُفيان، فقال عمر بن الخطاب: يا رسولَ الله، أجيبه؟ قال: نعم فأجِبْه، فلما قال: اعل هُبَل قال عمرُ: الله أعلى وأجلّ.

ويُروَى أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر: قل له: الله أعلى وأجلّ، فقال أبو سفيان: إن لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال عمر: أو قال رسول الله ﷺ: قل له: الله مولانا ولا مولى لكم، فقال أبو سفيان: إنها قد أنعمت، فقال: عنها يا بن الخطاب، فقال سعيد بن أبي سفيان: ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال، فقال عمر: ولا سواء، قتْلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: إنكم لتقولون ذلك لقد جبنّا إذاً وخسرنا، ثم قال: يا بن الخطاب، قمْ إليّ أكلّمك: فقام إليه فقال: أنشدك بدينك: هل قتلنا محمداً؟ قال: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت عندي أصدق من ابن قميئة، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته: إنكم واجدون في قتلاكم عنتاً ومثلاً، ألا إن ذلك لم يكن عن رأي سراتنا، ثم أدركته حَمِيّةُ الجاهلية فقال: وأما إذ كان ذلك فلم نكرهه؟ ثم نادى: ألا إن موعكم بدر الصفراء، على رأس الحول، فوقف عمر وقفةً ينتظر ما يقول رسول الله ﷺ، فقال له: قل: نعم، فانصرف أبو سفيانَ إلى أصحابه وأخذوا في الرَّحيل، فأشفق رسول الله ﷺ والمسلمون من أن يُغيروا على المدينة فيهلك الذراريّ والنساء، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقّاص: اذهب فأتنا بخبر القوم، فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظَّعنُ إلى مكة، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينة، والذي نفسي بيده، إن ساروا إليها لأسيرنَّ إليهم ثم لأناجزنَّهم. قال سعد: فتوجهت أسعى وأرصدت نفسي إن أفرعني شيء رجعت إلى النبيّ ﷺ وأنا أسعى، فبدأت بالسَّعي حين ابتدأت، فخرجت في آثارهم حتى إذا كانوا بالعَقِيق وأنا بحيث أراهم وأتأمّلهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل، فقلت: إنه الظعن إلى بلادهم، ثم وقفوا وقفةً بالعقيق، وتشاوروا في دخول المدينة، فقال لهم صفوان بن أمية: قد أصبتم القومَ، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالُّون، ولكن الظفر، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم، فقد ولَّيتم يومَ بدر، لا والله ما تبعوكم وكان الظفر لهم. فيقال: إن رسول الله ﷺ قال: نهاهم صفوان. فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا في المكمن رجع إلى رسول الله ﷺ وهو كالمنكسر فقال: وُجّه

القوم يا رسولَ الله إلى مكة، امتطوا الإبل وجنبوا الخيل. فقال: ما تقول؟ قلت: ما قلت يا رسول الله، فخلا بي فقال: أحقًا ما تقول؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فما بالي رأيتك منكسراً؟ فقلت: كرهت أن آتي المسلمين فرحاً بقُفولِهم إلى بلادهم، فقال ﷺ: «إن سعداً لمُجرِّب».

قال الواقديّ: وقد روي خلاف هذا، روي أن سعداً لما رجع رفع صوته بأن جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فجعل رسولُ الله ﷺ يشير إلى سعد: خفِّض صوتك فإن الحرْب خَدْعة، فلا تُرِي الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، فإنما ردّهم الله تعالى.

قال الواقديّ: وحدَّثني ابن أبي سَبْرة، عن يحيى بن شبل، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله ﷺ لسعدَ بن أبي وقّاص: إن رأيتَ القوم يريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك، ولا تفتّ في أعضاد المسلمين، فذهب فرآهم قد امتَطوا الإبل، فرجع، فما ملك أن جعل يصيحُ سروراً بانصرافهم.

قال الواقديّ: وقيل لعمرو بن العاص: كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يومَ أحد؟ فقال: ما تريدون إلى ذلك! قد جاء الله بالإسلام، ونفى الكفر وأهله، ثم قال: لما كرَرْنا عليهم أصبنا مَنْ أصبنا منهم وتفرّقوا في كلّ وجه، وفاءت لهم فئةٌ بعد، فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلَبة، فلو انصرفنا، فإنه بلغنا أن ابنَ أُبيّ انصرف بثلث الناس، وقد تخلّف الناسُ من الأوْس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا، وفينا جراح، وخيلُنا عامّتها قد عُقِرت من النَّبل، فمضينا، فما بلغنا الرَّوحاء حتى قام علينا عدّة منها، وانصرفنا إلى مكة.

قال الواقديّ: حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة، عن عائشة، قال: سمعتُ أبا بكر يقول: لما كان يومُ أُحُد ورُمي رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلتْ في وجهه حَلْقتان من المغفَر[1]، أقبلتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ وإنسان قد أقبل من قبَل الشرق يطير طيرَاناً، فقلت: اللهمّ اجعله طلحة بن عبيد الله، حتى توافيْنا إلى رسول الله ﷺ، فإذا أبو عبيدة بن الجرّاح، فبدرني فقال: أسألك بالله يا أبا بكر إلاّ تركتني فأنتزِعه من وجه رسول الله ﷺ، قال أبو بكر: فتركتُه. وقال رسول الله ﷺ: «عليكم صاحبَكم»، يعني طلحة، فأخذ أبو عبيدة بثَنيّته حلْقة المِغفر، فنزعها وسقط على ظهره، وسقطتْ ثنيّة أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقْة بثنيّته الأخرى، فكان أبو عبيدة في الناس أثرَم. ويقال: إن الذي نَزَع الحلْقتين من وجه رسول الله ﷺ عُقبة بن وَهْب بن كلدة، ويقال: أبو اليسر.

قال الواقديّ: وأثبت ذلك عندنا عقبة بن وهْب بن كلَدَة.

---

(١) المِغفَر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة. القاموس المحيط، مادة (غفر).

قال الواقديّ: وكان أبو سعيد الخُذرِيّ يحدّث أن رسول الله ﷺ أصيب وجههُ يومَ أُحُد، فدخلت الحلْقتان من المِغفَر في وَجْنتيه، فلمّا نُزِعتا جعل الدم يَسربُ كما يسرب الشّنّ، فجعل مالك بنُ سِنان يمجّ الدمَ بفيه، ثم ازدَردَه، فقال رسول الله ﷺ: مَنْ أحبّ أن ينظر إلى مَن خالط دمه بدمي فلْينظر إلى مالك بن سِنان. فقيل لمالك: تشرب الدمَ! فقال: نعمْ، أشربُ دَم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مسّ دمُه دمي لم تُصِبْه النار»(١).

قال الواقديّ: وقال أبو سعيد: كنّا ممّن رُدّ من الشّيخين لم نَجيء مع المُقَاتِلة، فلمّا كان من النَّهار بلغَنا مصابُ رسول الله ﷺ، وتفرّق الناسِ عنه، جئتُ مع غِلْمان بَني خُدْرَة نَعْرِضُ لرسول الله ﷺ ننظر إلى سلامته، فنرجع بذلك إلى أهلنا، فلقِينا الناس متفرّقين ببطن قناة، فلم يكن لنا هِمّة إلا النبيّ ﷺ، ننظر إليه، فلما رآني قال: سعدُ بنُ مالك! قلتُ: نعم، بأبي أنت وأمي! ودنوتُ منه، فقبّلت ركبتَه وهو على فرسه، فقال: آجَرَكَ الله في أبيك! ثم نظرت إلى وجهه، فإذا في وَجْنتيه مثل موضع الدِّرهم في كلّ وَجْنة، وإذا شجّةٌ في جبهته عند أصول الشعر، وإذا شفتهُ السفلى تَدمى، وإذا في رباعيَته اليمنى شَظِيّة، وإذا على جُرحه شيءٌ أسود، فسألت: ما هذا على وجهه؟ فقالوا: حصيرٌ محرَق. وسألتُ: مَن أدمى وجنتيه؟ فقيل: ابن قميئة، فقلتُ: فمن شجَّه في وجهه؟ فقيل: ابنُ شهاب، فقلتُ: مَن أصاب شفتيه؟ قيل: عتبة بن أبي وَقاص. فجعلت أعدُو بين يديه حتى نزل ببابه، ما نزل إلا محمولاً، وأرى ركبتيه مجحوشَتَيْن يتكىء على السَّعْدَيْن: سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة، حتى دخل بيته، فلما غربت الشمسُ وأذّن بلالٌ بالصلاة، خرج على تلك الحال يتوكّأ على السَّعْدين: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، ثم انصرَف إلى بيته والناس في المسجد يوقِدون النيران يتكمدون بها من الجراح، ثم أذّن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق، فلم يخرُج رسول الله ﷺ، فجلس بلالٌ عند بابه ﷺ حتى ذهبَ ثلث الليل، ثم ناداه: الصلاة يا رسول الله! فخرج، وقد كان نائماً، قال: فرمقْتُه فإذا هو أخفّ في مشيته منه حين دخل بيته، فصلّيت معه العشاء، ثم رجع إلى بيته قد صفّف له الرجالُ ما بين بيته إلى مُصَلّاه يمشي وحده حتى دخل، ورجعتُ إلى أهلي فخبّرتهم بسلامته، فحمدوا الله وناموا، وكانت وجوه الأوْس والخزْرج في المسجد على النبي ﷺ يحرُسونه فرَقاً من قريش أنْ تكرّ.

قال الواقديّ: وخرجت فاطمة عليها السلام في نساء، وقد رأت الذي بوجه أبيها ﷺ، فاعتنقَتْه، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ورسول الله ﷺ يقول: اشتدّ غضبُ الله على قوم دَمَّوْا وجهَ رسوله. وذهب عليّ عليه السلام فأتى بماء من المِهْراس، وقال لفاطمة: امسِكي هذا

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٤/ ٢٧.

السيف غير ذميم، فنظر إليه رسول الله ﷺ مختضباً بالدم، فقال: لئن كنت أحسنت القتال اليوم، فلقد أحسن عاصم بن ثابت والحارث بن الصِّمة وسهل بن حُنَيف، وسيف أبي دُجانة غير مذموم، هكذا روى الواقديّ.

وروى محمد بنُ إسحاق أنّ علياً عَلَيْتَلِلاِ قال لفاطمة بيتي شِعر، وهما:

أفاطِمَ هاء السَّيف غير ذميمِ ... فلستُ برِعْديدٍ ولا بلئيمِ

لَعَمري لقد جاهدتُ في نصر أحمدٍ ... وطاعة ربٍّ بالعباد رحيمِ

فقال رسول الله ﷺ: لئن كنتَ صدقتَ القتال اليوم لقد صدق معك سماك بن خَرَشة، وسهل بن حُنَيف(١).

قال الواقديّ: فلما أحضر عليٌّ عَلَيْتَلِلاِ، الماء أراد رسول الله ﷺ أن يشرب منه، فلم يستطع، وقد كان عطِشاً، ووجد ريحاً من الماء كرهَها، فقال: هذا ماءٌ آجن، فتمضمض منه للدّم الّذي كان بفيه ثم مجّه، وغسلت فاطمةُ به الدم عن أبيها ﷺ، فخرج محمد بنُ مسلمةَ يطلبّ مع النساء، وكنّ أربع عشرة امرأة، قد جئن من المدينة يتلقّين الناس منهنّ فاطمة عَلَيْهَالسَّلَامُ يحملن الطعامَ والشراب على ظُهورِهنّ، ويسقين الجرحى ويُداوينَهم.

قال الواقديّ: قال كعب بن مالك: رأيتُ عائشة وأمَّ سليم على ظهورهما القِرَب تحملانها يوم أحُد، وكانت حَمْنة بنتُ جحْش تسقي العطشَى وتداوي الجرحى، فلم يجد محمد بن مسلمة عندهنّ ماء، ورسول الله ﷺ قد اشتدّ عطشه، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه حتى استقى من حُسي - قناة عند قصور التميميين اليوم - فجاء بماء عذْب، فشرب منه رسول الله ﷺ ودعا له بخير، وجعل الدم لا ينقطع من وجهه عَلَيْتَلِلاِ وهو يقول: لن ينالوا منّا مثلها حتى نَسْتلم الرُّكن! فلمّا رأت فاطمة الدّم لا يرقأ وهي تغسل جراحه، وعليٌّ يصبّ الماء عليها بالمجنّ، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً، ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدّم. ويقال: إنها داوته بصوفة محرَقة، وكان رسول الله ﷺ بعد يداوِي الجراح الذي في وجهه بعظْم بال حتى ذهب أثرُه. ولقد مكث يجد وَهَنَ ضربة ابن قميئة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر، ويداوي الأثر الذي في وجهه بعظْم.

قال الواقديّ: وقال رسول الله ﷺ قبل أن ينصرف إلى المدينة: مَنْ يأتينا بخبر سعد بن الربيع؟ فإنّي رأيته - وأشار بيده إلى ناحية من الوادي - قد شرع فيه اثنا عشر سناناً، فخرج محمد بن مسلمة - ويقال أبيّ بن كعب - نحو تلك الناحية. قال: فأنا وسط القتلى لتعرّفهم، إذ مررت به صريعاً في الوادي، فناديته فلم يجب، ثم قلت: إنّ رسول الله ﷺ أرسلني إليك.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٤٤).

قال: فتنفّس كما يتنفّس الطير، ثم قال: وإن رسول الله ﷺ لحيٌّ! قلتُ: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سناناً، فقال: طعِنت اثنتي عشرة طعنة كلها أجافتني، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ﷺ ليلة العقَبة! والله ما لكم عذْر عند الله إن خلص إلى نبيّكم ومنكم عينٌ تطرِف، فلم أرِمْ من عنده حتى مات، فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته، فرأيته استقبل القلة رافعاً يديه يقول: «اللهم القَ سعدَ بن الربيع وأنت عنه راضٍ»[(١)].

قال الواقديّ: وخرجت السّمداء بنتُ قيس، إحدى نساء بني دينار، وقد أصيبَ ابناها مع النبيّ ﷺ بأُحُد: النّعمان بن عبد عمر، وسُليم بن الحارث، فلمّا نُعيا لها قالت: فما فَعَل رسول الله ﷺ؟ قالوا: بخير، هو بحَمْد الله صالح على ما تحبِّين، فقالت: أرُونيه أنْظرُ إليه، فأشاروا لها إليه، فقالت: كلُّ مصيبة بعدَك يا رسول الله جَلَلٌ! وخرجت تسوقُ بابنيها بعيراً، تردّهما إلى المدينة، فلقيتْها عائشةُ، فقالت: ما وراءكِ؟ فأخبرتها، قالت: فمن هؤلاء معك؟ قالت: ابناي، حلْ حلْ تحملهما إلى القبر.

قال الواقديّ: وكان حمزةُ بن عبد المطّلب أوّل من جيء به إلى النبيّ ﷺ بعد انصراف قريش - أو كان من أوّلهم - فصلّى عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: رأيتُ الملائكةَ تَغْسله - قالوا: لأنّ حمزة كان جُنُباً ذلك اليوم - ولم يغسل رسول الله ﷺ الشهداء يومئذٍ، وقال: لُفُّوهم بدمائهم وجراحِهم، فإنه ليس أحد يجرَح في سبيل الله إلّا جاء يومَ القيامة لونُ جُرحه لون الدّم، وريحه ريح المسك، ثم قال: ضَعوهم فأنا الشّهيد على هؤلاء يوم القيامة، وكان حمزةُ أوّلَ من كُبِّر عليه أربعاً، ثم جمع إلية الشهداء فكان كلّما أُتيَ بشَهيد وُضِع إلى جَنْب حمزة فصلّى عليه وعلى الشهيد، حتى صلّى عليه سبعين مرة، لأنّ الشهداء سبعون[(٢)].

قال الواقديّ: ويقال: كان يُؤتَى بتسعة وحمزة عاشرهم، فيصلّي عليهِم، وتُرفع التسعة، ويُترك حمزة مكانه، ويؤتَى بتسعةٍ آخرين فيوضعون إلى جنْب حمزة فيُصلّي عليه وعليهم، حتى فعل ذلك سبع مرّات، ويقال: إنه كُبِّر عليه خمساً وسبعاً وتسعاً.

قال الواقديّ: وقد اختَلفت الرواية في هذا، وكان طلحة بنُ عُبيد الله وابنُ عبّاس وجابر بن عبد الله يقولون: صلّى رسول الله ﷺ على قتلَى أُحد، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء»[(٣)]،

---

(١) أخرجه اليوسفي في موسوعة التاريخ الإسلامي: ٢/ ٣٢٧.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (١٣٤٣)، والترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ترك الصلاة على الشهيد (١٠٣٦)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب ترك الصلاة عليهم (١٩٥٥)، وأبو داود، كتاب الجنائز، باب الشهيد يغسل (٣١٣٨).

فقال أبو بكر: ألسْنَا إخوانهم أسلمْنا كما أسلموا، وجاهَدْنا كما جاهدوا! قال: بلى، ولكنْ هؤلاء لم يأكلوا من أجورهم، شيئاً، ولا أدري ما تحدِثون بعدي! فبكى أبو بكر وقال: إنّا لكائنون بعدَك!.

وقال أنس بنُ مالك وسعيد بن المسيّب: لم يصلّ رسول الله صلى الله عليه وآله على قتلى أُحُد.

قال الواقديّ: وقال لأهل القَتْلى: احفروا وأوسِعوا وأحسنوا، وادفنوا الاثنين والثلاثة في القبر، وقدِّموا أكثرَهم قرآناً. وأمر بحمزة أن تمدّ بُردته عليه وهو في القبر، وكانت قصيرة، فكانوا إذا خمروا بها رأسَه بدت رجلاه، وإذا خمّروا بها رجلَيْه انكَشَف وجهه، فبكَى المسلمون يومئذٍ، فقالوا: يا رسول الله: عمُّ رسول الله يُقتل فلا يوجد له ثوب! فقال: بلى، إنكم بأرض جَرْديّة ذات أحجار، وستفتح - يعني الأرياف والأمصار - فيخرج الناسُ إليها، ثم يبعثون إلى أهليهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يَعلمون، والّذي نفسي بَيدِه لا تصبِر نفسٌ على لأوائها وشدّتها إلاّ كنتُ لها شفيعاً - أو قال: شهيداً يومَ القيامة.

قال الواقديّ: وأُتِي عبدُ الرحمن بنُ عوف في خلافة عثمانَ بثياب وطعام فقال: ولكنّ حمزة لم يوجدْ له كَفَن، ومصعب بنُ عُمَير لم يوجد له كَفَن، وكانا خيراً منّي!.

قال الواقديّ: ومرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بمُصعب بن عُمير وهو مقتول مسجًّى ببردة خَلَق، فقال: لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرقّ حُلّة ولا أحسن لِمّة منك، ثم أنت اليوم أشعث الرأس في هذه البُرْدة! ثم أمر به فُقبِر، ونَزَل في قبره أخوه أبو الرّوم وعامر بن ربيعة وسُوَيبطة بن عمرو بن حَرْملة، ونزل في قبر حمزة عليٌّ عليه السلام والزُّبيرُ وأبو بكر وعمرُ ورسول الله صلى الله عليه وآله جالسٌ على حفرته.

قال الواقديّ: ثم إنّ النّاس أو عامّتهم حَمَلوا قَتْلاهم إلى المدينة، فدُفن بالبقيع منهم عدّة، عند دار زيد بن ثابت، ودُفِن بعضهم ببني سَلِمة، فنادى منادِي رسول الله صلى الله عليه وآله: ردّوا القَتْلى إلى مضاجعهم - وكان الناس قد دفنوا قَتْلاهم - فلم يردّ أحدٌ أحداً منهم إلاّ رجلاً واحداً أدركه المنادي ولـم يُدفَن، وهو شمّاس بن عثمان المخزومي، كان قد حُمل إلى المدينة وبه رَمَق، فأُدخِل على عائشة فقالت أمّ سلمة: ابن عمّي يدخل إلى غيري! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: احملوه إلى أمّ سلمة، فحمَلوه إليها فمات عندها، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يُردّ إلى أحد فيُدفَن هناك كما هو في ثيابه التي مات فيها، وكان قد مكث يوماً وليلةً ولم يذق شيئاً، فلم يصلّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غَسّله.

قال الواقديّ: فأمّا القبور المجتمعة هناك فكثير من النّاس يظنّها قبورَ قتلَى أحد، وكان طلحة بن عبيد الله وعبّاد بن تميم المازنيّ يقولان: هي قبور قوم من الأعراب كانوا عامَ الرَّمادة في عهد عمرَ هناك، فماتوا، فتلك قبورهم. وكان ابن أبي ذئب وعبدُ العزيز بن محمد يقولان:

لا نعرف تلك القبورَ المجتمعة، إنّما هي قبورُ ناس من أهل البادية، قالوا: إنّا نعرف قبرَ حمزة وقبرَ عبد الله بن حزام وقبرَ سهل بن قيس، ولا نعرف غيرَ ذلك.

قال الواقديّ: وكان رسول الله ﷺ يزور قتلَى أُحُد في كلّ حَوْل، وإذا لقوه بالشِّعب رَفَع صوتَه يقول: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدَّار! وكان أبو بكر يَفعل مِثلَ ذلك، وكذلك عمرُ بنُ الخطّاب، ثم عثمان، ثم معاوية، حين يمرّ حاجّاً ومعتمِراً.

قال: وكانت فاطمةُ بنتُ رسول الله ﷺ تأتيهم بينَ اليومَين والثلاثة فتَبكي عندهم وتدعو، وكان سعدُ بنُ أبي وقّاص يَذهب إلى ماله بالغابة، فيأتي مِن خلف قبور الشُّهداء فيقول: السّلام عليكم، ثلاثاً ويقول: لا يسلِّم عليهمْ أحدٌ إلّا ردُّوا عليه إلى يوم القيامة. قال: ومَرَّ رسول الله ﷺ على قبر مُصعَب بن عُمير، فوقف عليه، ودعا وقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1]، ثم قال: إنّ هؤلاء شهداءُ عند الله يومَ القيامة، فأتوهم فزُوروهم وسلِّموا عليهم، والّذي نفسي بيَده لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلّا رَدُّوا عليه. وكان أبو سعيد الخُدْريّ يقف على قبر حمزةَ فيدعو ويقرأ ويقول مِثلَ ذلك. وكانت أمُّ سَلَمة رحمها الله، تَذهب فتسلِّم عليهم في كلّ شهر فتظلُّ يومَها، فجاءت يوماً ومعها غلامُها أنبهان، فلم يسلِّم، فقالت: أي لُكَع[2]! ألا تُسلِّم عليهم! والله لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلا رَدّوا عليه إلى يوم القيامة.

قال: وكان أبو هريرةَ وعبدُ الله بن عمرَ يذهبان فيسلِّمان عليهم، قالت فاطمة الخُزاعيّة: سلّمتُ على قبر حمزةَ يوماً ومعي أختٌ لي، فسمعْنا من القبر قائلاً يقول: وعليكما السلام ورحمة الله! قالت: ولم يكن قربنا أحدٌ من النّاس.

قال الواقديّ: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من دفنهم دعا بفرسه فركبه، وخرج المسلمون حوله عامّتهم جَرحى، ولا مثل بني سلِمة وبني عبد الأشهل، فلّما كانوا بأصل الحَرّة قال: اصطفّوا، فاصطفّت الرجال صَفّين، وخلفهم النساء وعدّتهنّ أربع عشرة امرأةً، فرفع يديه فدعا، فقال: اللهمّ لك الحمد كلّه، اللهمّ لا قابضَ لما بسطتَ، ولا مانعَ لما أعطيت، ولا معطيَ لما منعت، ولا هاديَ لمن أضللت، ولا مُضِلّ لمن هَدَيت، ولا مقرِّب لما باعَدْت، ولا مباعِدَ لما قرَّبت. اللهم إنّي أسألك منْ برَكتك ورحمتك وفضلِك وعافيتِك، اللهمّ إني أسألك النعيمَ المقيمَ الّذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك الأمن يومَ الخوف، والغِناء يومَ الفاقة، عائذاً بك، اللهمَّ من شرّ ما أعطيتَ، ومن شرّ ما منعت، اللهمّ توفّنا مسلمين، اللهمّ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) اللكع: اللئيم. السان، مادة (لكع).

حبِّب إلينا الإيمان، وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعِصيان، واجعلنا من الرّاشدين، اللهمّ عذِّب كَفَرة أهل الكتاب الّذين يُكذّبون رسلك، ويصدّون عن سبيلك، اللهمّ أنزل عليهم رِجْسَك وعذابك إله الحق، آمين(١)!.

قال الواقديّ: وأقبل حتّى نزل ببني حارثة يميناً حتى طلع على بني عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم، فقال: لكن حمزة لا بَواكي له! فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرجت إليه أمّ عامر الأشهليّة، وتركت النّوح، فنظرتْ إليه وعليه الدّرع كما هي، فقالت: كلّ مصيبة بعدك جَلَل. وخرجتْ كبشةُ بنت عُتْبة بن معاوية بن بَلْحَارِث بن الخزرج تَعْدُو نحوَ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو واقف على فرسِه، وسعد بنُ معاذ آخِذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمّي، فقال: مرحباً بها! فدنت حتى تأملته، وقالت: إذ رأيتُك سالماً فقد شفّت المصيبة. فعزّاها بعمرو بن معاذ، ثم قال: يا أمّ سعد: أبْشري وبشري أهليهم أنّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنّة جميعاً وهم اثنا عشر رجلاً، وقد شفعوا في أهليهم، فقالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبْكي عليهم بعدَ هذا! ثم قالت: يا رسولَ الله، ادع لمن خلّفوا، فقال: اللهمّ أذهب حزنَ قلوبهم، وآجر مصيبتَهم، وأحسِن الخلف على مَن خلّفوا. ثم قال لسعد بن مُعاذ: حُلّ أبا عمرو الدّابة، فحَلّ الفرس، وتَبِعه الناس، فقال: يا أبا عمرو، إن الجراح في أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلا يأتي يومَ القيامة جرُحه كأغزر ما كان، اللّون لونُ دم، والرّيح رِيحُ مسك، فمن كان مجروحاً فليقَرَّ في داره وليداوِ جرحه، ولا تبلغ معي بيتي، عزمة منّي. فنادى فيهم سعد: عزْمة مِن رسول الله صلى الله عليه وآله ألّا يتبعه جَريح من بني عبد الأشهل، فتخلّف كلّ مجروح، وباتوا يُوقِدون النِّيران ويُداوُون الجراح، وإن فيهم لثلاثين جريحاً، ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيته، ثم رجع إلى نسائه فساقهنّ، فلم تَبْقَ امرأةٌ إلا جاء بها إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، فبكَيْن بين المغرب والعشاء، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله حين فرغ من النّوم لثُلث اللّيل، فسمع البكاء فقال: ما هذا؟ قيل: نساء الأنصار يَبكِين على حمزة، فقال: رضي الله تعالى عنكنّ وعن أولادكنّ، وأمَرَ النساءَ أن يرجعْن إلى منازلهنَّ، قالت أمّ سعد بن مُعاذ: فرجعْنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالُنا، فما بَكت منّا امرأة قطّ إلّا بدأتْ بحمزةَ إلى يومنا هذا. ويقال: إن مُعاذ بن جبَلَ جاء بنساء بني سَلِمة، وجاء عبدُ الله بنُ رَواحة بنساء بلحارث بن الخَزْرج، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أردت هذا، ونهاهُنّ الغد عن النّوْح أشد النّهي.

قال الواقدي: وجعل ابنُ أبيّ والمنافقون معه يَشمَتون ويُسَرُّون بما أصاب المسلمين، ويُظهرون أقبحَ القول، ورجع عبدُ الله بن أُبيّ إلى ابنه وهو جريح، فبات يَكوِي الجراحةَ بالنّار،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٨٦٨)، والبزار في مسنده (٣٧٢٤).

حتّى ذهب عامّة الليل وأبوه يقول: ما كان خروجُك مع محمد إلى هذا الوجه برأيي، عصاني محمد وأطاع الولدان! والله لكأنّي كنتُ أنظر إلى هذا، فقال ابنه: الّذِي صَنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله. قال: وأظهرَت اليهودُ القولَ السيِّء، وقالوا: ما محمد إلا طالب مُلك، ما أصِيب هكذا نبيّ قط في بدنه وأصيبَ في أصحابه، وجعل المنافقون يُخَذّلون عن رسول الله ﷺ وأصحابه ويأمرونَهم بالتفرّق عنه، وقالوا لأصحاب النبي ﷺ: لو كان من قُتِل منكم عندنا ما قُتِل، حتى سَمِع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن، فمَشَى إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في قتل مَن سَمِع ذلك منهم من اليهود والمنافقين، فقال له: يا عمر، إن الله مُظهِر دينه، ومعزّ نبيّه، ولليهود ذِمّة فلا أقتلهم. قال: فهؤلاء المنافقون يا رسول الله يقولون، فقال: أليس يُظهِرون شهادةَ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله! قال: بلى، وإنما يفعلون تعوّذاً من السّيف، وقد بان لنا أمرُهم، وأبدى الله أضغانَهم عند هذه النّكبة، فقال: إني نهيت عن قتل من قال: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله يا بن الخطاب، إن قريشاً لن ينالوا ما نالوا مِثلَ هذا اليوم حتى نَستلِم الركن.

ورَوَى ابنُ عباس أن النبيّ ﷺ قال: إخوانكم لما أصيبوا بأُحُد جُعِلت أرواحُهم في أجواف طَير خُضر، تردِ أنهار الجنة فتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهب في ظِلِّ العرش، فلما وجدوا طِيب مَطعمِهم ومَشربهم ورأوا حسنَ مُنقلَبهم قالوا: ليت إخواننا يَعلَمون بما أكرمَنا الله وبما نحن فيه لئلا يَزْهدوا في الجِهاد، ويكلّوا عند الحرب! فقال لهم الله تعالى: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقديّ: حدثني موسى بن شيبة، عن قَطَن بن وهيب اللّيثيّ، قال: لمّا تحاجز الفريقان، ووجّه قريشٌ إلى مَكة، وامتطوا الإبل، وجنَبوا الخيل، سار وَحْشيّ، عبد جُبَير بن مُطعم على راحلته أربعاً، فقدِم مكة يبشر قريشاً بمصاب المسلمين، فانتهى إلى الثَّنِيّة الّتي تطلع على الحَجُون فنادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، مراراً، حتى ثاب الناس إليه وهم خائفون أن يأتيَهم بما يكرهون، فلما رضي منهم قال: أبشروا فقد قتلْنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مِثلَها في زَحْف قط، وجرحنا محمداً فأثبتْناه بالجراح، وقتلنا رأسَ الكتيبة حمزة بن عبد المطلب، فتفرّق الناسُ عنه في كل وجه بالشماتة بقتل أصحاب النبي ﷺ وإظهار السرور، وخلا جُبير بنُ مطعِم بوحشيّ، فقال: انظر ما تقول! قال وحشيّ: قد والله صدقت. قال: قتلتَ حمزة؟ قال: إي والله ولقد زَرَقْته بالمزراق في بطنه، فخرج من بين فخذيه، ثم نودي فلم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

يجب، فأخذت كبِدِه وحملتُها إليك لتراها. فقال: أذهبت حزن نسائنا، وبرّدت حرَّ قلوبِنا، فأمر يومئذٍ نساءَه بمراجعَة الطِّيب والدّهن.

قال الواقديّ: وقد كان عبدُ الله بنُ أبي أمّية بن المغيرة المخزوميّ لما انكشف المشركون بأُحُد في أول الأمر، خرج هارباً على وجهه، وكرِهَ أن يقدم مكّة، فقَدِم الطائف، فأخبر ثقيفاً أن أصحاب محمد قد ظفروا وانهزّمْنا، وكنت أول من قدم عليكم، ثم جاءهم الخبر بعدُ أن قريشاً ظفرتْ وعادت الدولةُ لها.

قال الواقديّ: فسارت قريش قافلةً إلى مكة، فدخلتْها ظافرةً، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذٍ نظير ما دخل عليهم من الكآبة والحُزن يومَ بدر، وكان ما دخل على قلوب المسلمين من الغَيط والحُزْن يومئذٍ نظير ما دخل عليهم من السّرور والجَذَل يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[2]، قال: يعني إنّكم يوم بدر قَتلتم من قريش سبعين، وأسرتم سبعين، وأمّا يوم أُحُد فقُتل منكم سبعون، ولم يؤسَر منكم أحد، فقد أصبتم قريشاً بمثليْ ما أصابوكم يومَ أُحُد، وقوله: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي كيف هذا، ونحن موعودون بالنّصرِ ونزولِ الملائكة، وفينا نبيّ يَنزِل عليه الوحيُ من السماء! فقال لهم في الجواب: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني الرُّماةَ الّذين خالفوا الأمر وعصَوا الرسول، وإنّما كان النّصر ونزول الملائكة مشروطاً بالطاعة وألّا يعصَى أمرُ الرسول، ألا ترى إلى قوله: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[3]، فعلّقه على الشرط!.

القول في مقتل أبي عزة الجُمَحيّ
ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس

قال الواقديّ: أما أبو عزّة - واسمه عمرو بن عبد الله بنَ عمير بن وهب بن حذافة بن جُمح - فإنّ رسول الله ﷺ أخذه أسيراً يوم أُحد - ولم يؤخذ يومَ أُحُد أسيرٌ غيره - فقال: يا محمد، مُنَّ عليّ، فقال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن لا يُلدَغ من جُحرٍ مرتين»[4]، لا ترجع إلى مكة تمسح عارضَيْك، فتقول: سخرتُ بمحمد مرتين. ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين (٦١٣٣)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين (٢٨٩٩)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الحذر من الناس (٤٨٦٢)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: العزلة (٣٩٨٢).

قال الواقديّ: وقد سمعْنا في أسره غيرَ هذا، حدّثني بكير بن مسمار، قال: لمّا انصرف المشركون عن أُحُد نزلوا بحمراءَ الأسد في أول الليل ساعةً، ثم رحلوا وتركوا أبا عزّة مكانه حتى ارْتَفَع النهار، فلَحِقه المسلمون وهو مستنبه يتلدّد، وكان الّذي أخذه عاصم بنُ ثابت، فأمره النبي ﷺ فضرب عنقه.

قلت: وهذه الرواية هي الصحيحة عندي، لأنّ المسلمين لم تكن حالهم يومَ أُحُد حال مَن يتهيّأ له أسرُ أحد من المشركين في المعركة لِمَا أصابهم من الوَهَن.

فأمّا معاوية بن المغيرة فَرَوى البلاذريّ أنّه هو الّذي جَدَع أنف حمزة ومَثّل به، وأنّه انهزم يوم أُحُد فمضى على وجهه، فبات قريباً من المدينة، فلمّا أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص - وهو ابن عمّه لحّاً - فضرب بابه، فقالت أمّ كلثوم زوجتُه وهي ابنة رسول الله ﷺ: ليس هو ها هنا، فقال: ابعثي إليه، فإنّ له عندي ثمنَ بعير ابتعتُه منه عامَ أوّل، وقد جئتُه به، فإنْ لم يجيء ذهبت فأرسلت إليه، وهو عند رسول الله ﷺ، فلمّا جاء قال لمعاوية: أهلكتَني وأهلكت نفسَك! ما جاء بك؟ قال: يا بن عمّ، لم يكن أحدٌ أقرب إليّ ولا أمَسّ رَحِماً بي منك، فجئتك لتُجيرني، فأدخله عثمان دَارَه وصيّره في ناحية منها، ثمّ خرج إلى النبيّ ﷺ ليأخذَ له منه أماناً، فسَمِعَ رسول الله ﷺ يقول: إنّ معاوية في المدينة، وقد أصبح بها، فاطلبوه. فقال بعضهم: ما كان ليَعْدُوَ منزل عثمان، فاطلبوه به، فدخلوا منزلَ عثمان، فأشارت أمّ كلثوم إلى الموضع الّذي صيّره فيه، فاستخرجُوه من تحت حمارة لهم، فانطلقوا به إلى النبي ﷺ، فقال عثمان حين رآه: والّذي بعثك بالحقّ ما جئت إلا لأطلبَ له الأمان، فَهَبه لي، فوَهَبه له، وأجّله ثلاثاً، وأقسَم: لئن وجده بعدها يمشي في أرض المدينة وما حولها ليقتلنّه. وخرج عثمان فجهزه واشْتَرى له بعيراً، ثم قال: ارتحل. وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسَد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليَعرف أخبارَ النبي ﷺ، ويأتي بها قريشاً، فلمّا كان في اليوم الرابع قال رسول الله ﷺ: إن معاوية أصبح قريباً لم ينفذ، فاطلبوه. فأصابوه وقد أخطأ الطريقَ، فأدركوه، وكان اللّذان أسرعا في طلبه زيد بن حارثة وعمّار بنُ ياسر، فوجداه بالجمّاء فضرَبَه زيد بالسّيف، وقال عمّار: إنّ لي فيه حقًّا، فرمياه بسهم فقتَلاه، ثم انصَرفا إلى المدينة بخبره، ويقال: إنّه أُدرك على ثمانية أميال من المدينة، فلم يزل زيدٌ وعمار يرميانه بالنّبل حتّى مات.

قال: ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أمّ عبد الملك بن مروان.

قال: وذكر الواقديّ في كتابه مِثلَ هذه الرّواية سواء.

قال البَلاذُريّ: وقال ابن الكَلْبي: إن معاوية بن المغيرة جَدَع أنفَ حمزةَ يومَ أُحُد وهو قتيل، فأُخِذ بقرب أحد، فقُتل على أُحُد بعد انصراف قريش بثلاث، ولا عَقِب له إلّا عائشة أمّ عبد الملك بن مَرْوان. قال: ويقال: إنّ عليًا عليه السلام هو الّذي قَتل معاويةَ بن المغيرة.

قلت: وروايةُ ابن الكَلْبيّ عندي أصحّ، لأنّ هزيمة المشركين كانت في الصّدمة الأولى عقيبَ قتلِ بني عبد الدار أصحاب الألوِيَة، وكان قتل حمزةَ بعد ذلك لمّا كرّ خالدُ بنُ الوليد الخيلَ من وراء المسلمين، فاختَلَطوا، وانتقَض صفُّهم، وقتل بعضُهم بعضاً، فكيف يصحّ أن يجتمع لمعاوية كونه قد جَدَع أنف حمزة، وكونه قد انهزم مع المشركين في الصّدمة الأولى! هذا متناقض، لأنّه إذا كان قد انهزم في أوّل الحرب استحال أن يكون حاضراً عند حمزةَ حين قُتل. والصحيح ما ذكره ابنُ الكَلْبيّ من أنّه شهد الحربَ كلَّها، وجدَع أنف حمزة، ثم حصل في أيدي المسلمين بعد انصراف قريش، لأنّه تأخّر عنهم لعارضٍ عَرَض له فأدركه حينُه، فقُتِل.

القول في مقتل المجذّر
ابن زياد البلويّ والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقديّ: كان المجذّر بن زياد البَلَوِيّ حليف بني عوف بن الخَزْرج ممّن شهد بَدْراً مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت له قصة في الجاهلية قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وآله المدينة، وذلك أنّ حُضَير الكتائب، والد أُسَيد بن حُضَير، جاء إلى بني عَمرو بن عوف، فكلّم سويد بن الصامت وخوّات بن جُبَير وأبا لُبابة بنَ عبد المنذر - ويقال سهل بن حُنَيف - فقال: هل لكم أن تَزُورُوني فأسقيَكم شراباً، وأنحرَ لكم، وتقيمون عندي أيّاماً! قالوا: نعم، نحن نأتيك يومَ كذا، فلمّا كان ذلك اليوم جاؤوه فنَحَر لهم جَزوراً، وسقاهم خَمْراً، وأقاموا عنده ثلاثةَ أيّام حتّى تغيّر اللحم - وكان سويدُ بنُ الصامت يومئذٍ شيخاً كبيراً - فلمّا مضت الأيّام الثلاثة قالوا: ما نرانا إلّا راجِعين إلى أهلنا! فقال حُضَير: ما أحْبَبْتم! إنْ أحببتم فأقيموا، وإن أحبَبْتم فانصرفوا، فخرَج الفتَيان بسُوَيد بن الصامت يَحملانه على جَمَل من الثَمَل، فمرّوا لاصقِين بالحرّة حتّى كانوا قريباً من بني عيينة، فجلس سُويد يبول وهو ثَمِلٌ سُكْراً، فبَصُر به إنسان من الخزرج، فخرج حتى أتى المجذر بن زياد، فقال: هل لك في الغَنيمة الباردة! قال: ما هي؟ قال: سويد بن الصامت، أعزَل لا سِلاحَ معه، ثَمِل، فخرج المجذّر بن زياد بالسيف مُصلَتاً، فلمّا رآه الفَتيان وهما أعزَلان لا سلاح معهما وَلّيا، والعَداوة بين الأوس والخزرج شديدة. فانصَرَفا مسرِعَين، وثبت الشيخُ ولا حَراكَ به، فوقف المجذّر بن زياد، فقال: قد أمكنَ الله منك! قال: ما تريد بي؟ قال: قَتْلَك. قال: فارفع عن الطعام، واخفض عن الدّماغ، فإذا رجعتَ إلى أمّك، فقل: إنّي قتلت سويَد بن الصامت. فقتَله، فكان قتلُه هو الّذي هَيّج وقعة بُعاث. فلمّا قَدِم رسول الله صلى الله عليه وآله

المدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت، وأسلَم المجذّر فشهِدَا بدراً، فجعل الحارث بن سُويد يطلب المجذّر في المعركة ليقتله بأبيه، فلا يقدِر عليه يومئذٍ، فلمّا كان يومُ أُحُد وَجالَ المسلمون تلك الجَوْلة، أتاه الحارث مِن خلفِه فضَرَب عُنقَه، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم خرج إلى حَمْراءِ الأسد، فلمّا رجع من حمراء الأسد أتاه جبرائيل عليه السلام، فأخبره أنّ الحارث بن سُويد قَتل المجذّر غِيلةً، وأمَرَه بقتله، فرَكِب رسول الله ﷺ إلى قُباء في اليَوْم الذي أخبرَه جبرائيل في يوم حارّ - وكان ذلك يوماً لا يَركَب فيه رسول الله ﷺ إلى قُباء، إنّما كانت الأيّام التي يأتي فيها رسول الله ﷺ قُباء يوم السبت. ويوم الإثنين - فلمّا دخل رسول الله ﷺ مسجدَ قُباء صلّى فيه ما شاء الله أن يصلّيَ، وسمعت الأنصارُ فجاؤوا يسلّمون عليه، وأنكروا إتيانَه تلك الساعة، في ذلك اليوم. فجلس عليه السلام يتحدّث ويتصفّح الناسَ حتّى طلع الحارثُ بن سويد في مِلحفةٍ مورَّسة، فلما رآه رسول الله ﷺ دعا عُوَيْم بنَ ساعدة فقال له: قدّم الحارثَ بنَ سويد إلى باب المسجد فاضربْ عنقه بمجذّر بن زياد، فإنّه قتَلَه يوم أُحُد. فأخذه عويم، فقال الحارث: دعْني أكلّمْ رسولَ الله - ورسول الله ﷺ يريد أن يَركَب، ودعا بحماره إلى باب المسجد - فجعل الحارث يقول: قد والله قتلتُه يا رسول الله، وما كان قَتْلي إيّاه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه، ولكنّه حَميّة الشيطان، وأمرٌ وكِلتُ فيه إلى نفسي، وإني أتوب إلى الله وإلى رسوله ممّا عملت، وأخرِج دِيتَه وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبةً، وأطعِم ستّين مسكيناً، إنّي أتوب إلى الله يا رسول الله! وجعل يُمسِك بركاب رسول الله ﷺ وبنو المجذّر حضور، لا يقول لهم رسول الله ﷺ شيئاً، حتى إذا اسْتَوعب كلامه قال: قدِّمه يا عويم فاضرب عنقَه. ورَكِب رسول الله ﷺ فقدّمه عويم بن ساعدة على باب المسجد، فضَرَب عنقه.

قال الواقديّ: ويقال: إن الذي أعلمَ رسول الله قتلَ الحارث المجذّر يومَ أُحُد حبيب بن يِساف، نظر إليه حين قَتله، فجاء إلى النبيّ ﷺ، فأخبره، فركب رسول الله ﷺ يتفحّص عن هذا الأمر، فبينا هو على حِماره نزل جبرائيل عليه السلام، فخبّره بذلك، فأمر رسول الله ﷺ عُوَيماً فضرَب عنقَه، ففي ذلك قال حسان:

يا حارِ في سِنة من نوم أوّلِكُمْ ... أم كنتَ ويحَكَ مغترّاً بجبريلِ

فأمّا البلاذُريّ فإنه ذَكَر هذا، وقال: ويقال إنّ الجُلاس بنَ سُوَيد بن الصامت هو الّذي قتل المجذّر يوم أُحُد غِيلةً، إلا أن شعر حسّان يدلّ على أنه الحارث.

قال الواقديّ والبلاذريّ: وكان سويدُ بن الصامت حين ضربه المجذّر بقيَ قليلاً ثم مات، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده:

أبلغ جُلاساً وعبدَ الله مألُكةً ... وإن دعيتَ فلا تخذُلْهما حارِ
اقتلْ جِذارة إذْ ما كنتَ لاقيَهمْ ... والحيّ عَوْفاً على عُرفٍ وإنكارِ

قال البلاذريّ: جذرة وجذارة أخَوان، وهما ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج.

قلت: هذه الرّوايات كما تَرَى، وقد ذكر ابن ماكولا في «الإكمال»[1] أنّ الحارث بنَ سويد قَتَل المجذّر غيلةً يوم أُحد، ثمّ التَحق بمكّة كافراً، ذكره في حرف الميم من هذا الكتاب، وهذا هو الأشبه عندي.

القول فيمن مات من المسلمين بأحد جملة

قال الواقديّ: ذكر سعيد بن المسيّب وأبو سعيد الخُدْريّ أنه قُتِل من الأنصار خاصّة أحدٌ وسبعون، وبمثله قال مجاهد.

قال: فأربعةٌ من قريش، وهم حمزة بن عبد المطلب، قتله وحشيّ، وعبد الله بن جحش بن رئاب، قتله أبو الحكم بن الأخنَس بن شَرِيق، وشمّاس بن عثمان بن الشريد من بني مَخزوم، قتله أُبيُّ بن خلف، ومصعب بن عمير، قتله ابن قَمِيئة.

قال: وقد زاد قوم خامساً، وهو سعدٌ مولى حاطب من بني أَسَد بن عبد العُزّى. وقال قوم أيضاً: إن أبا سلَمة بن عبد الأسد المخزوميّ جُرِحَ يوم أُحُد، ومات من تلك الجراحة بعد أيّام.

قال الواقديّ: وقال قوم: قتل ابنا الهبيب من بني سعْد بن ليث، وهما عبد الله وعبد الرّحمن ورجلان من بني مُزَينة وهما وَهْب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عُتْبة بن قابوس، فيكون جميعُ من قُتِل من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلاً، فأمّا تفصيل أسماءِ الأنصار فمذكورٌ في كتب المحدِّثين، وليس هذا الموضع مكانَ ذكره.

القول فيمن قتل من المشركين بأحد

قال الواقديّ: قُتل من بني عبد الدّار طلحةُ بن أبي طلحة صاحبُ لواء قريش، قتَلَه عليّ بن أبي طالب عليه السلام مبارَزة، وعثمان بن أبي طلحة، قتله حمزةُ بن عبد المطلب وأبو سعيد بن أبي طلحة، قتله سعدُ بن أبي وقاص، ومسافع بن طلحة بن أبي طلحة، قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وكلاب بن طَلْحة بن أبي طلحة، قتله الزبير بن العوّام والحارث بن طلحة بن أبي طلحة، قتله عاصم بن ثابت، والجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، قتله طلحة بن عبيد الله، وأرطاة بن عبد شُرَحبيل، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقارظ بن شُرَيح بن عثمان بن عبد الدّار - ويُروَى قاسط بالسين والطّاء المهملتين -. قال الواقديّ: لا يُدرَى من قَتَله، وقال البلاذريّ:

(١) «الإكمال» في أسماء الرجال: للإمام الحافظ أبي نصر علي بن هبة الله بن ماكولا، المتوفى سنة (٤٨٧هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٦٣٧).

قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وصواب مولاهم: قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام - وقيل: قتله قزمان - وأبو عزيز بن عمير أخو مُصعَب بن عمير، قتله قزمان، فهؤلاء أحد عشر.

ومن بني أسد بن عبد العزّى عبدُ الله بن حميد بن زُهير بن الحارث بن أسد، قَتله أبو دُجانة في رواية الواقديّ، وفي رواية محمد بن إسحاق، قَتَله عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وقال البَلاذُرِيّ: قال ابن الكلبيّ: إنّ عبد الله بن حميد قتِل يوم بَدْر ومن بني زُهْرة أبو الحكم بن الأخنس بن شَرِيق، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وسباع بن عبد العُزّى الخُزاعي - واسم عبد العزّى عمرو بن نَضْلة بن عبّاس بن سليم، وهو ابن أم أنمار الحجّامة بمكّة - قتله حمزة بن عبد المطلب، فهذان رجلان.

ومن بني مخزوم أميّة بن أبي حذيفة بن المغيرة، قتله عليٌّ عليه السلام، وهشام بن أبي أميّة بن المغيرة، قتله قزمان، والوليد بن العاص بن هشام قتله قزمان، وخالد بن أعلم العُقَيلي، قتله قزمان، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، قتله الحارث بن الصِّمّة، فهؤلاء خمسة.

ومن بني عامر بن لؤيّ عبيد بن حاجز، قتله أبو دُجانة، وشَيْبة بن مالك بن المضرّب قتله طلحةُ بن عبيد الله. وهذان اثنان.

ومن بني جُمَح أبي بن خَلَف، قتله رسول الله صلى الله عليه وآله بيَده، وأبو عزّةَ، قتله عاصمُ بن ثابت صَبْراً بأمْر رسول الله صلى الله عليه وآله، فهذان اثنان.

ومن بين عبدِ مناة بن كنانة خالدُ بنُ سُفْيان بن عُويَف، وأبو الشَّعْثاء بن سُفيان بن عويف، وأبو الحَمْراء بن سُفْيان بن عويف، وغراب بن سُفيان بن عُوَيف، هؤلاء الإخوة الأربعة قَتَلهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن حبيب.

فأما الواقديّ فلم يذْكُر في باب من قُتل من المشركين بأُحُد لهم قاتلاً معيّناً، ولكنه ذكر في كلام آخر قبل هذا الباب أنّ أبا سَبْرة بن الحارث بن علقمة قَتل أحد بني سفيان بن عويف، وأن رشيداً الفارسيّ مولى بني معاوية لقي آخر من بني سُفيان بن عويف مقنّعاً في الحديد وهو يقول: أنا ابن عوّيف، فيعرض له سعد مولى حاطب، فضرَبه ابن عويف ضربةً جزله باثنتين، فأقبل رشيد على ابن عويف فضربه على عاتقه - فقطع الدّرع - حتى جزله اثنتين وقال: خذها وأنا الغلام الفارسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يراه ويسمعه: ألا قلتَ: أنا الغلام الأنصاريّ! قال: فيعرض لرشيد أخٌ للمقتول أحد بني سفيان بن عويف أيضاً، وأقبل يعدُو نحوَه كأنه كلبٌ، يقول: أنا ابن عويف، ويضربه رشيد أيضاً على رأسه وعليه المغفر، ففلق رأسه، وقال: خذها وأنا الغلام الأنصاريّ! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أحسنت يا أبا عبد الله! فكناه رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ ولا ولَد له.

قلت: فأمّا البلاذريّ فلم يذكر لهم قاتلاً، ولكنّه عدّهم في جملة من قُتل من المشركين بأُحُد، وكذلك ابن إسحاق لم يذكر مَنْ قتلهم، فإنْ صحّت رواية الواقديّ فعليّ عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلا واحداً، وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من قَتْلاه عليه السلام. وقد رأيتُ في بعض كتب أبي الحسن المدائنيّ أيضاً أن علياً عليه السلام هو الذي قتل بني سفيان بن عويف يوم أُحُد، وروى له شعراً في ذلك.

ومن بني عبد شمس معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، قتله عليٌّ عليه السلام في إحدى الروايات، وقيل: قتله زيد بن حارثة وعمّار بن ياسر.

فجميع من قُتلِ من المشركين يوم أُحُد ثمانية وعشرون، قتل عليٌّ عليه السلام منهم - ما اتفق عليه وما اختلف فيه - اثني عشر، وهو إلى جملة القتلى كعدّة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذٍ، وهو قريبٌ من النّصف.

القول في خروج النبي صلى الله عليه وآله بعد انصرافه من أُحُد إلى المشركين ليوقع بهم على ما هو به من الوَهَن

قال الواقديّ: بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ المشركين قد عزموا أن يردُوا إلى المدينة فينهبوها، فأحبّ أن يريَهم قوّة، فصلّى الصبح يوم الأحد لثمان خلوْن من شوال ومعه وجوه الأوس والخزْرج، وكانوا باتوا تلك الليلة في بابه يحرسونه من البيات، فيهم سعد بن عبادة، وسعد بن مُعاذ، والحُباب بن المنذر، وأوس بن خوليّ، وقتادة بن النعمان في عدّة منهم. فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالاً أن ينادي في الناس، أن رسول الله صلى الله عليه وآله يأمرُكم بطلب عدوّكم، ولا يخرج معنا إلّا من شهد القتال بالأمس، فخرج سعد بن معاذ راجعاً إلى قومه يأمرهم بالمسير، والجراح في الناس فاشية، عامة بني عبد الأشهل جريح، بل كلّها، فجاء سعد بن معاذ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله يأمركم أن تطلبوا عدوّكم. قال: يقول أسَيد بنُ حضير - وبه سبع جراحات، وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعةً لله ولرسوله! فأخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء جراحه، ولحق برسول الله صلى الله عليه وآله. وجاء سعد بن عبادة قومه بني ساعدة، فأمرهم بالمسير، فلبسوا ولحقوا، وجاء أبو قتادة أهل خربا، وهم يداوون الجراح، فقال: هذا منادي رسول الله صلى الله عليه وآله يأمركم بطلب العدو، فوثبوا إلى سلاحهم، ولم يعرّجُوا على جراحاتهم، فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً، بالطُّفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحاً، وبخراش بن الصّمة عشر جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً، وبقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات، حتى وافَوْا النبيّ صلى الله عليه وآله بقبر أبي عتبة، وعليهم السلاح، وقد صفّوا لرسول الله صلى الله عليه وآله. فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية، قال: اللهمّ ارحمْ بني سلمة.

قال الواقديّ: وحدّثني عتبة بن جبيرة عن رجال من قومه، أنّ عبد الله بن سهل ورافعَ بن سهل من بني عبد الأشهل رجعا من أُحُد وبهما جراحٌ كثيرة وعبد الله أثقلهما جرحاً، فلمّا أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومَه يخبرُهم أنّ رسول الله ﷺ يأمرُهم بطلب العدوّ، قال أحدهما لصاحبه: والله إن تركَنا غزاة مع رسول الله ﷺ لَغبْنٌ، والله ما عندنا دابّة نركبها، ولا ندري كيف نصنع! قال عبد الله: انطلق بنا. قال رافع: لا والله ما بي مشي، قال أخوه: انطلق بنا نقصد ونجوز، وخرجا يزحفان، فضعف رافع، فكان عبدُ الله يحمله على ظهره عقبة، ويمشي الآخر عقبة، حتى أتوا رسول الله ﷺ عند العشاء وهم يوقدون النيران، فأتى بهما رسول الله ﷺ وعلى حرسه تلك الليلة عبّاد بن بشر، فقال رسول الله ﷺ لهما: ما حبسكما؟ فأخبراه بعلّتهما، فدعا لهما بخير، وقال: إن طالت لكما مدّة كانت لكما مراكبُ من خيل وبغال وإبل، وليس ذلك بخيرٍ لكما.

قال الواقديّ: وقال جابر بنُ عبد الله: يا رسولَ الله، إنّ منادياً نادى ألّا يخرج معنا إلّا مَنْ حضر القتال بالأمس، وقد كنتُ حريصاً بالأمس على الحضور، ولكن أبي خَلَفني على أخواتٍ لي، وقال: يا بنيّ لا ينبغي لك أن تَدَعهنّ ولا رجلَ معهنّ، وأخاف عليهنّ، وهنّ نُسَيّات ضعاف، وأنا خارج مع رسول الله ﷺ لعل الله يرزقُني الشهادة، فتخلّفت عليهنّ، فاستأثر عَلَيَّ بالشهادة، وكنت رجوْتُها، فأْذَن لي يا رسولَ الله أن أسيرَ معك. فأذن له رسول الله ﷺ. قال جابر: فلم يخرج معه أحدٌ لم يشهد القتالَ بالأمس غيري، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال. فأبى ذلك عليهم، فدعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يحلّ من أمس، فدفعه إلى عليّ عليه السلام - ويقال: دَفَعَه إلى أبي بكر - فخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح، في وجهه أثر الحلْقتين، ومشجوج في جَبْهته في أصول الشعر، ورباعيَتُه قد شظيث، وشفَتُه قد كُلِمتْ من باطنها، ومنكِبه الأيمن مُوهَنٌ بضربة ابن قميئة، ورُكبتاه مَجْحوشَتان، فدخل المسجدَ فصلّى ركعتين، والناس قد حَشَدوا، ونزل أهلُ العوالي حيث جاءهم الصّريخ. ودعا بفرسِه على باب المسجد، وتلقّاه طلحة بنُ عبيد الله، وقد سمع المنادي، فخرج ينظر متَى يسير رسول الله ﷺ! فإذا هو وعليه الدِّرع والمغفَر لا يُرَى منه إلا عيْناه، فقال: يا طلحة، سلاحَكَ، قال: قريباً، قال طلحة: فأخرج، وأعدو فألْبس درْعي وآخذ سيفِي، وأطرح دَرقَتي في صدري، وإنّ بي لتسع جراحات، ولأنا أهمّ بجراح رسول الله ﷺ منّي بجراحي، فأقبل رسول الله ﷺ على طلحة، فقال: أين تَرى القوم الآن؟ قال: هم بالسيَّالة فقال رسول الله ﷺ: ذلك الذي ظننت، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منّا مثل أمسِ حتى يفتح الله مكّة علينا، قال: وبعث رسول الله ﷺ ثلاثة نفرٍ من أسْلم طليعةً في آثار القوم، فانقطع أحدُهم، وانقطع قبال نعل الآخر، ولحق الثالث بقريش وهم بحَمْراء الأسد، ولهم زَجل يأتمرون في الرجوع إلى المدينة،

وصفْوان بن أمية ينهاهم عن ذلك، ولحق الّذي انقطع قبال نعِله بصاحبه، فَبُصرتْ قريش بالرجلين، فعطفت عليهما، فأصابوهما، وانتهى المسلمون إلى مَصرعهما بحمْراء الأسد، فقبرهما رسول الله ﷺ في قبر واحد، فهما القرينان.

قال الواقديّ: اسماهما سليط ونُعمانَ.

قال الواقديّ: قال جابر بن عبد الله: كانت عامّة أزوادنا ذلك اليوم التمر، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً تمْراً حتى وافت حمراء الأسد، وساق جزُراً، فَنَحروا في يوم ثْنَين، وفي يوم ثَلاثاً، وأمَرَهم رسول الله ﷺ بجمْع الْحَطَب، فإذا أمسَوْا أمرَهم أن يُوقِدوا النّيران: فيوقِد كلّ رجل ناراً، فلقد كنا تلك الليلَة نوقد خمسَمائة نار حتى نُرَى من المكان البعيد، وذهب ذكر معسكرِنا ونيرانِنا في كلّ وجه، وكان ذلك ممّا كَبَت الله به عدوّنا.

قال الواقديّ: وجاء معبَد بن أبي معبد الخُزاعيّ - وهو يومئذٍ مشرِك - إلى النبيّ ﷺ، وكانت خُزَاعة سِلْماً للنّبي ﷺ، فقال: يا محمّد عزَّ علينا ما أصابك في نفسك، وما أصابَك في أصحابك، ولودِدْنا أن الله تعالى أغلى كعبَك، وأنّ المصيبة كانت بغيرك، ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشاً بالرَّوحاء وهم يقولون: لا محمداً أصبْتم، ولا الكواعب أردفتم، فبئسما صنعتمْ! وهم مجمعون على الرّجوع إلى المدينة، ويقول قائلُهم فيما بينهم: ما صنعْنا شيئاً، أصبنا أشرافهم، ثم رجعْنا قبل أن نستأصِلهم، وقبل أن يكون لهم وَفْر، وكان المتكلّم بهذا عكرمة بن أبي جهل، فلما جاء معبد إلى أبي سفْيان، قال: هذا معبد، وعنده الخبر، ما وراءك يا معبد؟ قال: تركت محمّداً وأصحابه خَلْفِي يتحرّقون عليكم بمثل النّيران، وقد اجتمع معه من تخلّف عنه بالأمس من الأوْس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يَلحَقوكم فيثأروا منكم، وقد غضبوا لقومهم غضباً شديداً ولمَن أصبتم من أشرافهم. قالوا: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن تَرتحِلوا حتّى تروا نواصيَ الخَيْل، ولقد حملني ما رأيت منهم أن قلتُ أبياتاً، قالوا: وما هي؟ فأنشدهم هذا الشعر:

كادت تهدّ من الأصوات راحِلتي ... إذ سالت الأرضُ بالجُرْد الأبابيل
تَغدو بأسْدٍ ضِراءٍ لا تنابلةٍ ... عندَ اللّقاء ولا مِيلٍ مَعازيلِ
فقلتُ ويلُ ابن حرب من لقائهمُ ... إذا تَغطْمَطت[1] البَطحاءُ بالجِيل!

وقد كان صفوان بن أمية ردّ القوم بكلامه قبل أن يطلعَ معبد، وقال لهم صفوان: يا قوم، لا تفعلوا، فإن القوم قد حربوا، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلّف من الخزرج، فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعتم إليهم أن تكون الدولة عليكم. قال: فلذلك قال

---

(١) الغطمطة: صوت السيل في الوادي، واضطراب الأمواج. اللسان، مادة (غطمط).

رسول الله ﷺ : أرشَدهم صفوانُ وما كان برشيد، ثم قال: والذي نفسي بيده لقد سُوّمت لهم الحجارة، ولو رَجعوا لكانوا كأمْس الذاهب، قال: فانصرَف القومُ سِراعاً خائفين من الطلّب لهم، ومرّ بأبي سُفيان قومٌ من عبد القيس يريدون المدينة، فقال لهم: هل أنتم مُبلِغو محمد وأصحابه ما أرسِلُكم به، على أن أُوقِرَ لكم أباعرَكم زَبيباً غداً بعكاظ، إن أنتم جئتموني! قالوا: نعم، قال: حيثما لقيتم محمداً وأصحابه فأخبروهم أنّا قد أجمعْنا الرّجعة إليهم، وأنّا آثاركم. وانطلق أبو سُفيان إلى مكة، وقدمَ الركبُ على النبي ﷺ وأصحابه بالحمْراء فأخبروهم بالّذي أمرهم أبو سفيان، فقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل، فأنزل ذلك في القرآن، وأرسل معبدٌ رجلاً من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يعلمه أنه قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وَجلين، فانصرفَ رسول الله ﷺ بعد ثلاث إلى المدينة.

الفصل الخامس في شرح غزاة مؤتة نذكرها من كتاب الواقدي ونزيد على ذلك ما رواه محمد بن إسحاق في كتابه على عادتنا فيما تقدم

قال الواقديّ: حدثني ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم، قال: بعثَ رسول الله ﷺ الحارث بن عُمير الأزديَّ في سنة ثمان إلى مَلِك بُصْرَى بكتاب، فلمّا نزلَ مؤتة عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسّاني، فقال: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رُسُل محمّد. قال: نعم، فأمَرَ به فأُوثِق رِباطاً ثم قَدّمه فضَرَب عنقه، ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيرُه، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فاشتدّ عليه، وندَب الناسَ وأخبرَهم بمقتل الحارث، فأسرَعوا وخرجوا، فعسكروا بالجرف، فلما صلى رسول الله ﷺ الظُّهرَ جلسَ وجلسَ أصحابُه حوله، وجاء النعمان بن مهضّ اليهوديّ فوقَفَ مع الناس، فقال رسول الله ﷺ : زيد بن حارثة أمير الناس، فإن قُتل زيدُ بنُ حارثة فجعفرُ بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بنُ رَوَاحة، فإن أصيب ابن رَوَاحة فليرتض المسلمون من بينهم رَجُلاً فليجعلوه عليهم. فقال النعمان بن مهضّ: يا أبا القاسم، إن كنت نبيًّا فسيصاب من سميّت قليلاً كانوا أو كثيراً، إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرّجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سَمى مائة أصيبوا جميعاً. ثم جعل اليهوديّ يقول لزيد بن حارثة: اعهد فلا ترجع إلى محمّد أبداً إن كان نبيًّا. قال زيد: أشهد أنّه نبيّ صادق. فلمّا أجمعوا المسير وعَقَدَ رسول الله ﷺ لهم اللّواء بيده دفَعه إلى زيد بن حارثة، وهو لواء أبيض، ومشى الناس إلى أُمراءِ رسول الله ﷺ يودّعونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف، فلما ساروا في معسكرهم ناداهم المسلمون: دفَع الله عنكم، وردكم صالحين سالمِين غانمين، فقال عبد الله بن رَوَاحة:

لكنّني أسألُ الرَّحمنَ مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْغ تقذِفُ الزَّبَدا
أو طعنةً بيديْ حرّانَ مجهزةً ... بَحربةٍ تنفُذ الأحشاءَ والكبِدا

حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي ... يا أرشدَ الله من غازٍ فقد رَشَدا

قلت: اتفق المحدّثون على أنّ زيدَ بن حارثة كان هو الأمير الأوّل، وأنكرَتِ الشّيعة ذلك، وقالوا: كان جعفرُ بنُ أبي طالب هو الأمير الأوّل، فإن قُتِل فزيد بنُ حارثة، فإن قتل فعبد الله بن رَوَاحة، وَرَوَوْا في ذلك رواياتٍ، وقد وجدتُ في الأشعار الّتي ذكرها محمّد بنُ إسحاق في كتاب المَغازي ما يَشهد لقولهم، فمن ذلك ما رواه عن حسّانَ بن ثابت وهو:

تـأوَّبـنـي لـيـلٌ بـيـثـربَ أعـسَـرُ ... وهـمٌّ إذا مـا نُـوِّم الـنـاسُ مُـسـهِـرُ
لِذكرَى حبيبٍ هَيَّجتْ لي عَبرةً ... سَفوحاً وأسبابُ البكاء التّذكُّرُ
بَلَى إنّ فقدان الحبيب بليّةٌ ... وكم من كريم يُبتلَى ثم يَصبرُ!
فلا يُبعِدنّ الله قَتْلَى تتابعوا ... بمؤتةَ منهمْ ذو الجناحَين جعفرُ
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسيافُ المنيَّة تَخطرُ
رأيتُ خيارَ المؤمنين تواردُوا ... شَعوبَ وخَلْق بعدَهمْ يتأخَّرُ
غَداةَ غدوْا بالمؤمنين يقودُهمْ ... إلى الموت مَيمونُ النقيبة أزهَرُ
أغرُّ كضَوء البدرِ من آل هاشمٍ ... أبِيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامةَ أصعَرُ
فطاعَنَ حتّى مالَ غيرَ موسَّدٍ ... بمُعتركٍ فيه القَنا متكسِّرُ
فصارَ مع المستَشْهَدِين ثوابهُ ... جِنانٌ وملتفّ الحدائق أخضرُ
وكنّا نرى في جعفرٍ من محمّدٍ ... وَقاراً وأمراً حازماً حين يأمرُ
وما زال في الإسلام من آل هاشمٍ ... دعائمُ صدْق لا تُرام ومَفخَرُ
همُ جبل الإسلامِ والناسُ حولهمْ ... رِضامٌ إلى طُورٍ يَطول وَيَقهَرُ
بهَالِيلُ منهمْ جعفرٌ وابنُ أمّه ... عليٌّ ومنهمْ أحمدُ المتخيَّرُ
وحمزةُ والعبّاس منهمْ ومنهمُ ... عَقيلٌ وماءُ العُودِ من حيث يُعصَرُ
بهمْ تُفرَج الغمّاء من كلّ مأزَقٍ ... عَماس[1] إذا ما ضاقَ بالناس مَصدرُ
هُم أولياءُ الله أنزلَ حكمَه ... عليهمْ وفيهمْ والكتابُ المطهَّرُ

ومنها قولُ كَعْب بن مالك الأنصاريّ من قصيدةٍ أوّلها:

نامَ العيونُ ودَمعُ عينك يَهمُلُ ... سَحّاً كما وَكَف الرّباب المسبلُ
وَجْداً على النفر الذين تتابعُوا ... قتلى بمؤتةَ أسندوا لم يُنقَلوا

(١) عَماس: شديد. القاموس المحيط، مادة (عمس).

سارُوا أمام المسلمين كأنهمْ طَوْدٌ يقودهمُ الهِزَبر المُشْبِلُ
إذ يَهتَدون بجعفرٍ ولوائِه قدّام أولهم ونعم الأوّلُ
حتى تقوّضتِ الصفوفُ وجعفرٌ حيثُ التقى جمعُ الغُواة مجدَّلُ
فتغيّر القمرُ المنيرُ لفَقدِه والشمس قد كسفت وكادت تأفلُ
قومٌ علا بنْيانهم من هاشم فرعٌ أشمُّ وسؤدُدٌ متأثّلُ
قومٌ بهمْ عصم الإلهُ عبادَه وعليهمُ نزلَ الكتابُ المنزَلُ
فضَلُوا المَعاشرَ عفّةً وتكرّماً وتعمّدت أخلاقُهم مَنْ يجهلُ

قال الواقديّ: فحدّثني ابن أبي سبْرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن رافع بن إسحاق، عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ خطبهم فأوصاهم فقال: أوصيكم بتقوَى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزُوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتِلوا من كفرَ بالله، لا تَغدِروا ولا تَغُلّوا ولا تقتلوا وَليداً، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعُهم إلى إحدى ثلاث، فأيّتهم أجابوك إليها فاقبلْ منهم، واكفُفْ عنهم، ادعُهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فاقبَل واكفُف. ثم ادعُهم إلى التحوّل من دارهم إلى المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أنّ لهم ما للمُهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يَجرِي عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيءِ ولا في الغنيمة شيء، إلّا أن يُجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوْا فادْعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكففْ عنهم، فإن أبَوْا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرتَ أهل حصن أو مدينةٍ فأرادوا أن تستنزلهم على حكم الله فلا تَسْتنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكمَ الله فيهم أم لا! وإن حاصرتَ أهل حصنٍ أو مدينة وأرادوا أن تجعلَ لهم ذمّة الله وذمّة رسولِ الله فلا تجعل لهم ذمّة الله وذمة رسول الله، ولكن اجعل لهم ذمّتك وذمة أبيك وأصحابك، فإنّكم إن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله.

قال الواقديّ: وحدّثني أبو صفوان، عن خالد بن يزيدَ، قال: خرج النبيّ ﷺ مشيِّعاً لأهل مُؤْتة حتى بلغ ثنيّة الوداع، فوقَفَ ووقفوا حوله، فقال: اغزُوا بسم الله، فقاتِلوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصّوامع معتزلين الناس، فلا تَعرِضوا لهم، وستَجدون آخرين للشيّطان في رؤوسهم مَفاحص، فاقلعوها بالسّيوف، ولا تَقتُلَنّ امرأةً، ولا صغيراً، ضَرَعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تقطَعنّ نخلاً ولا شجراً، ولا تهدِمُنَّ بناء[١].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث (١٧٣١)، والترمذي، كتاب الديات، باب ما جاء في النهي عن المثلة (١٤٠٨)، وأحمد في مسنده (١٧٦٣١).

قال الواقديّ، فلمّا دعا ودّع عبد الله بن رواحةَ رسول الله ﷺ قال له: مُرْني بشيء أحفظه عنك، قال: إنّك قادم غداً بلداً، السجُودُ فيه قليل، فأكثروا السجودَ. فقال عبدُ الله: زِدْني يا رسول الله، قال: اذكُر الله، فإنّه عونٌ لك على ما تَطلُب. فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع فقال: يا رسولَ الله: إن الله وِتْر يُحِبُّ الوِتْر، فقال: يا بن روَاحة: ما عجزتَ فلا تَعجَز إن أسأت عشراً أن تُحسِنَ واحدة. فقال ابنُ رَواحة: لا أسألُك عن شيء بعدها.

وروى محمّد بنُ إسحاق أن عبد الله بنَ رواحةَ ودّع رسول الله ﷺ بشعرٍ منه:

فثبّتَ الله ما آتاك من حَسنٍ ... تثبيتَ مُوسَى ونَصراً كالذي نصِرُوا
إنّي تفرّستُ فيكَ الخير نَافلةً ... فَراسةً خالفَتْهم في الذي نظَروا
أنت الرسولُ فمن يُحرَم نَوافله ... والبِشْرَ منه فقد أَوْدَى به القَدَرُ

قال محمد بن إسحاق: فلمّا ودّع المسلمين بكى، فقالوا له: ما يبكيك يا عبد الله؟ قال: والله ما بي حبّ الدنيا ولا صبابة إليها، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾(1)، فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود!

قال الواقديّ: وكان زيدُ بن أرقم يحدِّث، قال: كنتُ يتيماً في حِجْر عبد الله بن رواحة، فلم أرَ واليَ يتيم كان خيراً لي منه، خرجت معه في وجهةٍ إلى مؤتةَ وصَبَّ بِي وَصبِبْتُ به، فكان يُرْدِفني خلف رَحله، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبتيْ رَحْلِه:

إذا بلّغتِني وحَمَلْتِ رَحْلي ... مَسافة أربعٍ بعدَ الحِساءِ
فشأنَكِ فانعَمي وخلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرجِعْ إلى أهلي وَرَائي
وآبَ المسلمون وخلّفوني ... بأرض الشام مشتهرَ الثَّواءِ(2)
وزوّدني الأقاربُ مِن دعاءٍ ... إلى الرحمن وانقطع الإخاءُ
هنالكَ لا أبالي طَلْعَ نخلٍ ... ونخلٍ أسافلُها رِوَاءُ

فلمّا سمعتُ منه هذا الشعرَ بكيتُ: فخفَقَني بالدِّرّة وقال: وما عليك يا لُكَع أن يرزُقني الله الشهادة فأستريحَ من الدّنيا ونَصَبها، وهمومها وأحزانها وأحداثها، وترجعَ أنت بين شعبتي الرّحْل!

قال الواقديّ: ومضى المسلمون فنزلوا وادِيَ القُرَى فأقاموا به أيّاماً، وساروا حتى نَزَلوا بمؤتة، وبلغهم أن هرَقْلَ ملكَ الرّوم قد نزل ماءً من مياه البَلْقاء في بكْر وبَهْراء ولَخْم وجُذام وغيرهم مائة ألف مقاتل، وعليهم رجلٌ من بَلِيّ، فأقام المسلمون ليلتين ينظرون في أمرِهم،

---

(1) سورة مريم، الآية: ٧١.

(2) الثواء: طول المقام. اللسان، مادة (ثوى).

وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنُخبره الخبر، فإما أن يردّنا أو يزيدَنا رجالاً، فبينا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبدُ الله بن رَوَاحة فشجَّعهم، وقال: والله ما كنّا نقاتل الناسَ بكثرة عِدّة ولا كَثرةِ سِلاح ولا كثرة خَيْل، إلّا بهذا الدِّين الّذي أكرَمَنا الله بهِ، انطلِقوا فقاتلوا، فقد والله رأيْنا يومَ بَدْر، وما معنا إلّا فرسان، إنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن: إمّا الظُّهورُ عليهم فذاكَ ما وعَدَنا الله ورسولُه، وليس لوعده خُلف، وإمّا الشهادة فنلحق بالإخوان، نرافقهم في الجِنان. فشجع الناس على قول ابن رَواحَة.

قال الواقديّ: وروَى أبو هريرة قال: شهدتُ مؤتة فلمّا رأينا المشركين رأيْنا ما لا قِبَل لنا به من العُدَد والسِّلاح والكُراع والدِّيباج والحَرِير والذّهب، فبَرَق بَصَرِي، فقال لي ثابتُ بنُ أرقم: مَا لَكَ يا أبا هُرَيرة، كأنّك تَرى جُموعاً كثيرةً! قلتُ: نعم، قال: لم تَشهدْنا ببَدْر، إنا لم نُنْصَرْ بالكَثْرة.

قال الواقديّ: فالتقى القومُ، فأخذ اللواءَ زيدُ بنُ حارثة، فقَاتَل حتّى قُتِل، طعنوه بالرِّماح، ثم أخذه جعفر فنزل عن فرس له شَقْراء فَعرْقَبهَا، ثم قَاتَل حتى قُتِل. قال الواقديّ: قيل: إنه ضرَبَه رجل من الرُّوم فقَطعه نصفين، فوقع أحد نصفَيْه في كَرْم هُناك، فوُجِد فيه ثلاثون أو بضعٌ وثلاثون جُرْحاً.

قال الواقديّ: وقد رَوَى نافعٌ عن ابن عمرَ أنه وُجِد في بدن جعفر بن أبي طالب اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرِّماح.

قال البلاذريّ: قطِعتْ يداه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لقد أبدَله الله بهما جَناحينِ يطيرُ بهما في الجنة»[1]، ولذلك سمّي الطَّيّار.

قال الواقديّ: ثم أخذ الراية عبُد الله بن رواحة فنكَل يَسِيراً، ثم حَمَل فقاتَل حتى قُتِل، فلما قُتِل انهزَم المسلمون أسوأ هزيمة كانت في كلّ وجه، ثم تراجعوا، فأخذ اللواءَ ثابتُ بنُ أرقَم، وجعل يَصيح بالأنصار، فثابَ إليه منهم قليل، فقال لخالد بن الوليد: خذ اللّواء يا أبا سليمان، قال خالد: لا بل خُذْه أنتَ فلك سِنّ، وقد شهدت بَدْراً. قال ثابت: خذه أيّها الرجل، فوالله ما أخذتُه إلا لك. فأخَذَه خالد وحَمَل به ساعةً، وجعل المشركون يحمِلون عليه حتّى دَهمه منهم بَشرٌ كثير، فانحازَ بالمسلمين، وانكشفوا راجعين.

قال الواقديّ: وقد رُوِي أن خالداً ثبت بالنّاس فلم ينهزموا، والصحيح أنّ خالداً انهزَم بالناس.

قال الواقديّ: حدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمرَ بن قتادة، أنّ النبي ﷺ لمّا

---

(١) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٤٣٤٨)، والطبراني في «الكبير» (١٤٦٧)، وابن عدي في الكامل (١٣١١).

التقى الناسُ بمؤتة جلس على المِنْبر، وكشِفَ له ما بينه وبين الشام، فهو ينظر إلى معرَكتهم، فقال: أخذ الرّاية زيدُ بنُ حارثة، فجاءه الشّيطان فحبّب إليه الحياة، وكرّه إليه الموت، وحبّب إليه الدُّنيا، فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبّب إليّ الدنيا! فمضَى قُدُماً حتى استُشهِد، ثم صلّى عليه، وقال: استغفرُوا له فقد دخل الجنّة وهو يَسعَى، ثم أخذ الرّاية جعفرُ بن أبي طالب، فجاءه الشيطان فمنّاه الحياة، وكرّه إليه الموت، ومنّاه الدنيا، فقال: الآنَ حين استَحكم الإيمانُ في قلوب المؤمنين تتمنّى الدنيا! ثم مَضى قُدُماً حتى استُشهد فصلّى عليه رسول الله ﷺ ودَعَا له، ثم قال: استغفروا لأخيكم فإنه شهيدٌ قد دَخل الجنّة، فهو يطيرُ فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء. ثم قال: أخذ الراية عبدُ الله بنُ رواحة، ثم دخل معترِضاً فشقّ ذلك على الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: أصابتْه الجراح. قيل: يا رسولَ الله، فما اعتراضُه؟ قال: لما أصابتْه الجراح نَكَل فعَاتَب نفسَه فشَجُع فاستُشهِد، فدَخل الجنّة، فُسرِّيَ عن قومه.

وروَى محمد بن إسحاق قال: لمّا ذكر رسول الله ﷺ زيداً وجعفراً سَكَت عن عبدِ الله بن رواحة حتى تغيّرت وجوهُ الأنصار، وظنّوا أنه قد كان من عبدِ الله بعضُ ما يَكرَهون، ثم قال: أخذَها عبدُ الله بن رَواحة فقاتل حتى قُتِل شهيداً، ثم قال: لقد رُفِعوا لي في الجنّة فيما يَرَى النائم على سُرُرٍ من ذهب، فرأيتُ في سرير ابن رواحة ازوراراً عن سَريرَيْ صاحبَيْه، فقلت: لم هذا؟ فقيل: لأنهما مضيا، وتردّد هذا بعضَ التردد، ثم مضى.

قال: وروى محمد بنُ إسحاق أنّه لمّا أخذ جعفرُ بنُ أبي طالب الرّاية قاتَلَ قتالاً شديداً حتى إذا لحمَه القِتال اقتَحَم عن فرس له شَقْراء فعَقَرها، ثم قاتل القومَ حتى قُتِل، فكان جعفر رضي الله عنه أوّل رجل عَقَر فرسه في الإسلام.

قال محمد بنُ إسحاق: ولما أخذ ابنُ رواحة الرّاية جعل يتردّد بعضَ التردّد، ويَستقدِم نفسَه يَستنزلها، وقال:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلنّه ... طَوْعاً وإلا سوفَ تُكرَهِنّهْ
ما لي أراكِ تَكرَهِين الجنّه ... إذ أجلبَ الناسُ وشَدّوا الرّنّهْ
قد طالما قد كنتِ مطمئنّهْ ... هل أنتِ إلّا نطفة في شَنّهْ[1]!

ثمّ ارتجزَ أيضاً فقال:

يا نفسُ إلا تُقتلي تموتِي ... هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ
وما تمنّيتِ فقد أُعطيتِ ... إن تفعلي فِعلهما هُدِيتِ
وإن تأخّرتِ فقد شَقِيتِ

(١) الشَّنة: القربة الصغيرة. القاموس المحيط، مادة (شنن).

ثم نَزَل عن فرسه فقاتَلَ، فأتاه ابنُ عمّ له ببَضْعةٍ من لحم، فقال: اشدُد بهذا صُلبك. فأخذها من يده، فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة في ناحية من الناس، فقال: وأنتَ يا بن رواحة في الدّنيا! ثم ألقاها من يدِه وأخذ سيفه، فتقدّم فقاتلَ حتى قُتِل.

قال الواقديّ: حدّثني داود بن سِنان، قال: سمعتُ ثعلبة بن أبي مالك يقول: انكشف خالدُ بنُ الوليد يومئذٍ بالناس حتى عُيِّروا بالفرار، وتشاءَم الناسُ به.

قال: ورَوى أبو سعيد الخُدْريّ، قال: أقبل خالد بالناس منهزمين، فلمّا سمع أهلُ المدينة بهم تلقَّوْهم بالْجُرف، فجعلوا يَحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فُرّار، أفررْتم في سبيلِ الله! فقال رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفُرّار، ولكنهم كُرّار، إن شاء الله»[١].

قال الواقديّ: وقال عُبيدُ الله بنُ عبدِ الله بن عُتْبة: ما لقيَ جيشٌ بعثوا مَبْعَثاً ما لقيَ أصحابُ مؤتة من أهل المدينة، لقوهم بالشرّ. حتى أنّ الرجل ينصرف إلى بيتِه وأهله فيدقّ عليهم فيأبَوْن أن يَفْتَحوا له يقولون: ألا تقدّمت مع أصحابك فقُتِلتَ، وجلس الكُبراءُ منهم في بيوتهم استحياءً من الناس، حتى أرسلَ النبي ﷺ رجلاً، يقول لهم: أنتم الكُرّار في سبيل الله. فخرجوا.

قال الواقديّ: فحدثني مالك بن أبي الرّجال عن عبد الله بن أبي بكر بن حَزْم، عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر، عن جدّتها أسماءَ بنت عُميس، قالت: أصبحتُ في اليوم الذّي أصيب فيه جعفر وأصحابُه، فأتاني رسول الله ﷺ وقد مَنأْتُ[٢] أربعين منّاً من أدَم وعجنتُ عجيني، وأخذت بَنيّ، فغسلتُ وجوههم ودهنتُهم، فدخلتُ على رسول الله ﷺ، فقال: يا أسماء، أين بنو جعفر؟ فجئت بهم إليه، فضمّهم وشمّهم، ثم ذَرفت عيناه، فبكَى، فقلتُ: يا رسول الله، لعله بلغك عن جعفر شيء! قال: نعم، إنه قُتل اليومَ، فقمتُ أصيح، واجتمع إليّ النساءُ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا أسماء، لا تقولي هُجْراً، ولا تَضربِي صَدْراً، ثم خرج حتّى دخل على ابنته فاطمةَ رضي الله عنها، وهي تقول: واعمّاه! فقال: على مثل جعفرٍ فلتَبكِ الباكية. ثم قال: اصنَعوا لآلِ جعفرٍ طعاماً، فقد شُغِلوا عن أنفسِهم اليوم.

قال الواقديّ: وحدّثني محمّد بنُ مسلم، عن يحيى بن أبي يَعلَى، قال: سمعتُ عبدَ الله بنَ جعفر يقول: أنا أحفظ حين دَخَل النبيّ ﷺ على أمّي، فنَعَى إليها أبي، فأنظر إليه وهو يَمسَح على رأسِي ورأسِ أخي، وعيناه تُهَراقان بالدَّمع حتى قطرتْ لِحْيته، ثم قال: اللهمّ إن جعفراً قَدّم إليّ أحسَنَ الثّواب، فاخلُفه في ذرّيته بأحسن ما خَلفت أحداً من عبادك في ذرّيته، ثم قال:

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (٥/ ٣٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٢٩).

يا أسماء، ألا أبَشرك؟ قالت: بَلَى بأبي وأمّي. قال: فإنّ الله جعل لجعفرٍ جَناحين يطيرُ بهما في الجنّة، قالت: بأبي وأمّي، فأعلِم الناسَ ذلك! فقام رسول الله ﷺ وأخَذَ بَيدي يَمسَح بيده رأسِي حتّى رَقِيَ على المنبر وأجلَسني أمامه على الدّرَجة السفلَى، وإنّ الحزنَ ليُعرف عليه، فتكلّم فقال: إن المرءَ كثيرٌ بأخيه وابنِ عمّه، ألا إنّ جعفراً قد استُشهد، وقد جعل الله له جناحين يطيرُ بهما في الجنّة. ثم نزل، فدخل بيتَه وأدخلني، وأمر بطعام فصُنع لنا، وأرسل إلى أخي فتغدَّينا عندَه غَداءً طيّباً، عمدتْ سلمى خادمتُه إلى شعيرٍ فطحنته، ثم نشفَتْه، ثم أنضجَتْه وآدَمتْه، بزَيْت، وجعلتْ عليه فُلفُلاً، فتغدّيت أنا وأخي معه، وأقَمْنا عنده ثلاثة أيّام نَدُور معه في بيوت نسائِهِ، ثم أرجعنا إلى بيتَنا، وأتاني رسول الله ﷺ بعد ذلك وأنا أساوِم في شاةٍ، فقال: «اللهمّ بارك له في صَفْقَتِه»، فوالله ما بعتُ شيئاً ولا اشتريتُ إلا بُورك فيه[1].

في مناقب جعفر الطيار

رَوَى أبو الفَرَج الأصْفهانيّ في كتاب «مقاتِل الطالبيِّين»[2] أن كُنيةَ جعفر بن أبي طالب أبو المَساكين، وقال: وكان ثالثَ الإخوة من ولد أبي طالب، أكبرهم طالب، وبعدَه عَقِيل، وبعده جعفر، وبعده عليّ، وكلّ واحد منهم أكبَر من الآخر بعشرِ سنين، وعليّ أصغرهم سنّاً، وأمُّهم جميعاً فاطمةُ بنت أسدِ بنِ هاشم بن عبد مناف.

وهي أوّل هاشمية ولدتْ لهاشميّ، وفضلُها كثير، وقربُها من رسول الله ﷺ وتعظيمُه لها معلوم عند أهل الحديث.

وَرَوَى أبو الفرج لجعفر رضي الله عنه فضلٌ كثير. وقد ورد فيه حديثٌ كثير، من ذلك أنّ رسول الله ﷺ لمّا فتح خيبرَ قدم جعفر بن أبي طالب من الحبَشة، فالتَزمه رسول الله ﷺ وجعل يُقبّل بين عينيه ويقول: «ما أدري بأيّهما أنا أشدّ فَرَحاً! بقدُوم جعفر، أم بفَتْح خَيْبرا».

قال: وقَد روَى خالدٌ الحَذّاء، عن عِكرِمة، عن أبي هريرة أنه قال: ما ركب المطَايا، ولا رَكِب الكُور، ولا انتعل، ولا احتذى النّعال أحدٌ بعد رسول الله ﷺ أفضَل من جعفر بن أبي طالب.

قال: وقد روَى عطيّة عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ، «خيرُ الناس حمزةُ وجعفرٌ وعليّ».

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢١/٥٧.
(٢) مقاتل الطالبيين: للإمام علي بن الحسين بن محمد أبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة (٣٥٦هـ). «الأعلام للزركلي» (٤/ ٢٧٨).

وقد روَى جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «خُلِق الناسُ من أشجار شتّى، وخلقتُ أنا وجعفرٌ من شَجرةٍ واحدة» - أو قال - «مِن طينةٍ واحدة»[١].

قال: وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر: «أنت أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي».

وقال أبو عُمر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»[٢] كانت سنُّ جعفر عليه السلام يومَ قُتل إحدى وأربعين سنة.

قال أبو عمرَ: وقد رَوَى ابن المسيّب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مُثّل لي جَعفر وزيد وعبد الله في خَيْمة من درّ، كلّ واحد منهم على سرير، فرأيت زيداً وابنَ رواحة في أعناقهما صدوداً، ورأيت جعفراً مستقيماً ليس فيه صُدود، فسألتُ فقيل لي: إنهما حين غشيَهما الموتُ أعَرضا وصَدّا بوجْهيْهما، وأما جعفر فلم يَفعَل.

قال أبو عمر أيضاً: ورُوي عن الشّعبيّ، قال: سمعتُ عبدَ الله بنَ جعفر يقول: كنتُ إذا سألت عمّي علياً عليه السلام شيئاً ويمنَعني، أقول له: بحقِّ جعفر، فيعطيني.

وَرَوَى أبو عمرَ أيضاً في حرف الزّاي في باب زيد بن حارثة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أتاه قتل جعفرٍ وزيد بمؤتة بَكى، وقال: أخَوَاي ومؤنِساي ومحدِّثاي[٣].

واعلم أنّ هذه الكلمات التي ذكرها الرضيُّ رحمة الله عليه ملتقَطة من كتابه عليه السلام الّذي كتبه جواباً عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبي مسلم الخوْلاني وقد ذكره أهلُ السِّيرة في كتبهم، رَوَى نصرُ بنُ مزاحم في كتاب «صِفّين»[٤] عن عمرَ بن سعد عن أبي وَرْقاء، قال: جاء أبو مسلم الخوْلاني في ناس من قُرّاء أهلِ الشام إلى معاوية قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صِفّين فقالوا له: يا معاوية، علام تقاتِل عليّاً وليس لك مثل صحبتِه ولا هجْرته ولا قَرابتِه ولا سابِقَتِه! فقال: إنّي لا أدّعي أنّ لي في الإسلام مِثل صُحبتِه ولا مِثل هجرته ولا قَرابته، ولكنْ خبِّروني عنكم، ألستم تعلمون أنّ عثمان قُتِل مظلوماً! قالوا: بلى، قال: فليَدْفع إلينا قَتَلته لنقتلَهم به، ولا قِتال بيننا وبينه، قالا: فاكتب إليه كتاباً يأتِه به بعضُنا، فكتب مع أبي مسلم الخوْلانيّ:

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢١/ ٦٤.

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر القرطبي، المتوفى سنة (٤٦٣هـ)، «كشف الظنون» (١/ ٨١).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٥٤٦).

(٤) وقعة صفين: للإمام أبو الفضل نصر بن مزاحم بن يسار المنقري الكوفي المتوفى (٢١٢هـ). الأعلام للزركلي (٨/ ٢٨).

من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب. سلام عليك، فإنّي أحمدُ إليك الله الّذي لا إله إلا هو، أمّا بعد، فإن الله اصطَفى محمّداً بعلْمِه، وجعله الأمينَ على وَحْيه، والرسول إلى خَلْقِه، واجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده الله تعالى بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قَدْر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلُهم في الإسلام وأنصحَهُم لله ورسولِه الخليفة من بعده، ثم خليفة خليفته من بعد خليفته، ثم الثالث الخليفة المظلوم عثمان، فكلّهم حسدت، وعلى كلّهم بغيت، عرَفْنا ذلك في نظرِك الشَّزْر، وقولك الهُجْر، وتنفُّسِك الصُّعَداء، وإبطائك عن الخُلَفاء، تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفَحْل المخشوش حتى تُبايعَ وأنت كارِه، ثم لم تكن لأحد منهم بأعظمَ حسَداً منك لابن عمّك عثمان، وكان أحقّهم ألا تفعل ذلك في قرابتِه وصِهرِه، فقطعتَ رَحمه، وقبّحتَ محاسنَه، وألّبتَ الناسَ عليه، وبطنتَ وظهرتَ حتى ضُرِبَتْ إليه آباط الإبل، وقيدتَ إليه الإبل العِراب، وحُملَ عليه السِلاحُ في حَرَم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقُتِل معك في المحلّة وأنتَ تَسمَع في دارِه الهائعة، لا تَرْدَع الظّن والتُّهمة عن نفسك بقولٍ ولا عمل. وأُقسم قَسَماً صادقاً لو قمتَ فيما كان من أمره مقاماً واحداً تُنهنه الناسَ عنه، ما عدل بك من قبلنا من النّاس أحداً، ولمحَا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجَانبة لعثمانَ والبغيِ عليه، وأخرى أنت بها عند أنصارِ عثمان ظَنِين، إيواؤك قَتَلَة عثمان، فهم عَضُدك وأنصارُك، ويدُك وبطانُتك، وقد ذكر لي أنك تتنصّل من دمه، فإن كنتَ صادقاً فأمكِنّا من قَتَلته نقتلهم به، ونحن أسرع الناس إليك، وإلّا فإنه ليس لك ولأصحابك إلّا السيف، والّذي لا إله إلّا هو لنطلبنّ قتلَة عثمانَ في الجبال والرّمال، والبرّ والبحر، حتى يقتلهم الله أو لتلحقنّ أرواحنا بالله، والسلام.

قال نصر: فلمّا قدِم أبو مسلم على عليّ عليه السلام بهذا الكتاب، قام فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّك قد قمتَ بأمرٍ وليتَه، ووالله ما أحبّ أنّه لغيرك. إن أعطيتَ الحقّ من نفسِك. إنّ عثمانَ قُتل مسلِماً مُحرِماً مظلوماً، فادفع إلينا قَتَلته، وأنتَ أميرُنا، فإن خالَفَك من النّاس أحدٌ كانت أيدِينا لك ناصرة، وألسنتُنا لك شاهدة، وكنتَ ذا عُذْر وحجّة. فقال له عليّ عليه السلام: اغْدُ عليّ غداً، فخذ جوابَ كتابِك، فانصرف، ثم رجع من غدٍ ليأخذ جوابَ كتابِه، فوجد الناسَ قد بَلَغهم الّذي جاء فيه قبل، فلَبِست الشيعةُ أسلحتَها ثم غَدَوا فملؤوا المسجِدَ، فنادَوا: كلّنا قَتَلة عثمان، وأكثروا من النّداء بذلك وأذِن لأبي مسلم، فدخَل، فدفَع عليّ عليه السلام جوابَ كتاب معاوية، فقال أبو مسلم: لقد رأيت قوماً ما لَكَ معهم أمر، قال: وما ذاك؟ قال: بَلَغَ القومَ أنّك تريد أن تدفع إلينا قَتَلَةَ عثمان فضجّوا، واجتَمَعوا، ولبسوا السّلاحَ، وزعموا أنهم قتلة عثمان. فقال عليٌّ عليه السلام، والله ما أردت أن أدفعهم إليكم طرفةَ عَين قطّ، لقد ضربتُ هذا الأمرَ أنفَه وعينَه، فما رأيتُه ينبغي لي أن أدفَعهم إليك، ولا إلى غيرك. فخرج أبو مسلم بالكتاب وهو يقول: الآن طابَ الضِّراب!

وكان جوابُ عليّ عليه السلام: من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سُفْيان.

أمّا بعد، فإن أخا خَوْلان قَدِم عليَّ بكتابٍ منك تَذكُر فيه محمداً ﷺ وما أنعَم الله به عليه من الهُدَى والوَحْي، فالحمدُ لله الّذي صَدَقه الوعد، وأيّده بالنّصر، ومكّن له في البلاد، وأظهَرَه على أهلِ العداوة والشّنآن من قومِه الّذين وَثَبوا عليه، وشنِفوا له، وأظهَرُوا تكذيبه وبارَزُوه بالعَداوة، وظاهروا على إخراجِه وعلى إخراجِ أصحابه وأهله، وألّبوا عليه العرب، وجادلوهم على حربه، وجَهَدوا في أمره كلّ الجَهْد، وقَلَبوا له الأمورَ حتى جاءَ الحقّ وظهرَ أمْر الله وهم كارهون، وكان أشَدَّ الناس عليه تأليباً وتحريضاً أسرَتُه، والأدنى فالأدنى من قومِه، إلّا مَن عَصَم الله. وذكرتَ أن الله تعال اجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده الله بهم، فكانوا في منازلهم عندَه عَلَى قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلَهم - زعمت - في الإسلام وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة ولعمري إن مكانهما في الإسلام لعظيم، وإنّ المصابَ بهما لجُرحٌ في الإسلام شديد، فرحِمَهما الله وجزاهما أحسنَ ما عَمِلا! وذكرتَ أنّ عثمان كان في الفضل تالياً، فإن يَكُ عثمانُ محسناً فسَيجزيه الله بإحسانه، وإن يك مُسيئاً فَسيَلقَى ربًّا غفوراً لا يتعاظَمُه ذَنْب أنْ يغفره، ولَعمْري إنّي لأرجو إذا أعطى الله الناسَ على قدر فضائِلهم في الإسلام ونصيحتِهم لله ولرسوله، أنْ يكون نصيبُنا في ذلك الأوفر. إن محمداً ﷺ لمّا دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنّا أهلَ البيت أوّلَ من آمن به وصدَّقه فيما جاء، فبتْنا أحْوالاً كاملةً مجرّمة[1] تامة، وما يُعبَد الله في رَبْع ساكن من العَرَب غيرنا، فأراد قومُنا قتلَ نبيّنا، واجتياحَ أصلِنا، وهمُّوا بنا الهُموم، وفَعَلوا بنا الأفاعيل، ومنَعونا المِيرة، وأمسكوا عنا العَذْب، وأحْلَسُونا الخوْف. وجَعَلوا علينا الأرصاد والعيون، واضطرّونا إلى جَبَل وَعْر، وأوْقَدوا لنا نار الْحَرْب، وكَتَبوا بينهم كتاباً، لا يؤاكِلُوننا، ولا يُشاربُوننا، ولا يُناكحوننا، ولا يُبايعوننا، ولا نأمن منهم حتى ندفعَ إليهم محمداً فيقتلوه ويمثّلوا به، فلم نكن نأمن فيهم إلّا من مَوْسم إلى مَوْسم، فَعزم الله لنا عَلَى مَنعه، والذبّ عن حَوْزته، والرّمي من وراء حُرْمته، والقيام بأسيافِنا دونه في ساعات الخوف بالّليل والنهار، فمُؤمِننا يرجو بذلك الثواب، وكافِرُنا يُحامِي عَن الأصل، وأمّا مَن أسلَم من قريش فإنّهم ممّا نحن فيه خَلاء، منهم الحَليف الممنوع، ومنهم ذو العَشِيرة الّتي تدافع عنه، فلا يبغيه أحدٌ مثل ما بغانا به قومُنا من التّلف، فهم مِن القَتْل بمكان نجْوة وأمْن، فكان ذلك ما شاء الله أن يكون. ثم أمرَ الله تعالى رسوله بالهجرة، وأذِنَ له بعد ذلك في قتال المشركين، فكان إذا احمرّ الباس، ودعيتْ نزالِ أقامَ أهلَ بيته، فاستقدموا، فوقى أصحابَه بهم حد الأسنّة والسيوف، فقِتل عبيدة يوم بَدْر، وحمزة يوم أُحُد، وجعفر وزَيد يوم مؤتة، وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمه مثلَ الذي أرادوا من الشهادة مع النبي ﷺ غير مرّة، إلا أن آجالهم عُجّلتْ، ومنيّته أخّرتْ، والله وليّ الإحسان إليهم، والمِنّة عليهم، بما أسلفوا من أمر الصالحات، فما

---

(١) أي: مكتملة. اللسان، مادة (جرم).

سمعتُ بأحد ولا رأيته هو أنصحُ في طاعة رسولِه ولا لنبيّه، ولا أصبرَ على اللأواء والسرّاء والضرّاء وحين البأس، ومواطن المكْروه مع النبي صلى الله عليه وآله من هؤلاء النّفر الذين سميّتُ لك، وفي المهاجرين خيرٌ كثير يعرَف، جزاهم الله خيراً بأحسن أعمالهم. وذكرتَ حسدي الخلفاءَ وإبطائي عنهم، وبغيي عليهم، فأمّا البغي فمعاذ الله أن يكون، وأما الإبطاء عنهم والكراهية لأمرهم فلستُ أعتذر إلى الناس من ذلك، إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيَّه الله صلى الله عليه وآله قالت قريش: منّا أميرٌ، وقالت الأنصار: منّا أمير، فقالت قريش: منَّا محمد، نحن أحق بالأمر، فعرفتْ ذلك الأنصار فسلّمت لهم الولاية والسلطان، فإذا استحقّوها بمحمد صلى الله عليه وآله دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحقُّ به منهم، وإلّا فإنّ الأنصار أعظمُ العرب فيها نصيباً، فلا أدري أصحابي سلموا من أن يكونوا حقّي أخذوا، أو الأنصار ظلموا، بل عرفت أن حقي هو المأخوذ، وقد تركته لهم تجاوُزاً لله عنهم. وأمّا ماذكرت من أمر عثمان، وقطيعتي رحمه، وتأليبي عليه فإن عثمان عمل ما قد بلغك، فصنع الناس به ما رأيت، وإنك لتعلم أني قد كنت في عُزْلة عنه إلا أن تتجنّى، فَتَجَنَّ ما بدا لك، وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإنّي نظرتُ في هذا الأمر وضربتُ أنفه وعينه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك، ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنّهم عن قليل يطلبونك لا يكلفّونك أن تطلبهم في برّ ولا بحر ولا سهل ولا جَبَل، وقد أتاني أبوك حين ولّى الناسُ أبا بكر، فقال: أنتَ أحقُّ بمقام محمد، وأولى النّاس بهذا الأمر، وأنا زعيمٌ لك بذلك على من خالف، ابسُطْ يدك أبايْعك، فلم أفعل، وأنتَ تعلم أنّ أباك قد قال ذلك وأراده حتى كنتُ أنا الذي أبيتُ، لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام، فأبوك كان أعرف بحقي منك، فإن تعرفْ من حقي ما كان أبوك يعرِف تُصبْ رُشدَك، وإن لم تفعل فسيُغني الله عنك، والسلام[1].

١٠ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضاً

الأصل: وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا، دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا. وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا، وَأَنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لا يُنْجِيكَ مِنْهُ مُنْجٍ.

فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا ٱلْأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلا تُمَكِّنِ ٱلْغُوَاةَ

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ١١٣.

مِنْ سَمْعِكَ، وَإِلَّا تَفعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ ٱلشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى ٱلرُّوحِ وَٱلدَّمِ.

وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ ٱلرَّعِيَّةِ، وَوُلاةَ أَمْرِ ٱلْأُمَّةِ، بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلا شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ ٱلشَّقَاءِ.

وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ ٱلْأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ ٱلْعَلانِيَةِ وَٱلسَّرِيرَةِ.

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى ٱلْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً، وَٱخْرُجْ إِلَيَّ، وَٱعْفِ ٱلْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا المَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ، وَٱلْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ!

فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ ٱلْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي، مَا ٱسْتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلا ٱسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً، وَإِنِّي لَعَلَى المِنْهَاجِ ٱلَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ، فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ ٱلْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ ٱلْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ ٱلْمُتَتَابِعِ، وَٱلْقَضَاءِ ٱلْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَى كِتَابِ ٱلله، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ.

الشرح: الجلابيب: جمعُ جلْباب، وهي المِلْحفة في الأصل، واستُعير لغيرها من الثيّاب، وتجلبَب الرجلُ جلبيةً، ولم تُدغم لأنّها ملحقة بـ «دَحْرَجة».

قوله: «وتبهّجتْ بزينتها»: صارت ذاتَ بهجة، أي زينة وحُسْن، وقد بَهُج الرجلُ بالضم، ويُوشِك: يسرع.

ويقفك واقف، يعني الموتَ، ويُروَى: «ولا ينجيك مِجَنّ»، وهو التُّرْس، والرواية الأولى أصح.

قوله: «فاقعَسْ عن هذا الأمر»، أي تأخرّ عنه، والماضي قَعَس بالفتح، ومثلُه تقاعَسَ واقْعَنْسَسَ. وأهْبة الحساب: عُدّته، وتأهّب: «استعدّ»، وجمع الأهْبة أُهَب. وشمِّر لما قد نزل بك، أي جِدَّ واجتهد وخِفَّ، ومنه رجل شَمَّرِيّ بفتح الشين، وتُكسر. والغواةُ: جمع غاوٍ، وهو الضّال.

قوله: «وإلا تفعل» يقول: وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتُك ووعظتُك به فإنّي أعرِّفك من نفسك ما أغفلتَ معرفته. إنّك مترَف، والمترفُ الذي قد أترفته النِّعمة، أي أطغته.

قد أخذ الشيطان منك مأخذه، ويُروَى «مآخذه» بالجمع، أي تناوَل الشيطانُ منك لُبَّك وعقلك. ومأخذه مصدر، أي تناولك الشيطان تناولَه المعروف، وحذف مفعول «أخذ» لدلالة الكلام عليه، ولأنّ اللفظةَ تَجري مَجرى المَثَل.

قوله: «وجَرَى منك مجْرَى الرُّوح والدم»، هذه كلمةُ رسول الله ﷺ: «إنّ الشيطان ليَجرِي من ابن آدمَ مَجرَى الدم»(١).

ثم خرج عليه السلام إلى أمر آخر، فقال لمعاوية: «ومتى كنتمْ ساسَةَ الرعيّة، ووُلاة أمرِ الأمّة!» ينبغي أن يُحمَل هذا الكلامُ على نفي كونِهم سادة وولاةً في الإسلام، وإلا ففي الجاهلية لا يُنكَر رياسة بني عبدِ شَمْس. ولست أقولُ برياستهم على بني هاشم، ولكنّهم كانوا رؤساءَ على كثيرٍ من بطون قريش، ألا ترَى أنّ بني نَوْفل بن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم، وأنّ بني عبد شمس كانوا في يوم بدر قادة الجيش، كان رئيس الجيش عُتبة بنُ ربيعة، وكانوا في يوم أُحُد ويوم الخَنْدق قادةَ الجَيْش! كان الرئيس في هذين اليومين أبا سُفْيان بن حرب، وأيضاً فإنّ في لفظة أمير المؤمنين عليه السلام ما يُشعِر بما قلناه، وهو قوله: «ووُلاةُ أمرِ الأمّة» فإنّ الأمّة في العرب هم المسلمون، أمّة محمّد ﷺ.

قوله عليه السلام: «بغير قدمٍ سابق»، يقال: لفلانٍ قدمُ صِدْق، أي سابقة وأثَرَةٌ حَسَنة.

قوله عليه السلام: «ولا شرف باسق»، أي عالٍ.

وتَمادَى: تفَاعَل، من المدى، وهو الغاية، أي لم يقَفِ بل مَضَى قُدُماً.

والغِرَّة: الغَفْلة. والأمْنيّة: طمعُ النفْس. ومختلِف السّريرة والعلانية: منافق.

قوله عليه السلام: «فدَعِ الناسَ جانباً»، منصوب على الظَّرْف.

والمرين على قلبه: المغلوبُ عليه، من قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢). وقيل: الرَّيْن: الذنب على القريب.

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكَلِمة لأنّ معاوية قالها في رسالةٍ كتبها، ووقفتُ عليها من كتاب أبي العبّاس يعقوب بن أبي أحمد الصَّيْمَريّ الذي جمعَه من كلام عليٍّ عليه السلام وخطبه، وأوّلها:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتكاف، باب: هل يدرأ المعتكف عن نفسه (٢٠٣٩)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة (٢١٧٤) بلفظ: من الإنسان، والترمذي، كتاب: الرضاع، باب: كراهية الدخول على المغيبات (١١٧٣)، بلفظ: من أحدكم، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في ذراري المشركين (٤٧١٩).

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

أما بعد، فإنَّك المطبوعُ عَلَى قلبِك، المغطَّى على بَصرِك، الشرّ من شيمتك، والعُتوّ من خَليقتك، فشمِّر للحرب، واصبر للضَّرب، فوالله ليرجعنّ الأمرُ إلى ما علمت، والعاقبة للمتقين. هيهاتَ هيهات! أخطأك ما تمنّى، وهَوَى قلبك فيما هَوَى، فاربَعْ عَلَى ظَلْعِك، وقِسْ شبْرَك بِفترِك، تَعلم أين حالُك من حالِ من يَزِن الجبالَ حِلمُه، ويفَصِل بين أهل الشّكّ عِلمُه، والسلام.

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: أمّا بعد، يا بن صَخْر، يا بن اللَّعين، يَزِن الجبالَ فيما زعمتَ حِلمُك، ويفَصِل بين أهلِ الشك عِلمُك، وأنتَ الجاهلُ القليلُ الفِقْه، المتفاوتُ العقل، الشاردُ عن الدين.

وقلتَ: «فشمِّر للحرب، واصبر»، فإن كنتَ صادقاً فيما تَزعمُ، ويُعينُك عليه ابن النّابغة، فدَعِ الناسَ جانباً، وأعفِ الفَريقين من القِتال، وابرُزْ إليّ لتعلم أيّنا المرينُ عَلَى قلبه، المغطَّى على بصره، فأنا أبو الحَسَن حقاً، قاتلُ أخيك وخالك وجدِّك، شَدْخاً يومَ بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلبِ ألقَى عدوّي!.

قوله عليه السلام «شَدْخاً»، الشّدخ: كَسرُ الشيء الأجْوف، شَدخت رأسَه فانشدخ، وهؤلاء الثلاثةُ: حنظلةُ بنُ أبي سُفيان، والوليد بنُ عتبة، وأبوه عتبةُ بن ربيعة، فحنظلة أخوه، والوليد خالُه، وعتبةُ جدُّه، وقد تقدَّم ذكرُ قَتْلِه إيّاهم في غَزاةِ بَدْر.

والثائر: طالب الثأر. وقوله: «قد علمتَ حيث وقعَ دمُ عثمانَ فاطلبْه من هناك»، يريد به إن كنتَ تطلُب ثأرَك من عند من أجْلَب وحاصَرَ، فالّذي فَعَل ذلك طلحةُ والزبير، فاطلب ثأرَك من بني تميم ومن بني أسَد بن عبدِ العُزّى، وإن كنت تطلبه ممّن خَذَل، فاطلبْه من نَفسِك فإنّك خَذَلْته، وكنتَ قادراً على أن تَرفِده وتُمِدّه بالرجال، فخذلَته وقعدتَ عنه بَعد أن استنجَدَك واستغاث بك.

وتضجّ: تصوِّت. والجاحِدة: المنكرة، والحائدة: العادلة عن الحق.

واعلم أنّ قوله: «وكأنّي بجماعتك يدعونني جَزَعاً من السّيف إلى كتاب الله تعالى»، إمّا أن يكون فِراسةً نبويّة صادقة، وهذا عظيم، وإما أن يكون إخباراً عن غَيْب مفصّل، وهو أعظمُ وأعجب، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العَجَب. وقد رأيت له ذِكرَ هذا المعنى في كتاب غيرِ هذا، وهو: أما بعدُ، فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلَمني بمنزلتك التي أنت إليها صائر، ونحوها سائر، وليس إبطائي عنكَ إلا لوقت أنا به مصدِّق، وأنتَ به مكذِّب، وكأنّي أراك وأنتَ تضجّ من الحرب، وإخوانُك يدعونني خوفاً من السّيف، إلى كتابٍ هم به كافرون، وله جاحدون.

ووقفت له عليه السلام على كتاب آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوّله: أمّا بعد، فطالَمَا دعوتَ أنتَ وأولياؤك أولياءُ الشَّيطان الحقَّ أساطير، ونبذتموه وراء ظهوركم، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]. ولَعَمري لينفذنّ العلمُ فيك، وليتمّنّ النورُ بصِغرك وقماءتك، ولتخسأنّ طريداً مَدْحوراً، أو قتيلاً مَثْبوراً، ولتُجْزَيَنّ بعَملك حيث لا ناصرَ لك، ولا مُصرِّخ عندك. وقد أسهَبْتَ في ذكر عثمان، ولَعمري ما قَتَله غيرُك، ولا خَذَله سواك، ولقد تربَّصْتَ به الدوائر، وتمنّيت له الأمانيّ، طمعاً فيما ظهر منك، ودلّ عليهِ فعلُك، وإنّي لأرجو أن ألحِقَكَ به على أعظمَ من ذنبِه، وأكبر من خطيئته.

فأنا ابن عبد المطّلب صاحبُ السّيف، وإنّ قائمه لفي يدي، وقد علمتَ من قتلتُ به من صناديد بني عبد شَمْس، وفراعنة بني سَهْم وجُمح وبني مخزوم، وأيتمتُ أبناءَهم، وأيَّمت نساءهم. وأذكرك ما لستَ له ناسياً، يومَ قتلتُ أخاك حنْظلة، وجررتُ برجْله إلى القَليب، وأسرتُ أخاك عمراً، فجعلتُ عنقَه بين ساقيه رباطاً، وطلبتُك ففررتَ ولك حُصاص، فلولا أني لا أَتبع فارّاً، لجعلتك ثالثهما، وأنا أولي لك بالله ألّية بَرّة غير فاجرة، لئن جمعَتني وإيّاك جوامع الأقدار، لأتركنّك مثلاً يتمثّل به الناس أبداً، ولأجعْجِعنّ بك في مناخِك حتّى يحكم الله بيني وبينك، وهو خيرُ الحاكمين.

ولئن أنسأ الله في أجلي قليلاً لأغزِينّك سَرايا المسلمين، ولأنهدنّ إليك في جحْفل من المهاجرين والأنصار، ثم لا أَقبَل لك معذرة ولا شفاعة، ولا أجيبُك إلى طلب وسؤال، ولترجعنّ إلى تحيُّرك وتردُّدك وتلدُّدك، فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ سُحُب الموتِ كيف هطلتْ عليك بصيِّبها حتى اعتصمت بكتابٍ أنت وأبوك أوّل من كَفر وكذّب بنزُوله. ولقد كنتُ تفرّسْتُها، وآذنْتك أنّك فاعِلُها، وقد مضى منها ما مَضَى، وانقضى من كَيْدك فيها ما انقضى، وأنا سائرٌ نحوك على أثر هذا الكتاب، فاخترْ لنفسك، وانظرْ لها، وتداركْها، فإنّك إن فطرت واستمرزْت علي غيِّك وغُلَوائك حتى ينهد إليك عبادُ الله، أرْتجَت عليك الأمور، ومُنعت أمراً هو اليوم منك مقبول.

يا بن حرب، إنّ لجاجك في منازعة الأمر أهله من سفاه الرّأي، فلا يطمعنّك أهلُ الضلال، ولا يوبقنّك سفُه رأي الجهال، فوالّذي نفسُ عليٍّ بيده لئن برقتْ في وجهك بارقة من ذي الفقار لتُصعَقنّ صعْقةً لا تفُيق منها حتى يُنفخ في الصور النّفخة الّتي يئستَ منها ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.

قلتُ: سألتُ النقيب أبا زيد عن معاوية: هل شهد بدراً مع المشركين؟ فقال: نَعم شِهدَها ثلاثة من أولاد أبي سفيان: حنظلة وعَمرو ومُعاوية، قُتِل أحدهم، وأسِر الآخر، وأفلت معاويةُ هارباً على رجْليْه، فقدِم مكّة، وقد انتفخ قدَماه، وَوَرمتْ ساقاه، فعالج نفسَه شهرين حتى برأ.

قال النّقيب أبو زيد: ولا خلافَ عند أحَدٍ أنّ علياً عليه السلام قتل حنظلة وأسَر عمراً أخاه. ولقد شهد بدراً، وهَرَب على رجليه مَن هو أعظمُ منهما ومن أخيهما عمرو بن عبد ودّ فارس يوم الأحزاب، شهدَها ونجا هارباً على قدميه، وهو شيخ كبير، وارتُثّ جريحاً، فوَصَل إلى مكّة وهو وَقِيذ فلم يشهد أُحُداً، فلمّا برأ شهد الخَندق، فقتَلَه قاتلُ الأبطال، والّذي فاتَهُ يومَ بدْر استدركه يوم الخندق.

ثم قال لي النقيب رحمه الله: أما سمعتَ نادرة الأعمش ومُناظِرَه؟ فقلتُ: ما أعلمُ ما تريد، فقال: سأل رجلٌ الأعمش - وكان قد ناظَرَ صاحباً له - هل معاويةُ من أهل بدر أم لا؟ فقال له: أصلَحَك الله، هل شَهِد معاويةُ بدراً؟ فقال: نعم مِن ذلك الجانب.

واعلم أن هذه الخُطْبة قد ذكرها نصر بنُ مُزاحم في كتاب «صِفّين» على وجه يقتضي أنَّ ما ذكره الرضيّ - رحمه الله - منها قد ضمّ إليه بعضَ خطبةٍ أخرى، وهذه عادَتُه، لأن غَرَضه الْتِقاط الفصيح والبليغ من كلامه، والذي ذكره نصرُ بنُ مزاحم هذه صورته:

من عبد الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سُفْيان، سلامٌ على من اتّبع الهدى فإنّي أحمد إليك الله الّذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنك قد رأيتَ مُرور الدنيا وانقضاءَها وتصرُّمَها وتصرّفَها بأهلها، وخيرُ ما اكتُسِب من الدّنيا ما أصابَه العبادُ الصالحون منها من التقوى، ومن يَقس الدّنيا بالآخرة يَجدْ بينهما بعيداً. واعلمْ يا معاوية أنّك قد ادّعيتَ أمراً لستَ من أهله لا في القَديم ولا في الحديث، ولستَ تقول فيه بأمر بيّن يُعرَف له أثر، ولا عليك منه شاهد من كتاب الله، ولستَ متعلّقاً بآيةٍ من كتاب الله، ولا عهدٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف أنت صانع إذا تقشّعتْ عنك غيابةُ ما أنتَ فيه من دُنيَا قد فتنتَ بزينتها، وركَنْتَ إلى لذّاتها، وخُلّي بينك وبين عدوِّك فيها، وهو عدوٌّ كَلِب مُضِلٌ جاهد مُلِيح، ملحّ، مع ما قد ثَبَت في نفسِك من جهتها، دعتْك فأجَبْتَها، وقادتك فاتّبعتها، وأمرَتْك فأطَعْتها، فاقْعَسْ[1] عن هذا الأمر، وخذ أهبَة الحساب، فإنه يُوشك أن يَقِفَك واقف على ما لا يجنّك مِجَنٌّ.

ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعيّة، أو وُلاةً لأمر هذه الأمّة، بلا قَدَم حَسَن، ولا شَرفٍ تَليد

---

(١) أي: تأخروا رجع. اللسان، مادة (قعس).

على قومكم، فاستيقظ من سِنَتِك، وارجعِ إلى خالقِك، وشمّر لما سينزل بك، ولا تُمَكّن عدوَّك الشيطانَ من بغيته فيك، مع أنّي أعرف أنَّ الله ورسولَه صادقان، نعوذ بالله من لُزوم سابق الشَّقاء وإلا تَفعَلْ فإني أُعلمك ما أغفلتَ من نَفسك، إنك مُترَف، قد أخذَ منك الشيطان مأخذه، فجرى منك مَجرى الدم في العروق، ولستَ من أئمة هذه الأمة ولا من رعَاتها. واعلم أنَّ هذا الأمر لو كان إلى الناس أو بأيديهم لحسَدُوناهُ، ولامْتَنُّوا علينا به، ولكنّه قضاءٌ ممَّن مَنَحناه واْختصّنا به، على لسان نبيّه الصادق المصدَّق، لا أفلَح من شَك بعد العِرْفانِ والبينة! ربِّ احكمْ بيننا وبين عدوِّنا بالحق وأنت خيرُ الحاكمين.

قال نصر: فكتبَ معاويةُ إليه الجوابَ: من معاوية بن أبي سُفيان إلى عليّ بن أبي طالب، أمَّا بعد: فدَعِ الحسَد، فإنَّك طالما لم تَنْتفع به، ولا تُفسِد سابقةَ جهادك بشِرَّةِ نَخوَتك، فإنَّ الأعمال بخواتيمها، ولا تُمحّص سابقتَك بقتالِ مَن لا حقّ لك في حقّه، فإنَّك إنْ تفعل لا تَضرّ بذلك إلا نفسَك، ولا تمحَق إلّا عَمَلك، ولا تُبطل إلّا حجّتك، ولَعَمري إن ما مضى لك من السابقات لشبيه أن يكون ممحوقاً، لما اجترأتَ عليه من سَفْك الدماء، وخلافِ أهلِ الحقّ، فاقرأ السُّورة التي يُذكَر فيها الفَلَق وتعوَّذ من نفسِك فإنّك الحاسدُ إذا حَسَد.

١١ - ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو

الأصل: فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فليكن مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ ٱلْأَشْرَافِ، أَوْ سِفَاحِ ٱلْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً.

وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَو ٱثْنَيْنِ، وَٱجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي ٱلْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ ٱلْهِضَابِ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ ٱلْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ المقَدِّمَةِ طَلائِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ٱرْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا غَشِيَكُمُ ٱللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً.

الشرح: المُعسكَر، بفتح الكاف: موضعُ العسْكَر، وحيث ينزِل.

الأشراف: الأماكن العالية، وقُبُلها: ما ٱستقبَلَك منها، وضدّه الدُّبر. وسفاح الجبال:

أسافلُها حيث يَسفَح منها الماء. وأثناء الأنهار: ما انعَطف منها، واحدُها ثِني. والمعنى أنّه أمرهم أن ينزِلوا مسندين ظهورَهم إلى مكانٍ عالٍ كالهِضاب العَظيمة، أو الجبالِ، أو مُنعطَف الأنهار الّتي تجرِي مجرَى الخنادق على العسكر ليأمنوا بذلك من البيات، وليأمَنوا أيضاً من إتيان العدوّ لهم من خَلْفِهم، وقد فسّر ذلك بقوله: كيما يكون لكم رِدْءاً، والرِّدء: العَوْن، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾(١).

ودونكم مَرَدًّا، أي حاجزاً بينكم وبين العدوّ.

ثمّ أمرَهم بأن يكونَ مُقاتَلتهم - بفتح التاء، وهي مَصدَر «قاتل» - من وجهٍ واحدٍ أو اثنين، أيْ لا تتفرَّقوا، ولا يكن قتالُكم العدوَّ في جهاتٍ متشعِّبة، فإنَّ ذلك أدعى إلى الوَهَن، واجتماعُكم أدعَى إلى الظفَر، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباءَ في صياصِي الجبال. وصَياصِي الجبال: أعاليها وما جرى مجرَى الحصون منها، وأصل الصياصي القُرون، ثم استُعير ذلك للحصون لأنّه يُمتَنَع بها كما يمتنع ذو القَرْن بقَرْنه. ومناكب الهضاب: أعاليها، لئلا يأتيَكم العدوّ إمَّا من حيث تأمَنون، أو من حيث تخافون.

قوله عليه السلام: «مقدِّمة القوم عُيونُهم»، المقدِّمة، بكسر الدال، وهم الّذين يتقدّمون الجيش، أصله مقدِّمة القوم، أي الفرْقة المتقدمة. والطّلائع: طائفة من الجيش تُبعث ليُعلم منها أحوال العدوّ. وقال عليه السلام: المقدِّمة عيون الجَيْش. والطلائع عيون المقدِّمة، فالطلائع إذاً عُيونُ الجَيْش.

ثم نهاهم عن التفرّق، وأمَرَهم أنّ ينزلوا جميعاً ويَرحلوا جميعاً، لئلا يفْجَأهم العدو بغتة على غير تعبيةٍ واجتماع، فيَستأصلهم، ثم أمرَهم أن يجعلوا الرِّماح كِفَّة إذا غشيَهم الليل، والكاف مكسورة، أي اجعلوها مُستَدِيرة حوْلكم كالدّائرة، وكلّ ما استدار كِفّة بالكسر، نحو كِفّة الميزان، وكلّ ما استطال كُفّة بالضم نحو: كُفّة الثوب وهي حاشيته، وكُفة الرّمل، وهو ما كان منه كالْحَبل.

ثم نهاهم عن النّوم إلّا غراراً أو مضمضةً، وكلا اللّفظتين ما قلَّ من النوم.

وقال شبيب الخارجيّ: الليلُ يَكفيك الجبان، ويصف الشجاع.

وكان إذا أمسَى قال لأصحابه: أتاكم المَدَد، يعني اللّيل.

قيل لبعض الملوك: بيِّتْ عدوَّك. قال: أكرَه أن أجعلَ غَلبتي سَرِقة.

ولما فصَل قَحطبة من خُراسَان وفي جُملتِه خالدُ بنُ برمك، بينا هو على سَطْح بيتٍ في قرية

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤.

نَزَلاها وهم يتغدَّون نظر إلى الصَّحْراء فرأى أقاطيعَ ظِباء قد أقبلتْ من جهةِ الصَّحارِي حتى كادت تخالط العسكر، فقال خالد لقَحْطبة: أيّها الأمير، نادِ في الناس: يا خَيلَ الله ارْكبي، فإن العدوَّ قد قَرُب منك، وعامة أصحابك لن يُسرِجوا ويُلجموا حتى يَروْا سَرَعان الخيل. فقام قَحطبة مذعوراً فلم يرَ شيئاً يَروعُه، ولم يُعاين غُباراً، فقال لخالد: ما هذا الرأي؟ فقال: أيها الأمير! لا تتشاغل بي، وناد في الناس، أما تَرَى أقاطيع الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعَها حتى خالَطَت الناس! وإن وراءها لجَمعاً كَثيفاً. قال: فوالله ما أسرجوا ولا ألجموا حتى رأوا النَّقع وساطع الغُبار، فسلَّموا، ولولا ذلك لكان الجيشُ قد اصْطُلِم.

١٢ - ومن وصية له عليه السلام وصّى بها معقل بن قيس الرياحيّ حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له

الأصل: ٱتَّقِ ٱللهَ ٱلَّذِي لا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلا مُنْتَهَى لَكَ دُونَه، وَلا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِ ٱلْبَرْدَيْنِ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ فِي ٱلسَّيْرِ. وَلا تَسِرْ أَوَّلَ ٱللَّيْلِ، فَإِنَّ ٱللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لا ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ ٱلسَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ ٱلْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ ٱللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ ٱلْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلا تَدْنُ مِنَ ٱلْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ ٱلْحَرْبَ. وَلا تَباعَدْ عَنْهُمْ تَباعُدَ مَنْ يَهابُ ٱلْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي. وَلا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتالِهِمْ قَبْلَ دُعائِهِمْ وَٱلْإِعْذارِ إِلَيْهِمْ.

الشرح: معقِل بن قَيس، كان من رجال الكُوفة وأبطالِها، وله رياسة وقِدَم، أَوفَده عمّار بنُ ياسر إلى عمرَ بن الخطاب مع الهُرْمُزان لفَتْح تُسْتَر وكان من شيعة عليّ عليه السلام، وجّهه إلى بني ساقَةَ فقتَل منهم وسَبى، وحارَب المستَوْرِدَ بنَ عُلفة الخارجيّ من تميم الرّباب، فقتَل كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه بدِجلة، وقد ذكرنا خَبرهما فيما سَبَق، ومعقِل بنُ قيس رِياحيّ من ولد رِياح بن يرْبوع بن حَنظلة بنِ مالك بن زيد مناة بن تميم.

قوله عليه السلام: «ولا تُقاتلَن إلّا من قَاتلك»، نهى عن البغْي.

وسِرِ البَرْدَين: هما الغَداة والعَشِيّ، وهما الأبرَدان أيضاً.

ووصّاه أن يَرفُق بالنّاس ولا يكلّفهم السيرَ في الحرّ.

قوله عليه السلام: «وغوِّر بالناس»: انزِل بهم القائلة، والمَصدَر التّغويرُ، ويقال للقائلة: الغائرة.

قوله عليه السلام: «وَرفِّه في السّير»، أي دَع الإبلَ تَردُ رِفْهاً، وهو أن ترِدِ الماءَ كلّ يوم متى شاءت ولا تُرهِقها وتجشمها السَّير. ويجوز أن يكون قوله: «ورفِّه في السَّير»، مِن قولك: رَفَّهتُ عن الغرِيم، أي نفّست عنه.

قوله عليه السلام: «ولا تسر أول الليل»، قد وَرَد في ذلك خبرٌ مرفوع، وفي الخبر أنه حين تُنشر الشياطين. وقد علل أميرُ المؤمنين عليه السلام النهي بقوله: «فإن الله تعالى جعله سكناً، وقدّره مُقاماً لا ظعناً»، يقول: لما امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه كره أن يخالفوا ذلك. ولكن لقائل أن يقول: فكيف لم يكره السير والحركة في آخره وهو من جملة الليل أيضاً! ويمكن أن يكون فهم من رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الليل الذي جُعل سكناً للبشر إنما هو من أوّله إلى وقت السَّحَر.

ثم أمره عليه السلام بأن يريح في الليل بَدَنه وظَهرَه، وهي الإبل، وبنو فلان مُظهرون، أي لهم ظَهْر ينقَلون عليه، كما تقول: منجِبون، أي لهم نجائب.

قال الراونديّ: الظّهْر. الخيول، وليس بصحيح، والصحيح ما ذكرناه.

قوله عليه السلام: «فإذا وقفتَ» أي فإذا وقفتَ ثَقَلك ورَحلك لتسير، فليكن ذلك حين ينبطح السحر.

قال الراونديّ: «فإذا وقفتَ» ثم قال: وقد رُوي: «فإذا واقفْتَ»، قال: يعني إذا وقفت تحارب العدوّ وإذا واقفته، وما ذكره ليس بصحيح ولا روِي، وإنما هو تصحيف، ألا تراه كيف قال بعده بقليل: «فإذا لقيتَ العدّو»! وإنما مرادُه ها هنا الوصاة بأن يكون السيرُ وقت السحر ووقت الفَجْر.

قوله عليه السلام: «حين ينبطح السحر»، أي حين يتّسع ويمتدّ، أي لا يكون السحر الأول، أي ما بين السحر الأول وبين الفَجْر الأول، وأصل الانبطاح السَّعة، ومنه الأبطح بمكة، ومنه البطيحة، وتبطّح السيل، أي اتّسع في البطحاء، والفجر انفجر انشقّ.

ثم أمره عليه السلام إذا لقي العدوّ أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس، والواجب أن يكون الرئيس في قلب الجيش، كما أنّ قلب الإنسان في وسط جسده، ولأنه إذا كان وسطاً كانت نسبته إلى كلّ الجوانب واحدة، وإذا كان في أحد الطرفين بعد من الطَّرف الآخر، فربما يختلّ نظامه ويضطرب.

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدوّ دنوّ من يريد أن يُنشِب الحرب، ونهاه أن يبعدُ منهم بُعْدَ من يهاب الحرب، وهي البأس، قال الله تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾[1]، أي حين الحَرْب، بل يكون

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

على حالٍ متوسِّطة بين هذين حتى يأتيَه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة.

ثم قال له: لا يحملنكم بغضكم لهم على أن تبدؤوهم بالقتال قبل أن تدْعُوهم إلى الطاعة وتُعْذِرُوا إليهم أي تصيروا ذوي عذر في حربهم.

والشَّنآن: البغض، بسكون النون وتحريكها.

أقوال في الحروب

وفي الحديث المرفوع: «لا تتمنّوا العدوّ فعسى أن تبتلوْا بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفنا شرّهم، وكفَّ عنّا بأسهم، وإذا جاؤوك يعرفون أو يضجّون فعليكم الأرض جُلوساً، وقولوا: اللهمّ أنتَ ربُّنا وربُّهم، وبيدك نواصينا ونواصيهم، فإذا غشوْكم فثوروا في وجوههم»(١).

وكان أبو الدّرداء يقول: أيُّها الناس، اعملوا عملاً صالحاً قبل الغَزْو، فإنما تقاتلون بأعمالكم.

وأوصى أبو بكر يزيدَ بن أبي سفيان حين استعمله فقال: سِرْ على بركة الله، فإذا دخلت بلاد العدوّ فكن بعيداً من الحملة، فإنّي لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسرْ بالأدِلّاء ولا تقاتل بمجروح، فإن بعضه ليس منه، واحترسْ من البَيات، فإن في العرب غِرّة، وأقلل من الكلام، فإنّ ما وُعِيَ عنك هو عليك، وإذا أتاك كتابي فأمضه، فإنما أعمل على حسب إنفاذه، وإذا قدم عليك وفود العجم فأنزلهم مُعظم عسكرك، وأسبغْ عليهم من النفقة، وامنع الناس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين، ولا تلحّنّ في عقوبة فإن أدناها وجيعة، ولا تُسرعنّ إليها وأنت تكتفي بغيرها، واْقبل من الناس علانيتهم، وكلْهم إلى الله في سَرِيرتهم، ولا تَعرِض عسكرَك فتفضحه، وأستودعك الله الذي لا تضيعُ ودائعه.

وأوصى أبو بكر أيضاً عكرمة بن أبي جهل حين وَجّهه إلى عُمَانَ فقال: سرْ على اسم الله، ولا تنزلنّ على مستأمِن، وقدِّم النَّذير بين يديك، ومهما قلتَ: إني فاعل فافعله، ولا تجعلنّ قولك لغواً في عقوبة ولا عفو، فلا تُرجَى إذا أمَّنت، ولا تُخاف إذا خوّفت. وانظر متى تقول ومتى تفعل، وما تقول وما تفعل، ولا تتوعدّنّ في معصية بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعلت أثِمت، وإن تركت كذبت، واتق الله، وإذا لقيت فاصبر.

(١) أخرج نحوه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٥١٣)، وسعيد بن منصور في «السنن» (٢٥١٩).

ولما ولّى يزيدُ بنُ معاويةَ سَلْم بن زياد خُراسان قال له: إنّ أباك كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتُك صغيراً، فلا تتّكلنّ على عذرٍ منّي، فقد اتكلت على كفاية منك، وإياك مِنّي من قبل أن أقول: إيّاكَ منك، واعلم أن الظنّ إذا أخلف منك أخلف فيك، وأنت في أدنى حظك، فاطلب أقصاه، وقد تبعك أبوك، فلا تريحنّ نفسك، واذكر في يومك أحاديثَ غَدِك.

وقال بعض الحكماء: ينبغي للأمير أن يكون له ستّة أشياء: وزير يثق به، ويفُشي إليه سِرّه، وحصنٌ إذا لجأ إليه عصمه - يعني فرساً - وسيفٌ إذا نزل به الأقرانُ لم يخفْ نبوَتَه، وذخيرة خفيفة المحمل إذا نابته نائبة وجدَها - يعني جوهراً - وَطبّاخ إذا أقْرى من الطعام صَنَع له ما يَهيجُ شهوتَه، وامرأةٌ جميلة إذا دخل أذهبتْ همَّه. في الحديث المرفوع: خيرُ الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يُغلب اثنا عشر ألفاً من قِلّة إذا اجتمعتْ كَلِمتُهم.

كان يقال: ثلاثة مَن كنّ فيه لم يُفلح في الحرب، البَغْي، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[(١)]، والمكر السّيىء، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[(٢)]. والنكث، قال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[(٣)].

يقال: خرجت خارجةٌ بخراسان على قتيبة بن مسلم، فأهمّه ذلك، فقيل: ما يَهمُّكَ منهم! وجّه إليهم وكيع بن أبي أسوَد يكفيك أمرَهم، فقال: لا أوجّهه، وإنّ وكيعاً رجل فيه كِبْر، وعنده بَغي، يحقِر أعداءه، ومنْ كان هكذا قلّت مبالاتُه بخَصْمه فلم يحترس، فوجد عدوُّه فيه غِرّةً، فأوقَع به.

وفي بعض كتب الفُرْس: إنّ بعض مُلوكِهم سأل: أيّ مكايد الحَرْب أحزم؟ فقال: إذكاء العيون، واستطلاع الأخبار، وإظهار القوّة والسرور والغَلَبة، وإماتة الفرَق، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح، ولا انتصاح لمن يغشّ، وكتمان السرّ، وإعطاء المبلّغين على الصِّدْق، ومعاقبة المتصولين بالكَذِب، وألّا تُخرج هارباً فتحوجه إلى القتال، ولا تُضيّق أماناً على مستأمِن، ولا تُدهشنّك الغنيمة عن المجاوزة.

وفي بعض كُتُب الهند: ينبغي للعاقل أن يحذَر عدوَّه المحاربَ على كلّ حال، يرهَب منه المواثَبة إنْ قَرُب، والغارة إن بَعُد، والكَمين إن انْكَشَف، والاستطراد إن ولّى، والمكْر إن رآه وحيداً. وينبغي أن يؤخّر القتال ما وجد بُدّاً، فإن النفقة عليه من الأنفس، وعلى غيرِه من المال.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٣.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٠.

١٣ - ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه

الأصل: وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُما وَعَلَى مَنْ فِي حَيِّزِكُما مَالِكَ بْنَ ٱلْحَارِثِ ٱلْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَٱجْعَلاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلا سَقْطَتُهُ، وَلا بُطْؤُهُ عَمَّا ٱلْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا ٱلْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

الشرح: هو مالك بنُ الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعةَ بن خُزيمة بن سعد بن مالك بن النَّخَعَ بن عمرو بن عُلَة بن خالد بن مالك بن أدَد. وكان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشّيعة وعُظمائها، شديدَ التحقّق بوَلاء أميرِ المؤمنين عليه السلام ونصرِه، وقال فيه بعد موته: رحم الله مالِكاً، فلقد كان لي كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله!

ولمّا قَنَت عليٌّ عليه السلام على خمسة ولَعَنهم وهم: معاوية، وعَمرو بن العاص، وأبو الأعوَر السُّلَميّ، وحبيب بن مسلمة، وبُسرُ بنُ أرطاة، قَنَت معاوية على خمسة، وهم: عليّ، والحَسَن، والحُسين - عليهم السلام - وعبد الله بن العبّاس، والأشتر، ولعنهم. وقد روي أنه قال لما ولّى علي عليه السلام بني العباس على الحِجاز واليَمَن والعِراق: فلِماذا قتلْنا الشيخَ بالأمس! وإن علياً عليه السلام لمّا بلغتْه هذه الكلمة أحضَرَه ولاطَفَه واعتَذَر إليه وقال له: فهل ولّيتُ حَسَناً أو حُسَيناً أو أحداً من وَلَد جعفر أخي، أو عَقيلاً أو واحداً من ولده! وإنما ولّيت ولَد عمّي العباس، لأنّي سمعت العبّاس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الإمارة مِراراً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عمّ، إن الإمارة إن طلبتَها وكلتَ إليها، وإن طلبتْك أعنت عليها[1]. ورأيتُ بَنِيه في أيّام عمرَ وعثمانَ يَجدون في أنفسهم إذ ولّى غيرهم من أبناء الطلَقاء ولم يولِّ أحداً منهم، فأحببتُ أن أصلَ رَحِمَهم، وأزيلَ ما كان في أنفسهم، وبعد فإنْ علمتَ أحداً من أبناء الطُّلَقاء هو خير منهم فأْتني به. فخرج الأشتر وقد زال ما في نفسه.

وقد رَوَى المحدِّثون حديثاً يدلّ على فضيلة عظيمة للأشتَر رحمه الله، وهي شهادةٌ قاطعةٌ من النبي صلى الله عليه وآله بأنّه مؤمن، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب» في حرف الجيم، في باب «جُندب» قال أبو عمر:

لما حضرتْ أبا ذرّ الوفاةُ وهو بالرَّبَذة بكت زوجته أمّ ذرّ، فقال لها: ما يُبكِيك؟ فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت بفَلاةٍ من الأرض، وليس عندك ثوبٌ يسعُك كفَناً، ولا بدّ لي من القيام

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٢/ ١٧٦.

بجهَازِكِ! فقال: أبشري ولا تَبكي، فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يموت بينَ امرئين مُسلمين وَلَدان أو ثلاثة، فيَصبران ويحتَسِبان فَيَريان النار أبداً»[1]، وقد مات لنا ثلاثةٌ من الولد. وسمعتُ أيضاً رسول الله ﷺ يقول لنفرٍ أنا فيهم: «لَيموتَنّ أحدُكم بفَلاةٍ من الأرض يَشهده عِصابة من المؤمنين»، وليس من أولئك النّفر أحدٌ إلا وقد مات في قرية وجماعة فأنا - لا أشك - ذلك الرجل، والله ما كَذَبتُ ولا كُذّبت، فانظري الطريق. قالت أم ذرّ: فقلتُ أنّى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطُّرق! فقال: اذهَبي فتبصري. قالت: فكنت أشتدّ إلى الكَثِيب، فأصعَد فأنظر، ثم أرجع إليه فأُمرِّضه، فبينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال عَلَى رِكابهم كأنّهم الرَّخم تَخُبُّ بهم رواحِلُهم، فأسرعوا إليّ حتى وَقَفوا عليّ وقالوا: يا أَمَةَ الله، ما لكِ؟ فقلتُ: امرُؤ من المسلمين يموت، تكفّنونه؟ قالوا: ومن هو؟ قلتُ: أبو ذَرّ، قالوا: صاحبُ رسول الله ﷺ؟ قلتُ: نعم، ففدّوه بآبائهم وأمّهاتهم، وأسرَعوا إليه حتى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنفرٍ أنا فيهم: «ليموتَنّ رجل منكم بفَلاةٍ من الأرض تَشهده عِصابةٌ من المؤمنين»[2]، وليس من أولئك النفر إلّا وقد هلك في قرية وجماعة، والله ما كذبت ولا كذّبت، ولو كان عندي ثوب يَسعُني كفناً لي أو لامرأتي لم أكفَّن إلا في ثوب لي أو لها، وإني أنشدكم الله ألّا يكفّنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً! قالت: وليس في أولئك النفر أحد إلا وقد قارَف بعض ما قال، إلا فتًى من الأنصار قال له: أنا أكفّنك يا عم في ردائي هذا، وفي ثوبين معي في عَيْبَتي من غَزْلِ أُمّي، فقال أبو ذَرّ: أنت تكفِّنني، فمات فكَفّنه الأنصاريّ وغَسّله النَفرُ الذين حَضروه وقاموا عليه ودفَنوه، في نفر كلُّهم يمان.

روى أبو عمر بن عبد البرّ قبل أن يروي هذا الحديث في أول باب جُندَب: كان النَفرُ الّذين حضروا موتَ أبي ذَرّ بالرّبذة مصادفة جماعة، منهم حُجْر بن الأدْبَر، ومالك بنُ الحارث الأشتر.

قلت: حُجر بن الأدْبَر هو حُجْر بن عدِيّ الذي قتَلَه معاويةُ، وهوَ من أعلام الشّيعة وعظمائِها، وأما الأشتر فهو أشهرَ في الشّيعة من أبي الهُذَيل في المعتزلة.

قرىء كتاب «الاستيعاب» على شيخِنا عبد الوهّاب بن سكينة المحدّث وأنا حاضر، فلمّا انتَهى القارىء إلى هذا الخبر قال أستاذي عمر بن عبد الله الدبّاس - وكنت أحضرُ معه سَماعَ الحديث -: لتقل الشّيعة بعد هذا ما شاءت، فما قال المرتضى والمفيد إلاّ بعض ما كانَ حُجْر والأشترُ يعتقدانِه في عثمان ومن تقدّمه، فأشار الشيخ إليه بالسكوت، فَسكَت.

---

(١) أخرجه أحمد نحوه، كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث أبي ذر الغفاري (٢٠٤٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٥٤٧٠)، واللفظ له، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦٧١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ١٥٥، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: ١٥/ ٥٧.

وذكَرْنا آثار الأشتر ومقاماته بصفّين فيما سبق.

والأشتر هو الّذي عانَقَ عبد الله بن الزبير يومَ الجَمَل فاصَطَرعا على ظهر فرسَيْهما حتى وقعا في الأرض، فجعل عبدُ الله يصرُخُ من تحتِهِ: اقتُلوني ومالِكاً! فلم يُعلَم من الذي يعنيه لشدة الاختلاط وثَوَران النقع، فلو قال: اقتُلوني والأشتَر لقُتِلا جميعاً، فلما افترَقا قال الأشتَر:

أعَائشَ لولا أنّني كنتُ طاوياً ثلاثاً لألفيتِ ابن أختكِ هالِكا
غداةَ يُنادِي والرِّماح تَنوشُه كَوقْع الصَّياصيّ[1] اقتُلوني ومَالِكا
فنجّاه منّي شِبْعه وشَبابُه وأنيَ شيخٌ لم أكن متماسكا

ويقال: إن عائشةَ فقدتْ عبد الله فسألت عنه، فقيل لها: عهدُنا به وهو معانق للأشتر، فقالت: واثُكْلَ أسْماءا!

ومات الأشتر في سنة تسع وثلاثين متوجِّهاً إلى مصر والياً عليها لعلّي عليه السلام. قيل: سُقي سُمّاً، وقيل: إنه لم يصحّ ذلك، وإنما مات حَتْفَ أنفِه.

فأما ثناءُ أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفَصْل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولَعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك، كان شديد البأس، جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، وكان يَجمَع بين اللِّين والعُنف، فيَسطُو في موضع السَّطْوة، ويَرفُق في موضع الرِّفق.

أقوال لبعض القادة

ومن كلام عمر: إن هذا الأمر لا يَصلُح إلا لقوِيٍّ في غير عُنْف، ولَيّنٍ في غير ضُعْف.

وكان أنو شَرْوانَ إذا ولّى رجلاً أمرَ الكاتبَ أن يَدَع في العَهْد موضِعَ ثلاثة أسطر ليوقّع فيها بخطه، فإذا أُتِي بالعهد وقّع فيه: سُس خِيارَ الناس بالمودّة، وسِفْلتهم بالإخافة، وامزُج العامة رهبةً برَغْبة.

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز: إني لأهمّ أن أخرج للناس أمراً من العدل، فأخافُ ألّا تحتملَه قلوبُهم، فأخرج معه طمعاً مِن طمع الدنيا، فإن نفرت القلوبُ من ذاكَ سكنتْ إلى هذا.

وقال معاوية: إنّي لا أضع سَيْفي حيث يَكفِيني سَوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شَعْرةً ما انقطعتْ. فقيل: كيف؟ قال: إذا مدّوها خَلّيتُها، وإذا خلَّوْها مَدَدْتها.

(١) الصياصي: جمع صيصة: وهي شوكة الحائل التي يسوى بها السداة واللحمة. اللسان، مادة (صيص).

وقال الشَّعْبيّ في معاوية: كان كالجمَل الطَّبّ. إذا سُكِت عنه تقدّم، وإذا رُدّ تأخر.

وقال ليزيد ابنه: قد تبلغُ بالوعيد ما لا تَبلُغ بالإيقاع، وإياك والقَتْل، فإن الله قاتل القتّالين.

وأغلَظ له رجل فحلُم عنه، فقيل له: أتحلم عن هذا؟ قال: إنا لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يَحولُوا بيننا وبين سلطاننا.

وفخرَ سليم مولَى زياد عند معاوية بن زياد، فقال معاوية: اسكت ويْحَك فما أدرك صاحبُك بسَيْفه شيئاً قطّ إلّا وقد أدركتُ أكثر منه بلساني.

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: ما السيّاسة يا أبت؟ قال: هيبة الخاصة لك، مع صدق مودّتها، واقتيادك قلوبَ العامّة بالإنصاف لها، واحتمال هفَوات الصنائع.

وقد جمع أميرُ المؤمنين عليه السلام أصناف الثّناء والمدْح ما فرّقه هؤلاء في كلماتهم بكلمة واحدة قالها في الأشتر، وهي قوله: «لا يخاف بُطْؤهُ عمّا الإسراعُ إليه أحزَم، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثَل.

قوله عليه السلام: «وعلى من في حيِّزكما» أي في ناحيتكما.

والمِجنّ: التّرس. والوَهْن: الضعف. والسَّقْطة: الغَلْطة والخطأ. وهذا الرأي أحزم من هذا، أي أدخل في باب الحزم والاحتياط، وهذا أمثل من هذا أي أفضَل.

١٤ - ومن وصية له عليه السلام لعسكره بصفين قبل لقاء العدوّ

الأصل: لا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَؤُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ ٱلْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ ٱللهِ فَلا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلا تُصِيبُوا مُعْوِراً، وَلا تُجهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ ٱلْقُوَى وَٱلْأَنفُسِ وَٱلْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ المَرْأَةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ ٱلْهِرَاوَةِ، فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

الشرح: نَهى أصحابه عن البغي والابتداء بالحرب، وقد رُوي عنه أنه قال: ما نُصِرت على الأقران الّذين قتلتهم إلّا لأنّي ما ابتدأتُ بالمبارزة. ونَهى - إذا وقعت الهزيمة - عن قَتْل المدبر، والإجهاز على الجريح، وهو إتمام قتله.

قوله عليه السلام: «ولا تصيبوا مُعوراً» هو من يعتصم منك في الحَرْب بإظهار عوْرته لتكفّ عنه، ويجوز أن يكون المعور ها هنا المرِيب الذي يظنّ أنه من القوم وأنه حَضَر للحرب وليس منهم، لأنه حضر لأمرٍ آخر.

قوله عليه السلام: «ولا تُهيجوا النّساء بأذى»، أي لا تحرّكوهنّ.

والفهرْ: الحجَر: والهِراوة: العصا.

وعَطَف «وعقبه» على الضمير المستكنّ المرفوع في «فيعيّر» ولم يؤكد للفَصْل بقوله: بها، كقوله تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[1]، لما فَصَل بلا عطف ولم يحتجْ إلى تأكيد.

نبذ من الأقوال الحكيمة

ومما ورد في الشعر في هذا المعنى قول الشاعر.

إنّ مِنْ أعظم الكبائر عندي ... قتلُ بيضاءَ حُرّة عُطْبُولِ[2]

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا ... وعلى المحصَناتِ جَرُّ الذُيولِ

وقالت امرأة عبد الله بنِ خَلَف الخُزاعيّ بالبصرة لعليّ عليه السلام بعد ظفره - وقد مرّ ببابها: يا عليّ، يا قاتلَ الأحِبّة، لا مرحباً بك! أيْتم الله منك ولدَك كما أيتمتَ بني عبد الله بن خَلَف! فلم يرُدَّ عليها، ولكنّه وقف وأشار إلى ناحيةٍ من دارها، ففهمتْ إشارتَه، فسكتتْ وانصرفتْ. وكانت قد سترتْ عندها عبد الله بن الزُّبير ومروانَ بنَ الحكم، فأشار إلى الموضع الذي كانا فيه، أي لو شئت أخرجتُهما! فلما فهمت انصرفَتْ، وكان عليه السلام حليماً كريماً.

وكان عمر بن الخطّاب إذا بعثَ أمراءَ الجيوش يقول: بسم الله، وعلى عَوْن الله، وبركته، فامضوا بتأييد الله ونصره. أوصيكم بتقوى الله، ولزوم الحقّ والصبّر، فقاتلوا في سبيل الله مَن كَفَر بالله، ولا تَعتَدُوا إن الله لا يحبُّ المُعتَدين. ولا تجبنُوا عند اللّقاء، ولا تُمثّلوا عند الغارة، ولا تُسرفوا عند الظّهور، ولا تقتلوا هرِماً، ولا امرأةً، ولا وَليداً، وتَوَقّوا أن تطؤوا هؤلاء عند التقاء الزّحْفَين وعند حمة النّهضات وفي شَنّ الغارات، ولا تغُلّوا عند الغنائم، ونَزّهوا الجهاد عن غرض الدنيا، وأبشروا بالأرباح في البَيْع الذي بايعتمْ به، وذلك هو الفَوْز العظيم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) العطبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق. القاموس المحيط، مادة (عطبل).

واستشَار قومٌ أكثم بنَ صَيْفيّ في حرب قومٍ أرادوهم وسألوه أن يُوصِيَهم، فقال: أقِلّوا الخلاف على أمرائكم، واثبتوا، فإن أحزَم الفريقيْن الرّكين، ورُبّ عَجَلة تَهب رَيْثاً.

وكان قيسُ بن عاصم المنقريّ إذا غَزَا شَهِد معه الحربَ ثلاثون منْ ولده يقول لهم: إيّاكم والبغي، فإنه ما بَغى قوم قطّ إلا ذَلّوا، قالوا: فكان الرجلُ من وَلدِهِ يُظْلَم فلا ينتصف مخافةَ الذلّ.

قال أبو بكر يومَ حُنَين: لن نُغلَب اليوم من قلّة - وكانوا اثني عشر ألفاً - فهزمُوا يومئذٍ هزيمةً قبيحة، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[١].

وكان يقال: لا ظَفَر مع بَغْي، ولا صحّة مع نَهَم، ولا ثَنَاءَ مع كِبْر، ولا سُؤدُدَ مع شُحّ.

قصة فيروز بن يزدجرد بن بهرام

ومن الكلمات المستحسَنة في سوء عاقبة البَغْي ما ذكره ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار»[٢] أن فَيْروز بن يزدَجرد بن بهْرام لما مَلَك سار بجنُوده نحو بلاد الهياطلة، فلما انتهى إليهم اشتدّ رعبُ مَلكهم أخشنوار منه وحذره، فناظر أصحابَه ووزراءَه في أمرِه فقال رجل منهم: أعطِني مَوْثقاً من الله وعَهْداً تطمئنّ إليه نفسي أن تكفِيَني الغمّ بأمرِ أهلي ووَلدي، وأن تُحسِن إليهم، وتخلُفني فيهم، ثم اقْطَع يديَّ ورجْليَّ وألْقِني في طريق فَيْروز حتّى يمرَّ بي هو وأصحابه، وأنا أكفيك أمرَهم، وأورّطهم مَوْرِطاً تكون فيه هَلَكَتهُم. فقال له أخشنوار: وما الّذي تنتفع به من سلامتنا وصلاحِ حالِنا إذا أنتَ هلكتَ ولم تشركْنا في ذلك! فقال: إنّي قد بلغتُ ما كنتُ أحِبّ أن أبلَغ من الدّنيا، وأنا موقن أنّ الموت لا بدَّ منه، وإنْ تأخر أيّاماً قليلةً، فأحِبُّ أن أختِم عمَلي بأفضل ما يُختم به الأعمال من النّصيحة بسلطاني، والنّكاية في عدوّي، فيَشرُف بذلك عَقِبي، وأصيبَ سعادة وحُظْوةً فيما أمامي.

ففعل أخشنوار به ذلك، وحَمَله فألقاه في الموضع الّذي أشار إليه، فمر به فيروزُ في جنوده، فسأله عن حالِه، فأخبَره أنّ أخشنوار فعل به ما يَرَاه وأنّه شديد الأسف، كيف لا يستطيع أن يكون أمام الجيش في غزوِ بلادِه وتخريب مدينته، ولكنّه سيَدُلّ الملكَ على طريق هو أقربُ من هذا الطريق الّذي يريدون سلوكه وأخفَى، فلا يشعر أخشنوار حتى يَهجُم عليه فينتقمَ الله منه بكم، وليس في هذا الطريق من المكروه إلّا تغوّر يومين، ثم تُفْضُون إلى كلّ ما تُحِبّون.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٢) «عيون الأخبار في التاريخ»: للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة النحوي الدينوري المتوفى سنة (٢٧٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

فقبِل فيروز قولَه بعد أن أشار إليه وزراؤه بالاتّهام له، والحذرِ منه، [وبغير ذلك]. فخالفهم وسلك تلك الطريقَ، فانتهوا بعد يومين إلى موضع من المفَازة لا صَدَرَ لهم عنه، ولا ماءَ معهم، ولا بين أيديهم، وتبيّن لهم أنّهم قد خُدِعوا، فتفرّقوا في تلك المفازة يميناً وشمالاً يلتمِسون الماء، فقتل العطشُ أكثرَهم، ولم يَسلَم مع فيروز إلّا عدّة يسيرة، فانتهى إليهم أخشنوار بجيشه، فواقَعَهم في تلك الحال الّتي هم فيها من القِلّة والضُرّ والجهْد، فاستمكَنوا منهم، بعد أن أعظموا النّكايَة فيهم.

وأُسِر فيروز، فرغب أخشنوار أن يمُنّ عليه وعلى من بَقِيَ من أصحابه على أن يجعل له عهدَ الله وميثاقه، ألّا يغزُوَهم أبداً ما بقيَ، وعلى أن يَحُدّ فيما بينه وبين مملكتِهم حَدًّا لا يتجاوزُه جنودُه. فرضي أخشنوار بذلك، فخلّى سبيله، وجعَلا بين المملكتين حجَراً لا يتجاوزه كلّ واحد منهما.

فمكث فيروز بُرْهة من دهره، ثم حملَه الأَنَفُ على أن يعود لغَزْو الهياطِلة، ودعا أصحابه إلى ذلك، فنهوْه عنه، وقالوا: إنّك قد عاهَدْته، ونحن نتخوّف عليك عاقبة البغي والغَدْر، مع ما في ذلك من العار وسوء القالة.

فقال لهم: إنما اشترطت له ألا أجوز الحجرَ الّذي جلعناه بيننا، وأنا آمرُ بالحجر فيحُمَل أمامنا على عَجل.

فقالوا: أيّها الملك، إن العهود والمواثيق التي يتعاطاها النّاسُ بينهم لا تُحمَل على ما يسره المعطِي لها، ولكن على ما يعلن به المعطَى إيّاها، وإنّما جلعتَ عهدَ الله وميثاقه على الأمر الذي عرَفه، لا على الأمر الّذي لم يخطر له ببال. فأبى فيروز ومضى في غَزْوته حتى انتهى إلى الهياطلة، وتصافّ الفريقان للقتال.

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صَفَّيْهم، فخرج إليه، فقال له أخشنوار: إنّي قد ظننتُ أنه لم يدعُكَ إلى مُقامِك هذا إلا الأنَف ممّا أصابك، ولعَمْري إن كنّا قد احتلْنا لك بما رأيتَ لقد كنت التمستَ منّا أعظمَ منه، وما ابتدأناك ببَغْي ولا ظُلْم، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحريمنا، ولقد كنتَ جديراً أن تكون من سوء مكافأتِنا بمنّنا عليك وعلى من معك، ومن نَقْض العهد والميثاق الّذي أكّدْتَه على نفسك أعظم أنفاً، وأشَدَّ امتعاضاً ممّا نالك منّا، فإنا أطلقناكم وأنتم أسارَى، ومنَنّا عليكم وأنتم عَلَى الهَلَكة مُشرفون، وحَقَنّا دماءَكم ولنا عَلَى سَفْكِها قُدرة. وإنا لم نجْبرك عَلَى ما شرطتَ لنا، بل كنتَ أنتَ الراغبُ إلينا فيه، والمريدُ لنا عليه، ففكّر في ذلك، وميِّزْ بين هذين الأمرين فانظر أيّهما أشدّ عاراً، وأقبح سماعاً، إن طلب رجل أمراً فلم يَقدِر له ولم يَنجَح في طِلبته وسَلَك سبيلاً فلم يظفر فيه ببغيته، واستمكَن منه عدوّه على حال جَهْد وضَيْعة منه وممّن هم معه.

فمنّ عليهم وأطلقهم على شرطٍ، شَرَطُوه وأمرٍ اصطلحوا عليه، فاصطَبَر بمكروه القضاء، واستحيا مِن الغَدْر والنَّكْث، أن يقال: نَقَضَ العهدَ وأخفَرَ المِيثاق، مع أني قد ظننتَ أنه يزيدك لجاجة ما تثق به مِنْ كثرة جنودِك، وما ترى من حسن عُدّتهم، وما أجِدُني أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شُخوصِك بهم، عارفون بأنّك قد حملتَهم عَلَى غير الحقّ، ودعوتَهم إلى ما يُسخط الله، وأنهم في حربنا غير مستبصِرين، نيّاتهم عَلَى مناصَحَتك مدخولة.

فانظر ما قَدْر غَناء من يُقاتل عَلَى هذه الحال، وما عسى أن يبلغ نكايته في عدوّه، إذا كان عارفاً بأنه إن ظَفِر فمع عار، وإن قُتِل فإلى النار! وأنا أذكُرك الله الَّذي جعلتَه على نفسك كفيلاً، وأذكّرك نعمتي عليك وعلى مَنْ معك، بعد يأسكم من الحياة، وإشفائكم عَلَى الممات، وأدعوك إلى ما فيه حَظُّك ورُشْدُك من الوفاء بالعهد، والاقتداء بآبائك وأسلافك الذين مضَوا عَلَى ذلك في كلّ ما أحبُّوه وكرِهوه، فأحمدوا عواقبَه وحسُن عليهم أثرُه.

ومع ذلك فإنّك لستَ عَلَى ثقة من الظفَر بنا، وبلوغ نُهْمَتك فينا، وإنما تلتمس أمراً يلتمس منك مثله، وتنادي عدوًّا لعلّه يمنَح النصرَ عليك، فاقبِلْ هذه النصحية فقد بالغتُ في الاحتجاج عليك، وتقدّمْتُ بالإعذار إليك، ونحن نستظهر بالله الذي اعتَذَرْنا إليه، ووثِقْنا بما جعلت لنا من عهده، إذا استظهرتَ بكثرة جنودِك، وازدَهَتْك عِدّة أصحابك، فدونك هذه النصيحة، فبالله ما كان أحدٌ من أصحابك يبالغ لك أكثرَ منها، ولا يزيدك عليها، ولا يحرمنَّك منفعتها مخرجُها مني، فإنه ليس يُزْري بالمنافع والمصالح عند ذوي الآراء صُدورُها عن الأعداء، كما لا تَحسُن المضارُّ أن تكون عَلَى أيدي الأصدقاء.

واعلم أنه ليس يدعوني إلى ما تَسمع من مخاطبتي إيّاكَ ضعفٌ من نفسي، ولا من قِلّة جنودي، ولكني أحببتُ أن أزداد بذلك حجّةً واستظهاراً، فأزداد به للنصر والمَعُونة من الله استيجاباً، ولا أوثر عَلَى العافية والسلامة شيئاً ما وجدتُ إليهما سبيلاً.

فقال فيروز: لستُ من يَردَعه عن الأمر يُهَمّ به الوعيد، ولا يصده التهدد والترهيب، ولو كنتُ أرَى ما أطلب غَدْراً مني، إذاً ما كان أحدٌ أنظَرَ ولا أشدّ إبقاءً مني على نفسي، وقد يَعلم الله أني لم أجعل لك العهدَ والميثاقَ إلا بما أضمرتُ في نفْسي، فلا يغرنّك الحالُ التي كنتَ صادفْتَنا عليها من القِلّة والجَهد والضَّعف.

فقال أخشنوار: لا يغرنّك ما تَخدع به نفسَك من حَمْلِك الحجَر أمامَك، فإنَّ الناس لو كانوا يُعطُون العهودَ على ما تَصِف من إسرارِ أمرٍ وإعلانِ آخر، إذاً ما كان ينبغي لأحد أن يغترّ بأمان، أو يثقَ بعَهْد! وإذا ما قَبل الناسُ شيئاً مما كانوا يعطون من ذلك، ولكنه وضع على العلانية، وعلى نية من تُعقَد له العهود والشروط. ثم انصرف. فقال فيروز لأصحابه: لقد كان أخشنوار

حَسَن المحاوَرة، وما رأيتُ للفرَس الّذي كان تحته نظيراً في الدّوابّ، فإنه لم يُزل قوائمه، ولم يرفَع حوافرَه عن موضعها، ولا صَهلَ، ولا أحدَث شيئاً يقطَع به المحاورة في طولِ ما تواقَفْنا.

وقال أخشنوار لأصحابه: لقد وافقتُ فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كلّه، فلم يتحرّك، ولم ينزع رجْلَه من ركابه، ولا حَنَى ظهره، ولا التفتَ يميناً ولا شمالاً، ولقد تورّكت أنا مراراً، وتمطّيْت على فرسي، والتفتّ إلى مَن خَلْفي، ومددتُ بصري فيما أمامي، وهو منتصِب ساكنٌ على حاله، ولولا محَاوَرته إيّاي لظننت أنه لا يبصرني. وإنما أراد بما وصَفنا من ذلك أن يُنَشرَ هذان الحديثان في أهلِ عسكرهما فيشتغلوا بالإفاضة فيهما، عن النّظر فيما تذاكَرا.

فلما كان في اليوم الثاني أخرَج أخشنوار الصحيفَة التي كتبها لهم فيروز، ونصبَها على رُمْح ليراها أهلُ عسكر فيروز فيعرفوا غدْره وبغيَه، ويخرجوا من متابعته على هَواه، فما هو إلا أن رأوها، حتى انتقض عسكرُهم واختلفوا، وما تلبّثوا إلا يسيراً حتى انهزَموا، وقُتِل منهم خلقٌ كثير، وهلك فيروز، فقال أخشنوار: لقد صدق الذي قال: لا مردّ لما قدّر ولا شيء أشدّ إحالة لمنافع الرأي من الهوى واللَّجاج، ولا أضيع من نصيحة يُمنَحها من لا يوطِّن نفسَه على قبولها، والصّبر على مكروهِها، ولا أسرع عقوبةً وأسوأ عاقبةً من البغي والغَدْر، ولا أجلب لعظيم العارِ والفُضوح من الأنف وإفراط العجْب.

١٥ - وكان عليه السلام يقول إذا لقي العدو محارباً

الأصل: ٱللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ ٱلْقُلُوبُ، وَمُدَّتِ ٱلْأَعْنَاقُ، وَشَخَصَتِ ٱلْأَبْصَارُ، وَنُقِلَتِ ٱلْأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ ٱلْأَبْدَانُ.

ٱللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ ٱلشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ ٱلْأَضْغَانِ.

ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا.

رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ.

الشرح: أفضت القلوب: أي دَنَت وقَرُبَت، ومنه أفضَى الرّجلُ إلى امرأته أي غشيَها، ويجوز أن يكون «أفضت» أي بسرّها، فحذف المفعول.

وأُنضيت الأبدان: هَزُلت، ومنه النِّضو، وهو البَعير المهزُول.

وصَرَّح: انكشَف. والشنآن: البغْضة.

وجاشت: تحرّكت واضطربَتْ.

والمرَاجل: جمع مِرْجل، وهي القِدْر.

والأضغان: الأحقاد، واحدُها ضغن.

وأخذ سَدِيف مولى المنصور هَذه اللّفظة فكان يقول في دعائه: اللهمّ إنا نشكو إليك غيبة نبيّنا وتشتّت أهوائنا، وما شملنا من زَيْغ الفِتَن، واستولَى علينا من غَشْوة الحيْرِة حتى عاد فينا دولة بعد القِسْمة. وإمارتنا غلبة بعد المشورة، وعدنا ميراثاً بعد الاختيار للأمّة، واشتريت الملاهي والمعَازِف بمال اليتيم والأرمَلة، ورَعَى في مالِ الله من لا يَرَعَى له حرمة، وحكم في أبشار المؤمنين أهلُ الذّمّة، وتولّى القيامَ بأمورهم فاسقُ كلّ محلّة، فلا ذائدَ يذودُهم عن هَلَكة، ولا راعٍ ينظرُ إليهم بعين رحمة، ولا ذو شَفَقة يُشبِع الكَبِد الحرّى من مَسْغَبة، فهم أولو ضَرَع وفاقة، وأسراء فَقْر ومَسكَنة، وحُلَفاء كآبة وذلة. اللهمّ وقد استَحصَد زرعُ الباطل وبلغ نهايتَه، واستَحْكم عَمودُه، واستَجمَع طَرِيدُه، وحذف وَليدُه، وضَرَب بجرانه، فأتِحْ له من الحقّ يداً حاصدة، تجذّ سَنامَه، وتَهشِم سُوقَه، وتَصرَع قائمه، ليَستخفيَ الباطل بقُبح حِلْيَته، ويَظهرَ الحقُّ بحُسْن صورتِه.

ووُجدتْ هذه الألفاظ في دعاءٍ منسوبٍ إلى عليِّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولعلّه من كلامه، وقد كان سَدِيف يَدْعُو به.

١٦ - وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب

الأصل: لا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا ٱلسُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا، واذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى ٱلطَّعْنِ ٱلدَّعْسِيِّ، وَٱلضَّرْبِ ٱلطِّلَحْفِيِّ، وَأَمِيتُوا ٱلأَصْوَاتَ فَإِنهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ.

وَٱلَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ ٱلنَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ ٱسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا ٱلْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.

الشرح: قال: لا تستصعبوا فَرّةً تفِرُّونها بعدها كَرّة، تجبُرون بها مَا تكسّر من حالكم، وإنّما الّذي ينبغي لكم أن تستَصْعبوه فَرّة لا كَرّة بعدَها، وهذا حَضٌّ لهم على أن يكرّوا ويعودُوا إلى الحرب إن وقعتْ عليهم كَسْرةٌ.

ومثله قولُه: «ولا جَوْلةٌ بعدَهَا حمْلة»، والجوْلة: هزيمة قريبة ليست بالممعنة.

وادمُرُوا أنفسَكم، مِن ذمَره على كذا أي حضّه عليه. والطّعْن الدّعْسيّ: الذي يُحْشى به أجواف الأعداء، وأصل الدّعْس الحشْو، دَعسْتُ الوِعَاءَ: حشوْته.

وضرب طِلَخْفي، بكسر الطاء وفتح اللام، أي شديد، واللام زائدة.

ثم أمَرَهم بإماتة الأصواتِ لأنّ شِدّة الضّوْضاء في الحرب أمارة الخوف والوَجَل.

ثم أقسَم أنّ معاوية وعَمْراً ومنَ والاهما من قريش ما أسلَموا ولكّن استَسلَموا خوفاً من السّيف ونافَقُوا، فلمّا قَدَروا على إظهار ما في أنفسهم أظهَروه، وهذا يدلُّ على أنّه عليه السلام جعل محاربتَهم له كُفْراً.

وقد تقدّم في شرح حالِ معاويةَ وما يَذكره كثيرٌ من أصحابنا من فساد عقيدتِه ما فيه كفاية.

أقوال أخر في الحرب

وأوصَى أكثمُ بنُ صَيْفيّ قوماً نَهَضوا إلى الحرب فقال: ابرزُوا للحَرْب، وادّرعوا اللّيل، فإنه أخفَى للوَيْل، ولا جماعةَ لمن اختَلَف، واعلموا أن كثرة الصيّاح من الفَشَل، والمرء يَعجز لا محالة.

وسمعَتْ عائشةُ يومَ الجمل أصحابَها يُكبّرون، فقالت: لا تكبّروا ها هنا، فإنّ كثرة التّكبير عند القتال من الفَشَل.

وقال بعض السّلَف: قد جمع الله أدبَ الحرْب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1] الآيتين.

وقال عُتبة بنُ ربيعةَ لقريش يومَ بدر: ألا تَرَونهم - يعني أصحابَ النبيّ صلى الله عليه وآله - جُثِيّاً على الرُّكب، يتلمظّون تلمُّظ الحيّات!

وأوصى عبدُ الملك بنُ صالح أميرَ سَرِيّة بعثَها، فقال: أنت تاجرُ الله لعباده، فكُن كالمضارب الكَيِّس الّذي إن وَجَد رِبْحاً تجر، وإلا احتَفَظ برأس المال، ولا تطْلب الغنيمة حتى تحوز السلامة، وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حذَراً من احتيال عدوِّك عليك.

وفي الحديث المرفوع أنّه صلى الله عليه وآله قال لزيد بن حارثة: «لا تُشقِ جيْشَك، فإن الله تعالى ينصرُ القومَ بأضعَفِهم»[2].

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) أخرج نحوه الهيثمي في «الزوائد» (٦٦٤).

وقال ابنُ عبّاس - وذكر علياً عليه السلام -: ما رأيتُ رئيساً يُوزَن به، لقد رأيته يومَ صِفّين وكأن عينيه سراجا سليط وهو يحمّس أصحابَه إلى أن انتهى إليّ وأنا في كَنَف فقال: يا معشرَ المسلمين، استشعِروا الخشية، وتجلببُوا السكينة، وأكمِلوا اللأمة[1]. . الفصل المذكور فيما تقدّم.

١٧ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه

الأصل: وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لأُعْطِيَكَ ٱلْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ ٱلْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ ٱلْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلا وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْحَقُّ فَإِلَى ٱلْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ.

وَأَمَّا ٱسْتِوَاؤُنَا فِي ٱلْحَرْبِ وَالرِّجَالِ، فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى ٱلْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى ٱلدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ عَلَى ٱلآخِرَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ! فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلا ٱلْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلا ٱلْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَبِئْسَ ٱلْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ ٱلَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا ٱلْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا بِهَا ٱلذَّلِيلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ ٱللهُ ٱلْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ ٱلأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ، إِمَّا رَغْبَةً، وإِمَّا رَهْبَةً عَلَى حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ، فَلا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً. وَالسَّلامُ.

الشرح: يقال: طلبتُ إلى فلان كذا، والتقدير طلبتُ كذا راغباً إلى فلان، كما قال تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[2] أي مُرسلاً.

ويُروى «إلاّ حُشاشةَ نَفْسٍ»، بالإفراد، وهو بقيّة الرُّوح في بَدَن المريض.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٥٥٧.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٢.

ورُوِي: «ألا ومَن أكله الحقّ فإلى النار»، وهذه الرواية ألَيق من الرّواية المذكورة في أكثر الكُتُب، لأنّ الحق يأكل أهلَ الباطل، ومَن رَوَى تلك الرواية أضمَر مُضافاً تقديرُه «أعداءَ الحق»، ومضافاً آخَر تقديرُه «أعداءَ الباطل». ويجوز أن يكون مَن أكله الحقّ فإلى الْجَنّة، أي من أفضَى به الحقّ ونُصرتُه والقيامُ دونَه إلى القتل، فإنّ مصيرَه إلى الجنة، فيسمّى الحقّ لما كانت نُصرتُه كالسبب إلى القَتْل أكْلاً لذلك المقتول، وكذلك القولُ في الجانب الآخَر.

وكان الترتيب يقتضي أن يجعل هاشماً بإزاء عبد شمس، لأنّه أخوه في قُعدد، وكِلاهُما ولَدُ عبدِ منَاف لصُلْبه، وأن يكون أميّة بإزاء عبد المطلب، وأن يكون حَرْبٌ بإزاء أبي طالب، وأن يكون أبو سُفيانَ بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام، لأن كلّ واحد من هؤلاء في قُعْدُدِ صاحبه، إلّا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لمّا كان في صِفّين بإزاء معاوية اضطُرّ إلى أن جَعَل هاشماً بإزاء أميّة بن عبد شمس.

فإن قلت: فهلّا قال، «ولا أنا كأنت»؟ قلتُ: قبيحٌ أن يقال ذلك، كما لا يقال: السَّيفُ أمضَى من العصا، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسلمين كافّةً، نعم قد يقولها لا تَصريحاً، بل تَعريضاً، لأنه يرفع نفسَه على أن يقيسَها بأحَد.

وها هنا قد عرّض بذلك في قوله: «ولا المهاجِرُ كالطَّليق». فإن قلتَ: فهل معاوية من الطُّلَقَاء؟ قلت: نعم، كلُّ من دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله مَكّة عَنْوةً بالسّيف فملكه ثم مَنَّ عليه عن إسلام أو غيرِ إسلام فهو من الطُّلقَاء ممّن لم يُسلم كصَفْوان بن أمية، ومَن أسلَم كمعاوية بن أبي سُفْيان، وكذلك كلُّ من أُسِرَ في حَرْب رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم امتَنّ عليه بفِداءٍ أو بغير فِداء فهو طَليق، فممّن آمتنّ عليه بفداءٍ كُسهيل بن عمرو، وممّن امتنَّ عليه بغير فداء أبو عَزّة الجُمَحيّ، وممن امتنّ عليه مُعاوَضةً أي أُطلق لأنّه بإزاءِ أسير من المسلمين عَمْرو بن أبي سُفْيان بن حَرْب، كلّ هؤلاء معدودون من الطُّلقاء.

فإن قلت: فما معنى قوله: «ولا الصريح كاللَّصِيق»، وهل كان في نسب معاويةَ شُبهةٌ ليقول له هذا؟

قلتُ: كلّا إنه لم يقصد ذلك، وإنّما أراد الصريحَ بالإسلام واللَّصيق في الإسلام، فالصريح فيه هو من أسلَم اعتقاداً وإخلاصاً، واللَّصيق فيه مَنْ أسلَم تحتَ السيف أو رغبةً في الدنيا، وقد صَرّح بذلك فقال: «كنتم ممّن دخل في هذا الدين إمّا رَغْبةً وإمّا رَهْبة».

فإن قلت: فما معنى قوله: «ولَبئس الخَلَف خَلَفاً يتبَع سَلَفاً هَوَى في نار جهنّم»؟ وهل يُعابُ المسلم بأنّ سَلَفه كانوا كُفّاراً!

قلتُ: نعم، إذا تَبِع آثارَ سَلَفِه واحتَذَى حذوَهم، وأميرُ المؤمنين عليه السلام ما عابَ معاويةَ بأنّ سَلَفه كُفّار فقط، بل بكَوْنه، متبعاً لهم.

قولُه عليه السلام: «وفي أيدِينا بعدُ فَضل النبوّة» أي إذا فَرَضْنا تَساوِيَ الأقدام في مآثِرِ أسْلافكم كان في أيدينا بعدُ الفَضلُ عليكم بالنبوّة التي نَعَشْنا بها الخاملَ، وأخْمَلنا بها النّبيه.

قوله عليه السلام: «على حينَ فاز أهلُ السّبْق»، قال قوم من النُّحاة: «حينَ» مبنيٌّ ها هنا عَلَى الفَتْح. وقال قوم: بل مَنْصوب لإضافته إلى الفعل.

قوله عليه السلام: «فلا تجعَلنّ للشيطان فيكَ نصيباً»، أي لا تستَلْزِم من أفعالك ما يدوم به كونُ الشيطان ضارِباً فيك بنَصيب، لأنّه ما كتب إليه هذه الرسالةَ إلّا بعد أن صار للشيطان فيه أوفَرُ نصيب، وإنّما المراد نهيُهُ عن دوام ذلك وٱستمرارِهِ.

ما حدث بين عليّ ومعاوية يوم صفين

وذَكر نصرُ بن مُزاحم بن بشّار العُقَيليّ في كتاب «صِفّين» أن هذا الكتاب كتبه عليّ عليه السلام إلى معاوية قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة. قال نصر: أظهَر عليٌّ عليه السلام أنّه مُصبِّحٌ معاوية ومناجِزٌ له، وشاعَ ذلك من قوله. ففَزِع أهلُ الشام لذلك، وانكسرُوا لقوله. وكان معاويةُ بنُ الضَّحّاك بن سُفْيان صاحب راية بني سُلَيم مع معاوية مُبغِضاً لمعاوية وأهلِ الشام، وله هوًى مع أهلِ العراق وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان يَكتُب بأخبار معاويةَ إلى عبد الله بن الطّفَيل العامريّ، وهو مع أهل العراق، فيخبر بها عليّاً عليه السلام، فلما شاعت كلمةُ عليّ عليه السلام وَجِلَ لها أهلُ الشام، وبعث ٱبن الضحاك إلى عبد الله بن الطفيل: إني قائل شِعْراً أذْعَر به أهلَ الشام وأُرغِم به معاوية، وكان معاويةُ لا يتّهمه، وكان له فضل ونَجْدَة ولسان، فقال لَيْلاً ليستمع أصحابه:

ألا لَيت هذا اللّيل أطبق سَرْمَدا ... علينا وأنّا لا نرَى بعدَه غدا
ويا ليتَه إن جاءنا بصباحِه ... وجَدْنا إلى مجرى الكواكب مَصْعَدا
حِذارَ عليٍّ إنه غيرُ مُخلفٍ ... مَدَى الدهر ما لبَّ المُلبُّون مَوْعدا
وأما قراري في البلاد فليس لي ... مُقامٌ وإن جاوزتُ جابَلْقَ[١] مُصعِدا
كأنّي به في الناس كاشفُ رأسِه ... على ظهر خَوّار الرّحالة أجرَدا
يخوضُ غِمارَ الموتِ في مُرْجَحِنَّةٍ[٢] ... يُنادُون في نقْع العَجاج محمّدا
فوارسُ بدر والنَّضِير وخَيْبرٍ ... وأُحدٍ يهزُّون الصفيحَ المهنَّدا
ويومَ حنينٍ جالَدوا عن نبيِّهمْ ... فريقاً من الأحزاب حتى تبدَّدا

---

(١) جابَلْق: بلد بالمشرق. القاموس المحيط، مادة (جبلق).

(٢) مرجحنة: جيش مرجحن ورحى مرجحنة: ثقيلة. اللسان، مادة (رجحن).

هنالك لا تلوي عجوزٌ على ابنها ... وان أكثرت من قولِ: نفسي لك الفدا
فقل لابن حَرْب ما الذّي أنت صانعٌ ... أتَثْبت أم ندعُوك في الحرب قُعْدُدا:
فلا رأيَ إلا تركنا الشامَ جهرةً ... وان أبْرَق الفجفاجُ فيها وأرعدا

فلما سمع أهلُ الشام شعرَه أتوْا به معاوية، فهمّ بقتله، ثم راقب فيه قومه، فطرَده من الشام، فلحق بمصر ونَدِم معاويةُ على تسييره إياه. وقال معاوية: لَشعرُ السُّلميّ أشدّ على أهل الشام من لقاء عليّ، ما له قاتله الله، لو صار خلف جابَلْق مصعداً لم يأمنْ علياً! ألا تعلمون ما جابلق؟ - يقول لأهل الشام - قالوا: لا، قال: مدينةٌ في أقصى المشرق ليس بعدَها شيء.

قال نصر: وتناقل الناس كلمةَ عليٍّ عليه السلام: «لأناجزَنّهم مصبِّحاً»، فقال الأشتر:

قد دنا الفضلُ في الصَّباحِ ... ولِلِسَّلْم رجالٌ وللحروب رجالُ
فرجالُ الحروبِ كلُّ خِدَبٍّ ... مقحم لا تَهدُّه الأهوالُ
يضرب الفارسَ المدجَّج بالسَّيـ ... ـف إذا فَرّ في الوَغا الأكفالُ
يا بنَ هندٍ شُدَّ الحيازيمَ للمو ... تِ ولا تذهبنْ بكَ الآمالُ
إن في الصّبح إن بقيت لأمراً ... تتفادَى من هوله الأبطالُ
فيه عز العراق أو ظفر الشا ... مِ بأهل العراق والزلزالُ
فاصبرُوا للطِّعان بالأسَل السُّمْـ ... ـرِ وضَربٍ تَجري به الأمثالُ
إن تكُونوا قتلتم النَّفرَ البِيـ ... ـضَ وغالتْ أولئك الآجالُ
فلنا مِثلهم غداة التَّلاقي ... وقليل من مثلهمْ أبدالُ
يخضِبون الوَشيجَ طعْناً ... إذا جرّتْ من الموت بينهمْ أذيالُ
طلب الفوزَ في المعادِ وفيه ... تُستهانُ النفوسُ والأموالُ

قال: فلما انتهى إلى معاوية شعرُ الأشتر قال: شعرٌ منكر، من شاعرٍ منكر، رأس أهل العراق وعظيمهم، ومِسعَر حربِهم، وأول الفِتنة وآخرُها، قد رأيت أن أعاودَ عليًّا وأساله إقراري على الشام، فقد كنت كتبتُ إليه ذلك فلم يجب إليه، ولأكتبنّ ثانيةً فألقى في نفسه الشكّ والرقة. فقال له عمرو بن العاص وضَحِك: أين أنتَ يا معاوية من خدعة عليّ! قال: ألسنا بني عبد مناف! قال: بلى، ولكن لهم النبوّة دونك، وإن شئت أن تكتب فاكتب، فكتب معاوية إلى عليّ عليه السلام مع رجل من السكاسك يقال له عبد الله بن عُقْبة، وكان من نافلة أهل العراق:

أما بعد فإنك لو عَلِمْتَ أن الحرْب تبلغ بنا وبك ما بلغتْ لم يجنها بعضنا على بَعْض، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى، ونصلح به ما بقي، وقد كنت

سألتُك الشام على أن تلزمني لك بيعة وطاعة، فأبيتَ ذلك عليّ، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلّا ما تخاف، وقد والله فارقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف، ليس لبعضنا على بعض فَضْل إلا فضل لا يُستَذَلّ به عزيز، ولا يسترقّ به حرٌّ، والسلام.

فلما انتهى كتاب معاوية إلى عليّ عليه السلام قرأه، ثم قال: العَجَب لمعاوية وكتابه! ودعا عبيد بن أبي رافع كاتبَه، فقال: اكتب جوابه.

أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علِمت وعلمنا أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، فإني لو قتلتُ في ذات الله، وحييتُ، ثم قُتِلتُ ثم حييتُ سبعين مرة لم أرجع عن الشدّة في ذات الله والجهاد لأعداء الله، وأما قولك: إنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى، فإني ما نقصتُ عقلي، ولا ندمتُ على فعلي. وأما طلبك الشام فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منعتُك أمسِ، وأما استواؤنا في الخوف والرّجاء فلست أمضى على الشك منّي على اليقين، وليس أهلُ الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك: إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض! فلعمري إنا بنو أب واحد، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا المهاجر كالطليق، ولا المحق كالمبطل، وفي أيدينا بعد فضل النبوّة التي أذللنا بها العزيز وأعززْنا بها الذليل. والسلام.

فلما أتى معاوية كتابُ عليّ عليه السلام كتمه عن عمرو بن العاص أياماً، ثم دعاه فأقرأه إياه، فشمت به عمرو - ولم يكن أحد من قريش أشدَّ إعظاماً لعليّ من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه - فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية:

ألا لله درُّكَ يا بن هندٍ ... وَدرُّ الآمرين لك الشهودِ!
أتطمع لا أبا لكَ في عليٍّ ... وقد قرع الحديدَ على الحديدِ!
وترجو أن تُحيِّره بشكٍّ ... وتأمُل أن يهابك بالوَعيد
وقد كشفَ القناع وجرّ حَرباً ... يشيبُ لهولها رأس الوليد
له جَأواءُ مُظلِمةٌ طَحونٌ ... فوارسُها تلَهَّب كالأسودِ
يقول لها إذا رجعتْ إليه ... وقد ملّت طعانَ القوم: عُودِي
فإن وردَت فأوّلها وروداً ... وإن صدّت فليس بذي صدودِ
وما هي من أبي حسن بنُكْرٍ ... ولا هو من مسائك بالبعيدِ
وقلتَ له مقالة مستكينٍ ... ضعيفِ الرّكن منقطِع الوَريدِ
دَعَنْ لي الشامَ حسبُك يا بن هندٍ ... من السَّوءات والرأيِ الزَّهيدِ
ولو أعطاكها ما ازددتَ عِزّاً ... ولا لك لو أجابك من مزيد

فلم تكسِرْ بذاك الرأي عوداً لركّته ولا ما دون عود

فلما بلغ معاوية شعرُ عمرو دعاه فقال له: العجب لك! تفيّل رأيي، وتعظم عليًا وقد فضحك! فقال: أما تفييلي رأيك فقد كان، وأما إعظامي عليًا فإنك بإعظامه أشدّ معرفةً منّي، ولكنك تطويه وأنا أنشرُه. وأمّا فضيحتي فلم يفتضح آمرؤٌ لقيَ أبا حسن(١).

١٨ - ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة

الأصل: وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ ٱلْفِتَنِ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا، بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَٱحْلُلْ عُقْدَةَ ٱلْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ، وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلَامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا.

فَٱرْبَعْ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ رَحِمَكَ ٱللهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَٱلسَّلامُ.

الشرح: قوله عليه السلام: مَهْبط إبليس: موضع هُبوطه.

ومغرس الفِتَن: موضع غَرْسِها، ويروَى «ومُغْرِس الفتن»، وهو الموضع الّذي ينزِل فيه القومُ آخر اللّيل للاستراحة، يقال غَرّسوا وأغرَسوا.

وقولُه عليه السلام: «فحادِثْ أهلَها»، أي تعهّدْهم بالإحسان، من قولِك: حادثت السيفَ بالصِّقال.

والتنمُّر للقوم: الغلْظة عليهم، والمعامَلة لهم بأخلاق النّمرِ، من الجرْأة والوثوب، وسنذكر تصديقَ قوله عليه السلام: «لم يغبْ لهم نجمٌ إلّا طلع لهم آخر».

والوَغْم: التِّرة، والأوْغام: التِّرات، أي لم يُهدَر لهمْ دمٌ في جاهليّة ولا إسلام، يصفُهم بالشّجاعة والحَميّة.

ومأزُورون، كان أصله «موزورُن»، ولكنّه جاء بالألف ليُحاذِي به ألفَ «مأجُورُون» وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله مثل ذلك.

---

(١) أخرجه ابن مزاحم المنقري في وقعة صفين: ٤٧٢.

قوله عليه السلام: «فاربَعْ أبا العباس»، أي قِفْ وتثبَّت في جميع ما تعتمدُه فِعلاً وقَوْلاً من خَيْر وشر، ولا تَعجَل به فإنّي شريكك فيه إذ أنت عاملي والنائبُ عنّي. ويعني بالشرّ ها هنا الضررَ فقط، لا الظّلم والفِعل القبيح.

قولُه عليه السلام: «وكن عند صالح ظنّي فيك»، أي كن واقفاً عندَه كأنّك تشاهِدُه فتَمنَعك مشاهَدَتُه عن فعلِ ما لا يجوز.

فال الرأيُ يَفيل، أي ضَعُفَ وأخطأ.

بنو تميم وفضائلهم

وقد ذكر أبو عُبيدةَ مَعمَر بنُ المثنّى في كتاب «التّاج» أن لبني تميم مآثِرَ لم يَشرَكْهم فيها غيرُهم. أما بنو سعد بن زَيْد مَناةَ فلها ثلاثُ خِصال يَعرفها العَرَب:

إحداها: كثرة العَدَد فإنّه أضعف عددها على بني تميم حتّى ملأتِ السَّهْلَ والجبلَ عَدَلت مُضَرَ كثرة، وعامة العَدِد منها في كعب بنِ سعد بنِ زيد مَناة، ولذلك قال أوْسُ بن مَغْرَاء:

كَعْبِيَ مِن خيرِ الكعابِ كَعْبَا ... مِن خيرِها فوارساً وعَقْبا

تَعدِل جَنْباً وتَميم جَنْبا

وقال الفرزدق أيضاً فيهم هذه الأبيات:

لو كنتَ تَعلَم ما بِرَمْل مُوَيْسِلٍ[1] ... فقرى عُمان إلى ذواتِ حُجورِ

لعلمتَ أن قبائلاً وقبائلا ... من آلِ سعدٍ لم تَدِنْ لأميرِ

وقال أيضاً:

تبكّي على سَعدٍ وسَعدٌ مقيمةٌ ... بيبْرِينَ قد كادَتْ على النّاس تَضعُف

ولذلك كانت تسمّي سعد الأكثرين. وفي المَثَل: «في كل واد بَنُو سَعْد».

والثانية: الإفاضة في الجاهليّة، كان ذلك في بني عُطارِد، وهم يتَوارثُون ذلك كابراً من كابر، حتّى قام الإسلام، وكانوا إذا اجتمعَ الناسُ أيّامَ الحجّ بمنًى لم يَبرح أحدٌ من الناس ديناً وسنة حتى يجوزَ القائمُ بذلك من آلِ كَرِب بنِ صَفْوَان، وقال أوسُ بن مَغْرَاء:

ولا يَريمُون في التَّعريف موقفَهمْ ... حتى يقالَ: أجيزُوا آلَ صَفوانا

وقال الفرزدق:

إذا ما الْتَقينا بالمحصَّب مِنْ مِنًى ... صبيحةَ يوم النَّحْر من حيث عرّفوا

تَرَى الناسَ ما سِرْنا يسيرونَ حَوْلَنا ... وإن نحنُ أومأنا إلى الناس وَقّفُوا

---

(١) مُوَيْسِل: ماء لِطَيِّء. اللسان، مادة (وسل).

والثالثة: أنّ منهم أشرَف بيتٍ في العَرَب الذي شرّفته ملوكُ لَخْم. قال المنذرُ بن المنذِر بن ماءِ السَّماء ذات يوم وعندَه وفودُ العرب ودعا ببُرْدَيْ أبيه محرِّق بن المنذر فقال: ليَلْبَس هذين أعزُّ العَرَب وأكرمَهُم حَسَباً. فأحجَمَ الناسُ، فقال أحيْمِر بنُ خَلَف بن بهدلَة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم: أنا لهما، قال الملك: بماذا؟ قال: بأنّ مُضرَ أكرَمُ العرب وأعزُّها وأكثرُها عَديداً، وأن تَميماً كاهِلُها وأكثرُها، وأن بَيْتَها وعددها في بني بَهدلة بنِ عَوْف، وهو جَدّي. فقال: هذا أنتَ في أصلِك وعشيرتك، فكيف أنت في عِتْرَتِك وأدانيك!

قال: أنا أبو عَشرَة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة. فدفَعهما إليه، وإلى هذا أشار الزِّبرِقان بنُ بدر في قوله:

وبُرْدا ابنِ ماءِ المزْن عَمّي اكتَساهُما ... بفَضْل مَعَدٍّ حيثُ عُدّتْ مَحاصلُهْ

قال أبو عُبيدة: ولهم في الإسلام خصلة، قدِم قيسُ بنُ عاصم المنقَريّ على رسول الله ﷺ في نفر من بني سعد، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا سيّد أهل الوبر»(١)، فجعله سيِّد خِنْدِف وقَيْس ممن يَسكُن الوَبر.

قال: وأما بنو حَنْظلة بن مالك بن زيد مناةَ بن تميم فلهم خِصال كثيرة. قال: في بني دارم بن مالك بن حنظلة، وهو بيتُ مُضَر، فمن ذلك زُرارَة بن عُدَس بن زَيد بن دارِم يقال: إنه أشرَف البيوت في بني تميم، ومن ذلك قَوْسُ حاجبِ بنِ زُرارة المرهونةُ عند كِسرى عن مُضَر كلِّها، وفي ذلك قيل:

وَأَقسم كِسرى لا يصالح واحداً ... من النّاس حتى يَرهنَ القَوْس حاجبُ

ومن ذلك في بني مُجاشع بن دارم صَعْصَعة بن ناجيَة بن عقال بن محمد بن سُفْيان بن مجاشع، وهو أوّل من أحيا الوَئيد، قام الإسلامُ وقد اشترَى ثلاثمائة مَوْؤُدةٍ فأعتقَهنّ وربّاهن، وكانت العرب تَئِد البناتِ خوف الإملاق.

ومن ذلك غالِب بن صَعْصَعة، وهو أبو الفَرَزْدق، وغالِب هو الذي قَرَى مائة ضَيْف، واحتَمَل عشْرَ ديات لقومٍ لا يَعرفهم، وكان من حديث ذلك أنّ بني كَلْب بن وَبَرة افتخرتْ بينها في أنْدِيتها، فقالت: نحن لُبابُ العربِ وقلبُها، ونحن الّذين لا نُنازَع حَسَباً وكَرَماً. فقال شيخ منهم: إنّ العرب غيرُ مقرّةٍ لكم بذلك، إنّ لها أحساباً، وإنّ منها لُباباً، وإنّ لها فعالاً، ولكن ابعثوا مائةً منكم في أحسن هيئة وبزّة ينفرونَ من مرّوا به في العرب ويسألونه عَشرَ ديات، ولا ينتِسبون له، فمن قَراهم وبذلَ لهم الدِّياتِ فهو الكريم الّذي لا يُنازَع فضلاً، فخرجوا حتى قدِموا على أرض بني تميم وأسد، فنفَّروا الأحياء حيّاً فحيّاً، وماءً فماء، لا يجدون أحداً على

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٥٦٤)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٩٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٠٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٢١٣).

ما يريدون، حتّى مرّوا على أكثمَ بن صَيْفيّ، فسألوه ذلك، فقال: مَن هؤلاء القَتْلى؟ ومَن أنتم؟ وما قِصّتُكم؟ فإنّ لكم لشأناً باختلافكم في كلامِكم! فَعدَلُوا عنه، ثم مَرّوا بقُتيبة بن الحارث بن شهاب اليَرْبُوعيّ فسألوه عن ذلك، فقال: مَن أنتم؟ قالوا: من كلب بنِ وبَرة. فقال: إنّي لأبغي كلْباً بدَم، فإن انسَلخ الأشهر الحرُم وأنتم بهذه الأرض وأدركَكم الخيلُ تكّلتُ بكم وأثكَلْتُكُمْ أمّهاتِكم. فخرجوا من عندِه مرعُوبين، فمرّوا بعطارد بن حاجب بن زُرارة، فسألوه ذلك، فقال: قولوا بَياناً، وخذُوها، فقالوا: أمّا هذا فقد سألكم قبل أن يُعطِيَكم فتركوه، ومرّوا ببني مُجاشع بن دارم فأتَوْا على وادٍ قد امتلأ إبلاً فيها غالبُ بن صَعْصعة يَهنأ منها إبلاً، فسألوه القِرَى والدِّيات، فقال: هاكم البُزْل قبل النزول فابتزّوها من البَرْك وحُوزُوا دياتكم، ثم انزلوا، فتنزّلوا وأخبَروه بالحال، وقالوا: أرشدك الله مِن سيِّدِ قوم! لقد أرحْتَنا من طول النَّصَب، ولو عَلِمْنا لقصدْنا إليك، فذلك قول الفرزْدَق:

فلله عَيْنَا مَنْ رَأى مِثلَ غالبٍ … قِرَى مائةً ضيفاً ولم يتكلّمِ
وإذ نبحتْ كلبٌ على الناس إنهم … أحقُّ بتاجِ الماجدِ المتكرِّمِ
فلم يجْلُ عن أحسابها غير غالبٍ … جَرَى بعِنانَيْ كلّ أبلَجَ خِضْرمِ

قال: فأمّا بنو يَرْبوع بن حنظلة، فمنهم. ثُمّ مِن بني رياح بن يربوع عَتّاب بن هَرْميّ بن رِياح، كانت له ردافَة الملوك، ملوكِ آلِ المنذِر، ورِدافة الملْك أن يُثنّى به في الشُّرْب، وإذا غاب الملكُ خَلَفَه في مجلِسه، وورِث ذلك بنُوه كابراً عن كابر، حتّى قامَ الإسلام، قال لبيدُ بن ربيعة:

وشهدتُ أنجيةَ الأكارمِ غالباً … كَعْبي وأردافُ الملوكِ شهودُ

ويَرْبوع أوّل مَنْ قَتل قتيلاً من المشركين، وهو واقد بنُ عبدِ الله بن ثعلبة بن يربوع، حليفُ عمر بن الخطّاب، قتل عمرو بن الحضرميّ في سرية نخلة، فقال عمرُ بنِ الخطّاب يفتخر بذلك:

سَقَيْنَا من ابن الحضرميّ رماحنَا … بنخلةَ لمّا أوقَدَ الحرب واقدُ
وظلّ ابنُ عبدِ الله عثمان بيننا … يُنازعه غُلٌّ من القدِّ عانِدُ

ولها جَواد العَربِ كلّها في الإسلام، بدأ العرب كلّها جوداً، خالدُ بنُ عتّاب بن وَرْقَاء الرِّياحي. دخل الفرزدقُ على سليمانَ بن عبد الملك، وكان يَشْنؤه لكثرةِ بأوِه وفخره، فتجهّمه وتنكّر له، وأغلَظ في خطابه حتّى قال: مَن أنت لا أمَّ لك! قال: أوَما تعرِفني يا أمير المؤمنين؟ أنا من حيٍّ همْ من أوْفَى العَرَب، وأحلم العرب، وأسودِ العَرَب، وأجوَدِ العَرَب وأشجَع العرب، وأشعَرِ العرب. فقال سليمان: والله لتحتَجّن لما ذكرتَ أو لأوجعَنَّ ظهْرَك، ولأبعدَنّ دارَك. قال: أما أوفى العرب فحاجبُ بنُ زُرارةَ، رَهَن قوسَه عن العرب كلها وأوْفَى. وأمّا

أحلَمُ العرب فالأحنف بنُ قَيْس يُضرَب به المَثَل حِلماً، وأما أسْوَدُ العرب فقيْس بنُ عاصم، قال له رسول الله ﷺ: «هذا سيّد أهل الوَبَر»، وأما أشجَعُ العرب فالْحَرِيش بنُ هلال السعديّ، وأما أجودُ العرب فخالدُ بن عَتّاب بن وَرْقاء الريّاحيّ، وأما أشعَر العَرَب فها أنذا عندَك! قال سليمان: فما جاء بك؟ لا شيءَ لك عندنا، فارْجع على عَقبك، وغمّه ما سَمِع مِن عِزِّه، ولم يَستطِع لهُ ردّاً، فقال الفرزدق في أبيات:

أتينـاكَ لا من حاجةٍ عَرَضَتْ لنـا إليـكَ ولا مِـن قـلّـةٍ فـي مـجاشِـعِ

قلتُ: ولو ذكر عُتيْبة بنَ الحارث بن شهاب اليَرْبوعيّ وقال: إنه أشجَع العرب لكان غيرَ مُدافَع. قالوا: كانت العرب تقول: لو وَقَع القمرُ إلى الأرض لما التقفَه إلاَّ عُتَيْبة بنُ الحارث لثقَافته بالرُّمح. وكان يقال له: صيّاد الفوارس وسمّ الفوارس، وهو الذي أسرَ بسطامَ بن قيس، وهو فارس ربيعة وشُجاعُها، ومكث عنده في القَيْد مُدّة حتّى استوفَى فِداءَه وجَزّ ناصيته، وخَلّى سبيله على ألّا يغزُوَ بني يَرْبوع. وعُتيبة هذا هو المقدَّم على فُرْسانِ العَرَب كلِّها في كتاب طبَقات الشُّجْعَان ومَقاتِلِ الفُرْسان، ولكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تميمياً، لأن جريراً يفتخر به، لأنه من بني يَربوع، فحملتْه عداوةُ جرير على أن عدل عن ذكره.

قال أبو عبيدة: ولبني عمرو بن تميم خِصالٌ تعرفها لهم العَرَب ولا ينازعهم فيها أحد، فمنها أكرمُ الناس عمًّا وعَمّة، وجدًّا وَجَدّة، وهو هند بنُ أبي هالة، واسم أبي هالَةَ نبّاش بنُ زُرارة أحدُ بني عمرو بن تميم، كانت خديجةُ بنتُ خوَيْلد قبلَ النبي ﷺ تحتَ أبي هالة، فولدت له هنداً، ثم تزوجها رسول الله ﷺ وهندُ بنُ أبي هالةَ غلامٌ صغير، فتبنّاه النبي ﷺ، ثم ولدتْ خديجةُ من رسول الله ﷺ القاسمَ والطاهرَ وزينبَ ورقيّةَ وأمَّ كلثوم وفاطمة، فكان هندُ بنُ أبي هالة أخاهم لأمّهم، ثم أولد هند بن أبي هالة هندَ بن هند، فهند الثاني أكرمُ الناس جدًّا وَجدّة، يعني رسول الله ﷺ وخديجة، وأكرم الناس عمًّا وعمّة - يعني بَني النبيّ ﷺ وبناتِه.

ومنها أنّ لهم أحكَم العَرب في زمانه أكثمُ بن صَيْفيّ، أحد بني أسَد بن عمرو بن تميم، كان أكثر أهل الجاهلية حِكماً ومثلاً وموعظة سائرة.

ومنها ذو الأعواز، كان له خَراجٌ على مضَر كافّة تؤدّيه إليه، فشاخَ حتّى كان يُحمَل على سرير يُطاف به على مياه العَرَب، فيؤدّى إليه الخراج، وقال الأسودُ بن يَعْفُر النَّهْشَليّ وكان ضريراً:

ولـقـد عـلـمـتُ خـلافَ مـا تُـنـاشِـي أنّ الـسـبـيـلَ سـبـيـلُ ذي الأعـوازِ

ومنها هلال بنُ أحوَز المازنيُّ الّذي ساد تميماً كلَّها في الإسلام، ولم يَسُدها غيرُه.

قال: ودخل خالد بن عبد الرحمن بن الوليد بن المغيرة المخزومي مسجدَ الكوفة، فانتهَى إلى حَلْقةٍ فيها أبو الصَّقْعَب التيميّ، من تَيْم الرّباب، والمخزوميّ لا يعرفه، وكان أبو الصَّقْعَب

من أعلَم الناس، فلما سمع علمَه وحديثه حسَدَه، فقال له: ممّن الرجل؟ قال: من تَيْم الرِّباب، فظَنّ المخزوميُّ أنّه وَجدَ فرصةً، فقال: والله ما أنت من سعد الأكثرين ولا مِن حنظَلة الأكرَمين، ولا من عَمرو الأشدِّين! فقال أبو الصقعب: فممّن أنتَ؟ قال مِن بني مَخْزوم. قال: والله ما أنتَ من هاشم المنتخَبين، ولا من أميّة المستخْلَفين، ولا من عبد الدار المستحجَبين، فبمَ تفخَر؟ قال: نحنُ رَيْحانة قريش، قال أبو الصقعب: قُبْحاً لما جئتَ به! وهل تدري لم سميّتْ مخزوم ريحانةَ قريش؟ سُمّيتْ لحظوة نسائها عند الرجال، فأفحَمَه.

رَوَى أبو العباس المبرِّد في كتاب «الكامل»[١] أن معاوية قال للأحنف بن قيس وجارية بن قُدامة ورجالٍ من بني سعد معهما كلاماً أحفَظَهم، فرَدُّوا عليه جواباً مُقذِعاً، وامرأتُه فاختِة بنت قرظَة في بيتٍ يقرُب منهم، وهي أمّ عبدِ الله بن معاوية، فسمعتْ ذلك، فلما خرجوا قالت: يا أميرَ المؤمنين، لقد سمعتَ من هؤلاء الأجلاف كلاماً تَلَقَّوْك به فلم تُنكِر، فكدتُ أن أخرجَ إليهم فأسطُوَ بهم! فقال معاوية: إن مضرَ كاهِلُ العَرَب، وتميماً كاهلُ مُضر، وسعداً كاهِلُ تميم، وهؤلاء كاهلُ سعد.

وَرَوَى أبو العباس أيضاً أن عبد الملك ذَكر يوماً دارِم فقال أحدُ جُلَسائه: يا أميرَ المؤمنين، هؤلاءِ قوم مَحظوظون - يعني في كثرة النَّسْل ونَماء الذريّة - فلذلك انتَشر صِيتُهم. فقال عبدُ الملك: ما تقول هذا وقد مضى منهم لَقيطُ بنُ زُرارة ولم يُخلِّف عَقِباً، ومضى قَعقاع بن مَعبَد بن زُرارة ولم يخلّف عِقِباً، ومضى محمد بن عُمير بن عطارِد بن حاجب بن زُرارة ولم يخلّف عَقِباً! والله لا تَنسَى العربُ هذه الثلاثَة أبداً.

قال أبو العباس: إنّ الأصمعيّ قال: إنّ حَرْباً كانت بالبادية ثمّ اتصلتْ بالبَصرة، فتفاقَم الأمرُ فيها، ثم مُشِي بين الناس بالصّلح، فاجتَمعوا في المسجد الجامع. قال: فبُعثتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بني دارم، فاستأذنتُ عليه، فأذِن لي، فدخلتُ، فإذا به في شَمْلة يَخلط بزراً لعنزٍ له حَلُوب فخبّرته بمجتمَع القوم، فأمهَل حتى أكلتِ العَنْز، ثم غَسَل الصحفة وصاح: يا جارية، غَدِّينا، فأتتْه بزَيت وتمرٍ، فدعاني، فقَذَرْته أن آكلَ معه حتى إذا قَضَى من أكله وحاجتِه وَطَراً وَثَب إلى طِينٍ مُلقًى في الدار، فَغَسل به يدَه، ثم صاح: يا جارية، اسقِيني ماءً، فأتته بماءٍ، فشَرِبه ومَسَح فضلَه على وجهه، ثم قال: الحمد لله، ماءُ الفُرات بتَمر البَصرة بزَيْت الشام، متَى نؤدّي شكرَ هذه النِّعَم! ثم قال: عليَّ برادئي، فأتته بِرِداء عَدَنيّ فارتدَى به على تلك الشَّمْلة. قال الأصمعيّ: فتجافيتُ عنه استِقباحاً لزِيّه، فلما دخل المسجدَ صلّى ركعتَين، ثم

(١) الكامل في اللغة لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالبر والنحوي المتوفى سنة (٢٨٥هـ) «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

مشى إلى القوم، فلم تَبقَ حُبْوَةٌ إلا حُلّت إعظاماً له، ثم جلس فتحمّل جميعَ ما كانَ بين الأحياء في مالِه ثم انصرَف.

قال أبو العباس: وحدثني أبو عثمانَ المازنيّ، عن أبي عُبيدة، قال: لمّا أتَى زيادُ بنُ عَمرو المِرْبَد في عَقِب قَتْل مسعود بن عمرو العَتَكيّ، وجاء زياد بن عَمرو بن الأشرَف العَتَكي ليَثْأر به من بني تميم صَفَّ أصحابه، فجَعَل في الميمنة بكرَ بن وائل، وفي المَيسرة عبدَ القيس، وهم لُكَيز بن أفصى بن دُعْميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة، وكان زياد بنُ عمرو العَتَكي في القَلْب، فَبلَغ ذلك الأحنف بن قيس، فقال: هذا غلامٌ حدَث، شأنُه الشُّهرة، وليس يبالِي أين قَذَف بنفسه! فندب أصحابه، فجاءه حارثة بن بَدْر الغُدانيّ، وقد اجتمعتْ بنو تميم، فلما أتى قال: قوموا إلى سيِّدكم، ثم أجلسَه فناظَره، فجعلوا سعْداً والرّباب في القَلْب ورئيسهم عَبْس بنُ طلْق الطّعان المعروف بأخي كَهْمَس، وهو أحد بني صُرَيم بن يَرْبوع، فكانوا بحِذاء زِياد بن عمرو ومن معه من الأزْد، وجعل حارثة بن بدر الغُداني في بني حنظلة بحذاءِ بكر بنِ وائل، وجعل عمرو بن تميم بحذاء عبد القيس، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف:

سيَكفيكَ عبسٌ أخو كَهْمَسٍ ... مُقارعةَ الأزْدِ في المِرْبَدِ
ويَكفيك عَمرٌو على رِسْلِها ... لُكَيز بن أفصَى وما عدَّدوا
ونَكفيك بكراً إذا أقبلتْ ... بضرْب يَشيبُ له الأمرَدُ

ولُكَيزُ بن أفصى تعمّ عبدَ القيس. قال: فلما تواقفوا بعثَ إليهم الأحنف: يا معشرَ الأزْد من اليَمَن وربيعة من أهل البَصرة، أنتم والله أحبُّ إلينا من تَميم الكُوفة، وأنتم جيرانُنا في الدار، ويدُنا على العدوّ، وأنتم بدأتمونا بالأمس، ووَطِئتم حَريمَنا، وحَرّقْتم علينا، فدَفَعنا عن أنفسِنا، ولا حاجة لنا في الشرّ ما طلبْنا في الخير مَسلَكاً، فتيمّموا بنا طريقةً مستقيمة. فوجّه إليه زِيادُ بنُ عمرو، تَخيَّرْ خَلّة من ثلاث: إن شئتَ فانزل أنت وقومُك على حكمنا، وإن شئتَ فخلّ لنا عن البَصْرة، وارحل أنتَ وقومُك إلى حيث شئتم، وإلّا فَدُوا قَتْلانا، واهدُروا دِماءكم، وليودَ مسعود دِية المُشعِرة.

قال أبو العباس: وتأويل قوله: «دِية المشعرة»، يريد أمرَ الملُوك في الجاهليّة، وكان الرجل إذا قُتِل وهو من أهل بيت المملكةُ وُدِيَ عَشر دِيات - فبعث إليه الأحنفُ: سنختار. فانصرفوا في يومِكم، فهزّ القومُ راياتِهم وانصرفوا، فلما كان الغَدُ بَعث الأحنف إليهم: إنكم خيّرتمونا خِلالاً ليس لنا فيها خيار، أمّا النزول على حكمكم فكيف يكون والكَلْم يَقطُر، وأمّا تركُ دِيارنا فهو أخو القَتْل. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾(١)، ولكن الثالثة إنّما هي حَمْلٌ على المال، فنحن نُبطِل دماءنا، ونَدِي قَتْلاكم،

(١) سورة النساء، الآية: ٦٦.

وإنما مسعود رجلٌ من المسلمين، وقد أذهبَ الله عزّ وجلّ أمرَ الجاهلية. فاجتمعَ القومُ عَلَى أن يقِفوا أمرَ مسعود، ويُغمِدوا السيف، وتُودَى سائرُ القَتْلَى من الأزْدِ وربيعة، فضَمِن ذلك الأحنف، ودفع إليهم إياسَ بنَ قتادة المجاشعيّ رهينة حتى يؤدي هذا المال، فرضيَ به القوم، ففخر بذلك الفرزدق، فقال لجرير:

ومنّا الذي أعطى يديْه رَهينة لغارَيْ معدٍّ يوم ضَرْب الجَماجِمِ
عشيّة سالَ المِرْبدانِ كلاهُما عجاجةَ موتٍ بالسّيوف الصّوارم
هنالك لو تبغي كليباً وجدتَها أذلَّ من القِردان تحتَ المناسِمَ[1]

ويقال: إن تميماً في ذلك الوقت مع باديتها وحلفائها من الأساورة والزّط والسبابجة وغيرهم كانوا زُهاء سبعين ألفاً، وفي ذلك يقول جَرير:

سائلْ ذَوِي يمنٍ ورَهطَ محرِّقٍ والأزْدَ إذ نَدبوا لنا مسعودا
فأتاهمُ سبعون ألف مدجَّجٍ متَسربلين يَلامِقاً[2] وحديدا

قال الأحنفُ بنُ قيس: فكثرت عليّ الديات فلم أجدْها في حاضرة تميم، فخرجت نحو يَبْرين إلى بادية تميم، فسألتُ عن المقصود هناك، فأرشِدْتُ إلى قبّة، فإذا شيخٌ جالس بفنائها مؤتزر بشملة، مُحْتَبٍ بحبل، فسلّمتُ عليه، وانتسبتُ له، فقال لي: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قلت: توفّيَ. قال: فما فعل عمر بن الخطّابِ الّذي كان يَحفظ العرب ويَحوطها؟ قلت: تُوفّيَ. قال: فأيّ خير في حاضرتكم بعدهما؟ قال: فذكرتُ له الدّيات التي لزمتنا للأزد وربيعة، قال: فقال لي: أقم، فإذا راع قد أراح عليه ألف بعير، فقال: خذها، ثم أراح علينا آخر مثلها، فقال: خُذها، فقلتُ: لا أحتاج إليها. قال: فانصرفتُ بالألف عنه، ووالله ما أدْري من هو إلى الساعة[3]!

١٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شكوا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاَحْتِقَاراً وَجفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أرهم أَهْلاً لأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ

(١) المناسم: جمع منسِم وهو خفّ البعير. القاموس المحيط، مادة (نسم).
(٢) يَلامق: جمع يَلْمَق وهو القباء، فارسي معرب. اللسان، مادة (يلمق).
(٣) أنظر الكامل: ١/ ١٤٠ - ١٤٣.

جلباباً مِنَ اللّين تَشوبُهُ بطَرَفٍ مِنَ الشدَّةِ، وَداوِلْ لَهُمْ بَيْنَ ٱلْقَسْوَةِ وَالرَّأفَةِ، وَٱمْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَٱلْإِدْنَاءِ، والإبعاد والإقصاءِ، إنْ شَاءُ ٱلله.

الشرح: الدَّهاقين: الزعماء أربابُ الأملاك بالسّواد: واحدُهم دهقان بكسر الدال، ولفظُه معرَّب.

وداوِلْ بينهم، أي مرّة هكذا ومرّة هكذا، أمره أن يَسلك معهم مَنهَجاً متوسّطاً، لا يُدنيهم كلَّ الدنوّ لأنهم مُشرِكون، ولا يقصيهم كلّ الإقصاء لأنهم مُعاهِدون، فوجب أن يعاملهم معاملةً آخِذةً من كلّ واحدٍ من القسمين بنصيب.

٢٠ - ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد ابن أبيه وهو خليفةُ عاملهِ عبد الله ابن عباس على البَصرة وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذٍ عليها وعَلَى كُوَر الأهواز وفارس وكِرْمَان وغيرها

الأصل: وَإِنّي أُقْسِمُ بِالله قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ المُسْلِمينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لأَشُدَّنَّ عليك شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ ٱلْوَفْر، ثَقِيلَ الظَّهر، ضَئِيلَ الأمْر. والسَّلامُ.

الشرح: سيأتي ذكر نسب زياد وكيفية استلْحَاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى.

قوله عليه السلام: «لأشُدّنَّ عليك شدّة»، مثلُ قوله: «لأحملنّ عليك حَملةً»، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال.

ثم وصف تلك الشدّة فقال: «إنها تتركك قليل الوَفْر»، أي أُفقِرك بأخذ ما احتجتَ من بيت مال المسلمين. وثقيل الظَهر، أي مسكين لا تقدِر على مَؤونة عيالك. وضئيل الأمر، أي حقير، لأنك إنما كنت نبيهاً بين الناس بالغنَى والثّروة، فإذا افتقرتَ صغرتَ عندهم، واقتحمتْك أعينُهم.

٢١ - ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضاً

الأصل: فَدَعِ ٱلْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَٱذْكُرْ فِي ٱلْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ ٱلْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ ٱلْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ، أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ ٱلله أَجْرَ المُتَوَاضِعِينَ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ

الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ أَنْ تَمْنَعَهُ الضَّعِيفَ والأَرْمَلَةَ، وَأَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَإِنَّمَا المَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ. وَالسَّلامُ.

الشرح: المتمرّغ في النّعيم: المتقلّب فيه. ونهاه عن الإسراف وهو التبذير في الإنفاق، وأمرَه أن يُمسك من المال ما تَدْعو إليه الضرورة، وأن يقدّم فضول أمواله وما ليس له إليه حاجة ضرورية في الصدقة فيدّخره ليوم حاجته، وهو يوم البَعْث والنشور.

قلتُ: قبّح الله زياداً! فإنه كافأ إنعام عليّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبّيه والإسراف في لعنه، وتهجين أفعاله، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه، ولم يكن يفعلُ ذلك لطلب رضا معاوية، كلّا، بل يفعله بطبعه، ويعاديه بباطنه وظاهره، وأبى الله إلّا أن يرجع إلى أمّه، ويصحّح نسبه، وكلُّ إناءٍ يَنْضح بما فيه. ثم جاء ابنه بعد فختم تلك الأعمال السيئة بما ختم، وإلى الله ترجع الأمور!

٢٢ – ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العبّاس رحمه الله تعالى وكان ابنُ عبّاس يقول: ما انتفعتُ بكلامٍ بعدَ كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ المَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوءُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَه، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ المَوْتِ.

الشرح: يقول: إنّ كلّ شيء يصيب الإنسانَ في الدّنيا من نَفْع وضَرّ فبقضاء من الله وقَدرِه تعالى، لكنّ الناسَ لا ينظرون حقّ النظر في ذلك، فيُسَرّ الواحدُ منهم بما يصيبه من النفع، ويُساء بفَوْت ما يَفُوته منه، غيرَ عالم بأنّ ذلك النفعَ الّذي أصابه، كان لا بدّ أن يصيبه، وأنّ ما فاته منه كان لا بدّ أن يفوته، ولو عرَف ذلك حقّ المعرفة لم يفرَح ولم يَحزَن.

ولقائلٍ أن يقول: هَبْ أن الأمور كلّها بقضاءٍ وقَدَر، فلم لا ينبغي للإنسان أن يَفرَح بالنفع وإن وَقع بالقَدَر، ويُساءَ بفَوْته أو بالضّرر وإن وَقَعا بقَدَر! أليس العُرْيان يُساء بقدوم الشتّاء وإن كان لا بدّ من قدومِه، والمحمومُ غبّاً يساء بتجدد نَوبة الحمّى، وإن كان لا بد من تَجدُّدها!

فليس سبب الاختيار في الأفعال ممّا يوجب أن لا يسرّ الإنسان ولا يساء بشيء منها.

والجواب ينبغي أن يُحمَل هذا الكلامُ على أن الإنسان ينبغي أن لا يعتقد في الرّزق أنه أتاه بسَعيْه وحَرَكته فَيفرَح مُعْجَباً بنفسه، معتقداً أن ذلك الرزقَ ثمرةُ حركته واجتهاده، وكذلك ينبغي ألّا يساء بفَوات ما يفوته من المنافع لائماً نفسَه في ذلك ناسباً لها إلا التقصير وفسادِ الحيلة والاجتهاد، لأنّ الرزق هو من الله تعالى لا أثَر للحركة فيه، وإن وقع عندها، وعلى هذا التأويل ينبغي أن يُحمل قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[1].

من النَّظم الجيّد الرّوحاني في صفة الدنيا والتحذير منها، والوَصاة بترك الاغترارِ بها، والعمل لما بعدها، ما أورَدَه أبو حيّان في كتاب «الإشارات الإلهيّة» ولم يسمّ قائله:

دارُ الفجائع والهمومِ ودا ... ر البثّ والأحزانِ والبَلْوَى
مُرُّ المذاقة غبّ ما احتلبتْ ... منها يَدَاك وَبِيَّةُ المرعَى
بينا الفَتَى منها بمنزلةٍ ... إذ صار تحت تُرابها مُلقَى
تقفو مساوِيها محاسنُها ... لا شيء بين النَّعْي والبُشرَى
ولَقَلّ يومٌ ذَرَّ شارِقُه ... إلا سمعتَ بهالكٍ يُنعَى
لا تَغْتبنّ على الزّمان لما ... يأتي به فلقلّما يَرْضَى
للمرء رزقٌ لا يفوت ولو ... جَهَد الخلائقُ دونَ أن يفنَى
يا عامرَ الدّنيا المعدُّ لها ... ماذا عَمِلتَ لدارك الأخرى!
وممهِّد الفُرُش الوطيئة لا ... تُغفِلْ فِرَاش الرَّقْدة الكبرى
لو قد دُعِيتَ لقد أجبتَ لما ... تُدعى له فانظر متَى تُدعَى!
أتراكَ تُحصِي كم رأيتَ مِن الـ ... أحياءِ ثمّ رأيتَهم مَوتى
مَنْ أصبحتْ دنياه همَّته ... فمتى ينالُ الغايةَ القُصْوَى!
سبحانَ من لا شيء يَعدِلُه ... كم من بصير قلبُه أعمى!
والموتُ لا يخفَى على أحدٍ ... ممَّن أرَى وكأنه يخفَى
والليلُ يَذهبُ والنهارُ بأحبابي، ... وليس عليهما عدوَى

---

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

٢٣ - ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصيّة لما ضَرَبه ابن مُلجَم لعنه الله

الأصل: وَصِيَّتِي لَكُمْ أَلّا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هٰذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلاكُمْ ذَمٌّ!

أَنَا بِالأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(١).

وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ، وَمَا كُنْتُ إِلّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾(٢).

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: أَقُولُ وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هٰذَا الْكَلامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطَبِ، إِلّا أَنَّ فِيهِ هاهُنَا زِيَادَةً أَوْجَبَتْ تَكْرِيرَهُ.

الشرح: فإن قلت: لقائل أن يقول: إذا أوصاهم بالتّوحيد واتّباع سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله فلم يبقَ شيءٌ بعد ذلك يقول فيه: أقيموا هذين العَمُودين وخَلاكم ذمّ، لأنّ سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله فعلُ كلّ واجب، وتجنُّب كلّ قبيح، فخلاهم ذَمّ فماذا يقال؟

والجواب أنّ كثيراً من الصّحابة كلّفوا أنفسهم أموراً من النّوافل شاقّةً جدّاً، فمنهم من كان يقوم الليل كلّه، ومنهم من كان يصوم الدهر كلّه، ومنهم المرابط في الثّغور، ومنهم المجاهد مع سقوط الجهاد عنه لقيام غيره به، ومنهم تاركُ النّكاح، ومنهم تاركُ المطاعم والملابس، وكانوا يتفاخرون بذلك، ويتنافسون فيه، فأراد عليه السلام أن يبيّن لأهله وشيعته وقتَ الوصيّة أنّ المهمّ الأعظم هو التّوحيد، والقيام بما يُعلم من دين محمّد صلى الله عليه وآله أنه واجب، ولا عليكم بالإخلال بما عدا ذلك، فليت من المائة واحداً نَهَض بذلك، والمراد ترغيبهم بتخفيف وظائف التكاليف عنهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٣).

(١) سورة النور، الآية: ٢٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

وقال ﷺ: «بُعثتُ بالحنيفيّة السهلة السَّمْحة»(١).

قوله: «وخَلاكم ذمّ»: لفظةٌ تقال على سبيل المثَل أي قد أعذَرتم، وسَقَط عنكم الذمّ.

ثم قسم أيامه الثلاثة أقساماً فقال: أنا بالأمس صاحبُكم أي كنت أُرجَى وأُخاف، وأنا اليوم عِبرةٌ لكم، أي عِظة تعتبرون بها. وأنا غداً مفارقكم، أكون في دار أخرى غير داركم.

ثم ذكر أنه إن بقي ولم يمتْ من هذه الضربة فهو وليّ دمِه، إن شاء عفَا، وإنْ شاء اقتصّ، وإن لم يَبْق فالفناء الموعد الّذي لا بدّ منه.

ثم عاد فقال: وإن أعْفُ، والتقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلّمين. والمعنى منه مفهوم، وهو إمّا أن أسلم من هذه الضربة أو لا أسلم، فإن سلمت منها فأنا وليّ دَمي، إن شئتُ عفوتُ فلم أقتصّ، وإن شئتُ اقتصصتُ، ولا يعني بالقصاص ها هنا القتل، بل ضربةً بضربة، فإن سَرَتْ إلى النفس كانت السراية مُهدَرة كقَطْع اليد.

ثم أوْمَأ إلى أنه إن سلِم عفا بقوله: إن العفو لي إن عفوْت قرْبة.

ثم عُدْنا إلى القسم الثاني من القسمين الأوّلَيْن، وهو أنه عليه السلام لا يَسلَم من هذه، فولاية الدم إلى الورثة، إن شاؤوا اقتَصُّوا وإن شاؤوا عَفوا.

ثم أومأ إلى أنَّ العفْو منهم أحسن، بقوله: «وهو لكم حسنة»، بل أمَرَهم أمراً صريحاً بالعفو، فقال: فاعفوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(٢). وهذا لفظ الكتاب العزيز، وينبغي أن يكون أمْرُه بالعفو في هذا الكلام محمولاً على النّدب.

ثم أقسَم عليه السلام أنه ما فجأه من الموت أمْرٌ أنكرَه ولا كَرِهه، فجأني الشيء: أتاني بغتةً.

ثم قال: «ما كنتُ إلا كقارِب وَرَد»، والقارب: الّذي يسير إلى الماء وقد بقي بينه وبينه ليلة واحدة، والاسم: القَرَب، فهم قارِبون، ولا يقال «مقرِبون»، وهو حرف شاذٌّ.

٢٤ - ومن وصية له عليه السلام بما يعلم في أمواله كتبها بعد منصرفَه من صفين

الأصل: هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عبدُ الله عَلِيُّ بْنُ أَبي طَالِبٍ أَمِير المُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله لِيُولِجَهُ بِهِ ٱلْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ ٱلْأَمَنَةَ.

(١) أخرجه أحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث أبي أمامة الباهلي (٢١٧٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٧١٥)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٦٠).

(٢) سورة النور، الآية: ٢٢.

الشرح: قد عابت العثمانية وقالت: إن أبا بكر مات ولم يخلّف ديناراً ولا درهماً، وإنّ علياً عليه السلام مات وخلّف عَقاراً كثيراً - يَعنون نَخلاً - قيل لهم: قد عَلِم كلُّ أحدٍ أنّ علياً عليه السلام استخرَج عيوناً بكدِّ يده بالمدينة ويَنْبع وسُوَيْعة، وأحْيَا بها مَواتاً كثيراً، ثم أخرَجها عن مِلكه، وتَصدّق بها على المسلمين، ولم يمتْ وشيءٌ منها في مِلكه، ألا ترى إلى ما تتضمنّه كُتبُ السِّيَر والأخبار من منازعة زيد بنِ عليّ وعبدِ الله بن الحسن في صَدَقاتِ عليّ عليه السلام، ولم يُورِّث عليٌّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلا عبيدَه وإماءَه وسَبْعَمائة درهم من عَطائه، تركها ليشتريَ بها خادماً لأهله قيمتُها ثمانيةٌ وعشرون ديناراً، على حَسَب المائة أربعة دنانير، وهكذا كانت المعاملة بالدراهم إذ ذاك، وإنما لم يَترُك أبو بكر قليلاً ولا كثيراً لأنه ما عاش، ولو عاش لتَرَك، ألا تَرَى أنّ عمر أصدَق أمَّ كلثوم أربعين ألفَ دِرْهم، ودَفعها إليها! وذلك لأنّ هؤلاء طالت أعمارُهم، فمنهم من دَرَّتْ عليه أخلاف التّجارة، ومنهم من كان يَستعمر الأرض ويَزْرعها، ومنهم من استفضل من رزقه من الفيء.

وفضَلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يَعمل بيدِه، ويَحرُث الأرض ويَسْتَقي الماءَ ويغرِس النّخل، كلّ ذلك يباشِرُه بنفسِه الشريفة، ولم يَستْبقِ منه لوقتِه ولا لعَقبه قليلاً ولا كثيراً، وإنّما كان صَدَقَةً، وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وله ضِياعٌ كثيرةٌ جليلة جداً بخيْبَر وفَدَكَ وَبَني النَّضِير، وكان له وادِي نَخْلة وضِياعٌ أخرى كثيرة بالطائف، فصارت بعد موتِه صدقة بالخَبَر الّذي رواه أبو بكر. فإن كان عليٌّ عليه السلام مَعيباً بضِياعه ونخلِه فكذلِك رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا كفر وإلحاد! وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّما ترك ذلك صَدَقةً فرسول الله صلى الله عليه وآله مَا رَوَى عنه الخبر في ذلك إلا واحد من المسلمين، وعليّ عليه السلام كان في حياته قد أثبتَ عند جميع المسلمين بالمدينة أنّها صدقة، فالتُّهمة إليه في هذا الباب أبْعد. ورُويَ: «ويُعطيني به الأمَنَة»، وهي الأمْن.

الأصل: منها: فَإنَّهُ يَقُومُ بِذلِكَ ٱلْحَسَنُ بْنُ عَلِيّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ، وَإنَّ لابنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ.

وَإنِّي إنَّمَا جَعَلْتُ ٱلْقِيَامَ بِذلِكَ إلَى ٱبْنَيْ فَاطِمَةَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ، وَقُرْبَةً إلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ، وَيَشْتَرِطُ عَلَى ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ إلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ، وَألا يَبِيعَ مِنْ أَوْلادِ نَخِيلِ هذِهِ ٱلْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً.

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائي ٱللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا ٱلرِّقُّ وَحَرَّرَهَا ٱلْعِتْقُ.

قَالَ السيّد ٱلرَّضِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى: قولهُ عليهِ السَّلامُ فِي هَذِهِ ٱلْوَصِيَّة «وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَخْلِهَا وَدِيَّةً»، ٱلْوَدِيَّةُ: ٱلْفَسِيلَةُ، وَجَمْعُهَا وُدِيٌّ.

قَوْلُهُ عليه السلام: «حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً» هُوَ مِنْ أَفْصَحِ ٱلْكَلَامِ، وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَكْثُرُ فِيهَا غِرَاسُ ٱلنَّخْلِ حَتَّى يَرَاهَا ٱلنَّاظِرُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ ٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي عَرَفَهَا بِهَا، فَيُشْكِلَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَيَحسبها غَيْرَهَا.

الشرح: جعلَ للحَسَن ابنه عليه السلام ولاية صَدَقات أمواله، وأذن له أن يأكل منه بالمعروف، أي لا يُسرِف، وإنما يتناول منه مقدارَ الحاجة، وما جرتْ بمثلِه عادة من يتولّى الصدقات، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾[1].

ثم قال: فإن مات الحسنُ والحُسين بعدَه حيّ فالولايةُ للحسين، والهاء في «مَصدره» ترجع إلى الأمر، أي يصرفه في مَصارفه التي كان الحسن يصرفه فيها. ثم ذكر أنَّ لهذين الولدين حصّة من صدقاته أسوَةً بسائر البنين، وإنما قال ذلك لأنه قد يتوهّم متوهِّم أنّهما لكونهما قد فوّض إليهما النظرُ في هذه الصدقات، قد مُنِعا أن يُسهما فيها بشيءٍ، وأن الصّدقات إنما يتناولها غيرهما من بني عليّ عليه السلام ممّن لا ولاية له مع وجودهما، ثم بيّن لماذا خصَّهما بالولاية؟ فقال: إنّما فعلتُ ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله، فتقرّبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأن جعلتُ لسِبْطيه هذه الرياسة، وفي هذا رَمْز وإزراء بمن صَرَف الأمر عن أهل بيتِ رسول الله صلى الله عليه وآله، مع وجود من يصلُح للأمر، أي كان الأليق بالمسلمين والأوْلى أن يجعلوا الرّياسة بعدَه لأهله قُربةً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وتكريماً لحرمته، وطاعةً له، وأنفَة لقَدْره، صلى الله عليه وآله أن تكونَ وَرَثته سُوقةً، يليهم الأجانب، ومن ليس من شَجَرته وأصلِه. ألاَ ترى أنّ هيبة الرّسالة والنّبوة في صدور الناس أعظمُ إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبّوة، وليس يُوجد مثل هذه الهيْبة والجلال في نفوس الناس للنبّوة إذا كان السلطان الأعظمُ بعيدَ النسب من صاحب الدعوة عليه السلام!

ثم اشترَط على مَنْ يلي هذه الأموال أن يتركَها على أصولها، ويُنفِق من ثمرتها، أي لا يقطع النخل والثمر ويبيعه خَشَباً وعيداناً، فيفضِي الأمرُ إلى خراب الضِّياع وعُطْلة العَقار.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

قوله: «وألّا يبيع من أولاد نخيل هذه القُرى» أي من الفُسْلان الصِّغار، سمّاها، أولاداً، وفي بعض النُّسخ ليست «أولاد» مذكورةً، والوَدِيّة: الفَسِيلة.

تُشْكِلَ أرضها: تمتلىء بالغِراس حتى لا يَبقَى فيه طريقة واضحة.

قوله: «أطوفُ عليهنّ»، كنايةً لطيفة عن غِشْيان النساء، أي من السَّراريّ، وكان عليه السلام يذهبُ إلى حِلّ بَيْع أمهاتِ الأولاد، فقال: من كان من إمائي لها ولد منّي، أو هي حاملٌ منّي وقسمتم تركتي فلتكن أمُّ ذلك الولدِ مبيعة على ذلك الوَلَد، ويُحَاسَب بالثمن من حصّته من التركة، فإذا بيعتْ عليه عتقتْ عليه، لأنّ الوَلد إذا اشتَرَى الوالدَ عَتق الوالدُ عنه، وهذا معنى، قوله «فتُمسَك على ولدها»، أي تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر، وهي منْ حظّه، أي من نصيبه وقسطه من التركة.

قال: فإن مات ولدها وهي حيّة بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعُها لأنها خرجتْ عن الرِّق بانتقالها إلى ولدها، فلا يجوز بيعُها.

فإن قلت: فلماذا قال: فإن مات ولدُها وهي حيّة؟ وهلا قال: فإذا قُوّمتْ عليه عتقتْ؟

قلت: لأنّ موضع الاشتباه هو موتُ الولد وهي حيّة، لأنه قد يَظُنُّ ظانٌّ أنه إنما حَرُم بيعُها لمكان وجود ولدها، فأراد عليه السلام أن يبيِّن أنها قد صارت حُرّة مطلقاً سواء كان ولدُها حَيًّا أو ميّتاً.

٢٥ - ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات وإنّما ذكرنا هنا جُمَلاً منها ليُعلمَ بها أنّه عليه السلام كان يقيم عِمادَ الحق، ويشرع أمثلةَ العَدْل في صغير الأمور وكبيرِها ودقيقِها وجَليلِها

الأصل: ٱنْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى ٱللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَلا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلاَ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى ٱلْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ ٱمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَٱلْوَقَارِ، حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ.

وَلا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ ٱللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ ٱللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ ٱللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ!

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لا، فَلاَ تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ، أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ، فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلا تَدْخُلْهَا إِلّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ، وَلا عَنِيفٍ

بِهِ. وَلاَ تُنفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلا تُفزِعَنَّهَا، وَلا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا. وَٱصْدَعِ ٱلْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلا تَعْرِضَنَّ لِمَا ٱخْتَارَهُ. ثُمَّ ٱصْدَعِ البَاقِيَ صَدْعَيْن، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا ٱخْتَارَ فَلا تَعْرِضَنَّ لما ٱخْتَارَه، فَلا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ ٱللهِ فِي مَالِهِ، فَاقْبِضْ حَقَّ ٱللهِ مِنْهُ.

فَإِن ٱسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ ٱصْنَعْ مِثْلَ ٱلَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ ٱللهِ فِي مَالِهِ. وَلا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلاَ هَرِمَةً وَلا مَكْسُورَةً وَلا مَهْلُوسَةً، وَلا ذَاتَ عَوَارٍ، وَلا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ المُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعَنِّفٍ وَلا مُجْحِفٍ، وَلا مُلْغِبٍ وَلاَ مُتْعِبٍ.

ثُمَّ ٱحْدُرْ إِلَيْنَا مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ، نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ ٱللهُ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلا يَمْصُرْ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا، وَلا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ ٱلْغُدُرِ، وَلا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ ٱلْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَٱلْأَعْشَابِ، حَتَّى تَأْتِينَا بِإِذْنِ ٱللهِ بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلا مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ ٱللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ.

الشرح: وقد كرّر عليه السلام قوله: «لنَقسمها على كتاب الله وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله» في ثلاثة مواضعَ مِن هذا الفَصْل: الأوّل قولُه: «حتى يوصله إلى وليّهم ليَقسِمَه بينهم». الثاني قوله عليه السلام: «نصيِّره حيث أمَرَ الله به».

الثالث قوله: «لنَقسمها عَلَى كتاب الله»، والبلاغةُ لا تقتضي ذلك، ولكني أظنه أحبَّ أن يَحتاط، وأن يدفع الظِّنّة عن نفسهِ، فإن الزمان كان في عهده فقد فَسدَ، وساءت ظُنونُ الناس، لا سيما مع ما رآه من عثمان واستئثاره بمالِ الفَيْءِ.

ونعود إلى الشرح. قوله عليه السلام: «علَى تَقوَى الله»، «على» ليست متعلّقة بـ«انطلِقْ»، بل بمحذوف، تقديرهُ: مُواظِباً.

قوله: «ولا تَروعَنّ» أي لا تُفزِّعَنّ، والرَّوع الفَزَع، رُعتُه أروعه، ولا تُروِّعنّ بتشديد الواو وضَمِّ حَرف المضارَعة، من رَوّعت للتكثير.

قولُه عليه السلام : «ولا تجتازَنّ عليه كارهاً»، أي لا تَمُرّنّ ببيوت أحدٍ من المسلمين يكره مُرورَك.

ورُوِي: «ولا تَختارَنّ عليه»، أي لا تقَسِم مالَه وتختَرْ أحدَ القِسْمين، والهاء في «عليه» ترجع إلى «مُسلِماً» وتفسير هذا سيأتي في وصيّته له أن يَصدَعَ المال ثم يصدعه، فهذا هو النّهي عن أن يختار عَلَى المسلِم. والرواية الأولى هي المشهورة.

قوله عليه السلام : «فأنزلْ بمائهم»، وذلك لأنّ الغريبَ يُحمَد منه الانقباض، ويُستَهْجَن في القادم أن يُخالِط بيوت الحيّ الذي قدم عليه فقد يكون من النساء من لا تليق رؤيتُه، ولا يحسُن سماعُ صَوته، ومن الأطفال من يَستهجِن أي يرى الغريب انبساطَه على أبويه وأهلِه، وقد يكره القومُ أن يطلع الغريبُ عَلَى مأكَلهم ومشرَبهم وملبَسهم وبواطن أحوالهم، وقد يكونون فقراء فيكرهون أن يعرِف فقرَهم فيحتقرهم، أو أغنياءَ أربابَ ثروة كثيرةٍ فيكرهون أن يعلم الغريبُ ثروتَهم فيحسُدَهم، ثم أمره أن يَمضِيَ إليهم غير متسرِّع. ولا عَجِل ولا طائشٍ نزِق، حتى يقوم بينهم فيسلّم عليهم ويحيِّيهم تحيةً كاملة، غير مخدَجة، أي غير ناقصة، أخدجَتِ الناقةُ إذا جاءت بوَلَدها ناقصَ الخَلْق، وإن كانت أيامه تامّة، وخَدَجتْ: ألقتْ الولدَ قبل تمام أيّامه. ورُوي: «ولا تُخْدج بالتحيّة»، والباء زائدة.

ثم أمره أن يسألهم: هل في أمولهم حقٌّ لله تعالى؟ يعني الزّكاة، فإن قالوا: لا، فلينصرف عنهم، لأنّ القولَ قول ربِّ المال، فلعلّه قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدِّق إليه.

قوله: «وأنعمَ لك»، أي قال: نعم. ولا تعسِفْه، أي لا تطلب منه الصدقة عَسْفاً، وأصلُه الأخذ عَلَى غير الطريق. ولا تُرهِقه: لا تكلّفه العسرَ والمشقّة.

ثم أمَرَه أن يَقبِضَ ما يدفع إليه من الذّهب والفضة، وهذا يدل عَلى أن المصدّق كان يأخذ العَينَ والوَرِق كما يأخذ الماشية، وأن النّصاب في العَيْن والوَرِقُ تُدفع زكاتُه إلى الإمام ونوّابه، وفي هذه المسألة اختلافٌ بين الفقهاء.

قوله: «فإن أكثرها له»: كلامٌ لا مَزيدَ عليه في الفصاحة والرّياسة والدِّين، وذلك لأن الصدقة المستحقة جزءٌ يسيرٌ من النّصاب، والشّريك إذا كان له الأكثر حَرُم عليه أن يدخل ويتصرّف إلا بإذن شريكه، فكيف إذا كان له الأقل.

قوله: «فلا تَدخُلها دخولَ متسلِّط عليه»، قد علم عليه السلام أن الظلم من طَبْع الوُلاة، وخصوصاً من يتولّى قبضَ الماشية من أربابها عَلَى وجه الصَّدقة، فإنهم يدخلونها دخول متسلّط حاكم قاهر، ولا يَبقى لرب المال فيها تصرُّف، فنَهَى عليه السلام عن مِثل ذلك.

قوله: «ولا تنفِّرنّ بهيمةً، ولا تُفزِّعنها»، وذلك أنّهم عَلَى عادة السُّوء يُهَجْهجون بالقَطيع

حتى تنفِر الأبل، وكذلك بالشّاء إظهاراً للقوّة والقهر، وليتمكن أعوانُهم من اختيار الجيّد، ورَفْض الرديء.

قوله: «ولا تسوءَنّ صاحبَها فيها» أي لا تغمّوه ولا تُحزنوه، يقال: سؤته في كذا سوائيةً ومَسائيةً.

قوله: «واصْدَع المال صدعين وخيِّره»، أي شقّه نصفين ثم خَيْره، فإذا اختار أحد النّصفين فلا تَعرِضنّ لما اختار، ثم اصدع النصف الذي ما ارتضاه لنفسه صَدْعين وخيِّره، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُبقِيَ من المال بمقدار الحق الَّذي عليه، فاقبِضه منه، فإن استَقالك فأقلْهُ، ثم اخلط المال، ثم عُدْ لمثل ما صنعتَ حتى يرضى، وينبغي أن يكون المعيبات الخمس وهي المَهْلوسة والمكْسورة وأخواتهما يخرجها المصدّق من أصل المال قبل قِسْمته ثم يقسم وإلا فربّما وقعتْ في سهم المصدّق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرة بعد مرة.

والعوْد: المُسِنّ من الإبل، والهرمة: المسِنّة أيضاً، والمكسورة: الّتي أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور، والمهْلوسة: المريضة قد هلسها المرض وأفنَى لحمها والهُلاس: السّلّ: والعَوار: بفتح العين: العَيْب، وقد جاء بالضّم.

والمعنِّف: ذو العنْف بالضم وهو ضِدّ الرِّفْق. والمجْحِف: الذي يسوق الماء سوْقاً عنيفاً فيجحف به أي يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمْه ونقْيه. والمُلغِب: المُتعب، واللُّغوب: الإعياء. وحَدرتُ السفينة وغيرها - بغير ألف - أحدُرها بالضم.

قوله: «بين ناقة وبين فصيلها» الأفصح حذف بين الثانية، لأنّ الاسمين ظاهران، وإنما تكرّر إذا جاءت بعد المضمر، كقولك: المال بيني وبين زيدٍ وبين عمرٍو، وذلك لأنّ المجرور لا يُعطَف عليه إلا بإعادة حرف الجر والاسم المضاف، وقد جاء: المالُ بين زيدٍ وعمرٍو، وأنشدوا:

بين السّحاب وبين الرِّيح ملحَمَةٌ … قعاقِعٌ[1] وظبًى في الجوّ تخترِط

وأيضاً:

بين النَّدِيّ وبين برقة ضاحكٍ … غَيْثُ الضّريكِ وفارسٌ مقدامُ

ومن شعر الحماسة:

وإن الذي بيني وبين بني أبي … وبين بني عمّي لمختلفٌ جدّا

وليس قولُ من يقول: إنه عطف بينَ الثالثة على الضمير المجرور بأوْلى من قولٍ من يقول: بل عَطفَ بين الثالثة على بين الثانية، لأنَّ المعنى يتمّ بكلّ واحد منها.

---

(١) القعاقع: تتابع الرعد. القاموس المحيط، مادة (قعع).

قوله عليه السلام: «ولا تَمْصُر لبنها»، المَصْر حَلْب ما في الضرع جميعه، نهاه من أن يحلب اللبن كلَّه فيبقى الفَصيلُ جائعاً، ثم نهاه أن يُجهدَها ركوباً، أي يُتعبها ويُحمّلها مشقّة، ثم أمَرَه أن يعدِل بين الركاب في ذلك، لا يخصّ بالركوب واحدةً بعينها، ليكون ذلك أرْوَح لهنّ، ليرفُه على اللاغب، أي ليترُكه وليُعفه عن الركوب ليستريح. والرفاهية: الدعة والراحة.

والنّقِب: ذو النقب، وهو رقة خُف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه: أمَرَ أن يستأني بالبعير ذي النقبِ، من الأناة، وهي المُهلة.

والظالع: الذي ظَلَع، أي غَمز في مَشيه. والغُدُر: جمع غدير الماء. وجوادّ الطريق: حيث لا ينبت المرعَى. والنِّطاف: جمع نطفة، وهي الماء الصافي القليل. والبُدّن بالتشديد: السِّمان، واحدها بادن. ومُنْقِيات: ذواتُ نِقْي، وهو المُخّ في العَظْم، والشحم في العَين من السِّمَن، وأنْقت الإبلُ وغيرُها: سَمنتْ وصار فيها نِقْيٌ، وناقة مُنْقِيةٌ، وهذه الناقة لا تُنقِي.

٢٦ - ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة

الأصل: آمُرُهُ بِتَقْوَى ٱللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ، وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لا شاهِدَ غَيْرُهُ، وَلا وَكِيلَ دُونَهُ. وَآمُرُهُ أَلّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ ٱللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلانِيَتُهُ، وَفِعلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ العِبَادَةَ. وَآمُرُهُ أَلّا يَجْبَهَهُمْ، وَلا يَعْضَهَهُمْ، وَلا يَرْغَبَ عَنْهِمْ تَفَضُّلاً بِالإمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمُ ٱلإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، والأَعْوَانُ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ.

وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ.

وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ. وَبُؤْسَى لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْفُقَرَاءُ وَالمَساكِينُ، وَالسَّائِلُونَ وَالمَدْفُوعُونَ، وَٱلْغَارِمُونَ وَٱبْنُ السَّبِيلِ!

وَمَنِ ٱسْتَهانَ بالأَمَانَةِ، وَرَتَعَ في ٱلْخِيانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنها، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَٱلْخِزْيَ فِي ٱلدُّنيا، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى، وَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلْخِيانَةِ خِيانَةُ الأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ ٱلْغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ. وَالسَّلامُ.

الشرح: حيث لا شهيد ولا وكيلَ دونَه، يعني يوم القيامة.

قوله: «ألّا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر»، أي لا يُنافق فيعْمَل الطاعة في الظاهر. والمعصية في الباطن.

ثم ذكر أن الذين يتجنّبون النّفاق والرّياء هم المُخلِصون.

وألّا يجبَهم: لا يواجِهِهمْ بما يَكرهونه، وأصل الْجَبْهِ الْجَبْهة أو ضَرْبُها، فلمّا كان المواجِه غيرَه بالكلام القبيح كالضّارب جَبهتَه به سُمّي بذلك جَبْهاً.

قوله: «ولا يعضِهِهم»: أي لا يرْمِيهم بالبُهْتان والكَذِب، وهي العَضِيهة، وعَضِهتُ فلاناً عَضْهاً، وقد عَضِهتَ يا فلان، أي جئتَ بالبهتان.

قوله: «ولا يرغب عنهم تفضّلاً»، يقول: لا يحقِرهم ادّعاءً لفضله عليهم، وتمييزه عنهم بالولاية والإمرة، يقال: فلان يرغَب عن القوم، أي يأنف من الانتماء إليهم، أو من المخالطة لهم.

وكان عمرُ بن عبد العزيز يدخُل إليه سالم مولى بني مخزوم وعمرُ في صدر بيته فيتنحّى عن الصَّدْر، وكان سالم رجلاً صالحاً، وكان عمر أراد شراءَه وعتقَه، فأعتقه مواليه، فكان يسمّيه: أخي في الله، فقيل له: أتتنحّى لسالم! فقال: إذا دخل عليك من لا تَرَى لك عليه فضلاً فلا تأخذ عليه شرفَ المجلس. وهمَّ السراج ليلة بأن يخمُد، فوَثَب إليه رجاءُ بنُ حَيْوة ليُصلِحه، فأقسم عليه عمرُ بنُ عبد العزيز، فجلس، ثم قام عمر فأصلَحه، فقال له رجاء: أتقوم أنت يا أميرَ المؤمنين؟ قال: نعم، قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعتُ وأنا عمرُ بنُ عبد العزيز.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «لا تَرفَعوني فوقَ قَدري فتقولوا فيّ ما قالت النصارى في ابن مريم، فإنّ الله عزّ وجلّ اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً»[1].

ثم قال: إنّ أربابَ الأموال الّذين تجب الصدقةُ عليهم في أموالهم إخوانُك في الدِّين، وأعوانُك على استخراج الحقوق، لأنَّ الحق إنما يمكن العالم استيفاؤه بمعاونة ربِّ المال واعترافه به، ودفعه إليه، فإذا كانوا بهذه الصِّفة لم يجُز لك عضْهُهم وجَبْهُهم وادّعاءُ الفضل عليهم.

ثم ذكر أن لهذا العامل نصيباً مفروضاً من الصدقة، وذلك بنصّ الكتاب العزيز، فكما نوفّيك نحن حقكَ يجب عليك أن توفّيَ شركاءَك حقوقَهم، وهم الفقراءُ والمساكين والغارمون وسائرُ الأصناف المذكورة في القرآن، وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام قد فوّضه في صرف الصّدَقات إلى

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: (٢٨٨٩).

الأصناف المعلومة، ولم يأمره بأن يحمل ما اجتمع إليه ليوزِّعه هو عليه السلام على مستحقّيه كما في الوصيّة الأولى، ويجوز للإمام أن يتولّى ذلك بنفسه، وأن يَكِلَه إلى من يثق به من عمّاله.

وانتصب «أهلَ مَسْكنة» لأنه صفة «شركاء»، وفي التّحقيق أنّ «شركاء» صفةٌ أيضاً موصوفُها محذوف، فيكون صفةً بعد صفة.

وقال الراونديّ: انتصب «أهل مسكنة» لأنه بَدَلٌ من «شركاء»، وهذا غلط، لأنّه لا يُعطى معناه لكون بدلاً منه.

وقال أيضاً: بؤسى، أي عذاباً وشدّة، فظنّه منوّناً وليس كذلك، بل هو بؤسَى على وزن «فُعلَى» كفُضْلَى ونُعمَى، وهي لفظة مؤنّثة، يقال: بؤسى لفلان، قال الشاعر:

أرى الحلم بؤسى للفتى في حياتِهِ ... ولا عيش إلّا ما حَبَاك به الجهلُ

والسائلون هاهنا هم الرّقاب المذكورون في الآية، وهم المكاتَبون يتعذّر عليهم أداءُ مالِ الكتابة، فيسألون الناسَ ليتخلّصوا من ربْقة الرِّق. وقيل: هم الأسارَى يطْلبون فكاكَ أنفسهم، وقيل: بل المراد بالرّقاب في الآية الرّقيق، يسأل أن يبتاعه الأغنياءُ فيُعتِقوه. والمدفوعون ها هنا هم الذين عناهم الله تعالى في الآية بقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، وهم فقراء الغُزاة، سمّاهم مدفوعين لَفقرِهِمْ. والمدفوع والمدفَّع: الفَقير، لأن كل أحد يكرَهه ويَدفعه عن نفسه. وقيل: هم الحجيج المنقطَع بهم، سمّاهم مدفوعين لأنهم دُفِعوا عن إتمام حجهم، أو دُفِعوا عن العَوْد إلى أهلهم.

فإن قلتَ: لم حملتَ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على ما فسّرته به؟

قلت: لأنّه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة في الآية، فترك ذكر المؤلّفة قلوبهم لأن سهمهم سقَط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان يُدفَع إليهم حينَ الإسلامُ ضعيف، وقد أعزّه الله سبحانه، فاستغنَى عن تأليف قلوب المشركين، وبقيتْ سبعةُ أصنافٍ، وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرِّقاب والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل.

فأما العاملون عليها فقد ذكرهم عليه السلام في قوله: «وإنّ لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً»، فبقيتْ ستّة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن في أربعة أصناف منها، وهي: الفقراء، والمساكين، والغارم، وابنُ السبيل، وأبدل لفظتين وهما الرِّقاب وفي سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون.

فإن قلتَ: ما يقوله الفقهاء في الصّدقات؟ هل تُصرَف إلى الأصناف كلِّها أم يجوز صَرفها إلى واحد منها؟

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

قلت: أما أبو حنيفة فإنه يقول: الآية قصر لجنْس الصّدَقات على الأصناف المعدودة فهي مختصّة بها لا تتجاوزُها إلى غيرها، كأنه تعالى قال: إنما هي لهم لا لغيرهم، كقولك: إنما الخلافة لقريش، فيجوز أن تصرَف الصدقة إلى الأصناف كلها، ويجوز أن تصرَف إلى بعضها، وهو مذهب ابن عباس وحذيفة وجماعةٍ من الصحابة والتّابعين. وأما الشافعيّ فلا يرى صرفها إلّا إلى الأصناف المعدودة كلها، وبه قال الزُّهريّ وعكرمة.

فإن قلتَ: فمن الغارم وابنُ السبيل؟

قلت: الغارمون الّذين ركبتْهم الدّيونُ ولا يَملِكون بعدَها ما يَبلُغ النّصاب. وقيل: هم الذين يَحمِلون الحمَالات فدينُوا فيها وغَرِموا، وابنُ السبيل: المسافر المنقطع عن ماله، فهو - وإن كان غنياً حيث مالُه موجود - فقيرٌ حيث هو بعيد.

وقد سبق تفسيرُ الفقير والمسكين فيما تقدّم.

قوله: «فقد أحلّ بنفسه الذّلّ والخِزي»، أي جعل نفسَه مَحلًا لهما، ويُروَى: «فقد أخلّ بنفسه» بالخاء المعجمة، ولم يذكر الذلّ والخِزْي أي جعل نفسَه مخلًّا، ومعناه جعل نفسه فقيراً، يقال: خلّ الرجل: إذا افتقر، وأخَلّ به غيرُه، وبغيره أي جَعَل غيرَه فقيراً، ورُوِي: «أحلّ» بنفسه بالحاء المهملة، ولم يذكر «الذلّ والخِزي». ومعنى «أحلّ بنفسه» أباحَ دمَه، والرواية الأولى أصحّ، لأنّه قال بعدها: «وهو في الآخرة أذلُّ وأخزَى».

وخيانة الأمّة: مصدرٌ مُضاف إلى المفْعول به، لأنّ الساعيَ إذا خان فقد خان الأمّة كلها، وكذلك غِشّ الأئمة، مصدرٌ مُضاف إلى المفعول أيضاً، لأنّ الساعيَ إذا غَشّ في الصدقة فقد غَشّ الإمامَ.

٢٧ - ومن عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلده مصر

الأصل: فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَماءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَاعْلَمُوا عِبادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ، سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَت، وَأَكَلُوهَا

بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ ٱلْجَبَابِرَةُ ٱلْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ ٱنْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ ٱللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ.

فَاحْذَرُوا عِبَادَ ٱللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبداً، أَوْ شَرٍّ لا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبداً، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا!

وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ ٱلْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ ٱلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ. ٱلْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ.

فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ، دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ.

وَإِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ ٱللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَٱجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ ٱلْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ.

وَٱعْلَمْ يَا مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لك إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلا تُسْخِط ٱللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي ٱللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ ٱللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلاةَ لِوَقْتِهَا ٱلْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لاشْتِغَالٍ، وَٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاتِكَ.

الشرح: آسِ بينهم: اجعلهم أسوة، لا تفضّل بعضهم على بعض في اللّحظة والنظرة، ونبّه بذلك على وجوب أن يَجعلَهم أسوة في جميع ما عدا ذلك، من العطاء والإنعام والتقريب، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[1].

قوله: «حتى لا يطمع العظماءُ في حَيْفك لهم»، الضمير في «لهم» راجعٌ إلى الرعيّة لا إلى

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

العظماء، وقد كان سبق ذكرهم في أوّل الخطبة، أي إذا سلكتَ هذا المسلكَ لم يَطمع العظماءُ في أن تحيف على الرعيّة وتظلمهم وتدفعَ أموالهم إليهم، فإنّ وُلاة الجور هكذا يفعلون، يأخذون مال هذا فيُعطونَه هذا. ويجوز أن يرجع الضمير إلى العظماء، أي حتى لا يطمَع العظماءُ في جَوْرك في القَسْم الّذي إنما تفعله لهم ولأجلهم، فإنّ ولاة الجور يَطمَع العظماءُ فيهم أن يحيفوا في القسمة في الفيْء، ويخالفوا ما حدّه الله تعالى فيها، حفظاً لقلوبهم، واستمالةً لهم، وهذا التفسير أليَقُ بالخطابة، لأنّ الضمير في «عليهم» في الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء، فيجب أن يكون الضمير في «لهم» في الفقرة الثانية عائداً إلى العظماء.

قوله: «فإن يعذب فأنتم أظلم» أفعل هاهنا بمعنى الصّفة، لا بمعنى التفضيل، وإنما يراد فأنتم الظالمون، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1]. وكقولهم: الله أكبر.

ثم ذكر حال الزُّهاد فقال: أخذوا من الدنيا بنصيبٍ قويّ، وجعلت لهم الآخرة، ويُروَى أنّ الفُضَيل بنَ عياض كان هو ورفيق له في بعض الصّحارى، فأكَلا كسرةً يابسة، واغترَفا بأيديهما ماءً من بعض الغُدْران، وقام الفُضيلُ فحطّ رجليه في الماء، فوجد بَرْدَه، فالتذّ به وبالحال الّتي هو فيها، فقال لرفيقه: لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحن فيه من العيش واللّذة لحسَدونا.

ورُوِي: «والمتْجَر المربح»، فالرابح فاعلٌ من ربح رِبحاً، يقال: بيعٌ رابح أي يُربَح فيه، والمُربح: اسم فاعل قد عدّيَ ماضيه بالهمزة، كقولك: قام وأقمتُه.

قوله: «جيرانُ الله غداً في آخرتهم»، ظاهر اللفظ غيرُ مراد، لأنّ البارىء تعالى ليس في مكان وجهةٍ ليَكونوا جيرانَه، ولكن لما كان الجار يُكرِم جاره سمّاهم جيران الله، لإكرامه إيّاهم، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت في السّماء والعرش هو السماء العليا، كان في الكلام محذوف مقدَّر، أي جيرانُ عرش الله غداً.

قوله: «فإنّه يأتي بأمرٍ عظيم، وخطب جليل، بخيْرٍ لا يكون معه شرٌّ أبداً وشرٌّ لا يكون معه خيرٌ أبداً»، نصّ صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد، وأنّ من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج، لأنّه لو خرج منها لكان الموتُ قد جاءه بشرٌّ معه خير، وقد نَفى نفياً عامًا أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير البتّة.

قوله: «من عاملها»، أي من العامل لها.

قوله: «طُردَاء الموت»، جمع طَريد، أي يطردكم عن أوطانكم ويُخرجكم منها، لا بدّ من ذلك، إن أقمتمْ أخَذَكم، وإن هَرَبتم أدرَكَكم.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

وقال الراونديّ: طُرَاده ها هنا: جمع طريدة وهي ما طردتَ من الصيد أو الوسيقة، وليس بصحيح، لأن «فعيلة» بالتأنيث لا تُجمَع على فعلاء. وقال النحويّون: إن قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾(١)، جاء على «خليف» لا على «خليفة»، وأنشدوا لأوس بن حجَر بيتاً، استعملها جميعاً فيه، وهو:

إنّ من القوم مَوجوداً خَليفته وما خَليفُ أبي لَيلَى بموجودِ

قوله: «ألزَم لكم من ظِلّكم»، لأنّ الظلّ لا تصحّ مفارَقته لذي الظّلّ ما دام في الشمس، وهذا من الأمثال المشهورة.

قولُه: «معقودٌ بنَواصيكم»، أي ملازِمٌ لكم، كالشيء المعقود بناصية الإنسان أين ذهب ذهب معه.

وقال الراونديّ: أي الموت غالبٌ عليكم، قال تعالى: ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾(٢)، فإنّ الإنسان إذا أُخذ بناصيته لا يُمكنه الخلاص، وليس بصحيح، لأنّه لم يقل: «أُخذ بنواصيكم».

قوله: «والدنيا تُطوَى مِن خلفِكم» من كلام بعض الحكماء: الموتُ والناس كسطورٍ في صحيفة يقرؤها قارئٌ ويَطوي ما يقرأ، فكلّما ظهر سطرٌ خفِيَ سطر.

ثم أمره عليه السلام بأن يَجمَع بين حُسن الظّن بالله وبين الخوف منه، وهذا مَقامٌ جليل لا يصل إليه إلّا كلُّ ضامرٍ مهزول، وقد تقدّم كلامُنا فيه. وقال عليّ بنُ الحسين عليه السلام: لو أنزل الله عز وجلّ كتاباً أنّه معذِّب رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونه، وأنّه راحمٌ رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونَه، أو أنّه معذِّبي لا محالة ما ازددتُ إلا اجتهاداً لئلّا أرجع إلى نفسي بلائمة.

ثم قال: «ولّيتُك أعظمَ أجنادي»، يقال للأقاليم والأطراف: أجناد، تقول: وَلِيَ جُندَ الشام، ووَلِيَ جند الأُردُن، وولي جندَ مِصرَ.

قوله: «فأنت محقوق»، كقولك حَقِيق وجَدِير وخَلِيق، قال الشاعر:

وإني لمحقوقٌ بألا يَطولَني نَداهُ إذا طاوَلْتُه بالقصائدِ

وتُنافِح: تُجالِد، نافحتُ بالسيف أي خاصمتُ به.

قوله: «ولو لم يكن إلّا ساعة من النهار»، المراد تأكيد الوَصاة عليه أن يخالِف على نفسه، وألّا يَتّبع هَواها، وأن يُخاصِم عن دِينه، وأن ذلك لازمٌ له، وواجبٌ عليه، ويلزم أن يفعله دائماً فإن لم يستطع فليَفعلْه ولو ساعة من النهار، وينبغي أن يكون هذا التقييد مصروفاً إلى المنافحة عن الدِّين، لأن الخصامَ في الدّين قد يَمنعُه عنه مانع، فأمّا أمرُه إيّاه أن يخالفَ على نفسه فلا

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الرحمٰن، الآية: ٤١.

يجوز صرفُ التقييد إليه، لأنّه يُشعِر بأنه مفسوحٌ له أن يتّبع هَوَى نفسِه في بعض الحالات، وذلك غيرُ جائز، بخلاف المخاصمة والنِّضال عن المعتقَد.

قال: «ولا تُسخِط الله بَرضا أحد من خلقِه، فإنّ في الله خَلفاً من غيرِه، وليس من الله خَلَفٌ في غيره» أخذَه الحَسَنُ البصريُّ فقال لعَمر بنِ هُبَيرة أميرِ العراق: إنّ الله مانِعُك من يزيدَ، ولم يَمنعْك يزيدُ من الله - يعني يزيدَ بن عبد الملك.

ثم أمَرَه بأن يصلّي الصلاةَ لوقتها، أي في وقتها، ونهاه أن يحمِلَه الفراغُ من الشّغل على أن يُعجِّلها قبل وقتها، فإنها تكون غيرَ مقبولة، أو أن يَحمِله الشّغل على تأخيرها عن وقتها فَيأثم.

ومن كلام هشام بن عقبةَ أخي ذي الرُّمة - وكان من عقلاء الرّجال - قال المبرّد في الكامل: حدّثني العَبّاس بن الفَرَج الرّياشيُّ بإسناده، قال هشام لرجل أراد سفراً: اعلم أنّ لكل رُفْقة كَلْباً يَشركهم في فضل الزّاد، ويَهِرّ دونَهم، فإن قدرتَ ألّا تكون كلبَ الرّفْقة فافعَل، وإيّاك وتأخيرَ الصلاة عن وقتها، فإنّك مُصَلّيها لا محالةَ، فصَلّها وهي تُقبَل منك.

قولُه: «واعلم أنّ كل شيء من عملك تَبعٌ لصلاتك»، فيه شَبَهٌ من قول رسول الله ﷺ: «الصّلاةُ عِماد الإيمان، ومن تَركَها فقد هَدَم الإيمان»(١). وقال ﷺ: «أوّل ما يحاسَبُ به العبدُ صَلاته، فإن سُهّل عليه كان ما بعدَه أسهلَ، وإن اشتدّ عليه كان ما بعدَه أشدّ»(٢).

ومثل قولِه: «ولا تُسخِط الله برضَا أحد من خلقِه»، ما رواه المبرّد في «الكامل» عن عائشة قالت: من أرضَى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن أرضَى الناسَ بإسخاط الله وَكَله الله إلى الناس.

ومثل هذا ما رواه المبرّد أيضاً قال: لما وُلّي الحسنُ بن زيد بن الحسن المدينة قال لابن هَرْمة: إنّي لستُ كمن باعَ لك دينَه رجاءَ مدحِك، أو خوفَ ذَمّك، فقد رزقني الله عز وجل بولادة نبيّه ﷺ الممادِح، وجنّبني المَقابح، وإنّ من حَقّه عليّ ألّا أُغضِيَ على تقصير في حقّ الله. وأنا أقسم بالله، لئن أُتيتُ بك سكرانَ لأضربنّك حدّاً لِلْخَمْر، وحَدّاً للسُّكر، ولأزيدنّ لموضع حُرْمتك بي، فليكن تَركُك لها لله عزّ وجلّ تُعَنْ عليه، ولا تدعها للنّاس فتوكَل إليهم، فقال ابن هَرْمة:

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٠٧)، والحكيم الترمذي في «النوادر» (٣/ ١٣٥)، دون قوله: «ومن تركها فقد هدم الإيمان».

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الصلاة، باب: أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٤١٣)، والنسائي، كتاب: الصلاة، باب: المحاسبة على الصلاة (٤٦٦)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: أول ما يحاسب به العبد الصلاة (١٤١٦)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٧٨٤٢).

نـهـانـي ابنُ الـرسـولِ عـن الـمُـدامِ ... وأدّبـنـي بـآدابِ الـكـرامِ
وقـال لـيَ اصـطـبرْ عـنـهـا ودَعْـهـا ... لـخـوفِ الله لا خـوفِ الأنـامِ
وكـيـف تَـصـبُّرِي عـنـهـا وحُـبِّـي ... لـهـا حُـبٌّ تَـمـكَّـن فـي عِـظـامِـي!
أرَى طِـيـبَ الـحـلال عـلـيّ خُـبْـثـاً ... وطِـيـب الـنّـفـس في خُـبث الـحـرامِ

الأصل: ومن هذا العهد: فَإِنَّهُ لا سَوَاءَ، إِمَامُ ٱلْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ، وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنِّي لا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلا مُشْرِكاً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ ٱللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا ٱلْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ ٱللهُ بِشِرْكِهِ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ ٱلْجَنَانِ، عَالِمِ ٱللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ.

الشرح: الإشارة بإمام الهُدَى إليهِ نفسِه، وبإمام الرَّدى إلى معاويةَ، وسماه إماماً، كما سَمّى الله تعالى أهلَ الضّلال أئمة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1] ثم وصفه بصفة أخرى وهو أنه عدوّ النبيّ ﷺ ليس يعني بذلك أنه كان عدوًّا أيام حَرْب النبي ﷺ لقريش، بل يريد أنه الآن عدوّ النبيّ ﷺ، لقوله ﷺ له عليه السلام: «وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله»[2].

وأوّل الخبر: «وليُّك وَليِّي، ووليِّي وَليّ الله»، وتمامُه مشهور، ولأنّ دلائلَ النفاق كانت ظاهرة عليه من فَلَتات لسانه ومن أفعالِه، وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياءَ كثيرة، فلتُطلَب من كتبهم، خصوصاً من كُتُب شيخنا أبي عبد الله، ومن كتب الشيّخين أبي جعفر الإسكافيّ، وأبي القاسم البَلْخيّ، وقد ذكرْنا بعضَ ذلك فيما تقدّم.

ثم قال عليه السلام: «إنّ رسول الله ﷺ قال: إني لا أخاف على أمّتي مؤمناً ولا مُشركاً»[3] أي ولا مشركاً يُظهر الشِّرك، قال: لأن المؤمن يَمنعه الله بإيمانه أن يُضلّ الناسَ. والمُشرك مُظهِر الشّرك، يَقمَعه الله بإظهار شِركه ويَخذُله، ويَصرِف قلوبَ الناس عن اتّباعه، لأنّهم يَنفِرون منه لإظهاره كملةَ الكُفر، فلا تطمئنّ قلوبُهم إليه، ولا تَسكُن نفوسهم إلى مقالته، ولكنّي أخاف على أمتي المنافقَ الّذي يُسِرُّ الكفر والضلال، ويُظهِر الإيمانَ والأفعال الصالحة، ويكون مع ذلك ذا

(١) سورة القصص، الآية: ١٤.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٥٨٤.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٥٤٩.

لَسَن وفصاحة، يقول بلسانه ما تعرفون صوابَه، ويفعَل سرًّا ما تُنكِرونه لو اطلعتم عليه، وذاك أن مَن هذه صِفتُه تَسكُن نفوسُ الناس إليه، لأن الإنسان إنما يحكم بالظاهر فيقلّده الناس، فيضلّهم ويوقعهم في المفاسد.

ومن الكتب المستحسنة الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله أبو العبّاس أحمد بنُ الموفّق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله في سنة أربع وثمانين ومائتين ووزيره حينئذ عبيد الله بنُ سليمان، وأنا أذكُره مختصراً من تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة عَزَم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس، فخوّفه عبيدُ الله بنُ سليمان اضطراب العامة، وأنه لا يأمن أن تكون فتنة، فلم يلتفت إليه. فكان أوّل شيء بدأ به المعتضد من ذلك التقدّم إلى العامة بلزوم أعمالهم، وترك الاجتماع والعصبية، والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا، ومنع القُصَّاص عن القعود على الطُرُقات، وأنشأ هذا الكتاب وعملتْ به نُسَخ قرئتْ بالجانبين من مدينة السلام في الأرباع والمحالّ والأسواق يوم الأربعاء لستٍّ بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه، ومنع القصّاص من القعود في الجانبين، ومنع أهل الحِلقِ من القعود في المسجدين، ونودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الاجتماع وغيره وبمنع القُصّاص وأهلِ الحلق من القُعود، ونودي: إنّ الذّمة قد برئتْ ممن اجتمع من الناس في مناظرةٍ أو جدال، وتَقدّم إلى الشرّاب الذين يسقون الماء في الجامعين ألّا يترحّموا على معاوية، ولا يذكُروه بخير، وكانت عادتهم جاريةً بالترحّم عليه، وتحدث الناس أن الكتاب الذي قد أمر المعتضدُ بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر، فلما صلى الناسُ بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب، فلم يُقرأ، وقيل: إن عبيد الله بنَ سليمان صرَفه عن قراءته، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضي، وأمره أن يُعمل الحيلة في إبطال ما عزم المعتضد عليه، فمضى يوسف فكلّم المعتضد في ذلك، وقال له: إني أخاف أن تضطرب العامة، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة، فقال: إن تحرّكت العامةُ أو نطقتْ وضعتُ السيفَ فيها. فقال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بالطالبيّين الذين يخرجون في كل ناحية، ويميل إليهم خلقٌ كثير، لقربتهم من رسول الله ﷺ، وما في هذا الكتاب من إطرائهم - أو كما قال - وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميَل، وكانوا هم أبسط ألسنةً، وأثبت حجةً منهم اليوم. فأمسك المعتضد فلم يردّ إليه جواباً، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء. وكان من جملة الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثّناء عليه والصّلاة على رسوله ﷺ:

أما بعد، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعةُ العامة من شبهة قد دخلتهم في

أديانهم، وفسادٍ قد لحقهم في معتقدهم، وعصبيّةٍ قد غلبتْ عليها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتُهم، على غير معرفة ولا رويّة، قد قلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بيّنة ولا بصيرة، وخالفوا السنن المتبعة، إلى الأهواء المبتدعة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١). خروجاً عن الجماعة، ومسارعةً إلى الفتنة، وإيثاراً للفرقة، وتشتيتاً للكلمة، وإظهاراً لموالاة من قطع الله عنه الموالاة، وبَتَر منه العِصمْة، وأخرجه من المِلّة، وأوجب عليه اللعنة، وتعظيماً لمن صغر الله حقّه، وأوهن أمرَه، وأضعف رُكنه، من بني أميّة، الشجرة الملعونة، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهلَكة، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢).

فأعظمَ أميرُ المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى ترك إنكاره حَرَجاً عليه في الدين، وفساداً لمن قلده الله أمرَه من المسلمين، وإهمالاً لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين، وتبصير الجاهلين، وإقامة الحجّة على الشاكّين، وبسط اليد على المعاندين! وأمير المؤمنين يخبركم معاشرَ المسلمين أن الله جل ثناؤه لما ابتَعث محمداً ﷺ بدينه، وأمره أن يَصدَع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربه، وأنذرَهم وبشّرهم، ونصح لهم وأرشدهم، فكان من استجاب له، وصدَّق قوله، واتّبع أمرَه نُفَيْرٌ يسير من بني أبيه، من بين مؤمن بما أتى به من ربه، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له، وإشفاقاً عليه، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته، وكافرُهم مجاهدٌ بنُصْرته وحميّته، يدْفعونَ من نابذه، ويقهرون من عازَّه وعانده، ويتوثقون له ممن كانفه وعاضده، ويبايعون من سمح بنصرته، ويتجّسسون أخبار أعدائه، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأي العين، حتى بلغ المدى، وحان وقت الاهتداء، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة، وأحسن هدى ورغبة، فجعلهم اِلله أهل بيت الرحمة، وأهل بيت الدين، أذهب عنهم الرِّجس وطهرَّهم تطهيراً. معدن الحكمة، وورثة النبوّة، وموضع الخلافة. أوجب الله لهم الفضيلة، وألزم العباد لهم الطاعة.

وكان ممن عانده وكذّبه وحارَبه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم، يتلقَّونه بالضرر والتثريب، ويقصدونه بالأذى والتخويف، وينابذونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة ويصدّون من قصده، وينالون بالتعذيب من اتبعه، وكان أشدّهم في ذلك عداوة، وأعظمهم له مخالفة، أوّلهم في كلّ حرب ومناصبة، ورأسهم في كل إجلاب وفتنة، لا يرفع على الإسلام راية إلّا كان صاحبها وقائدها ورئيسها، أبا سفيان بن حرب صاحب أُحُد والخندق وغيرهما، وأشياعه

(١) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

من بني أمية الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله ﷺ في مواطنَ عدّة، لسابق علم الله فيهم، وماضي حُكمهِ في أمرهم، وكفرهم ونفاقهم. فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً، ويدافع مكايداً، ويجلب منابذاً، حتى قهره السيف، وعلا أمرُ الله وهم كارهون، فتعوَّذ بالإسلام غير منطوٍ عليه، وأسرَّ الكفر غير مقِلعٍ عنه، فقبله وقبل ولدُه على علم منه بحاله وحالهم. ثم أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[١]، ولا خلاف بين أحد في أنه تعالى وتبارك أراد بها بني أميّة[٢].

ومما ورد من ذلك في السنة، ورواه ثقات الأمّة، قول رسول الله ﷺ فيه وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه: «لعن الله الراكب والقائد والسائق»[٣].

ومنه ما روته الرّواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان: تلقّفوها يا بني عبد شمس تلقُّف الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار، وهذا كُفر صُراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الّذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون[٤].

ومنه ما يُروَى من وقوفه على ثنيَّة أُحُد من بعدِ ذَهاب بصره وقوله لقائده: ها هنا رَمَيْنا محمداً وقتلْنا أصحابه[٥].

ومنها الكلمة التي قالها للعباس قبل الفتح وقد عُرضت عليه الجنود: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال له العباس: ويحك! إنه ليس بملك، إنها النبوّة[٦].

ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالاً على ظهر الكعبة يؤذّن ويقول: أشهد أن محمداً رسول الله: لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد.

ومنه الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ فوجَم لها. قالوا: فما رئيَ بعدها ضاحكاً، رأى نفراً من بني أمية يَنْزُون على منبره نزوة القِرَدَة[٧].

ومنها طرد رسول الله ﷺ الحَكَم بن أبي العاص لمحاكاته إيّاه في مِشيته، وألحقه الله بدعوة رسول الله ﷺ آفةً باقيةً حين التفت إليه فرآه يتخلّج يحكيه، فقال: «كن كما أنت»،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.
(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٨/ ١٨٥.
(٣) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢٠٨.
(٤) أخرجه الطبري في تاريخه بما معناه: ٨/ ١٨٥.
(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢٠٨.
(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ٢/ ١٣٥.
(٧) ذكره ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٥٢، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور: ٤/ ١٩١.

فبقي على ذلك سائر عمره[١].

هذا إلى ما كان من مروان ابنه في افتتاحه أوّل فتنة كانت في الإسلام، واحتقابه كلّ حرام سُفِك فيها أو أريق بعدها.

ومنها ما أنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ ليلة القدر، خيرٌ من ألف شهر! قالوا: ملك بني أمية.

ومنها أن رسول الله ﷺ دعا معاوية ليكتب بين يديه، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه، فقال ﷺ: «لا أشبع الله بطنه»[٢]. فبقي لا يَشبع وهو يقول: والله ما أترك الطعام شبعاً، ولكن إعياء[٣]!

ومنها أن رسول الله ﷺ قال: «يطلع من هذا الفجّ رجل من أمتي يُحشَر على غير ملتي»[٤]، فطلع معاوية.

ومنها أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»[٥].

ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه ﷺ قال: «إنّ معاوية في تابوت من نار، في أسفل دَرْك من جهنّم، ينادي: يا حنّان يا منّان[٦]. فيقال له: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٧].

ومنها افتراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مَكَاناً، وأقدَمُهم إليه سَبقاً، وأحسنهم فيه أثراً وذِكْراً، عليّ بن أبي طالب، ينازعه حقّه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعوانه، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه، من إطفاء نور الله، وجحود دينه ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٨]، ويستهوي أهلَ الجهالة، ويموّه لأهل الغباوة بمكره وبغيه اللّذَيْن قدّم رسول الله ﷺ الخبرَ عنهما، فقال لعمّار بن ياسر: «تقتُلك الفئةُ الباغية»[٩]، «تدعوهم

---

(١) أخرج نحوه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٤٣)، والطبراني (٣١٦٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: من لعنه النبي أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك (٢٦٠٤)، دون الزيادة: فبقي لا يشبع... إلخ.

(٣) حتى قال يوماً: لو أن الدنيا في يدي بيضة أحسوها، أنظر ربيع الأبرار: ٢/ ٧٧٤.

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه: ٨/ ١٨٦.

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ١٨٧.

(٦) أخرجه الطبري في تاريخه: ٨/ ١٨٦، وأخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ١٠/ ١٤٢.

(٧) سورة يونس، الآية: ٩١. (٨) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٩) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٢٩١٦)، والترمذي كتاب: المناقب، باب: مناقب عمار بن ياسر (٣٨٠٠)، وأحمد، كتاب: المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٤٦٣).

إلى الجنّة ويدعونك إلى النار»، مؤثراً للعاجلة، كافراً بالآجلة، خارجاً من رِبقة الإسلام، مستحلًا للدّم الحرام، حتّى سُفِك في فتنته، وعلى سبيل غَوايته وضلالتِه ما لا يُحصَى عَددهُ من أخيار المسلمين، الذابّين عن دين الله والناصرين لحقّه، مجاهداً في عداوة الله، مجتهداً في أن يُعصَى الله فلا يُطاع، وتُبطَل أحكَامُه فلا تقام، ويُخالَف دينُه. فلا بدّ وأن تَعلوَ كلمةُ الضّلال وتَرتفعَ دعوةُ الباطل، وكلمةُ الله هي العليا، ودينه المنصور، وحكمُه النافذ، وأمرُه الغالب وكيدُ مَن عاداه وحادَّه المغلوبُ الداحض، حتى احتَمَل أوزارَ تلك الحروب وما تبعها، وتطوّق تلك الدّماء وما سُفِك بعدَها، وسَنّ سنن الفساد الّتي عليه إثمها وإثمُ مَن عَمِل بها، وأباحَ المحارمَ لمن ارْتكبها، وَمَنَع الحقوق أهلها، وغرّته الآمال، واسْتَدرجه الإمهال.

وكان ممّا أوجَب الله عليه به اللّعنة قَتلُه من قَتلَ صبْراً من خيار الصَّحابة والتابعين، وأهلِ الفَضل والدّين، مثل عَمْرو بنِ الحَمِق الخزاعيّ وحُجْر بن عدِيٍّ الكِنْديّ، فيمن قتل من أمثالهم، على أن تكون له العزّة والملك والغَلَبة، ثم ادّعاؤه زياد بن سُمَيّة أخاً، ونسبتُه إيَّاه إلى أبيه، والله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١]، ورسول الله ﷺ يقول: «ملعونٌ من ادّعى إلى غير أبيه، أو انتمَى إلى غير مَواليه»[٢]. وقال: «الولد للفراش وللعاهِرِ الحَجَر»[٣]، فخالَفَ حكم الله تعالى ورسولِه جهاراً، وجَعلَ الولدَ لغير الفِراش والحَجَر لغير العاهر، فأحَلَّ بهذه الدعوة من محارم الله ورسولِه في أمّ حَبيبة أمّ المؤمنين وفي غيرها من النساء من شعور ووجوه قد حرَّمها الله وأثبت بها من قُربَى قد أبعَدَها الله، ما لم يدخل الدِّين خللٌ مثله، ولم يَنَل الإسلامَ تبديلٌ يشبهه.

ومن ذلك إيثارُه لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السِّكّير الخميِّر صاحب الدِّيَكة والفهُود والقِرَدة، وأخذ البَيْعة له على خيار المسلمين بالقَهْر والسَّطْوة والتوعُّد والإخافة، والتهديد والرَّهْبة، وهو يعلم سَفَهه، ويطلّع على رَهَقِهِ وخبْثِه، ويُعاين سَكراته وفعَلاتِه، وفجوره وكفره. فلمَّا تمكّن - قاتَلَه الله - فيما تمكن منه، طَلَب بثارات المشركين وطوائِلهم عند المسلمين، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرَّة والوَقْعة الَّتي لم يكن في الإسلام أشنعُ منها ولا أفحشُ، فشَفَى عند نفسِه غليله، وظَنَّ أنه قد انتَقَم من أولياءِ الله، وبلغ الثأر لأعداءِ الله، فقال مجاهراً بكفره، ومظهراً لِشرْكه:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٢) أخرجه بلفظه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٢٩)، والبزار (٣٨٨٥)، بلفظ: «إلى غير قومه».

(٣) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب: تفسير المشبهات (٣٨٨٥)، ومسلم، كتاب: الرضاع، باب: الولد للفراش (١٤٥٧)، والترمذي، كتاب: الرضاع، باب: الولد للفراش (١١٥٧)، والنسائي، كتاب: الطلاق، باب: إلحاق الولد بالفراش (٣٤٢٨).

لـيـتَ أشـيـاخـي بـبَـدْرٍ شَـهِـدوا   جَـزَعَ الـخَـزرج مـن وقْـع الأسَـلْ

قولُ من لا يَرجع إلى الله ولا إلى دينِه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده.

ثم أغلظُ ما انتهَك، وأعظمُ ما اجترم، سفْكُه دمَ الحسين بن عليّ عليه السلام، مع مَوْقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله ومكانه ومنزلتِه من الدّين والفَضْل والشهادة له ولأخيه بسيادة شبابِ أهلِ الجنّة، اجتراءً على الله، وكفراً بدِينه، وعداوةً لرسوله، ومجاهرةً لعترته، واستهانةً لحرمته، كأنّما يقتلُ منه ومن أهل بيته قوماً من كَفَرة التُّرْك والدَّيْلم، ولا يخاف من الله نقمة، ولا يُراقب منه سَطْوة، فتَبَر الله عمرَه، وأخبثَ أصله وفرعَه، وسلَبه ما تحتَ يدِه، وأعدَّ له من عذابه وعقوبتِه، ما استحقّه من الله بمعصيته.

هذا إلى ما كان من بني مَرْوان من تبديل كتاب الله، وتعطيل أحكام الله، واتّخاذ مال الله بينهمْ دُوَلاً، وهدْمِ بيت الله، واستحلالهم حَرَمه، ونَصْبهم المجانيقَ عليه، ورَمْيهم بالنّيران إيّاه، لا يألُون له إحراقاً وإخافة، ولِمَا حَرّم الله منه استباحة وانتهاكاً، ولمن لجأ إليه قَتْلاً وتَنْكيلاً، ولمن أمّنه الله به إخفاقةً وتَشريداً، حتّى إذا حَقّت عليهم كلمةُ العذاب، واستَحَقّوا من الله الانتقام، وملؤوا الأرض بالْجَور والعُدْوان، وعَمُّوا عباد بلادِ الله بالظُّلْم والاقتسار، وحلّت عليهم السَّخْطة، ونزلت بهمْ من الله السَّطوة، أتاح الله لهم من عِترةِ نبيِّه وأهلِ وراثته، ومن استخلصَه منهم لخلافته، مِثلَ ما أتاح من أسلافهم المؤمنين، وآبائهم المجاهدين، لأوائلهم الكافرين، فسفَكَ الله به دماءهم ودماء آبائهم مرتدِّين، كما سَفَك بآبائهم مُشركين، وقطع الله دَابرَ الذّين ظلموا والحمدُ لله رب العالمين.

أيّها الناس، إن الله إنما أمَر ليطاع، ومَثّل ليُتَمثّل، وحَكم ليفعَل، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾(١)، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾(٢).

فالعنوا أيّها الناس مَن لَعَنَه الله ورسوله، وفارِقوا من لا تَنَالون القربةَ مِن الله إلّا بمفارقته، اللهمّ العنْ أبا سُفْيان بن حرب بن أميّة، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم، وولده وولد ولده! اللهمّ العن أئمة الكفر، وقادةَ الضّلال، وأعداءَ الدّين، ومُجاهدي الرّسول، ومعطّلي الأحكام، ومبدّلي الكتاب، ومنتهكي الدَّم الحرام! اللهمّ إنّا نبرأ إليك من مُوالاة أعدائك، ومن الإغماض لأهلِ معصيتك، كما قلت: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(٣).

أيّها الناس، اعرفوا الحقَّ تَعرِفوا أهله، وتأمّلوا سُبل الضّلالة تعرفوا سابلَها، فقفوا عند ما

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

وَفقكم الله عليه، وانفُذوا كما أَمَركم الله به، وأميرُ المؤمنين يستَعصم بالله لكم، ويسأله توفيقكم، ويرغَب إليه في هدايتكم. والله حسبُه، وعليه توكُّله، ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

قلت: هكذا ذَكر الطَبريّ الكتاب، وعندي أنّه الخُطبة، لأنّ كلّ ما يُخطَب به فهو خُطبة، وليس بكتاب، والكتاب ما يُكتب إلى عامل أو أمير ونحوهما، وقد يقرأ الكتابُ على المنبر فيكون كالخُطبة، ولكن ليس بخطبة، ولكنّه كتابٌ قرىء على الناس. ولعلّ هذا الكلامَ كان قد أنشيء ليكون كتاباً، ويُكتَب به إلى الآفاق، ويُؤمَروا بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل بغداد. والذي يؤكّد كونه كتاباً، وينصر ما قاله الطبريّ، أن في آخره: «كتَب عُبيدُ الله بنُ سليمان في سنة أربع وثمانين ومائتين»، وهذا لا يكون في الخُطب، بل في الكتب، ولكنّ الطبريّ لم يذكر أنّه أمر بأن يكتب إلى الآفاق ولا قال: وقع العزم على ذلك، ولم يذكر إلّا وقوع العزم على أن يقرأ في الجوامع ببغداد.

٢٨ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً، وهو من محاسن الكتب

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ ٱصْطِفَاءَ ٱللهِ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَقَدْ خَبأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً، إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلاءِ ٱللهِ تَعَالَى عِنْدَنا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنا، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضالِ.

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي ٱلْإِسْلَامِ فُلانٌ وَفُلانٌ، فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ ٱعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ. وَمَا أَنْتَ وَٱلْفَاضِلَ وَالمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ المُهاجِرِينَ ٱلْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهاتَ، لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْها، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيها مَنْ عَلَيْهِ ٱلْحُكْمُ لَها!

أَلا تَرْبَعُ أَيُّها الْإِنْسانُ عَلَى ظَلْعِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ ٱلْقَدَرُ! فَما عَلَيْكَ غَلَبَةُ المَغْلُوبِ، وَلا ظَفَرُ الظَّافِرِ، فَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّاغٌ عَنِ ٱلْقَصْدِ.

أَلا تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ ٱللهِ أُحَدِّثُ - أَنَّ قَوْماً ٱسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ تَعَالَى مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّى إِذَا ٱسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآله بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلاتِهِ عَلَيْهِ!

أَوَ لا تَرَى أَنَّ قَوماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَلِكُلٍّ فَضلٌ، حَتَّى إِذَا فعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ، قِيلَ: الطَّيَّارُ فِي ٱلْجَنَّةِ وَذُو ٱلْجَنَاحَيْنِ!

وَلَوْلا مَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ ٱلْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَلا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ.

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا، لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا، وَلا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ. وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ ٱلْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ ٱللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!

فَإِسْلامُنَا مَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لا تُدْفَعُ، وَكِتَابُ ٱللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾(١)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)، فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ.

وَلَمَّا ٱحْتَجَّ المُهَاجِرُونَ عَلَى ٱلأَنْصَارِ يَوْمَ ٱلسَّقِيفَةِ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ ٱلْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ ٱلْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ ٱلْعُذْرُ إِلَيْكَ.

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ ٱلْجَمَلُ المَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ، وَلَعَمْرُ ٱللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى المُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي دِينِهِ، وَلا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ!

وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَٱسْتَكَفَّهُ، أَمَّنِ ٱسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٥. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

عَنْهُ وَبَثَّ ٱلْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ! كَلَّا وَٱللهِ لَقَدْ ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١).

وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ ٱلذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لا ذَنْبَ لَهُ.

وَقَدْ يَسْتَفِيدُ ٱلظِّنَّةَ ٱلْمُتَنَصِّحُ

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا ٱلسَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ ٱسْتِعْبَارٍ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ عَنِ ٱلْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ، فـ

لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ ٱلْهَيْجَا حَمَلْ

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ ٱلْمُهاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ، وَٱلتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ ٱلْمَوْتِ، أَحَبُّ ٱللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِها فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٢).

رسالة معاوية إلى علي عليه السلام

الشرح: سألتُ النقيبَ أبا جعفر يحيى بن أبي زيد، فقلتُ: أرَى هذا الجواب مُنطبقاً على كتابِ معاوية الذي بعثه مع أبي مُسلِم الخَولانيّ إلى عليّ عليه السلام، فإن كان هذا هو الجواب فالجواب الذي ذكَرَه أرباب السِّيرة وأورَدَه نصرُ بنُ مُزاحم في كتاب صِفّين إذن غير صحيح، وإن كان ذلك الجواب، فهذا الجواب إذنْ غيرُ صحيح ولا ثابت، فقال لي: بل كلاهما ثابت مرْويّ، وكلاهما كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وألفاظُه، ثم أمرَني أن أكتب ما عليه عليّ عليه السلام، فكتبته، قال رحمه الله:

كان معاويةُ يتسقّط عليًّا وينعَى عليه ما عساه يَذكُره من حالِ أبي بكر وعمر، وأنهما غَصَباه حقَّه، ولا يزَال يكيدُه بالكتاب يكتبُه، والرّسالة يَبعثُها يطلب غِرّته، ليَنفُث بما في صَدْره من حال أبي بكر وعمر، إمّا مكاتبةً أو مُراسَلة، فيَجعل ذلك حجّةً عليه عند أهل الشام، ويضيفه إلى

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٣.

ما قرّره في أنفسهم من ذُنوبه كما زعم، فقد كان غَمصه عندهم بأنَّه قتل عثمانَ ومالأ على قتله، وأنه قتل طلحةَ والزّبير، وأسَرَ عائشة، وأراق دماءَ أهلِ البَصْرة. وبقيتْ خَصلةٌ واحدة، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرّأ من أبي بكر وعمر، ويَنسُبه إلى الظُّلم ومخالفةِ الرّسول في أمر الخلافة، وأنهما وَثَبا عليها غَلَبةً، وغَصَباه إيّاها، فكانت هذه الطامّة الكبرى ليست مقتصرةً عَلَى فساد أهل الشام عليه، بل وأهلِ العراق الَّذين هم جُندُه وبِطانته وأنصارُه، لأنهم كانوا يعتقدون إمامةَ الشَّيخَين، إلّا القليل الشاذَّ من خواصّ الشّيعة، فلما كَتَب ذلك الكتابَ مع أبي مسلم الخَوْلانيّ قصد أن يُغضِب عليًّا ويُحرِجَه ويحوجَه إذا قرأ ذكر أبي بكر، وأنه أفضل المسلمين، إلى أن يَخلِط خطه في الجواب بكلمةٍ تقتضي طَعْناً في أبي بكر، فكان الجواب مُجَمْجَماً غيرَ بيّن، ليس فيه تصريح بالتّظليم لهما، ولا التّصريح ببراءتهما، وتارةً يترحّم عليهما، وتارةً يقول: أخَذَا حقّي وقد تركتُه لهما، فأشار عَمرو بنُ العاص عَلَى معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأوّل ليستفزّا فيه عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ويستخِفّاه، ويَحمِله الغَضَب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به في تقبيح حالِه وتَهجين مذهبه. وقال له عمرو: إنّ عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ رجل نَزِق تَيّاه[1]، وما استطعَمت منه الكلامَ بمثل تقريظ أبي بكر وعمر، فاكتب. فكتب كتاباً أنفَذه إليه مع أبي أُمامة الباهليّ، وهو من الصحابة، بعد أن عزم على بعثته مع أبي الدَّرْداء. ونسخةُ الكتاب: مِن عبدِ الله معاوية بن أبي سُفْيان إلى عليّ بن أبي طالب.

أما بعد، فإنّ الله تعالى جَدُّه أصطفَى محمداً عَلَيْهِ السَّلَامُ لرسالته، واختَصّه بوَحيْه وتأديةِ شَريعته، فأنقَذ به من العَماية، وهَدَى به من الغَواية، ثم قَبَضه إليه رشيداً حميداً، قد بَلَّغ الشَّرع، ومَحَقَ الشِّرْك، وأخْمَدَ نار الإفْك، فأحسن الله جزاءَه، وضاعَفَ عليه نِعَمَه وآلاءه. ثم إن الله سبحانه اختصّ محمداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بأصحابِ أيّدوه وآزَروه ونصروه وكانوا كما قال الله سبحانه لهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]، فكان أفضلَهم مرتبة، وأعلاهم عند الله والمسلمين منزلة، الخليفة الأوّل، الَّذي جمَع الكلمة، ولمَّ الدَّعوة، وقاتَل أهلَ الرِّدّة، ثم الخليفة الثاني الَّذي فَتح الفتوح، ومَصّر الأمصار وأذَلّ رِقابَ المشركين. ثم الخليفة الثالث المظلوم الّذي نَشَر الملّة، وطَبّق الآفاق بالكلمة الحنيفيّة.

فلما اَسْتَوْثَقَ الإسلام وضرَبَ بجِرانه عدوتَ عليه فَبَغَيْتَه الغوائل، ونَصبتَ له المكايد، وضربتَ له بطنَ الأمْر وظهرَه، ودسَسْت عليه، وأغريتَ به، وقعدتَ حيثُ استنصَرَكَ عن نصرِه، وسألك أن تُدرِكه قبل أن يمزّق فما أدركتَه، وما يومُ المسلمين منك بواحد!

لقد حسدتَ أبا بكر والْتَويْتَ عليه، ورُمْت إفسادَ أمره، وقعدتَ في بَيْتِك، واستَغْوَيْت

---

(١) متكبر، اللسان، مادة (تيه).

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

عِصابةً من الناس حتى تأخروا عن بَيْعته، ثم كرهتَ خلافةَ عمرَ وَحَسَدْتَه واستطَلْتَ مُدّته، وسُررتَ بقَتْله، وأظهرتَ الشَّماتة بمُصابِه، حتى إنّك حاولتَ قتلَ ولدِه لأنّه قَتَل قاتلَ أبيه، ثم لم تكن أشدَّ منك حَسداً لابن عَمّك عثمان، نشرت مَقابِحَه، وطوَيتَ مَحاسِنه، وطعنتَ في فِقهه، ثم في دِينه، ثم في سيرته، ثم في عَقْله، وأغرَيْتَ به السفهاءَ من أصحابك وشِيعتِك، حتّى قتلوه بمَحْضر منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يدٍ، وما من هؤلاء إلا مَنْ بَغَيتَ عليه، وتلكأت في بَيْعته، حتّى حُملتَ إليه قَهراً، تُسَاقُ بخزائم[1] الأقتسار كما يُساقُ الفحل المخشوش[2]، ثم نهضتَ الآن تطلب الخلافة، وقتلَةُ عثمانَ خلصاؤك وسُجرَاؤك[3] والمحدِقون بك، وتلك من أمانيّ النّفوس، وضلالاتِ الأهواء.

فدَعِ اللَّجاجَ والعبث جانباً، وادفع إلينا قَتَلَة عثمان، وأعِد الأمرَ شُورَى بين المسلمين ليتّفِقوا على مَنْ هو لله رِضاً. فلا بيعةَ لك في أعناقنا، ولا طاعةَ لك علينا، ولا عُتبَى لك عندنا، وليس لك ولأصحابك عندي إلّا السّيف. والّذي لا إله إلا هو لأطْلُبنّ قَتَلَة عثمانَ أين كانوا، وحيث كانوا، حتّى أقتُلهم أو تَلتحِقَ رُوحي بالله.

فأما ما لا تزال تمنّ به من سابِقَتِك وجهادك فإنّي وجدتُ الله سبحانه يقول ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4]. ولو نظرتَ في حالِ نفسك لوجدتّها أشدّ الأنفس امتناناً على الله بعَمَلها، وإذا كان الامتنان على السائل يُبطِل أجرَ الصدقة، فالامتنان على الله يُبطِل أجرَ الجِهاد، ويجعله ﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5].

قال النّقيب أبو جعفر: فلما وصل هذا الكتابُ إلى عليّ عَلَيْتَلاِ مع أبي أُمامة الباهِليّ، كلَّم أبا أُمامة بنحوٍ ممَّا كلَّم به أبا مُسلم الخَوْلانيّ، وكتب معه هذا الجواب.

قال النقيب: وفي كتابِ معاويةَ هذا ذِكرٌ لفظ الجمل المخشوش أو الفَحْل المخشوش، لا في الكتاب الواصل مع أبي مسلم، وليس في ذلك هذه اللّفظة، وإنّما فيه: «حسدتَ الخلفاءَ

---

(١) الخزائم: جمع خزامة: وهي حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشدّ بها الزمام. اللسان، مادة (خزم).

(٢) الفحل المخشوش: الذي يجعل في أنفه الخشاش والخشاش ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب. السان، مادة (خشش).

(٣) سُجَراء: جمع سجير وهو الخليل الصفي. القاموس المحيط، مادة (سجر).

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٧. (٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

وبَغيتَ عليهم، عرَفْنا ذلك من نظرِك الشَّزْر، وقولك الهُجْر وتنفُّسك الصُّعَداء، وإبطائك عن الخُلَفاء».

قال: وإنما كثيرٌ من الناس لا يَعرفون الكتابين، والمشهور عندهم كتابُ أبي مسلم فيَجعلون هذه اللّفظةَ فيه، والصحيح أنّها في كتاب أبي أُمامة، ألا تراها عادت في جوابه ولو كانت في كتاب أبي مسلم لعادتْ في جوابه! انتهى كلامُ النقيب أبي جعفر.

ونحن الآن مبتدئون في شرح ألفاظ الجواب المذكور.

قولُه: «فلقد خَبأ لنا الدهرُ منك عَجَباً»، موضعُ التعجُّب أنّ معاوية يُخبِر عليّاً عليه السلام باصطفاء الله تَعالى محمداً وتشريفه له، وتأييده له، وهذا ظريف لأنّه يجري كإخبار زيدٍ عمراً عن حالِ عمرو، إذ كان النبيُّ صلى الله عليه وآله وعليٌّ عليه السلام كالشيء الواحد. وخبأ مهموز، والمصدرُ الخَبْء، ومنه الخابية، وهي الخبء إلّا أنّهم تركوا همزَها، والخَبْء أيضاً والخبيء على «فَعِيل» ما خُبِيء.

وبلاءُ الله تعالى: إنعامُه وإحسانه.

وقوله عليه السلام: «كناقِلِ التَّمر إلى هَجَر»، مَثَلٌ قديم. وهَجَر: اسم مدينة لا ينصرف للتعريف والتّأنيث. وقيل: هو اسم مذكَّر مصروف، وأصل المَثَل «كَمُسْتَبْضع[1] تَمرٍ إلى هَجَرَ»، والنسبة إليه هاجِرِيّ على غير قياس، وهي بلدة كثيرة النخل يُحمل منها التمر إلى غيرها، قال الشاعر في هذا المعنى:

أُهْدِي لَه طُرَفَ الكَلامِ كَما ... يُهدَى لِوالِي البَصْرة التَّمْرُ

قولُه: «وداعي مسدّده إلى النضال»، أي معلّمه الرميَ، وهذا إشارة إلى قول القائل الأوّل:

أُعَلِّمه الرِّمايةَ كلَّ يومٍ ... فلمّا اشتدّ ساعدُه رماني

هكذا الرِّواية الصحيحة بالسين المهملة، أي استقام ساعدُه على الرَّمي، وسدَّدتُ فلاناً: علّمته النِّضالَ، وسهمٌ سَديد: مُصيب، ورمحٌ سديد، أي قلَّ أن تخطىء طعنتُه، وقد ظرُف القاضي الأرّجانيّ في قوله لسديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنباريّ كاتب الإنشاء:

إلى الذي نَصَبَ المكارمَ للوَرَى ... غَرَضاً يَلُوح من المدى المتباعِدِ
نَثَلَ الأماثِلَ مِن كنانته فما ... وَجدتْ يداه سوى سديدٍ واحدِ[2]

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٣٩)، برقم (٣٠٨٠).

(٢) نثل: استخرج، القاموس، مادة (نثل)، الأماثل: الفضائل. القاموس، مادة (مثل).

ومن الأمثال في هذا المعنى: «سَمِّنْ كَلْبَك يأكُلك»، ومنها: «أحشّك وتَروثُني!».

قوله عليه السلام: «وزعمتَ أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان»، أي أبو بكر وعمر.

قوله عليه السلام: «فذكرتَ أمْراً إن تَمّ اعتزَلَك كله، وإن نَقَص لم يَلْحَقْك ثَلْمه»، مِن هذا المعنى قولُ الفرزدق لجرير، وقد كان جريرٌ في مهاجاته إيّاه يَفخَر عليه بقيسِ عَيْلان، فقد كانت لجرير في قيس خُؤُولة، يعيِّره بأيّامهم عَلَى بني تميم، فلما قَتَل بنو تميم قُتيبة بنَ مسلم الباهليّ بخُراسان قال الفرزدق يَفتخِر:

أتاني وأهلِي بالمدينة وقعةٌ ... لآل تميم أقعدتْ كلَّ قائمِ
كأنّ رؤوسَ الناس إذ سَمِعوا بها ... مشدَّخة هاماتها بالأمائمِ
وما بين من لم يُؤْت سمعاً وطاعةً ... وبين تميم غير جزّ الحلاقمِ

ثم خرج إلى خِطاب جرير بعد أبيات تركنا ذكرها، فقال:

أتغضبُ إنْ أُذْنا قُتيبة جُزَّتا ... جهاراً ولم تغضبْ لقتل ابن حازم!
وما منهما إلا نقَلْنا دماغَه ... إلى الشام فوْق الشاحجات الرَّواسم[1]
تذبذب في المخلاة تحت بُطونها ... محذَّفة الأذناب جُلْح المقَادمِ
وما أنتَ من قيسٍ فتَنبح دونَها ... ولا مِنْ تميم في الرّؤوس الأعاظمِ
تخوِّفُنا أيام قيْسٍ ولم تَدَعْ ... لَغيلانَ أنفاً مستقيمَ الخيَاشِمِ
لقد شهدتْ قيسٌ فما كان نصْرُها ... قتيبةَ إلّا عضّها بالأباهِمِ

فقوله:

وما أنتَ من قيس فَتنَبح دونها

هو معنى قولِ عليّ عليه السلام لمعاوية: «فذكرتَ أمْراً إن تمّ اعتزلَك كلّه»، وابن حازم المذكور في الشّعر هو عبد الله بنُ حازِم، من بني سُلَيم، وسُلَيم من قَيْس عَيْلان، وقتلتْه تميم أيضاً، وكان واليَ خُراسان.

قوله عليه السلام: «وما أنتَ والفاضلَ والمفضولَ»، الرّواية المشهورةُ بالرّفع، وقد رواها قوم بالنّصب، فمن رَفع احتجّ بقوله: وما أنت وبَيْتُ أبيكَ والفَخْر.

وبقوله:

فما القيسيّ بعدَكَ والفَخارُ

(١) الشاحجات أو بنات شاحج: البغال. اللسان، مادة (شحج).

ومن نصب فعلى تأويل «مالكَ والفاضِلَ»، وفي ذلك معنى الفِعْل، أي ما تصنع، لأن هذا الباب لا بدّ أن يتضمنّ الكلام فيه فِعْلاً، أو معنَى فعلٍ، وأنشدوا:

فـمـا أنـتَ والـسَّـيْـرَ فـي مَـتْـلَـفٍ

والرفع عند النحوّيين أولى. ثم قال: «وما للطُّلقَاء وأبناء الطُّلقَاء والتمييزَ» النّصبُ ها هنا لا غير، لأجل اللام في الطلقاء.

ثم قال عليه السلام بين المهاجرين الأوَّلين وترتيب درجاتهم، وتعريف طبقاتهم، هذا الكلامُ ينقُض ما يقول من طعن في السَّلف، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنكرَ على معاوية تعرّضَه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين، ولم يذكر معاوية إلّا للمفاضَلة بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر، فشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بأنهما من المهاجرين الأوّلين ومن ذَوي الدّرجات والطّبقات التي اشتَبَه الحالُ بينهما وبينه عليه السلام في أيّ الرجال منهم أفضل، وأنّ قَدْرَ معاوية يصغر أن يدخل نفسَه في مِثل ذلك شهادةٌ قاطعةٌ على علوّ شأنهما، وعظم منزِلتهما.

قوله عليه السلام: «هيهات، لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منها» هذا مَثَلٌ يضرَب لمن يُدخل نفسه بين قوم لَيس له أن يَدخُل بينهم، وأصله القِداح من عودٍ واحد يجعَل فيها قِدْح من غيْر ذلك الخشَب، فيصوّت بينها إذا أرادها المفِيض، فذلك الصوت هو حنينُه.

قوله «وطفق يحكُم فيها مَن عليه الحُكم لها»، أي وطفِق يحكُم في هذه القصّة أو في هذه القضيّة مَنْ يجب أن يكون الحكْم لها عليه لا له فيها، ويجوز أن يكون الضمير يرجع إلى الطّبقات.

ثم قال: «ألا تَربَع أيّها الإنسان على ظلْعك!» أي ألا تَرْفُق بنفْسك وتكُفّ، ولا تحمِل عليها ما لا تطيُقه، والظلْع: مَصدَرُ ظَلَع البعيرُ يظلَع أي غمز في مشْيه.

قوله: «وتعرِف قُصورَ ذرْعك»، أصل الذرْع بَسْط اليد، يقال: ضِقتُ به ذرْعاً: أي ضاق ذرْعي به. فنَقلوا الاسمَ من الفاعلية فجعلوه منصوباً على التمييز، كقولهم: طبت به نفساً.

قوله: «وتتأخر حيث أخرك القَدر»، مِثل قولِك: ضع نفسَك حيث وضعَها الله، يقال ذلك لمنْ يرفع نفسَه فوق استحقاقه.

ثم قال: «فما عليك غَلبة المغلوب، ولا عليك ظفرُ الظّافر»، يقول: وما الّذي أدخلَكَ بيني وبين أبي بكر وعمرَ، وأنتَ من بني أميّة، لستَ هاشميًا ولا تيميًا ولا عدويًا هذا فيما يرجع إلى أنسابنا، ولستَ مُهاجِراً ولا ذا قَدَم في الإسلام فتزاحِم المهاجرين وأربابَ السّوابق بأعمالِك واجتهادك، فإذَنْ لا يضرّكَ غَلَبة الغالب منّا ولا يسرّك ظفر الظافر. ويُروَى أنّ مروان بنَ الحكَم كان يُنشِد يوم مَرْج راهط والرؤوس تُنْدَر عن كواهلها بينه وبين الضّحاك بن قيس الفهْريّ:

ومَا ضـرّهـم غـيـرُ حَـيْـنِ الـنّـفـو　　　　س أيّ غـلامَـيْ قُـريـشٍ غـلَـبْ

قوله عليه السلام: «وإنّك لذهّاب في التيه، روّاغ عن القصْد»، يحتمل قوله عليه السلام في التّيه معنيين: أحدهما بمعنى الكِبر، والآخر التّيهَ من قولك: تاه فلان في البَيْداء ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١)، وهذا الثاني أحسَنُ يقول: إنّك شديد الايغال في الضلال. و«ذهّاب» فعّال، للتكثير، ويقال: أرض متيهة، مِثلُ معيشةٍ، أي يُتاهُ فيها.

قال عليه السلام: «روّاغ عن القصْد»، أي تترك ما يلزمك فعلُه وتعدل عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث الصحابة، وما جرى بعد موت النبيّ صلى الله عليه وآله، ونحن إلى الكلام في غير هذا أحوَج إلى الكلام في البيعة وحَقْن الدّماء والدخول تحتَ طاعةِ الإمام.

ثم قال: «ألا تَرَى غير مخبِر لك، ولكن بنعمة الله أحدِّث»، أي لستَ عندي أهْلاً لأن أخبرك بذلك أيضاً، فإنّك تَعلمه، ومن يَعلم الشيء لا يَجوزُ أن يُخبَر به، ولكنْ أذكرُ ذلك لأنّه تحدُّثٌ بنعمةِ الله علينا، وقد أمِرْنا بأن نحدِّث بنعمتِه سبحانه.

قولُه عليه السلام: «إنّ قوماً استُشهدوا في سبيل الله»، المراد هاهنا، سيّد الشُّهداء حَمْزة رضي الله عنه، وينبغي أن يُحمَل قولُ النبيّ صلى الله عليه وآله فيه إنّه «سيّد الشهداء»(٢) على أنّه سيّد الشهداء في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، لأنّ علياً عليه السلام مات شهيداً، ولا يجوز أن يقال: حمزة سيّده، بل هو سيّد المسلمين كلِّهم، ولا خلافَ بين أصحابنا رحمهم الله أنّه أفضل من حمزةَ وجعفر رضي الله عنهما، وقد تقدّم ذكَر التّكبير الذي كبّره رسولُ صلى الله عليه وآله على حمزةَ في قصّة أُحد.

قوله عليه السلام: «ولكلٍّ فَضل»، أيّ ولكلّ واحد من هؤلاء فَضْل لا يُجْحَد.

قوله: «أو لا ترى أنّ قوماً قُطِعت أيديهم»، هذا إشارة إلى جعفر، وقد تقدّم ذلك في قصّة مُؤتة.

قوله: «ولولا ما نهى الله عنه»، هذا إشارة إلى نفسِه عليه السلام.

قوله: «ولا تمجُّها آذانُ السامعين» أي لا تقذِفها، يقالُ: مَجَّ الرجل مِن فيه، أي قذفه.

قوله عليه السلام «فدع عنك من مالت به الرَّمِيّة»، يقال للصيد: يرمي هذه الرميّة، وهي «فعيلة» بمعنى مفْعولة، والأصل في مِثلها ألّا تلحَقها الهاء، نحو كفّ خضيب، وعين كحِيل، إلا أنّهم أجْرَوها مجرَى الأسماء لا النّعوت، كالقَصيدة والقَطيعة.

والمعنى: دَعْ ذكرَ من مالَ إلى الدنيا ومالتْ به، أي أمالته إليها.

فإن قلتَ: فهل هذا إشارة إلى أبي بكر وعمر؟ قلت: يَنبغي أن ينزّه أميرُ المؤمنين عليه السلام عن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٦.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٨٨٤)، والطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٩).

ذلك، وأن تُصرَف هذه الكلمة إلى عثمانَ، لأنّ معاويةَ ذكرَه في كتابه وقد أورَدْناه، وإذا أنصف الإنسانُ من نفسِه علِم أنه عليه السلام لم يكن يذكرهما بما يذكر به عثمان، فإنّ الحال بينه وبين عثمانَ كانت مضطربةً جداً.

قال عليه السلام: «فإنا صنائع ربِّنا، والناسُ بعدُ صَنائعُ لنا»، هذا كلام عظيم، عالٍ على الكلام، ومعناه عالٍ على المعاني، وصَنيعةُ الملِك من يصطنِعُه الملك ويرفع قدرَه. يقول: ليس لأحد من البشر علينا نعمة، بل الله تعالى هو الذي أنعم علينا، فليس بيننا وبينه واسطة، والناس بأسرهم صنائعنا، فنحن الواسطةُ بينهم وبين الله تعالى، وهذا مقامٌ جليل ظاهره ما سمعت، وباطنه أنهم عبيدُ الله، وأنَّ الناس عبيدهم.

ثم قال: «لم يمنعْنا قديم عزِّنا، وعاديّ طوْلنا»، الطوْل: الفَضْل. وعادِيّ أي قديم، بئرٌ عاديّة.

قوله: «على قومِك أن خلَطْناهم بأنفسِنا فَنكَحنا وأنكَحْنا فعل الأكفاء، ولستم هناك»، يقول: تزوَّجْنا فيكم وتزوّجتم فينا كما يَفعَل الأكفاء، ولستم أكفاءنا. وينبغي أن يُحمل قوله: «قديم وعادِيّ» على مَجازه لا على حقيقته، لأن بني هاشم وبني أميّة لم يَفترقا في الشرف إلّا مذ نشأ هاشم بنُ عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه، ونشأ حينئذ أخوه عبد شمس وعُرف بمثل ذلك، وصار لهذا بنُون ولهذا بنون، وادّعى كلٌّ من الفريقين أنه أشرف بالفِعال من الآخر، ثم لم تكن المدّة بين نَشْء هاشم وإظهار محمّد صلى الله عليه وآله الدّعوة إلا نحو تسعين سنة، ومثل هذه المدّة القصيرة لا يقال فيها: «قديمُ عزّنا وعادِيّ طَوْلِنا»، فيجب أن يُحمَل اللّفظُ على مَجازِه، لأنّ الأفعال الجميلة كما تكون عاديّةً بطُول المدّة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر، وإن كانت المدّة قصيرةً. ولفظةُ قديم تَرِد ولا يُراد بها قِدَم الزّمان، بل من قولهم: لفلانٍ قَدَمُ صدْق وقديمُ أثَر، أيْ سابقة حَسَنة.

مناكحات بين بني هاشم وبني عبد شمس

وينبغي أن نذكر ها هنا مُناكحات بني هاشم وبني عبدِ شَمْس. زوّج رسول الله صلى الله عليه وآله ابنتيْه رُقَيّة وأمَّ كُلْثوم من عثمانَ بن عفَّان بن أبي العاص، وزَوّج ابنتَه زينب من أبي العاص بن الرّبيع بن عبد العُزَّى بن عبدِ شَمْس في الجاهليّة، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطّلب أمَّ جميل بنت حَرْب بن أميّة في الجاهلية، وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله أمَّ حبيبة بنت أبي سُفْيان بن حَرْب، وتزوّج عبدُ الله بن عمرو بن عثمان فاطمةَ بنتَ الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وَرَوى شيخنا أبو عثمانَ عن إسحاق بن عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس قال: قلتُ للمنصور أبي جعفر: مَنْ أكفاؤنا؟ فقال: أعداؤنا، فقلت: مَن هُم؟ فقال: بنو أميَّة.

وقال إسحاق بن سليمان بن علي: قلتُ للعبّاس بنِ محمّد: إذا اتّسَعْنا من البنات، وضِقنا من البَنين، وخفْنا بوارَ الأيَامى فإلى مَن نُخرِجُهنّ من قبائل قريش؟ فأنشدَني:

عبدُ شمسٍ كان يَتْلُو هاشماً ... وهُما بعدُ لأمٍّ ولأبْ

فعرفتُ ما أراد وسكتُّ.

وَرَوي أيوب بنُ جعفر بن سليمان، قال: سألتُ الرشيدَ عن ذلك فقال: زوَّج النبيّ صلى الله عليه وآله بني عبدِ شمس فأحمدَ صِهرَهم، وقال: «ما ذَمَمْنا من صهرِنا فإنا لا نَذُمّ صِهرَ أبي العاص بن الربيع».

قال شيخنا أبو عثمان: ولما ماتت الابنتان تحتَ عثمانَ قال النبيّ صلى الله عليه وآله لأصحابه: «ما تنتظرون بعثمان، ألا أبو أيّم، ألا أخو أيّم، زوّجتُه ابنتين، ولو أن عندي ثالثة لفعلتُ»[1].

قال: ولذلك سمّيَ ذا النُّورَين.

ثم قال عليه السلام: «وأنّى يكون ذلك!»، أي كيف يكون شرفُكم كشَرَفنا، ومنّا النبيّ ومنكم المكذِّب - يعني أبا سُفيانَ بنَ حرب، كان عدوَّ رسول الله والمكذِّبَ له والمُجلبَ عليه - وهؤلاء ثلاثة: بإزاء أبي سُفيان رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعاويةُ بإزاء عليّ عليه السلام، ويزيدُ بإزاء الحسين عليه السلام، بينهم من العداوة ما لا تبرك عليه الإبل.

قال: «ومنّا أسَدُ الله»، يعني حمزة، «ومنكم أسَدُ الأحلاف»، يعني عُتْبة بن ربيعة، وقد تقدّم شرحُ ذلك في قصّة بدر.

وقال الراونديّ: المكذِّب من كان يكذِّب رسول الله صلى الله عليه وآله عناداً من قُريش، وأسد الأحلاف: أسدُ بن عبد العُزّى، قال: لأنّ بني أسد بن عبد العُزّى كانوا أحدَ البطون الّذِين اجتمعوا في حِلْف المطيّبين، وهم بنو أسَد بن عبد العُزّى وبنو عبد مَناف، وبنو تميم بن مرّة، وبنو زهرة، وبنو الحارث بن فهر. وهذا كلام طريف جداً، لأنه لم يلحظ أنه يجب أن يجعل بإزاء النبيّ صلى الله عليه وآله مكذِّب من بني عبد شمْسٍ، فقال: المكذِّب مَن كَذَّب النبيَّ صلى الله عليه وآله من قريش عناداً، وليس كلُّ من كذَّبه عليه السلام من قريش يُعيّر معاوية به. ثم قال: أسد الأحلاف أسد بن عبد العزّى، وأيّ عارٍ يلزَم معاويةَ من ذلك، ثم إنّ بني عبد مناف كانوا في هذا الحلْف وعليّ ومعاوية من بني عبد مَناف، ولكنّ الراونديَّ يظلم نفسَه بتعرُّضه لما لا يعلمه.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٨٤)، وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٢٩٤)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٦)، وابن حنبل في «فضائل الصحابة» (٧٨٢).

قولُه: «ومنّا سيّدَا شَبابِ أهل الجنّة»، يعني حَسَناً وحُسَيْناً عليهما السلام، «ومنكم صبية النار»، هي الكلمة الّتي قالها النبي صلى الله عليه وسلم لعُقْبة بن أبي مُعَيْط حين قَتَله صَبْراً يوم بَدْر، وقد قال كالمستعطِف له عليه السلام: مَن للصبية يا محمّد؟ قال: النار[1]. وعُقْبة بن أبي مُعَيْط من بني عبد شمْس. ولم يعلم الراونديّ ما المراد بهذه الكلمة، فقال: صبيةُ النّار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ، ولمّا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بهذه الكلمة كانوا صِبيَة، ثم ترعرَعوا واختاروا الكفرَ، ولا شُبْهة أنّ الراونديّ قد كان يفسّر من خاطره ما خَطَر له.

قال: قوله عليه السلام: «ومنّا خير نساء العالمين»[2]، يعني فاطمةَ عليها السلام، نصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، لا خلاف فيه.

«ومنكم حمّالة الحطب»، هي أم جميل بنت حَرْب بن أميّة، امرأةُ أبي لهب التي ورد نصُّ القرآن فيها بما وَرَد.

قوله: «في كثير مما لنا وعليكم»، أي أنا قادر على أن أذكر مِن هذا شيئاً كثيراً، ولكنّي أكتفي بما ذكرت.

فإن قلت: فبماذا يتعلّق «في» في قوله «في كثير»؟ قلتُ: بمحذوف تقديرُه: هذا الكلام داخلٌ في جملة كلامٍ كثيرٍ يتضمّن ما لَنا وعليكم.

قولُه عليه السلام: «فإسْلامُنا ما قد سُمِع، وجاهليّتنا لا تُدفَع»، كلامٌ قد تعلّق به بعضُ من يتعصّب للأمويّة. وقال: لو كانت جاهليّة بني هاشم في الشّرف كإسلامهم لعدّ من جاهليّتهم حَسب ما عدّ من فضيلتهم في الإسلام.

فضل بني هاشم على بني عبد شمس

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع فضلَ هاشم على عبدِ شمس في الجاهليّة، وقد يمتزج بذلك بعضُ ما يمتازون به في الإسلام أيضاً، فإنّ استقصاءه في الإسلام كثير، لأنه لا يمكن جَحْد ذلك، وكيف والإسلامُ كلُّه عبارةٌ عن محمّد صلى الله عليه وسلم، وهو هاشميّ! ويَدخُل في ضِمن ذلك ما يحتجّ به الأمويّة أيضاً، فنقول: إنّ شيخَنا أبا عثمان قال: إنّ أشرف خصال قريش في الجاهليّة اللّواء، والنّدوة، والسّقاية، والرِّفادة، وزَمزَم، والحجابة وهذه الخصال مقسومةٌ في

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: في قتل الأسير هبراً (٢٦٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٥٧٢)، والبيهقي في «السنن» (٦/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٧٣٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٥١)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٤).

الجاهليَّة لبني هاشم وعبد الدار وعبد العُزّى دون بني عبد شمس. قال: عَلَى أنّ معظَم ذلك صار شرفه في الإسلام إلى بني هاشم، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله لمّا ملك مَكَّة صار مِفتاح الكعبة بيدِه، فدَفَعه إلى عثمانَ بن طلحة، فالشرف راجعٌ إلى مَن مَلك المفتاح، لا إلى من دُفع إليه، وكذلك دفع صلى الله عليه وآله اللواءَ إلى مصعب بن عُمَير فالَّذي دفع اللواء إليه وأخَذَه مُصعَب من يديه أحقّ بشرفه وأولى بمجدِه وشرفُه راجعٌ إلى رهطِه من بني هاشم.

قال: وكان محمد بن عيسى المخزوميُّ أميراً على اليَمَن، فهجاه أُبيُّ بن مُدلج فقال:

قل لابن عيسى المستغيـ ... ـثِ من السُّهولةِ بالوُعورَهْ
الناطقِ العَوْراء في ... جُلِّ الأمور بلا بصيرهْ
وَلَدَ المغيرةُ تسعةً ... كانوا صَناديدَ العشيرهْ
وأبوكَ عاشِرهم كما ... نبتتْ مع النخل الشعيرهْ
إن النبوّة والخلا ... فة والسِّقايةَ والمَشورَهْ
في غيركمْ فاكفُفْ إليـ ... ـكَ يداً مجذّمةً[1] قصيرهْ

قال: فأنبرَى له شاعرٌ من وَلَد كُرَيز بن حَبيب بن عبد شمس، كان مع محمّد بن عيسى باليَمن يَهجُو عنه أبنَ مدلج في كلمة له طويلة، قال فيها:

لا لِواءٌ يُعَدُّ يا ابنَ كُرَيْزٍ ... لا ولا رِفْد بيته ذي السناءِ
لا حجابٌ وليس فيكم سوى الكبْـ ... ـرِ وبُغْضِ النبيّ والشهداءِ
بين حاكٍ ومُخلّج وطَريدٍ ... وقَتيلٍ يَلعنه أهلُ السماءِ
ولهمْ زمزمٌ كذاك وجِبْريـ ... ـلُ ومَجْدُ السِّقاية الغَرّاءِ

قال شيخنا أبو عثمان: فالشهداء عليٌّ وحمزةَ، وجعفر، والحاكي والمخلّج هو الحَكَم بن أبي العاص، كان يحكي مِشيةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فالتَفَت يوماً فرآه، فدعا عليه، فلم يزل مخلَّج المِشْية عقوبةً من الله تعالى. والطريد اثنان: الحكم بنُ أبي العاص، ومعاويةُ بن المُغيرة بن أبي العاص، وهما جدًّا عبدِ الملك بن مَرْوان من قِبَل أمّه وأبيه.

وكان النبي صلى الله عليه وآله طرَدَ معاويةَ بنَ المغيرة هذا من المدينة وأجّله ثلاثاً فحيّره الله، ولم يزل يتردّد في ضلاله حتى بَعثَ في أثرِه علياً عليه السلام وعمّاراً فقتَلاه. فأمّا القَتْلى فكثير، نحو شيْبة وعُتْبة ابني رَبيعة، والوليدُ بن عُتْبة، وحنظلة بن أبي سُفْيان وعُقْبة بن أبي مُعَيْط، والعاصُ بنُ سعيد بن أميّة، ومعاوية بنُ المغيرة، وغيرُهم.

(١) مجذمة: مقطوعة. اللسان، مادة (جذم).

قال أبو عثمان: وكان اسمُ هاشمٍ عَمراً، وهاشمٌ لَقَب، وكان أيضاً يقال له القَمَر، وفي ذلك يقول مطرود الخُزاعيّ:

إلى القَمَرِ السارِي المُنير دعوتُه ومُطعِمُهمْ في الأزْل من قَمَع الجُزرِ

قال: ذلك في شيء كان بينه وبين بعضِ قريش، فدعاه مطرود إلى المحاكَمة إلى هاشم، وقال ابنُ الزِّبَعْرَى:

كانت قريشٌ بَيْضةً فتفلّقتْ فالمُخّ خالِصُه لعبدِ مَنافِ
الرائِشُون[1] وليس يُوجَد رائشٌ والقائلون هلُمّ للأضيافِ
عَمْرو العُلا هَشَم الثَّرِيدَ لقَوْمِه ورجالُ مَكّة مُسْنِتُون عِجافُ

فَعمَّ كما تَرَى أهلَ مَكّة بالأزْل والعُجْف، وجعَله الّذي هَشَم لهم الخُبْز ثريداً، فغلبَ هذا اللّقبُ على اسمه حتى صارَ لا يُعرَف إلّا به، وليس لعبد شمس لقبٌ كريم، ولا اشتُقّ له من صالح أعماله اسمٌ شَريف، ولم يكن لعبدِ شَمْس ابن يأخذ بضبْعه، ويرفع من قَدره، ويزيد في ذكره، ولهاشم عبدُ المطلب سيِّد الوادي غير مدافَع، أجملُ الناس جَمالاً، وأظهَرُهم جُوداً، وأكملُهم كمالاً، وهو صاحب الفِيل، والطير الأبابيل، وصاحب زَمزَم، وساقي الحجيج. ولدَ عبدُ شمس أميّة بن عبد شمس وأميّة في نفسه ليس هناك، وإنما ذكر بأولاده ولا لَقَب له، ولعبد المطّلب لقَبٌ شهيرٌ واسمٌ شريف: شَيْبة الحمد، قال مطرودٌ الخُزاعيّ في مدحه:

يا شيبةَ الحمدِ الّذي تُثنَى له أيّامُه من خيرِ ذُخْر الذاخرِ
المجدُ ما حَجّتْ قُريشٌ بيتَه ودعا هُذَيلٌ فوقَ غُصْنٍ ناضر
والله لا أنساكُمُ وفعالَكمْ حتّى أغيّبَ في سَفاةِ القابِرِ

وقال حذافة بنُ غانم العدويّ وهو يمدح أبا لَهَب، ويُوصي ابنه خارجة بن حُذافة بالانتماء إلى بني هاشم:

أخارجُ إمّا أهلِكَنَّ فلا تَزَلْ لهم شاكراً حتّى تُغيَّب في القبرِ
بين شيْبة الحمد الكريم فِعالُه يضيءُ ظلامَ الليل كالقمر البدرِ
لِساقِي الحجيج ثم للشيخ هاشمٍ وعبدِ منافٍ ذلك السيدُ الغَمْرُ
أبو عُتْبة المُلقى إليّ جواره أغرُّ هجانُ اللّون من نفرٍ غُرّ
أبوكمْ قُصَيٌّ كان يُدعَى مجمِّعاً به جَمعَ الله القبائلَ مِن فِهرَ

فأبو عُتْبة هو أبو لَهَب، عبد العُزّى بن عبد المطلب بن هاشم، وابناه عُتْبة وعُتَيبة.

---

(١) الرائش: الذي يسعى بين الراشي والمرتشي ليقضي أمرهما. اللسان، مادة (ريش).

وقال العَبْديّ حين احتفل في الجاهليّة فلم يترك:

لا تَرَى في الناس حيّاً مِثلَنا ... ما خَلا أولادَ عبد المطلِبْ

وإنّما شرُف عبد شمس بأبيه عبدِ مناف بن قصيّ وبني ابنه أميّة بن عبد شَمْس، وهاشم شَرُف بنفسِه وبأبيه عبدِ مناف، وبابِنه عبد المطلب، والأمر في هذا بيّن، وهو كما أوضَحه الشاعر في قوله:

إنما عبدُ منافٍ جوهرٌ ... زَيَّنَ الجوهرَ عبدُ المطَّلِبْ

قال أبو عثمان: ولسنا نقول: إنّ عبد شمس لم يكن شريفاً في نفسه، ولكنّ الشرف يتفاضل، وقد أعطَى الله عبدَ المطلب في زمانه، وأجرَى على يديه، وأظهر من كرامته ما لا يُعرف مثلُه إلا لنبيّ مُرسَل، وإنّ في كلامه لأبْرَهَة صاحب الفيل وتوعُّدِه إياه بربّ الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعيدِه بحبْس الفيل، وقتل أصحابه بالطَّير الأبابيل وحِجارة السِّجِّيل حتى تُركوا كالعصْف المأكول - لأعجَبُ البُرْهانات، وأسنَى الكرامات، وإنّما كان ذلك إرهاصاً لنبوّة النبي ﷺ، وتأسيساً لما يريده الله به من الكرامة، وليجعل ذلك البهاء متقدّماً له، ومردوداً عليه، وليكون أشهرَ في الآفاق، وأجَلّ في صدور الفراعِنة والجبابرة والأكاسرة، وأجدر أن يَقهرَ المعانِد، ويَكشف غباوة الجاهل. وبعد، فمن يُناهِض ويُناضِل رجالاً ولدوا محمّداً ﷺ، ولو عزلنا ما أكرَمَه الله به من النبوّة حتّى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشِيَمه لما وفى به بَشَر، ولا عَدَله شيء، ولو شئنا أن نَذكرُ ما أعطى الله به عبد المطلب من تفجّر العيون وينابيع الماء من تحت كَلْكَل[1] بعيره وأخفافِه بالأرض القَسِيّ، وبما أعطِي من المُساهمة وعند المُقارعة من الأمور العجيبة، والخصال البائنة، لقُلْنا، ولكنّا أحببْنا ألّا نحتجّ عليكم إلّا بالموجود في القرآن الحكيم، والمشهور في الشعر القديم، الظاهر على ألسنة الخاصّة والعامّة ورُواة الأخبار وحُمّال الآثار.

قال: وممّا هو مذكورٌ في القرآن عدا حديث الفيل قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[2]، وقد أجتمعت الرُّواة على أنّ أوّل من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف، فلمّا مات قام أخوه المطلب مقامَه، فلما مات قام عبدُ شمسٍ مَقامَه، فلمّا مات قام نوْفل مَقامَه - وكان أصغرهم. والإيلاف، هو أن هاشماً كان رجلاً كثيرَ السّفر والتّجارة، فكان يسافر في الشّتاء إلى اليمن، وفي الصَّيف إلى الشام، وشَرَك في تجارته رؤساءَ القبائل من العرب ومن ملوك اليَمن والشام، نحو العباهِلة باليمن، واليَكْسُوم من بلاد الحَبشة، ونحو ملوك الرُّوم بالشام، فجعل لهم معه رِبْحاً فيما يَربح، وساق لهم إبلاً مع إبله، فكفاهم مَؤُونة الأسفار، على أن يكفوه مؤونة الأعداء

---

(١) كلكل البعير: ما بين محزمه إلى ما مس الأرض منه إذا ربض. القاموس، مادة (كلل).

(٢) سورة قريش، الآية: ١.

في طريقه ومُنصرَفه، فكان في ذلك صلاحٌ عامٌّ للفريقين، وكان المقيم رابحاً، والمسافر محفوظاً، فأخصبتْ قريش بذلك، وحَملتْ معه أموالَها، وأتاها الخيرُ من البلاد السافلة والعالية، وحَسُنَتْ حالُها، وطاب عَيشُها. قال: وقد ذكر حديثَ الإيلاف الحارثُ بن الحَنش السُّلَميّ، وهو خالُ هاشمٍ والمطّلب وعبدِ شمس، فقال:

إنّ أخَـيَّ هـاشـمـاً لـيـس أخـا واحـدِ
الآخِـذ الإيـلاف والـ قـائـم لـلـقـاعـدِ

قال أبو عثمان: وقيل: إنّ تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[1] هو خوف من كان هؤلاء الإخوة يَمرّون به من القبائل والأعداء وهم مُغْتربون ومعهم الأموال، وهذا ما فسّرنا به الإيلاف آنفاً، وقد فسّره قومٌ بغير ذلك، قالوا: إنّ هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائبَ يؤدُّونها إليه ليَحمِيَ بها أهلَ مكّة، فإنّ ذُؤبان العرب وصَعاليكَ الأحياء وأصحاب الغارات وطُلّاب الطوائل كانوا لا يؤمَنون على الحرَم، لاسيما وناس من العَرَب كانوا لا يَرَوْن للحَرَم حُرْمة، ولا للشهر الحرام قَدْراً، مثل طيّيء وخَثْعم وقُضاعة وبعض بَلْحارث بن كعب، وكيفما كان الإيلاف فإنّ هاشماً كان القائم به دونَ غيره من إخوته.

قال أبو عثمان: ثم حِلْف الفُضول وجلالته وعظمته، وهو أشرَفُ حلف كان في العرب كلّها، وأكرمُ عَقْد عقدتْه قريش في قديمها وحديثها قبلَ الإسلام لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب. قال النبيّ ﷺ - وهو يَذكرُ حِلفَ الفُضول -: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حِلْفاً لو دُعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبتُ». ويكفي في جلالته وشرفه أنّ رسول الله ﷺ شهدَه وهو غلام، وكان عتبةُ بنُ ربيعة يقول: لو أنّ رجلاً خرج ممّا عليه قومُه لدخلتُ في حِلْف الفضُول، لما أرَى من كماله وشرفِه، ولِما أعلم من قَدْره وفضيلتِه.

قال: ولفَضْل ذلك الحلف وفضيلةِ أهله سمّيَ حلفَ الفضول، وسُمّيتْ تلك القبائل الفضول، فكان هذا الحِلف في بني هاشم، وبني المطّلب، وبني أسَد بن عبد العُزّى وبني زُهْرة، وبني تميم بن مرّة، تعاقَدوا في دار ابن جُدْعان في شهر حرام قياماً يتماسحون بأكُفّهم صُعُداً لَيكُونُنّ مع المظلوم حتّى يؤدّوا إليه حَقّه ما بَلّ بحرٌ صُوفَة، وفي التآسي في المعاش والتّساهم بالمال. وكانت النّباهة في هذا الحلف للزُّبير بن عبد المطّلب ولعبدِ الله بن جُدعان، أما ابن جُدْعان فلأنّ الحلف عقِد في داره، وأمّا الزبير فلأنه هو الّذي نهَض فيه، ودعا إليه، وحَثّ عليه، وهو الّذي سمّاه حِلفَ الفُضول، وذلك لأنّه لمّا سمع الزّبيديّ المظلوم ثَمن سِلعته قد أوْفَى على أبي قُبَيْس قبلَ طلوع الشمس رافعاً عقيرتَه وقُريش في أنْدِيتها قائلاً:

---

(١) سورة قريش، الآية: ٤.

يا لَلرّجال لمظلوم بضاعتُه ببَطْن مكّة نائي الحيّ والنفَرِ
إنَّ الحرامَ لمن تمّت حَرامتُه ولا حَرامَ لثَوْبَيْ لابسِ الغَدرِ

حَمِي وحَلَف ليعقدنَّ حِلْفاً بينه وبين بطون من قريش يَمنَعون القَويَّ من ظُلم الضَّعيف، والقاطنَ من عنف الغَريب، ثم قال:

حلفتُ لنَعْقِدنْ حِلْفاً عليهمْ وإن كنّا جميعاً أهلَ دارِ
نُسمّيه الفضولَ إذا عَقَدنا يَعَزُّ به الغَريبُ لَدَى الجوارِ
ويَعلَم مَنْ حوالي البيت أنّا أباةُ الضَّيْم نهجُرُ كلَّ عارِ

فبنو هاشم هم الَّذين سَمَّوا ذلك الحلْف حِلفَ الفُضول، وهم كانوا سببه، والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له، والشاهدة لأمره، فما ظنُّك بمن شَهِده ولم يقمْ بأمره!

قال أبو عثمان: وكان الزبير بن عبد المطلب شجاعاً أبيًّا، وجميلاً بهيّاً، وكان خطيباً شاعراً، وسيِّداً جواداً، وهو الَّذي يقول:

ولولا الحمسُ لم يَلْبَس رجالٌ ثيابَ أعزة حتى يموتوا
ثيابهمُ شِمالٌ أو عَباءٌ بها دنسٌ كما دَنس الحميتُ
ولكنّا خلِقنا إذا خَلِقْنا لنا الحِبَرات والمِسك الفتِيتُ
وكأسٌ لو تُبِين لهمْ كلاماً لقالتْ إنما لهمُ سُبيتُ
تبين لنا القذى إن كان فيها رضين الحلم يشربها هبيتُ
ويقطع نخوةَ المختالِ عنّا رَقيقُ الحدّ ضربتُه صموتُ
بكفٌ مجرّب لا عيبَ فيه إذا لقيَ الكريهةَ يستميتُ

قال: والزّبير هو الذي يقول:

وأسحمَ من راح العراقِ مملأٍ محيطٍ عليه الجيشُ جلد مرائرُهْ
صَبحتُ به طَلْقاً يَراحُ إلى الندى إذا ما انتشى لم يختصرْه معاقرُه
ضعيف بجنب الكأس قبضُ بنانه كليل على جلد النديم أظافرُه

قال: وبنو هاشم هم الذين رَدّوا على الزّبيدي ثمنَ بضاعته، وكانت عند العاص بنِ وائل، وأخذوا للبارقيّ ثمن سلعته من أُبَيّ بن خلف الجُمحيّ، وفي ذلك يقول البارقيّ:

ويأبى لكم حِلفُ الفضول ظلامَتي بني جمحٍ والحقّ يؤخَذ بالغَصْبِ

وهم الذين انتزعوا من نبيه بن الحجاج قتولَ الحسناء بنت التاجر الخثعميّ، وكان كابره عليها حين رأى جمالها، وفي ذلك يقول نبيه بنُ الحجّاج:

وخشِيتُ الفضولَ حين أتوني قد أُرَاني ولا أخافُ الفضولا .

إنـي والَّـذي يَـحُـجُ لـه شُـمْـطُ إيـادٍ وهـلّـلـوا تـهـلـيـلا
لـبـراءٌ مـنـي قُـتَـيـلـة يـالـلّـنـاس هـل يـتـبـعـون إلّا الـقَـتـولا!

وفيها أيضاً يقول:

لـولا الـفُـضـولُ وأنـه لا أمْـنَ مِـن عـروائـهـا
لـدنـوتُ مِـن أبـيـاتـهـا ولـطُـفْـتُ حـولَ خِـبـائـهـا

في كلمته التي يقول فيها:

حَـيّ الـنُّـخَـيـلـةَ إذ نـأت مـنّـا عـلـى عُـدَوائـهـا
لا بـالـفـراق تُـنـيـلـنـا شـيـئـاً ولا بـلـقـائـهـا
حَـلّـتْ بـمـكّـةَ حَـلّـةً فـي مَـشْـيـهـا ووطـائـهـا

في رجالٍ كثيراً انتزعوا منهم الظلامات، ولم يكن يظلم بمكة إلا رجالٌ أقوياء، ولهم العدد والعارضة، منهم من ذكَرنا قصّته.

قال أبو عثمان: ولهاشم أخرى لا يَعُدّ أحدٌ مثلها، ولا يأتي بما يتعلق بها، وذلك أنّ رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر متساندين، فكان حربُ بنُ أمية على بني عبد شمس، وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب على بني هاشم، وكان عبدُ الله بن جُدْعان على بني تيْم، وكان هشام بنُ المغيرة على بني مخزوم، وكان على كلّ قبيلة رئيس منها، فهم متكافئون في التّساند، ولم يحقق واحدٌ منهم الرّئاسة على الجميع، ثم آب هاشمٌ بما لا تبلغُهُ يدُ متناول، ولا يطمع فيه طامع، وذلك أن النبيّ ﷺ قال: شهدتُ الفجّار وأنا غلام، فكنتُ أنبُل فيه على عمومتي، فنفى مُقامه عليه السلام أن تكون قريش هي التي فجرتْ، فسُمّيت تلك الحربُ حرب الفِجار، وثبت أن الفُجور إنما كان ممن حاربهم، وصاروا بيمنه وبركتِهِ ولما يريد الله تعالى من إعزاز أمره وإعظامه الغالبين العالين، ولم يكن الله ليُشْهده فجْرةً ولا غَدْرة، فصار مشهده نَصْراً، وموضعه فيهم حجّةً ودليلاً.

قال أبو عثمان: وشرفُ هاشم متَّصل، من حيث عَدَدت كان الشرفُ معك كابراً عن كابر، وليس بنو عبد شمس كذلك، فإنّ الحكم بن أبي العاص كان عاديًاً في الأعلام، ولم يكن له سناء في الجاهلية.

وأما أميّة فلم يكن في نفسه هناك، وإنما رفعه أبوه، وكان مضعوفاً، وكان صاحب عُهّار يدلُّ على ذلك قول نفيل بن عديّ جدّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حربُ بنُ أمية وعبدُ المطلب بن هاشم، فنفرَ عبدُ المطلب وتعجّب من إقدام حَرْبٍ عليه وقال له:

أبـوك مُـعـاهِـرٌ وأبـوه عَـفٌّ وذادَ الـفـيـلَ عـن بـلـدٍ حـرامِ

وذلك أن أميّة كان تعرّض لامرأة من بني زُهرة، فضربه رجل منهم بالسيف، فأراد بنو أمية

ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة، فقام دونهم قيسُ بن عديّ السهميّ - وكانوا أخواله، وكان منيع الجانب، شديد العارضة، حَمِيَّ الأنفس، أبيَّ النفس - فقام دونهم وصاح: «أصبح ليلٌ»، فذهبت مثلاً، ونادى: الآن الظاعنُ مقيم. وفي هذه القصة يقول وهب بنُ عبد مناف بن زهرة جدّ رسول الله ﷺ:

مهلا أُميَّ فإنّ البغْيَ مهلَكةٌ لا يكسبنّك يومٌ شرّه ذكرُ
تبدو كواكبه والشمسُ طالعةٌ يُصبُّ في الكأس منه الصَّبْر والمَقِرُ(١)

قال أبو عثمان: وصنع أميّة في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحدٌ من العرب، زوّج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته منه، فأولدها أبا معيط بن أبي عمرو بن أمية. والمَقِيتون في الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم، فأما أن يتزوجها في حياة الأب ويبنيَ عليها وهو يراه، فإنه شيء لم يكن قطُّ.

قال أبو عثمان: وقد أقرّ معاوية على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له: أيُّهمَا كان أسوَد في الجاهلية؟ أنتم أم بنو هاشم؟ فقال: كانوا أسودَ منّا واحداً، وكنّا أكثرَ منهم سيّداً، فأقرّ وادّعى، فهو في إقراره بالنقص مخصُوم، وفي ادعائه الفَضل خَصيم.

وقال جحش بن رئاب الأسديّ حين نزل مكّة بعد موت عبد المطلّب: والله لأتزوّجَنّ ابنة أكرم أهل هذا الوادي، ولأحالفَن أعزَّهم، فتزوّج أمَيمةَ بنت عبد المطلب، وحالَفَ أبا سُفيان بنَ حرب. وقد يُمكن أن يكون أعزّهم ليس بأكرمهم، ولا يُمكن أن يكون أكرمهم ليس بأعزّهم، وقد أقرّ أبو جهل على نفسه، ورهطه من بني مخزوم حين قال: تحارَبْنا نحن وهم، حتى إذا صرْنا كهاتين قالوا: منا نبيّ. فأقرّ بالتقصير، ثم ادّعى المساواة، ألا تراه كيف أقرّ أنه لم يزل يَطلب شَأوَهم ثم ادعى أنه لحِقهم! فهو مخصوم في إقراره، خصيم في دعواه، وقد حكم لهاشم دغفل بنُ حَنْظلة النسّابة حين سأله معاوية عن بني هاشم: فقال: هم أطعمُ للطعام، وأضرَبُ للهَام، وهاتان خَصْلتان يجمَعان أكثر الشرف.

قال أبو عثمان: والعَجَب من مُنافَرة حَرْب بن أميّة عبد المطلّب بن هاشم، وقد لَطَم حربٌ جاراً لخلف بن أسعد جدّ طَلْحة الطَّلَحات، فجاء جاره فشكَا ذلك إلي، فمشى خَلَفٌ إلى حَرْب وهو جالس عند الحِجْر، فلَطَم وجْهه عَنْوة من غير تحاكُم ولا تَراضٍ، فما انتطَحَ فيه عنْزان. ثم قام أبو سفيان بنُ حرب مقام أبيه بعد موته، فحالفه أبو الأُزَيْهِر الدَّوْسيّ، وكان عظيم الشأن في الأزْد، وكانت بينه وبين بني الوَليد بن المغيرة مُحاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه، فجاءه هشامُ بنُ الوليد وأبو الأُزَيْهِر قاعد في مَقعدِ أبي سُفْيان بذي المجاز، فضَرَب عُنُقه، فلم

(١) المَقِرُ: الحامض، وقيل: المرّ. اللسان، مادة (مقر).

يُدرِك به أبو سُفيان عَقْلاً ولا قَوَداً في بني المُغيرة. وقال حسّان بنُ ثابتٍ يذكر ذلك:

غدا أهلُ حِضْنَيْ ذي المجازِ بسُحْرةٍ ... وجارُ أبن حَرْبٍ لا يَرُوحُ ولا يَغدُو
كَساكَ هِشامُ بنُ الوليدِ ثيابه ... فأبلِ وأخلِقْ مثلَها جُدَداً بَعْدُ

فهذه جملة صالحة ممّا ذكره شيخنا أبو عثمان. ونحن نورد من كتاب «أنسابِ قريش»(١) للزبير بن بَكار ما يتضمّن شرحاً لما أجمله شيخُنا أبو عثمان أو لبعضه، فإن كلامَ أبي عثمان لمحةٌ وإشارة، وليس بالمشروح.

قال الزبير: حدّثني عمر بن أبي بكر العَدَويّ من بني عديّ بنِ كعب قال: حدّثني يزيد بنُ عبد الملك بن المغيرة بن نوفل، عن أبيه، قال: اصطلحتْ قريشٌ على أن وَلِيَ هاشمٌ بعد موتِ أبيه عبدِ مناف السِّقاية والرِّفادة، وذلك أنّ عبد شمس كان يسافر، قَلَّ أن يقيم بمكّة، وكان رجلاً مُعِيلاً، وكان له ولدٌ كثير، وكان هاشم رجلاً مُوسراً، فكان إذا حضر الحجُّ قام في قريش فقال: يا معشرَ قريش، إنّكم جيرانُ الله، وأهلُ بيته، وإنه يأتيكم في هذا المَوْسِم زُوّار الله يعظّمون حُرمةَ بيته، فهمْ لذلك ضيفُ الله، وأحقُّ ضيف بالكرامةِ ضيفُ الله، وقد خَصّكم الله بذلك، وأكرَمَكم به، ثم حَفِظ منكم أفضلَ ما حفظ جارٌ من جاره، فأكرِموا ضيفه وزوّاره، فإنهم يأتون شُعْثاً غُبْراً من كلّ بلد ضَوامِرَ كالقِداح، وقد أرجَفوا وتَفلّوا وقملوا وأرْمَلوا، فأقرُوهم وأعينوهم. قال: فكانت قريش تترافد على ذلك، حتى إنّ كلّ أهلِ بيت ليرسُلون بالشيء اليسير على قدرِ حالهم، وكان هاشمٌ يُخرج في كلّ سنة مالاً كثيراً، وكان قومٌ من قريش يترافدون، وكانوا أهلَ يسار، فكان كل إنسان ربما أرسَل بمائة مثقالٍ ذهب هِرَقليّة وكان هاشم يأمر بحياضٍ من أدَم تُجعَل في مَواضِعَ زَمْزم من قبل أن تُحفَر، يُستقَى فيها من البئار التي بمكّة، فيشرب الحاجّ، وكان يطعمهم أوّل ما يُطعم قبلَ يومِ التَرْوِيَة بيوم بمكّة وبمِنًى وبُجمع وعَرَفة، وكان يَثرد لهم الخُبز واللّحم والسّمن والسّويق والتّمر، ويحمل لهم الماء فيسقون بمنًى، والماء يومئذٍ قليل، إلى أن يَصدُر الحاجّ مِنْ مِنًى، ثم تنقطع الضِّيافة، وتتفرق الناسُ إلى بلادهم.

قال الزبير: وإنما سمّي هاشماً لهَشْمه الثَّرِيد، وكان اسمُه عَمراً، ثم قالوا: «عَمْرو العلا» لمعاليه. وكان أوّل من سَنّ الرّحْلتين: رحلةً إلى الحبشة، ورحلةً إلى الشام، ثم خرج في أربعين من قريش فبلغ غَزّة، فَمرِض بها، فمات، فدفنوه بها، ورجعوا بتركته إلى ولده. ويقال: إن الّذي رجع بتركته إلى ولده أبو رُهْم عبد العُزّى بن أبي قيس العامريّ من بني عامر بن لؤيّ.

---

(١) أنساب قريش: لأبي عبد الله بن زبير بن بكار القرشي، المتوفى سنة (٢٥٦هـ)، «كشف الظنون» (١/ ١٧٩).

قال الزبير: وكان يقال لهاشم والمطلب: البَدْران، ولعبد شمس ونَوْفل الأبْهران.

قال الزبير: وقد اختُلِف في أيّ ولد عبد مناف أسنّ، والثبت عندنا أن أسنّهم هاشم. وقال آدم بنُ عبد العزيز بن عمرَ بن عمرَ بن عبد العزيز بن مَرْوان:

يــا أمـيـنَ الله إنـي قـائـلٌ ... قـول ذي دِيـنٍ وبِـرٌ وحَـسَـبْ
عـبـدُ شَـمْـسٍ لا تُـهـنْـهـا إنـمـا ... عـبـدُ شـمـسٍ عـمُّ عـبـد الـمطّـلـبْ
عـبـدُ شـمـسٍ كـان يَـتْـلـو هـاشـمـاً ... وهُـمـا بـعـدُ لأمٍّ ولأبْ

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن محمد بن طَلْحة، عن عثمان بن عبد الرحمن، قال: قال عبد الله بن عبّاس: والله لقد علمتْ قريشٌ أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لها العِيَرات لهاشم، وَالله ما شدّت قريش رحالاً ولا حَبْلاً بسَفَر، ولا أناختْ بعيراً لحضَر إلا بهاشم، والله إنه أوّلُ من سَقَى بمكّة ماءً عذباً، وجعل بابَ الكَعْبة ذَهباً لَعبد المطّلب. قال الزبير: وكانت قريش تجّاراً لا تَعْدو تجارتهم مكة إنّما تَقدم عليهم الأعاجم بالسّلع فيشترونها منهم، يتبايعون بها بينهم، ويبيعون من حَولهم من العرب، حتّى رحل هاشم بنُ عبدِ مناف إلى الشام، فنزل بقَيْصَر، فكان يذبح كلّ يوم شاةً، ويصنع جَفْنة من ثريد، ويدعو الناس فيأكلون، وكان هاشمٌ من أحسَن الناس خَلْقاً وتمّاماً، فذُكر لقيصَر، وقيل له: ها هنا شابٌّ من قريش يهشم الخبز، ثم يَصبُّ عليه المرَق، ويفرّغ عليه اللّحم ويدعُو الناسَ. قال: وإنّما كانت الأعاجمُ والرّوم تَصنَع المرَق في الصِّحاف، ثم تأتدم عليه بالخبز، فدعا به قَيصَرُ، فلمّا رآه وكلّمه أُعجب به، وجَعَل يُرسِل إليه فيدخُل عليه، فلمّا رأى مكانه سأله أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتَاجر، وأن يكتب لهم كتبَ الأمان فيما بينهم وبينه، ففعل. فبذلك ارتفع هاشمٌ من قُرَيش. قال الزُّبير: وكان هاشم يقوم أوّل نهار اليوم الأوّل من ذي الحجّة فيُسند ظهرَه إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول: يا معشرَ قريش، أنتم سادة العرب، أحسَنُها وجوهاً، وأعظَمُها أحلاماً، وأوسَطُها أنساباً، وأقربُها أرحاماً. يا معشر قريش، أنتم جيرانُ بيتِ الله، أكرَمَكم بولايته، وخَصَّكم بجواره دون بني إسماعيل، وحَفِظ منكم أحسَن ما حَفِظ منكم جارٌ من جاره، فأكرموا ضيفه وزُوّار بيته، فإنّهم يأتونكم شُعْثاً غُبراً من كل بلد. فوَرَبِّ هذه البَنِيّة، لو كان لي مال يَحْمل ذلك لكُفيتُموه، ألا وإنّي مخرِج من طيّبِ مالي وحلاله ما لم تُقطع فيه رَحِم، ولم يؤخذ بظلْم، ولم يدخل فيه حرام، فواضعُه، فمن شاء منكم أن يفعلَ مثلَ ذلك فَعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرج منكم رجلٌ من ماله لكرامة زوار بيتِ الله ومَعُونتهم إلّا طيّباً لم يؤخذ ظلماً، ولم تُقطع فيه رَحم ولم يُغتصب. قال: فكانت قريشٌ تُخرج من صَفْو أموالها ما تحتمله أحوالُها، وتأتي بها إلى هاشم فيَضَعه في دار النّدوة لضيافة الحاجّ.

قال الزبير: وممّا رَثَى به مَطْرود الخزاعيُّ هاشماً قوله:

مـاتَ الـنَّـدَى بـالـشـام لـمّـا أن ثَـوَى — أوْدَى بـغَـزّةَ هـاشـمٌ لا يـبـعـدِ
فـجِـفـانُـه رُذُمٌ لـمـن يَـنـتـابُـه — والـنَّـصـر أدنـى بـالـلّـسـان وبـالـيَـدِ

ومن مراثيه له:

يا عين جُودِي وأذْرِي الدّمعَ وَاْحتفِلي — وأبكي خَبيثةَ نفسِي في المَلِمّاتِ
وأبكي على كلّ فَيّاضٍ أخي حَسَبٍ — ضَخْم الدَّسيعة وَهّاب الجزيلاتِ
ماضي الصَّريمة عالِي الهمّ ذي شَرَف — جَلْدِ النَّحِيزةَ حَمّال العظيماتِ
صَعب المقَادةِ لا نِكْسٌ ولا وَكَلٌ — ماضٍ على الهوْل مِتْلاف الكَريماتِ
مَحض توسّط من كعبٍ إذا نُسِبوا — بُحْبوحةَ المَجْد في الشُّمّ الرَّفيعاتِ
فأبكي على هاشم في وَسْط بَلْقَعةٍ — تَسفي الرّياح عليه وَسْط غَزّاتِ
يا عين بكّي أبا الشُّعْث الشَّجيّات — يَبْكينَه حُسَّراً مِثْل البُنَيّاتِ
يَبكِين عَمْرُو العُلا إذ حان مَصرَعهُ — سَمْح السجيّة بسّام العَشيّاتِ
يَبكِينَه مُعْولات في مَعاوِزِهَا — يا طُولَ ذلك من حزْنٍ وعَوْلاتِ
محزّمات على أوساطهنَّ لما — جَرّ الزمان مِنَ أحداثِ المُصيباتِ
أبيتُ أرعَى نجومَ اللّيل مِن ألَمٍ — أبْكِي وتَبكِي مَعِي شَجْواً بُنَيّاتِي

قال الزُّبير: وحدّثني إبراهيمُ بن المنذِر، عن الواقديّ، عن عبد الرحمن بن الحارث، عن عكْرِمة، عن ابن عباس، قال: أوّل من سَنّ دِيَةَ النّفس مائةً من الإبل عبدُ المطلب، فجرَت في قريش والعَرَب سنّتُه، وأقرّها رسول الله ﷺ. قال: وأمُّ عبد المطلب سلْمى بنت عَمْرو بن زيد بن لَبيد، من بني النّجّار من الأنصار، وكان سبب تزوّج هاشم بها أنّه قَدِم في تجارة له المدينة، فنزل على عمرو بن زيد، فجاءته سَلْمى بطعام فأعجبتْ هاشماً، فخطبها إلى أبيها، فأنكَحَه إيّاها، وشرَط عليه أن تَلِد عند أهلها، فبَنَى عليها بالمدينة، وأقام معها سنتين، ثم ارتَحل بها إلى مكة، فحملتْ وأثقلتْ، فخرج بها إلى المدينة، فوضعها عند أهلِها، ومضى إلى الشام، فمات بغَزّة من وجهه ذلك، وولدتْ عبد المطلب، فسمّتْه شيبة الحَمْد لشَعْرة بيضاء كانت في ذَوائبه حين وُلد، فمكث بالمدينة ستَّ سنين أو ثمانياً. ثم إنّ رجلاً من تِهامةَ مَرّ بالمدينة، فإذا غِلمانٌ ينتضلون، وغلامٌ منهم يقول كلّما أصاب: أنا ابن هاشِم بن عبد مناف، سيّد البَطْحاء، فقال له الرجل: من أنتَ يا غلام؟ قال: أنا ابنُ هاشم بن عبدِ مناف. قال: ما اسمُك؟ قال: شَيْبة الحمد، فانصَرَف الرجل حتّى قَدِم مكّة، فيجد المطلب بن عبد مناف جالساً في الحِجْر، فقال: قُم إليّ يا أبا الحارث، فقام إليه، فقال: تعلم أنّي جئت الآن من يَثربَ فوجدتُ بها غِلماناً يَنْتَضِلون... وقَصّ عليه ما رَأى من عبد المطلب، وقال: إنه أضرَبُ غلامٍ

رأيتُه قطّ، فقال له المطلب: أغفلتُه والله! أما إني لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى آتيه، فخرج المطلب حتى أتى المدينةَ، فأتاها عِشاء، ثم خرج براحِلَته حتّى أتى بني عَدِيّ بن النّجّار فإذا الغلْمان بين ظَهْرَاني المجلس، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم: هذا ابن هاشم؟ قالوا: نَعَم، وعَرَفه القوم فقالوا: هذا ابنُ أخيك، فإن كنتَ تريد أَخْذَه فالساعة، لا نعلم أمّه، فإنّها إن علمتْ حُلْنا بينك وبينَه. فأناخ راحلتَه، ثم دعاه فقال: يابنَ أخي، أنا عمُّك، وقد أردتُ الذَّهابَ بك إلى قومك، فاركب، قال: فوالله ما كَذب أن جلس على عَجُز الرّاحلة، وجَلَس المطلب على الرّاحلة ثم بعثها فانطلقت، فلمّا علمتْ أمّه قامت تدعو حزنها على ابنها، فأُخبرتْ أنّه عمه، وأنه ذهب به إلى قومه. قال: فانطَلَق به المطلب فدخل به مكة ضَحْوةً، مُردِفَه خلفَه، والناسُ في أسواقهم ومجالِسهم، فقاموا يرحِّبون به ويقولون: مَن هذا الغلام معك؟ فيقول: عبدٌ لي ابتعتُه بيثْرِب، ثم خرج به حتى جاء إلى الحَزْوَرَة فابتاع له حُلّة، ثم ادخله عَلَى امرأتِه خديجةَ بنت سَعْد بن سَهْم، فرجَّلت شعرَهُ، ثم ألبَسَه الحُلّة عشيّة، فجاء به فأجلَسَه في مجلس بني عبد مناف، وأخبرَهم خبرَه، فكان الناسُ بعد ذلك إذا رأوه يطوف في سِكَكَ مكة وهو أحسن الناسِ يقولون: هذا عبدُ المطلب - لقول المطلب: هذا عبدي - فلَجّ به الاسم، وترك به شيبة.

وروى الزبير روايةً أخرى أن سلمَى أم عبد المطلب حالت بين المطلب وبين ابنها شيبة، وكان بينها وبينه في أمره محاورة، ثم غلَبَها عليه، وقال:

عرفتُ شيبةَ والنجّارُ قَدْ حلفتْ ... أبناؤها حولَه بالنّبل تنتضِلُ

فأما الشّعر الذي لحذافة العُذْري والذي ذكره شيخُنا أبو عثمان فقد ذكرَه الزبيرُ بن بكّار في كتاب النسب، وزاد فيه:

كُهولُهمُ خيرُ الكُهولِ ونَسْلُهمْ ... كنَسْل المُلوك، لا يَبُور ولا يَجري
مُلوكٌ وأبناءُ الملوكِ وَسادَةٌ ... تَفَلّقُ عنهم بَيضة الطائر الصَّقْرِ
مَتَى تَلقَ منهمْ طامِحاً في عِنانِه ... تَجِدْه عَلَى أجراء والدِه يجري
هَمُ ملكوا البَطْحاء مَجداً وسُؤدُداً ... وهمْ نَكّلوا عنها غواةَ بني بَكْرِ
وهم يَغفِرون الذّنب يُنقَم مثلُه ... وهمْ تركوا رأيَ السفاهة والهُجْر
أخارجُ إما أهلِكَنّ فلا تَزَلْ ... لهمْ شاكراً حتّى تُغَيَّبَ في القَبْرِ

قال الزبير: وحدّثني عن سبب هذا الشعر محمد بن حَسَن، عن محمد بن طلحة، عن أبيه، قال: إن رَكْباً من جُذامَ خَرَجوا صادرين عن الحجّ من مكة، ففَقدوا رجلاً منهم عالِيةَ بيوتِ مكة، فيلقون حُذافة العُذْريّ، فربطوه وانطلقوا به، فتلقّاهم عبدُ المطلب مقبلاً من الطائف ومعه ابنه أبو لهب يقود به، وعبدُ المطلب حينئذ قد ذهب بصرُه، فلمّا نظر إليه حُذافة بن غانم هَتَف

به، فقال عبدُ المطلب لابنِه: وَيْلَكَ! مَن هذا؟ قال: هذا حذافة بنُ غانم مربوطاً مع ركب. قال: فألحقهم فسَلهم ما شأنُهم وشأنُه، فلَحِقهم أبو لهب فأخبَرُوه الخبرَ، فرجع إلى أبيه، فأخبَرَه، فقال: وَيْحَك! ما معك؟ قال: لا والله ما مَعِي شيء، قال: فالْحَقْهم لا أمّ لك! فأعطهم بيدِك، وأطلِق الرّجل، فلَحقَهم أبو لهب، فقال: قد عَرَفتمْ تجارتي ومالي، وأنا أحلف لكم لأعطينّكم عشرين أوقيّة ذهباً، وعَشْراً من الإبل وفَرَساً، وهذا ردائي رَهْنٌ. فقَبِلوا ذلك منه، وأطلَقوا حذافة، فلما أقبل به وقَرُبا من عبد المطلب، سَمِع عبدُ المطلب صوتَ أبي لهب، ولم يَسمَع صوت حُذافة، فصاح به: وأبِي إنَّك لعاصٍ، ارجع لا أمَّ لك! قال: يا أبتَ هذا الرجل معي، فناداه عبدُ المطلب: يا حذافة، أسمِعْني صوتَك. قال: هأنذا بأبي أنتَ وأمّي يا ساقِيَ الحجيج أردِفْني، فأردَفَه حتّى دخل مكة، فقال حُذافة هذا الشعر.

قال الزبير: وحدّثني عبدُ الله بن مُعاذ عن مَعمَر، عن ابن شهاب، قال: أوّل ما ذُكر من عبد المطلب أن قريشاً خرجتْ فارّةً من الحَرَم خوفاً من أصحاب الفيل، وعبدُ المطلب يومئذٍ غلامٌ شابٌّ، فقال: والله لا أخرُج من حَرَم الله أبغِي العِزَّ في غيره! فجلس في البيت وأجْلَت قريشٌ عنه، فقال عبدُ المطلب:

لا هــــمّ إن الــمــــرءَ يَــمْــــ ــنَعُ رَحْلَـهُ فـامـنَـعْ حَـلالَـكْ
لا يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيـبُـهـمْ وَمِـحَـالُـهـمْ أبـداً مِـحـالَـكْ

فلم يزل ثابتاً في الحرمَ حتّى أهلَك الله الفيل وأصحابه، فرجعت قريش وقد عَظُم فيهم بصَبْره وتعظيمِه محارَم الله عز وجل، فبينا هو على ذلك - وكان أكبر ولدِه وهو الحارث بنُ عبدِ المطلب قد بَلَغ الحُلم - أُرِيَ عبدُ المطلب في المنام، فقيل له: احفر زَمْزَم، خَبيئةَ الشيخ الأعْظَم. فاستيْقَظ فقال: اللهمّ بيّن لي الشيخ، فأُرِيَ في المنام مرّة أخرى: احْفِرْ تُكْتم بين الفَرْث والدّم، في مَبْحث الغراب، في قَرْية النمل، مستقبلة الأنصاب الحمر. فقام عبد المطلب فمشى حتى جلس في المسجد الحرام ينتظر ما سُمّيَ له من الآيات، فنَحَر بقرةً في الحزْورة، فأفلتتْ من جازِرِها بحُشاشةِ نفسها حتى غَلَب عليها الموتُ في المسجد في موضع زَمْزَم، فاحتمل لحمَها من مكانِها، وأقبلَ غراب يهْوِي حتى وقع في الفَرْث[1] فبَحَث عن قرية النمل، فقام عبدُ المطلب يحْفرها، فجاءتْه قريش فقالت له: ما هذا الصنع، إنا لم نكن نَراك بالجهل، لِمَ تحفِر في مسجدنا؟ فقال عبد المطلب: إني لحافر هذا البئر، ومجاهدٌ من صدّني عنها، فطفِق يحفِر هو وابنه الحارث، وليس له يومئذٍ ولد غيره، فيسفه عليهما الناسُ من قريش فيُنازعونهما ويقاتلونهما. وتناهى عنه ناسٌ من قريش لِمَا يعلَمون من زعيق نسبه وصِدْقه،

---

(١) الفرث: السرجين في الكرش. القاموس، مادة (فرث).

واجتهاده في دينهم يومئذٍ، حتى إذا أتعَبه الحفْر، واشتدّ عليه الأذى نَذَر إنْ وفى له عشرة من الولْدان ينحَر أحدَهم، ثم حفر فأدرك سُيوفاً دُفنتْ في زَمزم حين دفنتْ، فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالت: يا عبد المطّلب، أَحْذُنا مما وجدت. فقال عبدُ المطلب: بل هذه السيوف لبيت الله، ثم حَفَر حتى أنبط الماء، فحفرها في القَرار، ثم بحَرها حتى لا تَنزف، ثم بنى عليها حوْضاً وطفِق هو وابنه يَنزِعان فيملآن ذلك الحوض، فيشرب منه الحاج، ويَكْسره قوم حَسَدة له من قريش باللّيل، فيُصلِحه عبدُ المطلب حين يُصبح، فلما أكثروا فسادَه دعا عبدُ المطلب ربَّه، فأُرِيَ، فقيل له: قل: اللّهم إني لا أُحلّها لمغتسِل، وهي لشارب حلّ وبلّ، ثم كفيتهم، فقام عبد المطلب حين اختلَفَ قريش في المسجد، فنادى بالّذي أُرِيَ، ثم انصرف فلم يكن يُفسِد حوضَه عليه أحدٌ منْ قريش إلّا رُمي في جسده بداءٍ، حتى تركوا حوضَه ذلك وسقايته. ثم تزوّج عبدُ المطلب النّساءَ، فوُلِد له عشرةُ رَهْط، فقال: اللهمّ إني كنتُ نذرتُ لك نحرَ أحدِهم، وإني أُقرِع بينهم، فأصيب بذلك من شئت، فأقرَعَ بينهم، فطارت القُرْعة على عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أحبَّ ولدِه إليه، فقال عبدُ المطلب: اللهمّ هو أحبّ إليك أم مائة من الإبل! فنحَرها عبدُ المطلب مَكانَ عبد الله، وكان عبد الله أحسنَ رجل رُئي في قريش قطّ.

وَرَوَى الزبير أيضاً قال: حدّثني إبراهيم بنُ المُنذر، عن عبد العزيز بن عمران، عن عبد الله ابن عثمان بن سليمان قال: سمعتُ أبي يقول: لما حُفرت زمْزم، وأدرَك منها عبدُ المطلب ما أدرَك، وَجَدتْ قريشٌ في أنفسها ممّا أُعطي عبدُ المطلب، فلقيَه خُوَيلد بنُ أسَد بن عبد العزّى فقال: يا بن سلمى، لقد سقيت ماءً رغْداً، ونثلت عاديّة حَسداً، فقال: يا بن أسَد، أما إنك تشرَك في فضلِها، والله لا يُساعدني أحدٌ عليها بِبرّ، ولا يقوم معي بارِزاً إلا بذلتُ له خيرَ الصِّهر، فقال خُوَيلدُ بنُ أسَد:

أقولُ وما قولي عليهمْ بسُبّةٍ ... إليك ابن سلمى أنت حافرُ زَمْزَمِ
حَفيرةُ إبراهيمَ يومَ ابن هاجر ... ورَكْضةُ جبْريلٍ على عهد آدم

فقال عبدُ المطلب: ما وجدت أحداً وَرِث العلَم إلا قدم غيرَ خُويلد بن أسد.

قال الزّبير: فأما رَكْضةُ جبريل فإن سعيدَ بن المسيّب قال: إنّ إبراهيم قَدِم بإسماعيل وأمّه مكة، فقال لهما: كلَا من الشجر، واشرَبا من الشّعاب. وفارَقهما، فلّما ضاقتْ الأرضُ تقطعت المِياه، فعَطِشا، فقالت له أمّه: اصعد وانصَب في هذا الوادي فلا أرى موتك ولا ترَى مَوتي، ففعل، فأنزل الله تعالى مَلكاً من السماء على أمّ إسماعيل، فأمرَها فصرّحتْ به، فاستجاب لها، وطار الملك فضربَ بجناحيه مكانَ زمزم، فقال: اشربا، فكان سَيْحاً يَسيح، ولو تَركاه ما زال كذلك أبداً، لكنّها فَرَقت عليه من العطَش، فقرت له في السّقاء، وحفرتْ في البَطْحاء، فلما نَضَبَ الماء طوَياه، ثم هلك الناس، ودفَنتْه السُّيول. ثم أُري عبدُ المطلب في

المنام أن آحفِرْ زمزَم لا تُنْزَب ولا تذمّ، تُروي الحجيج الأعظم. ثم أُرِي مرّة أخرى أن احفر الرّواء، أعطيتَها على رَغْم الأعداء. ثم أُرِيَ مرّة أخرى، أن احْفِر تُكْتَم، بين الأنصاب الحُمر، في قَرية النمل. فأصبح يحفر حيث أُرِي. فطفقتْ قريش يستهزئون به، حتى إذا بدا عن الطيّ وجد فيها غزالاً من ذهب، وحلية سَيف، فضرَب عليها بالسِّهام، فخرج سهمُ البيت، فكان أوّل حُليٍّ حَلّى به الكعبة.

قال الزّبير: وكان حربُ بنُ أميّة بنِ عبدِ شمس نديم عبدِ المطلب، وكان عبيدُ بن الأبرصِ ترْبه، وبلغ عبيد مائةً وعشرين سنةً، وبقي عبد المطلب بعده عشرين سنة.

قال: وقال بعض أهل العِلم: توفّيَ عبدُ المطلب عن خمس وتسعين سنة، ويقال: كان يُعرف في عبد المطلب نور النبوّة، وهيبةُ الملك، وفيه يقول الشاعر:

إنــنــي والــلّات والــبَــيــتِ الــذي ... لــزّ بــالــهِــبْــرزِ عــبــدِ الــمــطّــلــبْ

قال الزبير: حدّثني عمي مصعَب بن عبد الله، قال: بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعدما أسَنّ وذهب بصره، إذ زَحمه رجل، فقال: مَن هذا؟ فقيل: رجل من بني بكر. قال: فما مَنعه أن يُنكّب عنّي وقد رآني لا أستطيع لأن أنكّب عنه! فلما رأى بنيه قد توالوا عَشَرة قال: لا بدّ لي من العصا، فإن اتخذتها طويلةً شقّت عليّ، وإن اتخذتُها قصيرةً قويتُ عليها، ولكن ينحدب لها ظَهْري، والحدبة ذلّ، فقال بَنوه: أو غيرُ ذلك؟ يوافيك كلّ يوم منّا رجل تتوكأ عليه فتطوف في حوائجك. قال: ولذلك قال الزبير: ومكارِم عبد المطلب أكثر من أن يحاط بها، كان سيّد قريش غيرَ مُدافَعٍ نَفْساً وأباً وبيتاً وجمالاً وبهاء وكمالاً وفعالاً، قال أحدُ بني كنانة يمدحه:

إنــي ومــا ســتــرتْ قــريــشٌ والــذي ... تــعــزُو لآلٍ كــلُّــهــنّ ظــبــاءُ

ووَحَــقّ مــن رفــع الــجــبــالَ مُــنــيــفــةً ... والأرضَ مــدّاً فــوقــهــنّ ســمــاءُ

مُــثْــنٍ ومــهــدٍ لابــن ســلــمــى مِــدحــةً ... فــيــهــا أداءُ ذِمــامِــه ووَفــاءُ

قال الزبير: فأما أبو طالب بنُ عبد المطلب - واسمه عبد مناف، وهو كافلُ رسول الله ﷺ، وحاميه من قريش وناصرُه، والرّفيق به، الشفيق عليه، ووصيّ عبد المطلب فيه - فكان سيد بني هاشم في زمانه، ولم يكن أحد من قريش يسودُ في الجاهلية بمالٍ إلا أبو طالب وعُتبة بن ربيعة.

قال الزبير: أبو طالب أول من سَنَّ القَسامة في الجاهليّة في دم عَمرو بن علقمة، ثم أثبتتها السنة في الإسلام، وكانت السِّقاية في الجاهلية بيد أبي طالب، ثم سلمها إلى أخيه العباس بن عبد المطلب.

قال الزبير: وكان أبو طالب شاعراً مجيداً، وكان نديمه في الجاهلية مسافرُ بن عمرو بن أمية بن عبد شمس، وكان قد حُبِن فخرج ليتداوى بالحيرة، فمات بهبالة، فقال أبو طالب يرثيه:

لـيت شـعري مسـافـرُ بنُ أبي عَـمْـ ـرو ولَـيـتٌ يـقـولـهـا الـمـحـزونُ
كـيـف كـانـت مـذاقـةُ الـمـوت إذ مُـتّ ومـاذا بـعـد الـمـمـاتِ يـكـونُ!
رَحـل الـرَّكـب قـافـلـيـن إلـيـنـا وخـلـيـلـي فـي مَـرْمـسٍ[1] مَـدْفـونُ
بُـورِك الـمـيـتُ الـغـريـبُ كـمـا بـو رِكَ نَـضـرُ الـرَّيـحـان والـزّيـتـونُ
رُزْءُ مَـيْـت عـلـى هُـبـالـةَ قـد حـا لـت فَـيـافٍ مـن دُونـه وحُـزونُ
مِـدْرَةٌ يـدفـع الـخـصـومَ بـأيْـدٍ وبَـوجـه يـزيـنـه الـعِـرْنـيـنُ
كـم خـلـيـلٍ وصـاحـب وابـن عَـمٍّ وحـمـيـم قَـفّـتْ عـلـيـه الـمـنـونُ!
فـتـعـزّيـتُ بـالـجـلادة والـصَّـبْـ ـرِ وإنـي بـصـاحـبـي لـضـنـيـنُ

قال الزبير: فلما هلك مسافرٌ نادَم أبو طالب بعده عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤيّ، ولذلك قال عمرو لعليّ عليه السلام يوم الخندق حين بارزه: إن أباك كان لي صديقاً.

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن نصر بن مزاحم، عن معروف بن خربوذ، قال: كان أبو طالب يحضر أيام الفِجار، ويحضرُ معه النبيّ صلى الله عليه وآله وهو غلام، فإذا جاء أبو طالب هُزِمت قيس، وإذا لم يجيء هزمت كنانة، فقالوا لأبي طالب: لا أبا لك! لا تغب عنّا، فَفَعل.

قال الزبير: فأما الزبير بنُ عبد المطلب فكان من أشراف قريش ووجوهها، وهو الذي استثنته بنو قصيّ على بني سهم حين هجا عبد الله بن الزِّبَعْرَى بن قصي فأرسلت بنو قُصَيّ عتبة بنَ ربيعة بن عبد شمس إلى بني سهم، فقال لهم: إنّ قومكم قد كَرِهوا أن يعجلوا عليكم، فأرسَلوني إليكم في هذا السفيه الذي هجاهم في غير ذنب اجترموا إليه، فإن كان ما صنع عن رأيكم فبئس الرأيُ رأيكم، وإن كان عن غير رأيكم فادفعوه إليهم. فقال القوم: نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا. قال: فأسلموه إليهم، فقال بعضُ بني سهم: إن شئتم فعلنا، على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا. فقال عتبة: ما يمنعني أن أقول ما تقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائبٌ بالطائف، وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول: ولم أكن أجعل الزبير خطراً لابن الزِّبَعْرَى، فقال قائل منهم: أيّها القوم، ادفعوه إليهم، فلعمري إنّ لكم مثل الذي عليكم، فكثر في ذلك الكلام واللَّغط، فلما رأى العاصُ بنُ وائل ذلك دعا بُرْمة، فأوثق بها عبد الله بن الزِّبَعْرَى، ودَفعه إلى عتبة بن ربيعة، فأقبل به مربوطاً حتى أتى به قومه، فأطلقه حمزة بنُ عبد المطلب وكساه، فأغرَى ابن الزِّبَعْرى أناس من قريش بقومه بني سهم، وقالوا له: أهجهُم كما أسلموك، فقال:

لَـعَـمـريَ مـا جـاءَتْ بـنُـكْـرٍ عـشـيـرتـي وإن صـالـحـتْ إخـوانَـهـا لا ألـومُـهـا

(١) المرمس: القبر، القاموس، مادة (رمس).

فَوَدَّ جُناة الشرِّ أن سيوفنا ... بأيماننا مسلولةٌ لا نشيمها[1]
فيقطع ذو الصِّهر القريب ويتركوا ... غماغمَ منها إذ أجدّ يَريمها
فإنّ قصيّاً أهلُ مجدٍ وثروةٍ ... وأهلُ فعالٍ لا يُرام قديمها
همُ منعوا يومَي عكاظ نساءنا ... كما منع الشَّولَ الهجانَ قرومُها
وإن كان هيجٌ قدّموا فتقدّموا ... وهل يمنع المخزاة إلّا حميمُها!
مَحاشيدُ للمقْرَى سراعٌ إلى النَّدَى ... مَرازِبة غُلْبٌ رِزانٌ حُلومُها

قال: فقدِم الزّبير بنُ عبد المطلب من الطائف، فقال قصيدته التي يقول فيها:

فلولا الحمْسُ لم يلبس رجالٌ ... ثيابَ أعزة حتى يموتوا

وقد ذكرنا قطعةً منها فيما تقدّم.

قال الزبير: وقال الزبير بنُ عبد المطلب أيضاً في هذا المعنى:

قومي بنو عبدِ منافٍ إذا ... أظلم مَنْ حوليَ بالجَندَل
لا أسَدٌ لن يُسلِموني ولا ... تَيمٌ ولا زُهرة للنَّيْطَل[2]
ولا بنو الحارث إن مرّ بي ... يومٌ من الأيام لا ينجلي
يا أيُّها الشاتِمُ قومي ولا ... حقَّ له عندهُمُ أقبِلِ
إنّي لهمْ جارٌ لئن أنت لم ... تُقصِر عن الباطل أو تَعدِلِ

قال الزبير: ومن شعر الزبير بن عبد المطلب:

يا ليت شعري إذا ما حُمّتي وقعت ... ماذا تقول ابنتي في النَّوح تنعاني!
تنعى أباً كان معروف الدِّفاع عن الـ ... ـمَوْلى المطاف وفكّاكاً عن العاني
ونعمَ صاحبُ عانٍ كان رافده ... إذا تضجَّع عنه العاجز الواني

قال الزّبير: وكان الزبيرُ بنُ عبد المطلب ذا نظر وفكر، أتى فقيل له: ماتَ فلانٌ - لرجل من قريش كان ظلوماً - فقال: بأيّ عقوبة مات؟ قالوا: مات حتفَ أنفه! فقال: لئن كان ما قلتموه حقّاً إنّ للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم.

قال: وكان الزبير يكنى بأبي الطاهر، وكانت صفيّة بنت عبد المطلب كَنَتْ ابنها الزبير بن العوام أبا الطاهر دهراً بكُنية أخيها، وكان للزبير بن عبد المطلب ابنٌ يقال له الطّاهر، كان من أظرف فِتيان مكة، مات غلاماً، وبه سمّى رسول الله ﷺ ابنه الطاهر، وباسم الزّبير سمّت أخته صفية ابنها الزّبير، وقالت صفيّة ترثي أخاها الزبير بن عبد المطلب:

---

(١) نشيمها: شام السيف: أغمده. اللسان، مادة (شيم).
(٢) النيطل: الرجل الداهية. القاموس، مادة (نطل).

بَكّي زبيرَ الخير إذ ماتَ إنْ كنتِ على ذي كرم باكيَهْ
لو لفظَتْه الأرضُ ما لمتُها أو أصبحتْ خاشعة عاريَهْ
قد كان في نفسيَ أن أترُكَ الْمَوتى ولا أتبِعُهمْ قافيَهْ
فلم أطقْ صَبْراً على رُزئه وجدتُهُ أقربَ إخوانيَهْ
لو لم أقلْ مِنْ فيَّ قولاً له لقَضّت العَبْرة أضلاعيَهْ
فهوَ الشآمي واليماني إذا ما خضّروا، ذو الشّفرة الدّاميَهْ

وقال ضرار بن الخطّاب يبكيه:

بَكّى ضُباعُ على أبيـ لِكِ بكاءَ محزونٍ أليمْ
قد كنتُ أنشدُه فلا رَثَّ السّلاح ولا سليمْ
كالكوكب الدُّريّ يعـ لو ضوءه ضوءَ النّجومْ
زخرتْ به أعراقُه ونماه والدُه الكريمْ
بين الأغرِّ وهاشمٍ فَرعَين قد فَرَعا القُرومْ[(١)]

فأما القَتُول الخَثْعَميّة التي اغتصبها نبيه بنُ الحجّاج السَّهميّ من أبيها، فقد ذكر الزّبير بن بكّار قصّتها في كتاب «أنساب قريش».

قال الزبير: إنّ رجلاً من خثعم قَدم مكة تاجراً ومعه ابنة يقال لها: القَتُول، أوضأ نساءِ العالمين، فعلِقَها نبيه بن الحجّاج السَّهميّ، فلم يَبرح حتى غلب أباها عليها، ونقَلها إليه، فقيل لأبيها: عليك بحلْف الفضول، فأتاهم فَشكا إليهم ذلك، فأتوا نبيه بن الحجّاج فقالوا له: أخرج ابنةَ هذا الرجل - وهو يومئذٍ منتبذ بناحية مكة، وهي معه - وإلا فإنّا مَن قد عَرفت، فقال: يا قوم، متِّعوني بها الليلة، فقالوا: قبحك الله! ما أجهَلك، لا والله ولا شَخْب لَقْحة، فأخرجَها إليهم فأعطوها أباها، فقال نبيه بن الحجّاج في ذلك قصيدةً أوّلها:

راح صَحْبي ولمْ أحيِّ القَتولا لم أودِّعهمُ وَداعاً جميلاً
إذ أجدَّ الفُضول أن يمنَعوها قد أراني ولا أخافُ الفُضولا

في أبيات طويلة.

وأما قصة البارقيّ فقد ذكرها الزبير أيضاً. قال: قدم رجلٌ من ثُمالةَ من الأزْد مكة، فباع سلْعة من أبيّ بن خَلَف الجُمحيّ فمطَله بالثمن، وكان سيِّىء المخالطة، فأتى الثماليّ أهلَ حلف

(١) القُروم: جمع قَرْم: الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للفِحْلة، ومنه قيل للسيد قَرمٌ مقرم تشبيهاً بذلك. اللسان، مادة (قرم).

الفُضول فأخبرهم، فقالوا: اذهب فأخبره أنك قد أتيتنا، فإن أعطاك حقَّك وإلا فارجع إلينا، فأتاه فأخبرهَ بما قال أهلُ حِلْف الفُضول، فأخرَج إليه حقَّه فأعطاه، فقال الثُّماليّ:

أيفجُر بي ببَطْنِ مَكّةَ ظالماً ... أبَيٌّ ولا قومي لَديَّ ولا صَحْبي
وناديتُ قومي بارقاً لتُجيبَني ... وكم دونَ قَومِي مِن فَيافٍ ومن سُهْبِ[1]!
ويأبَى لكمْ حِلْف الفُضول ظُلامتي ... بني جُمَحٍ والحقّ يؤخذ بالغَصْبِ

وأمّا قصّة حِلْف الفُضول وشرفه فقد ذَكرها الزّبير في كتابه أيضاً، قال: كان بنو سهم وبنو جُمَح أهلَ بَغْيٍ وعُدْوان، فأكثروا من ذلك، فأجمع بنو هاشم وبنو المطلّب وبنو أَسَد وبنو زُهْرة وبنو تَيْم على أن تَحالَفوا وتعاقَدوا عَلَى ردّ الظلم بمكة، وألّا يُظلَم أحدٌ إلا مَنَعوه، وأخذوا له بحَقِّه، وكان حِلْفهم في دارِ عبد الله بن جُدْعان، قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدتُ في دار عبدِ الله بن جُدْعان حِلْفاً ما أُحِبّ أنّ لي به حُمْرَ النَّعَم، ولو دعيتُ به اليومَ لأجبتُ، لا يزيده الإسلام إلّا شِدّة»[2].

قال الزبير: كان رجلٌ من بني أَسَد قد قدم مكة معتمِراً ببضاعة، فاشتراها منه العاص بنُ وائل السَّهميّ، فآواها إلى بيته، ثم تَغيّب، فابتغى الأسدي مَتاعَه فلم يَقدِر عليه، فجاء إلى بني سَهْم يستَعْدِيهم عليه، فأغلَظوا له، فعرف أن لا سبيل له إلى ماله، وطَوّف في قبائل قريش يستنفِر بهم، فتخاذلت القبائل عنه، فلما رأى ذلك أشرف على أبي قُبيس حين أخذتْ قريش مجَالَسها، ونادى بأعلى صوته:

يا للرّجال لِمظلومٍ بِضاعَتُه ... ببَطْن مَكة نائِي الأهلِ والنَّفَرِ
ومُحرِمٍ أشعَثٍ لم يَقضِ عُمْرتَه ... يا آل فِهْر وبين الحِجْر والحجَرِ
هل مُنصِف من بني سَهْم فمرتجعٌ ... ما غيّبوا أم حلال مالِ معتمرِ!

فأعظمتْ ذلك قريش، وتكلّموا فيه، فقال المطيّبون: والله إن قمنا في هذا ليغضبنَّ الأحلاف، وقالت الأحلاف: والله إنْ قمنا في هذا لغيضبنّ المطيّبون، فقالت قبائل من قريش: هلمّوا فلنحتلف حِلفاً جديداً، لننصرنَ المظلوم على الظالم ما بلّ بحرٌ صوفة. فاجتمعت هاشم والمطّلب وأسدٌ وتيم وزُهرة في دار عبد الله بن جُدْعان ورسول الله ﷺ يومئذٍ معهم وهو شابّ ابن خمس وعشرين سنة لم يوحَ إليه بعدُ، فتحالفوا ألّا يُظلَم بمكة غريبٌ ولا قريبٌ ولا حرّ ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه، ويردّوا إليه مظلمتَه من أنفسهم ومن غيرهم، ثم

(١) السُّهْب من الأرض: المستوي في سهولة، اللسان، مادة (سهب).
(٢) أخرج بنحوه البزار في «مسنده» (١٠٢٤).

عمَدوا إلى ماء زَمزَم فجعلوه في جفنة، ثم بعثوا به إلى البيت، فغسلوا به أركانه، ثم جمعوه وأتوهم به فشربوه، ثم انطَلَقوا إلى العاص بن وائل فقالوا له: أدِّ إلى هذا حقه، فأدَّى إليه حقه، فمكثوا كذلك دهراً لا يُظلَم أحد بمكة إلا أخذوا له حقه، فكان عتبة بنُ ربيعة بن شمس يقول: لو أنَّ رجلاً وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس، حتى أدخل في حِلْف الفضول.

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد، عن أبيه، أن الحلف كان على ألّا يدَعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوماً يدعوهم إلى نصْرته إلا أنجدوه حتى يردّوا عليه ماله ومظلمته، أو يُبلوا في ذلك عُذْراً، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى التأسي في المعاش.

قال الزبير: ويقال: إنه إنما سمّيَ حِلْف الفضول لأن رجالاً كانوا في وجوههم تحالفوا على ردّ المظالم، يقال لهم فُضيل وفضّال وفضْل ومفضل، فسمِّيَ هذا الحلف حلْف الفضول، لأنه أحيا تلك السنّة التي كانت ماتت.

قال الزبير: وقدم محمد بن جبير بن مطعِم على عبد الملك بن مروان - وكان من علماء قريش - فقال له: يا أبا سعيد، ألم نكن - يعني بني عبد شمس -، وأنتم في حلف الفضول؟ فقال: أمير المؤمنين أعلم، قال: لتخبرنّي بالحق، قال: لا والله يا أمير المؤمنين، لقد خرجنا نحن وأنتم منه، وما كانت يدنا ويدكم إلا جميعاً في الجاهلية والإسلام.

قال الزبير: وحدثني محمد بن حسن، عن إبراهيم بن محمد، عن يزيد بن عبد الله بن الهادي الليثيّ، أن محمد بن الحارث أخبره، قال: كان بين الحسين بن عليّ عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كلام في مال كان بينهما بذي المرْوة، والوليد يومئذٍ أميرُ المدينة أيام معاوية، فقال الحسين عليه السلام: أيستطيل الوليد عليّ بسلطانه! أقسم بالله لينصفنّي من حقي أو لآخذنّ سيفي ثم أقوم في مسجد الله فأدعو بحلْف الفضول! فبلغت كلمتُه عبدَ الله بن الزبير، فقال: أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفي، ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً. فبلغت المِسْور بن مخرمة بن نوفل الزهريّ، فقال مثلَ ذلك، فبلغت عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيميّ، فقال مثل ذلك، فبلغ ذلك الوليد بن عتبة، فأنصف الحسين عليه السلام من نفسه حتى رضيَ[1].

---

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية بما معناه: ٢/ ٣٧٥.

قال الزبير: وقد كان للحسين عليه السلام مع معاوية قصّة مثل هذه، كان بينهما كلامٌ في أرض للحسين عليه السلام، فقال له الحسين عليه السلام: اختر منّي ثلاث خصال، إمّا أن تشتريَ منّي حقي وإمّا أن تردّه عليّ، أو تجعلَ بيني وبينك ابن عمر أو ابن الزبير حكَماً، وإلا فالرابعة، وهي الصَّيْلَم. قال معاوية: وما هي؟ قال: أهتف بحلْف الفضول، ثم قام فخرج وهو مُغضَب، فمرَّ بعبد الله بن الزبير فأخبرَه، فقال: والله لئن هتفتَ به وأنا مضطجع لأقعدَنّ، أو قاعدٌ لأقومنّ، أو قائم لأمشيَنّ، أو ماشٍ لأسعيَنّ، ثم لتنفدَن روحي مع روحك، أو لينصفنّك. فبلغتْ معاوية، فقال: لا حاجة لنا بالصَّيلم، ثم أرسل إليه أن ابعث فانتقد مالك، فقد ابتعناه منك.

قال الزبير: وحدّثني بهذه القصة عليُّ بن صالح عن جدّي عبد الله بن مُصعب، عن أبيه، قال: خرج الحسينُ عليه السلام من عند معاوية وهو مغضَب، فلقيَ عبد الله بن الزبير، فحدّثه بما دار بينهما، وقال: لأخيّرنّه في خصال، فقال له ابن الزبير ما قال، ثم ذهب إلى معاوية، فقال: لقد لقيني الحسين فخيّرك في ثلاث خصال، والرابعة الصَّيْلم، قال معاوية: فلا حاجة لنا بالصيلم، أظنّك لقيتَه مغضباً! فهات الثلاث، قال: أن تجعلني أو ابن عمر بينك وبينه. قال: قد جعلتك بيني وبينه، أو جعلت ابن عمر أو جعلتكما جميعاً. قال أو تُقرّ له بحقه ثم تسأله إياه. قال: قد أقررت له بحقه وأنا أسأله إيّاه، قال: أو تشتريه منه، قال: قد اشتريته منه، فما الصيلم؟ قال: يهتف بحلْف الفضول، وأنا أوّل من يجيبه. قال: فلا حاجة لنا في ذلك.

وبلغ الكلام عبد الله بن أبي بكر والمِسْور بن مخرمة، فقالا للحسين مثل ما قاله ابنُ الزبير.

فأمّا تفجُّر الماء من تحت أخفاف بعيرِ عبد المطلب في الأرض الجُرُز فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة، قال: لما أنبط عبدُ المطلب الماءَ في زمزم حسدتْه قريش، فقالت له: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإنّ لنا فيها حقًّا فأشركنا معك. قال: ما أنا بفاعل، إنّ هذا الأمر أمرٌ خُصصتُ به دونكم وأعطِيتُه من بينكم، قالوا له: فإنّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم حَكماً أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هُذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام، فركب عبدُ المطلب في نفرٍ من بني عبدِ مناف، وخرج من كلّ قبيلة من قبائل قريش قوم، والأرض إذ ذاك مَفاوِز، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوِز بين الحجاز والشامَ نَفِد ما كان مع عبد المطلب وبني أبيه من الماء فعطِشوا عطشاً شديداً فاستسقوا قومَهم، فأبوْا أن يَسقُوهم، وقالوا: نحن بمفَازة ونخشى على أنفسنا مِثل الذي أصابكم. فلمّا رأى عبدُ المطلب ما صَنَع القومُ وخافَ على نفسه وأصحابه الهلاك، قال لأصحابه: ما تَرَون؟ قالوا: ما رأيُنا إلّا تَبَعٌ لرأيك، فمرْنا بما أحبَبْت، قال: فإنّي أرى أن يحفِر كلُّ رجل منّا حفْرةً لنفسه بما معه الآن من القوّة، فكلّما مات رجل دفنَه أصحابه في حُفرته،

حتى يكونَ رجلٌ واحد، فضيْعة رجل واحد أيسَرُ من ضَيْعة رَكْب، قالوا: نِعْمَ ما أشرتَ! فقام كلّ رجل منهم فَحَفر حفيرةً لنفسه، وقعدوا ينتظِرون الموت. ثم إن عبدَ المطلب قال لأصحابه: والله إنّ إلقاءنا بأيدينا كذا للموت، لا نضرب في الأرض فنَطلب الماءَ لعَجْز، قومُوا فعسَى الله أن يرزقنا ماءً ببعض الأرض، ارتحلوا. فارتحلوا ومَن معَهم من قبائل قريش ينظُرون إليهم ما هم صانعون، فتقدّم عبدُ المطلب إلى راحلته فرَكبها، فلمّا انبعثت به انفجر من تحت خُفّها عَين من ماءٍ عَذب، فكَبّر عبدُ المطلب وكبّر أصحابه، ثم نزَلَ فشَرِب وشرِب أصحابُه، واستقَوْا حتى ملؤوا أسقيتَهم، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم: هلمُّوا إلى الماء، فقد أسقانا الله، فاشرَبوا واستَقُوا، فجاؤوا فشربوا واستَقَوْا، ثم قالوا: قد والله قَضى الله لك علينا، والله لا نخَاصِمُك في زمزم أبداً، إنّ الذي سقاك هذا الماءَ بهذه الفلاة هو الذي سقاك زَمزم، فارجع إلى سِقايتَك راشداً. فرجع ورَجَعوا معه، لم يصلوا إلى الكاهِنة وخلَّوا بينه وبين زمزم.

ورَوى صاحبُ كتاب الواقديّ أنّ عبد الله بن جعفر فاخَرَ يزيد بن معاوية بين يديْ معاوية، فقال له: بأيِّ آبائك تفاخِرني؟ أبَحرْب الّذي أجرْناه، أم بأميّة الّذي مَلكناه، أم بعبد شمس الّذي كَفَلْناه! فقال معاوية: لحرب بن أمية يقال هذا! ما كنت أحسَب أن أحداً في عصر حَرْبٍ يزعمُ أنه أشرف من حَرْب! فقال عبدُ الله: بلى أشرف منه من كَفَأ عليه إناءه وجلّله بردائه! فقال معاوية ليزيد: رويْداً يا بُنيّ، إنّ عبد الله يفخَر عليك بك لأنّك منه وهو منك. فاستَحْيا عبدُ الله وقال: يا أميرَ المؤمنين يَدَان انتشطتا وأخوَان اصطَرَعا. فلما قام عبدُ الله، قال معاوية ليزيد: يا بُنيّ إياك ومنازعةَ بني هاشم فإنّهم لا يجهَلون ما عَلِموا، ولا يجدُ مُبغضهم لهم سَبّاً، قال: «أمّا قوله: أبحَرْب الّذي أجرناه»، فإن قريشاً كانت إذا سافرت فصارتْ على العَقَبة لم يتجاوزها أحدٌ حتى تجوزَ قريش، فخرج حربٌ ليلةً فلمّا صار على العقَبة لَقيَه رجلٌ من بني حاجب بن زُرارة تميميّ فَتنحنَح حربُ بنُ أميّة وقال: أنا حرب بن أميّة، فتَنحنَح التميميّ وقال: أنا ابن حاجب ابن زرارة، ثم بدر فجاز العَقَبة، فقال حرب: لاها الله لا تدخل بعدها مكّة وأنا حيّ! فمكث التميميّ حِيناً لا يدخل، وكَانَ مَتجَرُهُ بمكّة، فاستشار بها بمن يستجير من حَرْب، فأشيرَ عليه بعبدِ المطلب أو بابنه الزبير بن عبد المطلب. فركب ناقته وصار إلى مكة لَيْلاً، فدَخلها وأناخَ ناقتَه بباب الزّبير بنِ عبد المطلب، فرَغت الناقةُ، فخرج إليه الزبير فقال: أمستجِير فتُجار، أم طالبُ قرى فتقرَى! فقال:

لاقَيتُ حَرْباً بالثَّنيّة مُقبلاً ... والليلُ أبلجَ نورُه للسّاري
فَعَلا بِصوْتٍ واكْتنَى ليَرُوعَني ... ودَعا بدَعْوة مُعِلنٍ وشعارِ
فتركتُه خَلْفي وجُزت أمامَه ... وكذاك كنتُ أكونُ في الأسفار

فمضى يهدّدني ويمنع مكّةً ... ألّا أحُلّ بها بدارِ قرارِ
فتركتُه كالكلب يَنبَح وحدَه ... وأتيتُ قَرْمَ مكارمٍ وفخارِ
لَيثاً هِزَبراً يُستجارُ بقربه ... رَحبَ المَباءةِ مكرِماً للجارِ
وحلفتُ بالبَيْت العَتيق وحجّه ... وبزمزمٍ والحِجْر والأستارِ
إنّ الزبير لمَانِعي بمهنّدٍ ... صافي الحديدة صارمٍ بتّارِ

فقال الزّبير: اذهَب إلى المنزل فقد أجرتُك. فلمَّا أصبح نادى الزبير أخاه الغَيْداق، فخرجا متقلّدين سيفَيْهما، وخرج التميميُّ معهما، فقالا له: إنَّا إذا أجرْنا رجلاً لم نمشِ أمَامه، فامش أمامنا ترمُقك أبصارُنا كي لا تُختلسِ مِن خَلْفِنا. فجعل التميميُّ يشقّ مكة حتى دخل المسجد، فلما بَصُر به حرب قال: وإنّك لها هنا! وسبق إليه فلَطَمه، وصاحَ الزبيرُ: ثَكِلَتك أمّك! أتلطِمه وقد أجرتُه! فثَنى عليه حَرْب فلطمة ثانية، فانتضَى الزبير سيفَه، فحمل على حَرْب بين يديه، وسعى الزبير خلفه فلم يَرجِع عنه حتى هَجَم حرْب على عبد المطلب دارَه، فقال: ما شأنُك؟ قال: الزبير، قال: اجلسْ، وكَفأ عليه إناء كانِ هاشم يَهشم فيه الثَّريد، واجتمع الناسُ، وانضمّ بنو عبد المطلب إلى الزبير، ووقَفوا على باب أبيهم بأيديهم سُيوفُهم، فأزّر عبد المطلب حَرْباً بإزار كان له، وَرَدّاه برداء له طَرَفان، وأخرَجه إليهم، فعلموا أن أباهم قد أجاره.

وأما معنى قوله: «أم بأميّة الذي ملّكناه!»، فإن عبد المطلب راهَنَ أميّة بن عبد شمس على فرسين، وجعل الخطر ممّن سبقت فرسهُ مِائةً من الإبل وعشرة أعبُد وعشر إماء واستعباد سنة، وجزّ الناصية. فسبق فرسُ عبد المطلب فأخذ الخطَر فقسّمه في قريش، وأراد جزّ ناصيتِه، فقال: أو أفتدى منك باستعباد عشر سنين! ففعل، فكان أميّة بعدُ في حَشمِ عبد المطلب وعَضاريطه عشر سنين.

وأما قوله: «أمْ بعبد شَمْس الذي كفلناه!» فإن عبدَ شمس كان مُملقاً لا مالَ له، فكان أخوه هاشم يكفلُه ويمونهُ إلى أن مات هاشم.

وفي كتاب «الأغاني»[1]، لأبي الفرَج أنّ مَعاوية قال لدغفَل النّسابة: أرأيت عبد المطلب؟ قال: نعم، قال: كيف رأيتَه؟ قال: رأيته رجلاً نَبِيلاً جميلاً وضيئاً، كأنّ على وجهه نورَ النبوّة. قال: أفرأيت أميّة بن عبد شمس؟ قال: نعم، قال: كيف رأيتَه؟ قال: رأيتُه رجلاً ضئيلاً منحنياً

(١) «الأغاني»: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يؤلف مثله اتفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

أعمى يقُوده عبدُه ذكْوان، فقال معاوية: ذلك ابنه أبو عمرو، قال: أنتم تقولون ذلك، فأمّا قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبدُه. ونَقلتُ من كتاب «هاشم وعبدِ شمس» لابن أبي رُؤْبة الدباس.

قال: رَوَى هشامُ بنُ الكَلْبي عن أبيه، أنّ نوفلَ بنَ عبد مناف ظَلم عبد المطلب بن هاشم أركاحاً له بمكّة - وهي الساحات - وكان بنو نوفل يداً مع عبد شمس، وعبدُ المطلب يداً مع هاشم، فاستنصر عبدُ المطلب قوماً من قومه فقصّروا عن ذلك، فاستنجد أخواله من بني النَّجار بيَثْرِب، فأقبل معه سبعون راكباً، فقالوا لنوفل: لا والله يا أبا عَديّ، ما رأينا بهذا الغائطِ أحسنَ وَجْهاً، ولا أمدَّ جِسْماً، ولا أعفَّ نَفْساً، ولا أبعَدَ من كلّ سوء من هذا الفَتى - يَعنُون عبد المطلب - وقد عرفتَ قرابته منّا، وقد منعتَه ساحاتٍ له، ونحن نحبُّ أن تردّ عليه حقّه، فردّه عليه، فقال عبدُ المَطلب:

تَـأبَّـى مـازِنٌ وبَـنُـو عَـدِيٍّ ... وذُبْيـانُ بـنُ تَـيْـم الـلاتِ ضَـيْـمِـي

وزادتْ مـالـكٌ حـتـى تـنـاهـتْ ... ونَـكّـب بـعـدُ نَـوْفَـلُ عـن حَـرِيـمـي

قال: ويقال إنّ ذلك كان سبب مخالَفة خُزاعة عبد المطلب.

قال: ورَوَى أبو اليَقظان سُحَيم بن حفص، أنّ عبد المطلب جمعَ بنيه عند وفاته - وهم عَشرة يومئذٍ - فأمَرَهم ونَهاهم وأوصاهم وقال: إيّاكم والبَغيَ، فوالله ما خَلَق الله شيئاً أعجل عقوبة من البَغْي، وما رأيت أحداً بقِيَ على البغي إلّا إخْوَتكم من بني عبدِ شمس.

ورَوَى الوليدُ بنُ هشام بن قحذم، قال: قال عثمان يوماً: وددتُ أنّي رأيتُ رجلاً قد أدرك الملوك يحدّثني عمّا مضى، فذُكِر له رجل بحَضرَمَوْت، فبعث إليه فحدثّه حديثاً طويلاً - تركْنا ذِكرَه - إلى أن قال: أرأيت عبدَ المطلب بن هاشم؟ قال: نعم، رأيتُ رجلاً قِعْداً أبيضَ طويلاً مَقْرونَ الحاجبين، بين عينيه غُرّة يقال إن فيها بركة، وإن فيه بركة، قال: أفرأيت أميَّة بنَ عبد شمس؟ قال: نعم، رأيتُ رجلاً آدمَ دميماً قصيراً أعمى يقال: إنه نَكد، وإن فيه نَكَداً، فقال عثمان: «يكفيك من شَرٌّ سماعُه» وأمر بإخراج الرّجل.

ورَوَى هشامُ بنُ الكَلْبي أن أميّة بنَ عبد شمس لمّا كان غلاماً، كان يَسرِق الحاجَّ فسمّي حارِساً.

وروى ابنُ أبي رُؤبة في هذا الكتاب أن أوّل قَتيل قتله بنو هاشم من بني عبدِ شَمس عفيف بن أبي العاص بن أميّة، قتَلَه حمزةُ بن عبد المطلب، ولم أقف على هذا الخبر إلّا من كتاب ابن أبي رؤبة.

قال: وممّا يصدّق قول من رَوَى أنّ أمية بنَ عبد شمس استعبَدَه عبدُ المطلب شعر أبي طالب بن عبد المطلب حين تظاهرتْ عَبد شمس ونَوْفل عليه وعلى رسول الله ﷺ وحَصَروهما في الشّعب، فقال أبو طالب:

تَوالَى علينا مَوْليانا كِلاهُما إذا سئلا قالا إلى غيرِنا الأمرُ
بلى لهما أمرٌ ولكنْ تَراجُماً كما ارتجمَتْ من رأس ذي القلَع الصَّخرُ
أخصّ خصوصاً عبد شمس ونَوْفلاً هما نَبَذانا مِثلَ ما تُنبَذ الخمرُ
هُما أغْمضا للقوم في أخويْهما فقد أصبحتْ أيدِيهما وهما صِفْرُ
قَديماً أبوهمْ كان عبداً لجدّنا بني أمَة شهلاء جاشَ بها البحرُ
لقد سَفّهوا أحلامَهمْ في محمّدٍ فكانوا كجُفْرٍ بئس مَا صَنعت جُفْرُ

ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبي عثمان، وقد نمزجه بكلام آخر لنا أو لغيرنا ممَّن تعاطى الموازنة بين هَذين البيتين.

قال أبو عثمان: فإن قالت أميّة: لنا الوليد بنُ يزيد بن عبد الملك بنِ مَرْوان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ، أربعة خلفاء في نَسَق، قُلنا لهم: ولبني هاشم: هارون الواثق بن محمّد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهديّ بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن عليّ السجّاد، كان يصلّي كلّ يوم وليلة ألفَ ركعة، فكان يقال له السجّاد لعبادتِه وفضله، وكان أجملَ قريش على وجهِ الأرض وأوسَمها، وُلِدِ ليلَة قتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام فسُميَ باسمه، وكني بكنيته فقال عبد الملك: لا والله لا أحتمل لك الاسم ولا الكُنية، فغيِّر أحدهما، فغيّر الكنية فصيّرها أبا محمد بن عبد الله، وهو البحر، وهو حَبْر قريش، وهو المفقّه في الدين المعلّم التأويل، ابن العباس ذي الرأي، وحليم قريش، ابن شيبة الحمد، وهو عبدُ المطلب سيّد الوادي ابن عمرو، وهو هاشم، هَشَم الثَّريد، وهو القَمَر سمِّي بذلك لجماله، ولأنهم كانوا يقتدون ويَهْتدون برَأيه، آبن المغيرة وهو عبدُ مناف، بن زيد، وهو قُصَيّ وهو مجمّع، فهؤلاء ثلاثة عشر سيّداً لم يُحرَم منهم واحد، ولا قصّر عن الغاية، وليس منهم واحداً إلّا وهو ملقَّب بلقب اشتقّ له من فِعلِه الكريم، ومن خلقه الجميل، وليس منهم إلا خليفة، أو موضع للخلافة أو سيّد في قديم الدهر منيع، أو ناسك مُقدّم، أو فقيه بارع، أو حليم ظاهر الرَّكانة، وليس هذا لأحد سواهم، ومنهم خمسة خلفاء في نَسَق، وهم أكثرُ ممّا عدّته الأمويّة، ولم يكن مروانُ كالمنصور لأنّ المنصور مَلَك البلاد ودَوّخ الأقطار، وضَبَط الأطراف اثنتين وعشرين سنةً، وكانت خلافة مروانَ على خلاف ذلك كلّه، وإنّما بقيَ في الخلافة تسعة أشهر حتى قتلتْه امرأتُه عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية حين قال لابنها خالد من بَعْلِها الأوّل: يا بن الرّطبة. ولئن كان مَرْوان مستوجباً لاسم الخلافة مع قلّة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلْدان فضْلاً عن الأطراف، فابن الزبير أولَى بذلك منه، فقد كان مَلَك الأرض إلّا بعضَ الأرْدُنّ، ولكن سُلطانَ عبد الملك وأولادَه لما اتّصل بسلطان مَرْوان اتّصل عند القوم ما انقطع

منه وأخفَى مَوضعَ الوَهَن عند من لا عِلم له، وسِنُو المَهْدِّي كانت سِنِي سلامة، وما زال عبدُ الملك في انتقاض وانتكاث، ولم يكن ملك يزيد كُملك هارون، ولا مُلك الوليدِ كملك المُعتِصم.

قلت: رحِم الله أبا عثمان! لو كان اليومَ لَعَدَّ من خلفاءِ بني هاشم تسعةً في نَسَق: المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفِي بن المستظهر بن المقدر. والطالبيّون بمصر يَعُدّون عشرةً في نسق: الآمِر بن المستعلي بن المستنصِر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعتزّ بن المنصور بن القائم بن المهديّ.

قال أبو عثمان: وتفخَر عليهم بنو هاشم بأن سِني مُلْكهم أكثر، ومدّته أطوَل، فإنّه قد بلغتْ مدّة مُلكهم إلى اليوم أربعاً وتسعين سنة. ويَفخرون أيضاً عليهم بأنّهم ملكوا بالميراث وبحقّ العصبة والعمومة، وأن ملْكهم في مَغرس نبوّة، وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان، بل ليس لبني مَرْوان فيها سبب، ولا بينهم وبينها نَسَب، إلا أن يقولوا: إنّا من قريش فيُساووا في هذا الاسم قريش الظواهر، لأن رواية الراوي: «الأئمة من قريش»[1] واقعة على كلّ قرشيّ، وأسباب الخلافة معروفة، وما يدّعيه كلّ جيل معلوم، وإلى كلّ ذلك قد ذهبَ الناس، فمنهم من ادّعاه لعليّ عليه السلام لاجتماع القرابة والسابقة والوصيّة، فإن كان الأمرُ كذلك فليس لآل أبي سفيان وآل مروانَ فيها دعوى، وإن كانت إنما تُنال بالوراثة، وتُستحَقّ بالعمومة، وتُستوجَب بحقّ العصبة، فليس لهم أيضاً فيها دعوَى. وإن كانت لا تُنالُ إلّا بالسوابق والأعمال والجهاد، فليس لهم في ذلك قَدَم مذكور، ولا يومٌ مشهور، بل كانوا إذ لم تكن لهم سابقة، ولم يكن فيهم ما يستحقّون به الخلافة، ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشدَّ المنع، لكان أهوَن، ولكان الأمر عليهم أيسر، قد عرفنا كيف كان أبو سُفْيان في عَداوة النبي ﷺ وفي محاربته له، وإجلابه عليه وغَزْوِه إيّاه، وعرفْنا إسلامه حيث أسْلَم، وإخلاصه كيف أخلَص، ومعنى كلمته يومَ الفتح حين رأى الجنود وكلامه يومَ حنين، وقوله يومَ صَعِد بلالٌ على الكعبة، فأذّن. على أنّه إنما أسلم على يدي العبّاس رحمه الله، والعبّاس هو الذي مَنع الناسَ مِنْ قتله، وجاء به رَدِيفاً إلى رسول الله ﷺ، وسَأله فيه أن يُشرّفه وأن يكرّمه وينوّه به، وتلك يدٌ بيضاء، ونعمة غَرّاء، ومقامٌ مشهود، ويومُ حُنَين غيرُ مجحود، فكان جزاءُ بني هاشم من بنيه أن حاربوا عليّاً، وسمّوا الحسن، وقَتلوا الحسين، وحَمَلوا النساء على الأقتاب حواسر، وكشفوا عن عَوْرة عليّ بن الحُسَين حين أشكل عليهم بُلوغَه كما يُصنَع بذَراريّ المشركين إذا دخلتْ دُورُهم عَنْوة، وبعث معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى اليمن، فقتل ابنَي عبيد الله بن العبّاس، وهما غلامان لم يبلُغا الحُلم،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٦٩٦٢)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٤٢).

وقَتلَ عُبَيْدُ الله بنُ زياد يوم الطف تسعةً من صُلب عليّ عليه السلام، وسبعةً من صُلْب عَقيل، ولذلك قال ناعيهم:

عَيـن جـودي بـعـبْـرةٍ وعَـويـلِ ... وآنـدبـي إن نَـدَبـتِ آل الـرَّسـولِ

تـسـعـةٌ كـلّـهـم لـصُـلْـبِ عـليٍّ ... قـد أصـيـبـوا وسـبـعـة لـعَـقِـيـل

ثم إنّ أميّة تزعُم أنّ عَقِيلاً أعان معاوية على عليٍّ عليه السلام، فإن كانوا كاذبين فما أوْلاهم بالكَذِب! وإن كانوا صادقين فما جازَوْا عَقِيلاً بما صنع! وضرب عُنُق مسلم بن عقيل صَبْراً وغَدْراً بعد الأمان، وقتلوا معه هانيء بن عُرْوة لأنّه آواه ونصرَه، ولذلك قال الشاعر:

فإن كنتِ لا تَدْرين ما الموتُ فأنظُرِي ... إلى هـانـيءٍ في الـسُّوق وآبـن عَـقِـيـل

تَرَيْ بَطَلاً قد هَشَّم السيفُ وجْهَه ... وآخـر يَـهـوِي مـن طَـمَـارِ قـتِـيـلِ

وأكلتْ هند كَبِد حمزة، فمنهم آكلة الأكباد، ومنهم كَهْف النّفاق، ومنهم مَن نَقَر بين ثنيّتَي الْحُسَين عليه السلام بالقَضيب، ومنهم القاتلُ يومَ الحرَّة عون بن عبد الله بن جعفر، ويوم الطَّفّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر. وقتِل يوم الحرَّة أيضاً من بني هاشم الفضلُ بنُ عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، والعبَّاس بن عُتْبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن العبَّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

قلت: إن أبا عثمان قايَسَ بين مدَّتي مُلْكهما وهو حينئذ في أيّام الواثق، ففضل هؤلاء عليهم، لأن مُلْكهم أطوَلُ من مُلكهم بعشر سنين، فكيف به لو كَان اليوم حيّاً، وقد امتدّ مُلكهم خمسمائة وستَّ عشرةَ سنةً! وهذا أكثر من ملك البيت الثالث من مُلوك الفُرس بنحو ثلاثين سنة. وأيضاً فإن كَان الفخرُ بطول مدَّة الملك فبنو هاشم قد كَان لهم أيضاً ملكٌ بمصر نحو مائتين وسبعين سنة، مع ما مَلكوه بالمغرب قبل أن ينتقلوا إلى مصر.

قال أبو عثمان: وقالت هاشمٌ لأميَّة: قد علم الناسُ ما صنعتمْ بنا من القَتْل والتّشريد، لا لذنب أتَيْناه إليكم، ضربتمْ عليَّ بنَ عبدِ الله بن عبَّاس بالسّياط مرتين، على أن تزوّج بنتَ عمّه الجَعْفرية الَّتي كانت عند عبدِ الملك، وعلى أن نَحَلْتموه قتل سليط، وسمَمْتُم أبا هاشم عبدَ الله بن محمد بنِ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ونَبشْتُم زَيْداً وصَلَبتموه، وألقيتم رأسَه في عَرْصة الدار تُوطأ بالأقدام، وينقُر دماغه الدَّجاج، حتى قال القائل:

اطـرُد الـدِّيـكَ عـن ذُؤابـة زَيْـدِ ... طـالـمـا كـان لا تَـطَـاهُ الـدَّجـاجُ

وقال شاعركم أيضاً:

صلبنا لكم زَيْداً على جِذْع نخلةٍ ... ولم نر مهدِيًّاً على الجذْع يُصلبُ
وقِسْتُم بعثمانٍ عليًّاً سفاهةً ... وعثمانُ خيرٌ من عليٍّ وأطيبُ

فرُوي أن بعض الصالحين من أهلِ البيت عليهم السلام قال: اللهمّ إن كان كاذباً فسلِّط عليه كلباً من كلابك، فخرج يوماً بسفر له، فعرض له الأسد فافترسه. وقتلتم الإمام جعفراً الصادق عليه السلام، وقتلتم يحيى بن زيد، وسميتُم قاتله: ثائر مرْوان، وناصر الدين، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقوْلكم بعبد الله أبي جعفر المنصور قبلَ الخلافة، وما صَنع مروان بإبراهيم الإمام، أدخل رأسه في جراب نَوْرة حتى مات، فإن أنشدُتمْ:

أفاض المدامِعَ قتلَى كُدًى ... وقتلَى بِكُثْوَةَ لم ترمَس[1]
وبالزّابيَيْن نفوسٌ ثَوَتْ ... وأخرى بنَهر أبي فطرسِ

أنشدْنا نحن:

واذكروا مصرَعَ الحسين وزَيداً ... وقتيلاً بجانب المهراسِ
والقتيلَ الذي بنجران أمسَى ... ثاوياً بين غربةٍ وتَناسِ

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه، وأنه كان رجلاً لا فِقْه له، ولا يعرَف بالزهد ولا الصلاح، ولا برواية الآثار، ولا بصحبة ولا ببعد همة، وإنما ولي رستاقاً من رَساتيق دار بجرْد لابن عامر، ثم ولي البحرين لمعاوية، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبايع ابن الزبير حتى رَدّه عبيد الله بنُ زياد، وقال يومَ مرج راهط، والرؤوس تندَر عن كواهلها في طاعته:

وما ضرّهم غير حينِ النفو ... س وأيّ غلامَيْ قريش غلبْ

هذا قول من لا يستحقّ أن يلي ربعاً من الأرباع، ولا خمساً من الأخماس، وهو أحد من قتلته النساء لكلمةٍ كان حتفه فيها.

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريدُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ولَعينه والمتخلّج في مشيته، الحاكي لرسول الله صلى الله عليه وآله، والمستمع عليه ساعة خلوته، ثم صار طريداً لأبي بكر وعمر، امتنعا عن إعادته إلى المدينة، ولم يقبلا شفاعةَ عثمان، فلمّا وُلِّيَ أدخله، فكان أعظم الناس شؤماً عليه، ومن أكبر الحُجج في قتله وخلعه من الخلافة، فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأمويَّة بهم أعرَقُ الناس في الكفر لأن أحدَ أبوَيْه الحكَم هذا، والآخر من قبل أمّه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، كان النبيُّ صلى الله عليه وآله طرَده من المدينة، وأجّله ثلاثاً، فحيّره الله تعالى حين خرج، وبقي متردّداً متلدّداً حولها لا يهتدي لسبيله، حتى أرسل في أثره عليّاً عليه السلام وعماراً،

(١) لم ترمس: لم تدفن. اللسان، مادة (رمس).

فقتلاه، فأنتم أعرقُ الناس في الكُفْر، ونحن أعرق الناس في الإيمان، ولا يكون أميرُ المؤمنين إلا أولاهم بالإيمان، وأقدمَهم فيه.

قال أبو عثمان: وتفخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين فيها إلا منذ ملكوا، قالوا: لو لم يكن من بركة دعوتنا إلّا أن تعذيب الأمراء بعمال الخراج بالتعليق والزّهق والتجريد والتسهير والمسالد والنورة والجورتين والعذراء والجامعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيراً كثيراً، وفي الطاعون يقول العُمَانِيّ الراجز يذكر دَوْلتنا:

قد رفع الله رِماحَ الجنِّ وأذهَبَ التعذيبَ والتَّجَنِّي

والعرب تسمّي الطواعين رماحَ الجنّ، وفي ذلك يقول الشاعر:

لعَمْرُكَ ما خَشيتُ على أُبَيٍّ رماحَ بني مقيّدة الحمارِ
ولكنّي خشيتُ على أبيٍّ رماحَ الجنّ أو إياكَ حارِ

يقول بعضُ بني أسد للحارث الغسانيّ الملك.

قال أبو عثمان: وتفخر هاشمٌ عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبةَ، ولم يُحوّلوا القبلة، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة، ولم يختموا في أعناق الصحابة، ولم يغيِّروا أوقات الصلاة، ولم ينقشوا أكفّ المسلمين، ولم يأكلوا الطعام وَيشربَوا على منبر رسول الله ﷺ، ولم ينهبوا الحرم، ولم يطؤوا المسلمات في دار الإسلام بالسِّباء.

قلت: نقلت من كتاب «افتراق هاشم وعبد شمس» لأبي الحسين محمد بن علي بن نصر المعروف بابن أبي رؤبة الدباس قال: كان بنو أميّة في ملكِهم يؤذّنون ويقيمون في العيد ويخطبون بعد الصلاة، وكانوا في سائر صلاتهم لا يجهرون بالتكبير في الركوع والسجود، وكان لهشام بن عبد الملك خصيٌّ إذا سجد هشام وهو يصلي في المقصورة قال: لا إله إلّا الله، فيسمع الناس فيسجدون، وكانوا يقعدون في إحدى خُطبتي العيد والجمعة ويقومون في الأخرى، قال: ورأى كعب مروان بن الحكم يخطب قاعداً، فقال: انظروا إلى هذا يَخطُب قاعداً، والله تعالى يقول لرسوله: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾(١).

قال: وأوّل من قعد في الخُطَب معاويةُ، وأوّل من أذّن وأقام في صلاة العِيد بشرُ بنُ مَرْوان، وكان عمّال بني أميّة يأخذون الجِزْية ممّن أسلم من أهل الذمّة، ويقولون: هؤلاء فَرّوا من الجِزْية، ويأخذون الصدقة من الخَيْل، وربما دخلوا دارَ الرجل قد نَفَق فرسُه أو باعه، فإذا أبصروا الآخِيةَ، قالوا: قد كان ها هنا فرس، فهات صدَقَتها، وكانوا يؤخّرون صلاةَ الجمعة

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ١١.

تَشَاغُلاً عنها بالخُطبة، ويُطيلون فيها، إلى أن تَتجاوَز وقتَ العصر، وتكاد الشمس تَصفَرّ، فعل ذلك الوليدُ بنُ عبدِ الملك ويزيدُ أخوه والحجّاجُ عامِلهم، ووكّل بهم الحجّاج المَسالخَ معه والسُّيوف على رؤوسهم، فلا يستطيعون أن يُصَلّوا الجمعة في وقتها.

وقال الحَسَن البَصْري: واعَجبًا من أُخَيفِشَ أُعَيْمِش! جاءَنا ففتنَنا عن دينِنا، وصعد على منبرنا، فيخطب والناس يَلتفِتون إلى الشمس فيقول: ما بالُكم تلتفِتون إلى الشمس! إنّا والله ما نُصلّي للشمس، إنما نُصَلّي لرَبّ الشمس! أفلا تقولون: يا عدوّ الله، إن لله حَقاً بالليل لا يَقبَله بالنهار، وحقًّا بالنهار لا يَقبَله بالليل، ثم يقول الحسن: وكيف يقولون ذلك وعلى رأس كلّ واحد منهم عِلْج قائمٌ بالسيف!

قال: وكانوا يسْبون ذراريّ الخوارج من العَرَب وغيرهم، لما قتل قريب وزحّاف الخارجيّان، سبى زياد ذراريَّهما، فأعطى شقيق بن ثور السّدوسي إحدى بناتهما، وأعطى عباد بن حُصين الأخرى. وسُبِيتْ بنتٌ لعُبيدة بن هلال اليَشكُري، وبنتٌ لَقَطَريّ بن الفجاءة المازنيّ، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبدِ الملك، واسمُها أم سلمة: فوطئها بملكِ اليمين على رأيهم، فَوَلَدتْ له المؤمّل، ومحمداً، وإبراهيم، وأحمد، وحصيناً، بني عباس بن الوليد بن عبد الملك. وسُبِيَ واصلُ بن عمرو القنا واستُرِقّ، وسُبيَ سعيدُ الصغير الحَرورِيّ واستُرِقّ، وأم يزيد بنِ عمرَ بن هُبيرَة، وكانت من سَبْي عُمان الذين سباهم مجّاعة، وكانت بنو أميّة تبيع الرجل في الدَّيْن يَلزَمه وترى أنه يصير بذلك رقيقاً.

كان معن أبو عمير بن معن الكاتب حرًّا مولًى لبني العَنْبر، فبيعَ في دَيْن عليه، فاشتراه أبو سعيد بنِ زياد بن عمرو العَتَكِيّ، وباع الحجّاج عليّ بن بشير بن الماحوز لكونه قَتلَ رسولَ المهلَّب على رجلٍ من الأزد.

فأمّا الكعبة فإنّ الحجّاج في أيام عبد الملك هَدَمها، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ يصلّي إذا صلّى أوقات إفاقتِه من السّكر إلى غير القِبْلة، فقيل له، فقرأ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾[1].

وخطب الحجّاج بالكوفة فذكر الذين يَزُورون قبرَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله بالمدينة، فقال: تَبًّا لهم! إنما يطوفون بأعوادٍ ورِمّةٍ بالية! هلّا طافوا بقَصْر أمير المؤمنين عبد الملك! ألا يَعلَمون أن خليفة المرءِ خيرٌ من رَسولِه!

قال: وكانت بنو أميّة تَختِم في أعناق المسلمين كما تُوسَم الخَيلُ عَلامةً لاستعبادهم. وبايع مسلِم بنُ عقبة أهلَ المدينة كافة، وفيها بقَايا الصحابة وأولادِها وصُلحاء التابعين على أنّ كلًّا منهم عبد قنّ لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، إلّا عليّ بن الحسين عليه السلام، فإنّه بايعه على أنه أخوه وابنُ عمه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

قال: ونقشوا أكفَّ المسلمين علامةً لاستِرْقاقهم، كما يُصنَع بالعُلوج من الرّوم والحَبشة. وكانت خُطباء بني أميّة تأكل وتَشرَب على المنبر يوم الجمعة لإطالتهم في الخُطْبة، وكان المسلمون تحتَ منبر الخُطْبة يأكلون ويَشرَبون.

قال أبو عثمان: ويفخَر بنو العبّاس عَلَى بني مَرْوان، وهاشمٌ عَلَى عبد شمس، بأنّ المُلْك كان في أيديهم فانتزعوه منهم، وغَلَبوهم عليه بالبَطْش الشديد، وبالحيلة اللطيفة، ثم لم يَنتزِعوه إلّا من يد أشجَعِهم شجاعة، وأشدِّهم تدبيراً، وأبعَدِهم غوْراً، ومن نَشأ في الحروب ورُبِّيَ في الثّغور، ومن لا يَعرِف إلا الفُتوحَ وسياسةَ الجنود، ثم أعطى الوفاء من أصحابِه والصبر من قوّاده فلم يغدر منهم غادر ولا قصر منهم مقصِّر كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة وعامر بن ضُبارة، ويزيد بن عمر بن هُبيرَة، ولا أحَد من سائر قوّاده حتى من أحبابه وكُتّابه كعبدِ الحميد الكاتب، ثم لم يلقَه، ولا لقي تلك الحروبَ في عامّة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن عليّ، وصالح بن عليّ، وداود بنِ عليّ، وعبدِ الصمد بن عليّ، وقد لقيَهم المنصورُ نفسُه.

قال: وتَفخَر هاشمٌ أيضاً عليهم بقول النبي ﷺ وهو الصادق المصدَّق: «نُقِلتُ من الأصلاب الزاكِية، إلى الأرحام الطاهرة، وما افترقتْ فرقتان إلا كنتُ في خيرِهما»[١]. وقال أيضاً: «بعثتُ من خِيرة قُريش»[٢].

ومعلومٌ أن بني عبدِ مناف افترَقوا فكانت هاشمٌ والمُطلب يداً، وعبدُ شمسٍ ونَوْفل يداً. قال: وإن كان الفخر بكثرة العَدَد فإنّه من أعظم مَفاخِر العَرَب، فوَلَدُ عليِّ بنِ عبد الله بنِ العبّاس اليوم مِثل جميع بني عبدِ شَمْس، وكذلك وَلَدُ الحُسين بن عليّ عليه السلام، هذا مع قُرب مِيلادِهما، وقد قال النبيّ ﷺ: «شَوْهاءُ وَلُودٌ خيرٌ من حَسْناءَ عَقيم»[٣]. وقال: «أنا مكاثرٌ بكم الأمم»[٤].

---

(١) ذكر بنحوه المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٢٠١٠)، وعزاه لابن عساكر.

(٢) لم أجده.

(٣) ذكره ابن الأثير في «النهاية» مادة (سوا) بلفظ: «سواد ولود» وفسّر السواء: القبيحة. وكذلك ذكره في مادة (عقم)، وكذلك ذكره المقدسي في «المغني» (٧/ ٢٢٦).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في فضل الطهور (٢)، والنسائي، كتاب: النكاح، باب: كراهية تزويج العقيم (٣٢٢٧)، وأبو داود، كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من يلد من النساء (٢٠٥٠).

وقد رَوَى الشعبيُّ عن جابر بن عبد الله، أنّ النبيّ ﷺ قَدِم من سفر، فأراد الرجال أن يَطرُقوا النساء لَيْلاً، فقال: «امهلوا حتى تَمتشِط الشَّعِثة، وتستحدّ المُغِيبة، فإذا قدِمْتم فالكَيْس الكَيْس»[1]. قالوا: ذهب إلى طَلَب الولد، وكانت العربُ تفخَر بكثرة الوَلَد، وتمدَح الفَحْل القَبيس، وتذُمّ العاقرَ والعَقيم.

وقال عامرُ بنُ الطُّفَيل يعني نفسَه:

لَبِئس الفَتَى إن كنتُ أعوَرَ عاقراً ... جَباناً فما عُذْري لدى كلِّ مَحضَرِ!

وقال عَلْقمة بنُ عُلاثَة يفخَر على عامرٍ: آمنتُ وكَفَر، ووفَيْتُ وغَدَر، وَوَلَدْت وعقر.

وقال الزِّبْرِقان:

فاسألْ بني سَعْدٍ وغيرَهُمُ ... يومَ الفخارِ فعندهمْ خُبْري

أيّ امرئٍ أنا حين يَحْضرني ... رِفْدُ العَطاء وطالبُ النَّصْرِ

وإذا هلكتُ تَركتُ وَسْطَهُمُ ... ولدى الكرام ونابه الذِّكرِ

وقال طَرَفة بن العَبْد:

فلو شاءَ ربِّي كنت قيسَ بنَ خالدٍ ... ولو شاء ربِّي كنت عَمرَو بنَ مَرْثَدِ

فأصبحت ذا مالٍ كثيرٍ وعَادني ... بنون كرام سادةٌ لمسوَّدِ

ومدَحَ النّابغة الذُّبيانيُّ ناساً فقال:

لم يحرموا طِيبَ النِّساءِ وأمّهم ... طفحتْ عليكَ بناتقٍ مِذْكارِ

وقال نَهشَل بن حَرِّيّ:

على بنيّ يشدّ الله عظمَهمُ ... والنَّبْع يُنْبِت قُضباناً فيكتَهِلُ

وَمَكَثَ الفرزدق زماناً لا يُولَد له فعيّرتْه امرأتُه، فقال:

قالت أراهُ واحداً لا أخا لَه ... يؤمّله في الوارِثين الأباعدُ

لعلّكِ يوماً أنْ تريني كأنّما ... بنيَّ حَواليَّ الليوثُ الحَوارِدُ

فإنّ تميماً قَبلَ أن يلد الحَصا ... أقامَ زماناً وهو في الناس واحدُ

وقال الآخر، وقد مات إخوَته، وملأ حوضَه ليَسقِيَ، فجاء رجلٌ صاحب عشيرة وعِتْرة، فأخَذ بضَبُعِهِ فنحّاه، ثم قال لراعيه: اسقِ إبلكَ:

لو كان حَوْضَ حمارٍ ما شربت به ... إلّا بإذن حمارٍ آخِرَ الأبدِ

لكنّه حوضُ من أوْدى بإخوَتِه ... رَيْبُ المنونِ فأمسَى بيضةَ البلدِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: تستحد المغيبة وتمشط الشعثة (٥٢٤٧)، ومسلم، كتاب: الرضاع، باب استحباب نكاح البكر(٧١٥).

لو كان يُشكى إلى الأموات ما لقي الـ ... أحياءُ بَعدَهُم من قِلّة العَدَدِ
ثم اشتكيت لأشكاني وأنجَدني ... قبرٌ بسِنجارَ أو قبرٌ على فحدِ

وقال الأعشى وهو يذكر الكَثْرة:

ولستُ بالأكثر منهم حَصًى ... وإنّما العِزّة للكاثِرِ

قال: وقد وَلَد رجالٌ من العرب كلٌّ منهم يَلِد لصُلْبه أكثرَ من مائة، فصاروا بذلك مَفخراً، منهم عبدُ الله بنُ عُمَير اللَّيثيّ، وأنَسُ بنُ مالك الأنصاريّ، وخليفةُ بن برّ السعدي، أتَى على عامّتهم الموتُ الجارف. ومات جَعفرُ بنُ سليمانَ بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس عن ثلاثة وأربعين ذَكَراً وخمس وثلاثين امرأةً كلُّهم لصُلْبه، فما ظَنّك بمن مات من ولده في حياته! وليس طبقة من طبقاتِ الأسنان الموتُ إليها أسرَع، وفيها أعمّ وأفشَى من سِنّ الطُّفوليّة، وأمرُ جعفر بنِ سليمانَ قد عاينه عالَمٌ من الناس، وعامّتهم أحياء، وليس خبر جعفر كخبرِ غيرِه من الناس.

قال الهيثم بنُ عَدِيّ: أفضى المُلك إلى وَلد العبّاسِ، وجميع ولدِ العبّاس يومئذٍ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً، ومات جعفرُ بن سليمانَ وحدَه عن مثل ذلك العدد من الرجال. وممن قرُب ميلادُه وكثر نَسلُه حتى صار كبعض القبائل والعَمائر أبو بكر صاحبُ رسول الله ﷺ، والمهلّب بنُ أبي صُفْرة، ومُسلم بنُ عمرو الباهليّ، وزياد بن عبيد أميرُ العراق، ومالكُ بن مِسمَع. ووَلدُ جعفر بنِ سليمانَ اليومَ أكثرُ عدداً من أهل هذه القبائل. وأربعةٌ من قريش تَرَك كلُّ واحد منهم عشرةَ بنين مذكورين معروفين وهم: عبدُ المطلب بن هاشم، والمطلب بن عبد مناف، وأمية بنُ عبد شمس، والمغيرةُ بنُ المُغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم، وليس على ظهر الأرض هاشميٌّ إلا من وَلَد عبد المطلب، ولا يَشُكّ أحدٌ أن عَدَد الهاشمّيين شبيه بَعدَد الجميع، فهذا ما في الكثرة والقلة.

قلتُ: رحمَ الله أبا عثمان! لو كان حيّاً اليومَ لرأى ولَدَ الحَسن والحُسين عليهما السلام أكثرَ من جميع العَرَب الذين كانوا في الجاهلية على عصرِ النبي ﷺ المسلمين منهم والكافرين، لأنّهم لو أحصَوا لمَا نقَص ديوانُهم عن مائتي ألف إنسان.

قال أبو عثمان: وإن كان الفخر بنبل الرأي، وصوابِ القول، فمنْ مثلُ عباس بن عبد المطلب وعبدِ الله بن العباس! وإن كان في الحُكْم والسُّؤددِ وأصالةِ الرأيِ والغَناء العظيم فمن مثلُ عبد المطلب! وإن كان إلى الفقْه والعِلم بالتأويل ومعرفةِ التأويل وإلى القياس السّديد وإلى الألْسنة الحداد والخطَب الطِّوال، فمن مِثلُ عليِّ بن أبي طالب عليه السلام وعبد الله بن عباس!

قالوا: خَطبنا عبد الله بنُ عباس خُطبةً بمكة أيام حصار عثمانَ لو شهدها التركُ والديْلم لأسلموا. وفي عبد الله بن العبّاس يقول حَسّان بنُ ثابت:

إذا قال لم يَتركْ مَقالاً لقائلٍ ... بِملتقطاتٍ لا ترى بينها فَضْلا

شَفَى وكَفَى ما في النّفوس فلم يَدَعْ لِذِي إِرْبةٍ في القَوْل جدّاً ولا هَزْلا

وهو البَحْر، وهو الحَبْر، وكان عُمرُ يقول له في حَداثتِه عند إجالة الرأي: غُصْ يا غوّاص، وكان يقدِّمه على جلّة السَّلفِ.

قلت: أبَى أبو عثمانُ إلا إعراضاً عن عليّ عليه السلام، هلا قال فيه كما قال في عبد الله! فلَعَمري لو أراد لوَجَد مجالاً، ولألفى قولاً وَسِيعاً، وهل تعلّم الناسُ الخطب والعُهود والفَصَاحة إلّا من كلام عليّ عليه السلام! وهل أخَذَ عبدُ الله رحمهُ الله الفِقه وتفسير القرآن إلّا عنه! فرَحم الله أبا عثمان، لقد غلبت البصرةُ وطينتها على إصابة رأيه!

قال أبو عثمان: وإن كان الفخر في البسالة والنَّجْدة وقَتْل الأقران وجزر الفُرْسان، فمَنْ كحمزة بن عبد المطّلب وعليّ بن أبي طالب! وكان الأحنف إذا ذكَر حَمزة قال: أكيَس، وكان لا يَرضَى أن يقول: شجاع، لأن العربَ كانت تجعل ذلك أربعَ طبقات، فتقول: شجاع، فإذا كان فوق ذلك قالت: بَطَل، فإذا كان فوق ذلك قالت: بُهمَة، فإذا كان فوق ذلك قالت: أكيَس. وقال العجّاج:

أكيَسُ عن حَوْبائه(١) سَخيّ

وهل أكثر ما يعدّ الناس من جَرْحاهما وصَرْعاهما إلا سادتكم وأعلامكم! قَتل حمزةُ وعليّ عليه السلام عُتبَة والوليد، وقتلا شيبة أيضاً، شرَكا عُبيدَة بن الحارث فيه، وقَتل عليّ عليه السلام حَنظَلة بنَ أبي سُفيان. فأما آباء ملوككم من بني مَرْوَانَ فإنّهم كما قال عبدُ الله بن الزّبير لمّا أتاه خبر المصعب: إنا والله ما نموت حَبجاً كما يموت آلُ أبي العاص، والله ما قُتِل منهم قتيلٌ في جاهليّة ولا إسلام، وما نموت إلا قَتْلاً، قَعْصاً بالرماح، ومَوْتاً تحتَ ظلال السّيوف.

قال أبو عثمان: كأنه لم يعدّ قتل معاوية بن المغيرة بنِ أبي العاص قتْلاً، إذ كان إنما قتل في غيرِ معرَكة، وكذلك قتل عثمان بن عفّان، إذ كان إنّما قتل محاصَراً، ولا قتل مروان بن الحكَم، لأنه قتل خَنقاً، خنقتْه النّساء. قال: وإنما فخر عبدُ الله بنُ الزبير بما في بني أسد بن عبد العزى من القَتْلى، لأن من شأن العرب أن يفخروا بذلك، كيف كانوا قاتلين أو مَقْتولين، ألا تَرَى أنّك لا تصيب كثرةَ القتلَى إلا في القوم المعروفين بالبأس والنَّجْدة وبكثرة اللِّقاء والمحارَبة، كآل أبي طالب، وآل الزّبير، وآلِ المهلّب.

قال: وفي آل الزبير خاصةً سبعة مقتولون في نسق ولم يوجد ذلك في غيرهم، قُتِل عمارةُ وحمزةُ ابنا عبدِ الله بن الزُّبير يومَ قُدَيد في المعركة، قتلهما الإباضيّة، وقُتِل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج، وقتل مصعب بن الزبير بدَيْر الجاثليق في المعركة أكرمَ قَتل، وبإزائه عبدُ

(١) الحوباء: النَّفْس. القاموس، مادة (حوب).

الملك بنُ مرْوان، وقُتل الزّبير بوادي السّباع مُنصَرفَه عن وقعة الجمل، وقُتِل العوّام بنُ خُوَيلد في حرب الفجار، وقُتِل خُوَيلد بنُ أسد بن عبد العزّى في حرب خُزاعة، فهؤلاء سَبْعة في نَسَق.

قال: وفي بني أسد بن عبد العُزّى قَتْلَى كثيرون غيرُ هؤلاء، قُتِل المنذر بنُ الزّبير بمكّة، قتلَه أهلُ الشام في حرب الحجّاج، وهو على بغْل وَرْد كان نَفَرَ به فأصعَد به في الجبَل. وإيّاه يعني يزيد بن مفرّغ الحِمْيريّ وهو يَهجُو صاحبَكم عُبيدَ الله بنَ زياد ويعيّره بفراره يومَ البصرة:

لَأبن الزبيرِ غَداةَ تَذْمُر منذِراً أَوْلى بكلّ حفيظةٍ ودِفاعِ

وقُتِلَ عمرو بنُ الزبير، قتله أخوه عبدُ الله بنُ الزبير، وكان في جوار عُبيدة بن الزبير فلم يُغنِ عنه، فقال الشاعر يحرّض عبيدةَ على قتل أخيه عبد الله بن الزبير، ويعيّره بإخفاره جوارَ عمرو أخيهما:

أعُبيد لو كان المجير لَوَلْوَلَتْ بعدَ الهدوّ بَرنّة أسماءُ

أعُبيد إنك قد أجرت وجارُكُمْ تحتَ الصَّفِيح تَنوبُه الأصداءُ

اضربْ بسَيْفك ضربةً مذكورة فيها أداءُ أمانةٍ وَوفاءُ

وقُتِل بُجيْرُ بن العوام أخو الزبير بن العوّام، قتلَه سعدُ بنُ صفح الدَّوْسيّ جدُّ أبي هريرة من قِبَل أمّه، قَتلَه بناحية اليمامة، وقتل معه أصرَم وبَعْلك أخوَيه ابني العوّام بن خوَيلد، وقد قتِل منهم في محاربة النبيّ ﷺ قومٌ مشهورون، منهم زَمْعة بنُ الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدِ العُزّى، كان شريفاً، قُتل يومَ بدْر، وأبوه الأسود، كان المَثَل يُضرَب بعزّته بمكة، وفيه قال رسول الله ﷺ وهو يَذكُر عاقر الناقة: «كان عزيزاً مَنيعاً كأبي زَمْعة»(١)، ويُكنى زَمْعة بن الأسود أبا حَكِيمة، وقتل الحارث بنُ الأسود بن المطلب يوم بدْر أيضاً، وقُتل عبدُ الله بنُ حُمَيد بن زُهَير بن الحارث بن الأسود بن المطلب بن أسَد يوم بَدْر أيضاً، وقتِل نَوْفَل بنُ خُوَيْلد يومَ بَدْر أيضاً، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقتِل يومَ الحرّة يزيدُ بنُ عِبد الله بن زَمْعة بن الأسْوَد، ضرَب عنقَهُ مُسرف بنُ عُقْبة صَبْراً قال له: بايعْ لأمير المؤمنين يزيدَ بن معاوية على أنك عبدٌ قِنٌّ له، قال: بل أبايعه على أني أخوه وابن عمّه، فضربَ عنقَه. وقُتِل إسماعيل بنُ هَبّار بنِ الأسود ليلاً، وكان ادّعَى حِيلةً فخرج مُصرخاً لمن استصْرَخه، فقُتِل، فاتّهم به مُصعَب بنُ عبد الله بن عبد الرحمن، فأحلَفه معاوية خمسين يميناً، وخلّى سبيله، فقال الشاعر:

ولا أجيب بليْلٍ داعياً أبداً أخشى الغُرور كما غرّ أبن هَبّارَ

باتوا يجرّونه في الحُشّ مُنعقِراً بئس الهديّة لابنِ العمّ والجار

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ (٣٣٧٧)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون (٢٨٥٥).

وقُتِل عبدُ الرحمن بنُ العوَّام بنِ خُوَيلد في خلافة عمر بن الخطاب في بعض المغازي، وقُتِل ٱبنُه عبدُ الرَّحمن يومَ الدار مع عثمان، فعبد الله بنُ عبد الرحمن بن العوَّام بن خُوَيلد قتيلٌ ابنُ قَتِيل ابنِ قَتِيل ابن قتيلٍ أربعة. ومِنْ قَتْلاهم عيسى بنُ مُصعَب بن الزبير، قُتل بين يدي أبيه بمَسْكِن في حَرْب عبد الملك، وكان مُصعَب يُكنى أبا عيسى وأبا عبد الله وفيه يقول الشاعر:

لِتَبْك أبا عيسى، وعيسى كلاهما ... موالِي قُرَيْشٍ كَهلُها وصَميمُها

ومنهم مُصعَب بن عُكَّاشة بن مُصعَب بن الزُّبير، قُتِل يوم قُدَيد في حَرْب الخوارج، وقد ذكره الشاعر فقال:

قُمْنَ فاندُبْنَ رِجالاً قُتِّلُوا ... بقُديدٍ ولِنُقصانِ العَدَدْ

ثم لا تَعدِلْنَ فيها مُصعَباً ... حينَ يُبكَى من قَتيلٍ بأحَدْ

إنَّه قد كان فيها باسِلاً ... صارِماً يُقدِم إقدامَ الأسَدْ

ومنهم خالد بنُ عثمانَ بن خالد بن الزبير، خرج مع محمَّد بن عبد الله بن حسن بن حسن، فقتَله أبو جعفر وصَلَبه. ومنهم عتيق بنُ عامر بن عبد الله بن الزُّبير، قُتل بقُدَيد أيضاً وسمِّي عتيقاً باسم جدِّه أبي بكر الصِّدِّيق.

قلت: هذا أيضاً من تحامُل أبي عثمان، هَلّا ذَكَر قَتْلى الطفّ وهم عشرون سَيّداً من بيتٍ واحد قُتلوا في ساعة واحدة! وهذا ما لم يَقَع مثله في الدّنيا لا في العَرَب ولا في العَجَم. ولما قُتل حذيفة بنُ بدْر يومَ الهباءة وقُتِل معه ثلاثة أو أربعة من أهل بيته ضَربتِ العربُ بذلك الأمثال واستَعْظموه، فجاء يوم الطّف، «جرى الوادي فطمّ على القَريّ».

وهلّا عدد القَتْلى من آل أبي طالب فإنّهم إذا عُدُّوا إلى أيّام أبي عثمان كانوا عَدَداً كثيراً أضعاف ما ذَكره من قَتلى الأسديِّين!

قال أبو عثمان: وإن كان الفخر والفَضْل في الجود والسَّماح فمن مثلُ عبدِ الله بن جَعْفر بن أبي طالب! ومَن مِثلُ عُبيد الله بنِ العبّاس بن عبد المطّلب! وقد اعترضت الأمويَّة هذا الموضع فقالت: إنّما كان عبدُ الله بنُ جعفر يَهَب ما كان معاويةُ ويزيد يَهَبانِ، فمن فضل جُودِنا جاد.

قالوا: ومعاوية أوّلُ رجلٍ في الأرض وَهَب ألفَ ألفَ دِرهم، وٱبنُه أوّل من ضاعَفَ ذلك، فإنه كان يجيز الحسنَ والحسين ابني عليّ عليه السلام في كلّ عام لكلّ واحد منهما بألف ألف درهم، وكذلك كان يجيز عبد الله بن العباس وعبدَ الله بن جعفر، فلمّا مات وقامَ يزيدُ وفد عليه عبدُ الله بنُ جعفر، فقال له: إن أميرَ المؤمنين معاوية كان يَصِل رَحِمي في كلّ سنة بألف ألفِ درهم، قال: فلك ألفا ألف دِرهم، فقال: بأبي أنتَ وأمّي! أما إني ما قُلتُها لابن أنثى قَبْلك، قال: فلك أربعةُ آلاف ألفِ درهم. وهذا الاعتراض ساقط، لأن ذلك إن صَحّ لم يُعَدَّ جُوداً ولا جائزةً ولا صِلة رَحِم، هؤلاء قومٌ كان يخافُهم على مُلْكِه، ويعرف حقّهم فيه، ومَوقعهم من

قلوب الأمّة، فكان يدبّر في ذلك تدبيراً، ويَريع أموراً، ويُصانع عن دَولته وملكه، ونحن لم نعدّ قطّ ما أعطى خلفاءُ بني هاشم قوّادهم وكتّابهم وبني عمّهم جُوداً، فقد وَهَب المأمونُ للحَسَن بنِ سَهْل غَلّة عشرةِ آلافِ ألفِ فما عُدّ ذلك منه مَكْرمة، وكذلك كلُّ ما يكون داخلاً في باب التّجارة وٱستمالة القلوب، وتدبير الدولة، وإنّما يكون الْجُود ما يدفَعه الملوك في الوفود والخُطَباء والشّعراءِ والأشرافِ والأدباء والسُّمار ونحوهم، ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وَفّى الجندَ أعْطِياتِهم احتسب ذلك في جُوده، فالعمالاتُ شيءٌ والإعطاء على دَفْع المكروه شيءٌ، والتفضُّل والجُود شيءٌ. ثمّ إنّ الّذين أعطاهم معاويةُ ويزيدُ هو بعضُ حقّهم، والذي فَضَل عليهما أكثر ممّا خرج منهما.

وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أميّة في العطاء افتَضَح بنو أميّة وناصرُوهم فضيحةً ظاهرة، فإنَّ نساءَ خلفاءِ بني عبّاس أكثرُ معروفاً من رجال بني أميّة، ولو ذكرتُ معروفَ أم جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بني مَرْوان، وذلك معروف، ولو ذكر معروف الخيْزُران وسَلْسَبيل لمُلئت الطّوامير[1] الكثيرة به، وما نَظُنّ خالصة مَوْلاتهم إلّا فوق أجواد أجوادِهم، وإن شئتَ أن تَذكُر مواليهم وكتّابهم فاذكُر عيسى بن ماهان، وابنه عليّاً، وخالد بن بَرْمَك وٱبنه يحيى، وٱبنه جعفراً والفَضْل وكاتبهم منصورَ بنَ زياد ومحمّد بنَ منصور وفتى العسكر، فإنّك تجد لكلّ واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس.

فأمّا ملوكُ الأمويّة فليس منهم إلّا من كان يُبَخَّل على الطعام، وكان جعفر بنُ سليمان كثيراً ما يذكر ذلك، وكان معاوية يُبغض الرَّجلَ النَّهِم على مائدته، وكان المنصورُ إذا ذكرهم يقول: كان عبدُ الملك جباراً لا يُبالي ما صنَع، وكان الوليدُ مجْنوناً، وكان سليمان همُّه بطنُه وفَرْجُه، وكان عمر أعور بين عميان، وكان هشام رجل القوم، وكان لا يذكر ابن عاتكة. ولقد كان هشام مع ما استثناه به يقول: هو الأحول السَّرَّاق، ما زال يُدخل إعطاء الجُنْد شَهْراً في شهرٍ وشهراً في شهر، حتى أَخَذ لنفسه مقدار رِزْق سنةٍ، وأنشده أبو النَّجم العِجْليّ أرجوزته الّتي أوّلها:

الحمد لله الوَهوب المجزِلِ

فما زال يُصفّق بيَدَيْه ٱستحساناً لها حتى صار إلى ذكر الشّمس، فقال:

والشمسُ في الأفق كعَيْنِ الأحْوَلِ

فأمر بوجْء عنقهِ وإخراجه، وهذا ضَعْف شديد، وجَهْلٌ عظيم.

وقال خالُه إبراهيم بنُ هشام المخزوميّ: ما رأيتُ من هشام خطأً قطّ إلا مرَّتين: حَدَا به الحادي مرَّة فقال:

---

(١) الطوامير: جمع طامور، وهو الصحيفة. القاموس، مادة (طمر).

إنَّ عــلـيــكَ أيّـهــا الـبُـخْـتـيُّ أكـرمَ مـن تـمـشِي بـه الـمـطِـيُّ

فقال: صدقت. وقال مرَّة: والله لأشكوَنّ سليمانَ يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبدِ الملك. وهذا ضَعْف شديد، وجهل مُفْرِط.

وقال أبو عثمان: وكان هشامٌ يقول: والله إني لأستحيي أن أعْطِيَ رجلاً أكثر من أربعة آلاف دِرْهم، ثم أعْطَى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدّها في جوده وتوسُّعه، وإنما اشترى بها ملكه، وحَصَّن بها عن نفسه وما في يدَيه. قال له أخوه مسلمة: أتطمع أن تلي الخلافة وأنت بخيل جبان! فقال: ولكني حليمٌ عفيف، فاعترف بالجبْن والبُخْل، وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم، والتَّغرير الشديد. ولو سلمتْ من الفساد لم تسلم من العَيْب.

ولقد قَدَّم المنصورُ عليهم عمرَ بنَ عبد العزيز بقوله: أعوَرُ بين عُمْيان، وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقيّاً، فكيف وقد جلد خُبَيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدةٍ، وصَبَّ على رأسه جَرّة من ماء بارد في يوم شاتٍ، حتى كُزّ فمات، فما أقرّ بدَمه، ولا خرج إلى وليّه من حَقّه، ولا أعطى عقْلاً ولا قوَداً، ولا كان خُبيب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصُه، فيقال: كان مطيعاً بإقامتها، وأنه أزهَقَ الحدُّ نفسه! واحتسبوا الضرب كان أدباً وتَعْزيراً، فما عذره في الماء البارد في الشتاء، على أثر جلد شديد! ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصي، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج: نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر، أو تشير بي في هذا الشأن، فوالله ما لي عليه من طاقة! فقال له رجاء: قاتلك الله، ما أحرصك عليها!

ولما جاء الوليدَ بن عبد الملك بنعي الحجّاج، قال له الوليد: مات الحجاج يا أبا حفص؟ فقال: وهل كان الحجاج إلا رجلاً منّا أهلَ البيت! وقال في خلافته: لولا بيعةٌ في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورَى بين صاحب الأعوص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدَق وبين أحمس قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر، وبين سالم بن عبد الله بن عمر، فما كان عليه من الضرر والحرج، وما كان عليه من الوَكف والنقص أن لو قال: بين عليّ بن العباس وعليّ بن الحسين بن عليّ! وعلى أنه لم يرد التيميّ ولا العدويّ، وإنما دبّر الأمر للأموي، ولم يكن عنده أحدٌ من هاشم يصلح للشُّورى، ثم دبّر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عُوجل بالسمّ.

وقَدِم عليه عبدُ الله بنُ حسن بن حسن، فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومركبه وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور المؤمنين لم يَدعه يبيتُ بالشام ليلة واحدة، وقال له: الحق بأهلك، فإنك لم تغنِهم شيئاً هو أنفس منك ولا أرَدّ عليهم من حياتك. أخافُ عليك

طواعين الشام، وستلحقك الحوائج على ما تشتهي وتحِبّ. وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه، فلعله يبذُر في قلوبهم بذْراً، ويغرس في صدورهم غَرْساً، وكان أعظم خلق الله بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ويُربي على كلّ ذي غاية، صاحب شُنْعة، وكان يصنع في ذلك الكُتُب، مع جهله بالكلام وقلّة اختلافه إلى أهلِ النظر. وقال له شَوْذَب الخارجيّ: لم لا تلعن رَهْطَك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة؟ فقال عمر: متى عهدُك بلعن فِرْعون! قال: ما لي به عهد. قال: أفيَسَعك أن تمسك عن لعن فرعون، ولا يَسَعُني أن أُمسك عن لعن آبائي! فرأى أنه قد خَصَمه وقطع حجَّته، وكذلك يظنه كلّ من قصر عن مقدار العالِم، وجاوز مقدار الجاهل، وأيّ شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان! هؤلاء قومٌ لهم حِزْبٌ وشيعة، وناسٌ كثيرٌ يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشُّبه في أمرهم، وفرعونُ على خلاف ذلك، وضِدّه لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالي ولا صنائع ولا في أمره شُبهَة. ثم إن عمر ظَنِين في أمر أهله فيحتاج إلى غَسْل ذلك عنه بالبراءةِ منهم، وشوْذَب ليس بظَنِين في أمر فرعون، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج، فكيف استوَيا عنده!

وشكا إليه رجلٌ من رَهطه دَيْناً فادحاً، وعيالاً كثيراً، فاعتلّ عليه، فقال له: فهلّا اعتلَلْتَ على عبد الله بن الحسن! قال: ومتى شاورتك في أمري! قال: أو مشيراً تراني! قال: أو هل أعطيته إلّا بعض حقه! قال: ولم قصّرت عن كلّه؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروماً منه.

وكان عُمّال أهله على البلاد عماله وأصحابه. والذي حسن أمره، وشبّه على الأغنياء حاله، أنه قام بعقِب قوم قد بدَّلوا عامة شرائع الدين وسُنَن النبي ﷺ، وكان الناسُ قبله من الظلم والجور والتَّهاون بالإسلام في أمر صغّر في جنبه عاينوا منه، وألفوه عليه، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفظيعة في عدادِ الأئمة الراشدين، وحَسْبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون عليّاً عليه السلام على منابرهم، فلما نهى عمرُ عن ذلك عدّ محسناً، ويشهد لذلك قولُ كُثيِّر فيه:

وَليتَ فَلَمْ تشتُمْ عليّاً ولم تُخفْ ... بَرِيًّاً ولم تتبع مَقالَة مجرمِ

وهذا الشعر يدلّ على أن شتم عليّ عليه السلام قد كان لهم عادة، حتى مدح من كفّ عنه، ولما ولّيَ خالد بنُ عبد الله القَسْرِيّ مكة - وكان إذا خطب بها لعن عليًّا والحسن والحسين عليهم السلام - قال عبيد الله بن كثير السهميّ:

لعنَ الله مَنْ يَسُبُّ عِليّاً ... وحُسَيناً من سُوقَةٍ وإمامِ
أيُسَبُّ المطهَّرونَ جُدُوداً ... والكِرامُ الآباء والأعمامِ
يأمن الطيرُ والحمامُ ولا يأ ... مَنُ آلُ الرسولِ عند المقامِ!
طبتَ بيتاً وطابَ أهلك أهلاً ... أهلُ بيتِ النبيّ والإسلام!
رحمةُ الله والسلام عليهمْ ... كلّما قام قائمٌ بسلام!

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان - وكان ممن ينالُه بزعمهم إلى هشام بن عبد الملك، وهو يخطب على المنبر بعرفة - فقال: يا أمير المؤمنين، هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبي تُرَاب، فقال هشام: ليس لهذا جئنا، ألا ترى أن ذلك يدلّ على أنه قد كان لَعْنُه فيهم فاشياً ظاهراً، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن عليًا عليه السلام ويقول: قتل جَدَّيّ جميعاً، الزبير وعثمان.

وقال المُغيرة وهو عاملُ معاوية يومئذٍ لصعصعة بن صُوحان: قُمْ فالعن عليّاً، فقام فقال: إنّ أميرَكم هذا أمَرني أن ألعن عليّاً، فالعَنُوه لعنه الله! وهو يُضمِر المغيرة.

وأما عبدُ الملكِ فحسبك من جهله تبديله شرائع الدّين والإسلام، وهو يريد أن يَلِيَ أمور أصحابها بذلك الدين بعينه، وحَسْبك من جَهله أنه رأى مِن أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منابره، ويَرْمِي بالفجور في مجالسه، وهذا قُرّة عين عدوّه وغَيْر عين وليّه، وحسبك من جهله قيامهُ على منبر الخلافة قائلاً: إنّي والله ما أنا بالخليفة المستضعَف ولا بالخليفة المداهن، ولا بالخليفة المأفون. وهؤلاء سَلَفُه وأئمته، وبشُفْعَتهم قامَ ذلك المقام، وبتقدُّمهم وتأسِيسِهم نالَ تِلك الرياسة، ولولا العادةُ المتقدّمة، والأجناد المجنَّدة، والصنائع القائمة، لكان أبعدَ خَلْق الله من ذلك المقام، وأقربَهم إلى المَهْلكة إن رام ذلك الشَّرَف. وعَنَى بالمُستضعَف عثمان، وبالمُداهِن معاوية، وبالمأفون يزيدَ بنَ معاوية، وهذا الكلامُ نَقْضٌ لسُلْطانه، وعداوةٌ لأهله، وإفسادٌ لقُلوب شِيعتِه، ولو لم يكن من عَجْز رأيه إلّا أنه لم يَقدِر على إظهار قوّته، إلا بأن يظهر عجزَ أئمّته لَكَفاك ذلك منه. فهذا ما ذكرتْه هاشم لأنفُسِها.

من مفاخر بني أمية

قالت أميّة: لنا من نوادِر الرّجال في العَقْل والدَّهاء والأدب والمكْر ما ليس لأحد، ولنا من الأجْواد وأصحابِ الصّنائع ما ليس لأحد، زعم الناسُ أنّ الدُّهاة أربعة: مُعاوية بن أبي سفيان، وزياد، وعَمرو بن العاص، والمغيرة بن شُعْبة، فمنّا رجلان، ومن سائر الناس رَجُلان. ولنا في الأجواد سعيدُ بنُ العاص، وعبدُ الله بنُ عامر، لم يوجَد لهما نظيرٌ إلى الساعة. وأمّا نوادر الرّجال في الرّأي والتّدبير فأبو سُفْيان بن حرب، وعبدُ الملِك بنُ مَروان، ومَسلَمة بنُ عبد الملِك، وعلى أنّهم يُعَدّون في الحُلَماء والرّؤساء، فأهلُ الحِجاز يَضرِبون المثل في الحِلْم بمُعاوية، كما يضرب أهلُ العِراق المثَل فيه بالأحْنَف.

فأما الفُتوح والتَّدبيرُ في الحَرْب فلِمُعاوية غير مُدافَع، وكان خطيباً مِصقَعاً ومُجرّباً مظفَّراً، وكان يجيد قولَ الشِّعر إذا آثر أن يقوله، وكان عبدُ الملك خطيباً حازماً مجرّباً مظفَّراً، وكان

مسلمةُ شجاعاً مدبِّراً وسائساً مقدَّماً، وكثيرَ الفُتوح كثيرَ الأدب. وكان يزيدُ بن معاويةَ خطيباً شاعراً، وكان الوليدُ بنُ يزيدَ خطيباً شاعراً، وكان مَرْوانُ بنُ الحَكَم وعبدُ الرحمن بنُ الحَكَم شاعرَيْن، وكان بِشْرُ بنُ مَرْوانُ شاعراً ناسِباً، وأديباً عالِماً، وكان خالدُ بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً، جَيّدَ الرأي، أديباً كثيرَ الأدب، حكيماً، وكان أوّل من أعطَى التَراجِمةَ والفَلاسِفة، وقرَّب أهلَ الحِكمة ورُؤساءَ أهل كلّ صناعة، وتَرجَم كتبَ النّجوم والطّبّ والكِيمياء والحروب والآداب والآلات والصّناعات.

قالوا: وإن ذكرت البأس والشجاعةَ فالعبّاس بن الوليد بن عبد الملِك، ومروان بن محمد، وأبوه محمّد بنُ مَرْوان بن الحكم، وهو صاحبُ مُصعَب، وهؤلاء قومٌ لهم آثار بالرّوم لا تُجهَل، وآثارٌ بأرمِينيَة لا تُنكَر، ولهم يوم العَقْر، شهده مسلمة والعبّاس بنُ الوليد.

قالوا: ولنا الفُتوح العِظام، ولنا فارس، وخُراسَان، وأرمِينيَة، وسِجِسْتان، وإفريقيَة، وجميع فُتوح عُثمان، فأما فُتوحُ بني مَرْوان فأكثَر وأعمّ وأشهرَ من أن تَحتاج إلى عدد أو إلى شاهد. والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خُفّ وحافر أن يبلغه، حتّى لم يَحتجِز منهم إلّا ببَحْر أو خليج بحر أو غِياض أو عقاب أو حصون وصَياصي ثلاثة رجال: قُتيبةُ بن مسلم بخُراسان، وموسى بن نُصَير بإفريقيَة، والقاسمُ بنُ محمد بن القاسم الثّقفي بالسِّند والهِنْد، وهؤلاء كلُّهم عمّالُنا وصنائعنا. ويقال: إن البَصْرة كانت صَنائع ثلاثة رجال: عبد الله بن عامر، وزِياد، والحَجّاج، فرجُلانِ من أنفُسِنا والثالث صَنيعُنا.

قالوا: ولنا في الأجواد وأهلِ الأقدار بنو عبدِ الله بن خالد بن أسيد بن أميّة، وأخوه خالد، وفي خالدٍ يقول الشاعر:

إلى خالدٍ حتّى أنخنا بخالدٍ فنِعْم الفتى يُرجَى ونِعْمَ المؤمَّلُ!

ولنا سعيد بنُ خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وهو عَقِيد النَّدى، كان يَنْبت ستّة أشهرُ ويُفِيق ستّة أشهرُ، ويُرَى كَحِيلاً من غير اكتِحال، ودَهِيناً من غير تَدْهين، وله يقول موسى شَهَوات:

أبا خالدٍ أعني سعيدَ بنَ خالدِ أخا العُرْف لا أعني ٱبنَ بنت سَعيدِ
ولكنّني أعنِي ٱبنَ عائشةَ الّذي أبو أبوَيْه خالدُ بن أسِيدِ
عَقيد النّدَى ما عاشَ يَرضَى به النَّدَى فإن ماتَ لم يَرضَ النّدَى بعَقِيدِ

قالوا: وإنّما تَمكّن فينا الشّعر وجاد، ليس من قِبَلِ أنّ الذين مَدَحونا ما كانوا غير من مدح الناس، ولكن لما وَجَدوا فينا ممّا يتّسع لأجله القَوْل، ويصدق فيه القائل. قد مدح عبد الله بن قيس الرُّقيّات من الناس: آل الزبير عبد الله ومُصعباً وغيرهما، فكان يقول كما يقول غيرُه، فلما صار إلينا قال:

مـا نَـقَـمُـوا مـن بـنـي أُمَـيّـة إلّا ... أنّـهـم يَـحْـلُـمُـون إن غَـضِـبُـوا
وأنّـهُـمْ مَـعْـدن الـمُـلُـوكِ فـمـا ... تَـصْـلُـح إلّا عـلـيـهـمُ الـعَـرَب

وقال نُصَيْب:

مِن النَّفَر الشُّمّ الذين إذا انتجَوْا ... أقرّتْ لنَجْواهم لؤيُّ بنُ غالبِ
يُحيُّون بَسّامين طَوْراً وتارةً ... يُحيّونَ عبّاسِين شُوسَ[1] الحواجبِ

وقال الأخطل:

شُمْسُ العَداوةِ حتّى يُستقادَ لهم ... وأعظَمُ الناس أحلاماً إذا قَدَروا

قالوا: وفينا يقول شاعرُكم والمتشيّع لكم، الكُمَيت بنُ زيد:

فـالآنَ صِـرْتَ إلـى أُمَـيَّـةَ ... والأُمُـورُ لـهـا مَـصـايِـرْ

وفي معاوية يقولُ أبو الجَهْم العَدَوِيّ:

نُقَلّبه لنَخْبُر حالَتَيْهِ ... فنَخْبُرَ منهما كَرَماً ولينا
نَميلُ على جَوانِبه كأنّا ... إذا مِلْنا نَميلُ على أبينا

وفيه يقول:

تَريع إليه هَوادِي الكلامِ ... إذا ضَلَّ خطبته المِهْذَرُ

قالوا: وإذا نظرتم في امتداح الشعراء عبد العزيز بن مرْوان عرفتم صدْق ما نقوله.

قالوا: وفي إرسال النبي ﷺ إلى أهلِ مكّة عثمانَ، واستعمالِه عليها عتّاب بنَ أسيد وهو ابنُ اثنتَيْنِ وعشرين سنة دليلٌ على موضع المَنَعة أن تُهاب العرب وتعزّ قريش، وقال النبيّ ﷺ قبل الفَتح: «فتَيان أضنّ بهما على النّار: عَتّاب بنُ أَسِيد، وجُبَير بنُ مُطعِم»[2] فَولّى عتّاباً، وتَرَك جبيرَ بنَ مطعِم.

وقال الشّعبيّ: لو وُلِد لي مائةُ ابنٍ لسمّيتُهم كلّهم عبدَ الرحمن، للّذي رأيتُ في قُرَيش من أصحاب هذا الاسم، ثم عَدَّ عبدَ الرحمن بنَ عتّاب بن أسيد، وعبد الرحمنَ بن الحارث بن هشام، وعبدَ الرحمن بن الحَكَم بن أبي العاص، فأمّا عبد الرحمن بن عُتاب فإنه صاحبُ الخَيْل يومَ الجمل، وهو صاحبُ الكَفّ والخاتَم، وهو الّذي مَرّ به عليٌّ وهو قتيلٌ فقال: لَهفِي عليكَ يَعسوبَ قريش، هذا اللُّباب المَحْض من بَني عبدِ مناف! فقال له قائل: لشَدَّ ما أتيتَه اليومَ يا أمير المؤمنين! قال: إنّه قام عنّي وعنه نسوةٌ لم يَقُمن عنك.

---

(١) الشَّوَسُ: النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً. اللسان، مادة (شوس).

(٢) ذكر بنحوه المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٣٦٩٢)، وعزاه لابن عساكر.

قالوا: ولنا من الخُطَباء معاويةُ بن أبي سفيان، أخطبُ الناس قائماً وقاعداً، وعلى منبرٍ، وفي خُطبةِ نكَاح. وقال عمر بنُ الخطّاب: ما يتصعّدني شيءٌ من الكلام كما يتصعّدني خطبة النّكَاح، وقد يكون خطيباً مَن ليس عنده في حديثه ووصفِه للشيء احتجاجه في الأمر لسانٌ بارع. وكان معاويةُ يجرِي مع ذلك كلّه.

قالوا: ومِن خُطَبائنا يزيدُ بنُ معاوية، كان أعرابيَّ اللّسان، بَدَويّ اللّهْجة. قال معاوية: وخطب عنده خطيب فأجاد: لأرمينه بالخطيب الأشدق يريد يزيد بن معاوية، ومن خطبائنا سعيد بن العاص، لم يوجد كتحبيره تحبير، ولا كارتجاله ارتجال. ومنا عمرو بن سعيد الأشدق، لقّب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه، فسمع كلامه، فقال: إن ابن سعيد هذا الأشدق.

وقال له معاوية: إلى من أوصى بك أبوكَ؟ قال: إن أبي أوصى إليّ ولم يوص بي، قال: فبم أوصى إليك؟ قال: ألا يفقد إخوانه منه إلّا وجهه.

قالوا: ومنا سعيدُ بن عمرو بن سعيد، خطيبُ ابنُ خطيب ابن خطيب، تكلّم الناسُ عند عبد الملك قياماً وتكلم قاعداً. قال عبدُ الملك: فتكلم وأنا والله أحبّ عثرته وإسكاته، فأحسنَ حتى استنطقته واستزدته، وكان عبد الملك خطيباً، خطب الناسَ مرة فقال: ما أنصفتُمونا معشر رعيتنا، طلبتم منّا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمرَ في أنفسهما ورعيّتهما، ولم تسيرُوا فينا ولا في أنفسكم سِيرَة رعيّة أبي بكر وعمرَ فيهما وفي أنفسهمَا، ولكلٍّ من النصفة نصيب. قالوا: فكانت خطبته نافعة.

قالوا: ولنا زيادٌ وعبيد الله بنُ زياد، وكانا غَنِيَّيْن في صحة المعاني، وجودة اللفظ، ولهما كلامٌ كثير محفوظ.

قالوا: ومِن خطبائنا سليمان بنُ عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك.

ومن خُطبائنا ونُسّاكِنا يزيدُ بنُ الوليد الناقص. قال عيسى بن حاضر: قلتُ لعمرو بن عُبيد: ما قولك في عمرَ بن عبد العزيز؟ فكلَح، ثم صَرَف وجهه عنّي. قلتُ: فما قولُك في يزيد الناقص؟ فقال: أو الكَامل، قال بالعدل، وعَمِل بالعدْل، وبَذَل نفسه وقتل ابنَ عمّه في طاعة ربه، وكان نَكَالاً لأهله، ونقص من أعْطياتِهم ما زادته الجبابرة، وأظهرَ البراءة من آبائه، وجعل في عهده شَرْطاً ولم يجعله جَزْماً، لا والله لكأنه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريدُ الحسن البصري - قال: وكان الحسن من أنطق الناس.

قالوا: وقد قُرِىءَ في الكُتُب القديمة: يا مبذّر الكنوز، يا ساجداً بالأسحار، كانت ولايتُك رحمةً بهم، وحجّة عليهم. قالوا: هو يزيد بنُ الوليد.

ومن خطبائنا ثمّ من ولد سعيد بن العاص عَمْرو بنُ خَوْلة، كان ناسباً فصيحاً خطيباً.

وقال ابن عائشة الأكبر: ما شهد خطيباً قطّ إلاّ ولجلج هيبةً له ومعرفةً بانتقاده.

ومن خطبائنا عبد الله بن عامر، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، وكانا من أكرم الناس، وأبيَن الناس، كان مسلمة بنُ عبد الملك يقول: إني لأنحى كور عِمَامتي على أُذُنيّ لأسمع كلام عبد الأعلى.

وكانوا يقولون: أشبه قرَيش نعمةً وجهارةً واقتداراً وبياناً بعمرو بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله.

قالوا: ومن خطبائنا ورجالنا الوليدُ بنُ عبدِ الملك، وهو الذي كان يقال له فحل بني مروان، كان يركب معه ستون رجلاً لصُلبه.

ومن ذوي آدابنا وعلمائنا وأصحاب الأخبار ورواية الأشعار والأنساب بِشْرُ بن مروان أميرُ العراق.

قالوا: ونحن أكثرُ نُسّاكاً منكم، منّا معاوية بنُ يزيد بن معاوية، وهو الذي قيل له في مَرَضه الذي مات فيه: لو أقمتَ للناس وليّ عهد؟ قال: ومن جَعل لي هذا العهد في أعناق الناس؟ والله لولا خَوْفي الفتنة لما أقمت عليها طَرْفة عين، والله لا أذهب بمرارتها، وتذهبون بحَلاوتها، فقالت له أمُّه: لوددتُ أنك حَيْضة، قال: أنا والله وددْت ذلك.

قالوا: ومنّا سليمان بن عبد الملك الذي هَدَم الديماس وردّ المسيَّرين، وأخرج المسْجُونين، وترك القريب. واختار عمر بن عبد العزيز، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلاً صاحب سلامة ودَعة وحبٌّ للعافية وقرب من الناس، حتى سُمِّيَ المهديَّ، وقيلت الأشعار في ذلك.

قالوا: ولنا عمر بن عبد العزيز، شبه عمر بن الخطاب، قد ولده عمر، وباسمه سمِّيَ، وهو أشجّ قريش المذكور في الآثار المنقولة في الكُتُب، العدل في أشدّ الزمان، وظلّف نفسه بعد اعتياد النِّعم، حتى صار مثلاً ومفخَراً. وقيل للحسن: أما رويتَ أن رسولَ الله ﷺ قال: لا يزداد الزّمان إلّا شِدّة، والناس إلّا شُحّاً، ولا تقوم الساعةُ إلّا على شرار الخلق! قال: بلى، قيل: فما بال عمرَ بن عبد العزيز وعدْله وسيرته! فقال: لا بدّ للناس من متنفَّس. وكان مذكوراً مع الخطباء، ومع النُّسّاك، ومع الفقهاء.

قالوا: ولنا ابنه عبدُ الملك بن عمرَ بن عبد العزيز، كان ناسكاً زكيًّا طاهراً، وكان من أتقى النّاس وأحسنهم معونة لأبيه، وكان كثيراً ما يعظ أباه وينهاه.

قالوا: ولنا من لا نظير له في جميع أموره، وهو صاحب الأغوَص، إسماعيل بن أمية بن

عمرو بن سعيد بن العاص، وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز: لو كان إليّ من الأمر شيء لجعلتُها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأعوص.

قالوا: ومن نُسّاكنا أبو حراب من بني أمية الصغرى، قتله داود بن عليّ، ومن نُسّاكنا يزيد بنُ محمد بن مروان، كان لا يُهدِب ثوباً ولا يصبغه، ولا يتخلّق بخَلوق، ولا اختار طعاماً على طعام، ما أُطعم أكله، وكان يكره التكلّف، وينهى عنه.

قالوا: ومن نُسّاكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان، أراد عمر أخوه أن يجعله وليَّ عهدِه لما رأى من فضله وزهده، فسما فيهما جميعاً.

ومن نُسّاكنا عبد الرحمن بنُ أبان بن عثمان بن عفّان، كان يصلّي كلّ يوم ألف ركعة، وكان كثير الصدقة، وكان إذا تصدّق بصدقة قال: اللهمّ إنّ هذا لوجهك فخفّف عنّي الموت. فانطلق حاجّاً، ثم تصبّح بالنوم فذهبوا يُنَبِّهونه للرّحيل، فوجدوه ميتاً، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة، وجاء أشعبُ فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبّة من طين، فالْتَدم مع النّساء، وكان إليه محسناً.

ومن نُساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

قالوا: فنحن نعدّ من الصلاح والفضل ما سَمِعتموه، وما لم نذكُره أكثر، وأنتم تقولون: أميّة هي الشجرة المَلْعونة في القرآن، وزعمتم أن الشجرة الخبيثةَ لا تثمر الطّيّب، كما أنّ الطيّب لا يثمر الخبيث، فإن كان الأمر كما تقولون، فعثمانُ بنُ عفّان ثمرةٌ خبيثة. وينبغي أن يكون النبي ﷺ دفَع ابنتَيْه إلى خبيث، وكذلك يزيدُ بن أبي سُفيان صاحبُ مقدّمة أبي بكر الصّدّيق على جيوش الشام، وينبغي لأبي العاص بن الربيع زَوْج زَيْنَبَ بنتِ رسول الله ﷺ أن يكون كذلك، وينبغي لمحمّد بن عبد الله المدبّج أن يكون كذلك، وإن ولدتْه فاطمةُ عليها السلام، لأنه من بني أمية، وكذلك عبدُ الله بنُ عثمان بنِ عفّان سِبْطُ رسول الله ﷺ، الّذي مات بعد أن شَدَن ونَقَر الدِّيكُ عينه فمات، لأنّه من بني أميّة، وكذلك ينبغي أن يكون عَتّاب بنُ أَسِيد بنِ أبي العيص بنِ أُميّة وإن كان النبيّ ﷺ ولّاه مَكّة أمَّ القُرَى وقبلةَ الإسلام، مع قوله عليه السلام «فتيانِ أضنُّ بهما عن النار: عَتّاب بنُ أسيد، وجُبَيْر بنُ مُطعِم»[1]. وكذلك ينبغي أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز شبيه عُمرَ بنِ الخطّاب كذلك، وكذلك معاويةُ بنُ يزيدَ بن معاوية، وكذلك يزيدُ الناقص، وينبغي ألّا يكون النبيُّ ﷺ عَدَّ عثمانَ في العَشَرة الّذينَ بشّرهم بالجنّة، وينبغي أن يكون خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاص شهيد يوم مَرْج الصُّفّر والحبيس في سبيل الله، ووالي النبي ﷺ على اليمن، ووالي أبي بكر على جميع أجنادِ الشام، ورابع أربعةٍ في الإسلام، والمهاجر إلى أرض الحَبَشة كذلك. وكذلك أبانُ بنُ سعيدِ بنِ العاص المهاجر إلى المدينة، والقديم في الإسلام،

(١) تقدم تخريجه.

والحَبيس على الجهاد، ويجب أن يكون ملعوناً خبيثاً، وكذلك أبو حذيفة بنُ عُتْبة بنِ ربيعة، وهو بَدْريَ من المهاجرين الأوّلين، وكذلك أُمامة بنت أبي العاص بنِ الربيع، وأمُّها زينب بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك أمُّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط، وكان النبي صلى الله عليه وآله يُخرِجها من المَغازِي، ويضرب لها بسَهْم، ويُصافحها، وكذلك فاطمةُ بنتُ أبي مُعَيط، وهي من مهاجرة الحبشة.

قالوا: وممّا نَفْخر به وليس لبني هاشم مثله، أنّ منّا رجلاً وُلّي أربعين سنة منه عشرون سنة خليفة، وهو معاويةُ بنُ أبي سُفيان. ولنا أربعة إخوةٍ خلفاء: الوليد، وسليمان، ويزيد وهشام، بنو عبد المَلِك، وليس لكم إلاّ ثلاثة إخوة: كمحمّد، وعبد الله، وأبي إسحاق أولاد هارون.

قالوا: ومنّا رَجل ولد سبعةً من الخلفاء وهو عبدُ الله بنُ يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان، أبوه يزيدُ بنُ عاتكة خليفة، وجدُّه عبد الملك خليفة، وأبو جدّه مروان بن الحكم خليفة، وجدّه من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيد بنُ معاوية وهو خليفة، ومعاوية بن أبي سُفْيان وهو خليفة، فهؤلاء خمسة، وأمّ عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بن عثمانَ بن عَفّان، وحفصةُ بنت عبد الله بن عمرَ بن الخطّاب، فهذا خليفتان، فهذه سبعة من الخُلفاء وَلَدوا هذا الرّجل.

قالوا: ومنّا امرأةٌ أبوها خليفة، وجدّها خليفة، وابنُها خليفة، وأخوها خليفة، وبعلها خليفة، فهؤلاء خمسةٌ، وهي عاتكة بنتُ يزيدَ بن معاوية بن أبي سُفْيان، أبوها يزيدُ بن معاوية خليفة، وجدّها معاويةُ بنُ أبي سفيان خليفة، وابنُها يزيد بنُ عبدِ الملك بنِ مَرْوان خليفة، وأخوها معاويةُ بنُ يزيدَ خليفة، وبَعْلُها عبْد الملك بن مَرْوان خليفة.

قالوا: ومن وَلَد المدبّج محمد بنُ عبدِ الله الأصغر امرأةٌ ولَدَها النبيّ صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمَر وعثمانَ وعليّ وطلحة والزبير، وهي عائشة بنتُ محمد بن عبدِ الله بن عمرَ بنِ عثمان بن عفان، وأمّها خديجةُ بنتُ عثمانَ بن عُرْوة بن الزبير، وأمّ عروة أسماءُ ذاتُ النِّطاقين بنت أبي بكر الصّدّيق، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو بنِ عثمان - وهو المدّبج - فاطمةَ بنتَ الحُسَين بن عليّ عليه السلام، وأمّ الحُسَين بن عليّ عليه السلام فاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمُّ فاطمة بنتِ الْحُسين بن عليّ عليه السلام أمّ إسحاق بنتِ طلحةَ بن عبدِ الله، وأمُّ عبدِ الله بن عَمرو بن عُثْمان بن عفّان ابنةُ عبدِ الله بن عُمَر بن الخطّاب.

قالوا: ولنا في الجمال والحسْن ما ليس لكم، منا المدبّج، والدّيباج، قيل ذلك لجماله. ومنّا المطرَف، ومنّا الأرجُوان، فالمُطرف وهو عبدُ الله بنُ عمرو بنِ عُثمانَ، سُمّي المطَرَف لجماله، وفيه يقول الفرزدق:

نـمـا الـفـاروقُ إنـك وابـن أروَى ... أبُـوكَ فـأنـتَ مُـنـصـدِعُ الـنّـهـارِ

والمدبَّج هو الدّيباج، كان أطوَلَ الناس قياماً في الصّلاة، وهَلَكَ في سجْن المنصور.

قالوا: ومنّا ابنُ الخلائف الأربعة، دعي بذلك وشُهِر به، وهو المؤمَّل بنُ العبّاس بن الوليد بن عبد الملك، كان هو وأخوه الحارثُ ٱبنَي العبّاس بن الوليد من الفجاءة بنتِ قَطَري بنِ الفجاءة، إمام الخوارج، وكانت سُبيتْ فوقعتْ إليه، فلما قام عُمر بنُ عبدِ العزيز أتتْ وجوه بني مازِن وفيهمْ حاجبُ بنُ ذُبيان المازنيُّ الشاعر، فقال حاجب:

أتيناكَ زُوّاراً ووَفْداً إلى التي أضاءت فَلا يَخْفَى على الناس نُورُها
أبُوها عميد الحيّ جَمْعاً وأمُّها من الحنظليات[1] الكِرام حُجُورُها
فإن تَكُ صارتْ حين صارتْ فإنّها إلى نسبٍ زاكٍ كرام نَفِيرُها

فبَعثَ عمرُ بنُ عبد العزيز إلى العبّاس بن الوليد إما أن ترُدّها إلى أهلها، وإما أن تُزوجها، فقال قائل ذاتَ يوم للمؤمّل: يا بن الخَلائف الأربعة، قال: وَيلَك مَن الرابع!

قال: قَطَري، فأما الثلاثة فالوليدُ وعبدُ الملك ومروان، وأما قَطَريّ فبُويع بالخلافة، وفيه يقول الشاعر:

وأبو نعامةَ سيّد الكُفّارِ

قالوا: ومن أين صار محمّد بنُ عليّ بن عبد الله بن العباس أحق بالدعوة والخلافة من سائر إخوته! ومن أين كان له أن يَضَعها في بيته دون إخوته! وكيف صار بنو الأخ أحقّ بها من الأعمام!

وقالوا: إن يكن هذا الأمر إنما يُستَحقّ بالميراث، فالأقرب إلى العبّاس أحقّ، وإن كان بالسّنّ والتجربة فالعُمومة بذلك أولى.

قالوا: فقد ذكرْنا جملاً من حال رجالنا في الإسلام، وأما الجاهلية فلنا الأعياص والعنابس.

ولنا ذو العصابة أبو أحُيْحة سعيدُ بنُ العاص كان إذا اعتمّ لم يعتّم بمكة أحَد، ولنا حَرْب بن أميّة رئيسُ يوم الفِجار، ولنا أبو سُفْيان بنُ حَرْب رئيسُ أُحُد والخَنْدق، وسيّد قريش كلّها في زمانه.

وقال أبو الجَهْم بنُ حُذيفة العدويّ لعمرَ حين رأى العبّاس وأبا سُفْيان على فراشه دون الناس: ما نرانا نستريح من بني عبدِ مناف على حال! قال عمر: بئس أخو العَشِيرة أنتَ! هذا عمّ رسول الله ﷺ، وهذا سيّد قريش.

قالوا: ولنا عُتْبة بنُ رَبيعة، ساد مملِقاً، ولا يكون السّيِّد إلا مُترفاً، لولا ما رأوا عنده من البَراعة والنُّبل والكمال. وهو الذي لمّا تحاكمت بَجيلة وكَلْب من مُنافَرة جرير والفرافصة،

---

(١) الحنظليات: نسبة إلى قبيلة حنظلة وهي أكرم قبيلة في تميم. اللسان، مادة (حنظل).

وتَراهَنُوا بسُوق عُكَاظ، وصنَعوا الرّهن على يدِه دونَ جميع مَن شَهِد على ذلك المشهَد، وقال رسول الله ﷺ، ونظر إلى قريش مُقبِلة يومَ بدر: «إن يكن منهم عند أحد خيرٌ فعنَد صاحب الجمل الأحمر»(١)، وما ظنُّك بشَيْخ طَلَبوا له من جميع العسكر عند المُبارَزة بيضة فلم يَقدروا على بَيْضة يُدخِل رأسَه فيها، وقد قال الشاعر:

وإنّـا أنـاسٌ يـمـلأ الـبَـيْـض هـامُـنـا

قالوا: وأمّيّة الأكبر صنفان: الأعياص والعنابس، قال الشاعر:

مــن الأغـيــاص أو مِــن آل حَــرْبٍ ... أغــرّ كَــغُــرّةِ الــفَــرَسِ الــجــوادِ

سُمُّوا بذلك في حَرْب الفجار حينَ حَفَروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها، وقالوا: نموت جميعاً أو نظفر. وإنما سُمُّوا بالعَنابس لأنّها أسماءُ الأسُود، وإنما سُمّوا الأعْيَاص لأنها أسماءُ الأصُول، فالعَنابس: حَرْب وسُفْيان وأبو سُفْيان وعَمْرو، والأعياص: العِيص، وأبو العِيص، والعاص، وأبو العاص وأبو عمرو، ولم يعقِب من العنابِس إلا حَرْب، وما عَقَّب الأعياصُ إلا العِيص، ولذلك كان معاويةُ يشكو القلّة.

قالوا: وليس لبني هاشم والمطّلب مثل هذه القِسْمة، ولا مِثْل هذا اللّقب المشهور. وهذا ما قالتْه أميّةُ عن نفسِها.

الجواب عمّا فخرت به بنو أمية

ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم، ونضيفُ إليه مِن قِبَلنا أموراً لم يذكرها، فنقول: قالت هاشم: أمّا ما ذكرتم من الدّهاء والمكْر فإنّ ذلك من أسماء فجّار العُقَلاء، وليس من أسماءِ أهلِ الصواب في الرأي من العُقَلاء والأبرار، وقد بلغ أبو بكر وعُمر من التّدبير وصوابِ الرأي، والخبْرة بالأمور العامّة، وليس من أوْصافهما ولا مِنْ أسمائهما أن يقال: كانا داهِيَيْن، ولا كانا مَكِيرين. وما عَامَل معاوية وعمرُو بنُ العاص عليّاً عليه السلام قَطّ بمعاملةٍ إلا وكان عليٌّ عليه السلام أعلَم بها منهما، ولكنّ الرجل الّذي يُحارِب ولا يَستعمل إلّا ما يحلّ له أقلّ مذاهب في وُجوهِ الحيَل والتدبير مِنَ الرّجل الذي يَستعمِل ما يحلّ وما لا يحلّ، وكذلك من حَدَّث وأخْبَر، ألا تَرَى أنّ الكَذّاب ليس لكِذبِه غاية، ولا لما يُولِّد ويَصنَع نهاية، والصَّدُوق إنما يحدّث عن شيء معروف، ومعنًى محدود! ويدلّ على ما قلنا أنّكم عددتم أربعةً في الدّهاء، وليس واحدٌ منهم عند المسلمين في طريق المتّقين، ولو كان الدّهاء مَرْتبة والمكر مَنْزلة لكان تقدُّمُ هؤلاء الجميع السابقِين الأوّلين عَيْباً شديداً في السابقين الأوّلين، ولو أن إنساناً أراد أن يمدَحَ أبا بكر وعمَر وعثمان وعليًا ثم قال: الدُّهاة أربعة، وعَدّهم، لكان قد قال قولاً مرغوباً

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٥١)، و«الثقات» لابن حبان (١/ ١٦٣).

عنه، لأنّ الدهاء والمكْر ليسا من صفات الصالحين، وإن علموا من غامض الأمور ما يَجهَله جميعُ العُقَلاء، ألا تَرى أنّه قد يَحسُن أن يقال: كان رسول الله ﷺ أكرمَ الناس، وأحلَم الناس، وأجوَدَ الناس، وأشجَعَ الناس، ولا يجوز أن يقال: كان أمكَرَ الناس، وأدهى الناس، وإن علمنا أنّ عِلْمه قد أحاط بكل مَكْرٍ وخدِيعة، وبكل أدبٍ ومَكيدة!

وأمّا ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر، فأين أنتمْ من عبد الله بن جَعْفر، وعُبيدِ الله بن العبّاس، والحسنِ بن عليّ! وأين أنتم من جُودِ خُلَفاء بَني العبّاس، كمحمّد المهْدِيّ، وهارون، ومحمد بن زُبَيدة، وعبد الله المأمون، وجعفر المقتدر! بل لعلّ جود بعض صنائع هؤلاء كَبني بَرْمَك وبَني الفُرات، أعظم من جُود الرّجُلين اللّذين ذكرتموهما، بل من جميع ما جاء به خُلفاءُ بني أمية.

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية، فلو شئنا أن نجعَل جميعَ ساداتنا حُلَمَاءَ لكانوا مُحتمِلين لذلك، ولكنّ الوجه في هذا ألّا يُشتَقّ للرجل اسمٌ إلّا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه، وإلّا أن يتبيّن بذلك عند أصحابه حتّى يصير بذلك اسماً يسمّى به، ويصيرَ معروفاً به، كما عرف الأحنف بالحلم وكما عُرف حاتمٌ بالجُود، وكذلِك هَرِم، قالوا: هَرِم الجواد، ولو قلتم: كان أبو العاص بن أميّة أحلمَ الناس، لقلنا: ولعلّه يكون قد كان حليماً، ولكن ليس كلّ حلم يكون صاحبُه به مذكوراً، ومن إشكاله بائناً.

وإنكم لتظلمون خصومَكم في تسميتكم معاوية بالحلم، فكيف من دونَه، لأن العَرَب تقول: أحلم الحلمين ألا يتعرّض ثم يَحلم، ولم يكن في الأرض رَجَلٌ أكثر تعرّضاً من معاوية، والتعرّض هو السَّفه، فإن ادّعيتم أن الأخبار التي جاءت في تعرّضه كلّها باطلة، فإنّ لقائلٍ أن يقول: وكلّ خبرٍ رَوَيْتموه في حِلمه باطل، ولقد شُهر الأحنف بالحلم، ولكنه تكلّم بكلامٍ كثير يجَرَح في الحِلْم ويثلم في العِرض، ولا يستطيع أحد أن يَحكِي عن العبّاسِ بنِ عبد المطلب ولا عن الحسَن بن عليّ بن أبي طالب لفظاً فاحشاً، ولا كلمة ساقطة، ولا حرفاً واحداً مما يُحكَى عن الأحنف ومعاوية.

وكان المأمونُ أحلمَ الناس، وكان عبدُ الله السفّاح أحلم الناس. وبعد، فمن يستطيع أن يصفَ هاشماً أو عبد المطلب بالْحِلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتّى يسمّيَه بذلك، ويخصّ به دون كلّ شيء فيه من الفَضْل! وكيف وأخلاقهم متساوية، وكلّها في الغاية! ولو أنّ رجلاً كان أظهَرَ الناسِ زُهْداً، وأصدَقَهم للعدوّ لِقاء، وأصدَقَ الناس لساناً، وأجوَد الناسِ كفّاً، وأفصَحَهم مَنطقاً، وكان بكل ذلك مشهوراً، لمنعَ بعضَ ذلِك من بعض، ولَمَا كان له اسمُ السيّد المقدَّم، والكامل المعظَّم، ولم يكن الجوادُ أغلَب على اسمه، ولا البيان ولا النَّجدة.

وأمّا ما ذكرتم من الخطابة والفَصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنّسب، فقد عَلِم الناس أن

بني هاشم في الجُملة أَرَقُّ ألسِنةً من بني أميّة، كان أبو طالب والزّبير شاعرَين، وكان أبو سُفْيان بنُ الحارث بن عبد المطلب شاعراً، ولم يكن من أولاد أميّة بنِ عبدِ شَمْس لصُلْبه شاعر، ولم يكن في أولاد أميّة إلا أن تعدّوا في الإسلام العرْجيّ مِنْ وَلَد عُثمانَ بن عفان، وعبدالرحمن بن الحكَم، فنعدّ نحن الفضلَ بنَ العبّاس بن عتبة بن أبي لهب، وعبد الله بن معاوية بن جعفر، ولنا من المتأخرين محمد بنُ الحسين بن موسى المعروف بالرضي، وأخوه أبو القاسم، ولنا الحمّاني، وعلي بن محمد صاحب الزّنج، وكان إبراهيم بن الحسَن صاحب باخَمْرى أديباً شاعراً فاضلاً، ولنا محمد بنُ عليّ بن صالح الذي خرج في أيام المتوكل.

قال أبو الفرج الأصفهاني: كان من فِتْيان آل أبي طالب وفُتّاكهم وشُجْعانهم وظُرَافهم وشعرائهم، وإن عددتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تَعدّوا كعليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولا كعبد الله بن العباس، ولنا من الخطباء زيد بن عليّ بن الحسين، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، وجعفرُ بن الحسين بن الحسن، وداود بن عليّ بن عبد الله بني العباس، وداود وسليمان ابنا جعفر بن سليمان.

قالوا: كان جعفر بن الحسين بن الحسن ينازع زيد بن عليّ بن الحُسين في الوصيّة، وكان الناسُ يجتمعون ليستمعوا محاورتهما، وكان سليمانُ بنُ جعفر بن سليمان بن عليّ والي مَكّة، فكان أهل مكة يقولون: لم يرد علينا أميرٌ إلّا وسليمان أبين منه قاعداً، وأخطب منه قائماً. وكان داود إذا خطب اسْخَنْفر فلم يردّه شيء.

قالوا: ولنا عبد الملك بن صالح بن عليّ، كان خطيباً بليغاً، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران - فقال له: كيف رأيتَ أرضَ كذا؟ قال: مسافي رِيح، ومنابت شيح. قال: فأرضَ كذا، قال: هَضَبات حُمْر، ورَبوات عُفْر، حتى أتى على جميع ما سأله عنه، فقال عيسى لسليمان: والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدُّون من الكلام.

قالوا: وأما ما ذكرتم من نُسّاك الملوك، فلنا عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، وبزُهده وبدينه يضرب المثل، ولنا محمد بن الواثق من خلفاء بني العباس، وهو الملقب بالمهتديّ، كان يقول: إني لآنفُ لبني العبّاس ألّا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز، فكان مثله وفوقه. ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر، ولنا القائم عبد الله بن القادر، كانا على قدم عظيمة من الزهد والدين والنُّسُك، وإن عددتم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن عليّ بن الحسين زين العابدين! وأين أنتم عن عليّ بن عبد الله بن العباس! وأين أنتم عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الّذي كان يقال له: عليّ الخيْر، وعليّ الأغر، وعليّ العابد، وما أقسم على الله بشيء إلّا وأبرّ قَسَمه! وأين أنتم عن موسى بن جَعْفر بن محمد! وأين أنتم عن عليّ بن محمد الرضا، لابس الصوف طولَ عمره، مع سَعة أمواله، وكثرةِ ضياعه وغَلّاته!

وأما ما ذكرتم من الفُتوح، فلنا الفتوح المعتصميّة التي سارت بها الركْبَان، وضُربت بها الأمثال، ولنا فتوحُ الرّشيد، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الخرّميّ بعد أن دامت فتنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة. وإن شئت أن تعدّ فتوحَ الطالبيّين بإفريقيّة ومِصر وما ملكوه من مُدُن الرّوم والفرنج والجلالِقة في سِني ملكهم، عددتَ الكثير الجمّ الذي يخرجُ عن الحصْر، ويحتاج إلى تاريخ مُفرَد يَشتمل على جلودٍ كثيرة.

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد، وكان لنا فيه مِثل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعبد الله بن العباس، وزيد بن عليّ، ومحمد بن عليّ، ابني عليّ بن الحُسَين بن عليّ، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذتِه، وكذلك سُفْيان الثَّوْرِيّ، وحسبُك بهما في هذا الباب، ولذلك نسب سُفْيان إلى أنه زَيْديُّ المذهَب، وكذلك أبو حنيفة.

ومَنْ مِثلُ عليّ بن الحُسين زين العابدين! وقال الشافعيّ في «الرسالة»[1] في إثبات خَبَر الواحد: وجدتُ عليَّ بن الحُسَين وهو أفقه أهل المدينة يُعوّل على أخبار الآحاد.

ومَن مثل محمّد بن الحنفيّة وابنه أبي هاشم الذي قَرّر علومَ التوحيد والعَدْل! وقالت المعتزلة: غَلَبْنا الناسَ كلّهم بأبي هاشم الأوّل، وأبي هاشم الثاني!

وإن ذكرتم النّجدة والبَسالة والشّجاعة فمن مثلُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجَع البَشَر!

ومَن مثل حمزةَ بن عبد المطلب أسَد الله وأسد رسولِه! ومَن مِثل الحُسَين بن عليّ عليهما السلام! قالوا يوم الطّفّ: ما رأينا مكثوراً قد أُفرِد من إخوته وأهلِه وأنصاره أشجَع منه، كان كاللّيث المحْرَب، يَحطِم الفرسان حَطْماً. وما ظنّك برجل أبَتْ نفسُه الدنيّةَ وأن يعطيَ بيَدِه، فقاتَلَ حتى قُتل هو وَبنُوه وإخوتُه وبَنُو عمّه بعد بذل الأمان لهم، والتوثِقة بالأيمان المغلّظَة، وهو الّذي سَنّ للعَرَب الإباء. واقْتَدى بعدَه أبناءُ الزبير وبنو المهلّب وغيرُهم.

ومن لكم مِثل محمد وإبراهيم بن عبد الله! ومن لكم كزيدِ بن عليّ، وقد علمتم كلمتَه التي قالها حيث خرج من عند هشام: ما أحَبَّ الحياةَ إلا مَنْ ذَلّ. فلمّا بلغتْ هِشاماً قال: خارجٌ وَربِّ الكَعْبة! فخرج بالسيف، ونهَى عن المنكر، ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قُتِل صابراً محتسباً.

وقد بلغتْكم شجاعةُ أبي إسحاق المعتصم، ووقوفُه في مشاهِد الحَرْب بنفسِه حتّى فَتَح

---

(١) «الرسالة في أصول الفقه»: لمحمد إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ)، «الأعلام» (٦/ ٢٦).

الفتوح الجليلة. وبلغتكم شجاعةُ عبدِ الله بنِ عليّ، وهو الذي أزال مُلْك بني مَرْوان، وشَهِدَ الحُروبَ بنفسِه، وكذلك صالح بنُ عليّ، وهو الّذي اتبع مروان بن محمدٍ إلى مصر حتى قَتله.

قالوا: وإن كان الفَضْل والفَخْر في تواضُع الشّريف، وإنصاف السّيد، وسَجَاحة[1] الخُلُق ولِين الجانب للعَشِيرة والموالي، فليس لأحدٍ من ذلك ما لبني العبّاس، ولقد سألنا طارقَ بن المبَارك - وهو مولًى لبني أميّة، وصنيعةٌ من صَنائِعهم - فقلنا: أيُّ القبيلتين أشدّ نخوةً وأعظَم كِبْرياء وجَبريّة، أبنو مَرْوان؟ أم بنو العبّاس؟ فقال: والله لَبَنو مَرْوانَ في غير دولتِهم أعظمَ كِبْرياء من بني العبّاس في دولته، وقد كان أدرَك الدولَتين، ولذلك قال شاعرُهم:

إذا نـابِـةٌ مـن عـبـدِ شـمـسٍ رأيـتَـه ... يَـتـيـهُ فَـرَشِّـحـه لـكـلّ عـظـيـمِ
وإن تَـاهَ تَـيّـاهٌ سِـواهُـمْ فـإنـمـا ... يَـتـيـهُ لـنَـوك[2] أو يـتـيـه لـلـومِ

ومن كلامِهم: مَن لم يكن من بني أميّة تَيّاهاً فهو دَعيّ.

قالوا: وإن كان الكبرُ مَفخَراً يمدَح به الرجال ويُعَدّ من خِصال الشرف والفَضْل، فمولانا عمارة بنُ حَمزةَ أعظَم كبراً من كلّ أمَويّ كان ويكون في الدنيا، وأخبارُه في كِبْره وتِيهه مشهورة مُتعالَمة.

قالوا: وإن كان الشرف والفَخْرُ في الجمال وفي الكمال وفي البَسطة في الجسم وتمامِ القَوام، فمن كان كالعَبّاس بنِ عبد المطلب!

قالوا: رأيْنا العبّاسَ يطوف بالبيت وكأنه فُسْطاط أبيض.

ومن مِثل عليّ بن عبد الله بن العباس وَوَلَدِه، وكان كلّ واحد منهم إذا قام إلى جَنْب أبيه كان رأسُه عند شحمةِ أذُنه، وكانوا من أطوَل الناسِ، وإنّك لتجد مِيراثَ ذلك اليومَ في أولادهم.

ثم الّذي رواه أصحاب الأخبار وحُمّال الآثار في عبدِ المطلب من التمام والقَوام والجمال والبهاء، وما كان من لقب هاشم بالقَمَر لجماله، ولأنهم يستضيئون برأيه، وكما رواه الناسُ أن عبد المطلب وَلَدَ عَشَرةً كان الرجلُ منهم يأكل في المجلِس الجَذَعة ويَشرَب الفِرْق، وترد أنوفهم قبل شِفاهِهم، وإن عامرَ بن مالك لمّا رآهم يطوفون بالبيت كأنّهم جِمالٌ جُون قال: بهؤلاء تُمنَع مكّة، وتشرف مكة!

وقد سمعتم ما ذَكَرَه الناس من جمال السَّفّاح وحُسْنه، وكذلك المهديّ وابنُه هارون الرشيد، وابنه محمد بن زبَيدة وكذلك هارون الواثق، ومحمد المنتصر والزّبير المعتز.

---

(١) السجاحة: اللين والسهولة، اللسان، مادة (صجح).

(٢) النَّوك: الحمق. القاموس، مادة (نوك).

قالوا: ما رُئِيَ في العَرَب ولا في العَجَم أحسَن صورةً منه، وكان المكتفي عليّ بن المعتضد بارعَ الجمال، ولذلك قال الشاعر يَضرِب المَثَلَ به:

والله لا كـلّمتُـه ولـو أنّـهُ كالشّمس أو كالبَدْرِ أو كالمُكْتَفي

فَجَعَله ثالثَ القَمَرَين. وكان الحَسَن بنُ عليّ عليه السلام أصبَحَ الناس وَجْهاً، كان يُشبَّه برسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك عبد الله بن الحَسَن المَحْض.

قالوا: ولنا ثلاثة في عَصْرٍ بنو عَمّ، كلّهم يسمّى عليّاً، وكلّهم كان يَصلُح للخلافة بالفِقه والنُّسُك والمرْكَب، والرّأي، والتجربة، وَالحالِ الرَّفيعة بين الناس: عليّ بنُ الحُسَين بنِ عليّ، وعليّ بنُ عبد الله بن العبّاس، وعليّ بنُ عبد الله بن جعفر، كلّ هؤلاء كان تامّاً كاملاً بارعاً جامعاً. وكانت لُبَابة بنتُ عبد الله بنِ العبّاس عند عليّ بن عبد الله بن جَعْفر، قالت: ما رأيتُه ضاحِكاً قطّ ولا قاطِباً، ولا قال شيئاً أحتاج إلى أن يَعتذِر منه، ولا ضَرَب عبداً قَطّ، ولا مَلَكه أكثرَ من سَنَة.

قالوا: وبعد هؤلاء ثلاثةٌ بنو عَمّ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة، وكلّهم يسمّى محمداً، كما أن كلّ واحد من أولئك يسمّى عليّاً، وكلّهم يَصلُح للخلافة بكَرَم النّسب وشَرَف الخصال: محمّد بنُ عليّ بن الحُسَين بنِ عليّ، ومحمّد بن عليّ بن عبد الله بن العَبّاس، ومحمد بن عليّ بن عبد الله بن جعفر.

قالوا: كان محمد بن عليّ بن الحسين لا يُسمِع المبتلى الاستعاذة، وكان يَنهى الجاريةَ والغلامَ أن يقولا للمِسكين: يا سائل، وهو سيّد فُقَهاء الحِجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تَعَلم الناسُ الفِقْه، وهو المُلَقَّب بالباقر، باقرِ العِلْم، لقّبه به رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يُخلق بعد، وبشّر به، ووعد جابر بن عبد الله برؤيته، وقال: ستراه طفلاً، فإذا رأيته فأبلِغه عنّي السلام، فعاش جابرٌ حتّى رآه، وقال له ما وصّي به.

وتوعّد خالد بن عبد الله القَسْريّ هشامَ بنَ عبدِ الملك في رسالةٍ له إليه، وقال: والله إني لأعرِف رَجُلاً حِجازيَّ الأصل، شآميَّ الدّار، عِراقيَّ الهوى، يريد محمد بن عليّ بن عبد الله ابن العبّاس.

قالوا: وأمّا ما ذكرتم من أمرِ عاتكة بنتِ يزيدَ بنِ معاوية فإنا نذكر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي سيّدة نساءِ العالمين، وأمُّها خديجةُ سيّدة نساء العالمين، وبَعلها عليّ بنُ أبي طالب سيّد المسلمين كافّة، وابنُ عَمّها جعفر ذو الجَنَاحَين، وذو الهِجْرَتين، وابناها الحسَن والحُسَين سَيِّدَا شبابِ أهلِ الْجَنّة، وجدُّهما أبو طالب بن عبدِ المطلب أشدُّ الناس عارِضةً وشَكِيمة، وأجودُهم رأياً، وأشهَمُهُمْ نفساً، وأمنَعُهم لما وَرَاءَ ظَهْره، مَنَعَ النبيَّ صلى الله عليه وآله مِنْ جميع

قريش، ثم بني هاشم وبني المطلب، ثم مَنَع بني إخوانه من بني أخَواته من بني مَخزوم الّذين أسلَموا، وهو أحَد الّذين سادُوا مع الإقلال، وهو مع هذا شاعرٌ خطيب. ومن يُطيق أن يُفاخِر بني أبي طالب، وأمهم فاطمة بنت أسَد بنِ هاشم، وهي أوّل هاشميّة وُلدتْ لهاشميّ، وهي الّتي رُبّيَ رسولُ الله في حِجْرها، وكان يدعوها أمّي، وَنَزَل في قَبْرها، وكان يُوجب حقّها كما يوجب حقَّ الأمّ! من يَستطيع أن يُساميَ رِجالاً ولدهم هاشم مرتين من قِبَل أبيهم ومن قِبَل أمّهم. قالوا: ومن العجائب أنّها وَلدتْ أربعةً كلٌّ منهم أسَنّ من الآخر بعَشْرِ سنين: طالب، وَعَقِيل، وجعفر، وعليّ.

ومن الّذي يَعُدّ من قريش أو مِن غيرهم ما يَعُدّه الطالبيّون عَشَرة في نَسَق، كلّ واحد منهم عالمٌ زاهد ناسك شجاع جَواد طاهر زَاكٍ، فمنهم خلفاءُ، ومنهم مُرشَّحون: ابن ابن ابن ابن، هكذا إلى عَشَرة، وهم الحَسَن بنُ عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام، وهذا لم يتّفق لبيتٍ من بُيوت العرب ولا من بُيوت العَجَم.

قالوا: فإن فَخَرتُم بِأنّ منكم اثنتين من أمهات المؤمنين: أمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سُفْيان وَزَينب بنتُ جَحْش، فَزَيْنب امرأةٌ من بني أسَد بنِ خُزَيمة، ادّعيتُموها بالحِلْف لا بالولادة، وفينا رجل وَلدتْه أمّان مِنْ أمّهات المؤمنين، محمّد بنُ عبدِ الله بن الحسن المحْضِ، وَلدتْه خديجةُ أمّ المؤمنين، وأمّ سَلَمة أمّ المؤمنين، وَوَلَدَتْه مع ذلك فاطمةُ بنتُ الحُسين بنِ عليّ، وفاطمة سيّدة نساء العالمين ابنةُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وفاطمةُ بنت أسَد بنت هاشم، وكان يقال: خير النّساء الفَواطِمُ والعَواتِك وهُنّ أمّهاته.

قالوا: ونحن إذا ذكرنا إنساناً فقبلَ أن نَعدّ من ولدِه نأتي به شريفاً في نفسه، مذكوراً بما فيه دونَ ما في غيره، قلتم لنا: عاتكة بنت يزيد، وعاتكة في نفسها كامرأة مِن عرض قريش، ليس فيها في نفسها خاصة أمرٌ تستوجب به المفاخرة. ونحن نقول: مِنّا فاطمة، وفاطمة سيّدة نساء العالمين، وكذلك أمّها خديجة الكبرى، وإنما تُذكَران مع مريمَ بنتِ عِمْران وآسيةَ بنت مُزاحِم اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وآله وذكر إحداهما القرآن، وهُنَّ المذكورات من جميع نساءِ العالم من العَرَب والعجم.

وقلتم لنا: عبد الله بنُ يزيد بن عبد الملك بن مرْوان وَلده سبعة من الخُلفاء، وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك، ونحن نقول: مِنّا محمد بنُ عليّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، كلّهم سيّد، وأمّه العالية بنتُ عبيد الله بن العباس. وإخوته داود وصالحٌ وسليمان وعبدُ الله رجالٌ كلُّهم أغرُّ مُحجَّل، ثم وَلدت الرؤساء إبراهيم الإمام وأخَوَيه أبا العبّاس وأبا جعفر، ومَن جاء بعدَهما من خُلفاء بني العبّاس.

وقلتم: مِنّا عبد الله بنُ يزيد، وقلنا: منّا الحسينُ بنُ عليّ سيّد شباب أهلِ الجنة، وأولى

الناس بكلّ مكْرُمة، وأطهرهم طهارةً، مع النّجدة والبصيرة والفقه والصبر والحلم والأنَف، وأخوه الحسن سيّد شباب أهل الجنة، وأرفع الناس دَرَجة، وأشبههُم برسول الله خَلْقاً وخُلُقاً، وأبوهما عليّ بنُ أبي طالب.

قال شيخنا أبو عثمانَ: وهو الذي ترْكُ وصفه أبلغ في وصفه، إذ كان هذا الكتابُ يعجز عنه، ويحتاج إلى كتابٍ يفرد له، وعَمّهما ذو الجناحين، وأمّهما، فاطمة وجدّتهما خديجة، وأخوالهما: القاسم وعبد الله وإبراهيم، وخالاتهما زينب ورقيّة وأم كُلثوم، وجدتاهما آمنةُ بنتُ وَهْب والدةُ رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم، وجدّهما رسول الله ﷺ المخرس لكل فاخر، والغالبُ لكلّ مُنافر، قل ما شِئت، واذكر أي باب شئت من الفَضْل، فإنّك تجدهم قد حوَوْه.

وقالت أميّة: نحن لا نُنكِر فخرَ بني هاشم وفضلهم في الإسلام، ولكنْ لا فرق بيننا في الجاهلية، إذ كان الناسُ في ذلك الدّهر لا يقولون: هاشم وعبد شمس، ولا هاشمٌ وأميّة، بل يقولون: كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف، حتى كان أيام تميّزهم في أمر عليّ وعثمان في الشورى، ثم ما كان في أيام تحزّبهم وحَرْبهم مع عليّ ومعاوية.

ومن تأمل الأخبارَ والآثار علم أنه ما كان يذكر فرقٌ بين البيتين، وإنما يقال: بنو عبد مناف، ألا ترى أن أبا قحافة سمع رَجّةً شديدةً، وأصواتاً مرتفعة، وهو يومئذٍ شيخٌ كبيرٌ مكفوف، فقال: ما هذا، قالوا: قبِض رسول الله ﷺ، قال: فما صنعتْ قريش؟ قالوا: ولَّوْا الأمر ابنك، قال: ورضيتْ بذلك بنو عبد مناف؟ قالوا: نعم. قال: ورضي بذلك بنو المغيرة؟ قالوا: نعم، قال: فلا مانع لما أعطى الله ولا مُعطيَ لما منعَ! ولم يقل: أرضِيَ بذلك بنو عبد شمس؟ وإنما جمعهم على عبد مناف لأنه كذلك كان يقال.

وهكذا قال أبو سُفيان بن حَرْب لعليّ عليه السلام، وقد سَخِط إمارة أبي بكر: أرضيتم يا بني عبد مناف أن تَلِيَ عليكم تَيْم! ولم يقل: أرضيتم يا بني هاشم؟ وكذلك قال خالد بنُ سعيد بن العاص حين قَدِم من اليمن وقد استخلِف أبو بكر: أرضيتم معشرَ بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم؟

قالوا: وكيف يُفرّقون بين هاشم وعبد شمس، وهما أخَوان لأب وأمّ! ويدلّ على أن أمرهما كان واحداً، وأنّ اسمهم كان جامعاً، قولُ النبي ﷺ وصنيعُه حين قال: «منّا خيرُ فارسٍ في العَرب، عُكاشة بن محصن» وكان أسديًّا، وكان حليفاً لبني عبد شمس، وكل من شهد بدْراً من بني كبير بن داود كانوا حلفاء بني عبد شمس، فقال ضرارُ بن الأزور الأسدي: ذاك منا يا رسول الله، فقال عليه السلام: «بل هو منّا بالحلف»، فجعل حليف بني عبدِ شمس حليفَ بني هاشم، وهذا بيّنٌ لا يحتاجُ صاحبُ هذه الصفة إلى أكثر منه.

قالوا: ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت، فكيف صِرْنا نتزوج بنات النبي وبنات بني هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أكفاء، وأمْرنا واحدًا وقد سمعتم إسحاق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن أسيد: لولا حيٌّ أكرَمهم الله بالرسالة، لزعمت أنك أشرَف النّاس، أفلا ترَى أنه لم يقدم علينا رهطِه إلا بالرسالة!

قالت هاشم: قلتم: لولا أنا كُنّا أكفاءَكم لما أنكحتُمونا نساءَكم، فقد نجد القوم يستوون في حسب الأب، ويفترقون في حسب الأنفس، وربّما استوَرْا في حسب أبي القبيلة، كاستواء قُريش في النّضر بن كِنانة، يختلفون كاختلاف كعبٍ بن لؤيّ، وعامر بن لؤيّ، وكاختلاف ابن قصيّ وعبد مناف وعبد الدار وعبد العُزّى، والقوم قد يساوي بعضهم بعضاً في وجوه، ويفارقونهم في وجوه، ويستجيزون بذلك القَدْر مناكَحتَهم، وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملتْ فيمن زوّجهم، وقد يزوّج السيّد ابن أخيه وهو حارض ابنُ حارض على وجه صِلة الرّحم، فيكون ذلك جائزاً عندهم، ولوجوه في هذا الباب كثيرة، فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كلّ وجه، وإن كنّا قد زوّجناكم وساوَيْناكم في بعض الآباءِ والأجداد. وبعد، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرَجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العَرَب، أفتزعمون أنهم أكفاؤكم عَيْناً بعين! وأما قولكم: إن الحيّين كان يقال لهما عبد مناف فقد كان يقال لهما أيضاً مع غيرهما من قريش وبنيها: بنو النّضر. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١)، فلم يدع النبيّ ﷺ من بني عبد شمس، وكانت عشيرته الأقربون بني هاشم وبني المطلب، وعشيرته فوق ذاك عبد مناف وفوق ذلك قُصَيّ، ومن ذلك أن النبيّ ﷺ لما أُتِيَ بعبد الله بن عامر بن كُريز بن حبيب بن عبد شمس - وأمّ عامر بن كُرَيز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم - قال عليه السلام: هذا أشبه بنا منه بكم، ثم تفل في فيه فازدَرده، فقال: أرجو أن تكون مشفياً، فكانَ كما قال. ففي قوله: «هو أشبه بنا منه بكم» خَصلتان: إحداهما أن عبد شمس وهاشماً لو كانا شيئاً واحداً كما أن عبد المطلب شيء واحد لما قال: «هو بنا أشبه به منكم»، والأخرى أن في هذا القَوْل تفضيلاً لبني هاشم على بني عبد شمس، ألا ترون أنه خرج خَطيباً جواداً نبيلاً وسيّداً مشفياً، له مَصانعُ وآثار كريمة، لأنه قال: «وهو بنا أشبَهُ به منكم». وأُتِيَ عبد المطلب بعامر بن كُرَيز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فتأمّله، وقال: وعظام هاشم ما ولدْنا ولداً أحرَض منه، فكان كما قال عبدُ الله يُحمَّق، ولم يَقُل «وعظام عبدِ مناف» لأن شرف جدّه عبد مناف له فيه شُرَكاء، وشرف هاشم أبيه خالصٌ له.

فأمّا ما ذكرتم من قول أبي سُفيان وخالد بن سعيد: أرضيتمْ معشرَ بني عبد مناف أن تليَ

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

عليكم تيْم! فإن هذه الكلمة كلمةُ تَحريض وتهييج، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب، وأن يجمَعهم، على واحد، وإن كانا مفترقين، وهذا المذهب سَدِيد، وهذا التدبير صحيح.

قال معاوية بنُ صَعْصَعة للأشهب بنِ رُمَيْلة، وهو نَهْشَليّ وللفَرَزْدَق بن غالب، وهو مُجاشِعيّ ولمسكن بن أنيف وهو عَبْدليّ: أرَضيتم معشرَ بني دارمٍ أن يَسُبّ آباءكم ويشتُم أعراضكم كلب بني كُلَيب! وإنما نَسَبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتَمِل على آباء قبائلهم ليستَوُوا في الحَمية ويتفقوا على الأنَف، وهذا في مثل هذا الموضع تدبير صحيح.

قالوا: ويدلّ على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مَقْتل عثمان وقبلَ صِفّين، قال حَسّان بنُ ثابت لأبي سُفيان الحارث بنِ عبدِ المطلب:

وأنـتَ مـنـوط نِـيـطَ فـي آلِ هـاشـمٍ ... كما نِيطَ خَلْفَ الرّاكب القَدَح الفَرْدُ

لم يقل: «نِيط في آلِ عبدِ مناف».

وقال آخر:

مـا أنتَ من هـاشـمٍ في بيتِ مَكرُمةٍ ... ولا بني جُمَحِ الخُضْرِ الجَلاعيدِ(١)

ولم يقل: «ما أنتَ من آلِ عبد مناف»، وكيف يقول هذا، وقد عَلِم الناسُ أن عبد مناف ولد أربعةً: هاشماً والمطلب وعبدَ شمس ونَوْفلاً، وأن هاشماً والمطلب كانا يداً واحداة، وأن عبد شمس ونوفلاً كانا يداً واحدة، وكان مما بطأ ببني نوفلٍ عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس، وكان ممّا حث بني المطلب على الإسلام فضل محبّتهم لبني هاشم، لأن أمرَ النبيّ ﷺ كان بيّناً، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسَد والبِغْضة، فمن لم يكن فيه هذه العلّة لم يكن له دون الإسلام مانع، ولذلك لم يَصحب النبي ﷺ من بني نوفل أحدٌ فَضْلاً أن يشهدوا معه المشاهِدَ الكريمة، وإنما صَحِبه حُلفاؤهم كيَعلَى بن منبّه وعُتبة بن غَزْوان وغيرهما، وبنو الحارث بن المطلب كلهم بذري: عبيد، وطُفَيل، وحُصَين، ومن بني المطلب مِسَطح بن أثاثة بذريّ.

وكيف يكون الأمرُ كما قلتم وأبو طالب يقول لمُطعِم بن عَدِي بن نوفل في أمر النبي ﷺ، لمّا تمالأتْ قريشٌ عليه:

جَـزَى الله عـنّـا عـبـدَ شـمـس ونَـوْفـلاً ... جـزاءَ مُـسـيءٍ عـاجـلاً غـيـرَ آجـلِ

أُمـطـعِـم إمّـا سـامَـنـي الـقَـوْم خُـطّـةً ... فـإنّـي مَـتـى أوكـلْ فـلـسـتُ بـآكِـلِ

أمـطـعِـم لـم أخـذُلْـكَ فـي يـوم شِـدّةٍ ... ولا مـشـهـدٍ عـنـد الأمـور الـجـلائـل

---

(١) الجَلْعَد: الصلب الشديد. اللسان، مادة (جلعد).

ولقد قَسَم النبيّ صلى الله عليه وآله قسمةً فجعَلها في بني هاشم وبني المطلب، فأتاه عثمانُ بنُ عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبدِ شمس بن عبدِ مناف، وجُبير بن مُطعم بن عدّي بن نوفل بن عبد مناف، فقالا له: يا رسول الله، إن قرابتَنا منك وقَرابة بني المطّلب واحدة، فكيف أعطيتهم دوننا؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «إنا لم نزل وبني المطلب كهاتَين»[1]، وشَبّك بين أصابِعه، فكيفَ تقولون: كنا شيئاً واحداً، وكان الاسم الذي يجمَعنا واحداً!

ثم نرجع إلى افتخار بني هاشم، قالوا: وإن كان الفخر بالأيْد والقوة، واهتصار الأقران ومُباطشة الرجال، فمن أين لكم كمحمد بن الحنفيّة، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على دِرْع فاضلة، فجذَبها فقَطع ذيْلَها ما استدار منه كلّه. وسمعتم أيضاً حديث الأيْد القوّي الذي أرسَله مَلِك الروم إلى معاويَة يفَخَر به على العرب، وأن محمداً قعدَ له ليقيمَه فلم يستَطِع، فكأنما يُحرّكُ جبَلاً، وأن الرّومي قعد ليقيمَه محمّد فرفعَه إلى فوق رأسه، ثم جَلَد به الأرض، هذا مع الشجاعة المشهورة، والفقه في الدِّين والحلم والصبر والفصاحة والعِلم بالملاحم والإخبار عن الغُيوب، حتى ادّعي له أنه المهديّ، وقد سمِعتم أحاديثَ أبي إسحاق المعتصم، وأن أحمد بن أبي دُوَادٍ عَضّ ساعدَه بأسنانِه أشدَّ العَضّ فلم يؤثّر فيه، وأنه قال: ما أظنُّ الأسِنّةَ ولا السِّهام تُؤثّر في جَسَده، وسمعتم ما قيل في عبدِ الكريم المُطيع، وأنّه جَذَب ذَنَبَ ثورٍ فاستَلّه من بين وَرِكَيه.

وإن كان الفَخر بالبِشر وطلاقةِ الأوْجُه وسَجَاحة الأخلاق، فَمن مِثْلُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقد بَلَغ من سَجاحة خُلُقه وطلاقةِ وَجْهه أنْ عيبَ بالدُّعابة! ومَن الذي يسوِّي بين عبد شمس وبين هاشم في ذلك! كان الوليدُ جَبّاراً، وكان هشام شَرِسَ الأخلاق، وكان مَرْوَانُ بن محمد لا يزال قاطباً عابساً، وكذلك كان يزيدُ بنُ الوَليد الناقص، وكان المهديّ المنصورُ أسْرَى خلق الله وألطَفهم خُلُقاً، وكذلك محمّد الأمين وأخوه المأمون، وكان السفّاح يُضرَب به المَثَل في السِّر وسَجاحة الخُلُق.

قالوا: ونحن نعدُّ من رَهْطنا رجالاً لا تَعُدّون أمثالَهم أبداً، فمنّا الأمراء بالدّيلم الناصر الكبير، وهو الحسن الأطْروش بن عليّ بن الحسَن بن عمر بن عليّ بن عمر الأشرف بن زين العابدين، وهو الذي أسلمَت الدّيلمُ على يَدِه، والناصر الأصغر وهو أحمد بن يُحيى بن الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن طباطَبا، وأخوه محمد بن يحيى، وهو الملّقب بالمرتَضَى، وأبوه يحيى بن الحسَنِ وهو الملقَّب بالهادي. ومن ولد الناصر الكبير الثائر، وهو جعفرُ بنُ محمد بن الحسن الناصر الكبير، وهم الأمراء بَطبَرِسْتان وجَيْلان وجُرْجان ومازَندران وسائر

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٦٥).

ممالك الدّيلم، ملكوا تلك الأصقاع مائةً وثلاثين سنة، وضَرَبوا الدنانيرَ والدّراهم بأسمائهم، وخُطب لهم على المنابر، وحَاربوا الملوكَ السامانيّة، وكسروا جُيوشهم، وقتَلوا أمراءَهم، فهؤلاء واحدُهم أعظمُ كثيراً من ملوك بني أميّة، وأطوَل مدّة وأعدَل وأنصَف وأكثر نُسكاً وأشدّ حضّاً على الأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، وممن يَجرِي مجراهم الدّاعي الأكبر والداعي الأصغر مَلِكا الدّيلم، قادَا الجُيوش، واصطَنَعا الصنَائع.

قالوا: ولنا ملوكُ مِصر وإفريقيَة، ملَكوا مائتين وسبعين سنة، فَتحوا الفُتوح واستردّوا ما تغلّب عليه الروم من مملكة الإسلام، واصطنعوا الصنائع الجليلة.

ولهم الكُتّاب والشعراء والأمراء والقوّاد، فأوّلهم المهدي عبيد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب وآخِرُهم العاضد، وهو عبد الله ابن الأمير أبي القاسم ابن الحافظ أبي الميمون بن المستعلي بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي. فإن افتخرت الأمويّة بملوكها في الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك، واتصال ملكهم وجعلوهم بإزاء مُلوكنا بمصر وإفريقية، قلنا لهم: ألا إنا نحنُ أزَلْنا ملكَكُم بالأندلس، كما أزَلْنَا مُلككم بالشام والمشرق كله، لأنّه لمّا ملك قُرْطبَة الظافرُ من بني أميّة وهو سليمان بنُ الحكم بن عبد الرحمن الملقب بالناصر، خرج عليه عليّ بن حميد بن ميمون بن أحمد بن عليّ بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقتله، وأزال مُلكه. وملك قُرطُبة دارَ ملك بني أمية، ويلقب بالنّاصر. ثم قام بعده أخوه القاسم بنُ حَمّود، ويلقب بالمعتلي، فنحن قتلناكم وأزَلْنَا مُلككم في المشرق والمغرب، ونحن لكم على الرَّصد حيث كنتم، اتبعناكم فقتلناكم وشرَّدْناكم كلَّ مشرَّد، والفخرُ للغالب على المغلوب، بهذا قضت الأمم قاطبة.

قالوا: ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله، منّا يحيى بنُ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، كان شُجاعاً جَرِيئاً وهو الذي وَلِيَ المَوْصِلَ لأخيه السّفاح فاستعرض أهلها، حتى ساخت الأقدام في الدم.

ومنّا يعقوب بنُ إبراهيم بن عيسى بن أبي جعفر المنصور، كان شاعراً فصيحاً، وهو المعروف بأبي الأسباط، ومنّا محمد وجعفر ابنا سليمان بن عليّ، كانا أعظم من ملوك بني أميّة، وأجلّ قَدْراً وأكثرَ أموالاً ومكاناً عند الناس. وأهدَى محمد بنُ سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصِيفة في يدِ كلِّ واحدة منهن جامٌ من ذهب وزنُه ألفُ مثقال، مملوء مِسْكاً، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السُّودان خاصّة، فكم يكون ليتَ شعري غيرهم من البيض ومن الإماء! وما رُئي جعفر بن سليمان راكباً قط إلا ظُنّ أنه الخليفة.

ومن رجالنا محمد بنُ السّفاح، كان جواداً أيّداً[1] شديد البَطْش، قالوا ما رُئيَ أخوان أشدّ قوةً من محمد وريْطة أخته وَلدَي أبي العبّاس السّفاح، كان محمد يأخذ الْحَدِيد فيَلويه فتأخذه هي فتردّه.

ومن رجالنا محمد بن إبراهيمَ طَباطَبا صاحب أبي السَّرَايا، كَان ناسكاً عابداً فقيهاً عظيم القَدْر عند أهل بيته وعند الزيْدِيّة.

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبدِ الله بن العباس، وهو الذي شيّد مُلْك المنصور وحارَبَ ابْنَي عبدِ الله بن حسن، وأقام عمودَ الخلافة بعد اضطرابه، وكان فصيحاً أديباً شاعراً.

ومن رجالنا عبدَ الوهاب بن إبراهيم الإمام، حَجّ بالناس وَوليَ الشّام، وكان فصيحاً خطيباً.

ومن رِجالِنا عبد الله بن موسى الهادي، كان أكرمَ الناس وَجواداً ممدُوحاً أديباً شاعراً، وأخوه عيسى بن موسى الهادي، كان أكرَمَ الناسِ، وأجوَدَ الناسِ، كان يلبس الثياب، وقد حدَّد ظُفرَه فَيخرِقها بظفره لئلا تعادَ إليه. وعبد الله بنُ أحمد بن عبدِ الله بن موسى الهادي، وكان أديباً ظريفاً.

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله، كَان أوحَدَ الدّنيا في الشّعرِ والأدَب والأمثال الحكمية والسؤدد والرياسَة، كان كما قيل فيه لمَّا قُتِل:

لله دَرُّك مـن مَـيْـتٍ بـمَـضـيـعَـةٍ ... ناهيكَ في العِلم والأشعارِ والخطبِ
مـا فـيـه لَـوٌّ ولا لَـوْلا فَـتَـنْـقُـصَـه ... وإنـمـا أدركَـتْـهُ حِـرْفَـةُ الأدبِ

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الْحُسين بنُ موسى شيخُ بني هاشم الطالبِيِّين والعبّاسيّين في عصره، ومن أطاعَه الخلفاء والمُلوك في أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله، وابناه عليّ ومحمد وهما المرتضى والرضي، وهما فريدا العَصْر في الأدب والشِّعْر والفقه والكلام، وكان الرّضي شجاعاً أديباً شديد الأنف.

ومن رجالِنا القاسمُ بن عبدِ الرحيم بن عيسى بن موسى الهادي، كان شاعراً ظريفاً.

ومن رجالنا القاسمُ بن إبراهيم طباطبا. صاحب المصنّفات والوَرَع والدّعاء إلى الله وإلى التوحيد والعَدْل ومنابذة الظالمين، ومن أولاده أمَراء اليَمن.

ومن رجالنا محمد الفأفاء بن إبراهيم الإمام، كان سيّداً مُقدَّماً، ولي الموسمَ وحجّ بالناس، وكان الرشيد يُسايره، وهو مقنّع بطَيلَسانه.

ومن رِجالِنا محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحُسَين صاحب أبي السَّرايا، سادَ حَدَثاً،

---

(١) أيّداً: قويّاً، اللسان، مادة (أيد).

وكان شاعراً أديباً فقيهاً، يأمر بالمعروف ويَنهى عن المنكر، ولمّا أُسِرِ وحُمِل إلى المأمون أكرَمَه وأفَضل عليه، ورَعَى له فضْلَه ونَسَبَه.

ومِن رجالنا موسى بن عيسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس، كنيَتُه أبو عيسى، وهو أجلُّ ولدِ عيسى وأنبلُهم، وَلِيَ الكوفة وسَوَادَها زماناً طويلاً للمَهْدي، ثم الهادي، ووَلِيَ المدينَة وإفريقيَةَ ومصرَ للرّشيد، قال له ابن السّماك لمّا رأى تَواضُعه: إن تواضُعَك في شَرَفك لأحَبُّ إليّ من شَرَفك، فقال موسى: إن قومنا - يعني بني هاشم - يقولون: إن التواضع أحدُ مصَائِد الشّرف.

ومن رجالنا موسى بنُ محمد أخو السَّفّاح والمنصور، كان نبيلاً عندهم، هو وإبراهيمُ الإمام لأمٍّ واحدة، رأى في منامه قبل أن يصير من أمرهم ما صارَ أنّه دخل بُسْتاناً فلم يأخذ إلا عنقوداً واحداً عليه من الحب المتراصّ مَا رَبُّك به عليم، فلم يُولَد له إلا عيسى، ثم وُلد لعيسَى من ظهره أحدٌ وثلاثون ذكَراً وعشرون أنثى.

ومن رجالنا عبدُ الله بن الحسن بن الحَسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو عبدُ الله المحض، وأبوه الحسَن بن الحسن، وأمّه فاطمة بنتُ الحسَين، وكان إذا قيل: مَنْ أجمل الناس؟ قالوا: عبد الله بنُ الحسن، فإذا قيل: مَنْ أكْرم الناس؟ قالوا: عبد الله بن الحسن، فإذا قالوا: مَنْ أشرَف الناس؟ قالوا: عبدُ الله بنُ الحسَن.

ومن رجالنا أخوه الحسن بنُ الحسن، وعمّه زيدُ بنُ الحسن وبنوه محمد وإبراهيم وموسى ويحيى، أمّا محمد وإبراهيم فأمْرُهما مشهور، وفضلُهما غيرُ مَجْحود، في الفقه والأدب والنُّسُك والشجاعة والسؤدُد. وأما يحيى صاحبُ الدّيْلم فكان حَسَن المذهَب والهدى، مقدّماً في أهل بيته، بعيداً ممّا يُعابُ على مثله، وقَدْ روَى الحديثَ وأكثر الرّواية عن جعفر بن محمد، وَرَوى عن أكابر المحدّثين، وأوصَى جعفر بن محمد إليه لما حضرتْه الوَفاة وإلى ولده موسى بن جعفر. وأمّا موسى بن عبد الله بن الحسن، فكَان شاباً نجيباً صبوراً شجاعاً سخيّاً شاعراً.

ومن رجالنا الحسن المثلث، وهو الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، كَان مُتألّهاً فاضلاً وَرعاً، يذهب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مَذهَبَ أهله. وإبراهيم بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، كان مقدَّماً في أهله، يقال: إنه أشبَهُ أهل زمانه برسول الله صلى الله عليه وآله.

ومن رجالِنا عيسى بن زيد، ويحيى بن زيد أخوه، وكانا أفضَلَ أهل زمانهما شجاعة وزُهداً وفقهاً ونُسكاً.

ومن رجالنا يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زَيْد صاحب الدعوة. كان فقيهاً فاضلاً

شجاعاً فصيحاً شاعراً، ويقال: إن الناس ما أحبُّوا طالبيًّا قطّ دَعا إلى نفسِه حبَّهم يحيى، ولا رثي أحد منهم بمثل ما رثيَ به.

قال أبو الفَرَج الأصفهاني: كان يحيى فارساً شجاعاً شديد البَدَن، مجتمِع القلب، بعيداً عن زَهو الشباب وما يُعابُ به مثله، كان له عمودٌ حديدٌ ثقيلٌ يَصحبه في منزله، فإذا سَخِط على عبدٍ أو أمة من حَشمه لَواه في عُنقه فلا يَقدِر أحدٌ أن يحلّه عنه حتى يحلّه هو.

ومن رجالنا محمد بنُ القاسم بن عليّ بن عمر بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام صاحب الطالَقانِ، لقّب بالصوفيّ لأنه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض، وكان عالماً فقيهاً، ديّناً زاهداً، حسنَ المذهب، يقول بالعدْل والتوحيد.

ومن رجالنا محمد بنُ عليّ بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. كان من فتيان آل أبي طالب وُفتّاكهم وشُجعانِهم وظُرَفائهم وشُعَرائهم، وله شعرٌ لطيف محفوظ.

ومنهم أحمد بنُ عيسى بن زيد، كان فاضلاً عالماً مقدّماً في عَشيرته، معروفاً بالفضل، وقد رَوى الحديث ورُويَ عنه.

ومن رجالنا موسى بنُ جعفر بن محمد - وهو العبد الصالح - جَمَع من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر. وابنه عليّ بن موسى المرشح للخلافة، والمخطوب له بالعَهْد، كان أعلم الناس، وأسخَى الناس، وأكرمَ الناس أخلاقاً.

قالوا: وأمّا ما ذكرتم من أمر الشَّجَرة الملعونة، فإنّ المفسِّرين كلّهم قالوا ذلك ورَوَوْا فيه أخباراً كثيرةً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، ولستم قادرين على جَحْد ذلك، وقد عَرَفتم تأخّركم عن الإسلام وشدّة عداوَتكم للرّسول الدّاعي إليه، ومحاربتكم في بَدْر وأُحد والخندق، وصَدَّكم الهدْي عن البيت، وليس ذلك مما يوجب أن يعمّكم اللَّعْن حتى لا يغادر واحداً، فإن زعم ذلك زاعمٌ فقد تعدَّى. وأمّا اختصاصُ محمد بن عليّ بالوصية والخلافة دون إخوته، فقد علمتم أن وراثة السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثة الأموال، ألا ترى أن المرأة والصبي والمجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب! وسواءٌ في الأموال، كان الابن حارِضاً بائراً، أو بارعاً جامعاً.

وقيل: وراثة المقام سبيلُ وراثة اللواء، دفع رسول الله صلى الله عليه وآله لواء بني عبد الدار إلى مُصعب بن عمير، ودَفع عمر بن الخطاب لواء بني تميم إلى وكيع بن بشر، ثم دفعه إلى الأحنف حين لم يوجد في بني زرارة مَنْ يستحق وراثة اللواء، فإن كان الأمر بالسنّ فإنما كان بين محمد بن عليّ وأبيه عليّ بن عبد الله أربع عشرة سنة، كان عليّ يخضِب بالسَّواد، ومحمد

يخضِب بالحمرة، فكان القادم يقدُم عليهما، والزائر يأتيهما، فيظُنّ أكثرهم أنّ محمداً هو عليّ، وأن علياً هو محمد، حتى ربما قيل لعليّ: كيف أصبح الشيخُ من عِلّته؟ ومتى رَجَعَ الشيخ إلى منزله؟ وأخرى أن أمه كانت العالية بنت عبد الله بن العباس، فقد ولده العبّاس مرتين، وولده جوادُ بني العباس، كما والده خيرُهم وحَبْرهم، ولم يكن لأحد من إخوته مثل ذلك. وكان بعض ولدِ محمد أسَنّ من عامة ولدِ عليّ، ووُلِدَ محمدُ المهدي بن عبد الله بن المنصور والعبّاس بن محمد بن عليّ في عام واحد، وكذلك محمد بن سليمان بن عليّ، ولم يكن لأحد من ولدِ عليّ بن عبد الله بن العباس - وإن كانوا فُضَلاء نجباء كُرَماء نبلاء - مثل عقله ولا كجماله، كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناسُ على أبواب دُورهم والنّساءُ على سطوحهنّ للنظر إليه، والتعجّب من كماله وبهائه، وقد قاتل إخوته أعداءَه في دَفع الملك إلى ولده غير مكرهين ولا مجبَرين، على أن محمداً إنما أخذ الأمر عن أساس مؤسَّس، وقاعدةٍ مقرَّرة، ووصيّةٍ انتقلت إليه من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد، وأخذها محمد عن عليّ بن أبي طالب أبيه.

قالوا: لما سمّت بنو أمية أبا هاشمٍ مَرِض فخرج من الشام وَقِيذاً يؤمّ المدينة، فمرّ بالحميمة وقد أشفى، فاستدعَى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فدفع الوصيّة إليه، وعرّفه ما يصنَع، وأخبَرَه بما سيكون من الأمر، وقال له: إنّي لم أدفَعْها إليك من تلقاء نفسي، ولكنّ أبي أخبرني عن أبيه عليّ بن أبي طالب عليه السلام بذلك، وأمَرَني به، وأعلمَني بلقائي إيّاك في هذا المكان، ثم مات فتولّى محمّد بنُ علي تجهيزَه ودَفْنَه وبثّ الدُّعاةَ حينئذ في طَلَب الأمر، وهو الذي قال لرجال الدّعوة، والقائمين بأمر الدولة، حين اختارهم للتوجّه، وانتخبهم للدّعاء، وحين قال بعضهم: نَدْعو بالكوفة، وقال بعضهم: بالبَصْرة. وقال بعضهم: بالجزيرة. وقال بعضهم بالشام. وقال بعضهم: بمكّة وقال بعضهم: بالمدينة. واحتجّ كلُّ إنسانٍ لرأيه، واعتلّ لقوله - فقال محمد: أما الكوفة وسوادُها فشيعةُ عليٍّ ووَلَده، وأمّا البَصْرة فعُثمانيّة تَدِين بالكَفّ، وقَبِيلُ عبدِ الله المَقْتول يَدِينون بجمِيع الفِرَق، ولا يُعِينون أحداً، وأمّا الجزيرة فحَروريّة مارقة، والخارجيّة فيهم فاشية، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأمّا الشام فلا يَعرِفون إلا آل أبي سُفْيان، وطاعة بني مَروان، وعداوةً راسخةً، وجهلاً متراكماً، وأمّا مَكّة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعُمَر، وليس يتحرَّك معنا في أمرنا هذا منهم أحد، ولا يقوم بنَصْرنا إلّا شيعتنا أهل البيت، ولكن عليكم بخُراسان، فإنّ هناك العَدَدَ الكثير، والجلد الظاهر، وصُدوراً سليمة، وقلوباً مجتمعة، لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزّعها النِّحَل، ولم تَشغَلها ديانة، ولا هدم فيها فساد، وليس لهم اليوم همم العَرَب، ولا فيهم تجارب كتجارب الأتْباع مع السادات، ولا تَحالُفٌ كتحَالف القبائل، ولا عَصَبيّة كعصبيّة العشائر، وما زالوا يُنالُون

ويُمتَهنون، ويُظلمَون فيَكْظِمون، ويَنْتِظرون الفرج، ويؤمِّلون دَوْلة، وهم جندٌ لهم أبدان وأجسام، ومَناكبُ وكواهل، وهامات ولَحى، وشواربُ وأصوات هائلة، ولُغات فخمة، تَخْرج من أجواف مُنكَرة.

وبعد، فكأني أتفاءلُ جانبَ المَشرق فإنّ مطلَع الشمس سراجُ الدّنيا، ومصباح هذا الخَلْق. فجاء الأمرُ كما دبّر، وكما قدّر، فإن كان الرأي الّذي رأى صَواباً فقد وافق الرشاد، وطَبّق المِفْصَل، وإن كان ذلك عن رواية متقدّمة، فلم يتلقّ ذلك الرواية إلا عن نبوة.

قالوا: وأمّا قولكم: إنَّ منا رجلاً مكَثَ أربعين سنة أميراً وخليفة، فإنَّ الإمارة لا تعدّ فخراً مع الخلافة، ولا تُضَمّ إليها، ونحن نقول: إن مِنّا رجلاً مكَث سبعاً وأربعين سنة خليفة، وهو أحمد الناصرُ بن الحَسن المستضيء، ومِنّا رجلٌ مكث خمساً وأربعين سنةً خليفةً، وهو عبد الله القائم ومكث أبوه أحمد القادر ثلاثاً وأربعين سنة خليفة، فملكهما أكثر من مُلك بني أميّة كلّهم، وهم أربعة عشر خليفة. ويقول الطالبيون: منّا رجلٌ مَكَث ستين سنة خليفة، وهو مَعَدّ بن الظّاهر صاحبُ مصر، وهذه مُدّة لم يبلُغْها خليفة ولا مَلِك من مُلوك العَرَب في قديم الدَّهْر ولا في حَدِيثه.

وقلتم لنا: عاتكة بنت يزيد يكتَنِفُها خمسةٌ من الخُلفاء، ونحن نقول: لنا زُبَيْدة بنتُ جَعْفر يكتَنِفُها ثمانية من الخلفاء، جدّها المنصورُ خليفة، وعمُّ أبيها السفّاح خليفة وعمُّها المهديّ خليفة، وابنُ عمّها الهادي خليفة، وبعلها الرشيد خليفة، وابنها الأمين خليفة، وابنا بعْلها المأمونُ والمعتصمُ خليفتان.

قالوا: وأما ما ذكرتموه من الأعياص والعَنابس فلَسْنا نُصدّقكم فيما زَعَمْتُموه أصْلاً بهذه التَّسْمِية، وإنما سُمّوا الأعياص لمَكانِ العِيص وأبي العِيص والعاص وأبي العاص، وهذه أسماؤهم الأعلام ليست مشتَّقةً من أفعالٍ لهم كريمة ولا خسيسة. وأما العنابس، فإنّما سُمّوا بذلك لأنّ حَرْب بنَ أميّة كان اسمُه عَنْبَسة، وأما حَرْبٌ فَلَقبه، ذكَر ذلك النّسّابون، ولمّا كان حَرْب أمثَلَهم سَمَّوْا جماعتَهم باسمه، فقيل: العَنَابس، كما يقال: المَهالبة والمَناذِرة، ولهذا المعنى سُمِّيَ أبو سفيان بن حَرْب ابن عَنبسة، وسُمِّي سَعِيدُ بنُ العاص ابن عَنْبَسة.

تم الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

ويليه الجزء السادس عشر

شرح نهج البلاغة

الجزء السادس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

٢٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة

الأصل: وَقَدْ كَانَ مِنَ ٱنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ، فَعَفَوْت عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ ٱلسَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ، فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ ٱلْأُمُورُ ٱلْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ ٱلآرَاءِ ٱلْجَائِرَةِ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلافِي، فِهَأَنَذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي.

وَلَئِنْ ٱلْجَأْتُمُونِي إِلَى ٱلْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لا يَكُونُ يَوْمُ ٱلْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لاعِقٍ، مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي ٱلطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهماً إِلَى بَرِيٍّ، وَلا نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ.

الشرح: ما لم تغبُوا عنه، أي: لم تسهوا عنه ولم تغفلوا، يقال: غبيتُ عن الشيء أغبى غباوة، إذا لم يفطُن، وغِبِي الشيءُ عليّ كذلك إذا لم تعرفه، وفلان غبيّ على «فعيل»، أي قليل الفِطْنة، وقد تَغَابى، أي تغافل، يقول لهم: قد كان من خروجكم يومَ الجمل عن الطاعة، ونشرِكم حبلَ الجماعة، وشقاقِكم لِي ما لستم أغبياء عنه، فغفرت ورفعت السيف، وقبلت التوبة والإنابة.

والمدبر هاهنا: الهارب، والمقبِل: الّذي لم يفرّ، لكن جاءنا فاعتذر وتنصّل.

ثم قال: فإن خطت بكم الأمور، خطا فلان خُطوة يخطُو، وهو مقدار ما بين القَدمين، فهذا لازم، فإن عدّيته، قلت: أخطيت بفلان، وخطوت به، وها هنا قد عدّاه بالباء.

والمردية: المهلكة، والجائرة: العادلة عن الصواب. والمنابذة، مفاعلة، من نبذتُ إليه عهدَه، أي: ألقيته وعدلت عن السِّلم إلى الحرب، أو من نبذت زيداً، أي اطّرحته ولم أحفل به.

قوله: «قربّت جيادي»، أي أمرت بتقريب خيلي إليّ لأركب وأسير إليكم.

ورحلت ركابي، الرّكاب الإبل، ورحلتها: شددت على ظهورها الرَّحل، قال:

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أَجْمَالَهَا ... غَضبى عَلَيْكَ فما تَقُولُ بَدَا لَها

كلَعقة لاعق، مثل يضرب للشيء الحقير التّافه، ويروى بضم اللام، وهي ما تأخذه المِلْعقة.

ثم عاد فقال مازجاً الخشونةَ باللِّين: مع أني عارف فضلَ ذي الطاعة منكم، وحقّ ذي النصيحة، ولو عاقبت لما عاقبت البريء بالسقيم، ولا أخذت الوفيّ بالناكث.

خطب زياد بالبصرة الخطبة الغرّاء المشهورة، وقال فيها: والله لآخذنّ البريء بالسقيم، والبرّ باللّئيم، والوالد بالولد، والجار بالجار، أو تستقيم إلي قَنَاتُكم. فقام أبو بلال مِرداس بن أدَيّة يهمس، وهو حينئذ شيخ كبير، فقال: أيّها الأمير، أنبأنا الله بخلاف ما قلت، وحكم بغير ما حكمت، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١)، فقال زياد: يا أبا بلال، إني لم أجهل ما علمت، ولكنّا لا نخلُص إلى الحق منكم حتى نخوض إليه الباطل خوضاً.

وفي رواية الرياشيّ: «لآخذن الوليّ بالوليّ»، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم، حتى يلقَى الرّجل منكم أخاه فيقول: انجُ سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قَناتُكم.

٣٠ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: فَاتَّقِ ٱللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَٱنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَٱرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا ٱلْأَكْيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا ٱلْأَنْكَاسُ، مَنْ نَكَبَ عَنْها جَارَ عَنِ ٱلْحَقِّ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ ٱللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ.

فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ ٱللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرًّا، وَأَقْحَمَتْكَ غَيًّا، وَأَوْرَدَتْكَ المَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ المَسَالِكَ.

الشرح: قوله: «وغاية مُطلبة»، أي مساعفة لطالبها بما يطلبه، تقول: طلب فلان مِنّي كذا فأطلبتُه، أي: أسعفت به. قال الراوندي: مطلّبة بمعنى متطلّبة، يقال: طلبت كذا وتطلّبته، وهذا ليس بشيء، ويخرِج الكلام عن أن يكون له معنى.

والأكياس: العقلاء، والأنكاس: جمع نِكْس، وهو الدنيء من الرجال، ونكب عنها: عدَل.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

قوله: «وحيث تناهت بك أمورك»، الأوْلى ألّا يكون هذا معطوفاً ولا متصلاً بقوله: فقد بين الله لك سبيلك، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف: حيث أنت، أي قف حيث أنت، فلا يذكرون الفعل، ومثله قولهم: مكانَك، أي قف مكانك.

قوله: «فقد أجريت»، يقال: فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا، أي الغاية التي يقصدها هي كذا، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة، وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا، أي انتهى به إلى كذا. ويروى: «قد أوْحلتك شرّاً» أو أورطتك في الوحل، والغَيّ ضدُّ الرشاد. وأقحمتك غيًّا: جعلتك مقتحماً له. وأوعرت عليك المسالك: جعلتها وعِرة.

وأوّل هذا الكتاب: أمّا بعد، فقد بلَغني كتابُك تذكر مشاغبتي، وتستقبح موازرتي، وتزعمني متحيِّراً وعن الحق مقصّراً، فسبحان الله، كيف تستجيز الغيبة، وتستحسن العضيهة! إنّي لم أشاغب إلّا في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، ولم أتجبّر إلا على باغ مارق، أو ملحد منافق، ولم آخذ في ذلك إلا بقول الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾(١)، وأما التقصير في حق الله تعالى فمعاذ الله! وإنّما المقصّر في حقّ الله جلّ ثناؤه مَنْ عطّل الحقوق المؤكّدة، وركن إلى الأهواء المبتدعة، وأخلد إلى الضّلالة المحيّرة، ومن العجب أن تصِفَ يا معاوية الإحسان، وتخالف البرهان، وتنكث الوثائق التي هي لله عزّ وجلّ طَلِبة، وعلى عباده حجّة، مع نبذ الإسلام، وتضييع الأحكام، وطمْس الأعلام، والجري في الهوى، والتهوّس في الرّدى، فاتق الله فيما لديك، وانظر في حقّه عليك الفصل المذكور في الكتاب.

وفي الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضيّ رحمه الله، منها:

وإنّ للناس جماعة يد الله عليها، وغضب الله على مَنْ خالفها، فنفسَك نفسَك قبل حلول رمسِك، فإنّك إلى الله راجع، وإلى حشره مُهْطِع وسيبهظك كربه، ويحلّ بك غمُّه، في يوم لا يغني النادمَ ندمُه، ولا يُقبَل من المعتذِر عُذرُه، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾(٢).

٣١ - ومن وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام
كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين

الأصل: مِنَ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَانِ، ٱلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، ٱلْمُدْبِرِ ٱلْعُمُرِ، ٱلْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ ٱلْمَوْتَى، الظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً.

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٤١.

إِلَى ٱلْمَوْلُودِ ٱلْمُؤَمِّلِ مَا لا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ ٱلْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ المَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ ٱلْغُرُورِ، وَغَرِيمِ المَنَايَا، وَأَسِيرِ ٱلْمَوْتِ، وَحَلِيفِ ٱلْهُمُومِ، وَقَرِينَ ٱلْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ ٱلْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ.

الشرح: قال الزبير بن بكار في كتاب «أنساب قريش»[(١)]: ولد الحسن بن عليّ عليه السلام للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله حسَناً، وتوفّي للياليٍ من شهر ربيع الأول سنة خمسين.

قال: والمرويّ أن رسول الله صلى الله عليه وآله سمّى حسناً وحسيناً رضي الله عنهما يوم سابعهما[(٢)]، واشتقّ اسم حسين من اسم حسن[(٣)].

قال: وروى جعفر بن محمد عليه السلام أن فاطمة عليها السلام حلَقت حسناً وحُسيناً يوم سابعهما ووزنت شعرهما فتصدّقت بوزنه فضة[(٤)].

قال الزُّبير: وروت زينب بنت أبي رافع، قالت: أتتْ فاطمة عليها السلام بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شَكْوِه الذي توفّيَ فيه، فقالت: يا رسولَ الله، هذان ابناك، فورِّثْهما شيئاً، فقال: «أمّا حسن فإن له هيبتي وسُؤدَدِي، وأما حسين فإن له جراءتي وجُودي»[(٥)].

وروَى محمّد بن حبيب في أماليه أنّ الحسن عليه السلام حجّ خمس عشرة حجّة ماشياً تُقاد الجنائب معه، وخرج من ماله مرّتين، وقاسم الله عزّ وجلّ ثلاث مرات مالَه، حتى أنه كان يعطي نعلاً ويُمسك نعلاً، ويعطِي خُفًّا، ويمسِك خُفًّا[(٦)].

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب أيضاً أنّ الحسن عليه السلام أعطى شاعراً، فقال له رجل من

(١) أنساب قريش: لأبي عبد الله زبير بن بكار القرشي المتوفى سنة (٢٥٦هـ)، «كشف الظنون» (١/ ١٧٩).
(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٠٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧٩٧٩).
(٣) أخرجه أحمد بن عبد الله الطبري في ذخائر العقبى: ١١٩.
(٤) أخرجه أحمد بن عبد الله الطبري في ذخائر العقبى: ١١٩.
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٤١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٨٥).
(٦) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٣/ ٢٥٧، رقم: ٣٥.

جلسائه: سبحانَ الله! أتعطي شاعراً يعصي الرحمن، ويقول البهتان! فقال: يا عبدَ الله، إنّ خير ما بذلت من مالك ما وَقيْت به عِرْضَك، وإنّ من ابتغاءِ الخير اتّقاء الشرّ(١).

وروى أبو جعفر، قال: قال ابنُ عباس رحمه الله: أوّل ذُلّ دخل عَلَى العرب موتُ الحسن عليه السلام (٢).

وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: سُقِيَ الحسن عليه السلام السمّ أربعَ مرات، فقال: لقد سقيتُه مراراً فما شقّ عليّ مثل مشقته هذه المرّة. فقال له الحسين عليه السلام: أخبِرْني مَنْ سقاك؟ قال: لتقتلَه؟ قال: نعم، قال: ما أنا بمخبرك، إن يكن صاحبي الذي أظنّ فالله أشدّ نِقمة، وإلا فما أحبُّ أن يُقتل بي بريء(٣).

وروى أبو الحسَن، قال: قال معاوية لابن عبّاس، ولقيه بمكّة: يا عجباً من وفاة الحسن! شرب علّة بماء رومة، فقضى نحبَه، فوَجَم ابنُ عبّاس، فقال معاوية: لا يحزنك ولا يسوءك، فقال: لا يسوءني ما أبقاك الله! فأمر له بمائة ألف درهم.

وروى أبو الحسن قال: أوّلُ من نَعى الحسنَ عليه السلام بالبصرة عبد الله بن سَلَمة، نعاه لزياد، فخرج الحكم بن أبي العاص الثقفيّ، فنعاه، فبكى الناس - وأبو بكرة يومئذٍ مريض، فسمع الضّجّة، فقال: ما هذا؟ فقالت امرأته ميسة بنت سخام الثقفيّة: مات الحسن بن عليّ، فالحمد لله الذي أراح الناس منه! فقال: اسكتي ويحك! فقد أراحه الله من شرّ كثير، وفقد الناسُ بموته خيراً كثيراً، يرحم الله حسناً(٤)!

قال أبو الحسن المدائنيّ: وكانت وفاته في سنة تسع وأربعين، وكان مرضه أربعين يوماً، وكانت سنّه سبعاً وأربعين سنة، دسّ إليه معاوية سمًّا على يد جَعْدة بنت الأشعث بن قيْس زوجة الحسن، وقال لها: إن قتلتِه بالسّمّ فلك مائة ألف، وأزوّجك يزيد ابني. فلما ماتَ وفَى لها بالمال، ولم يزوّجْها من يزيد. قال: أخشى أن تصنع بابني كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيّب بن نجبَة، قال: سمعتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام، يقول: أنا أحدّثكم عنّي وعن أهل بيتي، أمّا عبد الله ابن أخي فصاحب لهو وسَماح، وأمّا الحسنُ فصاحب جَفْنة وخِوان، فتًى من فتيان قريش، ولو قد التقتْ حَلْقتا البِطان لم يُغن عنكم شيئاً في الحرب، وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منّا.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٣/٢٥٨ رقم: ٣٥.
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ١٣/ ٢٩٥.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٤/ ١٤٥.
(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ١٠/ ٢٩٦.

قال أبو جعفر: وروى ابن عباس، قال: دخل الحسن بن عليّ عليه السلام على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس في مجلس ضيّق، فجلس عند رجليه، فتحدَّث معاوية بما شاء أن يتحدّث، ثم قال: عجباً لعائشة! تزعم أنّي في غير ما أنا أهله. وأنّ الذي أصبحت فيه ليس لي بحقّ، ما لها ولهذا! يغفر الله لها، إنما كان ينازعني في هذا الأمر أبو هذا الجالس، وقد استأثر الله به، فقال الحسن: أو عجب ذلك يا معاوية! قال: إي والله، قال: أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا؟ قال: ما هو؟ قال: جلوسك في صدْر المجلس وأنا عند رجليك، فضحك معاوية، وقال: يا بن أخي، بلغني أنّ عليكَ ديْناً، قال: إن لعليّ ديناً، قال: كم هو؟ قال: مائة ألف، فقال: قد أمرنا لك بثلاثمائة ألف، مائة منها لديْنِك، ومائة تقسمها في أهل بيتك، ومائة لخاصة نفسك فقم مكرَّماً، واقبض صِلَتك. فلما خرج الحسن عليه السلام، قال يزيد بن معاوية لأبيه: تالله ما رأيتُ رجلاً استقبلك بما استقبلك به، ثم أمرت له بثلاثمائة ألف! قال: يا بنيّ، إن الحقّ حقهم، فمن أتاك منهم فاحْثُ له[1].

وروَى أبو جعفر محمد بن حبيب، قال: قال عليّ عليه السلام: لقد تزوّج الحسن وطلّق حتى خفتُ أن يثير عداوة، قال أبو جعفر: كان الحسنُ إذا أراد أن يطلب امرأةً جلس إليها، فقال: أيسرّك أن أهبَ لك كذا وكذا؟ فتقول له ما شئت، أو نعم، فيقول: هو لك، فإذا قام أرسل إليها بالطلاق، وبما سَمَّى لها.

وروي أبو الحسن المدائنيّ، قال: تزوّج الحسن بن عليّ عليه السلام هنداً بنت سهيل بن عمرو - وكانت عند عبد الله بن عامر بن كُرَيز، فطلّقها - فكتب معاوية إلى أبي هريرة أن يخطبَها على يزيد بن معاوية، فلقيَه الحسن عليه السلام، فقال: أين تريد؟ قال: أخطب هنداً بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية، قال الحسن عليه السلام: فاذكرني لها، فأتاها أبو هريرة، فأخبرها الخبر، فقالت: اخترْ لي، فقال: أختار لك الحسن. فتزوّجته، فقدم عبد الله بن عامر المدينة فقال للحسن: إن لي عند هند وديعةً، فدخل إليها والحسن معه، فخرجت حتى جلست بيت يدي عبد الله بن عامر، فرقّ لها رِقّة عظيمة، فقال الحسن: ألا أنزل لك عنها؟ فلا أراك تجد محلّلاً خيراً لكما مني! قال: لا، ثم قال لها: وديعتي، فأخرجت سَفَطين[2] فيهما جوهر، ففتحهما وأخذ من أحدهما قبضة وترك الآخر عليها، وكانت قبل ابن عامر عند عبد الرحمن بن عتّاب بن أسد، فكانت تقول: سيّدهم جميعاً الحسن، وأسخاهم ابن عامر، وأحبّهم إليّ عبدُ الرحمن بن عتاب.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٤/١٠٩.

(٢) السَّفَطين: مثنى مفرده: سفط: وهو الذي يُعَبّى فيه الطِّيبُ وما أشبهه من أدوات النساء. اللسان، مادة (سفط).

وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: تزوّج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان المنذر بن الزبير يهواها، فأبلغ الحسن عنها شيئاً فطلّقها، فخطبها المنذر، فأبت أن تتزوجه، وقالت: شهّر بي! فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب، فتزوّجها، فأبلغه المنذر عنها شيئاً فطلقها، فخطبها المنذر، فقيل لها: تزوجيه، فقالت: لا والله ما أفعل، وقد فعل بي ما قد فعل مرتين، لا والله لا يراني في منزله أبداً.

وروى المدائنيّ، عن جويرية بن أسماء، قال: لما مات الحسن عليه السلام، أخرجوا جنازته، فحمل مروان بن الحكم سريرَه، فقال له الحسين عليه السلام: تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ؟ قال مرْوان: نعم، كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال.

وروي المدائنيّ عن يحيى بن زكريا، عن هشام بن عروة، قال: قال الحسن عند وفاته: ادفنوني عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن تخافوا أن يكون في ذلك شرّ، فلمّا أرادوا دفنه، قال مروان بن الحكم: لا يدفَن عثمان في حَشّ كوكب، ويدفن الحسن هاهنا، فاجتمع بنو هاشم وبنو أميّة، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم، وجاؤوا بالسّلاح، فقال أبو هريرة لمرْوان: أتمنع الحسن أن يدفن في هذا الموضع، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»[1]! قال مروان: دعنا منك، لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبي سعيد الخدريّ! وإنما أسلمتَ أيام خيبر، قال أبو هريرة: صدقت، أسلمت أيام خيبر، ولكنّني لزمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أكن أفارقه، وكنت أسأله، وعُنيت بذلك حتى علمت مَنْ أحبّ ومَنْ أبغض، ومَن قرّب ومَن أبعد، ومن أقرّ ومَن نفى، ومَنْ لعن ومَنْ دعا له، فلما رأت عائشة السّلاح والرجال، وخافت أن يعظم الشرّ بينهم، وتسفك الدماء، قالت: البيت بيتي، ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه، وأبى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلا مع جدّه، فقال له محمد بن الحنفيّة: يا أخي إنه لو أوصى أن ندفنه لدفنّاه أو نموت قبل ذلك، ولكنه قد استثنى، وقال: «إلا أن تخافوا الشرّ»، فأي شرّ يرى أشدّ مما نحن فيه! فدفنوه في البقيع[2].

قال أبو الحسن المدائنيّ: وصل نعيُ الحسن عليه السلام إلى البَصْرة في يومين وليلتين، فقال الجارود بن أبي سَبْرة:

إذا كان شرٌّ سار يوماً وليلةً   وإن كان خيرٌ أخّر السَّيْر أربعا

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين (٣٧٦٨)، وابن ماجه، كتابه: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٨)، وأحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١٠٦١٦).

(٢) أخرجه ابن عساكر في ترجمة الإمام الحسن: ٢٤٤.

إذا ما بَرِيد الشرّ أقبل نحوَنا   بإحدى الدّواهي الرُّبْد[1] سارَ وأسْرَعا

وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلْح الحسن عليه السلام له فأرسل معاوية إلى الحسن عليه السلام يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج، فقال الحسن: سبحان الله! تركتُ قتالك وهو لي حلال لصلاح الأمة وألفتهم، أفتراني أقاتل معك! فخطب معاوية أهلَ الكُوفة، فقال: يا أهل الكوفة، أتروْني قاتلتكم على الصّلاة والزّكاة والحجّ، وقد علمتُ أنكم تصلُّون وتزكّون وتحجون ولكنّني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابِكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا إنّ كلّ مالٍ أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلُولٌ، وكلّ شرط شرطته فتحت قدميّ هاتين، ولا يُصلِح النّاسَ إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محلّه، وإقفال الجنود لوقتها، وغَزْو العدوّ في داره، فإنّهم إن لم تغزوهم غَزَوْكم. ثم نزل[2].

قال المدائنيّ: فقال المسيّب بن نَجبَة للحَسن عليه السلام: ما ينقضي عجبِي منك! بايعتَ معاوية ومعك أربعون ألفاً، ولم تأخذ لنفسك وثيقةً وعقداً ظاهراً، أعطاك أمراً فيما بينك وبينه، ثم قال ما قد سمعت، والله ما أراد بها غيرك، قال: فما ترى؟ قال: أرى أن ترجعَ إلى ما كنت عليه، فقد نقض ما كان بينه وبينك. فقال: يا مسيّب، إني لو أردت بما فعلت الدّنيا لم يكن معاوية بأصبرَ عند اللّقاء، ولا أثبتَ عند الحرب منّي، ولكني أردت صلاحكم، وكفّ بعضِكم عن بعض، فارضوا بقَدر الله وقضائه، حتى يستريح برّ، أو يُستراح من فاجر.

قال المدائنيّ ودخل عُبيدة بن عمرو الكِنديّ على الحسن عليه السلام - وكان ضُرِب على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عبادة - فقال: ما الذي أرى بوجهك؟ قال: أصابني مع قيس. فالتفت حُجْر بن عديّ إلى الحسن، فقال: لوددت أنك كنتَ مِتّ قبل هذا اليوم، ولم يكن ما كان، إنّا رجعنا راغمين بما كرهنا، ورجعوا مسرورين بما أحبّوا. فتغيّر وجهُ الحسن، وغمز الحسين عليه السلام حُجْراً، فسكت، فقال الحسن عليه السلام: يا حجْرُ، ليس كلّ النّاس يحبّ ما تحبّ ولا رأيه كرأيك، وما فعلت إلا إبقاء عليكَ، والله كلَّ يوم في شأن.

قال المدائنيّ: ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النّهديّ، فقال له: السّلام عليك يا مذِلّ المؤمنين! فقال الحسن: اجلس يرحمك الله، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رُفِع له مُلْك بني أميّة، فنظر إليهم يَعلُون منبره واحداً فواحداً، فشقّ ذلك عليه، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً قال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[3]. وسمعت عليّاً أبي رحمه الله

---

(١) الربد: في النعام سواد مختلَط، وقيل: أن يكون لونها كله سواداً، اللسان، مادة (ربد).

(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ١٠/ ١٦٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

يقول: سيَلِي أمْر هذه الأمّة رجل واسع البُلْعوم، كبير البطن، فسألته: من هو؟ فقال: معاوية. وقال لي: إن القرآن قد نطق بملك بني أمية ومدّتهم، قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾(١)، قال أبي: هذه ملك بني أمية.

قال المدائني: فلمّا كان عام الصلح، أقام الحسن عليه السلام بالكوفة أيّاماً، ثم تجهّز للشخوص إلى المدينة، فدخل عليه المسيّب بن نجبَةَ الفَزاريّ وظبيان بن عُمارة التيميّ ليودّعاه، فقال الحسن: الحمد لله الغالب على أمْرِه، لو أجمع الْخَلق جميعاً على ألّا يكون ما هو كائن ما استطاعوا. فقال أخوه الحسين عليه السلام: لقد كنت كارهاً لمّا كان طيّب النفس على سبيل أبي حتى عزم عليّ أخي، فأطعته، وكأنما يجذّ أنفي بالمواسي، فقال المسيّب: إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تُضاموا وتنتقصوا، فأمّا نحن، فإنهم سيطلبون مودّتنا بكل ما قدروا عليه، فقال الحسين: يا مسيّب، نحن نعلم أنك تحبّنا، فقال الحسن عليه السلام: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أحبّ قوماً كان معهم»(٢)، فعرض له المسيّب وظبيان بالرجوع، فقال: ليس لي إلى ذلك سبيل، فلما كان من غدٍ خرج، فلمّا صار بديرِ هندٍ نظر إلى الكوفة، وقال:

وَلا عَنْ قِلًى فارقتُ دارَ مَعاشري ... هم المانعون حَوْزتي وذِمارِي(٣)

ثم سار إلى المدينة.

قال المدائنيّ: فقال معاوية يومئذٍ للوليد بن عُقْبة بن أبي مُعيط بعد شخوص الحسن عليه السلام: يا أبا وهب، هل رمت؟ قال: نعم، وسموت.

قال المدائنيّ: أراد معاوية قولَ الوليد بن عقبة يحرّضه على الطلب بدم عثمان:

ألا أبْلغْ مُعاويةَ بن حربٍ ... فإنّك من أخي ثقة مُليمُ
قطعت الدّهر كالسّدِم المعنّى ... تهدّرُ في دمشق ولا تريمُ
فلو كنت القتيل وكان حيًّا ... لشمّر لا ألفٌ ولا سؤوم
وإنّك والكتاب إلى عليٍّ ... كدابغةٍ وقد حَلِم الأديمُ

وروى المدائنيّ، عن إبراهيم بن محمد، عن زيد بن أسلم، قال: دخل رجل على

---

(١) سورة القدر، الآية: ٣.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٩٤)، بلفظ: «حشر معهم» وللحاكم (٨١٦١) بلفظ: «ولا يحب رجلاً قوماً إلا كان معهم»، والطبراني (٢٥١٩)، بلفظ: «حشره الله في زمرتهم».

(٣) ذمار الرجل: كل ما يلزمه حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه، وإن ضيعه لزمه اللوم، وقال أبو عمرو: الذمار الحَرَمَ والأهل، والذمارة: الحوزة والجشم. اللسان، مادة (ذمر).

الحسن عليه السلام بالمدينة، وفي يده صحيفة، فقال له الرجل: ما هذا؟ قال: هذا كتاب معاوية، يتوعّد فيه على أمر كذا، فقال الرجل: لقد كنت على النّصف، فما فعلت؟ فقال له الحسن عليه السلام: أجلْ، ولكنّي خشيت أن يأتيَ يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً، تشخب أوداجُهم دماً، كلّهم يستعدِي الله فيم هُريق دمه!

قال أبو الحسن: وكان الحصين بن المنذر الرقاشيّ يقول: والله ما وفى معاوية للحسن بشيء ممّا أعطاه، قتل حُجْراً وأصحابَ حُجْر، وبايع لابنه يزيد، وسمّ الحسن.

قال المدائنيّ: وروى أبو الطفيل، قال: قال الحسن عليه السلام لمولًى له: أتعرف معاوية بن خديج؟ قال: نعم، قال: إذا رأيته فأعلمني، فرآه خارجاً من دار عمرو بن حريث، فقال: هو هذا! فدعاه، فقال له: أنت الشّاتم عليّاً عند ابن آكلة الأكباد! أما والله لئن وردت الحوض ولن ترده لترينه مشمراً عن ساقيه، حاسراً عن ذراعيه، يذود عنه المنافقون.

قال أبو الحسن: وروى هذا الخبر أيضاً قيس بن الربيع، عن بدر بن الخليل، عن مولى الحسن عليه السلام.

قال أبو الحسن: وحدّثنا سليمان بن أيّوب، عن الأسود بن قيس العبديّ، أن الحسن عليه السلام لقي يوماً حبيب بن مسلمة فقال له: يا حبيب، ربّ مسيرٍ لك في غير طاعة الله! فقال: أمّا مسيري إلى أبيك فليس من ذلك، قال: بلى والله، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة، فلئن قام بك في دنياك، لقد قعد بك في آخرتك، ولو كنت إذْ فعلت شرّاً قلت خيراً، كان ذلك، كما قال عز وجل: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[1]، ولكنك كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

قال أبو الحسن: طلب زياد رجلاً من أصحاب الحسن، ممن كان في كتاب الأمان، فكتب إليه الحسن:

من الحسن بن عليّ إلى زياد، أمّا بعد، فقد علمت ما كنّا أخذنا من الأمان لأصحابنا، وقد ذكر لي فلانٌ أنك تعرّضت له، فأحبّ ألّا تعرض له إلّا بخير. والسلام.

فلما أتاه الكتاب، وذلك بعد ادّعاء معاوية إياه غضِب حيث لم ينسبه إلى أبي سفيان، فكتب إليه:

من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن، أما بعد، فإنه أتاني كتابك في فاسق تؤويه الفسّاق من

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

شيعتك وشيعة أبيك، وايمُ الله لأطلبّنه بين جلدِك ولحمك، وإن أحبَّ الناس إليّ لحماً أن آكلَه للحْمٌ أنت منه والسلام.

فلما قرأ الحسن عليه السلام الكتاب، بعث به إلى معاوية، فلما قرأه غضب وكتب:

من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد. أما بعد، فإن لك رأيين: رأيٌ من أبي سفيان ورأيٌ من سُمَيّة، فأمّا رأيك من أبي سفيان فحلمٌ وحزم، وأمّا رأيك من سُمَيّة فما يكون من مثلها. إن الحسن بن عليٍّ عليه السلام كتب إليَّ بأنّك عرضت لصاحبه، فلا تعرض له، فإني لم أجعل لك عليه سبيلاً، وإن الحسن ليس ممّن يرمَى به الرَّجَوان[1]، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمّه، فالآن حين اخترتَ له، والسلام.

قلت: جرى في مجلس بعض الأكابر وأنا حاضر القول في أن علياً عليه السلام شَرُف بفاطمة عليها السلام فقال إنسان كان حاضراً المجلس: بل فاطمة عليها السلام شرُفت به وخاض الحاضرون في ذلك بعد إنكارهم تلك اللفظة، وسألني صاحب المجلس أن أذكر ما عندي في المعنى وأن أوضح: أيّما أفضلُ: عليٌّ أم فاطمة؟ فقلت: أما أيهما أفضل، فإن أُريد بالأفضل الأجمع للمناقب التي تتفاضل بها الناس، نحو العلم والشجاعة ونحو ذلك، فعليٌّ أفضل، وإن أُريد بالأفضل الأرفع منزلَةً عند الله، فالذي استقرّ عليه رأي المتأخرين من أصحابنا، أن عليّاً أرفع المسلمين كافة عند الله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الذكور والإناث، وفاطمة امرأة من المسلمين، وإن كانت سيِّدة نساء العالمين، ويدلّ على ذلك أنه قد ثبت أنه أحب الخلق إلى الله تعالى بحديث الطائر، وفاطمة من الخلق، وأحبّ الخلق إليه سبحانه أعظمهم ثواباً يوم القيامة، على ما فسره المحققون من أهل الكلام، وإن أريد بالأفضل الأشرف نسباً، ففاطمة أفضلُ لأنّ أباها سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين، فليس في آباء عليٍّ عليه السلام مثله ولا مقارنة، وإن أريد بالأفضل مَنْ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشدّ عليه حُنُوّاً وأمسّ به رحماً، ففاطمة أفضل، لأنها ابنته، وكان شديد الحب لها والحنو عليها جدّاً، وهي أقرب إليه نسباً من ابن العمّ، لا شبهة في ذلك.

فأمّا القول في أن علياً شَرُف بها أو شَرُفت به، فإنّ علياً عليه السلام كانت أسباب شرفه وتميّزه على الناس متنوعة، فمنها ما هو متعلقٌ بفاطمة عليها السلام، ومنها ما هو متعلّقٌ بأبيها صلوات الله عليه، ومنها ما هو مستقلٌ بنفسه.

---

(١) الرجا: الجانب أو جانب البئر، وهذا معنى مثل يقول: «حتى متى يرمى بها الرجوان» أي أنه طرح في المهالك. اللسان، مادة (رجا). وانظر المثل في «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٣٧٨) برقم (١١٤٠).

فأمّا الذي هو مستقلٌ بنفسه، فنحو شجاعته وعفّته وحلمه وقناعته وسَجاحة أخلاقه وسماحة نفسه. وأمّا الذي هو متعلّقٌ برسول الله ﷺ فنحو علمه ودينه وزهده وعبادته، وسبقه إلى الإسلام وإخباره بالغيوب.

وأما الذي يتعلق بفاطمة عليها السلام فنكاحه لها، حتى صار بينه وبين رسول الله ﷺ الصّهر المضاف إلى النسب والسبب، وحتى إن ذرّيته منها صارت ذرّية لرسول الله ﷺ، وأجزاء من ذاته عليه السلام، وذلك لأنّ الولد إنما يكون من مَنِيّ الرجل ودم المرأة، وهما جزآن من ذاتي الأب والأم، ثم هكذا أبداً في ولد الولد ومَنْ بعده من البطون دائماً. فهذا هو القول في شرف عليّ عليه السلام بفاطمة.

فأمّا شرفها به فإنها وإن كانت ابنة سيد العالمين، إلاّ أن كونها زوجة عليّ أفادها نوعاً من شرف آخر زائداً على ذلك الشرف الأوّل، ألا ترى أن أباها لو زوّجها أبا هريرة أو أنس بن مالك لم يكن حالها في العظمة والجلالة كحالها الآن، وكذلك لو كان بنوها وذرّيتها من أبي هريرة وأنس بن مالك لم يكن حالهم في أنفسهم كحالهم الآن.

قال أبو الحسن المدائنيّ: وكان الحسن كثير التزوّج، تزوج خَوْلة بنت منظور بن زبان الفزارية، وأمّها مليكة بنت خارجة بن سنان، فولدت له الحسن بن الحسن. وتزوّج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، فولدت له ابناً سمّاه طلحة، وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاريّ - واسم أبي مسعود عقبة بن عمر - فولدت له زيد بن الحسن، وتزوّج جعدة بنت الأشعث بن قيس، وهي التي سقته السم، وتزوّج هنداً بنت سهيل بن عمرو، وحفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وتزوّج امرأة من كلْب، وتزوّج امرأة من بنات عمرو بن أهتم المِنقريّ، وامرأة من ثقيف، فولدت له عمراً، وتزوّج امرأة من بنات علقمة بن زرارة، وامرأة من بني شيبان من آل همام بن مرّة، فقيل له: إنها ترى رأيَ الخوارج، فطلقها، وقال، إنّي أكره أن أضمّ إلى نحري جَمْرة من جَمْر جهنم.

وقال المدائنيّ: وخطب إلى رجل فزوّجه، وقال له: إني مزوّجك، واعلم أنك مِلِق طلِق غلِق، ولكنك خير الناس نسباً، وأرفعهم جدّاً وأباً.

قلت: أما قوله ملق طلق، فقد صدق، أما قوله غَلِقٌ فلا، فإن الغَلِق الكثير الضجر، وكان الحسن عليه السلام أوسع الناس صدراً وأسجحهم خلقاً.

قال المدائني: أحصيت زوجات الحسن بن علي فكنّ سبعين امرأة.

قال المدائنيّ: ولما توفّيَ عليٌّ عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس،

فقال: إن أمير المؤمنين عليه السلام تُوفّيَ، وقد ترك خلفاً، فإن أحببتم خرج إليكم، وإن كرهتم فلا أحد على أحد، فبكى النّاس، وقالوا: بل يخرج إلينا، فخرج الحسن عليه السلام، فخطبهم فقال: أيّها الناس، اتقوا الله، فإنا أمراؤكم وأولياؤكم، وإنا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١)، فبايعه الناس.

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود، ثم وجّه عبد الله بن عباس ومعه قَيْس بن سعد بن عبادة مقدِّمة له في اثني عشر ألفاً إلى الشام، وخرج وهو يريد المدائن، فطعِن بساباط وانتهب متاعه، ودخل المدائن، وبلغ ذلك معاوية، فأشاعه، وجعل أصحاب الحسن الذين وجّههم مع عبد الله يتسلّلُون إلى معاوية، الوجوه وأهل البيوتات، فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطَب الناس ووبّخهم، وقال: خالفتم أبي حتى حُكّم وهو كاره، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله، ثم بايعتموني على أن تسالموا مَنْ سالمني، وتحاربوا مَنْ حاربني، وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية، وبايعوه، فحسبي منكم، لا تغرّوني من ديني ونفسي.

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وأمه هند بنت أبي سفيان بن حرب - إلى معاوية يسأله المسالمة، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيّه، وألّا يبايع لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، وأن يكون الناس أجمعين آمنين.

وكتب بذلك كتاباً، فأبى الحسين عليه السلام، وامتنع، فكلّمه الحسن حتى رضيَ، وقدم معاوية إلى الكوفة.

قال أبو الحسن: وحدّثنا أبو بكر بن الأسود، قال: كتب ابن العباس إلى الحسن:

أمّا بعد فإن المسلمين ولّوْك أمرهم بعد عليّ عليه السلام، فشمّرْ للحرب، وجاهد عدوّك، وقاربْ أصحابك، واشتر من الظّنين دينَه بما لا يثلِم لك دِيناً، ووالِ أهل البيوتات والشَّرَف، تستصلح به عشائرهم، حتى يكون الناس جماعة، فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتعد الحقَّ، وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل، وعزّ الدين - خير من كثير مما يُحبّه الناس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجوْر وذلّ المؤمنين، وعزّ الفاجرين. واقْتَدِ بما جاء عن أئمة العدل، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح الكذب إلا في حرْب أو إصلاح بين الناس، فإنّ الحرب خدعة، ولك في ذلك سعة إذا كنت محارباً، ما لم تبطلْ حقّاً.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

واعلم أن علياً أباك إنّما رغِبَ الناس عنه إلى معاوية، أنّه أسَاءَ بينهم في الفيء، وسوّى بينهم في العطاء، فثقُل عليهم، واعلم أنّك تحاربُ مَنْ حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام، حتى ظهر أمرُ الله، فلمّا وحّد الرب، ومحق الشرك، وعزّ الدين، أظهروا الإيمان وقرؤوا القرآن، مستهزئين بآياته، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى، وأدوا الفرائض وهم لها كارهون، فلما رأوْا أنه لا يعز في الدين إلّا الأتقياء الأبرار، توسّموا بسيما الصالحين، ليظنّ المسلمون بهم خيراً، فما زالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم، وقالوا حسابهم على الله، فإن كانوا صادقين فإخواننا في الدين، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين، وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم، والله ما زادهم طول العمر إلا غيّاً، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلّا مقتاً، فجاهِدْهم ولا ترض دنيّة، ولا تقبل خسفاً، فإنّ علياً لم يُجب إلى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب، وإنّهم يعلمون أنّه أوْلَى بالأمر إن حكموا بالعدل، فلمّا حكموا بالهوى، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجلُه، ولا تخرجنّ من حق أنت أولى به، حتى يحول الموت دون ذلك. والسلام.

قال المدائنيّ: وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية:

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد فإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين، فأظهر به الحق، وقمع به الشِّرْك، وأعزّ به العرب عامّة، وشرّف به قريشاً خاصّة، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾(١)، فلمّا توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعده، فقالت قريش: نحن عشيرته وأولياؤه، فلا تنازعونا سلطانه، فعرفت العرب لقريش ذلك، وجاحدتنا قريش ما عرفت لها العرب، فهيهات! ما أنصفتنا قريش وقد كانوا ذوي فضيلة في الدّين، وسابقة في الإسلام، ولا غَرو ألا منازعته إيّانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، فالله الموعد، نسأل الله ألا يؤتينا في هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده في الآخرة. إن علياً لمّا توفاه الله ولاني المسلمون الأمرَ بعده، فاتق الله يا معاوية، وانظر لأمة محمد صلى الله عليه وآله، ما تحقِنُ به دماءها، وتصلح به أمرها. والسلام.

وبعثَ بالكتاب مع الحارث بن سويد التيميّ، تيْم الرِّباب، وجندب الأزديّ، فقدما على معاوية فدعواه إلى بيعه الحسن عليه السلام فلم يجبهما، وكتب جوابه:

أمّا بعد، فقد فهمتُ ما ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو أحق الأوّلين والآخرين بالفَضْل

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

كلّه، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده، فصرَّحْتَ بتهمة أبي بكر الصديق وعمر وأبي عبيدة الأمين، وصُلَحاء المهاجرين، فكرهتُ لك ذلك، إن الأمّة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولُّوا من قريش أعلمها بالله، وأخشاها له، وأقواها على الأمر، فاختاروا أبا بكر ولم يألوا، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ويذبّ عن حرم الإسلام ذبَّه ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه، فلو علمتُ أنك أضبط لأمر الرعيّة، وأحوطُ على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأكيد للعدوّ، وأقوى على جمع الفيء، لسلّمتُ لك الأمر بعد أبيك، فإنّ أباك سعى على عثمان حتى قُتِل مظلوماً، فطالب الله بدمه، ومن يطلبه الله فلن يفوته. ثم ابتزّ الأمّة أمرها، وفرّق جماعتها، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدَم في الإسلام، وادّعى أنهم نكثوا بيعته، فقاتلهم فسُفكت الدماء، واستُحلّت الحرَم، ثم أقبل إلينا لا يدّعي علينا بيعة، ولكنه يريد أن يملكنا اغترارا، فحاربناه وحاربَنا، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلاً واخترنا رجلاً، ليحكما بما تصلح عليه الأمة، وتعود به الجماعة والألفة، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقاً وعليه مثله وعلينا مثله، على الرضا بما حكما، فأمضى الحكمان عليه الحكْم بما علمت، وخلعاه، فوالله ما رضي بالحكم، ولا صبر لأمر الله، فكيف تدعوني إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك، وقد خرج منه! فانظر لنفسك ولدينك. والسلام.

قال: ثم قال للحارث وجندب: ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف، فرجعا وأقبل إلى العراق في ستين ألفاً، واستخلف على الشام الضحّاك بن قيس الفهريّ والحسن مقيم بالكوفة، لم يشخص حتى بلَغه أن معاوية قد عبر جسر مَنْبِج، فوجّه حجْر بن عديّ يأمر العمال بالاحتراس، ويذبّ الناس، فسارعوا. فعقد لقيس بن سعد بن عبادة على اثني عشر ألفاً، فنزل دير عبد الرحمن، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمر قيس بن سعد بالمسير، وودّعه وأوصاه، فأخذ على الفرات وقرى الفلُّوجة، ثم إلى مَسْكِن. وارتحل الحسن عليه السلام متوجّهاً نحو المدائن، فأتى ساباط فأقام بها أيّاماً، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن قام فخَطب الناس، فقال: أيّها الناس، إنكم بايعتموني على أن تسالموا مَنْ سالمت وتحاربوا مَنْ حاربت، وإني والله ما أصبحت محتملاً على أحد من هذه الأمة ضغينة في شرق ولا غرب، ولَمَا تكرهون في الجماعة والألفة والأمن، وصلاح ذات البين خير مما تحبون في الفرقة، والخوف والتباغض والعداوة، وإن علياً أبي كان يقول: لا تكرهوا إمارة معاوية، فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرؤوس تَنْدَر عن كواهلها كالحنظل. ثم نزل.

فقال الناس: ما قال هذا القول إلّا وهو خالع نفسه وسلم الأمرَ لمعاوية، فثاروا به فقطعوا كلامَه، وانتهبوا متاعه، وانتزعوا مُطْرَفاً كان عليه، وأخذوا جارية كانت معه، واختلف الناس

فصارت طائفة معه، وأكثرهم عليه، فقال: اللهم أنت المستعان، وأمر بالرّحيل، فارتحل الناس، وأتاه رجل بفرس، فركبه وأطاف به بعض أصحابه، فمنعوا الناس عنه وساروا، فقدمه سنان بن الجرّاح الأسديّ إلى مظلِم ساباط، فأقام به، فلما دنا منه تقدّم إليه يكلّمه، وطعنه في فخذه بالمِعْوَل طعنة كادت تصل إلى العظم، فغُشِي عليه وابتدره أصحابه، فسبق إليه عُبيد الله الطائيّ، فصرع سناناً وأخذ ظبيان بن عُمَارة المعوَل من يده، فضربه به فقطع أنفه ثم ضربه بصخرة على رأسه فقتله، وأفاق الحسن عليه السلام من غَشْيته، فعصبوا جُرحه وقد نزف وضعف، فقدموا به المدائن وعليها سعد بن مسعود، عمّ المختار بن أبي عُبيد، وأقام بالمدائن حتى برىء من جرحه.

قال المدائني: وكان الحسن عليه السلام أكبرَ ولد عليّ، وكان سيّداً سخياً حليماً خطيباً، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّه. سابق يوماً بين الحسين وبينه فسبق الحسن، فأجلسه على فخذه اليمنى، ثم أجلس الحسين على الفخذِ اليسرى، فقيل له: يا رسول الله أيّهما أحبُّ إليك؟ فقال: «أقول كما قال إبراهيم أبونا، وقيل له: أيّ ابنيك أحبّ إليك؟ قال: أكبرهما وهو الذي يلد ابني محمداً صلى الله عليه وآله»[1].

وروى المدائني عن زيد بن أرقم، قال: خرج الحسن عليه السلام وهو صغير، وعليه بُرْده ورسول الله صلى الله عليه وآله يخطب، فعثر فسقط، فقطع رسول الله صلى الله عليه وآله الخطبة، ونزل مسرعاً إليه، وقد حمله الناس، فتسلّمه وأخذه على كتفه، وقال: «إن الولد لفتنة، لقد نزلت إليه وما أدري»! ثم صعد فأتمّ الخطبة[2].

وروى المدائنيّ، قال: لقي عمرو بن العاص الحسن عليه السلام في الطواف، فقال له: يا حسن، زعمت أنّ الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية، فجعله راسياً بعد مَيْله، وبيّناً بعد خفائه، أفرضي الله بقتل عثمان، أو من الحق أن تطوف بالبَيت كما يدور الجمل بالطَّحِين، عليك ثياب كغِرقِىء[3] البيض، وأنت قاتل عثمان، والله إنه لألمّ للشّعث، وأسهل للوَعث، أن يوردك معاوية حياضَ أبيك، فقال الحسن عليه السلام: إن لأهل النار علاماتٍ يُعرفون بها، إلحاداً لأولياء الله، وموالاة لأعداء الله، والله إنك لتعلم أن علياً لم يرتَبْ في الدين، ولا يشكّ في الله ساعة ولا طرفة عين قطّ، وايم الله لتنتهينَ يا بن أم عمرو أو لأنفذنّ حِضْنَيْك بنوافذ أشد من القَعْضَبِيّة: فإيّاك والتهجّم عليّ، فإني مَنْ قد عرفت، لست بضعيف الغَمْزة، ولا هشّ

(١) أنظر العمدة لابن البطريق: ٣٤ ح ١٥، وأسد الغابة: ٢/ ٣٠.

(٢) أخرج ابن أبي شيبة نحوه في «المصنف» (٦/ ٣٧٩).

(٣) الغِرْقِىء: القشرة الملتزقة ببياض البيض. اللسان، مادة (غرق).

المُشاشة، ولا مريء المأكلة، وإنّي من قريش كواسطة القلادة، يُعْرَفُ حسبي، ولا أُدْعَى لغير أبي، وأنت مَنْ تعلم ويعلم الناس، تحاكمت فيك رجال قريش، فغلب عليك جَزّارُوها، ألأمهم حسباً، وأعظمهم لؤماً، فإياك عنّي، فإنّك رجس، ونحن أهل بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرّجس وطهرنا تطهيراً. فأفحِم عمرو وانصرف كئيباً.

وروى أبو الحسن المدائنيّ قال: سأل معاوية الحسن بن عليّ بعد الصلح أن يخطب الناس، فامتنع، فناشَدَه أن يفعل، فوضع له كرسياً، فجلس عليه، ثم قال: الحمد لله الذي توحّد في مُلْكه، وتفرّد في ربوبيته، يؤتي الملك مَنْ يشاء، وينزعه عمّن يشاء. والحمد لله الذي أكرم بنا مؤمنكم، وأخرج من الشرك أوّلكم، وحقن دماء آخركم، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء، إن شكرتم أو كفرتم. أيها الناس، إن رب عليّ كان أعلم بعليٍّ حين قبضه إليه، ولقد اختصّه بفضل لم تعتادوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقته، فهيهات هيهات! طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم وهو صاحبكم، وعدوكم في بدر وأخواتها، جرّعكم رَنقاً، وسقاكم عَلقاً، وأذلّ رقابكم، وأشرقكم بريقكم، فلستم بملومين على بغضه. وايم الله لا ترى أمة محمد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية، ولقد وجّه الله إليكم فتنة لن تصدوا عنها حتى تهلكوا، لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم إلى شياطينكم، فعند الله أحتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دَعَتكم، وحيف حكمكم. ثم قال: يا أهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهمٌ من مرامي الله، صائب على أعداء الله، نكّال على فجّار قريش، لم يزل آخذاً بحناجرها، جاثماً على أنفاسِها، ليس بالملومة في أمر الله، ولا بالسُّرُوقة لمال الله، ولا بالفَرُوقة في حرب أعداء الله، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه، دعاه فأجابه، وقاده فاتّبعه، لا تأخذه في الله لومة لائم، فصلوات الله عليه ورحمته. ثم نزل.

فقال معاوية: أخطأ عَجِلٌ أو كاد، وأصاب مثبت أو كاد، ماذا أردت من خطبة الحسن!

فأمّا أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ، فإنّه قال: كان في لسان أبي محمد الحسن عليه السلام ثقل كالفأفأة، حدثني بذلك محمد بن الحسين الأشنانيّ، قال: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسيّ، عن مفضّل بن صالح، عن جابر. قال: كان في لسان الحسَن عليه السلام رُتّة[1]، فكان سلمان الفارسي رحمه الله يقول: أتته من قِبَل عمّه موسى بن عمران عليه السلام.

قال أبو الفرج: ومات شهيداً مسموماً، دسّ معاوية إليه وإلى سعد بن أبي وقّاص حين أراد

---

(١) الرُّتّة: عَجَلَة في الكلام وقلة أناة، وقيل: هو أن يقلب اللام ياء. اللسان، مادة (رتت).

أن يعهد إلى يزيد بالأمر بعده سمّاً، فماتا منه في أيّام متقاربة، وكان الذي تولى ذلك من الحسن عليه السلام زوجته جَعْدة بنت الأشعث بن قيس بمالٍ بذله لها معاوية. ويقال: إنّ اسمها سُكينة، ويقال: عائشة ويقال: شعثاء، والصحيح أن اسمها جَعْدة.

قال أبو الفرج: فروى عمرو بن ثابت، قال: كنتُ أختلف إلى أبي إسحاق السَّبيعيّ سنة، أسأله عن الخطبة التي خطب بها الحسن بن عليّ عليه السلام عقب وفاة أبيه، ولا يحدّثني بها، فدخلت إليه في يوم شاتٍ وهو في الشمس، وعليه برنسه، فكأنه غُول، فقال لي: مَنْ أنت؟ فأخبرته، فبكى، وقال: كيف أبوك، وكيف أهلك؟ قلت: صالحون، قال: في أيّ شيء تتردد منذ سنة؟ قلت: في خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه.

حدثني هُبيرة ابن مريم، قال: خطب الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبِقْه الأوّلون، ولا يدركه الآخرون بعمل. لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيسبقه بنفسه، ولقد كان يوجّهه برايته، فيكتفه جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد توُفيَ في اللّيلة التي عرج فيها بعيسى ابن مريم، والتي توفّي فيها يوشع بن نون، وما خلّف صفْراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله.

ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه ثم قال: أيها الناس، مَنْ عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وآله، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه، إذ يقول: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾(١)، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت.

قال أبو الفرج: فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة، قام عبد الله بن العباس بين يديه، فدعا الناس إلى بيعته، فاستجابوا وقالوا: ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة! فبايعوه، ثم نزل من المنبر.

قال أبو الفرج: ودس معاوية رجلاً من حِمْير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القَيْن إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار. فدُلّ على الحميري وعلى القيْني، فأخِذا وقتلا.

وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية:

أما بعد، فإنك دسست إلي الرجال، كأنك تحب اللقاء، لا أشك في ذلك فتوقّعه إن شاء الله. وبلغني أنك شمتّ بما لم يشمت به ذو الحجى، وإنما مثلك في ذلك ما قال الأول:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

فإنّا ومَنْ قد مات منّا لكالّذي ... يروح فيُمسي في البيت ليغتدِي
فقُلْ للّذِي يبغي خلاف الّذِي مضى ... تجهّز لأخرى مثلها فكأنْ قدِ

فأجابه معاوية:

أما بعدُ، فقد وصل كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن، ولم أشمت ولم آسِ، وإن علياً أباك لكما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

فأنتَ الجوادُ وأنتَ الّذِي ... إذا ما القلوب مَلأنَ الصُّدُورا
جديرٌ بطعنةِ يوم اللّقا ... ء يضربُ منها النّساءُ النُّحُورا
وما مزْيَدٌ من خليج البحا ... رِ يعلُو الإكام ويعلُو الجُسورا
بأجودَ منه بما عنده ... فيعطي الألوف ويعطي البُدُورا

قال أبو الفرج: وكتب عبد الله بن العباس من البَصرة إلى معاوية:

أما بعد، فإنَّك ودسّك أخا بني القيْن إلى البصرة، تلتمس من غفلاتِ قريش بمثل ما ظفِرْت به من يمانيّتك، لكما قال أميّة بن أبي الأسكر:

لعمرُك إنّي والخُزَاعيّ طارقاً ... كنَعْجةِ عادٍ حتفَها تتحفَّرُ
أثارتْ عليها شفرةً بكراعها ... فظلّتْ به من آخر الليل تنحَرُ
شمتّ بقومٍ من صديقك أهلكوا ... أصابهم يومٌ من الدَّهر أصْفَرُ

فأجابه معاوية:

أمّا بعد، فإن الحسن بن عليّ، قد كتب إليّ بنحو ممّا كتبت به، وأنبأني بما لم يحقّق سوء ظنٍّ ورأي فيّ، وإنك لم تصب مثلي ومثلكم، وإنما مثلنا كما قال طارق الخُزاعيّ يجيب أميّة عن هذا الشعر:

فوالله ما أدرِي وإنّي لصادِقٌ ... إلى أيّ مَنْ يظُنُّنِي أتعذَّرُ
أعنّف إن كانت زبينة أهلكتْ ... ونال بني لحيان شرٌّ فأُنفِرُوا

قال أبو الفرج: وكان أوّل شيء أحدَثه الحسن عليه السلام أنّه زاد المقاتلة مائة مائة، وقد كان عليّ عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل، وفعله الحسن حال الاستخلاف، فتبعه الخلفاء من بعده في ذلك.

قال: وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزديّ.

من الحسن بن عليٍّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك، فإني أحمدُ إليك

الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين، ومنّة للمؤمنين، وكافّة للناس أجمعين، ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١)، فبلّغ رسالاتِ الله، وقام بأمر الله حتى توفّاه الله غير مقصّر ولا وانٍ، وبعد أن أظهر الله به الحق، ومحقَ به الشِّرك، وخص به قريشاً خاصّة فقال له: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾(٢). فلما توفّيَ تنازعت سلطانَه العرب، فقالت قريش: نحن قبيلتُه وأسرته وأولياؤه، ولا يحلّ لكم أن تنازعونا سلطانَ محمد وحقّه، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش، وأن الحجة في ذلك لهم على مَنْ نازعهم أمر محمد، فأنعمت لهم، وسلّمت إليهم. ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حَاجَجَت به العرب، فلم تنصفْنا قريش إنصافَ العرب لها، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج، فلمّا صرنا أهل بيت محمد وأولياءه إلى محاجّتهم، وطلب النّصَف منهم باعدونا واستولَوْا بالإجماع على ظلمِنا ومَراغمتنا والعَنَت منهم لنا، فالموعد الله، وهو الوليّ النَّصير؟

ولقد كنّا تعجّبنا لتوثّب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبيّنا، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده، فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثُّبك يا معاوية على أمرٍ لستَ من أهله، لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ ولكتابه، والله حسيبك، فستردُّ فتعلم لمن عقبى الدار، وبالله لَتَلْقَيّن عن قليلٍ ربَّك، ثم ليجزينّك بما قدّمت يداك، وما الله بظلام للعبيد.

إن علياً لما مضى لسبيله - رحمة الله عليه يوم قُبِض ويوم منّ الله عليه بالإسلام، ويوم يُبعث حيًّا - ولّاني المسلمون الأمر بعده، فأسأل الله ألّا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة، وإنّما حملني على الكتاب إليك الإعذار فيما بيني وبين الله عزّ وجلّ في أمرك، ولك في ذلك إن فعلته الحظُّ الجسيم، والصلاح للمسلمين، فدع التماديَ في الباطل، وادخل فيما دخل فيه النّاس مِنْ بيعتي، فإنك تعلم أنّي أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أواب حفيظ، ومن له قلب منيب. واتّقِ الله ودَعِ البغي، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك خير في أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به، وادخل في السّلم والطاعة، ولا تنازع الأمر أهلَه ومَنْ هو أحقّ به منك، ليطفىء الله النائرة بذلك، ويجمع الكلمة، ويصلِح ذاتَ البَيْن، وإن أنت أبيتَ إلا التماديَ في غيّك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتُك، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

---

(١) سورة يّس، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

فكتب معاوية إليه:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن عليّ، سلام الله عليك، فإنّي أحمدَ إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد، فقد بلغني كتابُك، وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضْل، وهو أحق الأوّلين والآخرين بالفضْل كلّه قديمه وحدِيثه، وصغيره وكبيره، وقد والله بلّغ وأدّى، ونصح وهَدى، حتى أنقذ الله به من الهَلكة، وأنار به من العَمَى، وهَدَى به من الجَهالة والضلالة، فجزاه الله أفضلَ ما جزى نبياً عن أمته، وصلوات الله عليه يوم وَلِد، ويوم بُعث، ويوم قُبض، ويوم يُبعث حيّاً!

وذكرت وفاة النبيّ ﷺ وتنازع المسلمون الأمر بعده، وتغلّبهم على أبيك، فصرّحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواريّ رسول الله ﷺ، وصُلَحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك، إنك امرُؤ عندنا وعند الناس غيرَ الظَّنين ولا المسيء، ولا اللئيم، وأنا أحبّ لك القول السديد، والذكر الجميل.

إن هذه الأمة لمّا اختلفت بعد نبيّها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم، ولا قرابتكم من نبيّكم، ولا مكانكم في الإسلام وأهله، فرأت الأمّة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيّها، ورأى صُلَحاء النّاس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامّهم أن يولُّوا هذا الأمر من قريش أقدمَها إسلاماً، وأعلمها بالله، وأحبّها له، وأقواها على أمر الله، فاختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأيَ ذوي الدين والفضل، والناظرين للأمة، فأوقع ذلك في صدوركم التهمة، ولم يكونوا متَّهمين، ولا فيما أتوا بالمخطئين، ولو رأى المسلمون أن فيكم مَنْ يغني غناءه، ويقوم مقامه، ويذبّ عن حريم الإسلام ذَبّه، ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم علموا في ذلك بما رأوْه صلاحاً للإسلام وأهله، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً.

وقد فهمت الَّذِي دعوتَني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثلُ الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي ﷺ، فلو علمت أنك أضبطُ منّي للرعيّة، وأحوَطُ على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال، وأكيَد للعدوّ، لأجبتك إلى ما دعوتَني إليه، ورأيتك لذلك أهلاً، ولكن قد علمت أنّي أطولُ منك ولاية، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سنّاً، فأنت أحق أن تجيبَني إلى هذه المنزلة التي سألتَني، فادخل في طاعتي، ولك الأمر من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مالٍ بالغاً ما يبلغ، تحمله إلى حيث أحببت، ولك خراج أيّ كُوَر[1] العراق شئتَ، معونةً لك على نفقتك يجبيها أمينك ويحملها إليك في كل سنة، ولك ألّا نَستوليَ عليك بالإساءة، ولا نَقضِيَ دونك الأمور، ولا

---

(١) الكورة: المدينة. اللسان، مادة (كور).

نَعصيَ في أمر أردت به طاعة الله. أعاننا الله وإيّاك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء. والسلام.

قال جندب: فلما أتيت الحسنَ بكتاب معاوية، قلت له: إن الرجل سائر إليك، فابدأه بالمسير حتى تقاتله في أرضِه وبلاده وعمله، فأمّا أن تُقدِّر أنه ينقاد لك، فلا والله حتى يرى منّا أعظم من يوم صفّين. فقال: أفعل، ثم قعد عن مشورتي وتناسى قولي.

قالوا: وكتب معاوية إلى الحسن: أما بعد، فإن الله يفعل في عباده ما يشاء، لا معقّب لحكْمِه وهو سريع الحساب، فاحذر أن تكون منيّتك على أيدي رعاع من الناس، وأيْس من أن تجدَ فينا غميزة، وإن أنت أعرضت عمّا أنت فيه وبايعتَني وفيت لك بما وعدت، وأجريت لك ما شرطت، وأكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

وإنْ أحدٌ أسدَى إليك أمانةً ... فأوفِ بها تُدْعَى إذا مِتَّ وافِيَا

ولا تحسُدِ المولَى إذا كان ذا غنًى ... ولا تجْفُه إن كان في المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدي، فأنت أولى الناس بها. والسلام.

فأجابه الحسن: أما بعد فقد وصل إليَّ كتابك، تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغي منّي عليك، وبالله أعوذ من ذلك، فاتبع الحق تعلم أني من أهله، وعليَّ إثمٌ أنْ أقول فأكذِب. والسلام.

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه، ثمّ كتب إلى عمّاله على النواحي بنسخة واحدة:

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومن قِبَله من المسلمين. سلام عليكم، فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أمّا بعد، فالحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوّكم وقتل خليفتكم، إن الله بلطفه، وحسن صنعه، أتاح لعليّ بن أبي طالب رجلاً من عباده، فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرّقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فأقبِلوا إلي حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجُندكم وحسن عدُّتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال: فاجتمعت العساكر إلى معاوية، فسار بها قاصداً إلى العراق. وبلغ الحسنَ خبرهُ ومسيرهُ نحوَه، وأنه قد بلغ جسر منبج، فتحرّك عند ذلك، وبعث حُجْر بن عديّ فأمر العمال والنّاس بالتهيُّؤ للمسير، ونادى المنادي: الصلاة جامعة! فأقبل الناس يثوبون ويجتمعون. وقال الحسن: إذا رضيتُ جماعة النّاس فأعلِمني، وجاء سعيد بن قيس الهمْدانيّ، فقال له: اخرج،

فخرج الحسن عليه السلام، وصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الله كتب الجهاد عَلَى خَلقِه، وسمّاه كُرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصْبِروا إن الله مع الصابرين، فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبّون إلا بالصبر على ما تكرهون.

بلغني أن معاوية بلغه أنّا كنا أزمعْنا على المسير إليه، فتحرّك لذلك، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنُّخَيلة حتى ننظر وتنظروا، ونرَى وتروا.

قال: وإنّه في كلامه ليتخوّف خذلان الناس له، قال: فسكتوا فما تكلّم منهم أحد، ولا أجابه بحرف.

فلمّا رأى ذلك عِديّ بن حاتم قام فقال: أنا ابنُ حاتم! سبحان الله! ما أقبح هذا المقام! ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيّكم! أين خطباء مُضَر أيْنَ المسلمون؟ أين الخواضون من أهل المصر الذين ألسنتهم كالمخارِيق[1] في الدَّعَة، فإذا جَدَّ الجِدّ فروّاغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها.

ثم استقبل الحسن بوجهه، فقال: أصاب الله بك المراشد، وجنّبك المكاره، ووفقّك لما يُحمَد ورده وصدره. قد سمعنا مقالتَك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت، وهذا وجهي إلى معسكري، فمن أحبّ أن يوافيَني فليوافِه.

ثم مضى لوجهه، فخرج من المسجد ودابته بالباب فركبها ومضى إلى النّخَيلة، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه. وكان عديّ بن حاتم أوّل الناس عسكَر.

وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاريّ ومعقل بن قيس الرياحيّ وزياد بن صَعْصعة التَّيمِي، فأنّبوا النّاس ولاموهم وحرّضوهم، وكلّموا الحسنَ عليه السلام بمثل كلام عديّ بن حاتم في الإجابة والقبول، فقال لهم الحسن عليه السلام: صدقتم رحمكم الله! ما زلتُ أعرفكم بصدق النيّة والوفاء والقبول والمودّة الصحيحة، فجزاكم الله خيراً ثم نزل.

وخرج الناس فعسكروا، ونشطوا للخروج، وخرج الحسن إلى العسكر، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأمره باستحثاث النّاس وإشخاصهم إليه، فجعل يستحثّهم ويستخرجهم حتى يلتئم العسكر.

وسار الحسن عليه السلام في عسكر عظيم وعدة حسنة، حتى نزل دير عبد الرحمن، فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع الناس، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، فقال له: يا بنَ عمّ، إني باعث إليك اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء المصر، الرجل منهم يزيد الكتيبة، فسرْ بهم،

---

(١) المخاريق: جمع مفرده: مخراق وهو السيف. اللسان، مادة (خرق).

وألِنْ لهم جانبك، وابسُط لهم وجهك، وافرش لهم جناحك، وأدنهم من مجلسك، فإنّهم بقية ثقاتِ أمير المؤمنين، وسِرْ بهم على شطّ الفرات حتى تقطع بهم الفرات، ثم تصير إلى مَسْكِن، ثم امض حتى تستقبل بهم معاوية، فإن أنت لقيته فاحبِسْه حتى آتيك، فإنّي على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هذين - يعني قيس بن سعد وسعيد بن قيس - وإذا لقيتَ معاوية فلا تقاتِله حتى يقاتلَك، فإن فعل فقاتله، وإن أُصبت فقيس بن سعد على الناس، وإن أُصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس على الناس.

فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور، حتى خرج إلى شاهي، ثم لزم الفرات والفلُّوجة، حتى أتى مسكِن، وأخذ الحسن على حمّام عمر حتى أتى دير كعب، ثم بكّر فنزل ساباط دون القنطرة، فلمّا أصبح نادى في الناس: الصّلاة جامعة! فاجتمعوا، فصعد المنبر فخطبهم فقال: الحمد لله كلّما حمِده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله كلّما شهِد له شاهِد، وأشهد أن محمداً رسول الله، أرسله بالحق، وائتمنه على الوحي، ﷺ. أما بعد، فوالله إنّي لأرجو أن أكونَ قد أصبحت بحمد الله ومنّه وأنا أنصح خلقِه لخلقه، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغِينة، ولا مريد له بسوء ولا غائلة. ألا وإنّ ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحسبون في الفرقة، ألا وإنّي ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمرِي، ولا تردّوا عَلَيَّ رأيي. غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإيّاكم لما فيه محبّته ورضاه، إن شاء الله! ثم نزل.

قال: فنظر الناس بعضُهم إلى بعض، وقالوا: ما ترونه بما قال؟ قالوا: نظنّه يريد أن يصالح معاوية، ويكل الأمر إليه، كَفَر والله الرجل! ثم شدُّوا على فسطاطه. فانتهبوه. حتى أخذوا مصلّاه من تحته، ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزديّ، فنزع مطرفه عن عاتقِه، فبقي جالساً متقلداً سيفاً بغير رداء، فدعا بفرسه، فركبه، وأحدق به طوائف من خاصّته وشيعته، ومنعوا منه مَنْ أراده، ولاموه وضعّفوه لما تكلم به، فقال: ادعُوا إليّ ربيعةَ وهَمْدان، فدعوا له، فأطافوا به، ودفعوا الناس عنه، ومعهم شَوْب من غيرهم، فلمّا مرّ في مظلم ساباط، قام إليه رجل من بني أسد، ثم من بني نَصْر بن قُعَين يقال له جراح بن سنان، وبيده مِغْول، فأخذ بلجام فرسه، وقال: الله أكبر! يا حسن أشرك أبوك، ثم أشركت أنت. وطعنه بالمِغْوَل، فوقعت في فخذه، فشقّته حتى بلغت أربيّته، وسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده، واعتنقه، فخرّا جميعاً إلى الأرض، فوثب عبد الله بن الأخطل الطائيّ، ونزع المِغْول من يد جراح بن سنان، فخضخضه به، وأكبّ ظَبيان بن عُمارة عليه، فقطع أنفه، ثم أخذا له الآجر فشدّخا رأسه، ووجّهه حتى قتلوه.

وحُمِل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن، وبها سعيد بن مسعود الثقفيُّ والياً عليها من قبله، وقد كان عليّ عليه السلام ولّاه المدائن فأقرّه الحسن عليه السلام عليها، فأقام عنده يعالج نفسه. فأما

معاوية فإنه وافَى حتى نزل قرية يقال لها الحلوبية بمسكن، وأقبل عبيد الله بن عباس حتى نزل بإزائه، فلما كان من غدٍ وجّه معاوية بخيله إليه فخرج إليهم عبيد الله فيمن معه فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم، فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عُبيد الله بن عباس أن الحسن قد راسلني في الصلح، وهو مسلم الأمرَ إليّ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنتَ متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيَك ألف ألف درهم، أعجّل لك في هذا الوقت نصفها، وإذا دخلت الكوفة النّصف الآخر، فانسلّ عبيد الله إليه ليلاً، فدخل عسكر معاوية، فوفّى له بما وعده، وأصبح الناس ينتظرون عبيد الله أن يخرج فيصلّيَ بهم، فلم يخرج حتى أصبحوا، فطلبوه فلم يجدُوه، فصلى بهم قيس بن سعد بن عبادة، ثم خطبهم فثبّتهم، وذكر عبيد الله فنال منه، ثم أمرهم بالصبر والنّهوض إلى العدوّ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له: انهض بنا إلى عدوّنا على اسم الله، فنزل فنهض بهم.

وخرج إليه بُسْر بن أرطاة فصاح إلى أهل العراق: ويحكم! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح، فعلامَ تقتلون أنفسكم!

فقال لهم قيس بن سعد: اختاروا إحدى اثنتين، إمّا القتال مع غير إمام، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال، فقالوا: بل نقاتل بلا إمام، فخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردُّوهم إلى مصافّهم.

فكتب معاوية إلى قيس بن سعد يدعوه ويمنّيه، فكتب إليه قيس: لا والله لا تلقاني أبداً إلا بيني وبينك الرُّمح. فكتب إليه معاوية حينئذ لما يئس منه:

أما بعد، فإنّك يهوديّ ابن يهوديّ، تُشْقِي نفسك وتقتلها فيما ليس لك، فإن ظهر أحبّ الفريقين إليك نبذك وغدرك، وإن ظهر أبغضهم إليك نكّل بك وقتلك، وقد كان أبوك أوتر غير قوسه، ورمى غير غرضِه، فأكثر الحَزّ وأخطأ المِفصل، فخذله قومه، وأدركه يومه، فمات بحُوران طريداً غريباً. والسلام.

فكتب إليه قيس بن سعد: أما بعد، فإنما أنت وثن ابن وثن، دخلت في الإسلام كرْهاً، وأقمت فيه فَرَقاً، وخرجت منه طوعاً، ولم يجعل الله لك فيه نصيباً، لم يقدم إسلامك، ولم يحدث نفاقك، ولم تزل حرباً لله ولرسوله، وحزباً من أحزاب المشركين، وعدوّاً لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده. وذكرتَ أبي، فلعمري ما أوتر إلا قوسَه، ولا رمى إلّا غرضه، فشغب عليه من لا يُشقّ غباره، ولا يُبلغ كعبه، وزعمت أني يهوديّ ابن يهودي، وقد علمت وعلم الناس أني وأبي أعداء الدّين الذي خرجت منه، وأنصار الدين الذي دخلت فيه، وصرت إليه. والسلام.

فلما قرأ معاوية كتابه غاظه، وأراد إجابته، فقال له عمرو: مهلاً، فإنك إن كاتبته أجابك بأشدّ من هذا، وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس. فأمسك عنه.

قال: ويبعث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرة إلى الحسن للصلح، فدعواه إليه، فزهّداه في الأمر، وأعطياه ما شرط له معاوية، وألا يتبع أحد بما مضى، ولا ينال أحد من شيعة عليّ بمكروه، ولا يذكر عليٌّ إلا بخير، وأشياء شَرَطها الحسن. فأجاب إلى ذلك، وانصرف قيس بن سعد فيمن معه إلى الكوفة، وانصرف الحسن أيضاً إليها، وأقبل معاوية قاصداً نحو الكوفة، واجتمع إلى الحسن عليه السلام وجوهُ الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يلومونه، ويبكون إليه جزعاً مما فعله.

قال أبو الفرج: فحدّثني محمد بن أحمد بن عبيد، قال: حدثنا الفضل بن الحسن البصريّ قال: حدّثنا ابن عمرو، قال: حدثنا مكّي بن إبراهيم، قال: حدثنا السريّ بن إسماعيل، عن الشعبيّ، عن سفيان بن أبي ليلى. قال أبو الفرج: وحدثني به أيضاً محمد بن الحسين الأشناندانيّ، وعليّ بن العباس المقانعي، عن عباد بن يعقوب، عن عمرو بن ثابت، عن الحسن بن الحكم، عن عديّ بن ثابت، عن سفيان بن أبي ليلى، قال: أتيتُ الحسن بن عليّ حين بايع معاوية، فوجدته بفناء داره، وعنده رهط، فقلت: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين، قال: وعليك السلام يا سفيان، ونزلت فعقلت راحلتي، ثم أتيته فجلست إليه، فقال: كيف قلت يا سفيان؟ قلت: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين! فقال: لِمَ جرى هذا منك إلينا؟ قلت: أنت والله بأبي وأمي أذللتَ رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيْعة، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد، ومعك مائة ألف كلّهم يموت دونك، فقد جمع الله عليك أمر الناس. فقال: يا سفيان، إنا أهل بيت إذا علمنا الحقّ تمسكنا به، وإني سمعتُ علياً يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا تذهب الليالي والأيام حتى يجتمع أمرُ هذه الأمّة على رجل واسع السّرْم، ضخم البلعوم، يأكل ولا يشبع، لا ينظر الله إليه، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر، ولا في الأرض ناصر»[1]، وإنه لمعاوية، وإني عرفت أن الله بالغ أمره.

ثم أذّن المؤذّن، فقمنا على حالب نحلب ناقته، فتناول الإناء، فشرِبَ قائماً، ثم سقاني، وخرجنا نمشي إلى المسجد، فقال لي: ما جاء بك يا سفيان؟ قلت: حبُّكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق! قال: فأبشر يا سفيان، فإني سمعتُ علياً يقول: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يرد عليّ الحوضَ أهلُ بيتي ومَنْ أحبّهم من أمتي كهاتين - يعني السبّابتين، أو كهاتين يعني السبّابة والوسطى - إحداهما تفضل على الأخرى»[2]، أبشر يا سفيان، فإنّ الدنيا تسع البرّ والفاجر، حتى يبعث الله إمام الحقّ من آل محمد صلى الله عليه وآله.

---

(١) أخرج نحوه نعيم بن حماد في كتابه الفتن (٢٦٧)، وابن حجر العسقلاني في «لسان الميزان» (٣/ ٥٣).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٤/ ٦٠.

قلت: قوله: «ولا في الأرض ناصر»، أي ناصر ديني، أي لا يمكن أحداً أن ينتصر له بتأويل ديني يتكلف به عذراً لأفعاله القبيحة.

فإن قلت: قوله: «وإنه لمعاوية» من الحديث المرفوع، أو من كلام عليّ عليه السلام أو من كلام الحسن عليه السلام؟ قلت: الظاهر أنه من كلام الحسن عليه السلام، فإنه قد غلب على ظنّه أنّ معاوية صاحب هذه الصفات، وإن كان القسمان الأولان غير ممتنعين.

فإن قلت: فمن هو إمام الحق من آل محمد؟ قلت: وأمّا الإمامية فتزعم أنه صاحبهم الذي يعتقدون أنه الآن حيّ في الأرض، وأمّا أصحابنا فيزعمون أنه فاطميّ يخلقه الله في آخر الزمان.

قال أبو الفرج: وسار معاوية حتى نزل النُّخَيلة، وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة، وجاءت منقطعة في الحديث، وسنذكر ما انتهى إلينا منها. فأمّا الشعبيّ فإنه روى أنه قال في الخطبة: ما اختلف أمر أمة بعد نبيها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها، ثم انتبه فندم فقال: إلا هذه الأمة فإنها وإنها . . .

وأما أبو إسحاق السَّبيعي فقال: إنّ معاوية قال في خطبته بالنُّخَيْلَةِ: ألا إنّ كلّ شيء أعطيته الحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به.

قال أبو إسحاق: وكان والله غدّاراً.

وروى الأعمش عن عمرو بن مرّة، عن سعيد بن سويد، قال: صلّى بنا معاوية بالنُّخيلة الجمعة، ثم خطبنا، فقال: والله إني ما قاتلتكم لتصلّوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون.

قال: وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدّث بذلك، يقول: هذا والله هو التهتّك.

قال أبو الفرج: وحدّثني أبو عبيد محمد بن أحمد، قال: حدثني الفضل بن الحسن البصري، قال: حدثني يحيى بن معين قال: حدثني أبو حفص اللّبان، عن عبد الرحمن بن شريك. عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: خطب معاوية بالكوفة حين دخلها، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر، فذكر علياً عليه السلام فنال منه، ثم نال من الحسن، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه، فأخذه الحسن بيده فأجلسه، ثم قام فقال: أيّها الذاكر عليّاً، أنا الحسن، وأبي عليّ، وأنت معاوية وأبوك صَخْر، وأميّ فاطمة وأمّك هند، وجدّي رسول الله وجدّك عُتْبة بن ربيعة، وجدّتي خديجة وجدّتك قتيلة، فلعن الله أخملَنا ذكراً، وألأمنا حسباً، وشرّنَا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً! فقال طوائف من أهل المسجد: آمين.

قال الفضل: قال يحيى بن معين: وأنا أقول: آمين.

قال أبو الفرج: قال أبو عبيد: قال الفضل: وأنا أقول: «آمين»، ويقول عليّ بن الحسين الأصفهاني: آمين.

قلت: ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد مصنف هذا الكتاب: آمين.

قال أبو الفرج: ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنُّخيلة بين يديه خالد بن عُرفطة، ومعه حبيب بن حمّاد يحمل رايته. فلما صار بالكوفة دخل المسجد من باب الفيل، واجتمع الناس إليه.

قال أبو الفرج: فحدثني أبو عبيد الصيرفيّ وأحمد بن عبيد الله بن عمّار، عن محمد بن عليّ بن خلَف، عن محمد بن عمرو الرازيّ، عن مالك بن سعيد، عن محمد بن عبد الله اللّيثي، عن عطاء بن السائب، عن أبي، قال: بينما عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منْبر الكوفة، إذ دخل رجل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، مات خالد بن عرفطة، فقال: لا والله ما مَات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد، وأشار إلى باب الفيل، ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حماد.

قال: فوثب رجل فقال: يا أميرَ المؤمنين، أنا حبيب بن حمّاد، وأنا لك شيعة، فقال: فإنه كما أقول: فوالله لقد قدم خالد بن عرفطة على مقدّمة معاوية يحمل رايته حبيب بن حماد.

قال أبو الفرج: وقال مالك بن سعيد، وحدّثني الأعمش بهذا الحديث، قال: حدّثني صاحب هذه الدار - وأشار إلى دار السّائب أبي عطاء - أنّه سمع علياً عليه السلام يقول هذا.

قال أبو الفرج: فلما تمّ الصّلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة، فجاءه - وكان رجلاً طوالاً يركب الفرس المشرِف ورجلاه تخطّان في الأرض، وما في وجهه طاقة شعر، وكان يسمّى خصيّ الأنصار. فلمّا أرادوا إدخاله إليه قال: إنّي حلفت ألّا ألقاه إلا وبيني وبينه الرّمح أو السيف، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبرّ يمينه.

قال أبو الفرج: وقد روِيَ أنّ الحسنَ لمّا صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد في أربعة آلاف فارس فأبى أن يبايع، فلما بايع الحسن أدخِل قيسٌ ليبايع، فأقبل على الحسن، فقال: أفي حلٍّ أنا من بيعتك؟ فقال: نعم، فألقي له كرسيّ، وجلس معاوية عَلَى سرير والحسن معه، فقال له معاوية: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم، ووضع يده عَلَى فخذِه، ولم يمدّها إلى معاوية، فجاء معاوية من سريره، وأكبّ عَلَى قيس حتى مسح يده، على يده وما رفع إليه قيس يده.

قال أبو الفرج: ثم إن معاوية أمر الحسن أن يخطب، فظنّ أنه سيحصر، فقام فخطب، فقال في خطبته: إنّما الخليفةُ من سار بكتاب الله وسنّة نبيه، وليس الخليفةُ من سار بالجوْر، ذاك رجل ملَك مُلْكاً تمتّع به قليلاً، ثم تنخّمه، تنقطع لذّته، وتبقى تَبِعتُه ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١). قال: وانصرف الحسن إلى المدينة، فأقام بها، وأراد معاوية البَيْعة لابنه يزيد، فلم يكن عليه شيء أثقل من أمْرِ الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص، فدسّ إليهما سمّاً فماتا منه.

قال أبو الفرج: فحدّثني أحمد بن عبيد الله بن عمّار، عن عيسى بن مِهْران، عن عبيد بن الصبّاح الخرّاز، عن جرير، عن مغيرة، قال: أرسل معاوية إلى بنت الأشعث بن قيس - وهي تحت الحسن - فقال لها: إنّي مزوّجك يزيد ابني عَلَى أن تَسُمّي الحسن، وبعث إليها بمائة ألف درهم. ففعلت، وسمّتِ الحسن، فسوّغها المال ولم يزوّجها منه، فخلف عليها رجل من آل طلحة، فأولدها، فكان إذا وقع بينهم وبين بُطون قريش كلام عيّروهم، وقالوا: يا بني مُسِمّة الأزواج.

قال: حدّثني أحمد، قال: حدّثني يحيى بن بُكير، عن شعبة، عن أبي بكر بن حَفْص، قال: تُوُفِّيَ الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص في أيّام متقارِبة، وذلك بعد ما مضى من ولاية إمارة معاوية عشر سنين، وكانوا يروون أنه سقاهما السمّ.

قال أبو الفرج: وحدّثني أحمد بن عَوْن، عن عمران بن إسحاق، قال: كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام في الدّار، فدخل الحسن المخرج، ثم خرج، فقال: لقد سُقيت السمّ مراراً، ما سقيت مثل هذه المرّة، لقد لفظت قطعة من كبدي فجلعت أقلّبها بعودٍ معي. فقال الحسن: ومَن سقاك؟ قال: وما تريد منه؟ أتريد أن تقتله! إن يكن هو هو، فالله أشدّ نِقمة منك، وإن لم يكن هو فما أحبّ أن يؤخذ بي بريء.

قال أبو الفرج: دفن الحسن عليه السلام في قبرِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في البقيع، وقد كان أوصى أن يدفَن مع النبي صلى الله عليه وآله، فمنع مروان بن الحكم من ذلك، وركبت بنو أمية في السلاح، وجعل مرْوان يقول:

يـا ربّ هَـيْـجـا هـي خـيـرٌ مـن دَعَـه

يدفن عثمان في البقيع، ويدفن الحسن في بيت النبي صلى الله عليه وآله! والله لا يكون ذلك أبداً وأنا أحمِل السيف، وكادت الفتنة تقع، وأبَى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلا مع النبي صلى الله عليه وآله، فقال له عبد الله بن جعفر: عزمت عليك يا أبا عبد الله بحقي ألا تكلَّم بكلمة! فمضوْا به إلى البقيع، وانصرف مروان.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١١١.

قال أبو الفرج: وقد روى الزُّبير بن بَكّار أنَّ الحسن عليه السلام أرسل إلى عائشة أنْ تأذن له أن يُدفَن مع النبي صلى الله عليه وآله، فقالت: نعم، فلما سمعت بنو أميّة بذلك استلأموا في السلاح، وتنادوْا هم وبنو هاشم في القتال، فبلغ ذلك الحسن، فأرسل إلى بني هاشم: أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه، ادفنوني إلى جَنْب أمّي، فدفن إلى جنب فاطمة عليها السلام.

قال أبو الفرج: فأمّا يحيى بن الحسن صاحب كتاب «النسب»[1]، فإنه روى أن عائشة ركبت ذلك اليوم بغلاً واستنفرت بنو أميّة مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم ومن حشمهم وهو قول القائل:

فيوماً على بغلٍ ويوماً على جَملَ

قلت: وليس في رواية يحيى بن الحسن ما يؤخذ على عائشة، لأنه لم يرو أنها استنفرت الناس لما ركبت البغل، وإنما المستنفرون هم بنو أميّة، ويجوز أن تكون عائشة ركبت لتسكين الفتنة، لا سيما وقد روي عنها أنه لما طلب منها الدفن قالت: نعم، فهذه الحال والقصّة منقبة من مناقب عائشة.

قال أبو الفرج: وقال جُويرية بن أسماء: لما مات الحسن وأخرجوا جنازته جاء مروان حتى دخل تحته فحمَل سريره، فقال له الحسين عليه السلام: أتحمِل اليومَ سريره وبالأمس كنت تجرّعه الغيظ! قال مروان: كنت أفعل ذلك بمنْ يوازِن حلمُه الجبال.

قال: وقدّم الحسين عليه السلام للصلاة عليه سعيدَ بن العاص، وهو يومئذٍ أمير المدينة، وقال: تقدّم فلولا أنها سنّة لما قدمتك.

قال: قيل لأبي إسحاق السَّبيعيّ: متى ذلّ الناس؟ فقال: حين مات الحسن، وادّعى زياد، وقُتل حُجْر بن عدي.

قال: اختلف الناس في سنّ الحسن عليه السلام وقت وفاتِه، فقيل: ابن ثمان وأربعين - وهو المرويّ عن جعفر بن محمد عليه السلام في رواية هشام بن سالم - وقيل: ابن ستّ وأربعين، وهو المرويّ أيضاً عن جعفر بن محمد عليه السلام في رواية أبي بصير.

قال: وفي الحسن عليه السلام يقول سليمان بن قتّة يرثيه، وكان محبّاً له:

---

(١) أنساب آل أبي طالب: للإمام يحيى بن الحسن بن جعفر أبو عبيد الله الأعرج، المتوفى سنة (٢٧٧هـ). «الأعلام» للزركلي (٨/ ١٤٠).

يـا كـذّب الله مَـنْ نَـعَـى حَـسَـنـاً　　لـيـس لـتـكـذيـبِ نَـعْـيِـه ثـمَـنُ
كـنـتَ خـلـيـلـي وكـنـتَ خـالـصـتِي　　لـكـلِّ حـيّ مـن أهـلـه سـكَـنُ
أجـول فـي الـدّار لا أراك وفـي　　الـدار أنـاسٌ جـوارُهـم غَـبَـنُ
بُـدِّلْـتـهـم مـنـك لـيـت أنّـهُـمُ　　أضْـحَـوْا وبـيـنـي وبـيـنـهـمْ عَـدَنُ

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل.

أما قوله: «كتبها إليه بحاضرين»، فالذي كُنّا نقرؤه قديماً، «كتبها إليه بالحاضرَيْن» على صيغة التثنية، يعني حاضر حلب وحاضر قِنّسرين، وهي الأرباض والضواحي المحيطة بهذه البلاد، ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لامٍ، ولم يفسّروه، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية، ومنهم من يقول بخناصرين، يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها، وقد طلبتُ هذه الكلمة في الكتب المصنفة، سيّما في البلاد والأرضين فلم أجدها، ولعَلّي أظفر بها فيما بعد فألحقها في هذا الموضع.

قوله: «من الوالد الفان»، حذف الياء ها هنا للازدواج بين «الفان» و«الزمان»، ولأنه وقف، وفي الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها، والإثبات هو الوجه، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه.

قوله: «المقرّ للزمان» أي المقرّ له بالغلبة، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصماً للزمان بالقهر.

قوله: «المدبِر العمر»، لأنه كان قد جاوز الستين، ولم يبق بعد مجاوزة الستين إلا إدبار العمر، لأنه نصف العمر الطبيعي الذي قلّ أن يبلغه أحدٌ، فعلى تقدير أنه يبلغه، فكلّ ما بعد الستين أقل مما مضى، فلا جرم يكون العمل قد أدبر.

قوله: «المستسلم للدّهر»، هذا آكد من قوله: «المقرّ للزّمان» لأنه قد يقرّ الإنسان لخصمه ولا يستسلم.

قوله: «الذام للدّنيا» هذا وصف لم يستحدثه عند الكبر، بل لم يزل عليه ولكن يجوز أن يزيد ذمّه لها لأنّ الشيخ تنقص قواه التي يستعين بها على الدنيا والدين جميعاً، ولا يزال يتأفّف من الدنيا.

قوله: «الساكن مساكن الموتى»، إشعار بأنه سيموت، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾(١).

قوله: «الظاعن عنها غداً»، لا يريد الغدَ بعينه، بل يريد قُرْب الرّحيل والظَّعْن.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

وهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام مَنْ قد أيقن بالفراق، ولا ريب في ظهور الاستكانة والخضوع عليه، ويدلّ أيضاً على كرب وضيق عَطَنٍ، لكونه لم يبلغ أربه من حرْب أهل الشام، وانعكس ما قدّره بتخاذل أصحابه عنه، ونفوذ حكم عمرو بن العاص فيه لحمق أبي موسى وغباوته وانحرافه أيضاً.

قوله: «إلى المولود» هذه اللفظة بإزاء «الوالد».

قوله: «المؤمّل ما لا يدرك»، لو قال قائل: إنه كنى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد موتي وإن كان مؤمّلاً لها لم يُبعد، ويكون ذلك إخباراً عن غيب، ولكن الأظهر أنّه لم يرد ذلك، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس كلّهم في الحقيقة، ألا ترى إلى قوله بعدها: «السالك سبيل من قد هلك»، فإن كل واحد من الناس يؤمّل أموراً لا يدركها، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله.

قوله عليه السلام: «غرض الأسقام» لأنّ الإنسان كالهدف لآفات الدنيا وأعراضها.

قوله عليه السلام: «ورهينة الأيام» الرهينة ها هنا: المهزول يقال: إنه لرهن وإنه لرهينة، إذا كان مهزولاً بالياء قال الراجز:

إمّا تَرَيْ جِسمي خلاءً قد رَهَنْ هزلاً وما مجدُ الرّجال في السِّمَنْ

ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن، يقال للأسير أو للزمِن أو للعاجز عند الرحيل: إنّه لرهينة، وذلك لأنّ الرهائن محتبسة عند مرتهنها.

قوله: «ورميّة المصائب»، الرميّة ما يرمَى.

قوله: «وعبْد الدنيا، وتاجر الغرور، وغريم المنايا»، لأن الإنسان طوع شهواته، فهو عبْد الدنيا، وحركاته فيها مبنيّة على غرور لا أصل له، فهو تاجر الغرور لا محالة، ولمّا كانت المنايا تطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريماً له يقتضيه ما لا بدّ له من أدائه.

قوله: «وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونصب الآفات، وسريع الشهوات»، لما كان الإنسان مع الموت، كما قال طرفة:

لَعَمْرُكَ إنّ المَوْتَ ما أخطأ الفَتَى لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ باليَدِ

كان أسيراً له لا محالة، ولمّا كان لا بدّ لكلّ إنسان من الهمّ كان حليف الهموم، وكذلك لا يخلو ولا ينفكّ من الحزن، فكان قريناً له، ولما كان معرّضاً للآفات كان نصباً لها، ولما كان إنما يهلك بشهواته كان صريعاً لها.

قوله: «وخليفة الأموات» قد أخذه مَنْ قال: إن امرأً ليس بينه وبين آدم إلا أب ميّت، لَمُعرقٌ في الموت.

واعلم أنه عدّ من صفات نفسه سبعاً، وعدّ من صفات ولده أربع عشرة صفة، فجعل بإزاء كلّ واحدة مما له اثنتين، فليلمح ذلك.

شعر الشعراء في الدهر

ومن جيد ما نعى به شاعر نفسه، ووصف ما نقص الدهر من قُواه، قول عوف بن محلّم الشيبانيّ في عبد الله بن طاهر أمير خراسان:

يَا بْنَ الَّذِي دَانَ لَه المشرقَانْ ... وألبس الأمنَ به المغربانْ
إنّ الثمانينَ وبُلّغتَها ... قد أحوجتْ سمعِي إلى تَرْجُمَانْ
وبدّلتِني بالشّطاط[1] انْحِنَا ... وكنتُ كالصّعْدة تحتَ السّنانْ
وقاربتْ مِنّي خُطاً لم تكنْ ... مقارَباتٍ وثَنَتْ مِنْ عَنَانْ
وعوّضتني من زماع الفتى ... وهمّه همّ الجبان الهِدَانْ
وأنشأت بيني وبَيْنَ الورَى ... عنانةً من غير نَسْج العَنَان
ولم تدعْ فيّ لمستمتِعٍ ... إلا لساني وكفاني لسانْ
أدعو به الله وأثني به ... على الأمير المصعبيّ الهِجان

ومن الشعر القديم الجيّد في هذا المعنى قول سالم بن عونة الضبيّ:

لا يبعَدَنّ عَصْرُ الشباب ولا ... لذّاته ونباتِه النّضْرِ
والمشرِفاتُ من الخُدور كإيـ ... ـماض الغمام يَجُودُ بالقطرِ
وطراد خيل مثلها التقتَا ... لحفيظةٍ ومقاعد الخمرِ
لَوْلا أولئك ما حلفت مَتَى ... عوليتُ في حَرَج إلى قبرِي
هربت زبيبة أنْ رأت ثَرَمِي ... وأن انحنى لتقادمٍ ظهرِي
من بعد ما عهدت فأدلفني ... يومٌ يمرّ وليلةٌ تسري
حتّى كأنيَ خاتلٌ[2] قَنَصاً ... والمرءُ بعد تمامه يجري
لا تهزئي منّي زبيب فما ... في ذاك من عَجَبٍ ولا سخرِ
أوَلم تَرَيْ لقمان أهلكَهُ ... ما اقتات من سنَة ومن شَهْرِ
وبقاء نَسْر كلّما انقرضتْ ... أيامُه عادتْ إلى نَسْرِ

---

(١) الشطاط: الطول واعتدال القامة. اللسان، مادة (شطط).

(٢) المخاتلة: مشي الصياد قليلاً قليلاً في خفية لئلا يسمع الصيد حسّه، ثم جُعل مثلاً لكل شيء وُرِّيَ بغيره وسُتر على صاحبه. اللسان، مادة (ختل).

مـا طـال مـن أمـدٍ عـلـى لُـبَـدِ رجـعـت مـحـارتـه إلـى قـصـرِ
ولـقـد حَـلَـبْـتُ الـدَّهْـرَ أشْـطُـرَهُ وعـلـمـت مـا آتـي مِـن الأمْـرِ

أنا أستفصح قوله: «ما اقتات من سنة ومن شهر» جعل الزمان كالقوت له، ومن اقتات الشيء فقد أكله، والأكل سبب المرض، والمرض سبب الهلاك.

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي - فَصَدَّقَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لا يَشُوبُهُ كَذِبٌ - وَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

الشرح: يزعني: يكفّني ويصدّني، وزعتُ فلاناً، ولا بدّ للناس من وَزَعة.

وسِوى، لفظة تُقصَر إذا كسرت سينها، وتمدّ إذا فتحتها، وهي ها هنا بمعنى غير، ومَنْ قبلها بمعنى شيء منكّر، كقوله:

ربَّ مَـنْ أنْـضَـجْـتُ غَـيْـظـاً قـلـبـه

والتقدير: غير ذكر إنسان سواي، ويجوز أن تكون «مَنْ» موصولة، وقد حذف أحد جزأي الصلة، والتقدير: عن ذكر الذي هو غيري، كما قالوا في: ﴿لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾(١)، أي هو أشدّ. يقول عليه السلام: إن فيما قد بان لي من تنكّر الوقت وإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلاً لي عن الاهتمام بأحد غيري، والاهتمام والفكر في أمر الولد وغيره ممن أخلفه ورائي.

ثم عاد فقال: إلّا أنّ همّي بنفسي يقتضي اهتمامي بك، لأنّك بعضي بل كلّي، فإن كان اهتمامي بنفسي يصرفني عن غيري لم تكن أنت داخلاً في جملة مَنْ يصرفني همّي بنفسي عنهم، لأنّك لست غيري.

فإن قلت: أفهذا الهمّ حدَث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن، أو من قبل لم يكن عالماً بأن الدنيا مدبرة، والآخرة مقبلة؟

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٩.

قلت: كلّا بل لم يزل عالماً عارفاً بذلك، ولكنه الآن تأكد وقوي، بطريق علوّ السنّ وضعف القُوَى، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب، لا بدّ من حصوله لكلّ أحد، وإن كان عالماً بالحال من قبل، ولكن ليس العِيان كالخبر.

ومن مستحسَن ما قيل في هذا المعنى قول أبي إسحاق الصابىء:

أقيكَ الرَّدَى إني تنبّهتُ من كَرى ... وسهوٍ عَلَى طول المدَى اعتريَانِي
فأثبتُّ شخصاً دانياً كان خافياً ... على البعد حتى صار نُصْب عياني
هو الأجلُ المحتوم لي جَدّ جِدّهُ ... وكان يريني غفلة المتواني
له نُذُرٌ قد آذنتني بهجمَةٍ ... له لست منها آخذاً بأمانِ
ولا بدّ منه ممهلاً أو معاجلاً ... سيأتي فلا يثنيه عنّيَ ثانِ

وأوّل هذه القصيدة وهو داخل له في هذا المعنى أيضاً:

إذا ما تعدّت بي وسارت محفّةٌ ... لها أرجلٌ يسعى بها رجلانِ
وما كنت من فرسانها أنّها ... وفت ليَ لمّا خانت القدمَانِ
نزلتُ إليها عن سراة حصانِي ... بحكم مشيبٍ أو فراش حَصانِ
فقد حملت منّي ابنَ سبعين سالكاً ... سبيلاً عليها يسلك الثقّلانِ
كما حمل المهدَ الصبيُّ وقبلَها ... ذعرت أسودُ الغيلِ بالنَّزوَانِ
ولي بعدها أخرَى تسمّى جِنازة ... جنيبة يوم للمنيّة دانِ
تسير على أقدامِ أربعةٍ إلى ... ديار البلى معدودهنّ ثمانِ
وإنّي على عَيْثِ الرَّدى في جوارحي ... وما كفّ من خَطْوي وبطش بنانِي
وإن لم يَدَعْ إلّا فؤاداً مُروّعاً ... به غِيَرٌ باقٍ من الحدثان
تلوّم تحت الحجْب ينفث حُكْمَه ... إلى أذنٍ تُصغي لنطقِ لسانِ
لأعلمُ أنّي ميت عاقَ دفنه ... ذَماءٌ قليل في غدٍ هو فانِ
وإنّ فَماً للأرض غرثان حائماً ... يراصِد من أكلي حضور أوانِ
به شرَهٌ عمّ الورى بفجائعٍ ... تركن فلاناً ثاكِلاً لفلانِ
غدًا فاغراً يشكو الطَّوَى وهو راتع ... فما تلتقي يوماً له الشَّفَتَانِ
إذا عاضنا بالنّسل ممن نعولُه ... تلا أوّلاً منه بمهلك ثانِ
إلى ذات يومٍ لا ترى الأرض وارثاً ... سوى الله من إنس تراه وجانِ

قوله: «تفرّد بي دون هموم الناس همّ نفسي» أي دون الهموم التي قد كانت تعتريني لأجل أحوال الناس.

فصدّقني رأيي، يقال: صدقته كذا أي عن كذا، وفي المثل: «صدقني سنّ بكره» لأنه لما نفر قال له: هِدَعْ، وهي كلمة تسكّن بها صغار الإبل إذا نفرت، والمعنى أنّ هذا الهمّ صدقني عن الصفة التي يجب أن يكون رأيي عليها وتلك الصفة هي ألّا يفكر في أمر شيء من الموجودات أصلاً إلا الله تعالى ونفسه، وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى جداً وهي ألّا تفكر في شيء قطّ إلا في الله وحده، وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى تجلّ عن الذكر والتفسير، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ، وقد ذكرها هو فيما سبق، وهو ألّا يفكر في شيء أصلاً، لا في المخلوق ولا في الخالق، لأنه قد قارب أن يتّحد بالخالق، ويستغني عن الفكر فيه.

قوله: «وصرفني عن هواي» أي عن هواي وفكري في تدبير الخلافة وسياسة الرعيّة والقيام بما يقوم به الأئمة.

قوله عليه السلام: «وصرّح لي محض أمري» يروى بنصب محض «ورفعه»، فمن نصب فتقديره: عن محض أمري، فلمّا حذف الجار نصب، ومن رفع جعله فاعلاً. وصرّح: كشف أو انكشف.

قوله: «فأفضى بي إلى كذا»، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازج جدّه باللعب، بل المعنى أن همومه الأولى قد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعابة لا يخرج بها عن الحق، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ولا يقول إلا حقاً[1]، فالآن قد حدث عنده همّ لا يمكن أن يتخلّله من ذلك شيء أصلاً، ومدار الفرق بين الحالتين - أعني الأولى والثانية على إمكان اللعب لا نفس اللعب وما يلزم من قوله: «أفضى لك بي هذا الهم» إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قد كان يمازجها اللعب، ولكن يلزم من ذلك أنها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكاناً محضاً على أنّ اللعب غير منكر إذا لم يكن باطلاً، ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وآله: «المؤمن دَعِب لعِب»[2]، وكذلك القول في قوله: «وصدق لا يشوبه كذب» أي لا يمكن أن يشوبه كذب، وليس المراد بالصدق والكذب ها هنا مفهومهما المشهورين، بل هو من قولهم: صدّقونا اللقاء، ومن قولهم: حمل عليهم فما كذب! قال زهير:

لـيـثٌ بـعـثّـرَ يـصـطـاد الـلّـيـوثَ إذا ... مـا كـذّب الـلـيـث عـن أقـرانـه صَدَقـا

أي أفضى بي هذا الهمّ إلى أن صدقتني الدنيا حربها، كأنه جعل نفسه محارباً للدنيا، أي صدقتني الدنيا حربها ولم تكذب، أي لم تجبن ولم تَخُنْ.

أخبر عن شدّة اتّحاد ولده به، فقال وجدتك بعضي، قال الشاعر:

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٩٥) و«الكبير» (١٣٤٤٣)، والديلمي في «الفردوس» (١٥٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٢٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٩).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٤/ ١٥٣ رقم: ١١٥.

وإنّـمـا أولادُنـا بـيـنـنـا ... أكـبـادُنـا تـمـشـي عـلـى الأرض
لـو هـبّـت الـرِّيـح عـلـى بـعـضـهـمْ ... لامـتـنـعـتْ عـيـنـي مـن الـغَـمْـض

وغضب معاوية على ابنه يزيد، فهجره، فاستعطفه له الأحنف، قال له: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، فإن غضبوا فارضِهم، وإن سألوا فاعطِهم، فلا تكن عليهم قفلاً فيملُّوا حياتك، ويتمنّوا موتك.

وقيل لابنة الخُسّ: أيّ ولديك أحبّ إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يقدم.

غضب الطرمّاح على امرأته فشفع فيها ولده منها صمصام، وهو غلام لم يبلغ عشراً، فقال الطّرمّاح:

أصَـمْـصَـامُ إن تـشـفـع لأمّـك تَـلْـقـهَـا ... لـهـا شـافـعٌ فـي الـصَّـدْر لـم يـتـزحـزحِ
هَـلِ الـحـبّ إلّا أنّـهـا لـو تـعـرّضـت ... لذبحك يا صمصامُ قُلتَ لها: اذبحِي
أحـاذر يـا صَـمْـصَـامُ إن مـتّ أنْ يَـلِـي ... تُـراثـي وإيّـاك امـرؤٌ غـيـر مـصـلـحِ
إذا صـكّ وسـط الـقـوم رأسـك صَـكّـةً ... يـقـول لـه الـنّـاهـي: مـلـكـت فـاسْـجِـحِ

وفي الحديث المرفوع: «إنّ ريح الولد من ريح الجنّة»[1].

وفي الحديث الصحيح أنه قال لحسن وحسين عليهما السلام: «إنّكم لتجبنّون، وإنّكم لتبخّلون، وإنكم لمن ريحان الله»[2].

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها:

يـا حـبّـذا ريـحُ الـوَلَـدْ ... ريـحُ الـخُـزامَـى فـي الـبـلـدْ
أهـكـذا كـلّ ولَـدْ ... أم لـم يـلـدْ قَـبْـلِـي أحَـدْ!

وفي الحديث المرفوع: «من كان له صبيّ فليستصِب له».

وأنشد الرياشيّ:

مَـنْ سـرّه الـدّهـر أن يـرى الـكـبـدا ... يـمـشـي عـلـى الأرض فـلْـيـرَ الـولـدا

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٨٦٠)، والديلمي في «الفردوس» (٣٢٦٣)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (١١٠٦١).

(٢) أخرجه أحمد، كتاب: مسند القبائل، باب: حديث خولة بنت حكيم (٢٦٧٦٩)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في حب الولد (١٩١٠).

الأصل: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ - أَيْ بُنَيَّ - وَلُزومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ، إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ!

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ.

وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ.

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لا تَعْرِفُ وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ.

الشرح: قوله عليه السلام: «وأيّ سبب أوثق»، إشارة إلى القرآن لأنه هو المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[١].

ثم أتى بلفظتين متقابلتين، وذلك من لطيف الصنعة، فقال: «أحيِ قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة»، والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه.

قوله عليه السلام: «واعرض عليه أخبار الماضين» معنى قد تداوله الناس، قال الشاعر:

سل عن الماضين إن نطقت ... عنهم الأجداث والتُّرَكُ

أيّ دار للبلى نزلوا ... وسبيل للردى سَلَكُوا

قوله عليه السلام: «ودع القول فيما لا تعرف» من قول رسول الله صلى الله عليه وآله لعبد الله بن عمرو بن العاص: «يا عبد الله، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس، مرجت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا!» - وشبّك بين أصابعه -، قال عبد الله: فقلت: مُرْني يا رسولَ الله، فقال: «خذ ما تعرف، ودع ما لا تعرف، وعليك بخُوَيْصة نفسك»[٢].

قوله: «والخطاب فيما لم تكلّف» من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «منْ حُسْن إسلام المرء تركه ما

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) أخرج نحوه أبو داود، كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٤٣) وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: التثبيت في الفتنة (٣٩٥٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٥٩)، وابن حبان (٥٩٥٠).

لا يعنيه»[1]، وقال معاوية في عبد الملك بن مروان وهو حينئذ غلام: إن لهذا الغلام لهمّة، وإنّه مع ذلك تارك لثلاث آخذ بثلاث: تارك مساءةَ الصّديق جِدًّا وهَزْلاً، تارك ما لا يعنيه، تارك ما لا يعتذر منه، آخذ بأحسن الحديث إذا حدّث، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأهون الأمرين إذا خُولف.

قوله عليه السلام: «وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته»، مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وآله: «دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك»[2]، وفي خبر آخر: «إذا رابك أمرٌ فدعه»[3].

الأصل: وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلا تَأْخُذْكَ فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ.

وَخُضِ ٱلْغَمَرَاتِ إِلَى الحقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي ٱلدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ ٱلصَّبْرَ عَلَى المَكْرُوهِ، وَنِعْمَ ٱلْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي ٱلْحَقِّ!

وَأَلْجِىءْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلٰهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ.

وَأَخْلِصْ فِي المَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ ٱلْعَطاءَ وَٱلْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفحاً، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَلاَ يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

الشرح: امره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهما واجبان عندنا، وأحد الأصول الخمسة التي هي أصول الدين.

ومعنى قوله: «تكن من أهله»، لأن أهل المعروف هم الأبرار الصالحون، ويجب إنكار المنكر باللسان، فإن لم ينجع فباليد، وتفصيل ذلك وترتيبه مذكور في كتبي الكلامية.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: من تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٢٣١٨)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٦)، وأحمد، كتاب: مسند أهل البيت، باب: حديث الحسن بن علي (١٧٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق، باب: منه (٢٥١٨)، والنسائي، كتاب: آداب القضاة، باب: الحكم باتفاق أهل العلم (٥٣٩٧)، وأحمد، كتاب: مسند أهل البيت، باب: حديث الحسن بن علي بن أبي طالب (١/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: ٣/ ١١٧ رقم: ٤٩٨٤.

قوله: «وخُضِ الغمرات إلى الحق»، لا شبهة أن الحسن عليه السلام لو تمكّنَ لخاضها إلّا أنّ مَنْ فقد الأنصار لا حِيلَة له.

وهلْ ينهض البازِي بغير جَنَاحِ

والّذي خاضها مع عدم الأنصار هو الحسين عليه السلام، ولهذا عظُم عند الناس قدرُه، فقدّمه قوم كثير على الحسن عليه السلام. فإن قلتَ: فما قول أصحابكم في ذلك؟

قلت: هما عندنا في الفضيلة سيّان، أما الحسن فلوقوفه مع قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا﴾(١)، وأما الحُسين فلإعزاز الدين.

قوله: «فنعم التصبّر» قد تقدّم منّا كلام شافٍ في الصبر.

وقوله: «وأكثر الاستخارة»: ليس يعني بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سَطْر رقاع وجعلها في بنادق، وإنما المراد أمره إياه بأن يطلب الخيَرة من الله فيما يأتي ويذر.

قوله: «لا خير في علم لا ينفع» قول حق، لأنه إذا لم ينفع كان عبثاً.

قوله: «ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه»، أي لا يجب ولا يندب إليه، وذلك لأن النفع إنما هو نفع الآخرة، فما لم يكن من العلوم مرغباً فيه إما بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به في الآخرة، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيقيّ ونحوهما.

الأصل: أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُون أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ.

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

الشرح: هذه الوصيّة كتبها عليه السلام للحسن بعد أن تجاوز الستين، وروي أنه ذُكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما بين الستّين والسبعين، فقال: «معترك المنايا»[1].

قوله عليه السلام: «أو أن أُنقص في رأيي» هذا يدلّ على بطلان قول من قال: إنّه لا يجوز أن ينقص في رأيه، وإن الإمام معصوم عن أمثال ذلك، وكذلك قوله للحسن: «أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا» يدلّ على أن الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى، ولا عن فتن الدنيا.

قوله: «فتكون كالصّعب النّفور»، أي كالبعير الصعب الذي لا يُمكِن راكباً، وهو مع ذلك نفور عن الأنس.

ثم ذكر أن التعلم إنما هو في الصِّبَا، وفي المثل: «الغلام كالطيّن يقبل الختم ما دام رطباً».
وقال الشاعر:

اختمْ وطينُك رَطْبٌ إنْ قدرتَ فَكَمْ قد أمكنَ الختمُ أقواماً فما خَتَمُوا

ومثّل هو عليه السلام قلْب الحدَث بالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء قبلته، وكان يقال: التعلّم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلم في الكبر كالخطّ على الماء.

قوله: «فأتاك من ذلك ما كنّا نأتيه» أي الّذي كنّا نحن نتجشم المشقّة في اكتسابه، ونتكلّف طلبه، يأتيك أنت الآن صَفواً عَفواً.

الأصل: أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ، قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِم، مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ،

(١) أخرج نحوه أبو يعلى في «المسند» (٦٥٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٥٣)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ١٣٩).

فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِن تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِن إِسْلامِكَ إِلَى أَمْرٍ لا آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ.

الشرح: هذا الفصل وما بعده يشعر بالنّهي عن علم الكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه، ألا تراه قال له: كنت عازماً على أن أعلِّمك القرآن وتفسيره والفقه وهو المعرفة بأحكام الشريعة، ولا أجاوز بك إلى غيره، ثم خفت أنْ تدخل عليك شبهة في أصول الدين فيلتبس عليك في عقيدتك الأصلية ما التبس على غيرك من الناس، فعدلتُ عن العزم الأوّل إلى أن أوصيّك بوصايا تتعلّق بأصول الدين.

ومعنى قوله عليه السلام: «وكان إحكام ذلك» إلى قوله: «لا آمن عليك به الهلكة»، أي فكان إحكامي الأمورَ الأصليّة عندك وتقرير الوصية التي أوصيك بها في ذهنك فيما رجع إلى النظر في العلوم الإلهية، وإن كنت كارهاً للخوض معك فيه وتنبيهك عليه أحب إليّ من أن أتركك سدًى مهملاً، تتلاعب بك الشُبَه، وتعتورك الشكوك في أصول دينك، فربّما أفضى ذلك بك إلى الهلَكة.

فإن قلتَ: فلماذا كان كارهاً تنبيه ولده على ذلك، وأنتم تقولون إنّ معرفة الله واجبة على المكلّفين، وليس يليق بأمير المؤمنين أن يكره ما أوجبه الله تعالى!

قلت: لعلّه علم إمّا من طريق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله، أو من طريق معرفته بما يصلح أن يكون لطفاً لولده ومعرفته، بما يكون مفسدة له، لكثرة التجربة له، وطول الممارسة لأخلاقه وطباعه أنّ الأصلح له ألا يخوض في علم الكلام الخوض الكليّ وأن يقتنع بالمبادىء والجمل، فمصالح البشر تختلف، فربَّ إنسانٍ مصلحته في أمرٍ ذلك الأمر بعينه مفسدة لغيره، ونحن وإن أوجبنا المعرفة فلم نوجب منها إلّا الأمور المجمَلة، وأمّا التفصيلات الدقيقة الغامضة، فلا تجب إلا عند ورود الشبهة، فإذا لم تقع الشبهة في نفس المكلَّف لم يجب عليه الخوض في التفصيلات.

قوله عليه السلام: «قد عَمِرتُ مع أولهم إلى آخرهم» العين مفتوحة والميم مكسورة مخففة، تقول: عمر الرجل يعمر عَمراً وعُمراً على غير قياس، لأن قياس مصدره التحريك أي عاش زماناً طويلاً، واستعمل في القسم أحدهما فقط، وهو المفتوح.

قوله عليه السلام: «حيث عناني من أمرك» أي أهمني، قال:

عَـنَـانِـي مِـنْ صُـدُودِكِ مَـا عَـنَـا

قوله: «وأجمعت عليه» أي عَزَمت.

ومقتبل الدهر، يقال: اقتبل الغلام فهو مقتبَل بالفتح وهو من الشواذّ، ومثله أحصن الرجل إذا تزوج فهو مُحصَن، وإذا عفّ فمحصَن أيضاً، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهَب، وألفج إذا افتقر فهو ملفَج، وينبغي أن يكون له من قوله: «تنبيهك له» بمعنى «عليه»، أو تكون على أصلها، أي ما كرهت تنبيهك لأجله.

فإن قلت: إلى الآن ما فسّرتَ، لما ذاكره تنبيهه على هذا الفنّ؟

قلت: بلى قد أشرت إليه، وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى الخوض في الأمور الأصولية فنبّهه على أمور يجرّه النظر وتأمّل الأدلّة والشُّبُهات إليها دقيقة يُخاف على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته، إلا أنه لم يجد به بدّاً من تنبيهه على أصول الديانة، وإنْ كان كارهاً لتعريضه لخطر الشبهة، فنبّهه على أمور جملية غير مفصلة، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوزه إلى غيره وأن يُمسك عما يشتبه عليه، وسيأتي ذكر ذلك.

الأصل: وَاعْلَم يا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ ما أنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى الله وَالاقْتِصَارُ على ما فَرَضَهُ الله عَلَيْكَ، وَالأَخْذُ بِما مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبائِكَ، والصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَما أَنْتَ ناظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَما أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِما عَرَفُوا، والإِمْساكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَما عَلِمُوا، فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهاتِ، وعُلَقِ الخُصُومَاتِ.

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاسْتِعانَةِ بِإِلٰهِكَ، والرغْبَةِ إِلَيْهِ في تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلالَةٍ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فاجْتَمَعَ، وكانَ هَمُّكَ في ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فانْظُرْ فِيما فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ ما تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وفَرَاغِ نَظَرِكَ وفِكْرِكَ، فاعْلَمْ أَنكَ إِنَّما تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْماءَ، وَلَيْسَ طالِبُ الدِّين مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالإِمْساكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ.

الشرح: أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض، وأن يأخذ بسنّة السّلف الصّالح من آبائه وأهل بيته، فإنّهم لم يقتصروا على التقليد، بل نظروا لأنفسهم، وتأمّلوا الأدلة، ثمّ رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عمّا لم يكلّفوا.

فإن قلتَ: مَنْ سَلَفه هؤلاء الذين أشار إليهم؟

قلت: المهاجرون الأوّلون من بني هاشم وبني المطّلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة بن

الحارث، وكأبي طالب في قول الشّيعة وكثير من أصحابنا، وكعبد المطلب في قول الشيعة خاصّة.

فإن قلت: فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدوداً من جملة هؤلاء!

قلت: لا، فإنه لم يكن من أهل المبادىء والجمل المقتصر بهم في تكليفهم العقليّات على أوائل الأدلّة، بل كان سيِّد أهل النظر كافّة وإمامهم.

فإن قلت: ما معنى قوله: لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم؟

قلت: لأنّهم إذا تأمّلوا الأدلّة وفكّروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلّصها من مضرّة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر في الخلاص منها، وهذا هو الوجه في وجوب النظر في طريق معرفة الله، والخوف من إهمال النظر.

فإن قلت: ما معنى قوله: «إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عمّا لم يكلّفوا»؟

قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلّة حدوث الأجسام وتوحيد الباريء وعدله، والإمساك عمّا لم يكلّفوا، مثل النّظر في إثبات الجزء الّذي لا يتجزأ ونفيه، ومثل الكلام في الخلا والملا، والكلام في أن هل بين كل حركتين مستقيمتين سكون أم لا؟ وأمثال ذلك مما لا يتوقّف أصول التوحيد والعدل عليه، فإنه لا يلزم أصحاب الجمل والمبادىء أن يخوضوا في ذلك، لأنهم لم يكلّفوا الخوض فيه، وهو من وظيفة قوم آخرين.

قوله عليه السلام: «فإن أبتْ نفسُك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا»، هذا الموضع فيه نظر، لأنا قد قلنا: إنهم لم يعلموا التفاصيل الدقيقة، فكيف يجعلهم عالمين بها؟ ويقول: «أن تعلم كما علموا» وينبغي أن يقال إن الكاف وما عملت فيه في موضع نصب، لأنه صفة مصدر محذوف، وتقديره فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك علماً كما علموا دون أن تعلم التفاصيل الدقيقة، وجاز انتصاب «علماً» والعامل فيه «تقبل» لأنّ القبول من جنسَ العلم، لأن القبول اعتقاد والعلم اعتقاد، وليس لقائل أن يقول: فإذن يكون قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيّ، لأن الفصل بينهما قد جاء كثيراً، قال الشاعر:

جَزى الله كَفّاً مِلْئُها من سعادةٍ ... سَرَتْ في هلاكِ المالِ والمالُ نائمُ

ويجوز أن يقال: كما علموا الآن بعد موتهم، فإنَّهم بعد الموت يكونون عالمين بجميع ما يشتبه علمه على النّاس في الحياة الدنيا، لأن المعارف ضرورية بعد الموت، والنفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم.

واعلم أن الَّذي يدعو إلى تكلّف هذه التأويلات أن ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبي صلى الله عليه وآله والأخذ بما في القرآن وترك النظر العقليّ، هذا هو ظاهر الكلام، ألا تراه كيف

يقول له: الاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل بيتك وسلفك، فإنّهم لما حاولوا النظر رجعوا إلى السمعيات، وتركوا العقليات، لأنّها أفضتْ بهم إلى ما لا يعرفونه، ولا هو من تكليفهم.

ثم قال له: فإن كرهت التقليد المحض، وأحببت أن تسلك مسلكهم في النظر، وإن أفضى بك الأمر إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيّات وما ورد به الكتاب والسنّة، فينبغي أن تنظر وأنت مجتمع الهمّ خالٍ من الشبهة، وتكون طالباً للحقّ، غير قاصد إلى الجدل والمراء، فلمّا وجدنا ظاهر اللفظ يقتضي هذه المعاني، ولم يجز عندنا أن يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده مع حكمته وأهلية ولده بالتّقليد وترك النظر، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عليه السلام من أن يأمر بما لا يَجوز لمثله أن يأمر به.

واعلم أنَّه قد أوصاه إذا همّ بالشروع في النظر بمحض ما ذكره المتكلمون، وذلك أمور:

منها أن يرغب إلى الله في توفيقه وتسديده.

ومنها أنْ يطلب المطلوب النظري بتفهّم وتعلم، لا بجدال ومغالبة ومِراء ومخاصمة.

ومنها اطّراح العصبية لمذهب بعينه، والتورّط في الشبهات التي يحاول بها نصرة ذلك المذهب.

ومنها ترك الإلْف والعادة، ونصرة أمر يطلب به الرياسة، وهو المعنى بالشوائب التي تولج في الضلال.

ومنها أنْ يكون صافي القلب، مجتمعَ الفكر، غيرَ مشغول السرّ بأمرٍ من جوع أو شِبع أو شبَق أو غضب، ولا يكون ذا هموم كثيرة، وأفكار موزّعة مقسّمة، بل يكون فكره وهمّه همًّا واحداً.

قال: فإذا اجتمع لك كل ذلك فانظر، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالنّاقة العشواء الخابطة لا تهتدي، وكمن يتورّط في الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه! وليس طالب الدين مَنْ كان خابطاً أو خالطاً، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل.

الأصل: فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالابْتِلاءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لا

تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ!

الشرح: قد تعلّق بهذه اللفظة وهو قوله: «أو ما شاء ممّا لا تعلم»، قوم من التناسخيّة، وقالوا: المعنى بها الجزاء في الهياكل التي تنتقل النفوس إليها. وليس ما قالوه بظاهر، ويجوز أن يريد عليه السلام أن الله تعالى قد يجازي المذنب في الدنيا بنوع من العقوبة، كالأسقام والفقر وغيرهما، والعقاب وإن كان مفعولاً على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو الباري أن يقتصر منه على الإيلام فقط، لأنّ الجميع حقّه، فله أن يستوفي البعض ويسقط البعض، وقد روي «أو بما شاء» بالباء الزائدة، وروي «بما لا يعلم». وأما الثواب فلا يجوز أن يجازي به المحسن في الدنيا، لأنه على صفة لا يمكن أن تجامع التكليف، فيحمل لفظ الجزاء على جزاء العقاب خاصة.

ثم أعاد عليه السلام وصيته الأولى، فقال: وإن أشكل عليك شيء من أمر القضاء والقَدر، وهو كون الكافر مخصوصاً بالنعماء والمؤمن مخصوصاً بضرب من الابتلاء، وكون الجزاء قد يكون في المعاد، وقد يكون في غير المعاد، فلا تقدحنّ جهالتك به في سكون قلبك إلى ما عرفتك جملته، وهو أن الله تعالى هو المحيي والمميت، المفني المعيد، المبتلي المعافي، وأن الدنيا بنيت على الابتلاء والإنعام، وأنهما لمصالح وأمور يستأثر الله تعالى بعلمها، وأنه يجازي عباده إما في الآخرة أو غير الآخرة، على حسب ما يريده ويختاره.

ثم قال له: إنّما خلقت في مبدأ خلقتك جاهلاً، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة، ومتاعب شديدة، فمَنْ خلق جاهلاً حقيق أن يكون جهله مدّة عمره أكثر من علمه استصحاباً للأصل.

ثم أراد أن يؤنسه بكلمة استدرك بها إيحاشه، فقال له: وعساك إذا جهلت شيئاً من ذاك أن تعلمه فيما بعد، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحيّر فيه، ثم تبصره وتعرفه! وهذا من الطِّبّ اللطيف، والرُّقى الناجعة(١)، والسِّحْرَ الحلال.

الأصل: فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كما أَنْبَأَ عَلَيْهِ نَبِيُّنا صلى الله عليه وآله، فَارْضَ بِهِ

(١) نجع فيه الدواء: إذا نفع. اللسان، مادة (نجع).

رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ، وَإِنِ اجْتَهَدْتَ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

الشرح: عاد إلى أمره باتّباع الرسول صلى الله عليه وآله، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة ونطق به الكتاب، وقال له: إنّ أحداً لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله، وصدق عليه السلام! فإنّ التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب أنبياء بني إسرائيل لم تتضمّن من الأمور الإلٰهية ما تضمنه القرآن، وخصوصاً في أمر المعاد، فإنه في أحد الكتابين مسكوت عنه، وفي الآخر مذكور ذكراً مضطرباً، والذي كشف هذا القناع في هذا المعنى، وصرّح بالأمر هو القرآن. ثم ذكر له أنه أنصحُ له من كلّ أحد، وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد في النظر لنفسه ما يبلغه هو عليه السلام له، لشدة حبّه له وإيثاره مصلحته. وقوله: «لم آلك نصحاً» لم أقصّر في نصحك، آلى الرجل في كذا يألو، أي قصّر فهو آلٍ والفعل لازم، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنسبه، وكان أصله: لا آلو لك نصحاً، منصوب على التميز، وليس كما قاله الراوندي إن انتصابه على أنه مفعول ثان، فإنه إلى مفعول واحد لا يتعدّى، فكيف إلى اثنين! ويقول هذه امرأة آلِيَة أي مقصّرة وجمعها أوالٍ، وفي المثل: «إلّا حظيّة فلا أليّة»[1]، أصله في المرأة تصلَف عند بعلها، فتوصى حيث فاتتها الحظوة ألّا تألوه في التودّد إليه والتحبّب إلى قلبه.

قوله: «ومنه شفقتك»، أي خوفك.

ورائد: أصله الرجل يتقدّم القوم فيرتاد بهم المرعى.

الأصل: وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلا نِهَايَةٍ، عَظُمَ أَنْ تُثْبَتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ.

فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالرَّهْبَةِ مِنْ عُقُوبَتِه، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٣٠) برقم (٤٤).

الشرح: يمكن أن يستدلّ بهذا الكلام على نفي الثاني من وجهين:

أحدهما أنّه لو كان في الموجود ثانٍ للباريء تعالى لما كان القول بالوحدانيّة حقّاً، بل كان الحقّ هو القول بالتثنية، ومحال ألا يكون ذلك الثاني حكيماً، ولو كان الحق هو إثبات ثانٍ حَكِيم لوجب أن يبعث رسولاً يدعُو المكلّفين إلى التثنية، لأنّ الأنبياء كلّهم دعوا إلى التّوحيد، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلالٌ، فيجب على الثاني الحكيم أن يبعث من ينبّه المكلّفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثاني، وإلا كان منسوباً في إهمال ذلك إلى السّفه واستفساد المكلّفين، وذلك لا يجوز، ولكنا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثانٍ في الإلهيّة فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً، وإذا لم يكن ضلالاً كان حقاً، فنقيضه وهو القول بإثبات الثاني باطل.

الوجه الثاني: أنه لو كان في الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريقٌ إلى إثباته، إمّا من مجرد أفعاله، أو من صفات أفعاله، أو من صفات نفسه، أو لا من هذا ولا من هذا، فمن التوقيف.

وهذه هي الأقسام التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّ قوله: «أتتك رسله» هو التوقيف، وقوله: «ولرأيت آثار ملكه وسلطانه»، هي صفات أفعاله، وقوله: «ولعرفت أفعاله وصفاته» هما القسمان الآخران.

أما إثبات الثاني من مجرّد الفعل فباطل، لأن الفعل إنما يدلّ على فاعل ولا يدلّ على التعدّد، وأما صفات أفعاله وهي كون أفعاله محكمة متقنة، فإن الإحكام الذي نشاهده إنّما يدل على عالم ولا يدلّ على التعدّد، وأما صفات ذات الباريء فالعلم بها فرع على العلم بذاته، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور.

وأما التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعونا إلى الثاني، وإذا بطلت الأقسام كلّها، وقد ثبت أن ما لا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثاني.

ثم قال: «لا يضادّه في مُلْكه أحد» ليس يريد بالضدّ ما يريده المتكلّمون من نفي ذات هي معاكسة لذات الباريء تعالى في صفاتها، كمضادّة السواد للبياض، بل مراده نفي الثاني لا غير، فإنّ نفي الضدّ بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام.

ثم ذكر له أنّ الباريء تعالى قديم سابق للأشياء، لا سبْقاً له حدّ محدود، وأول معيّن، بل لا أوّل له مطلقاً. ثم قال: وهو مع هذا آخر الأشياء، آخرية مطلقة ليس تنتهي إلى غاية معينة.

ثم ذكر أن له ربوبيّة جلّت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول.

وقد سبق منّا خوض في هذا المعنى، وذكرنا من نظمنا في هذا النّمط أشياء لطيفة، ونحن

نذكر ها هنا من نظمنا أيضاً في هذا المعنى، وفي فنّنا الّذي اشتهرنا به، وهو المناجاة والمخاطبة على طريقة أرباب الطريقة ما لم نذكره هناك، فمن ذاك قولي:

فَلا واللهِ ما وَصَلَ ابنُ سينا ولا أغْنَى ذكاءُ أبي الحُسَيْنِ
ولا رَجَعا بشيءٍ بعد بحثٍ وتدقيقٍ سوى خُفَّيْ حُنَيْنِ
لقدْ طوّفتُ أطلبكُمْ ولكنْ يحولُ الوقت بينكُمُ وبيني
فهل بعد انقضاءِ الوقت أحظَى بوصلكُمُ غداً وتقرّ عيني!
مُنًى عِشنَا بها زمناً وكانتْ تُسَوّفُنَا بصدْقٍ أو بمَيْنِ
فإنْ أكْدَتْ فذاك ضياعُ دِيني وإن أجْدَتْ فذاك حلول دَيْني

ومنها:

أمولايَ قد أحرقتُ قلبي فلا تكنْ غداً محرقاً بالنّار مَنْ كان يهواكا
أتجمع لي نارين: نارَ محبّةٍ ونارَ عذابٍ أنت أرحم من ذاكا!

ومنها:

قوم موسى تاهوا سنينَ كَمَا قَدْ جاء في النصّ قدرها أربعونا
ولِيَ اليومَ تائهاً في جَوَى من لا أسمّي وحُبّه خمسونا
قل لأحبابنا: إلاَمَ نَرُومُ الْـ ـوَصْلَ منكمْ وأنتمُ تمنعونا
كم نناجيكمُ فلا ترشدُونا ونناديكمُ فلا تسمعونا!
حسبنا علمكم بأنّا مواليكُمْ وإن كنتُم لَنا كارهينا
فعسى تدرك السعادة أرباب الـ ـمعاصي فيصبحوا فائزينا!

ومنها:

والله ما آسَى من الدُّنيا عَلَى مالٍ ولا ولدٍ ولا سلطانِ
بل في صَميم القلب منّي حسرة تبقَى معي وتُلَفّ في أكفاني
إنّي أراكَ بباطنِي لا ظاهرِي فالحسنُ مَشغَلَةٌ عَنِ العرفانِ
يا مَنْ سهرتَ مفكّراً في أمره خمسينَ حولاً دائمَ الجَوَلانِ
فرجعت أحمقَ من نعامة بَيْهسٍ وأضلَّ سعياً من أبي غُبْشانِ

ومنها:

وحقّك إن أدخلتني النّار قلتُ لِلْـ ـذين بها قد كنت ممن أحبّهُ
وأفنيت عمري في علوم دقيقة وما بغيتي إلا رضاه وقربُه

هبوني مسيئاً أوتَغَ[1] الحلم جهله وأوبقه بين البريّة ذنبُه
أما يقتضي شرع التكرّم عتقَه أيحسن أن يُنسى هواه وحبّهُ!
أما كان ينوي الحقّ فيما يقوله ألم تنصر التوحيد والعدل كتبُهُ!
أما ردّ زيغ ابن الخطيب وشكّه وإلحاده إذ جَلّ في الدين خطبُهُ!
أما قلتمُ مَنْ كان فينا مجاهداً سيُكرم مثواهُ ويُعذب شربُهُ!
ونهديه سُبْلاً من هدانا جهاده ويدخلُه خيرَ المداخل كسبُهُ
فأيّ اجتهاد فوقَ ما كان صانعاً وقد أحرقت زرقَ الشياطين شهبُهُ!
وما نال قلبُ الجيش جيش محمد كما نال من أهل الضلالة قلبُهُ
فإن تصفحوا يغنم وإن تتجرّموا فتعذيبكم حلو المذاقة عذبه
وآية صدق الصبّ أن يعذُبَ الأذى إذ كان مَنْ يهوَى عليه يَصُبُّهُ

ومنها:

إذا فكرت فيك يَحَارُ عقلِي وألحق بالمجانين الكبارِ
وأصحو تارةً فيشوب ذِهْني ويقدح خاطري كَشُواظِ نار
فيا مَنْ تاهت العقلاء فيهِ فأمسوْا كلّهم صَرْعَى عُقَارِ
ويا مَنْ كاعت الأفكار عنهُ فآبت بالمتاعب والخَسَارِ
ويا مَنْ ليس يعلمُه نبيٌّ ولا مَلَكٌ ولا يدريه دَارِ
ويا من ليس قُدَّاماً وخَلْفاً ولا جهةَ اليمين ولا اليَسَارِ
ولا فوقَ السماءِ ولا تدلّى من الأرضين في لُجَجِ البحَارِ
ويا مَنْ أمره من ذاك أجْلَى من ابنِ ذُكاء أو صبح النّهارِ
سألتُك باسمك المكتوم إلّا فككتَ النّفْسَ من رقّ الإسارِ
وجُدْت لها بما تهوى فأنت الـ ـعليمُ بباطنِ اللُّغزِ الضّمارِ

ومنها:

يا ربّ إنّك عالمٌ بمحبّتي لك واجتهادِي
وتجرُّدي للذبّ عنـ ـك على مُراغمة الأعادي
بالعدل والتوحيد أصـ ـدع معلناً في كلّ نادِي

(١) الوتغ: الإثم. اللسان، مادة (وتغ).

وكشفتُ زيغَ ابن الخطـ ـيب ولبْسه بين العِبَادِ
ونقضت سائرَ ما بنَا هُ من الضّلالة والفسادِ
وأبنت عن إغوائِـهِ في دين أحمدَ ذي الرَّشَادِ
وجعلتُ أوجُه ناصريـ ـهِ محمّمات بالسّوَاد
وكففت مِن غُلَوائهمْ بَعْدَ التمرّدِ والعِنَادِ
فكأنّما نُخِلَ الرما دُ عليهمُ بَعْدَ الرَّمَادِ
وقصدت وجْهَك أبتغي حسنَ المثوبَة في المعادِ
فأفِضْ على العبد الفقـ ـير إليكمُ نورَ السَّدَادِ
وارزقه قبل الموت مَعْـ ـرفة المصائر والمَبَادِي
وافكك أسيرَ الحرصِ بالـ أصفاد من أسر الصّفاد
واغسل بصفو القرب من أبوابكم كَدَر البعاد
وأعضه من حَرّ الغلـ ـيل بوصلكم بَرْدَ الفؤادِ
وارحم عيوناً فيك ها مية وقَلْباً فيك صادِ
يا ساطحَ الأرض المها د وممسكَ السّبْع الشّدادِ

الأصل: يَا بُنَيَّ، إنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ ٱلآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا.

إنّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ، نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً، وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، وَلا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ وأَدْنَاهُمْ إِلَى مَحَلّتِهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ ٱغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيب، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهُ إِلَيْهِمْ، وَلا أَفْظَعُ عِنْدَهُمْ، مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجِمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

الشرح: حذا عليه يحذو، واحتذى مثاله، يحتذي، أي اقتدى به. وقوم سَفْر، بالتسكين، أي مسافرون.

وأمُّوا: قصدوا. والمنزل الجديب: ضدّ المنزل الخصيب.

والجناب المَريع بفتح الميم: ذو الكلأ والعشب، وقد مَرُع الوادي، بالضمّ.

والجَناب: الفناء. ووعْثاء الطريق: مشقّتها.

وجُشوبة المطعم: غِلَظه، طعام جَشيب ومَجْشوب، ويقال إنه الذي لا أُدْمَ معه.

يقول: مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة، كمن سافر من منزل جدب إلى منزل خصيب، فلقي في طريقه مشقّة، فإنه لا يكترث بذلك في جنب ما يطلب، وبالعكس مَن عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة، فإنه كمن يسافر إلى منزل ضَنْك ويهجر منزلاً رحيباً طيباً، وهذا من قول رسول الله ﷺ: «الدّنيا سِجْن المؤمن وجنة الكافر»[1].

الأصل: يا بُنَيّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فيما بيْنَكَ وبَيْنَ غَيْرِكَ، فاحْبِبْ لِغَيْرِكَ ما تُحِبُّ لنَفْسِكَ، واكْرَهْ لَهُ ما تَكْرَهُ لَهَا، ولا تَظْلِمْ كَما لا تُحِبُّ أنْ تُظْلَمَ، وأحْسِنْ كَما تُحِبُّ أنْ يُحْسَنَ إلَيْكَ، واسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ ما تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِك، ولا تَقُلْ ما لا تَعْلَمُ وإنْ قَلَّ ما تَعْلَمْ، ولا تَقُلْ ما لا تُحِبُّ أنْ يُقالَ لَكَ.

واعْلَمْ أنَّ الإعْجاب ضِدُّ الصَّوَابِ، وآفَةُ الألْبابِ، فاسْعَ في كَدْحِكَ، ولا تَكُنْ خازِناً لغَيْرِكَ، وإذَا أنتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ، فَكُنْ أخْشَعَ ما تَكُونُ لِرَبّكَ.

الشرح: جاء في الحديث المرفوع: «لا يكمُل إيمان عبدٍ حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه»[2]. وقال بعض الأسارى لبعض الملوك: افعل معي ما تحبّ أن يفعل الله معك، فأطلقه، وهذا هو معنى قوله ﷺ: «ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم».

وقوله: «وأحسن» من قول الله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٥٦)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٣)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين، باب: باقي المسند السابق (٨٠٩٠).

(٢) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه (٤٥)، والترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب: منه (٢٥١٥)، والنسائي، كتاب: الإيمان، باب: علامة الإيمان (٥٠١٦).

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٧.

وقوله : «واستقبح من نفسك» ، سئل الأحنف عن المروءة ، فقال : أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك . وروي : «وأرض من الناس لك» وهي أحسن .

وأما العُجْب وما ورد في ذمه فقد قدمنا فيه قولاً مقنعاً .

قوله عليه السلام : «واسْعَ في كدحك» أي أذهب ما اكتسبت بالإنفاق ، والكدح ها هنا : هو المال الذي كدح في حصوله ، والسعي فيه إنفاقه ، وهذه كلمة فصيحة ، وقد تقدم نظائر قوله : «ولا تكن خازناً لغيرك» .

ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هَدَاه لرشده ، وذلك لأنّ هدايته إياه إلى رشده نعمة عظيمة منه ، فوجبِ أن يقابل بالخشوع لأنه ضرب من الشكر .

الأصل: وَاعْلَمْ أنَّ أمامَكَ طَرِيقاً ذا مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَأَنَّهُ لا غِنًى بكَ فِيه عَنْ حُسْنِ الارْتِيادِ ، وقَدْرِ بلاغِكَ مِنَ الزَّادِ ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ ، فَلا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبالاً عَلَيْكَ ، وإذا وجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وحَمِّلْهُ إِيَّاهُ ، وأكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وأَنْتَ قادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فلا تَجِدُهُ .

واغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ في حالِ غِناكَ ، لِيَجْعَلَ قَضاءَهُ لَكَ في يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

واعْلَمْ أنَّ أمامكَ عَقَبَةً كَؤوداً ، الْمُخِفُّ فيها أحْسَنُ حالاً مِنَ الْمُثْقِلِ ، والْمُبطِىءُ عَلَيْهَا أقْبَحُ أمْراً مِنَ الْمُسْرِعِ ، وأنَّ مَهْبِطَهَا بِك لا مَحالَةَ ، إمَّا عَلَى جَنَّةٍ أوْ عَلَى نارٍ ، فارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَوَطِّىءِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، ولا إِلَى الدُّنْيا مُنْصَرَفٌ .

الشرح: أمره في هذا الفصل بإنفاق المال والصَّدَقة والمعروف . فقال : إن بين يديك طريقاً بعيد المسافة ، شديد المشقّة ، ومَنْ سلك طريقاً فلا غنًى له عن أن يرتاد لنفسه ، ويتزوّد من الزاد قدر ما يبلّغه الغاية ، وأن يكون خفيف الظهر في سفره ذلك ، فإياك أن تحمل من المال ما يثقِلُك ، ويكون وبالاً عليك ، وإذا وجدت من الفقراء والمساكين مَنْ يحمل ذلك الثّقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحمّله إياه ، فلعلك تطلب مالك فلا تجده . جاء في الحديث المرفوع : «خَمْس مَن أتى الله بهنّ أو بواحدة منهن أوجب له الجنّة : مَنْ سقى هامةً صادِية ، أو أطعم كبداً هافية ، أو كسا جلدة عارية ، أو حمل قدماً حافية ، أو أعتق رقبة عانية» .

قيل لحاتم الأصمّ: لو قرأت لنا شيئاً من القرآن! قال: نعم، فاندفع فقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] يكنزون، فقالوا: أيها الشيخ ما هكذا أنزل! قال: صدقتم، ولكن هكذا أنتم!

الأصل: وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ تَعَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً. وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الاسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاك، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاك، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ.

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ، بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلا يُقْنِطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلا تُعْطَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لا يَبْقَى لَكَ، وَلا تَبْقَى لَهُ.

الشرح: قد تقدم القولُ في الدُّعاء.

قوله: «بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة»، هذا متفّق عليه بين أصحابنا، وهو أنّ تارك القبيح لأنه قبيح يستحقّ الثواب.

قوله: «حسب سيئتك واحدة وحسب حسنتك عشراً»، هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآيات: ١ - ٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

قوله: «وأبثثه ذات نفسك»، أي حاجتك.

ثم ذكر له وجوهاً في سبب إبطاء الإجابة:

منها أن ذلك أمر عائد إلى النيَّة، فلعلَّها لم تكن خالصة.

ومنها أنه ربما أخرت ليكون أعظم لأجر السائل، لأنّ الثواب على قدر المشقة.

ومنها أنه ربما أخّرت ليعطي السائل خيراً مما سأل، إمّا عاجلاً أو آجلاً، أو في الحالين.

ومنها أنه ربّما صرف ذلك عن السائل، لأنّ في إعطائه إيّاه مفسدة في الدين.

قوله: «فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له»، لفظ شريف فصيح، ومعنى صادق محقّق فيه عظة بالغة، وقال أبو الطيب:

أيـنَ الـجـبـابـرَةُ الأكـاسـرَة الأُلَـى   كـنـزُوا الـكُـنـوز فـمـا بَـقـيـنَ وَلا بَـقُـوا

ويروى: «من يحجبه عنك».

وروي: «حيث الفضيحة» أي حيث الفضيحة موجودة منك.

واعلم أنّ في قوله: «قد أذن لك في الدعاء، وتكفّل لك بالإجابة» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

وفي قوله: «وأمر أن تسأله ليعطيَك» إشارة إلى قوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[٢]. وفي قوله: «وتسترحمه ليرحمك» إشارة إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٣].

وفي قوله: «ولم يمنعك إن أسأت من التوبة» إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٤].

الأصل: وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لا لِلْحَيَاءِ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ، وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لا يَنْجُو هَارِبُهُ، وَلا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

يَا بُنَيَّ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِم عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ الله عَنْهَا، وَنَعَتَتْ لَكَ نَفْسَهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُها كِلابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا.

نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا.

سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِم الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!

الشرح: يقول: هذا منزل قُلْعة، بضم القاف وسكون اللام، أي ليس بمستوطَن، ويقال: هذا مجلس قُلْعة، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة. ويقال أيضاً: هم على قُلْعة، أي على رِحْلة، والقُلْعة أيضاً: هو المال العارية، وفي الحديث: «بئس المال القُلْعة»، وكلُّه يرجع إلى معنًى واحد.

قوله: «ودار بلْغة»، والبلغة: ما يتبلّغ به من العيش.

قوله: «سروح عاهة»، والسُّروح: جمع سَرْح، وهو المال السارح. والعاهة: الآفة، أعاه القومُ أصابت ماشيتَهم العاهة.

وواد وَعْث: لا يثبت الحافرُ والخُفّ فيه، بل يغيب فيه، ويشقّ على مَنْ يمشي فيه.

وأوعث القوم: وقعوا في الوعث. ومسِيم يُسيمها، راعٍ يرعاها.

قوله: «رويداً يسفر الظلام...» إلى آخر الفصل، ثلاثة أمثال محرّكة لمن عنده استعداد. واستقرَأني أبو الفرج محمد بن عباد رحمه الله وأنا يومئذٍ حَدَث هذه الوصيّة فقرأتها عليه من حِفظي، فلمّا وصلتُ إلى هذا الموضع صاح صيحة شديدة، وسقط - وكان جبَّاراً قاسيَ القلب.

في وصف الدنيا وفناء الخلق

واعلم أنّا قدّمنا في وصف الدنيا والفناء والموت من محاسن كلام الصالحين والحكماء ما فيه الشفاء، ونذكر الآن أشياء أُخر.

فمن كلام البصريّ: يا بنَ آدم، إنّما أنت أيام مجموعة، فإذا مضى يوم مضى بعضك.

عن بعد الحكماء: رحم الله آمرأً لا يغرّه ما يَرى من كثرة الناس، فإنه يموت وحده، ويقبَر وحده، ويحاسَب وحده.

وقال بعضهم: لا وجهَ لمقاساة الهموم لأجل الدنيا ولا الاعتداد بشيء من متاعها، ولا التخلّي منها، أمّا ترك الاهتمام لها، فمن جهة أنّه لا سبيل إلى دفع الكائن من مقدورها، وأمّا ترك الاعتداد بها، فإنّ مرجع كلّ أحد إلى تركها، وأمّا ترك التخلّي عنها فإنّ الآخرة لا تدرَك إلّا بها.

ومن كلام بعض الحكماء: أفضل اختيار الإنسان ما توجّه به إلى الآخرة، وأعرض به عن الدنيا، وقد تقدّمت الحجة وأذِنّا بالرحيل، ولنا من الدنيا على الدّنيا دليل، وإنّما أحدنا في مدّة بقائه صريع لمرض، أو مكتئب بهمّ، أو مطروق بمصيبة، أو مترقّب لمخوف، لا يأمن المرء أصناف لذّته من المطعوم والمشروب أن يكون موته فيه، ولا يأمن مملوكه وجاريته أن يقتلاه بحديد أو سمّ، وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عقله من زوال، وسمعه من صَمَم، وبصره من عمًى، ولسانه من خَرَس، وسائر جوارحه من زَمانة، ونفسه من تَلَف، وماله من بوارٍ، وحبيبه من فراق، وكلّ ذلك يشهد شهادة قطعيّة أنه فقير إلى ربّه، ذليل في قبضته، محتاج إليه. لا يزال المرء بخير ما حاسب نفسه، وعمر آخرته بتخريب دنياه، وإذا اعترضته بحار المكاره، جعل معابرها الصبر والتأسّي، ولم يغترّ بتتابع النّعم، وإبطاء حلول النقم، وأدام صحبة التقى، وفَطَم النفس عن الهوى، فإنما حياته كبضاعة ينفق من رأس المال منها، ولا يمكنه أن يزيد فيها، ومِثْل ذلك يوشِك فناؤه وسرعة زواله.

وقال أبو العتاهية في ذكرِ الموت:

ستُباشر التُّرباء خدّك ... وسيضحك الباكون بعدك
ولينزلنّ بك البِلى ... وليخلفنّ الموتُ عهدَكْ
وليفنيّنك مثل ما ... أفنى أباك بِلًى وجدَّكْ
لو قد رحلت عن القُصو ... ر وطيبها وسكنتَ لَحْدَكْ
لم تنتفع إلا بفعـ ... ـل صالحٍ قد كان عندَكْ
وترى الّذين قسمت ما ... لك بينهم حصصاً وكدّكْ
يتلذّذون بما جَمَعْـ ... ـتَ لهمْ ولا يجدون فَقْدَكْ

الأصل: وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

وَاعلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ.

فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ فِي المُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ، وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ.

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً. وَلا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ ٱللهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

الشرح: مثل الكلمة الأولى قول بعض الحكماء - وقد نسب أيضاً إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أهل الدنيا كركْبٍ يُسار بهم وهم نيام.

قوله: «فخفِّض في الطلب» من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ روح القدس نفث في رُوعي أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فأجمِلوا في الطلب»[1].

وقال الشاعر:

ما اعتاضَ باذلُ وجهِهِ بسؤالِه	عِوَضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ
وإذا النّوال إلى السؤال قَرنته	رجحَ السؤالُ وخفَّ كلُّ نوالِ

وقال آخر:

رددتُ رونق وجهي عن صحيفتِهِ	ردّ الصّقال بهاءَ الصَّارِمِ الخذِمِ
وما أُبالي وخيرُ القول أصدقه	حقنت لي ماء وجهي أم حَقَنْتَ دمي

وقال آخر:

وإني لأختار الزهيد على الغِنَى	وأجزأ بالمال القَراح[2] عن المحضِ
وأدّرع الإملاق صبراً وقد أرى	مكان الغِنَى كي لا أهينَ له عِرْضي

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٦٩٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٤٣٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٧) واللفظ له.

(٢) (القراح) الماء الذي لم يخالطه شيء يطيَّب به كالعسل والتمر والزبيب. اللسان، مادة (قرح).

وقال أبو محمد اليزيدي في المأمون:

أبقى لنا الله الإمامَ وزادَهُ ... شَرَفاً إلى الشَّرَفِ الذي أعطاهُ
والله أكرمنا بأنّا معشر ... عُتقاء من نِعَم العباد سِوَاهُ

وقال آخر:

كيفَ النهوضُ بما أوْلَيْتَ من حَسَنٍ ... أم كيف أشكر ما طوقْت من نِعَمِ!
ملّكتَنِي ماء وجهٍ كاد يسكُبُه ... ذلّ السؤال ولم تفجع به هِممي

وقال آخر:

لا تحرِصنّ على الحُطام فإنّما ... يأتيك رزقُك حين يؤذَنُ فيه
سَبَقَ القَضاءُ بقدره وزمانه ... وبأنّه يأتيك أو تأتيهِ

وكان يقال: ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقر الناس إليه.

وقال رجل في مجلس فيه قوم من أهل العلم: لا أدرِي ما يحمل من يوقن بالقدر على الحرص على طلب الرزق! فقال له أحد الحاضرين: يحمله القَدَر، فسكت.

أقول: لو كنت حاضراً لقلت: لو حمله القدر لما نهاه العقلاء عن الحرص، ولما مدحوه على العفّة والقناعة فإن عاد وقال: وأولئك ألجاهم القدر إلى المدح والذّم والأمر والنهي، فقد جعل نفسه وغيره من الناس، بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات التي يحرّكها غيرها ومن بلغ إلى هذا الحد لا يكلم.

وقال الشاعر:

أراكَ تزيدُكَ الأيام حِرْصاً ... على الدّنيا كأنّك لا تموتُ
فهل لك غاية إن صرت يوماً ... إليها قلتَ حسبي قد رضيتُ!

أبو العتاهية:

أيّ عيش يكون أطيبَ من عَيْـ ... ـشٍ كفافٍ قوت بقدر البلاغ
قَمَرْتني الأيام عقلي ومالي ... وشبابي وصحّتي وفراغي

وأوصى بعض الأدباء ابنه فكتب إليه:

كُنْ حَسَنَ الظنّ بِرَبٍّ خَلَقَكْ ... بنيّ واحمدْهُ على ما رَزَقَكْ
واعلم بأنّ الحرص يطفي رونقَكْ ... فجانب الحرْص وحَسّن خلقكْ
واصدق وصادق أبداً مَنْ صدقَكْ ... دارِ مُعاديك ومُقْ(١) من وَمَقَكْ

(١) ومِقَه يَمِقُه: أحبه. اللسان، مادة (ومق).

واجعل لأعدائك حزماً ملقك ... وجنّبن حشوَ الكلام منطقك
هذي وَصاة والد قد عشقك ... وصاة مَنْ يقلقه ما أقلقك
أرشدك الله لها ووفّقك

أبو العتاهية:

أجَلُ الغنى مِمّا يؤمّل أسرعُ ... وأراك تجمعُ دائماً لا تشبعُ
قل لي لمن أصبحتَ تجمع دائباً ... ألِبَعْلِ عِرْسِك لا أبا لكَ تجمعُ!

وأوصى زياد ابنه عبيد الله عند موته، فقال: لا تدنّسنّ عرضك، ولا تبذلنّ وجهك، ولا تخلقن جدّتك بالطلب إلى مَنْ إن ردك كان ردّه عليك عيباً، وإن قضى حاجتك جعلها عليك مَنّاً، واحتمِل الفقر بالتنزّه عمّا في أيدي الناس، والزم القناعة بما قُسِم لك، فإن سوء عمل الفقير يضع الشريف، ويخمل الذِّكر، ويوجب الحرمان.

الأصل: وَتَلافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ الْيَاسِ، خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ!

مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ.

قارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وبايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ.

بِئْسَ الطَّعامُ الحَرَامُ! وظُلْمُ الضَّعِيفِ أفْحَشُ الظُّلْمِ!

إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً، كانَ الخُرْقُ رِفْقاً.

رُبَّما كانَ الدَّوَاءُ دَاءً، والدَّاءُ دَوَاءً. ورُبَّما نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ المُسْتَنْصَحُ.

وَإِيَّاكَ وَالاتّكالَ على المُنَى فإنَّها بَضائِعُ النَّوْكَى. والعقْلُ حِفْظُ التَّجارِبِ، وَخَيْرُ ما جرَّبْتَ ما وعَظَكَ. بادِرِ الفُرْصَةَ، قَبْلَ أنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طالِبٍ يُصِيبُ، ولا كُلُّ غائِبٍ يؤوب، وَمِنَ الفَسادِ إضاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ المَعادِ. ولِكُلِّ أمْرٍ عاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيك ما قُدِّرَ لَكَ.

التَّاجِرُ مُخاطِرٌ، ورُبَّ يَسِيرٍ أنْمَى مِنْ كَثِيرٍ!

الشرح: هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكميّة.

أوّلها قوله: «تلافيك ما فَرَط من صمتك أيسرُ من إدراكِك ما فات من منطقك»، وهذا مثل قولهم: أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً، ولستَ بقادر على أن تجعل كلامك صمتاً، وهذا حقّ، لأن الكلام يُسْمع وينقل، فلا يستطاع إعادته صمتاً، والصمت عدم الكلام، فالقادر على الكلام قادر على أن يبدّله بالكلام، وليس الصمت بمنقول ولا مسموع فيُتعذّر استدراكه.

وثانيها قوله: «حفظ ما في يَدَيْك أحبّ إليّ من طلب ما في أيدي غيرك»، هذا مثل قولهم في المثل: البخل خير من سؤال البخيل، وليس مراد أمير المؤمنين عليه السلام وصايته بالإمساك والبخل، بل نهيه عن التفريط والتبذير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(١)، وأحمقَ الناس مَنْ أضاع ماله اتكالاً على مال الناس، وظنَّاً أنه يقدر على الاستخلاف، قال الشاعر:

إذا حَـدّثَـتـك الـنـفـسُ أنّـك قـادرٌ ... عـلـى مـا حوتْ أيدي الرجال فكذّبِ

وثالثها قوله: «مرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس»، من هذا أخذ الشاعر قوله:

وإن كـان طـعـم الـيـأس مُـرّاً فـإنّـهُ ... ألـذّ وأحْـلَـى مـن سـؤال الأراذِلِ

وقال البُحتري:

والـيـأس إحدى الـراحـتـين ولـنْ تَـرى ... تَـعَـبـاً كـظـنّ الـخـائـب الـمـغـرور

ورابعها قوله: «الحِرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور»، والحرْفة بالكسر مثل الحُرف بالضم، وهو نقصان الحظ وعدم المال. ومنه قوله: «رجل محارَف»، بفتح الراء، يقول: لأن يكون المرء هكذا وهو عفيف الفَرْج واليد، خير من الغنى مع الفجور، وذلك لأن ألم الحِرفة مع العفة ومشقّتها إنما هي في أيام قليلة وهي أيام العمر، ولذّة الغنى إذا كان مع الفجور، ففي مثل تلك الأيام يكون، ولكن يستعقب عذاباً طويلاً، فالحال الأولى خيرٌ لا محالة. وأيضاً ففي الدنيا خير أيضاً للذكر الجميل فيها، والذكر القبيح في الثانية، وللمحافظة على المروءة في الأولى وسقوط المروءة في الثانية.

وخامسها قوله: «المرء أحفظ لسرّه» أي الأولى ألّا تبوح بسرّك إلى أحد، فأنت أحفظ له من غيرك، فإن أذعته فانتشر فلا تَلُمْ إلّا نفسك لأنك كنت عاجزاً عن حفظ سرّ نفسك، فغيرك عن حفظ سرّك وهو أجنبيٌّ أعجز، قال الشاعر:

إذا ضاقَ صَدْرُ المرء عن حفظِ سِرّهِ ... فـصَـدْرُ الـذي يُـسـتـودعُ الـسّـرّ أضيَـقُ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

وسادسها قوله: «رُبَّ ساع فيما يضرّه»، قال عبد الحميد الكاتب في كتابه إلى أبي مسلم: لو أراد الله بالنملة صلاحاً، لما أنبت لها جَناحاً.

وسابعها قوله: «من أكثر أهجر» يقال: أهجر الرجل، إذا أفحش في المنطق السوء والخنا، قال الشمّاخ:

كماجدةِ الأعراق قال ابن ضرَّةٍ عليها كلاماً جار فيه وأهْجَرا

وهذا مثل قولهم: مَنْ كثر كلامه كثير سَقَطه.

وقالوا أيضاً: قلّما سَلِم مكثار، أو أمن من عِثار.

وثامنها قوله: «مَنْ تفكّر أبصرَ»، قالت الحكماء: الفكر تحديق العقل نحو المعقول، كما أن النظر البصريّ تحديق البصر نحو المحسوس، وكما أن من حدّق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لا بدّ أن يبصره، كذلك من نظر بعين عقله، وأفكر فكراً صحيحاً، لا بدّ أن يدرك الأمر الذي فكّر فيه ويناله.

وتاسعها قوله: «قارن أهلَ الخير تكن معهم، وباين أهل الشرّ تبن عنهم»، كان يقال: حاجبك وجهك، وكاتبك لسانك، وجليسك كلّك. وقال الشاعر:

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ فكلّ قرينٍ بالمُقارِن مُقتَدِ

وعاشرها قوله: «بئس الطعام الحرام»، هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1].

وحادي عشر قوله: «ظلم الضعيف أفحش الظلم». رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلاماً، فقال: يا بنيّ، كيف لا يسع حلمك من تضربه فلا يمتنع منك! وأمر المأمون بإشخاص الخطّابيّ القاصّ من البصرة، فلمّا مثل بين يديه، قال له: يا سليمان، أنت القائل: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمِرْبد عين البصرة، ومسجدي عين المرْبد، وأنا عين مسجدي، وأنت أعور، فإنّ عين الدنيا عوراء! قال: يا أمير المؤمنين، لم أقل ذاك، ولا أظنّ أمير المؤمنين أحضرني لذلك، قال: بلغني أنك أصبحت فوجدت على سارية من سواري مسجدك:

رحم الله عليًّا إنه كان تقيّا

فأمرت بمحوه، قال: يا أمير المؤمنين، كان «ولقد كان نبيا» فأمرت بإزالته، فقال: كذبت كانت القاف أصحّ من عينك الصحيحة، ثم قال: والله لولا أن أقيم لك عند العامة سوقاً لأحسنت تأديبك، قال: يا أمير المؤمنين، قد ترى ما أنا عليه من الضعف والزَّمانة والهرَم وقلة البصر، فإن عاقبتني مظلوماً فاذكر قولَ ابن عمّك عليّ عليه السلام: «ظلم الضعيف أفحش

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

الظلم»[1]، وإن عاقبتني بحقّ، فاذكر أيضاً قوله: «لكل شيء رأس، والحلم رأس السؤدد». فنهض المأمون من مجلسه وأمر بردّه إلى البصرة، ولم يصله بشيء، ولم يحضر أحد قط مجلس المأمون إلّا وصله عدا الخطّابي، وليس هذا هو المحدّث الحافظ المشهور، ذاك أبو سليمان أحمد بن محمد بن أحمد البستيّ، كان في أيام المطيع والطائع، وهذا قاصّ بالبصرة كان يقال له أبو زكريا سليمان بن محمد البصريّ.

وثاني عاشرها قوله: «إذا كان الرفق خرقاً، كان الخرق رفقاً»، يقول: إذا كان استعمال الرفق مفسدة وزيادةً في الشرّ فلا تستعمله، فإنه حينئذ ليس برِفقٍ بل هو خرق، ولكن استعمل الخرق، فإنه يكون رفقاً والحالة هذه، لأنّ الشرّ لا يلقى إلّا بشر مثله، قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فَوْقَ جهل الجاهلينا

وفي المثل: إن الحديد بالحديد يُفْلَح.

وقال زهير:

وَمَنْ لا يذُدْ عن حوضِهِ بسلاحه ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يظْلِم النَّاس يُظْلَمِ

وقال أبو الطيّب:

ووضعُ النّدى في موضع السيف بالعُلا ... مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع النّدى

وثالث عشرها قوله: «وربما كان الدواء داء، والداء دواء»، هذا مثل قول أبي الطيّب:

ربّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلل

ومثله قول أبي نواس:

ودَاوِني بالّتي كَانتْ هي الداء

ومثل قول الشاعر:

تَداويتُ من ليلَى بليلَى فلم يكن ... دواءً ولكن كان سُقْماً مخالفا

ورابع عشرها قوله: «ربما نصح غير الناصح، وغشّ المستنصَح». كان المغيرة بن شعبة يبغض عليّاً عليه السلام منذ أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، وتأكّدت بِغُضته إلى أيام أبي بكر وعثمان وعمر، وأشار عليه يوم بُويع بالخلافة أن يقرّ معاوية على الشام مدة يسيرة، فإذا خُطِب له بالشام وتوطّأت دعوته دعاه إليه كما كان عمر وعثمان يدعوانه إليهما، وصرفه فلم يقبل، وكان ذلك نصيحة من عدوّ كاشح.

واستشار الحسين عليه السلام عبدَ الله بن الزبير وهما بمكة في الخروج عنها، وقصد العراق ظانًّا

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٢/ ٣٢١ رقم: ٤٩.

أنه ينصحه فغشّه، وقال له: لا تقم بمكة، فليس بها مَنْ يبايعك، ولكن دونك العراق، فإنهم متى رأوْك لم يعدلُوا بك أحداً، فخرج إلى العراق، حتى كان من أمره ما كان.

وخامس عشرها قوله: «إياك والاتكال على المُنى، فإنّها بضائع النّوْكَى»، جمع أنْوَك وهو الأحمق، من هذا أخذ أبو تمام قوله:

مَنْ كانَ مَرْعى عَزْمِهِ وَهُمُومِهِ   رَوْضُ الأماني لم يزلْ مهزولا

ومن كلامهم: ثلاثة تُخلِق العقل، وهو أوضح دليل على الضعف: طول التمنّي، وسرعة الجواب، والاستغراب في الضحك. وكان يقال: التمنّي والحلم سيّان. وقال آخر: شرف الفتى ترك المنى.

وسادس عشرها قوله: «العقل حفظ التجارِب» من هذا أخذ التمكلّمون قولهم: العقل نوعان: غريزيّ، ومكتسب، فالغريزيّ العلوم البديهية، والمكتسب ما أفادته التجربة وحفظته النفس.

وسابع عشرها قوله: «خير ما جرّبت ما وعظك»، مثل هذا قول أفلاطون: إذا لم تعظك التجربة فلم تجرّب، بل أنت ساذج كما كنت.

وثامن عشرها قوله: «بادر الفرصة، قبل أن تكون غُصّة»، حضر عُبيد الله بن زياد عند هانىء بن عروة عائداً، وقد كمن له مسلم بن عَقِيل، وأمره أن يقتله إذا جَلس واستقرّ، فلما جلس جعل مسلم يؤامِر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تُطعه، وجعل هانىء ينشد كأنه يترنم بالشعر:

ما الانتظار بَسلمى لا تحيِّيها

ويكرر ذلك، فأوجس عبيد الله خيفة ونهض، فعاد إلى قصر الإمارة، وفات مسلماً منه ما كان يؤمّله بإضاعة الفرصة، حتى صار أمره إلى ما صار.

وتاسع عشرها قوله: «ليس كل طالب يصيب، ولا كل غائب يؤوب»، الأولى كقول القائل:

ما كلّ وقتٍ ينالُ المرءُ ما طلبَا   ولا يسوّغه المقدار ما وَهَبَا

والثانية كقول عَبِيد:

وكلّ ذِي غيبةٍ يؤوبُ   وغائب الموت لا يؤوبُ

العشرون قوله: «من الفساد، إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد»، ولا ريب أنّ من كان في سفر وأضاع زاده، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أحمق، وهذا مثلٌ ضربه للإنسان في حالتي دنياه وآخرته.

الحادي والعشرون قوله: «ولكل أمر عاقبة» هذا مثل المثل المشهور «لكل سائلة قرار».

الثاني والعشرون قوله: «سوف يأتيك ما قدّر لك»، هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «وإنْ يقدّر لأحدكم رزق في قبّة جبل أو حضيضِ قاعٍ يأتِهِ».

الثالث والعشرون قوله: «التاجر مخاطر» هذا حق، لأنه يتعجّل بإخراج الثمن ولا يعلم: هل يعود أم لا! وهذا الكلام ليس على ظاهره، بل له باطن، وهو أنّ مَن مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، مثل قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[1] فإنه مخاطر لأنّه لا يأمن أن يكون بعض تلك السيّئات تحبط أعماله الصالحة، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصالحة يكفّر تلك السيئات، والمراد أنه لا يجوز للمكلّف أن يفعل إلّا الطاعة أو المباح.

الرابع والعشرون قوله: «ربّ يسير، أنمَى من كثير»، قد جاء في الأثر: قد يجعل الله من القليل الكثير، ويجعل من الكثير البركة. وقال الفرزدق:

فإنّ تميماً قبلَ أن يَلِدَ الحصَا أقامَ زماناً وهو في النَّاسِ واحدُ

وقال أبو عثمان الجاحظ: رأينا بالبصرة أخوين، كان أبوهما يحبّ أحدهما ويُبغض الآخر، فأعطى محبوبه يوم موته كلّ ماله - وكان أكثر من مائتي ألف درهم - ولم يعطِ الآخر شيئاً، وكان يتّجر في الزيت، ويكتسب منه ما يصرفه في نفقة عياله، ثم رأينا أولاد الأخ الموسر بعد موتِ الأخوين من عائلة ولد الأخ المعسر يتصدّقون عليهم من فواضل أرزاقهم.

الأصل: لا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مُهِينٍ، وَلا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ.

سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ.

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى ٱلْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى ٱللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى ٱلْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ.

لا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

ورابعها قوله: «إياك وأن تجمحَ بك مطيّة اللجاج»، هذا استعارة، وفي المثل: ألجّ من خنفساء، وألجّ من زُنبور. وكان يقال: اللّجاج من القِحة، والقِحة من قلّة الحياء، وقلّة الحياء من قلّة المروءة، وفي المثل: لجّ صاحبك فحُجّ.

وخامسها قوله: «احمل نفسك من أخيك»، إلى قوله: «أو تفعله بغير أهله» اللّطَف، بفتح اللام والطاء، الاسم من ألطفه بكذا أي برّه به، وجاءتنا لُطفة من فلان أي هديّة، والملاطفة بالمبارّة. وروي «عن اللّطْف» وهو الرفق للأمر، والمعنى أنّه أوصاه إذا قطعه أخوه أن يصله، وإذا جفاه أن يبرّه، وإذا بخل عليه أن يجود عليه، إلى آخر الوصاة.

ثم قال له: «لا تفعل ذلك مع غير أهله»، قال الشاعر:

وإنّ الّذي بيني وبَيْنَ بني أبي ... وَبَيْنَ بنِي أمّي لمختلفٌ جدّا
فإن أكلوا لحمي وفَرْتُ لحومَهُمْ ... وإن هَدَموا مَجْدِي بنيتُ لهم مَجْدا
وإن زجروا طيراً بنحسٍ تمرّ بي ... زجرتُ لهم طيراً تمرُّ بهم سَعْدا
ولا أحمل الحِقْدَ القديم عليهمُ ... وليسَ رئيسُ القوم مَنْ يحمِلُ الحِقْدا

وقال الشاعر:

إنّي وإن كان ابن عمّيَ كاشحاً ... لمقاذفٌ من خَلْفِه وورائِه
ومفيدُه نصرِي وإن كان امرأ ... متزحزحاً في أرضه وسمائِهِ
وأكونُ واليَ سرّه وأصونُه ... حتّى يحقّ عليّ وقتَ أدائِهِ
وإذا الحوادث أجْحَفتْ بسَوَامه ... قرنت صحيحتَنا إلى جَرْبائِهِ
وإذا دعا باسمي ليركب مركباً ... صَعْباً قعدت له على سِيسَائِهِ
وإذا أجنّ فَلِيقَةً في خِدْرِه ... لم أطّلع ممّا وراء خِبَائِهِ
وإذا ارتدى ثوباً جميلاً لم أقلْ ... يا ليت أنّ عليّ فضلَ ردائه!

وسادسها قوله: «لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك»، قد قال الناس في هذا المعنى فأكثروا، قال بعضهم:

إذا صافى صديقُك مَنْ تعادِي ... فقد عاداك وانقطَعَ الكلامُ

وقال آخر:

صديقُ صديقِي داخلٌ في صداقتِي ... وخصمُ صديقي ليس لي بصديقِ

وقال آخر:

تودّ عدوّي ثم تزعم أنّنِي ... صديقك إنّ الرأي عنك لَعازِبُ

وسابعها قوله: «وامحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة»، ليس يعني عليه السلام بقبيحة

ها هنا القبيح الذي يستحق به الذم والعقاب، وإنما يريد نافعة له في العاجل كانت أو ضارة له في الآجل، فعبّر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[1].

وقد فسّره قوم فقالوا: أراد: كانت نافعة لك أو ضارة لك. ويحتمل تفسير آخر وهو وصيّته إيّاه أن يمحض أخاه النصيحة سواء كانت ممّا لا يستحيا من ذكرها وشياعها، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس، كمن ينصح صديقه في أهله ويشير عليه بفراقهم لفجور اطّلع عليه منهم، فإنّ النّاس يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحاً.

وثامنها قوله: «تجرّع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبّة» هذا مثل قولهم: الحلم مرارة ساعة، وحلاوة الدهر كلّه. وكان يقال: التذلّل للناس مصائد الشرف.

قال المبرّد في «الكامل»[2]: أوصى عليُّ بن الحسين ابنه محمد بن عليٍّ ﷺ، فقال: يا بنيّ، عليك بتجرّع الغيظ من الرّجال، فإنّ أباك لا يسرّه بنصيبه مِن تجرُّع الغيظ من الرّجال حُمرُ النّعم، والحلم أعزّ ناصراً، وأكثر عدداً.

وتاسعها قوله: «لِنْ لمن غالظك، فإنه يوشك أن يلين لك»، هذا مثل المثل المشهور: «إذا عزّ أخوك فهُنْ»، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[3].

وعاشرها قوله: «خذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحد الظَّفَرين» هذا معنى مليح، ومنه قول ابن هانىء في المعزّ:

ضَرّابُ هامِ الرّومِ منتقماً وفي ... أعناقهم من جُودِهِ أعباءُ
لولا انبعاث السّيف وهو مسلّطٌ ... في قتلهم فتلتْهُمُ النّعماءُ

وكنت كاتباً بديوان الخلافة، والوزير حينئذ نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد رحمه الله، فوصل إلى حضرة الديوان في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة محمد بن محمد أمير البحرين على البرّ، ثم وصل بعده الهرمزيّ صاحب هرمز في دجْلة بالمراكب البحرية - وهرمز هذه فُرْضة في البحر نحو عُمان - وامتلأت بغداد من عرب محمد بن محمد وأصحاب الهرمزيّ - وكانت تلك الأيام أياماً غرّاء زاهرة لما أفاض المستنصر على الناس من عطاياه، والوفود

(١) سورة الروم، الآية: ٣٦.
(٢) «الكامل في اللغة»: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

تزدحم من أقطار الأرض على أبواب ديوانه - فكتبت يوم دخول الهرمزيّ إلى الوزير أبياتاً سنحتْ على البديهة، وأنا متشاغل بما كنت فيه من مهامّ الخدمة، وكان رحمه الله لا يزال يذكرها وينشدها ويستحسنها:

يا أحْمَد بنَ محمّدٍ أنتَ الّذي ... عَلِقتْ يداه بأنفَسِ الأعلاقِ
ما أمّلَتْ بغدادُ قبلك أنْ ترى ... أبداً ملوك البحر في الأسواق
ولَهوا عليها غَيْرَةً وتنافسوا ... شَغَفاً بها كتنافُس العُشّاقِ
وغدتْ صِلاتك في رِقاب سَراتِهمْ ... ونداك كالأطواق في الأعناقِ
بسديد رأيك أصْلِحَتْ جَمحَاتُهمْ ... وتألّفوا من بعد طول شِقَاقِ
لله همّة ماجدٍ لم تعتلِقْ ... بسَجيلِ آراءٍ ولا أحذاقِ
جلب السّلاهِب من أراك وبعدها ... جَلبَ المراكبَ من جزيرة واقِ
هذا العَداء هو العداء فعدّ عَنْ ... قول ابن حُجْر في لأى وعناقِ
وأظنُّه والظنُّ علمٌ أنّه ... سيجيئنا بممالكِ الآفاقِ
إما أسيرُ صَنيعةٍ في جِيدِه ... بالجود غُلٌّ أو أسيرُ وَثاقِ
لا زال في ظلّ الخليفة مَاله ... فانٍ وسودَدُه المعظّم باقِ

وحادي عشرها قوله: «إنْ أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقيّة يرجع إليه إن بدَا ذلك له يوماً»، هذا مثل قولهم: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغِض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»، وما كانَ يقال: إذا هويت فلا تكن غالياً، وإذا تركت فلا تكن قالياً.

وثاني عشرها قوله: «مَنْ ظنّ خيراً فصدّق ظنّه» كثير من أرباب الهمم يفعلون هذا، يقال لمن قد شدَا طرفاً من العلم: هذا عالم، هذا فاضل، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالماً فاضلاً حقيقة، وكذلك يقول الناس: هذا كثير العبادة، هذا كثير الزهد، لمن قد شرع في شيء من ذلك، فتحمله أقوال النّاس على الالتزام بالزهد والعبادة.

وثالث عشرها قوله: «ولا تضيعنّ حقّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقّه»، من هذا النحو قول الشاعر:

إذا خنتمُ بالغيْب عهدِي فما لكم ... تُدِلّون إدلالَ المقيم على العهدِ
صِلُوا وافعلوا فعلَ المدِلّ بوصلِه ... وإلّا فصُدّوا وافعلوا فعلَ ذي الصّدِي

وكان يقال: إضاعة الحقوق، داعية العقوق.

ورابع عشرها قوله: «لا ترغبنّ فيمن زهد فيك» الرغبة في الزاهد هي الداء العياء، قال العباس بن الأحنف:

مـا زِلْـتُ أَزْهَـدُ فـي مـودّةِ راغـبٍ   حـتـى آبـتـلـيـت بـرغـبـةٍ فـي زاهـدِ
هــذا هــو الــدّاء الّــذِي ضــاقــت بـه   حِيَلُ الـطـبـيـب وطـال يـأس الـعـائـدِ

وقد قال الشعراء المتقدّمون والمتأخرون فأكثروا، نحو قولهم:

وَفِي النَّـاسِ إنْ رثّـتْ حبَـالُـكَ واصـلٌ   وفـي الأرْض عَـنْ دارِ القِـلَـى مُـتَـحَـوَّلُ

وقول تأبّط شراً:

إنـي إذا خُـلَّـة ضَـنّـتْ بـنـائِـلـهـا   وأمسكتْ بضعيف الحبل أخذاقِي
نـجـوتُ مـنـهـا نـجـائي مـن بَـجـيـلَـة إذْ   ألـقـيـتُ لـيـلـة خَـبْـتِ الـرّهْـطِ أرواقـي

وخامس عشرها قوله: لا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكونَنّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان». هذا أمر له بأن يصل مَنْ قطعه، وأن يحسن إلى من أساء إليه.

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد بكتب قد كتبها محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام إلى أهل الكَرْخ وغيرهم من أعمال أصْفهان يدعوهم فيها إلى نفسه، فأحضرها بين يديه، ودفعها إليه، وقال له: أتعرف هذه؟ فأطرق خجلاً، فقال له: أنت آمن، وقد وهبت هذا الذنب لعليٍّ وفاطمة عليهما السلام، فقمْ إلى منزلك، وتخيّر ما شئت من الذنوب، فإنّا نتخيّر لك مثل ذلك من العفو.

وسادس عشرها قوله: «لا يكبرنّ عليك ظُلْم مَنْ ظلمك، فإنّه يسعى في مضرته ونفعك وليس جزاء من سرّك أن تسوءه»، جاء في الخبر المرفوع أنّه صلى الله عليه وآله سمع عائشة تدعُو على مَنْ سرق عقداً لها، فقال لها: «لا تمسحي عنه بدعائك»[1]، أي لا تخفّفي عذابه. وقوله عليه السلام: «وليس جزاء من سرّك أن تسوءه»، يقول: لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك في الآخرة بظلمه لك، وليس جزاء مَنْ ينفع إنساناً أن يسيء إليه. وهذا مقام جليل لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأولياء الأبرار. وقبض بعض الجبابرة على قوم صالحين، فحبسهم وقيّدهم، فلما طال عليهم الأمر زفر بعضهم زفرةً شديدة، ودعا على ذلك الجبّار، فقال له بعض أولاده - وكان أفضل أهل زمانه في العبادة، وكان مستجاب الدعوة ـ: لا تدْعُ عليه فتخفّف من عذابه، قالوا: يا فلان، ألا ترى ما بنا وبك! لا يأنف ربك لنا! قال: إن لفلان مهبطاً في النار لم يكن ليبلغَه إلا بما ترون، وإن لكم لمصعداً في الجنّة لم تكونوا لتبلغوه إلا بما ترون. قالوا: فقد نال منا

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٢/ ٣٢١.

العذاب والحديد، فادع الله لنا أن يخلّصنا وينقذنا ممّا نحن فيه، قال: إنّي لأظنّ أني لو فعلت لفعل، ولكن والله لا أفعل حتى أموت هكذا، فألقى الله فأقول له: أي ربّ سلْ فلاناً لِمَ فَعل بي هذا؟ ومن الناس من يجعل قوله عليه السلام: «وليس جزاء من سرّك أن تسوءه». كلمة مفردة مستقلّة بنفسها، ليست من تمام الكلام الأول، والصحيح ما ذكرناه.

وسابع عشرها - ومن حقه أن يقدم ذكره قوله: «ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك»، هذا كما يقال في المثل: من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدأ بأهلها، والمراد من هذه الكلمة النهي عن قطيعة الرّحِم وإقصاء الأهل وحرمانهم، وفي الخبر المرفوع: «صلوا أرحامكم ولَوْ بالسلام»[١].

الأصل: وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الحَاجَةِ، وَالجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ.

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ، وَلا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إلاَّ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَالْبَهَائِمَ لا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ.

اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ.

مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ. وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ.

مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كانَ أَبْقَى لَهُ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلاكاً.

لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ. أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ.

مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ، تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الجَارِ قَبْلَ الدَّارِ.

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٢)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٩١) بلفظ: «بلُّوا».

الشرح: في بعض الروايات: «اطرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء»، قد مضى لنا كلام شافٍ في الرزق.

وروى أبو حيّان، قال: رفع الواقديّ إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلَبة الدّيْن عليه، وكثرة العيال، وقلّة الصبر، فوقّع المأمون عليها: أنت رجل فيك خلّتان، السخاء والحياء فأمّا السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأمّا الحياء فهو الذي بلغ بك إلى ما ذكرت، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم، فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك، وإن كنّا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك، وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق، عن الزهريّ، عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ قال للزبير: «يا زبير، إنّ مفاتيح الرزق بإزاء العرش، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثّر كُثّر له، ومن قلّل قُلّل له»(١).

قال الواقديّ: وكنت أُنسيتُ هذا الحديث، وكانت مذاكرته إيّاي به أحبّ من صلته.

واعلم أنّ هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكمية:

منها قوله «الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك»، وهذا حقّ، لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلّف، فتارةً يأتيه الرزق بغير اكتساب ولا تكلّف حركة، ولا تجشّم سَعْي، وتارة يكون الأمر بالعكس.

دخل عماد الدّولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها، وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قوائم فرسه في الصَّحْراء في الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانه فخلّصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نَقْب وسيع، فأمرهم بحفره، فوجدوا فيه أموالاً عظيمة، وذخائر لابن ياقوت، ثم استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حيّة في السقف، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم، ودخلت في خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلمّا قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصل ويخيط ثياباً له ولأهله فقيل: ها هنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت وهو رجل منسوب إلى الدِّين والخير، إلا أنه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلاً، فأمر بإحضاره، فأُحضِر وعنده رغب وهلَع، فلما أدخله إليه كلّمه، وقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه، وقال: والله يا مولانا ما له عندي إلا أربعة صناديق

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٥٥٤)، وأبو نعيم نحوه في «الحلية» (١٠/ ٢١٦).

ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فيّ. فتعجّب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق، فوجدها كلّها ذهباً وحَلْياً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت.

وأمّا الرّزق الذي يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جداً لا يحصى.

ومنها قوله: «ما أقبح الخضوع عند الحاجة، والجفاء عند الغنى»! هذا من قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(١).

ومن الشعر الحكميّ في هذا الباب قول الشاعر:

خُلُقانِ لاَ أرْضَاهُما لِفَتّى: تيهُ الغِنى ومذلّةُ الفقرِ
فإذا غَنيت فلا تكن بطِراً وإذا افتقرت فتِهْ على الدَّهرِ

ومنها قوله: «إنّما لك من دنياك، ما أصلحت به مثواك»، هذا من كلام رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، ليس لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأبقيت»(٢).

وقال أبو العتاهية:

ليس للمتعب المُكادح من دنـ ـياهُ إلّا الرّغيف والطِّمْرانِ

ومنها قوله: «وإن كنت جازعاً على ما تفلّت من يديك، فاجْزَع على كلّ ما لم يصل إليك»، يقول: لا ينبغي أنْ تجزَعَ على ما ذهب من مالك، كما لا ينبغي أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب، فإنّه لا فرق بينهما، إلّا أنّ هذا حصل، وذاك لم يحصل بعد، وهذا فرق غير مؤثّر، لأنّ الذي تظنّ أنه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة، وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلتَه ولبستَه، وأما القنيات والمدخرات فلعلّها ليست لك، كما قال الشاعر:

وذِي إبلٍ يَسقي ويحسِبها له أخي تعبٍ في رَعيِها ودُؤوبِ
غدتْ وغدا ربٌّ سواه يسوقُها وَبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قَليبِ

ومنها قوله: «استدلّ على ما لم يكن بما كان، فإن للأمور أشباهاً» يقال: إذا شئت أن تنظر للدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك.

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٥٨)، والترمذي، كتاب: الزهد (٢٣٤٢)، والنسائي، كتاب: الوصايا، باب: الكراهية في تأخير الوصية (٣٦١٣)، وأحمد، كتاب: أول مسند المدنيين، باب: حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه (١٥٨٧٠).

وقال أبو الطيّب في سيف الدولة:

ذكيٌّ تَظَنّيه، طليعةُ عَيْنِهِ ... يرى قَلْبُه في يومه ما يَرَى غَدَا

ومنها قوله: «ولا تكونَنّ ممّن لا تنفعه العظة...» إلى قوله: «إلا بالضرب». هو قول الشاعر:

العبد يُقَرع بالعصَا ... والحرّ تكفيه الملامةْ

وكان يقال: اللئيم كالعبد، والعبد كالبهيمة عَتْبها ضربُها.

ومنها قوله: «اطّرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء». هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة، وقد أخذ عبد الله بن الزبير بعض هذه الألفاظ فقال في خطبته لمّا ورد عليه الخبر بقتل مُصْعب أخيه: «لقد جاءنا من العراق خبرٌ أحزَننا وسرّنا، جاءنا خبرُ قتل مُصْعب، فأما سرورنا فلأنّ ذلك كان له شهادة، وكان لنا إن شاء الله خيرة، وأما الحزن فلوعةٌ يجدها الحميم عند فراق حميمه، ثم يرعوي بعدها ذو الرأي إلى حسن الصبر وكرم العزاء».

ومنها قوله: «مَنْ ترك القصد جار» القصد الطريق المعتدل، يعني أنّ خير الأمور أوسطها، فإن الفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدّى هذه يسيراً وقع في هذه.

ومنها قوله: «الصاحب مناسب»، كما يقال: الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب البدن، قال أبو الطيّب:

ما الخلّ إلّا مَنْ أودّ بقلبهِ ... وأرَى بطَرفٍ لا يَرَى بسوائِهِ

ومنها قوله: «الصديق مَنْ صدق غيبه»، من ها هنا أخذ أبو نواس قوله في المنهوكة:

هل لكَ والهَلُ خَبَرْ ... فيمن إذا غبتَ حضرْ

أو ما لَكَ اليوم أثَرْ ... فإن رأى خيراً شَكَرْ

أو كان تقصير عَذَر

ومنها قوله: «الهوى شريك العمى»، هذا مثلُ قولهم: «حبُّك الشيء يُعمِي ويُصِمّ» قال الشاعر:

وعَيْنُ الرّضا عن كلّ عيب كليلةٌ ... كما أنّ عينَ السُّخط تُبْدِي المَسَاويا

ومنها قوله: «رب بعيد أقرب من قريب، وقريب أبعد من بعيد»، هذا معنى مطروق، قال الشاعر:

لعمركَ ما يضرّ البُعدُ يوماً ... إذا دَنَت القلوبُ من القلوبِ

وقال الأحوص:

إنّي لأمنحكِ الصُّدودَ وإنّني ... قسماً إليكِ مع الصُّدود لأمَيَلُ

وقال البحتريّ:

ونازحةٍ والدّار منها قريبةٌ وما قرب ثاوٍ في التّراب مغيّبُ!

ومنها قوله «والغريب من لم يكن له حبيب» يريد بالحبيب ها هنا المحبّ لا المحبوب، قال الشاعر:

أُسْرَةَ المرءِ والداه وفيمَا بين جَنْبَيْهِما الحياةُ تطيبُ

وإذا ولّيا عن المرءِ يوماً فهو في النّاس أجنبيٌّ غريبُ

ومنها قوله: «مَنْ تعدّى الحقّ ضاق بمذهبه»، يريد بمذهبه ها هنا طريقته، وهذه استعارة، ومعناه أن طريق الحق لا مشقّة فيها لسالكها، وطرق الباطل فيها المشاقّ والمضارّ، وكأن سالكها سالك طريقة ضيّقة يتعثّر فيها، ويتخبّط في سلوكها.

ومنها قوله: «مَنْ اقتصر على قدره كانَ أبقى له»، هذا مثل قوله: رحم الله امرأً عرف قدره، ولم يتعدّ طوره» وقال: مَن جهل قدره قتل نفسه. وقال أبو الطيّب:

وَمَنْ جهلت نفسهُ قدرَهُ رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

ومنها قوله: «أوثق سبب أخذتَ به، سببٌ بينك وبين الله سبحانه»، هذا من قوله الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[1].

ومنها قوله: «فمن لم يبالِكَ فهو عدوّك»، أي لم يكترث بك، وهذه الوصية خاصّة بالحسن عليه السلام وأمثاله من الولاة وأرباب الرعايا، وليست عامّة للسُّوقة من أفناء الناس، وذلك لأنّ الواليَ إذا أنس من بعض رعيّته أنه لا يباليه ولا يكترث به، فقد أبدى صفحته، ومن أبدى لك صَفحته فهو عدوّك، وأما غير الوالي من أفناء الناس، فليس أحدهم إذا لم يبال الآخر بعدوٍّ له.

ومنها قوله: «قد يكونُ اليأس إدراكاً إذا كان الطمع هلاكاً»، هذا مثل قول القائل:

مَنْ عاشَ لاقى ما يسو ء الأمور وما يسُرّ

وَلَرُبَّ حتفٍ فَوْقَهُ ذهبٌ وياقوتٌ ودرّ

والمعنى: ربّما كان بلوغ الأمل في الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها، وإذا كان كذلك، كان الحرمان خيراً من الظفر.

ومنها قوله: «ليس كل عورة تظهر، ولا كلّ فرصة تصاب» يقول: قد تكون عورة العدوّ مستترةً عنك فلا تظهر، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها.

وقال بعض الحكماء: الفرصة نوعان: فرصة من عدوّك، وفرصة في غير عدوّك، فالفرصة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

من عدوّك ما إذا بلغتها نفعتك، وإن فاتتك ضرّتك، وفي غير عدوّك ما إذا أخطأك نفعه لم يصلْ إليك ضرُّه.

ومنها قوله: «فربما أخطأ البصير قصدَه، وأصاب الأعمى رشده» من هذا النحو قولهم في المثل: «مع الخواطىء سهم صائب»، وقولهم: «رمية من غير رام». وقالوا في مثل اللفظة الأولى: «الجواد قد يكبُو، والحسام قد ينبو». وقالوا: «قد يهفو الحليم، ويجهل العليم».

ومنها قوله: «أخّر الشرَّ فإنك إذا شئت تعجّلتَه» مثل هذا: قولهم في الأمثال الطفيليّة: «كلْ إذا وجدت، فإنك على الجوع قادر». ومن الأمثال الحكْمِية: «ابدأ بالحسنة قبل السيئة، فلست بمستطيع للحسنة في كلّ وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر».

ومنها قوله: «قطيعة الجاهل تعدل صِلة العاقل»، هذا حق، لأنَّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك، وهذا كما يقول المتكلّمون: عدم المضرّة كوجود المنفعة، ويكاد أن يبتنيَ على هذا قولهم: كما أن فعل المفسدة قبيح من الباري، فالإخلال باللطف منه أيضاً يجب أن يكون قبيحاً.

ومنها قوله: «منْ أمن الزمان خانه، ومن أعظمه أهانه»، مثل الكلمة الأولى قول الشاعر:

ومَنْ يأمن الدّنيا يكن مثل قابضٍ ... على الماء خَانَتهُ فروج الأنامِلِ

وقالوا: احذر الدنيا ما استقامتْ لك. ومن الأمثال الحكمية: «من أمن الزمان ضيّع ثغراً مَخُوفاً». ومثل الكلمة الثانية قولهم: «الدنيا كالأمة اللئيمة المعشوقة، كلما ازددت لها عشقاً وعليها تهالُكاً ازدادت لك إذلالاً، وعليك شطاطاً».

وقال أبو الطيب:

وهي معشوقة على الغَدْرِ لا تَحـ ... ـفَظُ عهداً ولا تتمم وَصْلا

شِيَمُ الغانيات فيها فلا أدْ ... رِي لذا أنّث اسمَها الناسُ أم لا!

ومنها قوله: «ليس كلّ مَنْ رَمى أصاب» هذا معنى مشهور، قال أبو الطيّب:

ما كلّ مَنْ طلب المعالي نافذاً ... فيها، ولا كلّ الرجال فُحُولا

ومنها قوله: «إذا تغيّر السلطان، تغيّر الزمان». في كتب الفرس أن أنوشروان جمع عمّال السّواد وبيده دُرّة يقلّبها، فقال: أيّ شيء أضرّ بارتفاع السواد وأدعى إلى محقه؟ أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه؟ فقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، فقال لوزيره: قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقول الرعيّة كلها أو يزيد عليها، قال: تغيّرُ رأي السلطان في رعيّته، وإضمار الحيْف لهم، والجوْر عليهم، فقال: لله أبوك! بهذا العقل أهّلَكَ آبائي وأجدادي لما أهّلُوكَ له. ودفع إليه الدُّرّة فجعلها في فيه.

ومنها قوله: «سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار» وقدْ روي هذا الكلام مرفوعاً[(١)]، وفي المثل: «جار السوء كلب هارش، وأفعى ناهش».

وفي المثل: الرفيق إمّا رحيق أو حريق.

الأصل: إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ.

وَلاَ تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَلا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا.

وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ.

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ.

وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. والسلام.

الشرح: نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مضحكاً، لأن ذلك مِنْ شغل أرباب الهزل والبَطالة، وقلّ أنْ يخلوَ ذلك من غيبة أو سخرية. ثم قال: وإن حكيت ذلك عن غيرك، فإنه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير، وذلك كلام فصيح، ألا ترى أنّه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر، ويكره أيضاً حكايتها. وقال عمر لمّا نهاه رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحلف بالله: فما حلفت به ذاكراً، ولا آثراً، ولا حاكياً. وكان يقال: مَنْ مازح استخُفّ به، ومن كثر ضحكه قلّت هيبته.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٣٧٩)، والديلمي في «الفردوس» (٢٦٢٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٦٤)، بلفظ: «التمسوا الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق».

فأما مشاورة النساء فإنّه من فعل عَجزَة الرجال. قال الفضل بن الربيع أيام الحرب بين الأمين والمأمون في كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز: ينام نوم الظَّرِبان، وينتبه انتباهةَ الذئب، همّه بطنه، ولذّته فَرْجه، لا يفكّر في زوال نعمة، ولا يروّي في إمضاء رأيٍ ولا مكيدة، قد شمّر له عبد الله عن ساقه، وفَوّق له أشدَّ سهامه، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ، والموت القاصد، قد عبّى له المنايا على مُتُون الخيل، وناط له البلايا بأسنّة الرماح، وشِفار السيوف، فكأنه هو قال هذا الشعر ووصف به نفسه وأخاه:

يُقارع أتراك ابن خاقان ليلَه ... إلى أنْ يرى الإصباح لا يتلعثمُ

فيصبح من طول الطّراد وجسمُه ... نحيلٌ، وأضحي في النّعيم أصمّم

وهمّيَ كأس من عُقار وقَيْنَةٍ ... وهمّتُه درع ورُمح ومخذمُ

فشتّان ما بيني وبين ابن خالدٍ ... أميّة في الرزق الذي الله يَقْسِم

ونحن معه نجري إلى غاية إن قصّرنا عنها ذُممنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل، إن قوي قوينا، وإن ضعف ضعفنا، إنّ هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء، يشاور النساء، ويعتزم على الرؤيا، قد أمكن أهل الخسارة واللّهو من سمعه، فهم يمنّونه الظّفر، ويعِدُونه عُقَب الأيام، والهلاكُ أسرع إليه من السَّيْل إلى قِيعان الرمل.

قوله عليه السلام: «فإنّ رأيَهنّ إلى أفْن» الأفْن بالسكون: النقص، والمتأفّن: المتنقّص، يقال: فلان يتأفّن فلاناً، أي يتنقّصه ويعيبه. ومن رواه «إلى أفَنٍ» بالتحريك فهو ضعف الرأي، أفِن الرجل يَأفِن أفَناً أي ضعف رأيه، وفي المثل: «إنّ الرّقين تُغَطّي أفَن الأفين»[1] والوهن: الضعف.

قوله: «واكفُفْ عليهنّ من أبصارهنّ» من ها هنا زائدة، وهو مذهب أبي الحسن الأخفش في زيادة من في الموجب، ويجوز أن يحمل على مذهب سيبويه، فيعني به: فاكفف عليهنّ بعض أبصارهنّ.

ثم ذكر فائدة الحجاب، ونهاه أن يُدخِلَ عليهنّ من لا يُوثق به، وقال: إنّ خروجهنّ أهونُ من ذلك، وذلك لأنَّ مَن تلك صفتُه يتمكن من الخلوة ما لا يتمكن منه مَنْ يراهنّ في الطرقات.

ثم قال: «إن استطعت ألا يعرفنَ غيرك فافعل». كان لبعضهم بنت حسناء، فحجّ بها، وكان يعصبُ عينيها، ويكشف للناس وجهها، فقيل له في ذلك، فقال: إنما الحذر مِن رؤيتها الناس، لا من رؤية الناس لها.

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٤٣٢) برقم (٤٣٧٧).

قال: «ولا تملّك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها»، أي لا تدخلها معك في تدبير ولا مشورة، ولا تتعدّينّ حال نفسها وما يصلح شأنها.

فإن المرأة ريحانةٌ، وليست بقهرمانة، أي إنما تصلح للمتعة واللذّة، وليست وكيلاً في مال، ولا وزيراً في رأي.

ثم أكدّ الوصيّة الأولى، فقال: لا تَعْدُ بكرامتها نفسها، هذا هو قوله: «ولا تملّكها من أمرها ما جاوز نفسها». ثم نهاه أن يطمِعَها في الشفاعات.

وروى الزُّبير بن بكار، قال: كانت الخيزُران كثيراً ما تكلّم موسى ابنها - لمّا استخلِف - في الحوائج، وكان يجيبها إلى كلّ ما تسأل، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته وتتالى الناس عليها، وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها، وكلّمته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلاً، واحتجّ عليها بحجّة فقالت: لا بدّ من إجابتي، فقال: لا أفعل، قالت: إني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسى وقال: ويلي على ابن الفاعلة! قد علمت أنه صاحبها، والله لاقضيتُها لك ولا له! قالت: والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذَنْ والله لا أبالي، فقامت مغضَبة، فقال: مكانك تستوعبي كلامي، وأنا والله بريء من قرابتي من رسول الله ﷺ، لئن بلغني أنه وقف أحد من قوّادي وخاصّتي وخدمي وكتابي على بابك لأضربنّ عنقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كلّ يوم! أما لك مِغْزَل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك! إياك ثم إياك أن تفتحي فاك في حاجة لمليّ أو ذميّ. فانصرفت وما تعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحُلوة ولا مرّة بعدها حتّى هلك.

وأخذ هذه اللفظة منه وهي قوله: «إن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة» الحجّاج فقالها للوليد بن عبد الملك، روى ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار»[1] قال: دخل الحجّاج على الوليد بن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء وفرس عربيّة وكنانة، وذلك في أوّل قَدْمة قدمها عليه من العراق، فبعثت أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهي تحت الوليد إليه: مَنْ هذا الأعرابي المستلئم في السلاح عندك وأنت في غِلالة! فأرسل إليها: هذا الحجّاج، فأعادت إليه الرسول، فقال: تقول لك: والله لأن يخلو بك ملك الموت في اليوم أحياناً أحبُّ إليّ من أن يخلو بك الحجّاج: فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، دع عنك مفاكهة

(١) «عيون الأخبار»: للشيخ الإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة النحوي الدينوري، المتوفى سنة (٢٧٦هـ) «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، فلا تطلعها على سرّك ومكايدة عدوّك. فلما دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجّاج، فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً أن يأتيني مسلّماً، ففعل ذلك، فأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائماً، ثم أذنت له، فقالت: يا حجّاج، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث! أما والله لولا أن الله علم أنك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام ولا بقتل ابن ذات النِّطاقين، أول مولود في دار هجرة الإسلام! وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره، فإن كنّ ينفرجْنَ عن مثلك فما أحقّه بالأخذ منك! وإن كنّ ينفرجْنَ عن مثله فهو غير قابل لقولك، أما والله لقد نفص نساء أمير المؤمنين الطيّب من غدائرهنّ فبعنه في أعطية أهل الشام حين كنتَ في أضيق من قرن، قد أظلتك رماحهم، وأثخنك كِفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من أبنائهم وآبائهم، فأنجاك الله من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه، قاتل الله القائل حين ينظر إليك، وسِنان غَزَالة بين كتفيك:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة ... رَبْدَاء تنفرُ من صفير الصافر
هلّا برزتَ إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحَيْ طائر

قم فاخرج، فقام فخرج.

أقوال الشعراء في الغيرة

فأما قوله عليه السلام: «إياك والتغاير في غير موضع غَيْرة» فقد قيل هذا المعنى، قال بعض المحدثين:

يا أيّها الغائر مَهْ لا تغَرْ ... إلّا لِمَا تُدْركه بالبَصَرْ
ما أنت في ذلك إلّا كمنْ ... بيْتُه الدبّ لرمْيِ الحجرْ

وكان مسكين الدارميّ أحد مَنْ يستهجن الغيرة، ويستقبح وقوعَها في غير محلّها، فمن شعره في هذا المعنى:

ما أحسنَ الغيرةَ في حِينها ... وأقبحَ الغَيْرة في غير حينْ!
مَنْ لم يزل متّهماً عِرسَه ... مناصباً فيها لرجْم الظّنونْ
يوشك أن يغريَها بالذي ... يخاف، أو ينصبها للعيونْ
حسبُك من تحصينها ضمُّها ... منك إلى خِيم كريم ودينْ
لا تَظْهَرنْ يوماً على عورة ... فيتبع المقرون حَبلَ القرينْ

وقال أيضاً:

ألا أيّها الغائر المستشيطُ ... علام تَغارُ إذ لم تُغَرْ!

فـمـا خـيـرُ عِـرْسٍ إذا خِـفْـتَـهـا ... ومـا خـيـرُ بـيـتٍ إذا لـم يُـزَرْ!
تـغـارُ مـن الـنـاس أن يـنـظـروا ... وهـل يـفـتنُ الـصـالـحـات الـنـظَـرْ!
فـإنّـي سـأخـلـي لـهـا بـيـتَـهـا ... فـتـحـفـظَ لـي نـفـسَـهـا أو تَـذَرْ
إذا الله لـم يـعـطـه وُدَّهـا ... فـلـن يـعـطـيَ الـوُدّ سـوطٌ مُـمَـرّ
ومَـن ذا يُـراعِـي لـه عِـرْسَـهُ ... إذا ضـمّـه والـركـاب الـسّـفَـرْ!

وقال أيضاً:

ولـسـتُ آمـرأ لا أبـرحُ الـدّهـر قـاعـداً ... إلى جنب عِرْسي لا أفارقها شِبْرا
ولا مـقـسـمـاً لا أبـرحُ الـدّهـر بـيـتـهـا ... لأجـعـلـه قـبـل الـمـمـات لـهـا قَـبْـرا
ولا حـامـلاً ظـنّـي ولا قـولَ قـائـلٍ ... عـلـى غَـيـرةٍ حـتـى أحـيـط بـه خُـبْـرا
وهبني امرأ راعيتُ ما دمت شاهداً ... فكيف إذا ما سرتُ من بيتها شهرا!
إذا هي لم تُحصِنْ لما في فنائها ... فليس بمنجيّها بنائي لها قصرا

فأما قوله: «واجعل لكلّ إنسان من خَدَمك عملاً تأخذه به»، فقد قالت الحكماء هذا المعنى، قال أبرويز في وصيّته لولده شيرويه: وانظر إلى كتّابك، فمَن كان منهم ذا ضياع قد أحسن عمارتها فولّه الخراج، ومَنْ كان منهم ذا عَبيد قد أحسن سياستهم وتثقيفهم فولّه الجند، ومن كان منهم ذا سراريّ وضرائر قد أحسن القيام عليهنّ، فولّه النفقات والقهرمة، وهكذا فاصنع في خَدَم دارك، ولا تجعل أمرك فوضَى بين خدمِك فيفسد عليك ملكك.

وأمّا قوله: «فأكرِم عشيرتك فإنّهم جناحك» فقد تقدّم منّا كلام في وجوب الاعتضاد بالعشائر.

اعتزاز الفرزدق بنفسه وقومه

روى أبو عبيدة قال: كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلّا قاعداً، فدخل على سليمان بن عبد الملك يوماً، فأنشده شعراً فخَر فيه بآبائه، وقال من جملته:

تـالله مـا حَـمـلـتْ مـن نـاقـة رجُـلاً ... مثلي إذا الريح لفّتْني على الكُورِ

فقال سليمان: هذا المدح لي أم لك! قال: لي ولك يا أميرَ المؤمنين، فغضب سليمان وقال: قم فأتمم، ولا تنشد بعده إلا قائماً، فقال الفرزدق: لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثري شعراً. فقال سليمان: ويلي على الأحمق ابن الفاعلة! لا يكني، وارتفع صوتُه، فسمع الضوضاء بالباب، فقال سليمان: ما هذا؟ قيل: بنو تميم على الباب، قالوا: لا ينشد الفرزدق قائماً وأيدينا في مقابض سيوفنا، قال: فلينشد قاعداً.

وفود الوليد بن جابر على معاوية

وروى أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المرزبانيّ، قال: كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائيّ ممّن وفد على رسول الله ﷺ فأسلم، ثمّ صحب علياً عليه السلام، وشهد معه صِفين، وكان من رجاله المشهورين، ثم وفد على معاوية في الاستقامة، وكان معاوية لا يثبتُهُ، معرفةً بعينه، فدخل عليه في جملة الناس، فلما انتهى إليه استنسبه، فانتسب له، فقال: أنت صاحب ليلة المرير؟ قال: نعم، قال: والله ما تخلو مسامعي من رجَزِك تلك الليلة، وقد علا صوتك أصوات الناس، وأنت تقول:

شُدّوا فداءً لكم أمّي وأبْ ... فإنّما الأمرُ غداً لمن غلبْ
هذا ابنُ عم المصطفى والمنتجَبْ ... تَنْمِه للعَلْياءِ ساداتُ العَرَبْ
ليس بموصومٍ إذا نصّ النَسَبْ ... أوّل مَنْ صلّى وصام واقتربْ

قال: نعم، أنا قائلها. قال: فلماذا قلتَها؟ قال: لأنا كنا مع رجل لا نَعلم خصلة توجب الخلافة، ولا فضيلة تصير إلى التقدمة، إلّا وهي مجموعة له، كان أوّلَ الناس سِلْماً، وأكثرَهم علماً، وأرجحَهم حلماً، فات الجياد فلا يشق غباره، يستولي على الأمد فلا يخاف عثاره، وأوضح منهج الهُدى فلا يبيد مناره، وسلك القصد فلا تدرُس آثاره، فلمّا ابتلانا الله تعالى بافتقاده، وحوّل الأمر إلى من يشاء من عباده، دخلنا في جملة المسلمين فلم ننزع يداً عن طاعة، ولم نصدع صفاة جماعة، على أن لك منّا ما ظهر، وقلوبنا بيد الله، وهو أملَك بها منك، فاقبل صفوَنا، وأعرِض عن كدرنا، ولا تُثِرْ كوامنَ الأحقاد، فإنّ النار تقدَح بالزناد. قال معاوية: وإنّك لتهددني ياأخا طيّىء بأوباش العراق أهل النفاق، ومَعدن الشقاق! فقال: يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق، وحبسوك في المضيق، وذادوك عن سَنَن الطريق، حتى لذت منهم بالمصاحف، ودعوت إليها من صدّق بها وكذبت، وآمن بمنزلها وكفرت، وعرف من تأويلها ما أنكرت. فغضب معاوية وأدار طرْفه فيمَنْ حوله فإذا جلُّهم من مُضَر ونفر قليل من اليمن، فقال: أيّها الشقيّ الخائن، إنّي لإخال أنّ هذا آخر كلام تفوّه به - وكان عُفَيْر بن سيف بن ذي يزن بباب معاوية حينئذ - فعرف موقف الطائيّ ومراد معاوية، فخافه عليه، فهجم عليهم الدار، وأقبل على اليمانيّة، فقال: شاهت الوجوه ذلّاً وقُلّاً، وجَذْعاً وفَلّاً، كَشَم الله هذه الأنف كَشْماً مرعباً. ثم التفت إلى معاوية، فقال: إنّي والله يا معاوية ما أقول قولي هذا حبّاً لأهل العراق، ولا جنوحاً إليهم، ولكن الحفيظة تذهب الغضب، لقد رأيتك بالأمس، خاطبت أخا ربيعة - يعني صعصعة بن صُوحان - وهو أعظم جُرماً عندك من هذا، وأنكأ لقلبك، وأقدح في صَفاتك، وأجدّ في عداوتك، وأشد انتصاراً في حربك، ثم أثبتّه وسرّحته، وأنت الآن مجمع على قتلِ هذا - زعمت - استصغاراً لجماعتنا! فإنّا لا نمرّ ولا نُحلي، ولعمري لو وكلتك

أبناء قحطان إلى قومك لكان جَدّك العاثر، وذكرك الداثر، وحدّك المفلول، وعرشك المثلول، فاربع على ظلْعِك، واطونا على بُلالتنا، ليسهل لك حَزْننا، ويتطامن لك شاردنا، فإنا لا نرأمُ بوقع الضيم، ولا نتلمّظ جُرع الخسف، ولا نغمز بغماز الفِتن، ولا نذر على الغضب. فقال معاوية: الغضب شيطان، فاربَعْ نفسك أيّها الإنسان، فإنا لم نأت إلى صاحبك مكروهاً، ولم نرتكب منه مغضباً، ولم ننتهك منه محرّماً، فدونكه فإنّه لم يضقْ عنه حلْمنا ويسع غيره. فأخذ عُفَير بيد الوليد، وخرج به إلى منزله، وقال له: والله لتؤوبنّ بأكثر ممّا آب به معديّ من معاوية. وجمع مَنْ بدمشق من اليمانية، وفرض على كلّ رجل دينارين في عطائه، فبلغت أربعين ألفاً، فتعجّلها من بيت المال، ودفعها إلى الوليد، وردّه إلى العراق.

٣٢ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: وَأَرْدَيْتَ جيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً، خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ، وَتَتَلاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ، فَجَارُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ، فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ، وَهَرَبُوا إِلَى اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ.

فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ، والسلام.

الشرح: أرديتَهم: أهلكتهم. وجيلاً من الناس، أي صِنْفاً من الناس. والغيّ: الضلال.

وجاروا: عدلوا عن القصد. ووِجهتهم، بكسر الواو، يقال: هذا وجه الرأي، أي هو الرأي بنفسه، والاسم الوِجه بالكسر ويجوز بالضم.

قوله: «وعوّلوا عَلَى أحسابهم»، أي لم يعتمدوا على الدّين، وإنما أردتهم الحميّة ونخوة الجاهلية، فأخلدوا إليها وتركوا الدين، والإشارة إلى بني أمية وخلفائهم الّذين اتّهموه عليه السلام بدم عثمان، فحاموا عن الحسب، ولم يأخذوا بموجب الشرع في تلك الواقعة ثم استثنى قوماً فاؤوا، أي رجعوا عن نُصرة معاوية، وقد ذكرنا في أخبار صِفّين مَنْ فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله: «حملتهم على الصعب» أي على الأمر الشاقّ، والأصل في ذلك البعير المستصعَب يركبه الإنسان فيغرّر بنفسه.

الكتب المتبادلة بين علي عليه السلام ومعاوية

وأول هذا الكتاب: من عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد، فإنّ الدنيا دار تجارة، وربحها أو خُسرها الآخرة، فالسعيد مَنْ كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة، ومَنْ رأى الدنيا بعينها، وقدّرها بقدرها! وإني لأعِظك مع علمي بسابق العلم فيك ممّا لا مردّ له دون نَفاذه، ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة، وأن ينصحوا الغويّ والرشيد، فاتّق الله، ولا تكن ممنّ لا يرجو لله وقاراً، ومَنْ حقّت عليه كلمة العذاب، فإنّ الله بالمرصاد. وإنّ دنياك ستدبر عنك، وستعود حسرةً عليك، فأقلع عمّا أنت عليه من الغيّ والضلال، على كبر سنّك، وفناء عمرك، فإن حالك اليوم كحال الثوب المَهِيل الذي لا يصلح مِن جانب إلّا فسد من آخر، وقد أرديتَ جيلاً من الناس كثيراً، خدعتهم بغيّك... إلى آخر الكتاب.

قال أبو الحسن علي بن محمد المدائنيّ: فكتب إليه معاوية: من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب، أمّا بعد، فقد وقفتُ على كتابك، وقد أبيتَ على الفتنِ إلا تمادياً، وإنّي لعالم أن الذي يدعوك إلى ذلك مصرعُك الّذي لا بد لك منه، وإن كنت موائلاً، فازدد غيّاً إلى غيّك، فطالما خفّ عقلُك، ومنيّت نفسك ما ليس لك، والتويت على مَنْ هو خير منك، ثم كانت العاقبة لغيرِك، واحتملت الوزْر بما أحاط بك من خطيئتِك. والسلام.

فكتب عليّ عليه السلام إليه: أما بعد، فإنّ ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشَبه مما أتى به أهلُك وقومك الذين حملهم الكفرُ وتمنّي الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه وآله حتى صُرعوا مصارعَهم حيث علمت، لم يمنعوا حريماً، ولم يدفعوا عظيماً، وأنا صاحبهم في تلك المواطن، الصالي بحرْبهم، والفالّ لحدِّهم، والقاتل لرؤوسهم ورؤوس الضلالة، والمتّبع إن شاء الله خلفَهم بسلَفهم، فبئس الخَلف خلَفٌ اتبع سلفاً محله ومحطّه النار. وَالسلام.

قال: فكتب إليه معاوية: أما بعد، فقد طال في الغيّ ما استمررت أدراجك، كما طالما تمادى عن الحرب نكوصُك وإبطاؤك، فتُوعد وعيد الأسد، وتَرُوغ رَوَغان الثعلب، فحتامَ تحيد عن لقاء مباشرة الليوث الضارية، والأفاعي القاتلة، ولا تستبعدنّها، فكلّ ما هو آت قريب إن شاء الله. والسلام.

قال: فكتب إليه عليّ عليه السلام: أمّا بعد، فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلمني بما أنت إليه صائر! وليس إبطائي عنك إلا ترقبًا لما أنت له مكذّب، وأنا به مصدّق! وكأني بك غداً وأنت تضجّ من الحرب ضجيجَ الجمال من الأثقال، وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظّمونه بألسنتكم، وتجحدونه بقلوبكم. والسلام.

قال: فكتب إليه معاوية: أمّا بعد، فدعني من أساطيرك، واكفُفْ عنّي من أحاديثك، واقصر عن تقوّلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافترائك من الكذب ما لم يقل، وغرور مَنْ معك والخداع لهم، فقد استغويتَهم، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك، ويعلموا أنّ ما جئت به باطل مضمحلّ. والسلام.

قال: فكتب إليه عليّ عليه السلام: أما بعد، فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرّجيم الحقَّ أساطير الأولين، ونبذتموه وراء ظهوركم، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. ولعمري ليتمنّ النّور على كرهك، ولينفذنّ العلم بصغَارك، ولتجازينّ بعملك، فعثْ في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك، فكأنك بباطلك وقد انقضى، وبعملك وقد هوى، ثم تصير إلى لظًى، لم يظلمك الله شيئاً، وما ربك بظلّام للعبيد!

قال: فكتب إليه معاوية: أمّا بعد، فما أعظم الرَّيْن على قلبك، والغطاءَ على بصرك! الشَّرَهُ من شيمتك، والحسدُ من خليقتك، فشمر للحرب، واصبر للضّرْب، فوالله ليرجعنّ الأمر إلى ما علمت، والعاقبة للمتقين. هيهات هيهات! أخطأك ما تمنّى، وهوى قلبك مع من هوى، فاربَعْ على ظَلْعك، وقِسْ شبرَك بفتْرِك، لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حلمه، ويفصل بين أهل الشك علمه. والسلام.

قال: فكتب إليه عليّ عليه السلام: أمّا بعد، فإنّ مَساوِئك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك، وأن يرعويَ قلبك، يا بن الصَّخْر اللّعين! زعمت أن يزن الجبالَ حلمُك، ويفصل بين أهل الشك علمك، وأنت الجلْف المنافق، الأغلف القلب، القليل العقل، الجبان الرّذْل، فإن كنت صادقاً فيما تسطّر، ويعينك عليه أخو بني سَهْم، فدع الناس جانباً، وتيسر لما دعوتَني إليه من الحرْب، والصبر على الضرب، واعفُ الفريقين من القتال، ليعلم أيّنا المرين على قلبه، المغطّى على بصره، فأنا أبو الحسن، قاتل جدّك وأخيك وخالك، وما أنت منهم ببعيد، والسلام!

قلت: وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر - وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة - أن يُفضيَ أمر عليّ عليه السلام إلى أن يصير معاوية نِدّاً له ونظيراً مماثلاً، يتعارضان الكتاب والجواب، ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه، ولا يقول له عليّ عليه السلام كلمة إلا قال مثلها، وأخشن مَسّاً منها، فليت محمداً صلى الله عليه وسلم كان شاهدَ ذلك، ليرى عِياناً لا خبَراً أنّ الدعوة التي قام بها، وقاسى أعظم المشاقّ في تحمّلها، وكابد الأهوال في الذبّ عنها، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتِها، وشيّد أركانها، وملأ الآفاق بها، خلَصت صفواً عفواً لأعدائه الّذين كذبوه، لما دعا إليها، وأخرجوه عن أوطانه لما حضّ عليها، وأدمَوْا وجهه، وقتلوا عمّه وأهله، فكأنه كان يسعى لهم، ويدأب لراحتهم، كما قال أبو سفيان في أيام عثمان، وقد مرّ بقبر حمزة، وضربه برجله،

وقال، يا أبا عُمارة! إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غِلماننا اليوم يتلعّبون به! ثم آل الأمر إلى أن يفاخر معاويةُ عليّاً، كما يتفاخر الأكفاء والنظراء...

إذا عَيّر الطائيَّ بالبخلِ مادِرٌ — وقَرّعَ قُسّاً بالفَهاهة باقلُ
وقال السُّها للشَّمسِ: أنت خَفيّةٌ — وقال الدُّجى: يا صبح لونُك حائلُ
وفاخَرتِ الأرضُ السماءَ سفاهةً — وكاثرتِ الشهبَ الحصا والجنادلُ
فيا موت زُرْ إنّ الحياة ذميمةٌ — ويا نفس جِدّي إنّ دهرَكِ هازل!

ثم أقول ثانياً لأمير المؤمنين عليه السلام: ليت شعري، لماذا فتح باب الكتاب والجواب بينه وبين معاوية! وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك، فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرّض للمفاخرة والمنافرة! وإذا كان لا بدّ منهما فهلّا اكتفى بهما من غير تعرّض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله، وبأشدّ منه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] وهلاّ دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سِباب هذا السفيه الأحمق، هذا مع أنه القائل: مَنْ واجَهَ الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون! أي افتروا عليه وقالوا فيه الباطل.

أيّها الشاتمي لِتحسَبَ مثلِي — إنّما أنت في الضلال تهيمُ
لا تَسُبَّنَّني فلستَ بِسِبّي — إن سِبّي من الرجال الكريم

وهكذا جرى في القنوت واللعن، قَنت بالكوفة على معاوية، ولعنه في الصلاة وخطبة الجمعة، وأضاف إليه عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلميّ وحبيب بن مسلمة، فبلغ ذلك معاوية بالشام، فقنت عليه، ولعنه بالصلاة، وخطبة الجمعة، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعي، ولعلّه عليه السلام قد كان يظهر له من المصلحة حينئذ ما يغيب عنّا الآن، ولله أمر هو بالغه!

---

٣٣ – ومن كتاب له عليه السلام إلى قُثم بن العباس وهو عامله على مكة

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، الْعُمْيِ الْقُلُوبِ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ، الْكُمْهِ الْأَبْصَارِ، الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ، وَيَشْتَرُونَ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

عَاجِلَهَا بآجِلِ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلّا عَامِلُهُ، وَلا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلّا فَاعِلُهُ.

فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الطَّبِيبِ، وَالنَّاصِحِ اللبِيبِ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ. وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَلا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً، وَلا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً. والسلام.

الشرح: كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاة في السرّ يدعون إلى طاعته، ويثبّطون العرب عن نصرة أميرِ المؤمنين، ويوقعون في أنفسهم أنه إمّا قاتلٌ لعثمان أو خاذل، وأنّ الخلافة لا تصلح فيمن قتل أو خذل، وينشرون عندهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته، فكتب أميرُ المؤمنين عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكّة، ينبّهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة، ولم يصرح في هذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم.

قوله: «عيني بالمغرب»، أي أصحاب أخباره عند معاوية، وسمّى الشام مغرباً لأنه من الأقاليم المغربية. والموسم: الأيام التي يقام فيها الحج.

وقوله: «ويحتلبون الدنيا دَرّها بالدّين» دلالة على ما قلنا: إنّهم كانوا دُعاة يظهرون سَمْت الدين، وناموس العبادة، وفيه إبطال قول مَنْ ظنّ أنّ المراد بذلك السّرايا التي كان معاوية يبعثها، فتُغِيرُ على أعمال عليّ عليه السلام. ودرَّها منصوب بالبدل «من الدنيا» وروي: «الذين يلتمسون الحق بالباطل» أي يطلبونه، أي يتبعون معاوية وهو على الباطل التماساً وطلباً للحقّ، ولا يعلمون أنهم قد ضلوا.

قوله: «وإيّاك وما يعتذَر منه» من الكلمات الشريفة الجليلة الموقع، وقد رويت مرفوعة، وكان يقال: ما شيء أشدّ على الإنسان من حمْل المروءة، والمروءة ألا يعمل الإنسان في غيبة صاحبه ما يعتذَر منه عند حضوره.

قوله: «ولا تكن عند النعماء بطراً، ولا عند البأساء فشلاً» معنًى مستعمل، قال الشاعر:

فلستُ بمفراحٍ إذا الدّهر سرّني ... ولا جازعٌ من صَرْفه المتقلّبِ
ولا أتمنّى الشرّ والشرّ تاركي ... ولكنْ مَتَى أُحمل على الشرّ أركب

من أخبار قثم بن العباس

فأما قُثَم بن العباس، فأمّه أم إخوته، وروى ابن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»[1] عن عبد الله بن جعفر، قال: كنت أنا وعبيد الله وقُثم ابنا العباس نلعب، فمر بنا رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر القرطبي، المتوفى سنة (٤٦٣هـ) «كشف الظنون» (١/ ٨١).

راكباً، فقال: «ارفعوا إليّ هذا الفتى» يعني قُثم - فرفع إليه! فأردفه خلفه، ثم جعلني بين يديه، ودعا لنا، فاستشهد قُثم بسمَرْقند.

قال ابن عبْد البرّ: وروى عبد الله بن عباس، قال: كان قُثَم آخرَ الناس عهداً برسول الله ﷺ أي آخر من خرج من قبره ممن نزل فيه. قال: وكان المغيرة بن شعبة يدّعي ذلك لنفسه، فأنكر عليّ بن أبي طالب عليه السلام ذلك، وقال: بل آخر مَنْ خرج من القبر قُثَم بن العباس.

قال ابن عبد البرّ: وكان قُثم والياً لعليّ عليه السلام على مكة، عزل عليٌّ عليه السلام خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزوميّ - وكان واليها لعثمان - وولّاها أبا قتادة الأنصاريّ، ثم عزله عنها وولى مكانه قُثَم بن العباس، فلم يزل واليه عليها حتى قتل عليٌّ عليه السلام. قال: هذا قول خليفة، وقال الزّبير بن بكار: استعمل عليّ عليه السلام قُثم بن العباس على المدينة[1].

قال ابن عبد البرّ: واستشهد قُثم بسَمَرْقَنْد، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية فقتل هناك.

قال: وكان قُثَم يشبه رسول الله ﷺ، وفيه يقول داود بن مسلم:

عُتِقْتِ من حِلٍّ ومن رحلةٍ ... يا ناقُ إن أدنيتِني من قُثَمْ
إنّك إن أدنَيْتِ منه غداً ... حالفني اليُسر ومات العدَمْ
في كفِّه بحرٌ وفي وجهه ... بَدْرٌ وفي العِرْنينِ منه شَمَمْ
أصَمّ عن قيل الخنا سمعه ... وما على الخير به من صَمَمْ
لم يدرِ ما «لا» وبـ «لا» قد درَى ... فعافَها واعتاض منها نَعَمْ

٣٤ - ومن كتاب له عليه السلام: إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجّده من عزله بالأشتر عن مصر، ثم توفي الأشتر في توجّهه إلى هناك قبل وصوله إليها

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ. وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ، وَلا ازْدِيَاداً لَكَ فِي الْجِدِّ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ، لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلايَةً.

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلاً لَنَا نَاصِحاً، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً،

(١) أخرجه السيد علي بن معصوم في الدرجات الرفيعة: ١٥١.

فَرَحِمَهُ الله! فَلَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، وَلاقَى حِمَامَهُ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ، أَوْلاهُ الله رِضْوَانَهُ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ!

فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الاسْتِعَانَةَ بِالله يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ، إِنْ شَاءَ الله.

الشرح: أم محمد رحمه الله أسماء بنت عَميس الخثعميّة: وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وآله، وأخت لبابة أم الفضل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب، وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة، وهي إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعوناً، ثم هاجرت معه إلى المدينة، فلمّا قتِل جعفر يوم مؤتة تزوّجها أبو بكر، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا، ثم مات عنها فتزوّجها عليّ عليه السلام، وولدت له يحيى بن عليّ، لا خلاف في ذلك.

وقال ابن عبد البر في «الاستيعاب»: ذكر ابن الكلبيّ أن عون بن عليّ اسم أمّه أسماء بنت عميس، ولم يقل ذلك أحدٌ غيره.

وقد روي أنّ أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب، فولدت له بنتاً تسمى أمة الله - وقيل أمامة - ومحمد بن أبي بكر ممن ولد في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال ابن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»: ولد عام حجة الوداع في عقب ذي القعدة بذي الحُليفة، حين توجه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحجّ، فسمّته عائشة محمداً، وكنّته أبا القاسم بعد ذلك لما ولد له ولد سماه القاسم، ولم تكن الصحابة ترى بذلك بأساً، ثم كان في حجْر عليٍّ عليه السلام، وقتل بمصر، وكان عليّ عليه السلام يُثني عليه ويقرّظه ويفضّله، وكان لمحمد رحمه الله عبادة واجتهاد، وكان ممّن حضر عثمان ودخل عليه، فقال له: لو رآك أبوك لم يسرّه هذا المقام منك! فخرج وتركه، ودخل عليه بعده مَنْ قتله. ويقال: إنه أشار إلى مَنْ كان معه فقتلوه.

قوله: «وبلغني موجدتك»، أي غضبك، وجدت على فلان مَوْجِدة، ووِجداناً لغة قليلة، وأنشدوا:

كِلانَا ردّ صاحبَهُ بغيظٍ على حَنَقٍ ووِجْدانٍ شديدِ

فأما في الحزن فلا يقال إلا وَجَدت أنا بالفتح لا غير.

والجَهد: الطاقة، أي لم أستبطئك في بذل طاقتك ووسعك، ومن رواها الجَهْد بالفتح فهو من قولهم: اجهد جَهدك في كذا، أي ابلغ الغاية، ولا يقال هذا الحرف ها هنا إلّا مفتوحاً.

ثمّ طيّب عليه السلام نفسه بأن قال له: لو تمّ الأمر الذي شرعت فيه من ولاية الأشتر مصر لعوّضتك بما هو أخفّ عليك مؤونة وثقلاً، وأقلّ نصباً من ولاية مصر، لأنه كان في مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه.

ثم أكّد عليه السلام ترغيبه بقوله: «وأعجب إليك ولاية».

فإن قلت: ما الذي بيده ممّا هو أخفّ على محمد مؤونة وأعجب إليه من ولاية مصر؟

قلت: ملْك الإسلام كلُّه كان بيد عليّ عليه السلام إلّا الشام، فيجوز أن يكون قد كان في عزمه أن يولّيه اليمن أو خراسان أو أرمينيّة أو فارس.

ثم أخذ في الثناء على الأشتر وكان عليّ عليه السلام شديد الاعتضاد به، كما كان هو شديد التحقّق بولايته وطاعته.

وناقماً: من نقمت على فلان كذا، إذا أنكرته عليه وكرهته منه.

ثم دعا له بالرضوان، ولست أشك بأنّ الأشتر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفّر ذنوبه، ويدخله الجنّة، ولا فرق عندي بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويا طُوبَى لمن حصل له من علي عليه السلام بعض هذا!

قوله: «وأَصْحِر لعدوّك» أي ابرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التي أنت فيها، أصحر الأسدُ من خِيسه، إذا خرج إلى الصحراء.

وشمر فلان للحرب، إذا أخذ لها أُهبتَها.

٣٥ - ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ الله قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ الله نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دَافِعاً.

وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لَحَاقِهِ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، وَعَوْداً وَبَدْءاً، فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلاً.

أَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً، فَوَالله لَوْلا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَى مَعَ هؤلاءِ يَوْماً وَاحِداً، وَلا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً.

الشرح: انظر إلى الفصاحة كيف تعطِي هذا الرّجل قيادها، وتملّكه زمامها، واعجب لهذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً يكف تواتيه وتطاوعه، سلِسة سهلة، تتدفّق من غير تعسّف ولا تكلّف، حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال، «يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً»، وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة، جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارة مجرورة، وتارة منصوبة، فإن أرادوا قَسْرَها بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثرٌ بيّن، وعلامة واضحة، وهذا الصِّنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن، ذكره عبد القاهر، قال: انظرْ إلى سورة النّساء وبعدها سورة المائدة، الأولى منصوبة الفواصل، والثانية ليس فيها منصوب أصلاً، ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما.

ثم إن فواصل كلّ واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعيّ لا الصناعة التكلّفية ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل، كيف قال: «ولداً ناصحاً»، «وعاملاً كادحاً»، و«سيفاً قاطعاً»، و«ركناً دافعاً»، لو قال: «ولداً كادحاً» و«عاملاً ناصحاً»، وكذلك ما بعده لما كان صواباً، ولا في الموقع واقعاً، فسبحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكّة، ينشأ بين أهله، لم يخالط الحكماء، وخرج أعرفَ بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من أفلاطون وأرسطو! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية، لأنّ قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط! ولم يرَ بين الشجعان، لأن أهل مكة كانوا ذوِي تجارة، ولم يكونوا ذوي حرب، خرج أشجعَ من كلّ بشرٍ مشى على الأرض. قيل لخلَف الأحمر: أيّما أشجع عنْبسة وبِسطام أم عليّ بن أبي طالب؟ فقال: إنما يذكر عَنْبسة وبسطام مع البَشر والناس، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة، فقيل له: فعلى كلّ حال. قال: والله لو صاح في وجوههما لماتا قبلَ أن يحمل عليهما. وخرج أفصحَ من سَحْبان وقُسّ، ولم تكن قريش بأفصح العرب، كان غيرها أفصح منها، قالوا: أفصح العرب جُرْهم وإن لم تكن لهم نَباهة. وخرج أزهدَ الناس في الدنيا، وأعفَّهم، مع أن قريشاً ذوو حرص ومحبة للدنيا، ولا غروَ فيمن كان محمد ﷺ مربّيه ومخرِجه، والعناية الإلهية تمدّه وترفُدُه أن يكون منه ما كان!

يقال: احتسب ولده، إذا مات كبيراً، وافترط ولدَه، إذا مات صغيراً.

قوله: «فمنهم الآتي . . .»، قسّم جنده أقساماً، فمنهم من أجابه وخرج كارهاً للخروج، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[1]، ومنهم من قعد واعتلّ بعلّة كاذبة،

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦.

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾(١)، ومنهم مَنْ تأخر وصرّح بالقعود والخذلان، كما قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢). والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النبي ﷺ، ومَنْ تذكر أحوالهما وسيرتهما، وما جرى لهما إلى أن قبضا، علم تحقيق ذلك.

ثمّ أقسم أنه لولا طمَعُه في الشهادة لَمَا أقام مع أهل العراق ولا صحبهم.

فإن قلتَ: فهلّا خرج إلى معاوية وحده من غير جيش إن كان يريد الشهادة؟

قلت: ذلك لا يجوز، لأنه إلقاء النفس إلى التهلكة، وللشهادة شروط متى فقدت، فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتيْن على الأخرى.

٣٦ – ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عَقِيل بن أبي طالب في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل

الأصل: فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِباً، وَنَكَصَ نَادِماً، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلإِيَابِ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كلا ولا، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً، بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ الرَّمَقِ، فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا.

فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلالِ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ، فإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَآلِهِ قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي، فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي.

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ، فَإِنَّ رأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى الله، لا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً، وَلا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً. وَلا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ – وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ – مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً، وَلا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَلا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُقْتَعِدِ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيم:

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٣. (٢) سورة التوبة، الآية: ٨١.

الشرح: قد تقدم ذكر هذا الكتاب في اقتصاصنا ذكر حال بُسْر بن أرطاة وغارته على اليمن في أول الكتاب.

ويقال: طفّلت الشمس - بالتشديد - إذا مالت للغروب، وطفّل الليل، مشدّداً أيضاً، إذا أقبل ظلامه، والطَّفَل، بالتحريك: بعد العصر حين تطفُل الشمس للغروب، ويقال أتيته طَفَلى، أي في ذلك الوقت.

وقوله عليه السلام: «للإياب» أي للرجوع، أي ما كانت عليه في الليلة التي قبلها، يعني غيبوبتها تحت الأرض. وهذا الخطاب إنّما هو على قَدْر أفهام العرب، كانوا يعتقدون أنّ الشمس منزلها ومقرّها تحت الأرض، وأنها تخرج كلّ يوم فتسير على العالم، ثم تعود إلى منزلها، فتأوي إليه كما يأوي الناس ليلاً إلى منازلهم.

وقال الراونديّ: «عند الإياب» عند الزوال: وهذا غير صحيح، لأن ذلك الوقت لا يسمّى طَفَلاً، ليقال: إنّ الشمس قد طفّلت فيه.

قوله عليه السلام: «فاقتتلوا شيئاً كلا ولا»، أي شيئاً قليلاً، وموضع «كلا ولا» نصب، لأنه صفة «شيئاً» وهي كلمة تقال لما يستقصر وقته جداً، والمعروف عند أهل اللغة: «كلا وذا»، قال ابن هانىء المغربيّ:

وأسرعُ في العين من لحظةٍ وأقصرُ في السمع من لا، وذا

وفي شعر الكميت «كلا وكذا تغميضة».

وقد رويت في «نهج البلاغة» كذلك، إلّا أن في أكثر النسخ: «كلا ولا»، ومن الناس من يرويها: «كلا ولات»، وهي حرف أُجْرِيَ مجرى «ليس»، ولا تجيء «حين» إلا أن تحذف في شعر، ومن الرواة من يرويها: «كلا ولأي»، ولأي فِعْل، معناه أبطأ.

قوله عليه السلام: «نجا جريضاً»، أي قد غصّ بالريق من شدة الجهد والكرب، يقال: جَرِض بريقه يجرِض بالكسر، مثال كسر يكسِر، ورجل جريض مثل قَدَر يقدر فهو قدير، ويجوز أن يريد بقوله: «فنجا جريضاً»، أي ذا جريض، والجريض: الغصّة نفسها، وفي المثل: «حال الجريض دون القريض» قال الشاعر:

كأنّ الفتى لم يغنَ في النّاس ليلةً إذا اختلف اللّحيان عند الجريضِ

قال الأصمعيّ: ويقال: هو يجرَض بنفسه، أي يكاد يموت، ومنه قول امرىء القيس:

وأفلتهنّ علباءٌ جَرِيضاً ولو أدركنه صَفِرَ الوِطابُ

وأجرضه الله بريقه: أغصه.

قوله عليه السلام: «بعد ما أخذ منه بالمخنّق»، هو موضع الخنق من الحيوان، وكذلك الخُناق، بالضمّ، يقال أخذ بخُناقه، فأما الخِناق بالكسر، فالحبل تخنَق به الشاة. والرمَق: بقية الروح.

قوله عليه السلام: «فلأياً بلأي ما نجا»، أي بعد بطء وشدة، وما زائدة أو مصدرية، وانتصب «لأياً» على المصدر القائم مقام الحال، أي نجا مبطئاً، والعامل في المصدر محذوف أي أبطأ بطئاً، والفائدة في تكرير اللفظة المبالغة في وصف البطء الذي نجا موصوفه به، أي لأياً مقروناً بلأي.

وقال الراونديّ: هذه القصة وهذا الهارب جريضاً وبعد لأي ما نجا، هو معاوية، قال: وقد قيل: إن معاوية بعث أمويّاً فهرب على هذه الحال، والأوّل أصحّ، وهذا عجيب مضحك ووددت له ألا يكون شرح هذا الكتاب!

قوله: «فدع عنك قريشاً» إلى قوله: «على حرب رسول الله ﷺ»، هذا الكلام حق، فإنّ قريشاً اجتمعت على حربه منذ يوم بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه، فأصفقوا كلّهم يداً واحدة على شقاقه وحَرْبه، كما كانت حالهم في ابتداء الإسلام مع رسول الله ﷺ، لم تخرم حاله من حاله أبداً إلّا أن ذاك عصمه الله من القتل، فمات موتاً طبيعياً، وهذا اغتاله إنسان فقتله.

قوله: «فجزت قريشاً عنّي الجوازي، فقد قطعوا رحِمي، وسلبوني سلطانَ ابن أمّي»، هذه كلمة تجري مجرى المثل، تقول لمن يسيء إليك وتدعو عليه: جزتك عني الجوازي! يقال: جزاه الله بما صنع، وجازاه الله بما صنع! ومصدر الأول جزاء، والثاني مجازاة، وأصل الكلمة أن الجوازي جمع جازية كالجواري جمع جارية، فكأنه يقول: جَزَتْ قريشاً عنّي بما صنعت لي كلّ خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة، أي جعل الله هذه الدواهي كلّها جزاء قريش بما صنعت بي. وسلطان ابن أمي، يعني به الخلافة، وابن أمّه هو رسول الله ﷺ، لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم، أمّ عبد الله وأبي طالب، ولم يقل سلطان ابن أبي، لأنّ غير أبي طالب من الأعمام يشرَكه في النسب إلى عبد المطلب.

قال الراونديّ: الجوازي: جمعُ جازية، وهي النفس التي تجزي، أي جزاهم وفعل بهم ما يستحقون عساكر لأجلي وفي نيابتي، وكافأهم سريّة تنهض إليهم، وهذا إشارة إلى أن بني أميّة يهلكون من بعده. وهذا تفسير غريب طريف.

وقال أيضاً: قوله: «سلطان ابن أميّ» يعني نفسه، أي سلطانه، لأنه ابنُ أمّ نفسه، قال: وهذا من أحسن الكلام. ولا شبهة أنه على تفسير الراونديّ لو قال: وسلبوني سلطان ابن أخت خالتي، أو ابن أخت عمتي، لكان أحسن وأحسن، وهذا الرجل قد كان يجب أن يُحجر عليه، ولا يمكّن من تفسير هذا الكتاب، ويؤخذ عليه أيمان البيعة ألا يتعرّض له.

قوله: «فإن رأيي قتال المحلِّين»،أي الخارجين من الميثاق والبيعة، يعني البُغاة ومخالفي الإمام، ويقال لكلّ من خرج من إسلام أو حارب في الحرم أو في الأشهر الحرُم: مُحلّ، وعلى هذا فسر قول زُهَير:

وكم بالقَنانِ من مُحِلٍّ ومُحرِمِ

أي من لا ذمة له ومن له ذمة، وكذلك قولُ خالد بن يزيد بن معاوية في زوجته رَملة بنت الزبير بن العوّام:

ألا مَن لِقلبٍ معنّى غَزِلْ   يحبّ المحِلّة أختِ المحِلّ

أي ناقضة العهد أخت المحارِب في الحَرَم، أو أخت ناقض بيعة بني أمية.

وروي «متخضّعاً متضرّعاً» بالضاد.

ومقرًّا للضيم وبالضيم، أي هو راض به، صابرٌ عليه. وواهناً: أي ضعيفاً.

السلس: السهل. ومقتعِد البعير: راكبه.

والشعرُ ينسب إلى العباس بن مِرْداس السُّلَميّ، ولم أجده في ديوانه، ومعناه ظاهر، وفي الأمثال الحكمية: لا تشكونّ حالك إلى مخلوق مثلك، فإنه إن كان صديقاً أحزنْته، وإن كان عدوًّا أشمتّه، ولا خير في واحد من الأمرين.

٣٧ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: فَسُبْحَانَ اللهِ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ، مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ، الَّتِي هِيَ للهِ تَعَالَى طِلْبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ.

فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النصْرُ لَهُ. والسلام.

الشرح: أوّل هذا الكتاب قوله: أمّا بعد، فإنّ الدنيا حُلْوة خَضِرة ذات زينة وبَهْجَة، لم يَصْبُ إليها أحدٌ إلّا وشغلتْه بزينتها عمّا هو أنفع له منها، وبالآخرة أُمِرنا، وعليها حُثِثنا، فدعْ يا معاوية ما يَفنَى، واعمل لما يَبقى، واحذر الموتَ الّذي إليه مصيرُك، والحسابَ الّذي إليه عاقبتك.

واعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً حالَ بينه وبين ما يَكرَه، ووفقّه لطاعته، وإذا أراد الله بعبد سوءاً أغراه بالدنيا، وأنساه الآخرة، وبسَطَ له أمَلَه، وعاقَه عمّا فيه صلاحُه، وقد وصلني كتابُك فوجدتُك تَرمي غيرَ غرضِك، وتَنشُد غيرَ ضالّتك، وتخبط في عَماية. وتَتيه في ضلالة، وتعتصم بغير حجّة، وتلوذ بأضعف شُبهة.

فأمّا سؤالك المتارَكة والإقرار لك على الشام، فلو كنتُ فاعلاً ذلك اليوم لفعلتُه أمس.

وأما قولُك: إن عُمَر ولّاكه فقد عزل مَنْ كان ولّاه صاحبه، وعزل عثمانُ من كان عمرُ ولّاه

ولم ينصّب للناس إمام إلا ليرى من صلاح الأمّة إماماً قد كان ظهر لمن قبله، أو أخفى عنهم عيبَه، والأمر يَحدُث بعدَه الأمرُ، ولكلّ والٍ رأي واجتهاد. فسبحان الله! ما أشَدّ لزومَك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتبّعة... إلى آخر الفصل.

وأما قوله عليه السلام: «إنما نصرتَ عثمان حيث كان النصرُ لك...» إلى آخره، فقد رَوَى البلاذريّ قال: لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه، بعث يزيد بن أسد القَسْريّ، جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وقال له: إذا أتيتَ ذا خُشُب فأقِم بها، ولا تتجاوَزْها، ولا تقل: الشاهدُ يَرَى ما لا يَرَى الغائب، فإنّني أنا الشاهد وأنت الغائب.

قال: فأقام بذي خُشُب حتى قتل عثمان، فأستقدمه حينئذ معاوية، فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه، وإنّما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمانَ فيدعوَ إلى نفسه.

وكتب معاوية إلى ابن عبّاس عند صلح الحَسن عليه السلام له كتاباً يدعوه فيه إلى بيَعته، ويقول له فيه: ولَعَمري لو قتلتُك بعثمانَ رجوتُ أن يكون ذلك لله رضاً، وأن يكون رأياً صواباً، فإنّك من الساعين عليه، والخاذِلين له، والسافِكين دمَه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك منّي، ولا بيَدِك أمان.

فكتب إليه ابنُ عبّاس جواباً طويلاً يقول فيه: وأمّا قولك إنّي من الساعين على عثمان، والخاذلين له، والسافكين دمَه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعُك منّي. فأقسم بالله لأنتَ المتربّص بقتله، والمحبّ لهلاكه، والحابس الناسَ قِبَلك عنه على بصيرة من أمره، ولقد أتاك كتابُه وصَريخُه يستغيث بك ويستصرخ، فما حَفَلْتَ به، حتى بعثتَ إليه معذراً بأجرة، أنت تعلم أنّهم لن يتركوه حتى يُقتَل، فقُتِل كما كنتَ أردت، ثم علمتَ عند ذلك أن الناس لن يَعدِلوا بيننا وبينك، فطفقتَ تَنْعَى عثمان وتُلزِمنا دمَه، وتقول قُتل مظلوماً، فإن يك قُتل مظلوماً فأنت أظلم الظالمين، ثم لم تزل مصوِّباً ومصعِّداً، وجاثماً ورابضاً، تَستغوي الجهّال، وتنازعنا حقّنا بالسفهاء، حتّى أدركت ما طلبت، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

٣٨ - ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولّى عليهم الأشتر

الأصل: مِنْ عَبْدِ الله عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لله حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ، فَلا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ، وَلا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١١١.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ الله، لا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلا يَنْكُلُ عَنه الأَعْدَاءَ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله، لا كَلِيلُ الظُّبَةِ، وَلا نَابي الضَّرِيبَةِ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّهُ لا يُقْدِمُ وَلا يُحْجِمُ، وَلا يُؤَخِّرُ وَلا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ.

الشرح: هذا الفصل يُشكل عليّ تأويله، لأنّ أهل مصرَ هم الّذين قتلوا عثمانَ، وإذا شهد أميرُ المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عُصِيَ في الأرض، فهذه شهادة قاطعةٌ على عثمانَ بالعصيان، وإتيان المنكر، ويمكن أن يقال وإن كان متعسّفاً: إن الله تعالى عُصِيَ في الأرض لا مِن عثمانَ، بل من وُلاته وأمرائه وأهله، وذهب بينهم بحق الله، وضرب الجوْر سُرادِقه بولايتهم، وأمرهم على البرّ والفاجر، والمقيم والظّاعن، فشاع المنكَر، وفُقِد المعروف. يبقى أن يقال: هب أن الأمر كما تأوّلت، فهؤلاء الّذِين غَضِبوا لله إلى ماذا آل أمرُهم؟ أليس الأمرُ آل إلى أنهم قطعوا المسافة من مصر إلى المدينة فقتلوا عثمانَ! فلا تعدُو حالهم أمرَين، إما أن يكونوا أطاعوا الله بقتله فيكون عثمان عاصياً مستحقاً للقتل، أو يكونوا أسخَطوا الله تعالى بقتله فعثمانُ إذاً على حق، وهم الفسّاق العصاة، فكيف يجوز أن يبجّلهم أو يخاطبَهم خطابَ الصالحين! ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنّهم غضبوا لله، وجاؤوا من مصرَ، وأنكروا على عثمانَ تأميرَه الأمراء الفسّاق، وحصروه في داره طلباً أن يدفع إليهم مرْوان ليحبسوه، أو يؤدّبوه على ما كتبه في أمرهم، فلمّا حُصِر طمع فيه مُبغضوه وأعداؤه من أهل المدينة وغيرها، وصار معظمُ الناس إلْباً عليه، وقلّ عدد المصريّين بالنسبة إلى ما اجتمع من الناس على حصرِه ومطالبتِه بخلع نفسه، وتسليم مروانَ وغيره من بني أميّة إليهم، وعزل عمّاله، والاستبدال بهم، ولم يكونوا حينئذ يطلبون نفسه، ولكنّ قوماً منهم ومن غيرهم تسوّروا دارَه، فرماهم بعضُ عبيده بالسهام فجُرح بعضهم، فقادت الضرورة إلى النزول والإحاطة به، وتسرّع إليه واحد منهم فقتَله. ثم إنّ ذلك القاتل قُتِل في الوقت، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم، وشرحناه، فلا يلزم من فسقِ ذلك القاتِل وعصيانِه أن يفسق الباقون، لأنّهم ما أنكروا إلا المنكَر، وأمّا القتل فلم يقع منهم، ولا راموه ولا أرادوه، فجاز أن يقال: إنّهم غَضِبوا لله، وأن يُثني عليهم ويمدحهم.

ثم وصف الأشتر بما وصفَه به، ومِثلُ قولِه: «لا ينام أيّام الخوف» قولُهم: «لا ينام ليلة يخاف، ولا يَشبَع ليلة يُضاف»، وقال:

فأتت به حُوشَ الفؤاد مبطّناً ... سُهُداً إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ

ثم أمرهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به ممّا يطابق الحقّ، وهذا من شدّة دينِه وصلابته عليه السلام، لم يسامح نفسَه في حقّ أحبِّ الخلق إليه أن يهمل هذا القيْد، قال رسول الله ﷺ: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق»(١).

وقال أبو حنيفة: قال لي الربيع في دِهليز المنصور: إن أمير المؤمنين يأمرُني بالشيء بعد الشيء من أمورِ مُلكه، فأنفذه وأنا خائف على دِيني، فما تقول في ذلك؟ قال - ولم يقل لي ذلك إلا في ملأ الناس -: فقلت له: أفيأمر أمير المؤمنين بغير الحق؟ قال: لا، قلت: فلا بأس عليك أن تفعل بالحقّ، قال أبو حنيفة: فأراد أن يصطادني فاصطدتُه.

والذي صدع بالحق في هذا المقام الحسن البصريّ، قال له عُمر بن هُبيرة أمير العراق في خلافة يزيدَ بن عبد الملك في ملأٍ من الناس، منهم الشعبيّ وابنُ سِيرين: يا أبا سعيد، إنّ أمير المؤمنين يأمرني بالشيء أعلم أن في تنفيذه الهَلَكة في الدّين، فما تقول في ذلك؟ قال الحسن: ماذا أقول! إن الله مانعك من يزيدَ، ولن يمنعك يزيدُ من الله، يا عمر خَفِ الله، واذكر يوماً يأتيك تتمخّض ليلتُه عن القيامة، إنه سينزل عليك مَلَك من السماء فيحطّك عن سَريرك إلى قصرِك، ويضطرّك من قصرك إلى لزوم فراشِك، ثم يَنقُلك عن فراشك إلى قبرِك، ثم لا يُغني عنك إلا عملُك، فقام عمر بن هُبيرة باكياً يصطكّ لسانُه.

قوله: «فإنه سيفٌ من سيوف الله»، هذا لقبُ خالدِ بن الوليد، واختُلف فيمن لقّبه به، فقيل: لقّبه به رسول الله ﷺ، والصحيح أنه لقبّه به أبو بكر، لقتاله أهلَ الرّدة، وقتلِه مُسيلِمة.

والظُّبَة، بالتخفيف: حدُّ السيف. والنابي من السيوف: الّذي لا يَقطع، وأصلُه نبا، أي ارتفع، فلمّا لم يَقطَع كان مرتفعاً، فسمّى نابياً، وفي الكلام حذفٌ تقديرهُ: ولا نابٍ ضارب الضريبة، وضارب الضريبة هو حدّ السيف، فأما الضريبة نفسها فهو الشيء المضروبُ بالسيف، وإنما دخلته الهاءُ وإن كان بمعنى «مَفعول» لأنّه صار في عداد «الأسماء» كالنّطيحة والأكِيلة.

ثم أمرهم بأن يطيعوه في جميع ما يأمرهم به من الإقدام والإحجام، وقال: إنه لا يقدّم ولا يؤخّر إلا عن أمري، وهذا إن كان قاله مع أنه قد سَنَح له أن يعمل برأيه في أمور الحرب من غير مراجعته فهو عظيم جداً، لأنه يكون قد أقامه مقامَ نفسه. وجاز أن يقول: إنه لا يفعل شيئاً إلّا عن أمري، وإن كان لا يُراجعه في الجزئيات على عادة العرب في مِثل ذلك، لأنّهم يقولون فيمن يثقون به نحوَ ذلك، وقد ذهب كثيرٌ من الأصوليين إلى أن الله تعالى قال لمحمد ﷺ: احكمْ بما شئتَ في الشريعة، فإنّك لا تحكُم إلا بالحق، وإنه كان يحكم من غير مراجعته

(١) أخرجه أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (١٠٩٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٢٢) وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ٨٩٠).

لجبرائيل، وإن الله تعالى قد قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾[1]، وإن كان عليه السلام قال هذا القول عن الأشتر، لأنّه قد قرّر معه بينه وبينه ألّا يعمل شيئاً قليلاً ولا كثيراً إلّا بعد مراجعتِه، فيجوز، ولكنّ هذا بعيد، لأنّ المسافة طويلة بين العراق ومصر، وكانت الأمور هناك تقف وتفسد.

ثم ذكر أنّه آثرهم به على نفسه، وهكذا قال عمر لمّا أنفذ عبد الله بن مسعود إلى الكُوفة في كتابه إليهم: قد آثرتُكم به على نفسي، وذلك أنّ عمر كان يستفتيه في الأحكام، وعليّ عليه السلام كان يصول على الأعداء بالأشتر، ويقوي أنفسَ جيوشه بمقامه بينهم، فلمّا بعثه إلى مصر كان مؤثراً لأهل مصرَ به على نفسه.

٣٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص

الأصل: فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظاهرٍ غَيُّهُ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ، اتِّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ بِمَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ. فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ.

فَإِنْ يُمَكِّنِ الله مِنْكَ وَمِنَ ابْن أَبي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا، فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا. وَالسَّلامُ.

الشرح: كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه، لم يحملْه بغضُه لهما، وغيظُه منهما، إلى أن بالغ في ذمّهما به، كما يبالغ الفُصَحاء عند سَوْرة الغضب، وتدفّق الألفاظ على الألسنة، ولا ريبَ عند أحدٍ من العقلاء ذوي الإنصاف أنّ عمْراً جعل دينَه تبعاً لدنيا معاوية، وأنّه ما بايعه وتابعه إلّا على جَعالة جعلها له، وضمانٍ تكفّل له بإيصاله، وهيَ ولاية مصر مؤجّلة، وقطعة وافرة من المال معجّلة، ولولَدَيه وغلمانِه ما ملأ أعينهم.

فأما قوله عليه السلام في معاوية: «ظاهر غيُّه»، فلا ريب في ظهور ضلاله وبغيِه، وكلُّ باغٍ غاوٍ.

أمّا مهتوك سِتْره، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة، صاحب جُلَساء وسمّار، ومعاوية لم

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

يتوقّر، ولم يلزم قانون الرياسة إلّا منذ خرج على أمير المؤمنين، واحتاج إلى الناموس والسكينة، وإلّا فقد كان في أيام عثمانَ شديد التهتّك، موسوماً بكلّ قبيح، وكان في أيام عَمر يستر نفسَه قليلاً خوفاً منه، إلا أنه كان يلبس الحرير والدِّيباج، ويَشرَب في آنية الذهب والفضّة، ويركب البَغلات ذواتِ السّروج المحلّاة بها، وعليها جِلال الدِّيباج والوَشْي، وكان حينئذ شابًاً، وعنده نزَق الصِّبا، وأثَر الشبيبة، وسكْر السلطان والإمْرة، ونقل الناسُ عنه في كتب السيرة أنّه كان يشرب الخمر في أيّام عثمان في الشام، وأمّا بعد وفاةِ أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه، فقيل: إنه شرب الخمر في ستر، وقيل: إنه لم يَشربه. ولا خلاف في أنه سمعَ الغناء وطرب عليه، وأعطى ووصل عليه أيضاً.

وروي أبو الفرج الأصفهانيّ قال: قال عَمرو بن العاص لمعاوية في قَدْمةٍ قَدِمها إلى المدينة أيّام خلافته: قم بنا إلى هذا الّذي قد هَدَم شرفَه، وهتَك سِتْره عبد الله بن جعفر، نقف على بابه، فنَسمَع غناءَ جواريه، فقاما ليلاً ومعهما وَرْدانُ غلامُ عَمرو، ووقَفَا بباب عبد الله بن جعفر، فاستَمعَا الغناء وأحسّ عبدُ الله بوقوفهما، ففتحَ الباب، وعَزم على معاوية أن يدخل، فدخل، فجلس على سرير عبد الله، فدعا عبد الله له وقدّم إليه يسيراً من طعام، فأكل، فلمّا أنِس قال: يا أمير المؤمنين، ألا تأذن لجواريك أن يتمّمن أصواتهن، فإنّك قطعتّها عليهنّ؟ قال: فليقلن، فرفعن أصواتهنّ، وجعل معاوية يتحرّك قليلاً قليلاً حتّى ضرب برجلِه السرير ضرباً شديداً، فقال عمرو: قم أيّها الرجل، فإنّ الرجل الذي جئت لتَلحاه أو لتَعجب من أمره أحسنُ حالاً منك. فقال: مَهْلاً، فإن الكريم طروب!

أما قوله: «يشين الكريمَ بمجلسه، ويسفّه الحليمَ بخُلطته»: فالأمر كذلك، فإنه لم يكن في مجلسه إلّا شتْم بني هاشم وقَذْفُهم، والتعرّضُ بذكر الإسلام، والطعن عليه، وإن أظهر الانتماء إليه. وأما طلب عمرو فَضْله واتباعه أثره اتباعَ الكلب للأسد فظاهر، ولم يقل: الثعلب، غضًّا من قدر عَمرو، وتشبيهاً له بما هو أبلغُ في الإهانة والاستخفاف.

ثم قال: «ولو بالحقّ أخذتَ أدركت ما طلبت»، أي لو قعدتَ عن نصرِه ولم تَشخص إليه ممالئاً به على الحقّ لوَصَل إليك من بيت المال قدر كفايتك.

ولقائل أن يقول: إن عمْراً ما كان يطلب قدرَ الكفاية وعليّ عليه السلام ما كان يعطيه إلا حقه فقط، ولا يعطيه بلداً ولا طرَفاً من الأطراف، والّذي كان يطلبُ ملكَ مصرَ، لأنه فتحها أيام عمر ووليهَا بُرهة، وكانت حسرةً في قلبه، وحزازة في صدره، فباع آخرتَه بها، فالأولى أن يقال: معناه لو أخذتَ بالحقّ أدركت ما طلبت من الآخرة.

فإن قلت: إن عَمْراً لم يكن عليّ عليه السلام يَعتقِد أنه من أهل الآخرة، فكيف يقول له هذا الكلام؟

قلت: لا خَلَل ولا زَلَل في كلامه عليه السلام، لأنه لو أخذ بالحق لكان معتقداً كوْن عليّ عليه السلام على الحق باعتقاده صحّة نبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وصحّة التوحيد، فيصير تقديرُ الكلام: لو بايعتَني معتقداً للزوم بيعتي لك لكنت في ضمِن ذلك طالباً الثواب، فكنت تدرِكه في الآخرة.

ثم قال مهدّداً لهما، ومتوعّداً إياهما: «فإن يُمكِن الله منك ومن ابن أبي سفيان»، وأقول: لو ظفر بهما لما كان في غالب ظنّي يقتلهما، فإنّه كان حليماً كريماً، ولكن كان يَحبسهما ليَحسِم بحبسهما مادّة فسادِهما.

ثم قال: «وإن تُعجزا وتبقيا»، أي وإن لم أستطع أخذكما أو أمُتْ قبلَ ذلك وبقيتُما بعدي، فما أمامَكما شرّ لكما من عقوبة الدنيا، لأن عذاب الدنيا منقطِع، وعذاب الآخرة غيرُ منقطع.

وذكر نصرُ بن مزاحم في كتاب «صِفّين»[1] هذا الكتاب بزيادةٍ لم يذكرْها الرّضيّ. قال نصرُ: وكتب عليّ عليه السلام إلى عَمرو بن العاص:

من عبدِ الله عليٍّ أمير المؤمنين إلى الأبتر عمرو بن العاص بن وائل، شانىء محمد وآلِ محمد في الجاهليّة والإسلام، سلامٌ على من اتّبع الهدى، أما بعد، فإنّك تركتَ مروءتك لامرىء فاسق مهتوك ستره، يشين الكريمَ بمجلسه، ويسفّه الحليمَ بخلطته، فصار قلبُك لقَلبه تَبعاً، كما قيل: «وافَق شنٌّ طَبَقة» فسلَبك دينَك وأمانتكَ ودنياك وآخرتَك، وكان علمُ الله بالغاً فيك، فصرت كالذئب يتبع الضرغام إذا ما الليل دَجى، أو أتى الصبح يلتمس فاضل سؤره، وحَوايَا فريسته، ولكن لا نجاةَ من القَدَر، ولو بالحقّ أخذتَ لأدركت ما رجوتَ، وقد رَشد من كان الحقّ قائدَه، فإن يُمكِن الله منك ومِن ابن آكلة الأكباد، ألحقتكما بمن قتله الله من ظلَمة قريش على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن تُعجِزا وتَبقيا بعدُ، فالله حَسْبكما، وكفى بانتقامه انتقاماً، وبعقابه عقاباً! والسلام[2].

---

(١) وقعة صفين: لأبي الفضل نصر بن مزاحم بن سيار المنقري الكوفي، المتوفى سنة (٢١٢هـ)، «الأعلام» للزركلي (٨/ ٢٨).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢٢٥ رقم: ٤١٤، وأخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٢/ ١٣٠.

٤٠ - ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أسخطتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْت الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، والسلام.

الشرح: اخزيْتَ أمانتك: أذلَلْتها وأهنْتَها، وجرّدت الأرض: قشرتَها، والمعنى أنّه نسبه إلى الخيانة في المال، وإلى إخراب الضِّياع. وفي حكمة أبرويزَ أنه قال لخازن بيتِ المالِ: إنّي لا أحتملك على خيانة دِرهم، ولا أحمَدك على حفظِ عشرة آلاف ألف درهم، لأنك إنّما تحقِن بذلك دمَك، وتعمُر به أمانتَك، وأنك إن خنتَ قليلاً خنتَ كثيراً، فاحترس من خَصلتين: من النقصان فيما تأخذه، ومن الزيادة فيما تُعطِي، واعلم أنّي لم أجعلك على ذخائر الملك، وعمارة المملكة، والعدّة على العدوّ، إلّا وانت أمينٌ عندي من الموضع الّذي هي فيه، ومن خواتمها الّتي هي عليها، فحقّق ظني في اختياري إيّاك أحقّق ظنّك في رجائك لي، ولا تتعوّض بخير شرّاً، ولا برفعةٍ ضعة، ولا بسلامةٍ ندامة، ولا بأمانةٍ خيانة.

وفي الحديث المرفوع: «من وَلِيَ لنا عَمَلاً فليتزوّج، وليتّخذ مَسكَناً ومَركباً وخادماً، فمن اتّخذ سوى ذلك جاء يوم القيامة عادِلاً غالّاً سارقاً»[١]. وقال عمر في وصيّته لابن مسعود: إيّاك والهديّة، وليست بحرام، ولكني أخافُ عليك الدّالّة.

وأهدى رجلٌ لعمرَ فخذَ جَزور فقبِله، ثم ارتفع إليه بعد أيّام مع خصم له، فجعل في أثناء الكلام يقول: يا أميرَ المؤمنين، افصِل القضاء بيني وبينه كما يُفصَل فخِذُ الجَزور. فقَضى عمرُ عليه، ثم قام فخطب الناسَ، وحرّم الهدايا على الوُلاة والقُضاة.

وأهدى إنسانٌ إلى المغيرة سِراجاً من شَبَهٍ، وأهدَى آخر إليه بَغلاً، ثم اتّفقت لهما خصومة في أمر فترافَعا إليه، فجعل صاحبُ السراج يقول: إنّ أمري أضوأ من السرّاج، فلمّا أكثر قال المغيرة: وَيْحَك، إنّ البغل يَرْمح السراجَ فيَكسره.

ومرّ عمرُ ببناء يُبنَى بآجُرّ وجِصّ لبعض عمّاله فقال: أبت الدراهمُ إلا أن تُخرج أعناقَها. ورُوِي هذا الكلامُ عن عليّ عليه السلام، وكان عمرُ يقول: على كلّ عاملٍ أمينان: الماءُ والطّين.

ولمّا قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر: يا عدوّ الله وعدوّ كتابه، أسَرَقتَ مالَ الله

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره بما معناه: ١/ ٤٣.

تعالى؟ قال أبو هريرة: لستُ بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه، ولكنّي عدوّ مَنْ عاداهما، ولم أسرق مالَ الله، فضربَه بجريدة على رأسه، ثم ثناه بالدِّرّة، وأغرمَه عشرة آلاف درهم، ثم أحضره، فقال: يا أبا هريرة، من أين لك عشرة آلاف درهم؟ قال: خيلي تناسَلَتْ، وعطائي تلاحَقَ، وسهامي تتابعتْ، قال عمر: كلّا والله. ثم تركه أيّاماً، ثم قال له: ألا تعمل؟ قال: لا، قال: قد عمل من هو خير منك يا أبا هريرة، قال: مَن هو؟ قال: يوسفُ الصّدّيق، فقال أبو هريرة: إنّ يوسفَ عَمِل لمن لم يضرب رأسَه وظهرَه، ولا شتَمَ عِرضَه، ولا نزع ماله، لا والله لا أعمل لك أبداً[1].

وكان زياد إذا ولّى رجلاً قال له: خذ عهدَك، وسرْ إلى عَمَلِك، وآعلم أنّك محاسب رأسَ سنتك، وأنّك ستصير إلى أربع خصال، فاختر لنفسك: إنّا إنْ وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلْنا بك لضَعْفك، وسلّمْتك من معرّتنا أمانتُك، وإن وجدناك خائناً قويًّا استعنّا بقوّتك، وأحسنّا أدبَك على خيانتك، وأوجَعْنا ظهرَك، وأثقلْنا غُرْمَك، وإن جمعت علينا الجُرْمَين، جمعْنا عليك المضرّتين، وإن وجدناك أميناً قويًّا زدْنا رزقك، ورفعْنا ذِكرَك، وكثّرنا مالك، وأوطأْنا الرجال عَقِبك.

ووصف أعرابيٌّ عاملاً خائناً فقال: الناس يأكلون أماناتهم لُقَماً، وهو يَحْسوها حَسْواً.

قال أنس بن أبي إياس الدّؤليّ لحارثة بن بَدْر الغُدَانيّ - وقد وليَ سُرَّقَ - ويقال إنّها لأبي الأسود:

أحـارِ بـنَ بـدرٍ قـد وَلِـيـتَ ولايـةً ... فـكـنْ جُرَذاً فـيـهـا تَـخُـون وتـسـرِقُ
ولا تـحـقِـرنْ يـا حـار شـيـئـاً أصبتَه ... فـحـظّك من مـلـك الـعـراقـيـن سُـرَّقُ
وبـاهِ تـمـيـمـاً بـالـغِـنـى إنّ لـلـغـنـى ... لـسـانـاً بـه الـمـرءُ الـهـيـوبـةُ يَـنـطـق
فـإنّ جـمـيـعَ الـنـاس إمّـا مـكّـذب ... يـقـول بـمـا تَـهـوَى وإمّـا مـصـدّق
يـقـولـون أقـوالاً ولا يَـتْـبـعـونَـهـا ... وإن قـيـل: هـاتوا حقّقوا لـم يـحـقّـقـوا

فيقال: إنّها بلغتْ حارثةَ بن بدر فقال: أصاب الله به الرشاد، فلم يَعدُ بإشارته ما في نفسي!

٤١ - ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي، لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ

(١) أخرجه السيد شرف الدين في أجوبة مسائل جار الله بما معناه: ٣٢.

فُتِكَتْ وَشَغَرَتْ، قَلَبْتَ لابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ، وَلا الْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ.

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ، اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةَ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ - لا أَبَا لِغَيْرِكَ - حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ.

فَسُبْحَانَ اللهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ! أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ كَانَ عِنْدَنَا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ، كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً، وَتَشْرَبُ حَرَاماً، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ، وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلادَ!

فَاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هَؤُلاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ، لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ النَّارَ.

وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا.

وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي، فَضَحِّ رُوَيْداً، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ الثَّرَى، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعُ فِيهِ الرَّجْعَةَ، وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ!

الشرح: اشركتك في أمانتي: جعلتك شريكاً فيما قمتُ فيه من الأمر، وائتمنني الله عليه من سياسة الأمّة، وسمّى الخلافة أمانةً كما سمّى الله تعالى التكاليف أمانةً في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[1]. فأمّا قوله: وأداء الأمانة إليّ فأمرٌ آخر، ومراده بالأمانة الثانية ما يتعارفه الناس من قولهم: فلان ذو أمانة، أي لا يخون فيما أسند إليه.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

وكلِب الزمان: اشتدّ، وكذلك: كلِب البردُ.

وحرب العدوّ: استأسد. وخزيتْ أمانة الناس: ذلّت وهانت.

وشَغَرت الأمّة: خلت من الخير، وشَغَر البلد: خلا من الناس.

وقلبتُ له ظهر المجنّ: إذا كنت معه فصرت عليه، وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا العدوّ وكانت ظهور مجانّهم إلى وجه العدوّ، وبطون مجانّهم إلى وجه عسكرهم، فإذا فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدوّ كان وضع مجانّهم بدلاً من الوضع الذي كان من قبل، وذلك أن ظهور التّرسة لا يمكن أن تكون إلا في وجوه الأعداء، لأنها مَرمى سهامهم.

وأمكنتك الشدة، أي الحملة.

قوله: «أسرعت الكرّة»، لا يجوز أن يقال: الكرّة إلا بعد فرّة، فكأنه لما كان مقلعاً في ابتداء الحال عن التعرّض لأموالهم، كان كالفارّ عنها، فلذلك قال: أسرعت الكرّة.

والذئب الأزلّ: الخفيف الوَرِكين، وذلك أشدّ لعدْوه، وأسرع لوثبته، وإن اتفق أن تكون شاةٌ من المِعزَى كثيرة ودامية أيضاً، كان الذئب على اختطافها أقدر.

ونقاش الحساب: مناقشته.

قوله: «فضحّ رُويداً»، كلمة تقال لمن يؤمر بالتُّؤدة والأناة والسكون، وأصلها الرّجل يطعم إبله ضحًى، ويسيّرها مسرعاً ليسير، فلا يشبعها، فيقال له: ضَحِّ رويداً.

وقد اختلف الناس في المكتوب إليه هذا الكتاب، فقال الأكثرون: إنه عبد الله بن العباس رحمه الله، وروَوْا في ذلك روايات، واستدلُّوا عليه بألفاظ من ألفاظ الكتاب كقوله: «أشركتك في أمانتي، وجعلتك بطانتي وشعاري، وأنه لم يكن في أهلي رجل أوثق منك»، وقوله: «على ابن عمّك قد كلب»، ثم قال ثانياً: «قلبتَ لابن عمّك ظهر المِجنّ»[1] ثم قال ثالثاً: «ولابن عمك آسيت»، وقوله: «لا أبا لغيرك»، وهذه كلمة لا تقال إلا لمثله، فأما غيره من أفناء الناس، فإن عليّاً عليه السلام كان يقول: لا أبا لك.

وقوله: «أيها المعدود كان عندنا من أولي الألباب». وقوله: «لو أنّ الحسن والحسين عليهما السلام»، وهذا يدل على أن المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجري مجراهما عنده.

---

(١) المجن: الترس. اللسان، مادة (مجن).

وقد رَوَى أرباب هذا القول أن عبد الله بن عباس كتب إلى عليّ عليه السلام جواباً من هذا الكتاب، قالوا: وكان جوابه:

أما بعد، فقد أتاني كتابك تعظم عليّ ما أصبت من بيت مال البصرة، ولعمري إنّ حقّي في بيت المال أكثر مما أخذتُ، والسلام.

قالوا: فكتب إليه عليّ عليه السلام: أمّا بعد، فإنّ من العجب أن تزيّن لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين، فقد أفلحت إن كان تمنّيك الباطل، وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من المأثم، ويُحلّ لك المحرم، إنك لأنت المهتدي السعيد إذاً! وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً، وضربت بها عَطناً، تشتري بها مولّدات مكة والمدينة والطائف، تختارهنّ على عينك، وتعطي فيهنّ مال غيرك، فارجع هَدَاك الله إلى رُشدك، وتبْ إلى الله ربك، واخرج إلى المسلمين من أموالهم، فعمّا قليل تفارق من ألفت، وتترك ما جمعت، وتغيب في صَدَع من الأرض غير موسّد ولا ممهّد، قد فارقت الأحباب، وسكنت التراب، وواجهت الحساب، غنياً عمّا خلفت، فقيراً إلى ما قدّمت، والسلام.

قالوا: فكتب إليه ابن عباس: أمّا بعد، فإنك قد أكثرت عليّ، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلّها، وذهبها وعقيانها ولُجيْنها، أحبّ إليّ من أن ألقاه بدم امرىء مسلم. والسلام.

وقال آخرونَ وهم الأقلون: هذا لم يكن، ولا فارق عبدُ الله بن عباس علياً عليه السلام، ولا باينه ولا خالفه، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل عليّ عليه السلام.

قالوا: ويدلّ على ذلك ما رواه أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ من كتابه الذي كتبه إلى معاوية من البصرة لما قتل عليّ عليه السلام، وقد ذكرناه من قبل، قالوا: وكيف يكون ذلك ولم يخدعه معاوية، ويجرّه إلى جهته، فقد علمتم كيف اختدع كثيراً من عمال أمير المؤمنين عليه السلام واستمالهم إليه بالأموال، فمالوا وتركوا أمير المؤمنين عليه السلام، فما بالُه وقد علم النّبوة التي حدثَتْ بينهما، لم يستمِل ابنَ عباس، ولا اجتذبه إلى نفسه، وكلّ من قرأ السيّر وعرف التواريخ يعرف مشاقّة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة عليّ عليه السلام، وما كان يلقاه به من قوارعِ الكلام، وشديد الخصام، وما كان يثني به على أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر خصائصه وفضائله، ويصدع به من مناقبه ومآثره، فلو كان بينهما غبار أو كَدر لما كان الأمر كذلك، بل كانت الحال تكون بالضدّ لما اشتهر من أمرهما. وهذا عندي هو الأمثل والأصوب.

وقد قال الراونديّ: المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس، لا عبد الله، وليس

ذلك بصحيح، فإنّ عبيد الله كان عامل عليّ عليه السلام على اليمن، وقد ذكرت قصته مع بُسر بن أرطاة فيما تقدّم، ولم ينقل عنه أنه أخذ مالاً، ولا فارق طاعة.

وقد أشكل عليّ أمرُ هذا الكتاب، فإن أنا كذّبت النقل وقلتُ: هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام، خالفتُ الرواة، فإنّهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد ذكر في أكثر كتب السيَر، وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدّني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته، وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى مَنْ أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلامُ يشعر بأنّ الرجل المخاطَب من أهله وبني عمه، فأنا في هذا الموضع من المتوقفّين!

٤٢ - ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي وكان عامله على البحرين، فعزله واستعمل النعمان بن عجلان الزُّرَقيّ مكانه

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلانَ الزُّرَقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلا ذَمٍّ لَكَ، وَلا تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلايَةَ، وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلا مَلُومٍ، ولامُتَّهمٍ وَلا مَأْثُومٍ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشرح: امّا عمر بن أبي سَلَمة فهو رَبيبُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوه أبو سَلَمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة، يكنّى أبا حفص، وُلد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة، وقيل: إنه كان يومَ قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله ابن تسع سنين، وتوفّيَ في المدينة في خلافة عبد الملك سنة ثلاثٍ وثمانين، وقد حَفظ عن رسول الله صلى الله عليه وآله الحديث، ورَوَى عنه سعيد بن المسيَّب وغيره، ذكر ذلك كلّه ابن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب».

وأما النّعمان بن عجلان الزُّرَقيّ فمن الأنصار، ثم من بني زُرَيق، وهو الّذي خَلَفَ على خولة زوجة حمزةَ بن عبد المطلب رحمه الله بعد قتله، قال ابن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»: كان النّعمان هذا لسان الأنصار وشاعرهم، ويقال: إنه كان رجلاً أحمر قصيراً تزدريه العين، إلا أنه كان سيّداً، وهو القائل يومَ السَّقيفة:

وقلتم حرامٌ نصبُ سعدٍ ونصبكمْ عتيقَ بن عثمان حلالٌ أبا بكرِ
وأهلُ أبو بكر لها خيرُ قائم وإنّ علياً كان أخلَقَ بالأمرِ

وإنّ هَـوانـا فـي عـلـيّ وإنـه لأهلٌ لها من حيث يدري ولا يدري

قوله: «ولا تثريب عليك»، فالتثريب الاستقصاء في اللّوم، ويقال: ثرّبت عليه، وعرّبت عليه، إذا قبّحتَ عليه فعله.

والظّنين: المتّهم، والظِّنّة التهمة، والجمع الظِّنن، يقول: قد اظّنّ زيد عمراً، والألف ألف وصل، والظاء مشدّدة، والنون مشدّدة أيضاً، وجاء بالطاء المهملة أيضاً، أي اتّهمه. وفي حديث ابن سيرين: لم يكن عليّ عليه السلام يظّنّ في قتل عثمان، الحرْفان مشدَّدان وهو يَفْتَعِل من «يَظْنُنُ» وأدغِم، قال الشاعر:

وما كلُّ مَنْ يظَّنُّني أنا مُعْتِبٌ وما كلّ ما يُروَى عليَّ أقولُ

٤٣ - ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ وكان عامله على أردشِير خرّة

الأصل: بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، إِنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ الْمُسْلِمِينَ - الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ - فِيمَنِ اعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذٰلِكَ حَقّاً. لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلَيَّ هَوَاناً، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزاناً، فَلا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً.

أَلا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هٰذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ، يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ.

الشرح: قد تقدّم ذكر نسبَ مصقَلة بن هُبيرة. وأردشير خرّة: كُورةٌ من كُوَر فارس.

واعتامَك: اختارَك من بين الناس، أصلُه من العِيمة بالكسر، وهي خيارُ المال، اعتام المصَدِّق إذا أخذ العِيمة، وقد رُوِي: «فيمن اعتماك» بالقلب، والصحيح المشهور الأوّل، وروي: «ولتجدنّ بك عندي هواناً» بالباء، ومعناها اللام، ولتجدنّ بسبب فعلك هوانك عندي، والباء ترد للسببيّة، كقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾(١).

والمَحْق الإهلاك.

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٠.

والمعنى أنّه نهى مصقلة عن أن يقسم الفيءَ على أعراب قومه الّذين اتّخذوه سيّداً ورئيساً، ويَحْرِمِ المسلمين الذين حازُوه بأنفسهم وسلاحهم، وهذا هو الأمر الّذي كان يُنكِره على عثمان، وهو إيثارُ أهله وأقاربه بمالِ الفَيْء، وقد سبق شرحُ مثل ذلك مستوفًى.

٤٤ - ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد ابن أبيه، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه

الأصل: وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ، فَاحْذَرْهُ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ.

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، لا يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدَفَّعِ، وَالنَّوْطِ الْمُذَبْذَبِ.

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ الْكِتَابَ قَالَ: شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسه حَتَّى ادَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ.

قَالَ الرَّضِيُّ رَحمهُ الله تعالى: قَوْله عليه السلام: «الوَاغلُ»، هو الذي يَهجُمُ على الشَّرْبِ ليشربَ معهمْ وليس منهم، فَلا يزَالُ مُدَفَّعاً مُحاجَزاً. والنوْطُ المُذبذَبُ: هو ما يُنَاطُ برَحْلِ الرَّاكِبِ من قَعْبٍ أوْ قدَح، أوْ ما أشبهَ ذلك، فهوَ أبداً يتقلقلُ إذا حثَّ ظهرَهُ، واستعجلَ سيرَهُ.

الشرح: يستزلّ لبّك، يطلب زلله وخطأه، أي يحاول أن تزلّ. واللبّ: العقل. ويستفلّ غَرْبك: يحاول أن يفلّ حدّك، أي عزمك، وهذا من باب المجاز. ثم أمَرَه أن يحذره، وقال: إنه - يعني معاوية - كالشّيطان يأتي المرءَ من كذا ومن كذا، وهو مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾(١)، قالوا في تفسيره: من بين أيديهم: يُطمعهم في العفو ويغريهم بالعصيان، ومِن خلفهم: يذكرهم مخلّفيهم، ويُحسّن لهم جمع المال وتركه لهم، وعن أيمانهم: يحبّب إليهم الرياسة والثناء، وعن شمائلهم: يحبّب إليهم اللّهوَ واللذّات.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

وقال شقيق البلخيّ: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يديّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، أمّا من بين يديّ فيقول: لا تخف فإنَّ الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾(١)، وأما من خلفي فيخوّفني الضيعة على مخلّفي، فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(٢)، وأما من قِبَل يميني فيأتيني من جهة الثناء، فأقرأ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣)، وأمّا من قِبَل شمالي فيأتيني من قِبَل الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾(٤).

فإن قلت: لِمَ لَمْ يقل: «ومن فوقهم ومن تحتهم»؟

قلت: لأن جهة «فوق» جهةُ نزول الرحمة، ومستقرُّ الملائكة، ومكان العرش، والأنوار الشريفة، ولا سبيل له إليها، وأما من جهة «تحت» فلأن الإتيانَ منها يُوحِش، وينفِّر عنه، لأنها الجهة المعروفة بالشياطين، فعدل عنها إلى ما هو أدعى إلى قبول وَساوِسه وأضاليله.

وقد فسّر قوم المعنى الأوّل فقالوا: «من بين أيديهم»، من جهة الدنيا، و«من خلفهم». من جهة الآخرة، و«عن أيمانهم»، الحسنات، و«عن شمائلهم»، أي يحثّهم على طلب الدنيا، ويؤيسهم من الآخرة، ويثبّطهم عن الحسنات، ويغريهم بالسيئات.

قوله: «ليقتحم غفلته» أي ليلجَ ويهجم عليه وهو غافل، جعل اقتحامه إياه اقتحاماً للغِرّة نفسها لما كانت غالبةً عليه.

ويستلب غرّته، ليس المعنى باستلابه الغِرّة أن يرفعها ويأخذها، لأنه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المغترّ فاقداً للغفلة والغِرّة، وكان لبيباً فطناً، فلا يبقى له سبيل عليه، وإنما المعنى بقوله: «ويستلب غِرّته» ما يعنيه الناس بقولهم: أخذ فلانٌ غفلتي وفعل كذا.

ومعنى أخذ هاهنا أخذ ما يستدلّ به على غفلتي.

وفلتة: أمرٌ وقع من غير تثبت ولا رويّة. ونَزْغَةَ: كلمة فاسدة، من نزغات الشيطان، أي من حركاته القبيحة التي يستفسد بها مكلفين، ولا يثبتُ بها نسب، ولا يستحقّ بها إرث، لأنّ المقرّ بالزنى لا يلحقه النسب، ولا يرثه المولود، لقوله ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»(٥)

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٢.
(٢) سورة هود، الآية: ٦.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٥٤.
(٥) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: تفسير المشبهات (٢٠٥٣)، ومسلم، كتاب: الرضاع، باب: الولد للفراش (١٤٥٨)، والترمذي، كتاب: الرضاع، ما جاء أن الولد للفراش (١١٥٧)، والنسائي، كتاب: الطلاق، باب: إلحاق الولد بالفراش (٣٤٨٢).

اخبار زياد ابن أبيه

فأما زياد، هو زياد بن عبيد، ومن الناس من يقول: عبيد بن فلان، وينسبه إلى ثَقيف، والأكثرون يقولون: إن عبيداً كان عبداً، وإنه بقيَ إلى أيام زياد، فابتاعه وأعتقه، وسنذكر ما ورد في ذلك ونسبة زياد لغير أبيه لخمول أبيه، والدّعوة التي استلحق بها، فقيل تارةً: زياد ابن سميّة، وهي أمه، وكانت أمَةً للحارث بن كلَدَة بن عمرو بن علاج الثقفيّ، طبيب العرب، وكانت تحت عبيد.

وقيل تارة: زياد ابن أبيه، وقيل تارة: زياد ابن أمه، ولما استلحق قال له أكثر الناس: زياد بن أبي سُفْيان، لأن الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرّهبة والرّغبة، وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتباع المَلوك إلا كالقَطْرة في البحر المحيط، فأما ما كان يدعى به قبل الاستلحاق فزياد بن عبيد، ولا يشك في ذلك أحد.

وروى أبو عمرَ بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب» عن هاشم بن محمد بن السائب الكلبيّ عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أنّ عمر بعث زياداً في إصلاح فساد واقع باليمن، فلمّا رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مِثْلها - وأبو سفيان حاضر وعليٌّ عليه السلام وعمرُو بن العاص - فقال عمرو بن العاص: لله أبو هذا الغلام! لو كان قرشيًّا لساق العربَ بعصاه، فقال أبو سفيان: إنه لقُرشيّ، وإني لأعرِف الّذي وضعه في رحِم أمّه، فقال عليّ عليه السلام: ومن هو؟ قال: أنا، فقال: مهلاً يا أبا سفيان، فقال أبو سُفْيان:

أمَا واللهِ لولا خوفُ شخصٍ ... يراني يا عليُّ من الأعادِي

لأظهرَ أمرَه صَخْرُ بن حرْبٍ ... ولم يخفِ المقالةَ في زيادِ

وقد طالت مُجامَلتي ثقيفاً ... وتركي فيهمُ ثمرَ الفؤادِ

عنى بقوله: «لولا خوف شخص»: عمر بن الخطاب.

ورَوَى أحمد بن يحيى البَلاذُريّ قال: تكلّم زياد - وهو غلام حَدَث - بحضرة عمر كلاماً أعجَب الحاضرين، فقال عمرو بن العاص: لله أبوه! لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه، فقال أبو سُفْيان: أما والله إنّه لقُرشيّ، ولو عرفتَه لعرفتَ أنّه خير من أهلك، فقال: ومَن أبوه؟ قال: أنا والله وضعتُه في رَحِم أمّه، فقال: فهلّا تستلحقه؟ قال: أخاف هذا العيْرَ الجالسَ أن يَخرِق عليّ إهابي.

ورَوَى محمد بن عمر الواقديّ، قال قال: أبو سُفْيان وهو جالس عند عُمر وعليٌّ هناك، وقد تكلّم زياد فأحسن: أبت المناقبُ إلّا أن تَظهرَ في شمائل زِياد، فقال عليّ عليه السلام: من أيّ بني عبد مناف هو؟ قال: ابني، قال: كيف؟ قال: أتيت أمّه في الجاهلية سِفاحاً! فقال عليّ عليه السلام: مه يا أبا سُفْيان! فإنّ عمرَ إلى المساءة سريع، قال: فعرف زياد ما دار بينهما، فكانت في نفسه.

ورَوَى عليّ بن محمد المدَائنيّ قال: لمّا كان زمن عليّ عليه السلام ولّى زياداً فارسَ أو بعضَ أعمال فارسَ، فضبطها ضَبطاً صالحاً، وجَبَى خَراجَها وحَماها، وعرف ذلك معاوية، فكتب إليه: أمّا بعد، فإنّه غرّتْك قِلاعٌ تأوي إليها ليلاً، كما تأوي الطيرُ إلى وكرها، وأيم الله لولا أنتظاري بك ما الله أعلم به لكان لك منّي ما قاله العبد الصالح: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[١]. وكتَب في أسفل الكتاب شِعراً مِن جملته:

تَـنـسَـى أبـاكَ وقـد شَـالـتْ نَـعـامـتُـه ... إذ يـخـطـب الـنـاس والـوالي لـهـمْ عـمـرُ

فلمّا ورد الكتاب على زيادٍ قام فخطب الناس، وقال: العَجَب من ابن آكلةِ الأكباد، ورأسِ النفاق! يهدّدني وبيني وبينه ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وزوج سيّدة نساء العالمين، وأبو السِّبْطين، وصاحب الولاية والمَنزِلة والإخاء في مائة ألفٍ من المهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسان! أما والله لو تخطّى هؤلاء أجمعين إليّ لوَجدني أحمرَ مِخَشّاً[٢] ضَرّاباً بالسيف، ثم كتب إلى عليّ عليه السلام، وبعث بكتابِ معاويةَ في كتابه.

فكَتب إليه عليٌّ عليه السلام، وبعث بكتابه: أمّا بعد، فإني قد ولّيتك ما ولّيتك وأنا أراك لذلك أهلاً، وإنّه قد كانت من أبي سُفْيان فَلْتة في أيّام عمر من أمانيّ التّيه وكَذِب النفس، لم تَستوجِب بها ميراثاً، ولم تستحقّ بها نَسَباً، وإنّ معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرءَ من بين يديه ومِن خلفه وعَن يمينِه وعن شِماله، فاحذره، ثم احذره، ثم احذره، والسلام[٣].

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب قال: كان عليٌّ عليه السلام قد ولّى زياداً قِطْعةً من أعمال فارس، واصطنعه لنفسه، فلمّا قُتِل عليّ عليه السلام بقيَ زياد في عَمَله، وخاف معاويةُ جانبه، وعلم صعوبة ناحيته، وأشفق من مُمالأته الحسنَ بنَ عليّ عليه السلام. فكتب إليه: من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبي سُفْيان إلى زياد بن عبيد، أمّا بعد، فإنّك عبد قد كفرتَ النّعمة، واستدعيتَ النّقمة، ولقد كان الشكرُ أَوْلى بك من الكفر، وإنّ الشجرة لَتضرِب بعِرْقها، وتتفرّع من أصلها، إنّك - لا أمَّ لك بل لا أب لك - قد هلكتَ وأهلَكْت، وظننتَ أنّك تَخرجَ من قبضتي، ولا ينالك سلطاني، هيهات! ما كلُّ ذي لُبٍّ يصيب رأيَه، ولا كلُّ ذي رأيٍ يَنصَح في مَشورته. أمسِ عبدٌ واليومَ أمير! خطّة ما ارتقاها مِثلُك يا بن سميّة، وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناسَ بالطاعة والبَيْعة، وأسرِع الإجابة، فإنّك إن تَفعل فدَمَك حقَنْت، ونفسَك تداركْت، وإلّا اختطفتُك بأضعف ريش، ونلْتك بأهْوَن سَعْي، وأقسِم قسماً مبروراً ألّا أُوتَى بك إلّا في زمّارة، تمشي حافياً من أرض فارسَ إلى الشام حتى أقيمَكَ في السوق، وأبيعَك عبداً، وأردّك إلى حيث كنت فيه وخرجتَ منه. والسلام.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٣٧. (٢) التمخش: كثرة الحركة.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٥١٩.

فلمّا ورد الكتاب على زياد غضب غضباً شديداً، وجمعَ الناسَ وصعِد المنبرَ. فحمِد الله ثم قال: ابن آكلة الأكباد وقاتلة أسد الله، ومظهر الخلاف، ومُسِرّ النفاق، ورئيس الأحزاب، ومن أنفق مالَه في إطفاء نور الله، كتب إليّ يُرعِد ويبْرِق عن سحابةٍ جَفْلٍ لا مَاءَ فيها، وعمّا قليل تصيّرها الرياح قَزَعاً، والّذي يدلّني على ضعفه تهدّده قبل القدرة، أفمن إشفاق عليّ تُنذِر وتُعذِر! كلّا، ولكن ذَهَب إلى غير مَذهَب، وقَعقَع لِمَن رُبّيَ بين صَواعِق تِهامة، كيف أرهبُه وبيني وبينه آبن بنتِ رسول الله ﷺ وآبن آبن عمّه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار، والله لو أذن لي فيه، أو نَدبَني إليه، لأرِيتُه الكواكبَ نهاراً، ولأسعطْته ماءَ الخردل، دونه الكلام اليوم، والجمع غداً، والمشورة بعد ذلك إن شاء الله. ثم نزل.

وكتب إلى معاوية: أمّا بعد، فقد وصل إليّ كتابك يا معاوية، وفهمتُ ما فيه، فوجدتُك كالغريق يغطّيه فيتشبّث بالطُّحُلب، ويتعلّق بأرجُل الضّفادع، طمعاً في الحياة. إنّما يكفر النعم، ويستدعي النقم من حادّ الله ورسولَه، وسَعَى في الأرض فساداً. فأمّا سَبُّك لي فلولا حلمٌ ينهاني عنك، وخوفي أنْ أُدعَى سفيهاً، لأثَرْت لك مَخازيَ لا يغسلها الماء. وأمّا تعييرك لي بسُمَيّة، فإن كنتُ آبنَ سُميْة فأنت ابن جماعة، وأما زعمك أنّك تختطفني بأضعف ريش، وتتناوَلُني بأهونَ سَعْي، فهل رأيت بازياً يُفزعه صغيرُ القَنابر، أم هل سمعت بذئبٍ أكَلَه خروف! فأمض الآن لِطيَّتِك، وآجتهد جَهدَك، فلستُ أنزِل إلّا بحيث تَكره، ولا أجتهدُ إلّا فيما يسوءك، وستعلَم أيّنا الخاضع لصاحبه، الطالع إليه. والسلام.

فلمّا ورد كتابُ زِياد على معاوية غَمّه وأحزنه، وبعث إلى المغيرة بن شعبة، فخلا به وقال: يا مغيرة، إنّي أريد مشاورتَك في أمرٍ أهمّني، فآنصحْني فيه، وأشِرْ عليَّ برأي المجتهد، وكن لي أكن لك، فقد خصصتُك بسِرّي، وآثرتك على وَلَدي. قال المغيرة: فما ذاك؟ والله لتجدنّي في طاعتك أمضَى من الماء إلى الحدور، ومن ذي الرّونق في كفّ البطل الشجاع. قال: يا مغيرة، إنّ زياداً قد أقام بفارسَ يَكُشّ لنا كَشِيشَ الأفاعي، وهو رجلٌ ثاقبُ الرأي، ماضي العزيمة، جوّال الفكر، مصيبٌ إذا رمى، وقد خفت منه الآن ما كنتُ آمَنه إذ كان صاحبه حيّاً، وأخشى ممالأته حَسناً، فكيف السبيلُ إليه، وما الحيلة في إصلاح رأيه؟ قال المغيرة: أنا له إن لم أمُت، إن زياداً رجل يحبّ الشرف والذّكر وصعود المنابر، فلو لاطفته المسألة، وألنتَ له الكتابَ، لكان لك أميَل، وبك أوثَق، فآكتب إليه وأنا الرسول.

فكتب معاوية إليه: من أمير المؤمنين معاويةَ بن أبي سُفيان إلى زياد بن أبي سُفيان، أمّا بعد، فإن المرء ربّما طَرَحه الهوى في مَطارح العَطَب، وإنك للمَرءُ المضرُوب به المثل، قاطع الرحم، وواصِلُ العدوّ. وحَمَلك سوءُ ظنّك بي، وبغضُك لي، على أن عققتَ قرابتي، وقطعتَ رَحِمي، وبتتّ نسبي وحُرْمتي، حتى كأنّك لست أخي، وليس صخر بن حرب أباك وأبي، شتّان

ما بيني وبينك، أطلب بدم ابن أبي العاص وأنت تقاتِلني! ولكنْ أدركَك عِرقُ الرّخاوة من قبَل النساء، فكنتَ:

كتاركةٍ بَيْضَها بالعَراءِ ومُلحفةٍ بَيْضَ أخرى جناحا

وقد رأيتُ أن أعطفَ عليك، ولا أؤاخذُك بسوء سعيك، وأن أصِلَ رحمك، وأبتغي الثوابَ في أمرك، فاعلمْ أبا المغيرة، أنّك لو خضتَ البحرَ في طاعة القوم فتضربَ بالسيف حتّى انقطع متنه لما ازددت منهمْ إلا بعداً، فإن بني عبد شمس أبغضُ إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصّريع وقد أوثِق للذبح، فارجع - رَحمك الله - إلى أصلك، واتّصل بقومك، ولا تكن كالموصول بريش غيرِه، فقد أصبحتَ ضالَّ النسب. ولَعَمرِي ما فَعَل بك ذلك إلّا اللّجاج، فدعه عنك، فقد أصبحتَ على بيّنة من أمرِك، ووضوحٍ من حجّتك، فإن أحببت جانبي، ووثقتَ بي، فإمْرَة بإمرْة، وإن كرهتَ جانبي، ولم تثق بقولي، ففعل جميلٌ لا عليَّ ولا لي. والسلام.

فرحل المغيرةُ بالكتاب حتّى قدم فارسَ، فلمّا رآه زياد قرّبه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب، فجعل يتأمّله ويضحك، فلمّا فرغ من قراءته وضعه تحتَ قدمِه ثم قال: حَسْبك يا مغيرة! فإنّي أطّلع على ما في ضميرك، وقد قدمت من سفرة بعيدة، فقم وأرِحْ رِكابك. قال: أجل، فدع عنك اللّجاج يرحمك الله، وارجع إلى قومك، وصل أخاك، وانظر لنفسك، ولا تقطع رحَمك! قال زياد: إنّي رجلٌ صاحب أناة، ولي في أمري رَويّة، فلا تَعجل عليّ، ولا تبدأني بشيء حتى أبدأك. ثمّ جمع الناسَ بعد يومين أو ثلاثة، فصعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها النّاس: ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرتُ في أمور الناس منذ قتل عثمانُ، وفكّرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي، في كلّ عيدٍ يُذبَحون، ولقد أفنى هذان اليومان - يوم الجمل وصِفّين - ما يُنِيف على مائةِ ألفٍ، كلّهم يزعم أنّه طالبُ حقّ، وتابعُ إمام، وعلى بصيرة من أمرِه، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنّة، كلّا ليس كذلك، ولكنْ أشكل الأمر، والتبس على القومِ، وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ، فكيف لامرىء بسلامةِ دينه! وقد نظرتُ في أمر الناس فوجدتُ أحدَ العاقبتَيْن العافية، وسأعمل في أموركم ما تَحمَدون عاقبتَه وَمَغبّته، فقد حمدتُ طاعتَكم إن شاء الله ثم نزل.

وكتب جوابَ الكتاب: أمّا بعد، فقد وصل كتابُك يا معاوية مع المغيرة بن شُعْبة وفهمتُ ما فيه، فالحمد لله الّذي عرّفك الحقّ، وردّك إلى الصّلة، ولست ممّن يجهل معروفاً، ولا يغفل حَسَباً، ولو أردتُ أن أجيبَك بما أوجبتْه الحجّة، واحتَمَله الجواب، لطال الكتاب، وكَثُر الخطاب، ولكنّك إن كنتَ كتبتَ كتابَك هذا عن عَقْد صحيح، ونيّة حسنة، وأردتَ بذلكِ برّاً، فستزرع في قلبي مودّةً وقبولاً، وإن كنتَ إنّما أردتَ مكيدةً ومكراً وفساد نيّة، فإنّ النفس تأبى ما فيه العَطب، ولقد قمتُ يومَ قرأتُ كتابَك مقاماً يعبأ به الخطيب المِدْرَه، فتركت من حضر، لا

أهل وِرْد ولا صدر، كالمتحيّرين بمهمَهٍ ضَلّ بهم الدليل، وأنا على أمثال ذلك قدير، وكتب في أسفل الكتاب:

إذا مَعشِري لم يُنصِفوني وجدتُني ... أدافع عنّي الضَّيمَ ما دمتُ باقيا
وكم معشرٍ أعيَتْ قَناتي عليهمُ ... فلامُوا وألفَوْني لَدَى العزم ماضيا
وهمٌّ به ضاقتْ صدورٌ فرجْتُه ... وكنتُ بطبّي للرجال مُداوِيا
أدافِع بالحلم الجهولَ مكيدةً ... وأخفي له تحت العِضاهِ الدّواهيا
فإن تدنُ منّي أدنُ منك وإن تبنْ ... تجدني إذا لم تَدْنُ مِنّيَ نائيا

فأعطاه معاويةُ جميعَ ما سأله، وكتب إليه بخط يده ما وثق به، فدخل إليه الشام، فقرّبه وأدناه، وأقرّه علىَ ولايته، ثم استعمله على العراق.

وَروى عليّ بن محمد المدائنيّ، قال: لمّا أراد معاوية استلحاق زيادٍ وقد قدم عليه الشام جمعَ الناس وصَعِد المنبر، وأصعد زياداً معه فأجلسه بين يديه على المرْقاة الّتي تحت مِرْقاته، وحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناس، إنّي قد عرفتُ نَسبنا أهل البيت في زيادٍ، فمن كان عنده شهادة فليقُم بها. فقام ناس فشهدوا أنّه ابنُ أبي سُفْيان، وأنّهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته، فقام أبو مريمَ السَّلُوليّ - وكان خمّاراً في الجاهلية - فقال: أشهدُ يا أميرَ المؤمنين أنّ أبا سفيان قَدِم علينا بالطائف، فأتاني فاشتريت له لحماً وخَمراً وطعاماً، فلما أكل قال: يا أبا مريم، أَصِب لي بغيّاً، فخرجتُ فأتيتُ بسُمَيّة، فقلت لها: إنّ أبا سُفْيان ممّن قد عرفت شرفَه وجُودَه، وقد أمرني أن أصيبَ له بغيّاً، فهل لكِ؟ فقالت: نعم، يجيء الآن عبيد بغنمه - وكان راعياً - فإذا تعشّى، ووَضع رأسه أتيتُه. فرجعتُ إلى أبي سفيان فأعلمتُه، فلم نلبثْ أن جاءت تجرّ ذيلَها، فدخلتْ معه، فلم تزل عندَه حتّى أصبحتْ، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيتَ صاحبتَك؟ قال: خيرَ صاحبة، لولا ذَفَرٌ في إبطيها.

فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم، لا تَشتم أمهات الرجال، فتشتَم أمّك.

فلما انقضى كلامُ معاوية ومناشدَته قام زياد، وأنصت الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيّها الناس، إنّ معاوية والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولستُ أدري حقّ هذا من باطِله! وهو والشهودُ أعلم بما قالوا، وإنما عبيد أبٌ مبرور، ووالٍ مشكور. ثم نزل.

وروى شيخُنا أبو عثمان أنّ زياداً مرّ وهو والي البصرة بأبي العُرْيان العَدَويّ - وكان شيخاً مكفوفاً، ذا لَسَنٍ وعارضة شديدة - فقال أبو العُرْيان: ما هذه الجَلَبة؟ قالوا: زياد بن أبي

سُفْيان، قال: والله ما ترك أبو سُفْيان إلّا يزيد ومعاوية وعُتبة وعَنْبسة وحنظلة ومحمّداً، فمن أين جاء زياد؟ فبلغ الكلامُ زياداً، وقال له قائل: لو سددتَ عنك فَمَ هذا الكلب! فأرسل إليه بمائتي دينار، فقال له رسول زياد: إنّ ابنَ عمّك زياداً الأمير قد أرسَل إليك مائتي دينار لتُنفِقها، فقال: وصلته رَحِم! إي والله ابن عمّي حقّاً. ثم مرّ به زياد من الغد في موكِبه، فوقف عليه فسلّم، وبكى أبو العُرْيان، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوتَ أبي سُفْيان في صوت زِياد. فبلغ ذلك معاوية، فكتب إلى أبي العُرْيان:

ما ألبثَتْك الدنانيرُ التي بُعِثتْ ... أنْ لوّنتْكَ أبا العُريانِ ألوانا
أمسى إليك زياد في أرومتِه ... نُكْراً فأصبح ما أنكرت عِرْفانا
لله درُّ زيادٍ لو تعجّلها ... كانت له دون ما يخشاه قربانا!

فلمّا قرىء كتابُ معاوية على أبي العُرْيان قال: اكتب جوابه يا غلام:

أحدِثْ لنا صِلَةً تحيا النفوسُ بها ... قد كدتَ يا بن أبي سُفْيان تَنْسَانا
أمّا زِيادٌ فقد صَحّت مَناسِبُه ... عندي فلا أبتغي في الحقّ بُهْتانا
مَن يُسْدِ خيراً يُصْبه حين يَفْعلُهُ ... أو يُسْدِ شرًّا يُصِبْه حيثما كانا

وروى أبو عثمان أيضاً، قال: كتب زيادٌ إلى معاوية ليستأذنه في الحجّ، فكتب إليه: إنّي قد أذنتُ لك واستعملتك على الموسم، وأجزتُك بألفِ ألفِ درهم. فبينا هو يتجهّز إذ بلغ ذلك أبا بَكْرة أخاه - وكان مُصارِماً له منذ لَجْلَج في الشهادة على المغيرة بن شعبة أيّام عمر لا يكلّمه قد لزمتْه أيمانٌ عظيمة ألّا يكلّمه أبداً - فأقبلَ أبو بكْرة يدخُل القصر يريد زياداً، فبصر به الحاجب، فأسرع إلى زياد قائلاً: أيّها الأمير، هذا أخوك أبو بَكرة قد دخل القصر، قال: ويْحك، أنت رأيته! قال: ها هو ذا قد طلع، وفي حجْر زيادٍ بُنيّ يلاعبه، وجاء أبو بَكْرة حتّى وقف عليه، فقال للغلام: كيف أنت يا غلام؟ إنّ أباك ركب في الإسلام عظيماً! زنّى أمّه، وانتفى من أبيه، ولا والله ما علمت سميّة رأتْ أبا سُفْيان قطّ، ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك، يوافي الموسم غداً، ويوافي أمَّ حبيبةَ بنت أبي سُفْيان، وهي من أمّهات المؤمنين، فإن جاء يستأذن عليها فأذنت له، فأعظِمْ بها فِرْيَة على رسول الله ﷺ ومصيبة! وإن هي منعته فأعظِمْ بها على أبيك فضيحة ثم انصرف، فقال: جزاك الله يا أخي عن النصيحة خيراً، ساخطاً كنتَ أو راضياً. ثم كتب إلى معاوية: إنّي قد أعتللت عن الموسم فليوجّه إليه أمير المؤمنين من أحَبّ، فوجّه عتبة بن أبي سُفْيان.

فأمّا أبو عمرَ بنُ عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب» فإنّه قال: لمّا ادّعى معاوية زياداً في سنة

أربع وأربعين وألحقه به أخاً زوج أبنته من أبنه محمّد بن زياد ليؤكّد بذلك صحّة الاستلحاق، وكان أبو بَكْرة أخا زيادٍ لأمه، أمّهما جميعاً سُمَيّة، فحلف ألّا يكلّم زياداً أبداً وقال: هذا زَنّى أمّه، وأنتفَى من أبيه، ولا والله ما علمت سُميّة رأيت أبا سُفْيان قبل، وَيْله ما يصنع بأمّ حبيبة! أيريد أن يراها؟ فإنْ حجبْته فضحته، وإن رآها فيا لها مصيبة! يهتك من رسول الله ﷺ حرمةً عظيمة!

وحجّ زياد مع معاوية، ودخل المدينة فأراد الدخول على أمّ حبيبة ثم ذكر قولَ أبي بَكْرة، فانصرف عن ذلك. وقيل: إنّ أمّ حبيبة حجبته ولم تأذن له في الدّخول عليها، وقيل: إنّه حجّ ولم يَرِد المدينة من أجل قول أبي بَكْرة، وإنّه قال: جزى الله أبا بكرة خَيْراً فما يَدَع النصيحة في حال.

ورَوَى أبو عمَرَ بن عبد البرّ في هذا الكتاب قال: دخل بنو أميّة وفيهم عبدُ الرحمن بنُ الحكم على معاوية أيّام ما استلحق زياداً، فقال له عبد الرحمن: يا معاوية، لو لم تجد إلا الزّنج لاستكثرتَ بهم علينا قلّة وذلّة - يعني على بني أبي العاص. فأقبل معاويةُ على مَرْوانَ وقال: أخرج عنّا هذا الخليع، فقال مرْوان: إي والله إنّه لخليع ما يطاق، فقال معاوية: والله لولا حلمي وتجاوُزي لعلمتَ أنه يطاق، ألم يبلغني شعرهُ فيّ وفي زياد! ثم قال مروان: أسمعْنيه، فأنشد:

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ — لقد ضاقتْ بما يأتي اليَدانِ
أتغضَب أن يقال أبوك عَفٌّ — وتَرضَى أن يقال أبوك زانِ!
فأشهد أنّ رَحْمك من زيادٍ — كرَحْمِ الفِيلِ من ولَدِ الأتانِ
وأشهد أنّها حملتْ زِياداً — وصخرٌ من سُميّة غيرُ دانِ

ثم قال: والله لا أرضى عنه حتّى يأتي زياداً فيترضّاه ويعتذر إليه، فجاء عبد الرحمن إلى زياد معتذراً يستأذِن عليه، فلم يأذن له، فأقبلتْ قريش إلى زياد تكلّمه في أمر عبد الرحمن، فلمّا دخل سلّم، فتشاوس له زياد بعينه - وكان يكسِر عينَه - فقال له زياد: أنت القائل ما قلت؟ قال عبد الرحمن: ما الّذي قلت؟ قال: قلت ما لا يقال، قال: أصلح الله الأمير! إنّه لا ذنب لمن أعتَب، وإنما الصَّفح عمّن أذنب، فأسمع مني ما أقول، قال: هاتِ، فأنشده:

إليك أبا المغيرة تبتُ ممّا — جَرَى بالشام مِنْ خَطَل اللّسانِ
وأغضبتُ الخليفة فيك حتى — دعاه فَرْطُ غيظٍ أن هجاني
وقلتُ لمن لحاني في أعتذاري — إليك أذهبْ فشأنك غيرُ شاني
عرفت الحقّ بعد ضلالِ رأيي — وبعد الغيّ من زيغ الجَنان
زيادٌ من أبي سُفيان غُصْنٌ — تهادى ناضراً بين الجِنان
أراك أخاً وعمّاً وابن عمٍّ — فما أدري بعَيْبٍ ما تراني

وإن زيـــادةً فـــي آلِ حـــرْب ... أحبُّ إلـيّ مـن وُسْطى بنـانـي
ألا أبـلـغ مـعـاويـة بـنَ حـربٍ ... فـقـد ظفـرتْ بـمـا تـأتـي اليـدانِ

فقال زياد: أراك أحمق صِرْفاً شاعراً ضيع اللّسان، يسوغ لك ريقك ساخطاً ومسخوطاً، ولكنا قد سمعنا شعرَك، وقبلْنا عذرَك، فهات حاجتك؟ قال: تكتب إلى أمير المؤمنين بالرّضا عنّي، قال: نعم، ثمّ دعا كاتبه فكتب له بالرضا عنه، فأخذ كتابه ومضى حتى دخل على معاوية، فلمّا قرأه قال: لحا الله زياداً، لم يتنبّه لقوله:

وإنّ زيـــادةً فـــي آلِ حـــرب

ثم رضي عن عبد الرحمن وردّه إلى حالته. وأما أشعار يزيد بن مفرّغ الحميريّ وهجاؤه عبيدَ الله وعبّاداً، ابني زياد بالدعوة فكثيرة مشهورة، نحو قوله:

أعـبّـادُ مـا لـلُّـؤم عـنـك تـحـوُّلٌ ... ولا لـك أمٌّ مـن قـريـش ولا أبُ
وقـل لـعـبـيـد الله مـا لـك والـدٌ ... بحقّ ولا يدري امرؤ كيف تنسبُ

ونحو قوله:

شـهـدت بـأنّ أمـك لـم تُـبـاشِـرْ ... أبـا سُـفْـيـان واضـعـة الـقـنـاعِ
ولـكـنْ كـان أمـرٌ فـيـه لـبْـسٌ ... عـلـى حَـذَرٍ شـديـد وارتـيـاعِ
إذا أودَى مـعـاويـة بـنُ حـرب ... فـبـشّـرْ شـعـبَ قـعـبك بـانْـصِـداعِ

ونحو قوله:

إنّ زيـاداً ونـافـعـاً وأبـا بَـكْـ ... ـرةَ عـنـدي مـن أعـجـب الـعَـجَـبِ
هـم رجـالٌ ثـلاثـةٌ خُـلِـقـوا ... فـي رَحْـمِ أنـثـى وكـلُّـهـمْ لأبِ
ذا قـرشـيٌّ كـمـا تـقـول وذا ... مـولـى وهـذا بـزعـمـه عَـرَبـي

كان عبيد الله بن زياد يقول: ما شجيتُ بشيء أشدّ عليّ من قول ابن مفرّغ:

فـكّـرْ فـفـي ذاكَ إنْ فـكـرتَ مـعـتـبَـرٌ ... هـل نـلـتَ مـكـرُمـةً إلّا بـتـأمـيـرا
عاشت سميّةُ ما عاشت وما علمتْ ... أنّ ابنهـا من قريش في الجماهير

ويقال: إنّ الأبيات النونية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أمّ الحكم ليزيد بن مفرّغ وأن أوّلها:

ألا أبـلـغ مـعـاويـة بـن حـربٍ ... مـغـلـغـلـةً مـن الـرَّجُـلِ الـيـمـانـي

ونحو قوله، وقد باعَ برد غلامه لما حبسه عبّاد بن زياد بسجستان:

يـا بُـرْدُ مـا مـسّـنـا دهـرٌ أضـرّ بـنـا ... مـن قـبـل هـذا ولا بـعـنـا لـه وَلَـدا
لامتنيَ النفسُ في بُرْدٍ فقلتُ لها ... لا تَـهـلـكـي إثـر بُـرْد هـكـذا كـمـدا

لولا الدعيّ ولولا ما تعرّض بي ... من الحوادث ما فارقته أبدا

ونحو قوله:

أبلغ لديك بني قحطانَ مألُكةً ... عضَّت بأيْر أبيها سادةُ اليمن

أضحَى دعيّ زياد فقْعَ قَرقَرَةٍ ... يا للعجائب يلهو بابن ذي يَزَنِ!

وَروَى ابن الكلبيّ أن عباداً استلحقه زياد كما استلحق معاوية زياداً، كلاهما لدعوة. قال: لمّا أذِن لزياد في الحجّ تجهّز، فبينا هو يتجهزّ وأصحاب القِرَب يعرضون عليه قرَبهم، إذ تقدّم عبّاد - وكان خَرّازاً - فصار يَعرِض عليه ويحاوره ويجيبه، فقال زياد: ويْحَك، مَن أنت؟ قال: أنا ابنك، قال: وَيْحك، وأي بَنيّ؟ قال: قد وقعتَ على أمّي فلانة، وكانت من بني كذا، فولدتني، وكنت فيَ بني قيس بن ثعلبة وأنا مملوك لهم، فقال: صدقت والله، إني لأعرف ما تقول. فبعث فأشتراه، وادّعاه وألحقه، وكان يتعهّد بني قيس بن ثعلبة بسببه ويصلهم. وعظم أمرُ عبّاد حتى ولّاه معاوية سِجِسْتان بعد موتِ زياد، وولّى أخاه عبيد الله البصرة، فتزوّج عبّاد الستيرة ابنة أُنَيف بن زياد الكَلْبيّ، فقال الشاعر يخاطب أُنَيفاً - وكان سيّد كلب في زمانه:

أبلغ لديك أبا تُرْكانَ مألُكةً ... أنائماً كنتَ أم بالسّمع مِن صَمَمِ

أنكحتَ عَبد بني قيس مهذَّبةً ... آباؤها من عُلَيْم مَعدِن الكَرَم

أكنت تجهل عبّاداً ومحتِدَه ... لا درَّ درُّك أم أنكحتَ من عَدَمِ

أبعد آل أبي سُفْيان تجعلُه ... صِهْراً وبعد بني مروانَ والحكَمِ!

أعظِمْ عليكَ بذا عاراً وَمنقصَةً ... ما دمتَ حيًا وبعد الموت في الرّحَمِ

وقال الحسن البصريّ: ثلاث كنّ في معاوية لو لم تكن فيه إلّا واحدة منهنّ لكانت موبقةً: انتزاؤه على هذه الأمة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرها، واستلحاقه زياداً مُراغَمةً لقول رسول الله: «الوَلَد للفراش، وللعاهر الحَجر»[1]، وقتلُه حُجْر بن عَديّ، فيا ويلَه من حُجْر وأصحاب حُجْر!

وروى الشَّرْقي بن القطاميّ، قال: كان سعيد بن سَرْح مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: فلمّا قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه، فأتى الحسن بن عليّ عليه السلام مستجيراً به، فوثب زياد على أخيه وولده وأمرأته فَحَبسهم، وأخذ مالَه، ونقض دارَه. فكتب الحسن بنُ عليّ عليه السلام إلى زياد:

أمّا بعد، فإنك عَمَدت إلى رجل من المسلمين له ما لَهم وعليه ما عليهم، فهدمت دارَه،

---

(١) تقدم تخريجه.

وأخذتَ ماله، وحبستَ أهلَه وعيالَه، فإن أتاك كتابي هذا فأبنِ له دارَه، وأردُد عليه عيالَه وماله، وشفّعني فيه، فقد أجرتُه. والسلام.

فكتب إليه زِياد: من زِياد بن أبي سُفْيان إلى الحَسَن بن فاطمة، أمّا بعد، فقد أتاني كتابُك تبدأ فيه بنفسك قبلي، وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سُوقة، وتأمرني فيه بأمر المطاع المسلّط على رعيّته. كتبت إليّ في فاسق آويته، إقامةً منك على سوء الرأي، ورضاً منك بذلك، وايمُ الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ولا مرعٍ عليك، فإنّ أحبّ لحم عليّ أن آكله لَلَّحم الّذي أنت منه، فسلّمه بجريرته إلى من هو أولَى به منك، فإن عفوتُ عنه لم أكن شفّعتك فيه، وإن قتلتُه لم أقتلْه إلّا لحبّه أباك الفاسق، والسلام.

فلمّا ورد الكتاب على الحَسَن عليه السلام قرأه وتبسّم، وكتب بذلك إلى معاوية، وجعل كتاب زياد عطفه، وبعثَ به إلى الشام، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما: من الحسن بن فاطمة إلى زياد ابن سميّة، أمّا بعد، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر»، والسلام.

فلمّا قرأ معاويةُ كتابَ زياد إلى الحسن ضاقت به الشام، وكتب إلى زياد: أمّا بعد، فإنّ الحسن بن عليّ بعث إليّ بكتابك إليه جواباً عن كتاب كتبه إليك في ابن سَرْح، فأكثرت العجبَ منك، وعلمتُ أنّ لك رأيين: أحدُهما من أبي سُفْيان، والآخر من سُمَيّة، فأما الّذي من أبي سفيانَ فحِلْمٌ وحزم، وأمّا الذي من سُمّية، فما يكون من رأي مثِلها! من ذلك كتابك إلى الحسن تَشتُم أباه، وتعرّض له بالفسق، ولَعَمرِي إنّك الأَوْلى بالفِسق من أبيه. فأمّا أنّ الحسنَ بدأ بنفسه ارتفاعاً عليك، فإن ذلك لا يضعك لو عقلت، وأما تسلّطه عليك بالأمر فحقّ لمِثل الحسن أن يتسلّط، وأمّا تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك، فحظٌّ دفعتَه عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا ورد عليك كتابي فخلّ ما في يديك لسعيد بن أبي سَرْح، وابن له دارَه، واردده عليه مَاله، ولا تعرّض له، فقد كتبتُ إلى الحسن أن يخيّره، إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع إلى بلده، ولا سلطان لك عليه لا بيدٍ ولا لسان. وأمّا كتابُك إلى الحسن باسمه واسم أمّه، ولا تَنسُبه إلى أبيه، فإن الحسن وَيحك! من لا يُرمَى به الرَّجَوان، وإلى أيّ أمّ وكَلْته لا أمَّ لك! أما علمتَ أنّها فاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وآله، فذاك أفخر له لو كنتَ تَعلَمه وتعقلُه! وكَتَب في أسفل الكتاب شعراً، من جملته:

أمَا حَسَنٌ فابنُ الّذي كان قبلَهُ ... إذا سار سارَ الموتُ حيث يسيرُ
وهل يلد الرِّئبال إلّا نظيرَه ... وذا حَسَنٌ شِبْهٌ له ونظيرُ
ولكنّه لو يوزَن الحلم والحجا ... بأمرٍ لقالوا يذبلٌ وثبيرُ

وروَى الزُّبير بن بكّار في «الموفَّقيّات»(١) أنّ عبد الملك أجرى خَيْلاً، فسبقه عبّاد بن زياد، فأنشد عبد الملك:

سبق عبّاد وصلّت لحيته ... وكان خرّازاً تجود قربته

فشكا عبّاد قولَ عبد الملك إلى خالد بن يزيدَ بن معاوية، فقال له: أما والله لأنصفنّك منه بحيث يكره. فزوّجه أختَه، فكتب الحجّاج إلى عبد الملك: يا أميرَ المؤمنين، إنّ مناكِحَ آل أبي سفيان قد ضاعت. فأخبرَ عبدُ الملك خالداً بما كتب به الحجّاج، فقال خالد: يا أمير المؤمنين، ما أعلم امرأةً منّا ضاعت ونزلت إلاّ عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية، فإنّها عندك، ولم يَعنِ الحجّاج غيرَك. قال عبد الملك: بل عنى الدّعي ابن الدَّعيّ عبّاداً، قال خالد: يا أمير المؤمنين، ما أنصفتَني، أدّعي رجلاً ثم لا أزوّجه! إنما كنت ملوماً لو زوّجت دعيّك، فأمّا دعيّي فلمَ لا أزوّجه!

فأما أوّل ما ارتفع به زياد فهو استخلاف ابن عبّاس له على البصَرة في خلافة عليّ عليه السلام، وبلغت عليًّا عنه هَنات، فكتب إليه يلومه ويؤنّبه، فمنها الكتاب الذي ذكر الرضيّ رحمه الله بعضَه، وقد شرحْنا فيما تقدّم ما ذكر الرضي منه، وكان عليّ عليه السلام أخرج إليه سعْداً مولاه يحثّه على حَمل مال البَصرة إلى الكُوفة، وكان بين سعد وزياد مُلاحاة ومنازعة، وعاد سعد وشكاه إلى عليٍّ عليه السلام وعابه، فكتب عليٌّ عليه السلام إليه:

أمّا بعد، فإن سعداً ذكر أنك شتمتَه ظُلماً، وهدّدته وجَبَهتَه تجبّراً وتكبُّراً، فما دعاك إلى التكبُّر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكبرُ رداء الله، فمن نَازعَ الله رداءَه قصَمَه»(٢)، وقد أخبرَني أنك تُكثّر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد، وتَدَّهِن كلَّ يوم، فما عليك لو صُمْت لله أيّاماً، وتصدّقتَ ببعض ما عندك محتِسباً، وأكلت طعامَك مراراً قَفاراً، فإنّ ذلك شعارُ الصالحين! أفتطمع وأنت متمرّغ في النعيم، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم، أن يُحسَب لك أجرُ المتصدّقين! وأخبَرني أنّك تتكلم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فإن كنتَ تفعل ذلك فنفسَك ظلَمْت، وعملَك أحبَطت، فتبْ إلى ربّك يُصلحْ لك عَملَك، واقتصد في أمرك، وقدّمْ إلى ربك الفضلَ ليوم حاجتك، وادّهن غبّاً، فإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ادّهنوا غبًّا ولا تدّهنوا رِفهاً»(٣).

---

(١) الموفقيات في الحديث: للزبير بن بكار الأسدي المتوفى سنة (٢٥٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٩١٠).

(٢) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٢٠٣)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٩).

(٣) أخرجه الشيخ المحمود في نهج السعادة: ٥/ ١٧٠.

فكتب إليه زياد: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فإن سعداً قَدِم عليّ فأساء القول والعمل، فانتهرْتهُ وزجرته، وكان أهلاً لأكثر من ذلك. وأمّا ما ذكرتَ من الإسراف واتّخاذ الألوان من الطعام والنّعم، فإنْ كان صادقاً فأثابه الله ثوابَ الصالحين، وإن كان كاذباً فوقاه الله أشدَّ عقوبة الكاذبين. وأمّا قوله: «إني أصف العدل وأخالفه إلى غيره»، فإنّي إذَنْ من الأخسرين. فخذ يا أمير المؤمنين بمقالٍ قلته في مقامِ قمته، الدعوى بلا بيّنة، كالسهم بلا نَصْل، فإن أتاك بشاهدَيْ عدلٍ، وإلّا تبيّن لك كذبه وظلمُه.

ومن كلام زياد: تأخيرُ جزاء المحسن لؤم، وتعجيل عقوبة المُسيء طيش.

وكتب إليه معاوية: أمّا بعد، فاعزل حريثَ بن جابر عن العمل، فإني لا أذكرُ مقاماته بصفّين إلّا كانت حزازة في صدري، فكتب إليه زياد: أمّا بعد، فخفّض عليك يا أمير المؤمنين، فإنّ حُريثاً قد سبق شرفاً لا يرفعه معه عمل، ولا يَضعه معه عَزْل.

وقال لابنه عبيد الله: عليك بالحجاب، وإنّما اجترأتِ الرُّعاة على السِّباع بكثرة نظرِها إليها.

ومن كلامه: أحسنوا إلى أهل الخراج فإنّكم لا تزالون سِماناً ما سمنوا.

قدّم رجلٌ خصماً له إلى زياد في حقٍّ له عليه وقال: أيها الأمير إنّ هذا يدُلُّ بخاصة ذكر أنها له منك. قال زياد: صَدق، وسأخبرك بما ينفعه عندي من خاصّته ومودّته، إن يكن له الحقّ عليك آخذك به أخذاً عنيفاً، وإن يكن الحق لك قضيتُ عليه، ثم قضيت عنه.

وقال: ليس العاقل من يحتال للأمر إذا وقع فيه، لكنّ العاقل مَنْ يحتال للأمر ألّا يقع فيه.

وقال في خطبة له: ألا رُبَّ مسرورٍ بقدُومنا لا نسرّه، وخائف ضرَّنا لا نضرّه.

كان مكتوباً في الحيطان الأربعة في قصر زياد كتابة بالجصّ، أربعة أسطر، أوّلها: الشدّة في غير عُنْف، واللِّينُ في غير ضَعْف. والثاني: المحسن مجازًى بإحسانه، والمسيء يكافأ بإساءته. والثالث: العطيّات والأرزاق في إبّانها وأوقاتها. والرابع: لا احتجاب عن صاحب ثغرٍ، ولا عن طارق ليل.

وقال يوماً على المنبر: إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة يَشفِي بها غيظه لا يقطع بها ذنب عنزٍ فتَضرّه، لو بلغتنا عنه لسفكْنا دَمه. وقال: ما قرأتُ كتابَ رجل قطّ إلّا عرفتُ عَقلَه منه.

وقال في خطبة: استوصُوا بثلاثة منكم خيراً: الشريف، والعالم، والشيخ، فوالله لا يأتيني وضيعٌ بشريف يستخفّ به إلا انتقمتُ منه، أو شابٌّ بشيخ يستخفّ به إلا أوجعتُه ضرباً، ولا جاهلٌ بعالم يستخفُّ به إلاّ نكّلت به.

وقيل لزياد: ما الحظّ؟ قال: أن يطولَ عمرُك، وتَرَى في عدوّك ما يسرّك.

قيل: كان زياد يقول: هما طريقان للعامة: الطاعة والسيف.

وكان المغيرة يقول: لا والله حتى يحمَلوا على سبعين طريقاً غير السيف.

وقال الحسن البصريّ لرجل: ألا تحدّثني بخطبتيْ زياد والحجّاج حين دَخَلا العراق! قال: بلى، أمّا زياد فلمّا قدم البصرة حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد، فإنّ معاوية غيرُ مخوف على قومه، ولم يكن ليُلحِق بنسبه من ليس منه، وقد شهدَتِ الشهودُ بما قد بلغكم، والحقّ أحقُّ أن يُتّبَع، والله حيث وضع البيّنات كان أعلم، وقد رحلتُ عنكم وأنا أعرف صَدِيقي من عدويّ، ثمّ قدمتُ عليكم وقد صار العدوّ صديقاً مناصحاً، والصديق عدوًّا مكاشحاً، فليْشتَمِل كلّ امرىءٍ على ما في صدره، ولا يكوننّ لسانه شَفرةً تجري على أوداجه، وليعلم أحدُكم إذا خلا بنفسه أنّي قد حملتُ سيفي بيدي، فإن أشهره لم أغمدْه، وإن أغمدْه لم أشهرِه. ثم نزل. وأمّا الحجّاج فإنه قال: من أعْيَاهُ داؤه، فَعَلَيّ دواؤه، ومن آستبطأ أجلَه، فعليَّ أن أعجّله، ألا إنّ الحزم والعَزْم استلبا منّي سوطي، وجعلا سوطي سيفي، فنجادُه في عنقي، وقائمه بيدي، وذُبابه قلادةٌ لمن اغترَّ بي.

فقال الحسن: البؤس لهما، ما أغرَّهما بربّهما! اللّهم أجعلْنا ممن يعتبر بهما.

وقال بعضهم: ما رأيت زياداً كاسراً إحدى عينيه، واضعاً إحدى رجليه على الأخرى يخاطب رجلاً إلا رحمتُ المخَاطَب.

ومن كلامه: نعم الشيءُ الإمارة، لولا قعقعة لجام البريد، وتسنّم ذِرْوة المنبر.

قال لحاجبه: يا عَجْلان، إنّي قد ولّيتك هذا الباب وعزلتك عن أربعة: المنادي إذا جاء يؤذّن بالصلاة، فإنّها كانت كتاباً موقوتاً، ورسولِ صاحب الثّغر، فإنه إنْ أبطأ ساعةً فسد تدبيرُ سنة، وطارق اللّيل فشرٌّ ما جاء به، والطّباخ إذا فرغ من الطعام، فإنّه متى أعيد عليه التّسْخين فَسَد.

وكان حارثة بن بدر الغُدَانيّ قد غلب على زياد، وكان حارثة مشتهراً بالشّراب، فقيل لزياد في ذلك، فقال: كيف باطّراح رجل هو يسايرني منذ قدِمتُ العراق فلا يصلُ ركابُه ركابي، ولا تقدّمني قطّ فنظرتُ إلى قفاه، ولا تأخّر عنّي فلوَيْت عنقي إليه، ولا أخذ عليّ الشمس في شتاء قطّ، ولا الرّوْح في صَيْف قط، ولا سألته عن علم إلا ظننته لا يُحسِن غيرَه.

ومن كلامه: كفى بالبخل عاراً أن آسمَه لم يقع في حمدٍ قط، وكفى بالجُود فخراً أن آسمه لم يقع في ذمٍّ قط.

وقال: مِلاك السّلطان الشدّةُ على المريب، واللّين للمحسن، وصِدْق الحديث، والوفاءُ بالعهد.

وقال: ما أتيتُ مجلساً قطُّ إلّا تركتُ منه ما لو أخذتُه لكان لي، وتركُ ما لي أحبُّ إليّ من أخذِ ما ليس لي.

وقال: ما قرأت مثلَ كُتب الرَّبيع بن زياد الحارثيّ، ما كتب إليّ كتاباً قطّ إلّا في اجترار منفعة، أو دفع مَضَرّة، ولا شاورته يوماً قطُّ في أمرٍ مبهم إلّا وسَبَق إلى الرأي.

وقال: يُعجبني من الرجل إذا أتى مجلساً أنْ يعلم أين مكانه منه، فلا يتعدّاه إلى غيره، وإذا سِيم خُطَّةَ خَسْفٍ أن يقول: «لا» بملء فيه.

فأما خطبةُ زياد المعروفة بالبتراء - وإنّما سمّيت بذلك لأنّه لم يحمد الله فيها، ولا صلّى على رسولِهِ - فقد ذكرها عليُّ بن محمد المدائني قال: قَدِم زياد البَصْرة أميراً عليها أيّام معاوية والفِسقُ فيها فاشٍ جداً، وأموالُ الناس منتهبَة، والسياسة ضعيفة، فصَعِد المنبرَ فقال: أمّا بعد، فإنّ الجاهليّة الجَهْلاء، والضّلالة العَمْياء، والغيّ الموفِد لأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويَشتَمل عليه حُلَماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشَى منها الكبير، كأنّكم لم تقرؤوا كتابَ الله، ولم تستمعوا ما أعَدّ من الثواب الكثير لأهل طاعته، والعذابِ الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمد الّذي لا يزول.

أتكونون كمن طرفَتْ عينه الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية! لا تذكرون أنّكم أحدثْتم في الإسلام الحَدَث الّذي لم تُسبَقوا به، من ترككم الضعيف يُقهر ويُؤخذ مالُه، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، هذا والعددُ غير قليل!

ألم يكن منكم نُهاةٌ تمنع الغواة عن دلَج الليل وغارة النهار! قرّبتم القرابة، وباعدتم الّذين يعتذرون بغير العُذْر، ويُعطون على المختلس، كلّ امرىء منكم يذبّ عن سيفه، صنيع من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معاداً. ما أنتم بالحُلماء، وقد اتّبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتّى انتهكوا حُرمة الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنوساً في مَكانس الرِّيَب. حَرُم عليّ الطعامُ والشرابُ حتّى أسوّيَها بالأرض هدماً وإحراقاً! إنّي رأيتُ آخر هذا الأمر لا يَصلُح إلّا بما صَلَح به أوّله! لينٌ في غير ضعفٍ، وشِدّة في غير عُنْف. وأنا أقسم بالله لآخُذَنَّ الوليَّ بالوليّ، والظاعن بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيحَ منكم في نفسه بالسّقيم، حتّى يَلقى الرجلُ أخاه فيقول: انجُ سَعْد فقد هَلَك سُعَيْد، أو تستقيم لي قناتُكم.

إنّ كِذْبة المنبر تُلفى مشهورة، فإذا تعلّقتم عليّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي! من نُقِب عليه منكم فأنا ضامن لما ذهب منه. فإيّاكم ودَلج الليل، فإنّي لا أُوتَى بمُدلِج إلا سفكتُ دمه. وقد أجّلتكم بقدر ما يأتي الخبر الكوفة، ويرجع إليكم.

إيّاكم ودعوى الجاهلية، فإنّي لا أجد أحداً دعا بها إلّا قطعت لسانه، وقد أحدثْتم أحداثاً،

وقد أحدثنا لكلّ ذنب عقوبة، فمن غرّق بيوتَ قوم غرّقناه، ومن حرّق على قوم حرّقناه، ومن نَقَب على أحدٍ بيتاً نَقَبْنا على قلبه، ومن نَبَشَ قبراً دفنّاه فيه حيّاً.

كفّوا عنّي أيديَكم وألسنَتكم، أكفّ عنكم يَدِي ولساني. ولا يظهرنّ من أحدِكم خلافُ ما عليه عامّتكم فأضرب عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحَنٌ فقد جعلت ذلك وراء أذُني، وتحتَ قَدَمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومَن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته، إني لو علمت أنّ أحدكم قد قتله السُّلال مِن بُغْضي لم أكشِفْ عنه قناعاً، ولم أهتك له سِتْراً حتّى يُبديَ لي صفَحتَه، فإذا فعل لم أناظره. فأستأنِفوا أمورَكم، وأعينوا على أنفسكم، فربَّ مبتئس بقدومنا سيسرّ، ومسرورٍ بقدومنا سيبأس.

أيّها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادة، نسوسُكم بسلطان الله الّذي أعطاناه، ونذودُ عنكم بفيء الله الّذي خوّلَناه، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالبِ حاجةٍ منكم، ولا حابساً عطاءً، ولا مجمّراً بَعْثاً، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنَّهم ساستُكم المؤدِّبون، وكهفُكم الذي إليه تأوُون، ومتى يصلحوا تَصلُحوا، فلا تُشرِبوا قلوبَكم بغضهم، فيشتدّ لذلك غيظُكم، ويطول لذلك حُزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنّه لو أستجيب لأحدٍ منكم لكان شرًّا لكم. أسأل الله أن يعين كُلًّا على كُلٍّ. وإذا رأيتموني أُنفِذُ فيكم الأمر، فأنفِذُوه على أذلاله. وأَيم الله إنَّ لي فيكم لصرعَى كثيرة، فليحذَر كلّ امرىء منكم أن يكون من صرعاي.

فقام عبدُ الله بن الأهتم فقال: أشهد أيّها الأمير، لقد أوتيتَ الحكمة وفصل الخطاب. فقال: كذبت، ذاك نبيّ الله داود.

فقام الأحنف فقال: إنما الثّناء بعد البلاء، والحمدُ بعد العطاء، وإنّا لا نثني حتى نُبتلَى، ولا نحمَد حتى نعطى.

فقال زياد: صدقت، فقام أبو بلال مرداس بن أديّة يهمس ويقول: أنبأنا الله بغير ما قلت، فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾[1]، فسمعها زياد فقال: يا أبا بلال، إنّا لا نبلغُ ما نريد بأصحابك حتّى نخوضَ إليهم الباطل خوضاً.

وروى الشعبيّ، قال: قدم زيادٌ الكوفة لمّا جمعتْ له مع البصرة، فدنوتُ من المنبر لأسمع كلامَه، فلم أرَ أحداً يتكلم فيُحسن إلّا تمنّيت أن يَسكُت مخافة أن يسيء، إلّا زياداً فإنه كان يزداد إكثاراً إلّا ازداد إحساناً، فكنت أتمنّى ألّا يسكت.

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٧ - ٣٨.

وَروَى الشعبيّ أيضاً، قال: لمّا خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل سمعَ تلك الليلة أصواتَ الناس يتحارَسون، فقال: ما هذا؟ قالوا: إنّ البلد مفتونة، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفِتْيان الفُسّاق فيقال لها: نادِي ثلاثة أصوات، فإنّ أجابكِ أحد وإلّا فلا لومَ علينا فيما نصنع. فغضب فقال: ففيمَ أنا، وفيمَ قدمت! فلمّا أصبح أمر فنودي في الناس، فاجتمعوا فقال: أيّها الناس، إني قد نبِّئت بما أنتم فيه وسمعتُ ذَرْواً منه، وقد أنذرتكم وأجّلتكم شهراً مسير الرّجل إلى الشام، ومسيره إلى خراسان، ومسيره إلى الحجاز، فمن وجدْناه بعد شهر خارجاً من منزله بعد العشاء الآخرة فدمه هَدَر. فانصرف الناس يقولون: هذا القولُ كقول من تقدّمه من الأمراء، فلما كمل الشهر دعا صاحبَ شرطته عبد الله بن حُصَين اليربوعيّ - وكانت رجال الشُّرطة معه أربعة آلاف - فقال له: هيِّىء خيلك ورَجلك، فإذا صلّيت العشاء الآخرة، وقرأ القارىء مقدار سُبْعٍ من القرآن، ورفع الطُّنُّ القصب من القصر، فسِرْ ولا تلقيَنّ أحداً، عُبيد الله بن زياد فمن دونه، إلا جئتني برأسه، وإن راجعتَني في أحد ضربتُ عنقك.

قال: فصبّح على باب القصر تلك الليلة سبعمائة رأس، ثمّ خرج الليلة الثانية فجاء بخمسين رأساً، ثم خرج الليلة الثالثة فجاء برأس واحد، ثم لم يجىء بعدها بشيء، وكان الناس إذا صلُّوا العشاء الآخرة أحضروا إلى منازلهم شدّاً حثيثاً، وقد يترك بعضهم نِعاله.

كتبتْ عائشة إلى زياد كتاباً، فلم تدر ما تكتب عنوانه! إن كتبتْ زياد بن عبيد أو ابن أبيه أغضبَته، وإن كتبتْ زياد بن سفيان أثمتْ، فكتبتْ: من أمّ المؤمنين إلى ابنها زياد. فلما قرأه ضَحِك، وقال: لقد لقيتْ أمُّ المؤمنين من هذا العنوانِ نصَباً!

---

٢٠٥ - من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاريّ - وكان عامله على البصرة، وقد بلغه انه دُعِيَ إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها

الأصل: أَمّا بَعْدُ يَا بْنَ حُنَيْفٍ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ. وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وَجْهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِه، أَلا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ، فَوَالله مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلا

أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً، وَلا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً، وَلا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ.

الشرح: هو عثمان بن حُنَيف - بضم الحاء - بن واهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاريّ ثم الأوسيّ أخو سهل بن حُنَيف، يكنى أبا عمرو - وقيل: أبا عبد الله - عمل لعمرَ ثم لعليّ عليه السلام، وولّاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضربَ الخراج والجزية على أهلها، وولّاه عليّ عليه السلام على البصرة، فأخرجه طلحة والزُّبير منها حين قدِماها، وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة عليّ عليه السلام، ومات بها في زمن معاوية.

قوله: «من فتية البصرة»، أي من فتيانها، أي من شبابها أو من أسخيائها، يقال للسخيّ: هذا فتى، والجمع فِتْيَة وفتيان وفُتُوّ، ويروَى: «أنّ رجلاً من قُطّان البصرة»، أي سكانها.

والمأدُبة، بضم الدال: الطعام يدعى إليه القوم، وقد جاءت بفتح الدال أيضاً، ويقال: أدَب فلانٌ القومَ يأدِبهم بالكسر، أي دعاهم إلى طعامه، والآدِب: الدّاعي إليه، قال طَرَفة:

نحن في المشتاة نَدْعو الجَفَلَى ... لا ترى الآدِبَ فينا يَنتَقِرْ

ويقال أيضاً: آدبهم إلى طعامه يُؤدبهم إيداباً، ويروى: «وكثرت عليك الجفان فكرِعْتَ وأكلت أكل ذئب نَهِم، أو ضبُع قَرِم».

وروي: «ما حَسِبتك تأكل طعامَ قوم».

ثم ذم أهلَ البصرة فقال: «عائلهم مجفوّ، وغنيّهم مدعوّ»، والعائل: الفقير، وهذا كقول الشاعر:

فإن تُملِقْ فأنت لنا عدوٌّ ... فإن تثرِ فأنتَ لنا صديقُ

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى ما لا شبهة فيه، وسمّى ذلك قضماً ومقضماً وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له، وازدرائه إياه، وأنه عنده ليس مما يستحقّ أن يسمّى بأسماء المرغوب فيه، المتنافس عليه، وذلك لأن القَضْم يطلق على معنيين: أحدُهما على أكل الشيء اليابس، والثاني على ما يؤكل ببعض الفم، وكلاهما يدلّان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه، لا فيه.

ثم ذكر عليه السلام حالَ نفسه فقال: «إنّ إمامكم قد قنع من الدنيا بطِمْرَيه»، والطِّمْر: الثوب الخلَق البالي، وإنما جعلهما اثنين لأنّهما إزارٌ ورداء لا بدّ منهما، أي للجسد والرأس.

قال: «ومن طُعْمه بقُرْصَيه»، أي قرصان يفطر عليهما لا ثالث لهما. وروي: «قد اكتفى من الدنيا بطمرَيه، وسدّ فورةَ جوعه بقُرْصيه، لا يطعم الفلْذة في حوليه إلّا في يوم أضحية».

ثم قال: إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه، ولكني أسألكم أن تعينوني بالوَرَع والاجتهاد.

ثم أقسم أنه ما كنز ذهباً، ولا ادّخر مالاً، ولا أعدّ ثوباً بالياً سملاً لبالي ثوبيه، فضلاً عن أنه سيعدّ ثوباً قشيباً كما يفعله الناس في إعداد ثوب جديد ليلبسوه عِوَض الأسمال التي ينزعونها، ولا حاز من أرضها شبراً، والضمير في «أرضها» يرجع إلى «دنياكم»، ولا أخذ منها إلا كقوت أتانٍ دبرة، وهي التي عقر ظهرُها فقلّ أكلها.

ثم قال: «ولهي في عيني أهوَن من عَفْصة مَقِرة»، أي مُرّة، مقِر الشيءُ بالكسر أي صار مرّاً، وأمقَره بالهمز أيضاً، قال لبيد:

مُـمـقـرٌ مُـرٌّ عـلـى أعـدائـه　　　وعلى الأدنَيـنَ حُلْوٌ كالعَسَل

الأصل: بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِن كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الحَكَمُ اللهُ. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكَ وَغَيْرِ فَدَكَ، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لَأَضْغَطَهَا الحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ، وَتَثْبُتُ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ.

الشرح: الجَدَث: القبر، وأضغطها الحجر: جعلها ضاغطة، والهمزة للتّعدية، ويروى: «وضغَطها».

وقوله: «مظانّها في غد جَدَث»، المظانّ: جمع مَظِنّة، وهو موضوع الشيء ومألفه الّذي يكون فيه، قال:

فـإن يَـكُ عـامـرٌ قـد قـال جـهـلاً　　　فـإن مَـظِـنّـة الـجـهـلِ الـشـبـابُ

يقول: لا ما لي، ولا اقتنيتُ فيما مضى مالاً، وإنما كانت في أيدينا فَدَك فشحّت عليها نفوسُ قوم، أي بخلتْ وسختْ عنها نفوسُ آخرين، أي سامحت وأغضت. وليس يعني ها هنا بالسخاء إلّا هذا، لا السخاء الحقيقيّ، لأنّه عليه السلام وأهله لم يسمحوا بفَدَك إلا غصباً وقَسْراً، وقد قال هذه الألفاظ في موضع آخر فيما تقدّم، وهو يعني الخلافة بعد وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم قال: «ونعم الحَكَم الله»، الحَكَم: الحاكم، وهذا الكلام كلامُ شاكٍ متظلّم، ثم ذكر مالَ الإنسان وأنّه لا ينبغي أن يكترث بالقَيْنات والأموال، فإنّه يصير عن قريب إلى دار البِلَى ومنازل الموتى.

ثمّ ذكر أن الحُفرة ضيّقة، وأنه لو وسّعها الحافر لألجأها الحجر المتداعي والمدَر المتهافت، إلى أن تضغط الميّت وتزحمه. وهذا كلام محمول على ظاهره، لأنه خطاب للعامّة، وإلّا فأيّ فرْق بين سعة الحُفْرة وضِيقها على الميّت! اللهمّ إلّا أن يقول قائل: إنّ الميّت يحسّ في قبره، فإذا قيل ذلك فالجاعل له إحساساً بعد عدم الحسّ هو الّذي يوسّع الحفرة، وإن كان الحافر قد جعلها ضيّقة، فإذن هذا الكلام جيّد لخطاب العَرَب خاصّة، ومن يَحمل الأمورَ على ظواهرها.

ثم قال: «وإنّما هي نفسي أروضُها بالتقوى»، يقول: تَقلُّلي واقتصاري من المطعم والمَلْبَس على الجَشِب والخَشِن رياضةٌ لنفسي، لأنّ ذلك إنّما أعمله خوفاً من الله أن أنغمس في الدنيا، فالرياضة بذلك هيَ رياضةٌ في الحقيقة بالتقوى، لا بنفس التقلّل والتقشُّف، لتأتي نفسي آمنةً يومَ الفزَع الأكبر، وتثبت في مداحض الزَّلَق.

واعلم أنّا نتكلّم في شرح هذه الكلمات بثلاثة فصول: **الفصل الأوّل** فيما ورد في الحديث والسِّيَر من أمر فَدَك، **والفصل الثاني** في هل النبيّ صلى الله عليه وآله يورَث أم لا؟ **والفصل الثالث** في أنّ فَدَك، هل صحّ كونها نِحلة مِن رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام أم لا؟

الفصل الأول

فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم

لا من كُتب الشيعة ورجالهم، لأنّا مشترطون على أنفسنا ألّا نحفل بذلك، وجميع ما نورده في هذا الفصل من كتاب أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في السقيفة وفَدَك وما وقع من الاختلاف والاضطراب عَقِب وفاةِ النبيّ صلى الله عليه وآله، وأبو بكر الجوهريّ هذا عالم مُحدِّث كثيرُ الأدب، ثقة وَرِع، أثنَى عليه المحدّثون وروَوْا عنه مصنّفاته.

قال أبو بكر: حدثني أبو زيد عمرو بن شبّة قال: حدّثنا حيّان بن بشر، قال: حدّثنا يحيى بن آدم، قال: أخبَرَنا ابن أبي زائدة، عن محمّد بن إسحاق، عن الزّهريّ قال: بقيتْ بقيّةٌ من أهل خيبر تحصّنوا، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يَحقِن دماءهم ويُسيِّرهم، ففعل، فسمع ذلك أهلُ فَدَك فنزلوا على مثل ذلك، وكانت للنبي صلى الله عليه وآله خاصّة؛ لأنّه لم يُوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب.

قال أبو بكر: وَرَوَى محمّد بن إسحاق أيضاً، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا فرغ من خيبَر قذف الله الرعبَ في قلوب أهل فَدَك، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فصالحوه على النِّصف من فَدَك، فقَدِمَتْ عليه رسلُهم بخيبر أو بالطريق، أو بعد ما أقام بالمدينة، فقبل ذلك منهم، وكانت فَدَكُ لرسول الله صلى الله عليه وآله خالصةً له، لأنّه لم يوجِف عليها بخيلٍ ولا رِكاب.

معاشرَ المسلمين، ابتُزّ إرث أبي! أبَى الله أن تَرِث يا بن أبي قُحافة أباك ولا أَرِث أبي، لقد جئتَ شيئاً فَرِيّاً! فدونَكَها مخطومةً مَرْحولةً تلقاك يومَ حشرِك، فنعم الحَكَم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يَخسر المُبطِلون، ولكلّ نبأ مستقرٌّ وسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم! ثم التفتتْ إليه قبرِ أبيها فتمثّلت بقول هندِ بنت أثاثة:

قد كان بعدَك أنباءٌ وهَيْنمةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تكثُرِ الخطب
أبدتْ رجالٌ لنا نجوى صدورِهمُ ... لمّا قضيتَ وحالت دونَكَ الكُتُبُ
تجهّمتنا رجالٌ وآستُخِفّ بنا ... إذا غبتَ عنّا فنحن اليومَ نُغتصَبُ

قال: ولم يرَ الناسُ أكثر باكٍ ولا باكيةً منهم يومئذٍ. ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت: يا معشر البقيّة، وأعضاد الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الفَتْرة عن نُصْرتي، والوَنْيةُ عن معونتي، والغمزة في حقّي، والسِّنة عن ظُلامتي! أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «المرء يُحفظ في ولده»[(١)]! سرْعانَ ما أحدثتم، وعجلان ما أتيتم. ألئنْ مات رسول الله صلى الله عليه وآله أمَتُّم دينه! ها إنّ موته لَعمري خطبٌ جليل آستوسع وَهْنُه، واستبهم فتقُه، وفُقِد راتقُه، وأظلمتْ الأرض له، وخَشعت الجبال، وأكْدَت الآمال. أُضِيع بعدَه الحريم، وهُتِكت الحرمة، وأُذيلت المصونة، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته، وأنبأكم بها قبل وفاته، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(٢)] إيهاً بني قَيْلة! اهتُضم تُراث أبي، وأنتم بمرأى ومَسمَع، تبلغكم الدعوة، ويشملكم الصوت، وفيكم العُدّة والعدد، ولكم الدار والجنَن وأنتم نُخبة الله التي انتَخب، وخِيرته الّتي اختار! باديتم العَرَب، وبادهتم الأمور، وكافحتم البهم حتى دارت بكم رَحَى الإسلام، ودرّ حلبه، وخبَتْ نيران الحرب، وسكنتْ فَوْرة الشِّرك، وهدأتْ دعوة الهَرَج، واستوثق نظام الدِّين، أفتأخّرتم بعد الإقدام، ونكَصْتم بعد الشّدة، وجبُنتم بعد الشجاعة، عن قوم نكَثُوا أيمانَهم من بعدِ عهدِهم وطَعنوا في دِينِكم! فقاتلوا أئمّة الكُفْر إنّهم لا أيمانَ لهم لعلّهم ينتهون. ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، ورَكَنْتم إلى الدّعة، فجحدتم الّذي وعيتم، وسُغتم الذي سوّغتم، وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد، ألا وقد قلتُ لكم ما قلت على معرفة منّي بالخذْلة التي خامرتكم، وخَوَر القناة، وضعف اليقين، فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر، ناقبة الخفّ، باقية العار، موسومة الشعار، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تعملون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[(٣)].

---

(١) رواه اليعقوبي في التاريخ: ٢/ ١٢٧، وابن طيفور في بلاغات النساء: ١٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

قال: وحدّثني محمد بن زكريا قال: حدّثنا محمد بن الضحّاك قال: حدّثنا هشام بن محمد، عن عوانة بن الحَكَم قال: لمّا كلّمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلّمته به حَمِد أبو بكرٍ الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ثم قال: يا خَيْرَة النساء، وابنة خير الآباء، والله ما عدوتُ رأيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما علمتُ إلا بأمره، وإن الرائد لا يَكذِب أهلَه، وقد قلتِ فأبلغتِ، وأغلظتِ فأهجرتِ، فغفَر الله لنا ولك. أمّا بعد، فقد دفعت آلةَ رسول الله ودابّته وحذاءَه إلى عليّ عليه السلام، وأمّا ما سوى ذلك فإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورِث ذهباً ولا فضّة ولا أرضاً ولا عَقاراً ولا داراً، ولكنّا نورث الإيمانَ والحكمةَ والعِلم والسّنة»[1]، فقد عملت بما أمرني، ونصحت له، وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب.

قال أبو بكر: وروى هشام بن محمد، عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: إنّ أمّ أيمن تشهد لي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني فدَك، فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله خلْقاً أحبّ إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيك، ولودِدْتُ أنّ السماء وقعت على الأرض يومَ مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إليّ من أن تفتقري، أتراني أعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقّك، وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم! إن هذا المال لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبيّ به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلما توفّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وليته كما كان يليه. قالت: والله لا كلّمتك أبداً قال: والله لا هجرتك أبداً، قالت: والله لأدعونّ الله عليك، قال: والله لأدعونّ الله لك، فلما حضرتْها الوفاةُ أوصتْ ألّا يصلّيَ عليها، فدفنتْ ليلاً، وصلى عليها عباس بنُ عبد المطلب، وكان بين وفاتها ووفاة أبيها اثنتان وسبعون ليلة.

قال أبو بكر: وحدّثني محمد بن زكريا، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن عمارة بالإسناد الأول قال: فلما سمع أبو بكر خطبها شقّ عليه مقالتها فصعد المنبر وقال: أيّها الناس، ما هذه الرَّعة إلى كلّ قالة! أين كانت هذه الأمانيّ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا مَن سمع فليقل، ومن شهد فليتكلّم، إنما هو ثعالة شهيده ذنبه، مُرِبٌّ لكل فتنة، هو الذي يقول: كرّوها جذعة بعدما هرمت، يستعينون بالضعفة، ويستنصرون بالنساء، كأمّ طِحال أحبّ أهلها إليها البغيّ. ألا إني لو أشاء أن أقول لقُلتُ ولو قلتُ لبحتُ، إني ساكت ما تركت. ثم التفت إلى الأنصار فقال: قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم، وأحق من لزم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم. فقد جاءكم فآويتم ونَصرتم، ألا إنّي لستُ باسطاً يداً ولا لساناً على مَنْ لم يستحق ذلك منّا.

ثم نزل، فانصرفتْ فاطمة عليها السلام إلى منزلها.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٨/ ١٧٥)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٨٦)، دون قوله: «ذهباً ولا فضة... إلخ».

قلت: قرأتُ هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد البصريّ وقلت له: بمن يعرّض؟ فقال: بل يصرّح. قلتُ: لو صرّح لم أسألك. فضحك وقال: بعليّ بن أبي طالب عليه السلام، قلت: هذا الكلام كله لعليّ يقوله! قال: نعم، إنه المُلْك يا بنيّ، قلت: فما مقالة الأنصار؟ قال: هتفوا بذكر عليّ فخاف من اضطراب الأمر عليهم، فنهاهم. فسألته عن غريبه، فقال: أما الرِّعة بالتخفيف، أي الاستماع والإصغاء، والقالة: القول، وثُعالة: اسم الثعلب علم غيرُ مصروف، ومِثْل ذُؤالة للذئب، وشهيده ذنبه، أي لا شاهد له على ما يدّعي إلا بعضه وجزء منه، وأصله مثل، قالوا: إن الثعلب أراد أن يُغريَ الأسد بالذئب، فقال: إنه قد أكل الشاة التي كنت قد أعددتها لنفسك، وكنت حاضراً، قال: فمن يشهد لك بذلك؟ فرفع ذنبه وعليه دم، وكان الأسد قد افتقد الشاة. فقبل شهادته، وقتل الذئب، ومُربّ: ملازم، أربّ بالمكان. وكرّوها جَذَعة: أعيدوها إلى الحال الأولى، يعني الفتنة والهَرْج. وأمّ طِحال: امرأةٌ بغيٌّ في الجاهلية، ويضرب بها المثل فيقال: أزنى من أمّ طِحال.

قال أبو بكر: وحدّثني محمد بن زكريّا قال: حدّثني ابن عائشة، قال: حدّثني أبي، عن عمّه قال: لمّا كلمت فاطمة أبا بكر بكى، ثم قال: يا بنةَ رسول الله، والله ما ورّث أبوك ديناراً ولا درهماً، وإنّه قال: إن الأنبياء لا يورثون، فقالت: إنّ فَدَكَ وَهَبها لي رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فمن يشهد بذلك؟ فجاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام فشهد، وجاءت أمّ أيمنَ فشهدتْ أيضاً، فجاء عمر بنُ الخطاب وعبدُ الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقسمها، قال أبو بكر: صدقت يا ابنةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وصدق عليّ، وصدقتْ أمّ أيمنَ، وصدق عمر، وصَدَق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أنّ مالك لأبيك، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأخذ من فَدَك قوتكم، ويقسم الباقي، ويحمل منه في سبيل الله، فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما يصنع بها أبي، قال: فلك عليّ الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوك، قالت: الله لتفعلنّ! قال: الله لأفعلنّ، قالت: اللهمّ اشهد، وكان أبو بكر يأخذ غلّتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم، ويقسم الباقي، وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان عليّ كذلك، فلمّا ولي الأمرَ معاوية بن أبي سُفْيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها، وأقطع عَمرو بنَ عثمان بن عفّان ثلثها، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها، وذلك بعد موت الحسن بن عليّ عليه السلام، فلم يزالوا يتداوَلُونها حتّى خَلَصتْ كلّها لمروان بن الحكم أيّام خلافته، فوهبها لعبد العزيز ابنه، فوهَبَها عبدُ العزيز لابنه عمرَ بن عبد العزيز، فلمّا وليَ عمر بن العزيز الخلافة، كانت أوّل ظُلامة ردّها، دعا حسنَ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام - وقيل: بل دعا عليّ بن الحسين عليه السلام - فردّها عليه، وكانت بيَدِ أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز، فلمّا ولي يزيد بن عاتكة قبضها منهم، فصارت في أيدي بني مَرْوان كما كانت يتداولونها، حتّى انتقلت الخلافة عنهم، فلمّا ولي أبو العبّاس

السفّاح ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن، ثم قبضها أبو جعفر لمّا حدث من بني حسن ما حدث، ثم ردّها المهديّ ابنُه على ولد فاطمةَ عليها السلام، ثم قبضها موسى بن المهديّ وهارون أخوه، فلم تزل في أيديهم حتى ولي المأمون، فردّها على الفاطميّين.

قال أبو بكر: حدّثني محمّد بن زكريا قال: حدثني مهديّ بن سابق، قال: جلس المأمون للمظالم، فأوّل رُقْعة وقعتْ في يده نظر فيها وبكى، وقال للّذي على رأسه: نادِ أين وكيلُ فاطمة؟ فقام شيخ عليه دُرّاعة وعمامة وخُفّ تَعِرى، فتقدّم فجعل يناظره في فَدَك والمأمون يحتجّ عليه وهو يحتجّ على المأمون، ثم أمر أن يسجّل لهم بها، فكتب السجلّ وقرىء عليه، فأنفذه، فقام دِعْبل إلى المأمون فأنشده الأبيات التي أوّلها.

أصبَحَ وجهُ الزَّمان قد ضَحِكا ... بردّ مأمونِ هاشمٍ فَدَكا

فلم تزل في أيديهم حتّى كان في أيّام المتوكّل، فأقطعها عبدَ الله بن عمرَ البازيار، وكان فيها إحدى عشرة نخلةً غَرَسها رسول الله صلى الله عليه وآله بيَده، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها، فإذا قدم الحُجّاج أهدوْا لهم من ذلك التمر فيَصِلونهم، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل، فصرم عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر، ووجّه رجلاً يقال له بشران بن أبي أميّة الثقفي إلى المدينة فصَرَمه، ثم عاد إلى البَصرة ففُلِج[1].

قال أبو بكر: أخبرَنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا سويد بن سعيد والحسن بن عثمان قالا: حدّثنا الوليد بن محمد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أن فاطمة عليها السلام أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها مِن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي حينئذ تطلب ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة وفَدَك، وما بقي من خُمس خيبر، فقال أبو بكر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا نُورَث، ما تركْناه صَدَقة»[2]، إنّما يأكل آل محمد من هذا المال، وإنّي والله لا أغيّر شيئاً من صَدَقات رسول الله صلى الله عليه وآله عن حالها الّتي كان عليها في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولأعملنّ فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وآله، فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجِدَتْ من ذلك على أبي بكر وهجرته فلم تكلّمه حتى توفّيت، وعاشتْ بعد أبيها ستة أشهر، فلما توفّيت دفَنها عليّ عليه السلام ليلاً، ولم يُؤْذِن بها أبا بكر.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا إسحاق بن إدريس، قال: حدثنا محمد بن أحمد، عن مَعمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، أن فاطمة والعبّاس أتيا أبا بكر

---

(١) الفالج: داء معروف يُرَخّي بعض البدن. اللسان، مادة (فلج).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: حكم الفيء (١٧٥٧)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باقي المسند السابق (٢٥٧٢٨)، وابن حبان (٤٨٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٠٠).

يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وهما حينئذ يطلبان أرضَه بفَدَك وسهمه بخيبر، فقال لهما أبو بكر: إنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا نُورَث، ما تركنا صدقة»، إنما يأكل آل محمد صلى الله عليه وآله من هذا المال، وإني والله لا أغيّر أمراً رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يَصنعه إلا صنعتُه. قال: فهجرتْه فاطمةُ فلم تكلّمه حتى ماتت.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا عمر بن عاصم. وموسى بن إسماعيل قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن أمّ هانىء، أن فاطمة قالت لأبي بكر: من يرثك إذا متَّ؟ قال: وَلدي وأهلي، قالت: فما لَكَ ترث رسول الله صلى الله عليه وآله دوننا؟ قال: يا ابنة رسول الله، ما وَرّث أبوك داراً ولا مالاً ولا ذهباً ولا فضّة، قالت: بلى سهم الله الذي جعله لنا، وصار فيئنا الذي بيدك، فقال لها: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنما هي طُعمَة أطعَمَناها الله، فإذا متّ كانت بين المسلمين».

قال أبو بكر: وأخبَرَنا أبو زيد قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبة قال: حدثنا محمد بن الفضل، عن الوليد بن جميع، عن أبي الطفيل قال: أرسلتْ فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال: بل أهلُه، قالت: فما بالُ سهم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إن الله أطعم نبيّه طعمة»[1] ثم قبضه، وجعله للّذي يقوم بعده، فوليت أنا بعده، على أن أرده على المسلمين، قالت: أنتَ وما سمعتَ من رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم.

قلت: في هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثتَ رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال: بل أهلُه، وهذا تصريح بأنه صلى الله عليه وآله مَورُوث يرثه أهله، وهو خلاف قوله: «لا نورَث». وأيضاً فإنّه يدلّ على أن أبا بكر استَنبط من قول رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله أطعم نبيًّا طعمة أن يُجرى رسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاته مجرى ذلك النبي صلى الله عليه وآله، أو يكون قد فهم أنه عنى بذلك النبي المنكر لفظاً نفسه، كما فهم من قوله في خطبته، إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وما عند ربّه، فاختار ما عند ربه، فقال أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: أخبرنا القعنبيّ قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، أن فاطمة طلبت فَدَك من أبي بكر، فقال: إنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إن النبي لا يُورَث»[2]، من كان النبي يعولُه فأنا أعولُه، ومن كان

---

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ١٠٩، وأخرجه التبريزي الأنصاري في اللمعة البيضاء: ٧٦٠.

(٢) أخرجه أحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي بكر (٦١).

النبيّ ﷺ يُنفق عليه فأنا أنفق عليه. فقالت: يا أبا بكر، أيرثك بناتُك ولا يرثُ رسول الله ﷺ بناته؟ فقال: هو ذاك. قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثنا فضيل بن مرزوق قال: حدثنا البحتري بن حسان قال: قلت لزيد بن عليّ عليه السلام وأنا أريد أن أهجّن أمرَ أبي بكر، إن أبا بكر انتزع فَدَكَ من فاطمة عليها السلام، فقال: إن أبا بكر كان رَجلاً رحيماً، وكان يكره أن يغيّر شيئاً فَعَلَه رسول الله ﷺ، فأتته فاطمة فقالت: إن رسول الله ﷺ أعطاني فَدَك، فقال لها: هل لك على هذا بيّنة؟ فجاءت بعليّ عليه السلام، فشهد لها، ثم جاءت أم أيمنَ فقالت: ألستما تشهدان أني من أهل الجنة! قالا: بلى - قال أبو زيد يعني أنّها قالت لأبي بكر وعمر - قالت: فأنا أشهد أن رسول الله ﷺ أعطاها فَدَك، فقال أبو بكر: فرجل آخر أو امرأة أخرى لتستحقي بها القضيّة. ثم قال أبو زيد: وايم الله لو رجع الأمر إليّ لقضيتُ فيها بقضاء أبي بكر.

قال أبو بكر: وأخبَرنا أبو زيد قال: حدثنا محمد بن الصباح قال: حدثنا يحيى بن المتوكل أبو عقيل، عن كثير النوال قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي عليه السلام: جعلني الله فداك! أرأيت أبا بكر وعمر، هل ظلماكم من حقكم شيئاً - أو قال: ذهبا من حقّكم بشيء؟ - فقال: لا، والذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ما ظلمنا من حقنا مثقَال حبّة من خردل، قلت: جعلت فداك أفأتولاهما؟ قال: نعم ويحك! تولّهما في الدنيا والآخرة، وما أصابك ففي عنقي، ثم قال: فعل الله بالمغيرة وبُنان، فإنهما كذبا علينا أهل البيت.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد الله بن نافع والقعنبي، عن مالك عن الزهري، عن عروة، عن عائشة أن أزواج النبي ﷺ أردْن لما توفّيَ أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهنّ - أو قال ثمَنَهنّ - قال: فقلت لهن: أليس قد قال النبي ﷺ «لا نُورث، ما تركنا صدقة».

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد الله بن نافع والقعنبي وبشر بن عمر، عن مالك، عن أبي الزّناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال: «لا يقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركتُ بعدَ نفقة نسائي ومؤونة عيالي فهو صدقة»[1].

قلت: هذا حديث غريب، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلا أبو بكر وحده.

وقال أبو بكر: وحدثنا أبو يزيد، عن الحزامي، عن ابن وهب، عن يونس عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «والذي

---

(١) أخرجه أحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: باقي المسند السابق (٢٧٢٤٤)، وابن حبان (٦٦٠٩).

نفسي بيده لا يقسِم ورثتي شيئاً، ما تركت صدقة»[١]، قال: وكانت هذه الصّدقة بيَدِ عليّ عليه السلام، غلب عليها العبّاس، وكانت فيها خصومتهما، فأبى عمرُ أن يقسمها بينهما حتى أعرض عنها العبّاس وغلب عليها علي عليه السلام، ثم كانت بيدِ حسن وحسين ابني عليّ عليه السلام، ثم كانت بيَدِ عليّ بن الحسين عليه السلام والحسن بن الحسن، كلاهما يتداولانها، ثم بيد زيد بن عليّ عليه السلام.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا عثمان بن عمر بن فارس، قال: حدثنا يونس، عن الزهريّ، عن مالك بن أوس بن الحدثان، أن عمر بن الخطّاب دعاه يوماً بعد ما ارتفع النهار، قال: فدخلتُ عليه وهو جالس على سرير رمال ليس بينه وبين الرمال فراش، على وسادة أدَم، فقال: يَا مالك، إنه قد قدم من قومك أهلُ أبيات حضروا المدينة، وقد أمرت لهم برضْخ فاقسمه بينهم، فقلت: يا أمير المؤمنين، مُرْ بذلك غيري، قال: اقسم أيها المرء.

قال: فبينا نحن على ذلك إذ دخل يرفأ، فقال: هل لك في عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير يستأذنون عليك؟ قال: نعم، فأذن لهم، قال: ثم لبث قليلاً، ثم جاء فقال: هل لك في عليّ والعباس يستأذنان عليك؟ قال: ائذن لهما، فلما دخلا، قال عباس: يا أمير المؤمنين، اقض بيني وبين هذا - يعني عليّاً - وهما يختصمان في الصوافي التي أفاء الله على رسوله من أموال بني النضير، قال: فاستبّ عليّ والعباس عند عمر، فقال عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين: اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، فقال عمر: أنشدكم الله الذي تقوم بإذنه السماوات والأرض، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا نُورَث، ما تركناه صدقة»، يعني نفسه؟ قالوا: قد قال ذلك، فأقبل على العباس وعليّ فقال: أنْشُدكما الله هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم. قال عمر: فإني أحدّثكم عن هذا الأمر، إن الله تبارك وتعالى خصّ رسوله صلى الله عليه وآله في هذا الفيء بشيء لم يُعطه غيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]، وكانت هذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله، فما اختارها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكُمُوها وثبتها فيكم حتى بقي منها هذا المال، وكان ينفق منه على أهله سنتهم، ثم يأخذ ما بقي فيجعله فيما يجعل مال الله عزّ وجلّ، فعل ذلك في حياته ثم توفّي، فقال أبو بكر: أنا وليّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقبضه الله، وقد عمل فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنتما حينئذ، والتفت إلى عليّ والعباس تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم فاجر، والله يعلم أنه فيها لصادق بارٌّ راشد، تابع للحق،

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ١١١، وأخرجه التبريزي الأنصاري في اللمعة البيضاء: ٧٥٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٦.

ثم توفَّى الله أبا بكر، فقلت: أنا أوْلى الناس بأبي بكر وبرسول الله ﷺ، فقبضتها سنتين - أو قال سنين من إمارتي - أعمل فيها مثل ما عمل به رسول الله ﷺ وأبو بكر، ثم قال: وأنتما - وأقبل على العباس وعليّ - تزعمان أني فيها ظالم فاجر، والله يعلم أني فيها بارّ راشد، تابع للحق ثم جئتماني وكلمتكما واحدةٌ، وأمركما جميع، فجئتني - يعني العباس - تسألُني نصيبك من ابن أخيك، وجاءني هذا - يعني علياً - يسألني نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة»، فلما بدا لي أن أدفعها إليكما قلت: أدفعها على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل رسول الله ﷺ وأبو بكر، وبما عملتُ به فيها، وإلّا فلا تكلّماني! فقلتُما: ادفعها إلينا بذلك، فدفعتُها إليكما بذلك، أفتلتمسان منّي قضاء غير ذلك! والله الذي تقوم بإذنه السُّماوات والأرض لا أقضي بينكما بقضاءٍ غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاها إليّ فأنا أكفيكماها!

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو زيد قال: حدّثنا إسحاق بن إدريس، قال: حدّثنا عبد الله بن المبارك قال: حدثني يونس، عن الزهري قال: حدثني مالك بن أوس بن الحدّثان بنحوه، قال فذكرت ذلك لعروة فقال: صدق مالك بن أوس، أنا سمعتُ عائشة تقول: أرسل أزواجُ النبيّ ﷺ عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسأل لهن ميراثهنّ من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه حتى كنت أردّهنّ عن ذلك، فقلت: ألا تتّقين الله، ألم تعلمْن أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا نورَث، ما تركناه صدقة»، يريد بذلك نفسه، إنما يأكل آل محمد من هذا المال، فانتهى أزواج النبي ﷺ إلى ما أمرتهنّ به.

قلت: هذا مشكل، لأن الحديث الأول يتضمن أن عمر أقسم على جماعة فيهم عثمان، فقال: نشدتكم الله، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركناه صدقة»، يعني نفسه! فقالوا: نعم، ومن جملتهم عثمان، فكيف يعلم بذلك فيكون مترسّلاً لأزواج النبيّ ﷺ: يسأله أن يعطيهنّ الميراث! اللهمّ إلا أن يكون عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير صدّقوا عمر على سبيل التقليد لأبي بكر فيما رواه وحُسْنِ الظنّ، وسمّوْا ذلك عِلْماً، لأنه قد يطلق على الظنّ اسم العلم.

فإن قال قائل: فهلّا حسن ظن عثمان برواية أبي بكر في مبدأ الأمر فلم يكن رسولاً لزوجات النبي ﷺ في طلب الميراث؟.

قيل له: يجوز أن يكون في مبدأ الأمر شاكّاً، ثم يغلب على ظنه صِدْقه لأمارات اقتضت تصديقه، وكلّ الناس يقع لهم مثل ذلك.

وها هنا إشكال آخر، وهو أنّ عمر ناشد عليًّا والعبّاس: هل تَعلمان ذلك؟ فقالا: نعم، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العبّاس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على ما ذكره في خبر سابق على هذا الخبر، وقد أوردناه نحن! وهل يجوز أن يقال: كان العبّاس يعلم ذلك ثم يطلب الإرث الّذي لا يستحقّه؟ وهل يجوز أن يقال: إنّ عليًّا كان يعلم ذلك ويمكّن زوجته أن تطلب ما لا تستحقّه، خرجت من دارها إلى المسجد، ونازعت أبا بكر، وكلّمته بما كلّمته إلّا بقوله وإذنه ورأيه. وأيضاً فإنه إذا كان صلّى الله عليه وآله لا يُورَث، فقد أشكل دفع آلته ودابته وحذائه إلى عليّ عليه السلام، لأنّه غير وارث في الأصل، وإن كان أعطاه ذلك لأنّ زوجته بعُرْضة أن تَرث، لولا الخبر، فهو أيضاً غير جائز، لأنّ الخبر قد مَنَع من أن يرث منه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً.

فإن قال قائل: نحن معاشرَ الأنبياء لا نُوَرّث ذهباً ولا فضّة ولا أرضاً ولا عَقاراً ولا داراً.

قيل: هذا الكلام يُفهَم من مضمونه أنّهم لا يورّثون شيئاً أصلاً، لأنّ عادة العرب جاريةٌ بمثل ذلك، وليس يقصدون نفيَ ميراث هذه الأجناس المعدودة دون غيرها، بل يجعلون ذلك التّصريح بنفي أن يورّثوا شيئاً ما على الإطلاق.

وأيضاً فإنّه جاء في خبر الدابّة والآلة والحذاء أنّه رُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا نُورَث، ما تركناه صدقة»، ولم يقل «لا نُورث كذا ولا كذا» وذلك يقتضي عموم انتفاء الإرث عن كل شيء.

وأما الخبر الثاني وهو الذي رواه هشام بن محمد الكلبي، عن أبيه، ففيه إشكال أيضاً، لأنّه قال: إنّها طلبت فَدَك، وقالت: إنّ أبي أعطانيها، وإنّ أمّ أيمن تشهد لي بذلك، فقال لها أبو بكر في الجواب: إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّما كان مالاً من أموال المسلمين، يحمل به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلقائل أن يقول له: أيجوز للنبيّ صلى الله عليه وآله أن يملّك ابنتَه أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعةً مخصوصة، أو عقاراً مخصوصاً من مال المسلمين، لِوَحْيٍ أوْحَى الله تعالى إليه، أو لاجتهاد رأيه على قول من أجاز له أن يحكم بالاجتهاد، أو لا يجوز للنبيّ صلى الله عليه وآله ذلك؟ فإن قال: لا يجوز، قال ما لا يوافقه العقل ولا المسلمون عليه، وإن قال: يجوز ذلك، قيل: فإنّ المرأة ما اقتصرت على الدعوى، بل قالت: أمّ أيمن تشهد لي، فكان ينبغي أن يقول لها في الجواب: شهادة أمّ أيمن وحدها غيرُ مقبولة، ولم يتضمّن هذا الخبرُ ذلك، بل قال لها لمّا ادّعت وذكرت من يشهد لها: هذا مالٌ من مال الله. لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ليس بجواب صحيح.

وأمّا الخبر الّذي رواه محمد بن زكريّا عن عائشة، ففيه من الإشكال مثل ما في هذا الخبر، لأنّه إذا شهد لها عليّ عليه السلام وأمّ أيمن أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وهب لها فَدَك، لم يصحّ اجتماع صِدْقها وصِدْق عبد الرحمن وعمر، ولا ما تكلّفه أبو بكر من تأويل ذلك بمستقيم، لأنّ كونها

هِبَة من رسول الله ﷺ لها يَمْنَع من قوله: «كان يأخذ منها قُوتَكم، ويَقسم الباقيَ، ويحمِل منه في سبيل الله»، لأنَّ هذا ينافي كونها هبة لها، لأنَّ معنى كونها لها انتقالها إلى مِلْكيّتها، وأن تتصرّف فيها خاصّة دون كلّ أحد من الناس، وما هذه صفتُه كيف يقسم ويحمل منه في سبيل الله!

فإن قال قائل: هو ﷺ أبوها، وحُكمُه في مالها كحُكمِه في ماله وفي بيت مال المسلمين، فلعلّه كان بحكم الأبوّة يفعل ذلك!

قيل: فإذاً كان يتصرّف فيها تصرُّف الأب في مال ولده، لا يخرجه ذلك عن كونه مال ولده، فإذا مات الأب لم يجز لأحد أن يتصرّف في مال ذلك الولد، لأنّه ليس بأب له فيتصرّف في ماله تصرّف الآباء في أموال أولادهم، على أن الفقهاء أو معُظمَهم لا يجيزون للأب أن يتصرف في مال الابن.

وها هنا إشكالٌ آخر، وهو قول عمر لعِليّ عليه السلام والعبّاس: وأنتما حينئذ تزعمان أن أبا بكر فيها ظالم فاجر، ثم قال لما ذكر نفسه: وأنتما تزعمان أنّي فيها ظالم فاجر، فإذا كانا يزعمان ذلك فكيف يزعم هذا الزّعم مع كونهما يعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا أورَث»! إن هذا لمن أعجب العجائب، ولولا أن هذا الحديث - أعني حديث خصومة العبّاس وعليّ عند عمر - مذكورٌ في الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه، إذ لو كان غير مذكور في الصّحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن في صحتّه، وإنما الحديث في الصحاح لا ريب في ذلك.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدّثنا ابن أبي شَيْبة، قال: حدّثنا ابن عُلَيّة، عن أيّوب، عن عكرمة، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان قال: جاء العبّاس وعليّ إلى عمر، فقال العباس: اقضِ بيني وبين هذا الكذا وكذا، أي يشتمه، فقال الناس: افصل بينهما، فقال لا أفصل بينهما، قد علما أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَث، ما تركناه صدقة».

قلت: وهذا أيضاً مُشكل، لأنّهما حضرا يتنازعان لا في الميراث، بل في ولاية صدقة رسول الله ﷺ أيّهما يتولّاها ولايةً لا إرثاً! وعلى هذا كانت الخصومة، فهل يكون جواب ذلك قد علما أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَث»!

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثني يحيى بن كثير أبو غسّان قال: حدثنا شعبة عن عمر بن مرّة، عن أبي البَختريّ قال: جاء العبّاس وعليّ إلى عمر وهما يختصمان، فقال عمر لطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد: أنشُدكم الله، أسمعتم رسول الله ﷺ يقول: «كل مال نبيّ فهو صدقة، إلا ما أطعمه أهله، إنَّا لا نُورَث»! فقالوا: نعم، قال: وكان رسول الله يتصدّق به، ويَقسِم فضله، ثم توفّيَ فوليَه أبو بكر سنتين يصنع فيه ما كان يَصنعُ رسول الله ﷺ، وأنتما تقولان: إنه كان خاطئاً، وكان بذلك ظالماً، وما كان بذلك إلا راشداً، ثم وُلِّيتُه بعد أبي بكر فقلت لكما: إن شئتما قبلتُماه على عمل رسول الله ﷺ وعهده الذي عهد فيه، فقلتما: نعم،

وجئتماني الآن تختصمان، يقول هذا: أريد نصيبي من ابن أخي، ويقول هذا: أريد نصيبي من امرأتي! ولا الله لا أقضي بينكما إلّا بذلك.

قلتُ: وهذا أيضاً مُشكِل، لأن أكثر الروايات أنّه لم يَروِ هذا الخبر إلّا أبو بكر وحده، ذكر ذلك أعظم المحدّثين، حتى أنّ الفقهاء في أصول الفقيه أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابيّ الواحد. وقال شيخنا أبو عليّ: لا تقبل في الرواية إلا رواية اثنين كالشهادة، فخالفه المتكلّمون والفقهاء كلّهم، واحتجّوا عليه بقبول الصحابة رواية أبي بكر وحده: «نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث»، حتى أنّ بعض أصحاب أبي عليّ تكلّف لذلك جواباً، فقال: قد رُوي أنّ أبا بكر يوم حاجّ فاطمة عليها السلام قال: أنشُد الله امرأً سمعَ مِن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا شيئاً! فرَوَى مالك بن أوس بن الحدثان، أنّه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا الحديث ينطق بأنه استَشهد عمرَ وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمن وسعداً، فقالوا: سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فأين كانت هذه الروايات أيّام أبي بكر! ما نقل أنّ أحداً من هؤلاء يوم خصومة فاطمةَ عليها السلام وأبي بكر رَوَى من هذا شيئاً.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة، قال: حدّثنا محمد بن يحيى، عن إبراهيم بن أبي يحيى، عن الزُّهريّ، عن عروة، عن عائشة أن أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله أرسلنَ عثمان إلى أبي بكر، فذكر الحديث، قال عروة: وكانت فاطمة قد سألتْ ميراثها من أبي بكر ممّا تركه النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال لها: بأبي أنتِ وأمّي، وبأبي أبوكِ وأمّي ونفسي، إن كنتِ سمعتِ من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً، أو أمركِ بشيء لم أتّبع غير ما تقولين، أعطيتكِ ما تبتغين، وإلّا فإني أتبع ما أمِرتُ به!

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو زيد قال: حدّثنا عمرو بن مرزوق، عن شعبة، عن عمرو بن مرّة، عن أبي البَختري قال: قال لها أبو بكر لمّا طلبتْ فَدَك: بأبي أنتِ وأمّي! أنت عندي الصادقة الأمينة، إن كان رسول الله صلى الله عليه وآله عَهِد إليك في ذلك عهداً، أو وَعَدَكِ به وعداً، صدَّقْتُكِ، وسلّمت إليك! فقالت: لم يعهد إليّ في ذلك بشيء، ولكن الله تعالى يقول: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾[1]، فقال: أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّا معاشر الأنبياء لا نُورَث»[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) تقدم تخريجه.

قلت: وفي هذا من الإشكال ما هو ظاهر، لأنّها قد ادّعت أنه عَهِد إليها رسول الله ﷺ في ذلك أعظم العهد، وهو النِّحْلة، فكيف سكتت عن ذكر هذا لمّا سألها أبو بكر! وهذا أعجبُ من العجب.

قال أبو بكر: وحدّثنا أبو زيد، قال: حدّثنا محمد بن يحيى، قال: حدثنا عبد العزيز بن عمران بن عبد العزيز بن عبد الله الأنصاريّ عن ابن شهاب، عن مالك بن أوس بن الحَدْثان، قال: سمعتُ عمر وهو يقول للعبّاس وعليّ وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة: أنشُدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «إنّا لا نُورَث، معاشرَ الأنبياء، ما تركنا صدقة»؟ قالوا: اللهمّ نعم، قال: أنشُدكم الله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ يدخل في فيئه أهله السّنة من صدقاته، ثم يجعل ما بقيَ في بيت المال! قالوا: اللّهمّ نعم، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ قبضها أبو بكر، فجئت يا عبّاسُ تطلب ميراثك من ابن أخيك، وجئت يا عليّ تطلب ميراث زوجتك من أبيها! وزعمتما أن أبا بكر كان فيها خائناً فاجراً، والله لقد كان امرأً مطيعاً، تابعاً للحق، ثم توفّيَ أبو بكر فقبضتها، فجئتماني تطلبان ميراثكما، أما أنت يا عبّاس فتطلب ميراثك من ابن أخيك، وأما عليّ فيطلب ميراث زوجته من أبيها، وزعمتما أنّي فيها خائن وفاجر، والله يعلم أنّي فيها مطيع تابع للحق، فأصلحا أمرَكما، وإلّا والله لم ترجع إليكما. فقاما وترَكا الخصومة وأمضيت صدقة.

قال أبو زيد: قال أبو غسّان: فحدّثنا عبد الرّزاق الصنعانيّ، عن مَعمر بن شهاب، عن مالك بنحوه، وقال في آخره: فغلب عليٌّ عباساً عليها، فكانت بيَدِ عليّ، ثمّ كانت بيد الحسن، ثم كانت بيد الحسين، ثم عليّ بن الحسين، ثم الحسن بن الحسن، ثم زيد بن الحسن.

قلت: وهذا الحديث يدلّ صريحاً على أنهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية، وهذا من المُشكِلات، لأنّ أبا بكر حَسَم المادّة أوّلاً، وقرّر عند العبّاس وعليّ وغيرهما أنّ النبي ﷺ لا يُورَث، وكان عمر من المساعدين له على ذلك، فكيف يعود العبّاس وعليّ بعد وفاة أبي بكر، يحاولان أمراً قد كان فُرِغ منه، ويُئِس من حصوله، اللهمّ إلا أن يكونا ظنّا أن عمر يَنقُض قضاءَ أبي بكر في هذه المسألة، وهذا بعيد، لأنّ عليًّا والعبّاس كانا في هذه المسألة يتهمان عمر بممالأة أبي بكر على ذلك ألا تراه يقول: نسبتُماني ونسبتُما أبا بكر إلى الظلم والخيانة، فكيف يظنّان أنّه ينقض قضاء أبي بكر ويورّثهما!

واعلم أن الناس يظنّون أن نزاع فاطمة أبا بكر كان في أمرين: في الميراث والنِّحلة، وقد

وجدتُ في الحديث أنّها نازعتْ في أمر ثالث، ومنَعها أبو بكر إيّاه أيضاً، وهو سهم ذوِي القربى.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ: أخبرني أبو زيد عمر بن شَبة، قال: حدّثني هارون بن عمير، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدّثني صدقة أبو معاوية، عن محمد بن عبد الله، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن يزيد الرُّقاشيّ، عن أنس بن مالك، أن فاطمة عليها السلام أتت أبا بكر فقالت: لقد علمت الّذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات، وما أفاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذَوِي القربى! ثم قرأتْ عليه قولَه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1] الآية، فقال لها أبو بكر: بأبي أنت وأمّي ووالدِ وَلَدَكِ! السمع والطاعة لكتاب الله ولحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وحقّ قرابته، وأنا أقرأ من كتاب الله الّذي تقرئين منه، ولم يبلغ علمي منه أن هذا السّهم من الخمس يسلَّم إليكم كاملاً، قالت: أفلك هو ولأقربائك؟ قال: لا، بل أنفق عليكم منه، وأصرِف الباقي في مصالح المسلمين قالت: ليس هذا حكم الله تعالى، قال: هذا حكم الله، فإن كان رسولُ الله عَهِد إليك في هذا عهداً أو أوجَبه لكم حقاً صدّقتكِ وسلّمته كلّه إليك وإلى أهلك، قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يَعهَد إليّ في ذلك بشيء، إلّا أنّي سمعته يقول لما أنزلت هذه الآية: «أبشِروا آل محمد فقد جاءكم الغِنَى»، قال أبو بكر: لم يبلغ علمي من هذه الآية أن أسلّم إليكم هذا السّهم كلّه كاملاً، ولكنْ لكم الغنى الّذي يُغنيكم، ويفضل عنكم، وهذا عمر بن الخطّاب، وأبو عبيدة بن الجرّاح فاسأليهم عن ذلك، وانظري هل يوافِقُك على ما طلبتِ أحد منهم! فانصرفتْ إلى عمر فقالت له مِثل ما قالت لأبي بكر، فقال لها مثل ما قاله لها أبو بكر، فعجبتْ فاطمة عليها السلام من ذلك، وتظنّت أنّهما كانا قد تذاكَرا ذلك واجتمعا عليه.

قال أبو بكر: وأخبَرَنا أبو زيد قال: حدثنا هارون بن عمير، قال: حدّثنا الوليد، عن ابن أبي لهِيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، قال: أرادت فاطمةُ أبا بكر على فَدَك وسهم ذوي القربى، فأبى عليها، وجعلهما في مال الله تعالى.

قال أبو بكر: وأخبَرَنا أبو زيد، قال: حدّثنا أحمد بن معاوية، عن هيثم، عن جويبر، عن أبي الضحّاك عن الحسن بن محمد بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أن أبا بكر منَع فاطمة وبني هاشم سهم ذوي القربى، وجعله في سبيل الله في السلاح والكُراع.

قال أبو بكر: وأخبَرَنا أبو زيد قال: حدّثنا حيّان بن هلال، عن محمد بن يزيد بن ذريع، عن محمد بن إسحاق، قال: سألتُ أبا جعفر محمد بن عليّ عليه السلام، قلت: أرأيتَ عليًا حين

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

وليَ العراق وما ولي من أمر الناس كيف صنع في سهم ذوي القربى؟ قال: سَلَك بهم طريقَ أبي بكر وعمر، قلت: وكيف؟ ولم؟ وأنتم تقولون ما تقولون! قال: أما والله ما كان أهلُه يَصدُرون إلّا عن رأيه، فقلت: فما منَعه؟ قال: كان يكره أن يُدّعى عليه مخالفة أبي بكر وعمر.

قال أبو بكر: وحدثني المؤمّل بن جعفر، قال: حدثني محمد بن ميمون، عن داود بن المبارك، قال: أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحجّ في جماعة، فسألناه عن مسائل وكنت أحدَ مَنْ ساله، فسألتُه عن أبي بكر وعمرَ، فقال: سئل جدّي عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال: كانت أمّي صدّيقة بنت نبيّ مرسل، فماتت وهي غَضْبَى على إنسان، فنحن غِضابٌ لغضبها، وإذا رضيتْ رَضِينا.

قال أبو بكر: وحدّثني أبو جعفر محمد بن القاسم قال: حدّثني عليّ بن الصبّاح قال: أنشدنا أبو الحسن رواية المفضّل للكميت:

أهوَى عليّاً أميرَ المؤمنين وَلا ... أرضَى بشتمِ أبي بكر ولا عُمرا
ولا أقولُ وإن لم يُعطِيَا فَدَكاً ... بنتَ النبيّ ولا ميراثها: كَفَرا
الله يَعلم ماذا يَحضُران به ... يومَ القيامة من عذرٍ إذا اعتَذَرا

قال ابن الصبّاح: فقال لي أبو الحسن: أتقول: إنّه قد أكفرهما في هذا الشعر! قلت: نعم، قال: كذاك هو.

قال أبو بكر: حدّثنا أبو زيد، عن هارون بن عمير، عن الوليد بن مسلم، عن إسماعيل بن عباس، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن مولى أم هانىء، قال: دخلتْ فاطمةُ على أبي بكر بعد ما استُخلِف، فسألته ميراثَها من أبيها، فمنعها، فقالت له: لئن مُتَّ اليومَ مَن كان يرثُك؟ قال: ولدي وأهلي، قالت: فلم وَرِثتَ أنتَ رسول الله ﷺ دون ولده وأهله؟ قال: فما فعلتُ يا بنتَ رسول الله ﷺ! قالت: بلى، إنك عمدت إلى فَدَك، وكانت صافيةً لرسول الله ﷺ فأخذتها، وعمدتَ إلى ما أنزل الله من السماء فرفعتَه عنّا فقال: يا بنتَ رسول الله ﷺ، لم أفعل، حدّثني رسول الله ﷺ أن الله تعالى يُطعِم النبيَّ ﷺ الطُّعمة ما كان حيًّا، فإذا قبضه الله إليه رُفعتْ، فقالت: أنتَ ورسولُ الله أعلم، ما أنا بسائلتكَ بعد مجلسي. ثم انصرفَتْ.

قال أبو بكر: وحدّثنا محمد بن زكريّا، قال: حدّثنا محمد بن عبد الرحمن المهلّبي، عن عبد الله بن حمّاد بن سليمان، عن أبيه، عن عبد الله بن حسن بن حسن، عن أمّه فاطمَة بنتِ الحسين عليه السلام، قالت: لمّا اشتدّ بفاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ الوجع وثَقُلتْ في علّتها، اجتمع عندها نساءٌ من نساء المهاجرين والأنصار، فقلن لها: كيف أصبحتِ يا ابنةَ رسولِ الله ﷺ؟ قالت: والله أصبحتُ عائفةً لدُنْيَاكم، قاليَةً لرجالكم، لفظتُهم بعد أن عَجَمتُهم، وشنيِتُهم بعد أن

سَبَرْتهم، فقبحاً لفُلول الحدّ وخَوَر القناة، وخَطَل الرأي! وبئسما قدّمَتْ لهم أنفسُهم أنْ سَخِط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، لا جَرَمَ قد قلّدتهم رِبْقَتها، وشنّت عليهم غارتها، فَجدْعاً وعَقْراً، وسُحْقاً للقوم الظالمين! وَيْحَهم! أين زحزحوها عن رَوَاسي الرّسالة، وقواعدِ النبوّة، ومَهبِط الرُّوح الأمين، والطيّبين بأمر الدّنيا، والدّين، ألا ذلك هو الخسران المبين! وما الّذي نَقموا من أبي حسن! نَقموا والله نكيرَ سيفه، وشِدَّة وَطْأته، ونَكالَ وَقْعته، وتنمّره في ذات الله، وتالله لو تكافُّوا عن زِمامٍ نبذَه إليه رسول الله ﷺ لاعتَلَقه، ولسار إليهم سيراً سُجُحاً، لا تكلَم حشاشته، ولا يتعتَع راكبُه، ولأوردهم مَنهلاً نَميراً فضفاضاً يطفح ضفّتاه، ولأصدرهم بِطاناً قد تحيّر بهم الرأي، غير متحلٍّ بطائل، إلّا بغَمر الناهل، وردعه سورة الساغبِ، ولفتحتْ عليهم بركات من السّماءِ والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون. ألا هلمّ فاستمع وما عشت أراك الدهر عجبه، وإن تعجب فقد أعجبك الحادث، إلى أيّ لجأ استندوا، وبأيّ عُروة تمسّكوا! لبئسَ المَولى ولبئس العَشِير، ولبئس للظّالمين بدلاً! استبدلوا والله الذُّنَابى بالقَوادم، والعَجُز بالكاهل، فرغْماً لمعاطس قوم يَحسبَون أنّهم يُحسِنون صُنْعاً، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾(١)، وَيْحهم! ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٢)! أما لَعَمر الله لقد لَقِحت، فنظِرة رَيْثما تُنْتَج، ثمّ احتلبوها طِلاعَ العَقْب دَماً عَبِيطاً وذُعافاً مُمقِراً هنالك يَخسَر المُبطِلون، ويعَرِف التالون غِبَّ ما أسّس الأوّلون، ثم طِيبوا عن أنفسكم نفساً، واطمئنّوا للفتنة جأشاً، وأبشِروا بسيفٍ صارم، وهرْجٍ شامل، واستبدادٍ من الظالمين يَدَعُ فيئكم زهيداً، وجمعَكم حَصِيداً، فيا حسرةً عليكم، وأنّى لَكم وقد عُمِّيتْ عليكم أنلزِمكموها وأنتم لها كارهون! والحمد لله رب العالمين، وصلاتُه على محمد خاتم النبيّين، وسيّد المرسلين.

قلتُ: هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكرُ فَدَك والميراث، إلّا أنّه من تتمّة ذلك، وفيه إيضاح لما كان عندها، وبيانٌ لشدّة غيظها وغَضَبها، فإنّه سيأتي فيما بعدُ ذكر ما يناقض به قاضي القضاة والمرتضى في أنّها هل كانت غَضْبى أم لا! ونحن لا ننصر مذهباً بعينه، وإنّما نذكر ما قيل، وإذا جرى بحثٌ نظريٌّ قلنا ما يقوى في أنفسنا منه.

واعلم أنّا إنّما نذكر في هذا الفصل ما رواه رجالُ الحديث وثِقاتُهم، وما أَوْدعه أحمدُ بنُ عبد العزيز الجوهريُّ في كتابه، وهو من الثّقات الأمناء عند أصحاب الحديث، وأمّا ما يرويه رجال الشّيعة والإخباريّون منهم في كتبهم من قولهم: إنّهما أهاناها وأسمعَاها كلاماً غليظاً،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢. (٢) سورة يونس، الآية: ٣٥.

وإنّ أبا بكر رقّ لها حيث لم يكن عمرُ حاضراً، فكتب لها بفَدَك كتاباً، فلمّا خرجتْ به وجدَها عمر، فمدّ يده إليه ليأخذه مغالبة، فمنعتْه، فدفع بيَدِه في صدرها وأخَذ الصحيفةَ فخرقها بعد أن تَفَل فيها فمحاها، وإنها دعت عليه فقالت: بَقَر الله بطنَك كما بقرتَ صحيفتي، فشيءٌ لا يرويه أصحابُ الحديث ولا ينقلُونه، وقدرُ الصَّحابة يَجِلّ عنه، وكان عمرُ أتقى لله، وأعرف لحقوق الله من ذلك، وقد نَظَمت الشّيعة بعض هذه الواقعة التي يذكرونها شِعراً أوّله أبياتٌ لمهيار بن مرزويه الشاعر من قصيدته الّتي أوّلها:

يا ابنة القومِ تُراكِ ... بالغٌ قَتْلِي رِضاكِ

وقد ذيّل عليها بعضُ الشّيعة وأتمّها، والأبيات:

يا ابنةَ الطّاهِرِ كَمْ تُقـ ... ـرَعُ بالظّلم عَصاكِ
غَضِبَ الله لِخَطْبِ ... ليلةَ الطَّفّ عَراكِ
ورَعَى النّارَ غَداً قـ ... ـط رعَى أمس حِماكِ
مَرّ لم يعطِفه شكوَى ... ولا استحيَا بكاكِ
واقتدى النّاس به بعـ ... ـدُ فأرْدَى وَلَدَاكِ
يا ابنةَ الرّاقي إلى السد ... رة في لوح السِّكاكِ
لهف نفسي وعلي مِثـ ... ـلِك فلْتبكِ البَواكي
كيف لم تقطع يَدٌ مـ ... ـدَّ إليك ابن صحاك
فَرِحوا يومَ أهانو ... كِ بما ساءَ أباكِ
ولقد أخبَرَهم أنّ ... رِضاه في رِضاكِ
دَفعا النصّ على إر ... ثك لمّا دَفَعاكِ
وتعرّضتِ لقَدْرِ ... تافهٍ وانتَهراك
وادّعيت النِّحْلةَ المشـ ... ـهود فيها بالصِّكاكِ
فاستشاطا ثمّ ما إن ... كَذَّبا إن كذّباكِ
فزوَى الله عن الرَّحْـ ... ـمةِ زنديقاً ذَواكِ
ونَفَى عن بابه الوا ... سع شيطاناً نَفاكِ

فانظر إلى هذه البليّة التي صبّت من هؤلاءِ على سادات المسلمين، وأعلام المهاجرين! وليس ذلك بقادح في عُلوّ شأنهم، وجلالة مكانهم، كما أن مُبغضي الأنبياء وحَسَدتهم، ومصنّفي الكتب في إلحاق العَيْبِ والتهجين لشرائعهم لم تزدْ لأنبيائهم إلّا رفعة، ولا زادت شرائعهم إلّا انتشاراً في الأرض، وقبولاً في النفس، وبهجةً ونوراً عند ذوي الألباب والعقول.

وقال لي عَلَوِيّ في الحلّة يُعرَف بعلي بن مهنأ، ذكيّ ذو فضائل: ما تظنّ قصدَ أبي بكر وعمرَ بمنع فاطمة فَدَكَ؟ قلت: ما قصدا؟ قال: أرادا ألّا يُظهرا لعلّي - وقد اغتصباه الخلافة - رقّة وليناً وخذلاناً، ولا يرى عندهما خوَراً، فأتبَعا القرْح بالقرْح.

وقلت لمتكلّم من متكلّمي الإمامية يُعرَف بعليّ بن تقيّ من بلدة النيل: وهل كانت فَدَك إلا نخلاً يسيراً وعقاراً ليس بذلك الخطير! فقال لي: ليس الأمرُ كذلك، بل كانت جليلة جدّاً، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل، وما قصد أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألّا يتقوّى عليٌّ بحاصِلها وغَلّتها على المنازعة في الخلافة، ولهذا أتبعا ذلك بمنع فاطمة وعليّ وسائر بني هاشم وبني المطلب حقَّهم في الخمس، فإنّ الفقير الذي لا مال له تضعف همّته ويتصاغر عند نفسه، ويكون مشغولاً بالاحتراس والاكتساب عن طلب المُلك والرياسة، فانظر إلى ما قد وقَر في صدور هؤلاء، وهو داءٌ لا دواء له، وما أكثر ما تزول الأخلاق والشِّيم، فأما العقائد الراسخة فلا سبيل إلى زوالها!

الفصل الثاني

في النظر في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل يُورَث أم لا؟

نذكر في هذا الموضع ما حكاه المرتضى رحمه الله في «الشّافي» عن قاضي القضاة في هذا المعنى، وما اعترضه به، وإن استضعفْنا شيئاً من ذلك قلنا ما عندنا، وإلّا تركناه على حاله.

قال المرتضى: أوّل ما ابتدأ به قاضي القضاة حكايته عنّا استدلالنا على أنه صلّى الله عليه وآله مورِّث بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[1] وهذا الخطاب عامّ يدخل فيه النبيّ وغيرُه.

ثم أجاب - يعني قاضي القضاة - عن ذلك، فقال: إن الخبر الذي احتجّ به أبو بكر - يعني قوله: «نحن معاشَر الأنبياء لا نُورَث» - لم يقتصر على روايته هو وحده حتى استشهد عليه عمرَ وعثمانَ وطلحةَ والزبيرَ وسعداً وعبد الرحمن، فشهدوا به، فكان لا يحلّ لأبي بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثاً، وقد خبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنها صدقة وليست بميراث، وأقلّ ما في هذا الباب أن يكون الخبر من أخبار الآحاد، فلو أنّ شاهدين شهدا في التركة أنّ فيها حقّاً، أليس كان يجب أن يصرف ذلك عن الإرث! فعلمُه بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع شهادة غيره أقوى. ولسنا نجعله مدّعياً لأنّه لم يدّع ذلك لنفسه، وإنما بيّن أنه ليس بميراث، وأنه

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

صدقة. ولا يمتنع تخصيص القرآن بذلك، كما يخصّ في العبد والقاتل وغيرهما، وليس ذلك بنقص في الأنبياء، بل هو إجلالٌ لهم، يرفع الله به قدرهم عن أن يورّثوا المال، وصار ذلك من أوكد الدواعي ألّا يتشاغلوا بجمعه، لأن أحد الدواعي القوية إلى ذلك تركه على الأولاد والأهلين. ولما سمعتْ فاطمة عليها السلام ذلك من أبي بكر كفّت عن الطلب فيما ثبت من الأخبار الصحيحة، فلا يمتنع أن تكون غيرَ عارفة بذلك، فطلبت الإرث، فلما رَوَى لها ما رَوَى كفّت، فأصابت أولاً وأصابت ثانياً.

وليس لأحد أن يقول: كيف يجوز أن يبين النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك للقوم ولا حقّ لهم في الإرث، ويدَع أن يبين ذلك لمن له حقّ في الإرث، مع أنّ التكليف يتصل به، وذلك لأنّ التكليف في ذلك يتعلّق بالإمام، فإذا بيّن له جاز ألّا يبيّن لغيره ويصير البيان له بياناً لغيره، وإن لم يسمعه من الرّسول، لأنّ هذا الجنس من البيان يجب أن يكون بحسب المصلحة!

قال: ثمّ حكي عن أبي عليّ أنه قال: أتعلمون كذِبَ أبي بكر في هذه الرواية، أم تجوّزون أن يكون صادقاً؟ قال: وقد علم أنه لا شيء يقطع به على كذبه، فلا بدّ من تجويز كونه صادقاً. وإذا صحّ ذلك قيل لهم: فهل كان يحلّ له مخالفة الرسول؟ فإن قالوا: لو كان صِدْقاً لظهر واشتهر، قيل لهم: إنّ ذلك من باب العمل، ولا يمتنع أن ينفرد بروايته جماعة يسيرة، بل الواحد والاثنان، مثل سائر الأحكام ومثل الشهادات، فإن قالوا نعلم أنه لا يصحّ لقوله تعالى في كتابه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[1]. قيل لهم: ومن أين أنه ورّثه الأموال، مع تجويز أن يكون ورّثه العلم والحكمة؟ فإن قالوا: إطلاق الميراث لا يكون إلّا في الأموال، قيل لهم: إن كتاب الله يُبطل قولَكم، لأنه قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[2]، والكتاب ليس بمال، ويقال في اللغة: ما وَرِثَت الأبناءُ عن الآباء شيئاً أفضلَ من أدب حَسَن، وقالوا: العلماء وَرَثة الأنبياء، وإنما ورثوا منهم العلم دون المال، على أنّ في آخر الآية ما يدلّ على ما قلناه، وهو قولُه تعالى حاكياً عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[3]، فنبّه على أنّ الذي ورث هو هذا العلم وهذا الفضل، وإلا لم يكن لهذا القول تعلق بالأوّل. فإن قالوا: فقد قال تعالى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[4]، وذلك يُبطل الخبر! قيل لهم: ليس في ذلك بيانُ المال أيضاً، وفي الآية ما يدلّ على أنّ المراد النبوّة والعلم، لأن زكريا خاف على العلم أن يندرس، وقوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾[5] يدلّ على ذلك، لأنّ الأنبياء لا تحرِص على الأموال حرصاً يتعلق خوفها

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٤) سورة مريم، الآيتان: ٥، ٦.

(٥) سورة مريم، الآية: ٥.

بها، وإنما أراد خوفه على العلم أن يضيع، فسأل الله تعالى وليًّا يقوم بالدّين مقامه. وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يدلّ على أنّ المراد العلمُ والحكمة، لأنه لا يرث أموال يعقوبَ في الحقيقة، وإنما يرث ذلك غيره. قال: فأمّا مَنْ يقول: إنّ المراد: إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث، ما تركناه صدقة، أي ما جعلناه صدقةً في حال حياتنا لا نورِّثُهُ، فركيك من القول، لأنّ إجماع الصحابة يخالفه، لأنّ أحداً لم يتأوّله على هذا الوجه، لأنه لا يكون في ذلك تخصيص الأنبياء، ولا مزية لهم، ولأن قوله: «ما تركناه صَدَقة»، جملة من الكلام مستقلّة بنفسها، كأنه عليه السلام مع بيانه أنهم لا يورثون المال، يبيّن أنه صدقة، لأنه كان يجوز ألّا يكون ميراثاً، ويصرف إلى وجه آخر غير الصدقة.

قال: فأمّا خبرَ السيف والبغلة والعمامة وغير ذلك، فقد قال أبو عليّ: إنّه لم يثبت أن أبا بكر دفع ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام على جهة الإرْث، كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذي رواه، وكيف يجوز لو كان وارثاً أن يخصّه بذلك ولا إرث له مع العمّ لأنّه عصبة! فإن كان وصل إلى فاطمة عليها السلام فقد كان ينبغي أن يكون العباس شريكاً في ذلك وأزواج الرّسول صلى الله عليه وآله، ولوَجب أن يكون ذلك ظاهراً مشهوراً ليُعرف أنّهم أخذوا نصيبَهم من ذلك أو بَدَله، ولا يجب إذا لم يدفع أبو بكر ذلك إليه على جهة الإرْث ألّا يحصل ذلك في يده، لأنّه قد يجوز أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله نَحَله ذلك، ويجوز أيضاً أن يكون أبو بكر رَأى الصّلاحَ في ذلك أن يكون بيَده لما فيه من تقوِيَة الدّين، وتصدّق ببدله بعد التقويم، لأنّ الإمام له أن يفعل ذلك.

قال: وحكي عن أبي عليّ في البُرْد والقضيب أنه لم يمتنع أن يكون جعَلَه عُدّة في سبيل الله وتقوِيَة على المشركين، فتداولتْه الأئمة لما فيه من التقوية، ورأى أن ذلك أولَى من أن يتصدّق به إن ثبت أنه عليه السلام لم يكن قد نحله غَيْره في حياته، ثم عارض نفسَه بطلب أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله الميراث، وتنازع أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس بعد موت فاطمةَ عليها السلام. وأجاب عن ذلك بأن قال: يجوز أن يكونوا لم يعرفوا رواية أبي بكر وغيره للخبر.

وقد رُوِي أنّ عائشة لمّا عرّفتهنّ الخبرَ أمسكن، وقد بيّنا أنّه لا يمتنع في مثل ذلك أن يخفى على من يستحق الإرْث، ويعرفه من يتقلّد الأمر، كما يعَرِف العلماءُ والحكّام من أحكام المواريث ما لا يعلَمه أرباب الإرْث، وقد بيّنا أن رواية أبي بكر مع الجماعة أقوى من شاهدين لو شهد أن بعض تركته عليه السلام دَيْن، وهو أقوى من رواية سلمان وابن مسعود لو رَوَيا ذلك.

قال: ومتى تعلّقوا بعموم القرآن أرَيْناهم جوازَ التّخصيص بهذا الخبر، كما أن عموم القرآن يقتضي كون الصّدقات للفقراء، وقد ثبت أن آل محمد لا تَحلّ لهم الصدقة.

هذا آخر ما حكاه المرتضى من كلام قاضِي القُضاة.

ثم قال: نحن نبيّن أوّلاً ما يدلّ على أنّه ﷺ يورّث المال، ونرتّب الكلام في ذلك الترتيب الصحيح، ثم نَعطف على ما أورده، ونتكلّم عليه.

قال رضي الله عنه: والّذي يدّل على ما ذكرنا قوله تعالى مخبراً عن زكريّا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾[1]، فخبّر أنه خاف من بني عمّه، لأن الموالي ها هنا هم بنو العمّ بلا شبهة، وإنّما خافهم أنْ يَرثوا ماله فينفقوه في الفساد، لأنه كان يعرف ذلك من خلائقهم وطرائقهم، فسأل ربّه ولداً يكون أحقّ بميراثه منهم. والذي يدلّ على أنّ المراد بالميراث المذكور ميراثُ المال دون العلم والنبوّة على ما يقولون إنّ لفظة الميراث في اللّغة والشريعة لا يفيد إطلاقُها إلّا على ما يجوز أن ينتقل على الحقيقة من الموروث إلى الوارث، كالأموال وما في معناها، ولا يُستعمل في غير المال إلا تجوّزاً واتّساعاً، ولهذا لا يُفهَم من قول القائل: لا وارث لفلان إلّا فلان، وفلانٌ يرث مع فلان بالظاهر والإطلاق إلّا ميراث الأموال والأعراض دون العلوم وغيرها. وليس لنا أن نعدل عن ظاهر الكلام وحقيقته إلى مَجازه بغير دلالة. وأيضاً فإنّه تعالى خبّر عن نبيّه أنّه اشترط في وارثه أن يكون رضيّاً، ومتى لم يُحمل الميراث في الآية على المال دون العلم والنبوّة لم يكن للاشتراط معنًى، وكان لغواً وعبثاً، لأنه إذا كان إنما سأل مَنْ يقوم مقامه، ويرِث مكانه فقد دخل الرّضا وما هو أعظم من الرّضا في جملة كلامه وسؤاله، فلا مقتضى لاشتراطه، ألا ترى أنّه لا يحسن أن يقول: اللهم أبعث إلينا نبيًّا واجعله عاقلاً، ومكلّفاً، فإذا ثبتتْ هذه الجملة صحّ أنّ زكريّا موروثٌ مالُه. وصحّ أيضاً لصحّتها أن نبيّنا ﷺ ممّن يورّث المال، لأن الإجماع واقع على أن حال نبيّنا عليه السلام لا يخالف حالَ الأنبياء المتقدّمين في ميراث المال، فمن مثبت للأمْرين وناف للأمرْين.

قلت: إن شيخنا أبا الحسين قال في كتاب «الغُرَر»: صورة الخبر الوارد في هذا الباب، وهو الّذي رواه أبو بكر: «لا نُورَث»، ولم يقل: «نحن معاشرَ الأنبياء لا نورث»، فلا يلزم من كون زكريا يورَث الطعنُ في الخبر. وتصفّحت أنا كُتبَ الصِّحاح في الحديث فوجدتُ صيغة الخبر كما قاله أبو الحسين، وإن كان رسولُ الله ﷺ عَنَى نفسَه خاصّة بذلك، فقد سقط احتجاج الشّيعة بقصّة زكريا وغيره من الأنبياء، إلّا أنّه يَبعدُ عندي أن يكون أراد نفسه خاصّة، لأنّه لم تَجْرِ عادته أن يخبر عن نفسه في شيء بالنون.

فإن قلتَ: أيصحّ من المرتضى أن يوافق على أنّ صورة الخبر هكذا، ثم يحتجّ بقصّة زكريّا بأنْ يقول: إذا ثبت أن زكريا موروث، ثبت أنّ رسول الله ﷺ يجوز أن يكون موروثاً. لإجماع الأمّة على أن لا فرق بين الأنبياء كلّهم في هذا الحكم!

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥، ٦.

قلت: وإن ثبت له هذا الإجماع صحّ احتجاجه، ولكن ثبوته يبعد، لأنّ من نفى كون زكريّا عليه السلام موروثاً من الأمّة إنما نفاه لاعتقاده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشرَ الأنبياء»، فإذا كان لم يقل هكذا، لم يقل: إنّ زكريّا عليه السلام غير موروث.

قال المرتضى: وممّا يقوّي ما قدّمناه أن زكريّا عليه السلام خاف بني عمّه، فطلب وارثاً لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلّا بالمال دون العلم والنبوّة، لأنّه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيًّا ليس بأهل للنبوّة، وأن يُورِّث علمَه وحكمَه من ليس أهلاً لهما، ولأنّه إنما بُعث لإذاعة العلم ونشره في الناس، فلا يجوز أن يخاف من الأمر الّذي هو الغرض في البعثة. فإن قيل: هذا يرجع عليكم في الخوف عن إرث المال لأنّ ذلك غاية الضنّ والبخل. قلنا: معاذَ الله أن يستويَ الحال، لأن المال قد يصحّ أن يرزُقَه الله تعالى المؤمن والكافرَ والعدوّ والوليّ، ولا يصحّ ذلك في النبوّة وعلومها. وليس من الظنّ أن يأسى على بني عمّه - وهم من أهل الفساد - أن يظفَروا بماله فينفقوه على المعاصي، ويصرفوه في غير وجوهه المحبوبة، بل ذلك غاية الحكمة وحسن التدبير في الدّين، لأنّ الدّين يحظر تقوية الفسّاق وإمدادَهم بما يُعينُهم على طرائقهم المذمومة، وما يَعُدّ ذلك شحًّا ولا بخلاً إلّا من لا تأمّل له.

فإن قيل: أفلا جاز أن يكون خاف من بني عمّه أن يَرِثوا علمه، وهم من أهل الفساد على ما ادّعيتم فيستفسدوا به الناس، ويموّهوا به عليهم؟ قلنا: لا يخلو هذا العلم الّذي أشرتم إليه من أن يكون هو كتب علمه وصحف حكمته لأنّ ذلك قد يسمّى علماً على طريق المجاز، أو يكون هو العلم الّذي يحلّ القلب. فإن كان الأوّل فهو يرجع إلى معنى المال، ويصحّح أن الأنبياء يُوَرِّثون أموالهم وما في معناها، وإن كان الثاني لم يخلُ هذا من أن يكون هو العلم الّذي بُعِث النبيّ لنشره وأدائه، أو أن يكون علماً مخصوصاً لا يتعلّق بالشريعة، ولا يجب إطّلاع جميع الأمّة عليه، كعلم العواقب وما يَجرِي في مستقبل الأوقات، وما جرى مَجرَى ذلك. والقسم الأوّل لا يجوز على النبيّ أن يخاف من وصوله إلى بني عمّه وهم من جملة أمّته الّذين بعث لإطلاعهم على ذلك، وتأديته إليهم، وكأنّه على هذا الوجه يخاف مما هو الغرض من بعثته. والقسم الثاني فاسدٌ أيضاً، لأنّ هذا العلم المخصوصَ إنّما يستفاد من جهته، ويُوقف عليه بإطلاعه وإعلامه، وليس هو ممّا يجب نشرُه في جميع الناس، فقد كان يجب إذا خاف من إلقائه إلى بعض الناس فساداً ألّا يلقيه إليه، فإنّ ذلك في يده، ولا يحتاج إلى أكثرَ من ذلك.

قلت: لعاكس أن يعكِس هذا على المرتضى رحمه الله حينئذ، ويقول له: وقد كان يجب إذا خاف من أن يرث بنو عمّه أمواله فينفقوها في الفساد أن يتصدّق بها على الفقراء والمساكين، فإنّ ذلك في يده، فيحصل له ثواب الصدقة، ويَحصُل له غرضه من حرمان أولئك المفسدين ميراثه.

قال المرتضى رضي الله عنه: وممّا يدلّ على أنّ الأنبياء يورّثون قولُه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾(١)، والظاهر من إطلاق لفظة «الميراث» يقتضي الأموال وما في معناها على ما دللنا به من قبل.

قال: ويدلّ على ذلك أيضاً قولُه تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ...﴾(٢) الآية، وقد أجمعت الأمّة على عموم هذه اللفظة إلّا من أخرجه الدليل، فيجب أن يتمَسّك بعمومها، لمكان هذه الدّلالة، ولا يخرج عن حكمها إلّا من أخرجه دليل قاطع.

قلت: أمّا قولُه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾(٣)، فظاهرها يقتضي وراثة النبوّة أو الملك أو العِلم الّذي قال في أوّل الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾(٤) لأنه لا معنى لذكر ميراث سليمانَ المال، فإنّ غيره من أولاد داود قد وَرِث أيضاً أباه داودَ، وفي كتب اليهود والنصارى أنّ بني داود كانوا تسعة عشر، وقد قال بعض المسلمين أيضاً ذلك، فأيّ معنًى في تخصيص سليمانَ بالذكر إذا كان إرثَ المال! وأمّا: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، فالبحث في تخصيص ذلك بالخبر فرع من فروع مسألة خبر الواحد، هل هو حجّة في الشرعيّات أم لا! فإن ثبت مذهب المرتضى في كونه ليس بحجّة فكلامه هنا جيّد، وإن لم يثبت فلا مانعَ من تخصيص العموم بالخبر، فإنّ الصحابة قد خصّصتْ عمومات الكتاب بالأخبار في مواضع كثيرة.

قال المرتضى: وأمّا تعلّق صاحب الكتاب بالخبر الّذي رواه أبو بكر وادّعاؤه أنّه أستشهد عمر وعثمان وفلاناً وفلاناً، فأوّل ما فيه أن الّذي ادّعاه من الاستشهاد غير معروف، والّذي رُوِي أنّ عمر أستشهد هؤلاء النفر لما تنازع أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس رضي الله عنه في الميراث، فشَهِدوا بالخبر المتضمّن لنفي الميراث، وإنّما مقول مخالفينا في صحّة الخبر الّذي رواه أبو بكر عند مطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث على إمساك الأمّة عن النكير عليه، والرّد لقضيّته.

قلت: صدق المرتضى رحمه الله فيما قال، أمّا عَقِيب وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، ومطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث، فلم يروِ الخبر إلا أبو بكر وحدَه. وقيل: إنه رواه معه مالك بنُ أوْس بن الحدَثان، وأمّا المهاجرون الّذين ذكرهم قاضي القضاة فإنّما شهدوا بالخبر في خلافة عمر، وقد تقدّم ذكر ذلك..

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٦.
(٤) سورة النمل، الآية: ١٥..

قال المرتضى: ثم لو سلّمنا استشهاد مَنْ ذَكر على الخبر لم يكن فيه حجّة، لأنّ الخبر على كلّ حال لا يخرج من أن يكون غيرَ موجب للعمل، وهو في حكم أخبار الآحاد، وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجري هذا المجرَى، لأن المعلوم لا يُخَصّ إلّا بمعلوم، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة، لم يجز أنْ يخرَج عنها بأمرٍ مظنون.

قال: وهذا الكلام مبنيٌّ على أنّ التخصيص للكتاب والسنّة المقطوع بها لا يقع بأخبار الآحاد، وهو المذهب الصحيح. وقد أشرنا إلى ما يمكن أن يُعتمَد في الدلالة عليه من أن الظّنّ لا يقابل العلم، ولا يرجَع عن المعلوم بالمظنون. قال: وليس لهم أن يقولوا: إنّ التخصيص بأخبار الآحاد يستند أيضاً إلى عِلم، وإن كان الطريق مظنوناً، ويشيروا إلى ما يدّعونه من الدّلالة على وجوب العملَ بخبر الواحد في الشريعة، وأنّه حجّة، لأنّ ذلك مبني من قولهم على ما لا نسلّمه، وقد دلّ الدليل على فساده - أعني قولهم: خبر الواحد حجّة في الشرع - على أنّهم لو سلّم لهم ذلك لاحتاجوا إلى دليل مستأنَف على أنه يقبل في تخصيص القرآن، لأنّ ما دلّ على العمل به في الجملة لا يتناول هذا الموضع، كما لا يتناول جواز النّسخ به.

قلت: أمّا قولُ المرتضى: لو سلّمنا أنّ هؤلاء المهاجرين الستّة رَوَوْه لما خرج عن كونه خبراً واحداً، ولما جاز أن يرجع عن عموم الكتاب به، لأنه معلوم، والخبر مظنون.

ولقائل أن يقول: ليته حصل في كلّ واحد من آيات القرآن رواية مثل هذه الستّة، حيث جمع القرآن على عهد عثمان ومن قبله من الخلفاء، فإنهم بدون هذا العدد كانوا يعملون في إثبات الآية في المصحف، بل كانوا يحلّفون من أتاهم بالآية. ومَنْ نظر في كتب التواريخ عَرَف ذلك، فإن كان هذا العدد إنّما يفيد الظنّ فالقولُ في آيات الكتاب كذلك، وإن كانت آيات الكتاب أثبِتتْ عن علم مستفاد من رواية هذا العدد ونحوه، فالخبر مثل ذلك.

فأمّا مذهب المرتضى في خبر الواحد فإنّه قولٌ أنفرد به عن سائر الشّيعة، لأنّ من قبله من فقهائهم ما عوّلوا في الفقه إلّا على أخبار الآحاد كزُرارة، ويونس، وأبي بصير، وآبني بابويه، والحلبي، وأبي جعفر القُمّي وغيرهم، ثم مَنْ كان في عصر المرتضى منهم كأبي جعفر الطُّوسي وغيره، وقد تكلّمت في «اعتبار الذريعة» على ما اعتمد عليه في هذه المسألة، وأمّا تخصيص الكتاب بخبر الواحد فالظاهر أنّه إذا صحّ كون خبر الواحد حجّة في الشرع، جاز تخصيصُ الكتاب به، وهذا من فنّ أصول الفقه، فلا معنى لذكرِه هنا.

قال المرتضى رضي الله عنه: وهذا يُسقِط قولَ صاحب الكتاب: إنّ شاهدَيْن لو شهدا أنّ في التركة حقاً لكان يجب أن ينصرف عن الإرْث، وذلك لأنّ الشهادة وإن كانت مظنونةً فالعمل بها

يستند إلى عِلم، لأنَّ الشريعة قد قرّرت العمَل بالشهادة ولم تقرّر العمَل بخبر الواحد، وليس له أن يقيس خبر الواحد على الشهادة من حيث اجتمعا في غَلَبة الظّن، لأنّا لا نعمل على الشهادة من حيث غلَبة الظنّ دون ما ذكرناه من تقرير الشريعة العمل بها، ألا تَرَى أنّا قد نظنّ بصدق الفاسق والمرأة والصبيّ وكثير ممّن لا يجوز العمل بقوله! فبان أنّ المعوّل في هذا على المصلحة التي نستفيدها على طريق الجملة من دليل الشرع.

قال: وأبو بكر في حُكْم المدّعي لنفسه والجارّ إليها بخلاف ما ظنّه صاحب الكتاب، وكذلك مَنْ شهد له إن كانت هناك شهادة، وذلك أنَّ أبا بكر وسائر المسلمين سوى أهل بيت الرسول ﷺ يحلّ له الصدقة، ويجوز أن يصيبوا فيها، وهذه تهمة في الحكم والشهادة.

قال: وليس له أن يقول: فهذا يقتضي ألا يقبل شهادة شاهدَين في تَرِكةٍ فيها صَدقة لمثل ما ذكرتم.

قال: وذلك لأنّ الشاهدين إذا شهدا في الصّدقة فحّظهما منها كحظّ صاحب الميراث بل سائر المسلمين، وليس كذلك حال تركة الرسول، لأنّ كونها صدقة يحرّمها على ورثته، ويبيحُها لسائر المسلمين.

قلت: هذا فرق غير مؤثّر، اللّهمّ إلّا أن يعني به تهمةَ أبي بكر والشهود الستّة في جرّ النفع إلى أنفسهم يكون أكثر من تهمتهم لو شَهِدوا على أبي هُرَيرة مَثَلاً أنّ ما تركه صدقة، لأنَّ أهلَ أبي هريرة يشاركون في القسمة، وأهلَ النبيّ ﷺ لا يشاركون الشهود فيما يصيبهم. إذ هم لا تحلّ لهم الصدقة، فتكون حصَّة أبي بكر والشهود ممَّا تركه رسول الله أكثرَ من حصَّتهم ممَّا يتركه أبو هريرة، فيكون تطرّق التهمة إلى أبي بكر والشهود أكثر حسبَ زيادة حصَّتهم، وما وقفت للمرتضى على شيء أطرَفَ من هذا، لأنّ رسول الله ﷺ مات والمسلمون أكثر من خمسين ألف إنسان، لأنّه قادَ في غَزاةِ تَبوك عشرين ألفاً، ثم وفدتْ إليه الوفود كلّها بعد ذلك، فليت شِعري كم مقدار ما يتوفّر على أبي بكر وستّة نفر معه، وهم من جملة خمسين ألفاً، بين ما إذا كان بنو هاشم وبنو المطّلب - وهم حينئذ عشرة نفر - لا يأخذون حصّة، وبيْن ما إذا كانوا يأخذون! أترى أيكون المتوفّر على أبي بكر وشهوده من التركة عشر عشر درهم! ما أظنّ أنّ يبلغ ذلك. وكم مقدار ما يقلل حصص الشهود على أبي هريرة إذا شركهم أهله في التركة، لتكونَ هذه القِلّة موجِبةً رفع التهمة، وتلك الزيادة والكثرة موجِبة حصولَ التهمة! وهذا الكلام لا أرتضيه للمرتضى.

قال المرتضى رضي الله عنه: وأمّا قوله: يخصّ القرآن بالخبر كما خصصناه في العبد

والقاتل، فليس بشيء، لأنّا إنما خصصنا مَنْ ذكر بدليل مقطوع عليه معلوم، وليس هذا موجوداً في الخبر الّذي ادّعاه. فأمّا قوله: وليس ذلك ينقص الأنبياء، بل هو إجلال لهم، فمن الذي قال له: إن فيه نقصاً! وكما أنّه لا نقص فيه، فلا إجلالَ فيه ولا فضيلَة، لأنّ الداعي وإن كان قد يقوّي على جمع المال ليخلف على الورثة، فقد يقوّيه أيضاً إرادة صرفه في وجوه الخير والبرّ، وكلا الأمرين يكون داعياً إلى تحصيل المال، بل الداعي الّذي ذكرناه أقوى فيما يتعلّق بالدّين.

قال: وأمّا قوله: إنّ فاطمة لمّا سمعتْ ذلك كفّت عن الطلب، فأصابت أوّلاً وأصابت ثانياً، فلَعَمري إنها كفّت عن المنازعة والمشاحّة، لكنها انصرفت مغضَبة متظلّمة متألّمة، والأمر في غضبها وسخطها أظهرُ من أن يخفى على مُنصِف، فقد روَى أكثرُ الرواة الّذين لا يُتّهمون بتشيّع ولا عصبيّة فيهَ من كلامها في تلك الحال، وبعد انصرافها عن مقام المنازَعة والمطالبة، ما يدلّ على ما ذكرناه من سخطها وغضبِها.

أخبَرَنا أبو عُبيد الله محمّد بن عمران المَرْزُبانيّ قال: حدّثني محمد بن أحمدَ الكاتب، قال: حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصِح النحويّ، قال: حدّثني الزّياديّ، قال: حدّثنا الشّرْقيّ بن القُطاميّ، عن محمد بن إسحاق، قال: حدّثنا صالح بن كيسان، عن عروة، عن عائشة، قالت: لما بلغ فاطمةَ إجماعُ أبي بكر على منعِها فَدَكَ لاثتْ خِمارَها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلتْ في لُمّة من حَفَدتِها . .

قال المرتضى: وأخبرنا المرزبانيّ قال: حدّثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي قال: حدّثنا أبو العيناء بن القاسم اليمانيّ قال: حدّثنا ابن عائشة، قال: لمّا قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله أقبلت فاطمة إلى أبي بكر في لُمّة من حَفَدتها. ثم اجتمعت الروايتان من ها هنا . . . ونساء قومها تطأ ذُيولها ما تخرم مِشيتُها مِشية رسول الله صلى الله عليه وآله حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنِيطت دونها مُلاءة، ثم أنّت أنّةً أجْهش لها القومُ بالبكاء، وارتجّ المجلس، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نَشيجُ القوم وهدأت فَوْرَتهم، افتتحت كلامها بالحمد لله عزّ وجلّ والثناء عليه، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قالت: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، فإن تَعزُوه تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، فبلّغ الرسالة صادعاً بالنذارة، مائلاً عن سَنَن المشركين، ضارباً ثَبَجهم، يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، آخذاً بأكظام المشركين، يهشم الأصنام، ويفلّق الهام، حتى انهزم الجمع وولّوا الدُّبُر، وحتّى تفرّى الليلُ عن صُبْحِه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدّين، وخرست شقائق الشياطين،

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

وتمّت كلمةُ الإخلاص، وكنتم على شَفَا حفرةٍ من النار، نُهزة الطامع، ومذْقة الشارب، وقبْسة العجلان، وموطأ الأقدام، تشربون الطَّرْق، وتقتاتون القِدّ، أذلّة خاسئين، يختطفكم الناس من حولكم، حتّى أنقذكم الله برسوله ﷺ بعد اللّتيا والّتي، وبعد أن مُني بهم الرجال وذؤبان العرب ومَرَدة أهل الكتاب، و﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾(١)، أو نجم قرن الشيطان، أو فغرت فاغرة قذف أخاه في لهواتها. ولا ينكفي حتى يطأ صِماخها بإخمصه ويطفىء عادية لَهَبها بسيفه - أو قالت: يخمد لهبها بحدّه - مكدوداً في ذات الله، وأنتم في رفاهية فَكِهُون آمنون وادِعون.

إلى هنا انتهى خبرُ أبي العيناء عن ابن عائشة. وأما عروة عن عائشة، فزاد بعد هذا: حتّى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ظهرتْ حسيكةُ النفاق، وشمل جلباب الدّين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغَ خامل الآفكين، وهَدَر فنيق المُبطلين، فخطر في عَرَصاتِكم، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، ولقربه متلاحظين. ثم استنهَضَكم فوجدكم خِفافاً، وأحْمَشكم فألفاكم غِضاباً، فوَسَمتم غيرَ إبلكم، ووَردْتُم غيرَ شِرْبكم، هذا والعهد قريب، والكَلْم رحيب والجرح لمّا يندمِل، إنما زعمتم ذلك خوف الفتنة، ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢)، فهيهات! وأنّى بكم وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، زواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة. أرغبةً عنه تريدون، أم لغيره تحكمون، بئس للظالمين بدلاً! ومن يتبع غيرَ الإسلام ديناً فلنْ يُقْبَل مِنْهُ وهو في الآخرةِ منَ الخاسرين. ثم لم تلبثوا إلّا رَيث أن تسكن نَفْرتها، تُسرّون حِسْواً في ارتغاء، ونحن نصبر منكم على مثل حزّ المُدَى، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٣). يا بن أبي قحافة، أترث أباك ولا أرث أبي، لقد جِئت شيئاً فَرِيّاً! فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشْرِك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون! ثم انكفأتْ إلى قبر أبيها ﷺ، فقالت:

قد كان بعدَكَ أبناءٌ وهنبثةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تكثر الخُطَبُ
إذا فقدناك فقد الأرض وابِلَها ... واختل قومُك فاشهدهم ولا تَغِبِ

وَروَى حرميّ بن أبي العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً:

فليتَ بعدَك كان الموت صَادَفنا ... لما قضيت وحالت دونَكَ الكُتُبُ

قال: فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ وقال: يا خَيرَ النساء، وابنة خيرَ الآباء، والله ما عدوتُ رأي رسول الله ﷺ، ولا عملتُ إلّا بإذنه، وإن الرائدَ لا يكذِب

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

أهله، وإني أشهد الله وكفى بالله شهيداً، أني سمعتُ رسول الله يقول: «إنّا معاشر الأنبياء لا نورِث ذهباً، ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورِث الكتاب والحِكمة والعلم والنبوة».

قال: فلما وصل الأمر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام كُلم في ردّ فَدَك، فقال: إني لأستحيي من الله أن أردّ شيئاً منع منه أبو بكر وأمضاه عمر.

قال المرتضى: وأخبرنا أبو عبد الله المرزُبَانيّ: قال: حدثني عليّ بن هارون، قال: أخبرني عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر، عن أبيه قال: ذكرتُ لأبي الحسين زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبي بكر إيّاها فدَكَ، وقلت له: إنَّ هؤلاء يزعمون أنه مصنوعَ وأنه من كلام أبي العيناء، لأنَّ الكلام منسوق البلاغة، فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلّمونه أولادهم، وقد حدّثني به أبي عن جدّي يَبْلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية، وقد رواه مشايخ الشّيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدّ أبي العيناء، وقد حدّث الحسين بن علوان، عن عطية العوْفيّ، أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر عن أبيه هذا الكلام.

ثم قال أبو الحسن زيد: وكيف تنكرون هذا من كلام فاطمة عليها السلام، وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة عليها السلام ويحقّقونه لولا عداوتهم لنا أهلَ البيت. ثم ذكر الحديث بطُوله على نسقه، وزاد في الأبيات بعد البيتين الأولين:

ضاقتْ عليّ بلادي بعد ما رَحُبتْ ... وسِيمَ سِبْطَاكَ خسفاً فيه لي نَصَبُ

فليت قبلَك كان الموتُ صادَفنا ... قومٌ تمنّوا فأُعطُوا كلّ ما طلبوا

تجهّمَتْنا رجالٌ واستُخفّ بنا ... مذ غبت عنّا وكلّ الإرث قد غصبوا

قال: فما رأينا يوماً أكثرَ باكياً أو باكية من ذلك اليوم.

قال المرتضى: وقد روي هذا الكلام على هذا الوجه من طُرُقٍ مختلفة، ووجوه كثيرة، فمن أرادها أخَذَها من مواضعها، فكيف يدّعي أنّها عليها السلام كفّت راضية، وأمسكت قانعة، لولا البُهْت وقلّة الحياء!

قلت: ليس في هذا الخبر ما يدلّ على فساد ما ادّعاه قاضي القضاة، لأنه ادّعى أنّها نازعت وخاصمت ثم كفّت لما سمعت الرواية وانصرفتْ، تاركة للنزاع، راضية بموجب الخبر المرويّ. وما ذكره المرتضى من هذا الكلام لا يدلّ إلّا على سخطها حالَ حضورها، ولا يدلُّ على أنها بعد رواية الخبر وبعد أن أقسم لها أبو بكر بالله تعالى أنه ما روَى عن رسول الله صلى الله عليه وآله

ما سمعه منه، انصرفت ساخطة، ولا في الحديث المذكور والكلام المرويّ ما يدلّ على ذلك، ولست أعتقد أنها انصرفت راضية كما قال قاضي القضاة، بل أعلم أنّها انصرفتْ ساخطة، وماتت وهي على أبي بكر واجِدة، ولكن لا من هذا الخبر، بل من أخبار أُخَر، كان الأَوْلى بالمرتضى أن يحتجّ بها على ما يرويه في انصرافها ساخطةً، وموتها على ذلك السخط، وأمّا هذا الخبر وهذا الكلام فلا يدلّ على هذا المطلوب.

قال المرتضى رحمه الله: فأمّا قوله: إنه يجوز أن يبيّن عَلَيْتَكِلاِ أنّه لا حقّ لميراثه في ورثته لغير الورثة، ولا يمتنع أن يرد من جهة الآحاد، لأنّه من باب العمل، وكل هذا بناء منه على أصوله الفاسدة في أن خبر الواحد حجّة في الشرع، وأنّ العمل به واجب، ودون صحّة ذلك خَرْط القَتاد، وإنما يجوز أن يبيّن من جهة أخرى إذا تساوَيَا في الحجّة ووقوع العمل، فأمّا مع تباينهما فلا يجوز التخيير فيهما، وإذا كان ورَثةُ النبيّ ﷺ متعبّدين بألّا يرثوه، فلا بدّ من إزاحة عِلّتهم في هذه العبادة بأن يوقفهم على الحكم، ويُشافِهَهم به، ويلقيه إلى مَنْ يقيم الحجّة عليهم بنقله، وكلّ ذلك لم يكن.

فأمّا قوله: أتجوّزون صِدقَه في الرواية أم لا تجوزون ذلك؟ فالجواب إنا لا نجوّزه، لأنَّ كتاب الله أصدَقُ منه، وهو يدفع روايته ويُبطلُها، فأمّا اعتراضه على قولنا: إنّ إطلاق الميراث لا يكون إلّا في الأموال بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1]. وقولهم: ما ورِثت الأبناء من الآباء شيئاً أفضلَ من أدب حسن، وقولهم: العلماء ورثة الأنبياء، فعجيب، لأنّ كل ما ذكر مقيّد غير مطلق، وإنّما قلنا إنّ مطلق لفظ الميراث من غير قرينة ولا تقييد يفيد بظاهره ميراثَ الأموال، فبعد ما ذكره وعارض به لا يخفى على متأمّل.

فأما استدلالُه على أن سليمان وَرّث داودَ علمه دون ماله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] وأن المراد أنه وَرِث العلَم والفضلَ، وإلّا لم يكن لهذا القول تعلّق بالأوّل، فليس بشيء يعوّل عليه، لأنّه لا يمتنع أن يريدَ به أنه ورِث المالَ بالظاهر والعلم بهذا المعنى من الاستدلال، فليس يجب إذا دلّت الدلالة في بعض الألفاظ على معنى المجاز أن يَقتصِر بها عليه، بل يجب أن يَحمِلها على الحقيقة التي هي الأصل إذا لم يَمنعْ من ذلك مانع، على أنّه لا يمتنع أن يريد ميراث المال خاصّة، ثمّ يقول مع ذلك: ﴿إِنّا عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾، ويشير بـ «الفضل المبين» إلى العِلم والمال جميعاً، فله بالأمرين جميعاً فضلٌ على من لم يكن عليهما، وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[3] يَحتمل المالَ كما يحتمل العلم، فليس بخالص ما ظنّه.

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٦.
(٣) سورة النمل، الآية: ١٦.

فأمّا قوله في قصّة زكريّا : إنّه خاف على العلم أن يندرس، لأن الأنبياء وإن كانوا لا يَحرِصون على الأموال، وإنّما خاف أن يضيع العلم، فسأل الله تعالى وليًا يقوم بالدين مقامَه، فقد بيّنا أنّ الأنبياء وإن كانوا لا يَحرِصون على الأموال ولا يَبخَلون بها ، فإنّهم يجتهدون في منع المفسدين من الانتفاع بها على الفساد، ولا يعدّ ذلك بخلاً ولا حِرْصاً، بل فضلاً ودِيناً ، وليس يجوز من زكرّيا أن يخاف على العِلْم الاندراسَ والضياعَ، لأنّه يعلم أن حكمة الله تعالى تقتضي حِفظَ العلم الّذي هو الحجّة على العباد، وبه تنزاح عِللهم في مصالحهم، فكيف يخاف ما لا يخاف من مثله!

فإن قيل : فهبوا أن الأمر كما ذكرتم من أن زكرّيا كان يأمن على العلم أن يندرِس، أليس لا بدّ أن يكون مجوّزاً أن يحفظه الله تعالى بمَنْ هو من أهله وأقاربه، كما يجوز حفظُه بغريب أجنبيّ! فما أنكرتم أن يكون خوفُه إنّما كان من بني عمّه ألا يتعلّموا العلم ولا يقوموا فيه مقامه، فسأل الله ولداً يَجمع فيه هذه العلومَ حتى لا يخرج العلمُ عن بيته، ويتعدّى إلى غير قومه، فيَلحقَه بذلك وَصْمة!

قلنا : أما إذا رتّب السؤال هذا الترتيب، فالجواب عنه ما أجبنا به صاحبَ الكتاب، وهو أنّ الخوف الذي أشاروا إليه ليس من ضررٍ ديني، وإنّما هو من ضررٍ دُنياويّ، والأنبياء إنّما بُعِثوا لتحمُّل المضارّ الدنياوية، ومنازلهم في الثواب إنّما زادت على كلّ المنازل لهذا الوجه، ومَنْ كانت حاله هذه الحال، فالظاهر من خوفه إذا لم يعلم وجهه بعينه أن يكون محمولاً على مضارّ الدّين؛ لأنّها هي جهة خوفهم، والغرض في بعثهم تحمّل ما سواها من المضارّ، فإذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : «أنا خائف»، فلم يُعلم جهةُ خوفه على التفصيل، يجب أن يصرف خوفه بالظاهر إلى مضارّ الدّين دون الدنيا، لأنّ أحوالهم وبعثهم يقتضي ذلك، فإذا كنّا لو آعتدْنا من بعضنا الزّهد في الدنيا وأسبابها، والتعفّف عن منافعها، والرغبة في الآخرة، والتفرّد بالعمل لها، لكنّا نحمل على ما يظهر لنا من خوفه الّذي لا يعلم وجهه بعينه على ما هو أشبه وألْيَقُ بحاله، ونضيفه إلى الآخرة دون الدّنيا، وإذا كان هذا واجباً فيمن ذكرناه فهو في الأنبياء عليهم السلام أوْجَب.

قلت: ينبغي ألّا يقول المعترض: فيلحقه بذلك وصْمَة، فيجعل الخوف من هذه الوصمة، بل يقول: إنّه خاف ألّا يُفلح بنو عمّه ولا يتعلّموا العلم، لما رأى من الأمارات الدالّة على ذلك، فالخوف على هذا الترتيب بأمر دينيّ لا دنيويّ، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولداً يَرث عنه علمَه، أي يكون عالماً بالدّينيات كما أنا عالم بها. وهذا السؤال متعلّق بأمر دينيّ لا دنيويّ. وعلى هذا يندفع ما ذكره المرتضى، على أنها لا يجوز إطلاقُ القول بأن الأنبياء بُعِثوا لتحمّل المضارّ الدنياويّة، ولا القول: الغرض في بعثتهم تحمّل ما سوى المضارّ الدينية من المضارّ،

فإنّهم ما بعثوا لذلك، ولا الغرض في بعثتهم ذلك، وإنّما بعثوا لأمرٍ آخر. وقد تحصل المضارّ في أداء الشرع ضِمْناً وتبعاً، لا على أنّه الغرض، ولا داخلة في الغرض، وعلى أنّ قول المرتضى: لا يجوز أن يخاف زكريّا من تبديل الدّين وتغييره، لأنّه محفوظ من الله، فكيف يخاف ما لا يُخاف من مثله، غير مستمرّ على أصوله! لأنّ المكلّفين الآن قد حُرِموا بغيبة الإمام عنده ألطافاً كثيرة الوصلة بالشرعيّات كالحدود وصلاة الجمعة والأعياد، وهو وأصحابُه يقولون في ذلك إنّ اللّوم على المكلّفين، لأنّهم قد حرَموا أنفسهم اللّطف، فهلّا جاز أنْ يخاف زكريّا من تبديل الدين وتغييره، وإفساد الأحكام الشرعيّة! لأنه إنّما يجب على الله تعالى التبليغ بالرسول إلى المكلّفين فإذا أفسدوا هم الأديان وبدّلوها لم يجب عليه أن يحفظها عليهم، لأنّهم هم الّذين حَرَموا أنفسَهم اللّطف.

واعلم أنّه قد قرىء: ﴿وَإِنِّي خِفَّتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾[1]، وقيل: إنّها قراءة زين العابدين وابنِه محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام وعثمان بن عفّان. وفسّروه على وجهين:

أحدهما أن يكون «ورائي» بمعنى خَلْفي وبعدي، أي قلّت الموالي وعَجَزوا عن إقامة الدين، تقول: قد خفّ بنو فلان، أيْ قلّ عددُهم، فسأل زكريّا ربّه تقويَتهم ومظاهرتَهم بوليّ يرزقه.

وثانيهما أن يكون «ورائي» بمعنى قدّامي، أي خَفّ الموالي وأنا حيّ ودَرَجوا وانقرضوا، ولم يَبْقَ منهم من به اعتضاد، وعلى هذه القراءة لا يبقى متعلّق بلفظة الخوف.

وقد فسّر قوم قوله: ﴿وَإِنِّي خِفَّتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾، أي خفتُ الّذين يلُونَ الأمر من بعدي، لأنّ المولَى يستعمل في الوالي، وجمعه موالٍ، أي خفت أن يليَ بعد موتي أمراء ورؤساء يُفسِدون شيئاً من الدّين، فارزقني ولداً تُنعِم عليه بالنبوّة والعلم، كما أنعمت عليّ، واجعل الدين محفوظاً به، وهذا التأويل غير منكَر، وفيه أيضاً دفعٌ لكلام المرتضى.

قال المرتضى: وأمّا تعلّق صاحب الكتاب في أنّ الميراث محمول على العلم بقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[2]، لأنّه لا يرث أموالَ آل يعقوب في الحقيقة وإنّما يرث ذلك غيرُه، فبعيد من الصواب، لأنّ ولد زكريّا يرث بالقرابة من آل يعقوب أموالَهم، على أنّه لم يقل: «يرث آل يعقوب»، بل قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، تنبيهاً بذلك على أنّه يرث من كان أحقّ بميراثه في القرابة.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦.

فأمّا طعنُه على مَنْ تأوّل الخبر بأنه عليه السلام لا يُورَث، ما تركه للصدقة بقوله: إنَّ أحداً من الصّحابة لم يتأوَّله على هذا الوجه، فهذا التأويل الّذي ذكرناه أحدُ ما قاله أصحابُنا في هذا الخبر، فمِن أين له إجماعُ الصحابة على خلافه! وإنَّ أحداً لم يتأوَّله على هذا الوجه.

فإن قال: لو كان ذلك لظهر واشتهر، ولَوَقف أبو بكر عليه، فقد مضى من الكلام فيما يمنع من الموافقة على هذا المعنى ما فيه كفاية.

قلت: لم يكن ذلك اليوم - أعني يومَ حضور فاطمةَ عليها السلام، وقولها لأبي بكر ما قالت - يوم تقيّة وخوف، وكيف يكون يومَ تقيّة وهي تقول له - وهو الخليفة -: يا بن أبي قحافة، أترثُ أباك ولا أَرِث أبي! وتقول له أيضاً: لقد جئتَ شيئاً فَرِيّاً! فكان ينبغي إذا لم يُؤثر أمير المؤمنين عليه السلام أن يفسِّر لأبي بكر معنى الخبر أن يُعلِم فاطمة عليها السلام تفسيره، فتقول لأبي بكر: أنت غالط فيما ظننت، إنما قال أبي: ما تركناه صدقة، فإنّه لا يُورَث.

واعلم أنّ هذا التأويل كاد يكون مدفوعاً بالضرورة، لأنّ مَن نظر في الأحاديث الّتي ذكرناها وما جرت عليه الحال يعلم بطلانه علماً قطعيّاً.

قال المرتضى: وقوله إنّه لا يكون إذ ذلك تخصيصٌ للأنبياء ولا مزيّة: ليس بصحيح، وقد قيل في الجواب عن هذا: إنّ النبي صلى الله عليه وآله يجوز أن يريد أن ما نَنوي فيه الصدقة، ونفرده لها من غير أن نخرجه عن أيدينا لا تناله ورثُتنا. وهذا تخصيص للأنبياء ومزّية ظاهرة.

قلت: هذه مخالفة لظاهر الكلام، وإحالة اللفظ عن وضعه، وبين قوله: ما ننوي فيه الصدقة، وهو بعدُ في ملكنا ليس بموروث، وقوله: ما نخلّفه صدقة ليس بموروث فَرْق عظيم، فلا يجوز أن يُراد أحد المعنيين باللّفظ المفيد للمعنى الآخر، لأنه إلباسٌ وتَعْمِية. وأيضاً، فإنّ العلماء ذكروا خصائصَ الرّسول في الشرعيّات عن أمّته وعدّدوها، نحو حِلّ الزيادة في النكاح على أربع، ونحو النّكاح بلفظ الهبة على قولِ فِرْقةٍ من المسلمين، ونحو تحريم أكل البَصل والثّوم عليه، وإباحة شرب دمه، وغير ذلك، ولم يذكروا في خصائصه أنّه إذا كان قد نوى أن يتصدّق بشيء فإنه لا يناله ورثُه، لو قدّرنا أنّه يورث الأموال، ولا الشيعة قبل المرتضى ذكرت ذلك، ولا رأينا في كتاب من كتبهم، وهو مسبوق بإجماع طائفته عليه، وإجماعهم عندهم حجّة.

قال المرتضى: فأمّا قوله: إن قوله عليه السلام: ما تركناه صدقة، جملةٌ من الكلام مستقلّة بنفسها، فصحيح إذا كانت لفظة «ما» مرفوعةً على الابتداء، ولم تكن منصوبةً بوقوع الفعل عليها، وكانت لفظة «صدقة» أيضاً مرفوعة غير منصوبة، وفي هذا وقع النّزاع، فكيف يدّعي أنّها جملة مستقلّة بنفسها! وأقوى ما يمكن أن نذكره أن نقول: الرواية جاءت بلفظ «صدقةٌ» بالرفع، وعلى ما تأوّلتموه لا تكون إلّا منصوبةً، والجواب عن ذلك أنّا لا نسلّم الرواية بالرفع، ولم تجر عادة الرّواة بضبط ما جرى هذا المجرَى من الإعراب، والاشتباه يقع في مثله، فمن حقّق منهم وصرّح بالرواية بالرفع أن يكون اشتبه عليه فظنّها مرفوعةً، وهي منصوبة.

قلت: وهذا أيضاً خلاف الظاهر، وفتح الباب فيه يؤدّي إلى إفساد الاحتجاج بكثير من الأخبار.

قال: وأما حكايته عن أبي عليّ أنّ أبا بكر لم يدفع إلى أمير المؤمنين عليه السلام السيف والبغلة والعمامة على جهة الإرث، وقوله: كيف يجوز ذلك مع الخبر الّذي رواه! وكيف خصّصه بذلك دون العمّ الّذي هو العصبَة! فما نراه زاد على التعجّب، ومما عجب منه عجِبْنا، ولم يثبت عصمة أبي بكر فينتفي عن أفعاله التناقض.

قلت: لا يشكّ أحد في أن أبا بكر كان عاقلاً، وإن شك قوم في ذلك فالعاقل في يومٍ واحد لا يدفع فاطمةَ عليها السلام عن الإرْث ويقول: إنّ أباكِ قال لي: إنني لا أورّث ثم يورّث في ذلك اليوم شخصاً آخر من مال ذلك المتوفّى الّذي حكي عنه أنه لا يورث وليس انتفاء هذا التناقض عن أفعاله موقوفاً على العِصمة، بل على العقل.

قال المرتضى: وقوله يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله نَحَله إيّاه وتركه أبو بكر في يده - لِمَا في ذلك من تقوية الدين - وتصدّق ببدله، وكلّ ما ذكره جائز، إلا أنه قد كان يجب أن يظهر أسباب النحلة والشهادة بها، والحجّة عليها، ولم يظهر من ذلك شيء فنعرفه، ومن العجائب أن تدّعي فاطمة فَدَكَ نِحلةً، وتستشهد على قولها أميرَ المؤمنين عليه السلام وغيرَه، فلا يُصغَى إلى قولها، ويترك السيف والبغلة والعمامة في يد أمير المؤمنين على سبيل النُّحلة بغير بيّنة ظهرتْ، ولا شهادة قامت!

قلت: لعلّ أبا بكر سمع الرّسول صلى الله عليه وآله وهو ينحَلُ ذلك علياً عليه السلام، فلذلك لم يحتجْ إلى البيّنة والشّهادة، فقد روي أنه أعطاه خاتَمه وسيفَه في مرضه وأبو بكر حاضر، وأمّا البغلة فقد كان نحَلَه إيّاها في حجّة الوداع على ما وردتْ به الرواية، وأما العمامة فسلَب الميّت، وكذلك

القيمص والحُجْزة والحذاء، فالعادة أن يأخذ ذلك ولد الميّت، ولا ينَازَع فيه لأنّه خارج، أو كالخارج عن التركة، فلمّا غُسِلَ عليه السلام أخذت ابنتُه ثيابَه التي مات فيها، وهذه عادةُ الناس، على أنّا قد ذكرنا في الفصل الأوّل كيف دفع إليه آلةَ النبيّ صلى الله عليه وآله وحذاءه ودابته، والظاهر أنه فعل ذلك اجتهاداً لمصلحةٍ رآها، وللإمام أن يفعل ذلك.

قال المرتضى: على أنه كان يجب على أبي بكر أن يبين ذلك، ويذكر وجهه بعينه، لما نازع العبّاس فيه، فلا وقت لذكر الوجه في ذلك أولى من هذا الوقت.

قلت: لم ينازع العبّاس في أيّام أبي بكر، لا في البغلة والعمامة ونحوها، ولا في غير ذلك، وإنّما نازع عليًّا في أيّام عمر، وقد ذكرنا كيفيّة المنازعة، وفي ماذا كانت.

قال المرتضى رضي الله عنه في البُردة والقضيب: إن كان نحلةً، أو على الوجه الآخر، يَجري مَجرَى ما ذكرناه في وجوبِ الظهور والاستشهاد، ولسنا نرى أصحابنا - يعني المعتزلة - يطالبون أنفسَهم في هذه المواضع بما يطالبوننا بمثله إذا ادّعينا وجوهاً وأسباباً وعِلَلاً مجوّزة، لأنّهم لا يقنعون منّا بما يجوز ويمكن، بل يوجبون وفيما ندّعيه الظهورَ والاستشهاد، وإذا كان هذا عليهم نسُوه أو تناسوه.

قلت: أمّا القضيب فهو السيف الّذي نَحَله رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام في مرضه، وليس بذي الفَقار، بل هو سيفٌ آخر، وأمّا البُردة فإنّه وهبها كعبَ بن زهير، ثم صار هذا السيف وهذه البُردة إلى الخلفاء، بعد تنقّلات كثيرة مذكورة في كتب التواريخ.

قال المرتضى: فأمّا قوله: فإنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله إنّما طلبنَ الميراث لأنّهنّ لم يعرفنَ روايةَ أبي بكر للخبر، وكذلك إنّما نازع عليّ عليه السلام بعدَ موت فاطمة عليها السلام في الميراث لهذا الوجه، فمن أقبح ما يقال في هذا الباب وأبعدِه عن الصواب! وكيف لا يعرف أمير المؤمنين عليه السلام روايةَ أبي بكر، وبها دُفعتْ زوجتُه عن الميراث! وهل مِثْلُ ذلك المقام الّذي قامته، وما رواه أبو بكر في دفعها يخفى على من هو في أقاصي البلاد، فضلاً عمّن هو في المدينة حاضر شاهد يُراعي الأخبار، ويعنى بها! إن هذا لخروج في المكابرَة عن الحدّ! وكيف يخفى على الأزواج ذلك حتى يطلبنه مرّة بعد أخرى، ويكون عثمان الرسول لهنّ، والمطالب عنهنّ، وعثمان على زعمهم أحدُ من شهد أن النبي صلى الله عليه وآله لا يُورَث، وقد سمعنَ على كلّ حال أنّ بنت النبي صلى الله عليه وآله لم تورّث ماله ولا بد أنْ يكن قد سألنَ عن السبب في دفعها، فذكر لهنّ الخبر، فكيف يقال: إنّهنّ لم يعرفنه!

قلت: الصحيح أن أمير المؤمنين عليه السلام لم ينازع بعد موت فاطمةَ في الميراث، وإنما نازع في الولاية لِفَدكَ وغيرِها من صدقات رسول الله صلى الله عليه وآله، وجرى بينه وبين العباس في ذلك ما هو مشهور، وأمّا أزواجُ النبي صلى الله عليه وآله فما ثبت أنهن نازعن في ميراثه، ولا أن عثمان كان المرسَل لهنّ، والمطالب عنهنّ، إلا في رواية شاذّة، والأزواج لما عرفن أن فاطمة عليها السلام قد دُفِعتْ عن الميراث أمسَكْن، ولم يكنّ قد نازعن، وإنّما اكتَفَيْن بغيرهنّ، وحديث فَدَك وحضور فاطمةَ عند أبي بكر كان بعد عشرةِ أيّام من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، والصحيح أنّه لم ينطق أحدٌ بعد ذلك من النّاس من ذَكَر أو أُنثى بعد عودِ فاطمةَ عليها السلام من ذلك المجلس بكلمة واحدة في الميراث.

قال المرتضى: فإن قيل: فإذا كان أبو بكر قد حكم بالخطأ في دفع فاطمةَ عليها السلام عن الميراث، واَحتجّ بخبرٍ لا حجّة فيه، فما بال الأمّة أقرّته على هذا الحكم، ولم تُنكِر عليه، وفي رضاها وإمساكها دليلٌ على صوابه!

قلتُ: قد مضى أنّ ترك النّكير لا يكون دليل الرضا إلّا في هذا الموضع الّذي لا يكون له وجهٌ سوى الرّضا، وذكرْنا في ذلك قولاً شافياً، وقد أجاب أبو عثمان الجاحظُ في كتاب «العباسيّة» عن هذا السؤال جواباً حسنَ المعنى واللفْظ، نحن نذكره على وجهه، ليقابَلَ بينَه وبين كلامه في العثمانيّة وغيرها.

قلت: ما كناه المرتضى رحمه الله في غير هذا الموضع أصلاً، بل كان ساخطاً عليه، وكناه في هذا الموضع، واَستجاد قوله، لأنّه موافقٌ غرضَه، فسبحان الله، ما أشدّ حبَّ الناس لعقائدهم!

قال: قال أبو عثمان: وقد زعم أناس أنّ الدليل على صدق خبرهما - يعني أبا بكر وعمر - في منع الميراث وبراءة ساحتهما، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله النكيرَ عليهما.

ثم قال: قد يقال لهم: لئن كان تركُ النكير دليلاً على صدقهما، ليكوننّ تركُ النكير على المتظلمين والمحتجّين عليهما، والمطالبين لهما، دليلاً على صدق دعواهم، أو اَستحسان مقالتهم، ولاسيّما وقد طالت المناجاة، وكثرت المراجعة والملاحاة، وظهرت الشكيّة، واَشتدّت المَوْجِدة. وقد بلغ ذلك من فاطمة عليها السلام، حتى أنّها أوصت ألّا يصلّيَ عليها أبو بكر، ولقد كانت قالت له حين أتته طالبة بحقّها، ومحتجّة لرهطها: مَنْ يرثك يا أبا بكر إذا متّ؟ قال: أهلي ووَلَدي، قالت: فما بالُنا لا نَرِث النبيّ صلى الله عليه وآله! فلمّا منعها ميراثَها وبخسها حقّها واَعتلّ عليها وجلح في أمرها، وعاينت التهضّم، وأيست من التورّع، ووجدت نشوة الضّعف وقلّة الناصر، قالت: والله لأدعونّ الله عليك، قال: والله لأدعونّ الله لك، قالت: والله لا أكلّمك أبداً، قال: والله لا أهجرك أبداً. فإن يكن تركُ النّكير على أبي بكر دليلاً على صواب منعها، إنّ من ترك النكير على فاطمة عليها السلام دليلاً على صواب طلبها! وأدنى ما كان يجب عليهم

في ذلك تعريفها ما جهلتْ، وتذكيرُها ما نسيَت، وصرفها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء، وأن تقول هُجْراً، أو تجوّر عادلاً، أو تقطع واصلاً، فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت الأمور، واستوت الأسباب، والرجوع إلى أصل حكم الله من المواريث أولَى بنا وبكم، وأوجبُ علينا وعليكم.

قال: فإن قالوا: كيف تظنّ به ظلمَها والتعدّيَ عليها! وكلّما ازدادت عليه غلظةً ازداد لها ليناً ورقّة، حيث تقول له: والله لا أكلّمك أبداً، فيقول: والله لا أهجرك أبداً، ثم تقول: والله لأدعوَنّ الله عليك، فيقول: والله لأدعونّ لكِ، ثم يحتمل منها هذا الكلام الغليظ، والقول الشديد في دار الخلافة، وبحضرة قريش والصحابة، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتّنزيه، وما يجب لها من الرفعة والهيبة! ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً متقرّباً، كلام المعظّم لحقّها، المُكبِر لمقَامها، والصائن لوجهها، المتحنّن عليها: ما أحدٌ أعزّ عليّ منك فقراً، ولا أحبّ إليّ منك غنًى، ولكنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّا معاشرَ الأنبياء لا نُورَث، ما تركناه فهو صدقة»[1]! قيل لهم: ليس ذلك بدليل على البراءة من الظّلم، والسلامة من الجوْر، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاءِ الماكر إذا كان أريباً، وللخصومة معتاداً، أن يُظهر كلام المظلوم، وذلّة المنتصف وحَدَب الوامق، ومِقَة المحقّ. وكيف جعلتم تركَ النكير حجّة قاطعة، ودلالة واضحة، وقد زعمتم أن عمر قال على منبره: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ: متعة النساء، ومتعة الحجّ، أنا أنهَى عنهما، وأعاقبُ عليهما، فما وجَدتم أحداً أنكر قوله، ولا استشنَع مخرج نهْيِه، ولا خطّأه في معناه، ولا تعجّب منه، ولا استفهمه! وكيف تقضون بترك النكير وقد شهد عمرُ يومَ السَّقيفة وبعد ذلك أن النبي ﷺ قال: «الأئمة من قريش»[2]، ثم قال في شكاته: لو كان سالمٌ حيًّا ما تخالجني فيه شك، حين أظهر الشك في استحقاق كل واحد من الستة الذين جعلهم شورَى، وسالمٌ عبدٌ لامرأة من الأنصار، وهي أعتقتْه، وحازت ميراثَه، ثم لم ينكر ذلك من قوله منكِر، ولا قابل إنسان بين قوله، ولا تعجّب منه، وإنّما يكون تركُ النّكير على مَنْ لا رغبة ولا رهبة عنده دليلاً على صدق قوله، وصوابِ عمله، فأمّا ترك النّكير على من يملك الضّعة والرِّفعة، والأمر والنهي، والقتل والاستحياء، والحبس والإطلاق، فليس بحجّة تَشفِي، ولا دلالة تضيء.

قال: وقال آخرون: بل الدليل على صدق قولهما، وصواب عملهما، إمساك الصحابة عن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أنس بن مالك (١١٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٦٩٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢١)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٢١).

خَلْعهما، والخروج عليهما، وهم الذين وَثَبوا على عثمان في أيسر من جَحْد التنزيل، وردّ النصوص، ولو كان كما تقولون وما تصفون، ما كان سبيل الأمّة فيهما إلا كسبيلهم فيه، وعثمان كان أعزّ نفراً، وأشرف رهطاً، وأكثر عدداً وثروة، وأقوى عُدّة.

قلنا: إنّهما لم يجحدا التنزيل، ولم ينكرا النصوص، ولكنّهما بعد إقراراهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ادّعيا روايةً، وتحدّثا بحديث لم يكن مُحالاً كونه، ولا ممتنِعاً في حجج العقول مجيئُه، وشهد لهما عليه من علّته مثل علّتهما، فيه. ولعلّ بعضَهم كان يرى تصديق الرجل إذا كان عَدْلاً في رَهْطه، مأموناً في ظاهره، ولم يكن قبلَ ذلك عرفه بفَجْرة، ولا جرتْ عليه غَدْرة، فيكون تصديقه له على جهة حُسن الظنّ، وتعديل الشاهد، ولأنّه لم يكن كثيرٌ منهم يعرف حقائقَ الحُجج، والّذي يقطع بشهادته على الغيب، وكان ذلك شبهة على أكثرهم، فلذلك قلّ النكير وتواكل الناس، فاشتبه الأمر، فصار لا يُتخلّص إلى معرفة حقّ ذلك من باطله إلا العالمُ المتقدّم، أو المؤيّد المرشد، ولأنّه لم يكن لعثمانَ في صدور العوامّ وقلوب السِّفلة والطَّغام ما كان لهما من المحبّة والهيبة، ولأنّهما كانا أقلّ استئثاراً بالفيء، وتفضّلاً بمالِ الله منه، ومِن شأن الناس إهمال السلطان ما وفّر عليهم أموالَهم، ولم يستأثر بخراجهم، ولم يعطّل ثغورَهم. ولأن الّذي صنع أبو بكر من منع العِتْرة حقّها، والعمومة ميراثَها، قد كان موافقاً لجِلّة قريش وكبراءِ العرب، ولأن عثمانَ أيضاً كان مضعوفاً في نفسه، مستخفًّا بقدره، لا يمنع ضَيْماً، ولا يَقمع عدوّاً، ولقد وثب ناس على عثمانَ بالشتم والقذف والتشنيع والنكير، لأمور لو أتى أضعافَها وبلغ أقصاها لما اجترؤوا على اغتيابه، فضلاً على مبادأته والإغراء به ومواجهته، كما أغلظ عُيينةُ بن حِصْن له فقال له: أما إنّه لو كان عمر لقمَعَك ومَنَعك، فقال عُيينة: إنّ عمر كان خيراً لي منك، أرهبني فاتّقاني.

ثم قال: والعجب أنّا وجدنا جميع من خالفَنا في الميراث على اختلافهم في التشبيه والقَدَر والوعيد يردّ كلّ صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب إسناداً، وأصحّ رجالاً، وأحسن اتصالاً، حتى إذا صاروا إلى القول في ميراث النبيّ ﷺ نسخوا الكتاب، وخصّوا الخبر العامّ بما لا يداني بعض ما ردّوه، وأكذبوا قائليه، وذلك أن كلّ إنسان منهم إنما يجري إلى هواه، ويصدق ما وافق رضاه. هذا آخر كلام الجاحظ.

ثم قال المرتضى رضي الله عنه: فإن قيل: ليس ما عارض به الجاحظ من الاستدلال بترك النكير، وقوله: كما لم ينكروا على أبي بكر، فلم ينكروا أيضاً على فاطمة عليها السلام ولا على غيرها من الطالبين بالإرث، كالأزواج وغيرهن معارَضة صحيحة، وذلك أن نكيرَ أبي بكر

لذلك، ودفعها والاحتجاج عليها، يكفيهم ويغنيهم عن تكلّف نكير آخر، ولم ينكر على أبي بكر ما رواه منكر فيستغنوا بإنكاره.

قلنا: أوّل ما يُبطل هذا السؤال أن أبا بكر لم ينكر عليها ما أقامت عليه بعد احتجاجها من التظلّم والتألّم، والتعفيف والتبكيت، وقولها على ما رُوِي: والله لأدعون الله عليك، ولا أكلمك أبداً، وما جرى هذا المجرى، فقد كان يجب أن ينكِرَه غيره، ومن المنكر الغضب على المنصف. وبعد، فإن كان إنكار أبي بكر مقنعاً ومغنياً عن إنكار غيره من المسلمين فإنكار فاطمة حكمه، ومقامها على التظلّم منه مغنٍ عن نكير غيرها، وهذا واضح.

الفصل الثالث

في أن فَدَك هل صح كونها نِحلة رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام أم لا؟

نذكر في هذا الفصل ما حكاه المرتضى عن قاضي القضاة في «المغني»، وما اعترض به عليه، ثم نذكر ما عندنا في ذلك.

قال المرتضى حاكياً عن قاضي القضاة: وممّا عظمت الشيعة القول في أمر فَدَك، قالوا: وقد رَوَى أبو سعيد الخُدْريّ أنه لما أنزلتْ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[1]، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فَدَك[2]. ثم فعل عمر بن عبد العزيز مثل ذلك، فردّها على ولدها. قالوا: ولا شك أن أبا بكر أغضبها، إن لم يصحّ كلّ الذي رُويَ في هذا الباب، وقد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم ممّا ارتكبوا منها فضلاً عن الدّين، ثم ذكروا أنها استشهدتْ أميرَ المؤمنين عليه السلام وأمَّ أيمنَ، فلم يقبل شهادتهما، هذا مع تركه أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله في حجرهنّ، ولم يجعلها صدقةً، وصدقهنّ في ذلك أنّ ذلك لهنّ ولم يصدّقها.

قال: والجواب عن ذلك أن أكثر ما يروُون في هذا الباب غير صحيح، ولسنا ننكر صحّة ما روي من ادّعائها فَدَك، فأما أنّها كانت في يدها فغير مسلم، بل إن كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها، فإذا كانت في جملة التركة فالظاهر أنها ميراث، وإذا كان كذلك فغير جائز لأبي بكر قبولُ دَعْواها، لأنه لا خلافَ في أنّ العمل على الدَّعْوى لا يجوز، وإنما يعمل على مثل ذلك إذا علمت صحته بمشاهدة، أو ما جرى مجراها، أو حصلت بيّنة أو إقرار، ثمّ إن البيّنة لا بدّ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

(٢) رواه ابن حجر في المطالب العالية: ٣/ ٣٦٧ ح ٣٧٢٥، والسيوطي في أسباب النزول: ١٦٧، وأبو يعلى في المسند: ٢/ ٣٣٤ ح ١٠٧٥، وأنظر وفاء الوفاء للمسهودي: ٣/ ٩٩٩.

منها، وإن أمير المؤمنين عليه السلام لما خاصمه اليهوديّ حاكمه، وأنّ أمّ سلمة التي يطبق على فضلها لو ادّعت نَحْلاً ما قُبِلَتْ دعواها.

ثم قال: ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الوالي، ولم يعلم صحة هذه الدعوى، ما الذي كان يجب أن يعمل؟ فإن قلتم: يقبل الدعوى، فالشرع بخلاف ذلك، وإن قلتم: يلتمس البيّنة، فهو الذي فعله أبو بكر.

ثم قال: وأما قول أبي بكر: رجل مع الرجل، وامرأة مع المرأة، فهو الذي يوجبه الدّين، ولم يثبت أن الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام، بل الرواية المنقولة أنه شهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله مع أمّ أيمن.

قال: وليس لأحد أن يقول: فلماذا ادّعت ولا بيّنةَ معها؟ لأنه لا يمتنع أن تجوّز أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين، أو تجوّز عند شهادة من شهد لها أن تذكر غيره فيشهد، وهذا هو الموجب على ملتمس الحق، ولا عيب عليها في ذلك، ولا على أبي بكر في التماس البيّنة، وإن لم يحكم لها لما لم يتمّ ولم يكن لها خصم، لأن التركة صدقة على ما ذكرنا، وكان لا يمكن أن يعوّل في ذلك على يمين أو نُكول، ولم يكن في الأمر إلا ما فعله. قال: وقد أنكر أبو علي ما قاله السائل من أنّها لما رُدّت في دعوى النِّحلة ادّعته إرْثاً، وقال: بل كان طَلَبُ الإرث قبل ذلك، فلما سمعت منه الخبر كفّت وادّعت النِّحلة.

قال: فأما فِعْل عمر بن عبد العزيز فلم يثبت أنه ردّه على سبيل النِّحلة، بل عمل في ذلك ما عمله عمرُ بن الخطاب بأنْ أقرّه في يد أمير المؤمنين عليه السلام ليصرف غلّاتها في المواضع التي كان يجعلها رسول الله صلى الله عليه وآله فيه، فقام بذلك مدّة، ثم ردّها إلى عمر في آخر سنته، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز، ولو ثبت أنه فعل بخلاف ما فعل السَّلف لكان هو المحجوجَ بفعلهم وقولهم. وأحدُ ما يقوّي ما ذكرناه أن الأمرَ لما انتهى إلى أمير المؤمنين عليه السلام ترك فَدَكَ على ما كان، ولم يجعله ميراثاً لولد فاطمة، وهذا يبيّن أن الشاهد كان غيره، لأنه لو كان هو الشاهد لكان الأقربَ أن يحكم بعلمه، على أن الناس اختلفوا في الهِبَة إذا لم تقبض، فعند بعضهم تستَحقّ بالعقد، وعند بعضهم أنها إذا لم تقبَض يصير وجودها كعدمها، فلا يمتنع من هذا الوجه أن يمتنع أميرُ المؤمنين عليه السلام من ردّها، وإن صحّ عنده عقد الهبة، وهذا هو الظاهر، لأنّ التسليم لو كان وقع لظهر أنه كان في يدها، ولكان ذلك كافياً في الاستحقاق، فأمّا حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وآله فإنما تركتْ في أيديهنّ لأنها كانت لهنّ ونصّ الكتاب يشهد بذلك، وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1]. ورُوي في الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله قسم ما كان له من الحُجَر على نسائه وبناته.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

ويبيّن صحة ذلك أنه لو كان ميراثاً أو صدقة لكان أميرُ المؤمنين عليه السلام لمّا أفضى الأمرُ إليه يغيّره.

قال: وليس لأحد أن يقول: إنما لم يغيّر ذلك لأنّ الملْك قد صار له، فتبرّع به، وذلك أن الذي يحصل له ليس إلا ربع ميراث فاطمة عليها السلام، وهو الثمنُ من ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان يجب أن ينتصف لأولاد العباس وأولاد فاطمة منهن في باب الحجَر، ويأخذ هذا الحقّ منهنّ، فتركه ذلك يدلّ على صحّة ما قلناه، وليس يمكنهم بعد ذلك إلا التعلق بالتقيّة، وقد سبق الكلام فيها.

قال: ومما يَذْكرونه أن فاطمة عليها السلام لغضبها على أبي بكر وعمرَ أوصت ألّا يصلّيا عليها، وأن تُدْفن سرًّا منهما، فدفنت ليلاً، وهذا كما ادّعوا رواية روَوْها عن جعفر بن محمد عليه السلام وغيره، أن عمر ضرَب فاطمة عليها السلام بالسوط، وضرب الزبير بالسيف، وأن عمر قصد منزلها وفيه عليّ عليه السلام والزبير والمقداد وجماعة ممن تخلف عن أبي بكر وهم مجتمعون هناك، فقال لها: ما أحدٌ بعدَ أبيك أحبّ إلينا منك، وايمُ الله لئن اجتمع هؤلاء النفر عندك لنحرقن عليهم! فمنعت القومَ من الاجتماع.

قال: ونحن لا نصدّق هذه الروايات ولا نجوّزها. وأمّا أمر الصلاة فقد رُوي أنّ أبا بكر هو الذي صلّى على فاطمة عليها السلام، وكبّر عليها أربعاً، وهذا أحد ما استدلّ به كثير من الفقهاء في التكبير على الميت، ولا يصحّ أيضاً أنها دُفنت ليلاً، وإن صَحّ ذلك فقد دُفن رسول الله صلى الله عليه وآله ليلاً، ودَفَن عمرُ ابنه ليلاً، وقد كان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله يدفنون بالنهار ويدفنون بالليل، فما في هذا مما يطعن به، بل الأقرب في النّساء أنّ دفنهنّ ليلاً أستَر وأولَى بالسنة.

ثم حكَى عن أبي عليّ تكذيبَ ما رُوي من الضرب بالسوط، قال: والمرويّ عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه كان يتولّاهما، ويأتي القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلى الله عليه وآله، رَوى ذلك عباد بن صُهيب، وشعبة بن الحجاج، ومهديّ بن هلال، والدَّراوَرْديّ، وغيرهم، وقد روي عن أبيه محمد بن عليّ عليه السلام وعن عليّ بن الحسين مثل ذلك، فكيف يصحّ ما ادّعَوْه! وهل هذه الرواية إلا كروايتهم على أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو إسرافيل والحسن ميكائيل والحسين جبرائيل وفاطمة ملك الموت، وآمنة أمّ النبيّ صلى الله عليه وآله ليلة القدر[1]! فإن صدّقوا ذلك أيضاً قيل لهم: فعمر بنُ الخطاب كيف يقدر على ضرب ملك الموت! وإن قالوا: لا نصدّق ذلك، فقد جوّزوا ردّ هذه الروايات، وصحّ أنه لا يجوز التعويل على هذا الخبر وإنما يتعلق بذلك مَنْ غرَضه الإلحاد كالورّاق، وابن الراونديّ، لأنّ غرضهم القدْح في الإسلام.

---

(١) لم نسمع بهذه الرواية ولا قرأناها لأحد الآن.

وحُكي عن أبي عليّ أنه قال: ولم صار غضبُها إن ثبت كأنه غضب رسول الله ﷺ من حيث قال: «فمن أغضبها فقد أغضبني»(١)، أولى من أن يقال: فمن أغضب أبا بكر وعمر فقد نافق وفارق الدين، لأنه رُوي عنه ﷺ قال: «حبُّ أبي بكر وعمر إيمان، وبغضُهما نفاق»! ومن يورد مِثل هذا فقصده الطعن في الإسلام، وأن يتوهّم الناس أنّ أصحاب النبي ﷺ نافقوا مع مشاهدة الأعلام ليُضعفوا دلالة العلم في النفوس.

قال: وأما حديث الإحراق فلو صحّ لم يكن طعناً على عمر، لأن له أن يهدّد من امتنع من المبايعة إرادة للخلاف على المسلمين لكنه غير ثابت. انتهى كلام قاضي القضاة.

قال المرتضى: نحن نبتدىء فندلّ على أنّ فاطمة عليها السلام ما ادّعت من نحْل فَدَك إلا ما كانت مصيبة فيه، وأن مانعها ومطالبها بالبيّنة متعنّت، عادلٌ عن الصواب، لأنها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة، ثم نعطف على ما ذكره على التفصيل، فنتكلم عليه.

أما الذي يدلّ على ما ذكرناه فهو أنها كانت معصومة من الغلط، مأموناً منها فعلُ القبيح، ومَن هذه صفته لا يحتاج فيما يدعيه إلى شهادة وبيّنة.

فإن قيل: دلّلوا على الأمرين، قلنا: بيان الأوّل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٢) والآية تتناول جماعةً منهم فاطمة عليها السلام بما تواترتْ الأخبار في ذلك، والإرادة ها هنا دلالة على وقوع الفعل للمراد. وأيضاً فيدلّ على ذلك قولُه ﷺ: «فاطمة بَضعةٌ منّي، مَنْ آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عزّ وجلّ»(٣).

وهذا يدلّ على عصمتها، لأنّها لو كانت ممّن تقارف الذنوب لم يكن مَنْ يؤذيها مؤذياً له على كلّ حال، بل كان متى فعل المستحقّ من ذمّها أو إقامة الحدّ عليها، إن كان الفعل يقتضيه سارّاً له ومطيعاً، على أنّا لا نحتاج أن ننبّه في هذا الموضع على الدّلالة على عصمتها، بل يكفي في هذا الموضع العلم بصدقها فيما ادّعته، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين، لأنّ أحداً لا يشكّ أنّها لم تدعِ ما ادّعته كاذبة، وليس بعد ألّا تكون كاذبة إلّا أنْ تكون صادقة، وإنّما اختلفوا في هل يجب مع العلم بصدقها تسليم ما ادّعته بغير بيّنة أم لا يجب ذلك؟ قال: الّذي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٤)، ونحوه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فاطمة (٢٤٤٩)، وأبو داود، كتاب: النكاح، باب: ما يكره أن يجمع بينهن من النساء (٢٠٧١)، وابن ماجه، كتاب: النكاح، باب: الغيرة (١٩٩٨).
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٠/ ٣٥٣.

وليس لهم أن يقولوا: إنّها أخبار آحاد، لأنّها وإن كانت كذلك، فأقلّ أحوالها أنْ توجب الظنّ، وتَمنَع من القطع على خلاف معناها. وليس لهم أن يقولوا: كيف يسلّم إليها فَدَك وهو يَروِي عن الرسول أن ما خلّفه صدَقة، وذلك لأنه لا تنافي بين الأمرين، لأنّه إنما سلّمها على ما وردتْ به الرواية على سبيل النّحْل، فلما وقعتْ المطالبةُ بالميراث روى الخبر في معنى الميراث، فلا آختلاف بين الأمرين.

فأمّا إنكار صاحب الكتاب لكون فَدَك في يدها، فما رأيناه آعتَمَد في إنكار ذلك على حجّة، بل قال: لو كان ذلك في يدها لكان الظاهر أنّها لها. والأمر على ما قال، فمن أين أنّه لم يخرج عن يدها على وجه يقتضي الظاهرُ خلافَه! وقد رُوِي من طرقٍ مختلِفة غير طريق أبي سعيد الّذي ذكره صاحبُ الكتاب أنّه لمّا نزل قولُه تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[1] دعا النبيّ ﷺ فأعطاها فَدَك! وإذا كان ذلك مرويًّا فلا معنى لدفعه بغير حجّة.

وقوله: لا خلاف أنّ العمل على الدّعوى لا يجوز، صحيح، وقد بيّنا أن قولها كان معلوماً صحتّه، وإنّما قوله: إنما يعمل على ذلك متى علم صحته بشهادة أو ما يجري مجراها، أو حصلت بيّنة أو إقرار، فيقال له: إمّا علمتَ بمشاهدة فلم يكن هناك، وإمّا بيّنة فقد كانت على الحقيقة، لأن شهادة أمير المؤمنين عليه السلام من أكبر البيّنات وأعدلِها، ولكن على مذهبك أنه لم تكن هناك بيّنة، فمن أين زعمتَ أنّه لم يكن هناك عِلْم! وإن لم يكن عن مشاهدة فقد أدخلتَ ذلك في جملة الأقسام.

فإن قال: لأن قولها بمجرّده لا يكون جهةً للعلم، قيل له: لم قلت ذلك؟ أو ليس قد دلّلنا على أنّها معصومة، وأن الخطأ مأمونٌ عليها! ثم لو لم يكن كذلك لكان قولُها في تلك القضيّة معلوماً صحته على كل حال، لأنّها لو لم تكن مصيبة لكانت مبطلة عاصية فيما ادّعته، إذ الشّبهة لا تدخل في مثله، وقد أجمعت الأمّة على أنّها لم يظهر منها بعد رسول الله ﷺ معصية بلا شكٍ وارتياب، بل أجمعوا على أنّها لم تدع إلا الصحيح، وإن آختلفوا، فمن قائل يقول: مانِعُها مخطىء، وآخر يقول: هو أيضاً مصيب، لفقد البيّنة وإن علم صدقها.

وأمّا قوله: إنّه لو حاكم غيرَه لطولب بالبيّنة، فقد تقدّم في هذا المعنى ما يكفي، وقصّة خزيمة بن ثابت وقبول شهادته تُبطل هذا الكلام.

وأمّا قوله: إن أمير المؤمنين عليه السلام حاكَمَ يهوديًا على الوجه الواجب في سائر الناس، فقد رُوِي ذلك، إلّا أن أمير المؤمنين لم يفعل من ذلك ما كان يجب عليه أن يفعله، وإنّما تبرّع به، وآستظهر بإقامة الحجّة فيه، وقد أخطأ من طالبه ببيّنة كائناً منْ كان. فأمّا اعتراضه بأمّ سَلَمة فلم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

يَثبُت من عصمتها ما ثَبت من عصمة فاطمةَ عليها السلام، فلذلك آحتاجتْ في دعواها إلى بيّنة. فأمّا إنكاره وآدّعاؤه أنّه لم يثبت أن الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين، فلم يزد في ذلك إلّا مجرد الدعوى والإنكار، والأخبار مستفيضةٌ بأنّه عليه السلام شهد لها، فدفْع ذلك بالزّيغ لا يُغني شيئاً! وقوله: إنّ الشاهد لها مولًى لرسول الله صلى الله عليه وآله هو المنكَر الّذي ليس بمعروف.

وأما قوله: إنّها جوّزت أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين فَطريف، مع قوله فيما بعد: «إن التركة صدقة، ولا خصم فيها»، فتدخل اليمين في مثلها، أفترى أن فاطمة لم تكن تعلم من الشريعة هذا المقدار الذي نبّه صاحب الكتاب عليه! ولو لم تعلمه ما كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعلم الناس بالشّريعة يوافقُها عليه.

وقوله: إنّها جوّزت عند شهادة مَنْ شهد لها أن يتذكّر غيرهم فيشهد باطل، لأنّ مِثْلها لا يتعرّض للظّنة والتهمة، ويعرّض قوله للردّ، وقد كان يجب أن تعلم مَنْ يشهد لها ممّن لا يشهد حتى تكون دعواها على الوجه الذي يجب معه القبول والإمضاء، ومَنْ هو دونها في الرتبة والجلالة والصيانة من أفناء الناس لا يتعرّض لمثل هذه الخطّة ويتورّطها، للتجويز الّذي لا أصلَ له ولا أمارة عليه.

فأمّا إنكار أبي عليّ لأن يكون النّحْل قبل ادّعاء الميراث وعكسه الأمر فيه، فأوّل ما فيه أنّا لا نعرف له غرَضاً صحيحاً في إنكار ذلك، لأنّ كون أحد الأمرين قبْل الآخر لا يصحّح له مذهباً، فلا يُفسد على مخالِفه مذهباً.

ثم إنّ الأمر في الكلام في أن النَّحْل كان المتقدّم ظاهراً، والروايات كلّها به واردة، وكيف يجوز أن تبتدىء بطلب الميراث فيما تدّعيه بعينه نَحْلاً! أوَ ليس هذا يوجِب أن تكون قد طالبتْ بحقّها من وجه لا تستحقّه منه مع الاختيار! وكيف يجوز ذلك والميراثُ يَشْرَكها فيه غيرها، والنَّحْل تنفرد به! ولا ينقلب مِثلُ ذلك علينا من حيث طالبتْ بالميراث بعد النَّحْل، لأنّها في الابتداء طالبتْ بالنَّحْل، وهو الوجه الّذي تستحق فَدَك منه، فلمّا دُفعتْ عنه طالبت ضرورةً بالميراث، لأن للمدفوع عن حقّه أن يتوصَّل إلى تناوله بكلّ وجه وسبب، وهذا بخلاف قول أبي عليّ، لأنّه أضاف إليها ادّعاء الحقّ من وجه لا تستحقّه منه، وهي مختارة.

وأما إنكاره أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز ردَّ فَدَك على وجه النَّحْل، وادّعاؤه أنه فعل في ذلك ما فعله عمر بن الخطاب من إقرارها في يد أمير المؤمنين عليه السلام، ليصرف غلاتها في وجوهها، فأوّل ما فيه أنّا لا نحتجّ عليه بفعل عمر بن عبد العزيز على أيّ وجه وقع، لأنّ فعله ليس بحجّة، ولو أردنا الاحتجاج بهذا الجنس من الحُجج لذكرنا فعل المأمون، فإنه ردّ فَدَك بعد أن جلس مجلساً مشهوراً حكم فيه بين خَصْمين نصّبهما، أحدهما لفاطمة، والآخر لأبي بكر، وردّها بعد قيام الحُجّة ووضوح الأمر.

ومع ذلك فإنه قد أنكر من فعل عمر بن عبد العزيز ما هو معروف مشهور بلا خلاف بين أهل النقل فيه، وقد رَوَى محمد بن زكريا الغَلابيّ عن شيوخه، عن أبي المقدام هشام بن زياد مولى آل عثمان، قال: لما ولِّي عمرُ بن عبد العزيز ردَّ فَدَكَ على ولد فاطمة، وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حَزْم يأمره بذلك، فكتب إليه: إنّ فاطمة قد ولدتْ في آل عثمان، وآل فلان وفلان، فعلى من أردّ منهم؟ فكتب إليه: أما بعد، فإني لو كتبت إليك آمرُكَ أن تذبح شاةً لكتبتَ إليّ: أجمّاء أم قَرْناء؟ أو كتبت إليك أن تذبح بقرة لسألتني: ما لونُها؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من عليّ عليه السلام، والسلام.

قال أبو المقدام: فنقمت بنو أميّة ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه، وقالوا له: هجّنتَ فعل الشيخين، وخرج إليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة، فلما عاتبوه على فعله قال: إنكم جهلتم وعلمتُ، ونسيتم وذكرتُ، إن أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم حدّثني عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «فاطمة بَضعةٌ منّي يسخطها ما يسخطني، ويُرضيني ما أرضاها»(١)، وإن فَدَكَ كان صافية على عهد أبي بكر وعمر، ثمّ صار أمرها إلى مروان، فوهبها لعبد العزيز أبي، فورثتها أنا وإخوتي عنه، فسألتُهم أن يبيعوني حصّتهم منها، فمن بائع وواهب، حتى استجمعتْ لي، فرأيتُ أن أردّها على ولد فاطمة. قالوا: فإن أبيتَ إلّا هذا فأمسك الأصل، واقسم الغَلّة، ففعل.

وأمّا ما ذكره من ترك أمير المؤمنين عليه السلام فدك لما أفضى الأمرُ إليه، واستدلاله بذلك على أنه لم يكن الشاهد فيها، فالوجه في تركه عليه السلام ردّ فَدَك هو الوجه في إقراره أحكامَ القوم وكفِّه عن نقضها وتغييرها، وقد بيّنا ذلك فيما سبق، وذكرنا أنه كان في انتهاء الأمر إليه في بقيّة من التقيّة قويّة.

فأما استدلاله على أنّ حُجر أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله كانت لهنّ بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾(٢)، فمن عجيب الاستدلال، لأنّ هذه الإضافة لا تقتضي المِلك، بل العادة جاريةٌ فيها أن تستعمل من جهة السكنى، ولهذا يقال: هذا بيتُ فلان ومسكنُه، ولا يراد بذلك المِلك، وقد قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾(٣)، ولا شبهة في أنه تعالى أراد منازل الرجال التي يُسكِنون فيها زوجاتِهم، ولم يُرِد بهذه الإضافة الملك.

فأما ما رواه من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قسم حجره على نسائه وبناته، فمن أين له إذا كان الخبر صحيحاً أنّ هذه القسمة على وجه التمليك دون الإسكان والإنزال! ولو كان قد ملّكهنّ ذلك لوجب أن يكون ظاهراً مشهوراً.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ١.

فأما الوجه في ترك أمير المؤمنين لما صار الأمر إليه في يده منازعة الأزواج في هذه الحُجر فهو ما تقدّم وتكرّر.

وأما قوله: إنَّ أبا بكر هو الذي صلى على فاطمة وكبّر أربعاً، وإنَّ كثيراً من الفقهاء يستدلُّون به في التكبير على الميت - وهو شيء ما سُمِع إلّا منه، وإن كان تلقَّاه عن غيره - فممّن يجري مجراه في العصبيّة، وإلّا فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسِّير خالية من ذلك، ولم يختلفُ أهل النقل في أن عليّاً عليه السلام هو الذي صلى على فاطمة، إلّا رواية نادرة شاذّة وردت بأن العباس رحمه الله صلّى عليها.

وروى الواقديّ بإسناده في تاريخه، عن الزهريّ، قال: سألت ابن عباس: متى دفنتم فاطمة عليها السلام؟ قال: دفنّاها بليل بعد هَدْأة، قال: قلتُ: فمن صلى عليها؟ قال: عليّ.

ورَوَى الطبريّ عن الحارث بن أبي أسامة، عن المدائنيّ، عن أبي زكريا العجلانيّ أن فاطمة عليها السلام عُمِل لها نعش قبل وفاتها، فنظرتْ إليه، فقالت: سترتُموني ستَرَكما الله!

قال أبو جعفر محمد بن جرير: والثبت في ذلك أنّها زينب، لأنَّ فاطمة دُفنتْ ليلاً، ولم يحضرها إلّا عليّ والعبّاس والمقداد والزبير.

ورَوَى القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده في تاريخه، عن الزهريّ، قال: حدثني عروة بن الزبير أنَّ عائشة أخبرته أنَّ فاطمة عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ستة أشهر، فلما توفيت دفنها عليّ ليلاً، وصلّى عليها، وذكر في كتابه هذا أنَّ عليّاً والحسن والحسين عليهم السلام دفنوها ليلاً، وغيّبوا قبرها.

وروى سُفيان بنِ عيينة، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن بن محمد بن الحنفيّة أنَّ فاطمة دُفنت ليلاً. وروى عبدُ الله بن شيبة، عن يحيى بن سعيد القطان، عن معمر، عن الزّهري مثل ذلك.

وقال البلاذُرِيّ في تاريخه: إنَّ فاطمة عليها السلام لم تُرَ متبسّمة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها.

والأمر في هذا أوضح وأشهر من أن نُطنب في الاستشهاد عليه، ونذكر الروايات فيه.

فأما قوله: ولا يصحّ أنها دفنتْ ليلاً وإن صح فقد دفن فلان وفلان ليلاً، فقد بيّنا أن دفنها ليلاً في الصحة أظهر من الشمس، وأن مُنكر ذلك كالدافع للمشاهدات، ولم يجعل دفنها ليلاً بمجرده هو الحُجّة ليقال: لقد دُفن فلان وفلان ليلاً، بل يقع الاحتجاج بذلك على ما وردتْ به الروايات المستفيضة الظاهرة التي هي كالتواتر، أنها أوصت بأن تدفن ليلاً حتى لا يصلي الرجلان عليها، وصرّحت بذلك وعهدتْ فيه عهداً بعد أن كانا استأذنا عليها في مَرَضها

ليعوداها، فأبتْ أن تأذنَ لهما، فلما طالت عليهما المدافعة رَغِبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام في أن يستأذن لهما، وجعلاها حاجة إليه، وكلمها عليها السلام في ذلك، وألحّ عليها، فأذنت لهما في الدخول، ثم أعرضت عنهما عند دخولهما ولم تكلّمهما، فلما خرجا قالت لأمير المؤمنين عليه السلام: هل صنعت ما أردت؟ قال: نعم، قالت: فهل أنت صانع ما آمرك به؟ قال نعم، قالت: فإنّي أنشدك الله ألّا يُصلّيا على جنازتي، ولا يقومَا على قبري!

وروي أنه عَفّى قبرها وعلّم عليه، ورشّ أربعين قبراً في البقيع، ولم يرشّ قبرها حتى لا يُهتدى إليه، وأنهما عاتباه على ترك إعلامهما بشأنها، وإحضارهما الصلاة عليها، فمن ها هنا احتججنا بالدّفن ليلاً، ولو كان ليس غير الدفن بالليل من غير ما تقدّم عليه وما تأخرّ عنه، لم يكن فيه حُجّة.

وأما حكايته عن أبي عليّ إنكار ضرب الرجل لها. وقوله: إن جعفر بن محمد وأباه وجدّه كانوا يتولّونهما، فكيف لا ينكر أبو عليّ ذلك، وأعتقاده فيهما اعتقاده! وقد كنّا نظنّ أن مخالفينا يقتنعون أن يَنسِبُوا إلى أئمتنا الكفّ عن القوم، والإمساك، وما ظننّا أنّهم يَحمِلون أنفسهم على أن يَنسبُوا إليهم الثناء والوَلاء، وقد علم كلّ أحد أنّ أصحاب هؤلاء السادة المختصّين بهم، قد روَوا عنهم ضدّ ما روى شعبة بن الحجّاج وفلان وفلان وقولهم: هما أوّل من ظلمَنا حقّنا، وحمل الناسَ على رقابنا، وقولهم: إنّهما أصفيا بإناثنا، وأضطجعا بسبلنا، وجلسا مجلساً نحن أحق به منهما، إلى غير ذلك من فنون التظلّم والشكاية، وهو طويل متّسع، ومن أراد أستقصاء ذلك فلينظر في كتاب «المعرفة» لأبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الثّقفي، فإنّه قد ذكر عن رجل من أهل البيت بالأسانيد النيّرة ما لا زيادة عليه، ثم لو صح ما ذكره شُعْبة لجاز أن يُحمَل على التقيّة.

وأمّا ذكره إسرافيل وميكائيل، فما كنّا نظنّ أنّ مثله يذكر ذلك، وهذا من أقوال الغُلاة الذين ضلّوا في أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت، وليسوا من الشيّعة ولا من المسلمين، فأيّ عيب علينا فيما يقولونه! ثمّ إن جماعةً من مخالفينا قد غَلَوا في أبي بكر وعمر، ورَووْا روايات مختلفة فيهما تَجري مجرى ما ذكره في الشّناعة، ولا يلزم العقلاءَ وذَوِي الألباب من المخالفين عيبٌ من ذلك.

وأمّا معارضة ما رُوِي في فاطمة عليها السلام بما رُوِي في: «أن حبّهما إيمان، وبغضهما نفاق»، فالخبر الّذي رويناه مُجمَع عليه، والخبر الآخر مطعونٌ فيه، فكيف يعارَض ذلك بهذا!

وأمّا قوله: إنّما قصد من يورد هذه الأخبار تضعيفَ دلالة الأعلام في النفوس، من حيث أضاف النفاق إلى من شاهدها، فتشنيعٌ في غير موضعه، وأستنادٌ إلى ما لا يُجدي نفعاً، لأن من شاهد الأعلام لا يضعفها ولا يُوهن دليلها. ولا يقدح في كونها حجّة، لأنّ الأعلام ليست

ملجئة إلى العِلم، ولا موجبة لحصوله على كلّ حال، وإنّما تثمر العلم لمن أمعن النّظر فيها من الوجه الّذي تدلّ منه، فمَنْ عَدَل عن ذلك لسوء اختياره لا يكون عدولُه مؤثّراً في دلالتها، فكم قد عَدَل من العقلاء وذوي الأحلام الراجحة والألباب الصحيحة عن تأمّل هذه الأعلام وإصابة الحقّ منها! ولم يكن ذلك عندنا وعند صاحب الكتاب قادحاً في دلالة الأعلام. على أنَّ هذا القول يُوجِب أن ينفي الشّك والنفاق عن كل من صَحِب النبي صلى الله عليه وآله وعاصره وشاهد أعلامه كأبي سفيان وابنه، وعمرو بن العاص، وفلان وفلان، ممّن قد اشتهر نفاقهم وظهر شكُّهم في الدين وارتيابهم باتّفاق بيننا وبينه، وإن كانت إضافة النّفاق إلى هؤلاء لا تقدح في دلالة الأعلام، فكذلك القول في غيرهم.

فأما قولهَ: إن حديث الإحراق لم يصحّ، ولو صحّ لساغ لعمر مثل ذلك، فقد بينا أن خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة.

وقوله: إنه يسوغ مثل ذلك، فكيف يسوغ إحراق بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام! وهل في ذلك عُذر يصغَى إليه أو يسمَع! وإنما يكون عليّ وأصحابُه خارقين للإجماع ومخالفين للمسلمين، لو كان الإجماع قد تقرّر وثبت، وليس بمتقرّر ولا ثابت مع خلاف عليّ وحده، فضلاً عن أن يوافقه على ذلك غيرُه، وبعد، فلا فرق بين أنْ يُهدّد بالإحراق لهذه العلّة، وبين أن يضرب فاطمة عليها السلام لمثلها، فإن إحراق المنازل أعظمُ من ضرب سوط أو سوطين، فلا وجه لامتعاض المخالف من حديث الضّرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار!

قلت: أما الكلامُ في عِصْمة فاطمة عليها السلام فهو بفنّ الكلام أشبه، وللقول فيه موضع غير هذا.

وأما قول المرتضى: إذا كانت صادقة لم يبق حاجةٌ إلى مَنْ يشهد لها، فلقائل أن يقول: لم قلت ذلك؟ ولم زَعمت أن الحاجة إلى البيّنة إنّما كانت لزيادة غَلَبة الظنّ؟ ولم لا يجوز أن يكون الله تعالى يُعبّد بالبيّنة لمصلحة يعلمها، وإن كان المدّعي لا يكذب! أليس قد تعبّد الله تعالى بالعدّة في العجوز التي قد أيست من الحمْل، وإن كان أصل وضعها لاستبراء الرحم!

وأما قصّة خُزيمة بن ثابت، فيجوز أن يكون الله تعالى قد علم أن مصلحة المكلّفين في تلك الصورة أن يكتفى بدعوى النبي صلى الله عليه وآله وحدها، ويستغنى فيها عن الشهادة. ولا يمتنع أن يكون غير تلك الصورة مخالفاً لها، وإن كان المدّعي لا يكذّب. ويبين ذلك أن مذهب المرتضى جواز ظهور خوارق العادات على أيدي الأئمة والصالحين، ولو قدّرنا أن واحداً من أهل الصلاح والخير ادعى دعوى، وقال بحضرة جماعة من الناس من جملتهم القاضي: اللهمّ إن

كنتُ صادقاً فأظهر عليّ معجزة خارقة للعادة، فظهرتْ عليه، لعلمنا أنّه صادق، ومع ذلك لا تقبل دعواه إلّا ببيّنة.

وسألت علي بن الفارقيّ مدرّس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فَدَك وهي عنده صادقة؟ فتبسم، ثم قال كلاماً مستحسناً مع ناموسه وحُرمته وقلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فَدَك بمجرّد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء، لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود، وهذا كلام صحيح، وإن كان أخرجه مخرج الدُّعابة والهزل.

فأما قول قاضي القضاة: لو كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها، واعتراض المرتضى عليه بقوله: إنه لم يعتمِدْ في إنكار ذلك على حجّة، بل قال: لو كانت في يدها لكان الظاهر أنّها لها، والأمر على ما قال، فمن أين أنّها لم تخرج عن يدها على وجه! كما أن الظاهر يقتضي خلافه، فإنه لم يُجِب عمّا ذكره قاضي القضاة، لأنّ معنى قوله: إنها لو كانت في يدها، أي متصرّفة فيها لكانت اليد حجّة في الملْكية، لأن اليدَ والتصرّف حجة لا محالة، فلو كانت في يدها تتصرّف فيها وفي ارتفاقها كما يتصرّف الناس في ضياعهم وأملاكهم لما احتاجت إلى الاحتجاج بآية الميراث ولا بِدَعْوى النَّحل، لأنّ اليد حجّة، فهلا قالت لأبي بكر: هذه الأرض في يدي، ولا يجوز انتزاعها منّي إلا بحجّة! وحينئذ كان يسقط احتجاج أبي بكر بقوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورَث»، لأنّها ما تكون قد ادّعتها ميراثاً ليحتجّ عليها بالخبر. وخبر أبي سعيد في قوله «فأعطاها فَدَك»، يدلُّ على الهبة لا على القبض والتصرّف، ولأنه يقال: أعطاني فلان كذا فلم أقبِضْه، ولو كان الإعطاء هو القبض والتصرّف لكان هذا الكلام متناقضاً.

فأمّا تعجّب المرتضى من قول أبي عليّ: إن دعوى الإرث كانت متقدّمة علىَ دعوَى النَّحل، وقوله: إنا لا نعرف له غرضاً في ذلك، فإنه لا يصح له بذلك مذهب، ولا يبطل على مخالفيه مذهب، فإن المرتضى لم يقف على مُراد الشيخ أبي عليّ في ذلك، وهذا شيء يرجع إلى أصول الفقه، فإنّ أصحابنا استدلُّوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد بإجماع الصحابة، لأنهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾[1] برواية أبي بكر عن النبي ﷺ: «لا نورث، ما تركناه صدَقة»[2]، قالوا: والصحيح في الخبر أنّ فاطمة عليها السلام طالبت بعد ذلك بالنُّحل لا بالميراث، فلهذا قال الشيخ أبو عليّ: إنّ دعوى الميراث تقدّمت على دَعْوَى النَّحل، وذلك لأنه ثبت أنّ فاطمة انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) تقدم تخريجه.

لأبي بكر، فلو كانت دعوى الإرث متأخرة، وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد، أما إذا كانت دعوى الإرث متقدمة فلما روي لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النزاع من جهة أخرى، فإنه يصح حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد.

فأما أنا فإنّ الأخبار عندي متعارضة، يدلّ بعضها على أن دعوى الإرث متأخرة، ويدلّ بعضها على أنها متقدمة، وأنا في هذا الموضع متوقّف.

وما ذكره المرتضى من أن الحال تقتضي أن تكون البداية بدعوى النَّحْل فصحيح، وأما إخفاء القبر وكتمان الموت وعدم الصلاة وكل ما ذكره المرتضى فيه فهو الذي يظهر ويقوى عندي، لأن الروايات به أكثر وأصح من غيرها، وكذلك القول في مَوجدتها وغضبها، فأما المنقول عن رجال أهل البيت فإنه يختلف، فتارة وتارة، وعلى كل حال فميل أهل البيت إلى ما فيه نصرة أبيهم وبيتهم.

وقد أخلّ قاضي القضاة بلفظة حكاها عن الشيعة فلم يتكلّم عليها وهي لفظة جيدة. قال: قد كان الأجمل أن يمنعهم التكرّم مما ارتكبا منها فضلاً عن الدِّين. وهذا الكلام لا جواب عنه، ولقد كان التكرّم ورعاية حق رسول الله ﷺ وحفظ عهده يقتضي أن تعوّض ابنته بشيء يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فدك وتُسلم إليها تطيباً لقلبها. وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم، ولا نعلم حقيقة ما كان، وإلى الله ترجع الأمور.

الأصل: وَلَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ - وَلَعَلَّ بِالحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ - أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى، وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُون كَمَا قال الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ ... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكلُ الطَّيِّبَاتِ، كالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ، هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ، شُغُلُهَا تقمُّمها، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلافِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلالَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ!

الشرح: قد روي: «لو شئت لاهتديت إلى هذا العسل المصفّى، ولباب هذا البُرّ المنقى، فضربت هذا بذاك، حتى ينضج وقوداً، ويستحكم معقوداً».

وروي: «ولعل بالمدينة يتيماً ترباً يتضوّر سغباً، أأبيت مِبْطاناً، وحولي بطونٌ غَرْثى، إذن يحضرني يوم القيامة، وهم من ذكر وأنثى».

وروي: بطونُ غَرْثى» بإضافة «بطون» إلى «غرثى». والقمح: الحنطة. والجشع: أشد الحرْص. والمبطان: الذي لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل. فأما المبطن: فالضامر البطن، وأمّا البطين، فالعظيم البَطن لا من الأكل، وأما البطِن، فهو الذي لا يهمّه إلا بطنُه، وأما المبطون فالعليل البَطْن. وبطون غرثى: جائعة. والبِطْنة: الكِظّة، وذلك أن يمتلىء الإنسان من الطعام امتلاءً شديداً، وكان يقال: ينبغي للإنسان أن يجعل وعاء بطنه أثلاثاً: فثلثٌ للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنَّفَس.

والتقمّم: أكل الشاة ما بين يدْيها بمقمّتها أي بشفتها، وكل ذي ظِلْف كالثور وغيره فهو ذو مقمّة. وتكترش من أعلافها: تملأ كِرشها من العَلَف.

قوله: «أو أجرّ حبلَ الضلالة» منصوب بالعطف على «يشغلني»، وكذلك «أترك» ويقال: أجررتُه رَسَنَه، إذا أهملته. والاعتساف: السلوك في غير طريق واضح. والمتاهة: الأرض يُتاه فيها أي يتحيّر.

وفي قوله: «لو شئت لاهْتَديت» شَبَهٌ من قول عمر: لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صَلائق وصِناب، وقد ذكرناه فيما تقدم.

وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائي الجواد، وأولها:

أيا ابنةَ عبدِ الله وابنةَ مالكٍ ... ويا ابنةَ ذي الجدين والفرس الوَرْدِ
إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسي له ... أكيلاً فإنّي لستُ آكلَه وحدِي
قصيّاً بعيداً أو قريباً فإنني ... أخاف مذمّات الأحاديثِ من بعدي
كفَى بك عاراً أن تبيت ببطنَةٍ ... وحولك أكبادٌ تحِنّ إلى القِدِّ[1]
وإني لعبدُ الضعيف ما دام نازلاً ... وما من خِلالي غيرها شيمة العبد

الأصل: وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا قُوتَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ. أَلا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ

---

(١) القَدّ: القطع المستأصِل، والشق طولاً. اللسان، مادة (قدد).

أَرَقُّ جُلوداً، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً.

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ الله كالضَّوْءِ مِنَ الضَّوْءِ، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ، وَالله لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ، حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ.

الشرح: الشَّجرة البرّيّة: التي تنبت في البرّ الذي لا ماء فيه، فهي أصلب عوداً من الشجرة التي تنبت في الأرض النديّة، وإليه وقعت الإشارة بقوله: «والرواتع الخضرة أرق جلوداً».

ثم قال: «والنابتات العِذْيَة» التي تنبت عِذْياً، والعِذْي، بسكون الذال: الزرع لا يسقيه إلا ماء المطر، وهو يكون أقل أخذاً من الماء من النبت سقياً، قال عليه السلام: إنها تكون أقوى وقوداً مما يشرب الماء السائح أو ماء الناضح، وأبطأ خموداً، وذلك لصلابة جِرْمها.

ثم قال: «وأنا من رسول الله صلى الله عليه وآله كالضوء من الضوء، والذراع من العضد» وذلك لأن الضوء الأول يكون علّة في الضوء الثاني، ألا ترى أن الهواء المقابل للشمس يصير مضيئاً من الشمس! فهذا الضَّوء هو الضوء الأول.

ثم إنه يقابل وجه الأرض فيضيء وجهُ الأرض منه، فالضوء الذي على وجه الأرض هو الضوء الثاني، وما دام الضوء الأول ضعيفاً فالضوء الثاني ضعيف، فإذا ازداد الجو إضاءة ازداد وجهُ الأرض إضاءة، لأن المعلول يتْبع العلّة، فشبّه عليه السلام نفسَه بالضوء الثاني، وشبّه رسول الله صلى الله عليه وآله بالضَّوْء الأوّل، وشبّه منبع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس التي توجب الضوء الأوّل ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثاني. وها هنا نكتة، وهي أن الضوء الثاني يكون أيضاً علّة لضوءٍ ثالث، وذلك أن الضَّوْء الحاصل على وجه الأرض - وهو الضوء الثاني - إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئاً بعد أن كان مظلماً، وإن كان لذلك المكان المظلم باب، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار كان ذلك الجدار أشدّ إضاءةً من باقي البيت، ثم ذلك الجدار إن كان فيه ثُقب إلى موضع آخر كان ما يحاذي ذلك البيت أشدّ إضاءةً مما حواليه، وهكذا لا تزال الأضواء يوجب بعضها بعضاً على وجه الانعكاس بطريق العلّيّة، وبشرط المقابلة، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر إلى الظلمة، وهكذا عالم العلوم، والحكم المأخوذة من أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غريباً كما بدأ بموجب الخبر النبويّ الوارد في الصحاح.

وأما قوله: «والذراع من العَضُد» فلأنّ الذراع فرع على العَضُد، والعضُد أصل، ألا ترى أنه لا يمكن أن يكون ذراع إلا إذا كان عضد، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له، ولهذا قال الراجز لولده:

يا بِكْر بِكْرَيْن ويا خِلْب الكَبِدْ أصبحتَ منّي كذراعٍ من عَضُدْ

فشبّه عليه السلام بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالذراع الذي العضد أصله وأسه والمراد من هذا التشبيه الإبانة عن شدّة الامتزاج والاتحاد والقرب بينهما، فإن الضوء الثاني شبيه بالضوء الأول، والذراع متصل بالعَضُد اتصالاً بيّناً، وهذه المنزلة قد أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وآله في مقامات كثيرة نحو قوله في قصة براءة: «قد أمِرت أن لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل منّي»[١]، وقوله: «لتنتهن يا بني وَلِيعة، أو لأبعثن إليكم رجلاً مني»[٢]، أو قال: «عديل نفسي»[٣]، وقد سمّاه الكتاب العزيز «نفسه» فقال: ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[٤]، وقد قال له: «لحمك مختلط بلحمي، ودمك مسُوط بدمي، وشبرك وشبري واحد».

فإن قلت: أما قوله: «لو تظاهرت العرب علي لما وليت عنها»، فمعلوم، فما الفائدة في قوله: «ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت إليها»؟ وهل هذا مما يفخر به الرؤساء ويعدونه منقبة، وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجاوز وعفا!

قلت: غرضه أن يقرّر في نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حق، وأن حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن من يجاهد الكفار يجب عليه أن يُغْلِظ عليهم، ويستأصل شأفتهم، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما جاهد بين قُريظة وظفِر لم يبقِ ولم يَعْف، وحصد في يوم واحد رقابَ ألف إنسان صَبْراً في مقام واحد، لما علم في ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين، فالعفو له مقام والانتقام له مقام.

قوله: «وسأجهد في أن أطهّر الأرض»، الإشارة في هذا إلى معاوية، سمّاه شخصاً معكوساً، وجسماً مركوساً، والمراد انعكاس عقيدته، وأنها ليست عقيدة هدًى، بل هي معاكسة للحق والصواب، وسمّاه مركوساً من قولهم: ارتكسَ في الضلال، والرّكس رد الشيء مقلوباً، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾[٥] أي قلبهم وردهم إلى كفرهم، فلما كان تاركاً للفطرة التي كلُّ مولود يُولد عليها، كان مرتكساً في ضلاله، وأصحاب التناسخ يفسّرون هذا بتفسير

(١) أخرجه المجلسي في البحار: ٣٥/ ٢٩٢، وأخرجه الكاشاني في التفسير الصافي ٢/ ٣٢٠.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٢/ ٨٥، وأخرجه العلامة الحلي في كشف اليقين: ٢٩٣.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٠/ ٧٥ ح ١١٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦١. (٥) سورة النساء، الآية: ٨٨.

آخر، قالوا: الحيوان على ضربين: منتصب ومنحنٍ، فالمنتصب الإنسان، والمنحني ما كان رأسه منكوساً إلى جهة الأرض كالبهائم والسباع.

قالوا: وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

قالوا: فأصحاب الشقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب، وأصحاب السعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصِب، ولما كان معاوية عنده عليه السلام من أهل الشقاوة، سماه معكوساً ومركوساً رمزاً إلى هذا المعنى.

قوله: «حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد»، أي حتى يتطهّر الدين وأهله منه وذلك لأن الزُّراع يجتهدون في إخراج المدَر والحجر والشوْك والعَوسج ونحو ذلك من بين الزرع كي تفسد منابته. فيفسد الحب الذي يخرج منه، فشبّه معاوية بالمدَر ونحوه من مُفْسِدات الحب، وشبّه الدين بالحَبّ الذي هو ثمرة الزرع.

الأصل: إِلَيْكِ عَنّي يا دُنيا، فَحَبْلُكِ على غارِبِكِ، قد انْسَلَلْتُ مِنْ مَخالِبِك، وافْلَتُّ مِنْ حَبائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهابَ في مَدَاحِضِكِ.

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ! فَهَا هُمْ رَهَائِنُ الْقُبُورِ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ.

وَالله لَو كُنْتِ شَخصاً مَرْئِيّاً، وَقالَباً حِسِّيّاً، لأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ الله فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِالْأَمَانِيّ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي الْمَهَاوِي، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى التَّلَفِ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ الْبَلاءِ، إِذْ لا وِرْدَ وَلا صَدَرَ!

هَيْهَاتَ! مَنْ وَطِىءَ دَحْضَكِ زَلِقَ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ، وَمَنِ ازْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ، وَالسَّالِمُ مِنْكِ لا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ، وَالدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ انْسِلاخُهُ.

الشرح: إليكِ عنّي، أي ابعدي، وحبلُك على غاربك، كناية من كنايات الطلاق، أي اذهبي حيث شئت، لأن الناقة إذا ألقي حبلها على غاربها فقد فسح لها أن ترعى حيث شاءت، وتذهب أين شاءت، لأنه إنما يردّها زمامها، فإذا أُلقي حبلها على غاربها فقد أهملت.

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢٢.

والغارب: ما بين السَّنام والعُنق. والمداحض: المزالق.

وقيل: إن في النسخة التي بخط الرضي رضي الله عنه «غررتيهم» بالياء، وكذلك «فتنتيهم»، و«ألقيتيهم»، و«أسلمتيهم»، و«أوردتيهم»، والأحسن حذف الياء، وإذا كانت الرواية وردت بها فهي من إشباع الكسرة كقوله:

ألم يأتيك والأنباء تَنمِي ... بما فعلت لَبُونُ بني زيادِ

ومضامين اللحود، أي الذين تضمنتهم، وفي الحديث نهى عن بيع المضامين والملاقيح، وهي ما في أصلاب الفحول وبطون الإناث.

ثم قال: لو كنتِ أيتها الدنيا إنساناً محسوساً، كالواحد من البَشر، لأقمتُ عليك الحد كما فعلتِ بالناس.

ثم شرح أفعالها فقال: منهم مَنْ غررتِ، ومنهم من ألقيتِ في مهاوي الضلال والكفر، ومنهم من أتلفتِ وأهلكتِ.

ثم قال: ومن وطىء دَحْضك زلق، مكان دَحْض أي مزلة.

ثم قال: لا يبالي مَن سلم منك إن ضاق مناخه، لا يبالي بالفقر، ولا بالمرض ولا بالحبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن! لأن هذا كله حقير لا اعتداد به في جَنب السلامة من فتنة الدنيا.

قال: والدنيا عند من قد سلم منها كيوم قرب انقضاؤه وفناؤه.

الأصل: اعزُبِي عَنِّي! فَوَالله لا أَذِلُّ لَكِ فتستذليني، وَلا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي. وَايْمُ الله يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ الله، لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَها إِلَى الْقُرْصِ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْه مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا، أَتَمْتَلِىءُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ، وَتَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ، وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعُ!

قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ، وَالسَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ!

طُوبَى لنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا، وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَها، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّها.

في مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ، وَهَمْهَمَتْ

بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ اسْتِغفارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(١).

فاتَّقِ الله يَا بنَ حُنَيْفٍ ولتَكْفُفْ أَقْرَاصُك، لِيَكُونَ مِنَ النَّار خلاصُك.

الشرح: اعزبي: ابعدي، يقال عَزب الرجل بالفتح، أي بَعُد. و أسلَس لك بفتح اللام، أي لا أنقاد لك، سلِس الرجل بالكسر يسلَس فهو بيّن السّلس، أي سهل قياده.

ثم حلف، واستثنى بالمشيئة أدباً كما أدّب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ليروضنّ نفسه أي يدرّبها بالجوع، والجوع هو أصل الرياضة عند الحكماء وأرباب الطريقة. قال: «حتى أهشّ إلى القُرْص»، أي إلى الرغيف وأقنع من الإدام بالملح. ونضب معينها: فني ماؤها.

ثم أنكر على نفسه فقال: أتشبع السائمة من رِعْيها - بكسر الراء - وهو الكلأ - والربيضة - جماعة من الغنم أو البقر تربض في أماكنها. وأنا أيضاً مثلها أشبع وأنام!

لقد قرت عيني إذاً حيث أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعلم والجد في السنين المتطاولة.

قوله: «وعركت بجنبها بؤسها»، أي صبرت على بؤسها، والمشقة التي تنالها. يقال: قد عرك فلان بجنبه الأذى أي أغضى عنه، وصبر عليه.

قوله: «افترشت أرضها» أي لم يكن لها فراش إلا الأرض. «وتوسّدت كفّها»، لم يكن لها وسادة إلا الكف. «وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم» لفظ الكتاب العزيز ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾(٢). وهمهمت: تكلّمت كلاماً خفياً. وتقشعت ذنوبهم: زالت وذهبت كما يتقشع السحاب.

قوله: «ولتكفف أقراصك»، إنما هو نهيٌ لابن حُنيف أن يكف عن الأقراص، وإن كان اللفظ يقتضي أن تكف الأقراص عن ابن حُنيف. وقد رواها قوم بالنصب، قالوا: «فاتق الله يا ابنَ حنيف ولتكفف أقراصَك، لترجو بها من الناس خلاصك»، والتاء ها هنا للأمر عوض الياء، وهي لغة لا بأس بها، وقد قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾(٣)، بالتاء.

تم الجزء السادس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥٨.

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الجزء الخامس عشر

الجزء السادس عشر

شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

١٧ـ ١٨

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

خليوي: ٠٣/٩٤٢١٦١ - ٠٣/١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠٨/٣٧٦٤٠٨

http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com

دار الكتاب العربي
دار الكتاب العربي
بغداد - شارع المتنبي
تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥

شرح

نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق

محمد إبراهيم

المجلد التاسع

١٧ - ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٦ - ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله

الأصل: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الأَثِيمِ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ.

فَاسْتَعِنْ بالله عَلَى مَا أَهَمَّكَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ؛ وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لاَ تُغْنِي عَنْكَ إِلاَّ الشِّدَّةُ.

وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ؛ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، وَالإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلاَ يَيْئَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ. والسلام.

الشرح: قد أخذ الشاعر معنى قوله: «وآس بينهم في اللحظة والنّظْرة»، فقال:

اقسم اللحظَ بيننا إنّ في اللّحـ ... ـظِ لَعنوانُ ما تُجِنُّ الصدورُ
إنّما البِرّ روضةٌ فإذا ما ... كان بِشْرٌ فروضةٌ وغديرُ

قوله: «وآس بينهم في اللحظة»، أي اجعلهم أسوة، وروي: «وساوِ بينهم في اللحظة»؛ والمعنى واحد.

واستظهرْ به: اجعلْه كالظَّهْر. والنّخوة: الكبرياء: والأثيم: المخطىء المذنب. وقوله: «وأسُدّ به لَهاة الثّغر» استعارة حسنة.

والضِّغث في الأصل: قبضة حشيش مختلط يابُسها بشيء من الرّطْب، ومنه «أضغاث الأحلام» للرؤيا المختلطة التي لا يصحّ تأويلها، فاستعار اللفظة ها هنا؛ والمراد: امزُج الشدة بشيء من اللين فاجعلهما كالضِّغث، وقال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[1].

قوله: «فاعتزم بالشدّة» أي إذا جدّ بك الجدّ فدَع اللّين، فإنّ في حال الشدّة لا تُغني إلاّ الشدّة، قال الفِنْد الزِّمّانيّ:

فلمّا صرّح الشرُّ ... فأمسى وهو عُريانُ

---

(١) سورة صَ، الآية: ٤٤.

ولـم يـبـقَ سِـوَى الـعـدوا نِ دِنّـاهـمْ[1] كـمـا دانُـوا

قوله: «حتى لا يطمَع العظماء في حَيْفك»، أي حتَّى لا يطمع العظماء في أن تمالئهم على حَيْف[2] الضعفاء، وقد تقدّم مثل هذا فيما سبق.

٤٧ – ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله

الأصل: أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى الله، وَأَلاَّ تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولاَ بِالْحَقّ، وَاعْمَلاَ لِلأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى الله وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ.

الله الله فِي الأَيْتَامِ، فَلاَ تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلاَ يَضِيعُوا بِحضْرَتِكُمْ.

وَالله الله فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ.

وَالله الله فِي الْقُرْآنِ، لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ.

وَالله الله فِي الصَّلاَةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ.

وَالله الله فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لاَ تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا.

وَالله الله فِي الْجِهَاد بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ الله.

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ، لاَ تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُون فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ.

ثم قال: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ! أَلاَ لا تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مُتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ

(١) دَانَهُ دَيناً أي: جازاه. لسان العرب، مادة (دين).

(٢) أي: ظلمهم والجور عليهم. القاموس المحيط، مادة (حيف).

هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلاَ تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[١].

الشرح: روي: «واعملا للآخرة»، وروي: «فلا تغيّروا أفواهكم»؛ يقول: لا تطلبا الدّنيا وإن طلبتْكما؛ فإذا كان مَنْ تطلبه الدنيا منهيًّا عن طلبها فمن لا تطلبه يكون منهيًّا عن طلبها بالطريق الأولى.

ثم قال: «ولا تأسفا على شيء منها زُوِي عنكما»، أي قبض؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «زُوِيتْ لِيَ الدُّنيا فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ مُلْك أمّتي ما زُوِي لي منها»[٢].

وروي: «ولا تأسيَا»؛ وكلاهما بمعنى واحد، أي لا تحزنا، وهذا من قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[٣].

قوله: «صلاح ذات البين» أخذ هذه اللفظة عبد الملك بن مروان فقال لبنيه وقد جُمعوا عنده يوم موته:

انفُوا الضّغائن بينكمْ وعليكمُ ... عند المغيب وفي حضور المشهدِ
بصلاح ذاتِ البين طول حياتكمْ ... إن مُدّ في عمري وإن لم يُمْدَدِ
إنّ القِداحَ إذا اجتمعنَ فرامَها ... بالكَسْر ذو بطشٍ شَديد أيّدِ
عزّت فلم تُكسَر، وإن هي بُدّدتْ ... فالوهنُ والتكسير للمتبدّدِ

وذات ها هنا زائدة مقحمة.

قوله: «فلا تُغبّوا أفواههم»، أي لا تجيعوهم بأن تطعموهم غِبًّا، ومَنْ روى: «فلاَ تغيّروا أفواههم» فذاك لأن الجائع يتغيّر فمُه، قال عليه السلام: «الخَلُوفُ فمِ الصائم أَطْيَبُ عند الله من ريحِ المِسْك»[٤].

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٤٩)، والطبراني في «الكبير» (١٦٨)، وابن حجر في «الدراية» (٣/ ١١٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضها ببعض(٢٨٨٩)، وأبو داود في كتاب: الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٥٢)، والترمذي في كتاب: الفتن وباب ما جاء في سؤال النبي صلى الله عليه وآله (٢١٧٦)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢).

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: فضل الصوم (١٨٩٤)، ومسلم في كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام (١١٥١)، والترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في فضل الصوم (٧٦٤)، والنسائي في كتاب: الصيام، باب: فضل الصوم (٢٢١١).

قال: «ولا يضيعوا بحضرتكم» أي لا تضيّعوهم، فالنهي في الظاهر للأيتام وفي المعنى للأوصياء والأولياء، والظاهر أنه لا يعني الأيتام لهم مال تحت أيدي أوصيائهم؛ لأنّ أولئك الأوصياء محرّم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلاّ القَدْر النّزْر جدًّا عند الضرورة ثم يقضونه مع التمكّن، ومَنْ هذه حالُه لا يحسن أن يقال له: لا تغيّرُوا أفواه أيتامكم، وإنما الأظهرُ أنّه يعني الّذين مات آباؤهم وهم فقراء يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(١)، واليُتْم في النّاس من قِبَل الأبِ، وفي البهائم من قِبَل الأمّ؛ لأن الآباء من البهائم لا عناية لهم بالأولاد، بل العناية للأمّ لأنها المرضعة المشفقة؛ وأمّا النّاس فإنّ الأبَ هو الكافل القيّم بنفقة الولد؛ فإذا مات وصل الضّرر إليه لفقد كافله والأمّ بمعزلٍ عن ذلك. وجمع يتيم على أيتام، كما قالوا: شريف وأشراف. وحكى أبو عَلِيٍّ في التّكْملة: «كميء وأكماء»، ولا يسمى الصبيّ يتيماً إلاّ إذا كان دون البلوغ وإذا بلغ زالَ اسمُ اليتيم عنه. واليتامى أحد الأصناف الّذين عيّنوا في الخُمْس بنصّ الكتاب العزيز.

بعض ما ورد في حقوق الجار

ثم أوصى بالجيران، واللفظ الذي ذكره عليه السلام قد ورد مرفوعاً في رواية عبد الله بن عمر لما ذبح شاة، فقال: أهديتم لجارنا اليهوديّ؟ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»(٢).

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِم جاره»(٣).

وعنه عليه السلام: «جار السوءِ في دار المقامة قاصمة الظهر»(٤).

وعنه عليه السلام: «مِن جهد البلاءِ جارُ سُوء معك في دار مُقامة إن رأى حسنةً دفنَها، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها»(٥).

ومن أدعيتهم: اللهمّ إنّي أعوذ بك من مالٍ يكون عليّ فتنة، ومنْ ولد يكون عليّ كَلاًّ، ومِنْ

(١) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب الوصاة بالجار (٦٠١٤) ومسلم، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار (٢٦٢٥) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في حق الجوار، وأبو داود في كتاب: الأدب (٥١٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٩)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار (٤٧)، وأحمد في كتاب: أول مسند المدنيين (١٥٩٣٩).

(٤) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٣)، والطبري في «الأوسط» (٦١٨٠).

(٥) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٨٨٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٣).

حَليلة تقرّب الشيب، ومن جار تراني عيناه وترعاني أذناه، إن رأى خيراً دفنه، وإن سمع شرًّا طار به.

ابن مسعود يرفعه: «والذي نفسي بيده لا يُسلِم العبد حتى يَسْلم قلبُه ولسانه، ويأمن جارُه بوائقَه»، قالوا: ما بوائقه؟ قال: غَشْمه وظلمه»[1].

لُقمان: يا بنيّ، حملتُ الحجارة والحديد فلم أر شيئاً أثقلَ من جار السوء.

وأنشدوا:

ألا مَنْ يشتري داراً برُخْصٍ كراهةَ بَعْضِ جيرتِها تباعُ

وقال الأصمعيّ: جاور أهلُ الشام الرّومَ فأخذوا عنهم خصلتين: اللؤم وقلّة الغَيْرة، وجاور أهل البصرة الخَزَر، فأخذوا عنهم خصلتين: الزنى وقلّة الوفاء، وجاور أهلُ الكوفة السوادَ[2]، فأخذوا عنهم خصلتين: السخاء والغَيْرة.

وكان يقال: مَنْ تطاول على جارِه، حُرِم بركة داره.

وكان يقال: مَنْ آذى جاره ورّثه الله دارَه.

باع أبو الجهم العدويّ داره، وكان في جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلما أحضرها المشتري قال له: هذا ثمن الدار، فأعطني ثمن الجِوار، قال: أيّ جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل أشترى أحدٌ جِواراً قطّ! رُدّ عليّ داري، وخذ مالك، لا أدَعُ جوار رجل؛ إن قعدتُ سأل عنّي، وإن رآني رحّب بي، وإن غِبْت عنه حفظني، وإن شهدت عنده قرّبني، وإن سألته قضى حاجتي، وإن لم أسأله بدأني، وإن نابتْني نائبة فرّج عني. فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارُك لك.

الحسن: ليس حسنُ الجوار كفَّ الأذى، ولكنّ حسنَ الجوار الصَّبْر على الأذى.

جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الخَلّة[3]، وقالت: أنا جارتك، قال: كم بيني وبينك؟ قالت: سبع أدؤرٍ، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم، فأعطاها إياها، وقال: كدنا نَهْلِك.

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يُصْلحه، وحماه ممّن يقصده، وإن هلك له شيء أخلفه عليه، وإن مات وداه[4] لأهله، فجاوره أبو دُوَاد الإياديّ؛ فزاره على العادة، فبالغ في إكرامه. وكانت العرب إذا حمدت جاراً قالت: جار كجار أبي دُواد، قال قيس بن زهير:

---

(١) أخرجه أحمد في كتاب: المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٦٦٣).

(٢) السَّوَاد: ما حوالي الكوفة من القرى والرساتيق. لسان العرب، مادة (يسود).

(٣) الخَلّة: الحاجة والفقر والخصاصة. القاموس المحيط مادة (خلل).

(٤) وَدَاه: أعطى ديَتَه. القاموس المحيط، مادة (ودي).

أطــوّف مــا أطــوّف ثــم آوِي   إلــى جــارٍ كــجــارِ أبــي دُوادِ

ثم تعلّم منه أبو دواد، وكان يفعل لجاره فِعل كعبٍ به.

وقال مسكين الدارِميّ:

مــا ضــرّ جــاراً لــي أجــاورُهُ   ألاّ يــكــونَ لِــبــابــهِ سِــتْــرُ
أعــمــى إذا مــا إذا جــارتــي خــرجــتْ   حــتّــى يــواريَ جــارتــي الــخِــدْرُ
نــارِي ونــارُ الــجــار واحــدةٌ   وإلــيــه قَــبــلِــي يُــنــزَل الــقِــدْرُ

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرساً مِخضيراً، فقال لأصحابه: لماذا يصلح هذا؟ فذكروا سباق الخيل، وصَيْد الحُمر والنّعام، واتباع الفارّ من الحرب، فقال: لم تصنعوا شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء.

سأل سليمان عليّ بن خالد بن صفوان عن ابنيه: محمد وسليمان - وكانا جارَيْه - فقال: كيف إحمادُك جوارَهما؟ فتمثّل بقول يزيد بن مفرّغ الحميريّ:

سـقـى الله داراً لـي وأرضـاً تـركـتُـهـا   إلـى جنـبِ داريْ مـعـقِـل بـن يَـسَـارِ
أبـو مَـالِـكٍ جـارٌ لـهـا وابـن مَـرثِـدٍ   فـيـالـك جـاريْ ذلّـةٍ وصَـغـارِ!

وفي الحديث المرفوع أيضاً من رواية جابر: «الجيران ثلاثة: فجارٌ له حقّ، وجار له حقّان، وجارٌ له ثلاثة حقوق؛ فصاحب الحقّ الواحد جارٌ مشرِك لا رحِم له، فحقّه حقّ الجوار، وصاحب الحقَّيْن جار مسلم لا رَحِم له، وصاحب الثلاثة جار مسلم ذو رَحِم، وأدْنَى حق الجوار ألاّ تؤذِيَ جارَك بقُتار قِدْرِك، إلاّ أن تقتدح له منها»[1].

قلت: تقتدح: تغترف، والمقدحة المغرفة.

وكان يقال: الجيران خمسة: الجار الضارّ السَّيِّء الجوار، والجار الدَّمِس الحسن الجوار، والجار اليربُوعيّ المنافق، والجار البرَاقشيّ المتلوّن في أفعاله، والجار الحسْدليّ الذي عينه تراك وقلبه يرعاك.

وروى أبو هريرة، كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمّ إني أعوذ بك من جار السوء في دار المُقامة، فإنّ دار البادية تتحوّل»[2].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٠٧)، وابن عدي في «الكامل» (١٣٢٧).

(٢) أخرجه النسائي، في كتاب: الاستعاذة (٥٥٠٢)، وأحمد في كتاب: باقي مسند المكثرين (٨٣٤٨).

قوله عليه السلام: «الله الله في القرآن» أمرهما بالمسارعة إلى العمل به، ونهاهما أن يسبقهما غيرُهما إلى ذلك، ثم أمرهما بالصلاة والحجّ.

وشدّد الوَصاة في الحجّ، فقال: «فإنه إن تُرِكَ لم تناظروا» أي يتعجّل الانتقام منكم.

فأما المُثْلة فمنهيّ عنها، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمثّل بهبّار بن الأسود لأنه روَّع زينب حتى أجهضت، ثم نهى عن ذلك، وقال: لا مُثْلة، المُثْلة حرام[1].

٤٨ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: فَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ، وَدُنْيَاهُ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الْحَق، فَتَأَلَّوْا عَلَى الله فَأَكْذَبَهُمْ، فَاحْذَرْ يَوْماً يُغْتَبَطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ، وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ، وَالسَّلاَمُ.

الشرح: يُوتغان: يَهْلِكان؛ والوتَغ بالتحريك: الهلاك؛ وقد وتغ يَوْتَغ وتَغاً، أي أثِم وهلك، وأوتغه الله: أهلكه الله، وأوتغ فلان دينه بالإثم.

قوله: «فتألّوْا على الله»، أي حلفوا، من الأليّة وهي اليمين، وفي الحديث: «من تألّى على الله أكذبه الله»[2]، ومعناه: مَنْ أقسم تجبّراً واقتداراً: لأفعلنّ كذا، أكذبه الله ولم يبلغ أمله.

وقد روي: «تأوّلوا على الله» أي حَرَّفوا الكلم عن مواضعه، وتعلّقوا بشبهة في تأويل القرآن انتصاراً لمذاهبهم وآرائهم، فأكذبهم الله بأن أظهر للعقلاء فساد تأويلاتهم. والأوّل أصحّ.

ويغتبط فيه: يفرح ويُسرّ، والغِبطة: السرور، روي «يغبط فيه» أي يتمنّى مثلُ حاله هذه.

قوله: «ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه» الياء التي هي حرف المضارعة عائدة على المكلف الذي أمكن الشيطان من قياده. يقول: إذا لم يجاذب الشيطان من قياده فإنه يندم؛ فأما مَنْ جاذَبَه قيادَه فقد قام بما عليه.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم والغصب، باب: النهي بغير أذن صاحبه (٢٤٧٤)، والنسائي، في كتاب: تحريم الدم، باب: النهي عن المثلة (٤٠٤٧)، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: النهي عن المثلة (٢٦٦٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٨٩٨)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٧١).

ومثله قوله: «ولسنا إياك أجَبْنا» قوله: «والله ما حكّمت مخلوقاً وإنما حكّمت القرآن» ومعنى «مخلوقاً»: بشراً لا محدِثاً.

٤٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية ايضاً

الأصل: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلاَّ فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا، وَلَهَجاً[1] بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ[2]، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى، حَفِظْتَ مَا بَقِيَ؛ وَالسَّلاَمُ.

الشرح: هذا كما قيل في المثل: صاحب الدنيا كشارب ماء البحر؛ كلّما ازداد شرباً ازداد عطشاً، والأصل في هذا قول الله تعالى: «لو كانَ لابن آدم واديانِ من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلاّ التراب»[3]، وهذا من القرآن الذي رُفع ونسختْ تلاوتُه.

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال:

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص، وزاد فيه زيادةً لم يذكرها الرضيّ: أمّا بعد؛ فإنّ الدنيا مشغلة عن الآخرة، وصاحبها منهوم عليها، لم يصب شيئاً منها قطّ إلاّ فتحت عليه حرصاً، وأدخلت عليه مؤنة تزيده رغبةً فيها؛ ولن يستغني صاحبُها بما نال عمّا لم يدرك، ومن وراء ذلك فراق ما جَمَع؛ والسعيد مَنْ وُعِظ بغيره، فلا تُحْبِط أجرك أبا عبد الله ولا تشرك معاوية في باطله؛ فإن معاوية غمصَ الناس، وسفّه الحق. والسلام.

قال نصر: وهذا أوّل كتاب كتبه عليّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص، فكتب إليه عمرو جوابه:

---

(١) لَهِجَ بالأمر لَهَجاً: أولع واعتاده، ويقال فلان مُلْهَج بهذا الأمر أي مولع به. لسان العرب، مادة (لهج).

(٢) أبْرَمَ الأمر: أحكمه، والأصل فيه إبرام الحبل إذا كان طاقين. لسان العرب، مادة (برم).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٨)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٨)، والترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء لو كان لابن آدم واديان من مال (٢٣٣٧)، وأحمد في كتاب: باقي مسند المكثرين (١٢٣٠٦).

أمّا بعد، فإنّ الذي فيه صلاحنا، وألفة ذات بينِنا، أن تُنِيب إلى الحق، وأن تجيب إلى ما ندعوكم إليه من الشورى؛ فصبَر الرجل منّا نفسَه على الحق، وعذَرهُ النّاس بالمحاجزة[1]، والسلام[2].

قال نصر: فكتب عليٌ عليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً.

وهو الذي ضرب مَثَله فيه بالكلْبِ يتبع الرجل، وهو مذكور في «نهج البلاغة» واللَّهَج: الحرص.

ومعنى قوله عليه السلام: «لو اعتبرت بما مضى حَفِظْتَ ما بقِيَ»، أي لو اعتبرتَ بما مضَى من عمرك لحفظت باقيه أن تنفقه في الضّلال وطلب الدنيا وتضيّعه.

٥٠ - ومن كتاب له عليه السلام إلى امرائه على الجيوش

الأصل: من عبد الله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين رفعة إلى أصحاب المسالح:

أَمَّا بَعْدُ، فَإنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلاَّ يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ، وَلاَ طَوْلٌ خُصَّ بِهِ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ الله لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ.

أَلاَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلاَّ أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلاَّ فِي حَرْبٍ، وَلاَ أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلاَّ فِي حُكْمٍ، وَلاَ أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ، وَلاَ أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِذَا فَعَلْتُ ذلِكَ وَجَبَتْ لله عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ، وَأَلاَّ تَنْكِصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلاَ تُفَرِّطُوا فِي صَلاَحٍ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ، وَلاَ يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً.

فَخُذُوا هذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ الله بِهِ أَمْرَكُمْ، وَالسَّلاَمُ.

الشرح: أصحابُ المسَالح: جماعات تكون بالثّغر يحمون البَيْضة، والمسْلَحة هي الثّغر، كالمرغبة، وفي الحديث: «كان أدنى مسالحِ فارس إلى العَرب العُذَيْب»[3]؛ قال:

(١) المحاجزة: الممانعة، وتحاجزا: تمانعا. القاموس المحيط، مادة (حجز).
(٢) أخرجه العلامة المجلسي البحار: ٣٢/ ٤٠٢، وأخرجه ابن مزاحم المنقري في وقعة صفين: ١١١.
(٣) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ٢/ ٤٨٧.

يجب على الوالي ألاَّ يتطاول على الرعيّة بولايته، وما خُصّ به عليهم من الطَّوْل وهو الفضل؛ وأن تكون تلك الزيادة التي أعطِيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعيّة وحنوّه عليهم.

ثم قال: «لكم عندي ألاَّ أحتجِز دونكم بسرٍّ»، أي لا أستتر. قال: «إلاَّ في حرب»، وذلك لأن الحرب يحمَد فيها طيّ الأسرار، والحرب خُدعة.

ثم قال: «ولا أطوِي دونكم أمراً إلاَّ في حُكْم»، أي أظهركم على كلِّ ما في نفسي مما يحسن أن أظهرَكم عليه؛ فأمّا أحكام الشريعة والقضاء على أحَد الخَصْمين فإنّي لا أعلمكم به قبل وقوعه؛ كيْلا تفسد القضيّة بأن يحتال ذلك الشخص لصرْف الحكْم عنه.

ثم ذكر أنّه لا يؤخّر لهم حقًّا عن محلّه - يعني العطاء - وأنّه لا يقف دون مقطعه، والحق ها هنا غير العطاء، بل الحكم، قال زُهير:

فإنّ الحقّ مقطعُه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

أي متى تعيّن الحكم حكَمْتُ به وقطعت ولا أقف، ولا أتحبّس.

ولمّا استوفى ما شرط لهم قال: فإذا أنا وَفَيت بما شرطت على نفسي وجبتْ لله عليكم النّعمة ولي عليكم الطاعة.

ثم أخذ في الاشتراط عليهم كما شرط لهم، فقال: ولي عليكم ألاَّ تنكصوا عن دعوة، أي لا تتقاعسُوا عن الجهاد إذا دعوتُكم إليه، ولا تفرّطوا في صلاح؛ أي إذا أمكنتْكم فرصة، أو رأيتم مصلحة في حرب العدوّ أو حماية الثّغر، فلا تفرّطوا فيها فتفوت. وأن تخوضوا الغمرات إلى الحقّ؛ أي تكابدوا المشاقّ العظيمة؛ ولا يهولنّكم خوضُها إلى الحقّ.

ثم توعّدهم إن لم يفعلوا ذلك، ثم قال: فخذوا هذا من أمرائكم؛ ليس يعني به أن على هؤلاء أصحاب المسالح أمراء من قِبَله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه، بل من أمرائكم؛ يعني منّي وممّن يقوم من الخلافة مقامي بعدي، لأنه لو كان الغرض هو الأوّل لما كان محلهم عنده أن يقول: «ألا أحتجز دونكم بسرٍّ ولا أطوي دونكم أمراً». لأن محلّ من كان بتلك الصفة دون هذا.

٥١ - ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج

الأصل: من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج:

أَمَّا بَعْدُ! فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ، لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا(١).

(١) الحِرْز: الموضع الحصين، وحَرَزَهُ: صانه. القاموس المحيط، مادة (حرز).

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى الله عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لاَ عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ، فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاَءُ الْأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الأَئِمَّةِ، وَلاَ تُحْشِمُوا أَحداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلاَ تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلاَ تَبِيعُنَّ النَّاسَ فِي الْخَرَاجِ كُسْوَةَ شِتَاءٍ وَلاَ صَيْفٍ، وَلاَ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا، وَلاَ عَبْداً، وَلاَ تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ، وَلاَ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلاَ مُعَاهَدٍ، إِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلاَحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلاَمِ، فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذٰلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلاَمِ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ.

وَلاَ تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلاَ الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ، وَلاَ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلاَ دِينَ الله قُوَّةً.

وَأَبْلُوهُ فِي سَبِيلِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

الشرح: يقول: لو قدّرنا أنّ القبائح العقليّة كالظلم والبغي لا عقابَ على فعلها بل في تركها ثواب فقط؛ لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرّط في ذلك الترك؛ لأنه يكون قد حرَم نفسَه نفعاً هو قادر على إيصاله إليها.

قوله: «ولا تُحشموا أحداً»؛ أي لا تغضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبها، أحشمتُ زيداً، وجاء «حَشَمْته»، وهو أن يجلس إليك فتغضبه وتؤذيه. وقال ابن الأعرابيّ: حشمتُه: أخجلته، وأحشمته: أغضبته، والاسم الحِشْمة، وهي الاستحياء والغضب.

ثم نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ما هو من ضروريّاتهم كثياب أبدانهم وكدابّةٍ يعتمِلون عليها، نحو بقر الفلاحة، وكعبْدٍ لا بدّ للإنسان منه يخدُمه، ويسعى بين يديه.

ثم نهاهم عن ضرب الأبشار لاستيفاء الخراج.

وكتب عديّ بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في عذاب العمّال، فكتب إليه: كأنّي لك جُنّة من عذاب الله، وكأنّ رضايَ ينجيك من سَخط الله! من قامت عليه بيّنة، أو أقرّ بما لم يكن مضطهداً مضطراً إلى الإقرار به، فخُذْه بأدائه؛ فإن كان قادراً عليه فاستأدِ، وإن أبى فاحبسه، وإن لم يقدر فخلّ سبيلَه؛ بعد أن تُحلّفه بالله أنّه لا يقدِر على شيء، فلأنْ يلقوا الله بجناياتهم أحبُّ إليّ من أن ألقاه بدمائهم.

ثم نهاهم أن يعرضُوا مال أحدٍ من المسلمين أو من المعاهَدِين؛ المعاهد ها هنا: هو الذّميّ أو مَنْ يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد، إما لأداء رسالة، أو لتجارة: ونحو ذلك، ثم يعود إلى بلاده.

ثم نهاهم عن الظّلم وأخذ أموال الناس على طريق المصادرة والتأويل الباطل؛ قال: إلا أن تخافوا غائلةَ المعاهدِين، بأن تجدوا عندهم خيولاً أو سلاحاً، وتظنّوا منهم وثبة على بلدٍ من بلاد المسلمين، فإنه لا يجوز الإغضاء[١] عن ذلك حينئذٍ.

قوله: «وأبلوا في سبيل الله»، أي اصطنعوا من المعروف في سبيل الله ما استوجب عليكم، يقال: هو يبلوه معروفاً، أي يصنعه إليه، قال زهير:

جَزَى الله بالإحسانِ ما فَعَلاَ بِكُمْ وأبلاهما خيرَ البلاء الّذي يَبْلو

قوله عليه السلام: «قد اصطنعا عندنا وعندكم أن نشكره»، أي لأنْ نشكره، بلام التعليل وحذفها، أي أحسن إلينا لنشكره، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

٥٢ - ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة

الأصل: أمّا بَعْدُ فَصَلُّوا بِالنّاسِ الظُّهرَ حَتّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرِبِض الْعَنْزِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضاءُ حَيَّةٌ في عِضْوٍ مِن النَّهارِ حِينَ يُسارُ فِيها فَرْسَخانِ[٣]، وَصَلُّوا بِهِم الْمغرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصّائِمُ، وَيَدْفَعُ الحَاجُّ إلَى مِنًى، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ والرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صاحِبِهِ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاَةَ أَضْعَفِهِمْ، وَلاَ تَكُونوا فَتّانِينَ.

اختلاف الفقهاء في أوقات الصلاة

الشرح: قد اختلف الفقهاء في أوقات الصلاة، فقال أبو حنيفة: أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثاني؛ وهو المعترِض في الأفق، وآخر وقتها ما لم تطلع الشمس. وأوّل وقت الظهر

(١) الإغْضَاء: إدناء الجفون، وأغْضَيتُ: سَكَتُّ. لسان العرب، مادة (غضي).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٣) الفَرسَخُ: ثلاثة أميال هاشمية، أو اثنا عشر ألف ذراع، أو عشرة آلاف. القاموس المحيط، مادة (فرسخ).

إذا زالت الشمس، وآخر وقتها إذا صار ظلّ كلّ شيء مثليْه سوى الزوال. وقال أبو يوسف ومحمّد: آخر وقتها إذا صار الظلّ مثله.

قال أبو حنيفة: وأوّل وقت العصر إذا خرج وقتُ الظهر؛ وهذا على القولين، وآخر وقتها ما لم تغرب الشمس، وأوّل وقت المغرب إذا غرَبت الشمس، وآخر وقتها ما لم يغب الشّفق؛ وهو البياض الّذِي في الأفُق بعد الحمرة. وقال أبو يوسف ومحمد: هو الحمرة.

قال أبو حنيفة: وأوّل وقت العِشاء إذا غاب الشفق، وهذا على القولين، وآخر وقتها ما لم يطلع الفجر.

وقال الشافعيّ: أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثاني، ولا يزال وقتها المختار باقياً إلى أن يسفر، ثم يبقى وقتَ الجواز إلى طلوع الشمس.

وقال أبو سعيد الإصطخريّ من الشافعية: لا يبقى وقت الجواز، بل يخرج وقتها بعد الإسفار ويصلّى قضاء؛ ولم يتابعه على هذا القول أحدٌ. قال الشافعيّ: وأوّل وقت الظُّهر إذا زالت الشمس. وحكى أبو الطيّب الطَّبريّ من الشافعية أن من الناس من قال: لا تجوز الصلاة حتى يصير الفيء بعد الزَّوال مثل الشِّراك.

وقال مالك: أحبّ أن يؤخر الظّهر بعد الزوال بقدر ما يصير الظلّ ذراعاً؛ وهذا مطابق لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام حين تفيء الشمس كمربض العنز، أي كموضع تربض العنز، وذلك نحو ذراع أو أكثر بزيادة يسيرة.

قال الشافعيّ: وآخر وقت الظهر إذا صار ظلّ كلّ شيء مثله، ويعتبر المثْل من حدّ الزّيادة على الظلّ الذي كان عند الزوال، وبهذا القول قال أبو يوسف ومحمد؛ وقد حكيناه من قبلُ، وبه أيضاً قال الثوريّ وأحمد، وهو رواية الحسن بن زياد اللؤلؤي عن أبي حنيفة، فأمّا الرواية المشهورة عنه - وهي الّتي رواها أبو يوسف - فهو أن آخر وقت الظهر صيرورة الظلّ مثليْه، وقد حكيناه عنه فيما تقدم.

وقال ابن المنذِر: تفرّد أبو حَنيفة بهذا القول؛ وعن أبي حنيفة رواية ثالثة أنه إذا صار ظلّ كل شيء مثله خرج وقت الظهر؛ ولم يدخل وقت العصر إلى أن يصير ظلّ كلّ شيء مثليْه.

وقال أبو ثور ومحمد بن جرير الطبريّ: قدر أربع ركعات بين المثْل والمثلين، يكون مشتركاً بين الظهر والعصر.

وحكي عن مالك أنه قال: إذا صار ظلّ كل شيء مثله، فهو آخر وقت الظهر وأوّل وقت العصر، فإذا زاد على المثْل زيادة بيّنة خرج وقت الظهر واختصّ الوقت بالعصر.

وحكي ابن الصّبّاغ من الشافعية، عن مالك، أن وقت الظهر إلى أن يصير ظلّ كلّ شيء مثله

وقتاً مختاراً، فأمّا وقت الجواز والأداء فآخره إلى أن يبقى إلى غروب الشمس قَدْر أربع ركعات؛ وهذا القول مطابقٌ لمذهب الإماميّة.

وقال ابن جُريج وعطاء: لا يكون مفرّطاً بتأخيرها حتى تكون في الشمس صُفرة.

وعن طاوس: لا يفوت حتى الليل.

فأمّا العصر: فإن الشافعيّ يقول: إذا زاد على المِثْل أدنى زيادة، فقد دخل وقت العصر؛ والخلاف في ذلك بينه وبين أبي حنيفة لأنّه يقول: أوّل وقت العصر إذا صار ظلّ كلّ شيء مثليْه، وزاد عليه أدنى زيادة. وقد حكيناه عنه فيما تقدّم.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في العصر مطابق لمذهب أبي حنيفة، لأنّ بعد صيرورة الظلّ مثليْه، هو الوقت الذي تكون فيه الشمس حَيَّة بيضاء في عِضْو من النهار، حين يُسار فيه فرسخان، وأما قبل ذلك فإنّه فوق ذلك يُسار من الفراسخ أكثر من ذلك، ولا يزال وقت الاختيار عند الشافعيّ للعصر باقياً حتى يصير ظلّ كلّ شيء مثليْه؛ ثم يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس.

وقال أبو سعيد الإصطخريّ من أصحابه: يصير قضاء بمجاوزة المثْلَيْن؛ فأمّا وقت المغرب فإذا غَرَبت الشمس وغروبها سقوط القرص.

وقال أبو الحسن عليّ بن حبيب الماورديّ من الشافعية: لا بدَّ أن يسقط القُرْص ويغيب حاجب الشمس، وهو الضياء المستعلي عليها كالمتّصل بها، ولم يذكر ذلك من الشافعيّة أحد غيره.

وذكر الشّاشي في كتاب «حلية العلماء»[1] أن الشيعة قالت: أوّل وقت المغرب إذا اشتبكت النجوم. قال قد حكي هذا عنهم. ولا يساوي الحكاية، ولم تذهب الشيعة إلى هذا، وسنذكر قولهم فيما بعد[2].

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في المغرب لا ينصّ على وقتٍ معين لأنّه عرف ذلك بكونه وقت الإفطار، ووقت ما يدفع الحاجّ، وكلاً الأمرين يحتاج إلى تعريف كما يحتاج وقت الصلاة، اللهمّ إلاّ أن يكون قد عرّف أمراء البلاد الّذين يصلُّون بالناس من قبل هذا الكتاب متى هذا

---

(١) «حلية الأولياء» في الحديث: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة (٤٣٠هـ) «كشف الظنون» (١/ ٦٨٩).

(٢) ذكره جملة من الحفاظ كالنسائي والطبراني أن عبد الله بن عمر لم يصل عند غروب الشمس بل انتظر حتى اشتبكت النجوم، أنظر مسند الشاميين للطبراني رقم ١٥٣١، والسنن الكبرى للنسائي: ج ١٥٦٤، والمعجم الأوسط: ٤/ ٦٧.

الوقت الذي يُفطر فيه الصائم، ثم يدفع فيه الحاجّ بعينه، ثم يحيلهم في هذا الكتاب على ذلك التعريف المخصوص.

قال الشافعيّ: وللمغرب وقت واحد، وهو قول مالك.

وحكى أبو ثَوْر عن الشافعيّ أن لها وقتين، وآخر وقتها إذا غابَ الشّفق. وليس بمشهور عنه، والمشهور القول الأول، وقد ذكرنا قول أبي حنيفة فيما تقدّم، وهو امتداد وقتها إلى أن يغيب الشّفق، وبه قال أحمد وداود.

واختلَف أصحابُ الشافعيّ في مقدار الوقت الواحد، فمنهم من قال: هو مقدّر بقدْر الطهارة وستر العَوْرة والأذان والإقامة وفعل ثلاث ركعات، ومنهم مَنْ قَدّره بغير ذلك.

وقال أبو إسحاق الشيرازيّ منهم: التضييق إنّما هو في الشّروع، فأمّا الاستدامة فتجوز إلى مغيب الشفق.

فأما وقت العشاء، فقال الشافعيّ: هو أن يغيب الشفق وهو الحمرة، وهو قول مالك وأحمد وداود وأبي يوسف ومحمد، وقد حكينا مذهب أبي حنيفة فيما تقدّم، وهو أن يغيب الشفق الذي هو البياض، وبه قال زُفَر والمزنيّ.

قال الشافعي: وآخر وقتها المختار إلى نِصْف الليل، هذا هو قوله القديم، وهو مذهب أبي حنيفة، وقال في الجديد: إلى ثلث الليل. ويجب أن يحمَل قولُ أميرِ المؤمنين عليه السلام في العشاء أنّها إلى ثلث الليل على وقت الاختيار، ليكون مطابقاً لهذا القول، وبه قال مالك، وإحدى الروايتيْن عن أحمد. ثم يذهب وقت الاختيار؛ ويبقى وقتُ الجواز إلى طلوع الفجر الثاني.

وقال أبو سعيد الإصطخريّ: لا يبقى وقت الجواز بعد نصف الليل، بل يصير قضاء.

فقد ذكرنا مذهبي أبي حنيفة والشافعيّ في الأوقات، وهما الإمامان المعتبران في الفقه، ودخل في ضمن حكاية مذهب الشافعي ما يقوله مالك وأحمد وغيرهما من الفقهاء.

فأما مذهب الإماميّة من الشيعة، فنحن نذكره نقلاً عن كتاب أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله المعروف بالمقيد «بالرسالة المقنّعة» قال: وقتُ الظهر من بعد زوال الشمس إلى أن يرجع الفيء سُبْعَي الشخص، وعلامة الزوال رجوعُ الفيءِ بعد انتهائه إلى النّقصان، وطريق معرفة ذلك بالإصطرلاب[1] أو ميزان الشمس[2]، وهو معروف عند كثير من الناس، أو

(١) الإسطُرْلاب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ومعرفة الوقت والجهات الأصلية. المعجم الوسيط، مادة (إسطرلاب) (١/١٧).

(٢) هي بمعنى للأسطرلاب.

بالعمود المنصوب في الدائرة الهنديّة أيضاً، فمن لم يعرف حقيقة العمل بذلك، أو لم يجد آلته فلينصب عوداً من خشب أو غيره في أرض مستوية السّطح، ويكون أصلُ العود غليظاً ورأسه دقيقاً شبْه المذري الذي ينسّج به التّكك[1] أو المسلّة التي تُخاط بها الأحمال، فإن ظلّ هذا العود يكون بلا شكٍّ في أول النهار أطولَ من العود، وكلّما ارتفعت الشمس نقص من طوله حتى يقف القُرْص في وسط السماء، فيقف الفيء حينئذٍ، فإذا زال القرص عن الوسط إلى جهة المغرب رَجَع الفيء إلى الزيادة. فليعتبر مَنْ أراد الوقوف على وقت الزوال ذلك بخطط وعلامات يجعلها على رأس ظلّ العود عند وضعه في صدر النهار، وكلّما نقص في الظلّ شيء علّم عليه، فإذا رجع إلى الزيادة على موضع العلامة عرف حينئذٍ برجوعه أن الشمس قد زالت.

وبذلك تُعرف أيضاً القبلة، فإنّ قُرْص الشمس يقف فيها وسَط النهار، ويصير عن يسارها ويمين المتوجّه إليها بعد وقوفها وزوالها عن القُطْب، فإذا صارت مما يلي حاجبه الأيمن من بين عينيه عُلم أنها قد زالت، وعرف أن القبلة تلقاء وجهه؛ ومن سبقت معرفته بجهة القبلة فهو يعرف زوال الشمس إذا توجّه إليها، فرأى عينَ الشمس مما يلي حاجبه الأيمن؛ إلا أن ذلك لا يبين إلاّ بعد زوالها بزمان، ويبيّن الزوال من أوّل وقته بما ذكرناه من الإصطرلاب وميزان الشمس والدائرة الهندية والعمود الذي وصفناه، ومَنْ لم يحصل له معرفة ذلك، أو فقد الآلة توجّه إلى القبلة فاعتبر صيرورة الشمس على طرف حاجبه الأيمن وقت العصر من بعد الفراغ من الظهر، إذا صليت الظهر في أوّل أوقاتها - أعني بعد زوال الشمس بلا فصل - ويمتدّ إلى أن يتغيّر لون الشمس باصفرارها للغروب، وللمضطر والناسي إلى مغيبها بسقوط القُرْص عما تبلغه أبصارنا من السماء، وأوّل وقت المغرب مغيب الشمس، وعلامة مغيبها عدم الحُمْرة في المشرق المقابل للمغرب في السماء؛ وذلك أن المشرق في السماء مُطلٌّ على المغرب، فما دامت الشمس ظاهرة فوق أرضنا فهي تلقي ضوءها على المشرق في السماء، فيرى حُمْرتها فيه، فإذا ذهبت الحمرة منه علم أن القُرْص قد سقط وغاب. وآخره أول وقت العشاء الآخرة، وأوّل وقتها مغيب الشمس وهو الحمرة في المغرب، وآخره مضي الثلث الأول من الليل، وأول وقت الغداة اعتراض الفجر، وهو البياض في المشرق يعقبه الحمرة في مكانه؛ ويكون مقدمة لطلوع الشمس على الأرض من السماء؛ وذلك أن الفجر الأول، وهو البياض الظاهر في المشرق يطلع ثم ينعكس بعد مدّة عرضاً ثم يحمر الأفق بعده للشمس.

ولا ينبغي للإنسان أنْ يصلّيَ فريضة الغداة حتى يعترض البياض، وينتشر صُعُداً في السماء كما ذكرنا، وآخر وقت الغداة طلوع الشمس.

هذا ما تقوله الفقهاء في مواقيت الصلاة.

---

(١) التّكَكُ: جمع، مفرده تِكّة: وهي رباط السراويل القاموس المحيط، مادة (تكك).

فأما قوله عليه السلام: «والرجل يعرِف وجه صاحبه» فمعناه الإسفار، وقد ذكرناه.

وقوله عليه السلام: «وصلُّوا بهم صلاة أضعفِهم»؛ أيْ لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدعوات الطويلة.

ثم قال: «ولا تكونوا فتّانين»، أي لا تفتِنوا الناس بإتعابهم وإدخال المشقّة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة، نحو أن يُحْدِث الإمام فيستخلف فيصلّي الناس خلف خليفته، فإن ذلك لا يجوز على أحد قولي الشافعيّ؛ ونحو أن يُطيل الإمام الركوع والسجود، فيظنّ المأمومون أنّه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة؛ ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء في كتبهم.

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما بدأ بصلاة الظهر، لأنها أوّلُ فريضة افترضت على المكلّفين من الصلاة على ما كان يذهب إليه عليه السلام؛ وإلى ذلك تذهب الإماميّة، وينصر قولَهم تسميتها بالأولى؛ ولهذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها؛ فأمّا مَنْ عدا هؤلاء فأول الصلاة المفروضة عندهم الصبح؛ وهي أول النهار.

وأيضاً يتفرع على هذا البحث القولُ في الصلاة الوسطى، ما هي؟ فذهب جمهور الناس إلى أنها العصر، لأنها بين صلاتيْ نهار وصلاتَي ليل؛ وقد رووا أيضاً في ذلك روايات بعضها في الصحاح، وقياس مذهب الإمامية أنها المغرب؛ لأنّ الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى؛ إلا أنّهم يروون عن أئمتهم عليهم السلام أنها الظهر، ويفسرون الوسطى بمعنى الفُضْلى؛ لأنّ الوسط في اللغة هو خيار كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1]، وقد ذهب إلى أنّها المغرب قوم من الفقهاء أيضاً.

وقال كثير من الناس: إنّها الصبح، لأنها أيضاً بين صلاتيْ ليل وصلاتي نهارٍ، ورووا أيضاً فيها روايات وهو مذهب الشافعيّ، ومن الناس من قال: إنها الظهر كقول الإمامية ولم يسمع عن أحد معتبراً أنها العشاء إلا قولاً شاذًّا ذكره بعضهم.

وقال: لأنها بين صلاتين لا تُقْصَرَان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

٥٣ – ومن كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي رحمه الله لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن

الأصل: هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ الله عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلاَدِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى الله وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا، وَلاَ يَشْقَى إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ الله سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ، وَيَنْزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلاَّ مَا رَحِمَ الله.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلاَدٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلاَةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي الله لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ. فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ. فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ.

الشرح: نصرة الله باليد: الجهاد بالسيف، وبالقلب الاعتقاد للحق وباللسان قولُ الحقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تكفَّل الله بنُصرة من نَصَره، لأنه تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾(١).

والجمَحات: منازعة النَّفس إلى شهواتها ومآربها، ونزعها بكفّها.

ثم قال له: قد كنت تسمع أخبار الولاة، وتعيب قوماً وتمدح قوماً، وسيقول الناس في إمارتك الآن نحو ما كنت تقول في الأمراء؛ فاحذر أن تعاب وتذمّ كما كنت تعيب وتذمّ مَنْ يستحقّ الذم.

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

ثم قال: إنما يستدلّ على الصالحين بما يكثر سماعه من ألسنة النّاس بمدحهم والثناء عليهم؛ وكذلك يستدلّ على الفاسقين بمثل ذلك.

وكان يقال: ألسنة الرعيّة أقلام الحقّ سبحانه إلى الملوك.

ثم أمره أن يشحّ بنفسه، وفسّر له الشحّ ما هو؟ فقال: أن تنتصف منها فيما أحبّت وكرهت، أي لا تمكنها من الاسترسال في الشهوات، وكُنْ أميراً عليها، ومسيطراً وقامعاً لها من التهوّر والانهماك.

فإن قلت: هذا معنى قوله: «فيما أحبّتْ»، فما معنى قوله: «وكرهت»؟

قلت: لأنها تكره الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمناً عليها في طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها في طرف التّرْك.

الأصل: وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ؛ وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ؛ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ؛ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ، مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ الله مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَالله فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ.

وَلاَ تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ الله، فَإِنَّهُ لاَ يَدَيْ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلاَ غِنى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَلاَ تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلاَ تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلاَ تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوحَةً.

وَلاَ تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ.

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ الله فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لاَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ.

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ الله فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ الله يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ(١)!

(١) خَتَله: خدعه. وتخاتلوا: تخادعوا. القاموس المحيط، مادة (ختل).

الشرح: أشعِر قلبَك الرحمة، أي اجعلها كالشِّعار له، وهو الثوب الملاصق للجسد؛ قال: لأنّ الرعيّة؛ إمّا أخوك في الدّين، أو إنسان مثلك تقتضي رقّة الجنسيّة وطبع البشريّة الرحمةَ له.

قوله: «ويؤتَى على أيديهم»، مثْل قولك: «ويؤخذ على أيديهم»؛ أي يهذّبون ويثقّفون، يقال: خذ على يد هذا السّفيه، وقد حجرَ الحاكم على فلان، وأخذ على يدِه.

ثم قال: فنِسبتُهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى، وكما تحبّ أن يصفح الله عنك ينبغي أن تصفح أنت عنهم.

قوله: «لا تنصبنّ نفسَك لحرْب الله»؛ أي لا تبارزْه بالمعاصي. فإنه لا يديْ لك بنقمته؛ اللام مُقحمة، والمراد الإضافة، ونحوه قولهم: لا أبا لك.

قوله: «ولا تقولنّ إني مُؤَمّر»؛ أي لا تقل: إني أمير ووالٍ آمرُ بالشيء فأطاع.

والإدغال: الإفساد، ومنهكة للدين: ضعف وسقم.

ثم أمره عند حدوث الأبّهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمْرَة أن يذكر عظمةَ الله تعالى وقدرتَه على إعدامه وإيجاده، وإماتته وإحيائه؛ فإنّ تذكّر ذلك يطامِن من غُلَوائه، أيْ يغضّ من تعظّمه وتكبّره، ويطأطيء منه.

والغَرْب: حدّ السيف، ويستعار للسطوة والسرعة في البطش والفَتْك.

قوله: «ويُفِيء»؛ أي يرجع إليك بما بعد عنك من عَقْلك، وحرْف المضارعة مضموم لأنّه من «أفاء».

ومساماة الله تعالى: مباراته في السموّ وهو العلوّ.

الأصل: أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ هَوًى فِيهِ مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إلاَّ تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ للهِ حَرباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ؛ فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ.

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي ٱلْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإعْطاء، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ[1] الدَّهْرِ، مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ؛ وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ ٱلأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

الشرح: قال له: انصِف الله، أي قُم له بما فَرَض عليك من العبادة والواجبات العقليّة والسمعيّة.

ثمّ قال: وأنصِفِ الناس من نفسك ومن ولَدِك وخاصّة أهلِك ومَن تحبّه وتميل إليه من رعيّتك، فمتى لم تفعل ذلك كنتَ ظالماً.

ثمّ نهاه عن الظّلم، وأكّد الوِصاية عليه في ذلك.

ثمّ عرّفه أن قانون الإمارة الاجتهاد في رضا العامّة، فإنّه لا مبالاة بسُخْط خاصّة الأمير مع رضا العامّة، فأمّا إذا سخِطَت العامّة لم ينفعه رضا الخاصّة، وذلك مثل أن يكون في البلد عشرةٌ أو عشرون من أغنيائه، وذوِي الثّروة من أهله، يلازمون الواليَ ويخدمُونه ويسامرونه، وقد صار كالصّديق لهم، فإنّ هؤلاء ومن ضارَعَهم من حواشي الوالي وأرباب الشفاعات والقُرُبات عنده لا يُغنُون عنه شيئاً عند تنكّر العامّة له، وكذاك لا يضرّ سُخْط هؤلاء إذا رضيت العامّة، وذلك لانّ هؤلاء عنهم غنًى، ولهم بدل، والعامّة لا غنًى عنهم ولا بدل منهم، ولأنّهم إذا شَغَبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب، فلا يقاومه أحد، وليس الخاصة كذلك.

ثم قال عليه السلام - ونِعْمَ ما قال -: ليس شيءٌ أقلَّ نفعاً، ولا أكثرَ ضرراً على الوالي من خواصّه أيّام الولاية، لأنّهم يثقّلون عليه بالحاجات، والمسائل والشّفاعات، فإذا عُزِل هَجَروه ورَفَضُوه حتى لو لقوه في الطريق لم يسلّموا عليه.

والصِّغو بالكسر والفتح والصّغا مقصور: الميْل.

الأصل: وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَالله يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ؛ يَسْتُرِ الله مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ.

(١) المُلِمَّة: النازلة الشديدة من شدائد الدهر ونوازل الدنيا. لسان العرب، مادة (لمم).

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لاَ يَضِحُ لَكَ، وَلاَ تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَلاَ تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلاَ جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

الشرح: أشنَأهم عندك، أبغَضهم إليك: وتَغابَ: تغافَلْ، يقال: تَغابى فلانٌ عن كذا. ويَضِح: يَظهرَ، والماضي وَضَح.

بعض ما ورد في النهي عن ذكر عيوب الناس

عاب رجلٌ رجلاً عند بعض الأشراف فقال له: لقد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكثِر فيه من عُيوب الناس، لأنّ طالبَ العُيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها.

وقال الشاعر:

وأجرأُ من رأيتَ بظهرِ غيبٍ ... على عَيبِ الرجال أولُو العيُوبِ

وقال آخر:

يا مَنْ يعيبُ وعيبُه مُتَشَعِّبٌ ... كَمْ فيك من عيبٍ وأنت تعيبُ!

وفي الخبر المرفوع: «دعُوا الناس بغَفَلاتهم يعيش بعضُهم مع بعض»[1].

وقال الوليد بن عتبة بن أبي سُفيان: كنت أسايرُ أبي ورجلٌ معنا يقع في رجل، فالتفت أبي إليّ فقال: يا بُنيّ؛ نَزّه سمعَك عن استماع الخنا[2] كما تُنزّه لسانَك عن الكلام به، فإنّ المستمعَ شريك القائل، إنّما نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرَغه في وعائك، ولو ردّت كلمة جاهل في فيه لسعد رادّها كما شقِي قائلُها.

وقال ابن عباس، الحَدَث حَدثان: حَدَث مِنْ فيك، وحَدَث من فَرْجك.

وعاب رجلٌ رجلاً عند قُتَيبة بن مسلم؛ فقال له قتيبة: أمسِك ويحْك! فقد تلمّظت بمُضغةٍ طالما لَفِظها الكرام.

ومرّ رجل بجارَيْن له ومعه ريبة، فقال أحدهما لصاحبه: أفهمتَ ما معه من الرّيبة؟ قال: وما معه؟ قال: كذا، قال: عبدي حرّ لوجه الله شكراً له تعالى إذ لم يعرّفني من الشرّ ما عرّفك.

---

(١) لأبي الأسود الدؤلي في خزانة الأدب: ٣/ ٦١٧.

(٢) الخَنَا: من قبيح الكلام، والفحش، والخنا من الكلام: أفحشه. لسان العرب، مادة (خنو).

وقال الفُضَيل بن عِياض: إن الفاحشة لَتَشيع في كثير من المسلمين حتّى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خُزّاناً.

وقيل لبزُرْجُمِهر: هل من أحد لا عيبَ فيه؟ فقال: الذي لا عيبَ فيه لا يموت. وقال الشاعر:

ولستُ بذي نَيْرَبٍ[1] في الرِّجا ... ل مَنّاعَ خيرٍ وسَبّابَها
ولا مَنْ إذا كان في جانبٍ ... أضاعَ العشيرةَ وٱغتابَها
ولكن أطاوِعُ ساداتِها ... ولا أتعلّم ألقابَها

وقال آخر:

لا تَلتَمس مَن مساوِي الناس ما سَتَرُوا ... فيكشف الله سِتْراً من مَساويكا
وأذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ... ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكا

وقال آخر:

ابدأ بنفسك فأنهها عن غَيْبها ... فإذا انتهتْ عنه، فأنت حَكيمُ
فهناك تُعذر إن وعظتَ ويقتدَى ... بالقول منكَ، ويُقبَل التّعليمُ

فأمّا قوله عليه السلام: «أطلقْ عن الناس عقدة كل حقد»، فقد استوفَى هذا المعنى زيادٌ في خطبته البتْراء فقال: وقد كانت بيني وبين أقوام إحَن، وقد جعلت ذلك دَبْر أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدَدْ إحساناً، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع عن إساءته، إنّي لو علمِتُ أنّ أحدكم قد قتله السُّلال من بُغضِي لم أكشف عنه قناعاً، ولم أهتِك له سِتراً، حتى يبديَ لي صفحته، فإذا فعل لم أناظِرْه، ألا فليشمل كل امرىءٍ منكم على ما في صدره، ولا يكوننَّ لسانُه شفرةً تجري على وَدَجِه.

فأمّا قوله عليه السلام: «ولا تعجلنّ إلى تصديق ساعٍ»، فقد ورد في هذا المعنى كلامٌ حَسَن، قال ذو الرّياستين: قبول السِّعاية شرّ من السعاية لأنّ السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس مَنْ دلّ على شيء كمن قبله وأجازه، فامقت الساعيَ على سِعايته، فإنه لو كان صادقاً كان لئيماً؛ إذ هَتَك العورة، وأضاع الحُرْمة.

(١) النَّيرَب: الشَّرّ، والنميمة. القاموس المحيط، مادة (نيرب).

وعاتب مصعبُ بنُ الزبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه فأنكره، فقال مُصعب: أخبرَني به الثِّقة، قال: كلاّ أيها الأمير، إن الثقة لا يبلّغ.

وكان يقال: لو لم يكن من عَيْب الساعي إلاّ أنه أصدق ما يكون أضرّ ما يكون على الناس، لكان كافياً. كانت الأكاسرة لا تأذن لأحد أن يطبخ السِّكْباج[1]، وكان ذلك ممّا يختصّ به الملِك، فرفع ساع إلى أنوشروان: إنّ فلاناً دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه سِكْباج، فوقَّع أنوشروان على رقعته: قد حمدنا نصيحتَك، وذَممنا صديقَك على سوء اختياره للإخوان.

جاء رجلٌ إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دِمَشق، فقال: أيُّها الأمير، إنّ عندي نصيحة، قال: اذكُرها، قال: جارٌ لي رجع من بعثه سرًّا، فقال: أمّا أنت فقد أخبرتَنا أنك جار سَوْء، فإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن كنت صادقاً مقتناك، وإن تركتنا تركناك، قال: بل أتركك أيّها الأمير. قال: فانصرِف.

ومثلُ هذا يُحكى عن عبد الملك أنّ إنساناً سأله الخَلْوة، فقال لجلسائه: إذا شئتم! فانصرفوا، فلما تهيّأ الرجل للكلام قال له: اسمع ما أقول، إيّاك أن تمدَحني فأنا أعرَفُ بنفسي منك، أو تَكذِبني فإنّه لا رأي لمكذوب، أو تسعى بأحد إليّ فإنيّ لا أحبّ السعاية؛ قال: أفيأذنُ أمير المؤمنين بالانصراف! قال: إذا شئت.

وقال بعض الشعراء:

لَعَمرُك ما سبَّ الأميرَ عدوّهُ ... ولكنّما سبَّ الأميرَ المبلِّغُ

وقال آخر:

حُرِمتُ مُنائي منكَ إنْ كان ذا الذي ... أتاكَ به الواشُون عنّي كما قالوا

ولكنّهم لمّا رأوك شرِيعةً ... إليّ تواصَوا بالنميمةِ واحْتالوا

فقد صِرتَ أُذناً للوُشاة سميعةً ... ينالون مِنْ عِرْضي ولوَ شئتَ ما نالوا

وقال عبد الملك بنُ صالح لجعفر بن يحيى وقد خرج يودّعه لمّا شخص إلى خُراسان: أيّها الأمير، أُحِبّ أن تكون لي كما قال الشاعر:

فكوني على الواشين لَدّاءَ شَغْبةً[2] ... كما أنا للواشي ألدُّ شَغُوبُ

قال: بل أكون كما قال القائل:

وإذا الواشي وَشَى يوماً بها ... نفع الواشِي بما جاء يضُرّ

---

(١) السِّكْبَاج: طعام يعمل من اللحم والخلّ مع توابل وأفاويه. المعجم الوسيط، مادة (سكج).

(٢) الشَّغْبُ: تهييج الشّرّ. القاموس المحيط، مادة (شغب).

وقال العباس بن الأحنف:

ما حَطَّكَ الواشُون من رُتبةٍ عندي ولا ضَرّك مُغتابُ
كأنّهمْ أثنَوْا ولم يعلموا عليكَ عندي بالذي عابُوا

قوله عليه السلام: «ولا تُدْخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفَضْل، ويعدك الفقر»، مأخوذٌ من قول الله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾[1]؛ قال المفسّرون: الفَحْشاء ها هنا البُخل؛ ومعنى «يعدكم الفقر»، يخيِّل إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوّفكم فتخافون فتبخلون.

قوله عليه السلام: «فإنّ البخلَ والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله»، كلامٌ شريف عالٍ على كلام الحكماء، يقول: إن بينها قَدْراً مشترَكاً وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة، وذلك القدْر المشترك هو سوءُ الظنّ بالله، لأنّ الجبان يقول في نفسه: إن أقدمتُ قُتِلت، والبخيلَ يقول: إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ، والحريصَ يقول: إن لم أجدَّ وأجتهد وأدأب فاتني ما أروم؛ وكلّ هذه الأمور ترجع إلى سوء الظنّ بالله، ولو أحسن الظنّ الإنسان بالله وكانَ يقينه صادقاً لعلم أنّ الأجل مقدّر، وأنّ الرزق مقدَّر، وأنّ الغنى والفقر مقدَّران، وأنّه لا يكون من ذلك إلاّ ما قَضى الله تعالى كونه.

الأصل: شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لِلْأَشْرَارِ وَزِيراً، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فِي الْآثَامِ، فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ؛ وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُم خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِم، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ وَلاَ آثِماً عَلَى إِثْمِهِ؛ أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً.

فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ.

الشرح: نهاه عليه السلام أن يتّخذ بطانة قد كانوا من قبلُ بطانةً للظَّلَمة، وذلك لأنّ الظلم وتحسينه قد صار ملَكةً ثابتة في أنفسهم، فبعيد أن يمكنهم الخلوّ منها إذ صارت كالخُلُق الغريزيّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

اللأزم لتكرارها وصيرورتها عادةً، فقد جاءت النصوص في الكتاب والسنّة بتحريم معاونة الظلمة ومساعَدَتهم، وتحريم الاستعانة بهم، فإنّ من استعان بهم كان معيناً لهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[١]، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٢].

وجاء في الخبر المرفوع: «يُنادَى يوم القيامة: أين من بَرَى لهم - أي الظالمين - قَلَماً»[٣]. أُتِي الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج، فقال له: ما تقول في الحجّاج؟ قال: وما عَسِيت أن أقول فيه! هل هو إلا خطيئة من خطاياك، وشَرَر من نارِك؟ فلعنك الله ولعن الحجّاج معك! وأقبل يشتُمهما، فالتفت الوليد إلى عمرَ بن عبد العزيز فقال: ما تقول في هذا؟ قال: ما أقول فيه! هذا رجل يشتِمُكم، فإمّا أن تَشْتِمُوه كما شتمكم، وإمّا أن تَعفُوا عنه. فغضب الوليدُ وقال لعُمَر: ما أظنّك إلاّ خارجيًّا! فقال عمر: وما أظنّك إلا مجنوناً؛ وقام فخرج مغضَباً، ولحقه خالدُ بنُ الرّيان صاحب شُرْطة الوليد، فقال له ما دعاك إلى ما كلّمتَ به أمير المؤمنين! لقد ضربت بيدي إلى قائم سَيْفي أنتظر متى يأمرني بضرب عنقك؛ قال: أو كنت فاعلاً لو أمرك؟ قال: نعم. فلمّا استُخْلف عمرُ جاء خالد بن الرّيان فوقف على رأسه متقلّداً سيفه، فنظر إليه وقال: يا خالد، ضَعْ سيفك فإنك مطيعنا في كلّ أمرٍ نأمرك به - وكان بين يديه كاتب للوليد - فقال له: ضع أنت قلمك، فإنك كنت تضر به وتنفع، اللهم إني قد وضعتهما فلا ترفَعْهما، قال: فوالله ما زالا وضيعَين مَهينَين حتى ماتا.

وروى الغزاليّ في كتاب «إحياء علوم الدين»[٤]، قال لما خالط الزّهري السّلْطان كتب أخٌ له في الدين إليه: عافانا الله وإيّاك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعوَ الله لك ويرحمك، فقد أصبحت شيخاً كبيراً، وقد أثقلتْك نعم الله عليك بما فهّمك من كتابه، وعلّمك من سنّة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاقَ على العلماء، فإنه تعالى قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٥]. واعلم أن أيسرَ ما ارتكيت، وأخفّ ما احتملت، أنك آنستَ وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغيّ بدنوّك إلى مَنْ لم يؤدّ حقاً، ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك أبا بكر قُطْباً تدور عليه رَحَا ظُلمهم، وجِسْراً يعبرون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم، وسُلَّما يَصعدون فيه إلى ضلالتهم، يُدخِلون بك الشّكّ على العلماء، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء، فما

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٦٣).
(٤) «إحياء علوم الدين»: للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي المتوفى سنة (٥٠٥هـ)، وهو من أجلّ كتب المواعظ وأعظمها. «كشف الظنون» (١/ ٢٣).
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

أيسر ما عَمّروا لك في جَنْب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك من جَنْب ما أفسدوا من حالك ودينك! وما يؤمِّنك أن تكون ممّن قال الله تعالى فيهم ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1] يا أبا بكر، إنّك تُعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداوِ دينَك فقد دخله سَقَم، وهيّىء زادَك فقد حضرَ سَفر بعيد؛ ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2]، والسلام.

الأصل: والْصَقْ بأهْلِ الْوَرَعِ والصِّدْقِ ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى ألاّ يُطْرُوكَ ولاَ يُبَجِّحُوكَ بِباطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فإن كَثْرَةَ الإطْراءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

ولاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ والْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ؛ فإنَّ في ذَلِكَ تَزْهِيداً لأهْلِ الإحْسانِ في الإحْسانِ، وتَدْرِيباً لأهْلِ الإساءةِ عَلَى الإساءةِ، وألْزِمْ كُلاًّ منهمْ ما ألْزَمَ نَفْسَهُ.

الشرح: قوله: «والصَق بأهل الورع»، كلمةٌ فصيحة، يقول: اجعلهم خاصّتك وخُلصاءك.

قال: ثمّ رُضهم على ألاّ يُطرُوك، أي عوّدهم ألاّ يمدحوك في وجهك. ولا يبجّحوك بباطل: لا يجعلوك ممن يبجَح أي يفخر بباطل لم يفعله كما يُبَجِّح أصحابُ الأمراء الأمراء بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدل منكم ولا أسمحَ، ولا حَمَى هذا الثغرَ أمير أشدَّ بأساً منكم! ونحو ذلك، وقد جاء في الخبر «احثُوا في وجوه المدّاحين التراب»[3].

وقال عبد الملك لمن قام يسارّه: ما تريد! أتريد أن تمدَحني وتَصِفني، أنا أعلم بنفسي منك.

وقام خالد بنُ عبدِ الله القَسْريّ إلى عمرَ بن عبد العزيز يوم بَيْعته فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ كانت الخلافة زانَتْه فقد زيّنتَها، ومَنْ كانت شرّفته فقد شرّفتَها، فإنّك لكما قال القائل:

وإذا الـدُّرُّ زانَ حُسْـنَ وُجُـوهٍ ... كـان لـلـدّرّ حُسـنُ وجـهـك زَيْـنـا

فقال عمرُ بنُ عبد العزيز: لقد أُعطِي صاحبُكم هذا مِقْوَلاً، وحُرِم مَعْقولاً. وأمَرَه أن يجلس.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٩. (٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٨.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط (٣٠٠٢)، والترمذي في الزهد عن رسول الله ﷺ (٢٣٩٣)، وأبو داود في الآداب (٤٨٠٤) وأحمد في «مسنده» واللفظ له (٢٣٣١٢).

ولما عَقدَ معاوية البيعة لابنه يزيد قام النّاس يخطبون، فقال معاوية لعمرو بنِ سعيد الأشدَق: قم فاخطب يا أبا أميّة، فقام فقال: أمّا بعد، فإنّ يزيدَ ابنَ أمير المؤمنين أملٌ تأمُلونه، وأجلٌ تأمَنونه، إن افتقرتم إلى حِلمِه وَسِعَكم، وإن احتَجتم إلى رأيه أرشَدَكم، وإن اجتَدَيتم ذاتَ يده أغناكم، وشَمِلكم؛ جِذْعٌ قارِح؛ سُوبِق فَسَبق، ومُوجِدَ فَمجد، وقُورِع فَقَرع، وهو خلَف أمير المؤمنين، ولا خَلَف منه. فقال معاوية: أَوْسَعتَ يا أبا أميّة فاجلس، فإنّما أردنا بعضَ هذا[1].

وأثنى رجلٌ على عليّ عليه السلام في وجهه ثناءً أوسَع فيه – وكان عنده متهماً – فقال له: أنا دونَ ما تقول، وفوق ما في نفسك[2].

وقال ابن عبّاس لعُتْبة بن أبي سُفْيان وقد أثنَى عليه فأكثر: رويداً فقد أمهَيْتَ يا أبا الوليد – يعني بالغتَ، يقال أمهَى حافرُ البِئْر، إذا استقصَى حفْرَها.

فأما قوله عليه السلام: «ولا يكوننّ المحسن والمسيءُ عندَك بمنزلة سواء»، فقد أخذه الصّابي فقال: «وإذا لم يكن للمُحسِن ما يرفعه، وللمسيء ما يَضَعُه، زَهِد المحسن في الإحسان، واستمرّ المسيء على الطغْيان»، وقال أبو الطيّب:

شرّ البلاد بلادٌ لا صديقَ بها   وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصمُ
وشرّ ما قبضته راحتي قَنَصٌ   شُهْبُ البزاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ

وكان يقال: قضاء حقّ المحسن أدبٌ للمسيء، وعقوبة المسيء جزاءٌ للمحسِن.

الأصل: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ ٱسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُم. فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّن يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ.

وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلاَ تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا.

(١) في ديوانه: ٣/ ٣٧٣.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي البحار: ٤٦/ ١٠٣ خ: ٩٢.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ ٱلْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ ٱلْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ؛ وَإِقَامَةِ ما اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

الشرح: خلاصةُ صدرِ هذا الفصل، أنّ مَنْ أحسن إليك حَسُن ظنُّه فيك، ومَنْ أساء إليك استَوْحش منك، وذلك لأنّك إذا أحسنتَ إلى إنسان وتكرّر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اعتقادُك أنّه قد أحبّك، ثم يتبع ذلك الاعتقادَ أمرٌ آخر، وهو أنّك تحبّه؛ لأنّ الإنسان مجبول على أن يحبّ مَن يحبُّه، وإذا أحببتَه سكنتَ إليه وحَسُن ظنّك فيه، وبالعكس من ذلك إذا أسأتَ إلى زيد، لأنّك إذا أسأت إليه وتكرّرت الإساءة تَبع ذلك اعتقادُك أنّه قد أبغضك، ثم يتبع ذلك الاعتقاد أمرٌ آخر، وهو أن تُبغضه أنت، وإذا أبغضتَه انقبضتَ منه واستوحشت، وساءَ ظنّك به.

قال المنصور للرّبيع: سَلْني لنفسك؛ قال: يا أمير المؤمنين، ملأتَ يدي فَلم يبقَ عندي موضعٌ للمسألة؛ قال: فسَلْني لوَلَدك، قال: أسألك أن تحبّه، فقال المنصور: يا ربيع، إنّ الحبَّ لا يُسأل، وإنّما هو أمرٌ تقتضيه الأسباب، قال: يا أمير المؤمنين، وإنّما أسألك أن تزيد مِنْ إحسانك، فإذا تكرّر أحبّك، وإذا أحبّك أحببتَه. فاستحسن المنصورُ ذلك، ثم نهاه عن نقض السنن الصالحة التي قد عمل بها من قبله من صالحي الأمّة، فيكون الوزر عليه بما نَقَض، والأجر لأولئك بما أسّسوا، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء في مَصالح عمله، فإنّ المشورة بركة، ومن استشار فقد أضاف عَقْلاً إلى عقله. وممّا جاء في معنى الأوّل:

قال رجلٌ لإياس بن معاوية: مَن أحبُّ الناسِ إليك؟ قال: الذين يُعطُوني، قال: ثم من؟ قال: الّذين أُعطيهم.

وقال رجل لهشام بن عبد الملك: إنّ الله جعل العطاء محبّة، والمنعَ مَبغضَة، فأعِنّي على حُبّك، ولا تُعِنّي في بُغضك.

الأصل: وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ، لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاَ غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، فَمِنْهَا جُنُودُ الله، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى الله لَهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ الله حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاَةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الأَمْنِ؛ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ، ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ الله لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ، ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلاَّ بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاة وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الأُمُورِ وَعَوَامِّهَا؛ وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ، مِمَّا لاَ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ.

وَفِي الله لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ.

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِيَ مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ الله تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، إِلاَّ بِالاهْتِمَامِ وَالاسْتِعَانَةِ بِالله؛ وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ.

الشرح: قالت الحكماء: الإنسانُ مَدَنيّ بالطّبع؛ ومعناه أنه خُلِق خِلْقةً لا بدَّ معها من أن يكون منضمّاً إلى أشخاصٍ من بني جنسه، ومتمدّناً في مكان بعينه، وليس المراد بالمتمدّن ساكنَ المدينة ذات السّور والسّوق، بل لا بدّ أن يقيم في موضع ما مع قوم من البَشر؛ وذلك لأنّ الإنسان مضطرّ إلى ما يأكله ويشربُه ليقيمَ صورتَه، ومضطرّ إلى ما يلبسه، ليدفع عنه أذى الحرّ والبَرْد، وإلى مَسكَن يسكُنه ليردّ عنه عاديَةَ غيره من الحيوانات، وليكون مَنزِلاً له ليتمكّن من التصرّف والحركة عليه، ومعلومٌ أن الإنسان وحدَه لا يستقلّ بالأمور الّتي عددناها بل لا بدَّ من جماعة يَحرُث بعضهم لغيره الحرْث، وذلك الغير يَحُوك للحرّاث الثوب، وذلك الحائك يَبني له غيره المَسْكَن، وذلك البنّاء يحمل له غيرُه الماء، وذلك السّقاء يكفيه غيرُه أمرَ تحصيل الآلة الّتي يطحن بها الحبّ ويعجن بها الدقيق، ويَخبز بها العجين، وذلك المحصّل لهذه الأشياء يكفيه غيرُه الاهتمام بتحصيل الزّوجة الّتي تدعو إليها داعية الشّبَق، فيَحصُل مساعدة بعض الناس لبعض، لولا ذلك لما قامت الدنيا، فلهذا معنى قوله عليه السلام: «إنّهم طبقات لا يصلُح بعضُها إلاّ ببعض، ولا غَناء ببعضها عن بعض».

ثم فصّلهم وقسّمهم فقال: منهم الجند، ومنهم الكتاب، ومنهم القُضاة، ومنهم العمّال، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذمة، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين، ومنهم التجّار، ومنهم أرباب الصّناعات. ومنهم ذوو الحاجات والمَسكَنة، وهم أدوَن الطبقات.

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال: الجند للحماية، والخراجُ يُصرَف إلى الجند والقُضاة والعمّال والكتّاب لما يحكمونه من المعاقد، ويجمعونه من المنافع، ولا بدّ لهؤلاء جميعاً من التجّار لأجل البَيْع والشّراء الّذي لا غَناءَ عنه، ولا بدّ لكلٍّ من أرباب الصناعات كالحدّاد والنجّار والبنّاء وأمثالهم. ثم تلي هؤلاء الطبقة السفلى، وهم أهل الفقر والحاجة الذين تجب معونتُهم والإحسانُ إليهم.

وإنّما قسّمهم في هذا الفصل هذا التقسيم تمهيداً لما يذكره فيما بعد، فإنّه قد شرع بعد هذا الفصل، فذكَر طبقةً طبقةً وصِنفاً صِنفاً، وأوصاه في كل طبقة وفي كلّ صنفٍ منهم بما يليق بحاله، وكأنّه مَهّد هذا التمهيد، كالفِهرِست لما يأتي بعده من التفصيل.

الأصل: فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لله وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَطْهَرَهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِىءُ عَنِ الْغَضَبِ؛ وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ؛ وَمِمَّنْ لاَ يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلاَ يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ؛ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ؛ وَشُعَبٌ من الْعُرْفِ.

ثُم تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا؛ وَلاَ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ. وَلاَ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ.

وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا؛ فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ من لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ؛ وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ. وَلاَ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاَّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلاَةِ أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ. فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلاَءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فَعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ؛ إِنْ شَاءَ الله.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلاَ تَضُمَّنَّ بَلاَءَ امْرِىءٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلاَ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ. وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِىءٍ إِلَى أَنْ تُعَظِّمَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلاَ ضَعَةُ

امرِيءٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ عَظِيماً، وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾(١)، فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ.

الشرح: هذا الفصل مختصٌّ بالوصاة فيما يتعلّق بأمراء الجيش، أمَرَه أن يولّيَ أمر الجيش من جنودِه مَن كان أنصَحَهم لله في ظنّه، وأظهرَهم جَيْباً، أي عفيفاً أميناً؛ ويُكنَى عن العفّة والأمانة بطهارة الجَيْب، لأنّ الّذي يسرق يجعل المسروق في جَيْبه.

فإن قلت: وأيّ تعلّق لهذا بوُلاة الجيش؟ إنّما ينبغي أن تكون هذه الوصيّة في وُلاة الخراج!

قلت: لا بدّ منها في أمراء الجيش لأجل الغنائم.

ثم وصف ذلك الأمير فقال: «ممّن يبطيء عن الغضب، ويستريح إلى العُذر»، أي: يقبَل أدنى عذر، ويستريحُ إليه، ويَسكُن عنده. ويَرْؤف على الضعفاء، يَرفق بهم ويَرحمُهم، والرأفة: الرحمة. ويَنْبو عن الأقوياء: يتَجافى عنهم ويبعد، أي لا يُمكِّنهم من الظّلم والتعدّي على الضعفاء. ولا يثيره العُنْف: لا يهيج غضبَه عُنْف وقَسْوَة. ولا يَقْعد به الضّعف، أي ليس عاجزاً.

ثم أمره أن يَلصق بذوي الأحساب وأهلِ البيوتات، أي يكرمهم ويَجعل معوّله في ذلك عليهم ولا يتعدّاهم إلى غيرهم، وكان يقال: عليكم بذوِي الأحساب؛ فإنْ هم لم يتكرّموا استحيَوْا.

ثم ذكر بعدهم أهلَ الشجاعة والسّخاء، ثم قال: «إنها جِمَاع من الكرمِ، وشُعَب من العرف» «من» ها هنا زائدة؛ وإن كانت في الإيجاب على مذهب أبي الحسن الأخفش، أي جماع الكرم، أي يجمعه كقول النبي ﷺ: «الخمر جِمَاع الإثم»(٢). والعُرْف: المعروف.

وكذلك «من» في قوله: «وشُعَب من العُرْف» أي وشُعب العُرْف، أي هي أقسامه وأجزاؤه، ويجوز أن تكون «من» على حقيقتها للتبعيض، أي هذه الخلال جملة من الكرم وأقسام المعروف؛ وذلك لأنّ غيرها أيضاً من الكرم والمعروف، ونحو العدل والعفّة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في «مسنده» (٥٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٢٢٥). والزيلعي في «نصب الراية» (٢/ ٣٦).

قوله: «ثم تفقَّد من أمورهم» الضمير ها هنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأمراء لما سنذكره؛ مما يدلّ الكلام عليه.

فإن قلت: إنه لم يَجْرِ للأجناد ذِكْرٌ فيما سبق؛ وإنما المذكور الأمراء!

قلت: كلا بل سبق ذكر الأجناد، وهو قوله: «الضعفاء والأقوياء».

وأمره عليه السلام أن يتفقّد من أمور الجيش ما يتفقّد الوالدان من حال الوَلد؛ وأمره ألا يعظِّم عنده ما يقوّيهم به وإن عظم، وألاّ يستحقِر شيئاً تعهّدهم به وإن قلّ، وألاّ يمنعه تفقّدُ جسيم أمورهم عن تفقد صغيرها. وأمره أن يكون آثر رؤوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه مَنْ واساهم في معونته؛ هذا هو الضمير الدالّ على أن الضمير المذكور أولاً للجُند لا لأمراء الجند؛ لولا ذلك لمِا انتظم الكلام.

قوله: «من خُلُوف أهليهم»، أي ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم.

ثم قال: لا يصحّ نصيحة الجند لك إلا بحيطتهم على ولايتهم؛ أي بتعطفهم عليهم وتحنُّنهم، وهي الحِيطَة على وزن الشِّيمة، مصدر حاطه يحوطه حَوْطاً وحياطاً، وحِيطة، أي كلأه ورعاه، وأكثر الناس يروونها «إلاّ بحيِّطتهم» بتشديد الياء وكسرها، والصحيح ما ذكرناه.

قوله: «وقلّه استثقال دُوَلهم»؛ أي لا تصحّ نصيحة الجُنْد لك إلاّ إذا أحبُّوا أمراءهم ثم لم يستثقلوا دُولهم؛ ولم يتمنّوا زوالَها.

ثم أمره أن يذكر في المجالس والمحافل بلاءَ ذوي البلاء منهم؛ فإنّ ذلك مما يُرهِف عَزْم الشُّجاع ويحرّك الجبان.

قوله: «ولا تضُمَّنّ بلاَء امرىءٍ إلى غيره»، أي اذكر كلَّ من أبلى منهم مفرَداً غير مضموم ذكرُ بلائه إلى غيره، كي لا يكون مغموراً في جَنْب ذكر غيره.

ثم قال له: لا تعظّم بلاء ذوِي الشرف لأجل شرفهم، ولا تحقِر بلاء ذَوِي الضَّعَة لضعة أنسابهم، بل اذكر الأمورَ على حقائقها.

ثم أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يُضلعه من الخطوب؛ أي ما يؤوده ويُميله لثقلَه، وهذه الرواية أصحّ من رواية من رواها بالظّاء؛ وإن كان لتلك وجه.

رسالة الإسكندر إلى أرسطو وجواب ارسطو له

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع رسالة أرسطو إلى الإسكندر في معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوي الأحساب، وأن يخصّهم بالرياسة والإمْرة؛ ولا يعدل عنهم إلى العامة والسِّفلة، فإن في ذلك تشييداً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، ووصيّته.

لما ملك الإسكندر إيران شَهْر - وهو العراق مملكة الأكاسرة - وقتلَ دارًا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو ببلاد اليونان:

عليك أيّها الحكيم منّا السلام، أما بعد فإن الأفلاك الدائرة، والعلل السمائيّة؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبح الناس لنا بها دائبين، فإنّا جدُّ واجِدِين لمسّ الاضطرار إلى حكمتك، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك، والاستنامَة إلى مشورتك والاقتداء برأيك؛ والاعتماد لأمرك ونهيك، لِمَا بلوْنَا من جَدا ذلك علينا، وذقنا من جَنَا منفعته، حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسُّخه في أذهاننا وعقولنا كالغذاءِ لنا، فما ننفكّ نعوّل عليه، ونستمدّ منه استمدادَ الجداول من البحور، وتعويل الفروع على الأصول، وقوّة الأشكال بالأشكال. وقد كان مما سيق إلينا من النّصر والفَلْج[١]، وأتيح لنا من الظَّفَر، وبلغنا في العدوّ من النّكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه، ويقصّر شكر المنعم عن موقع الإنعام به، وكان من ذلك أنّا جاوزنا أرض سوريَة والجزيرة إلى بابل وأرض فارس، فلما حللنا بعقوَة أهلها وساحة بلادهم، لم يكن إلا ريثما تلقّانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هديَّة إلينا، وطلباً للحظوة عندنا، فأمرنا بصلْب مَن جاء به وشهرته لسوء بلائه، وقلة ارعوائه ووفائه؛ ثم أمرنا بجمع مَنْ كان هناك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوي الشرف منهم؛ فرأينا رجالاً عظيمةً أجسامهم وأحلامهم، حاضرة ألبابهم وأذهانهم، رائعة مناظرهم ومناطقهم، دَليلاً على أن ما يظهر من رُوائهم ومنطقهم أنّ وراءه من قوّة أيديهم، وشدّة نجْدتهم وبأسهم ما لم يكن ليكون لنا سبيل إلى غلَبتهم وإعطائهم بأيديهم، لولا أن القضاء أدالنا[٢] منهم، وأظفرنا بهم، وأظهرنا عليهم، ولم نرَ بعيداً من الرأي في أمرهم أن نستأصل شأفتهم، ونجتثّ أصلهم، ونلحقهم بمَنْ مضى من أسلافهم، لتسكن القلوب بذلك الأمْن إلى جرائرهم وبوائقهم؛ فرأينا ألاّ نعجل بإسعافِ بادىء الرأي في قتلهم دون الاستظهار عليهم بمشورتك فيهم. فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بعد صحّته عندك، وتقليبك إياه بجليّ نظرك، وسلام أهل السلام، فليكن علينا وعليك.

فكتب إليه أرسطو:

لملك الملوك، وعظيم العظماء، الإسكندر المؤيّد بالنصر على الأعداء، المهدى له الظفر بالملوك، من أصغر عبيده وأقل خَوَلِه؛ أرسطوطاليس البَخُوع[٣] بالسُّجود والتذلل في السلام، والإذعان في الطاعة:

---

(١) الفَلْجُ: الظَّفر والفوز. القاموس المحيط، مادة (فلج).
(٢) الإدالة: الغلبة. القاموس المحيط، مادة (دول).
(٣) بَخَعْتُ له: تَذَلَّلْت وأطعت وأقررت، وبَخَعَ له نصحَه: أخلصه وبالغ. لسان العرب والقاموس المحيط، مادة (نجع).

أما بعد، فإنه لا قوّة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه، واجتهد في تثقيف معانيه، وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقلّ ما تناله القدرة من بَسْطِة علُوّ الملك وسموّ ارتفاعه عن كلّ قولٍ، وإبرازه على كلّ وصف، واغترافه بكلّ إطناب. وقد كان تقرّر عندي من مقدّمات إعلام فضل الملك في صَهْلة سبقه، وبروز شأوه، ويُمْن نقيبته، مذ أدّت إليّ حاسةُ بصرِي صورة شخصه، واضطرب في حسّ سمعي صوتُ لفظه، ووقع وهمي على تعقيب نجاحِ رأيه، أيّام كنت أؤدي إليه من تكلّف تعليمي إيّاه ما أصبحتُ قاضياً على نفسي بالحاجة إلى تعلّمه منه. ومهما يَكُنْ منّي إليه في ذلك، فإنما هو عقل مردود إلى عقله، مستنبطة أواليه وتواليه من علمه وحكمته. وقد جلا إليّ كتاب الملك ومخاطبته إيّاي ومسألته لي عمّا لا يتخالجني الشك في لقاح ذلك وإنتاجه من عنده، فعنه صَدَر وعليه ورَد؛ وأنا فيما أشير به على الملك - وإن اجتهدت فيه واحتشدت له، وتجاوزت حدّ الوسع والطاقة منّي في استنظافه واستقصائه - كالعدم مع الوجود، بل كما لا يتجزّأ في جنب معظم الأشياء، ولكنّي غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل، مع علمي ويقيني بعظيم غناه عني، وشدّة فاقتي إليه، وأنا رادٌّ إلى الملك ما اكتسبتُه منه، ومشير عليه بما أخذته، منه فقائل له:

إنّ لكل تربة لا محالة قَسْماً من الفضائل، وإن لفارس قسمها من النَّجْدة والقوّة، وإنّك إن تقتل أشرافهم تُخلِّف الوضعاء على أعقابهم، وتورث سِفْلتهم على منازل عِلّيَتهم، وتغلّب أدنياءهم على مراتب ذوي أخطارهم؛ ولم يبتلَ الملوك قطّ ببلاء هو أعظمُ عليهم وأشدّ توهيناً لسلطانهم من غلبة السُّفْلة، وذلّ الوجوه، فاحذر الحذر كله أنْ تمكّن تلك الطبقة من الغَلَبة والحركة، فإنه إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجمٌ دهمهم منه ما لا روّية فيه، ولا بقيّة معه؛ فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره، واعمَد إلى مَنْ قبلك من أولئك العظماء والأحرار، فوزّع بينهم مملكتهم، وألزم اسم الملك كلّ مَنْ ولّيته منهم ناحيته، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه، فإن المتسمّى بالملك لازم لاسمه، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره، فليس ينشب ذلك أن يوقع كل ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك، وتفاخراً بالمال والجند؛ حتى ينسوْا بذلك أضغانهم عليه وأوتارهم فيك، ويعود حربهم لك حرباً بينهم، وحنَقهم عليك حنَقاً منهم على أنفسهم، ثم لا يزدادون في ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها استقامة؛ إن دنوتَ منهم دانوا لك، وإن نأيتَ عنهم تعززوا بك، حتى يثب مَنْ ملك منهم على جاره باسمِك، ويسترهبَه بجندك، وفي ذلك شاغلٌ لهم عنك، وأمانٌ لإحداثهم بعدك، وإن كان لا أمانَ للدهر، ولا ثقة بالأيام.

قد أدّيتُ إلى الملك ما رأيتهُ لي حظًا، وعليّ حقًا، من إجابتي إيّاه إلى ما سألني عنه، ومحّضتهُ النصيحة فيه، والملكُ أعلى عيناً، وأنفذُ رَوِيَّةً، وأفضل رأياً، وأبعد هِمّة فيما استعان

بي عليه؛ وكلّفني بتبيينه والمشورة عليه فيه. لا زال الملك متعرّفاً من عوائد النّعم وعواقب الصنع، وتوطيد الملك، وتنفيس الأجل، ودَرك الأمل، ما تأتي فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر!

والسلام الذي لا انقضاء له، ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء، فليكن على الملك.

قالوا: فعمِل الملك برأيه، واستخلف على إيران شهر أبناء الملوك والعظماء من أهل فارس، فهم ملوك الطوائف الذين بقوا بعده؛ والمملكة موزعة بينهم إلى أن جاء أزدَشير بن بابَك فانتزع الملك منهم.

الأصل: ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ، وَلاَ تَمحَكُهُ الْخُصُومُ، وَلاَ يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلاَ يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ. وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولئِكَ قَلِيلٌ.

ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وَأَفْسِحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ. فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

الشرح: تمحَكه الخصوم: تجعله ماحكاً، أي لجوجاً، محك الرّجل، أي لجّ، وماحك زيد عمراً؛ أي لاجّه.

قوله: «ولا يتمادى في الزّلّة»، أي إن زلّ رجع وأناب، والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل.

قوله: «ولا يحصَر من الفيء» هو المعنى الأول بعينه، والفيء: الرجوع، إلا أن ها هنا زيادة، وهو أنه لا يحصَر، أي لا يعيا في المنطق، لأنّ مِن النّاس من إذا زلّ حصِر عن أن يرجع وأصابه كالفهاهة والعيّ خجلاً.

قوله: «ولا تُشرفُ نفسه»، أي لا تشفق. والإشراف: الإشفاق والخوف، وأنشد الليث:

ومِنْ مُضَر الحمراء إشراف أنفسٍ عليـنـا وحيّاهـا علـينـا تـمضّـرا

وقال عروة بن أُذَيْنة:

لقد عَلِمْتُ وما الإشرافُ من خُلقي أن الـذي هـو رزقـي سـوفَ يـأتـيـنـي

والمعنى: ولا تشفق نفسه، وتخاف من فوت المنافع والمرافق.

ثم قال: «ولا يكتفي بأدنى فهم»، أي لا يكون قانعاً بما يخطر له بادىء الرأي من أمر الخصوم، بل يستقصي ويبحث أشدّ البحث.

قوله: «وأقلهم تبرُّماً بمراجعة الخصم»، أي تضجُّراً، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه عليه السلام، فإنّ القلق والضجر والتبرُّم قبيح، وأقبح ما يكون من القاضي.

قوله: «وأصرمهم»، أي أقطعهم وأمضاهم. وازدهاه كذا، أي استخفّه. والإطراء: المدح. والإغراء: التحريض.

ثم أمره أن يتطلّع على أحكامه وأقضيته، وأن يفرض له عطاء واسعاً يملأ عينه، ويتعفّف به عن المرافق والرُّشوات، وأن يكون قريب المكان منه، كثير الاختصاص به ليمنع قربه من سعاية الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده.

ثم قال: «إنّ هذا الدّين قد كان أسيراً»، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده، بل بالهوى لطلب الدنيا.

وأما أصحابنا فيقولون: رحم الله عثمان! فإنه كان ضعيفاً، واستولى عليه أهله، قطعوا الأمور دونه، فإثمهم عليهم وعثمان بريء منهم.

بعض ما ورد في القضاة ونوادرهم

قد جاء في الحديث المرفوع: «لا يقضي القاضي وهو غضبان»[(١)]. وجاء في الحديث المرفوع أيضاً: «من ابْتُلِيَ بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومجلسه ومقعده»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأحكام، باب: لا يحكم الحاكم وهو غضبان (٢٣١٦)، وأحمد في «مسنده» (١٩٨٧٦) واللفظ لهما، ونحوه البخاري، في الأحكام، باب هل يقضي القاضي أورلفتي وهو غضبان (٧١٥٨)، مسلم في الأقضية، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان (١٧١٧)، والترمذي في الأحكام، باب ما جاء لا يقضي القاضي وهو غضبان (١٣٣٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» الكبرى (١٠/ ١٣٥)، وابن راهويه في «مسنده» (٣٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٨٦)، وابن حجر في «التلخيص الحبير» [illegible] (٤/ ٧٣).

دخل ابن شهاب على الوليد - أو سليمان - فقال له: يابنَ شهاب، ما حديث يرويه أهل الشام؟ قال: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: إنهم يروون أن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعيّة كتب له الحسنات، ولم يكتب عليه السيئات، فقال: كذبوا يا أمير المؤمنين، أيّما أقرب إلى الله؛ نبيّ أم خليفة! قال: بل نبيٌّ؛ قال: فإنه تعالى يقول لنبيه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[1]. فقال سليمان: إن الناس لَيُغْرُوننا عن ديننا.

وقال بكر بن عبد الله العَدَوِيّ لابن أرطاة - وأراد أن يستقضيَه -: والله ما أحسِن القضاء، فإن كنتُ صادقاً لم يحلّ لك أن تستقضِيَ مَنْ لا يحسن، وإن كنت كاذباً فقد فسقت، والله لا يحلّ أن تستقضِيَ الفاسق.

وقال الزُّهريّ: ثلاث إذا كنّ في القاضي فليس بقاضٍ، أنْ يَكْرَهَ اللائمة، ويحبّ المحمدة، ويخاف العَزْل.

وقال محارب بن زياد للأعمش: ولِّيتُ القضاءَ فبكى أهلي، فلمّا عُزِلت بكى أهْلِي، فما أدري مِمّ ذلك؟ قال: لأنك ولِّيتَ القضاء وأنت تكرهه وتجزعُ منه، فبكى أهلك لجزعك، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت فبكى أهلك لجزعك. قال: صدقت.

أُتِيَ ابنُ شُبْرمة بقوم يشهدون على قَراحِ نخل، فشهدوا - وكانوا عدولاً - فامتحنهم فقال: كم في القَراح من نخلة؟ قالوا: لا نعلم، فردَّ شهادتهم، فقال له أحدهم: أنت أيّها القاضي تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنةً، فأعلِمْنا كم فيه من أسطوانة؟ فسكت وأجازهم.

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة يتلقّى الخيزران، وقد أقبلتْ تريد الحجّ، وقد كان استُقضي وهو كاره، فأتى شاهي، فأقام بها ثلاثاً، فلم توافِ، فخفّ زادُه وما كان معه، فجعل يبلّه ويأكله بالمِلح، فقال العلاءُ بن المنهال الغَنَوِيّ:

فإنْ كان الذي قد قلتَ حقًّا ... بأن قد أكرَهوكَ على القضاءِ
فما لَكَ مُوضِعاً في كلّ يوم ... تلقّى مَنْ يَحُجّ من النّساءِ
مُقيماً في قُرى شاهي ثلاثاً ... بلا زادٍ سوى كِسَرٍ وماءِ!

وتقدّمتْ كُلْثَم بنت سريع مولَى عَمرو بن حريث - وكانت جميلةً - وأخوها الوليد بن سريع إلى عبد الملك بن عُمير؛ وهو قاضٍ بالكوفة، فقَضى لها على أخيها، فقال هُذَيل الأشجعي:

أتاه وليدٌ بالشهودِ يسوقُهمْ ... على ما ادّعى من صامتِ المالِ والخَوَلْ[2]

---

(١) سورة صَ، الآية: ٢٦.

(٢) الخَوَلْ: ما أعطاك الله من النّعَم والعبيد والإماء، وغيرهم من الحاشية القاموس المحيط، مادة (خول).

وجاءت إليه كَلْثَمٌ وكَلامُها شِفاءٌ من الدّاء المخامِر[1] والخَبَلْ
فأدلى وليدٌ عند ذاكَ بحقّه وكان وليدٌ ذا مِراءٍ وذا جَدَلْ
فدَلّهت القِبطيّ حتى قضى لها بغير قضاءِ الله في مُحكَم الطّوَلْ
فلو كان مَنْ في القصر يَعلَم علمَه لما استعمل القِبطيّ فينا على عمَلْ
له حين يقضي للنّساء تخاوُصٌ وكان وما فيه التّخاوُصُ والحَوَلْ
إذا ذاتُ دَلّ كلّمَته لحاجةٍ فهمّ بأن يَقضِي تَنحنَحَ أو سَعَلْ
وبرّق عينيه وَلاَكَ لسانَهُ يرى كلّ شيء ما خلا وَصْلِها جَلَلْ

وكان عبدُ الملك بن عمير يقول: لعن الله الأشجعيّ، والله لربّما جاءتني السّعلة والنّحنحة وأنا في المتوضّأ فأردّهما لما شاعَ من شِعره.

كتب عمر بنُ الخطّاب إلى معاوية: أمّا بعد، فقد كتبتُ إليك في القضاء بكتاب لم آلُكَ ونفسِي فيه خيراً؛ الزَم خمسَ خِصال يَسلمْ لك دينُك، وتأخذْ بأفضل حظّك: إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة، وأدْنِ الضّعيف حتّى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانُه، وتعهّد الغريبَ فإنّك إن لم تتعهده تَركَ حقّه ورجع إلى أهله؛ وإنّما ضَيّع حقه من لم يُرفَقْ به، وآس بين الخصوم في لحظك ولَفْظك، وعليك بالصّلح بين الناس ما لم يَسْتَبن لك فصل القضاء.

وكتب عمر إلى شُريح: لا تسارِر ولا تُضارِرْ، ولا تَبِع ولا تَبْتَع في مجلس القضاء، ولا تَقْضِ وأنتَ غضبانُ، ولا شديدُ الجوع، ولا مشغولُ القلب.

شهد رجل عند سوّار القاضي، فقال: ما صناعتُك؟ فقال: مؤدّب؛ قال: أنا لا أجيز شهادتَك؛ قال: ولم؟ قال: لأنّك تأخذ على تعليم القرآن أجراً، قال: وأنت أيضاً تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً، قال: إنّهم أكرَهوني؛ قال: نعم أكرهوك على القضاء، فهل أكرَهوك على أخذ الأجر! قال: هلمّ شهادتَك.

ودخل أبو دُلامَة ليشهدَ عند أبي ليلَى، فقال حين جلس بين يديه:

إذا الناسُ غطّوني تَغطّيتُ عنهمُ وإن بحثوا عنّي ففيهمْ مَباحِثُ
وإن حَفَروا بئري حفَرْتُ بئارَهمْ ليعلم ما تُخفيه تلك النّبائثُ

فقال: بل نغطيك يا أبا دُلامة ولا نبحثك؛ وصرَفَه راضياً، وأعطى المشهود عليه من عندِه قيمةَ ذلك الشيء.

---

(١) المخامرة: الإقامة ولزوم المكان. القاموس المحيط، مادة (خمر).

كان عامرُ بنُ الظَّرِب العَدْوانيّ حاكمَ العرب وقاضيَها، فنزل به قوم يستفتونه في الخنثى وميراثه؛ فلم يدرِ يَقضِي فيه، وكان له جارية اسمُها خصيلة، ربّما لامها في الإبطاء عن الرَّعي وفي الشيء يجدُه عليها، فقال لها: يا خُصَيلة، لقد أسرَعَ هؤلاء القومُ في غنمي، وأطالوا المكث؛ قالت: وما يَكبرُ عليك من ذلك؟ اتبعهُ مَبالَه وخلاك ذمّ، فقال لها: «مَسِّي خُصَيلُ بعدَها أو رُوحي».

وقال أعرابيّ لقوم يتنازعون: هل لكم في الحق أو ما هو خير من الحق؟ قيل: وما الّذي هو خيرٌ من الحق؟ قال: التحاطّ والهَضم؛ فإنّ أخذ الحقّ كلّه مرّ.

وعزل عمرُ بنُ عبد العزيز بعضَ قُضاتِه، فقال: لم عزلْتَني؟ فقال: بلغني أنّ كلامك أكثرُ من كلام الخصْمين إذا تَحاكَمَا إليك.

ودخل إياسُ بنُ معاويةَ الشام وهو غلام، فقدّم خَصْماً إلى باب القاضي في أيّام عبد الملك، فقال القاضي: أما تَستَحيي! تُخاصم وأنت غلامٌ شيخاً كبيراً؟ فقال: الحقّ أكبرُ منه، فقال: اسكتْ وَيْحَكَ! قال: فمن ينطق بحجّتي إذاً! قال: ما أظنّك تقول اليوم حقًّا حتى تقوم؛ فقال: لا إله إلا الله. فقام القاضي ودخل على عبدِ الملك وأخبرَه، فقال: اقض حاجتَه وأخرجْه من الشام كي لا يُفسِد علينا الناس.

واختصم أعرابيّ وحَضَرِيّ إلى قاضٍ، فقال الأعرابيّ: أيّها القاضي، إنه وإن هَمْلَج[1] إلى الباطل، فإنه عن الحق لعَطُوف.

وردّ رجلٌ جاريةً على رَجل اشتراها منه بالحُمْق، فترافَعَا إلى إياسِ بنِ معاوية، فقال لها إياس: أيّ رِجْليكِ أطوَل؟ فقالت: هذه، فقال: أتذكرين ليلَةَ ولدتْك أمّك؟ قالت: نعم، فقال إياس: ردّ ردّ!

وجاء في الخبر المرفوع من رواية عبد الله بن عمر: «لا قدّستْ أمّةٌ لا يُقضَى فيها بالحقّ»[2]؛ ومن الحديث المرفوع من رواية أبي هريرة: «ليس أحدٌ يَحكُم بين الناس إلاّ جيءَ به يومَ القيامة مغلولةٌ يداه إلى عُنقِه، فكّه العَدْل، وأسلَمه الجور»[3].

واستعدى رجلٌ على عليّ بن أبي طالب عليه السلام عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه وعليٌّ

(١) هَمْلَج: انقَادَ. لسان العرب، مادة (هملج).
(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣١٥)، وفي «المعجم الكبير» (١٩/ ٣٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٨).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنف» (٦/ ٤٢٠)، نحوه الدارمي، كتاب السنن، باب في التشديد في الإمارة (٢٥١٥).

جالس، فالتفت عمرُ إليه، فقال: قم يا أبا الحسن فاجلس مع خَصْمك، فقام فجلس معه وتناظرا؛ ثم انصرف الرّجل ورجع عليّ عليه السلام إلى محَلّه، فتبيّن عمر التغيّر في وجهه، فقال: يا أبا الحسن، مالي أراك متغيّراً! أكرهت ما كان؟ قال: نعم، قال: وما ذاك؟ قال: كنّيتني بحضرة خَصْمي، هلاّ قلتَ: قم يا عليّ فاجلس مع خَصْمك! فاعتنق عمرُ عليًّا، وجعل يقبّل وجهَه، وقال بأبي أنتم! بِكم هدانا الله، وبِكم أخرجَنا من الظُّلْمة إلى النور[1].

أبان بنُ عبدِ الحميد اللّاحقيّ في سوّار بن عبد الله القاضي:

لا تَـقـدَح الـظّـنّـةُ فـي حُـكْـمِـهِ　　　شـيـمـتـهُ عـدلٌ وإنـصـافُ
يَـمـضِـي إذا لـم تَـلـقَـهُ شُـبـهـةٌ　　　وفـي اعـتـراض الـشـكّ وَقّـافُ

كان ببغداد رجلٌ يُذكَر بالصّلاح والزهد يقال له رُويم، فوُلّيَ القضاءَ، فقال الجُنيد: مَنْ أراد أن يستَوْدع سرَّه من لا يفشيه فعليه برُويم، فإنّه كتم حبّ الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها.

الأشهب الكوفيّ:

يـا أهـلَ بـغـدَاد قـد قـامـت قـيـامـتُـكـمْ　　　مـذ صـار قـاضِـيـكُـمُ نـوحَ بـن دَرّاجِ
لـو كـان حَـيًّـا لـه الـحـجّـاجُ مـا سلِمـتْ　　　صـحـيـحـةً يـده مـن وَسْـم حَـجّـاجِ

وكان الحجّاج يَسِم أيدي النَّبَط بالمِشراط والنِّيل.

لمّا وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شُريحٌ القضاء وقال: لا أقضِي في الفتنة؛ فبقي لا يَقضِي تسعَ سنين، ثم عاد إلى القضاء وقد كبِرتْ سنّه، فاعترضه رجل وقد انصرف من مجلس القضاء، فقال له: أما حان لك أن تخافَ الله! كبرتْ سنّك، وفسَدَ ذِهْنُك، وصارت الأمورُ تجوز عليك، فقال: والله لا يقولُها بعدَك لي أحدٌ. فلزم بيتَه حتى مات.

قيل لأبي قِلابة وقد هَرَب من القضاء: لو أجبتَ؟ قال: أخاف الهَلاَك، قيل: لو اجتهدتَ لم يكن عليكَ بأسٌ؛ قال: وَيْحكم! إذا وقع السابح في البحر كم عسى أن يَسْبَح!

دعا رجلٌ لسليمان الشّاذَكونيّ، فقال: أرانيكَ الله يا أبا أيّوبَ على قضاءِ إصبَهان! قال: وَيْحك! إنْ كان ولا بدّ فعَلَى خَراجِها، فإنّ أخذَ أموال الأغنياء أسهلُ مِن أخذِ أموال الأيتام.

ارتفعتْ جميلةُ بنتُ عيسى بن جراد - وكانت جميلةً كاسمها - مع خصم لها إلى الشّعبيّ - وهو قاضي عبدِ الملك - فقضَى لها، فقال هُذَيل الأشجعيّ:

فُـتِـنَ الـشـعـبـيُّ لـمّـا　　　رَفَـع الـطَّـرفَ إلـيـهـا
فـتَـنَـتـه بـثَـنـايـا　　　هـا وقَـوْسَـيْ حـاجِـبَـيْـهـا

(١) أخرجه الخوارزمي في المناقب: ٩٨ ح ٩٩.

ومَشَتْ مَشْياً رُوَيْداً ثم هزّت منكِبَيْها
فقَضَى جَوْراً على الخَصْـ ـمِ ولم يَقْضِ عليها

فقبض الشّعبيّ عليه وضرَبَه ثلاثين سوطاً.

قال ابنُ أبي ليلَى: ثم انصرف الشعبيّ يوماً من مجلس القضاء وقد شاعت الأبيات وتَناشَدها الناسُ، ونحن معه، فمررْنا بخادمٍ تغَسل الثياب، وتقول:

فُتِنَ الشعبيُّ لمّا

ولا تحَفظ تتمّة البيت، فوقف عليها ولقّنها، وقال:

رفَع الطَّرْفَ إليها

ثمّ ضحك وقال: أبعدَه الله! والله ما قضينا لها إلاّ بالحقّ.

جاءت امرأة إلى قاضٍ فقالت: مات بَعْلي وَترَك أبوَيْن وابناً وبني عمّ، فقال القاضي: لأبَوْيه الثُّكل، ولابنه اليُتْم، ولك الّلائمة، ولبني عمّه الذّلّة، واحملِي المال إلينا إلى أن تَرتفِع الخصوم!

لقي سُفْيان الثوريُّ شريكاً بعد ما استقْضِيَ، فقال له يا أبا عبد الله، بعد الإسلام والفِقه والصلاح تَلِي القضاء! قال: يا أبا عبدِ الله، فهل للنّاس بدٌّ من قاض! قال: ولا بدّ يا أبا عبدِ الله للنّاس من شُرَطِيّ.

وكان الحسنُ بنُ صالح بن حيّ يقول لمّا ولِّيَ شَريك القضاء: أيُّ شَيْخ أفسَدوا!

قال أبو ذَرّ رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذَرّ، اعقِل ما أقولُ لك»؛ جَعلَ يردّدها عليّ ستّة أيام، ثم قال لي في اليوم السابع: «أوصِيك بتقوى الله في سَريرَتك وعلانِيَتك، وإذا أسأتَ فأحسن، ولا تسألنّ أحداً شيئاً ولو سَقَط سوطُك، ولا تتقلدنّ أمانةً، ولا تلِيَنّ وِلاية، ولا تكفلنّ يتيماً، ولا تقضين بين اثنين»[1].

أراد عثمانُ بنُ عفّانَ أن يستقضيَ عبد الله بن عمر، فقال له: ألستَ قد سمعت النبيّ ﷺ يقول: «من استعاذ بالله فقد عاذَ بمَعاذ!»[2]، قال: بلى، قال: فإنّي أعوذ بالله منك أن تستقضِيَني.

وقد ذكر الفقهاءُ في آداب القاضي أموراً، قالوا: لا يجوز أن يقبَل هدّيةً في أيّام القضاء إلاّ ممّن كانت له عادة يهدي إليه قبل أيام القضاء، ولا يجوز قبولها في أيّام القضاء ممّن له حكومة

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٩٣) وأحمد في «المسند» (٢١٠٦٣).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤٧٧)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٠٠) وابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٨٥).

وخصومة، وإن كان ممّن له عادة قديمة، وكذلك إن كانت الهدّية أنفَسَ وأرفَعَ ممّا كانت قبل أيّام القضاء لا يجوز قبولُها. ويجوز أن يحضر القاضي الولائِمَ، ولا يحضر عند قوم دون قوم؛ لأنّ التخصيصَ يشعِر بالمَيْل، ويجوز أن يَعودَ المرْضَى، ويَشهدَ الجنائز، ويأتي مقدم الغائب. ويكره له مباشرة البيع والشراء. ولا يجوز أن يَقضيَ وهو غُضبان ولا جائع ولا عَطْشان، ولا في حال الحُزن الشديد، ولا الفرحِ الشديد، ولا يقضي والنّعاس يَغلِبه، والمرَض يقلقه، ولا وهو يدافع الأخبَثَين، ولا في حَرٍّ مُزْعِج، ولا في بَرْدٍ مزعِج. وينبغي أن يجلس للحُكم في موضع بارز يصل إليه كلّ أحد، ولا يحتجب إلاّ لعذر. ويُستحَبّ أن يكون مجلسُه فسيحاً لا يتأذى بذلك هو أيضاً. ويكره الجلوس في المساجد للقضاء، فإن احتاج إلى وكلاءَ جاز أن يتخذهم ويوصيهم بالرفق بالخصوم. ويستحبّ أن يكون له حَبْس، وأن يتخذ كاتباً إن احتاج إليه؛ ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يَكتُب به عن القضاء.

واختُلف في جوازِ كونه ذِمّيًا؛ والأظهرَ أنه لا يجوز. ولا يجوز أن يكون كاتبه فاسقاً، ولا يجوز أن يكون الشهودُ عنده قوماً معيّنين، بل الشهادة عامّة فيمن استكمل شروطَها.

الأصل: ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَاراً، وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الجَوْرِ وَالخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الإِسْلاَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاَقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وأَقَلُّ في الْمَطَامِعِ إِشْرَافاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ نَظَراً.

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقَ، فَإنَّ ذَلِك قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإنَّ تَعَاهُدَكَ في السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ، فَإنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

الشرح: لمّا فرغ عليه السلام من أمر القضاء، شرع في أمر العمّال، وهم عمّال السواد والصّدَقات والوقوف والمصالح وغيرها، فأمَرَه أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجرِبَتهم، وألاّ يولّيهم محاباةً لهم، ولمن يشفع فيهم، ولا أثرة ولا إنعاماً عليهم.

كان أبو الحسن بنُ الفُرات يقول: الأعمال للكُفاةِ من أصحابنا، وقَضاءُ الحقوق على خواصّ أموالنا.

وكان يحيى بن خالد يقول: مَنْ تَسبّب إلينا بشفاعة في عملٍ، فقد حلّ عندنا محلّ مَنْ ينهض بغيره، ومَنْ لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل أهلاً.

ووقّع جعفر بن يحيى في رُقعةٍ متحرّم به: هذا فتًى له حُرْمة الأمل، فامتحنْه بالعمل؛ فإن كان كافياً فالسلطان له دوننا، وإن لم يكن كافياً فنحن له دون السلطان.

ثم قال عليه السلام: «فإنهما - يعني استعمالهم للمحاباة والأثَرة - جماع من شُعَب الجوْر والخيانة». وقد تقدّم شرح مثل هذه اللفظة، والمعنى أن ذلك يجمع ضروباً من الجوْر والخيانة. أما الجوْر فإنه يكون قد عدل عن المستحق إلى غير المستحقّ ففي ذلك جَور على المستحق، وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضي تقليدَ الأعمالِ الأكفاء؛ فمن لم يعتمد ذلك فقد خان مَنْ ولاّه.

ثم أمره بتخيّر مَن قد جرّب؛ ومَنْ هو من أهل البيوتات والأشراف لشدّة الحرص على الشيء والخوف من فواته.

ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم؛ فإنّ الجائع لا أمانَةَ له؛ ولأنّ الحجّة تكون لازمةً لهم إن خانوا، لأنهم قد كُفُوا مؤنة أنفسِهم وأهليهم بما فرض لهم من الأرزاق.

ثم أمره بالتطلّع عليهم وإذكاء العيون والأرصادِ على حركاتهم.

وحدوة باعث، يقال: حداني هذا الأمر حَدْوةً على كذا؛ وأصله سَوْق الإبل، ويقال للشمْأل حَدْواء؛ لأنّها تسوق السحاب.

ثم أمره بمؤاخذة من ثبتتْ خيانته واستعادة المال منه؛ وقد صنع عمر كثيراً من ذلك؛ وذكرناه فيما تقدّم.

قال بعض الأكاسرة لعامل من عمّاله: كيف نومُك بالليل؟ قال: أنامُه كلّه، قال: أحسنت! لو سرقت ما نمت هذا النوم.

الأصل: وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّ فِي صَلاَحِهِ وَصَلاَحِهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلاَ صَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ.

وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلاَبِ الْخَرَاجِ؛ لِأَنَّ ذٰلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أَوْ عِلَّةً، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ، أَوْ بَالَّةٍ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ؛ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ.

وَلاَ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ؛ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلاَدِكَ، وَتَزْيِينِ وِلاَيَتِكَ؛ مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ؛ مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ؛ وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ؛ فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ؛ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاَةِ عَلَى الْجَمْعِ؛ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

الشرح: انتقل عليه السلام من ذكر العمّال إلى ذكر أرباب الخراج ودَهَاقين[1] السّواد، فقال: تفقّد أمرَهم، فإنّ النّاس عيال عليهم؛ وكان يقال: استوصُوا بأهل الخراج؛ فإنّكم لا تزالون سماناً ما سَمِنُوا.

ورُفع إلى أنوشِرْوان أن عامل الأهواز قد حمل من مال الخراج ما يزيد على العادة؛ وربما يكون ذلك قد أجحف بالرّعية، فوقّع: يُرَدّ هذا المال على من قد استوفي منه؛ فإنّ تكثيرَ المَلِك ماله بأموال رعيّته بمنزلة مَنْ يحصّن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه.

وكان على خاتَم أنوشِرْوان: لا يكون عُمرانٌ، حيث يجور السلطان.

وروي: «استحلاب الخراج» بالحاء.

ثم قال: «فإن شكَوْا ثِقلاً»، أي: ثقل طَسْق[2] الخراج المضروب عليهم، أو ثقل وطأة العامل.

قال: «أو علّة»، نحو أن يصيب الغلّة آفة كالجراد والبرق أو البرد.

قال: «أو انقطاع شرْب»، بأن يَنقُص الماء في النهر، أو تتعلق أرض الشّرب عنه لفقد الحَفر.

قال: «أو بالّة»، يعني المطر.

(١) الدهاقين: جمع مفرده دِهقان وهو: القوي على التصرف مع حِدَّة، والتاجر، وزعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم. القاموس المحيط، مادة (دهقن).

(٢) الطّسْق: ما يوضع من الوظيفة على الجرْبان من الخراج المقرر على الأرض، أو شبه ضريبة معلومة. لسان العرب والقاموس المحيط، مادة (طسق).

قال: «أو إحالة أرض اغتمرها غرق»، يعني أو كوْن الأرض قد حالت، ولم يحصل منها ارتفاع؛ لأنَّ الغرق غمرها وأفسد زَرْعها.

قال: «أو أجْحف بها عطش»، أي أتلفها.

فإن قلت: فهذا هو انقطاع الشّرب؟

قلت: لا، قد يكون الشِّرب غير منقطع، ومع ذلك يُجحِف بها العطش، بأن لا يكفيها الماء الموجود في الشِّرب.

ثم أمره أن يخفّف عنهم مَتَى لحقهم شيء من ذلك؛ فإنّ التخفيف يُصْلح أمورهم، وهو وإن كان يُدْخِل على المال نقصاً في العاجل إلاّ أنه يقتضي توفير زيادة في الآجل؛ فهو بمنزلة التجارة التي لا بدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه.

قال: «ومع ذلك فإنه يفضي إلى تزيين بلادك بعمارتها، وإلى أنّكَ تَبْجح بين الولاة بإفاضة العدل في رعيّتك معتمداً فَضْلَ قوّتهم»؛ و«معتمداً»، منصوب على الحال من الضّمير في «خفّفت» الأولى، أي خَفّفت عنهم معتمداً بالتخفيف فضل قوّتهم.

والإجمام: الترفيه.

ثم قال له: وربما احتجتَ فيما بعد إلى تكلّفهم بحادث يحدُث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضاً أو معونة محضة؛ فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك، طيّبة قلوبُهم به.

ثم قال عليه السلام: فإن العمران محتمل ما حمّلته.

سمعت أبا محمد بن خُليد - وكان صاحب ديوان الخراج في أيام الناصر لدين الله - يقول لمن قال له: قد قيل عنك: إنّ واسط والبَصْرة قد خربت لشدّة العُنف بأهلها في تحصيل الأموال! فقال أبو محمد: ما دام هذا الشّطّ بحاله، والنَّخْل نابتاً في منابته بحاله، ما تخرب واسط والبصرة أبداً.

ثم قال عليه السلام: «إنما تُؤتَى الأرض»، أي إنما تُدْهَى من إعواز أهلها، أي من فقرهم.

قال: والموجب لإعوازهم طمعُ ولاتهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم وسوء ظنّهم بالبقاء يحتمل أن يريد به أنهم يظنّون طول البقاء وينسَوْن الموتَ والزوال.

ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيّلون العَزْل والصرف، فينتهزون الفرص، ويقتطعون الأموال، ولا ينظرون في عِمارة البلاد.

بعض ما جاء في عهد سابور بن أردشير إلى ابنه

وقد وجدت في عهد سابور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العهد؛ وهو قوله:

واعلم أنّ قِوام أمرك بدُرور الخراج(١)، ودُرور الخراج بعمارة البلاد، وبلوغ الغاية في ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم، والمعونة لهم؛ فإنّ بعض الأمور لبعضٍ سبب، وعوامّ الناس لخواصّهم عدّة، ويكلّ صنف منهم إلى الآخر حاجة، فاختر لذلك أفضلَ مَنْ تقدر عليه من كُتّابك، وليكونوا من أهل البَصَر والعفاف والكفاية، واسترسل إلى كلّ امرئٍ منهم شخصاً يضطلع به ويمكنه تعجيلُ الفراغ منه؛ فإن اطّلعت على أنّ أحداً منهم خان أو تعدّى فنكِّلْ به، وبالغ في عقوبته؛ واحذر أن تستعمل على الأرض الكثيرِ خراجها إلا البعيد الصوت، العظيم شرف المنزلة. ولا تولّيَن أحداً من قواد جندك الذين هم عُدّة للحرب، وجُنّة من الأعداء، شيئاً من أمر الخراج؛ فلعلك تُهجم من بعضهم على خيانة في المال، أو تضييع للعمل؛ فإن سوّغته المال، وأغضيت له على التّضييع، كان ذلك هلاكاً وإضراراً بك وبرعيّتك، وداعيةً إلى فساد غيره؛ وإنْ أنت كافأته فقد استفسدته، وأضَقْت صدره، وهذا أمر توقيّه حزم، والإقدام عليه خُرْق(٢)، والتقصير فيه عَجْز.

واعلم أن من أهل الخراج مَنْ يلجىء بعض أرضه وضياعه إلى خاصّة الملك وبطانته؛ لأحد أمرين؛ أنت حريّ بكَراهتهما: إمّا لامتناع من جَوْر العمال وظلم الولاة؛ وتلك منزلة يظهر بها سوء أثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده، وإما للدفع عمّا يلزمهم من الحق والتيّسر له، وهذه خَلّة تَفسُد بها آداب الرعيّة، وتُنتقص بها أموال الملك، فاحذر ذلك، وعاقب الملتجئين والملجأ إليهم.

ركب زياد يوماً بالسُّوس يطوف بالضياع والزروع، فرأى عمارة حسنة، فتعجّب منها، فخاف أهلها أن يزيد في خراجهم، فلما نزل دعا وجوه البلد، وقال: بارك الله عليكم، فقد أحسنتم العمارة، وقد وضعت عنكم مائة ألف درهم. ثم قال: ما توفّر عليّ من تهالك غيرهم على العمارة وأمنهم جَوْري أضعاف ما وضعت عن هؤلاء الآن؛ والذي وضعته بقدر ما يحصل من ذاك، وثواب عموم العمارة وأمن الرعيّة أفضل رِبْح.

الأصل: ثُمَّ انظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ؛ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ، بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ،

---

(١) دَرَّ الخراج: كَثُرَ إتاؤُهُ. القاموس المحيط، مادة (درر).

(٢) الخُرْق: ضد الرفق وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور، والحمق. القاموس المحيط مادة (خرق).

فَيَجْتَرِىءَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلاَفٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلأٍ. وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلاَ يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلاَ يَعْجِزُ عَنْ إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ، وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الأُمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ.

ثُمَّ لاَ يَكُن اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ واسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ منكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالأَمَانَةِ شَيْءٌ؛ وَلٰكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالأَمَانَةِ وَجْهاً، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لله، وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ.

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ؛ لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلاَ يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا؛ وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ.

الشرح: لما فرغ من أمر الخراج، شَرَع في أمر الكتّاب الذين يلُون أمر الحضرة، ويترسّلون عنه إلى عمّاله وأمرائه، وإليهم مَعاقد التدبير وأمرُ الديوان، فأمَرَه أن يتخيّر الصالح منهم، ومَنْ يوثق على الاطلاع على الأسرار والمكائد والحِيَل والتدبيرات، ومن لا يُبطِره الإكرام والتقريب، فيطمعَ فيجترىء على مخالفته في مَلأ من الناس والردّ عليه، ففي ذلك من الوَهَن للأمير وسوء الأدب الذي انكشف الكاتب عنه ما لا خفاءَ به.

قال الرشيد للكِسَائيّ: يا عليّ بن حمزة، قد أحلَلْناك المحلّ الذي لم تكن تبلغه همّتك، فروِّنا من الأشعار أعفَّها، ومن الأحاديث أجمعَها لمحاسن الأخلاق، وذاكِرْنا بآداب الفُرْس والهند، ولا تُسرع علينا الردّ في ملأ، ولا تترك تثقيفنا في خلاء.

وفي آداب ابن المقفّع: لا تكوننّ صحبتك للسلطان إلاّ بعد رياضةٍ منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، فإن كنتَ حافظاً إذا ولّوك، حذِراً إذا قرّبوك، أميناً إذا ائتمنوك، تعلّمهم وكأنّك تتعلّم منهم، وتأدّبهم وكأنك تتأدّب بهم، وتَشكُر لهم ولا تكلّفهم الشكر؛ ذليلاً إن صَرَموك[1]، راضياً إن أسخطوك، وإلا فالبعد منهم كل البعد، والحذَر منهم كلّ الحذر. وإن وجدتَ عن السلطان وصحبته غنًى فاستغن عنه، فإنه من يخدُم السلطانَ حقّ خدمته يخلّي بينه وبين لذة الدنيا وعمل

(١) الصَّرْم: الهجران في موضعه. لسان العرب، مادة (صرم).

الأخرى، ومَنْ يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وزْر الآخرة، وعرّض نفسه للهلكة والفضيحة في الدنيا. فإذا صحبتَ السلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملال، وإذا نزلتَ منه بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام المَلَق، ولا تُكثِرْ له من الدّعاء، ولا تردّنّ عليه كلاماً في حفْل وإن أخطأ، فإذا خلوتَ به فبصّره في رفق، ولا يكوننّ طلبك ما عنده بالمسألة، ولا تستبطئه وإن أبطأ، ولا تخبرنَّهُ أن لك عليه حقًّا، وأنّك تعتمد عليه ببلاء، وإن استطعت ألاّ تنسى حقّك وبلاءك بتجديد النصح والاجتهاد فافعل، ولا تعطينه المجهود كلّه من نفسك في أوّل صحبتك له، وأعدّ موضعاً للمزيد. وإذا سأل غيرَك عن شيء فلا تكن المجيبَ.

واعلم أنَّ استلابك الكلامَ خفّة فيك واستخفافٌ منك بالسائل والمسؤول، فما أنت قائل إن قال لك السائل: ما إيّاك سألتُ؛ أو قال المسؤول: أجب بمجالسته ومحادثته أيّها المعجب بنفسه، والمستخفّ بسلطانه.

وقال عبدُ الملك بنُ صالح لمؤدّبِ ولده بعد أن اختصّه بمجالسته ومحادثته: يا عبدَ الله، كُن على التماس الحظّ فيك بالسّكوت أحرصَ منك على التماسه بالكلام، فإنّهم قالوا: إذا أعجبك الكلامُ فاصمُت، وإذا أعجبك الصّمتُ فتكلّم. واعلم أن أصعب الملوك معاملةً الجبّارُ الفَطِن المتفقّد، فإنْ ابتُليتَ بصحبته فاحترس، وإن عُوفيت فاشكر الله على السّلامة، فإنّ السلامة أصل كلّ نعمة. لا تساعدْني على ما يقْبُح بي، ولا تردّنّ عليّ خطأً في مجلس، ولا تكلّفْني جوابَ التشميت والتهنئة، ودع عنك: كيف أصبح الأمير، وكيف أمسَى! وكلّمني بقدر ما أستنطِقك، واجعل بدَل التقريظ لي صوابَ الاستماع منّي. واعلم أنّ صواب الاستماع أحسنُ من صواب القول، فإذا سمعتَني أتحدّث فلا يفوتنّك منه شيء، وأرِني فهمَك إيّاه في طَرْفِك ووجهِك، فما ظنّك بالمَلِك وقد أحلّك محلّ المعجب بما يسمعك إيّاه، وأحللتَه محلّ من لا يسمع منه! وكلٌّ من هذا يُحبِط إحسانَك، ويُسقِط حقَّ حُرمتك، ولا تستدعِ الزيادة من كلامي بما تُظهر من استحسان ما يكون منّي، فمن أسوأ حالاً ممّن يستكدّ الملوك بالباطل، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجَب الله تعالى من حقّهم. واعلم أنّي جعلتك مؤدّباً، بعد أن كنتَ معلّماً، وجعلتك جليساً مقرّباً بعد أن كنتَ مع الصّبيان مباعداً، فمتى لم تعرف نقصانَ ما خرجتَ منه، لم تعرفْ رُجْحانَ ما دخلتَ فيه، وقد قالوا: من لم يعرف سوء ما أوْلى، لم يَعرِف حُسن ما أبْلَى.

ثم قال عليه السلام: وليكن كاتبُك غيرَ مقصّر عن عرض مكتوبات عمّالك عليك، والإجابة عنها حسن الوَكالة والنيابةِ عنك فيما يحتجّ به لك عليهم مِن مكتوباتهم، وما يُصدِره عنك إليهم من الأجوبة، فإن عَقَد لك عقداً قوّاه وأحكَمه، وإن عَقد عليك عقداً اجتهد في نقضِه وحَلّه. قال: وأن يكون عارفاً بنفسه، فمن لم يعرف قدرَ نفسِه لم يَعرِف قدرَ غيرِه.

ثمَّ نهاه أن يكون مستَنَد اختيارِه لهؤلاء فِراستُه فيهم، وغلبةُ ظنّه بأحوالهم، فإن التَّدليس ينمّ في ذلك كثيراً، وما زال الكتَّاب يتصنَّعون للأمراء بحُسن الظاهر، وليس وراء ذلك كثير طائل في النصيحة والمعرفة، ولكن ينبغي أن يرجع في ذلك إلى ما حكمتْ به التجربةُ لهم، وما وُلّوه من قبل، فإن كانت ولايتُهم وكتابتُهم حسنةً مشكورةً فهم هم، وإلاّ فلا، ويتعرّفون لفراسات الوُلاة، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضُروب من التصنّع، وروي: «يتعرّضون».

ثم أمَرَه أن يقسم فنونَ الكتابة وضروبَها بينهم نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء، والآخر لأجوبة عمّال السواد، والآخر بحضرة الأمير في خاصّته وداره، وحاشيته وثقاته.

ثم ذكر له أنّه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابَى عنه، ويتغافل من عيوب كتابه، فإن الدين لا يبيح الإغضاءَ والغفلةَ عن الأعوان والخَوَل، ويوجب التطلّع عليهم.

في آداب الكتّاب

واعلم أنّ الكاتب الذي يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الذي يسمى الآن في الاصطلاح العُرْفيّ وزيراً، لأنه صاحب تدبير حضرة الأمير، والنائب عنه في أموره، وإليه تصل مكتوباتُ العمّال وعنه تصدر الأجوبة، وإليه العَرْض على الأمير، وهو المستدرِك على العمّال، والمهيمِن عليهم، وهو على الحقيقة كاتبُ الكتاب، ولهذا يسمّونه: الكاتب المطلَق.

وكان يقال: للكاتب على الملك ثلاث: رفعُ الحجاب عنه، واتهام الوُشاة عليه، وإفشاء السرّ إليه.

وكان يقال: صاحبُ السلطان نصفُه، وكاتبُه كُلُّه. وينبغي لصاحب الشرْطة أن يطيل الجلوس، ويديمَ العُبوس، ويستخفّ بالشفاعات.

وكان يقال: إذا كان الملك ضعيفاً، والوزيرُ شَرِهاً، والقاضي جائراً، فرّقوا المُلك شَعاعاً.

وكان يقال: لا تخفْ صولةَ الأمير مع رِضا الكاتب، ولا تثقنّ برضا الأمير مع سُخط الكاتب، وأخذ هذا المعنى أبو الفضل بنُ العميد فقال:

وزعمتَ أنّك لست تُفكِر بعد ما … عَلِقتْ يداك بذِمّة الأمراءِ
هيهاتَ قد كذبَتْك فكرتُك الّتي … قد أوهمتْك غِنًى عن الوزراءِ
لم تُغنِ عن أحدٍ سماءٌ لم تجد … أرضاً ولا أرضٌ بغير سماءِ

وكان يقال: إذا لم يُشرِف المَلِك على أموره، صار أغشّ الناس إليه وزيرُه.

بعض ما ورد من نصائح للوزراء

وكان يقال: ليس الحرب الغشومُ(١) بأسرعَ في اجتِياح المُلْك من تضييع مراتب الكتّاب حتى يصيبها أهل النّذالة، ويزهدَ فيها أولُو الفَضْل.

وكان يقال: لا شيء أذهبُ بالدّوَل من استكفاء المَلِك الأسرار.

وكان يقال: مِن سعادة جِدّ المرء ألاّ يكون في الزّمان المختلط وزيراً للسلطان.

وكان يقال: كما أن أشجع الرجال يحتاج إلى السلاح، وأسبَقَ الخيل يحتاج إلى السّوط، وأحدَّ الشّفار يحتاج إلى المِسَنّ، كذلك أحزم الملوك وأعقَلُهم يحتاج إلى الوزير الصالح.

وكان يقال: صلاحُ الدنيا بصلاح الملوك، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء، وكما لا يَصْلُح الملك إلاّ بمن يستحقّ الملك، كذلك لا تَصلُح الوَزارة إلاّ بمن يستحقّ الوَزارة.

وكان يقال: الوزير الصالح لا يرى أنّ صلاحه في نفسه كائن صلاحاً حتى يتّصل بصلاح الملك وصلاح رعيّته، وأن تكون عنايته فيما عطف الملك على رعيّته، وفيما استعطف قلوب الرعيّة والعامة على الطاعة للملك، وفيما فيه قِوام أمر المُلْك من التدبير الحَسَن، حتى يجمع إلى أخذ الحقّ تقديم عموم الأمن. وإذا طرقت الحوادثُ، كان للمَلِك عُدّةً وعتاداً، وللرعيّة كافياً محتاطاً، ومن ورائها محامياً ذابًّا، يعنيه من صلاحها ما لا يعنيه من صلاح نفسِه دونَها.

وكان يقال: مَثَل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسداً مَثلُ الماء العذب الصافي وفيه التمساح، لا يستطيع الإنسان - وإن كان سابحاً، وإلى الماء ظامئاً - دخوله، حذراً على نفسه.

قال عمر بنُ عبد العزيز لمحمد بن كعب القُرَظيّ حين استُخلِف: لو كنتَ كاتبي ورِدْءًا لي على ما دُفعت إليه! قال: لا أفعل، ولكنّي سأرشدك؛ أسرع الاستماع، وأبطىء في التصديق حتّى يأتيَك واضحُ البرهان، ولا تعملن ثبجتك فيما تكتفي فيه بلسانك، ولا سوطك فيما تكتفي فيه بثبجتك، ولا سيفك فيما تكتفي فيه بسوطك.

وكان يقال: التقاط الكاتب للرّشا وضبطُ الملك لا يجتمعان.

وقال أبرويز لكاتبه: اكتُم السرَّ، واصدُق الحديث، واجتهد في النصيحة، وعليك بالحَذَر؛ فإنّ لك عليّ ألاّ أعجّل عليك حتى أستأنيَ لك، ولا أقبل فيك قولاً حتى أستيقنَ، ولا أُطْمِعُ فيك أحداً فتُغتال؛ واعلم أنّك بمنَجاةِ رفعة فلا تحطّنّها، وفي ظلّ مملكةٍ فلا تستَزِيلنّه. قارِب الناس مجاملةً من نفسك، وباعدْهم مسامحةً عن عدوّك، واقصِد إلى الجميل ازدراعاً(٢) لغَدِك،

---

(١) الغَشْمُ: الظّلم والغصب، والحرب غشوم لأنها تنال غير الجاني. لسان العرب، مادة (غشم).

(٢) المُزْدَرِعُ: الذي يزدرع زرعاً يتخصص به لنفسه، والمُزدَرَع: الشيء المزروع. القاموس المحيط ولسان العرب، مادة (زرع).

وتنزّه بالعفاف صَوْناً لمرُوءتك، وتحسن عندي بما قدرت عليه. احذر لا تُسرِعَنّ الألسنة عليك، ولا تقبّحنّ الأحدوثة عنك، وصُن نفسَك صونَ الدُّرّة الصافية، وأخلِصها إخلاصَ الفِضّة البيضاء، وعاتبها معاتبة الحَذِر المُشفِق، وحصِّنها تحصينَ المدينة المنيعة. لا تدَعنّ أن ترفع إليّ الصغيرَ فإنَّه يدلّ على الكبير، ولا تكتمنّ عنّي الكبير فإنه ليس بشاغل عن الصغير. هذّب أمورَك ثم القني بها، وأحكم أمرَك ثم راجعني فيه، ولا تجترئنّ عليّ فأمتعِض، ولا تنقبضنّ منّي فأتهم، ولا تُمرضنّ ما تلقاني به ولا تخدجنّه؛ وإذا أفكرتَ فلا تعجل، وإذا كتبتَ فلا تُعْذِر، ولا تستعنْ بالفضول فإنها علاوة على الكفاية، ولا تقصّرنّ عن التحقيق فإنها هُجْنة بالمقالة، ولا تلبّس كلاماً بكلام، ولا تبعدن معنًى عن معنى. وأكرم لي كتابك عن ثلاث: خضوع يستخفّه، وانتشار يهجّنه، ومعانٍ تعقّد به. واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول وليكن بسطة كلامك على كلام السُّوقة كبسطة الملك الذي تحدّثه على الملوك. لا يكن ما نلتَه عظيماً، ولا تتكلم به صغيراً، فإنما كلام الكاتب على مقدار الملك، فاجعله عالياً كعلّوه، وفائقاً كتفوّقه، فإنما جماع الكلام كلّه خصال أربع: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرُك بالشيء، وخبرُك عن الشيء؛ فهذه الخصال دعائمُ المقالات، إن التُمِس إليها خامس لم يوجَد، وإن نَقَص منها واحد لم يتمّ؛ فإذا أمرت فأحكم، وإذا سألت فأوضِح، وإذا طلبتَ فأسمح، وإذا أخبرت فحقق، فإنك إذا فعلت ذلك أخذت بجراثيم القول كلّه، فلم يشتبه عليك واردةٌ، ولم تُعجزْك صادرة. أثبت في دواوينك ما أخذت، وأحصِ فيها ما أخرجت، وتيقّظ لما تُعطِي، وتجرّد لما تأخذ، ولا يغلبنّك النّسيان عن الإحصاء، ولا الأناة عن التقدّم، ولا تخرجنّ وزنَ قيراط في غير حقّ؛ ولا تعظّمنّ إخراج الألوف الكثيرة في الحقّ؛ وليكن ذلك كلّه عن مؤامرتي.

الأصل: ثُمّ اسْتَوْصِ بِالتُّجّارِ وَذَوِي الصّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَجُلاَّبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ؛ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لاَ يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلاَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاَ تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لاَ تُخْشَى غَائِلَتُهُ.

وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلاَدِكَ. وَاعْلَمْ - مَعَ ذَلِكَ - أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ، وَذلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاَةِ، فَامْنَعْ مِنَ الاحْتِكَارِ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ. وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لاَ تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ؛ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ، وَعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ.

الشرح: خرج عَلَيْتَلِلاِ الآن إلى ذكر التجار وذوي الصناعات؛ وأمَرَه بأن يعمل معهم الخير، وأن يُوصِيَ غيره من أمرائه وعمّاله أن يعملوا معهم الخير. واستوصِ بمعنى «أوص» نحو قَرَّ في المكان واستقرّ، وعلا قِرْنَه واستعلاه.

وقوله: «استوصِ بالتجّار خيراً»، أي أوصِ نفسك بذلك، ومنه قول النبي ﷺ: «استوْصوا بالنّساء خيراً»[1]؛ ومَفْعولا «استوص وأوص» ها هنا محذوفان للعلم بهما، ويجوز أن يكون «استوصِ» أي اقبل الوصيّة منّي بهم، وأوصِ بهم أنتَ غيرك.

ثم قسّم عَلَيْتَلِلاِ الموصّى بهم ثلاثة أقسام: اثنان منها للتجّار، وهما المقيم، والمضطرب، يعني المسافر. والضّرب: السيرُ في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[2]، وواحد لأرباب الصناعاتَ، وهو قوله: «والمترفّق ببدنه»، ورُوِي «ببديه»، تثنية يد. والمَطارِح: الأماكن البعيدة.

وحيث لا يلتئم الناس: لا يجتمعون، ورُوِي «حيث لا يلتئم»؛ بحذف الواو.

ثم قال: «فإنّهم أولو سِلْم»، يعني التجار والصناع، استعطفه عليهم، واستماله إليهم.

وقال: ليسوا كعمال الخراج وأمراءِ الأجناد، فجانبهم ينبغي أن يراعى، وحالُهم يجب أن يُحاط ويُحمَى، إذ لا يتخوّف منهم بائقة لا في مال يخونون فيه، ولا في دَوْلة يُفسِدونها. وحواشي البلاد: أطرافها.

ثم قال له: قد يكون في كثير منهم نوعٌ من الشحّ والبُخْل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار في الأقوات، والحَيْف في البياعات. والاحتكار: ابتياع الغلاّت في أيام رخصها، وادّخارها في المخازن إلى أيام الغلاء والقَحْط. والحَيْف: تطفيفٌ في الوزن والكيل، وزيادةٌ في السعر، وهو الذي عبّر عنه بالتحكّم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الاحتكار[3]؛ وأما التطفيف وزيادة التّسعير فمنهيٌّ عنهما في نص الكتاب[4].

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته (٣٣٣١)، ومسلم في الرضاع، باب: الوصية بالنساء (١٤٦٨)، والترمذي في الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٣). وابن ماجه في النكاح، باب: حق المرأة على الزوج (١٨٥١).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠١.

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: الحكرة والجلب (٢١٥٣)، والدارمي في كتاب: البيوع، باب: النهي من الاحتكار (٢٥٤٤) بلفظ: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون».

(٤) قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١-٣].

وقارَفَ حُكْرة: واقعها، والحاء مضمومة، وأمره أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف، وذلك أنّه دون المعاصي التي توجب الحدود، فغاية أمره من التعزير الإهانة والمنع.

الأصل: ثُمَّ الله الله فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ؛ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرًّا.

وَاحْفَظِ الله مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي الْإِسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلأَقصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى؛ وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ.

وَلاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لاَ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ؛ فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ. وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ؛ فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ.

ثُمَّ اعْمَلْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى الله سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ؛ فَإِنَّ هٰؤُلاَءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِم؛ وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى الله فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ.

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ، وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ، مِمَّنْ لاَ حِيلَةَ لَهُ، وَلاَ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذٰلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ؛ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ الله عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ الله لَهُمْ.

الشرح: انتقل من التجّار وأرباب الصّناعات إلى ذكر فقراء الرعيّة ومَغْموريها، فقال: وأهل البؤسَى، وهي البؤسُ كالنُّعمى للنّعيم، والزَّمْنى أولو الزّمانة.

والقانع: السائل؛ والمعترّ: الّذي يَعرِض لك ولا يسألك، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز.

وأمَره أن يعطيَهم من بيت مال المسلمين لأنّهم من الأصناف المذكورين في قول تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾(١)، وأن يُعطِيَهم من غلاّت صوافي الإسلام - وهي الأرضون التي لم يُوجَف عليها

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

بخيل ولا ركاب - وكانت صافية لرسول الله ﷺ، فلمّا قُبض صارت لفقراء المسلمين، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام.

ثم قال له: «فإنّ للأقصى منهم مثل الّذي للأدنى»، أي كلّ فقراء المسلمين سواء في سهامهم، ليس فيها أقصى وأدنى، أي لا تُؤْثِر مَنْ هو قريب إليك أو إلى أحدٍ من خاصّتك على مَنْ هو بعيد ليس له سببٌ إليك، ولا علْقة بينه وبينك. ويمكن أن يريد به: لا تَصرِف غلاّت ما كان من الصّوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك البلد خاصة؛ فإن حق البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حق المقيم في ذلك البلد.

والتافه: الحقير. وأشخصتُ زيداً من موضع كذا؛ أخرجتُه عنه. وفلان يصعّر خدَّه للناس، أي يتكبّر عليهم.

وتقتَحِمه العيون: تزدَريه. وتحتقِرُه والإعذار إلى الله: الاجتهاد والمبالغة في تأدية حقّه والقيام بفرائضه.

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه، ولا يثق إلى غيره، ويقعد بحيث يَسمع الصوت، فإذا سمعه أدخلَ المتظلّم، فأصيب بصَمَم في سَمْعه فنادَى مناديه، إنَّ الملك يقول: أيّها الرعيَّة، إنّي إن أُصبتُ بصَمَم في سمعي فلم أُصَب في بصري؛ كلّ ذي ظلامة فليَلْبَس ثوباً أحمر، ثم جلس لهم في مستشرَف له.

وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سمّاه بيتَ القِصَص، يُلقِي الناسُ فيه رقاعَهُم، وكذلك كان فعل المهديّ محمد بن هارون الواثق، من خلفاء بني العبّاس.

الأصل: وَاجْعَلْ لِذَوِي الحَاجَاتِ مِنْكَ قِسماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامًّا؛ فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لله الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ؛ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ؛ فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ للضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ القَوِيِّ؛ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ»(١).

ثُمَّ احْتَمِلِ الخُرْقَ مِنْهُمْ وَالعِيَّ، وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَالأَنَفَ، يَبْسُطِ الله عَلَيْكَ بِذلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ. وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ.

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا؛ مِنهَا إِجَابَةُ عُمالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ،

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٩٧) وقال: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٣١٣) و«الأوسط» (٥٨٥٠).

وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرُجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ. وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ.

الشرح: هذا الفصل من تتمّة ما قبله، وقد رُوِي: «حتى يكلِّمك مكلِّمهم»، فاعل من «كلَّم» والرواية الأولى أحسن.

وغير متتعتع: غير مزعِج ولا مقلق. والمتَتَعْتِع في الخبر النبويّ: المتردِّد المضطرب في كلامه عِيًّا من خوف لحقه، وهو راجع إلى المعنى الأوَّل.

والخُرق: الجهل. ورُوِي: «ثمَّ احتمل الخُرق منهم والغيّ». والغيّ وهو الجهل أيضاً، والرواية الأولى أحسن.

ثم بيّن عليه السلام أنه لا بدَّ له من هذا المجلس لأمرٍ آخر غير ما قدَّمه عليه السلام، وذلك لأنَّه لا بدَّ من أن يكون في حاجات الناس ما يضيق به صدور أعوانه، والنُّوّاب عنه، فيتعيَّن عليه أن يباشرَها بنفسه؛ ولا بدَّ من أن يكون في كتب عمّاله الواردة عليه ما يعيا كتّابه عن جوابه، فيجيب عنه بعلْمه. ويدخل في ذلك أن يكون فيها ما لا يجوز في حُكْم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتاب عليه، فيجيب أيضاً عن ذلك بعلمه.

ثم قال له: لا تُدخِلْ عملَ يومٍ في عمل يومٍ آخر فيُتْعِبك ويُكَدِّرك؛ فإنّ لكلّ يومٍ ما فيه من العمل.

الأصل: وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لله؛ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لله دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّة، فَأَعْطِ الله مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى الله سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلاَ مَنْقُوصٍ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ. وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلاَ مُضَيِّعاً، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ، وَلَهُ الْحَاجَةُ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ: كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ؛ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»[١].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٣٧٧)، ومسند أبي عوانة (١٥٥٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٣٤)، كلهم من حديث عثمان بن أبي العاص بلفظ: «صل بهم لصلاة أضعفهم».

الشرح: لمّا فرغ عليه السلام من وصيّته بأمور رعيّته، شَرَع في وصيّته بأداء الفرائض التي افترضها الله عليه من عبادته، ولقد أحسن عليه السلام في قوله: «وإن كانت كلها لله»، أي أن النظر في أمور الرعيّة مع صحّة النيّة وسلامة الناس من الظّلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً.

ثم قال له: «كاملاً غيرَ مثلوم»، أي لا يحملنّك شُغْل السلطان على أن تختصر الصّلاة اختصاراً، بل صلّها بفرائضها وسُنَنها وشعائرها في نهارِك ولَيلِك؛ وإن أتعبك ذلك ونالَ من بَدَنك وقُوّتك.

ثمّ أمَرَه إذا صلّى بالناس جماعة ألاّ يطيل فينفرهم عنها، وألا يخدج الصّلاة وينقصها فيضيّعَها.

ثم رَوَى خبراً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وهو قوله عليه السلام له: «صلّ بهم كصلاةِ أضعفهم»[1]، وقوله: «وكن بالمؤمنين رحيماً»[2]؛ يحتمل أن يكون من تتمّة الخبر النبويّ، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، والظاهر أنّه من كلام أميرِ المؤمنين من الوصيّة للأشتر؛ لأن اللفظة الأولى عند أرباب الحديث هي المشهور في الخبر.

الأصل: وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا؛ فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ. وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ؛ وَإِنمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ، إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لاَ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

الشرح: نهاه عن الاحتجاب؛ فإنّه مَظِنّة انطواء الأمور عنه، وإذا رُفِع الحجاب دخل عليه كلُّ أحد فعَرَف الأخبار، ولم يَخفَ عليه شيء من أحوال عَمله.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي البحار: ٣٣/ ٦٠٩، وأخرجه ابن شعبة الحراني في تحف العقول: ١٤٤.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي البحار: ٣٣/ ٦٠٩، وابن شعبة الحراني في تحف العقول: ١٤٤.

ثم قال: لم تحتجب، فإنّ أكثر الناس يحتجبون كيلا يُطلَب منهم الرِّفد!

وأنت فإن كنتَ جواداً سَمْحاً لم يكن لك إلى الحجاب داعٍ، وإن كنتَ مُمسِكاً فسيعلم الناسُ ذلك منك، فلا يسألك أحدٌ شيئاً.

ثم قال: عَلَى أنّ أكثرَ ما يسأل منك ما لا مؤونة عليه في ماله؛ كردّ ظُلاَمة أو إنصاف من خَصْم.

بعض ما ورد في الحجاب نثراً وشعراً

والقول في الحجاب كثير:

حضر بابَ عمر جماعةٌ من الأشراف: منهم سُهَيل بن عمرو وعُيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس، فحجِبوا، ثم خرج الآذن فنادى: أين عمّار؟ أين سَلْمان؟ أين صُهَيب؟ فأدخلهم فتمعّرت وجوهُ القوم، فقال سُهيل بن عمرو: لم تتمعّر وجوهكم! دُعوا ودُعِينا فأسرَعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمرَ اليوم لأنتم غداً لهم أحسد.

واستأذن أبو سُفْيانَ على عثمان فحجَبه، فقيل له: حَجَبك! فقال: لا عدمتُ من أهلي مَنْ إذا شاء حَجَبني.

وَحَجَب معاويةُ أبا الدرداء؟ فقيل لأبي الدرداء: حَجَبَك معاوية! فقال: مَنْ يَغْش أبوابَ الملوك يُهَنْ ويُكْرَم، ومَن صادف باباً مُغلَقاً عليه وَجَد إلى جانبه باباً مفتوحاً، إن سأل أُعطِيَ، وإن دعا أُجِيب، وإن يكن معاوية قد احتجب فرَبُّ معاويةَ لم يحتجب.

وقال أبرويز لحاجبه: لا تَضَعنّ شريفاً بصُعوبة حجاب، ولا ترفَعنّ وضيعاً بسهولته؛ ضع الرجالَ مواضعَ أخطارهم، فمن كان قديماً شرفه ثم ازدرعه ولم يهدمه بعد آبائه فقدّمه على شرفه الأوّل، وحسِّن رأيه الآخر، ومَنْ كان له شرف متقدّم ولم يَصُن ذلك حياطةً له، ولم يزدرعه تثمير المُغارَسة، فألحِق بآبائه، منْ رفعة حاله ما يقتضيه سابقُ شرفِهم، وألحق به في خاصّته ما ألحق بنفسه، ولا تأذن له إلاّ دَبريًا وإلا سراراً؛ ولا تلحقه بطبقة الأوّلين. وإذا ورد كتابُ عاملٍ من عمّالي فلا تحبسه عنّي طرفةَ عين إلاّ أن أكون على حالٍ لا تستطيع الوصولَ إليّ فيها، وإذا أتاك مَنْ يدّعي النصيحة لنا فلتكتبها سرًّا ثمّ أدخله بعد أن تستأذن له، حتى إذا كان منّي بحيث أراه فادفع إليّ كتابه، فإن أحمدت قبلت، وإن كرهت رفضت. وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن، فأْذَنْ له، فإنّ العلم شريفٌ وشريفٌ صاحبه، ولا تحجُبنّ عنّي أحداً من أفناء الناس، إذا أخذتُ مجلسِي مجلسَ العامّة، فإنّ الملك لا يُحْجَب إلا عن ثلاث: عِيٍّ يكره أن يُطّلع عليه منه، أو بخل يكره أن يدخل عليه من يسأل، أو رِيبة هو مصرّ عليها فيشفق من إبدائها، ووقوف الناس عليها، ولا بدّ أن يحيطوا بها عِلْماً، وإن اجتهد في سَترها. وقد أخذ هذا المعنى الأخير محمود الورّاق فقال:

إذا اعتصمَ الوالِي بإغلاق بابه ... وردّ ذوي الحاجات دونَ حجابِهِ
ظننت به إحدى ثلاثٍ وربّما ... رَجَمْتُ بظنٍّ واقعٍ بصَوابِهِ
أقول به مَسٌّ من العِيّ ظاهرٌ ... ففي إذْنه للناسِ إظهارُ ما بِهِ
فإن لم يكن عِيّ اللسان فغالب ... من البُخل يحمي ماله عن طِلابِهِ
وإن لم يكن لا ذا ولا ذا فريبَةٌ ... يُكتِّمها مستورةٌ بثيابِهِ

أقام عبد العزيز بن زُرارة الكلابيّ على باب معاوية سنةً في شملة[1] من صوف لا يأذن له؛ ثمّ أذن له وقرّبه وأدناه، ولَطُف محلّه عنده حتّى ولاّه مصر، فكان يقال: استأذن أقوام لعبد العزيز بن زرارة، ثمّ صار يستأذن لهم، وقال في ذلك:

دخلتُ على معاويةَ بنَ حرب ... ولكن بعد يأسٍ من دخولِ
وما نلتُ الدخولَ عليه حتّى ... حللت مَحَلَّة الرجل الذّليلِ
وأغضيتُ الجفونَ على قذاها ... ولم أنظر إلى قالٍ وقيلِ
وأدركتُ الّذي أمّلت منه ... وحرمانُ المُنَى زادُ العَجولِ

ويقال: إنه قال له لمّا دخل عليه أميرُ المؤمنين: دخلتُ إليك بالأمل، واحتملت جفْوَتك بالصبر، ورأيتُ ببابك أقواماً قدّمهم الحظّ، وآخرين أخّرهم الحرمان، فليس ينبغي للمقدّم أن يأمن عواقب الأيام، ولا للمؤخّر أن ييْئَسَ من عطف الزّمان.

وأوّل المعرفة الاختبار، فابلُ واختبر إن رأيت. وكان يقال: لم يلزم باب السلطان أحدٌ فَصَبر على ذلّ الحجاب، وكلام البوّاب، وألقى الأنَف، وحمل الضَّيْم، وأدام الملازمة، إلاّ وصل إلى حاجته أو إلى معظمها.

قال عبد الملك لحاجبه: إنك عينٌ أنظرُ بها، وجُنّة[2] أستلئم بها، وقد وليتك ما وراء بابي، فماذا تراك صانعاً برعيّتي؟ قال: أنظر إليهم بعينك، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك، وأضَعُهم في إبطائهم عن بابك، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم، وأرَتّبهم حيث وضعهم ترتيبك، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغَك عنهم. قال: لقد وفّيت بما عليك، ولكن إن صدّقت ذلك بفعلك. وقال دِعْبل وقد حُجِب عن باب مالك بن طَوق:

لَعَمري لئن حجبتْني العبيدُ ... لَما حجبتْ دونَكَ القافيهْ
سأرمِي بها من وراء الحجابِ ... شَنعَاءَ تأتيكَ بالدَّاهِيَهْ

(١) الشَّمْلَة: كساء دون القطيفة يشتمل به. لسان العرب، مادة (شمل).
(٢) الجُنَّةُ: بالضم ما واراك من السّلاح واستترت به منه، والجنة: السّترة. لسان العرب، مادة (جنن).

تُصِمّ السميعَ، وتُعْمِي البصيرَ ... ويُسألُ من مِثلها العافية

وقال آخر:

سأتركُ هذا البابَ ما دام إذنُه ... على ما أرى حتى يلينَ قليلا

فما خاب من لم يأته مترفِّعاً ... ولا فازَ مَنْ قد رام فيه دُخولا

إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً ... وَجَدْنا إلى ترك المجيء سبيلا

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه:

وإن عدتُ بعد اليوم إنّي لظالمٌ ... سأصرف وجهي حيث تُبغى المكارِمُ

متى يُفلح الغادي إليك لحاجةٍ ... ونصفُكَ محجوبٌ، ونصفك نائمُ!

يعني ليله ونهاره.

استأذن رجلان على معاوية، فأذن لأحدهما - وكان أشرف منزلةً من الآخر - ثم أذن للآخر فدخل، فجلس فوق الأول، فقال معاوية: إن الله قد ألزمَنا تأديبكم كما ألزَمَنا رعايتكم، وإنّا لم نأذن له قبلك، ونحن نريد أن يكون مجلسُه دونَك، فقم لا أقام الله لك وزناً. وقال بشار:

تأبى خلائقُ خالدٍ وَفَعَالُه ... إلاّ تجنُّبَ كلّ أمرٍ عائبِ

وإذا أتينا البابَ وقت غَدَائه ... أدنى الغَدَاءَ لنا برغم الحاجب

وقال آخر يهجو:

يا أميراً على جَريبٍ[1] من الأر ... ضِ له تسعةٌ من الحجّابِ

قاعد في الخراب يحْجبُ عَنّا ... ما سَمعنا بحاجبٍ في خرابِ

وكتب بعضهم إلى جعفرَ بن محمد بن القاسم بن عُبيد الله بن سليمان بن وهب:

أبا جعفرٍ إنَّ الولاية إن تكنْ ... منبّلة قوساً فأنت لها نَبْلُ

فلا تَرتفِع عنّا لأمر وَليتَه ... كما لم يصغُر عندنا شأنَك العَزْلُ

ومن جيّد ما مُدِح به بشر بن مروان قول القائل:

بعيدُ مراد الطرف ما ردّ طَرْفه ... حذار الغَواشي[2] باب دارٍ ولا سِتْرُ

---

(١) الجَريب: المزرعة، والوادي، والحصى الذي فيه تراب. القاموس المحيط ولسان العرب، مادة (جرب).

(٢) الغاشية: السُؤّالُ يأتونك، والزّوار، والأصدقاء يتنابونك، القاموس المحيط، مادة (غشي).

ولو شاء بِشْرٌ كان من دونِ بابه طماطمُ[1] سُودٌ أو صقالبةٌ[2] حُمرُ
ولكنّ بِشراً يَستر البابَ للّتي يكون لها في غِبّها الحمدُ والأجر

وقال بشّار:

خليليَّ من كعبٍ أعينَا أخاكما على دهرِه إنَّ الكريم يعينُ
ولا تَبخَلا بخلَ ابن قَزْعة إنَّه مخافة أن يرجَى نَداه حَزينُ
إذا جئتَه للعُرف أغلَق بابَه فلم تَلقَه إلاّ وأنت كَمينُ
فقل لأبي يحيى متى تُدرَكُ العلا وفي كلّ معروف عليك يمينُ!

وقال إبراهيم بن هَرْمة:

هَشٌ إذا نَزَلَ الوفودُ ببابه سهلُ الحجاب مؤدّب الخدّامِ
وإذا رأيتَ صديقَه وشقيقَه لم تدر أيّهما ذوي الأرحامِ

وقال آخر:

وإنّي لأستحيي الكريمَ إذا أتى على طمعٍ عند اللئيم يُطالبهْ
وأرثي له من مجلسٍ عند بابِه كمرثِيَتي للطِّرف والعِلْجُ راكبهْ

وقال عبد الله بن محمد بن عُيينة:

أتيتُك زائراً لقضاء حقّ فحالَ السّتر دونَك والحجابُ
ورأيي مذهب عن كلّ ناءٍ يجانبه إذا عزّ الذّهابُ
ولست بساقطٍ في قِدْر قومٍ وإن كرهوا كما يَقَع الذّبابُ

وقال آخر:

ما ضاقت الأرضُ على راغبٍ تطلّب الرزقَ ولا راهبِ
بل ضاقت الأرض على شاعرٍ أصبح يشكو جفوةَ الحاجبِ
قد شتَم الحاجبَ في شعره وإنّما يَقصِد للصّاحبِ

---

(١) الطماطم: هم الأعاجم الذين لا يفصحون. لسان العرب، مادة (طمم).
(٢) الصَّقالبة: جيل حمر الألوان صُهب الشعور تتاخم بلادهم بلاد الخزر وبعض جبال الروم. لسان العرب، مادة (صقلب).

الأصل: ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَاحْسِمْ مُؤُونَةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، وَلاَ تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ، يَحْمِلُونَ مُؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَوَاصِّكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ إِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

الشرح: نهاه عليه السلام عن أن يَحمِل أقاربَه وحاشيَته وخواصَّه على رقاب الناس، وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتّطاول والإذلال، ونهاه من أن يقطع أحداً منهم قطيعةً، أو يملّكه ضَيْعة تضرّ بمن يجاورها من السادة والدَّهاقين في شِرْب يتغلّبون على الماء منه، أو ضِياع يُضيفونها إلى ما ملّكهم إيّاه، وإعفاء لهم من مؤنة، أو حفر وغيره، فيعفيهم الوُلاة منه مراقبةً لهم، فيكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم، وحِمْل ثقلها على غيرهم.

ثم قال عليه السلام: لأنّ منفعة ذلك في الدنيا تكون لهم دونَك، والوِزْر في الآخرة عليك، والعيب والذمّ في الدنيا أيضاً لاحقان بك.

ثم قال له: إن اتّهمتْك الرعيّة بحيْفٍ عليهم، أو ظنّتْ بك جَوْراً، فاذكر لهم عذرَك في ذلك، وما عندَك ظاهراً غير مستور، فإنه الأوْلى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحق.

وأصحرتُ بكذا، أي كشفته؛ مأخوذٌ من الإصحار، وهو الخروج إلى الصّحراء.

وحامّة الرجل: أقاربُه وبطانته. واعتقدت عقدة، أي ادّخرت ذخيرة. والمهنأ مصدر هناه كذا. ومغبّة الشيء: عاقبتُه.

واعدل عنكَ ظنونهم: نحّها. والأعذار: إقامة العُذْر.

في ما روي حول نزاهة الخليفة عمر بن عبد العزيز

ردّ عمرُ بنُ عبد العزيز المظالم التي احتقَبها[1] بنو مروان فأبغضوه وذمّوه؛ وقيل: إنّهم سمُّوه فمات.

(١) احتقبه: ادّخره، والحِقبة: من الدهر مدة لا وقت لها. القاموس المحيط، مادة (حقب).

وروى الزبير بن بكار في «الموفقيات» أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه يوماً وهو في قائلته، فأيقَظه. وقال له: ما يؤمّنك أن تؤتَى في منامك وقد رُفِعت إليك مظالم لم تقضِ الله فيها! فقال: يا بنيّ إن نفسي مطيّتي إن لم أرفُق بها لم تبلّغني، إنّي لو أتعبتُ نفسي وأعواني لم يكن ذلك إلاّ قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإنّي لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسِب في يقظتي، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزّل القرآن جملة لأنزله، ولكنّه أنزل الآية والآيتين حتّى استكثر الإيمان في قلوبهم.

ثم قال: يا بنيّ ممّا أنا فيه أمرٌ هو أهم إلى أهل بيتك، هم أهل العدّة والعَدَد، وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعتُ ذلك في يوم واحد خشيتُ انتشارهم عليّ، ولكنّي أنصف من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءَهما، فيكون أنجع له، فإنْ يُرِد الله إتمام هذا الأمر أتمّه، وإن تكن الأخرى فحَسْب عبدٍ أن يَعلَم الله منه أنّه يحبّ أن ينصف جميع رعيّته.

وروى جُويرية بنُ أسماء، عن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: كنّا عند عمرَ بن عبد العزيز، فلمّا تفرّقنا نادى منادِيه: الصّلاة جامعة! فجئتُ المسجدَ، فإذا عمرُ على المنبر، فَحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، فإنّ هؤلاء - يعني خلفاءَ بني أميّة قبله - قد كانوا أعطوْنا عَطَايَا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم، وما كان ينبغي لهم أن يُعطوناها، وإنّي قد رأيتُ الآن أنه ليس عليّ في ذلك دونَ الله حسيب، وقد بدأتُ بنفسي والأقربين من أهل بيتي، اقرأ يا مزاحمُ. فجعل مُزاحمٌ يقرأ كتاباً فيه الإقطاعات بالضّياع والنواحي، ثم يأخذه عمرُ بيَده فيقصّه بالجلَم، لم يزل كذلك حتى نوديَ بالظهر.

وروى الفراتُ بنُ السائب؛ قال: كان عند فاطمةَ بنت عبد الملك بن مَرْوان جوهر جليل، وهَبَها أبوها، ولم يكن لأحد مثله، وكانت تحت عمرَ بن عبد العزيز، فلمّا وليَ الخلافةَ قال لها: اختاري؛ إمّا أن تردّي جوهرك وحليّك إلى بيت مال المسلمين، وإمّا أن تأذني لي في فراقِك، فإنّي أكرَه أن اجتمع أنا وأنتِ وهوَ في بيت واحد. فقالت: بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لي؛ وأمرتْ به فحمِل إلى بيت المال، فلمّا هلك عمر واستُخلِف يزيد بن عبد الملك قال لفاطمة أخته: إن شئتِ رددته عليك؛ قالت: فإني لا أشاء ذلك، طبتُ عنه نفساً في حياة عمر، وأرجع فيه بعد موته! لا والله أبداً. فلما رأى يزيدُ ذلك قَسَمه بين ولدِه وأهلِه.

وروى سهيل بن يحيى المَرْوَزيّ عن أبيه، عن عبد العزيز، عن عمرَ بن عبد العزيز، قال: لمّا دفن سليمانُ صَعِد عمرُ على المنبر فقال: إنّي قد خلعتُ ما في رقبتي من بيعتكم. فصاح الناسُ صيحةً واحدة: قد اخترناك، فنزل ودخل وأمَر بالستّور فهتكت، والثّياب الّتي كانت تُبسَط للخلفاء فحُمِلَت إلى بيت المال، ثمّ خرج ونادى مناديه: مَنْ كانت له مظلمةٌ من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليحَضُر؛ فقام رجل ذِمّي من أهلِ حِمْصَ أبيضُ الرأس واللّحية، فقال:

أسألك كتابَ الله! قال: ما شأنك؟ قال: العبّاسُ بن الوليد بن عبد الملك اغتصَبني ضَيْعتي - والعبّاس جالس - فقال عمر: ما تقول يا عبّاس؟ قال: أقطَعنِيها أميرُ المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلاً. فقال عمر: ما تقول أنت أيّها الذّميّ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتابَ الله! فقال عمر: إيهاً لعَمري إن كتاب الله لأحقُّ أن يُتّبع من كتاب الوليد، اردُد عليه يا عَبّاس ضَيْعتَه؛ فجعل لا يَدَع شيئاً ممّا كان في أيدِي أهلِ بيتِه من المظالم إلاّ ردّها مَظلِمة مَظلِمة.

وروى ميمونُ بنُ مهْرانَ، قال: بعث إليّ عمرُ بنُ عبد العزيز وإلى مكحول وأبي قِلابة فقال: ما ترَوْن في هذه الأموال التي أخذها أهلي من الناس ظُلْماً؟ فقال مكحول قولاً ضعيفاً كَرِهه عمر، فقال: أرى أنْ تستأنف وتَدَع ما مضى، فنظر إليّ عمرُ كالمستغيث بي، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أحضر ولدك عبد الملك لننظرَ ما يقول. فحضر، فقال: ما تقول يا عبد الملك؟ فقال: ماذا أقول؟ ألستَ تَعرِف مواضعها! قال: بلى والله، قال: فارددُها، فإن لم تفعل كنتَ شريكاً لمن أخذَها.

ورَوَى ابن درستوَيْه، عن يعقوب بنِ سُفْيان، عن جويرية بن أسماء، قال: كان بيد عمرَ بنِ عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعته المعروفة بالسّهلة، وكانت باليمامة. وكانت أمراً عظيماً لها غلّة عظيمة كثيرة، إنّما عيشه وعيش أهله منها، فلمّا ولِيَ الخلافة قال لمزاحم مولاه - وكان فاضلاً -: إني قد عزمت أن أرد السهلَة إلى بيت مال المسلمين، فقال مزاحم: أتدري كم ولدك؟ إنّهم كذا وكذا، قال: فذَرفتْ عيناه، فجعل يَستدمِع ويمسح الدّمعة بأصبعه الوسطى، ويقول: أكِلُهم إلى الله، أكِلهم إلى الله! فمضى مُزاحم فدخل على عبدِ الملك بن عمر، فقال له: ألا تعلم ما قد عزم عليه أبوك! إنّه يريد أن يردَّ السّهلة، قال: فما قلتَ له؟ قال: ذكرتُ له ولدَه فجعل يستدمِع ويقول: أكِلهم إلى الله. فقال عبد الملك: بئس وزيرُ الدّين أنتَ! ثم وثب وانطلق إلى أبيه فقال للآذن: استأذنْ لي عليه، فقال: إنّه قد وضع رأسه الساعَة للقائلة، فقال: استأذِن لي عليه؛ فقال: أما ترحمونه! ليس له من اللّيل والنهار إلاّ هذه الساعة. قال: استأذِن لي عليه لا أمَّ لك! فسَمِع عمرُ كلامَهما، فقال: ائذن لعبد الملك، فدخل فقال: على ماذا عزمتَ؟ قال: أردّ السَّهْلَة قال: فلا تؤخّر ذلك قم الآن. قال: فجعل عمرُ يرفع يديه ويقول: الحمد لله الذي جعل لي من ذرّيتي مَنْ يعينني على أمر ديني. قال: نعم يا بنيّ أصلّي الظهر، ثمّ أصعد المنبر فأردّها علانيةً على رؤوس الناس، قال: ومَنْ لك أن تعيش إلى الظهر! ثم مَنْ لك أن تسلَم نيّتك إلى الظّهر إن عشت إليها! فقام عمر فصَعِد المنبَر، فخطب الناس ورد السّهلة.

قال: وكتب عمرُ بنُ الوليد بن عبد الملك إلى عمرَ بن عبد العزيز لما أخذ بني مروان بردّ المظالم كتاباً أغلَظ له فيه، من جُملتِه: إنّك أزرَيْت على كلّ مَنْ كان قَبلك من الخلفاء وعبتَهم،

وسرتَ بغير سيرتهم بُغْضاً لهم وشَنآناً[١] لمن بعدَهم من أولادهم، وقطعتَ ما أمر الله به أن يُوصَل، وعَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتَها بيت المال جَوْراً وعُدْواناً، فاتّق الله يابن عبد العزيز وراقبْه، فإنّك خصصْت أهلَ بيتك بالظلم والجور. والّذي خَصَّ محمداً ﷺ بما خصّه به لقد ازددتَ من الله بُعداً بولايتك هذه التي زعمتَ أنها عليك بلاء. فأقصِر عن بعض ما صنعتَ، واعلم أنّك بعينِ جبّار عزيز وفي قبضته، ولن يتركَك على ما أنت عليه.

قالوا: فكتب عمرُ جوابَه: أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابَك، وسوف أجيبُك بنحو منه، أمّا أوّل أمرك يابنَ الوليد فإنّ أمّك نُباتَة أمَة السَّكون، كانت تطوفُ في أسواقِ حِمْص، وتدخُل حوانيتها، ثم الله أعلم بها؛ اشتراها ذُبيان بنُ ذبيان من فَيْء المسلمين، فأهداها لأبيك، فحملتْ بك، فبئسِ الحاملُ وبئس المحمول! ثم نشأتَ فكنتَ جبّاراً عنيداً، وتزعم أنّي من الظالمين لأني حرمتُك وأهلَ بيتك فيءَ الله الّذي هو حقّ القرابة والمساكين والأرامل! وإنّ أظلم منّي وأترَكَ لعهد الله مَن استعملك صبيًّا سفيهاً على جند المسلمين تَحكُم فيهم برأيك، ولم يكن له في ذاك نيّة إلاّ حبّ الوالد ولدَه، فويلٌ لك وويلٌ لأبيك! ما أكثر خصماء كما يومَ القيامة! وإن أظلَم منّي وأتركَ لعهد الله من استعمل الحجّاج بنَ يوسف على خُمْسَيِ العرب، يسفك الدمَ الحرام، ويأخذ المالَ الحرام. وإن أظلَم منّي وأتركَ لعهد الله مَن استعمل قُرّة بن شَريك، أعرابيّاً جافياً على مصر، وأذن له في المَعازِف والْخَمر والشّرب واللهو. وإن أظلَم منّي وأتركَ لعهد الله من استعمل عثمانَ بن حيّانَ على الحجاز، فينشد الأشعار على منبر رسول الله ﷺ، ومَنْ جعل للعالية البربرية سهماً في الخمس؛ فرويداً يابن نباتة، ولو التقت حَلْقَتا البطان وردّ الفيء إلى أهله، لتفرّغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتُكم على المحجّة البيضاء، فطالما تركتم الحقّ، وأخذتم في بُنَيّاتِ[٢] الطريق! ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أعملَه؛ بيع رقبتك، وقسم ثمنك بين الأرامل واليتامى والمساكين، فإنّ لكلّ فيك حقًّا، والسلام علينا، ولا ينال سَلامُ الله الظالمين.

ورَوَى الأوزاعيّ قال: لمّا قطع عمرُ بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان مَن قَبْله يُجرُونه عليهم من أرزاق الخاصّة، فتكلّم في ذلك عَنْبسة بن سعيد، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ لنا قرابةً، فقال: مالي إنْ يتّسع لكم، وأمّا هذا المال فحقّكم فيه كحق رجل بأقصى بَرْك الغِماد[٣]،

(١) الشنآن: البغض. القاموس المحيط، مادة (شنأ).

(٢) بُنَيّات الطريق: التُّرّهات. القاموس المحيط، مادة (بني).

(٣) بَرْك الغِماد: مثلّثة الغين: موضع، أو هو أقصى معمور الأرض. القاموس المحيط، مادة (غمد).

ولا يمنعه من أخذه إلا بعدُ مكانه. والله إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يُصبح أهلُ الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله.

ورَوَى الأوزاعيّ أيضاً، قال: قال عمر بنُ عبد العزيز يوماً وقد بلغه عن بني أميّة كلامٌ أغضبه: إن لله في بني أميّة يوماً - أو قال: ذِبحاً - وايمُ الله لئن كان ذلك الذِّبح - أو قال ذلك اليوم - على يدي لأعذِرنَّ الله فيهم. قال: فلمّا بلغهم ذلك كفّوا، وكانوا يَعلَمون صَرامته، وأنه إذا وقع في أمر مَضَى فيه.

ورَوَى إسماعيل بن أبي حكيم، قال: قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوماً لحاجبه: لا تُدخِلنّ عليّ اليومَ إلاّ مَرْوانيًا. فلمّا اجتمعوا قال: يا بَني مَرْوان، إنّكم قد أُعطيتمْ حظًّا وشَرَفاً وأموالاً، إنّي لأحسب شطرَ أموال هذه الأمّة أو ثُلُثيها في أيديكم، فسَكَتوا، فقال: ألا تُجيبوني؟ فقال رجل منهم: فما بالُك؟ قال: إني أريد أن أنتزِعها منكم، فأردُّها إلى بيت مال المسلمين. فقال رجل منهم: والله لا يكون ذلك حتّى يحال بين رؤوسنا وأجسادِنا، والله لا نُكفِّر أسلافَنا، ولا نُفقِر أولادنا. فقال عمر: والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحقّ له لأضرعتُ خُدودَكم! قوموا عنّي.

ورَوَى مالك بن أنس، قال: ذكر عمر بنُ عبد العزيز مَنْ كان قبله من المرْوانيّة فعابهم، وعنده هشامُ بنُ عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا والله نكره أن تعيب آباءَنا، وتضع شرَفَنا؛ فقال عمر: وأي عيب أعيَبُ ممّا عابَه القرآن!

ورَوَى نَوْفل بنُ الفرات، قال: شكا بنو مَرْوانَ إلى عاتكة بنت مروانَ بن الحَكَم عمرَ، فقالوا: إنّه يعيب أسلافَنا، ويأخذ أموالَنا. فذكرت ذلك له - وكانت عظيمةً عند بني مَرْوان - فقال لها: يا عمّة، إن رسول الله ﷺ قُبِض وترَك الناسَ على نهرٍ مَوْرود، فوليَ ذلك النهرَ بعده رجلان لم يستخصّا أنفسَهما وأهلَهما منه بشيء، ثم وليَه ثالثٌ فكرى منه ساقيةً، ثم لم تزل الناس يُكرُون منه السّواقي حتى تركوه يابساً لا قَطرة فيه، وايم الله لئن أبقَاني الله لأسكُرنّ تلك السواقي حتّى أعيد النّهر إلى مجراه الأوّل؛ قالت: فلا يُسبّون إذاً عندك! قال: ومَنْ يسبّهم! إنّما يَرفَع الرجل مَظلمته فأردّها عليه.

ورَوَى عبدُ الله بن محمد التيميّ، قال: كان بنو أميّة يُنزِلون عاتكة بنت مروان بن الحكم على أبوابِ قصورهم، وكانت جليلَة الموضِع عندهم، فلمّا وليَ عمرُ قال: لا يلي إنزالَها أحدٌ غيري، فأدخَلوها على دابّتها إلى باب قبّته، فأنزلَها، ثم طبّق لها وسادتَين، إحداهما على الأخرى، ثم أنشأ يُمازِحها - ولم يكن من شأنه ولا من شأنِها المِزاح - فقال: أما رأيت الحرس الّذين على الباب؟ فقالت: بلى، وربّما رأيتهم عند من هو خير منك! فلمّا رأى الغضب لا يتحلّل عنها ترك المِزاحَ وسألها أن تذكر حاجتَها، فقالت: إنّ قرابَتك يشكونك، ويزعمون

أنّك أخذتَ منهم خير غيرك، قال: ما منعتُهم شيئاً هوَ لهم، ولا أخذتُ منهم حقًّا يستحقّونه! قالت: إنّي أخاف أن يُهيجوا عليك يوماً عصيباً، وقال: كلّ يوم أخافه - دون يوم القيامة - فلا وقاني الله شرّه. ثم دعا بدِينار وَمجمَرة وجلد فألقى الدّينار في النّار، وجعل يَنفُخ حتى احمرّ، ثم تناوله بشيء فأخرجه فوضعه على الجلد، فنَشّ وقَتَر، فقال: يا عمة، أما تأوين لابن أخيك، من مثل هذا، فقامت فخرجت إلى بني مروانَ فقالت: تزوّجون في آل عمر بن الخطّاب، فإذا نَزَعوا إلى الشّبه جزعتم! اصبروا له.

وروى وُهَيب بن الورد، قال: اجتمع بنو مروانَ على باب عمر بن عبد العزيز، فقالوا لولدٍ له: قل لأبيك يَأذَن لنا، فإن لم يأذن فأبلغ إليه عنّا رسالة، فلم يأذن لهم، وقال: فليقولوا: فقالوا: قل له: إن من كان قبلك من الخلفاء كان يعطينا، ويَعرِف لنا مواضعنا، وإنّ أباك قد حَرَمنا ما في يديه. فَدَخل إلى أبيه فأبلغه عنهم، فقال: اخرج فقل لهم: إني أخاف إن عصيتُ ربّي عذاب يوم عظيم.

وروى سعيدُ بنُ عمّار، عن أسماء بنت عبيد، قال: دخل عنبسة بنُ سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ مَنْ كان قَبْلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عَطايا منعتنَاها، ولي عيال وضَيْعة، فأذن لي أخرج إلى ضيعتي، وما يُصلح عيالي! فقال عمر: إن أحبّكم إلينا من كفانا مَؤونته. فخرج عنبسة، فلما صار إلى الباب ناداه: أبا خالد! أبا خالد! فرجع فقال: أكثِرْ ذكرَ الموت فإن كنتَ في ضيق من العيش وسّعَه عليك، وإن كنتَ في سعةٍ من العيش ضَيَّقه عليك.

وروى عمرُ بن عليّ بن مقدّم، قال: قال ابنٌ صغيرٌ لسليمان بن عبد الملك لمزاحم: إنّ لي حاجةً إلى أمير المؤمنين عمر؛ قال: فاستأذنت له، فأدخله، فقال: يا أمير المؤمنين، لِمَ أخذْت قطيعتي؟ قال: معاذ الله أنْ آخذ قطيعةً ثبتتْ في الإسلام! قال: فهذا كتابي بها - وأخرَج كتاباً من كمه - فقرأه عمر وقال: لمن كانت هذه الأرض؟ قال: كانت للمسلمين، قال: فالمسلمون أولَى بها. قال: فاردُد عليّ كتابي؛ قال: إنّك لو لم تأتني به لم أسالْكه، فأمّا إذ جئتَني به فلستُ أدّعك تطلب به ما ليس لك بحقّ. فبكى ابن سليمان، فقال مُزاحم: يا أمير المؤمنين، ابنُ سليمانَ تَصنَع به هذا - قال: وذلك لأن سليمان عَهِد إلى عمرَ، وقدّمه على إخوته - فقال عمر: وَيْحك يا مزاحم! إنّي لأجد له من اللّوْط[1] ما أَجِد لوَلدي، ولكنّها نفسي أجادلُ عنها.

ورَوَى الأوزاعيّ، قال: قال هشام بنُ عبدِ الملك، وسعيد بن خالد بن عمر بن عثمان بن عفّان لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، استأنِف العملَ برأيك فيما تحتَ يدِك، وخلّ بين مَن سبقك وبين ما وُلّوه عليهم كان، أوْ لهم، فإنّك مستكف أن تدخل في خير ذلك وشرّه.

---

(١) اللّوْط: الرجل الخفيف المتصرف، والرّداء. القاموس المحيط، مادة (لوط).

قال: أنشدُكما الله الذي إليه تعودان، لو أنّ رجلاً هلك وترك بنينَ أصاغرَ وأكابرَ، فغرّ الأكابرُ الأصاغرُ بقوّتهم، فأكلُوا أموالهم، ثم بلغ الأصاغرُ الحُلُم فجاؤوكما بهم وبما صنعوا في أموالهم ما كنتما صانعين؟ قالا: كنا نردّ عليهم حقوقهم حتى يستوفوها. قال: فإني وجدتُ كثيراً ممن كان قَبْلي من الوُلاَة غرّ الناس بسلطانه وقوته، وآثر بأموالهم أتباعه وأهلَه ورَهطَه وخاصّته، فلمّا وليت أتوني بذلك، فلم يسعْني إلاّ الردّ على الضعيف من القوي، وعلى الدنيء من الشريف. فقالا: يوفِّق الله أمير المؤمنين.

الأصل: وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لله فِيهِ رِضاً، فإنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ؛ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وَأَمْناً لِبِلاَدِكَ، وَلٰكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ. فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ. وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ.

وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ الله شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ؛ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ.

فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلاَ تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلاَ تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِىءُ عَلَى الله إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ الله عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلاَ إِدْغَالَ وَلاَ مُدَالَسَةَ وَلا خِدَاعَ فِيهِ.

ولا تَعْقِده عَقْداً تُجَوِّزُ فيهِ الْعِلَلَ، ولا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ والتَّوْثِقَةِ، ولا يَدْعُوَنَّك ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فيهِ عَهْدُ الله إِلَى طَلَبِ انْفِساخِهِ بِغَيْرِ الحَقّ؛ فإنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وفَضْلَ عاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخافُ تَبِعَتَهُ، وأَنْ تُحِيطَ بكَ مِنَ الله طِلْبَةٌ لا تَسْتَقِيلُ فيها دُنْياكَ ولا آخِرَتَكَ.

الشرح: أمَرَه أن يقبل السّلم والصلح إذا دُعِي إليه، لما فيه من دَعَة الجنود، والراحةِ من الهمّ، والأمن للبلاد، ولكن ينبغي أن يحذر بعد الصّلح من غائلة[1] العدوّ وكيدِه، فإنه ربما

(١) الغوائل: الدَّواهي، وغائلة الحوض: ما انخرق، وأتى غولاً غائلة: أمراً داهياً منكراً. القاموس المحيط، (غول).

قارب بالصلح ليتغفّل، أي يطلب غفلتك، فخذ بالحَزم، واتّهمْ حُسْنَ ظنك، لا تثقْ ولا تسكنْ إلى حُسنِ ظنك بالعدوّ، وكن كالطائر الحَذِر.

ثمّ أمَرَه بالوفاء بالعهود؛ قال: واجعل نفسَك جُنّةً دون ما أعطيت، أي ولو ذهبتْ نفسُك فلا تَغدِر.

وقال الراونديّ: الناس مبتدأ، وأشدّ مبتدأ ثان، ومن تعظيم الوفاء خبرُه، وهذا المبتدأ الثاني مع خبره خبرُ المبتدأ الأول، ومحلّ الجملة نَصْب لأنها خبرُ ليس، ومحلّ ليس مع اسمه وخبره رَفع، لأنه خبر، فإنه وشيء اسمُ ليس، ومن فرائض الله حال، ولو تأخّرَ لكان صِفةً لشيء. والصواب أنّ «شيء» اسم ليس، وجاز ذلك وإن كان نَكرةً لاعتماده على النفي، ولأن الجارّ والمجرور قبله في موضع الحال كالصفة، فتخصّص بذلك وقَرُب من المعرفة، والناسُ: مبتدأ، وأشدّ: خبرُه، وهذه الجملة المركبة من مبتدأ وخبر في موضع رَفْع لأنّها صفةُ «شيء» وأما خبر المبتدأ الذي هو «شيء» فمحذوف، وتقديره «في الوجود» كما حذف الخبر في قولنا: لا إله إلا الله، أي في الوجود. وليس يصحّ ما قال الراوَندي من أن «أشدّ» مبتدأ ثان، و«من تعظيم الوفاء» خبرُه، لأن حرف الجرّ إذا كان خبراً لمبتدأ تعلق بمحذوف، وها هنا هو متعلّق بأشدّ نفسه، فكيف يكون خبراً عنه! وأيضاً فإنّه لا يجوز أن يكون أشدّ من تعظيم الوفاء خبراً عن الناس، كما زَعم الراونديْ، لأن ذلك كلامٌ غيرُ مفيد، ألا ترى أنّك إذا أردتَ أن تُخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذي هو «الناس» لم يَقُم من ذلك صورةٌ محصّلة تفيدك شيئاً، بل يكون كلاماً مضطرباً!

ويمكن أيضاً أن يكون «من فرائض الله» في موضع رَفع، لأنه خبر المبتدأ، وقد قدّم عليه، ويكون موضع «الناس» وما بعده رفعٌ، لأنه خبر المبتدأ الذي هو «شيء» كما قلناه أوّلاً، وليس يمتنع أيضاً أن يكون: «من فرائض الله» منصوب الموضع، لأنه حال، ويكون موضع «الناس أشدّ» رفعاً، لأنه خبر المبتدأ، الذي هو «شيء».

ثم قال له عليه السلام: وقد لزم المشركون مع شِرْكهم الوفاءَ بالعهود، وصار ذلك لهم شريعة وبينهم سنّة، فالإسلام أولى باللزوم والوفاء.

واستَوْبلوا: وجدوه وَبِيلاً، أي ثقيلاً، استوبلتُ البلدَ، أيّ استَوْخَمته واستثقلْته، ولم يوافق مِزاجَك.

ولا تخيسَنّ بعهدك، أي لا تَغدِرنّ، خاسَ فلانٌ بذمته، أي غَدَر ونكَثَ.

قوله: «ولا تختلنّ عدوّك»، أي لا تمكُرنّ به، خَتلته، أي خدعتُه.

وقوله: «أفضاه بين عباده»، جعله مشتركاً بينهم، لا يختصّ به فريق دون فريق.

قال: «ويستفيضون إلى جِواره»، أي ينتشرون في طلب حاجاتهم ومآربهم، ساكنين إلى جواره، فإلى ها هنا متعلقة بمحذوف مقدّر، كقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[1]، أي مرسلاً. قال: «فلا إدْغال»، أي لا إفساد، والدَّغَل: الفساد. ولا مُدالسة، أي لا خديعة، يقال: فلان لا يوالس ولا يُدالس، أي لا يخادع ولا يخون، وأصل الدّلس الظلمة، والتدليس في البَيْع: كتمانُ عيبِ السِّلعة عن المشتري.

ثم نهاه عن أن يَعقِد عَقْداً يمكن فيه التأويلات والعلل وطلب المخارج. ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدوّ أن ينقضه معوّلاً على تأويل خفيّ أو فحوى قول، أو يقول: إنما عنيت كذا؛ ولم أعن ظاهر اللفظة؛ فإن العقود إنما تُعقد على ما هو ظاهر في الاستعمال متداول في الاصطلاح والعُرْف لا على ما في الباطن.

وروي «انفساحه» بالحاء المهملة، أي سعته.

بعض ما جاء في الحذر من كيد العدو والنهي عن الغدر

قد جاء في الحذر من كيد العدو والنهي عن التفريط في الرأي السكون إلى ظاهر السلم أشياءُ كثيرة، وكذا في النهي عن الغدْر والنهي عن طلب تأويلات العُهود وفسخها بغير الحقّ.

فرّط عبدُ الله بن طاهر في أيام أبيه في أمرٍ أشرف فيه على العطب، ونجا بعد لأي فكتب إليه أبوه: أتاني يا بُنيّ من خبر تفريطك ما كان أكبر عندي من نعيك لو وَرَدَ، لأني لم أرجُ قط ألاّ تموت، وقد كنتُ أرجو ألاّ تفتضح بترك الحزْم والتيقظ.

وروَى ابنُ الكلبيّ أن قيسَ بن زهير لمّا قَتَل حذيفة بنَ بدر ومن معه بجَفْر الهباءة، خرج حتى لحق بالنَّمِر بنِ قاسط وقال: لا تنظُرُ في وجهي غَطَفانيّةٌ بعد اليوم؛ فقال: يا معاشرَ النَّمِر، أنا قيس بنُ زهير، غريبٌ حَرِيب[2] طريد شريد موتور، فانظروا لِي امرأةً قد أدّبها الغِنَى وأذلّها الفقر. فزوّجوه بامرأةٍ منهم، فقال لهم: إنّي لا أقيم فيكم حتى أخبرَكم بأخلاقي، أنا فخور غَيور أنِف، ولستُ أفخر حتى أبتلَى، ولا أغارُ حتّى أرَى، ولا آنَف حتى أظلَم. فرضُوا أخلاقه، فأقام فيهم حتّى وُلِد له، ثم أراد أن يتحوّل عنهم، فقال: يا معشرَ النَّمِر، إنّ لكم حقًّا عليّ في مُصاهَرتي فيكم، ومُقامي بين أظهرُكم، وإنّي موصيكم بخصالٍ آمرُكم بها، وأنهاكم عن خصالٍ: عليكم بالأناة فإنّ بها تُدرَك الحاجة، وتُنال الفُرصة، وتسويد من لا تُعابُون بتسويده، والوفاء بالعهود فإنّ به يعيشُ الناس، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة، ومنْع ما تريدون

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٢.

(٢) الحَرِيب: من أخذ ماله كله، فهو رجل حرِب أي نزل به الحَرَب. لسان العرب، مادة (حرب).

منعَه قبل الإنعام، وإجارة الجار على الدّهر، وتنفيس البيوت عن منازل الأيامى، وخَلْط الضَّيْف بالعيال. وأنهاكُم عن الغَدر، فإنه عارُ الدهر، وعن الرِّهان فإنّ به ثَكِلْتُ مالكاً أخي، وعن البَغْي فإنّ به صُرِع زهيرٌ أبي، وعن السَّرَف في الدِّماء؛ فإن قتلي أهلَ الهباءة أورثَني العار. ولا تُعطُوا في الفضول فتعجزُوا عن الحقوق، وأنكحوا الأيامى الأكْفاء فإن لم تصيبوا بهنّ الأكفاءَ فخيرُ بيوتهنّ القبور. واعلموا أني أصبحتُ ظالماً ومظلوماً، ظلمني بنو بدْر بقتلهم مالكاً، وظلمتهم بقتِلي مَنْ لا ذنب له. ثمّ رحل عنهم إلى غمار فتنصّر بها، وعَفَّ عن المآكل حتّى أكل الحَنْظَل إلى أن مات.

الأصل: إِيّاكَ والدِّمَاءَ وسَفْكَها بِغَيْرِ حِلِّها، فإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أدْعَى لِنِقْمَةٍ؛ ولا أعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ؛ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَالله سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ.

وَلاَ عذْرَ لَكَ عِنْدَ الله وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَأ، وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

الشرح: قد ذكرنا في وصيّة قيس بن زهير آنفاً النّهي عن الإسراف في الدّماء، وتلك وصيّة مبنيّة على شريعة الجاهلية مع حميتها وتهالُكها على القتل والقتال، ووصيّة أمير المؤمنين عليه السلام مبنيّةٌ على الشريعة الإسلاميّة، والنّهي عن القتل والعُدْوان الّذي لا يُسيغه الدّين، وقد ورد في الخبر المرفوع: «إنّ أوّل ما يقضي الله به يوم القيامة بين العباد أمرُ الدّماء»[1]. قال: إنّه ليس شيء ادعى إلى حلول النِّقم، وزوال النِّعَم، وانتقال الدُّول، من سَفْك الدم الحرام، وإنك إن ظننتَ أنّك تُقوّي سلطانك بذلك، فليس الأمرُ كما ظننتَ، بل تضعفه، بل تُعِدمه بالكليّة.

ثمّ عرّفه أن قتل العَمْد يوجب القَوَد وقال له: «قَوَد البَدَن» أي يجب عليك هَدْم صورتك كما هدمتَ صورة المقتول، والمراد إرهابه بهذه اللّفظة أنّها أبلَغ من أن يقول له: «فإنّ فيه القَوَد».

---

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾ (٦٨٦٤)، ومسلم في القسامة والمحاربين، باب: المجازاة بالدماء في الآخرة (١٦٧٨)، والترمذي في الديات، باب: الحكم في الدماء (١٣٩٦)، والنسائي في تحريم الدم، باب: تعظيم الدم (٣٩٩١).

ثم قال: إن قتلتَ خطأ أو شِبه عَمْدٍ كالضَّرب بالسّوط فعليك الدِّية. وقد اختلف الفقهاءُ في هذه المسألة، فقال أبو حنيفة وأصحابُه: القتل على خمسة أوجه: عمْد، وشبه عمْد، وخطأ، وما أُجرِيَ مَجرَى الخطأ، وقتْل بسبب.

فالعَمْد: ما تعمّد به ضرب الإنسان بسلاح، أو ما يجري مجرى السلاح، كالمحدّد من الخشب وليطة القعصَب، والمَرْوة المحدّدة، والنار؛ وموجِب ذلك المأثم والقَوَد إلاّ أن يعفوَ الأولياء، ولا كفّارة فيه.

وشِبْه العمد أن يتعمّد الضرب بما ليس بسلاح، ولا أجرِيَ مَجْرى السّلاح، كالحَجَر العظيم، والخَشَبة العظيمة، وموجِب ذلك المأثم والكفّارة، ولا قَوَد فيه، وفيه الدّية مغلّظة على العاقلة.

والخطأ على وجهين: خطأ في القصد، وهو أن يَرْمِيَ شخصاً يظنّه صَيْداً، فإذا هو آدميّ. وخطأ في الفِعل، وهو أن يَرمِي غَرَضاً فيصيب آدميًا، وموجب النوعين جميعاً الكفّارة والدّية على العاقلة، ولا مأثم فيه.

وما أجري مجرى الخطأ مِثل النائم يتقلّب على رَجل فيقتله، فحُكمه حكمُ الخطأ.

وأمّا القتل بسبب، فحافر البئرِ وواضعُ الحَجَر في غير مِلكه، وموجِبه إذا تَلِف فيه إنسانٌ الدِّيَة على العاقلة، ولا كفّارة فيه.

فهذا قولُ أبي حنيفة ومَن تابَعه؛ وقد خالَفه صاحباه أبو يوسف ومحمّد في شِبْه العَمْد، وقالا: إذا ضَرَبه بحجر عظيم أو خشبةٍ غليظة فهو عمْد؛ قال: وشبه العمْد أن يتعمّد ضربه بما لا يقتل به غالباً، كالعصا الصغيرة، والسّوط؛ وبهذا القول قال الشافعيّ.

وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّ المؤدّب من الوُلاء إذا تَلِفَ تحت يده إنسان في التأديب فعليه الدّية، وقال لي قوم من فُقهاء الإماميّة: إن مذهبَنا أن لا ديةَ عليه، وهو خلاف ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

الأصل: وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ؛ أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ، فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ

الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإِيَّاكَ وَالاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ.

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ، فَتَمْلِكَ الاخْتِيَارَ.

وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ. وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ ما مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ، مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ الله، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لنفسي عَلَيْكَ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

الشرح: قد اشتمل هذا الفصلُ على وصايا نحنُ شارِحوها، منها قولُه ﷺ: «إيّاك وما يُعجبك من نفسك، والثقة بما يُعجِبك منها»؛ قد ورد في الخبر: «ثلاثٌ مهلِكات: شُحٌّ مُطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرءِ بنفسه»[2]؛ وفي الخبر أيضاً: «لا وَحشةَ أشدّ من العُجب»[3]، وفي الخبر: «الناسُ لآدَم، وآدمُ من تراب، فما لابن آدم والفخر والعجب!»[4]. وفي الخبر: «الجارّ ثوبَه خُيَلاء لا يَنظُر الله إليه يومَ القيامة»[5]؛ وفي الخبر - وقد رأى أبا دُجانةَ يتبختَر: «إنَّها لمِشيةٌ يُبغضها

---

(١) سورة الصف، الآية: ٣.

(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٠)، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٢٤) والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٤٧٥).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٣)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٦٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٣٢).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري، بما معناه: ٢٦/ ١٨١.

(٥) أخرجه البخاري في اللباس، باب: من جر إزاره من غير خيلاء (٥٧٨٤)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٥)، والترمذي في اللباس، باب: ما جاء في كراهية جر الإزار (١٧٣٠).

الله إلاّ بين الصفّين»[1].

ومنها قولُه: «وحُبّ الإطراء»، نَاظرَ المأمونُ محمد بنَ القاسم النُّوشَجانيّ المتكلّم، فجعل يصدّقه ويُطرِيه ويستحسن قولَه، فقال المأمون: يا محمّد، أراك تنقادُ إلى ما تظنّ أنّه يسرّني قبل وجوب الحجّة لي عليك، وتُطرِيني بما لستُ أحبّ أن أُطرَى به، وتَستخذِي لي في المقام الّذي ينبغي أن تكون فيه مقاوِماً لي، ومحتجّاً عليّ، ولو شئت أن أقسِر الأمورَ بفَضْل بيان، وطُولِ لسان، وأغتصِب الحجّة بقوّة الخلافة، وأبّهة الرّياسة لصدِّقت وإن كنت كاذباً، وعَدلتُ وإن كنت جائراً، وصُوِّبتُ وإن كنتُ مخطئاً، لكني لا أرضى إلاّ بغَلَبة الحجّة، ودفع الشّبهة، وإنّ أنقصَ الملوك عَقْلاً، وأسخَفَهم رأياً، مَنْ رضيَ بقولهم: صَدق الأمير.

وأثنى رجلٌ على رجل، فقال: الحمدُ لله الذي سترني عنك. وكان بعضُ الصّالحين يقول إذا أطراه إنسان: ليسألك الله عن حُسن ظنّك.

ومنها قولُه: «وإيّاك والمَنّ»، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[2]. وكان يقال: المَنّ محبّة للنفس، مَفسَدة للصّنع.

ومنها نهيُه إياه عن التزيّد في فعله، قال عليه السلام: إنّه يَذهَب بنُور الحقّ، وذلك لأنّه محض الكذب، مِثل أن يسديَ ثلاثة أجزاء من الجميل فيدّعي في المجالس والمحافِل أنّه أسدَى عشرةً، وإذا خالط الحقُّ الكذبَ أذهبَ نورَه.

ومنها نهيُه إيّاه عن خُلف الوَعد، قد مدح الله نبيًّا من الأنبياء وهو إسماعيل بنُ إبراهيمَ عليه السلام بصِدْق الوعد. وكان يقال: وعد الكريم نَقْد وتَعْجيل، ووعدُ اللئيم مَطْل وتَعْطيل. وكتب بعض الكتّاب: وحقّ لمن أزهرَ بقولٍ، أن يُثمِر بفِعْل. وقال أبو مقاتل الضَّرير: قلتُ لأعرابيّ: قد أكثر الناسُ في المواعيد؛ فما قولُك فيها؟ فقال: بئس الشيءُ! الوعدَ مشغلة للقلب الفارغ، مَتعَبةٌ للبدن الخافض، خيرُه غائب، وشرّه حاضر. وفي الحديث المرفوع: «عِدَة المؤمن كأخذٍ باليد»[3]، فأما أميرُ المؤمنين عليه السلام فقال: «إنّه يوجب المقْت»، واستَشهدَ عليه بالآية. والمَقْت: البُغض.

ومنها نهيُه عن العَجَلة؛ وكان يقال: أصاب متثبّت أو كاد، وأخطأ عَجِل أو كاد. وفي المَثَل: «ربَّ عَجلةٍ تَهَب رَيْثاً»[4]، وذمّها الله تعالى فقال: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾[5].

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٩) وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٥٠٨).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤١١٢)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٧٤).
(٤) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١٠/ ٣٠٤، أخرجه الجوهري في الصحاح: ٤/ ١٥٤١.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

ومنها نهيُه عن التّساقط في الشيء الممكن عند حضوره، وهذا عبارةٌ عن النهي عن الحِرْص والجَشَع، قال الشَّنْفَرَى:

وإنْ مُدّت الأيدِي إلى الزادِ لم أكنْ ... بأعجَلِهم إذْ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ

ومنها نهيه عن اللّجاجة في الحاجة إذا تعذّرت؛ كان يقال: من لاجّ الله فقد جعَلَه خصماً، ومن كان الله خصمَه فهو مخصوم، قال الغزّيّ:

دعْها سماويّة تجري على قَدَرٍ ... لا تُفْسِدَنْها برأيٍ منك مَعكوسِ

ومنها نهيهُ له عن الوَهْن فيها إذا استوضحت، أي وَضَحتْ وانكشفتْ، ويُروَى: «واستُوضِحَتْ» فِعلُ ما لم يسمَّ فاعله، والوَهْن فيها إهمالُها وتركُ انتهاز الفرصة فيها، قال الشاعر:

فإذا أمكنتْ فبادرْ إليها ... حَذَراً من تَعذُّر الإمكانِ

ومنها نهيُه عن الاستئثار، وهذا هو الخُلُق النبويّ، غنِم رسول الله ﷺ غنائمَ خَيْبر، وكانت مِلءَ الأرض نعماً، فلمّا ركب راحلتَه وسار تَبِعه الناس يطلبون الغنائم وقَسْمَها، وهو ساكتٌ لا يكلّمهم، وقد أكثروا عليه إلحاحاً وسؤالاً، فمرّ بشجرة فخطفت رداءه، فالتفت فقال: ردّوا عليّ ردائي، فلو ملكت بعدد رَمْل تهامةَ مَغنَماً لقسمتُه بينكم عن آخره ثمّ لا تجدونني بخيلاً ولا جباناً، ونَزلَ وقَسَم ذلك المالَ عن آخره عليهم كلّه، لم يأخذ لنفسه منه وبرَةً.

ومنها نهيُه له عن التّغابي، وصورة ذلك أنّ الأمير يُومَى إليه أن فلاناً من خاصته يَفعل كذا، ويَفعل كذا من الأمور المنكرة ويرتكبُها سرًّا، فيتغابَى عنه ويَتغافل، نهاه عليه السلام عن ذلك وقال: إنَّك مأخوذٌ منك لغيرك، أي معاقَب؛ تقول: اللّهمّ خذ لي من فلان بحقّي، أي اللهم انتقم لي منه.

ومنها نهيُه إيّاه عن الغضب، وعن الحُكْم بما تقتضيه قوّته الغضبيّة حتّى يسكن غضبُه، قد جاء في الخبر المرفوع: «لا يقضي القاضي وهو غَضْبان»[1]، فإذا كان قد نُهِيَ أن يقضيَ القاضي وهو غَضْبان على غير صاحبِ الخصومة، فبالأوْلى أن يُنهَى الأميرُ عن أن يَسطوَ على إنسان وهو غَضبانُ عليه.

وكان لكسرى أنو شَرْوانَ صاحبٌ قد رتّبه ونَصّبه لهذا المعنى يقف على رأس المَلِك يومَ جلوسه، فإذا غَضِب على إنسان وأمَر به قَرَع سلسلة تاجِه بقضيب في يده وقال له: إنّما أنت بَشَر، فارحم مَن في الأرض يَرْحَمْك مَنْ في السماء.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «الأحكام» باب: لا يحكم الحاكم وهو غضبان (٢٣١٦). واللفظ له. والبخاري نحوه في «الأحكام»، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان (٧١٥٨).

الأصل: ومن هذا العهد وهو آخره: وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ، مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ، من حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ؛ وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ؛ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

الشرح: رُوِيَ: «كلّ رَغِيبة»، والرغيبةُ ما يُرغَب فيه؛ فأمّا الرَّغْبة فمصدَرُ رَغِب في كذا، كأنّه قال: القادرُ على إعطاء كلّ سؤال، أي إعطاء كلّ سائل ما سأله.

ومعنى قوله: «من الإقامة على العُذْر»، أي أسأل الله أن يوفقّني للإقامة على الاجتهاد، وبَذْل الوُسْع في الطاعة، وذلك لأنه إذا بذل جهدَه فقد أعذَر، ثمّ فسّر اجتهاده في ذلك في رضا الخَلْق، ولم يفسّر اجتهاده في رضا الخالق، لأنه معلوم؛ فقال: هو حُسنُ الثّناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد.

فإن قلت: فقولُه «وتمام النّعمة» على ماذا تَعطفه؟

قلت: هو معطوفٌ على «ما» من قوله «لما فيه»، كأنّه قال: أسأل الله توفيقي لذا ولتمام النّعمة، أي ولتمامِ نعمته عليّ، وتضاعف كرامته لديّ، وتوفيقه لهما هو توفيقه للأعمال الصالحة التي يستوجبهما بها.

بعض ما ورد من وصايا العرب

وينبغي أن يذكر في هذا الموضع وَصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصَوْا بها أولادَهم ورَهْطَهم، فيها آدابٌ حسان، وكلام فصيح، وهي مناسبة لعهدِ أميرِ المؤمنين عليه السلام هذا، ووصاياه المودعة فيه، وإن كان كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام أجلّ وأعلى من أن يُناسِبَه كلام، لأنّه قَبَس من نور الكلام الإلٰهيّ، وفَرْع من دَوْحة المَنطِق النّبويّ.

رَوى ابنُ الكلبيّ قال: لمّا حضرت الوفاةُ أوسَ بنَ حارثة أخا الخَزرج، لم يكن له ولدٌ غير مالك بن الأوس، وكان لأخيه الخزرج خمسة، قيل له: كنّا نأمرك بأن تتزوّج في شبابك فلم تَفعل حتّى حضَرَك الموت، ولا ولدَ لك إلاّ مالِكٌ! فقال: لم يهلِكْ هالكٌ تَرَك مِثْل مالك، وإن كان الخزرجُ ذا عَدَد، وليس لمالك ولد، فلعلّ الذي استخرج العَذْق من الجَرِيمة[1]، والنارَ من

---

(١) العَذْق: النخلة، والجَرِيمة: النواة، والمعنى استخرج النخلة من النواة. لسان العرب، مادة (عذق).

الوثيمة أن يجعل لمالكٍ نَسْلاً، ورجالاً بُسْلاً، وكلّنا إلى الموت. يا مالك، المنيّة ولا الدنيّة، والعتاب قبل العقاب، والتجلّد لا التبلّد، واعلم أن القبر خيرٌ من الفقر، ومَنْ لم يُعطِ قاعداً حُرم قائماً، وشرّ الشرب الاشتفاف وشرّ الطعم الاقتفاف، وذهاب البَصر، خيرٌ من كثير من النّظر، ومن كرم الكريم الدّفع عن الحريم، ومن قَلّ ذَلّ، وخيرُ الغِنَى القناعة، وشرّ الفقر الخُضوعُ. الدهر صَرْفان: صَرْف رخاء، وصرف بلاء؛ واليوم يومان: يوم لَك ويومٌ عليك، فإذا كان لك فلا تَبطَر، وإذا كان عليك فاصطبر، وكلاهما سينْحَسِر وكيف بالسلامة، لمن ليست له إقامة، وحيّاك ربّك.

وأوصى الحارث بنُ كعب بنيه فقال: يا بنيّ، قد أتت عليّ مائةٌ وستّون سنةً ما صافحتْ يميني يمينَ غادر، ولا قَنعتُ لنفسي بخلّة فاجر، ولا صبوتُ بابنة عمّ ولا كَنّة، ولا بحتُ لصديق بسرّ ولا طرحتُ عن مُومِسَة قناعاً، ولا بقِيَ على دين عيسى ابن مريمَ - وقد رُوِي على دينِ شُعيب - من العرب غيري وغير تميم بن مرّ بن أسد بن خزيمة، فموتوا على شريعتي، واحفظوا عليّ وصيّتي، وإلهكم فاتّقوا، يَكفِكم ما أهمّكم، ويصلح لكم حالكم، وإيّاكم ومعصيته، فيحلّ بكم الدّمار، ويُوحِش منكم الديّار. كونوا جميعاً، ولا تفرّقوا فتكونوا شِيَعاً، وبُزّوا قبل أن تُبَزّوا، فموت في عزّ، خيرٌ من حياة في ذُلّ وعجز، وكلّ ما هو كائن كائن، وكلّ جمع إلى تباين، والدهر صَرْفان: صرْف بلاء، وصرف رخاء، واليوم يومان: يومُ حَبرة، ويوم عَبْرة، والناس رجلان: رجلٌ لك، ورجلٌ عليك. زوّجوا النساء الأكفاء، وإلاّ فانتظروا بهنّ القضاء، وليكن أطيب طيبهنّ الماء، وإيّاكم والوَرْهاء[1]، فإنّها أدوأ الدّاء، وإنّ ولدها إلى أفن يكون. لا راحةَ لقاطع القرابة. وإذا اختلف القومُ أمكنوا عدوّهم، وآفة العدد اختلاف الكلمة، والتفضّل بالحسنة يَقِي السّيئة، والمكافأة بالسيّئة دخول فيها، وعمل السوء يُزيلُ النّعماء، وقطيعة الرّحم تُورِث الهمّ، وانتهاك الحُرمة يُزيل النعمة، وعقوق الوالدَين يُعقِب النّكَد، ويُخرب البلد، ويمَحق العدد، والإسراف في النصيحة، هو الفضيحة، والحقد منعُ الرِّفْد، ولزوم الخَطيئة يُعقِب البلية، وسوء الدّعة يقَطّع أسبابَ المنفعة، والضغائن تدعو إلى التباين؛ يا بَنيّ إنّي قد أكلتُ مع أقوام وشرِبتُ، فذَهبوا وغبرتُ، وكأنّي بهم قد لحقتُ، ثم قال:

أكــلــتُ شــبــابــي فــأفــنــيــتُــهُ ... وأبــلــيــتُ بــعــد دُهــورٍ دُهــورَا
ثــلاثــةَ أهــلِــيــن صــاحــبــتُــهــمْ ... فــبــادُوا وأصــبــحــتُ شــيــخــاً كــبــيــرَا
قــلــيــلَ الــطــعــام عــســيــرَ الــقــيــا ... م قــد تــرك الــدهــرُ خَــطــوِي قــصــيــرَا
أبــيــتُ أراعِــي نــجــومَ الــســمــاءِ ... أقــلّــب أمــري بُــطــونــا ظُــهــورَا

---

(١) المرأة الوَرْهاء: الخَرْقاء بالعَمل، والوَرَهُ: الحُمق في كل عمل. لسان العرب، مادة (وره).

وصّى أكثمُ بنُ صَيْفيّ بنيه ورهطَه فقال: يا بَني تميم، لا يفوتنّكم وَعْظي، إن فاتكم الدهر بنفسي، إنّ بين حَيْزومي وصدري لكلاماً لا أجدُ له مواقعَ إلاّ أسماعَكم ولا مقارّ إلاّ قلوبكم، فتلقوْه بأسماع مُصْغية، وقلوب دواعية، تحْمَدوا مَغَبَّته: الهوى يَقْظان، والعقل راقد، والشّهَوات مطلقة، والحزم معقول، والنفسُ مهملة، والرويّة مقيّدة، ومن جِهَة التّواني وترك الرويّة يتلف الحَزْم، ولن يَعدَم المُشاور مُرْشداً، والمستبدّ برأيه موقوف على مداحِض الزَّلَل، ومن سَمّع سُمّع به، ومصارعُ الرجال تحتَ بُروق الطمع، ولو اعتُبرتْ مواقِعُ المحن ما وُجدتْ إلاّ في مَقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق الرّشاد، ومَن سلك الجَدَد أَمِن العثار، ولن يَعْدم الحسودُ أن يُتعب قلبه، ويُشغل فكرَه، ويُورث غَيظه، ولا تجاوز مضرّته نفسه. يا بني تميم، الصبرُ على جرع الحلم أعذَب من جنا ثمر الندامة، ومن جَعل عِرْضه دون ماله استهدَفَ للذّمّ، وكَلْم اللسان أنكَى من كَلْم السّنان، والكلمة مرهونةٌ ما لم تَنجُم من الفم؛ فإذا نجمتْ مزجت، فهي أسدٌ محّرب، أو نار تَلَهَّب، ورأي الناصح اللبيب دليلٌ لا يجوز، ونفاذُ الرأي في الحرب، أجدَى من الطّعن والضرب.

وأوصى يزيدُ بنُ المهلّب ابنه مَخْلَداً حين استخلفه على جُرْجانَ، فقال له: يا بُنَيّ، قد استخلفتُك على هذه البلاد، فانظر هذا الحيَّ من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر:

إذا كنتَ مرتادَ الرّجالِ لنفعِهمْ ... فَرِشْ واصطَنع عندَ الّذين بهم تَرْمِي

وانظر هذا الحيّ من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك، فاقض حقوقهم، وانظر هذا الحيّ من تميم فأمطرهم ولا تُزْهَ لهم، ولا تُدنِهم فيطمعوا، ولا تُقصِهم فيقطعوا، وانظر هذا الحيّ من قيس فإنهم أكفاءُ قومِك في الجاهلية، ومناصِفوهم المآثِر في الإسلام، ورضاهم منك البُشْر. يا بنيّ، إنّ لأبيك صنائع فلا تفْسِدها، فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يهدِم ما بنى أبوه، وإياك والدّماءَ فإنه لا تقيّةَ معها، وإيّاكَ وشَتْم الأعراض فإنّ الحرّ لا يرضيه عن عِرضه عوض، وإيّاك وضربَ الأبْشار فإنه عارٌ باقٍ، ووِتْر مطلوب، واستعمل على النّجدة والفضل دونَ الهوى، ولا تعزل إلاّ عن عَجْز أو خيانة. ولا يمنعك من اصطناع الرّجل أن يكون غيرُك قد سبقك إليه، فإنّك إنما تصطنع الرجالَ لفَضْلها. وليكن صنيعُك عند مَنْ يكافئك عنه العشائر. احمل الناسَ على أحسن أدبكَ يكفُوك أنفسهم. وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه، وليكن رسولُك فيما بيني وبينك مَنْ يفقه عنّي وعنك؛ فإنّ كتابَ الرجل موضعُ عقله، ورسوله موضعُ سِرّه. وأستودعُك الله، فلا بد للمودّع أن يسكت، وللمشيِّع أن يرْجع. وما عفّ من المنطق وقلّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك.

وأوصى قيس بنُ عاصم المِنقَريّ بنيه، فقال: يا بنيّ، خذوا عني فلا أحد أنصَحُ لكم منّي. إذا دفنتموني فانصرفوا إلى رحالكم، فسوِّدوا أكبرَكم، فإنّ القوم إذا سوَّدوا أكبرهم خلفوا أباهم، وإذا سوّدوا أصغرهم أزري ذلك بهم في أكفائهم. وإيّاكم ومعصية الله وقطيعة الرحِم، وتمسكوا بطاعة أمرائكم فإنهم من رفعوا ارتفع، ومن وَضَعوا اتّضَع. وعليكم بهذا المال فأصلحوه، فإنه منبَهة للكريم، وجُنّة لعِرْض اللئيم. وإيّاكم والمسألة فإنها أخر كسب الرجل، وإن أحداً لم يسأل إلاّ ترك الكسب، وإيّاكم والنِّياحة، فإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ ينهَى عنها، وادفنوني في ثيابي التي كنتُ أصلّي فيها وأصوم، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفني فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهلية والإسلام، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بي عاراً. وخذوا عنّي ثلاثَ خِصال: إيّاكم وكلّ عِرْق لئيم أن تُلابِسوه فإنه إن يسرُرْكم اليوم يسؤكم غداً، واكظِموا الغيظ واحذَروا بنيَّ أعداءَ آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم، ثم قال:

أحيا الضغائنَ آباءٌ لنا سَلَفوا ... فلَنْ تبيدَ وللآباء أبناءُ

قال ابن الكلبيّ: فيَحكي الناسُ هذا البيت سابقاً للزبير، وما هو إلاّ لقيس بن عاصم.

وأوصى عمرو بن كلثوم التَّغْلَبيّ [بنيه] فقال: يا بَنيَّ؛ إنّي قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحدٌ من آبائي وأجدادي، ولا بدّ من أمر مقتبِل، وأن ينزل بي ما نزل بالآباء والأجداد والأمهات والأولاد، فاحفظوا عني ما أوصيكم به. إنّي والله ما عيّرت رجلاً قطّ أمراً إلا عيّرني مثله؛ إنْ حقًّا فحق، وإنْ باطلاً فباطل، ومن سَبّ سُبّ، فكُفُّوا عن الشتم فإنه أسلم لأغراضكم. وصلوا أرحامكم تعمُرْ دارُكم، وأكرموا جاركم بحسن ثنائكم، وزوّجوا بنات العمّ بني العمّ فإن تعدّيتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ [عن] الأكفاء. وأبعدوا بيوتَ النساء من بيوت الرجال، فإنه أغضّ للبصر، وأعفُ للذّكر؛ ومتى كانت المعاينة واللّقاء، ففي ذلك داءٌ من الأدواء، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغارُ لنفسه، وقَلّ مَن انتهك حرمةً لغيره إلا انتُهكت حرمتهُ. وامنعوا القريب من ظُلْم الغريب، فإنك تُذِلُّ على قريبك، ولا يَجمُل بك ذلّ غريبك، وإذا تنازعتم في الدماء فلا يكن حقّكم الكِفاء، فربّ رجل خيرٌ من ألف، ووُدّ خير من خلف، وإذا حُدّثتم فَعُوا، وإذا حَدّثتم فأوْجزوا، فإنّ مع الأكثار يكون الإهذار، وموتٌ عاجل خيرٌ من ضَنًى آجل، وما بكيتُ من زمان إلاّ دهاني بعده زمان، وربما شَجَاني من لم يكن أمرُه عَناني، وما عجبتُ من أحدوثة إلاّ رأيت بعدها أعجوبة. واعلموا أن أشجع القوم العَطوف، وخيرُ الموت تحت ظِلال السيوف، ولا خير فيمن لا رويّة له عند الغضب، ولا فيمن إذا عُوتب لم يُعْتب، ومن الناس من لا يرجَى خيره، ولا يخاف شرّه، فبكوءه خير من درّه، وعقوقه خيرٌ من برّه، ولا تُبرحوا في حبكم فإن من أبرَح في حبٍّ آلَ ذلك إلى قبيح بغض، وكم قد زارني إنسان وزُرْته، فانقلب

الدّهر بنا فقبَرْته، واعلموا أنّ الحلم سليم، وأن السفيه كليم، إني لم أمت ولكن هَرِمت، ودخلتني ذِلّة فسكتّ، وضعف قلبي فأهترت، سلّمكم ربكم وحيّاكم!

ومن كتاب أَرْدَشير بن بَابَك إلى بنيه والملوك من بعده: رشاد الوالي خيرٌ للرعيّة من خصب الزمان، الملك والدِّين توأمان لا قوام لأحدهما إلاّ بصاحبه، فالدِّين أُسُّ المُلْك وعماده، ثم صار المَلِكُ حارسَ الدِّين، فلا بدّ للمُلك من أسّه، ولا بدّ للدّين من حارسه، فأمّا ما لا حارس له فضائع، وما لا أسَّ له فمهدوم، إنّ رأسَ ما أخاف عليكم مبادرة السّفلة إيّاكم إلى دراسة الدّين وتأويله والتفقّه فيه، فتحملكم الثّقة بقوّة الملك على التهاون بهم، فتحدث في الدّين رياساتٌ منتشِرات سرًّا فيمن قد وترتم وجَفَوْتم، وحرمتم وأخفتم، وصغّرتم من سِفْلة النّاس والرعيّة وحَشْو العامّة، ثمّ لا تنشَب تلك الرّياسات أن تحدث خُرْقاً في المُلك ووَهْناً في الدولة. واعلموا أنّ سلطانكم إنّما هو على أجساد الرعيّة لا على قلوبها، وإن غلبتم النّاسَ على ما في أيديهم فلن تغلبوهم على ما في عقولهم وآرائهم ومكايدهم. واعلموا أن العاقل المحروم سالٌّ عليكم لسانه، وهو أقطع سَيْفيه، وإن أشدّ ما يضربكم من لسانه ما صرف الحيلة فيه إلى الدّين، فكان للدنيا يحتج، وللدين فيما يظهر يتعصّب، فيكون للدين بكاؤه، وإليه دعاؤه، ثمّ هو أوحد للتّابعين والمصدّقين والمناصحين والمؤازرين، لأنّ تعصّب الناس موكّل بالملوك، ورحمتهم ومحبّتهم موكّلة بالضّعفاء المغلوبين، فاحذروا هذا المعنى كل الحذر.

واعلموا أنّه ليس ينبغي للمَلِك أن يعرّف للعبّاد والنسّاك بأن يكونوا أوْلَى بالدّين منه، ولا أحْدَبَ عليه ولا أغضَبَ له. ولا ينبغي له أن يخلِيَ النّسّاك والعبّاد من الأمر والنهي في نُسُكهم ودينهم، فإنّ خروج النسّاك وغيرهم من الأمر والنهي عيبٌ على الملوك وعلى المملكة، وثُلْمة بيّنة الضّرر على الملك وعلى مَنْ بعده.

واعلموا أنّه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوك كان الملكِ منهم يتعهّدِ الحماية بالتفتيش والجماعة بالتفضيل، والفراغ بالإشغال، كتعهّده جَسَده بقصّ فضول الشعر والظّفر وغَسْل الدّرن والغمر ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن، وقد كان من أولئك الملوك مَنْ صحّة ملكه أحبّ إليه من صحّة جسده، فتتابعتْ تلك الأملاك بذلك كأنّهم ملك واحد، وكأنّ أرواحَهم روحٌ واحدة، يمكّن أوّلهم لآخرهم، ويصدّق آخرهم أوّلهم، يجتمع أبناءُ أسلافهم، ومواريث آرائهم، وثمرات عقولهم عند الباقي منهم بعدهم، وكأنّهم جلوسٌ معه يحدّثونه ويشاورونه، حتّى كأنّ على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرّومي على ما غلب عليه من مُلْكه. وكان إفسادُه أمرنا، وتفرقتُه جماعتَنا، وتخريبُه عمران مملكتنا أبلغَ له فيما أراد من سَفْك دمائنا، فلمّا أذن الله عز وجلّ في جمع مملكتنا، وإعادة أمرنا، كان من بعثه إيانا ما كان. وبالاعتبار يُتقَّى العثار، والتجارب الماضية دستورٌ يُرجَع إليه من الحوادث الآتية.

واعلموا أنّ طباع الملوك على غير طباع الرعيّة والسوقة: فإن الملك يطيف به العزّ، والأمن والسرور والقُدْرة على ما يريد، والأنَفَة والْجرْأة والعبث والبَطر، وكلّما ازداد في العُمر تنفُساً، وفي المُلْك سلامةً ازداد من هذه الطبائع والأخلاق حتّى يُسلمه ذلك إلى سُكْر السّلطان الّذي هو أشدّ من سكر الشراب، فينسى النكبات والعَثَرات، والغِير والدوائر وفحش تسلُّط الإيام، ولؤم غلبة الدهر، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول. وعند حُسن الظنّ بالأيّام تحدثُ الغِيَر، وتزول النِّعَم؛ وقد كان من أسلافنا وقُدَماءِ مُلوكِنا مَنْ يذكُرهُ عزّه الذلّ، وأمْنُه الخوف، وسرورُه الكآبة، وقدرتُه المعْجَزَة، وذلك هو الرّجل الكامل قد جمع بهجة الملوك، وفكرة السُّوقة، ولا كمال إلاّ في جمعها.

واعلموا أنّكم ستُبلوْن على الملك بالأزواج والأولاد والقُرباء والوُزَراء والأخدان، والأنصار والأعوان والمتقرّبين والنُّدماء والمُضحِكين، وكلّ هؤلاء - إلا قليلاً - أن يأخذ لنفسه أحبُّ إليه من أن يعطي منها عمله، وإنما عمله سوقٌ ليومه، وذخيرةٌ لغده، فنصيحتُه للملوك فضلُ نصيحته لنفسه وغاية الصّلاح عنده صلاحُ نفسه، وغاية الفساد عنده فسادُها؛ يقيم للسلطان سوق المودّة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع، إذا استوحش الملك من ثقاته أطبقتْ عليه ظُلم الجهالة. أخوَف ما يكون العامّة آمن ما يكون الوزراء، وآمن ما يكون العامة أخوف ما يكون الوزراء.

واعلموا أن كثيراً من وزراء الملوك من يُحاول استبقاء دولته وأيّامه بإيقاع الاضطراب، والخَبْط في أطراف مملكة الملك، ليحتاج الملك إلى رأيه وتدبيره؛ فإذا عرفتم هذا من وزير من وزرائكم فاعزلوه فإنَّه يُدخِل الوَهن والنقْص على الملك والرعيّة لصلاح حال نفسه، ولا تقوم نفسُه بهذه النفوس كلّها.

واعلموا أنّ بدء ذهاب الدّولة ينشأ من قِبَل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة ولا أعمالٍ معلومة، فإذا نشأ الفراغ تولّد منه النّظر في الأمور، والفكر في الفروع والأصول. فإذا نظروا في ذلك نظروا فيه بطبائعَ مختلفةٍ، فتختلف بهم المذاهب، ويتولد من اختلاف مذاهبهم تعاديهم وتضاغنهم وهم مع اختلافهم هذا متّفقون ومجتمعون على بغض الملوك، فكلّ صِنْف منهم إنّما يجري إلى فَجيعةِ الملك بملكه، ولكنّهم لا يجدون سُلّماً إلى ذلك أوثقَ من الدّين والناموس، ثمّ يتولّد مِن تَعادِيهم أن المَلِك لا يستطيع جمعَهم على هوًى واحد، فإن انفرد باختصاص بعضِهم صارَ عدوَّ بقيّتهم، ولي طباع العامة استثقالُ الوُلاة ومَلالُهم، والنَّفاسة عليهم، والحَسد لهم، وفي الرعيّة المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود، ويتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يَجبُن المَلِك عن الإقدام عليهم، فإنّ في إقدام الملك على الرعيّة كلّها كافّة تغريراً بمُلكه. ويتولّد مِن جُبْن المَلِك عن الرعيّة استعجالهم عليه، وهم أقوى عدوّ له وأخلقُه بالظَّفَر، لأنّه

حاضر مع الملك في دار ملكه، فمن أفضى إليه الملكُ بعدي فلا يكونَنّ بإصلاح جسده أشدّ اهتماماً منه بهذه الحال، ولا تكونَنّ لشيء من الأشياء أكره وأنكَرُ لرأسٍ صار ذَنَباً، وذَنَبٍ صار رأساً، ويد مشغولة صارت فارغةً، أو غنيٍّ صارَ فقيراً، أو عامل مصروف، أو أمير معزول.

واعلموا أن سياسة الملك وحراسته ألاّ يكون ابن الكاتب إلاّ كاتباً، وابن الجنديّ إلاّ جنديًا، وابن التاجر إلاّ تاجراً، وهكذا في جميع الطبقات، فإنّه يتولّد من تنقّل النّاسِ عن حالاتهم أن يلتمس كلّ امرىءٍ منهم فوقَ مرتبته، فإذا انتقل أو شَكَ أن يرى شيئاً أرفَع مما انتقل إليه، فيَحسُدَ أو ينافسَ، وفي ذلك من الضرر المتولّد ما لا خفاءَ به، فإنْ عجز مَلكٌ منكم عن إصلاح رعيّته كما أوصَيْناه فلا يكون للفيمص القَمِل أسرَع خلعاً منه لِمَا لبسَ من قميص ذلك المُلْك.

واعلموا أنه ليس مَلكٌ إلاّ وهو كثير الذّكْر لمن يلِي الأمرَ بعده، ومن فساد أمر الملك نشرُ ذِكره ولاةَ العهود، فإنّ في ذلك ضُروباً من الضَرر، وأنّ ذلك دخولُ عداوةٍ بين الملك ووليّ عهدِه، لأنّه تطمح عينُه إلى الملك، ويصير له أحبابٌ وأخدان يمنّونه ذلك، ويستبطئون موتَ الملك. ثم إنّ الملك يستوحش منه، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدِهما، ولكن لينظرْ الوالي منكم لله تعالى ثم لنفسه ثم للرعيّة، ولينتخب وليًّا للعهد من بعده ولا يُعلمه ذلك، ولا أحد من الخَلْق قريباً كان منه أو بعيداً. ثم يكتب اسمَه في أربع صحائف، ويَختمها بخاتمه، ويضَعُها عند أربعة نفرٍ من أعيان أهل المملكة، ثمّ لا يكون منه في سرّه وعلانيته أمْرٌ يستدلّ به على وليّ عهده من هؤلاء في إدناءٍ وتقريب يعرَف به، ولا في إقصاء وإعراضٍ يُستَراب له. وليتّق ذلك في اللّحظة والكَلِمة، فإذا هَلَك الملك جُمعتْ تلك الصحائفُ إلى النسخة التي تكون في خِزانة الملِك، فتفضّ جميعاً، ثم ينوّه حينئذٍ باسم ذلك الرجل، فيلقي الملك إذا لقيه بحَداثة عَهْده بحال السّوقة، ويلبسه إذا لبسه ببصر السوقة وسمْعِها، فإنّ في معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سُكْراً تُحدِثه عنده ولايةُ العهد، ثم يلقاه الملك فيزيده سُكْراً إلى سكره، فيَعمَى ويَصَمّ، هذا مع ما لا بدّ أن يلقاه أيّام ولاية العَهْد من حِيَل العُتاة، وبغي الكَذّابين، وترقيَةَ النَّمامين، وإيغار صدره، وإفسادِ قلبه على كثير من رعيّته، وخواصّ دولته، وليس ذلك بمحمودٍ ولا صالح.

واعلموا أنّه ليس للمَلِك أن يحُلّف، لأنه لا يقدر أحدٌ استكراهه، وليس له أن يغضب لأنّه قادر، والغضب لقاح الشرّ والندامة، وليس له أن يَعبث ويَلعب، لأن اللعِب والعَبَث من عمل الفَرَاغ، وليس له أن يفرَغ لأنّ الفَرَاغ من أمرِ السّوقة، وليس للمَلك أن يَحْسُد أحَداً إلاّ على حُسْن التدبير، وليس له أن يَخافَ لأنه لا يدَ فوقَ يدِه.

واعلموا أنّكم لن تقدِروا على أن تَختِموا أفواهَ الناس من الطّعن والإزراء عليكم، ولا قدرةَ لكم على أن تَجعَلوا القبيحَ من أفعالِكم حَسَناً؛ فاجتهدوا في أن تَحسُن أفعالُكم كلّها، وألاّ تجعلوا للعامّة إلى الطّعن عليكم سبيلاً.

واعلموا أنّ لِباسَ المَلِك ومَطعمه وَمَشربه مقاربٌ للباس السّوقة ومطعمِهم، وَليس فضل المَلِك على السُّوقة إلاّ بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم، فإنّ الملك إذا شاء أحسنَ، وليس كذلك السُّوقة.

واعلموا أنّ لكلّ ملك بطانةً، ولكلّ رجل من بِطانتِه بطانة، ثمّ إن لكل امرىءٍ من بطانة البطانة بطانة، حتّى يجتمعَ من ذلك أهلُ الممْلكة، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصّواب فيهم، أقامَ كلّ امرىءٍ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصّلاح عامّة الرعيّة.

احذروا باباً واحداً طالما أمِنْتُه فَضرَّني، وحَذِرته فنَفَعني. احذروا إفشاءَ السرّ بحضْرة الصِّغار من أهليكم وخَدمِكم، فإنّه ليس يَصغُر واحدٌ منهم عن حَمْل ذلك السرّ كاملاً لا يترك منه شيئاً حتى يضعَه حيثُ تكرهون إما سقطاً أو غشّاً.

واعلموا أنّ في الرعيّة صِنفاً أتوا الملك من قِبَل النصّائح له، والتمسوا إصلاحَ مَنازلهم بإفساد مَنازِل الناس، فأولئك أعداءُ الناس وأعداء الملوك، ومَنْ عَادى الملوكَ والنَّاسَ كلّهم فقد عادى نفسَه.

واعلموا أنّ الدهر حاملُكم على طبقات؛ فمنها حال السّخاء حتّى يدنوَ أحدُكم من السّرف، ومنها حال التبذير حتى يدنوَ من البُخْل، ومنها حالُ الأناةِ حتّى يدنوَ من البَلادة، ومنها حالُ انتهاز الفُرْصة حتّى يدنوَ من الخِفّة، ومنها حالُ الطّلاقة في اللسان حتّى يدنوَ من الهَذَر، ومنها حالُ الأخذ بحكمة الصَّمْت حتىّ يدنوَ من العيّ، فالمِلك منكم جديرٌ أن يبلغ من كلّ طبقة في محاسنها حَدّها، فإذا وقف عليه ألجم نفسَه عمّا وراءَها.

واعلموا أن ابن المِلك وأخاه وابنَ عمّه يقول: كدت أن أكون مَلِكاً، وبالحرِيّ ألاّ أموت حتّى أكون مَلِكاً، فإذا قال ذلك قال ما لا يسرّ الملك، وإن كتمه فالدّاء في كلّ مكتوم، وإذا تمنّى ذلك جعل الفساد سُلَّماً إلى الصلاح، ولم يكن الفساد سُلّماً إلى صلاح قطّ. وقد رسمتُ لكم في ذلك مِثالاً، اجعلوا المُلْك لا ينبغي إلاّ لأبناء الملوك من بنات عمومتهم، ولا يصلح من أولاد بنات العمّ إلا كامل غير سخيف العقل، ولا عازبُ الرأي، ولا ناقص الجوارح، ولا مطعونٌ عليه في الدّين، فإنكم إذا فعلتم ذلك قلّ طلاّب الملك، وإذا قلّ طلاّبُه استراح كلّ امرىء إلى ما يليه، ونَزعَ إلى حَدٍّ يَلِيه، وعرف حاله، ورضي معيشته، واستطاب زمانه.

فقد ذكرنا وصَايا قوم من العرب، ووصايا أكثر ملوك الفُرْس وأعظمهم حكمةً لتُضَمّ إلى وصايا أميرِ المؤمنين فيحصلَ منها وصايا الدّين والدنيا، فإنَّ وصايا أميرِ المؤمنين عليه السلام، الدِّينُ عليها أغلب، ووصايا هؤلاء الدّنيا عليها أغلَب، فإذا أخذ من أخذ التوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سَعِد، ولا سعيد إلاّ مَن أسعده الله.

٥٤ - ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخزاعيّ، وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا - وَإِنْ كَتَمْتُمَا - أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي؛ وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ، وَلاَ لِحِرْصٍ حَاضِرٍ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ. وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ.

وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هَذَا الأَمْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلاَ فِيهِ كانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ.

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِىءٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ.

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا؛ فَإِنَّ الآنَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا الْعَارُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ. والسلام.

الشرح: هو عمران بنُ الحُصَين بن عبيد بن خَلَف بن عبد بن نَهْم بن سالم بن غاضرة بن سَلول بن حُبْشِيّة بن سَلُول بن كعب بن عمرو الخُزاعيّ. يكنى أبا بُجَيْد بابنه بُجَيد بن عمران. أسلَمَ هو وأبو هريرة عامَ خَيْبر، وكان من فضلاء الصّحابة وفقهائهم، يقول أهلُ البصرة عنه: إنّه كان يرى الحَفَظَة، وكانت تكلّمه حتّى اكتَوَى.

وقال محمد بن سِيرِين: أفضلُ من نزَل البصرةَ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عمرانُ بن الحُصَين وأبو بَكْرة. واستقضاه عبد الله بن عامر بن كُرَيز على البصرة فعَمِل له أيّاماً، ثم استعفاه فأعفاه، ومات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين في أيّام معاوية.

أبو جعفر الإسكافي

وأمّا أبو جعفر الإسكافيّ - وهو شيخنا محمّد بن عبد الله الإسكافيّ - عدّه قاضي القضاة

في الطبقة السابعة من طبقات المُعتزِلة مع عباد بن سُلَيمان الصَّيْمَريّ، ومع زُرْقان، ومع عيسى بن الهيثم الصوفيّ، وجعل أوّل الطبقة ثُمامَة بن أشرس أبا معن، ثم أبا عثمانَ الجاحظ، ثم أبا موسى عيسى بن صُبَيح المردار، ثم أبا عمران يونُس بن عمران ثم محمد بن شبيب، ثم محمد بن إسماعيل بن العسكريّ، ثم عبد الكريم بن رَوْح العسكريّ، ثم أبا يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام، ثمّ أبا الحسين الصالحيّ، ثم الجعفران: جعفر بن جرير وجعفر بن ميّسر، ثم أبا عمران بن النقّاش، ثمّ أبا سعيد أحمد بن سعيد الأسدي، ثم عبّاد بن سليمان، ثم أبا جعفر الإسكافيّ هذا. وقال: كان أبو جعفر فاضلاً عالماً، وصنف سبعين كتاباً في علم الكلام.

وهو الّذي نقض كتابَ «العثمانية» على أبي عثمان الجاحظ في حياته، ودخل الجاحظ الورّاقين ببغداد، فقال: مَنْ هذا الغلام السّوَاديّ الّذي بلغني أنه تعرّض لنقض كتابي! وأبو جعفر جالسٌ! فاختفى منه حتّى لم يَرَه.

وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل على قاعدة معتزِلة بغداد، ويبالغ في ذلك، وكان عَلَوِيَّ الرأي، محققاً مُنصفاً، قليلَ العَصبيّة.

ثم نعود إلى شرح ألفاظ الفصل ومعانيه:

قوله عليه السلام: «لم أرد الناس»، أي لم أُرد الولايةَ عليهم حتّى أرادوا هم منّي ذلك.

قال: «ولم أبايِعهم حتى بايعوني»، أي لم أمدُدْ يدي إليهم مدّ الطَّلَب والحرْص على الأمر، ولم أمدُدها إلاّ بعد أن خاطَبُوني بالإمْرَةِ والخلافة، وقالوا بألسنتهم: قد بايعناك، فحينئذٍ مددتُ يدي إليهم.

قال: ولم يبايعني العامّة والمسلمون لسلطانٍ غَصَبهم وقهرَهم على ذلك، ولا لحرص حاضر، أي مال موجود فرّقته عليهم.

ثم قسم عليهما الكلام، فقال: إن كنتما بايَعْتُماني طوعاً عن رضا فقد وجب عليكما الرّجوع، لأنه لا وجه لانتقاض تلك البيعة، وإن كنتما بايعتُماني مكْرَهَيْن عليها فالإكراه له صورةٌ، وهي أن يجرّد السيف ويمدّ العنق، ولم يكن قد وقع ذلك، ولا يمكنكما أن تدّعياه، وإن كنتما بايعتماني لا عن رضاً ولا مكرهين بل كارهين، وبين المُكْرَه والكاره فرقٌ بيّن، فالأمور الشرعيّة إنما تُبنى على الظاهر، وقد جعلتُما لي على أنفسكما السّبيل بإظهاركما الطاعة، والدخول فيما دخل فيه الناس، ولا اعتبار بما أسررْتما من كراهية ذلك. على أنه لو كان عندي ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون في كراهية ذلك سواء؛ فما الذي جعلكما أحقَّ المهاجرين كلّهم بالكتمان والتقيّة!

ثم قال: وقد كان امتناعكما عن البيعة في مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثم نكثها.

قال: وقد زعمتما أن الشبهة التي دخلت عليكما في أمري أني قتلتُ عثمان، وقد جعلتُ الحكَم بيني وبينكما من تخلّف عنّي وعنكما من أهل المدينة، أي الجماعة التي لم تنصُر عليًّا ولا طلحة، كمحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وغيرهم، يعني أنهم غيرُ متَّهمين عليه ولا على طلحة والزبير، فإذا حكموا لزم كلّ امرىءٍ منّا بقدر ما تقتضيه الشهادات. ولا شبْهة أنهم لو حكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة عليّ عليه السلام من دم عثمان، وبأن طلحة كان هو الجملة والتفصيل في أمره وحصره وقتله، وكان الزبير مساعداً له على ذلك، وإن لم يكن مكاشفاً مكاشفة طلحة.

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة، وقال لهما: إنكما إنما تخافان العار في رجوعكما وانصرافكما عن الحرب، فإن لم ترجعا اجتمع عليكما العار والنار؛ أما العار فلأنكما تهزمان وتفرّان عند اللّقاء فتعيَّران بذلك، وأيضاً سيُكشف للنّاس أنكما كنتما على باطل فتعيّران بذلك، وأما النار فإليها مصيرُ العُصاة إذا ماتوا على غير توبة واحتمال العار، وحده أهوَنُ من احتماله واحتمال النارِ معه.

٥٥ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا، وَلاَ بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا، وَقَدْ ابْتَلاَنِي الله بِكَ وَابْتَلاَكَ بِي، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الآخَرِ، فَغَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، وَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلاَ لِسانِي، وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جاهَلِكُمْ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ.

فَاتَّقِ الله فِي نَفْسِكَ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ، وَاصْرِفْ إِلَى الآخِرَةِ وَجْهَكَ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطرِيقُكَ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ الله مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الأَصْلَ، وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِالله أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الأَقْدَارِ لاَ أَزَالُ بِبَاحَتِكَ، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1].

(١) سورة الأعراف: الآية: ٨٧.

الشرح: قال عليه السلام: «إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها»، أي جعلها طريقاً إلى الآخرة.

ومن الكلمات الحكميّة: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وابتلى فيها أهلها أي اختبرهم ليعلم أيهم أحسنُ عملاً، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز، والمراد ليعلم خلقه، أو ليعلم ملائكته ورُسُله، فحذف المضاف، وقد سبق ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدم، قال: «ولسنا للدنيا خُلِقْنا»، أي لم نخلق للدنيا فقط.

قال: «ولا بالسعي فيها أمرنا»، أي لم نؤمر بالسعي فيها لها، بل أُمِرنا بالسعي فيها لغيرها.

ثم ذكر أن كل واحد منه ومن معاوية مُبتلًى بصاحبه، وذلك كابتلاء آدم بإبليسَ وإبليسَ بآدم.

قال: «فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن»، أي تعدّيت وظلمت، و«على» ها هنا متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام، تقديرُه مثابراً على طلب الدنيا أو مصراً على طلب الدنيا، وتأويل القرآن ما كان معاوية يموّه به على أهل الشام فيقول لهم: أنا وليّ عثمان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾(١).

ثم يعِدُهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾(٢).

قوله: «وعصبته أنت وأهل الشام»، أي ألزمتنيه كما تلزم العصابة الرأس، «وألّب عالمكم جاهلَكم»؛ أيّ حرّض. والقياد: حبل تقاد به الدابّة. قوله: واحذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة، الضمير في «منه» راجعٌ إلى الله تعالى، «ومن» لابتداء الغاية.

وقال الراونديّ: منه، أي من البُهْتان الذي أتيته، أي من أجله، و«من» للتعليل، وهذا بعيد وخلاف الظاهر. قوله: «تمسّ الأصل»، أي تقطعه، ومنه ماء ممسوس أي يقطع الغُلّة. ويقطَع الدابر أي العقب والنسل.

والأليّة: اليمين. وباحة الدار: وَسَطها، وكذلك ساحَتُها، ورُوي بناحيتك.

قوله: «بعاجل قارعة، وجوامع الأقدار»، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾(٣).

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الحاقة، الآية: ٥١.

٥٦ – ومن كلام له عليه السلام وصى به شريح بن هانىء لما جعله على مقدمته إلى الشام

الأصل: اتَّقِ الله فِي كُلِّ مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ، وَلاَ تَأْمَنْهَا عَلَى حَالٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ، سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَلِنَزَوَاتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً.

الشرح: هو شُرَيح بنُ هانىء بن يزيدَ بنِ نهيك بن دُرَيد بنِ سُفْيان بن الضّباب، وهو سَلَمَة بن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن كعب المَذْحِجيّ. كان هانىء يُكنَى في الجاهلية أبا الحكم، لأنّه كان يَحْكم بينهم، فكناه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي شُرَيح، إذ وفد عليه. وابنه شُرَيح هذا من جِلّة أصحابِ عليٍّ عليه السلام، شَهِد معه المشاهد كلَّها، وعاش حتَّى قُتِل بسِجِسْتان في زمن الحجّاج، وشُرَيْح جاهليّ إسلاميّ، يكنَى أبا المِقْدام، ذَكر ذلك كلَّه أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ في كتاب الاستيعاب.

قولُه عليه السلام: وخَفْ على نفسك الغَرورَ، يعني الشيطان، فأما الغُرور بالضمّ فمصدر. والرادع: الكافّ المانع. والنَّزَوات: الوَثَبات. والحَفِيظة: الغضب. والواقِم: فاعلٌ، من وَقَمْتُه أي رددتُه أقبحَ الردّ وقهرتُه. يقول عليه السلام: إنْ لم تَردَع نفسَك عن كثير من شَهَواتِك أفضتْ بك إلى كثير من الضّرر، ومثلُ هذا قولُ الشاعر:

فإنَّكَ إنْ أعطيتَ بطنَك سُؤلَها ... وفَرْجَك نالا مُنتهَى الذَّمِّ أجمَعَا

٥٧ – ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ عَنْ حَيِّي هَذَا إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا مَظْلُوماً، وَإِمَّا بَاغِياً وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ، وَأَنا أُذَكِّرُ الله مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي.

الشرح: ما أحسنَ هذا التقسيم وما أبلغَه في عطف القلوب عليه، واستمالة النفوس إليه!

قال: لا يَخْلو حالي في خُروجي من أحد أمرين: إمّا أن أكون ظالماً أو مظلوماً، وبدأ بالظّالم هَضماً لنفسه، ولئلا يقول عدوه: بدأ بدعوَى كونه مظلوماً، فأعطَى عدوَّه من نفسِه ما أراد.

قال: فليَنفِر المسلمون إليّ فإنْ وجدوني مظلوماً أعانوني، وإن وجدوني ظالماً نهَوْني عن ظُلمي لأعتِبَ وأنيبَ إلى الحق. وهذا كلام حَسن، ومرادُه عليه السلام يَحصل على كلا الوجهين، لأنّه إنّما أراد أن يستنفرَهم، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرَهم إليه على كل حال، والحيّ: المنزل، ولمّا ها هنا بمعنى إلاّ، كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1] في قراءة من قرأها بالتّشديد.

٥٨ - ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقصّ فيه ما جرى بينه وبين أهل صِفِّين

الأصل: وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا الْتَقَيْنَا بِالْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ، وَدَعْوَتَنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ، وَلاَ نَسْتَزِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بالله وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ وَلاَ يَسْتَزِيدُونَنَا، وَالْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلاَّ مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لاَ يُدْرَكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيُسْتَجْمِعَ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ فِي مَوَاضِعِهِ، فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ، فَأَبَوْا، حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ، وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا وَحَمِشَتْ.

فَلَمَّا ضَرَّسَتْنَا وَإِيَّاهُمْ، وَوَضَعَتْ مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا، حَتَّى اسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ؛ وَانْقَطَعَتْ مِنهُمُ الْمَعْذِرَةُ، فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ الله مِنَ الْهَلَكَةِ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَانَ الله عَلَى قَلْبِهِ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَى رَأْسِهِ.

الشرح: رُوِي: «التقَيْنا والقوم» بالواو، كما قال:

قلتُ إذ أقبلتْ وزهر تهادَى

(١) سورة الطارق، الآية: ٤.

ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلّف.

قوله: «والظاهر أن ربّنا واحد»، كلامُ من لم يحكم لأهل صِفّين من جانب معاوية حُكْماً قاطعاً بالإسلام، بل قال: ظاهرُهم الإسلام، ولا خلف بيننا وبينهم فيه، بل الخُلْف في دَمِ عثمان.

قال عليه السلام : قلنا لهم: تعالوْا فلنُطفىء هذه النائرة الآن بوضع الحرب، إلى أن تتمهّد قاعدتي في الخلافة وتزول هذه الشوائبُ التي تكدِّر عليّ الأمر، ويكون للنّاس جماعةٌ ترجع إليها، وبعد ذلك أتمكّن من قَتَلَةِ عثمان بأعيانِهم فأقتصَّ منهم، فأبَوْا إلاّ المكابرَة والمغالبة والحرب.

قوله: «حتّى جَنَحتْ الحرب ورَكدَت»، جَنَحت: أقبلتْ، ومنهُ: قد جَنَح الليل، أي أقبل، ورَكدت: دامت وثَبَتَت.

قوله: «ووَقَدتْ نِيرانُها»، أي التهبت.

قوله: «وحَمِشتْ»، أي استعرَت وشَبّت. ورُوِي: «واستحشَمَت» وهو أصحّ؛ ومن رواها «حَمَستْ» بالسين المهملة أراد اشتدّت وصَلُبت.

قوله: «فلمّا ضَرّستْنا وإيّاهم» أي عضّتْنا بأضراسها، ويقال: ضَرّسَهم الدهر، أي اشتدّ عليهم.

قال: لمّا اشتدّت الحرب علينا وعليهم، وأكلَتْ منّا ومنهم، عادوا إلى ما كنّا سألناهم ابتداءً، وضَرَعوا إلينا في رَفْع الحرب، ورَفَعوا المصاحفَ يسألون النزولَ على حُكمِها، وإغمادَ السّيف، فأجبناهم إلى ذلك.

قوله: «وسارعْناهم إلى ما طلبوا» كلمةٌ فصيحة، وهي تَعدية الفعلِ اللازِم، كأنّها لمّا كانت في معنى المُسابقَة، والمسابقة متعدّية عدّى المُسارعةَ.

قولُه: «حتّى استبانت»، يقول: استمرَرْنا على كفّ الحرب ووضعِها، إجابةً لسؤالهم، إلى أن استبانت عليهم حجّتنا، وبطلتْ معاذيرُهم وشُبْهتُهم في الحرب وشَقّ العصا، فمن تمّ منهم على ذلك، أي على انقياده إلى الحقّ بعد ظهوره له، فذاكَ الّذي خَلّصه الله من الهلاك وعذابِ الآخرة، ومن لَجّ منهم على ذلك وتَمادَى في ضلاله فهو الرّاكس؛ قال قوم: الراكس هُنا بمعنَى المَركوس، فهو مقلوب فاعل بمعنى مفعول، كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[1] أي مرضيّة، وعندي أن اللفظة على بابها، يعني أن من لجّ فقد رَكّس نفسَه، فهو الرّاكس، وهو المركوس،

(١) سورة القارعة، الآية: ٧.

يقال: ركَسه وأركَسه بمعنًى، والكتابُ العزيز جاء بالهمز فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾[1]، أي رَدّهم إلى كفرهم؛ ويقول: ارتَكَس فلان في أمرٍ كان نجا منه، ورانَ على قلبه، أي رانَ هو على قلبه، كما قلنا في الرّاكس؛ ولا يجوز أن يكون الفاعلُ - وهو الله - محذوفاً، لأنّ الفاعل لا يُحذَف، بل يجوز أن يكون الفاعلُ كالمحذوف، وليس بمحذوف، ويكون المصدر وهو الرَّيْن، ودَلّ الفعل عليه كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْءَايَٰتِ﴾[2] أي بدَا لهم البداء. ورَانَ بمعنى غَلَب وغَطّى؛ ورُوِي «فهو الرّاكس الّذي رينَ على قَلْبه».

قال: وصارت دائرةُ السَّوْء على رأسِه، من ألفاظ القرآن العزيز، قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[3] والدوائر: الدُّوَل.

قال:

وإنّ على الباغي تدورُ الدوائر

والدائرة أيضاً: الهزيمة، يقال: على مَن الدائرةُ منهما، والدوائر أيضاً الدّواهي.

---

٥٩ - ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذٰلِكَ كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوَابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلاَّ كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَالاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ؛ والسلام.

الشرح: لم أقف إلى الآنَ على نَسَب الأسودِ بن قُطْبة، وقرأتُ في كثير من النّسخ أنّه حارثيّ من بني الحارث بن كعب؛ ولم أتحقّق ذلك، والّذي يَغلِب على ظنّي أنّه الأسود بن زيد بن قُطْبة بن غَنْم الأنصاري من بني عُبَيد بن عَدِيّ. ذَكَره أبو عمرَ بنُ عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»، وقال: إن موسى بن عُقْبة عدّه فيمن شَهِدَ بَدْراً.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٨.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٧.

قوله عليه السلام: «إذا اختلف هَوَى الوالي منعَه كثيراً من الحق» قولٌ صِدْق، لأنه مَتَى لم يكن الخصمان عند الوالي سواءً في الحقّ جارَ وظلَم.

ثم قال له: فإنّه ليس في الجَوْر عِوضٌ من العَدْل؛ وهذا أيضاً حقّ، وفي العدل كلّ العِوض مِن الجور.

ثم أمرَه باجتناب ما ينكِر مثله من غيره، وقد تقدّم نحوُ هذا.

وقوله: «إلاّ كانت فَرْغَتُه» كلمةٌ فصيحة، وهي المرّة الواحدة من الفَرَاغ، وقد رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «إن الله يُبغِضُ الصحيحَ الفارغ لا في شُغْل الدنيا ولا في شُغْل الآخرة»، ومرادُ أميرِ المؤمنين عليه السلام ها هنا الفَراغُ من عمل الآخرة خاصّة.

قوله: «فإنّ الّذي يصل إليك من ذلك أفضلُ من الّذي يَصِل بك»، معناه: فإنّ الّذي يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعيّة، وحفظ نفسك من مَظالِمِهم والحَيْف عليهم، أفضلُ من الّذي يصل بك من حِراسةِ دِمائِهم وأعراضِهم وأموالِهم؛ ولا شُبهة في ذلك، لأنّ إحدى المنفعتين دائمة، والأخرى منقطِعة، والنفع الدائمُ أفضلُ من المنقطِع.

٦٠ - ومن كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش

الأصل: مِنْ عَبْدِ الله عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلاَدِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُوداً هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ الله، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لله عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الأَذَى، وَصَرْفِ الشَّذَى، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ، إِلاَّ مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لاَ يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَباً إِلَى شِبَعِهِ، فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ ظُلْماً عَنْ ظُلْمِهِمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَادَّتِهِمْ، وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا اسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ، فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلاَ تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلاَّ بِالله وَبِي، أُغَيِّرْهُ بِمَعُونَةِ الله. إِنْ شَاءَ الله.

الشرح: رُوِيَ «عن مُضارّتهم» بالراء المشدّدة. وجُباة الخَراج: الّذين يَجمَعونه، جَبيتُ الماءَ في الحوض، أي جمعتُه. والشَّذَى: الضرب والشرّ، تقول: لقد أشذَيْت وآذَيْت. وإلى ذمّتكم؛ أي إلى اليهود والنّصارى الّذين بينكم، قال عليه السلام: «من آذى ذِمّيًّا فكأنّما آذاني»[1]، وقال:

(١) ذكره أبو عبد الله الحنبلي في «المنار المنيف» (٢٧٨).

إنما بذلوا الجِزْية لتكون دماؤهم كدِمائِنا، وأموَالُهم كأموالنا، ويسمّى هؤلاء ذِمّة، أي أهل ذِمّة، بحذف المضاف. والمَعَرّة: المَضَرّة، قال: الجيش ممنوعٌ من أذًى من يمرّ به من المسلمين وأهل الذمّة إلاّ من سدّ جَوْعة المضطرّ منهم خاصّة، لأنّ المضطرّ تباح له الميتة فضلاً عن غيرها.

ثمّ قال: فنكّلوا من تَناوَل، ورُوِي «بمن تَناوَل» بالباء، أي عاقِبوه. و«عن» في قوله: «عن ظلمهم»، يتعلّق بنكّلوا، لأنّها في معنَى «اردعوا»؛ لأنَّ النّكالَ يُوجِب الرَّدْع.

ثمّ أمرهم أن يكفّوا أيدِيَ أحداثِهم وسفهائِهم عن مُنازَعة الجيش ومصادَمتِه، والتعرّض لمنعه عمّا استثناه، وهو سدّ الجوعة عند الاضطرار، فإنّ ذلك لا يجوز في الشرع، وأيضاً فإنّهُ يُفضِي إلى فتنة وهَرَج.

ثم قال: «وأنا بين أظهُر الجَيْش»، أي أنا قريبٌ منكم، وسائرٌ على إثْر الجيش، فارفعوا إليّ مظالمَكم وما عَراكم منهم على وجه الغَلَبَة والقَهْر، فإنّي مغيّرٌ ذلك ومنتصِفٌ لكم منهم.

٦١ - ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعيّ وهو عامله على هِيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدوّ طالباً للغارة

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ تَضْييعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ، وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ. وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسِيَا، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ - لَيْسَ لَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا، وَلاَ يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأْيٌ شَعَاعٌ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ، وَلاَ مَهِيبِ الْجَانِبِ، وَلاَ سَادٍّ ثُغْرَةً، وَلاَ كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً، وَلاَ مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ، وَلاَ مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ.

الشرح: هو كُمَيل بنُ زياد بنِ سهيل بن هَيْثم بنِ سَعْد بن مالك بن الحارث بن صهبانَ بن سعد بن مالك بن النّخَع بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك بن أُدَد. كان من أصحاب عليّ عليه السلام وشيعتِه وخاصّتِه، وقتله الحجّاج على المَذْهب فيمن قَتَل من الشّيعة. وكان كُمَيل بنُ زياد عاملَ عليّ عليه السلام على هِيتَ، وكان ضعيفاً، يمرّ عليه سرايا معاوية تَنهبُ أطرافَ العِراق ولا يردّها، ويحاول أن يجبُر ما عندَه من الضّعف بأن يُغير على أطراف أعمال معاوية مثل قِرْقِيسيا وما يَجرِي مَجرَاها من القُرَى التي على الفرات، فأنكر عليه السلام ذلك مِن فِعْله، وقال: إن من المعجز الحاضرِ أن يُهمِل الوالِي ما وَلِيَه، ويتكلّف ما ليس من تكليفه.

والمتَبَّر: الهالك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾[١].

والمسالح: جمعُ مَسلَحة، وهي المواضع الّتي يقام فيها طائفةٌ من الجند لحمايتها.

ورأيٌ شَعاع، بالفتح، أي متفرق.

ثم قال له: «قد صرتَ جِسْراً» أي يَعبرُ عليكَ العدوّ كما يَعْبُر الناسُ على الجُسور، وكما أن الجِسر لا يَمنع من يَعبُر به ويمرّ عليه فكذاك أنت.

والثُّغرة: الثُلْمة. ومُجْزٍ: كافٍ ومُغْنٍ؛ والأصل «مُجزِئ» بالهمز، فخفّف.

٦٢ - ومن كتاب له عليه السلام
إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رحمه الله لمّا ولاه إمارتها

الأصل: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَمُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ فَلَمَّا مَضَى صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي، وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلاَ أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلاَنٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ بِيَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلاَمِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمْ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلاَئِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، وَكَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ.

الشرح: المُهيمِن: الشاهد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾[٢]، أي تشهد بإيمان مَنْ آمَن وكُفر من كَفَر. وقيل: تشهد بصحّة نبوّة الأنبياء قبلك. وقوله: «على المرسلين»، يؤكّد صحّة هذا التفسير الثاني، وأصل اللّفظة من «آمن غيره من الخوف»، لأن الشاهد يؤمّن غيره من الخَوْف بشهادته، ثم تصرّفوا فيها فأبدلوا إحدَى همزتَي «مؤامن» ياء فصار «مُؤَيْمن»، ثم قَلَبوا الهمزة هاءً كأرَقْت وهَرَقْت فصار «مُهَيْمن».

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

والرُّوع: الخلَد؛ وفي الحديث: «إن رُوح القُدُس نَفَث في رُوعي»[١]، قال: ما يخطر لي ببال أن العرب تَعدِل بالأمر بعد وفاة محمد صلى الله عليه وآله عن بني هاشم، ثم من بني هاشم عنّي؛ لأنّه كان المتيقّن بحكم الحال الحاضرة. وهذا الكلام يدلّ على بُطلان دعوَى الإماميّة النصّ وخصوصاً الجليّ.

قال: «فما راعني إلا انثيال الناس»، تقول للشيء يفْجَؤك بغتَةً: ما راعني إلاّ كذا، والرَّوْع بالفتح؛ الفَزَع، كأنه يقول: ما أفزعني شيءٌ بعد ذلك السكون الذي كان عندي، وتلك الثقة التي اطمأنَنْتُ إليها إلا وقوعُ ما وقع من انثيال الناس - أي انصبابهم من كل وجه كما ينثاب التراب - على أبي بكر، وهذا لفظ الكتاب الذي كتبه للأشتر، وإنما الناسُ يكتبونه الآن «إلى فلان» تذمّماً من ذكر الاسم كما يكتبون في أوّل الشِّقْشِقِيَّة: «أما والله لقد تقمَّصها فلانٌ»، واللفظ «أما والله لقد تقَمّصها ابن أبي قُحافة»[٢].

قوله: «فأمسكتُ يدي»، أي امتنعتُ عن بيعته، حتى رأيت راجعة الناس، يعني أهل الرّدة كمسيلمة، وسَجاح وطُليحة بن خويلد ومانعي الزكاة؛ وإن كان مانعو الزكاة قد اختلف في أنهم أهل رِدّة أم لا.

ومحقُ الدِّين: إبطاله.

وزَهَق: خَرَج وزال. تنهنَه: سكن، وأصله الكفّ، تقول: نهنهت السبُعَ فَتَنَهْنَه، أي كَفّ عن حركته وإقدامه، فكأنّ الدِّين كان متحرّكاً مضطرباً فسكن وكف عن ذلك الاضطراب.

رَوَى أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في «التاريخ الكبير»[٣] أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات اجتمعتْ أسدٌ وغطفانُ وطيّىء على طُلَيْحَة بن خُويلد إلا ما كان من خواصّ أقوام في الطوائف الثلاث، فاجتمعتْ أسد بِسَمِيراء، وغَطَفان بَجنوب طيبة وطيّىء في حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من قيس بالأبرق من الرَّبَذة، وتأشّب إليهم ناس من بني كنانة، ولم تحملهم البلاد، فافترقوا فرقتين: أقامت إحداهما بالأبرق، وسارت الأخرى إلى ذي القَصَّة، وبعثوا وفوداً إلى أبي بكر يسألونه أن يقارّهم على إقامة الصلاة ومنع الزكاة، فعزم الله لأبي بكر

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٣٧٦)، والشهاب في «مسنده» (١١٥٠)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه الصدوق في علل الشرائع: ١/ ١٥٠، وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٩/ ٥٠٦.

(٣) تاريخ الطبري: للإمام أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة (٣١٠هـ)، وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم. «كشف الظنون» (١/ ٢٩٧).

على الحق، فقال: لو مَنَعوني عِقالاً لجاهدتهم عليه. ورجع الوفودُ إلى قومهم فأخبروهم بقلةٍ من أهل المدينة، فأطمعوهم فيها وعلم أبو بكر والمسلمون بذلك.

وقال لهم أبو بكر: أيّها المسلمون، إنّ الأرض كافرة، وقد رأى وفدُهم منكم قِلّة، وإنكم لا تدرون أليْلاً تُؤتَوْن أم نهاراً، وأدناهم منكم عَلَى بريد، وقد كان القوم يأمُلون أن نقبل منهم ونُوادعَهم، وقد أبينا عليهم، ونبذْنا إليهم، فأعِدُّوا واستَعِدّوا. فخرج عليّ عليه السلام بنفسه، وكان على نَقْبٍ من أنقاب المدينة.

وخرج الزّبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرُهم فكانوا على الأنقاب الثلاثة، فلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى طرق القومُ المدينة غارةً مع الليل، وخلّفوا بعضهم بذي حُسًى ليكونوا ردءًا لهم، فوافوا الأنقاب وعليها المسلمون، فأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر، فأرسل إليهم أن الزموا مكانكم، ففعلوا، وخرج أبو بكر في جمعٍ من أهل المدينة على النواضح، فانتشر العدوّ بين أيديهم، واتّبعهم المسلمون على النواضح حتى بلغوا ذا حُسًى، فخرج عليهم الكَمين بأنحاء قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دَهْدَهوها بأرْجُلِهم في وجوه الإبل، فتَدَهْدَه كلّ نِحْيٍ منها في طِولَه فنفرت إبلُ المسلمين، وهم عليها - ولا تنفر الإبلُ من شيء نفارَها من الأنحاء - فعاجت بهم لا يملكونها حتى دخلت بهم المدينة، ولم يصرع منهم أحد ولم يُصَب، فبات المسلمون تلك الليلة يتهيّؤون، ثم خرجوا على تعبية، فما طلع الفجرُ إلاّ وهم والقومُ على صعيدٍ واحد، فلم يَسمَعوا للمسلمين حِسًا ولا هَمْساً حتى وضعوا فيهم السيف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذَرّ قرنُ الشمس إلا وقد وَلّوا الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم، ورجعوا إلى المدينة ظافرين[1].

قلت: هذا هو الحديث الذي أشار عليه السلام إلى أنه نهض فيه أيام أبي بكر. وكأنه جوابٌ عن قول قائل: إنه عمل لأبي بكر، وجاهد بين يدي أبي بكر، فبيّن عليه السلام عذرَه في ذلك، وقال: إنه لم يكن كما ظنّه القائل، ولكنه من باب دَفْع الضرر عن النفس وعن الدين، فإنه واجبٌ سواء كان للنّاس إمام أو لمْ يكن.

الرد على الشيعة في طعنهم في إمامة أبي بكر

وينبغي حيث جرى ذكرُ أبي بكر في كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن نذكر ما أورَده قاضي القُضاة في «المغْني»، من المطاعن التي طُعن بها فيه وجواب قاضي القضاة عنها، واعتراضُ المرتضى في «الشافي» على قاضي القضاة، ونذكُر ما عندنا في ذلك، ثم نذكر مطاعن أخرى لم يذكُرها قاضي القضاة.

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ٤٧٨.

الطعن الأول: قال قاضي القضاة بعد أن ذكر ما طعن به فيه في أمر فَدَك، وقد سبق القولُ فيه.

ومما طعِن به عليه قولهم: كيف يصلُح للإمامة من يُخبر عن نفسه أن له شيطاناً يعْتَريه ومن يحذِّر الناسَ نفسه، ومن يقول: «أقيلوني» بعد دخوله في الإمامة، مع أنه لا يحلّ للإمام أن يقول: أقيلوني البَيْعة!

أجاب قاضي القضاة فقال: إن شيخنا أبا عليّ قال: لو كان ذلك نقصاً فيه لكان قولُ الله في آدمَ وحوّاء: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(١)، وقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾(٣)، يوجب النقص في الأنبياء. وإذا لم يجب ذلك، فكذلك ما وصف به أبو بكر نفسه، وإنما أراد أنه عند الغضب يُشفِق من المعصية ويَحذَر منها، ويخاف أن يكون الشيطان يعتريه في تلك الحال فيُوَسْوِس إليه، وذلك منه على طريق الزّجر لنفسه عن المعاصي، وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه ترك مخاصمةَ الناس في حقوقه إشفاقاً من المعصية، وكان يولّي ذلك عَقِيلاً، فلما أسنَّ عَقِيل كان يولّيها عبد الله بنَ جعفر. فأمّا ما رُوِي في إقالة البَيْعة فهو خبرٌ ضعيف، وإن صحّ فالمراد به التنبيه على أنه لا يبالي لأمر يَرجِع إليه أن يُقيله الناسُ البيعة، وإنما يضرّون بذلك أنفسهم؛ وكأنه نبّه بذلك على أنه غير مكرِه لهم، وأنه قد خلاّهم وما يريدون إلاّ أن يَعْرِض ما يوجبِ خِلافه. وقد رُوِي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أقالَ عبدَ الله بنَ عمر البيعة حين استقاله، والمراد بذلك أنه تركه وما يختار.

اعترض المرتضى رضي الله عنه فقال: أما قول أبي بكر: «وَلِيتُكم ولستُ بخَيْركم، فإن استقمتُ فاتّبعوني، وإن اعوجَجْت فقوّموني، فإنّ لي شيطاناً يَعتريني عند غضبي، فإذا رأيتموني مغضَباً فاجتنبوني لا أؤثّر في أشعاركم وأبشاركم».

فإنه يدلّ على أنه لا يَصلُح للإمامة من وجهين: أحدُهما: أنّ هذا صفة مَنْ ليس بمعصوم، ولا يأمن الغَلَط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيّته له إذا وقع في المعصية، وقد بيّنا أن الإمَام لا بدّ أن يكون معصوماً موفقاً مسدَّداً.

والوجه الآخر: أن هذه صفة مَنْ لا يملك نفسَه، ولا يَضبط غضبه، ومَنْ هو في نهاية الطّيش والحِدَّة والخُرْق والعَجَلة. ولا خِلافَ أن الإمام يجب أن يكون منزّهاً عن هذه الأوصاف، غير حاصل عليها وليس يُشبِه قولُ أبي بكر ما تلاه من الآيات كلّها. لأنّ أبا بكر

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ٣٦.
(٣) سورة الحج، الآية: ٥٢.

خبّر عن نفسه بطاعة الشيطان عند الغضب، وأنّ عادته بذلك جارية، وليس هذا بمنزلة من يُوسوس إليه الشّيطان ولا يطيُعه، ويزيّن له القبيح فلا يأتيه، وليس وسوسة الشيطان بعيب على الموسوس له إذا لم يستزلّه ذلك عن الصواب، بل هو زيادة في التّكليف، ووجه يتضاعف معه الثواب.

وقوله تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[1] قيل: معناه في تلاوته؛ وقيل: في فكرته، على سبيل الخاطر، وأيّ الأمرين كان، فلا عار في ذلك على النبيّ ﷺ ولا نقص، وإنما العار والنقص على من يطيع الشيطان ويتّبع ما يدعو إليه.

وليس لأحد أن يقول: هذا إن سَلِم لكم في جميع الآيات لم يَسلم في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2]؛ لأنّه قد خبّر عن تأثير غوايته ووَسْوَسَته بما كان منها من الفعل. وذلك أن المعنى الصحيح في هذه الآية أن آدم وحوّاء كانا مندوبين إلى اجتناب الشّجرة وتركِ التّناول منها، ولم يكن ذلك عليهما واجباً لازماً، لأن الأنبياء لا يُخِلّون بالواجب، فوسوس لهما الشيطان حتى تَناوَلا من الشجرة، فتركا مندوباً إليه، وحَرَما بذلك أنفسَهما الثّواب، وسمّاه إزلالاً، لأنه حطٌّ لهما عن درجة الثواب وفعل الأفضل.

وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[3] لا ينافي هذا المعنى، لأنّ المعصية قد يُسمّى بها من أخلّ بالواجب والندب معاً. قوله: «فَغَوَى» أي خاب من حيث لم يستحقّ الثواب على ما نُدِب إليه. على أنّ صاحب الكتاب يقول: إنّ هذه المعصية من آدم كانت صغيرةً لا يستحقّ بها عقاباً ولا ذمًّا، فعلى مذهبه أيضاً تكون المفارَقة بينه وبين أبي بكر ظاهرةً، لأنّ أبا بكر خبّر عن نفسه أن الشيطان يعتريه حتى يؤثّر في الأشعار والأبشار، ويأتي ما يستحقّ به التقويم، فأين هذا من ذَنْب صغيرٍ لا ذمّ ولا عقابَ عليه، وهو يَجرِي من وجه من الوجوه مَجرى المباح، لأنّه لا يؤثّر في أحوالِ فاعله وحَطّ رتبته؛ وليس يجوز أن يكون ذلك منه على سبيل الخَشْيَة والإشفاق على ما ظُنّ، لأنّ مفهومَ خطابه يَقتضِي خلاف ذلك، ألا ترى أنّه قال: «إن لي شيطاناً يعتريني» وهذا قولُ مَن قد عَرَف عادته، ولو كان على سبيل الإشفاق والخَوْف لخَرَج عن هذا المخرَج، ولكان يقول: فإنّي لا آمَنُ من كذا وإنّي لمشْفِق منه. فأمّا تَرْك أميرِ المؤمنين عليه السلام مخاصَمةَ النّاس في حقوقه فكأنّه إنّما كان تنزّهاً وتكرُّماً؛ وأي نسبة بين ذلك وبين من صَرّح وشَهِد على نفسه بما لا يليق بالأئمة! وأمّا خبر استقالة البيعة وتضعيف صاحب الكتاب له فهو أبداً يضعّف ما لا يوافقه من غير حجّة يعتمِدها في تضعيفه.

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٦.
(٣) سورة طه، الآية: ١٢١.

وقوله: إنّه ما استقال على التحقيق، وإنّما نبّه على أنّه لا يبالي بخروج الأمر عنه، وأنّه غير مُكرِه لهم عليه؛ فبعيدٌ من الصواب؛ لأنّ ظاهر قوله «أقيلوني» أمرٌ بالإقالة، وأقلُّ أحواله أن يكون عَرْضاً لها وبَذْلاً، وكِلا الأمرين قبيح. ولو أراد ما ظنّه لكان له في غير هذا القول مندوحة، ولكان يقول: إنّي ما أكرهتُكم ولا حَمَلتكم على مبايعتي، وما كنتُ أبالي ألاّ يكون هذا الأمر فيّ ولا إليّ، وإنّ مفارقتَه لتسرّني لولا ما ألزمَنيه الدخولُ فيه من التمسّك به، ومَتى عَدَلنا عن ظواهر الكلام بلا دليل، جرّ ذلك علينا ما لا قِبَل لنا به. وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فإنّه لم يُقل ابنَ عمر البَيْعة بعد دخولها فيها وإنّما استعفاه من أن يُلزمه البَيْعة ابتداءً فأعفاه قلّة فكر فيه، وعلماً بأنّ إمامتَه لا تَثبتُ بمبايَعة من يُبايعه عليها، فأين هذا من استقالة بَيْعة قد تقدّمت واستقرّت!

قلت: أمّا قولُ أبي بكر: «وَلِيتُكم ولستُ بخيركم» فقد صَدَق عند كثير من أصحابنا؛ لأنّ خيرهم عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام، ومن لا يقول بذلك يقول بما قاله الحَسَن البَصْريّ: والله إنّه ليَعلَم أنّه خيرهم، ولكنّ المؤمن يَهْضِم نفسَه. ولم يطعن المرتضى فيه بهذه اللّفظة لنُطيلَ القولَ فيها. وأمّا قولُ المرتَضى عنه إنّه قال: «فإنّ لي شيطاناً يَعترِيني عند غَضَبي»، فالمشهور في الرواية: «فإنّ لي شيطاناً يعتريني»، قال المفسرون: أراد بالشيطان الغضب وسمّاه شيطاناً على طريق الاستعارة، وكذا ذكَرَه شيخُنا أبو الحسين في «الغُرَر». قال معاوية لإنسان غَضِب في حَضرته فتكلّم بما لا يُتكلّم بمثله في حضرة الخُلفَاء: ارْبَعْ على ظَلْعَك أيّها الإنسان، فإنّما الغَضَب شيطان، وإنّا لم نَقلْ إلاّ خيراً.

وقد ذكر أبو جعفر محمّد بنُ جرير الطبريّ في «كتاب التاريخ الكبير» خطبَتَيْ أبي بكر عقيبَ بَيعته بالسّقيفة، ونحن نذكُرها نَقْلاً من كتابه، أمّا **الخطبة الأولى فهي:**

أما بعد أيّها الناس، فإنّي وَلِيتكم ولستُ بَخيْركم، فإن أحسَنْتُ فأعينوني، وإن أساتُ فقوّموني، لأن الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيفُ منكم قويٌّ عندي حتّى أريحَ عليه حَقّه، والقويّ منكم ضعيفٌ عندي حتّى آخذَ الحقّ منه، لا يَدَع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيعُ الفاحشةُ في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعةَ لي عليكم: قومُوا إلى صلاتِكم رَحِمكم الله.

وأما الخُطْبة الثانية فهي: أيّها الناس إنّما أنا مثلكم، وإنّي لا أدري لعلّكم ستكلّفُونني ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُطيقه. إن الله اصطفى محمّداً صلى الله عليه وآله على العالمين، وعصَمه من الآفات، وإنّما أنا متّبع ولستُ بمَتْبوع، فإن استقمتُ فاتّبعوني، وإن زُغْت فقوّموني، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وليس أحد من هذه الأمّة يَطلُبه بمظلمة ضربة سَوْط فما دونَها. ألاَ وإن لي شيطاناً

يعَتريني، فإذا غضبتُ فاجتَنِبوني لا أؤثّر في أشعاركم وأبشاركم. ألا وإنكم تَغدُون وتَروحون في أجَلٍ قد غُيّب عنكم عِلمُه، فإن استطعتم ألاّ يَمضِيَ هذا الأجلُ إلاّ وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله. فسابقوا في مهَل آجالكم من قبل أن تُسلِمكم آجالُكم إلى انقطاع الأعمال، فإنّ قوماً نَسُوا آجالَهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالَهم. الجدّ الجدّ! الوحَا الوحَا! فإنّ وراءَكم طالباً حَثِيثاً، أجلٌ مَرُّه سريع. احذَروا الموت، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تَغبِطُوا الأحياءَ إلاّ بما يُغبَط به الأموات.

إن الله لا يقبَل من الأعمال إلاّ ما يُراد به وجْهُه، فأرِيدوا وجَه الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فلطاعةٍ أتيتُموها، وحظّ ظفرتُم به، وضرائب أدّيتموها، وسلفٍ قدّمتموه من أيّام فانية لأخرى باقية، لحين فقركم وحاجتِكم؛ فاعتبروا عباد الله بمن ماتَ منكم، وتفكّروا فيمن كان قبلَكم؛ أين كانوا أمس وأيْن هُم اليوم! أين الجبّارون؟ أين الّذين كان لهم ذكر القتال والغَلَبة في مَواطِن الحرب! قد تضعضَع بهم الدّهر، وصاروا رَميماً.

قد تُركت عليهم القالات الخبيثات، وإنّما الخبيثات للخَبِيثِين والخبيثون للخبيثات. وأين الملوكُ الّذين أثاروا الأرض وعمروها! قد بَعُدوا بسيّيء ذكرهم، وبقيَ ذكرُهم وصارُوا كلا شيء. ألا إن الله قد أبقَى عليهم التَّبِعات، وقَطَع عنهم الشّهَوات ومضَوا والأعمالُ أعمالُهم، والدنيا دنيا غيرِهم، وبقِينا خَلَفاً مِن بَعدِهم، فإن نحن اعتَبَرنا بهم نجَوْنا، وإن اغتررنا كنّا مِثْلهم. أين الوضّاء الحسَنة وجُوهُهم، المعجَبون بشَبابهم! صاروا تُراباً، وصار ما فرّطوا فيه حسرةً عليهم، أين الّذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط، وجعلوا فيها العجائب، وتركوها لِمَن خَلْفَهم! فتلك مساكنُهم خاوية، وهم في ظُلَم القُبورِ، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[1]. أي من تَعرِفون من آبائكم وإخوانكم! قد انتهتْ بهم آجالُهم فَوَردوا على ما قَدِموا عليه، وأقاموا للشّقوة وللسّعادة. ألا إن الله لا شريك له، ليس بينه وبين أحد من خَلقه سبب يُعطيه به خيراً، ولا يَصرِف عنه شرًّا إلاّ بِطاعته واتّباع أمْرِه، واعلموا أنّكم عبادٌ مدينون، وأنّ ما عندَه لا يُدرَك إلاّ بتقواه وعبادته. ألا وإنّه لا خيرَ بخير بعدَه النّار ولا شرّ بشَرّ بعدَه الجنّة[2].

فهذه خُطبتا أبي بكر يومَ السّقيفة، واليوم الّذي يليه، إنّما قال: إنّ لي شيطاناً يَعتَريني، وأراد بالشّيطان الغضب، ولم يُرد أن له شيطاناً من مَرَدة الجنّ يَعتريه إذا غضب فالزّيادة فيما ذكره المرتضى في قوله: «إن لي شيطاناً يَعتَريني عند غضبي»، تحريف لا محالة، ولو كان له شيطان من الجن يعتادُه وينُوبه لكان في عِداد المصروعين من المجانين، وما ادّعى أحدٌ على

(١) سورة مريم، الآية: ٩٨.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه: ٢/ ٤٦١.

أبي بكر هذا لا مِن أوليائه ولا مِن أعدائه؛ وإنّما ذكرنا خطبته على طولِها والمراد منها كلمةٌ واحدة؛ لِمَا فيها من الفَصاحة والمَوعظة على عادتنا في الاعتناء بإيداع هذا الكتاب ما كان ذاهباً هذا المذهب، وسالكاً هذا السبيل.

فأمّا قولُ المرتَضى: «فهذه صفة من ليسَ بمَعْصوم»، فالأمرُ كذلك والعصمةُ عندنا ليستْ شَرْطاً في الإمامة ولو لم يدلّ على عدم اشتراطها؛ إلا أنّه قال على المِنْبر بحضور الصحابة هذا القول، وأقرّوه على الإمامة - لكفَى في عدم كون العِصْمة شرطاً، لأنّه قد حَصَل الإجماع على عدم اشتراط ذلك، إذ لو كان شَرْطاً لأنكر منكرٌ إمامتَه كما لو قال: إنّي لا أصبرُ عن شُرْب الخَمْر وعن الزّنى.

فأما قولُه: «هذه صفة طائش لا يملِك نفسَه»، فلَعَمري إنّ أبا بكر كان حديداً، وقد ذكره عمرُ بذلك، وذكَرَهُ غيرُه من الصّحابة بالْحِدّة والسرعة؛ ولكن لا بحيث أن تبطل به أهليّته للإمامة؛ لأنّ الّذي يُبطل الإمامة من ذلك وما يخرج الإنسان عن العَقْل، وأمّا ما هو دونَ ذلك فلا. وليس قوله: «فاجتنبوني لا أوثِر في أشعاركم وأبشاركم» محمول على ظاهره، وإنّما أراد به المبالغة في وصف القوة الغضبيّة عنده، وإلاّ فما سمعنا ولا نقَل ناقلٌ من الشّيعة ولا من غير الشّيعة أنّ أبا بكر في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في الجاهليّة ولا في أيّام خلافته احتدّ على إنسان فقام إليه فضَرَبه بيَدِه ومزّق شَعره.

فأما ما حكاه قاضي القضاة عن الشّيخ أبي عليّ من تشبيه هذه اللفظة بما ورد في القرآن؛ فهو على تقدير أن يكون أبو بكر عَنَى الشيطانَ حقيقة. وما اعترض به المرتضى ثانيةً عليه غيرُ لازم، لأنّ الله تعالى قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾(١)، وتعقّب ذلك قبولهما وسوسته، وأكلهما من الشجرة، فكيف يقول المرتضى: ليس قول أبي بكر بمنزلة مَن وَسْوَس له الشيطان فلم يُطِعه! وكذلك قولُه تعالى في قصّة موسى لما قَتَل القبطيّ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾(٢)، وكذلك قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾(٣)، وقوله: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾(٤)، وما ذهب إليه المرتضى من التأويلات مبنيّ على مذهبه في العصمة الكليّة، وهو مذهب يحتاج في نُصْرته إلى تكلّف شديد وتعسّف عظيم في تأويلِ الآيات؛ على أنّه إذا سُلّم أنّ الشيطانَ ألقى في تلاوة الرسول صلى الله عليه وآله ما ليسَ من القرآن حتى ظنه السامعون كلاماً من كلام الرسول، فقد نَقَض دلالة التنفير المقتضية عنده في العِصْمة، لأنّه لا تنفيرَ عنده أبلغ من تمكين الله الشيطانَ أن يَخلط كلامَه بكلامه، ورسوله يؤدّيه إلى المكلّفين حتى يعتقدَ السامعون كلّهم أن الكلامين كلامٌ واحد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٦.
(٤) سورة الحج، الآية: ٥٢.

وأمّا قوله: إن آدمَ كان مندوباً إلى ألاّ يأكل من الشّجرة لا محرّم عليه أكلها، ولفظة «عَصَى» إنما المراد بها خالف المندوب، ولفظة «غوَى»؛ إنما المراد «خابَ» من يحث لم يستحقّ الثواب على اعتماد ما نُدِب إليه؛ فقولٌ يدفعه ظاهر الآية، لأنّ الصيغة صيغة النهي، وهي قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[1] والنهي عند المرتضى يقتضي التحريم لا محالة، وليس الأمر الّذي قد يراد به النّدب، وقد يراد به الوُجوب.

وأما قولُ شيخنا أبي عليّ: إنّ كلام أبي بكر خرج مخرج الإشفاق والحَذَر من المعصية عند الغضب فجيّد.

واعتراض المرتضى عليه بأنه ليس ظاهر اللّفظ ذاك غيرُ لازم، لأنّ هذه عادةُ العرب، يعبّرون عن الأمر بما هو منه بسَبَب وسبيل، كقولهم: لا تَدْنُ من الأسَد فيأكُلَك، فليس أنّهم قطعوا على الأكل عند الدنوّ، وإنّما المراد الحَذَر والخوف والتوقُّع للأكل عند الدّنوّ.

وأما الكلام في قوله: «أقيلوني»، فلو صَحّ الخبرُ لم يكن فيه مطعن عليه، لأنه إنما أراد في اليوم الثاني اختبارَ حالهم في البيعة التي وقعتْ في اليوم الأول ليعلم وليَّه مِن عدوِّه منهم؛ وقد روى جميع أصحاب السِّيَر أن أمير المؤمنين خطب في اليوم الثاني من بيعته فقال: أيّها النّاس؛ إنّكم بايعتموني على السمع والطاعة، وأنا أعرض اليوم عليكم ما دعوتموني إليه أمس، فإن أجَبْتم قعدتُ لكم، وإلاّ فلا أجِد على أحد.

وليس بجيّد قولُ المرتضى: إنه لو كان يريدُ العرْض والبذْل لكان قد قال كذا وكذا، فإنّ هذه مُضايقة منه شديدةٌ للألفاظ، ولو شرَعْنا في مِثل هذا لفَسَد أكثرُ ما يتكلم به الناس. على أنّا لو سلمنا أنه استقالهم البَيْعة حقيقةً، فلم قال المرتضى: إنّ ذلك لا يجوز؟ أليس يجوز للقاضي أن يستقيل من القضاة بعد توليته إيّاه، ودخوله فيه! فكذلك يجوز للإمام أن يستقيل من الإمامة إذا أنس من نفسه ضَعْفاً عنها، أو أنس من رعيّته نبْوةً عنه، أو أحَسّ بفساد ينشأ في الأرض من جهة ولايته على الناس؛ ومَن يذهب إلى أن الإمامة تكون بالاختيار كيف يمنع من جواز استقالة الإمام وطلبه إلى الأمة يختاروا غيره لعذْر يعلمه من حال نفسه! وإنما يمنع من ذلك المرتضى وأصحابه القائلون بأنّ الإمامة بالنصّ، وإنّ الإمام محرَّم عليه ألا يقوم بالإمامة، لأنه مأمور بالقيام بها لتعينه خاصةً دون كلّ أحدٍ من المكلّفين. وأصحاب الاختيار يقولون: إذا لم يكن زيد إماماً كان عمرٌو إماماً عوضَه، لأنهم لا يعتبرون الشروط التي يعتبرها الإمامية من العِصْمة، وأنه أفضل أهل عصره وأكثرُهم ثواباً وأعلمهم وأشجعهم، وغير ذلك من الشروط التي تقتضي تفرّده وتوحّده بالأمر، على أنه إذا جاز عندهم أن يترك الإمام الإمامة في الظّاهر كما فعَلَه

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

الحسن، وكما فعَلَه غيرُه من الأئمة بعد الحسين عليه السلام للتّقية، جاز للإمام على مذهب أصحاب الاختيار أن يترُك الإمامة ظاهراً وباطناً لعُذْر يَعلمه من حال نفسه أو حالِ رعيّته.

الطعن الثاني: قال قاضي القضاة بعد أنْ ذكر قول عمرَ: «كانت بيعةُ أبي بكْر فَلْتة» - وقد تقدّم منا القولُ في ذلك في أوّل هذا الكتاب: ومما طعنوا به على أبي بكر أنه قال عند موته: ليتني كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثلاثة، فذَكَر في أحدها: لَيْتَني كنتُ سألتُه: هل للأنصار في هذا الأمر حقّ؟ قالوا: وذلك يُدلّ على شكّه في صحة بيعته، وربما قالوا: قد رُوِي أنه قال في مَرَضه: ليتني كنتُ تركتُ بيت فاطمة لم أكْشِفه(١)، وليتني في ظُلّة بني ساعِدة كنتُ: ضربتُ على يَدِ أحد الرّجلين، فكان هو الأمير، وكنتُ الوزير. قالوا: وذلك يدلّ على ما رُوِي من إقدامه على بيت فاطِمة عليها السلام عند اجتماع عليٍّ عليه السلام والزّبير وغيرهما فيه، ويدُلّ على أنه كان يرَى الفضل لغيره لا لنفسه.

قال قاضي القضاة: والجوابُ أن قوله: «ليتني» لا يَدُلّ على الشكّ فيما تمنّاه، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(٢) أقوى من ذلك في الشّبهة. ثم حمل تمنّيه على أنه أراد سماع شيءٍ مفصَّل، أو أراد: ليتني سألتُه عند الموت، لِقُرب العهد، لأنّ ما قَرُب عهدُه لا يُنسى ويكونُ أردعَ للأنصار على ما حاولوه. ثم قال: على أنه ليس في ظاهره أنه تمنّى أن يسأل: هل لهم حقٌّ في الإمامة أم لا؟ لأنّ الإمامة قد يتعلق بها حقوقٌ سواها. ثم دَفع الرّواية المتعلقة ببيت فاطمة عليها السلام(٣)، وقال: فأما تمنّيه أن يبايع غيرَه؛ فلو ثبت لم يكن ذمًّا لأنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فهو يتمنى خِلافه.

اعترض المرتضى رحمه الله هذا الكلام فقال: ليس يجوز أن يقول أبو بكر: «ليتني كنتُ سألتُ عن كذا». إلا مع الشكّ والشبهة، لأنّ مع العلم واليقين لا يجوز مِثلُ هذا القول، هكذا يقتضي الظاهر، فأمّا قولُ إبراهيم عليه السلام، فإنما سَاغ أن يُعدَل عن ظاهره لأن الشك لا يجوز على الأنبياء، ويجوز على غيرهم؛ على أنه عليه السلام قد نفى عن نفسه الشكَّ بقوله: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(٤)، وقد قيل: إن نُمْروذَ قال له: إذا كنت تزعمُ أنّ لك ربًّا يُحيي الموتى فاسأله أن يُحيي لنا ميّتاً إن كان على ذلك قادِراً، فإن لم تفعل ذلك قتلتُك، فأراد بقوله: ﴿وَلَٰكِن

---

(١) ذكره الطبراني في الكبير: ١/ ٦٢، والذهبي في التاريخ: ٣/ ١١٧، والمتقي الهندي في الكنز ح ١٤١١٣، وابن عبد البر في العقد: ٤/ ٢٥٤، والهيثمي في المجمع ٥/ ٣٦٧، والمسعودي في المروج: ٢/ ٣٠١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٣) تقدم منّا تفصيل الكلام حول ذلك في الأجزاء السابقة.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، أي لآمَنَ توعُّدَ عدوّك لي بالقتل. وقد يجوز أن يكون طلب ذلك لقَوْمه وقد سألوه أن يَرغَب إلى الله تعالى فيه فقال: ليطمئن قلبي إلى إجابتك لي، وإلى إزاحةِ عِلّة قومي، ولم يرد: ليطمئن قلبي إلى أنك تقدِر على أن تُحييَ المَوْتى؛ لأنّ قلبي قد كان بذلك مطمئناً؛ وأيّ شيء يريد أبو بكر من التفضيل أكثر من قوله: «إن هذا الأمر لا يَصلُح إلاّ لهذا الحيّ من قريش»! وأيّ فرق بين ما يقال عندَ الموت وبين ما يقال قبله إذا كان محفوظاً معلوماً، لم تُرفع كلمةٌ ولم تُنسَخ!

وبعد، فظاهرُ الكلام لا يقتضي هذا التخصيصَ، ونحن مع الإطلاق والظاهر. وأي حق يجوز أن يكون للأنصار في الإمامة غير أن يتولاها رجل منهم حتى يجوز أن يكون الحقّ الذي تمنّى أن يَسأل عنه غير الإمامة! وهل هذا إلاّ تَعَسُّفٌ وتكلُّفٌ! وأيّ شُبهة تبقى بعد قول أبي بكر: ليتني كنتُ سألته: هل للأنصار في هذا الأمر حقّ فكنا لا ننازعه أهله؟ ومعلومٌ أن التنازع لم يقع بينهم إلا في الإمامة نفسها، لا في حَقٍّ آخر من حقوقها.

فأما قوله: إنّا قد بينا أنه لم يكن منه في بيت فاطمة ما يُوجب أن يتمنى أنه لم يفعله؛ فقد بينا فساد ما ظنّه فيما تقدم.

فأما قوله: إن من اشتدّ التكليفُ عليه قد يتمنّى خِلافه؛ فليس بصحيحٍ؛ لأنّ ولاية أبي بكر إذا كانت هي التي اقتضاها الدين، والنظر للمسلمين في تلك الحال وما عداها كان مفسدة، ومؤدّياً إلى الفتنة، فالتمنّي لخلافها لا يكون إلاّ قبيحاً.

قلت: أما قول قاضي القضاة: إن هذا التمنّي لا يقتضي الشكَّ في أن الإمامة لا تكون إلاّ في قريش، كما أن قول إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، لا يقتضي الشكّ في أنه تعالى قادرٌ على ذلك فجيّد.

فأما قولُ المرتضى: إنما ساغَ أن يُعدَل عن الظاهر في حقّ إبراهيم لأنه نبيٌّ معصوم لا يجوز عليه الشك؛ فيقال له: وكذلك ينبغي أن يُعدَل عن ظاهر كلام أبي بكر، لأنه رجل مُسلم عاقل، فحسنُ الظنّ به يقتضي صيانة أفعاله وأقواله عن التناقض. قوله: إن إبراهيم قد نفى عن نفسه الشك بقوله: «بلى ولكن ليطمئن قلبي» قلنا: إن أبا بكر قد نفى عن نفسه الشك بدَفع الأنصار عن الإمامة وإثباتها في قرَيش خاصة، فإن كانت لفظة «بلى» دافعةً لشك إبراهيم الذي يقتضيه قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، ففعل أبي بكر وقَوْله يومَ السَّقيفة يَدفَع الشكّ الذي يقتضيه قوله: «ليتني سألتُه»، ولا فرق في دفع الشك بين أن يتقدّم الدافعُ أو يتأخر أو يُقارن.

ثم يقال للمرتضَى: ألستَ في هذا الكتاب - وهو «الشافي» - بيّنت أن قصة السَّقيفة لم يجرِ فيها ذكرُ نصٍّ عن رسول الله ﷺ بأن الأئمة من قريش، وأنه لم يكن هناك إلاّ احتجاج أبي

بكر وعمرَ بأن قريشاً أهلُ النبي صلى الله عليه وآله وعشيرتُه، وأن العرب لا تطيع غيرَ قريش؛ وذكرتَ عن الزّهريّ وغيره أن القول الصّادر عن أبي بكر: إن هذا الأمرَ لا يصلح إلا لهذا الحيِّ من قريش، ليس نَصًّا مَرْوِيًّا عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنما هو قولٌ قاله أبو بكر من تلقاء نفسه، ورَوَيْت في ذلك الروَايات، ونقلت من الكتب من تاريخ الطبريّ وغيره صورة الكلام والجدال الدائر بينه وبين الأنصار! فإذا كان هذا قولك فلِمَ تنكرُ على أبي بكر قوله: ليتني كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله: هل للأنصار في هذا الأمر حق! لأنه لم يَسمع النصّ ولا رواه ولا روي له؛ وإنما دفع الأنصارَ بنوع من الجَدَل؛ فلا جَرَم بقِيَ في نفسه شيء من ذلك، وقال عند موته: ليتني كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله.

وليس ذلك مما يقتضِي شكَّه في بَيْعته كما زعم الطاعن، لأنه إنما يشكّ في بيعته لو كان قال قائل أو ذَهب ذاهب إلى أن الإمامةَ ليست إلا في الأنصار، ولم يقل أحدٌ ذلك، بل النزاع كان في: هل الإمامة مقصورةٌ على قريش خاصةً، أم هي فوضى بين الناس كلِّهم؟ وإذ كانت الحالُ هذه لم يكن شاكًّا في إمامته وبَيْعته بقوله: «ليتني سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله: «هل للأنصار في هذا حق؟» لأنَّ بَيْعته على كلا التقديرين تكون صحيحةً.

فأما قولُ قاضي القُضاة: لعله أراد حقًّا للأنصار غير الإمامة نفسها؛ فليس بجيّدٍ، والذي اعترضه به المرتضى جيّد، فإن الكلام لا يدُلّ إلا على الإمامة نفسها، ولفظة المنازعة تؤكّد ذلك.

وأما حديث الهجوم على بيت فاطمة عليها السلام فقد تقدّم الكلام فيه، والظاهرُ عندي صحة ما يَرْويه المرتضى والشيعة، ولكن لا كلّ ما يزعمونه، بل كان بعض ذلك، وحقٌّ لأبي بكر أن يندم ويتأسّف على ذلك، وهذا يدلّ على قوة دينه وخوفه من الله تعالى، فهو بأن يكون منقبةً له أولى من كونه طَعناً عليه(١).

فأمّا قولُ قاضي القُضاة: إنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فقد يتمنّى خلافه واعتراضُ المرتضَى عليه، فكلام قاضي القضاة أصحّ وأصوَب، لأنَّ أبا بكر - وإن كانت ولايتُه مصلحةً وولايةُ غيرِه مفسَدة - فإنّه ما يتمنّى أن يكون الإمامُ غيرَه، مع استلزام ذلك للمفسَدة، بل تمنّى أن يليَ الأمرَ غيرُه وتكون المصلحة بحالها، الا تَرى أن خصالَ الكفّارة في اليَمين كلّ واحدة منها مَصلَحة، وما عَداها لا يقوم مَقامَها في المصلحة، وأحدُها يقومُ مَقامَ الأخرى في المَصلَحة! فابو بكر تَمنّى أن يَليَ الأمرَ عُمر أو أبو عُبَيدة بشَرْطِ أن تكونَ المصلحة الدّينيّة الّتي تَحصُل من بَيعته حاصلةً من بَيْعة كلّ واحدٍ من الآخَرِين.

---

(١) هل أن هتك بيوت أبناء الأنبياء بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بيوم أصبح فضيلة؟!

الطعن الثالث: قالوا: إنّه ولّى عمرَ الخِلافة، ولم يولّه رسول الله ﷺ شيئاً من أعمالِه البتّةَ إلاّ ما ولاّه يومَ خَيْبَر، فرَجع منهزماً وولاّه الصدقة، فلمّا شكاه العبّاس عزَلَه.

أجاب قاضي القضاة بأنّ تركَه عليه السلام أن يولّيَه لا يَدلّ عَلَى أنّه لا يَصلُح لذلك، وتوليتُه إيّاه لا يَدُلّ على صَلاحِيّته للإمامة، فإنَّه ﷺ قد وَلّى خالدَ بن الوليد وعمرو بن العاص، ولم يدلّ ذلك على صلاحيتهما للإمامة، وكذلك تركه أن يولّى لا يدل على أنّه غيرُ صالح، بل المعتَبر بالصّفات الّتي تَصلُح للإمامة، فإذا كَمَلتْ صَلَح لذلك، وُلّيَ من قبلُ أو لم يُوَلّ، وقد ثَبتَ أنّ النبيّ ﷺ تَرَك أن يولّيَ أمير المؤمنين عليه السلام أموراً كثيرةً ولم يُجبْ إلا من يَصلُح لها، وثبت أن أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولّ الحسين عليه السلام ابنَه، ولم يَمنَع ذلك من أن يَصلُح للإمامة.

وحُكِيَ عن أبي عليّ أنَّ ذلك إنّما كان يَصحّ أن يتعلّق به لو ظَفِروا بتقصير من عمر فيما تولاّه، فأمّا وأحواله معروفة في قيامه بالأمر حِينَ يَعجَز غيرُه، فكيف يصحّ ما قالوه! وبعد فهلاّ دَلّ ما رُوِي من قوله: وإنْ تُولّوا عمر تجدُوه قويًّا في أمرِ الله، قويًّا في بدنه على جواز ذلك! وإن ترْك النبي صلّى الله عليه وآله تَوليته، لأنَّ هذا القول أقوَى من الفِعل.

اعترَض المرتضَى رحمه الله فقال: قد عَلِمنا بالعادة أن من تَرشَّحَ لكبَار الأمور لا بدّ من أن يُدرَّج إليها بصِغارِها، لأنَّ من يريد بعضُ المُلوك تأهيلَه للأمر من بَعدِه لا بدّ من أن ينبّه عليه بكلّ قول وفعل يدلّ على ترشيحه لهذه المنزلة، ويستكفيه من أمور ولاياته ما يعلَم عندَه أو يغلب على ظنّه صلاحُه لما يريدُه له. وإن من يَرَى الملِك مع حضوره وامتدادِ الزمان وتطاوُله لا يستكفيه شيئاً من الولايات، وَمَتى ولاّه عَزَله؛ وإنما يولّي غيرَه ويَستكفي سواه، لا بدّ أن يَغلِب في الظّن أنه ليس بأهلٍ للولاية، وإن جوّزنا أنّه لم يولّه لأسبابٍ كثيرة سِوَى أنه لا يَصلُح للولاية، إلاّ أن مع هذا التجويز لا بدّ أن يَغْلب على الظنّ بما ذكرناه. فأما خالد وعَمْرو فإنّما لم يَصلُحا للإمامة لفَقْد شروط الإمامة فيهما، وإن كانا يَصلُحان لما وَلِياه من الإمارة، فترك الولاية مع امتداد الزّمان وتَطاوُل الأيّام، وجميع الشروط التي ذكَرْناها تَقتضِي غَلَبة الظنّ لفَقْد الصّلاح، والولاية لشيء لا تدلّ على الصّلاح لغيره إذا كانت الشرائطُ في القيام بذلك الغير معلوماً فقدُها. وقد نجد الملك يولّي بعضَ أموره من لا يَصلُح للمُلك بعده لظهور فقْدِ الشرائط فيه، ولا يجوز أن يكون بحضْرَته من يُرَشّحه للمُلْك بعدَه، ثم لا يُوليّه على تَطاول الزمان شيئاً من الولايات. فبان الفَرْق بين الولاية وتركِها فيما ذكرناه.

فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام وإن لم يتولّ جميع أمورِ النبيّ ﷺ في حياتِه، فقد تولّى أكثَرَها وأعظَمَها وخَلَفَه في المدينة، وكان الأميرَ على الجيْش المبعوثِ إلى خَيْبَر، وجَرَى الفتحُ على يديه بعد انهزام مَن انهَزَم منها، وكان المؤدّي عنه سورة براءة بعد عَزْل من عَزَل عنها وارتجاعها منه؛ إلى غير ذلك من عظيم الولايات والمقامات بما يَطُول شرحُه، ولو لم يكن إلاّ أنّه لم يُولّ عليه والياً قطّ لكفى.

فأمّا اعتراضُه بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يولِّ الحسينَ فبعيدٌ عن الصواب، لأن أيّام أميرِ المؤمنين عليه السلام لم تَطُلْ فيتمكّن فيها من مراداته، وكانت على قِصَرِها منقسمةً بين قتال الأعداءِ، لأنّه عليه السلام لمّا بُويع لم يَلبَث أن خَرَج عليه أهلُ البَصرة فاحتاج إلى قتالهم، ثم انكفأ مِن قتالهم إلى قتالِ أهلِ الشام، وتعقّب ذلك قتالُ أهل النّهروان، ولم تستقرّ به الدارُ ولا امتدّ به الزمان، وهذا بخلاف أيّام النبيّ صلّى الله عليه وآله التي تطاولتْ وامتدّت، على أنّه قد نَصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحَسَن، وإنّما تُطلَب الولايات لغَلَبة الظنّ بالصّلاح للإمامة.

فإن كان هناك وجهٌ يَقتضِي العلمَ بالصّلاح لها كان أَولَى من طريق الظنّ، على أنّه لا خلاف بين المسلمين أنّ الحسينَ عليه السلام كان يَصلُح للإمامة وإن لم يُولِّه أبُوه الولايات، وفي مِثل ذلك خلافٌ من حالِ عمرَ، فافترقِ الأمران. فأمّا قوله: إنه لم يعثر على عمرَ بتقصير في الولاية، فمن سَلّم بذلك! أو ليسَ يَعلَم أنّ مخالفتَه تُعَدّ تقصيراً كثيراً، ولو لم يكن إلاّ ما اتّفق عليه من خَطئِه في الأحكام ورجوعِه من قولٍ إلى غيره، واستفتائِه الناسَ في الصغير والكبير، وقوله: كلّ الناس أفقهُ من عمرَ، لكان فيه كفاية. وليس كلّ النهوض بالإمامة يَرجع إلى حُسْن التدبير والسّياسة الدنياويّة وَرمّ[1] الأعمال والاستظهار في جِباية الأموال وتَمصِير الأمصار ووَضْع الأعشار، بل حَظّ الإمامة من العِلم بالأحكام والفُتْيا بالحَلال والحرام، والناسخ والمنسوخ، والمحكَم والمتشابه أقوَى، فمن قصّر في هذا لم يَنفعه أن يكون كامِلاً في ذلك.

فأمّا قوله: فهلاّ دلّ ما رُوِي من قوله عليه السلام: فإن «ولَّيتُم عمرَ وجدتموه قويًّا في أمرِ الله قويًّا في بَدَنه»، فهذا لو ثبتَ لدَلّ، وقد تقدّم القولُ عليه. وأقوَى ما يُبطله عدولُ أبي بكر عن ذكره، والاحتجاجُ به لمّا أراد النصَّ على عمرَ، فعُوتبَ على ذلك وقيل له: ما تقول لربّك إذْ وَلّيتَ علينا فَظًّا غليظاً! فلو كان صحيحاً لكان يَحتجّ به ويقول: وَلّيتُ عليكم مَن شَهد النبيُّ صلّى الله عليه وآله بأنّه قويّ في أمرِ الله، قويٌّ في بَدَنه. وقد قيل في الطعن على صحّة هذا الخبر: إنّ ظاهرَه يَقتضِي تفضيل عمرَ على أبي بكر، والإجماع بخلاف ذلك، لأنّ القوّة في الجسم فَضل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[2]. وبعد، فكيف يُعارض ما اعتَمدْناه من عُدولِه عليه السلام عن ولايته - وهو أمرٌ معلومٌ - بهذا الخبرِ المردود المدفوع!

قلتُ: أمّا ما ادّعاه من عادة الملوك، فالأمر بخلافه، فإنّا قد وَقَفنا على سِيَر الأكاسِرة ومُلوك الرُّوم وغيرهم فما سَمِعنا أن أحداً منهم رَشّح ولدَه للمُلك بعدَه باستعماله على طَرَف من

---

(١) رَمُّ الأعمال: إصلاحها. القاموس المحيط، مادة (رمم).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

الأطراف، ولا جَيْش من الجيوش، وإنّما كانوا يثقِّفونهم بالآداب والفُروسيّة في مَقارّ مُلْكهم لا غير، والحالُ في ملوكِ الإسلام كذلك، فقد سَمِعنا بالدولة الأمويّة، ورأينا الدولةَ العبّاسيّة، فلم نَعرِف الدولَ التي ادعاها المرتضَى، وإنّما قد يقع في الأقلّ النادر شيءٌ ممّا أشار إليه، والأغلب الأكثرُ خلاف ذلك.

على أنّ أصحابَنا لا يقولون إنّ عمر كان مرشّحاً للخلافة بعدَ رسول الله ﷺ ليقالَ لهم: فلو كان قد رَشَّحه للخلافة بعدَه لاستكفاه كثيراً مِن أمورِه؛ وإنّما عمرُ مرشَّح عندَهم في أيّام أبي بكر للخلافة بعدَ أبي بكر، وقد كان أبو بكر استعمَله على القَضاء مدّةَ خلافته، بل كان هو الخليفة في المعنى، لأنه فَوّض إليه أكثرَ التدبير، فعَلَى هذا يكون قد سَلّمنا أنّ تركَ استعمالِ النبيّ ﷺ لعمرَ يَدُلّ على أنّه غيرُ مرشَّح في نظره للخلافة بعدَه، وكذلك نقول: ولا يَلزَم مِن ذلك ألا يكون خليفةً بعد أبي بكر، على أنّا لا نسلّم أنّه ما استعمَله.

فقد ذكر الواقديُّ وابن إسحاق أنّه بعثه في سَريّة في سنة سبعٍ من الهجرة إلى الوادي المعروف ببُرَمة - بضم الباء وفَتْح الراء - وبها جمعٌ من هَوازِن، فخرج ومعه دليلٌ من بين هلال، وكانوا يسيرون اللّيلَ ويكمنُون النّهار، وأتى الخبرُ هَوازن فهرَبوا، وجاء عُمَر محالَّهم، فلم يَلقَ منهم أحداً، فانصرَف إلى المدينة.

ثم يُعارض المرتضَى بما ذكره قاضي القُضاة من تَرْك توليةِ عليّ ابنه الحسين عليه السلام، وقوله في العُذر عن ذلك: إنّ عليًّا عليه السلام كان ممنوًّا بحَرْب البُغاة والخَوارج لا يدفع المُعارضَةَ؛ لأنّ تلك الأيّام التي هي أيام حروبه مع هؤلاء هي الأيام الّتي كان ينبغي أن يولّي الحسين عليه السلام بعض الأمور فيها، كاستعماله على جَيْش ينفذه سَريّة إلى بعض الجهات، واستعماله على الكُوفة بعد خروجه منها إلى حرب صِفين، أو استعماله على القضاء، وليس اشتغالُه بالحرب بمانع له عن ولاية ولدِه، وقد كان مشتغِلاً بالحَرْب، وهو يولّي بني عمّه العبّاس الولايات والبلادَ الجليلة.

فأمّا قوله: على أنّه قد نصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحَسَن؛ فهذا يُغْني عن توليَتِه شيئاً من الأعْمال؛ فلِقائل أن يَمنَع ما ذَكره من حديث النصّ، فإنّه أمرٌ تَنفرد به الشّيعة وأكثرُ أربابِ السِّيَر والتّواريخ لا يَذكرون أن أميرَ المؤمنين عليه السلام نَصّ على أحدٍ. ثم إن ساغَ له ذلك ساغ لقاضي القضاة أن يقول: إنّ قولَ النبيّ ﷺ: «اقتدوا باللّذَيْن مِن بعدي: أبي بكر وعمر»[1]؛ يغني عن توليةِ عمرَ شيئاً من الولايات، لأنّ هذا القول آكَدُ من الولاية في تَرَشُّحه للخلافة.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر وعمر كليهما (٣٦٦٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٧٣٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل أبي بكر (٩٧)، والحاكم في مستدركه (٤٤٥١).

فأمّا قوله: على أنّه لا خلافَ بين المسلمين في صَلاحِيَة الحُسين للخلافة وإن لم يولّه أبوه الوِلايات، وفي عمرَ خلافٌ ظاهرٌ بين المسلمين؛ فلِقائلٍ أن يقول له: إجماعُ المسلمين على صلاحيةِ الحُسَين للخلافة لا يَدفَع المعارضة، بل يؤكّدها، لأنّه إذا كان المسلمون قد أجمَعوا على صَلاحِيَته للخلافة ولم يكن تَرْكُ توليَة أبيه إيّاه الولايات قادحاً في صَلاحِيَته لها بعدَه، جاز أيضاً أن يكون تَرْك توليةِ رَسولِ الله صلّى الله عليه وآله عمر الوِلايات في حَياته غيرَ قادحٍ في صَلاحِيته للخلافة بعدَه.

ثمّ ما ذكره من تقصير عمرَ في الخلافة بطريق اختلافِ أحكامِه، ورجوعه إلى فتاوى العلماء، فقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم لمّا تكلّمنا في مطاعن الشّيعة على عمرَ وأجَبْنا عنه.

وأمّا قولُه: لا يُغْنِي حُسْن التدبير والسّياسة ورمّ الأمور، مع القُصور في الفقه، فأصحابُنا يذهبون إلى أنّه إذا تَساوَى اثنان في خصال الإمامة إلاّ أنّه كان أحدهما أعلَم والآخر أسْوس، فإن الأسْوس أوْلى بالإمامة، لأنّ حاجةَ الإمامة إلى السّياسة وحُسْن التدبيرِ آكَدُ من حاجتها إلى العِلْم والفِقْه.

وأمّا الخبر المَروِيّ في عمرَ - وهو قولُه: وإنْ تُوَلُّوها عمرَ - فيجوز ألاّ يكون أبو بكر سَمِعَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون الرّاوي له غيره، ويجوز أن يكون سَمِعه وشَذّ عنه أن يَحتجّ به على طَلحة لَمّا أنكر استخلافَ عَمر، ويجوز ألا يكون شَذّ عنه وتَرَك الاحتِجاجَ به استغناءً عنه لعلمه أنّ طلحةَ لا يُعتَدّ بقوله عند الناس إذا عارض قوله. ولعلّه كَفى عن هذا النصّ بقوله: إذا سألني ربّي قلتُ له: استخلفتُ عليهمْ خيرَ أهلِك؛ على أنّا مَتَى فتحْنا باب «هلاّ احتجّ فلان بكذا» جَرّ علينا ما لا قِبَل لنا به. وقيل: هلا احتجّ عليّ عليه السلام على طلحةَ وعائشةَ والزبير بقول رسولِ الله صلّى الله عليه وآله: «مَن كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه»[(١)]، وهلاّ احتجّ عليهم بقوله: «أنتَ منّي بمنزلةِ هارون من موسى»[(٢)]، ولا يُمكن الشّيعة أن يعتذروا ها هنا بالتقيّة، لأنّ السّيوف كانت قد سُلّت من الفريقين، ولم يكن مقام تَقِيّة[(٣)].

وأمّا قولُه: هذا الخبر لو صحّ لاقتضى أن يكون عمرُ أفضلَ من أبي بكر، وهو خلافُ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٣)، وابن ماجه في المقدمة، باب: فضل علي (١٢١)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٣١)، والحاكم في «مستدركه» (٤٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن علي طالب (٣٧٠٦)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي (٢٤٠٤).

(٣) احتجاج أمير المؤمنين بالغدير على أبي بكر وعثمان وغيرهم من الصحابة يكفي لذلك، وعدم احتجاجه على طلحة لسماع طلحة هذه الاحتجاجات منه.

إجماعِ المسلمين؛ فلقائل أن يقول: لم قلتَ إنّ المسلمين أجمعوا على أنّ أبا بكر أفضلُ من عمرَ، مع أنّ كُتُبَ الكلام والتصانيف المصنَّفة في المقالات مشحونةٌ بذكر الفِرْقة العُمَريّة، وهم القائلون إنَّ عمر أفضلُ من أبي بكر، وهي طائفةٌ عظيمةٌ من المسلمين، يقال: إنَّ عبدَ الله بن مسعود منهم، وقد رأيتُ أنَّ جماعةً من الفقهاء يَذهبون إلى هذا، ويُناظرون عليه؛ على أنّه لا يدلّ الخبرُ على ما ذكَرَه المرتضى، لأنّه وإن كان عمرُ أفضلَ منه باعتبار قوّة البدن، فلا يدلّ على أنّه أفضلُ منه مطلقاً، فمن الجائز أن يكون بإزاء هذه الخَصْلة خصالٌ كثيرة في أبي بكر من خصالِ الخير يُفضَّل بها على عُمَر، ألا تَرَى أنّا نقول: أبو دُجانة أفضل من أبي بكر بجهاده بالسّيف في مَقام الحرب، ولا يلزَم من ذلك أن يكون أفضل منه مطلقاً، لأنّ في أبي بكر من خصال الفَضْل ما إذا قيس بهذه الخَصْلة أربى عليها أضعافاً مضاعفة.

الطعن الرابع: قالوا: إنّ أبا بكر كان في جَيْش أسامة، وإنّ رسولَ الله ﷺ كَرّر حين موته الأمرَ بتنفيذ جيشِ أسامة، فتأخُّره يقتضي مخالفةَ الرسول ﷺ. فإن قلتم: إنّه لم يكن في الجيش، قيل لكم: لا شَكّ أنّ عمرَ بنَ الخطّاب كان في الجيش، وأنّه حَبَسه ومَنَعه من النّفوذ مع القوم. وهذا كالأوّل في أنّه معصية، وربّما قالوا: إنّه صلّى الله عليه وآلِه جَعَل هؤلاء القوم في جيش أسامة ليَبْعُدوا بعدَ وفاته عن المدينة، فلا يقع منهم توثّبٌ على الإمامة، ولذلك لم يَجعل أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك الجيش، وجعل فيه أبا بكر وعمرَ وعثمانَ وغيرَهم، وذلك من أوْكَد الدَّلالَة على أنّه لم يرد أن يختاروا للإمامة.

أجاب قاضي القُضاة بأنْ أنكر أوّلاً أن يكون أبو بكر في جيش أسامةَ[1]، وأحالَ على كُتُب المغازي، ثم سلّم ذلك وقال: إنّ الأمرَ لا يقتَضي الفَورَ، فلا يَلزَمَ من تأخّر أبي بكر عن النفوذ أن يكون عاصِياً. ثمّ قال: إنّ خطابه صلّى الله عليه وآله بتنفيذ الجيش يجَب أن يكونَ متوجّهاً إلى القائم بعدَه، لأنّه من خطاب الأئمة، وهذا يقتضي ألا يدخلَ المخاطَب بالتّنفيذ في الجُملة؛ ثم قال؛ وهذا يدلّ عل أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه، لأنّه لو كان لأَقبَل بالخطاب عليه، وخصّه بالأمر بالتنفيذ دونَ الجميع. ثمّ ذَكر أنّ أمر رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لا بدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة وبأن لا يعرض ما هو أهمّ منه، لأنّه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ، وإن أعقب ضرراً في الدين، ثمّ قوى ذلك بأنه لم يُنكر على أسامة تأخُّره، وقوله: «لم أكن لأسأل عنك الرّكْب»؛ ثم قال: لو كان الإمامُ منصوصاً عليه لجاز أن يستردّ جيشَ أسامة أو بعضه لنُصْرته،

---

(١) سوف يأتي من المصنف إثبات كونه في الجيش، وذكر ابن سعد وجودهما فيه أنظر الطبقات: ٢/ ١٤٦، وكذا البلاذري أنظر الأنساب: ح ٨٢٨.

وكذلك إذا كان بالاختيار؛ ثم حكى عن الشيخ أبي عليّ استدلاله على أن أبا بكر لم يكن في جيش أُسامةَ بأنه وَلاّه الصلاة في مَرَضه، مع تكريره أمرَ الجيش بالنّفوذ والخروج.

ثم ذَكَر أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله إنّما يأمرُ بما يتعلّق بمصالح الدّنيا من الحروب ونحوها عن اجتهاده، وليس بواجب أن يكون ذلك عن وَحْي، كما يَجِب في الأحكام الشرعيّة، وأنّ اجتهادَه يجوز أن يخالف بعد وفاته، وإن لم يَجُز في حياته، لأنّ اجتهادَه في الحياة أولى من اجتهاد غيره، ثمّ ذَكَر أنّ العِلّة في احتباس عمر عن الجيش حاجة أبي بكر إليه، وقيامُه بما لا يَقُوم به غيرُه، وأنّ ذلك أحوَطُ للدِّين من نفُوذِه.

ثمّ ذَكَر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حارَبَ معاويةَ بأمر الله تعالى وأمر رسوله، ومع هذا فقد ترك محاربته في بعض الأوقات، ولم يجب بذلك ألا يكون ممتثِلاً للأمر. وذَكَر توليتَه عليه السلام أبا موسى، وتوليَة الرّسول صلّى الله عليه وآله خالدَ بنَ الوليد مع ما جرَى منهما وأن ذلك يقتضِي الشّرط.

ثم ذكر أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضَمّه جيشُ أسامةَ يجب تأخيرهُ ليختار للإمامة أحدهم، فإنّ ذلك أهمّ من نُفوذهم، فإذا جازَ لهذه العِلّة التأخير قبل العَقْد جازَ التأخير بعدَه للمعاضدة وغيرها، وطعن في قولِ مَن جعل إنّ إخراجَهم في الجيش على جهة الإبعاد لهم عن المدينة بأن قال: إنّ بُعدَهم عن المدينة لا يمنَع من أن يختاروا للإمامة، ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعاً على موته لا محالة، لأنّه لم يرد: نفذوا جيْش أسامةَ في حياتي. ثم ذكر أن ولاية أسامةَ عليهما لا تَقتضِي فضلَه وأنّهما دونَه، وذَكر ولاية عَمرو بن العاص عليهما وإن لم يكونَا دونَه في الفضل، وأن أحداً لم يُفضِّل أسامةَ عليهما.

ثم ذكر أنّ السبب في كون عمرَ من جملة جيشِ أسامة أنّ عبد الله بن أبي رَبيعةَ المخزوميّ قال عند ولاية أسامة: تولّي علينا شابٌّ حَدث ونحن مَشيَخة قُريش! فقال عمر: يا رسولَ الله، مُرْني حتّى أضربَ عنُقَه، فقد طَعَن في تأميرك إيّاه؛ ثم قال: أنا أخرُج في جيش أُسامةَ تواضُعاً وتَعظيماً لأمرِه عليه السلام.

اعتَرَض المرتضَى هذه الأجوبة، فقال: أمّا كونُ أبي بكر في جملة جيش أسامةَ فظاهر، فقد ذكره أصحاب السِّيَر والتّواريخ، وقد رَوَى البَلاذُريّ في تاريخه وهو معروفٌ بالثقة والضّبط؛ وبريءٌ من مُمالأة الشّيعة ومقارَبتها، أن أبا بكر وعمرَ معاً كانا في جيش أسامة، والإنكار لما يَجري هذا المجرَى لا يُغني شيئاً، وقد كان يَجب على من أحالَ بذلك على كتُب المغَازي في الجملة أن يومىء إلى الكتاب المتضمِّن لذلك بعينه ليرجعَ إليه، فأمّا خطابُه عليه السلام بالتنفيذ للجَيْش فالمقصودُ به الفور دونَ التّراخي، إمّا مِنْ حيث مُقتضَى الأمر على مذهب مَن يَرَى ذلك لغةً، وإمّا شرعاً من حيثُ وجَدْنا جميع الأمّة من لدُن الصحابة إلى هذا الوقت يَحمِلون أوامِرَه

على الفَوْر، ويَطلُبون في تَراخِيها الأدلّة. ثمّ لو لم يثبتْ كلّ ذلك لكان قولُ أسامةَ: لم أكن لأسألَ عنك الرَّكْب، أوضَحَ دليل على أنّه عقل من الأمرِ الفَوْرَ، لأنّ سؤالَ الرّكب عنه عليه‌السلام بعدَ وفاته لا مَعنى له.

وأمّا قولُ صاحب الكتاب: إنّه لم يُنكر على أسامةَ تأخّره فليس بشيء، وأيّ إنكارٍ أبلَغ من تكرارِه الأمر، وتَردادِه القَوْل في حالٍ يُشغِل عن المهمّ، ويقْطَع الفِكر إلاّ فيها! وقد كرّر الأمرَ على المأمور تارةً بتكرار الأمرِ، وأخرى بغيرِه. وإذا سلّمنا أن أمرَه عليه‌السلام كان متوجّهاً إلى القائم بعدَه بالأمر لتنفيذ الجيش بعد الوَفاة لم يلزَم ما ذَكَره من خروج المخاطب بالتنفيذ عن الجملة؛ وكيف يصحّ ذلك وهو من جملة الجيش، والأمر متضمّن تنفيذ الجيش! فلا بدّ من نُفوذ كلّ من كان في جُملتِه، لأنّ تأخّرَ بعضهم يَسلبُ النافذِين اسمَ الجيش على الإطلاق. أوَ ليس من مذهب صاحب الكتاب أنّ الأمرَ بالشيء أمرٌ بما لا يتم إلا معه! وقد اعتمدَ على هذا في مَواضع كثيرة، فإن كان خُرُوجُ الجيش ونفوذه لا يتمّ إلا بخروج أبي بكر، فالأمر بخروج الجيش أمرٌ لأبي بكر بالنفوذ والخروج، وكذلك لو أقبَل عليه على سَبيل التّخصيص؛ وقال: نفّذوا جيشَ أسامةَ، وكان هو من جملة الجيش، فلا بدّ أن يكون ذلك أمراً له بالخروج. واستدلاله على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه بعموم الأمر بالتنفيذ، ليس بصحيح؛ لأنا قد بيّنا أن الخطاب إنّما توجّه إلى الحاضِرين، ولم يتوجّهْ إلى الإمام بعدَه؛ على أنّ هذا لازمٌ له، لأنّ الإمامَ بعدَه لا يكون إلاّ واحداً، فلَم عَمّم الخطابَ ولم يفرِد به الواحدَ فيقول: لينفذ القائم مِن بعدِي بالأمرِ جيشَ أسامة، فإنّ الحال لا يَختَلف في كون الإمام بعدَه واحداً بين أن يكون منصوصاً عليه أو مختاراً.

وأمّا ما ادّعاه أنّ الشرط في أمرِه عليه‌السلام لهم بالنّفوذ فباطل، لأنّ إطلاقَ الأمر يَمْنع من إثبات الشرط، وإنّما يَثبتُ من الشروط ما يَقتضِي الدليل إثباته من التمكّن والقُدْرة، لأنّ ذلك شرطٌ ثابت في كلّ أمر ورد من حكيم، والمصلحة بخلافِ ذلك، لأنّ الحَكيم لا يأمر بشَرْط المصلحة، بل إطلاق الأمر منه يَقتضِي ثُبوت المصلحة وانتفاء المفْسَدة، وليس كذلك التمكُّن، وما يجرِي مَجراه، ولهذا لا يشْترط أحدٌ في أوامر الله تعالى ورسوله صلى‌الله‌عليه‌وآله بالشّرائع المصلحةَ وانتفاءَ المفْسَدة. وشرَطوا في ذلك التمكّن ورفع التعذّر، ولو كان الإمام منصوصاً عليه بَعيْنه واسمه لَمَا جاز أن يستردّ جيش أسامةَ؛ بخلاف ما ظنّه، ولا يَعزِل مَنْ ولاّه عليه‌السلام ولا يولّي من عَزَله للعِلّة الّتي ذكرناها.

فأمّا استدلال أبي عليّ على أن أبا بكر لم يكن في الجيش بحديث الصلاة، فأوّل ما فيه أنه اعتراف بأن الأمر بتنفيذ الجيش كان في الحياة دونَ بعدِ الوفاة، وهذا ناقضٌ لما بَنى صاحبُ الكتاب عليه أمرَه عليه‌السلام.

ثم إنا قد بيّنا أنه عليه السلام لم يُولّه الصلاةَ وذَكرنا ما في ذلك، ثمّ ما المانع من أن يولّيَه تلك الصلاة إن كان ولاّه إيّاها، ثم يأمرُه بالنفوذ من بعد مع الجَيْش! فإنّ الأمر بالصلاة في تلك الحال لا يقتضي أمرَه بها على التأبيد.

وأمّا ادّعاؤه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يأمرُ بالحُروب وما يتّصل بها عن اجتهادٍ دون الوَحْي، فمعاذَ الله أن يكون صحيحاً، لأنّ حروبَه عليه السلام لم تكن ممّا يختصّ بمَصالح أمور الدنيا، بل للدِّين فيها أقوى تَعَلق، لِما يعودُ على الإسلام وأهلِه بفُتوحه من العزّ والقوّة وعلوّ الكلمة. وليس يَجري ذلك مَجرى أكله وشُربه ونومِه؛ لأنّ ذلك لا تعلّق له بالدّين، فيجوز أن يكون عن رأيه، ولو جاز أن تكونَ مَغازيه وبعوثُه مع التعلّق القويّ لها بالدّين عن اجتهاد لجازَ ذلك في الأحكام.

ثم لو كان ذلك عن اجتهادٍ لما ساغَت مخالفتُه فيه بعدَ وفاته، كما لا تَسوغ في حياته. فكل علّة تمنَع من أحدِ الأمرين هي مانعةٌ من الآخر. فأمّا الاعتذار له عن حَبْس عمرَ عن الجيش بما ذَكَره فباطل؛ لأنّا قد قلنا: إن ما يأمر به عليه السلام لا يسوغُ مخالفتُه مع الإمكان، ولا مُراعاةَ لِما عَساه يَعرِض فيه مِنْ رأي غيره، وأيّ حاجة إلى عمرَ بعد تَمامِ العَقْد، واستقراره، ورضا الأمّة به، على طَرِيق المخالف وإجماعها عليه، ولم يكن هناك فتنةٌ ولا تَنازُع ولا اختلاف يُحتاجُ فيه إلى مُشاوَرته وتدبيره! وكلّ هذا تعلُّلٌ باطل.

فأمّا محاربةُ أمير المؤمنين عليه السلام معاويةَ فإنّما كان مأموراً بها مع التمكّن ووجودِ الأنصار، وقد فَعل عليه السلام مِن ذلك ما وَجَب عليه لمّا تمكّن منه، فأمّا مع التعذّر وفَقْدِ الأنصار فما كان مأموراً بها. وليس كذلك القولُ في جيش أسامة، لأن تأخر من تأخّر عنه كان مع القدرة والتمكّن. فأمّا تولية أبي مُوسَى فلا نَدِري كيف يُشبه ما نحنُ فيه، لأنّه إنّما ولاّه بأن يرجع إلى كتاب الله تعالى فيَحكم فيه وفي خَصْمه بما يقتضيه، وأبو موسى فَعل خلافَ ما جُعل إليه، فلم يكن ممتثِلاً لأمر من ولاّه، وكذلك خالدُ بن الوليد إنّما خالَفَ ما أَمَره به الرسولُ صلى الله عليه وآله فتبرأ من فعله، وكلّ هذا لا يُشِبه أمره عليه السلام بتنفيذ جيشِ أسامةَ أمراً مطلقاً، وتأكيدُه ذلك وتكرارُه له، فأمّا جيشُ أسامةَ فإنّه لم يضمّ من يَصلح للإمامة، فيجوز تأخّرهم ليختار أحدهم على ما ظنّه صاحبُ الكتاب، على أن ذلك لو صحّ أيضاً لم يكن عُذْراً في التأخّر؛ لأنّ مَنْ خرج في الجيش يُمكِن أن يختار وإن كان بعيداً، ولا يَمنَع بُعده من صحّة الاختيار، وقد صَرّح صاحبُ الكتاب بذلك. ثمّ لو صَحّ هذا العُذْر لكان عُذْراً في التأخر قبلَ العَقْد، فأمّا بعد إبرامِه فلا عُذرَ فيه، والمُعاضدة الّتي ادّعاها قد بيّنّا ما فيها.

فأمّا ادّعاء صاحب الكتاب رادًا على من جَعَل إخراجَ القوم في الجيش ليتمّ أمرُ النصّ أن مَنْ أبعَدهم لا يَمنَع أن يختاروا للإمامة فيدلّ على أنّه لم يتبيّن معنى هذا الطّعن على حقيقته،

لأنّ الطاعنَ به لا يقول إنّه أبْعدَهم لئلا يختاروا للإمامة، وإنّما يقول: إنّه أبْعدَهم حتّى يَنتصِب بعدَه في الأرض مَن نصّ عليه، ولا يكون هُناكَ من يُنازِعه ويخالفُه.

وأمّا قولُه: لم يكن قاطعاً على مَوتِه فلا يضرّ تسليمه، أليس كان مُشفِقاً وخائفاً! وعلى الخائف أن يتحرَّز ممّن يَخاف منه. فأمّا قولُه: فإنه لم يرِد: نفذوا الجيشَ في حَياتي فقد بيّنا ما فيه. فأمّا ولاية أسامةَ على من وُلّيَ عليه، فلا بدّ من اقتضائِها لفَضْله على الجماعة فيما كان والياً فيه، وقد دَلّلنا فيما تقدّم من الكتاب على أنّ ولايةَ المَفضُول على الفاضِل فيما كان أفضَل منه فيه قبيحة، فكذلك القولُ في ولايةِ عَمرو بنِ العاص عليهما فيما تقدّم، والقولُ في الأمرَين واحد.

وقوله: إنّ أحداً لم يَدَّعِ فضلَ أسامةَ على أبي بكر وعمرَ، فليس الأمرُ على مَا ظَنّه؛ لأن من ذهب إلى فسادِ إمامةِ المَفضول لا بدّ من أنّ يُفضّل أسامة عليهما فيما كان والياً فيه، فأمّا ادّعاؤه ما ذكَرَه من السبب في دخولِ عمرَ في الجيش فما نعرفه، ولا وقَفْنا عليه إلاّ من كتابه، ثمّ لو صحّ لم يُغنِ شيئاً، لأنّ عمرَ لو كان أفضل من أسامةَ لمَنَعه الرسولُ صلّى الله عليه وآله من الدّخول في إمارته والمَسيرِ تحت لوائِه، والتواضُع لا يَقتضي فعلَ القبيح.

قلتُ: إنّ الكلامَ في هذا الفصل قد تشعّب شُعَباً كثيرة، والمُرتضَى رحمه الله لا يُورِد كلامَ قاضي القُضاة بنصّه، وإنما يَختصِره ويورِدُه مبتوراً، ويُومِىء إلى المعَاني إيماءً لطيفاً، وغرضُه الإيجاز، ولو أورَدَ كلامَ قاضي القضاة بنصّه لكان ألْيَق، وكان أبعَد عن الظِّنَّة، وأدفَعَ لقولِ قائلٍ من خصومه: إنّه يحرّف كلامَ قاضي القضاة، ويذكُرُه على غير وَجْه، ألا تَرَى أنّ من نَصَب نفسَه لاختصار كلامٍ فقد ضمن على نفسه أنّه قد فَهِم معانيَ ذلك الكلام حتى يصحّ منه اختصاره؛ ومن الجائز أنْ يظنّ أنّه قد فَهِم بعضَ المواضع ولم يكن قد فَهِمه عل الحَقيقة، فيختصِر ما في نفسه؛ لا ما في تَصنِيف ذلك الشخص، وأمّا من يُورِد كلامَ الناس بنصّه فقد استَراحَ من هذه التَّبِعة، وعَرَض عقلَ غيره وعقلَ نفسِه على الناظرين والسامِعين.

ثم نقول: إنّ هذا الفصل ينقسم أقساماً:

منها قولُ قاضي القُضاة: لا نُسلّم أنّ أبا بكر كان في جيش أسامة.

وأمّا قولُ المرتَضى: إنه قد ذكره أربابُ السِّيَر والتواريخ، وقولُه: إنّ البَلاذُرِيّ ذكره في تاريخه، وقولُه: هلاّ عَيّنَ قاضي القُضاة الكتابَ الّذي ذَكَر أنّه يتضمّن عدَم كون أبي بكر في ذلك الجيش! فإنّ الأمرَ عندي في هذا الموضع مشتبه، والتواريخ مختلِفة في هذه القضيّة، فمنهم من يقول: إن أبا بكر كان في جُملة الجيش، ومنهم من يقول: إنّه لم يكن، وما أشار إليه

قاضي القُضاة بقوله في كتب المغازِي لا ينتهي إلى أمر صحيح، ولم يكن ممَّن يستحلُّ القول بالباطل في دينه ولا في رئاسته. ذَكَر الواقدي في كتاب المغازِي أنَّ أبا بكر لم يكن في جيش أسامة، وإنما كان عمرُ، وأبو عُبيدة، وسعدُ بنُ أبي وَقَّاص، وسعيدُ بنُ زيد بنِ عمرو بن نُفَيْل، وقَتادة بنُ النُّعمان، وسَلَمة بن أسلَم، ورجالٌ كثيرٌ من المهاجرين، والأنصار، قال: وكان المنكر لإمارة أسامةَ عيَّاشُ بنُ أبي رَبِيعة. وغيرُ الواقديِّ يقول: عبدُ الله بنُ عَيَّاش؛ وقد قيل: عبدُ الله بنُ أبي ربيعة أخو عَيَّاش.

وقال الواقديّ: وجاء عمرُ بن الخطَّاب فَودَّع رسول الله صلى الله عليه وآله ليسيرَ مع أُسامة. وقال: وجاء أبو بكر فقال: يا رسول الله، أصبحتَ مُفيقاً بحَمد الله، واليومَ يومُ ابنةِ خارجة، فأْذَنْ لي، فأذِن له، فذهب إلى منزله بالسُّنْح وسار أسامة في العسكر، وهذا تصريح بأنَّ أبا بكر لم يكن في جيش أسامة.

وذكر موسى بنُ عُقْبة في كتاب «المغازي»[1] أنَّ أبا بكر لم يكن في جيشِ أسامة وكثير من المحدِّثين يقولون: بل كان في جيشِه.

فأمّا أبو جعفر محمد بن جَرير الطبريّ فلم يذكر أنّه كان في جيش أُسامَة إلاّ عمر. وقال أبو جعفر: حدّثني السُّدّيُّ بإسنادٍ ذَكرَه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله ضَرَب قبل وفاتِه بَعْثاً على أهل المدينة ومَن حولَهمْ وفيهم عمرُ بنُ الخطّاب، وأمّرَ عليهم أسامَة بنَ زيد[2]، فلم يجاوِزْ آخرُهم الخَنْدَق حتى قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، فوقف أسامةُ بالناس ثم قال لعمر: ارجِع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله فاستأذِنه يَأْذَن لي أرْجِعْ بالناس، فإنَّ معي وجوه الصّحابة، ولا آمَن على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، وثَقَل رسولِ الله صلى الله عليه وآله وأثقال المسلمين أن يتخطَّفهم المُشركون حولَ المدينة؛ وقالت الأنصار لعمرَ سِرًّا: فإنْ أَبَى إلاّ أن يَمضيَ فأبلِغه عنّا، واطلُب إليه أن يولّي أمرَنا رجلاً أقدَمَ سِنًّا من أسامة، فخرج عمرُ بأمر أسامة فأتَى أبا بكر فأخبَره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو تخطَّفتْني الكلابُ والذئابُ لم أرُدَّ قضاءً قَضَى به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله. قال: فإنَّ الأنصارَ أَمَروني أن أبلِّغك أنّهم يَطلبُون إليك أن تولّي أمرَهم رجلاً أقدَم سِنًّا من أسامة، فوَثَب أبو بكر - وكان جالساً - فأخذَ بلحيةِ عمرَ وقال: ثَكِلَتْك أمُّك يابنَ الخطَّاب! أيَستعمِلُه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وتأمرُني أن أنزِعه! فخرج عمرُ إلى الناس، فقالوا له: ما صنعتَ؟ فقال: امضُوا ثَكِلَتْكم أمهاتُكم! ما لقيتُ في سبيلكم اليومَ من خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله! ثم خرج أبو بكر حتّى أتاهم فأشخَصَهم وشيّعهم، وهو ماشٍ وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن

---

(١) المغازي: لموسى بن عقبة بن أبي عياش المتوفى سنة (١٤١)، «كشف الظنون» (٢/ ١٧٤٧).
(٢) انظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٢٢٤).

عوف يقودُ دابّةَ أبي بكر، فقال له أسامةُ بنُ زيد: يا خليفةَ رسولِ الله، لتركَبَنَّ أو لأنزِلَنّ، فقال: والله لا تَنزِلُ ولا أركَب، وما عليّ أن أغبّر قَدَمي في سبيل الله ساعةً، فإنَّ للغازي بكلّ خُطْوة يَخطوها سبعمائة حسنة تُكتَب له، وسبعمائة درجة تُرفَع له، وسبعمائة خطيئة تُمحَى عنه، حتّى إذا انتهَى قال لأسامة: إنْ رأيتَ أن تُعينَني بعمرَ فافعل، فأذِن له، ثم قال: أيّها الناس، قِفوا حتّى أوصيكم بعَشْر فاحفظوها عنّي: لا تخونُوا ولا تَغْدِروا ولا تَغُلُّوا ولا تُمثّلوا ولا تقتُلوا طفْلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأةً، ولا تَعقِروا نَخْلاً ولا تُحَرّقوه، ولا تقطَعوا شجرةً مُثمِرة، ولا تَذبحوا شاةً ولا بَعيراً ولا بقَرَةً إلا لمأكَلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسَهم للعبادة في الصّوامع، فدعُوهم فيما فرّغوا أنفسَهم له، وسوف تُقدِمون على أقوام يأتونكم بصِحافٍ فيها ألوانُ الطعام، فلا تأكلوا من شيء حتّى تَذكُروا اسمَ الله عليه، وسوف تَلقَوْن أقواماً قد حَصّوا أوساطَ رؤوسهم وتركُوا حولها مِثلَ العصَائب، فاخفِقُوهم بالسّيوف خَفْقاً؛ أفناهم الله بالطعن والطاعون، سِيرُوا على اسم الله.

وأمّا قولُ الشيخ أبي عليّ فإنه يدلّ على أنّه لم يكن في جيشِ أسامة، أمرُه إيّاه بالصّلاة، وقولُ المرتضَى: هذا اعترافٌ بأنَّ الأمرَ بتنفيذ الجيش كان في الحالِ دونَ ما بعدَ الوفاة، وهذا يَنقُض ما بَنَى عليه قاضي القُضاة أمرَه، فلِقائلٍ أن يقول: إنّه لا يَنقُض ما بناه، لأنَّ قاضيَ القضاة ما قال: إنَّ الأمرَ بتنفيذ الجيشِ ما كانَ إلا بعدَ الوفاة، بل قال: إنّه أمْر، والأمْر على التّراخي، فلو نفذ الجيشُ في الحال لجاز، ولو تأخّر إلى بعد الوفاة لجاز.

فأما إنكار المرتضَى أن تكون صَلاةُ أبي بكر بالنّاس كانت عن أمرِ رسول الله ﷺ فقد ذكرْنا ما عندَنا في هذا فيما تقدّم.

وأمّا قولُه: يجوز أنْ يكون أمَرَه بصلاةٍ واحدةٍ أو صلاتين، ثم أمَرَه بالنّفوذ بعد ذلك، فهذا لَعَمْري جائزٌ. وقد يُمكِن أن يقال: إنّه لمّا خرج متحامِلاً من شدّة المرَض فتأخّر أبو بكر عن مُقامه، وصلّى رسولُ الله ﷺ بالنّاس، أمَره بالنّفوذ مع الجيش، وأسكتَ رسول الله ﷺ في أثناء ذلك اليوم، واستمرّ أبو بكر على الصّلاة بالناس، إلى أن تُوفّيَ ﷺ، فقد جاء في الحديث أنّه أسكت، وأن أسامة دخل عليه فلم يَستطِع كلامَه لكنّه كان يرفَع يديه ويَضَعُهُما عليه كالدّاعي له. ويُمكن أن يكونَ زمان هذه السّكتة قد امتدّ يوماً أو يومين، وهذا الموضعُ مِن المَواضع المشتَبهة عندي.

ومنها قولُ قاضي القُضاة: إنّ الأمرَ على التّراخي، فلاَ يلزَم من تأخُّر أبي بكر عن النفوذ أن يكون عاصياً.

فأمّا قولُ المرتضَى: الأمرُ على الفَوْر إمّا لغةً عند من قال به، أو شرْعاً لإجماع الكلّ على

أنّ الأوامر الشرعيّة على الفَوْر إلاّ ما خرج بالدّليل، فالظاهر في هذا الموضع صحّة ما قاله المرتضَى، لأن قرائنَ الأحوال عند من يقرأ السِّيَر ويَعرِف التواريخ تَدُلّ على أنّ الرسولَ صلّى الله عليه وآله كان يَحُثُّهم على الخروج والمَسيرِ، وهذا هو الفَوْر.

وأمّا قولُ المرتضى وقولُ أُسامة: لم أكن لأسأل عنك الرَّكْب، فهو أوْضح دليل على أنه عَقَل من الأمر الفَوْر، لأنّ سؤال الرَّكْب عنه بعد الوَفاة لا معنى له. فلقائلٍ أن يقول: إنّ ذلك لا يدُلّ على الفَوْر، بل يَدُلّ على أنه مأمور في الجملة بالنّفوذ والمَسِير، فإنّ التعجيل والتأخير مفوَّضان إلى رأيه، فلمّا قال له النبيّ صلّى الله عليه وآله: «لم تأخرت عن المَسِير؟» قال: لم أكن لأسيرَ وأسألَ عنك الرَّكْب، إني انتظرتُ عافيتك، فإني إذا سرتُ وأنت على هذه الحال لم يكن لي قلب للجِهاد، بل أكون قَلِقاً شديد الجزع، أسأل عنك الرُّكْبان، وهذا الكلامُ لا يدلّ على أنه عَقَل من الأَمر الفور لا مَحَالة، بل هو على أن يَدُلّ على التراخي أظهر، وقولُ النبي صلّى الله عليه وآله: «لِمَ تأخرت عن المَسِير؟» لا يَدُلّ على الفَوْر؛ لأنه قد يقال مثل ذلك لمن يؤمر بالشيء على جهة التراخي إذا لم يكن سؤال إنكار.

وقول المرتضى: لأن سؤال الرَّكْب عنه بعدَ الوفاة لا مَعْنى له، قولُ من قد تَوَهم على قاضي القضاة أنه يقول: إن النبيّ ﷺ ما أمرهم بالنفوذ إلا بعد وفاته، ولم يَقُل قاضي القضاة ذلك، وإنما ادّعى أنّ الأمر على التراخي لا غير، وكيف يُظَنّ بقاضي القضاة أنه حَمَل كلام أُسامةَ على سؤال الرّكب بعد الموت! وهل كان أسامةُ يعلم الغيب فيقول ذاك! وهل سأل أحدٌ عن حال أحد من المرضى بعد موته!

فأمّا قول المرتضى عَقِيبَ هذا الكلام: لا مَعنَى لقول قاضي القُضاة إنه لم ينكر على أسامة تأخّره، فإن الإنكار قد وَقع بتكرار الأمر حالاً بعد حالٍ، فلقائل أنْ يقول: إن قاضي القُضاة لم يجعل عدَم الإنكار على أسامة حجّة على كون الأمر على التراخي، وإنما جعل ذلك دليلاً على أنّ الأمر كان مَشروطاً بالمصلَحة، ومَن تأمل كلام قاضي القُضاةِ الذي حكاه عنه المرتضى تحقق ذلك، فلا يجوز للمرتضى أن ينتزعه من الوضع الذي أورده فيه، فيَجعَلَه في موضعٍ آخر.

ومنها قولُ قاضي القضاة: الأمرُ بتنفيذ الجيش يجب أن يكون متوجِّهاً إلى الخليفة بعده، والمخاطبُ لا يدخُل تحت الخطاب، واعتراضُ المرتضى عليه بأن لفظة «الجيش» يدخل تحتها «أبو بكر» فلا بدّ من وجُوب النفوذ عليه، لأنّ عدم نُفوذه يَسلب الجماعة اسم «الجيش»؛ فليس بجيِّدٍ، لأنّ لفظة «الجيش» لفظةٌ موضوعة لجماعة من النَّاس قد أُعِدّت للحرب، فإذا خرج منها واحد أو اثنان لم يَزل مسمَّى الجيش عن الباقين، والمرتضى اعتقد أنَّ ذلك مِثل الماهِيّات المركّبة، نحو العشرة إذا عُدِم منها واحد زال مسمى العَشَرة، وليس الأمرُ كذلك، يبين ذلك أنه لو قال بعض الملوك لمائة إنسان: أنتم جيشي، ثم قال لواحد منهم: إذا متّ فأعطِ كلّ واحدٍ

من جيشي دِرْهماً من خِزَانتي، فقد جعلتك أميراً عليهم لم يكن له أن يأخذ لنفسه دِرْهماً، ويقول: أنا من جملة الجماعة الذين أطلق عليهم لَفْظة الجيش.

ومنها قولُ قاضي القضاة: هذه القضيّة تدلّ على أنه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه؛ وأمّا قول المرتضى: فقد بينا أنَّ الخطاب إنما توجَّه إلى الحاضرين لا إلى القائم بالأمر بعده، فلم نجد في كلامه في هذا الفصل بطوله ما بيّن فيه ذلك، ولا أعلم على ماذا أحال! ولو كان قد بيّن - على ما زَعَم - أن الخِطَاب متوجِّه إلى الحاضرين، لكان الإشكالُ قائماً، لأنه يقال له: إذا كان الإمام المنصوص عليه حاضراً عنده فلم وجّه الخطاب إلى الحاضرين! ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول الملكُ للرعيّة: اقضوا بين هذين الشخصين والقاضي حاضرٌ عندَه، إلاّ إذا كان قد عَزَله عن القضاء في تلك الواقعة عن الرعيّة!

فأمّا قول المرتضى: هذا ينقلب عليكم، فليس ينقلب؛ وإنما ينقلب لو كان يريد تنفيذ الجيش بعد موته فقط، ولا يريدُه وهو حيّ، فكان يجيء ما قاله المرتضى لينفذ القائم بالأمر بعدي جيش أسامة، فأما إذا كان يريد نفوذ الجيش من حين ما أمر بنفوذه فقد سَقَط القَلب، لأنَّ الخليفة حينئذٍ لم يكن قد تعيّن، لأن الاختيار ما وقع بعد، وعلى مَذهب المرتضى الإمام متعيِّن حاضر عنده نصبَ عَيْنه، فافترق الوَصْفان.

ومنها قول قاضي القضاة: إن مخالفة أمره صلّى الله عليه وآله في النفوذ مع الجيش أو في إنفاذ الجيش لا يكون معصيةً، وبيّن ذلك مِن وجوه:

أحدُها: أن أمره عليه السلام بذلك لا بدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة، وألا يعرض ما هو أهَمّ من نفوذ الجيش، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ وإن أعقب ضرراً في الدِّين، فأما قول المرتضى: الأمر المطلق يدلّ على ثبوت المَصلحة، ولا يجوز أن يَجعل الأمر المطلق، فقولٌ جيِّد إذا اعترض به على الوَجْه الذي أورَدَه قاضي القضاة، فأمّا إذا أورده أصحابُنا على وجهٍ آخر فإنه يندفع كلام المرتضى، وذلك أنه يجوز تخصيصُ عمومات النصوص بالقياس الجليّ عند كثير من أصحابنا، على ما هو مذكورٌ في أصول الفِقْه، فلم لا يجوز لأبي بكر أن يَخُصّ عموم قوله: «أنفذوا بعث أسامة»[1] لمصلحة غَلبتْ على ظنه في عدم نفوذِه نفسه، ولمفسدة غلبت على نفسه في نفوذه نفسه مع البعث!

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال (٣٠٢٦٦)».

وثانيها: أنه عليه السلام كان يبعث السّرايا عن اجتهاد لا عَنْ وَحْي يحرم مخالفته. فأمّا قولُ المرتضى: إن للدين تعلّقاً قوياً بأمثال ذلك، وإنها ليست من الأمور الدنياوية المحضة نحو أكله وشربه ونومه، فإنّه يعود على الإسلام بفتوحه عزٌّ وقوّةٌ وعُلُوٌّ كلمة فيقال له: وإذا أكل اللحم وقوي مِزاجُه بذلك ونام نوماً طبيعياً يزول عنه به المرض والإعياء، اقتضى ذلك أيضاً عزّ الإسلام وقوّته، فقل إن ذلك أيضاً عن وَحْي.

ثم إنّ الذي يقتضيه فُتوحُه وغزَواته وحُروبه من العِزّ وعلوّ الكلمة لا ينافي كونَ تلك الغَزَوات والحروب باجتهاده، لأنه لا منافاة بين اجتهاده وبين عِزّ الدّين وعلوّ كلمته بحرُوبه، وأن الذي يُنافي اجتهاده بالرأي هو مثل فرائض الصلوات ومقادير الزّكَوات ومناسِك الحجّ، ونحو ذلك من الأحكامِ التي تُشعر بأنها مُتلقّاة مِن محض الوَحي، وليس للرأي والاجتهاد فيها مدخل، وقد خرج بهذا الكلام الجواب عن قوله: لو جاز أن تكون السرايا والحروب عن اجتهاده، لجاز أن تكون الأحكامُ كلُّها عن اجتهاده. وأيضاً فإنّ الصحابة كانوا يراجعونه في الحروب وآرائه التي يدبرها بها ويرجع عليه السلام إليهم في كثير منها بعد أن قد رأي غيره، وأما الأحكام فلم يكن يُراجع فيها أصلاً، فكيف يُحمل أحدُ البابين على الآخر.

فأمّا قوله: لو كانت عن اجتهاد لوجب أن يحرم مخالفته فيها وهو حيّ، لا فرق بين الحالين؛ فلقائلٍ أن يقول: القياس يقتضي ما ذكرت، إلا أنه وقع الإجماعُ على أنّه لو كان في الأحكام أو في الحرُوب والجهاد ما هو باجتهادِه لما جازتْ مخالفتُه، والعدولُ عن مذهبه وهو حيٌّ لم يَختلف أحدٌ من المسلمين في ذلك، وأجازُوا مخالفَته بعد وفاتِه بتقدير أن يكون ما صار إليه عن اجتهاد؛ والإجماع حُجة.

فأما قولُ قاضي القُضاة: لأنَّ اجتهادَه وهو حيٌّ أولَى من اجتهاد غيرِه، فليس يكادُ يظهَر، لأنَّ اجتهادَه، وهو ميِّت أولى أيضاً من اجتهاد غيرِه، ويَغلِب على ظَنّي أنّهم فرّقوا بين حالَتي الحياة والموتِ، فإنَّ في مخالفته وهو حيٌّ نوعاً من أذًى له، وأذاهُ محرَّم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[1]، والأذى بعد الموت لا يكون، فافترق الحالان.

وثالثُها: أنه لو كان الإمامُ منصوصاً عليه لجَازَ أن يستردَّ جيش أُسامةَ أو بعضَه لنصرته؛ فكذلك إذا كان بالاختيار، وهذا قد منع منه المرتَضى، وقال: إنه لا يجوز للمنصوص عليه ذلك، ولا أنْ يولّي من عَزله رسولُ الله صلى الله عليه وآله، ولا أن يَعزِل مَن ولاّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

ورابُعها: أنّه عليه السلام تَرَك حربَ معاويةَ في بعض الحالات، ولم يُوجِب ذلك أن يكون عاصِياً، فكذلك أبو بكر في ترك النّفوذ في جيش أسامة.

فأما قول المرتضَى: إنّ عليًا عليه السلام كان مأموراً بحرب معاويةَ مع التمكّن ووجودِ الأنصار، فإذا عَدِما لم يكن مأموراً بحربه؛ فلقائلٍ أن يقول: وأبو بكر كان مأموراً بالنفوذ في جيشِ أسامة مع التمكن ووجودِ الأنصار، وقد عُدِم التمكّن لمّا استُخلف، فإنّه قد تحمَّل أعباءَ الإمامة، وتعذّر عليه الخروجُ عن المدينة، الّتي هي دارُ الإمامة، فلم يكن مأموراً والحالُ هذه بالنفوذ في جيش أسامة.

فإن قلتَ: الإشكال عليكم إنّما هو من قِبَل الاستخلاف، كيف جاز لأبي بكر أن يتأخّر عن المسير؟ وكيف جاز له أن يَرجع إلى المدينة وهو مأمور بالمسير؟ وهلاّ نفذ لوجهه ولم يَرجِع، وإن بلغه موتُ رسول الله صلى الله عليه وآله!

قلت: لعلّ أسامةَ أَذِن[1] له، فهو مأمورٌ بطاعته، ولأنّه رأى أسامَة وقد عاد باللِّواء فعاد هو لأنّه لم يكن يُمكِنه أن يسيرَ إلى الرُّوم وحدَه، وأيضاً فإنّ أصحابنا قالوا: إنّ وِلايةَ أسامة بَطلت بموت النبيّ صلى الله عليه وآله، وعاد الأمرُ إلى رأي مَن ينصَّب للأمر، قالوا: لأنّ تصرُّف أسامة إنّما كان من جهة النبيّ صلى الله عليه وآله، ثم زال تَصرّف النبيّ صلى الله عليه وآله بموتِه، فوَجَب أن يزول تَصرُّف أسامة، لأنّ تصرُّفَه تبعٌ لتَصرُّف الرسولِ صلى الله عليه وآله. قالوا: وذلك كالوَكيل تَبطُل وَكالته بموتِ المَوكّلِ، قالوا: ويفارق الوصيّ لأنّ ولايته لا تَثبتُ إلاّ بعد موت المُوصِي، فهو كعَهْد الإمام إلى غيره لا يَثبت إلاّ بعد موتِ الإمام، ثم فرّع أصحابُنا على هذا الأصل مسألةً وهي: الحاكم هل ينعزل بموتِ الإمام أم لا؟ قال قوم من أصحابنا: لا يَنعزل وبنَوْه على أن التَولّيَ من غيرِ جهةِ الإمام يجوز، فجعَلوا الحاكم نائباً عن المسلمين أجمعين، لا عن الإمام، وإن وقف تَصرُّفه على اختياره، وصار ذلك عندهم بمنزلة أن يَختارَ المسلمون واحداً يحْكُم بينهم، ثمّ يموتِ مَن رضيَ بذلك، فإنّ تَصرُّفه يَبقَى على ما كان عليه، وقال قوم من أصحابنا: يَنعزل، وإنّ هذا النوع من التصرّف لا يُستفاد إلاّ من جهة الإمام، ولا يقوم به غيرُه، وإذا ثبت أنّ أسامةَ قد بطلتْ ولايتُه لم تبق تَبِعةٌ على أبي بكر في الرّجوع من بعض الطّريق إلى المدينة.

وخامسها: أن أميرَ المؤمنين عليه السلام ولّى أبا موسى الحُكم، وولّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله خالدَ بنَ

(١) تخلفه عن الجيش كان في حياة النبي صلى الله عليه وآله ولم يستثني النبي في قوله: لعن الله من تخلف عن جيش أسامة، أو قوله: انفذوا جيش أسامة.

الوليد السَّرِيّة إلى الغُمَيْصاء[1]، وهذا الكلامُ إنَّما ذكره قاضي القُضاة تتمّةً لقوله: إنّ أمرَه عليه السلام بنفوذ بعث أسامة كان مَشروطاً بالمصلحة؛ قال: كما أنّ توليتَه عليه السلام أبا موسى كانت مشروطةً باتباع القرآن، وكما أن تولية رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد كانت مشروطة بأن يعمَل بما أوصاه به، فخالَفا ولم يَعْمَلا الحقّ، فإذا كانت هذه الأوامرُ مشروطةً فكذلك أمرُه جيش أسامة بالنّفوذ كان مشروطاً بالمَصلَحة وألاّ يعرضَ ما يَقتضِي رجوع الجيش أو بعضه إلى المدينة، وقد سبق القولُ في كون الأمر مشروطاً.

وسادسُها: أنّ أبا بكر كان محتاجاً إلى مقامِ عمرَ عنده ليعاضِدَه ويقومَ في تمهيد أمرِ الإمامة ما لا يقوم به غيرهُ، فكان ذلك أصلَح في بابِ الدِّين من مَسيرِه مع الجيش، فجاز أن يَحبِسه عنده لذلك؛ وهذا الوجه مختصّ بمن قال: إنّ أبا بكر لم يكن في الجيش، وإيضاح عذره في حَبْس عمرَ عن النّفوذ مع الجيش.

فأمّا قولُ المرتضَى فإن ذلك غيرُ جائز، لأنّ مخالفةَ النصّ حرام، فقد قُلْنا: إنَّ هذا مبنيٌّ على مسألة تخصِيص العمومات الواردةِ في القرآن بالقياس.

وأمّا قوله: أي حاجة كانت لأبي بكر إلى عمرَ بعدَ وقوعِ البَيْعة، ولم يكن هناكَ تَنازُع ولا اختلاف! فعجيب، وهل كان لولا مُقامُ عُمَر وحضورُه في تلك المقامات يتمّ لأبي بكر أمرٌ أو يَنتظِم له حال! ولولا عمرُ لما بايَع عليٌّ ولا الزّبيرُ، ولا أكثرُ الأنصار، والأمر في هذا أظهرَ من كلّ ظاهر.

وسابعها: أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضَمّه جيشُ أسامَة يجب تأخرهم ليُختارَ للإمامة أحدُهم، فإنّ ذلك أهمّ من نفوذهم، فإذا جاز لهذه العِلّة التأخّر قبل العقد جاز التأخر بَعده للمعاضَدة وغيرها.

فأما قول المرتضَى: إنّ ذلك الجيش لم يَضُمّ مَن يَصلح للإمامة، فبناءً على مَذْهبه في أنّ كلّ من ليس بمعصومٍ لا يَصلُح للإمامة. فأمّا قولُه: ولو صح ذلك لم يكن عذراً في التأخر، لأنّ من خرج في الجيش يُمكِن أن يختار ولو كان بعيداً، ولا يُمكِن بعده من صحّة الاختيار، فلقائل أن يقول: دارُ الهِجرة هي التي فيها أهلُ الحَلّ والعَقْد، وأقاربُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله

---

[1] الغُمَيْصاء: موضع في بادية العرب قرب مكة كان يسكنه بنو جذيمة الذين أوقع بهم خالد بن الوليد رضي الله عنه عام الفتح. معجم البلدان (٦/ ٣٩٧).

والقُرّاء وأصحابُ السَّقيفة، فلا يجوز العدولُ عن الاجتماع والمشاوَرة فيها إلى الاختيار على البُعد، وعلى جناح السَّفَر من غير مشارَكةَ مَن ذَكَرْنا من أعيان المسلمين.

فأمّا قوله: ولو صحّ هذا العقد لكان عذراً في التأخّر قبل العَقْد، فأمّا بعد إبرامه فلا عذرَ فيه؛ فلِقائلٍ أن يقول: إذا أجزْتَ التأخّرَ قبل العقد لنوعٍ من المصلحة فأجز التأخّر بعد العَقْد لنوعٍ آخر من المصلحة، وهو المعاضدة والمساعَدة.

هذه الوجوهُ السّبعةُ كلّها لبيان قوله: تأخّر أبي بكر أو عمر عن النّفوذ في جيش أسامة، وإن كان مأموراً بالنفوذ.

ثمّ نعود إلى تمام أقسام الفَصْل.

ومنها قولُ قاضِي القُضاة: لا معنى لقول مَن قال: إن رسول الله ﷺ قصَد إبعادهم عن المدينة، لأن بُعْدَهم عنها لا يَمنَعهم من أن يَختارُوا واحداً منهم للإمامة، ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعاً على موته لا محالة، لأنّه لم يرِد: نفِّذوا جيش أسامة في حياته.

وقد اعترضَ المرتَضى هذا فقال: إنّه لم يتبيّن معنى الطّعن، لأنّ الطاعن لا يقول: إنهم أبعِدوا عن المدينة كي لا يَختارُوا واحداً للإمامة، بل يقول: إنّما أبعِدوا لينتصبَ بعدَ موته ﷺ في المدينة الشّخصُ الّذي نصّ عليه، ولا يكون حاضراً بالمدينة من يخالفه ويُنازِعه، وليس يضرّنا ألاّ يكون ﷺ قاطعاً على موته، لأنّه وإن لم يكن قاطعاً فهو لا محالة يُشفِق ويخَافُ من الموت، وعلى الخائف أن يتَحرَّز مما يخاف منه؛ وكلامُ المرتضَى في هذا الموضع أظهَر من كلام قاضي القُضاة.

ومنها قولُ قاضي القُضاة: إن ولايةَ أسامة عليهما لا تقتضي كونهما دونَه في الفَضل، كما أنّ عمرَو بنَ العاص لمّا وُلّيَ عليهما لم يقتَض كونَه أفضل منهما. وقد اعترض المرتضى هذا بأنّه يَقبحُ تقديمُ المفضول على الفاضل فيما هو أفضلُ منه، وأن تقديم عمرو بن العاص عليهما في الإمْرة يَقتضِي أن يكون أفضلَ منهما فيما يَرجِع إلى الإمرة والسّياسة، ولا يقتضي أفضليّته عليهما في غير ذلك، وكذلك القولُ في أسامة.

ولقائل أن يقول: إنّ الملوك قد يؤمّرون الأمراء على الجيوش لوجهين: أحدهما: أن يَقصِد الملك بتأمير ذلك الشخص أن يَسُوس الجيشَ ويُدَبّره بفضل رأيه وشَيْخُوخته وقديم تجربتِهِ وما عُرِف من يُمْن نَقِيبته في الحرب وقوْد العساكر، والثاني: أن يؤمّر على الجيش غلاماً حَدَثاً من غلمانه أو من ولدِه أو من أهلِه، ويأمر الأكابر من الجيش أن يثقِّفوه ويعلّموه، ويأمرُه أن يتدبّر بتدبيرهم، ويرجع إلى رأيهم؛ ويكونُ قصدُ الملك من ذلك تخريج ذلك الغلام وتمرينُه على

الإمارة، وأن يُثبِت له في نفوس الناس منزلةً، وأن يُرشّحه لجلائل الأمور ومعاظم الشؤون، ففي الوجه الأوّل يَقبُح تقديم المفَضول على الفاضل؛ وفي الوجه الثاني لا يَقبُح، فلِم لا يجوز أن يكون تأمير أسامةَ عليهما من قَبيل الوجهِ الثاني؟ والحالُ يَشهَد لذلك، لأنّ أسامةَ كان غلاماً لم يَبلُغ ثمانيَ عشرة سنةً حين قُبِض النبيّ ﷺ، فمن أين حصل له من تجرِبة الحرب ومُمارسة الوقائع وقَوْد الجيش ما يَكُون به أعرفَ بالإمرة من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعدِ بن أبي وَقّاص وغيرهم!

ومنها قولُ قاضي القُضاة: إنّ السبب في كون عمرَ في الجيش أنّه أنكر على عبد الله بن عيّاش بن أبي رَبيعة تسَخُّطه إمْرة أسامة، وقال: أنا أخرُجُ في جيش أسامة؛ فخرج من تلقاء نفسِه تعظيماً لأمر رسولِ الله ﷺ. وقد اعترَضه المرتضى فقال: هذا شيءٌ لم نَسمعْه من راوٍ، ولا قرأناه في كتاب؛ وصَدَق المرتضَى فيما قال، فإنّ هذا حديثٌ غريب لا يُعرَف.

وأمّا قولُ عمرَ: دَعْني أضربْ عُنقَه فقد نافَق؛ فمنقولٌ مشهورٌ لا محالة، وإنّما الغريب الّذي لم يُعَرف كونُ عمرَ خرج من تلقاء نفسِه في الجيْش مُراغمةً لعبد الله بن عيّاش بن أبي ربيعة، حيث أنكَر ما أنكَر؛ ولعلّ قاضي القُضاة سمعه من راوٍ أو نقَلَه من كتاب، إلاّ أنا نحن ما وقفْنا على ذلك.

الطعن الخامس: قالوا: إنّه ﷺ لم يُوَلّ أبا بكر الأعمال ووَلّى غيرَه، ولّما ولاّه الحج بالناس وقراءة سُورة براءةَ على الناس، عزَلَه عن ذلك كلّه. وجعَلَ الأمرَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: «لا يؤدّي عنّي إلا أنا أو رجل منّي»[1]، حتّى يَرجِعَ أبو بكر إلى النبيّ ﷺ.

أجابَ قاضي القُضاة فقال: لو سلَّمنا أنّه لم يُولّه، لَمَا دلّ ذلك على نقص، ولا عَلَى أنّه لم يَصلُح للإمارة والإمامة، بل لو قيل: إنّه لم يُوَلّه لحاجته إليه بحضرته[2]، وإنّ ذلك رفعةٌ له لكان أقربَ، لاسيما، وقد رُوِي عنه ما يدلّ على أنهما وَزيراه، وأنّه كان ﷺ محتاجاً إليهما وإلى رأيهما فلذلك لم يولّهما، ولو كان للعمل على تركه فضل لكان عمرُو بنُ العاص وخالدُ بن الوليد وغيرُهما أفضلَ من أكابر الصّحابة؛ لأنّه عليه السلام ولاّهما وقدّمهما، وقد قدّمنا أن توليتَه هي

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٩)، وأحمد في «مسنده» (١٧٠٥١)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي (١١٩).

(٢) في تبليغ براءة لم يكن أبو بكر إلى جانبي النبي ﷺ بل أرسله بها ثم أرسل علياً خلفه وعزله عن تبليغها.

بحَسَب الصّلاح، وقد يولّى المفضولُ على الفاضل تارةً والفاضلُ أخرى، وربّما وُلّيَ الواحدُ لاستغنائه عنه بحضرته، وربّما ولاّه لاتّصالٍ بينه وبين من يُولّى عليه، إلى غير ذلك.

ثم ادّعى أنّه ولّى أبا بكر على الموسم والحجّ قد ثبتتْ بلا خلاف بين أهل الأخبار ولم يَصحّ أنّه عزَله، ولا يدلّ رجوعُ أبي بكر إلى النبيّ ﷺ مستفهِماً عن القِصّة على العَزْل؛ ثمَّ جعل إنكار من أنكَر حجّ أبي بكر في تلك السنة بالناس؛ كإنكار عَبّاد وطبقتِه أخذ أميرِ المؤمنين عليه السلام سورة براءة من أبي بكر. وحكي عن أبي عليّ أنَّ المعنى كان في أخْذ السُّورة من أبي بكر أنَّ من عادة العرب أنَّ سيّداً من سادات قبائلهم إذا عقد عقد القوم، فإنَّ ذلك العقد لا ينحلّ إلاّ أن يُحلَّه هو أو بعضُ سادات قومِه، فلما كان هذا عادَتهم وأراد النبيُّ ﷺ أن يَنبذ إليهم عقدَهم وينقُض ما كان بينه وبينهم، عَلِم أنه لا ينحلّ ذلك إلاّ به أو بسيّدٍ من ساداتِ رَهْطه، فعَدَل عن أبي بكر إلى أمير المؤمنين المقرَّب في النَّسب. ثمّ ادّعى أنّه ﷺ ولّى أبا بكر في مَرَضه الصَّلاةَ، وذلك أشرفُ الولايات، وقال في ذلك: يأبَى الله ورسولُه والمسلمُون إلاّ أبا بكر.

ثمَّ اعترَض نفسه بصلاتِه عليه السلام خلْفَ عبد الرَّحمن بنِ عوف: وأجاب بأنّه ﷺ إنما صلّى خلفَه، لا أنّه ولاّه الصلاة وقدّمه فيها. قال: وإنّما قدّم عبد الرحمن عند غَيْبة النبيّ ﷺ فصَلّى بغير أمرِه، وقد ضاق الوقتُ، فجاء النبي ﷺ فصلّى خلفه.

اعترض المرتضى فقال: قد بيّنا أنّ تركَه ﷺ الولاية لبعض أصحابه مع حضوره وإمكان ولايته والعدول عنه إلى غيره، مع تَطاوُل الزمان وامتدادِه، لا بدّ من أن تقْتضيَ غَلبةَ الظنّ بأنّه لا يَصلُح للولاية، فأمّا ادّعاؤه أنّه لم يولّه لافتقاره إليه بحضرته وحاجتِه إلى تدبيره ورأيِه، فقد بيّنا أنّه عليه السلام ما كان يَفتقِر إلى رأي أحدٍ لكمالِه ورُجْحانه على كلّ أحد، وإنّما كان يُشاوِر أصحابَه على سبيل التعليم لهم والتأديب، أو لغير ذلك ممّا قد ذُكر. وبَعْد، فكيف استمرّت هذه الحاجة، واتّصلت منه إليهما حتّى لم يستغنِ في زمانٍ من الأزمان عن حضورهما فيولّيهما! وهل هذا إلاّ قَدْحٌ في رأيِ رسولِ الله ﷺ ونسبتِهِ إلى أنّه كان ممّن يُحتاج إلى أن يلقن ويُوقَف على كلّ شيء، وقد نزّهه الله تعالى عن ذلك! فأمّا ادّعاؤه أنَّ الرواية قد وردتْ بأنهما وزيراه فقد كان يجب أن يصحّحَ ذلك قبل أن يَعتمده ويحتجّ به؛ فإنّا ندفعه عنه أشدَّ دفع. فأمّا ولاية عَمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد تكلّمنا عليها من قَبْلُ، وبيّنا أنَّ ولايتَهما تدُلّ على صلاحهما لِمَا وُلّياه، ولا تَدُلّ على صلاحهما للإمامة، لأنَّ شرائط الإمامة لم تتكامل فيهما، وبيّنا أيضاً أنَّ ولايةَ المَفضول على الفاضل لا تجوز، فأمّا تَعظيمه وإكبارُه قولَ مَن يَذهب إلى أنّ أبا بكر عُزِل عن أداءِ السُّورة والموسِم جميعاً، وجمعه بين ذلك في البعد وبين إنكار عبّاد أن يكون أميرُ المؤمنين عليه السلام ارتَجَع سورةَ براءةَ من أبي بكر؛ فأوّل ما فيه أنّا لا نُنكر أن يكون أكثرُ

الأخبار واردة بأنّ أبا بكر حَجّ بالناس في تلك السّنة؛ إلا أنّه قد رَوَى قومٌ من أصحابنا خلافَ ذلك، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أميرَ المَوسم في تلك السنة، وأن عَزْلَ الرجل كان عن الأمْرين معاً.

واستكبار ذلك. وفيه خلافٌ لا مَعنَى له، فأمّا ما حكاه عن عَبّاد فإنّا لا نعرفه، وما نظنّ أحداً يَذهَب إلى مِثله، وليس يُمكِنه بإزاءِ ذلك جَحْد مذهب أصحابنا الذي حكيناه، وليس عبّاد لو صحّت الروايةُ عنه بإزاء من ذكرناه، فهو مليءٌ بالجهالات ودَفْع الضّرورات. وبعد، فلو سلّمنا أنّ ولايةَ الموسِم لم تُفسَخ لكان الكلامُ باقياً، لأنه إذا كان ما ولي مع تطاوُل الزّمان إلاّ هذه الولاية، ثم سُلِب شَطرها، والأفخم الأعظم منها، فليس ذلك إلا تنبيهاً على ما ذكرناه.

فأمّا ما حكاه عن أبي عليّ من أن عادةَ العرب ألاّ يحلّ ما عَقَده الرئيسُ منهم إلا هو أو المتقدّم من رَهْطه؛ فمعاذَ الله أن يُجْرِي النبيّ صلى الله عليه وآله سُنّتَه وأحكامَه على عادات الجاهليّة، وقد بيّن عليه السلام لمّا رَجع إليه أبو بكر يسألُه عن أخذ السُّورة منه الحال، فقال: إنّه «أوحِيَ إليّ ألاّ يؤدّيَ عنّي إلا أنا أو رَجلٌ منّي»[1]، ولم يذكرْ ما ادّعاه أبو عليّ؛ على أن هذه العادَة قد كان يَعرِفها النبيّ صلى الله عليه وآله قبلَ بَعثِه أبا بكر بسُورة براءة، فما بالُه لم يعتمدها في الابتداء ويبعث من يجوز أن يحلّ عقدَه من قومِه!

فأمّا ادّعاؤه ولاية أبي بكر الصّلاةَ فقد ذكَرْنا فيما تقدّم أنّه لم يُولِّه إيّاها. فأمّا فَضلُه بين صلاتِه خلف عبد الرحمن وبين صلاة أبي بكر بالناس، فليس بشيء، لأنّا إذا كنّا قد دَللنا على أن الرسولَ صلى الله عليه وآله ما قَدّم أبا بكر إلى الصلاة، فقد استوَى الأمران. وبعد؛ فأيّ فَرق بين أن يُصلّي خلفَه وبين أن يوَلّيَه ويقدِّمَه، ونحن نعلم أنّ صلاته خلفَه إقرارٌ لولايته ورضاً بها، فقد عاد الأمرُ إلى أن عبدَ الرحمن كأنّه قد صلّى بأمره وإذنه! على أن قصّة عبد الرحمن أوكدُ، لأنه قد اعتَرَف بأنّ الرسولَ صلّى خلفَه، ولم يصلّ خلف أبي بكر، وإنْ ذهب كثيرٌ من الناس إلى أنه قَدّمه وأمَره بالصّلاة قبل خروجِه إلى المسجد وتَحامُله.

ثم سأل المرتضَى رحمه الله نفسَه؛ فقال: إنْ قيل: ليس يَخلُو النبيُّ صلى الله عليه وآله من أن يكون سَلّم في الابتداء سورةَ برَاءةَ إلى أبي بكر بأمر الله أو باجتهاده ورأيه؛ فإن كان بأمرِ الله تعالى، فكيف يجوز أن يَرتجعَ منه السّورة قبلَ وقتِ الأداء، وعندَكم أنّه لا يجوز نَسخُ الشيء قبلَ تَقضّي وقت فِعلِه! وإن كان باجتهادِه صلى الله عليه وآله، فعندَكم أنه لا يجوز أن يَجتهد فيما يجري هذا المَجرَى!

وأجَابَ فقال: إنّه ما سَلّم السورةَ إلى أبي بكر إلاّ بإذنه تعالى، إلا أنه لم يأمُرْه بأدائها، ولا كلّفه قراءتَها على أهل الموسم، لأن أحداً لم يُمكنه أن ينقُل عنه عليه السلام في ذلك لفظ الأمر

---

(١) تقدم تخريجه.

والتكليف، فكأنه سلّم سورةَ براءة إليه لتُقرأ على أهل الموسم، ولم يُصرِّح بذكر القارىء المُبلِّغ لها في الحال؛ ولو نُقِل عنه تصريحٌ لجاز أنْ يكون مشروطاً بشَرْط لم يَظهرَ.

فإن قيل: فأيّ فائدة في دَفْع السورة إلى أبي بكر وهو لا يريد أن يؤدّيَها، ثمّ ارتجاعها منه؟ وهلاّ دُفعتْ في الابتداء إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام!

قيل: الفائدة في ذلك ظهورُ فضل أميرِ المؤمنين عليه السلام ومَرتبتِه، وأنّ الرجلَ الّذي نُزِعت السُورة عنه لا يَصلُح لِمَا يصلُح له، وهذا غَرضٌ قويٌّ في وُقوع الأمر على ما وَقَع عليه.

قلت: ذكرْنا فيما تقدّم القولَ في تولية الملك بعض أصحابه، وتركه تولية بعضهم، وكيفية الحال في ذلك؛ على أنه قد رَوَى أصحابُ المغازي أنه أمَّر أبا بكر في شعبان من سنة سبع على سَرِيّة بعثها إلى نجدْ فلقوا جمْعاً من هَوازن فبيّتوهم؛ فرَوَى إياسُ بنُ سَلمة عن أبيه؛ قال: كُنت في ذلك البعث، فقتلتُ بيدي سبعةً منهم، وكان شعارُنا: «أمِتْ أمِتْ»، وقُتِل من أصحابِ النبيّ صلى الله عليه وآله قومٌ، وجُرِح أبو بكر وارتُثَّ وعاد إلى المدينة؛ على أن أمَراء السَّرايا الذين كان يبعثهم صلى الله عليه وآله كانوا قوماً مشهورين بالشجاعة ولقاء الحروب، كمحمد بنِ مسلمة، وأبي دُجَانة، وزيد بن حارثة ونحوهم، ولم يكن أبو بكر مشهوراً بالشجاعة ولقاء الحروب، ولم يكن جَباناً ولا خوّاراً وإنما كان رجلاً مجتمعَ القلب عاقلاً، ذا رأي وحُسْن تدبير، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يَترُك بعثه في السرايا، لأنَّ غيره أنفع منه فيها، ولا يدلّ ذلك على أنه لا يصلحُ للإمامة، وأنَّ الإمامة لا تحتاج أن يكونَ صاحبُها من المشهورين بالشجاعة، وإنما يحتاج إلى ثبات القلب، وألاّ يكون هَلِعاً طائرَ الجَنَان.

وكيف يقول المرتضى: إنه صلى الله عليه وآله لم يكن محتاجاً إلى رأي أحد، وقد نقل الناسُ كلّهم رجوعَه من رأي إلى رأي عند المَشورة، نحو ما جرى يومَ بدر من تغيُّر المنزل لما أشار عليه الحُبابُ بنُ المنذر، ونحو ما جرى يوم الخنْدق من فَسْخ رأيه في دفع ثُلثِ تمر المدينة إلى عُيَيْنة بن حِصْن ليَرجِع بالأحزاب عنهم، لأجل ما رآه سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عُبادة من الحرب، والعدول عن الصلْح، ونحو ما جرى في تلقيح النخل بالمدينة وغير ذلك! فأمّا ولايةُ أبي بكر الموسمَ فأكثرُ الأخبار على ذلك، ولم يَروِ عزلَه عن الموسم إلاّ قومٌ من الشيعة.

وأمّا ما أنكره المرتضى من حال عَبّاد بن سليمانَ ودفعِه أن يكون على أخذ براءة من أبي بكر واستغرابه ذلك عَجَب، فإنّ قولَ عَبّاد قد ذهب إليه كثيرٌ من الناس، ورَوَوْا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لم يدفَع براءة إلى أبي بكر، وأنه بعد أن نفذ أبو بكر بالحجيج أتْبَعه عليًا ومعه تسعُ آياتٍ من براءة، وقد أمره أن يقرأها على الناس ويؤذِنَهم بنقْض العهد وقطع الدنيّة، فانصرف أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأعادة على الحجيج، وقال له: أنت الأمير، وعليٌّ المبلِّغ، فإنه لا يبلِّغ عنّي إلا أنا أو رَجلٌ مني، ولم ينكِر عبّاد أمر براءة بالكليَّة، وإنما أنكر أن

يكون النبيّ ﷺ دَفعها إلى أبي بكر ثم انتزَعها منه، وطائفةٌ عظيمة من المحدِّثين يَروُون ما ذكرْناه، وإن كان الأكثر الأظهرُ أنه دفعها إليه ثم أتْبَعه بعليّ عليه السلام فانتزعها منه؛ والمقصود أنَّ المرتضَى قد تعجّب مما لا يُتعجّب مِن مِثله، فظنّ أن عبّاداً أنكر حديث براءَة بالكليّة، وقد وقَفتُ أنا على ما ذكَرَه عبّاد في هذه القضية في كتابه المعروف بكتاب «الأبواب»، وهو الكتابُ الذي نقَضَه شيخُنا أبو هاشم، فأمّا عذر شيخنا أبي عليّ، وقوله: إن عادة العرب ذلك، واعتراض المرتضى عليه، فالذي قاله المرتضى أصحّ وأظهر، وما نُسِب إلى عادة العرب غيرُ معروف، وإنما هو تأويلٌ تأوّل به متعصبو أبي بكر لانتزاع براءة منه، وليس بشيء.

ولستُ أقول ما قاله المرتضى من أنَّ غرَض رسول الله ﷺ إظهارُ أنَّ أبا بكر لا يصلح للأداء عنه، بل أقول: فَعَل ذلك لمصلحة رآها، ولعلّ السبب في ذلك أن عليًا عليه السلام من بني عبد مناف وهم جمرةُ قريش بمكة، وعليٌّ أيضاً شجاع لا يُقام له، وقد حصل في صُدورِ قريش منه الهيبة الشديدة والمخافة العظيمة، فإذا حصل مِثل هذا الشجاع البطل وحوله من بني عمه وهم أهلُ العزّة والقوّة والحميّة، كان أدعى إلى نجاته من قريش، وسلامة نفسه وبلوغِ الغرض من نَبْذ العهد على يده؛ ألا ترى أن رسول الله ﷺ في عمرة الحدَيبيّة بعث عثمان بن عفان إلى مكة يطلب منهم الإذن له في الدخول[1]، وإنما بعثه لأنه من بني عبد مناف، ولم يكن بنو عبد مناف - وخصوصاً بني عبد شمس - ليمكّنوا من قتْله، ولذلك حمله بنو سعيد بن العاص على بعير يوم دَخل مكة وأحدَقُوا به مُستلئمين بالسلاح، وقالوا له: أقبل وأدْبِر، ولا تَخَفْ أحداً، بنو سعيد أعزّة الحرَم.

وأما القول في تولية رسول الله ﷺ أبا بكر الصّلاة، فقد تقدّم، وما رامه قاضي القضاة من الفَرْق بين صلاة أبي بكر بالناس وصلاة عبد الرحمن بهم، مع كون رسول الله ﷺ صلّى خلفه ضعيفٌ، وكلام المرتضى أقوى منه.

فأما السؤال الذي سأله المرتضى من نفسه فقويّ، والجواب الصحيح أن بعث براءة مع أبي بكر كان باجتهاد من الرسول ﷺ، ولم يكن عن وَحْي ولا من جملة الشرائع التي تُتلقّى عن جَبرائيل عليه السلام، فلم يقبُح نَسخُ ذلك قبلَ تقضّي وقت فعله، وجواب المرتضى ليس بقويّ، لأنه من البعيد أن يُسلِّم سورة براءة إلى أبي بكر ولا يقال له: ماذا تصنع بها؟ بل يقال: خذْ هذه معك لا غير. والقولُ بأن الكلام مشروطٌ بشرط لم يظهر خلاف الظاهر، وفتح هذا الباب يُفسِد كثيراً من القواعد.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند علي (٦٥٨).

الطعن السادس: إن أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة، فقد قال في الكَلاَلة: أقول فيها برأيي، فإن يكنْ صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنّي، ولم يعرف ميراثَ الجد، ومن حالُه هذه لا يَصلُح للإمامة.

أجاب قاضي القضاة بأن الإمام لا يجب أن يعلم جميع الأحكام، وأنَّ القَدْر الذي يَحتاج إليه هو القَدْر الذي يحتاج إليه الحاكمُ، وأنّ القول بالرأي هو الواجبُ فيما لا نَصّ فيه، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بالرأي في مسائل كثيرة.

اعترض المرتضى فقال: قد دللنا على أن الإمام لا بدّ أن يكون عالماً بجميع الشرعيّات، وفرّقنا بينه وبين الحاكم، ودللنا على فساد الرأي والاجتهاد.

وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فلم يقل قطُّ بالرأي، وما يُروَى من خبر بيع أمّهات الأولاد غيرُ صحيح، ولو صح لجاز أن يكون أراد بالرأي الرجوع إلى النصوص والأدلة، ولا شُبهة عندنا أن قوله كان واحداً في الحالين، وإن ظهر في أحدهما خلاف مذهبه للتقيّة.

قلتُ: هذا الطعن مبنيٌّ على أمرين: أحدُهما: هل من شرط الإمامة أن يعلم الإمامُ كلّ الأحكام الشرعية أم لا؟ وهذا مذكورٌ في كتبنا الكلامية؛ والثاني: هو القولُ في الاجتهاد والرأي حق أم لا؟ وهذا مذكور في كتبنا الأصولية.

الطعن السابع: قصّة خالدِ بنِ الوليد وقتله مالكَ بن نُوَيْرة ومضاجَعتِه امرأته من ليلتِه، وأن أبا بكر تَرَك إقامةَ الحدّ عليه، وزعم أنه سيفٌ من سيوف الله سَلّه الله على أعدائه، مع أن الله تعالى قد أوجَب القَوَد وحَدّ الزّنى عموماً، وأنّ عمرَ نبّهه وقال له: اقتُله، فإنه قَتَل مُسلِماً.

أجاب قاضِي القُضاة فقال: إنّ شيخنا أبا عليّ قال: إنّ الرِّدّة ظهرتْ من مالكِ بن نُوَيْرة، لأنّه جاء في الأخبار أنه ردّ صدقاتِ قومِه عليهم لَمّا بلغه موتُ رسول الله صلى الله عليه وآله كما فَعَله سائرُ أهل الرّدّة فاستحقّ القتل. فإن قال قائل: فقد كان يصلّي، قيل له: وكذلك سائرُ أهل الرّدة، وإنما كَفَروا بالامتناع من الزكاة، واعتقادِهم إسقَاط وجوبها دونَ غيره. فإن قيل: فلِمَ أنكرَ عُمر؟ قيل: كان الأمرُ إلى أبي بكر، فلا وجهَ لإنكار عمرَ، وقد يجوز أن يَعلَم أبو بكر من الحال ما يَخفَى على عمر. فإن قيل: فما معنى ما رُوِي عن أبي بكر من أن خالداً تأوّل فأخطأ، قيل: أراد عجَلته عليه بالقَتْل، وقد كان الواجب عندَه على خالد أن يتوقّف للشّبهة. واستدلّ أبو عليّ على رِدته بأنّ أخاه متمّم بنَ نُويرة لمّا أنشد عمرَ مَرثِيَّته أخاه قال له: وَدِدتُ أنّي أقولُ الشعر فأرثي أخي زَيْداً بمثلِ ما رَثيتَ به أخاك! فقال متمّم: لو قُتِل أخي على مِثل ما قُتِل عليه أخوك

ما رَثَيْتُهُ، فقال عمر: ما عزّاني أحدٌ بمثِل تَعزيَتِك، فدَلّ هذا على أنّ مالكاً لم يُقتَل على الإسلام كما قُتِل زيد.

وأجاب عن تَزْويج خالدٍ بامرأته بأنّه إذا قُتِل على الردّة في دار الكُفر جاز تزويج امرأتِه عند كثيرٍ من أهل العلم، وإن كان لا يجوز أن يَطَأها إلاّ بعد الاستبراء.

وحكيَ عن أبي عليٍّ أنّه إنّما قَتَله لأنّه ذَكَر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «صاحبك»، وأوهَم بذلك أنّه ليس بصاحب له، وكان عندَه أن ذلك ردّة وعلم عند المشاهَدة المقصد، وهو أميرُ القوم، فجاز أن يَقتُله وإن كان الأوْلى ألاّ يَستَعجِل، وأن يكشف الأمرَ في رِدّته حتّى يتّضح، فلهذا لم يقتلْه أبو بكر به. فأمّا وطؤه لامرأته فلم يَثبُت، فلا يصحّ أن يُجعل طَعناً فيه.

اعتَرض المرتضَى فقال: أمّا منع خالدٍ في قتل مالك بن نُوَيرَة واستباحةِ امرأته وأموالِهِ لنسبتِه إيّاه إلى ردّة لم تظهَر منه، بل كان الظاهرُ خلافَها من الإسلام، فعظيم. ويجري مجراه في العِظَم تغافُل من تغَافل عن أمره، ولم يُقم فيه حُكم الله تعالى، وأقرّه على الخطأ الّذي شهد هو به على نفسه، ويَجرِي مجراهما مَن أمكنَه أن يَعلم الحال فأهمَلها ولم يتصفَح ما رُوِي من الأخبار في هذا الباب وتعصّب لأسلافِهِ ومذهبه. وكيف يجوز عند خصومِنا على مالك وأصحابه جَحْد الزّكاة مع المقام على الصّلاة، وهما جميعاً في قَرَن! لأنّ العلم الضروري بأنّهما من دينه عليه السلام وشريعتِه على حدٍّ واحد، وهل نسبةُ مالكٍ إلى الرّدّة مع ما ذكرناه إلا قدحٌ في الأصول ونقضٌ لما تضمّنَتْه من أن الزكاة معلومةٌ ضرورةً من دينه عليه السلام.

واعجَبُ من كلّ عجيب قولُه: وكذلك سائر أهل الرّدة، يعني أنّهم كانوا يصلّون ويَجحَدون الزّكاة، لأنّا قد بيّنا أن ذلك مستحيلٌ غيرُ ممكِن! وكيف يصحّ ذلك، وقد رَوَى جميعُ أهل النّقل أن أبا بكر لمّا وَصّى الجيشَ الّذين أنفذَهم بأن يؤذّنوا ويقيمُوا، فإن أذّن القومُ كأذانهم وإقامتِهم كَفّوا عنهم، وإن لم يَفعَلوا أغارُوا عليهم، فجعل أمارةَ الإسلام والبراءةَ من الرّدة الأذان والإقامة! وكيف يُطلِق في سائر أهل الرّدة ما أطلقَه من أنّهم كانوا يصلّون، وقد علِمنا أن أصحابَ مُسَيلمة وطُلَيحة وغيرهما ممّن كان ادّعى النبوّة وخَلْع الشريعة ما كانوا يَرَوْن الصلاة ولا شيء ممّا جاءت به شريعتُنا. وقصّة مالك معروفةٌ عند من تأمّل كتبَ السِّيَر والنَّقل، لأنه كان على صَدَقات قومِه بني يَرْبوع والياً من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وآله، ولمّا بلغتْه وفاةُ رسول الله صلى الله عليه وآله أمسَك عن أخذ الصدقة من قومه وقال لهم: تربّصوا بها حتى يقومَ قائمٌ بعدَ النبيّ صلى الله عليه وآله، ونَنظرَ ما يكون من أمرِه، وقد صرّح بذلك في شعره حيث يقول:

وقال رجالٌ سَدّد اليومَ مالِكٌ	وقال رجالٌ مالِكٌ لم يسدّدِ
فقلت: دَعوني لا أبا لأبيكُمْ	فَلم أخطِ رأياً في المُقام ولا النّدِي
وقلت: خذوا أموالَكم غيرَ خائِف	ولا ناظرٍ فيما يجيء به غَدِي

فدونَكُمُوها إنّما هي مالُكُمْ مصوّرة أخلاقها لم تجدّدِ
سأجعلُ نَفْسي دونَ ما تَحْذَرونه وأرهِنُكم يوماً بما قُلتُه يَدِي
فإن قامَ بالأمر المجدّد قائمٌ أطعْنا وقلنا: الدِّينُ دينُ محمّدِ

فصرّح كما تَرَى أنّه استبقى الصدقَة في أيدِي قومِه رِفْقاً بهم وتقرُّباً إليهم، إلى أن يقومَ بالأمر مَنْ يدفعُ ذلك إليه. وقد رَوَى جماعةٌ من أهل السِّيَر، وذكره الطبريّ في تاريخه؛ أنّ مالكاً نَهَى قومَه عن الاجتماع على مَنْع الصدقات وفرّقهم، وقال: يا بني يَرْبوع، إنّا كنّا قد عصَيْنا أمراءَنا إذ دَعَونا إلى هذا الدّين، وبطأنا الناسَ عنه، فلم نُفلِح ولم نَنْجَح، وإنّي قد نظرتُ في هذا الأمر فوجدتُ الأمرَ يتأتّى لهؤلاء القوم بغير سياسة، وإذا أمر لا يسوسُه الناس؛ فإيّاكم ومُعاداة قوم يُصنَع لهم فتفرّقوا على ذلك إلى أموالهم، ورجع مالكٌ إلى منزله، فلمّا قَدِم خالدٌ البُطاح بَثّ السرايا وأمَرَهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكلّ من لم يُجب، وأمَرَهم إن امتنَع أن يقاتلوه، فجاءته الخيلُ بمالك بن نُوَيرة في نفرٍ من بني يَرْبوع؛ واختَلفَ السريّةُ في أمرهم، وفي السريّة أبو قتادة الحارثُ بن ربعيّ، فكان ممَّن شهد أنّهم أذّنوا وأقاموا وصلّوا، فلما اختلفوا فيهم أمَر بهم خالد فحبِسُوا وكانت ليلةً باردة لا يقوم لها شيء، فأمر خالدٌ منادياً يُنادِي: «أدفِئوا أسرَاءكم»، فَظنّوا أنّهم أمِرُوا بقَتْلهم، لأنّ هذه اللّفظةَ تُستَعمل في لغة كِنانةَ للقَتْل، فقَتلَ ضِرَارُ بنُ الأزْور مالكاً، وتزوّج خالدٌ زوجتَه أمّ تميم بنت المِنْهال.

وفي خبر آخرَ أنَّ السريّة التي بعث بها خالدٌ لمَّا غشيت القوم تحتَ اللّيل راعُوهم، فأخَذَ القومُ السلاح! قال: فقلنا: إنا المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بالُ السّلاح معكم! قلنا: فضعوا السلاح؛ فلمَّا وَضَعوا السلاح رَبَطوا أسارى فأتَوْا بهم خالداً. فحدّث أبو قَتادَةَ خالدَ بن الوليد أنَّ القوم نادَوْا بالإسلام، وأنَّ لهم أماناً، فلم يلتَفِت خالدٌ إلى قولهم وأمَرَ بقَتْلهم، وقسم سَبْيَهم، وحَلَفَ أبو قتادة ألاّ يسير تحت لواء خالد في جيشٍ أبداً، ورِكب فرسَه شاذًا إلى أبي بكر، فأخبَرَه الخبر، وقال له: إني نَهَيْتُ خالداً عن قتله، فلم يَقبَل قَولي، وأخذ بشهادة الأعراب الَّذين غرضُهم الغنائم، وإنَّ عمر لمَّا سمع ذلك تكلَّم فيه عند أبي بكر فأكثَر وقال: إنَّ القصاص قد وَجَب عليه. ولمَّا أقبل خالدُ بنُ الوليد قافلاً دَخَل المسجدَ وعليه قَباءٌ له عليه صَدَأ الحديد، مُعْتجراً[1] بعمامة له قد غَرَز في عمامته أسهماً، فلمّا دخل المسجدَ قام إليه عمرُ فنَزَع الأسهم عن رأسه فحطَّمها، ثمَّ قال له: فاعدوّ نَفْسِه، أعدَوْتَ على امرىءٍ مُسلم فقتلته، ثمَّ نَزَوْتَ على امرأته! والله لنَرْجُمَنَّك بأحجارك. وخالدٌ لا يكلّمه، ولا يظنُّ إلا أنَّ رأيَ أبي بكر مثلُ رأيه حتَّى دخل إلى أبي بكر واعتذر إليه بعُذره وتجاوز عنه، فخرج خالدٌ وعمرُ

(١) الاعتجار: لَفُّ العمامة دون التَّلَحّي. القاموس المحيط، مادة (عجر).

جالسٌ في المسجد فقال: هَلُم إليّ يابن أمّ شمْلة! فعَرَف عمرُ أن أبا بكر قد رَضِيَ عنه فلم يكلِّمه، ودخل بيته.

وقد رُوي أيضاً أنَّ عمر لمَّا وُلّيَ جَمَع من عشيرةِ مالكِ بن نُوَيْرة مَنْ وَجَد منهم واسترجَعَ ما وَجَد عند المسلمين من أموالِهم، وأولادِهم ونسائهم، فردّ ذلك عليهم جميعاً مع نَصيبه كان منهم. وقيل: إنّه ارتجع بعض نسائِهم من نَواحي دِمَشقَ، وبعضهنّ حوامل، فردّهن على أزواجهنّ. فالأمر ظاهرٌ في خطأ خالد، وخطأ من تجاوَزَ عنه. وقول صاحب الكتاب: إنّه يجوز أن يَخفَى عن عُمرَ ما يظْهر لأبي بكر ليس بشيء؛ لأنّ الأمرَ في قصّة خالد لم يكن مشتبهاً، بل كان مُشاهَداً معلوماً لكلّ من حَضَره؛ وما تأوّل به في القَتْل لا يُعذَر لأجله، وما رأيْنا أبا بكر حَكَم فيه بِحكم المتأوّل ولا غيره، ولا تلافَى خطأه وزَلَله، وكونه سَيْفاً من سُيوف الله على ما ادّعاه لا يسقط عنه الأحكام، ويبرّئه من الآثام. وأمّا قول متمّم: لو قُتِل أخِي على ما قُتِل عليه أخوك لما رَثَيْته، لا يدلّ على أنّه كان مرتدّاً، فكيف يَظُنّ عاقلٌ أنّ متمّماً يعترف بِردّة أخيه وهو يطالب أبا بكر بدَمِه والاقتصاص من قاتليه، وردّ سبيه، وأنّه أراد في الجملة التقرّب إلى عمرَ بتقريظ أخيه! ثم لو كا ظاهر هذا القول كباطنه لكان إنّما يقصد تفضيل قِتْلةِ زَيْد على قِتْلة مالك، والحال في ذلك أظهر، لأنّ زيداً قُتِل في بعث المسلمين ذابًّا عن وجُوههم، ومالكٌ قُتِل على شُبْهة، وبين الأمرين فرْق.

وأمّا قولُه في النبيّ ﷺ: «صاحبك» فقد قال أهل العلم: إنه أراد القرشيّة لأنّ خالداً قرشيّ. وبعد، فليس في ظاهر إضافته إليه دلالة على نفيه له عن نفسه، ولو كان علم من مَقصِده الاستخفاف والإهانة على ما ادّعاه صاحبُ الكتاب لوَجَب أن يعتَذِر خالدٌ بذلك عند أبي بكر وعمرَ ويعتذر به أبو بكر لمّا طالبه عمرُ بقتْله، فإنّ عمرَ ما كان يَمْنع من قتل قادح في نبوّة النبيّ ﷺ، وإنْ كان الأمر على ذلك فأيّ معنى لقول أبي بكر: تأوّل فأخطأ! وإنّما تأوّل فأصاب إن كان الأمر على ما ذكر.

قلت: أمّا تعجّب المرتضى من كون قوم منعوا الزكاة وأقاموا على الصلاة ودعْواه أنّ هذا غير ممكن ولا صحيح، فالعجب منه كيف يُنْكر وقوع ذلك، وكيف ينكر إمكانه! أما الإمكان فلأنه لا ملازمةَ بين العبادتين إلاّ من كونهما مقترنَتَين في بعض المواضع في القرآن، وذلك لا يُوجب تلازمهما في الوجود، أو من قوله: إنّ الناس يَعلَمون كون الزكاة واجبة في دين الإسلام ضرورة، كما تعلمون كون الصلاة في دين الإسلام ضرورة، وهذا لا يمنع اعتقادهم سُقوط وجوب الزكاة لشبهة دخلت عليهم. فإنهم قالوا: إن الله تعالى قال لرسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(١) قالوا: فوصف الصدقة المفروضة

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

بأنها صدقة من شأنها أن يطهّر رسول الله ﷺ الناسَ ويزكّيهم بأخذِها منهم، ثم عقب ذلك بأنْ فرض عليه مع أخذ الزكاة منهم أن يصلّيَ عليهم صلاةً تكون سكناً لهم. قالوا: وهذه الصّفات لا تتحقق في غيره؛ لأن غيره لا يطهّر الناسَ ويزكّيهم بأخذ الصدقة، ولا إذا صلى على الناس كانت صلاته سَكَناً لهم، فلم يجب علينا دفعُ الزكاة إلى غيره. وهذه الشبهة لا تنافي كون الزكاة معلوماً وجوبُها ضرورة من دين محمد ﷺ، لأنهم ما جَحدوا وجوبها، ولكنهم قالوا: إنه وجوبٌ مشروط؛ وليس يُعلَم بالضرورة انتفاء كونها مشروطة، وإنما يُعلَم ذلك بنظر وتأويل، فقد بان أنّ ما ادّعاه من الضرورة ليس بدالّ على أنه لا يمكن أحد اعتقاد نفي وجوب الزكاة بعد موت الرسول، ولو عرِضَت مِثل هذه الشبهة في صلاة لصحّ لذاهِب أن يَذهب إلى أنها قد سقطت عن الناس؛ فأمّا الوقوع فهو المعلوم ضرورة بالتواتر، كالعِلم بأن أبا بكر وَلي الخلافة بعد الرسول ﷺ ضرورة بطريق التواتُر، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر في كُتب التواريخ فإنها تشتمل من ذلك على ما يشفي ويكفي. وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في التاريخ الكبير بإسنادٍ ذكره: إنّ أبا بكر أقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ وتوجيهه أسامة في جيشه إلى حيث قُتِل أبوه زيد بن حارثة لم يحدث شيئاً، وجاءته وفود العَرَب مرتدّين يُقِرّون بالصلاة ويمنعون الصدقة، فلم يقبل منهم وَردّهم، وأقام حتى قدم أسامة بعد أربعين يوماً من شُخوصه، ويقال: بعد سَبْعين يوماً.

وروى أبو جعفر قال: امتنعت العربُ قاطبة من أدَاءِ الزّكاة بعد رسول الله ﷺ إلاّ قريشاً وثَقِيفاً. وروى أبو جعفر، عن السّريّ عن شعيب، عن سيف، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، قال: ارتدّت العربُ وَمنَعت الزكاة إلاّ قريشاً وثقيفاً، فأما هوازن فقدَّمَتْ رِجْلاً وأخّرتْ أخرى، أمسكوا الصدقة.

وروى أبو جعفر، قال: لما مَنَعت العربُ الزكاة كان أبو بكر ينتظر قدوم أسامة بالجيش، فلم يحارب أحداً قبل قدومِه إلا عَبْساً وذُبْيان، فإنه قاتلهم قبل رجوعِ أسامة.

وروى أبو جعفر؛ قال: قدِمتْ وفودٌ من قبائل العرب المدينة فنَزَلوا على وجوه الناس بها، ويحمِّلونهم إلى أبي بكر أن يقيموا الصّلاة وألاّ يُؤتوا الزّكاة، فَعزَم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو مَنَعوني عِقَال بعيرٍ لجاهدْتُهم عليه.

وروى أبو جعفر شِعْراً للخطيل بن أوْس، أخي الحُطَيْئة في معنى مَنْع الزكاة، وأن أبا بكر رَدّ سؤال العرب ولم يُجِبْهم من جُملتِه:

أطَعْنَا رسولَ الله إذْ كان بَيْننا ... فيا لَعِباد الله ما لأبي بكْرِ!
أيُورِثُها بكرٌ إذا ماتَ بعدَه ... وتلك لعَمرُ الله قاصمةُ الظَّهر
فهلاّ ردَدْتُم وفدنا بإجابةٍ ... وهلاّ حسِبْتم منه راعيةَ البَكْر

فإنّ الذي سالوكُم فمنعتمُ لكالتمر أو أحلَى لحلف بني فِهر

وروى أبو جعفر قال: لما قَدِمت العربُ المدينة على أبي بكر فكلّموه في إسقاط الزكاة، نزلوا على وجوه الناس بالمدينة فلم يبق أحدٌ إلاّ وأنزل عليه ناساً منهم، إلا العباس بن عبد المطلب، ثم اجتمع إلى أبي بكر المسلمون، فخوّفوه بأس العَرَب واجتماعَها. قال ضِرار بنُ الأزور: فما رأيتُ أحداً - ليس رسول الله - أملأ بحَرْب شَعْواء من أبي بكر فجعلنا نخوّفه ونروّعه، وكأنما إنما نخبره بما له لا ما عليه، واجتمعت كلمة المسلمين على إجابة العرب إلى ما طلبت، وأبى أبو بكر أن يفعَل إلاّ ما كان يَفعله رسول الله ﷺ وأن يأخذ إلا ما كان يأخذُ، ثم أجّلهم يوماً وليلة، ثم أمرَهم بالانصراف، وطاروا إلى عشائرهم.

وروى أبو جعفر، قال: كان رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى عُمان قبل موته، فمات وهو بعُمان، فأقبل قافلاً إلى المدينة، فوجد العرب قد منعت الزكاة، فنزل في بني عامر على قُرّة بن هبيرة، وقرّة يقدِّم رِجْلاً ويؤخّر أخرى، وعلى ذلك بنو عامر كلّهم إلا الخواصّ. ثم قَدِم المدينة، فأطافت به قريش، فأخبرهم أن العساكر مُعسكِرة حولهم، فتفرّق المسلمون، وتحلقّوا حَلقاً، وأقبل عمر بن الخطاب، فمرّ بحَلْقة وهم يتحدثون فيما سَمِعوا من عمرو، وفي تلك الحلْقة عليٌّ وعثمانُ وطلحةُ والزبير وعبد الرحمن بنُ عوف وسعد، فلما دنا عمرُ منهم سَكَتوا، فقال: في أيّ شيء أنتم؟ فلم يُخبروه؛ فقال: ما أعلمني بالذي خلَوْتم عليه! فغضب طلحةُ وقال: الله يابن الخطاب! إنّك لتعلم الغيب! فقال: لا يعلم الغيب إلا الله، ولكنْ أظُنّ قلتمْ: ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألاّ يقرّوا بهذا الأمر. قالوا: صدقت، فقال: فلا تخافوا هذه المنزلة، أنا والله منكم على العرب أخوَفُ منّي عليكم من العرب.

قال أبو جعفر: وحدّثني السرّيّ، قال: حدّثنا شعيب، عن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: نزل عَمرو بن العاص بمنْصَرَفه من عُمَانَ بعد وفاة رسولِ الله ﷺ بقُرّة بن هبيرة بن سَلَمة بن يَبِير، وحولَه عساكرُ من أفنائهم، فَذَبح له، وأكرَم منزلتَه، فلمّا أراد الرِّحلة خلاً به وقال: يا هذا؛ إنّ العرب لا تَطِيب لكم أنفساً بالإتاوة، فإن أنتم أعفَيْتموها من أخذ أموالها فستَسْمع وتُطيع، وإن أبَيْتم فإنّها تجتمع عليكم؛ فقال عمرو: أتُوعِدنا بالعرب وتخوّفنا بها! موعدُنا حِفْشُ أمّك، أما والله لأوطئنّه عليك الخيل، وقدم على أبي بكر والمسلمين فأخبَرَهم.

ورَوَى أبو جعفر قال: كان رسول الله ﷺ قد فَرّق عمّالَه في بني تميم على قَبْض الصدقات[1] فجعل الزِّبرِقانَ بنَ بدر على عَوْف والرِّباب، وقيس بن عاصم على مُقاعِس والبطون، وصَفْوان بن صَفوان وسَبْرة بن عمرو على بني عمرو، ومالك بنُ نُوَيرة على بني

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٢٦٨).

حنظلة، فلمّا تُوفّي رسول الله ﷺ ضَرَب صفوانُ إلى أبي بكر حين وَقَع إليه الخبرُ بموت النبيّ ﷺ بصَدَقات بني عمرو، وبما وَلِيَ منها، وما ولي سَبْرة، وأقام سَبْرة في قومه لحدَثٍ إن نابَ، وأطرَق قيسُ بنُ عاصم ينظُر ما الزِّبرقان صانع؟ فكان له عدواً وقال وهو ينتظره وينتظر ما يصنع: ويلي عليه! ما أدري ما أصنع إن أنا بايعتُ أبا بكر وأتيتُه بصَدَقات قومي خلّفني فيهم فساءني عندهم، وإن رددتُها عليهم فليأتينّ أبا بكر فيسوءني عندَه، ثمّ عزم قيسٌ على قسمتِها في مُقاعِس والبُطون، ففعل وعزَمَ الزِّبرقان على الوَفاء، فأتبع صَفْوان بصَدَقات عَوف والرِّباب حتى قَدِم بها المدينة وقال شعراً يُعرِّض فيه بقَيْس بن عاصم، ومن جملتِه:

وفيتُ بأذْوَادِ الرّسول وقد أبَتْ شُعاةٌ فلم يَرْدُدْ بعيراً أميرُها

فلمّا أرسل أبو بكر إلى قيسٍ العلاءَ بنَ الحَضْرميّ أخرَج الصدقَة، فأتاه بها وقَدِم معه إلى المدينة.

وفي تاريخ أبي جعفر الطّبريّ من هذا الكثير الواسع، وكذلك في تاريخ غيره من التواريخ، وهذا أمرٌ معلوم باضطرار، لا يجوزُ لأحدٍ أن يخالف فيه.

فأمّا قوله: كيف يصحّ ذلك، وقد قال لهم أبو بكر: إذا أذّنوا وأقاموا كأذانكم وإقامَتِكم، فكفّوا عنهم، فَجعل أمارةَ الإسلام والبراءة من الرّدّة الأذان والإقامة، فإنه قد أسقَط بعضَ الخبر؛ قال أبو جعفر الطبريّ في كتابه: كانت وصيّتُه لهم: إذا نَزلتم فأذّنوا وأقيموا، فإن أذّن القومُ وأقاموا فكُفّوا عنهم، فإن لم يَفعَلوا فلا شيءَ إلاّ الغارَة، ثمّ اقتلوهم كلّ قتلة؛ الحَرْق فما سواه، وإن أجابوا داعيةَ الإسلام فاسألوهم، فإنْ أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم، وإن أبَوْا فلا شيءَ إلا الغارة، ولا كَلِمَة.

فأما قولُه: وكيف يُطلق قاضِي القضاة في سائر أهل الرّدّة ما أطلقَه من أنّهم كانوا يصلّون ومن جُملتهم أصحابُ مُسيلمة وطلحة! فإنّما أراد قاضي القُضاة بأهل الرّدّة هَا هنا مانِعي الزّكاة لا غير، ولم يُرِد مَن جَحَد الإسلام بالكلّية.

فأمّا قصّة مالكِ بن نُوَيرة وخالدِ بنِ الوليد فإنّها مشتبهة عندي، ولا غَرْوَ فقد اشتَبهتْ على الصّحابة، وذلك أن مَنْ حضرها من العَرَب اختلفوا في حال القوم: هل كان عليهم شِعارُ الإسلام أو لا؟ واختلف أبو بكر وعمرُ في خالدٍ مع شدّة اتفاقهما، فأما الشّعر الذي رواه المرتضَى لمالك بنِ نُوَيرَة فهو معروف إلاّ البيتَ الأخير، فإنّه غيرُ معروف، وعليه عُمدة المرتضَى في هذا المقام، وما ذَكَره بعدُ من قصّة القوم صحيح كلُّه مُطابِق لما في التواريخ إلاّ مُوَيْضعاتٍ يسيرة:

منها قولُه: إنّ مالكاً نَهَى قومَه عن الاجتماع على مَنْع الصدقات، فإنّ ذلك غيرُ منقول وإنّما

المنقولُ أنّه نَهَى قومَه عن الاجتماع في موضع واحد، وأمَرَهم أن يتفرّقوا في مِياهِهم؛ ذَكَر ذلك الطبريّ ولم يذكر نَهْيَه إيّاهم عن الاجتماع علَى مَنْع الصدقة، وقال الطبريّ: إنّ مالكاً تردّد في أمرِه: هل يَحمِل الصّدقات أم لا؟ فجاءه خالد وهو متخيِّر سبح.

ومنها أن الطبريّ ذَكر أن ضِرار بنَ الأزْوَر قَتل مالكاً عن غيرِ أمْرِ خالد، وأنّ خالداً لمّا سَمِع الواعيةَ خرج وقد فَرَغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه؛ قال الطبريّ: وغَضِب أبو قتادة لذلك، وقال لخالد: هذا عَمَلُك! وفَارقَه وأتَى أبا بكر فأخبرَه فغَضِب عليه أبو بكر حتّى كلّمه فيه عُمَر، فلم يَرْضَ إلاّ أن يَرْجع إلى خالد، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة.

ومنها أن الطبريّ رَوَى أنّ خالداً لما تزوّج أمّ تميم بنتَ المِنهال امرأةَ مالك لم يَدخُل بها وتَركَها حتى تقضي طُهرَها، ولم يَذكُر المرتضَى ذلك.

ومنها أنّ الطبري رَوَى أنّ متمّماً لمّا قَدِم المدينةَ طَلب إلى أبي بكر في سَبْيِهم، فكتب له برَدّ السَّبْي؛ والمُرتضَى ذكَرَ أنّه لم يَرِد إلاّ في خلافة عمرَ.

فأمّا قولُ المرتضَى: إن قولَ متمّم: لو قُتِل أخي على مِثل ما قُتِل عليه أخوكَ لَما رَثَيْتُه، لا يدلّ على رِدَّته، فصحيح، ولا رَيْب أنّه قَصَد تقريظَ زَيْد بن الخطّاب وأن يُرضِي عمرُ أخاه بذلك. ونعِمّا قال المرتضى! إنّ بين القِتْلَتين فرقاً ظاهراً، وإليه أشارَ متمّم لا محالةَ.

فأمّا قولُ مالك: صاحبُك، يعني النبيّ صلى الله عليه وآله، فقد رَوَى هذه اللفظة الطبريُّ في التاريخ، قال: كان خالدٌ يعتذِر عن قَتْله، فيقول: إنّه قال له وهو يراجعُه: ما إخالُ صاحبَكم إلاّ قال كذا وكذا، فقال له خالد: أوَ ما تعدّه لك صاحباً! وهذه لَعمري كلمةٌ جافية؛ وإن كان لها مَخرَج في التأويل، إلا أنّهُ مُستكْرَه، وقرائنُ الأحوال يَعرِفها مَن شَاهدَها وسَمِعها، فإذا كان خالدٌ قد كان يَعتذِر بذلك، فقد اندفَعَ قولُ المرتضَى: هلاّ اعتذَر بذلك! ولستُ أنزّه خالداً عن الخطأ، واعلم أنه كان جَبّاراً فاتِكاً لا يُراقِب الدّين فيما يَحمله عليه الغضب وهَوَى نفسِه، ولقد وَقَع منه في حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله مع بني جذيمة بالغُمَيْصاء أعظمُ ممّا وَقَع منه في حقّ مالِك بن نُوَيرة، وعَفَا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله بعدَ أن غَضِب عليه مُدّة وأعرَض عنه، وذلك العفوُ هو الّذي أطمَعه حتى فَعَل ببني يَرْبوع ما فَعَل بالبُطاح.

الطعن الثامن: قولُهم: إنَّ مما يُؤثّر في حاله وحاله عمرَ دَفْنَهُمَا معَ رسول الله صلى الله عليه وآله في بَيْتِه، وقد منع الله تعالى الكلَّ من ذلك في حال حياتِه - فكيف بعدَ الممات - بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[1].

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

أجاب قاضي القضاة بأن الموضِعَ كان مِلْكاً لعائشة، وهي حُجْرتها التي كانت معروفةً بها، والحجَرُ كلُّها كانت أملاكاً لأزواج النبيّ ﷺ، وقد نطق القرآنُ بذلك في قولِه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾(١)، وذكر أن عمرَ استأذَنَ عائشةَ في أن يُدفَن في ذلك الموضع، وحتّى قال: إن لم تأذَنْ لي فادفِنوني في البَقيع، وعلى هذا الوجهِ يُحمَل ما رُوِي عن الحَسَن عليه السلام أنّه لما مات أوصَى أن يُدفَن إلى جَنْب رسولِ الله ﷺ، وإن لم يترك ففي البَقيع، فلمّا كان مِن مرْوانَ وسعيد بن العاص ما كان دُفِن بالبَقِيع. وإنما أوصَى بذلك بإذْن عائشةَ؛ ويجوز أن يكون علم من عائشة أنّها جعَلتْ الموضعَ في حُكم الوَقْف، فاستباحوا ذلك لهذا الوجه؛ قال: وفي دَفْنه عليه السلام في ذلك الموضع ما يدلّ على فَضْل أبي بكر؛ لأنّه عليه السلام لمّا مات اختلفوا في موضع دَفْنه؛ وكَثُر القولُ حتى رَوَى أبو بكر عنه ﷺ أنّه قال ما يدلّ على أنّ الأنبياء إذا ماتُوا دُفِنوا حيث ماتُوا، فزال الخلافُ في ذلك.

اعترضَ المرتضَى فقال: لا يخلو موضعُ قبر النبيّ ﷺ من أن يكون باقياً على مِلْكه عليه السلام، أو يكون انتقل في حياته إلى عائشةَ على ما ادّعاه؛ فإن كان الأوّل لم يخلُ أن يكونَ ميراثاً بعدَه أو صدقة؛ فإن كان ميراثاً فما كان يحلّ لأبي بكر ولا لعمَر من بعده أن يأمرا بدفنهما فيه إلاّ بعد إرضاء الوَرَثة الّذين هم على مَذْهَبِنا فاطمة وجماعةُ الأزواج، وعلى مذهبهم هؤلاء والعبّاس، ولم نَجِد واحداً منهما خاطب أحداً من هؤلاء الوَرَثة على ابتياع هذا المكان ولا استَنزله عنه بثمن ولا غيره. وإن كان صدقة فقد كان يَجِب أن يُرْضي عنه جماعةَ المسلمين ويبتاعَه منهم؛ هذا إن جاز الابتياع لما يَجرِي هذا المجرى، وإن كان انتقل في حياته فقد كان يجب أن يظهر سبب انتقاله والحجّة فيه، فإنّ فاطمة عليها السلام لم يَقنَع منها في انتقال فَدَك إلى مِلْكها بقَوْلها، ولا بشهادة من شَهِد لها. فأمّا تعلّقه بإضافة البيوت إليهنّ في قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ فمن ضعيف الشُّبهة؛ لأنّا قد بيّنا فيما مضى من هذا الكتاب أن هذه الإضافة لا تقتضي الملك، وإنما تَقتضِي السّكْنى، والعادة في استعمال هذه اللّفظة فيمَا ذكَرْناه ظاهرة، قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾(٢)؛ ولم يُرِد الله تعالى إلا حيث يسكنّ وينزلن دُون حيث يملكن وما أشبهه، وأظرف من كل شيء تقدّم قولُه: إنّ الحسن عليه السلام استأذن عائشة في أن يُدفن في البيت حتّى مَنَعه مروانُ وسعيدُ بن العاص؛ لأنّ هذه مكابرة منه ظاهرة، فإنّ المانع للحَسَن عليه السلام من ذلك لم يكن إلاّ عائشة، ولعلّ من ذِكره من مروان وسعيد وغيرهما أعانها واتّبع في ذلك أمرَهما، وروى أنها خرجت في ذلك اليوم على بغلٍ حتى قال ابن عباس: يوماً على بَغْل ويوماً على جمل! فكيف تأذن عائشة في ذلك، وهي مالكةُ الموضع على قولهم، ويمنع منه مروان وغيره ممن لا ملِكَ له في الموضع، ولا شَرِكة ولا يدا! وهذا من قبيح ما

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.

يرتكب. وأيّ فضل لأبي بكر في روايته عن النبيّ صلى الله عليه وآله حديث الدفن! وعملهم بقوله إن صح فمن مذهب صاحب الكتاب وأصحابه العمل بخبر الواحد العَدْل في أحكام الدين العظيمة، فكيف لا يعمل بقول أبي بكر في الدفن وهم يَعملون بقول مَن هُو دونه فيما هو أعظم من ذلك!

قلت: أمّا أبو بكر؛ فإنه لا يلحقه بدَفْنِه مع الرسول صلى الله عليه وآله ذمٌّ؛ لأنه ما دَفَن نفسَه، وإنما دفنه الناسُ وهو ميِّت، فإن كان ذلك خطأ فالإثم والذّمّ لاحقان بمن فعل به ذلك، ولم يَثْبُت عنه بأنه أوصَى أن يُدفَن مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّما قد يُمكن أن يتوجه هذا الطعن إلى عمر، لأنه سأل عائشة أن يُدفَن في الحُجْرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر. والقولُ عندي مشتبه في أمر حُجَر الأزواج: هل كانت على مِلْك رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن تُوفّي، أم مَلَكها نساؤه؟

والذي تنطِقُ به التواريخ أنّه لما خرج من قُباء ودخَلَ المدينة وسكَن منزل أبي أيّوب، اختط المسجد واختَطّ حُجَر نسائه وبناته، وهذا يدلّ على أنه كان المالك للمواضع، وأمّا خروجُها عن ملكه إلى الأزواج والبنات فممّا لم أقِفْ عليه. ويجوز أن تكونَ الصحابةُ قد فهمت من قرائن الأحوال وممّا شاهدوه منه صلى الله عليه وآله؛ أنّه قد أقرّ كل بيت منها في يدِ زوجةٍ من الزّوجات على سبيل الهبة والعَطيّة، وإن لم يُنقل عنه في ذلك صيغةُ لفظ مُعيّن.

والقولُ في بيتِ فاطمةَ عليها السلام كذلك، لأنّ فاطمة عليها السلام لم تكن تملك مالاً، وعليّ عليه السلام بَعلُها كان فقيراً في حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله حتى إنه كان يَستَقي الماء ليَهُود بيَدِه، يَسقِي بساتينَهم لقُوتٍ يدفعونَه إليه، فمن أين كان له ما يبتاعُ به حُجرةً يَسكُن فيها هو وزوجتهُ! والقولُ في كثيرٍ من الزّوجات كذلك أنّهنّ كنّ فقيراتٍ مُدْقِعات، نحو صفيّة بنت حُيي بن أخْطب، وجُوَيْرية بنت الحارث، وميمونة، وغيرهنّ، فلا وجه يُمكِن أن يتملّك منه هؤلاء النّسوة والبنتُ الحُجَر؛ إلاّ أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وهبها لهنّ؛ هذا إن ثبتَ أنها خرجتْ عن مِلْكيّته عليه السلام، وإلاّ فهي باقيةٌ على مِلْكيّته باستصحاب الحال. والقولُ في حُجْرة زينبَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك، لأنه أقدَمَها من مكّة مفارقةً لبعلِها أبي العاص بنِ الرّبيع، فأسكنها بالمدينة في حُجْرة منفردة خاليةٍ عن بَعْل، فلا بدّ أن تكون تلك الحجرةُ بمقتضى ما يتغلّب على الظّنّ ملكاً له عليه السلام، فيُستدام الحُكم بملكه لها إلى أن نجد دليلاً يَنقُلنا عن ذلك. وأمّا رقيّة وأمّ كُلثوم زوجتا عثمانَ، فإن كان مُثرياً ذا مال فيجوز أن يكون ابتاع حُجْرَةً سكنت فيها الأولى منهما، ثمّ الثانيةُ بعدَها.

فأمّا احتجاجُ قاضي القضاة بقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1]؛ فاعتراضُ المرتضى عليه قويّ،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

لأن هذه الإضافة إنما تقتضي التخصيص فقط لا التّمليك، كما قال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾[1]؛ ويجوز أن يكون أبو بكر لمّا رَوَى قوله: «نحن لا نُورَث» تَركَ الحُجَر في أيدي الزّوجات والبنت على سبيل الإقطاع لهنّ لا التمليك، أي أباحهنّ السُّكْنى لا التصرّف في رقاب الأرض والأبنية والآلات، لما رأى في ذلك من المصلحة، ولأنّه كان من المتهجَّن القبيح إخراجُهنّ من البُيوت، وليس كذلك فَدَك؛ فإنها قريةٌ كبيرة ذاتُ نخل كثير خارجةٌ عن المدينة، ولم تكن فاطمةُ مُتصرّفةً فيها من قِبَل نفسها ولا بوكيلها، ولا رأتْها قطّ، فلا تُشبِه حالُها حالَ الحُجَر. وأيضاً لإباحة هذه الحجَر ونزارة أثمانهنّ، فإنها كانت مبنيّةً من طين قصيرة الجدران، فلعلّ أبا بكر والصّحابة استحقَروها، فأقرّوا النِّساء فيها وعوّضوا المسلمين عنها بالشيء اليسير ممّا يقتضي الحساب أن يكون من سهم الأزواج والبنت عند قسْمة الفَيْء.

وأمّا القولُ في الحَسَن وما جَرَى من عائشة وبني أميّة فقد تقدّم؛ وكذلك القولُ في الخبر المَروِيّ في دَفْن الرسول ﷺ، فكان أبو المظفّر هبةُ الله بن المُوسويّ صدر المخزن المعمور، كان في أيّام الناصر لدين الله إذا حادثته حديثَ وَفاةِ رسول الله ﷺ ورواية أبي بكر ما رواه من قوله ﷺ: «الأنبياءُ يُدفَنون حيث يمُوتون»[2]، يَحلِف أن أبا بكر افتعل هذا الحديثَ في الحال والوقت، ليُدفَن النبيّ ﷺ في حُجْرة ابنته، ثم يُدفَن هو معه عند موته، عِلْماً منه أنّه لم يَبقَ من عمره إلاّ مثل ظِمْء الحمار، وأنّه إذا دُفِن النبيّ ﷺ في حُجْرة ابنته فإن ابنته تدْفِنه لا محالة في حُجْرتها عند بَعْلها، وأنّ دَفْن النبيّ ﷺ في مَوْضعٍ آخرَ فربّما لا يتهيّأ له أن يُدفَن عنده، فرأى أن هذا الفوزَ بهذا الشّرف العظيم، وهذا المكان الجليل، ممّا لا يَقتضِي حسن التّدبير فوته، وإن انتهاز الفرصة فيه واجب، فَرَوَى لهم الخبرَ، فلا يُمكنهم بعدَ روايته ألاّ يعمَلوا به، لاسيّما وقد صار هو الخليفة، وإليه السلطان والنفع والضّرر، وأدرَك ما كان في نفسه، ثمّ نَسَج عمرُ على منواله، فرَغِب إلى عائشةَ في مثل ذلك، وقد كان يُكرِمها ويقدّمها على سائر الزّوجات في العطاء وغيره، فأجابتْه إلى ذلك، وكان مُطاعاً في حياته وبعد مماته، وكان يقول: واعجباً للحَسَن وطمَعِه في أن يُدفَن في حُجْرة عائشة! والله لو كان أبوه الخليفةَ يومئذٍ لما تهيّأ له ذلك، ولا تم لبُغض عائشةَ لهم، وحسد الناس إيّاهم، وتمالؤ بني أميّة وغيرهم من قريش عليهم! ولهذا قالوا: يُدفَن عثمانُ في حَشّ كوكب، ويُدفَن الحَسَن في حُجْرة رسول الله ﷺ، فكيف والخليفةُ معاويةُ والأمراء بالمدينة بنو أميّة، وعائشةُ صاحبةُ الموضع، والناصرُ لبني هاشم قليل، والشانىء كثير.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في قبر النبي ﷺ، وذكره الشوكاني في «نيل الأوطار» (٢/ ١٣٩).

وأنا أستغفر الله ممَّا كان أبو المظفَّر يَحلِف عليه، وأعلَم وأظنّ ظنًّا شبيهاً بالعلم أنّ أبا بكر ما رَوَى إلاّ ما سَمِع، وأنَّه كان أتقى لله من ذلك.

الطعن التاسع: قولُه: إنَّه نصّ على عمرَ بالخلافة؛ فخالَف رسول الله ﷺ على زَعْمه، لأنَّه كان يزعُم هو ومن قال بقوله أنّ رسول الله ﷺ لم يستخلِف.

والجواب أن كونه لم يستخلف لا يدلّ على تحريم الاستخلاف، كما أنه من لم يركَب الفيل لا يدلّ على تحريم رُكوب الفيل. فإن قالوا: ركوبُ الفيل منه منفعة ولا مضرَّة فيه ولم يردْ نصّ بتحريمه، فوجب أن يحسن. قيل لهم: والاستخلاف مصلحة، ولا مضرّة فيه؛ وقد أجمع المسلمون أنه طريقٌ إلى الإمامة، فوجب كونه طريقاً إليها، وقد رُوِي عن عمر أنه قال: إن أستخلِف فقد استخلف من هو خير منّي - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني - يعني رسول الله ﷺ. فأما الاجتماع المشار إليه فهو أنَّ الصحابة أجمعوا على أنَّ عمرَ إمامٌ بنصّ أبي بكر عليه، وأنفذوا أحكامه، وانقادوا إليه لأجل نصّ أبي بكر لا لشيء سواه، فلو لم يكن ذلك طريقاً إلى الإمامة لما أطبقوا عليه. وقد اختلف الشيخان أبو عليّ وأبو هاشم في أن نصّ الإمام على إمامٍ بعده: هل يكفي في انعقاد إمامته؟ فقال أبو عليٍّ: لا يكفي، بل لا بدّ من أن يرضى به أربعةٌ حتى يجري عهده إليه مجرى عقد الواحد برضا أربعة؛ فإذا قارنه رضاً أربعة صار بذلك إماماً، ويقول في بيعة عمر: إن أبا بكر أحضر جماعة من الصحابة لما نصّ عليه، ورجع إلى رضاهم بذلك، وقال أبو هاشم: بل يكفي نصّه عليه، ولا يُراعي في ذلك رضا غيره به، ولو ثبت أنّ أبا بكر فعله لكان على طريق التّبع للنصّ، لا أنه يؤثر في إمامته مع العهد؛ ولعل أبا بكر إن كان فعل ذلك فقد استطاب به نفوسهم، ولهذا لم يؤثر فيه كراهية طلحة حين قال: ولّيتَ علينا فَظًّا غليظاً، ويبين ذلك أنه لم ينقل استئناف العقد من الصحابة لعمر بعد موت أبي بكر ولا اجتماع جماعة لعقد البَيْعة له، والرضا به، فدلّ على أنهم اكتفوا بعهد أبي بكر إليه.

الطعن العاشر: قولهم: إنه سمّى نفسه بخليفة رسول الله ﷺ، لاستخلافه إياه بعد موته، مع اعترافه أنه لم يستخلفه.

والجواب أن الصحابة سمته خليفة رسول الله ﷺ لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته، والاستخلاف على الصلاة عند الموت له مزيّة على الاستخلاف على الصلاة حال الحياة، لأن حال الموت هي الحال التي تكون فيها العهودُ والوصايا وما يهتم به الإنسان من أمور الدنيا والدين، لأنها حالُ المُفارقة. وأيضاً فإن رسول الله ﷺ ما استخلف أحداً على الصّلاة

بالمدينة وهو حاضر، وإنما كان يستخلف على الصلاة قوماً أيام غَيْبته عن المدينة، فلم يحصل الاستخلاف المطلق على الصلاة بالناس كلهم، وهو ﷺ حاضرٌ بين الناس حيّ إلاّ لأبي بكر، وهذه مزيةٌ ظاهرة على سائر الاستخلافات في أمر الصلاة، فلذلك سمّوْه خليفة رسول الله ﷺ. وبعد، فإذا ثبت أن الإجماع على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة وحجّة، وثبت أن قوماً من أفاضل الصحابة اختاروه للخلافة، فقد ثبت أنه خليفة رسول الله ﷺ، لأنه لا فرق بين أن ينصّ الرسول ﷺ عل شخص معين، وبين أن يشير إلى قوم فيقول: مَن اختار هؤلاء القوم فهو الإمام؛ في أنّ كلّ واحدٍ منهما يصح أن يُطلق عليه خليفة رسول الله ﷺ.

الطعن الحادي عشر: قولهم: إنه حرق الفُجاءة السُلَمِيّ بالنار، وقد نهى النبيُّ ﷺ أن يُحرق أحد بالنار.

والجواب أن الفُجاءة جاء إلى أبي بكر كما ذكر أصحابُ التواريخ فطلب منه سلاحاً يتقوّى به على الجهاد في أهل الردّة، فأعطاه، فلما خرج قطع الطريق ونهب أموال المسلمين وأهل الرّدّة جميعاً، وقتل كلّ من وَجَد، كما فعلت الخوارجُ حيث خرجتْ، فلما ظفر به أبو بكر رأى حَرْقه بالنار إرهاباً لأمثاله من أهل الفساد، ويجوز للإمام أن يخصّ النصّ العام بالقياس الجَلِيّ عندنا.

الطعن الثاني عشر: قولهم: إنه تكلم في الصلاة قبل التسليم، فقال: لا يفعلنّ خالد ما أمرته[1]؛ قالوا: ولذلك جازَ عند أبي حنيفة أن يخرج الإنسانُ من الصلاة بالكلام وغيره من مفسدات الصلاة من دون تسليم، وبهذا احتجّ أبو حنيفة.

والجواب أن هذا من الأخبار التي تتفرّد بها الإمامية، ولم تثبت؛ وأما أبو حنيفة فلم يذهب إلى ما ذَهب إليه لأجل هذا الحديث، وإنما احتجّ بأن التسليم خطاب آدميّ، وليس هو من الصلاة وأذكارها، ولا من أركانها، بل هو ضدّها، ولذلك يبطلها قبل التمام، ولذلك لا يسلّم المسبوق تبعاً لسلام الإمام، بل يقوم من غير تسليم؛ فدلّ على أنه ضدّ للصلاة وجميع الأضداد بالنسبة إلى رَفْع الضدّ على وتيرة واحدة، ولذلك استوى الكلّ في الإبطال قبل التمام، فيستوي الكلّ في الانتهاء بعد التمام. وما يذكره القوم من سبب كلام أبي بكر في الصلاة أمرٌ بعيد، ولو كان أبو بكر يريد ذلك لأمر خالداً أن يفعل ذلك الفعل بالشخص المعروف وهو نائم ليلاً في بيته، ولا يعلم أحد مَن الفاعل.

(١) أنظر بحار الأنوار: ٢٩/ ١٣٧.

الطعن الثالث عشر: قولهم: إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو عَلَى الشام يأمره أن يقتل سعد بن عُبادة، فكمن له هو وآخرُ معه ليلاً، فلما مرّ بهما رَمَياه فقتلاه، وهتف صاحبُ خالد في ظلام الليل بعد أن ألقَيَا سعداً في بئر هناك فيها ماء ببيتين:

نحن قتلنا سيد الخز رج سعد بن عُبادهْ
ورمَيناه بسهمين فلم تُخطِ فؤاده

يوهم أنّ ذلك شعر الجنّ، وأن الجنّ قتلتْ سعداً، فلما أصبح الناس فقدوا سعداً، وقد سمع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه، فوجدوه بعد ثلاثة أيام في تلك البئر، وقد اخضرّ، فقالوا: هذا مَسيس الجن؛ وقال شيطانُ الطاق لسائل سأله: ما منع عليًا أن يُخاصم أبا بكر في الخلافة؟ فقال: يابنَ أخي، خاف أن تقتله الجنّ.

والجواب، أما أنا فلا أعتقد أنّ الجن قتلتْ سعداً، ولا أنّ هذا شعرُ الجنّ، ولا أرتاب أن البشر قتلوه، وأنّ هذا الشعر شعر البشر، ولكن لم يثبت عندي أن أبا بكر أمرَ خالداً، ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه ليرضيَ بذلك أبا بكر - وحاشاه - فيكون الإثم على خالد، وأبو بكر بريءٌ من إثمه؛ وما ذلك من أفعال خالد ببعيد[1].

الطعن الرابع عشر: قولُهم: إنّه لمّا استخلف قطَعَ لنفسه على بيت المال أجرةَ كلّ يوم ثلاثة دراهم، قالوا: وذلك لا يجوز، لأنّ مَصارِف أموالِ بيتِ المسلمين لم يُذكَر فيها أجرةٌ للإمام.

والجواب أنّه تعالى جعَلَ في جملة مصرف أموالِ الصّدقات العامِلين عليها، وأبو بكر من العاملين. واعلم أنّ الإماميّة لو أنصفتْ لرأتْ أنّ هذا الطّعن بأن يكونَ من مَناقب أبي بكر أولَى من أن يكون من مَساوِيه ومَثاليه، ولكنّ العَصَبيّة لا حِيلة فيها.

الطعن الخامس عشر: قولُهم: إنّه لمّا استخلف صَرَخ مناديه في المدينة: من كان عنده شيءٌ من كلام الله فليأتِنا به؛ فإنا عازِمون على جَمْع القرآن، ولا يأتِنا بشيءٍ منه إلاّ ومعه شاهدَا عَدْل؛ قالوا: وهذا خطأ، لأنّ القرآن قد بان بفصاحته عن فصاحة البَشَر، فأيّ حاجةٍ إلى شاهدَيْ عَدْل!

---

(١) ذكر ابن عبد البر في العقد الفريد (٤/ ٢٤٧) أن عمر هو الذي أرسل رجلاً لقتل سعد فذهب وقتله بسهم، وذكره أيضاً البلاذري في أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٩ ح ١١٩٣ط. دار المعارف القاهرة الطبعة الثالثة.

والجواب، أن المرتضى ومَن تابَعه من الشّيعة لا يصحّ لهم هذا الطعن؛ لأنّ القرآن عندهم ليس مُعجزاً بفَصاحتِه، على أنّ من جعل معجزتَه للفصاحة لم يقُل: إنّ كل آية من القرآن هي مُعجِزة في الفصاحة، وأبو بكر إنّما طَلَب كلّ آية من القرآن لا السّورة بتمامها وكمالِها التي يتحقّق الإعجاز من طريق الفَصاحة فيها. وأيضاً فإنّه لو أحضَر إنسانٌ آيةً أو آيتين ولم يكن معه شاهد، فربّما تَختلف العربُ: هل هذه في الفصاحة بالغةٌ مبلَغ الإعجاز الكلّي، أم هي ثابتةٌ من كلام العرب بثبوته؛ غيرَ بالغة إلى حدّ الإعجاز؟ فكان يلتبسُ الأمرُ ويقَع النزاع، فاستَظهَر أبو بكر بطلب الشّهود تأكيداً، لأنّه إذا انضمّت الشهادةُ إلى الفصاحة الظاهرة ثَبَت أنّ ذلك الكلامَ من القرآن.

من هذا الكتاب

الأصل: ومن هذا الكتاب: إِنِّي وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَهُمْ طِلاَعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلاَ اسْتَوْحَشْتُ؛ وَإِنِّي مِنْ ضَلاَلِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ، لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي، وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي. وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ، وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ؛ وَلٰكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ هٰذِهِ الْأُمَّةَ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً، وَعِبَادَهُ خَوَلاً، وَالصَّالِحِينَ حَرْباً، وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ، وَجُلِدَ حَدًّا فِي الْإِسْلاَمِ. وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلاَمِ الرَّضَائِخُ؛ فَلَوْلاَ ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ.

أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تُزْوَى، وَإِلَى بِلاَدِكُمْ تُغْزَى!

انْفِرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ، وَلاَ تَثَّاقَلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِالْخَسْفِ، وَتَبُوءُوا بِالذُّلِّ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ الْأَخَسَّ؛ وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُ وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ؛ وَالسَّلاَمُ.

الشرح: طِلاع الأرض: ملؤها، ومنه قولُ عمر: لو أنّ لي طِلاَع الأرض ذهباً لافتديتُ به من هَوْل المُطّلَع.

وآسَى: أحزَن.

وأكثرت تأليبَكم: تَحرِيضَكم وإغراءكم به. والتأنيب: أشدّ اللوم.

ووَنَيتم: ضَعُفتم وفَترتم. ومَمالِكِكم تزوَى، أي تُقبَض.

ولا تثّاقلوا، بالتّشديد، أصلُه «تَتثاقلوا». وتقرّوا بالخسف: تَعترفوا بالضّيم وتَصبروا له. وتبؤوا بالذلّ: تَرجِعوا به. والأرِق: الّذي لا ينام. ومِثلُ قولِه عليه السلام: «من نام لم يُنَم عنه» قولُ الشاعر:

لله دَرُّك مـا أردتَ بـثـائـرٍ حـرّانَ لـيس عـن الـتّـراتِ بـراقـدِ[1]

أسـهـرْتَـه ثـم اضـطـجَـعْـت ولـم يَـنَـمْ حَـنَـقاً عليك وكيف نَوْمُ الحاقدِ[2]!

فأمّا الذي رُضِخت له على الإسلام الرّضائخ، فمعاوية؛ والرّضِيخة: شيء قليلٌ يُعطَاه الإنسان يُصانَع به عن شيء يُطلَب منه كالأجر، وذلك لأنّه من المؤلَّفة قلوبُهم الّذين رَغِبوا في الإسلام والطاعة بجِمالٍ وشاءٍ دُفِعَتْ إليهم، وهم قومٌ معروفون كمعاوية وأخيه يزيد، وأبيهما أبي سُفْيان، وحكيم بن حِزام، وسُهَيل بن عمرو، والحارث بن هشام بن المغيرة، وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى، والأخنَس بن شَرِيق، وصَفوان بن أميّة، وعمير بن وهب الجُمَحيّ، وعُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعبّاس بن مِرْداس وغيرهم. وكان إسلام هؤلاء للطّمع والأغراض الدنياويّة، ولم يكن عن أصل ولا عن يقين وعلم.

وقال الراونديّ: عَنَى بقوله: «رُضِخَت لهم الرضائخ» عَمرَو بنَ العاص، وليس بصحيح، لأنّ عمراً لم يُسلِم بعد الفَتْح، وأصحاب الرضائخ كلّهم أسلَموا بعد الفتح، صُونِعوا على الإسلام بغنائم حُنَين. ولَعَمري إن إسلام عَمرو كان مدخولاً أيضاً؛ إلاّ أنه لم يكن عن رَضِيخة، وإنّما كان لمعنًى آخر. فأما الذي شَرِب الحرام، وجُلِد في حدّ الإسلام، فقد قال الراونديّ: هو المغيرةُ بنُ شُعْبة، وأخطأ فيما قال، لأن المغيرة إنّما اتُّهِم بالزنى ولم يُحَدّ ولم يَجرِ للمغيرة ذكرٌ في شُرب الخمر، وقد تقدّم خبرُ المغيرة مستوفًى، وأيضاً فإنّ المغيرة لم يَشهدَ صِفيّن مع معاوية ولا مع عليّ عليه السلام، وما للراوَنديّ ولهذا! إنّما يَعرِف هذا الفنّ أربابُه. والّذي عَناه عليّ عليه السلام الوليدُ بنُ عُقْبة بن أبي مُعَيط، وكان أشدّ الناس عليه وأبلَغَهم تحريضاً لمعاوية وأهل الشام على حَرْبه.

اخبار الوليد بن عقبة

ونحن نذكر خبرَ الوليد وشُرْبَه الخمْر منقولاً من كتاب «الأغاني»[3] لأبي الفَرَجِ عليّ بن الحسين الأصفهانيّ؛ قال أبو الفرج: كان سبب إمارة الوليدِ بن عُقْبة الكوفةَ لعثمانَ ما حدّثني به

(١) وَتَرَ فلاناً يَتِرُهُ وَتْراً وَتِرَةً: قتل حميمه، وأدركه بمكروه. المعجم الوسيط، مادة (وتر).

(٢) الحَنَقُ: الغيظ. لسان العرب، مادة (حنق).

(٣) الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يؤلف مثله اتفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

أحمدُ بنُ عبد العزيز الجوهري، قال: حدّثنا عمرُ بنُ شبّة، قال: حدّثني عبد العزيز بن محمد بن حكيم، عن خالد بنِ سعيد بنِ عمرِو بن سعيد، عن أبيه، قال: لم يكن يَجلس مع عثمان على سريره إلاّ العباس بن عبد المطلّب، وأبو سُفْيان بن حرب، والحَكَم بن أبي العاص، والوليد بن عقبة، ولم يكن سريرهُ يَسَع إلاّ عثمان وواحداً منهم، فأقبَل الوليدُ يوماً فجلس، فجاء الحَكَم بن أبي العاص فأوماً عثمانُ إلى الوليد، فَرَحل له عن مجلسه، فلمّا قام الحكم قال الوليد: والله يا أميرَ المؤمنين لقد تَلجْلَج[1] في صدري بَيْتان قلتُهما حين رأيتُك آثرتَ ابنَ عمّك على ابن أمّك - وكان الحَكَم عمّ عثمان، والوليد أخاه لأمه - فقال عثمان: إن الحَكَم شيخُ قريش؛ فما البيتان؟ فقال:

رأيتُ لعَمِّ المرءِ زُلفَى قرابةٍ ... دُوَيْن أخِيه حادثاً لم يكن قِدْما

فأملتُ عمراً أن يَشِبّ وخالداً ... لكيْ يَدعُواني يومَ نائبةٍ عمّا

يعني عَمراً وخالداً ابنَيْ عثمانَ. قال: فرقّ له عثمان وقال: قد ولّيتك الكوفة، فأخرَجه إليها.

قال أبو الفَرَج: وأخبَرَني أحمد بنُ عبد العزيز، قال: حدّثني عمرُ بن شبّة، قال: حدّثني بعضُ أصحابنا، عن ابن دَأب قال: لمّا ولّى عثمانُ الوليدَ بنَ عقبة الكوفة قَدِمها وعليها سعدُ بن أبي وقّاص، فأُخِبر بقُدُومه ولم يَعلَم أنّه قد أُمّر، فقال: وما صنع؟ قالوا: وقَفَ في السّوق فهو يحدّث الناس هناك، ولسنا ننكر شيئاً من أمرِه، فلم يَلبَث أن جاءه نصفَ النهار، فاستأذن على سعد، فأذِن له، فسَلّم عليه بالإمْرة، وجلس معه، فقال له سعد: ما أقدَمَك يا أبا وهب؟ قال: أحببتُ زِيارتَك؛ قال: وعلى ذاك، أجئتَ بريداً؟ قال: أنا أرزَن من ذلك، ولكنّ القومَ احتاجوا إلى عمَلهم فسرّحوني إليه، وقد استعمَلني أميرُ المؤمنين على الكوفة. فسكَتَ سعدٌ طويلاً، ثم قال: لا والله ما أدري أصلَحتَ بعدَنا أم فسَدْنا بعدَك! ثم قال:

كِليني وجُرّيني ضُباعُ وأبشِري ... بلَحْم امرىءٍ لم يَشهدَ اليومَ ناصرُهْ

فقال الوليد: أما والله لأنا أقولُ للشّعر منك، وأروَى له، ولو شئتُ لأجبتُك، ولكنّي أدَعُ ذاك لما تَعلَم. نَعَم والله أُمِرتُ بمحَاسَبتك، والنّظرِ في أمر عُمّالك. ثمّ بعث إلى عمّال سعد فحَبَسَهم وضيّق عليهم، فكَتَبوا إلى سعد يستغيثون به، فكلّمه فيهم فقال له: أوَ للمعروف عندَك مَوْضع؟ قال: نعم، فخلّى سبيلهم.

قال أحمد: وحدّثني عمرُ، عن أبي بكر الباهليّ، عن هُشَيم، عن العوّام بن حَوْشَب. قال: لمّا قدم الوليدُ على سعد قال له سعد: والله ما أدرِي كِسْتَ بعدَنا أم حمقْنا[2] بعدَك! فقال: لا

(١) التَّلَجلُج: التَرَدُّد في الكلام. القاموس المحيط، مادة (لجج).

(٢) حَمُقَ وحَمِقَ حُمْقاً فهو أحْمَقُ: قليل العقل. القاموس المحيط، مادة (حمق).

تجزَعَنّ يا أبا إسحاق، فإنّه المُلْك يتغدّاه قوم ويتعشّاه آخرون. فقال سعد: أراكم والله ستَجعلونه مُلكاً.

قال أبو الفَرَج: وحدّثنا أحمد قال: حدّثني عمر قال: حدّثني هارون بن معروف، عن ضَمْرة بن ربيعة، عن ابن شَوْذَب قال: صلّى الوليدُ بأهل الكوفة الغداةَ أربعَ رَكَعات، ثمّ التفت إليهم فقال: أزيدكم؟ فقال عبدُ الله بنُ مسعود: ما زِلْنا معك في زيادةٍ منذ اليوم.

قال أبو الفَرَج: وحدّثني أحمد قال: حدّثنا عمر، قال: حدّثنا محمد بن حُمَيد، قال: حدثنا جَريرٌ، عن الأجْلح، عن الشَّعْبيّ قال: قال الحُطَيئة يذكر الوليد:

شهِدَ الحطيئةُ يوم يَلقَى ربَّهُ ... أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
نادَى وقد تَمّتْ صلاتُهمُ ... أأزيدُكُمْ - سُكْراً - ولم يَدْرِ
فأبَوْا أبا وَهْب ولو أذِنوا ... لَقَرنْت بين الشَّفْع والوَتْرِ
كَفّوا عنانَك إذْ جَرَيتَ ولو ... تَرَكُوا عنانَكَ لم تَزَلْ تَجرِي

وقال الحُطيئة أيضاً:

تكلّمَ في الصلاة وزادَ فيها ... علانِيَةً وأعلَنَ بالنِّفَاقِ
وَمَجّ الخمرَ في سَنَنِ المصلّى ... ونادَى والجميعُ إلى افتراقِ
أزيدُكمُ على أن تحمَدوني ... فما لكمُ ومالي مِنْ خَلاقِ!

قال أبو الفَرَج: وأخبَرَنا محمدُ بنُ خلف وكيع قال: حدّثنا حمّاد بن إسحاق، قال: حدّثني أبي قال: قال أبو عُبيدة وهشامُ بنُ الكلبيّ والأصمعيّ: كان الوليدُ زانياً يَشرَب الخمر، فشَرِب بالكوفة وقام ليصلّيَ بهم الصبحَ في المسجد الجامع، فصلّى بهمْ أربعَ رَكَعات ثم التفت إليهم فقال: أزيدُكمْ؟ وتقَيّأ في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوتَه في الصّلاة:

عَلِقَ القلْبُ الرّبابَا ... بعد ما شابَتْ وشابَا

فشَخص أهلُ الكوفة إلى عثمان فأخبروه بخبره، وشَهِدوا عليه بشُرْب الخمر، فأُتِي به، فأمَر رجلاً من المسلمين أن يَضربه الحدّ، فلمّا دنا منه قال: نشَدْتُكَ الله وقرابتي من أمير المؤمنين! فتَركه، فخاف عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يُعطّل الحدّ، فقام إليه فحدّه بيَدِه، فقال الوليد: نشَدْتُك الله والقرابة! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: اسكُت أبا وَهْب، فإنّما هلك بنو إسرائيل لتعَطيلهم الحدود؛ فلمّا ضربَه وفرغ منه قال: لتدعوني قريش بعدها جَلّاداً. قال إسحاق: وحدّثني مصعبُ بنُ الزّبير قال: قال الوليدُ بعد ما شَهِدُوا عليه فجُلد: اللهم إنهم قد شهدوا عليّ بزُور، فلا تُرضهم عن أمير، ولا تُرضِ عنهم أميراً، قال: وقد عكس الحطيئة أبياته فجعلها مَدْحاً للوليد:

شَهِدَ الحطيئةُ حين يلقى ربّه ... أنّ الوليد أحقّ بالعُذْرِ
كفّوا عنانَكَ إذ جريتَ ولوْ ... تركوا عنانَك لم تَزَلْ تَجري
ورأوا شمائل ماجدٍ أنِفٍ ... يُعطي على الميْسور والعُسْرِ
فنزعتَ مكذوباً عليك ولمْ ... تُنزَعْ على طمعٍ ولا ذُعْرِ

قال أبو الفرج: ونسختُ من كتاب هارون بن الزّباب بخطّه، عن عمرَ بن شبّة؛ قال: شهد رجلٌ عند أبي العجّاج - وكان على قضاءِ البصرة - على رَجل من المعَيطيّين بشهادة، وكان الشاهد سَكران، فقال المشهود عليه، وهو المعَيْطيّ: أعزّك الله أيّها القاضي، إنّه لا يُحسِن من السُّكرِ أن يقرأ شيئاً من القرآن، فقال الشاهد: بلى أحسِن، قال: فاقرأ، فقال:

عَلِق القلبُ الرّبابا ... بعد ما شابتْ وشابا

يَمجُن[1] بذلك، ويَحكِي ما قاله الوليدُ في الصلاة، وكان أبو العَجّاج أحمق، فظنّ أنّ هذا الكلام من القرآن، فجعل يقول: صدَقَ الله ورسولُه، ويلكم، كم تعلمون ولا تَعْملون!

قال أبو الفرج: وأخبَرَني أحمدُ بن عبد العزيز، قال: حدّثنا عمرُ بن شبّة، عن المَدائنيّ، عن مبارك بن سلاّم، عن فُطْر بن خليفة، عن أبي الضّحى، قال: كان ناسٌ من أهل الكوفة يتطلّبون عَثْرة الوليد بن عقبة، منهم أبو زَيْنب الأزْديَ، وأبو مورّع، فجاءا يوماً ولم يَحضُرِ الوليدُ الصّلاة، فسألا عنه، فلتطّفا حتى عَلِما أنّه يَشرَب، فاقتحما الدارَ فوجَدَاه يقيءُ، فاحتَمَلاه وهو سكرانُ حتّى وضعاه على سريره، وأخَذَا خاتمه من يدِه، فأفاقَ، فافتقد خاتمه، فسأل عنه أهلَه، فقالوا: لا ندري، وقد رأينا رجلين دَخَلا عليك فاحتَمَلاك فوَضَعاك على سريرك. فقال: صفوهما لي، فقالوا: أحدُهما آدم[2] طُوالٌ حَسَن الوجه، والآخر عريض مَربوع عليه خَمِيصة[3]، فقال: هذا أبو زينب، وهذا أبو مورّع.

قال: ولقِيَ أبو زينب وصاحبه عبدَ الله بن حُبيْش الأسديّ وعَلْقمة بن يزيد البَكْريّ وغيرَهما، فأخبروهم، فقالوا: اشخصوا إلى أميرِ المؤمنين فأعلموه، وقال بعضهم: إنّه لا يَقبَل قولكم في أخيه، فشَخَصوا إليه، فقالوا: إنّا جئناك في أمر، ونحن مُخرجوه إليك من أعناقنا، وقد قيل: إنّك لا تقبله، قال: وما هو؟ قالوا: رأينا الوَليدَ وهو سَكرانُ من خَمْر شَربَها، وهذا خاتمُه أخذْناه من يدِهِ وهو لا يَعقِل. فأرسَل عثمان إلى علي عليه السلام فأخبره، فقال: أرَى أن تُشخِصه، فإذا شهدوا عليه بمحضر منه حَدَدْته. فكتب عثمانُ إلى الوليد، فقَدِم عليه، فشَهِد عليه

(١) الماجِنُ: من لا يبالي قولاً وفعلاً، كأنه صُلْبُ الوجه. القاموس المحيط، مادة (مجن).
(٢) الآدَمُ: من اشتدّت سمرته. المعجم الوسيط، مادة (أدم).
(٣) الخَمِيصَة: كساء أسود مُرَبّع له عَلَمان. القاموس المحيط، مادة (خمص).

أبو زينب وأبو مورّع وجُندَب الأزديّ وسعد بن مالك الأشعريّ، فقال عثمان لعليّ عليه السلام: قم يا أبا الحَسَن فاجْلِده، فقال عليّ عليه السلام للحَسَن ابنه: قم فاضرْبه؛ فقال الحسن: مالك ولهذا، يكفيك غيرك؛ فقال عليّ لعبد الله بن جعفر: قم فاضرِبه، فضَرَبه بمِخصرة فيها سَيْر له رأسان، فلما بلغ أربعين قال: حَسْبُك.

قال أبو الفرج: وحدّثني أحمد قال: حدّثنا عمر قال: حدّثني المدائنيّ عن الوقاصي، عن الزّهريّ قال: خرج رَهطٌ من أهل الكوفة إلى عثمانَ في أمر الوليد، فقال: أكلما غَضِب رجل على أميرِه رماه بالباطل! لئن أصبحتُ لكم لأنكّلنّ بكم، فاستجاروا بعائشةَ، وأصبح عثمانُ فسمعَ من حُجْرتها صوتاً وكلاماً فيه بعضُ الغِلْظة، فقال: أما يجد فُسّاقُ العراق ومُرّاقها ملجأً إلاّ بيت عائشة! فسمعتْ، فرفعتْ نعلَ رسول الله صلى الله عليه وآله وقالت: تركتَ سنّة صاحب هذا النعل، وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملؤوا المسجد، فمن قائل: قد أحسنتْ، ومن قائل: ما للنساءِ ولهذا! حتّى تَخاصَموا وتَضارَبوا بالنّعال، ودخل رهطٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على عثمانَ فقالوا له: اتّق الله ولا تُعطّل الحدود، واعزل أخاك عنهم؛ ففعل.

قال أبو الفرج: حدّثنا أحمد قال: حدّثني عمر، عن المدائنيّ، عن أبي محمد النّاجي، عن مطر الورّاق، قال: قَدِم رجلٌ من أهل الكوفة إلى المدينة فقال لعثمان: إنّي صلّيتُ صلاة الغداة خلْف الوليد، فالتفت في الصّلاة إلى الناس، فقال: أأزيدكُمْ، فإني أجدُ اليومَ نشاطاً؟ وشممنا منه رائحةَ الخمر، فضَرَب عثمانُ الرّجلَ؛ فقال الناس: عَطّلت الحدود، وضَربت الشهود.

قال أبو الفرج: وحدّثنا أحمد، قال: حدثنا عمر قال: حدّثنا أبو بكر الباهليّ، عن بعض من حدّثه قال: لمّا شُهِد على الوليد عند عثمانَ بشُرب الخمر كَتب إليه يأمره بالشّخوص[1]، فخرج وخرج معه قومٌ يعذِرونه، منهم عَدِيّ بن حاتم الطائيّ، فنزل الوليدُ يوماً يَسوقُ بهم، فارتجز وقال:

لا تَحسبنّا قد نسينا الأحقافْ والنَّشَواتِ من مُعتّقٍ صافْ
وعَزف قَيْناتٍ علينا عُزّافْ

فقال عديّ: فأين تذهب بنا إذَن! فأقم.

قال أبو الفرج: وقد رَوَى أحمد عن عمرَ، عن رجاله، عن الشَّعبيّ، عن جُندَب الأزديّ قال: كنتُ فيمن شَهِد على الوليد عند عثمان، فلمّا استَتْمَمْنا عليه الشهادة حبَسَه عثمان. ثم ذكر باقي الخبر وضرْب عليّ عليه السلام إيّاه، وقولَ الحسن ابنه: «مالك ولهذا»، وزاد فيه، وقال عليّ عليه السلام: لست إذنْ مُسلِماً؛ أو قال: من المسلمين.

(١) الشُّخوص: السير من بلد إلى بلد. لسان العرب، مادة (شخص).

قال أبو الفرج: وأخبَرَني أحمد، عن عمرَ عن رجاله، أنّ الشهادة لمّا تمّت قال عثمان لعليّ عليه السلام: دونَكَ ابنَ عمّك فأقِم عليه الحدّ. فأمر عليّ عليه السلام ابنَه الحسن عليه السلام، فلم يفعل، فقال: يكفيك غيرُك! فقال عليّ عليه السلام: بل ضعفتَ ووَهَنْتَ وعجَزْتَ؛ قم يا عبدَ الله بنَ جعفر فاجلِدْه، فقامَ فجلَدَه، وعليّ عليه السلام يعدّ حتّى بلغ أربعين، فقال له عليّ عليه السلام: أمسِكْ حَسْبك، جلَد رسول الله صلى الله عليه وآله أربعين، وجلد أبو بكر أربعين؛ وكَمّلها عُمر ثمانين؛ وكلٌّ سنّة.

قال أبو الفرج: وحدّثني أحمد، عن عمر، عن عبد الله بن محمد بن حكيم، عن خالد بن سعيد، قال: وأخبَرَني بذلك أيضاً إبراهيمُ بنُ محمد بن أيّوب، عن عبد الله بن مسلم، قالوا جميعاً: لما ضرَب عثمانُ الوليدَ الحدّ، قال: إنّك لتضربُني اليومَ بشهادة قومٍ ليقتلُنّك عاماً قابلاً[1].

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بنُ عبدِ العزيز الجوهريّ، عن عمر بنِ شبّة، عن عبد الله بن محمد بن حكيم، عن خالد بن سعيد. وأخبرَني أيضاً إبراهيمُ، عن عبد الله، قالوا جميعاً: كان أبو زُبَيد الطائيّ نديماً للوَليد بن عُقْبة أيّامَ ولايتِه الكوفة، فلمّا شَهِدوا عليه بالسّكر من الخَمْر خرج عن الكوفة مَعْزولاً، فقال أبو زُبَيْد يتذكّر أيّامَه ونِدامته:

مَن يرَى العيرَ لابنِ أروى على ظهـ ... ـرِ المَرَوْرَى حُداتُهنّ عِجالُ!
ناعجاتٍ والبيتُ بيتُ أبي وهـ ... ـبٍ خلاءٌ تَحِنُّ فيه الشَّمالُ[2]
يعرِفُ الجاهلُ المضلَّلُ أنّ الـ ... ـدّهرَ فيه النَّكراءُ والزلْزالُ
ليت شعري كذاكم العهدُ أم كا ... نوا أناساً كمَن يَزولُ فزالوا!
بعدَ ما تعلَمين يا أمّ عمرٍو ... كان فيهمْ عِزٌّ لنا وجمالُ
ووجوهٌ تودُّنا مشرقاتٌ ... ونَوالٌ إذا أريدَ النَّوالُ
أصبح البيتُ قد تَبدّل بالحَـ ... ـيّ وجوهاً كأنّها الأقيالُ
كلّ شيءٍ يحتالُ فيه الرجالُ ... غيرَ أنْ ليس للمنايا احتيالُ
ولعمرُ الإله لو كان للسيـ ... ـفِ مضاءٌ وللِّسان مقالُ
ما تناسَيْتُك الصفاءَ ولا الـ ... ـودَّ ولا حالَ دونك الإشغالُ

---

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ١٢٦، وأخرجه ابن شبة النمري في تاريخ المدينة: ٣/ ٩٧٤.

(٢) الناعجة: الناقة البيضاء، والسريعة، والتي يصاد عليها نعاج الوحش. القاموس المحيط، مادة (نعج).

ولحرّمت لحمك المتعضّي ضَلّةً ضلّ حِلْمُهُم ما اغتالوا
قولهم شُرْبك الحرام وقد كا ن شرابٌ سوى الحرام حلالُ
وأبى ظاهرُ العداوة والشَّنْـ ـآنِ إلا مقال ما لا يُقالُ(١)
من رجالٍ تقارضوا مُنْكراتٍ لِينالوا الذي أرادُوا فنالوا
غير ما طالبين ذَحْلا ولكن مالَ دهرٌ على أناسٍ فمالوا
من يَخُنْكَ الصفاء أو يتبدّلْ أو يزُل مِثلَ مَا يَزول الظِّلالُ
فاعلمنْ أنني أخوكَ أخو الـ ـودّ حياتي حتى تزول الجبالُ
ليس بُخْلي عليكَ يوماً بمال أبداً ما أقلّ نعلاً قِبَالُ
ولك النصرُ باللسان وبالـ ـكف إذا كان لليدين مصالُ

قال أبو الفرج: وحدّثني أحمد قال: حدّثني عمرُ قال: لما قدم الوليد بنُ عُقبة الكوفة قدم عليه أبو زُبَيد فأنزله دار عَقِيل بن أبي طالب على باب المسجد، وهي التي تُعرف بدار القِبْطي، فكان مما احتجّ به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يخرج إليه من داره وهو نصرانيّ يخترق المسجد فيجعله طريقاً.

قال أبو الفرج: وأخبرني محمد بن العباس اليزيديّ قال: حدثني عمي عبيد الله، عن ابن حبيب عن ابن الأعرابيّ، أن أبا زُبيد وفد على الوليد حين استعمله عثمان على الكوفة، فأنزله الوليد دار عَقِيل بن أبي طالب عند باب المسجد، واستَوْهَبها منه، فوَهبها له، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة، لأنّ أبا زبيد كان يَخرُج من داره حتى يشقّ المسجد إلى الوليد فيسمُرَ عنده، ويشرب معه، ويخرُج فيشقّ المسجد وهو سكران، فذاك نبّههم عليه. قال: وقد كان عثمان ولّى الوليدَ صدقاتِ بني تغْلب، فبلغه عنه شعرٌ فيه خلاعة، فَعزَله. قال: فلما ولاّه الكوفة اختصّ أبا زبيد الطائي وقرّبه، ومدحه أبو زُبيد بشعرٍ كثير، وقد كان الوليد استعمل الربيع بن مريّ بن أوْس بن حارثة بن لأم الطائي على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة، فأجدبت الجزيرة؛ وكان أبو زبيد في بني تَغلب نازلاً، فخرج بإبلهم ليُرعيهم، فأبى عليهم الربيع بن مريّ ومنعهم، وقال لأبي زُبيد: إن شئت أُرْعيك وَحْدك فعلت؛ فأتى أبو زُبَيد إلى الوليد فشكاه، فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام، إلى القصور الحمر من الحيرة، وجعلها له حمًى، وأخذها من الربيع بن مريّ، فقال أبو زبيد يمدحُ الوليد، والشِّعر يدلّ على أن الحمى كان بيد مريّ بن أوس، لا بيد الربيع ابنه، وهكذا هو في رواية عمر بن شبة:

(١) الشّنآن: البغض. القاموس المحيط، مادة (شنأ).

لعمرُ أبيك يا بن أبي مُريٍّ ... لغيرُك من أباح لنا الديارا
أباح لنا أبارِق ذات قورٍ ... ونَرعى القفَّ منها والقفارا[1]
بحمد الله ثمّ فتى قريشٍ ... أبي وهب غدتْ بُدْناً غِزارا
أباح لنا ولا نحمي عليكم ... إذا ما كنتم سنةً جزارا

قال: يقول: إذا أجدبتم فإنا لا نحميها عليكم، وإذا كنتم أسأتم وحميتموها علينا.

فتى طالتْ يداه إلى المعالي ... وطَحْطحت المجذَّمة القِصَارا[2]

قال: ومن شعرأبي زُبيد فيه يذكر نصره له على مريّ بن أوْس بن حارثة:

يا ليت شعري بأنباءٍ أنَبَّؤها ... قد كان يعنَى بها صَدْري وتقديري
عن امرىءٍ ما يزدْه الله من شَرف ... أفرَحْ به ومريّ غيرُ مسرور
إن الوليد له عندي وحقّ له ... ودّ الخليل ونصح غير مذخور
لقد دعاني وأدناني وأظهَرَني ... على الأعادي بنصرٍ غير تغرير
وشذّبَ القومَ عنّي غير مكترثٍ ... حتى تناهوْا على رغْم وتَصْغير
نفسي فداءُ أبي وهْب وقلّ له ... يا أمَّ عمرو فحُلّي اليوم أو سِيري

وقال أبو زُبَيْد يمدح الوليد ويتألّم لفراقه حين عُزِل عن الكوفة:

لعَمْري لئِنْ أمْسى الوليد ببلدة ... سواي لقد أمسيتُ للدهر معورا
خلا أن رزق الله غادٍ ورائحٌ ... وإني له راجٍ وإنْ سار أشهرا
وكان هو الحصن الذي ليس مسلمي ... إذا أنا بالنُّكْراء هيّجتُ معشرا
إذا صادَفُوا دوني الوليد فإنما ... يَرَوْن بوادِي ذي حماس مُزَعْفرا

وهي طويلة يصفُ فيها الأسد.

قال أبو الفرج: وحدثنا أحمد بن عبد العزيز قال: حدثنا عمر عن رجاله، عن الوليد قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة جعل أهلِ مكة يأتونه بصبيانهم، فيدْعو لهم بالبركة، ويمسح يده على رؤوسهم، فجيء بي إليه وأنا مخلَّق، فلم يمسَّني، وما منعه إلا أن أمي خَلَّقَتْني بخلوق، فلم يمسّني من أجل الخَلوق.

قال أبو الفرج: وحدثني إسحاق بن بنان الأنماطيّ، عن حُنيش بن ميسر، عن عبد الله بن

---

(١) القَفُّ والقَفِيْفُ: ما يبس من البقل وسائر النبت، وقيل: ما تم يبسه من أحرار البقول وذكورها. لسان العرب، مادة (قفف).

(٢) اطَحْطَحَ: كسرَ، وفرّقَ، وبَدَّدَ إهلاكاً. القاموس المحيط، مادة (طحح).

موسى، عن أبي ليلى، عن الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام : أنا أحدّ منك سِناناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكتيبة؛ فقال عليّ عليه السلام : اسكُت يا فاسق، فنزل القرآن فيهما: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[(١)].

قال أبو الفرج: وحدثني أحمد بن عبد العزيز، عن عمر بن شبّة، عن محمد بن حاتم، عن يونس بن عمر، عن شَيْبان، عن يونس، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[(٢)]. قال: هو الوليد بنُ عقْبة، بعثه النبيّ صلى الله عليه وآله مُصدِّقاً إلى بني المصطلق، فلما رأوه أقبلوا نحوه، فهابهم، فرجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: إنهم ارتدّوا عن الإسلام، فبعث النبي صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد، فعلم علمهم، وأمره أن يتثبّت، وقال له: انطلق ولا تعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً، وأنفذ عيونه نحوهم، فلما جاؤوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمع أذانهم وصلاتهم، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه، فرجع إلى الرسولِ صلى الله عليه وآله فأخبره، فنزلت هذه الآية.

قلت: قد لَمَح ابنُ عبد البرّ صاحبُ كتاب «الاستيعاب»[(٣)] في هذا الموضع نكتةً حَسَنة، فقال في حديث الخَلُوق: هذا حديثٌ مضطرب منكَر، لا يصحّ، وليس يمكن أن يكون مَن بَعَثه النبيّ صلى الله عليه وآله مُصدّقاً صبيًا يومَ الفَتْح؛ قال: ويدلّ أيضاً على فَسادِه أنّ الزبير بنَ بكّار وغيرَه من أهل العلم بالسِّيَر والأخبار ذَكَروا أن الوليدَ وأخاه عُمارة بني عُقْبة بن أبي مُعَيْط خرَجا من مكّة ليردّا أختَهما أمّ كلثوم عن الهِجْرة، وكانت هجرتُها في الهُدْنة التي بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين أهل مكّة، ومَنْ كان غلاماً مُخلَّقاً بالخَلوق يومَ الفتح ليس يجيءُ منه مِثلُ هذا. قال: ولا خلافَ بين أهل العِلم بتأويل القرآن أنّ قوله عز وجل: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[(٤)] أُنزلت في الوليد لمّا بَعَثه رسول الله صلى الله عليه وآله مُصدقاً، فكَذَب على بني المُصْطلق وقال: إنّهم ارتدّوا وامتَنعوا من أداء الصَدَقة. قال أبو عمر: وفيه وفي عليٍّ عليه السلام نَزَل: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[(٥)]؛ في قصّتهما المشهورة. قال: ومن كان صبياً يومَ الفتح لا يَجيءُ منه مِثلُ هذا، فوجب أن يُنظَر في حديث الخَلوق، فإنّه رواية جعفر بن برقان، عن ثابت، عن الحجّاج، عن أبي موسى الهمدانيّ؛ وأبو موسى مجهولٌ لا يصحّ حديثه.

ثمّ نعود إلى كتاب أبي الفَرَج الأصبهانيّ؛ قال أبو الفرج: وأخبَرني أحمدُ بنُ عبد العزيز،

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٨. (٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٣) «الاستيعاب»: لأبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة (٤٦٣هـ)، وهو كتاب: جليل القدر في معرفة الصحابة «كشف الظنون» (١/ ٨١).

(٤) سورة الحجرات، الآية: ٦. (٥) سورة السجدة، الآية: ١٨.

عن عمرَ بن شبّة، عن عبد الله بن موسى، عن نعيم بن حكيم، عن أبي مريم، عن عليّ عليه السلام، أن امرأةَ الوليد بنِ عُقْبة جاءتْ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تَشتِكي إليه الوليدَ، وقالت: إنّه يَضرِبها، فقال لها: ارجعي إليه وقولي له: إنّ رسولَ الله قد أجارَني، فانطلقتْ، فمكثتْ ساعةً، ثم رجعتْ فقالت: إنّه ما أقلَع عنّي، فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم هُدْبة من ثَوْبه وقال: اذهبي بها إليه وقولي له: إن رسولَ الله قد أجارَني، فانطلقتْ فمكثتْ ساعةً ثم رجعتْ فقالت: ما زادني إلاّ ضَرْباً، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدَه ثم قال: «اللهمّ عليكَ بالوليد»[1] مرّتين أو ثلاثاً.

قال أبو الفرج: واختصّ الوليد لما كان والياً بالكُوفة ساحراً كاد يَفتِن الناسَ، كان يُريه كتيبتين تقتَتِلان فتَحمِل إحداهما على الأخرى فتَهزِمها، ثم يقول له أيَسُرّك أن أُرِيكَ المنهزمةَ تغلب الغالبة فتهزمها؟ فيقول: نعم، فجاء جُندُبُ الأزديّ مشتمِلاً على سيفه، فقال: أفرِجوا لي، فأفرَجوا فضرَبه حتى قتله، فحبسه الوليدُ قليلاً ثم تركه.

قال أبو الفرج: وروى أحمدُ عن عمر، عن رجاله، أن جُندُباً لمّا قتل الساحرَ حَبَسه الوليدُ، فقال له دينار بن دينار: فيم حبستَ هذا، وقد قَتل من أعلَن بالسحر في دين محمد صلى الله عليه وسلم؟ ثمّ مضى إليه فأخرَجَه من الحبس، فأرسل الوليدَ إلى دينار بن دينار فقتله.

قال أبو الفرج: حدّثني عمّي الحسن بن محمد قال: حدّثني الخراز، عن المدائنيّ، عن عليّ بن مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن الزّهري وغيره، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن غَزاة بني المصطلق نزل رجلٌ من المسلمين فساق بالقوم ورَجز، ثم آخر فساق بهم ورَجَز، ثم بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُواسِيَ أصحابه، فنزل فساقَ بهم ورَجَز، وجعل يقول فيما يقول:

جُنـدَبٌ ومـا جُنـدَبُ والأقـطـع زيـدُ الـخَـيـرْ

فدنا منه أصحابُه فقالوا: يا رسولَ الله، ما ينفعُنا سيرنا مخافة أن تنهشك دابّة، أو تُصيبك نَكْبة. فركِب ودَنَوا منه وقالوا: قلتَ قولاً لا ندري ما هو؟ قال: وما ذاكَ؟ قالوا: كنتَ تقول: جُندَب وما جُندَب، والأقْطَع زيد الخير.

فقال: رجلان يكونان في هذه الأمة يَضرِب أحدُهما ضربة يفرُق بين الحقّ والباطل، وتُقطَع يدُ الآخر في سبيل الله، ثم يُتبع الله آخرَ جسده بأوّله، وكان زيد، هو زيدُ بنُ صُوحان، وقطِعتْ يدُه في سبيل الله يوم جَلولاء، وقُتلَ يومَ الجمل مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام؛ وأمّا جندَب هذا فدخَل على الوليد بن عُقْبة وعنده ساحر يقال له: أبو شَيْبان، يأخذ أعينَ الناس، فيُخرج مصارينَ بطنِهم ثم يَرُدّها، فجاء مِنْ خَلْفه فضرَبه فقتَله، وقال:

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٩٤)، والمقدسي في «الأحاديث المختارة» (٧١٠).

العنَ وليداً وأبا شَيْبانْ   وابنَ حُبَيشٍ راكبَ الشيطانْ
رسولَ فرعونَ إلى هامانْ

قال أبو الفرج: وقد رُوي أنّ هذا الساحر كان يدخُل عند الوليد في جَوْف بقرة حيّة، ثم يخرُج منها؛ فرآه جُندَب فذهب إلى بيته، فاشتمل على سيف، فلمّا دخل الساحرُ في البقرة قال جندب: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(١)، ثم ضرب وَسَط البقرة فقَطَعها وقطع الساحرَ معها، فذُعر الناس، فسجَنه الوليدُ، وكتب بأمرِه إلى عثمان.

قال أبو الفرج: فَرَوى أحمدُ بن عبد العزيز، عن حجّاج بن نصير، عن قرّة، عن محمّد بن سيرين، قال: انطلقَ بجنْدَب بن كعب الأزديّ قاتل الساحر بالكُوفة إلى السجن، وعلى السّجن رجلٌ نَصْرانيٌّ من قِبَل الوليد، وكان يَرَى جندب بن كعب يقومُ بالليل ويُصبِح صائماً، فوَكّل بالسّجن رجلاً، ثم خرج فسأل الناس عن أفضل أهل الكوفة؛ فقالوا: الأشعث بن قيس، فاستضافه، فجعل يراه ينام اللّيل ثم يُصبح فيدعُو بغدَائه، فخرج من عندِه وسأل: أيُّ أهلِ الكوفة أفضل؟ قالوا: جرير بنُ عبدِ الله، فذهب إليه فوَجَده ينام الليلَ ثم يُصبح فيدعو بغدَائه، فاستَقبل القبلة، وقال: ربّي ربّ جُندَب، وديني دِينُ جُندَب. ثمّ أسلم.

قال أبو الفرج: فلمّا نزع عثمانُ الوليدَ عن الكوفة أمّر عليها سعيدَ بنَ العاص، فلمّا قدِمَها قال: اغسلوا هذا المنبر، فإنّ الوليد كان رجلاً نجساً، فلم يصعده حتى غُسِل. قال أبو الفرج: وكان الوليدُ أسَنّ من سعيدِ بنِ العاص، وأسْخَى نَفْساً، وألينَ جانباً، وأرضى عندَهم، فقال بعضُ شعرائهم:

وجاءنا مِن بعدِه سعيدُ   يَنقُص في الصاع ولا يزيدُ

وقال آخر منهم:

فَررْت من الوليدِ إلى سعيدٍ   كأهل الحِجْر إذْ فَزِعوا فبارُوا
يَلينا من قريشٍ كلّ عامٍ   أميرٌ مُحدَثٌ أو مستشارُ
لنا نارٌ تحرّقنا فنخشَى   وليس لهم - ولا يخشَون - نارُ

قال أبو الفرج: وحدّثنا أحمد، قال: حدثنا عمرُ، عن المدائنيّ، قال: قَدِم الوليدُ بنُ عقبة الكوفة في أيّام معاوية زائراً للمغيرة بن شعبة، فأتاه أشرافُ الكوفة فسلّموا عليه. وقالوا: والله ما رأينا بعدَك مِثلَك؛ فقال: أخَيْراً أم شرًّا! قالوا: بل خيراً، قال: ولكنّي ما رأيتُ بعدَكم شرًّا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣.

منكم. فأعادوا الثناءَ عليه، فقال: بعض ما تأتون به! فوالله إن بُغضَكم لتَلَف[١]، وإن حبّكم لصَلَف[٢].

قال أبو الفرج: وَرَوَى عمرُ بنُ شبّة؛ أن قَبيصة بن جابر كان ممّن كثّر على الوليد، فقال معاويةُ يوماً والوليدُ وقبيصةُ عنده: يا قبيصة، ما كان شأنُك وشأنُ الوليد؟ قال: خيرٌ يا أميرَ المؤمنين، إنّه في أوّل الأمر وَصَل الرّحم، وأحسَن الكلام، فلا تسألْ عن شُكرٍ وحُسن ثناء، ثم غَضِب على الناس وغَضِبوا عليه، وكنّا معهم، فإما ظالمون فنستغفِر الله، وإمّا مظلومون فيَغفِر الله له؛ فَخُذ في غير هذا يا أميرَ المؤمنين، فإنّ الحديث يُنسِي القديمَ. قال معاوية: ما أعلمُه إلاّ قد أحسَن السِّيرة، وبَسَط الخير، وقَبَض الشّرّ. قال: فأنت يا أميرَ المؤمنين اليومَ أقدرُ على ذلك فافعله، فقال: اسْكُتْ لا سَكَتَّ، فسكَتَ وسكَتَ القومُ، فقال معاوية بعد يسير: ما لك لا تتكلّم يا قبيصة؟ قال: نهيتَني عمّا كنتُ أحبّ فسكتّ عمّا لا أُحِبّ.

قال أبو الفرج: ومات الوليدُ بنُ عقبةَ فُوَيق الرّقة، ومات أبو زُبَيد هناك، فدُفِنا جميعاً في موضعٍ واحد، فقال في ذلك أشجَعُ السُّلَميّ وقد مَرّ بقَبْرَيهما:

مَررتُ على عظام أبي زُبَيدٍ ... وقد لاحتْ ببلقعةٍ صَلُودِ
فكان له الوليدُ نديمَ صِدْقٍ ... فنادَمَ قبرُه قبرَ الوليد
وما أدْري بمن تَبْدو المنايا ... بحَمْزَةَ أم بأشْجَعَ أم يزيدا!

قيل: هم إخوتُه، وقيل: نُدَماؤه.

قال أبو الفرج: وحدّثني أحمدُ بنُ عبد العزيز، عن محمد بن زكريّا الغِلابيّ، عن عبد الله بن الضّحاك، عن هشام بن محمد، عن أبيه، قال: وفَد الوليدُ بنُ عقبة - وكان جواداً - إلى معاوية، فقيل له: هذا الوليدُ بنُ عقبة بالباب، فقال: والله ليرْجعنّ مغيظاً غيرَ مُعطًى، فإنّه الآن قد أتانا يقول: عليّ دينٌ وعليّ كذا، ائْذَن له، فأذن له، فسأله وتحدّث معه، ثم قال له معاوية: أما والله إن كنّا لنُحِبّ إتيانَ مالك بالوادي، ولقد كان يُعجب أميرَ المؤمنين، فإن رأيتَ أن تَهبَه ليزيدَ فافعل، قال: هو ليزيدَ، ثمّ خرج وجعل يختلف إلى معاوية، فقال له يوماً: انْظُر يا أميرَ المؤمنين في شأني، فإنّ عليّ مؤونة، وقد أرهقني دَيْن، فقال له: ألا تَستحيي لنفسِك وحَسَبك، تأخذ ما تأخُذُه فتبذُره، ثم لا تنفكّ تَشكُو دَيْناً! فقال الوليد: أفعل، ثمّ انطلق من مكانه، فسارَ إلى الجزيرة، وقال يخاطب معاوية:

---

(١) التَّلَفُ: الهلاك والعطب في كل شيء. لسان العرب، مادة (تلف).

(٢) الصَّلَفُ: مجاوزة القدر في الظُّرْف والبراعة والإدّعاء فوق ذلك تكبراً. لسان العرب، مادة (صلف).

فـإذا سـئـلـتَ تـقـول: «لا» وإذا سـألـتَ تـقـول: هـاتِ
تـأبـىَ فـعـالَ الـخـيـر لا تُـروِي وأنـتَ عـلـى الـفُـراتِ
أفـلا تَـمِـيـلُ إلـى «نَـعَـمْ» أو تَـرْكِ «لا» حـتـى الـمـمـاتِ!

وبلغ معاويةَ شُخُوصُه إلى الجزيرة فخافه، وكتب إليه: أقبِل، فكَتَب:

أعِـفّ واسـتـعـفِـي كـمـا قـد أمرتَـنِـي فَـأعْـطِ سِـوَايَ مـا بَـدَا لَـكَ وابـخَـلِ
سأحذُو رِكـابي عـنك إن عَـزيـمتي إذا نـابَـنِـي أمرٌ كـسلّـةِ مُـنـصُـلِ[1]
وإنـي امـرؤ لـلـنّـأي مِـنّـي تَـطـرُّبٌ ولـيـس شَـبَـا قُـفـلٍ عـلـيّ بـمـقُـفَـلِ

ثم رحل إلى الحجاز، فبعث إليه معاوية بجائزة.

وأمّا أبو عمر بنُ عبد البرّ فإنه ذَكرَ في «الاستيعاب» في باب الوليد، قال: إنَّ له أخباراً فيها شَناعة تَقطع على سوء حاله، وقُبح أفعاله؛ غَفَر الله لنا وله؛ فلقد كان من رجال قُرَيش ظَرْفاً وحِلْماً وشَجاعةً وجُوداً وأدَباً، وكان من الشّعراء المطبوعين. قال: وكان الأصمعيّ وأبو عُبيدة وابن الكَلْبيّ وغيرهم يقولون: إنّه كان فاسقاً شِرِّيب خَمْر، وكان شاعراً كريماً. قال: وأخبارُه في شُربِه الخمرَ ومنادَمَتِه أبا زُبَيد الطائيّ كثيرةٌ مشهورة، ويَسمُج[2] بنا ذِكرُها، ولكنّا نذكر منها طَرَفاً. ثمّ ذَكَر ما ذكره أبو الفَرَج في الأغاني، وقال: إنّ خَبَر الصلاة وهو سَكْران، وقوله: «أأزيدكم؟» خبرٌ مشهورٌ رَوَتْه الثقات من نَقَلَة الحديث[3].

قال أبو عمَرو بنُ عبدِ البَرّ: وقد ذكر الطّبريّ في روايةٍ أنّه تغضّب عليه قومٌ من أهل الكوفة حَسَداً وبَغْياً، وشهدوا عليه بشُرب الخمر، وقال: إنّ عثمانَ قال له: يا أخي اصْبِر، فإن الله يأجُرُك ويَبوءُ القومُ بإثمِك.

قال أبو عمر: هذا الحديث لا يَصِحّ عند أهل الأخبار ونَقَلَةِ الحديث، ولا لَه عند أهلِ العِلم أصل؛ والصحيحُ ثبوتُ الشهادةِ عليه عندَ عثمان، وجلْدُه الحدّ، وأن عليًّا هو الّذي جَلَده. قال: ولم يَجلِده بيَدِه، وإنّما أمَر بجَلْده، فنُسِب الجَلْدُ إليه.

قال أبو عمر: ولم يَروِ الوليدُ من السنّة ما يحتاج فيها إليه، ولكنّ حارثةَ بنَ مضرّب رَوَى عنه أنّه قال: «ما كانت نبوّة إلاّ كان بعدَها مُلْك»[4].

---

(١) المُنْصُل: السيف. القاموس المحيط، مادة (نصل).
(٢) سَمُجَ سَماجَةً: قَبُحَ. القاموس المحيط، مادة (سمج).
(٣) أخرجه العلامة المجلسي البحار: ٣١/ ١٥٣.
(٤) أخرجه السيوطي في جامعه: بما معناه رقم: ٧٩٨٦.

٦٣ - ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعريّ وهو عامله على الكوفة، وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل

الأصل: مِنْ عَبْدِ الله عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ قَيْسٍ: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَارْفَعْ ذَيْلَكَ، وَاشْدُدْ مِئْزَرَكَ، وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ، وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ، وَايْمُ الله لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ، وَلاَ تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ، وَتَحْذَرَ مَنْ أَمَامَكَ، كَحَذَرِكَ مَنْ خَلْفَكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو، وَلَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى، يُرْكَبُ جَمَلُهَا، وَيُذَلُّ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا. فَاعْقِلْ عَقْلَكَ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ، وَلاَ فِي نَجَاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِمٌ حَتَّى لاَ يُقَالُ: أَيْنَ فُلاَنٌ! والله إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ وَمَا يُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ! وَالسَّلاَمُ.

الشرح: المراد بقوله: «قولٌ هوَ لك وعليك»، أنّ أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة: إنّ عليًّا إمامُ هُدًى، وبَيْعته صحيحة، إلاّ أنّه لا يجوز القِتال معه لأهل القِبْلة، وهذا القولُ بعضُه حقّ، وبعضه باطل.

وقولُه: «فارفَع ذَيْلك»، أي شَمِّر للنهوض معي واللّحاقِ بي، لِنشهدَ حربَ أهلِ البصرة، وكذلك قوله: «واشددْ مِئزرَك»، وكلتاهما كنايتان عن الجدّ والتشمير في الأمر.

قال: «واخرج من جُحْرك»، أمرٌ له بالخروج من منزلِهِ للّحاق به، وهي كِنايةٌ فيها غَضٌّ من أبي موسى واستهانةٌ به لأنه لو أراد إعظامَه لقال: واخرج من خِيسِك، أو من غِيلِك كما يقال للأسد، ولكنّه جعله ثعلباً أو ضبًّا.

قال: «واندُب مَنْ معك»، أي، واندُب رعيّتك من أهل الكوفة إلى الخروج معي واللّحاق بي.

ثم قال: «وإن تحققت فانفذ» أي أمرُك مبنيٌّ على الشكّ، وكلامك في طاعتي كالمتناقض، فإن حققتَ لزومَ طاعتي لك فانفذ، أي سرْ حتى تَقدم عليّ، وإن أقمتَ على الشكّ فاعتزِل العمَل، فقد عزلتُكَ.

قوله: «وايم الله لتُؤتَيَنّ» معناه إن أقمتَ على الشكّ والاسترابة وتثبيطِ أهل الكوفة عن

الخروج إليّ وقولِك لهم: لا يحلّ لكم سَلّ السيف لا مع عليّ ولا مع طلحة، والزَموا بيوتكم، واكسروا سيوفَكم، ليَأتينكم، ليَأتيّنكم. وأنتم في منازلكم بالكوفة أهل البصرة مع طلحة، ونأتينكم نحن بأهل المدينة والحجاز، فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفِكم، فتكون ذلك الداهيةُ الكبرى الّتي لا شَواةَ لها.

قولُه: «ولا تترك حتى يخلط زُبْدُك بخاثِرك» تقول للرجل إذا ضربتَه حتى أثخنتَه: لقد ضربتُه حتّى خطلت زُبْدَه بخاثرِه، وكذلك حتّى خلطتُ ذائبه بجامده، والخاثِر: اللّبن الغليظ، والزُّبد خلاصة اللبن وصَفْوَته، فإذا أثخنتَ الإنسانَ ضَرْباً كنتَ كأنّك خطلتَ ما رَقّ ولَطُف من أخلاطه بما كَثُف وغَلُظ منها، وهذا مَثَل، ومعناه لتَفسُدَنّ حالُك ولتُخَلَّطَنّ، وليضربنّ ما هو الآن منتظمٌ من أمرك.

قوله: «وحتى تُعْجَل عن قِعْدَتك»، القِعْدة بالكسر هيئة القعود كالجِلسة والرِّكْبة أي وليعجلنّك الأمرُ عن هيئة قعودك، يصف شدّة الأمر وصعوبته.

قوله: «وتحذر مَنْ أمامك كحذَرك من خَلفَك»، يعني يأتيك مِن خلفِك إن أقمتَ على مَنْع الناس عن الحرب معنا ومعهم أهل البصرة وأهل المدينة، فتكون كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾[1].

قوله: «وما هي بالهُوَينَى التي ترجو»، الهُوَينَى تصغير «الهونى» التي هي أنثى «أهْوَن»، أي ليست هذه الداهية والجائحة التي أذكُرها لك بالشيء الهيّن الذي نرجو اندفاعَه وسهولته.

ثم قال: بل هي الداهية الكبرى ستفعل لا مَحالة إن استمررتَ على ما أنت عليه، وكنَى عن قوله: «ستفعل لا محالة» بقوله: «يركب جملها» وما بعده، وذلك لأنها إذا رُكب جمُلها، وذلّل صعبُها وسهل وعرُها فقد فعلت، أي لا تقل: هذا أمرٌ عظيمٌ صعبُ المرام، أي قصد الجيوش من كلا الجانِبَين الكوفة، فإنه إن دام الأمرُ على ما أشرتَ إلى أهل الكوفة من التخاذُل والجلوس في البيوت، وقولك لهم: «كن عبد الله المقتول» لنقعنّ بموجب ما ذكرته لك، وليرتكبنّ أهل الحجاز وأهل البصرة هذا الأمرَ المستصعب، لأنا نحن نطلب أن نَملك الكوفة، وأهلُ البصرة كذلك، فيجتمع عليها الفريقان.

ثم عاد إلى أمره بالخروج إليه فقال له: «فاعقِل عَقْلك، واملِك أمرَك، وخذ نصيبَك وحَظّك»، أي من الطاعة، واتّباع الإمام الّذي لَزِمتْك بيعته، فإن كرهتَ ذلك، فتنحّ عن العمل فقد عزلتُك. وابُعد عنّا لا في رحْبٍ، أي لا في سَعَة، وهذا ضدّ قولهم: مَرْحباً.

ثم قال: فجديرٌ أن تكفي ما كُلفته من حضور الحَرْب وأنت نائم، أي لست معدوداً عندنا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

ولا عندَ الناس من الرّجال الّذين تَفتقر الحروب والتّدبيرات إليهم، فسيُغني الله عنك ولا يقال: أين فلان؟

ثم أقسَم أنّه لحق، أي أنّي في حرب هؤلاء لَعَلَى حقّ، وإن من أطاعني مع إمام مُحِق ليس يُبالي ما صنَع الملحدون، وهذا إشارةٌ إلى قولِ النبيّ ﷺ: «اللهمّ أدِرِ الحقّ معه حيثما دارَ»(1).

٦٤ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً عن كتابه

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلاَّ كَرْهاً، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلاَمِ كُلُّهُ لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ حَرْباً.

وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ، فَلاَ عَلَيْكَ، وَلاَ الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ.

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي جَمْعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ الله إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ، وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ:

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ ... بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ(2)

وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ.

فَإِنَّكَ وَالله مَا عَلِمْتَ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ، وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ: إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لاَ لَكَ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلاَ فِي مَعْدِنِهِ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ!

وَقَرِيبٌ ما أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمامٍ وأخوالٍ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقاوَةُ وَتَمَنِّي الباطل، عَلَى الجُحُودِ

(1) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٤)، والحاكم في «مستدركه» (٤٦٢٩)، والطبراني في «الأوسط» (٥٩٠٦)، والبزار في «مسنده» (٨٠٦).

(2) الحاصِبُ: ريحٌ تحمل التراب، أو هو ما تناثر من دُقاق الثلج والبرد والسحاب الذي يرمي بهما. القاموس المحيط، مادة (حصب).

بِمُحَمَّدٍ صلّى الله عليهِ وآلهِ، فَصُرِعُوا مَصارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً، وَلَمْ يَمْنَعوا حَرِيماً، بِوقْعِ سُيُوفٍ ما خَلاَ مِنها الْوَغَى، وَلَمْ تُماشِها الْهُوَيْنَى.

وقَدْ أكْثَرْتَ في قَتَلةِ عُثْمانَ؛ فادْخُلْ فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ، ثُمّ حاكِمِ القَوْمَ إلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإيَّاهُمْ عَلَى كِتاب الله تعالى، وأمَّا تِلْكَ الَّتي تُرِيدُ؛ فإنَّها خُدْعَةُ الصَّبيِّ عَنِ اللَّبَنِ في أوَّلِ الْفِصال، والسَّلامُ لأهْلِهِ.

الشرح: أمّا الكتاب الذي كتبه إليه معاوية، وهذا الكتاب جوابه، فهو:

من معاوية بن أبيَ سَفيان، إلى عليّ بن أبي طالب:

أما بعد، فإنّا بني عبد مناف لم نزل نَنْزعُ من قَلِيب واحد، ونجرِي في حَلْبة واحدة، ليس لبَعْضنا على بعض فضل، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر؛ كلمتنا مؤتلفة، وألفَتُنا جامعة، ودارُنا واحدة، يجمعنا كرم العِرْق، ويَحوينا شرَفُ النِّجار، ويحنُو قويُّنا على ضعيفنا، ويواسي غنيُّنا فقيرَنا، قد خَلصَتْ قلوبُنا من وَغَل الحسد، وطهُرتْ أنفسُنا من خُبْث النيّة، فلم نزل كذلك حتى كان منك ما كان من الإدهان في أمر ابن عمّك، والحسد له، ونُصرة الناس عليه، حتى قُتِل بمشهدٍ منك؛ لا تدفع عنه بلسان ولا يد. فلَيتك أظهرت نصره، حيث أسررت خبره، فكنت كالمتعلق بين الناس بعذرٍ وإن ضعف، والمتبرّىء من دمه بدَفع وإن وَهن، ولكنَّك جلستَ في دارك تدُسّ إليه الدّواهي، وترسِل إليه الأفاعي؛ حتى إذا قضيتَ وطَرَك منه، أظهرتَ شماتة، وأبديت طلاقة، وحسرت للأمر عن ساعِدك، وشمّرت عن ساقك، ودَعوت الناس إلى نفسك، وأكْرهت أعيان المسلمين على بَيعتِك، ثم كان منك بعدما كان؛ من قتلك شَيْخَي المسلمين أبي محمد طلحة وأبي عبد الله الزّبير، وهما من الموعُودين بالجنّة، والمبشّر قاتل أحدِهما بالنّار في الآخرة، هذا إلى تشريدك بأمّ المؤمنين عائشة وإحلالها محلّ الهون، مبتذَلَةً بين أيدي الأعراب وفَسَقة أهل الكوفة، فمن بين مشهِّر لها، وبين شامِت بها، وبين ساخر منها. تُرى ابنَ عمّك كان بهذه لو رآه راضياً، أم كان يكون عليك ساخطاً، ولك عنه زاجراً! أن تؤذيَ أهله وتُشرّد بحليلته، وتسفك دماء أهل مِلّته. ثم تركك دار الهجرة التي قال رسول الله ﷺ عنها: «إن المدينة لتنفي خَبثها كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد»[1]، فلعمْري لقد صَحّ وعدُه وصدق قوله، ولقد نَفَتْ خَبثَها، وطردتْ عنها من ليس بأهلٍ أن يستوطِنها، فأقمت بين المِصرَين، وبَعُدت عن

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة (١٨٧١)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: المدينة تنفي شرارها (١٣٨٢).

بركة الحرميْن، ورضيتَ بالكوفة بدلاً من المدينة، وبمجاورة الخورنق والحيرة عوضاً عن مجاورة خاتم النبوّة، ومن قبل ذلك ما عبْتَ خليفتيْ رسول الله ﷺ أيام حياتهما، فقعدتَ عنهما وألّبت عليهما، وامتنعتَ من بيعتهما، ورُمتَ أمراً لم يرَك الله تعالى له أهلاً، ورقِيت سُلّماً وعراً، وحاولت مقاماً دحْضاً، وادّعيت ما لم تجد عليه ناصراً؛ ولعمري لو وَليتها حينئذٍ لما ازدادت إلاّ فساداً واضطراباً، ولا أعقبتْ ولايتكها إلا انتشاراً وارتداداً؛ لإنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيلُ على الناس بلسانه ويده؛ وها أنا سائرٌ إليك في جمع من المهاجرين والأنصار تحفُّهم سيوفٌ شاميّة، ورماحٌ قَحطَانيّة، حتى يحاكموك إلى الله. فانظر لنفسك وللمسلمين، وادفع إليّ قَتلةَ عثمان؛ فإنهم خاصّتك وخلصاؤك والمحدِقون بك، فإن أبيتَ إلا سلوكَ سبيل اللّجاج، والإصرار على الغيّ والضلال، فاعلم أن هذه الآية إنما نزلتْ فيك وفي أهل العراق معك: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(١).

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل ومعانيه، قال عليه السلام: لعمري إنّا كنا بَيْتاً واحداً في الجاهلية، لأنا بنو عبد مناف، إلا أن الفرقة بيننا وبينكم حَصلتْ منذ بعث الله محمداً ﷺ، فإنّا آمنا وكفرتُم، ثم تأكّدت الفُرقة اليومَ بأنّا استقمنا على منهاج الحق وفتِنتم.

ثم قال: «وما أسلم مَن أسلَم منكم إلا كَرْهاً»، كأبي سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وغيرهم من بني عبد شمس.

قال: «وبعد أن كان أنْف الإسلام محارباً لرسول الله ﷺ» أي في أوّل الإسلام، يقال: كان ذلك في أنْف دولة بني فلان، أي في أوّلها، وأنْف كلّ شيء أوّله وطَرَفه، وكان أبو سُفْيانَ وأهله من بني عبد شمس أشدَّ الناس عَلَى رسولِ الله ﷺ في أوّل الهجرة، إلى أن فتح مكة، ثم أجابه عن قوله: «قتلتَ طلحة والزبير، وشرّدت بعائشة، ونزلتَ بين المصريْن» بكلام مختصر أعرض فيه عنه هَواناً به، فقال: هذا أمرٌ غبتَ عنه، فليس عليك كان العدوان الذي تَزْعُم، ولا العذرُ إليك لو وجب عليّ العذرُ عنه.

فأما الجواب المفصّل فأن يقال: إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكْثِهما، ولو استقاما على الطريقة لسلِما، ومن قتله الحقُّ فدمه هَدَر، وأما كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغيرُ مدفوع؛ ولكن العيب يَحدُث، وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادميْن على ما صَنعا، وكذلك نقول نحن؛ فإن الأخبار كثرت بذلك، فهما من أهل الجنّة لتوبتهما؛ ولولا توبتُهما لكانا هالكيْن كما هلك غيرُهما، فإن الله تعالى لا يحابي أحداً في الطاعة والتقوى، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(٢).

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

وأما الوعد لهما بالجنّة فمشروط بسلامة العاقبة. والكلام في سلامتهما، وإذا ثبتتْ توبتهما فقد صحّ الوعد لهما وتحقق؛ وقوله: «بشّر قاتل ابن صفية بالنار»، فقد اختُلف فيه، فقال قومٌ من أرباب السِّيَر وعلماء الحديث: هو كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام غيرَ مرفوع، وقوم منهم جعلوه مرفوعاً، وعلى كل حال فهو حق، لأن ابن جُرموز قتله مولّياً خارجاً من الصفّ، مفارقاً للحرب؛ فقد قتله على توبةٍ وإنابةٍ ورجوع من الباطل، وقاتلُ مَنْ هذه حاله فاسقٌ مستحقّ للنار؛ وأما أمّ المؤمنين عائشة فقد صحّت توبتها، والأخبارُ الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير، لأنها عاشتْ زماناً طويلاً، وهما لم يبقيا، والذي جَرَى لها كان خطأً منها، فأيّ ذنب لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك! ولو أقامت في منزلها لم تُبتذَل بين الأعراب وأهل الكوفة؛ على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرَمها وصَانها وعظّم من شأنها، ومَنْ أحب أن يقف على ما فعله معهَا فليطالع كتب السيرة. ولو كانت فعلتْ بعمر ما فعلتْ به، وشقّت عصا الأمة عليه، ثم ظفر بها، لقتلها ومزّقها إرْباً إرْباً، ولكنّ عليًّا كان حليماً كريماً.

وأمّا قوله: «لو عاش رسول الله صلى الله عليه وآله فبربّك هل كان يرضَى لك أن تؤذي حليلته!» فلعليّ عليه السلام أن يقلب الكلام عليه، فيقول: أفتراه لو عاش أكان يرضى لحليلته أن تؤذي أخاه ووصيّه! وأيضاً أتراه لو عاش أكان يرضى لك يابن أبي سُفيان أن تُنازع علياً الخلافة وتفرق جماعة هذه الأمة! وأيضاً أتراه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا، ثم ينكُثا لا لسبب، بل قالا: جئنا نطلبُ الدراهم، فقد قيل لنا: إن بالبصرة أموالاً كثيرة! هذا كلام يقوله مثلهما!

فأما قولُه: «تركتَ دار الهجرة»، فلا عيبَ عليه إذا انقضتْ عليه أطرافُ الإسلام بالبَغْي والفَساد أن يَخرُج من المدينة إليها، ويهذّب أهلها؛ وليس كلُّ من خَرَج من المدينة كان خَبَثاً، فقد خَرَج عنها عمرُ مراراً إلى الشام، ثم لعليّ عليه السلام أن يقلِب عليه الكلام فيقول له: وأنتَ يا معاوية؛ قد نَفَتْك المدينةُ عنها، فأنت إذاً خبث، وكذلك طلحة والزبيرُ وعائشة الذين تتعصّب لهم وتحتجُّ على النّاس بهم، وقد خرج عن المدينة الصّالحون، كابن مسعود وأبي ذَرّ وغيرهما، وماتوا في بلادٍ نائيةٍ عنها.

وأمّا قوله: «بعدت عن حُرْمة الحَرمين، ومجاوَرة قبرِ رسول الله صلى الله عليه وآله»، فكلام إقْناعيٌّ ضَعيف والواجب على الإمام أن يقدّم الأهمّ فالأهمّ من مصالح الإسلام، وتقديم قتال أهل البَغْي على المقام بين الحَرمين أولَى. فأمّا ما ذَكَره من خِذْلانه عثمان وشماتِته به ودعائه الناسَ بعد قتلِه إلى نفسه وإكراهه طلحةَ والزّبير وغيرهما على بَيْعته فكلّه دَعوى والأمر بخلافها، ومن نَظَر كتب السِّير عرَف أنّه قد بَهتَه وادّعى عليه ما لم يَقَع منه.

وأمّا قوله: «التويتَ على أبي بكر وعمر، وقعدت عنهما، وحاولتَ الخلافة بعد

رسول الله ﷺ»، فإنَّ عليًا عليه السلام لم يكن يَجحدَ ذلك ولا يُنكِره، ولا رَيْب أنّه كان يَدّعي الأمر بعد وَفاة رسول الله ﷺ لنفسه على الجُمْلة، إمّا لنصٍّ كما تقوله الشيعة، أو لأمرٍ آخَرَ كما يقوله أصحابُنا. فأمّا قوله: «لو وليتها حينئذٍ لفَسد الأمر واضطَرب الإسلام»، فهذا علمُ غَيْب لا يعلمه إلا الله، ولعلّه لو وليَهَا حينئذٍ لاستقام الأمرُ وصَلَح الإسلام وتمهّد، فإنّه ما وقع الاضطراب عند ولايته بعدَ عثمان إلاّ لأنّ أمرَه هانَ عندَهم بتأخّره عن الخلافة، وتقدّم غيره عليه، فصغُر شأنه في النفوس، وقرّر من تقدّمه في قلوب الناس أنّه لا يَصلُح لها كلّ الصلاحية، والناسُ على ما يحصُل في نفوسهم، ولو كان وَلِيَها ابتداءً وهو على تلك الحالة التي كان عليها أيّام حياة رسول الله ﷺ وتلك المنزلة الرفيعة والاختصاص الّذي كان له، لكان الأمرُ غيرَ الّذي رأيناه عند ولايته بعد عثمان.

وأمّا قوله: «لأنّك الشامخُ بأنفه، الذاهبُ بنفسه»، فقد أسرف في وصفه بما وَصفه به، ولا شكّ أنّ عليًا عليه السلام كان عندَه زَهْو لكن لا هكذا، وكان عليه السلام مع زَهْوه ألطف الناس خُلُقاً.

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظه عليه السلام؛ قوله: «وذكرت أنّك زائري في جَمْع من المهاجرين والأنصار، وقد انقطعَت الهجرةُ يوم أُسِر أخوك» هذا الكلامُ تكذيبٌ له في قوله: «في جمعٍ من المهاجرين والأنصار»، أي ليس معك مهاجر لأنّ أكثر مَن معك ممن رأى رسول الله ﷺ هم أبناء الطُّلَقاء، ومن أسلَم بعد الفتح، وقد قال النبيّ ﷺ: «لا هِجرةَ بعد الفَتْح»[1].

وعبّر عن يوم الفَتْح بعبارة حَسَنة فيها تقريع لمعاوية وأهلِه بالكفر، وأنّهم ليسوا من ذوي السّوابق، فقال: «قد انقطعت الهجرةُ يومَ أُسِر أخوك». يعني يزيد بن أبي سُفيان أُسِرَ يوم الفَتْح في باب الخَنْدَمة، وكان خَرَج في نفرٍ من قريش يُحارِبون ويَمنَعون من دخول مكّة، فقُتِل منهم قومٌ وأُسِر يزيدُ بنُ أبي سفيان، أسرَه خالدُ بنُ الوليد، فخلّصه أبو سُفْيان منه، وأدخَلَه دارَه؛ فأمن لأن رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: «من دخل دارَ أبي سُفْيانَ فهو آمِن»[2].

خبر فتح مكة

ويجب أن نذكر في هذا الموضع ملخّصَ ما ذَكَره الواقديّ في كتاب «المغازِي» في فتح مكّة، فإن الموضع يقتضيه؛ لقوله عليه السلام: «ما أسلم مسلمُكم إلا كَرْهاً»، وقوله: «يومَ أُسِر أخوك».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد (٢٧٨٣)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة (١٨٦٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: فتح مكة (١٧٨٠)، وأبو داود، كتاب: الخراج والإمارة، باب: ما جاء في خبر مكة (٣٠٢١).

قال محمد بن عمر الواقديّ في كتاب «المَغَازي»:

كان رسول الله ﷺ قد هادن قريشاً في عام الحُدَيْبِيَة عشر سنين، وجعل خزاعة داخلةً معه، وجعلت قريشٌ بني بكر بن عبد مناة من كنانة داخلةً معهم، وكان بين بني بكر وبين خُزاعة تِراتٌ في الجاهليّة ودماء، وقد كانت خُزاعةُ من قبلُ حالفتْ عبدَ المطّلب بن هاشم، وكان معها كتابٌ منه، وكان رسول الله ﷺ يَعرِف ذلك، فلمّا تَمّ صُلح الحُدَيْبِيَة وأمِن الناسُ، سَمِع غلامٌ من خُزاعة إنساناً من بني كنانة يقال له: أَنَس بن زُنيم الدّؤلي يُنشِد هجاءً له في رسول الله ﷺ، فضربه فشَجّه، فخرج أنس إلى قومه فأراهم شجّته فثار بينهم الشرّ، وتذاكروا أحقادَهم القديمة، والقوم مجاورون بمكّة، فاستنجدتْ بكر بن عبد مناة قُرَيْشاً على خُزاعة، فمن قريشٍ مَنْ كره ذلك وقال: لا أنقُضِ عهدَ محمد، ومنهم من خف إليه. وكان أبو سُفيان أحدَ من كَرِه ذلك، وكان صَفْوان بن أميّة وحُوَيْطب بن عبد العُزّى ومُكْرَز بن حَفْص ممّن أعان بني بكر، ودَسّوا إليهم الرجالَ بالسلاح سرًّا، وبيّتوا خُزاعة ليلاً، فأوقعوا بهم، فقتلوا منهم عشرين رجلاً. فلمّا أصبحوا عاتبوا قريشاً، فجحدتْ قريشٌ أنّها أعانت بكراً، وكذّبت في ذلك، وتبرّأ أبو سُفيانَ وقوم من قريش مما جَرَى، وشَخَص قومٌ من خُزاعةَ إلى المدينة مستصرِخين برسول الله ﷺ، فدَخلوا عليه وهو في المسجد، فقامَ عمرو بن سالم الخُزاعيّ فأنشده:

لا هُمَّ إنّي ناشدٌ محمّدا ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدَا[1]

لكنتَ والداً وكنّا وَلَدا ... ثمّتَ أسلَمْنا ولم ننزع يَدَا

إنّ قريشاً أخلفوك المَوْعِدَا ... ونقضوا ميثاقك المؤكّدا

همْ بيّتونا بالوَتِير هُجّدا ... نتلو القُرآنَ رُكّعاً وسُجّدا

وزَعموا أن لستَ تَدْعُو أحدَا ... وهمْ أذلّ وأقلّ عَددَا

فانصُرْ هَداك الله نَصراً أيّدا ... وادْعُ عبادَ الله يأتُوا مَدَدا

في فيلقٍ كالبَحْر يَجري مُزْبِدا ... فيهمْ رسولُ الله قد تجرّدا

قرمٌ لقَوم من قُروم أصيَدَا

ثمّ ذَكَروا له ما أثار الشرَّ، وقالوا له: إن أَنَس بنَ زُنَيم هجاك، وإنّ صَفوان بن أُميّة وفلاناً وفلاناً دَسُّوا إلينا رجالَ قريش مُستنصرين، فبيّتونا بمنزلنا بالوَتِير فقتّلونا، وجئناك مستصرخين بك، فزَعموا أنّ رسول الله ﷺ قام مُغضَباً يجرُّ رداءه ويقول: «لا نُصِرْتُ إن لم انصُرْ خُزاعةَ فيما أنصُرُ منه نفسي!»[2].

---

(١) تَلُد: قَدُمَ. والتَّالِدُ: القديم. المعجم الوسيط، مادة (تلد).

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ١٣٤).

قلتُ: فصادَفَ ذلك من رسول الله ﷺ إيثاراً وحُبًّا لنقْض العهد، لأنه كان يريد أن يفتح مكّة وهمّ بها في عام الحُدَيْبية فصُدّ، ثمّ همّ بها في عُمْرة القضيّة، ثم وقف لأجل العهد والميثاق الّذي كان عَقَده معهم، فلمّا جرى ما جَرَى على خُزاعة اغتنَمَها.

قال الواقديّ: فكتب إلى جميع الناس في أقطار الحجاز وغيرها يأمُرهم أن يكونوا بالمدينة في رمضان من سنة ثمانٍ للهجرة، فوافَتْه الوُفُود والقبائل من كلّ جهة، فخرج من المدينة بالناس يوم الأربعاء لعشرٍ خَلَون من رمضانَ في عشرةِ آلاف، فكان المهاجرُون سبعمائة، ومعهم من الخيل ثلاثمائة فرسٍ، وكانت الأنصار أربعة آلاف، معهم من الخيل خمسمائة، وكانت مُزَيْنَةُ ألفاً، فيها من الخيل مائة فرس، وكانت أسلم أربعمائة، فيها من الخيل ثلاثون فرساً، وكانت جُهَينةُ ثمانمائة معها خمسون فرساً، ومن سائر الناس تمامُ عشرة آلاف، وهم بنو ضَمْرة وبنو غِفار وأشجَع وبنو سُليم وبنو كَعْب بن عمرو وغيرهم. وعَقَد للمهاجرين، ثلاثة ألوية: لواء مع عليّ، ولواء مع الزبير، ولواء مع سعد بن أبي وقّاص، وكانت الرّاياتُ في الأنصار وغيرهم، وكتم عن الناس الخبر، فلم يعلم به إلا خواصّه، وأمّا قريش بمكّة فنَدِمتْ على ما صنعتْ بخُزاعة، وعرَفَت أنّ ذلك انقضاءُ ما بينهم وبين النبيّ ﷺ من العهد، ومَشَى الحارثُ بنُ هشام وعبدُ الله بن أبي ربيعة إلى أبي سُفْيان فقالا له: إنّ هذا أمرٌ لا بدّ له أن يُصلَح، والله إن لم يُصلَح لا يَرُوعكم إلاّ محمدٌ في أصحابه. وقال أبو سُفْيان: قد رأتْ هندٌ بنتُ عُتْبة رؤيا كرِهَتْها وأفظَعَتْها، وخفتُ من شرّها، قالوا: ما رأت؟ قال: رأت كأن دماً أقبل من الحَجُون يَسيل حتى وقف بالخَنْدَمة مَلِيًّا، ثمّ كأنّ ذلك الدم لم يكن؛ فكَره القومُ ذلك وقالوا: هذا شرّ.

قال الواقديّ: فلمّا رأى أبو سُفْيانَ ما رأى من الشرّ قال: هذا والله أمرٌ لم أشهده ولم أغِب عنه، لا يُحمَل هذا إلاّ عليّ، ولا والله ما شُوورت ولا هوّنت حيث بلغني، والله ليَغزُونا محمدٌ إنْ صَدَق ظني وهو صادق، ومالي بُدّ أن آتيَ محمّداً فأكلّمه أن يزيد في الهُدْنة، ويجدّد العهد قبل أن يَبلغُه هذا الأمر. قالت قريش: قد والله أصبتَ؛ وندمتْ قريشٌ على ما صنعتْ بخُزاعة وعرفت أن رسول الله ﷺ لا بدّ أن يغزُوَها؛ فخرج أبو سُفْيانَ وخَرَج معه مولًى له على راحلتين، وأسرَعَ السيرَ وهو يرى أنه أوّل من خرج من مكّة إلى رسول الله ﷺ(١).

قال الواقديّ: وقد رُوِيَ الخبر على وجهٍ آخر، وهو أنه لـمّا قَدِم رَكْبُ خُزاعةَ على رسول الله ﷺ فأخبَروه بمن قُتل منهم، قال لهم: «بمن تُهمتكم وطلبتكم»؟ قالوا: بنو بكر بن عبدِ مَناة، قال: «كلّها»؟ قالوا: لا، ولكن تهمتنا بنو نُفاثة قَصْرةً، ورأسهم نَوْفل بن معاوية النُّفاثيّ؛ فقال: «هذا بطنٌ من بكر، فأنا باعث إلى أهل مكة فسائلُهم عن هذا الأمر، ومخيِّرُهم

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١٣٤).

في خصال». فبعثَ إليهم ضَمْرة يُخيّرهم بين إحدى خلال ثلاث: بين أن يَدُوا خُزاعةَ، أو يَبرؤوا من حِلْف نُفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء. فأتاهم ضَمْرة فخيّرهم بين الخلال الثلاث، فقال قُرَيظة بن عبد عمرو الأعمى: أمّا أنْ نَدِيَ قتلى خُزاعة، فإنا إنْ وَدَيْناهم لم يَبْق لنا سَبَد ولا لَبَد، وأمّا أن نبرأ من حلف نُفاثة، فإنه ليس قبيلة تحجّ هذا البيت أشدّ تعظيماً له من نُفاثة، وهم حُلَفاؤنا فلا نبرأ من حِلْفهم، ولكنّا نَنْبِذ إليه على سواء. فعاد ضَمْرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، وندمتْ قريشٌ أن ردّتْ ضَمْرة بما ردّته به[1].

قال الواقديّ: وقد رُوِي غيرُ ذلك؛ رُوِي أن قريشاً لمّا ندمتْ على قتل خُزاعة وقالت: محمد غازينا، قال لهم عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح - وهو يومئذٍ كافر مرتدّ عندهم -: إنّ عندي رأياً؛ إن محمداً ليس يَغْزوكم حتّى يُعذِر إليكم ويُخيّركم في خصال كلّها أهوَن عليكم من غَزْوه، قالوا: ما هي؟ قال: يرسل إليكم أن تَدُوا قَتْلَى خُزاعة، أو تَبْرَؤوا من حِلْف من نَقض العهد وهم بنو نُفاثة، أو ينبذ إليكم العهد. فقال القومُ: أحْرِ بما قال ابنُ أبي سَرْح أن يكون! فقال سُهَيل بنُ عمرو: ما خَصْلة أيسر علينا من أن نبرأ من حلف نُفاثة، فقال شَيْبة بنُ عثمانَ العَبْدَرِيّ: حُطتَ أخوالك خُزاعة، وغضبت لهم! قال سهيل: وأيّ قريش لم تَلِد خُزاعة! قال شيبة: لا، ولكن نَدِي قتلى خُزاعة فهو أهونُ علينا. فقال قُرَيظة بنُ عبد عمرو: لا والله لا نَدِيهم ولا نَبرأ عن نُفاثة أبرّ العَرَب بنا، وأعمرهُم لبَيْت ربّنا، ولكنْ نَنْبذ إليهم على سواء. فقال أبو سُفْيان: ما هذا بشيء، وما الرأيُ إلا جَحْد هذا الأمر أن تكون قريش دخلتْ في نَقْض العهد، أو قطع مدّة، فإن قطعه قومٌ بغير هَوًى منّا ولا مَشُورة فما علينا! قالوا: هذا هو الرأي، لا رأي إلاّ الجحْد لكلّ ما كان من ذلك؛ فقال: أنا أقسم أنّي لم أشْهَد ولم أوَامر، وأنا صادق؛ لقد كرهتُ ما صَنَعتم، وعرفتُ أن سيكون له يوم غماس، قالت قريش لأبي سُفْيان: فاخرج أنتَ بذلك؛ فخرج.

قال الواقديّ: وحدثني عبد الله بن عامر الأسلميّ، عن عطاء بن أبي مروان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعائشة صبيحة الليلة التي أوقعتْ فيها نُفاثة وقُرَيش بخُزاعة بالوتير: «يا عائشة لقد حَدث الليلة في خُزاعة أمر»، فقالت عائشة: يا رسول الله، أترى قريشاً تجترىء على نَقْض العهد بينك وبينهم! أينقضون وقد أفناهم السيف! فقال: «العهد لأمر يريدُه الله بهم»، فقالت: خيرٌ أم شرٌّ يا رسول الله؟ فقال: «خير».

قال الواقديّ: وحدّثني عبدُ الحميد بن جعفر، قال: حدّثني عمْران بن أبي أنس، عن ابن عباس، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يَجُرّ طَرَف رِدائه ويقول: «لا نُصِرتُ إن لم أنصر بني كَعب - يعني خزاعة - فيما أنصرُ منه نفسي!».

---

(١) انظر: «سنن البيهقي» (٩/ ١٢٠)، و«شرح معاني الآثار» للطحاوي (٣/ ٣١١).

قال الواقديّ: وحدثني حرام بن هشام، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لكأنكم بأبي سُفْيان قد جاءكم يقول: جدِّد العهد وزِدْ في الهدنة وهو راجع بِسخْطه». وقال لبني خُزاعة عمرُو بن سالم وأصحابه: «ارجعوا وتفرّقوا في الأوْدية»، وقام فدخل على عائشة وهو مُغضَب، فدعا بماءٍ، فدخل يغتسل؛ قالت عائشة: فأسمعُه يقول هو يصُبّ الماء على رِجليه: «لا نُصِرْت إن لم أنْصُرْ بني كعب»!

قال الواقديّ: فأمّا أبو سفيان فخرج من مكة وهو متخوّف أن يكون عمرو بن سالم وَرَهْطه من خُزاعة سَبقوه إلى المدينة، وكان القوم لمّا رَجعوا من المدينة وأتوا الأبواء تفرّقوا كما أوصاهم رسول الله ﷺ، فذهبت طائفةٌ إلى الساحل تعارض الطريق، ولزم بُدَيل بن أمّ أصرَم الطريق في نفرٍ معه، فلقيَهم أبو سُفيان، فلما رآهم أشفق أن يكونوا لقُوا محمداً ﷺ بل كان اليقينُ عنده، فقال للقوم: منذُ كم عهدكم بيثرب؟ قالوا: لا عهد لنا بها، فعَرَف أنهم كتموه، فقال: أما معكم من تمرْ يثرب شيء تُطعِموناه، فإن لتمر يثرب فَضْلاً على تمر تِهامة؟ قالوا: لا، ثم أبت نفسه أن تَقَرّ، فقال: يا بُدَيل، هل جئت محمداً؟ قال: لا ولكني سرتُ في بلاد خُزاعة من هذا الساحل في قتيل كان بينهم حتى أصلحتُ بينهم. قال: يقول أبو سفيان: إنك - والله ما علمتُ - برٌّ واصل. فلما راحَ بُدَيل وأصحابه جاء أبو سفيان إلى أبعار إبلهم ففتّها فإذا فيها النوى، ووجد في منزلهم نوى من تمر عجوة كأنه ألسنة العصافير، فقال: أحلف بالله لقد جاء القومُ محمّداً. وأقبَل حتّى قَدِم المدينَة، فدخل على النبيّ ﷺ، فقال: يا محمد، إنّي كنت غائباً في صُلْح الحُديبيَة، فاشدُد العهدَ وزِدْنا في المدّة، فقال رسول الله ﷺ: «ولذلك قدمتَ يا أبا سُفْيان!» قال: نعم، قال: «فهل كان قِبَلكم حَدَث؟» فقال: مَعاذ الله! فقال رسولُ الله: «فنحن على مَوْثِقنا وصُلْحنا يومَ الحُدَيْبية لا نغيّر ولا نبدّل». فقام مِن عندِه فدخل على ابنته أمّ حبيبة، فلمّا ذهب ليجلسَ على فِراش رسول الله ﷺ طَوَتْه دونَه، فقال: أرغِبتِ بهذا الفراش عنّي، أم رغبتِ بي عنه؟ فقالت: بل هو فراشُ رسول الله ﷺ، وأنت امرؤٌ نَجِسٌ مُشرِك. قال: يا بنيّة، لقد أصابَك بعدِي شرّ، فقالت: إن الله هداني للإسلام، وأنتَ يا أبتِ سيّدُ قريش وكبيرها، كيف يَخفَى عنك فضلُ الإسلام، وتَعبُد حَجَراً لا يَسمَع ولا يُبصر! فقال: يا عجباً! وهذا منكِ أيضاً! أأترك ما كان يَعبُد آبائي وأتّبع دينَ محمّد! ثم قام من عندِها فلقِيَ أبا بكر، فكلّمه، وقال: تُكلّم أنتَ محمّداً، وتجير أنت بين الناس. فقال أبو بكر: جواري جوارُ رسول الله ﷺ، ثم لِقيَ عمرَ فكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر، فقال عمر: والله لو وجدتُ السِّنّوْرَ تقاتِلكم لأعنتُها عليكم.

قال أبو سُفْيان: جُزيت من ذِي رَحِم شرًّا! ثم دخل على عثمانَ بنِ عَفّان فقال له: إنه ليس في القوم أحدٌ أمسّ بي رَحِماً منك، فزِدْني الهدنة وجَدِّد العهدَ، فإنّ صاحبك لا يردّ عليك أبداً؛

والله ما رأيتُ رجلاً قطّ أشدّ إكراماً لصاحب من محمّد لأصحابه، فقال عثمان: جِوارِي جوارُ رسول الله صلى الله عليه وآله، فجاء أبو سُفْيان حتّى دخل على فاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وآله، فكلّمها، وقال: أجيرِي بين الناس، فقالت: إنّما أنا امرأة، قال: إنّ جِوارَك جائز، وقد أجارت أُخْتِك أبا العاص بنَ الرّبيع، فأجازَ محمّد ذلك. فقالت فاطمة: ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وأبتْ عليه، فقال: مُري أحدَ هذين ابنيك يُجيرُ بين الناس، قالت: إنّهما صبيّان، وليس يجيرُ الصبيُّ. فلمّا أبت عليه أتى عليًا عليه السلام فقال: يا أبا حَسَن، أجِرْ بين الناس وكلِّم محمّداً ليزيدَ في المُدّة، فقال عليّ عليه السلام: وَيْحك يا أبا سُفْيان! إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد عَزَم ألاّ يَفعَل، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلّمه في شيء يكرَهه، قال أبو سُفيان: فما الرأي عندَك فتشير لأمري، فإنّه قد ضاقَ عليّ؟ فمرني بأمرٍ تَرَى أنّه نافعي، قال عليّ عليه السلام: والله ما أجِد لكَ شيئاً مِثل أن تقومَ فتُجيرَ بين الناس، فإنّك سيّدُ كِنَانة، قال: أترى ذلك مُغنياً عنّي شيئاً؟ قال عليّ: إنّي لا أظنّ ذلك والله، ولكنّي لا أجدُ لكَ غيرَه. فقام أبو سُفْيانَ بين ظَهْرَي الناس فصاح: ألا إنّي قد أجرت بينَ الناس، ولا أظنّ محمّداً يحقِرني. ثمّ دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد ما أظنّ أن تردّ جِواري! فقال عليه السلام: «أنت تقول ذلك يا أبا سُفيان!» ويقال: إنّه لمّا صاح لم يأتِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وركِب راحِلَته وانطلَق إلى مكّة. ويُروَى أنه أيضاً أتى سعدَ بنَ عُبادةَ فكلّمه في ذلك: وقال: يا أبا ثابت، قد عرفتَ الذي كان بيني وبينَك، وإنّي كنتُ لك في حَرَمِنا جاراً، وكنتَ لي بيثربَ مِثلَ ذلك، وأنتَ سيّدُ هذه المَدَرَة، فأجِرْ بين الناس، وزِدْني في المُدّة. فقال سعد: جِوارِي جوارُ رسول الله صلى الله عليه وآله، ما يجيرُ أحدٌ على رسول الله صلى الله عليه وآله؛ فلمّا انطلق أبو سُفْيان إلى مكّة، وقد كان طالتْ غَيبتُه عن قريش وأبطأ، فاتّهموه وقالوا: نراه قد صَبَا واتّبع محمّداً سِرًّا، وكَتَم إسلامَه؛ فلمّا دخل على هندٍ ليلاً قالت: قد احتُبستَ حتى اتُّهمك قوْمك، فإن كنتَ جِئتَهم بنُجح فأنت الرجل. وقد كان دنا منها ليَغْشاها، فأخبرَها الخبر وقال: لم أجد إلاّ ما قال لي عليّ، فضَربتْ برِجلها في صدورِه وقالت: قُبِّحتَ من رسولِ قَوْم!

قال الواقديّ: فحدّثني عبدُ الله بنُ عثمانَ، عن أبي سليمان، عن أبيه، قال: لمّا أصبح أبو سُفْيان حَلَق رأسَه عند الصَّنَمين: أساف ونائلة، وذَبَح لهما، وجعل يمسح بالدمّ رؤوسهما، ويقول: لا أفارق عبادَتكما حتى أموت على ما ماتَ عليه أبي. قال: فَعَل ذلك ليبرِّىء نفسَه ممّا اتّهمتْه قريش به.

قال الواقديّ: وقالت قريش لأبي سُفْيان: ما صنعتَ؟ وما وراءَك؟ وهل جئتَنا بكتاب من محمد وزيادةٍ في المُدّة؟ فإنّا لا نأمن من أن يَغزُوَنا، فقال: والله لقد أبَى عليّ، ولقد كلّمت عليه أصحابَه فما قَدَرتُ على شيء منهم، ورَمَوْني بكلمةٍ منهم واحدة، إلاّ أنّ عليًا قال لمّا ضاقت بيَ الأمور: أنت سيّد كِنانة، فأجِرْ بين الناس، فناديتُ بالجوار، ثمّ دخلتُ على محمد فقلت:

إني قد أجرتُ بين الناس، ومَا أظنّ محمداً يردّ جِواري، فقال محمد: أنتَ تقول ذاك يا أبا سُفْيان! لم يَزد على ذلك، قالوا: ما زاد عليّ على أن يَلعَب بك تلعّباً؛ قال: فوالله ما وجدتُ غيرَ ذلك.

قال الواقديّ: فحدّثني محمد بن عبد الله، عن الزّهري، عن محمد بن جُبَير بن مُطعِم، قال: لمّا خرج أبو سُفْيان عن المدينة قال رسول الله ﷺ لعائشة: «جَهّزينا وأخفِي أمرَك». وقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ خُذْ عن قريش الأخبارَ والعيونَ حتى نأتيهم بَغتةً»؛ ورُوِي أنه قال: «اللّهمّ خُذ على ابصارهم فلا يَرَوْني إلاّ بغتة، ولا يَسمعَون بي إلا فجأة». قال: وأخذ رسول الله ﷺ الأنقابَ وجعل عليها الرجالَ، ومَنعَ مَنْ يخرج من المدينة، فدخل أبو بكر على عائشةَ وهي تجهزّ رسول الله ﷺ، تَعمَل له قَمحاً سَوِيقاً ودَقيقاً، فقال لها: أهَمَّ رسول الله ﷺ بغَزْوٍ؟ قالت: لا أدري؛ قال: إن كان هَمّ بسَفَرٍ فآذِنينا نتهيّأ له؛ قالت: لا أدري لعلّه أراد بني سُلَيم، لعلّه أراد ثَقِيفاً أو هَوازِنَ! فاستعْجَمَت عليه، فدَخَل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أردتَ سَفَراً؟ قال: نعم، قال: أفأتجهّز؟ قال: نعم، قال: وأين تريد؟ قال: قريشاً، وأخفِ ذلكَ يا أبا بكر، وأمَر رسول الله ﷺ الناسَ فتجهّزوا، وطَوَى عنهم الوجهَ الّذي يريد، وقال له أبو بكر: يا رسولَ الله، أوَ ليسَ بيننا وبينهم مدّة؟ فقال: إنّهم غَدَروا ونَقَضوا العهد، فأنا غازيهم، فاطوِ ما ذكرتُ لك، فكان الناسُ بين ظانٍّ يظُنّ أنّه يريد سُلَيماً، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد هَوازِنَ، وظانٌّ يظن أنه يريد ثَقِيفاً، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد الشامَ، ويعَثَ رسول الله ﷺ أبا قَتادةَ بن رِبْعيّ في نفرٍ إلى بطنِ ليظنّ الناسُ أن رسول الله ﷺ قَدَّم أمامه أولئك الرجالَ لتوجّهه إلى تلك الجهة، ولتذهب بذلك الأخبارُ(١).

قال الواقديّ: حدّثني المنذِر بنُ سعد، عن يزيدَ بن رُومان، قال: لمّا أجمَعَ رسول الله ﷺ المسيرَ إلى قريش، وعَلِم بذلك مَن عَلِم من الناس، كتب حاطبُ بنُ أبي بَلْتَعَة إلى قريش يُخبِرهم بالّذي أجمع عليه رسول الله ﷺ في أمرهم، وأعطى الكتابَ امرأةً من مُزَينة، وجعلَ لها على ذلك جُعْلاً على أن تُبلّغه قريشاً، فجعلتْ الكتابَ في رأسِها، ثم فَتلَتْ عليه قُرونَها وخرجتْ به، وأتى الخبرُ إلى النبيّ ﷺ من السّماء بما صَنَع حاطب، فبَعَثَ عليًّا عليه السلام والزّبيرَ فقال: «أدرِكا امرأةً من مُزَينة قد كَتَب معها حاطبٌ كتاباً يُحذِّر قريشاً، فخَرَجا وأدرَكاها بذي الحُلَيْفة»، فاستنزَلاها والْتَمَسا الكتابَ في رَحْلها فلم يَجدا شيئاً، فقالا لها: نَحلِف بالله ما كَذَب رسول الله ﷺ ولا كذَبنا، ولتُخرِجنّ الكتاب أو لنَكْشِفَنّكِ. فلمّا رأت منهما الجِدّ حلّت قُرونَها، واستخرجَتِ الكتابَ فدفعتْه إليهما، فأقبَلا به إلى رسول الله ﷺ،

(١) انظر هذه الروايات كلها في «طبقات ابن سعد» (١/ ١٣٤).

فدعا حاطباً وقال له: «ما حمَلَك على هذا»؟ فقال: يا رسول الله، والله إنّي لَمُسلم مؤمنٌ بالله ورسوله، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ، ولكنّي كنتُ امرأً ليس لي في القوم أصْل ولا عَشيرة، وكان لي بين أظهُرهم أهلٌ وولَد، فصانعتهم. فقال عمر: قاتلك الله! ترى رسول الله صلى الله عليه وآله يأخُذ بالأنقاب وتَكْتب إلى قريش تحذّرهم! دَعْني يا رسولَ الله أضرب عُنقُه، فإنّه قد نافَق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطّلع على أهلِ بَدْر» فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم(1)!

قال الواقديّ: فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة بالألوية المعقودة والرّايات بعدَ العصر من يوم الأربعاء لعشرٍ خلوْنَ من شهر رَمضانَ لم يحلّ عقده حتّى انتهى إلى الصّلصل، والمسلمون يَقُودونَ الخيلَ، وقد امتَطوا الإبل، وقدّم أمامَه الزبير بن العوّام في مائتين؛ قال: فلمّا كان بالبَيْداء نظر إلى عَنانِ السّماء، فقال: إنّي لأرَى السحابَ تستهِلّ بنصرِ بني كعب - يعني خُزاعة.

قال الواقديّ: وجاء كعبُ بنُ مالك لِيَعَلم أيّ جهةٍ يقصد؟ فبَرَك بين يديه على رُكْبتيه، ثم أنشده:

قَضَينا من تِهامَةِ كلّ نَحْبٍ ... وخيبرَ ثمّ أحمَيْنا السُّيوفا
فسائِلُها ولو نَطقَتْ لقالت ... قَواضِبُهنّ دَوْساً أو ثَقِيفا
فلستُ بحاضِرٍ إن لم تَرَوْها ... بساحةِ دارِكم منها ألوفا
فننتزع الخِيام ببَطْنِ وَجٍّ ... ونَتْرُك دُورَكم منها خُلُوفا(2)

قال: فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يَزِد على ذلك، فجعل الناسُ يقولون: والله ما بَيّنَ لكَ رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً، فلم تَزل الناسُ كذلك حتى نزلوا بمَرّ الظَّهْران.

قال الواقديّ: وخرج العبّاس بنُ عبدِ المطّلب ومَخرَمة بنُ نَوْفل من مَكّة يَطلُبان رسول الله صلى الله عليه وآله ظَنّاً منهما أنه بالمدينة يريدان الإسلام، فلَقِياه بالسُّقيا.

قال الواقديّ: فلمّا كانت الليلة الّتي أصبَحَ فيها بالجُحْفة رَأى فيها أبو بكر في مَنامِه أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابَه قد دنَوْا من مَكّة فخرجتْ عليهم كَلْبة تَهِرّ فلما دَنَوا منها استلْقَتْ على قَفاها، وإذا أطباؤها تَشخُب لبناً. فقصّها على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «ذهب كَلَبهم، وأقبل دَرُّهم، وهم سائلونا بأرحامهم، وأنتم لاقُون بعضَهم، فإن لقيتم أبا سُفْيانَ فلا تقتلوه».

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (٢٤٩٤).

(2) الوَجُّ: ضرب من الأودية. لسان العرب، مادة (وجج).

قال الواقديّ: وإلى أن وَصَل مَرَّ الظَّهران لم يَبلُغ قريشاً حرفٌ واحد من حاله، فلمّا نزل بمَرّ الظَّهران أمر أصحابه أن يُوقِدوا النار، فأوقدوا عشرة آلاف نار، وأجمعتْ قريشٌ أن يَبعثُوا أبا سُفْيان يتجسّس لهم الأخبار، فخرج هو وحكيمُ بنُ حزام وبُدَيل بنُ وَرْقاء. قال: وقد كان العبّاس بنُ عبد المطلّب قال: واسوء صَباح قُرَيش! والله إنْ دَخَلها رسول الله ﷺ عَنْوَةً إنّه لهلاكُ قريش آخرَ الدهر؛ قال العبّاس: فأخذتُ بغلة رسول الله ﷺ الشّهباء فركبتها، وقلتُ: ألتمس حطّاباً أو إنساناً أبعثه إلى قريش فيَلقَوا رسول الله ﷺ قبلَ أن يدخُلها عليهم عَنْوةً؛ فوالله إنّي لفي الأراك لَيْلاً أبتغي ذلك إذ سمعتُ كلاماً يقول: والله إنْ رأيتُ كاللّيلة ناراً، قال: يقول بُدَيل بنُ وَرْقاء: إنّها نيرانُ خُزاعةَ جاشها الحرب. قال: يقول أبو سفيان: خُزاعة أذلّ من أن تكون هذه نيرانُها وعسكرُها؛ فعرفتُ صوته، فقلتُ: أبا حَنْظلة! فعَرَف صوتي، فقال: لبّيك أبا الفَضل! فقلتُ: ويْحَك! هذا رسولُ الله في عشرة آلاف، وهو مصبّحكم؛ فقال: بأبي وأمّي، فهل من حيلة! فقلت: نَعَم، تركَب عَجُز هذه البَغلة، فأذهب بك إلى رسول الله ﷺ فإنّه إن ظَفِر بك دونَ ذلك ليقتلنّك؛ قال: والله أنا أرى ذلك، فرَكِب خَلْفي، ورَحَل بُدَيل وحكيم فتوجّهت به فلمّا مررتُ به على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوني قالوا: عمُّ رسول الله ﷺ على بَغْلة رسولِ الله، حتّى مررتُ بنار عمرَ بن الخطّاب، فلمّا رآني قال: من هذا؟ قلت: العبّاس، فذهب يَنظُر فرأى أبا سُفْيان خَلْفي، فقال: أبو سُفْيان عدوّ الله! الحمدُ لله الّذي أمكَن منك بغير عَهْد ولا عَقْد! ثم خرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ، ورَكَضتِ البغلة حتى اجتمعنا جميعاً على باب قُبّة رسول الله ﷺ، فدخلتُ ودخلَ عمرُ بنُ الخطّاب على أثرِي، فقال عمر: يا رسول الله، هذا أبو سُفْيان عدوّ الله قد أمكَن الله منه بغير عَقْد ولا عَهْد، فدعْني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله، إنّي قد أجَرْته، ثم لزمتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: والله لا يُناجِيه الليلة أحدٌ دوني، فلمّا أكثرَ عمرُ فيه قلت: مهلاً يا عمر! فإنّه لو كان رجلاً من عديّ بن كعب ما قلت هذا، ولكنّه أحدُ بني عبدِ مناف. فقال عمر: مَهْلاً يا أبا الفضل، فوالله لإسلامُك كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطّاب - أو قال: من إسلام رجلٍ من وَلَد الخطّاب - لو أسلم؛ فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به فقد أجرْناه؛ فليَبِتْ عندَك حتّى تغدوَ به علينا إذا أصبحتَ». فلمّا أصبحتُ غدوتُ به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «وَيْحك يا أبا سُفْيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله!» قال: بأبي أنتَ ما أحلمَك وأكرمك وأعظم عَفوك! قد كان يَقع في نفسي أن لو كان مَعَ الله إله آخر لأغنى؛ قال: «يا أبا سُفْيان ألم يأنِ لكَ أن تعلم أني رسول الله!» قال: بأبي أنتَ ما أحلمَك وأكرمَك وأعظمَ عفوَك! أمّا هذه فوالله إنّ في النّفس منها لشيئاً بعدُ، قال العبّاس: فقلتُ وَيْحك! تشهّد وقل لا إله إلاّ الله محمد رسول الله قبل أن تُقتَل. فتَشهَّد.

وقال العبّاس: يا رسولَ الله، إنَّك قد عرفت أبا سُفْيان وفيه الشّرف والفَخْر، فاجعل له شيئاً، فقال: مَنْ دخل دارَ أبي سُفْيان فهو آمن، ومن أغلق دارَه فهو آمن، ثم قال: خذْه فاحبسه بمَضِيق الوادي إلى خَطْم الجبل حتى تمرَّ عليه جُنُود الله فيراها. قال العبّاس: فعدلتُ به في مَضيق الوادي إلى خَطْم الجبل فحبستُه هناك، فقال: أغدراً يا بني هاشم! فقلتُ له: إنّ أهل النّبوة لا يَغدِرون، وإنّما حبستُك لحاجةٍ؛ قال: فهلاّ بدأتَ بها أوّلاً فأعْلَمْتَنيها، فكان أفرخَ لرُوعي! ثم مرّت به القبائل على قادَتِها، والكتائبُ على راياتها، فكان أوّل من مَرّ به خالدُ بن الوليد في بني سُلَيم، وهم ألف، ولهم لواءان يَحمِل أحدَهما العبّاسُ بنُ مرْداس والآخر خُفاف بن نُدْبة، وراية يَحمِلها المقداد، فقال أبو سُفْيان: يا أبا الفَضْل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء بنو سُلَيم، وعليهم خالدُ بنُ الوليد، قال: الغلام؟ قال: نعم، فلمّا حاذى خالد العباسَ وأبا سُفْيان كبّر ثلاثاً وكبّروا معه، ثمّ مضوا. ومرّ على أثره الزّبير بنُ العوّام في خمسمائة، فيهم جماعةٌ من المهاجرين وقومٌ من أفْناء الناس، ومعه رايةٌ سوداء، فلمّا حاذاهما كبّر ثلاثاً وكبّر أصحابُه فقال: من هذا؟ قال: هذا الزبير، قال: ابن أختك! قال: نعم، قال: ثمّ مرّت به بنو غِفار في ثلاثمائة يحمِل رايتهم أبو ذرّ - ويقال: إيماء بن رحضة - فلمّا حاذوهما كبّروا ثلاثاً.

قال: يا أبا الفَضْل: مَنْ هؤلاء؟ قال: بنو غِفار؛ قال: ما لي ولبني غِفار! ثمّ مَرت به أسلم في أربعمائة يَحمِل لواءَها يزيدُ بن الخصيب، ولواء آخر مع ناجية بن الأعجم، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثاً، فسأل عنهم فقال: هؤلاء أسلَم، فقال: مالي ولأسلم! ما كان بيننا وبينهم تِرَة قطّ، ثم مرّت بنو كعب بن عمرو بن خُزاعةَ في خمسمائة يَحمل رايتَهم بشرُ بنُ سُفْيان، فقال: من هؤلاء؟ قال: كعب بن عمرو، قال: نعم حلفاءُ محمّد، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثاً. ثمّ مرت مُزَينة في ألفٍ فيها ثلاثةُ ألوِية مع النّعمان بن مقرّن، وبلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو، فلمّا حاذوهما كبّروا.

قال: من هؤلاء؟ قال: مُزَيْنة، قال: يا أبا الفَضْل، مالي ولمُزَينة، قد جاءتْني تُقعقع من شواهقها. ثمّ مرّت جُهَينة في ثمانمائة، فيها أربعة ألْوِية مع معبد بن خالد، وسوَيْد بن صخر، ورافع بن مُكيث، وعبد الله بن بدر، فلمّا حاذَوْه كبّروا ثلاثاً فسأل عنهم، فقيل: جُهَينة. ثمّ مرّت بنو كنانة وبنو ليث وضَمْرة وسعد بنُ أبي بكر في مائتين، يَحمِل لواءَهم أبو واقد اللّيْثي، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثاً.

قال: من هؤلاء؟ قال: بنو بكر. قال: نعم أهلُ شؤم هؤلاء الّذين غَزَانا محمّد لأجلهم! أما والله ما شُوورت فيهم، ولا علمتُه، ولقد كنت له كارهاً حيث بلغني، ولكنّه أمرٌ حُمّ، قال العبّاس: لقد خارَ الله لك في غزو محمّد إيّاكم، ودخلتم في الإسلام كافَّة، ثم مرّت أشجعُ - وهم آخرُ من مرّ به قبل أن تأتيَ كتيبةُ رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة يحمل لواءَهم معقل بنُ

سِنان، ولواء آخر مع نعيم بن مَسعود فكبّروا - قال: من هؤلاء؟ قال: أشجَع، فقال: هؤلاء كانوا أشدَّ العرب على محمّد، قال العبّاس: نعم؛ ولكنّ الله أدخَل الإسلام قلوبَهم؛ وذلك من فضل الله. فسكت وقال: أمَا مرّ محمد بعدُ؟ قال: لا، ولو رأيتَ الكتيبةَ الّتي هو فيها لرأيت الحديدَ والخيلَ والرّجال، وما ليس لأحدٍ به طاقة، فلمّا طلعت كتيبةُ رسول الله ﷺ الخَضْراء طَلَع سوادٌ شديد وغُبْرة من سنابك الخيل، وجعل الناسُ يمرّون، كلّ ذلك يقول: أما مرّ محمد بعدُ؟ فيقول العبّاس: لا، حتى مرّ رسول الله ﷺ يسيرُ على ناقته القَصْوى بين أبي بكر وأُسَيْد بن حُضَير، وهو يحدّثهما، وقال له العبّاس: هذا رسول الله ﷺ في كتيبته الخَضْراء، فانظر، قال: وكان في تلك الكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار، وفيها الأولية والرّايات، وكلّهم مُنغمسون في الحديد لا يُرَى منهم إلاّ الحَدق، ولعمر بن الخطّاب فيها زَجَل وعليه الحديد، وصوتُه عال، وهو يزَعُها، فقال: يا أبا الفضل، من هذا المتكلّم! قال: هذا عمرُ بن الخطاب؛ قال: لقد أمِر أمرُ بني عَدِيّ بعدَ قلّة وذِلَّة! فقال: إنّ الله يرفع من يشاء بما يشاء، وإنّ عمرَ ممّن رفعه الإسلام، وكان في الكتيبة ألفا دارع، وراية رسول الله ﷺ مع سعد بنِ عُبادة، وهو أمام الكتيبة، فلمّا حاذاهما سعد نادَى: يا أبا سُفْيان:

اليومَ يومُ المَلحَمةْ   اليومَ تُسْبَى الحُرُمَةْ

اليومَ أذلّ الله قريشاً، فلمّا حاذاهما رسول الله ﷺ ناداه أبو سُفْيان: يا رسولَ الله، أمَرت بقتل قومك؟ إنّ سعداً قال:

اليومَ يوم الملحمةْ   اليومَ تُسْبَى الحُرُمَةْ

اليومَ أذلّ الله قريشاً، وإني أنشُدك الله في قومِك فأنتَ أبرُّ الناس، وأرحَم الناس، وأوصل الناس.

فقال عثمانُ بن عفان وعبدُ الرحمن بنُ عوف: يا رسولَ الله، إنّا لا نأمنُ سعداً أن يكون له في قريش صَولة، فوقف رسول الله ﷺ وناداه: «يا أبا سُفْيان، بل اليومَ يومُ المَرحمة»[1] اليومَ أعزّ الله قريشاً، وأرسل إلى سعدٍ فعزَلَه عن اللّواء. واختُلِف فيمن دَفَع إليه اللّواءَ فقيل: دَفَعه إلى عليّ بنِ أبي طالب ﷺ، فذهب به حتى دخل مكّة، فغرَزَه عند الرّكن - وهو قول ضِرار بنِ الخطّاب الفِهْري - وقيل: دَفَعه إلى قيس بن سُعْد بن عُبادة - ورأى رسول الله ﷺ أنّه لم يُخرجه عن سعد حيث دَفَعه إلى ولدِه، فذهب به حتى غرَزَه بالحَجون؛ قال: وقال أبو سفيان للعبّاس: ما رأيت مثل هذه الكتيبة قطّ، ولا أخبرنيه مخبر، سبحان الله! ما لأحد بهؤلاء طاقة ولا يدان! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عباس عظيماً، قال: فقلت: وَيحك! إنّه ليس بِمُلْك، وإنّها النّبوّة؛ قال: نعم.

---

(١) انظر هذه الروايات في فتح الباري (٤٠٣٠).

قال الواقديّ: قال العبّاس: فقلت له: انج وَيْحك، فأدرِك قومَك قبل أن يدخل عليهم؛ فخرج أبو سُفْيانَ حتّى دخل من كَداءَ وهو يُنادِي: مَن دخَل دارَ أبي سُفيان فهو آمِن، ومن أغلَق عليه بابَه فهو آمن، حتّى انتهى إلى هندٍ بنتِ عُتْبة، فقالت: ما وراءك؟ قال: هذا محمّد في عَشْرة آلافٍ، عليهم الحديد، وقد جَعَل لي أنّه من دَخَل داري فهو آمِن، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمِن، ومَن ألقى سلاحَه فهو آمن، فقالت: قبّحك الله من رسول قوم! وجَعلتْ تقول: وَيْحكم! اقتلوا وافدَكم قَبّحه الله مِن وافد قوم! فيقول أبو سُفيان: وَيْحكم! لا تغرّنّكم هذه من أنفسكم، فإنّي رأيتُ ما لم تَرَوْا: الرجالَ، والكُراعَ، والسّلاح، ليس لأحد بهذا طاقة، محمّد في عَشْرة آلاف، فأسلِموا تَسلموا.

وقال المبرّد في «الكامل»[1]: أمسكتْ هند برأس أبي سُفيان وقالت: بئس طليعةُ القوم! والله ما خدشت خدشاً، يا أهلَ مكّة، عليكم الحَميت الدّسم فاقتلوه. قال: الحَميت: الزّق المزفَّت.

قال الواقديّ: وخرج أهلُ مكّة إلى ذي طُوًى ينظُرون إلى رسول الله ﷺ، وانضوَى إلى صَفْوان بن أميّة وعِكْرمة بن أبي جهل وسُهَيل بن عمرو ناسٌ من أهل مكّة ومن بني بكر وهُذَيل، فلَبِسوا السلاحَ، وأقسموا لا يدخل محمّد عَنْوةً أبداً. وكان رجلٌ من بني الدّؤَل يقال له: حماس بنُ قيسِ بنِ خالد الدّؤليّ لمّا سَمِع برسول الله ﷺ جَلَس يُصلِح سلاحَه، فقالت له امرأته: لم تُعِدّ السّلاح؟ قال: لمحمّد وأصحابه، وإني لأرجو أن أخدِمَك منهم خادماً، فإنّك إليه محتاجة، قالت: وَيحك لا تَفعل! لا تُقاتل محمّداً، والله ليضلّنّ هذا عنك لو رأيت محمّداً وأصحابه؛ قال: سَترَين، وأقبل رسول الله ﷺ وهو على ناقته القصواء معتجراً بُبرْد حِبَرة، وعليه عمامةٌ سوداء، ورايتُه سوداء، ولواؤه أسود، حتّى وقف بذي طُوًى وتوسّط الناسَ، وإن عُثْنونه[2] ليمسّ واسطة الرّحل، أو يَقربُ منه تواضُعاً لله حيث رَأى ما رأى من الفَتْح وكثرة المسلمين، وقال: «لا عيش إلا عيشُ الآخرة».

وجعلت الخيلُ تعجّ بذي طُوًى في كل وَجْه، ثم ثابَتْ وسكنَتْ، والتفت رسول الله ﷺ إلى أُسَيْد بن حُضَير، فقال: كيف قال حسّان بنُ ثابت؟ قال: فأنشَده:

عَدِمْنا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْها ... تُثِير النَّقْع مَوعدُها كَداءُ
تَظَلّ جيادُنا متمطّراتٍ ... تُلَطِّمُهنّ بالخُمُرِ النّساءُ

(١) «الكامل في اللغة»: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بابن المبرد النحوي، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

(٢) العُثْنون: اللحية، أو ما فضل منها بعد العارضين. القاموس المحيط، مادة (عثن).

فتبسّم رسول الله ﷺ، وحَمِد الله، وأمرَ الزبيرَ بنَ العوّام أن يدخُل من كَدَاء، وأمر خالدَ بنَ الوليد أن يدخُل من اللِّيط، وأمَر قَيس بنَ سعد أن يَدخُل من كُدًى، ودخل هو ﷺ من أذاخر(١).

قال الواقديّ: وحدّثني مروان بنُ محمّد، عن عيسى بن عميلة الفزاريّ، قال: دخل رسول الله ﷺ مكّة بين الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصْن.

قال الواقديّ: ورَوَى عيسى بنُ معمَر، عن عَبَّاد بنِ عبد الله، عن أسماء بنتِ أبي بكر، قالت: صعد أبو قُحافة بصغْرى بناتِه واسمها قريبة، وهو يومئذٍ أعمى، وهي تَقُودُه حَتى ظهرتْ به إلى أبي قُبيس، فلمّا أشرفَتْ به قال: يا بُنَيّة، ماذا تَرَيْن؟ قالت: أرَى سواداً مجتمعاً مقبلاً كثيراً! قال: يا بُنَيّة، تلك الخيل، فانظري ماذا تَرَيْن؟ قالت: أرَى رجلاً يَسعى بين ذلك السواد مُقبلاً ومدبراً، قال: ذاك الوازع، فانظري ماذا تَرَيْن؟ قالت: قد تفرّق السواد، قال: قد تفرّق الجَيْش، البيتَ البيتَ؛ قالت: فنزلت الجارية به وهي تُرْعب لما ترى، فقال: يا بُنيّة، لا تخافي، فوالله إن أخاك عتيقاً لآثر أصحاب محمد عند محمّد؛ قالت: وعليها طَوْق من فضّة، فاختَلَسه بعضُ من دخل، فلمّا دخل رسول الله ﷺ مكّة جعل أبو بكر يُنادِي: أنشدُكم الله أيّها الناس طَوْقَ أختي؛ فلم يردّ أحد عليه، فقال: يا أُخيّة احتسبي طَوْقَك، فإنّ الأمانة في الناس قليل.

قال الواقديّ: ونَهَى رسول الله ﷺ عن الحرب، وأمرَ بقتل ستّة رجال وأربع نسوة: عِكْرمة بن أبي جهل، وهبّار بن الأسود، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، ومقيَس بن صُبابة الليثي، والحُوَيْرث بن نفيل، وعبد الله بن هلال بن خَطَل الأدرميّ، وهند بنت عُتْبة، وسارّة مولاةٌ لبني هاشم، وقَيْنَتَيْن لابن خَطَل: قريباً وقريبة، ويقال: قريناً وأرنب.

قال الواقديّ: ودخلت الجنودُ كلُّها، فلم تلقَ حَرْباً إلا خالد بن الوليد فإنّه وَجد جَمْعاً من قريش وأحابيشها قد جمعوا له، فيهم صفوان بن أميّة، وعكرمة بن أبيَ جهل، وسهيل بن عمرو، فمنعوه الدّخول، وشَهرَوا السلاح، ورمَوْه بالنّبل، وقالوا: لا تدخلها عَنْوةً أبداً؛ فصاح خالد في أصحابه، وقاتَلَهم، فقُتِل من قريش أربعةٌ وعشرون، ومن هذيل أربعةٌ، وانهزموا أقبحَ انهزام حتّى قُتِلوا بالحزْورة، وهم مُوَلّون من كلّ وجه، وانطلقتْ طائفةٌ منهم فوق رؤوس الجبال، واتبعهم المسلمون، وجعل أبو سُفْيان بن حرب وحكيم بن حزام يناديان: يا معشرَ قريش، عَلامَ تقتُلون أنفسَكم؟ من دخل دارَه فهو آمن، ومَن أغلَق عليه بابه فهو آمن، ومن وضع السّلاحَ فهو آمن، فجعل الناسُ يقتحِمون الدّور ويُغلقون عليهم الأبواب، ويَطرَحون السّلاح في الطّرق حتى يأخذه المسلمون.

---

(١) انظر هذه الروايات في «تاريخ الطبري» (٢/ ١٥٩).

قال الواقديّ: وأشْرَف رسول الله صلى الله عليه وآله من على ثَنِيّة أذاخر، فنظر إلى البارقةَ، فقال: ما هذه البارقة؟ ألم أنه عن القتال؟ قيل: يا رسولَ الله، خالدُ بن الوليد قُوتِل، ولو لم يُقاتَل ما قاتَلَ؛ فقال: قضاء الله خير، وأقبل ابن خطل مدجَّجاً في الحديد على فرس ذَنوب بيَدِه قَناة يقول: لا والله لا يدْخُلها عَنْوة حتى يرى ضَرْباً كأفواه المزاد، فلمّا انتهى إلى الخَنْدَمة ورأى القتال دخَله رُعْب حتى ما يَستمسِك من الرِّعدة، ومرّ هارباً حتى انتهى إلى الكعبة، فدخل بين أستارها بعد أن طرح سلاحَه وترك فرسَه، وأقبَل حماس بن خالد الدؤليّ منهزماً حتى أتى بيْتَه فدَقّه، ففتحتْ له امرأتُه فدخل، وقد ذهبتْ رُوحُه، فقالت: أين الخادم الّتي وعدتَني؟ ما زلتُ مُنْتظِرتك منذُ اليوم، تَسخر به، فقال: دعي هذا وأغلِقي الباب، فإنّه من أغْلق بابَه فهو آمن، قالت: وَيْحك! ألم أنهك عن قتال محمد! وقلت لك: إنّي ما رأيتُه يقاتلُكم مرّة إلا وظَهَر عليكم، وما بابُنا؟ قال: إنّه لا يفتح على أحدٍ بابَه، ثم أنْشَدها:

إنك لو شَهِدْتنا بالخَنْدَمَهْ	إذ فَرّ صَفْوانُ وفَرّ عِكْرِمَهْ
وبُو يزيد كالعجوز المُؤْتمَهْ	وضَربُنا هُمْ بالسُّيوف المُسلمَهْ
لهم زئيرٌ خلفنا وغَمْغمَهْ	لم تنطقي في اللّوم أدنى كلمَهْ

قال الواقديّ: وحدثني قُدامة بن موسى، عن بشير مولى المازنيّين، عن جابر بن عبد الله، قال: كنتُ ممن لزم رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر، فلما أشرف نظر إلى بيوت مكة، فحمِد الله وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قُبّة بالأبطح تُجاه شعب بني هاشم حيث حُصر رسول الله صلى الله عليه وآله وأهله ثلاث سنين؛ وقال: «يا جابر، إنّ منزلنا اليومَ حيث تقاسمتْ علينا قريش في كُفْرها»؛ قال جابر: فذكرتُ كلاماً كنتُ أسمعه في المدينة قبل ذلك، كان يقول: منزلُنا غداً إن شاء الله إذا فَتح علينا مكة في الخَيْف حيث تقاسموا على الكُفْر.

قال الواقديّ: وكانت قبّته يومئذٍ بالأدَم ضُرِبت له بالحَجون، فأقبل حتى انتهى إليها ومعه أمّ سَلَمة وميمونة.

قال الواقديّ: وحدثني معاوية بن عبد الله بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي رافع، قال: قيل للنبيّ صلى الله عليه وآله : ألا تنزل مَنزِلك من الشِّعب؟ قال: «وهل ترك لنا عَقيل من منزل!» وكان عَقِيل قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ومنازل إخوته من الرجال والنّسَاء بمكّة، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : فانزل في بعض بيوت مكة من غير منازلك. فأبى وقال: «لا أدخُل البيوت»؛ فلم يزل مضطرباً بالحَجون لم يدخل بيتاً، وكان يأتي إلى المسجد من الحَجون، قال: وكذلك فعل في عُمرة القضيّة وفي حجّته.

قال الواقديّ: وكانت أمّ هانىء بنتُ أبي طالب تحت هُبيرة بن أبي وَهْب المخزومي فلما كان يوم الفتح دخل عليها حَمَوان لها: عبدُ الله بنُ أبي ربيعة والحارث بن هشام المخزوميّان،

فاستجارا بها، وقالا: نحن في جِوارك؛ فقالت: نعم أنتما في جواري. قالت أم هانيء: فهما عندي إذ دخل عليٌّ فارسٌ مدجّج في الحديد ولا أعرفه، فقلت له: أنا بنت عم رسول الله، فأسفر عن وجهه، فإذا عليٌّ أخي، فاعتنقته، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما، فقلتُ: أخي من بين الناس تصنع بي هذا؟ فألقيتُ عليهما ثوباً، فقال: أتُجيرين المشركين! فحلْت دونهما، وقلت: لا والله وابتديء بي قبلهما؛ قالت: فخرج ولم يكدْ، فأغلقتُ عليهما بيتاً، وقلت: لا تخافَا، وذهبتُ إلى خِباء رسول الله ﷺ بالبطحاء فلم أجده، ووجدتُ فيه فاطمة، فقلت لها: ما لقيتُ من ابن أمي عليّ! أجرت حَمَوَين لي من المشركين، فَتفلّتَ عليهما ليقتلهما، قالت: وكانت أشدَّ عليٍّ من زوجها، وقالت: لِمَ تُجيرين المشركين! وطَلَع رسول الله ﷺ الغُبار، فقال: «مرحباً بفاخِتة»[1] - وهو اسمُ أم هانيء - فقلت: ماذا لقيت من ابن أمي عليّ ما كدتُ أفلت منه! أجرت حَمَوَين من المشركين، فتفلّت عليهما ليقتلهما، فقال: ما كان ذلك له، قد أجَرْنا من أجرتِ وَأمَّنا من أمَّنْت، ثم أمر فاطمةَ فَسَكَبت له غُسْلاً فاغتسَل، ثم صلى ثماني رَكعات في ثوبٍ واحد ملتحفاً به وقت الضُّحى؛ قالت: فرجعتُ إليهما وأخبرتُهما، وقلت: إن شئتما فأقيما، وإن شئتما فارجعا إلى منازلكما، فأقاما عندي في منزلي يومين؛ ثم انصرفا إلى منازلهما.

وأتى آتٍ إلى النبي ﷺ فقال: إن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة جالسان في ناديهما متفضّلان في المُلاء المزعْفر، فقال: لا سبيل إليهما، قد أجرناهما.

قال الواقديّ: ومكث رسول الله ﷺ في قبّة ساعةً من النهار، ثمّ دعا براحلته بعد أن اغتسل وصلى، فأدنِيت إلى باب القبة، وخرج وعليه السلاح والمغفر على رأسه، وقد صُف له الناس، فركبها والخيلُ تمعَج ما بين الخندمة إلى الحَجون، ثم مرَّ وأبو بكر إلى جانبه على راحلةٍ أخرى يسير ويُحادِثه، وإذا بناتُ أبي أُحَيحة سعيد بن العاص بالبطحاء حذاء منزل أبي أحيحة، وقد نَشَرن شعورهنّ، فلطمن وجوه الخيل بالخمُر، فنظر رسولَ الله ﷺ إلى أبي بكر، فتبسم وأنشده قولَ حسّان:

تـظَـلّ جـيـادُنـا مـتـمـطّـراتٍ   تُـلـطّـمـهـنَّ بـالـخُـمُـرِ الـنّـسـاءُ

فلما انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته، فاستلم الركن بمِحْجنه، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، وعجّوا بالتكبير حتى ارتجّت مكة، وجَعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون، ثم طاف بالبيت على راحلته، ومحمد بن مَسلمة آخِذٌ بزمامها، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصوصة بالرّصاص، وكان هُبَلُ أعظَمَها، وهو

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٣٥٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٨٤).

تجاه الكعبة على بابها، وإساف ونائلة حيث ينحَرون ويذبحون الذبائح، فجعل كلّما يمرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1]؛ فيقع الصنم لوجهه، ثم أمرَ بهُبَل فكُسر وهو واقف عليه، فقال الزبير لأبي سفيان: يا أبا سُفيان، قد كُسِر هُبَل، أما إنك قد كنت منه يوم أحُد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم، فقال: دع هذا عنك يابن العوّام، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

قال الواقديّ: ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله فجلس ناحيةً من المسجد وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بالمفتاح، مفتاح الكعبة، فقال عثمان: نعم، فخرج إلى أمّه وهي بنت شَيبة، فقال لها والمفتاح عندها يومئذٍ: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد طلب المفتاح، فقالت: أعيذُك بالله أن يكون الذي يذهب مأثرة قومه على يده! فقال: فوالله لتأتينّي به أو ليأتينّك غيري فيأخذه منك، فأدخلته في حُجْرتها، وقالت: أيّ رجل يدخِل يده ها هنا! فبينما هما على ذلك وهو يكلّمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدّار، وعمر رافع صوته حين رأى عثمان أبطأ: يا عثمان اخرج فقالت أمّه: خذ المفتاحَ، فلأن تأخذَه أنت أحبُّ إليّ من أن يأخذه تيم وعديّ، فأخذه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما تناوَله بَسَط العباس بنُ عبد المطلب يدَه وقال: يا رسول الله، بأبي أنت! اجمع لنا بين السّقاية والحجابة؛ فقال: «إنما أُعطيكم ما ترضوْن فيه، ولا أعطيكم ما ترزَؤون منه»، قالوا: وكان عثمان بنُ طلحة قد قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص مسلماً قبل الفَتح.

قال الواقديّ: وبعَثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة، وأمره أن يفْتح البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالاً إلا صورة إبراهيم الخليل عليه السلام، فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخاً كبيراً يستقسم بالأزلام.

قال الواقديُّ: وقد روي أنه أمره بمحوِ الصور كلِّها لم يستثن، فترك عمر صورة إبراهيم، فقال لعمر: ألم آمُرْك ألاّ تدَع فيها صورةً! فقال عمر: كانت صورة إبراهيم، قال: فامحُها، وقال: قاتلهم الله، جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام!

قال: ومحا صورة مريم. قال: وقد رُوِي أن رسول الله صلى الله عليه وآله محا الصّور بيده، رَوَى ذلك ابن أبي ذئب، عن عبد الرحمن بن مِهران، عن عُمَير مولى ابن عباس، عن أسامة بن زيد، قال: دخلتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله الكعبة، فرآى فيها صوراً، فأمرني أن آتيَه في الدّلو بماءٍ، فجعل يبلُّ به الثوب ويضرب به الصّور ويقول: «قاتل الله قوماً يصوِّرون ما لا يخلقون!»[2].

قال الواقديّ: وأمَرَ رسول الله صلى الله عليه وآله بالكعبة فأغلقت عليه، ومعه فيها أسامة بن زيد،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨١.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير رقم: ٤٠٧، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ٨/ ٥٣٥ رقم: ١٢.

وبلال بن رَباح، وعثمانُ بنُ طلحة، فمكث فيها ما شاء الله، وخالد بنُ الوليد واقف على الباب يَذُبّ الناس عنه، حتى خرج رسول الله ﷺ، فوَقَف وأخَذَ بعَضادَتَي الباب، وأشرَف على الناس وفي يده المفتاح، ثم جعله في كمّه، وأهلُ مكّة قيامٌ تحتَه، وبعضُهم جلوس قد ليطَ بهم؛ فقال: «الحمد لله الذي صَدَق وعدَه، ونصَرَ عَبْدَه، وهَزَم الأحزابَ وحدَه، ماذا تقولون؟ وماذا تَظنّون؟» قالوا: نقول خيراً، ونظنّ شرًّا! أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم، وقد قدرتَ، فقال: إنّي أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(١) الا إن كل رِباً في الجاهليّة أو دم أو مأثُرةٍ فهو تحتَ قَدَميّ هاتَين إلا سِدانة الكَعْبة وسقاية الحاجّ. ألا وفي قتيلِ شِبْه العَمْد؛ قتيلِ العصا والسّوط الديةُ مغلّظة مائة ناقة، منها أربعون في بطونها أولادُها. إن الله قد أذهب نخوَة الجاهليّة وتكبّرها بآبائها، كلكم لآدم، وآدمُ من تُراب. وأكرَمكم عند الله أتقاكُم. ألا إن الله حَرّم مكة يومَ خَلق السموات والأرض، فهي حرام بحَرمِ الله، لم تَحِلَّ لأحدٍ كان قبلُ، ولا تحلّ لأحدٍ يأتي بَعدِي، وما أحِلّت لي إلا ساعة من النّهار - قال: يقصدها رسول الله ﷺ بيَدِه هكذا - لا ينفّر صَيدُها، ولا يُعضَد عِضاهُها، ولا تحلّ لقطتها إلا لمنشِد، ولا يُختلَى خلاها. فقال العباس: إلا الإذْخِر يا رسول الله، فإنّه لا بد منه للقبور والبيوت، فسَكَت رسول الله ﷺ ساعةً ثم قال: «إلا الإذخر، فإنه حلال، ولا وصيّة لوارِث، والوَلَد للفِراش، وللعاهِر الحَجر، ولا يحلّ لامرأةٍ أن تعطيَ مِن مالِها إلاّ بإذنِ زَوْجها، والمسلمُ أخو المسلِم، والمسلمون إخوة، يدٌ واحدةٌ على مَن سِواهم، تتكافأ دِماؤهم، يَسعَى بذِمَّتِهم أدناهم، ويردّ عليهم أقصاهم، ولا يُقتَل مسلم بكافر، ولا ذو عَهْد في عَهْده، ولا يَتوارَث أهلُ ملّتين مختلفتين، ولا تُنكَح المرأةُ على عمّتها ولا على خالتها، والبيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأةٌ مسيرة ثلاث إلاّ مع ذي مَحرَم، ولا صلاةَ بعد العصر، ولا بعدَ الصُّبح، وأنهاكم عن صيام يومين: يومِ الأضحَى ويومِ الفِطْر». ثم قال: «ادعُوا لي عثمانَ بنَ طلحة»، فجاء وقد كان رسول الله ﷺ قال له يوماً بمكّة قبل الهجرة ومع عثمانَ المِفتاح: لعلّك سترى هذا المفتاحَ بيَدي يوماً أضعُه حيث شئت؛ فقال عثمان: لقد هلَكتْ قريش، إذاً وذلّت! فقال عليه السلام: بل عمرتْ وعَزّت؛ قال عثمان: فلمّا دعاني يومئذٍ والمِفتاح بيَده ذكرتُ قولَه حين قال؛ فاستقبلتُه بِبَشر، فاستقبَلَني بمِثله، ثم قال: «خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة، لا يَنزِعها منكم إلاّ ظالم. يا عثمان، إنّ الله استأمنكم على بيته، فكُلوا بالمعروف»؛ قال عثمان: فلما وَلّيت ناداني فرجعتُ، فقال: «ألم يكن الّذي قلتُ لك! يعني ما كان قالَه بمكّة من قبلُ»، فقلتُ: بلى أشهَد أنّك رسول الله ﷺ(٢).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٢.

(٢) انظر هذه الروايات في «تاريخ الطبري» (٥/ ١٧٠).

قال الواقديّ: وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ برَفْع السلاح، وقال: إلا خُزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر. فخبطوهم بالسّيف ساعةً، وهي الساعةُ التي أُحِلّت لرسول الله صلى الله عليه وآله.

قال الواقديّ: وقد كان نوفل بن معاوية الدُّؤليّ من بني بكر استأمن رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه، فأمّنه، وكانت خُزاعة تطلُبه بدماء من قتلتْ بكر وقريش منها بالوتير، وقد كانت خُزاعةُ قالت أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وآله: إن أنسَ بن زُنَيم هجاك، فهدَرَ رسول الله صلى الله عليه وآله دَمَه، فلمّا فتح مكّة هرب والْتحق بالجبال، وقد كان قَبْل أن يفتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة قال شعراً يَعتذِر فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، من جُملتِه:

أنتَ الّذي تُهدَى معَدٌّ بأمره ... بكَ الله يَهدِيها وقال لها ارْشُدِي
فما حملتْ من ناقةٍ فوقَ كورِها ... أبرَّ وأوفى ذِمّة من محمّدِ
أَحثَّ على خيرٍ وأوسَعَ نائلاً ... إذا راحَ يهتزُّ اهتزازَ المهنَّدِ
وأكسَى لبُرد الخالِ قبل ارتدائِه ... وأعطى لرأس السابق المتجرِّدِ
تَعلَم رسولَ الله أنّك مُدرِكي ... وأنّ وَعيداً منكَ كالأخذ باليَدِ
تعلَّم رسولَ الله أنّك قادرٌ ... على كلّ حيٍّ من تهام ومُنجدِ
ونُبّي رسولُ الله أنّي هجوتُه ... فلا رفعتْ سَوْطي إليّ إذَنْ يدي
سوَى أنّني قد قلتُ يا وَيْح فتيةٍ ... أصيبوا بنَحْسٍ يومَ طلق وأسعُدِا
أصابهم من لم يكن لدمائهمْ ... كِفاءً فعزّت عَبْرتي وتلدُّدِي[1]
ذُؤيباً وكُلْثوماً وسلمى تَتابَعوا ... جميعاً فإلاّ تدمَع العينُ أكمَدِ
على أنّ سلمىَ ليس منهمْ كمثلِه ... وإخوتِه وهلْ مُلوكٌ كأعبدِا!
فإنّيَ لا عِرْضاً خَرَقتُ ولا دماً ... هَرَقتُ ففكّر عالم الحقّ واقصِدِ

قال الواقديّ: وكانت كلمته هذه قد بلغتْ رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يفتَح مكّة، فنهنهت عنه، وكلّمه يوم الفتح نَوفلُ بنُ معاوية الدُّؤليّ، فقال: يا رسولَ الله، أنت أولَى الناس بالعَفْو، ومَنْ منّا لم يعادِك ولمْ يؤذِك، ونحنُ في جاهليّة لا ندري ما نأخذ وما نَدَع، حتّى هدانا الله بك، وأنقذَنا بيُمنِك من الهَلَكة، وقد كَذَب عليه الركب، وكثّروا في أمره عندَك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «دَع الركبَ عنك، إنّا لم نجد بتِهامة أحداً من ذَوي رَحِم ولا بعيد الرّحم كان أبرَّ بنا من خُزاعة، فاسكُت يا نوفل»؛ فلمّا سكت قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قد عفوتُ عنه»، فقال نوفل: فداك أبي وأمّي.

قال الواقديّ: وجاءت الظُّهر، فأمَرَ رسول الله صلى الله عليه وآله بلالاً أن يؤذّن فوقَ ظَهر الكعبة

(١) تَلَدَّدَ: تَلَفَّتَ يميناً وشمالاً وتحيَّر متلبِّداً. لسان العرب، مادة (لدد).

وقريش في رؤوس الجبال، ومنهم من قد تَغيّب وسَتَر وجهه خوفاً من أن يُقتلوا، ومنهم من يَطلب الأمان، ومنهم من قد أُمِّن. فلمّا أذّن بلال وبلغ إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسولُ الله» ﷺ، رَفَع صوتَه كأشدّ ما يكون؛ قال: تقول جُوَيْرية بنت أبي جَهْل: قد لَعَمْري رُفِع لك ذِكْرُك، فأمّا الصلاة فسنصلّي، ولكنْ والله لا نحب مَنْ قَتَل الأحبة أبداً، ولقد كان جاء أبي الّذي جاء محمّداً من النبوّة؛ فردّها ولم يُرِدْ خلاف قومه.

وقال خالدُ بن سعيدِ بن العاص: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يُدرِك هذا اليوم؛ وقال الحارث بن هشام: واثُكْلاه! ليتَني مِتّ قبلَ هذا اليوم قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوقَ الكعبة! وقال الحكم بنُ أبي العاص: هذا والله الحَدَث العظيم، أن يَصيحَ عبدُ بني جُمَح، يَصِيحُ بما يَصيحُ به على بيت أبي طلحة؛ وقال سُهَيل بنُ عمرو، إن كان هذا سُخْطاً من الله تعالى فسيغيّره، وإن كان لله رضاً فسيقرّه؛ وقال أبو سُفْيان: أما أنا فلا أقول شيئاً، لو قلتُ شيئاً لأخبرتْه هذه الحصباء، قال: فأتى جبرائيلُ عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبرَه مقالة القوم.

قال الواقديّ: فكان سهيلُ بنُ عمرو يحدّث فيقول: لمّا دخل محمد مكة انقَمعتُ فدخلتُ بيتي وأغلقتُه عليّ، وقلتُ لابني عبدِ الله بن سُهَيل: اذهبْ فاطلب لي جواراً من محمد، فإنّي لا آمن أن أُقتَل، وجعلتُ اتذكّر أثَري عنده وعند أصحابه فلا أَرَى أسوأ أثراً منّي، فإنّي لقيتُه يوم الحُدَيْبية بما لم يَلقه أحدٌ به، وكنتُ الّذي كاتَبه، مع حضوري بذراً وأُحُداً، وكلّما تحرّكتْ قريش كنتُ فيها، فذهب عبدُ الله بنُ سُهيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أبي تؤمنه؟ قال: «نعم، هو آمن بأمان الله، فليَظهر»، ثم التفت إلى من حَوْله فقال: «من لقي سُهَيل بن عمرو فلا يُشدَّنَّ النظر إليه». ثم قال: قل له: «فلْيَخرج، فلَعَمري إنّ سهيلاً له عقلٌ وشَرَف، وما مثلُ سُهَيل جَهِل الإسلام»، ولقد رأى ما كان يُوضَع فيه إن لم يكن له تتابع، فخرج عبدُ الله إلى أبيه فأخبرَه بمقالةِ رسول الله ﷺ، فقال سهيل: كان والله بَرًّا صغيراً وكبيراً، وكان سُهَيل يُقْبِل ويُدبر غيرَ خائف، وخرج إلى خَيْبرَ مع النبيّ ﷺ وهو على شِرْكه حتى أسلَم بالجِعْرانة[1].

تم الجزء السابع عشر من شرح نهج البلاغة
لابن أبي الحديد ويليه الجزء الثامن عشر

---

(١) أخرجه محمدي الريشهري في ميزان الحكمة: ٣/ ٢٢٥.

شرح نهج البلاغة

الجزء الثامن عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الواقديّ: وهرب هبيرةُ بن أبي وَهْب وعبدُ الله بن الزِّبعرَى[1] جميعاً حتّى انتهيا إلى نَجْران فلم يأمنَا الخوف حتى دخلا حِصْن نَجْران؛ فقيل: ما شأنكما؟ قالا: أمّا قريش فقد قُتِلت ودخل محمد مكة، ونحن والله نرى أن محمداً سائر إلى حصنكم هذا، فجعلت بلْحارث بن كعب يُصلحون ما رثّ من حصنهم، وجمعوا ماشيتَهم؛ فأرسل حسان بن ثابت إلى ابن الزِّبعرَى:

لا تعدمَنْ رجلاً أحلّك بُغْضُهُ نجرانَ في عيشٍ أجَدَّ ذميمِ
بليَتْ قناتُك في الحُروب فألفيتْ جوفاءَ ذات معايِبٍ ووُصومِ
غضب الإله على الزِّبَعْرى وابنِه بعذابِ سوءٍ في الحياة مقيمِ

فلما جاء ابنَ الزِّبَعْرَى شعرُ حسان تهيّأ للخروج، فقال هبيرة بن وهب: أين تريد يابن عمّ؟ قال له: أريد والله محمداً، قال: أتريد أن تتبعه؟ قال: أي والله، قال هُبيرة: ياليت أنّي كنتُ رافقتُ غيرَك، والله ما ظننتُ أنّك تتبع محمّداً أبداً. قال ابن الزِّبَعْرَى: هو ذاك، فعَلى أيّ شيء أقيمُ مع بني الحارث بنِ كعب وأترُك ابنَ عمّي وخيرَ الناس وأبرَّهم، وبين قومي وداري! فانحدر ابنُ الزِّبَعرَى حتّى جاء رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه، فلمّا نظر إليه قال: هذا ابنُ الزِّبَعْرىَ ومعه وجهٌ فيه نورُ الإسلام، فلمّا وقف على رسول الله ﷺ قال: السّلامُ عليك يا رسولَ الله، شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنّك عبدُه ورسوله، والحمد لله الذي هَداني للإسلام، لقد عاديتُك وأجلَبْتُ عليك، وركِبتُ الفرس والبعيرَ، ومَشَيتُ على قدمي في عَداوتِك، ثم هربتُ منك إلى نجرانَ، وأنا أريدُ ألاّ أقرب الإسلامَ أبداً؛ ثم أرادَني الله منه بخير، فألقاه في قلبي، وحبّبه إليّ، وذكرت ما كنتُ فيه من الضّلال واتّباع ما لا ينفع ذا عقل؛ من حَجَرٍ يُعبَد، ويُذبح له لا يدري من عَبَده ومن لا يَعبُده. فقال رسول الله ﷺ: «الحمدُ لله الّذي هداك للإسلام، احمَدِ الله، إنّ الإسلام يَجُبُّ ما كان قَبْلَه»[2]. وأقامَ هُبيرة بنَجْرانَ، وأسلمتْ أمُّ هانىء، فقال هُبيرة حين بلغه إسلامها يومَ الفتح يؤنّبها شِعراً من جُملته:

وإن كنتِ قد تابعتِ دينَ محمّدٍ وقطّعتِ الأرحامَ منكِ حِبالُها

(١) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي القرشي، أبو سعد، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه حسان أبياتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة (١٠هـ) «الأعلام» (٤/ ٨٧).
(٢) انظر «تهذيب الكمال» (٧/ ٤٦٧).

فكوني على أعلى سَحُوقٍ بهَضْبَةٍ   مُلَمْلِمَة غبراءَ يَبْسٍ بِلالُها

فأقام بنَجرانَ حتّى مات مُشركاً.

قال الواقديّ: وهرب حُوَيْطِب بنُ عبد العُزّى فدخل حائطاً بمكّة، وجاء أبو ذَرّ لحاجته، فدخل الحائط فرآه، فهَرَب حُوَيطب، فقال أبو ذَرّ: تعالَ فأنتَ آمِن، فرجع إليه فقال: أنت آمن؛ فاذهب حيثُ شئتَ، وإن شئتَ أدخلتُك على رسول الله ﷺ، وإن شئتَ فإلى منزِلك. قال: وهل من سبيل إلى منزلي ألقَى فأُقتَل قبل أن أصِلَ إلى منزلي، أو يُدخل عليّ منزلي فأقتل! قال: فأنا أبلُغ معك منزلَك، فبلغ معه منزلَه، ثمّ جعل يُنادي عَلَى بابه: إنّ حُوَيْطِباً آمِن فلا يهيَّج، ثم انصَرَف إلى رسول الله ﷺ فأخبرَه فقال: «أوَ ليس قد آمَنّا الناس كلَّهم إلاّ من أمَرْتُ بقتِله»[1]!

قال الواقديّ: وهربَ عكرمةُ بن أبي جهل إلى اليمن حتى ركب البحر، قال: وجاءت زوجته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله ﷺ في نِسوةٍ منهنّ هند بنت عُتبة – وقد كان رسول الله ﷺ أمر بقتِلها – والبَغُوم بنت المعدّل الكِنانيّة امرأة صفوان بن أميّة، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام، وهند بنت عتبة بن الحجاج أم عبد الله بن عمرو بن العاص، ورسول الله ﷺ بالأبطح، فأسلَمْن، ولما دخلنَ عليه دخَلْن وعنده زَوْجتاه وابنته فاطمة ونساءٌ من نساء بني عبد المطّلب وسألنَ أن يُبايعهنّ، فقال: «إني لا أُصافح النّساء» – ويقال: إنه وَضع على يده ثوباً فمسَحْنَ عليه، ويقال: كان يؤتَى بقَدَح من ماء فيدخِل يدَه فيه ثم يرفَعُه إليهنّ، فيُدخلن أيديهنّ فيه – فقالت أمّ حكيم امرأة عِكْرمة: يا رسول الله، إنّ عِكْرمة هرَبَ منك إلى اليمن، خاف أن تَقتُله، فأمِّنه، فقال: «هو آمن». فخرجتْ أمّ حكيم في طلبه، ومعها غلامٌ لها رُوميّ، فراوَدَها عن نفسها، فجعلتْ تمنّيه حتى قدِمتْ به على حيّ، فاستغاثتْ بهم عليه، فأوثَقُوه رباطاً، وأدركَتْ عِكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تِهامة، فركب البحر، فهاج بهم، فجعل نوتيّ[2] السفينة يقول له: أن أخلص، قال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، قال عكرمة: ما هَرَبتُ إلاّ من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا من الأمر، فجعلتْ تُلِحّ عليه وتقول: يابن عمّ، جئتُك مِن عند خير الناس، وأوصَل الناس، وأبرّ الناس، لا تهلِك نفسك، فوقف لها حتى أدركَته، فقالت: إنّي قد استأمَنتُ لك رسول الله ﷺ فأمّنك، قال: أنتِ فعلتِ؟ قالت: نعم أنا كلّمتُه، فأمّنك، فرجع معها، فقالتْ: ما لقيت من غلامِك الرّوميّ! وأخبرتْه خَبرَه، فقتَله عكرمةُ، فلما دنا من مكّة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عِكرمة بنُ أبي جهل مؤمِناً، فلا تَسُبّوا أباه، فإنّ سبّ الميت يؤذي الحيّ. ولا يبلُغ

---

(١) أخرجه المزي في تهذيب الكمال (٧/ ٤٦٧).

(٢) النُّوتيُّ: الملاح في البحر. القاموس المحيط، مادة (نوت).

الميّت». فلما وَصل عِكرمة ودَخل على رسول الله ﷺ وثب إليه ﷺ وليس عليه رداء فرحاً به، ثم جلس فوق عِكرمة بين يديه ومعه زوجته منقّبة، فقال: يا محمد، إن هذه أخبرتْني أنك أمّنتَني؛ فقال: صدقت، أنت آمِن، فقال عكرمة: فإلامَ تَدْعُو؟ فقال: «إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنّي رسولُ الله، وأن تُقيمَ الصلاة، وتُؤتي الزّكاة».. وعدّ خصال الإسلام، فقال عِكْرمة: ما دعوتَ إلاّ إلى حقّ، وإلى حَسن جميل، ولقد كنتَ فينا مِن قبل أنْ تدعوَ إلى ما دعوتَ إليه، وأنت أصدقُنا حديثاً، وأعظمُنا برًّا، ثم قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيْتُكه»، قال: فإني أسألك أن تغفرَ كلّ عداوة عَادَيْتُكَها أو مَسِير أوضَعْتُ فيه، أو مُقامٍ لقيتُك فيه، أو كلام قُلْته في وجهك، أو أنت غائبٌ عنه. فقال: «اللهمّ اغفر له كل عداوة عادانيها، وكلّ مَسير سار فيه إليّ يريد بذلك إطفاء نُورك، واغفر له ما نالَ مني ومن عِرْضي؛ في وَجهي أو أنا غائبٌ عنه»[1].

فقال عِكْرمة: رضيتُ بذلك يا رسول الله، ثم قال: أما والله لا أدَع نفقةً كنت أنفِقُها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقتُ ضعفها في سبيل الإسلام وفي سبيل الله، ولأجتهدنّ في القتال بين يديك حتى أُقتلَ شهيداً؛ قال: فردّ عليه رسول الله ﷺ امرأته بذلك النّكاح الأول.

قال الواقديّ: وأما صَفْوان بن أميّة فهرب حتى أتى الشّعبة، وجعل يقول لغلامه يسار - وليس معه غيرُه -: وَيْحك! انظر من تَرَى! فقال: هذا عُمَير بن وهب؛ قال صفوان: ما أصنع بعُمير؟ والله ما جاء إلاّ يريد قَتْلي، قد ظاهَرَ محمداً عليّ، فلحِقه، فقال صفوان: يا عُمَير، مالك؟ ما كفاك ما صنعتَ، حمّلتني دَيْنَك وعيالك، ثم جئتَ تريد قَتْلي! فقال: يا أبا وهب، جُعلتُ فِداك! جئتُك من عند خير الناس، وأبرّ الناس وأوصل الناس، وقد كان عميرٌ قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، سيّد قومي صفوان بن أميّة خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر؛ خاف ألا تؤمّنَه، فأمنّه فداك أبي وأمي! فقال: «قد أمّنتُه»، فخرج في أثره، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمّنك، فقال صَفوان: لا والله حتى تأتِيَني بعلامةٍ أعرفُها، فرَجَع إلى رسول الله ﷺ فأخبره وقال: يا رسول الله، جئته وهو يريدُ أنْ يَقْتل نفسه فقال: لا أرجع إلا بعلامة أعرِفها، فقال: «خذ عمامتي»، فرجع عمير إليه بعمامة رسول الله ﷺ - وهي البُرْدُ الذي دخل فيه رسول الله ﷺ مَكّة معتجراً به، برد حِبرة[2] أحمر - فخرج عمير في طلبه الثانية حتى جاءه بالبُرْد فقال: يا أبا وَهب، جئتُك من عند خير الناس وأوصل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس، مجدُه مجدك، وعِزّه عِزّك، ومُلكه مُلكك، ابنُ أبيك وأمّك، أذكّرك الله في نفسك، فقال: أخافُ أن أقتَل؛ قال: فإنه دَعاك إلى الإسلام فإن رضيتَ وإلاّ سيّرك شهرين فهو

---

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٥٠٥٧).

(٢) الحِبَرَةُ: ضرب من بُرُود اليمن. لسان العرب، مادة (حبر).

أوفى الناس وأبرّهُم، وقد بعث إليك ببردِهِ الذي دخل به معتجراً، أتعرِفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم هو هو، فرجع صفوانُ حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فوجَده يصلّي العصر بالناس، فقال: كم يصلّون؟ قالوا: خمس صلوات في اليوم والليلة قال: أمحمدٌ يصلّي بهم؟ قالوا: نعم، فلما سلّم من صلاته صاح صَفْوان: يا محمد، إن عميرَ بن وهب جائني ببُرْدك، وزَعم أنّك دعوتني إلى القدوم إليك، فإن رضيت أمراً، وإلاّ سيرتَني شهرين. فقال رسول الله ﷺ: «انزل أبا وهب»، فقال: لا والله أو تبيّنَ لي؛ قال: «بل سِرْ أربعة أشهر». فنزل صفوانُ وخرج معه إلى حُنَين وهو كافر، وأرسل إليه يستعير أدْراعه - وكانت مائة دِرْع - فقال: أطوعاً أم كَرْهاً؟ فقال عليه السلام: بل طَوْعاً عاريَةٌ مؤدّاة، فأعاره إيّاها، ثم أعادها إليه بعد انقضاء حُنين والطائف، فلما كان رسول الله ﷺ بالجِعْرَانة يسير في غنائم هوازن ينظر إليها، فنظر صفوان إلى شعب هناك مملوء نَعَماً وشاءً ورعاءً، فأدَام النظر إليه ورسول الله ﷺ يَرْمُقه، فقال: «أبا وهب يعجبك هذا الشّعب!» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه». فقال صفوان: ما طابت نفسٌ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبيّ، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ﷺ[1].

قال الواقديّ: فأمّا عبدُ الله بن سَعْد بن أبي سَرْح فكان قد أسلم، وكان يَكتُب لرسول الله ﷺ الوحي، فربّما أملى عليه رسول الله ﷺ «سميعٌ عليم» فيكتُب «عزيزٌ حكيم» ونحو ذلك، ويقرأ على رسول الله ﷺ فيقول: كذلك الله، ويقرأ فافتتن؛ وقال: والله ما يَدْرِي ما يقول: إني لأكتب له ما شئتُ فلا يُنكر، وإنّه ليوحَى إليّ كما يوحَي إلى محمد، وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً فأهْدَر رسول الله دمَه، وأمر بقَتْله يوم الفتح، فلمّا كان يومئذٍ جاء إلى عثمان - وكان أخاه من الرَّضاعة - فقال: يا أخي، إنّي قد أجَرْتك فاحتَبِسْني ها هنا واذهبْ إلى محمد فكلّمه فيّ، فإن محمداً إنْ رآني ضَرَب عنقي، إنّ جُرْمي أعظم الجُرْم، وقد جئتُ تائباً؛ فقال عثمان: قم فاذهب معي إليه، قال: كلاّ، والله إنّه إنْ رآني ضرَبَ عنقي ولم يناظِرْني، قد أهدَرَ دمي وأصحابُه يطلبُونني في كلّ موضع، فقال عثمان: انطلق معي فإنّه لا يقتلك إن شاء الله - فلم يُرَعْ رسول الله ﷺ إلا بعثمانَ آخذاً بيَدِ عبدِ الله بن سعد واقفيْن بين يديه، فقال عثمان: يا رسولَ الله، هذا أخي من الرّضاعة، إنّ أمّه كانت تحمِلني وتمشّيه وتُرضِعني وتَفْطِمه وتُلْطِفني وتَتْركه، فهَبْه لي. فأعرض رسول الله ﷺ عنه، وجعل عثمانُ كلّما أعرض رسولُ الله عنه استقبَلَه بوجهه، وأعادَ عليه هذا الكلام، وإنّما أعْرض عليه السلام عنه إرادةً لأن يقوم رجلٌ فيضربَ عُنقَه، فلمّا رأى ألاّ يقوم أحدٌ وعثمان قد انكَبَّ عليه يقبّل رأسَه ويقول: يا رسول الله، بايْعه فِدَاك أبي وأمّي على الإسلام! فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ»، فبايعه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٦٤٦).

قال الواقديّ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك للمسلمين: «ما مَنَعكم أن يقومَ منكم واحدٌ إلى هذا الكلب فيقتله» - أو قال: «الفاسق»! ـ فقال عبّاد بن بِشْر: والّذي بَعَثَك بالحقّ، إني لأتبَع طرفَك من كلّ ناحية، رجاء أن تشيرَ إليّ فأضرِبَ عنقه. ويقال: إنّ أبا البشير هو الّذي قال هذا؛ ويقال: بل قاله عمرُ بنُ الخطّاب، فقال عليه السلام: إني لا أقتلُ بالإشارة؛ وقيل: إنه قال: إن النبيّ لا يكون له خائنةُ الأعين.

قال الواقديّ: فجعل عبدُ الله بن سعد يفرّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّما رآه، فقال له عثمان: بأبي أنتَ وأمي! لو ترى ابن أم عبدٍ يفرّ منك كلّما رآك! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: «أو لم أبايعه وأؤمنه»؟ قال: بلى، ولكنّه يتذكّر عُظْم جُرْمه في الإسلام، فقال: «إن الإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه»[(1)].

قال الواقديّ: وأمّا الحُوَيرث بنُ مَعْبد - وهو وَلَد قصيّ بن كلاب - فإنّه كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكّة، فأهدَرَ دمَه، فبينما هو في منزله يوم الفتح وقد أغلق عليه بابه، جاء عليٌّ عليه السلام يَسأل عنه، فقيل له: هو في البادية، وأخبر الحُوَيرث أنه جاء يطلبُه وتَنحّى عليٌّ عليه السلام عن بابه، فخرج الحُوَيْرث يريد أن يَهرب من بيتٍ إلى بيتٍ آخر، فتلقّاه علي عليه السلام فضرَب عنقه.

قال الواقديّ: وأمّا هبّار بنُ الأسود، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يُحرِقَه بالنّار، ثم قال: إنّما يعذّب بالنار رَبُّ النار، اقطعوا يدَيْه ورجليه إن قدَرْتم عليه، ثم اقتُلوه، وكان جُرمُه أن نَخس زينبَ بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجرتْ، وضرَبَ ظهرها بالرّمح وهي حُبْلَى، فأسقطتْ، فلم يقدرِ المسلمون عليه يومَ الفتح، فلمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة طَلَع هَبّار بنُ الأسود قائلاً: أشهَد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقَبِلَ النبي صلى الله عليه وسلم إسلامه، فخرجتْ سَلْمَى مولاةُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت: لا أنعم الله بك عَيْناً! أنتَ الّذي فعلت وفعلت! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبّار يعتذِر إليه: «إن الإسلام محا ذلك». ونَهَى عن التّعرض له[(2)].

قال الواقديّ: قال ابن عبّاس رضي الله عنه: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهَبّار يَعتذِر إليه وهو يُطأطىء رأسَه استحياءً ممّا يَعتذِر هبّار ويقول له: قد عفوتُ عنك!

قال الواقديّ: وأما ابن خَطَل فإنّه خرج حتّى دخل بين أستارِ الكعبة، فأخرَجه أبو بَرْزة الأسلَمي منها، فضرَبَ عنقَه بين الرُّكْن والمقام - ويقال: بل قَتله عمّار بن ياسِر، وقيل: سعدُ بن حُريث المخزوميّ، وقيل: شُرَيك بنَ عبدة العَجْلانيّ؛ والأثبتُ أنّه أبو بَرْزة - قال:

---

(1) انظر هذه «الروايات في تاريخ الطبري». (٢/ ١٤٦).
(2) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٣).

وكان جُرْمه أنّه أسلَم وهاجَر إلى المدينة وبعَثَه رسول الله ﷺ ساعِياً، وبعث معه رجلاً من خُزاعةَ فقتَله، وساق ما أخَذ من مال الصّدقة، ورَجَع إلى مكّة، فقالت له قريش: ما جاء بك؟ قال: لم أجد دِيناً خيْراً من دِينكم[1]، وكانت له قَيْنتان: إحداهما قريني، والأخرى قرينة - أو أرنب ـ وكان ابن خَطَل يقول الشّعرَ يَهجُو به رسول الله ﷺ ويغنيّان به، ويَدخُل عليه المشركون بيتَه فيَشربون عنده الخَمر، ويَسمعُون الغِناء بهجاءِ رسول الله ﷺ[2].

قال الواقديّ: وأما مِقْيس بن صُبابة فإنّ أمّه سهميّة، وكان يومَ الفتح عند أخوالِه بني سَهْم، فاصطَبَح الخَمرَ ذلك اليوم في نَدامَى له، وخرج ثَمِلاً يتغنّى ويتمثّل بأبياتٍ منها:

دَعيني أصطبِحْ يا بَكْرُ إنّي ... رأيتُ الموتَ نَقّبَ عن هِشامِ
ونقّب عن أبيكِ أبي يزيدٍ ... أخِي القَيْنات والشُّربِ الكِرامِ
يخبّرنا ابنُ كَبْشَةَ أنْ سنَحْيَا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ!
إذا ما الرأسُ زالَ بمنكِبَيه ... فقد شَبِع الأنيسُ من الطّعامِ
أتقتُلُني إذا ما كنتُ حيًّا ... وتُحيِيني إذا رَمَّت عِظامِي!

فلقيَه نُمَيلة بنُ عبد الله اللّيثي وهو من رَهْطه، فضَرَبه بالسيف حتى قَتَله، فقالت أختُه ترثيه:

لَعَمري لقد أخزَى نميلةَ رهْطَه ... وفَجّع أصنافَ النساء بمقيسِ
فللّه عَيْنَا من رَأى مِثلَ مِقيسٍ ... إذا النُّفَساء أصبحتْ لم تخرّس

وكان جُرْم مِقْيَس مِن قِبَل أن أخاه هاشم بن صُبابة أسلَم وشَهِدَ المُرَيْسِيعَ مع رسول الله ﷺ، فقتَله رجلٌ من رَهْط عُبادَة بن الصّامت - وقيل: مِن بني عمرو بن عَوْف وهو لا يعرفه - فظنَّه من المشركين، فقَضَى له رسول الله ﷺ بالدّيَة على العاقلة، فقَدِم مِقْيَس أخوه المدينةَ فأخذ دِيتَه، وأسلَم، ثمّ عدا على قاتِل أخِيه، فقَتَله، وهَرَب مرتدّاً كافراً يَهجُو رسول الله ﷺ بالشّعر، فأهدَرَ دَمه[3].

قال الواقديّ: فأما سارّة مولاةُ بني هاشم - وكانت مغنّيةً نوّاحة بمكّة، وكانت قد قَدِمَتْ على رسول الله ﷺ المدينة تَطلُب أن يَصِلَها، وشكتْ إليه الحاجةَ وذلك بعدَ بَدْر وأُحُد - فقال لها: «أما كانَ لكِ في غِنائكه ونِياحِكَ ما يُغنيك»! قالت: يا محمّد، إنّ قريشاً منذ قُتِلَ مَن قُتِل منهم ببَدْر تركوا استماعَ الغناء، فوَصَلها رسول الله ﷺ، وأوقَر لها بعيراً طعاماً، فرجعتْ إلى قُريش وهي على دِينها، وكانت يُلقَى عليها هِجاءُ رسول الله ﷺ فتُغنّي به، فأمر بها رسول الله ﷺ يومَ الفتح أن تُقتَل، فقُتِلت[4].

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ١٦٠).
(٢) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١).
(٣) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ١٦٠).
(٤) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١).

وأما قَيْنتا ابن خَطَل فقتَل يومَ الفتح إحدَاهما، وهي أرنب، أو قرينة، وأمّا قريني فاستؤمن لها رسول الله ﷺ، فأمّنها وعاشت حتى ماتت في أيام عثمان(١).

قال الواقديّ: وقد رُوي أن رسول الله ﷺ أمَر بقَتْل وَحْشِيّ يومَ الفَتْح، فهَرَب إلى الطائف، فلم يزل بها مقيماً حتى قَدِم مع وفد الطائف على رسول الله ﷺ، فدخل عليه فقال: أشهَد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسولُ الله، فقال: «أوحشيّ»؟ قال: نعم، قال: «اجلس وحدِّثني كيف قتلتَ حمزة»؟ فلمّا أخبرَه قال: «قم وغَيِّبْ عني وجهَك»، فكان إذا رآه تَوارَى عنه(٢).

قال الواقديّ: وحدّثني ابن أبي ذئب ومَعمَر عن الزُّهرِيّ، عن أبي سَلَمة بنِ عبدِ الرحمن بن عوف، عن أبي عَمرو بن عَدِيّ بن أبي الحمراء، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول بعد فَراغه من أمر الفَتْح وهو يريدِ الخروجَ من مكّة: «أما والله إنّكِ لخيرُ أرضِ الله، وأحبُّ بلادِ الله إليّ، ولولا أن أهلَكِ أخرجوني ما خرجتُ»(٣).

وزاد محمد بن إسحاق في كتاب «المغازي» أن هند بنت عُتْبة جاءت إلى رسول الله ﷺ مع نساء قريش متنكِّرة متنقّبة لحدَثها الذي كان في الإسلام، وما صنعتْ بحمزة حين جدعته وبقرت بطنَه عن كبده؛ فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدَثها ذلك، فلمّا دنَتْ منه، وقال - حين بايعنه -: «على الاّ يُشرِكن بالله شيئاً»، قلن: نعم؛ قال: «ولا يَسرِقْن»، فقالت هند: والله أنا كنت لأصيب من مال أبي سُفيان الهَنَة والهُنَيْهة فما أعلم أحَلالٌ ذلك أم لا! فقال رسول الله ﷺ: «وأنّكِ لهند»! قالت، نعم، أنا هند، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فاعفُ عمّا سَلَف عفا الله عنك؛ فقال رسول الله ﷺ: «ولا يزنِينَ»، فقالت هند: وهل تزني الحرّة! فقال: «لا، ولا يقتُلْنَ أولادَهُنّ» فقالت هند: قد لَعَمْري ربيّناهم صغاراً وقتلتَهم كباراً ببَدْر، فأنت وهم أعرَفُ. فَضَحِك عمرُ بنُ الخطّاب من قولها حتى أسفَرتْ نَواجِذه، قال: «ولا يأتِين ببهتان يَفْتَرِينَهُ»، فقالت هند: إن إتيان البُهتان لقَبيح، فقال: «ولا يَعْصِينك في معروف»؛ فقالت: ما جلسْنا هذه الجلسة ونحن نريد أن نعصِيَك(٤).

قال محمد بن إسحاق: ومِن جيّد شعرِ عبدِ الله بن الزِّبعرَى الذي اعتذَرَ به إلى رسول الله ﷺ حين قدِمَ عليه:

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١). (٢) انظر «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٦).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة (٣٩٢٥)، وابن ماجه في المناسك باب: فضل مكة (٣١٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٢٤٢).

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٧٥٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٧).

مَـنـعَ الـرُّقـادَ بـلابـلٌ وهُـمـومُ ... فـالـلـيـلُ مـمـتـدُّ الرّواق بَـهـيـمُ[(١)]
مـمّـا أتـانـي أن أحـمـدَ لامَـنِـي ... فـيـه، فـبِـتّ كـأنـنـي مـحـمـومُ
يا خيرَ من حملَتْ على أوْصالِها ... عَـيـرانَـةٌ سُـرُح الـيَـدَيْـن سَـعُـومُ[(٢)]
إنّـي لـمـعـتـذِرٌ إلـيـكَ مـن الّـذِي ... أسـدَيْـتَ إذْ أنـا فـي الـضـلال أهـيـمُ
أيّـانَ تـأمُـرُنـي بـأغْـوَى خُـطّـةٍ ... سَـهْـمٌ، وتـأمُـرنـي بـه مـخـزومُ
وأمـدُّ أسـبـابَ الـرّدى ويـقـودُنـي ... أمـرُ الـغُـواة وأمـرُهـم مـشـؤوم
فـالـيـومَ آمـنَ بـالـنـبـيّ مـحـمـدٍ ... قـلـبـي، ومُـخـطِـىء هـذه مـحـرومُ
مضت العداوةُ وانقضَت أسبابُها ... ودَعَـتْ أواصـرُ بـيـنـنـا وحُـلـومُ[(٣)]
فـاغـفـر فِـدًى لـك والـديَّ كـلاهُـمـا ... زَلَـلـي، فـإنـك رَاحِـمٌ مـرحُـوم
وعـلـيـك مِـن عَـلَـم الـمـلَـيـكِ عَـلامـةٌ ... نـورٌ أغـرُّ وخـاتَـمٌ مـخـتـومُ
أعـطـاكَ بـعـد مـحـبَّـةٍ بـرهَـانَـهُ ... شـرفـاً ويُـرْهـان الإلـه عـظـيـم
ولـقـد شَـهِـدْتُ بـأنّ ديـنَـك صـادقٌ ... بَـرٌّ وشـأنـك فـي الـعـبـاد جـسـيـمُ
والله يـشـهـد أن أحـمـدَ مـصـطـفَـى ... مـتـقَـبَّـلٌ فـي الـصـالـحـيـن كـريـمُ
فـرعٌ عـلا بـنـيـانُـه مِـن هـاشِـمٍ ... دَوْح تـمـكّـنَ فـي الـعُـلا وأرومُ

قال الواقديّ: وفي يوم الفَتْح سمَّى رسول الله ﷺ أهل مكة الذين دخلها عليهم الطُّلَقاء، لمنّه عليهم بعد أن أظفرَهُ الله بهم، فصاروا أرقّاءَ له. وقد قيل له يوم الفتح: قد أمكنك الله تعالى فخذ ما شئت من أقمارٍ على غصون - يعنُون النّساء؛ فقال عليه السلام: «يأبَى ذلك إطعامُهم الضيف، وإكرامُهم البيت، ووَجْؤهم مناحرَ الهَدْي»[(٤)].

ثم نعود إلى تفسير ما بقي من ألفاظ الفصل؛ قوله: «فإن كان فيك عَجَلٌ فاسترفِه» أي كن ذا رَفاهِية، ولا تُرهِقَنّ نفسك بالعجل، فلا بدّ من لِقاء بعضنا بعضاً، فأي حاجة بك إلى أن تعجل! ثم فسّر ذلك فقال: إن أَزُرْك في بلادك، أي إن غَزَوتك في بلادِك فخليق أن يكون الله بعثني للانتقام منك، وإن زُرْتني، أي إنْ غَزَوتني في بلادي وأقلبتَ بجموعك إليّ.

---

(١) رواق من الليل: بكسر الراء وضمها: مُقَدّمه وجانبه. القاموس المحيط، مادة (روق).
(٢) العَيْرَانة من ازبل: الناجية بنشاط. القاموس المحيط، مادة (عير). والسَّعْمُ: ضرب من سير الإبل وهو سرعة السير والتمادي فيه. لسان العرب، والقاموس المحيط (سعم).
(٣) حُلُوم: جمع حِلْم بالكسر وهو الأناة والعقل. لسان لعرب، مادة (حلم).
(٤) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ٢١/١٠٦.

كنتم كما قال أخو بني أسد؛ كنت أسمعُ قديماً أن هذا البيت من شِعْر بشر بن أبي خازم الأسَديّ؛ والآن فقد تصفّحتُ شعره فلم أجدْه، ولا وقفتُ بعدُ على قائله، وإن وَقَفْتُ فيما يستقبل من الزّمان عليه ألحقته.

وريحٌ حاصِب، تَحمل الحصْباء، وهي صِغارُ الحَصَى، وإذا كانت بين أغْوار - وهي ما سَفُل من الأرض وكانت مع ذلك ريح صَيف - كانت أعظمَ مشقّة، وأشدّ ضَرَراً على مَن تُلاقيه. وجُلْمود، يمكن أن يكون عَطْفاً على «حاصِب»، ويمكن أن يكون عطْفاً على «أغْوار»، أي بين غَوْرٍ من الأرض وحَرَّةٍ، وذلك أشدّ لأذاها لما تكسِبُه الحَرّة من لَفْح السَّموم وَوَهجِها. والوجه الأوّل ألْيَق.

وأعضضْته أي جَعلته مَعضوضاً برؤوس أهلك، وأكثر ما يأتي «أفْعَلْته» أن تجعله «فاعلاً»، وهي ها هنا من المقلوب، أي أعضَضْت رؤوس أهلك به، كقوله: «قد قطع الحبل بالمرْوَد».

وجدُّه عُتبة بن ربيعة، وخاله الوليدُ بنُ عتبة، وأخوه حَنظلة بن أبي سفيان، قتلهم عليّ عليه السلام يوم بدر.

والأغلَفَ القلب: الذي لا بصيرة له، كأنّ قلبه في غِلاف، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[(١)].

والمقارِب العقل، بالكسر: الذي ليس عَقْله بجيّد؛ والعامّة تقول فيما هذا شأنه: مقارَب، بفتح الراء.

ثم قال: الأولى أن يقال هذه الكلمة لك.

ونشدتُ الضّالّة: طَلبتُها، وأنشدتها: عَرّفتها، أي طلبتَ ما ليس لك.

والسائمة: المال الراعي؛ والكلامُ خارجٌ مخرج الاستعارة.

فإن قلت: كلّ هذا الكلام يطابق بعضه بعضاً إلا قوله: «فما أبعد قولك من فِعلك» وكيف استبعد عليه السلام ذلك ولا بُعْدَ بينهما، لأنه يَطْلب الخلافة قولاً وفعلاً! فأيّ بُعد بين قوله وفعله!

قلت: لأن فعله البَغْي، والخروج على الإمام الذي ثبتت إمامتُه وصحّت، وتفريق جماعةِ المُسلمين، وشقّ العَصا، هذا مع الأمور الّتي كانت تَظْهر عليه وتقتضي الفسق؛ من لبس الحرير، والمنسوج بالذهب، وما كان يتعاطاه في حياةِ عثمان من المنكرات التي لم تثْبت توبته منها، فهذا فعلُه.

وأما قوله؛ فزعمه أنه أميرُ المؤمنين، وخليفةُ المسلمين، وهذا القولُ بعيد من ذلك الفعل جداً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٨.

و«ما» في قوله: «وقريب ما أشبهت» مصدرية، أي وقريب شبهك بأعمام وأخوال. وقد ذكرنا من قُتِل من بني أميّة في حرُوب رسول الله ﷺ فيما تقدّم، وإليهم الإشارة بالأعمام والأخوال، لأن أخوال معاوية من بني عبد شمس، كما أنَّ أعمامه من بني عبد شمس.

قوله: «ولم تماشها الهوينى» أي لم تصحبها، يصفها بالسرعة والمضيّ في الرؤوس الأعناق.

وأما قوله: «ادخُل فيما دَخَل فيه الناسُ وحاكِم القومَ»، فهي الحجّة التي يَحتجّ بها أصحابُنا له في أنّه لم يُسلِّم قَتلة عثمانَ إلى معاوية، وهي حُجّة صحيحةٌ، لأنّ الإمام يجب أن يُطاع، ثمّ يتحاكَم إليه أولياءُ الدم والمتهمون، فإنْ حَكَم بالحق استُديمت حكومتُه، وإلا فَسق وبَطَلت إمامَتُه.

قوله: «فأمّا تلك التي تُريدها»؛ قيل: إنّه يريد التعلّق بهذه الشّبهة، وهي قَتَلة عثمان، وقيل: أراد به ما كان معاوية يكرّر طلبَه من أمير المؤمنين عليه السلام، وهو أن يقِرّه على الشّام وحدَه، ولا يكلّفه البَيْعة، قال: إنّ ذلك كمُخادَعة الصبيّ في أوّل فِطامه عن اللّبَن بما تَصنَعه النّساء له مما يكرّه إليه الثديَ ويُسلِيه عنه، ويُرغّبه في التعوّض بغيره، وكتابُ معاويةَ الّذي ذكرناه لم يتضمّن حديثَ الشام.

٦٥ - ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضاً

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ، فَلَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلاَفِكَ بِادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ، وَاقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِيبِ؛ مِن انْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلاَ عَنْكَ، وَابْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ اخْتُزِنَ دُونَكَ؛ فِرَاراً مِنَ الْحَقِّ، وَجُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحمِكَ وَدَمِكَ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ، وَمُلِيءَ بِهِ صَدْرُكَ؛ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلاَّ اللَّبْسُ!

فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلاَبِيبَهَا، وَأَعْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا. وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا عَنْكَ عِلْمٌ وَلاَ حِلْمٌ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ، وَالْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ، نَازِحَةِ الْأَعْلاَمِ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنُوقُ، وَيُحَاذَى بِهَا الْعَيُّوقُ؛ وَحَاشَ للهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي صَدَراً أَوْ وِرْداً، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَى أَحَدٍ

مِنهُمْ عَقداً أَوْ عَهْداً! فَمِنَ الْآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ وَانْظُرْ لَهَا، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ الله أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الأُمُورُ، وَمُنِعْتَ أَمْراً هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ، وَالسَّلامُ.

الشرح: آنَ لك وأنَى لَك بمعنًى، أي قَرُب وحانَ، تقول: آنَ لك أن تفعَل كذا يَئِين أيْناً، وقال:

أَلَم يـأنِ ان لـي تُـجلَ عَـنِّي عَـمـايَتِي   واقـصُـر عـن لَـيـلَى، بَـلَـى قـد أنَـى لِـيَـا

فَجَمع بين اللّغتين، و«أنَى» مقلوبة عن «آن»؛ ومِما يجري مَجرى المَثَل قولهم لمن يُرُونه شيئاً شديداً يُبصره ولا يشكّ فيه: قد رأيته لمحاً باصِراً، قالوا: أي نظراً بتَحْدِيق شديد، ومَخرجه مَخرج رجل لابنٍ وتامِرٍ، أي ذو لبَن وتَمر، فمعنى «باصِر» ذو بَصَر؛ يقول عليه السلام لمعاوية: قد حانَ لكَ أن تَنتفِع بما تَعلَمه من معاينة الأمورِ والأحوال وتتحقّقه يقيناً بقَلْبك؛ كما يتحقّق ذو اللّمح الباصر ما يُبصِره بحاسّة بصرِه، وأراد ببَيان الأمور ها هنا معايَنتها، وهو ما يعرفه ضرورة من استحقاق عليّ عليه السلام للخلافة دونَه، وبراءتِه من كل شُبْهة يَنسبُها إليه.

ثم قال له: «فقد سلكتَ»، أي اتبعت طرائق أبي سُفْيان أبيكَ وعُتْبة جَدّك وأمثالِهما مِن أهلِك ذَوِي الكُفر والشّقاق. والأباطيل: جمعُ باطل على غير قياس، كأنهم جَمَعوا إبطيلاً. والاقتحام: إلقاءُ النّفس في الأمْر من غير رَوِيّة. والمَيْن الكَذب. والغُرور بالضم المصدَر وبالفَتح الاسم. وانتحلْتُ القصيدة، أي ادّعيتها كَذِباً.

قال: «ما قد علا عنك»، أي أنتَ دونَ الخلافة، ولستَ من أهلِها والابتزاز: الاستِلاب.

قال: «لما قد اختزن دونَك»، يعني التسمّي بإمرة المؤمنين.

ثم قال: «فِراراً من الحقّ»، أي فعلتَ ذلك كلّه هَرَباً من التمسّك بالحقّ والدّين، وحبًّا للكُفر والشّقاق والتغلّب.

قال: «وجُحُوداً لما هو ألزَم»، يعني فرض طاعةِ عليّ عليه السلام، لأنّه قد وَعَاها سَمعُه؛ لا رَيْب في ذلك، إمّا بالنّص في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله كما تَذكُره الشّيعة - فقد كان معاوية حاضراً يومَ الغَدير لأنّه حجّ معهم حجّة الوَداع، وقد كان أيضاً حاضراً يومَ تَبُوك حين قال له بمَحضَر من الناس كافّة: «أنت منّي بمنزِلة هَارُون مِن موسى»[1]، وقد سُمِع غيرُ ذلك - وإمّا بالبَيْعة كما نَذكره نحن فإنّه قد اتّصل به خبرُها، وتواترَ عندَه وُقوعُها، فصار وقوعُها عنده معلوماً بالضّرورة كعِلمِه بأنّ في الدّنيا بلداً اسمها مِصر، وإن كان ما رآها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠٦)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي (٢٤٠٤)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٠).

والظاهر من كلام أميرِ المؤمنين عليه السلام أنه يريد المعنى الأول! ونحن نخرِّجه على وَجْهٍ لا يَلزمَ منه ما تقوله الشّيعة، فنقول: لنفرِض أن النبي ﷺ ما نصّ عليه بالخلافة بعدَه، أليس يَعلَم معاوية وغيرُه من الصّحابة أنه لو قال له في ألف مقام: «أنا حَرْبٌ لمن حارَبْتَ وسِلْمٌ لمن سالَمْت»[1]، ونحو ذلك من قوله: «اللهم عادِ من عادَاه، ووالِ مَن وَالاه»[2]، وقوله: «حربُك حَرْبي وسِلْمُك سِلْمي»[3]، وقوله: «أنت مع الحقّ والحقّ معك»[4].

وقوله: «هذا منّي وأنا منه»[5]، وقوله: «هذا أخِي»[6]، وقوله: «يحبُّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسولُه»[7]، وقوله: «اللهم ائتني بأحبّ خَلقِك إليك»[8]، وقوله: «إنّه وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة بعدي»[9]، وقوله: في كلام قاله: «خاصِف النّعل»[10]، وقوله: «لا يحبّه إلاّ مؤمن، ولا يُبغِضه إلا مُنافِق»[11].

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٠/ ٩٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب، (١١٦)، وأحمد في «مسنده» (٩٥٣) وعدة مواضع أخرى، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٣) بنحوه.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٤/ ٢٦١.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦١١)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٤) بنحوه.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٢). وأحمد في كتاب أول مسند البصريين باب حديث عمران بن حصين (١٩٤٢٦).

(٦) أخرجه الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٤٣)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ٣٦، والطبري في «الرياض النضرة» (١/ ٢٤٥)، والعسقلاني في (لسان الميزان) في ترجمة الحسين بن علي (٢/ ٣١٨).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب: (الجهاد والسير)، باب: فضل من أسلم على يديه رجل (٣٠٠٩)، ومسلم، كتاب: (الجهاد والسير)، باب: غزوة ذي قرد (١٨٠٧).

(٨) أخرجه الترمذي، كتاب: (المناقب)، باب: مناقب علي بن أبي طالبَ (٣٧٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٩٨)، والطبراني في «الكبير» (٦٤٣٧).

(٩) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٢)، وأحمد في «مسنده» (١٩٤٢٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٢٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٥٢)، والطبراني في «الكبير» (١٢٥٩٣). بدون قوله «مؤمنة».

(١٠) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٥)، وأحمد في «مسنده» (١٠٨٩٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٣٧)، والحاكم في «مستدركه» (٢٦١٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٥٧).

(١١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان (٧٨)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧٣٦).

وقوله: «إن الجنّة لتشتاق إلى أربعة»[١]، وجعله أوّلَهم؛ وقوله لعمّار: «تقتُلك الفِئة الباغية»[٢]، وقوله: «ستقاتل الناكِثين والقاسِطين والمارِقين بعدِي»[٣]، إلى غير ذلك ممّا يَطولُ تَعدادُه جدًا، ويحتاج إلى كتابٍ مفرد يُوضَع له، أنما كان ينبغي لمعاويةَ[٤] أن يفكّر في هذا ويتأمّله، ويَخشى الله ويتقيه! فلعلّه عليه السلام إلى هذا أشار بقوله: «وجُحوداً لما هو ألزَم لك من لحَمِك ودَمِك ممّا قد وَعاه سَمْعُك، ومُلِىءَ به صَدْرُكَ».

قولُه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[٥] كلمةٌ من الكلام الإلهيّ المقدّس.

قال: «وبعد البَيان إلاّ اللّبس»، يقال: لَبَست عليه الأمرَ لَبْساً، أي خَلطتُه، والمضارع يَلبِس بالكسر.

قال: «فاحذَر الشبَهة واشتمالها» على اللُّبْسة بالضمّ، يقال في الأمر لُبْسة أي اشتباه ولبس بواضح؛ ويجوز أن يكون «اشتمال» مصدراً مُضافاً إلى معاوية، أي احذَر الشّبهة واحذر اشتمالَك إيّاها على اللبّسة، أي ادّراعَك بها وتقمُّصَك بها على ما فيها من الإبهام والاشتِباه؛ ويجوز أن يكون مصدراً مضافاً إلى ضمير الشّبهة فقط، أي احذَر الشّبهة واحتواءَها على اللّبسة الّتي فيها.

وتقول: أغدَفَت المرأةُ قِناعَها، أي أرسلتْه على وجهها، وأغدَف الليلُ، أي أرخَى سُدولَه، وأصلُ الكلمة التّغطِيَة.

والجلابيب: جمع جِلْباب، وهو الثّوب.

قال: «وأغشَت الأبصارَ ظُلْمتَها»: أي أكسبتها العَشَىٰ وهو ظلمة العين. وروي «وأغشتْ» بالغين المعجمة «ظلْمتَها» بالنّصب، أي جعلت الفتنة ظُلمتها غشاء للأبصار.

والأفَانِين: الأساليب المختلِفة.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٠٤٥)، بلفظ: «أربعة»، وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٧٨٠)، بلفظ «ثلاثة».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المساجد (٤٤٧)، ومسلم، في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٢٩١٥)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب عمار (٣٨٠٠).

(٣) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٦٧٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٨٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨٤٣٣)، والبزار في «مسنده» (٦٠٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥١٩).

(٤) وكل من حارب علي بن أبي طالب عليه السلام أو وقف في وجهه في أي قضية كانت.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣٢.

قوله: «ضعفت قُواها عن السّلم»، أي عن الإسلام، أي لا تَصدر تِلكَ الأفانينُ المختلِطة عن مُسِلم، وكان كَتَب إليه يَطْلب منه أن يفرده بالشام، وأن يولّيَه العهدَ من بعدِه، وألاّ يكلّفه الحضورَ عنده. وقرأ أبو عمرو: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[1]؛ وقال: ليس المعنيّ بهذا الصّلح، بل الإسلام والإيمان لا غير، ومعنى «ضَعُفتْ قُواها»، أي ليس لتلك الطّلبات والدّعاوَى والشّبُهات الّتي تَضمّنها كتابُك من القوّة ما يَقتضِي أن يكون المتمسّك به مُسلِماً، لأنّه كلامٌ لا يَقولُه إلاّ مَنْ هو؛ إمّا كافرٌ مُنافق أو فاسق، والكافر ليس بمسلِم، والفاسق أيضاً ليس بمُسِلم - على قول أصحابِنا - ولا كافر.

ثم قال: «وأساطير لم يَحْكها منكَ عِلم ولا حِلْم»، الأساطير: الأباطيل، واحدها أُسطورَة بالضم وإسْطارَة بالكسر والألف. وحَوْكُ الكلام: صَنْعتُه ونَظْمُه. والحِلْم: العَقْل، يقول له: ما صدر هذا الكلام والهُجر الفاسد عن عالم ولا عاقل.

ومن رَواها «الدِّهاس» بالكسر فهو جمع دَهْس، ومَنْ قرأها بالفتح فهو مُفردَ، يقول؛ هذا دَهْس ودَهاس بالفتح، مثل لَبْث ولبَاث للمكان السّهل الّذي لا يبَلُغ أن يكون رملاً، وليس هو بترابٍ ولا طِين.

والدِّيماس بالكَسْر: السَّرَب المُظلِم تحتَ الأرض، وفي حديث المَسيح: «إنّه سَبْط الشّعر، كثيرُ خِيلان الوَجْه، كأنّه خَرَج من دِيماس»[2]، يعني في نَضْرَته وكثرةِ ماءِ وَجْهه كأنّه خرج من كِنّ؛ لأنه قال في وصفِه: كأنّ رأسَه يَقطر ماءً، وكان للحجّاج سِجنٌ اسمه الدِّيماس لظُلْمته، وأصله من دَمَس الظلام يَدمُس أيّ اشتدّ، وليل دامِسٌ وداموس، أي مُظلم: وجاءنا فلانٌ بأمور دُمْس، أي مُظلِمة عظيمة، يقول له: أنت في كتابك هذا كالخائض في تِلكَ الأرض الرِّخوة، وتقوم وتقع ولا تتخلّص، وكالخابط في الليل المُظلِم يعثر ويَنهَض ولا يهتَدِي الطريق.

والمَرْقَبة: الموضعُ العالي. والأعلام: جمع عَلَم، وهو ما يُهتَدى به في الطّرقات من المَنار، يقول له: سمَتْ همّتك إلى دَعوَى الخِلافة، وهي منك كالمرقَبة التي لا تُرام بتعدٍّ على من يَطلبُها، وليس فيها أعلامٌ تَهدي إلى سلوك طريقِها، أي الطرقُ إليها غامضة، كالجَبَل الأملِس الّذي ليس فيه دَرَج ومَراقٍ يُسلَك منها إلى ذِروَته.

والأنُوق على «فَعُول» بالفتح كأكُول وشَرَوب: طائر، وهو الرَّخمة. وفي المثل: «أعزّ من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٢) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ (٣٣٩٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الإسراء (١٦٨).

بَيْضِ الأنوق»[1]؛ لأنها تُحرزه ولا يكاد أحدٌ يَظفَر به، وذلك لأنّ أوكارَها في رؤوس الجبال والأماكن الصّعبة البعيدة.

والعَيّوق: كوكب معروف فوق زُحَل في العُلوّ، وهذه أمثالٌ ضَرَبها في بُعدِ معاوية عن الخلافة.

ثم قال: «حاشَ لله أن أولّيك شيئاً من أمور المسلمين بَعدِي»، أي مَعاذَ الله، والأصلُ إثبات الألف في «حاشا»، وإنما اتّبع فيها المصحف.

والوِرْد والصَّدَر: الدّخول والخروجُ، وأصلُه، في الإبل والماء. ويَنهَد إليك عباد الله، أي ينهَض. وأُرتِجَتْ عليك الأمورُ: أغلِقت.

وهذا الكتابُ هو جواب كتاب وَصَل من معاوية إليه عليه السلام بعد قَتْل عليّ عليه السلام الخوارجَ، وفيه تلويحٌ بما كان يقوله من قبْل: إنّ رسول الله وَعَدني بقتالِ طائفةٍ أخرى غيرِ أصحابِ الجَمَل وصِفّين، وإنّه سمّاهم المارِقين، فلمّا واقَعَهم عليه السلام بالنَّهرَوان وقَتَلهم كلّهم بيوم واحد وهم عَشَرة آلاف فارسٍ أحَبّ أن يذكّر معاوية بما كان يقول من قبلُ، ويَعِدُ به أصحابَه وخواصَّه، فقال له: قد آن لك أن تنتفع بما عايَنت وشاهَدْتَ معاينة ومُشاهَدةً، من صدق القول الّذي كنتُ أقولُه للنّاس ويَبلغك فتَستهزىء به.

٦٦ - ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى
عبد الله بن العباس، وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، فَلاَ يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ، أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ؛ وَلٰكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ، وَإِحْيَاءُ حَقٍّ.

وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ، وَأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

الشرح: هذا الفَصْل قد تقدّم شرحُ نظيره، وليس في ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تَفْسِير، ولكنّنا سنَذكُر مِن كلام الحُكماء والصالحين كلماتٍ تُناسبه.

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٣٩٠)، برقم (٢٦٠١).

بعض ما قيل في الدنيا وأحوالها

فمن كلام بعضهم: ما قُدِّر لك أتاك، وما لم يُقدَّر لك تَعدَّاك، فعَلام تَفْرح بما لم يكن بدٌّ من وصُوله إليك، وعلام تحزَن بما لم يكن ليقدم عليك!

ومن كلامهم: الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبِر إدبار الهارب، وتَصِل وصالَ المتهالك، وتُفارق فراقَ المُبغض الفارك[1]، فخيرها يَسير، وعيشُها قصير، وإقبالها خدعة، وإدبارُها فَجْعة، ولذّاتُها فانية، وتَبِعاتها باقية، فاغتَنِمْ غفلة الزّمان، وانتهزْ فرصَة الإمكان، وخذ من نفسِك لنفسك، وتزوّد من يَوْمِك لغَدِكَ قبل نَفادِ المُدّة، وزوال القُدْرَة، فلكلّ امرىءٍ من دنياه ما ينفعُه على عمارة أُخراه.

ومن كلامهم: من نَكَد الدّنيا أنّها لا تَبقى على حالة، ولا تَخلُو من استحالة، تُصلِح جانباً بإفسادِ جانب، وتسرّ صاحباً بمساءَةِ صاحب؛ فالسّكون فيها خَطَر، والثقة إليها غَرَر، والالتجاءُ إليها مُحال، والاعتماد عليها ضلال. ومن كلامهم: لا تبتهجنّ لنفسك بما أدركتَ من لذّاتها الجسمانيّة، وابتهج لها بما تناله من لذّاتها العقليّة. ومن القول بالحقّ، والعمل بالحقّ، فإنّ اللّذّاتِ الحسّيّة خيالٌ ينفد، والمعارفَ العقليّة باقيةٌ بقاءَ الأبد.

٦٧ - ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ، فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ، وَذَاكِرِ الْعَالِمَ، وَلاَ يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلاَّ لِسَانُكَ، وَلاَ حَاجِبٌ إِلاَّ وَجْهُكَ.

وَلاَ تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا.

وَانْظُرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ الله فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْمَفَاقِرِ وَالْخَلاَّتِ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَن قِبَلَنَا.

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلاَّ يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ

(١) الفَرْكُ: البِغْضَةُ عامة أو خاص ببغضة الزوجين، وامرأة فارك مبغضة لزوجها. القاموس المحيط، مادة (فرك).

وَالْبَادِ﴾[1] فَالْعَاكِفُ: الْمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ؛ وَالسَّلاَمُ.

الشرح: قد تقدّم ذكر قُثَم ونسبه. أمَره أن يقيمَ للنّاس حجّهم، وأن يذكّرهم بأيّام الله، وهي أيّام الإنعام، وأيّام الانتقام، لتحصُل الرغبة والرّهبة. واجلس لهم العَصْرين: الغَداةَ والعَشيّ.

ثم قَسّم له ثمرةَ جلوسِه لهم ثلاثة أقسام: إمّا أن يفتيَ مُستفتياً من العامّة في بعض الأحكام، وإمّا أن يعلّم متعلّماً يطلُب الفِقْه، وإمّا أن يُذاكر عالماً ويُباحثِه ويُفاوِضه، ولم يَذْكُر السّياسة والأمورَ السّلطانيّة لأنّ غَرضه متعلّق بالحَجِيج، وهم أضيافه، يقيمون ليالي يسيرةً ويقفِلون؛ وإنّما يذكر السياسة وما يتعلّق بها فيما يَرجع إلى أهل مَكّة، ومن يدخل تحت ولايتِه دائماً، ثمّ نهاه عن توسّط السُّفَراء والحُجّاب بينه وبينهم، بل ينبغي أن يكون سفيرَه لسانُه، وحاجبَه وجهُه، ورُوِي «ولا يكن إلاّ لسانُك سفيراً لك إلى الناس» بجعْل «لسانك» اسم كان مثل قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾[2]، والرواية الأولى هي المشهورة، وهو أن يكون «سفيراً» اسم كان، و«لك» خبرُها، ولا يصحّ ما قاله الراونديّ: إنّ خبرَها «إلى الناس»، لأنّ «إلى» ها هنا متعلّقة بنَفْس «سَفير»، فلا يجوز أن تكون الخبر عن «سفير»، تقول: سفرتُ إلى بني فلان في الصّلح، وإذا تعلّق حرفُ الجرّ بالكلمة صار كالشيء الواحد.

ثم قال: فإنّها إن ذِيدت أي طُرِدَتْ ودُفعت.

كان أبو عبّاد ثابتُ بنُ يحيى كاتبُ المأمون إذا سئل الحاجَةَ يشتمُ السائل، ويسطُو عليه ويُخجِله، ويُبَكِّتُه ساعةً ثمّ يأمر له بها؛ فيقول وقد صارت إليه، وهو يذمّه ويلعنه قال عليّ بنُ جَبَلة العكوّك:

لعَنَ الله أبا عَبّادَ لعناً يتوالى
يُوسع السائلَ شتماً ثمّ يُعطيه السّؤالا

وكان الناسُ يَقِفون لأبي عَبّاد وقتَ رُكوبه، فيتقدّم الواحدُ منهم إليه بقصّته ليناوله إيّاها، فيركُله برِجْله بالرّكاب، ويَضربه بسَوْطه، ويطير غضباً، ثمّ لا ينزل عن فرسه حتّى يقضيَ حاجَتَه، ويأمُر له بطَلبته، فينصرف الرجلُ بها وهو ذامٌّ له ساخطٌ عليه؛ فقال فيه دِعْبل:

أوْلَى الأمور بضَيْعةٍ وفسادِ مُلْكٌ يدبّرهُ أبو عَبّادِ
متعمّدٌ بدواتِه جُلساءَه فمضرَّجٌ ومخضّبٌ بمدادِ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٥٦.

وكأنه من دَيرِ هِزْقِلَ مُفلتٌ   حرب يَجُرُّ سَلاسِلَ الأقيادِ(١)
فاشْدُدْ أميرَ المؤمنين صِفادَه   بأشدّ منه في يدِ الحدَّادِ

وقال فيه بعضُ الشّعراء:

قل للخليفة يابنَ عمّ محمدٍ   قَيِّدْ وزيرَكَ إنّه رَكّالُ
فلسوْطه بين الرؤوس مَسالكٌ   ولرجْله بين الصدور مجالُ

والمفاقر: الحاجات؛ يقال: سدّ الله مَفاقره، أي أغنى الله فَقْره، ثمّ أمَرَه أن يأمر أهلَ مكّة ألاّ يأخذوا من أحَد من الحجيجِ أجرة مَسكَن، واحتجّ على ذلك بالآية، وأصحاب أبي حَنيفة يتمسّكون بها في امتناع بَيْع دُور مكة وإجارتها، وهذا بناءً على أنّ المسجدَ الحرام هو مكّة كلّها، والشافعيّ يَرَى خلافَ ذلك، ويقول: إنّه الكعبة، ولا يمنع من بَيْع دُورِ مَكّة ولا إجارتها، ويَحتجّ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾(٢)، وأصحاب أبي حنيفة يقولون: إنّها إضافة اختصاص لا إضافة تمليك، كما تقول: جلّ الدّابة، وقرأ «سَواء» بالنصب على أن يكون أحد مفعولي «جعلْنا» أي جعلناه مُستوِياً فيه العاكف والباد، ومن قرأ بالرفع جعل الجُملة هي المفعول الثاني.

٦٨ – ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسي رحمه الله قبل ايام خلافته

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ، لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سَمُّهَا، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا، وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ إِلَى مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ؛ وَالسَّلاَمُ.

الشرح: سَلْمان، رجلٌ من فارِسَ من رَامَهُرْمُز؛ وقيل: بل من أصبهانَ، من قريةٍ يقال لها جَيّ، وهو معدودٌ من مَوالِي رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وكُنيتُه أبو عبد الله، وكان إذا قيل: ابنُ مَن أنتَ؟ يقول: أنا سَلْمان، ابنُ الإسلام، أنا مِن بني آدم.

(١) دير هِزْقِل: بكسر أوله وزاي معجمة ساكنة وقاف مكسورة. وهو دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم. معجم البلدان (٤/ ٣٦٦) مادة (ير).
(٢) سورة الحج، الآية: ٤.

وقد رُوي أنه قد تَداوَله أربابٌ كثيرة، بضعةَ عشرَ رَبًّا؛ من واحد إلى آخر حتّى أفضى إلى رسول الله ﷺ.

وَرَوَى أبو عمرَ بنُ عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب»[1] أنّ سَلْمان أتى رسول الله ﷺ بصَدَقة، فقال: هذه صدقةٌ عليك وعلى أصحابك، فلم يَقْبَلْها، وقال: «إنه لا تَحِلّ لنا الصدقة»، فرفَعها، ثمّ جاء من الغَدِ بمِثْلِها وقال: هَدِيّة هذه، فقال لأصحابه: كلوا»[2].

واشتراه من أربابِه، وهم قومٌ يهود بدَراهِمَ، وعلى أن يَغرِس لهم من النّخيل كذا وكذا، ويعَمَل فيها حتى تُدرك، فغَرَس رسول الله ﷺ ذلك النخلَ كلّه بيَدِه إلا نخلةً واحدة غَرسَها عمرُ بنُ الخطّاب، فأطعَم النّخل كلّه إلاّ تلك النخلة، فقال رسول الله ﷺ: «مَن غَرَسها»؟ قيل: عمر؛ فقَلَعها وغرَسَها رسول الله ﷺ بيَدِه فأطعَمَت[3].

قال أبو عمر: وكان سَلْمانُ يَسِفُّ الخُوص[4] وهو أميرٌ على المدائن ويَبيعه ويأكُل منه: ويقول: لا أُحِبّ أن آكُلَ إلاّ من عَمَل يدي، وكانَ قد تعلّم سَفّ الخُوصِ من المَدِينة.

وأوّل مَشاهِده الخَندَق، وهو الّذي أشار بَحفره، فقال أبو سُفْيان وأصحابُه لمّا رأوْه: هذه مَكيدَة ما كانت العرب تَكِيدها.

قال أبو عمر: وقد رُوِي أنّ سَلْمان شَهِد بَدْراً وأُحُداً، وهو عبدٌ يومَئذٍ؛ والأكثر أنّ أوّل مَشاهِدِه الخَنْدق، ولم يَفُته بعد ذلك مَشْهَد.

قال: وكان سَلْمان خَيّراً، فاضِلاً، حبراً، عالماً، زاهداً، متقشّفاً.

قال: وذَكَر هشامُ بنُ حَسّان عن الحسَن البَصْريّ، قال: كان عَطاءُ سَلمانَ خمسةَ آلاف، وكان إذا خرج عطاؤه تَصدّق به، ويأكُلُ من عَمَل يده، وكانت له عَباءةٌ يَفرِش بعضَها ويَلبَس بعضها.

قال: وقد ذكر ابن وَهْب وابنُ نافع أنّ سَلمان لم يكن له بيت، إنّما كان يَستظلّ بالجُدُر والشّجَر، وأنّ رجلاً قال له: ألا أَبنِي لك بيتاً تَسكُن فيه؟ قال: لا حاجة لي في ذلك؛ فما زال به

---

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله، المعروف بابن عبد البر المتوفى سنة (٤٦٣هـ)، وهو كتاب جليل القدر. «كشف الظنون» (١/ ٨١).

(٢) حديث عدم إحلال الصدقة أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: أخذ صدقة التمر عند حرام النحل (١٤٨٥)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله (١٠٦٩).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢١٨٣)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ٣٢١).

(٤) الخُوص: ورق النخل. القاموس المحيط، مادة (خوص).

الرجلُ قال له: أنا أعرفُ البَيْت الّذي يوافِقُك؛ قال: فصِفه لي، قال: أبني لك بَيْتاً إذا أنتَ قمتَ فيه أصابَ رأسَك سَقْفُه، وإن أنتَ مَدَدتَ فيه رِجْلَيْك أصابَهما الجِدار؟ قال: نَعمْ، فَبنَى له.

قال أبو عمر: وقد رُوِي عن رسول الله ﷺ من وجوه أنّه قال: «لو كان الدِّين في الثّريا لَنَاله سَلْمان»(١)، وفي روايةٍ أخرى «لَنَاله رجل من فارِس»(٢).

قال: وقد رَوينا عن عائشةَ قالت: كان لسَلْمان مَجلسٌ مِن رسول الله ﷺ ينفرد به باللّيل حتّى كاد يَغلِبنا على رسول الله ﷺ(٣).

قال: وقد رُوِي من حديثِ ابن بُرَيْدة، عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أمَرَني ربي بحُبّ أربعة، وأخبرني أنه يحبّهم: عليّ، وأبو ذَرّ، والمِقْداد، وسَلْمان»(٤).

قال: ورَوَى قتادة عن أبي هُرَيرة، قال: «سَلْمان صاحبُ الكِتابيْن»(٥) يَعني: الإنجيلَ والقرآن.

وقد رَوَى الأعمش، عن عَمْرو بن مرّة، عن أبي البَخْتَرِيّ، عن عليّ عليه السلام أنه سُئِل عن سَلْمان فقال: عَلِم العِلْمَ الأوّل، والعِلْمَ الآخِر، ذاكَ بحرٌ لا يُنْزَف، وهو منّا أهلَ البَيْت.

قال: وفي روايةِ زَاذانَ، عن عليّ عليه السلام: سَلمانُ الفارسيّ كلُقمانَ الحكيم.

قال: وقال فيه كَعْب الأحبار: سَلْمانُ حُشِيَ عِلْماً وحِكْمة.

قال: وفي الحديث المَرْوِيّ أنّ أبا سُفْيان مرّ على سَلْمان وصُهَيب وبلال في نفرٍ من المسلمين فقالوا: ما أخذتِ السيوفُ من عُنُق عدوّ الله مأخَذَها - وأبو سُفْيان يَسمَع قولَهم - فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لِشَيْخ قريشٍ وسيّدِها! وأتى النبيَّ ﷺ وأخبرَه فقال: «يا أبا بكر، لعلّك أغضبتَهم! لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ الله»، فأتاهم أبو بكر، فقال أبو بكر: يا إخوَتاه، لعلّي أغضبتكم! قالوا: لا يا أبا بكر، يَغفِر الله لك(٦).

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب»، عند ترجمة سلمان الفارسي، (٢/ ٦٣٦)، برقم (١٠١٤).

(٢) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ (٤٨٩٨)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فارس (٢٥٤٦).

(٣) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في الموضع السابق.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٨)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل سلمان وأبي ذر والمقداد (١٤٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٥٠٥).

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب عبد الله بن مسعود (٣٨١١)، والحاكم في «المستدرك» (٥٦٧٩).

(٦) أخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل سلمان وصهيب وبلال (٢٥٠٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١١٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٧٧)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٨).

قال: وآخى رسول الله ﷺ بينَه وبين أبي الدّرداء لمّا آخَى بين المسلمين[١].

قال: ولِسلمانَ فضائلُ جَمّة، وأخبارٌ حسان؛ وتوفيّ في آخِر خلافةِ عُثمانَ سنة خمس وثلاثين؛ وقيل: توفّي في أوّل سنة سِتّ وثلاثين. وقال قوم: توفّيَ في خلافة عمرَ، والأوّل أكثَر.

وأمّا حديثُ إسلام سَلمانَ فقد ذكره كثيرٌ من المحدّثين ورَوَوْه عنه، قال: كنتُ ابن دِهْقانِ قَرْية جَيّ من أصبهان، وبلغ من حُبّ أبي لي أنْ حبَسَني في البيت كما تُحبَس الجارية، فاجتهدتُ في المجوسيّة حتّى صرتُ قَطَن[٢] بيت النار، فأرسلَني أبي يوماً إلى ضَيْعة له، فمررتُ بكَنيسةِ النصارى، فدخلتُ عليهم، فأعجبتْني صَلاتُهم، فقلت: دين هؤلاء خير من ديني؛ فسألتُهم: أين أصلُ هذا الدّين؟ قالوا: بالشام، فهرَبْتُ مِن والدي حتّى قدِمتُ الشام، فدخلتُ على الأسْقُف فجعلتُ أخدُمه وأتعلّم منه، حتّى حضرَتْه الوَفاة، فقلتُ: إلى مَنْ تُوصِي بي؟ فقال: قد هَلَك الناس وتَركُوا دينَهم إلاّ رجلاً بالمَوْصل فالحقْ به، فلمّا قَضَى نحْبَه لحقتُ بذلك الرّجل فلم يَلبَث إلاّ قليلاً حتى حضرتْه الوفاة، فقلتُ: إلى مَنْ تُوصِي بي؟ فقال: ما أعلم رجلاً بقي على الطّريقة المستقيمة إلاّ رجلاً بنَصِيبين، فلحقتُ بصاحب نَصيبينَ. قالوا: وتلك الصَّوْمَعة اليومَ باقية، وهي الّتي تعبّد فيها سَلْمان قبلَ الإسلام. قال: ثمّ احتُضِر صاحب نَصيبين، فبعَثني إلى رجل بعَمّوريّةَ من أرض الروم، فأتيتُه وأقمتُ عنده، واكتسبتُ بُقَيْرات وغُنَيْمات، فلما نَزَل به الموت قلتُ له: بمنَ تُوصِي بي؟ فقال: قد ترك الناسُ دينَهم، وما بقيَ أحدٌ منهم على الحقّ؛ وقد أظلّ زمانُ نبيّ مبعوث بدِينِ إبراهيمَ، يَخرُج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حَرّتين، لها نخل، قلت: فما علامَتُه؟ قال: يأكل الهدّية، ولا يأكل الصّدقة، بين كتِفيه خاتَمُ النبوّة.

قال: ومر بي رَكب من كلْب، فخرجتُ معهم، فلمّا بلغوا بي وادي القُرى ظَلموني وباعوني من يهودِيّ، فكنتُ أعمل له في زَرْعه ونخله، فبيْنا أنا عنده إذ قدِم ابن عمٍّ له، فابتاعني منه، وحملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها، وبعث الله محمداً بمكة، ولا أعلم بشيء من أمره، فبينا أنا في رأس نخلة إذ أقْبلَ ابنُ عمٍّ لسيّدِي، فقال: قاتل الله بني قَيْلة، قد اجتمعوا على رَجُلٍ بقُباءَ قدم عليهمْ من مَكة، يزعمون أنه نبيّ؛ قال: فأخذَني القُرّ[٣] والانتفاض، ونزلتُ عن النّخلة، وجعلتُ أستقصي في السّؤال، فما كلمّني سيدي بكلمة، بل

(١) حديث المؤاخاة أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: صنع الطعام والتكلف للضيف (٦١٣٩)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: منه، (٢٤١٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٠).

(٢) قطن النار: خازنها وخادمها، ويجوز أنه كان مقيماً عليها. لسان العرب، مادة (قطن).

(٣) القُرُّ: البرد. القاموس المحيط، مادة (قرر).

قال: أَقْبِلْ على شَأنِك، ودَعْ ما لا يَعْنِيك. فلمّا أمسَيْت أخذتُ شيئاً كان عندي من التمر، وأتيتُ به النبيّ ﷺ فقلت له: بلغني أنك رجلٌ صالح، وأن لك أصحاباً غُرَباء ذَوي حاجة، وهذا شيء عندي للصدقة، فرأيتكم أحقّ به مِن غيركم، فقال ﷺ لأصحابه: «كلوا»، وأمسك فلم يأكل؛ فقلت في نفسي: هذه واحدة، وانصرفتُ، فلما كان من الغد أخذتُ ما كان بقيَ عندي وأتيته به، فقلت له: إني رأيتُك لا تأكل الصدقة، وهذه هديّة، فقال: «كلوا وأكل معهم»، فقلتُ إنه لهوَ. فأكببت عليه أقبّله وأبكي؛ فقال: ما لك؟ فقَصَصْت عليه القصّة؛ فأعجبه، ثم قال: يا سَلْمان، كاتِبْ صاحِبك، فكاتبته على ثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ للأنصار: «أعينوا أخاكم»، فأعانوني بالنخل حتى جمعت ثلاثمائة ودية، فوضعها رسول الله ﷺ بيده، فصحّت كلّها، وأتاه مالٌ من بعض المَغازي، فأعطاني منه، وقال: «أَدِّ كتابتَك. فأدّيت وعَتَقت»(١).

وكان سَلْمان مِن شيعة عليّ ﷺ وخاصّته، وتَزْعُم الإماميّة أنه أحدُ الأربعة الّذين حَلَقوا رؤوسهم وأتوه متقلّدي سيوفِهم في خبر يَطُول؛ وليس هذا موضع ذكره، وأصحابنا لا يخالفونهم في أن سلمان كان من الشيعة، وإنما يخالفونهم في أمرٍ أزيد من ذلك؛ وما يذكره المحدثون من قوله للمسلمين يوم السقيفة: كرديد ونكرديد محمولٌ عند أصحابنا على أن المراد صنعتمْ شيئاً وما صنعتم، أي استخلفتم خليفةً ونعم ما فعلتم، إلا أنكم عدَلْتم عن أهل البيت، فلو كان الخليفة منهم كان أولى؛ والإمامية تقول: معناه: «أسلمتم وما أسلمتم»، واللفظة المذكورة في الفارسية لا تُعطي هذا المعنى، وإنما تدلّ على الفعل والعمل لا غير، ويدل على صحّة قول أصحابنا أن سلمان عمل لعمر على المدائن، فلو كان ما تنسبه الإماميّة إليه حقاً لم يعمل له(٢).

فأما ألفاظ الفَصْل ومعانيه فظاهرة، ومما يُناسِب مضمونه قول بعض الحكماء: تَعَزَّ عن الشيء إذا مُنِعْتَه، بقلّة صحبته لك إذا أُعْطِيتَه.

وكان يقال: الهالِك على الدنيا رجلان: رجلٌ نافس في عِزِّها، ورجلٌ أَنِفَ من ذُلِّها.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٢٢٥)، والبزار في «مسنده» (٢٥٠٠) والطبراني في «الكبير» (٦٠٦٥).

(٢) أقول: يمكن لقائل أن يقول: بعد انتهت قصة السقيفة وبعد استقرار خلافة الأول والثاني رأى سلمان مصلحة كبيرة للإسلام إذا تولى هذا المنصب لا تدرك فيما لو تولاها غيره، وهذا يوجب على سلمان القبول حتى لو كان مخالفاً لقاعدة الخلافة ولعبة السقيفة.

ومرّ بعض الزهّاد بباب دارٍ وأهلُها يبكون مَيْتاً لهم؛ فقال: واعجباً لقومٍ مسافرين! يبكون مسافراً قد بلغ مَنزله!

وكان يقال: يابن آدم، لا تأسف على مَفْقود لا يردُّه عليك الفَوْت، ولا تَفْرَح بمَوْجود لا يتركُه عليك الموت.

لقي عالمٌ من العُلَماء راهباً فقال: أيُّها الراهب، كيف ترى الدنيا؟ قال: تُخْلِق الأبدان، وتجدّد الآمال، وتُباعِد الأمنيّة، وتقرّب المنيّة؛ قال: فما حالُ أهلها؟ قال: مَن ظفر بها نَصَب، ومن فاتَته أسف؛ قال: فكيف الغِنَى عنها؟ قال: بقطع الرّجاء منها؛ قال: فأيّ الأصحاب أبرّ وأوفى؟ قال: العمل الصالح؛ قال: فأيّهم أضرّ وأنكى؟ قال: النفسُ والهوى؛ قال: فكيف المخرج؟ قال: في سلوك المنهج، قال: وبماذا أسلكه؟ قال: بأن تخلع لِباس الشّهوات الفانية، وتعمل للدّار الباقية.

٦٩ – ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمدانيّ

الأصل: وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرآنِ وَانْتَصِحْهُ، وَأَحِلَّ حَلاَلَهُ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ، وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ، وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً، وَآخِرَهَا لاَحِقٌ بِأَوَّلِهَا، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ.

وَعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلاَّ عَلَى حَقٍّ، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلاَ تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلاَّ بِشَرْطٍ وَثِيقٍ.

وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ، وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلاَنِيَةِ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ وَاعْتَذَرَ مِنْهُ. وَلاَ تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ الْقَوْمِ، وَلاَ تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً، وَلاَ تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلاً.

وَاكْظِمِ الْغَيْظَ، وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ، وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ، وَلاَ تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ عِنْدَكَ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، وَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ.

وَاحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ، وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ.

وَاسْكُنِ الأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ، وَقِلَّةِ الأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَاقْصِرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ.

وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ، وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ، وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ.

وَلاَ تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلاَةَ إِلاَّ فَاصِلاً فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ. وَأَطِعِ اللهَ فِي جُمَلِ أُمُورِكَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا، وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا تَقْهَرْها، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا، إِلاَّ مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، فَإِنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا، وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا.

وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ.

وَوَقِّرِ اللهَ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ، وَاحْذَرِ الْغَضَبَ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ؛ وَالسَّلاَمُ.

الحارث الأعور

الشرح: هو الحارث الأعور صاحبُ أمير المؤمنين عليه السلام؛ وهو الحارث بنُ عبد الله بن كعب بن أسد بن نَخْلة بن حَرث بن سَبُع بن صَعْب بن معاوية الهَمْدانيّ، كان أحد الفُقهاء، له قولٌ في الفُتْيا، وكان صاحب عليّ عليه السلام، وإليه تنسب الشِّيعة الخطاب الذي خاطبه به في قوله عليه السلام:

يـا حـارِ هَـمْـدان مـن يـمـتْ يَـرَنِـي ... مِـنْ مـؤمـنٍ أو مـنـافـقٍ قِـبَـلا

وهي أبياتٌ مشهورة قد ذكرْناها فيما تقدّم.

بعض الأقوال الحكمية

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جليلة الموقع:

منها قوله: «وتمسّكْ بِحَبْل القرآن»، جاء في الخبر المرفوع لما ذكر الثَّقَلَيْن فقال: «أحدهما كتابُ الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض طَرَف بيد الله وطرف بأيديكم»(١).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أهل البيت (٣٧٨٨)، وأحمد في «مسنده» (١٠٧٤٧)، والطبراني في «الصغير» (٣٦٣).

ومنها قوله: «انتصحه» أي عُدَّه ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه.

ومنها قوله: «وأحِلَّ حلاله وحَرِّم حرامه»، أي: احكم بين الناس في الحلال والحرام بما نصّ عليه القرآن.

ومنها قوله: «وصدِّق بما سلف من الحق» أي: صدِّق بما تضمنَّه القرآن من أيام الله وَمثُلاته في الأمم السالفة لما عصوْا وكذّبوا.

ومنها قوله: «واعتبر بما مضى من الدّنيا لما بقي منها».

وفي المثل: إذا شئت أن تنظر الدنيا بعدَك فانظرها بعد غيرك، وقال الشاعر:

وما نحنُ إلاّ مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلاً بعدهمْ ثم نرحَلُ

ويناسب قوله: «وآخرُها لاحقٌ بأولها، وكلها حائل مُفارق» قوله أيضاً عليه السلام في غير هذا الفصل الماضي: «للمقيم عِبرة، والميت للحيّ عِظة، وليس لأمس عودة، ولا المرءُ من غدٍ على ثقة، الأول للأوسط رائد، والأوسط للأخير قائد؛ وكلٌّ بكلّ لاحق، والكلُّ للكلّ مُفارق».

ومنها قوله: «وعَظِّم اسم الله أن تذكره إلا على حَق»، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾[1]، وقد نهى عن الحلف بالله في الكذب والصدق، أمّا في أحدهما فمحرّم وأما في الآخر فمكروه، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى في لغْو القول والهزءِ والعبث.

ومنها قوله: «وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت»، جاء في الخبر المرفوع: «أكثرُوا ذكر هاذم اللذّات»[2]، وما بعد الموت: العقابُ والثوابُ في القبر وفي الآخرة.

ومنها قوله: «ولا تتمنَّ الموت إلا بشرط وثيق»، هذه كلمةٌ شريفة عظيمة القدْر، أي لا تتمنّ الموتَ إلا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدّيك إلى الجنة، وتُنقِذك من النار؛ وهذا هو معنى قوله تعالى لليهود: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[3].

ومنها قوله: «واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه، ويكرهه لعامة المسلمين، واحذر كل عمل يُعمل في الستر، ويُستحيا منه في العلانية، واحذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه»، وهذه الوصايا الثلاث متقاربةٌ في المعنى، ويشملها معنى قول الشاعر:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٤.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٧)، والنسائي، كتاب: الجنائز، باب: كثرة ذكر الموت (١٨٢٤)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٥٨)، وأحمد في «مسنده» (٧٨٦٥).

(٣) سورة الجمعة، الآيتان: ٦، ٧.

لا تــنــهَ عــن خُــلــق وتــأتــيَ مــثــلــهُ ... عــار عــلــيــك إذا فــعــلــتَ عــظــيــمُ

وقال الله تعالى حاكياً عن نبيٍّ من أنبيائه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[1].

ومن كلام الجُنَيد الصّوفيّ: لِيَكُن عَمَلُك من وراء سترك كعَمَلك من وراء الزّجاج الصافي.

وفي المثل وهو منسوبٌ إلى عليّ عليه السلام: إيّاك وما يُعتذر منه[2].

ومنها قوله: «ولا تَجعَل عِرْضك غَرَضاً لنبال القوم»، قال الشاعر:

لا تــســتــثــرْ أبــداً مــا لا تَــقــومُ لــه ... ولا تُــهــيــجــنّ مــن عِــرّيــسِــهِ الأسَــدَا

إنّ الــزنّــابــيــرَ إنْ حــرّكــتــهــا سَــفَــهــاً ... مِن كورها أوجعتْ مِن لَسْعِها الجَسَدا

وقال:

مَــقــالــةُ الــسُّــوءِ إلــى أهــلــهــا ... أســرَعُ مــن مُــنــحَــدِرٍ ســائِــلِ

ومَــنْ دَعَــا الــنــاس إلــى ذمّــه ... ذمُّــوه بــالــحــقّ وبــالــبــاطــلِ

ومنها قوله: «ولا تُحَدِّث الناسَ بكُل ما سمعتَ، فكفى بذلك كَذِباً»، قد نهى أن يحدّث الإنسان بكلّ ما رأى من العَجائب فَضْلاً عمّا سَمِع، لأنّ الحديثَ الغريبَ المعجبَ تُسارع النفسُ إلى تكذيبه، وإلى أن تقوم الدّلالة على صِدْقه قد فَرّط من سوء الظنّ فيه ما فرط.

ويقال: إن بعض العَلويّة قال في حَضْرة عَضُد الدولة ببغداد: عندنا في الكُوفة نَبِقٌ وَزْنُ كلّ نَبِقةٍ مثقالان. فاستطرَف المِلِك ذلك، وكاد يكذّبه الحاضرون، فلمّا قام ذكر ذلك لأبيه، فأرسَل حَماماً كان عنده في الحال إلى الكوفة يأمر وكلاءه بإرسال مائةِ حمامةٍ، في رجلي كلّ واحدة نبقّتان من ذلك النّبق، فجاء النّبق في بُكْرة الغَدِ وحُمل إلى عَضُد الدّولة، فاستحسَنه وصدّقه حينئذٍ، ثم قال له: لَعَمري لقد صدَقت، ولكن لا تحدّث فيما بعدُ بكلّ ما رأيتَ من الغرائب، فليس كلّ وقت يتهيّأ لك إرسال الحمام.

وكان يقال: الناس يَكتُبون أحسنَ ما يَسمعون، ويَحفَظون أحسن ما يَكتبون، ويتحدّثون بأحسن ما يَحفَظون؛ والأصدق نوع تحت جنْس الأحْسن.

ومنها قوله: «ولا تردّ على الناس كل ما حدّثوك، فكفى بذلك جَهْلاً»، من الجَهْل المبادرة بإنكار ما يَسمَعه، وقال ابنُ سينا في آخر «الإشارات»[3]: إيّاك أن يكون تكيّسك وتبرّؤك من

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٢) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٧٢)، برقم (١٧٢).

(٣) الإشارات والتنبيهات في المنطق والحكمة للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله الشهير بابن سينا، المتوفى سنة (٤٢٨هـ)، وهو كتاب: صغير الحجم كثير العلم مُسْتَصْعَبٌ على الفهم منطوٍ على كلام أولي الألباب. «كشف الظنون» (١/ ٩٤).

العامة، هو أن تَنبري منكِراً لكلّ شيء، فلذلك عَجْز وطَيْش، وليس الخُرْق في تكذيبك ما لم يَستبِنْ لك بعد جليّته دون الخُرق في تصديقِكِ بما لم تَقُم بين يدَيْك بيّنةٌ، بل عليك الاعتصام بَحبْل التوقّف وإن أزعَجك استنكار ما يُوعيه سَمْعك ممّا لم يبرهن على استحالته لك، فالصواب أن تسرّح أمثالَ ذلك إلى بُقعة الإمكان، ما لم يَذُدك عنها قائمُ البُرْهان.

ومنها قوله: «واكظم الغَيْظ» قد مَدَح الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾، ورُوِي أن عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدم إليه صَحْفة فيها طعام حارّ، فعجل فصبّها على رأسه ووجهه، فغَضِب، فقال له: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾؛ قال: قد كظَمْت، قال: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ قال: قد عفوتُ، قال ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]، قال: أنت حرّ لوجه الله، وقد نَحلتُك ضَيْعتي الفلانيّة.

ومنها قوله: «واحلُم عند الغَضَب»، هذه مُناسَبة الأولى، وقد تقدّم منّا قولٌ كثيرٌ في الحِلْم وفضله؛ وكذلك القول في قوله عليه السلام: «وتجاوَزْ عند القدرة»، وكان يقال: القُدْرة تذهب الحَفيظة.

ومنها قوله: «واصفحْ مع الدّولة تكنْ لكَ العاقبة»؛ هذه كانت شيمةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشيمة عليّ عليه السلام؛ أمّا شيمةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فظفِرَ بمشركي مكّة وعفا عنهم[2]، كما سبق القولُ فيه في عام الفَتْح؛ وأمّا عليّ عليه السلام فظفِرَ بأصحاب الجمل وقد شقّوا عصا الإسلام عليه، وطَعَنوا فيه وفي خلافتِه، فعفا عنهم، مع علمه بأنّهم يُفسدون عليه أمره فيما بعد، ويَصِيرون إلى معاوية، إمّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم، وهذا أعظمُ من الصّفح عن أهل مكّة، لأنّ أهل مكّة لم يَبقَ لهم لمّا فُتِحت فئةٌ يتحيّزون إليها، ويُفسِدون الدّين عندها.

ومنها قوله: «واستَصلح كلّ نعمةٍ أنعَمها الله عليك» معنى استَصِلحْها استَدِمْها، لأنّه إذا استدامها فقد أصلَحها، فإنّ بقاءَهَا صلاحٌ لها، واستدامتها بالشكر.

ومنها قوله: «ولا تضيّعنّ نعمة من نعم الله عندَك»، أي واسِ الناسَ منها، وأَحْسِن إليهم، واجعل بعضها لنَفْسك وبعضها للصّدقة والإيثار، فإنّك إن لم تفعلْ ذلك تكنْ قد أضَعْتَها.

ومنها قوله: «وليُرَ عليك أثرُ النّعمة» قد أمَر بأنْ يُظهر الإنسان على نفسِه آثارَ نعمةِ الله عليه، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[3]. وقال الرشيد لجعفر: قمْ بنا لنمضي إلى منزل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١٨)، والربيع في «مسنده» (٤١٩)، والحكم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٣٢٥).

(٣) سورة الضحى، الآية: ١١.

الأصمعيّ، فمضيا إليه خِفْية ومعهما خادمٌ معه ألفُ دينار ليَدْفَع ذلك إليه، فدَخَلا دارَه فوجدا كَساءً جَرْداءَ، وباريّة[1] سَمْلاء[2]، وحصيراً مقطوعاً، وخباءً قديمة، وأباريق من خزف، ودَواةً من زُجاج، ودَفاترَ عليها التراب وحيطاناً مملوءةً من نَسْج العناكِب، فوَجَم الرشيدُ، وسأله مسائلَ غَثّةً لم تكن من غَرَضه، وإنّما قطع بها خَجَله؛ وقال الرشيد لجعفر: ألا ترى إلى نفْس هذا المهين، قد بررناه بأكثر من خمسين ألفَ دينار وهذه حالُه، لم تَظهر عليه آثارُ نعمتنا! والله لا دفعتُ إليه شيئاً، وخرج ولم يُعطِه.

ومنها قوله: «واعلم أنّ أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسِه وأهله وماله»، أي أفضلهم إنفاقاً في البرّ والخير في مالِه، وهي التَّقدمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾[3]، فأمّا النفس والأهل، فإنَّ تقدِمتهما في الجهاد، وقد تكون التّقدمة في النَّفس بأن يشفعَ شفاعةً حسنةً أو يحضر عند السّلطان بكلام طيّب، وثناءٍ حَسَن، وأن يُصلِح بين المُتخاصِمَين، ونحو ذلك. والتَّقدمة في الأهل أن يحجّ بوَلَده وزَوْجته ويكلِّفها المشاقّ في طاعة الله، وأن يؤدِّب ولده إن أذنَب، وأن يقيمَ عليه الحدّ، ونحو ذلك.

ومنها قوله: «وما تُقدمْ من خيرَ يبق لك ذُخره وما تؤخره يكنْ لغيرك خيرُه»، وقد سبق مثلُ هذا، وأنَّ ما يتركه الإنسانُ بعده فقد حُرِم نفعه، وكأنّما كان يكدَح لغيره، وذلك من الشّقاوة وقلة التوفيق.

ومنها قولُه: «واحذر صحابَة من يَفِيلُ رأيه» الصحابة بفتح الصاد، مَصدر صحبت والصِّحابة بالفتح أيضاً جَمعُ صاحب، والمرادُ ها هُنا الأوّل، وفال رأيُه: فَسَد؛ وهذا المعنى قد تَكرّر، وقال طَرَفة:

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قَرينِهِ ... فإنَّ القَرينَ بالمُقارن يَقتدي

ومنها قوله: «واسكُن الأمْصار العظام»، قد قيل: لا تسكن إلا في مصر فيه سوقٌ قائمة، ونهرٌ جارٍ، وطبيبٌ حاذق، وسلطانٌ عادل، فأما مَنازل الغَفْلة والجفاء، فمِثلُ قُرَى السّواد الصغار، فإنّ أهلها لا نُورَ فيهم، ولا ضوءَ عليهم، وإنما هم كالدّواب والأنعام، هَمُّهم الحَرْث والفِلاحة، ولا يفقهون شيئاً أصْلاً، فمجاوَرَتهم تُعمِي القلب، وتُظلِم الحِسّ، وإذا لم يَجِد الإنسانُ مَنَ يُعينه على طاعةِ الله وعلى تَعلُّم العِلم قصَّر فيهما.

ومنها قوله: «واقصر رأيَك على ما يَعْنيك»؛ كان يقال: من دَخَل فيما لا يَعْنيه فاتَه ما يَعْنيه.

---

(١) البَاريَّة: الحَصير المنسوج. لسان العرب، مادة (بور).
(٢) سَملاء: خَلِقَة. لسان العرب، مادة (سمل).
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

ومنها نَهيُهُ إيّاه عن القُعود في الأسْواق؛ قد جاء في المَثَل: السُّوق محلّ الفُسوق. وجاء في الخبر المرفوع: «الأسواقُ مَواطنُ إبليس وجندِهِ»، وذلك لأنّها قلّما تخلو من الأيْمان الكاذبة، والبيُوع الفاسدة، وهي أيضاً مَجمَع النّساء المُومِسات، وفجّار الرجال، وفيها اجتماعُ أرباب الأهواء والبِدَع، فلا يخلُو أن يَتجادَل اثنان منهم في المذاهب والنِّحَل فيُفضِي إلى الفِتَن.

ومنها قوله: «وانظر إلى من فُضِّلْتَ عليه»؛ كان يقال: انظُر إلى مَن دُونَك، ولا تَنظُر إلى مَنْ فَوْقَك. وقد بيّن عليه السلام السرّ فيه فقال: إنّ ذلك من أبواب الشّكر، وصَدَق عليه السلام، لأنّك إذا رأيتَ جاهلاً وأنتَ عالم، أو عالماً وأنت أعلَمُ منه، أو فقيراً وأنتَ أغْنَى منه؛ أو مُبتلًى بسَقَم وأنتَ مُعافًى عنه، كان ذلك باعثاً وداعِياً لك إلى الشكر.

ومنها نهيُه عن السّفر يومَ الجمعة، ينبغي أن يكون هذا النهيُ عن السُّفَر يومَ الجمعة قبلَ الصلاة، وأمّا بعدَ الصلاة، فلا بأس به، واستَثْنَى فقال: إلا فاصلاً في سبيل الله، أي شاخِصاً إلى الجهاد.

قال: «أو في أمرٍ تُعذَر به»، أي لضرورة دَعَتْك إلى ذلك.

وقد وَرَد نهيٌ كثيرٌ عن السّفر يومَ الجمعة قبل أداءِ الفرض، على أن من الناس من كَرِه ذلك بعد الصّلاة أيضاً، وهو قولٌ شاذّ.

ومنها قولُه: «وأطعِ الله في جُمَل أمورك»، أي في جُمْلَتها، وفيها كلّها، وليس يَعني في جُملَتها دونَ تفَاصِيلها. قال: «فإنّ طاعةَ الله فاضلةٌ على غيرها»، وصَدَق عليه السلام، لأنّها توجب السعادةَ الدائمة، والخلاصَ من الشّقاء الدائم، ولا أفضلَ ممّا يؤدّي إلى ذلك.

ومنها قوله: «وخادِعْ نَفسَك في العبادة»؛ أمَرَه أن يتلَطّف بنفسه في النّوافل، وأن يُخادِعَها ولا يقْهَرها فتَملَّ وتَضجَر وتترُك، بل يَأخذ عفوَها، ويتوخّى أوقات النشاط، وانشراحَ الصّدر للعبادة.

قال: فأمّا الفرائض فحُكمُها غيرُ هذا الحُكم، عليك أن تقوم بها؛ كرِهَتْها النفسُ أو لم تكرَهْها. ثمّ أمَرَه أن يقومَ بالفريضة في وقتِها، ولا يؤخّرها عنه فتصيرَ قضاءً.

ومنها قولُه: «وإيّاك أن يَنزِل بك المنون وأنتَ آبِقٌ من ربّك في طَلب الدّنيا»؛ هذه وصيّة شريفة جدًا، جَعل طالبَ الدنيا المُعرِضَ عن الله عند مَوْته كالعَبْد الآبِق يقدم به على مَوْلاه أسيراً مكتوفاً ناكِسَ الرأس، فما ظنّك به حينئذٍ!

ومنها قولُه: «وإيّاك ومصاحَبَة الفُسّاق، فإنّ الشرّ بالشرّ مُلحَق»؛ يقول: إنّ الطباع يَنزع بعضُها إلى بعض، فلا تَصحَبنّ الفُسّاق فإنّه يَنزِع بك ما فيك من طَبْع الشرّ إلى مساعَدَتهم على الفُسوق والمَعصِية، وما هو إلاّ كالنّار تَقوَى بالنار، فإذا لم تُجاوِرْها وتُمازِجْها نارٌ كانت إلى الانطِفاء والخمُود أقرب.

ورُوِي «مُلحِق» بكسر الحاء، وقد جاء ذلك في الخبر النبويّ «فإن عذابَك بالكفّار مُلحِق»(١) بالكسر.

ومنها قولُه: «واحِبّ أحبّاءه»، قد جاء في الخبر: «لا يَكمُل إيمانُ امرئٍ حتّى يُحبّ مَن أحَبّ الله، ويُبغض من أبغَض الله»(٢).

ومنها قولُه: «واحذَر الغَضَب»، قد تقدّم لنا كلامٌ طويل في الغَضَب. وقال إنسانٌ للنّبيّ ﷺ: أوصِني؛ قال: «لا تَغضَب»، فقال: زِدْني؛ فقال: «لا تغضب»؛ قال: زِدْني؛ قال: «لا أجدُ لك مَزيداً»(٣)، وإنّما جعلَه عليه السلام جُنْداً عظيماً من جُنودِ إبليس، لأنّه أصلُ الظّلم والقَتْل وإفسادِ كلّ أمرٍ صالح، وهو إحدى القوّتين المشؤومَتين اللّتين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان، وهما مَنبَع الشّر: الغَضَب والشَّهْوَة.

٧٠ - ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حُنيف الأنصاريّ وهو عامله على المدينة، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُون إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلاَ تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ غَيًّا، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً فِرَارُهُم مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً! إِنَّهُمْ وَاللهِ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

الشرح: قد تقدّم نسبُ سَهْل بن حُنيف وأخيه عثمانَ فيما مضى.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢١١)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٤٩٦٩)، و«شرح معاني الآثار» للطحاوي (١/ ٢٤٩)، والمقريزي في «مختصر كتاب الوتر» (ص ١٤٢)، وأبو داود في «المراسيل» (٨٩).

(٢) أخرجه محمدي الريشهري بما معناه ميزان الحكمة: ١/ ١٩٧.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده بما معناه: ٥/ ٣٤، وأخرجه البخاري بما معناه في صحيحه: ٧/ ١٠٠.

ويتسلّلون: يَخرُجون إلى معاويةَ هاربِين في خِفْية واستتار.

قال: «فلا تأسَفْ» أي لا تحزن. والغيّ: الضلال.

قال: «ولك منهم شافياً»، أي يكفيك في الانتقام منهم وشفاءِ النّفس من عقوبَتِهم أنّهم يتسلّلون إلى معاوية. قال: ارض لمن غاب عنك غَيْبَته، فذاك ذَنْبٌ عِقابُهُ فيه.

والإيضاع: الإسراع. وَضَعَ البعيرُ أي أسرَعَ، وأوْضَعَه صاحبُه، قال:

رَأى بَـرْقـاً فَـأوْضَـعَ فـوقَ بَـكْـرٍ   فـلا يَـكُ مـا أسـالَ ولا أعـلـمَـا

ومُهْطِعون: مُسرعون أيضاً، والأثَرَة: الاستئثار، يقول: قد عَرَفوا أنّي لا أقسِم إلاّ بالسّويّة، وأنّي لا أنفّل قوماً على قوم، ولا أعطِي على الأحساب والأنساب كما فعل غيري، فتَركوني وهَرَبوا إلى مَنْ يَستأثرُ ويُؤْثِرُ. قال: «فبُعْداً لهم وسُحْقاً»، دعاءٌ عليهم بالبُعْد والهلاك.

ورُوِي أنّهم لم «يَنْفِروا» بالنّون، من نَفَرَ؛ ثم ذكر أنّه راجٍ من الله أن يذلّلَ له صَعْبَ هذا الأمر، ويُسهّل له حَزْنه؛ والحَزْن، ما غَلُظ من الأرض، وضدّه السَّهْل.

٧١ - ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبديّ وقد كان استعمله على بعض النواحي، فخان الأمانة في بعض ما ولاه من أعماله

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لاَ تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً، وَلاَ تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ؛ وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ. وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يُنَفَّذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ.

قال الرضي رضي الله عنه: الْمُنْذِرُ بن الجارود هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنَّهُ لَنَظَّارٌ فِي عِطْفَيْهِ مُخْتَالٌ فِي بُرْدَيْهِ، تَفَّالٌ فِي شِرَاكَيْهِ.

المنذر وأبوه الجارود

الشرح: هو المُنذِر بنُ الجارود. واسم الجارود بِشْرُ بنُ خُنَيس بن المعلّى؛ وهو الحارثُ بنُ زَيد بن حارثة بن معاوية بنِ ثعلبة بن جَذيمة بنِ عَوْف بن أنمار بن عَمْرو بن وديعة بن

لُكَيْز بن أفصى بن عبد القَيْس بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أَسَد بن رَبِيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عَدْنان، بيتُهم بيتُ الشّرف في عَبْد القيس، وإنّما سُمّي الجارودُ لبَيْتٍ قاله بعضُ الشُعراء فيه في آخره:

كـمـا جـرَدَ الـجـارودُ بـكـر بـنَ وائـل

ووفد الجارودُ على النبيّ ﷺ في سنة تسع، وقيل: في سنة عشرٍ. وذكَر أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ في كتاب «الاستيعاب» أنه كان نصرانيًا فأسلم وحَسُن إسلامُه، وكان قد وفَد مع المُنذِر بنِ ساوَى في جماعةٍ من عبدِ القَيْس، وقال:

شـهـدتُ بـأنّ الله حـقٌّ وسـامَـحَـتْ بَـنـاتُ فـؤادي بـالـشّـهـادة والـنَّـهْـض
فـأبـلِـغْ رسـولَ الله مـنّـي رسـالـةً بأنّي حَنِيفٌ حيثُ كنتُ من الأرْضِ

قال: وقد اختُلِف في نسبه اختلافاً كثيراً، فقيل: بِشْر بن المعلّى بن خُنَيس؛ وقيل: بِشْر بن خُنَيس بن المعلىّ، وقيل: بِشْر بن عَمْرو بن العَلاء، وقيل: بِشْر بنُ عمرو بن المعلّى، وكنيته أبو عتّاب، ويكنى أيضاً أبا المُنذِر. وسَكَن الجارودُ البَصْرة، وقُتِل بأرض فارسَ؛ وقيل: بل قُتِل بنهاوَنْد مع النّعمان بن مُقرّن. وقيل: إن عثمان بنَ العاص بعثَ الجارود في بَعْثٍ نحو ساحل فارس، فقتِل بمَوْضع يُعرَف بعَقَبة الجارود، وكان قبلَ ذلك يُعرَف بعَقَبة الطّين؛ فلمّا قتِل الجارودُ فيه عرّفه الناسُ بعَقَبة الجارود، وذلك في سنة إحدى وعشرين. وقد رَوَى عن النبيّ ﷺ أحاديث ورويَ عنه، وأمّه دريمكة بنت رُوَيم الشّيبانية.

وقال أبو عُبَيدة معمر بنُ المثنّى في كتاب «التّاج»: إن رسول الله ﷺ أكرم الجارود وعبدَ القيس حين وَفَدا إليه، وقال للأنصار: «قوموا إلى إخوانكم، وأشبه الناس بكم»[1]؛ قال: لأنهم أصحاب نَخْلٍ، كما أن الأوْس والخَزْرج أصحابُ نخل، ومسكنهم البَحْرين واليمامة. قال أبو عبيدة: وقال عمرُ بنُ الخطاب: لولا أني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر لا يكون إلا في قريش»[2] لما عدلتُ بالخلافة عن الجارود بن بشر بن المعلّى، ولا تخالجني في ذلك الأمور.

قال أبو عبيدة: ولعبد القيس ستّ خصال فاقت بها على العَرَب؛ منها: أسوَدُ العَرَب بَيْتاً، وأشرَفُهم رَهْطاً الجارود هو ووَلَدُهُ.

ومنها أشجَع العَرَب حكيمُ بنُ جَبَلة، قُطِعتْ رجله يومَ الجمل، فأخَذَها بيَدِه وزَحَف على قاتله فضربَهَ بها حتى قَتَله، وهو يقول:

---

(١) أخرجه النسائي في سننه بما معناه ح: ١٨٠٢.

(٢) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب قريش (٣٥٠٠)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: الناس تبع لقريش (١٨٢٠)، وأحمد في «مسنده» (٤٨١٧)، والدارمي، كتاب: السير، باب: الإمارة في قريش (٢٥٢١).

يــا نــفــسُ لا تُــراعِــي إنْ قُــطِــعــتْ كُــراعِــي
إنّ مــعــي ذِراعــي

فلا يُعرَف في العرب أحدٌ صَنَع صَنيعه.

ومنها أعبَدُ العَرَب هَرِم بن حَيّان صاحب أوَيْس القَرَنيّ.

ومنها أجود العَرَب عبدُ الله بن سواد بن همّام، غزا السِّنْد في أربعة آلاف، ففتحَها وأطْعم الجيش كلّه ذاهباً وقافلاً، فبلغه أنّ رجلاً من الجيش مَرِض، فاشتهى خَبِيصاً[1]، فأمر باتّخاذ الخبيص لأربعة آلافِ إنسان، فأطعَمَهم حتّى فضل، وتقدّم إليهم ألّا يُوقد أحدٌ منهم ناراً لطعام في عَسكره مع ناره.

ومنها أخطب العربِ مَصقَلة بن رقبة، به يُضرَب المَثَل فيقال: أخطبُ من مَصْقلة.

ومنها أهْدَى العرب في الجاهليّة وأبعَدُهُم مغاراً وأثَراً في الأرض في عَدْوه، وهو دُعَيْمِيص الرّمل كان يُعرَف بالنجوم هدايةً، وكان أهدى من القَطا، يدفن بيضَ النّعام في الرّمل مملوءًا ماءً ثم يعود إليه فيستخرجه.

فأما المُنذِر بن الجارُود فكان شريفاً، وابنُه الحكم بن المُنذِر يتلوه في الشّرف، والمنذِر غيرُ معدود في الصّحابة، ولا رَأى رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا وُلِد له في أيّامه، وكان تائهاً معجَباً بنفسه، وفي الحَكم ابنِه يقول الراجز:

يـا حَـكَـم بـن الـمـنـذِر بـن الـجـارُودْ أنـتَ الـجـوادُ ابـن الـجـوادِ الـمـحـمـودْ
سُـرادقُ الـمـجـدِ عـلـيـك مـمـدودْ

وكان يقال: أطْوعُ الناسِ في قَوْمه الجارُودُ بن بِشْر بن المعلّى، لما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله فارتدّت العَرَب، خَطَب قومَه فقال: أيّها الناس، إن كان محمد قد مات فإن الله حيّ لا يموت فاستمسِكوا بدينكم، ومن ذهب له في هذه الفتنة دينارٌ أو درهم أو بقرةٌ أو شاة فعليّ مثلاه، فما خالَفَه من عبد القيس أحد.

قوله عليه السلام: «إن صلاح أبيك غرّني منك»، قد ذَكَرنا حال الجارود وصحبتَه وصلاحه، وكثيراً ما يغترّ الإنسان بحال الآباء فيظنّ أن الأبناءَ على منهاجهم، فلا يكون والأمرُ كذلك ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[2].

---

(١) الخَبِيصُ: الحواء المعمولة من التمر والسمن. وهو مَعروف. القاموس المحيط ولسان العرب، مادة (خبص).

(٢) سورة يونس، الآية: ٣١.

قوله: «فيما رُقِّيَ» بالتشديد، أي فيما رفع إلينا؛ وأصله أن يكون الإنسان في موضعٍ عالٍ فيرقى إليه شيء، وكأن العلو ها هنا هو علو المرتبة بين الإمام والأمير، ونحوه قولهم: تعال باعتبار علوّ رُتْبة الآمر على المأمور. واللاّم في «لهواك» متعلقة بمحذوف دلّ عليه «انقياداً»، ولا يتعلّق بنفس «انقياد» لأنَّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر.

والعتاد: العُدّة.

قوله: «وتصل عشيرتك»، كان فيما رُقِّيَ إليه عنه أنه يقتطع المال ويُفِيضه على رَهْطه وقومِه ويُخرِج بعضه في لذّاته ومآربه.

قوله «لَجمل أهلِكَ»، العَرَب تَضرِب بالجَمل المَثَل في الهوان قال:

لـقـد عَـظُـم الـبـعـيـرُ بـغَـيـر لُـبٍّ ... ولَـمْ يَـسـتـغـن بـالـعِـظَـم الـبـعـيـرُ
يُـصـرِّفـه الـصـبـيّ بـكـلّ وجـهٍ ... ويحبسه على الخَسْف الجريرُ(١)
وتَـضـرِبـه الـولـيـدةُ بـالـهـراوَى ... فـلا غِـيَـرٌ لـديـهِ ولا نَـكـيـرُ

فأمّا شِسْع النَّعْل فضَرْب المثل بها في الاستهانة مشهور، لابتذالها ووطئها الأقدام في التراب.

ثم ذكر أنّه من كان بصفته فليس بأهلٍ لكذا ولا كَذَا، إلى أن قال: «أو يشرك في أمانة»؛ وقد جَعَل الله تعالى البلاد والرعايا أمانةً في ذمّة الإمام، فإذا استعمل العمّال على البلاد والرعايا فقد شرَكهم في تلك الأمانة.

قال: «أو يأمن على جباية»، أي على استِجْباء الخراج وجمعه، وهذه الرّواية الّتي سمعناها، ومن الناس من يَرْويها «على خيانة» وهكذا رواها الراوندي، ولم يرو الرواية الصّحيحة التي ذكرناها نحن؛ وقال يكون «على» متعلّقة بمحذوف، أو «بيؤمن» نفسها، وهو بعيدٌ ومتكلَّف.

ثم أمَره أن يُقبل إليه، وهذه كنايةٌ عن العَزْل.

فأمّا الكلمات الّتي ذكرها الرضيّ عنه عليه السلام في أمر المُنذِر فهي دالّة على أنه نَسَبَه إلى التّيه والعُجْب، فقال: «نظّار في عِطْفيه»، أي جانبيه، ينظر تارةً هكذا وتارة هكذا، ينظُر لنفسه، ويَستحسِن هَيْئته ولبْسَته، وينظر هل عنده نَقْص في ذلك أو عَيْب فيستدركُه بإزالته، كما يفعل أربابُ الزّهْو ومن يدّعي لنفسه الحسن والملاحة.

(١) الجَرير: حبل يجعل للبعير بمنزلة العِذارِ للدّابة، والزّمام. القاموس المحيط، مادة (جرر).

قال: «مُختالٌ في بُرْدَيْه: يمشي الخُيلاء عُجْباً» قال محمد بن واسع لابن له وقد رآه يختال في بردٍ له: ادنُ، فدنا فقال: من أين جاءتْك هذه الخُيلاء وَيْلك! أما أمّك فأمَة ابتَعتُها بمائتي درهم، وأمّا أبوك فلا أكثرَ الله في الناس أمثاله.

قوله: «تفّال في شِراكيه»، الشّراك: السّيْر الّذي يكون في النّعل على ظَهْر القدم. والتَّفْل بالسكون: مصدر تَفَل، أي بَصَق، والتَّفَل محركاً البُصاقُ نفسه، وإنّما يفعله المُعجِب والتّائه في شِراكَيْه ليذهب عنهما الغُبار والوسخ، يَتْفُل فيهما ويمسَحهما ليعودا كالجَدِيدين.

٧٢ - ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنه

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلاَ مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ.

الشرح: قد تقدّم شرحُ مثل هذا الكلام، وهذا معنًى مطروق، قد قال الناس فيه فأكثروا، قال الشاعر:

قد يُرزق العاجزُ الضعيفُ وما ... شَدّ بكُورٍ رَحْلا ولا قَتَبا
ويُحرَم المرءُ ذو الجلادة والرّأي ... ومن لا يزال مُغترِبا

ومن جيّد ما قيل في هذا المعنى قول أبي يعقوب الخُرَيمي:

هل الدهرُ إلاّ صَرفُه ونوائبُهْ ... وسَرّاءُ عيشٍ زائل ومصائبُهْ
يقولُ الفتَى ثمّرتُ مالي وإنّما ... لوارِثه ما ثمّر المالَ كاسِبُهْ
يُحَاسِبُ فيه نفسَه في حياتِهِ ... ويتركه نَهْباً لمن لا يحَاسِبُهْ
فكُلْه وأطعِمْهُ وخالِسْهُ وارثاً ... شَحِيحاً ودهراً تعتريك نوائبُهْ
أرى المال والإنسان للدّهر نُهبةً ... فلا البخلُ مبقيه ولا الجود خارِبُهْ
لكلِّ امرئٍ رزق وللرزق جالب ... وليسَ يفوت المرءَ ما خطَّ كاتبُهْ
يخيبُ الفتى من حَيثُ يُرزَقُ غيره ... ويُعطى الفتى مِنْ حَيثُ يحرَمُ صاحِبُهْ
يُساق إلى ذا رِزقُه وهو وَادِعٌ ... ويُحرَمُ هذا الرزقَ وهو يغالِبُهْ

وإنّـك لا تـدري: أرزقُـك فـي الـذي تـطـالِبُـه أم فـي الـذي لا تـطـالـبُـهْ!
تـنـاسَ ذنـوب الأقـربـيـنَ فـإنـه لـكـل حـمـيـم راكـبٌ هـو راكـبُـهْ
لـه هـفـوات فـي الـرّخـاء يـشـوبُـهـا بـنـصـرة يـومٍ لا تـوارَى كَـواكِـبُـهْ
تـراه غُـدُوًّا مـا أمِـنْـت وتـتّـقـى بـجـبـهـتـه يـوم الـوَغَـى مَـنْ يـحـارِبُـهْ
لـكـلّ امـرئٍ إخـوان بـؤس ونـعـمـة وأعـظـمـهـمْ فـي الـنـائـبـات أقـاربُـهْ

٧٣ – ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ، وَالاِسْتِمَاعِ إِلَى كِتَابِكَ، لَمُوَهِّنٌ رَأْيِي، وَمُخَطِّىءٌ فِرَاسَتِي، وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ، وَتُرَاجِعُنِي السُّطُورَ، كالْمُسْتَثْقِلِ النَّائِمِ تُكَذِّبُهُ أَحْلاَمُهُ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ؛ لاَ يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ، وَلَسْتَ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ.

وَأُقْسِمُ بِاللهِ أَنَّهُ لَوْلاَ بَعْضُ الاِسْتِبْقَاءِ، لَوَصَلَتْ مِنِّي إِلَيْكَ قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعَظْمَ، وَتَنْهَسُ اللَّحْمَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحتكَ، وَالسَّلاَمُ لِأَهْلِهِ.

الشرح: روي «نوازع» جمع نازعة، أي جاذبة قالعة، وروي «تهلِس اللحم» و«تلهس» بتقديم اللام، وتهلِس بكسر اللام: تذيبه حتى يصير كبدن به الهُلاس، وهو السلّ؛ وأمّا تلهس فهو بمعنى تلحس، أبدِلت الحاء هاء؛ وهو عن لحِست كذا بلساني بالكسر، ألحسه، أي تأتي على اللحم حتى تلحسه لحساً، لأن الشيء إنما يلحس إذا ذهب ويبقي أثره، وأما «يَنْهَس» وهي الرواية المشهورة، فمعناه يعترق.

وتأذَن بفتح الذال، أي تسمع.

قوله عليه السلام «إني لموهِّن رأيي» بالتشديد؛ أي إني لائم نفسي، ومستضعف رأيي في أن جعلتك نظيراً، أكتُب وتجيبني، وتكتب وأجيبك؛ وإنما كان ينبغي أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانك.

فإن قلت: فما معنى قوله: «على التردد؟».

قلت: ليس معناه التوقّف، بل معناه الترداد والتكرار؛ أي أنا لائم نفسي على أني أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عمّا تكتبه.

ثم قال: وإنك في مناظرتك ومقاومتي بالأمور التي تحاولها، والكتب التي تكتبها كالنائم يرى أحلاماً كاذبة، أو كمن قام مقاماً بين يدي سلطان، أو بين قوم عقلاء ليعتذر عن أمر، أو ليخطب بأمر في نفسه، قد بهظه مقامه ذلك؛ أي أثقله فهو لا يدري: هل ينطق بكلام هو له، أم عليه! فيتحيّر ويتبلّد، ويدركه العِيُّ والحَصَر[1].

قال: وإن كنتَ لستَ بذلك الرّجل فإنك شبيه به؛ أمّا تشبيهه بالنائم ثم ذي الأحلام، فإن معاوية لو رأى في المنام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه خليفةٌ يخاطب بإمرة المؤمنين، ويحارب عليًا على الخلافة، ويقوَم في المسلمين مقامَ رسول الله صلى الله عليه وآله لما طلب لذلك المنام تأويلاً ولا تعبيراً، ولعدّه من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام؛ وكيف وأنّى له أن يخطر هذا بباله، وهو أبعد الخلق منه! وهذا كما يخطر للنّفّاط[2] أن يكون مَلِكاً، ولا تنظرنّ إلى نسبه في المناقب، بل انظر إلى أن الإمامة هي نبوّة مختصرة، وأن الطليق المعدود من المؤلفة قلوبهم المكذّب بقلبه وإن أقرّ بلسانه، الناقص المنزلة عند المسلمين، القاعد في أخريات الصفّ؛ إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه ويملكها ويسمه الناس وسمَها، ويكون للمؤمنين أميراً، ويصير هو الحاكم في رقاب أولئك العظماء من أهل الدّين والفَضل! وهذا أعجب من العَجب، أن يجاهد النبيّ صلى الله عليه وآله قوماً بسيفه ولسانه ثلاثاً وعشرين سنة، ويلعنهم ويبعدهم عنه، وينزل القرآن بذمهم ولعنهم، والبراءة منهم، فلما تمهدّت له الدولة، وغلب الدين على الدّنيا، وصارت شريعة دينية محكمة، مات فشيِّد دينه الصالحون من أصحابه، وأوسعوا رقعة ملّته، وعظم قدرُها في النفوس، فتسلمها منهم أولئك الأعداء الذين جاهدهم النبيّ صلى الله عليه وآله فملكوها وحكموا فيها، وقتلوا الصُّلحاء والأبرار وأقارب نبيّهم الذين يظهرون طاعته، وآلت تلك الحركة الأولى وذلك الاجتهاد السابق إلى أن كان ثمرته لهم؛ فليته كان يبعث فيرى معاوية الطّليق وابنه، ومَرْوان وابنه خلفاء في مقامه، يحكمون على المسلمين، فوضح أنّ معاوية فيما يراجعه ويكاتبه به؛ كصاحب الأحلام.

وأما تشبيهه إياه بالقائم مقاماً قد بهظه؛ فلأن الحجج والشبه والمعاذير التي ذكرها معاوية في كتبه أوهن من نسج العنكبوت، فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام يخبط خبط العشواء، ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من النّاس أنه سفَه وباطل.

---

(١) الحَصَرُ: ضيق الصدر. لسان العرب مادة (حصر).

(٢) النَّفّاط: مستخرج النفط من معدنه، وبائع النفط. المعجم الوسيط، مادة (نفط).

فإن قلت: فما معنى قوله عليه السلام: «لولا بعض الاستبقاء»؟ وهل كانت الحال تقتضي أن يستبقي! وما تلك القوارع التي أشار إليها؟

قلت: قد قيل: إن النبي صلى الله عليه وآله فوّض إليه أمرَ نسائه بعد موته، وجعل إليه أن يقطع عصمة أيّتهن شاء إذا رأى ذلك، وله من الصحابة جماعةٌ يشهدون له بذلك، فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أم حبيبة، ويبيح نكاحها الرّجال عقوبة لها ولمعاوية أخيها، فإنها كانت تُبغض عليًّا كما يُبغضه أخوها، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه، وهذا قول الإماميّة، وقد رووا عن رجالهم أنه عليه السلام تهدّد عائشة بضربٍ من ذلك، وأما نحن فلا نصدّق هذا الخبر، ونفسّر كلامه على معنى آخر، وهو أنه قد كان معه من الصّحابة قوم كثيرون سمِعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله يلعن معاوية بعد إسلامه، ويقول: إنّه منافق كافر، وإنّه من أهل النار، والأخبار في ذلك مشهورة؛ فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك، ويسمعهم قولهم ملافظةً ومشافهة لفعل، ولكنه رأى العدول عن ذلك، مصلحةً لأمر يعلمه هو عليه السلام، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه، وإنما أبقى عليه.

وقلت لأبي زيد البصريّ: لِمَ أبقَى عليه؟ فقال: والله ما أبقَى عليه مراعاة له، ولا رفقاً به، ولكنه خاف أن يفعل كفعله، فيقول لعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسْر بن أبي أرطاة وأبي الأعور وأمثالهم: ارووا أنتم عن النبي صلى الله عليه وآله أن عليًّا عليه السلام منافق من أهل النار، ثم يُحمل ذلك إلى أهل العراق؛ فلهذا السبب أبقَى عليه.

٧٤ - ومن حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن ونقل من خط هشام بن الكلبيّ

الأصل: هَذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ الله يَدْعُونَ إِلَيْهِ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ، لاَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، وَلاَ يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلاً، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَتَرَكَهُ، وَأَنَّهُمْ أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، لاَ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ، وَلاَ لِغَضَبِ غَاضِبٍ، وَلاَ لاِسْتِذْلاَلِ قَوْمٍ قَوْماً، وَلاَ لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً، عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ، وَسَفِيهُهُمْ وَعَالِمُهُمْ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ الله وَمِيثَاقَهُ، إِنَّ عَهْدَ الله كَانَ مَسْؤُولاً. وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

الشرح: الحِلْف: العهد، أي ومن كتاب حِلْف؛ فحذف المضاف. واليمن: كلّ مَن ولده قحطان؛ نحو حِمْيَر، وعكّ، وجُذام، وكِنْدة، والأزد، وغيرهم.

وربيعة، هو ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان؛ وهم بكْر وتغلِب، وعبد القيس.

وهشام، هو هشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ، نسّابة ابن نسّابة؛ عالم بأيّام العرب وأخبارها، وأبوه أعلم منه، وهو يروي عن أبيه.

والحاضر: ساكنو الحَضَر: والبادي: ساكنو البادية؛ واللفظ لفظ المفرد والمعنى الجمع.

قوله: «إنهم على كتاب الله» حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف، أي مجتمعون.

قوله: «لا يشترونَ بهِ ثمناً قليلاً»، أي: لا يتعوضون عنه بالثمن، فسمّى التعوّض اشتراء؛ والأصل هو أن يشتري الشيء بالثمن لا الثمن بالشيء، لكنه من باب اتساع العرب، وهو من ألفاظ القرآن العزيز(١). وأنّهم يدٌ واحدة، أي: لا خلف بينهم.

قوله: «المعتبة عاتب»، أي: لا يؤثّر في هذا العهد والحلف، ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم؛ لأنه استجداه فلم يُجدِه، أو طلب منه أمراً فلم يقم به، ولا لأنّ أحداً منهم غضب من أمرٍ صدر من صاحبه، ولا لأنّ عزيزاً منهم استذلّ ذليلاً منهم، ولا لأن إنساناً منهم سبّ أو هجا بعضهم، فإنّ أمثال هذه الأمور يتعذّر ارتفاعها بين الناس؛ ولو كانت تنقض الحِلْف لما كان حلف أصلاً.

واعلم أنه قد ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «كل حِلْف كان في الجاهليّة فلا يزيده الإسلام إلا شدة»(٢)؛ ولا حلف في الإسلام، لكن فِعْل أمير المؤمنين عليه السلام أولى بالاتّباع من خبر الواحد؛ وقد تحالفت العرب في الإسلام مراراً، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ.

---

٧٥ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة في أول ما بويع له بالخلافة - ذكره الواقديّ في كتاب الجمل

الأصل: مِنْ عَبْدِ الله عَلِيٍّ أَميرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبي سُفْيَانَ:

---

(١) هذا اقتباس من سيدنا علي من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٩٠٤)، والترمذي، كتاب: السير، باب: ما جاء في الحلف (١٥٨٥)، والدارمي، كتاب: السير، باب: لا حلف في الإسلام (٢٥٢٦).

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ، حَتَّى كَانَ مَا لاَ بُدَّ مِنْهُ وَلاَ دَفْعَ لَهُ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَالْكَلاَمُ كَثِيرٌ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ، فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ، وَأَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ. وَالسَّلاَمُ.

الشرح: كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبني أميّة جميعاً. قال: «وقد علمت إعذاري فيكم»، أي كوني ذا عذرٍ لو لُمْتُكُمْ أو ذممتكم - يعني في أيّام عثمان -.

ثم قال: «وإعراضي عنكم» أي مع كوني ذا عذر لوفعلت ذلك فلم أفعله، بل أعرضت عن إساءتكم إليّ وضربت عنكم صفحاً. حتى كان ما لا بدّ منه - يعني قتل عثمان وما جرى من الرَّجَبة بالمدينة.

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له: والحديث طويل، والكلام كثير، وقد أدبر ذلك الزمان، وأقبل زمان آخر، فبايع وأقدِم؛ فلم يبايع ولا قدم، وكيف يبايع وعينه طامحة إلى الملك والرّياسة منذ أمّره عمر على الشام؛ وكان عاليَ الهمّة، توّاقاً إلى معالي الأمور، وكيف يطيع عليًّا والمحرّضون له على حَرْبه عدد الحصا! ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة لكفى، وكيف يسمع قوله:

فوالله ما هندٌ بأمّك إن مضى ... النهارُ ولم يثأر بعثمان ثائرُ
أيَقتل عبدُ القوم سيّدَ أهلِه ... ولم تقْتلوه، ليت أمّك عاقرُ
ومن عجبٍ أنْ بتّ بالشام وادعاً ... قريراً وقد دارت عليه الدوائرُ!

ويطيع عليًّا، ويبايع له، ويُقدم عليه، ويسلّم نفسه إليه، وهو نازل بالشام في وسط قَحطان ودونه منهم حَرَّة[1] لا ترام؛ وهم أطوع له من نعله، والأمر قد أمكنه الشروع فيه؛ وتالله لو سمع هذا التحريضُ أجبنُ الناس وأضعفهُم نفساً وأنقصهُم همّة لحرّكه وشحَذَ من عزمه؛ فكيف معاوية، وقد أيقظ الوليدُ بشِعره من لا ينام!

٧٦ - ومن وصية له عليه السلام
لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة

الأصل: سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ.

(١) الحَرَّةُ: أرض ذات حجارة سود نَخِرات كأنها أحرقت بالنار. لسان العرب، مادة (حرر).

الشرح: روي: «وحلمك». والقرب من الله، هو القرب من ثوابه؛ ولا شبهة أن ما قرّب من الثواب باعدَ من العقاب، وبالعكس لتنافيهما.

فأما وصيّته له أن يَسَع الناس بوجهه ومجلسه وحكمه، فقد تقدّم شرح مثله، وكذلك القول في الغضب:

وطَيْرة من الشيطان: بفتح الطاء وسكون الياء، أي خفّة وطيش قال الكميت:

وحِلْمُك عِزٌّ إذا ما حَلُمْتَ ... وَطَيرتُك الصَّابُ والحنظلُ

٧٧ - ومن وصية له عليه السلام
لعبد الله بن العباس أيضاً لما بعثه للاحتجاج على الخوارج

الأصل: لا تُخاصِمْهُمْ بالْقُرْآنَ فإنّ الْقُرْآنَ حَمّالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ وَيَقُولونَ... ولَكِنْ حاجِجْهُمْ بالسُّنَّةِ، فَإنّهمْ لَنْ يَجِدُوا عَنها مَحِيصاً.

الشرح: هذا الكلام لا نظير له في شرفه وعلوّ معناه، وذلك أنّ القرآن كثير الاشتباه، فيه مواضع يُظنّ في الظاهر أنها متناقضة متنافية، نحو قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2]، ونحو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[3] وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[4]، ونحو ذلك، وهو كثير جدًّا؛ وأما السنة فليست كذلك، وذلك لأنّ الصحابة كانت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وتستوضح منه الأحكام في الوقائع، وما عساه يشتبه عليهم من كلامهم؛ يراجعونه فيه؛ ولم يكونوا يراجعونه في القرآن إلا فيما قلّ؛ بل كانوا يأخذونه منه تلقّفاً، وأكثرهم لا يفهم معناه، لا لأنه غير مفهوم؛ بل لأنهم ما كانوا يتعاطوْن فهمه؛ إما إجلالاً له أو لرسول الله أن يسألوه عنه، أو يجرونه مجرى الأسماء الشريفة التي إنما يراد منها بركتُها لا الإحاطة بمعناها؛ فلذلك كثر الاختلاف في القرآن.

وأيضاً فإن ناسخه ومنسوخه أكثرُ من ناسخ السنّة ومنسوخها؛ وقد كان في الصحابة مَنْ يسأل الرّسول عن كلمة في القرآن يفسرها له تفسيراً موجَزاً، فلا يحصل له كلّ الفهم، لما أنزلت

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة القيامة، الآية: ٢٣.
(٣) سورة يس، الآية: ٩.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١٧.

آية الْكَلالَةَ، وقال في آخرها: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾[1]، سأله عمر عن الكلالة ما هو؟ فقال له: «يكفيك آية الصيف»[2]، لم يزد على ذلك، فلم يراجعه عمر وانصرف عنه، فلم يفهم مراده، وبقي عمر على ذلك إلى أن مات، وكان يقول بعد ذلك: اللهم مهما بيّنت، فإنّ عمر لم يتبيّن، يشير إلى قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ وكانوا في السنّة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة، فلذلك أوصاه عليٌّ عليه السلام أن يحاجّهم بالسنة لا بالقرآن.

فإن قلت: فهل حاجّهم بوصيّته؟

قلت: لا، بل حاجّهم بالقرآن، مثل قوله: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[3] ومثل قوله في صيد المحرم: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[4]؛ ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب، وإنما رجع باحتجاجه نفر منهم.

فإن قلت: فما هي السنّة التي أمره أن يحاجّهم بها؟

قلت: كان لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك غرض صحيح، وإليه أشار، وحوله كان يطوف ويحوم، وذلك أنه أراد أن يقول لهم: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليٌّ مع الحقّ والحق مع عليّ يدور معه حيثما دار»[5]، وقوله: «اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»[6]، ونحو ذلك من الأخبار التي كانت الصحابة قد سمعتها من فَلَقِ فيه صلوات الله عليه، وقد بقي ممن سمعها جماعة تقوم الحجّة وتثبت بنقلهم، ولو احتجّ بها على الخوارج في أنه لا يحلّ مخالفته والعدول عنه بحالٍ لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين في محاجّتهم، وأغراض أخرى أرفع وأعلى منهم؛ فلم يقع الأمر بموجب ما أراد، وقُضي عليهم بالحرْب؛ حتى أكلتهم عن آخرهم، وكان أمر الله مفعولاً.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الفرائض، باب: ميراث الكلالة (١٦١٧)، والترمذي، كتاب: التفسير، باب: ومن سورة النساء (٣٠٤٢)، وأبو داود، كتاب: الفرائض، باب: من كان ليس له ولد (٢٨٨٩)، وابن ماجه، كتاب: الفرائض، باب: الكلالة (٢٧٢٦)، وأحمد في «مسنده» (٩٠).

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٥) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد»، كتاب: الفتن، باب: فيما كان في الجل اكل وصفين (١٢٠٣١)، وذكره الخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٣٢٠)، في ترجمة يوسف بن محمد بن علي، برقم (٧٦٤٣).

(٦) تقدم تخريجه.

٧٨ - ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعريَّ عن كتاب كتبه إليه من المكان الذي اتعدوا فيه للحكومة وذكر هذا الكتاب سعيد بن يحيى الأموي في كتاب المغازي

الأصل: فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا، وَنَطَقُوا بِالْهَوَى، وَإِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنْزِلاً مُعْجِباً؛ اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، وَأَنَا أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَعُودَ عَلَقاً يَعُودُ، وَلَيْسَ رَجُلٌ - فَاعْلَمْ - أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ.

وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي، وَإِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ، وَإِنِّي لَأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ الله، فَدَعْ عَنْكَ مَا لاَ تَعْرِفُ، فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ، وَالسَّلاَمُ.

الشرح: روي: «ونطقوا مع الهوى»، أي مائلين مع الهوى.

وروي: «وأنا أداري» بالراء، من المداراة، وهي الملاينة والمساهلة.

وروي: «نفع ما أولى» باللام؛ يقول: أوليته معروفاً.

وروي: «إن قال قائل بباطل ويفسد أمراً قد أصلَحه الله»[1].

واعلم أنّ هذا الكتاب كتاب مَن شكّ في أبي موسى واستوحش منه؛ ومن قد نقل عنه إلى أبي موسى كلاماً إمّا صدقاً وإمّا كذباً. وقد نَقل عن أبي موسى إليه كلاماً إمّا صدقاً أيضاً وإمّا كذباً، قال عليه السلام: إن الناس قد تغيّر كثير منهم عن حظّهم من الآخرة، فمالوا مع الدنيا. وإنّي نزلت من هذا الأمر منزلاً معجِباً، بكسر الجيم، أي: يعجب مَنْ رآه، أي: يجعله متعجّباً منه.

وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونُصّاره من أهل العراق؛ فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديداً جدًّا. والمنزل والنّزول ها هنا مجاز واستعارة، والمعنى أنّي حصلت في هذا الأمر الذي حصلت فيه على حال معجبة لمن تأمّلها؛ لأنّي حصلت بين قوم كل واحد منهم مستبدّ برأي يخالف فيه رأيَ صاحبه؛ فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر؛ وإن حكمت

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٣٠٤.

عليهم برأي أراه أنا خالَفوه وعصوْه، ومن لا يطاع فلا رأي له، وأنا معهم كالطبيب الذي يداوي قَرْحاً، أي جراحة قد قاربت الاندمال ولم تندمِلْ بعدُ؛ فهو يخاف أن يعود عَلَقاً، أي دماً.

ثم قال له: ليس أحد - فاعلم - أحرَصَ على ألفة الأمّة وضمّ نشْر المسلمين.

وأدخل قوله: «فاعلم» بين اسم ليس وخبرها فصاحة، ويجوز رفع «أحرص» بجعله صفةً لاسم «ليس»؛ ويكون الخبر محذوفاً - أي ليس في الوجود رجل.

وتقول: قد وأيتُ وأياً، أي وعدت وعداً، قال له: أما أنا فسوف أفي بما وعدت وما استقرّ بيني وبينك؛ وإن كنت أنت قد تغيّرت عن صالح ما فارقتني عليه.

فإن قلت: فهل يجوز أن يكون قوله: «وإن تغيّرت» من جملة قوله فيما بعد «فإنّ الشقيّ» كما تقول: إن خالفتني فإنّ الشقيّ من يخالف الحق.

قلت: نعم؛ والأوّل أحسن؛ لأنه أدخلُ في مدْح أمير المؤمنين عليه السلام كأنه يقول: «أنا أفي وإن كنتَ لا تفي» والإيجاب يحْسنه السلْب الواقع في مقابلته:

والضّدّ يظهر حسنَه الضّدُّ

ثم قال: «وإني لأعْبَد» أي: آنَف، من عبدِ بالكسر أي: أنِف، وفسّروا قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[1] بذلك، يقول: إنّي لآنف من أن يقول غيري قولاً باطلاً، فكيف لا آنف أنا من ذلك لنفسي! ثم تختلف الرّوايات في اللفظة بعدها كما ذكرنا.

ثم قال: «فدَع عنك ما لا تعرف» أي: لا تبْن أمرك إلاّ على اليقين والعلم القطعيّ، ولا تُصْغِ إلى أقوال الوشاة ونَقَلة الحديث؛ فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيراً، فلا تصدّق ما عساه يبلِّغك عنّي شرار الناس؛ فإنّهم سِراع إلى أقاويل السوء؛ ولقد أحسن القائل فيهم:

إنْ يَسْمَعُوا الخيْرَ يُخْفُوه وإنْ سَمِعُوا ... شرًّا أذاعوا وإن لم يسمعوا كَذَبُوا

ونحو قول الآخر:

إنْ يَسمَعُوا ريبةً طَارُوا بها فَرَحاً ... وإن ذُكِرْتُ بخيرٍ عندهمْ دَفَنُوا

---

٧٩ - ومن كتاب كتبه عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

الشرح: أي: منعوا الناس الحق فاشترى الناس الحق منهم بالرّشا والأموال، أي: لم يضعوا الأمور مواضعَها، ولا ولّوا الولايات مستحقّيها، وكانت أمورهم الدينية والدنياوية تجري على وَفْق الهوى والغرض الفاسد، فاشترى الناس منهم الميراث والحقوق كما تُشترى السلع بالمال.

ثم قال: «وأخذوهم بالباطل فاقتدوه»، أي حملوهم على الباطل فجاء الخلَف من بعد السلف، فاقتدَوا بآبائهم وأسلافهم في ارتكاب ذلك الباطل ظنًّا أنّه حق لما قد ألفوه ونشئوا وربّوا عليه.

وروي «فاستروْه» بالسين المهملة أي: اختاروه، يقال استريتُ خيار المال، أي: اخترته ويكون الضمير عائداً إلى «الظلَمة» لا إلى «الناس»، أي: منعوا الناس حقّهم من المال واختاروه لأنفسهم واستأثروا به.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه

ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله
والكلام القصير الخارج من سائر أغراضه

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالرّوح من البدن، والسواد من العين؛ وهو الدرَّة المكنونة التي سائر الكتاب صدَفها؛ وربما وقع فيه تكرار لبعض ما تقدّم يسير جدًّا؛ وسبب ذلك طول الكتاب وبعد أطرافه عن الذهن، وإذا كان الرضيّ رحمه الله قد سَها فكرّر في مواضع كثيرة في «نهج البلاغة» على اختصاره كنّا نحن في تكرار يسير في كتابنا الطويل أعذر.

- ١ -

الأصل: كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ؛ لاَ ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلاَ ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ.

الشرح: ابن اللّبون: ولد النّاقة الذّكرَ إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة؛ ولا يقال للأنثى: ابنة اللّبون؛ وذلك لأنّ أمّهما في الأغلب ترضع غيرهما، فتكون ذات لبَن، واللّبون من الإبل والشاة: ذات اللّبَن، غزيرة كانت أو بكِيئة[1]، فإذا أرادوا الغزيرة قالوا: لَبِنَة، ويقال: ابن لَبُون وابن اللّبون، منكّراً أو معرّفاً، قال الشاعر:

وابـن الـلّـبُـونِ إذَا مـا لُـزَّ فـي قـرَنٍ لـم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْل القناعِيسِ[2]

وابن اللّبون لا يكون قد كمل وقويَ ظهره على أن يركب، وليس بأنثى ذات ضرع فيُحلب وهو مطرح لا يُنتفع به.

وأيّام الفتنة هي أيّام الخصومة والحرب بين رئيسيْن ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضّحّاك، وفتنة الحجّاج وابن الأشعث ونحو ذلك، فأما

(١) البَكِيئة من الإبل: التي قَلَّ لبنها. القاموس المحيط، مادة (بكأ).

(٢) القَنَاعِيس: جمع قِنْعَاس، وهو العظيم من الإبل. القاموس المحيط، مادة (قنعس).

إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجَمل وصِفّين ونحوهما بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسلّ السّيف والنهي عن المنكر وبذل النّفس في إعزاز الدين وإظهار الحق.

قال عليه السلام: اخمِل نفسك أيام الفتنة، وكن ضعيفاً مغموراً بين الناس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء.

وقوله: «فيركَبَ» «فيُحلبَ»، منصوبان لأنهما جواب النفي، وفي الكلام محذوف تقديره: «له»؛ وهو يستحق الرفع، لأنه خبر المبتدأ، مثل قولك: لا إله إلا الله، تقديره «لنا»، أو «في الوجود».

- ٢ -

الأصل: أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ.

الشرح: هذه ثلاثة فصول:

الفصل الأول في الطمع: قوله عليه السلام «أزرى بنفسه»، أي قصّر بها. مَن استشعر الطمع، أي جعله شعاره أي لازمه.

وفي الحديث المرفوع: «إن الصّفا الزلزال الذي لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع»(١).

وفي الحديث أنه قال للأنصار: «إنكم لتكثُرون عند الفَزَع وتقلّون عند الطمع»(٢) أي: عند طمع الرزق.

وكان يقال: أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع.

وقال بعضهم: العبيد ثلاثة: عبد رقّ، وعبد شَهْوة، وعبد طمع.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغِنَى، فقال: «اليأس عمّا في أيدي الناس، ومَنْ مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً»(٣).

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٦٣)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ٢٧٢).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٢٠٥)، والقرطبي في «تفسيره»، عند تفسير الآية (٤٤) من سورة النساء (٥/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١٩٩)، وذكره في الجامع الصغير» (٥٨١٢)، وعزاه للعسكري في المواعظ.

وقال أبو الأسوَد:

البسْ عدوّك في رِفْق وفي دَعَةٍ ... طوبَى لذي إربةٍ للدّهر لبّاسِ
ولا تغرّنْك أحقادٌ مزمّلةٌ ... قد يُركَب الدَّبِر الدامي بأحلاسِ
واستغنِ عن كل ذي قُربى وذي رَحِمٍ ... إن الغَنِيّ الذي استغنى عن الناس

قال عمر: ما الخمر صِرْفاً بأذهبَ لعقول الرّجال من الطمع.

وفي الحديث المرفوع: «الطمع الفقر الحاضر»(١). قال الشاعر:

رأيت مخيلةً فطمِعْت فيها ... وفي الطّمَع المذلّةُ للرّقابِ

الفصل الثاني في الشكوى: قال عَلَيْتَلِلاِ: «من كشف للناس ضرّه» أي: شكى إليهم بؤسه وفقره، «فقد رضي بالذل».

كان يقال: لا تشكوَنّ إلى أحدٍ، فإنّه إن كان عدوًّا سرّه، وإن كان صديقاً ساءه وليست مسرّة العدوّ ولا مساءة الصديق بمحمودة.

سمع الأحنف رجلاً يقول: لم أنمِ الليلة من وجع ضِرْسي؛ فجعل يكثر، فقال: يا هذا لِمَ تكثر؟ فوالله لقد ذهبتْ عيني منذ ثلاثين سنة فما شكوت ذلك إلى أحد، ولا أعلمت بها أحداً.

الفصل الثالث في حفظ اللسان: قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ في ذلك، وكان يقال: حفظ اللسان راحة الإنسان، وكان يقال: ربّ كلمة سفكت دماً، وأورثت ندماً.

وفي الأمثال العاميّة، قال اللسان للرأس: كيف أنت؟ قال: بخير لو تركتني.

وفي وصيه المهلّب لولده، يا بني تباذلوا تحابُّوا، فإن بني الأعيان يختلفون فكيف ببني العَلاّت، إنّ البرّ ينسَأ في الأجل، ويزيد في العدد، وإنّ القطيعة تورِث القلّة، وتعقب النار بعد الذلّة. اتقوا زلة اللسان فإن الرجل تزلّ رجله فينتعِش، ويزلّ لسانه فيهلك، وعليكم في الحرْب بالمكيدة، فإنها أبلغ من النّجْدة، وإن القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظفر الرجل ذو الكيد والحزم سعد، وإن ظُفِر به لم يقولوا: فَرَّط.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموتُ المرءُ من عثرة الرجل

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٩٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٥٣)، وأبو بكر الروياني في «مسنده» (٢/ ٥٠٤)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤٠٦٩).

- ٣ -

الأصل: الْبُخْلُ عَارٌ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حَاجَتِهِ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ.

الشرح: هذه ثلاثة فصول:

الفصل الأول في البخْل. وقد تقدّم لنا كلام مقنع في ذلك.

ومن كلام بعض الحكماء في ذلك: ما أقلّ مَنْ يحمده الطالب، وتستقلّ به العشائر، ويرضى عنه السائل، وما زالت أمّ الكرم نَزُوراً وأمّ اللؤم ذلولاً. وأكثر الواجدين مَنْ لا يجود، وأكثر الأجواد من لا يَجِد.

وما أحسن قول القائل: كفى حزناً أنّ الجواد مقتَّر عليه، ولا معروف عند بخيل.

وكان يقال: البخل مهانة، والجود مهابة.

ومن أحسن ما نقل من جُود عبد الله المأمون أن عمر بن مسعدة كاتبه مات في سنة سبع عشرة ومائتين، وخلّف تركة جليلة، فبعث أخاه أبا إسحاق المعتصم وجماعة معه من الكتّاب ليحصروا مبلغها، فجاء المعتصم إليه وهو في مجلس الخلافة، ومعه الكتّاب، فقال: ما رأيتم؟ فقال المعتصم معظّماً لما رآه: وجدنا عَيْناً، وصامتاً، وضياعاً، قيمة ذلك أجمع ثمانية آلاف ألف دينار - ومدّ صوته - فقال المأمون: إنّا لله! والله ما كنت أرضاها لتابع من أتباعه ليوفّر هذا على مخلّفيه! فخجل المعتصم حتى ظهر خجلُه للحاضرين.

الفصل الثاني في الجبن، وقد تقدم قولنا في فضل الشجاعة.

وقال هشام بن عبد الملك لمسلمة أخيه: يا أبا سعيد، هل دخلك ذُعْر في حرب قطّ شهدتَها؟ قال: ما سلمت في ذلك عن ذعر ينبّه على حيلة، ولا غشيَني ذعر سلَبني رأيي، فقال له هشام: هذه والله البَسالة، قال أبو دُلَامة، وكان جَباناً:

إنّي أعوذ بِرَوْح أن يقدّمني ... إلى القتال فتشقى بي بنو أسدِ
إنّ المهلّب حُبَّ الموت أورثَكُم ... ولم أرث رغبةً في الموت عن أحدِ

قال المنصور لأبي دُلامة في حرب إبراهيم: تقدّم ويلك! قال: يا أميرَ المؤمنين؛ شهدت مع مَرْوان بن محمد أربعة عساكر كلّها انهزمت وكُسِرت؛ وإني أعيذك بالله أن يكون عسكرك الخامس.

الفصل الثالث في الفقر. وقد تقدّم القول فيه أيضاً.

ومثل قوله: «الفقر يخرس الفَطِن عن حاجته» قول الشاعر:

سَأُعْمِلُ نَصَّ العيس حتى يكفّني غِنَى المال يوماً أو غنَى الحَدَثانِ
فلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرَى لها على الحرّ بالإقلال وَسْمُ هَوانِ
متى يتكلّمْ يُلْغَ حُكْمُ كلامِه وإن لم يقُلْ قالوا عديم بيانِ
كأن الغِنَى عن أهله بورك الْغِنَى بغير لسان ناطقٌ بلسانِ

ومثل قوله عليه السلام: «والمقلّ غَريب في بلدته» قول خَلف الأحمر:

لا تظنّي أنّ الغريب هو النّا ئِي ولكنّما الغريب المقلُّ

وكان يقال: مالُك نورُك، فإن أردت أن تنكسفِ ففرّقه وأتلفه.

قيل للإسكندر: لم حفظت الفلاسفة المالَ مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا؟ قال: لئلا تحوجهم الدنيا إلى أن يقوموا مقاماً لا يستحقونه. وقال بعض الزهّاد: ابدأ برغيفيْك فاحرُزْهُمَا ثم تعبّد.

وقال الحسن عليه السلام: مَنْ زعم أنّه لا يحبّ المال فهو عندي كاذِب، فإن علمت صِدْقَه فهو عندي أحمق.

- ٤ -

الأصل: الْعَجْزُ آفَةٌ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا.

الشرح: فهذه فصول خمسة:

الفصل الأول: قوله عليه السلام «العجز آفة»، وهذا حقّ لأن الآفة هي النقص أو ما أوجب النقص، والعجز كذلك.

وكان يقال: العجز المفرط ترك التأهّب للمعاد.

وقالوا: العجز عجزان، أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر، والثاني الجدّ في طلبه وقد فات.

وقالوا: العجز نائم، والحزم يقظان.

الفصل الثاني في الصبر والشجاعة: قد تقدّم قولنا في الصبر.

وكان يقال: الصبر مرّ، لا يتجرّعه إلاّ حرّ.

وكان يقال: إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالاً كأعمار الناس وآجالهم؛ فاصبروا لِزمانِ السوء حتى يفنى عمره، ويأتي أجله.

وكان يقال: إذا تضيّفَتك نازلةٌ فاقرِها الصبر عليها، وأكرم مثواها لديك بالتوكُّل والاحتساب لترحل عنك، وقد أبقتْ عليك أكثر مما سَلَبَتْ منك، ولا تنسَها عند رخائك، فإنّ تذكُّرك لها أوقات الرّخاء يبعد السوء عن فعلك، وينفي القساوة عن قلبك ويوزعك حَمْد الله وتقواه.

الفصل الثالث: قوله: «والزهد ثروة»، وهذا حق، لأن الثروة ما استغنى به الإنسان عن الناس، ولا غناء عنهم كالزهد في دنياهم؛ فالزّهد على الحقيقة هو الغِنَى الأكبر.

وروي أنّ عليًا عليه السلام قال لعمر بن الخطاب أوّل ما ولي الخلافة: إنْ سرّك أن تلحق بصاحبيك فقصّر الأمل؛ وكُلْ دون الشّبع، وارقع القميص، واخصف النّعْل، واستغنِ عن الناس بفقرك تلحق بهما.

وقف ملك على سقراط وهو في المشرقة قد أسند ظهره إلى جُبّ كان يأوى إليه، فقال له: سل حاجتّك، فقال: حاجتي أن تتنحّى عني، فقد منعني ظلك المرفق بالشمس، فسأله عن الجُبّ، قال: آوي إليه، قال: فإن انكسر الجبّ لم ينكسر المكان.

وكان يقال: الزّهد في الدنيا هو الزهد في المحمدة والرياسة، لا في المطعم والمشرب، وعند العارفين: الزهد تَرْك كل شيء يشغلك عن الله.

وكان يقال: العالم إذا لم يكن زاهداً لكان عقوبة لأهل زمانه، لأنهم يقولون: لولا أنّ علمه لم يصوّب عنده الزهد لَزَهِد، فهم يقتدون بزهده في الزهد.

الفصل الرابع: قوله: «والورعُ جُنّة»؛ كان يقال: لا عصمة كعصمة الورع والعبادة؛ أمّا الورع فيعصمك من المعاصي، وأمّا العبادة فتعصمك من خصمك؛ فإنّ عدوّك لو رآك قائماً تصلّي وقد دخل ليقتلك لصدّ عنك وهَابك.

وقال رجل من بني هلال لبنيه: يا بَني أظهروا النُّسُكَ فإن الناس إن رأوا مِنْ أحدٍ منكم بخلاً، قالوا: مقتصد لا يحبّ الإسراف، وإن رأوا عِيًّا، قالوا: مُتَوَقٍّ يكره الكلام، وإن رأوا جُبْناً قالوا: متحرّج يكره الإقدام على الشبهات.

الفصل الخامس: قوله: «ونعم القرينُ الرضا»، قد سبق منا قول مقنِع في الرضا.

وقال أبو عمرو بن العلاء: دُفِعْتُ إلى أرض مجدبة بها نفرٌ من الأعراب، فقلت لبعضهم: ما أرضكم هذه؟ قال: كما ترى، لا زرع ولا ضَرْع، قلت: فكيف تعيشون؟ قالوا: نحترش[1] الضِّباب، ونصيد الدّواب، قلت: فكيف صبركم على ذلك؟ قالوا: يا هذا، سلْ خالقَ الخلْق؛ هل سويت؟ فقال: بل رضيتُ.

وكان يقال: مَنْ سخِط القضاء طاحَ، ومن رضي به استراح.

وكان يقال: عليك بالرّضا، ولو قُلّبْتَ على جَمْر الغَضا.

وفي الخبر المرفوع أنه ﷺ قال عن الله تعالى: «من لم يرض بقضائي فليتخذ ربًّا سوائي».

— ٥ —

الأصل: العِلْمُ وِرَاثةٌ كَرِيمَةٌ، والآدَابُ حُللٌ مُجَدَّدَةٌ، والْفِكْرُ مِرْآةٌ صافِيَةٌ.

الشرح: إنما قال: «العلم وراثة» لأنّ كلّ عالم من البشر إنما يكتسب علمه من أستاذٍ يهذّبه وموقّف يعلمه؛ فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المال عن أبيه، وقد سبق منا كلام شافٍ في العلم والأدب.

وكان يقال: عطيّة العالم شبيهة بمواهب الله عزّ وجلّ، لأنها لا تنفد عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها.

وكان يقال: الفضائل العلميّة تشبه النخل، بطيء الثمرة، بعيد الفساد.

وكان يقال: ينبغي للعالم ألاّ يترفّع على الجاهل، وأن يتطامَنَ له بمقدار ما رفعه الله عليه، وينقله من الشكّ إلى اليقين، ومن الحيرة إلى التبيين، لأن مكافحته قسوة والصبر عليه وإرشاده سياسة.

ومثاله قول بعض الحكماء: الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة، ويعذره بنقصه فيما فَرَط منه ولا يعذر نفسه في التأخّر عن هدايته.

---

(١) حَرَشَ الضَّبَّ واحْتَرَشه وتحرَّش به: أتى قفا جحره فقعقع بعصاه عليه وأتلجَ طرفها في جحره. لسان العرب، مادة (حرش).

وكان يقال: العلم في الأرض بمنزلة الشمس في الفَلَك، لولا الشمس لأظلم الجوّ، ولولا العلم لأظلم أهلُ الأرض.

وكان يقال: لا حُلّة أجمل من حلة الأدب، لأنّ حُلل الثياب تبلى، وحلل الآداب تبقى، وحُلل الثياب قد يغتصبها الغاصب، ويسرِقها السارق، وحُلل الآداب باقية مع جوهر النفس.

وكان يقال: الفكرة الصحيحة إصطرلابٌ[1] روحاني.

وقال أوس بن حجر يرثي:

إن الـذِي جَـمَـع الـسَّـمـاحـة والـنّـ ـجْـدَةَ والـحـزْم والـنُّـهَـى جـمـعـا
الألـمـعـيّ الـذي يـظـن بـك الـظـنّ كـأن قـد رأى وقـد سـمـعـا

ومن كلام الحكَماء: النار لا يُنقِصها ما أخذ منها، ولكن يخمدُها ألاّ تجد حطباً، وكذلك العلم لا يُفْنِيه الاقتباس ولكن فقد الحامِلين له سبب عدمه.

قيل لبعضهم: أي العلوم أفضل؟ قال: ما العامَّة فيه أزهد.

وقال أفلاطون: مَنْ جهل الشيء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين.

وكان يقال: ثلاثة لا تجربة معهن: أدب يزين، ومجانبة الرّيبة، وكفُّ الأذى.

وكان يقال: عليكم بالأدب؛ فإنه صاحبٌ في السَفر، ومؤنس في الوحدة، وجمال في المحفِل، وسبب إلى طلب الحاجة.

وكان عبد الملك أديباً فاضلاً، ولا يجالس إلا أديباً.

وروى الهيثم بن عديّ عن مِسعر بن كدام، قال: حدّثني سعيد بن خالد الجَدَليّ، قال: لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مُصعب دَعا الناس يعرضهم على فرائضهم، فحضرنا بين يديه، فقال: من القوم؟ قلنا: جَديلة، فقال: جَديلةُ عَدْوان؟ قلنا: نعم، فأنشده:

عَـذِيـرَ الـحـيّ مـن عَـدْوا نَ كـانُـوا حَـيَّـة الأرْضِ
بـغَـيَ بـعـضُـهـمُ بـعـضـاً فـلـم يـرَعـوا عـلـى بـعـضِ
ومـنـهـمْ كـانـت الـسَّـادا تُ والـموفُـون بـالـقَـرضِ
ومـنـهـمْ حَـكَـمٌ يـقـضِـي فـلا يُـنـقَـضُ مـا يـقـضـي
ومـنـهـمْ مَـنْ يـجـيـز الـنّـا س بـالـسـنّـة والـفـرض

ثم أقبل على رجل منّا وسيم جَسيم قدّمناه أمامنا، فقال: أيكم يقول هذا الشعر؟ قال: لا

---

(١) الأسطُرلاب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ومعرفة الوقت والجهات الأصلية. المعجم الوسيط. مادة (اسطرلاب)، (١/ ١٧).

أدري، فقلت أنا من خلفه: يقوله ذو الإصبع، فتركني وأقبل على ذلك الرجل الجسيم، فقال: ما كان اسم ذي الإصبع؟ قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: اسمه حُرثان، فتركني وأقبل عليه، فقال له: ولم سمّي ذَا الإصبع؟ قال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: نهشتْه حيّة في إصبعه، فأقبل عليه وتركني، فقال: مِن أيّكم كان؟ فقال: لا أدري، فقلت أنا من خلفه: من بني تاج الّذين يقول الشاعر فيهم:

فأمّا بنو تاج فلا تذكرنّهم ولا تتبعنْ عيناك مَنْ كان هالكا

فأقبل على الجسيم، فقال: كم عطاؤك؟ قال: سبعمائة درهم، فأقبل عليّ، وقال: وكم عطاؤك أنت؟ قلت: أربعمائة، فقال: يا أبا الزّعيزعة، حطّ من عطاء هذا ثلاثمائة، وزدْها في عطاء هذا، فرحت وعطائي سبعمائة وعطاؤه أربعمائة.

وأنشد منشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم:

أظلومُ إنَّ مُصابكم رَجُلاً أهدى السّلام تحيةً ظُلْمُ

فقال شخص: رجل هو خبر «إنّ»، ووافقه على ذلك قوم وخالفه آخرون، فقال الواثق: من بقي من علماء النحويين؟ قالوا: أبو عثمان المازنيّ بالبصرة، فأمر بإشخاصه إلى سُرَّ مَنْ رَأى بعد إزاحة علّته، قال أبو عثمان: فأشخصت، فلما أدخلت عليه قال: ممّن الرجل؟ قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم مازن قيس، أم مازن اليمن؟ قلت: مِنْ مازن ربيعة، قال: باسمك؟ - بالباء - يريد: «ما اسمك» لأنَّ لغة مازن ربيعة هكذا، يبدلون الميم باء والباء ميماً - فقلت: مكر أي «بكر»، فضحك وقال: اجلس واطمئنّ، فجلست فسألني عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر إنّ؟ فقلت: «ظلم» قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن البيت إن لم يجعل «ظلم» خبر «إن» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة! فلما كررت القول عليه فهم، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: ألكِ ولدٌ؟ قلت: بنيّة، قال: فما قالت لك حين ودّعتَها؟ قلت: ما قالت بنت الأعشى:

تقولُ ابنتي حين جَدّ الرّحيلُ أرانا سواءً ومن قد يَتِمْ

أبانا فلا رِمْتَ مِنْ عندنا فإنّا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ

أبانا إذا أضمرتْك البلا دُ نُجفَى وتُقطع منّا الرحِمْ

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير:

ثِقِي بالله ليس له شريكٌ ومِنْ عند الخليفة بالنّجاحِ

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى، ثم أمر لي بألف دينار وكسوة، وردني إلى البصرة.

- ٦ -

الأصل: وَصَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ، وَالاِحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ. ورُوِيَ أَنَّهُ قَالَ في الْعِبَارَة عَنْ هَذَا الْمَعْنَى أيْضاً: الْمُسَالَمَةُ خَبْءُ الْعُيُوبِ.

الشرح: هذه فصول ثلاثة:

الفصل الأول: قولُه: «صدر العاقل صندوق سرِّه»، قد ذكرنا فيما تقدم طَرَفا صالحاً في كتمان السر.

وكان يقال: لا تُنكِحْ خاطبَ سرّك.

قال معاوية للنجّار العذريّ: ابغِ لي محدّثاً، قال: معي يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، أستريح منك إليه، ومنه إليك، وأجعله كتوماً، فإنّ الرجل إذا اتّخذ جليساً ألقى إليه عُجَره وبُجَره[1].

وقال بعض الأعراب: لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك.

وقالوا: إذا كان سرّ الملك عند اثنين دخلت على الملك الشبهة، واتّسعت على الرّجُلين المعاذير، فإن عاقبهما عند شياعه، عاقب اثنين بذنبٍ واحد، وإن اتّهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجّة عليه.

الفصل الثاني: قوله: «البشاشة حبالة المودّة»، قد قلنا في البِشْر والبشاشة فيما سبق قولاً مقنعاً.

وكان يقال: البِشْر دالّ على السخاء من ممدوحك، وعلى الوُدّ من صديقك دلالةَ النَّوْر[2] على الثَّمر.

وكان يقال: ثلاث تُبين لك الودّ في صدر أخيك: تلقاه ببشرِك، وتبدؤه بالسّلام، وتوسّع له في المجلس.

وقال الشاعر:

لا تدخلنّك ضَجْرَةٌ من سائل ... فلخيرُ دهرِك أن تُرى مسؤولا

---

(١) العُجَر والبُجَر: الهموم والأحزان، وأصل العُجَر: العروق المتقدمة في الجسد، والبُجَر: العروق المتعقدة في البطن خاصة. لسان العرب، مادة (عجر).

(٢) النَّوْرُ: الزَّهر، أو الأبيض منه. القاموس المحيط، مادة (نور).

لا تجبهنْ بالردّ وجهَ مؤمّلٍ قد رام غيرُك أن يُرَى مأمولا
تلقَى الكريم فتستدلّ ببشرِه وترى العُبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنّك عن قليلٍ صائرٌ خَبَراً فكن خَبَراً يروق جميلا

وقال البحتريّ:

لو أنْ كفّك لم تَجُدْ لمؤمِّل لكفاه عاجلُ بشرِكَ المتهلّلِ
ولو أن مجدَك لم يكن متقادماً أغناك آخر سُودَدٍ عن أوّلِ
أدركت ما فات الكهولَ من الحجا مِن عُنْفوان شبابك المستقبِل
فإذا أمرت فما يقال لك اتَّئِدْ وإذا حكمتَ فما يقال لك: اعدِلِ

الفصل الثالث: قوله: «الاحتمال قبر العيوب»، أي إذا احتملت صاحبك وحلمت عنه ستَر هذا الخلق الحسَن منك عيوبَك، كما يستر القبرُ الميّت، وهذا مثل قولهم في الجود: كلّ عيبٍ فالكرمُ يغطّيه.

فأما الخَبْء فمصدر خبأته أخبؤه، والمعنى في الروايتين واحد، وقد ذكرْنا في فضل الاحتمال والمسالمة فيما تقدّم أشياء صالحة.

ومن كلامه عليه السلام: وجدتُ الاحتمال أنصرَ لي من الرجال.

ومن كلامه: مَنْ سالم الناس سلم منهم، ومن حارب الناس حاربوه؛ فإنّ العثرة للكاثر.

وكان يقال: العاقل خادم الأحمق أبداً، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرّب إليه بدًّا، وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدًّا. وأسمع رجل يزيدَ بن عمر بن هُبيرة فأعرض عنه، فقال الرجل: إيّاك أعني، قال: وعنك أُعرض.

وقال الشاعر:

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجِبْهُ فخيرٌ من إجابتَه السُّكُوتُ
سكتّ عن السفيه فظنّ أني عَيِيتُ عن الجواب وما عَيِيتُ

— ٧ —

الأصل: مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ، وَالصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنجِحٌ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ في عَاجِلِهِمْ نَصْبُ أَعْيُنِهِمْ في آجِلِهِمْ.

الشرح: هذه فصول ثلاثة:

الفصل الأول: قوله «من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه». قال بعض الفضلاء لرجل كان يرضى عن نفسه ويدّعي التميّز على الناس بالعلم: عليك بقوم تروقهم بزِبرِجك[1]، وتروعهم بزخرفك، فإنّك لا تعدَم عزًّا، ولا تفقد غمراً، لا يبلغ مسبارُهما[2] غورَك، ولا تستغرق أقدارُهما طورَك.

وقال الشاعر:

أرَى كـلَّ إنسـان يَـرَى عَـيْـبَ غـيـرِه ... ويـعـمَـى عـن الـعـيـب الّـذي هـوَ فـيـهِ
ومـا خـيـرُ مَـنْ تـخـفـى عـلـيـه عـيـوبُـه ... ويـبـدو لـه الـعـيـب الـذي بـأخـيـه

وقال بعضهم: دَخلت على ابن منارة وبين يديه كتاب قد صنّفه، فقلت: ما هذا؟ قال: كتاب عملته مدخَلاً إلى التّورية، فقلت: إنّ الناس ينكرون هذا، فلو قطعت الوقت بغيره! قال: النّاس جُهّال، وأنتَ ضدّهم؟ قال: نعم، قلت: فينبغي أن يكون ضدُّهم جاهلاً عندهم، قال: كذاك هو! قلت: فقد بقيتَ أنت جاهلاً بإجماع الناس، والناس جهّال بقولك وحدَك؛ ومثل هذا المعنى قول الشاعر:

إذا كـنـتَ تـقـضِـي أنّ عـقـلـك كـامـلٌ ... وأنّ بـنـي حَـوّاء غـيـرَك جـاهـلُ
وأن مـفـيـضَ الـعـلـم صـدرُك كـلّـه ... فـمـن ذا الّـذي يـدرِي بـأنّـك عـاقـل!

الفصل الثاني: «الصدقة دواءٌ منجح»، قد جاء في الصّدقة فضل كثير، وذكرنا بعض ذلك فيما تقدم. وفي الحديث المرفوع: «تاجروا الله بالصدقة تربحوا»[3]؛ وقيل: الصدقة صَدَاق الجنّة.

وقيل للشّبليّ: ما يجب في مائتي درهم؟ فقال: أمّا من جهة الشّرْع فخمسة دراهم، وأما من جهة الإخلاص فالكُلّ.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه سئل فقيل: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: «أن تعطيَ وأنت صحيح شحيح، تأمُل البقَاء، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلت: لفلان كذا ولفلان كذا»[4].

---

(١) الزِّبرِجُ: الزّينة من وَشْيٍ أو جوهر، والذّهب. القاموس المحيط، مادة (زبرج).
(٢) المِسْبَار: ما يسبر به الجُرح. القاموس المحيط، مادة (سبر).
(٣) لم أجده.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: فضل صدقة الشحيح الصحيح، (١٤١٩)، ومسلم، =

ومثل قوله عليه السلام: «الصدقة دواء منجح»، قول النبي صلى الله عليه وسلم: «داووا مَرْضاكم بالصدقة»[1].

الفصل الثالث: قوله: «أعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم»، هذا من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[3].

ومن كلام بعضهم: إنما تَقدَم على ما قدّمت، ولست تقدَم على ما تركت، فآثر ما تلقاه غداً على ما لا تراه أبداً.

ومن حكمة أفلاطون: اكتم حسنَ صنيعك عن أعين البَشَر؛ فإنّ له ممن بيده ملكوت السماء أعيناً ترمُقه فتجازِي عليه.

- ٨ -

الأصل: اعْجَبُوا لِهَذَا الإنسانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بلَحْمٍ، وَيَسْمَعُ بِعَظْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ.

الشرح: هذا كلام محمول بعضه على ظاهره، لما تدعو إليه الضّرورة من مخاطبة العامّة بما يفهمونه والعدول عمّا لا تقبله عقولهم، ولا تَعِيهِ قلوبُهم.

أما الإبصار، فقد اختلف فيه، فقيل: إنه بخروج شعاع من العين يتّصل بالمرئيّ. وقيل: إن القوة المبصرة التي في العين تلاقي بذاتها المرئيات فتبصرها. وقال قوم: بل بتكيف الهواء بالشعاع البصريّ من غير خروج، فيصير الهواء باعتبار تكيّفه بالشّعاع به آلة العين في الإدراك.

= كتاب: الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٠٣٢)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: أي الصدقة أفضل (٢٥٤٢)، وأبو داود، كتاب: الوصايا، باب: ما جاء في كراهية الإضرار في الوصية (٢٨٦٥).

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٨٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٢٠) في ترجمة موسى بن عمير، برقم (٦٩٨٤)، والجارودي في «علله» ص ١٤٥، والطبراني في «الأوسط» (١٩٦٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

وقال المحققون من الحكماء: إن الإدراك البَصرِيّ هو بانطباع أشباح المرئيات في الرطوبة الجلْديّة من العين عند توسط الهواء الشفاف المضيء، كما تنطبع الصورة في المرآة. قالوا: ولو كانت المرآة ذات قوّة مبصرة لأدركت الصُّوَر المنطبعة فيها، وعلى جميع الأقوال فلا بدّ من إثبات القوة المبصرة في الرطوبة الجلْدية، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارته عليه السلام بقوله: «ينظر بشَحْم».

وأما الكلام فمحلّه اللسان عند قوم. وقال قوم: ليس اللّسان آلة ضرورية في الكلام؛ لأنّ من يقطع لسانه من أصله يتكلّم، وأما إذا قطع رأسه لم يتكلّم. قالوا: وإنما الكلام باللَّهوات، وعلى كلا القولين فلا بدّ أن تكون آلة الكلام لحماً، وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين عليه السلام، وليس هذه البنية المخصوصة شرطاً في الكلام على الإطلاق لجواز وجوده في الشَّجَر والجماد عند أصحابنا، وإنما هي شرط في كلام الإنسان، ولذا قال أمير المؤمنين: «اعجبوا لهذا الإنسان».

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق، وإنما هو بالقوّة المودَعة في العصب المفروش في الصمّاخ كالغشاء، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل في ثُقْب الأذن المنتهي إلى الصّماخ بعد تعويجات فيه جعلت لتجري مجرى اليراعة[1] المصوتة، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصَب الحامل للقوّة السامعة حصل الإدراك. وبالجملة فلا بدّ من عَظْم؛ لأنّ الحامل اللحم والعَصَب إنما هو العظْم.

وأما التَّنَفُّس فلا ريبَ أنه من خَرْم؛ لأنه من الأنف، وإن كان قد يمكن لو سدّ الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو خَرْم أيضاً، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحارّ عن القلْب وإدخال النّسيم البارد إليه، فجعلت الرئة كالمرْوحة تنبسط وتنقبض، فيدخل الهواء بها ويخرج من قَصَبتها النافذة إلى المنخرين.

– ٩ –

الأصل: إذا أَقْبَلَتِ الدُّنْيا على قَوْمٍ أعارَتْهُمْ مَحاسِنَ غَيْرِهِمْ، وإذا أدْبَرَتْ عَنْهُمْ سَلَبَتْهُم مَحاسِنَ أنْفُسِهِمْ.

(١) اليَرَاعَةُ: مِزمارُ الرّاعي. لسان العرب، مادة (يرع).

الشرح: كان الرّشيد أيام كان حسنَ الرأي في جعفر بن يحيى، يحلف بالله أن جعفراً أفصحُ من قُسّ بن ساعدة، وأشجعُ من عامر بن الطفَيل، وأكتبُ من عبد الحميد بن يحيى، وأسْوَس من عمر بن الخطاب، وأحسنُ من مُصعب بن الزبير - وكان جعفر ليس بحَسَن الصورة، وكان طويل الوجْه جداً - وأنْصح له من الحجاج لعبد الملك، وأسمَحُ من عبد الله بن جعفر، وأعفّ من يوسف بن يعقوب، فلما تغيّر رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقية التي لا يختلف اثنان أنها فيه، نحو كياسته وسماحته. ولم يكن أحد يجسُر أن يردّ على جعفر قولاً ولا رأياً، فيقال: إن أوّل ما ظهر من تغيّر الرشيد له أنه كلم الفضل بن الربيع بشيء فردّه عليه الفضل، ولم تجرِ عادته من قبل أن يفتح فاه في وجهه، فأنكر سليمان بن أبي جعفر ذلك على الفَضْل، فغضب الرشيد لإنكار سليمان، وقال: ما دخولك بين أخي ومولاي؟ كالرّاضي بما كان من الفضل، ثم تكلّم جعفر بشيءٍ قاله للفضل، فقال الفضل: اشهد عليه يا أمير المؤمنين، فقال جعفر: فضّ الله فاك يا جاهل! إذا كان أمير المؤمنين الشاهد، فمن الحاكم المشهود عنده؟ فضحك الرشيد، وقال: يا فَضْل، لا تمارِ جعفراً؛ فإنك لا تقع منه موقعاً.

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قاله عَلَيْهِ السَّلَامُ في العلوم والفضائل والخصائص النفسانية، دَعْ حديث الدنيا والسلطان والرياسة، فإن المحظوظ من علم أو من فضيلة تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفنّ، مثاله حظّ عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجاعة، ومن الأمثال الحكْميّة قلّ أن ترى مثلاً شارداً أو كلمة حكمية إلا وتضيفها الناس إليه.

وكذلك ما يدّعي العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال حتى يقال: إنه حمل على سبعين ألفاً فهزمهم، وقتل الجنّ في البئر، وفتل الطوق الحديد في عُنق خالد بن الوليد.

وكذلك حظّ عنترة بن شداد في الشجاعة، يُذْكَر له من الأخبار ما لم يكن.

وكذلك ما اشتهر به أبو نُواس في وصف الخمر، يضاف إليه من الشعر في هذا الفنّ ما لم يكن قاله، وكذلك جود حاتم وعبد الله بن جعفر ونحو ذلك، وبالعكس من لا حظّ له ينفى عنه ما هو حقيقة له، فقد رأينا كثيراً من الشعر الجيّد ينُفَى عن قائله استحقاراً له، لأنه خامل الذكر، وينسب إلى غيره، بل رأينا كتباً مصنفة في فنون من العلوم خَمَل ذكر مصنفّيها ونسبت إلى غيرهم من ذوي النّباهة والصّيت، وكل ذلك منسوب إلى الجَدّ والإقبال.

- ١٠ -

الأصل: خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ.

الشرح: وقد روي: «خَنُّوا» بالخاء المعجمة، من الخنين، وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء. وإلى تتعلق بمحذوف، أي حنُّوا شوقاً إليكم.

وقد ورد في الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما تقدم.

وفي الخبر المرفوع: «إذا وسعتم النّاس ببسط الوجوه، وحسن الخلق، وحسن الجوار، فكأنما وسعتموهم بالمال»[1].

وقال أبو الدرداء: إنّا لنهَشّ في وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لتَقِليهم.

وقال محمد بن الفضل الهاشميّ لأبيه: لِمَ تجلسُ إلى فلان وقد عرفتَ عداوته؟ قال: أخبِيء ناراً، وأقدح عِن ودّ.

وقال المهاجر بن عبد الله:

وإني لأُقصي المرءَ من غير بغضةٍ ... وأدني أخا البغضاء منّي على عَمدِ
ليُحدِث وُدّاً بعد بغضاءَ أو أرى ... له مصرَعاً يُردِي به الله مَنْ يُرْدِي

وقال عِقال بن شبّة التميميّ: كنتُ رِدْف أبي، فلقيه جرير بن الخَطَفي على بَغلَة، فحيّاه أبي وألطفه، فلمّا مضى قلت له: أبَعْدَ أن قال لنا ما قال! قال: يا بنيّ أفأوسّع جرحي!

وقال محمد بن الحنفيّة عليه السلام: قد يُدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه.

وقال الحسن عليه السلام: حُسْن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة[2].

ومدح ابن شهاب شاعراً فأعطاه، وقال: إن من ابتغاء الخير اتّقاء الشرّ.

وقال الشاعر:

وأنزلَني طولُ النّوى دار غربةٍ ... متَى شئت لاقيتُ امرأً لا أشاكلُهْ
أخا ثقةٍ حتى يقال سجيّة ... ولو كان ذا عَقْل لكنت أعاقلُهْ

وفي الحديث المرفوع: «للمسلم على المسلم ستّ: يسلّم عليه إذا لقيَه، ويجيبه إذا دعاه، ويُشمّته إذا عطس، ويعودُه إذا مرض، ويحبّ له ما يحبُّ لنفسه، ويشيّع جنازته إذا مات»[3].

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٨/ ٣٩٤.

(٢) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الأمر بإتباع الجنائز (١٢٤٠)، بلفظ «خمس»، وبلفظ «ست» أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢)، والترمذي، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في تشميت العاطس (٢٧٣٦)، وابن ماجه، كتاب: ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في عيادة المريض (١٤٣٣).

ووقف ﷺ على عجوز، فجعل يسألها ويتحفّاها، وقال: «إن حُسن العهد من الإيمان، إنّها كانت تأتينا أيّامَ خديجة»[1].

- ١١ -

الأصل: إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ.

الشرح: قد أخذت أنا هذا المعنى، فقلت في قطعة لي:

إنّ الأمانيّ أكسابُ الجهول فلا ... تقنعْ بها واركب الأهوالَ والخَطَرا
واجعل من العقل جهلاً واطّرِح نظراً ... في الموبقاتِ ولا تستشعِر الحذَرا
وإن قدرتَ على الأعداء منتصراً ... فاشكر بعفوك عن أعدائك الظَّفَرا

وقد تقدّم لنا كلام طويل في الحِلْم والصفح والعفو.

ونحن نذكر ها هنا زيادة على ذلك: شَجَر بين أبي مسلم وبين صاحب مَرْو كلامٌ أرْبَى فيه صاحب مَرْوَ عليه، وأغلظ له في القول، فاحتمله أبو مسلم، وندم صاحب مَرْو، وقام بين يديْ أبي مسلم معتذراً، وكان قال له في جملة ما قال: يا لَقِيط! فقال أبو مسلم: مَهْ! لسان سبقَ، ووهم أخطأ، والغضب شيطان وأنا جَرّأتُك عليّ باحتمالك قديماً، فإن كنتَ للذنب معتذراً، فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعفو يسعُك. فقال صاحب مَرْو: أيّها الأمير، إن عظَم ذنبي يمنعني من الهدوء. فقال أبو مسلم: يا عجباً! أقابلك بإحسان، وأنت مسيء، ثم أقابلك بإساءة وأنت محسن! فقال: الآن وثقت بعفوك.

وأذنب بعضُ كتاب المأمون ذنباً، وتقدّم إليه ليحتجّ لنفسه، فقال: يا هذا، قِفْ مكانَك؛ فإنما هو عُذْر أو يمين، فقد وهبتهما لك، وقد تكرّر منك ذلك، فلا تزال تسِيء ونحسن، وتذنب ونغفر، حتى يكون العفو هو الذي يصلحك!

وكان يقال: أحسن أفعال القادر العفو، وأقبحها الانتقام.

وكان يقال: ظَفَر الكريم عفو، وعفو اللئيم عقوبة.

وكان يقال: ربّ ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به، ولا يجاوز به حدّ الارتفاع إلى الإيقاع.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب: الأدب، باب: حسن العهد من الإيمان، والحاكم في «المستدرك» (٤٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ١٤).

وكان يقال: ما عفا عن الذّنب من قرّع به.

ومن الحلم الذي يتضمّن كِبْراً مستحسناً، ما روي أنّ مُصعب بن الزبير لَمّا ولي العراق عرض النّاس ليدفع إليهم أرزاقهم، فنادى مناديه: أين عمرو بن جُرموز؟ فقيل له: أيّها الأمير، إنه أبعد في الأرض، قال: أوَ ظَنّ الأحمق أني أقتله بأبي عبد الله! قولوا له: فليظهر آمناً، وليأخذ عطاءه مسلّماً.

وأكثر رجل من سبّ الأحنف وهو لا يجيبه، فقال الرّجل: ويلي عليه! والله ما منعه من جوابي إلا هواني عنده!

وقال لَقِيط بن زرارة:

فقل لبني سعدٍ ومالي ومالكمْ ... ترِقّون منّي ما استطعتم وأعتقُ
أغرّكُمُ أنّي بأحسنِ شيمة ... بصيرٌ وأنّي بالفواحش أخرَقُ!
وأنّك قد سابَبْتَنِي فقهرتِني ... هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذَقُ

وقال المأمون لإبراهيم بن المهديّ لما ظفرَ به: إنّي قد شاورت في أمرك، فأشير عليّ بقتلك، إلا أني وجدت قدرَك فوق ذنبك، فكرهت قتلك للازم حرمتك. فقال إبراهيم: يا أميرَ المؤمنين، إنّ المشير أشار بما تقتضيه السياسة، وتوجيه العادة، إلا أنّك أبيت أن تطلب النّصر إلا من حيث عُوّدته من العفو، فإن قتلتَ فلك نظراء، وإن عفوت فلا نظير لك. قال: قد عفوت، فاذهب آمناً.

ضلّ الأعشى في طريقه، فأصبح بأبيات علقمة بن عُلاثة، فقال قائده، وقد نظر إلى قباب الأدم: واسوء صباحاه يا أبا بصير! هذه والله أبيات علقمة، فخرج فتيان الحيّ، فقبضوا على الأعشى، فأتوا به علقمة، فمثّل بين يديه، فقال: الحمد لله الذي أظفرني بك من غير ذمّة ولا عَقْد، قال الأعشى: أو تدري لم ذلك جُعلت فداك! قال: نعم، لأنتقم اليوم منك بتقوالك عليّ الباطل مع إحساني إليك، قال: لا والله، ولكن أظفرك الله بي ليبلُوَ قَدْرَ حلمِك فيّ. فأطرَقَ علقمة، فاندفع الأعشى فقال:

أعَلْقَمَ قد صَيَّرَتْني الأمورُ ... إليكَ وما كان بي مَنكَصُ
كساكم عُلاثةُ أثوابَهُ ... وورّثكم حِلْمَهُ الأحوصُ
فهبْ ليَ نفسي فدتك النُّفوسُ ... فلا زلت تَنمِي ولا تنقصُ

فقال: قد فعلت، أما والله لو قلت فيّ بعض ما قلتَه في عامر بن عمر، لأغنيتك طول حياتك، ولو قلت في عامر بعض ما قلته فيّ ما أذاقك بَرْد الحياة.

قال معاوية لخالد بن مَعمر السّدوسيّ: على ماذا أحببت عليًّا؟ قال: على ثلاث: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، ووفاؤه إذا وَعَد.

- ١٢ -

الأصل: أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ.

الشرح: قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيات فيما تقدم. وفي الحديث المرفوع أن النبي ﷺ بكى لما قُتِل جعفر بمؤتة، وقال: «المرء كثير بأخيه»[1].

وقال جعفر بن محمد عليه السلام: لكلّ شيء حِلْيَة وحِلْيَةُ الرجل أودّاؤه[2].

وأنشد ابن الأعرابيّ:

لَعَمْرُكَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ... ولكنّ إخوان الصّفاء الذخائرُ

وكان أبو أيّوب السّختيانيّ يقول: إذا بلغني موت أخ كان لي، فكأنما سقط عضوٌ مني.

وكان يقال: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنَى عنه، وطبقة كالدّواء يُحتاج إليه عند المرض، وطبقة كالداءِ لا يُحتاج إليه أبداً.

وكان يقال: صاحبك كرقعة في قميصِك، فانظر بما ترقع قيمصك!

وكان يونس بن عبيد يقول: اثنان ما في الأرض أقلّ منهما، ولا يزدادان إلاّ قلة: درهم يوضع في حقّ، وأخ يُسكَن إليه في الله.

وقال الشاعر:

أخاكَ أخاكَ إنّ مَنْ لا أخا لَهُ ... كساعٍ إلى الهيجَا بغير سلاحِ
وإنّ ابن عمّ المرء فاعلم جَناحُهُ ... وهلْ ينهض البازِي بغير جَناح؟

وقال آخر:

ولن تنفكّ تُحسَد أو تُعادَى ... فأكثِرْ ما استطعت من الصّديقِ
وبغضك للتّقيّ أقل ضرًّا ... وأسلمُ من مودّة ذي الفسوقِ

وأوصى بعضهم ابنَه، فقال: يا بني، إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرّجال فاصحب مَن إذا صحبته زانك، وإذا خدمتَه صانك، وإذا عرضت لك مُؤنة أعانك، وإن قلت صدّق قولك، وإنْ صُلْتَ شدّ صوْلك، وإن مددت يدك لأمر مدّها، وإن بدت لك عَوْرة سدّها، وإن رأى منك

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (١٤٤٧)، والشهاب في «مسنده» (١٨٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٦٢٥).

(٢) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٢٤٢.

حسنة عدّها، وإن سألتَه أعطاك، وإن سكتّ ابتداك، وإن نزلتْ بك ملمّة واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تحتار عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق.

ومن الشعر المنسوب إلى عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إنّ أخاك الحقّ مَنْ كان معكْ ... ومن يضرُّ نفسه لينفَعكْ

ومن إذا رَيْبُ الزّمانِ صدَعَكْ ... شتّت فيك شملَه ليَجْمَعَكْ

ومن الشعر المنسوب إليه عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً:

أخوكَ الّذي إن أجرضَتْكَ ملمّةٌ ... من الدَّهْرِ لم يبرح لها الدَّهْرَ واجما

وليس أخوك بالّذي إن تشعَّبتْ ... عليك أمورٌ ظَلَّ يلحَاكَ لائما

وقال بعض الحكماء: ينبغي للإنسان أن يوكّل بنفسه كالئيْن: أحدهما يكلؤه من أمامه، والآخر يكلَؤه من ورائه، وهما عقله الصحيح، وأخوه النصيح، فإنّ عقله وإن صحّ فلن يبصّره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه في المرآة، ويخفِى عليه ما خلفه، وأما أخوه النصيح فيبصّره ما خلْفه وما أمامه أيضاً.

وكتب ظريف إلى صديق له: إني غير محمود على الانقياد إليك، لأني صادقتك من جوهر نفسي، والنفس يتبع بعضها بعضاً.

وفي الحديث المرفوع: «إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعلّمه»(١).

وقال الأحنف: خير الإخوان من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْكَ وُدًّا، وإن احتجت إليه لم ينقصك.

وقال أعشى باهلة يرثي المنتشر بن وهب:

إمّا سَلَكْت سبيلاً كنتَ سالكها ... فاذهب فلا يُبْعدَنْك الله منتشرُ

مَنْ ليس في خيره شرٌّ ينكّده ... على الصّديق ولا في صفوِهِ كَدَرُ

وقال آخر يرثي صديقاً له:

أخٌ طالمَا سَرّني ذكرُه ... واصبحت أشجَى لدى ذكرِهِ

وقد كنتُ أغدُو إلى قصرِهِ ... فأصبَحْتُ أغدو إلى قبرِهِ

وكنتُ أراني غنيًّا بِهِ ... عن النّاس لو مُدّ في عمرِهِ

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٧٠)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في إعلام الحب، (٢٣٩٢)، وأحمد في «مسنده» (١٦٧١٩)، والحاكم في «مستدركه» (٧٣٢٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٣٤).

إذا جئتُه طالباً حاجةً   فأمرِي يجوزُ على أمره

رأى بعض الحكماء مصطحبيْن لا يفترقان، فسأل عنهما، فقيل: صديقان، قال: فما بال أحدهما غنياً والآخر فقيراً!

١٣ – وقال عليه السلام في الذين اعتزلوا القتال معه

الأصل: خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ.

الشرح: قد سبق ذكر هؤلاء فيما تقدّم، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وأنس بن مالك، وجماعة غيرهم.

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين في «الغرر» أن أمير المؤمنين عليه السلام لما دعاهم إلى القتال معه، واعتذروا بما اعتذروا به، قال لهم: أتنكرون هذه البيعة؟ قالوا: لا، لكنّا لا نقاتل، فقال: إذا بايعتم فقد قاتلتم، قال: فسلِموا بذلك من الذّم؛ لأن إمامهم رضيَ عنهم.

ومعنى قوله: «خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل»، أي: خذلوني ولم يحاربوا معي معاوية، وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف في هؤلاء، وإلى هذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ.

– ١٤ –

الأصل: إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلاَ تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ.

الشرح: قد سبق القول في الشكر، ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك.

قال بعضهم: ما شيّبتني السّنون، بل شكري مَنْ احتاج أن أشكرَه.

وقالوا: العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى.

وقالوا: من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره.

ومن جيّد ما قيل في الشكر قول أبي نواس:

قد قلتُ للعبّاس معتذراً ... من ضعف شُكريهِ ومعترفا
أنت امرؤٌ حمّلتني نعماً ... أوهَتْ قُوى شكري فقد ضعفا
فإليك منّي اليومَ معذرةً ... جاءتك بالتّصريح منكشِفا
لا تُسْدِيَنّ إليّ عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال البحتريّ:

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً ... فلا نلتُ نُعْمَى بعدها توجب الشُّكرا

وقال أيضاً:

ساجهدُ في شكرِي لنعماك إنّني ... أرَى الكُفر للنّعماء ضرباً من الكفرِ

وقال ابن أبي طاهر:

شكرت عليًّا برّه وبلاءه ... فقصّر بي شُكري وإنّي لجاهدُ
وما أنا من شكري عليًّا بواحدٍ ... ولكنّه في الفَضْلِ والجودِ واحدُ

وقال أبو الفتح البستي:

لا تظنّنَّ بي وبِرُّكَ حيٌّ ... أنّ شكري وشكرَ غيرِي مَواتُ
أنا أرضٌ وراحتاك سحابٌ ... والأيادي وبْلٌ وشكري نَباتُ

وقال أيضاً:

وخرّ لما أوليت شكريَ ساجداً ... ومثلُ الذي أوليتَ يعبدُه الشكرُ

البحتريّ:

أراك بعين المكتسي ورق الغِنَى ... بآلائك اللاتِي يعدّدها الشُّكرُ
ويعجبني فقرِي إليك ولم يكُنْ ... ليعجبَني لولا محبّتُك الفَقْرُ

آخر:

بدأتَ بمعروفٍ وثنّيت بالرضا ... وثلثت بالحُسنى وربّعت بالكرَمْ
وباشرتَ أمرِي واعتنيتَ بحاجتي ... وأخرت «لا» عَنّي وقدّمت لي «نعَمْ»
وصدّقْتَ لي ظني، وأنجزتَ موعدي ... وطبتَ به نفساً ولم تتبع النّدَمْ
فإن نحن كافأنا بشكر فواجبٌ ... وإن نحنُ قصّرنا فما الودّ متّهَمْ

- ١٥ -

الأصل: مَنْ ضَيَّعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ.

الشرح: إنّ الإنسان قد ينصره مَنْ لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه، فقد تقوم به الأجانب من الناس، وقد وجدنا ذلك في حقّ رسول الله ﷺ، ضيّعه أهلُه ورهطه من قريش وخذلوه، وتمالؤوا[1] عليه، فقام بنصره الأوس والخزرج، وهم أبعد الناس نسباً منه، لأنه من عدنان وهم من قحطان، وكلّ واحد من الفريقين لا يحبّ الآخر حتى تحبّ الأرض الدم. وقامت ربيعة بنصر عليّ عليه السلام في صِفّين، وهم أعداء مُضَر الذين هم أهله ورهطه، وقامت اليمن بنصر معاوية في صِفّين، وهم أعداء مُضَر، وقامت الخُراسانية وهم عَجَم بنصر الدولة العباسية، وهي دولة العرب. وإذا تأملت السِّيَر وجدت هذا كثيراً شائعاً.

- ١٦ -

الأصل: مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ.

الشرح: هذه الكلمة قالها عليٌّ عليه السلام لسعد بنِ أبي وَقّاص ومحمّدِ بنِ مَسلَمَةَ وعبدِ الله بن عمرَ لمّا امتَنعوا من الخروج معه لحربِ أصحابِ الجَمَل، ونظيرُها أو قريبٌ منها قولُ أبي الطيّب:

فَما كلُّ فَعّالٍ يُجازَى بِفِعلِهِ ... ولا كلُّ قَوّال لـديَّ يُجابُ
ورُبَّ كلامٍ مَرّ فوق مَسامِعي ... كما طَنَّ في لَفْحِ الهَجير ذُبابُ

- ١٧ -

الأصل: تَذِلُّ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ، حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ.

(١) تمالَؤوا عليه: اجتمعوا. القاموس المحيط، مادة (ملأ).

الشرح: إذا تأملتَ أحوالَ العالَم وجدت صِدقَ هذه الكلمة ظاهراً، ولو شئنا أن نَذكُر الكثيرَ من ذلك لذكَرْنا ما يَحتاج في تقييده بالكتابة إلى مِثْل حَجْم كِتابنا هذا، ولكنّا نذكر لمحاً ونُكَتاً وأَطرافاً ودُرَراً من القول.

فَرَش مروانُ بنُ محمد - وقد لقيَ عبدَ الله بنَ عليّ - أنطاعاً وبَسَط عليها المال، وقال: مَنْ جاءني برأسٍ فله مائةُ درهم، فعَجزت الحَفَظة والحُرَّاس عن حمايته، واشتغلتْ طائفةٌ من الجُنْد بِنَهْبه، وتهافَتَ الجيشُ عليه لينهبوه، فغشيَهم عبدُ الله بنُ عليّ بعساكره، فقَتَل منهم ما لا يُحصَى، وهُزِم الباقون.

وكَسَرَ إبراهيم بنُ عبدِ الله بن الحسن جيشَ أبي جعفر المنصور بباخَمرَي وأمرَ أصحابه باتّباعهم، فحال بينهم وبين أصحاب أبي جعفر ماءٌ ضَحْضاح، فكَرِه إبراهيمُ وجيشُه خوضَ ذلك الماء، وكان واسعاً، فأمَرَ صاحب لوائه أنْ يتعرّج باللواء على مسنّاةٍ كانت على ذلك الماء يابسة، فسَلَكها صاحبُ اللّواء وهي تفضي بانعراج وانعكاس إلى الأرض اليبس، فلمّا رأى عسكرُ أبي جعفر أن لواءَ القوم قد تراجَعَ القَهْقَرَى ظَنّوهم منهزمِين، فعَطَفوا عليهم، فقَتَلوا منهم مَقتلةً عظيمة، وجاء سَهْمٌ غَرْبٌ فأصابَ إبراهيم فقَتَله.

وقد دبّرتْ من قبلُ قريشٌ في حماية العِير بأن نفَرتْ على الصَّعْب والذَّلُول لتدفَع رسول الله ﷺ عن اللَّطيمة، فكان هلاكُها في تدبيرِها.

وكُسِرت الأنصارُ يومَ أُحُد بأن أخرَجت النبيّ ﷺ عن المدينة ظنًّا منها أن الظفر والنُّصْرَة كانت بذلك، وكان سببُ عَطَبها وظَفر قريشٍ بها، ولو أقامت بين جُدْران المدينة لم تَظفرْ قريشٌ منها بشيء.

ودَبَّر أبو مسلم الدّولة الهاشميّة، وقام بها حَتَّى كان حَتْفُه في تدبيره.

وكذلك جَرَى لأبي عبدِ الله المحتسِب مع عبدِ الله المهديّ بالمغرب.

ودبّر أبو القاسم بن المسلمة رئيسُ الرؤساء في إخراج البَساسِيريّ عن العراق حتّى كان هلاكُه على يدِه، وكذلك أيضاً انعكس عليه تدبيرهُ في إزالة الدّولة البُوَيْهيّة من الدّولة السَّلْجوقيّة ظنًّا منه أنّه يَدفَع الشرَّ، بغير الشرّ، فدَفَع الشرَّ بما هو شرٌّ منه.

وأمثالُ هذا ونظائرهُ أكثرُ من أن تُحصَى.

- ١٨ -

الأصل: وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُول صلّى الله عليهِ وَآلِهِ: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ»[1]، فقالَ عليهِ السلامُ:

إِنَّما قالَ صلى الله عليهِ وآلهِ ذلِكَ والدِّينُ قُلٌّ، فأَمَّا الآن وقَدِ اتَّسَعَ نِطاقُهُ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ، فامْرُؤٌ وما اختارَ.

الشرح: اليهودُ لا تَخضِب، وكان النبيّ ﷺ أمر أصحابه بالخِضابِ ليكونوا في مَرْأى العين شَباباً فيَجْبنَ المشركون عنهم حال الحرْب، فإنّ الشيخَ مَظِنّة الضَّعف.

قال عليٌّ عليه السلام: «كان ذلك والإسلامُ قُلّ»، أي قليل، وأمّا الآن وقد اتّسع نطاقُه وضَرَب بجِرانه فقد سَقط ذلك الأمرُ وصار الخضاب مُباحاً غيرَ مندوب.

والنِّطاق: ثوبٌ تلبَسه المرأةُ لبسةً مخصوصة ليس بصُدرةٍ ولا سراويل، وسُمِّيتْ أسماءُ بنتُ أبي بكر ذات النِّطاقين لأنها قَطعتْ من ثوبها ذلك قطعةً شَدّت بها سُفرة لها حملها أبو بكر معه حين خرج من مكة مع النبيّ ﷺ يومَ الهِجْرة، فقال النبيّ ﷺ: «لقد أبدَلها الله بها نِطاقين في الجنّة»[2]، وكان نفر الشام يُنادون عبد الله ابنها حين حَصَره الحجّاج بمكة يشتمونه كما زَعموا: يا بن ذاتِ النِّطاقين، فيضحك عبدُ الله منهم، وقال لابن أبي عَتيق: ألا تسمع! يظنّونه ذمًّا ثم يقول:

وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

واستعارَ أميرُ المؤمنين عليه السلام هذه اللّفظة لسَعة رُقْعة الإسلام، وكذلك استعار قوله: «وضَرَب بِجرانه»، أي أقام وثَبت، وذلك لأن البعير إذا ضَرَب بجِرانه الأرض - وجِرانه مُقدَّم عنقِه - فقد استناخ وبَرَك.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في الخضاب (١٧٥٢)، والنسائي، كتاب: الزينة، باب: الإذن بالخضاب (٥٠٧٣)، وأحمد في «مسنده» (١٤١٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٤٧٣).

(٢) ذكره المزي في «تهذيب الكمال»، في ترجمة أسماء بنت أبي بكر (٣٥/ ١٢٤) برقم (٧٧٨٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» في ترجمتها (٤/ ١٧٨٢)، برقم (٣٢٢٦)، وابن حجر في «الإصابة» في ترجمتها (٧/ ٤٨٧)، برقم (١٠٧٩٨).

وامرؤ مبتدأ وإن كان نكرةً، كقولهم: «شرٌّ أهَرَّ ذا ناب»، لحصول الفائدة، والواو بمعنى «مع»، وهي وما بعدها الخبر، وما مصدريّة، أي امرؤ مع اختياره.

بعض ما ورد في الشيب والخضاب

فأمّا القول في الخِضاب فقد رَوَى قومٌ أن رسول الله ﷺ بدا شيبٌ يسيرٌ في لحيته، فغيّره بالخِضاب[1]، خَضَب بالحِنّاء والكَتَم[2]، وقال قومٌ: لم يَشِبْ أصلاً.

ورُوِي أنّ عائشة قالت: ما كان الله ليَشِينه بالشيب، فقيل: أوَشَيْنٌ هو يا أمّ المؤمنين! قالت: كلّكم يكرهه. وأما أبو بكر فصحّ الخبر عنه بذلك، وكذلك أمير المؤمنين، وقيل: إنه لم يخضب. وقُتِل الحسينُ عليه السلام يومَ الطَّفّ وهو مَخْضوب. وفي الحديث المرفوع رواهُ عقبة بنُ عامر: «عليكم بالحِنّاء، فإنه خِضاب الإسلام، إنه يصفّي البَصَر ويَذْهِب بالصُّداع، ويزيد في الباه، وإيّاكم والسواد، فإنه من سَوّد، سَوّد الله وجهه يومَ القيامة»[3].

وعنه ﷺ: «عليكم بالخِضاب، فإنه أهيَبُ لعدوّكم وأعجَبُ إلى نسائِكم»[4].

ويقال في أبواب الكناية للمختضِب، هو يسوّد وجه النذير، لأنّ النذير الشّيب. قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[5]: إنه الشيب.

وكان عبد الرحمن بنُ الأسود أبيض الرأس واللّحية، فأصبح ذات يوم وقد حمّرهما؛ وقال: إنّ عائشة أرسلتْ إليّ البارحة جاريتها فأقسمتْ عليّ لأغيرن، وقالت: إنّ أبا بكر كان يَصْبغ.

وروَى قيسُ بن أبي حازم قال: كان أبو بكر يخرُج إلينا وكأنّ لحيته ضِرامُ عَرْفَج.

وعن أبي عامر الأنصاريّ: رأيتُ أبا بكر يغيّر بالحنّاء والكَتَم، ورأيت عمر لا يغيّر شيئاً من شَيْبه، وقال: إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من شاب شَيبةً في الإسلام كانت له نوراً يومَ القيامة»[6]، ولا أحبّ أن أغيّر نُوري.

---

(١) ذكره الزرقاني في «شرحه على الموطأ» (٤/ ٣٦٢)، وكذلك السيوطي في تنوير الحوالك (١٦٤٢)، وابن قانع في معجم الصحابة، عن ترجمة ناجية بن عمرو (٣/ ١٦٢) برقم (١١٣٦).

(٢) الكَتَمُ محركة والكُتْمان بالضم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه، وأصله إذا طبخ بالماء كان منه مداد للكتابة. القاموس المحيط، مادة (كتم).

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٢٦)، عند ترجمة معروف بن عبد الله الخياط برقم (١٨٠٧)، وذكره في «كنز العمال» (٢٨٢٨٢)، وعزاه لابن عساكر في «التاريخ».

(٤) في ديوان المهذبين: ١/ ٢١.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٦) أخرجه الترمذي، كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل من شاب شيبة في سبيل الله =

وكان أنسُ بنُ مالك يَخضِب وُينشِد:

نُسوِّد أعلاها وتأبَى أصولُها   وليس إلى رَدّ الشّباب سبيلُ

ورُوي أنّ عبد المطلب وَفد على سيف بن ذي يزَن، فقال له: لو خضبتَ! فلما عاد إلى مكّة خضب، فقالت له امرأته نُتَيْلة أم العبَّاس وضرار: ما أحسنَ هذا الخِضاب لو دام! فقال:

فلو دامَ لي هذا الخضابُ حَمِدْتُهُ   وكان بَدِيلاً من خليلٍ قد انصَرَمْ

تمتعتُ منه والحياةُ قصيرةٌ   ولا بد من موتٍ - نتيلةُ - أو هَرَمْ

وموتٍ جهيزٍ عاجلٍ لا شَوَى له   أحبُّ إلينا من مقالِكُمُ حَكم

قال: يعني أنّه صار شيخاً، فصار حَكماً بين الناس، من قوله:

لا تَغبِط المرء أن يقال له   أضحى فلانٌ لسنّه حَكَمَا

وقال أسماءُ بنُ خارجةَ لجاريته: اخضِبيني، فقالت حتى متى أرقّعك! فقال:

عيَّرتِني خَلَقاً أبليتُ جِدّته   وهلْ رأيتِ جديداً لم يَعُد خَلَقَا!

وأمّا من يَروِي أنّ عليًا عليه السلام ما خَضَب، فيحتجّ بقوله، وقد قيل له: لو غيّرتَ شيبَك يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: الخِضاب زينة، ونحن في مصيبة - يعني برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١].

وسُئِل الحسنُ عليه السلام عن الخضاب، فقال: هو جَزَعٌ قبيح. وقال محمود الورّاق:

يا خاضبَ الشَّيب الّذي   في كلّ ثالثةٍ يَعودُ

إنّ الخِضابَ إذا مَضَى   فكأنه شَيبٌ جديدُ

فدَعِ المشيبَ وما يُرِيدُ   فلن تعودَ كما تُريدُ

وقد رَوَى قومٌ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كَراهيةَ الخِضاب، وأنه قال: «لو استَقْبلتم الشيبَ بالتّواضع لكان خيراً لكم»[٢].

قال الشاعر:

وصَبغتُ ما صَبَغ الزمانُ فلم يَدُمْ   صَبْغي ودامت صِبْغة الأيّامِ

وقال آخر:

يأيّها الرجلُ المغيّر شَيبَه   كيما تُعَدّ به من الشّبّانِ

= (١٦٣٤)، والنسائي، كتاب الجهاد، باب: ثواب من رمى بسهم في سبيل الله (٣١٤٢)، وأحمد في «مسنده» (٦٩٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤٣٧١).

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦٥.

(٢) في ديوانه: ٢/ ٧٢.

أقصِر فلو سوّدت كلّ حمامةٍ ... بيضاءَ ما عُدّت مِن الغِرْبانِ

ويقولون في ديوان عَرْض الجَيْش بَبغدادَ لمن يَخضِب إذا ذَكَروا حِليته: مستعار، وهي كنايةٌ لطيفة. وأنا أستحسِن قول البحتري: خَضَبتُ بالمقراض: كناية عن قَصّ الشعر الأبيض، فجعل ذلك خِضابه عِوَضاً عن الصّبغ، والأبياتُ هذه:

لابسٌ من شيبةٍ أم ناضِ ... ومليحٌ من شيبةٍ أم راضِ
وإذا ما امتَعضتُ مِن وَلع الشَّيـ ... ـب برأسي لم يَثْنِ ذاكَ امتِعاضِي
ليس يَرضى عن الزّمان امرُؤ فيـ ... ـه إلاّ عن غفلةٍ أو تَغاضِي
والبَواقِي مِن اللّيالي وإن خا ... لَفْنَ شيئاً شَبيهةٌ بالمَواضِي
وأبَتْ تَركِي الغُديّاتِ والآ ... صالِ حتّى خَضبتُ بالمِقْراضِ
ودواءُ المَشيبِ كالبَخْصِ[1] في عَيْنِي ... فقل فيه في العيونِ المِراضِ
طال حُزْني على الشّباب وما بَيَّضَ ... مِن لونِ صِبْغِه الفَضفاضِ
فهل الحادثاتُ يابنَ عُوَيْفٍ ... تاركاتي ولُبسَ هذا البَياضِ!

- ١٩ -

الأصل: مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ.

الشرح: قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ في الأمل، ونذكر هاهنا زيادةً على ذلك:

قال الحسن عليه السلام: لو رأيتَ الأجلَ ومَسيرَه، لنسيتَ الأملَ وغرورَه، ويُقدِّر المقدِّرون والقضاءُ يَضحَك.

ورَوَى أبو سَعيد الخُدْرِيّ أنّ أسامةَ بنَ زيد اشتَرى وَليدةً بمائة دينار إلى شهر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تَعجَبون من أُسامةَ يَشترِي إلى شَهْر! إنّ أسامةَ لطويلُ الأمَل»[2].

أبو عثمان النَّهديّ: قد بلغتُ نحواً من ثلاثين ومائةَ سنةٍ فما من شيءٍ إلاّ قد عرفتُ فيه النقصَ إلاّ أمَلي، فإنّه كما كان.

---

(١) البَخْصُ: مصدر بَخَصَ عينه بَخْصاً: أغارها. لسان العرب، مادة (بخص).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٦٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٩١).

قال الشاعر:

أراكَ تَـزيـدُك الأيّـامُ حِـرْصـاً ... عـلـى الـدّنـيـا كـأنّـك لا تَـمـوتُ

فـهـلْ لـكَ غـايـةٌ إن صـرتَ يـومـاً ... إلـيـهـا قـلـتُ حَـسْـبـي قـد رَضيـتُ!

وقال آخر:

مَنْ تَمَنَّى المُنَى فأغرَقَ فيها ... ماتَ من قـبـلِ أن يَـنـالَ مُـنـاهُ

ليس في مالِ مَن تَتَابَع في اللّذّاتِ ... فـضـلٌ عـن نـفـسِـه لـسِـواهُ

— ٢٠ —

الأصل: أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوآتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلاَّ وَيَدُهُ بِيَدِ الله يَرْفَعُهُ.

بعض ما ورد في المروءة

الشرح: قد رُوِيَتْ هذه الكلمة مرفوعة، ذكر ذلك ابنُ قُتيبة في «عيون الأخبار» وأحسَن ما قيل في المُروءة قولُهم: اللّذة تركُ المروءة، والمروءةُ تركُ اللّذة.

وفي الحديث أنّ رجلاً قام إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله ألستُ أفضلَ قومي! فقال: «إن كان لك عَقْل فلك فَضْل، وإن كان لك خُلُق فلَك مُروءة، وإن كان لك مال فلَك حَسَب، وإن كان لك تُقًى فلك دِين»[1].

وسئل الحسَن عن المروءة فقال: جاء في الحديث المرفوع: «إنّ الله تعالى يحبّ معالِيَ الأمورِ ويَكرَه سَفْسافَها»[2].

وكان يقال: من مُروءة الرجلِ جلوسُه ببابِ داره.

وقال الحسن: لا دِين إلاّ بمُروءة.

وقيل لابن هُبيرة: ما المُروءة؟ فقال: إصلاحُ المال، والرَّزانةُ في المجلس، والغَدَاء والعَشاء بالفِناء.

(١) ذكره ابن حجر في «الإصابة» عند ترجمة مالك بن عمرو بن برهة (٥/ ٧٣٦)، برقم (٧٦٦٥) وأنه هو من سأل النبي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٨٩٤)، و«الأوسط» (٢٩٤٠)، والشهاب في «مسنده» (١٠٧٦).

وجاء أيضاً في الحديث المرفوع: «حَسَب الرجُل مالُه، وكَرَمُه دِينُه، ومُرُوءتُه خُلُقه»[1].

وكان يقال: ليس من المروءة كثرةُ الالتفات في الطّريق.

ويقال: سُرعة المَشْي تذهب بمُروءة الرجل.

وقال معاوية لعمرو: ما ألذّ الأشياء؟ قال: مُرْ فِتْيانَ قُرَيش أن يقوموا، فلمّا قاموا قال: إسقاطُ المرُوءة.

وكان عُروةُ بنُ الزّبير يقول لبَنِيه: يا بَنِيّ الْعَبوا، فإنّ المروءة لا تكون إلا بعد اللّعِب. وقيل للأحنف: ما المرُوءة؟ قال: العِفّة والحِرْفة، تَعفّ عمّا حَرّم الله، وتحترِف فيما أَحَلّ الله.

وقال محمد بن عمران التيميّ: لا أشدّ من المروءة، وهي ألاّ تعمل في السرّ شيئاً تَستحِي منه في العَلانيَة. وسئل النّظام عن المرُوءة، فأنشد بيتَ زُهَير:

الستـرُ دونَ الفاحشاتِ ولا يَلقاكَ دُونَ الخَيـر مـن سِتْـرِ

وقال عُمر: تعلموا العربيّة فإنّها تزيدُ في المرُوءة، وتعلّموا النَّسب فرُبَّ رَحِمٍ مجهولةٍ قد وُصلتْ به.

وقال ميمونُ بنُ مِهران: أوّلُ المرُوءة طَلاقةُ الوَجْه، والثاني التودُّد إلى الناس، والثالثُ قَضاءُ الحَوائج.

وقال مَسلمة بنُ عبدِ المَلِك: مُروءتان ظاهِرَتان: الرِّياش[2] والفصاحة.

وكان يقال: تُعرَف مُروءةُ الرّجل بكثرة دُيونه.

وكان يقال: العقل يأمُرُك بالأنفع، والمرُوءة تأمرك بالأجمَل.

لامَ معاويةُ يزيدَ ابنَه على سَماع الغِناء وحُبِّ القِيان، وقال له: أسقَطْتَ مرُوءتَك، فقال يزيد: أتكلّم بلساني كلمةً؟ قال: نعم، وبلسان أبي سفيانَ بن حَرْب وهند بنتِ عُتْبة مع لسانك، قال: والله لقد حدّثني عَمرو بنُ العاص - واستَشهَد على ذلك ابنَه عبدَ الله بصدقه - أنّ أبا سفيانَ كان يَخلَع على المغنّي الفاضل والمضاعف من ثِيابه، ولقد حدّثني أنّ جاريَتَيْ عبد الله بن جُدعان غنّتاه يوماً فأطرَبتاه، فَجَعَل يَخلع عليهما أثوابَه ثوباً ثَوْباً حتى تجرّد تجرُّد العَيْر، ولقد كان هو وعفّان بنُ أبي العاص ربّما حَمَلا جاريةَ العاص بن وائل على أعناقِهما، فمرَّا بها على

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٥٥٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٨٦)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٩٦٢)، والشهاب في «مسنده» (١٩٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٥٧)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١).

(٢) الرِّياش: الخِصْب والمعاش والمال والأثاث واللّباس الحسن الفاخر. القاموس المحيط، مادة (ريش).

الأبطح وجِلّة قريش ينظرون إليهما، مرّة على ظهر أبيك، ومرّةً على ظَهْر عَفّان، فما الّذي تنكر منّي! فقال معاوية: اسكُت لَحاكَ الله! والله ما أحدٌ ألحقَ بأبيك هذا إلا ليغُرّك ويَفضَحك، وإن كان أبو سفيان ما علمتَ لثَقيلُ الْحِلْم، يَقْظان الرأي، عازِبُ الهَوَى، طويلُ الأناة، بعيدُ القَعْر، وما سوّدتْه قريشٌ إلا لفَضْله.

- ٢١ -

الأصل: قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ.

الشرح: في المَثَل: مَنْ أقْدَم لم يَنْدَم، وقال الشاعر:

ليس للحاجات إلاّ ... من له وجهٌ وَقاحُ
ولسانٌ طِرْمِذِيٌّ ... وغُدُوٌّ ورَواحُ
فعليه السعيُ فيها ... وعلى الله النّجاحُ

وكان يقال: الفرصة ما إذا حاولْتَه فأخطأك نفعُه، لم يَصِلْ إليك ضرّه.

ومن كلام ابن المقفع: انتهز الفرصةَ في إحراز المآثر، واغتنِم الإمكان باصطناع الخير، ولا تنتظر ما تُعامل فتُجازَى عنه بمثله، فإنّك إن عُوملتَ بمكروه واشتغلت بِرَصد المكافأة عنه قَصّر العُمر بكَ عن اكتساب فائدة، واقتناء مَنْقَبَة، وتصرّمَتْ أيامُك بين تعدٍّ عليك، وانتظارٍ للظَّفَر بإدراك الثأرِ من خَصْمك، ولا عيشةَ في الحياة أكثرُ من ذلك.

كانت العربُ إذا أوفدَتْ وافداً قالت له: إيّاك والهَيْبة، فإنها خَيْبة، ولا تَبِتْ عند ذَنَب الأمر وبِتْ عند رأسه.

- ٢٢ -

الأصل: لَنَا حَقٌّ فإنْ أُعْطِيناهُ وإلاّ رَكِبْنا أَعْجازَ الإبِلِ، وإنْ طَالَ السُّرَى.

قالَ الرَّضيُّ رَحمةُ الله تعالى: وهَذَا الْقَوْلُ مِنْ لَطِيفِ الْكلامِ وفَصِيحِهِ، ومَعْناهُ أنَّا إنْ لَمْ نُعْطَ حَقَّنا كُنّا أذِلاَّءَ، وذلِكَ أنَّ الرَّدِيفَ يَرْكَبُ عَجُزَ الْبَعِيرِ، كالْعَبْدِ والأسِير ومَنْ يَجْرِي مَجْرَاهما.

الشرح: هذا الفصلُ قد ذكره أبو عبيد الهرويّ في «الجمع بين الغريبين»[1] وصورته: إنّ لنا حقّاً إن نعطه نأخُذه، وإنْ نُمنَعه نركب أعجاز الإبل، وإن طال السُّرَى. قال قد فسرّوه على وجهين: أحدُهما أن راكبَ عَجزِ البعير يلحقه مشقة وضرر، فأراد: أنّا إذا مُنِعْنا حَقّنا صَبرنا على المَشقّة والمَضرّة، كما يَصبر راكب عجُز البعير، وهذا التفسير قريبٌ مما فسّره الرضيّ. والوجه الثاني أنّ راكب عجزِ البعير إنما يكون إذا كان غيرهُ قد رَكِب على ظَهْر البعير، وراكبُ ظهر البعير متقدّم على راكب عَجزِ البعير، فأراد أنّا إذا مُنِعْنا حَقّنا تأخّرْنا وتقدّمَ غيرُنا علينا، فكُنّا كالراكب رَديفاً لِغَيره، وأكد المعنى على كلا التفسيرين بقوله: «وإنْ طالَ السُّرى»، لأنه إذا طال السرى كانت المَشقّة على راكب عجُز البعير أعظم، وكان الصبر على تأخر راكب عجُزِ البعير عن الراكب على ظهره أشدّ وأصعب.

وهذا الكلام تزعم الإماميّة أنه قاله يومَ السَّقيفة أو في تلك الأيام، ويذهَب أصحابُنا إلى أنّه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماعِ الجماعة لاختيار واحد من الستّة، وأكثر أرباب السِّير ينقُلونه على هذا الوجه.

- ٢٣ -

الأصل: مَنْ أَبْطأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسَبُهُ.

الشرح: هذا الكلام حَثٌّ وحَضٌّ وتحريض على العبادة، وقد تقدّم أمثالُه، وسيأتي له نظائرُ كثيرة، وهو مِثلُ قولِ النبي ﷺ: «يا فاطمة بنتَ محمد، إني لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا عبّاس بنَ عبد المطلب، إني لا أُغني عَنكَ من الله شيئاً»[2]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3].

(١) الجمع بين غريبين القرآن والحديث: لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي المتوفى سنة (٤٠١هـ)، رتبه على حروف المعجم على وضع لم يسبق فيه، وجمع ما في كتب من تقدمه، فجاء جامعاً في الحسن. «كشف الظنون» (٢/١٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب (٢٧٥٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٦).

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

- ٢٤ -

الأصل: مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ.

الشرح: قد جاء في هذا المعنى آثارٌ كثيرة، وأخبارٌ جميلة. كان العتّابيّ قد أملَق، فجاء فوقَف بباب المأمون يسترزق الله على يديه، فوافى يَحيى بن أكثم، فعرض له العتّابي، فقال له: إن رأيتَ أيّها القاضي أن تُعلم أمير المؤمنين مَكاني فافعل، فقال: لست بحاجب، قال: قد علمتُ، ولكنك ذو فضل، وذو الفَضْل مِعوان، فقال: سلكتَ بي غيرَ طريقي، قال: إنّ الله أتحفَك منه بجاهٍ ونعمة، وهو مقبل عليك بالزّيادة إن شكرتَ، وبالتغيير إنْ كفَرت، وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك، لأنّي أدْعوك إلى ما فيه ازدياد نعمَتِك، وأنت تأبى عليّ، ولكلّ شيء زكاة، وزكاة الجاه رِفْد المستعين. فدخل يحيى فأخبر المأمون به، فأحضَره وحادثه ولاطَفه ووَصَله.

- ٢٥ -

الأصل: يَابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ.

الشرح: هذا الكلام تخويف وتحذير من الاستدراج، قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)؛ وذلك لأن العبد بغروره يعتقد أن موالاة النِّعَم عليه وهو عاص من باب الرِّضا عنه، ولا يعلم أنه استدراج له ونقمةٌ عليه.

فإن قلت: كيف يصحّ القول بالاستدراج على أصولكم في العدل؟ أليس معنى الاستدراج إيهام العبد أنه سبحانه غيرُ ساخط فعله ومعصيته! فهل هذا الاستدراج إلاّ مفسدةٌ وسببٌ إلى الإصرار على القبيح!

قلت: إذا كان المكلَّف عالِماً بقبح القبيح، أو متمكّناً من العِلْم بقُبْحه ثم رأى النِّعَم تتوالى عليه وهو مُصِرٌّ على المعصية، كان تَرَادُف تلك النِّعَم كالمنبِّه له على وجوب الحذَر، مِثالُ ذلك مَن هو في خِدْمةِ مَلِك، وهو عونُ ذلك الملك في دَوْلته، ويعلم أنّ المَلِك قد عرف حالَه، ثم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

يرى نِعَم الملك مترادفةً إليه، فإنه يجب بمقتضى الاحتياط أن يشتدّ حَذرُه، لأنه يقول: ليست حالي مع المَلِك حالُ من يستحقّ هذه النعم، وما هذه إلاّ مَكِيدة وتحتها غائلة، فيجب إذَنْ عليه أن يَحْذَر.

– ٢٦ –

الأصل: مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِه.

الشرح: قال زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى:

ومَهمَا تكن عند امرىءٍ مِنْ خليقَةٍ ... وإن خالَها تَخفَى على الناس تُعلَمِ

وقال آخر:

تخبِّرني العَيْنانِ ما القلبُ كاتمٌ ... وما جنّ بالبَغْضاء والنظرِ الشَّزْرِ[1]

وقال آخر:

وفي عينيكَ ترجمةٌ أراها ... تَدُلّ على الضغائن والحقُود

وأخلاقٌ عهِدتُ اللِّين فيها ... غَدَتْ وكأنّها زُبَرُ الحديدِ

وقد عاهَدْتَني بخلافِ هذا ... وقال الله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[2]

وكان يقال: العين والوجه واللّسان أصحاب أخبار على القلب، وقالوا: القلوب كالمرايَا المتقابِلة، إذا ارتسمَتْ في إحداهنّ صورةٌ ظهرتْ في الأخرى.

– ٢٧ –

الأصل: امْشِ بدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ.

(١) النَّظر الشَّزْر: هو نظر فيه إعراض، أو نظر الغضبان بمُؤخِرِ العين. القاموس المحيط، مادة (شزر).

(٢) هذا اقتباس من القرآن، سورة المائدة، الآية: ١.

الشرح: يقول: مهما وجدتَ سبيلاً إلى الصّبر على أمرٍ من الأمور الّتي قد دُفعت إليها، وفيها مشَقّة عليك، وضرر لاحِقٌ بك، فاصبر ولا تلتمسْ طريقاً إلى تغيير ما دفعت إليه أن تَسلُكها بالعُنْف، ومُراغَمة الوقت، ومعاناة الأقضية والأقدار، ومِثال ذلك من يَمرِض له مَرَض ما يُمكِنه أن يَحتمِله ويدافع الوقت، فإنّه يجب عليه ألاّ يَطرَح جانبَه إلى الأرض ويَخلُد إلى النوم على الفِراش، ليعالج ذلك المرض قوّة وقهراً، فربما أفضى به مقاهرة ذلك المَرَض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيراً مُعضِلاً.

– ٢٨ –

الأصل: أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ.

الشرح: إنما كان كذلك لأنّ الجَهْر بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلَّ أن يَسلم من مخالطه الرّياء، وقد تقدّم لنا في الرياء أقوالٌ مُقنِعة.

رأى المنصورُ رجلاً واقفاً ببابه، فقال: مثل هذا الدرهمَ بين عينيك وأنتَ واقفٌ ببابنا! فقال الربيع: نعم، لأنّه ضرب على غير السّكة.

شاعر:

معشرٌ أثبتَ الصلاةَ عليهمْ   لِجِباهٍ يشقُّها المِحرابُ
عَمَرُوا مَوْضعَ التصنُّعِ منهمْ   ومكانُ الإخلاص منهمْ خَرابُ

– ٢٩ –

الأصل: إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى!

الشرح: هذا ظاهر، لأنّه إذا كان كلّما جاء ففي إدبار، والموتُ كلّما جاء ففي إقبال، فيا سُرْعانَ ما يَلتقيان! وذلك لأنّ إدبارَه هو توجُّهه إلى الموت، وإقبال الموت هو توجّه الموت إلى نحوه، فقد حُقّ إذَن الالتقاء سريعاً، ومثالُ ذلك سفينتان بدِجْلة أو غيرها، تَصعَد إحداهما، والأخرى تَنحدِر نحوَها، فلا رَيْب أنّ الالتقاء يكون وَشِيكاً.

- ٣٠ -

الأصل: الْحَذَرَ الْحَذَرَ، فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ.

الشرح: قد تقدّم هذا المعنى وهو الاستدراج الذي ذكَرْناه آنِفاً.

- ٣١ -

الأصل: وَسُئِلَ عليه السلام عن الإيمان فقال: الْإِيمانُ عَلَى أَرْبَعِ دعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ.

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ؛ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ.

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ، تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ.

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى غائص الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزَهْرَةِ الْحِكَمِ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحِلْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً.

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنوفَ الْمُنَافِقِينَ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِىءَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لله غَضِبَ الله لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى التَّعَمُّقِ، وَالتَّنَازُعِ، وَالزَّيْغِ، وَالشِّقَاقِ؛ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ،

وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ، وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلاَلَةِ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ.

وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى التَّمَادِي، وَالْهَوْلِ، وَالتَّرَدُّدِ، وَالإِسْتِسْلاَمِ؛ فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ، وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا.

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ الله تَعَالَى: وَبَعْدَ هَذَا كَلاَمٌ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الإِطَالَةِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

الشرح: من هذا الفصل أخذَتِ الصّوفيّةُ وأصحابُ الطريقة والحقيقةِ كثيراً من فنونهم في علومهم، ومن تأمّل كلامَ سهل بنِ عبدِ الله التُّسْتَرِيّ، وكلامَ الجُنَيد والسّريّ وغيرهم رأى هذه الكلمات في فَرْش كلامِهم تَلُوح كالكواكِب الزاهرة وكلّ المقامات والأحوال المذكورة في هذا الفصل قد تقدّم قولُنا فيها.

اخبار مع الملوك

ونذكر ها هنا الصدق في المواطن، وبين يَدَي الملوك، ومن يَغضَب لله، ويَنهَى عن المنكر، ويقوم بالحقّ ولا يُبالي بالسلطان ولا يُراقبه.

دخل عمرُ بنُ عبد العزيز على سليمانَ بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه - وهو يومئذ وليُّ عهده - قد عقد له من بعده، فجاء إنسانٌ يَطلُب ميراثاً من بعض نساءِ الخُلفَاء، فقال سليمان: ما أخال النساء يَرِثن في العَقار شيئاً، فقال عمر بنُ عبد العزيز: سبحان الله! وأين كتابُ الله! قال سليمان: يا غلام، اذهَب فأتِني بسِجِلّ عبد الملك الّذي كُتب في ذلك، فقال له عمر: لكأنّك أرسلتَ إليّ المصحف! فقال أيّوب بن سليمان: والله ليُوشِكَنَّ الرجل يتكلّم بمثِل هذا عندَ أميرِ المؤمنين. فلا يشعر حتّى يفارقه رأسُه، فقال عمر: إذا أفضَى الأمرُ إليك وإلى أمثالك كان ما يَدخُل على الإسلام أشدّ ممّا يخشى عليكم من هذا القَوْل، ثم قام فخرج.

ورَوَى إبراهيمُ بنُ هشام بن يحيى، قال: حدّثني أبي، عن جدّي، قال: كان عمرُ بنُ عبد العزيز يَنهَى سليمانَ بنَ عبد الملك عن قَتْل الحَرُوريّة، ويقول: ضَمِّنْهم الحُبوس حتّى يُحدثوا توبةً، فَأُتِيَ سليمان بحَرُورِيّ مستقتل، وعنده عمرُ بنُ عبد العزيز، فقال سليمان للحَروريّ: ماذا

تقول؟ قال: ما أقول يا فاسق يابن الفاسق! فقال سليمان لعمر: ما تَرَى يا أبا حفص؟ فسَكَت، فقال: أقسمتُ عليك لتخبرنِّي ماذا ترى عليه! فقال: أرَى أن تَشتُمه كما شَتَمك، وتَشتُم أباه كما شتم أباك، فقال سليمان: ليس إلاّ! قال: ليس إلاّ، فلم يرجع سليمان إلى قوله، وأمَر بضَرْب عنق الحَروريّ.

ورَوَى ابنُ قتيبة في كتاب «عيون الأخبار» قال: بينما المنصور يطوف ليلاً بالبَيْت سَمِع قائلاً يقول: اللّهمّ إليك أشكو ظهورَ البَغْي والفساد، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطّمع. فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد، وأرسَل إلى الرجل يدعوه، فصلّى ركعتين، واستَلَم الرُّكْن، وأقبل على المنصور فسلّم عليه بالخلافة، فقال المنصور: ما الّذي سمعتُك تقوله من ظُهور البَغْي والفساد في الأرض، وما يَحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوتَ مسامعي ما أرْمضني فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنْ أمّنتني على نفسي أنبأتُك بالأمور من أصولها، وإلاّ احتجزتُ منك، واقتصرتُ على نفسي فلي فيها شاغل، قال: أنت آمنٌ على نفسك، فقل، فقال: إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظَهر من البَغْي والفساد لأنت، قال: وَيْحك! وكيف يَدخُلني الطمع والصّفراء والبيضاء في قَبْضَتي، والحُلْو والحامض عندي! قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دَخَلَكَ! إن الله عز وجل استرعاك المسلمين وأموالهم، فأغفلتَ أمورهم، واهتممتَ بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حُجُباً من الجصّ والآجُرّ، وأبواباً من الحديد، وحَجَبةً معهم السلاح، ثم سجنتَ نفسك فيها منهم، وبَعثت عمّالك في جباية الأموال وجمعِها، فقوّيتَهم بالسّلاح والرجال والكُراع، وأمَرْت بألاّ يدخُل عليك إلاّ فلان وفلان، نفرٌ سمّيتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملْهوف، ولا الجائع والفقير، ولا الضعيف والعاري، ولا أحد ممن له في هذا المال حقّ، فما زال هؤلاء النفرُ الذين استخلصتَهم لنفسك، وآثرتهم على رعيّتك، وأمرت ألا يُحْجَبوا عنك، يجبون الأموال ويَجمعونها ويَحجُبونها، وقالوا: هذا رجل قد خان الله، فما لنا لا نخونه، وقد سَخّرنا! فائتمروا على ألاّ يصل إليك مِن أخبار الناس شيء إلاّ ما أرادوا، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرهم إلاّ بغّضوه عندك وبغَوْه الغَوائل[1]، حتى تسقُط منزلتُه ويَصْغر قدرُه. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناسُ وهابوهم، وكان أوّل من صانَعَهُم عمّالك بالهدايا والأموال ليقوَوْا بها على ظلْم رعيّتك، ثمّ فعل ذلك ذَوو القدرة والثروة من رعيّتك لينالوا به ظلم مَن دونَهم، فامتلأتْ بلاد الله بالطّمع بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سُلْطنتك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حِيلَ بينه وبين دخول دارِك، وإن أراد رَفْع قصّته إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيتَ عن ذلك، ووقفت للنّاس رَجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء المتظلم إليه أرسَلوا إلى صاحب المظالم ألاّ يرفع إليك قصّته، ولا

(١) الغوائِل: المهالك، جمع غائلة. لسان العرب، مادة (غول).

يكشف لك حاله، فيجيبهم خوفاً منك، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه، ويلوذ به، ويستغيثُ إليه وهو يدفعه، ويعتلّ عليه، وإذا أجهِد وأحرِج، وظهرت أنت لبعض شأنك صَرَخ بين يديك، فيُضرب ضرباً مبرّحاً ليكون نكالاً لغيره، وأنت تَنظُر ولا تُنكر، فما بقاءُ الإسلام على هذا!

ولقد كنتُ أيّام شبيبتي أسافر إلى الصّين فقدِمْتُها مرّة وقد أصِيب مَلِكُها بسَمْعه، فبَكى بكاءً شديداً، فحداه جلساؤه على الصّبر، فقال: أما إنّي لست أبكي للبليّة النازلة، ولكن أبكي للمَظلوم بالباب يَصرُخ فلا أسمعُ صوتَه! ثم قال: أمّا إذْ ذهب سمعي فإنّ بصري لم يذهب نادُوا في الناس ألاّ يلبسَ ثوباً أحمرَ إلا مظلوم، ثمّ كان يَركَب الفيل طرَفَيْ نهاره يَنظُر هل يرى مظلوماً! فهذا مُشرك بالله غلبتْ رأفته بالمشركين على شُحّ نفسِه، وأنتَ مؤمنٌ بالله من أهل بيتِ نبيّه لا تَغلِبُك رأفتُك بالمسلمين على شُحّ نفسِك! فإن كنتَ إنما تَجمَع المال لوَلَدك فقد أراك الله تعالى عِبَراً في الطّفل يَسقُط من بطن أمّه، ما لَه على الأرض مال، وما من مال يومئذ إلاّ ودونه يدٌ شَحيحة تَحويه، فلا يزال الله يَلطُف بذلك الطّفْل حتّى تَعظُم رغبةُ الناس إليه، ولستَ بالّذي تُعطِي، ولكنّ الله يُعطي من يشاء ما يشاء. وإن قلتَ: إنّما أجمع المال لتشييد السلطان، فقد أراك الله عِبَراً في بني أميّة، ما أغنَى عنهم ما جَمَعوا من الذهب والفضة، وأعَدُّوا من الرجال والسّلاح والكُراع حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلتَ: أجمع المالَ لطلب غاية هي أجسَم من الغاية الّتي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنتَ فيه إلاّ منزلةٌ لا تُدرَك إلاّ بخلاف ما أنت عليه، انظرْ هل تعاقِب من عصاك بأشدَّ من القَتْل؟ قال: لا، قال: فإنّ المَلِك الّذي خوّلك ما خوّلك لا يُعاقِبَ من عصاه بالقَتْل، بالخلود في العذاب الأليم! وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبَك، وعمِلَته جوَارحُك، ونظر إليه بَصرُك، واجترحتْه يداك ومشتْ إليه رجْلاك. وانظر هل يُغنِي عنك ما شححتَ عليه من أمرِ الدنيا إذا انتزَعه من يَدِك ودعاك إلى الحساب على ما مَنَحك!

فبكى المنصورُ وقال: ليتني لم أُخلَقْ! وَيْحك! فكيف أحتالُ لنفسي؟ قال: إنّ للناس أعلاماً يَفزَعون إليهم في دِينهم، ويَرْضَوْن بقَوْلهم، فاجعلْهم بِطانَتك يُرشِدُوك، وشاوِرْهم في أمركَ يُسدِّدوك، قال: قد بعثتُ إليهم فهرَبوا منّي، قال: نعم، خافوا أن تحمِلهم على طريقِك، ولكن افتحْ بابَك، وسَهِّل حِجابَك، وانظر المظلومَ، واقْمَع الظالم، وخذ الفَيْء والصَّدقات ممّا حلّ وطاب، واقْسِمه بالحقّ والعدل على أهله، وأنا الضّامن عنهم أنْ يأتوك ويُسعِدوك على صَلاحِ الأمّة. وجاء المؤذّنون فسلّموا عليه، ونادَوا بالصّلاة، فقام وصلّى، وعاد إلى مجلسه، فطُلبَ الرّجل فلم يُوجَد[1].

ورَوَى ابنُ قُتيبَة أيضاً في الكتاب المذكور أنّ عَمرو بنَ عُبيد قال للمنصور: إنّ الله أعطاك

---

(١) أخرجه الأحمدي الميانجي في مواقف الشيعة: ٢/ ٢٤٩، وفي عيون الأخبار: ٢/ ٣٣٣.

الدّنيا بأسْرِها، فاشترِ نفسَكَ منه ببعضها، واذكر ليلةً تتمخّض لكَ صبيحتُها عن يوم القيامة - قال: يعني ليلةَ موتِه - فوَجَم المنصورُ، فقال الربيع: حَسْبُك، فقد غَممتَ أميرَ المؤمنين، فقال عَمرو بنُ عبيد: إنّ هذا صَحِبَك عشرين سنةً لم يَرَ عليه أن ينصحَك يوماً واحداً، ولم يَعمَل وراء بابك بشيء ممّا في كتاب الله ولا في سنّة نبيّه! قال أبو جعفر: فما أصنع؟ قد قلتُ لك؛ خاتَمِي في يَدِك فهلمّ أنت وأصحابَك فاكفني، فقال عمرو: دَعْنا بَعدْلك نَسْخُ بأنفسِنا بعَوْنِك، وببابِك مَظالِم كثيرة، فأردُدها نَعلم أنّك صادق[1].

وقال ابن قتيبة في الكتاب المذكور: وقد قام أعرابيّ بين يدي سليمانَ بن عبد الملك بنحوِ هذا، قال له: إنّي مُكلّمك يا أميرَ المؤمنين بكلام [فيه بعض الغلظة] فاحتمِله إن كرهتَه، فإنّ وراءه ما تحبّ، قال: قل، قال: إنّي سأُطلِق لساني بما خَرِسَتْ عنه الألسُن من عِظَتك تأديةً لِحَقّ الله. إنّك قد تكنّفك رجالٌ أساؤوا الاختيارَ لأنفسِهم، فابتاعوا دُنْياهم بدِينهم، فهم حربُ الآخرة، سِلْمُ الدنيا، فلا تأمنْهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنّهم لم يألوا الأمانة تَضييعاً، والأمة خَسْفاً، وأنت مسؤول عما اجترَحوا، وليسوا مسؤولين عمّا اجترَحْتَ، فلا تُصلِح دُنياهمْ بفسادِ آخرَتِك. ، فإنّ أعظمَ الناس غَبْناً مَن باعَ آخرتَه بدُنْيا غيرِه. قال: فقال سليمان: أمّا أنت يا أعرابيّ، فإنّك قد سَلَلْتَ علينا عاجلاً لسانَك، وهو أقطعُ سَيْفَيْك، فقال: أجَل، لقد سللتُه، ولكن لك لا عليك[2].

- ٣٢ -

الأصل: فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ.

الشرح: قد نظمتُ أنا هذا اللّفظ والمعنى، فقلتُ في جملةِ أبياتٍ لي:

خيرُ البضائِع للإنسان مَكرُمَةٌ ... تَنْمِي وتَزْكو إذا بارَتْ بَضائِعُهُ
فالخيرُ خَيرٌ وخيرٌ منه فاعِلُه ... والشرّ شرٌّ وشرٌّ منه صانعُهُ

فإن قلتَ: كيف يكون فاعلُ الخير خيراً من الخير، وفاعلُ الشرّ شرّاً من الشرّ، مع أن فاعل

(١) أخرجه السيد المرتضى في الآمالي: ١/ ١٢١، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٣٢/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه الأحمدي الميانجي في مواقف الشيعة: ٢/ ٢٥٠.

الخير إنّما كان ممدوحاً لأجل الخير، وفاعل الشرّ إنما كان مذموماً لأجل الشرّ، فإذا كان الخير والشرّ هما سَبَبَا المَدْح والذّمّ - وهما الأصل في ذلك - فكيف يكون فاعلاهما خيراً وشرًا منهما؟

قلت: لأنّ الخير والشرّ ليسا عبارة عن ذات حيّة قادرة، وإنّما هما فعلان، أو فعل وعدم فعل، أو عَدَمان، فلو قطع النظر عن الذّات الحيّة القادرة التي يَصدُران عنها، لما انتَفَع أحدٌ بهما ولا استضرّ، فالنّفع والضّرر إنّما حَصَلا من الحيّ الموصوف بهما لا منهما على انفرادهما، فلذلك كان فاعلُ الخَيْر خيراً من الخير، وفاعلُ الشرّ شرّاً من الشرّ.

- ٣٣ -

الأصل: كُنْ سَمحاً، وَلاَ تَكُنْ مُبَذِّراً، وَكُنْ مُقَدِّراً، وَلاَ تَكُنْ مُقَتِّراً.

الشرح: كلُّ كلام جاء في هذا فهو مأخوذٌ من قوله سبحانَه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا﴾(١).

ونحو قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾(٢).

- ٣٤ -

الأصل: أَشْرَفُ الْغِنَى، تَرْكُ الْمُنَى.

الشرح: قد سبق منا قولٌ كثيرٌ في المُنى، ونذكر ها هنا ما لم نذكرْه هناك.

سئل عُبيدُ الله بنُ أبي بكر: أي شيء أدوَم متاعاً؟ فقال: المُنَى.

وقال بلال بن أبي بُرْدة: ما يَسُرّني بنصيبي من المُنى حُمْر النَّعم.

وكان يقال: الأماني للنّفس كالرَّونَق للبَصَر.

ومن كلامِ بعضِ الحُكَماء: الأمانيّ تُعمِي أعيُنَ البصائر، والحظّ يأتي من لا يأتيه، وربّما

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

كان الطمع وِعاءَ حشوهُ المَتالف، وسائقاً يدعو إلى الندامة، وأشقَى الناس بالسّلطان صاحبُه، كما أن أقربَ الأشياء إلى النار أسرَعُها إحراقاً، ولا يُدرِك الغِنَى بالسّلطان إلا نفسٌ خائفة، وجسمٌ تَعِب، ودين منكتم، وإن كان البحرُ كَدِرَ الماءِ، فهوَ بَعيدُ الهَوَاء.

- ٣٥ -

الأصل: مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ، قَالُوا فِيهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ.

الشرح: هذا المعنى كثيرٌ واسع، ولنقتصرْ هاهنا فيه على حكاية ذكَرها المبرّد في «الكامل»[1].

خبر الحضين مع قتيبة بن مسلم الباهلي

قال لما فتح قتيبةُ بنُ مُسلم سَمَرْقَند أفضى إلى أثاث لم يُرَ مِثله، وإلى آلاتٍ لم يُرَ مِثلها، فأراد أن يُرِيَ الناس عظيمَ ما أنعمَ الله به عليه، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم، فأمر بدارٍ ففُرِشت وفي صحنها قدُور يُرْتقى إليها بالسلالم، فإذا الحُضَين بنُ المُنذِر بن الحارث بن وَعْلة الرّقاشي قد أقبَل والناسُ جلوسٌ على مراتبهم، والحُضَين شيخٌ كبير، فلما رآه عبدُ الله بن مُسلم قال لأخيه قُتَيبة: ائذَنْ لي في معاتبَته، قال: لا تردْه لأنه خبيثُ الجواب، فأبى عبدُ الله إلا أن يأذن له - وكان عبد الله يضعَّف، وقد كان تسوّر حائطاً إلى امرأةٍ قبل ذلك - فأقبل على الحُضين، فقال: أمن الباب دخلتَ يا أبا ساسان؟ قال: أجَلْ، أَسَنَّ عمُّك عن تَسوُّر الحِيطان. قال: أرأيتَ هذه القُدور؟ قال: هي أعظم من ألاّ تُرَى، قال: ما أحسب بكر بن وائل رأى مِثلها، قال: أجَلْ، ولا غَيلان، ولو كان رآها سمّي شَبْعان، ولم يسمَّ غَيْلان، قال له عبدُ الله: يا أبا ساسان أتعرف الذي يقول:

عُـزِلْـنـا وأُمِّـرْنـا وبـكـرُ بـنُ وائـلٍ ... تَـجُرّ خُصاها تبتَغي من تُحالِفُهْ

قال: أجَل أعرفه، وأعرِف الذي يقول:

بـأدْنـى الـعَـزْم قـادَ بَـنـي قُـشَـيـرٍ ... ومَـن كـانـت لـه أسـرَى كـلابِ

وخَيـبـة مـن يـخـيـبُ عَـلَـى غَـنـيٍّ ... وبـاهـلـة بـن يَـعْـصُـرَ والـرِّكـابِ

يريد: يا خيبةَ من يَخيب. قال: أفتعرف الذي يقول:

(١) «الكامل في اللغة» لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، المتوفى سنة (٢٨٥هـ)، «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

كأنّ فِقاحَ الأزد حول ابن مِسمعٍ إذا عرِقتْ أفواهُ بكر بن وائلِ[1]

قال: نَعم أعرفه وأعِرف الذي يقول:

قومٌ قتيبةُ أمُّهم وأبوهمُ لولا قتيبةُ أصبَحوا في مَجْهل

قال: أما الشّعر فأراك تَرْويه، فهل تقْرأ من القرآن شيئاً؟ قال: أقرأ منه الأكثر الأطْيَب: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[2] فأغضبه، فقال: والله لقد بلغني أنّ امرأة الحضين حُمِلت إليه وهي حُبلى من غيره. قال: فما تحرّك الشيخُ عن هيئته الأولى، ثم قال على رسْله، وما يكون! تلد غلاماً على فراشي، فيقال: فلانُ ابنُ الحضين، كما يقال: عبدُ الله بنُ مسلم. فأقبل قتيبةُ على عبد الله وقال: لا يبعد الله غيرك!

قلت: هو الحضين بالضاد المعجمة، وليس في العرب من اسمه «الحضين» بالضاد المعجمة غيرُه.

– ٣٦ –

الأصل: مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ، أَسَاءَ الْعَمَلَ.

الشرح: قد تقدّم منّا كلامٌ في الأمل.

وقيل لبعض الصالحين: ألك حاجةٌ إلى بغداد؟ قال: ما أحبّ أن أبسط أملي حتى تذهب إلى بغداد وتعود.

وقال أبو عثمان النَّهديّ: قد أتت عليّ ثلاثون ومائة سنةً، ما من شيء إلاّ وأجِد فيه النَّقص إلا أمَلي، فإن وجدتُه كما هو أو يزيد.

٣٧ – وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقي الانبار فترجّلوا له واشتدوا بين يديه

الأصل: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ؟ فَقَالُوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا، فَقَالَ: وَاللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي أُخْرَاكُمْ، وَمَا

---

(١) الأزد: لغة في الأسد، تجمع قبائل كثيرة في اليمن. لسان العرب، مادة (أزد).

(٢) سورة الإنسان، الآية: ١.

أَخْسَر الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ!

الشرح: اشتدُّوا بين يديه: أسرَعوا شيئاً، فنهاهم عن ذلك وقال: إنكم تشقّون به على أنفسكم لما فيه من تَعَب الأبدان. وتَشْقَوْن به في آخرتكم: تخضعون للولاة، كما زعمتم أنه خُلُق وعادةٌ لكم، خضوعاً تطلُبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها، وكلّ خضوع وتذلُّل لغير الله فهو معصية.

ثم ذكر أن الخسران المبين مَشقّة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة والرِّبح البين دعةٌ عاجلة يتبعها الأمانُ من النار.

٣٨ - قال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام

الأصل: يَا بُنَيَّ احفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً، لاَ يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ: إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ.

يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْأَحْمَقِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ، وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ.

الشرح: هذا الفصل يتضمّن ذِكرَ العقلِ والحُمق، والعُجب وحُسن الخُلُق، والبُخل والفُجور، والكَذِب، وقد تقدّم كلامُنا في هذه الخصال أجمَع، وقد أخذتُ قولَه عليه السلام: «إيّاك ومصادقةَ الأحمقِ فإنّه يريد أن ينفعَك فيضرَّك» فقلتُ في أبياتٍ لي:

حَيَاتَكَ لا تَصْحَبَنّ الجهولَ ... فلا خيرَ في صُحبةِ الأخرَقِ[1]
يَظُنّ أخو الجهل أن الضّلا ... لَ عينُ الرّشاد فلا يتّقي
ويَكسَبُ صاحبُه حُمقَه ... فيَسرق منه ولا يُسرَقُ
وأقسم أنّ العدوّ اللبيـ ... ـبَ خيرٌ مِن المشفِق الأحمَقِ

(١) الأخرَق: الأحمق أو من لا يحسن الصَّنْعة. القاموس المحيط، مادة (حمق).

- ٣٩ -

الأصل: لاَ قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضَرَّتْ بِالفَرَائِضِ.

الشرح: هذا الكلام يُمكن أن يُحمَل على حقيقته، ويمكن أن يُحمَل على مَجازه، فإنْ حُمِل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثيرٌ من الفقهاء، وهو مَذهَب الإماميّة، وهو أنّه لا يصح التنفّل ممّن عليه قضاءُ فريضة فاتته لا في الصلاة ولا في غيرها، فأمّا الحَجّ فمُتّفَق عليه بين المسلمين أنّه لا يصحّ الابتداء بنَفْله، وإذا نوى نيّة النَّفل، ولم يكن قد حَجّ حَجّة الإسلام وقع حَجّه فرضاً، فأمّا نوافل الزّكاة فما عرفتُ أحداً قال: إنه لا يثاب المتصدّق بها، وإن كان لم يؤدّ الزكاة الواجبة. وأمّا إذا حُمل على مَجازه، فإنّ معناه يجب الابتداء بالأهمّ وتقديمُه على ما ليس بأهمّ، فتدخُل هذه الكلمة في الآداب السلطانيّة والإخوانيّة، نحوَ أن تقول لمن تُوصِيه: لا تبدأ بخِدمة حاجبِ المَلِك قبل أن تَبدأ بخِدمة وَلَد المَلِك، فإنّك إنّما تروم القُرْبة للمَلِك بالخِدمة، ولا قربة إليه في تأخير خِدْمة ولَدِه وتقديم خدمةِ غلامِه، وحَمْلُ الكلمة على حقيقتها أولَى لأنّ اهتمام أميرِ المؤمنين عليه السلام بالأمور الدينيّة والشرعيّة في وصاياه ومنثور كلامِه أعظمُ.

- ٤٠ -

الأصل: لِسَانُ العاقِلِ وَرَاءَ قَلبِهِ، وَقَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ.

قالَ الرضيُّ رَحمهُ الله تعالى: وَهذا مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْعَجِيبةِ الشَّرِيفَةِ، والمُرَادِ بِهِ أَنَّ العَاقِلَ لا يُطْلِقُ لِسَانَهُ إلا بعد مُشاوَرَة الرَّوِيَّةِ، ومُؤَامَرَةِ ٱلْفِكْرَةِ، وَالأَحْمَقُ تَسْبِقُ حَذَفَاتُ لسانِهِ، وَفَلَتَاتُ كَلامِهِ، مُرَاجَعَةَ فِكْرِهِ، ومماخَضَةَ رَأْيِهِ، فَكأَنَّ لِسانَ ٱلْعاقِلِ تابعٌ لِقَلْبِهِ، وَكأَنَّ قَلْبَ الأَحْمَق تابعٌ للسانه.

قالَ: وقَدْ رُوِيَ عنهُ عليهِ السَّلاَمُ هَذَا المَعْنَى بلفظٍ آخَرَ، وهُو قَوْلُهُ: «قَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ في فِيهِ، ولِسَانُ العَاقِلِ في قَلْبِهِ» وَمَعْناهُما واحِدٌ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في العَقل والحُمق، ونذكر هاهنا زِياداتٍ أخرى.

أقوال ونوادر عن الحمقى

قالوا: كلّ شيء يَعِزُّ إذا قَلّ، والعقل كلّما كان أكثرَ كان أعز وأغلى.

وكان عبدُ الملك يقول: أنا للعاقل المدبِر أرجَى منّي للأحمَقِ المُقبِل.

قيل لبعضهم: ما جِماعُ العَقل؟ فقال: ما رأيتُه مجتمِعاً في أحد فأصِفَه، وما لا يوجد كاملاً فلا حَدّ له.

وقال الزُّهري: إذا أنكرتَ عقلكَ فاقدَحه بعاقل.

وقيل: عظمت المؤونة في عاقل متجاهل، وجاهل متعاقل.

وقيل: الأحمق يتحفظ من كل شيء إلاّ من نفسه.

وقيل لبعضهم: العقل أفضلُ أم الجَدّ؟ فقال: العقل مِن الجَدّ.

وخطب رجلان إلى ديماووس الحكيم ابنته، وكان أحدُهما فقيراً والآخر غنياً، فزوجها من الفقير، فسأله الإسكندر عن ذلك، فقال: لأنّ الغنيّ كان أحمق، فكنت أخاف عليه الفقر، والفقير كان عاقلاً، فرجوتُ له الغنى.

وقال أرسطو: العاقل يوافق العاقل، والأحمق لا يوافق العاقل، ولا أحمق كالعُود المستقيم الذي ينطبق على المستقيم، فأما المعوج فإنه لا ينطبق على المعوجّ ولا على المستقيم.

وقال بعضهم: لأنْ أزاول أحمقَ أحبُّ إليّ من أن أزاول نصف أحمق - أعني الجاهل المتعاقل.

واعلم أن أخبار الحمقى ونوادِرهم كثيرة، إلا أنا نذكر منها هاهنا ما يليق بكتابنا، فإنه كتاب نزهناه عن الخلاعة والفُحْش إجلالاً لمنصِب أمير المؤمنين.

قال هشام بنُ عبدِ الملك يوماً لأصحابه: إنّ حمْقَ الرجل يُعْرَف بخصال أربع: طولِ لِحيته، وبشاعةِ كنيته، ونَقْشِ خاتمه، وإفراط نهمته. فدخل عليه شيخٌ طويلُ العُثْنون، فقال هشام: أمّا هذا فقد جاء بواحدة، فانظروا أين هو من الباقي، قالوا له: ما كنيةُ الشيخ؟ قال: أبو الياقوت، فسألوه عن نقش خاتمه، فإذا هو: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾[1] فقيل له: أي الطعام تَشتهي؟ قال: الدُّبّاء بالزيت، فقال هشام: إن صاحبكم قد كَمَل.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

وسَمِع عمرُ بنُ عبدِ العزيز رجلاً يُنادِي آخرَ: يا أبا العُمَرَين، فقال: لو كان له عقلٌ لكَفاه أحدُهما.

وأرسَل ابنٌ لعجل بن لجيم فرساً له في حَلْبة، فجاءَ سابقاً، فقيل له: سمِّه باسمٍ يُعرَف به، فقام ففقأ عَيْنَه وقال: قد سميتُه الأعوَر، فقال شاعر يَهجُوه:

رمتْني بنو عِجْلٍ بداءِ أبيهِمُ وأيّ عبادِ الله أنوَكُ مِن عِجْلِ!
أليسَ أبوهمْ عارَ عَيْنَ جَوادِه فأضحَتْ به الأمثالُ تُضرَب بالجَهلِ

وقال أبو كعب القاصّ في قصصه: إن النبيّ ﷺ قال في كَبِد حمزةَ ما علمتم، فادعوا الله أن يُطعِمنا من كَبِد حمزة!

وقال مرّة في قَصصه: اسم الذئب الّذي أكلَ يوسفَ كذا وكذا، فقيل له: إنّ يوسف لم يأكلْه الذئب؟ فقال: فهذا اسمُ الذئب الّذي لم يأكل يوسفَ.

ودخل كَعبُ البَقَر الهاشميّ على محمد بن عبدِ الله بنِ طاهر يعزّيه في أخيه، فقال له: أعظَمَ الله مُصيبةَ الأمير! فقال الأمير: أمّا فيك فقد فَعَل، والله لقد هَممتُ أن أحلِقَ لحيتَك، فقال: إنما هي لِحية الله ولحيةُ الأمير فليفعل ما أحَبَّ.

وكان عامرُ بن كُرَيز أبو عبد الله بن عامر، مِن حَمْقَى قريش، نظر إلى عبد الله وهو يَخطُب والناسُ يَستحسِنون كلامَه، فقال لإنسانٍ إلى جانِبه: أنا أخرجتُه من هذا - وأشار إلى مَتاعِه -.

ومِن حَمقَى قُريش العاصُ بنُ هشام المخزوميّ، وكان أبو لهب قامَرَه فقَمَره ماله ثم دارَه، ثمّ قليلَه وكثيرَه وأهلَه ونفسَه، فاتّخذه عبداً، وأسلَمه قَيْناً، فلمّا كان يومُ بَدْر بعث به بَدِيلاً عن نفسه، فقُتِل ببدر، قَتَله عمرُ بنُ الخطّاب، وكان ابن عمّ أمّه.

ومِنَ الحَمْقَى الأحوص بنُ جعفر بنِ عمرو بن حُرَيث، قال له يوماً مَجالسوه: ما بالُ وجهِك أصفر! أتشتكي شيئاً؟ فرجع إلى أهله، وقال: يا بني الخَيْبة، أنا شاكٍ ولا تُعلمونني! اطرَحوا عليّ الثيابَ وابعثوا إليّ الطبيب.

ومِن حَمقَى بني عجل حسّان بن الغَضْبان من أهل الكُوفة، ورِث نصف دار أبيه، فقال: أريد أن أبيعَ حِصّتي من الدار، وأشتريَ بالثمن النصفَ الباقي، فتصيرَ الدّار كلّها لي.

ومِن حَمقَى قريش بكّار بنُ عبدِ الملك بنِ مروان، وكان أبوه ينهاه أن يُجالسَ خالدَ بنَ يزيدَ بنِ معاوية لِما يَعرِف من حُمقه، فجلس يوماً إلى خالد، فقال خالد يعبث به: هذا والله المردّد في بني عبدِ مَناف، فقال بكّار: أجَلْ، أنا والله كما قال الأوّل:

مُردَّدٌ في بني اللَّخْناء ترديدا

وطارَ لِيكّار هذا بازي[1]، فقال لصاحب الشُرطة: أغلِق أبوابَ دِمَشق لئلاّ يَخرج البازيّ.

ومِن حَمْقَى قُريش معاوية بنُ مروانَ بنِ الحَكَم، بينا هو واقفٌ ببابِ دمشق ينتظر أخاه عبدَ الملك على باب طحّان، وحِمارُ الطّحّان يدور بالرَّحا وفي عنقه جُلْجُل[2]، فقال للطّحانِ: لم جعلتَ في عنقِ هذا الحمار جُلجُلاً؟ فقال: ربّما أدركتني نَعْسة أو سآمةٌ، فإذا لم أسمَع صوتَ الجُلجُل علمتُ أنّه قد نام، فصِحتُ به، فقال: أرأيتَه إن قام وحَرّك رأسَه، ما عِلمُك به أنّه قائم؟ فقال: ومَن لِحماري بمثِل عَقْل الأمير!

وقال معاوية لِحَميه وقد دَخَل بأبنتِه تلك اللّيلةَ فافتضّها: لقد ملأتْنا ابنتُك البارحة دماً، فقال: إنّها من نِسوةٍ يَخبأن ذلك لأزواجهنْ.

ومن حَمْقَى قريش سليمانُ بنُ يزيدَ بنِ عبد الملك، قال يوماً: لعن الله الوليدَ أخي! فلقد كان فاجراً، أرادَني على الفاحشة، فقال له قائل مِن أهلِه، اسكُت وَيْحَك، فوالله إن كان هَمَّ لقد فَعَل!

وخطب سعيدُ بنُ العاص عائشة ابنةَ عثمانَ، فقالت: هو أحمق، لا أتزوّجه أبداً، له بِرْذَوْنان لونُهما واحد عند الناس، ويَحمِل مؤنةَ اثنين.

وممّن كان يُحمَّق من قريش عُتبةُ بنُ أبي سُفيانَ بنِ حرب وعبدُ الله بنُ معاوية بنِ أبي سُفْيان وعبدُ الله بنُ قيس بنِ مَخرَمة بن المطلب وسهلُ بنُ عَمرو أخو سُهَيل بن عمرو بن العاص. وكان عبدُ الملك بنُ مروانَ يقول: أحمقُ بيتٍ في قريشٍ آلُ قيسِ بن مَخرَمة.

ومن القبائل المشهورة بالحُمْق الأَزْد، كتب مَسلَمة بنُ عبد الملك إلى يزيدَ بن المهلّب لمّا خرج عليهم: إنّك لستَ بصاحبِ هذا الأمر، إنّ صاحبَه مغمورٌ موتور، وأنت مشهور غير موتور. فقام إليه رجل من الأزْد، فقال: قدّم أبنك مَخلَداً حتى يُقتل فتصير موتوراً.

وقام رجل من الأزد إلى عُبيد الله بنِ زياد فقال: أصلَح الله الأمير! إن امرأتي هلكتْ، وقد أردت أن أتزوّج أمَّها، وهذا عَريفي فأعِنّي في الصّداقِ، فقال: في كم أنتَ من العطاء؟ فقال: في سَبعمائة، فقال: حُطُّوا من عَطائه أربعَمائة، يكفيك ثلاثمائة.

ومَدَح رجلٌ منهم المهلّب فقال:

نعم أميرُ الرّفقة المهلّبْ ... أبيَضُ وَضّاح كتَيْس الحُلّبْ

فقال المهلّب: حَسْبُكَ يَرحَمك الله!

وكان عبدُ الملك بنُ هلالٍ عندَه زِنْبيل مملوءٌ حصاً للتّسبيح، فكان يسبّح بواحدة واحدة،

---

(١) البازيّ: نوع من الصقور. القاموس المحيط، مادة (بزو).

(٢) الجُلْجُل: بالضم الجرس الصغير. القاموس المحيط، مادة (جلل).

فإذا مَلَّ طرَح اثنتين اثنتين، ثم ثلاثاً ثلاثاً، فإذا ازداد مَلالُه قَبَض قبضةً وقال: سبحانَ الله عَدَدك! فإذا ضَجِر أخذ بُعَرا الزِّنبيل وقلَبه، وقال: سبحان الله بعدَدِ هذا.

ودخَلَ قومٌ منزلَ الخُرَيْميّ لبعض الأمر، فجاء وقتُ صلاة الظهر، فسألوه عن القِبْلة، فقال: إنما تركتُها منذ شهر.

وحَكَى بعضُهم، قال: رأيت أعرابياً يَبكِي، فسألتُه عن سبب بكائه، فقال: بلغني أن جالوتَ قتل مظلوماً.

وَصَف بعضُهم أحمقَ، فقال: يَسمَع غير ما يقال، ويَحفَظ غيرَ ما يَسمَع، ويكتُب غيرَ ما يَحفَظ، ويُحدِّث بغير ما يَكتُب.

قال المأمونُ لثُمامة: ما جَهْد البَلاء يا أبا مَعْن؟ قال: عالمٌ يَجرِي عليه حُكْم جاهل. قال: من أين قلتَ هذا؟ قال: حبسَني الرشيدُ عند مسرور الكبير، فضيّق عليّ أنفاسي، فسمعتُه يوماً يقرأ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[1] بفتح الذال؛ فقلت له: لا تقل أيها الأمير هكذا، قل: ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ وكسرتُ له الذال، لأنَّ المكذِّبين هم الأنبياء، فقال: قد كان يقال لي عنك: إنك قَدَرِيّ، فلا نجوتُ إن نجوتَ اللّيلةَ منّي! فعاينتُ منه تلك الليلة الموتَ من شدّة ما عذّبني.

قال أعرابيّ لابنه: يا بنيّ كن سَبُعاً خالصاً، أو ذئباً حائساً، أو كلْباً حارِساً، ولا تكن أحمَقَ ناقصاً. وكان يقال: لولا ظُلْمة الخطأ ما أشرَق نورُ الصّواب.

وقال أبو سعيد السِّيرافيّ: رأيتُ متكلّماً ببغدادَ بلغ به نقصُه في العربيّة أنّه قال في مجلس مشهور: إن العبد «مضطَرّ» بفتح الطاء، والله «مضطِرّ» بكسرها؛ وزعم أن من قال: «والله مضطَرّ عبد إلى كذا»، بالفتح كافر، فانظر أين بلغ به جهلُه، وإلى أيّ رَذِيلة أدّاه نقصُه!

وصف بعضُهم إنساناً أحمقَ، فقال: والله للحِكمة أزلّ عن قلبه من المداد عن الأدِيم الدَّهين.

مرّ عمرُ بنُ الخطّاب على رُماةِ غَرَض، فسمِع بعضَهم يقول: أخطيْتَ وأسبْتَ، فقال له: مَهْ، فإن سُوء اللّحن شرّ من سُوء الرّماية.

تضجّر عمرُ بنُ عبد العزيز من كلام رجلٍ بين يديه، فقال له صاحبُ شُرْطتِه: قم فقد أوذِيتَ أميرَ المؤمنين! فقال عمر: والله إنّك لأشدّ أذًى لي بكلامِك هذا منه.

ومِن حَمْقَى العرب وجُهلائهم كلابُ بنُ صعصعة، خرج إخوتُه يشترون خَيْلاً، فخرج معهم، فجاء بعِجْل يقوده، فقيل له: ما هذا؟ فقال: فرسٌ اشتريتُه؛ قالوا: يا مائق[2]، هذه

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ١٥.

(٢) المائِقُ: الأحمق. لسان العرب، مادة (موق).

بقرة، أما ترى قرنَيها! فرجع إلى منزله فقطَع قَرْنَيها، ثم قادها، فقال لهم: قد أعدتُها فرساً كما تريدون، فأولاده يُدْعَوْن بني فارس البَقَرة.

وكان شَذرة بن الزِّبرِقان بن بَدْر من الحَمْقى، جاء يومَ الجمعة إلى المسجد الجامع فأخَذ بعِضادَتي الباب، ثمّ رفع صوتَه: سلامٌ عليكم، أيَلِج شَذرة؟ فقيل له: هذا يومٌ لا يُستَأذَن فيه، فقال: أوَ يَلِج مِثلي على قَوْم ولم يُعرَف له مكانُه.

واستعمل معاويةُ عاملاً من كَلْب، فخَطَب يوماً، فذكَرَ المجوسَ، فقال: لعَنَهم الله! يَنكِحون أمّهاتِهم، والله لو أُعطِيتُ عشرةَ آلافِ دِرْهم ما نكحتُ أمّي، فبلغ ذلك معاوية، فقال: قبّحه الله! أترَوْنه لو زادوه فَعَل! وعَزَله.

وشرَدَ بعيرٌ لهبَنّقة - واسمُه يزيدُ بن شَرْوان - فجعل يُنادِي: لمن أتى به بَعيرَان، فقيل له: كيف تَبذُل وَيْلك بَعيرَيْن في بعَير! فقال لحَلاوةِ الوِجْدان.

وسُرِقَ من أعرابيٍّ حمارٌ، فقيل له: أسُرِق حمارُك؟ قال: نَعم، وأحمَد الله، فقيل له: على ماذا تَحمَده؟ قال: كيف! لم أكن عليه.

وخَطَب وكيعُ بنُ أبي سود بخُراسانَ، فقال: إن الله خَلَق السموات والأرضَ في ستّة أشهر، فقيل له: إنّها ستّة أيّام، فقال: والله لقد قلتُها وأنا أستَقِلّها!

وأجرِيَتْ خيلٌ فطَلَع فيها فَرَس سابقٌ، فجعل رجلٌ من النَّظّارة يكبّر ويَثِب من الفَرَح، فقال له رجل إلى جانبه: يا فتى، أهذا الفرس السابق لك؟ قال: لا ولكنّ اللّجامَ لي.

وقيل لأبي السَّفّاح الأعرابيّ عند موته: أوْصِ، فقال: إنّا الكرام يوم طِخفة[1]، قالوا: قلْ خيراً يا أبا السّفاح، قال: إن أحبّت امرأتي فأعطُوها بعيراً، قالوا: قل خيراً، قال: إذا مات غلامي فهو حُرّ.

وقيل لرجل عند موته: قل لا إله إلا الله، فأعرَض، فأعادُوا عليه مراراً، فقال لهم: أخبروني عن أبي طالب، قالَها عند موته؟ قالوا: وما أنتَ وأبو طالب! فقال: أرغَب بنفسي عن ذلك الشريف.

وقيل لآخرَ عند موته: ألا تُوصِي؟ فقال: أنا مغفورٌ لي، قالوا: قل: إن شاء الله، قال: قد شاءَ الله ذلك، قالوا: يا هذا لا تَدَع الوصيّة، فقال لابنَيْ أخيه: يا بني حريثٍ، ارفعا وسادِي، واحتَفِظا بالحلّة الجِياد، فإنّما حَوْلَكما الأعادي.

وقيل: لمعلّم ابن معلّم: ما لَكَ أحمَق؟ فقال: لو لم أكن أحمقَ، لكنتُ ولدَ زِنى.

---

(١) طِخْفَة: جبل أحمر طويل، ومنه يوم طخفة: لبني يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء. القاموس المحيط، مادة (طخف).

٤١ - وقال عليه السلام لبعض أصحابه في علة اعتلها

الأصل: جَعَلَ الله مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لاَ أَجْرَ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ وَيَحُتُّهَا حَتَّ الْأَوْرَاقِ، وَإِنَّمَا الأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ، وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ، وَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وأقولُ: صدَق عليه السلام، إنَّ المرَض لا أجرَ فيه؛ لأنه من قَبيلِ ما يُستَحَقُّ عليه العِوَضُ؛ لأنَّ العِوَض يُستحَقُّ على ما كان في مُقابَلة فِعْل الله تعالى بالعَبد من الآلام والأمراض وما يَجري مَجرَى ذلك، والأجرُ والثوابُ يُستَحَقَّان على ما كانَ في مُقابِلِ فِعْل العبد، فبينَهما فَرقٌ قد بيَّنَهُ عليه السلام كما يَقتَضيه عِلمُه الثَّاقِبُ ورأيُهُ الصَّائب.

الشرح: ينبغي أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل على تأويلٍ يُطابق ما تدلّ عليه العقول وألاّ يُحمل على ظاهرِه، وذلك لأن المرض إذا استحقّ عليه الإنسان العوض لم يَجُز أن يقال: إن العِوَض يَحُطّ السّيئات بنفسه، لا على قول أصحابنا، ولا على قول الإماميّة، أما الإماميّة فإنهم مُرْجِئة، لا يَذْهَبون إلى التحابُط، وأما أصحابُنا فإنّهم لا تَحابط عندهم إلا في الثّواب والعقاب، فأمّا العقاب والعِوَض فلا تَحابُط بينهما، لأن التّحابُط بين الثواب والعقاب، إنما كان باعتبار التنافي بينهما من حيثُ كان أحدُهما يتضمّن الإجلال والإعظام، والآخر يتضمن الاستخفاف والإهانة، ومحالٌ أن يكون الإنسان الواحد مُهاناً معظَّماً في حالٍ واحدة، ولما كان العِوَض لا يتضمّن إجلالاً وإعظاماً، وإنما هو نفعٌ خالص فقط، لم يكن منافياً للعِقاب، وجاز أن يجتمع للإنسان الواحد في الوقت الواحد كونه مستحقاً للعقاب والعوَض، إمّا بأن يوفَّر العوض عليه في دار الدنيا، وإمّا بأن يوصَل إليه في الآخرة قبل عِقابِه، إن لم يمنع الإجماع من ذلك في حقّ الكافر، وإمّا أن يُخفَّف عليه بعضُ عقابه، ويجعل ذلك بدلاً من العوَض الذي كان سبيله أن يُوَصل إليه، وإذا ثبت ذلك وَجَب أن يُجعل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على تأويل صحيح، وهو الذي أراده عليه السلام، لأنه كان أعرَف الناس بهذه المعاني، ومنه تَعلّم المتكلّمون علم الكلام، وهو أن المرض والألم يَحُطّ الله تعالى عن الإنسان المبتلَى به ما يستحقّه من العقاب على معاصيه السالِفَةِ تفضُّلاً منه سبحانه، فلما كان إسقاط العقاب متعقباً للمرض، وواقعاً بعده بلا فَصْل، جاز أن يُطلق

اللفظ بأنّ المرض يَحُطّ السيئات ويحتها حَتّ الوَرَق، كما جاز أن يُطْلق اللفظ بأنّ الجماع يُحبل المرأة، وبأن سَقْيَ البَذْر الماء ينبته، إن كان الولد والزرع عند المتكلمين وقعاً من الله تعالى على سبيل الاختيار، لا على الإيجاب، ولكنه أجرى العادة، وأن يفعل ذلك عقَيب الجماع وعقَيب سَقي البَذْر الماء.

فإن قلت: أيجوز أن يقال: إن الله تعالى يمرض الإنسان المستحقّ للعقاب، ويكون إنما أمرضه ليُسقط عنه العقاب لا غير؟

قلت: لا، لأنه قادر على أن يُسقِط عنه العقاب ابتداءً، ولا يجوز إنزال الألم إلا حيث لا يمكن اقتناص العِوَض المجزي به إليه إلا بطريق الألم، وإلا كان فعلُ الألم عَبَثاً، ألا تَرَى أنه لا يجوز أن يستحق زيدٌ على عمرو ألف درهم فيضربَه ويقول: إنما أضربُه لأجعل ما يناله من ألم الضرب مُسقِطاً لما أستحقّه من الدراهم عليه؟ وتذمّه العقلاء ويسفّهونه، ويقولون له فهلاّ وهبتَها له، وأسقطتها عنه من غير حاجة إلى أن تضربه وتؤلمه! والبحثُ المستقصي في هذه المسائل مذكور في كتبي الكلاميّة، فليرجَع إليها. وأيضاً فإن الآلام قد تنزل بالأنبياء وليسوا ذَوِي ذُنوب ومَعاصٍ ليقال: إنّها تحطها عنهم.

فأمّا قوله عليه السلام: «وإنما الأجرُ في القَوْل.... » إلى آخر الفَصْل، فإنه عليه السلام قَسَم أسباب الثواب أقساماً؛ فقال: لمّا كان المَرَض لا يقتضي الثواب لأنه ليس فعل المكلّف - وإنما يستحق المكلف الثواب على ما كان من فِعله - وَجَب أن يبيّن ما الذي يستحق به المكلّف الثواب، والذي يستحق المكلف به ذلك أن يفعل فعلاً إما مِنْ أفعال الجوارح، وإما من أفعال القلوب، فأفعال الجوارح إما قول باللسان أو عمل ببعض الجوارح وعبّر عن سائر الجوارح - عدا اللسان - بالأيدي والأقدام، لأن أكثر ما يُفْعل بها، وإن كان قد يُفْعل بغيرها نحو مجامعَة الرجل زوجته إذا قُصِد به تحصينها وتحصينه عن الزنى، ونحو أن يُنحّيَ حَجراً ثقيلاً برأسه عن صَدْر إنسانٍ قد يَقتُله، وغير ذلك، وأمّا أفعال القلوب فهي العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم، فعبّر عليه السلام عن جميع ذلك بقوله: «بصدق النية والسريرة الصالحة»، واكتفى بذلك عن تعديد هذه الأجناس.

فإن قلت: فإنّ الإنسان قد يستحق الثواب على ألا يفعل القبيح، وهذا يخرم الحصر الذي حصره أمير المؤمنين؟

قلت: يجوز أن يكون يذهب مذهب أبي عليّ في أن القادر بقدرةٍ لا يخلو عن الأخذ والتّرك.

٤٢ - وقال عليه السلام في ذكر خباب

الأصل: رَحِمَ الله خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ! فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً، وَهَاجَرَ طَائِعاً، وَعَاشَ مُجَاهِداً. طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ، وَرَضِيَ عَنِ الله!

خباب بن الأرت

الشرح: هو خبّاب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سَعد بن زيد مَناة بن تميم، يكنى أبا عبد الله - وقيل: أبا محمد وقيل: أبا يحيى - أصابه سَبيٌ فبيع بمكة.

وكانت أمّه خَتّانة، وخَبّاب من فقراء المسلمين وخيارهم، وكان به مرض، وكان في الجاهليّة قَيْناً حداداً يَعْمل السيوف، وهو قديمُ الإسلام، قيل إنه كان سادس ستة، وشهد بَدْراً وما بعدها مِن المشاهد، وهو معدودٌ في المعذَّبين في الله، سأله عمرُ بن الخَطاب أيام خلافته: ما لقيت من أهل مكة؟ فقال: انظُر إلى ظهري، فنظر فقال: ما رأيت كاليوم ظَهْرَ رَجل! فقال خبّاب: أوقَدُوا لي ناراً وسُحِبت عليها، فما أطفأها إلا وَدَكُ ظَهْرِي.

وجاء خبّاب إلى عمر، فجعل يقول: ادنُهْ، ادنُهْ، ثم قال له: ما أحدٌ أحقُّ بهذا المجلس منك، إلاّ أن يكون عمّارَ بنَ ياسر. نزل خبّابٌ إلى الكوفة، ومات بها في سنة سبع وثلاثين، وقيل: سنة تسع وثلاثين، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام صِفِّين ونَهْرَوان، وصلّى عليه عليٌّ عليه السلام، وكانت سنُّه يومَ مات ثلاثاً وسبعين سنة، ودُفِن بظَهْرِ الكوفة.

وهو أوّل من دُفِن بظَهْر الكوفة، وعبدُ الله بن خَبّاب هو الذي قتلته الخوارج، فاحتجّ عليّ عليه السلام به وطلبهم بدَمِه، وقد تقدّم ذكرُ ذلك.

- ٤٣ -

الأصل: وقال عليه السلام: لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا على أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي، وَذلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عَلِيُّ، لاَ يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ، ولاَ يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ».

الشرح: جَمّاتها بالفتح: جَمعُ جَمّة، وهي المكان يجتمع فيه الماء وهذه استعارة، والخَيْشوم: أقصى الأنف.

ومرادُه عليه السلام من هذا الفصل إذكار الناس ما قاله فيه رسول الله ﷺ، وهو: «لا يُبغِضك مؤمن، ولا يحبك منافق»[1]، وهي كلمةُ حق، وذلك لأنّ الإيمان وبغضه عليه السلام لا يَجتمعان، لأن بغضه كبيرة، وصاحب الكبيرة عندنا لا يسمّى مؤمِناً، وأمّا المنافق فهو الذي يُظْهر الإسلامَ ويُبْطن الكفر، والكافرُ بعقيدته لا يحبّ عليًّا عليه السلام، لأن المراد من الخبر المحبّة الدّينيّة، ومن لا يعتقد الإسلام لا يحبّ أحداً من أهل الإسلام، لإسلامه وجهاده في الدين، فقد بان أن الكلمة حق، وهذا الخبر مَرْوِيٌّ في الصحاح بغير هذا اللفظ: «لا يحبُّك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»[2]، وقد فسرناه فيما سبق.

— ٤٤ —

الأصل: سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ الله مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ.

الشرح: هذا حقّ، لأن الإنسان إذا وقع منه القبيح ثم ساءه ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كَفّرَتْ توبته معصيتَه، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب، وحصل له ثوابُ التوبة، وأمّا من فعل واجباً واستحقّ به ثواباً ثم خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه، والتّيه على الناس بعبادته واجتهاده، فإنه يكون قد أَحبط ثواب عِبادته بما شَفَعها من القبيح الذي أتاه، وهو العُجب والتّيه والإدلال على الله تعالى، فيعود لا مُثاباً ولا مُعاقباً، لأنه يتكافأ الاستحقاقان.

ولا ريب أنّ من حَصَل له ثواب التوبة، وسَقط عنه عقاب المَعصية، خيرٌ ممن خرج من الأمْرَين كَفافاً لا عليه ولا له.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان (٧٨)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧٣٦).
(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ١/ ٢٥١ ح: ٢٩١، وأخرجه النسائي في سننه ح: ٨٤٨٧.

- ٤٥ -

الأصل: قَدْرُ ٱلرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ.

الشرح: قد تقدَّم الكلامُ في كلّ هذه الشِّيم والخصال، ثم نقول هاهنا: إنّ كِبَر الهمّة خُلق مختصٌّ بالإنسان فقط، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك، وإنما يتجرّأ كل نوع منها الفعل بقدر ما في طبعه، وعلوّ الهِمة متوسِّطة محمودة بين حالتين طرفي رذِيلتين، وهما الندح، وتسميه الحكماء التفتُّح - وصغر الهمة - وتسميه الناس الدّناءة، فالتفتّح تأهل الإنسان لما لا يستحقه، وصِغر الهمة تركه لما يستحقه لضعفٍ في نفسه، فهذان مَذمومان، والعدالة وهي الوَسَط بينهما محمودة، وهي علوّ الهمة، وينبغي أن يعلم أن المتفتح جاهلٌ أحمق، وصغيرُ الهمة ليس بجاهل ولا أحمق، ولكنه دنيءٌ ضعيف قاصر، وإذا أردت التحقيق، فالكبير الهمّة من لا يرضى بالهمم الحيوانيّة، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه، بل يجتهد في معرفة صانع العالم ومصنوعاته، وفي اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه في الدنيا، ومجاوريه في الآخرة. ولذلك قيل: مَن عظُمتْ همتُه لم يرض بقُنْية مستردّة، وحياةٍ مستعارة، فإن أمكنك أن تقتني قنية مؤبّدة، وحياة مخلدة، فافعل غير مكترث بقلّة من يَصحبك ويعينك على ذلك فإنه كما قيل:

إذا عظم المطلوب قل المُساعد

وكما قيل:

طرقُ العلاء قليلة الإيناس

وأما الكلام في الصدق والمروءة والشجاعة والأنَفَة والعفّة والغيرة، فقد تقدّم كثيرٌ منه، وسيأتي ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى.

- ٤٦ -

الأصل: الظَّفَرُ بِالْحَزمِ وَٱلْحَزْمُ بِإِجَالَةِ ٱلرَّأْيِ، وَٱلرَّأْيُ بِتَحْصِين ٱلْأَسْرَارِ.

الشرح: *قد تقدّم القولُ في كتمان السرّ وإذاعته.*

وقال الحكماء: السرّ ضربان: أحدُهما ما يُلقَى إلى الإنسان من حديثٍ ليُستكتَم، وذلك إمّا لفظاً كقول القائل: اكتُم ما أقولُه لك، وإمّا حالاً وهو أن يَجْهر بالقول حال انفراد صاحبه، أو يخفّض صوتَه حيث يخاطِبه، أو يُخفيه عن مُجالِسِيه، ولهذا قيل: إذا حدّثك إنسانٌ والتفَتَ إليه فهو أمانة.

والضرب الثاني نوعان: أحدُهما أن يكون حديثاً في نفسك تَستقبح إشاعتَه، والثاني أن يكون أمراً تُريد أن تفعلَه.

وإلى الأوّل أشارَ النّبي ﷺ بقوله: «مَن أتَى منكم شيئاً من هذه القاذُورات فليستَتِر بسَتْر الله عزّ وجلّ»[1]، وإلى الثاني أشار من قال: «مِنَ الوَهَن والضعْفِ إعلانُ الأمر قبل إحكامه»، وكتمانُ الضّرب الأوّل من الوَفاء، وهو مخصوص بعوامّ الناس، وكتمان الضّرب الثاني من المُروءة والحَزْم، والنوعُ الثاني من نَوْعيه أخصّ بالملوك وأصحاب السياسات.

قالوا: وإذاعة السرّ من قلّة الصبر، وضِيق الصّدر، ويُوصَف به ضَعَفة الرّجال والنّساء والصّبيان. والسبب في أنّه يَصعُب كتمانُ السرّ أن للإنسان قوّتين: إحدَاهما آخِذةٌ، والأخرَى مُعطِيَة، وكل واحدةٍ منها تتشوّق إلى فعلِها الخاصّ بها، ولولا أنّ الله تعالى وَكَل المعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوّد، فعَلَى الإنسان أن يُمسِك هذه القوّة ولا يُطلِقها إلاّ حيث يَجِب إطلاقُها، فإنها إنْ لم تزَمّ وتُخطَم، تقحّمتْ بصاحبها في كلّ مَهلَكة.

– ٤٧ –

الأصل: احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ.

الشرح: ليس يعني بالجوع والشّبَع ما يتعارَفُه الناس، وإنما المراد: احْذروا صَوْلة الكريم إذا ضِيمَ، وامتُهِن، واحذَرُوا صَوْلة اللئيم إذا أُكرِم. ومِثل المعنى الأوّل قولُ الشاعر:

لا يصبِرُ الحُرّ تحتَ ضَيْمٍ ... وإنّما يَصبِرُ الحِمارُ

ومِثلُ المعنى الثاني قولُ أبي الطيّب:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ ... وإن أنتَ أكرمتَ اللّئيم تَمرّدَا

(١) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب: الحدود، باب: ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنى (١٥٦٢).

- ٤٨ -

الأصل: قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ.

الشرح: هذا مِثلُ قولهم: من لانَ استمالَ، ومن قسا نفّر، وما استُعبِد الحُرّ بمثل الإحسان إليه. وقال الشاعر:

وإنّي لوَحْشِيٌّ إذا ما زَجَرْتَني ... وإنّي إذا أَلَّفْتَني لألوفُ

فأمّا قولُ عُمارةَ بن عقيل:

تبحّثتُم سُخْطي فكدّر بحثُكمْ ... نَخِيلَةَ نفس كان صفواً ضميرُها

ولم يُلبِث التخشينُ نفساً كريمة ... على قومِها أن يَستمرّ مريرُها

وما النفسُ إلاّ نطفة بقرارةٍ ... إذا لم تكدّر كان صفواً غَديرها

فيكاد يُخالِف قولَ أمير المؤمنين عليه السلام في الأصل، لأنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام جَعَل أصلَ طبيعة القلوب التوحّش، وإنّما تُستَمال لأمرٍ خارج، وهو التألّف والإحسان، وعمارة جَعَل أصلَ طبيعة النّفس الصفو والسلامة، وإنّما تتكدّر وتَجمَح لأمرٍ خارج، وهو الإساءة والإيحاش.

- ٤٩ -

الأصل: عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ.

الشرح: قد قال الناسُ في الجَدّ فأكثَروا، وإلى الآن لم يتحقّق معناه، ومن كلام بعضِهم: إذا أقبل البَخت باضَت الدَّجاجة على الوَتَد، وإذا أدبَر البَخْت أسعِرَ الهاونُ في الشّمس.

ومن كلام الحُكماء: إنّ السعادةَ لتَلحظ الحجَر فيُدعَى رَبّاً.

وقال أبو حيّان: نوادر ابن الجصّاص الدالة على تغفله وبَلَهِهِ كثيرة جدّاً، قد صُنّف فيها الكُتُب. مِنْ جُملتها أنّه سمع إنساناً يُنشِد نَسيباً فيه ذِكرُ هِند، فأنكر ذلك، وقال: لا تذكروا حماةَ النبي صلى الله عليه وآله إلا بخيرٍ، وأشياء عجيبة أظرَف من هذا. وكانت سعادتُه تُضرَب بها الأمثال، وكثرةُ أموالِه الّتي لم يَجتمِع لقارونَ مِثلها. قال أبو حيّان: فكان الناسُ يَعجَبون من ذلك، حتى

أن جماعةً من شُيوخ بَغداد كانوا يقولون: إنّ ابنَ الجَصّاص أعقَلُ الناس، وأحزَم الناس، وإنّه هو الّذي ألحَم الحالَ بين المُعتضد وبين خَمارويْه بنِ أحمدَ بنِ طُولُون، وسَفَر بينهما سِفارةً عجيبة، وبَلَغ من الجِهَتين أحسنَ مَبلَغ، وخَطَب قَطر النّدَى بنت خَمارويْه للمعتضد، وجهزّها من مصرَ على أجَملِ وَجْه وأعلى ترتيب، ولكنّه كان يَقصِد أن يتغافَل ويتَجاهَل ويُظهر البَلَه والنّقص، يَستبقي بذلك مالَه، ويَحرُس به نِعمته، ويَدفَع عنه عينَ الكمال، وحَسَد الأعداء.

قال أبو حيّان: قلتُ لأبي غسّانَ البَصْريّ: أظنّ ما قاله هؤلاء صحيحاً، فإنّ المعتضِد مع حَزْمه وعقلِه وكمالِه وإصابة رأيه ما اختاره للسِّفارة والصّلح إلاّ والمرجوُّ منه فيما يأتيه ويستقبِلُه من أيّامه نظير ما قد شُوهِد منه فيما مَضَى من زمانه، وهل كان يجوز أن يصلُح أمرٌ قد تَفاقَم فسادُه وتَعاظَم واشتدّ برسالةِ أحمَقَ، وسِفارةِ أخرَق! فقال أبو غَسّان: إنّ الجَدّ يَنسَخ حالَ الأخرق، ويستُر عَيْبَ الأحمقَ، ويَذُبّ عن عِرض المتلطّخ، ويقرِّب الصوابَ بمنطقه، والصحّة برأيه، والنجاحَ بسَعْيه، والجَد يستخدم العقلاء لصاحبه، ويَستعمِل آراءَهم وأفكارَهم في مَطالِبه، وابنُ الجَصّاص على ما قيل وروي وحدّث وحكي، ولكن جَدّه كفاه غائلَة الحُمْق، وحَماه عَواقبَ الخُرْق، ولو عرفت خَبْط العاقل وتعسّفه وسوءَ تأتّيه وانقطاعه إذا فارقه الجدّ، لعَلِمت أن الجاهلَ قد يصيب بجَهله ما لا يُصيبُ العالِم بعِلْمه مع حِرْمانه.

قال أبو حيّان: فقلت له: فما الجَدّ؟ وما هذا المعنى الّذي علّقتْ عليه هذه الأحكامُ كلّها؟ فقال: ليس لي عنه عبارة معيَّنة، ولكن لي به عِلمٌ شافٍ، استفَدْته بالاعتبار والتّجربة والسّماع العريض من الصّغير والكبير، ولهذا سُمِع من امرأةٍ من الأعراب تُرقِص ابناً لها فتقول له: رزَقَك الله جَدًّا يخدمُك عليه ذُوُو العقُول، ولا رزَقَك عَقْلاً تَخدُم به ذوي الجدُود.

— ٥٠ —

الأصل: أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ.

الشرح: قد تقدّم لنا قولٌ مُقنِع في العَفْو والحِلْم.

وقال الأحنف: ما شيء أشدّ اتصالاً بشيء من الحِلْم بالعِز.

وقالت الحُكماء: ينبغي للإنسان إذا عاقَبَ من يستحقّ العقوبة، ألاّ يكون سَبُعاً في انتقامه، وألاّ يُعاقِب حتّى يزول سلطانُ غَضَبه، لئلا يُقْدِم على ما لا يجوز، ولذلك جَرَتْ سُنّة السلطان بحَبْس المُجرم حتّى يُنْظَر في جُرْمه، ويعُيدَ النّظر فيه.

وأُتي الإسكندرُ بمُذْنِبٍ فصَفَح عنه، فقال له بعضُ جلسائه: لو كنتُ إياك أيُّها المَلك لقتلتُه. قال: فإذا لم تكن إيّاي ولا كنتُ إيّاك لم يُقتَل.

وانتَهى إليه أنّ بعضَ أصحابه يَعِيبه، فقيل له: أيّها المَلِك، لو نَهَكْتَه عقوبةً! فقال: يكون حِينئذٍ أبسَط لِساناً وعُذْراً في اجتنابي.

وقالت الحكماء أيضاً: لذّة العَفْوِ أطيَبُ من لَذّة التّشفّي والانتقام، لأنّ لذّة العَفْو يَشفَعها حميدُ العاقبة، ولذّة الانتقام يَلحَقها ألمُ النّدم. وقالوا: العقوبة ألأمُ حالات ذِي القُدْرة وأدْناها، وهي طَرَفٌ من الجَزَع، ومَنْ رَضِيَ ألاّ يكون بَيْنَه وبين الظالم إلاّ سِترٌ رقيقٌ فليَنتَصِف.

- ٥١ -

الأصل: السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَإِذَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ.

الشرح: يُعجبني في هذا المعنى قولُ ابنِ حَيُّوس:

إنّي دعوتُ نَدَى الكِرامِ فلم يُجِبْ ... فَلأشكُرَنَّ نَدَى أجَابَ وما دُعِي
ومن العجائِب والعَجائبُ جَمّةٌ ... شكرُ بَطِيءٍ عن نَدَى المتسرِّعِ

وقال آخر:

ما اعتاضَ باذِلُ وجهِهِ بسؤالِه ... عِوَضاً ولو نَال الغِنَى بسؤالِ
وإذا النَّوالُ إلى السؤالِ قَرَنْتَهُ ... رَجَحَ السؤالُ وخَفَّ كلُّ نَوالِ

- ٥٢ -

الأصل: لا غِنَى كالعَقْلِ، ولا فَقْرَ كَالجهْلِ، ولا مِيرَاثَ كالأدَبِ، ولا ظَهيرَ كالمُشَاوَرةِ.

الشرح: رَوَى أبو العبّاس في «الكامل» عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: خمسٌ من لم يكنْ فيه لم يكن فيه كثيرُ مستمتَع: العقلُ، والدّينُ، والأدب، والحياء، وحُسن الخُلق[1].

(١) أخرجه الطبرسي في مشكاة الأنوار: ٤٣٥، وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١: ٨٦.

وقال أيضاً: لم يُقسم بين الناس شيء أقلّ من خمس: اليقين، والقناعة، والصبر، والشكر، والخامسة التي يكمُل بها هذا كلّه العقل[1].

وعنه عليه السلام: أوّل ما خَلَق الله العقل، قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال: ما خلقتُ خلقاً أحبَّ إليّ منك، لك الثواب، وعليك العقاب[2].

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُبغِض الضعيف الذي لا زبْرَ له»[3]، قال: الزّبْر: العقل.

وعنه عليه السلام عن رسول الله ﷺ: «ما قسم الله للعباد أفضلَ من العقل»[4]، فنومُ العاقل أفضلُ من سَهَر الجاهل، وفِطرُ العاقل أفضل من صَوْم الجاهل، وإقامةُ العاقل أفضلُ من شخوص الجاهل، وما بعث الله رسولاً حتى يَستكمل العقل، وحتى يكون عقله أفضل من عقُول جميع أمّته، وما يُضْمره في نفسه أفضلُ من اجتهاد جميع المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتى عَقَل عنه، ولا يبلُغ جميعُ العابدين في عباداتهم ما يَبلُغه العاقل، والعقلاء هم أولُو الألباب، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5].

قال أبو العبّاس: وَقال رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول، بل يروى مرفوعاً: إذا بلغكم عن رجلٍ حُسن الحال فانظروا في حُسْنِ عَقِله، فإنما يُجازى بعقله. يا ابن رسولِ الله، إن لي جاراً كثيرُ الصَّدَقة، كثيرُ الصلاة، كثير الحجّ، لا بأس به! فقال: كيف عقله؟ فقال: ليس له عَقْل، فقال: لا يرتفع بذاك منه[6].

وعنه عليه السلام: ما بعَثَ الله نبيّاً إلاّ عاقلاً، وبعضُ النبيّين أرجَحُ من بعض، وما استخلف داودُ سليمان عليه السلام حتى اختبر عَقْله، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فمكث في مُلكه ثلاثين سنة[7].

وعنه مرفوعاً: صديقُ كلِّ امرىءٍ عقله، وعدوّه جهله[8].

---

(١) أخرجه محمد الريشهري في ميزان الحكمة: ٤/ ٣٧١٣.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١/ ٩٧.

(٣) أخرج بنحوه مسلم، كتاب: الجنة وصفتها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة (٢٨٦٥)، وأحمد في «مسنده» (١٧٠٣٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٧٠)، والبزار في «مسنده» (٣٤٩١)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٣٦٠).

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٣٥٧).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٦) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ١٤/ ٥٠٦.

(٧) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ٧٥/ ٣١٢.

(٨) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١/ ٨٧.

وعنه مرفوعاً: إنا معاشرَ الأنبياء نكلِّم الناسَ على قَدْر عقولهم(١).

قال أبو العباس: وسئل أبو عبد الله عليه السلام: ما العقل؟ فقال: ما عُبِد به الرَّحمٰن، واكتُسِبت به الجِنان(٢).

قال: وقال أبو عبد الله: سُئل الحسن بنُ عليّ عليه السلام عن العقل، فقال: التجرُّع للغُصّة، ومداهنة الأعداء(٣).

قلت: هذا كلامُ الحسن عليه السلام، وأنا أقطع بذلك.

قال أبو العبّاس: وقال أبو عبد الله: العاقل لا يُحدِّث من يخافُ تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منْعه، ولا يثق بمن يخاف غدره، ولا يرجو من لا يوثق برجائه.

قال أبو العبّاس: ورُوِي عن أبي جعفرٍ عليه السلام، قال: كان موسى عليه السلام يُدني رجلاً من بني إسرائيل لطول سجوده، وطُولِ صَمْتِه، فلا يكاد يذهب إلى موضعٍ إلا وهو معه، فبينا هو يوماً من الأيام إذ مرّ على أرض مُعشبة تهتزّ، فتأوّه الرجلُ، فقال له موسى: على ماذا تأوّهْتَ؟ قال: تمنيت أن يكون لربي حمارٌ وأرعاه هاهنا، فأكَبّ موسى طويلاً ببَصَره إلى الأرض اغتماماً بما سمِع منه، فانحطّ عليه الوَحْي، فقال: ما الذي أنكرت من مقالة عبدي! إنما آخذ عِبادي على قَدْر ما آتيتُهم(٤).

قال أبو العبّاس: ورُوي عن علي عليه السلام: هَبَط جبرائيلُ عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويَدَع اثنتين، وهي: العقل، والحياء، والدين، فاختار العقل، فقال جبرائيل للحياء والدين: انصرفا، فقالا: إنّا أُمِرْنا أن نكون مع العقل حيث كان، فقال: فشأنَكما! ففازَ بالثلاث(٥).

فأما قوله عليه السلام: «ولا ميراثَ كالأدب» فإني قرأتُ في حِكَم الفُرس عن بزُرجُمِهْر: ما ورَّثَت الآباءُ أبناءَها شيئاً أفضل مِن الأدب، لأنها إذا ورّثتها الأدب اكتسبتْ بالأدب المال، فإذا ورّثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل، وقَعَدَتْ صِفراً من المال والأدب.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١/ ٨٥.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١/ ١١٦.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١/ ١١٦.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١/ ٩١.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العقل وفضله: ٤٥.

قال بعض الحكماء: من أدب ولدَه صغيراً، سُرَّ به كَبيراً.

وكان يقال: مَن أدّب ولده أرغم حاسِدَه.

وكان يقال: ثلاثةٌ لا غُرْبةَ معهنّ: مجانبة الرِّيَب، وحسُن الأدب، وكفُّ الأذى.

وكان يقال: عليكم بالأدب، فإنه صاحبٌ في السفر، ومؤنسٌ في الوَحدة، وجمالٌ في المحفل، وسببٌ إلى طلب الحاجة.

وقال بُزُرْجُمِهْر: مَن كثُر أدبُه كثُر شَرَفُه وإن كان قبلُ وَضيعاً، وبَعُد صِيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً، وكثرت الحاجةُ إليه وإن كان مُقِلاً.

وقال بعض الملوك لبعض وزرائِه: ما خيرُ ما يُرزقه العبد؟ قال: عقلٌ يعيش به، قال: فإن عَدِمَه، قال: أدبٌ يتحلّى به، قال: فإن عَدِمَه، قال: مالٌ يَستِتر به، قال: فإن عَدِمَه، قال: صاعقة تُحْرقه فتُريحُ منه العباد والبلاد.

وقيل لبعض الحكماء: متى يكون العلم شرًّا من عَدمه؟ قال: إذا كثُر الأدب ونَقَصَت القريحة - يعني بالقريحة العقل.

فأما القول في المَشُورة فقد تقدّم، ورُبّما ذكرْنا منه نُبذاً فيما بعد.

- ٥٣ -

الأصل: الصَّبْرُ صَبْرَان: صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ.

الشرح: النوع الأول أشقّ من النوع الثاني، لأن الأول صبرٌ على مَضرّة نازلة، والثاني صبرٌ على محبوب متوقَّع لم يحصل، وقد تقدم لنا قول طويل في الصبر.

سُئل بُزُرْجمهر في بليّته عن حاله، فقال: هوَّن عليَّ ما أنا فيه فكْري في أربعة أشياء: أولها أني قلت: القضاءُ والقَدَر لا بدّ من جريانهما، والثاني أني قلت: إن لم أصبر فما أصنع! والثالث أنّي قلتُ: قد كان يجوز أن تكون المِحْنة أشدَّ من هذه! والرابع أني قلت: لعلّ الفرج قريب!

وقال أنوشِرْوان: جميعُ أمر الدنيا منقسم إلى ضربين لا ثالث لهما: أمّا ما في دفعه حيلة فالاضطراب دواؤُه، وأما ما لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه.

- ٥٤ -

الأصل: الْغِنَى فِي الغُرْبَةِ وَطَنٌ، والفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ.

الشرح: قد تقدّم لنا قولٌ مُقنع في الفَقْر والغنى ومدحهما وذمهما على عادتنا في ذكر الشيء ونقيضِه، ونحن نذكرُ هاهنا زيادةً على ذلك.

قال رجلٌ لبقراط: ما أشدّ فقرَكَ أيّها الحكيم؟ قال: لو عرفتَ راحةَ الفَقْر لشَغَلت التوجّع لنفسك عن التوجّع لي، الفَقْر مَلِك ليس عليه مُحاسَبَة.

وكان يقال: أضعفُ الناس من لا يحتمِل الغنى.

وقيل للكِنْدِي: فلانٌ غنيّ، فقال: أنا أعلم أنَّ له مالاً، ولكني لا أعلم: أغنيٌّ هو أم لا! لأنني لا أدري كيف يعمل في ماله!

قيل لابن عمر: توفي زيد بن ثابت وترك مائة ألف درهم، قال: هو تركها لكنّها لم تتركه.

وقالوا: حسبك من شرَف الفقر أنك لا تَرَى أحداً يعصي الله ليفتقر، أخذه الشاعرُ فقال:

يا عائب الفقرِ ألا تَزدَجِرْ ... عَيبُ الغِنَى أكبرُ لو تعتبِرْ
إنّك تَعصِي الله تَبغِي الغِنَى ... وليس تَعصِي الله كي تَفتَقِرْ

وكان يقال: الحلال يَقْطُر، والحرام يَسِيل.

وقال بعض الحكماء: ألا تَرَون ذا الغِنَى ما أدوَمَ نَصَبه، وأقلَّ راحتَه، وأخسّ من ماله حظّه، وأشدّ من الأيام حذَره، وأغرَى الدهر بنقصه وثلْمه! ثمّ هو بين سلطان يرعاه، وحقوقٍ تسترعيه، وأكفاءٍ يُنافِسونه، ووَلَدٍ يودّون موتَه، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء، ومن أكفائه الحَسَد، ومن أعدائه البَغي، ومن ذَوِي الحقوق الذّم، ومن الوَلَد المَلالَة وتمنّي الفَقْد، لا كَذِي البُلْغَة قَنع فدامَ له السرور، ورَفَض الدنيا فسَلِم من الحَسَد، ورَضِيَ بالكَفافِ فكُفِيَ الحُقوق.

- ٥٥ -

الأصل: الْقَنَاعَةُ مَالٌ لاَ يَنْفَدُ.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وقد روي هذا الكلام عن النبي ﷺ.

الشرح: قد ذكرْنا نُكتاً جليلةَ المَوْقع في القَناعة فيما تقدّم ونَذْكُر هاهنا زيادةً على ذلك.

فمن كلام الحُكماء: قاوم الفقرَ بالقناعة، وقاهِر الغِنَى بالتعفّف، وطاولْ عَناءَ الحاسِد بحُسْن الصُّنْع، وغالِب الموتَ بالذّكر الجميل.

وكان يقال: الناسُ رجلان واجِدٌ لا يَكتَفِي، وطالِبٌ لا يَجد، أَخَذَه الشاعر فقال:

وما الناسُ إلا واجدٌ غيرُ قانعٍ ... بأرزاقِه أو طالبٌ غيرُ واجِدِ

قال رجل لبقراط ورآه يأكُل العُشْب: لوْ خدمتَ المَلِك لم تحتجْ إلى أن تأكل الحشيشَ، فقال له: وأنتَ إنْ أكلتَ الحشيشَ لم تَحتجْ أن تَخدِم الملِك!

— ٥٦ —

الأصل: المَالُ مادَّةُ الشَّهَوَاتِ.

الشرح: قد تقدَّم لنا كلامٌ في المال مَدْحاً وذَمّاً.

وقال أعرابيّ لبَنِيهِ: اجْمعوا الدراهم فإنّها تُلبِس اليَلْمَقَ[1]، وتطعِم الجَرْدَقَ[2].

وقال أعرابيّ وقد نَظَر إلى دينار: قاتَلَك الله! ما أصغَر قمّتَك، وأكبرَ هِمّتَك!.

ومن كلام الحكماء: ما اخترتَ أن تَحيَا به فمت دونَهُ.

سئل أفلاطونُ عن المال، فقال: ما أقولُ في شيء يُعطِيه الحَظّ ويَحفَظه اللُّؤمُ، ويبلغُه الكَرَمُ! وكان يقال: ثلاثة يؤثرون المالَ على أنفُسِهم: تاجرُ البَحْر، والمقاتِل بالأجرة، والمرتَشِي في الحُكْم، وهو شرّهم؛ لأنّ الأوَّلَين ربّما سَلِما، ولا سلامةَ للثالث من الإثم.

ثم قالوا: وقد سمّى الله تعالى المالَ خَيْراً في قوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[3]، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[4].

كان عبدُ الرحمن بنُ عَوْف يقول: حبّذا المال، أصُون به عِرْضي، وأقرضُه ربّي فيضاعفَه لي. وقالوا في ذمّ المال: المالُ مِثلُ الماءِ غادٍ ورائح، طبعه كطَبْع الصّبي لا يُوقفَ على سببِ رضاه ولا سُخطه. المالُ لا ينفعك ما لم تُفارِقْه.

(١) اليَلْمَقُ: القَباءُ، فارسي معرب. القاموس المحيط، مادة (يلمق).
(٢) الجَرْدَقُ والجَرْدَقةُ: الرَّغيف، فارسي معرب. لسان العرب، مادة (جردق).
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨١. (٤) سورة العاديات، الآية: ٨.

وفيه قال الشاعر:

وصاحبِ صِدقٍ ليس يَنفَع قربُه ... ولا وُدُّه حتّى تُفارِقَه عَمْدا

وأخَذَ هذا المعنى الحريريّ فقال:

وليس يُغني عنك في المَضايِقِ ... إلا إذا فَرَّ فِرَارَ الآبِقِ

وقال الشاعر:

ألم ترَ أنّ المال يُهلِك ربَّه ... إذا جَمّ آتِيه وسُدَّ طَرِيقُهُ

ومَن جاوزَ البَحرَ الغَزيرَ بقَحْمَةٍ ... وسَدّ طريقَ الماءِ فهو غَرِيقُهُ

\- ٥٧ -

الأصل: مَنْ حَذَّرَكَ، كَمَنْ بَشَّرَكَ.

الشرح: هذا مِثلُ قولِهم: اتّبِع أمرَ مُبْكياتِك، لا أمرَ مُضحِكاتك. ومِثْلُه: صديقك من نهاك، لا من أغراك. ومثلُه: رَحِم الله امرأً أهدَى إليّ عيوبي.

والتحذير هو النّصح، والنّصح واجب، وهو تعريفُ الإنسان ما فيه صَلاحُه، ودفع المَضرّة عنه، وقد جاء في الخبر الصّحيح: «الدِّين النصيحة»، فقيل: يا رسول الله، لمن؟ فقال: «العامّة المسلمين»[(١)]. وأوّل ما يجب على الإنسان أن يُحذِّر نفسَه ويَنصَحها، فمن غَشّ نفسَه فقلّما يُحذِّر غيرَه ويَنصَحُه، وحَقّ من استُنصح أن يَبذُل غاية النُّصح ولو كان في أمرٍ يضرّه، وإلى ذلك وقعَتِ الإشارة في الكتاب العزيز بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[(٣)].

ومعنى قوله عليه السلام: «كمن بشّرك» أي ينبغي لك أن تُسَرّ بتحذيره لك، كما تُسَرّ لو بشّرك بأمرٍ تحبّه، وأن تَشكُرَه على ذلك كما تشكُره لو بشّرك بأمرٍ تحبّه، لأنّه لو لم يكن يُريدُ بك الخير لما حَذّرك من الوُقوع في الشرّ.

---

(١) أخرجه البخاري، تعليقاً، كتاب: الإيمان، باب: الدين النصيحة، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة (٥٥)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في النصيحة (١٩٢٦)، والنسائي، كتاب: البيعة، باب: النصيحة للإمام (٤١٩٧)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في النصيحة (٤٩٤٤).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

- ٥٨ -

الأصل: اللِّسَانُ سَبُعٌ، إنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ.

الشرح: قد تقدم لنا كلام طويل في هذا المعنى.

وكان يقال: إن كان في الكلام دَرَك ففي الصّمت عافية.

وقالت الحكماء: النّطق أشرَف ما خُصّ به الإنسان، لأنّه صورتُه المعقولة الّتي بايَنَ بها سائرَ الحيوانات، ولذلك قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[1]، ولم يقل: «وعلّمه» بالواو لأنّه سبحانه جَعَل قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ تفسيراً لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، لا عطفاً عليه، تنبيهاً على أن خلْقه له وتخصِيصَه بالبيان الذي لو تُوُهم مرتفِعاً لارتَفَعتْ إنسانيّته؛ ولذلك قيل: ما الإنسانُ لولا اللّسانُ إلا بهيمةٌ مُهمَلة، أو صورةٌ ممثّلة.

وقال الشاعر:

لسانُ الفَتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يبْقَ إلاّ صورة اللّحمِ والدَّمِ

قالوا: والصّمت من حيثُ هو صَمْتٌ مَذْموم، وهو من صفات الجَمادات، فَضْلاً عن الحيوانات، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وغيرِه من العُلَماء في مَدْح الصّمت محمول على مَنْ يسيء الكلامَ فيقَعُ منه جِنايات عظيمة في أمور الدِّين والدنيا، كما رُوِي في الخبر: إن الإنسان إذا أصبَح قالت أعضاؤه للسانِهِ: اتّقِ الله فينا، فإنّك إن استقَمتَ نجوْنا، وإن زُغْت هَلَكْنا، فأما إذا اعتُبر النّطقُ والصّمتُ بذاتَيْهما فقط، فمُحالٌ أن يقال في الصمت فضلٌ، فضلاً عن أن يخايَرَ ويقايَس بينه وبين الكلام.

- ٥٩ -

الأصل: الْمَرْأَةُ عقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ.

الشرح: اللَّسْبة: اللّسعة، لَسَبَتْه العَقْرب بالفتح: لسعته. ولَسِبْت العسل بالكسر، أي لعقْتُه.

(١) سورة الرحمٰن، الآيتان: ٣، ٤.

وقيل لِسُقراط: أيُّ السِّباع أجسر؟ قال: المرأة.

ونظرَ حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة على شجرةٍ، فقال: ليتَ كلَّ شجرة، تحمل مِثل هذه الثّمرة.

مرّت بسقراط امرأةٌ وهي تتشوّف، فقالت: يا شيخ، ما أقبَحَك؟ فقال: لولا أنّكِ من المرايا الصَّدئة لَغَمّني ما بان مِن قُبح صورتي فيكِ.

ورأى بعضهم مؤدِّباً يعلِّم جاريةً الكتابة، فقال: لا تَزِد الشرّ شرّاً، إنما تسقي سَهْماً سمّاً لتَرمِي به يوماً ما.

ورأى بعضهم جاريةً تحمل ناراً، فقال: نارٌ على نار، والحامل شرٌّ من المحمول.

وتزوّج بعضهم امرأةً نحيفة، فقيل له في ذلك، فقال: اخترتُ من الشرّ أقلّه.

كتب فيلسوفٌ على بابه: ما دَخَل هذا المنزل شرٌّ قط، فقال له بعضهم: اكتُب: «إلاّ المرأة».

ورأى بعضُهم امرأةً غريقة في الماء، فقال: زادت الكَدَرَ كَدَراً، والشرّ بالشرّ يهلِك.

وفي الحديث المرفوع: «استعيذوا بالله من شِرار النّساء، وكونوا من خيارهنّ على حَذَر»[1].

وفي كلام الحكماء: اعص هَواكَ والنساء، وافعلْ ما شئت.

دعا بعضهم لصاحبه، فقال: أماتَ الله عدوَّك؟ فقال: لو قلت: زوّج الله عدوّك، لكان أبلغ في الانتقام!

ومن الكنايات المشهورة عنهنّ: «سِلاحُ إبليس».

وفي الحديث المرفوع: «إنهنّ ناقصاتُ عَقْلٍ ودين»[2].

وقد تقدّم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب ما هو شرحٌ وإيضاح لهذا المعنى.

وجاء في الحديث أيضاً: «شاوروهنّ وخالِفوهنّ»[3].

---

(١) ذكره في «كشف الخفاء» (٢٠١٩)، ومن قول لقمان لابنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الحيض، باب: ترك الحائض الصوم (٣٠٤)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٨٠)، والترمذي، كتاب: الإيمان، ما جاء في استكمال وزيادته ونقصه (٢٦١٣)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٧٩).

(٣) وذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٢٦٣) وقال: لا أصل له، والملا علي القاري في المصنوع (١٦٠)، وقال: لا يثبت بهذا اللفظ، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٥٢٩)، وقال: قال في المقاصد لم أره مرفوعاً.

وفي الحديث أيضاً: «النساء حبائلُ الشيطان»[1].

وفي الحديث أيضاً: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ من النّساء على الرّجال»[2].

وفي الحديث أيضاً: «المرأةُ ضِلَع عَوْجاء إنْ داريْتها استمتعت بها، وإن رُمْت تقويمها كسَرْتَها»[3] وقال الشاعر في هذا المعنى:

هي الضِّلع العَوْجاء لستَ تقيمُها ... ألاَ إنّ تقويمَ الضّلوع انكِسارُها

أيجمعن ضَعفاً واقتداراً على الفتى ... أليسَ عجيباً ضَعفُها واقتدارُها؟

ومن كلام بعض الحكماء: ليس ينبغي للعاقل أن يمدح امرأةً إلا بعد موتها.

وفي الأمثال: لا تَحمَدنّ أمَةً عامَ شِرائها، ولا حُرّةً عام بنائها.

ومن كلام عبد الله المأمون: إنهن شرٌّ كلُّهنّ، وشرّ ما فيهنّ ألاَّ غِنَى عنهنّ.

وقال بعضُ السّلف: إنّ كيدَ النّساء أعْظَمُ من كيد الشيطان، لأن الله تعالى ذكر الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[4].

وذكر النساء فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[5].

وكان يقال: من الفواقِر امرأة سَوْء إن حَضَرْتَها لسَبَتْك، وإن غِبتَ عنها لم تأمَنْها.

وقال حكيم: أضرّ الأشياء بالمال والنفس والدين والعقل والعِرض شِدّة الإغرام بالنساء، ومن أعظم ما يبتلى به المغرَم بهنَّ أنه لا يقتصر على ما عنده منهنّ ولو كنّ ألفاً، ويَطمَح إلى ما ليس له منهنّ.

وقال بعض الحُكماء: مَن يُحصي مساوىء النساء! اجتمع فيهنّ نَجاسةُ الحَيض والاستحاضة، ودم النِّفاس، ونَقْصُ العقل والدين، وتَرْك الصوم والصلاة في كثير من أيّام العمر، ليست عليهن جماعة ولا جُمُعة، ولا يسلَّم عليهنّ، ولا يكون منهنّ إمامٌ ولا قاض ولا أمير ولا يسافرن إلاّ بوَليّ.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الشهاب في «مسنده» (٥٥)، وذكره القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٣/ ١٨٥)، وبلفظ «حبالة الشيطان» أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٦٦٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٠)، والترمذي، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في تحذير فتنة النساء (٢٧٨٠)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: فتنة النساء (٣٩٩٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته (٣٣٣١)، ومسلم، كتاب: الرضاع، باب: الوصية بالنساء (١٤٦٨)، والترمذي، كتاب: الطلاق واللعان، باب: ما جاء في مداراة النساء (١١٨٨).

(٤) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٢٨.

وكان يقال: ما نهيَت امرأةٌ عن أمر إلاّ أتته.

وفي هذا المعنى يقولُ طُفَيل الغَنَويّ:

إن النساءَ كأشجارٍ نَبَتْنَ معاً　　هُنّ المُرَارُ وبعضُ المُرّ مأكولُ

إن النساء مَتى يُنْهَيْنَ عن خُلقٍ　　فإنه واجبٌ لا بدّ مفعولُ

- ٦٠ -

الأصل: إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَإِذَا أُسْلِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا، وَالفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِىءِ.

الشرح: اللّفظة الأولى من القرآن العزيز، والثانية تتضمّن معنًى مشهوراً.

وقولُه: «والفَضْل مع ذلك للبادىء»، يقال في الكَرَم والحثّ على فِعل الخَيْر.

ورَوَى المدائنيّ، قال: قَدِم على أسدِ بن عبدِ الله القُشَيْرِيّ بخراسانَ رجلٌ، فدخلَ مع الناس، فقال أصلَح الله الأمير! إنّ لي عندك يداً، قال: وما يَدُك؟ قال: أخذتُ بركابِك يومَ كذا قال: صدَقْتَ، حاجَتَك، قال: تولّيني أبيوَرْد، قال: لِمَ؟ قال: لأكسَب مائةَ ألف دِرْهم، قال: فإنّا قد أمَرْنا لك بها السّاعة، فنكون قد بلّغناكَ ما تحِبّ، وأقرَرْنا صاحبَنا على عَمَله، قال: أصلَح الله الأمير! إنّك لم تقضِ ذِمامي، قال: ولِمَ، وقد أعطيتُك ما أمّلت؟ قال: فأين الإمارة؟ وأين حُبّ الأمرِ والنّهي! قال: قد ولّيتُك أبيوَرْد، وسَوّغتُ لك ما أمَرتُ لك به، وأعفَيْتُك من المحاسَبة إن صرفُتك عنها، قال: ولِمَ تَصرِفُني عنها ولا يكون الصّرف إلاّ مِنْ عَجْز أو خِيانة، وأنا بريء منهما؟ قال: اذهبْ فأنتَ أميرُها ما دامتْ لنا خُراسان، فَلم يزَلْ أميراً على أبيوَرْدَ حتّى عُزِل أسد.

قال المدائنيّ: وجاء رجلٌ إلى نَصر بنِ سَيّار يَذكُر قرابةً، قال: وما قَرابتُك؟ قال: ولَدتْني وإيّاكَ فُلانة! قال نصر: قرابة عَوْرة، قال: إنّ العَوْرة كالشَّنّ البالي، يَرقَعه أهله فينتفِعون به؛ قال: حاجَتَك، قال: مائة ناقة لاقِح، ومائة نَعْجة رُبّى - أي معها أولادُها - قال: أمّا النِّعاج فخُذْها، وأمّا النُّوق فنأمر لك بأثمانها.

ورَوَى الشّعبيُّ، قال: حضرتُ مجلسَ زِياد وحضرَه رجلٌ فقال: أيّها الأمير، إنّ لي حُرْمةً أفأذكرها؟ قال: هاتِها، قال: رأيتُك بالطائف وأنتَ غُلَيِّم ذو ذُؤابة، وقد أحاطت بك جماعةٌ من الغِلْمان، وأنت تَركُض هذا مَرّةً بِرجْلِك، وتَنْطح هذا مرّةً برأسك، وتَكدِم مرّةً بأنيابك،

فكانوا مرّة ينثالون عليك، وهذه حالُهم، ومرّة يَنِدّون عنك وأنت تَتْبَعُهم، حتّى كاثَروك واستقوَوْا عليك، فجئتُ حتّى أخرجتُك من بينهم وأنت سَلِيم وكلُّهم جريح، قال: صدقت، أنت ذاك الرجل! قال: أنا ذاك، قال حاجَتَك، قال: الغِنَى عن الطّلب، قال: يا غلام، أعطِه كلّ صَفْراء وبَيْضَاء عندَك، فنظر فإذا قيمةُ كلّ ما يَملِك ذلك اليوم من الذّهب والفضّة أربعةٌ وخمسون ألف دِرْهَم. فأخَذَها وانصَرَف، فقيل له بعد ذلك: أنتَ رأيت زِياداً وهو غلام بذلك الحال؟ قال: إي والله، لقد رأيتُه وقد اكتَنَفَه صبيّان صغيران كأنّهما من سِخالِ[1] المَعِز، فلولا أنّي أدركتُه لظننتُ أنهما يأتيان على نفسه.

وجاء رجلٌ إلى معاوية وهو في مجلس العامّة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ لي حُرمةً قال: وما هي؟ قال: دنوتُ مِن ركابِك يومَ صِفّين، وقد قربت فرسُك لتفرّ، وأهلُ العراق قد رأوا الفتحَ والظّفَر، فقلتُ لك: والله لو كانت هندُ بنتُ عُتبةَ مكانَك ما فرّت ولا اختارت إلاّ أن تموت كريمةً أو تعيشَ حميدة، أين تَفِرّ وقد قلّدَتْكَ العربُ أزِمّة أمورِها، وأعطتْكَ قِياد أعِنّتها! فقلت لي: اخفِض صوتَك لا أمَّ لك! ثم تماسَكْت وثُبّتَ وثابَتْ إليكَ حماتك، وتمثّلتَ حينئذٍ بشِعرٍ أحفَظ منه:

وقَوْلِي كلّما جَشَأَتْ وجاشَتْ　　مكانَكِ تُحْمَدِي أو تَسْتَرِيحي

فقال معاوية: صدقتَ، وَدِدْتُ أنّك الآن أيضاً خَفَضتَ من صوتِك، يا غلام أعطِه خمسين ألفَ دِرهم، فلو كنتَ أحسنتَ في الأدب لأحسَنّا لك في الزيادة.

— ٦١ —

الأصل: الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ.

الشرح: جاء في الحديث مرفوعاً: «اشفَعوا إليّ تُؤجَروا، ويَقضِي الله على لسان نبيّه ما شاء»[2].

وقال: المأمونُ لابراهيمَ بن المهديّ لما عفا عنه: إن أعظمَ يداً عندَك مِن عَفوي عنك أنّي لم أجرِّعك مَرارة امتنانِ الشافعين.

---

(١) السِّخال: جمع سَخْلَة: وهو ولد الشاة مالحان. القاموس المحيط، مادة (سخل).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: التحريض على الصدقة والشفاعة فيها (١٤٣٢)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٢٦٢٧).

ومن كلامِ قابوسَ بنِ وَشْمَكِير: بزَنْد الشفِيع تُورَى نارُ النّجاح، ومِنْ كَفّ المُفيضِ يُنتَظر فَوزُ القِداح.

قال المبرّد: أتاني رجل يَستشفِع بي في حاجة، فأنشَدني لنفسه:

إنّي قصدْتُك لا أُدْلِي بمعرفةٍ ولا بقربَى، ولكنْ قد فَشَتْ نِعَمُكْ
فبتُّ حيرانَ مكروباً يؤرّقني ذُلُّ الغريب ويغشِيني الكَرَى كَرَمُكْ
ولو هَمَمْتَ بِغير العُرْف ما عَلِقَتْ به يَداكَ ولا انقادَتْ له شِيَمُكْ
ما زِلتُ أنكَبُ حتّى زُلزِلتْ قَدَمي فاحتَلْ لتَثْبِيتها لا زُلزِلَتْ قَدَمُكْ

قال: فشفعتُ له وقمتُ بأمره حتّى بلغتُ له ما أحَبّ.

بُزُرْجُمِهر: مَن لم يستغنِ بنفسِه عن شفيعهِ ووسائِله وَهَتْ قُوَى أسبابه، وكان إلى الحرمان أقربَ منه إلى بلوغ المراد. ومِثلُه: من لم يرغب أودّاؤه في اجتنابه لم يَحظَ بمَدْح شُفَعائه. ومِثله: إذا زرتُ الملوكَ فإنّ حَسْبِي شفيعاً عندهم أن يَعرِفوني.

كلّم الأحنفُ مصعبَ بنَ الزّبير في قوم حَبَسهم، فقال: أصلَحَ الله الأمير! إن كان هؤلاء حُبِسوا في باطلٍ فالحقّ يُخرجهم، وإن كانوا حُبِسوا في حَقّ فالعفو يَسَعُهم، فأمَر بإخراجهم.

آخر:

إذا أنت لم تَعْطِفْكَ إلاّ شفاعةٌ فلا خيرَ في وُدٍّ يكونُ بشافِعِ

خرج العطاء في أيّام المنصور، وأقام الشّقرانيّ - من وَلَد شُقْران مولَى رسول الله ﷺ - ببابه أيّاماً لا يَصل إليه عطاؤه، فخَرَج جعفرُ بنُ محمّد من عند المنصور، فقام الشقرانيّ إليه، فذكر له حاجتَه، فرَحّب به، ثم دخل ثانياً إلى المنصور، وخرج وعطاءُ الشّقرانيّ في كمّه فَصَبّه في كُمه ثم قال: يا شُقْران، إنّ الحَسَن من كلّ أحدٍ حَسَنٌ، وإنّه منك أحسَنُ لِمكانك مِنّا، وإن القبيحَ من كلّ أحدٍ قبيحٌ، وهو منكَ أقبحُ لِمكانِك منّا. فاستحسَن الناسُ مَا قالَه، وذلك لأنّ الشقراني كان صاحبَ شراب. قالوا: فانظر كيف أحسَنَ السعيَ في استنجاز طَلِبته، وكيف رَحّب به وأكرَمَه مع معرفته بحاله، وكيف وَعَظه ونَهاه عن المُنكَر على وجه التعريض! قال الزّمَخْشَرِيّ: وما هوَ إلاّ من أخلاق الأنبياء.

كتَبَ سعيدُ بنُ حُميد شفاعةً لرجل: كتابي هذا كتابُ مُعْتَنٍ بمن كتِب له، واثِقٍ بمن كُتِب إليه، ولن يضيعَ حامِلُه بين الثِّقة والعناية إن شاء الله.

أبو الطّيب:

إذا عَرَضَتْ حاجٌ إليه فنَفْسُه إلى نفسِه فيها شفيعٌ مشفّعُ

خبر محمد بن جعفر مع المنصور

كان المنصورُ مُعجَباً بمحادثة محمّد بنِ جعفر بنِ عُبيد الله بنِ العبّاس، وكان الناسُ لعظم قدرِه عندَ المنصور يَفزَعون إليه في الشّفاعات وقضاءِ الحاجات، فثقُل ذلك على المنصور فحَجبَه مدّة، ثم تتبّعَته نفسُه، فحادَثَ الربيعَ فيه، وقال: إنّه لا صبَر لي عنه لكنّي قد ذكرتُ شفاعاتِه، فقال الربيع: أنا أشترط ألاّ يعودَ، فكلّمه الربيع، فقال: نَعَم، فمكَث أيّاماً لا يشفع، ثمّ وقف له قومٌ من قرَيش وغيرِهم برِقاع وهو يريدُ دارَ المنصور، فسألوه أن يأخذَ رِقاعَهم، فقصّ عليهم القصّة، فضرَعُوا إليه وسألوه، فقال أمّا إذا أبَيْتم قبول العُذْر فإنّي لا أقبضها منكم، ولكنْ هَلُمُّوا فاجعلُوها في كُمّي، فَقَذَفوها في كُمّه، ودَخَل على المنصور وهو في الخَضْراء يُشرِف على مدينة السلام وما حولَها بين البَساتين والضّياع، فقال له: أما تَرَى إلى حُسْنها! قال: بلى يا أمير المؤمنين، فبارك الله لك فيما آتاك، وهنّأك بإتمام نِعمتِه عليك فيما أعطاك! ما بَنت العربُ في دولة الإسلام، ولا العَجَمُ في سالف الأيّام، أحصَنَ ولا أحسَنَ من مدينتك، ولكن سمّجَتْها في عيني خَصْلةٌ، قال: ما هي؟ قال: ليس لي فيها ضَيْعة، فضَحِك وقال: نحسِّنها في عينِكَ، ثلاثُ ضِياع قد أقطعْتُكَها، فقال: أنتَ والله يا أمير المؤمنين شريفُ الموارد، كريمُ المَصادِر، فجعل الله باقِيَ عمرِك أكثرَ من ماضِيه، وجعَلَتِ الرّقاعُ تَبدُر من كُمّيه في أثناء كلامِه وخطابه للمنصور، وهو يَلتفِت إليها ويقول: ارجِعْن خاسئات، ثمّ يعود إلى حديثه، فقال المنصور: ما هذه بحَقّي عليكَ؟ ألاّ أعلمتَني خبرَها! فأعلَمه، فضَحِك فقال: أبَيْتَ يا ابنَ معلِّم الخيرِ إلاّ كَرَماً! ثم تمثّل بقول عبدِ الله بنِ معاويةَ بنِ عبد الله بنِ جعفر بنِ أبي طالب:

لَسْنا وإنْ أحسابُنا كَمُلتْ — يوماً على الأحسابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كما كانت أوائلُنا — تَبْني ونَفعَل مِثلَ ما فَعَلوا

ثم أخذها وتصفّحها ووقّع فيها كلّها بما طلب أصحابُها.

قال محمد بنُ جعفر: فخرجتُ من عنده وقد رَبِحت وأرْبَحتُ.

قال المبرّد لعبد الله بن يحيى بن خاقان: أنا أشفع إليك أصلحَك الله في أمر فلان، فقال: له: قد سمعتُ وأطعتُ، وسأفعل في أمره كذا، فما كان مِن نقصٍ فعليّ، وما كان من زيادة فله، قال المبرّد: أنت - أطال الله بقاءك - كما قال زُهَير:

وجارٍ سارَ معتمِداً إلينا — أجاءَتْه المخافةُ والرّجاءُ
ضمِنّا مالَه فغَدَا سَليماً — علينا نَقْصُه وله النَّماءُ

وقال دِعْبِل:

وإنّ امرأً أسْدَى إليّ بشافع إليه ويَرْجُو الشكر مِنّي لأحمَقُ
شفيعُك يا شكر الحوائج إنه يَصونك عن مكروهها وهو يخلق

آخر:

مَضى زَمني والناسُ يستشفعون بي فهل لي إلى ليلى الغَداةَ شفيعُ!

آخر:

ونبئتُ لَيلى أرسلتْ بشفاعةٍ إليّ، فهلا نفسُ ليلى شفيعُها!
أأكرَمُ من ليلَى عليّ فتبتغي به الجاهَ، أم كنتُ امرأً لا أطيعُها!

آخر:

ومَن يكُن الفَضْلُ بنُ يحيى بن خالدٍ شفيعاً له عند الخليفة يَنْجَحُ

آخر:

وإذا امرؤ أسْدَى إليك صنيعةً مِن جاهِهِ، فكأنها من مالِهِ

وهذا مِثلُ قولِ الآخر:

وعطاءُ غيرِكَ إنْ بَذَلْـ ـتَ عنايةً فيه عطاؤكْ

ابن الروميّ:

يَنامُ الذي استسْعاكَ في الأمر إنه إذا أيقظ الملهوف مثلك ناما
كفى العَوْدُ مِنك البَدْءَ في كلّ موقفٍ وجُرِّدتَ للجُلّى فكنتَ حُساما
فما لك تنبُو في يَدِي عَنْ ضَريبتي ولم أرث مِنْ هَزٍّ وكنت كهاما!

– ٦٢ –

الأصل: أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ.

الشرح: هذا التشبيه واقعٌ وهو صورة الحالِ لا مَحالة.

وقد أتيتُ بهذا المعنى في رسالةٍ لي كتبتُها إلى بعض الأصدقاء تعزيةً، فقلت: «ولو تأمّل الناسُ أحوالَهم، وتبيّنوا مآلَهم، لعَلِموا أنّ المقيم منهم بوَطَنِه، والساكنَ إلى سَكَنِه، أخو سَفَر يُسرَى به وهو لا يَسْرِي، وراكبُ بحرٍ يُجرَى به وهو لا يَدْرِي».

- ٦٣ -

الأصل: فَقْدُ الأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ.

الشرح: مثلُ هذا قولُ الشاعر:

فلا تَحسَبي أنّ الغريبَ الّذي نَأى ... ولكنّ مَن تنأيْنَ عنه غَريبُ

ومِثلُه قولُه ﷺ: «الغريبُ من ليس له حبيب»[1].

وقال الشعر:

أُسَرَةُ المرءِ والِداهُ وفيما ... بين حِضنَيْهما الحياةُ تَطيبُ

وإذا وَلّيا عن المرءِ يَوماً ... فهو في الناس أجنَبيٌّ غَريبُ

وقال آخَر:

إذا مَا مضَى القَرْن الّذي كنتَ فيهمُ ... وخُلّفتَ في قَرْنٍ فأنتَ غَريبُ

- ٦٤ -

الأصل: فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا.

الشرح: قد سَبَقَ هذا المعنى، وذَكَرْنا كثيراً ممّا قيل فيه.

وكان يقال: لا تطلُبوا الحوائج إلى ثلاثة: إلى عَبْد يقول: الأمْر إلى غيري، وإلى رجل حديثِ الغِنَى، وإلى تاجِرٍ هِمّته أن يستَرْبِحَ في كلّ عشرين ديناراً حبّة واحدة.

- ٦٥ -

الأصل: لاَ تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ.

(١) أخرجه ابن سلامة في دستور معالم الحكم: ١٦.

الشرح: هذا نوعٌ من الحَثّ على الإفضال والجُود لطيف، وقد استُعمِل كثيراً في الهديّة والاعتذار لقِلّتها، وقد تقدّم منّا قولٌ شافٍ في مَدح السّخاء والجُودِ.

وكان يقال: أفضِلْ على مَن شِئتَ تَكنْ أميرَه، واحتَجْ إلى مَن شئتَ تكن أسِيرَه، واستغْنِ عمّن شئتَ تكن نَظِيرَه.

وسُئل أرِسْطو: هل من جُودٍ يستطاع أن يُتناول به كلُّ أحد؟ قال: نَعَم، أن تَنوِيَ الخيرَ لكلّ أحد.

- ٦٦ -

الأصل: الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.

الشرح: من الأبيات المشهورة:

فإذا افتقرتَ فلا تكن ... متخشِّعاً وتجمَّلِ(١)

ومن أمثالهم المشهورة: «تجوعُ الحُرّة ولا تأكلُ بثَديَيها».

وأنشد الأصمعيّ لبعضهم:

أُقسم بالله لَمَصُّ النَّوَى ... وشربُ ماءِ القُلُبِ المالِحَهْ
أحسنُ بالإنسان مِن ذُلِّهِ ... ومن سؤالِ الأوجُهِ الكالِحَهْ
فاستغنِ بالله تكنْ ذا غِنًى ... مُغْتَبِطاً بالصَّفْقة الرّابحهْ
طُوبَى لمن تُصبِح مِيزانُه ... يومَ يُلاقِي رَبَّه راجِحَهْ

وقال بعضُهم: وقفتُ على كَنِيفٍ وفي أسفلِه كناف، وهو يُنشِد:

وأُكرِمُ نفسي عن أمورٍ كثيرة ... ألا إنّ إكرامَ النّفوس من العَقْلِ
وأبخلُ بالفَضْل المبين على الأُلَى ... رأيتُهمُ لا يُكرِمون ذَوِي الفَضْلِ
وما شانَني كَنْسُ الكَنِيف وإنّما ... يَشِينُ الفَتَى أن يَجتدِي نائلَ النذْلِ
وأقبَحُ ممّا بي وُقوفِي مؤمِّلاً ... نَوالَ فتًى مِثلي، وأيّ فتًى مِثلِي!

وأمّا كون الشّكر زِينة الغنى، فقد تقدّم من القول ما هو كافٍ.

وكان يقال: العِلْم بغير عملٍ قولٌ باطل، والنّعمة بغيرِ شُكْرٍ جِيدٌ عاطِل.

---

(١) خسِيعَة القوم وخاسِعُهُم: أخَسُّهُم. القاموس المحيط، مادة (خسع).

- ٦٧ -

الأصل: إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ، فَلاَ تُبَلْ كَيْفَ كُنتَ!

الشرح: قد أعجم تفسيرُ هذه الكلمة على جماعةٍ من الناس، وقالوا: المشهورُ في كلام الحكماء: إذا لم يكن ما تُريد فأرِدْ ما يكون، ولا مَعنًى لقوله: «فلا تُبَلْ كيف كُنتَ»! وجهلوا مُرادَه عليه السلام.

ومُرادُه: إذا لم يَكن ما تُريد فلا تُبَلْ بذلك، أي لا تَكتَرِثْ بفَوْت مُرادِك ولا تَبْتَئِسْ بالحِرْمان، ولو وَقَف على هذا لتمّ الكلام وكَمَل المعنى، وصار هذا مِثل قوله: «فلا تُكثِر على ما فاتَكَ منها أسَفا»، ومثل قولِ الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[1]، لكنّه تمّم وأكّد فقال: «كيف كنت»، أي لا تُبَل بفَوْتِ ما كنتَ أمّلته، ولا تَحمِل لذلك همّاً كيف كنت، وعلى أيّ حال كنتَ، من حَبْسٍ أو مرضٍ أو فقرٍ أو فقدِ حبيب، وعلى الجملة، لا تُبالِ الدّهر، ولا تكتَرِث بما يَعكِس عليكَ من غَرَضِك، ويَحرِمك من أمَلك، وليكن هذا الإهْوانُ به والاحتقارُ له ممّا تعتَمِده دائماً على أيّ حال أفضَى بك الدهر إليها. وهذا واضح.

- ٦٨ -

الأصل: لاَ يُرَى الجَاهِلُ إِلاَّ مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً.

الشرح: العدالة هي الخُلُق المتوسّط، وهو محمود بين مَذْمُومين، فالشجاعة محفوفة بالتهوّر والجُبْن، والذّكاء بالغَباوة والجربزة، والجود بالشحّ والتبذير، والحلم بالجمادية والاستشاطة، وعلى هذا كلّ ضدّين من الأخلاق فبينهما خُلُق متوسّط، وهو المسمّى بالعدالة، فلذلك لا يُرَى الجاهلُ إلاّ مُفرِطاً أو مفرِّطاً، كصاحب الغَيْرة، فهو إمّا أن يفرِط فيها، فيَخرُج عن القانون الصّحيح فيَغار لا مِنْ مُوجب، بل بالوَهْم وبالخيال وبالوَسْواس، وإمّا أن يُفرِّط فلا يَبحث عن حالِ نسائِه ولا يُبالي ما صنَعْن، وكلا الأمْرَين مذموم، والمحمودُ الاعتدال.

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

ومن كلامٍ بعضِ الحكماء: إذا صح العقل الْتَحَم بالأدَب كالْتِحام الطعامِ بالجَسَد الصحيح، وإذا مرضَ العَقْل نَبا عنه ما يَستمع من الأدب كما يَقِيءُ المَمْعود ما أكل من الطّعام، فلو آثر الجاهلُ أن يتعلّم شيئاً من الأدَب لَتحوّل ذلك الأدبُ جَهْلاً، كما يتحوّل ما خالَط جوفَ المَريضِ من طَيّب الطّعام داءً.

- ٦٩ -

الأصل: إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ.

الشرح: قد سبق القولُ في هذا المعنى.

وكان يقال: إذا رأيتم الرجلَ يُطِيل الصمتَ ويَهرُب من النّاس، فاقرُبوا منه فإنه يلقّى الحِكْمة.

- ٧٠ -

الأصل: الدَّهْرُ يُخْلِقُ الأَبْدَانَ، ويُجَدِّدُ الآمالَ، ويُقَرِّبُ المَنِيَّةَ، ويُبَاعِدُ الأُمْنِيَّةَ. مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصَبَ، ومَنْ فاتَهُ تَعِبَ.

الشرح: قد سبق لنا قول طويل عريض في ذكر الدهر والدنيا، ونذكر الآن شيئاً آخر، قال بعضُ الحُكماء: الدنيا تَسُرّ لِتَغُرّ وتُفِيد لتَكِيد، كم راقدٍ في ظلّها قد أيقَظته، وواثقٍ بها قد خذَلَته، بهذا الخُلُق عُرِفَتْ، وعلى هذا الشرْط صُوحِبتْ.

وكتب الاسكندرُ إلى أرِسْطوطاليس: عِظْني، فكتب إليه: إذا صَفَتْ لك السلامة فجدّد ذِكرَ العَطَب، وإذا اطمأنّ بك الأمْن فاستشعرْ الخوف، وإذا بلغتَ نهايةَ الأمل فاذكر الموتَ، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها نصيباً في الإساءة، وقال شاعر فأحسَن:

كأنّك لم تَسْمَعْ بأخبارِ مَن مَضى ... ولم تر بالباقين ما صنع الدهرُ
فإن كنتَ لا تدري فتلْك دِيارُهمْ ... عَفاها مَحال الرّيح بعدَكَ والقَطْرُ
وهل أبصرَت عيناك حيًّا بمَنزلٍ ... على الدهر إلاّ بالعرَاءِ له قَبْرُ
فلا تحسبنّ الوَفْر مالاً جمعتَه ... ولكنّ ما قدمتَ من صالحٍ وَفْرُ

مَضى جامعُو الأموال لم يتزوّدوا — سوى الفَقْر يا بُؤسَى لمن زادُه الفَقْرُ!
فحتّامَ لا تَصحُو وقد قربَ المدى — وحتّام لا ينجابُ عن قَلْبِك السُكْرُ!
بلى سَوْف تَصحُو حين ينكشِف الغِطا — وتذكرُ قولي حين لا ينفع الذّكرُ
وما بين ميلاد الفتى ووفاته — إذا انتصح الأقوامُ أنفسهم عُمْرُ
لأنّ الذي يأتيه شِبْهُ الذي مَضى — وما هوَ إلاّ وقتك الضّيّق النَّزْرُ
فصبراً على الأيّام حتّى تَجُوزَها — فعَمّا قليل بعدها يُحمَد الصّبرُ

— ٧١ —

الأصل: مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ.

الشرح: الفروع تابعة للأصول، فإذا كان الأصل معوجّاً استحالَ أن يكون الفرعُ مستقيماً، كما قال صاحبُ المَثَل: «وهل يستقيمُ الظّلّ والعُود أعوج»، فمن نَصَب نفسه للناس إماماً، ولم يكن قد علّم نفسه ما انتصب ليعلمه الناس، كان مِثل من نصب نفسه ليُعلّم النّاس الصّياغة، والنجارة، وهو لا يُحسِن أن يصوغَ خاتماً، ولا ينجُر لوحاً وهذا نوعٌ من السَّفَه، بل هو السَّفَهُ كلّه، ثم قال عليه السلام: وينبغي أن يكون تأديبُه لهم بفعله وسيرته قبل تأديبه لهم بلسانه، وذلك لأن الفِعْل أدلّ على حال الإنسان من القول.

ثم قال: ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم. وهذا حقّ؛ لأنّ من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظمُ قَدْراً ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غيرُ عامل بشيء منه، فأما من عَلم نفسه وعلّم الناس فهو أفضل وأجَلّ ممن اقتصر على تعليم نفسه فقط لا شُبْهةَ في ذلك.

— ٧٢ —

الأصل: نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ.

الشرح: وجدتُ هذه الكلمةَ منسوبةً إلى عبد الله بن المعتزّ في فصلٍ أوّله: «الناس وفْد البلاء، وسُكان الثرى، وأنفاس الحيّ خُطاه إلى أجله، وأمله خادعٌ له عن عَمَله، والدنيا أكذب واعِدِيه، والنفس أقرَب أعادِيه، والموتُ ناظرٌ إليه، ومنتظر فيه أمراً يُمْضيه» فلا أدري هل هي لابن المعتز، أم أخَذَها من أمير المؤمنين عليه السلام!

والظاهر أنها لأمير المؤمنين عليه السلام، فإنها بكلامه أشبه، ولأنّ الرضيّ قد رواها عنه، وخبرُ العَدْل معمولٌ به.

- ٧٣ -

الأصل: كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وكُلُّ مُتَوقَّعٍ آتٍ.

الشرح: الكلمة الأُولى تؤكّد مذهب جمهور المتكلّمين في أنّ العالم كلّه لا بد أن ينقضيَ ويَفْنَى، ولكنّ المتكلمين الذاهبين إلى هذا القَوْل لا يقولون: يجب أن يكون فانياً ومنقضياً لأنه معدود، فإن ذلك لا يلزم، ومن الجائز أن يكون معدوداً ولا يجب فناؤه، ولهذا قال أصحابنا: إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا مِن طريق العقل، فيجب أن يُحمل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على ما يُطابق ذلك، وهو أنه ليس يعني أن العدَدَ علّةٌ في وجوب الانقضاء، كما يُشعِر به ظاهرُ لفظِه، وهو الذي يسميّه أصحابُ أصول الفقه إيماء، وإنما مُراده كلّ معدود فاعلموا أنه فانٍ ومنقضٍ، فقد حكم على كلّ معدود بالانقضاء حُكْماً مجرّداً عن العلّة، كما لو قيل: زيد قائمٌ، ليس يعني أنه قائم، لأنه يسمّى زيداً.

فأما قوله: «وكلّ متوقَّع آتٍ» فيماثلهُ قول العامة في أمثالها: «لو انتُظِرَت القيامةُ لقامت»، والقولُ في نفسه حق، لأن العُقلاء لا ينتظرون ما يَستحيل وقوعه، وإنما ينتظرون ما يمكن وقوعه، وما لا بدّ من وقوعه، فقد صَحّ أنّ كلّ منتظَر سيأتي.

- ٧٤ -

الأصل: إنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا.

الشرح: روي: «إذا استَبْهَمَتْ»، والمعنى واحد وهو حقّ، وذلك أن المقدّمات تدلّ عَلَى النتائج، والأسباب تدلّ على المسبّبات، وطالما كان الشيئان ليسا عِلّةً ومعلولاً، وإنما بينهما أدنى تناسُب، فيُستدَلّ بحالِ أحدهما على حال الآخر، وإذا كان كذلك واشتَبهَتْ أمورٌ على العاقِل الفَطِن ولم يعلم إلى ماذا تؤول، فإنه يُستَدَلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفوَاتِحها، كالرّعيّة ذاتِ السلطان الرّكيك الضعيف السياسة، إذا ابتدأت أمورُ مملكتِه تضطرِب، واستَبْهَم على العاقل كيف يكون الحالُ في المستقبل، فإنه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها، ويَعلم أنه سيفضي أمرُ ذلك المُلْك إلى انتشار وانحلال في مُستقبل الوقت؛ لأنّ الحركات الأولى مُنذرة بذلك، وواعدة بوقوعه، وهذا واضح.

– ٧٥ –

الأصل: ومنْ خبر ضِرار بنِ ضمرة الضّابيّ عندَ دخولهِ على معاوِيةَ، ومسألته لهُ عنْ أميرِ المؤمِنينَ عليهِ السلامُ، قالَ: فأشهد لقدْ رَأيتهُ في بعض موَاقفهِ وقدْ أرْخى الليلُ سُدوله وهو قائم في محرَابه قابض على لحيتهِ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السليم، ويبكي بُكاءَ الحزِينِ، وهوَ يقولُ:

يا دُنْيا يا دنيا إلَيْك عَنّي، أبِي تَعَرّضْتِ، أمْ إلَيَّ تَشَوَّفْتِ! لا حانَ حَينُك، هَيْهاتَ، غُرّي غَيْري، لا حاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثلاثاً، لا رَجْعَةَ فيها، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وخَطَرُكِ يَسِيرٌ، وأمَلُكِ حَقِيرٌ. آهِ مِنْ قِلّةِ الزّادِ، وطُولِ الطّريقِ، وبُعْدِ السَّفرِ، وعَظِيمِ المَوْرِدِ!

الشرح: السُّدُول: جمعُ سَدِيل، وهو ما أسدل على الهَوْدَج، ويجوز في جَمْعه أيضاً أَسْدال وسدائل، وهو هاهنا استعارة. والتّملْمُل والتّملّل أيضاً: عدمُ الاستقرار من المرض، كأنه على مَلّة، وهي الرّماد الحارّ.

والسليم: الملسوع.

ويروَى «تشوّقت» بالقاف.

وقوله: «لا حان حَينُك»، دعاء عليها، أي لا حَضَر وقَتك، كما تقول: لا كنت.

فأما ضِرارُ بن ضَمْرة، فإنّ الرّياشيّ رَوَى خبرَه، ونقلتُه أنا من كتاب عبدِ الله بن إسماعيلَ بن أحمد الحلبي «في التّذييل على نَهج البلاغة»، قال: دخل ضِرارٌ على معاويةَ – وكان ضِرارٌ من صحابةِ عليٍّ عليه السلام – فقال له معاوية: يا ضرار، صف لي علياً، قال: أوَتُعْفِيني! قال: لا

أُغفيك، قال: ما أصف منه! كان والله شديدَ القُوَى، بعيد الْمَدى، يتفجّر العِلْم من أنحائه، والحكمةُ من أرْجائِه، حَسَنَ الْمُعاشَرة، سَهْل المباشرة، خَشِن المأكَل، قصير الْمَلْبَس، غَزير العَبْرة، طويل الفِكرة، يقلّب كَفّه، ويخاطِب نفسَه، وكان فينا كأحدِنا، يُجيبنا إذا سألْنا، ويبتَدِئُنا إذا سكَتْنا، ونحن مع تقريبه لنا أشَدّ ما يكون صاحبٌ لصاحبِ هيبةً، لا نبتدئه الكلام لعظَمَتِه، يحبّ المساكين، ويقرِّب أهلَ الدّين، وأشهَد لقد رأيتُه في بعض مَواقِفه... وتَمامُ الكلامِ مذكورٌ في الكتاب.

وذَكَر أبو عمرَ بنُ عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب» هذا الخبرَ، فقال: حدّثنا عبدُ الله بنُ محمد بن يوسفَ، قال: حدّثنا يحيى بنُ مالك بنِ عائد، قال: حدّثنا أبو الحسن محمد بنُ محمد بن مُقْلة البَغْداديّ بمصرَ. وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن دُرَيد، قال: حدّثنا العُكْليّ، عن الحِرْمازِيّ، عن رجل من هَمْدان، قال: قال معاويةُ لضِرار الضّبابيّ: يا ضرار صِفْ لي عَلِيًّا، قال: اعفِني يا أميرَ المؤمنين، قال: لتَصِفَنّه، قال: أمّا إذ لا بدّ من وصْفِه، فكان والله بعيدَ المَدَى، شديدَ القُوَى، يقول فَصْلاً، ويَحكُم عَدْلاً، يتفجّر العِلم من جَوانِبه، وتَنطِق الحكمة من نَواحيه، يَستوحِش من الدنيا وزَهرتِها، ويأْنَس باللّيل ووَحْشَتِه، وكان غزيرَ العَبْرة، طويلَ الفكْرة، يُعجبه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خَشُن. كان فينا كأحدِنا، يجيبُنا إذا سألناه، ويُنبِئنا إذا استَفْتَيْناه، ونحن والله مع تقريبه إيّانا، وقربِه منّا، لا نكاد نكلّمه هيبةً له. يعظِّم أهلَ الدّين، ويقرِّب المساكينَ. لا يَطمَع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيفُ من عَدلِه وأشهَد لقد رأيتُه في بعض مَواقِفه وقد أرخَى الليلُ سُدولَه، وغارَتْ نجومُه، قابضاً على لِحيته، يَتَمَلْمَل تَمَلْمُل السَّليم، ويَبكِي بكاءَ الحزين، ويقول: يا دُنْيا غُرِّي غَيْري، أبي تعرّضتِ! أم إليّ تشوّقتِ! هيهاتَ هيهاتَ! قد باينتُكِ ثلاثاً لا رجعةَ لي فيها، فعُمرُكِ قصير، وخطرُكِ حقير! آهِ من قِلّة الزاد، وبُعد السّفر، ووَحشةِ الطريق! فبكى معاويةُ وقال: رَحِم الله أبا حسن، كان والله كذلك، فكيف حُزنُك عليه يا ضِرار؟ قال: حزنُ مَن ذُبح ولدُها في حِجرِها[1].

٧٦ - ومن كلامه عليه السلام للسائل الشامي لما سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره؟ بعد كلام طويل هذا مختاره

الأصل: وَيْحكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لاَزِماً وَقَدَراً حاتِماً، لَوْ كانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لَبَطلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، إِنَّ الله سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً، وَنَهَاهُم

(١) أخرجه البحراني في حلية الأبرار: ٢/ ٢١٢.

تَحْذِيراً، وَكَلَّفَ يَسِيراً، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً، وَلَمْ يُرسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِباً، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً، وَلاَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

الشرح: قد ذكر شيخُنا أبو الحسين رحمه الله هذا الخبرَ في كتاب «الغُرَر» ورواه عن الأصبغ بنِ نُباتة، قال: قام شيخٌ إلى عليّ عليه السلام فقال: أخبِرْنا عن مَسيرنا إلى الشام، أكانَ بقضاء الله وقدَرِه؟ فقال: والّذي فَلَق الحبّة، وبَرَأ النّسمة، ما وَطِئْنا مَوْطِئاً، ولا هَبطنا وادياً إلاّ بقضاء الله وقَدَرِه. فقال الشيخ! فعند الله أحتَسب عَنائي! ما أرَى لي من الأجْر شيئاً! فقال: مَهْ أيّها الشيخ، لقد عَظّم الله أجرَكم في مَسيرِكم وأنتم سائرون، وفي مُنصرَفكم وأنتم منصرِفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرَهين، ولا إليها مضطَرّين. فقال الشيخ: وكيف القضاءُ والقَدَر ساقَانا؟ فقال: وَيْحَك! لعلّك ظننتَ قَضاءً لازماً، وقَدَراً حتماً! لو كان ذلك كذلك لبَطَل الثواب والعِقاب، والوَعْد والوَعِيد، والأمرُ والنّهي، ولم تأتِ لائمةٌ من الله لمُذنِب، ولا مَحمَدة لمُحسِن، ولم يكن المُحسن أولَى بالمدح من المسيء، ولا المسيءُ أولَى بالذّم من المُحسِن، تلك مقالةُ عُبّاد الأوثان، وجنودِ الشّيطان، وشهودِ الزور، وأهلِ العَمَى عن الصواب، وهم قَدَريّةُ هذه الأمة ومجوسُها، إن الله سبحانه أَمَر تخييراً، ونَهَى تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُطَع مُكرِهاً، ولم يُرسِل الرسلَ إلى خلقه عَبَثاً، ولم يَخلُق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾(١) فقال الشيخ: فما القَضاء والقَدَر اللّذان ما سِرْنا إلاّ بهما؟ فقال: هو الأمرُ من الله والحُكم، ثمّ تلا قولَه سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾(٢)، فنهضَ الشيخُ مسروراً وهو يقول:

أنتَ الإمامُ الّذي نَرجُو بطاعتِه ... يومَ النشورِ من الرّحمن رِضوانا
أوْضحتَ مِن دِينِنا ما كان مُلتَبِساً ... جزاكَ رَبُّك عنّا فيه إحسانا(٣)

ذَكَر ذلك أبو الحسين في بيانِ أنّ القضاء والقَدَر قد يكون بمعنى الحُكْم والأمر، وأنّه من الألفاظ المشتركة.

---

(١) سورة صۤ، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٤٥/٣٨.

- ٧٧ -

الأصل: خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كانَتْ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ في صَدْرِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ.

قَالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ الله تَعَالَى - وَقَدْ قَال عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلام فِي مِثْل ذلِك: الحكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ.

الشرح: خَطَب الحجّاج فقال: إن الله أمَرَنا بطلب الآخرة، وكفانا مؤونة الدنيا، فليْتَنا كُفِينا مؤونةَ الآخرة، وأُمِرنا بطلب الدنيا!

فسمعها الحسن فقال: هذه ضالة المؤمن خرجت من قلب المنافق.

وكان سُفيانُ الثوري يُعجِبه كلامُ أبي حَمْزة الخارجيّ ويقول: ضالّة المؤمن على لسان المنافق. تَقوَى الله أكرَمُ سَرِيرة، وأفضَلُ ذخيرة، منها ثقةُ الواثق، وعليها مِقَة الوامق. لِيعمَل كل امرىءٍ في مكان نفسه وهو رَخِيّ اللَّبَب، طويلُ السّبب، ليَعرف مَمدّ يَدِه، وموضعَ قَدَمِه، وليَحذَر الزَّلَل، والعلَل المانعةَ من العمل. رحِم الله عبداً آثَرَ التقوَى، واستشْعَرَ شِعارها، واجتنى ثِمارَها، باعَ دارَ البقاء بدارِ الآباد، الدّنيا كَرَوْضة يونق مَرْعاها، وتُعجِب من رآها. تَمُجّ عرُوقُها الثّرى، وتنطف فروعُها بالنّدى، حتى إذا بلغ العُشْب إناه، وانتهى الزِّبْرِج مُنْتهاه، ضَعُف العمود، وذوى العُود، وتولّى من الزمان ما لا يعود، فحتّت الرياحُ الوَرَق، وفرّقتْ ما كان اتّسق، فأصبحَتْ هشِيماً، وأمْست رَميماً.

- ٧٨ -

الأصل: قِيمَةُ كُلّ امْرِىءٍ ما يُحْسِنُهُ.

قَالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ الله تَعَالَى: وَهَذه الْكَلمَةُ الَّتي لا تُصَابُ لها قِيمَةٌ، وَلاَ تُوزَنُ بِهَا حِكْمَةٌ، وَلاَ تُقرَنُ إِلَيْها كَلِمَةٌ.

الشرح: قد سَلَف لنا في فَضْل العلم أقوالٌ شافية، ونحن نذكر هاهنا نُكَتاً أخرى.

يقال: إنّ من كلام أرْدَشير بن بابك في رسالته إلى أبناءِ الملوك: بحَسْبِكم دلالةً على فَضْل العلم أنّه ممدوح بكلّ لسان، يتزيّن به غير أهله، ويدّعيه من لا يلصقُ به. قال: وبحَسْبكم دَلالةً على عَيْب الجهل أنّ كل أحد يَنتفِي منه، ويَغضَب أن يسمَّى به.

وقيل لأنوشَرْوانَ: ما بالُكمْ لا تستفيدون من العلم شيئاً إلا زادكم ذلك عليه حِرْصاً؟ قال: لأنّا لا نستفيد منه شيئاً إلا ازدَدْنا به رِفعةً وعزّاً. وقيل له: ما بالُكمْ لا تأنفون من التعلّم من كل أحد؟ قال: لعلمنا بأنّ العلم نافع من حيث أُخذ.

وقيل لبُزرْجُمهْر: بم أدركتَ ما أدركتَ من العِلم؟ قال: ببكُور كبُكورِ الغُراب، وحِرْصٍ كحرصِ الخِنزير، وصبرٍ كصبرِ الحمار.

وقيل له: العِلم أفضلُ أم المال؟ فقال: العِلم، قيل: فما بالُنا نرَى أهلَ العِلم على أبواب أهلِ المال أكثر ممّا نَرى أصحابَ الأموالِ على أبواب العُلَماء! قال: ذاك أيضاً عائد إلى العِلم والجَهْل، وإنما كان كما رأيتم، لعلم العلماء بالحاجة إلى المال، وجَهْلِ أصحابِ المال بفَضيلةِ العِلم.

وقال الشاعر:

تَعلَّم فليس المرءُ يُخلَقُ عالماً ... وليس أخو علم كمن هوَ جاهلُ

وإن كبيرَ القَوْمِ لا عِلْم عندَه ... صغيرٌ إذا التفّتْ عليه المَحافلُ

– ٧٩ –

الأصل: أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْها آبَاطَ الإبِلِ لَكَانَتْ لِذلِكَ أَهْلاً: لاَ يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ رَبَّهُ، وَلاَ يَخَافَنَّ إِلاَّ ذَنْبَهُ، وَلاَ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنكم إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لاَ أعلَمُ، ولا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إذا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءِ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، وعليكم بالصَّبْرِ، فإنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإيمانِ كالرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ، ولا خَيْرَ في جَسَدٍ لا رَأسَ مَعَهُ، ولا خيرَ في إيمانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في جميع الحكم المنطوي عليها هذا الفَصْل، وقال أبو العَتَاهِيَة:

والله لا أرجُو سِوا ... كَ ولا أخافُ سِوَى ذنوبي

فاغفرْ ذنوبي يا رَحِيـ ... ـمُ فأنتَ سَتّارُ العيوبِ

وكان يقال: من استَحْيا من قولِ: «لا أدْري» كان كمن يَستحْيي من كَشْفِ ركْبته، ثم يكشف سَوْءته، وذلك لأنّ من امتنعَ من قول: «لا أدرِي» وأجابَ بالجَهْل والخطأ فقد واقَعَ ما يجبُ في

الحقيقة أن يُستحيا منه، وكَفَّ عمّا ليس بواجب أن يُسْتَحْيَا منه، فكان شبيهاً بما ذكَرْناه في الرُّكبة والعَوْرة.

وكان يقال: يحسُن بالإنسان التعلّم ما دامَ يقبح منه الجَهل، وكما يقبح منه الجهل ما دام حيّاً كذلك يحسُن به التعلم ما دام حيّاً.

وأمّا الصبر فقد سبق فيه كلامٌ مُقنع، وسيأتي فيما بعدُ جملة من ذلك.

- ٨٠ -

الأصل: وقالَ عليه السَّلاَمُ لرجلٍ أفرَطَ في الثَّناء عليهِ - وكانَ لهُ مُتَّهِماً: أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ، وفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ.

الشرح: قد سَبَق منّا قولٌ مُقنِع في كراهية مدح الإنسان في وجهه.

وكان عمرُ جالساً وعنده الدِّرّةُ، إذ أقبل الجارُود العَبْدِيّ، فقال رجل: هذا الجارود سيّدُ ربيعة، فسَمِعها عمرُ ومن حَوله، وسَمِعها الجارود، فلمّا دنا منه خَفَقَه بالدِّرّة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين! قال: ما لي ولك! أما لقد سمعتها، قال: وما سمعتها فمه! قال: ليخالطنّ قلبك منها شيء، وأنا أحبّ أن أطأطىء منك.

وقالت الحكماء: إنّه يَحدُث للممدوح في وجهه أمران مُهلِكان: أحدُهما الإعجاب بنفسه، والثاني إذا أُثنى عليه بالدِّين أو العلم فَتر وقَلّ اجتهادُه، ورضيَ عن نفسه، ونَقَصَ تشميرُه وجِدُّه في طلب العلم والدّين، فإنه إنما يتشمر من رأى نفسَه مقصِّراً فأمّا مَنْ أطلِقت الألسُن بالثناء عليه، فإنه يظنّ أنه قد وصل وأدرك، فيقلّ اجتهاده، ويتّكل على ما قد حَصَل له عند الناس؛ ولهذا قال النبيّ ﷺ لمن مَدَح إنساناً كاد يَسمَعه: «وَيْحك! قطعتَ عُنُق صاحبك، لو سمِعها لما أفلَح»[1].

فأمّا قوله عليه السلام له: «وفوقَ ما في نفسك»، فإنه إنما أراد أن ينبِّهه على أنه قد عَرَف أنه كان يَقَع فيه، وينحرف عنه، وإنما أراد تعريفه ذلك لما رآه من المَصلحة، إمّا لظنّه أنه يُقلع عمّا كان يذمّه به، أو ليُعلمَه بتعريفه أنه قد عَرَف ذلك، أو ليخوّفه ويزجُرَه، أو لغير ذلك.

(١) أخرج نحوه: البخاري كتاب: الشهاب، باب: إذا زكى رجل رجلاً كفاه (٢٦٦٢)، ومسلم كتاب: الزهد والرقائق، باب: النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة (٣٠٠٠)، وبلفظ المصنف أخرجه: أحمد في «مسنده» (٢٧٥٣٩).

– ٨١ –

الأصل: بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَنْمَى عَدَداً، وَأَكْثَرُ وَلَداً.

الشرح: قال شيخنا أبو عثمان: ليته لما ذَكَر الحُكم ذكر العِلّة!

ثم قال: قد وجدْنا مِصداق قوله في أولاده وأولاد الزبير وبني المهلّب وأمثالهم ممن أسرعَ القتلُ فيهم. وأُتِيَ زيادٌ بامرأة من الخوارج فقال لها: أما والله لأحْصِدنّكم حَصْداً، ولأفنِينكم عَدًّا، فقالت: كلاّ إنّ القتل لَيَزْرَعُنا، فلما همّ بقتلها تستّرت بثوبها، فقال: اهتكوا سترها لَحَاها الله! فقالت: إن الله لا يَهتِك سترَ أوليائه، ولكن التي هُتك سترُها على يد ابنها سُمَيّة، فقال: عجّلوا قتلَها أبعدَها الله! فقُتِلَتْ.

– ٨٢ –

الأصل: مَنْ تَرَكَ قَوْلَ: «لا أَدْرِي» أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ.

الشرح: جاءت امرأة إلى بُزُرْجُمِهر، فسألته عن مسألة فقال: لا أدري، فقالت: أيعطِيكَ المِلِكُ كلَّ سنةٍ كذا كذا وتقول: لا أدري، فقال: إنما يعطيني الملك على ما أَدْرِي، ولو أعطاني على ما لا أَدْرِي لما كفاني بيت ماله. وكان يقول: قولُ «لا أَعْلَمُ» نِصفُ العِلم.

وقال بعضُ الفُضَلاء: إذا قال لنا إنسانٌ: «لا أدرِي» عَلَّمناه حتى يَدري، وإن قال: أدري، امتحنّاه حتى لا يدري.

– ٨٣ –

الأصل: رَأيُ الشَّيْخ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلَامِ. ويُرْوَى: «مِنْ مَشْهد الغُلَامِ».

الشرح: إنما قال كذلك لأنّ الشيخ كثيرُ التَّجربة، فيبلغ، من العَدُوّ برأيه ما لا يبلُغ بشجاعته الغلام الحَدَث غير المجرِّب، لأنه قد يغرِّر بنفسِه فيَهلك ويُهلِك أصحابَه، ولا رَيبَ أنّ الرأي مقدَّم على الشجاعة، ولذلك قال أبو الطيّب:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجْعانِ ... هو أوّلٌ وهي المحلُّ الثاني
فإذا هما اجتَمَعا لنفسٍ مِرّةٍ ... بلغتْ من العَلْيَاء كلَّ مكانِ
ولرُبما طَعن الفتى أقرانَه ... بالرّأي قبلَ تطاعُن الأقران
لولا العقولُ لكانَ أدنَى ضَيغمٍ ... أدنى إلى شَرفٍ من الإنسان
ولمَا تَفَاضلت الرجالُ ودبَّرتْ ... أيدِي الكُماة عَواليَ المُران

ومِن وَصايا أبرَويز إلى ابنه شيرويه: لا تستعمل على جيشك غلاماً غمراً تَرِفاً، قد كثر إعجابه بنفسه، وقلّت تجاربه في غيره، ولا هَرِماً كبيراً مدبِراً قد أخَذ الدهرُ من عقله، كما أخذَتِ السنُّ من جِسمه، وعليك بالكهولِ ذَوِي الرأي!

وقال لَقيط بن يَعْمَر الإياديّ في هذا المعنى:

وقَلِّدوا أمركم لله دَرُّكُمُ ... رحْبَ الذِّراع بأمر الحربِ مُضطلِعا
لا مُترَفاً إنْ رَخاءُ العيشِ ساعدَه ... ولا إذا عَضّ مكروهٌ به خَشَعا
ما زال يحلُب هذا الدهرَ أشطُرَه ... يكون متبِعاً طوراً ومُتَّبَعا
حتّى استمرّ على شَزْرٍ مَرِيرته ... مستحكم الرأي لا قَحْماً ولا ضرِعا

- ٨٤ -

الأصل: عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الاستِغْفَارُ.

الشرح: قالوا: الاستغفار حَوارسُ الذّنوب.

وقال بعضهم: العبدُ بين ذَنْب ونِعْمة لا يُصْلِحهما إلاّ الشكر والاستغفار.

وقال الربيع بن خُثَيم: «لا يقولَن أحدكم أستغفِر الله وأتوبُ إليه» فيكون ذَنْباً وكذباً إن لم يفعل، ولكن ليقل: اللهمّ اغفر لي وتُب عليّ.

وقال الفُضَيل: الاستغفار بلا إقلاع توبةُ الكَذّابين.

وقيل: من قَدّم الاستغفار على النّدم، كان مستهزئاً بالله وهو لا يعلم.

- ٨٥ -

الأصل: وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه كان عليه السلام قال: كانَ في الأرْضِ أمانانِ مِنْ عَذَابِ الله، وقَدْ رُفِعَ أحَدُهُما، فَدُونَكُمُ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، أما الأمانُ الذِي رُفِعَ فَهُوَ رَسولَ الله صلى الله عليه وآله، وأمَّا الأمانُ الباقي فالاسْتِغْفارُ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

قال الرَّضِيّ رَحمه الله تعالى: وهذا مِنْ مَحاسَنِ الاسْتِخرَاج، ولَطَائِفِ الاستنباط.

الشرح: قال قومٌ من المفسِّرين: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، في موضع الحال: والمرادُ نفي الاستغفار عنهم، أي لو كانوا ممّن يستغفرون لما عذّبهم، وهذا مثلُ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[2]؛ فكأنه قال: لكنهم لا يَستغفرون فلا انتفَاء للعذاب عنهم.

وقال قوم: معناه، وما كان الله معذِّبَهم وفيهم مَنْ يستغفر وهم المسلمون بين أظهُرِهم ممن تَخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله من المستضعفين.

ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[3]، أي ولأيِّ سَبَب لا يعذِّبهم الله مع وجود ما يَقتضِي العذاب، وهو صَدّهم المسلمين والرّسول عن البيت في عام الحُدَيْبية! وهذا يدلّ على أن ترتيبَ القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث، لأنّ سُورة الأنفال نزلتْ عقيبَ وقْعة بَدْرٍ في السّنة الثانية من الهجرة، وصدّ الرسول الله صلى الله عليه وآله عن البيت كان في السّنة السادسة، فكيف يجعل آيةً نزلتْ في السنة السادسة في سورةٍ نزلتْ في السنة الثانية!

وفي القرآن كثيرٌ من ذلك، وإنّما رتّبه قومٌ مِن الصّحابة في أيّام عثمان.

- ٨٦ -

الأصل: مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله أَصْلَحَ الله مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٧.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٤.

وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِه أَصْلَحَ الله أَمْرَ دُنْيَاهُ.

وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الله حَافِظ.

الشرح: مِثلُ الكلمة الأولى قولُهم: رِضا المخلوقِين عُنوانُ رِضا الخالق، وجاء في الحديث المرفوع: «ما مِنْ والٍ رَضِيَ الله عنه إلاّ أرضَى عنه رعيّته».

ومثلُ الكلمة الثانية دُعاءُ بعضهم في قوله:

أنـا شـاكـرٌ أنـا مـادحٌ أنـا حـامِـدٌ   أنـا خـائـفٌ أنـا جـائـعٌ أنـا عـارِ

هـي ستّـةٌ وأنـا الـضّـمِـينُ بنِصْـفِـهـا   فـكُـنِ الـضـمـينَ بـنِـصـفِـهـا يـا بـارِي

ومِثلُ الكلمة الثالثة قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

- ٨٧ -

الأصل: الْفَقِيهُ كلُّ الفقيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحمَة الله، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ الله، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ الله.

الشرح: قلَّ موضعٌ من الكتاب العزيز يَذكُر فيه الوعيد إلاّ ويمزُجه بالوعد، مِثل أن يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ ثم يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والحكمة تقتضِي هذا ليكون المكلّف متردِّداً بين الرّغبة والرّهبة.

ويقولون في الأمثال المرموزة: لقِيَ موسَى وهو ضاحكٌ مستبشرٌ عيسَى وهو كالِحٌ[2] قاطِب، فقال عيسى: ما لَك كأنّكَ آمِنٌ من عذاب الله؟ فقال موسى عليه السلام: ما لَكَ كأنّك آيسٌ من رَوْح الله! فأوحَى الله إليهما: موسى أحبُّكما إليَّ شِعاراً، فإنّي عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عبدي بي.

واعلم أنّ أصحابَنا وإن قالوا بالوعيد، فإنّهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنِّطونه من رحمة الله، وإنما يَحُثّونه على التوبة، ويخوِّفونه إن ماتَ من غير توبة، ويحقُّ ما قال شيخُنا أبو الهُذَيل: لولا مَذهَب الإرْجاء لَمَا عُصِي الله في الأرض، وهذا لا رَيبَ فيه، فإنّ أكثرَ العُصاة إنّما يُعوِّلون

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

(٢) كَلَحَ: تَكَشَّرَ في عُبُوس. القاموس المحيط، مادة (كلح).

على الرحمة، وقد اشتَهرَ واستفاض بينَ الناس أنّ الله تعالى يَرحَم المذنِبين، فإنّه وإن كان هُناك عِقاب فأوقاتاً معدودة، ثم يخرجون إلى الجنة، والنفوس تُحِبّ الشهوات العاجلة، فتتهافَتُ الناس على المَعاصِي وبلوغِ الشَّهَوات والمآرب، معولين على ذلك، فلولا قولُ المرجِئة وظهورُه بين الناس لكان العصيانُ إمّا معدوماً، أو قليلاً جِدّاً.

– ٨٨ –

الأصل: أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ.

الشرح: هذا حق، لأنّ العالِمَ إذا لم يَظهَر من عِلمِهِ إلاّ لَقْلَقَةُ لسانِه من غيرِ أن تَظهرَ منه العبادات، كان عالماً ناقصاً، فأمّا إذا كان يُفيدُ الناسَ بألفاظِهِ ومنطقه، ثم يشاهِدُهُ النّاسُ على قَدَمٍ عظيمةٍ من العبادةِ، فإنّ النفعَ يكون به عامّاً تامّاً، وذلك لأنّ الناس يقولون: لو لم يكن يَعتقِد حقيقَةَ ما يقوله، لما أَذأَبَ نَفْسَه هذا الدَّأب.

وأمّا الأوّل فيقولون فيه: كُلّ ما يقوله نفاق وباطل، لأنه لو كان يعتقد حقيقةَ ما يقول لأخَذَ به، ولَظَهَر ذلك في حَرَكاته، فيَقْتَدون بفِعله لا بقَوْله، فلا يَشتغِل أحدٌ منهم بالعبادة ولا يهتم بها.

– ٨٩ –

الأصل: إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ.

الشرح: لو قال: إنّها تَمَلّ كما تَملّ الأبدان، فأحمِضُوا كما نقل عن غيرِه لحُمِل ذلك على أنه أراد نَقلها إلى الفُكاهات والأخبار والأشمار، ولكنّه لم يقل ذلك، ولكن قال: «فابتَغوا لها طرائفَ الحِكمة»، فوَجَب أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على أنه أراد أنّ القُلوبَ تَمَلّ من الأنظار العقليّة، في البراهين الكلاميّة على التوحيد والعدل، فابتغوا لها عندَ مَلالِها طرائفَ الحِكمة، أي الأمثال الحِكْمية الراجعة إلى الحِكمة الخلقية، كما نحن ذاكرُوه في كثيرٍ من فصولِ هذا الباب، مِثل مدح الصبر، والشجاعة، والزهد، والعِفَّة، وذمّ الغضب، والشهوة، والهوى، وما يَرجِع إلى سياسة الإنسان نفسه، وولده، ومنزله، وصديقه، وسلطانه، ونحو ذلك؛ فإنّ هذا عِلْمٌ آخر وفَنّ آخر، لا

تَحتاجُ القلوب فيهِ إلى فِكْر واستنباط، فتتْعَب وتكِلّ بترادُف النّظر والتأمّل عليها، وفيه أيضاً لذّةٌ عظيمةٌ للنفس.

وقد جاء في إجمامِ النّفس كثيرٌ.

قال بعضهم: رَوِّحوا القلوب برَوائِع الذّكر.

وعن سَلْمان الفارسيّ: أنا أحتَسِب نَوْمَتي كما أحتَسِب قَوْمَتي.

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز: إن نفسي راحِلتي، إن كلّفتُها فوقَ طاقتِها انقطعتْ بي.

وقال بعضهم: روِّحوا الأذهان، كما تروِّحوا الأبدان.

وقال أردشيرُ بنُ بابك: إنّ للآذان مَجّة، وللقلوب مَلّة، ففرّقوا بين الحكمتين بلَهْوٍ يَكُن ذلك استِجْماماً.

- ٩٠ -

الأصل: لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللّهُمَّ إِنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ، فَإِنَّ الله سُبْحَانه يَقُولُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1]. ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ، وَيَكْرَهُ انْثِلامَ[2] الْحَالِ.

قَالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ الله تعالى: وهَذَا مِنْ غَرِيبِ ما سُمِعَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في التَّفْسِير.

الشرح: الفتنة لفظٌ مشترَك، فتارةً تُطلَق على الجائحة والبليّة تصيبُ الإنسان، تقول: قد افتتَن زيد وفُتِن فهو مفتون إذا أصابتْه مُصيبة فَذهَب مالُه أو عقله، أو نحوُ ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[3] يَعني الّذين عذّبوهم بمكّة ليرتدّوا عن الإسلام، وتارة تُطلَق على الاختبار والامتِحان، يقال: فتنتُ الذهبَ إذا أدخلتَه النار لتَنظرَ ما جَوْدَته، ودينارٌ مَفْتون، وتارةً

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

(٢) الثلم: الكسر. اللسان، مادة (ثلم).

(٣) سورة البروج، الآية: ١٠.

تُطلَق على الإحراق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[1] وورِق مَفْتون، أي فِضّة مُحرَقة، ويقال للحَرَّة: فَتِين كأنّ حِجارتَها مُحرَقة، وتارةً تُطلَق على الضّلال، يقال رجلٌ فاتن ومُفتن، أي مُضِل عن الحقّ جاءَ ثُلاثياً ورُباعياً، قال تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾[2] أي بمضلّين، وقرأ قومٌ «مفتنين»، فمن قال: إنّي أعوذُ بك من الفِتْنة، وأرادَ الجائحة، أو الإحراق أو الضلال، فلا بأس بذلك، وإنْ أراد الاختبار والامتحانَ فغيرُ جائز، لأن الله تعالى أعلمُ بالمَصلَحة، وله أن يَختبر عبادَه لا ليَعلَم حالهم، بل ليَعلَم بعضُ عبادِه حالَ بعض، وعندي أنّ أصلَ اللّفظة هو الاختبار والامتحان، وأنّ الاعتبارات الأخرى راجعة إليها، وإذا تأمّلتَ علمتَ صحّةَ ما ذكرناه.

- ٩١ -

الأصل: وسُئِلَ عنِ الخَيْرِ ما هُوَ؟

فَقَالَ: لَيْسَ الخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مالُكَ وَوَلَدُكَ، ولَكِنِ الخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ، وأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بعبادةِ رَبِّكَ، فإنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ الله، وإنْ أَسَأْتَ اسْتَغْفَرْتَ الله. ولا خَيْرَ في الدُّنْيا إلاَّ لِرَجُلَيْنِ: رَجُل أذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدارَكُها بالتَّوْبَةِ، ورَجُلٍ يُسَارِعُ في الخيراتِ، ولا يَقِلُّ عَمَلٌ مَع التَّقْوَى، وكَيْفَ يَقِلُّ ما يُتَقَبَّلُ!

الشرح: قد قال الشاعر لهذا المعنى:

لـيس الـسّعيدُ الـذي دُنْيـاه تَـسعِدُه ... بـل الـسعيد الـذي ينـجُو مـن الـنـارِ

قوله عليه السلام: «ولا يَقِلّ عملٌ مع التقوى»، أي: مع اجتناب الكبائر، لأنه لو كان مُوقِعاً لِكَبيرة لما تُقبِّل منه عملٌ أصلاً على قول أصحابنا، فوجب أن يكون المراد بالتقوى اجتنابَ الكبائر، فأمّا مذهبُ المرجِئة فإنهم يحملون التّقوى هاهنا على الإسلام، لأنّ المسلم عندهم تتقبَّل أعماله، وإن كان مُواقعاً للكبائر.

فإن قلت: فهل يجوز حملُ لفظة «التقوى» على حقيقتها، وهي الخوف؟

قلت: لا. أما على مَذهبنا فلأن من يخافُ الله ويواقع الكبائرَ لا تتقبل أعمالُه، وأمّا مذهب المرجئة فلأن من يخاف الله مِن مخالفي مِلّة الإسلام لا تتقبل أعمالُه، فثبت أنه لا يجوز حملُ التقوى هاهنا على الخوف.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ١٣.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

فإن قلت: مَنْ هو مخالفٌ لِملة الإسلام لا يخافُ الله لأنه لا يعرفه.

قلت: لا نسلّم، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصِفاته، كما نعرفه نحن، ويجحد النبوّة لشُبْهة وقعت له فيها، فلا يلزم من جَحْد النبوة عدمُ معرفة الله تعالى.

- ٩٢ -

الأصل: إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالأنبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِما جاؤوا بِهِ، ثُمَّ تَلا عليه السلام: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ الآية[1].

ثُمَّ قالَ عَلَيْهِ السَّلاَم: إنَّ وَلِيَّ محمَّدٍ مَنْ أَطاعَ الله وإن بَعُدَتْ لُحمَتُهُ، وإنَّ عَدُوَّ محمَّدٍ مَنْ عَصَى الله وإن قَرُبَتْ قَرابَتُهُ.

الشرح: هكذا الرواية «أعلمهم»، والصحيح «أعملهم»، لأن استدلاله بالآية يقتضي ذلك، وكذا قوله فيما بعدُ. «إنّ وَلِيَّ محمد من أطاع الله. . .» إلى آخر الفصل، فلم يذكر العلم، وإنما ذكر العمل. واللُّحمة بالضم: النسب والقرابة، وهذا مثلُ الحديث المرفوع: «ائتوني بأعمالكم، ولا تأتوني بأنسابكم، إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم»، وفي الحديث الصحيح: «يا فاطمة بنت محمد، إني لا أغني عنك من الله شيئاً».

وقال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام: أرأيت قوله صلى الله عليه وآله: «إن فاطمةَ أحصنتْ فرجها فحرَّم الله ذرّيتها على النار»[2]، أليس هذا أماناً لكل فاطمي في الدنيا؟ فقال: إنك لأحمق، إنما أراد حسناً وحسَيناً، لأنهما من لُحمة أهل البيت، فأما مَن عداهما فمنْ قَعد به عملُه لم يَنهَضْ به نَسَبُه.

- ٩٣ -

الأصل: وَسَمِعَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ رَجُلاً مِنَ الْحَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ وَيقْرأُ، فَقَالَ:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٨.

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٧٢٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٨٨)، وابن عدي في «الكامل» (٥/٥٨)، والبزار في «مسنده» (١٨٢٩).

نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ، خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ عَلَى شَكٍّ.

الشرح: هذا نهيٌ عن التعرّض للعبادة مع الجَهل بالمعبود، كما يصنع اليوم كثيرٌ من الناس، ويظنون أنّهم خير الناس، والعقلاء الألبّاء من الناس يضحكون منهم، ويستهزئون بهم، والحَرُوريّة: الخوارج، وقد سَبق القول فيهم. وفي نِسبتهم إلى حروراء.

يقول عليه السلام: تَرْكُ التنفُّل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية، خيرٌ من الاشتغال بالنوافل وأورادِ الصّلاة مع عدم العلم، وهو المعنيُّ بقوله: «في شَكّ»، فإذا كان عدمُ التنفّل خيراً من التنفّل مع الشكّ فهو مع الجهل المحض - وهو الاعتقاد الفاسد - أَوْلى بأنْ يكون.

- ٩٤ -

الأصل: اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لاَ عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ.

الشرح: نهاهم عليه السلام عن أن يقتصروا إذا سمِعوا منه أو من غيره أطرافاً من العِلْم والحكمة، على أن يَرووا ذلك رواية كما يفعله اليومَ المحدثون، وكما يقرأ أكثرُ الناس القرآن دراسةً ولا يَدْرِي من معانيه إلا اليسير.

وأمرَهم أن يعقِلوا ما يَسمَعونه عقلَ رِعاية أي مَعرفة وفَهم.

ثم قال لهم: «إنّ رُواة العلم كثير، ورُعاته قليل»، أي من يُراعِيه ويتدبّره، وصَدَق عليه السلام!

- ٩٥ -

الأصل: وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]، فَقَالَ: إِنَّ قَوْلَنَا «إِنَّا لله» إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ، وَقَوْلَنَا: «وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

الشرح: قوله إنّا لله اعترافٌ بأنّا مملوكون لله وعبيدٌ له، لأنّ هذه اللامَ لامُ التمليك، كما تقول: الدار لِزيد؛ فأمّا قولُه: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ فهو إقرار واعترافٌ بالنّشور والقيامة، لأنّ هذا هو معنى الرّجوع إليه سبحانه، واقتَنَع أميرُ المؤمنين عن التصريح بذلك، فذَكَر الهُلْك، فقال: إنّه إقرارٌ على أنفُسنا بالهُلْك، لأنّ هُلْكنا مُفض إلى رجوعِنا يومَ القيامة إليه سبحانه، فعبّر بمقدمة الشيء عن الشيء نفسه، كما يقال: الفقرُ المَوْت، والحمَّى الموت، ونحو ذلك.

ويُمكِن أن يفسّر ذلك على قول مُثبِتي النّفس الناطقة بتفسيرٍ آخر فيقال: إنّ النفس ما دامت في أسْرِ تدابير البَدَن فهي بمَعزِل عن مبادئها، لأنّها مشتغلةٌ مستغرِقة بغير ذلك، فإذا مات البَدَن رجعت النفسُ إلى مَبادِئها، فقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرارٌ بما لا يصحّ الرجوع بهذا التفسير إلا مَعَه، وهو الموت المعبّر بالهُلْك.

– ٩٦ –

الأصل: وقال عليه السلام ومدحه قوم في وجهه: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْراً مِمَّا يَظُنُّون، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ!**

الشرح: قد تقدّم في كراهِيَة مَدْحِ الإنسان في وجهه. وفي الحديثِ المرفوعِ: «إذا مدحْتَ أخاك في وجهِهِ، فكأنّما أمرَرْتَ على حلقِه مُوسى وَمِيضة»[1].

وقال أيضاً: «لو مَشَى رجلٌ إلى رجل بسَيْف مرهَف كان خيراً له من أن يُثني عَليه في وجهه».

ومن كلامِ عمرَ: المَدْح هو الذَّبح، قالوا: لأنّ المذبوحَ يَنْقَطِع عن الحركة والأعمال، وكذلك المَمْدوح يَفتُر عن العمل. ويقول: قد حَصَل في القلوب والنفوسَ ما استَغنَى به عن الحركة والجدّ. ومن أمثال الفلاّحين: إذا طارَ لك صيتٌ بين الحَصّادة، فاكسِر مِنْجَلَك.

وقال مُطرف بنُ الشِّخّير: ما سمعتُ من ثناءِ أحدٍ عليّ، أو مِدحةِ أحدٍ لي، إلاّ وتصاغرتْ إليّ نفسي. وقال زياد بنُ أبي مسلِم: ليس أحد سَمِع ثناءَ أحدٍ عليه إلاّ وتراءى له شيطان، ولكنّ المؤمن يراجع.

فلمّا ذُكِر كلامُهما لابن المبارك قال: صَدَقا، أمّا قول زياد فتلك قُلوبُ العوامّ، وأمّا قولُ مطرِّف فتلك قلوب الخواصّ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٢).

- ٩٧ -

الأصل: وقال عليه السلام: لاَ يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلاَّ بِثَلاَثٍ: بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ.

الشرح: قد تَقدَّم لنا قَولٌ مستقصى في هذا النحو، وفي الحوائج وقضائِها واستنجاحِها.

وقد جاء في الحديث المرفوع: «استعِينوا على حاجاتكم بالكِتمان، فإنّ كلّ ذي نِعمْة محسود»(١).

وقال خالدُ بنُ صَفْوان: لا تطلُبوا الحوائجَ في غير حِينِها، ولا تَطلُبوها إلى غيرِ أهلِها، ولا تَطلُبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمَنْع خُلَقاء.

وكان يقال: لكلّ شيء أسٌّ، وأسُّ الحاجة تعجيلٌ أروَحُ من التأخير.

وقال رجلٌ لمحمّد بن الحنفيّة: جئتُك في حُوَيْجة، قال: فاطلب لها رُجَيْلاً!

وقال شَبيبُ بن شَبّة بن عِقال: أمران لا يَجتمِعانِ إلاّ وَجَب النُّجح، وهما العاقل لا يَسأل إلاّ ما يجوز، والعاقل لا يرُدُّ سائلَه عمّا يُمكِن.

وكان يقال: من استعظَم حاجَة أخِيه إليه بعد قضائها امتناناً بها فقد استَصْغَر نفسَه.

وقال أبو تمّام في المَطْل:

وكـان الـمَـطْـل فـي بَـدْءٍ وعَـوْدٍ ... دُخـانـاً لـلـصَّـنـيـعـة وهـي نـارُ
نـسـيـبَ الـبُـخْـل مُـذْ كـانـا وإلاّ ... يـكـنْ نَـسَـبٌ فـبـيـنَـهـمـا جِـوارُ
لـذلـك قـيـل: بـعـضُ الـمَـنْـع أدنَـى ... إلـى جُـودٍ، وبـعـضُ الـجـودِ عـارُ

- ٩٨ -

الأصل: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُقَرَّبُ فِيهِ إِلاَّ الْمَاحِلُ، وَلا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلاَّ الْفَاجِرُ، وَلاَ يُضَعَّفُ فِيهِ إِلاَّ الْمُنْصِفُ، يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنّاً، وَالْعِبَادَةَ اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الإِمَاءِ، وَإِمَارَةِ الصِّبْيَانِ، وَتَدْبِيرِ الْخِصْيَانِ.

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (١١٨٦) بلفظ «استعينوا على إنجاح حوائجكم...» والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٥)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٤٠٤).

الشرح: المَحْل: المكر والكَيْد، يقال مَحَل به إذا سَعَى به إلى السلطان، فهو ماحِلٌ ومَحُول، والمُماحَلة: المماكَرة والمكايدة.

قوله: «وَلا يُظَرَّف فيه إلاّ الفاجر»، لا يَعُدّ الناس الإنسان ظريفاً إلا إذا كان خليعاً ماجناً متظاهراً بالفِسق.

وقولُه: «ولا يضعَّف فيه إلا المنصِف»، أي إذا رأوا إنساناً عنده وَرَع وإنصاف في معاملتِهِ الناسَ عدُّوه ضعيفاً، ونَسَبوه إلى الرِّكّة والرَّخاوة، وليس الشَّهم عندهم إلا الظالم.

ثم قال: «يعُدّون الصدقة غُرْماً»، أي خسارة، ويَمُنُّون إذا وَصَلوا الرَّحِم وإذا كانوا ذوي عِبادة استطالوا بها على الناس وتبجّحوا بها، وأعجبتهم أنفسهم، واحتقروا غيرهم.

قال: فعند ذلك يكون السلطان والحُكم بين الرعايا بمشورة الإماء... إلى آخر الفصل، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهي إحدى آياته، والمُعجِزات المختصّ بها دون الصّحابة.

- ٩٩ -

الأصل: وقال عليه السلام: وَقَدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلَقٌ مَرْقُوعٌ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ.

الشرح: قد تقدم القولُ في هذا الباب، وذكَرْنا أنّ الحكماء والعارفين فيه على قسمين: منهم من آثر لبسَ الأدنى على الأعلى، ومنهم من عكس الحال، وكان عمرُ بنُ الخطاب من أصحاب المذهب الأوّل، وكذلك أميرُ المؤمنين، وهو شِعار عيسى ابن مريمَ عليه السلام، كان يلبسُ الصوف وغليظ الثياب، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلبس النَّوعين جميعاً، وأكثر لُبسِه كان الجيّد من الثياب مِثل أَبراد[1] اليمن، وما شاكل ذلك، وكانت مِلحفتُه مورَّسَةً حتى أنها لتردِع على جِلده كما جاء في الحديث[2].

---

(١) مثال ذلك ما أخرجه أبو داود في «سننه»، كتاب: الصلاة، باب: في المؤذن يستدير في أذانه (٥٢٠)، من حديث أبي جحيفة قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة وهو في قبة حمراء من آدم، فخرج بلال فأذن فكنت أتتبع فمه ها هنا وها هنا، قال ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليه حلة برود يمانية قطري.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٣٦٨)، عن محمد بن علي قال: آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ملحفة مورسة متوشحاً بها.

ورُئِيَ محمّد بن الحنفية عليه السلام واقفاً بعرفات على بِرْذَوْن أصفر، وعليه مُطْرَف خزٍّ أصفَر، وجاء فَرْقَد السَّبَخيّ إلى الحسن وعلى الحسَن مُطرف خَزٍّ، فجعل يَنظُر إليه وعلى فَرْقد ثيابُ صوف، فقال الحسن: ما بالُك تنظُر إليّ وعليّ ثيابُ أهلِ الجنّة، وعليك ثيابُ أهلِ النار! إن أحَدكم ليَجْعل الزهد في ثيابه والكِبْرَ في صَدْره، فلَهُو أشدُّ عجباً بصوفه من صاحبِ المُطْرَف.

وقال ابن السَّمَّاك لأصحاب الصّوف: إن كان لباسُكم هذا موافِقاً لسرائِركم فلقد أحببتم أن يطّلع الناسُ عليها، ولئن كان مخالفاً لها لقد هَلَكتم.

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطاب في مَلْبوسه، وكان قَبلَ الخلافة يلبس الثياب المثمَّنة جدّاً، كان يقول: لقد خِفْتُ أن يَعْجَز ما قَسم الله لي من الرّزقِ عمَّا أريده من الكسوة، وما لبستُ ثوباً جديداً قطّ إلاّ وخُيِّل لي حين يراه الناس أنه سمِلٌ أو بالٍ، فلما ولِيَ الخلافة تَرَك ذلك كلَّه.

وروى سعيدُ بنُ سُويد، قال: صلَّى بنا عمرُ بنُ عبد العزيز الجمعة، ثمّ جلس وعليه قميصٌ مرقوع الجَيْبِ من بين يديه ومن خَلْفه، فقال له رجل: إنّ الله أعطاك يا أمير المؤمنين، فلو لبستَ، فنكّس مَلِيّاً ثم رفع رأسه فقال: إنّ أفضل القصْد ما كان عند الجِدَة، وأفضلُ العَفْو ما كان عند المَقْدرة.

وروى عاصمُ بن مَعدلة: كنت أرى عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فأعجب من حُسن لونه وجودة ثِيابِه وبزّته، ثم دخلت عليه بعد أنْ وَلي، وإذا هو قد احترق واسودّ ولَصِقَ جِلْدُه بِعَظْمِه، حتى ليس بين الجلد والعظم لحم، وإذا عليه قلنسوَة بيضاءُ قد اجتمع قطنُها ويعلم أنها قد غسلتْ، وعليه سُحُقٌ أنْبجانيّة قد خرج سَدَاها، وهو على شاذكونة، قد لَصِقت بالأرض تحت الشاذكونة عباءةٌ قَطَوانيّة من مُشاقة الصوف، وعنده رجل يتكلم، فرفع صَوْته، فقال له عمر: اخفِض قليلاً من صوتِك، فإنما يكفي الرجل من الكلام قدرُ ما يُسمِعُ صاحبَه.

وروى عبيد بنُ يعقوبَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز كان يَلبس الفَرْوَ الغليظ من الثياب، وكان سِراجه على ثلاث قَصَبات فوقهنّ طِين.

— ١٠٠ —

الأصل: إِنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ، وَسَبِيلانِ مُخْتَلِفَانِ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلاَّهَا أَبْغَضَ الآخِرَةَ وَعَادَاهَا، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ.

الشرح: هذا الفصل بيّنٌ في نفسِه لا يَحتاج إلى شَرْح؛ وذلك لأن عَمَل كلّ واحد من الدارين مُضادٌ لِعَمَل الأخرى، فعَمَل هذه: الاكتساب، والاضطراب في الرزق، والاهتمام بأمر المعاش، والولد والزوجة، وما ناسَبَ ذلك. وعمل هذه: قَطْعُ العلائق، ورفض الشهوات، والانتصاب للعبادة، وصَرْف الوجه عن كلّ ما يصدّ عن ذِكرِ الله تعالى، ومعلومٌ أن هذين العَمَلين متضادّان، فلا جَرَم كانت الدّنيا والآخرة ضرّتين لا تجتمعان!

- ١٠١ -

الأصل: وَعَنْ نَوْفٍ الْبَكَّائِيِّ - وَقِيلَ الْبَكَالِيّ بِاللام، وَهُوَ الأَصَح - قَالَ:

رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَم ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنظَرَ إِلَى النُّجُوم، فَقَالَ: يَا نَوْفُ، أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَم رَامِقٌ؟ قُلْتُ: بَلْ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِين فَقَالَ: يَا نَوْفُ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ! أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الأَرْضَ بِسَاطاً، وَتُرَابَهَا فِرَاشاً، وَمَاءَهَا طِيباً، وَالْقُرْآن شِعَاراً، وَالدُّعَاءَ دِثَاراً، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ. يَا نَوْفُ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لاَ يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَشَّاراً، أَوْ عَرِيفاً، أَوْ شُرْطِيًّا، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ - وَهِيَ الطُّنْبُورُ - أَوْ صَاحِبَ كُوبَةٍ، وَهِيَ الطَّبْلُ.

وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً: إِنَّ الْعَرْطَبَةَ الطَّبْلُ، وَالْكُوبَةَ الطُّنْبُورُ.

الشرح: قال صاحبُ الصّحاح: نَوْفُ البَكاليّ كان صاحبَ عليّ عليه السلام.

وقال ثعلب: هو منسوبٌ إلى قبيلة تُدعَى بَكالة، ولم يذكر من أيّ العرب هي، والظاهر أنّها من اليَمَن، وأمّا بكيل فحيّ من هَمدان، وإليهمْ أشارَ الكُمَيت بقوله:

فقد شركتْ فيه بكيلٌ وأرْحَبُ

فأمّا البَكاليّ في نسب نوف فلا أعرِفه.

قوله: أم رامق، أي أم مستيقِظ تَرْمُق السماءَ والنجومَ ببَصَرِك.

قوله: قَرَضوا الدّنيا، أي تَرَكوها وخَلّفوها وراءَ ظهورِهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[1] أي تَترُكهُم وتُخلفهمُ شمالاً، ويقول الرجل لصاحبه: هل مَررتَ بمكانِ كذا،

(١) سورة الكهف، الآية: ١٧.

يقول: نَعَم قرَضْته ليلاً ذاتَ اليَمين، وأنشَدَ لذي الرمّة:

إلى ظُعُنٍ يَقرِضْن أجوازَ مشرفٍ ... شمالاً وعن أيمانهنّ الفَوارسُ

قالوا: مشرف والفَوارس: موضعان، يقول: نظرتُ إلى ظُعُن يَجزن بين هَذين الموضعين.

- ١٠٢ -

الأصل: إِنَّ الله تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً فَلاَ تَتَكَلَّفُوهَا.

الشرح: قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(١).

وجاء في الأثر: «أبهِموا ما أبهمَ الله»(٢).

وقال بعضُ الصالحين لبعض الفقهاء: لِمَ تفرضَ مسائل لَمْ تَقَع وأتعبت فيها فكرَك! حَسْبُك بالمتداوَل بين الناس.

قالوا: هذا مِثلُ قولِهم في باب المَسْح على الخُفّين: فإنْ مَسَح على خفّ من زُجاج، ونحو ذلك من النّوادر الغريبة.

وقال شريك في أبي حنيفة: أجهَلُ الناس بما كان، وأعلَمُهم بما لم يكن.

وقال عمر: لا تتنازعوا فيما لم يكن فتختلفوا، فإنّ الأمر إذا كان أعان الله عليه، وانتهاك الحُرْمة: تَناوُلُها بما لا يَحِلّ، إمّا بارتكاب ما نهي عنه، أو بالإخلال بما أمر به.

- ١٠٣ -

الأصل: لا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لاِسْتِصْلاَحِ دُنْيَاهُمْ إِلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠١).

(٢) ذكره ابن الأثير في «النهاية في غريب والأثر» موقوفاً على سيدنا ابن عباس رضي الله عنه مادة (بهم).

الشرح: مثالُ ذلك إنسان يضيّع وقتَ صلاةِ الفريضة عليه، وهو مشتغِل بمحاسَبةِ وَكيله ومخافتهِ على مالِه، خوفاً أن يكون خانَه في شيء منه، فهو يَحرِص على مناقَشتِه عليه، فتفوته الصّلاة.

قال عليه السلام: مَن فَعَلَ مِثلَ هذا فَتَحَ الله عليه في أمرِ دُنْياه ومالِه ما هو أضرّ عليه ممّا رام أن يَستدرِكَه بإهماله الفريضة.

- ١٠٤ -

الأصل: رُبَّ عالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ.

الشرح: قد وَقع مِثلُ هذا كثيراً، كما جَرَى لعبد الله بن المقفع، وفضلُه مشهور، وحِكمتُه أشهر من أن تذكر، ولو لم يكن له إلا كتاب «اليتيمة»[1] لكَفَى.

واجتمع ابنُ المقفّع بالخليل بن أحمد، وسمع كل منهما كلام الآخر، فسئل الخليلُ عنه فقال: وجدتُ علمَه أكثر مِن عقله، وهكذا كان، فإنه كان مع حكمته متهوّراً، لا جَرَم تهوُّره قَتَله! كتب كتابَ أمان لعبد الله بن عليّ عمّ المنصور ويوجد فيه خطّه، فكان من جملته: ومَتى غَدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله، أو أبطن غير ما أظهر أو تأوّل في شيء من شروط هذا الأمان فنساؤه طوالقُ، ودوابّه حُبُس، وعبيدُه وإماؤه أحرار، والمسلمون في حِلٍّ من بَيْعته. فاشتدّ ذلك على المنصور لمّا وقف عليه، وسأل: مَن الذي كتَب له الأمان؟ فقيل له: عبد الله بنُ المقفع كاتبُ عمّيك عيسى وسليمان، ابني عليّ بالبصرة، فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سُفيان بن معاوية يأمره بقَتْله.

وقيل: بل قال: أمَا أحدٌ يكفيني ابنَ المقفع! فكتب أبو الخصيب بها إلى سفيان بن معاوية المهلّبي أمير البصرة يومئذ - وكان سُفْيان واجداً على ابن المقفّع لأنه كان يعبث به ويَضحَك منه دائما، فغضِب سفيانُ يوماً من كلامه، وافتَرى عليه، فردّ ابن المقفّع عليه رَدّاً فاحشاً، وقال له: يابن المُغتلِمة[2]! وكان يمتنع ويعتصم بعيسى وسليمان ابنَيْ عليّ بن عبد الله بن العباس،

(١) «الدرة اليتيمة والجواهر الثمينة» لعبد الله بن المقفع الأديب المتوفى سنة (١٤٢هـ) وهو كتاب لم يصنف في فنه مثله «كشف الظنون (١/ ٧٤٥)».

(٢) الغلمة: هيجان شهوة النكاح من المرأة والرجل. لسان العرب، مادة (غلم).

فحقدها سُفيان عليه - فلما كوتب في أمره بما كوتِب اعتزمَ قتله، فاستأذن عليه جماعةٌ من أهل البصرة، منهم ابن المقفع، فأدخل ابن المقفع قبلهم، وعدَل به إلى حجرة في دِهليزه، وجلس غلامُه بدابّته ينتظره على باب سفيان، فصادف ابنُ المقفع في تلك الحجْرة سُفْيان بن معاوية، وعنده غلمانه وتنُّور نار يُسجر، فقال له سفيان: أتذكر يوم قلتَ لي كذا! أمي مغتلِمةٌ إن لم أقتُلك قِتلة لم يُقتل بها أحد، ثم قطع أعضاءه عُضواً عُضواً، وألقاها في النار وهو ينظر إليها حتى أتَى على جميع جسده، ثم أطبق التنوّر عليه، وخرج إلى الناس فكلّمهم، فلما خرجوا من عنده تخلّف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرُج، فمضى وأخبرَ عيسى بن عليّ وأخاه سليمان بحاله، فخاصما بسفيان بن معاوية في أمره، فجحد دُخوله إليه، فأشْخَصاه إلى المنصور، وقامت البينة العادلة أن ابنَ المقفّع دخل دار سفيان حياً سليماً ولم يخرج منها. فقال المنصور: أنا أنظر في هذا الأمر إن شاء الله غداً، فجاء سُفيان ليلاً إلى المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، اتّق الله في صَنيعتك ومتّبع أمرك، قال: لا تُرَع، وأحضَرَهم في غد، وقامت الشهادة، وطلب سليمان وعيسى القصاص، فقال المنصور: أرأيتم إن قتلتُ سفيان بابن المقفع، ثم خرج ابن المقفع عليكم من هذا الباب - وأومأ إلى باب خَلفه - من ينصّب لي نفسه حتى أقتله بسُفْيان؟ فسكتوا، واندفع الأمرُ، وأضرَب عيسى وسليمانُ عن ذكر ابن المقفع بعدها، وذَهب دمُه هدَراً.

قيل للأصمعيّ: أيما كان أعظم ذَكاءً وفِطنةً الخليلُ أم ابن المقفع؟ فقال: كان ابن المقفع أفصح وأحكم، والخليلُ آدب وأعقل، ثم قال: شتانٌ ما بين فِطْنة أفْضَتْ بصاحبها إلى القتل، وفطنة أفضَتْ بصاحبها إلى النُّسك والزهد في الدنيا! وكان الخليلُ قد نَسك قبل أن يموت.

- ١٠٥ -

الأصل: لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هَذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ الْقَلْبُ، وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلاَفِهَا، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْحِرْصُ، وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الأَسَفُ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَا نَسِيَ التَّحَفُّظَ، وَإِنْ غَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ، وَإِنِ اتَّسَعَ لَهُ الأَمْرُ اسْتَلَبَتْهُ الْغِرَّةُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ الْجَزَعُ، وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ الْغِنَى، وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلاَءُ، وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَتْ بِهِ الضَّعَةُ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ الْبِطْنَةُ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ.

الشرح: رُوِي: «قَعَد به الضَعف». والنِّياط: عِرْق عُلّق به القلب من الوَتين، فإذا قُطِع ماتَ صاحبُه، ويقال له النَّيط أيضاً. والبَضْعَة بفتح الباء: القِطْعة من اللّحم. والمراد بها هاهنا القلب، وقال: يعتَوِر القلبَ حالاتٌ مختلفاتٌ متضادّات، فبعضُها من الحِكْمة، وبعضُها - وهو المضادّ لها - منافٍ للحكمة، ولم يذكُرْها عليه السلام، وليست الأمورُ الّتي عدّدها شرحاً لِما قدّمه من هذا الكلام المُجمَل، وإن ظَنّ قومٌ أنه أراد ذلك، ألا تَرَى أن الأمورَ الّتي عدّدها ليس فيها شيءٌ من باب الحِكمة وخلافِها!

فإن قلت: فما مِثالُ الحِكمة وخلافها، وإن لم يذكر عليه السلام مثاله؟

قلت: كالشجاعة في القَلْب وضِدّها الجُبْن، وكالجُود وضدّه البُخْل، وكالعفّة وضدّها الفُجُور، ونحو ذلك.

فأمّا الأمور الّتي عدّدها عليه السلام فكلامٌ مستأنَف، إنّما هو بيانُ أنّ كل شيء ممّا يتعلّق بالقلب يَلزمَه لازِمٌ آخر نحوُ الرّجاء، فإنّ الإنسان إذا اشتدّ رجاؤه أذلّه الطمع، والطّمع يَتْبع الرّجاء، والفَرْق بين الطمع والرّجاء أنّ الرّجاء توقُّع منفَعَة ممّن سبيلُه أن تَصدُر تلك المَنفعَة عنه، والطمع توقُّعُ منفَعةٍ ممّن يُستبعَد وُقوعُ تلك المنفعة منه ثم قال: وإن هاج به الطمع قَتَله الحِرْص، وذلك لأنّ الحرْص يَتْبع الطّمع، إذا لم يَعلم الطامعُ أنّه طامع، وإنّما يَظُن أنّه راج.

ثم قال: وإن مَلَكه اليأس، قتله الأسَف، أكثرُ الناسِ إذا يَئِسوا أسِفوا.

ثم عدّد الأخلاقَ وغيرَها من الأمور الواردة في الفَصْل إلى آخره، ثم خَتَمه بأن قال: «فكلُّ تقصيرٍ بهُ مُضِرّ، وكلّ إفراط له مفسِد»، وقد سَبَق كلامُنا في العدَالة، وإنها الدّرجة الوسطى بينَ طرَفين هما رَذِيلتان، والعَدالة هي الفضيلة، كالجُود الذي يكتنفه التّبذير والإمساك، والذّكاء الّذي يكتنفه الغبَاوة. والجَرْبَزة[1]، والشجاعة التي يَكتنِفها الهَوَج والجُبْن، وشَرَحْنا ما قالَه الحُكَماء في ذلك شرحاً كافياً، فلا مَعْنَى لإعادتِه.

- ١٠٦ -

الأصل: نَحْنُ النّمْرُقَةُ الْوَسْطى الّتِي يَلْحَقُ بِهَا التّالِي، وَإلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي.

الشرح: النُمرُق والنُمرُقة بالضم فيهما: وِسادةٌ صغيرةٌ، ويجوز النِّمرِقة بالكسر فيهما، ويقال للطّنْفسة فوقَ الرّحل نُمرقة. والمعنى أنّ كلّ فضيلة فإنّها مجنّحة بطَرَفَين معدُودَين من

(١) الجُرْبُزُ: الخِبُّ الخبيث، والمصدر: الجَرْبَزة. القاموس المحيط، مادة (جربز).

الرّذائل كما أوضحناه آنِفاً، والمراد أنّ آل محمد عليه و ﷺ هم الأمرُ المتوسّط بين الطّرفين المذمومين، فكلُّ مَن جاوَزَهم فالواجب أن يَرجِع إليهم، وكلّ من قَصّر عنهم فالواجبُ أن يَلحَق بهم.

فإن قلت: فلمَ استعار لفظَ النمرقة لهذا المعنى؟

قلت: لمّا كانوا يقولون: قد رَكِب فلانٌ من الأمر مُنكَراً وقد ارتكَب الرأيَ الفلانيّ، وكانت الطّنفِسة فوق الرّحل ممّا يُركَب، استعارَ لَفظَ النّمرقة لما يراه الإنسانُ مَذهَباً يَرجِع إليه ويكون كالرّاكب له، والجالِس عليه، والمتورِّك فوقَه.

ويجوز أيضاً وتكون لفظة «الوُسْطَى» يراد بها الفُضْلى، يقال: هذه هي الطريقةُ الوُسْطى، والخَليقةُ الوسطىَ، أي الفضلى، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[1] أي أفضَلهم، ومنه: ﴿جَعَلْنَكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[2].

- ١٠٧ -

الأصل: لاَ يُقِيمُ أَمْرَ الله سُبْحَانَهُ إِلاَّ مَنْ لاَ يُصَانِعُ، وَلاَ يُضَارِعُ، وَلاَ يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ.

الشرح: قد سبق من كلام عمرَ شيءٌ يُناسِب هذا إن لم يكن هو بعَينه، والمُصانَعة: بَذْل الرِّشْوة.

وفي المَثَل: مَن صَانَع بالمال، لم يَحتشم من طَلَب الحاجة.

فإن قلت: كان ينبغي أن يقول: «من لا يصانَع» بالفتح.

قلتُ: المُفاعَلة تدلّ عَلَى كون الفعل بين الاثنين كالمُضارَبة والمُقاتَلة.

ويضارع: يتعرّض لطَلَب الحاجَة، ويجوز أن يكون من الضّراعة وهي الخُضوع أي يخضعُ لزيدٍ ليَخضَع زيدٌ له، ويجوز أن يكون من المضارَعة بمعنى المشابَهة، أي لا يتشبّه بأئمّة الحقّ أو وُلاة الحَقّ، وليس منهم.

وأمّا اتّباع المَطامِع فمعروف.

(١) سورة القلم، الآية: ٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

- ١٠٨ -

الأصل: وقال عليه السلام: وَقد تُوُفِّيَ سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ الأَنصاريُّ بالْكوفَةِ بَعْدَ مَرْجعهِ مِنْ صِفِّينَ مَعَه، وَكَانَ مِن أَحَبِّ النَّاس إليه:

لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ.

قال الرَّضيُّ رحمه الله تعالى: وَمَعْنى ذَلِك أَنَّ الْمِحْنَةَ تَغْلُظُ عَلَيْهِ، فَتُسْرِعُ الْمَصَائِبُ إِلَيْهِ، وَلاَ يُفْعَلُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالأَتْقِيَاءِ الأَبْرَارِ، اَلْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ. وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ عليهِ السَّلامُ: «مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ البَيْتِ فَلْيَسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْبَاباً» وَقَدْ يُؤَوَّلُ ذَلِكَ عَلَى مَعْنًى آخَرَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ.

الشرح: قد ثبت أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال له: «لا يُحبّك إلاّ مؤمن، ولاَ يَبغَضكَ إلاّ مُنافق»[١].

وقد ثَبَتَ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله: قال «إنّ البَلْوَى أسرَعُ إلى المؤمن من الماءِ إلى الحدُور»[٢].

وفي حَديثٍ آخر: «المؤمنُ مُلقًّى، والكافرُ مُوَقًّى»[٣].

وفي حديثٍ آخر: «خيرُكم عند الله أعظمُكم مصائبَ في نفسِه ومالِه وولدِه».

وهاتان المقدّمتان يَلزَمهما نتيجة صادقة، وهي أنه عليه السلام لو أحبّه جبلٌ لتَهافَت. ولعلّ هذا هو مرادُ الرضيّ بقوله: «وقد يؤوّل ذلك على معنًى آخر ليس هذا موضع ذِكره».

- ١٠٩ -

الأصل: لا مالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ، وَلاَ وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ، ولا عَقْلَ كالتَّدْبيرِ، ولا كَرَمَ كالتَّقْوَى، ولا قَرِينَ كَحُسْنِ الخُلُقِ، وَلا مِيرَاثَ كالأَدَبِ، ولا قائِدَ كالتَّوفِيقِ، ولا تِجارَةَ كالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ولا زَرْعَ كالثَّوَابِ، ولا وَرَعَ كالوُقُوف عِنْدَ الشُّبْهَةِ، ولا زُهْدَ كالزُّهْدِ في الحَرَامِ، ولا عِلْمَ كالتَّفَكرِ، ولا عِبَادَةَ كأَدَاء الفَرَائِضِ.

(١) أخرجه النسائي في الإيمان، باب: علامة الإيمان (٥٠١٨)، وأحمد في «مسنده» (٧٣٣).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٤/ ٢٣٨.

(٣) ذكره ملا علي القاري في كتابه المصنوع (٢٦٥) وقال: ليس بحديث. والعلجلوني في «كشف الخفاء» (٢٦٨٨) وقال ليس بحديث ومعناه صحيح.

ولا إيمانَ كالحَياءِ والصَّبْرِ، ولا حَسَبَ كالتَّوَاضُعِ، ولا شَرَفَ كالْعِلْمِ، ولا عِزَّ كالْحِلْمِ، ولا مُظاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ المُشاوَرَةِ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في جميع هذه الحكم.

أما المال فإنّ العقل أعوَدُ منه، لأن الأحمق ذا المال طالما ذهب مالُه بحمقه، فعادَ أحمقَ فقيراً، والعاقل الذي لا مال له طالما اكتسب المال بعقله، وبقي عقلُه عليه.

وأما العُجْب فيوجب المَقْت، ومن مُقِت أُفرد عن المخالطة واستُوحِش منه، ولا رَيْب أن التدبير هو أفضلُ العقل، لأنّ العيش كله في التدبير.

وأما التقوى فقد قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

وأما الأدب فقالت الحكماء: ما وَرَّثتِ الآباءُ أبناءها كالأدب.

وأما التوفيق فمن لم يكن قائدَه ضَلّ.

وأما العمل الصالح، فإنه أشرفُ التجارات، فقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2].

ثم عدّ الأعمال الصالحة.

وأما الثواب فهو الربح الحقيقي، وأما ربح الدنيا فشبيهٌ بحلم النائم.

وأما الوقوف عند الشُبُهات فهو حقيقةُ الوَرَع، ولا رَيْب أنّ مَن يَزْهد في الحرام أفضل ممن يزهد في المباحات، كالمآكل اللذيذة، والملابس الناعمة، وقد وَصَف الله تعالى أرباب التفكّر فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾[4] ولا ريبَ أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل. والحياءُ مخّ الإيمان، وكذلك الصبر والتواضعُ مَصْيدة الشرف، وذلك هو الحسب، وأشرف الأشياء العلم؛ لأنه خاصّة الإنسان، وبه يَقَع الفَضْل بينه وبين سائر الحيوان.

والمشورة من الحَزْم فإنّ عقل غيرك تستضيفُه إلى عقلك. ومن كلام بعض الحكماء: إذا استشارَك عدوُّك في الأمر فامحَضْه النصيحة في الرأي، فإنه إنْ عمل برأيك وانتفع نَدِم على إفراطه في مُناوأتك، وأفضَت عداوتُه إلى المودّة، وإن خالفَك واستضرّ عرف قدر أمانتك بنُصحه، وبَلَغت مُناك في مَكروهه.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة الصف، الآية: ١٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

١١٠

الأصل: إِذَا اسْتَوْلَى الصَّلاَحُ على الزَّمان وأهْلِهِ ثُمَّ أساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ برَجُل لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ، فَقَدْ ظَلَمَ، وإذا اسْتَوْلَى الْفَسَادُ على الزَّمانِ وأهْلِهِ، فأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ برَجُل فَقَدْ غَرَّرَ.

الشرح: يريد أنه يتعيّن على العاقل سوء الظّنّ حيث الزمان فاسد، ولا ينبغي له سوء الظّن حيثُ الزمان صالح، وقد جاء في الخبر المرفوع النهي عن أن يظنّ المسلم بالمسلم السوْء، وذلك محمولٌ على المسلم الذي لم تظهر منه حَوْبة، كما أشار إليه عليٌّ عليه السلام، والحوْبة: المعصية، والخبر هو ما رواه جابر قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقال: «مرحباً بكِ من بيتٍ! ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك! والله إن المؤمن أعظم حرمة منك عند الله عز وجل؛ لأن الله حرّم منك واحدة، ومن المؤمن ثلاثة: دمَه وماله وأن يظن به ظنّ السوء»[1].

ومن كلام عمر: ضَعْ أمر أخِيك على أحْسَنِه حتى يجيء ما يغلبك منه، ولا تُظُننّ بكلمة خرجتْ من في أخيك المسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عَرَّض نفسه للتّهم فلا يلومَنّ من أساءَ به الظنّ.

شاعر:

أسـاتُ إذْ أحـسـنـتُ ظـنّـي بـكُـم ... والـحـزمُ سـوءُ الـظّـنّ بـالـنـاسِ

وقيل لعالِم: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: من لا يثق بأحدٍ لسوء ظَنّه، ولا يَثق به أحد لسُوء فعله.

شاعر:

وقد كان حُسْن الظّنّ بعضَ مَذَاهِبي ... فـأدّبـنـي هـذا الـزمـانُ وأهـلُـهُ

قيل لصوفيّ: ما صناعتك؟ قال: حُسنُ الظنّ بالله، وسوء الظنّ بالناس.

وكان يقال: ما أحسنَ حُسن الظنّ إلاّ أنّ فيه العجز، وما أقبح سوء الظن إلاّ أن فيهِ الحَزْم.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: حرمة دم المؤمن وماله (٣٩٣٢).

ابن المعتزّ:

تَفَقّدْ مَساقِطَ لَحْظِ المُريبِ ... فإنّ العيونَ وجوهُ القلوبِ
وطالِعْ بَوادِرَه في الكلام ... فإنّك تجني ثمارَ الغيوبِ

- ١١١ -

الأصل: وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَم: كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ، وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ؟

الشرح: هذا مِثلُ قَوْلِ عَبَدَة بن الطّبيب:

أرَى بَصري قد رابَني بعد صِحّةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أن تَصِحّ وتسلَما
ولن يَلبثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تيمّما

وقال آخر:

كانت قَناتِي لا تَلينُ لِغامزٍ ... فألانَها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربّي بالسلامةِ جاهداً ... ليُصِحّني فإذا السّلامةُ داءُ

- ١١٢ -

الأصل: كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ! وَمَا ابْتَلَى الله أَحَداً بِمِثْلِ الْإِمْلاَءِ لَهُ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في الاستدراج والإملاء.

فأمّا القولُ في فِتنة الإنسان بحُسْن القولِ فيه فقد ذكَرْنا أيضاً طَرَفاً صالحاً يتعلّق بها.

وقال رسول الله ﷺ لرجلٍ مَدَح رجلاً وقد مَرّ بمجلس رسول الله ﷺ فلم يسمع، ولكن قال: «وَيْحَك لكدتَ تَضرِب عنقَه، لو سَمِعها لما أفلح».

- ١١٣ -

الأصل: هَلَكَ فِيَّ رَجُلاَن: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في مِثل هذا، وقد قال رسول الله ﷺ: «والله لولا أنّي أُشفِق أن تقولَ طوائفُ من أمّتي فيكَ ما قالت النصارى في ابنِ مريم، لقلتُ فيك اليومَ مقالاً لا تمرّ بأحدٍ من الناس إلا أخذوا الترابَ من تحتِ قَدَميك للبَرَكة»(١).

ومع كَونِه ﷺ لَم يَقل فيه ذلك المَقَالَ فقد غَلَت فيه غُلاةٌ كثيرةُ العَدَد منتشِرة في الدنيا، يعتقِدون فيه ما يَعتقِد النصارى في ابن مريم، وأشنَع من ذلك الاعتقاد.

فأمّا المُبغض القالي فقد رأيْنا مَنْ يبغضه، ولكن ما رأينا من يَلعَنه ويصرّح بالبراءة منه، ويقال: إنّ في عُمَان وما والاها من صُحار وما يَجرِي مَجرَاها قوماً يعتقدون فيه ما كانت الخوارجُ تعتقِده فيه، وأنا أبرأ إلى الله منهما.

- ١١٤ -

الأصل: إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ.

الشرح: فِي المَثَل: انتهِزوا الفُرَص، فإنّها تمرّ مَرّ السّحاب.

وقال الشاعر:

وإن أمكنتْ فرصةٌ في العدوّ ... فلا يَكُ هَمُّك إلاّ بِها
فإن تَكُ لم تأتِ مِنْ بابِها ... أتاك عدوُّك من بابِها
وإيّاك مِن نَدَمٍ بعدَها ... وتأميل أخرى، وأنّى بها..؟

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢١/٧٩.

- ١١٥ -

الأصل: مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا، يَهْوِي إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللُّبِّ الْعَاقِلُ.

الشرح: قد تقدم القولُ في الدنيا مِراراً، وقد أخذ أبو العَتاهِيَة هذا المعنى فقال:

إنّما الدهرُ أرقَمٌ ليِّنُ المَسّ وفي نابِه السِّقامُ العُقامُ

- ١١٦ -

الأصل: وقال عليه السلام: وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ: أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ، تُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ. وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْعَدُهَا رَأْياً، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا، وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في مُفاخَرة هاشم وعبدِ شمس، فأمّا بنو مخزوم، فإنّهم بعد هذين البيتين أفخرُ قُرَيش وأعظمُها شرفاً.

قال شيخنا أبو عثمانَ: حظيتْ مخزومُ بالأشعار، فانتشر لهم صيتٌ عظيم بها، واتفق لهم فيها ما لم يتفقْ لأحد، وذلك أنّه يُضرب بهم المثل في العِزّ والمَنَعة والجُود والشّرف.

وأوضَعُوا في كلّ غاية، فمن ذلك قول سيحان الجسري حليف بني أميّة في كلمةٍ له:

وحين يناغي الرَّكبُ موت هشام

فدلّ ذلك على أن ما تقوله مخزوم في التاريخ حق، وذلك أنّهم قالوا: كانت قريش وكنانة ومن والاهم من النّاس يؤرّخون بثلاثة أشياء: كانوا يقولون: كان ذلك زمنَ مَبنَى الكعبة، وكان ذلك من مجيء الفِيل، وكان ذلك عامَ ماتَ هشام بنُ المغيرة. كما كانت العرب تؤرّخ فتقول: كان ذلك زَمن الفِطَحِل، وكان ذلكَ زَمَن الحيّان، وكان ذلك زَمَن الحِجارة، وكان ذلك عامَ الحجّاف، والرُّواة تَجعَل ضرب المَثَل من أعظم المَفاخر، وأظهَرِ الدلائل. والشّعر - كما علمت - كما يَرفَع يَضَع، كما رَفَع من بني أنْف الناقة قول الحطَيئة:

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهُم ... ومن يسوِّي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا؟

وكما وَضَع من بني نُمَيرٍ قولُ جَرير:

فغُضَّ الطَّرفَ إنّك من نُمَيرٍ ... فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلاَبا

فلقيتْ نُمير من هذا البيت ما لقيتْ.

وجعلهم الشاعر مَثَلاً فيمن وَضَعه الهجاء، وهو يَهْجو قوماً من العرب:

وسوف يزيدُكمْ ضَعَةً هجائي ... كما وَضَع الهجاءُ بني نُمَيرِ

ونُمَيْر قَبِيلٌ شريف، وقد ثَلَم في شرفِهم هذا البيت.

وقال ابنُ غزالة الكِنديّ، وهو يَمدَح بني شَيْبان ولم يكن في موضع رَغْبة إلى بني مخزوم، ولا في موضع رَهْبة:

كأنّي إذ حطَطتُ الرحلَ فيهمْ ... بمكّةَ حين حَلَّ بها هشامُ

فضَرَب بهِشام المَثَل.

وقال رجلٌ من بني حزْم أحد بني سَلْمى، وهو يَمدَح حربَ بنَ معاوية الخفاجيّ وخفاجة من بني عُقَيل:

إلى حَزْن الحزونِ سَمتْ رِكابي ... بوابل خلفها عَسَلانُ جَيْشِ

فلمّا أن أنختُ إلى ذُراهُ ... أمِنتُ فَراشَني منه بريْشِ

توسّط بيتُه في آلِ كعبٍ ... كبيتِ بني مغيرة في قُرَيْش

فضَرَب المَثَل ببيتهم في قريش.

وقال عبد الرحمن بن حسّانَ لعبد الرحمن بن الحَكَم:

مارَسْتُ أكيَسَ من بني قَحطانِ ... صعبَ الذّرا متمنِّعَ الأركانِ

إنّي طمعتُ بفخرِ من لو رامَه ... آلُ المُغيرة أو بنو ذَكْوانِ

لملأتُها خيلاً تضبّ لثاتُها ... مثل الدّبَا وكواسِر العِقْبانِ

منهمْ هِشامٌ والوَليد وعِدلُهم ... وأبو أميّةَ مَفزَعُ الرُّكْبان

فضرب المثل بآل المغيرة.

وأمّا بنو ذَكوان فبنو بَدْر بن عمرو بن حويّة بن ذَكْوان أحد بني عديّ بن فَزَارة منهم حُذَيفة وحَمَل ورهْطُهما، وقال مالكُ بنُ نُوَيْرة:

ألم يَنْهَ عنّا فخرَ بكرِ بنِ وائلٍ ... هَزِيمَتُهم في كلّ يومٍ لِزامِ

فمنهنّ يومُ الشرّ أو يومُ مَنعِجٍ ... وبالجَزْعِ إذ قسّمن حيَّ عِصامِ

أحاديثُ شاعتْ في مَعَدٍّ وغيرِها ... وخبَّرها الركبانُ حَيّ هِشامِ

فجعل قريشاً كلَّها حيًّا لهشام.

وقال عبد الله بن ثور الخفاجيّ:

وأصبحَ بطنُ مَكّةَ مقشعِرًّا ... كأنّ الأرضَ ليس بها هِشامُ

وهذا مَثل وفوق المثل.

قالوا: وقال الخروف الكلبيّ - وقد مرّ به ناس من تجّار قريش يريدون الشام بادين قشفين -: ما لكم معاشرَ قريش هكذا أجدَبْتم أم ماتَ هشام، فجعل موت هشام بإزاءِ الجَدب والمحل، وفي هذا المعنى قال مُسافرُ بنُ أبي عمرو:

تقول لنا الرُّكبانُ في كلّ مَنزِلٍ: ... أماتَ هشامٌ أم أصابَكُمُ جَدْبُ؟

فجعل موتَ هشام وفَقْدَ الغَيث سواء.

وقال عبدُ الله بنُ سلَمة بن قشير:

دَعِيني أصطبِحْ يا بَكرُ إنّي ... رأيتُ الموتَ نَقّبَ عنْ هشامِ

وقال أبو الطَّمَحان القينيّ - أو أخوه:

وكانت قريشٌ لا تخون حريمَها ... من الخوفِ حتى ناهضتْ بهشامِ

وقال أبو بكر بن شعوب لقومِه كنانة:

يا قومَنا لا تهلوا إخفاتا ... إنّ هشامَ القرشيَّ ماتا

وقال خِداشُ بنُ زهير:

وقد كنتُ هَجّاءً لهمْ ثمّ كَفكَفوا ... نوافذَ قَولي بالهمامِ هِشامِ

وقال عليّ بن هَرْمة، عمّ إبراهيم بن هَرْمة:

ومن يَرتَئِي مدحِي فإنّ مدائحي ... نَوافقُ عند الأكرمين سَوامِ

نَوافِقُ عند المشترِي الحمدِ بالنَّدى ... نَفاقَ بناتِ الحارثِ بنِ هشامِ

وقال الشاعر وهو يهجو رجلاً:

أحَسِبْتَ أنّ أباك يوم تَسبُّنِي ... في المجد كان الحارثَ بنَ هِشامِ

أولَى قريشٍ بالمكارِم كلِّها ... في الجاهليّة كان والإسلامِ

وقال الأسود بنُ يعفُر النَّهشَلي:

إنّ الأكارمَ من قريش كلّها ... شهِدوا فرامُوا الأمر كلَّ مرَامِ

حتى إذا كَثُر التجادُل بينهمْ ... حزَم الأمورَ الحارثُ بن هِشامِ

وقال ثابت قطنة - أو كَعب الأشقريّ لمحمد بن الأشعث بن قيس:

أتـوعِـدنـي بـالأشـعـثـيّ ومـالِـكٍ وتَفخر جَهْلاً بالوَسط الطُّماطِمِ[1]!
كـأنـك بـالـبَـطـحـاء تـذمُـر حـارِثـاً وخـالـد سيف الـدّين بين المَـلاحِـم

وقال الخزاعيّ في كلمته التي يذكُر فيها أبا أُحَيْحة:

لـه سُـرَّة الـبَـطْـحـاء والـعـدّ والـثـرى ولا كَـهِـشـامِ الـخـيـر والـقـلـب مردِفُ

وسأل معاويةُ صعصعة بن صُوحان العبديّ عن قبائل قريش، فقال: إن قلنا: غضبتم، وإن سكَتْنا غضِبتم، فقال: أقسمتُ عليك، قال: فيمن يقولُ شاعرُكم:

وعَـشْـرَةٍ كـلّـهُـم سـيّـدٌ آبـاءُ سـاداتٍ وأبـنـاؤهـا
إن يُـسـألـوا يُـعـطُـوا وإن يُـعـدمـوا يـبـيَـضّ مـن مـكـة بَـطْـحـاؤهـا

وقال عبد الرحمن بن سَيْحان الْجَسْريّ حليف بني أميّة وهو يهجو عبد الله بن مطيع من بني عديّ:

حـرامٌ كـنّـتـي مِـنّـي بـسَـوْء وأذكـر صـاحِـبـي أبـداً بـذامِ
لـقـد أصـرمـتُ ودَّ بـنـي مُـطـيـعِ حـرام الـدهـر لـلـرجـل الـحـرامِ
وَإن خِـيـفَ الـزمـانُ مـددتُ حَـبْـلاً مَـتِـيـنـاً مـن حِـبـال بـنـي هِـشـامِ
وَريـقٌ عُـودُهـم أبـداً رطـيـبٌ إذا مـا اهـتـزّ عـيـدانُ الـكـرامِ

وقال أبو طالب بنُ عبد المطلب وهو يَفخَر بخاليه: هشام والوليد على أبي سُفيان بن حرب:

وخـالـي هـشـامُ بـنُ الـمـغـيـرة ثـاقـبٌ إذا هـمّ يـومـاً كـالـحُـسـامِ الـمـهـنَّـدِ
وخـالـي الـولـيـدُ الـعـدْلُ عـالٍ مـكـانُـه وخـالُ أبي سفيـان عـمْـرُو بـنُ مَـرْثَـدِ

وقال ابن الزِّبَعْرَى فيهم:

لـهـم مـشـيـةٌ لـيـسـتْ تَـلـيـقُ بـغـيـرهـمْ إذا الحَدَوْدَب المثرون في السَّنَة الجَذْب

وقال شاعر من بني هَوازِن، أحد بني أنف الناقة حين سَقَى إبله عبد الله بن أبي أمية المخزومي بعد أن مَنَعه الزِّبرقان بن بدر:

أتَـدري مَـن مـنـعـت سِـيـالَ حَـوْضٍ سـلـيـل خَـضـارِمٍ مـنـعـوا الـبِـطـاحـا
أزادَ الـركـب تـمـنـع أم هِـشـامـاً وذا الـرّمـحـيـن أمـنـعـهـمْ سِـلاحـا
هـمُ مَـنـعَـوا الأبـاطـح دون فِـهـرٍ ومَـن بـالـخَـيْـف والـبـلـد الـكـفـاحـا

(١) الطُّمَاطِم: هو الأعجم الذي لا يفصح. لسان العرب مادة (طمم).

بضربِ دونَ بيضهمُ طِلَخْفٍ إذا الملهوف لاذ بهم وَصاحا
وما تدري بأيّهمُ تُلاقي صدورَ المشرَفيّة والرّماحا

فقال عبد الله بن أبي أميّة مجيباً له:

لَعَمْري لأنت المرء يحسُن بادياً وتَحسُن عوداً شيمةً وتَصَنُّعا
عرفتَ لقوم مجدَهم وقديمَهُمْ وكنت لما أسديت أهلاً وموضِعا

قالوا: وكان الوليدُ بن المغيرة يجلس بذي المجاز فيحكم بين العرب أيّام عُكاظ وقد كان رجل من بني عامر بن لؤيّ رافق رجلاً من بني عبد مناف بن قصيّ، فجرى بينهما كلام في حبل، فعلاهُ بالعصا حتى قتله، فكاد دمه يُطَلُّ[1]، فقام دونه أبو طالب بن عبد المطلب وقدّمه إلى الوليد، فاستَحْلَفه خمسين يميناً أنه ما قتله، ففي ذلك يقول أبو طالب:

أمِنْ أجل حَبلٍ ذي رِمامٍ علوتَه بمنْسَأةٍ قد جاء حبلٌ وأحبُلُ
هلمَّ إلى حُكْم ابن صخرةَ إنّه سيحكم فيما بيننا ثمّ يعدِلُ

وقال أبو طالب أيضاً في كلمة له:

وحُكمك يُبقي الخير إنْ عَزّ أمرُه تَخمَّط واستَعْلى على الأضعف الفرْدِ[2]

وقال أبو طالب أيضاً يرثي أبا أميّة زاد الرَّكب وهو خالُه:

كأنّ على رَضْرَاضٍ قَصٌّ وجَنْدلٍ من اليبس أو تحتَ الفراشِ المجامر[3]
على خير حافٍ من مَعَدّ وناعِلٍ إذا الخيرُ يُرجى أو إذا الشرّ حاسِرُ
ألاَ إنَّ زادَ الركب غيرُ مدافع بِسَرْوِ سُحَيْم غيَّبته المقابرُ
تنادَوا بأن لا سيد اليوم فيهم وقد فُجع الحيان كعبٌ وعامر
وكان إذا يأتي من الشام قافِلاً تَقدّمه قبل الدّنو البشائرُ
فيصبح آل الله بيضاً ثيابهم وقِدْماً حَباهمْ والعيون كَواسرُ
أخو جَفْنةٍ لا تَبرَح الدهر عندنا مُجَعْجعة تَدمى وشاةٌ وباقِرُ
ضَرُوبٌ بنصْل السيفِ سوقَ سمانها إذا أرسلوا يوماً فإنك عاقِرُ
فيا لَك من راعٍ رُميت بآلة شراعية تَخضرّ منه الأظافرُ

وقال أبو طالب أيضاً يرثي خاله هشام بن المغيرة:

---

(١) يُطَلُّ: يُهْدَر. القاموس المحيط، مادة (طلل).

(٢) تَخمَّط: تَكَبَّر وغضب. القاموس المحيط، مادة (خمط).

(٣) الرَّضرَاض: الحصى أو صغارها. القاموس المحيط، مادة (رضض).

فقدْنا عميدَ الحيّ والركن خاشع كفَقْد أبي عُثمان والبَيتُ والحِجْر
وكان هشامُ بن المغيرةِ عِصمةً إذا عَرَك الناسَ المخاوفُ والفَقْرُ
بأبياته كانت أراملُ قومِه تلوذُ وأيتامُ العَشيرة والسَّفْرُ
فوَدّتْ قريشٌ لو فدَتْه بشَطْرِها وقَلَّ لَعمري لو فدَوْه له الشَّطْرُ
نقول لعَمرٍو أنتَ منه وإنّنا لَنَرجوك في جُلّ المُلِمّات يا عَمرو

عمرو هذا هو أبو جهل بن هشام، وأبو عثمان هو هشام.

وقالت ضُباعةُ بنتُ عامر بنِ سلمة بن قرط تَرثِيه:

إنّ أبا عثمانَ لم أنسَهُ وإنّ صَبْراً عن بُكاه لَحُوبْ(١)
تَفاقَدوا من معشرٍ ما لَهمْ أيّ ذَنوبٍ صُوِّبوا في القَليبْ

وقال حَسّان بنُ ثابت وهو يهجو أبا جَهْل، وكان يُكنَى أبا الحَكَم:

الناسُ كَنّوْه أبا حَكَمٍ والله كَنّاه أبا جَهْلِ
أبقتْ رِياستُه لأسْرَتِه لؤمَ الفُروع ودِقّة الأصل

فاعترف له بالرياسة والتقدّم.

وقال أبو عُبَيد مَعمَر بنُ المثنّى: لمّا تَنافَرَ عامرُ بن الطُّفيل وعَلْقمةُ بنُ عُلاثة إلى هَرِم بن قُطْبة وتَوارَى عنهما، أرسَل إليهما: عليكما بالفتى الحديث السّنّ، الحديدِ الذِّهن، فصارا إلى أبي جَهْل، فقال له ابنُ الزِّبَعْرَى:

فلا تَحكُمْ فِداك أبي وخالِي وكن كالمرءِ حاكِم آل عَمْرِو

فأبَى أن يَحكُم، فرَجَعا إلى هَرِم.

وقال عبدُ الله بنُ ثَور:

هَرِيقا من دُموعِكُما سِجاما ضُباع وحارِيي نَوْحاً قِياما
فمَن للرَّكْب إذ جاؤوا طُروقاً وغُلِّقَتِ البيوتُ فلا هِشاما

وقال أيضاً في كلمةٍ له:

وما ولَدت نساءُ بني نِزارٍ ولا رَشَّحْنَ أكرمَ مِنْ هِشامِ
هشامِ بن المُغيرةِ خيرِ فهْرٍ وأفضلِ من سقى صَوْبَ الغَمام

وقال عُمارة بنُ أبي طَرَفة الهُذَليّ، سمعتُ ابنَ جُرَيج يقول في كلام له: هَلَك سيّد البَطْحاء بالرعاف، قلت: ومن سيّد البَطْحاء؟ قال: هشامُ بنُ المغيرة.

---

(١) الحوب: الإثم والحوب الظلم اللسان، مادة (حوب).

وقال النبيّ ﷺ: «لو دخل أحدٌ من مُشركي قريشٍ الجَنّة لدَخلها هشامُ بنُ المغيرة، كان أبذَلَهم للمعروف، وأحمَلَهم للكَلّ»(١).

وقال عُمرُ بنُ الخطّاب، لا قليلٌ في الله، ولا كثيرٌ في غير الله. ولو بالخُلق الجَزْل والفَعال الدَّثْر، تُنال المَثوبة لَنالَها هشامُ بنُ المغيرة، ولكن بتوحيد الله، والجهاد في سبيله.

وقال خِداشُ بنُ زُهَير في يوم شَمَطة، وهو أحدُ أيّام الفِجار، وهو عدوّ قريش وخَصْمُها:

وبَلِّـغْ إن بَلَـغْـتَ بـنـا هِـشـامـا ... وذا الـرُّمْـحـيـن بـلِّـغ والـوَلـيـدا

أولٰـئـك إن يـكـنْ فـي الـنـاسِ جُـودٌ ... فـإنّ لـديـهـمُ حَـسَـبـاً وَجـودا

هـمُ خـيـرُ الـمـعَـاشـرِ مـن قـريـشٍ ... وأوْراهـا إذا قَـدَحـوا زُنـودا

وقال أيضاً وذَكَرَهما في تلك الحروب:

يـا شُـدَّةً مـا شَـدَدْنـا غـيـرَ كـاذبـةٍ ... عـلـى سَخِـيـنـةَ لـولا الـلّـيـلُ والـحَـرَمُ

إذا ثـقِـفْـنـا هِـشـامـاً بـالـوَلـيـد ولـو ... أنّـا ثـقَـفْـنـا هِـشـامـاً شـالَـت الـجـذَم

وذكَرَهمُ ابنُ الزِّبَعْرَى في تلك الحروب فقال:

ألا لله قـــــــــومٌ وَ ... لـــدتْ أخـــتُ بَـــنِـــي سَـــهْـــمِ

هِـــشـــامٌ وأبـــو عـــبـــدِ ... مـــنـــافٍ مِـــدْرَه الـــخَـــصْـــمِ

وذو الـــرمـــحـــيـــن أشـــبـــاك ... مـــن الـــقـــوّة والـــحَـــزْمِ

فـــهـــذانِ يَـــذُودانِ ... وذا عَـــنْ كَـــثَـــبٍ يَـــرْمـــي

وهـــمْ يـــومَ عُـــكـــاظِ مَـــ ... ـنَـعُـوا الـنـاسَ مـن الـهَـزْمِ

بجأواء طَحُونٍ فَخمةِ القَوْنَسِ كالنَّجْمِ

أُســـودٌ تَـــزدَهـــي الأقـــرا ... ن مَـــنّـــاعُـــون لـــلـــهَـــضْـــمِ

فـــإنْ أحـــلِـــفْ وبـــيـــتِ الـــلّـــ ... ـهِ لا أحـــلِـــفْ عـــلـــى إثـــمِ

ومـــا مـــن إخـــوةٍ بـــيـــن ... دروبِ الـــشـــامِ والـــرِدْمِ

بـــأزكـــى مـــن بـــنـــي رَيْـــطـــ ... ـةَ أو أرْزَن مـــن حِـــلْـــمِ

رَيْطة، هي أمّ وَلَد المغيرة، وهي رَيْطة بنتُ سعيد بن سَهْم بنَ عَمْرو بن هصيص بن كَعْب، وأبو عبد مناف هو أبو أُميّة بن المُغيرة، ويُعرَف بزاد الرَّكْب، واسمُه حُذَيفة، وإنّما قيل له: زادُ الرَّكْب لأنّه كان إذا خرج مسافراً لم يتزوَّدْ معه أحدٌ، وكانت عندَه عاتكةُ بنتُ عبدِ المطّلب بنِ هشام، وأمّا ذو الرُّمْحين فهو أبو ربيعةَ بن المغيرة واسمُه عَمرو، وكان المُغيرةُ يُكنَى باسم ابنِه الأكبر، وهو هاشم، ولم يُعقِب إلاّ مِن حَنْتَمة ابنته، وهي أمّ عُمَر بنِ الخَطّاب.

---

(١) الكَلُّ: اليتيم، والعيال، والمصيبة تحدث. القاموس المحيط، مادة (كلل).

وقال ابنُ الزِّبَعْرَى يَمدَح أبا جَهْل:

رُبَّ نَديمٍ ماجدِ الأصلِ … مهذَّبِ الأعراق والنَّجلِ
منهمْ أبو عبدِ منافٍ وكم … سربت بالضُّخم على العَذْلِ
عَمْرو النَّدى ذاكَ وأشياعهُ … ما شئتَ مِن قولٍ ومِن فِعلِ

وقال الوَرْد بن خلاس السَّهْمِيّ: سَهْم باهلةَ يَمدَح الوليد:

إذا كنت في حَيّ جَذِيمةَ ثاوياً … فعنْد عظيم القَرْيَتين وليدُ
فذاكَ وحيدُ الرّأي مشترك النّدَى … وعِصْمة مَلْهوف الجَنان عَميدُ

وقال أيضاً:

إنّ الوَلِيدَين والأبناءَ ضاحية … رَبَّا تِهامةَ في المَيْسور والعُسْرِ
همُ الغِياثُ وبعضُ القومِ قِرْقمةٌ … عِزّ الذّليل وغيظُ الحاسدِ الوَغِرِ

وقال:

ورهْطُكَ يابنَ الغَيْثِ أكرمُ مَحتِد … وأمنَع للجارِ اللَّهيفِ المُهضَّم

قالوا: الغيثُ لَقَب المُغيرة، وجعلَ الوليدَ وأخاه هِشاماً رَبَّيْ تِهامةَ كما قال لَبِيدُ بنُ ربيعة في حُذَيفة بن بَدْر:

وَأَهْلَكْنَ يوماً رَبَّ كِنْدة وابنَه … وربّ معدٍّ بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ

فجعله رَبَّ مَعَدّ.

قالوا: يدلّ على قَدْر مخزوم ما رأيْنا من تعظيم القرآن لشأنِهم دونَ غيرهم من سائرِ قريش، قال الله تعالى مُخبِراً عن العرب: إنّهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] فأحدُ الرّجلين العظيمين بلا شك الوليدُ بنُ المُغيرة، والآخَر مختلَفٌ فيه، أهو عُرْوَة بنُ مسعود، أم جدُّ المُختار بنِ أبي عُبَيد.

وقال سبحانه في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا...﴾[2] الآيات.

قالوا: وفي الوليد نزلتْ: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾[3].

وفي أبي جَهْل نزلتْ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[4].

وفيه نزلتْ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾[5].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٢) سورة المدثر، الآيات: ١١، ١٣.
(٣) سورة عبس، الآيتان: ٥، ٦.
(٤) سورة الدخان، الآية: ٤٩.
(٥) سورة العلق، الآية: ١٧.

وفي مخزوم: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾(١).

وفيهم نزلت: ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(٢).

وزعم اليقطريّ أبو اليقظان وأبو الحَسَن أنّ الحجّاج سأل أعشى هَمْدانَ عن بيُوتات قريش في الجاهليّة، فقال: إنّي قد آلَيْتُ ألاّ أنفر أحداً على أحد، ولكن أقول وتَسْمَعون، قالوا: فقُلْ. قال: من أيّهم المحبَّب في أهلِه، المؤرَّخ بذِكْره، مُحَلِّي الكَعْبة، وضارِبُ القُبَّة، والملقَّب بالخير، وصاحبُ الخير والمَيْر؟ قالو: مِن بني مخزوم، قال: فمن أيّهم ضجيعُ بَسْباسة، والمَنْحور عنه ألف نَاقة، وزادُ الركب، ومبيِّض البَطْحاء؟ قالوا: مِنْ بني مخزوم، قال: فمِنْ أيّهم كان المقنعُ في حُكْمِه، والمنفّذ وصيّته على تهكّمه، وعدل الجميع في الرِّفادة، وأوّل من وَضَع أساسَ الكَعْبةِ؟ قالوا مِن بني مخزوم، قال: فمِن أيّهم صاحب الأرِيكة، ومُطعِم الخَزيرة، قالوا من بني مخزوم، قال فمِن أيّهم الإخوة العَشَرة، الكرام البَرَرة؟ قالوا من بني مخزوم، قال: فهو ذاك، فقال رجلٌ من بني أميّة، أيّها الأمير، لو كان لهم مع قديمهم حديث إسلام! فقال الحجّاج: أوَ ما علمت بأنّ منهم ردّاد الرِّدّة، وقاتل مُسَيْلِمة، وآسِر طُلَيحة، والمُدرِك بالطائلة، مع الفتوح العِظام والأيادِي الجِسام! فهذا آخرُ ما ذكَره أبو عثمان.

ويُمكِن أن يُزاد عليه فيقال: قالتْ مخزوم ما أنصَفَنا من اقتَصَر في ذكْرِنا على أن قال: مخزوم ريحانةُ قُرَيش، تحبّ حديثَ رجالِهم، والنكاحَ في نسائهم، ولنا في الجاهليّة والإسلام أثر عظيم، ورجالٌ كثيرة، ورؤساءُ شهيرة، فمِنّا المغيرةُ بنُ عبد الله بن عمْرو بنِ مخزوم، كان سيّدَ قريش في الجاهليّة، وهو الذي مَنَع فزارةَ من الحَجّ لما عيّر خشين بن لأي الفَزارِيّ، ثم الشَّمخِي قوماً من قريش أنّهم يأخذُون ما يَنحره العَرب من الإبل في المَوْسم، فقال خشين لمّا منع من الحجّ:

يـا رَبِّ هـل عـنـدَك مـن عَـقِـيـرهْ ... أُصـلِـحُ مـالـي وَأدَعْ تـنـحـيـرَهْ

فـإنَّ مـنّـا مـانـع الـمـغـيـرهْ ... ومـانـعـاً بـعـد مـنـي بـشـيَـرهْ

ومـانـعـاً بَـيْـتَـك أنْ أزورَهُ

منّا بنو المغيرة العشرة أمُّهم رَيْطة، وقد تقدّم ذكرُ نسبِها، وأمُّها عاتكةُ بنتُ عبدِ العُزّى بن قُصَيّ، وأمُّها الحُظَيّا بنت كَعْب بن سعد بن تيم بنِ مُرّة، أوّل امرأة من قريش ضَربتْ قِبابَ الأدَم بذي المَجاز، ولها يقول الشاعر:

مَـضَـى بـالـصـالـحـاتِ بـنـو الـحُـظَـيّـا ... وكـان بـسَـيْـفـهـم يَـغْـنَـى الـفـقـيـرُ

فمِن هؤلاء - أعني الحُظَيّا - الوليدُ بنُ المغيرة أمّه صَخْرة بنتُ الحارث بنِ عبد الله بن عبدِ

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١١. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

شمس القُشَيريّ، كان أبو طالب بنُ عبد المطلب يَفتِخر بأنَّه خاله، وكفاكَ من رجل يَفتِخر أبو طالب بخؤولته! ألا تَرَى إلى قولِ أبي طالب:

وخالِي الوليد قد عرفتمْ مَكانَه ... وخالي أبو العاصِي إياسُ بنُ مَعبدِ

ومنهم حفصُ بنُ المغيرة، وكان شريفاً. وعثمان بنُ المغيرة. وكان شريفاً. ومنهم السيّد المُطاع هشامُ بنُ المغيرة، وكان سيّدَ قريش غيرَ مُدافَع، له يقول أبو بكر بنُ الأسْود بن شعوب يرثيه:

ذَرِيني أصطبِحْ يا بَكر إنّي ... رأيتُ الموتَ نقَّبَ عن هِشامِ

تَخيَّرَه ولم يَعدِل سواهُ ... ونِعم المرءُ بالبَلدِ الحَرام!

وكنتُ إذا الاقِيه كأنّي ... إلى حَرَمٍ وفي شهرٍ حَرامِ

فوَدَّ بنو المُغيرةِ لو فَدَوْه ... بألفِ مُقاتِلٍ وبألفِ رامِ

ووَدَّ بنو المغيرة لو فَدَوْه ... بألفٍ من رجالٍ أو سَوامِ

فبَكِّيه ضُباعُ ولا تَمَلِّي ... هِشاماً إنَّهُ غَيثُ الأنامِ

ويقول له الحارث بن أُميّة الضَّمْرِيّ:

ألاَ هلك القَنّاصُ والحامِلُ الثِّقلا ... ومن لا يَضَنّ عن عشيرتِه فَضلا

وحَرْبٍ أبا عثمانَ أطفأت نارَها ... ولولا هِشامٌ أوقَدَتْ حَطَبا جَزْلا

وعانٍ تَريكٍ يستكِين لِعِلَّةٍ ... فكَكْتَ أبا عثمانَ عن يَدِه الغُلاّ

ألا لَسْتَ كالهلْكى فتُبكَى بكاءَهم ... ولكنْ أرى الهُلاّكَ في جَنْبه وَغْلا

غداة غدتْ تبكي ضباعةُ غَيثَنا ... هِشاماً وقد أغلتْ بمَهلِكِه ضَحْلا

ألم تَرَيَا أنّ الأمانَة أصعدَتْ ... مع النَّعش إذْ وَلَّى وكان لها أهْلا!

وقال أيضاً يبكيه ويَرْثيه:

وأصبحَ بطنُ مَكّة مقشعِرًّا ... شديدَ المَحْل ليس به هِشامُ

يَرُوح كأنّه أشلاء سَوْطٍ ... وفوقَ جِفانِه شَحْمٌ رُكامُ

فلِلْكُبراء أكْلٌ كيف شاؤوا ... ولِلوِلْدان لَقْمٌ واغتِنامُ

فبَكّيهِ ضُباعُ ولا تَمَلّيّ ... ثِمالَ الناس إن قَحَط الغَمامُ

وإنّ بني المُغيرة من قُرَيش ... هم الرأسُ المقدَّم والسَّنامُ

وضُباعة التي تذكرها الشعراء زوجةُ هِشام، وهي من بني قُشَيرة.

قال الزبيرُ بنُ بَكّار: فلما قال الحارث: «ألا لستَ كالهَلْكى....» البيت، عَظُم ذلك على

بني عبد مناف فأغرَوْا به حكيَم بن أميّة بن حارثة بن الأوْقَص السُّلميّ حليفَ بني عبدِ شمس، وكانت قريشٌ رضيتْ به واستعملته على سِقَائها، ففرّ منه الحارث، وقال:

أفِـرُّ مـن الأبـاطِـحِ كـلّ يـوم ... مـخـافَـةَ أن يـنـكِّـل بـي حَـكـيـمُ

فهدم حكيمٌ دارَه، فأعطاه بنو هشام دارَه التي بأجْياد عِوَضاً منها.

وقال عبد الله بنُ ثور البكّائيّ يرثيه:

هَـرِيـقـي مـن دمـوعـهـمـا سِـجـامـاً ... ضـبـاعُ وجـاويـي نَـوْحـاً قـيـامـا

عـلـى خـيـر الـبـريّـة لـن تـراه ... ولـن تـلـقـى مَـواهـبَـه الـعِـظـامـا

جَـوادٌ مـثـل سَـيْـل الـغَـيْـث يـومـاً ... إذا عـلـجَـانُـه يـعـلـو الإكـامـا

إذا مـا كـان عـامٌ ذو عُـرام ... حـسـبـتُ قُـدورَه جَـبـلاً صِـيـامـا

فـمـن لـلـرَّكْـب إذ أمسَـوْا طُـروقـاً ... وغُـلِّـقـتِ الـبـيـوتُ فـلا هِـشـامـا

وأوْحَـش بـطـنُ مَـكـة بـعـدَ أُنْـسٍ ... ومـجـد كـان فـيـهـا قـد أقـامـا

فـلـم أرَ مِـثـلـه فـي أهـل نَـجْـدٍ ... ولا فـيـمـن بـغَـوْرِكِ يـا تِـهَـامـا

قال الزبير: وكان فارس قريش في الجاهلية هشامُ بنُ المغيرة، وأبو لَبيد بن عَبْدة بن حَجْرة بن عبد بن مَعِيض بن عامر بن لؤيّ، وكان يقال لهشام: فارس البَطْحاء، فلمّا هَلكا كان فارِسَيْ قريشٍ بعدهما عمرو بن عبد العامريّ المقتول يوم الخَنْدق، وضرارُ بنُ الخَطّاب المحاربيّ الفِهْرِي، ثمّ هُبَيرة بن أبي وهب وعِكْرمة بن أبي جهل المخزوميّان. قالوا: وكان عامَ ماتَ هشامٌ تاريخاً، كعامِ الفيل، وعام الفِجار، وعامُ بُنْيان الكعبة. وكان هشام رئيسَ بني مخزوم يومَ الفِجار.

قالوا: ومنّا أبو جهل بن هشام، واسمه عَمرو، وكنْيته أبو الحكم، وإنّما كناه «أبا جهل» رسول الله ﷺ، كان سيّداً أدخلته قريش دار النَّدْوة فسوّدَتْه وأجلسَتْه فوق الجِلّة من شُيوخ قُرَيش، وهو غلام لم يطرّ شارِبُه، وهو أحد من سادَ على الصِّبا. والحارث بن هشام أخو أبي جَهل كان شريفاً مذكوراً، وله يقول كعْب بن الأشرف اليهودي الطائيّ:

نُـبِّـئـتُ أنّ الـحـارث بـنِ هِـشـامٍ ... في الناس يبني المكرماتِ ويجمَعُ

لـيـزورَ يَـثـرِب بـالـجـمـوعِ وإنـمـا ... يبني على الحسب القديم الأرْوَعُ

وهو الذي هاجَرَ من مكة إلى الشام بأهله وماله في خلافة عمرَ بن الخطاب، فتبعه أهلُ مكةَ يبْكون، فرقّ وَبَكى وقال: إنّا لو كنّا نستبدِل داراً بدار، وجاراً بجار، ما أردْنا بكم بدلاً، ولكنها النُّقْلة إلى الله عزّ وجلّ، فلم يزل حابساً نفسه ومن مَعه بالشام مُجاهداً حتى مات.

قال الزُّبير: جاء الحارثُ بنُ هشام وسُهَيلُ بنُ عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما، فجعل المهاجرون الأوّلون والأنصار يأتون عمرَ فيُنَحِّيهما ويقول: هاهنا يا سُهَيل، هاهنا يا حارث! حتى صارا في آخر الناس، فقال الحارث لسُهيل: ألم تر ما صنَع بنا عمر اليوم! فقال سُهيل: أيّها الرجل، إنه لا لَوْم عليه، ينبغي أن نرجع باللَّوْم على أنفسنا، دُعِيَ القومُ ودُعينا، فأسرَعوا وأبطأنا. فلما قاما من عند عمرَ أتَياه في غدٍ فقالا له: قد رأينا ما صنعتَ بالأمس، وعلِمْنا أنا أتينا من أنفسِنا فهل من شيءٍ نَستدرك به؟ فقال: لا أعلم إلاّ هذا الوجه - وأشار لهما إلى ثغر الرّوم فخرجا إلى الشام، فجاهدا بها حتى ماتا.

قالوا: ومنّا عبدُ الرحمن بنُ الحارث بن هشام، أمّه فاطمةُ بنتُ الوَليد بنِ المُغيرة، وكان شريفاً سيّداً، وهو الّذي قال لمعاوية لمّا قُتِل حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه: أين عَزَب مِنكَ حِلْمُ أبي سُفْيان، ألا حبَسْتَهم في السّجون، وعرَّضْتَهم للطاعون! فقال حين غاب عنّي مثلك من قومي. وعبد الرحمن بنُ الحارثِ بن هشام هو الّذي رَغِب فيه عثمانُ بنُ عَفّان وهو خليفة فزوَّجه ابنَته.

قالوا: ومنّا أبو بكر بنُ عبدِ الرحمن بن الحارِث بن هِشام، كان سيّداً جَوَاداً وفقيهاً عالماً، وهو الّذي قَدِم عليه بنو أسَد بن خزيمة يسألونه في دِماءٍ كانت بينهم، فاحتَمَل عنهم أربعَمائة بعير دِية أربعةٍ مِنَ القَتْلى، ولم يكن بيَدِه مال، فقال لابنه عبدِ الله بن أبي بكر: اذْهَب إلى عمّك المغيرة بن عبد الرحمن فاسأله المعونة، فذَهَب عبد الله إلى عمّه فذَكَر له ذلك، فقال المغيرة: لقد أكبر علينا أبوك، فانْصَرَف عنه عبدُ الله وأقام أيّاماً لا يَذكُر لأبيه شيئاً، وكان يَقُودُ أباه إلى المسجد وقد ذَهَب بصرُه، فقال له أبوه يوماً: أذَهَبْتَ إلى عمّك؟ قال: نعم، وسكَت، فعرَف حين سَكَت أنّه لن يجد عند عمّه ما يُحِبّ. فقال له: يا بُنَيّ ألا تُخبِرني ما قال لك؟ قال: أيفعل أبو هاشم - وكانت كُنْية المُغيرة - فربّما فَعَل، ولكن اُغدُ غَداً إلى السّوق فخُذْ لي عِينَةً، فغدا عبد الله فتعيّن عينة من السّوق لأبيه وباعَها، فأقام أيّاماً لا يبيع أحد في السّوق طعاماً ولا زَيْتاً غير عبد الله بنِ أبي بكر من تلك العِينة، فلمّا فرغ أمَرَه أبوه أن يدفَعَها إلى الأسَدِيّين فدَفَعها إليهم.

وكان أبو بكر خَصيصاً بعبدِ الملك بن مَرْوان، وقال عبدُ الملك لابنِه الوَليد لمّا حضرتْه الوفاة: إنّ لي بالمدينة صَديقَين فاحفَظْني فيهما: عبدُ الله بنُ جعفر بن أبي طالب وأبو بكر بنُ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

وكان يقال: ثلاثة أبيات من قريش توالَتْ بالشّرف خَمْسة خَمْسة، وعدّوا منها أبا بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث بنِ هشام بنِ المغيرة.

قالوا: ومنّا المغيرةُ بن عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام، كان أجوَدَ الناس بالمال، وأطعَمَهم للطّعام، وكانت عَيْنُه أصيبتْ مع مَسلَمة بن عبد المَلِك في غَزْوة الروم، وكان المُغيرةُ يَنحَر الجَزور، ويُطعِم الطّعام حيث نزل، ولا يردّ أحداً فجاء قومٌ من الأعراب فجلسوا على

طعامه، فجعل أحدُهم يُحِدّ النظَر إليه، فقال له المغيرة: ما لَكَ تُحِد النَّظر إليّ! قال: إنّي ليَريبني عينُك وسَماحُك بالطعام، قال: وممّ ارْتَبْتَ؟ قال: أظنّك الدّجّال، لأنّا روينا أنّه أعوَر، وأنّه أطعَمُ الناسِ للطّعام، فقال المغيرة: وَيْحَك! إنّ الدجّال لا تُصابُ عينُه في سبيل الله.

وللمغيرة يقول الأقَيْشر الأسَديّ لمّا قَدِم الكوفة فنَحَر الجزرَ وبَسَط الأنْطاع وأطعَم الناس، وصارَ صِيتُه في العَرَب:

أتـاك الـبَـحْـرُ طَـمَّ عـلـى قـريـشٍ مُـعـيْـرتـي فـقـد راعَ ابـنَ بِـشـرِ
وراعَ الـجِـذْي جَـذْي الـتَّـيْـم لـمّـا رأى الـمـعـروفَ مـنـه غـيـرَ نَـزْرِ
ومـن أوتـارِ عُـقْـبـة قـد شَـفَـانـي ورهـط الـحـاطـبـيّ ورَهْـط صَـخْـرِ
فـلا يـغـرُرْكِ حُـسـنُ الـزّيّ مـنـهـمْ ولا سـرح بـبـزْيـونٍ ونـمـرِ

فابن بِشْر، عبدُ الله بنُ بِشْر بن مروان بنِ الحَكَم، وجَذْي التَّيْم: حمّاد بن عمران بن موسى بن طلحة بن عُبَيد الله، وأوْتار عُقْبة يعني أولاد عُقْبَة بن أبي مُعَيط، والحاطبيّ لُقْمان بنُ محمد بن حاطب الجُمَحيّ، ورهط صَخْر: بنو أبي سُفْيان بن حَرْب بنِ أميّة، وكلّ هؤلاء كانوا مشهورين بالكوفة، فلمّا قدمَها المغيرة أخملَ ذكرَهم، والمغيرة هذا هو الّذي بَلَغه أنّ سُلَيم بنَ أفلح مولى أبي أيّوب الأنصاريّ أراد أن يبيع المنزلَ الّذي نزل فيه رسول الله ﷺ مَقدَمَه المدينة على أبي أيّوب بخمسمائة دينار، فأرسَل إليه ألف دينار، وسأله أن يبيعه إيّاه، فباعَه، فلمّا ملَكه جعلَه صدقةً في يومه.

قال الزبير: وكان يزيدُ بنُ المغيرة بنِ عبد الرحمنِ يطافُ به بالكوفة على العِجْل، وكان يَنحَر في كلّ يوم جَزوراً، وفي كلّ جمعة جَزورَين. ورأى يوماً إحدَى جَفَناتِه[1] مُكلّلة بالسَّنام تكليلاً حَسَناً. فأعجبَه، فسَأل فقال: من كَلَّلَها؟ قيل: الْيَسَع ابنك، فسُرَّ، وأعطاه ستّين ديناراً.

ومرّ إبراهيم بن هشام على بُرْدةِ المغيرة وقد أشرقتْ على الجَفْنة، فقال لعبدٍ من عبيد المغيرة: يا غلام، على أيّ شيء نصبتَم هذا الثريدَ على العمد؟ قال: لا، ولكن على أعضاد الإبل، فبلغ ذلك المغيرة، فأعتق ذلك الغلام.

والمغيرة هو الذي مرّ بحَرّة الأعراب فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا هاشم، قد فاضَ معروفُك على الناس، فما بالُنا أشقى الخلْق بك! قال: إنه لا مالَ معي، ولكن خذوا هذا الغلام فهو لكم، فأخذوه، فبكى الغلامُ فقال: يا مَوْلاي، خدمتي وحُرمتي! فقال: أتبيعوني إيّاه؟ قالوا: نعم، فاشتراه منهم بمالٍ ثم أعتقه، وقال له: والله لا أعرِّضك لمثلها أبداً، اذهبْ فأنتَ حرّ، فلما عاد إلى الكوفة حمل ذلك المال إليهم.

---

(١) الجَفَنات: مفردها جَفْنَة وهي كالقصعة، أو أعظم ما يكون من القصاع. لسان العرب، مادة (جفن).

وكان المغيرة يأمر بالسكّر والجَوْز فيدقّان ويُطعِمُهما أصحاب الصُفّة المساكين، ويقول: إنهم يشتَهون كما يَشتهي غيرهم ولا يمكنهم، فخرج المغيرةُ في سفرٍ ومعه جماعةٌ فوَرَدوا غديراً ليس لهم ماءٌ غيره - وكان ملحاً - فأمر بِقرب العَسَل فشقّت في الغدير وخيضت[1] بمائه، فما شَرِب أحدٌ منهم حتى راحوا إلاّ من قرب المغيرة.

وذكَر الزبيرُ أنّ ابناً لِهشَام بن عبد الملك كان يسوم المُغيرة ماله بالمكان المسمّى بديعاً، فلا يبيعه، فَغَزا ابن هشام أرض الروم ومعه المغيرة، فأصابت الناسَ مجاعة في غَزاتهم، فجاء المغيرة إلى ابن هشام فقال: إنك كنت تَسومُني مالي ببديع، فأبى أن أبيعكه، فاشترِ الآن منّي نِصفَه بعشرين ألف دينار. فأطعم المغيرةُ بها الناس، فلما رجع ابنُ هشام بالناس من غزوته تلك وقد بلغ هشاماً الخبرُ قال لابنه: قبّح الله رأيك أنت أمير الجيش، وابن أمير المؤمنين، يصيبُ الناس معك مجاعة فلا تُطعمهم حتى يبيعك رجل سُوقة ماله، ويطعم به الناس! وَيْحَك أخشيتَ أن تفتقر إن أطعمتَ الناس!

قالوا: ولنا عِكْرمة بن أبي جهل الذي قام له رسول الله ﷺ قائماً، وهو بَعدُ مُشرِك لم يُسلِم ولم يَقُم رسول الله ﷺ لرَجُلٍ داخِلٍ عليه من الناس شريفٍ ولا مشرّفٍ، إلاّ عكرمةَ، وعكرمة هو الذي اجتهد في نُصْرة الإسلام بعدَ أن كان شديد العداوة، وهو الذي سأله أبو بكر أن يقبل منه معونةً على الجهاد فأبى، وقال: لا آخذ على الجهاد أجراً ولا معونة، وهو الشهيد يوم أجْنَادين، وهو الذي قال رسول الله ﷺ: «لا تسألني اليومَ شيئاً إلا أعطيتُك»، فقال: فإني أسألك أن تستغفرَ لي، ولم يسأل غيرَ ذلك، وكلّ قريش غيره سألوا المالَ، كسُهَيْل بن عمرو وصَفْوان بن أميّة وغيرهما.

قالوا: ولنا الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة، كان شاعراً مجيداً مُكثراً، وكان أميرَ مكة استعمَله عليها يزيدُ بنُ معاوية.

ومن شِعره:

مَن كان يَسألُ عنّا أينَ منزِلُنا ... فالأُقحُوانةُ منّا منزِلٌ قَمِن

إذْ نَلبَس العيْشَ غَضّاً لا يُكدِّرُه ... قربُ الوُشاة ولا يَنْبو بنا الزَّمنُ

وأخوه عِكرمة بنُ خالد كان من وجوهِ قريش، ورَوَى الحديث، ورُوي عنه.

ومن ولد خالدِ بنِ العاص بن هشام بن المغيرة خالد بن إسماعيل بن عبد الرحمن، كان جَواداً مِتْلافاً، وفيه قال الشاعر:

لَعَمْرُك إن المجدَ ما عاشَ خالدٌ ... على الغُمْر من ذي كبدة لمُقيمُ

(١) خِيضَت: خُلِطَت. القاموس المحيط، مادة (خوض).

وتَندَى البِطاحُ البيضُ من جُود خالد ويُخْصِبن حتى نبتهنّ عميمُ

قالوا: ولنا الأوْقص، وهو محمد بنُ عبد الرحمن بن هشام بن المغيرة، كان قاضي مكة، وكان فقيهاً.

قالوا: ومن قُدَماء المسلمين عبدُ الله بن أمية بن المغيرة أخو أمّ سلمة زوج رسول الله ﷺ، كان شديدَ الخلاف على المسلمين، ثم خرج مهاجراً، وشَهد فتح مَكة وحُنين، وقُتِل يومَ الطائف شهيداً.

والوليدُ بنُ أمية، غيَّر رسول الله ﷺ اسمه، فسمَّاه المهاجر، وكان من صُلحاء المسلمين.

قالوا: ومنا زُهيرُ بن أبي أميّة بن المغيرة، ويُجَيْر بن أبي ربيعة بن المغيرة، غيَّر رسول الله ﷺ اسمه، فسماه عبد الله، كانا من أشراف قريش، وعباس بن أبي ربيعة، كان شريفاً.

قالوا: ومنّا الحارثُ القُباع، وهو الحارث بنُ عبد الله بن أبي ربيعة، كان أميرَ البَصْرة، وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر، المشهور ذي الغَزَل والتشبيب.

قالوا: ومن ولدِ الحارث بنِ عبد الله بن أبي ربيعة الفقيه المشهور، وهو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث، كان فقيهَ المدينة بعد مالك بن أنس، وعَرَض عليه الرشيدُ جائزةَ أربعة آلاف دينار، فامتَنَع ولم يتقلّد له القضاء.

قالوا: ومَن يعدّ ما تعدّه مخزوم ولها خالد بن الوليد بن المغيرة سيف الله! كان مُباركاً، ميمونَ النَقيبة شُجاعاً، وكان إليه أعِنّة الخيل على عهد رسول الله ﷺ، وشهد معه فتحَ مَكّة، وجُرِح يوم حُنَين، فنَفَث رسول الله ﷺ على جُرْحه فبَرَأ، وهو الذي قَتل مُسَيْلمة وأسَر طُلَيحة وَمهَّد خِلافة أبي بكر، وقال يوم موته: لقد شهدتُ كذا وكذا زَحْفاً، وما في جَسَدي موضعُ إصْبَع إلاّ وفيه طعنة أو ضربة، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العيْر، فلا نامت أعيُنُ الجُبناء! ومرّ عمرُ بن الخطاب على دُور بني مخزوم والنساء يندُبن خالداً، وقد وصلَ خبرهُ إليهم وكان مات بحِمْص، فوقف وقال: ما على النساء أن يندُبن أبا سليمان، وهل تقوم حُرّة عن مِثلِه! ثم أنشد:

أتبكي ما وصلتَ به النَّدامى ولا تَبكي فوارس كالجبالِ
أولئك إنْ بكيت أشدّ فَقْداً من الأنعام والعَكَر الحلالِ
تَمنَّى بعدَهمْ قومٌ مَداهُمْ فما بَلَغوا لِغايات الكمالِ

وكان عمرُو مُبغِضاً لخالد، ومنحرفاً عنه، ولم يمنعه ذلك من أن صدق فيه.

قالوا: ومنا الوليد بن الوليد بن المغيرة، كان رجلَ صِدْق من صُلَحاء المسلمين.

ومنّا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان عظيم القَدْر في أهل الشام، وخاف معاوية منه أن يَثِب على الخلافة بعدَهم، فسمَّه، أمر طبيباً له يُدعى ابن أثال فسقاه فقتله.

وخالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد قاتل ابن أثال بعَمّه عبدِ الرحمن والمخالف على بني أمية، والمنقطع إلى بني هاشم، وإسماعيل بن هشام بن الوليد كان أمير المدينة. وإبراهيم ومحمد ابنا هشام بن عبد الملك. وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد، وكان من رجال قريش، ومن ولدِه هشام بنُ إسماعيل بن أيوب وسلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد، ولي شُرْطة المدينة.

قالوا: ومن ولد حَفْص بن المغيرة عبدُ الله بن أبي عمر بن حفص بن المغيرة، هو أوّل خَلْق الله حاجَّ يزيد بن معاوية.

قالوا: ولنا الأَزْرَق، وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة والي اليمن لابن الزبير، وكان من أجودِ العرَب، وهو مَمْدوح أبي دَهْبَل الجمحيّ.

قالوا: ولنا شريك رسول الله ﷺ، وهو عبد الله بن السائب بن أبي السائب، واسم أبي السائب صَيْفيّ بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، كان شريك النبي ﷺ في الجاهليّة، فجاءه يوم الفتح فقال له: أتعرفني؟ قال: ألستَ شَريكي؟ قال: بلى، قال: لقد كنت خير شَرِيك، لا تُشارِي ولا تُماري.

قالوا: ومنا الأرقم بن أبي الأرقم الذي استتر رسول الله في داره بمكة في أوّل الدعوة، واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ومنا أبو سَلمة بن عبد الأسد، واسمه عبد الله، وهو زوج أم سَلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، قَبْلَ رسول الله ﷺ، شهد أبو سَلمة بَدْراً، وكان من صُلَحاء المسلِمين.

قالوا: لنا هُبَيرة بن أبي وَهب، كان من الفُرسان المذكورين، وابنه جَعدة بن هبيرة، وهو ابن أخت علي بن أبي طالب عليه السلام، أمه أم هانىء بنتُ أبي طالب، وابنه عبد الله بن جعدة بن هُبَيرة هو الذي فتح القُهُنْدر وكثيراً من خُراسانَ، فقال فيه الشاعر:

لولا ابنُ جعدة لم تُفْتَحْ قُهُنْدركُمْ   ولا خراسانُ حتى ينفخُ الصُّورُ

قالوا: ولنا سعيد بن المسيَّب الفقيه المشهور. وأما الجواد المشهور فهو الحكم بن المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم.

وقد اختصرْنا واقتصرنا على من ذكرْنا، وتركْنا كثيراً من رجال مخزوم خوف الإسهاب.

وينبغي أن يقال في الجواب: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقاراً لهم، ولا استصغاراً لشأنهم، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر همّه يوم المُفاخرة أن يفاخر بني عبد شمس لما بينه وبينهم، فلما ذكر مخزوماً بالعرَض قال فيهم ما قال، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم، على أنّ أكثر هؤلاء الرجال إسلاميّون بعد عصر عليّ عليه السلام، وعليّ عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من يجيء بعده.

فإن قلت: إذا كان قد قال في بني عبدِ شَمْس إنهم أمنَعُ لما وراءَ ظهورهم، ثم قال في بني هاشم: إنه أسمحُ عند الموت بنفوسهم، فقد تناقض الوَصْفان.

قلتُ: لا مُناقضةَ بينهما، لأنه أراد كثرة بني عبدِ شمس، فبالكَثْرة تمنع ما وراءَ ظهورها، وكان بنو هاشم أقلَّ عدداً من بني عبدِ شمس، إلاّ أن كلّ واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كلّ واحد على انفراده من بني عبدِ شمس، فقد بان أنه لا مناقَضَة بين القولين.

- ١١٧ -

الأصل: شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْن، عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ، وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ، وَيَبْقَى أَجْرُهُ.

الشرح: أخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء، فقال:

تفنَى اللّذاذةُ مِمّن نال بُغيَتَهُ ... من الحرَام ويبقى الإثمُ والعارُ
تُبقِي عواقِبَ سوءٍ في مَغَبَّتِها ... لا خيرَ في لذّةٍ من بعدِها النّارُ

- ١١٨ -

الأصل: وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَقَدْ تبع جنازةً فسمعَ رَجلاً يضحكُ، فقالَ: كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ، وَرُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ.

طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ، وَطَابَ كَسْبُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَأَنْفَقَ

الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شرَّهُ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلى بِدْعَةٍ.

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ الله تَعَالَى: أقولُ: ومِنَ الناس من يَنسُبُ هذا الكلامَ إلى رسول الله ﷺ[1].

الشرح: الأشهر الأكثَر في الرّواية أنّ هذا الكلام من كلام رسول الله ﷺ ومِثل قوله: «كأن الموت فيها على غيرنا كُتِب» قولُ الحسن عليه السلام: ما رأيت حَقّاً لا باطلَ فيه أشبَه بباطلٍ لا حَقّ فيه من المَوْت[2]، والألفاظ التي بعده واضحة ليس فيها ما يُشرَح، وقد تقدّم ذِكرُ نظائرها.

- ١١٩ -

الأصل: غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ.

الشرح: المرجع في هذا إلى العَقْل والتماسك، فلمّا كان الرجل أعقَل وأشدّ تماسُكاً كانت غَيْرته في موضعها، وكانت واجبةً عليه، لأنّ النهي عن المنكَر واجب، وفعل الواجبات من الإيمان، وأما المرأة فلما كانت أنقصَ عَقْلاً وأقلّ صَبْراً كانت غَيْرَتها على الوَهْم الباطل والخيال غير المحقَّق، فكانت قبيحةً لوقوعها غير موقعها، وسمّاها عليه السلام كُفْراً لمشارَكَتها الكُفْرَ في القُبْح فأجرى عليها اسمَه.

وأيضاً فإن المرأة قد تؤدّي بها الغيرةُ إلى ما يكون كُفْراً على الحقيقة كالسِّحر، فقد وَرَد في الحديث المرفوع أنه كُفر، وقد يُفضي بها الضّجر والقَلَق إلى أن تَتَسَخّط وتَشْتُم وتتلفّظ بألفاظٍ تكون كُفراً لا محالة.

(١) أخرج بنحوه: البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٨٢)، و«شعب الإيمان» (٣٣٨٨)، وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٢٧٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٤٦١٥).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦/ ١٣٦ ح ٣٧، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ١٥/ ٩٣١ رقم: ٤٣٥٩٦.

- ١٢٠ -

الأصل: لَأَنْسُبَنَّ الإسْلامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْها أَحَدٌ قَبْلِي. الإسْلامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، والتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، واليَقِينُ هُو التَّصْدِيقُ، والتَّصْدِيقُ هُوَ الإقْرَارُ، والإقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ، والأَدَاءُ هُو العَمَلُ.

الشرح: خلاصةُ هذا الفَصْل تقتضي صحة مَذهَب أصحابنا المعتزلة في أنّ الإسلام والإيمان عبارتان عن معبّر واحد، وأنّ العمل داخلٌ في مفهومِ هذه اللفظة، ألا تراه جَعَل كلَّ واحدة من اللَّفَظات قائمةً مقام الأخرى في إفادة المفهوم، كما تقول: اللّيث هو الأسَدُ والأسد هو السّبع، والسبع هو أبو الحارث! فلا شُبهةَ أن اللّيث يكون أبا الحارث، أي أن الأسماء مترادفة، فإذا كان أوّل اللَّفظَات الإسلام، وآخرها العَمل، دَلّ على أنّ العمل هو الإسلام، وهكذا يقول أصحابُنا: إنّ تارك العمل وتارك الواجب لا يسمّى مسلماً.

فإن قلت: هَبْ أن كلامَه عليه السلام يدل على ما قلت، كيف يدلّ على أن الإسلام هو الإيمان؟

قلت: لأنه إذا دَلّ على أن العمل هو الإسلام وَجَب أن يكون الإيمان هو الإسلام لأنّ كلّ من قال: إن العمل داخل في مُسمّى الإسلام، قال: إنّ الإسلام هو الإيمان، فالقول بأن العمل داخلٌ في مسمّى الإسلام، وليس الإسلام هو الإيمان، قول لم يَقُل به أحد، فيكون الإجماع واقعاً على بُطلانه.

فإن قلتَ: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل كما تقوله المعتزلة، لأنّ المعتزلة تقول: الإسلامُ اسمٌ واقعٌ على العَمَل وغيرِه من الاعتقاد، والنطق باللسان. وأمير المؤمنين عليه السلام جَعل الإسلامَ هو العمل فقط، فكيف ادّعيت أنّ قولَ أمير المؤمنين عليه السلام يُطابق مذهبهم؟

قلت: لا يجوز أن يريد غيره، لأن لفظ العَمَل يشمل الاعتقاد، والنطق باللسان، وحركات الأركان بالعبادات، إذ كلُّ ذلك عملٌ وفِعْل، وإن كان بعضه من أفعال القلوب، وبعضه من أفعال الجوارح، ولو لم يُرِد أميرُ المؤمنين عليه السلام ما شرَحْناه لكان قد قال: الإسلام هو العلم بالأركان خاصة، ولم يعتبِر فيه الاعتقاد القلبيّ، ولا النطق اللفظيّ، وذلك مما لا يقوله أحد.

- ١٢١ -

الأصل: عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ، وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ، فَيَعِيشُ فِي الدُّنْيا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ، وَيُحَاسَبُ فِي الآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً، وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللهِ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى مَنْ يَمُوتُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى، وَعَجِبْتُ لِعَامِرٍ دَارَ الْفَنَاءِ، وَتَارِكٍ دَارَ الْبَقَاءِ.

الشرح: قال أعرابيّ: الرِّزق الواسعُ لمن لا يَستمتِع به بمنزلة الطعامِ الموضوعِ على قبر. ورأى حكيمٌ رجلاً مُثرياً يأكل خُبْزاً ومِلْحاً، فقال: لِمَ تَفْعَل هذا؟ قال: أخافُ الفقرَ، قال: فقد تعجَّلته. فأمّا القول في الكِبْر والتِّيه فقد تقدّم منه ما فيه كفاية، وقال ابنُ الأعرابي: ما تاهَ عليَّ أحدٌ قطّ أكثرَ من مَرّة واحدة، أخَذَ هذا المعنى شاعرٌ فقال وأحسَن:

هذه منكَ فإن عُدْ ... تَ إلى البابِ فمنّي

وقد تقدّم من كلامِنا في نظائرِ هذه الألفاظ المذكورة ما يُغني عن الإطالة هاهُنا.

- ١٢٢ -

الأصل: مَنْ قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ، ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ.

الشرح: هذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين، والاعتقادِ الصّحيح، فإنّهم الّذين إذا قَصّروا في العمل ابتلُوا بالهَمّ، فأمّا غيرُهم من المُسرفين على أنفسهم وذوي النّقص في اليَقين والاعتقاد، فإنّه لا هَمَّ يَعْرُوهم وإن قَصّروا في العمل، وهذه الكلمة قد جَرّبْناها من أنفسِنا فوَجَدْنا مِصداقَها واضحاً، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخَلّ بفريضةِ الظّهر مَثَلاً حتّى تغيبَ الشمس وإن كان أخلّ بها لعُذْر وَجَد ثِقْلاً في نفسِه وكَسَلاً وقِلّةَ نَشَاط، وكأنه مشكولٌ بشِكالٍ أو مقيَّدٌ بقَيْد، حتى يقضيَ تلك الفَريضة، فكأنّما أُنشِطَ من عِقال.

- ١٢٣ -

الأصل: لاَ حَاجَةَ لله فِيمَنْ لَيْسَ لله فِي مَالِهِ وَنَفْسِه نَصِيبٌ.

الشرح: قد جاء في الخبر المرفوع: «إذا أَحبَّ الله عبداً ابتلاه في مالِه أو في نفسِه»[(١)].

وجاء في الحديث المرفوع: «اللّهم إنّي أعوذ بك من جَسَدٍ لا يَمرَض، ومن مالٍ لا يُصاب»[(٢)].

ورَوَى عبدُ الله بنُ أَنس عنه ﷺ أنه قال: «أيكم يُحِبّ أن يَصِحّ فلا يَسقَم؟»، قالوا: كلُّنا يا رسولَ الله، قال: «أتحبّون أن تكونوا كالحُمُر الصائلة، ألا تُحِبّون أن تكونوا أصحابَ بَلاَيا وأصحابَ كَفّارات! والّذي بَعَثَني بالحقّ إنّ الرجل لتكونُ له الدّرجة في الجنّة فلا يَبلُغها بشيء من عَمَلِه فيبتَليه الله ليُبلّغه الله درجةً لا يَبلُغها بعمَله»[(٣)].

وفي الحديث أيضاً: «ما مِن مُسلِم يَمرَض مرضاً إلاّ حَتّ الله به خَطاياه كما تَحُتّ الشجرة وَرَقَها»[(٤)].

ورَوَى أبو عثمان النَّهدِيّ قال: دخل رجل أعرابيّ عَلَى رسول الله ﷺ ذو جُسمانٍ عَظيم، فقال له: مَتى عَهدُك بالحُمّى؟ قال: ما أعرفها، قال: بالصُّداع، قال: ما أدرِي ما هو؟ قال: فأُصِبْتَ بمالِك؟ قال: لا، قال: فرُزِئت بوَلَدِك؟ قال: لا، فقال عليه السلام: «إن الله ليَكرَه العِفْريت النِّفْرِيت الّذي لا يُرزَأ في وَلَدِه ولا يُصَابُ في مالِه»[(٥)].

وجاء في بعض الآثار: «أشدّ الناس حساباً الصحيحُ الفارغ»[(٦)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٨٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٩٧٠).

(٢) أخرج الكليني في الكافي (٣/ ١١٤ ح ٨) لا خير في جسد لا يمرض.

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٥٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير»، ترجمة مسلم بن عقيل (١١٢٩).

(٤) أخرج بنحوه: البخاري، كتاب: المرض، باب: وضع اليد على المريض (٥٦٦٠)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه (٢٥٧١).

(٥) أخرجه الحارث في «مسنده» (٢٤٨)، والمناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٠٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩١٠).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» موقوفاً على معاوية بن قرة (١٣٢٦).

وفي حديث حذيفةَ رضي الله عنه: إنْ أقَرَّ يوم لعيني لَيَوْمٌ لا أجد فيه طعاماً، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليَتعاهَد عبدَه المؤمنَ بالبلاء كما يَتعاهَد الوَالد ولدَه بالطّعام، وإنّ الله يَحمِي عبدَه المؤمنَ كما يَحمِي أحدُكم المريض من الطعام»(١).

وفي الحديث المرفوع أيضاً: «إذا أحَبَّ الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبّه الحُبَّ البالغَ اقْتناه» قالوا: وما اقتنَاؤه؟ قال: «ألاّ يَترُك له مالاً ولا ولداً»(٢).

مَرّ موسى عليه السلام برجل كان يعَرِفه مطيعاً لله قد مَزَّقَت السباعُ لَحمَه وأضلاعَه، وكَبدهُ ملقاةٌ، فوَقَف متعجّباً فقال: أي ربِّ، عبدُك المطيعُ لك ابتليتَه بما أرَى، فأوحَى الله إليه: إنّه سألني درجةً لم يَبلُغها بعَمَله، فجعلتُ له بما تَرَى سبيلاً إلى تلك الدرجة.

وجاء في الحديث: «إنّ زكريّا لم يَزَل يَرَى وَلَدَ يحيى مَغموماً باكياً مشغولاً بنفسه، فقال: يا ربّ طلبتُ منك ولداً أنتفِع به فرَزَقْتَنيه لا نَفْع لي فيه، فقال له: إنّك طلبتَه وليّاً، والوليّ لا يكون إلاّ هكذا، مِسْقاماً فقيراً مهموماً»(٣).

وقال سُفيان الثَّوْرِيّ: كانوا لا يعدّون الفقيهَ فقيهاً من لا يَعُدّ البلاءَ نِعْمة والرخاءَ مُصيبة.

جابرُ بنُ عبد الله يَرفعه: «يَوَدّ أهل العافية يومَ القيامة أنّ لحومَهم كانت تقُرَض بالمَقارِيض لما يَرَوْن من ثواب أهل البَلاء»(٤).

— ١٢٤ —

الأصل: تَوَقَّوْا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ؛ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الْأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي الْأَشْجَارِ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ، وَآخِرُهُ يُورِقُ.

الشرح: هذه مسألةٌ طبيعيّة قد ذَكَرها الحكماء، قالوا: لمّا كان تأثيرُ الخَرِيف في الأبدان، وتوليدُه الأمْراض كالزُّكام والسُّعال وغيرهما أكثرَ من تأثيرِ الرّبيع، مع أنّهما جميعاً

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٥٢).
(٢) أخرجه أبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٢٤٩٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٩٦٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥).
(٣) أخرجه محمدي الريشهري في ميزان الحكمة: ٤/ ٣٧٠٠.
(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذهاب البصر (٢٤٠٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٧٥)، والطبراني في «الصغير» (٢٤١).

فَصْلا اعتدال، وأجابوا بأنّ بَرْد الخريف يَفْجأ الإنسان وهو معتادٌ لحرّ الصّيف فينكأ فيه، ويسُدّ مَسامّ دِماغه، لأنّ البرد يَكثُف ويَسُدّ المَسَامّ فيكون كمن دَخَل من موضع شديدِ الحرارة إلى خيش بارد.

فأما المُنتقِل من الشتّاء إلى فَصْل الربيع فإنه لا يكاد بَرْد الربيع يُؤذِيه ذلك الأذى لأنّه قد اعتاد جسمُه برد الشتاء، فلا يُصادِف من بَرْد الربيع إلاّ ما قد اعتاد ما هو أكثر منه، فلا يَظهَر لبَرْد الربيع تأثيرٌ في مِزاجِه، فأمّا لِمَ أورقت الأشجار وأزْهَرت في الرّبيع دون الخريف؟ فلما في الرّبيع من الكيفيّتين اللّتين هما مَنْبَع النموّ والنفس النباتيّة، وهما الحرَارَة والرّطوبة وأما الخريف فخالٍ من هاتين الكيفيّتين ومستبدل بهما ضدّهما، وهما البرودة واليُبْس المُنافِيان للنّشوء وحَياةِ الحيوَان والنّبات. فأما لِمَ كان الخريف بارداً يابساً والرّبيع حارّاً رَطْباً مع أن نسبَة كلّ واحد منهما إلى الفَصْلين الخارجَيْن عن الاعتدال وهما الشّتاء والصّيف نسبةٌ واحدة؟ فإنّ تعليلَ ذلك مذكورٌ في الأصول الطبية، والكُتُب الطبيعيّة، وليس هذا الموضع ممّا يَحسُن أن يُشرح فيه مِثلُ ذلك.

- ١٢٥ -

الأصل: عُظْمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ.

الشرح: لا نِسبَة للمخلوق إلى الخالق أَصْلاً وخصوصاً البَشَر، لأنهم بالنّسبة إلى فَلَك القَمَر كالذَّرة، ونسبة فلك القمر كالذَّرة بالنّسبة إلى قُرْص الشّمس، بل هُمْ دون هذه النسبة ممّا يَعجَز الحاسبُ الحاذِقُ عن حِساب ذلك، وفَلَك القَمَر بالنّسبة إلى الفَلَك المحيط دون هذه النّسبة، ونسْبة الفَلَك المحيط إلى الباريء سبحانه كنِسْبة العَدَم المَحْض والنفي الصرف[1] إلى الموجود البائن، بل هذا القياس أيضاً غيرُ صحيح، لأنّ المعدوم يُمكِن أن يصير موجوداً بائناً، والفَلَك لا يتصوّر أن يكون صانع العالم الواجب الوجود لِذاتِه.

وعلى الجملة فالأمرُ أعظم من كلّ عظيم، وأجلُّ من كلّ جليل، ولا طاقةَ للعُقول والأذهان أن تعبّر عن جلالة ذلك الجناب وعَظَمتِه، بل لو قيل: إنّها لا طاقة لها أن تعبّر عن جلالِ مَصْنوعاته الأولَى المتقدّمة علينا بالرّتبة العقليّة والزمانيّة لكان ذلك القولُ حقّاً وصِدْقاً، فَمن هو المخلوق لِيقال: إنَّ عِظَمَ الخالِق يصغّره في العين، ولكنّ كلامه عليه السلام محمولٌ على مخاطَبة العامّة الّذين تَضيق أفهامُهمْ عمّا ذكرْناه.

(١) الصرف: الخالص. لسان العرب، مادة (صرف).

- ١٢٦ -

الأصل: وقال عليه السلام، وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلى القُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ: يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ. يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ، يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ. يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لاَحِقٌ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ، وَأَمَّا الأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ، وَأَمَّا الأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِّمَتْ، هَذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ؟

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:

أَمَا وَاللهِ لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلاَمِ، لأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى.

الشرح: الفَرَط: المتقدِّمون، وقد ذكَرْنا من كلامِ عمرَ ما يُناسِب هذا الكلام، لمّا طَعَن في القُبور وعادَ إلى أصحابه أحمرَ الوجه، ظاهرَ العرُوق، قال: قد وقفتُ على قبورِ الأحبّة فناديتُها الحديثَ... إلى آخره، فقيل له: فهل أجابتْك؟ قال: نعم، قالت: إنّ خيرَ الزّاد التقوى.

وقد جاء في حديث القبور ومخاطبتِها وحديثِ الأموات وما يتعلّق بذلك شيءٌ كثير يتجاوزَ الإحصاء.

وفي وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله أبا ذَرّ رضي الله عنه: «زُر القبورَ تَذكُرْ بها الآخرة ولا تَزُرها ليلاً، وغَسِّل الموتى يتحرّكْ قلبُك، فإنّ الجسد الخاوِيَ عِظةٌ بليغة، وصلِّ على الموتى فإن ذلك يُحزِنُك، فإنّ الحَزين في ظِلّ الله»[1].

وُجِد على قبرٍ مكتوباً:

مقيمٌ إلى أن يَبعثَ الله خَلْقَهُ　　لقاؤكَ لا يُرجَى وأنت رقيبُ
تَزيدُ بلًى في كلِّ يومٍ وليلةٍ　　وتُنسَى كما تَبلَى وأنت حبيبُ

وقال الحسن عليه السلام: مات صديق لنا صالح، فدفنّاه ومدَدْنا على القبر ثوباً، فجاء صِلَة بنُ أشيم، فرَفَع طرفَ الثّوب ونادَى: يا فلان:

إنْ تَنجُ منها تَنجُ مِن ذي عَظيمةٍ　　وإلاّ فإنّي لا إخالُكَ ناجِيا

وفي الحديث المرفوع: «أنّه صلى الله عليه وآله كان إذا تَبِع الجِنازة أكثرَ الصُّمات، ورُئيَ عليه كآبةٌ ظاهرة، وأكثرَ حديثَ النفس»[2].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٣٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٣٤٣).
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٤٤)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٨٥).

سَمِع أبو الدّرداء رجلاً يقول في جنازة: من هذا؟ فقال: أنت، فإنْ كرهتَ فأنا.

سَمِع الحسنُ عليه السلام امرأةً تَبكِي خلف جَنازة، وتقول: يا أبتاه، مِثلَ يَومِك لم أرَه! فقال: بل أبوك مِثل يومِه لم يَرَه.

وكان مكحولٌ إذا رأى جِنَازة قال: اغدُ فإنّا رائحون.

وقال ابن شَوْذَب: اطّلعَت امرأةٌ صالحة في لَحْد فقالت لأمرأةٍ معها: هذا كُنْدُوج العَمَل - يَعْني خِزانَته. وكانت تُعطيها الشيء بعد الشيء تأمُرُها أن تَتصدّق به، فتقول: اذهبي فضَعي هذا في كُندوج العَمَل.

شاعر:

أجـازِعـةٌ رُدَيـنـةُ أنْ أتـاهـا — نَـعـيـي أم يـكـون لـهـا اصـطِـبـارُ!
إذا مـا أهـلُ قَـبْـري ودّعـونـي — وراحُـوا والأكُـفّ بـهـا غُـبـارُ
وغُـودِرَ أعـظُـمِـي فـي لـحـدِ قبرٍ — تُـراوِحُـه الـجـنَـائـب والـقِـطـارُ
تَـهُـبُّ الـريـحُ فـوق مَـحَـطّ قَـبْـري — ويَـرعَـى حـولَـه الـلَّـهَـقُ الـنّـوارُ
مـقـيـمٌ لا يُـكـلّـمـنـي صـديـقٌ — بـقَـفْـر لا أزورُ ولا أزارُ
فَـذاكَ الـنـأيُ لا الـهِـجْـرانُ حَـوْلاً — وحَـوْلاً ثـمّ تـجـتـمـعُ الـدّيـارُ

وقال آخر:

كـأنّي بإخواني عـلـى حـافـتَيْ قَـبـرِي — يَـهـيـلُـونـه فَـوقـي وأدمُـعُـهـمْ تَـجـري
فـيـاأيُّـهـا الـمُـذْري عـلـيَّ دمـوعَـه — ستُعرِض في يومين عنّي وعن ذكرِي
عـفـا الله عـنـي يـومَ أُتـرك ثـاوِيـاً — أزارُ فـلا أدرِي وأُجـفَـى فـلا أدري

وجاء في الحديث المرفوع: «ما رأيتُ مَنظَراً إلا والقبرُ أفظع منه»(1).

وفي الحديث أيضاً: «القبر أوّل منزلٍ من منازلِ الآخرة، فمن نجا منه فما بعدَه أيسَر، ومن لم يَنْج منه فما بعدَه شرٌّ منه»(2).

---

(1) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٨)، وابن ماجه، كتاب: «الزهد»، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧)، وأحمد في «مسنده» (٤٥٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٣٧٣).

(2) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٨)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧)، وأحمد في «مسنده» (٤٥٦).

١٢٧ - وقال عليه السلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا

الأصل: أَيُّها الذَّامُّ لِلدُّنْيا، الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا، الْمُنْخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا، أَتَفْتَتِنُ بِهَا ثُمَّ تَذُمُّهَا! أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ! مَتى استهوَتْك، أَمْ مَتى غَرَّتْكَ! أَبِمَصَارِعِ آبائِكَ مِنَ الْبِلَى، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرى! كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاء، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الأَطِبَّاءَ، غَدَاةَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ، وَلاَ يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ!

لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ، وَقَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ، وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ.

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ الله، وَمُصَلَّى مَلاَئِكَةِ الله، وَمَهْبِطُ وَحْيِ الله، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ الله، اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا، وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَها وَأَهْلَهَا، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلاَئِهَا الْبَلاَءَ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ!

رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَذَكَرُوا، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

الشرح: تجرّمتُ على فلان: ادّعيتُ عليه جُرْماً وذنباً، وأستهواه كذا: استزَلّه.

وقولُه عليه السلام: «فمثّلتْ لهم ببلائها البلاء»، أي بلاءَ الآخرة وعذابَ جهنم، وشوّقتْهم بسرورها إلى السرور، أي إلى سُرورِ الآخرة ونعيمِ الجنّة.

وهذا الفصل كلّه لمدح الدنيا، وهو ينبىء عن اقتدارِه عليه السلام على ما يريد من المعاني، لأنّ كلامَه كلّه في ذم الدنيا، وهو الآن يَمدَحها، وهو صادقٌ في ذاك وفي هذا، وقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله كلام يتضمن مدحَ الدنيا أو قريباً من المَدْح، وهو قولُه عليه السلام: «الدّنيا حُلوةٌ خَضِرة، فمن أخذَها بحقّها بُورِك له فيها»(١).

(١) أخرجه نحوه: مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٢)، والترمذي،=

واحتَذى عبدُ الله بنُ المعتز حَذْوَ أميرِ المؤمنين عليه السلام في مدِح الدنيا فقال في كلام له: الدّنيا دارُ التّأديب والتعريف، التي بمَكْروهِها توصّل إلى محبوب الآخرةِ، ومضمار الأعمال، السابقة بأصحابها إلى الجِنان، ودرجة الفَوْز التي يَرتقي عليها المتّقون إلى دار الخُلْد، وهي الواعظة لمن عَقَل، والناصحة لمن قَبِل، وبِساطِ المَهَل، ومَيْدان العمل، وقاصِمَة الجَبّارِين، ومُلحِقة الرّغم معَاطِسَ[1] المتكبِّرين، وكاسية التّراب أبدانَ المخْتالِين، وصارعة المغترّين، ومفرّقة أموال الباخلين، وقاتلة القاتلين، والعادلة بالموت على جميع العالَمين، وناصرة المؤمنين، ومُبِيرة الكافرين. الحسنات فيها مضاعَفة، والسّيئات بآلامها ممحوّة، ومع عُسرها يُسْران، والله تعالى قد ضَمِن أرزاق أهلِها، وأقسَم في كتابه بما فيها، وربّ طيّبة من نعيمها قد حمِد الله عليها فتلقّتها أيْدِي الكَتَبة ووَجَبَتْ بها الجنّة، وكم نائبةٍ من نوائبها، وحادثةٍ من حوادثها، قد راضت الفَهْم، ونبّهت الفِطْنة، وأذْكَت القريحة، وأفادت فضيلَة الصّبر، وكثّرت ذخائرَ الأجْر.

ومن الكلام المنسوبِ إلى عليّ عليه السلام: الناسُ أبناءُ الدّنيا، ولا يُلامُ المرء على حبِّ أمّه[2]، أخذَه محمّد بن وَهْب الحِمْيَرِيّ فقال:

ونحن بنو الدنيا خُلقنا لغيرها … وما كنت منه فهو شيءٌ محبَّبُ

١٢٨

الأصل: إِنَّ لله مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ: لِدُوا لِلْمَوْتِ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ.

الشرح: هذه اللام عند أهل العربية تسمّى لامَ العاقبة. ومِثلُ هذا قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[3]، ليس أنّهم التَقطوه لهذه العلّة، بل التَقطوه فكان عاقبةُ التقاطِهم إيّاه العداوةَ والحُزْن، ومثلُه:

فلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الوالدة

= كتاب: الفتن باب: ما جاء وما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بما هو كائن (٢١٩١)، وأحمد في «مسنده» (١٠٧٧٣)، وبالشطر الثاني: ابن حبان في «صحيحه» (٢٨٩٢)، والطبراني في «الأوسط» (٨٣٥٩).

(١) المَعَاطس: الأنوف. القاموس المحيط، مادة (عطس).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٠/ ١٣١.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨.

ومثلُه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[1]؛ ليس أنّه ذرأهم ليعذِّبَهم في جهنّم، بل ذَرَأهم وكان عاقبةُ ذَرْئِهم أن صاروا فيها، وبهذا الحرف يحصُل الجوابُ عن كثيرٍ من الآيات المتشابِهة التي تتعلّق بها المجبِرة.

وأمّا فَحْوَى هذا القول وخلاصتُه فهو التنبيه على أنّ الدنيا دارُ فَناء وعَطَب، لا دارُ بَقاءٍ وسلامة، وأنّ الولد يَموت، والدُّور تُخرَّب، وما يُجمَع من الأموال يَفْنَى.

– ١٢٩ –

الأصل: الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ، لاَ دَارُ مَقَرٍّ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلاَنِ: رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا.

الشرح: قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوماً لجلَسائه: أخبِرُوني مَن أحمَقُ الناس؟ قالوا: رجلٌ باعَ آخرتَه بدُنْياه، فقال: ألا أنبئكم بأحمق منه؟ قالوا: بلى، قال: رجلٌ باعَ آخرته بدُنْيا غيره.

قلتُ: لقائلٍ أن يقول له: ذاك باعَ آخرته بدُنْياه أيضاً، لأنه لو لم يكن له لذّةٌ في بَيْع آخرته بدُنْيا غيره لما باعها، وإذا كان له في ذلك لذّة، فإذَنْ إنما باع آخرته بدُنْياه، لأنّ دُنْياه هي لذّتُه.

– ١٣٠ –

الأصل: لا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أخاهُ في ثَلاثٍ: في نَكْبَتِهِ، وغَيْبَتِهِ، وَوَفاتِهِ.

الشرح: قد تقدّم لنا كلامٌ في الصّديق والصداقة، وأمّا النَّكْبة وحفظ الصديق فيها فإنه يقال: في الحُبوسِ مَقابرُ الأحياء، وشماتةُ الأعداء، وتجربةُ الأصدِقاء.

وأمّا الغَيْبَة فإنه قد قال الشاعر:

وإذا الفَتَى حَسُنَتْ مودّتُه ... في القُرْب ضاعَفَها على البُعْدِ

وأما الموت فقد قال الشاعر:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩).

وإنّي لأستحييه والتُّربُ بيننا   كما كنتُ أستحييه وهو يرانِي

ومن كلامِ عليٍّ عليه السلام: الصديق من صَدَق في غَيْبَتِه.

وقال لحكيم: مَن أبعد الناس سَفَراً؟ قال: من سافر في ابتغاءِ الأخِ الصالح.

أبو العلاء المَعَرّي:

أزرَتْ بكم يا ذوي الألبابِ أربعةٌ   يتركن أحلامَكم نَهْب الجهالاتِ

ودُّ الصَّديق، وعِلْم الكيمياء، وأحـ   ـكامُ النّجوم، وتفسيرُ المناماتِ

قيل للثَّوريّ: دُلّني على جليس أجلس إليه؟ قال: تلك ضالّة لا توجد.

- ١٣١ -

الأصل: مَنْ أُعطِيَ أَرْبعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبعاً: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإجَابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الاِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ.

قال الرَّضيّ رَحِمهُ الله تعالى: وتَصْديقُ ذَلِكَ في كِتابِ الله تعالى، قالَ في الدُّعاء: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

وقالَ في الاستِغفار: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢].

وقالَ في الشُّكْرِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٣].

وقالَ في التَّوبَةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٤].

الشرح: في بعض الروايات أن ما نسب إلى الرّضي رحمه الله مِن استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سبق القولُ في كلّ واحدةٍ من هذه الأربع مُستقصى.

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧.

- ١٣٢ -

الأصل: الصَّلاَةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ، وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصَّوْمُ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ.

الشرح: قد تقدّم القول في الصّلاة والحج والصيام، فأمّا أنَّ جهادَ المرأة حسنُ التبعُّل، فمعناه حسنُ معاشرةِ بعلِها وحِفْظُ ماله وعرضه، وإطاعته فيما يأمر به، وترك الغيرة فإنها بابُ الطلاق.

بعض الوصايا الحكمية

وأوصت امرأةٌ من نساء العربِ بِنْتَها ليلةَ إهدائها فقالت لها: لو تركتُ الوصيّة لأحدٍ لحُسْنِ أدب وكَرَم حَسَب، لتركتُها لكِ، ولكنها تذكرةٌ للغافل، ومَؤُونَةٌ للعاقل. إنك قد خَلَفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، والوَكْر الذي منه خَرَجْتِ، إلى منزلٍ لم تَعْرِفيه، وقرينٍ لم تألفيه، فكوني له أمَةً، يكُن لكِ عَبْداً، واحفظِي عنّي خِصالاً عَشْراً:

أما الأولى والثانية، فحسْنُ الصّحابة بالقناعة، وجميلُ المعاشرة بالسّمع والطاعة، ففي حُسْن الصّحابة راحةُ القلب، وفي جميل المُعاشَرة رِضا الرَّبّ.

والثالثة والرابعة، التفقّد لمواقع عَيْنِه، والتعهُّد لمواضع أنفِه، فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولا يَجِد أنفهُ منكِ خبيث ريح، واعلَمي أنّ الكُحْل أحسَنُ الحسن المفقود، وأن الماءَ أطيَبُ الطِّيب الموجود.

والخامسة والسادسةُ، الحِفْظُ لماله، والإرْعاء على حشمه وعِياله، واعلمي أن أصل الاحتفاظ بالمال حُسنُ التقدير، وأصلَ الإرْعاء على الحَشم والعيال حُسن التّدبير.

والسابعة والثامنة، التّعهّد لوقت طَعامِه، والهُدُوّ والسّكون عند مَنامِه، فحرارةُ الجوع ملْهَبة، وتَنْغيص النوم مَغْضبة.

والتاسعة والعاشرة: لا تُفْشِينَ له سِرّاً، ولا تَعْصِينَ له أمراً، فإنك ان أفْشَيْتِ سِرّه لم تأمَني غَدْره، وإن عصيتِ أمرَه أوغَرْتِ صَدْرَه.

وأوصت امرأةٌ ابنتها وقد أهدَتها إلى بَعْلها، فقالت: كوني له فِراشاً، يكن لكِ مَعاشاً، وكوني له وِطاء، يكن لكِ غِطاءً، وإيّاكِ والاكتئاب إذا كان فَرِحاً، والفَرَح إذا كان كئيباً، ولا يَطّلعَنّ منك على قبيح، ولا يَشُمَّنّ منكِ إلا طيِّبَ ريح.

وزَوّج عامرُ بنُ الظَّرِب ابنته من ابن أخيه، فلما أراد تَحْويلَها قال لأمّها: مُرِي ابنتك ألاّ تنزل مفازَةً إلا ومعها ماء، فإنّه لِلأَعْلَى جِلاء، وللأسْفلَ نقاء، ولا تُكثرْ مُضاجَعَته، فإذا ملّ البدنُ ملّ القلب، ولا تمنعه شهوته، فإن الحُظْوة في المواقعة. فلم يلبث إلا شهراً حتى جاءته مشجوجة، فقال لابن أخيه: يا بُنَيّ ارفَعْ عصاك عن بَكْرَتك، فإن كان من غير أن تنفر بك فهو الدّاء الذي ليس له دواء، وإن لم يكن بينكما وفاق ففِراق، الخُلْع أحسن مِنَ الطّلاق، وأن تترك أهلك ومالك.

فردّ عليه صداقَها، وخلَعها منه، فهو أول خُلْعٍ كان في العرب.

وأوصَى الفَرافِصة الكلبيّ ابنته نائلة حين أهدَاها إلى عثمان، فقال: يا بُنيَّة، إنّك تقدمين على نساءٍ من نساء قريش هنّ أقدَرُ على الطّيب منكِ، ولا تُغلَبين على خَصْلَتين: الكُحْل والماء. تطهّري حتى يكون ريحِ جِلْدِك ريح شَنٍّ[1] أصابه مطر، وإيّاك والغَيْرة على بَعْلِك، فإنّها مفتاح الطلاق.

ورَوَى أبو عمرو بنُ العلاء قال: أنكح ضرارُ بنُ عمْرو الضبيّ ابنته من مَعبد بن زُرارة، فلما أخرَجَها إليه قال: يا بُنَيّة، أمسكي عليك الفَضْلين: فضل الغُلْمة، وفضلَ الكلام.

قال أبو عمرو: وضِرار هذا هو الذي رَفع عَقِيرته بعكاظ، وقال: ألا إنّ شَرَّ حائل أمّ، فزَوجوا الأمهّات؛ قال: وذلك أنه صُرِع بين الرماح، فأشبل عليه إخوته لأمّه حتى استنقَذوه.

وأوصت أعرابيةٌ ابنتها عندَ إهدائها، فقالت لها: اقلعي زُجَّ[2] رُمحِه، فإن أقرّ فاقلَعي سِنانه، فإن أقرّ فاكسِري العظام بسيفه، فإن أقَرّ فاقطعي اللحم على ترْسه، فإن أقرّ فضعي الأكاف[3] على ظَهْره، فإنما هو حمار.

وهذا هو قُبح التبعُّل، وذكرناه نحن في بابِ حسْنِ التبعّل، لأن الضّد يُذكر بضدّه.

---

(١) الشَّنُّ: الخَلَقُ من كل آنية صنعت من جلد. لسان العرب، مادة (شنن).

(٢) الزُّجُّ: الحديدة في أسفل الرُّمح، القاموس المحيط، مادة (زجج).

(٣) إلحاف الحمار وأكافه: برذعته. القاموس المحيط، مادة (أكف).

- ١٣٣ -

الأصل: اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ.

الشرح: جاء في الحديث المرفوع - وقيل: إنّه موقوفٌ على عثمان: «تاجروا الله بالصَّدَقة تربَحُوا»(١).

وكان يقال: الصَّدَقَةُ صداقُ الجنّة.

وفي الحديث المرفوع: «ما أحسن عبدٌ الصَّدَقة، إلاّ أحسنَ الله الخلافة على مُخَلَّفيه»(٢).

وعنه ﷺ: «ما مِن مسلمٍ يكْسو مسلماً ثوباً إلاّ كان في حفظِ الله ما دام منه رُقْعة»(٣).

وقال عمر بن عبد العزيز: الصّلاة تبلّغك نصفَ الطّريق، والصّوم يبلغك باب المَلِك، والصّدقة تُدْخِلُك عليه.

- ١٣٤ -

الأصل: وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ.

الشرح: هذا حق، لأن من لم يُوقِن بالْخَلَف ويتخوّف الفقرَ يَضِنّ بالعطيّة، ويَعلَم أنّه إذا أعطَى ثمّ أعطَى اسْتنفَدَ مالَه، واحتاج إلى الناس لانقطاع مادّته، وأمّا مِن يُوقِن بالْخَلَف، فإنّه يَعلَم أنّ الجود شَرَفٌ لصاحِبِه، وأن الجَواد ممدوحٌ عند الناس، فقد وَجَد الداعي إلى السمّاح - ولا صارفَ له عنه - لأنّه يعلَم أنّ مادته دائمةٌ غيرُ منقطعة، فالصارف الذي يَخافُه من قدّمنا ذكرَه مفقودٌ في حقّه، فلا جَرَم أنه يجود بالعطيّة!

(١) لم أجده.

(٢) أخرج بنحوه: ابن المبارك في «الزهد» (٦٤٦)، والشهاب في «مسنده» (٧٨٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦١٩٦).

(٣) أخرج بنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٢٨٦).

- ١٣٥ -

الأصل: تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَؤُونَةِ.

الشرح: جاء في الحديث المرفوع: «مَن وَسَّع وُسّع عليه، وكلّما كثُر العيال كثُر الرزق»[1].

وكان على بعض المُوسِرين رسومٌ لجماعة من الفُقراء يَدفعُها إليهم كلَّ سنة، فاستكثرها، فأمَرَ كاتبَه بقَطْعها، فرأى في المنام كأنّ له أهواء كثيرة في دارِه، وكأنّها تصعّدها أقوامٌ من الأرض إلى السّماء، وهو يَجزَع من ذلك، فيقول: يا ربّ رِزقي رِزقي! فقيل له: إنما رزَقْناك هذه لتَصرفها فيما كنتَ تَصرِفها فيه، فإذ قطعتَ ذلك رفعناها منك، وجعلناها لغيرك. فلما أصبح أمَرَ كاتبَه بإعادة تلك الرّسوم أجمَع.

- ١٣٦ -

الأصل: مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ.

الشرح: ما عال، أي ما افتَقَر، وقد تقدّم لنا قولٌ مُقنع في مدح الاقتصاد.

وقال أبو العَلاء:

وإن كنتَ تَهوَى العيشَ فابْغِ تَوسُّطاً ... فعند التَّناهي يَقصُر المُتطاوِلُ
تُوَقَّى البُدورُ النقصَ وهْي أهِلّةٌ ... ويُدرِكها النّقصان وهيَ كَواملُ

وهذا الشعرُ وإن كان في الاقتصاد في المراتب والوِلايات، إلاّ أنّه مدحٌ للاقتصاد في الجملة، فهو من هذا الباب. وسَمِع بعضُ الفُضلاء قَولَ الحكماء: التدبيرُ نصفُ العَيش، فقال: بل العيشُ كلُّه.

- ١٣٧ -

الأصل: قِلَّةُ الْعِيَال أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ.

(١) في ديوان: ١/ ٣٦٠.

الشرح: اليسار الثاني كثرة المال، يقول: إن قِلّة العيال مع الفَقْر كاليسار الحقيقيّ مع كثرتهم. ومن أمثال الحُكماء: العيالُ أَرَضَة المال.

- ١٣٨ -

الأصل: التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ.

الشرح: دخل حبيب بنُ شَوْذَب على جعفر بن سليمانَ بالبَصْرة، فقال: نِعْم المرءُ حَبِيب بن شَوْذَب! حَسَن التودّد، طيِّب الثناء، يكرَه الزيارة المتصلة، والقِعدةَ المنسِيّة.

وكان يقال: التودّد ظاهرٌ حَسَن، والمعامَلة بين الناس على الظاهر، فأمّا البواطن فإلى عالِم الخَفيَّات.

وكان يقال: قَلَّ مَن تودَّد إلاّ صار محبوباً، والمحبوب مستورُ العيوب.

- ١٣٩ -

الأصل: والْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ.

الشرح: مِن كلام بعض الحُكماء: الهمّ يُشِيب القلب، ويُعقم العقل، فلا يتولّد معه رأي، ولا تَصدُق معه رَويّة.

وقال الشاعر:

همومٌ قد أبَتْ إلاّ التباساً ... تَبُثّ الشيبَ في رأسِ الوَليدِ
وتُقعد قائماً بَشجا حَشاهُ ... وتُطلق للقيام حُبَا القُعودِ
وأضحتْ خُشَّعاً منها نِزارٌ ... مركّبة الرواجِب في الخُدُودِ[1]

وقال سُفْيان بن عيينة: الدنيا كلّها هموم وغموم، فما كان منها سرور فهو رِبح.

ومن أمثالهم: الهمّ كافورُ الغُلْمة.

(١) الرَّوَاجب: مفاصل أصول الأصابع التي تلي الأنامل. لسان العرب مادة (رجب).

وقال أبو تمّام:

شاب رأسِي وما رأيتُ مَشيبَ الرّأس ... إلاّ مِن فضلِ شيبِ الفُؤادِ
وكذاك القلوبُ في كلّ بؤس ... ونعيم طلائع الأجسادِ
طالَ إنكارِيَ البياضَ ولو عُمّرْ ... تُ شيئاً أنكرتُ لونَ السَّواد

- ١٤٠ -

الأصل: يَنْزِلُ الصَّبْرُ على قَدْرِ المُصِيبةِ، ومَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلى فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أجْرُهُ.

الشرح: قد مضى لنا كلامٌ شافٍ في الصبر، وكان الحسنُ يقول في قصصه: الحمد لله الذي كلّفنا ما لو كلّفنا غيرَه لَصِرنا فيه إلى معصيته، وآجرَنا على ما لا بدّ لنا منه، يقول: كلّفنا الصبر، ولو كلّفنا الجَزَع لم يمكنّا أن نقيم عليه، وأجَرَنا على الصبر ولا بدّ لنا من الرجوع إليه.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام، كان يقول عند التعزية: علكيم بالصّبر، فإنّ به يأخذ الحازمُ، ويعود إليه الجازع[1].

وقال أبو خِراش الهُذَليّ يذكر أخاه عُروة:

تقول أراهُ بعدَ عُروة لاهِياً ... وذلك رُزءٌ لو علمتِ جليلُ
فلا تَحسَبي أنّي تناسيتُ عهدَه ... ولكنّ صبري يا أُمَيم جميلُ

وقال عمرو بن مَعدِيكرِب:

كم مِنْ أخٍ ليَ صالحٍ ... بوّأتُه بِيَدَيَّ لَحْدا
ألبستُه أكفانَهُ ... وخُلِقتُ يومَ خُلِقتُ جَلْدا

وكان يقال: من حدّث نفسه بالبقاء، ولم يُوَطّنها على المصائب، فهو عاجزُ الرأي. وكان يقال: كفى باليّأس مُعزّياً، وبانقطاع الطمع زاجراً!

وقال الشاعر:

أيا عمْرُو لَمْ أصبر ولي فيكَ حِيلةٌ ... ولكن دَعاني اليأسُ منكَ إلى الصّبر
تصبّرتُ مغلوباً وإنّي لمُوجَعٌ ... كما صَبر القُطّانُ في البَلَدَ القَفْرِ

(١) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٢٨٨.

- ١٤١ -

الأصل: كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إلاَّ الْجُوعُ وَالظَّمَأُ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إلاَّ السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ. حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإفْطَارُهُمْ!

الشرح: الأكياس هاهنا العلماء العارفون، وذلك لأن عباداتهم تقع مطابِقةً لعقائدهم الصحيحة، فتكون فروعاً راجعةً إلى أصلٍ ثابت، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى، لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجهةً إليه فلم تكن مقبولةً، ولذلك فَسَدَتْ عِبادة النصارى واليهود.

وفيهم وردَ قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾[1].

- ١٤٢ -

الأصل: سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلاءِ بِالدُّعَاءِ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في الصّدقة والزّكاة والدّعاء، فلا معنًى لإعادةِ القولِ في ذلك.

- ١٤٣ -

الأصل: ومن كلام له عليه السلام لكميل بن زياد النخعي: قال كُمَيل بنُ زياد: أخذ بيَدِي أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام فأخرَجَني: إلى الجَبّانِ، فلمّا أصحَرَ تَنفَّس الصُّعَداءَ، ثمّ قالَ:

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ؛ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ.

---

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٣، ٤.

النَّاسُ ثَلاَثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ.

يَا كُمَيْلُ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ؛ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ؛ هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ؛ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً - وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ - لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلَى أُصِيبُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ، لاَ بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ؛ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ. أَلاَ لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالادِّخَارِ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَى؛ لاَ تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً، لِئَلاَّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ.

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ! أُولَئِكَ وَاللهِ الْأَقَلُّونَ عَدَداً، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللهِ قَدْراً، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ. هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رَوْحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلاَنُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى؛ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ، آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ!

انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ.

الشرح: الجَبّان والجَبّانة: الصّحراء.

وتَنَفّس الصُّعَداء، أي تنفّس تنفُّساً ممدوداً طويلاً.

قولُه عليه السلام: «ثلاثة» قِسمةٌ صحيحة، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأمور الإلٰهيّة: إمّا عالِم على

الحقيقة يَعْرِف الله تعالى، وإمّا شارع في ذلك فهو بعد في السّفر إلى الله يَطلبُه بالتعلّم والاستفادة من العالم، وإمّا لا ذا ولا ذاك؛ وهو العامّيّ الساقط الّذي لا يَعبأ الله. وصَدَق عليه السلام في أنّهم هَمَج رَعاع أتباعُ كلِّ ناعق، ألا تراهم ينتقلون من التقليد لشخصٍ إلى تقليدِ الآخَر، لأدنى خَيال وأضعفِ وَهْم!

ثمّ شرع عليه السلام في ذِكر العلْم وتفضيلِه على المال، فقال: «العلم يَحرُسك، وأنت تَحرُس المال»، وهذا أحدُ وجوه التفضيل.

ثم ابتدأ فذَكَر وجهاً ثانياً؛ فقال: المالُ يَنقُص بالإنفاق منه، والعلم لا يَنقُص بالإنفاق بل يَزْكو؛ وذلك لأنّ إفاضةَ العلم على التلامذة تفيد المُعلّمَ زيادَة استعداد، وتقرِّر في نفسه تلك العلوم الّتي أفاضها على تلامذته وتثبّتها وتزيدها رسوخاً.

فأمّا قوله: «وصَنيعُ المال يزولَ بزواله»، فتحته سرّ دقيق حكميّ، وذلك لأن المال إنما يَظهر أثرُه ونفعُه في الأمور الجِسْمانية، والملاذّ الشّهوانية، كالنّساء والخَيل والأبْنية والمأكل والمشرَب والمَلابس ونحو ذلك، وهذه الآثار كلّها تزول بزوال المال أو بزوال رَبِّ المال، ألا تَرَى أنّه إذا زال المالُ اضطُرّ صاحبُه إلى بَيْع الأبنية والخيل والإماء، ورَفَض تلك العادة من المآكل الشهيّة والملابس البهيّة! وكذلك إذا زال ربُّ المالِ بالمَوْت، فإنّه تزول آثارُ المالِ عندَه: فإنّه لا يَبقَى بعد الموت آكِلاً شارباً لابساً، وأما آثار العِلم فلا يمكن أن تزولَ أبداً والإنسان في الدّنيا، ولا بعدَ خروجه عن الدّنيا، أما في الدنيا فلأنّ العالِمَ بالله تعالى لا يعودُ جاهلاً به، لأنّ انتفاء العلوم البديهيّة عن الذّهن وما يَلزَمها من اللّوازم بعدَ حصولها مُحال، فإذاً قد صَدَق قولُه عليه السلام في الفَرْق بين المالِ والعِلم: «إنّ صنيع المال يَزولُ بزواله»، أي وصنيع المال لا يَزول ولا يحتاج إلى أن يقول «بزَواله» لأن تقديرَ الكلام: وصنيع المال يزول؛ لأنّ المالَ يَزول، وأما بعد خروج الإنسانِ من الدّنيا فإنّ صنيع العِلْم لا يزول، وذلك لأن صنيعَ العِلم في النّفس الناطقة اللّذّة العقليّة الدائمة لدوام سببها، وهو حصولُ العِلم في جَوْهر النفس الّذي هو مَعشُوق النّفس مع انتفاء ما يُشغِلها عن التمتّع به، والتلذُّذ بمصاحبته، والّذي كان يشغِلها عنه في الدّنيا استغراقُها في تدبير البدن، وما تُورِدُه عليها الحواسّ من الأمور الخارجية، ولا ريبَ أنّ العاشق إذا خلا بمَعشوقِه، وانتفَتْ عنه أسبابُ الكَدَر، كان في لذّة عظيمة، فهذا هو سرُّ قولِه: «وصنيع المال يزولُ بزَواله».

فإن قلت: ما معنى قولِه عليه السلام: «معرفةُ العِلْم دِينٌ يُدانُ به»، وهل هذا إلاّ بمنزلة قولك: معرفةُ المَعرِفة أو عِلم العِلم! وهذا كلامٌ مضطرِب.

قلت: تقديرُه: معرفَةُ فَضْل العلم أو شَرفِ العلم، أو وُجوب العلم دِينٌ يُدانُ به، أي

المعرفة بذلك من أمرِ الدِّين، أي رُكنٌ من أركان الدّين واجبٌ مفروض.

ثمّ شَرَح عليه السلام حالَ العِلْم الّذي ذكر أن معرفةَ وجُوبه أو شرفه دِينٌ يُدانُ به، فقال: «العِلم يَكسِب الإنسانَ الطّاعة في حَياته»، أي مَنْ كان عالماً كان لله تعالى مُطيعاً، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

ثم قال: «وجميل الأُحدوثة بعدَ وفاتِه»، أي الذّكر الجميل بعد مَوْتِه.

ثم شرع في تفضيل العِلم على المال من وجهٍ آخَر، فقال: «العلمُ حاكِم، والمال محكومٌ عليه»، وذلك لعِلْمك أن مَصلحَتَك في إنفاق هذا المال تُنفقه، ولِعِلمك بأنّ المصلحة في إمساكه تمسّكه، فالعِلم بالمصلحة داعٍ، وبالمَضرّة صارف، وهما الأمْران الحاكمان بالحَرَكات والتصرّفات إقْداماً، وإحْجاماً، ولا يكون القادر قادراً مختاراً إلاّ بأعتبارهما، وليسا إلا عبارةً عن العِلم أو ما يجري مَجرَى العِلم من الاعتقاد والظّنّ، فإذَنْ قد بان وظهرَ أن العلم من حيثُ هُوَ علمٌ حاكم، وأنّ المال ليس بحاكم، بل محكوم عليه.

ثم قال عليه السلام: «هَلك خُزّان المال وهم أحياء»، وذلك لأنّ المالَ المخزون لا فرقَ بينه وبين الصّخرة المدفونة تحتَ الأرض، فخازِنه هالك لا مَحالَة؛ لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه، ولم يَصرِفْه في الوجوه التي نَدَب الله تعالى إليها، وهذا هو الهلاك المَعْنَويّ، وهو أعظمُ من الهلاك الحِسّيّ.

ثم قال: «والعلماءُ باقون ما بقيَ الدهر»، هذا الكلامُ له ظاهر وباطن، فظاهرُه قولُه: «أعيانُهم مفقودة، وأمثالُهم في القلوب موجودة»، أي آثارُهم وما دَوّنوه من العُلوم، فكأنّهم موجودون، وباطنه أنّهم موجودون حقيقةً لا مَجازاً، على قولِ مَن قال ببقاء الأنْفس، وأمثالهم في القلوب كنايةٌ ولُغز، ومعناه ذواتُهم في حظيرة القُدّوس، والمُشارَكة بينها وبين القلوب ظاهرة؛ لأنّ الأمر العامّ الّذي يَشمَلُهما هو الشّرف، فكما أن تلك أشرَفُ عالَمها، كذا القلبُ أشرفُ عالمه، فاستُعير لفظُ أحدِهما وعُبِّر به عن الآخَر.

قوله عليه السلام: «ها إنّ هاهنا لَعِلْماً جَمّاً، وأشار بيَدِه إلى صدره»، هذا عندي إشارةٌ إلى العِرْفان والوُصول إلى المقام الأشرَف الّذي لا يصل إليه إلاّ الواحد الفَذّ من العالَم ممّن لله تعالى فيه سرّ، وله به اتّصال.

ثم قال: «لو أصبت له حَمَلةً!» ومن الّذي يُطيق حَمْله! بل مَن الذي يُطيق فهمَه فضلاً عن حَمله!

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

ثم قال: «بلى أصيب».

ثمّ قسّم الذي يصيبهم خمسةَ أقسام:

أحدُهم: أهلُ الرّياء والسُّمعة، الذين يظهِرون الدّين والعلم ومقصودُهم الدنيا، فيَجعَلون الناموس الدِّيني شَبَكة لاَقتناص الدّنيا.

وثانيها: قومٌ من أهل الخير والصّلاح ليسوا بذَوِي بَصيرة في الأمور الإلٰهيّة الغامضة، فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تَنقدِح في قلوبهم شُبْهة بأدنَى خاطر، فإنّ مَقَام المعرفة مَقامٌ خَطِر صَعْب لا يَثْبُت تحتَه إلاّ الأفرادُ من الرّجال، الذين أيِّدوا بالتّوفيق والعصمة.

وثالثها: رجلٌ صاحبُ لَذّات وَطَرب مشتهِر بقضاء الشّهوة، فليس من رجالِ هذا الباب.

ورابعها: رجلٌ عرف بجَمْع المال وادّخارِه، لا يُنفقه في شَهوَاته ولا في غيرِ شَهَواته، فحكمُه حكمُ القِسْم الثالث.

ثم قال عليه السلام: «كذلك يَمُوت العلمُ بموت حامِلِيه»، أي إذا مِتُّ ماتَ العلمُ الذي في صدري؛ لأني لم أجد أحداً أدفعُه إليه، وأوَرِّثُه إيّاه. ثم اَستَدرك فقال: «اللّهمّ بلى، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ بحجّة الله تعالى» كَيْلا يخلوَ الزمان ممّن هو مهيمِنٌ لله تعالى على عبادِه، ومسيطِرٌ عليهم، وهذا يكاد يكونُ تصريحاً بمَذهب الإماميّة، إلاّ أنّ أصحابَنا يحملونه على أن المراد به الأبْدال الذين وردت الأخبارُ النبويّة عنهم أنّهم في الأرض سائحون، فمنهم من يُعرَف، ومنهم من لا يُعرَف، وإنهم لا يموتون حتى يودِعُوا السرّ، وهو العِرْفان عند قومٍ آخَرين يقومون مَقامَهم.

ثم استنزَرَ عَددَهم فقال: «وكم ذا!» أي كم ذا القَبِيل! وكم ذا الفريق!

ثم قال: «وأين أولئك!» استبَهَم مكانَهم ومحلَّهم.

ثم قال: «هم الأقلّون عدداً، الأعظمون قَدْراً».

ثم ذكر أن العِلم هجم بهم على حقيقة الأمر، واَنكَشَف لهم المستور المغطّى، وباشروا راحَة اليقين وبَرْدَ القَلْب وثَلْج العلم، واَستَلاَنوا ما شَقّ على المترَفين من النّاس، ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشّهوات وخُشونة العيشة.

قال: «وأنِسوا بما اَستَوحَش منه الجاهلون»، يعني العزلةَ ومجانَبةَ الناس، وطول الصّمت، وملازَمة الخَلْوة، ونحوَ ذلك ممّا هو شِعار القوم.

قال: «وصَحِبوا الدّنيا بأرواحٍ أبدانُها معلَّقةٌ بالمَحَلّ الأعلى»، هذا ممّا يقوله أصحابُ الحِكمة مِن تعلّق النفوس المجرَّدة بمبادئها من العقول المفارقة، فمن كان أزكَى كان تعلُّقُه بها أتَمّ.

ثم قال: «أولئك خُلفاء الله في أرضِه، والدعاةُ إلى دينه»، لا شُبهةَ أنّ بالوصول يستحقّ الإنسان أن يسمَّى خليفة الله في أرضِه، وهو المعني بقوله سبحانه للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

ثم قال: «آهِ آهِ شوقاً إلى رؤيتهم؟»، هو عليه السلام أحق الناس بأن يشتاق إلى رؤيتهم، لأنّ الجنسية عِلّة الضمّ، والشيء يشتاق إلى ما هو من سِنْخِه وسُوسَتِه وطبيعته، ولما كان هو عليه السلام شيخ العارفين وسيّدَهم، لا جَرَم. اشتاقت نفسه الشريفةُ إلى مُشاهدةِ أبناءِ جنسِه، وإن كان كلُّ واحد من الناس دونَ طبقته.

ثم قال لِكَميل: «انصرف إذا شئت»، وهذه الكلمة من محاسِن الآداب، ومن لطائف الكلم، لأنه لم يقتصر على أن قال: «انصرف» كَيلا يكونَ أمراً وحُكْماً بالانصراف لا محالة، فيكون فيه نوعُ عُلوٍّ عليه، فأتْبَع ذلك بقوله: «إذا شئتَ» ليُخرِجه من ذُلّ الحكم وقَهْر الأمر إلى عِزّة المشيئة والاختيار.

— ١٤٤ —

الأصل: الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.

الشرح: قد تكرّر هذا المعنى مراراً، فأما هذه اللفظة فلا نظير لها في الإيجاز والدلالة على المعنى، وهي من ألفاظِه عليه السلام المعدودة.

وقال الشاعر:

وكائنْ تَرَى من صامتٍ لك مُعجِبٍ ... زيادتُه أو نقصُه في التكلُّمِ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يَبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدّمِ

وتكلم عبدُ الملك بنُ عَمَيْر وأعرابيٌّ حاضر، فقيل له: كيف تَرَى هذا؟ فقال: لو كان كلامٌ يؤتَدَم به لكان هذا الكلامُ مما يؤتَدَم به.

وتكلم جماعةٌ من الخطباء عند مَسلَمة بن عبد الملك فأسْهَبوا في القول، ولم يَصنعوا شيئاً، ثمّ أفرغ النطق رجل من أخرياتهم، فجعل لا يخرُج من فَنّ إلاّ إلى أحسنَ منه، فقال مَسلمة: ما شبّهت كلامَ هذا بعقب كلام هؤلاء إلاّ بسحابةٍ لبدتْ عجاجةً.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

وسمع رجلٌ منشداً ينشد:

وكان أخلائي يقولون مَرْحَباً فلمّا رأوْني مُقْتِراً مات مَرْحَبُ

فقال: أخطأ الشاعر، إنّ مرحباً لم يَمُت، وإنما قتله عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام!

وقال رجل لأعرابيّ: كيف أهلك؟ قال: صلباً إن شاء الله.

وكان مَسلَمة بن عبد الملك يعرض الجند؛ فقال لرجل: ما اسمك؟ فقال: «عبدِ» الله، وخَفض، فقال: ابنُ من؟ فقال: ابن «عبدَ» الله، وفتح، فأمر بضَرْبه، فجعل يقول: «سبحانُ» الله، ويَضُمّ، فقال مَسلَمة: ويحكم! دعوه فإنه مجبولٌ على اللّحْن والخطأ، لو كان تاركاً للحن في وقتٍ لتَرَكه وهو تحت السِّياط.

- ١٤٥ -

الأصل: هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَه.

الشرح: هذه الكلمة من كلماته المعدودة. وكتب النعمان بن عبد الله إلى القاسم بن عبيد الله كتاباً يُدِلّ فيه بخِدْمته، ويستزيد في رِزقه، فوقّع على ظهره: رحِمَ الله امرأً عَرَفَ قدرَه! أنتَ رجلٌ قد أعجبَتك نفسُك فلستَ تعرِفها، فإن أحببتَ أن أعرِّفَكها عرّفتُك. فكتب إليه النعمان: كنتُ كتبتُ إلى الوزير أعزّه الله كتاباً أستزِيده في رِزقي، فوقّع على ظهره توقيع ضَجِرٍ لم يخرج فيه مع ضَجَره عمّا أَلِفتُه من حِياطته وحُسنِ نظره، فقال: إنّه قد حدَثَ لعَبْده عُجْب بنفسِه، وقد صدق - أعلى الله قدرَه - لقد شرّفني الوزيرُ بخِدْمته، وأعلى ذكري بجميل ذِكرِه، ونبّه على كفايتي بأستكفائه، ورَفَعني وكثّرني عندَ نفسي، فإن أعجِبْتُ فبنعمتِه عندي، وجميل تطوّله عليّ، ولا عجب، وهل خلا الوزيرُ من قومٍ يَصطَنِعهم بعدَ مَلّة ويَرفَعهم بعد خُمول، ويُحدِث لهم هِمَماً رفيعة وأنفساً عليّة، وفيهم شاكر وكَفور، وأرجو أن أكون أشكَرَهم للنّعمة، وأقوَمَهم بحقّها. وقد أطال الله بقاءَه: إن عَرفَ نفسَه وإلاّ عرّفناه إيّاها، فما أنكرَها، وهي نفس أنشأتْها نعمةُ الوزير وأحدثَتْ فيها ما لَم تَزل تُحدثه في نُظَرائها من سائر عبيدِه وخدَمِه، والله يَعلَم ما يأخذ به نفسَه من خدمةِ مولاه ووليّ نعمته، إمّا عادةً ودُرْبة وإما تأدّباً وهَيْبة، وإمّا شكْراً واستدامةً للنعمة. فلما قرأ القاسمُ بنُ عبيد الله كتابَه استحسَنَه، وزاد في رِزْقه.

١٤٦ - وقال عليه السلام لرجل ساله أن يعظه

الأصل: لاَ تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيَرْجُو التَّوْبَةَ بِطُول الأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِي، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِي، يَنْهَى وَلاَ يَنْتَهِي، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَمْ يَأْتِ.

يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلاَ يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ، وَيُبْغِضُ الْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ، وَيُقِيمُ عَلى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِماً، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لاَهِياً. يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ! وَإِنْ أَصَابَهُ بَلاَءٌ دَعَا مُضْطَرًّا، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرًّا، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ، وَلاَ يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ. إِن اسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُتِنَ، وَإِن افْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ، إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ.

يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلاَ يَعْتَبِرُ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلاَ يَتَّعِظُ، فَهُوَ بالْقَوْلِ مُدِلٌّ وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ.

يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى، يَرَى الْغُنْمَ مَغْرَماً، وَالْغُرْمَ مَغْنَماً، يَخْشَى الْمَوْتَ، وَلاَ يُبَادِرُ الْفَوْتَ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يُحَقِّرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ.

اَللَّغْوُ مَعَ الأَغْنِياءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ اَلْفُقَرَاءِ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، وَلاَ يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ، يُرْشِدُ نَفْسَهُ وَيُغْوِي غَيْرَهُ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي، وَيَسْتَوفِي وَلاَ يُوفِي، وَيَخْشَى اَلْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ، وَلاَ يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ.

قال الرَّضيّ رحمه الله تعالى: وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اَلْكِتَابِ إِلاَّ هَذَا اَلْكَلاَمُ لَكَفَى بِهِ مَوْعِظَةً نَاجِعَةً، وَحِكْمَةً بالِغَةً، وَبَصِيرَةً لِمُبْصِرٍ، وَعِبْرَةً لِنَاظِرٍ مُفَكِّرٍ.

الشرح: كثير من الناس يَرجون الآخرَة بغيرِ عَمَل، ويقولون: رحمة الله واسِعة، ومنهم من يَظُن أن التلفّظ بكلمتَي الشهادة كافٍ في دُخول الجنّة، ومنهم من يسوّف نفسَه بالتوبة، ويرجِىءُ الأوْقات من اليوم إلى غَد، وقد يُخْتَرَم على غِرّة فيفوتُه ما كان أمّله، وأكثرُ هذا الفصل للنّهي عن أن يقول الإنسان واعظاً لغيره ما لم يعلَم هو منْ نفسِه، كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

فأوّل كلمة قالَها عليه السلام في هذا المعنى من هذا الفصل قولُه: «يقول في الدنيا بقول الزّاهدين، ويَعمَل فيها بعمل الراغبين».

ثم وَصَف صاحبَ هذا المذهب وهذه الطريقة فقال: «إنّه إن أُعطِيَ من الدّنيا لم يَشبَع»، لأنّ الطبيعة البشريّة مجبولةٌ على حُبّ الازدياد، وإنما يَقهرها أهلُ التوفيق وأربابُ العَزْم القويّ.

قال: «وإن مُنِع منها لم يَقنَع» بما كان وَصَل إليه قبل المَنْع.

ثم قال: يَعجَز عن شكرِ ما كان أنعَمَ به عليه، ليس يعني العجزَ الحقيقيَّ، بل المراد تَرْك الشّكر، فسمَّى ترك الشكر عَجزاً. ويجوز أن يُحمَل على حقيقته، أي أنّ الشكر على ما أُولِي من النّعم لا تنتهي قُدْرَته إليه، أي نِعَم الله عليه أجلّ وأعظَم من أن يُقام بواجب شكرها.

قال: «ويبتغِي الزيادةَ فيما بَقِي»، هذا راجعٌ إلى النّحو الأوّل.

قال: يَنهَى ولا يَنتهِي ويأمرُ الناسَ بما لا يأتي»، هذا كما تقدَّم.

قال: «يُحبّ الصالحين ولا يَعمَل عَملَهم»، إلى قوله: «وهو أحدُهم»، وهو المعنَى الأوّل بعينه.

قال: يَكرَه الموتَ لكثْرةِ ذُنوبه، ويقيمُ على الذّنوب، وهذا من العجائب أن يَكرَه إنسانٌ شيئاً ثم يُقيمُ عليه، ولكنّه الغرورُ وتسويفُ النّفس بالأمانيّ.

ثم قال: «إن سَقِمَ ظَلّ نادماً، وإن صَحَّ أَمِن لاهياً»، ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2].... الآيات.

قال: «يُعجَب بنفسِه إذا عُوفِي، ويَقنَط إذا ابتُلي» ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾[3]....، ومِثل الكلمة الأخرى: «إن أصابَه بَلاء»، و«إن ناله رَخاء».

ثم قال: «تغلبه نفسُه على ما يَظُن، ولا يغلبها على ما يَستيقِن»، هذه كلمة جليلةٌ عظيمة

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤. (٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.
(٣) سورة الفجر، الآيتان: ١٥، ١٦.

يقول: هو يستيقن الحسابَ والثوابَ والعقابَ، ولا يغلِب نفسَه على مجانبةِ ومتاركةِ ما يُفضِي به إلى ذلك الخَطَر العظيم، وتغلبُه نفسه على السّعي إلى ما يَظنّ أن فيه لَذّةً عاجلةً، فواعجباً ممّن يترجّح عندَه جانبُ الظنّ على جانب العلم! وما ذاك إلاّ لضعفِ يقينِ الناس وحب العاجل.

ثم قال: «يخاف على غيره بأدنى من ذَنْبه، ويرجو لنفسه أكثرَ من عَمَله»، ما يزال يَرَى الواحد منّا كذلك يقول: إنّي لخائف على فلان من الذّنب الفلانيّ وهو مقيمٌ على أفحشَ من ذلك الذنب، ويرجو لنفسِه النّجاة بما لا تقوم أعمالُه الصّالحة بالمصير إلى النّجاة به، نحو أن يكون يصلّي رَكعاتٍ في اللّيل أو يصومَ أياماً يسيرةً في الشّهر، ونحو ذلك.

قال: «إن آستَغنَى بَطِر وفُتِن، وإن افتقَر قَنِط ووهن» قنَط بالفَتْح يَقنِط بالكسر، قُنوطاً مثل جَلَس يَجلِس جلوساً، ويجوز قَنَط يَقنُط بالضمّ مثل قَعَد يَقعُد، وفيه لغة ثالثة: قَنِط يَقنَط قَنَطاً، مثل تَعِب يَتعَب تَعباً وقَناطةً فهو قَنِط، وبه قرىء: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَنِطِينَ﴾(1)، والقُنوط اليأس. ووهَن الرجلُ يَهِن، أي ضَعُف وهذا المعنى قد تكرّر.

قال: «يقصّر إذا عَمِل، ويُبالِغ إذا سُئِل»، هذا مِثْلُ ما مَدَحَ به النبيّ ﷺ الأنصارَ: «إنكم لتَكثُرون عند الفَزَع، وتَقِلّون عند الطمع»(2).

قال: «إن عَرَضَتْ له شهوةٌ أسلَفَ المعصية، وسوّف التوبة، وإن عَرَتْه مِحنة آنفَرَج عن شرائط المِلّة»، هذا كما قيل: أمدَحُه نَقْداً ويُثيبُني نَسِيئة، وانفرج عن شرائط الملّة، قال: أو فعل ما يقتضي الخروجَ عن الدّين، وهذا موجودٌ في كثيرٍ من الناس إذا عرتْه المِحَن كَفَروا أو قال ما يُقارِب الكفرَ من التسخّط والتبرّم والتأفّف.

قال: «يَصِف العِبْرة ولا يَعتبِر، ويُبالِغ في الموعظة ولا يتّعظ»، هذا هو المعنى الأوّل.

قال: «فهو بالقول مُدِلّ، ومن العمل مُقِلّ»، هذا هو المعنى أيضاً.

قال: «ينافِسُ فيما يَفنَى»، أي في شَهَوات الدنيا ولذّاتها، و«يُسامِح فيما يَبقَى» أي في الثّواب.

قال: «يَرَى الغُنْم مَغرَماً، والغُرْم مَغنَماً»، هذا هو المعنَى الّذي ذكرْناه آنِفاً.

قال: «يَخشَى الموت، ولا يُبادِر الفَوْت»، قد تكرّر هذا المعنى في هذا الفَصْل، وكذلك قولُه: «يَستعظِم من معصيةِ غيرِه ما يستقلّ أكثر منه من نفسِه...»، وإلى آخر الفصل كلٌّ مكرّر المعنى وإن اختلفت الألفاظ، وذلك لاقتدارِه عليه السلام على العِبارة، وسَعَةِ مادّة النّطق عندَه.

(1) سورة الحجر، الآية: ٥٥.

(2) ذكره في «صفوة الصفوة» (١/ ٢٠٥).

- ١٤٧ -

الأصل: لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ عَاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ.

الشرح: هكذا قرأناه ووجَدْناه في كثيرٍ من النُّسخ، ووجَدْناه في كثير منها «لكلّ أمرٍ عاقبة»، وهو الأليَق، ومثل هذا المعنى قولُهم في المَثَل: لكلّ سائلٍ قَرار، وقد أخذَه الطائيّ فقال:

فكانتْ لوعة ثمّ استقرّتْ كذاكَ لكلّ سائلةٍ قَرارُ

وقال الكُمَيت في مِثلِ هذا:

فالآنَ صِرْتَ إلى أُمَيّـ ـةَ والأمورُ إلى مَصائرْ

فأمّا الرواية الأولى وهي: «لكلّ امرىءٍ» فنظائرُها في القرآن كثيرة، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾(١)، وقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٢)، وغير ذلك من الآيات.

- ١٤٨ -

الأصل: الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ في بَاطِلٍ إِثْمَانِ: إِثْمُ ٱلْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضَا بِهِ.

الشرح: لا فرقَ بين الرّضا بالفعل وبين المُشارَكة فيه، ألا ترى أنّه إذا كان ذلك الفعل قبيحاً ٱستَحَقّ الراضي به الذّم كما يستحقّه الفاعل له! والرّضا يفسَّر على وجهين: الإرادة، وتَرْك الاعتراض، فإن كان الإرادة فلا رَيْب أنّه يَستحِق الذّم لأنّ مُريد القَبيح فاعلٌ للقبيح، وإن كان ترك الاعتراض مع القدرة على الاعتراض فلا رَيْب أنّه يستحقّ الذم أيضاً، لأن تاركَ النهي عن المنكر مع ٱرتفاع المَوانِع يستحقّ الذمّ.

(١) سورة هود، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٣٥، ٤١.

فأمّا قولُه عليه السلام: «وعلى كل داخل في باطلٍ إثمان»، فإن أراد الدّاخل فيه بأن يَفعَله حقيقة فلا شُبهة في أنّه يأثم من جهتين:
إحداهما من حيثُ إنّه أراد القبيح.
والأخرى من حيث إنه فَعَله، وإن كان قومٌ من أصحابنا قالوا: إنّ عِقابَ المُراد هو عقابُ الإرادة.
وإن أراد أنّ الراضيَ بالقبيح فقط يستحقّ إثمين: أحدهما لأنّه رَضِيَ به، والآخر لأنه كالفاعل، فليس الأمْر على ذلك، لأنّه ليس بفاعل للقبيح حقيقةً لِيستحقّ الإثم من جهة الإرادة ومن جهة الفعليّة جميعاً، فوَجَب إذَنْ أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على الوجه الأوّل.

- ١٤٩ -

الأصل: لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ، وَمَا أَدْبَرَ فَكَأَنْ لَمْ يَكُنْ.

الشرح: هذا معنًى قد استُعمل كثيراً جدّاً، فمنه المثل:

ما طارَ طيرٌ وارتفَعْ ... إلاّ كما طارَ وَقَعْ

وقول الشاعر:

بقَدْرِ العُلوِّ يكونُ الهبوطُ ... وإيّاكَ والرُّتَبَ العاليَهْ

وقال بعض الحكماء: حركةُ الإقبال بطيئة، وحركة الإدبار سريعة، لأن المُقبل كالصاعد إلى مِرْقاة، ومِرْقاةُ المُدبر كالمَقْذوف به من عَلْو إلى أسْفل، قال الشاعر:

في هذهِ الدّار في هذا الرِّواقِ على ... هذي الوِسادة كان العزُّ فانقَرَضا

آخر:

إنّ الأمورَ إذا دَنَتْ لِزَوالِها ... فعلامَةُ الإدبار فيها تظهرُ

وفي الخبر المرفوع: كانت ناقةُ رسول الله ﷺ العَضْباء لا تُسْبَق، فجاء أعرابيٌّ عَلَى قَعودٍ له فسبَقها، فاشتد على الصحابة ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ حقّاً على الله ألاّ يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلاّ وَضَعه»[1].

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: ناقة النبي ﷺ (٢٨٧٢)، والنسائي، كتاب: الخيل، باب: السبق (٣٥٨٨)، وأحمد في «مسنده» (١١٥٩٩).

وقال شيخٌ من هَمْدانَ: بعثني أهلي في الجاهليّة إلى ذي الكَلاَع بهَدَايا، فمكثتُ تحت قصرِه حَوْلاً لا أصِل إليه، ثم أشرَف إشرافةً من كُوّةٍ له فخرّ له مَنْ حَولَ العرش سُجَّداً، ثم رأيتُه بعد ذلك بحمص فقيراً يشتري اللّحم ويسمّطه خلف دابته، وهو القائل:

أفّ لــدنْــيــا إذا كــانــت كــذا   أنــا مــنــهــا فــي هــمــوم وأذى
إنْ صفا عيشُ امرىء في صُبْحها   جَرّعتْه ممسِياً كأس الـقَـذَى
ولـقـد كـنـتُ إذا مـا قِـيـل مَـن   أنـعَمُ الـعالَـم عَـيْشاً؟ قـيـل: ذا

وقال بعضُ الأدباء في كلام له: بينا هذه الدنيا تُرضع بدرّتها وتصرّح بزبدتِها، وتلحِف فضل جناحِها، وتغرّ بركود رياحِها، إذ عطفتْ عطف الضّروس، وصرَخت صُراخ الشّموس، وشنّت غارة الهموم، وأراقت ما حَلبتْ من النعيم، فالسعيد من لم يغترّ بنكاحِها، واستعدّ لوشك طَلاقها.

شاعر - هو إهاب بن همام بن صَعْصعة المجاشعي، وكان عثمانياً:

لـعـمـرُ أبـيـكَ فـلا تَـكـذِبـنّ   لـقـد ذهـبَ الـخـيـرُ إلاّ قـلـيـلاَ
وقـد فُـتِـنَ الـنـاسُ فـي دِيـنـهـمْ   وخَـلّـى ابـنُ عَـفّـان شـرّاً طـويـلا

وقال أبو العتاهية:

يَـعـمُـر بـيـتٌ بـخـراب بـيْـتِ   يَـعـيـشُ حـيٌّ بـتـراثِ مَـيْـتِ

وقال أنس بن مالك: ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا شهرٍ ولا سنةٍ إلاّ والذي قبله خيرٌ منه، سمعتُ ذلك من نبيّكم عليه السلام، فقال شاعر:

ربَّ يـومٍ بـكـيـتُ مـنـه فـلـمّـا   صـرتُ فـي غـيـرِه بـكـيـتُ عـلـيـهِ

قيل لبعض عُظماء الكُتّاب بعد ما صُودِر: ما تُفكِر في زوال نِعمَتك؟ فقال: لا بدّ من الزوال، فلأن تزولَ وأبقَى خيرٌ من أن أزولَ وتبقى.

ومِن كلام الجاهلية الأولى: كلّ مقيمٍ شاخِص، وكل زائدٍ ناقص.

شاعر:

إنــمــا الــدنــيــا دُوَلْ   فــراحِــلٌ قــيــلَ نَــزَلْ
إذا نــازلٌ قِــيــلَ رَحَــلْ

لما فَتحَ خالدُ بنُ الوليد عين التمر سأل عن الحُرَقة بنتِ النّعمان بن المنذر، فأتاها وسألها عن حالها، فقالت: لقد طلعتْ علينا الشمس وما من شيء يَدِبّ تحت الخَوَرْنَق[1] إلا وهو

(١) الخوَرْنَق: اسم قصر بالعراق، فارسي معرب، بناه النعمان الأكبر. لسان العرب، مادة (خرنق).

تحتَ أيدِينا، ثم غَرَبَتْ وقد رَحِمْنا كلّ من نُلِمّ به، وما بيت دخلته حَبْرَة، إلا ستدخله عَبْرة، ثم قالت:

فَبَيْنَا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سُوقةٌ نتنصّفُ
فأفٌ لدنيا لا يَدُوم نعيمها تَقلَّب تاراتٍ بنا وتَصرَّفُ

وجاءنا سعدُ بنُ أبي وقاص مرّة، فلما رآها، قال: قاتل الله عَدِيَّ بن زيد، كأنه كان ينظر إليها حيث قال لأبيها:

إن للدّهرِ صَرْعَةً فاحذَرَنْها لا تبيتنّ قد أمِنْتَ الدّهورا
قد يبيتُ الفَتى مُعَافَى فيَرْدَى ولقد كان آمِناً مَسرُورا

وقال مطرِّف بنُ الشِّخِّير: لا تنظروا إلى خفضِ عيش الملوك ولينِ رِياشهم، ولكن انظروا إلى سُرعةِ ظَعْنِهم وسوء مُنقَلَبهم، وإن عُمْراً قصيراً يستوجِب به صاحبُه النارَ لَعُمرٌ مشؤومٌ على صاحبه.

لما قتل عامِرُ بنُ إسماعيل مَرْوانَ بن محمد وقَعَد على فراشه، قالت ابنة مَرْوان له: يا عامر، إنّ دهراً أنزلَ مروانَ عن فُرُشِه وأقْعَدَك عليها لَمُبْلِغٌ في عِظَتك إن عَقَلْتَ.

— ١٥٠ —

الأصل: لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وإنْ طَالَ بِهِ الزَّمانُ.

الشرح: قد تقدّم كلامُنا في الصبر.

وقالت الحكماء: الصّبرُ ضَرْبان: جسميّ ونفسيّ، فالجسميّ تحمُّل المَشَاقّ بقدر القوّة البدنيّة، وليس ذلك بفضيلة تامّة، ولذلك قال الشاعر:

والصبرُ بالأرواحِ يُعرَف فضله صبر الملوك وليس بالأجْسامِ

وهذا النّوع إمّا في الفعل كالمشي ورَفْع الحجَر أو في رفع الانفعال كالصّبر على المَرَض واحتمال الضرب المُفْظِع. وأما النفسي ففيه تتعلّق الفضيلة، وهو ضَرْبان: صبرٌ عن مشتهى، ويقال له: عِفّة، وصَبْر على تحمل مكروه أو محبوب. وتختلف أسماؤه بحسب اختلافِ مَواقِعه، فإن كان في نزول مصيبة لم يتعدّ به اسم الصبر، ويضادّه الجَزَع والهلع والحُزْن، وإن كان في احتمال الغنى سمّي ضبط النفس، ويضادّه البَطر والأشَر والرّفغ وإن كان في محاربة

سمّي شجاعةً ويضادّه الجُبن، وإن كان في إمساكِ النفس عن قضاء وَطَر الغضب سمي حِلْماً، ويضادّه التذمّر والاستشاطة، وإن كان في نائبة مضجرة سمّي سَعة صَدْر، ويضادّه الضَّجَر وضيق العَطَن والتبرّم، وإن كان في إمساك كلامٍ في الضمير سمّي كِتْمان السرّ، ويضادّه الإفشاء، وإن كان عن فضول العيش سمّي قناعةً وزهداً ويضادّه الحرْص والشّرَه. فهذه كلها أنواعُ الصبر، ولكن اللفظ العُرْفيّ واقع على الصبر الجُسْمانيّ، وعلى ما يكون في نزول المصائب، وتنفرد باقي الأنواع بأسماء تخصُّها.

- ١٥١ -

الأصل: مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتان إلاَّ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلاَلَةً.

الشرح: هذا عند أصحابنا مختصٌّ باختلاف الدّعوة في أصول الدّين، ويَدْخل في ذلك الإمامة، لأنها من أصول الدين، ولا يجوز أن يَختلِف قولان متضادّان في أصول الدين فيكونان صواباً، لأنه إن عَنَى بالصواب مطابقة الاعتقاد للخارج، فمستَحيل أن يكون الشيءُ في نفسه ثابتاً منفياً، وإن أراد بالصّواب سُقوط الإثم - كما يحكى عن عُبَيْد بن الحسن العَنْبري - فإنه جعل اجتهاد المجتهدين في الأصول عُذْراً، فهو قولٌ مسبوق بالإجماع.

ولا يحمل أصحابنا كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على عمومِه، لأن المجتهدين في فروع الشريعة وإن اختَلَفوا وتضادّت أقوالهمْ ليسوا ولا واحد منهم على ضلال، وهذا مشروحٌ في كُتُبنا الكلاميّة في أصول الفِقْه.

- ١٥٢ -

الأصل: مَا كَذَبْتُ وَلاَ كُذِبْتُ، وَلاَ ضَلَلْتُ وَلاَ ضُلَّ بِي.

الشرح: هذه كلمةٌ قد قالها مراراً، إحداهنّ في وقعة النّهروان.

وكُذِبت بالضم أُخبِرْت بخبَر كاذب، أي لم يخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله عن المخدَج خبراً كاذباً، لأن أخبارَه صلى الله عليه وآله كلها صادقة.

وضُلّ بي، بالضمّ نحو ذلك، أي لم يُضلِلني مضلّل عن الصدق والحق، لأنه كان يَسْتنِد في أخباره عن الغيوب إلى رسول الله ﷺ وهو منزّه عن إضلاله وإضلال أحد من المكلفين.

فكأنّه قال لما أخبرهم عن المخدَج وإبطاء ظهورِه لهم: أنا لم أكذِب على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لا يكذب فيما أخبرني بوقوعه، فإذاً لا بدّ من ظفَركم بالمخدَج فاطلبوه.

- ١٥٣ -

الأصل: لِلظَّالِمِ الْبَادِي غَداً بِكَفِّهِ عَضَّةٌ.

الشرح: هذا من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[1]، وإنما قال: «للبادي» لأنّ من انتصر بعد ظُلْمه فلا سبيل عليه. ومن أمثالهم: البادي أظلم.

فإن قلت: فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالماً، فأيّ حاجة له إلى الاحتراز بقوله: «البادي»؟

قلتُ: لأنّ العرب تُطلِق على ما يَقَع في مُقابلة الظلم اسم «الظلم» أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[2].

- ١٥٤ -

الأصل: الرَّحِيلُ وَشِيكٌ.

الشرح: الوشيكُ: السريع، وأراد بالرحيل هاهنا الرّحيل عن الدنيا وهو الموت.

وقال بعضُ الحكماء: قبل وجود الإنسان عدم لا أوّل له. وبعدَه عدَم لا آخر له، وما شبّهت وجوده القليل المتناهي بين العدمين غير المتناهِيَين إلاّ ببَرْق يخطَف خَطْفة خفيفةً في ظلامِ مُعتكر، ثم يخمد ويَعود الظّلام كما كان.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

- ١٥٥ -

الأصل: مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ.

الشرح: قد تقدّم تفسيرُنا لهذه الكلمة في أوّل الكتاب، ومعناها، : من نابَذَ الله وحاربه هلك، يقال لمن خالَف وكاشَف: قد أبْدَى صَفْحَته.

- ١٥٦ -

الأصل: اسْتَعْصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَارِهَا.

الشرح: أي في مَظانّها وفي مركزها، أي لا تستنِدوا إلى ذمام الكافرين والمارِقين، فإنهم ليسوا أهلاً للاستِعصام بِذمِمهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾(١). وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾(٢).

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمرِ الجمل وحضور قومٍ من الطُّلَقاء بين يديه ليُبايعوه، منهم مَرْوان بن الحكَم، فقال: وماذا أصنع ببَيْعتك؟ ألم تُبايعْني بالأمس! يعني بعدَ قتل عثمان، ثم أمر بإخراجهم ورفْعِ نفسه عن مبايعة أمثالهم، وتكلم بكلامٍ ذكر فيه ذِمامَ العربية وذمامَ الإسلام، وذكر أن من لا دِين له فلا ذِمامَ له.

ثم قال في أثناء الكلام: «فاستعصِمُوا بالذمم في أوتارِها»، أي إذا صَدَرَتْ عن ذَوِي الدِّين، فمنْ لا دين له لا عَهْدَ له.

- ١٥٧ -

الأصل: عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لاَ تُعْذَرُونَ فِي جَهَالَتِهِ.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢.

الشرح: يعني نفسَه عليه السلام، وهو حقّ على المذهَبين جميعاً، أما نحن فعندنا أنه إمامٌ واجبُ الطاعة بالاختيار، فلا يُعذَر أحدٌ مِن المكلّفين في الجهل بوجوب طاعته، وأمّا على مذهبِ الشّيعة فلأنه إمامٌ واجبُ الطاعة بالنص، فلا يُعْذَر أحدٌ من المكلفين في جَهالة إمامته، وعندهم أن معرفة إمامته تَجري مجرى معرفةِ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومَجرَى معرفة الباريء سبحانه، ويقولون: لا تصحّ لأحد صلاةٌ ولا صَوْمٌ ولا عبادة إلا بمعرفة الله والنبيّ والإمام.

وعلى التحقيق، فلا فرق بيننا وبينهم في هذا المعنى، لأنّ من جَهل إمامة عليٍّ عليه السلام وأنكرَ صِحّتها ولزومها، فهو عند أصحابنا مخلد في النار، لا ينفعه صوم ولا صلاة، لأنّ المعرفة بذلك من الأصول الكليّة التي هي أركانُ الدين. ولكننا لا نُسَمّي مُنكر إمامته كافراً، بل نسميّه فاسقاً، وخارجياً، ومارِقاً، ونحو ذلك، والشّيعة تسميه كافراً، فهذا هو الفَرْق بيننا وبينهم، وهو في اللفظ لا في المعنى.

– ١٥٨ –

الأصل: مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُنْذُ أُرِيتُهُ.

الشرح: اي منذ أُعلِمْتُه، ويجب أن يُقدَّر هاهنا مفعول محذوف، أي منذ أُريته حقّاً، لأنّ «أرَى» يتعدّى إلى ثلاثة مَفاعيل، تقول: أَرَى الله زَيْداً عَمْراً خيرَ الناس، فإذا بنيتَه للمَفْعول به قام واحدٌ من الثلاثة مَقام الفاعِل ووَجَب أن يُؤتى بمفعولين غيره، تقول: أريت زيداً خيرَ الناس، وإن كان أشارَ بالحقّ إلى أمرٍ مُشاهَد بالبَصر لم يَحتَجْ إلى ذلك، ويجوز أن يَعني بالحقّ الله سبحانَه وتعالى، لأن الحق من أسمائِه عز وجل، فيقول: منذ عرفتُ الله لم أشُكَّ فيه، وتكون الرؤية بمعْنَى المَعرِفة، فلا يحتاج إلى تقدير مَفعولٍ آخَر، وذلك مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1]؛ أي لا تَعرِفونهم، الله يَعرِفهم، والمراد من هذا الكلام ذكرُ نعمةِ الله عليه في أنّه منذ عَرَف الله سبحانَه لم يَشُكَّ فيه، أو منذ عرف الحقّ في العَقائد الكلاميّة والأصوليّة وَالفِقْهيّة لم يشكّ في شيء منها، وهذه مَزيّةٌ له ظاهرة على غيره من الناس، فإنّ أكثرَهم أو كلَّهم يشكّ في الشيء بعد أن عرفَه وتعتَوِره الشُّبَه والوَساوِس ويُران على قَلْبِه وتَختَلِجُه الشياطين عمّا أدّى إليه نظره.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

وقد رُوِي أن النبيّ ﷺ لما بَعَثَه إلى اليمن قاضياً ضَرَبَ على صَدْره وقال: «اللهم اهدِ قلبه، وثَبِّت لسانَه»[(١)]، فكان يقول: ما شككْتُ بعدَها في قضاءٍ بين اثنين.

ورُوِي أنّ رسول الله ﷺ لمّا قرأ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[(٢)] قال: «اللهم اجعلها أُذُنَ عليّ»، وقيل له: «قد أجيبتْ دعوتُك»[(٣)].

– ١٥٩ –

الأصل: وَقَدْ بُصِّرْتُم إنْ أبصَرْتُم، وَقَدْ هُدِيتُمْ إنِ اهْتَدَيْتُم.

الشرح: قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[(٤)].

وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(٥)].

وقال بعض الصالحين: ألا إنّهما نَجْدا الخَيْر والشّر، فجعل نَجْد الشرّ أحب إليكم من نَجْد الخير.

قلت: النَّجد: الطّريق.

واعلم أن الله تعالى قد نَصَب الأدِلّة ومَكّن المكلّف بما أكمَل له من العقل من الهداية، فإذا ضلّ فمِنْ قِبَل نفسِه أتي.

وقال بعضُ الحكماء: الّذي لا يقبَل الحكمةَ هو الّذي ضَلّ عنها ليست هي الضالّة عنه.

وقال: متى أحسستَ بأنّك قد أخطأت وأردتَ ألاّ تعود أيضاً فتُخطىء فانظر إلى أصلٍ في نفسك حَدَث عنه ذلك الخطأ، فاحتَلْ في قَلْعِه، وذلك إنّك إن لم تفعل ذلك عادَ فثَبّت خطأ آخر. وكان يقال: كما أن البدن الخالي من النّفس تَفُوح منه رائحة النَّتْن، كذلك النفْس الخالية من الحِكْمة، وكما أن البَدَن الخاليَ من النّفس ليس يحسّ ذلك بالبدن بل الّذين لهم حِسّ

(١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأقضية، باب: كيف القضاء (٣٥٨٢)، وابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب: ذكر القضاة (٢٣١٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٤١٩).

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٦٩.

(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٣٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٧)، والطبري في «تفسيره»، عند تفسير هذه الآية.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٧.

(٥) سورة البلد، الآية: ١٠.

يُحِسّونه به، كذلك النّفس العَدِيمة للحكمة ليس تحسّ به تلك النفس، بل يُحِسّ به الحكماء، وقيل لبعض الحكماء: ما بالُ الناسِ ضَلّوا عن الحقّ؟ أتقول: إنّهم لم تُخْلَق فيهم قوّة مَعرفة؟ فقال: لا، بل خُلِق لهم ذلك، ولكنّهم استعمَلُوا تلك القوّة على غير وجهِها، وفي غير ماخُلِقَتْ له، كالسّمّ تَدفَعه إلى إنسانٍ ليَقتُل به عدوَّه فيَقْتُلُ به نفسَه.

- ١٦٠ -

الأصل: عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ.

الشرح: الأصل في هذا قولُ الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

وروى المبرد في «الكامل» عن ابن عائشة، عن رجل من أهل الشام، قال: دخلتُ المدينة، فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسَنَ وَجْهاً ولا ثَوْباً ولا سَمْتاً ولا دابّة منه، فمال قلبي إليه، فسألت عنه، فقيل: هذا الحسنُ بنُ الحسن بن عليّ، فامتلأ قلبي لهُ بغضاً، وحسدْتُ عليًا أن يكون له ابن مثله، فصرتُ إليه وقلتُ له: أنت ابن أبي طالب؟ فقال: أنا ابن ابنه، قلت: فبك وبأبيك! فلمّا انقضى كلامي قال: أحسبك غريباً؟ قلت: أجَل، قال: فَمِلْ بنا، فإن احتَجْت إلى منزلٍ أنزلناك، أو إلى مالٍ واسَيْناك، أو إلى حاجةٍ عاوَنّاك.

فانصرفْتُ عنه وما على الأرض أحدٌ أحبّ إليّ منه.

وقال محمود الورّاق:

إنّي شكرتُ لظالمي ظُلْمي ... وغَفَرْتُ ذاكَ لهُ على عِلْمِ
ورأيتُهُ أهدَى إلَيَّ يداً ... لمّا أبانَ بجهلِهِ حِلْمي
رجعَتْ إساءتُهُ عليه وإحـ ... ـساني فَعَادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ
وغدَوْتُ ذا أجرٍ ومَحمَدَةٍ ... وغدَا بِكَسْبِ الظّلمِ والإثمِ
فكأنّما الإحسانُ كان لهُ ... وأنا المُسيءُ إليهِ في الحُكْمِ
ما زالَ يَظْلِمُني وأرْحَمُهُ ... حتّى بكيتُ له من الظُّلْمِ

قال المبرّد: أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش قال له رجل منهم: إنّي مَرَرْتُ بآل فلان

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

وهم يَشْتُمُونك شَتْماً رَحِمْتك منه، قال: أفسمِعتَني أقول إلاّ خيراً! قال: لا، قال: إياهم فارحم.
وقال رجل لأبي بكر: لأَشْتُمَنّك شَتْماً يَدْخل معك قبْرَك، فقال: مَعَك والله يَدْخل، لاَ معي.

- ١٦١ -

الأصل: مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلاَ يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ.

الشرح: رأى بعضُ الصّحابة رسول الله ﷺ واقفاً في دَرْبٍ من دروب المدينة ومعه امرأةٌ فَسَلّم عليه، فردّ عليه، فلما جاوَزَه ناداه فقال: «هذه زَوْجتي فلانة»، قال: يا رسول الله، أوَفيك يُظَنّ! فقال: «إن الشيطان يجرِي مِن ابن آدم مجرَى الدم»[١].

وجاء في الحديث المرفوع: «دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يريبُك»[٢].

وقال أيضاً: «لا يكملُ إيمانُ عبدٍ حتى يترُك ما لا بأسَ به»[٣].

وقد أخذ هذا المعنى شاعرٌ فقال:

وزعمتَ أنّك لا تَلوط فقل لنا ... هذا المُقَرْطَقُ واقفاً ما يَصنَع!
شَهِدتْ مَلاحتُه عليكَ بِرِيبةٍ ... وعلى المُرِيبِ شَواهدٌ لا تُدْفَعُ

- ١٦٢ -

الأصل: مَن مَلَكَ اسْتَأْثَرَ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (٢٠٣٨)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رُئي خالياً بامرأة وكانت زوجته (٢١٧٤)، وأبو داود، كتاب: الصوم، باب: المعتكف يدخل البيت لحاجته (٢٤٧٠).
(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب: البيوع، باب: تفسير الشبهات، والترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب: منه (٢٥١٨)، والنسائي، كتاب: آداب القضاء، باب: الحكم باتفاق أهل العلم (٥٣٩٧).
(٣) في ديوان: ٤/ ١٢٥.

الشرح: المعنى أن الأغلب في كلّ ملك يَستأثر على الرعية بالمال والعزّ والجاه.

ونحو هذا المعنى قولهم: مَن غَلَب سَلَب، ومن عَزّ بَزّ[1].

ونحوه قول أبي الطيّب:

والظلمُ من شِيمِ النفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفّةٍ فلِعِلّةٍ لا يظلمُ

- ١٦٣ -

الأصل: مَن اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجالَ شارَكَها في عُقُولِها.

الشرح: قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ في المَشُورة مدحاً وذماً.

وكان عبدُ الملك بن صالح الهاشميُّ يذمُّها ويقول: ما استَشَرتُ واحداً قطّ إلاّ تكبّر عليّ وتصاغرتُ له، ودخلته العِزّة ودخلَتني الذّلة، فإياك والمَشُورة وإن ضاقتْ عليك المذاهبُ، واشتبَهتْ عليك المسائل، وأدّاك الاستبدادُ إلى الخطأ الفادح.

وكان عبدُ الله بنُ طاهر يذهب إلى هذا المذهَب، ويقول: ما حَكّ جِلدك مِثلُ ظُفرِك، ولأنْ أخطىء مع الاستبداد ألفَ خطأ، أحبُّ إليّ من أن أستشير وأُرَى بعين النقْص والحاجة.

وكان يقال: الاستشارة إذاعة السرّ، ومخاطرةٌ بالأمر الذي ترومُه بالمشاوَرة، فرُبَّ مستشارٍ أذاعَ عنك ما كان فيه فساد تدبيرك.

وأما المادِحون للمشُورة فكثير جدًّا. وقالوا: خاطر مَن استبدّ برأيه.

وقالوا: المَشُورة راحةٌ لك، وتَعبٌ على غيرك.

وقالوا: مَن أكثر من المَشورة لم يعدَم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً.

وقالوا: المستشير على طَرَف النّجاح، والاستشارة مِن عَزْم الأمور.

وقالوا: المَشُورة لقاحُ العقول، ورائد الصواب.

ومن ألفاظهم البديعة: ثمرَة رأي المُشير أحلى مِن الأرْيِ المشور.

وقال بَشّار:

إذا بلغ الرأيُ النّصيحةَ فاستَعِنْ بعَزم نصيح أو مشورة حازِمِ

ولا تَجعَل الشورَى عليك غَضاضةً فإنّ الخوافي عُدّة للقوادِمِ

---

(١) البَزّ: السلب. لسان العرب مادة (بزز).

- ١٦٤ -

الأصل: مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في السرّ والأمر بكتمانه، ونذكر هاهنا أشياء أخر.

من أمثالهم: مَقتل الرَّجُل بين لَحْيَيه.

دنا رجلٌ مِن آخر فسارّه، فقال: إن مِن حق السرّ التداني.

كان مالكُ بنُ مِسمع إذا ساره إنسانٌ قال له: أظهره، فلو كان فيه خيرٌ لما كان مكتوماً.

حكيم يُوصي ابنه: يا بُنيّ كُنْ جَواداً بالمال في موضع الحقّ، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق، فإنّ أحمد جُود المرء الإنفاق في وجه البرّ.

ومِن كلامهم: سِرُّك من دَمِك، فإذا تكلّمت به فقد أرَقْتَه.

وقال الشاعر:

فلا تُفْشِ سِرّكَ إلاّ إليكَ ... فإنّ لكلّ نصيحٍ نَصيحا

ألم ترَ أنّ غُواةَ الرّجال ... لا يتركون أدِيماً صحيحا!

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز: القلوب أوْعِيةُ الأسرار والشِّفاه أقْفالها، والألسُن مفَاتِيحُها فليحفظ كلُّ امرىء مفتاحَ سِرّه.

وقال بعض الحكماء: مَن أفشى سِرَّه كَثُر عليه المتآمِرُون.

أسَرّ رجل إلى صديقٍ سرًّا ثم قال له: أفهمْتَ؟ قال له: بل جهلتُ، قال: أحفِظْتَ؟ قال: بل نسيت.

وقيل لرجل: كيف كتمانُك السرّ؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمُسْتَخبِر.

أنشد الأصمعيّ قولَ الشاعر:

إذا جاوَزَ الاثْنَيْن سِرٌّ فإنه ... بِنَثٍّ وتكثيرِ الوُشاة قَمِينُ

فقال: والله ما أراد بالاثنين إلاّ الشَّفَتَين.

- ١٦٥ -

الأصل: الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ.

الشرح: في الحديث المرفوع: «أشقى الأشقياء مَن جُمِعَ عليه فقرُ الدنيا وعذاب الآخرة»[1].

وأتى بُزُرْجُمِهرَ فقيرٌ جاهل، فقال: بئسما اجتمع على هذا البائس: فَقْر ينقص دنياه، وجهلٌ يُفسِد آخرته.

شاعر:

خُلِقَ المالُ واليَسارُ لِقَوْمٍ ... وأراني خُلِقتُ للإملاقِ
أنا فيما أرى بقيَّةُ قومٍ ... خُلِقوا بعد قِسْمَةِ الأرزاقِ

أخَذَ السِّيواسيُّ هذا المعنى، فقال في قصيدته الطويلة المعروفة بالساسانية:

ليتَ شِعري لمّا بدا يقسم الأر ... زاق في أيِّ مطبَق كنت

قرىء على أحد جانِبَيْ دينار:

قُرِنتُ بالنُّجح وبي كلُّ ما ... يرادُ مِن ممتنعٍ يُوجَدُ

وعلى الجانب الآخر:

وكلّ من كنتُ له آلِفاً ... فالإنس والجنّ له أعبُدُ

وقال أبو الدّرداء: مَن حفظ ماله فقد حَفظ الأكثر من دِينه وعِرْضه.

بعضهم:

وإذا رأيتَ صعوبةً في مطلبٍ ... فاحمل صعوبته على الدِّينارِ
ترده كالظُّهر الذلُول فإنّه ... حجرٌ يليِّن قوّة الأحجارِ

ومن دعاء السَّلَف: اللهمّ إني أعوذ بك من ذُلّ الفَقْر وبطَر الغِنَى.

- ١٦٦ -

الأصل: مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لاَ يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَّدَهُ.

الشرح: عَبّده بالتشديد، أي اتخذه عَبْداً، يقال: عبّده واستَعْبده بمعنى واحد، والمعنى بهذا الكلام مَدْحُ مَن لا يقضي حقَّهُ، أي من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنه

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٩١١) وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٣)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٦٩)، وكذلك في «مسند الشاميين» (١٦١٥)، والشهاب في «مسنده» (١١٢٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤٦٣).

لم يفعلْ معه ذلك مكافأةً له عن حقّ قضاه إيّاه، بل فعل ذلك إنعاماً مبتدأ، فقد استعبده بذلك.

وقال الشاعر في نقيض هذه الحال يخاطب صاحباً له:

كنْ كأنْ لم تلاقِني قَطُّ في النّا ... سِ ولا تجعلَنّ ذِكْرايَ شَوْقا

وتيقّنْ بأنني غيرُ راءٍ ... لك حقّاً حتى تَرى لِيَ حَقّا

وبأنّي مفوّقٌ ألفَ سَهْمٍ ... لكَ إن فوّقتْ يمينُك فُوقا

- ١٦٧ -

الأصل: لا طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخالِقِ.

الشرح: هذه الكلمةُ قد رويتْ مَرفوعة[١]، وقد جاء في كلام أبي بكر: أطيعوني ما أطعتُ الله، فإذا عصيتُه فلا طاعة لي عليكم.

وقال معاوية لشدّاد بن أوس: قم فاذكر عليّاً فانتقصْه، فقام شدّاد فقال: الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده، وجعل رضاه عند أهل التقوى آثَرُ مِن رضا غيره، على ذلك مَضى أوّلهم، وعليه مضى آخرهم. أيّها الناس، إنّ الآخرة وعدٌ صادق يَحكم فيها مَلِك قاهر وإنّ الدّنيا أكلٌ حاضر، يأكل منها البرّ والفاجِر، وإن السامع المطيع لله لا حُجّة عليه وإن السامع العاصيَ لله لا حجّة له، وإنّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالق، وإذا أراد الله بالناس خيراً استعمل عليهم صُلحاءهم، وقضى بينهم فُقهاؤهم، وجعل المال في سُمَحائهم، وإذا أراد بالعباد شرّاً عمل عليهم سُفهاؤهم، وقضى بينهم جُهلاؤهم، وجعل المال عند بُخَلائهم. وإنّ من إصلاح الوُلاة أن تُصلح قرناءها. ثمّ التَفَت إلى معاوية فقال: نَصَحَك يا معاوية مَن أسخَطَك بالحق، وغَشّك من أرْضاك بالباطل! فقطع معاويةُ عليه كلامَه، وأمَرَ بإنزاله، ثم لاطفَه وأمَر له بمال، فلما قبضه قال: ألستُ من السّمحاء الذين ذكرت؟ فقال: إن كان لك مالٌ غيرُ مال المسلمين أصبته حلالاً، وأنفقته إفضالاً فنعم، وإن كان مالُ المسلمين احتجبْتَه دونهم أصبْتَه اقترافاً، وأنفقْتَه إسْرافاً، فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[٢].

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٩٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٣٧٨٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩١٧).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٧.

- ١٦٨ -

الأصل: لاَ يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ.

الشرح: لعل هذه الكلمةَ قالها في جواب سائلٍ سأله: لِمَ أخّرت المطالبةَ بحَقّك من الإمامة؟

ولا بدّ من إضمار شيءٍ في الكلام على قولنا وقولِ الإماميّة، لأنّا نحن نقول: الأمرُ حَقّه بالأفضليّة وهم يقولون: إنّه حقّه بالنصّ، وعلى كِلاَ التقديرَين فلا بدّ من إضمار شيء في الكلام؛ لأنّ لقائلٍ أن يقول له عليه السلام: لو كان حَقُّك من غير أن يكون للمكلّفين فيه نصيبٌ لجاز ذلك أن يؤخّر كالدّين الّذي يستحقّ على زيد، يجوز لك أن تؤخّره لأنّه خالِصٌ لك وَحْدَك، فأمّا إذا كان للمكلّفين فيه حاجةٌ ماسّة لم يكن حقّك وحدَك؛ لأنّ مصالح المكلّفين مَنوطةٌ بإمامَتِك دون إمامةِ غيرِك، فكيف يجوز لك تأخيرُ ما فيه مصلحةُ المكلّفين؟ فإذَنْ لا بدّ من إضمار شيء في الكلام. وتقديرُه: لا يُعابُ المرء بتأخير حقّه إذا كان هناك مانعٌ عن طَلَبه، ويستقيم المعنى حينئذٍ على المَذهَبيْن جميعاً، لأنّه إذا كان هناك مانعٌ جاز تقديم غيره عليه، وجاز له أن يؤخّر طلبَ حقّه خوفَ الفتنة، والكلام في هذا الموضع مُستقصًى في تصانيفِنا في علم الكلام.

- ١٦٩ -

الأصل: الإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الازْدِيَادِ.

الشرح: قد تقدّم لنا قولٌ مقْنِع في العُجْب، وإنما قال عليه السلام: «يمنع من الازدياد» لأنّ المُعجَب بنفسه ظانٌّ أنّه قد بَلغ الغَرَض، وإنما يَطلُب الزّيادةَ مَنْ يستشعِر التقصير لا مَن يتخيّل الكمال، وحقيقة العجب ظنُّ الإنسان بنفسِه استحقاقَ منزلةٍ هو غيرُ مستحقّ لها؛ ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجَباً بنفسِه: يسرّني أن أكون عندَ الناس مِثلك في نفسِك، وأن أكونَ عندَ نفسي مِثلك عند الناس، فتمنّى حقيقة ما يقدّره ذلك الرجل، ثم تمنّى أن يكون عارِفاً بعيوب نفسِه، كما يَعرِف الناسُ عيوبَ ذلك الرجل المُعجَب بنفسه.

وقيل للحَسَن: مَن شرُّ الناس؟ قال: مَن يرى أنه خيرُهم.

وقال بعض الحكماء: الكاذب في نهاية البُعْدِ من الفَضْل، والمُرَائي أسوأ حالاً من

الكاذب، لأنّه يَكذِب فعلاً، وذاك يَكذِب قَوْلاً، والفِعْل آكَدُ من القَوْل، فأمّا المُعجَب بنفسِه فأسوأ حالاً منهما، لأنهما يَرَيان نَقْصَ أنفسِهما، ويُرِيدان إخفاءَه، والمُعجَب بنفسِه قد عَمِي عن عيوبِ نفسِه فيرَاها محاسنَ ويُبدِيها.

وقال هذا الحكيمُ أيضاً: ثمّ إنّ المُرَائيَ والكاذبَ قد يُنتفَع بِهما كمَلاّح خافَ رُكّابُه الغَرَق من مكانٍ مَخُوف من البَحر، فبَشّرهم بتجاوُزِه قبل أن يتجاوزه لئلا يَضطربوا فيتعجّل غرَقهم.

وقد يُحمَد رِياءُ الرئيس إذا قَصَد أن يُقتَدى به في فِعل الخير، والمُعجب لا حظّ له في سببٍ من أسباب المَحمَدة بحالٍ.

وأيضاً فلأنّك إذا وَعَظْتَ الكاذب والمرائيَ فنفسهما تصدِّقك وتثلبهما لمعرفتهما بنفسِهما، والمعجب فلِجهلِه بنفسِه يظنُّك في وَعْظه لاغياً، فلا يَنتَفع بمقَالِك، وإلى هذا المعنى أشارَ سبحانه بقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1]، ثم قال سبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[2]، تنبيهاً على أنّهم لا يَعْقلون لإعجابهم.

وقال عليه السلام: ثلاثٌ مُهلِكات: شُحّ مُطاع، وهَوًى متّبع، وإعجابُ المرءِ بنفسه[3].

وفي المثَل: إن إبليس قال: إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لم أطالِبْه بغيرها: إذا أُعجِب بنفسِه، واستكثرَ عملَه، ونسيَ ذُنوبَه.

وقالت الحكماء: كما أن المُعجَب بفرَسه لا يروم أن يَستبدِل به غيرَه، كذلك المُعجَب بنفسه لا يُريد بحالِه بَدلاً، وإن كانت رديئةً.

وأصل الإعجاب من حُبّ الإنسان لنفسِه، وقد قال عليه السلام: «حُبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِمّ»[4]، ومن عَمِيَ وصَمَّ تَعذَّر عليه رؤيةُ عُيوبه وسماعُها، فلذلك وَجَب على الإنسان أن يَجعَل على نفسه عيوناً تُعرِّفه عيوبَه، نحوَ ما قال عمر: أحبُّ الناسِ إليّ امرؤٌ أهدَى إليّ عيوبي.

ويَجب على الإنسان إذا رَأى من غيره سيئة أن يَرجِع إلى نفسه، فإن رَأى ذلك موجوداً فيها نَزَعها ولم يَغفَل عنها، فما أحسنَ ما قال المتنّبي:

ومن جهلت نفسُه قدرَه ... رأى غيرُه منه ما لا يَرَى

وأما التِّيه وماهيّتُه فهو قريب من العُجب، لكنّ المُعجَب يصدّق نفسه وَهماً فيما يظنّ بها، والتيّاه يصدّقها قَطعاً، كأنّه متحيّر في تيه. ويُمكن أن يفرق بينهما بأمرٍ آخر، ويقول: إنّ

(١) سورة فاطر، الآية: ٨. (٢) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم: ٢٠٦٠٦، وأخرجه الطبراني في الأوسط: ٥/ ٣٢٨.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ١٩٤، وأخرجه الطبراني في الأوسط: ٤/ ٣٣٤.

المعجَب قد يُعجَب بنفسِه ولا يؤذي أحداً بذلك الإعجاب، والتّيّاه يَضُمّ إلى الإعجاب الغَضّ من الناس، والترفُّع عليهم، فيَستلزم ذلك الأذى لهم، فكلُّ تائهٍ معجَب، وليس كلُّ معجَب تائهاً.

- ١٧٠ -

الأصل: الْأَمْرُ قَرِيبٌ، وَالاصْطِحَابُ قَلِيلٌ.

الشرح: هذه الكلمةُ تذكّر بالموت وسرعةِ زَوال الدّنيا، وقال أبو العلاء:

نفسِي وجِسْمِي لمّا استجمَعَا صَنَعا ... شرًّا إليّ فَجَلّ الواحدُ الصَّمَدُ
فالجِسْم يعذل فيه النفسَ مجتهداً ... وتلكَ تَزعُم أنّ الظالمَ الجَسَدُ
إذا هُما بعدَ طُولِ الصُحبة افْتَرَقا ... فإن ذاكَ لأحداث الزمانِ يَدُ
وأصبحَ الجوهر الحسّاسُ في محنٍ ... موصولةٍ واستراحَ الآخر الجَمَدُ

- ١٧١ -

الأصل: قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.

الشرح: هذا الكلامُ جارٍ مَجرَى المَثَل، ومثله:

والشمسُ لا تَخفَى عن الأبْصارِ

ومِثله:

إن الغزَالةَ لا تَخفَى عن البَصَرِ

وقال ابن هانِىء يَمدَح المعتزّ:

فاستيقظوا من رَقْدَةٍ وتَنَبَّهوا ... ما بالصّباح عن العُيون خَفاءُ
ليستْ سَماءُ الله ما تَرَوْنَها ... لكنّ أرضاً تَحتَويه سَماءُ

- ١٧٢ -

الأصل: تَرْكُ الذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ.

الشرح: هذا حق، لأنّ ترك الذّنب هو الإحجامُ عنه، وهذا سَهلٌ على من يَعرِف أَثَر الذّنب على ماذا يكون، وهو أسهَل من أن يُواقِع الإنسانُ الذّنب، ثمّ يَطلُب التوبة، فقد لا يخلص داعيه إليها، ثم لو خَلَص فكيف له بحصُوله على شروطها، وهي أن يَندَم على القبيح لأنّه قبيح، لا لخَوف العقاب، ولا لِرجاء الثّواب، ثمّ لا يكفيه أن يتوبَ من الزّنى وحدَه، ولا مِنْ شُرب الخمر وحدَه، بل لا تصحّ توبتُه حتى تكون عامّةً شاملة لكلّ القبائح فيندَم عَلَى ما قال ويودّ أنّه لم يَفعَل، ويَعزِم على ألاّ يُعاود معصيةً أصْلاً، وإن نَقَض التّوبة عادتْ عليه الآثامُ القديمةُ والعقاب المستحق أولاً الذي كان سَقَط بالتوبة على رأي كثيرٍ من أرباب عِلم الكلام، ولا رَيب أنّ تركَ الذّنب من الابتداء أسْهَلُ من طَلَب توبةٍ هذه صِفَتُها.

وهذا الكلام جارٍ مَجرَى المَثَل يُضرَب لمن يَشرع في أمرٍ يخاطر فيه، ويرجو أن يتخلّص منه فيما بعدُ بوَجْه من الوجوه.

- ١٧٣ -

الأصل: كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلاَتٍ.

الشرح: أَخَذ هذا المعنى بلفظه الحَريريُّ فقال في المقامات: «رُبَّ أَكْلةٍ هاضَت الآكل، ومنَعَتْه مآكل»، وأخَذه أبو العلاّف الشاعر فقال في سِنَّوره الّذي يَرثِيه:

أردْتَ أن تأكلَ الفِراخ ولا ... يَأْكُلك الدهرُ أكلَ مضطهِدِ
يا مَن لَذيذ الفِراخ أوْقَعَه ... وَيحَك هلاّ قنعتَ بالقِدِدِا
كم أكلةٍ خامرتْ حَشا شَرِهٍ ... فأخرَجَتْ رُوحَه من الجَسَدِ

نوادر عن المكثرين من الأكل

وكان ابنُ عيّاش المَنْتوف يُمازِح المنصورَ أبا جعفر فيَحتمله على أنه كان جدًّا كله، فقدّم

المنصورُ لجلسائه يوماً بطة كثيرة الدُّهن، فأكَلوا وجَعَل يأمرهم بالازدياد من الأكل لطيبها، فقال ابن عيّاش: قد علمتُ غَرَضك يا أمير المؤمنين، إنما تُريد أن ترميَهم منها بالحجاب - يعني الهَيْضة - فلا يأكلوا إلى عشرة أيّام شيْئاً.

وفي المَثَل: «أكْلَة أبي خارجةٍ»؛ وقال أعرابيّ وهو يدعو الله بباب الكَعْبة: اللهم مِيتةً كمِيتة أبي خارِجة، فسألوه فقال: أكل بذَجاً - وهو الحَمَل -، وشرب وَطْباً من اللّبن - ويروَى من النّبيذ - وهو كالحَوْض من جلود ينبذ فيه، ونام في الشمس فماتَ فلَقي الله تعالى شَبْعانَ ريّانَ دفيئاً.

والعرب تعيّر بُكثرة الأكْل، وتعيب بالجَشَع والشَّرَه والنَّهَم، وقد كان فيهم قومٌ موصوفون بكثرة الأكْل منهم معاوية، قال أبو الحسن المَدائنيّ في «كتاب الأكْلة»: كان يأكل في اليوم أربع أكَلات أخْراهن عظْماهُنّ، ثمّ يتعشّى بعدَها بثَريدة عليها بصلٌ كثير، ودُهن كثير قد شَغَلها. وكان أكلُه فاحشاً يأكل فيلطَخ مِنديلين أو ثلاثة قبل أن يَفرُغ، وكان يأكل حتّى يَستلقيَ ويقول: يا غلام، ارفَع، فلأنّي والله ما شَبِعت ولكن مَللت.

وكان عُبيدُ الله بنُ زياد يأكل في اليوم خمس أكَلات أخراهن خبيّة بعَسَل، ويُوضَع بين يديه بعد أن يَفرُغ الطعام عَناقٌ أو جَدْي فيأتي عليه وحدَه.

وكان سليمان بنُ عبدِ الملك المصيبة العظمى في الأكل، دَخَل إلى الرافقة فقال لصاحب طعامه: أطعِمْنا اليومَ من خِرْفان الرافقة، ودخل الحمّام فأطال، ثم خرج فأكَلَ ثلاثين خَروفاً بثمانين رغيفاً، ثم قَعَد على المائدة فأكَل مع النّاس كأنّه لم يأكل شيئاً.

وقال الشمردلُ وكيلُ آلِ عَمْرو بن العاص: قَدِم سليمانُ الطائفَ وقد عرفتُ اُستِجاعَتَه، فدخل هو وعمرُ بنُ عبد العزيز وأيّوب ابنه إلى بُستانٍ لي هناك يُعرَف بالرَّهْط فقال: ناهِيك بمالِك هذا لولا جِرار فيه، قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنّها ليست بجرار ولكنّها جرار الزّبيب، فضَحِك، ثم جاء حتى ألقَى صدره على غُصْن شجرةٍ هناك، وقال: يا شمردل، أمَا عِندَك شيء تُطعِمني؟ وقد كنت استعدَدْت له، فقلت: بلَى والله عندي جَدْي كانت تغدو عليه حافلة، وتَرُوح عليه أخرى، فقال: عَجّل به، فجئته به مشويّاً كأنّه عُكّة سَمْن، فأكَله لا يَدْعو عليه عمر ولا أبنه، حتّى إذا بقيَ فَخذ قال: يا عمر، هَلُمّ، قال: إنّي صائم. ثمّ قال: يا شَمَرْدل، أمَا عندك شيءٌ؟ قلت: بلى، دجاجات خمس كأنّهنّ رِئلاَن النّعام، فقال: هاتِ، فأتيتُه بهنّ، فكان يأخذُ برجل الدَّجاجة حتى يُعَرّيَ عِظامَها، ثم يُلْقيها، حتى أتى عليهنّ، ثم قال: وَيْحك يا شمردل! أما عندك شيءٌ؟ قلت: بلى سَويق كأنّه قُراضة الذَّهَب مَلْتوت بعَسَل وسَمْن، قال: هَلُمّ، فجئتُه بعُسّ تغيب فيه الرأسُ، فأخذَه فلَطَم به جَبْهتَه حتى أتَى عليه، فلما فرغ تَجشّأ كأنه صارخ في جُبّ، ثم التفت إلى طَبّاخه فقال: وَيْحَك! أفرغْت من طبيخِك؟ قال: نعم، قال: وما هو؟

قال: نيّف وثمانون قِدْراً، قال: فأُتِيَ قِدْراً قِدْراً، فعَرَضها عليه، وكان يأكل من كل قِدْرٍ لقمتين أو ثلاثاً، ثمّ مسح يدَه، وآستَلْقى على قَفاه، وأذِنَ للناس، ووُضِعت الموائد، فقَعَد فأكل مع الناس كأنّه لم يَطعَم شيئاً.

قالوا: وكان الطعام الذي مات منه سُليمان، أنه قال لدَيْرانيّ كان صديقه قبل الخلافة: وَيْحَك! لا تَقْطعني الطافَك التي كنتَ تُلطِفُني بها على عَهْد الوليد أخي، قال: فأتيتُه يوماً بزِنْبِيلين كبيرين أحدُهما بَيْض مسلوق، والآخرَ تِينٌ، فقال: لقّمنيه، فكنتُ أقشر البَيْضة وأقرنها بالتِّينة وألقِمه، حتى أتى على الزّنبيلين، فأصابتْه تُخمة عظيمةٌ ومات.

ويُحكَى أن عَمرو بن مَعد يكرِبَ أكل عَنْزاً رَبَاعِية وفِرْقاً من ذُرَة - والفِرْق ثلاثةُ آصُع - وقال لامرأته: عالجي لنا هذا الكَبْش حتى أرجِع، فجعلتْ تُوقد تحتَه وتأخذ عُضْواً عُضْواً فتأكله، فاطلعتْ فإذا ليس في القدْر إلاّ المَرَق، فقامت إلى كبش آخَر فذبَحتْه وطبختْه، ثم أقبَل عمرو فثَرَدتْ له في جَفْنة العجين وكفأتْ القِدْر عليها، فمدّ يدَه وقال: يا أمَّ ثَوْر، دونَكِ الغَدَاء، قالت: قد أكلتُ، فأكلَ الكبشَ كلّه ثمّ آضطجع ودعاها إلى الفِراش فلم يَستطع الفِعلَ، فقالت له: كيف تستطيع وبيني وبينَك كَبْشان!

وقد رُوِي هذا الخبر عن بعض العرب، وقيل: إنه أكل حُواراً وأكلت امرأتُه حائلاً، فلمّا أراد أن يدنوَ منها وعَجَز قالت له: كيف تَصِل إليّ وبيني وبينَك بعيران.

وكان الحجّاج عظيم الأكل، قال مسلم بن قتيبة: كنتُ في دارِ الحجّاج مع ولده وأنا غلام، فقيل: قد جاء الأميرُ، فدخل الحجّاج فأمر بتَنُّور فنُصِب، وأمر رجلاً أن يَخبِز له خبز الماء، ودعا بسَمَك، فأتَوْه به، فجعل يأكل حتى أكل ثمانين جاماً من السَّمَك بثمانين رَغِيفاً من خبز الملّة.

وكان هلالُ بن أشعَرِ المازنيُّ موصوفاً بكَثْرة الأكْل، أكَلَ ثلاثَ جِفانٍ ثريد، وآستَسْقَى، فجاؤوه بقِرْبة مملوءةٍ نبيذاً فوضعوا فَمَها في فمه حتى شربَها بأسْرها.

وكان هلال بنُ أبي بُردة أكولاً، قال قصّابُه: جاءني رسولُه سَحرةً فأتيتُه وبين يديه كانونٌ فيه جَمْر وتَيْسٌ ضَخْم، فقال: دونَك هذا التَّيس فاذبَحه فذبَحْتُه وسلَخْتُه، فقال: أخرج هذا الكانونَ إلى الرّواق وشَرِّح اللحم وكُبَّه على النار، فجعلتُ كلّما اسْتَوَى شيءٌ قدّمتهُ إليه حتى لم يبق من التّيس إلا العظام وقطعةُ لَحْم على الجَمْر، فقال لي: كُلْها، فأكَلتُها، ثمّ شَرِب خمسةَ أقْداح، وناوَلَني قَدَحاً فشربتُه فهزني، وجاءته جاريةٌ ببُرْمةٍ فيها ناهضان ودَجاجَتان وأرْغِفة، فأكَل ذلك كلَّه، ثمّ جاءتْه جاريةٌ أخرى بقَصْعة مغطّاة لا أدري ما فيها، فضَحِك إلى الجارية، فقال: وَيْحَكِ! لَم يَبْقَ في بطني موضعٌ لهذا، فضحِكَتِ الجاريةُ وانصرفت، فقال لي: الحَقْ بأهْلِك.

وكان عَنْبَسة بنُ زِياد أكُولاً نهماً، فحدّث رجلٌ من ثقيف قال: دعاني عُبيدُ الله الأحمر،

فقلت لعَنبسة: هل لك يا ذُبحة - وكان هذا لَقَبهَ - في إتْيان الأحمر! فمضَيْنا إليه، فلمّا رآه عُبيد الله رحّب به وقال للخبّاز: ضَعْ بين يدي هذا مثل ما تَضَع بين يدي أهل المائدة كلّهم، فجعل يأتيه بقَصْعة وأهل المائدة بقَصْعة، وهو يأتي عليها، ثم أتاه بجَدْي فأكَلَه كلَّه، ونهَض القومُ فأكَل كلَّ ما تخَلَّف على المائدة، وخرجْنا فلقيَنا خَلَف بن عبد الله القُطاميّ، فقال له: يا خَلَف، أما تُغدِّيني يوماً؟ فقلت لخَلفَ: وَيْحَك! لا تَجِده مِثل اليوم. فقال له: ما تَشتَهي؟ قال: تَمراً وسَمْناً، فانطلق به إلى مَنْزِله فجاء بخَمْس جِلال تَمْراً وجَرّة سَمْناً، فأكَل الجميعَ وخرج، فمرّ برجل يبني دارَه ومعه مائةُ رجل، وقد قَدّم لهم سَمْناً وتَمْراً، فدعاه إلى الأكل معهم، فأكَل حتّى شكَوْه إلى صاحب الدار، ثمّ خرج فمرّ برجل بين يديه زِنْبيل فيه خُبْز أرزٍ يابس بسِمْسِم وهو يبيعه فجعل يساوِمُه ويأكل حتى أتى على الزّنْبيل، فأعطيت صاحبَ الزّنبيل ثمنَ خُبْزه.

وكان مَيْسرة الرأسُ أكُولاً، حُكِي عنه عند المهديّ محمد بن المنصور أنه يأكل كثيراً، فاستدعاه وأحضَر فِيلاً، وجعل يَرمِي لكلّ واحد منهما رغيفاً حتى أكل كلُّ واحد منهما تسعةً وتسعين رغيفاً، وامتَنَع الفيلُ من تَمام المائة، وأكَل ميسرة تَمامَ المائة وزاد عليها.

وكان أبو الحَسَن العَلاّف والد أبي بكر بن العَلاّف الشاعر المحدّث أكُولاً دخل يوماً على الوزير أبي بكر محمد المهلّبي، فأمَر الوزير أن يُؤخَذَ حمارُه فيُذبح ويُطبَخ بماءٍ ومِلح، ثم قُدّم له على مائدة الوزير، فأكل وهو يظنّه لحَم البقر، ويستَطْيِبُه حتى أتى عليه، فلما خرج ليَركَب طلَب الحمارَ، فقيل له: في جَوْفِك.

وكان أبو العالية أكُولاً، نَذَرت امرأةٌ حامل إنْ أتَتْ بذَكَرٍ تُشبِع أبا العالية خَبِيصاً، فوَلدتْ غلاماً، فأحضرتْه، فأكَل سبعَ جِفان خَبِيصاً، ثم أمسَك وخرج، فقيل له: إنّها كانت نذرتْ أن تُشبِعك، فقال: والله لو علمتُ ما شبعتُ إلى الليل.

- ١٧٤ -

الأصل: النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

الشرح: هذه الكلمةُ قد تقدّمت وتقدّم منّا ذكرُ نَظائِرها. والعِلّة في أن الإنسان عدوّ ما يَجهَله أنه يخاف من تقريعه بالنَّقص وبعَدَم العِلْم بذلك الشيء، خصوصاً إذا ضمّه نادٍ أو جَمْعٌ من الناس فإنّه تتصاغر نفسُه عنده إذا خاضوا فيما لا يَعرِفه ويَنقُص في أعيُن الحاضرين، وكلّ شيء آذاكَ ونَال منكَ فهو عدوُّك.

- ١٧٥ -

الأصل: مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الآراء عَرَفَ مَوَاقِعَ الخَطأ.

الشرح: قد قالوا في المَثَلَ: شَرّ الرأيِ الدَّبَرِي.

وقال الشاعر:

وخيرُ الرأيِ ما استقبلتَ منه — وليس بأنْ تَتَبّعه اتّباعا

وليس المراد بهذا الأمر سُرْعة فَضْل الحال الأول خاطر، ولأوّل رأي، إن ذلك خطأ، وقديماً قيل: دَع الرأيَ يغبّ.

وقيل: كلّ رأي لم يخمَّرْ ويُبَيّت فلا خيرَ فيه.

وإنّما المنهيّ عنه تضييعُ الفُرْصة في الرأي، ثم محاوَلة الاستدراك بعد أن فات وَجْهُ الرأيِ، فذاك هو الرأيُ الدبريّ.

- ١٧٦ -

الأصل: مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لله قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ.

الشرح: هذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر، والكلمة تتضمّن استعارةً تَدُلّ على الفَصاحة، والمعنى أن من أرهَف عزمَه على إنكار المنكَر، وقويَ غَضَبُه في ذاتِ الله ولم يَخَفْ ولم يُراقِب مخلوقاً، أعانَه الله على إزالة المُنكَر، وإن كان قويّاً صادراً من جهة عزيزة الجانب، وعنها وَقَعت الكنايةُ بأشدّاء الباطل.

- ١٧٧ -

الأصل: إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ.

الشرح: ما أحسنَ ما قال المتنبّي في هذا المعنى:

وإذا لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ ... فمِن العَجْزِ أن تكونَ جَبانا
كلّ ما لم يكن من الصَّعْب في الأنْـ ... ـفُسِ سهلٌ فيها إذا هوَ كانا

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما المكروهُ إلا ارتقابه ... وأعظم ممّا حلّ ما يُتوقّعُ

وقال آخر:

صعوبةُ الرُّزْء تُلقَى في توقُّعه ... مستقبَلاً وانقضاءُ الرزءِ أن يَقَعا

وكان يقال: توسَّطِ الخوفَ تأمَنْ.

ومِن الأمثالَ العاميّة: أم المقتول تنام، وأم المهدَّد لا تنام.

وكان يقال: كل أمرٍ من خير أو شر فسماعُه أعظمُ من عيانه.

وقال قوم من أهل المِلّة وليسوا عند أصحابنا مُصِيبين: إن عذاب الآخرة المتوعَّد به إذا حَلّ بمستحقّيه وَجَدُوه أهوَنَ ممّا كانوا يسمعونه في الدنيا، والله أعلم بحقيقةِ ذلك.

- ١٧٨ -

الأصل: آلَةُ الرِّياسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ.

الشرح: الرئيس محتاجٌ إلى أمور، منها الجود، ومنها الشجاعة، ومنها - وهو الأهم - سَعَة الصَّدر، فإنه تتمّ الرئاسة إلا بذلك.

وكان معاوية واسعَ الصدر كثيرَ الاحتمال، وبذلك بَلَغ ما بَلَغ.

حكايات حول سعة الصدر

ونحن نذكر من سَعَة الصدر حكايَتَين دالَّتين على عِظَم محله في الرئاسة، وإن كان مذموماً في باب الدين، وما أحسنَ قولَ الحسن فيه وقد ذكر عنده عقيبَ ذكر أبي بكر وعمر، فقال: كانا والله خيراً منه، وكان أسوَدَ منهما.

الحكاية الأولى: وفدَ أهلُ الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالعَهْد بعده، وفي أهل الكوفة هانيء بنُ عُرْوة المراديّ - وكان سيّداً في قومه - فقال يوماً في مسجد دِمشق والناسُ حوله: العجَب لمعاوية يريد أن يقسرنا على بَيْعة يزيد، وحالُه حالُه، وما ذاك والله بكائن! وكان

في القوم غلامٌ منْ قريش جالساً، فتحمّل الكلمة إلى معاوية، فقال معاوية: أنت سمعت هانئاً يقولها؟ قال: نعم، قال: فاخرُج فأتِ حلْقته، فإذا خفّ الناسُ عنه فقل له: أيّها الشيخ، قد وصلتْ كلمتُك إلى معاوية، ولستَ في زمن أبي بكر وعمر، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام فإنهم بنو أُميّةٍ، وقد عرفتَ جُرأتهم وإقدامَهم، ولم يدْعني إلى هذا القول لك إلا النّصيحة والإشفاق عليك، فانظر ما يقول، فأتني به.

فأقبل الفَتَى إلى مجلس هانىء، فلما خَفّ من عنده دنا منه فقَصّ عليه الكلامَ وأخرَجه مخرَجَ النصيحة له، فقال هانىء: والله يابن أخي ما بلغت نصيحتُك كلَّ ما أسمَع، وإنّ هذا الكلام لكلامُ مُعاوية أعرفه! فقال الفتى: وما أنا ومُعاوية! والله ما يعرِفني، قال: فلا عليك، إذا لقيتَه فقل له: يقول لك هانىء: والله ما إلى ذلك من سبيل، انهض يابن أخي راشداً!

فقام الفتى فدخل على معاوية فأعلَمه، فقال: نستعين بالله عليه.

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد: ارفعوا حوائجَكم - وهانىء فيهم - فعرَض عليه كتابَه فيه ذكرُ حوائجه، فقال: يا هانىء، ما أرَاك صنعتَ شيئاً، زِدْ، فقام هانىء فلم يَدَعْ حاجة عرضتْ له إلاّ وذَكَرها، ثم عَرَض عليه الكتاب فقال: أراك قصّرتَ فيما طلبتَ، زِدْ، فقام هانىء فلم يَدَع حاجةً لقومه ولا لأهل مِصرِه إلا ذكَرَها، ثمّ عَرَض عليه الكتاب، فقال: ما صنعت شيئاً، زِدْ، فقال: يا أمير المؤمنين، حاجةٌ بقيَتْ، قال: ما هي؟ قال: أن أتولّى أخْذَ البَيْعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق، قال: افعل، فما زلْتَ لمثِل ذلك أهلاً، فلما قَدِم هانىء العراق قام بأمر البَيْعة ليزيد بمَعُونةٍ من المغيرة بنِ شُعبة وهو الوالي بالعراق يومئذ.

وأما الحكايةُ الثانية: كان مالٌ حُمل من اليمن إلى معاوية؛ فلما مرّ بالمدينة وثَبَ عليه الحسينُ بنُ عليّ عليه السلام، فأخَذه وقَسمَه في أهل بيته ومواليه، وكتب إلى معاوية: مِن الحسين بن عليّ إلى معاوية بن أبي سُفْيان، أمّا بعد، فإنّ عِيراً مرّت بنا من اليَمن تحمِل مالاً وحُلَلا وعنبراً وطيباً إليكَ لتودِعها خزائنَ دِمشَق، وتَعُلَّ بها بعد النَّهلِ بني أبيك، وإنّي احتجتُ إليها فأخذتها. والسلام[1].

فكتب إليه معاوية: من عند عبدِ الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحُسَين بن عليّ: سلامٌ عليك، أما بعد، فإنّ كتابك ورد عليّ تذكُر أن عيراً مرّت بك من اليمن تحمل مالاً وحُلَلاً وعَنْبراً وطِيباً إليّ لأودِعها خزائن دِمشق، وأعُلّ بها بعد النَّهَل بني أبي، وأنك احتجت إليها

---

(١) هذه من الروايات التي وضعها معاوية للنيل من الطاهرين المعصومين إذ أخلاق الحسين عليه السلام فضلاً عن عصمته تأبى ذلك، الحسين الذي ضحى بكل ما يملك من المال والولد والعشيرة والنفس دفاعاً عن العزة والكرامة والدين.

فأخذتها ولم تكن جديراً بأخذها إذ نَسَبتها إليّ، لأنّ الوالي أحقّ بالمال، ثم عليه المخرج منه، وايمُ الله لو تُرِك ذلك حتى صار إليّ، لم أبْخَسْك حظَّك منه، ولكني قد ظننتُ يابنَ أخي أنّ في رأسك نَزْوَةً ويودّي أن يكون ذلك في زماني فأعرف لك قدرَك، وأتجاوزَ عن ذلك، ولكني والله أتخوّف أن تبتلي بمن لا يُنظِرك فُواقَ ناقةٍ، وكتب في أسفل كتابه:

يا حسينُ بنَ عليٍّ ليس ما ... جئتَ بالسائغ يوماً في العِلَلْ
أخذُك المال ولم تُؤمَر به ... إنّ هذا من حُسينٍ لعَجَلْ
قد أجزناها ولم نَغضَبْ لها ... واحتمَلْنا من حُسينٍ ما فَعَلْ
يا حسينُ بنَ عليٍّ ذا الأمَل ... لك بعدي وَثْبَةٌ لا تُحتَمَلْ
وبودّي أنني شاهدُها ... فأليها منك بالخلُق الأجَلْ
إنني أرهَب أن تَصلَى بمَنْ ... عندَه قد سَبَق السيفُ العَذَلْ

وهذه سعةُ صدرٍ وفراسةٌ صادقة.

– ١٧٩ –

الأصل: ازْجِرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ.

الشرح: قد قال ابنُ هانىء المغربيّ في هذا المعنى:

لولا انبعاثُ السَّيفِ وهو مُسلَّطٌ ... في قتلهِمْ قتلتْهُمُ النَّعماءُ

فأفصح به أبو العَتاهية في قوله:

إذا جازيتَ بالإحسان قوماً ... زجرتَ المذنِبين عن الذّنوبِ
فما لَكَ والتناوُل من بعيدٍ ... ويمكنك التناول من قريبِ

– ١٨٠ –

الأصل: احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ، بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ.

الشرح: هذا يفسَّر على وجهين:

أحدهما أنه يريد: لا تُضمر لأخيك سوءًا، فإنّك لا تُضمر ذاك إلاّ يضمر هو لك سوءاً، لأنّ القلوب يشعرُ بعضها ببعض فإذا صفَوتَ لواحدٍ صفا لك.

والوجه الثاني أن يريد: لا تَعِظِ الناس ولا تَنْهَهم عن منكرٍ إلاّ وأنت مُقلِعٌ عنه، فإن الواعظ الذي ليس بزكيٍّ لا ينجَعُ وعْظُه، ولا يؤثِّر نهيُهُ. وقد سَبَق الكلام في كلا المعنيين.

– ١٨١ –

الأصل: اللَّجَاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْيَ.

الشرح: هذا مشتقّ من قوله عليه السلام: «لا رأي لمن لا يُطاع»[1]، وذلك لأنَ عدم الطاعة هو اللّجاجة، وهو خُلُق يتركّب من خُلقين: أحدهما الكِبْر، والآخر الجهل بعواقب الأمور وأكثر ما يعتري الولاة لما يأخذهم من العِزة بالإثم.

ومِن كلام بعض الحكماء: إذا اضطررت إلى مُصاحَبة السلطان، فابدأ بالفَحص عن معتاد طَبْعِه، ومألوفِ خُلقُه، ثم استحْدِث لنفْسك طَبْعاً فَفرّغه في قالب إرادته، وخُلقاً تركبهُ مع موضع وفاقه حتى تَسلم معه، وإن رأيته يَهوَى فنًّا مِن فُنون المحبُوبات فأظهر هَواكَ لشدّ ذلك الفنّ، ليبْعِد عنك إرهابه، بل ويَكثر سكونهُ إليك، وإذا بدا لك منه فِعْل ذَمِيم فإيّاك أن تبدأه فيه بقولٍ ما لم يَستبذل فيه نُصْحك، ويستدعي رأيك، وإن استدعى ذاك فلْيكن ما تفاوِضه فيه بالرّفق والاستعطاف، لا بالخشونة والاستنكاف، فيَحمِله اللَّجاج المركّب في طَبْع الولاة على ارتكابه، فكلُّ والٍ لَجُوج، وإن علم ما يتعقّبه لجاجه من الضرر، وأنَّ اجتنابه هوَ الحسن.

– ١٨٢ –

الأصل: الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٨/ ٢٧٩، وأخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٥/ ٣١٧.

الشرح: هذا المعنى مطروقٌ جدّاً، وقد سبق لنا فيه قولٌ شافٍ.

وقال الشاعر:

تعفّف وعِشْ حُرّاً ولا تَكُ طامِعاً فما قَطّع الأعناق إلاّ المَطامِعُ

وفي المثل: أطمع من أشعب، رأى سَلاّلاً يصنَع سَلّة، فقال له: أوْسِعْها، قال: ما لَكَ وذَاكَ؟ قال: لعلّ صاحبَها يُهدِي لي فيها شيئاً.

ومرّ بمكْتب وغلامٌ يقرأ على الأستاذ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ﴾[1]، فقال: قم بين يَدَيّ حَفِظك الله وحَفِظ أباك، فقال: إنما كنت أقرأ وِرْدي، فقال: أنكرتَ أن تُفْلح أو يُفلح أبوك!

وقيل: لم يكنِ أطمَعُ من أشعَب إلا كلبُه، رأى صورة القَمَر في البئر فظَنّه رغيفاً، فألقَى نفسه في البئر يطلبه، فمات.

– ١٨٣ –

الأصل: ثَمرةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ، وَثَمَرَةُ الحَزْمِ السَّلاَمَةُ.

الشرح: قد سبق من الكلام في الحزم والتفريط ما فيه كفاية. وكان يقال: الحَزْم مَلَكةٌ يُوجِبها كثرةُ التجارب، وأصله قوّة العقل، فإنّ العاقل خائفٌ أبداً، والأحمق لا يخاف، وإن خاف كان قليل الخوف، ومن خاف أمراً توقّاه، فهذا هو الحَزْم.

وكان أبو الأسود الدّؤَلِيّ من عُقَلاء الرجال وذَوِي الحَزم والرأي، وحكى أبو العباس المبرّد قال: قال زياد لأبي الأسوَد – وقد أسَنَّ –: لولا ضَعْفُك لاستعملناك على بعض أعمالنا، فقال: أللصِّراع يريدُني الأمير! قال زياد: إن للعمل مؤونة، ولا أراك إلا تضعف عنه، فقال أبو الأسود:

زعَمَ الأميرُ أبو المغيرةِ أنني شيخٌ كبيرٌ قد دنَوْتُ من البِلَى
صَدَق الأميرُ لقد كبِرتُ وإنما نالَ المكارمَ من يدبّ على العصا
يابا المغيرةِ رُبَّ أمرٍ مُبْهَم فرجّتُه بالحَزْم منّي والدَّهَا

وكان يقال: مِن الحَزْم والتّوقي ترك الإفراط في التوقي.

(١) سورة القصص، الآية: ٢٥.

لما نزل بمعاوية الموتُ وقَدِم عليه يزيد ابنُه فرآه مسكتاً لا يتكلم، بكى وأنشد:

لـو فـات شـيءٌ يُـرَى لـفـاتَ أبـو حَـيّـان لا عـاجـزٌ ولا وَكِـلُ
الـحُـوَّل الـقُـلَّـب الأرِيـبُ ولا تـدفـع يـوم الـمـنـيّـة الـحِـيَـلُ

– ١٨٤ –

الأصل: مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ، أَهْلَكَهُ ٱلْجَزَعُ.

الشرح: قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ في الصّبر والجزع.

وكان يقالُ: ما أحسَن الصّبر لولا أن النفقة عليه من العمر! أخذه شاعر فقال:

وَإنّـي لأدرِي أنَّ فـي الـصَّـبْـر رَاحَـةً ولكنّ إنفاقي على الصبر من عُمْرِي

وقال ابن أبي العلاء يستبطىء بعض الرؤساء:

فإنْ قـيـل لـي صبراً فـلا صَبْرَ لـلـذي غـدا بـيـد الأيّـام تـقـتـلُـه صَـبْـرا
وإن قـيـل لـي عـذراً فـوالله مـا أرى لـمـن مـلـك الـدنـيـا إذا لـم يَـجِـدْ عـذرا

فإن قلت: أي فائدة في قوله عليه السلام: «مَنْ لم ينجه الصّبر أهلكه الجزع»؟ وهل هذا إلا كقول مَنْ قال: «من لم يجد ما يأكل ضرّه الجوع؟».

قلت: لو كانت الجهة واحدة، لكان الكلام عبثاً، إلا أن الجهة مختلفة، لأن معنى كلامه عليه السلام من لم يخلّصه الصبر من هموم الدّنيا وغُمومها هَلَك من الله تعالى في الآخرة بما يستبدله من الصبر بالجزع، وذلك لأنه إذا لم يصبر فلا شك أنه يجزع، وكل جازع آثم والإثم مهلكة، فلما اختلفت الجهة وكانت تارة للدنيا وتارة للآخرة لم يكن الكلام عبثاً بل كان مفيداً.

– ١٨٥ –

الأصل: وَاعَجَبَا أَنْ تَكُونَ ٱلْخِلاَفَةُ بِالصَّحَابَةِ ولا تكون بالصحابة وَٱلْقَرَابَةِ.

قال الرضيّ رحمه الله تعالى وقد روي له شعر قريب من هذا المعنى وهو:

فَإنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ فَـكَـيْـفَ بِـهَـذَا وَالـمُـشِـيـرُونَ غُـيَّـبُ!
وَإنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ فَـغَـيْـرُكَ أَوْلَـى بِـالـنَّـبِـيّ وَأَقْـرَبُ

الشرح: حديثه عليه السلام في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر، أما النثر فإلى عمر توجيهه لأن أبا بكر لما قال لعمر: امدد يدك، قال له عمر: أنت صاحب رسول الله في المواطن كلّها، شدّتها ورخائها، فامدد أنت يدك، فقال علي عليه السلام: إذا احتججتَ لاستحقاقه الأمر بصحبته إيّاه في المواطن كلّها، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شركه في ذلك، وزاد عليه «بالقرابة»! وأما النظم فموجّه إلى أبي بكر؛ لأن أبا بكر حاجّ الأنصارَ في السقيفة. فقال: نحن عِتْرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبيضته التي تفقّأت عنه، فلما بويع احتجّ على الناس بالبيعة، وأنها صدرت عن أهل الحلّ والعقد، فقال عليّ عليه السلام: أمّا احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قومه، فغيرك أقرب نسباً منك إليه، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت!

واعلم أن الكلام في هذا تتضمنه كتب أصحابنا في الإمامة، ولهم عن هذا القول أجوبة ليس هذا موضع ذكرها.

تم الجزء الثامن عشر من شرح نهج البلاغة
لابن أبي الحديد ويليه الجزء التاسع عشر

الفهـرس

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الجزء السابع عشر

الجزء الثامن عشر

شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

١٩ - ٢٠

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الكتاب العربي
بغداد - شارع المتنبي
تلفون: (٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
خليوي: ٠٣/٩٤٦٦٦١ - ٠٣/١١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٧٣٦٤٠٨
http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد العاشر

١٩ - ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

- ١٨٦ -

الأصل: إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ، وَلا يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلا يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمَنُونِ، وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ الْحُتُوفِ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً، إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا!

الشرح: قد سبق ذرءٌ[1] من هذا الكلام في أثناء خطبته عليه السلام، وقد ذكرنا نحن أشياءً كثيرةً في الدنيا وتقلّبها بأهلِها.

ومن كلام بعض الحكماء: طوبَى للهارب من زخارف الدنيا، والصادّ عن زَهرة دِمْنَتِها[2]، والخائف عند أمانها، والمتّهم لضمانها، والباكي عند ضحكها إليه، والمتواضع عند إعزازها له، والناظر بعين عقله إلى فضائحها، والمتأمّل لقبح مصارعها، والتارك لكلابِها على جِيَفها، والمكذّب لمواعيدها، والمتيقّظ لخُدَعها، والمعرِض عن لُمَعها، والعامل في إمهالها، والمتزوّد قبل إعجالها.

قوله: «تنتضل» النَّضْل شيء يرمى، ويروى «تبَادره» أي تتبادره، والغرض: الهدفُ.

والنّهب: المال المنهوب غنيمة، وجمعه نِهاب.

وقد سبق تفسير قوله: «لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى»، وقلنا: إنّ الّذي حصلت له لذّة الجماع حالَ ما هي حاصلة له، لا بدّ أن يكون مفارقاً لذّة الأكل والشرب، وكذلك من يأكل ويشرب يكون مفارقاً حال أكلهِ وشربه لذّةَ الرّكْض على الخيل في طلب الصّيد، ونحو ذلك.

---

(١) ذرء من هذا الكلام: شيء منه. القاموس، مادة (ذرأ).

(٢) دمنتها: آثارها. اللسان، مادة (دمن).

قوله: «فنحن أعوان المنون»، لأنّا نأكل، ونشرب، ونجامع، ونركب الخيل، والإبل، ونتصرّف في الحاجات والمآرب، والموت إنما يكون بأحد هذه الأسباب، إمّا من أخلاط تحدثها المآكل والمشارب، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابة هو راكبها، أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرِط، أو لمصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه في مآربه وحركته وسعيه، ونحو ذلك، فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا.

قوله: «نصب الحتوف» يروى: بالرفع والنصب، فمن رفع فهو خبر المبتدأ، ومن نصبه جعله ظرفاً.

- ١٨٧ -

الأصل: لا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ، كَمَا أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ.

الشرح: قد تكرَّر ذِكرُ هذا القول، وتكرّر منا شرحُه وشرحُ نظائِره. وكان يقال: ما الإنسان لولا اللسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة، أو صورةٌ ممثَّلة. وكان يقال: اللّسان عضوٌ إنْ مرّنْته مَرَن، وإن تركتَه خَزِن.

- ١٨٨ -

الأصل: يَا بْنَ آدَمَ، مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوّتِكَ، فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ.

الشرح: أَخَذ هذا المعنى بعضُهم، فقال

مـا لـي أراكَ الـدّهـر تَـجـمـعُ دائـبـاً ... أَلِبَـعْـلِ عِـرْسِـك لا أبـا لـك تَـجـمَـعُ!

وعاد الحسنُ البَصريُّ عبدَ اللّه بن الأهتم في مرضه الّذي مات فيه، فأقبل عبدُ اللّه يَصرِف بصرَه إلى صُندوق في جانب البيت، ثم قال للحسن: يا أبا سعيد، فيه مائةُ ألفٍ لم يؤدَّ منها زكاة، ولم تُوصَل بها رَحِم، قال الحَسَن: ثَكِلَتْك أمُّك! فلِمَ أعددتَها؟ قال: لرَوْعة الزّمان، ومُكاثرة الإخوان، وجفوة السلطان.

ثم مات، فحضر الحسن جنازتَه، فلمّا دُفن صَفَق بإحدى راحتَيْه الأُخرى، وقال: إنّ هذا

تاهَ شَيْطانه، فحذّرَه رَوْعة زمانه، وجفوَة سلطانه، ومكاثَرة إخوانه، فيما أستودَعَه اللهُ إيّاه فادّخره، ثمّ خرج منه كئيباً حزيناً، لم يؤدّ زكاةً، ولم يَصِل رَحِماً. ثمّ التفت فقال: أيّها الوارث، كلْ هنيئاً، فقد أتاك هذا المالُ حلالاً، فلا يكن عليك وَبالاً، أتاك ممّن كان له جَموعاً مَنوعاً، يَركَب فيه لُجَجَ البحار، ومَفاوِزَ القِفار، مِن باطلِ جَمعه، ومن حَقّ مَنعه، لم ينتفِع به في حياته، وضَرَّه بعد وفاته، جمعَه فأوْعاه، وشدَّه فأوْكاه إلى يوم القيامة، يوم ذِي حَسَرات، وإنَّ أعظَمَ الحَسَرات أن تَرَى مالَك في ميزانِ غيرك، بخلتَ بمالٍ أُوتيتَه من رِزقِ الله أنْ تُنفِقه في طاعة الله، فخزنْتَه لغيرك، فأنفقَه في مرضاة ربِّه، يا لها حَسْرةً لا تُقال، ورحمةً لا تُنال! إنّا لله وإنّا إليه راجعون!.

— ١٨٩ —

الأصل: إنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإقْبَالاً، وَإِدْبَاراً، فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، فَإِنَّ ٱلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ.

الشرح: قد تقدّم القول في هذا المعنى.

والعِلّة في كون القلب يَعمَى إذا أُكرِه على ما لا يحبّه، أنّ القلبَ عُضو من الأعضاء، يَتعَب ويستريح كما تتعب الجُثّة عند استعمالها وأحمالِها، وتستريح عند تَرْك العَمَل، كما يتعب اللّسان عند الكلام الطويل، ويستريحُ عند الإمساك، وإذا تَواصَل. إكراه القلبِ على أمرٍ لا يحبّه ولا يؤثِرُه تَعِب، لأنّ فِعلَ غيرَ المحبوب مُتعِب، ألا ترى أنّ جِماعَ غيرِ المَحْبوب يُحدِث من الضّعف أضعافَ ما يُحدِثه جِماعُ المَحْبوب، والرّكوب إلى مكان غيرِ محبوبٍ مُتعِب ولا يُشتَهى يُتعِب البَدَن أضعافَ ما يُتعِبه الركوب إلى تلك المسافة إذا كان المكان محبوباً، وإذا أُتعِب القلب وأعْيا، عَجَزَ عن إدراك ما نكلفه إدراكه، لأنّ فعلَه هو الإدراك، وكلّ عضو يَتعَب فإنه يَعجَز عن فعلِه الخاصّ به، فإذا عجز القلبُ عن فِعلِهِ الخاصّ به وهو العِلم والإدراك، فذاك هو عماه.

— ١٩٠ —

الأصل: وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ! أَحِينَ أَعْجَزُ عَنِ الانْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ صَبَرْتَ! أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لِي: لَوْ عَفَوْتَ!

الشرح: قد تقدّم القولُ في الغَضَب مراراً.

وهذا الفصل فصيحٌ لطيفُ المَعْنى، قال: لا سبيل لي إلى شفاءِ غَيْظي عند غضبي، لأنّي إمّا أن أكون قادراً على الانتقام فيصدّني عن تعجيلهِ قولُ القائل: لو غَفرتَ لكان أولى! وإمّا ألّا أكون قادراً على الانتقام فيصدّني عنه كوني غيرَ قادرٍ عليه، فإذَنْ لا سبيلَ لي إلى الانتقام عند الغضب.

وكان يقال: العقل كالمِرآة المجلوّة يُصْدِئه الغَضَب، كما تَصْدَأ المرآة بالخَلّ، فلا يَثبتُ فيها صورةُ القُبْح والحُسْن.

واجتمع سُفيان الثَّوْريُّ وفُضَيل بن عِياض فتذاكرَا الزّهدَ، فأجمَعا على أنّ أفضل الأعمالِ الحِلمُ عند الغضب، والصبرُ عند الطَّمَع.

- ١٩١ -

الأصل: وقال عليه السلام وقدْ مَرَّ بِقَذَرٍ على مَزْبلةٍ: هَذَا ما بَخلَ بِهِ الْباخلونَ. وفِي خَبَرٍ آخَرَ أنَّهُ قال: هَذَا مَا كُنْتُم تَتنافَسُونَ فيه بالأَمْس!

الشرح: قد سبق القولُ في مثل هذا، وأن الحَسن البَصريّ مرّ على مَزْبلَة، فقال: انظروا إلى بَطّهم ودَجاجهم وحَلْوائهم وعَسَلهم وسمْنهم، والحَسن إنما أخذه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقال ابن وَكيع في قول المتنبّي:

لو أفكَر العاشقُ في مُنتهى ... حُسنِ الذي يسبيه لم يَسبِهِ

إنه أراد: لو أفكر في حاله وهو في القبر، وقد تغيّرتْ محاسنُه، وسالت عَيْناه، قال: وهذا مثلُ قولهم: لو أفكرَ الإنسان فيما يؤول إليه الطعام فعافَتْه نفسُه.

وقد ضَرَب العلماءُ مَثلاً للدنيا ومخالفة آخرِها أولها، ومضادّة مَباديها عَواقبها، فقالوا: إنّ شهوات الدنيا في القَلب لذيذةٌ كشَهَوات الأطْعِمة في المعدة، وسَيجِد الإنسان عند الموتِ لشهوات الدنيا في قلبه من الكَراهة والنَّتْن والقبْح ما يَجده للأطعمة اللّذيذة إذا طبختها المَعِدة وبلغتْ غاية نُضْجها، وكما أن الطعام كلّما كان ألذّ طَعْماً وأظهر حلاوة، كان رجيعه أقذر وأشدّ نَتْناً، فكذلك كلُّ شهوة في القلْب أشهى وألذّ وأقوى، فإنّ نتنها وكراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ، بل هذه الحال في الدّنيا مُشاهدة، فإن من نُهبتْ دارُه، وأخذ أهلُه وولدهُ ومالُه، تكون مصيبتهُ وألمه وتفجّعه في الذي فَقَدَ بمقدار لذّته به، وحبّه له، وحرصه عليه، فكلُّ ما كان في الوجود أشهى وألذّ، فهو عند الفَقْد أدهى وأمرّ، ولا معنى للموت إلّا فقد ما في الدنيا.

وقد رُوي أنّ النبيّ ﷺ قال للضحّاك بن سُفْيان الكلابيّ: «ألست تُؤتَى بطعامك وقد قُزّح وملح، ثم تشرَب عليه اللّبنَ والماء»! قال: بلى، قال: «فإلى ماذا يصير»؟ قال: إلى ما قد علمتَ يا رسولَ الله، قال: فإنَّ الله عزَّ وجلّ ضَرَب مَثل الدّنيا بما يصير إليه طعام ابن آدمَ[1].

ورَوَى أبيّ بن كعب أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن أنت ضَربتَ مَثلاً لابن آدم فانظر ما يَخرُج من ابن آدم، وإن كان قُزّحه وملحُه إلى ماذا صار»[2].

وقال الحَسن رحمه الله: قد رأيتُهم يطيّبونه بالطّيب والأفاويه ثمّ يرمونه حيث رأيتم، قال الله عز وجل: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[3]، قال ابن عباس: إلى رَجيعِه.

وقال رجل لابن عمر: إنّي أريد أن أسألك وأستحيي، فقال: لا تَسْتَحْيِ وسَلْ، قال: إذا قَضَى أحدُنا حاجتَه فقام، هل ينظر إلى ذلك منه؟ فقال: نعم، إن المَلَكَ يقولُ له: انْظُر هذا ما بَخلتَ به، انظُر إلى ماذا صار!.

- ١٩٢ -

الأصل: لَمْ يَذْهَبْ منْ مالكَ ما وَعظَكَ.

الشرح: مثل هذا قولهم: إن المصائبَ أثمانُ التَّجَارب.

وقيل لعالم فقير بعد أن كان غنيًّا: أين مالك؟ قال: تَجَرتُ فيه فابتعتُ به تجربةَ الناس والوقت، فاستفدْتُ أشرَفَ العِوَضين.

- ١٩٣ -

الأصل: إنَّ هَذِه الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأبْدَانُ، فابْتَغُوا لها طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ.

---

(١) أخرج نحوه أحمد، كتاب: مسند المكيين، باب: حديث الضحاك (١٥٣٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٨١٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٧٢).

(٢) أخرج نحو أحمد، كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث عتي بن ضمرة السعدي (٢٠٧٣٣)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٩٤)، ونحوه ابن حبان (٧٠٢)، والطبراني (٥٣١).

(٣) سورة عبس، الآية: ٢٤.

الشرح: هذا قد تكرّر، وتكرّر منّا ذِكرُ ما قيل في إجمام النّفس والتنفيس عنها من كَرْب الجِدّ والإحماض وفسرنا معنى قولهِ عليه السلام: «فابتغُوا لها طرائف الحكمة» وقلنا: المراد ألّا يَجْعَلَ الإنسانُ وقته كلّه مصروفاً إلى الأنظار العقليّة في البراهين الكلاميّة والحِكَميّة، بل ينقلها من ذلك أحياناً إلى النظر في الحِكمة الخُلُقيّة فإنها حِكمة لا تحتاج إلى إتعاب النفس والخاطر.

فأمّا القول في الدُّعابة فقد ذكرْناه أيضاً فيما تقدّم، وأوضحْنا أنّ كثيراً من أعيان الحُكماء والعلماء كانوا ذوي دُعابة مقتصدة لا مسرِفة، فإن الإسراف فيها يُخرج صاحبَه إلى الخلاعة، ولقد أحسنَ من قال:

أفدْ طبعَك المكدودَ بالجدّ راحةً ... تجمّ وعَلّله بشيءٍ من المَزْحِ
ولكنْ إذا أعطيْتهُ ذاكَ فليَكُنْ ... بمقدارِ ما يُعْطى الطعامُ من المِلْحِ

- ١٩٤ -

الأصل: وقال عليه السلام لَمَّا سَمِعَ قَولَ الخَوَارِجِ: لا حُكْمَ إلاّ لله، كلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بها بَاطِل.

الشرح: معنى قوله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، أي إذا أراد شيئاً من أفعالِ نفسه فلا بدّ من وقوعه، بخلاف غيره من القادرين بالقدرة فإنه لا يجب حصولُ مرادهم إذا أرادوه، ألا ترى ما قَبْل هذه الكلمة: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ خاف عليهم من الإصابة بالعين إذا دخلوا من بابٍ واحد، فأمرهم أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة، ثم قال لهم: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾(١)، أي إذا أراد الله بكم سوءاً لم يَدفع عنكم ذلك السُّوءَ ما أشرتُ به عليكم من التفرّق، ثم قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ليس حيٌّ من الأحياء يَنْفُذُ حكمه لا محالة ومرادُه لما هو من أفعاله إلّا الحيّ القديم وحدَه، فهذا هو معنى هذه الكلمة، وضلّت الخوارج عندها فأنكروا علي أمير المؤمنين عليه السلام موافَقته على التحكيم، وقالوا: كيف يحكم وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فغلَطوا لموضع اللّفظ المشترك، وليس هذا الحُكْم هو ذلك الحكْم، فإذَنْ هي كلمةُ حقٍّ يرادُ بها باطل، لأنّها حقٌّ على المفهوم الأوّل، ويريد بها الخوارجُ نَفي كلّ ما يسمّى حكماً إذا صَدر عن غير الله تعالى، وذلك باطل، لأنّ الله تعالى قد أَمضَى حُكم المخلوقين في كثيرٍ من الشرائع.

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

– ١٩٥ –

الأصل: وقال عليه السلام في صِفة الغَوْغاءِ: هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا، وإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا.

وقيل: بَلْ قال عليه السلام: هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا، وإِذا تَفَرَّقُوا نَفَعوا، فَقِيلَ: قَدْ عَلِمْنا مَضَرَّةَ اجْتِماعِهِمْ، فما مَنْفَعةُ افْتِرَاقِهِم؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: يَرْجِعُ أهلُ الْمِهَنِ إِلَى مِهَنِهِمْ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ، كَرُجُوعِ البَنَّاءِ إِلَى بِنائِهِ، والنَّسَّاجِ إِلَى مَنْسَجِهِ، والخَبَّازِ إِلَى مَخْبَزِه.

الشرح: كان الحسن إذا ذَكَر الغَوْغاء وأهل السّوق قال: قتلة الأنبياء، وكان يقال: العامّة كالبحر إذا هاج أهْلَكَ راكبه. وقال بعضهم: لا تسبُّوا الغَوْغاء فإنهم يُطْفِئون الحريق، ويُنْقِذون الغريق، ويسُدّون البُثوق.

وقال شيخنا أبو عثمان: الغاغَة والباغة والحاكَة كأنّهم أعذارُ عامٍ واحد، ألا ترى أنّك لا تجد أبداً في كلّ بلدةٍ وفي كل عصر هؤلاء بمقدارٍ واحد وجهةٍ واحدة من السُّخف والنَّقْص والخمول والغباوة، وكان المأمون يقول: كلّ شرّ وظُلْم في العالم فهو صادرٌ عن العامّة والغوْغاء، لأنهم قتلةَ الأنبياء والمُغْرُون بين العلماء، والنَّمّامُون بين الأوِدّاء، ومنهم اللّصوص، وقُطّاع الطّريق، والطّرّارون، والمحتالُون والساعون إلى السلطان، فإذا كان يوم القيامة حُشِروا على عادتهم في السّعاية فقالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾[١].

– ١٩٦ –

الأصل: وقال عليه السلام وقد أتي بجانٍ ومعه غوغاء فقال: لا مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لا تُرَى إِلَّا عِنْدَ كُلّ سَوْءَةٍ.

الشرح: أخذ هذا اللّفظ المستعينُ بالله وقد أُدْخِل عليه ابنُ أبي الشّوارب القاضي ومعه الشّهود ليَشهَدوا عليه أنّه قد خَلَع نفسه من الخلافة وبايَع للمعتزّ بالله، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه الّتي لا تُرى إلّا يوم سوء.

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

وقال من مدح الغوغاء والعامّة: إنّ في الحديث المرفوع: إنّ الله يَنصرُ هذا الدِّين بقوم لا
وكان الأحنفُ يقول: أكرِموا سُفهاءكم فإنّهم يكفُونكم النارَ والعَار.

وقال الشاعر:

وإنّي لأستبقي امرأ السّوء عُدّةً ... لَعدْوةِ عرِّيض من النّاسِ جائِبِ

أخافُ كلابَ الأبعَدِين وهَرْشَها ... إذا لم تُجاوِبْها كِلابُ الأقاربِ

– ١٩٧ –

الأصل: إِنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ الأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ.

الشرح: قد تقدّم هذا، وقلنا: إنّه ذهب كثيرٌ من الحكماء هذا المَذهَب، وإنّ لله تعالى ملائكةً مُوَكَّلَةً تحفظُ البَشرَ من التردِّي في بئرٍ، ومِن إصابةِ سَهْم معترض في طريق، ومن رَفْس دابّة، ومن نَهْش حيّة، أو لَسْع عَقْرب، ونحو ذلك. والشرائع أيضاً قد وردتْ بمثله وإنّ الأجل جُنّة، أي دِرْع، ولهذا في علم الكلام مخرَج صحيحٌ، وذلك لأن أصحَابنا يقولون: إنّ الله تعالى: إذا عَلِمَ أنّ في بقاء زيدٍ إلى وقت كذا لُطْفاً له أو لغيرِهِ من المكلّفين صدَّ من يهمّ بقَتْله عن قتلِه بألطافٍ يفعَلها تصدُّه عنه أو تَصرِفه عنه بصارف، أو يَمنَعه عنه بمانع، كي لا يَقطَع ذلك الإنسانُ بقَتْل زيدٍ الألطافَ الّتي يَعلَم اللهُ أنّها مقرِّبة من الطاعة، ومُبعِدة من المعصِية لزيد أو لغيره، فقد بان أنّ الأجل على هذا التقدير جُنّة حَصِينة لزيْد، من حيثُ كان الله تعالى باعتبار ذلك الأجل مانعاً من قتله وإبطال حياتِهِ، ولا جُنّة أحصَنُ من ذلك.

– ١٩٨ –

الأصل: وقال عليه السلام: وَقَدْ قَالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: نُبَايِعُكَ عَلَى أَنَّا شُرَكَاؤُكَ فِي هَذَا الأَمْر، فقالَ: لا: وَلَكِنَّكُما شَرِيكَانِ فِي الْقُوَّةِ وَالاسْتِعَانَةِ، وَعَوْنانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالأَوَدِ.

الشَّرْحُ: قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم حيث شرحْنا بيعة المسلمين لعليّ عليه السلام كيف وقعتْ بعدَ

مَقتل عثمانَ، ولقد أحسنَ فيما قال لهما لمّا سألاه أن يُشرِكَاه في الأمْر، فقال: أمّا المُشارَكَة في الخلافة فكيف يكون ذلك؟ وهل يصحُّ أن يدبّر أمرَ الرعيّة إمامان!

وهل يُجْمَع السَّيفَان ويحك في غمْدِ

وإنما تُشرِكاني في القوّة والاستعانة أي إذا قوِيَ أمري وأمرُ الإسلام بي قوِيتما أنتما أيضاً، وإذا عجزتُ عن أمر، أو تأوّد عليّ أمر - أي اعوَجَّ - كنتما عَوْنين لي ومساعِدَيْن على إصلاحِهِ.

فإن قلت: فما معنى قوله: «والاستعانة»؟

قلتُ: الاستعانة هاهنا الفوزُ والظّفَرُ، كانوا يقولون للقامِرِ يفوز قِدْحه: قد جَرَى ابنا عِنان. وهما خطّان يُخطّان في الأرض يُزجر بهما الطير، واستعانَ الإنسانُ، إذا قال وقتَ الظَّفَر والغَلَبة هذه الكلمة.

- ١٩٩ -

الأصل: أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا الله الَّذِي إنْ قُلْتُمْ سَمِعَ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ، وَبَادِرُوا المَوْتَ الَّذِي إِنْ هَرَبْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ.

الشرح: قد تقدّم منّا كلامٌ كثير في ذكر الموت، ورأى الحَسَنُ البَصريُّ رجلاً يجود بنفْسه، فقال: إنّ أمْراً هذا آخرُه، لجدير أن يُزهَد في أوّله، وإن أمراً هذا أوّله لجدِيرٌ أن يُخاف مِن آخره.

ومن كلامِه: فَضَح المؤت الدّنيا.

وقال خالد بنُ صَفْوان: لو قال قائل: الحَسَنُ أفصَحُ الناس لهذه الكلمة لما كان مخطئاً. وقال لرجل في جنازةِ: أترى هذا الميّت لو عادَ إلى الدّنيا لكان يَعمَل عملاً صالحاً؟ قال: نعم، قال: فإن لم يكن ذلك فكن أنت ذاك.

- ٢٠٠ -

الأصل: لا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ يُدْرَكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكافِرُ، وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

الشرح: قد أخذتُ أنا هذا المعنى فقلتُ من جملةِ قصيدةٍ لي حِكْميّة:

لا تُسدِيَنّ إلى ذي اللّوم مَكرُمةً   فإنّه سَبَخٌ لا يُنبِت الشجَرَا
فإنْ زرَعتَ فمحفوظٌ بمَضيَعةٍ   وأكلُ زَرْعِك شكرُ الغَيْرِ إن كفَرَا

وقد سبق منّا كلامٌ طويلٌ في الشكر.

ورأى العبّاس بنُ المأمون يوماً بحضرة المعتصِم خاتماً في يد إبراهيم بن المهديّ، فاستحسَنه، فقال له: ما فَصُّ هذا الخاتم، ومن أين حصّلته؟ فقال إبراهيم: هذا خَاتمٌ رهنتُه في دولةِ أبيك، وافتككْتُه في دولةِ أمير المؤمنين، فقال العبّاس: فإن لم تشكر أبي على حَقْنِه دَمَك، فأنت لا تَشْكُر أميرَ المؤمنين على فَكّه خاتمَك.

وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما المعروفُ في غيرِ أهلِه   وفي أهلِه إلّا كبعض الوَدائِع
فمستودَعٌ ضَاع الّذي كان عندَه   ومستودِع ما عندَه غيرُ ضائعِ
وما النّاس في شكرِ الصّنيعة عندهمْ   وفي كفرها إلّا كبَعض المزارِع
فمزرَعةٌ طابتْ وأضعفَ نَبْتُها   ومَزْرَعةٌ أكدَت على كلِّ زارِعِ

– ٢٠١ –

الأصل: كُلُ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ، إلّا وِعَاءُ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِع بِهِ.

الشرح: هذا الكلام تَحته سرٌّ عظيم، ورَمْزٌ إلى معنى شريف غامض، ومنه أخذ مُثبِتو النفس الناطِقَة الحجّة على قولهم، ومحصولُ ذلك أن القُوَى الجُسمانيّة يُكِلُّها ويُتعِبُها تكرارُ أفاعيلِها عليها، كقوّة البصر يُتعِبها تكرار إدراك المَرْئِيّات، حتّى ربّما أذهبَها وأبطَلَها أصلاً، وكذلك قوّة السمع يُتعِبها تكرار الأصوات عليها، وكذلك غيرها من القُوَى الجُسْمانيّة، ولكنّا وجدْنا القوّة العاقلة بالعكس من ذلك، فإنّ الإنسان كلّما تكرّرتْ عليه المعقولات ازدادتْ قوّته العقليّة سَعةً وانبساطاً واستعداداً لإدراكِ أمور أخرى غير ما أدركتْه من قبلُ، حتّى كانَ تكرارُ المَعْقولات عليها يَشْحذها ويَصْقُلها، فهي إذَنْ مخالِفة في هذا الحكم للقُوى الجُسْمانية، فلَيْست منها، لأنّها لو كانت منها لكان حُكْمها حكمَ واحدٍ من أخواتها، وإذا لم تكن جُسْمانيّة فهي مجرَّدة، وهي التي نسميها بالنفس الناطقة.

- ٢٠٢ -

الأصل: أوَّلُ عِوَضِ الحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ، أنَّ النَّاسَ أنْصَارُهُ علَى الْجَاهِلِ.

الشرح: قد تقدّم من أقوالنا في الحلْم ما في بعضِه كفاية.

وفي الحِكَم القديمة: لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبْح الانتقام.

وكان يقال: اعفُ عمّن أبطأ عن الذّنب، وأسرع إلى النّدم.

وكان يقال: شاور الأناة والتثبُّت، وذاكِر الحفيظةَ عند هَيجانها ما في عواقب العُقُوبة من النّدم، وخاصِمْها بما يؤدّي إليه الحِلْم من الاغتباط.

وكان يقال: ينبغي للحازم أن يقدِّم على عذابه وصفحِه تعريف المُذنِب بما جناه، وإلّا نُسِب حلمُه إلى الغَفْلة وكلال حدِّ الفِطْنة. وقالت الأنصار للنّبيّ ﷺ يومَ فتحِ مكّة: إنّهم فعلوا بك ثمّ فعلوا، يُغْرُونه بقريش، فقال: «إنما سُمِّيت محمداً لأُحْمَد».

- ٢٠٣ -

الأصل: إنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

الشرح: التحلُّم: تكلُّف الحِلْم، والّذي قاله عليه السلام صحيح في مَناهِج الحكمة، وذلك لأنّ من تشبَّه بقومٍ وتكلف التخلّق بأخلاقِهم، والتأدّبَ بآدابهم، واستمرّ على ذلك ومَرَن عليه الزمان الطويل، اكتَسَب رياضةً قويّة، ومَلَكة تامّة، وصار ذلك التكلّف كالطَّبْع له، وانتقل عن الخُلُق الأوّل، ألا تَرَى أنّ الأعرابيّ الجِلْف الجافي إذا دَخَل المُدُن والقُرَى وخَالطَ أهلَها وطال مُكْثُه فيهم انتقل عن خُلُق الأعراب الّذي نشأ عليه، وتلطّف طَبْعُه، وصار شبيهاً بساكِني المُدُن، وكالأجنبيّ عن ساكني الوَبَر، وهذا قد وجدناه في حيواناتٍ أخرى غيرِ البشر كالبازِي والصّقر والفَهْد التي تُرَاضُ حتّى تَذِلّ وتأنس وتَترُك طبعَها القديم، بل قد شاهَدْناه في الأسَد، وهو أبعَدُ الحيوان من الإنْس.

وذَكَر ابْن الصابي أنّ عَضُد الدُّولة بن بُوَيه كانت له أُسُود يصطاد بها كالفُهود فتُمسِكه عليه حتّى يُدرِكه فيذكّيه، وهذا من العجائب الطريفة.

- ٢٠٤ -

الأصل: مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ.

الشرح: قد جاء في الحديث المرفوع: «حاسبوا أنفسَكم قبلَ أن تحاسَبوا»[١].

قوله: «ومن خاف أمن» أي مَن اتّقى الله أمِنَ مِنْ عذابه يوم القيامة.

ثم قال: «ومن اعتبر أبصر» أي من قاس الأمور بعضها ببعض، واتّعظ بآيات الله وأيامه أضاءت بصيرته، ومن أضاءت بصيرته فهم، ومن فهم علم.

فإن قلتَ: الفهم هو العلم، فأيّ حاجةٍ له إلى أن يقول: «ومن فهم علم»؟

قلت: الفهم هاهنا هو معرفة المقدّمات، ولا بد أن يستعقب معرفة المقدمات معرفة النتيجة، فمعرفة النتيجة هو العلم، فكأنّه قال: من اعتبر تنوّر قلبه بنور الله تعالى ومَنْ تنوّر قلبه عَقَل المقدّمات البرهانية، ومن عَقَل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها، وتلك هي الثمرة الشريفة التي في مثلها يتنافس المتنافسون.

- ٢٠٥ -

الأصل: لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا. وَتَلا عقِيبَ ذَلِكَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٢].

الشرح: الشّماس: مصدر شَمس الفرسُ إذا منع من ظهره.

والضّروس: الناقة السّيئة الخلقُ تعضُّ حالبَها، والإماميّة تزعم أن ذلك وعدٌ منه بالإمام الغائب الذي يملك الأرض في آخر الزمان. وأصحابنا يقولون: إنه وعدٌ بإمام يملك الأرض

(١) رُوي موقوفاً على عمر بن الخطاب في «المصنف» لابن أبي شيبة (٧/ ٩٦)، و«الزهد» لابن المبارك (٣٠٦).

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

ويستولي على الممالك، ولا يلزم من ذلك أنه لا بُدَّ أن يكون موجوداً، وإن كان غائباً إلى أن يظهر، بل يكفي في صحّة هذا الكلام أن يُخلق في آخر الوقت.

وبعض أصحابنا يقول: إنّه إشارة إلى مُلْك السفّاح والمنصور وابني المنصور بعده. فإنهم الذين أزالوا ملكَ بني أميّة، وهم بنو هاشم، وبطريقهم عطفت الدنيا على بني عبد المطّلب عطف الضّروس.

وتقول الزيديّة: إنه لا بدّ من أن يملك الأرض فاطميٌّ يتلوه جماعة من الفاطميِّين على مذهب زيد، وإن لم يكن أحد منهم الآن موجوداً.

– ٢٠٦ –

الأصل: اتَّقُوا اللهَ تُقَاةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً، وَجَدَّ تَشْمِيراً، وأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ المَوْئِلِ، وَعَاقِبَةِ المَصْدَرِ، وَمَغَبَّةِ المَرْجِعِ.

الشرح: لو قال: «وجرّد تشميراً»، لكان قد أتى بنوع مشهور من أنواع البديع، لكنه لم يحفِل بذلك، وجرى على مقتضى طبعه من البلاغة الخالية من التكلّف والتصنّع، على أن ذلك قد روي، والمشهور الرواية الأولى.

واكمش: جدّ وأسرع، ورجل كميش، أي جادّ.

وفي مَهَل: أي في مهلة العمل قبل أن يضيق عليه وقتُه بدنوّ الأجَل.

– ٢٠٧ –

الأصل: الجُودُ حَارِسُ الأَعْرَاضِ، وَالْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ، وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ، وَالسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ، وَالاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الهِدَايَةِ.

وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ، وَالصَّبْرُ يُنَاضِلُ الحِدْثَانَ، وَالْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ، وَأَشْرَفُ الْغِنَى، تَرْكُ المُنَى.

وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ عِنْدَ هَوًى أَمِيرٍ! وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجْرِبَةِ، وَالمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ، وَلا تَأْمَنَنَّ مَلُولاً.

الشرح: مثل قوله: «الجود حارس الأعراض» قولهم: كلّ عيب فالكَرَم يغطّيه.

والفِدَام: خِرْقة تجعل على فَمِ الإبريق، فشبّه الحلم بها، فإنّه يردّ السفيهَ عن السَّفَه كما يردّ الفدامُ الخمرَ عن خروج القَذَى منها إلى الكأس.

فأمّا «والعَفْو زَكاة الظَّفَر» فقد تقدّم أنّ لكلّ شيء زَكاة، وزكاة الجاه رِفْدُ الْمُسْتَعِين، وزكاة الظَّفَر العَفْو.

وأمّا «السُّلُوّ عوضك ممّن غدر» فمَعْناه أنّ من غدرَ بك من أحبّائك وأصدقائك فاْسلُ عنه وتناسَه، واذكرْ ما عَامَلَك به من الغَدْر، فإنّك تسلو عنه ويكون ما استفدتَه من السلوّ عوضاً عن وِصالِه الأوّل، قال الشاعر:

أعتقَني سوءُ ما صنعتَ من الرّقّ ... فيا بَرْدَهَا على كَبِدي

فصرتُ عبداً للسّوءِ فيك وما ... أحسنَ سوءٌ قَبْلِي إلى أحدِ

وقد سبقَ القولُ في الاستشارة، وأنّ المستغنَى برأيه مخاطِر، وكذلك القولُ في الصّبر.

والمناضَلة: المراماة.

وكذلك القولُ في الجزع، وأنّ الإنسان إذا جَزِع عند المصيبة فقد أعان الزمانَ على نفسِه، وأضاف إلى نفسِه مصيبةً أخرى.

وسبق أيضاً القولُ في المُنى، وأنّها من بضائِع النَّوْكَى.

وكذلك القولُ في الهوى، وأنه يَغلب الرأي ويأسِره.

وكذلك القولُ في التّجربة، وقولُهم: من حارب المجرَّب حلّت به النّدامة، وإنّ من أضاع التجربة فقد أضاع عقلَه ورأيَه.

وقد سبق القولُ في المودّة، وذكرنا قولَهم: الصّديقُ نسيبُ الرُّوح، والأخُ نسيبُ الجسم، وسبق القولُ في المَلال.

وقال العبّاس بن الأحنف:

لو كنتِ عاتبةً لسكّن عبْرَتي ... أمَلِي رضاكِ وزرتُ غيرَ مُراقَبِ

لكنْ مَلِلتِ فلم يكن لي حيلةٌ ... صَدُّ المَلُولِ خلاف صَدِّ العاتبِ

الأصل: عُجْبُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عقْلِهِ.

الشرح: قد تقدّم القول في المُعْجب، ومعنى هذه الكلمة أنّ الحاسد لا يزال مجتهداً في إظهار معايب المحسود وإخفاءِ محاسنه، فلمّا كان عُجْب الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذي دأبُه إظهارُ عيب المحسود ونقصه.

وكان يقال: مَنْ رضيَ عن نفسه كثر الساخط عليه.

وقال مطرّف بن الشِّخير: لَأن أبيت نائماً، وأصبح نادماً، أحبُّ إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح نادِماً.

– ٢٠٩ –

الأصل: أَغْضِ عَلَى القَذَى وَالألَمِ تَرْضَ أبَداً.

الشرح: نظير هذا قول الشاعر:

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عن صديقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ ما فيه يمتْ وهو عاتبُ
ومَن يتتبَّعْ جاهداً كلّ عثرة ... يجدها ولا يسلمْ له الدهرَ صاحب

وقال الشاعر:

إذا أنتَ لم تشرَبْ مراراً على القَذَى ... ظَمِئتَ، وأيّ النّاس تصفُو مشاربُهْ!

وكان يقال: أَغْضِ عن الدّهر وإلّا صرعك.

وكان يقال: لا تحارب الأيام وإن جنحتْ دون مطلوبك منها، واصحبها بسلاسة القياد، فإنّك إن تَصحبها بذلك تعطِك بعد المنع، وتلِن لك بعد القساوة، وإن أبَيت عليها قادتْك إلى مكروهِ صُروفِها.

– ٢١٠ –

الأصل: مَنْ لان عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ.

الشرح: تكادُ هذه الكلمة أن تكون إيماء إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾(١)، ومعنى هذه الكلمة أنّ مَنْ حَسُن خُلقه، ولانت كلمته، كثر محبُّوه وأعوانه واتباعه.

ونحوه قوله: «مَنْ لانتْ كلمته، وجبتَ محبّته»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٣)، وأصل هذه الكلمة مطابِقٌ للقواعد الحكميّة، أعني الشجرة ذات الأغصان حقيقة، وذلك لأنّ النبات كالحيوان في القوى النفسانيّة، أعني الغاذيّة والمنمّية، وما يخدم الغاذيّة من القوَى الأربع، وهي الجاذبة، والماسكة، والدافعة، والهاضمة، فإذا كان اليَبس غالباً على شجَرة كانت أغصانُها أخفَّ، وكان عودها أدقَّ، وإذا كانت الرُّطوبة غالبةً كانت أغصانها أكثر، وعودها أغلَظ، وذلك لاقتضاء اليَبَس الذبول، واقتضاء الرطوبة الغِلظ والعبالة والضخامة، ألا تَرى أنّ الإنسان الّذي غلب اليَبَسُ على مزاجه، لا يزال مَهْلُوساً نحيفاً، والذي غلبت الرطوبة عليه لا يزال ضخماً عَبْلاً.

- ٢١١ -

الأصل: الخِلافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ.

الشرح: هذا مثل قوله عليه السلام في موضع آخر: «لا رأي لمن لا يُطاع».

ويُروَى: لا إمرة لمن لا يطاع.

وفي أخبار قصير وجَذِيمة: «لو كان يطاع لقصيرٍ أمر!».

وكان يقال: اللّجاج يَشحَذ الزّجاج، ويثير العَجاج.

وقال دُريد بن الصِّمّة:

أمرتُهُمُ أمري بمنعرَج اللوَى ... فلَمْ يَسْتَبينوا النُّصح إلّا ضُحَى الغَدِ
فلَمَّا عصوْني كنتُ منهمْ وقد أرَى ... غَوايتَهم وأنّني غيرُ مهتدِي

وكان يقال: أهدى رأيِ الرّجل ما نفذ حكمُه، فإذا خولف فسد.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٨.
(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء: ٢/ ٢٨٥ رقم: ٢٦٤٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

ومن كلام أفلاطون: اللّجاج عسر انطباع المعقولات في النّفس، وذلك إمّا لفرْط حِدّةٍ تكون في الإنسان، وإما لغلظ طبعٍ فلا ينقاد للرأي.

- ٢١٢ -

الأصل: مَنْ نَالَ اَسْتَطَالَ.

الشرح: يجوز أن يريد به: مَنْ أثْرَى ونال من الدنيا حظًّا استطال على النّاس.

ويجوز أن يريد به: مَنْ جاد استطال بجوده.

يقال: نالني فلان بكذا أي جادَ به عليّ، ورجل نالٌ، أي جوادٌ ذو نائل، ومثله رجل طانٌ أي ذو طين، ورجل مالٌ أي ذو مال.

- ٢١٣ -

الأصل: في تَقَلُّبِ الأَحْوالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ.

الشرح: معناه: لا تُعلَم أخلاق الإنسان إلّا بالتجربة، واختلاف الأحوال عليه. وقديماً قيل:

تَرى الفتيان كالنَّخْلِ، وما يدريك ما الدَّخْلُ.

وقال الشاعر:

لا تَحمَدنّ امرأً حتّى تجرّبَهُ ولا تذمّنّه إلّا بتجريبِ

وقالوا: التجربة محكّ، وقالوا: مثل الإنسان مثلُ البطّيخة، ظاهرها مونق، وقد يكون في باطنها العيب والدود، وقد يكون طعمها حامضاً وتفِهاً.

وقالوا للرجل المجرّب يمدحونه: قد آل وائل عليه.

وقال الشاعر يمدح:

ما زال يحلُبُ هذا الدَّهرَ أشطُرَهُ يكون متّبِعاً طوراً ومتّبَعا

حتى استمرّت على شَزْرٍ مَريرته مستحكَم الرأيِ لا قَحْماً ولا ضَرَعا

- ٢١٤ -

الأصل: حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ المَوَدَّةِ.

الشرح: إذا حسدك صديقُك على نعمة أُعطيتَها لم تكن صداقته صحيحة، فإنّ الصديق حقاً من يَجري مَجرَى نفسِك، والإنسان لم يحسدْ نفسه.

وقيل لحكيم: ما الصديق؟ فقال: إنسان هو أنت، إلّا أنه غيرُك.

وأخذ هذا المعنى أبو الطيّب فقال:

مَا الخِلُّ إلّا مَنْ أَوَدُّ بِقَلْبِهِ ... وأرَى بطرفٍ لا يرى بسوائِهِ

ومن أدعية الحكماء: اللّهمّ اكفني بوائق الثقات، واحفظني من كيد الأصدقاء. وقال الشاعر:

احذر عَدُوَّكَ مَرَّةً ... واحْذَرْ صديقك ألفَ مَرّهْ

فلربّما انقلب الصديـ ... ـقُ فَكَانَ أعرَف بالمضرّهْ

وقال آخر:

احذر مودّة ماذقٍ ... شابَ المرارة بالحلاوهْ

يحصي الذّنوب عليك أيّـ ... ـامَ الصداقةِ للعداوهْ

وذكر خالد بن صفوان شبيبَ بن شيبة، فقال: ذاك رجل ليس له صديق في السرّ ولا عدوٌّ في العلانية.

وقال الشاعر:

إذا كان دَوّاماً أخوك مصارماً ... موجَّهةً في كلّ أوبٍ رَكائبُهْ

فخلِّ له ظهرَ الطريقِ ولا تكنْ ... مطيَّةَ رَحّالٍ كثيرٍ مذاهبُهْ

- ٢١٥ -

الأصل: أكثَرُ مَصارع العُقُول تَحْتَ بُرُوقِ المطامِعِ.

الشرح: قد تقدّم منّا قولٌ في هذا المعنى.

ومنه قولُ الشاعر:

طَمِعتَ بلَيلَى أن تَريعَ وإنّما ... تُقطِّع أعناقَ الرِّجالِ المطَامِعُ

وقال آخر:

إذا حدّثتك النفسُ أنّك قادرٌ ... على ما حَوتْ أيدي الرجالِ فكذِّبِ

وإيّاك والأطماعَ إنّ وُعودَها ... رَقارِقُ آلٍ أو بَوارِقُ خُلَّبِ

- ٢١٦ -

الأصل: لَيْسَ مِنَ الْعَدْل الْقضَاءُ عَلَى الثِّقَةِ بِالظَّنِّ.

الشرح: هذا مِثلُ قولِ أصحاب أصُول الفقه: لا يجوز نَسْخ القرآن والسنّة المتواتِرة بخبَر الواحد، لأن المَظْنون لا يَرفَع المَعلوم.

ولفظ الثّقة هاهنا مرادِفٌ للفظ العِلم، فكأنه قال: لا يجوز أن يُزال ما عُلم بطريق قطعيةٍ لأمرٍ ظنّي.

فإنْ قلت: أليس البراءة الأصليّة معلومة بالعقل، ومع ذلك تُرفَع بالأمارات الظّنّية كأخبار الآحاد؟

قلت: ليست البراءةُ الأصليّة معلومةً بالعقل مطلقاً، بل مشروطة بعدم ما يرفعها من طريق عِلميّ أو ظنّي، ألا ترى أنّ أكلَ الفاكهة وشربَ الماء معلوم بالعقل حسنه، ولكن لا مطلقاً، بل بشَرْط انتفاءِ ما يَقتضي قبحه، فإنا لو أخبَرَنا إنسانٌ أنّ هذه الفاكهةَ أو هذا الماءَ مسموم لقَبُح منّا الإقدامُ على تَناولهما، وإن كان قولُ ذلك المخبر الواحِد لا يفي العِلم القَطعِيّ.

- ٢١٧ -

الأصل: بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعادِ، الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبادِ.

الشرح: قد تقدَّم من قَولِنا في الظّلم والعُدْوان ما فيه كفاية.

وكان يقال: عَجَباً لمن عُومِل فأَنْصِف، إذا عامَلَ كيف يَظلِم! وأعجب منه: من عُومل فظُلِم إذا عامَل كيف يَظلم!

وكان يقال: العدوّ عدوّان: عَدوٌّ ظلمتَه، وعدوٌّ ظَلَمَك، فإن اضطرّكَ الدهرُ إلى أحدهما فاستَعن بالذي ظلَمك، فإن الآخر مَوْتُور.

- ٢١٨ -

الأصل: مِنْ أَشْرَفِ أَفْعَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ.

الشرح: كان يقال: التغافُل من السُّؤدُد.

وقال أبو تمّام:

لـيـس الـغَـبِـيُّ بـسَـيِّـدٍ فـي قـومِـه ... لـكـنّ سـيِّـد قـومِـه الـمُـتَـغـابِـي

وقال طاهرُ بنُ الحسين بن مصعَب:

ويـكـفـيـك مـن قـومٍ شـواهـدُ أمـرِهـم ... فخذ صفوَهمْ قبل امتحانِ الضَّمائِر
فـإنّ امـتـحـانَ الـقـومِ يُـوحـش مـنـهـمُ ... ومـا لَـكَ إلّا مـا تَـرَى فـي الـظَّـواهِـرِ
وإنّـك إن كـشّـفـتَ لـم تـر مُـخـلِـصـاً ... وأبدَى لك التجريبُ خبثَ السَّرائر

وكان يقال: بعضُ التغافل فضيلة، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب، ومن الكرَم أن تَصفَح عن التّوبيخ، وأن تلتمس ستْر هَتْك الكريم.

- ٢١٩ -

الأصل: مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ.

الشرح: قد سبق منّا قولٌ كثيرٌ في الحياء.

فصل: بعض ما قيل في الحياء

وكان يقال: الحياء تمام الكَرَم، والحِلم تمام العقل.

وقال بعضُ الحكماء: الحياء انقباض النّفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان؛ لأنّه لا يوجد في الفرَس ولا في الغنم والبقر، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات، فهو كالضّحك الّذي يختصّ به نوع الإنسان، وأوّل ما يَظهر من قوّة الفهم في الصبيان الحياء، وقد جَعَله الله تعالى في الإنسان ليرتدِع به عمّا تَنزع إليه نفسُه من القبيح، فلا يكون كالبَهمية، وهو خُلُقٌ مركّب من جُبْن وعفَّة، ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً، ولا الفاسقُ مستحياً، لتنافي اجتماع العفّة والفِسْق، وقلّما يكون الشجاع مستحيًا والمستحي شجاعاً لتنافِي اجتماعِ الجُبْن والشجاعة، ولعِزّة وجودِ ذلك ما يجمع الشعراء بين المدح بالشّجاعة والمدْح بالحياء نحو قول القائل:

يَجرِي الحياءُ الغَضُّ من قَسَماتِهِمْ في حينِ يَجرِي من أكفِّهم الدَّمُ

وقال آخر:

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرفَ فَضلُ حيائهِ ويَدْنُو وأطرَافُ الرِّماح دَوانِ

ومتى قصد به الانقباض فهو مدحٌ للصبيان دون المشايخ، ومتى قُصِد به ترك القبيح فهو مَدْح لكل أحد، وبالاعتبار الأوّل قيل: الحياء بالأفاضل قبيح، وبالاعتبار الثاني وَرَد: إن الله ليستحيي من ذي شَيْبة في الإسلام أن يعذِّبه، أي يُترك تعذيبه ويستقبح لكرمه ذلك.

فأمّا الخجل فحيْرة تَلحَق النّفس لفَرْط الحياء، ويحمَد في النّساء والصبيان ويُذَمّ بالاتفاق في الرّجال. فأمّا القِحّة فمذْمومة بكلّ لسان، إذ هي انْسلاخٌ من الإنسانية، وحقيقتُها لجاجُ النفس في تعاطي القبيح، واشتقاقها من حافرَ وَقَاح أي صُلْب.

ولهذه المناسبة قال الشاعر:

يا ليتَ لي مِن جِلْدِ وجهك رُقْعةً فأُعدَّ منها حافِراً للأشهَبِ

وما أصدَقَ قول الشاعر:

صلابةُ الوجْه لم تغلبْ على أحدٍ إلّا تكامَل فيه الشرُّ واجتمعا

فأمّا كيف يُكتَسب الحياء، فمن حقّ الإنسان إذا هَمّ بقبيح أن يتصوّر أجلّ من نفسِه أنه يراه، فإنّ الإنسان يَستحيي ممن يَكبُر في نفسِهِ أن يطّلع على عَيْبه ولذلك لا يستحيي من الحيوان غير الناطق، ولا مِن الأطفال الذين لا يميِّزون، ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد، والذين يستحيي الإنسانُ منهم ثلاثة: البشر، ونفسُه، والله تعالى، أما البَشَر فهم أكثر من يستحيي منه الإنسان في غالب الناس، ثمّ نفسه، ثمّ خالقه، وذلك لقلّة توفيقه وسوء اختياره.

واعلم أن من استحيَا من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده أخسّ من غيره، ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله تعالى فليس عارِفاً، لأنه لو كان عارفاً بالله لما استحيا من المخلوق دون الخالق، ألا تَرَى أن الإنسان لا بدّ أن يستحييَ من الذي يعظمه ويعلم أنه يراه أو يستمع بخبره فيُبكِّته، ومن لا يعرف الله تعالى كيف يستعظمه! وكيف يَعلَم أنه يطلع عليه! وفي قول رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حقَّ الحياء»[(١)]، أمرٌ في ضمْن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وحَثٌ عليها، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[(٢)]، تنبيهاً على أن العبد إذا علم أن ربّه يراه استحيا من ارتكاب الذنب.

وسُئل الجُنيد رحمه الله عمّا يتولّد منه الحياء من الله تعالى، فقال: أنْ يَرَى العبدُ آلاءَ الله سبحانه ونعمَه عليه، ويرى تقصيره في شكره.

فإن قال قائل: فما معنى قول النبيّ ﷺ: «مَن لا حياء له فلا إيمان له»[(٣)].

قيل له: لأنّ الحياء أوّل ما يظهر من أمارة العَقْل في الإنسان، وأما الإيمان فهو آخر المراتب، ومُحَالٌ حصول المرتبة الآخِرة لمن لم تحصل له المرتبة الأولى، فالواجب إذن أن مَنْ لا حياء له فلا إيمان له.

وقال عليه السلام: «الحياءُ شُعْبة من الإيمان»[(٤)].

وقال: «الإيمان عُرْيان، ولباسُه التقوى، وزينته الحياء»[(٥)].

- ٢٢٠ -

الأصل: بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الهيْبَةُ، وبالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ المُوَاصِلُونَ، وبالإفْضالِ تَعْظُمُ الأَقْدارُ، وبالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ، وباحْتِمال المُؤَنِ يَجِبُ السُّؤْدُدُ، وبالسِّيرَةِ الْعادِلَةِ يُقْهَرُ المُناوِئ، وبالحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الأَنْصارُ عَلَيْهِ.

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة، الرقائق (٢٤٥٨)، وأحمد، كتاب: «مسند المكثرين» من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٦٦٢). والحاكم في «المستدرك» (٧٩١٥).

(٢) سورة العلق، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: أمور الإيمان (٩)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد «شعب الإيمان» (٣٥)، والنسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: ذكر «شعب الإيمان» (٥٠٠٤)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: رد الإرجاء (٤٦٧٦).

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «النوادر» (١/ ٤١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٨٠).

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي في «النوادر» (٢/ ٢٠٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٨٠).

الشرح: قال يحيى بن خالد: ما رأيت أحداً قطّ صامتاً إلا هِبْتُه حتى يتكلّم، فإما أن تزداد تلك الهيْبة أو تنقص. ولا رَيْب أن الإنصاف سببُ انعطاف القلوب إلى المنصف، وأن الإفضال والجود يقتضي عِظَم القَدْر، لأنه إنعام، والمُنعِم مشكور، والتواضع طريقٌ إلى تمام النعمة، ولا سؤدُدَ إلا باحتمال المُؤن، كما قال أبو تمّام:

والحمدُ شَهْدٌ لا تَرَى مُشتارَه ... يجْنِيه إلّا من نقِيعِ الحَنْظَلِ
غُلٌّ لحامِلِهِ ويَحسَبه الذي ... لم يُوهِ عاتِقَهُ خفيفَ المحْمَلِ

والسِّيرة العادلة سببٌ لقَهْر الملِك الذي يُسيِّر بها أعداءَه، ومَن حَلُم عن سَفيهٍ وهو قادرٌ على الانتقام منه نَصَره الناس كلُّهم عليه، واتّفقوا كلُّهم على ذَمّ ذلك السفيه وتقبيح فِعْلِهِ، والاستِقراءُ واختبارُ العادات تَشهَد بجميع ذلك.

– ٢٢١ –

الأصل: الْعَجَبُ لِغَفْلَةِ الحُسَّادِ، عَنْ سَلامَةِ الأجْسادِ!

الشرح: إنما لم يَحسد الحاسد على صحّة الجسد لأنه صحيحُ الجسد، فقد شارك في الصحّة، وما يُشارك الإنسانُ غيره فيه لا يَحسده عليه، ولهذا أرباب الحَسد إذا مَرِضوا حَسدوا الأصحّاء على الصحّة.

فإن قلت: فلماذا تَعجَّب أميرُ المؤمنين عليه السلام؟

قلت: لكلامه عليه السلام وَجه، وهو أن الحسد لمّا تمكن في أربابه، وصار غريزة فيهم، تعجب كيف لا يتعدّى هذا الخُلُق الذّميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على ما يشاركه فيه، فإن زيداً إذا أبغض عَمْراً بُغْضاً شديداً وَدّ أن تزول عنه نِعْمته إليه، وإن كان ذا نِعْمة كنِعمتِه، بل ربما كان أقوى وأحسن حالًا.

ويجوز أن يريد معنى آخر، وهو تعجُّبه من غَفْلة الحُسّاد، على أن الحسد مؤثّر في سلامة أجسادهم، ومقتضٍ سُقْمَهُم، وهذا أيضاً واضح.

- ٢٢٢ -

الأصل: الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلّ.

الشرح: من أمثال البُحْتريّ قوله:

والـيـأسُ إحـدَى الـرّاحـتَيْـن ولـن تَـرَى   تَـعِـبـاً كـظَـنّ الـخـائـب الـمَـكْـدودِ

وكان يقال: ما طمِعتُ إلّا وذلّت - يَعْنون النّفس.

وفي البيت المشهور:

تُـقـطّـع أعـنـاقَ الـرِّجـال الـمَـطـامِـعُ

وقالوا: عَزَّ من قَنِع، وذَلَّ من طَمِع.

وقد تقدّم القولُ في الطّمع مراراً.

- ٢٢٣ -

الأصل: وقال عليه السلام وقد سئل عن الإيمان: الإِيمانُ مَعْرِفَةٌ بالقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ باللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ.

الشرح: قد تقدّم قولُنا في هذه المسألة.

وهذا هو مذهبُ أصحابنا المعتزِلة بعَيْنه، لأنّ العمل بالأركان عندنا داخلٌ في مسمّى الإيمان - أعنِي فعل الواجبات، فمن لم يَعمَل لم يُسمَّ مؤمناً وإن عَرَف بقلبه وأقَرّ بلسانه، وهذا خلافُ قول المُرْجئة من الأشعريّة والإماميّة، والحشويّة.

فإن قلت: فما قَوْلك في النوافل: هل هي داخلةٌ في مسمّى الإيمان أم لا؟ قلت: في هذا خلافٌ بين أصحابنا، وهو مستقصًى في كتبي الكلاميّة.

- ٢٢٤ -

الأصل: مَنْ أَصْبَحَ علَى الدُّنْيَا حَزِيناً، فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ الله سَاخِطاً.

وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ، فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ.

وَمَنْ أَتَى غَنِيًّا فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ.

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، فَهُوَ كَانَ مِمَّنْ يَتَّخِذُ آيَاتِ الله هُزُواً.

وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحبِّ الدُّنْيَا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلاثٍ: هَمٌّ لا يُغِبُّهُ، وَحِرْصٍ لا يَتْرُكُهُ، وَأَمَلٍ لا يُدْرِكُهُ.

الشرح: إذا كان الرّزق بقضاء الله وقَدَره، فمن حَزِن لفواتِ شيءٍ منه فقد سَخِط قضاءَ الله وذلك معصية، لأنّ الرّضا بقضاء الله واجب، وكذلك من شَكا مصيبةً حلّت به، فإنّما يشكو فاعلَها لا هي، لأنّها لم تنزل به من تِلقاءِ نفسِها، وفاعلها هو الله، ومن اشتكى الله فقد عَصَاه، والتواضُع للأغنياء تعظيماً لِغناهم أو رجاءَ شيءٍ ممّا في أيديهم فسْق.

وكان يقال: لا يُحمَد التّيه إلّا من فقيرٍ على غنيّ.

فأمّا قولُه عليه السلام: «ومن قرأ القرآن فماتَ فدخل النار، فهو ممن كان يتخذ آياتِ الله هُزُواً».

فلِقائل أن يقول: قد يكون مؤمناً بالقرآن ليس بمتّخذٍ له هُزُواً، ويقرؤه ثمّ يدخل النار، لأنه أتى بكَبيرة أخرى نحوَ القتل والزّنى والفِرار من الزّحف وأمثال ذلك!

والجواب أن معنى كلامه عليه السلام هو أنّ من قَرَأ القرآن فمات فدَخَل النار لأجلِ قراءتِهِ القرآن فهو ممّن كان يتّخذ آياتِ الله هُزُواً، أي يقرؤه هازِئاً به، ساخراً منه، مستهيناً بمواعظه وزواجره، غير معتقِد أنّه من عندِ الله.

فإن قلت: إنما دخل مَن ذكرتَ النارَ، لا لأجل قراءته القرآن، بل لهُزئه به، وجحوده إيّاه، وأنت قلت: معنى كلامه أنّه من دَخل النار لأجل قراءته القرآن فهو ممّن كان يستهزئُ بالقرآن!

قلت: بل إنّما دخل النار لأنه قرأه على صفة الاستهزاء والسُّخرية، ألا ترى أنّ الساجد للصّنَم يُعَاقَب لسجودِه له على جهة العبادة والتعظيم، وإن كان لولا ما يحدثه مضافاً للسّجود من أفعال القلوب لما عُوقب.

ويمكن أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على تَفسيرٍ آخرَ، فيقال: إنّه عَنَى بقوله: إنّه كما كان ممّن

يتّخذ آيات الله هُزُواً: أنّه يعتقد أنّها من عند الله، ولكنّه لا يَعمَل بمُوجبها كما يَفعَله الآن كثيرٌ من الناس.

قولُه عليه السلام: «التاط بقَلْبه» أي لَصِق. ولا يُغِبُّه، أي لا يَأْخُذُه غِبًّا، بل يلازمه دائماً، وصَدَق عليه السلام فإنّ حُبّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة، وحبُّ الدنيا هو المَوجِب للهَمّ والغمّ والحِرْص والأمَل والخَوْف على ما اكتَسَبه أن يَنفَد، وللشُّحّ بما حَوَتْ يدُه، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة.

- ٢٢٥ -

الأصل: كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً، وَبِحُسْنِ الخُلُق نَعِيماً.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذين، وهما القناعة وحُسْن الخُلُق.

وكان يقال: يستحقّ الإنسانيّة مَن حَسُن خُلقه، ويكاد السيّىءُ الخُلُق يُعَدّ من السّباع.

وقال بعضُ الحكماء: حدُّ القناعة هو الرّضا بما دون الكفاية، والزّهد: الاقتصار على الزّهيد، أي القليل، وهما مُتقاربان، وفي الأغلب إنما الزهد هو رَفْض الأمور الدنيويّة مع القُدرة عليها، وأما القَناعة فهي إلزام النّفس الصبرَ عن المشتهيَات الّتي لا يقدر عليها، وكلّ زُهْد حَصَل عن قَناعةٍ فهو تزهّد، وليس بزُهد، وكذلك قال بعض الصُّوفيّة: القناعة أوّل الزُّهد، تنبيهاً على أنّ الإنسان يحتاج أوّلاً إلى قدعْ نفسه وتخصّصه بالقناعة ليَسهُل عليه تَعاطِي الزّهد، والقناعة التي هي الغنى بالحقيقة، لأنّ الناسَ كلّهم فقراء من وجهين: **أحدُهما** لافتقارِهم إلى الله تعالى كما قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

والثاني: لكَثْرة حاجاتهم فأغناهم لا مَحالة أقلّهم حاجة، ومن سدّ مَفاقِره بالمُقتَنَيات فما في انسدادِها مطمَع، وهو كَمَن يَرقَع الخَرْق بالخَرْق، ومن يَسُدّها بالاستغناء عنها بقَدْر وُسْعه والاقتصار على تَناوُل ضروريّاته فهو الغنيّ المقرَّب من الله سبحانه، كما أشار إليه في قصّة طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾[2]، قال أصحاب المعاني والباطن: هذا إشارةٌ إلى الدنيا.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

- ٢٢٦ -

الأصل: وسئل عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾(١)، فَقَالَ: هِيَ الْقَنَاعَةُ.

الشرح: لا ريبَ أنّ الحياةَ الطّيبة هي حياةُ الغِنَى، وقد بيّنّا أن الغنيّ هو القَنُوع، لأنّه إذا كان الغِنَى عدمُ الحاجة فأغنَى النّاس أقلُّهم حاجةً إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغْنَى الأغنياء، لأنّه لا حاجةَ به إلى شيء، وعلى هذا دَلّ النبيُّ بقوله ﷺ: «ليس الغِنَى بكَثْرة العَرَض، إنّما الغِنَى غِنَى النّفس»(٢).

وقال الشاعر:

فَمن أشرِب اليأسَ كان الغنيَّ ... ومن أشرِبَ الحِرْصَ كان الفَقيرَا

وقال الشاعر:

غِنَى النَّفْسِ ما يَكْفِيك من سَدِّ خَلّةٍ ... فإنْ زادَ شيئاً عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرا

وقال بعض الحكماء: المخيَّر بين أن يستغنيَ عن الدنيا وبين أن يستغنيَ بالدّنيا كالمخيَّر بين أن يكون مالِكاً أو مَمْلوكاً.

ولهذا قال عليه السلام: «تَعِس عبدُ الدِّينار والدّرهم، تَعِس فلا انتَعَش، وشيكَ فلا انتقش»(٣).

وقيل لحكيم: لم لا تَغتَمّ؟ قال: لأنّي لم أتّخذ ما يَغُمُّني فقدُه.

وقال الشاعر:

فَمن سَرَّه ألّا يَرَى ما يَسُوءُه ... فلا يتّخِذْ شيئاً يَخافُ له فَقْدَا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦)، ومسلم، كتاب: الزكاة باب: ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن الغنى غنى النفس (٢٣٧٣) وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: القناعة (٤١٣٧) بلفظ: «ولكن الغنى» بدل قوله: «إنما الغنى».

(٣) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو (٢٨٨٧)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: في المكثرين (٤١٣٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٢٧٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٩٥).

وقال أصحابُ هذا الشأن: القَناعة من وجهِ صَبْر، ومِنْ وَجْهِ جُود، لأنّ الجُودَ ضَرْبان: جودٌ بما في يدك منتزَعاً، وجودٌ عمّا في يدِ غيرك متورِّعاً، وذلك أشرَفهما، ولا يحصُل الزّهد في الحقيقةِ إلّا لمن يَعرِف الدّنيا ما هيَ، ويَعرِف عيوبَها وآفاتِها، ويَعرِف الآخرة وافتقاره إليها، ولا بدّ في ذلك من العِلْم، ألا ترَى إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾(١).

ولأنّ الزّاهد في الدنيا راغبٌ في الآخرة وهو يبيعُها بها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾(٢) الآية.

والكَيِّس لا يَبيعُ عَيْناً بأثر، إلّا إذا عَرَفهما وعَرَف فضلَ ما يَبتاعُ على ما يَبيع.

- ٢٢٧ -

الأصل: شَارِكُوا الَّذِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ، فإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغنَى، وأَجْدَرُ بِإِقْبالِ الحظّ.

الشرح: قد تقدّم القول في الحظ والبخْتِ.

وكان يقالُ: الحظّ يُعدِي كما يُعدِي الْجَرَب، وهذا يُطابق كلمة أمير المؤمنين عليه السلام لأنّ مخالطة المجْدود ليست كمخَالطة غير المجْدود، فإن الأولى تقتضي الاشتراك في الحظ والسعادة، والثانية تقتضي الاشتراك في الشقاء والحرمان.

والقول في الحظ وسيعٌ جداً.

وقال بعضهم: البَخْت على صورةِ رجلٍ أعمى أصمّ أخرس، وبين يديه جواهرُ وحِجارة، وهو يَرمي بكلتا يَدَيه.

وكان مالكُ بن أنس فقيهَ المدينة، وأخذ الفقه عن اللَّيْث بن سعد، وكانوا يزدحمون عليه واللَّيْثُ جالس لا يلتفتون إليه، فقيل للّيْث: إنّ مالِكاً إنما أخذ عنك فما لَكَ خاملاً وهو أنبَهُ الناسِ ذِكْراً! فقال: دانِقُ بَخْتٍ خيرٌ من جملٍ بُخْتِيٍ حُمّل عِلماً.

وقال الرّضيّ:

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧٩، ٨٠. (٢) سورة التوبة، الآية: ١١.

أسِيغ الغيظ من نُوَب اللّيَالي | وما يَحفِلْن بالحنِق المَغيظِ
وأرجو الرِّزق من خَرق دَقيقٍ | يُسَدُّ بسلك حرمانٍ غليظِ
وأرجِع ليس في كَفِّيَّ منه | سِوَى عَضِّ اليَدَيْن على الحظوظ

– ٢٢٨ –

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾(١): العَدْلُ الإنصافُ، والإحْسانُ التَّفضُّلُ.

الشرح: هذا تفسيرٌ صحيح اتّفق عليه المفسرون كافّة، وإنما دخل النّدْب تحت الأمر لأنّ له صفةً زائدة على حُسْنه، وليس كالمُباح الذي لا صِفَة له زائدة على حُسْنه.

وقال الزّمخشريّ: العَدْل هو الواجب؛ لأنّ الله عزّ وجلّ عَدَل فيه على عباده، فجعل ما فَرَضَه عليهم منه واقعاً تحت طاقتِهم، والإحسان النّدْب، وإنما علق أمره بهما جميعاً؛ لأنّ الفَرْض لا بدّ أن يقع فيه تفريط، فيَجْبُره النّدب، ولذلك قال رسولُ الله ﷺ لإنسان علّمه الفرائض فقال: والله لا زدتُ فيها ولا نقصْتُ منها: «أفْلح إنْ صَدَق»(٢)، فعقدَ الفلاح بشَرْط الصِّدق والسلامة من التّفريط، وقال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا»(٣)، فليس ينبغي أن يترك ما يَجبر كَسْر التّفريط من النوافل.

ولقائل أن يقول: إن كان إنما سمى الواجب عَدْلاً لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلّف فليسمّ النّدْب عَدْلاً لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلف، وأما قوله: إنما أمر بالنّدْب لأنه يجبر ما وَقَع فيه التفريط من الواجب، فلا يصحّ على مذهبه، وهو من أعيان المعتزلة لأنه لو جُبرت النافلة بالتفريط في الواجب لكانت واجبةً مثله، وكيف يقول الزمخشريّ هذا ومن قول مشايخنا إن

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: الزكاة في الإسلام (٤٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (١١)، والنسائي، كتاب: الصلاة، باب: كم فرضت في اليوم والليلة (٤٥٨)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: فرض الصلاة (٣٩١).
(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٤٧)، والدارمي، كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في الطهور (٦٥٥)، وابن ماجه، كتاب: الطهارة باب: المحافظة على الوضوء (٢٧٧)، وأحمد في كتاب: مسند الأنصار، باب: ومن حديث ثوبان (٢١٨٧٣).

تارِك صلاة واحدةٍ من الفرائض لو صلى مائة ألف ركعةٍ من النوافل لم يكفِّر ثوابها عقاب تَرْك تلك الصلاة!

- ٢٢٩ -

الأصل: وقال عليه السلام: مَنْ يُعْطِ باليَدِ القَصِيرَةِ يُعْطَ باليَدِ الطَّوِيلَةِ.

قال الرَّضيّ رَحمهُ الله تعالى: ومَعْنَى ذَلِكَ أنَّ ما يُنْفِقُهُ المَرْءُ مِنْ مالِهِ في سَبِيلِ الخير والبرّ وإنْ كان يَسِيراً فإنَّ الله تعالى يَجْعَلُ الجزاءَ عَلَيه عظيماً كَثِيراً، والْيَدَانِ ها هنا عِبارَةٌ عَنِ النِّعْمَتَيْنِ فَفَرَقَ عليه السلام بَيْنَ نِعْمَةِ الْعَبْدِ ونِعْمةِ الرَّبِّ تَعَالَى ذِكْرُهُ، بالْقَصِيرَةِ والطَّوِيلَةِ، فجَعلَ تِلْكَ قَصِيرَةً وهَذِهِ طَوِيلَةً؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ أبَداً تُضَعَّفُ على نِعَمِ المخْلُوقِينَ أضْعَافاً كَثِيرَةً، إذْ كَانَتْ نِعَمُ الله أصْلَ النِّعَمِ كلها، فكُلُّ نِعْمَةٍ إلَيْها تَرْجِعُ، ومنها تُنْزَعُ.

الشرح: هذا الفَصْل قد شرحه الرضيّ رحمه الله، فأغنى عن التعرّض بشَرْحِه.

- ٢٣٠ -

الأصل: وقال عليه السلام لابْنِهِ الحَسنِ: لا تَدْعُوَنَّ إلى مُبارَزَةٍ، فإنْ دُعِيتَ إليها فأجب، فإنَّ الدَّاعيَ إلَيْها باغٍ، والْباغِي مَصْرُوعٌ.

نُبَذٌ عن شجاعة علي عليه السلام

الشرح: قد ذَكر عليه السلام الحِكْمة، ثم ذكر العِلّة، وما سمِعْنا أنه عليه السلام دعا إلى مُبارَزةٍ قَطّ، وإنما كان يدعَى هو بعينه، أو يدعو من يبارز، فيَخْرُج إليه فيقتله، دعا بنو ربيعة بن عبد بن شمس بني هاشم إلى البراز يوم بدْر، فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام في قَتْل عُتْبة، ودعا طَلْحَة بن أبي طَلحة إلى البراز يوم أحد، فخرج إليه فقتله، ودعا مَرْحبٌ إلى البراز يوم خَيْبَر فخرج إليه فقتله.

فأما الخَرْجة التي خرَجَها يوم الخَنْدق إلى عمرو بن عبد وُدّ فإنّها أجلّ من أن يقال جليلة،

وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هي إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائلٌ: أيّما أعظم منزلة عند الله، عليٌّ أم أبو بكر؟ فقال: يا بن أخي، والله لمبارزة عليٍّ عَمْراً يوم الخنْدق تَعدِل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتُرْبِي عليها فضلاً عن أبي بكر وحده. وقد رُوي عن حذيفة بن اليمان ما يُناسِب هذا، بل ما هو أبلغ منه، رَوَى قيسُ بن الرّبيع عن أبي هارون العبْدي، عن ربيعة بن مالك السعديّ، قال: أتيتُ حذيفة بن اليمان فقلت: يا أبا عبدِ اللّه، إن الناس يتحدثون عن عليّ بن أبي طالب ومناقِبه، فيقول لهم أهل البصيرة: إنكم لتُفرطون في تقريظ هذا الرجل، فهل أنت محدِّثي بحديثٍ عنه أذكرُهُ للناس؟ فقال: يا ربيعة، وما الذي تسألني عن عليّ، وما الذي أحدّثك عنه! والذي نفسُ حُذيفة بيدِه لو وضِع جميعُ أعمال أمة محمد ﷺ وآله فِي كِفّة الميزان مُنذ بَعث الله تعالى محمداً إلى يوم الناس هذا، ووُضِع عملٌ واحدٌ من أعمال عليٍّ في الكفة الأخرى لرَجَح على أعمالهم[1] كلِّها.

فقال ربيعة: هذا المدْح الذي لا يقام له ولا يُقعد ولا يُحمل، إني لأظنه إسرافاً يا أبا عبد اللّه! فقال حذيفة: يا لُكَع، وكَيْف لا يُحمل! وأين كان المسلمون يوم الخنْدق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحْجَموا عنه حتى برز إليه عليٌّ فقتله! والذي نفسُ حذيفة بيده لَعمله ذلك اليوم أعظم أجْراً من أعمال أمة محمدٍ ﷺ إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة.

وجاء في الحديث المرفوع: «إنّ رسول الله ﷺ قال ذلك اليومَ حينَ برز إليه: «برَزَ الإيمان كلّه إلى الشِّرْك كلِّه»[2].

وقال أبو بكر بن عيّاش: لقد ضَرَبَ عليٌّ بنُ أبي طالب عليه السلام ضربةً ما كان في الإسلام أيْمَنَ منها ضَرْبَتُه عَمْراً يومَ الخندق، وقد ضُرِب عليٌّ ضربة ما كان في الإسلام أشأمَ منها - يعني ضربة ابن مُلْجَم لعَنه الله.

وفي الحديث المرفوع أنّ رسول الله ﷺ لَمّا بَارَزَ عليٌّ عَمْراً ما زال رافعاً يَديْه مُقْمِحاً رأسَه نحوَ السماء، داعيًا ربّه قائلاً: «اللهم إنّك أخذْتَ منّي عُبيدَة يومَ بَدْر، وحمزةَ يوم أُحد، فاحفظ عليّ اليومَ عليًا ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾»[3].

---

(١) هو مأخوذ من قول النبي ﷺ: لو أن السموات والأرض وضعتا في كفة ووضع إيمان علي في كفة لرجح إيمان علي، أخرجه المغازلي في المناقب رقم ٣٣٠، والديلمي في الفردوس رقم ٥١٠٠ - ٥١٣٨.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٠/ ٢١٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

وقال جابرُ بنُ عبد اللّه الأنصاري: والله ما شبّهتُ يومَ الأحزاب، قتلَ عليّ عمْراً وتخاذُل المُشركين بعدَه، إلا بما قصّه الله تعالى من قِصّة طالوتَ وجالُوت في قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾(١).

ورَوَى عمرو بن أزهر، عن عَمْرو بن عُبيد، عن الحسن أنّ عليًّا عليه السلام لمّا قَتلَ عَمراً احْتزّ رأسَه وحَمَله فألقاه بين يَديْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فقام أبو بكر وعُمَر فقبّلا رأسَه، ووَجْه رسولِ الله صلى الله عليه وآله يتهلّل، فقال: «هذا النّصر»! أو قال: هذا أوّل النّصر.

وفي الحديث المرفوع: أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال يومَ قُتِل عمرو: «ذهبت ريحُهم، ولا يغْزوننا بعد اليوم، ونحن نَغْزُوهم إن شاء الله».

خبر غزوة الخندق

وينبغي أن نذكُر ملخّص هذه القصّة من مغازِي الواقديّ وابن إسحاق، قالا: خرج عَمرو بن عبدِ ودّ يومَ الخندق وقد كان شهد بدْراً فارتُثَّ جريحاً، ولم يشهد أُحُداً، فحضر الخندقَ شاهراً سيفه معلِماً، مُدِلّاً بشجاعته وبأسِه، وخرج معه ضِرارُ بنُ الخطّاب الفِهْريّ وعِكْرمةُ بنُ أبي جهل وهُبيرة بن أبي وَهْب ونَوفَل بن عبد اللّه بن المغيرة المخزوميّون، فطافوا بخُيولهم على الخَندق إصعاداً وانحداراً، يَطلُبون مَوْضعاً ضيّقاً يَعبُرونه، حتّى وقفوا على أضيق موضع فيه في المكان المعروف بالمزار، فأكرهوا خيولهم على العُبور فعبرتْ، وصاروا مع المسلمين على أرضٍ واحدة ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ وأصحابُه قيام على رأسِه، فتقدّم عمرو بن عَبْد ودّ فدعا إلى البراز مراراً، فلم يقم إليه أحد، فلمّا أكثَر، قام عليٌّ عليه السلام فقال: أنا أبارزه يا رسول الله، فأمَرَه بالجلوس، وأعاد عمرو النّداء والناسُ سُكوت كأنّ على رؤوسهم الطّير، فقال عَمرو: أيّها الناس، إنّكم تزعمون أنّ قتلاكم في الجنّة وقَتْلانا في النار، أفما يحبّ أحدكم أن يَقدم على الجنّة أن يُقدّم عدوًّا له إلى النار! فلم يقمْ إليه أحد، فقام عليٌّ عليه السلام دفعةً ثانية وقال: أنا له يا رسول الله، فأمَره بالجلوس، فجال عَمرو بفرسَه مُقْبِلاً ومدبِراً، وجاءت عُظماء الأحزاب فوقفتْ مِن وراء الخندق ومدّت أعناقَها تَنظر، فلمّا رأى عَمرو أنّ أحداً لا يجيبه، قال:

ولقد بُحِحْتُ من النّدا ... ءِ بجَمْعِهِمْ: هل مِنْ مُبارِزْ!
ووقفتُ مذ جَبُن المشيِّـ ... ـع مَوقفَ القِرْن المُناجِزْ
إنّي كذلكَ لم أزَلْ ... متسرِّعاً قبل الهزاهِزْ
إنّ الشجاعةَ في الفَتَى ... والجود من خير الغرائزْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

فقامَ عليٌّ عليه السلام فقال: يا رسول الله، آئذَن لي في مُبارَزته، فقال: ادْن، فدنا فقلّده سيفَه، وعمَّمه بعِمامته، وقال: امضِ لشأنِك، فلمّا انصرَف قال: «اللّهمّ أعِنه عليه»[1]، فلمّا قَرُب منه قال له مجيباً إيّاه عن شِعره:

لا تَـعْـجَـلـنَّ فـقــد أتــا ... كَ مجيبُ صَوتك غير عاجزْ
ذو نِـيَّــةٍ وبَـصـيــرةٍ ... يـرجـو بـذاك نَـجَـاةَ فـائـزْ
إنّــي لأمُــل أن أقِــ ... يمَ عـليـكَ نـائحةَ الـجـنـائـزْ
مِــن ضَــرْبــةٍ فَــوْهَــاءَ يَـبـ ... قـى ذِكـرُهـا عـنـد الـهـزاهِـزْ

فقال عَمرو: منْ أنت! وكان عَمرو شيخاً كبيراً قد جاوزَ الثّمانين، وكان نديمَ أبي طالب بن عبد المطّلب في الجاهليّة، فانتَسب عليٌّ عليه السلام له وقال: أنا عليُّ بنُ أبي طالب، فقال: أجَلْ، لقد كان أبوك نديماً لي وصديقاً، فارجع فإنّي لا أُحبّ أن أقتلَك - كان شيْخنا أبو الخير مصدَّق بن شَبيب النحويّ يقول إذا مرَرْنا في القراءة عليه بهذا الموضع: والله ما أمَره بالرّجوع إبقاءً عليه، بل خوفاً منه، فقد عَرَف قَتْلاه ببَدْر وأُحُد، وعَلِم أنّه إنْ ناهَضَه قتلَه، فاستَحْيا أن يُظهِر الفَشَل، فأظهر الإبْقاء والإرعاء، وإنّه لكاذب فيهما - قالوا: فقال له عليٌّ عليه السلام: لكنّي أُحِبُّ أن أقتلَك، فقال يا بْن أخي، إنّي لأكره أن أقتلَ الرجلَ الكريم مِثلك، فارجع وراءَك خيرٌ لك، فقال عليٌّ عليه السلام: إن قريشاً تتحدّث عنك أنّك قلت: لا يدعوني أحدٌ إلى ثلاثٍ إلا أجبتُ ولو إلى واحدةٍ منها، قال: أجَلْ، فقال عليٌّ عليه السلام: فإنّي أدعوك إلى الإسلام، قال: دعْ عنك هذه، قال: فإنّي أدعوك إلى أن تَرجع بمن تَبِعك من قريش إلى مكّة، قال: إذَنْ تتحدّث نساء قريش عنّي أنّ غلاماً خَدَعني، قال: فإنّي أدْعوك إلى البراز، فحميَ عمرو وقال: ما كنتُ أظنّ أن أحداً من العرب يَرومُها منّي، ثمّ نزل فعَقَر فرَسَه - وقيل: ضرب وجهه ففرّ - وتجاوَلا، فثارت لهما غبرةٌ وارَتْهما عن العيون، إلى أن سمع الناسُ التكبيرَ عالياً من تحت الغَبْرة، فعَلِموا أنّ عليّاً قَتَله، وانجلت الغَبَرة عنهما، وعليٌّ راكب صدره يحزّ الغَبْرة، وفرّ أصحابه ليَعبرُوا الخنْدق، فظفرتْ بهمْ خيلُهم إلّا نوْفل بن عبد اللّه، فإنه قصر فرسه، فوقع في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة، فقال: يا معاشر الناس، قتلة أكرمُ من هذه، فنزل إليه عليٌّ عليه السلام فقَتَله، وأدرك الزُّبيرُ هبيرة بن أبي وهب فضَرَبَه فقَطع ثفر فرسِه وسقطتْ دِرْعٌ كان حَمَلَها مِن ورائه، فأخَذَها الزبير، وألقى عِكْرمة رمحه، وناوش عُمَر بن الخطّاب ضرار بن عمرو، فحَمل عليه ضِرار حتى إذا وجد عمرُ مسَّ الرّمْح رَفَعه عنه وقال: إنها لَنِعمة مشكورة، فاحفَظْها يا بنَ الخطّاب، إنّي كنتُ آليتُ ألّا تُمكِنَني يَدايَ من قتلِ قرشيّ فأقتله. وانصرَف ضرارٌ راجعاً إلى

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٦٨).

أصحابه، وقد كان جرى له معه مِثل هذه في يوم أُحُد. وقد ذَكَر هاتَيْن القصّتين معاً محمدُ بنُ عُمَر الواقديّ في كتاب المَغازي[١].

- ٢٣١ -

الأصل: خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرارُ خِصَالِ الرِّجَالِ: الزَّهْوُ وَالْجُبْن وَالْبُخْل، فَإِذَا كَانَتِ المَرْأَةُ مَزْهُوَةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِها، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا.

الشرح: أَخَذ هذا المعنَى الطُّغرائيُّ شاعرُ العَجَم فقال:

الجودُ والإقدامُ في فِتْيانِهِمْ ... والبُخلُ في الفَتَيات والإشفاقُ
والطَّعنُ في الأحداقِ دأبُ رُماتِهِمْ ... والراميات سِهامُها الأحداقُ

وله:

قد زادَ طيبَ أحاديث الكِرامِ بها ... ما بالكرائم من جُبْن ومن بَخَلِ

وفي حكمةِ أفلاطون: مِن أقوى الأسباب في محبّة الرجل لامرأته واتّفاق ما بينهما أن يكون صوتُها دونَ صوتهِ بالطَّبع، وتميزّها دون تميُّزِه، وقلبُها أضعف من قلبهِ، فإذا زاد من هذا عندها شيء على ما عندَ الرجل تنافرَا على مقداره.

وتقول: زُهيَ الرجلُ علينا فهو مَزْهُوٌّ، إذا افتخَر، وكذلك نُخِيَ فهو مَنْخُوّ، من النَّخْوة، ولا يجوز زَهَا إلّا في لغةٍ ضعيفة. وفَرِقتْ: خافتْ. والفَرَق: الخوف.

- ٢٣٢ -

الأصل: وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: صِفْ لَنَا العَاقِلَ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشيْءَ مَوَاضِعَهُ. فَقِيل: فَصِف لَنَا الجَاهِلَ، قَالَ: قَدْ قلت.

قالَ الرَّضيّ رَحمهُ اللهُ تَعَالَى: يَعْنِي أنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لا يَضَعُ الشَّيءَ مَوَاضِعَهُ، فَكَأَنَّ صِفَةٌ لَهُ، إِذْ كَانَ بِخِلافِ وصف العَاقِلِ.

(١) اخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٩/ ٦.

الشرح: هذا مثلُ الكلام الذي تَنسبُه العربُ إلى الضَّبّ. قالوا: اختَصَمَت الضَّبُع والثعلبُ إلى الضَّبّ، فقالت الضبع: يا أبا الحِسْل إنّي التقَطْتُ تَمْرة، قال: طيّباً جنيتِ، قالت: وإن هذا أخذها منّي، قال: حظَّ نفسه أحرز، قالت: فإنّي لَطمْتُه، قالَ: كريمٌ حَمَى حقيقتَه، قالت: فلَطَمني، قال: حُرٌّ انتَصَر، قالت: اقضِ بيننا، قال: قد فعلتُ.

- ٢٣٣ -

الأصل: واللهِ لَدُنْياكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عُراقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ.

الشرح: العُراق: جمع عَرْق، وهو العَظْم عليه شيءٌ من اللَّحم، وهذا من الجمُوع النادرة، نحو رَخْل ورُخال وتَوْءم وتُؤام، ولا يكون شيء أحقر ولا أبغَضُ إلى الإنسان من عُراق خنزير في يدِ مَجْذوم، فإنّه لم يَرْضَ بأن يجعله في يد مَجْذوم - وهو غاية ما يكون مِن التّنفير - حتّى جَعله عُراق خنزير.

ولعَمْري لقد صَدَقَ - وما زال صادقاً - ومن تأمّل سِيرتَه في حالتَيْ خلوّه من العمل ووِلايته الخلافة عَرَف صحة هذا القول.

- ٢٣٤ -

الأصل: إنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ التُّجّارِ، وإنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ العَبِيدِ، وإنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله شُكْراً فَتِلْكَ عِبادَةُ الأحْرارِ.

الشرح: هذا مقامٌ جليلٌ تَتقاصر عنه قُوَى أكثر البَشَرِ، وقد شرَحْناه فيما تقدّم، وقلنا: إنّ العبادة لرجاء الثواب تجارةٌ ومُعاوضة، وإن العبادة لخوفِ العِقاب لمنزِلَةُ مَن يَستجدي لسلطانٍ قاهر يخاف سطوَته.

وهذا معنَى قولِه: «عبادةُ العبيد»، أي خَوف السّوط والعصا، وتلك ليس عبادةٌ نافعة، وهي كمن يَعتذِر إلى إنسان خوفَ أذاه ونقْمته، لا لأنّ ما يَعتذِر منه قبيح لا ينبغي له فِعْلُه، فأمّا العبادة

لله تعالى شكراً لأنعُمه فهي عبادة نافعة؛ لأنّ العبادة شكرٌ مخصوص، فإذا أوقَعَها على هذا الوجه فقد أوقَعها الموقع الّذي وُضِعتْ عليه.

فأما أصحابُنا المتكلِّمون فيقولون: ينبغي أن يَفعَل الإنسان الواجبَ لوجْهِ وجوبه، ويترك القبيح لوجه قبحه، وربّما قالوا: يُفعل الواجبُ لأنّه واجب، ويُترك القبيحُ لأنّه قبيح، والكلامُ في هذا الباب مشروحٌ مبسوط في الكُتُب الكلاميّة.

- ٢٣٥ -

الأصل: المَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا، وَشَرُّ مَا فِيهَا أنَّهُ لا بُدَّ مِنْهَا.

الشرح: حَلَف إنسانٌ عند بعض الحكماء أنه ما دخل بابِي شَرٌّ قطّ، فقال الحكيم: فمِنْ أينَ دَخلَتِ امرأتُك!

وكان يقال: أسباب فِتنة النساء ثلاثة: عينٌ ناظرة، وصورةٌ مستحسَنةٌ، وشَهوةٌ قادرة، فالحكيم من لا يردِّد النظرة حتّى يَعرفَ حقائقَ الصّورة، ولو أنّ رجلاً رأى امرأةً فأعجبتْه ثمّ طَالَبها فأمتنعتْ، هل كان إلّا تارِكَها! فإن تأبّى عَقلُه عليه في مُطالَبتها كتأبّيها عليه في مُساعَفتها قَدَع نفسَه عن لذّته قَدْع الغَيُورِ إيّاه عن حُرْمةِ مُسلم.

وكان يقال: من أتعب نفسَه في الحلال من النّساء لم يَتُقْ إلى الحرام منهنّ كالطّليح مُناه أن يَستريح.

- ٢٣٦ -

الأصل: مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ الحُقُوقَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في التّواني والعَجْز، وتقدّم أيضاً الكلامُ في الوِشاية والسّعاية.

ورُفِع إلى كسرَى أبرَويز أنّ النصارى الّذين يَحضُرون بابَ المَلِك يُعرَفون بالتجسّس إلى مَلِك الروم، فقال: مَن لم يَظهَر له ذنب لم يظهر منّا عُقوبة له.

ورُفع إليه أنّ بعض الناس يُنكِر إصغاءَ المِلك إلى أصحاب الأخبار، فوقّع هؤلاء بمنزلةِ مَداخِل الضّياء إلى البيت المُظلِم، وليس لقَطْع موادِّ النور مع الحاجة إليه وجهٌ عند العقلاء.

قال أبو حيّان: أمّا الأصل في التدبير فصحيح؛ لأنّ المَلِك محتاج إلى الأخبار، لكن الأخبار تنقسم إلى ثلاثة أوجه:

خبرٌ يتّصل بالدِّين، فالواجب عليه أن يُبالِغ ويَحتاط في حِفظه وحِراسته وتحقيقِهِ ونفيِ القَذَى عن طريقه وساحته.

وخبرٌ يتّصل بالدّولة ورسومها، فينبغي أن يتيقّظ في ذلك خوفاً من كيدٍ ينفّذ، وبغيٍ يَسرِي.

وخبر يدور بينَ الناس في منصرَفِهم وشأنِهم وحالهم، متى زاحمَتهم فيه اضطَغَنوا عليك، وتمنّوْا زَوالَ مُلْكِكَ، وأرصدوا العَداوَة لك، وجَهَروا إلى عدوّك وفتحوا له بابَ الحيلة إليك.

وإنّما لحقَ الناسَ من هذا الخبر هذا العارض، لأنّ في مَنع الملك إيّاهم عن تصرّفاتهم وتتبّعه لهم في حركاتهم، كَرْباً على قلوبهم، ولهيباً في صُدورهم، ولا بدّ لهم في الدّهر الصالح والزّمان المعتدل، والخِصب المتتابع، والسبيل الآمن، والخيرِ المتّصل، من فُكاهة وطِيب واستِرسال وأشَر وبَطَر، وكلّ ذلك من آثار النعمة الدارّة، والقلوب القارّة، فإنْ أغضى المَلِك بصرَه على هذا القِسم عاشَ محبوباً، وإن تنكّر لهم فقد استأسَدَهم أعداءً. والسلام.

- ٢٣٧ -

الأصل: ٱلْحَجَرُ ٱلْغَصْبُ في الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وَقَدْ رُوِيَ مَا يناسِبُ هذَا الْكَلامَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلا عَجَبَ أن يَشْتَبِهَ الكَلامَانِ فَإِنَّ مُسْتَقَاهُما مِنْ قَلِيبٍ، وَمَفْرَغَهُمَا مِنْ ذَنُوبٍ!.

الشرح: الذَّنُوب: الدلو المَلأى، ولا يقال لها وهيَ فارغةٌ: ذَنُوب، ومعنى الكلمة أن الدّار المبنيّة بالحجارة المَغصوبة ولو بحَجَر واحد، لا بدّ أن يتعجّل خرابُها، وكأنّما ذلك الحجَر رَهن على حصول التخرب، أي كما أنّ الرّهن لا بدّ أن يُفتَك، كذلك لا بدّ لما جُعل ذلك الحجرُ رَهْناً عليه أن يَحصُل.

وقال ابن بسّام لأبي عليّ بن مُقْلة لمّا بَنَى داره بالزّاهر ببغداد من الغَصْب وظُلمِ الرعيّة:

بِجَنْبِكَ داران مَهْدومَتانِ ودارُك ثالثةٌ تُهْدَمُ

فَلَيتَ السلامَةَ لِلمُنْصِفِيـ ... ـن دامتْ فكيفَ لِمن يَظلِمُ!

والدّاران: دارُ أبي الحسن بنِ الفُرات، ودارُ محمّد بن داودَ بن الجرّاح.

وقال فيه أيضاً:

قلْ لابنِ مُقلَةَ مهلاً لا تكن عَجِلاً ... فإنما أنتَ في أضغاثِ أحلامِ

تَبْني بأنقاضِ دُورِ الناس مجتهداً ... داراً ستُنقَضُ أيضاً بعد أيّامِ

وكان ما تفرّسه ابنُ بسّام فيه حقًّا، فإنّ داره نُقِضتْ حتى سوّيت بالأرض في أيّام الراضي بالله.

- ٢٣٨ -

الأصل: يَوْمُ المَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى المَظْلُومِ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في الظلم مراراً.

وكان يقال: اذكُر عندَ الظّلم عدلَ الله تعالى فيكَ، وعند القُدْرة قدرةَ الله تعالى عليك.

وإنما كان يومُ المظلوم على الظالم أشدَّ من يومه على المظلوم، لأن ذلك اليومَ يومُ الجَزاء الكُلّيّ، والانتقام الأعظم، وقُصارَى أمرِ الظالم في الدنيا أن يَقتُل غيرَه فيُميته مِيتةً واحدة، ثمّ لا سبيلَ له بعد إماتته إلى أن يُدخِل عليه ألماً آخر، وأمّا يومُ الجَزاء فإنه يومٌ لا يموت الظالم فيه فيَستريح، بل عذابُه دائمٌ متجدِّد، نعوذ بالله من سُخطِه وعِقابه!

- ٢٣٩ -

الأصل: اتَّقِ اللهَ بَعْضَ التُّقَى وإِنْ قَلَّ، وَاْجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ سِتْراً وإِنْ رَقَّ.

الشرح: يقال في المَثَل: ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه.

فالواجب على من عَسُرتْ عليه التقوى بأجمعها أن يتقي الله في البعض، وأن يجعل بينه وبينه سِتْراً وإن كان رَقيقاً.

وفي أمثال العامّة: اجعل بينك وبين الله رَوزنة، والرَّوْزَنة لفظة صحيحةٌ مُعَرَّبة، أي لا تَجعل ما بينَك وبينه مَسْدوداً مظلماً بالكلّية.

- ٢٤٠ -

الأصل: إِذَا ٱزْدَحَمَ الْجَوَابُ، خَفِيَ الصَّوَابُ.

الشرح: هذا نحو أن يورد الإنسانُ إشكالاً في بعض المسائل النّظريّة بحضرةِ جماعةٍ من أهل النظر، فيَتغالب القومُ ويتسابقون إلى الجواب عنه، كلٌّ منهم يورِد ما خَطَر له.

فلا رَيْب أنّ الصواب يَخفى حينئذ، وهذه الكلمة في الحقيقة أمر للنّاظر البَحّاث أن يتحرّى الإنصاف في بحثه ونظره مع رفيقه، وألا يقصد المِراءَ والمغالَبة والقَهرَ.

- ٢٤١ -

الأصل: إنَّ لله تعالى في كُلِّ نِعْمَةٍ حَقًّا، فَمَن أَدَّاهُ زَادَهُ مِنْها، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهِ خاطَرَ بِزَوَالِ نِعْمَتِهِ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في هذا المعنى.

وجاء في الخبر: مَن أوتي نعمةً فأدّى حقَّ الله منها بِرَدِّ اللّهفة، وإجابةِ الدّعوة وكشْف المظلمة، كان جديراً بدوامها ومَنْ قَصَّر قُصِّرَ به.

- ٢٤٢ -

الأصل: إِذَا كَثُرَتِ الْمَقْدُرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ.

الشرح: هذا مِثلُ قولهم: كلُّ مقدورٍ عليه مملول، ومثل قول الشاعر.

وكلُّ كثيرٍ عدوُّ الطّبيعة

ومثل قولِ الآخر:

وأخٍ كَثُرْتُ عليه حتّى مَلَّني ... والشيءُ مملولٌ إذا هو يرخُصُ
يا ليته إذْ بَاعَ وُدّيَ باعَه ... ممّن يزيد عليه لا من يَنقُصُ

ولهذا الحُكم عِلّة في العِلْم العقليّ، وذلك أنّ النفس عندهم غنيّة بذاتها، مكتفِيَة بنفسها، غيرُ محتاجة إلى شيء خارج عنها، وإنما عَرضتْ لها الحاجة والفَقْر إلى ما هو خارج عنها لمقارَنَتها الهَيُولَى، وذلك أن أَمْرَ الهيُولى بالضّدّ من أمرِ النّفس في الفَقْر والحاجة، ولمّا كان الإنسانُ مركّباً من النّفس والهيُولَى عرض له الشوقُ إلى تحصيلِ العلوم والقنيات لانتفاعِه بهما، والتذاذِه بحصولهما، فأما العلوم فإنه يحصِّلها في شبيهٍ بالخزانة له، يَرجِع إليها متى شاء، ويستخرج منها ما أراد، أعني القُوَى النفسانيّة الّتي هي محلّ الصّوَر والمعاني على ما هو مذكور في موضعه. وأما القنيات والمحسوسات فإنّه يروم منها مِثل ما يَرومُ من تلك، وأن يُودِعها خِزانةً محسوسةً خارجةً عن ذاته، لكنّه يَغلَط في ذلك من حيث يَستكْثِر منها، إلى أن يتنبّه بالحِكْمة على ما ينبغي أن يقتنَى منها، وإنّما حَرَص على ما مُنِع لأنّ الإنسان إنما يطلُب ما ليسَ عندَه، لأن تحصيلَ الحاصِل مُحال، والطَّلَب إنما يتوجّه إلى المعدوم، لا إلى الموجود، فإذا حصّله سَكَن وعَلِم أنه قد ادّخره، ومتى رَجَع إليه وَجَده إن كان ممّا يَبقَى بالذّات، خَزَنَه وتَشوّق إلى شيءٍ آخر منه، ولا يزال كذلك إلى أن يعلم أنّ الجُزئيّات لا نهايةَ لها وما لا نهاية له، فلا مَطْمع في تحصيله، ولا فائدَة في النزوع إليه، ولا وَجه لَطَلَبِه سواء كانَ معلوماً أو محسوساً، فوَجَب أن يقصد من المعلومات إلى الأهمّ ومن المُقْتَنَيات إلى ضَرُورات البدن ومُقيماتِه، ويَعدِل عن الاستكثار منها، فإنّ حصولها كلّها مع أنّها لا نهاية لها غيرُ ممكن، وكلّما فضل عن الحاجة وقَدْر الكفاية فهو مادّة الأحزان والهموم، وضُروب المكاره. والغَلط في هذا الباب كثير، وسبب ذلك طمعُ الإنسان في الغِنَى من مَعدِن الفقر، لأن الفقر هو الحاجة، والغنَى هو الاستقلال، إلى أن يحتاج إليه، ولذلك قيل: إن الله تعالى غَنيّ مُطلَقاً، لأنه غيرُ محتاج البتّة، فأما من كثرت قنياته فإنّه يستكثر حاجاتِه بحَسَب كثرة قنياته، وعلى قدْرها رغْبه إلى الاستكثارِ بكثرة وجوه فَقْره، وقد بُيِّن ذلك في شرائع الأنبياء، وأخلاقِ الحكماء، فأما الشيء الرخيصُ الموجود كثيراً فإنّما يُرغَب عنه، لأنّه معلوم أنه إذا التمسَ وُجد والغالي فإنّما يقدر عليه في الأحيان ويصيبه الواحدُ بعدَ الواحد، وكلّ إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحدَ ليصيبَه وليحصُلَ له ما لا يَحصُل لغيره.

- ٢٤٣ -

الأصل: احذرُوا نِفارَ النِّعَم، فَمَا كُلُّ شارِدٍ بِمَرْدُودٍ.

الشرح: هذا أمرٌ بالشُّكر عَلَى النعمة وتركِ المعاصي، فإنّ المعاصيَ تُزِيل النِّعَم كما قيل:

إذا كنتَ في نِعمةٍ فارْعَها فإنّ المَعاصي تُزيل النِّعَمْ

وقال بعض السلف: كُفْران النِّعْمة بَوار، وقلّما أقلعتْ نافرةٌ فرجعتْ في نصابها، فاستَدْعِ شارِدَها بالشّكر، واستَدِمْ راهنها بكَرَم الجِوار، ولا تحسب أنّ سُبوغَ ستر الله عليك غير متقلّص عمّا قليل عنك إذا أنتَ لم تَرْجُ لله وَقاراً.

وقال أبو عصمة: شَهِدتُ سُفيانَ وفُضَيْلاً فما سمعتُهما يتذاكران إلّا النعم، يقولان: أنعم الله سبحانَه علينا بكذا، وفَعل بنا كذا.

وقال الحسن: إذا استوى يَوْماك فأنتَ ناقص، قيل له: كيف ذاك؟ قال: إنْ زَادَكَ الله اليومَ نِعَماً فعليك أن تَزْدَاد غَداً له شُكراً.

وكان يقال: الشكر جُنّة من الزّوال، وأَمَنة من الانتقال.

وكان يقال: إذا كانت النعمة وَسيمةً فاجعَل الشكرَ لها تَميمة.

- ٢٤٤ -

الأصل: الكَرَمُ أعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ.

الشرح: مِثلُ هذا المعنى قولُ أبي تمام لابن الجَهْمِ:

إلّا يَكُنْ نسبٌ يؤلّفُ بيننا أدبٌ أقمناه مقامَ الوالدِ
أو يختلِفْ ماءُ الوصالِ فماؤنا عَذْبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

ومن قصيدةٍ لي في بعض أغراضي:

ووشائج الآدب عاطِفةُ الـ ـفُضَلاء فوقَ وَشائج النَّسَبِ

- ٢٤٥ -

الأصل: مَن ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ.

الشرح: هذا قد تقدّم في وصيّته عليه السلام لولَدِه الحسن.

ومن كلام بعضهم: إنّي لأستحيي أن يأتيَني الرجُلُ يحمَرُّ وجهُه تارةً من الخَجَل، أو يصفرّ أخرى من خوف الرّدّ قد ظَنّ بي الخيرَ وباتَ عليه وغَدَا عليّ أن أردَّه خائباً.

- ٢٤٦ -

الأصل: أَفْضَلُ الأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ.

الشرح: لا رَيْب أنّ الثّواب على قدر المَشقّة، لأنه كالعِوَض عنها، كما أنّ العِوَض الحقيقيّ عِوَضٌ عن الألم، ولهذا قال ﷺ: «أفضل العبادة أحمزُها»[1]. أي أشقّها.

- ٢٤٧ -

الأصل: عَرَفْتُ الله سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ، وَحَلِّ العُقُودِ، وَنَقْضِ الْهِمَمِ.

الشرح: هذا أحدُ الطُّرُق إلى معرفة الباريء سبحانه، وهو أن يَعزِم الإنسانُ على أمرٍ، ويصمّم رأيه عليه، ثمّ لا يَلبثَ أن يُخطِر الله تعالى بباله خاطراً صارِفاً له عن ذلك الفعل، ولم يكنْ في حِسابه، أي لولا أن في الوجود ذاتاً مدبّرة لهذا العالم لما خَطَرت الخواطرُ الّتي لم تكن محتَسبة، وهذا فصلٌ يتضمّن كلاماً دقيقاً يذكره المتكلّمون في الخاطر الّذي يَخطِر عن غيرِ مُوجب لخُطوره، فإنه لا يجوز أن يكون الإنسان أخطَرَه بباله، وإلّا لكان ترجيحاً من غير مرجّح لجانب الوجود على جانب العدم، فلا بدّ أن يكون المخطِر له بالبال شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان، وذاك هو الشيء المسمّى بصانع العالم.

وليس هذا الموضع ممّا يحتمِل استقصاءَ القولِ في هذا المبحَث.

ويقال: إنّ عَضُد الدّولة وقعتْ في يده قصّة وهو يَتصفّح القِصص، فأمر بصَلْب صاحبها، ثمّ أتبع الخادمَ خادماً آخر يقول له: قل للمطهّر - وكان وزيرَه - لا يَصلُبه، ولكن أخرِجه من الحبْس فاقطعْ يدَه اليمنى، ثم أتبَعه خادماً ثالثاً، فقال: بل تقول له: يقطع أعصابَ رجليْه، ثم

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤٥٩) وقال: لا يُعرف.

أتبعه خادماً آخرَ فقال له: ينقله إلى القَلْعة بسِيراف في قيودِه فيَجعله هناك، فاختلفتْ دَواعيه في ساعةٍ واحدة أربع مرّات.

- ٢٤٨ -

الأصل: مَرَارَةُ الدُّنْيَا حَلاوَة الآخِرَةِ، وَحَلاوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الآخِرَةِ.

الشرح: لمّا كانت الدنيا ضدَّ الآخرة، وجَب أن يكون أحكام هذه ضدّ أحكام هذه، كالسّواد يجمَع البَصر والبَياض يفرق البصر، والحَرارة توجب الخفّة، والبُرودة توجب الثّقل، فإذا كان في الدّنيا أعمالٌ هي مرة المَذاق على الإنسان قد ورد الشرعُ بإيجابِها فتلك الأفعال تَقتضِي وتوجِب لفاعلها ثواباً حُلوَ المَذاق في الآخرة.

وكذاك بالعكس ما كان من المشتَهيَات الدنياويّة الّتي قد نَهى الشرعُ عنها تُوجب، - وإن كانت حُلوة المذاق - مَرارة العقوبة في الآخرة.

- ٢٤٩ -

الأصل: فَرَضَ الله الإيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، والزَّكَاةَ تَسْبِيباً للرِزْقِ، وَالصِّيامَ ابْتِلاءً لإخلاصِ الخَلْقِ، وَالحَجَّ تَقْوِيَةً لِلدِّين، وَالْجِهَادَ عِزّاً للإسْلام، وَالأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلعَوَامِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ، وَإِقَامَةَ الحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ، وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ، ومُجَانَبَةَ السَّرِقةِ إيجَاباً لِلْعِفَّةِ، وَتَرْكَ الزِّنَى تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ، وَتَرْكَ اللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْل، والشَّهَادَاتِ اسْتِظْهَاراً عَلَى المُجَاحَدَاتِ، وَتَرْكَ الكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ، وَالسَّلامَ أَمَاناً مِنَ المَخَاوِفِ، وَالأَمَانَةَ نِظَاماً للأُمَةِ، وَالطَّاعَة، تَعْظِيماً لِلإمَامَةِ.

الشرح: هذا الفصلُ يتضمّن بيانَ تعليل العبادات إيجاباً وسَلْباً.

قال عليه السلام: فَرَضَ الله الإيمانَ تَطهيراً مِن الشِّرْك، وذلك لأنَّ الشِّرْك نَجاسَة حُكْمِية لا

عينية، وأيّ شيء يكون أنجَس من الجَهْل أو أقبَح! فالإيمان هو تطهيرُ القَلْب من نجاسةِ ذلك الجهل.

وفُرِضت الصّلاة تنزيهاً من الكِبْر، لأن الإنسان يقوم فيها قائماً، والقيام مُنافٍ للتكبُّر وطاردٌ له، ثم يَرفع يديه بالتكبير وقتَ الإحرام بالصّلاة فيصير على هيئة من يمدّ عنقَه ليوسِّطه السَّيَّاف، ثم يستكتف كما يفعَله العبيد الأذلاء بين يدَي السادة العظماء، ثمّ يركَع على هيئة من يمدّ عنقه ليضربَها السيّاف، ثمَّ يَسجُد فيضعَ أشرَف أعضائه وهو جَبْهته على أدوَنِ المواضع، وهو التراب. ثم تتضمّن الصلاةُ من الخضوع والخشوع والامتناع من الكلام والحركة الموهمة لمن رآها أنَّ صاحبَها خارجٌ عن الصّلاة، وما في غضونِ الصلاة من الأذكار المتضمِّنة الذُّلّ والتواضع لعظمةِ الله تعالى.

وفُرِضت الزّكاة تسبيباً للرزق، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[1]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾[2].

وفُرِض الصيامُ ابتلاءً لإخلاص الخلْق، قال النّبيّ ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «الصومُ لي وأنا أَجْزِي به»[3]، وذلك لأنّ الصوم أمرٌ لا يطّلع عليه أحد، فلا يقوم به على وجهه إلّا المخلِصون.

وفُرِض الحجّ تقويةً للدِّين، وذلك لما يحصُل للحاجّ في ضِمنهِ من المتاجِر والمكاسِب، قال الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[4]. وأيضاً فإنّ المشركين كانوا يقولون: لولا أنّ أصحاب محمّد كثير وأولُو قوّة لما حجّوا، فإنّ الجيشَ الضعيفَ يعجز عن الحجّ من المكان البعيد.

وفُرِض الجهادُ عزًّا للإسلام، وذلك ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[6].

وفُرِض الأمر بالمعروف مصلحةً للعوامّ، لأنّ الأمر بالعدل والإنصاف وردِّ الودائع، وأداءِ

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩. (٢) سورة الحديد، الآية: ١١.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٤٩٢)، ومسلم، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام (١١٥١)، والترمذي، كتاب: الصوم، باب: ما جاء في فضل الصوم (٧٦٤)، والنسائي، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام (٢٢١١).

(٤) سورة الحج، الآية: ٢٨. (٥) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

الأمانات إلى أهلها، وقضاءِ الديون، والصِّدق في القول، وإيجاز الوعد، وغير ذلك من محاسن الأخلاق، مصلحة للبَشَر عظيمة لا محالة.

وفُرِض النهيُ عن المنكَر رَدْعاً للسّفهاء، كالنّهي عن الظلم والكَذِب والسَّفَه، وما يَجري مَجرَى ذلك. وفُرِضت صِلَة الرَّحِم مَنْماةً للعَدَد، قال النبيّ ﷺ: «صلة الرَّحم تَزيد في العمر وتُنمّي العَدَد»[١].

وفُرِض القِصاصُ حَقْناً للدّماء، قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[٢]

وفُرِضت إقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وذلك لأنه إذا أقيمت الحدودُ امتنع كثيرٌ من الناس عن المعاصي التي تجبُ الحدُودُ فيها، وظهر عظم تلك المعاصِي عند العامّة فكانوا إلى تركها أقرب.

وحُرِّم شربُ الخمْر تحصيناً للعقل، قال قوم لحكيم: اشرَبْ اللّيلة معنا، فقال: أنا لا أشرَب ما يَشرَب عَقْلي، وفي الحديث المرفوع: «إنَّ مَلكاً ظالماً خيَّر إنساناً بين أن يُجامِع أمّه أو يَقتُل نفساً مؤمِنة، أو يَشرَب الخمر حتّى يَسكر، فرأى أنّ الخمر أهوَنُها، فشَرِب حتّى سَكِر، فلمَّا غَلَبه قام إلى أمّه فوَطِئها، وقام إلى تلك النفس المؤمنةِ فقتَلها»، ثم قال ﷺ: «الخمرُ جماعُ الإثم، الخمر أمُّ المعاصي»[٣].

وحُرِّمت السَّرِقة إيجاباً للعفّة، وذلك لأنّ العفّة خُلُقٌ شريف، والطمعُ خُلُقٌ دنيءٌ، فحرمت السّرقة ليتمرَّن الناسُ على ذلك الخُلقِ الشريف، ويجانبوا ذلك الخُلُقَ الذميمَ، وأيضاً حُرِّمت لما في تحريمها من تحصين أموال الناس.

وحرِّم الزنى تحصيناً للنَّسَب، فإنَّه يُفضِي إلى اختلاط المِياه واشتباهِ الأنساب، وألّا يُنسَب أحدٌ بتقدير ألّا يشرَع النكاح إلى أب، بل يكون نَسبُ الناس إلى أمّهاتهم، وفي ذلك قلبُ الحقيقة، وعكسُ الواجب؛ لأنّ الولد مخلوقٌ من ماء الأب، وإنّما الأمّ وعاء وظَرْف.

وحُرِّم اللّواط تكثيراً للنَّسل، وذلك اللّواط بتقدير استفاضتِه بين الناس والاستغناء به عن النّساء يُفضِي إلى انقطاعِ النّسل والذّرّية، وذلك خلاف ما يريد الله تعالى من بقاء هذا النوع الشّريف الّذي ليس في الأنواع مِثله في الشّرف، لمكان النفس الناطقة الّتي هي نسخةٌ ومِثالٌ للحَضْرة الإلهية، ولذلك سَمَّت الحكماءُ الإنسانَ العالَمَ الصغير.

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩٤)، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٣) دون قوله: «وتنمي العدد».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم: ١٢٥٧٩، وذكره القرطبي في تفسيره: ٧/ ١٣٢.

وحُرِّم الاستمناء باليد وإتيان البهائِم للمعنى الّذي لأجلِه حُرِّم اللّواط، وهو تقليل النَّسْل، ومن مستحسَن الكلمات النبويّة قولُه ﷺ في الاستمناء باليد: «ذلك الوَأْد الخَفيّ»[١]؛ لأنّ الجاهليّة كانت تَئِد البناتِ أي تَقتُلُهنّ خَنْقاً، وقد قدّمنا ذكْر سبب ذلك، فشبَّه ﷺ إتلاف النطفة الّتي هي ولدٌ بالقوّة بإتلاف الولد بالفعل.

وأوجبتْ الشهاداتُ على الحقوق استظهاراً على المجاحَدات، قال النبيّ ﷺ: «لو أُعطِيَ الناسُ بدعاوِيهم لاستَحلَّ قومٌ من قوم دماءَهم وأموالهم»[٢]، ووَجَب تركُ الكذبِ تشريفاً للصّدق، وذلك لأنَّ مصلحة العامة إنما تتمّ وتنتظم بالصّدق، فإنّ الناس يَبْنُون أكثرَ أمورهم في معاملاتهم على الأخبار، فإنّها أعمّ من العِيان والمُشاهَدة، فإذا لم تكن صادقةً وقع الخطأ في التدبيرات، وفسَدتْ أحوالُ الخَلْق.

وشُرِع رَدُّ السلام أماناً من المخاوِف؛ لأنّ تفسير قولِ القائل: «سلامٌ عليكم»، أي لا حَرْبَ بيني وبينكم، بل بيني وبينكم السلام، وهو الصلح.

وفُرِضت الإمامة نظاماً للأمّة، وذلك لأنّ الخَلق لا يرتفع الهرْج والعَسْف والظّلم والغَضَب والسّرقة عنهم إلا بوازِعٍ قويٍّ، وليس يَكْفِي في امتناعهم قُبح القبيح، ولا وعيدُ الآخرة، بل لا بدّ لهم من سلطان قاهر ينظّم مصالحهم، فيَردَع ظالمَهم، ويأخذ على أيدي سُفَهائهم.

وفُرِضت الطّاعة تعظيماً للإمامة، وذلك لأن أمْرَ الإمامة لا يتم إلّا بطاعة الرّعيّة، وإلّا فلو عَصَت الرعيّة إمامَها لم ينتفعوا بإمامتِه ورئاستِه عليهم.

— ٢٥٠ —

الأصل: وكان ﷺ يقول: **أَحْلِفُوا الظَّالِمَ إِذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ الله وَقُوَّتِه، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوجِلَ، وَإِذَا حَلَفَ بالله الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ، لأنه قَدْ وَحَّدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.**

(١) ذكر القضاعي في «مسند الشهاب (٥٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٢٢٥)، دون قوله: «الخمر أم المعاصي».

(٢) أخرج نحوه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً (٤٥٥٢)، ومسلم، كتاب: القضية، باب: اليمين على المدعى عليه (١٧١١)، والنسائي، كتاب: آداب القضاة، باب: عظة الحاكم اليمين (٥٤٢٥)، وابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب: البينة على المدعي (٢٣٢١).

الشرح: رَوَى أبو الفرج عليُّ بن الحسين الأصبَهانيّ في كِتاب «مَقاتِل الطالبِيّين» أن يحيى بن عبد الله بن الحسَن بن الحسَن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لمّا آمّنه الرشيدُ بعد خروجه بالدَّيْلم وصار إليه بالغَ في إكرامه وبِرّه، فسَعَى به بعد مدّة عبدُ الله بنُ مصعب الزبيريّ إلى الرشيد - وكانَ يُبغضه - وقال له: إنه قد عاد يدعو إلى نفسه سِرًّا، وحَسّنَ له نقضَ أمانه، فأحضرَه وجَمَع بينه وبين عبد الله بن مصعب ليناظِرَه فيما قَذَفَه به ورفَعَه عليه فجَبَهَه ابنُ مصعب بحضرة الرشيد، وادّعى عليه الحركة في الخروج وشقّ العصا، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، أتصدّق هذا عليّ وتَستنصِحه، وهو ابنُ عبدِ الله بن الزّبير، الذي أدخَل أباك عبدَ الله وولده الشِّعب، وأضرَم عليهم النار حتى خلّصه أبو عبد الله الجدليّ، صاحب عليّ بن أبي طالب عليه السلام منه عَنْوة، وهو الذي ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله أربعين جُمُعة في خُطبته، فلمّا الْتاثَ عليه الناسُ قال: إن له أُهَيل سُوء إذا صَلّيت عليه أو ذكرتُه أتْلعوا أعناقَهم واشرأبُّوا لِذِكره، فأكْرَه أن أسرَّهم أو أقِرّ أعينهم، وهو الّذي كان يَشتُم أباك ويُلصِق به العيوب حتى وَرِم كبدُه، ولقد ذبحتْ بقرةٌ يوماً لأبيك فوُجِدتْ كبدُها سَوْداء قد نقِبت، فقال عليّ ابنه: أما تَرى كبدَ هذه البقرة يا أبت! فقال: يا بنيّ هكذا ترك ابنُ الزّبير كبد أبيك، ثمّ نفاه إلى الطائف، فلمّا حضرتْه الوَفاة قال لابنه عليّ: يا بنيّ إذا مِتّ فالحقْ بقومِك من بني عبد مناف بالشام، ولا تُقِم في بلدٍ لابن الزبير فيه إمْرة، فاختار له صحبة يزيد بن معاوية على صحبة عبد الله بن الزبير. ووالله إنّ عداوةَ هذا يا أميرَ المؤمنين لنا جميعاً بمنزلةٍ سواء، ولكنّه قَوِي عليّ بك، وضعُفَ عنك، فتقرَّبَ بي إليك ليَظفَر منك بي بما يريد، إذا لم يَقدِر على مثله منك، وما ينبغي لك أن تسوِّغه ذلك فيّ، فإن معاوية بن أبي سُفْيان وهو أبعَد نسباً منك إلينا ذَكَر الحسنَ بن عليّ يوماً فَسَبّه، فساعَدَه عبدُ الله بن الزبير على ذلك، فزَجَره وانتهرَه، فقال: إنما ساعدتُك يا أمير المؤمنين، فقال: إن الحَسَن لحمي آكُله ولا أُوكِلُه. ومع هذا فهو الخارجُ مع أخي محمّد على أبيك المنصور أبي جعفر، والقائِل لأخي في قصيدة طويلةٍ أولها:

إنّ الحمامة يوم الشّعب مِن وثنٍ ... هاجت فؤاد مُحِبٌّ دائِم الحَزنِ

يُحرِّض أخي فيها على الوثوب والنهوض إلى الخلافة، ويَمدَحُه ويقول له:

لا عَزَّ رُكْنَا نزارٍ عند سَطْوَتِها ... إن أسلَمَتْك ولا رُكنَا ذَوي يَمَنِ

ألستَ أكرمهم عُوداً إذا انتَسَبوا ... يوماً وأطهَرهم ثوباً من الدَّرَنِ!

وأعظَمَ الناس عند الناس منزلةً ... وأبعَدَ الناسِ من عَيْبٍ ومن وَهَنِ!

قومُوا بِبَيْعَتكم نَنْهض بطاعتها ... إنّ الخلافة فيكُمْ يا بني حَسَنِ

إنّا لنأمُل أن ترتدّ أُلْفتنا ... بعد التّدابُر والبغضاءِ والإِحَنِ

حتّى يثابَ على الإحسان مُحسِنُنا ... ويأمَنَ الخائِفُ المأخوذُ بالدِّمنِ

وتنقضي دولةٌ أحكامُ قادتِها ... فينا كأحكام قوم عابِدِي وثَنِ

فطالما قد بروا بالجوْر أعظمنا بَرْيَ الصّناع قِداحَ النَّبْع بالسفنِ

فتغيّر وجهُ الرّشيد عند سماع هذا الشعر، وتغيّظ على ابن مصعب، فابتدأ ابنُ مصعب يَحلِف بالله الّذي لا إله إلّا هو وبأيمان البيعة أنّ هذا الشّعر ليس له، وأنه لسَدِيف، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين ما قاله غيرُه، وما حلفتُ كاذباً ولا صادقاً بالله قبل هذا، وإنّ الله عزّ وجلّ إذا مجّده العبدُ في يمينه فقال: واللّهِ الطالب الغالب الرحمن الرحيمُ، استَحْيَا أن يعاقبه، فدَعْني أن أحلّفه بيمينٍ ما حَلف بها أحدٌ قطُّ كاذباً إلا عُوجِل، قال فحلّفه، قال قل: بَرِئتُ من حَوْل الله وقوّته، واعتصمتُ بحولي وقوّتي، وتقلّدت الحولَ والقُوّة من دون اللهِ، استكباراً على الله واستعلاء عليه، واستغناء عنه إن كنتُ قلتُ هذا الشِّعْر! فامتنَع عبدُ اللّهِ من الحِلف بذلك، فغَضِب الرشيد، وقال للفضل بن الربيع: يا عباسيُّ ما لَه لا يَحلِف إن كان صادقاً! هذا طَيْلَساني عليّ، وهذه ثيابي لو حَلّفني بهذه اليمين أنّها لي لحلفتُ. فوَكَزَ الفضلُ عبدَ اللّه برِجْله - وكان له فيه هَوًى - وقال له: احلِف وَيحك! فجعل يحلِف بهذه اليمين، ووجْههُ متغيِّر، وهو يُرعَد، فضَرَب يحيى بين كتفيه، وقال: يا بن مُصعب، قَطَعتَ عُمرَك، لا تُفْلِح بعدَها أبداً!

قالوا: فما بَرِح من موضعه حتى عَرَضَ له أعراضُ الجذام، استدارَتْ عيناه، وتفقأ وجهُه، وقام إلى بيته فتقطّع وتشقّق لحمه وانتثر شَعرُه، ومات بعد ثلاثة أيام، وحضر الفضلُ بن الربيع جَنازَته، فلمّا جُعل في القبر انخَسَفَ اللّحد به حتى خرجتْ منه غَبرة شديدة، وَجَعل الفضلُ يقول: الترابَ التُّرابَ! فطرح الترابُ وهو يَهوي، فلم يستطيعوا سَدّه حتى سقف بخشب، وطمّ عليه، فكان الرشيد يقول بعد ذلك للفضل: أرأيت يا عباسيّ ما أسرَع، ما أديل ليحيى من ابن مصعب!

- ٢٥١ -

الأصل: يَا بْنَ آدَمَ، كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ، وَاْعْمَلْ فِي مَالِكَ ما تُؤْثِرُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ مَنْ بَعْدَكَ.

الشرح: لا ريبَ أن الإنسان يُؤثر أن يُخرَج مالُه بعد موته في وجوه البِرّ والصدقات والقُرُبات لِيَصِل ثوابُ ذلك إليه، لكنّه يضِنّ بإخراجه وهو حيٌّ في هذه الوجوه لحبّه العاجلة وخوفِه من الفقر والحاجة إلى الناس في آخِر العُمر، فيقيم وصيًّا يَعْمَل ذلك في ماله بعد موته.

وأوصَى أميرُ المؤمنين عليه السلام الإنسانَ أن يَعمَل في ماله وهو حيّ ما يُؤثِر أن يُجعَل فيه وصيّة بعد موته، وهذه حالة لا يَقدِر عليها إلّا من أخَذَ التوفيقُ بيَدِه.

- ٢٥٢ -

الأصل: اَلْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ، لأنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكِمٌ.

الشرح: كان يقال: الحِدّة كُنْيَة الجهل.

وكان يقال: لا يصحّ لحَديدٍ رَأْيٌ؛ لأنّ الحِدّة تُصْدِئُ العَقْل كما يُصْدِئ الخَلُّ المِرآة، فلا يَرَى صاحبُه فيه صورة حَسن فيَفعَله، ولا صُورة قبيح فيجتنِبَه.

وكان يقال: أوّل الحِدّة جنون وآخِرها نَدَم.

وكان يقال: لا تَحمِلنّك الحِدّة على اقتراف الإثم، فتَشفِيَ غيظَك، وتُسقِم دِينَك.

- ٢٥٣ -

الأصل: صِحَّةُ الجَسَدِ مِنْ قِلَّةِ الحَسَدِ.

الشرح: معناه أنّ القليل الحَسدِ لا يزال مُعافًى في بدنه، والكثير الحَسد يُمْرِضه ما يجده في نفسه من مَضاضَة المُنافسة، وما يتجرّعه من الغيظ، ومزاجُ البدَن يتْبع أحوالَ النّفس.

قال المأمون: ما حَسَدْتُ أحداً قطّ إلّا أبا دُلَفٍ على قول الشاعر فيه:

إنّما الدّنيا أبو دُلَفٍ ... بين باديهِ ومحتَضَرِهْ

فإذا وَلّى أبُو دُلَفٍ ... ولّت الدنيا على أثَرِهْ

وَرَوَى أبو الفرج الأصْبَهانيّ عن عَبْدوس بن أبي دُلفٍ قال: حدّثني أبي، قال: قال لي المأمون: يا قاسم، أنت الذي يقول فيك عليُّ بنُ جَبَلة:

إنما الدُّنيا أبو دُلَفٍ

البيتين، فقلت مُسرِعاً: وما ينفَعني ذلك يا أمير المؤمنين مع قوله فيّ:

أبا دلفٍ يا أكذبَ الناس كلِّهمْ ... سِوايَ فإنّي في مَديحك أكذَبُ

ومع قول بكر بن النطّاح فيّ:

أبا دُلَفٍ إنّ الفقير بعَيْنه ... لَمَنْ يَرتجِي جَدْوَى يديْكَ ويأمُلُهْ

أرى لـك بـابـاً مُـغـلَـقـاً مـتـمـنّـعـاً ... إذا فَـتَـحـوه عـنـك فـالـبـؤسُ داخـلُـهْ
كـأنّـك طـبـلٌ هـائـلُ الـصّـوت مـعـجِـبٌ ... خَـلِـيٌّ مـن الـخَـيْـرات تَـعْـسٌ مَـدَاخِـلُـهْ
وأعـجـب شـيء فـيـك تـسـلـيـمُ إمْـرَةٍ ... عـلـيـك عـلـى طَـنْـزٍ وأنّـك قـابِـلُـهْ

قال: فلما انصرَفْتُ قال المأمون لمن حوله: لله دَرّه! حَفِظَ هجَاءَ نفسِه حتى انتفع به عندي، وأطفأ لهيبَ المُنافَسة.

– ٢٥٤ –

الأصل: وقالَ عليه السلام لكُمَيْلِ بنِ زِيادٍ النَّخَعيّ:

يا كُمَيْلُ، مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا في كَسْبِ المَكَارِمِ، وَيُدْلِجُوا فِي حَاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ، فَوَالذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، ما مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قلباً سُرُوراً إِلَّا وَخَلَقَ الله لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطفاً، فَإِذَا نَزَلَتْ بِه نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي انْحِدَارِهِ، حَتَّى يَطْرُدَها عَنْهُ كما تُطْرَدُ غَرِيبةُ الإِبِلِ.

الشرح: قال عمرو بنُ العاصِ لمعاوية: ما بقيَ من لذّتك؟ فقال: ما من شيءٍ يُصيبُه الناس من اللّذّة إلّا وقد أصبتُه حتى مَللتُه، فليس شيءٌ عندي اليوم ألذّ من شربةِ ماءٍ بارد في يوم صائف، ونظري إلى بَنِيّ وبناتي يَدرُجون حولي، فما بقيَ من لذّتك أنت؟ فقال: أرضٌ أغرسُها وآكلُ ثمرتها، لم يبق لي لذّة غير ذلك. فالتفت معاويةُ إلى وَرْدان غلام عَمْرو، فقال: فما بقي من لذّتك يا وُرَيْد؟ فقال: سرورٌ أُدخِله قلوب الإخوان، وصنائعُ أعتقِدُها في أعناق الكرام، فقال معاوية لعَمْرو: تبًّا لمجلسي ومجلسك! لقد غلبني وغلبك هذا العبد، ثم قال: يا وَرْدان، أنا أحقُّ بهذا منك، قال: قد أمكنتك فافعَلْ.

فإن قلت: السرور عَرَضٌ، فكيف يخلُق الله تعالى منه لُطفاً؟

قلت: مِنْ هاهنا هي مِثلُ «مِن» في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[1]، أي عِوَضاً منكم.

ومثلُه:

فـلـيـتَ لـنـا مـن مـاءِ زمـزم شَـرْبَـةً ... مـبـرَّدة بـاتـتْ عـلـى طَـهَـيـانِ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٠.

أي ليت لنا شربةً مبرَّدة باتتْ على طَهَيان، وهو اسمُ جَبَل، بدلاً وعِوضاً من ماءِ زَمْزم.

- ٢٥٥ -

الأصل: إذا أمْلَقْتُمْ فَتاجِرُوا الله بالصَّدَقَةِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في الصّدقة.

وقالت الحكماء: أفضل العِبادات الصَّدَقة، لأنّ نفعها يتعدّى، ونفعُ الصلاة والصّوم لا يتعدّى.

وجاء في الأثر أنّ عليًا عليه السلام عَمِل ليهوديٍّ في سَقْيِ نَخْلٍ له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بمُدّ من شَعير، فخبزه قُرْصاً، فلمّا همّ أن يُفطر عليه، أتاه سائل يستطعم، فدفعه إليه، وبات طاوياً وتاجَر الله تعالى بتلك الصدقة، فعَدّ الناس هذه الفعلة من أعظم السّخاء، وعدُّوها أيضاً من أعظم العبادة.

وقال بعضُ شعراء الشِّيعة يذكر إعادة الشمس عليه، وأحسن فيما قال:

جادَ بالقُرْص والطَّوى مِلءُ جَنْبَيـ ... ـهِ وعَافَ الطَّعامَ وهو سَغُوبُ
فأعاد القُرْصُ المنيرُ عليه الـ ... ـقُرْص المُقرِض الكرامِ كَسُوبُ

- ٢٥٦ -

الأصل: الْوَفاءُ لأهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ الله، وَالغَدْرُ بأهْلِ الْغَدْرِ وَفاءٌ عِنْدَ الله.

الشرح: معناه أنه إذا اعتِيدَ من العدوّ أن يغدِر ولا يفي بأقواله وأيْمانه وعهوده، لم يجزْ الوفاء له، ووَجَب أن ينقض عهوده ولا يوقّف مع العهد المعقود بيننا وبينه، فإنّ الوفاء لمن هذه حالُه ليس بوفاءٍ عند الله تعالى، بل هو كالغَدْر في قُبْحه، والغدر بمن هذه حاله ليس بقبيح، بل هو في الحسن كالوفاءِ لمن يَستحِقُّ الوفاء عند الله تعالى.

- ٢٥٧ -

الأصل: كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإحْسَانِ إِلَيْه، ومَغْرُورٍ بالسِّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيه، وَما ابْتَلى الله سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإمْلاءِ لَهُ.

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ الله تعالى: وَقَدْ مَضَى هَذَا الكلامُ فيما تقدَّمَ، إلّا أنَّ فيه هاهنا زِيادَةً جيِّدَةً.

الشرح: قد تقدم الكلام في الاستدراج والإملاء.

وقال بعضُ الحكماء: احذر النِّعم المتواصلة إليك أن تكون استدراجاً، كما يحذر المحارِب من اتباعِ عدوِّه في الحربِ إذا فرَّ من بين يديه من الكمِين، وكم من عدوٍّ فرَّ مستدرَجاً، ثمّ إذ هو عاطِفٌ، وكم من ضارعٍ في يديك ثمّ إذ هو خاطف.

- ٢٥٨ -

الأصل: ومن كلامه عليه السلام المتضمِّن ألفاظاً منَ الغريبِ تحتاجُ إلى تفسير: قوله عليه السلام في حديثِهِ: فإذا كانَ ذَلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِهِ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَما يَجْتَمِعُ قَزَعُ الخَريف.

قال الرَّضِيُّ رَحمهُ الله تعالى: يَعْسُوبُ الدِّينِ: السَّيِّدُ العَظِيمُ المَالِكُ لِأُمُورِ النَّاسِ يَوْمئِذٍ، والْقَزَعُ: قِطَعُ الْغَيْمِ الَّتِي لا مَاءَ فيها.

الشرح: أصاب في اليَعْسوب، فأمّا القَزَع فلا يُشترط فيها أن تكون خاليةً من الماء، بل القَزَع قِطَعٌ من السحاب رقيقة، سواء كان فيها ماء أو لم يكن، الواحدة قَزَعة بالفتح، وإنما غرّه قولُ الشاعر يصف جيشاً بالقلةِ والخفّة.

كأنّ رعالَه قَزَع الجهام

وليس يدلّ ذلك على ما ذكَرَه، لأنّ الشاعر أراد المبالَغة، فإنّ الجهام الّذي لا ماءَ فيه إذا كان أقطاعاً متفرِّقة خفيفة، كان ذِكرُه أبلَغ فيما يريدُه من التشبيه، وهذا الخبر من أخبار المَلاحِم

الّتي كان يُخبِر بها عليه السلام، وهو يَذكُر فيه المهديَّ الّذي يُوجَد عند أصحابنا في آخر الزمان.
ومعنى قوله: «ضَرَب بذَنَبه» أقام وثبت بعد اضطرابه، وذلك لأنّ اليَعسوب فَحْل النَّحْل وسَيِّدها، وهو أكثرُ زمانه طائرٌ بجَناحَيه، فإذا ضرَب بذَنَبه الأرضَ فقد أقامَ وتَرَكَ الطَّيَران والحركة.

فإن قلت: فهذا يشبه مذهبَ الإماميّة في أنّ المهديّ خائف مستتِر ينتقل في الأرض، وأنّه يظهر آخر الزمان ويثبت ويقيم في دار ملكه.

قلت: لا يبعد على مذهبنا أن يكون الإمام المهديّ الذي يظهر في آخر الزمان مضطرب الأمر، منتشرَ المُلك في أوّل أمرِه لمصلحة يَعلَمها الله تعالى، ثمّ بعد ذلك يثبُت مُلكُه، وتنتظم أمورُه.

وقد وردتْ لَفظةُ اليَعْسوب عن أمير المؤمنين عليه السلام في غير هذا الموضع، قال يومَ الجمل لعبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد وقد مرّ به قتيلاً: «هذا يَعْسوب قريش»، أي سيّدُها.

— ٢٥٩ —

الأصل: وفي حديثِه عليه السلام: هَذا الخطِيبُ الشَّحْشَحُ.

قالَ: يُرِيدُ المَاهِرَ بالخُطْبةِ، الماضِيَ فيهَا، وكُلُّ ماضٍ في كَلامٍ أوْ سَيْرٍ فَهُوَ شَحْشحٌ. والشَّحْشَحُ في غَيْرِ هذا المَوْضع: الْبَخِيلُ المُمْسِكُ.

الشرح: قد جاء الشَّحْشح بمعنى الغَيُور، والشحْشَح بمعنى الشُّجاع، والشَّحْشَح بمعنى المواظِب على الشيء الملازِم له، والشَّحْشَح: الحاوِي، ومِثله الشَّحْشحان.

وهذه الكلمة قالها عليٌّ عليه السلام لصَعْصعة بن صُوحان العبديّ رحمه الله، وكَفَى صعصعةَ بها فخراً أن يكون مِثل عليٍّ عليه السلام يُثني عليه بالمهارة وفَصاحة اللّسان، وكان صَعصعةُ من أفصَح الناس، ذكَرَ ذلك شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ.

— ٢٦٠ —

الأصل: ومنهُ: إنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَماً.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: يُرِيدُ بالْقُحَم المَهَالِكَ؛ لأنَّهَا تُقْحِمُ أَصْحَابَهَا فِي المَهَالِكِ وَالمَتَالِفِ فِي الأكْثَر فَمِنْ ذلِكَ قُحْمَةُ الأعْراب، وَهُوَ أَنْ تُصِيبَهُمُ السنة فَتَتَفَرَّقُ أَمْوالُهُمْ، فَذَلِكَ تَقَحُّمُهَا فِيهِمْ. وَقِيلَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهَا تُقْحِمُهُمْ بِلادَ الرِّيف، أَيْ تُحْوِجُهُمْ إِلى دُخُولِ الحضر عِنْدَ مُحُولِ البَدو.

الشَّرْحُ: أصلُ هذا البناءِ للدُّخول في الأمر على غير رويّة ولا تثبُّت، قَحَمَ الرجلُ في الأمر بالفتح قُحوماً، وأقحَم فلانٌ فرسَه البحرَ فانقحَم، واقتحَمْتُ أيضاً البحرَ دخلتُه مكافحة، وقَحَم الفرسُ فارِسَه تقحيماً على وجهه، إذا رماه، وفحلٌ مِقْحَام، أي يَقتحِم الشَّوْلَ مِن غير إرسالٍ فيها.

وهذه الكلمة قالها أمير المؤمنين حين وَكَّل عبدَ اللّه بن جعفرٍ في الخصومة عنه، وهو شاهد.

وأبو حنيفةَ لا يُجيز الوَكالة على هذه الصّورة، ويقول: لا تجوز إلا من غائبٍ أو مريض، وأبو يوسف ومحمد يُجيزانها أخذاً بفعل أمير المؤمنين عليه السلام.

- ٢٦١ -

الأصل: ومنهُ: إذا بلغ النساءُ نَصَّ الحِقاقِ فالعَصَبة أولَى.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: ويروى «نصَّ الحقائقِ»، والنصُّ منتهى الأشياء ومبلغُ أقصاها كالنصِّ في السير لأنه أقصى ما تقدرُ عليه الدابّة، ويقال: نصصتُ الرجلَ عن الأمرِ إذا استقصيتَ مسألته لتستخرجَ ما عنده فيه، ونصُّ الحقاقِ يريدُ به الإدراكَ، لأنه منتهى الصِّغر، والوقتُ الذي يخرجُ منه الصغيرُ إلى حدِّ الكِبر، وهو منْ أفصحِ الكِناياتِ عن هذا الأمرِ وأغربِها، يقولُ: فإذا بلغَ النساءُ ذلك فالعصَبةُ أولَى بالمرأةِ منْ أُمِّها إذا كانوا محرماً مثلُ الإخوةِ والأعمامِ، وبتزويجها إنْ أرادوا ذلك.

والحِقاقُ: مُحاقَّةُ الأمّ للعصَبةِ في المرأةِ، وهو الجِدالُ، والخُصُومةُ، وقولُ كلِّ واحِدٍ منهما لِلآخرِ: أنا أحَقُّ منك بِهَذا، يُقالُ منهُ: حاقَقْتُهُ حِقاقاً، مِثْلُ جادلْتُهُ جِدالاً. قال: وقد قِيلَ إنَّ نَصَّ الحِقاقِ بُلُوغُ العقلِ وهو الإدراكُ؛ لأنه عليه السلام إنما أرادَ مُنتَهَى الأمرِ الذي تجبُ به الحُقوقُ والأحكامُ. قالَ: ومَنْ رواهُ «نصُّ الحَقائقِ» فإنما أرادَ جَمْعَ حقيقةٍ، هذا معنى ما ذكرهُ أبو عُبَيْدٍ القاسمُ بنُ سلاَّم.

قال: والذي عندي أنَّ المرادَ بنصِّ الحقاقِ هاهنا بُلُوغُ المرأةِ إلى الحَدِّ الذي يجوزُ فيه تزويجُها وتَصرُّفُها في حقوقِها، تشبيهاً بالحِقاق مِنَ الإبِلِ، وهي جَمْعُ حِقَّةٍ وحِقٍّ، وهو الذي استكمَل ثلاثَ سنينَ ودخلَ في الرابعةِ، وعندِ ذلك يبلغُ إلى الحدِّ الذي يُمكِنُ فيه مِنْ رُكوبِ ظهره ونصِّهِ في سيره. والحقائِقُ أيضاً: جَمْعُ حِقَّةٍ، فالرِّوايتانِ جميعاً ترجِعانِ إلى مسمَّى واحِدٍ، وهذا أشبهُ بطريقَةِ العربِ مِنَ المعنى المذكور أوّلاً.

الشرح: امّا ما ذكَره أبو عُبيد فإنّه لا يَشفِي الغليلَ؛ لأنه فسّر معنى النّصّ، ولم يفسّر معنى نَصّ الحقائق، بل قال: هو عبارةٌ عن الإدراك، لأنّه منتهى الصِّغَر، والوقت الذي يَخرُج منه الصغيرُ إلى حدّ الكِبَر، ولم يبيّن من أيّ وجهٍ يدلّ لفظ نَصّ الحقاق على ذلك، ولا اشتقاق الحِقاق وأصله، ليَظهَر من ذلك مُطابَقة اللّفظ للمعنى الّذي أشيرَ إليه.

فأمّا قولُهُ: «الحقاق هاهنا مَصدَر حاقّه يُحاقّه»، فلِقائلٍ أن يقول: إن كان هذا هو مقصودَه عَلَيْهِ السَّلَامُ فقَبْل الإدراك يكون الحِقاق أيضاً، لأنّ كلّ واحدة من القرابات تقول للأخرى: أنا أحقُّ بها منك، فلا معنى لتخصيصِ ذلك بحالِ البُلوغ، إلا أن يزعُم زاعمٌ أنّ الأمّ قبل البُلوغ لها الحَضانة، فلا يُنازِعها قبلَ البلوغ في البِنْت أحد ولكنْ في ذلك خلافٌ كثير بين الفقهاء.

وأمّا التفسير الثاني، وهو أنّ المراد بنَصّ الحقاق منتهَى الأمر الذي تَجب به الحُقوق فإنّ أهلَ اللغة لم يَنقُلوا عن العَرَب أنّها استعمَلت الحِقاقَ في الحُقوق، ولا يُعرَف هذا في كلامهم.

فأمّا قولُه: «ومن رواه نَصَّ الحَقائِق»، فإنّما أراد جمع حقيقة، فلِقائلٍ أن يقول: وما معنى الحقائق إذا كانت جمعَ حقيقة هاهنا؟ وما معنى إضافة «نَصّ» إلى «الحَقائق» جمع حقيقة، فإنّ أبا عُبَيْدة لم يفسّر ذلك مع شدّة الحاجةِ إلى تفسيره!

وأمّا تفسيرُ الرضيّ - رحمه الله - فهو أشبَه من تفسير أبي عُبَيدة، إلّا أنّه قال في آخِره: والحقائق أيضاً جمعُ حِقّة، فالروايتان تَرجِعان إلى معنًى واحد. وليس الأمرُ على ما ذكِر من أنّ الحقائق جمعُ حِقّة، ولكنّ الحقائق جمع حِقاق، والحِقاق جمع حِقّ، وهو ما كان من الإبل ٱبنَ ثلاث سنينَ، وقد دخل في الرابعة، فٱستَحقّ أن يُحمَل عليه ويُنتفع به، فالحقائق إذَن جمع الجَمْع لحِقّ لا لحِقّة، ومثل إفال وأفائل. قال: ويُمكنِ أن يقال: الحقاق هاهنا الخصومة، يقال: ما لَه فيه حقّ ولا حِقاق أي ولا خصومة، ويقال لمن يُنازِع في صِغار الأشياء إنّه لبرق الحِقاق، أي خصومَتُه في الدّنيء من الأمر، فيكون المعنى إذا بَلَغت المرأةُ الحَدَّ الّذي يستطيع الإنسانُ فيه الخصومَة والجَدَالَ فَعَصَبتُها أولَى بها من أمّها، والحَدُّ الّذي تَكمُل فيه المرأة والغُلامُ للخُصومة والحكومة والجدال والمناظرة هو سِنُّ البُلوغ.

- ٢٦٢ -

الأصل: ومنهُ: إنَّ الإيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً في القَلْبِ، كُلَّمَا ازْدَادَ الإيمَانُ ازْدَادَتْ اللُّمْظَةُ.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: اللُّمْظَةُ مِثْلُ النُّكْتَةِ أَوْ نَحْوِهَا مِنَ البَيَاضِ، وَمِنْهُ قِيلَ: فَرَسٌ أَلْمَظُ إذَا كَانَ بِجَحْفَلَتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَيَاضِ.

الشرح: قال أبو عُبيدة: هي لُمَظَة بضم اللام، والمحدِّثون يقولون: لَمْظة بالفتح، والمعروفُ من كلام العَرَب الضم، مِثلُ الدُّهْمَة والشُّهْبة والحُمْرة. قال: وقد رواه بعضُهم: «لُمْطة» بالطّاء المهملة، وهذا لا نَعرِفه.

قال: وفي هذا الحديث حُجّة على مَنْ أنكر أن يكون الإيمانُ يزيدُ وينقُص، ألا تَراه يقول: كُلَّما ازدادَ الإيمانُ ازدادتْ اللُّمْظة.

- ٢٦٣ -

الأصل: ومنهُ: إنَّ الرَّجُلَ إذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَى إذَا قَبَضَهُ.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: الظَّنُونُ: الَّذِي لا يَعْلَمُ صَاحِبُهُ أَيَقْضِيهِ مِنَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ أَمْ لا، فَكَأَنَّهُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ ذَلِكَ، فَمَرَّةً يَرْجُوهُ، وَمَرَّةً لا يَرْجُوهُ، وهو مِنْ أَفْصَحِ الكَلامِ، وَكَذلِكَ كُلُّ أَمْرٍ تَطْلُبُهُ وَلا تَدْرِي عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنتَ مِنْهُ فَهُوَ ظَنُونٌ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الأَعْشَى:

مَنْ يَجْعَلِ الجُدَّ الظَّنُونَ الَّذِي ... جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ المَاطِرِ
مِثْلَ الفُرَاتِيِّ إذَا مَا طَمَا ... يَقْذِفُ بِالبُوصِيِّ وَالمَاهِرِ

والجُدُّ: البِئْرُ العَادِيَّةُ في الصَّحْرَاءِ. وَالظَّنُونُ: الَّتِي لا يُعْلَمُ هَلْ فِيهَا مَاءٌ أَمْ لا.

الشرح: قال أبو عُبَيدة: في هذا الحديث من الفِقْه أنّ من كان له دَيْن على النّاس فليس عليه أن يُزَكّيَه حتّى يقبِضه، فإذا قَبَضه زَكّاه لما مضى، وإن كان لا يرجوه، قال: وهذا يردّه قول من قال: إنّما زكاتُه على الّذي عليه المال؛ لأنّه المنتفِع به، قال: وكما يُروَى عن إبراهيم، والعَمَل عندنا على قول عليّ عليه السلام، فأمّا ما ذكَره الرضيّ من أنّ الجُدّ هي البئرُ العاديّة في الصّحراء،

فالمعروف عند أهل اللّغة أن الجُدّ البئرُ التي تكون في موضع كثير الكَلأ، ولا تُسمّى البئرُ العاديَّة في الصَّحْراءِ المَوَاتِ جُدًّا، وشِعْر الأعشى لا يدلّ على ما فَسَّره الرضيّ؛ لأنه إنما شبّه عَلْقَمة بالبئرِ والكَلأ، يُظَنّ أن فيها ماءً لمكان الكَلأ، ولا يكون موضع الظن هذا هو مرادَه ومقصودَه، ولهذا قال: الظّنون، ولو كان عاديّة في بَيْداءَ مقفِرة لم تكن ظَنُوناً، بل كان يُعلَم أنّه لا ماء فيها، فسَقط عنها اسمُ الظَّنون.

– ٢٦٤ –

الأصل: وَمِنْهُ: أَنهُ شَيَّع جيشاً يُغْزِيهِ فقالَ: اعْزُبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ.

ومَعْنَاهُ: اصْدِفُوا عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ وَشَغْلِ الْقُلُوبِ بِهِنَّ، وَامْتَنِعُوا مِنَ الْمقارَبَةِ لَهُنَّ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْحمِيَّةِ، وَيَقْدَحُ فِي مَعَاقِدِ الْعَزِيمةِ، وَيَكْسِرُ عَنِ العَدُوّ، وَيَلْفِتُ عَنِ الإبْعَادِ فِي الْغزْوِ، فَكُلُّ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَعْزَبَ عَنْهُ، وَالْعَازِبُ وَالعَزُوبُ: الْمُمْتَنِعُ مِنَ الأَكْلِ والشُّرْبِ.

الشرح: التفسير صحيح، لكنّ قوله: «من امتنع من شيء فقد أعزَب عنه» ليس بجيّد، والصحيح «فقد عَزَب عَنْه» ثلاثي، والصواب: وكلُّ مَنْ مَنعته من شيء فقد أعزَبْتَه عنه، تُعدِّيه بالهمزة، كما تقول: أقمْته وأقعدْته، والفعل ثُلاثيّ قامَ وقعَد، والدليل على أنّ الماضي ثلاثي هاهنا. قوله: «والعازِب والعزُوب: الممتنِع من الأكل والشرب، ولو كان رُباعيًّا لكان «المُعزِب»، وهو واضح، وعلى هذا تكون الهمزة في أوّل الحرف همزة وصلٍ مكسورة، كما في «اضرِبوا» لأنّ المضارع يعزِب بالكسر.

– ٢٦٥ –

الأصل: ومنهُ: كالياسِرِ الفالج، يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ.

قَالَ: الياسِرُونَ هُمُ الذين يَتَضارَبُونَ بِالقِدَاحِ عَلَى الْجَزُور، والفالِجُ: الْقَاهِرُ الْغَالِبُ، يُقَالُ: قَدْ فَلَجَ عَلَيْهِمْ وَفَلَجَهُمْ، قَالَ الرَّاجِزُ:

لـمّـا رأيـتُ فـالِجـاً قَـدْ فَـلَجـا

الشرح: أوّل الكلام أنّ المرء المسلِم ما لم يغشَ دناءة يَخشَع لها إذا ذكرتْ، ويغري به لئامَ النّاس، كالياسِر الفالِج ينتظِر أوّل فوزَةٍ من قداحه، أو داعيَ الله، فما عند الله خيرٌ للأبرار، يقول: هو بين خيرتين: إما أن يصيرَ إلى ما يُحِبّ من الدنيا، فهو بمنزلة صاحب القِدْح المُعلّى، وهو أوفرُها نصيباً، أو يموت فما عند الله خيرٌ له وأبقى.

وليس يعني بقوله: الفالج: القامر الغالبَ كما فسّره الرّضيّ رحمه الله، لأنّ الياسر الغالبَ القامرَ لا ينتظر أوّل فوزةٍ من قداحِهِ، وكيف ينتظِر وقد غلَب! وأيّ حاجة له إلى الانتظار! ولكنّه يَعني بالفالج الميمونَ النَّقيبة الّذي له عادةٌ مطّردةٌ أن يَغلب، وقلّ أن يكون مَقْهوراً.

– ٢٦٦ –

الأصل: ومنهُ: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا برَسولِ الله فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوّ مِنْهُ.

قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ إِذا عَظُمَ الخوْفُ مِنَ الْعَدُوِّ، وَاشْتَدَّ عِضَاضُ الحَرْب فَزِعَ المسْلِمُونَ إِلَى قِتَالِ رسُول الله ﷺ بِنَفسِهِ، فَيُنزِلُ الله تعالى النَّصْرَ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَيَأْمَنُونَ مَا كانوا يَخَافُونَهُ بِمَكانِهِ.

وقَوْلُهُ: «إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ»: كِنَايَةٌ عَنِ اشْتِدَادِ الأَمْرِ، وقد قِيل في ذَلِكَ أَقْوَالٌ، أَحْسَنُهَا أَنَّهُ شَبَّهَ حَمْيَ الْحَرْبِ بالنَّارِ الَّتِي تَجْمَعُ الْحَرَارَةَ وَالحُمْرَةَ بِفِعْلِهَا ولَوْنِهَا، ومِمَّا يُقَوِّي ذَلِكَ قَوْلُ الرَّسُول ﷺ وَقَدْ رَأَى مُجْتَلَد النَّاسِ يَوْمَ حُنَيْنٍ وهيَ حرب هَوَازِنَ: «الآن حَمِيَ الْوَطِيسُ»[1]، والوطيسُ: مُسْتَوْقَدُ النار، فَشَبَّه رسُولُ الله ﷺ ما استحَرَّ من جِلادِ الْقَوْمِ باحْتدَامِ النَّارِ وَشِدَّةِ التِهابِها.

الشرح: الجيّد في تفسير هذا اللّفظ أن يقال: البأس الحرْب نفسَها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[2]، وفي الكلام حذفُ مضافٍ تقديرُه إذا احمر موضعُ البأس، وهو الأرْضُ التي عليها معركة القوم، واحمرارُها لِما يسيل عليها من الدّم.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٥)، وأحمد، كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: حديث العباس بن عبد المطلب (١٧٧٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

من غريب كلام الإمام علي وشرحه لأبي عبيد

ولما كان تفسير الرضيّ رحمه الله قد تعرّض للغريب من كلامه عليه السلام، ورأينا أنّه لم يذكر من ذلك إلا اليسير، آثرنا أن نذكُر جملةً من غريب كلامِه عليه السلام ممّا نقَلَه أربابُ الكُتُب المصنَّفة في غريب الحديث عنه عليه السلام.

فمن ذلك ما ذَكَره أبو عبيْد القاسمُ بنُ سلام رحمه الله في كتابه: لأنْ أطَّلِيَ بجواءِ قِدْر أحبّ إليّ من أنْ أطَّلِيَ بزعْفرَان.

قال أبو عُبَيد: هكذا الرواية عنه «بجواءِ قدْر»، قال: وسمعت الأصمعيّ يقول: إنما هي الجاوة، وهي: الوِعاء الّذي يُجعَل القِدْر فيه وجَمْعُها جياء.

قال: وقال أبو عمَرو: يقال لذلك الوعاء: جواء وجياء، قال: ويقال للخرقة الّتي يُنزل بها الوعاءُ عن الأثافيّ: جِعال.

ومنها قولُه عليه السلام حين أقبَل يريد العراق فأشارَ إليه الحسنُ بنُ عليّ عليه السلام أن يرجع: واللهِ لا أكونُ مِثْلَ الضَّبُعُ تسمعُ ألدِم حتى تخرج فتُصاد.

قال أبو عبيد: قال الأصمعيّ: اللّدم صوتُ الحجر، أو الشيءُ يقَع على الأرض، وليس بالصّوت الشديد، يقال منه: لدم ألدِم بالكسرِ، وإنما قيل ذلك للضّبع، لأنّهم إذا أرادوا أن يصيدوها رمَوْا في جُحْرِها بحَجَر خفيف، أو ضرَبُوا بأيديهم فتحسَبه شيئاً تصيدُه فتخرج لتأخذه فتصاد، وهي زعموا أنها من أحمق الدّواب، بلَغ من حُمُقها أن يدخل عليها فيقال: أمّ عامر نائمة، أو ليست هذه! والضبع، هذه أمّ عامر، فتَسكُت حتى تؤخذ، فأراد علي عليه السلام: أني لا أُخدَع كما تُخدَع الضّبع باللّدم.

ومنها قولُه عليه السلام: من وَجد في بطنه رِزًّا فلينْصرف وليتوضأ.

قال أبو عبيد: قال أبو عمرو: إنما هو أرْزًا مثل أرز الحيّة، وهو دَورانها وحَرَكتها، فشبه دَوَرَان الرِّيح في بطنه بذلك.

قال: وقال الأصمعيّ: هو الرِّز، يعني الصَّوتَ في البطن من القَرْقرة ونحوها قال الراجز:

كأن في رَبابِه الكِبارِ رِزَّ عِشارٍ جُلْنَ في عِشار

وقال أبو عُبيد: فقْهُ هذا الحديث أن يَنصرِف فيتوضأ ويبني على صلاته ما لم يتكلَّم، وهذا إنما هو قبل أن يُحَدِث.

قلت: والّذي أعرفه من الأرزِ أنه الانقباض لا الدّوَران والحركة، يقال: أرز فلانٌ بالفَتْح وبالكسر، إذا تضامَّ وتقبَّض من بُخله فهو أرُوز، والمصدَر أرْزاً وأروزاً، قال رؤبة:

فـذاكَ يَـخَـالُ أروز الأرزِ

فأضاف الاسمَ إلى المصدر كما يقال: عُمر العدْل وعَمْرو الدهاء، لما كان العدل والدّهاء أغلبَ أحوالهما، وقال أبو الأسود الدُّؤلي يذُمُّ إنساناً: إذا سئل أزِر، وإذا دُعي اهتزّ - يعني إلى الطّعام، وفي الحديث: «إن الإسلام ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِز الحية إلى جُحْرها»[1]. أي يجتمع إليها وينضمّ بعضُه إلى بعض فيها.

ومنها قوله: لئنِ وليتُ بني أميّة لأنفُضَنّهم نفضَ القصّاب التُّرابَ الوذِمة. وقد تقدّم منّا شرحُ ذلك والكلامُ فيه.

ومنها قوله في ذي الثُّدَيّة المقتول بالنَّهْرَوان: إنه مُودن اليد أو مُثْدن اليد أو مخدَج اليد.

قال أبو عبيدة: قال الكسائيّ وغيره: المودن اليَدِ: القصيرُ اليَدِ، ويقال: أودنتُ الشيءَ أي قصّرته، وفيه لُغةٌ أخرى، ودَنْته فهو مَوْدون، قال حسّان يذمّ رجلاً:

وأمُّك سوداءُ مَوْدونةٌ ... كأنّ أناملَها الحُنظُبُ

وأمّا مُثْدن اليد، بالثاء فإنّ بعضَ الناسَ قال: نراه أخَذه من الثُّنْدُوة، وهي أصل الثَّدي، فشَبّه يدَه في قِصَرها واجتماعها بذلك، فإنْ كان من هذا فالقياس أن يقال: مِثْنِدٍ، لأنّ النون قبل الدال في الثُّنْدُوَةِ، إلّا أن يكون من المقلوب، فذاك كثيرٌ في كلامهم.

وأمّا مُخدَج اليَد فإنّه القصيرُ اليد أيضاً، أُخِذ من إخداجِ الناقةِ وَلَدها، وهو أن تَضَعه لغير تَمام في خَلْقه، قال: وقال الفرّاء: إنّما قيل ذو الثُّدَيّة، فأُدخِلت الهاء فيها، وإنّما هي تصغير «ثَدْيٍ»، والثَّدْي مذكّر، لأنها كأنّها بقيّة ثَدْي قد ذَهَبَ أكثرُه فقلّلها كما تقول لُحَيمة وشُحَيمة، فأنّث على هذا التأويل، قال: وبعضُهم يقول ذو اليُدَيّة، قال أبو عُبيد: ولا أرى الأصْل كان إلّا هذا، ولكنّ الأحاديث كلّها تتابعتْ بالثاء ذو الثُّدَيّة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة (١٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً (١٤٧)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: فضل المدينة (٣١١١)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٧٧٨٧).

ومنها قوله ﷺ لقومٍ وهو يعاتبهم: ما لَكُم لا تُنظِّفون عَذِراتكم!

قال: العَذِرة فِناءُ الدار، وإنما سُمِّيت تلك الحاجة عَذِرة لأنها بالأفنية كانت تُلقى، فكَنَى عنها بالعَذِرة كما كَنَى عنها بالغائط، وإنّما الغائطُ الأرضُ المطمئنّة، وقال الحُطَيئة يهجو قوماً:

لَعَمْرِي لقد جرّبْتُكُمْ فوجدْتُكُمْ ... قِباحَ الوُجوه سَيِّئِ العَذِراتِ

ومنها قولُه ﷺ: لا جُمُعة ولا تَشْريق إلّا في مصرٍ جامع.

قال أبو عبيد: التّشريق هاهنا صلاةُ العيد، وسُمّيت تشريقاً لإضاءة وقْتِها، فإنّ وقتَها إشراقُ الشّمس وصَفاؤُها وإضاءتُها، وفي الحديث المرفوع: «من ذبحَ قبل التّشريق فَلْيُعِدْ»[(1)]، أي قبلَ صلاة العيد.

قال: وكان أبو حنيفة يقول: التشريق هاهنا هو التّكبير في دُبُر الصلاة، يقول: لا تكبيرَ إلا على أهل الأمْصار تِلك الأيّام، لا على المسافرين أو مَن هو في غير مِصر.

قال أبو عبيد: وهذا كلامٌ لم نجد أحداً يَعرِفه، إنّ التكبير يقال له التّشريق، وليس يأخذ به أحدٌ من أصحابه لا أبو يوسفَ ولا محمّد، كلّهم يَرَى التكبيرَ على المسلمين جميعاً حيث كانوا في السَّفر والحَضَر وفي الأمصار وغيرِها.

ومنها قوله ﷺ: «استكثِروا من الطّواف بهذا البيت قبل أن يُحَال بينكم وبينَه، فكأنّي برجلٍ من الحَبَشة أصعَلَ أصمعَ حَمش السّاقين قاعداً عليها وهي تُهْدَم»[(2)].

قال أبو عُبَيد: هكذا يُروَى «أصعَل» وكلامُ العَرَب المعروف «صَعْل» وهو الصغيرُ الرّأس، وكذا رُؤوس الحبشة، ولهذا قيل للظّليم: صَعْل، وقال عَنترةُ يصف ظَليماً:

صَعْلٌ يلوذُ بذي العشيرةِ بَيْضه ... كالعَبْد ذِي الفَرْوِ الطّويلِ الأصْلَمِ

قال: وقد أجازَ بعضُهم أصعَل في الصّعل، وذُكر أنّها لغة لا أدري عمّن هي! والأصمعُ: الصغيرُ الأذُن، وامرأة صَمْعاء.

وفي حديث ابن عَبّاس: إنّه كان لا يَرَى بَأساً أن يُضَحّيَ بالصَّمْعاء. وحَمْش الساقين بالتّسكين: دَقيقها.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦٠٥٨)، بلفظ: «قبل الصلاة» بدل قوله: «قبل التشريق».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩١٧٨).

ومنها: أنّ قوماً أتَوْه برجل فقالوا: إنّ هذا يؤمُّنا ونحن له كارهون، فقال له: إنك لخَرُوط، أتؤمّ قوماً هم لَك كارهون!

قال أبو عبيد: الخَرُوط: المتهوّر في الأمور، الرّاكبُ برأيِه جَهْلاً، ومنه قيل: انخَرَطَ علينا فلان، أي اندرَأ بالقَوْل السّيئ والفِعْلِ. قال: وفقهُ هذا الحديث أنّه ما أفتَى عليه السلام بفسادِ صلاتِه لأنه لم يأمُرْه بالإعادة، ولكنّه كَرِه له أن يؤمّ قوماً هم له كارهون.

ومنها: أنّ رجلاً أتاه وعليه ثوبٌ من قِهز، فقال: إنّ بني فلان ضَرَبوا بني فلانة بالكناسة، فقال عليه السلام: صَدَقني سِنّ بكْرِه.

قال أبو عبيد: هذا مَثل تَضربه العَرَب للرجل يأتي بالخبر على وَجْهه ويصدق فيه. ويقال: إنّ أصله أنّ الرجل ربّما باع بعَيره فيسأل المشترِي عن سِنّه فيكذبه، فعَرض رجلٌ بَكْراً له فصَدَق في سِنّه، فقال الآخر: صَدَقني سنُّ بَكْره، فصار مَثَلاً.

والقِهْز بكسر القاف: ثياب بيض يُخالطها حَرير، ولا أراها عربيّة، وقد استعملها العربُ، قال ذو الرّمّة يصف البُزَاة البِيض:

مِـن الـوُرْق أو صُـقـع كـأنّ رؤوسـهـا   من القِهْز والقُوهِيّ بيضُ المقَانعِ

ومنها: ذَكر عليه السلام آخر الزمان والفِتن، فقال: خير أهل ذلك الزمان كلّ نُومَة، أولئك مصابيح الهدى، ليسوا بالمسابيح ولا المَذاييع البُذُر.

وقد تقدّم شرح ذلك.

ومنها: أنّ رجلاً سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين رجعوا، فاتّهم أهله أصحابه ورفعوهم إلى شُرَيح، فسألهم البيّنة على قتله، فارتفعوا إلى عليّ عليه السلام، فأخبروه بقول شُريح، فقال:

أوردَهـا سـعـدٌ وسـعـدٌ مُـشـتـمِـلْ   يـا سـعـد لا تَـروَى بـهـذاك الإبـلْ

ثمّ قال: إنّ أهْوَن السَّقْي التّشريع، ثمّ فرّق بينهم وسألهم، فاختلفوا، ثم أقرّوا بقتلهم، فقتلهم به.

قال أبو عُبيد: هذا مثل، أصلُه أنّ رجلاً أورَد إبله ماء لا تصلُ إليه الإبل إلّا بالاستقاء، ثم اشتمل ونامَ وتركها لم يستسق لها، والكلمة الثانية مثل أيضاً، يقول: إنّ أيسَر ما كان ينبغي أن

يُفعل بالإبل أن يمَكّنها من الشريعة ويَعرِض عليها الماء. يقول: أقلّ ما كان يَجب على شُرَيح أن يستقصي في المسألة والبحث عن خبر الرّجل ولا يقتصر على طلب البيّنة.

ومنها قوله، وقد خرج على الناس وهم ينتظرونه للصلاة قياماً: «ما لي أراكُمْ سامدين».

قال أبو عبيد: أي قائمين، وكلُّ رافِع رأسَه فهو سامد، وكانوا يَكرَهونَ أن ينتظروا الإمامَ قِياماً ولكنْ قُعوداً، والسامد في غير هذا الموضع: اللّاهي اللّاعب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾(١)، وقيل: السُّمود الغِناء بِلُغة حِمْيَر.

ومنها: أنه خرج فرأى قوماً يصلّون قد سَدَلوا ثيابهم، فقال: كأنهم اليهود خرجوا من فُهرهم.

قال أبو عبيد: فُهْرُهم بضم الفاء: موضع مِدْراسهم الذي يجتمعون فيه كالعيد يصلّون فيه ويُسدِلون ثيابهم، وهي كلمةٌ نَبَطيّة أو عبْرانية أصلها بُهْر بالباء فعُرّبت بالفاء.

والسَّدل: إسبال الرّجل ثوبه من غير أن يضمّ جانبيه بين يديه، فإن ضمّه فليس بسَدْل، وقد رويتْ فيه الكراهة عن النبيّ ﷺ.

ومنها: أن رجلاً أتاه في فريضة وعنده شُرَيح، فقال: أتقول أنت فيها أيّها العبد الأبْظَر!

قال أبو عبيد: هو الذي في شفَته العُلْيا طُول ونتوء في وسطها محاذِي الأنف. قال: وإنما نراه قال لشُريح: «أيّها العبد»، لأنه كان قد وقع عليه سَبْيٌ في الجاهليّة.

ومنها: أنّ الأشعث قال له وهو على المِنبر: غلبتْنا عليك هذه الحمراء، فقال عليه السلام: مَن يعذِرني من هؤلاء الضّياطرة، يتخلف أحدُهم يتقلّب على فراشِه وحشاياه كالعَير ويهجر هؤلاء للذكر! أأطْرُدهم؟ إني إنْ طَرَدْتهم لمن الظالمين، والله لقد سمعته يقول: والله ليضربنكم على الدّين عَوْداً كما ضَرَبْتموهم عليه بَدْءاً.

قال أبو عبيد: الحمراء: العَجَم والمَوَالي، سمّوا بذلك لأنّ الغالب على ألوان العرب السُّمْرة، والغالب على ألوان العجم البياض والحُمْرة. والضّياطرة: الضِّخام الذين لا نَفْع عندهم ولا غَناء، واحدُهم ضَيْطار.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٦١.

ومنها: قوله عليه السلام: اقتلوا الجانّ ذا الطُّفْيَتين، والكلْب الأسود ذا الغُرَّتين.

قال أبو عُبيد: الجانّ حية بيضاء، والطّفْية في الأصل: خُوصة المُقْل، وجمعُها طفيّ، ثم شُبهت الخُطّتان على ظَهْر الحية بِطُفْيَتَيْن. والغُرّة: البياض في الوجه.

من غريب كلام الإمام علي وشرحه لابن قتيبة

وقد ذكر ابنُ قُتيبة في غريب الحديث له عليه السلام كلمات أخرى:

فمنها قوله: من أراد البقاءَ - ولا بقاءَ - فليُباكِر الغداء، وليُخفّف الرّداء، ولْيُقِلّ غِشْيان النساء. فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما خِفّة الرّداء في البقاء؟ فقال: الدَّين.

قال ابن قتيبة: قوله «الرّداء الدَّين» مذهب في اللغة حَسَنٌ جيّد، ووجهٌ صحيح، لأن الدَّيْن أمانةٌ، وأنت تقول: هو لك عليّ وفي عنقي حتى أؤدّيه إليك، فكأن الدين لازِم للعنق، والرِّداء موضِعه صَفْحتا العنق، فسمّى الدَّين رداءً وكَنَى عنه به، وقال الشاعر:

إن لـي حـاجـةً إلـيـك فـقـالـت ... بـيـن أُذْنـي وعـاتـقـي مـا تـريـد

يريد بقوله: «بين أُذني وعاتقي ما تريد» في عنقي، والمعنى أني قد ضمنته فهو عليّ، وإنما قيل للسيف رداء لأنّ حمالته تقع موقع الرداء، وهو في غير هذا الموضع العطاء، يقال: فلانٌ غمر الرداء أي واسعُ العطاء، قال: وقد يجوز أن يكون كَنَى بالرّداء عن الظَّهر، لأنه يقع عليه، يقول: فليخفِّف ظهره ولا يثقله بالدَّين، كما قال الآخر: «خماص الأُزْر»، يريد خماص البطون.

وقال: ويلغني نحو هذا الكلام عن أبي عبيد، قال: قال فقيه العرب: من سَرّه النساءُ - ولا نساء - فليُبكّر العشاء، وليُباكِر الغداء، وليخفّف الرِّداء، ولْيُقِلّ غِشيان النساء قال: فالنسء التأخيرُ، ومنه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾(١).

وقوله: فليُبكّر العشاء، أي فليؤخّره، قال الشاعر:

فـأكـريـتُ الـعـشـاء إلـى سُـهَـيـل

ويجوز أن يريد فلينقص العَشاء، قال الشاعر:

والـطـلّ لـم يـفـضـل ولـم يـكـر

ومنها: أنه أتِي عليه السلام بالمال فكوّم كَومةً من ذَهب وكَومة من فضة، فقال: يا حمراءُ ويا بيضاءُ احمرّي وابيضّي وغُرّي غَيْري.

هـذا جَـنـاي وخـيـارُه فـيـه ... وكـلُّ جـانٍ يَـدُهُ إلـى فـيـه

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

قال ابن قُتيبة: هذا مَثَل ضَرَبه، وكان الأصمعيّ يقوله: «وهجانه فيه»، أي خالصُه، وأصل المثل لعَمرو بن عَديّ ابن أُخت جَذِيمة الأبرش، كان يجني الكمأة مع أتراب له، فكان أترابه يأكلون ما يجدون، وكان عمرو يأتي به خالَه ويقول هذا القول.

ومنها حديث أبي جاب قال: جاء عَمّي من البَصْرة يذهب بي وكنت عند أمي، فقالت: لا أتركك تذهب به، ثمّ أتت عليًا عليه السلام فذكرت ذلك له، فجاء عَمّي من البصرة، فقال: نعم والله لأذهَبَنّ به وإن رغم أنفُك، فقال عليّ عليه السلام: كذبت والله، ووَلَقْت، ثم ضرب بين يَدَيه بالدُّرة. قال: ولَقْت مثل كَذبْتَ وكذلك وَلَعت بالعين، وكانت عائشة تقرأ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾(١) وقال الشاعر:

وهـنّ مـن الأحـلاف والـولَـعَـان

يعني النساء أي من أهل الأخلاف.

ومنها قوله عليه السلام: إن من ورائكم أموراً متماحلة رُدُحاً وبلاءً مكلِّحاً مبلِّحاً.

قال ابن قتيبة: المتماحلة الطِّوال: يعني فتناً يَطُول أمرُها ويعظم، ويقال: رجل مُتماحل وسَبْسَب مُتماحل، والرّدحُ جمع رِداح، وهي العظيمة، يقال للكتيبة إذا عَظمَتْ: رَدَاح، ويقال للمرأة العظيمة العَجيزة: رَداح.

قال: ومنه حديثُ أبي موسى، وقيل له زمن عليّ ومعاوية: أهيَ أهيَ، فقال: إنما هذه الفِتْنة حَيْضة مِن حيضات الفتن، وبقيت الرّداح المُظلمة التي من أشرَف أشرَفت له.

ومكلِّحاً أي يكلح الناسُ بشدتها، يقال كلَح الرجل وأكلحَه، الكلحة الهمّ. والمبلّح، من قولهم: بلّح الرجُل إذا انقطع من الإعياء، فلم يقدِر على أن يتحرّك، وأبلحَه السيرُ، وقال الأعشى:

واشـتـكـى الأوصـال مـنـه وبَـلَـحْ

ومنها قولُه عليه السلام يوم خَيْبَر:

أنـا الّـذي سَـمَّـتْـنِ أمّـي حَـيْـدَرَهْ ... كـلـيـثِ غـابـاتٍ كـريـهِ الـمَـنْـظَـرَهْ

أُفِـيـهـم بـالـصّـاع كَـيْـلَ الـسَّـنْـدَرَهْ

---

(١) سورة النور، الآية: ١٥.

قال ابن قتيبة: كانت أمّ عليٍّ عليه السلام سمّته وأبو طالبٍ غائبٌ حين ولدَته أسَداً باسم أبيها أسَدِ بنِ هاشم بن عبد مَناف، فلمّا قَدم أبو طالب غيّر اسمَه وسمّاه عَليًّا. وحَيْدرة: اسمٌ من أسماءِ الأسَد، والسَّنْدرة: شجرةٌ يُعمَل منها القِسيّ والنَّبْل، قال:

حَنوْتُ لهم بالسَّنْدَرِيِّ المؤتر

فالسّندرة في الرَّجَز يُحتَمل أن تكون مِكْيالاً يُتّخذ من هذه الشجرة، سمّي باسمها كما يسمَّى القَوْس بنَبْعة. قال: وأحسب إن كان الأمرُ كذلك أنّ الكَيْل بها قد كان جُزافاً فيه إفراط، قال: ويحتمل أن تكون السَّنْدَرة هاهنا امرأةً كانت تَكِيل كَيْلاً وافِياً أو رَجُلاً.

ومنها قولُه عليه السلام: من يَطُلْ أيْر أبيه يَتمنطقْ به.

قال ابن قتيبة: هذا مثَل ضربَه، يريد من كثُرتْ إخوَتُه عَزّ واشتدّ ظهرُه، وضَرَبَ المِنطَقة إذا كانت تشدّ الظَّهر مثلاً لذلك، قال الشاعر:

فلو شاءَ ربّي كان أيرُ أبيكُمُ طويلاً كأيْرِ الحارثِ بن سَدُوسِ

قيل: كان للحارث بن سَدوس أحدٌ وعِشرون ذَكَراً، وكان ضرارُ بنُ عَمْرو الضبيّ يقول: ألا إنّ شَرَّ حائلٍ أمّ، فزوّجوا الأمّهات، وذلك أنه صُرِع، فأخذتْه الرِّماح، فاشتبَك عليه إخوتُه لأمّه حتى خلّصوه.

قال: فأمّا المَثَل الآخَرُ وهو قولهم: من يَطُلْ ذَيْلُه يتَمَنْطَقْ به، فليس من المَثل الأوّل في شيء، وإنما معناه من وَجَد سعةً وضَعَها في غير مَوضِعها، وأنفَق في غير ما يَلزمه الإنفاق فيه.

ومنها قولُه: خيرُ بئرٍ في الأرض زَمْزم، وشرُّ بئرٍ في الأرض برهوت.

قال ابن قتيبة: هي بئرٌ بحضْرَمَوْت يُروَى أن فيها أرواحَ الكُفار.

قال: وقد ذَكرَ أبو حاتم عن الأصمعيّ عن رجل من أهل حَضْرَمَوْت قال: نجد فيها الرائحة المنتِنة الفظيعة جداً، ثمّ نمكث حِيناً فيأتينا الخبرُ بأنّ عظيماً من عُظَماء الكفّار قد مات، فنرى أنّ تلك الرائحة منه، قال: وربما سُمع منها مثل أصوات الحاجّ، فلا يستطيع أحدٌ أن يُمشِيَ بها.

ومنها قولُه عليه السلام: أيّما رجلٍ تزوّج امرأة مجنونةً، أو جَذْماءَ، أو بَرْصاءَ، أو بها قَرْن، فهي امرأتُه، إن شاءَ أمْسَك، وإن شاء طَلّق.

قال ابن قُتَيبة: القَرْن بالتَّسْكين: العَفَلة الصغيرة، ومنه حديثُ شريح أنّه اختُصم إليه في قَرْن بجارِيَةٍ، فقال: أقعِدُوها فإن أصاب الأرضَ فهو عَيْب، وإن لم يُصِب الأرض فليس بعيب.

ومنها قوله عليه السلام: لوَدَّ معاويةُ أنّه ما بقيَ من بني هاشم نافِخُ ضِرمَة إلّا طَعن في نِيطه.

قال ابن قتيبة: الضِّرْمة النار، وما بالدار نافخُ ضِرمَة، أي ما بها أحد.

قال: وقال أبو حاتم عن أبي زيد: طُعِنَ فلانٌ في نِيطه أي في جِنَازته، ومن ابتدأ في شيء أو دَخَل فيه فقد طَعَن فيه، قال: ويقال: النَّيط: المَوْت، رماه الله بالنَّيط، قال: وقد روي «إلّا طُعِن» بضم الطاء، وهذا الرّاوي يذهَب إلى أن النَّيط نِيَاط القَلْب، وهي عَلاقَتُه الّتي يَتعلّق بها، فإذا طُعِن إنسانٌ في ذلك المكان مات.

ومنها قولُه عليه السلام: إنّ الله أوحَى إلى إبراهيمَ عليه السلام أن ابنِ لي بيتاً في الأرض، فضاقَ بذلك ذَرْعاً، فأرسَل الله إليه السَّكِينة، وهي رِيحٌ خَجُوج، فتطوّقتْ حولَ البَيْتِ كالجَحَفة.

وقال ابن قتيبة: الخَجُوج من الرِّياح: السريعةُ المرور، ويقال أيضاً: خَجَوْجاء، قال ابن أحمر:

هَوْجاءُ رَعْبَلة الرّواح خَجَوْ جاةُ الغُدُوّ رَواحُها شَهْرُ

قال: وهذا مثلُ حديث عليٍّ عليه السلام الآخر، وهو أنّه قال: السَّكينة لها وجهٌ كوَجْه الإنسان، وهي بعدُ ريحٌ هَفّافة، أي خفيفةٌ سريعةٌ، والجَحَفة: التُّرس.

ومنها أنّ مُكاتباً لبَعض بني أسَد، قال: جئتُ بنَقَدٍ أجلِبُه إلى الكُوفة، فانتهيْتُ به إلى الجِسْر، فإنّي لأسَرِّبُه عليه إذ أقبَل مولًى لبَكْر بن وائل يتخلّل الغَنَم ليَقطَعها، فَنَفَرَتْ نَقَدة، فقَطَرت الرَّجُل في الفُرات، فغَرِق، فأخذت. فارتفعْنا إلى عليٍّ عليه السلام فقَصَصْنا عليه القِصّة، فقال: انطلِقوا فإن عَرَفتم النَّقَدة بعَيْنها فادفَعوها إليهم. وإن اختلَطت عليكم فادفَعوا شَرْواها من الغَنَم إليهم.

قال ابن قُتيبة: النَّقَد: غَنَم صِغار، الواحدةُ نَقَدة، ومنه قولُهم في المَثَل: «أذلّ من النَّقَد».

وقوله: «أسَرِّبه» أي أرْسِله قطعةً قطعةً. وشَرْواها: مثلها.

ومنها قولُه عليه السلام في ذِكر المَهْدِيّ من وَلَد الحُسَين عليه السلام، قال: إنّه رجلٌ أجْلَى الجَبين، أقنَى الأنْف، ضَخْم البَطْن، أزْيَل الفَخِذين، أفلَج الثّنايا، بفَخِذِه اليُمنَى شامة[1].

---

(١) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١١/ ٣١٧، وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٥١/ ٤٠.

قال ابن قتيبة: الأجْلَى والأجْلَح شيءٌ واحد، والقَنا في الأنف: طولُه ودِقّة أرْنَبَته وحَدَبٌ في وَسَطه. والأزْبَل الفَخِذَين: المتباعدُ ما بينهما، وهو كالأفْحَج، تَزَبّل الشيءُ، أي انفَرَج، والفَلَج: صُفرةٌ في الأسْنان.

ومنها قوله عليه السلام: إنّ بني أُمَيّة لا يزالون يَطعُنون في مَسجَل ضَلالة، ولهم في الأرض أجَل حتى يُهَرِيقوا الدّمَ الحرامَ في الشّهر الحَرَام، والله لكأنّي أنظُرُ إلى غِرْنَوْق من قُرَيْش يتخبّط في دَمِه، فإذا فعلوا ذلك لم يَبقَ لهم في الأرض عاذِر، ولم يَبقَ لهم مُلْك، على وجهِ الأرض.

قال ابنُ قتيبة: هو من قولك: ركبَ فلانٌ مَسجَله، إذا جَدّ في أمرٍ هو فيه كلاماً كانَ أو غيرَه، وهو من السَّجْل وهو الصَّبّ. والغِرْنوق: الشابّ.

قلت: والغِرْنوق: القُرَشي الّذي قتَلوه، ثمّ انقضَى أمرُهم عقيبَ قتلهِ إبراهيم الإمام، وقد اختَلَفت الرّواية في كيفيّة قتله، قُتِل بالسّيف، وقيل: خُنِق في جِراب فيه نُورَة، وحديث أميرِ المؤمنين عليه السلام يُسنِدُ الرّوايةَ الأولى.

ومنها ما رُوي أنّه اشترى قميصاً بثلاثة دَرَاهم ثم قال: الحمدُ لله هذا مِن رياشه.

قال ابنُ قتيبة: الرِّيش والرِّياش واحد، وهو الكِسْوة، قال عزّ وجلّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾[1]، وقُرِىء: ﴿ورِياشا﴾.

ومنها قوله عليه السلام: لا قَوَد إلّا بالأسَل.

قال ابن قتيبة: هو ما أُرهِف وأُرِقّ من الحديد، كالسِّنان والسيف والسكين، ومنه قيل: أسَلة الذِّراع لما استدَقّ منه، قال: وأكثَرُ الناس على هذا المذهَب وقومٌ من الناس يقولون: قد يجوز أنّ القَوَد بغير الحديد كالحجر والعصا إن كان المقتول قُتل بغير ذلك.

ومنها أنه عليه السلام رأى رجلاً في الشمس، فقال: قُمْ عنها فإنها مَبْخَرة مَجْفَرة، تُتْفِل الرّيح، وتُبْلي الثّوب، وتُظهر الدّاءَ الدَّفين.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

قال ابنُ قتيبة: مَبخَرة: تُورِث البَخَر في الفَم. ومَجْفَرة: تَقطع عن النّكاح وتُذهبُ شَهوة الجماع، يقال جفر الفَحْل عن الإبل، إذا أكثر الضِّراب حتى يملّ وينقطع، ومثله قَذَرَ، وتقذَّر، قذوراً، ومِثلُه أَقْطَع فهو مقطع.

وجاء في الحديث أن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله، إني رجل تَشُقُّ عليَّ العُزْبة في المغازِي، أفتأذن لي في الخِصاء؟ قال: لا، ولكن عليك بالصَّوم فإنّه مُجْفِر.

قال: وقد رَوى عبدُ الرحمن عن الأصمعيّ عمّه، قال: تكلّم أعرابيّ فقال: لا تنكحنّ واحدة فتحيض إذا حاضت، وتمرض إذا مرضت، ولا تنكحنّ اثنتين فتكون بين ضَرّتين ولا تنكحن ثلاثاً فتكون بين أثافٍ، ولا تنكِحَنّ أربعاً فيفلِسْنك ويُهْرِمْنك، ويُنْحِلْنَكَ ويُجْفرنْك فقيل له: لقد حَرَّمْتَ ما أحَلّ الله، فقال: سبحان الله! كُوزان، وقُرْصان، وطمْران وعِبادة الرّحمن، وقوله: «تُثفِل الريح»، أي تُنْتِنُها، والاسم الثّفْل، ومنه الحديث «وليخرجنّ ثفلات». والداء الدّفين، المستتر الذي قد قَهَرَته الطّبيعة، فالشمسُ تُعينهُ على الطّبيعة وتُظْهِره.

ومنها قوله عليه السلام وهو يذكر مسجد الكوفة في زَاويته: فارَ التنّور، وفيه هَلَك يَغُوث ويَعُوق، وهو الفاروق، ومنه يستيِر جبلُ الأهْواز، ووَسَطه على رَوْضةٍ من رياضِ الجنّة، وفيه ثلاثُ أعيُنٍ أنبتتْ بالضِّغْثِ، تذهِب الرِّجس، وتُطهِّر المؤمنين: عَيْن من لَبن، وعَيْن من دُهْن، وعينٌ من ماءٍ، جانبهُ الأيمن ذِكْر، وفي جانبه الأيسر مَكْر، ولو يَعلم الناسُ ما فيه من الفَضْل لأتَوْه ولو حَبْواً.

قال ابن قتيبة: قوله «أنبتتْ بالضِّغث» أحسِبُه الضِّغث الذي ضرب أيّوب أهله. والعَين التي ظهرت لما رَكَض الماءَ برجله. قال: والباء في «بالضِّغث» زائدة، تقديرُه: أنبتَت الضِّغْث، كقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾[1]، وكقوله: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾[2].

وأما قوله: «في جانبه الأيْمَن ذكر»، فإنّه يعني الصلاة: «وفي جانِبه الأيسر مَكْر» أراد به المَكْر به حتى قُتِل عليه السلام في مسجد الكوفة.

ومنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبا رافع مولاه يتلقى جعفَر بنَ أبي طالب لـمّا قَدِم من الحَبَشة، فأعطاه عليٌّ عليه السلام حَتِيًّا وعُكّة سَمْن، وقال له: أنا أعلم بجعفرْ أنّه إنْ عَلم ثرّاه مرّة واحدة ثم أطعَمه، فادفع هذا السَّمْن إلى أسماءَ بنت عُمَيس تَدْهنُ به بني أخي مِنْ صَمَر البَحْر، وتُطعِمهم من الحتِيّ.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٦.

قال ابن قتيبة: الحتيّ: سَوِيق يُتّخَذ من المُقلْ، قال الهذَليّ يذكُر أضيافه:

لا دَرَّ دَرِّيَ إن أَطْعَمْتُ نازِلَكُمْ قِرْفَ الحتِيّ وعندي البُرُّ مَكْنوزُ

وقوله: «ثرّاه مَرّة أي بَلّه دُفْعة واحدة وأطعمه الناسَ، والثرى: النَدا. وصَمَرُ البحرِ: نَتْنه وغَمْقُهُ، ومنه قيل للدُّبُرْ الصُّمَارَى.

ومنها قوله عليه السلام يوم الشُورَى لما تكلّم: الحمد لله الذي اتّخذ محمداً منّا نبياً، وابتَعثه إلينا رسولاً، فنحن أهلُ بيت النبوّة، ومَعدن الحِكْمة، أمانٌ لأهل الأرض، ونَجاةٌ لمن طَلَب، إنّ لنا حقًّا إن نُعْطَه نأخذه، وإن نُمنعْه نركب أعجازَ الإبل، وإن طالَ السرَى، لو عَهد إلينا رسولُ الله صلى الله عليه وآله عهداً لجالَدْنا عليه حتى نموت، أو قال لنا قولاً لأنْفذنا قوله على رَغْمِنا. لن يُسرع أحدٌ قَبْلي إلى صِلَةِ رَحِمٍ ودعوة حَق، والأمرُ إليك يا بن عوف على صدْق النيّة، وجُهْد النُّصح، وأستغفرُ الله لي ولَكُمْ.

قال ابنُ قتيبة: أي أن مَعْناه رَكِبنا مركب الضَيْم والذلّ، لأنّ راكب عجزُ البعير يجد مَشقّة، لا سيما إذا تطاول به الرّكوب على تلك الحال، ويجوز أن يكون أراد نصبر على أن نكون أتْباعاً لغَيْرِنا، لأنّ راكب عجزُ البعير يكون رِدْفاً لغيره.

ومنها قوله عليه السلام لما قَتل ابنُ آدم أخاه: غَمَصَ الله الخَلْق ونقص الأشياء.

قال ابن قتيبة: يقال غمَصْتُ فلاناً أغمِصه واغتمصتُه، إذا استصْغَرْته واحتَقَرْته، قال: ومعنى الحديث أنّ الله تعالى نقص الخَلْق من عظم الأبدان وطُولها من القوّة والبَطْش وطول العُمْر ونحو ذلك.

ومنها أنّ سلامة الكنديّ قال: كان عليٌّ عليه السلام يعلّمنا الصلاة على رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيقول: اللهم داحيَ المدحُوّات، وبارئ المَسْمُوكات، وجبّارَ القلوب على فِطْرَاتها، شقيّها وسعيدها، اجعلْ شرائف صلواتِك، ونواميَ بركاتِك، ورأفة تحيّاتك، على محمد عبدِك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمُعْلِن الحقّ بالحقّ، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حَمّلْته فاضطَلَع بأمْرِك لطاعتِك، مستوفزاً في مَرْضاتك، لغير نُكُل في قِدَم، ولا وَهَن في عَزْم، داعياً لوحْيك، حافظاً لِعَهْدِك، ماضياً على نفاذِ أمرك، حتى أورَى قَبَساً لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه به، هديت القلوب بعد خَوْضات الفتن والإثم، موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازِنُ عِلْمك المخزون، وشهيدُك يوم الدِّين، وبعيثُك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مفسحاً في عَدْلك، واجْزه مضاعَفاتِ الخَير من

فضلك، مهنّآتٍ غير مكدِّرات، من فَوْزِ ثوابك المحْلول، وجَزْل عطائك المَعلول، اللهم أعلِ على بناء البانين بناءَه، وأكرِم مثواهُ لديك ونُزُله، وأتمم له نورَه، واجزِه من ابتعاثِك له مقبول الشهادة، مَرْضيَّ المقالة، ذا منطق عَدْل، وخُطّة فصل، وبرهان عظيم[1].

قال ابن قتيبة: داحي المدحوّات، أي باسط الأرَضِين، وكان الله تعالى خَلقها رَبْوة ثم بَسطها، قال سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[2]، وكلّ شيء بسطتَه فقد دَحَوْتَه ومنه قيل لموضع بَيْض النَّعامة: أُدْحِيّ، لأنها تَدْحُوه للبَيْض أي تُوسّعه، ووَزْنهُ أفعول.

وبارئُ المَسْمُوكات: خالق السموات. وكلّ شيء رفعته وأعليته فقد سَمَكْته، وسَمْك البيت والحائط ارتفاعُه، قال الفرزْدَق:

إنّ الذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ

وقوله: جبّار القلوب على فِطَراتها. من قولك جَبَرْت العَظْم فجُبِر إذا كان مَكْسوراً فلأَمْتَه وأقَمْتَه، كأنّه أقامَ القلوب وأثبتَها على ما فَطَرها عليه من معرفته والإقرار به، شقيّها وسعيدها، قال: ولم أجعلْ جبّاراً هاهنا، من أجبرتُ فلاناً على الأمر إذا أدخلتَه فيه كَرْهاً، وقَسَرْته، لأنه لا يقال من أفعل فعّال، لا أعلم ذلك إلا أنّ بعض القرّاء قرأ ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3] بتشديد الشين، وقال: الرشّاد الله، فهذا فعّال من أفعل، وهي قراءة شاذّة، غيرُ مستعمَلة، فأمّا قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[4] فإنه أراد وما أنتَ عليهم بمسلّط تَسليط الملوك. والجَبابِرة: الملوك، واعتبار ذلك قولُه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[5] أي: بمُتَسلّط تسلُّط الملوك، فإن كان يجوز أن يقال من أجبرتُ فلاناً على الأمر: أنا جَبّارٌ له، وكان هذا محفوظاً، فقد يجوز أن يُجعَل قولُ عليٍّ عليه السلام: جبّار القلوب من ذلك، وهو أحسَنُ في المعنى.

وقوله: «الدامغ جَيشات الأبَاطِيل»، أي مُهْلِك ما نَجَم وارتفع من الأباطيل، وأصل الدَّمْغ من الدِّماغ، كأنّه الذي يَضرِب وَسَط الرأسِ فيَدْمَغُه، أي: يصيب الدِّماغَ منه. ومنه قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[6] أي يُبطِله والدِّماغ مَقتَل، فإذا أصيبَ هَلَك صاحبُه.

وجَيْشات: مأخوذٌ من جاشَ الشيءُ أي ارتَفَع، وجاش الماءُ إذا طَمى، وجاشَت النَّفسُ.

وقولُه: «كما حمل فاضطَلَع» افتعَل مِن الضَّلاعة وهي القوّة.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم: ٣، وأخرجه الطبراني في الأوسط: ٩/ ٤٤.
(2) سورة النازعات، الآية: ٣٠.
(3) سورة غافر، الآية: ٣٨.
(4) سورة قٓ، الآية: ٤٥.
(5) سورة الغاشية، الآية: ٢٢.
(6) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

وقولُه: «لغيرِ نُكُل في قِدَم»، النُّكُل: مَصدَر وهو النُّكول، يقال: نَكَل فلانٌ عن الأمر يَنكُل نُكولاً، فهذا المشهورُ ونَكِل بالكسر يَنكل نُكلاً قليلة.

والقِدَم: التقدّم، قال أبو زيد: رجلٌ مِقْدام إذا كان شجاعاً، فالقدم يجوزُ أن يكون بمعنى التقدّم، وبمعنى المتقدِّم.

قوله: «ولا وَهْن في عَزْم، أي ولا ضَعْف في رأي.

وقوله: «حتّى أورى قَبساً لقابِس»، أي أظهَر نوراً من الحق، يقال: أَوْرَيْت النارَ إذا قَدحْتَ ما ظهر بها، قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾(١).

وقوله: «آلاءَ الله تصلُ بأهلِهِ أسبابه»، يريد نِعَم الله تَصِل بأهلِ ذلك القَبَس، - وهو الإسلام والحقّ سبحانه - أسبابَه وأهله، المؤمنون به.

قلتُ: تقديرُ الكلام حتّى أورى قبساً لِقابس، تَصِل أسبابُ ذلك القَبَس آلاءُ الله ونِعَمُه بأهلِهِ المؤمنين به. واعلم أنّ اللام في «لغير نُكُل» متعلّقةٌ بقوله: «مستوفِزاً»، أي هو مُستوفِزٌ لغير نُكول، بل للخوف منك، والخضوعِ لك.

قال ابنُ قُتَيبة: قولُه عليه السلام: «به هُدِيَت القلوب بَعدَ الكُفر، والفِتَن مُوضحات الأعلام»، أي هديته لمُوضِحات الأعلام، يقال هَدَيتَ الطريقَ وللطّريق وإلى الطريق.

وقوله: «نائرات الأحكام، ومُنِيرات الإسلام، يريد الواضحات البيّنات، يقال: نار الشيءُ وأنَارَ، إذا وَضح.

وقولُه: «شَهيدك يومَ الدِّين»، أي الشّاهد على النّاس يومَ القيامة. وبَعِيثُك رَحْمة، أي مَبعُوثُك، فَعِيل في معنى مَفْعول.

وقوله: «افسَح له مَفسَحاً»، أي أوسِع له سَعةً، ورُوِي «مُفْتَسحاً» بالتاء.

قوله: «فِي عَدْلك» أي في دار عدلك، يعني يومَ القيامة، ومن رواه: «عَدْنِك» بالنّون، أراد جَنّةَ عَدْنٍ.

وقوله: «من جَزْل عَطائك المعْلول»، من العَلَل، وهو الشُّرْب بعد الشُّرْب، فالشُّرْب الأوّل نَهَل، والثاني عَلَل، يريد أنّ عَطاءَه عزّ وجلّ مُضاعَف، كأنّه يَعُلّ عِبادَه، أي يُعطِيهم عَطاءً بعد عَطاءٍ.

وقوله: «أعْلِ على بناء البانِين بِناءَه»، أي ارْفَع فَوقَ أعمالِ العامِلين عَمَلَه. وأكرِم مَثْواه، أي مَنزِلَه، من قولِك: ثويْت بالمكان أي نَزَلْته وأقمْت به، ونُزله: رزقه.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧١.

ونحن قد ذَكَرْنا بعضَ هذه الكلمات فيما تقدّم على رواية الرّضيّ رحمه الله وهي مخالِفةٌ لهذه الرواية، وشرحنا ما رَواه الرّضيّ، وذَكَرْنا الآن ما رواه ابنُ قُتيْبَة وشرَحَه لأنّه لا يخلو من فائدة جديدة.

ومنها قوله عليه السلام: خُذِ الحكمةَ أنّى أتتْك، فإنّ الكلمةَ من الحكمة تكونُ في صدر المنافق فتَلَجْلَجُ في صَدْرِه حتّى تَسكُن إلى صاحبِها.

قال ابن قتيبة: يريدُ الكلمةَ قد يَعلَمها المنافقُ فلا تزال تتحرّك في صَدْرِه ولا تَسكُن حتّى يَسمَعَها منه المؤمنُ أو العالِم فيَعِيها ويَثْقَفُها ويَفْقهها منه، فتَسكُن في صَدْره إلى أخواتها من كَلِم الحِكْمة.

ومنها قوله عليه السلام: البيتُ المَعْمور نِتاقُ الكَعْبة من فَوْقِها.

قال ابنُ قُتَيبة: نِتاقُ الكَعْبة، أي مُظلّ عليها من فوقِها، من قولِ الله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[1]، أي زُعزِع فأظلّ عليهم.

ومنها قولُه عليه السلام: «أنا قَسيم النار»، قال ابن قُتَيبة: أراد أنّ الناسَ فريقان: فريقٌ معي فهم على هُدًى، وفريقٌ عليّ فهمْ على ضَلالة، كالخَوارِج، ولم يَجْسُر ابن قُتيبة أن يقول: «وكأهل الشّام» يتورّع يزعم، ثمّ إن الله أنْطقَه بما تورَّع عن ذِكْرِه، فقال متمّماً للكلام بقوله: فأنا قَسِيم النّار، نصفٌ في الجنّة معي، ونصفٌ في النار، قال: وقَسِيم في معنى مُقاسِم، مثل جَلِيس وأكِيل وشَرِيب.

قلت: قد ذكر أبو عُبَيد الهَرَويّ هذه الكلمةَ في الجَمْع بين الغَرِيبَيْن، قال: وقال قوم: إنّه لم يُرِد ما ذَكره، وإنما أراد: هو قَسِيم النّار والجنّة يومَ القيامة حقيقة، يقسم الأمّة فيقولُ هذا للجنّة، وهذا للنار.

خطبة الإمام علي عليه السلام الخالية من الألف

وأنا الآن أذكُرُ من كلامِهِ الغريب ما لم يُورِدْه أبو عُبيد وابنُ قُتَيبة في كلامهما وأشرَحُه أيضاً، وهي خُطْبَةٌ رَواها كثيرٌ من الناس له عليه السلام خاليَةٌ من حَرْف الألف، قالوا: تذاكر قوم من

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

أصحاب رسول الله ﷺ: أيُّ حروف الهجاء أدخَل في الكلامِ؟ فأجمَعوا على الألف، فقال عليٌّ عليه السلام:

حَمِدْتُ مَنْ عظُمت مِنَّته، وسَبَغَت نعمتُه، وسبقَت غضبَه رحمتُه، وتمت كلمتُه، ونفذتْ مشيئتُه، وبلغت قضيَّتُه، حَمِدْته حَمد مُقِرٍّ بِرُبوبيته، متخضِّعٍ لعبوديَّته، متنصِّلٍ مِن خطيئتِه، متفرِّدٍ بتوحيدِهِ، مؤمِّلٍ منه مغفرةً تُنجيهِ، يومَ يُشْغَلُ عن فصيلتِهِ وبنيه.

ونستعينُهُ ونسترشدُهُ ونستهديه، ونؤمِنُ بِهِ ونتوكَّلُ عليه، وشهِدْتُ له شهودَ مُخلِصٍ موقِنٍ، وفَرَّدْتُهُ تفريدَ مُؤمِنٍ مُتيقِّنٍ، ووحَّدْتُهُ توحيدَ عبدٍ مذعِنٍ، ليس له شريكٌ في مُلكِهِ، ولم يكن له وليٌّ في صنعِهِ، جَلَّ عن مشيرٍ ووزيرٍ، وعن عونٍ مُعينٍ ونصيرٍ ونظيرٍ.

عَلِمَ فستر، وبَطَن فخبرَ، وملكَ فقهرَ، وعُصِي فغفر، وحكم فعدلَ، لم يزلْ ولن يزولَ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، وهو بعد كلِّ شيءٍ ربٌّ متعزِّزٌ بعزَّتِهِ، متمكِّنٌ بقُوَّتِهِ، متقدِّسٌ بعلوِّه، متكبِّرٌ بسموِّه، ليس يدركُهُ بصرٌ، ولم يُحِطْ به نظرٌ، قويٌّ منيعٌ، بصيرٌ سميعٌ، رؤوفٌ رحيمٌ.

عَجَزَ عن وصفِهِ من يصفُهُ، وضَلَّ عن نعته من يعرفه.

قَرُبَ فبَعُدَ، وبعُد فقرُب، يُجيبُ دعوةَ من يدعوه، ويرزقُهُ ويحبوه، ذو لطف خَفِيٍّ، وبطشٍ قويٍّ، ورحمةٍ مُوسَعةٍ، وعقوبةٍ موجِعةٍ، رَحْمَتُهُ جنة عريضةٌ مونقةٌ، وعقوبته جحيمٌ ممدودةٌ موبقةٌ.

وشهِدْتُ ببعث محمدٍ رسولِهِ، وعبدِهِ وصفيِّهِ، ونبيِّهِ ونَجِيِّه، وحبيبِهِ وخليلِهِ، بعثه في خيرِ عصرٍ، وحين فترةٍ وكفرٍ، رحمةً لعبيدِهِ، ومِنَّةً لمزيدِهِ، ختم به نبوَّتَهُ، وشيَّدَ به حجّته، فوعظ ونصح، وبلغ وكدح، رؤوفٌ بكلِّ مُؤمنٍ، رحيمٌ سخيٌّ، رضيٌّ وليٌّ زكيٌّ، عليه رحْمةٌ وتسليمٌ، وبركةٌ وتكريمٌ، مِنْ رَبٍّ غفورٍ رَحيمٍ، قريبٍ مُجيبٍ.

وَصيَّتكُمْ معشرَ منْ حضرَني بوصيَّةِ ربِّكُم، وذكَّرتكُم بسنَّةِ نبيِّكُمْ، فعليكم برَهْبةٍ تَسْكُنُ قلوبَكم، وخشيةٍ تُذْري دُمُوعكم، وتقيَّةٍ تنجيكُمْ قَبْل يوْم تُبليكم وتذهِلكم، يوْم يفوزُ فِيه منْ ثقلَ وزنُ حَسنتهِ، وخفَّ وزنُ سيِّئتِهِ، ولتكُنْ مسألتكم وتملُّقكُمْ مسألة ذلٍّ وخضوعٍ، وشكْرٍ وخشوعٍ، بتوْبةٍ وتورُّعٍ، وندمٍ ورجُوعٍ، وليغتنمْ كلُّ مُغتنِمٍ منكُمْ صحَّتُه قبل سقمه، وشبيبته قبل هَرَمِهِ، وسعتهُ قبلَ فَقْرِهِ، وفرْغَتَهُ قبْل شُغله، وحَضرَه قبْل سفره، قبلَ تكبُّرٍ وتَهَرُّمٍ وتسقُّمٍ، يملُّهُ طبيبُهُ، ويعْرِضُ عَنْهُ حبيبهُ وينقطعُ غمْدُهُ، ويتغيَّرُ عقلهُ، ثم قِيلَ: هُوَ موعُوكٌ، وجِسمُهُ مَنهُوكٌ، ثمّ جَدَّ في نزعٍ شدِيدٍ، وحضرَهُ كلُّ قَرِيبٍ وبعيدٍ، فشَخصَ بصرُهُ، وطمِح نظرُهُ، ورَشَحَ جبينُهُ، وعطفَ عَرِينُهُ، وسَكَن حَنينُهُ، وحزَنْتهُ نفسهُ، وبكتهُ عِرسُهُ، وحُفِرَ رَمسهُ، ويُتِّمَ منْهُ وَلَدُهُ، وتفرَّق منْهُ عدَدُهُ، وقُسِمَ جَمْعُه، وذَهَبَ بصرُهُ وسَمْعُهُ، ومدِّدَ وجُرِّدَ، وعُرِّيَ وغسِلَ، ونُشِّفَ وسُجِّيَ،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

وبُسِطَ لَهُ وهُيِّئَ، ونُشِر عليهِ كَفَنُهُ، وشُدَّ منهُ ذَقَنُهُ، وقُمِّصَ وعُمِّمَ، ووُدِّعَ وسلِّمَ، وحُمِلَ فَوْقَ سَرِيرٍ، وصُلِّيَ عليهِ بتكبيرٍ، ونُقِلَ مِنْ دُورٍ مُزَخْرَفَةٍ، وقُصُورٍ مُشَيَّدَةٍ، وحُجَرٍ مُنَجَّدَةٍ، وجُعِلَ في ضريحٍ ملْحُودٍ وضِيقٍ مرْصُودٍ، بِلَبِنٍ مَنْضُودٍ، مُسَقَّفٍ بجُلْمُودٍ، وهيلَ عليْهِ حفْرُهُ، وحُثِيَ عَلَيْهِ مَدَرُهُ، وتحقق حِذْرُهُ، ونُسِيَ خبَرُهُ، ورَجَعَ عنهُ وليُّه وصفيّه، ونديمُهُ ونَسِيبه، وتبدَّل به قرينه وحبيبُهُ، فهو حشو قبرٍ، ورهينُ قفرٍ، يسعى بجسمه دُود قبرِهِ، ويسيل صديدهُ مِنْ مَنْخِرِهِ، يسحقُ تُرْبُه لحمهُ، وينشَفُ دَمَهُ، ويَرِمّ عظمهُ حَتَّى يَوْم حشرِهِ، فنُشِرَ مِنْ قَبْرِهِ حِينَ يُنْفَخُ في صُورٍ، ويُدْعَى بحشْرٍ ونُشُورٍ.

فثمَّ بعثِرتْ قُبُور، وحُصِّلَتْ سريرَةُ صُدُورٍ، وَجِيءَ بِكلِّ نبيٍّ وصدِّيقٍ وشهيدٍ، وتوحَّد لِلفَصْلِ قديرٌ بعبيدِهِ خبيرٌ بصير، فكَمْ مِنْ زَفْرة تُضْنيهِ، وحسرةٍ تنضيهِ، في مَوْقفٍ مَهُولٍ، ومشْهدٍ جَليلٍ، بَيْنَ يَدَيْ ملكٍ عظيمٍ، وبِكلِّ صَغيرٍ وكَبيرٍ عَليم، فحينئذٍ يُلْجِمُهُ عرَقُهُ، ويُحصِرُه قلقهُ، عبْرتُهُ غير مرحومةٍ، وصرْخته غيرُ مسموعة، وحجّتهُ غيرِ مقبولة، زَالتْ جريدته، ونشرَتْ صحيفتُه، نظرَ في سوءِ عملِهِ، وشهدتْ عليْه عيْنه بنظره، ويدهُ بِبَطْشهِ، ورجلُهُ بخطْوه، وفرْجهُ بلمسهِ، وجلدُه بمسِّه، فسلسِلَ جيدُه، وغُلَّتْ يده، وسيقَ فسحب وحْدَه، فوَرَد جهنَّم بكرْبٍ وشدَّةٍ، فظلَّ يعذَّبُ في جحيمٍ، ويُسْقى شَرْبةً مِنْ حَمِيمٍ، تَشْوي وجْهَهُ، وتسلخُ جلْدَهُ، وتضربهُ زِبْنِيَةٌ بمقْمَعٍ من حَدِيدٍ، ويعودُ جِلْده بَعْدَ نُضْجه كجِلْدٍ جَديدٍ، يستغيثُ فتعرض عنْه خزنةُ جهنَّمَ، ويستصْرِخُ فيلبث حقبةً يَنْدَمُ.

نَعُوذُ برَبٍّ قَدِيرٍ، مِنْ شَرِّ كلِّ مصيرٍ، ونَسْأله عفو مَنْ رَضِيَ عنْه، ومغفرة مَنْ قبله، فهوَ وليُّ مسائِلِي، ومُنجِحُ طلبتي، فمنْ زُحْزِحَ عَنْ تعذيب رَبِّهِ جُعِلَ في جَنَّتِهِ بِقُرْبِهِ، وخلد في قصورٍ مُشَيَّدة، ومُلِّكَ بحورٍ عينٍ وحفدةٍ، وطِيفَ عليْهِ بكؤوسٍ، أُسْكِنَ في حَظِيرَة قُدُوس، وتقلَّبَ في نعيم، وسُقي مِنْ تسنيم، وشرب مِنْ عيْنٍ سَلْسَبِيلٍ، ومُزِجَ له بزنْجبيلٍ، مُخَتَّم بِمسكٍ وعبيرٍ، مُستَدِيم للملكِ، مُستشْعرٍ لِلسُّرُر، يشربُ مِنْ خُمُورٍ، في روْضٍ مُغدِقٍ، لَيْسَ يُصَدَّعُ مَنْ شَرِبَه، ولَيْسَ يُنزَف.

هَذِهِ منْزِلةُ مَنْ خشيَ ربَّهُ، وحذر نفسَهُ معصيتهُ، وتلك عُقوبةُ مَنْ جَحَد مشيئتهُ، وسوّلتْ له نفسه معصيتهُ، فهو قَوْلٌ فصلٌ، وحكم عدلٌ وخبر قصص قصٌّ، وَوَعْظ نَصٌّ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] نَزَلَ بِهِ رُوحُ قُدُسٍ مُبين، عَلَى قَلْب نبيٍّ مُهْتدٍ رَشِيدٍ، صلَّتْ عَليهِ رُسُلٌ سفَرَةٌ، مُكَرَّمُونَ بَرَرَةٌ، عُذتُ بربٍّ عَلِيمٍ، رَحِيمٍ كَرِيمٍ، مِنْ شَرِّ كلِّ عدُوٍّ لَعِينٍ رَجِيمٍ، فلْيَتضرَّعْ مُتضرِّعكم، ولْيبتهلْ مُبتهِلُكُمْ، وليستغفرْ كلُّ مَرْبوبٍ منكُمْ لي وَلكم، وَحسبي رَبِّي وحدَهُ.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

الشرح: فصيلةُ الرجل: رهطُه الأدنَوْن. وكَدح: سعى سعياً فيه تعب، وفرْغته: الواحدةُ من الفَراغ، تقول: فَرَغْت فرْغةً، كقولك: ضربتُ ضربةً. وسَجَّى الميّتَ: بسط عليه رداءً. ونَشَر الميّت من قبْره بفتح النون والشين، وأنشَرَه الله تعالى.

وبُعثِرت قبور: انتثرتْ ونُبِشَتْ.

قوله: «وسيق بسحب وحدَه»، لأنه إذا كان معه غيره كان كالمتأسّي بغيره، فكان أخفَّ لألمه وعذابه، وإذا كان وحده كان أشدّ ألماً وأهوَل، وروي «فسيقَ يُسحَب وحدَه» وهذا أقرب إلى تناسُب الفَقْرتَين، وذاك أفخم معنًى.

وزِبْنية على وَزْن «عِفْرِية» واحد الزبانية، وهم عند العرب الشّرط، وسُمِّيَ بذلك بعض الملائكة لدَفْعهم أهل النار إليها كما يَفعل الشّرط في الدُّنيا، ومن أهل اللّغة من يجعَل واحد الزّبانية زبانيّ. وقال بعضهم: زَابن، ومنهم من قال: هو جمع لا واحدَ له، نحو أبابيل وعبادِيد، وأصل الزبْن في اللّغة الدَّفْع، ومنه ناقةٌ زَبُون: تَضرِب حالبَها وتَدفعه.

وتقول: مَلك زيدٌ بفلانةً بغير ألف، والباء هاهنا زائدة كما زيدت في «كَفَى بالله حسيباً»، وإنما حَكمنا بزيادتها لأنّ العَرَب تقول: ملكتُ أنا فلانةً أي تزوّجتُها، وأملكْت فلانةً بزيْدٍ أي زوّجْتها به، فلمّا جاءت الباء هاهنا ولم يكن بُدٌّ من إثبات الألف لأجلِ مجيئها جعلناها زائدة، وصار تقديرُه: ومَلَك حُوراً عيناً.

وقال المفسِّرون في تَسْنيم: إنه اسمُ ماءٍ في الجنة سُمِّي بذلك لأنّه يجري من فوق الغُرَف والقُصور.

وقالوا في سلسبيل: إنه اسمُ عَيْنٍ في الجنة ليس يُنزِف ولا يُخمِّرُ كما يُخمَر شارب الخمْر في الدنيا.

انقضَى هَذا الفصلُ، ثم رَجعنا إلى سَنَن الغرَضِ الأوّل.

– ٢٦٧ –

الأصل: وقال عليه السلام: لمّا بَلغهُ إغارَةُ أَصْحابِ معاوِيةَ على الأنْبار، فخرج بنفْسِهِ ماشياً حتى أتى النُّخَيْلَةَ، وأدْرَكهُ النَّاس وقالُوا: يا أمير المؤمنين، نحْن نَكْفِيكهم، فَقال عليه السلام:

وَالله ما تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ، فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ! إِنْ كَانَتْ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا، فَإِنِّي الْيَوْمَ لأَشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي، كأنَّني الْمَقُودُ وَهُمُ الْقَادَةُ، أَوِ الْمَوْزُوعُ وَهُمُ الْوَزَعَةُ.

قال: فلمّا قال هذا الْقول في كلام طَويلٍ قد ذكرْنا مُخْتَارَهُ في جملةِ الخُطَب، تقدَّم إلَيْه رَجُلان من أصحابه، فقال أحدهما: ﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾[1]، فمُرْنَا بِأَمْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِينَ نُنَفِّذْ، فقال: وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ!

الشرح: السّنن: الطريقة، يقال: تَنحَّ عن السَّنن، أي عن وَجْه الطّريق. والنُّخَيْلة: بظاهر الكُوفة، ورُوِي «ما تكفُوني» بحذف النون.

والحيْف: الظلم.

والوَزَعة: جمع وازِع، وهو الدافع الكافّ.

ومعنى قوله: «ما تكفُونني أنفسَكم»، أي أفعالُكم رديئةٌ قبيحةٌ تحتاجُ إلى جند غيركم أستعين بهمْ على تثقيفِكم وتهذيبكم، فَمَنْ هذه حاله كيف أثقّف به غَيره، وأهذّب به سواه!

وإن كانت الرعايا: إنْ هاهنا مخفّفة من الثقيلة، ولذلك دَخلت اللام في جوابها.

وقد تقدّم ذكرُنا هذين الرّجلين، وإن أحدَهما قال: يا أمير المؤمنين، أقول لكَ ما قاله العبْد الصالح: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾. فشكر لهما وقال: وأين تقعان ممّا أريد!

\- ٢٦٨ -

الأصل: وَقِيلَ: إِنَّ الحَارِثَ بنَ حَوْطٍ أتاهُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ لَهُ: أَتُرَانِي أظُنُّ أَنَّ أَصْحَابَ الجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلالَةٍ؟

فَقَالَ عليه السلام: يَا حَارِ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ، وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ، إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الحَقَّ فَتَعْرِفَ أَهْلَهُ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتاهُ.

فَقَالَ الْحَارِثُ: فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعْدِ بنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللهِ بنِ عُمَر.

فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ سَعْداً وَعَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الحَقَّ، وَلَمْ يَخْذلا البَاطِلَ.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٥.

الشرح: اللّفظة الّتي وردتْ قبلُ أحسَنُ من هذه اللفظة، وهي: أولئك قومٌ خَذَلوا الحقَّ ولم ينصرُوا الباطل، وتلك كانت حالُهم، فإنّهم خذلوا عليًّا ولم يَنصُروا مُعاويَة ولا أصحابَ الجَمَل.

فأمّا هذه اللّفظة ففيها إشكالٌ، لأنّ سعداً وعبد اللّه لَعَمْرِي إنّهما لم يَنصُرا الحقّ، وهو جانبُ عليٍّ عليه السلام، لكنّهما خَذَلا الباطلَ، وهو جانبُ معاويةَ وأصحاب الجَمَل، فإنّهم لم يَنصُروهم في حَرْب قط، لا بأنفسهم ولا بأموالهم ولا بأولادهم، فينبغي أن تتأوّل كلامَه فنقول: إنّه ليس يَعني بالخذلان عدمَ المُساعَدة في الحرب، بل يَعني بالخِذْلان هاهنا كلَّ ما أثّر في مَحْق الباطل وإزالته، قال الشاعر يصف فَرَساً:

وهو كالدَّلْوِ بكفِّ المستَقِي ... خذلتْ عنه العَراقِي فانجَذَمْ

أي بايَنَتْه العَراقِي، فلمّا كان كلُّ مؤثّر في إزالةِ شيءٍ مُبايناً له نقل اللّفظ بالاشتراك في الأمر العامّ إليه، ولمّا كان سعدٌ وعبدُ اللّه لم يَقُوما خَطِيبَين في النّاس يُعلِمانهم باطلَ معاويةَ وأصحاب الجمل، لم يَكشِفا اللَّبْس والشُّبْهة الداخلةَ على الناس في حَرْب هذين الفَرِيقين، ولم يُوضّحا وجوبَ طاعة عليٍّ عليه السلام فيرد الناسَ عن اتّباع صاحب الجَمَل وأهل الشام صدق عليهما أنّهما لم يَخذُلا الباطلَ. ويُمكن أن يتأوّل على وجهٍ آخر، وذلك أنّه قد جاء خذلت الوحشيّة إذا قامَتْ على ولدِها، فيكون معنى قوله: «ولم يَخذُلا الباطل»، أي لم يقِيما عليه ويَنصُراه، فترجع هذه اللّفظة إلى اللّفظة الأولى، وهي قوله: «أولئك قوم خذلُوا الحقّ ولم يَنصروا الباطلَ».

والحارث بن حَوط بالحاء المهملة. ويقال: إن الموجود في خَطّ الرضيّ «ابن خوط» بالخاء المعجمة المضمومة.

- ٢٦٩ -

الأصل: صَاحِبُ السُّلْطانِ كَرَاكِبِ الأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ.

بعض ما قيل في صحبة السلطان

الشرح: قد جاء في صُحْبة السّلطان أمثال حِكَميّة مستحسَنةٌ تُناسِب هذا المعنى، أو تَجري مَجْراه في شَرْح حالِ السلطان، نحو قولهم: صاحب السُّلْطان كراكبِ الأسَد يهابُه الناس، وهو لمركُوبه أهْيَب.

وكان يقال: إذا صَحِبْتَ السلطانَ فلتكنْ مُدَارَاتُك له مُداراةَ المرأةِ القبيحةِ لبَعْلِها المُبغِض لها، فإنّها لا تَدَع التصنُّع له على حالٍ.

قيل للعَتَّابيّ: لم لا تَقصِد الأميرَ؟ قال: لأني أراه يُعطِي واحداً لغيرِ حَسَنة ولا يَدٍ، ويَقتُل آخرَ بلا سيّئةٍ ولا ذَنْب، ولستُ أدرِي أيَّ الرّجُلين أكون! ولا أرجو منه مقدارَ ما أُخاطِر به.

وكان يقال: العاقل مَن طَلَب السلامةَ مِن عَمَل السلطان، لأنّه إن عَفّ جَنى عليه العَفاف عداوةَ الخاصّة، وإن بَسَط يدَه جنَى عليه البَسْط ألسِنَة الرّعِيّة.

وكان سعيدُ بنُ حُمَيد يقول: عملُ السّلطان كالحمّام، الخارجُ يُؤْثِر الدُّخول، والدّاخل يُؤثر الخرُوج.

ابن المقفّع: إقبالُ السّلطان على أصحابِه تَعَب، وإعراضُه عنهم مَذَلّة.

وقال آخر: السلطان إنْ أرضَيْتَه أتعبَك، وإنْ أغضبته أعطَبَك.

وكان يقال: إذا كنتَ مع السلطان فكُنْ حَذِراً منه عند تقريبه، كاتماً لسِرّه إذا استَسَرّك، وأميناً على ما أتتَمَنَك، تشكُر له ولا تكلّفه الشُّكر لك، وتُعلّمه وكأنّك تتعلّم منه وتؤدّبه وكأنه يؤدّبُك، بصيراً بهوَاه، مؤثراً لمَنفَعته، ذليلاً إنْ ضامَك، راضياً إن أعطاك، قانعاً إنْ حَرَمك، وإلّا فأبعدْ منه كلّ البُعْد.

وقيل لبعضِ مَن يَخدُم السلطانَ: لا تَصحَبْهم، فإنّ مَثَلهم مَثَل قِدْر التنُّور، كلّما مسّه الإنسانُ اسوَدّ منه، فقال: إن كان خارج تلك القِدْر أسوَد فداخِلُها أبيَض.

وكان يقال: أفضَل ما عُوشِر به المُلوكُ قِلّة الخِلاف، وتَخفيف المؤونة.

وكان يقال: لا يَقدِر على صُحْبة السلطان إلا من يستقلّ بما حملوه، ولا يُلحِف إذا سألَهم، ولا يغترّ بهم إذا رَضُوا عنه، ولا يتغيّر لهم إذا سَخِطوا عليه، ولا يَطغَى إذا سَلّطوه، ولا يَبطر إذا أكرَموه.

وكان يقال: إذا جعلك السلطانُ أخاً فاجعله رَبّاً، وإن زادك فزِدْه.

وقال أبو حازم: للسُّلطان كُحْل يَكحُل به مَنْ يُولّيه، فلا يُبصِر حتى يُعزَل.

وكان يقال: لا يَنبغِي لصاحب السلطان أن يبتدئه بالمسألة عن حاله، فإن ذلك من كلام النَّوْكَى، وإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صَبّح الله الأميرَ بالكرامة، وإن أردتَ أن تقول: كيف يَجِد الأميرُ نفسَه؟ فقل: وهَب الله الأمير العافية، ونحو هذا، فإن المسألة تُوجِب الجَواب، فإن لم يُجِبْك اشتدّ عليك، وإن أجابَك اشتدّ عليه.

وكان يقال: صُحبةُ المُلوك بغير أدبٍ كركُوب الفلاةِ بغيرِ ماء.

وكان يقال: ينبغي لمن صَحِب السلطانَ أن يستعدّ للعُذْرِ عن ذَنْبٍ لم يَجْنِه، وأن يكون آنَسَ ما يكونُ به، أوحشَ ما يكونُ منه.

وكان يقال: شِدّة الانقباضِ من السّلطان تُورِث التّهمة، وسُهولة الانبساط إليه تُورِث الملالة.

وكان يقال: أصحَب السلطانَ بإغمالِ الحَذَر، ورَفْض الدّالّة، والاجتهاد في النّصيحة، ولْيَكُن رأس مالِكَ عندَه ثلاث: الرّضا، والصبر، والصِّدْق.

واعلَمْ أنّ لكل شيء حَدًّا، فما جاوَزَه كان سَرَفاً، وما قَصّر عنه كان عَجْزاً، فلا تبلُغ بك نصيحةُ السّلطان أن تُعادِيَ حاشيَته وخاصّتَه وأهلَه، فإنّ ذلك ليس من حَقّه عليك، وليَكُن أقضَى لحقِّه عنك، وأدعَى لاستمرارِ السّلامة لك، أن تستصلح أولئك جُهْدَك، فإنّك إذا فعلتَ ذلك شكرتَ نعمَته، وأمِنْتَ سطوَتَه، وقلّلت عدوّك عندَه، وإذا جاريْتَ عند السلطان كُفْواً من أكفائِك فلتكنْ مُجاراتُك ومُباراتُك إيّاه بالحجّة، وإن عَضَهك، وبالرّفق وإن خَرِف بك. واحذر أن يستلحّك فتَحمَى، فإنّ الغَضَب يُعمِي عن الفرصة، ويَقطَع عن الحجّة، ويُظهِر عليكَ الخَصْم، ولا تتورّدَنّ على السّلطان بالدّالّة وإن كان أخاك، ولا بالحجّة وإن وثِقتَ أنّها لك، ولا بالنصيحة وإن كانت له دونَك، فإنّ السلطانَ يَعرِض له ثلاثٌ دونَ ثلاث: القدرة دونَ الكَرَم، والحَمِيّة دون النَّصَفة، واللَّجاج دونَ الحَظّ.

– ٢٧٠ –

الأصل: اِحْسِنُوا فِي عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فِي عَقِبِكُمْ.

الشرح: أكثر ما في هذه الدنيا يقع على سبيل القَرْض والمكافأة، فقد رأينا عِياناً مَن ظَلم الناس فظُلِم عقِبُه ووَلدُه، ورأينا من قَتَلَ الناس فقُتِل عَقِبه وولدُهُ، ورأينا من أخرَب دُوراً فأُخرِبتْ دارُه، ورأينا من أحسَن إلى أعقاب أهل النعم فأحسَنَ الله إلى عَقِبه وولدِهِ.

وقرأتُ في تاريخ أحمد بن طاهر أنّ الرشيد أرسَل إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يقرّعه بذنوبه، ويقول له: كيف رأيت! ألَمْ أُخرّبْ دارك؟ ألم أقتُل ولدك جعفراً؟ ألم أنْهَبْ مالك؟ فقال يحيى للرسول: قُلْ له: أما إخرابُك دارِي فستُخرَّب دارُك، وأما قتلُك ولدِي جعفراً فسيُقتَل ولدُكَ محمد، وأما نهبُك مالي فسيُنْهَب مالُك وخِزانَتُك. فلما عاد الرسولُ إليه بالجواب وَجَمَ طويلاً وحزن، وقال: والله ليكوننّ ما قال، فإنه لم يَقُل لي شيئاً قطّ إلا وكان كما قال، فأُخرِبَتْ

داره - وهي الخلَد - في حِصارِ بَغْداد، وقُتِل ولدُه محمد، ونُهِب مالُه، وخِزانتُه، نهبها طاهر بنُ الحسين.

- ٢٧١ -

الأصل: إنَّ كَلام الحُكماءِ إذا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً، وإذا كَان خَطَأً كانَ دَاءً.

الشرح: كلّ كلام يقلّد المتكلّم به لحسن عقيدةِ الناس فيه نحو كلام الحُكماء وكلام الفُضلاء والعُلماء من الناس إذا كان صواباً كان دواءً وإذا كان خطأً كان داءً، لأنّ الناس يَحذُون حَذْوَ المتكلّم به، ويقلّدونه فيما يتضمّنه ذلك الكلامُ من الآداب والأوامر والنّواهي، فإذا كان حقًّا أفلحوا، وحَصَل لهم الثّواب واتّباع الحقّ، وكانوا كالدّواءِ المُبرِئ للسّقَم، وإذا كان ذلك الكلامُ خطأً واتّبعوه خسِروا ولم يُفلِحوا، فكان بمنزلة الداء والمَرَض.

- ٢٧٢ -

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ حينَ سألهُ رجلٌ أنْ يُعَرِّفَهُ ما الإيمانُ، فقال: إذَا كَانَ غدٌ فَأْتِنِي حَتَّى أُخبِرَكَ على أسماعِ النَّاس، فإنْ نَسِيت مقَالتي حَفِظها عَلَيْكَ غَيْرُك، فإنَّ الكَلامَ كالشَّارِدَةِ يَنْقُفُهَا هَذَا ويُخْطِئُهَا هَذَا.

قال: وقد ذكرنا ما أجابَه عَلَيْهِ السَّلامُ فيما تقدَّم من هذا الباب، وهو قوله: «الإيمانُ على أربع شعب».

الشرح: يقول: إذا كان غَدٌ فأْتني فتكون «كان» هاهنا تامّة، أي إذا حَدَث ووُجِد، وتقول: إذا كان غداً فأتني فيكون النصب باعتبارٍ آخر، أي إذا كان الزمان غداً، أي موصوفاً بأنه من الغَدِ، ومن النحويين من يقدِّره: إذا كان الكونُ غداً، لأنّ الفِعل يدلّ على المَصدَر، والكَوْن هو التجدّد والحدُوث.

وقائل هذا القول يُرجّحه على القول الآخَر، لأنّ الفاعل عندهم لا يُحذَف إلّا إذا كان في الكلام دليلٌ عليه.

ويثقَفها، يَجدها، ثَقِفتُ كذا بالكسر، أي وجدته وصادفته.

والشاردة: الضّالة.

- ٢٧٣ -

الأصل: يا بنَ آدَمَ، لا تَحمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأتِكَ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِي أتاكَ، فإنهُ إنْ يكُنْ مِنْ عُمُركَ يَأتِ اللهُ فيهِ بِرِزْقِكَ.

الشرح: قد تقدّم هذا الفصلُ بتمامه. واعلَمْ أنّ كلّ ما ادّخَرْتَه ممّا هو فاضل عن قُوتك فإنما أنت فيه خازنٌ لغَيْرك.

وخلاصةُ هذا الفصل النهْيُ عن الحِرْص على الدّنيا والاهتمام لها، وإعلامُ الناس أن الله تعالى قد قَسم الرّزق لكل حَيٍّ مِن خلقِه، فلو لم يتكلّف الإنسانُ فيه لأتاه رِزْقه من حيث لا يحتسِب.

وفي المَثل: يا رزّاقَ البُغاث في عُشّه.

وإذا نظر الإنسانُ إلى الدّودة المكنونة داخلَ الصخرة كيف تُرزَق، عَلم أنّ صانع العالم قد تكفّل لكلّ ذي حياةٍ بمادّةٍ تقيم حياته إلى انقضاءِ عُمُرِه.

- ٢٧٤ -

الأصل: أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً ما، عَسَى أنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً ما، عَسَى أن يَكُونَ حَبِيبكَ يَوْماً مَا.

الشرح: الهوْن بالفتح: التأنّي، والبَغِيض: المبغض.

وخلاصةُ هذه الكلمة: النّهي عن الإسراف في المودّة والبِغْضة، فربّما انقلب من تَودّ فصار عدوًّا، وربّما انقلب مَنْ تُعادِيه فصار صدِيقاً.

وقد تقدّم القولُ في ذلك على أتمّ ما يكون.

وقال بعضُ الحكماء: توقَّ الإفراطَ في المحبّة، فإن الإفراط فيها داعٍ إلى التّقصير منها، ولأنْ تكونَ الحالُ بينَك وبينَ حبيبك نامية أوْلَى من أنْ تكون مُتناهِية.

ومن كلام عمَرَ: لا يكن حبُّك كلَفاً، ولا بغضُك تَلفاً.

وقال الشاعر:

وأحبِبْ إذا أحبَبْتَ حُبّاً مقارِباً ... فإنّكَ لا تدْري متى أنتَ نازعُ!

وأبغِضْ إذا أبغَضْتَ غيرَ مُبايِنٍ ... فإنّكَ لا تدْرِي متى أنتَ راجعُ!

وقال عَدِيُّ بنُ زيْد:

ولا تأمَنَنْ مِن مُبْغِضٍ قربَ داره ... ولا مِنْ محِبٍّ أن يملَّ فيبعدا

– ٢٧٥ –

الأصل: النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَامِلان:

عَامِلٌ فِي الدُّنْيَا للدُّنْيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يُخَلِّفُ الفَقْرَ، وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ.

وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِما بَعْدَهَا، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِن الدنيا بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ الحظَّيْنِ معاً، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ الله، لا يَسْأَلُ الله حَاجَةً فَيَمْنَعَهُ.

الشرح: معنى قوله: «ويأمنُه على نَفْسِه»، أي ولا يبالي أن يكون هو فقيراً، لأنه يعيش عَيْشَ الفقراء وإن كان ذا مالٍ، لكنّه يدخر المَال لولده فيُفني عمرَه في منفعة غيره.

ويجوز أن يكون معناه إنه لكثرةِ مالِه قد أمِن الفقر على نفسه ما دام حَيًّا، ولكنه لا يأمَن الفقرَ على ولده لأنه لا يَثِق من وَلده بحُسْن الاكتساب كما وَثِق من نفسِه، فلا يزال في الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولدِه الّذي يخاف عليه الفقرَ بعد مَوْته.

فأما العاملُ في الدنيا لما بعدَها فهمْ أصحابُ العبادة، يأتيهم رزقُهم بغير اكتساب ولا كَدٍّ، وقد حصلتْ لهم الآخرةُ، فقد حَصَل لهم الحظّان جميعاً.

– ٢٧٦ –

الأصل: وَرُوِيَ أنهُ ذُكرَ عِنْدَ عمر بن الخطابِ في أيّامِهِ حَلْيُ الكَعبةِ وكثرَتُهُ، فقالَ قومٌ: لوْ أخذْتَهُ فَجَهَّزْتَ بِهِ جيوشَ المسلمينَ، كانَ أعظمَ للأجرِ، وما تَصْنعُ الكعبةُ بالحلْي! فهمَّ عُمرُ بذلك، وسألَ عنهُ أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: إنَّ هٰذا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ: أَمْوَالُ المُسْلِمِينَ، فَقَسَّمَها بَيْنَ الوَرَثَةِ في الفَرَائِضِ، وَالفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ، وَالخُمُسُ فَوَضَعَه اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ، والصَّدَقاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلها، وكَانَ حَلْيُ الكَعْبَةِ فِيها يَوْمَئِذٍ، فَتَرَكَهُ الله عَلَى حالِهِ، ولَمْ يَتْرُكْهُ نِسْياناً، وَلَمْ يَخْفَ عنه مَكَاناً، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ لَهُ عُمر: لَوْلاكَ لافْتَضَحْنَا! وَتَرَكَ الحلْيَ بِحَالِهِ.

الشرح: هذا استدلال صحيح، ويمكن أن يورد على وجهين:

أحدهما: أن يقال: أصلُ الأشياء الحظْر والتحريم، كما هو مَذهب كثيرٍ من أصحابنا البغداديين، فلا يجوز التصرف في شيء من الأموال والمنافع إلا بإذن شرعيّ، ولم يوجد إذن شَرْعي في حَلْي الكَعْبة، فبقينا فيه على حُكم الأصل.

والوجه الثاني: أن يقال: حلي الكعبة مال مختصّ بالكعبة، هو جَارٍ مَجرى سُتور الكعبة، ومَجَرَى باب الكَعْبة، فكما لا يجوز التصرف في ستُور الكعبة وبابها إلّا بنصّ فكذلك حَلْي الكعبة، والجامع بينهما الاختصاص الجاعلُ كلَّ واحد من ذلك كالجزء من الكعبة، فعَلَى هذا الوجه يَنبغِي أن يكون الاستدلالُ.

ويجب أن يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام عليه، وألّا يُحمَل على ظاهره، لأنّ لمعترِضٍ أن يعترِض استدلاله إذا حمل على ظاهرِه، بأن يقول: الأموالُ الأربعة التي عدّدها إنما قَسَمها اللهُ تعالى حيث قَسَمها لأنّها أموالٌ متكرِّرة بتكرُّر الأوقات على مرّ الزمان يَذهَب الموجودُ منها ويَخلُفه غيرُه، فكان الاعتناء بها أكثر، والاهتمامُ بوجوهِ متصرّفها أشدّ، لأنّ حاجات الفقراء والمساكين وأمثالهم من ذَوِي الاستحقاق كَثيرة ومتجدّدة بتجدّد الأوقات، وليس كذلك حَلْي الكَعْبة، لأنّه مال واحدٌ باقٍ غير متكرّر، وأيضاً فهو شيء قليلٌ يسير، ليسَ مِثله ممّا يقال: ينبغي أن يكون الشارعُ قد تعرّض لوجوهِ مصرفه حيث تعرّض لوجوهِ مصرف الأموال، فافترق الموضعان.

- ٢٧٧ -

الأصل: رُوِيَ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَيْهِ رَجُلانِ سَرَقا مِنْ مَالِ الله، أَحَدُهُما عَبْدٌ مِنْ مَالِ الله، والآخَرُ مِنْ عُرْضِ النَّاسِ، فَقَالَ: أَمَّا هَذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ الله فَلا حَدَّ عَلَيْهِ، مَالُ الله أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَلَيْهِ الحَدُّ الشَّدِيدُ. فَقَطَعَ يَدَهُ.

الشرح: هذا مَذهَب الشّيعة أنّ عبد المغنَم إذا سرَق من المَغنَم لم يُقطَع، فأمّا العبدُ الغريبُ إذا سَرَق من المَغنَم فإنّه يُقطَع إذا كان ما سَرَقه زائداً عمّا يَستحِقّه من الغنيمة بمقدار النّصاب الّذي يجب فيه القَطْع، وهو رُبْع دينار، وكذلك الحُرّ إذا سَرَق من المَغنَم حُكمُه هذا الحُكم بعَيْنه، فوَجَب أن يحمَل كلامُ أميرِ المؤمنين على أنّ العبدَ المقطوعَ قد كان سَرَق من المَغنَم ما هو أزيَدُ من حَقّه من الغنيمة بمقدارِ النّصاب المذكور أو أكثر.

فأمّا الفقهاء فإنّهم لا يُوجِبون القَطْع على مَنْ سَرَق من مال الغنيمة قبل قِسْمَتها، سواءٌ كان ما سَرَقه أكثر من حَقّه أو لم يكن، لأنّ مُخالَطة حقّه ومُمازَجته للمسروق شُبْهة في الجملة تَمنَع من وجوب القَطْع، هذا إن كان له حقٌّ في الغنيمة بأن يكونَ شَهِد القتالَ بإذنِ سَيّده، فإن لم يكن ذلك وكان لسيّده فيها حقّ لم يُقطَع أيضاً، لأنّ حِصّةَ سيّده المُشاعةَ شُبهة تَمنعُ من قَطعه، فإن لم يَشهَد القتالَ ولا شَهِدَه سيّدُه وسَرَق من الغنيمة قبل القِسْمة ما يجب في مِثلِه القَطْع وَجَب عليه القَطْع.

- ٢٧٨ -

الأصل: لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَمايَ مِنْ هَذِهِ المَدَاحِضِ لغَيَّرْتُ أشياءَ.

الشرح: لسنا نَشُكّ أنّه كان يَذهب في الأحكام الشرعيّة والقضايا إلى أشياءَ يُخالِف فيها أقوالَ الصّحابة، نحو قطعه يد السارق من رُؤوس الأصابع، وبيعِه أمّهات الأولاد، وغير ذلك، وإنّما كان يَمنَعه من تغيُّر أحكام مَن تَقدّمه اشتغالُه بحَرب البُغاة والخَوارج، وإلى ذلك يشيرُ بالمَداحض الّتي كان يؤمِّل استواءَ قدمَيْه منها، ولهذا قال لقُضاتِه: «اقضُوا كما كنتم تَقضون حتّى يكونَ للنّاس جماعةٌ»، فَلَفظة «حتّى» - هاهنا - مُؤذِنةٌ بأنّه فَسَح لهم في اتّباع عادَتِهم في القضايا

والأحكام الّتي يَعهَدونها إلى أن يصيرَ للنّاس جماعة، وما بعد «إلى» و«حتّى» ينبغي أن يكون مخالِفاً لما قبلهما.

فأمّا أصحابُنا فيقولون: إنّه كان فيما يُحاوِل أن يَحكُم بين الناس مجتهِداً، ويجوز لغيرِه من المجتهدين مخالَفَتُه.

والإماميّة تقول: ما كان يَحكُم إلّا عن نصّ وتوقيف، ولا يجوز لأحد من الناسِ مخالَفته.

والقول في صحّة ذلك وفسادِه فَرْعٌ من فروع مسألة الإمامة.

- ٢٧٩ -

الأصل: اعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ وَإنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ، أكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ في ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ، وَبَيْنَ أنْ يَبْلُغَ ما سُمِّيَ لَهُ في الذِّكْرِ الحَكِيم. وَالعَارِفُ لهذَا، العَامِلُ بِهِ، أعْظَمُ النَّاسِ رَحْمَةً فِي مَنْفَعَةٍ، وَالتَّارِكُ لَهُ، الشَّاكُّ فِيهِ، أعْظَمُ النَّاسِ شُغْلاً في مَضَرَّةٍ.

ورُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بالنُّعْمَى، ورُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لهُ بالْبَلْوَى. فَزِدْ أيُّها المُسْتَمِعُ في شُكْرِك، وقصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ.

الشرح: قد تقدّم القول في الحِرْص والجشع وذمّهما وذمّ الكادِح في طلَب الرّزق، ومدْح القَناعة والاقتصار، ونذكر هُنا طَرَفاً آخر من ذلك. قال بعضُ الحكماء: وجدتُ أطول الناس غمّا الحَسودَ، وأهنأهم عيْشاً القَنُوعَ، وأصبَرَهم على الأذى الحريصَ، وأخفَضَهم عَيْشاً أرفَضُهم للدنيا، وأعظَمهم ندامةً العالمَ المفرّط.

وقال عمر: الطّمع فَقْر، واليأس غِنًى، ومن يئس ممّا عند الناس استغنى عنهم.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغِنَى؟ قال: قلّةُ تمنّيك، ورِضاكَ بما يَكْفِيك، ولذلك قيل: العيشُ ساعات تمرّ، وخُطوب تكُرّ.

وقال الشاعر:

اقنعْ بعَيْشك تَرْضَهُ ... واترُكْ هواكَ وأنت حُرُّ
فلرُبَّ حَتْفٍ فوقَهُ ... ذَهَبٌ وياقوتٌ ودرُّ

وقال آخر:

إلى مَتى أنا في حِلٍّ وتَرْحالِ   من طول سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبالِ!
ونازحُ الدارِ لا أنفكُّ مغترباً   عن الأحبّةِ لا يَدْرون ما حالِي
بمشرِقِ الأرضِ طَوْراً ثم مَغربِها   لا يخطرُ الموتُ مِن حِرصٍ على بالِي
ولو قَنِعْتُ أتاني الرزقُ في دَعَةٍ   إنّ القُنُوعَ الغِنَى لا كثرةُ المالِ

وجاء في الخبر المرفوع: «أجْملوا في الطلب، فإنه ليس لعبدٍ إلا ما كُتِب له، ولن يَخرُج عبدٌ من الدّنيا حتى يأتيَه ما كُتِب له في الدنيا وهي راغمة»[1].

- ٢٨٠ -

الأصل: لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، ويَقِينَكُمْ شكًّا، إذَا عَلِمْتُمْ فاعْمَلُوا، وإذَا تَيَقَّنْتُمْ فأقْدِمُوا.

الشرح: هذا نهيٌ للعلماء عن تَرْك العمل، يقول: لا تجعلوا عِلمَكم كالجهل، فإنّ الجاهل قد يقول: جَهلتُ فلم أعمَل، وأنتم فلا عُذْر لكم، لأنكم قد عَلِمتم وانكشفَ لكم سِرُّ الأمر، فوَجَب عليكم أن تَعملوا، ولا تجعَلوا عِلمَكم جَهْلاً، فإنّ مَنْ عَلِم المنفعة في أمرٍ ولا حائل بينه وبينه ثم لم يأتِه كان سفيهاً.

- ٢٨١ -

الأصل: إنّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ، وضامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ، ورُبَّما شَرِقَ شارِبُ المَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ، وكُلَّما عَظُمَ قَدْرُ الشيءِ المُتَنافَسِ فيهِ عَظُمَت الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ، والأماني تُعْمِي أعْيُنَ البَصائِرِ، والحظّ يأتي مَنْ لا يأتِيهِ.

الشرح: قد تقدم القول في هذه المعاني كلِّها.

وقد ضرب الحكماءُ مِثالاً لفرط الطّمع، فقالوا: إن رجلاً صادَ قُبَّرةً فقالت: ما تريد أن

(١) أخرج نحوه ابن ماجه، كتاب: التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠١٤٧).

تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلُك، قالت: والله ما أشفِي مِنْ قَرَم، ولا أُشبع من جُوعٍ، ولكني أعلِّمك ثلاث خِصالٍ هُنّ خيرٌ لك من أكْلي، أمّا واحدة فأعلِّمك إيّاها وأنا في يدِك، وأمّا الثانية فإذا صِرْتُ على الشّجرة، أمّا الثالثة فإذا صرتُ على الجبل. فقال: هاتي الأولى، قالت: لا تَلَهَّفَنّ على ما فات، فخلّاها، فلما صارت على الشّجرة قال: هاتي الثانية، قالت: لا تُصَدِّقَنّ بما لا يكون أنه يكون، ثمّ طارت، فصارت على الجبل، فقالت: يا شقيّ لو ذَبَحْتَني لأخرَجْتَ من حَوْصَلَتِي دُرّتَين وزنُ كلّ واحدةٍ ثلاثون مِثقالاً، فعَضّ على يَدَيه وتلهّف تلهُّفاً شديداً، وقال: هاتي الثالثة، فقالت: أنت قد أُنسِيتَ الاثنتين، فما تصنع بالثالثة؟ ألم أقل لك: لا تَلَهَّفَنّ على ما فات! وقد تَلَهَّفْتَ، وألم أقل لك لا تصدِّقن بما لا يكون أنه يكون، وأنا وَلحْمِي ودَمِي ورِيشي لا يكون عشرين مثقالاً، فكيف صدّقت أنّ في حَوْصَلتي درّتين كلّ واحدة منهما ثلاثون مثقالاً! ثم طارت وذهبتْ.

وقوله: «وربما شَرِق شاربُ الماءُ قبلَ رِيِّه»، كلامٌ فصيح، وهو مَثَلٌ لمن يُخْتَرم بَغتةً، أو تَطرُقه الحوادثُ والخُطوب وهو في تَلْهِيَةٍ مِنْ عَيْشه.

ومثل الكلمة الأخرى قولهم: على قَدْر العَطِيّة تكون الرّزِية.

والقولُ في الأماني قد أوسَعْنا القول فيه مِن قبل، وكذلك في الحظوظ.

– ٢٨٢ –

الأصل: اللَّهُمَّ إِنّي أعوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تَحْسُنَ في لامِعَةِ العُيُونِ عَلانِيَتِي، وتَقْبُحَ فيما أُبْطِن لَكَ سَرِيرَتِي، مُحافِظاً على رِياءِ النَّاسِ مِنْ نفْسي بجَميعِ ما أنْتَ مُطَّلعٌ عَلَيْهِ مِني، فأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظاهِرِي، وأُفْضِيَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إلى عِبادِكَ، وَتَباعُداً مِنْ مَرْضَاتِكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في الرِّياء، وأن يُظهِر الإنسانُ من العبادة والفعل الجميل ما يُبطن غيره، ويقصد بذلك السُّمعة والصِّيت لا وجه الله تعالى.

وقد جاء في الخبر المرفوع: «أخوَفُ ما أخافُ على أمّتي الرِّياء والشَّهوة الخفيّة»(١).

قال المفسِّرون: والرِّياء من الشّهوة الخفيّة، لأنه شَهوة الصِّيت والجاه بين الناس بأنه مَتين

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٨٢٤)، وابن المبارك في الزهد (١١١٤).

الدِّين، مُواظِب على نوافِل العِبادات، وهذه هي الشّهوة الخفيّة، أي ليست كشهوة الطعام والنكاح وغيرِهما من المَلاذّ الحسيّة.

وفي الخبر المرفوع أيضاً: أنّ اليَسير من الرِّياء شِرْكٌ، وأن الله يُحِبّ الأتقياءَ الأخفياء الذين هم في بُيُوتهم إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حَضَروا لم يُعرَفوا، قلوبهم مَصابيحُ الهدى، ينجون من كلّ غَبراءَ مُظلِمة[1].

- ٢٨٣ -

الأصل: وقال عليه السلام: لا والَّذِي أَمْسَيْنَا منْهُ فِي غُبَّرِ لَيْلَةٍ دَهْماءَ، تَكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ، مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا.

الشرح: قد رُوِي: «تفترّ عن يومٍ أغرّ».

والغُبّر: البقايا، وكذلك الإغبار، وكَشَر أي بَسم، وأصلُه الكَشْف.

وهذا الكلام إما أن يكون قالَه على جهة التفاؤل، أو أن يكون إخباراً بغَيْب، والأوّل أوجَه.

- ٢٨٤ -

الأصل: قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ، أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.

الشرح: لا ريبَ أنّ من أراد حِفْظَ كتاب من الكُتُب العلميّة فحَفِظ منه قليلاً قليلاً، ودام على ذلك، فإنّ ذلك أنفعُ له وأرجَى لِفَلاحه من أن يَحفَظ كثيراً، ولا يَدُوم عليه لمَلالِه إيّاه وضَجَره منه، والتجربة تَشهد بذلك.

والقول في غير الحفظ كالقول في الحِفظ، نحو الزّيارة القليلة للصّديق، ونحو العطاء اليسير الدائم الّذي هو خيرٌ من الكَثير المنقطِع، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب من ترجى له السلامة من الفتن (٣٩٨٩).

- ٢٨٥ -

الأصل: إِذَا أَضَرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا.

الشرح: قد تقدّم القولُ في النافلة: هل تصحّ ممّن عليه فريضة لم يؤدّها، وذكرْنا مذاهبَ الفُقَهاء في ذلك.

ولا ريبَ أنّ مَن استغرَق الوقتَ بالنّوافل حتّى آنَ أوقاتِ الفرائض لم يفعل الفرائضَ فيها، وشَغَلها بالعبادة النَّفْليّة، فقد أخطأ، والواجب أن يَرفُض النافلَة حيث يتضيّق وقتُ الفريضة، لا خلافَ بين المسلمين في ذلك، ويَصلُح أن يكون هذا مَثَلاً ظاهرُه ما ذكرْنا، وباطنُه أمرٌ آخر.

- ٢٨٦ -

الأصل: مَنْ تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ.

الشرح: هذا مِثل قولهم في المَثَل: «الليلُ طويل، وأنتَ مُقمِر»، وقال أيضاً: عَشّ ولا تَغترّ.

وقال أصحابُ المعاني: مَثَل الدنيا كرَكْبٍ في فَلاة وَرَدوا ماءً طيّباً، فمنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْباً يسيراً، ثمّ أفكر في بُعد المسافة الّتي يَقصِدونها، وأنّهُ ليس بعد ذلك الماء ماءٌ آخَر، فتزوّد منه ماءً أوصَلَه إلى مَقصِده، ومنهم من شرِب من ذلك الماءِ شُرْباً عظيماً، ولَها عن التزوّد والاستعداد، وظنّ أنّ ما شَرِب كافٍ له ومُغْنٍ عن ادّخار شيء آخَر، فقطع به، وأخْلَفَه ظَنُّه، فعَطِش في تلك الفَلاة ومات.

وقد رُوِي عن النّبيّ ﷺ أنه قال لأصحابه: «إنّما مَثَلي وَمَثَلَكُم ومَثَلُ الدّنيا كقوم سَلَكوا مَفازةً غَبْراء حتّى إذا لم يَدْرُوا ما سَلَكوا منها أكثَرُ أمْ ما بَقِي! أنفَدوا الزّاد وحَسَروا الظّهر، وبقُوا بين ظَهْرانَي المَفازة لا زاد ولا حَمولة، فأيقَنوا بالهَلَكة، فبينما هم كذلك خرج عليهم رجل في حُلّة يقطُر رأسُه ماءً، فقالوا: هذا قريب عهدٍ بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلمّا انتهى إليهم وشاهد حالَهم قال: أرأيتم إن هدَيْتُكم إلى ماءٍ رَواء، ورِياض خُضرٍ ما تعملون؟ قالوا: لا نَعصِيك شيئاً، قال: عُهودَكم ومواثيقَكم بالله، فأعْطَوْه ذلك، فأوردَهم ماءً رَواءً ورِياضاً خُضراً، ومَكث بينهم ما شاء الله، ثم قال: إنّي مُفارِقكم، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماءٍ ليس

كمائِكم، ورِياضٍ ليست كرِياضِكم، فقال الأكثرون منهم: والله ما وَجَدْنا ما نحن فيه حتّى ظنّنا أنا لا نجده، وما نَصنَع بمنزلٍ خير من هذا! وقال الأقلّون منهم: ألم تُعطُوا هذا الرجلَ مَواثيقَكم وعهودَكم بالله لا تَعصُونه شيئاً، وقد صدقكم في أوّل حديثِه، والله ليصدُقَنّكم في آخِره، فراحَ فيمَن تَبِعه منهم، وتخلّف الباقون، فدَهَمهم عدوٌّ شديد البأس عظيم الجَيْش، فأصبَحوا ما بين أسيرٍ وقَتيل»(١).

- ٢٨٧ -

الأصل: لَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ مَعَ الإبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ العُيُونُ أَهْلَهَا، وَلا يَغُشُّ العَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ.

الشرح: هذا مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٢).

أي ليس العَمَى عَمَى العين، بل عَمَى القَلْب. كذلك قولُ أمير المؤمنين عليه السلام، ليست الرؤية مع العُيون، وإنما الرؤية الحقيقيّة مع العُقول.

وقد ذهبَ أكابرُ الحُكماء إلى أن اليَقينيّات هي المَعْقولات لا المَحْسوسات، قالوا: لأنّ حُكمَ الحِسّ في مَظِنّة الغَلَط، وطالَ ما كذَبَ الحِسّ، واعتقدْنا بطريقهِ اعتقاداتٍ باطلة، كما نرى الكبيرَ صغيراً، والصغيرَ كبيراً، والمتحرِّك ساكناً، والساكنَ متحرّكاً، فأمّا العقل فإذا كان المعقول به بَدِيهيًا أو مُستنِداً إلى مقدّمات بَديهيّة فإنّه لا يَقَع فيه غَلَط أصْلاً.

- ٢٨٨ -

الأصل: بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الغِرَّةِ.

الشرح: قد تقدّم ذِكرُ الدّنيا وغُرورها، وأنّها بشَهَواتها ولذّاتِها حِجابٌ بين العبد وبين المَوْعِظة، لأنّ الإنسانَ يَغترّ بالعاجِلة، ويتوهّم دَوامَ ما هو فيه، وإذا خَطَر بباله الموتُ والفَناء وَعَد

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٧٦)، وابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٨١).

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

نفسَه رحمةَ الله تعالى وعفوَه، هذا إن كان ممّن يَعترِف بالمَعادِ، فإنّ كثيراً ممّن يُظهِر القول بالمَعاد هو في الحقيقة غيرُ مستيقِنٍ له، والإخلاد إلى عفوِ الله تعالى والاتّكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية، غرورٌ لا محالةَ، والحازمُ من عَمِل لما بعدَ الموت، ولم يُمَنّ نفسَه الأمانيّ الّتي لا حَقيقةَ لها.

- ٢٨٩ -

الأصل: جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ، وَعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ.

الشرح: هذا قريب ممّا سلف: يقول: إنّ الجاهل من الناس مُزداد من جَهْلِه، مُصِرٌّ على خطيئته، مسوِّف من توهُّماته وعقيدته الباطلة بالعَفْو عن ذَنْبه، وليس الأمر كما توهمه. ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

- ٢٩٠ -

الأصل: قَطَعَ العِلْمُ عذرَ المُتَعَلِّلِينَ.

الشرح: هذا أيضاً قريبٌ ممّا تقدم، يقول: قَطَع العِلْم عُذرَ الّذين يُعلّلون أنفسهم بالباطل، ويقولون: إنّ الربّ كَريم رحيم، فلا حاجة لنا إلى إتعاب أنفِسنا بالعبادة، كما قال الشاعِر:

قَدِمتُ على الكريم بغير زادٍ ... من الأعمال ذَا ذَنْبٍ عظيمِ
وسُوء الظنّ أن تَعتَدّ زاداً ... إذا كانَ القدومُ على الكريم

وهذا هو التعليل بالباطل، فإن الله تعالى وإن كان كريماً رحيماً عفوّاً غفوراً، إلا أنه صادقُ القول، وقد توعّد العُصاةَ وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝﴾[2]، وقال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٤ - ١٦.

ٱلْبَعِيدِ﴾[1]، ويكفي في رحمته وعفوه وكرمه أن يغفر للتائب أو لمن ثوابُه أكثر ممّا يستحقّه من العِقاب، فالقَول بالوعيد معلوم بأدِلّة السّمع المتظاهِرة المتناصرة الّتي قد أطنَب أصحابُنا في تعدادها وإيضاحِها، وإذا كان الشيءُ معلوماً، فقد قَطَعَ العلمُ به عذرَ أصحاب التعلّل والتّمنّي، وَوجَب العملُ بالمعلوم ورفض ما يُخالِفه.

- ٢٩١ -

الأصل: كُلُّ مُعَاجَلٍ يَسْأَلُ الإنْظَارَ، وكُلُّ مُؤجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بالتَّسْوِيفِ.

الشرح: قال الله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2].

فهذا هو سؤال الإنظار لمن عُوجِل، فأمّا من أُجِّل فإنّه يعلِّل نفسَه بالتسويف، ويقول: سوف أتوبُ، سَوْف أقلِع عمّا أنا عليه، فأكثرُهم يُختَرم من غير أن يَبلُغ هذا الأمل، وتأتيه المنيّة وهو على أقبَح حال وأسوئها، ومنهم من تشمَله السّعادة فيتوب قبل الموت، وأولئك الذين خُتِمت أعمالُهم بخاتِمة الخير، وهم في العالَم كالشّعرة البيضاءِ في الثّور الأسوَد.

- ٢٩٢ -

الأصل: ما قالَ النَّاسُ لِشَيْءٍ: طُوبَى لهُ! إلَّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوْءٍ.

الشرح: قد تقدم هذا المعنى، وذكَرْنا فيه نُكَتاً جيّدة حميدة.

بعض ما ورد في تقلبات الدهر

كان محمّد بنُ عبد الله بنِ طاهر أميرَ بغداد في قَصْره على دِجْلة يوماً، وإذا بحشيشٍ على وَجه الماء، في وَسَطه قَصَبة عليها رُقْعة، فأمر بأخْذِها، فإذا فيها:

(١) سورة قٓ، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

تَاهَ الأُعَيْرِج واستولَى به البَطَرُ ... فقل له: خيرُ ما استعملْتَه الحَذَرُ
أحسنتَ ظَنَّك بالأيّام إذ حَسُنتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْك اللّيالي فاغْتَرَرْتَ بها ... وعند صفوِ اللّيالي يَحدُث الكَدَرُ

فما انتفَع بنفسه مدّة. وفي المَثَل: الدّهر إذا أتى بسَحْوَاءَ سَحْسَح، يُعقبها بنَكْباء زَعْزَع.
وكذاك شربُ العيش فيه تلوُّن، بيْناه عَذْباً إذْ تحوَّل آجِناً.

يحيى بن خالد:

أعطانا الدهر فأسرَف، ثمّ مال علينا فأجْحَف.

وقال الشاعر:

فيا لَنَعيمٍ ساعدَتْنَا رِقَابُه ... وخاسَتْ بنا أكفالُه والرَّوادِفُ[1]

إسحاق بنُ إبراهيمَ المَوْصِليّ:

هيَ المقاديرُ تجري في أعِنّتِها ... فاصبرْ فليس لها صبرٌ على حالِ
يوماً تَرِيشُ[2] خَسيسَ الحالِ تَرفَعه ... إلى السّماء ويوماً تَخفِض العالِي

إذا أدبرَ الأمر أتَى الشرُّ من حيث كان يأتي الخير.

هانئ بنُ مسعود:

إنّ كِسرَى أبَى على المَلِك النُّعْـ ... ـمانِ حتّى سقاهُ أمّ الرَّقوبِ
كلُّ مُلْكٍ وإن تصعَّدَ يوماً ... بأُناسٍ يَعودُ للتّصويبِ

أُحَيْحَة بنُ الجُلاح:

وما يَدرِي الفقيرُ متَى غِناهُ ... وما يَدرِي الغنيُّ متى يَعيلُ
وما تَدْري إذا أضرَبْتَ شَوْلاً ... أتُلقِح بعد ذلك أم تحِيلُ
وما تَدرِي إذا أزمَعْتَ سَيْراً ... بأيِّ الأرض يُدرِكُك المَقِيلُ!

آخَر:

فما درَن الدنيا بباقٍ لأهلِه ... ولا شِرّة الدنيا بضَربةِ لازِمِ

آخَر:

رُبّ قومٍ غَبَروا من عيشِهِمْ ... في سرورٍ ونعيمٍ وغَدَقْ

---

(١) الروادف: رواكيب النخلة، والراكوب ما نبت في أصل النخلة وليس له في الأرض عرق. اللسان، مادة (ردف).

(٢) تريش: من الريش وهو الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر. اللسان، مادة (ريش).

سَكَتَ الدهرُ زمَاناً عنهمُ ثم أبكاهمْ دماً حين نَطَقْ

ومن الشعر المنسوب إلى محمّد الأمين بن زُبَيْدة:

يا نَفْس قد حَقَّ الحذَرْ أين الفِرارُ من القَدَرْ

كلّ امرئٍ ممّا يخا ف ويرتجيه على خَطَرْ

من يرتشِف صفوَ الزما ن يَغَصّ يوماً بالكَدَرْ

- ٢٩٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام وقد سُئِلَ عنِ القَدَرِ: طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلا تَسْلُكوه. ثم سئلَ ثانياً فقال: بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلا تَلِجُوهُ، ثم سئل ثالثاً، فقالَ: سِرُّ الله فلا تَتَكَلَّفُوهُ.

الشرح: قد جاء في الخبر المرفوع: القَدَرُ سِرّ الله في الأرض، ورُوِي: سر الله في عباده، والمرادُ نهيُ المستضعفين عن الخوْض في إرادة الكائنات، وفي خلق أعمال العباد، فإنّه ربما أفضى بهم القول بالجبْر، لما في ذلك من الغُموض، وذلك أنّ العامّيّ إذا سَمِع قول القائل: كيف يجوز أن يَقَع في عَالَمِه ما يكرَهه، وكيف يجوز أن تَغلِب إرادةُ المخْلوق إرادةَ الخالق!

ويقول أيضاً: إذا علم في القدَم أنّ زيداً يَكْفُر، فكيف لزيدٍ أن لا يَكْفُر! وهل يُمكن أن يقع خلافُ ما عَلِمه الله تعالى في القِدَم، اشتبه عليه الأمر، وصار شُبهةً في نفسِه، وقويَ في ظنّه مذهبُ المجْبرة، فَنهَى عليه السلام هؤلاء عن الخوْض في هذا النحو من البَحْث، ولم يَنْه غيرَهم من ذوي العقول الكاملة، والرياضة القويّة، والملكة التامّة، ومن له قدرةٌ على حَلّ الشُّبَه، والتقصّي عن المشكلاتِ. فإن قلت: فإنّكم تقولون: إنّ العاميّ والمستضعَف يجب عليهما النظرُ!

قلت: نعمْ إلا أنه لا بد لهما من موقف بعد إعمالها ما يَنتهي إليه جُهْدُهما من النظر، بحيث يُرشِدها إلى الصّواب، والنّهي إنما هو لمن يَستبدّ من ضعفاء العامّة بنفسه في النظر ولا يَبْحث مع غيرِه ليُرشِدَه.

- ٢٩٤ -

الأصل: إِذَا أَرْذَلَ اللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ.

الشرح: أرذَلَه: جعله رَذْلاً، وكان يقال: مِنْ علامةِ بُغض الله تعالى للعبد أن يُبغِّض إليه العِلْم.

وقال الشاعر:

شكوتُ إلى وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فأرشَدَني إلى تَرْك المعاصي

وقال لأنّ حفظ العلم فَضْلٌ ... وفضلُ اللّه لا يُؤتيه عاصي

وقال رجل لحكيم: ما خيرُ الأشياء لي؟ قال: أن تكون عالماً، قال: فإن لم أكن؟ قال: أن تكون مُثرياً، قال: فإن لم أكن؟ قال: أن تكون شارِياً، قال: فإن لم أكن؟ قال: فأن تكونَ ميّتاً.

أخذ هذا المعنى بعضُ المحدثين فقال:

إذا فَاتَكَ العلمُ جُدْ بالقِرَى ... وإن فَاتَكَ المال سُدْ بالقراعِ

فإنْ فاتَ هذا وهذا وذاك ... فمتْ فحياتُك شرُّ المتاعِ

وقال أيضاً في المعنى بعينه:

ولولا الحجا والقرى والقراع ... لما فَضَل الآخِرُ الأوّلا

ثلاثٌ متى يَخْلُ منها الفتى ... يكن كالبهيمة أو أرْذلا

— ٢٩٥ —

الأصل: وقال عليه السلام: كانَ لِي فِيمَا مَضَى أخٌ فِي الله، وَكَانَ يُعَظِّمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا في عَيْنِهِ، وَكَانَ خارِجاً مِنْ سُلْطانِ بَطْنِهِ، فَلا يَتَشَهَّى مَا لا يَجِدُ، وَلا يُكْثِرُ إذَا وَجَدَ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً، فَإنْ قَالَ بَذَّ القَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً، فَإنْ جَاءَ الجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ عَادٍ، وصِلُّ وَادٍ، لا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً، كَانَ لا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا لا يَجِدُ العُذْرَ في مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ، وَكَانَ لا يَشْكُو وَجَعاً إلّا عِنْدَ بُرْئِهِ، وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ، وَلا يَقُولُ مَا لا يَفْعَلُ، وَكَانَ إنْ غُلِبَ عَلَى الكَلامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى أنْ يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَكَانَ إذَا بَدَهَهُ أمْرَانِ نَظَرَ أيُّهُمَا أَقْرَبُ إلَى الْهَوَى فَخَالَفَهُ، فَعَلَيْكُم بِهذِهِ الخَلائِقِ فَالْزَمُوهَا، وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنّ أَخْذَ القَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِير.

الشرح: قد اختلَف الناسُ في المعنيّ بهذا الكلام، ومَن هو هذا الأخُ المشار إليه؟ فقال قوم: هوَ رسولُ الله ﷺ، واستبْعَدَهُ قومٌ لقوله: «وكان ضعيفاً مستضعفاً»، فإن النبيّ ﷺ لا يقال في صفاته مِثل هذه الكلمة، وإن أمكن تأويلُها على لين كلامه وسماحةِ أخلاقه، إلّا أنّها غَيرُ لائقة به عليه السلام.

وقال قومٌ: هو أبو ذَرٍّ الغِفارِيّ واستبعَدَه قومٌ «لقوله: فإن جاء الجدّ فهو لَيث عادٍ، وصِلُّ وادٍ»، فإن أبا ذَرٍّ لم يكن من الموصوفين بالشّجاعة، والمعروفين بالبَسالة.

وقال قومٌ: هو المقدادُ بن عَمرو المعروفُ بالمقداد بن الأسوَد، وكان من شِيعة عليٍّ عليه السلام المخلصِين، وكان شُجاعاً مُجاهِداً حسنَ الطريقة، وقد ورد في فضلِهِ حديث صحيح مرفوع.

وقال قومٌ: إنه ليس بإشارةٍ إلى أخ مُعيّن، ولكنه كلامٌ خارجٌ مخرج المَثل، وعادةُ العرب جارية بمثل ذلك، مِثل قولهم في الشّعر: فقلت لصاحبي، ويا صاحبي، وهذا عندي أقوَى الوجوه.

بعض ما ورد في حمد القناعة وقلة الأكل

وقد مضَى القولُ في صِغر الدنيا في عَيْن أهل التّحقيق، فأمّا سلطان البَطْن ومَدْح الإنسان بأنه لا يكثِر من الأكل إذا وَجَد أكلاً، ولا يَشتهي من الأكل ما لا يجده، فقد قال الناسُ فيه فأكثروا.

قال أعشى باهلة يرثي المنتشرَ بنَ وَهْب:

طاوِي المَصيرِ على العَزّاءِ مُنصلِتٌ ... بالقوم ليلَة لا ماءٌ ولا شَجَرُ
تَكفِيه فلذةُ لَحْمٍ إنْ أَلَمَّ بها ... من الشّواء ويُروِي شربَه الغَمرُ
ولا يُبارِي لِما في القِدْر يَرْقُبُه ... ولا تَراه أمامَ القوم يفتقرُ
لا يغمز الساقَ مِن أيْنٍ ولا وَصَبٍ ... ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

وقال الشَّنفَرَى:

وأطوِي على الخُمصِ الحوَايا كما انطَوَتْ ... خيوطة ماريٍّ تُغار وتُفتَلُ
وإن مدّت الأيدِي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلِهم إذ أجشعُ القوم أعجلُ
وما ذاكَ إلّا بَسطة عن تفضّلٍ ... عليهمْ وكان الأفضلَ المتفضّلُ

وقال بعضهم لابنه: يا بُنَيّ عوِّد نفسَك الأثرَة، ومجاهَدةَ الهوى والشهوة، ولا تَنهَش نَهْشَ السِّباع، ولا تَقضِم قَضْمَ البَراذين، ولا تُدْمِن الأكلَ إدمانَ النِّعاجِ، ولا تلقمْ لَقْمَ الجِمال، إنّ الله جعلك إنساناً، فلا تَجعَل نفسَك بَهيمة ولا سَبُعاً، واحذَرْ سُرعة الكِظّة، وداءَ البِطْنة، فقد قال الحكيم: إذا كنت بَطِناً فعُدَّ نفسك من الزَّمْنى وقال الأعشى:

والبِطْنَةُ يوماً تُسفِّه الأحلاما

واعلم أن الشَّبَع داعيةُ البَشَم، والبَشَم داعية السَّقَم، والسَّقَم داعيةُ الموت، ومن ماتَ هذه الميتةَ فقد مات موتةً لئيمة، وهو مع هذا قاتِلُ نفسه، وقاتلُ نفسِه ألوَم من قاتِلِ غيره. يا بُنيّ، والله ما أدّى حقَّ السجود والرّكوع ذو كِظّة، ولا خَشَع لله ذو بِطْنة، والصومُ مصحّة، ولربّما طالت أعمارُ الهِند، وصحت أبدانُ العَرَب، ولله دَرُّ الحارثِ بن كَلَدة حيث زَعَمَ أن الدَّوَاء هو الأزْم، وأنّ الدّاء إدخالُ الطعام في أثَر الطعام، يا بُنَيّ لم صَفَتْ أذهانُ الأعرابِ، وصَحّت أذهان الرُّهْبان مع طُول الإقامة في الصوامع، حتّى لم تَعرف وجعَ المفاصل، ولا الأورام، إلّا لقلّة الرّزء، ووقاحة الأكل، وكيف لا تَرغب في تدبير يَجمَع لك بين صحّة البدن وذَكاءِ الذّهن وصلاحِ المَعاد والقرب وعَيْش الملائكة. يا بُنَيّ لم صار الضَّبّ أطوَل شيء ذَماءً! إلّا لأنّه يتبلّغ بالنّسيم. ولم زَعَم رسولُ الله ﷺ أنّ الصومَ وِجاء! إلّا ليَجعله حجاباً دونَ الشّهوات! فافهمْ تأديبَ الله ورسولِه، فإنهما لا يَقْصدان إلّا مِثلَك. يا بُنَيّ، إني قد بلغت تسعين عاماً ما نَقَص لي سِنّ، ولا انتَشَر لي عَصَب، ولا عرفتُ دنِينَ أنف، ولا سَيَلان عَيْن، ولا تقطير بَوْل، ما لذلك علة إلّا التّخفيف من الزاد، فإن كنتَ تحبّ الحياةَ فهذه سبيلُ الحياة، وإن كنتَ تريدُ الموت فلا يُبعِد الله إلا من ظَلَم.

وكان يقال: البِطْنة تذهِب الفِطْنة.

وقال عَمرو بنُ العاص لأصحابه يومَ حكم الحَكَمان: أكثِروا لأبي موسى من الطّعام الطيّب فوالله ما بُطِنَ قومٌ قطّ إلّا فَقَدوا عُقولَهم أو بعضها، وما مضى عزمُ رجلٍ باتَ بَطِيناً.

وكان يقال: أقْلِل طَعاماً تَحمَد مَناماً.

ودعا عبدُ الملك بن مروانَ رجلاً إلى الغَدَاء فقال: ما فيَّ فضْل، فقال: إني أحبّ الرجلَ يأكل حتّى لا يكون فيه فضل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، عندي مُسْتَزاد، ولكنّي أكرَه أن أصِير إلى الحال التي استقْبَحَها أميرُ المؤمنين.

وكان يقال: مسكينٌ ابن آدم، أسيرُ الجُوع، صَرِيع الشّبَع.

وسأل عبْد الملك أبا الزُّعَيْرعة، فقال: هل أتخِمتَ قَطّ؟ قال: لا، قال: وكيف؟ قال: لأنّا إذا طَبَخْنا أنضجْنا، وإذا مضَغْنَا دقّقنا، ولا نَكِظّ المَعدة ولا نُخْليها.

وكان يقال: من المُروءة أن يَترك الإنسانُ الطعامَ وهو بعدُ يَشتهيه.

وقال الشاعر:

فإنّ قرابَ البَطْن يكفيك مَلؤهُ ويكفِيكَ سَوءاتِ الأمور اجتنابُها

وقال عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي: كان عمي يقول لي: لا تخرج يا بنيّ من منزلك حتّى تأخذَ حِلْمَك - يعني تتغذّى - فإذا أخذتَ حِلْمَك فلا تزددْ إليه حِلْماً، فإنّ الكثرة تؤول إلى

قِلّة. وفي الحديث المرفوع: ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بَطْن، بحَسْب الرّجُل من طعامِه ما أقامَ صُلْبه، وأمّا إذا أبَيْتَ فثُلث طعام، وثلثُ شَراب، وثلث نَفَس[1].

ورَوَى حُذَيفة عن النبي ﷺ: «من قَلّ طعمُه، صَحّ بطنُه، وصفا قَلبُه، ومَن كَثُر طعمهُ، سَقُم بَطْنه وقسا قلبُه»[2].

وعنه ﷺ: «لا تُميتوا القلوبَ بكثرة الطّعام والشّراب فإنّ القلبَ يموت بهما، كالزّرع يموت إذا أكثر عليه الماء»[3]. ورَوَى عَوْن بنُ أبي جُحَيفة عن أبيه قال: أكلتُ يوماً ثَريداً ولحماً سَميناً، ثمّ أتيتُ رسولَ الله وأنا أتجشَّأ، فقال: «احبِسْ جَشَأكَ أبا جُحَيفة، إن أكثَرَكم شِبَعاً في الدّنيا أكثرُكُم جُوعاً في الآخرة»[4]، قال: فما أكَل أبو جُحَيْفة بعدها مِلءَ بطنِه إلى أن قَبَضه الله. وأكَل عليٌّ عليه السلام[5] قليلاً من تَمْر دَقَل وشَرِب عليه ماءً، وأمَرَّ يدَه على بطنه وقال: من أدخلَه بطنُه النارَ فأبعده الله، ثم تَمثّل:

فـإنّـك مَـهْـمـا تُـعطِ بـطـنَـكَ سُـؤْلَـهُ ... وفَـرْجَـك نـالا مُـنـتَـهـى الـذمِّ أجـمَـعَـا

وكان عليه السلام يُفطِر في رمضان الّذي قُتِل فيه عند الحَسَن ليلةً، وعند الحُسَين ليلةً، وعند عبد اللّه بن جعفر ليلة، لا يزيد على اللُّقْمَتين أو الثلاث، فيقال له، فيقول: إنّما هي ليالٍ قلائل، حتّى يأتيَ أمرُ الله وأنا خَمِيصُ البَطْن، فضَرَبه ابنُ مُلجَم لعنه الله تلك الليلة.

وقال الحسن: لقد أدركتُ أقواماً ما يأكل أحدُهم إلّا في ناحية بطنِه، ما شَبِع رجلٌ منهم من طعامٍ حتّى فارَقَ الدنيا، كان يأكل، فإذا قارَب الشّبَع أمسَك. وأنشد المبرِّد:

فإنّ امـتـلاءَ الـبَـطْـن فـي حَـسَـب الـفَـتَـى ... قـلـيـلُ الـغَـنـاءِ وهـو فـي الـجِـسـم صـالِـحُ

وقال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل، لا تُكثِروا الأكل، فإنّه مَن أكثر من الأكُل أكثر من النّوم، ومن أكثَر النّوم أقلّ الصّلاة، ومن أقلّ الصلاة كُتِب من الغافلين: وقيل ليوسفَ عليه السلام: ما لك لا تَشبَع وفي يديك خزائنُ مِصرَ؟ قال: إنّي إذا شبِعتُ نسيت الجائِعين.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (٣٣٤٩).

(٢) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٥١)، مختصراً من كلام محمد بن واسع.

(٣) أخرجه الطبرسي في مشكاة الأنوار: ١٦٢.

(٤) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ٦/ ٤٦٨.

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله (٢٤٧٨)، وابن ماجه كتاب: الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع (٣٣٥٠)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣١).

وقال الشاعر:

وأكلةٍ أوْقعتْ في الهُلْك صاحِبَها ... كحَبّة القَمْح دَقَّت عُنُقَ عُصْفورِ
لَكِسْرَةٌ بجَرِيش المِلح آكُلُها ... ألذُّ مِن تَمرةٍ تُحشَى بزُنْبور

ووُصِف لسابورَ ذي الأكتافِ رجلٌ من إصْطَخْرَ لِلقضاء، فاستقدَمَه، فدعاه إلى الطّعام، فأخَذ المَلِك دَجاجةً من بين يديه فنصَّفَها، وجعل نِصفَها بين يديْ ذلك الرجل، فأتَى عليه قبل أن يَفرُغ المَلك من أكْل النِّصف الآخر، فصَرَفه إلى بلده، وقال: إنّ سَلَفنا كانوا يقولون: مَنْ شَرِه إلى طعام المَلِك كان إلى أموال الرّعيّة أشْرَه.

قيل لسُمَيْرة بن حبيب: إنّ ابنَك أكل طعاماً فأتْخم، وكاد يموت، فقال: والله لو مات منه ما صَلّيت عليه. أنس يرفعه: إنّ من السَّرَف أن تأكل كلَّ ما اشتَهَيْت[1].

دخل عمرُ على عاصم ابنِه وهو يأكُل لَحماً، فقال: ما هذا؟ قال: قَرِمْنا إليه، قال: أوَ كُلّما قَرِمْت إلى اللَّحْم أكلْته! كَفَى بالمرءِ شَرَهاً أن يَأكُلَ كُلَّ ما يَشتهِي.

أبو سعيد يَرفَعه: استعينُوا بالله من الرُّغب[2]، قالوا: هو الشَّرَه، ويقال: الرّغب شُؤم. أنَس يَرفَعه: أصلُ كلِّ داء البردة[3]، قالوا: هي التُّخَمَة، وقال أبو دُرَيد: العَرَب تعيِّر بكَثْرة الأكل، وأنشَد:

لستُ بأكّال كأكْل العَبْدِ ... ولا بِنَوّامٍ كنَوْمِ الفَهْدِ

وقال الشاعر:

إذا لم أزُرْ إلا لآكُلَ أكْلةً ... فلا رَفعتْ كَفِّي إليَّ طعامِي
فما أكلةٌ إن نِلتُها بغنيمةٍ ... ولا جَوْعة إن جُعْتُها بغَرامِ

ابن عباس: كان رسولُ الله ﷺ يبيت طاوياً ليالي ما له ولأهلِهِ عَشاء، وكان عامّةَ طعامِه الشّعيرُ[4]، وقالت عائشة: والذي بَعثَ محمداً بالحق ما كان لنا مُنخُل، ولا أكل رسولُ الله ﷺ خُبْزاً مَنخُولاً منذ بَعَثه الله إلى أن قُبِض[5]، قالوا: فكيفَ كنتم تأكلون دقيق الشعير؟ قالت: كنّا نقول: أفٍّ أفٍّ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت (٣٣٥٢).
(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير رقم ٣٣٣٥، والمتقي في الكنز رقم ٦١٦٠.
(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١٦٩٨)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٨٣).
(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب: معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٦٠)، وابن ماجه في الأطعمة، باب: خبز الشعير (٣٣٤٧)، وأحمد في مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن العباس (٢٣٠٣).
(٥) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣١٢)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٥٩).

أنس: ما أكل رسولُ الله ﷺ رغيفاً مُحَوَّراً إلى أن لَقِي ربَّه عزّ وجل[(١)].

أبو هريرة: ما شَبِع رسولُ الله ﷺ وأهله ثلاثةَ أيام مُتوالية من خُبْز حِنْطة حتى فَارَقَ الدنيا[(٢)].

وروَى مَسْروق قال: دخلتُ على عائشة وهي تبكي، فقلتُ: ما يبكيك؟ قالت: ما أشاء أن أبكي إلّا بَكَيتُ، مات رسولُ الله ﷺ ولم يَشبَع من خُبز البُرّ في يومٍ مرّتين، ثم انهارَتْ علينا الدنيا[(٣)].

حاتم الطائيّ:

وإنّي لأستحيي صحابيَ أن يَرَوْا ... مكانَ يَدِي من جانِب الزاد أقْرَعَا
أقصّر كَفّي أن تَنال أكفّهمْ ... إذا نحنُ أهوَيْنا وحاجاتُنا مَعَا
أبيتُ خَمِيصَ البطنِ مضطمِرَ الحشَا ... حياءً أخافُ الضَّيمَ أن أتضلَّعا
فإنّك إن أعطيتَ نَفسَك سُؤْلها ... وفَرْجَك نالا مُنتَهى الذمّ أجمعا

فأما قولُه ﷺ: «كان لا يَتَشهَّى، ما لا يَجد» فإنّه قد نهى أن يتشهى الإنسانُ ما لا يَجِد، وقالوا: إنّه دليلٌ على سُقوط المُروءة.

وقال الأحنف: جنّبوا مَجالسنا ذِكرَ تشهّي الأطعِمة وحديث النكاح.

وقال الجاحظ: جلَسْنا في دارٍ فجعَلْنا نتشهّى الأطعمة، فقال واحد: وأنا أشتَهي سِكْبَاجاً كثيرة الزعفران.

وقال آخر: أنا أشتهي طَبَاهجة ناشِفة، وقال آخر: أنا أشتهي هَرِيسة كثيرة الدّارصيني، وإلى جانبنا امرأةٌ بيننا وبينها بئر الدار، فضربَتِ الحائط وقالت: أنا حامل، فأعطُوني مِلءَ هذه الغَضَارة من طبيخِكم، فقال ثمامة: جارتُنا تَشمُّ رائحة الأمانيّ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة، باب: الحواري (٣٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب: ما كان السلف يدخرون في بيوتهم (٥٤٢٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٠)، والترمذي في الزهد، باب: ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٥٨) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم (٥٤٢٣)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب منه (٢٩٧٠).

- ٢٩٦ -

الأصل: لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ الله سُبْحانَهُ على مَعْصِيَتِهِ، لَكانَ يَجِبُ ألّا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ.

الشرح: قالت المعتزلة: إنّا لو قدّرنا أنّ الوَعِيد السّمْعيّ لم يرد لما أخلّ ذلك بكون الواجب واجباً في العقل، نحو العدل والصّدق، والعلم، وردّ الوديعة، هذا في جانب الإثبات، وأما في جانب السَّلْب فيَجب في العَقْل ألّا يَظلِم، وألّا يَكذِب، وألّا يَجهَل، وألّا يَخُون الأمانة، ثمّ اختلَفُوا فيما بينهم، فقالت معتزِلة بغداد: ليس الثوابُ واجباً على الله تعالى بالعَقْل، لأنّ الواجباتِ إنّما تَجِب على المكلَّف، لأنّ أداءَها كالشُّكر لله تعالى، وشكر المُنعِم واجب، لأنّه شكْر منعِم، فلم يَبقَ وجهٌ يَقتضِي وجوبَ الثّواب على الله سبحانه، وهذا قريبٌ من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام.

وقال البَصْريُّون: بل الثواب واجبٌ على الله تعالى عَقْلاً، كما يجب عليه العِوَض عن إيلامِ الحيّ، لأنّ التكليف إلزامٌ بما فيه مَضَرّة، كما أنّ الإيلامَ إنزالُ مَضَرّة، والإلزام كالإنْزال.

- ٢٩٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام للأشعث بن قيس وقد عزاه عن ابن له:

يا أَشْعَثُ، إنْ تَحزَنْ على ابْنِكَ فَقَدِ اسْتَحقَّتْ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحِمُ، وإنْ تَصْبِرْ فَفي الله مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ.

يا أَشْعَثُ، إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأنْتَ مَأْجُورٌ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأنتَ مَأْزُورٌ. يا أَشْعَثُ، ابْنُكَ سَرَّكَ، وَهُوَ بَلاءٌ وفِتْنَةٌ، وحَزَنَكَ، وهُوَ ثَوَابٌ ورَحْمَةٌ.

الشرح: قد رُوي هذا الكلام عليه السلام على وجوهٍ مختلِفة وروايات متنوّعة، هذا الوجهُ أحدها، وأخذَ أبو العتاهية ألفاظه عليه السلام فقال لمن يعزّيه عن ولَد:

ولا بدّ مِن جَرَيان القَضاءِ   إمّا مُثاباً وإما أثِيما

ومن كلامهم في التعازي: إذا استأثرَ الله بشيء فالْهُ عنه، وتُنسَب هذه الكلمة إلى عُمَر بن عبد العزيز.

وذكر أبو العبّاس في الكامل أنّ عُقْبة بنَ عِياض بن تميم أحد بني عامر بن لؤيّ استُشهِد، فعَزَّى أباه مُعَزٍّ، فقال: احتَسِبْه ولا تَجزَع عليه، فقد ماتَ شهيداً، فقال عِياض: أتراني كنتُ أُسَرُّ به وهو مِن زينةِ الحياة الدنيا، وأُساءُ به وهو من الباقيات الصالحات!

وهذا الكلام مأخوذٌ من كلامِ أميرِ المؤمنين عليه السلام.

ومن التَّعازِي الجيِّدةِ قولُ القائل:

ومن لم يَزَلْ غَرَضاً للمَنُو ... نِ يَتْرُكُه كلّ يومٍ عَميدَا
فإنْ هُنَّ أخطأنَه مرَّةً ... فيوشِك مُخطِئها أن يَعودا
فبَيْنَا يَحيد وأخطأنَهُ ... قصدنَ فأعجَلْنه أن يَحيدا

وقال آخر:

هو الدّهر قد جرّبتُه وعرفتُه ... فصبراً على مكروهه وتَجلُّدَا
وما الناسُ إلّا سابقٌ ثمّ لاحِقٌ ... وفائتُ موتٍ سوفَ يَلحَقُه غَدا

وقال آخر:

أيُّنا قدّمتْ صُرُوفُ اللّيالي ... فالّذي أخّرت سريعُ اللّحاقِ
غَدَراتُ الأيّام منتزِعاتٌ ... عُنَقَيْنا من أنسِ هذا العِناقِ

ابنُ نُباتَةَ السَّعديّ:

نُعلّل بالدَّواء إذا مَرِضْنا ... وهل يَشفي من الموتِ الدّوَاءُ!
ونَختارُ الطبيبَ وهل طبيبٌ ... يؤخّر ما يقدِّمه القَضاءُ!
وما أنفاسُنا إلا حسابٌ ... وما حَركاتُنا إلا فَناءُ

البُحتُرِيّ:

إن الرزيّة في الفقيد فإن هَفَا ... جزعٌ بلبّك فالرّزيّة فِيكَا
وَمَتَى وجدْتَ النّاس إلا تاركاً ... لحميمِهِ في التُّرْب أو متروكا
لو ينجلي لك ذخرها من نكبةٍ ... جللٍ لأضحكَك الذي يُبكِيكا

وكتب بعضهم إلى صديق له مات ابنُه: كيف شُكرُكَ لله تعالى على ما أَخَذ من وديعته، وعَوّض من مَثُوبته!

وعَزَّى عمر بنُ الخطاب أبا بكرٍ عن طفلٍ، فقال: عَوّضك الله منه ما عَوّضه منك، فإنّ الطفل يعوَّض من أبوَيْه الجنّة.

وفي الحديث المرفوع: «مَنْ عزَّى مصاباً كان له مِثل أجرِه»(١).

وقال عليه السلام: «من كُنوز السِّرّ كتمانُ المصائب، وكِتْمانُ الأمراض وكتمانُ الصَّدقة».

وقال شاعرٌ في رِثاء ولدِه:

وسمَّيْتُه يَحْيَى لِيَحْيَا ولم يكنْ ... إلى رَدّ أمرِ اللّه فيه سَبيلُ
تخيّرتُ فيه الفألَ حين رُزِقْتُه ... ولم أدرِ أنّ الفألَ فيه يَفيلُ

وقال آخر:

وهَوَّنَ وَجْدي بعد فقدِك أنني ... إذا شئتُ لاقيتُ امرأً مات صاحِبُهْ

آخر:

وقد كنتُ أرجو لو تملّيت عِيشةً ... عليكَ اللّيالي مَرّها وانتقالَها
فأمّا وقد أصبحتَ في قَبْضَة الرَّدَى ... فقُلْ للّيالي فلتُصِبْ مَن بَدَا لها

أخَذه المتنبي فقال:

قد كنتُ أُشفِق من دَمْعي على بَصَرِي ... فاليوم كلّ عزيز بعدكم هانَا

ومِثلُه لغيره:

فراقَك كنتُ أخشى فافترقْنا ... فمن فارقتُ بعدَك لا أبالِي

- ٢٩٨ -

الأصل: وقال عليه السلام عند وقوفه على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة دفن رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إلّا عَنْكَ، وإنَّ الجَزَعَ لَقَبِيحٌ إلّا عَلَيْكَ، وإنَّ المُصابَ بك لَجَلِيلٌ، وإنَّهُ بَعْدَكَ لقليلٌ.

الشرح: قد أخذَتْ هذا المعنى الشُّعراء، فقال بعضهم:

أمسَتْ بجَفْنِي للدُّموعِ كُلُومُ ... حَزناً عليك وفي الخُدود رُسومُ
والصبرُ يُحمَد في المَواطِن كلِّها ... إلّا عليكَ فإنّه مذمومُ

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب: ما جاء في أجر من عزى مصاباً (١٠٧٣)، وابن ماجه في ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في ثواب من عزى مصاباً (١٦٠٢).

وقال أبو تمّام:

وقد كان يُدعى لابسُ الصّبرِ حازماً ... فقد صارَ يُدعى حازِماً حين يَجزَعُ

وقال أبو الطّيب:

أجِدُ الجَفاء على سِواكَ مُروءةً ... والصّبرَ إلا في نواك جميلا

وقال أبو تمّام أيضاً:

الصبرُ أجملُ غيرَ أنّ تلذّذاً ... في الحبِّ أولَى أن يكونَ جميلا

وقالت خَنْساء أخت عَمْرو بن الشَّرِيد:

ألا يا صَخْرُ إنْ أبكَيتَ عَيْني ... لقد أضحكْتَني دهراً طويلا

بكَيتُكَ في نساءٍ مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحقَّ من أبْدَى العَويلا

دفعتُ بك الجليلَ وأنتَ حَيٌّ ... فمن ذا يَدْفَع الخطْبَ الجليلا!

إذا قَبُح البكاءُ على قَتيلٍ ... رأيتُ بكاءَك الحسَنَ الجميلا

ومثلُ قوله ﷺ: «وإنه بعدك لقليل»، يَعني المصاب، أي لا مُبالاة بالمصائب بعد المصيبة بك، قولُ بعضهم:

قد قلتُ للموتِ حين نَازَلَهُ ... والموتُ مِقدامةٌ على البُهَمِ

اذهَبْ بمن شئتَ إذْ ظفرتَ به ... ما بعد يَحيَى للموتِ من ألمِ

وقال الشَّمَرْدَل اليَرْبُوعيّ يرثي أخاه:

إذا ما أتى يومٌ من الدّهر بيننا ... فحيّاك عنّا شرْقُهُ وأصائِلُهْ

أبَى الصّبرَ أنّ العين بعدك لم تزَلْ ... يُحالِف جَفْنَيْها قذًى ما تُزايِلُهْ

وكنتُ أعيرُ الدّمعَ قبلك مَن بَكى ... فأنت على من مات بعدك شاغلُهْ

أعيْنَيَّ إذا أبكاكما الدهرُ فابْكِيا ... لمن نَصْرُه قد بانَ عنّا ونائِلُهْ

وكنتُ به أغشَى القِتالَ فعزّني ... عليه من المِقدارِ مَنْ لا أقاتِلُهْ

لعَمْرُك إنّ الموتَ مِنّا لمُولَعٌ ... بمن كان يُرجى نفعُه وفواضِلُهْ

قوله:

فأنتَ على من ماتَ بعدَكَ شاغلُهْ

هو المعنى الذي نحن فيه، وذكرنا سائرَ الأبيات لأنّها فائقة بعيدةُ النّظير.

وقال آخر يَرثي رجلاً اسمه جارية:

أجـاريَ مـا أزدادُ إلّا صَـبـابـةً ... عـلـيـكَ ومـا تـزدادُ إلّا تـنـائـيـا
أجارِيَ لـو نـفْسٌ فـدَتْ نـفـسَ ميّتٍ ... فـديتُك مَسْروراً بنفسي ومـاليـا
وقـد كـنـتُ أرجـو أن أراك حـقيـقـةً ... فـحـال قـضـاءُ الله دون قـضـائـيـا
ألا فـلـيَـمُـتْ مـن شاءَ بـعـدَك إنـمـا ... عـلـيـكَ مـن الأقـدار كـان حِـذاريـا

ومن الشِّعر المنسوب إلى عليٍّ عليه السلام - ويقال: إنه قاله يوم ماتَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله:

كـنـتَ الـسَّـوادَ لـنـاظِـري ... فـبَـكـى عـلـيـك الـنّـاظـرُ
مـن شـاءَ بـعـدَك فـلـيَـمُـتْ ... فـعـلـيـكَ كـنـتُ أحـاذِرُ

ومن شِعر الحماسة:

سأبكيكَ ما فاضَتْ دموعي فإن تَغِضْ ... فحَسْبكَ مني ما تُجِنُّ الجوانحُ
كأنْ لم يَمُتْ حَيٌّ سِواك ولم تَقُمْ ... على أحدٍ إلّا عليكَ النّوائحُ
لئن حَسُنَتْ فيكَ المراثي بوصْفِها ... لقد حَسُنتْ مِن قبلُ فيك المدائحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازِعٌ ... ولا بسرُورٍ بعد مَوْتِك فارحُ

- ٢٩٩ -

الأصل: لا تَصْحَبِ المَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ.

الشرح: المائق: الشديدُ الحُمْق، والمُوق: شدّة الحُمْق، وإنما يزين لك فعله لأنّه يعتقد فعلَه صواباً بحُمقه فيزيّنه لك كما يزيّن العاقلُ لصاحبه فِعلَه لاعتقاد كونه صواباً، ولكن هذا صوابٌ في نَفْس الأمر، وذلك صوابٌ في اعتقاد المائق، لا في نفس الأمر، وأمّا كونه يودّ أن تكون مِثله فليس معناه أنّه يَوَدّ أن تكون أحمَق مثله، وكيف وهو لا يَعلَم من نفسِه أنّه أحمق، ولو عَلِم أنه أحمق لما كان أحمق، وإنما معناه أنّه لحبّه لك، وصُحْبتِه إيّاك، يَودّ أن تكون مِثله، لأنّ كل أحدٍ يَودّ أن يكون صديقُه مِثل نفسِه في أخلاقه وأفعالِه، إذ كل أحد يَعتقِد صوابَ أفعاله، وطهارَة أخلاقه، ولا يَشعر بعيبِ نفسِه لأنه يَهوَى نفسَه، فَعيْبُ نفسه مطويٌّ مَستور عن نفسِه، كما تَخفَى عن العاشق عُيوبُ المعْشوق.

- ٣٠٠ -

الأصل: وقال عليه السلام وقد سُئِلَ عَنْ مَسافَةِ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمغْرِبِ، فَقالَ: مَسِيرَةُ يَوْمٍ للشَّمْس.

الشرح: هكذا تقول العَرَب: «بينهما مسيرة يوم» بالهاء ولا يقولون «مسيرُ يوم» لأنّ المسير المصْدَر، والمسيرة الاسم.

وهذا الجوابُ تسمِّيه الحكماء جواباً إقناعيًّا، لأنّ السائل أراد أن يذكر له كمّية المسافة مُفصّلة، نحو أن يقول: بينهما ألفُ فرسخ أو أكثر أو أقلّ، فعَدَل عليه السلام عن ذلك وأجابه بغيره، وهو جواب صحيح لا رَيب فيه، لكنّه غير شاف لغليلِ السائل، وتحته غَرضٌ صحيح، وذلك لأنه سأله بحضور العامّة تحتَ المِنبر، فلو قال له: بينهما ألفُ فرسخ مثلاً، لكان للسائِل أن يُطالبَه بالدّلالة على ذلك، والدّلالة على ذلكَ يشقّ حصولها على البَديهة، ولو حصلتْ لَشقّ عليه أن يُوصلها إلى فهمْ السائل، ولو فهمها السائلُ لما فهمتْها العامّة الحاضرون، ولصارَ فيها قولٌ وخلاف، وكانت تكون فِتنة أو شبيهاً بالفتْنة، فعَدل إلى جواب صحيح إجماليّ أسكت السائل به، وقنع به السامعون أيضاً واستحسنُوه، وهذا من نتائج حِكمتِه عليه السلام.

- ٣٠١ -

الأصل: أَصْدِقاؤُكَ ثَلاثَةٌ، وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاثَةٌ، فَأَصْدِقاؤُكَ: صَدِيقُكَ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ. وَأَعْدَاؤكَ: عَدُوُّكَ، وعَدُوُّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عدوّكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذ المعنى.

والأصل في هذا أنّ صديقَك جارٍ مجرَى نفسك، فاحكم عليه بما تحكُم به على نفسك، وعدوّك ضدك، فاحكُمْ عليه بما تحكُم به على الضّدّ، فكما أنّ من عاداك عدوّ لك، وكذلك مَن عادى صديقَك عدوٌ لك، وكذلك من صَادَق صديقَك فكأنّما صادَق نفسَك، فكان صديقاً لك أيضاً، وأما عدوُّ عدوِّك فضدّ ضدّك، وضِدُّ ضِدّك ملائمٌ لك، لأنّك أنتَ ضِدٌّ لذلك الضدّ، فقد اشتركتُما في ضدّيّة ذلك الشخص، فكنتما متناسِبَين، وأمّا مَن صَادقَ عدوَّك فقد ماثلَ ضِدّك، فكان ضِدًّا لك أيضاً، ومثلُ ذلك بَياضٌ مخصوص يُعادِي سَواداً مخصوصاً ويضادّه.

وهناك بياض ثان هُوَ مِثلُ البياض الأوّل وصديقُه، وهناك بياضٌ ثالثٌ مِثلُ البياض الثاني، فيكون أيضاً مِثل البياض الأوّل وصديقه، وهناك بياضٌ رابعٌ تأخذه باعتبار ضدًّا للسواد المخصوص المفروض، فإنه يكون مماثِلاً وصَديقاً للبياض الأوّل، لأنه عدو عدوّه، ثم نَفرِض سواداً ثانياً مضاداً للبياض الثاني، فهو عدوٌّ للبياض الأوّل، لأنه عدوُّ صديقه، ثمّ نفرِض سواداً ثالثاً هو مُماثِلُ السوادِ المخصوص المفروض، فإنه يكون ضدًّا للبياض المفروض المخصوص، لأنه مِثل ضدّه، وإن مثّلت ذلك بالحروف كان أظهَر وأكشف.

- ٣٠٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لرجُلٍ رَآهُ يَسْعَى على عَدُوٍّ لَهُ بِما فيه إضْرَارٌ بِنَفْسِهِ: إنَّما أَنْتَ كالطَّاعن نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ.

الشرح: هذا يختلف باختلاف حالِ السّاعي، فإنه إن كان يضرّ نفسه أوّلاً ثمّ يضرّ عدوّه تَبَعاً لإضرارِه بنفسِه، كان - كما قال أمير المؤمنين عليه السلام - كالطاعنِ نفسَه لِيقتلَ رِدْفه، والرِّدفُ: الرجلُ الذي تَرْتدِفه خَلْفَك على فرَس أو ناقةٍ أو غيرهما، وفاعل ذلك يكون أسْفه الخلق وأقلّهم عقلاً، لأنه يبدأ بقتل نفسه. وإن كان يضرّ عدوّه أولاً، يحصل في ضمن إضراره بعدوّه إضراره بنفسه، فليس يكون مثالُ أمير المؤمنين عليه السلام متطبقاً على ذلك، ولكن يكون كقولي في غزلٍ من قصيدةٍ لي:

إن تَرِمِ قلبي تُصِمِ نفسَك إنَّه ... لكَ موطنٌ تأوِي إليه ومَنزِلُ

- ٣٠٣ -

الأصل: ما أكْثَرَ الْعِبَرَ وأقَلَّ الاعْتِبَارَ!

الشرح: ما أوجز هذه الكلمة وما أعظم فائدتها! ولا ريب أنّ العبَر كثيرة جدًّا، بل كلّ شيء في الوجود ففيه عِبْرةٌ، ولا ريب أن المعتبِرين بها قليلون، وأنّ الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى، وأرداهم حبُّ الدنيا، وأسكرهم خَمرُها، وإنّ اليقين في الأصل ضعيف عندهم، ولولا ضعفه لكانتْ أحوالهم غيرَ هذه الأحوال.

- ٣٠٤ -

الأصل: مَنْ بَالَغَ فِي الخُصُومَةِ أَثِمَ، ومَنْ قَصَّر فِيها ظُلِمَ، ولا يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَن خاصَمَ.

الشرح: هذا مثل قوله عليه السلام في موضعٍ آخر: الغالب بالشرّ مغلوب.

وكان يقال: ما تسابّ اثنان إلا غلبَ ألأمُهما.

وقد نهى العلماء عن الجدل والخصومة في الكلام والفقه، وقالوا: إنهما مظنّة المباهاة وطلب الرئاسة والغلبة، والمجادل يكره أن يقهَره خصمُه، فلا يستطيع أن يتّقي الله.

وهذا هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه.

وأما الخصومة في غير العلم كمنازعة النّاس بعضِهم بعضاً في أمورهم الدنياويّة، فقد جاء في ذمّها، والنّهي عنها شيء كثير، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم قولاً كافياً، على أنّ منهم مَنْ مدح الجهْل والشرّ في موضعهما.

وقال الأحنف: ما قلّ سفهاء قوم إلّا ذلّوا.

وقال بعض الحكماء: لا يخرجنّ أحد من بيته إلا وقد أخذ في حُجْزتِه قيراطين من جَهْل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل. وقالوا: الجاهل من لا جاهل له.

وقال الشاعر:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً ... وخُيِّرْتَ أنّى شئت فالعلم أفضلُ

ولكن إذا أنصفتَ مَنْ ليس منصفاً ... ولم يرضَ منك الحلمَ فالجهلُ أمثَلُ

إذا جاءني مَنْ يطلب الجهلَ عامداً ... فإني سأعطيه الّذي هو سائلُ

- ٣٠٥ -

الأصل: ما أَهَمَّنِي أَمْرٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ، حتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْن وَأَسْأَلَ اللهَ العَافِيَةَ.

الشرح: هذا فتحٌ لباب التوبة وتطريق إلى طريقها، وتعليم للنهضة إليها والاهتمام بها، ومعنى الكلام أنّ الذّنب الذي لا يعاجَل الإنسانُ عقيبَه بالموت ينبغي للإنسان ألّا يهتم به، أي

لا ينقطع رجاؤه من العفو وتأميله الغفران، وذلك بأن يقوم إلى الصلاة عاجلاً، ويستغفر الله، ويندم ويعزم على ترك المعاودة، ويسأل الله العافية من الذنوب والعصمة من المعاصي، والعون على الطاعة، فإنه إذا فعل ذلك بنيّة صحيحة واستوفى شرائط التوبة سقط عنه عقابُ ذلك الذنب.

وفي هذا الكلام تحذيرٌ عظيم من مواقعة الذنوب، لأنه إذا كان هذا هو محصول الكلام، فكأنّه قد قال الحذَرَ الحذَرَ من الموت المفاجئ قبل التوبة، ولا ريب أنّ الإنسان ليس على ثقةٍ من الموت المفاجئ قبل التوبة، إنه لا يفاجئه ولا يأخذه بغتةً، فالإنسان إذا كان عاقلاً بصيراً يتوقّى الذنوب والمعاصيَ التوقّي.

- ٣٠٦ -

الأصل: وَسُئِلَ عليه السلام: كَيْفَ يُحَاسِبُ الله الخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ؟ فَقَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ.

فَقِيلَ: كَيْفَ يُحاسِبُهُمْ ولا يَرَوْنَهُ! فَقَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلا يَرَوْنَهُ.

الشرح: هذا جواب صحيح؛ لأنه تعالى لا يرزقهم على الترتيب، أعني واحداً بعد واحد، وإنما يرزقهم جميعَهم دفعةً واحدة، وكذلك تكون محاسبتهم يوم القيامة.

والجواب الثاني صحيح أيضاً: لأنه إذا صحّ أن يرزقنا ولا نرى الرّازق، صحّ أن يحاسبَنا ولا نرى المحاسب.

فإن قلت: فقد ورد أنهم يَمكثُون في الحساب ألف سنة، وقيل أكثر من ذلك، فكيف يجمع بين ما ورد في الخبر وبين قولكم: «إن حسابهم يكون ضربة واحدة»! ولا ريب أنّ الأخبار تدلّ على أن الحساب يكون لواحدٍ بعد واحد.

قلت: إن أخبار الآحاد لا يُعمل عليها، لا سيّما الأخبار الواردة في حديث الحساب والنار والجنّة، فإن المحدّثين طعنوا في أكثرها، وقالوا: إنها موضوعة، وجملة الأمر أنه ليس هناك تكليف، فيقال إن ترتيب المحاسبة في زمانٍ طويل جدًّا يتضمّن لطفاً في التكليف فيفعله الباري تعالى لذلك، وإنما الغرض من المحاسبة صدْق الوعد وما سبق من القول، والكتاب العزيز لم ينطق إلا بالمحاسبة مجملةً، فوجب القول بالمتيقّن المعلوم فيها ورفض ما لم يثبت.

- ٣٠٧ -

الأصل: رَسُولَكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ.

الشرح: قالوا في المَثَل: الرّسول على قدر المرسِل.

وقيل أيضاً: رسولُك أنتَ، إلا أنّه إنسانٌ آخر.

وقال الشاعر:

تَخَيَّرْ إذا ما كنتَ في الأمر مرسِلاً فمبلغُ آراءِ الرّجال رسولُها
ورَوِّ وفكِّرْ في الكتاب فإنّما بأطراف أقلامِ الرّجال عقولُها

- ٣٠٨ -

الأصل: ما المُبْتَلَى الَّذِي قدِ اشْتَدَّ بِهِ البَلاءُ، بِأَحوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنَ المُعَافَى الَّذِي لا يَأْمَنُ البَلاءَ.

الشرح: هذا ترغيب في الدعاء، والذي قاله عليه السلام حقّ؛ لأنّ المعافَى في الصورة مبتلًى في المعنى، وما دام الإنسان في قَيْد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة، ثم لا يأمن البلاء الحسّيّ، فوجب أن يتضرّع إلى الله تعالى أنّه ينقذه من بلاء الدنيا المعنوي، ومن بلائها الحسيّ في كلّ حال.

ولا ريبَ أنّ الأدعيَة مؤثِّرة، وأنّ لها أوقات إجابة، ولم يختلف المِليُّون والحكماء في ذلك.

- ٣٠٩ -

الأصل: النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلا يُلامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ.

الشرح: قد قال عليه السلام في موضع آخر: «الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»(١).

وقال الشاعر:

ونحنُ بَنِي الدُّنيا غُذِينَا بدَرِّها وما كنتَ منه فهو شيء محبَّبُ

— ٣١٠ —

الأصل: إِنَّ المِسْكِينَ رَسُولُ الله، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ الله، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى الله.

الشرح: هذا حضٌّ على الصدقة، وقد تقدّم لنا قولٌ مقنع فيها.

وفي الحديث المرفوع: «اتّقوا النّار ولو بشِقِّ تَمْرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لو صَدَق السَّائل لما أفلح مَنْ ردّه»(٣).

وقال أيضاً: «مَنْ ردّ سائلاً خائباً لم تَغْشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيام»(٤).

وكان صلى الله عليه وسلم لا يكِلُ خَصْلتيْن إلى غيره: كان يصنع طَهُوره باللّيل ويخمِّره، وكان يناول المسكين بيده.

وقال بعض الصالحين: مَنْ لم تكن نفسه إلى ثواب الصدقة أحوجَ من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه.

وقال بعضهم: الصلاة تبلّغك نصفَ الطريق، والصّوْم يبلّغك باب المَلِك، والصدقة تُدخِلك عليه.

— ٣١١ —

الأصل: مَا زَنَى غَيُورٌ قَطُّ.

(١) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء رقم: ٢٧٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد (١٤١٣)، ومسلم في الزكاة، باب: الحث على الصدقة (١٠١٦)، والنسائي في الزكاة، باب: القليل في الصدقة (٢٥٥٣).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٢٩٧)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ١٦١).

(٤) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٣٢).

الشرح: قد جاء في الأثر: مَنْ زَنَى زُنِيَ به ولو في عقِب عقِبه(١).

وهذا قد جُرّب فوجد حقًّا، وقلّ مَنْ ترى مِقداماً على الزّنى إلا والقول في حَرَمه وأهلِه وذوي مَحارمه كثير فاشٍ.

والكلمة التي قالها عليه السلام حقّ لأنّ مَنْ اعتاد الزنى حتى صار دُرْبته وعادتَه وألفَتْه نفسه، لا بدّ أن يهون عليه حتى يظنّه مباحاً، أو كالمباح، لأنّ مَنْ تدرّب بشيء ومرَنَ عليه زال قبحه من نفسِه، وإذا زال قبحُ الزنى من نفسه لم يعظم عليه ما يقال في أهله، وإذا لم يعظم عليه ما يقال في أهله، فقد سقطت غيْرتُه.

- ٣١٢ -

الأصل: كَفَى بالأَجَلِ حَارِساً!

الشرح: قد تقدّم القول في هذا المعنى.

وكان عليه السلام يقول: إن عَليّ من الله جُنّة حصينة، فإذا جاء يَوْمي أسلمتْني، فحينئذ لا يَطِيش السَّهم، ولا يبرأ الكَلْم.

والقول في الأجل وكونه حارساً شُعْبة من شُعَب القول في القضاء والقَدَر، وله موضع هو أملَكُ به.

- ٣١٣ -

الأصل: يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَى الثُّكْلِ، وَلا يَنَامُ علَى الحَرْبِ.

قالَ السيّدُ: ومَعْنَى ذَلِكَ أنَّهُ يَصْبِرُ عَلَى قَتْلِ الأَوْلادِ، وَلا يَصْبِرُ عَلَى سَلْبِ الأَمْوَالِ.

الشرح: كان يقال: المال عِدْل النّفس.

وفي الأثر: أنّ مَنْ قُتِل من دون ماله فهو شهيد.

(١) أخرجه السيوطي في جامعه بما معناه رقم: ٨٧٢٣.

وقال الشاعر:

لَنَا إِبِلٌ غُرٌّ يضيق فَضاؤها ... ويغبرّ عنها أرضُها وسماؤها
فمن دونِها أن تُستباحَ دِماؤُنا ... ومِن دوننا أن تُستباح دماؤُها
حِمًى وقِرًى فالموت دون مَرامِها ... وأيسر أمر يومَ حُقّ فَناؤها

- ٣١٤ -

الأصل: مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الأَبْنَاءِ، وَالْقَرَابَةُ أَحْوَجُ إِلَى المَوَدَّةِ مِنَ المَودَّةِ إِلَى القَرَابَةِ.

الشرح: كان يقال: الحبّ يُتوارث، والبُغض يُتوارث.

وقال الشاعر:

أبقَى الضَّغَائِنَ آباءٌ لنا سلفُوا ... فلن تبِيدَ وللآباء أبناءُ

ولا خير في القرابة من دون مودّة.

وقد قال القائل لمّا قيل له: أيُّما أحبُّ إليك؟ أخوك أم صديقك؟ فقال: إنما أحبّ أخِي إذا كان صديقاً.

فالقربى محتاجة إلى المودّة، والمودة مستغنيةٌ عن القُربَى.

- ٣١٥ -

الأصل: اتَّقُوا ظُنُونَ المُؤْمِنينَ فَإِنَّ الله تَعَالَى جَعَل الحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

الشرح: كان يقال: ظَنُّ المؤمن كَهانة.

وهو أثرٌ جاء عن بعض السلف.

قال أوْس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يَظُنّ بك الظَّنَّ ... كأنْ قد رأى وقد سَمِعا

وقال أبو الطيّب:

ذَكِـيٌّ تَـغَـلْـغَـلَ فِـيـهِ طَـلِـيـعَـةُ عَـيْـنِـهِ ... يَـرَى قَـلْـبُـهُ فـي يـومـه مـا يَـرى غـدًا

- ٣١٦ -

الأصل: لا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ الله سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا في يدِهِ.

الشرح: هذا كلام في التوكّل، وقد سبق القول فيه.

وقال بعض العلماء: لا يشغَلك المضمونُ لك من الرّزق عن المفروض عليك من العَمل، فتضيّع أمرَ آخرتك، ولا تنال من الدنيا إلا ما كَتَب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ في جود العبد: الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال بعضهم: متى رضيتَ بالله وكيلاً، وجدت إلى كلّ خير سبيلاً.

- ٣١٧ -

الأصل: وقال عليه السلام لأنَسِ بنِ مالكٍ، وقد كان بَعَثَهُ إلى طلحةَ والزُّبير لمَّا جاء إلى البصرةِ يُذَكِّرُهُما شيئاً قد سمِعَهُ مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله في معناهُما، فلَوَى عن ذلك فرجَعَ إليه، فقالَ: إنِّي أُنسِيتُ ذَلِكَ الأمْرَ، فقال عليه السلام: إنْ كنتَ كاذباً فضرَبك الله بها بيضاءَ لامِعَةً لا تُوَاريها العِمامةُ.

قالَ: يعني البرصَ، فأصاب أنَساً هذا الدَّاءُ فيما بَعْدُ في وجهِهِ، فكانَ لا يُرَى إلا مُتبرْقعاً.

الشرح: المشهور أنّ علياً عليه السلام ناشد الناس الله في الرّحبة بالكوفة، فقال: أنشدكم الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لي وهو منصرف من حَجّة الوداع: «من كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ وَالِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه»[1] فقام رجال فشهدوا بذلك، فقال عليه السلام لأنس بن

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٦)، وأحمد كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٥٣).

مالك: لقد حضرتَها، فما بالُك! فقالَ: يا أمير المؤمنين كبرتُ سني، وصار ما أنساه أكثر مما أذكره، فقال له: إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العِمامة، فما مات حتى أصابه البرص.

فأما ما ذكره الرضيّ من أنه بعث أنساً إلى طلحة والزبير فغيرُ معروف، ولو كان قد بعثه ليذكّرهما بكلام يختصّ بهما منْ رسول الله ﷺ لما أمكنه أن يرجع، فيقول: إني أنسيتُه، لأنه ما فارقه متوجّهاً نحوهما إلا وقد أقرّ بمعرفته وذكره، فكيف يرجع بعد ساعة أو يوم فيقول: إني أنسيته، فينكر بعد الإقرار! هذا مما لا يقع.

وقد ذكر ابنُ قتيبة حديث البرص، والدعوة التي دعا بها أمير المؤمنين عليه السلام على أنس بن مالك في كتاب «المعارف» في باب البُرْص من أعيان الرجال، وابن قتيبة غير متّهم في حقّ عليّ عليه السلام، على المشهور من انحرافِه عنه.

- ٣١٨ -

الأصل: إنْ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالاً وَإِدْبَاراً، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ.

الشرح: لا ريب أنّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، وتُقبِل تارةً على العِلم وعلى العَمَل، وتُدبِر تارةً عنهما.

قال عليّ عليه السلام: فإذا رأيتموها مقبلة أي قد نشِطتْ وارتاحت للعمل فاحملوها على النّوافل، ليس يعني اقتصروا بها على النافلة، بل أدّوا الفريضة وتنفّلوا بعد ذلك. وإذا رأيتموها قد ملّت العمل وسئمتْ فاقتصروا بها على الفرائض، فإنه لا انتفاع بعمل لا يَحضُر القلبُ فيه.

- ٣١٩ -

الأصل: في الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ(١).

(١) هذا حديث: أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦)، وأحمد في كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب مسند علي بن أبي طالب (٧٠٦)، والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (٣٣٣١).

الشرح: هذا حق؛ لأن فيه أخبار القرون الماضية، وفيه أخبار كثيرة عن أمور مستقبلة، وفيه أخبار كثيرة شرعيّة؛ فالأقسام الثلاثة كلُّها موجودة فيه.

- ٣٢٠ -

الأصل: رُدُّوا الحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جاءَ، فإِنَّ الشَّرَّ لا يَدْفَعُهُ إِلَّا الشرّ.

الشرح: هذا مثل قولهم في المثل: إن الحديد بالحديد يُفلَح وقال عَمرو بن كُلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهل فوق جهلِ الجاهلينا

وقال الفِنْد الزِّمّانيّ:

فلما صرّح الشرّ ... فأمسى وهوَ عُريانُ
ولم يبقَ سِوى العدْوَا ... نِ دِنّاهمْ كما دانوا
وبعض الحلم عند الجهْـ ... ـل للذِّلّة إذْعان
وفي الشرّ نجاة حيـ ... ـن لا ينجِيك إحسانُ

وقال الأحنف:

وذِي ضِغْنٍ أمَتّ القولَ عنه ... بحلمي فاستمرّ على المَقالِ
ومن يَحلُم وليس له سفيهٌ ... يُلاقِ المعضلاتِ من الرّجالِ

وقال الراجز:

لا بد للسؤدد من أرماحِ ... ومِنْ عَديدٍ يتّقي بالرّاحِ
ومن سفيهٍ دائم النُّباحِ

وقال آخر:

ولا يلبثُ الجُهّال أن يتهضّمُوا ... أخا الحلم ما لم يستعِنْ بجَهُولِ

وقال آخر:

ولا أتمنّى الشرَّ والشرُّ تارِكي ... ولكن مَتى أُحْمَلْ على الشرّ أركبُ

- ٣٢١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لِكاتِبِهِ عُبَيْدِ اللّهِ بنِ أبي رَافِعٍ:

أَلِقْ دَوَاتَكَ، واطِلْ جِلْفَةَ قَلَمِكَ، وفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ، وقَرْمِطْ بَيْنَ الحُرُوف فإنَّ ذَلِكَ أَجْدَرُ بِصبَاحَةِ الخَطِّ.

الشرح: لاقَ الحِبرُ بالكاغَد يليق، أي التصق، ولِقْتُه أنا يتعدّى ولا يتعدّى، وهذه دواة مليقة: أي قد أُصلح مدادُها، وجاء ألقِ الدّواة إلاقةً فهي مُلِيقة، وهي لغة قليلة وعليها وردتْ كلمة أمير المؤمنين عليه السلام.

ويقال للمرأة إذا لم تحظ عند زوجها: ما عاقتْ عند زوجها ولا لاقَتْ، أي ما التصقت بقلبه.

وتقول: هي جِلْفة القلم بالكسر، وأصل الجَلف القَشر، جلفتُ الطِّين من رأس الدنّ، والجِلْفة هيئة فتحَة القلم التي يستمدّ بها المداد، كما تقول: «هو حَسن الرِّكْبة والجِلسة ونحو ذلك من الهيئات.

وتقول: قد قرمط فلانٌ خطوَه إذا مشى مشياً فيه ضِيق وتقَارُب، وكذلك القول في تضييق الحروف.

فأما التفريج بين السطور فيُكسِب الخطَّ بهاءً ووضوحاً.

- ٣٢٢ -

الأصل: أنا يَعْسُوبُ المُؤْمنينَ، والمَالُ يَعْسُوب الفُجَّارِ.

قالَ: مَعْنَى ذَلِكَ أنَّ المؤمِنِينَ يَتْبَعُونَني، والفُجّار يَتْبَعُون المَالَ، كما تَتْبَعُ النَّحْلُ يَعْسُوبَها، وهُوَ رئيسُها.

الشرح: هذه كلمةٌ قالها رسول الله صلى الله عليه وآله بلفظين مختلفين، تارةً: «أنت يعسوب الدِّين»[1]

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ٦٧.

وتارة: «أنت يعسوب المؤمنين»[1]، والكلّ راجع إلى معنًى واحد، كأنه جعله رئيس المؤمنين وسيّدَهم، أو جعل الدِّين يتبعه، ويقفُو أثرَه، حيث سلك كما يتبع النحلُ اليعسوبَ.

وهذا نحو قوله: «وأدِرِ الحقَّ معه كيف دارَ»[2].

- ٣٢٣ -

الأصل: وقالَ لبعضِ اليهودِ حينَ قالَ لهُ: ما دَفَنْتُمْ نَبِيَّكُمْ حَتَّى اخْتَلَفْتُمْ فيه فقالَ لهُ:

إنَّما اخْتَلَفْنا عَنْهُ لا فِيهِ، وَلَكِنَّكُمْ ما جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[3].

الشرح: ما أحسن قوله: «اختلفنا عنه لا فيه»، وذلك لأنّ الاختلاف لم يكن في التوحيد والنبوّة، بل في فُروع خارجة عن ذلك، نحو الإمامة والميراث، والخلاف في الزكاة هل هي واجبة أم لا، واليهود لم يختلفوا كذلك، بل في التوحيد الذي هو الأصل.

قال المفسرون: مرُّوا على قوم يعبدون أصناماً لهم على هيئة البقَر، فسألوا موسى أن يجعلَ لهم إلهاً كواحد منها، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام، وخلاصِهم من رقّ العبوديّة، وعبورهم البحر، ومشاهدةِ غَرَق فرعون، وهذه غاية الجهل.

وقد روي حديث اليهوديّ على وجه آخر، قيل: قال يهوديٌّ لعليّ عليه السلام: اختلفتم بعد نبيّكم ولم يجفّ ماؤه - يعني غسله - صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: وأنتم قلتم: اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ولما يجفّ ماؤكم.

(١) أخرجه البزار في «المسند» (٣٨٩٨)، والطبراني بنحوه في «المعجم الكبير» (٦١٨٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٢٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

- ٣٢٤ -

الأصل: وقِيلَ لَهُ عليه السلام: بأيِّ شيءٍ غَلَبْتَ الأقْرانَ؟ قالَ: مَا لَقِيتُ أحَداً إلا أعانَني على نَفْسِهِ.

قالَ الرَّضيُّ رحمهُ الله تعالى: يُومِئُ بِذَلِكَ إِلَى تَمَكُّنِ هَيْبَتِهِ في القُلُوبِ.

الشرح: قالت الحكماء: الوهم مؤثّر، وهذا حقّ، لأن المريض إذا تقرّر في وهمه أن مرضه قاتل له ربّما هلك بالوَهم، وكذلك مَنْ تلسبُه الحيّة، ويقع في خياله أنها قاتلته، فإنه لا يكاد يسلم منها، وقد ضربوا لذلك مثالاً، الماشي على جِذْع معترض على مهواة، فإن وهمه وتخيُّله السقوط يقتضي سقوطه، وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المهْواة كمشيه عليه وهو ملقًى على الأرض، لا فرق بينهما إلّا الوَهْم والخوف والإشفاق والحذَر، فكذلك الذين بارزوا عليًّا عليه السلام من الأقران، لما كان قد طار صيتُه، واجتمعت الكلمة أنه ما بارزه أحد إلا كان المقتول، غلب الوهم عليهم، فقصرت أنفسهم عن مقاومته، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته، وكان هو في الغاية القصوَى من الشّجاعة والإقدام، فيقتحم عليهم ويقتلهم.

- ٣٢٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لابْنِهِ: يا بُنَيَّ إنِّي أخافُ عَلَيْكَ الفَقْرَ، فاسْتَعِذْ بالله مِنْهُ، فإنَّ الفَقْرَ مَنْقَصَةٌ للدِّين، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ.

الشرح: هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيراً، ففضّل قومٌ الغنى، وفضّل قومٌ الفقر.

فقال أصحاب الغنى: قد وصف الله تعالى المال، فسمّاه خيراً، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾[(١)].

وقال ممتنًّا على عباده، وواعداً لهم بالإنعام والاحسان: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾[(٢)].

وقال: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾[(٣)].

(١) سورة صٓ، الآية: ٣٢.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٢.

(٣) سورة المدثر، الآية: ١٢.

وقال النبي ﷺ: «المال الحسَب، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال»(١).

وقال ﷺ: «نعم العون على تقوى الله المال»(٢).

قالوا: ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيّأ حصولها إلا بالمال، كالحجّ والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد.

وقد جاء في الخبر: «خير المال سِكة مأبورة أو مُهرة مأمورة»(٣).

وقالت الحكماء: المال يرفعُ صاحبَه وإن كان وضيعَ النسب، قليل الأدب وينصره وإن كان جباناً، ويبسط لسانه وإن كان عيًّا، به تُوصَل الأرحام، وتصانُ الأعراض، وتظهر المروءة، وتتمّ الرياسة، ويعمر العالم، وتُبلغ الأغراض، وتدرَك المطالب، وتُنال المآرب، يصلك إذا قطعك النَّاس، وينصرك إذا خذلوك، ويستعبد لك الأحرار، ولولا المال لما بان كرمُ الكريم، ولا ظهر لؤم اللَّئيم، ولا شُكِر جواد، ولا ذُمّ بخيل، ولا صِين حريم، ولا أدرك نعيم.

وقال الشاعر:

المال أنفعُ للفتى من عِلْمه ... والفقرُ أقتلُ للفتى من جَهْلِهِ
ما ضرّ مَنْ رفع الدّراهمُ قدرَه ... جهلٌ يناط إلى دناءةِ أصلِه

وقال آخر:

دعوتُ أخي فولّى مشمئزًّا ... ولَبّى دِرهمي لمَّا دَعوتُ

وقال آخر:

ولم أر أوفى ذِمّةً من دراهمي ... وأصدقَ عَهْداً في الأمور العظائِم
فكم خانني خلٌّ وثقتُ بعهدِه ... وكان صديقاً لي زمانَ الدّراهم

وقال آخر:

أبو الأصفر المنقوش أنفعُ للفتى ... من الأصل والعِلم الخطير المقدّم
وما مدح العلمَ امرؤٌ ظفرتْ به ... يَداه ولكنْ كلُّ مُثْرٍ ومعدِم

وقال الشاعر:

ولم أر بعد الدّين خيراً من الغِنى ... ولم أرَ بعد الكفر شرًّا من الفقرِ

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب: النكاح، باب: الحسب (٣٢٢٥)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٤٨١).
(٢) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١٣١٧).
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٤١٨)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ٦٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٤٧٠).

وقال العتّابيّ: الناس لصاحب المال ألزمُ من الشّعاع للشمس، وهو عندهم أرفع من السماء، وأعذب من الماء، وأحلى من الشّهد، وأزكى من الوَرْد، خطؤه صواب، وسيئته حسنة. وقوله مقبول، يُغشَى مجلسه، ولا يُمَلّ حديثُه، والمفلس عندهم أكذب من لمَعان السّراب، ومن رؤيا الكِظّة، ومن مرآة اللّقوة، ومن سحاب تَمُّوز، لا يسأل عنه إن غاب، ولا يسلَّم عليه إذا قدم، إن غاب شتموه، وإن حضر طردوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة، أثقل من الأمانة، وأبغض من السائل المبرِم.

وقال بعض الشعراء الظرفاء، وأحسن كل الإحسان مع خلاعته:

أصونُ دراهمي وأذُبّ عنها ... لِعلمِي أنها سَيْفي وتُرسي
وأذخرُها وأجمعُها بجهدِي ... ويأخذ وارثي منها وعُرسي
فيأكلها ويشربُها هنيئاً ... على النّغمات من نَقْر وَجَسّ
ويقعد فوق قبري بعد موتي ... ولا يتصدقنْ عنّي بفَلْسِ
أحبّ إليَّ من قصدي عظيماً ... كبيراً أصله من عبد شمسِ
أمدّ إليه كفّي مستميحاً ... وأُصْبِحُ عَبْدَ خدمته وأمسِي
ويتركني أجرّ الرّجلَ مِنّي ... وقد صارت كنفس الكلب نفسِي

وقال أصحاب الفقر: الغِنَى سبب الطغيان، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾(٢).

وكان يقال: الغنى يورث البَطَر، وغنى النفس خيرٌ من غنى المال.

وقال محمود البقّال:

الفقر خيرٌ فاتّسِعْ واقتصدْ ... إنّ من العِصْمَةِ ألّا تجِدْ
كَمْ واجدٍ أطلق وجدانُه ... عنانَه في بعض ما لم يُرِدْ
ومُدْمِنٍ للخمر غادٍ على ... سماع عُودٍ وغناءٍ غَرِدْ
لو لم يجدْ خمراً ولا مُسمعاً ... يردّ بالماء غليلَ الكَبِدْ
كَمْ من يدٍ للفقر عند امرئٍ ... طأطأ منه الفقر حتّى اقتصدْ

وكان يقال: الفقر شعار الصالحين، والفقر لباس الأنبياء.

ولذلك قال البحتري:

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.

فقرٌ كفقر الأنبياء وغربةٌ وصبابةٌ ليس البلاءُ بواحد

وكان يقال: الفقر مُخِفّ، والغنى مُثقل.

وفي الخبر: نجا المخفّون.

وما أحسن قول أبي العتاهية:

ألَمْ تر أنّ الفقر يُرجَى له الغنى وأن الغنى يُخْشَى عليه من الفقرِ

وقد ذم الله تعالى المال، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾[1].

وكان يقال: المال ملول، المال ميّال، المال غاد ورائح، طبع المال كطبع الصبيّ، لا يوقف على وقت رضاه ولا وقت سخطه. المال لا ينفعك حتى يفارقك.

وإلى هذا المعنى نظر القائل:

وصاحبِ صدقٍ ليس ينفع قربُه ولا ودّه حتّى تفارقَه عَمْدا

يعني الدينار.

وَمَا أَحْسَنَ ما قاله الأوّل:

وقد يُهْلِكُ الإنسانَ حسنُ رِياشِه كما يُذْبَح الطّاوُس من أجل ريشِهِ

وقال آخر:

رُوَيْدَكَ إنّ المال يُهلِك ربَّه إذا جمّ واستعلى وسُدَّ طريقُهُ

ومن جاوزَ الماء الغزير فمَجّهُ وسدَّ طريقَ الماء فهو غريقُهُ

- ٣٢٦ -

الأصل: وقال لسائل سأله عن مسألة:

سَلْ تَفَقُّهاً، وَلا تَسْأَلْ تَعَنُّتاً، فَإِنَّ الجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ، وَإِنَّ العَالِمَ الْمُتَعَنِّتَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ.

الشرح: قد ورد نهيٌ كثير عن السؤال على طريق الإعنات.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: منْ حقّ العالم ألّا تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنِته في

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥.

الجواب، ولا تضع له غامضات المسائل، ولا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تُفْشِ له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تنقلنّ إليه حديثاً، ولا تطلبنّ عثرته، وإن زلّ قبلت معذرتَه، وعليك أن توقّره وتُعظّمه لله ما دام حافظاً أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته[1].

وقال ابن سيرين لسائل سأله: سل أخاك إبليس، إنّك لنْ تسأل وأنت طالب رشد.

وقالوا: اللهمّ إنا نعوذ بك أن تُعنِت كما نعوذ بك أن نُعْنَت، ونستكفيك أن تفضَح، كما نستكفيك أن نَفضَح.

وقالوا: إذا آنس المعلّم من التلميذ سؤال التعنُّت حَرُم عليه تعليمه.

- ٣٢٧ -

الأصل: وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِعَبْدِ اللّهِ بنِ العَبَّاسِ رَضِيَ الله عَنْهُ وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي شَيْءٍ لَمْ يُوَافِقْ رَأْيَهُ: لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى فَإِذَا عَصَيْتُكَ فَأَطِعْنِي.

الشرح: الإمام أفضل من الرعيّة رأياً وتدبيراً، فالواجب على مَن يشير عليه بأمرٍ فلا يقبل أن يطيعَ ويسلّم ويعلم أن الإمام قد عرَف من المصلحة ما لم يعرف.

ولقد أحسن الصابي في قوله في بعض رسائله: ولولا فضلُ الرّعاة على الرّعايا في بُعْدِ مَطْرَح النظرة، واستشفاف غيب العاقبة، لتساوت الأقدام، وتقاربت الأفهام، واستغنى المأموم عن الإمام.

- ٣٢٨ -

الأصل: وَرُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا وَرَدَ الْكُوفَةَ قَادِماً مِنْ صِفِّينَ مَرَّ بالشبامِيِّينَ، فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ عَلَى قَتْلَى صِفِّين، وَخَرَجَ إِلَيْهِ حَرْبُ بنُ شرَحْبِيلِ الشِّباميّ، وَكَانَ مِنْ وُجُوهِ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ أَلا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذَا الرَّنِينِ!

(١) أخرجه البري في الجوهرة في نسب الإمام علي: ٨٤.

وَأَقْبَلَ حَرْبٌ يَمْشِي مَعَهُ وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلامُ رَاكِبٌ، فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ.

الشرح: قد ذكرنا نسب الشباميّين فيما اقتصصناه من أخبار صفّين في أول الكتاب.

والرّنين: الصوت، وإنما جعله فتنة للوالي لما يتداخله من العُجب بنفسه والزّهو، ولا ريب أيضاً في أنه مذلّة للمؤمن، فإنّ الرّجل الماشي إلى ركاب الفارس أذلّ الناس.

- ٣٢٩ -

الأصل: وقال عليه السلام وقدْ مرَّ بقتلى الخوارجِ يومَ النَّهروان: بُؤساً لكم! لقد ضَرَّكُمْ من غرَّكُمْ.

فقيل له: مَنْ غرّهم يا أميرَ المؤمنين؟

فقال: الشّيطانُ المضِلّ، والنَّفْسُ الأمّارةُ بالسُّوءِ؛ غرَّتهم بالأمانيّ، وفَسَحَتْ لهم في المعاصي، ووعدتهم الإظهارَ؛ فاقتحمتْ بهم النّار.

الشرح: يقَالُ: بؤسى لزيد وبؤساً «بالتنوين» لزيد، فبؤسى نظيره نُعمَى، وبؤساً نظيره نعمةً، ينتصب على المصدر.

وهذا الكلام ردّ على المجبّرة، وتصريح بأن النفس الأمّارة بالسوء هي الفاعلة. والإظهار: مصدر، أظهرته على زيد، أي جعلته ظاهراً عليه غالباً له، أي وعدتهم الانتصار والظفر.

- ٣٣٠ -

الأصل: اتَّقُوا معَاصِيَ الله في الخَلَوَاتِ، فإنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الحاكِمُ.

الشرح: إذا كان الشاهد هو الحاكم استغنَى عمّن يشهد عنده، فالإنسان إذن جديرٌ أن يتّقي الله حقّ تُقَاته، لأنه تعالى الحاكم فيه وهو الشاهد عليه.

- ٣٣١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لما بلَغه قتلُ محمّدِ بن أبي بَكرٍ رضيَ الله عنهُ:

إنَّ حزنَنا عَلَيْهِ على قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إلّا أنَّهُمْ نُقِصُوا بغيضاً، ونُقِصْنَا حَبِيباً.

الشرح: قد تقدّم ذكر مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه.

وقال عليه السلام: إن حزننا به في العِظَم على قدر فَرَحِهم به، ولكنْ وَقع التفاوت بيننا وبينهم من وجه آخر، وهو أنّا نقصنا حبيباً إلينا، وأما هم فنقصوا بغيضاً إليهم.

فإن قلت: كيف نقصوا، ومعلوم أن أهل الشام ما نقصوا بقتل محمّد شيئاً لأنه ليس في عددهم!

قلت: لمّا كان أهل الشام يعدُّون في كل وقت أعداءهم وبغضاءهم من أهل العراق، وصار ذلك العدد معلوماً عنده محصور الكميّة، نقصوا بقتل محمد من ذلك العدد واحداً، فإنّ النقص ليس من عدد أصحابهم، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربّصون بهم الدوائر، ويتمنَّوْن لهم الخُطوب والأحداث، كأنّه يقول: استراحوا من واحدٍ من جملة جماعةٍ كانوا ينتظرون موتهم.

- ٣٣٢ -

الأصل: وقال عليه السلام: الْعُمُر الَّذِي أعْذَرَ الله فيهِ إلى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً.

الشرح: أعذَرَ الله فيه، أي سَوّغ لابن آدم أن يَعتذِر، يعني أنّ ما قبل السّتّين هي أيّام الصِّبا والشبيبة والكُهولة، وقد يُمكن أن يُعذر الإنسانُ فيه على اتّباع هَوَى النفس لغَلَبة الشّهوة وشَرَه الحَداثة، فإذا تَجاوَز السّتّين دخَل في سِنّ الشَّيْخُوخة، وذهبتْ عنه غُلَواء شِرَّتِه، فلا عُذرَ له في الجهل.

وقد قالت الشعراء نحو هذا المعنى في دُون هذه السِّنّ الّتي عَيّنها عليه السلام.

وقال بعضهم:

إذا ما المرءُ قَصَّر ثمّ مرّتْ ... عليه الأربعونَ عن الرّجالِ

ولم يَلحَق بصالحهم فَدعْهُ ... فليسَ بلاحِقٍ أُخرى اللّيالي

- ٣٣٣ -

الأصل: ما ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الإثمُ بِهِ، والغالبُ بالشرّ مغلوبٌ.

الشرح: قد قال عليه السلام نحوَ هذا، وذكَرْناه في هذا الكتابِ: مَنْ قَصَّر في الخصومة ظُلِم ومَنْ بالَغ فيها أَثِم.

- ٣٣٤ -

الأصل: إنَّ الله سُبْحانَهُ فَرَضَ في أَمْوَالِ الأَغْنياءِ أَقْوَاتَ الفُقَرَاءِ، فما جاعَ فَقِيرٌ إلّا بِما مُتِّعَ بهِ غَنِيٌّ، والله تعالى جَدّهُ سائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في الصَّدَقة وفضلِها وما جاء فيها.

وقد ورد في الأخبار الصَّحيحة أنّ أبَا ذَرّ قال: انتهيتُ إلى رسولِ الله ﷺ وهو جالس في ظِلّ الكعبة، فلمّا رآني قال: «هم الأخسَرون وربِّ الكعبة» فقلت: مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومِن خلفِه وعن يمينه وعن شماله، وقليلٌ ما هُم، ما مِن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدّي زكاتَها إلا جاءت يوم القيامة أعظمَ ما كانت وأسمَنَه، تَنطَحُه بقُرونها، وتطؤه بأظلافها، كلّما نَفِدَتْ أخراها عادَتْ عليه أولاها حتى يقضي الله بين الناس»[1]...

- ٣٣٥ -

الأصل: الاسْتِغْنَاءُ عَنِ العُذْرِ، أعَزُّ مِنَ الصِّدْقِ بِهِ.

(١) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٨)، وبلفظ المؤلف أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩٠)..

الشرح: رُوِيَ «خيرٌ مِن الصِّدق»، والمعنى: لا تَفْعل شيئاً تعتذِر عنه وإن كنت صادقاً في العُذْر، فالّا تفعل خيرٌ لك وأعزُّ لك من أن تفعَل ثمّ تعتذر وإن كنتَ صادقاً.

ومِن حِكَم ابن المعتزّ: لا يقوم عِزُّ الغضب بذلّ الاعتذار.

وكان يقال: إيّاك أن تقومَ في مقامِ مَعْذِرة، فربَّ عذرٍ أسجَل بذَنْب صاحبه.

اعتذَر رجلٌ إلى يحيى بن خالد، فقال له: ذَنْبك يستغيثُ مِن عُذْرك.

ومن كلامِهم: ما رأيت عُذْراً أشبَه بذَنْب مِن هذَا.

ومن كلامهم: أضرِبُه عَلى ذَنْبه مائةً، وأضربُهُ على عُذْره مائتين.

قال شاعرهم:

إذا كـان وجـهُ الـعُـذْر لـيـس بـواضـحٍ   فـإنّ اطّـراحَ الـعُـذْر خـيـرٌ مـن الـعُـذْرِ

كان النَّخَعيّ يكره أن يُعتذَر إليه ويقول: اسكُت مَعْذوراً، فإنّ المعاذيرَ يحضُرها الكَذِب.

– ٣٣٦ –

الأصل: أقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لله سُبْحَانَهُ ألّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

الشرح: لا شُبْهةَ أنّ من القبيح الفاحشِ أن يُنعِم المَلِك على بعضِ رَعِيّته بمالٍ وعبيدٍ وسلاحٍ، فيَجعلَ ذلك المالَ مادّةً لِعصيانه والخروج عليه، ثمّ يُحارِبه بأولئك العبيد، وبذلك السلاح بعينه.

وما أحسَنَ ما قال الصابي في رسالتِه إلى سُبُكْتُكِين من عِزّ الدّولة بخْتيار: وليْت شِعري بأيّ قَدَم تَوَاقَفْنا ورايَاتُنا خافقة على رأسِك، ومماليكُنا عن يَمينِك وشمالِك، وخيلُنا موسومةٌ بأسْمائنا تحتَك، وثيابُنا مَحُوكَة في طِرازِنا على جَسَدك، وسلاحُنا المَشْحوذُ لأعدائِنا في يَدِك!

– ٣٣٧ –

الأصل: إنَّ الله سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غنِيمَة الأكْيَاسِ عنْدَ تَفْرِيطِ العَجَزَةِ.

الشرح: الأكياس: العُقَلاء أولُو الألباب.

قال عليه السلام: جعلَ الله طاعَته غنيمةَ هؤلاء، إذا فرّط فيها العَجَزة المَخْذلون من النّاس، كصَيْدٍ استذفَ لرَجُلين: أحدُهما جَلْد والآخَر عاجز، فقعَد عنه العاجز لعَجزه وحِرْمانه، واقْتَنصه الجَلْد لشَهامتِهِ وقوّة جدّه[1].

- ٣٣٨ -

الأصل: السُّلْطَانُ وَزَعَةُ الله فِي أَرْضِهِ.

الشرح: الوازعُ عن الشيء: الكافُّ عنه، والمانعُ منه، والجمع وَزَعة، مِثل قاتِل وقَتَلة. وقد قيل هذا المَعنَى كثيراً، قالوا: لا بدّ للنّاس مِن وَزَعَة.

وقيل: ما يَزَع الله عن الدين بالسّلطان أكثرُ ممّا يَزَع عنه بالقرآن. وتُنسَب هذه اللّفظة إلى عُثمان بنِ عفّان.

قال الشاعر:

لا يَصلُح الناسُ فَوضَى لا سَرَاةَ لهمْ ... ولا سَراةَ إذا جُهّالُهم سادُوا

وكان يقال: السّلطان القاهر وإن كان ظالماً خيرٌ للرّعيّة وللملك من السّلطان الضعيف وإن كان عادِلاً.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[2].

قالوا في تفسيره: أراد السلطان.

- ٣٣٩ -

الأصل: وقال عليه السلام في صفة المؤمن: بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ. أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً. يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ. طَوِيلٌ غَمُّهُ، بَعِيدٌ هَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ،

(١) في ديوانه: ١٠ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

مَشْغُولٌ وَقْتُهُ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ الخَلِيقَةِ، لَيِّنُ العَرِيكَةِ، نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ، وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ العَبْدِ.

الشرح: هذه صفاتُ العارِفين، وقد تقدّم كثيرٌ من القول في ذلك.

وكان يقال: البِشر عُنوان النّجاح، والأمْر الذي يختصّ به العارفُ أن يكونَ بِشْرُه في وَجْهه وهو حزين وحُزْنُه في قلبه، وإلّا فالبِشْر قد يوجَد في كثيرٍ من الناس.

ثمّ ذكر أنّه أوسَع الناس صَدْراً، وأذَلّهم نَفْساً، وأنه يَكرَه الرّفعة والصّيت.

وجاء في الخَبَر في وصفهم: «كلّ خامِلٍ نُومَة».

وطولُ الغَمّ وبُعد الهمّ من صِفاتهم، وكذلك كَثرةُ الصّمت وشَغْل الوَقْت بالذّكر والعِبادة، وكذلك الشّكر والصّبر والاستغراق في الفِكْر وتدبُّر آياتِ الله تعالى في خَلْقه، والضَنّ بالخلّة وقلّة المخالطة والتوفّر على العُزْلة وحُسْن الخُلُق ولِين الجانب، وأن يكون قَوِيّ النفس جدًّا، مع ذُلّ لِلناس وتَواضُع بينهم، وهذه الأمور كلُّها قد أتى عليها الشّرح فيما تقدّم.

– ٣٤٠ –

الأصل: الغِنَى الأَكْبَرُ اليَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

الشرح: هذه الكلمة قد رُوِيتْ مرفوعةً، وقد تقدّم القولُ في الطّمع وذَمّه، واليأسِ ومَدْحِه.

وفي الحديث المرفوع: «ازْهَدْ في النّاس يُحبّك الله، وازْهَدْ فيما في أيدِي الناسِ يُحبّك الناس»[1].

ومن كلامِ بعضِهم: ما أكلتُ طعامَ واحدٍ إلّا هُنتُ عليه. وكان يقال: نَعُوذُ بالله من طَمَعٍ يُدْني إلى طَبَع.

وقال الشاعر:

أرَحْتُ رُوحي من عَذابِ المِلاحْ   لليأسِ روح مِثل روح النَّجاحْ

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٩٧٢)، والشهاب في «مسنده» (٦٤٣).

وقال بعضُ الأدباء: هذا المعنى الّذي قد أطنَبَ فيه الناسُ ليس كما يزعمونه، لَعمْري إنّ لليأس راحة، ولكن لا كَراحةِ النّجاح، وما هوَ إلّا كقَولِ مَن قال: لا أدرِي نِصفُ العِلم، فقيل له: ولكنّه النّصف الّذي لا يَنفَع!

وقال ابن الفضل:

لا أمـدَحُ الـيـأسَ ولـكـنّـه ... أرْوَحُ لـلـقَـلْـب مِـن الـمَـطـمَـعِ
أفـلـحَ مـن أبـصـر رَوْضَ الـمُـنَـى ... يُـرْعَـى فـلَـم يَـرْعَ ولـم يَـرْتَـعِ

وممّا يُروَى لعبد اللّه بن المُبارَك الزاهد:

قـد أرحْـنـا واسـتَـرَحْـنـا ... مِـن غُـدُوٍّ ورَواحِ
واتّـصـالٍ بـأمـيـرٍ ... ووزيـرٍ ذي سَـمَـاحِ
بـعَـفـافٍ وكَـفـافٍ ... وقُـنـوعٍ وصَـلاحِ
وجَـعـلْـنـا الـيـأسَ مِـفْـتـا ... حـاً لأبـوابِ الـنَّـجـاحِ

- ٣٤١ -

الأصل: المَسْؤول حُرٌّ حَتَّى يَعِد.

بعض ما قيل في الوعد والمطل

الشرح: قد سَبَقَ القولُ في الوَعد والمَطْل. ونحن نذكر هاهنا نُكَتاً أخرى: في الحديث المرفوع: «مَن وَعَدَ وَعْداً فكأنما عَهِد عَهْداً»(١).

وكان يقال: الوعدُ دَيْن الكِرام، والمَطْل دَيْن اللّئام.

وكان يقال: الوعد شَبَكة من شِباك الأحرار يتصيّدون بها المَحامِد.

وقال بعضُهم: الوعد مرض المعروف، والإنْجاز بُرْؤه.

وقال يحيى بنُ خالد: الوعد سَحاب، والإنجاز مَطَرُه.

وفي الحديث المرفوع «عِدَة المؤمن عطيّة»(٢).

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٣٧٨).
(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وروى الديلمي في «مسنده» (٤١١٢): «عدة المؤمن دين».

وعنه ﷺ: «لا تُواعِد أخاك موعداً لتُخلِفَه»(١).

وقال يحيى بن خالد لبنيه: يا بَنِيّ، كونوا أُسْداً في الأقوال، نُجّازاً في الأفعال، ولا تَعِدُوا إلّا وتُنجزوا، فإنّ الحُرّ يثق بوعْد الكَرِيم، وربما أدّان عليه.

وكان جعفرُ بنُ يَحيى يَكْره الوَعْد ويقول: الوعد من العاجز، فأمّا القادر فالنَّقْد.

وفي الحديث المرفوع: «مَطْل الغَنِيّ ظُلْم»(٢).

وقال ابن الفضل:

أثْرَوْا ولم يَقْضوا دُيونَ غَريمهمْ ... واللّؤمُ كلُّ اللّؤم مَطلُ المُوسِرِ

وقال الآخر:

إذا أتَت العطيّةُ بعدَ مَطْلٍ ... فلا كانت وإن كانتْ سَنِيّهْ

وكان يقال: المَطْل يَسُدّ على صاحِبه بابَ العُذْر، ويوجِب عليه الأحْسَن والأكْثر، والتّعجيل يُحسِّن سيّئه، ويبسُط عُذْرَه في التّقليل.

وقال يحيى بن خالد لبَنيه: يا بَني لا تمطُلوا مَعروفكم، فإن كثير العَطاء بعدَ المَطْل قليل، وعجّلوا فإنّ عُذْرَكم مقبول مع التعجيل.

ومن كلام الحَسَن بن سَهْل: المَطْل يُذهِب رَوْنَق البِرّ، ويكدِّر صَفْوَ المعروف، ويُحبِط أجر الصَّدَقة، ويَعقِل اللّسان عن الشكر. وللتعجيل حلاوة وإن قلّت العارفة، ولذّةٌ وإن صَغُرت الصَّنِيعة، وربمَا عَرَض ما يَمنَع الإنْجازَ مِن تعذُّرِ الإمكان، وتغيُّر الزمان، فبادر المُكْنَة، وعاجِل القُدْرة، وانتهز الفُرْصة.

وقال الشاعر:

تُحِيلُ على الفَراغ قَضاء شُغْلِي ... وأنتَ إذا فَرَغْتَ تكونُ مِثلي

فلا أُدعى بخادِمك المُرَجّى ... ولا تُدْعى بسَيّدِنا الأجلّ

وقال آخر:

لو عَلم الماطلُ أنّ المِطالْ ... فَقْدٌ به يذهب طَعْم النَّوالْ

وأنَّ أعْلى البِرّ ما نالهُ ... طالبُه نَقْداً عَقِيبَ السؤالْ

---

(١) أخرجه ابن سلامة في مسند الشهاب رقم: ٩٣٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الحوالات، باب: الحوالة وهل يرجع في الحوالة (٢٢٨٧)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم مطل الغني وصحة الحوالة (١٥٦٤).

عَجِّلْ لِلسائِلِ معروفَه ... مهنّأً من طُولِ قيلٍ وقالْ

- ٣٤٢ -

الأصل: لو رَأى العَبْدُ الأَجَلَ ومَصِيرَهُ، لأَبْغَضَ الأَمَلَ وغُرُورَهُ.

الشرح: قد تقدّم من الكلام في الأمل ما فيه كفاية.

وكان يقال: واعجباً لصاحِبِ الأَمَل الطّويل! وربما يكون كَفَنُهُ في يد النّسّاج وهو لا يَعلم.

- ٣٤٣ -

الأصل: لِكُلِّ امْرِئٍ في مالِهِ شَرِيكَانِ: الوَارِثُ والحوَادِثُ.

الشرح: أَخَذَه الرَّضيُّ فقال:

خُذْ من تُراثِك ما استطعتَ فإنما ... شُركاؤك الأيامُ والورّاثُ

لم يقضِ حقَّ المالِ إلا مَعشَرٌ ... نظروا الزمانَ يعيثُ فيه فعاثُوا

وقد قال عَلَيْتَلِا في موضعٍ آخَر: بَشِّرْ مالَ البخيل بحادِثٍ أو وارث.

ورأيتُ بخطّ ابن الخَشاب رحمه الله على ظهر كِتاب «العَبدِ اللّه بن أحمد بن أحمد بن أحمد ثمّ لحادِثٍ أو وارث»، كأنّه يَعني ضَنَّه به، أي لا أُخرِجه عن يَدِي اختياراً.

- ٣٤٤ -

الأصل: الدَّاعِي بلا عَمل، كالرَّامِي بلا وَتَرٍ.

الشرح: مَنْ خَلا من العَمَل فقد أخَلّ بالواجبات، ومن أخَلّ بالواجبات فقد فَسَق، والله تعالى لا يَقبل دُعَاءَ الفاسق.

وشَبَّهه عليه السلام بالرّامي بلا وَتر، فإن سهمَه لا يَنفذ.

- ٣٤٥ -

الأصل: الْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ، وَلا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ، إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ.

الشرح: هذه قاعدةٌ كلّيّة مذكورةٌ في الكتب الحكمية، إن العلومَ منها ما هو غَريزيّ، ومنها ما هو تَكْليفي، ثمّ كلُّ واحدٍ من القِسْمين يَختلِف بالأشدّ والأضعف، أما الأوّل فقد يكون في الناس من لا يحتاج في النّظر إلى ترتيب المقدّمات، بل تَنْساق النتيجةُ النظريّة إليه سَوْقاً من غير احتياج منه إلى التأمّل والتدبر، وقد يكون فيهم مَنْ هُو دونَ ذلك، وقد يكونُ من هُو دُون الدُّون، وأما الثاني فقد يكون في الناس من لا يُجدي فيه التعليم، بل يكونُ كالصّخرة الجامدةِ بلادةً وغباوةً، ومنهم من يكون أقلّ تبلُّداً وجُنوحَ ذهْن من ذلك، ومنهم مَنْ يكون الوقْفة عندَه أقلّ، فيكون ذا حالٍ متوسّطة، وبالجملة فاسْتِقراء أحوالِ النّاس يَشْهد بصحّة ذلك.

وقال عليه السلام: ليس يَنفَع المسموعُ، إذا لم يكن المطبوع، يقول: إذا لم يكن هناك أحوالُ استعدادٍ لم ينفَع الدّرْس والتّكرار، وقد شاهدْنا مِثلَ هذا في حَقّ أشخاصٍ كثيرة اشتَغلوا بالعلم الدّهْر الأطولَ، فلم ينجَعْ معهم العِلاج، فارقوا الدّنيا وهم على الغرِيزة الأولى في الساذجية وعَدَم الفَهْم.

- ٣٤٦ -

الأصل: صَوَابُ الرَّأْي بالدُّوَلِ يُقْبِلُ بإِقْبالِهَا، وَيُدْبِرُ بإِدْبَارِهَا.

الشرح: قال الصُّوليُّ: اجتَمَع بنو برْمَك عند يحيى بن خالد في آخِر دَوْلتهم وهم يومئذ عشرة، فأدارُوا بينهم الرأيَ في أمرٍ فلم يصلُحْ لهم، فقال يحيى: إنا لله! ذهبتْ والله دولتُنا! كنّا في إقبالنا يُبرِم الواحدُ منّا عَشْرة آراء مُشكلة في وقت واحد، واليومَ نحنُ عَشرة في أمرٍ غيرِ مُشكل، ولا يَصِحّ لنا فيه رَأْي! اللّهَ نسأل حُسنَ الخاتمة.

أرسَل المنصورُ لمّا هاضَه أمرُ إبراهيمَ إلى عمّه عبدِ اللّه بن عليّ وهو في السّجن يَستشيرُه ما

يصنَع! وكان إبراهيمُ قد ظهر بالبَصْرة، فقال عبد اللّه: أنا مَخبوس، والمخبوس مَخبوس الرأي، قال له: فَعَلَى ذاك؟ قال يُفرِّق الأموال كلَّها على الرجال ويَلقاه، فإن ظَفِر فَذاك، وإلا يتوجّه إلى أبيه محمد بجُرْجَان، ويَتركه يَقدَم على بُيوتِ أموال فارغة، فهو خيرٌ له من أن تكون الدّبَرة عليه، ويقدم عدوّه على بيوت أموال مملوءة.

قال سليمانُ بنُ عبد الملك ليزيد بن أبي مُسْلم صاحِب شُرْطة الحجّاج يوماً: لعن الله رجُلاً أجَرّك رَسنَه، وخَرّب لك آخرته. قال: يا أمير المؤمنين، رأيتَني والأمرُ عنّي مُدبر ولو رأيتَني والأمر عليّ مُقبِل لاستكبرْتَ مني ما استَصْغَرْتَ، ولاستَعْظمت مني ما استحْقَرْتَ.

- ٣٤٧ -

الأصل: العَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، والشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.

الشرح: قد سَبَقَ القولُ في أنّ الأجْمَل بالفقير أن يكون عفيفاً، وألّا يكون جَشِماً حَريصاً، ولا جادًّا في الطّلب متهالِكاً، وأنّه ينبغي أنه إذا افتقر أن يتيه على الوَقْت وأبناءِ الوقْت، فإنّ التّيه في مِثل ذلك المَقامِ لا بأسَ به، ليَبعُد جدًّا عن مظِنّة الحِرْص والطّمع.

وقد سبق أيضاً القولُ في الشّكر عند النعمة ووجوبه، وأنّه سبب لاسْتِدامَتِها، وأن الإخلالَ به داعيةٌ إلى زَوالها وانتقالِها، وذكَرْنا في هذا الباب أموراً مستحسنَة، فلتراجَع، وقال عبدُ الصّمد بنُ المعذَّل في العفَاف:

سأقني العَفافَ وأرضَى الكَفافَ ... وليس غِنى النفس حوْزُ الجزيلِ
ولا أتصدّى لشُكْر الجَوادِ ... ولا أستَعِدّ لذمّ البَخيلِ
وأعلَمُ أن بناتِ الرّجاءِ ... تُحلُّ العزيزَ مَحَلَّ الذّليلِ
وأنْ ليس مستغنِياً بالكثيـ ... ـر مَن ليس مستغنياً بالقليلِ

- ٣٤٨ -

الأصل: يَوْمُ العَدْلِ عَلَى الظّالِم، أشدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ على المَظْلُومِ.

الشرح: شيئان مُولمان: أحدُهما يَنقضي سريعاً، والآخر يَدُوم أبداً، فلا جَرم، كان اليومُ المذكور على الظّالم، أشدّ من يَوْم الجور على المظلوم.

- ٣٤٩ -

الأصل: الأقاويلُ مَحفُوظَةٌ، والسَّرَائِرُ مَبْلُوَّةٌ و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[(١)]. والنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إلّا مَنْ عَصَمَ الله، سائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أفْضَلُهُمْ رَأياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَا والسُّخْطُ، ويَكَادُ أصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ.

الشرح: السرائر هاهنا: ما أُسِرَّ في القلوب من النيّات والعقائد وغيرها، وما يخفَى من أعمال الجوارح أيضاً. وبلاؤُها: تعرُّفُها وتصفُّحُها، والتميز بين ما طابَ منها وما خَبُثَ.

وقال عمر بنُ عبد العزيز للأحوص لمّا قال:

سَتَبْلَى لها في مُضمَر القلب والحشا ... سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَى السّرائرُ

إنّك يومئذٍ عنها لمشغول.

ذكَر عليه السلام الناسَ فقال: قد عمّهم النّقص إلّا المعصومين. ثم قال: سائلُهم يَسألُ تعنُّتاً، والسّؤال على هذا الوجه مَذْموم، ومجيبُهم متكلِّف للجَواب، وأفضلُهم رأياً يكاد رِضاهُ تارةً وسُخطه أخرى يَرُدُّهُ عن فضل رأيه، أي يتبِعون الهوى ويكاد أصلبُهم عوداً، أي أشدّهم احتمالاً.

تنكَؤه اللّحظة، نكأتُ القَرْحَة إذا صَدَمْتَها بشيءٍ فتقشِرها.

قال: «وتَستحيله الكلمةُ الواحدة»، أي تحيله وتغيِّره عن مُقتضى طبِعه، يَصِفهم بسرعة التقلّب والتلوّن، وأنّهم مُطِيعون دواعِيَ الشّهوةِ والغَضَب. واستَفعَل بمعنى «فَعَل» قد جاء كثيراً استَغْلَظ العسل، أي غَلُظ.

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

- ٣٥٠ -

الأصل: قالَ: مَعَاشِرَ النَّاسِ، اتَّقُوا الله، فَكَمْ مِنْ مُؤمِّلٍ ما لا يَبْلُغُهُ، وَبَانٍ ما لا يَسْكُنُهُ، وجامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ، وَلَعَلَّهُ مِنْ باطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ، أَصَابَهُ حَرَاماً، وَاحْتَمَلَ بِهِ آثاماً، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ، وقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ، آسِفاً لاهِفاً، قد ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(١).

الشرح: قد تقدّم شرحُ هذه المعاني والكلامُ عليها، أمّا الآمال الّتي لا تُبلَغ، فأكثر من أن تُحصَى، بل لا نهايةَ لها.

وما أحسنَ قولَ القائل:

واحسرتَا مَاتَ حَظّي من وصالِكُمُ ... ولـلـحـظُـوظِ كـمـا لـلـنّـاس آجـالُ
إنْ متّ شَوْقاً ولم أبلُغْ مَدَى أملِي ... كم تحتَ هذِي القبورِ الخرْس آمالُ!

وأمّا بناء ما لا يُسْكَن، فنحو ذلك.

وقال الشاعر:

ألـم تـر حَـوْشَـباً بـالأمْـس يَـبْـنِـي ... بـنـاءً نَـفـعُـه لـبـنـي نُـفَـيْـلَـهْ
يـؤمّـل أن يُـعـمَّـر عـمـر نـوحٍ ... وأمـرُ الله يَـطـرُق كـلّ لـيـلَـهْ

وأمّا جامعُ ما سوفَ يَتركه، فأكثرُ الناس، قال الشاعر:

وذِي إبلٍ يَسعَى ويَحسَبها له ... أخـو تَـعَـبٍ فـي رَعْـيـهـا ودؤوبِ
غَـدَتْ وغَـدَا رَبٌّ سِـوَاه يـسُـوقُـهـا ... ويُـبْـدِل أحـجـاراً وجَـالَ قـلـيـبِ

- ٣٥١ -

الأصل: مِنَ العِصْمة تَعَذُّرُ المعَاصِي.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

الشرح: قد وردتْ هذه الكلمة على صِيغ مختلفة. من العِصْمة ألّا تقدر. وأيضاً، من العِصْمة ألّا تجد.

وقد رُويتْ مرفوعةً أيضاً.

وليس المرادُ بالعِصْمة هاهنا العِصْمةَ الّتي ذكرها المتكلّمون، لأنّ العصمة عند المتكلمين من شرطها القُدْرة، وحقيقتها راجعة إلى لُطْفٍ يمنَع القادِرَ على المَعْصية من المعصية، وإنّما المراد أنّ غيرَ القادرِ في اندفاع العقوبة عنه كالقادِر الذي لا يفعَل.

- ٣٥٢ -

الأصل: ماءُ وجْهِكَ جامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤالُ، فانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ.

الشرح: هذا حَسَن، وقد أخذَه شاعرٌ فقال:

إذا أظـمَـأتـك أكُـفُّ الـلّـئـامِ ... كـفَـتْـك الـقَـنـاعـةُ شِـبْـعـاً وريّـا
فـكُـنْ رَجُـلاً رِجْـلُـه فـي الـثّرى ... وهـامَـةُ هِـمّـتـه فـي الـثُّـرَيّـا
فـإنّ إراقـةَ مـاءِ الـحـيـا ... ةِ دونَ إراقـةِ مـاءِ الـمـحـيّـا

وقال آخرُ:

رددتَ لي ماءَ وجهي في صفيحَتِه ... ردَّ الصِّقال بَهاءَ الصّارم الجذمِ
وما أبالِي وخيرُ القول أصدَقه ... حقَنت لي ماءَ وجْهي أو حَقَنْتَ دَمي

وقال مصعب بنُ الزّبير: إني لأستحيي من رجل وجّه إليّ رغبته، فباتَ ليلَته يتَمَلْمَل ويتقَلْقَل على فِراشه، يَنتظِر الصّبح، قد جَعلني أهْلاً لأن يقطر ماء وجهه لديّ أن أردَّه خائباً.

وقال آخر:

ما ماءُ كفّيْك إن أرسلت مُزْنتَه ... من ماءِ وَجْهِي إذا استقْطرْته عِوضُ

- ٣٥٣ -

الأصل: الثّناءُ بِأكْثَر مِنَ الاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، والتَّقْصِيرُ عَنِ الاسْتِحْقاقِ عِيٌّ أوْ حَسَدٌ.

الشرح: كانوا يَكرَهون أن يُثنيَ الشاعرُ في شِعره على الممدوح الثّناء المُفرط، ويقولون: خيرُ المَدْح ما قارَبَ فيه الشاعر واقتَصَد، وهذا هو المذهَب الصّحيح، وإن كان قوم يقولون: إن خيرَ الشِّعر المنظومِ في المدْح ما كان أشدّ مُغالاة وأكثر تَبجيلاً وتعظيماً ووَصْفاً ونَعْتاً.

وينبغي أن يكون قوله عليه السلام محمولاً على الثّناء في وجهِ الإنسان؛ لأنّه هو الموصوف بالمَلق إذا أفرط، فأمّا من يُثني بظَهر الغَيْب فلا يُوصَف ثناؤه بالمَلق، سواءٌ كان مُقتصِداً أو مسرِفاً.

وقوله عليه السلام: «والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حَسَد» لا مزيد عليه في الحُسنِ، لأنه إذا قصّر به عن استِحقاقه كان المانع إمّا من جانب المُثني فقط من غير تعلّق له بالمثنى عليه، أو مع تعلّق به، فالأوّل هو العِيّ والحَصر، والثاني هو الحسد والمنافسة.

- ٣٥٤ -

الأصل: أشَدُّ الذُّنُوب مما اسْتَهَانَ بِهِ صاحبُها.

الشرح: قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم وذكرنا العِلّة فيه، وهي أنّ فاعلَ ذلك الذّنْب قد جَمَعَ بين فعْل الذنب وفِعْل ذَنْب آخَرَ، وهو الاستهانة بما لا يُستهان به؛ لأنّ المَعاصِي لاهين فيها، والصغير منها كَبير، والحقيرُ منها عظيم، وذلك لجلالةِ شأن المَعْصيّ سبحانَه.

فأمّا من يذنِب ويَستعظم ما أتاه، فحاله أخفّ من حالِ الأوّل، لأنه يكاد يكون نادماً.

- ٣٥٥ -

الأصل: مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ الله لَمْ يَحْزَنْ عَلَى ما فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ كَابَدَ الأُمُورَ عَطِبَ، وَمَنْ اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ، وَمَنْ دَخَل مَدَاخِلَ السُّوءِ اتهِمَ. وَمَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ ماتَ قَلْبُهُ، ومن ماتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ. وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيرِهِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ.

وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ. وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا باليَسِير. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ.

الشرح: كلُّ هذه الفصول قد تقدم الكلامُ فيها وهي عَشَرة:

أولها: من نظَر في عَيْب نفسِه اشتغَل عن عيبِ غيرِه، كان يقال: أصلِح نفسَك أوّلاً، ثمّ أصلِح غيرَك.

وثانيها: من رضيَ برِزق الله لم يَحزَن على ما فاته، كان يقال: الحُزْن على المنافع الدنيويّة سُمٌّ تِرْياقُه الرِّضا بالقَضاء.

وثالثها: من سَلَّ سيفَ البَغْيِ قُتِل به، كان يقال: الباغي مَصْروع وإن كثُر جنودُه.

ورابعُها: مَن كابَدَ الأمورَ عَطِب، ومن اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِق، مِثل هذا قولُ القائل:

مَن حارَبَ الأيّامَ أصبَحَ رُمْحُه قِصَداً وأصبحَ سيفُه مَفْلولا

وخامسُها: من دخل مَداخِلَ السّوء اتُّهِم، هذا مثل قولِهم: من عَرَّض نفسَه للشُّبُهات فلا يلومَنّ مَن أساءَ به الظّنّ.

وسادسُها: مَن كَثُر كلامُه... إلى قوله: دَخَل النار، قد تقدّم القولُ في المَنطِق الزائد وما فيه من المحذور، وكان يقال: قلّما سَلِم مِكْثار، أو أمِن مِنْ عِثار.

وسابعُها: مَن نَظَر في عُيوب غيرِه فأنكَرَها ثمّ رضيَها لنفسِه فذاكَ هو الأحمقُ بعَيْنِه، وكان يقال: أجهَلُ الناس من يَرضَى لنفسِه بما يَسخَطُه مِن غيرِه.

وثامنها: القَناعة مالٌ لا يَنفَد، قد سَبَق القولُ في هذا، وسيأتي أيضاً.

وتاسعُها: من ذَكَر الموتَ رضيَ من الدّنيا باليسير، كان يقال: إذا أحببتَ ألّا تحسُد أحَداً فأكْثِر ذكرَ الموت، واعلمْ أنّك ومَن تَحسُده عن قليل مِن عَدِيد الهَلْكَى.

وعاشِرُها: من عَلِم أنّ كلامَه مِن عَملِهِ قلَّ كلامُه إلّا فيما يَعنيه، لا رَيْبَ أنّ الكلامَ عَمَلٌ من الأعمال، وفِعلٌ من الأفعال، فكما يُستهجَن من الإنسان ألّا يزال يُحرِّك يدَه وإن كان عابثاً، كذلك يُستهجَن ألّا يزال يُحرِّك لسانَه فيما هو عَبَث، أو يَجرِي مَجرَى العَبَث.

وقال الشاعر:

يَخوضُ أناسٌ في الكلام ليُوجِزوا ولَلصَّمتُ في بعض الأحايينِ أوْجَزُ
إذا كنتَ عن أن تُحسِنَ الصَّمتَ عاجزاً فأنت عن الإبلاغِ في القولِ أعجَزُ

- ٣٥٦ -

الأصل: لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجالِ ثَلاثُ عَلامَاتٍ:

يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمعْصِيَةِ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ، وَيُظَاهِرُ القَوْمَ الظَّلَمَةَ.

الشرح: يمكِن أن يفسَّر هذا الكلامُ على وجهين:

احدُهما: أنّ كلَّ من وُجِدَت فيه إحدى هذه الثلاث فهوَ ظالم، إما أن يكون قد وجبتْ عليه طاعةُ مَن فوقَه فعصاهَ، فهو بعصيانه ظالم له، لأنّه قد وضعه في غير موضعه، والظُّلم في أصل اللغة، هو هذا المعنى، ولذلك سمَّوا اللَّبَن يُشرَب قبل أن يَبلُغ الرَّوْب مظلوماً، لأنّ الشّرب منه كان في غيرِ موضعِه إذا لم يَرُب ولم يَخْرج زُبْدُه، فكذلك من عَصَى مَن فوقَه فقد زَحزَحه عن مَقامه إذ لم يُطِعه. وإمّا أن يكون قد قهر مَن دُونَه وغلبَه. وإما أن يكون قد ظاهَر الظَّلَمة.

والوجه الثاني: أنّ كلّ ظالم فلا بدّ من اجتماع هذه العلامات الثلاثِ فيه، وهذا هو الأظهر.

- ٣٥٧ -

الأصل: عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الفَرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ البَلاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ.

الشرح: كان يقال: إذا اشتدّ المَضِيق، اتّسعَتْ الطريق، وكان يقال: توقَّعوا الفَرَج عند ارتتاج المَخرَج، وقال الشاعر:

إذا بَلَغ الحوادثُ مُنتهاها ... فَرَجٌ بُعَيْدَها الفرجَ المُطِلّا

فكَمْ كربٍ تَولّى إذ تَوالَى ... وكم خَطْب تجلّى حين جلّى

وفي الأثر: تَضَايَقِي تَنْفرِجي، سيَجعل الله بعدَ العُسر يُسْراً.

والفَرْجَة بفتح الفاء: التفصّي من الهمّ، قال الشاعر:

ربّما تَجزَع النفوسُ من الأمْـ ... ـرِ له فَرْجَةٌ كحلّ العِقال

فأمّا الفُرْجة بالضّم، ففُرْجة الحائط وما أشبَهه.

- ٣٥٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لِبَعْضِ أصْحابه: لا تَجْعَلَنَّ أكْثَرَ شُغْلِكَ بأهْلِكَ ووَلَدِكَ، فإنْ يَكُنْ أهْلُكَ ووَلَدُكَ أوْلِياءَ الله فإنّ الله لا يُضَيِّعُ أوْلياءَهُ، وإنْ يكُونوا أعْدَاءَ الله فما هَمُّكَ وشُغْلُكَ بأعْداءِ الله!

الشرح: قد تقدّم القولُ نحوَ هذا المعنى، وهو أمر بالتّفويض والتوكُّل على الله تعالى فيمن يَخلُفه الإنسانُ مِن وَلده وأهله، فإن الله تعالى أعلم بالمصلحة، وأرأف بالإنسان من أبيه وامّه، ثم إن كان الوَلَد في عِلم الله تعالى وليّاً من أولياء الله سبحانه، فإنّ الله تعالى لا يضيّعه، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1].

وكلُّ وليّ لله فهو متوكّل عليه لا محالَة، وإن كان عدوًّا لله لم يَجُز الاهتمامُ له والاعتناء بأمره، لأنّ أعداءَ الله تجب مُقاطعتهم، ويَحرُم تولّيهم، فعلى كلِّ حال لا ينبغي للإنسان أن يَحفِل بأهله وولدِه بعد موتِه.

واعلم أن هذا كلامُ العارفين الصّدّيقين، لا كلامُ أهل هذه الطبقات التي نَعرِفها، فإن هذه الطبقات تقصُر أقدامُهم عن الوصول إلى هذا المقام.

ويعجبني قولُ الشاعر:

أيا جامعَ المالِ وَفّرْتَهُ ... لغيرك إذْ لم تكن خالدا
فإن قلتَ: أجمعُه للبَنِين ... فقد يَسبِق الوَلَدُ الوالدا
وإن قلت أخشى صروف الزمان ... فكن مِن تصاريفه واحدا

- ٣٥٩ -

الأصل: أكْبَرُ العَيْبِ أنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ.

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

الشرح: قد تقدَّم هذا المعنى مِراراً.

وقال الشاعر:

إذا أنت عِبْتَ الأمر ثم أتيتَه   فأنت ومَن تُزْرِي عليه سَواءُ

- ٣٦٠ -

الأصل: وهَنَّأ بِحَضْرَتِهِ رَجُلٌ رَجلاً آخر بِغُلامٍ وُلِدَ لَهُ فقَالَ لَهُ: لِيَهْنِئْكَ الفارِسُ! فقالَ عليه السلام: لا تَقُلْ ذَلِكَ، ولَكِنْ قل: شَكَرْت الوَاهِبَ، وبُورِكَ لَكَ في المَوْهُوبِ، وبَلَغَ أَشُدَّهُ، ورُزِقْتَ بِرَّهُ.

الشرح: هذه كلمة كانت من شِعار الجاهلية، فنُهِيَ عنها كما نُهِيَ عن تحيّة الجاهلية: «أبَيْتَ اللّعن»، وجُعِل عِوضَها «سلامٌ عليكم».

وقال رجلٌ للحَسَن البَصْري وقد بَشّره بغلام: ليَهْنِئك الفارسُ! فقال: بل الراجل، ثم قال: لا مرحباً بمن إنْ عاش كدَّني، وإن مات هدَّني، وإن كنتُ مُقِلًّا أنصبَني، وإن كنتُ غَنِيًّا أذهَلَني، ثم لا أرضَى بسَعْيي له سَعْياً، ولا بكَدِّي عليه في الحيَاةِ كَدًّا، حتّى أُشفِق عليه بعد موتي من الفاقة، وأنا في حالٍ لا يصل إليّ من فرحِهِ سرورٌ، ولا من هَمِّه حَزن.

- ٣٦١ -

الأصل: وبَنى رَجُلٌ مِن عُمَّالِهِ بِناءً فَخْماً فقالَ عليه السلام:
أَطْلَعَتِ الوَرِقُ رُؤوسها، إنَّ البِناءَ يَصِفُ لَكَ الغِنى.

الشرح: قد رُوِيتْ هذه الكلمةُ عن عمر - رضي الله عنه - ذَكر ذلك ابن قُتَيبة في «عيون الأخبار»[1].

---

(١) «عيون الأخبار»: للشيخ أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة النحوي الدينوري، المتوفى سنة (٢٧٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

ورُويَ عنه أيضاً: لي على كلّ خائنٍ أمينان: الماءُ والطين.

قال يحيى بنُ خالد لابْنه جعفر حين اختَطّ دارَه ببَغداد ليبنيَها: هي قميصُك، فإن شئت فوسّعه، وإن شئت فضيِّقه.

ورآه وهو يجصِّص حيطان دارِه المبنيّة بالآجُرّ، فقال له: إنك تغطّي الذهب بالفِضة، فقال جعفر: ليس في كلّ مكان يكون الذهبُ خيراً من الفضّة، ولكن هل تَرَى عيباً؟ قال: نعم، مخالَطَتُها دُور السُّوقة.

وقيل ليزيد بن المهلّب: ألا يَبْني الأمير داراً، فقال: منزلي دارُ الإمارة أو الحَبْس.

وكان يقال في الدار: لتكُن أوّل ما يُبْتاع وآخِرَ ما تُبَاع.

ومرَّ رجلٌ من الخوارج بآخر من أصحابهم وهو يبني داراً فقال: من ذا الّذي يقيم كَفِيلاً.

وقالوا: كلُّ ما يخرُج بخروجِك، ويَرجع برُجوعك، كالدّار والنّخل ونحوِهما فهو كَفِيل.

- ٣٦٢ -

الأصل: وقِيلَ لهُ عليه السلام: لوْ سُدَّ على رَجُلٍ بابُ بَيْتٍ وتُرِك فِيهِ، مِنْ أيْنَ كانَ يأتِيه رِزْقُهُ؟ فقال عليه السلام: منْ حَيْثُ يأتِيهِ أجلُهُ.

الشرح: ليس يعني عليه السلام أنّ كلّ من يُسَدُّ عليه بابُ بيت، فإنه لا بدّ أن يرزقه الله تعالى، لأنّ العيان والمُشاهَدة تقتضي خلاف ذلك، وما رأينا من سُدّ عليه بابُ بيت مدّةً طويلة فعاش، ولا ريب أنّ مَنْ شَقّ أسْطوانة وجُعِل فيها حيًّا ثم بنيت الأسْطُوانة عليه فإنه يموت مختنقاً، ولا يأتيه رزقُه ولا حياتُه، ولأنّ للحكماء أن يقولوا في الفَرْق بين الموضِعين: إنّ أجَله إنما يأتيه لأنّ الأجَل عدم الحَياة، والحياةُ تَعدَم لعَدَم ما يوجبها، والذي يُوجب استمرارها الغِذاء، فلما انقطع الغِذاء حضر الأجل، فهذا هو الوجه الذي يأتيه منه أجَلُه، ولا سبيل إلى ذكر مثله في حُضور الرِّزق لمن يُسَدُّ عليه الباب.

فإذاً معنى كلامه عليه السلام أنّ الله تعالى إذا علم فيمن يجعل في دارٍ ويُسَدُّ عليه بابُها أنَّ في بقاءِ حياتِه لُطفاً لبَعْض المكلّفين فإنه يجب على الله تعالى أن يُديم حياته، كما يشاء سبحانه، إما بغذاءٍ يقيم به مادة حياته، أو يديم حياتَه بغير سبب، وهذا هو الوجْه الذي منه يأتيه أجَلُه أيضاً، لأنّ إماتَةَ الله المكلَّف أمرٌ تابعٌ للمصلحة، لأنه لا بدّ من انقطاع التكليف على كلّ حال للوجه

الذي يذكُره أصحابنا في كُتُبهم، فإذا كان الموتُ تابعاً للمصلحة، وكان الإحياءُ تابعاً للمصلحة، فقد أتى الإنسانَ رِزقه - يعني حياته - من حيثُ يأتيه أجَله. وانتظَمَ الكلام.

- ٣٦٣ -

الأصل: وعَزّى قَوماً عَنْ مَيّتٍ مَاتَ لَهُمْ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: إنَّ هَذَا الأَمْرَ لَيْسَ بِكُمْ بَدَأَ، وَلا إِلَيْكُمْ انتهى، وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هَذَا يُسَافِرُ؟ فَقَالُوا: نَعَم، قَالَ: فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ سَفَرَاتِهِ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ.

الشرح: قد ألمّ إبراهيمُ بنُ المهْديّ ببعض هذا في شِعرِه الذي رثَى به ولدَه فقال:

يَـؤُوب إلـى أوطـانِـهِ كـلُّ غـائـبٍ ... وأحـمـدُ فـي الـغُـيّـاب لـيـسَ يـؤُوبُ
تـبـدَّل داراً غـيـر داري وجـيـرةً ... سـوايَ وأحـداثُ الـزمـانِ تـنـوبُ
أقـامَ بـهـا مـسـتـوطِـنـاً غـيـرَ أنّـه ... عـلـى طُولِ أيّـام الـمُـقـامِ غـريـبُ
وإنّـي وإن قُـدِّمْـتَ قَـبْـلِـي لـعـالِـمٌ ... بـأنّـي وإنْ أبـطـأتُ عـنـكَ قـريـبُ
وإنّ صـبَـاحـاً نَـلـتـقِـي فـي مَـسـائـه ... صـبـاحٌ إلـى قـلـبـي الـغَـدَاةَ حَـبـيـبُ

- ٣٦٤ -

الأصل: أيُّها النَّاسُ، لِيَرَاكُمُ الله مِنَ النِّعْمَةِ، وَجِلِينَ، كما يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ. إنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذات يَدِهِ، فَلَمْ يرَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً، فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اخْتِيَاراً، فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً.

الشرح: قد تقدَّم القول في استدراج المترَف الغَنيّ، واختبار الفقير الشَقيّ، وأنه يجب على الإنسان وإن كان مشمولاً بالنّعمة أن يكون وَجِلاً، كما يَجب عليه إذا كان فقيراً أن يكون شكوراً صَبوراً.

- ٣٦٥ -

الأصل: يا أَسْرَى الرَّغْبَةِ، اقْصُرُوا، فإن المُعَرِّجَ على الدُّنْيا لا يَرُوعُهُ مِنها إلّا صَرِيفُ أنْيابِ الحِدْثانِ. أيُّهَا النَّاسُ، تَوَلَّوْا عَنْ أنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَها، واعْدِلوا بِها عَنْ ضِرَايَةِ عَادَاتِها.

الشرح: ضرَى يضرِي ضِرايةً مِثل رمى يرمِي رِماية، أي جرَى وسالَ، ذكره ابن الأعرابيّ، وعليه ينبغي أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام، أي اعدِلُوا بها عن عاداتها الجارية، مِن باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، وهذا خيرٌ من تفسير الرَّاوَنْدِيّ، وقوله: إنّه من ضَرِيَ الكلبُ بالصّيد؛ لأنّ المصدر من ذلك الضَّرَاوة بالواو وفَتْح الضاد، ولم يأت فيه ضراية.

وقوله: «يا أسرَى الرغبة» كلمةٌ فصيحةٌ.

وكذلك قوله: «لا يَرُوعه منها إلّا صَرِيفُ أنياب الحِدْثان»، وذلك لأنّ الفَهْد إذا وَثَب والذئبَ إذا حَمل يَصرِف نابه، ويقولون لكلّ خَطْب وداهية: جاءت تصرِفُ نابُها. والصَّرِيف: صوتُ الأسنان إمّا عند رِغدةٍ أو عند شِدَّة الغَضَب والحَنَق، والحِرْص على الانتقام، أو نحو ذلك.

وقد تقدم الكلام في الدنيا والرغبةِ فيها، وغَدْرِها وحوادِثها، ووجوب العُدُول عنها، وكسر عادية عاداتِ السّوء المكتسبة فيها.

- ٣٦٦ -

الأصل: لا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أحَدٍ سُوءاً وأنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الخَيْرِ مُحْتَمَلاً.

الشرح: هذه الكلمةُ يَرْويها كثيرٌ مِن الناس لِعُمَر بن الخطّاب، ويَرويه بعضُهم لأمير المؤمنين عليه السلام. وكان ثُمامةُ يحدِّث بسؤدُدِ يحيى بن خالد وابنِه جعفر. ويقول: إنّ الرشيدَ نكَب عليَّ بنَ عيسى بن ماهان وألزَمه مائة ألف دينارٍ أدّى منها خمسين ألفاً، ويلحّ بالباقي، فاقسَم الرشيدُ إنْ لم يؤدّ المالَ في بقيّة هذا اليوم وإلّا قَتَله. وكان عليّ بنُ عيسى عدُوًّا للبرامكة مكاشفاً، فلمّا علِم انه مقتول سأل أن يمكَّن من السعي إلى الناس يَستنجِدهم، ففُسِح له في ذلك، فمَضى ومعه وكيلُ الرّشيد وأعوانُه إلى باب يحيى وجعفر، فأشْبلا عليه وصحَّحا من صُلْب أموالهما

خمسين ألف دينار في باقي نهارِ ذلك اليوم بديوان الرّشيد باسم عليّ بن عيسى، واستخلصاه، فنقل بعض المتنصّحين لهما إليهما أنّ عليَّ بن عيسى قال في آخِر نهار ذلك اليوم متمثّلاً:

فـمـا بُـقْـيَـا عـلـيَّ تـركْـتُـمـانِـي ولـكـنْ خِـفْـتُـمـا صَـرَدَ الـنِّـبـالِ

فقال يحيى للنّاقل إليه ذلك: يا هذا إنّ المرعوب ليسبق لسانُه إلى ما لم يَخطر بقَلْبه.

وقال جعفر: ومن أين لنا أنّه تمثّل بذلك وعَنَانا، ولعلّه أراد أمراً آخر فكان ثمامة يقول: ما في الأرض أسوَدُ من رَجلٍ يتأوّل كلامَ عدوِّه فيه ويَحمِله على أحْسنِ مَحامِله.

وقال الشاعر:

إذا مـا أتـتْ مِـن صـاحِـبٍ لـك زَلّـةٌ فـكـنْ أنـت مُـحْـتـالاً لـزَلّـتـه عُـذْرَا

- ٣٦٧ -

الأصل: إذَا كَانَتْ لَكَ إلَى الله سُبْحانَهُ حاجَةٌ فابْدأ بِمَسْأَلَةِ الصَّلاةِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، ثُمَّ سَلْ حاجَتَكَ، فَإنَّ الله أكْرَمُ مِنْ أنْ يُسْأَلَ حاجَتَيْنِ، فَيَقْضِيَ إحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الأُخْرَى.

الشرح: هذا الكلام على حَسَب الظّاهر الذي يَتَعارفهُ الناس بينَهم، وهو عليه السلام يسلُك هذا المسلَك كثيراً، ويُخاطِب الناسَ على قَدْر عُقولهم، وأمّا باطنُ الأمر فإنّ الله تعالى لا يُصلّي على النبيّ ﷺ لأجل دُعائِنا إيّاه أن يصلّي عليه، لأنّ معنى قولنا: اللهمّ صلّ على محمد، أي أكرِمْه، وارفَعْ درجَتَه، والله سبحانه قد قضَى له بالإكرام التامّ ورِفْعَةِ الدّرجة من دُون دعائِنا، وإنما تَعبّدَنا نحن بأن نُصَلّي عليه لأنّ لنا ثواباً في ذلك، لا لأنّ إكرامَ الله تعالى له أمرٌ يَستعقبُه ويستتبِعُه دعاؤنا.

وأيضاً فأيُّ غَضاضةٍ على الكريم إذا سُئِل حاجَتَين فقَضَى إحداهما دونَ الأخرى، إنْ كان عليه في ذلك غَضاضةٌ فعليه في رَدّ الحاجة الواحدة غَضاضةٌ أيضاً.

- ٣٦٨ -

الأصل: مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ المِرَاءَ.

الشرح: قد تقدّم من القولِ في المِراء ما فيه كفاية، وحد المِراءِ الجِدالُ المتّصِل لا يُقصَد به الحقّ.

وقيل لمَيْمون بن مِهْران: ما لَكَ لا تُفارِقُ أخاً لك عن قِلًى؟ قال: لأني لا أُشاريه ولا أُماريه. وكان يقال: ما ضَلّ قومٌ بعدَ إذْ هدَاهم الله تعالى إلّا بالمراء والإصرارِ في الجدال على نُصْرة الباطل.

وقال سُفْيان الثَّوْري: إذا رأيْتم الرّجل لَجُوجاً مُمارِياً معجباً بنَفْسه فقد تمّت خَسارتُه.

- ٣٦٩ -

الأصل: مِنَ الخُرْقِ المُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإِمْكَانِ، وَالأَنَاةُ بَعْدَ الفُرْصَةِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذين المَعْنَيَيْن.

ومن كلامِ ابنِ المعتزّ: إهمالُ الفُرْصة حتّى تَفوتَ عجز، والعَجَلَة قبل التّمكُّن خرْق.

وقد جَعَلَ أميرُ المؤمنين عليه السلام كِلْتا الحالتين خُرْقاً، وهو صَحِيح، لأنّ الخُرْق الحُمقُ، وقلّة العقل، وكلتا الحالتين دليلٌ على الحُمق والنَّقْص.

- ٣٧٠ -

الأصل: لا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، فَفِي الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغْلٌ.

الشرح: من هذا الباب قولُ أبي الطَّيِّب في سَيْف الدولة:

لَيسَ المدائحُ تَستوفِي مَناقِبَهُ ... فمَنْ كُلَيبٌ وأهلُ الأعْصُرِ الأُوَلِ!
خُذْ ما تَراه ودَعْ شيئاً سمعتَ به ... في طلعةِ البدرِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

- ٣٧١ -

الأصل: الفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ، والاعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ، وكَفَى أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في نحو هذا. وفي المَثَل: كَفَى بالاعتبار منذراً، وكفى بالشَّيب زاجراً، وكفى بالموت واعِظاً، وقد سَبَق القولُ في وُجوب تجنُّب الإنسان ما يَكرَهه من غيره.

وقال بعضُ الحكماء: إذا أحببتَ أخلاقَ امرئٍ فكُنْه، وإن أبغَضتَها فلا تَكُنْه. أخذَه شاعرُهم فقال:

إذا أعجبتْكَ خِصالُ امرئٍ ... فكُنْه يكنْ منكَ ما يُعجِبُكْ
فليسَ على المجدِ والمَكْرُمات ... إذا جئتَها حاجبٌ يَحجُبُكْ

- ٣٧٢ -

الأصل: الْعِلْمُ مَقْرونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَالعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَ وَإِلاَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ.

الشرح: لا خيرَ في عِلم بلا عَمَل، والعِلْم بغير العَمَل حُجّةٌ على صاحبه، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يُشعِر بأنّه لا عالِم إلّا وهو عامِل، ومُرادُه بالعلم هاهنا العِرْفان، ولا رَيْب أن العارف لا بدّ أن يكون عاملاً.

ثمّ استأنف فقال: العِلمُ يهتف بالعَمَل أي يُنادِيه، وهذه اللفظة استعارة.

قال: فإن أجابَه وإلّا ارتحل، أي إن كان الإنسانُ عالماً بالأمور الدّينيّة ثم لم يَعمَل بها سَلَبه الله تعالى عِلْمَه، ولم يَمُتْ إلا وهو معدود في زُمْرة الجاهلين، ويُمكِن أن يفسَّر على أنّه أراد بقوله: ارتَحَل ارتَحَلَتْ ثَمرتُه ونتيجتُه، وهي الثّواب، فإنّ الله تعالى لا يُثِيب المكلَّف على عِلمِه بالشّرائع إذا لم يَعمَل بها؛ لأنّ إخلالَه بالعَمَل يُحبِط ما يستحِقّه مِن ثواب العِلم لو قَدّرنا أنّه استَحَقّ على العِلم ثواباً، وأتَى به على الشّرائط الّتي معها يستحقّ الثواب.

- ٣٧٣ -

الأصل: أيُّها النَّاسُ مَتاعُ الدُّنْيا حُطامٌ مُوبِئٌ، فَتَجَنَّبُوا مَرْعاهُ قُلْعَتُها أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِها، وبُلْغَتُها أزْكَى مِن ثَرْوَتِها، حُكِمَ على مُكْثِريها بالْفاقَةِ، وَأُعْنِيَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بالرَّاحَةِ، مَن رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أعْقَبَتْ ناظِرَيْهِ كَمهاً، ومَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بهَا مَلأتْ ضَمِيرَهُ أشْجاناً، لَهُنَّ

رَقَصٌ عَلَى سُوَيْداءِ قَلْبِهِ، هَمٌّ يَشْغَلُهُ، وغَمٌّ يُحْزِنُهُ، حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بالْفَضاءِ، مُنْقَطِعاً أبْهَرَاهُ، هَيِّناً على الله فَناؤُهُ، وَعَلَى الإخْوَانِ إلْقاؤُهُ.

وإنما يَنْظُرُ المُؤمِنُ إلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الاعْتبارِ، ويَقْتاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الاضْطِرارِ، ويَسْمَعُ فِيه بِأُذُنِ المَقْتِ وَالإبْغَاضِ، إنْ قِيلَ أثْرَى قِيلَ أكْدَى، وإنْ فُرِحَ له بالبَقاءِ حُزِنَ لَهُ بالْفَناءِ، هَذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

الشرح: مَتاعُ الدنيا: أموالها وقُنْيانُها. والحُطام: ما تكسَّر من الحشيش واليَبَس، وشَبَّه متاع الدنيا بذلك لحقَارته. ومُوبِئ: مُحدث للوباء، وهو المَرَض العامّ. ومَرْعاة: بقعةٌ تُرَى، كقولك مأسَدة فيها الأسد، ومُحياة، فيها الحَيّات.

وقَلْعتها - بسكون اللام - خيرٌ من طمأنينتها: أي كون الإنسان فيها منزعجاً متهيّئاً للرّحيل عنها خيرٌ له من أن يكون ساكناً إليها، مطمئنًّا بالمُقام فيها.

والبُلْغة: ما يُتبلَّغ به. والثّروة: اليسار والغِنَى، وإنما حُكِم على مُكثِريها بالفاقة والفقْر لأنّهم لا ينتهون إلى حَدٍّ من الثروة والمال إلّا وجدّوا واجتهدوا، وحَرَصوا في طلب الزّيادة عليه، فهمْ في كلّ أحوالهم فقراء إلى تحصيل المال، كما أنّ من لا مال له أصلاً يَجدّ ويجتهد في تحصيل المال، بل ربما كان جدُّهم وحِرْصُهم على ذلك أعظَم من كَدْح الفقير وحرصه، ورُوي: «وأعين من غَنِيَ عنها» ومن رواه «أغنى» أي أغْنى الله، من غنيَ عنها وزَهِد فيها بالراحة وخلوّ البال وعدم الهمّ والغمّ.

والزِّبْرِج: الزّينة، وراقه: أعجَبَه. والكَمَه: العمى الشديد، وقيل: هو أن يولد أعمى. والأشْجان: الأحزان. والرّقَصُ بفتح القاف: الاضطراب والغَلَيان وَالحركة. والكَظَم بفتح الظاء: مجرى النَّفس. والأبْهران: عِرْقان متّصلان بالقلب، ويقال للميّت: قد انقطَع أبهَراه.

قوله: «وإنما ينظرُ المؤمن»: إخبارٌ في الصورة، وأمْرٌ في المعنى، أي لينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار، وليأكُل منها ببطن الاضطرار، أي قَدْر الضرورة، لا احتكار أو استكثار، ولْيَسْمَع حديثَها بأُذُن المَقْت والبغْض، أي ليتّخذها عدُوًّا قد صاحَبَه في طريق، فلْيأخذ حِذْرَه منه جهْده وطاقته، ولْيَسْمَع كلامه وحديثه لا استماع مُصْغ ومحبّ وامِق، بل استماعَ مُبغِض محترز مِن غائِلتِهِ.

ثم عاد إلى وصفِ الدنيا وطالبها فقال: إنْ قيل أثْرَى قيل: أكْدَى، وفاعِلُ «أثْرَى» هو

الضّمير العائد إلى من استشعر الشَّغَف بها. يقول: بينا يقال: أثرَى، قيل: افتقر، لأن هذه صِفة الدنيا في تقلبها بأهلها، وإن فرح له بالحياة ودوامِها، قيل: مات وعَدِم، هذا ولم يأتهم يومَ القيامة يومٌ هم فيه مُبْلِسون، أبلس الرجلُ يُبلِسُ إبْلاساً أي قَنِط ويئس، واللّفظ من لَفظات الكتاب العزيز.

بعض ما قيل في حال الدنيا وصروفها

وقد ذكرْنا من حالِ الدنيا وصُروفها وغَدْرِها بأهلها فيما تقدّم أبواباً كثيرة نافعة. ونحن نذكر هاهنا زيادةً على ذلك.

فمن كلام بعضَ الحكماء: ويلٌ لصاحبِ الدنيا، كيف يموت ويتركها، وتغرّه ويأمَنها وتَخْذُله ويثق بها! ويلٌ للمغترّين، كيف أرتْهم ما يكرهون، وفاتَهم ما يُحِبّون، وجاءهم ما يوعَدون! ويل لمن الدنيا هَمّه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غداً بذَنْبه.

ورَوَى أنس قال: كانت ناقة رسول الله ﷺ العَضْباءُ لا تُسبَق، فجاء أعرابيٌّ بناقةٍ له فسبَقها، فشَقّ ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «حقّ على الله ألّا يرفع في الدنيا شيئاً إلّا وضعه»[1].

وقال بعضُ الحكماء: من ذا الذي يبني على مَوْج البحر داراً! تلْكُم الدنيا، فلا تتّخِذوها قراراً.

وقيل لحكيم: عَلِّمنا عملاً واحداً إذا عَمِلناه أحبَّنا الله عليه، فقال: أبغَضوا الدنيا يُحبِبْكم الله.

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «لو تَعلَمون ما أعلَم لَضَحِكتم قليلاً، ولبَكَيتم كثيراً، ولهانت عليكم الدنيا، ولآثَرْتُم الآخرة»[2].

ثم قال أبو الدَّرداء مِنْ قِبَل نفسه: أيّها الناس، لو تعلمون ما أعلَم لخرَجْتم إلى الصُّعُدات تَبكُون على أنفسكم، ولتَرَكْتُم أموالَكم لا حارسَ لها، ولا راجعَ إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه، ولكنْ غاب عن قلوبكم ذِكْرُ الآخرة، وحضَرَها الأمَل، فصارت الدنيا أمْلَك بأعمالِكم، وصِرْتم كالذين لا يَعلمون، فبَعضُكم شرٌّ من البهائم التي لا تَدَع هواها، ما لكم لا تَحابُّون ولا تَناصَحون في أموركم، وأنتمْ إخوانٌ على دينٍ واحد، ما فرَّق بين أهوائِكم إلّا خُبْثُ سرائِركم، ولو اجتمعتمْ على البِرّ لتحاببْتم، ما لكم لا تَناصَحون في أمورِكم، ما هذا إلّا مِن قِلّة الإيمان

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٥٣١).

(٢) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: الصدقة في الكسوف (١٠٤٤)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود (٤٢٦).

في قلوبكم، ولو كنتم توقنون بأمر الآخرة كما تُوقنون بالدنيا لآثَرْتم طلب الآخرة، فإنْ قلتمْ حبّ العاجلة غالبٌ، فإنّا نراكم تَدعون العاجل من الدنيا للآجل منها، ما لكم تَفرَحون باليسير من الدنيا، وتَحزنون على اليَسير منها يفوتكم، حتى يتبيّن ذلك في وجوهكم، ويظهر على ألسِنتكم، وتسمونها المصائب، وتُقيمون فيها المآتم، وعامّتكم قد تركوا كثيراً من دينهم ثمّ لا يتبين ذلك في وجوهِهم، ولا تتغيّر حالٌ بهم، يَلقى بعضهم بعضاً بالمسرّة، ويكره كلّ منكم أن يستقبل صاحبه بما يَكره مخافَةَ أن يستقبله صاحبُه بمثله، فاصطَحبْتم على الغِلّ، وبَنيْتم مرَاعِيَكم على الدِّمَن، وتصافَيْتم على رَفْض الأجلّ، أراحَني الله منكم، وألحقني بمن أحبّ رؤيته.

وقال حكيم لأصحابه: ارْضَوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدِّين، كما رَضيَ أهلُ الدنيا بدَنيء الدِّين مع سلامةِ الدُّنيا.

وقيل في معناه:

أرَى رجالاً بأدنى الدِّين قد قَنِعوا ... ولا أراهمْ رضُوا في العَيْش بالدُّونِ
فاستغن بالدِّين عن دُنْيا الملوكِ كما اسْـ ... ـتَغْنَى الملوكُ بدُنياهمْ عن الدِّينِ

وفي الحديث المرفوع: «لتأتينّكم بَعْدِي دُنْيا تأكُل إيمانكم كما تأكل النارُ الحطَب»[1].

وقال الحَسَن رحمه الله: أدركتُ أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعةً فأدّوْها إلى من ائتمنهم عليها، ثم رَكضوا خِفافاً.

وقال أيضاً: من نافسك في دِينك فنافِسْه، ومن نافَسك في دُنْيَاك فألقِها في نَحْره.

وقال الفُضيل: طالت فكْرتي في هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾[2].

ومن كلام بعض الحكماء: لن تصبح في شيء من الدُّنيا إلا وقد كان له إهلٌ قَبْلك ويكُون له أهلٌ من بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عَشاءُ ليلة، وغَداءُ يوم، فلا تُهلِك نفسَك في أكْلة، وصُمْ عن الدُّنيا وأفطِرْ على الآخرة، فإنّ رأس مالِ الدنيا الهوى، ورِبْحها النار.

وقيل لبعض الرّهْبان: كيف تَرَى الدهر؟ قال: يُخلِق الأبدان، ويجدِّد الآمال، ويقرّب المنيّة، ويباعد الأمنيّة. قيل: فما حالُ أهلِه؟ قال: مَنْ ظفِر به تَعِب، ومن فاتَه اكتأب.

ومن هذا المعنى قولُ الشاعر:

ومَن يَحمَد الدنيا لعيشٍ يَسُرّهُ ... فسوفَ لَعَمري عن قليلٍ يلُومُهَا

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١٢٣).
(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٧، ٨.

إذا أدبرتْ كانتْ على المرءِ حَسرةً ... وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومُها

وقال بعضُ الحكماء: كانت الدنيا ولم أكُنْ فيها، وتذهَب الدنيا ولا أكون فيها، ولستُ أسْكُن إليها، فإنّ عَيْشَها نكَد، وصَفْوها كَدَر، وأهلَها منها على وجَل، إمّا بنعمةٍ زائلة، أو ببليّة نازِلة، أو مِيتة قاضِيَة. وقال بعضهم: من عَيْب الدنيا أنّها لا تُعطي أحداً ما يستحقّ، إما أن تَزيد له، وإما أن تنقص.

وقال سُفْيان الثَّوْرِيّ: أما تَرَوْن النِّعم كأنّها مغضوبٌ عليها، قد وُضِعَتْ في غير أهلها.

وقال يحيى بن مُعاذ: الدنيا حانوتُ الشّيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً، فإنه يجيء في قلبك حتّى يأخُذَك.

وقال الفُضَيل: لو كانت الدّنيا من ذَهَب يَفنى والآخرةُ من خَزَفٍ يَبْقى لكانَ ينبغِي لنا أن نختار خَزَفاً يَبقَى على ذَهب يفْنى، فكيف وقد اختَرْنا خَزَفاً يَفْنى على ذَهَبٍ يبقى!

وقال بعضُهم: ما أصبح أحدٌ في الدّنيا إلّا وهو ضَيْف، ولا شُبْهةَ في أنّ الضيف مُرْتحِل، وما أصبَح ذو مال فيها إلا ومالُه عاريّة عنده، ولا ريْب أنّ العارِيّة مردودة.

ومثل هذا قول الشاعر:

وما المالُ والأهلُون إلّا وديعةٌ ... ولا بدّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فأنشدَ:

نُرَقِّع دُنْيانا بتمزيق دينِنا ... فلا دِينُنا يَبقَى ولا ما نُرقِّعُ

وزارَ رابعةَ العَدَويّة أصحابُها، فذَكَروا الدّنيا فأقبلوا على ذَمِّها، فقالت: اسكُتُوا عن ذِكْرها وكُفُّوا، فلولا مَوقِعُها في قلوبكم ما أكثَرْتم من ذِكْرِها، إنّ من أحَبّ شيئاً أكثر من ذكره.

وقال مُطَرِّف بنُ الشِّخِّير: لا تَنظروا إلى خَفْض عَيْش الملوك، ولين رِياشِهم، ولكن انظُروا إلى سُرعة ظَعْنهم، وسوء منقلَبهم، قال الشاعر:

أرَى طالبَ الدّنيا وإن طالَ عمرُهُ ... ونال من الدّنيا سروراً وأنعُما

كَبانٍ بنى بُنيانَه فأقامَه ... فلمّا استَوَى ما قد بَناه تَهدَّمَا

وقال أبو العتاهية:

تعالَى اللّهُ يا سَلْمَ بن عَمْرٍو ... أذلّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ

هَبِ الدّنيا تُساقُ إليكَ عَفْواً ... أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى الزوالِ!

وما دُنْياكَ إلّا مثلُ فَيْءٍ ... أظلّك ثمّ آذن بانتقالِ

وقال بعضُهم: الدّنيا جِيفةٌ، فمن أراد منها شيئاً فليَصبِر على مُعاشرة الكلاب.

وقال أبو أُمَامَة الباهليّ: لمّا بَعَثَ الله محمّداً ﷺ أتتْ إبليسَ جنودُه وقالوا: قد بُعِث نبيّ وجدّت مِلّة وأمّة، فقال: كيف حالُهم؟ أيحِبُّون الدنيا؟ قالوا: نَعَمْ. قال: إن كانوا يحبّونها فلا أبالي ألّا يعبدُوا الأصنام، فإنّما أغدُو عليهم وأرُوح بثلاث: أخْذِ المال من غيرِ حقِّه، وإنفاقِه في غير حقِّه، وإمساكه عن حقه، والشرُّ كلّه لهذه الثلاث تبَع.

وكان مالكُ بنُ دينار يقول: اتّقوا السّحّارة فإنّها تسحَر قلوبَ العلماء، يعني الدنيا.

وقال أبو سليمانَ الرازيّ: إذا كانت الآخرة في القَلْبِ جاءَت الدّنيا فزَاحَمَتْها، وإذا كانت الدّنيا في القَلْبِ لم تُزاحِمْها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال مالكُ بنُ دينار: بقَدْر ما تَحْزَن للدّنيا يخرُج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدْر ما تحزن للآخرة يخرُج هم الدنيا من قلبك. وهذا مُقتَبس من قولِ أميرِ المؤمنين ﷺ: الدنيا والآخرة ضَرَّتان: فبقَدْر ما تُرْضِي إحداهما تُسخِط الأخرى.

وقال الشاعر:

يا خاطِبَ الدُّنيا إلى نفسِها ... تَنَحَّ عن خِطبتِها تَسْلَمِ

إنّ التي تَخطُب غَدَّارَةٌ ... قريبةُ العِرْسِ من المأتَمِ

وقالوا: لو وصفَت الدُّنيا نفسَها لما قالت أحسَنَ من قول أبي نُواس فيها:

إذا امتحَنَ الدّنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

ومِن كلام الشّافعيّ يعظُ أخاً له: يا أخِي، إنّ الدّنيا دَحْض مَزَلّة، ودارُ مَذلّة، عُمْرانُها إلى الخراب سائر، وساكنُها إلى القبور زائر، شَملها على الفُرقة موقوف، وغِناها إلى الفَقْر مَصْروف، الإكثارُ فيها إعْسار، والإعْسار فيها يَسار، فافْزَعْ إلى الله، وارضَ برِزق الله، ولا تَستسلِف من دار بقائِك في دارِ فَنائك، فإنّ عيشك فيءٌ زائل، وجِدارٌ مائلِ، أكثِرْ من عمَلك، واقصِرْ من أمَلِك.

وقال إبراهيمُ بنُ أدهم لرجلٍ: أدِرْهَمٌ في المنام أحَبُّ إليك أم دينارٌ في اليَقَظة؟ فقال: دينارٌ في اليَقَظة. فقال: كَذَبْتَ إن الّذي تُحِبّه في الدّنيا فكأنّك تُحِبّه في المنام، والّذي تحبُّه في الآخرة فكأنّك تحبّه في اليَقَظة.

وقال بعضُ الحكماء: من فَرِح قلبُه بشيء من الدنيا فقد أخطأَ الحِكْمة، ومن جَعَلَ شهوتَه تحتَ قدمَيْه فَرِق الشيطانُ من ظِلِّه، ومَن غَلَب عِلْمُه هَواهُ فهو الغالب.

وقال بعضُهم: الدنيا تُبغِّضُ إلينا نفسَها ونحن نحبُّها، فكيف لو تحبَّبتْ إلينا!.

وقال بعضهم: الدنيا دارُ خراب، وأخرَبُ منها قلبُ من يَعمُرُها، والجنّة دارُ عُمْران، وأعمَرُ منها قَلْب من يَطْلُبها.

وقال يحيى بن مُعاذ: العُقلاء ثلاثة: مَن تَرَكَ الدنيا قبل أن تَترُكَه، وبَنَى قَبرَه قبل أن يَدخُلَه، وأرضى خالقَه قبل أن يَلْقاه.

وقال بعضهم: مَنْ أرادَ أن يستغنيَ عن الدّنيا بالدّنيا كان كمُطفئِ النارِ بالتِّبنِ.

ومن كلام بعض فُصَحاء الزّهّاد: أيّها الناس اعمَلوا في مَهَل، وكونوا من الله على وجَل، ولا تغترّوا بالأمَل، ونِسيانِ الأجلِ، ولا تَركَنوا إلى الدنيا، فإنّها غَدّارة غرّارة خدّاعة، قد تزخرفتْ لكم بغُرورها، وفَتَنَتْكم بأمانيِّها، وتزيّنتْ لخُطّابها، فأضحت كالعَروس المتجلّية، العيونُ إليها ناظرة، والقلوبُ عليها عاكفة، والنفوسُ لها عاشقة. فكم من عاشقٍ لها قَتَلَتْ، ومطمئنٍّ إليها خذَلَتْ! فانظروا إليها بعينِ الحقيقة، فإنّها دارٌ كثرت بوائقُها، وذمَّها خالقُها، جديدُها يَبلَى، ومُلْكُها يَفنَى، وعزيزُها يَذِلّ وكثيرُها يَقِلّ، وحيُّها يموتُ، وخيرُها يفوت، فاستيقِظوا من غفلتِكم، وانتبهوا من رَقْدتِكم، قبل أن يقال: فلان عليل، ومدنَفٌ ثقيل، فهل على الدّواء من دليل، وهل إلى الطبيب مِن سبيل؟ فتُدعَى لك الأطبّاء، ولا يُرجَى لك الشفاء، ثمّ يقال: فلانٌ أوصَى، ومالَه أحصَى، ثمّ يقال: قد ثَقُل لسانُه فما يكلّم إخوانَه، ولا يَعرِف جيرانَه، وعَرِق عند ذلك جبينُك، وتتابع أنينُك، وثبت يقينُك، وطمَحتْ جفونُك، وصدقَتْ ظُنونُك، وتلجلجَ لسانُك، وبكى إخوانُك، وقيل لك: هذا ابنُك فلان، وهذا أخوك فلان، مُنِعت من الكلام فلا تَنطِق، وخُتِم على لسانك فلا يَنْطَلِق، ثمّ حلّ بك القضاء، وانتُزعت روحُك من الأعضاء، ثم عُرِج بها إلى السّماء، فاجتَمع عند ذلك إخوانك، وأُحضِرتْ أكفانُك، فغَسّلوك وكفّنوك، ثمّ حملوك فَدَفَنوك، فانقطع عُوّادُك، واستراح حُسّادك، وانصَرَفَ أهلُك إلى مالِك، وبقيتَ مرتهَناً بأعمالك.

وقال بعضُ الزهّاد لبعض الملوك: إنّ أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها من بُسِط له فيها، وأُعطِي حاجَته منها، لأنه يتوقّع آفةً تَغدُو على ماله فتَجْتاحه، وعلى جمعِه فتفرّقه أو تأتي على سلطانه فتَهدِمه من القواعد، أو تدبّ إلى جسمه فتُسقِمه، أو تفجعه بشيءٍ هو ضَنين به من أحبابه، فالدنيا الأحقُّ بالذّم، وهي الآخذة ما تُعطِي، الراجعة فيما تَهَب، فبينا هي تُضحِك صاحبَها إذ أضحكتْ منه غيرَه، وبينا هي تَبكِي له إذ أبكَتْ عليه، وبينا هي تَبسط كفَّه بالإعطاء إذ بسَطتْ كفَّها إليه بالاسترجاع والاسترداد، تَعقِد التاج على رأس صاحبِها اليوم وتُعفِّره في التّراب غداً، سواءٌ عليها ذَهاب من ذهب وبقاءُ من بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً، وتَرضَى بكلٍّ من كلٍّ بَدَلاً.

وكتب الحسنُ البصريّ إلى عمر بن عبد العزيز: أمّا بعد، فإنّ الدنيا دارُ ظَعْنٍ ليست بدار إقامة، وإنما أنزل إليها عقوبة فاحذرْها فإن الزّاد منها ربحُها، والغنى منها فقرُها، لها في كلّ حينٍ قتيل، تذِلّ مَنْ أعزّها، وتُفقِر من جَمَعَها، هي كالسُّمّ يأكله مَنْ لا يعرفه وهو حَتْفُه، فكن

فيها كالمُداوِي جراحه، يَحْمِي قليلاً مخافة ما يكرهه طويلاً، ويصبر على شدّة الدواء، مخافة طُول البلاء، فاحذر هذه الدنيا الغدّارة المكّارة، الختّالة الخدّاعة، التي قد تزيّنت بخُدَعها، وفتنَتْ بغرورها، وتَحَلّت بآمالها، وتشرّفتْ لخُطّابها، فأصبحت بينهم كالعروس تُجلى على بعلها، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهةٍ، والنفوسُ لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبِر، ولا الآخِر بالأوّل مزدجِر، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مذّكِر، فمن عاشقٍ لها قد ظفر منها بحاجته، فاغترّ وطغى ونسي المعاد، وشُغل بها لُبُّه حتى زلّت عنها قدمُه، فعظُمتْ ندامتُه، وكثرتْ حسرتُه، واجتمعت عليه سكراتُ الموت بألمه، وحسَرَاتُ الفَوت بغصّته، ومِنْ راغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يُرِح نفسَه من التّعب، خرج منها بغير زاد، وقدِم على غير مِهاد، فاحذرْها ثمّ احذرْها، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأنّ منها إلى سرور أشخَصْته إلى مكروه، والسارّ منها لأهلها غارّ، والنافع منها في غَدٍ ضارّ، قد وُصل الرّخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها للفَناء، فسرورها مَشُوب بالأحزان، ونعيمُها مكدَّر بالأشجان، لا يرجع ما ولّى منها وأدبر، ولا يُدرى ما هو آتٍ فينتظر، أمانيّها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفْوُها كدَر، وعيشها نَكَد، والإنسان فيها على خَطَر إنْ عَقَل ونَظَر، وهو من النَّعماء على غَرَر، ومن البلاء على حَذر، فلو كان الخالقُ لها لم يخبر عنها خبراً، ولم يَضرِب لها مَثَلاً، لكانت هي نفسها قد أيقظتْ النائم، ونبّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر، وبتصاريفها واعظ، فما لها عند الله قدْر، ولا نظر إليها منذ خَلقَها، ولقد عُرضتْ على نبيّك محمّد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناحَ بعوضة، فأبى أن يقبلها، كره أن يخالف على الله أمره، أو يحبّ ما أبغَضَه خالقُه، أو يرفع ما وضعه مليكه، زواها الربّ سبحانه عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظنّ المغرور بها، المقتدر عليها، أنه أكرِم بها، وينسى ما صنع الله تعالى بمحمّد ﷺ من شدّه الحَجَر على بطنِه، وقد جاءت الرواية عنه عن ربّه سبحانه أنه قال لموسى: إذا رأيت الغنَى مقبلاً فقل ذنبٌ عجلتْ عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت بصاحب الرُّوح والكلمة عيسى، كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصُوف، وصِلائي في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ووسادي الحَجَر، ودابتي رِجْلاي، وفاكهتي وطعامي ما أنبتت الأرضُ، أبِيتُ وليس لي شيء، وليس على الأرض أحدٌ أغنى منّي.

وفي بعض الكتب القديمة: إن الله تعالى لمّا بعث موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال: لا يروعنّكما لباسُه الذي لبِس من الدنيا، فإنّ ناصيته بيَدي ليس ينطق ولا يَطرِف ولا يتنفّس إلّا بإذني، ولا يُعجِبكما ما مُتّع به منها، فإن ذلك زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترَفين، ولو شئت أن أزيّنكما بزينةٍ من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا وُهبتما لفعلت، ولكني

أرغب بكما عن ذلك، وأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودُهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهَلكة، وإنّي لأجنّبهم حُبّ المُقام فيها كما يجنب الراعي الشفيق إبلَه عن مَبارِك العُرّ، وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفوراً، إنما يتزين لي أوليائي بالذلّ والخضوع والخوف، وإن التقوى لتثبت في قلوبهم، فتظهر على وجوههم، فهي ثيابُهم التي يلبسونها، ودِثارهم الذي يظهرون، وضميرُهم الذي يستشعرون، ونجاتُهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إيّاه يأمُلون، ومجدُهم الذي به يفتخرون، وسيماهم الّتي بها يُعرَفون، فإذا لقيهم أحدكما فليخفض لهم جناحَه، وليذلّل لهم قلبه ولسانه، وليعلم أنه مَنْ أخاف لي وليّاً فقد بارَزَني بالمحاربة، ثمّ أنا الثائر به يوم القيامة.

ومن كلام بعض الحكماء: الأيّام سِهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كلَّ يوم بسهامه، ويتخرّمك بلياليه وأيّامِه، حتّى يستغرق جميع أجزائك، ويُصمِي جميع أبعاضِك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك، وسرعة اللّيالي في بدنك! ولو كُشف لك عمّا أحدثَت الأيّام فيك من النقص لاستوحشتَ من كلّ يوم يأتي عليك واستثقلْت ممرَّ الساعاتِ بك، ولكنّ تدبير الله تعالى فوق النظر والاعتبار.

وقال بعض الحكماء - وقد استوصَف الدنيا وقَدْر بقائها -: الدنيا وقتك الذي يرجع إليه طرفُك، لأنّ ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأتِ فلا عِلم لك به، والدهر يومٌ مقبل تنعاه ليلتُه، وتَطويه ساعاتُه، وأحداثه تتوالى على الإنسان، بالتغيير والنقصان، والدهر موكّل بتشتيت الجماعات، وانخرام الشّمل، وتنقُّل الدُّوَل، والأمل طويل، والعمر قصير، وإلى الله تصير الأمور.

وقال بعض الفضلاء: الدنيا سريعة الفَناء، قريبة الانقضاء، تَعِد بالبقاء، وتُخلف في الوفاء، تنظُر إليها فتراها ساكنةً مستقرّة، وهي سائرة سَيْراً عنيفاً، ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكنّ الناظر إليها قد لا يُحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها، وإنما يحسّ بذلك بعد انقضائها، ومِثالها الظِّلُّ، فإنه متحرِّك ساكنٌ: متحرّك في الحقيقة، وساكنٌ في الظاهر، لا تدرَك حركتُه بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة.

- ٣٧٤ -

الأصل: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وضَعَ الثَّوابَ على طاعتِهِ، والعِقابَ على مَعْصِيَتِهِ، ذِيادَةً لِعِبَادِهِ عنْ نِقْمَتِهِ، وحِياشَةً لَهُمْ إلى جنَّتِهِ.

الشرح: زِيادة، أي دَفْعٌ. ذُدْته عن كذا، أي دَفعته ورددته. وحياشةً: مصدر حُشْتُ الصّيد بضم الحاء، أحوشُه، إذا جئته من حواليه لتصرِفه إلى الحِبالة، وكذلك أحشْتُ الصيد واحْوَشْتُه، وقد احتوش القومُ الصيد إذا نفّره بعضهم إلى بعض.

وهذا هو مذهب أصحابنا، إن الله تعالى لما كلّف العباد التكاليف الشاقّة، وقد كان يمكنه أن يجعلها غير شاقّة عليهم بأن يزيد في قُدَرهم، وجب أن يكون في مقابلة تلك التكاليف ثواب، لأنّ إلزام المشاق كإنزال المشاقّ، فكما يتضمن ذلك عوضاً، وجب أن يتضمّن هذا ثواباً، ولا بد أن يكون في مقابلة فعل القبيح عقاب، وإلا كان سبحانه ممكّناً الإنسان من القبيح، مغرياً له بفعله، إذ الطبع البشري يهوي العاجل، ولا يَحفِل بالذمّ، ولا يكون القبيح قبيحاً حينئذ في العقل، فلا بدّ من العقاب ليقع الانزجار.

- ٣٧٥ -

الأصل: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمانٌ لا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، ومِنَ الإسْلامِ إلا اسْمُهُ، مَساجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عامِرَةٌ مِنَ البِنَاءِ، خَرَابٌ مِنَ الهُدَى، سُكَّانُها وعُمَّارُها شَرُّ أَهْلِ الأرْضِ، مِنْهُمْ تَخْرُجِ الفِتْنَةُ، وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي الخَطِيئَةُ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا، يَقُولُ الله سُبْحَانَهُ فَبِي حَلَفْتُ، لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولئِكَ فِتْنَةً أَتْرُكُ الحَلِيمَ فيها حَيْرَانَ، وَقَدْ فَعَلَ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ الله عَثْرَةَ الغَفْلَةِ.

الشرح: هذه صفةُ حالِ أهلِ الضّلال والفسقِ والرِّياء من هذه الأمّة، ألا تراه يقول: سُكانها وعُمّارها، يعني سكان المساجد، وعمّار المساجد شرّ أهل الأرض، لأنهم أهل ضلالة كمن يَسكن المساجد الآن ممّن يعتقد التجسم والتشبيه والصورة والنّزول والصعود والأعضاء والجوارح، ومن يقول بالقَدَر يُضِيف فعل الكُفْر والجهل والقبيح إلى الله تعالى، فكل هؤلاء أهل فتنة، يردُّون من خرج منها إليها، ويسوقون من لم يدخل فيها إليها أيضاً.

ثم قال حاكياً عن الله تعالى: إنه حلف بنفسه ليبعثنّ على أولئك فتنةً، يعني استئصالاً وسيفاً حاصداً يترك الحليمَ أي العاقل اللّبيب فيها حيران لا يعلم كيف وجهُ خَلاصه.

ثم قال عليه السلام: وقد فعل.

وينبغي أن يكون قد قال هذا الكلام في أيام خلافته، لأنّها كانت أيام السيف المسلط على

أهل الضلال من المسلمين، وكذلك ما بعثه الله تعالى على بني أميّة وأتباعهم من سيوف بني هاشم بعد انتقاله عليه السلام.

- ٣٧٦ -

الأصل: ورُوِي أنّهُ عليه السلام قَلَّمَا اعتَدَلَ بِه المِنْبَرُ إلّا قَالَ أمامَ خُطبَتِهِ: أيُّهَا النَّاسُ، اتَّقوا الله فما خُلِقَ امْرُؤٌ عَبَثاً فَيَلْهُو، وَلا تُرِكَ سُدًى فَيَلْغُو، وَمَا دُنْيَاهُ الَّتي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الآخِرَةِ الَّتي قَبَّحَهَا سُوء النَّظَرِ عِنْدَهُ، وَمَا المَغْرُور الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْلَى هِمَّتِهِ كالآخَرِ الَّذِي ظَفِرَ من الآخِرَةِ بِأَدْنَى سُهْمَتِهِ.

الشرح: قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[١].

ومن الكلمات النبويّة: «إنّ المرء لم يُترَك سُدًى، ولم يُخلق عَبَثاً»[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ من ظَفِر من الدنيا بأعلى وأعظم أمنية ليس كآخَرَ ظَفِر من الآخرة بأدْوَن درجات أهلِ الثواب، لا مناسبة ولا قياسَ بين نعيم الدنيا والآخرة.

وفي قوله عليه السلام: «الّتي قبحها سوء المنظَر عندَه» تصريحٌ بمذهب أصحابنا أهل العدل رحمهم الله، وهو أن الإنسان هو الذي أضلّ نفسَه لسوء نظرِه، ولو كان الله تعالى هو الذي أضلّه لما قال: قبّحها سوء النظر عندَه.

- ٣٧٧ -

الأصل: لا شَرَفَ أعْلَى مِنَ الإسْلامِ، وَلا عِزَّ أعَزُّ مِنَ التَّقْوى، وَلا مَعْقِلَ أحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ، وَلا شَفِيعَ انجحُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلا كَنْزَ اغْنى مِنَ القنَاعَةِ، وَلا مَالَ أذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرّضَى بالقُوتِ.

وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ. والدَّعَةُ مِفْتَاحُ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) نهاية ابن الأثير: ٢/ ١٦٧.

النَّصبِ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ، وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنوبِ، والشَّرُّ جَامعٌ لِمَسَاوىء العُيُوبِ.

الشرح: كلّ هذه المعاني قد سبق القولُ فيها مراراً شتّى، نأتي كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم، وإنّما يكرّرها أميرُ المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين، كما يكرّر الله سبحانه في القرآن المواعظ والزواجر، لذلك كان أبو ذرّ - رضي الله عنه - جالساً بين الناس فأتته امرأته فقالت: أنت جالس بين هؤلاء، ولا والله ما عندنا في البيت هِفّة ولا سُفّة، فقال: يا هذه، إنّ بين أيدينا عَقَبَةً كَؤوداً، لا ينجو منها إلّا كلّ مخفّ. فرجعت وهي راضية.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالُك؟ قال: التجمّل في الظاهر، والقَصْد في الباطن، والغِنَى عمّا في أيدي الناس:

وقال أبو سليمان الدّارانيّ: تنفُّس فقيرٍ دُون شهوةٍ لا يَقدِر عليها أفضلُ من عِبادة غَنِيّ ألف عام.

وقال رجلٌ لبشر بن الحارث: ادعُ لي فقد أضرّ الفقرُ بي وبعيالي، فقال: إذا قال لك عيالُك: ليس عندنا دقيق ولا خبز فادعُ لبشر بن الحارث في ذلك الوقت، فإنّ دعاءَك أفضلُ من دعائه. ومن دعاء بعض الصالحين: اللهمّ إني أسألك ذُلّ نفسي، والزّهدَ فيما جاوَزَ الكَفاف.

- ٣٧٨ -

الأصل: وَقالَ عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاريّ:

يا جابِرُ، قِوَامُ الدِّينِ والدُّنْيَا بِأرْبَعَةٍ: عَالِمٍ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، فَإذا ضَيَّعَ العَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَإِذَا بَخِلَ الغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الفَقِير آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ.

يا جابِرُ، منْ كَثُرَتْ نِعمَةُ الله عَلَيْهِ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ لله فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَةَ الله لِدَوَامِهَا، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا يَجِبُ لله فيها عرَّض نعْمَتَهُ لزَوَالها.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذه المعاني. والحاصل أنّه رَبط اثنتين من أربعة إحداهما بالأخرى، وكذلك جعل في الاثنتين الأخريين، فقال: إنّ قوام الدّين والدنيا بأربعة: عالم يستعمل

علمَه، يعني يعمَل ولا يقتصر على أن يعلم فقط ولا يَممَل، وجاهل لا يستنكِف أن يتعلّم، وأضرُّ ما على الجهلاء الاستنكاف من التعلّم، فإنهم يستمرّون على الجهالة إلى الموت، والثالث جَواد لا يبخل بالمعروف، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه، أي لا يَسرق، ولا يَقطع الطّريق، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبّه الله، كالقمار، والمواخير، والمزاجر، والمآصر، ونحوها.

ثم قال: فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمَه استنكف الجاهلُ من التّعلم، وذلك لأنّ الجاهل إذا رأى العالم يعصي ويجاهِر الله بالفسق زهِد في التعلّم، وقال: لماذا تعلّمُ العلم إذا كانتْ ثمرته الفسقَ والمعصية.

ثم قال: والرابعة مرتبطة بالثالثة، إذا بخل الغَنيّ بمعروفه، باع الفقيرُ آخرته بدنياه، وذلك لأنّه إذا عدِم الفقيرَ المواساة مع حاجته إلى القُوت دعتْه الضّرورة إلى الدخول في الحرام، والاكتساب من حيث لا يحسُن، وينبغي أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غنيّ ليطابق أوّل الكلام آخره، إلّا أنّ الرواية هكذا وردتْ، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفي ضمير اللّفظ كون ذلك الجواد غنيًا، لأنه قد جعل له معروفاً والمعروف لا يكون إلا عن ظهر غِنًى، وباقي الفصل قد سبق شرحُ أمثاله.

- ٣٧٩ -

الأصل: وَرَوى ابْنُ جرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَارِيخِهِ، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أبي لَيْلى الفَقِيهِ، وَكَانَ مِمَّنْ خَرَجَ لِقِتَال الحَجّاج مع ابْن الأشْعَثِ، أنَّهُ قال فِيمَا كَانَ يَحُضُّ به النَّاسَ عَلَى الجِهَادِ: إِنّي سَمِعْتُ عليًا رَفَعَ اللهُ دَرَجَتَهُ في الصَّالِحِين، وأَثَابَهُ ثَوَاب الشُّهداءِ وَالصِّدِّيقِينَ، يَقُول يَوْمَ لَقِينَا أَهْلَ الشَّامِ:

أيُّهَا المُؤْمِنُونَ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْوَاناً يُعْمَلُ بِهِ، وَمُنْكَراً يُدْعَى إِلَيْهِ، فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ السُّفْلَى، فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيل الهُدَى، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَنُوِّرَ فِي قَلْبِهِ اليَقِينُ.

الشرح: قد تقدّم الكلام في النّهي عن المنكر، وكيفيّة ترتيبه، وكلام أمير المؤمنين في هذا الفصل مطابِق لما يقوله المتكلّمون - رحمهم الله.

وقد ذكرْنا فيما تقدّم، وسنذكر فيما بعدُ من هذا المعنى ما يجب. وكان النهيُ عن المنكَر معروفاً في العرب في جاهليّتها، كان في قريش حِلْف الفُضول، تحالفتْ قبائلُ منها على أن يَردَعوا الظالم، ويَنصُروا المظلوم، ويردّوا عليه حقَّه ما بلَّ بحرٌ صوفة، وقد ذكرنا فيما تقدم.

— ٣٨٠ —

الأصل: وقالَ عليه السلام في كلامٍ له غيرِ هذا يجرِي هذا المجرَى:

فَمِنْهُمُ المُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فَذَلِكَ المُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الخَيْرِ، وَمِنْهُمُ المُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ، فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الخَيْرِ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً، وَمِنْهُمُ المُنْكِرُ بِقَلْبِهِ، وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَذَاكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلاثِ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ، وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لإِنْكَارِ المُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ، فذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ، وَمَا أَعْمَالُ البِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله عِنْدَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ إلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لجُيٍّ، وَإِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ لا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، ولا يَنْقُصَانِ مِنَ رِزْقٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ.

الشرح: قد سبق قولُنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أحد الأصول الخمسة عند أصحابنا. ولجّة الماء: أعظمُه، وبحرٌ لُجّيّ: ذو ماء عظيم. والنّفْثة: الفَعلة الواحدة من نَفَثْت الماء من فمي، أي قذَفته بِقوّة.

قال عليه السلام: لا يعتقدن أحدٌ أنه إن أمر ظالماً بمعروف، أو نهى ظالماً عن منكَر، أن ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم المأمور أو المنهي إياه، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته، فإن الله تعالى قدّر الأجل، وقضى الرّزق، ولا سبيلَ لأحد أن يَقطع على أحد عمرَه أو رزقَه.

وهذا الكلام ينبغي أن يُحمَل على أنه حثّ وحضّ وتحريض على النّهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ولا يُحمَل على ظاهرِه، لأنّ الإنسان لا يجوز أن يُلْقِيَ بنفسِه إلى التَّهلُكة، معتمِداً على أنّ الأجل مقدَّر، وأن الرِّزق مقسوم، وأنّ الإنسان متَى غلب على ظنّه أنّ الظالم يقتله ويقيم على ذلك المنكر، ويضيف إليه منكراً آخر لم يَجُزْ له الإنكار.

فأمّا كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما رُوِيَ أنّ زيدَ بن أرقَم رأى عبيد اللّه بن زياد - ويقال: بل يزيد بن معاوية - يَضرِب بقضيبٍ في يده ثَنايَا الحُسين عليه السلام حين حمِل إليه رأسُه، فقال له: إيهاً! ارْفَعْ يدَك، فطالَما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلها!.

النهي عن المنكر

ونحن نذكر خلاصةَ ما يقوله أصحابُنا في النهي عن المنكَر، ونَتْرُك الاسْتِقصاء فيه للكُتُب الكلاميّة التي هي أوْلى ببَسط القول فيها من هذا الكتاب.

قال أصحابنا: الكلام في ذلك يقع من وجوه: منها وجوبُه، ومنها طريق وجوبِه، ومنها كيفيّة وجوبِه، ومنها شروط حُسْنه، ومنها شروط وجوبِه، ومنها كيفيّة إيقاعه، ومنها الكلامُ في النّاهي عن المنكر، ومنها الكلام في النّهي عن المنكر.

أمّا وجوبه، فلا ريبَ فيه؛ لأنّ المنكَر قبيح كلّه، والقبيح يجب تركه، فيجب النّهي عنه.

وأمّا طريق وجوبه فقد قال الشيخ أبو هاشم رحمه الله: إنّه لا طريقَ إلى وجوبِهِ إلّا السمع، وقد أجمع المسلمون على ذلك، وَوَرَدَ بِهِ نصّ القرآن في غير موضع. قال الشّيخ أبو عليّ - رحمه الله -: العقل يدلّ على وجوبه، وإلى هذا القول مالَ شيخُنا أبو الحسين رحمه الله.

وأمّا كيفيّة وجوبه فإنّه واجب على الكفاية دون الأعيان، لأنّ الغرض ألّا يقع المنكر، فإذا وقع لأجل إنكار طائفة لم يَبْق وجهٌ لوجوب الإنكار على مَن سواها.

وأما شروط حُسنه فوجوه: منها أن يكون ما ينكره قبيحاً، لأنّ إنكار الحَسَن وتحريمه قبيح، والقبيح على ضروب: فمنه ما يَقبُح من كلّ مكلّف، وعلى كلّ حال، كالظلم. ومنه ما يقبح من كلّ مكلّف على وجهٍ دون وجه، كالرّمي بالسهام، وتصريف الحمام، والعلاج بالسّلاح، لأنّ تعاطيَ ذلك لمعرفة الحرب والتقوّى على العدوّ، ولتعرُّف أحوالِ البلاد بالحمام حَسنٌ لا يجوز إنكاره، وإن قصد بالاجتماع على ذلك الاجتماع على السّخف واللّهو ومعاشرة ذوي الرِّيَب والمعاصي فهو قبيحٌ يجب إنكارُه.

ومنه ما يَقبحُ من مكلّف ويَحسنُ من آخَر على بعض الوجوه، كشُرب النَّبيذ، والتشاغل بالشّطرنْج، فأما مَنْ يرى حَظْرَهما، أو يختار تقليد من يُفتي بحَظْرهما فحرامٌ عليه تعاطيهما على كلّ حال، ومتى فعلهما حَسُن الإنكار عليه، وأما من يرى إباحتهما أو مَنْ يختار تقليد مَنْ يُفْتي بإباحتهما، فإنّه يجوز له تعاطيهما على وجهٍ دون وجه، وذلك أنّه يَحسُن شرب النبيذ من غير سُكر ولا مُعاقَرة والاشتغال بالشّطرنج للفرجة وتخريج الرأي والعقل، ويَقبُح ذلك إذا قُصِد به السخف، وقُصِد بالشرب المعاقَرة والسُّكر، فالثاني يحسن إنكاره ويجب، والأوّل لا يَحسُن إنكاره لأنه حَسنٌ مِن فاعِله.

ومنها أن يعلم المنكِر أنّ ما يُنكِره قبيح، لأنه إذا جوّز حسنَه كان بإنكاره له وتحريمه إيّاه محرِّماً لما لا يأمن أن يكون حَسناً، فلا يأمن أن يكون ما فَعَله من النّهي نَهْياً عن حَسَن، وكلُّ فعل لا يأمن فاعلُه أن يكون مختصاً بوجه قبيح فهو قبيح، ألا ترى أنه يقبحُ من الإنسان أن يخبر على القطع بأن زيداً في الدار إذا لم يأمن ألّا يكون فيها، لأنه لا يأمن أن يكون خبره كَذِباً!

ومنها أن يكون ما ينهى عنه واقعاً، لأنّ غير الواقع لا يحسنُ النهي عنه، وإنما يحسنُ الذمّ عليه، والنهيُ عن أمثاله. ومنها ألّا يغلب على ظنّ المنكِر أنه إن أنكر المنكَر، فعله المنكَر عليه، وضمّ إليه منكَراً آخر، ولو لم ينكِرْ عليه لم يفعل المنكر الآخر، فمتى غَلَب على ظنّه ذلك قَبُح إنكاره، لأنه يصير مَفسدة، نحو أن يغلب على ظننا أنّا إن أنكرْنا على شارب الخمر شُرْبَها شربها وقرن إلى شربها القتل، وإن لم ننكِر عليه شربها ولم يقتل أحداً.

ومنها ألّا يغلب على ظنّ الناهي عن المنكَر أنّ نهيه لا يؤثر، فإن غلب على ظنه ذلك قَبُح نهيه عند من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر لا يحسن، إلا أن يكون فيه لطف لغير ذلك المكلّف. وأما من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر حسن وإن لم يكن فيه لطف لغير المكلّف، فإنه لا يصحّ منه القول بقبح هذا الإنكار.

فأما شرائط وجوب النهي عن المنكر فأمور:

منها أن يغلب على الظّنّ وقوع المعصية نحو أن يَضِيق وقتُ صلاة الظهر، ويرى الإنسان لا يتهيّأ للصلاة، أو يراه تهيّأ لشرب الخمر بإعدادِ آلتهِ، ومتى لم يكن كذلك حَسُنَ منّا أن ندعوَه إلى الصلاة، وإن لم يجب علينا دعاؤه.

ومنها ألّا يغلب على ظنّ الناهي عن المنكَر أنه إن أنكر المنكَر لحقته في نفسه وأعضائه مضرّة عظيمة، فإن غلب ذلك على ظنّه وأنه لا يمتنع من ينكر عليه من فعل ما يُنْكِره عليه أيضاً، فإنه لا يجب عليه الإنكار، بل ولا يحسن منه لأنه مفسدة. وإن غلب على ظنّه أنه لا يفعل ما أنكره عليه ولكنّه يضَرّ به، نُظر فإن كان إضراره به أعظم قُبحاً مما يتركه إذا أنكر عليه، فإنه لا يحسن الإنكار عليه، لأن الإنكار عليه قد صار والحالة هذه مفسدة، نحو أن يُنْكر الإنسانُ على غيره شُربَ الخمر، فيترك شربَها ويقتله. وإن كان ما يتركه إذا أنكر عليه أعظم قبحاً مما ينزل به من المضرّة، نحو أن يَهُمّ بالكفر، فإذا أنكر عليه تركه وجَرح المنكَر عليه أو قتله فإنه لا يجب عليه الإنكار، ويحسن منه الإنكار، أما قولنا: لا يجب عليه الإنكار، فلأنّ الله تعالى قد أباحنا التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، فبأنْ يبيحنا ترك غيرنا أن يتلفّظ بذلك عند الخوف على النفس أوْلى، وأمّا قولُنا: إنه يحسن الإنكار، فلأنّ في الإنكار مع الظنّ لما ينزل بالنفس من المَضرّة إعزازاً للدِّين، كما أنّ في الامتناع من إظهار كلمة الكفر مع الصبر على قتل النفس إعزازاً للدِّين، لا فضل بينهما.

فأما كيفية إنكار المنكر فهو أن يبتدئ بالسهل، فإن نفع وإلّا ترقى إلى الصّعب، لأن الغرض ألّا يقع المنكَر، فإذا أمكن ألّا يقع بالسهل فلا معنى لتكلّف الصّعب، ولأنه تعالى أمَرَ بالإصلاح قبل القتال في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾[1].

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

فأما الناهي عن المنكر مَنْ هو؟ فهو كلّ مسلم تمكّن منه واختصّ بشرائطه؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(١)، ولإجماع المسلمين على أنّ كلّ مَن شاهد غيره تاركاً للصّلاة غير محافظ عليها فله أن يأمرَه بها، بل يجب عليه، إلّا أنّ الإمام وخلفاءه أوْلَى بالإنكار بالقتال، لأنّه أعرَف بسياسة الحرب وأشدّ استعداداً لآلاتها.

فأمّا المنهيّ مَن هو؟ فهو كلّ مكلّف اختصّ بما ذكَرناه من الشّروط، وغير المكلّف إذا همّ بالإضرار لغيره يمنَع منه، ويمنَع الصّبيان وينهون عن شُرْب الخمر حتّى لا يتعوّدوه، كما يؤاخذون بالصّلاة حتّى يمرنوا عليها، وهذا ما ذكره أصحابُنا.

فأمّا قولُه عليه السلام: «ومنهم المنكِر بلسانِه وقلبِهِ، والتارِكُ بيَدِه، فذلك متمسّك بخَصْلتين من خصال الخير، ومضيِّع خَصْلة»، فإنّه يَعني به من يَعجِز عن الإنكار باليد المانع، لأنّه لم يُخرِج هذا الكلامَ مخرج الذمّ، ولو كان لم يَعْنِ العاجز لوَجبَ أن يخرج الكلام مَخرَج الذم، لأنّه ليس بمعذور في أن يُنكِر بقلبه ولسانه إذا أخلّ بالإنكار باليد مع القدرة على ذلك، وارتفاع الموانع.

وأمّا قوله: «ضيّع أشرف الخصلتين» فاللّام زائدة، وأصلُه «ضيّع أشرَفَ خَصْلتين من الثّلاث»، لأنه لا وجهَ لتعريف المعهود هاهنا في الخَصْلتين، بل تعريف الثّلاث باللّام أولَى، ويجوز حذفُها من الثّلاث، ولكنّ إثباتَها أحسَن، كما تقول: قتلتُ أشرفَ رجلين من الرّجال الثلاثة. وأمّا قوله: «فذلك ميّت الأحياء»، فهو نهاية ما يكون من الذمّ.

واعلمْ أنّ النهي عن المنكَر، والأمرَ بالمعروف عند أصحابنا أصل عظيم من أصول الدِّين: وإليه تَذهَب الخوارجُ الّذين خرجوا على السُّلطان، متمسّكين بالدِّين وشِعار الإسلام، مجتهدين في العبادة، لأنّهم إنّما خرجوا لِما غلب على ظنونهم، أو عَلِموا جَوْر الوُلاة وظلمهم، وأنّ أحكام الشريعة قد غُيِّرت، وحُكِم بما لم يَحكُم به الله، وعلى هذا الأصل تَبني الإسماعيليّةُ من الشّيعة قَتْلَ ولاةِ الجَوْر غِيلَةً، وعليه بناء أصحاب الزُّهد في الدّنيا الإنكار على الأمراء والخُلَفاء، ومواجهتهم بالكلام الغليظ لمّا عجزوا عن الإنكار باليَدِ، وبالجملة فهو أصلٌ شريف أشرَفُ من جميع أبوابِ البرّ والعبادة، كما قال أميرُ المؤمنين عليه السلام.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

- ٣٨١ -

الأصل: وروى أبو جُحَيْفَة قال: سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الجِهَادِ، الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلاهُ أَسْفَلَهُ، وَأَسْفَلَهُ أَعْلاهُ.

الشرح: إنّما قال ذلك لأنّ الإنكار بالقَلْب آخِرُ المراتب، وهو الّذي لا بدّ منه على كلّ حال، فأمّا الإنكار باللّسان وباليد فقد يكون منهما بُدٌّ، وعنهما عُذْر، فمن تَرَك النهيَ عن المنكر بقلبه، والأمرَ بالمعروف بقلبه، فقد سَخِط الله عليه لعصيانه، فصار كالممسوخ الّذي يَجعَل الله تعالى أعلاه أسفَله، وأسفَله أعلاه تشويهاً لخلقته، ومن يقول بالأنفس الجسمانيّة، وإنّها بعد المفارقة يَصعَد بعضُها إلى العالم العُلْويّ: وهي نفوس الأبرار وبعضها يَنزِل إلى المركز، وهي نفوس الأشرار، يتأوّل هذا الكلام على مذهبه، فيقول: إنّ مَنْ لا يعرف بقلبه معروفاً، أي لا يَعْرِف من نفسه باعثاً عليه ولا متقاضياً بفعله، ولا يُنكِر بقلبه منكَراً، أي لا يأْنَف منه ولا يستقبحه، ويمتعِض من فعله يقلب نفسه التي قد كان سبيلُها أن تَصعد إلى عالَمِها فتُجعَل هاويةً في حَضيض الأرض، وذلك عندَهم هو العذاب والعقاب.

- ٣٨٢ -

الأصل: إِنَّ الحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ البَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ.

الشرح: تقول: مرُؤ الطّعام بالضّم، يَمرُؤ مَراءة فهو مَرِيءٌ على «فَعِيل» مثل خفيف وثقيل، وقد جاء مَرِئ الطّعام بالكَسر، كما قالوا فَقِه الرجُل وفَقُه. ووَبِئ البلد بالكسر يَوْبَأ وبَاءَة فهو وَبِيءٌ على «فعيل» أيضاً، ويجوز فهو وَبِئٌ على «فَعِل» مثل حَذِر وأَشِر.

يقول عليه السلام: الحقّ وإن كان ثقيلاً إلّا أن عاقبته محمودة، ومَغَبّته صالحة، والباطلُ وإن كان خفيفاً إلّا أنّ عاقبته مذمومة، ومَغَبّته غير صالحة، فلا يحملنّ أحدَكم حلاوةُ عاجلِ الباطل على فعله، فلا خَير في لذّة قليلة عاجلة، يتعقّبها مضارُّ عظيمةٌ آجلة، ولا يَصرِفنّ أحدَكم عن الحق ثِقلُه فإنّه سيَحمَد عُقبَى ذلك، كما يَحمَد شاربُ الدّواء المُرّ شُرْبه فيما بعدُ إذا وَجد لذّةَ العافية.

- ٣٨٣ -

الأصل: لا تَأمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَذَابَ اللهِ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١) وَلا تَيْأَسَنَّ لِشَرِّ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ اللهِ تَعَالَى ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(٢).

الشرح: هذا كلامٌ ينبغي أن يُحمَل على أنّه أراد عليه السلام النهيَ عن القطع على مغيب أحدٍ من النّاس، وأنّه لا يجوز لأحد أن يقول: فلان قد نجا، ووجبتْ له الجنّة، ولا فلان قد هَلَك ووجبتْ له النار، وهذا القول حقّ؛ لأنّ الأعمال الصالحة لا يُحكم لصاحبها بالجنّة إلّا بسلامة العاقبة، وكذلك الأعمال السّيئة لا يُحكَم لصاحبها بالنّار إلّا إنْ مات عليها، فأمّا الاحتجاج بالآية الأولى فلقائل أن يقول: إنّها لا تدلّ على ما أفتى عليه السلام به، وذلك لأنّ معناها أنّه لا يجوز للعاصي أن يأمن مَكْرَ الله على نفسه، وهو مقيمٌ على عِصْيانه، الا تَرَى أنّ أوّلها: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾(٣)، وليست دالّة عَلَى ما نحن فيه، لأن الذي نحن فيه: هل يجوز لأحدٍ أن يأمَن على الصّالحين من هذه الأمّة عذابَ الله.

فأمّا الآية الثانية فالاحتجاج بها جيّد لا شُبهَة فيه، لأنّه يجوز أن يَتوب العاصي والتوبة من رَوْح الله.

فإن قلتَ: وكذاك يجوز أن يَكفُر المسلِم المطيع. قلت: صدقتَ، ولكنّ كفرَه ليس من مكرِ الله، فدَلّ على أنّ المراد بالآية أنه لا ينبغي للعاصي أن يأمَن من عقوبة الله ما دام عاصياً، وهذا غيرُ مسألتِنا.

- ٣٨٤ -

الأصل: البُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئ العُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٧، ٩٩.

الشرح: قد تقدّم القول في البخل والشحّ. ونحن نذكر هاهنا زيادات أخرى.

بعض ما ورد في الجود والبخل

قال بعض الحكماء: السّخاء هيئة للإنسان، داعيةٌ إلى بَذْل المقتنيات، حصل معه البَذْل لها أو لم يَحصُل، وذلك خُلقٌ، ويقابله الشّحّ، وأمّا الجود، فهو بذلُ المُقتنَى، ويقابله البُخل، هذا هو الأصل، وإن كان كلّ واحد منها قد يُستعمَل في موضع الآخر، والّذي يدلّ على صحّة هذا الفَرْق أنهم جعلوا اسم الفاعل من السّخاء والشحّ على بناء الأفعال الغريزية، فقالوا: شحيح وسخيّ، فبنَوْه على «فَعيل» كما قالوا: حليم وسفيه وعَفِيف، وقالوا: جائد وباخل، فبنَوْها على «فاعل» كضارِب وقاتِل، فأما قولُهم: بخيل، فمصروف عن لفظ «فاعل» للمبالغة، كقولهم في راحم رَحيم، ويدلّ أيضاً على أنّ السّخاء غريزة وخُلُق أنّهم لم يَصِفوا الباريء سبحانه، به فيقولوا سَخِيّ، فأمّا الشّح فقد عظّم أمره وخوّف منه، ولهذا قال ﷺ: «ثلاثٌ مُهلِكات: شحّ مُطاع، وهَوَى متّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه»[1]، فخصّ المطاع تنبيهاً على أنّ وجودَ الشّحّ في النفس فقط ليس ممّا يستحقّ به ذمّ لأنه ليس من فعله، وإنّما يُذَم بالانقياد له، قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾[2]، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[3].

وقال ﷺ: لا يجتمع شحّ وإيمانٌ في قلب أبداً[4].

فأمّا الجود فإنّه محمود على جميع ألسنة العالم، ولهذا قيل: كفى بالجود مدحاً أنّ اسمه مطلقاً لا يقع إلّا في حَمْد، وكَفَى بالبخل ذمًّا أن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في ذم.

وقيل لحكيم: أيّ أفعال البَشَر أشبَه بأفعال الباري سبحانه؟ فقال: الجُود.

وقال النّبي ﷺ: «الجُود شجرةٌ من أشجار الجنّة، مَن أخَذَ بغُصْن مِن أغصانها أدّاه إلى الجنة، والبخلُ شجرةٌ من أشجار النّار من أخذ بغُصْن من أغصانِها أدّاه إلى النّار»[5].

ومن شَرَف الجود أن الله سبحانه قَرَن ذكره بالإيمان، ووَصَف أهله بالفلاح، والفَلاح اسمٌ جامع لسعادة الدّارَين.

---

(١) أخرجه الشهاب في «مسنده» (٣٢٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٤٧٥).
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٦. (٣) سورة النساء، الآية: ١٢٨.
(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٣٩٥)، والنسائي في «سننه» (٣١١٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٤٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٢٨).
(٥) أخرجه السيوطي في جامعه رقم: ٤٨٠٣ وأخرجه السيوطي في الدر المنثور: ٦/ ١٩٧.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١). وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وحقّ للجود بأن يُقرَن بالإيمان، فلا شيء أخصّ به وأشدّ مجانسَة له منه، فإن من صفة المؤمن انشراح الصّدر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾(٣)، وهذا من صفات الجواد والبخيل، لأنّ الجواد واسعُ الصدر، منشرح مستبشِر للإنفاق والبَذْل، والبخيل قَنُوط ضيّق الصدر، حَرِج القَلْب مُمسِك.

وقال النبيّ ﷺ: «وأيّ داءٍ أدوَأ من البُخل»(٤).

والبُخل على ثلاثة أضرُب: بخلُ الإنسان بمالِه على نفسه، ويخلُه بماله على غيره، ويخلُه بمال غيره على نفسه أو على غيره، وأفحشُها بُخلُه بمالِ غيره على نفسه، وأهوَنُها - وإن كان لا هيّنَ فيها - بُخلُه بماله على غيره.

وقال ﷺ: «اللّهم اجعلْ لمنفق خَلَفاً، ولممسِك تَلفاً»(٥).

وقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يُنزِل المعونة على قدْر المؤونة»(٦).

وقال أيضاً: «مَن وسّع وُسِّع عليه»(٧).

وقالت الفلاسفةُ: الجود على أقسام: فمنها الجودُ الأعظم، وهو الجود الإلهيّ، وهو الفَيْض العامّ المطلَق، وإنما يختلف لاختلاف الموادّ واستعداداتِها، وإلّا فالفيض في نفسه عامٌّ غيرُ خاصّ، ويعدَه جُودُ الملوك، وهو الجود بجُزء من المال على من تدعُوهم الدّواعي والأغراض إلى الجُود عليه، ويَتلوه جودُ السّوقة، وهو بَذْل المال للعُفاة أو النّدامى والشَّرب والمعاشرين والإحسان إلى الأقارب.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣ - ٥. (٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٤) أخرج البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: من الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين (٣١٣٧)، وأحمد في «مسنده» (١٣٨٨٩).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ (١٤٤٢)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: في المنفق والممسك (١٠١٠).

(٦) ذكره في «فيض القدير» (٢/ ٣١٨)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥٩٩٢)، ونسبه لابن لال.

(٧) ذكره في «فيض القدير» (٤/ ٥٤).

قالوا: واسم الجودِ مجاز، إلّا الجود الإلٰهي العامّ، فإنه عارٍ عن الغَرَض والدّاعي. وأما من يُعطِي لغرضٍ وداعٍ نحو أن يحبّ الثناء والمحمَدة، فإنه مستعيض وتاجر يُعطِي شيئاً ليأخذَ شيئاً، قالوا قولَ أبي نُواس:

فتًى يشتري حُسنَ الثناء بمالهِ ويَعلمُ أنّ الدائراتِ تدورُ

ليس بغاية في الوَصْف بالجود التامّ، بل هو وصف بتجارة محمودة، وأحسَن منه قولُ ابن الرّومي:

وتاجر البرّ لا يزالُ له رِبحان في كل مَتْجر تجرَهْ

أجرٌ وحمدٌ وإنما طلب الأجـ ـر ولكنْ كلاهُما اعتورَهْ

وأحسن منهما قولُ بشّار:

ليس يُعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكن يَلذُّ طَعم العَطاءِ

ونحن قد ذكرْنا ما في هذا الموضع من البَحْث العقلي في كُتُبنا العقليّة.

- ٣٨٥ -

الأصل: يا بْنَ آدَمَ، الرِّزْقُ رِزْقانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، ورِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فإنْ لَمْ تَأْتِهِ أتاكَ، فَلا تَحْمِل هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ، كَفاكَ كُلُّ يوم ما فِيهِ، فإنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فإنَّ الله تَعالى سَيُؤتِيكَ في كُلِّ غَدٍ جَديدٍ ما قُسِمَ لَكَ، وإنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالهَمِّ فِيما لَيْسَ لَكَ، ولَمْ يَسْبِقْكَ إلى رِزْقِكَ طالِبٌ، ولنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غالِبٌ، ولن يُبْطِئَ عنْكَ ما قَدْ قُدِّرَ لَكَ.

قالَ: وقدْ مضى هَذا الكلامُ فيما تقدَّمَ مِنْ هذَا البابِ، إلّا أنهُ هاهنا أوضحُ وأشرحُ، فلذلكَ كرَّرْناه على القاعدَةِ المُقرَّرَةِ في أوّلِ هذَا الكتاب.

الشرح: قد تقدّم القول في معاني هذا الفصل، ورُوي أنّ جماعةً دخلوا على الجُنيد، فاستأذنوه في طلب الرزق، فقال: إن علمتم في أيّ موضع هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك، قال: إن علمتم أنه يَنْساكم فذكّروه، قالوا: فندخل البيت ونتوكل وننتظر ما يكون، فقال: التوكل على التجربة شَكّ، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

ورُوي أنّ رجلاً لازم باب عمرَ فضَجِر منه، فقال له: يا هذا، هاجرت إلى الله تعالى أم إلى باب عمر! اذهب فتعلّم القرآن، فإنه سيغنيك عن باب عمَر، فذهب الرجل وغاب مدّة حتى

افتقده عمرُ، فإذا هو معتزل مشتغل بالعبادة، فأتاه عمرُ فقال له: إني اشتقْت إليك، فما الذي شَغلك عنّا! قال: إني قرأتُ القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر، فقال: رحمك الله! فما وجدتَ فيه؟ قال: وجدتُ فيه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، فقلت: رِزْقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض، إني لبئس الرّجل، فبكى عمرُ وقال: صدقت، وكان بعد ذلك يتنابه ويَجلسُ إليه.

- ٣٨٦ -

الأصل: رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ، ومَغْبُوطٍ في أوّلِ لَيْلَةٍ قامَتْ بَوَاكِيهِ في آخِرِه.

الشرح: مثلُ هذا قولُ الشاعر:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوّله ... إنّ الحوادث قد يَطرُقن أسحارا

ومِثلُه:

لا يَغُرّنْك عِشاءٌ ساكنٌ ... قد يُوافي بالمَنِيّات السَّحَرْ

- ٣٨٧ -

الأصل: الكلامُ في وَثاقِكَ ما لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فإذا تكلَّمت به صِرْتَ في وَثاقِهِ، فاخْزُنْ لِسانَكَ كما تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ، فَرُبَّ كلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً.

الشرح: قد تقدم القولُ في مدح الصّمت وذمِّ الكلام الكثير.

وكان يقال: لا خير في الحياة إلا لصَمُوت واعٍ، أو ناطق مُحسِن.

وقيل لحذيفة: قد أطلتَ سجن لسانِك! فقال: لأنه غيرُ مأمون إذا أُطلِق. ومن أمثال العرب: رُبّ كلمةٍ تقول: دَعْني.

وقالوا: أصلها أنّ بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خَوَله، فنزل يوماً وهو يتصيّد على تَلْعة، ونزل أصحابُه حوله فأفاضوا في حديث كثير، فقال ذلك الإنسان: أترى لو أنّ رجلاً

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

ذُبحَ على رأس هذه التَّلعة هل كان يسيلُ دمُه إلى أوّل الغائط؟ فقال المَلِك: هَلُمّوا فاذْبَحوه لننظر، فذَبحوه، فقال المَلِك: ربَّ كلمةٍ تقولُ: دَعْني.

وقال أكثمُ بن صَيْفيّ: من إكرام الرَّجل نفسَه ألّا يتكلّم بكلّ ما يعلم.

وتذاكر قومٌ من العرب وفيهم رجلٌ باهِليٌّ ساكت، فقيل له: بحَقٍّ ما سُمّيتم خُرْسَ العَرَب، فقال: أما علمتم أنّ لسان المرء لغيره، وسمَعه لنفسِه!

— ٣٨٨ —

الأصل: لا تَقُلْ مَا لا تَعْلَمُ، بَلْ لا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ، فَإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِك كُلِّها فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرح: هذَا نَهيٌ عن الكذب، وأن تقول ما لا تَأمَن من كونه كَذِباً، فإنّ الأمرين كِلَيْهما قبيحان عَقْلاً عند أصحابنا.

فإن قلتَ كيف يقول أصحابكم: إنّ الخبر الّذي لا يأمن كونه كَذِباً قبيح، والناس يَسْتَحْسِنون الأخبارَ عن المظنون.

قلت: إذا قال الإنسان: زيدٌ في الدار وهو يظنّه في الدار ولا يَقطع عليه، فإنّ الحسَن منه أن يُخبر عن ظنّه كأن يقول: أُخبِرُ عن أنّي أظنّ أنّ زيداً في الدار، وإذا كان هذا هو تقديره فالخبر إذنْ خبرٌ عن معلوم لا عن مَظْنونٍ، لأنّه قاطع على أنّه ظانّ أنّ زيداً في الدار.

فأما إذا فرِض الخبر لا على هذا الوجه بل على القَطْع بأن زيداً في الدار وهو لا يقطع على أنّ زيداً في الدّار، فقد أخبر بخبرٍ ليسَ على ما أخبر به عنه، لأنّه أخبر عن أنّه قاطع، وليس بقاطعٍ، فكان قبيحاً.

— ٣٨٩ —

الأصل: احْذَرْ أَنْ يَراكَ اللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، ويَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ، فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ، وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ.

الشرح: مَن علم يقيناً أنّ الله تعالى يراه عند معصيته، كان أجْدَرَ الناس أن يجتنبَها، كما إذا علمْنا يقيناً أنَّ الملك يرى الواحد منّا وهو يراود جاريتَه عن نفسه، أو يحادث ولده ليفجُر به، ولكنّ اليقين في البَشَر ضعيفٌ جدًّا، أو أنّهم أحمقُ الحيوان وأجهَلُه، وبحقّ أقول: إنّهم إن اعتقدوا ذلك اعتقاداً لا يخالطه الشكّ، ثم واقعوا المعصية، وعندهم عقيدة أخرى ثابتة أنّ العقاب لاحِقٌ بمن عصى، فإن الإبلَ والبقرَ أقربُ إلى الرَّشاد منهم.

وأقول: إنّ الذي جرّأ الناسَ على المعصية الطمعُ في المغفرة، والعفو العامّ. وقولهم: الحلم والكرم والصّفح من أخلاق ذوي النَّباهة والفَضْل من الناسِ، فكيف لا يكون من الباري سبحانه عفوٌ عن الذّنوب!

وما أحسَن قولَ شيخِنا أبي عليّ رحمه الله: لولا القولُ بالإرْجاء، لما عُصيَ اللهُ في الأرض.

- ٣٩٠ -

الأصل: الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا مَعَ ما تُعَايِنُ مِنْهَا جَهْلٌ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ العَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الاخْتِبَار لَهُ عَجْزٌ.

الشرح: قد تقدّم الكلام في الدّنيا وحُمْق من يَرْكن إليها مع معاينة غدرِها، وقلّة وفائها ونقضِها عهودَها، وقتلِها عُشاقَها.

ولا ريبَ أن الغَبْن وأعظمُ الغبْن هو التقصير في الطاعة مع يقين الثواب عليها، وأمّا الطمأنينة إلى مَنْ لم يعرف ولم يختبرْ فإنها عجز - كما قال عَلَيْتِ - يَعني عجزاً في العقل والرأي، فإن الوثوق مع التجربة فيه ما فيه، فكيف قبل التجربة!

وقال الشاعر:

وكـنـتُ أرى أن الـتـجـاربَ عُـدَّةٌ فخانت ثقاتُ الناس حين التّجاربِ

- ٣٩١ -

الأصل: مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى الله أَنَّهُ لا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا، وَلا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بتَرْكِهَا.

الشرح: هذا الكلام نسبَه الغَزاليّ في كتاب «إحياء علوم الدين» إلى أبي الدَّرداءِ، والصحيح أنه من كلام عليّ عليه السلام، ذكَرَه شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ في غير موضع من كُتُبه، وهو أعرَف بكلام الرجال.

بعض ما قيل في حال الدنيا

وقد تقدّم من كلامنا في حال الدنيا وهَوانِها على الله واغترارِ الناس بها وغدْرِها بهم، وذَمّ العقلاء لها، وتحذيرهم منها ما فيه كفاية.

ونحن نذكرها هنا زيادةً على ذلك. يقال: إنّ في بعض كتب الله القديمة: الدّنيا غنيمة الأكياس، وغفلة الجُهّال، لم يَعرِفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرَّجعة فلم يَرجِعوا.

وقال بعض العارفين: مَن سأل الله تعالى الدّنيا فإنما سأله طولَ الوقوف بين يديه.

وقال الحسن: لا تَخرُج نفسُ ابنِ آدمَ من الدّنيا إلّا بحَسَرات ثلاث: أنه لم يَشبَع ممّا جَمَع، ولم يُدرِك ما أمّل، ولم يُحسِنِ الزّاد لِما يُقدِم عليه.

ومن كلامه: اَهِينوا الدّنيا، فوالله ما هيَ لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها.

وقال محمد بن المنكدر: أرأيتَ لو أنّ رجلاً صام الدهرَ لا يُفطِر، وقام الليل لا يَفتُر، وتصدّق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتَنب محارمَ الله تعالى، غير أنّه يؤتَى به يومَ القيامة فيقال: إنّ هذا مع ما قد عمل كان يَعظم في عينه ما صغّر الله، ويصغُر في عينه ما عظّم الله، كيف ترى يكون حالُه! فمَن منّا ليس هكذا، الدّنيا عظيمة عندَه مع ما اقترَفْنا من الذنوب والخطايا.

وقد ضرَبَت الحكماءُ مَثَلاً للدّنيا نحن نذكره هاهنا، قالوا: مَثَل الدّنيا وأهلِها كقوم رَكِبوا سفينةً فانتهتْ بهم إلى جزيرة، فأمَرَهم الملّاح بالخروج لقضاء الحاجة وحَذّرهم المُقام، وخوّفهم مرورَ السَّفينة، واستعجالها، فتفرّقوا في نواحي الجَزيرة، فقضَى بعضُهم حاجَته وبادر إلى السفينة، فصادف المكانَ خالياً، فأخذ أوسعَ المواضعِ وأليَنَها وأوفَقَها لمراده. وبعضهم توقّف في الجزيرة يَنظُر إلى أزهارها وأنوارِها العجيبة، وغِياضِها الملتفّة، ونَغمات طيورِها الطيّبة، وألحانِها الموزونة الغريبة، ولحظ في تزيينها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفة الألوان ذواتِ الأشكال الحَسَنة المنظَر، العجيبة النّقش، السالبة أعينَ الناظرين بِحُسن زِبْرِجها، وعجائبِ صُوَرِها، ثمّ تنبّه لخطر فَوات السفينة، فرجع إليها فلم يصادِف إلا مكاناً ضيّقاً حَرَجاً، فاستقرّ فيه. وبعضهم أكَبّ فيها على تلك الأصداف والأحجار، وقد أعجَبه حُسنُها، ولم تَسمَح نفسُه بإهمالها وتَركِها، فاَستصحَب منها جملةً، فجاء إلى السفينة فلم يجد إلّا مكاناً ضيّقاً، وزاده ما حمله ضِيقاً، وصار ثِقْلاً عليه ووَبالاً، فندم على أخذِه، ولم تُطِعه نفسُه على رميه، ولم

يجد موضعاً له، فحَمَله على عنقه ورأسِه، وجلس في المكان الضيّق في السفينة، وهو متأسّف على أخذِه ونادِم، وليْس ينفعه ذلك. وبعضُهم تولّج بتلك الأنوار والغِياض، ونسيَ السّفينة وأبعَد في متفرَّجِه ومتنزَّهه، حتَّى إنّ نداء الملّاح لم يَبلُغه لاشتغاله بأكل تلك الثّمار، واشتمامِه تلك الأنوار، والتفرّج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائفٌ على نفسه من السّباع، والسَّقَطات والنَّكَبات، ونَهْشِ الحيّات، وليس ينفكّ عن شَوْكٍ يتشبّث بثيابه، وغصن يَجْرح جسمَه، ومَرْوةٍ تُدمِي رِجلَه، وصوتٍ هائل يَفزَع منه، وعَوْسَج يملأ طريقَه، ويَمنعه عن الانصراف لو أراده، وكان في جماعة ممّن كان معه في السّفينة حالهم حالُه، فلمّا بلغهم نداءُ السّفينة راحَ بعضُهم مثقَلاً بما معه فلم يجدْ في السفينة موضعاً واسعاً ولا ضيّقاً، فبقِي على الشّط حتَّى مات جوعاً. وبعضهم بَلَغه النّداء، فلم يُعرِّج عليه، واستغرقْته اللّذّة، وسارت السفينة، فمنهم من افترسَتْه السّباع، ومنهم من تاهَ وهامَ على وجهه حتَّى هلك، ومنهم من ارتطَمَ في الأوحال، ومنهم من نهشَتْه الحيَّات، فتفرّقوا هَلْكَى كالجيفَ المنتِنة. فأمّا من وصل إلى السفينة مُثقَلاً بما أخَذَه من الأزهار والفاكهة اللذيذة، والأحجار المعجِبة، فإنها استرقّته وشَغَله الحُزن بحفظِها والخوفِ من ذَهابها عن جميع أموره، وضاق عليه بطريقها مكانُه، فلم تَلبَث أن ذبلتْ تلك الأزهار، وفَسَدت تلك الفاكهة الغَضّة، وكَمَدتْ ألوانُ الأحجار وحالت، فظهر له نَتْنُ رائحتها، فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذِيَةً له بنَتْنِها ووَحْشَتها، فلم يجد حيلةً إلّا أن ألقاها في البحر هَرَباً منها وقد أثر في مِزاجه ما أكَله منها، فلم ينتَهِ إلى بلده إلّا بعد أن ظهرتْ عليه الأسقام بما أكَل وما شَمّ من تلك الروائح، فبلغ سقيماً وَقيذاً مدبراً، وأمّا من كان رجع عن قريب وما فاته إلّا سَعَة المَحَلّ، فإنه تأذى بضِيق المكان مدّة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، وأما من رجع أوّلاً فإنه وَجَد المكان الأوْسَع، ووَصل إلى الوطن سالماً طيّبَ القلب مسروراً.

فهذا مِثال أهلِ الدنيا في اشتغالهم بحظوظِهم العاجلة، ونِسيانهم موردَهم ومصدرَهم، وغفلتِهم عن عاقبة أمرهم، وما أقبَح حال من يَزعُم أنّه بصير عاقل وتغرّه حجارة الأرض، وهي الذّهب والفضّة، وهَشيم النّبت وهو زينة الدنيا، وهو يَعلَم يقيناً أنّ شيئاً من ذلك لا يَصحَبه عند الموت، بل يصير كُلّه وبالاً عليه، وهو في الحال الحاضرة شاغلٌ له بالخوف عليه، والحزن والهمّ لحفظه، وهذه حال الخَلْق كلّهم إلّا من عَصَمَه الله.

وقد ضُرِب أيضاً لها مِثالٌ آخَر في عبور الإنسان عليها، قالوا: الأحوال ثلاثة: حالٌ لم يكن الإنسان فيها شيئاً، وهي ما قبل وجودِه إلى الأزَل، وحالٌ لا يكون فيها موجوداً مُشاهداً للدّنيا، وهي بعد موته إلى الأبد، وحالة متوسّطةٌ بين الأزَل والأبَد، وهي أيّام حياته في الدنيا، فلْينظر العاقلُ إلى الطّرَفين الطويلين، ولينظرْ إلى الحالة المتوسّطة، هل يجد لها نسبةً إليها، وإذا رأى

العاقل الدّنيا بهذه العين لم يَركَن إليها، ولم يُبالِ كيف تقضّت أيّامُه فيها، في ضُرّ وضِيق، أو في سَعةٍ ورَفاهة، بل لا يَبنِي لَبِنةً على لَبِنة، توفّي رسولُ الله ﷺ وما وضَعَ لَبِنة على لَبِنة، ولا قَصَبة على قَصَبة. ورأى بعضَ الصّحابة بَنَى بيتاً من جِصّ فقال: أرى الأمرَ أعجَل من هذا، وأنكَر ذلك، ولهذا قال النّبي ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومَثلُها كراكبٍ سار في يوم صائف، فرُفِعتْ له شجرةٌ فقام تحت ظلّها ساعةً ثمّ راح وترَكَها»(١).

وإلى هذا أشار عيسى ابنُ مريمَ حيث قال: الدنيا قنطرة، فاعبرُوها ولا تَعمرُوها، وهو مَثلٌ صحيح، فإنّ الحياة الدنيا قَنطرةٌ إلى الآخرة، والمَهْد هو أحد جانِبَي القَنْطرة، واللّحد الجانب الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن النّاس من قطع نصفَ القنطرة، ومنهم من قطع ثُلثَيها، ومنهم من لم يبق له إلّا خُطوةٌ واحدة وهو غافل عنها، وكَيفَما كان فلا بدّ من العبور والانتهاء، ولا ريبَ أنّ عمارة هذه القنطرة، وتزيينها بأصناف الزّينة لمن هو محمول قَسْراً وقَهْراً على عُبورها، يسوقه سائقٌ عنيف، غاية الجهل والخِذلان.

وفي الحديث المرفوعُ: «إنّ رسول الله ﷺ مَرّ على شاةٍ مَيْتةٍ، فقال: أترَوْن أن هذه الشاة هيّنةٌ على أهلها؟ قالوا: نعم، ومِنْ هوانها ألقَوْها، فقال: والذي نفسي بيده للدّنيا أهوَن على الله من هذه الشّاة على أهلِها، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جَناحَ بَعوضة لما سَقَى كافراً منها شربةَ ماء»(٢).

وقال ﷺ: «الدّنيا سِجنُ المؤمن، وجنّة الكافر»(٣).

وقال أيضاً: «الدّنْيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلّا مَا كان لله منها»(٤).

وقال أيضاً: «مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فآثِروا ما يَبقَى على ما يَفنى»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٣٩)، والطيالسي في «مسنده» (٢٧٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٢٢٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: «الزهد»، باب: مثل الدنيا (٤١١٠)، وأحمد في «مسنده» (٨٢٥٩)، والدارمي، كتاب: الرقاق، باب: في هوان الدنيا على الله (٢٧٣٧).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: (٢٩٥٦)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤)، وابن ماجه كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٣)، وأحمد في «مسنده» (٦٨١٦).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: منه (٢٣٢٢)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٢).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩١٩٨).

وقال أيضاً: «حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»(١).

وروى زيدُ بنُ أرقَم قال: كنّا مع أبي بكر، فدعا بشراب، فأُتِي بماءٍ وعَسَل، فلما أدناه مِنْ فيه بكى حتى أبكى أصحابه، فسكتوا وما سكَت، ثم عاد لِيَشرَب، فبَكَى حتّى ظنُّوا أنّهم لا يَقدِرون على مسألته، ثمّ مسح عينيه، فقالوا: يا خليفةَ رسول الله، ما أبكاك؟ قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ فرأيتُه يدفَع بيَدِه عن نفسه شيئاً، ولم أر معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «هذه الدّنيا مُثّلت لي»، فقلتُ لها: إليك عني، فرجعتْ وقالت: إنّك إن أفلتَ منّي لم يفلتْ منّي مَن بَعدَك. وقال ﷺ: «يا عَجَباً كلّ العَجَب للمصدِّق بدار الخلود وهو يَسْعى لدار الغرور!»(٢).

ومن الكلام المأثور عن عيسى عليه السلام: لا تتّخذوا الدّنيا ربًّا فتتخذكم الدّنيا عَبِيداً، فاكنزوا كَنْزَكم عندَ من لا يضيِّعه، فإن صاحب كَنْز الدنيا يخَافُ عليه الآفة، وصاحب كنز الآخرة لا يخاف عليه.

- ٣٩٢ -

الأصل: مَنْ ابطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

وفي رِوَايَةٍ أُخرَى: مَنْ فاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ، لَمْ يَنْفَعْهُ حَسَبُ آبائِهِ.

الشرح: قد تقدّم مِثلُ هذا، وقد ذكرنا ما عندَنا فيه، وقال الشاعر:

لئن فخرتَ بآباءٍ ذَوِي حَسَبٍ ... لقد صدقتَ ولكنْ بئس ما وَلَدُوا

وكان يقال: أجهَل الناس من افتخر بالعظام البالية، وتبجّح بالقرون الماضية، واتّكل على الأيام الخالية.

وكان يقال: من طريف الأمور حَيٌّ يتّكل على ميّت. وكان يقال: ضَعَة الدنيء في نفسه والرفيع في أصله، أقبح من ضعة الوضيع في نفسِه وأصْله، لأن هذا تشبّه بآبائه وسَلفِه، وذاك

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٥٨)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢٤٧)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٩٢).

(٢) أخرج بنحوه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٨٢)، والشهاب في «مسنده» (٥٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٢٩).

قصَّر عن أصله وسلَفه، فهو إلى الملامة أقرَب، وعن العذر أبعد.

افتخر شريفٌ بأبيه، فقال خَصمه: لو وُفِّقتَ، لما ذكرت أباك، لأنه حجَّةٌ عليك تُنادي بنقْصك، وتقرّ بتخلّفك.

كان جعفر بنُ يحيى يقول: ليس من الكِرام من افتخَر بالعظام.

وقال الفضل بن الرّبيع: كفى بالمرء عاراً أن يفتَخِر بغيره.

وقال الرشيد: من افتخَر بآبائه فقد نادَى على نَفْسه بالعَجْز، وأقرّ على همّته بالدّناءة.

وقال ابنُ الرّوميّ:

وما الحسبُ الموروثُ لا دَرَّ دَرُّه ... بمحتَسب إلا بآخَرَ مُكْتَسَبْ

إذا العُود لم يُثْمر وإن كان شُعبةً ... من الثمرات اعتدّه الناسُ في الحَطَبْ

وقال عبدُ الله بن جعفر:

لسنَا - وإن أحسابُنا كرُمتْ - ... يوماً على الآباءِ نَتّكِلُ

نَبني كما كانت أوائلُنا ... تَبني، ونفعلُ مِثلَ ما فَعلوا

وقال آخرَ:

وما فخري بمَجدٍ قام غيري ... إليه إذا رقدتُ الليل عنهُ

إلى حَسَب الفتى في نفسِه انظُرْ ... ولا تنظُرْ هُديتَ إلى ابن مَن هُو

وقال آخر:

إذا فخرتُ بآبائي وأجدادي ... فقد حكمتُ على نفسي لأضدادي

هل نافعي إن سَعَى جَدّي لمكرمةٍ ... ونمت عن أختها في جانب الوادي!

وقال آخر:

أيُقْنِعُني كوني بِمَنْ كونِيَ ابنه ... أباً ليَ أن أرضى لفخري بمَجدِهِ

إذا المرءُ لم يحو العَلاء بنفسه ... فليس بحاوٍ للعَلاء بجَدِّه

وهل يَقطع السَّيف الحسام بأصلهِ ... إذا هو لم يقطع بصارم حَدِّهِ!

وقيل لرجل يُدِلّ بشرفِ آبائه: لعَمري لك أوّل، ولكن ليس لأوّلك آخر.

ومثلُه أنّ شريفاً بآبائه فاخر شريفاً بنَفْسه، فقال الشريف بنفسه: انتهى إليك شَرَفُ أهلك، ومنّي ابتدأ شرَفُ أهلي، وشتّان بين الابتداء والانتهاء!

وقيل لشريف ناقِص الأدب: إنّ شرفك بأبيك لغيرِك، وشرفك بنفسِك لك، فافرُقْ بين ما لَكَ وما لغيرِك، ولا تفرَح بشرف النسب، فإنه دون شَرف الأدب.

- ٣٩٣ -

الأصل: مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نالهُ أوْ بَعْضَهُ.

الشرح: هذا مِثلُ قولهم: مَنْ طلبَ وَجَدّ وجَد.

وقال بعضُ الحكماء: ما لازمَ أحدٌ بابَ المَلِك فاحتَمَل الذّلّ وكَظَم الغيظ ورَفَق بالبَوّاب وخالط الحاشية إلّا وصَل إلى حاجته من المَلِك.

- ٣٩٤ -

الأصل: مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بشَرٍّ بَعْدَهُ الجَنَّةُ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الجَنَّةِ مَحْقُورٌ، وكُلُّ بَلاءٍ دُونَ النَّارِ عافِيَةٌ.

الشرح: موضع «بعده النار» رَفْعٌ لأنّه صفة «خير» الذي بعد «ما»، وخير يرفع لأنه اسمُ ما، وموضع الجار والمجرور نَصْب لأنه خبر ما، والباء زائدةٌ، مِثلها في قولك: ما أنت بزيد، كما تزاد في خبر ليس، والتقدير ما خيرٌ تتعقبه النار بخير، كما تقول: ما لذّة تتلوها نغصة بلَذّة، ولا ينقدح في ما: الوجهان اللّذان ذكرهما أربابُ الصّناعة النحوية في «لا» في قولهم: لا خير بخير بعدَه النار، أحدهما ما ذكرناه في ما، والآخر أن يكون موضع «بعده النار» جرًّا لأنه صفة خير المجرور، ويكون معنى الباء معنى في كقولك: زيدٌ بالدار وفي الدار، ويصير تقديرُ الكلام: لا خير في خيرٍ تعقُبه النار، وذلك أن ما تَستدعي خَبَراً موجوداً في الكلام، بخلاف لا، فإن خبرها محذوف في مِثل قولك: لا إلٰه إلّا الله، ونحوه، أي في الوجود أو لنا أو ما أشبه ذلك، وإذا جعلت بعده صفة خير المجرور لم يبق معك ما تَجعَله خبر ما.

وأيضاً فإنّ معنى الكلام يَفسد في ما بخلاف لا؛ لأنّ لا لنفي الجنس، فكأنه نَفَى جنسَ الخير عن خير تتعقّبه النار، وهذا معنى صحيح، وكلامٌ منتظم، وما هاهنا إن كانت نافيةً احتاجَتْ إلى خبر ينتظم به الكلام، وإن كانت استفهاماً فَسَد المعنى؛ لأنّ «ما» لفظ يُطلب به معنى الاسم، كقوله: ما العَنقاء، أو يُطْلَب به حقيقةُ الذات، كقولك: ما المَلِك؟ ولست تطيق

أن تدّعي أنّ ما للاستفهام هاهنا عن أحد القِسْمين مَدْخلاً لأنّك تكون كأنّك قد قلت: أيّ شيء هو خيرٌ في خير تتعقبه النار؟ وهذا كلامٌ لا معنى له.

- ٣٩٥ -

الأصل: الا وَإنَّ مِنَ البَلاءِ الفَاقَةَ، وَأَشَدُّ مِنَ الفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ، ألا وَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ سَعَةَ المَالِ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ المَالِ صِحَّةُ البَدَنِ، وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ البَدَنِ تَقْوَى القَلْبِ.

الشرح: قد تقدّم الكلام في الفاقة والغِنى، فأما المرض والعافية ففي الحديث المرفوع: «إليك انتهت الأمانيّ يا صاحبَ العافية»(١). فأمّا مَرَض القَلْب وصحّته فالمراد به التّقوى وضدّها، وقد سبق القول في ذلك.

وقال أحمدُ بن يوسفَ الكاتب:

المالُ للمرءِ في معيشتِه … خيرٌ من الوالدَين والولدِ
وإن تَدُمْ نعمةٌ عليك تَجِدْ … خيراً من المال صحّةَ الجسدِ
وما بمن نَال فضلَ عافيةٍ … وقوتَ يومٍ فَقرٌ إلى أحدِ

- ٣٩٦ -

الأصل: لِلْمُؤمِنِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيها رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ فِيهَا مَعَاشَهُ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ، وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إلّا فِي ثَلاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

الشرح: تقدير الكلام: يَنبغي أن يكون زمانُ العاقل مقسوماً ثلاثةَ أقسام.

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦٩٤)، والشهاب في «مسنده» (١٤٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٤٥).

ويرُمّ معاشَه: يُصلِحه. وشاخصاً: راحلاً. وخطوة في معاد، يعني في عَمَل المَعاد، وهو العبادة والطّاعة.

وكان شيخنا أبو عليّ رحمه الله يَقسِم زمانَه على ما أصف لك: كان يُصلّي الصبحَ والكواكبُ طالعة، ويَجلس في مِحرابِه للذِّكر والتّسبيح إلى بعد طُلوعِ الشمس بقليل، ثمّ يتكلّم مع التلامذة وطلبةِ العلم إلى ارتفاع النّهار، ثمّ يقوم فيصلّي الضُّحى، ثمّ يجلس فيتمّم البحثَ مع التلامذة إلى أن يؤذّن للظُّهر، فيصلّيها بنوافلها، ثمّ يدخل إلى أهله فيُصلِح شأنَه، ويقضي حوائجه، ثمّ يخرج للعصر فيصلّيها بِنوافلها، ويَجلس مع التلامذة إلى المغرب فيصلّيها، ويصلّي العِشاء، ثم يشتغِل بالقرآن إلى ثُلثِ الليل، ثم يَنامُ الثلث الأوسَط، ثمّ يَقعُد فيصلّي الثُّلثَ الأخير كلَّه إلى الصّبح.

- ٣٩٧ -

الأصل: ازْهَدْ فِي الدُّنْيا يُبَصِّرْكَ الله عَوْرَاتِهَا، وَلا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ.

الشرح: أمرَه بالزُّهد في الدنيا، وجعل جزاءَ الشَّرط تبصيرَ الله تعالى له عَوْراتِ الدُّنيا، وهذا حقّ، لأنّ الرّاغب في الدنيا عاشق لها، والعاشق لا يَرَى عيبَ معشوقِه، كما قال القائل:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَليلةٌ ... ولكنّ عينَ السُّخط تُبْدِي المَساوِيَا

فإذا زَهِد فيها فقد سَخِطها وإذا سَخِطها أبْصَر عيوبَها مُشاهدةً لا رواية.

ثمّ نهاه عن الغفلة، وقال له: إنّك غيرُ مغفول عنك، فلا تَغفَل أنتَ عن نفسك، فإنّ أحقّ الناس وأولاهم ألّا يغفل عن نفسه من ليس بمغفولٍ عنه، ومن عليه رقيب شهيدٌ يناقِشه على الفَتيل والنَّقير.

- ٣٩٨ -

الأصل: تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا، فَإِنَّ المَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.

الشرح: هذه إحدى كلماته عليه السلام الّتي لا قيمةَ لها، ولا يقدر قَدرُها، والمعنى قد تَداوَله الناسُ قال:

وكائنْ تَرى مِن صامتٍ لك معجِبٍ زيادتُه أو نقصُه في التّكلّمِ
لسانُ الفَتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يَبقَ إلّا صورةُ اللَّحمِ والدّمِ

وكان يحيى بن خالد يقول: ما جلسَ إليّ أحدٌ قط إلّا هِبْتُه حتى يتكلّم، فإذا تكلّم إمّا أن تزداد الهيبة أو تَنقُص.

- ٣٩٩ -

الأصل: نِعْمَ الطِّيبُ المِسْكُ، خَفِيفٌ مَحْمِلُهُ، عَطِرٌ رِيحُهُ.

الشرح: كان النبي ﷺ كثيرَ التطيّب بالمِسك وبغيره من أصناف الطِّيب. وجاء الخبر الصّحيح عنه: «حُبِّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنِّساء، وقُرّة عيني في الصّلاة»[(١)].

وقد رُويت لفظةُ أمير المؤمنين عليه السلام عنه مرفوعة. ونحوها: «لا تردُّوا الطّيب فإنّه طيب الريح، خفيفُ المَحمل»[(٢)].

سَرقَ أعرابيٌّ نافجَة مسْك، فقيل له: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[(٣)]، قال: إذَنْ أحمِلها طيّبةَ الرّيح، خفيفةَ المَحمل.

وفي الحديث المرفوع أنه ﷺ بايع قوماً كان بيدِ رجلٍ منهم رَدْعُ خَلوق، فبايعه بأطراف أصابعه، وقال: «خيرُ طيبِ الرجال ما ظَهَر ريحُه وخفيَ لونُه، وخيرُ طِيبِ النّساء ما ظَهَر لونُه وخفيَ رِيحُه»[(٤)].

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩)، وأحمد في «مسنده» (١١٨٨٤).

(٢) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٧٣٥٥)، وعزاه لأبي نعيم في «المعرفة» وذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ٢١٣).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في طيب الرجال والنساء (٢٧٨٧)، والنسائي،=

وعنه ﷺ في صفة أهل الجنّة: «ومَجامِرُهم الألُوّة»[1]، وهي العُودُ الهنديّ.

ورَوَى سهلُ بنَ سعد عنه ﷺ: «إنّ في الجنة لَمراغاً من مِسْك مِثل مَراغِ دوابّكم هذه»[2].

ورُوِي عنه ﷺ أيضاً في صفة الكَوْثر: جالُه المِسك - أي جانبُه - ورَضراضه التُّوم، وحَصباؤه اللؤلؤ[3].

وقالت عائشة: كأنّي أنظُر إلى وَبِيص المِسْك في مَفارِق رسول الله ﷺ وهو مُحرِم[4].

وكان ابنُ عمر يَستجمِر بعُود غير مُطَرًّى ويَجعَل معه الكافور، ويقول: هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ يَصنَع.

ورَوَى أنسُ بنُ مالك قال: دخل علينا رسولُ الله ﷺ فقال عندَنا والوقتُ صَيف، فَعرِق، فجاءَت أمّي بقارُورةٍ فجَعلتْ تَسلُت عَرَقَه، فاستيقَظ وقال: يا أمّ سُلَيم، ما تصنعين؟ قالت: هذا عَرَقك نَجْعله في طيبنا، فإنّه من أطيَب الطِّيب، ونَرجُو به بركةَ صِبْياننا، فقال: أَصَبْت[5].

ومن كلام عمرَ: لو كنتُ تاجراً ما اخترتُ غير العِطْر، إن فاتَني رِبْحُه لم يَفُتني رِيحُه.

ناوَل المتوكّل أحمَدَ بن أبي فَنن فأرة مِسك، فأنشده:

لئن كان هذا طِيبنا وهو طَيِّبٌ ... لقد طَيَّبَتْه من يَدَيك الأناملُ

قالوا: سُمِّيَت الغالية غاليةً، لأنّ عبدَ الله بن جعفر أهدَى لمعاوية قارورةً منها، فسأله، كم أنفَقَ عليها، فذكَر مالاً، فقال: هذه غاليةٌ فسُمِّيتْ غالية.

شمّ مالِكُ بنُ أسماءَ بن خارجة الفَزارِيّ من أخته هند بنت أسماء رِيحَ غالية، وكانت تحتَ الحجّاج، فقال: علِّميني طِيبك، قالت: لا أفعل، أتريد أن تعلِّمَه جَوارِيك! هُوَ لك عندي ما أردتَه، ثمّ ضحكتْ وقالت: والله ما تعلَّمتُه إلّا من شِعرك حيث قلتَ:

= كتاب الزينة، باب: الفصل بين طيب الرجال طيب النساء (٥١١٧)، وأبو داود، كتاب: النكاح، باب: ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابته أهله (٢١٧٤).

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٥)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر (٢٨٣٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٨٤٥)، «والأوسط» (١٧٦١)، والروياني في «مسنده» (١٠٤٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠١٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الغسل، باب: من تطيب ثم اغتسل وأثر الطيب (٢٧١)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: الطيب للمحرم عند الإحرام (١١٩٠).

(٥) أخرج بنحوه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: طيب عرق النبي ﷺ والتبرك به (٢٣٣١)، وأحمد في «مسنده» (١١٩٨٨).

أطيَبُ الطِّيبِ طيبُ أمّ أبَانٍ ... فأر مسكٍ بعَنبرٍ مَسْحوقِ
خَلَطَتْه بعُودِها وبِبانٍ ... فهو أحوَى على اليَدَين شريقُ

وَرَوَى أبو قِلابة قال: كان ابن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عَرَف مَن في الطريق أنه قد مرّ من طِيب رِيحه.

ورَوَى الحسنُ بنُ زَيد عن أبيه، قال: رأيتُ ابنَ عبّاس حين أحرَم والغاليةُ على صَلْعته كأنّها الرُّبّ.

أوْلَمَ المتوكّل في طُهْر بَنيه، فلمّا كَثُر اللّعب قال ليحيى بن أكثم: انصرِف أيّها القاضي، قال: ولم؟ قال: لأنّهم يريدون أن يَخلِطوا، قال: أحوَج ما يكونون إلى قاض إذا خَلَطوا، فاستَظرَفه وأمَرَ أن تُغلف لحيتُه، ففُعل، فقال يحيى: إنا لله! ضاعتِ الغالية، كانت هذه تكفيني دَهراً لو دُفِعتْ إليّ، فأمر له بِزَوْرَق لطيفٍ من ذَهب مملوءٍ من غالية ودُرْج بَخُور، فأخَذَهما وانصرف.

ورَوَى عِكرمةُ أنّ ابنَ عبّاس كان يَطلِي جسدَه بالمسك، فإذا مرّ بالطريق قال الناس: أمرٌّ ابنُ عبّاس أمِ المِسك؟

وقال أبو الضُّحى: رأيتُ على رأس ابنِ الزّبير من المِسك ما لو كان لي لكان رأس مالي.

لمّا بَنَى عُمر بنُ عبد العزيز على فاطمةَ بنتِ عبد الملك أسرَج في مَسارِجه تلك الليلة الغالية إلى أن طَلَعت الشمس.

كانت لابن عمر بُندُقة من مسك يَبُوكُها بين راحتيه فتفوح رائحتُها.

كان عمرُ بنُ عبد العزيز في إمارته المدينة يجعَل المِسكَ بين قَدميه ونعلِه، فقال فيه الشاعر يمدحه:

له نَعَلٌ لا تَطَّبِي الكلبَ ريحُها ... وإن وُضِعت في مجلسِ القومِ شُمَّت

سَمِع عمرُ قَولَ سُحَيم عبدِ بني الحَسْحاس:

وهبّت شَمالٌ آخر اللّيلِ قَرّةٌ ... ولا ثَوبَ إلّا دِرعُها ورِدائيا
فما زال بُردي طيّباً من ثِيابها ... مَدى الحَوْل حتّى أنهَج البُرد باليا

فقال له: وَيْحكَ! إنك مقتول، فلم تَمضِ عليه أيّام حتّى قُتِل.

قال الشّعبي: الرائحة الطيّبة تزيد في العَقل.

كان عبدُ الله بنُ زيد يتخلّق بالخَلوق، ثمّ يجلس في المجلس.

وكانوا يستحِبّون إذا قاموا من اللّيل أن يَمسَحوا مَقَاديمَ لِحاهم بالطِّيب.

واشترى تَميم الدّاريّ حُلّة بثمانِمائة دِرهم، وهيّأ طِيباً، فكان إذا قام من اللّيل تطيّب ولبِس حُلّته، وقام في المحراب.

وقال أنس: يا جميلة، هيّئي لنا طِيباً أمسح به يدي، فإنّ ابنَ أمّ ثابت إذا جاء قبّل يدِي - يَعني ثابتاً البُنانيّ.

وقال سَلم بنُ قُتيبة: لقد شممتُ من فلانٍ رائحةً أطيَب من مَشْطة العَروس الحَسْناء في أنف العاشق الشَّبِق.

ومن كلامِ بعضِ الصّالحين: الفاسق رِجْس ولو تَضَمَّخَ بالغالية.

عَرَضتْ مدنيّة لكُثَيِّر فقالت له: أنت القائل:

فـما روْضةٌ بـالـحَـزْن طـيّـبة الـثّـرَى يَـمُـجُّ الـنَّـدَى جَـثْـجـاثُـهـا وعَـرارُهـا
بـأطـيَـبَ مِـن أردانِ عَـزَّةَ مَـوْهِـنـاً وقـد أوقـدتْ بـالـمَـنـدَل الرّطـب نـارُهـا

لو كانت هذه الصّفة لزَنْجيّة تجتلي الحلّة لطابت، هلّا قلت كما قال سيّدك امرؤ القيس:

ألـمْ تَـرَيـانـي كـلّـمـا جـئـتُ طـارقـاً وجـدتُ بـهـا طِـيـبـاً وإن لـم تَـطـيَّـبِ

وقال الزّمخشريّ: إنّ النّوى المُنقَع بالمدينة ينتاب أشرافُها المواضعَ الّتي يكون فيها التماساً لطِيب رِيحه، وإذا وَجَدوا ريحَه بالعِراق هَرَبوا منها لخُبثها، قال: ومن اختلف في طُرُقات المدينة وَجَد رائحةً طيّبة وبَنَّة[1] عجيبة، ولذلك سُمّيت طَيْبة، والزّنجيّة بها تَجعَل في رأسها شيئاً من بلحٍ وما لا قيمة له، فتجد له خُمرةً لا يعدلها بيتُ عَروس من ذَوات الأقدار.

قال: ولو دخلت كلّ غالية وعطر قصبةَ الأهواز وقصبةَ أنطاكية لوجدتها قد تغيّرتْ وفسدتْ في مدّة يسيرة.

أراد الرشيد المُقام في أنطاكية، فقال له شيخ منها: إنّها ليست من بلادِك، فإنّ الطّيب الفاخرَ يتغيّر فيها حتّى لا يُنتفع منه بشيء، والسّلاح يَصدأ فيها.

سِيراف: من بِلادِ فارسَ، لها فغْمة طيّبة.

فأرة المِسْك دُوَيْبة شبيهة بالخِشْف تكون في ناحية تُبَّت تُصاد لأجل سُرّتها، فإذا صادها الصائد عَصَب سُرّتها بعصاب شديد وهي مدلاة، فيجتمع فيها دَمُها، ثمّ يذبحها، وما أكثرَ من يأكلها، ثمّ يأخذ السرّة فيَدفِنها في الشَّعْر حتى يستحيلَ الدمُ المحتقِن فيها مسكاً ذكيًا بعد أن كان لا يرام نَتْناً، وقد يوجد في البيوت جِرْذان سُودٌ يقال لها: فأر المِسك ليس عندها إلّا رائحة لازمة لها.

---

(١) البنة: الريح الطيبة والمنتنة القاموس، مادة (بنن).

وذكر شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ قال: سألتُ بعضَ أصحابنا المعتزِلة عن شأن المِسْك فقال: لولا أنّ رسولَ الله ﷺ تطيّب بالمسك لما تطيّبتُ به، لأنّه دم، فأمّا الزّباد فليس ممّا يَقرُب ثيابي، فقلتُ له: قد يرتضع الجَدْي من لبن خِنزيرة فلا يَحرُم لَحمُه، لأنّ ذلك اللّبن استحال لَحماً، وخرج من تلك الطّبيعة، وعن تلك الصورة، وعن ذلك الاسم، وكذا لحم الجلّالة، فالمِسك غيرُ الدّم، والخلّ غيرُ الخَمر، والجوهر لا يَحرم لذاته وعينِه، وإنّما يَحرُم للأعراض والعِلل فلا تَقزز منه عند ذِكرك الدّم، فليس به بأس.

قال الزّمخشريّ: والزّبادة هِرّة. ويقال للزّيْلَع، وهم الّذين يجتلبون الزّباد يا زَيْلع الزّبادة ماتت، فيَغضَب.

وقال ابن جَزْلة الطّبيب في المنهاج: الزّباد طيبٌ يؤخذ من حيوان كالسِّنّور يقال: إنّه وسَخ في رَحِمها.

وقال الزّمخشري: العنبر يأتي طُفاوةً على الماء لا يدري أحدٌ معدنه، يقذفه البحر إلى البرّ فلا يأكل منه شيء إلّا مات، ولا ينقُره طائرٌ إلّا بقي منقارُه فيه، ولا يقع عليه إلّا نصلَتْ أظفارُه، والبحريّون والعطّارون ربّما وجدوا فيه المنقار والظّفر.

قال: والبال، وهو سَمَكة طولها خمسون ذراعاً، يؤكل منه اليسير فيموت.

قال: وسمِعتُ ناساً من أهل مكة يقولون: هو ضفع ثور في بحر الهند، وقيل: هو من زبد بحر سَرَنْديب، وأجوَدهُ الأشهب، ثمّ الأزرق، وأدوَنُه الأسود.

وفي حديث ابن عبّاس: «ليس في العنبر زكاة، إنما هو شيء يَدْسُره البحر»(١)، أي يَدفَعه.

فأما صاحب «المنهاج في الطّبّ»(٢) فقال: العنبر من عين في البحر، ويكون جماجم أكبرها وزنه ألف مثقال، والأسود أردأ أصنافه، وكثيراً ما يوجد في أجوافِ السمك التي تأكله وتموت. وتوجد فيه سُهُوكة.

وقال في المِسك: إنه سُرّة دابّة كالظّبي، له نابان أبيضان معقّفان إلى الجانب الإنسي كقَرْنين. جاء في الحديث المرفوع: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله، وليخرجْن إذا خرجن تَفِلاتٍ»(٣)، أي غير متطيّبات.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في خروج النساء إلى المسجد (٥٦٥)، وأحمد في «مسنده» (٩٣٦٢).

(٣) منهاج الركان في الطب: للشيخ الحاذق أبي المنى داود أدى نصر بن حفاظ المعروف بالكوهين العطار الهاروني. كشف الظنون (٢/ ١٨٧١).

وفي الحديث أيضاً: «إذا شهِدَتْ إحداكُن العشاء فلا تمسّ طِيباً»[1]، والمراد من ذلك ألّا تهيج عليهنّ شهوةُ الرّجال.

قال الشاعر:

والمِسك بينا تراه ممتَهناً بفِهْرِ عطّارِه وساحِقِهِ
حتى تراه في عارِضَيْ مَلِكٍ أو موضِع التّاج من مَفارِقِهِ

الصَّنَوْبَريّ في استهداء المِسْك:

المِسك أشبَه شيء بالشباب فهَبْ بعضَ الشباب لبعضِ العُصْبة الشِّيبِ

يقال: إنّ رجلاً وَجَد قِرطاساً فيه اسم الله تعالى، فرَفَعه، وكان عنده دينار، فاشترى به مِسْكاً، فطَيّبه، فرأى في المنام قائلاً يقول له كما طيّبت اسمي لأطيبَنّ ذِكرك.

قال خالدُ بنُ صَفْوان ليزيد بن المهلّب: ما رأيت صدأ المِغفر، ولا عبَق العَنْبر بأحد ألْيَقَ منه بك، فقال: حاجَتك، قال: ابنُ أخ لي في حَبْسك، فقال: يسبقك إلى المنزل.

شاعر:

كأنّ دُخانَ النَّدّ ما بين جَمْرِه بقايا ضبابٍ في رياضِ شقيقِ

قالوا: خيرُ العُود المَنْدَلِيّ، وهو منسوبٌ إلى مَندل: قريةٌ من قُرَى الهند، وأجوَدُه أصلَبه، وامتحان رَطْبه أن ينطَبِع فيه نَقْش الخاتَم، واليابس تُفْصِح عنه النار، ومن خاصية المَندَليّ أنّ رائحته تثبت في الثوب أسبوعاً، وأنه لا يقمل ما دامت فيه.

قال صاحبُ المِنهاج: العُود عروقُ أشجارٍ تُقلع وتُدفن في الأرض حتى تتعفّن، منها الخشبيّة والقشريّة، ويبقى العود الخالص، وأجوَدُه المندليّ، ويُجلب من وَسَط بلاد الهند، ثم العود الهنديّ، وهو يفضل على المَنْدَليّ بأنه لا يولّد القَمْل، وهو أعبق بالثّياب.

قال: وأفضل العُود أرسَبُه في الماء، والطافي رديءٌ.

قال أبو العبّاس الأعمى:

ليت شَعري من أينَ رائحةُ المِسْـ ـكِ وما إن أخالُ بالخيف أُنسي
حين غابتْ بنو أميّةَ عنه والبَهاليلُ من بني عبدِ شَمْس
خُطباءُ على المنابر فُرْسا نٌ على الخيْل قالةٌ غيرُ خُرْس

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة (٤٤٣)، والنسائي، كتاب: الزينة، باب: النهي للمرأة أن تشهد الصلاة إذا أصابت من البخور (٥١٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٥٠٦).

بِحُلومٍ مِثلِ الجبالِ رِزانٍ ووجوهٍ مِثلِ الدّنانيرِ مُلْسِ

المسيّب بن عَلَس.

تبيتُ الملوكُ على عَتْبِها وَشَيْبانُ إن غضبتْ تُعْتَبُ

وكالشّهدِ بالراحِ ألفاظُهم وأخلاقُهمْ منهما أعذَبُ

وكالمِسكِ تُرْبُ مَقاماتِهم وتُربُ قُبورِهمُ أطيَبُ

أخذه العبّاس بن الأحنف فقال:

وأنتَ إذا ما وطئتَ التُّرا بَ كانَ ترابُك للناسِ طِيبا

وهجا بعضُ الشعراء العمّال في أيّام عمر، ووقع عليهم، فقال في بعض شعره:

نؤوبُ إذا آبوا ونغزُو إذا غَزَوْا فأنّى لهمْ وَفْرٌ ولسنا ذَوِي وفْرِ

إذا التاجرُ الداريُّ جاء بفأرةٍ من المِسك راحتْ في مَفارقهمْ تَجرِي

فقبض عمرُ على العمال وصادَرَهم.

قالوا في الكافور: إنه ماءٌ في شجر مكفور فيه يَغرزونه بالحديد، فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشجر ضرَبه الهواء فانعقد كالصّموغ الجامدة على الأشجار.

وقال صاحب المنهاج: هو أصناف: منها الفنصوري، والرّباحي، والأزاد، والإسْفَرك الأزرق، وهو المختط بخشبه، وقيل إن شجرته عظيمة تُظِلّ أكثر من مائة فارس، وهي بحرية، وخشب الكافور أبيض إلى الحمرة خفيف، والرّباحي يوجد في بدن شجرته قِطَع كالثّلج، فإذا شققت الشجرة تَناثر منها الكافورُ.

النّدّ: هو الغالية، وهو العود المطرّى بالمسك والعَنْبر ودُهن البان، ومن الناس من لا يضيفُ إليه دهنَ البان، ويجعل عوضه الكافور، ومنهم من لا يضيف إليه الكافورَ أيضاً، ومن الناس من يركّب الغالية من المسك والعنبر والكافور ودُهْن النّيْلوفر.

قال الأصمعي: قلتُ لأبي المهدّية الأعرابيّ: كيف تقول، ليس الطّيب إلا المِسك؟ فلم يحفل الأعرابيّ، وذهب إلى مذهب آخر، فقال: فأين أنت عن العنبر؟ فقلت: كيف تقول: ليس الطّيب إلا المسك والعنبر؟ قال: فأين أنت عن البان؟ قلت: فكيف تقول: ليس الطّيب إلا المِسك والعنبر والبان؟ قال: فأين أنت عن ادّهان بحجرٍ - يعني اليمامة؟ - قلت: فكيف تقول لي ليس الطّيب إلا المسك والعنبر والبان وادّهان بحَجَر؟ قال: فأين أنت عن فارة الإبل صادرةً؟ فرأيت أني قد أكثرتُ عليه، فتركتُه قال: وفأرة الإبل رِيحها حين تصدُر عن الماء. وقد أكلت العُشْب الطيب.

وفي فأرة الإبل يقول الشاعر:

كـأنّ فـارةَ مـسـكٍ فـي مـبـاءتـهـا إذا بـدا مـن ضِـيـاءِ الـصـبـح تـنـتـشرُ

كان لأبي أيوب المَرْزُبانيّ وزير المنصور دُهن طيّبٌ يدهن به إذا ركب إلى المنصور فلمّا رأى الناسُ غلبتَه على المنصور وطاعتَه له فيما يريده، حتى إنه ربما كان يستحضره ليوقع به، فإذا رآه تبسم إليه وطابت نفسه قالوا: دهن أبي أيّوب من عمل السحرة، وضربوا به المَثل، فقالوا لمن يَغلب على الإنسان: معه دُهْنُ أبي أيوب.

أعرابيّ: فيها مَدَرُ كَفٍ ومَشَمّ أنف.

وقال عيينة بن أسماء بن خارجة الفزاري:

لـو كـنـتُ أحـمـل خـمـراً حـيـن زُرْتـكُـمُ لـم يـنـكـر الـكـلـبُ أنّي صـاحـبُ الـدّار

لـكـن أتـيـتُ وريـح الـمـسـك يـقـدُمـنِي والـعَـنـبـر الـورد مَـشْـبـوبـاً عـلـى الـنّـارِ

فـأنـكـر الـكـلـبُ ريـحـي حـيـن خـالـطـنـي وكـان يـألـف ريـح الـزّقّ والـقـارِ

قال الأصمعي: ذكر لأبي أيوب هؤلاء الذين يتقشّفون، فقال: ما علمتُ أن القَذَر والذَّفر من الدِّين.

رِيحُ الكَلْب مَثَلٌ في النّتن، قال الشاعر:

ريـحُـهـا ريـحُ كـلابٍ هـارشـتْ فـي يـومِ طَـلّ

وقال آخر:

يـزدادُ لـؤمـاً عـلـى الـمـديـح كـمـا يـزدادُ نَـتْـن الـكـلاب فـي الـمـطـرِ

وقالت امرأةُ امرئ القيس له وكان مُفَرَّكاً[1] عند النساء: إذا عرقْتَ عرقتَ بريح كلْب. قال: صدقتِ؛ إنّ أهلي أرضعوني مرّةً بلبن كلبة.

قال سَلَمة بنُ عيّاش، يقول لجعفر بن سليمان:

فـمـا شـم أنـفـي رِيـحَ كـفٍ رأيـتـهـا مـن الـنّـاس إلّا ريـح كـفّـك أطـيـبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال من المسك ومائة مثقال من العنبر.

وجّه عمرُ إلى مَلِك الرُّوم بريداً فاشترتْ أمُّ كلثوم امرأة عمر طيباً بدنانير وجعلْته في قارورتَين وأهدَتْهما إلى امرأة ملك الرّوم، فرجع البريد إليها ومعه ملء القارُورتين جواهر، فدخل عليها عمر، وقد صبّت الجواهر في حجْرها، فقال: مِن أين لك هذا؟ فأخبرته، فقبض عليه، وقال: هذا للمسلمين، قالت: كيف وهو عِوَض هديّتي! قال: بيني وبينك أبوك، فقال عليٌّ عليه السلام: لك منه بقيمة دينارك، والباقي للمسلمين جملة لأن بريد المسلمين حَمَلَه.

---

(١) المُفَرّك: الرجل الذي تبغضه النساء. القاموس، مادة (فرك).

قيل لخديجة بنت الرشيد: رُسُل العبّاس بن محمد على الباب، معهم زِنْبيل يحمله رجلان. فقالت: تراه بعث إليّ باقلّاء؟ فكشف الزنبيل عن جرّة مملوءة غالية فيها مسحاة من ذَهب، وإذا برُقعة: هذه جرّة أصيبتْ هي وأختها في خزائن بني أميّة، فأمّا أختُها فغَلب عليها الخلفاء، وأمّا هذه فلم أرَ أحداً أحقَّ بها منك.

- ٤٠٠ -

الأصل: ضَعْ فَخْرَكَ، وَاحطُطْ كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في العجبْ والكبر والفخر.

بعض ما قيل في الفخر

في الحديث المرفوع: «إنّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيّةَ الجاهليّة وفخرها بالآباء، الناسُ لآدم، وآدمُ من تراب، مؤمن تقيّ، وفاجرٌ شقيّ، لينتهين أقوام يتفاخرون برجال إنّما هم فحم من فحم جهنّم أو ليكونن أهوَنَ على الله من جُعَلات تدفع النَّتن بأنفها»[١].

ومن وصيّته ﷺ إلى عليّ عليه السلام: «لا فقر أشدّ من الجهل، ولا وحشة أفحش من العُجب»[٢].

أتى وائلُ بن حُجْر النبي ﷺ فأقطعه أرضاً[٣]، وأمر معاوية أن يمضي معه فيريَه الأرض ويعرضها عليه، ويكتبها له، فخرج مع وائل في هاجِرة شاوية، ومشى خلْف ناقتِه فأحرقْته الرَّمضاء، فقال: أردفْني: قال: لستَ من أرْداف الملوك، قال: فادفع إلي نعلَيك، قال: ما بُخل يَمنَعني يا بن أبي سُفْيان، ولكن أكرَه أن يَبلغ أقيال اليمن أنّك لبستَ نعلي، ولكن امش في ظلّ ناقتي فحسْبُك بذاك شرفاً، ويقال: إنّه عاش حتى أدرك زمَن معاوية فأجلسه معه على سريره.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٧٠)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، وأحمد في «مسنده» (٨٥١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٦٨٨)، والشهاب في «مسنده» (٨٣٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٤٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٠٥)، والترمذي، كتاب: الأحكام، باب: ما جاء في القطائع (١٣٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٩٧).

قيل لحكيم: ما الشيءُ الذي لا يَحسُن أن يقال وإن كان حقاً؟ فقال: الفخر.

حبس هشامُ بنُ عبد الملك الفرزدقَ في سجن خالد بن عبد الله القَسْريّ، فوفد جرير إلى خالد ليشفَع فيه، فقال له خالد: ألا يسرّك أنّ الله قد أخزى الفرزدقَ؟ فقال: أيّها الأمير، والله ما أحبّ أن يخزيَه الله إلّا بشعري، وإنّما قدمتُ لأشفعَ فيه. قال فاشفع فيه في ملأ ليكون أخزَى له، فشفع فيه، فدعا به فقال: إني مُطلقك بشفاعةِ جرير، فقال: أسيرُ قَسْريّ، وطليقُ كلبيّ، فبأيّ وجه أفاخر العربَ بعدَها! ردّني إلى السّجن.

ذكر أعرابيّ قوماً فقال: ما نالوا بأناملهم شيئاً إلّا وقد وطئناه بأخامص أقدامِنا، وإن أقصى مُناهم لأدنى فعالنا.

نظر رجل إلى بعض ولد أبي موسى يَختال في مشيته، فقال: ألا ترون مشيته؟ كأنّ أباه خدَع عمرو بن العاص!

وسمع الفرزدق أبا بُردة يقول: كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحَكَمين، فقال: أحدهما مائق، والآخر فاسق، فكن ابن أيّهما شئت.

نظر رسولُ الله ﷺ إلى أبي دُجَانة وهو يتبختر بين الصّفّين، فقال: «إنّ هذه مشية يبغضها الله إلّا في هذا الموطن»(١).

لما بلغ الحسنَ بن عليّ عليه السلام قول معاوية: إذا لم يكن الهاشميّ جواداً والأمويّ حليماً والعوّاميّ شجاعاً والمخزوميّ تيّاهاً لم يشبهوا آباءهم، فقال: إنه والله ما أراد بها النّصيحة، ولكن أراد أن يُفنيَ بنو هاشم ما في أيديهم فيحتاجوا إليه، وأن يَشْجُعَ بنو العوّام فيقتلوا، وأن يتيه بنو مخزوم فيمقتوا، وأن يحلم بنو أمية فيُحبّهم الناس(٢).

كان قاضي القضاة محمّد بن أبي الشّوارب الأمويّ تائهاً، فهجّاه عبدُ الأعلى البصريّ فقال:

إنّي رأيتُ محمّداً متشاوساً ... مستصغراً لجميع هذي الناسِ
ويقول لمّا أن تنفّس خالياً ... نفَساً له يَغلو على الأنفاسِ
وَيح الخلافَة في جوانب لحيتي ... تستن دون لِحَى بني العبّاسِ!

بعض الأمويّة:

إذا تائهٌ من عبدِ شمسٍ رأيتَهُ ... يتيهُ فرشّحه لكلّ عظيمِ

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٥٠٧).
(٢) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ٤٤/١٠٦.

وإن تـاهَ تَـيّـاهٌ سـواه فـإنـه ... يـتـيـهُ لـحـمـقٍ أو يـتـيـه لِـلُـومِ

لبعض الأمويّة أيضاً:

ألسنا بني مَرْوان كيف تبدّلتْ ... بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ!

إذا وُلد المولود منّا تهلّلتْ ... له الأرض واهتزّت إليه المنابرُ

بعض التيّاهين:

أتيهُ على إنسِ البلاد وجنّها ... ولو لم أجد خَلْقاً أتيهُ على نَفْسي

أتيه فلا أدري من التّيه من أنا ... سوى مَا يقول الناسُ فيَّ وفي جنْسي

فإنْ زعموا أني من الإنس مثلهم ... فما لي عيبٌ غير أني من الإنس

بعض العَلوية:

لقد نازعتْنا من قريش عصابةٌ ... بمَطِّ خدودٍ وامتدادِ أصابعِ

فلمّا تنازعْنا الفَخَار قضَى لنا ... عليهمْ بما نَهوى نداء الصّوامع

ترانا سُكوتاً والشهيدُ بفضْلنا ... عليهمْ أذانُ الناس في كلّ جامع

بأن رسول اللّه لا شكّ جدُّنا ... وأنّ بَنِيه كالنجوم الطوالع

كان عُمارةُ بنُ حمزة بن ميمون مولى بني العباس مَثَلاً في التّيه، حتّى قيل: أتيَهُ من عُمارة. وكان يتولّى دواوينَ السّفّاح والمنصور، وكان إذا أخطأ مضى على خطئه تكبّراً عن الرجوع، ويقول: نَقْض وإبرام في حالة واحدة، الإصرار على الخطأ أهون من ذلك.

وافتخرت أمّ سلمة المخزوميّة امرأةُ السفّاح ذاتَ ليلة بقَوْمها على السّفّاح، وبنو مخزوم يُضرَب بهم المَثَل في الكِبْر والتّيه، فقال: أنا أحضرُكِ الساعةَ على غير أُهْبة مولًى من مواليّ ليس في أهلك مِثله، فأرسل إلى عُمارة، وأمر الرسول أن يُعجِله عن تغييرِ زِيِّه، فجاء على الحال الّتي وجده عليها الرّسول في ثياب ممسَّكة مزرّرة بالذّهب، وقد غَلّف لحيتَه بالغالية حتّى قامت، فرمى إليه السّفاح بِمُدْهن ذهب مملوءٍ غالية، فلم يلتفت إليه، وقال: هل ترى لها في لحيته موضعاً؟ فأخرجتْ أمّ سَلَمة عِقْداً لها ثميناً، وأمَرَت خادماً أن يضعه بين يديه، فقام وتركه، فأمرت الخادمَ أن يتّبعه به، ويقول: إنّها تسألك قبولَه، فقال للخادم: هوَ لك، فانصَرف بالعِقْد إليها، فأعطت الخادمَ فكاكَه عشرةَ آلافِ دينار، واسترجعْته، وعجبتْ من نفس عُمارة، وكان عمارة لا يذلّ للخُلَفاء وهم مواليه ويَتِيه عليهم.

نظر رجل إلى المَهديّ ويدُه في يد عُمارة، وهما يَمشِيان، فقال: يا أميرَ المؤمنين مَن هذا؟ قال: هذا أخي، وابنُ عمّي عُمارة بن حَمْزة، فلمّا ولّى الرجل ذكر المهديّ الكلمةَ كالممازح لعُمارة، فقال عُمارة: والله لقد انتظرت أن تقول: مولاي فأنفُض يدي من يَدِك، فتبسّم المهديّ.

وكان أبو الرّبيع الغَنَويّ أعرابيًّا جافياً تيّاهاً شديدَ الكِبْر، قال أبو العبّاس المبرّد في الكامل: فذكر الجاحظ أنّه أتاه ومعه رجل هاشميّ، قال: فناديتُ: أبو الرّبيع هنا؟ فخرج إليّ وهو يقول: خرج إليك رجلٌ أكرَم الناسِ، فلمّا رأى الهاشميّ استحيَا وقال: أكرَم الناسِ رديفاً، وأشرَفهم حليفاً - أراد بذلك أبا مَرْثد الغَنَويّ، لأنّه كان رديفَ رسول الله ﷺ وحليفَ أبي بكر - قال: حدّثنا ساعة ثمّ نهض الهاشميّ فقلت له: مَنْ خير الخلق؟ قال: الناس والله، قلت: مَن خيرُ الناس؟ قال: العَرَب والله، قلت: فَمَن خيرُ العرب؟ قال: مُضَر والله، قلتُ: فمن خيرُ مُضَر؟ قال: قيس والله، قلت: فمن خير قَيْس؟ قال: يَعصُر والله، قلت: فمن خير يَعْصُر، قال: غَنيّ والله، قلتُ: فَمن خيرُ غنيّ؟ قال: المخاطِبُ لك والله، قلتُ: أفأنتَ خيرُ الناس؟ قال: إي والله، قلت: أيسرّك أن تكون تحتَك ابنة يزيدَ بنِ المهلّب؟ قال: لا والله، قلتُ: ولك ألف دينار، قال: لا والله، قلت: فألفا دينار، قال: لا والله، قلت: ولك الجنّة، قال: فأطرَق ثم قال: على ألّا تلدَ منّي، ثمّ أنشَدَ:

تـأبَـى لـيَـعـصُـرَ أعـراقٌ مـهـذَّبـةٌ ... من أن تُـنـاسـب قـومـاً غـيـرَ أكـفـاءِ

فـإن يـكـن ذاك حَـتْـمـاً لا مَـرَدّ لـه ... فـاذكـر حـذَيـفَ فـإنّـي غـيـرُ أبّـاءِ

أراد حذيفةَ بنَ بَدْر الفَزاريّ، وكان سيّدَ قيس في زمانه.

رأى عمرُ رجلاً يمشي مُرْخِياً يديْه، طارحاً رِجْليه، يتبختر، فقال له: دع هذه المِشية، فقال: ما أطيق، فَجلده ثمّ خلّاه، فترك التّبختر، فقال عمر: إذا لم أجلد في هذا ففيمَ أجلد، فجاءه الرجل بعد ذلك فقال: جزاك الله يا أميرَ المؤمنين خيراً، إن كان إلّا شيطاناً سُلّط عليّ فأذهبَه الله بك.

- ٤٠١ -

الأصل: خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ.

الشرح: كان يقال: اجعل الدّنيا كغَريم السّوء حَصّل منه ما يَرضَخ لك به، ولا تأس على ما دَفَعك عنه، ثمّ قال عليه السلام: فإن لم تفعل فأجمِلْ في الطّلب، وهي من الألفاظ النبويّة: «لن تموتَ نفسٌ حتّى تَستكمِل رِزقَها، فأجمِلوا في الطّلب»[1].

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٢٤١)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٨٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٦٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٤٣٤).

قيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ فقال: قلّة تمنّيك، ورضاك بما يكفيك.

- ٤٠٢ -

الأصل: رُبَّ قَوْلٍ، أنْفَذُ مِنْ صَوْلٍ.

الشرح: قد قيل هذا المعنى كثيراً، فمنه قولُهم:

والقولُ يَنفذُ ما لا تنفُذُ الإبَرُ

ومن ذلك: القولُ لا تَملِكه إذا نَمَا، كالسهم لا تملِكه إذا رمى، وقال الشاعر:

وقافيةٍ مثلِ حَدِّ السنا ... نِ تَبقى ويَذْهَبُ مَن قالَها
تخيّرتُها ثم أرسلتُها ... ولم يُطِق الناسُ إرسالَها

وقال محمود الورّاق:

أتاني منك ما ليسَ ... على مكروهه صبرُ
فأغضيتُ على عَمْدٍ ... وكم يُغضِي الفَتَى الحُرُّ
وأدبتُك بالهَجْرِ ... فما أدبك الهَجْرُ
ولا ردَّكَ عمّا كا ... ن منك الصّفحُ والبِرُّ
فلمّا اضطرّني المكرو ... هُ واشتدّ بيَ الأمرُ
تناولتُك من شِعري ... بما ليس له قَدْرُ
فحرّكتَ جَناحَ الضُّرِّ ... لمّا مَسّكَ الضرّ
إذا لم يُصلح الخيرُ امـ ... رأً أصلَحه الشرّ

وقال الرّضيّ رحمه الله:

سأمضغُ بالأقوال أعراض قومِكم ... وللقَول أنيابٌ لديّ حِدادُ
يُرَى للقوافي والسماء جليّة ... عليكم بروقٌ جَمّةٌ ورِعادُ

وقال أيضاً:

كَعَمْتُ لِساني أن يقول وإن يَقُل ... فقل في الجُراز العَضْب إن فارق الغِمْدا
وإنّ بُروداً للمخازي مُعَدّة ... فمن شاء من ذا الحيّ أسحبتُه بُردا
قلائد في الأعناق بالعار لا تَهِي ... على مَرِّ أيّام الزمان ولا تَصْدَا

إذا صَلصَلتْ بين القنا قضت القنا وإن زَفَرتْ في السَّردِ قطّعت السَّرْدا

- ٤٠٣ -

الأصل: كلُّ مُقتَصَرٍ عَلَيْهِ كافٍ.

الشرح: هذا من باب القناعة، وإنّ من اقتصر على شيء وقنعتْ به نفسُه فقد كفاه، وقام مقام الفضول التي يرغَب فيها المُترَفون، وقد تقدّم القولُ في ذلك.

- ٤٠٤ -

الأصل: الْمَنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّةُ، والتَّقَلُّلُ ولا التَّوَسُّلُ.

الشرح: قد تقدّم من كلامنا في هذا الباب شيءٌ كثير، وقال الشاعر:

أقسِم بالله لمَصُّ النَّوَى وشربُ ماءِ القُلُبِ المالحهْ
أحسنُ بالإنسان من ذُلِّه ومن سؤال الأوجهِ الكالحهْ
فاستغنِ بالله تكن ذا غنًى مغتبطاً بالصّفقة الرابحهْ
فالزّهد عزٌّ والتُّقَى سُؤددٌ وذِلّة النفس لها فاضِحهْ
كم سالمٍ صِيح به بَغْتةً وقائلٍ عَهْدِي به البارِحهْ
أمسى وأمسَتْ عنده قَيْنةٌ وأصبحتْ تَنْدُبه نائحهْ
طوبَى لمن كانت موازينُه يومَ يلاقي ربَّه راجحهْ

وقال أيضاً:

لَمَصُّ الثِّماد[1] وخَرْطُ القَتادِ[2] وشربُ الأجاج[3] أوان الظَّمَا

(١) الثماد: الماء القليل الذي لا مادَّ له. اللسان، مادة (ثمد).
(٢) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. اللسان، مادة (قتن).
(٣) الأجاج: الملح المر. القاموس، مادة (أجج).

علـى الـمـرء أهـوَن مـن أن يُـرَى ذلـيـلاً لـخـلـقٍ إذا أعـدَمـا
وخـيـرٌ لـعـيـنـيـك مـن مَـنـظَـرٍ إلـى مـا بـأيـدي الـلّـئـام الـعَـمَـى

قلت: لحاهُ الله، هلّا قال: بأيدي الرّجال.

- ٤٠٥ -

الأصل: مَنْ لَمْ يُعْطَ قاعِداً، لَمْ يُعْطَ قائِماً.

الشرح: مرادُه أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى، فمن لم يرزقه قاعداً لم يجب عليه القيام والحركة.

وقد جاء في الحديث: أنّه ﷺ ناول أعرابيًا تَمْرة، وقال له: «خُذْها فلو لم تأتِها لأتتك»[١].

وقال الشاعر:

جـرى قـلـم الـقَـضـاء بـمـا يـكـونُ فـسـيّـان الـتـحـرّكُ والـسـكـونُ
جُـنـونٌ مـنـك أن تَـسـعَـى لـرزقٍ ويُـرزَق فـي غِـشـاوتِـه الـجَـنِـيـنُ

- ٤٠٦ -

الأصل: الدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْم عَلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلا تَبْطَرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ.

الشرح: قديماً قيل هذا المعنى: الدّهر يومان: يوم بلاء، ويوم رَخاء. والدهر: ضَرْبان: حَبْرة[٢] وعَبْرة. والدهر وقْتان: وقت سرور، ووقت ثُبور.

وقال أبو سُفْيان يوم أُحُد: يومٌ بيومِ بَدْر، والدّنيا دُوَل.

قال عليه السلام: فإذا كان لك فلا تَبطر، وإذا كان عليك فاصبر.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٢٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٩٠)، والدارقطني في «العلل» (٥/ ٢٨٣).

(٢) الحبرة: النعمة. القاموس، مادة (جبر).

قد تقدّم القولُ في ذمّ البَطر ومدحِ الصّبر، ويُحمَل ذمّ البَطَر هاهنا على محملين: أحدهما البَطَر بمعنى الأشَر، وشدّة المرح، بِطِر الرجُل بالكسر يَبطَر، وقد أبطَره المال، وقالوا: بطر فلانٌ معيشَته، كما قالوا: رَشِد فلانٌ أمرَه. والثاني البَطَر بمعنى الحيرة والدَّهش، أي إذا كان الوقت لك فلا تقطعن زمانك بالحيرة والدهش عن شكرِ الله ومكافأةِ النّعمة بالطاعة والعبادة والمحمَل الأوّل أوضَح.

– ٤٠٧ –

الأصل: إنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حَقًّا، وَإِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ حَقًّا، فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أن يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ الله سُبْحَانَهُ، وَحَقُّ الولد عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحسنَ اسْمَهُ، وَيُحسنَ أَدَبَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ.

الشرح: امّا صدرُ الكلام فمن قول الله سبحانه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾(١).

نوادر حول الأسماء والكنى

وأما تعليم الوالد الولدَ القرآن والأدبَ فمأمور به، وكذلك القول في تسميته باسم حسن، وقد جاء في الحديث: «تسمّوا بأسماء الأنبياء، وأحبّ الأسماء إلى الله عبد اللّه وعبدُ الرّحمن. وأصدَقها حارث وهمّام. وأقبَحها حَرْب ومُرّة»(٢).

وروى أبو الدّرداء عن النّبي ﷺ: «إنّكم تُدْعَوْن يومَ القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم»(٣).

وقال ﷺ: «إذا سَمّيتم فَعبِّدوا» أي: سَمُّوا بنيكم عبدَ اللّه ونحوه من أسماء الإضافة إليه عزَّ اسمُه.

وكان رسول الله ﷺ يغيّر بعض الأسماء، سمّى أبا بكر عبد اللّه، وكان اسمُه في

(١) سورة لقمان، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب: في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، وأحمد في «مسنده» (١٨٥٥٣).
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب: في تغيير الأسماء (٤٩٤٨). وأحمد في «مسنده» (٢١١٨٥)، والدارمي في الاستئذان، باب: في حسن الأسماء (٢٦٩٤).

الجاهلية عبدَ الكعبة، وسمّى ابن عوف عبد الرحمن، وكان اسمُه عبد الحارث، وسمّى شِعْب الضّلالة شِعْبَ الهدى، وسمّى يَثرِب طَيْبة، وسمّى بني الرِّيبة بني الرِّشْدة، وبني معاوية بني مُرشِدة.

كان سعيدُ بنُ المسيِّب بن حَزْن المخزوميّ أحد الفقهاء المشهورين، أتى جدُّه رسول الله ﷺ فقال له: ما اسمك؟ قال: حزْن، قال: لا، بل أنت سَهْل، فقال: لا، بل أنا حَزْن، عاوده فيها ثلاثاً، ثمّ قال: لا أُحِبّ هذا الاسمَ، السَّهْل يوطَأ ويُمْتهَن، فقال: فأنت حَزْن، فكان سعيد يقول: فما زلتُ أعرِف تلك الحزونةَ فينا.

وروى جابر عنه ﷺ: «ما من بيت فيه أحدٌ اسمُه محمد إلا وسّع الله عليه الرزق فإذا سمَّيتموهم به فلا تَضرِبوهم ولا تشتموهم»، و«من وُلد له ثلاثة ذُكور ولم يسمِّ أحدَهم أحمدَ أو محمّداً فقد جفاني»[1].

أبو هريرة عنه ﷺ، أنه نَهَى أن يجمع بين اسمه وكنيته لأحد[2].

وروي أنه أذن لعليّ بن أبي طالب ﷺ في ذلك، فسمّى ابنه محمد بن الحنفيّة محمداً، وكناه أبا القاسم.

وقد رُوِي أنَّ جماعةً من أبناء الصّحابة جُمِع لهم بين الاسم والكُنْية.

وقال الزّمخشريّ: قد قدّم الخلفاءُ وغيرُهم من الملوك رجالاً بحُسْنِ أسمائهم، وأقصَوْا قوماً لشناعة أسمائهم، وتعلّق المدح والذّمّ بذلك في كثير من الأمور.

وفي رسالة الجاحظ إلى أبي الفَرَج نجاح بن سلمة: قد أظهر الله في أسمائكم وأسماءِ آبائكم وكُناكم وكُنَى أجدادكم من بُرْهان الفأل الحسَن، ونفي طيرة السوء، ما جمع لكم صنوف الأمل، وصرف إليكم وجوه الطلب، فأسماؤكم وكناكم بين فرَج ونجاح، وسلامة وفضل، ووجوهكم وأخلاقكم وَفْق أعراقِكم وأفعالكم، فلم يضرِب التفاوتُ فيكم بنصيب.

أراد عمرُ الاستعانة برجل! فسأله عن اسمه واسم أبيه، فقال: سَرَّاق بنُ ظالم، فقال: تَسْرق أنت ويظلم أبوك! فلم يَستعنْ به.

سأل رجلٌ رجلاً: ما اسمك؟ فقال: بحر؟ قال: أبو مَنْ؟ قال: أبو الفَيْض، قال: ابنُ من؟ قال: ابن الفُرات، قال: ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلّا في زَوْرق.

---

(١) ذكره الإمام الديلمي في «مسنده الفردوس» (٥٩٨١)، بلفظ: «من ولد له أربعة. . .».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٣١٥)، من حديث سيدنا أبي هريرة بلفظ: «لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي، فإني أنا أبو القاسم الله ﷺ يعطي وأنا أقسم». وأخرجه الترمذي أيضاً في كتاب: الأدب، باب ما جاء في كراهية الجمع بين اسم النبي وكنيته (٢٨٤١).

وكان بعضُ الأعراب اسمُه وَثّاب، وله كلْب اسمُه عمرو، فهجاه أعرابيّ آخر فقال:

ولـــو هَـــيَّـــا لـــه الـــلّـــه مـــن الـــتـــوفـــيـــق أســـبـــابـــا
لـــســـمّـــى نـــفـــســـه عَـــمْـــراً وسَـــمَّـــى الـــكـــلـــبَ وَثّـــابـــا

قالوا: وكلّما كان الاسم غريباً كان أشهرَ لصاحبه وأمنَع من تعلّق النَّبْز به. قال رؤبة:

قـد رَفَـع الـعَـجّـاج ذكـري فـادعُـنِـي باسمي إذا الأسماء طالت تكفِني

ومن هاهنا أخذ المعرّي قوله يمدَح الرضيّ والمرتضى رحمهما الله:

أنتم ذَوو النّسب القصير فطولُكم بـادٍ عـلـى الـكُـبـراءِ والأشـرافِ
والرّاح إن قيل ابنةُ العِنَب اكتفتْ بـأبٍ عـن الأسـمـاء والأوْصـافِ

وسأل النّسابة البَكْريّ رؤبة عن نسبه ولم يكن يَعرِفه، قال: أنا ابن العجّاج، قال: قصرت وعرّفت.

صاح أعرابيّ بعبد اللّه بن جعفر: يا أبا الفَضْل! قيل: ليست كنيتُه، قال: وإن لم تكن كنيتَه فإنّها صِفَته. نظر عمرُ إلىّ جارية له سوداء تبكي فقال: ما شأنك! قالت: ضَرَبَني ابنُك أبو عيسى، قال: أوقد تَكنّى بأبي عيسى! عليّ به، فأحضروه، فقال: وَيْحك! أكان لعيسى أب فتكنَى به! أتدري ما كُنَى العَرَب! أبو سَلمة، أبو عُرْفُطة، أبو طلحة، أبو حنظلة، ثمّ أدّبه.

لما أقبل قحطبة بنُ شَبيب نحو ابن هُبيرة أراد ابنُ هبيرة أن يكتب إلى مروان بخبره، وكره أن يسمّيَه، فقال: اقْلِبوا اسمَه، فوجدوه هبط حقّ، فقال: دعُوه على هيئته.

قال بَرْصُوما الزامر لأمّه: وَيْحَك! أما وجدتِ لي اسماً تسمّيني به غير هذا! قالت: لو علمتُ أنّك تجالس الخُلفاء والملوك سمّيتك يزيد بن مَزْيَد.

قيل لبعض صِبيان الأعراب: ما اسمُك؟ قال: قراد، قيل: لقد ضَيَّق أبوك عليك الاسم، قال: إن ضَيَّق الاسمَ لقد أوسَع الكُنيَة، قال: ما كُنيَتُك؟ قال: أبو الصحارى.

نظر المأمونُ إلى غلامٍ حَسَن الوجْه في الموكب، فقال له: يا غلام، ما اسمُك؟ قال: لا أدري، قال: أو يكون أحدٌ لا يَعْرِف اسمَه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، اسمي الذي أعرف به «لا أدري»، فقال المأمون:

وسُـمِّـيـتَ لا أدرِي لأنّـك لا تـدرِي بمَا فَعَلَ الحبُّ المبرّح في صدري

ولد لعبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب ولدٌ ذَكر، فبُشّر به وهو عند معاوية بن أبي سُفْيان، فقال له معاوية، سمّه باسمي ولك خَمسمائة ألف درهم، فسمّاه معاوية، فدفَعها إليه، وقال اشترِ بها لِسَمِيّ ضَيْعة.

ومن حديثِ عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: «إذا سَمَّيتم الولدَ محمّداً فأكرِموه، وأوسعوا له في المجلس، ولا تقبّحوا له وجهاً»(١).

وعنه صلى الله عليه وسلم: «ما من قوم كانت لهم مَشُورة فحضَر معهم عليها مَن اسمه محمّد أو أحمَد فأدخلوه في مَشُورتهم إلّا خِيرَ لهم، وما من مائدةٍ وُضعتْ فحضر عليها من اسمُه محمّد أو أحمد إلّا قُدِّس ذلك المنزلُ في كلّ يوم مرّتين»(٢).

من أبيات المعاني:

وحَلَلْتَ من مضرٍ بأمنعِ ذرْوَةٍ مَنَعتْ بحَدّ الشّوكِ والأحجارِ

قالوا: يريد بالشّوك أخواله، وهم: قَتادة وطَلحة وعَوْسَجة، وبالأحجار أعمامَه، وهم صَفْوان وفِهْر وجَنْدَل وصَخْر وجَرْوَل.

سمَّى عبدُ الملك ابناً له الحجّاج لحبِّه الحجاج بنَ يوسفَ وقال فيه:

سمّيتُه الحجّاجَ بالحجّاجِ الناصِح المكاشِفِ المُداجِي

استأذن الجاحظُ والشّكّاك - وهو من المتكلمين - على رئيس، فقال الخادم لمولاه: الجاحد والشّكّاك، فقال: هٰذان من الزّنادقة لا مَحالة! فصاح الجاحظ: ويحك! ارجع قل: الحدقيُّ بالباب - وبه كان يُعرَف - فقال الخادم: الحَلقيّ بالباب، فصاح الجاحظ ويلَكَ! ارجع إلى الجاحد.

جمع ابنُ دُرَيد ثمانية أسمَاء في بيتٍ واحد فقال:

فنِعْم أخو الجُلّى ومستنبَط النَّدَى وملجأ مكروب ومفزع لاهِث

عياذُ بنُ عمرو بن الجليس بن جابرِ بن زيد بن منظور بن زيد بن وارِثِ.

قال محمّد بنُ صدقة المقرئ ليموتَ بن المزرّع: صدّق الله فيك اسمك! فقال له: أحوَجَك الله إلى اسم أبيك.

سأل رجُلٌ أبا عبيدة عن اسم رجلٍ من العرب، فلم يَعْرِفه، فقال كَيْسانُ غلامُه: أنا أعرَفُ الناس به، هو خِراش أو خِداش أو رِياش أو شيءٌ آخر، فقال أبو عبيدةَ ما أحسنَ ما عرفته يا كَيْسان! قال: إي والله، وهو قرشيٌّ أيضاً، قال: وما يُدرِيك به؟ قال: أما ترى كيف احتوشَتْه الشّينات من كلّ جانب! قال الفرزدق:

وقد تَلْتَقِي الأسماءُ في النّاس والكُنَى كثيراً ولكنْ مُيِّزوا في الخلائق

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٩٤).

(٢) ذكره الديلمي في «مسند الفردوس» (٦١٣٧).

رَأى الإسكندرُ في عسكره رجلاً لا يزال يَنهزِم في الحرْب، فسأله عن اسمه؟ فقال: اسمِي الإسكَندر، فقال: يا هذا، إمّا أن تغيّر اسمك، وإما أن تغيّر فِعلك.

قال شيخُنا أبو عثمان: لولا أن القدماء من الشّعراء سمَّت الملوكَ وكنّتها في أشعارِها، وأجازتْ واصطلحت عليه ما كان جزاءُ مَن فعل ذلك إلا العقوبة، على أنّ ملوك بني سَامَان لم يُكنّها أحد من رعاياها قطّ، ولا سماها في شعر ولا خُطْبة، وإنما حَدَث هذا في مُلوك الحيرة، وكانت الجُفاةُ من العَرب لسوء أدَبها وغِلَظ تركيبها إذا أتوا النبيّ ﷺ خاطَبوه باسمه وكنيته، فأما أصحابه فكانت مخاطبتُهم له: يا رسولَ الله، وهكذا يجب أن يقال للملك في المخاطبة: يا خليفة الله، ويا أمير المؤمنين.

وينبغي للدّاخل عِلى الملِك أن يتلطّف في مراعاة الأدب، كما حكَى سعيدُ بن مُرّة الكنْديّ، دخل على معاوية فقال: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابنُ مُرّة.

وقال المأمون للسيّد بن أنس الأزديّ: أنت السيّد؟ فقال: أنت السيّد يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنَسٍ. شاعر:

لَعَمْرُكَ ما الأسماءُ إلّا علامةٌ ... مَنارٌ ومِن خير المنار ارتفاعُها

كان قومٌ من الصّحابة يخاطبون رسول الله ﷺ: «يا نبيء الله» بالهمزة، فأنكر ذلك وقال: «لست بنَبيء الله، ولكنّي نبيُّ الله»[1]. وكان البحتريّ إذا ذكر الخثْعميّ الشاعر يقول: ذاك الغَثّ العمِي. وكان صاحب ربيع يتشيّع، فارتفع إليه خَصْمان: اسم أحدهما عليّ، والآخر معاوية، فانحنَى على معاوية فضَرَبه مائة سوط من غير أن اتّجهتْ عليه حجّة، ففطِن من أين أتِيَ! فقال: أصلحك الله! سَلْ خَصْمي عن كنيتِه، فإذا هو أبو عبد الرحمن - وكانت كنيةُ معاوية بن أبي سُفيان - فبَطَحه وضرَبه مائة سوط، فقال لصاحبه: ما أخذْتَه منّي بالاسم استرجعتُه منكَ بالكُنْية.

- ٤٠٨ -

الأصل: العَيْنُ حَقٌّ، والرُّقَى حَقٌّ، والسِّحْرُ حَقٌّ، وَالفَألُ حَقٌّ وَالطِّيَرَةُ لَيْسَتْ بِحَقٍّ، والعَدْوَى لَيْسَتْ بِحَقٍّ. والطيبُ نُشْرَةٌ، وَالعَسَلُ نُشْرَةٌ، وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ، والنَّظَرُ إلى الخُضْرَةِ نُشْرَةٌ.

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٢٨٤)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٤/ ٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٨١).

الشرح: ويروى: «والغسل نُشرة» بالغين المعجمة، أي التطهير بالماء.

اخبار حول العين والطيرة والفأل والسحر والعدوى

وقد جاء في الحديث المرفوع: «العَينُ حقّ، ولو كان شيء يَسبِق القَدَر لسبقتْه العين، وإذا استُغسِلْتم فاغسِلوا»(١)، قالوا في تفسيره: إنهم كانوا يَطلُبون من العائن أن يتوضأ بماء ثم يسقى منه المعِين ويَغتسِل بسائره.

وفي حديث عائشة: «العين حق كما أنَّ محمداً حقّ».

وللحكماء في تعليل ذلك قولٌ لا بأس به، قالوا: هذا عائدٌ إلى نفس العائن، وذلك لأنّ الهُيولى مُطِيعة للأنفس، متأثّرة بها، ألا ترى أنّ نفوسَ الأفلاك تؤثّر فيها بتعاقُب الصوَر عليها! والنفوس البَشَرية من جَوْهر نفوس الأفلاك، وشديدة الشَّبَه بها، إلا أنّ نسبتَها إليها نسبةُ السراج إلى الشمس، فليست عامّة التأثير، بل تأثيرُها في أغلَب الأمر في بدَنِها خاصّة، ولهذا يَحمَى مزاجُ الإنسان عند الغضب، يستعدّ للجماع عند تصوُّر النفس صورَة المَعشوق، فإذَنْ قد صار تصوُّر النفس مؤثّراً فيما هو خارجٌ عنها، لأنّها ليست حالةً في البدن، فلا يُستَبعد وجُود نفْس لها جوهر مخصوص مخالِفٌ لغيره من جواهر النّفوس تؤثّر في غير بدنها، ولهذا يقال: إنّ قوماً من الهند يُقتَلون بالوَهْم، والإصابة بالعَيْن من هذا الباب، وهو أن تستحسِن النفسُ صورةً مخصوصة وتتعجّب منها، وتكون تلك النفس خبيثة جداً، فينفعل جسمُ تلك الصورة مطيعاً لتلك النفس كما ينفَعِل البدَن للسّم.

وفي حديث أمّ سلمة أن رسول الله ﷺ رأى في وجه جاريةٍ لها سَعْفَة، فقال: «إنّ بها نَظْرةً فاسترقُوا لها»(٢).

وقال عوفُ بنُ مالك الأشجعيّ: كنّا نَرقي في الجاهليّة، فقلت: يا رسولَ الله، ما تَرَى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليّ رقاكم فلا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيها شِرْك»(٣).

كان ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ في سفرٍ، فمرّوا بحيٍّ من أحياء العَرَب، فاستضافوهم فلم يُضيفوهم وقالوا لهم: هل فيكم من راقٍ، فإنّ سيّد الحيّ لَدِيغ؟ فقال رجل

---

(١) أخرجه مسلم في السلام، باب: الطب والمرضى والرقى (٢١٨٨)، والترمذي في الطب، باب: ما جاء في الرقية من العين (٢٠٥٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب: رقية العين (٥٧٣٩)، ومسلم في السلام، باب: استحباب الرقية من العين (٢١٩٧)، وأحمد في «مسند المكثرين في الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمر بن العاص (٦٩٨٦).

(٣) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٨).

منهم: نعم، فأتاه فَرَقاه بفاتحة الكتاب فبرئ، فأُعطِيَ قَطيعاً من الغنم، فأَبَى أن يَقبَلها حتّى يأتيَ رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: وعَيْشك ما رقيتُه إلّا بفاتحة الكتاب، فقال: «ما أدراكم إنّها رُقْيةٌ! خذُوا منهم، واضربوا لي معكم بسَهْمٍ»(١).

ورَوَى بُرَيْدة، قال: قال رسولُ الله ﷺ وقد ذُكرتْ عنده الطِّيَرة: «مَنْ عَرض له من هذه الطِّيَرة شيء فلْيَقل: اللّهم لا طيْر إلا طَيْرُك، ولا خيرَ إلّا خيرُك، ولا إلٰه غيرُك، ولا حول ولا قوّة إلا بالله»(٢).

وعنه ﷺ: «ليس منّا من تَطيّر أو تُطُيِّر له، أو تَكَهّن أو تُكُهِّن له»(٣).

أنَس بنُ مالك يرفَعه: «لا عَدْوَى ولا طِيَرة، ويُعجِبني الفَأْل الصّالح»(٤)، قالوا: فما الفَأل الصالح؟ قال: الكلمة الطيّبة.

وعنه ﷺ: «تَفاءَلوا ولا تَطيَّرُوا».

وروَى عبدُ اللّه بنُ بُرَيدة، عن أبيه، أنّ رسولَ الله ﷺ كان لا يتطيّر من شيء، وكان إذا بَعَث عاملاً سأل عن اسمِه، فإذا أعجَبه سُرَّ به، ورئي بِشْرُ ذلك في وَجْهه، وإن كَرِه اسمَه رُئيتِ الكراهةُ على وَجْهه، وإذا دخل قريةً سأل عن اسمِها فإنْ أعجَبه ظهرَ عَلَى وجْهه.

بَنَى عُبيدُ اللّه بن زياد بالبصرة داراً عظيمةً، فمرّ بها بعضُ الأعراب، فرأى في دِهْلِيزِها صورة أسَد وكَلْب وكَبْش، فقال: أسدٌ كالح، وكبشٌ ناطح، وكَلْب نابح، والله لا يُمتَّع بها، فلم يَلبَثْ عبيد اللّه فيها إلا أيّاماً يسيرة.

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب في فاتحة الكتاب (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن (٢٢٠١)، والترمذي في الطب، باب: أخذ الأجرة على التعويذ (٢٠٦٤)، وأبو داود في البيوع، باب: كسب الأطباء (٣٤١٨).

(٢) أخرجه أحمد في المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٧٠٠٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٧٠)، دون قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بالله» وهو بلفظه عند أبي نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٢٠١).

(٣) أخرجه البزار في «المسند» (٢٥٧٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٨٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٧٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب: الفأل (٥٧٥٦)، ومسلم في السلام، باب: الطيرة والفأل (٢٢٢٣)، وأبو داود في الطب بابٌ في الطيرة (٣٩١٦)، وابن ماجه في الطب، باب: من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٣٥٣٧).

أبو هريرة يرفَعه: «إذا ظننتم فلا تُحقِّقوا، وإذا تطيّرتم فامْضوا، وعلى الله فتوكّلوا»(١).

وقال ﷺ: «أحسَنُها الفألُ، ولا يَرُدّ قدَراً، ولكن إذا رأى أحدُكم ما يَكرَه فليَقُل: اللّهم لا يأتي بالحَسَنات إلّا أنت، ولا يَدفع السّيّئات إلّا أنت، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بك»(٢).

وقال بعضُ الشّعراء:

لا يَعلَم المرءُ لَيْلاً ما يُصبِّحه ... إلاّ كواذب ما يَجري به الفالُ

والفألُ والزّجر والكُهّان كلُّهمُ ... مضلّلون ودونَ الغيب أقفالُ

وعن النّبيّ ﷺ: «القِيافَة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت»(٣).

ابن عباس يرفَعُه: «من اقتبس عِلْماً من النجوم اقتبَس شُعْبة من السِّحْر»(٤).

أبو هريرة يرفَعه: «من أتى كاهناً فصدّقَه فيما يقول فقد بَرِئ مما أنزل الله على أبي القاسم»(٥).

شاعر:

لَعمرُك ما تَدري الطّوارقُ بِالحصى ... ولا زاجِراتُ الطّير ما اللّه صانعُ

وقال آخر:

لا يُقْعِدنّك عن بِغا ... ءِ الخير تعقاد العزائمْ

فلقد غَدَوْتُ وكنتُ لا ... أغدو على راقٍ وحائِمْ

فإذا الأشائمُ كالأيا ... مِنِ والأيامِنُ كالأشائمْ

وكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌّ على أحدٍ بدائِمْ

تفاءَل هشامُ بنُ عبد الملك بنصر بن سيّار فقلّده خُراسان، فبقي فيها عشرَ سنين.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٢٥)، وابن عدي في الكامل (١١٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الطب، باب: في الطيرة (٣٩١٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٢٩٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٣٩٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٠٢٠).

(٣) أخرجه أبو داود في الطب، باب في الخط والجلب الطير (٣٩٠٧)، وأحمد في مسند المكيين، باب: حديث قبيصة بن مخارق (١٥٤٨٥)، بلفظ: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت».

(٤) أخرجه أبو داود في الطب، بابٌ في النجوم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب، باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦)، وأحمد في مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٨٣٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه في الطهارة، باب: النهي عن إتيان الحائض (٦٣٩)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩٢٥٢)، والدارمي في الطهارة، باب: من أتى امرأته فيدبرها (١١٣٦)، بلفظ: «فقد كفر بما أنزل على محمد» بدل قوله: «بريء مما أنزل على أبي القاسم».

وتَفاءَل عامرُ بنُ إسماعيل قاتل مَرْوان بنِ محمّد باسم رجل لقيَه، فسأله عن اسمه، فقال: منصور بن سعد، قال: من أيّ العرب؟ قال: مِن سَعْد العشيرة، فاستصحَبه وطَلب مروان فَظفِر به وقَتَله.

وتفاءل المأمونُ بمَنصور بنِ بسّام فكان سببَ مكانتِه عندَه.

قالوا: إنما أصل اليد اليُسرَى العُسْرى، إلا أنّهم أبدَلوا اليُسرى من اليسر تَفاؤُلاً.

مزرِّد بن ضِرار:

وإنّـي امـرؤ لا تـقـشـعـرّ ذُؤابَـتِـي   من الذِّئبِ يَعوِي والغرابِ المحجِّلِ

الكُمَيْت:

ولا أنـا مـمّـن يَـزْجـر الـطـيـر هَـمّـه   أصـاحَ غُـرابٌ أم تـعـرّض ثَـعـلـبُ

وقال بعض العرب: خرجتُ في طلب ناقةٍ ضلّت لي، فسمعتُ قائلاً يقول:

ولـئـن بـعـثـت لـهـا بُـغـا   ةً فـمـا الـبـغـاةُ بـواجِـدِيـنَـا

فلم أتطيّر ومضيتُ لوجهي، فلقيَني رجلٌ قبيح الوجه به ما شئت من عاهة، فلم أتطيّر وتقدّمت فلاحَت لي أكَمة فسَمِعْت منها صائحاً:

والـشـرّ يـلـقـى مَـطـالِـعَ الأكَـمِ

فلم أكترث ولا انثنيْت وعلَوتُها، فوجدتُ ناقتي قد تفاجّت للولادَة فنتجتها، وعدت إلى منزلي بها ومعها ولدُها.

وقيل لعليّ عليه السلام: لا تحاربهم اليوم فإن القمر في العَقْرب، فقال: قَمرُنا أم قَمرُهُم!

ورُوِي عنه عليه السلام أنه كان يَكرَه أن يُسافر أو يتزوّج في مَحاق الشّهر، وإذا كان القمر في العَقْرب.

ورُوِي أنّ ابن عبّاس قال على مِنبَر البَصرة: إنّ الكلاب من الحنّ وإن الحنَّ من ضُعفاء الجنّ، فإذ غشيَكم منهم شيء فألقوا إليه شيئاً أو اطردوه، فإنّ لها أنفُس سَوء.

وقال أبو عثمان الجاحظ: كان علماء الفُرْس والهند وأطبّاء اليونانيّين ودُهاة العرب وأهل التّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين يَكرَهون الأكل بين يَدي السّباع يخافون عيونها للّذي فيها من النّهَم والشّرَه، ولما ينحلّ عند ذلك من أجوافها من البُخار الرّديء، وينفصل من عيونها ممّا إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسَدَه. وكانوا يكرهون قيامَ الخدَم بالمُذاب والأشرِبة على رؤوسهم خَوْفاً من أعيُنهم وشدّة ملاحظتهم إيّاهم، وكانوا يأمرون بإشباعهم قبل أن يأكلوا، وكانوا يقولون في الكَلْب والسّنّور إمّا أن يُطرَد أو يُشغَل بما يُطرَح له.

وقالت الحكماء: نفوسُ السّباع أردأ النفوس وأخبثها لفَرْطِ شَرَهها وشَرّها. قالوا: وقد وجدْنا الرجل يضرِب الحيّة بعصا فيموت الضارب والحيّة، لأن سمّ الحيّة فُصِل منها حتى خالط أحشاءَ الضارب وقَلْبَه، ونفذ في مَسامّ جسدِه.

وقد يُديم الإنسانُ النظر إلى العين المحمَّرة فتعتري عينه حُمرة، والتثاؤب يُعدِي إعداءً ظاهراً، ويكره دنوُّ الطامِث من اللّبن لتسوطَهُ، لأن لها رائحةً وبُخاراً يُفسِد اللبن المسُوط.

وقال الأصمعيّ: رأيت رجلاً عَيوناً كان يَذكُر عن نفسه أنه إذا أعجبه الشيءُ وجَدَ حرارَة تَخرج من عينه.

وقال أيضاً: كان عندنا عَيونان فمرّ أحدُهما بحَوض من حجارة، فقال: تالله ما رأيتُ كاليوم حَوْضاً! فانصَدع فِلقَتيْن، فمرّ عليه الثاني، فقال: وأبيك لقلّما ضررت أهلك فيك! فتطاير أربعَ فِلَق.

وسمع آخر صوت بَوْل من وراءِ جِدار حائط، فقال: إنك كثيرُ الشُّخب، فقالوا: هُوَ ٱبْنُكَ! فقال: أوه انقطَع ظَهْرُه! فقيل: لا بأس عليه إنْ شاء الله، فقال: والله لا يَبُول بَعْدها أبداً، فما بال حتى مات.

وسمَع آخَرُ صوت شُخْب ناقةٍ بقُوّة فأعجَبه، فقال: أيتهنّ هذه؟ فورّوا بأخرى عنها، فهلَكَتا جميعاً، المورَّى بها والمورَّى عنها.

قال رجل من خاصّة المنصور له قبل أن يقتُل أبا مسلم بيَوْم واحد: إنّي رأيتُ اليوم لأبي مسلم ثلاثاً تطيّرت له منها. قال: ما هي؟ قال: ركب فوقعتْ قَلَنْسُوَتُه عن رأسه، فقال المنصور: الله أكبرُ! تَبعها والله رأسُه، فقال: وكَبا به فرسه، فقال: الله أكبر! كبا والله جَدُّه، وأصلَد زَنْدهُ، فما الثالثة؟ قال: إنه قال لأصحابه: أنا مقتول، وإنما أخادِع نفسي، وإذا رجلٌ يُنادِي آخر من الصحراء: اليوم آخِر الأجل يا فلان. فقال: الله أكبر! انقضى أجلُه إن شاء الله، وانقطع من الدنيا أثرُه. فقتِل في غدِ ذلك اليوم.

تجهّز النابغةُ الذبيانيّ للغزو - واسمُه زياد بن عمرو - مع زبّان بن سيّار الفزاريّ فلما أراد الرحيل سقطت عليه جَرادةٌ فتطيّر، وقال: ذات لَوْنين تجرد، غُرّي من خرج، فأقام، ولم يلتفتْ زبّان إلى طِيَرته، فذهب ورَجَع غانماً، فقال:

تَطيّر طيرةً يوماً زِيادٌ ... لتخبِره وما فيها خَبيرُ
أقامَ كأنّ لقمانَ بن عادٍ ... أشارَ له بحكمته مُشيرُ
تعلّمْ أنه لا طيرَ إلّا ... على متطيّر وهو الثّبورُ
بلى شيءٌ يوافِق بعض شيءٍ ... أحايِيناً وباطِلُه كثيرُ

حضر عمرَ بنَ الخطاب الموسمُ، فصاح به صائح: يا خليفة رسول الله، فقال رجل من بني لِهْب، وهم أهلُ عِيافة وزَجْر: دعاه باسم ميّت، مات والله أميرُ المؤمنين ﷺ، فلما وقف الناس للجِمار إذا حصاةٌ صكّت صَلْعة عُمَر، فأُدمِي منها، فقال ذلك القائل: أشعر والله أمير المؤمنين، لا والله ما يقف هذا الموقف أبداً، فقُتِل عمر قبل أن يَحُول الحَوْل. وقال كثيِّرُ بن عبد الرحمن:

تيمّمت لِهْباً أبتغي العِلْم عندَها وقد صار عِلْم العائفين إلى لِهْبِ

كان للعرب كاهِنان اسمُ أحدهما شِقّ، وكان نصف إنسان، واسم الآخر سَطيح، وكان يُطوَى طَيَّ الحَصير، ويتكلّمان بكل أعجوبة في الكهانة، فقال ابنُ الرُّوميّ:

لـك رأيٌ كـأنـه رأي شِـقٍّ وسَطِيحٍ قَرِيعَي الكُهّانِ

يستشف الغُيوب عما توارى بعيون جليّة الإنسان

وقال أبو عثمان الجاحظ: كان مُسيلمة قبل أن يتنبأ يدور في الأسواق التي كانت بين دُور العرب والعجَم كسُوق الأبلّة وسوق بقّة وسوق الأنبار وسوق الحِيرة يلتمس تعلُّم الحيل والنَّيرنْجيّات واحتيالات أصحاب الرُّقَى والعزائم والنجوم، وقد كان أحكم علم الحُزاة[1] وأصحاب الزجر والخطّ، فعمَدَ إلى بَيْضة فصبّ إليها خَلًّا حاذقاً قاطعاً، فلانَتْ، حتى إذا مدّها الإنسان استطالتْ ودَقّت كالعَلك، ثمّ أدخلها قارورةً ضيّقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وجمدتْ، فعادت كهيئتها الأولى، فأخرجها إلى قوم وهم أعرابٌ واستغواهم بها، وفيه قيل:

ببيضةِ قارورٍ ورايةِ شادِنٍ وتوصيل مَقْطوعٍ من الطير حاذِقِ

قالوا: أراد براية الشّادن التي يعملها الصبيّ من القِرطاس الرّقيق، ويَجعَل لها ذَنباً وجناحين ويُرسلها يوم الرِّيح بخيْط طويل.

كان مُسَيلِمة يَعمل راياتٍ من هذا الجنس، ويعلّق فيها الجلاجِل، ويُرسلها لَيْلاً في شدّة الريح، ويقول: هذه الملائكة تنزل عليّ، وهذه خَشخَشة الملائكة وزجَلُها، وكان يصل جَناح الطير المقصوص بريشٍ معه فيطير ويستغوِي به الأعراب.

شاعرٌ في الطِّيَرة:

وأمنع الياسمين الغَضَّ مِن حَذري عليكِ إذْ قيل لي نصفُ اسمِه ياس

وقال آخر:

أهدَتْ إليه سَفرْجلاً فتطيَّرا منه وظَلّ مفكِّراً مستعبِرا

---

(١) الحزأة: الكهانة. القاموس، مادة (حزو).

خوف الفِراق لأن شَطر هِجائه ... سَفَرٌ وحُقَّ له بأنْ يتطيَّرا

وقال آخر:

يا ذا الذي أهدَى لنا سَوْسَناً ... ما كنت في إهدائِهِ محسنا

نِصفُ اسمه سَوٌّ فقد ساءني ... يا ليت أنّي لم أرَ السَّوْسَنا

ومِثلُه:

لا تراني طَوال دهْـ ... ـرِي أهْوى الشَّقائِقَا

إنْ يكن يُشبه الخدو ... د فنصف اسمِه شَقَا

وكانوا يتفاءلون بالآسِ لدوامه، ويتطيَّرون من النرجِس لسرعة انقضائه، ويسمّونه الغَدّار.

وقال العباس بنُ الأحنف:

إنّ الّذي سَمّاكِ يا منيَتي ... بالنّرجِس الغَدّار ما أنصَفا

لو أنه سمّاك بالآسَةِ ... وفيتِ إنّ الآسَ أهلُ الوَفا

خرج كثيِّرُ يريد عَزّةَ ومعه صاحِبٌ له من نَهْد، فرأى غراباً ساقطاً فوق بانَةٍ يَنتِف ريشَه، فقال له النَّهْديّ: إن صَدَق الطَّيْر فقد ماتت عَزّة، فوافَى أهلَها وقد أخرَجوا جَنازَتها، فقال:

وما أعْيَفَ النهديُّ لا دَرّ دَرّهُ ... وأزجَرَه للطير لا عَزَّ ناصِرُهْ

رأيتُ غراباً ساقطاً فوقَ بَانةٍ ... ينتِفُ أعلَى ريشهِ ويُطايِرُهْ

فقال غرابٌ لاغترابٍ، وبانَةٌ ... لِبَيْن، وفقدٌ من حبيبٍ تُعَاشِرُهْ

وقال الشاعر:

وسَمّيته يحيَى ليحيَا ولم يكن ... إلى رَدِّ حُكم اللّه فيهِ سَبيلُ

تيَّممتُ فيه الفألَ حين رُزِقتُه ... ولم أدرِ أن الفأل فيه يفيلُ

فأمّا القول في السِّحر فإنّ الفقهاء يثبِتونه ويقولون: فيه القَوَد، وقد جاء في الخبر أنّ رسول الله ﷺ سَحَره لَبيد بن أعصَم اليهوديّ حتى كان يُخيَّل إليه أنه عَمِل الشيءَ ولم يَعْمَله[1].

ورُوي أنّ امرأةً من يهود سحرتْه بشَعْر وقُصاص وجَعَلت السِّحرَ في بئر، وأنّ الله تعالى دَلّه على ذلك، فبعث عليًا عليه السلام فاستخرَجه وقَتَل المرأة[2].

---

(١) أخرجه البخاري في بدى الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده (٣٢٦٨)، ومسلم في السلام، باب: في السحر (٢١٨٩)، وابن ماجه في الطب، باب السحر (٣٥٤٥)، وأحمد في باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة (٢٣٧٧٩).

(٢) شعراء النصرانية: ٢٣٥ في وصف سنة ومجاعة.

وقومٌ من المتكلّمين يَنْفون هذا عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويقولون: إنه معصوم مِن مِثله.

والفلاسفة تَزْعم أنّ السِّحرَ من آثار النفسِ الناطقة، وأنه لا يَبْعُد أن يكون في النفوس نفس تؤثّر في غيرِ بَدنها المرض والحُبّ والبُغْض ونحو ذلك، وأصحاب الكواكب يَجعلون للكواكب في ذلك تأثيراً، وأصحابُ خَواصّ الأحجار والنّبات وغيرها يُسنِدون ذلك إلى الخواصّ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ دالٌّ على تصحيح ما يُدعى من السِّحْر.

وأمّا العَدْوَى فقد قال رسول الله ﷺ: «لا عدوَى في الإسلام»[1]. وقال لمن قال: أعدَى بعضُها بعضاً - يعني الإبل -: فمن أعدَى الأول؟ وقال: «لا عدوَى ولا هامَة ولا صَفَر»[2]، فالعَدْوى معروفة، والهامَة: ما كانت العرب تزعُمه في المَقْتول لا يؤخذ بثأرِه، والصَّفَر: ما كانت العرب تزعمُه مِن الحيّةِ في البَطْن تَعَض عند الجُوع.

أخبار حول مذاهب العرب وتخيلاتها

وسنذكر ها هنا نُكتاً مُمتِعةً من مَذاهب العَرَب وتَخيُّلاتِها، لأنّ الموضع قد ساقَنا إليه، أنشَد هشامُ بنُ الكَلبيّ لأميّة بن أبي الصَّلْت:

سَنَةٌ أزْمَةٌ تُبرِّح بالنا ... سِ تَرَى للعِضاهِ فيها صَرِيرا
لا عَلَى كوكبٍ تَنُوءُ ولا رِيـ ... ـحِ جَنوبٍ ولا ترى طُخْرورا
ويُسَقُّوْن باقرَ السَّهْلِ للطَّو ... دِ مَهازيلَ خشيةً أن تَبورا
عاقدين النِّيرانَ في ثُكَن الأذ ... ناب منها لكي تهيجَ البحُورا
سَلَعٌ ما ومِثلُه عُشَرٌ ما ... عائِلٌ ما وَعالَتِ البَيْقُورا

يُروَى أنّ عيسى بن عمر قال: ما أدري معنى هذا البيت! ويقال: إنّ الأصمعيّ صحّف فيه، فقال: «وغالَت البَيْقُورا» بالغَين المعجمة، وفسّره غيرُه فقال: عالَت بمعنى أثقَلت البَقَرَ بما حملتها من السّلع والعُشَرِ، والبَيْقور: البَقر. وعائل: غالب، أو مُثقَل.

وكانت العرب إذا أجدَبَتْ وأمسكَتْ السماءُ عنهم وأرادوا أن يُستمطرُوا عَمَدوا إلى السَّلع والعُشَر فحزَموهما وعقدوهما في أذنابِ البقر، وأضرموا فيها النِّيران، وأصعَدوها في جبل وَعِر، واتّبعوها يَدْعون الله ويَسْتَسْقونه، وإنّما يَضرِمون النِّيران، في أذناب البقر تفاؤلاً للبَرْق بالنار، وكانوا يَسُوقونها نحو المغرب من دون الجهات. وقال أعرابيّ:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بما معناه: ٧/ ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب: لا هامة (٥٧٥٧)، ومسلم في السلام، باب: لا عدوى (٢٢٢٠)، وأبو داود في الطب باب: في الطيرة (٣٩١١)، وابن ماجه في الطب، باب: من كان يعجبه الفأل (٣٥٣٩).

شَفَعْنَا بِبَيقور إلى هاطل الحيَا فلم يُغنِ عنّا ذاك بل زادَنَا جَدْبَا
فعُدْنا إلى رَبِّ الحَيا فأجارَنا وصيّر جدْبَ الأرض من عندِه خِصْبا

وقال آخر:

قُلْ لبني نَهْشَلَ أصحاب الحَوَرْ: أتطلُبون الغيثَ جَهْلاً بالبَقَرْ!
وسلَعٍ من بعد ذاكَ وعُشَرْ ليس بذا يُجلِّل الأرضَ المَطَرْ

ويمكن أن يُحمَل تفسيرُ الأصمعيّ على محمل صحيح، فيقال: غالت بمعنى أهلكت، يقال: غالَه كذا واغتالَه أي أهلَكه، وغَالتهم غُولٌ، يعني المنيّة، ومنه الغَضَب غُول الحلْم.

وقال آخر:

لمّا كسَوْنا الأرض أذناب البَقَرْ بالسَّلَع المعقود فيها والعُشَرْ

وقال آخر:

يا كُحْل قد أثقلتَ أذنابَ البَقَرْ بسَلَعٍ يعقد فيها وعُشَرْ
فهل تَجُودِين ببَرْقٍ ومَطَرْ

وقال آخر يعيب العربَ بفِعلهم هذا:

لا دَرَّ دَرّ رجالٍ خابَ سعيُهُم يَستمطِرون لدى الإعسار بالعُشَرِ
أجاعلٌ أنت بيقوراً مسلّعة ذريعةً لك بين اللّه والمَطَر

وقال بعضُ الأذكياء: كلّ أمّة قد تَحْذو في مذاهبها مذاهبَ مِلّة أخرى، وقد كانت الهنْد تَزعمُ أنّ البقر ملائكة، سَخط اللهُ عليها فجَعَلها في الأرض، وأنّ لها عنده حرمة، وكانوا يُلطّخون الأبدانَ بأخثائها، ويَغسِلون الوجوهَ ببَوْلِها ويَجعلونَها مُهورَ نِسائهم، ويتبرّكون بها في جميع أحوالهم، فلعلّ أوائلَ العرب حَذَوْا هذا الحذْوَ، وانتهَجوا هذا المَسْلك.

وللعَرَب في البقر خيالٌ آخر، وذلك أنّهم إذا أوْرَدوها فلم تَرِد، ضَرَبوا الثّور ليقتحمَ الماء، فتقتحم البقر بعدَه، ويقولون: إنّ الجنّ تَصُدّ البقر عن الماء، وإن الشّيطان يَركَب قَرنَيْ الثّور، وقال قائلهُم:

إنّي وقتلِي سُلَيْكاً حين أعقِلُه كالثّور يُضرَب لمّا عافَتْ البَقَرُ

وقال نَهشَل بن حريّ:

كذاكَ الثورُ يُضرَب بالهِرَاوَى إذا ما عافتِ البَقَرُ الظِّماء

وقال آخر:

كالثَّوْر يُضرَب للوُرُو دِ إذا تَمنَّعتِ البَقَرْ

فإنْ كان ليس إلّا هذا فليس ذاك بعَجِيب من البقر ولا بمَذهَب من مذاهِب العرب: لأنّه قد يجوز أن تَمتنِع البقر من الوُرود حتّى يَرِدَ الثّور كما تمتنِعَ الغنمُ من سلوك الطُّرُق أو دخول الدُّور والأخْبِية حتّى يتقدّمها الكبش أو التّيس، وكالنحل تتبع اليَعْسُوب، والكَراكيّ تتبع أميرَها، ولكن الّذي تدلّ عليه أشعارها أنّ الثّور يَرِدُ ويَشرَب ولا يمتنع، ولكنّ البقر تَمتنع وتَعافُ الماء وقد رأت الثورَ يَشرَب، فحينئذ يُضرب الثور مع إجابته إلى الورود فتَشرب البقر عند شُرْبه، وهذا هو العَجَب، قال الشاعر:

فـإنّـي إذَنْ كـالـثَّـوْر يُـضـرَب جَـنْـبُـهُ ... إذا لم يَعَفْ شرباً وعافَتْ صَواحِبُهْ

وقال آخر:

فـلا تـجـعـلـوني كـالـبقـير وفـحـلـها ... يـكـسَّـر ضَـرْباً وهـو لـلـوِرْد طـائِعُ
ومـا ذَنْـبـه إن لـم يـرد بـقَـراتـه ... وقـد فـاجـأتـهـا عـنـد ذاك الـشّرائعُ

وقال الأعشى:

لـكـالـثّـور والـجِـنّـيّ يُـضـرَب وجـهـهُ ... ومـا ذَنْبُه إن عـافَـت الـمـاءَ مَـشْـرَبـا!
ومـا ذنـبُـه إن عـافـت الـمـاء بـاقِـرٌ ... ومـا إن يَـعـافُ الـمـاء إلّا لـيُـضـرَبـا

قالوا في تفسيره: لمّا كان امتناعُها يتعقبه الضرب، حَسُن أن يقال: عافت الماء لتُضرَب، وهذه اللّام هي لام العاقبة، كقوله: «لِدُوا للموت»، وعلَى هذا فسّر أصحابُنا قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾(1).

ومن مذاهب العرب أيضاً تعليق الحَلْي والجَلاجِل على اللَّدِيغ يَرَوْن أنه يُفيق بذلك، ويقال: إنه إنما يعلّق عليه لأنهم يرَوْن أنه إنّ نام يَسرِي السمّ فيه فيَهلِك، فشَغَلوه بالحَلْي والجَلاجِل وأصواتها عن النوم، وهذا قولُ النَّضر بنُ شُمَيل، وبعضُهم يقول: إنه إذا عُلّق عليه حلي الذهب بَرَأ، وإن علّق الرَّصاص أوْ حَلْي الرصاص مات.

وقيل لبعض الأعراب: أتريدون شُهْرةً؟ فقال: إنّ الحَلْي لا تُشهر، ولكنها سُنّةٌ ورِثْناها.

وقال النابغة:

فـبـتّ كـأنـي سـاورتـنـي ضَـئـيـلـةٌ ... من الرُّقْش في أنيابِها السّمُّ ناقِعُ
يُـسـهّـدُ مـن لـيـلِ الـتّـمـام سَـلِـيـمُـهـا ... لِـحِـلْـيِ الـنـسـاءِ في يـديـهِ قَـعـاقِـعُ

وقال بعض بني عُذْرَة:

كـأنّـي سَـلِـيـمٌ نَـالَـهُ كَـلْـمُ حَـيّـةٍ ... تـرى حـولَـه حَـلْـي الـنـسـاء مـرصَّـعَـا

---

(1) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

وقال آخر:

وقد عُلّلوا بالبُطْل في كلّ موضعٍ وغُرُّوا كما غَرَّ السليمَ الجلاجلُ

وقال جَمِيل وظَرُف في قوله، ولو قاله العبّاس بن الأحنف لكان ظريفاً:

إذا ما لَديغٌ أبرأ الحَليُ داءه فحَليكِ أمسَى يا بُثَيْنة دائِيَا

وقال عُوَيْمر النّبهانيّ وهو يؤكّد قولَ النّضر بنِ شُمَيل:

فبتّ مُعنًّى بالهموم كأنّني سليمٌ نَفَى عنه الرُّقادَ الجَلاجلُ

ومِثلُه قولُ الآخر:

كأني سليمٌ سَهَّد الحليُ عينَه فراقب من ليل التّمام الكواكبَا

ويشبه مذهَبهم في ضَرْب الثور مذهبهم في العَرّ يصِيبُ الإبلَ فيُكوَى الصَّحيح ليَبْرأ السقيم.

وقال النابغة:

وكلّفْتَني ذنْبَ امرئٍ وتركتَه كذي العَرّ يكْوَى غيرُه وهو راتِعُ

وقال بعضُ الأعراب:

كمن يَكوِي الصّحاح يرومُ بُرْءاً به من كلّ جَرْباء الإهابِ

وهذا البيت يُبطِل رواية مَن رَوى بيت النابغة «كذِي العُرّ» بضم العين، لأنّ العُرّ بالضم: قَرْح في مَشافِر الإبل غيرُ الجَرَب، والعَرُّ بالفتح: الجَرَب نفسه، فإذا دَلَّ الشعر على أنه يكوَى الصّحيح ليبرأ الأجرَب، فالواجبُ أن يكون بيتُ النابغة «كذِي العَرّ» بالفتح.

ومِثلُ هذا البيت قولُ الآخر:

فألزمْتِني ذنْباً وغيرِيَ جَرَّه حَنَانَيْكِ لا يُكوى الصحيحُ بأجْربا

إلّا أن يكون إطلاق لفظِ الجَرَب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز لمشابهته له.

ومن تخيّلاتِ العَرَب ومذاهِبها أنّهم كانوا يَفقؤون عينَ الفَحْلِ من الإبل إذا بلغت ألفاً، كأنّهم يَدفعون العين عنها، قال الشاعر:

فَقأنا عيوناً من فُحول بَهازِرٍ وأنتم برَعْيِ البُهْم أولَى وأجْدرُ

وقال آخرَ:

وهَبْتَها وكنتَ ذا امتِنانِ تفقَأ فِيها أعيُنَ البُعْرانِ

وقال الآخر:

أعطيتَها ألفاً ولم تَبخَلْ بها ففقأتَ عينَ فُحَيْلِها مُعتافا

وقد ظنّ قومٌ أنّ بيتَ الفرَزْدق وهو:

غَلَبْتُكَ بالمفقّيء والمُعَنّى ... وبيت المحتبي والخافقاتِ

من هذا الباب، وليس الأمر على ذلك، وإنّما أراد بالفقء قوله لجرير:

ولستَ ولو فقّأتُ عينيكَ واجداً ... أخاً كلَقيطٍ أو أباً مِثلَ دارِمِ

وأرادَ بالمعنّى قوله لجرير أيضاً:

وإنّك إذ تَسعَى لتُدرِك دارِماً ... لأنتَ المعنَّى يا جَرير المكلَّفُ

وأراد بقوله: «بيت المحتبي» قوله:

بيتٌ زرارةُ مُحتَبٍ بفِنائهِ ... ومُجاشع وأبو الفَوارِس نَهشَلُ

وبيت الخافِقات، قوله:

ومعصَّبٍ بالتّاج يخفِق فوقَه ... خِرَق الملوك له خَميسٌ جَحْفَلُ

فأما مذهبهم في البليّة، وهي ناقةٌ تُعقَلُ عند القبر حتّى تموت، فمذْهَبٌ مشهور، والبَلية أنّهم إذا ماتَ منهم كريمٌ بلَوا ناقته أو بَعيره، فعكسوا عنقَها، وأداروا رأسَها إلى مؤخَّرها، وتركُوها في حَفِيرة لا تَطعَم ولا تُسقَى حتّى تموت، وربّما أُحرِقتْ بعد موتها، وربّما سُلِخت وملئ جلدُها ثُماماً. وكانوا يزعمُون أنّ من مات ولم يُبْلَ عليه حُشِر ماشياً، ومَن كانت له بليّة حُشِر راكباً على بليّته، قال جُرَيبة بن الأشيم الفَقْعَسيّ لابنه:

يا سَعْد إما أهلِكَنّ فإنّني ... أوصيكَ إنّ أخا الوَصاةِ الأقربُ

لا أعرِفَنّ أباكَ يحشر خلفَكُمْ ... تعباً يُجَرُّ على اليَدَين ويُنكَبُ

واحملْ أبَاك على بعيرٍ صالحٍ ... وتَقِ الخطيئةَ إنّه هو أصوَبُ

ولعلّ لي ممّا جمعتُ مطيّةً ... في الحَشْر أركبُها إذا قيل ارْكَبوا

وقال جُريبة أيضاً:

إذا مِتُّ فادفنّي بجدّاءَ ما بها ... سوَى الأصرخين أو يفوِّز راكبُ

فإن أنتَ لم تَعقِر عليّ مطيّتي ... فلا قامَ في مالٍ لكَ الدهر جالِبُ

ولا تدفنَنّي في صُوًى وادفِنَنّني ... بدَيمومةٍ تنْزو عليها الجَنادِبُ

وقد ذكرتُ في مجموعِي المسمّى «بالعَبْقريّ الحسان» أنّ أبا عبد الله الحُسين بن محمّد بن جعفر الخالع رحمه الله ذكر في كتابه في آراء العرب وأديانِها هذه الأبيات، واستَشْهد بها على ما كانوا يعتقِدون في البَلِيّة، وقلتُ: إنه وَهِمَ في ذلك، وإنه ليس في هذه الأبيات دَلالةٌ على هذا المعنى، ولا لها به تعلّق، وإنما هي وصيّة لولده أن يَعقِر مطيّته بعد موتِه، إمّا لِكَيْلا يَركَبها غيرُه

بَعده، أو على هيئة القُرْبان كالهَدْي المَعقور بمكّة، أو كما كانوا يَعقِرون عند القبور، ومَذْهبهم في العَقْر على القبور، كقول زياد الأعجم في المغيرة بن المهلّب:

إنّ السّماحة والمروءةَ ضُمِّنَا ... قَبْراً بمرْوَ على الطّريق الواضِحِ
فإذا مَررتَ بقبرِه فاعقِرْ به ... كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابِحِ

وقال الآخَر:

نفرَتْ قَلوصِي عن حِجارة حَرّةٍ ... بُنِيتْ على طَلْق اليدين وَهوبِ
لا تنفِرِي يا ناقُ منه فإنّهُ ... شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحرُوبِ
لولا السِّفار وبُعدُ خَرْقٍ مَهْمهٍ ... لتركتُها تحبُو على العُرْقوب

ومَذهبُهم في العَقْر على القبور مشهور، وليس في هذا الشِّعر ما يدلّ على مذهبهم في البَليّة، فإنْ ظَنّ ظانٌّ أنّ قوله: «أو يُفَوِّز راكب»، فيه إيماءٌ إلى ذلك، فليس الأمرُ كما ظنّه. ومعنى البيت ادفنِّي بفلاةٍ جَدّاء مقطوعة عن الإنس، ليس بها إلّا الذئب والغُراب، أو أن يعتسف راكبها المَفازة وهي المَهلَكة، سمّوها مَفازةً على طريق الفأل. وقيل: إنّها تسمّى مَفازةً، من فوّز أي هلَك، فليس في هذا البيت ذِكرُ البليّة، ولكنّ الخالع أخطأ في إيرادِه في هذا الباب، كما أخطأ في هذا الباب أيضاً في إيراده قول مالك بن الرَّيب:

وعَطِّلْ قَلوصِي في الرِّكاب فإنّها ... ستُبرِد أكباداً وتُبكي بَوَاكِيَا

فظنّ أنّ ذلك من هذا الباب الّذي نحن فيه، ولم يُرِد الشاعر ذلك، وإنما أراد لا تَركَبوا راحلتي بعدِي، وعَطِّلوها بحيثُ لا يشاهدها أعادِيَّ وأصادِقي ذاهبةً جائيةً تحتَ راكبها، فيَشمَت العدوّ ويُساء الصديق، وقد أخطأ الخالع في مَواضعَ عدّة من هذا الكتاب، وأورد أشعاراً في غير موضِعها، وظنّها مناسبةً لما هو فيه، فمنها ما ذَكَرْناه، ومنها أنّه ذكَرَ مذهَب العرب في الحَلْي ووضْعِه على اللّدِيغ، واستشْهَدَ عليه بقول الشاعر:

يُلاقِي من تَذكُّرِ آلِ لَيْلَى ... كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدادِ

ولا وجه لإيراد هذا البيت في هذا الموضع، فالعِداد مُعاوَدَة السَّمّ الملسوعَ في كلّ سنة في الوَقْت الّذي لُدِغ فيه، وليس هذا من باب الحَلْي بسبيل.

ومن ذلك إيرادُه قولَ الفَرَزْدق «غلبْتُك بالمفقِّيء» في باب فَقْء عُيون الفُحول، إذا بلَغت الإبلُ ألفاً، وقد تقدّم شرحُنا لموضع الوَهْم في ذلك. وسنذكُر هاهنا كثيراً من المواضع الّتي وَهِم فيها إنْ شاء الله.

وممّا وَرَد عن العرب في البليّة قولُ بعضهم:

أبُنَيَّ زَوِّدْني إذا فارَقْتَنِي ... في القَبْرِ راحلةً بِرَحْلٍ فاترِ
لِلبَعْثِ أركَبُها إذا قيل ارْكَبوا ... مستوثِقين معاً لحشرِ الحاشِرِ

وقال عُوَيم النَّبهانيّ:

أبُنَيّ لا تنسَ البليّة إنّها ... لأبيكَ يومَ نُشورِهِ مَرْكوبُ

ومن تخيلات العَرَب ومذاهِبها ما حكاه ابنُ الأعرابيّ، قال: كانت العرب إذا نفرَت الناقة فسُمِّيتْ لها أمُّها سكنَتْ من النِّفار، قال الراجز:

أقولُ والوَجْناءُ بي تَقَحَّمُ ... وَيلك قُلْ ما اسمُ أمِّها يا عَلْكَمُ

عَلْكَم: اسمُ عبدٍ له، وإنما سأل عبدَه ترفُّعاً أن يَعرِف اسمَ أمِّها، لأنّ العبيد بالإبل أعرَف، وهُم رُعاتُها. وأنشد السّكّريّ:

فقلتُ له ما اسمُ أمِّها هاتِ فادْعها ... تُجِبْك ويَسْكُنْ روعُها ونِفارُهَا

ومما كانت العرب كالمجتمعة عليه الهامة، وذلك أنهم كانوا يقولون: ليس من ميّت يموت ولا قتيل يُقْتَل، إلا ويخرج من رأسه هامةٌ، فإنْ كان قُتِل ولم يؤخذ بثأره نادت الهامةُ على قَبْره: اسْقُوني، فإنّي صَدِيَة، وعن هذا قال النبيّ ﷺ: «لا هَامَة»[1].

وحُكي أنّ أبا زيد كان يقول: الهامّة مشدّدة الميم إحدى هَوَامّ الأرض، وأنها هي المتلوّنة المذكورة.

وقيل: إنّ أبا عُبيد قال: ما أرَى أبا زيد حَفِظ هذا، وقد يُسمّونها الصَّدى والجمع أصْداء، قال:

وكيف حَياةُ أصداءٍ وهامِ

وقال أبو دُواد الإيادي:

سُلِّط الموتُ والمَنُونُ عليهمْ ... فلهمْ في صدَى المقابرِ هامُ

وقال بعضُهم لابنِه:

ولا تَزْقُوَنْ لي هامَةٌ فوقَ مَرْقَبٍ ... فإنّ زُقاءَ الهامِ للمرءِ عائِبُ
تُنادي ألا اسْقونِي وكلّ صَدًى به ... وتلك التي تبيضّ منها الذَّوائبُ

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧)، ومسلم في السلام، باب: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة (٢٢٢٠). وأبو داود في الطب، باب: في الطيرة (٣٩١١)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في العذر (٨٦)، وأحمد في «مسنده» (١٥٠٥).

يقول له: لا تَتْرك ثأري إن قتلت، فإنك إن تركته صاحتَ هامَتي: اسقوني، فإن كل صدًى - وهو هاهنا العَطَش - بأبيك، وتلك التي تبيضّ منها الذوائب، لصُعوبتها وشِدّتها، كما يقال: أمرٌ يُشِيب رأسَ الوليد، ويَحتمل أن يريد به صُعوبة الأمر عليه، وهو مقبور إذا لم يثأرْ به، ويحتمل أن يريد به صعوبة الأمر على ابنه، يعني أن ذلك عارٌ عليك، وقال ذو الإصْبَع:

يا عَمْرو إلّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنقَصَتي ... أضرِبْكَ حيث تقولُ الهامَةُ اسْقُوني

وقال آخر:

فيا رَبِّ إنْ أهلك ولم تَرْوِ هامَتِي ... بلَيلى أمُتْ لا قبرَ أعطَشُ من قبري

ويحتمل هذا البيت أنْ يكون خارجاً عن هذا المعنى الذي نحن فيه، وأن يكون رِيّ هامته الذي طلبه من ربّه هو وصالُ لَيْلَى وهما في الدنيا. وهم يَكنُون عما يَشفِيهم بأنه يُرِوي هامَتَهم.

وقال مغلّس الفَقْسيّ:

وإنّ أخاكم قد علمت مكانَه ... بسَفْح قُبا تَسفِي عليه الأعاصرُ

له هامةٌ تدعُو إذا الليل جَنَّها ... بَنِي عامرٍ هل للهلاليّ ثائرُ

وقال تَوْبَةُ بن الحُمَيِّر:

ولو أنَّ لَيلى الأخيليّةَ سلّمَت ... عليّ ودُوني جَنْدَلٌ وصَفائحُ

لسلّمتُ تسليمَ البَشاشةِ أوزقَا ... إليها صَدًى من جانِب القَبر صائحُ

وقال قيسُ بن المُلوَّح، وهو المجْنون:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتِنا ... ومِن دوننا رَمْسٌ[1] مِن الأرض أنْكَبُ

لظَلّ صدَى رَمْسِي وإن كنتُ رِمّةً ... لِصوتِ صَدَى لَيلَى يَهَشُّ ويَطرَبُ

وقال حُمَيد بنُ ثور:

ألاهَل صَدَى أمّ الوليد مكلِّمٌ ... صَدايَ إذا ما كنتُ رَمْساً وأعظُما

ومما أبطله الإسلام قولُ العَرَب بالصَّفَر، زعموا أنّ في البطن حَيّةً إذا جاع الإنسان عَضّت على شُرْسُوفه وكَبده، وقيل: هو الجوع بعَيْنه، ليس أنّها تَعَضّ بعد حصول الجوع، فأما لفظ الحديث: «لا عدوَى ولا هامَة ولا صَفَر ولا غُول»[2]، فإن أبا عُبيدة مَعمَر بن المثنّى قال: هو صَفَر الشّهر الذي بَعد المحرَّم، قال: نهى ﷺ عن تأخيرهم المحرَّم إلى صَفَر، يَعني ما كانوا

---

(١) الرَّمْس: القبر. القاموس مادة (رمس).

(٢) تقدم تخريجه.

يفعلونَه من النَّسيء، ولم يوافق أحدٌ من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير، وقال الشاعر:

لا يَتَأَرَّى لِما في القِدْرِ يَرْقُبه ... ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِه الصَّفَرُ

وقال بعضُ شعراء بني عَبْس يذكر قَيس بنَ زهير لما هَجَر الناس وسَكن الفيافي وأنِسَ بالوَحْش، ثمّ رأى ليلةً ناراً فعشَا إليها، فشمَّ عندَها قُتَار اللّحم، فنازعتْه شهوته، فغلبها وقهرها، ومال إلى شجرة سلَم فلم يَزَل يكْدِمُها ويأكُل مِن خَبَطها إلى أن مات:

إنّ قيساً كان ميتَته ... كرمٌ والحيّ منطلقُ

شامَ ناراً بالهوى فهَوَى ... وشُجاع البَطْن يختفقُ

في دَرِيسٍ ليس يَستُره ... رُبَّ حُرٍّ ثوبُه خَلَقُ

وقوله: «بالهوى» اسمُ موضع بِعَيْنِه.

وقال أبو النّجم العِجْليّ:

إنّك يا خيرَ فتًى نَستعدِي ... على زمانٍ مسنِتٍ بِجَهْدِ

عَضًّا كعَضّ صَفَرٍ بِكِبْدِ

وقال آخر:

أردُّ شُجاعَ البَطن قد تَعلمينه ... وأوثر غيرِي من عِيالِك بالطَّعمِ

ومن خُرافات العرب أن الرّجل منهم كان إذا أراد دخول قريةٍ فخاف وباءها أو جنَّها، وقف على بابها، قبل أن يدخلها فنَهَقَ نهيق الحمار، ثم علّق عليه كعب أرْنب، كأنّ ذلك عُوذة له ورُقْية من الوَباء والجنّ، ويسمُّون هذا النَّهيق التَّعشير، قال شاعرُهم:

ولا ينفع التَّعشير أن حُمّ واقِعٌ ... ولا زَعزَعٌ ولا كَعْب أرنَبِ

وقال الهيْثم بن عَدِيّ: خرج عُروة بن الوَرْد إلى خيبر في رُفْقه ليمتارُوا، فلمَّا قربوا منها عشَروا، وعاف عُرْوة أن يفعل فعلَهم، وقال:

لَعمري لئن عَشّرتُ من خِيفةِ الرَّدَى ... نُهاقَ حَميرٍ إنني لجزُوعُ

فلا وألَتْ تلك النفوسُ ولا أتَتْ ... قُفولاً إلى الأوطان وهي جميعُ

وقالوا ألا انهَقْ لا تضرّك خَيْبَرٌ ... وذلك من فعلِ اليهود وُلوعُ

الوُلوع بالضمّ: الكَذِب، ولع الرجُل إذا كَذَب، فيقال إن رُفقتَه مرضوا ومات بعضُهم، ونجا عروة من الموت والمرض.

وقال آخر:

لا يُنْجِيَنَّكَ من حِمامٍ واقعٍ ... كَعبٌ تعلِّقُه ولا تعشيرُ

ويُشابه هذا أن الرجل منهم كان إذا ضَلّ في فَلاةٍ قلب قميصَه، وصفّق بيَدَيه كأنه يومئ بهما إلى إنسان فيهتدِي، قال أعرابيّ:

قلبتُ ثِيابي والظُّنونُ تجول بي ... وتَرمِي برِحْلِي نحو كلّ سبيلِ
فلأياً بلأيٍ ما عرفت جَليّتي ... وأبصَرْتُ قَصْداً لم يصب بدَليل

وقال أبو العملّس الطائيّ:

فلو أبصرْتني بلوَى بطانٍ ... أصفِّق بالبَنانِ على البَنانِ
فأقلبُ تارةً خوفاً ردائي ... وأصرُخُ تارةً بأبي فُلانِ
لقلتُ أبو العَمَلّس قد دَهاهُ ... من الجِنّان خالعةُ العِنانِ

والأصل في قَلْب الثّياب التفاؤل بقَلْب الحال، وقد جاء في الشّريعة الإسلاميّة نحو ذلك في الاستسقاء.

ومن مذاهب العَرَب أنّ الرجل منهم كان إذا سَافَرَ عَمدَ إلى خَيْط فَعَقَده في غُصْن شجرة أو في ساقها، فإذا عادَ نظرَ إلى ذلك الخيط، فإنْ وجَدَه بحالِه عَلِم أنّ زوجتَه لم تَخُنْه، وإن لم يَجِدْه أو وجده مَحْلولاً، قال: قد خانَتْني، وذلك العَقْد يُسمَّى الرَّتَم، ويقال: بل كانوا يعقِدون طَرَفاً من غُصْن الشّجرة بطَرفِ غصنٍ آخَر، وقال الراجز:

هل ينفعنْكَ اليومَ إنْ هِمت بهِمْ ... كثرةُ ما تُوصِي وتَعْقاد الرَّتَمْ

وقال آخَر:

لا تَحسَبنّ رَتائماً عَقَدتَها ... تُنبِيكَ عنها باليقينِ الصادِق

وقال آخَر:

يعَلِّل عَمرٌو بالرَّتائم قَلْبَه ... وفي الحيّ ظَبيٌ قد أُحلّتْ مَحارِمُهْ
فما نفعتْ تلك الوَصايَا ولا جَنَتْ ... عليه سِوَى ما لا يحبّ رَتائمُهْ

وقال آخَر:

ماذا الّذي تَنفَعُك الرّتائمُ ... إذ أصبحتْ وعِشقُها مُلازِمُ
وهي على لَذّاتِها تُداومُ ... يَزُورها طَبٌّ الفؤاد عارِمُ
بكلِّ أدواءِ النّساء عالِمُ

وقد كانوا يَعقِدون الرّتم للحُمَّى، ويَرَون أنّ من حَلّها انتقلتْ الحمّى إليه، وقال الشاعر:

حــلــلــتُ رتــيــمــةً فــمــكــثــتُ شَــهْــراً   أكـــابِـــدُ كـــلَّ مـــكــــروهِ الـــدّواء

وقال ابنُ السّكّيت: إنّ العرب كانت تقول: إنّ المرأة المِقْلات - وهي الّتي لا يَعيشُ لها ولد - إذا وَطِئَت القتيل الشريفَ عاشَ ولدُها، قال بِشرُ بنُ أبي خازِم:

تَـظَـلّ مَـقـالـيـتُ الـنّـسـاءِ تـطـأنَـه   يَـقُـلْـن ألا يُـلـقَـى عـلـى الـمرء مِـئْـزَرُ

وقال أبو عُبيدة: تتخطّاه المِقْلات سبعَ مرّات، فذلك وَطؤُها له.

وقال ابنُ الأعرابيّ: يمرّون به ويطؤون حولَه، وقيل: إنّما كانوا يفعَلون ذلك بالشريف يُقتَل غَدْراً أو قَوَداً.

وقال الكُمَيْت:

وتُــطِــيــلُ الــمــرزّآتُ الــمَــقــالِــيــ   ــتُ إلــيــه الــقُــعــودَ بــعــد الــقِــيــامِ

وقال الآخَر:

تــركْــنــا الــشّــغْــثَــمــيْــن بِــرَمْــل خَــبْــتٍ   ــزُورهــمــا مَــقــالــيــتُ الــنّــســاء

وقال الآخَر:

بنَفسي الّتي تَمشي المَقاليتُ حَوْلَه   يُطافُ له كَشحاً هَضيماً مُهشما

وقال آخَر:

تَـبـاشَـرت الـمَـقـالِـتُ حِـيـنَ قـالُـوا   ثَـوَى عَـمـرُو بـنُ مُـرّة بـالـحَـفـيـرِ

ومن تخيلات العَرَب وخُرافاتها، أنّ الغلام مِنهم كان إذا سقطتْ له سِنّ أخذَها بين السّبّابة والإبهام واستَقبَل الشّمس إذا طلعتْ وقذَفَ بها، وقال: يا شمسُ أبدِليني بسِنّ أحسَنَ منها، وليَجْر في ظلْمها إياتك، أو تقول: «إياؤك»، وهما جميعاً شُعاع الشمس، قال طَرفة:

سَــقَــتْــه إيــاةُ الــشّــمــس

وإلى هذا الخيالِ أشار شاعرُهم بقوله:

شـادِنٌ يَـجْـلـو إذا مـا ابـتَـسَـمَـتْ   عـن أقـاحٍ كـأقـاحِ الـرّمْـلِ غـرْ
بـدّلَـتْـه الـشّـمـسُ مـن مَـنْـبِـتـه   بَـرَداً أبـيـضَ مَـصـقـولَ الأشَـرْ

وقال آخَر:

وأشـنَـبُ واضـحُ عَـذْبُ الـثّـنـايـا   كـأنّ رُضـابَـهُ صـافـي الـمُـدامِ

كسَتْه الشمس لوْناً من سَناها ... فلاحَ كأنّه بَرْقُ الغَمامِ

وقال آخر:

بذي أُشُرٍ عَذْب المَذاقِ تفرّدتْ ... به الشمس حتّى عاد أبيضَ ناصِعَا

والناسُ اليَوم في صِبْيانهم على هذا المذهب.

وكانت العربُ تَعتَقد أنّ دَم الرّئيس يَشفِي مِن عضّة الكَلْب الكَلِب، قال الشاعر:

بُناة مكارمٍ وأُساة جُرحٍ ... دِماؤهمُ من الكَلَبِ[1] الشّفاءُ

وقال عبدُ الله بن الزَّبير الأسَديّ:

من خيرِ بيتٍ عَلِمْناه وأكرَمِه ... كانت دماؤهُمُ تَشفِي مِنَ الكَلَبِ

وقال الكُمَيت:

أحلامكمْ لسَقام الجَهْل شافِيةٌ ... كما دِماؤُكُمُ تَشفِي مِن الكَلَبِ

ومِن تَخيُّلات العرب أنّهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنُونَ وتعرُّضَ الأرواح الخبيثة له نجّسوه بتَعْليق الأقْذار عليه، كخِرْقة الحَيض وعِظام الموتى، قالوا: وأنفَع من ذلك أن تعلّق عليه طامِثٌ عِظام موتى، ثمّ لا يراها يومَه ذلك، وأنشَدوا للممزَّق العبديّ:

فلو أنّ عندي جارَتَيْن وراقياً ... وعَلَّقَ أنجاساً عليَّ المعلِّقُ

قالوا: والتّنجيس يَشفِي إلّا مِن العِشْق، قال أعرابيّ:

يقولون علِّق يا لك الخير رمّةً ... وهل ينفع التّنجيس مَن كان عاشقا!

وقالت امرأة - وقد نجّستْ ولدَها فلم يَنفَعْه ومات -:

نجّسْتُه لو يَنفَعُ التّنجيسُ ... والموتُ لا تَفوتُه النفوسْ

وكان أبو مهديّة يعلّق في عُنقِه العِظامَ والصّوف حَذَر الموت، وأنشَدوا:

أتَوني بأنجاسٍ لهمْ ومنجّسٍ ... فقُلتُ لهمْ ما قَدّر اللهُ كائنُ

ومن مَذاهِبهم أنّ الرجل منهم كان إذا خَدِرت رِجلُه ذَكَر من يُحِبّ أو دَعاه فيذهب خَدَرُها.

ورُوِي أنّ عبد اللّه بن عمر خَدِرتْ رِجلُه، فقيل له: ادعُ أحَبَّ الناس إليك، فقال: يا رسول الله.

---

(١) الكَلَبُ: داء يعرض للإنسان، من عض الكَلْب الكَلِب، فيصيبه شبه الجنون، فلا يعض أحداً إلا كَلِب، ويعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً. اللسان، (مادة (كلب).

وقال الشاعر:

عـلـى أنّ رِجْـلـي لا يَـزَالُ امْـذِلالُـهـا مُقيماً بها حتّى أُجِيلَك في فِكْري

وقال كُثيّر:

إذا مَـذِلَـتْ رِجـلـي ذكـرتُـكِ أشـتَـفِـي بـدَعْـواكِ مـن مَـذْلٍ بـهـا فـيَـهـونُ

وقال جَميل:

وأنـتِ لـعَـيْـنـي قـرّةٌ حـيـنَ نـلـتـقـي وذكـرُكِ يَـشـفِـيـني إذا خـدِرَتْ رِجْلِي

وقالت امرأة:

إذا خَدِرَتْ رجلي دعوتُ ابنَ مصعَبٍ فـإنْ قـلـتُ عـبدَ الله أجلَـى فُـتورُها

وقال آخر:

صَـبٌّ مـحـبّ إذا مـا رِجْـلُـه خَـدِرَتْ نَـادى كُـبَـيْـشَـةَ حتّى يـذهـبَ الـخَـدَرُ

وقال المُؤمّل:

واللهِ مـا خَـدِرَتْ رِجـلـي ولا عَـثَـرتْ إلّا ذكـرْتُـكِ حـتّـى يَـذهَـبَ الـخَـدَرُ

وقال الوليد بن يزيد:

أثـيـبـي هـائـمـاً كـلِـفـاً مُـعَـنًّـى إذا خَـدِرَتْ لـه رِجـلٌ دعـاكِ

ونظير هذا الوَهم أنّ الرجل منهم كان إذا اختَلَجَتْ عينُه قال: أرَى مَن أُحِبّه، فإن كان غائباً توقّع قدومَه، وإن كان بعيداً توقع قُرْبه.

وقال بشر:

إذا اخـتـلـجـتْ عـيـني أقـولُ لـعـلّـهـا فـتـاةُ بـني عَـمْرو بـهـا الـعَـيـنُ تَـلـمَـعُ

وقال آخر:

إذا اخـتـلـجَـتْ عـيـنـي تـيـقّـنْـتُ أنّـني أراكِ وإن كـان الـمـزارُ بَـعِـيـدا

وقال آخر:

إذا اخـتـلـجَـتْ عـيـني أقـولُ لـعـلّـهـا لـرؤيـتـهـا تَـهـتـاجُ عَـيـني وتـطـرِفُ

وهذا الوَهْم باقٍ في الناس اليوم.

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا عَشِق ولم يَسْلُ وأفرَط عليه العِشق حَمَله رجلٌ على ظَهرِه كما يحمَل الصبيّ، وقام آخر فأحمَى حديدةً أو مِيلاً، وكوى به بين أليَتَيْه فيذهب عِشقُه فيما يزعمون.

وقال أعرابيّ:

كـويـتـمْ بـيـن رانـفـتـيّ جَـهْـلاً ... ونـارُ الـقَـلْـب يُـضـرِمُـهـا الـغَـرامُ

وقال آخر:

شـكـوتُ إلـى رفـيـقـيّ اشـتـيـاقِـي ... فـجـاءانِـي وقـد جَـمَـعـا دوَاءَ
وجـاءا بـالـطـبـيـب لـيَـكْـوِيَـانـي ... ولا أبـغـي - عَـدِمْـتُـهـمـا - اكـتـواءَ
ولـو أتـيـا بـسَـلْـمـى حـيـن جـاءا ... لـعـاضـانِـي مـن الـسَّـقـم الـشِّـفـاءَ

واستشهد الخالع على هذا المعنى بقول كثيِّر:

أغـاضـرَ لـو شَـهـدْتِ غـداةَ بِـنـتُـمْ ... حُـنُـوّ الـعـائـدَاتِ عـلـى وسـادِي
أوَيْـتِ لـعـاشـقٍ لـم تَـرحـمِـيـهِ ... بـواقِـدةٍ تـلـذَّع بـالـزّنـادِ

هذا البيت ليس بصريح في هذا الباب، ويحتَمل أن يكون مُرادُهُ فيه المعنى المشهور المطروقَ بين الشّعراء من ذِكر حرارة الوَجْد ولَذْعِه، وتشبيهِه بالنار، إلّا أنّه قد رَوَى في كتابه خبراً يؤكِّد المقصِد الّذي عزاه وادّعاه، وهو عن محمّد بن سليمانَ بن فُلَيح، عن أبيه، عن جدّه، قال: كنتُ عندَ عبدِ اللّه بن جعفر، فدخل عليه كُثيِّر وعليه أثر عِلّة، فقال عبدُ اللّه: ما هذا بك؟ قال: هذا ما فعلتْ بي أمُّ الحُوَيْرث، ثم كَشَف عن ثوبه وهو مَكويّ، وأنشد:

عـفـا الـلّـه عـن أمّ الـحُـويْـرِث ذَنـبـهَـا ... عـلام تُـعـنِّـيـنـي وتـكـمـي دَوائـيـا!
ولـو آذنـونـي قـبـل أن يـرقُـمـوا بـهـا ... لـقـلـت لـهـم: أمُّ الـحـويـرث دائـيَـا

ومِن أوهامهم وتخيُّلاتهم أنّهم كانوا يزعمون أن الرّجل إذا أحَبّ امرأةً وأحبّته فشقّ برْقُعَها، وشقّت رِداءه، صَلَح حبّهُما ودام، فإن لم يَفعَلا ذلك فسدَ حبُّهما، قال سُحيْمٌ عبدُ بني الحسْحاس:

وكـم قـد شـقـقْـنـا مـن رداءٍ مـحـبّـرٍ ... ومـن بُـرْقـعٍ عـن طَـفْـلـةٍ غـيـر عـابـسِ
إذ شُـقَّ بُـردٌ شُـقّ بـالـبـرد بُـرقـعٌ ... دَوَالـيـك حـتّـى كـلّـنـاَ غـيـر لابِـسِ
نـرومُ بـهـذا الـفِـعـل بُـقـيَـا عـلـى الـهـوى ... وَإلـف الـهـوى يـغـرِي بـهـذي الـوسـاوِس

وقال آخر:

شـقـقـت ردائـي يـومَ بُـرقـةِ عـالـجٍ ... وأمكنني مـن شَـقّ بـرقعك الـسّـحـقـا
فـمـا بـالُ هـذا الـوُدُّ يـفـسـدُ بـيـنـنـاَ ... ويمحَقُ حبلَ الوصلِ ما بينَنا مَحْقا!

ومِن مذاهبهم أنّهم كانوا يرَون أنّ أكل لحوم السّباع تزيد في الشجاعة والقوّة، وهذا مذهبٌ طبّيٌ، والأطبّاء يعتقدونه، قال بعضهم:

أبا المعارك لا تُتْعِب بأكلِك ما ... تظنّ أنك تُلفَى منه كرّارا
فلو أكلت سِباعَ الأرض قاطبةً ... ما كنتَ إلّا جبانَ القلب خوّارا

وقال بعضُ الأعراب - وأكَل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً - فعَدَا عليه نمِر فجَرَحه:

أكلتُ من الليث الهصور فؤادَهُ ... لأصبِح أجرَى منه قلباً وأقدَما
فأدرَك منّي ثأرَه بابن أختِه ... فيا لَك ثأراً ما أشدَّ وأعظَما!

وقال آخَرَ:

إذا لم يكن قلبُ الفتى غُذوةَ الوَغَى ... أصمّ فقلبُ الّليث ليس بنافِع
وما نَفْعُ قلبِ الليثِ في حَوْمَة الوَغَى ... إذا كان سيف المرءِ ليس بقاطِع!

ومن مَذاهبهم أنّ صاحب الفَرَس المَهْقوع إذا ركبَه فعَرِق تحته اغتلمتْ امرأتُه وطمحتْ إلى غيره، والهَقْعة: دائرة تكون بالفَرَس، وربّما كانت على الكَتِف في الأكثر، وهي مستقبَحةٌ عندَهم، قال بعضُهم لصاحبه:

إذا عَرِق المَهْقُوع بالمرءِ أنعظتْ ... حَليلتُه وازدادَ حَرُّ عجانِها

فأجابه صاحبُه:

قد يركب المهقوعَ من ليس مثله ... وقد يركب المهقوعَ زوج حَصَانِ

ومن مذاهبهم أنهم كانوا يُوقِدون النّار خَلْف المسافر الذي لا يحبّون رجوعَه، يقولون في دعائهم: أبعدَه الله وأسحقه، وأوقدَ ناراً أثرَه! قال بعضهم:

صحوتَ وَأوقدتَ للجهل نارًا ... ورَدَّ عليك الصّبَا ما استعارا

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقَدوا ناراً بينهم وبين المنزلِ الّذي يريدونه، ولم يُوقدوها بينهم وبين المنزل الّذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع إليه.

ومن مذاهبهم المشهورة تعليقُ كَعْب الأرْنَب، قال ابنُ الأعرابيّ: قلتُ لزيد بن كَثْوَة: أتقولون: إنّ من عُلّق عليه كعبُ أرنبٍ لم تقربه جِنّان الدار، ولا عُمّار الحَيّ؟ قال: إي والله، ولا شَيْطان الحَماطة ولا جار العُشَيرة، ولا غُول القَفْر. وقال امرؤُ القَيْس:

أيا هندُ لا تَنكِحي بُوهةً ... عليه عقيقتُه أحسَبَا

مرسّعةٌ بين أذباقه ... به عَسَمٌ يبتغي أرنَبا
ليَجعَل في رِجلِه كَعْبَها ... حِذارَ المَنِيّة أن يعطَبا

والخَماطة: شجرة، والعُشَيرة: تصغير العَشَرة، وهي شجرة أيضاً.

وقال أبو محلِّم: كانت العرب تعلِّق على الصّبيّ سِنَّ ثعلب وسِنَّ هِرّة خوفاً من الخَطْفة والنّظرة، ويقولون: إنّ جنّيّةً أرادتْ صبيَّ قوم فلم تَقدِر عليه، فلامَها قومُها من الجِنّ في ذلك، فقالت تَعتذِر إليهم:

كانَ عليه نُفَرَهْ ... ثعالبٌ وهِرَرَهْ
والحَيْض حيضُ السَّمُرهْ

والسَّمُرة شيء يسيل من السَّمُر كدم الغزال، وكانت العربُ إذا وَلدت المرأةُ أخذوا من دَمِ السَّمُر - وهو صَمْغُه الذي يسيل منه - ينقّطونه بين عَيْنَي النُّفَساء، وخطُّوا على وجه الصبيّ خطًّا، ويسمَّى هذا الصمغ السائل من السَّمُر الدُّوْدَم، ويقال بالذال المعجَمَة أيضاً، وتسمَّى هذه الأشياءُ الّتي تُعلَّق على الصّبي: النّفرات.

قال عبد الرحمن بنُ أخي الأصمعيّ: إنّ بعض العَرَب قال لأبي: إذا وُلِد لك وَلَد فنفِّر عنه، فقال له أبي: وما التنفير؟ قال: غَرِّب اسمَه، فوُلِد له ولدٌ فسمّاه قُنفُذاً، وكَناه أبا العدّاء، قال: وأنشد أبي:

كالخَمْر مَزْجُ دَوائها مِنها بِها ... تَشفي الصُّداعَ وتُبرِئ المَنجُودَا

قال: يريد أنّ القُنفُذ من مَراكِب الجِنّ، فداوى منهم ولده بمَراكبهم.

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا ركب مَفازةً وخاف على نفسِه من طَوارِق اللّيل عَمَد إلى وادي شجر فأناخَ راحلتَه في قرارته، وعَقَلها وخطّ عليها خَطًّا ثم قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي، وربما قال: بعظيم هذا الوادي، وعن هذا قال الله سبحانه في القرآن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1].

واستعاذ رجل منهم ومعه ولدٌ فأكَلَه الأسد، فقال:

قد استعذْنا بعظيمِ الوادِي ... من شرِّ ما فيه من الأعادِي
فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عادِ

وقال آخَر:

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

أعـوذُ مـن شَـرّ الـبـلاد الـبِـيـدِ ... بـسَـيّـدٍ مـعـظَّـمٍ مَـجـيـدِ
أصـبـحَ يـأوِي بـلِـوَى زَرُدِ ... ذِي عِـزّة وكـاهِـلٍ شَـديـد

وقال آخر:

يـا جـنّ أجـراع الـلّـوى مـن عـالـجِ ... عـاذ بِـكُـمْ سـارِي الـظّـلام الـدالـجِ
لا تُـرهِـقـوه بـغَـوِيٌّ هـائـجِ

وقال آخر:

قـد بـتّ ضـيـفـاً لـعـظـيـم الـوادي ... الـمـانـعِـي مِـنْ سَـطْـوة الأعـادي
راحِـلَـتـي فـي جـارِه وزَادِي

وقال آخر:

هَيَا صاحبَ الشَّجْراء هل أنتَ مانعي ... فـإنّـيَ ضَـيْـفٌ نـازلٌ بـفِـنـائـكـا
وإنّـك لـلـجِـنّـان فـي الأرضِ سَـيّـدٌ ... ومِثلُك آوَى في الظّلام الصّعالِكا

ومن مذاهبهم أنّ المسافر إذا خرج من بلده إلى آخَرَ فلا ينبغي له أن يَلتفِت، فإنه إذا التفت عاد، فلذلك لا يلتفت إلّا العاشق الّذي يُريدُ العَوْد، قال بعضهم:

دَعِ الـتـلـفّـت يـا مَـسْـعـودُ وارمِ بـهـا ... وجـهَ الـهَـواجِـر تـأمَـنْ رَجـعـةَ الـبـلَـدِ

وقال آخر، أنشدَه الخالع:

عِـيـلَ صـبـرِي بـالـثَّـعـلَـبـيّـة لـمّـا ... طـال لـيـلِـي ومَـلّـنـي قُـرَنـائـي
كـلّـمـا سـارَت الـمَـطـايَـا بـنـا مِـيـ ... ـلاً تـنـفّـسْـتُ والـتـفـتُّ وَرائـي

هذان البيتان ذكَرهما الخالعُ في هذا الباب، وعندي أنه لا دَلالة فيهما على ما أراد، لأن التلفّت في أشعارهم كثير، ومُرادُهم به الإبانةُ والإعرابُ عن كثرة الشّوق، والتأسّف على المفارقة، وكون الراحل عن المنزل حيث لم يُمكِنْه المُقام فيه بجُثمانه يُتبِعه بَصرَه، ويتزوّد من رؤيته، كقول الرضيّ رحمه الله:

ولـقـد مـررتُ عـلـى طُـلـولـهـمُ ... ورُسُـومـهـمْ بِـيَـدِ الـبِـلَـى نَـهْـبُ
فـوقـفـتُ حـتّـى ضَـجّ مـن لَـغَـبٍ ... نِـضْـوِي ولَـجّ بـعَـذْلـيَ الـرّكْـبُ
وتـلـفّـتـتْ عـيـنـي فـمـذ خَـفِـيـتْ ... عـنّـي الـطُّـلـول تـلـفّـتَ الـقَـلْـبُ

وليس يُقصَد بالتلفّت هاهنا التفاؤل بالرّجوع إليها، لأن رسُومَها قد صارت نَهْباً لِيَد البلى، فأيّ فائدةٍ في الرّجوع إليها! وإنما يريد ما قدّمنا ذكره من الحَنين والتذكّر لِما مضى من أيّامه فيها، وكذلك قول الأوّل:

تلفّتُ نحو الحَيّ حتّى وجدْتُني ... وَجِعتُ من الإصْغاء لِيتاً وأخدَعا

ومِثل ذلك كثير، وقال بعضُهم في المذهَب الأوّل:

تلفّتُّ أرجو رجعةً بعد نِيّةٍ ... فكان الْتفاتِي زائداً في بَلائيا

أأرجو رُجوعاً بعد ما حال بينَنا ... وبينكم حَزْن الفَلا والفَيافِيا!

وقال آخر، وقد طلّق امرأته فتلفّتتْ إليه:

تَلفَّتُ تَرْجو رجعةً بعد فُرقةٍ ... وهيهات ممّا تَرتجي أمُّ مازِنِ!

ألم تعلمي أني جموح عنانه ... إذا كان من أهواه غير ملاين

ومن مذاهبهم، إذا بُثِرتْ شَفَة الصبيّ حمل مُنخُلاً على رأسه، ونادى بين بيوت الحيّ: الحلا الحَلا، الطّعام الطعام، فتلقي له النساءُ كِسَرَ الخبز وأقطاعَ التمر واللّحم في المُنخُل، ثمّ يلقى ذلك للكلاب فتأكُله فيبرأ من المرض، فإن أكلَ صبيّ من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمرةً أو لقمةً أو لحمةً أصبح وقد بثرتْ شفتُه. وأنشِد لامرأة:

ألا حَلا في شفَةٍ مشقوقَهْ ... فقد قَضى مُنخُلُنا حُقوقَهْ

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا طَرِفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المَطروف سبع مرّات، يقول في الأولى: بإحدى جاءت من المدينة، وفي الثانية: باثنتين جاءتا من المدينة، وفي الثالثة بثلاثٍ جئن من المدينة، إلى أن يقول في السابعة: بسبعٍ جئن من المدينة، فتَبرأ عينُ المطروف.

وفيهم من يقول: بإحدى من سَبْع جئن من المدينة، باثنتين من سبعٍ، إلى أن يقول بسَبْع من سَبْعٍ.

ومن مذاهبهم أنّ المرأة منهم كان إذا عَسر عليها خاطبُ النّكاح نشرَتْ جانباً من شَعْرها، وكحلتْ إحدى عينيْها مخالفةً للشّعر المنشور، وحَجَلتْ على إحدى رِجْليها ويكون ذلك لَيْلاً، وتقول: يا لكاح، أبغي النّكاح، قَبْل الصباح، فيَسهل أمرُها وتتزوّج عن قُرْب، قال رجل لصديقه وقد رأى امرأةً تَفعلُ ذلك:

أما تَرَى أمّك تبغي بَعْلا ... قد نشَرتْ من شَعرها الأقَلّا

ولم تُوَفّ مقلتَيْها كُحْلا ... ترفَع رِجْلاً وتَحُطّ رِجْلا

هـذا وقـد شـابَ بَـنُـوهـا أضـلا   وأصـبَـحَ الأصـغَـرُ مـنـهـمْ كَـهْـلا
خـذ الـقَـطـيـع ثـمّ سِـمْـهـا الـذُّلّا   ضَـرْبـاً بـه تَـتْـرك هـذا الـفِـعْـلا

وقال آخر:

قـد كَـحلـتْ عـيـنـاً وأغـفَـتْ عَـيْـنَـا   وحَـجَّـلـتْ ونَـشـرتْ قُـرَيْـنـا
تَـظُـنُّ زَيْـنـاً مـا تـراه شَـيْـنَـا

وقال آخر:

تَـصـنَّـعِـي مـا شـئـت أنْ تـصـنَّـعـي   وكَـحِّـلـي عـيـنَـيْـك أو لا فَـدَعِـي
ثم احجِلي في البيت أو في المجمعِ   مـا لَـكِ فـي بَـعْـل أرَى مِـن مَـطـمَـعِ

ومن مذاهبهم كانوا إذا رَحَل الضيف أو غيره عنهم وأحَبّوا ألّا يعود كَسروا شيئاً من الأواني وراءَه، وهذا مما تَعمَله الناسُ اليوم أيضاً، قال بعضهم:

كـسـرْنـا الـقِـدْر بـعـد أبـي سـواحٍ   فـعـادَ وقِـدْرُنـا ذهـبـتْ ضَـيـاعَـا

وقال آخر:

ولا نَـكـسِـر الكِـيزانَ في إثر ضَـيفنـا   ولـكـنـنـا نـقـفـيـه زاداً لـيَـرْجِـعـا

وقال آخر:

أمـا والـلّـه إنّ بَـنِـي نُـفَـيـلٍ   لَـحـلّالـون بـالـشَّـرَف الـيَـفَـاعِ
أنـاسٌ لـيـس تَـكْـسِـر خـلـفَ ضَـيْـفٍ   أوانـيَـهـم ولا شـعـب الـقِـصـاعِ

ومن مذاهبم قولهم: إنّ من ولد في القَمْراء تقلّصت غُرْلته، فكان كالمَخْتون. ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواصّ القمر، كما أنّ من خواصّه إيلاءَ الكَتّان، وإنتان اللّحم، وقد رُوِي عن أميرِ المؤمنين عليه السلام: إذا رأيتَ الغلام طويل الغُرْلة فاقْرِبْ به من السُّؤدد، وإذا رأيته قصير الغُرْلة كأنما خَتَنه القمر فأبعِدْ به.

وقال امرؤُ القيس لقَيْصر، وقد دخل معه الحمّام فرآه أقْلَف:

إنّـي حـلـفـتُ يـمـيـنـاً غـيـر كـاذبـةٍ   لأنـت أغْـلـفُ إلّا مـا جَـنَـى الـقَـمَـرُ

ومن مذاهبهم التّشاؤم بالعُطاس، قال امرؤ القيس:

وقـد أغـتَـدِي قـبل الـعُـطاسِ بـهـيـكَـلِ

وقال آخر:

وخَـرْقٍ إذا وجّـهـت فـيــه لـغَـزْوةٍ مضيت ولم يَحبسْك عنه العَواطِسُ

ومن مذاهبهم قولهم في الدعاء: لا عشتَ إلّا عيش القرادا يضربونه مثلاً في الشدّة والصبر على المَشقّة، ويزعمون أنّ القراد يعيش ببَطْنه عاماً ويظهره عاماً، ويقولون: إنه يُترَك في طينةٍ ويُرمى بها الحائط فيبقى سنةً على بَطْنه، وسنةً على ظهره ولا يموت، قال بعضهم:

فـلا عـشـتَ إلا كـعَـيْـش الـقُـرا د عـامـاً بـبَـطْـنٍ وعـامـاً بـظَـهْـرِ

ومن مذاهبهم كانت النساء إذا غاب عنهنّ من يُحبِبْنه أخذن تُراباً من موضع رجله كانت العربُ تزعمُ أنّ ذلك أسرَع لرجوعه.

وقالت امرأةٌ من العرب - واقتبضتُ من أثَره -:

يـا ربِّ أنـت جـارُه فـي سَـفَـرِهْ وجـار خُـضـيْـيْـه وجـارُ ذَكَـرِهْ

وقالت امرأةٌ:

أخـذتُ تُـرابـاً مـن مـواطـئ رجـلـه غـداةَ غَـدا كـيـمـا يـؤوبَ مُـسـلَّـمَـا

ومن مذاهبهم، أنّهم كانوا يسمّون العَشا في العين الهُدَبد، وأصلُ الهدَبد، اللّبن الخاثر، فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سَنام فقَطَع منه قطعةً ومن الكبِد قطعة، وقلاهما، وقال عند كلّ لقمة يأكلها بعد أن يمسَح جفنَه الأعلى بسَبّابَتِه:

فـيـا سـنـامـاً وَكـبِـدْ ألا أذهَـبـا بـالـهُـدَبِـدْ
لـيـس شـفـاء الـهُـدَبِـدْ إلا الـسّـنـام والـكَـبِـدْ

قال: فيذهَب العَشا بذلك.

ومن مذاهبهم اعتقادُهم أنّ الوَرَل[1] والقُنفذ والأرنب والظّبيَ واليَرْبوع والنّعام مراكبُ الجنّ يمتطونها، ولهم في ذلك أشعارٌ مشهورة، ويزعمون أنّهم يَرَوْن الجنّ ويظاهرونهم ويخاطبونهم، ويشاهدون الغُول، وربما جامَعوها وتزوّجوها، وقالوا: إن عمرو بن يَرْبوع تزوج الغولَ وأولدها بنين، ومكثَتْ عنده دهراً، فكانت تقول له: إذا لاح البَرْق من جهة بلادي - وهي جهة كذا - فاستُرْه عني، فإني إنْ لم تَستُره عني تركتُ ولدَك عليك، وطِرْتُ إلى بلاد قومي، فكان عمرو بن يَرْبوع كلّما برق البرقُ غَطّى وجهها بردائه فلا تُبصِره، وإلى هذا المعنى أشار أبو العَلاء المَعَرّي في قوله يَذْكر الإبل وحنينها إلى البرْق:

طَـرِبْـنَ لـضَـوْء الـبـارِق الـمُـتـعـالـي بـبـغـدادَ وَهْـنـاً مـا لـهـنّ ومَـا لِـي

(١) الورل: دابة على خِلقة الضب إلا أنه أعظم منه يكون في الرمال والصحاري. اللسان مادة (ورل).

سَمَتْ نَحوه الأبصارُ حتى كأنها ... بنارَيْهِ من هنّا وثَمّ صَوالِي
إذا طال عنها سَرّها لَوْ رؤوسها ... تمدُّ إليه في صُدورٍ عَوالِي
تمنّت قويقاً والصَّراة أمامَها ... ترابٌ لها من أينُق وجمالِ
إذا لاحَ إيماضٌ سترتُ وجوهها ... كأنّيَ عمرو والمطيّ سَعالِي
وكم هَمّ نِضْوٌ أن يَطيرَ مع الصَّبا ... إلى الشام لولا حَبْسُه بعِقالِي

قالوا: فغَفَل عمرو بن يَرْبوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يَستُر وجهها، فطارت وقالت له وهي تطير:

امسِكْ بنيك عَمْرُو إنّي آبِقُ ... بَرْقٌ على أرض السَّعالى آلِقُ

ومنهم من يقولَ: ركبتْ بعيراً وطارت عليه - أي أسرَعَتْ - فلم يُدْرِكْها. وعن هذا قال الشاعر:

رأى برقاً فأوضَعَ فوقَ بَكْرٍ ... فلا بِكَ ما أسالَ ولا أغامَا

قال: فبنو عمرو بن يَرْبوع إلى اليوم يُدْعَوْن بني السّعْلاة، ولذلك قال الشاعر يهجُوهم:

يا قَبّح اللهُ بني السّعلاةِ ... عمرو بن يربوع شِرّار النّاتِ
ليسوا بأبطالٍ ولا أكْياتِ

فأبدلَ السِّين تَاء، وهي لغةُ قوم من العرب.

ومن مذاهبهم في الغول قولهم: إنها إذا ضُربتْ ضربةً واحدةً بالسَّيف هلكتْ، فإن ضُربَت ثانيةً عاشت، وإلى هذا المعنى أشارَ الشاعرُ بقوله:

فقالت: ثَنِّ، قلتُ لها: رُوَيْداً ... مكانَكِ، إنني ثَبْتُ الجِنانِ

وكانت العَرَب تسمّي أصواتَ الجِنّ العَزيف وتقول: إن الرجل إذا قَتَل قُنفُذاً أو وَرَلاً لم يأمَن الجنّ على فَحْل إبله، وإذا أصاب إبلَه خَطْب أو بلاءٌ حَمَله على ذلك، ويزعمون أنهم يَسمَعون الهاتفَ بذلك، ويقولون مثله في الجانّ من الحيّات، وقتله عندَهم عظيم.

ورأى رجلٌ منهم جاناً في قعر بئرٍ لا يستطيع الخروجَ منها، فنزل وأخرَجه منها على خَطَر عظيم، وغمّض عينيْه لئلّا يرى أين يدخل، كأنه يريد بذلك التقرّب إلى الجنّ.

وقال أبو عثمان الجاحظ: وكانوا يُسمُّون من يُجاوِر منهم الناس عامراً، والجمع عُمّار، فإن تعرّض للصبيان فهو رُوح، فإن خَبُث وتعرّم فهو شيطان، فإن زاد على ذلك فهو مارِد، فإن زاد على ذلك في القوّة فهو عِفْريت، فإن طَهُر ولطف وصار خيراً كلّه فهو مَلَك، ويفاضِلون بينهم، ويعتقدون مع كلّ شاعر شَيْطاناً، ويسمونهم بأسماء مختلفة. قال أبو عثمان: وفي النّهار

ساعاتٌ يُرى فيها الصغيرُ كبيراً ويُوجد لأوساط الفَيافِي والرِّمالِ والحِرار مِثل الدَّويّ، وهو طبع ذلك الوقت، قال ذو الرمّة:

إذا قال حادِينا لِتَرْنيم نَبْأةٍ ... صَهٍ لم يكنْ إلا دَويّ المَسامِعِ

وقال أبو عثمان أيضاً في الّذين يذكرون عزيفَ الجنّ وتَغوّل الغِيلان: إنّ أثر هذا الأمر وابتداء هذا الخيَال أنّ القوم لما نزلوا بلاد الوَحْش عملتْ فيهم الوَحْشة، ومن انفرد وطال مقامُه في البلاد الخلاء استوحَشَ، ولا سيما مع قلّة الأشغال وفَقْد المُذاكرين، والوَحْدة لا تقطع أيّامها إلا بالتمني والأفكار، وذلك أحد أسباب الوَسْواس.

ومن عجائب اعتقادات العرب ومذاهبها اعتقادُهم في الدِّيك والغُراب والحَمامة وساقِ حُرّ - وهو الهدِيل - والحية، فمنهم من يَعتقِد أن للجنّ بهذه الحيوانات تعلُّقات، ومنهم من يَزعم أنها نوعٌ من الجنّ، ويعتقدون أنّ سُهَيلاً والزُّهَرة الضَّبّ والذئب والضبع مُسُوخ، ومن أشعارهم في مَراكِب الجنّ قولُ بعضهم في قُنفُذٍ رآهُ ليْلاً:

فما يُعجِب الجِنّان منك عَدِمْتَهمْ ... وفي الأسْد أفراسٌ لهمْ ونجائبُ

أيُسرَجُ يَرْبوعٌ ويُلجَم قنفذٌ ... لقد أعوزَتْكم ما علمت النجائبُ!

فإن كانت الجِنّان جُنّتْ فبالحرَى ... ولا ذَنْبَ للأقوامِ واللهُ غالبُ

ومن الشعر المنسوب إلى الجنّ:

وكل المطايا قد ركبْنا فلم نَجِد ... ألذّ وأشهى من رُكوب الأرانِب

ومن عَضْرَ فُوطٍ عنّ لي فركِبْتُه ... أبادِرُ سِرْباً من عَظاءٍ قَوارِبِ

وقال أعرابيّ يكذّب بذلك:

أيستمِع الأسرارَ رَاكبُ قُنفُذٍ ... لقد ضاع سِرُّ اللّه يا أمّ مَعبَدِا!

ومن أشعارهم وأحاديثهم في رواية الجنّ وخِطابهم وهتافِهم ما رواه أبو عثمانَ الجاحظ لسمير بن الحارث الضّبي:

ونارٍ قد حَضأْتُ بُعَيْدَ وَهْنٍ ... بدار لا أُريدُ بها مُقامَا

سِوَى تحليل راحلةٍ وعَيْن ... أكالئها مخافةَ أن تَنامَا

أتَوْا نارِي فقلتُ: مَنُونَ أنتم؟ ... فقالوا: الجنّ قلتُ: عِمُوا ظَلامَا

ويزعمون أنّ عُمَير بنَ ضبيعة رأى غلماناً ثلاثةً يلعبون نهاراً، فوَثَب غلامٌ منهم فقام على

عاتِقَيْ صاحِبه، ووَثب الآخَر، فقام على عاتقَيْ الأعلى منهما، فلمّا رآهم كذلك حَمَل عليهم فصَدَمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يَضحَكون، فقال عمير بن ضُبَيعة: فما مررتُ يومئذٍ بشَجَرة إلّا وسَمِعتُ من تحتها ضَحِكاً، فلمّا رجع إلى منزله مَرِض أربعَة أشهر.

وحكى الأصمعيّ عن بعضهم أنّه خرج هو وصاحبٌ له يسيران، فإذا غلامٌ على الطريق، فقالا له: مَنْ أنتَ؟ قال: أنا مسكين قد قُطِع بي فقال أحدهما لصاحبه: أرْدِفْه خَلْفَك، فأرْدَفَه، فالتفتَ الآخَر إليه فرأى فمَه يتأجّج ناراً، فشدّ عليه بالسّيف فذهبت النارُ فرَجع عنه، ثمّ التفت فرأى فَمه يتأجّج ناراً فشدّ عليه فذهَبت النار، ففَعَل ذلك مراراً، فقال ذلك الغلام: قاتَلكما الله! ما أجْلَدَكما! والله ما فعلتُها بآدميّ إلا وانخَلَع فؤادُه، ثم غابَ عنهما فلم يَعلَما خبرَه.

وقال أبو البلاد الطُّهَوِيّ - ويُروَى لتأبّط شرًّا -:

لَهَان عَلَى جُهَينَةَ ما أُلاقِي ... مِن الرّوْعات يومَ رَحَا بِطانِ
لقيتُ الغولَ تَسري في ظَلامٍ ... بسَهْبٍ كالعَباءة صَحْصَحانِ
فقلتُ لها: كلانا نِقْضُ أرضٍ ... أخو سَفَر فخلِّي لي مكاني
فشدّتْ شَدَّةً نحوي فأهوَى ... لَهَا كفي بمَصقولٍ يَمانِي
فقالتْ: زِدْ فقلتُ: رُوَيْدَ إنّي ... على أمثالها ثَبْت الجَنانِ

والذين يَرْوُون هذا الشّعر لتأبّط شرًّا يروُون أوّله:

ألا مَن مُبلِغٌ فَتَياتِ جَهْم ... بما لاقيتُ عندَ رَحَا بِطانِ
بأنّي قد لقيتُ الغُولَ تلوِي ... بمَرْتٍ كالصحيفة صحصحان[1]
فصدّت فانتحَيْتُ لها بعَضْبٍ ... حُسام غير مؤتشِب يمانِي
فقدّ سَراتَها والبرْكَ منها ... فخرّت لليَدَيْن وللجِرانِ
فقالتْ: ثنِّ قلت لها: رُوَيْداً ... مكانَك إنني ثَبْتُ الجَنَانِ
ولم أنفكّ مضطجِعاً لدَيْها ... لأنْظُرَ مصبِحاً ماذا دَهاني
إذا عَيْنان في رأسٍ دَقيق ... كَرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقا مخدَج ولسان كَلْبٍ ... وثوب من عَباء أو شِنانِ

وقال البَهْرانيّ:

وتزوّجتُ في الشّبيبة غُولاً ... بغَزَالٍ وصَدْقَتي زِقّ خَمر

وقال الجاحظ: أصدَقَها الخمر لطيب رِيحها، والغَزال لأنّه من مَراكِب الجنّ.

---

(١) المَرْت: الأرض لا يجف ثرها، ولا ينبت مرعاها. القاموس، مادة (مرت). والصحصحان: ما استوى من الأرض. القاموس، مادة (صحح).

وقال أبو عبيد بن أيوب العَنْبريّ أحد لصوص العرب:

تقول - وقد ألْمَمْتُ بالإنس لَمَّةً ... مخضّبةُ الأطراف خُرس الخلاخِلِ
أهذا خَدِينُ الغُولِ والذئب والّذي ... يَهيمُ بربّات الحجال الهَراكِلِ[1]!
رأتْ خَلَق الدّرسَيْنِ أسوَدَ شاحِباً ... من القَوم بَسّاماً كريمَ الشمائِل
تَعوّدَ من آبائه فتكاتِهم ... وإطعامَهم في كلّ غَبراءَ شامِلِ
إذا صاد صَيْداً لَفَّهُ بضرامِه ... وَشيكاً ولم يَنظُر لغَلْي المرَاجلِ
ونهساً كنَهْس الصَّقْر ثُمّ مِراسه ... بكَفَّيه رأس الشّيخة المتمائِلِ

ومن هذه الأبيات:

إذا ما أرادَ اللّهُ ذُلَّ قبيلةٍ ... رَماها بتَشْتيتِ الهوى وَالتَّخاذُلِ
وأوّل عَجْز القوم عمّا يَنُوبُهمْ ... تَقاعُدُهم عنه وطولُ التَّواكُلِ
وأوّل لُؤم القوم لُؤمُ الحَلائِل ... وأوّل خُبْث الماء خُبْثُ ترابه

وهذا الشّعر من جيّد شِعْر العرب، وإنّما كان غَرَضُنا منه مُتعلّقاً بأوّله، وذكرنا سائره لما فيه من الأدب.

وقال عُبَيد بن أيّوبَ أيضاً في المعنى الّذي نحن بصدده:

وصار خليل الغُولِ بَعد عَداوَةٍ ... صَفيًّا وربّته القِفارُ البَسابسُ

وقال أيضاً:

فللهِ دَرُّ الغُولِ أيّ رَفيقةٍ ... لصاحب قَفْر في المَهامِهِ يذْعَرُ
ارنّت بلَحْن بعد لَحْن وأوْقدَتْ ... حوَاليّ نِيراناً تَلوح وتَزْهرُ

وقال أيضاً:

وغُولا قَفْرةٍ: ذَكَرٌ وأنثى ... كأنّ عليهما قِطَعَ البِجادِ[2]

وقال أيضاً:

فقد لاقت الغِزلانُ منّي بَلِيّةً ... وقد لاقت الغِيلانُ مني الدّواهيا

وقال البَهْرانيّ في قتل الغُول:

ضُربتْ ضربةً فصارتْ هَباءً ... في مَحاقِ القَمْراء آخرَ شهرِ

وقال أيضاً، يزعم أنه لما ثنى عليها الضّرب عاشَتْ:

---

(١) الهراكل: لهركولة من النساء، العظيمة الوركين. اللسان، مادة (هركل).
(٢) البجاد: كساء مخطط من أكسية العرب. اللسان، مادة (بجد).

فثنّيت والمقدارُ يحرُس أهلَه ... فلَيْتَ يَميني يومَ ذلك شلّتِ!

وقال تأبّط شرًّا يَصِف الغُولَ ويذكُر أنّه رَاوَدَها عن نفسها فامتنعتْ عليه فقتَلها:

فأصبحتُ والغولُ لي جارةٌ ... فيا جارةً أنتِ ما أغْوَلا
وطالبْتُها بُضعَها فالتوَتْ ... فكان من الرأيِ أن تقتُلا
فجلّلتُها مُرهَفاً صارِماً ... أبَان المَرافِق والمِفْصَلا
فطارَ بقِحْفِ ابنة الجنّ ذا ... شقاشقَ قد أخلَقَ المحملا
فمن يكُ يَسأل عن جارَتي ... فإنّ لها باللّوى منزِلا
عَظاءةُ أرضٍ لها حُلّتا ... ن مِن وَرَق الطّلح لم تُغزَلا
وكنتُ إذا ما هَممتُ اعتزَمْتُ ... وأحْرى إذا قلتُ أن أفعَلا

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا إذا طالت عِلّة الواحد منهم وظنّوا أنّ به مَسّاً من الجنّ، لأنّه قَتَل حيّةً أو يَرْبوعاً أو قُنفذاً، عَمِلوا جِمالاً من طين، وجَعَلوا عليها جُوالق، وملؤوها حِنطةً وشَعِيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجِمال في باب جُحْر إلى جهة المَغرب وقْت غروب الشمس، وباتوا ليلَتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجِمال الطّين، فإنْ رأوا أنّها بحالها قالوا: لم تقبل الدّيَة، فزادوا فيها، وإن رأوْها قد تساقطتْ وتَبدّد ما عليها من المِيرة قالوا: قد قُبِلت الدّيَة، واستَدلّوا على شِفاء المَريض وضربوا بالدُّفّ، قال بعضُهم:

قالوا وقد طالَ عَنائِي والسَّقَمْ ... احمِل إلى الجنّ جِمالاتٍ وضمّ
فقد فعلتُ والسَّقامُ لم يرِمْ ... فبالّذي يَملِك بُرئي أعتَصِمْ

وقال آخر:

فيا ليت أنّ الجنّ جازُوا جِمالتي ... وزُحزِح عنّي ما عَنانِي من السَّقَمْ
ويا ليتهم قالوا انْطِنا كلّ ما حَوَتْ ... يمينُك في حَرْبٍ عماسٍ وفي سَلَم
أعلِّل قلبي بالّذي يَزْعُمونه ... فيا ليتَني عُوفيتُ في ذلك الزّعَمْ

وقال آخر:

أرَى أنّ جِنّانَ النُّوَيرة أصبَحوا ... وهمْ بين غَضبانٍ عليّ وآسِفِ
حملتُ ولم أقبَلْ إليهم حمالةً ... تسكّنُ عن قلبٍ من السُّقم تالِفِ
ولو أنصَفُوا لم يَطلُبوا غيرَ حَقّهِمْ ... ومن ليَ من أمثالهمْ بالتّناصُفِ!
تغطّوْا بثَوْب الأرض عنّي ولو بَدَوا ... لأصبحتُ منهمْ آمِناً غيرَ خائِف

وكانوا إذا غُمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يَعرِفوا له خبراً جاؤوا إلى بئرٍ عاديّة أو حفرٍ قديم ونادَوا فيه: يا فلان، أو يا أبا فلانٍ، ثلاثَ مرّات، ويَزْعمون أنّه إن كان ميّتاً لم يَسمَعوا صَوْتاً، وإن كان حيًّا سَمِعوا صَوْتاً ربّما توهّموه وَهْماً، أو سَمِعوه من الصَّدى، فبَنَوا عليه عقيدَتَهم، قال بعضُهم:

دعوتُ أبا المِغْوارِ في الجَفْر دَعْوةً ... فما آضَ صَوْتي بالّذي كنتُ داعيًا

أظنّ أبا المِغوارِ في قَعْرِ مُظلمٍ ... تجرّ عليه الذّارياتُ السّوافِيَا

وقال:

وكم ناديتُه واللّيل ساجٍ ... بِعادِيِّ البِثارِ فما أجَابَا

وقال آخر:

غابَ فلَمْ أرجُ له إيابَا ... والجَفْر لا يرجِع لي جَوابَا

وما قراتُ مُذْ نَأى كتابَا ... حتّى مَتَى أستنشِدُ الرُّكابا

عنه وكلٌّ يَمنَع الخِطابَا

وقال آخر:

ألم تَعلمِي أنّي دعوتُ مُجاشِعاً ... من الجَفْر والظّلماءُ بادٍ كُسورُهَا

فجاوَبَني حتّى ظننتُ بأنّه ... سيَطْلع من جَوْفاء صعبٍ حُدُورُها

لقد سكنتْ نفسِي وأيقنتُ أنّه ... سيُقدِم والدّنيا عجابٌ أمُورُها

وقال آخر:

دعوناهُ مِنْ عادِيّةٍ نَضْبَ ماؤُها ... وهَدَّم جالَيْها اختلافُ عُصورِ

فرَدّ جواباً ما شككتُ بأنّه ... قريب إلينا بالإياب يصيرُ

أقوى في البيت الثاني، وسَكّن «نضَب» ضرورةً كما قال:

لو عُصْرَ منه البَانُ والمِسْك انعَصَرْ

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا في الحرب ربّما أخرجوا النّساء فيَبُلْن بين الصّفّين، يَرَوْن أنّ ذلك يُطفئ نارَ الحرب ويقودُهم إلى السِّلم.

قال بعضهم:

لقونا بأبوالِ النّساءِ جَهالةً ... ونحن نُلاقِيهم بِبيضٍ قَواضِبِ

وقال آخر:

بالَتْ نساءُ بني خُراشَةَ خِيفةً ... مِنّا وأدبَرَت الرجالُ شِلالا

وقال آخر:

بالتْ نساؤُهُمْ والبيضُ قد أخذتْ ... منهمْ مآخِذَ يُستشفَى بها الكَلِبُ

وهذان البيتان يُمكِن أن يراد بهما أنّ النساء يَبُلن خيفةً وذُعْراً، لا على المعنى الّذي نحن في ذكره، فإذَنْ لا يكون فيهما دَلالة على المراد.

وقال الآخر:

هيهات ردّ الخيل بالأبوالِ إذا غَدَتْ في صُوَر السَّعالِي

وقال آخر:

جَعلوا السُّيوف المَشْرَفِيَّةَ منهُمُ بَوْل النساء وقَلَّ ذاك غَناءَ

فأما ذِكرهم عَزيف الجنّ في المفاوز والسّباسِب فكثير مشهور، كقول بعضهم:

وخَرْقٍ تحدّث غيطانه حديثَ العَذارى بأسْرارها

وقال آخر:

ودَوِّيّةٍ سَبْسَبٍ سَمْلَقٍ من البيد تَعزِف جِنّانُها

وقال الأعشى:

ويَهْمَاءَ تَعزِفُ جِنّاتها مناهلها آجِناتٌ سُدُمْ

وقال:

وَبلدةٍ مِثل ظَهر التُّرسِ مُوحِشةٍ للجنّ بالليل في حافاتها زَجَلُ

وقال آخر:

ببيْداء في أرجائِها الجنّ تعْزفُ

وقال الشرقيّ بن القطاميّ: كان رجل من كَلْب - يقال له عبيد بن الحُمَارِس - شجاعاً، وكان نازلاً بالسَّماوة أيّامَ الرّبيع، فلما حَسَر الرّبيع، وقلّ ماؤه، وأقْلعتْ أنواؤه، تحمّل إلى وادي تُبَل، فرأى رَوْضةً وغديراً، فقال: روضةٌ وغدير، وخطْبٌ يَسير، وأنا لما حَوَيْتُ مجير، فنزل هناك، وله امرأتان: اسمُ إحداهما الرّباب، والأخرى خَوْلة، فقالت له خَوْلة:

أرَى بلدةً قَفْراً قليلاً أنيسُها وإنا لنَخْشَى إن دَجا اللّيلُ أهْلَها

وقالت له الرّباب:

أرتْك بِرأيي فاستمِعْ عنك قَولها ولا تأمَنَنْ جنَّ العَزيفِ وجَهْلها

فقال مجيباً لهما:

ألستُ كميًّا في الحروب مُجَرّباً شُجاعاً إذا شبَّت له الحَرْب مِحْرَبا
سريعاً إلى الهيْجا إذا حَمَس الوَغَى فأقسم لا أغدو الغَدير منكِّبا

ثمّ صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمة - وهي الأنثى من القَنافذ - فرماها فأقعصَها ومعها ولدُها، فارتبطه، فلما كان الليل هتف به هاتفٌ من الجنّ:

يا بن الحُمارِس قد أسأتَ جوارَنا ... وركبت صاحبنا بأمرٍ مُفظِعِ
وعقرتَ لَقْحَته وقُدْت فَصيلَها ... قَوْداً عَنيفاً في المنيع الأرفعِ
ونزلتَ مَرْعَى شائناً وظَلَمْتَنَا ... والظلم فاعِلُه وخِيمُ المَرْتَعِ
فلنطرُقَنَّكَ بالّذي أوْلَيْتَنَا ... شرٌّ يَجيئُك ما لَه مِنْ مَدْفعِ

فأجابَه ابنُ الحُمارِس:

يا مدّعي ظُلمِي ولستُ بظالم ... اسْمَع لَدَيْك مَقالتي وتَسمَّعِ
إن كنتمُ جِنًّا ظلمتمْ قُنفُذاً ... عُقِرتْ فشرّ عَقيرةٍ في مَصرَعِ
لا تَطمَعوا فيما لديّ فما لَكُمْ ... فيما حويتُ وحُزْتُه من مَطمَعِ

فأجابَه الجِنيّ:

يا ضارِبَ اللّقْحة بالعَضْب الأفَلّْ ... قد جاءك الموتُ وأوْفاكَ الأجَلْ
وساقَك الحَيْن إلى جنّ تُبَلْ ... فاليومَ أقوَيْتَ وأعيتكَ الحِيَلْ

فأجابه ابن الحُمارِس:

يا صاحبَ اللّقْحة هل أنت بَجَلْ ... مستمِعٌ مِني فقد قلتَ الخَطَلْ
وكثرة المنْطِق في الحرْبِ فَشَلْ ... هيّجت قَمْقاماً من القوم بَطَلْ
ليثَ ليُوثٍ وإذا هَمَّ فَعَلْ ... لا يرهَبُ الجِنَّ ولا الإنس أجَلْ

من كان بالعقوة من جنّ تُبَلْ

قال: فسَمِعهما شيخٌ من الجِنّ، فقال: لا والله لا نرى قتل إنسانٍ مِثْل هذا ثابت القَلْب ماضِي العزيمة، فقام ذلك الشّيخ وحَمِد الله تعالى ثمّ أنشد:

يا بنَ الحُمارِس قد نَزلتَ بلادَنا ... فأصبتَ منها مشرَباً ومَنامَا
فبدأتَنا ظُلماً بعَقْر لقُوحنا ... وأسأتَ لمّا أن نطقتَ كلاما
فاعمَد لأمرِ الرُّشْدِ واجتَنِب الرَّدى ... إنا نَرَى لك حُرمة وذِماما
واغرمْ لِصاحبنا لقُوحاً متبعاً ... فلقد أصبْتَ بما فعلتَ أثَاما

فأجابه ابن الحمارس:

الله يَعلَم حيث يُرفَع عَرشُه ... أنّي لأكرهُ أن أصيبَ أثَاما
أمّا ادّعاؤك ما ادّعيتَ فإنّني ... جئتُ البِلادَ ولا أريدُ مقاما
فأسمتُ فيها ما لَنا ونزلتُها ... لأريحَ فيها ظَهرنا أيّاما

فليَغْدُ صاحبكمْ علينا نُعطِه ... ما قد سألت ولا نَراه غَراما

ثم غرم للجِنّ لقوحاً مُتْبَعاً للقُنْفذ ووَلَدها.

وهذه الحكاية وإن كانت كَذِباً إلّا أنها تتضمّن أدباً، وهي من طَرائف أحاديث العَرَب فذكَرْناها لأدبها وإمْتاعِها، ويقال: إنّ الشرقيّ بن القُطاميّ كان يَصنَع أشعاراً ويَنحَلها غيره.

فأما مَذهب العرب في أنّ لكلّ شاعر شيطاناً يلقِي إليه الشِّعْر فمذْهب مشهور، والشّعراء كافّةٌ عليه، قال بعضهم:

إنّي وإن كنتُ صغيرَ السّنِّ ... وكان في العين نبوٌّ عَنّي

فإنّ شيطانِي أميرُ الجِنّ ... يَذهَب بي في الشّعر كلَّ فَنّ

وقال حسّان بنُ ثابت:

إذا ما تَرَعْرع فينا الغُلام ... فما إنْ يقال له: مَنْ هُوَهْ؟

إذا لم يَسُدْ قبل شدّ الإزارِ ... فذلكَ فينا الّذي لا هُوَهْ

ولي صاحِبٌ من بَني الشَّيْصَبانِ ... فطوْراً أقولُ وطَوْراً هُوَهْ

وكانوا يزعمون أنّ اسمَ شيطان الأعشى مِسحَل، واسم شيطان المخبَّل عَمرو، وقال الأعشى:

دعوتُ خَليلي مِسحَلاً ودَعَوا له ... جهنّام جَذعاً للهجين المذمَّمِ

وقال آخر:

لقد كان جنيّ الفرزدق قُدوَةً ... وما كان فينا مِثل فَحل المخبَّل

ولا في القوافِي مِثل عَمرٍو وشَيْخِه ... ولا بعد عَمرٍو شاعرٌ مِثل مِسْحَلِ

وقال الفرَزدق يصفُ قصيدته:

كأنّها الذّهب العِقْيانُ حبَّرها ... لسانُ أشعَرِ خلقِ اللّه شَيطانَا

وقال أبو النَّجْم:

إني وكلّ شاعرٍ من البَشَرْ ... شيطانه أنثى وشيطانِي ذَكَرْ

وأنشد الخالعُ فيما نحن فيه لبعض الرُّجّاز:

إن الشياطين أتَوْني أربَعهْ ... في غَلَس الّليلِ وفيهمْ زَوْبَعَهْ

وهذا لا يدلّ على ما نحن بصدده من أمر الشعر وإلقائه إلى الإنسان، فلا وَجْه لإدخاله في هذا الموضع.

ومن مذاهبهم أنهم كانوا إذا قَتلوا الثُّعْبانَ خافوا من الجنّ أن يأخذوا بثأره، فيأخذون رَوْثةً ويفتّونها على رأسه، ويقولون: روْثة راثَ ثائرك.

وقال بعضهم:

طرحنا عليه الرَّوْثَ والزّجْرُ صادقٌ ... فراثَ علينا ثأرُه والطوائلُ

وقد يُذَرُّ على الحيّة المقتولةِ يسيرُ رمَاد، ويقال لها: قتلك العيْن فلا ثأرَ لكِ، وفي أمثالهم لِمن ذهب دمُه هَدَراً: وهو قتيلُ العيْن، قال الشاعر:

ولا أكنْ كقَتيلِ العيْن وسْطَكُمُ ... ولا ذَبيحة تَشْريق وتَنْحارِ

فأما مَذهَبُهم في الخَرَزات والأحجار والرُّقَى والعَزائم فمشهور، فمنها السُّلْوانة - ويقال السَّلْوة - وهي خَرَزة يُسْقَى العَاشقُ منها فيَسلُو في زَعْمهم، وهي بيضاء شَفّافة، قال الراجز:

لو أشرَبُ السُّلوانَ ما سَليتُ ... ما بي غِنًى عنكمْ وإنْ غَنِيتُ

السُّلْوان: جمعُ سُلْوانة.

وقال اللّحيانيّ: السُّلوانة تُرابٌ من قبرٍ يُسقَى منه العاشق فيَسلُو، وقال عُروةُ بن حزام:

جعلتُ لعرّاف اليمامةِ حُكمه ... وعرّاف نجدٍ إنْ هما شَفيانِي

فقالا: نعم نَشفي من الدّاءِ كُلِّه ... وقامَا مع العُوّاد يَبْتَدِرَانِ

فما تَركَا من رُقْيَةٍ يَعرِفانها ... ولا سَلوةٍ إلا وقد سَقيانِي

وقال آخر:

سَقَوْني سَلْوَةً فسلوتُ عنها ... سقَى اللهُ المنيّةَ مَن سَقانِي

أي سلوتُ عن السَّلْوة واشتدّ بي العِشق ودام. وقال الشّمردل:

ولقد سُقِيتُ بسَلْوةٍ فكأنما ... قال المُداوِي للخَيالِ بها ازْدَدِ

ومن خَرَزاتهم الهِنّمة تُجتلَب بها الرجالُ وتُعطَف بها قلوبُهم، ورُقيتُها: أخذته بالهِنّمَهْ، باللّيل زَوْج وبالنّهار أَمَه.

ومنها الفَطْسة والقَبلة والدَّرْدَبيس، كلّها لاجتلاب قلوب الرّجال، قال الشاعر:

جمّعن من قبلٍ لهنّ وفَطْسَةٍ ... والدَّرْدَبيس تمائماً في منظمِ

فانقَاد كلّ مشذَّب مَرِسِ القُوَى ... لحِبالهنّ وكل جَلْدٍ شَيْظَمِ

وقيل: الدَّرْدَبيس خَرَزة سوداءُ يتحبّب بها النّساء إلى بُعولتهن، توجد في القُبور العاديّة، ورُقيتُها: أخذته بالدَّرْدَبيس، تُدِرّ العَرَق اليبيس، وتذر الجديد كالدَّرِيس، وأنشد:

قطعتُ القيدَ والخرَزات عَنّي ... فمن لي من عِلاج الدُّرْدَبيسِ!

وأصل الدَّرْدَبيس الداهية، ونُقِل إلى هذه لقوّة تأثيرها.

ومِن خَرَزاتهم القِرْزَحلة، أنشد ابنُ الأعرابيّ:

لا تنفَع القِرْزَحلةُ العَجائزَا ... إذا قطعنَ دونَها المَفاوِزَا

وهي من خَرَز الضّرائر، إذا لبستْها المرأةُ مالَ إليها بعلُها دونَ ضَرّتها.

ومنها خَرَزة العُقرة تشدّها المرأة على حَقْوَيْها فتُمنَع الحَبل، ذكَر ذلك ابنُ السّكّيت في إصلاح المنطق.

ومنها الينْجَلِب، ورُقْيَتُها: أخذتُه باليَنْجَلب، فلا يَرِمْ ولا يَغِبْ، ولا يَزَلْ عند الطُّنُب.

ومنها كَرَارِ، مبنيّةٌ على الكسر، ورُقْيتُها: يا كَرارِ كُرِّيه، إنْ أقبل فسُرِّيه، وإن أدبرَ فضُرِّيه، مِنْ فَرْجِه إلى فيه.

ومنها الهمْرَة ورُقْيَتها: يا همْرَة اْهمريه، من اْستِه إلى فيه، ومالِه وبَنِيه.

ومنها الخَصْمة، خرزة للدّخول على السّلطان والخصومة، تُجعَل تحتَ فَصّ الخاتَم أو في زرّ القَمِيص أو في حَمائِل السّيف، قال بعضهم:

يُعلِّق غيري خصمة في لِقائهمْ ... وما لي عليكمْ خصمةٌ غيرُ مَنطِقي

ومنها الوَجيهة، وهي كالخَصْمة حمراءُ كالعَقِيق.

ومنها العَطْفة، خَرَزة العَطْف، والكَحْلة، خَرَزة سوداءُ تُجعَل على الصِّبيان لدَفع العين عنهم، والقَبلة خَرَزة بيضاءُ تُجعَل في عُنُق الفرَس من العين، والفَطْسة خَرَزة يَمرَض بها العدوّ ويُقتَل، ورُقيتُها: أخذته بالفَطْسة، بالثُّوباء والعطسة، فلا يَزال في تَعْسَة، من أمرِه ونَكْسَة، حتى يَزورَ رَمْسَه.

ومن رُقاهم للحُبّ: هَوَابَه هَوابَه، البرقُ والسّحابة، أخذتُه بمركَن، فحبّه تَمكّن. أخذته بإبره، فلا يَزل في عَبْره. خلّيته بإشْفى، فقلبُه لا يَهدَا. خلّيته بمبرَد، فقلبه لا يَبرُد.

وتَرقِي الفاركُ زوجَها إذا سافر عنها فتقول: بأُفول القمر، وظلّ الشّجر، شِمال تَشمَله، ودَبور تدبره، ونَكباءَ تنكُبه، شِيكَ فلا انتعَش، ثم ترمي في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة، وتقول: حصاة حصّت أثره، نواة أنأت داره، روْثة راثَ خبرُه لقعته ببعرة.

وقالت فارِكٌ في زوجها:

أتبعتُه إذْ رَحَل العيسَ ضُحَى ... بعد النّواة رَوْثةً حيثُ انتَوى

الرّوث للرّثي وللنّأي النَّوَى

وقال آخر:

رَمَتْ خلفَه لمّا رأت وشْكَ بينِه ... نواةً تلتْها رَوْثة وحَصاةُ
وقالت: نأتْ منكَ الدّيارُ فلا دَنَتْ ... وراثَتْ بِك الأخبارُ والرَّجَعاتُ
وحصّت لك الآثار بعد ظُهورِها ... ولا فارَق التَّرحال منك شَتاتُ

وقال آخر يُخاطِب امرأته:

لا تَقذِفي خَلْفي إذا الرّكبُ اغتَدَى ... روثة عَيْرٍ وحَصاةٍ ونَوَى
لن يَدفع المقدارَ أسبابُ الرُّقَى ... ولا التَّهاويلُ على جِنّ الفَلا

هذا الرّجز أورَدَه الخالع في هذا المعرض، وهو بأن يدلّ على عكس هذا المعنى أولى، لأنّ قوله: «لن يَدفَع المقدارَ بالرُّقَى، ولا بالتّهاويل على الجِن» كلام يُشعِر بأنّ قَذْف الحصاة والنّواة خَلْفَه كالعُوذة له، لا كما تفعله الفارِك الّتي تتمنّى الفِراق. فأمّا مَذهبُهم في القِيافة والزّجْر والكِهانة واختلافهم في السّانح والبارح، وتشاتمهم باللّفْظة والكَلِمة وتأويلُهم لها وتيَمُّنهم بكلمة أخرى، وما كانوا يفعلونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامي فكلّه مشهورٌ معروف لا حاجةَ لنا إلى ذكرِه هاهنا.

فأمّا لفظ أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «نَشْرة»، فإنّ النّشرة في اللغة كالعُوذَة والرُّقْية، قالوا: نَشَّرت فلاناً تَنْشيراً، أي رَقَيْتُه وعوّذته. وقال الكلابيّ: إذا نشر المَسْفوع فكأنّما أُنشِط من عِقال، أي يذهب عنه ما به سَريعاً.

وفي الحديث أنّه قال: «فلعلّ طبًّا أصابه»[1] يعني سحراً، ثم عوَّذَه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[2]، أي رَقاه، وكذلك إذا كُتِب له النُّشرة.

وقد عدّ أميرُ المؤمنين عليه السلام أموراً أربعةً ذكر منها النشرة، ولم يكن عليه السلام ليقول ذلك إلّا عن تَوْقيف من رسولِ الله صلى الله عليه وآله.

تم الجزء التاسع عشر من شرح نهج البلاغة
لابن أبي الحديد ويليه الجزء العشرون

---

(١) ذكره في «عون المعبود» (١٠/ ٢٤٩)، وابن الأثير في «النهاية»، مادة (طبب).
(٢) سورة الناس، الآية: ١.

شرح نهج البلاغة

الجزء العشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

- ٤٠٩ -

الأصل: وقال عليه السلام **مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ.**

الشرح: إلى هذا نظَر المتنبّي في قوله:

وخَلّةٍ في جليسٍ أتّقيه بها كَيْمَا يَرى أنّنا مِثْلان في الوَهَنِ
وكِلْمةٍ في طريق خِفْتُ أعْرِبُها فيُهتَدَى لي فلم أقدِرْ على اللَّحَنِ

وقال الشاعر:

وما أنا إلّا كالزّمان إذا صحَا صحوتُ وإن ماقَ[1] الزمانُ أمُوقُ

وكان يقال: إذا نزلتَ على قوم فتشبّهْ بأخلاقهم، فإنّ الإنسان من حيث يوجَد، لا من حيث يُولَد. وفي الأمثال القديمة: من دَخَل ظَفارِ حمَّر.

شاعر:

أحامِقُه حتّى يُقال سجيّة ولو كان ذا عَقْل لكنتُ أعاقِلُهْ

- ٤١٠ -

الأصل: وَقَالَ عليه السلام **لِبَعْضِ مُخَاطِبِيهِ وَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُسْتَصْغَرُ مِثْلُهُ عَنْ قَوْلِ مِثْلِهَا: لَقَدْ طِرْتَ شَكِيراً، وَهَدَرْتَ سَقْباً.**

قَالَ: الشَّكِيرُ هاهنا: أَوَّلُ ما يَنْبُتُ مِنْ رِيشِ الطَّائِرِ قَبْلَ أَنْ يَقْوَى وَيَسْتَحْصِفَ. والسَّقْبُ: الصَّغِيرُ مِنَ الإِبِلِ، وَلا يَهْدِرُ إِلَّا بَعْدَ أَن يَسْتَفْحِلَ.

(١) ماق: حمق. القاموس مادة (موق).

الشرح: هذا مِثلُ قولهم: قد زَبَّبَ قبل أن يُحصرم.

ومن أمثال العامّة: يقرأ بالشّواذّ، وما حفِظ بعدُ جزءَ المفصَّل.

— ٤١١ —

الأصل: وقال عليه السلام: مَنْ أَوْمَأَ إِلَى مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ الحِيَلُ.

الشرح: قيل في تفسيره: من استدلّ بالمتشابه من القرآن في التّوحيد والعَدْل انكشفتْ حيلتُه، فإنّ علماء التّوحيد قد أوضحوا تأويلَ ذلك.

وقيلَ: مَن بَنَى عقيدةً له مخصوصةً على أمرين مختلفين: حقٍّ وباطل، كان مُبطلاً.

وقيل: من أومَأ بطمَعه وأمَله إلى فائتٍ قد مضَى وانقضى لن تَنفَعه حِيلة، أي لا يُتبِعنَّ أحدُكم أمَله ما قد فاتَه، وهذا ضعيفٌ لأنّ المُتفاوت في اللّغة غيرُ الفائت.

— ٤١٢ —

الأصل: قَالَ عليه السلام - وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا باللهِ -:

إِنَّا لا نَمْلِكُ مَعَ الله شَيْئاً، وَلا نَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَّكَنا، فمتى ملّكنا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِه مِنَّا كَلَّفَنَا، وَمَتَى أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا.

الشرح: مَعنَى هذا الكلام أنّه عليه السلام جعل الحولَ عبارةً عن المِلْكيّة والتصرّف، وجعل القوّة عبارةً عن التكليف، كأنّه يقول: لا تَملُّك ولا تصرُّف إلا بالله، ولا تكليف لأمرٍ من الأمور إلّا بالله، فنحن لا نَملِك مع الله شيئاً، أي لا نستقلّ بأن نَملِك شيئاً، لأنّه لولا إقدارُه إيّانا وخلقته لنا أحياءً لم نكن مالِكين ولا متصرِّفين، فإذا ملّكنا شيئاً هو أملك به - أي أقدرُ عليه منّا - صِرْنا مالكين له كالمال مثلاً حقيقة، وكالعَقْل والجوارح والأعضاء مَجازاً، وحينئذ يكون مكلِّفاً لنا أمراً يتعلّق بما ملّكنا إيّاه، نحو أن يكلّفنا الزّكاة عند تمليكنا المال، ويكلّفنا النّظر عند تمليكنا العَقْل، ويكلّفنا الجِهادَ والصّلاة والحجّ وغيرَ ذلك عند تمليكِنا الأعضاء والجوارح، ومتى أخذ منّا المالَ وَضَع عنا تكليفَ الزّكاة، ومتى أخذَ العَقْل سقَط تكليفُ النّظر، ومتى أخذَ الأعضاء والجوارح سَقَط تكليف الجِهاد وما يَجري مجراه.

هذا هو تفسيرُ قوله عليه السلام، فأمّا غيرُه فقد فسّره بشيء آخر، قال أبو عبد اللّه جعفرُ بنُ محمد عليه السلام: فلا حَوْلَ على الطاعة ولا قوّةَ على تَرْك المعاصي إلا بالله، وقال قوم - وهم المجبرة: لا فعل من الأفعال إلّا وهو صادِر مِن الله، وليس في اللّفظ ما يدلّ على ما ادّعَوْا، وإنما فيه أنه لا اقتدار إلا بالله، وليس يَلزَم من نَفْي الاقتدار إلا بالله صِدْق قولنا: لا فعل من الأفعال إلا وهو صادرٌ عن الله، والأوْلى في تفسير هذه اللفظة أن تُحمَل على ظاهِرها، وذلك أنّ الحَوْل هو القوّة، والقوّة هي الحَوْل كلاهما مُترادِفان، ولا ريبَ أنّ القدرة من الله تعالى، فهو الّذي أقدَر المؤمن على الإيمان، والكافرَ على الكفر، ولا يلزم من ذلك مخالفةُ القول بالعَدْل، لأنّ القدرة ليست موجبة.

فإن قلتَ: فأيّ فائدةٍ في ذِكر ذلك وقد علم كلّ أحد أنّ الله تعالى خَلَق القُدْرة في جميع الحيوانات؟

قلت: المرادُ بذلك الردّ على من أثبَت صانعاً غَير الله، كالمجوسِ والثَّنَويّة، فإنهم قالوا بإلَهين: أحدهما يَخلُق قدرةَ الخَيْر، والآخَر يَخلُق قدرة الشّرّ.

- ٤١٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لِعَمَّارِ بْنِ ياسِرٍ رَحِمَهُ الله تعالَى وقَدْ سَمِعَهُ يُرَاجِعُ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ كَلاماً:

دَعْهُ يا عَمَّارُ، فإنَّهُ لَنْ يأخُذَ مِنَ الدِّينِ إلّا ما قارَبَهُ مِنَ الدُّنْيا، وَعَلَى عَمْدٍ لَبَّسَ على نَفْسِهِ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهاتِ عاذِراً لِسَقَطاتِهِ.

الشرح: أصحابُنا غيرُ متّفقين على السكوت على المغيرة، بل أكثر البغداديّين يفسّقونه، ويقولون فيه ما يقال في الفاسق، ولما جاء عروة بن مسعود الثَّقَفيّ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله عامَ الحُدَيْبيَة نظر إليه قائماً على رأس رسول الله مقلَّداً سيفاً، فقيل: من هذا؟ قيل: ابنُ أخيك المغيرة، قال: وأنت هاهنا يا غُدَر! والله إنّي إلى الآن ما غَسَلتُ سوءَتَكَ[1].

وكان إسلامُ المغيرة من غير اعتقاد صحيح، ولا إنابة ونيّة جميلة، كان قد صَحِب قوماً في بعض الطُّرق، فاستغفَلهم وهم نيام، فقتلهم وأخذ أموالهم وهرب خوفاً أن يُلحَق فيُقتل، أو

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٠٤).

يؤخذ ما فاز به من أموالهم، فقَدِم المدينة فأظهر الإسلام، وكان رسول الله ﷺ لا يردّ على أحدٍ إسلامَه: أسلَم عن علّة أو عن إخلاص، فامتنَع بالإسلام، واعتصم، وحَمِي جانبه.

ذَكر حديثه أبو الفرج عليّ بنُ الحسين الأصفهانيّ في كتاب «الأغاني»[1]، قال: كان المغيرة يحدّث حديث إسلامه، قال: خرجتُ مع قوم من بني مالك ونحن على دِين الجاهليّة إلى المُقَوْقس مَلِك مصر، فدخلنا إلى الإسكندرية، وأهدَيْنا للمَلِك هدايا كانت معنا، فكنتُ أهوَن أصحابي عليه، وقَبضَ هدايا القوم، وأمر لهم بجوائز، وفضّل بعضهم على بعض، وقصّر بي فأعطاني شيئاً قليلاً لا ذِكر له، وخرجْنا، فأقبلت بنو مالك يشترون هدايا لأهلهم وهم مسرورون، ولم يَعرِض أحدٌ منهم عليّ مواساةً، فلما خرجوا حَمَلوا معهم خمراً، فكانوا يَشربون منها، فأشرب معهم، ونفسي تأبى أن تَدَعَني معهم، وقلتُ: ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا، وما حَباهم به الملك، ويخبرون قومي بتقصيره بي وازدرائه إياي! فأجمعتُ على قتلِهم، فقلت: إنّي أجد صُداعاً، فوضعوا شرابَهم ودعَوْني، فقلت: رأسي يُصدّع، ولكن اجلسوا فأسقِيكم، فلم يُنكِروا من أمري شيئاً، فجلست أسقيهم وأشرَب القَدَح بعد القَدَح، فلمّا دبّت الكأس فيهم اشتهَوا الشراب، فجعلتُ أصرِّف لهم وأترع الكأس، فيشربون ولا يدرون، فأهمدتهم الخمرُ حتى ناموا، ما يعقلون، فوثبتُ إليهم فقتلتهم جميعاً، وأخذت جميع ما كان معهم.

وقَدِمتُ المدينة فوجدتُ النبيّ ﷺ بالمسجد وعنده أبو بكر - وكان بي عارفاً - فلما رآني قال: ابن أخي عُرْوة؟ قلت: نعم، قد جئتُ أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله»: فقال أبو بكر مِن مصرَ أقبلتَ؟ قلت: نعم؟ قال: فما فعل المالكيّون الذين كانوا معك؟ قلت: كان بيني وبينهم بعض ما يكون بين العَرَب، ونحن على دين الشرك، فقتلتهم، وأخذت أسلابهم، وجئتُ بها إلى رسول الله ﷺ ليُخَمِّسَها ويرى فيها رأيه، فإنها غنيمة من المشركين، فقال رسولُ الله ﷺ: «أمّا إسلامُك فقد قبلتُه، ولا نأخذ من أموالهم شيئاً ولا نخمّسها، لأنّ هذا غَدْر، والغَدْر لا خير فيه»، فأخَذَني ما قَرُب وما بَعُد، فقلتُ: يا رسول الله، إنما قتلتهم وأنا على دِين قومي، ثمّ أسلمتُ حين دخلتُ إليك الساعة، فقال عليه السلام: «الإسلام يجبّ ما قبله»[2]. قال: وكان قَتل منهم ثلاثة عشر إنساناً، واحتوى على ما معهم، فبلغ ذلك ثقيفاً بالطائف، فتداعَوْا للقتال، ثم اصطَلَحوا على أن حمل عمّي عُروة بن مسعود ثلاث عشرة دِيَة.

---

(١) «الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يُؤلف مثله تفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٨٦)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٥).

قال: فذلك معنى قولِ عُرْوة يوم الحُدَيْبية: «يا غُدَر، أنا إلى الأمس أغسل سوءَتَك، فلا أستطيع أن أغسلها»، فلهذا قال أصحابنا البغداديون: مَنْ كان إسلامُه على هذا الوجه، وكانت خاتمته ما قد تواتر الخبر به، من لعن عليٍّ عليه السلام على المنابر إلى أن مات على هذا الفعل، وكان المتوسط من عمره الفِسْق والفُجور وإعطاء البَطْن والفَرْج سؤالهما، وممالأة الفاسِقِين، وصرْف الوقت إلى غير طاعة الله، كيف نتولاّه! وأيّ عُذْر لنا في الإمساك عنه، وألاّ نكشف للناس فِسْقَه!

مع أبي المعالي الجويني في أمر الصحابة والرد عليه

وحضرت عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العَلَويّ البَصْريّ في سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد، وعنده جماعة، وأحدُهم يقرأ في الأغاني لأبي الفرج، فمرّ ذكر المغيرة بن شعبة وخاض القوم، فذمّه بعضهم، وأثنى عليه بعضهم، وأمسك عنه آخرون، فقال بعض فقهاء الشِّيعة ممن كان يشتغل بطرفٍ مِن علم الكلام على رأي الأشعريّ: الواجب الكفّ والإمساك عن الصّحابة، وعمّا شَجر بينهم، فقد قال أبو المعالي الجوينْي: إنّ رسول الله ﷺ نَهَى عن ذلك، وقال: «إيّاكم وما شَجَر بين صحابتي»[(١)]، وقال: «دَعُوا لي أصحابي، فلو أنفق أحدكم مِثل أحُدٍ ذهباً لما بَلَغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»[(٢)]، وقال: «أصحابي كالنّجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[(٣)]، وقال: «خيرُكم القَرْن الذي أنا فيه ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه»[(٤)]، وقد ورد في القرآن الثَّناءُ على الصحابة وعلى التابعين، وقال رسول الله ﷺ: «وما يُدْريك لعلّ الله اطّلع على أهل بَدْر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[(٥)]! وقد رُوي عن الحسن

---

(١) ذكره ابن الأثير في «النهاية الحديث» (٢/ ٤٤٦)، مادة (شجر).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة (٢٥٤٠)، كلاهما بلفظ: «لا تسبوا أصحابي»، بدل «دعوا لي أصحابي»، أما رواية المؤلف فرواها أحمد في «مسنده» (١٣٤٠٠) بلفظ: «دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»، وكذلك أخرجها الطبري في «الرياض النضرة» (١/ ١٧٥).

(٣) أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (٧٨٣)، والشهاب في «مسنده» (١٣٤٦)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٦٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٤٩٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد مع شهادة جور إذا أشهد (٢٦٥١)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل بدر وقصة حاطب (٢٤٩٤).

البَصْرِي أنه ذكر عنده الجمل وصِفِّين فقال: تلك دماءٌ طَهّر الله منها أسيافَنا، فلا نلطّخ بها ألسنّتنا.

ثم إنّ تلك الأحوال قد غابت عنّا وبعُدتْ أخبارُها على حقائقها، فلا يليق بنا أن نخوضَ فيها، ولو كان واحدٌ من هؤلاء قد أخطأ لوَجب أن يُحفَظ رسول الله ﷺ فيه، ومن المروءة أن يُحفَظ رسول الله ﷺ في عائشة زوجته، وفي الزبير ابن عمّته، وفي طلحة الّذي وَقاه بيَده. ثمّ ما الذي ألزَمَنا وأوْجَب علينا أن نَلعَن أحداً من المسلمين أو نَبرأ منه! وأيّ ثواب في اللّعنة والبراءة! إنّ الله تعالى لا يقول يومَ القيامة للمكلَّفِ: لمَ لَم تَلعَن؟ بل قد يقول له: لِم لعَنْتَ؟ ولو أنّ إنساناً عاش عمرَه كلّه لم يَلعَن إبليسَ لم يكن عاصياً ولا آثماً، وإذا جَعَل الإنسانُ عِوَض اللعنة أستغفر الله كان خيراً له. ثم كيف يجوز للعامّة أن تُدخِل أنفسَها في أمور الخاصّة، وأولئك قوم كانوا أمراءَ هذه الأمّة وقادتَها، ونحن اليوم في طبقة سافلةٍ جداً عنهم، فكيف يَحسُن بنا التعرّض لذِكرهم! أليس يَقبُح من الرّعية أن تخوضَ في دقائق أمورِ الملكِ وأحوله وشؤونه الّتي تجري بينه وبين أهله وبَني عمّه ونسائه وسَراريّه! وقد كان رسول الله ﷺ صِهْراً لمعاويةَ. وأخته أمّ حبيبة تحتَه، فالأدب أن تُحفَظ أمُّ حبيبَة وهي أمّ المؤمنين في أخيها.

وكيف يجوز أن يُلعَن مَن جعل الله تعالى بينه وبين رسوله مَوَدّة! أليس المفسّرون كلّهم قالوا: هذه الآية أُنزِلت في أبي سُفيان وآله، وهي قولُه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾(١)! فكان ذلك مُصاهَرة رسول الله ﷺ أبا سُفيان وتزويجه ابنته. على أنّ جميع ما تَنقُله الشّيعة من الاختلاف بينهم والمشاجَرة لم يَثبُت، وما كان القومُ إلا كبَني أمّ واحدة ولم يتكدّر باطنُ أحدٍ منهم على صاحبه قطّ، ولا وقع بينهم اختلاف ولا نزاع.

فقال أبو جعفر رحمه الله: قد كنتُ منذ أيّام علّقتُ بخطّي كلاماً وجدتُه لبعض الزّيْدية في هذا المعنى نَقْضاً وردًّا على أبي المعالي الجُوَيْنيّ فيما اختاره لنفسِه من هذا الرأي، وأنا أخرِجه إليكم لأستغني بتأمّله عن الحديث على ما قاله هذا الفقيه، فإنّي أجدُ ألماً يمنَعني من الإطالة في الحديث، لا سيما إذا خرج مَخرَج الجَدَل ومُقاومة الخصوم، ثمّ أخرَج من بين كتبه كُرّاساً قرأناه في ذلك المجلس واستحسَنَه الحاضرون، وأنا أذكرها هنا خلاصَتَه.

قال: لولا أن الله تعالى أوجَب معاداةَ أعدائه، كما أوجَب مُوالاةَ أوليائه، وضَيَّق على المسلمين تَرْكَها إذا دَلّ العقل عليها، أو صحّ الخبرُ عنها بقوله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾(٢)، وبقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٧.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

أَوْلِيَآءَ﴾[1]، وبقوله سبحانه: ﴿لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[2]، ولإجماع المسلمين على أنّ الله تعالى فَرضَ عداوة أعدائه، وولاية أوليائه، وعلى أنّ: البغض في الله واجب، والحبُّ في الله واجب - لما تعرّضْنا لمعاداة أحدٍ من الناس في الدّين، ولا البراءة منه، ولكانت عداوتُنا للقوم تكلفاً. ولو ظَنَنّا أنّ الله عزّ وجلّ يَعذِرنا إذا قلنا: يا رَبّ غاب أمرُهم عنّا، فلم يكن لخَوْضنا في أمرٍ قد غاب عنّا معنًى، لاعتمدنا على هذا العُذْر، والَيْناهم، ولكنّا نخاف أن يقول سبحانه لنا: إن كان أمرُهم قد غاب عن أبصاركم، فلم يَغِب عن قلوبكم وأسماعِكم، قد أتتكم به الأخبارُ الصحيحة الّتي بمثلِها ألزمْتم أنفسَكم الإقرار بالنبيّ ﷺ ومُوالاةَ مَن صَدّقه، ومعاداة مَن عَصاه وجَحدَه، وأُمِرْتم بتدبّر القرآن وما جاء به الرسولُ، فهلاّ حذِرتم من أن تكونوا من أهل هذه الآية غداً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[3]!

فأمّا لفظة اللّعن فقد أمر الله تعالى بها وأوجَبَها، ألا تَرَى إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[4]، فهو إخبارٌ معناهُ الأمر، كقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[5]، وقد لعن الله تعالى العاصين بقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾[6]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[7]، وقوله: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾[8]، وقال الله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[9] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[10].

فأما قولُ من يقول: «أيُّ ثواب في اللّعن! وإن الله تعالى لا يقول للمكلّف لِمَ لم تلعن؟ بل قد يقول له: لم لَعَنْت؟ وأنه لو جعل مكان لَعَن الله فلاناً، اللّهم اغفر لي لكان خيراً له، ولو أنّ إنساناً عاش عمره كلّه لم يَلعَن إبليس لم يُؤاخذ بذلك»، فكلامُ جاهلٍ لا يدري ما يقول، اللعن طاعة، ويُستحقّ عليها الثوابُ إذا فُعلتْ على وجهها، وهو أن يُلعَن مستحقُّ اللّعن لله وفي الله، لا في العصبيّة والهوى، ألا ترَى أن الشّرع قد وَرَد بها في نَفْي الولد، ونطق بها القرآن، وهو أن يقول الزوج في الخامسة: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[11] فلو لم يكن الله تعالى يريد أن يتلفّظ عبادهُ بهذه اللفظة وأنه قد تعبّدهم بها، لما جعلها من معالم الشّرع، ولما كَرّرها في كثير من كتابه العزيز، ولما قال في حقّ القاتل: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾[12]، وليس المراد

---

(1) سورة المائدة، الآية: ٨١.
(2) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.
(3) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.
(4) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(5) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(6) سورة المائدة، الآية: ٧٨.
(7) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(8) سورة الأحزاب، الآية: ٦١.
(9) سورة صٓ، الآية: ٧٨.
(10) سورة الأحزاب، الآية: ٦٤.
(11) سورة النور، الآية: ٧.
(12) سورة النساء، الآية: ٩٣.

من قوله: «ولعنه» إلّا الأمر لنا بأن نلعنه، ولو لم يكن المُرادُ بها ذلك لكان لنا أن نلعنه، لأنّ الله تعالى قد لعنه، أفيلعن الله تعالى إنساناً ولا يكون لنا أن نلعنه! هذا ما لا يَسُوغ في العقل، كما لا يجوز أن يمدح الله إنساناً إلّا ولنا أن نمدَحه، ولا يذمّه إلّا ولنا أن نذمَّه، وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾(١)، وقـــال: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾(٢)، وقـال عـزّ وجـلّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾(٣). وكيف يقول القائل: إنّ الله تعالى لا يقول للمكلّف: لِمَ لم تلعن؟ ألا يعلَم هذا القائل أنّ الله تعالى أمر بولاية أوليائه، وأمر بعداوة أعدائه، فكما يَسأل عن التولّي يَسأل عن التبرّي! ألا تَرَى أن اليهوديّ إذا أسلَم يُطالَب بأن يقال له: تلفَّظْ بكلمة الشهادتين، ثمّ قلْ: برئتُ من كلّ دين يُخالِف دين الإسلام، فلا بدّ من البَراءة، لأنّ بها يتمّ العمل! ألم يَسمع هذا القائل قول الشاعر:

تَــوَدُّ عَــدُوّي ثـم تـزعُــمُ أنـنـي صـديقُـك، إنَّ الـرّاي عـنـكَ لـعـازِبُ

فمودّة العدوّ خروجٌ عن ولاية الوليّ، وإذا بطلت المودّة لم يبق إلّا البراءة، لأنه لا يجوز أن يكون الإنسانُ في درجة متوسطة مع أعداء الله تعالى وعُصاتِه بألاّ يودّهم ولا يبرأ منهم بإجماع المسلمين على نَفْي هذه الواسطة.

وأما قولُه: «لو جَعَل عِوضَ اللّعنة أستغفِر الله لكان خيراً له»، فإنه لو استغفر من غير أن يَلعَن أو يَعتقد وجوب اللّعن لما نَفَعه استغفارُه ولا قُبل منه، لأنه يكون عاصياً لله تعالى، مخالفاً أمره في إمساكه عمّن أوجَب الله تعالى عليه البراءة منه، وإظهار البراءة، والمصرّ على بعض المعاصي لا تُقبل توبته واستغفاره عن البعض الآخر، وأمّا من يعيش عمره ولا يَلعن إبليسَ، فإن كان لا يعتقد وجوبَ لَعْنِهِ فهوب كافر، وإن كان يعتقد وجوبَ لَعْنِه ولا يلعَنه فهو مخطىء، على أنّ الفرق بينه وبين تَرْك لَعنِه رؤوس الضلال في هذه الأمة كمعاوية والمغيرة وأمثالهما، أن أحداً من المسلمين لا يُورِث عنده الإمساك عن لعن إبليس شبهة في أمر إبليس، والإمساك عن لَعْن هؤلاء وأضرابهم يثير شبهة عند كثيرٍ من المسلمين في أمرهم، وتجنُّب ما يُورِث الشبهة في الدين واجب، فلهذا لم يكن الإمساك عن لَعْن إبليس نظيراً للإمساك عن أمر هؤلاء.

قال: ثمّ يقال للمخالفين: أرأيتم لو قال قائلٌ: قد غاب عنّا أمر يزيد بنَ معاوية والحجّاج بن يوسف، فليس ينبغي أن نخوض في قصّتهما، ولا أن نلعنهما ونعَادِيهما ونبرأ منهما، هل كان

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

هذا إلّا كقولكم: قد غاب عنا أمرُ معاوية والمغيرة بن شُعبة وأضرابُهما، فليس لخوْضنا في قصّتهم معنًى!

وبعد، فكيف أدخلتُم أيها العامّة والحشويّة وأهل الحديث أنفسكم في أمر عثمان وخُضتم فيه، وقد غاب عنكم! وبرئتم مِن قَتَلتِه، ولعنتموهم! وكيف لم تَحفَظوا أبا بكر الصّديق في محمد ابنِه فإنّكم لعنتموه وفسّقتموه، ولا حفِظتم عائشة أمّ المؤمنين في أخيها محمد المذكور، ومنعتمونا أن نخوض وندخل أنفسنا في أمر عليّ والحسن والحسين ومعاوية الظالم له ولهما، المتغلِّب على حقِّه وحقوقهما! وكيف صار لعنُ ظالم عثمان من السّنّة عندكم، ولعن ظالم عليّ والحسن والحسين تكلّفاً! وكيف أدخلت العامّة أنفسها في أمر عائشة وبَرِئتْ ممّن نظر إليها، ومِن القائل لها: يا حُمَيْراء، أو إنما هي حُمَيراء، ولعَنْته بكشفِه سترَها، ومنعتْنا نحن عن الحديث في أمر فاطمةَ وما جرى لها بعد وَفاةِ أبيها.

فإن قلتم: إنّ بيت فاطمة إنما دُخِل، وسترها إنما كُشِف، حِفْظاً لنظام الإسلام، وكَيْلا يَنتشر الأمرُ ويُخرِج قومٌ من المسلمين أعناقهم من رِبقة الطاعة ولزوم الجماعة.

قيل لكم: وكذلك ستر عائشة إنما كُشِف، وهَوْدجها إنما هُتِك، لأنها نشرتْ حبل الطاعة، وشقّت عصا المسلمين، وأراقت دماء المسلمين من قبل وصول عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى البَصرة، وجرى لها مع عثمان بن حُنيف وحَكيم بن جَبَلة ومَنْ كان معهما من المسلمين الصالحين من القَتل وسَفْك الدماء ما تَنطق به كُتبُ التواريخ والسِّير، فإذا جاز دُخولُ بيت فاطمة لأمرٍ لم يقع بعدُ جاز كَشْف سِتر عائشة على ما قد وقع وتحقق، فكيف صار هَتْك ستر عائشة من الكبائر التي يجب معها التّخليد في النار، والبراءة من فاعله، ومِن أوْكَدِ عُرى الإيمان، وصار كَشْف بيت فاطمة والدّخول عليها منزلها وجَمْع حَطَب ببابها، وتهدّدها بالتّحريق من أوْكد عُرَى الدين، وأثبت دَعائم الإسلام، ومما أعَزّ الله به المسلمين وأطفأ به نار الفتْنة، والحُرْمتان واحدة، والسّتران واحد. وما نحبّ أن نقول لكم: إنّ حرمة فاطمة أعظم، ومكانها أرفع، وصيانَتَها لأجل رسول الله صلى الله عليه وآله أولى، فإنها بَضعةٌ منه، وجزءٌ من لحمه ودمِه، وليست كالزّوجة الأجنبيّة التي لا نَسَب بينها وبين الزّوج، وإنما هي وُصْلة مستعارةٌ، وعَقْد يجرِي مجرى إجارة المنفعة، وكما يملك رقّ الأمَة بالبَيْع والشراء، ولهذا قال الفَرَضيّون: أسباب التوارُث ثلاثة: سبب، ونسب، ووَلاء، فالنسب القرابة، والسبب النكَاح، والولاء: وَلاء العِتق، فجعلوا النّكاح خارجاً عن النّسب، ولو كانت الزوجة ذات نسب لجعلوا الأقسام الثلاثة قسمين.

وكيف تكون عائشة أو غيرُها في منزلة فاطمة، وقد أجمع المسلمون كلّهم من يحبّها ومن لا يحبّها منهم أنها سيّدة نساء العالمين!

قال: وكيف يَلزمنا اليوم حفظ رسولِ الله صلى الله عليه وآله في زوجتِه، وحفظ أمّ حبيبة في أخيها، ولم

تُلزِم الصحابةُ أنفسها حِفظَ رسول الله ﷺ في أهلِ بيته، ولا ألزمت الصحابةُ أنفسها حفظَ رسول الله ﷺ صِهْره وابن عمّه ابن عفان، وقد قتلوهم ولعنوهم، ولقد كان كثيرٌ من الصحابة يَلعَن عثمان وهو خليفة، منهم عائشة كانت تقول: اقتلوا نَعْثَلاً، لعن الله نَعْثَلاً، ومنهم عبد اللّه بنُ مسعود، وقد لَعَن معاوية عليّ بن أبي طالب وابنَيه حَسَناً وحُسيناً وهم أحياءٌ يرزقون بالعراق، وهو يلعنهم بالشام على المنابر، ويَقنُت عليهم في الصّلوات، وقد لعن أبو بكر وعمرُ سعدَ بن عُبادة وهو حيّ، وبرئا منه، وأخرجاه من المدينة إلى الشام، ولعن عمرُ خالد بنَ الوليد لما قَتَل مالك بن نُوَيرة، وما زال اللّعن فاشياً في المسلمين إذا عَرَفوا من الإنسان معصيةً تقتضي اللّعن والبراءة.

قال: ولو كان هذا أمراً معتبراً وهو أن يُحفَظ زيدٌ لأجل عمرو فلا يُلْعَن، لوجب أن تُحفَظ الصحابةُ في أولادهم، فلا يُلعنوا لأجل آبائهم، فكان يجب أن يُحفَظ سعدُ بنُ أبي وقّاص فلا يُلعن ابنُه عمر بن سعد قاتل الحسين، وأن يحفظ معاوية فلا يلعن يزيد صاحب وَقْعة الحرّة وقاتل الحسين، ومخيف المسجد الحرام بمكّة، وأن يُحفَظ عمر بن الخطّاب في عبيد اللّه ابنه قاتل الهُرْمُزان، والمحارب عليًّا عليه السلام في صِفّين.

قال: عَلَى أنّه لو كان الإمساك عن عداوةِ من عادى الله من أصحاب رسول الله ﷺ من حفظ رسول الله ﷺ في أصحابه ورعاية عهدهِ وعقدِه لم نُعادِهم ولو ضُرِبتْ رِقابُنا بالسيوف، ولكن محبّة رسول الله ﷺ لأصحابه ليست كمحبّة الجهّال الذين يضع أحدُهم محبّته لصاحبه موضع العصبيّة، وإنما أوجَب الله على رسول الله ﷺ محبّة أصحابه لطاعتِهم لله، فإذا عصَوا الله وتَركوا ما أوجب محبّتَهم، فليس عند رسول الله ﷺ محاباة في تَرك لزوم ما كان عليه من محبّتهم، ولا تغطرسٌ في العُدولِ عن التمسك بموالاتهم، فلقد كان ﷺ يحبّ أن يُعادِيَ أعداءَ الله ولو كانوا عِترتَه، كما يحبّ أن يواليَ أولياء الله ولو كانوا أبعدَ الخَلْقِ نَسَباً منه، والشاهد على ذلك إجماع الأمّة على أنَّ الله تعالى قد أوجب عداوة من ارتدّ بعدَ الإسلام، وعداوة من نافق وإن كان من أصحاب رسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ هو الذي أَمَرَ بذلك ودعا إليه وذلك أنه ﷺ قد أوجب قطع السارق وضرب القاذف، وجَلْد البِكر إذا زَنَى، وإن كان من المهاجرين أو الأنصار، ألا تَرَى أنه قال: لو سَرَقَتْ فاطمةُ لقطعتُها، فهذه ابنته، الجاريةُ مَجْرَى نفسه، لم يُحابِها في دين الله، ولا رَاقَبها في حُدود الله، وقد جلد أصحاب الإفْك، ومنهم مِسطح بن أثاثة، وكان من أهلِ بَدْر.

قال: وبعد، فلو كان محلّ أصحاب رسول الله ﷺ محلّ من لا يعادَى إذا عَصَى الله سبحانه ولا يُذكر بالقبيح، بل يجب أن يُراقَب لأجل اسم الصُّحبة، ويغضَى عن عُيوبه وذُنوبه،

لكان كذلك صاحبُ موسى المسطور ثناؤه في القرآن لمّا اتبع هواه، فانسلخ ممّا أوتي من الآيات وغوَى، قال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(١)، ولكان ينبغي أن يكون محلّ عَبَدة العِجْل من أصحاب موسى هذا المحلّ، لأنّ هؤلاء كلّهم قد صحبوا رسولاً جليلاً من رُسُل الله سبحانه.

قال: ولو كانت الصّحابة عند أنفسِها بهذه المنزلة، لعلمتْ ذلك من حالِ أنفسِها، لأنّهم أعرَف بمحلّهم من عوامّ أهل دهرنا، وإذا قدّرتَ أفعالَ بعضِهم ببعض دلّتك على أنّ القِصّة كانت على خلاف ما قد سبق إلى قلوبِ النّاس اليوم، هذا عليّ وعمّار، وأبو الهَيْثم بن التَّيِّهان، وخزيمة بن ثابت، وجميعُ من كان مع عليّ عليه السلام من المهاجِرين والأنصار، لم يَرَوْا أن يتغافَلوا عن طَلْحة والزّبير حتّى فعلوا بهما وبمن مَعَهما ما يُفعَل بالشُّراة في عصرنا، وهذا طلحة والزُّبير وعائشة ومَنْ كان معهم وفي جانبهم لم يَرَوا أن يُمسكوا عن عليّ، حتّى قَصَدوا له كما يُقصَد للمتغلّبين في زماننا، وهذا معاوية وعَمْرو لم يَرَيا عليًّا بالعين الّتي يَرَى بها العامّي صديقَه أو جارَه، ولم يُقصّرا دونَ ضَرْب وجهه بالسّيف ولعنهِ ولعنِ أولاده وكلّ من كان حيًّا من أهله، وقتلِ أصحابه، وقد لَعَنهما هو أيضاً في الصّلوات المفروضات، ولَعن معهما أبا الأعور السُّلَميّ، وأبا موسى الأشعريّ، وكلاهما من الصّحابة.

وهذا سعدُ بن أبي وَقّاص، ومحمّد بن مَسلَمة، وأسامة بن زيد، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وعبد الله بن عمر، وحسّان بن ثابت، وأنَس بن مالك، لم يَرَوا أن يقلّدوا عليًّا في حرب طلحةَ، ولا طلحةَ في حَرْب عليّ، وطلحة والزّبير بإجماع المسلمين أفضل من هؤلاء المعدُودين، لأنّهم زعموا أنّهم قد خافوا أن يكون عليٌّ قد غَلَط وزَلّ في حَرْبهما، وخافوا أن يكونا قد غَلَطا وزَلاً في حرب عليّ، وهذا عثمانُ قد نَفَى أبا ذَرّ إلى الرَّبذَة كما يُفعل بأهلِ الخَنَا والرِّيَب، وهذا عمّار وابنُ مسعود تلقّيا عثمانَ بما تَلَقّياه به لمّا ظهر لهما - بزَعْمهما - منه ما وَعَظاه لأجله، ثمّ فعل بهما عثمانُ ما تَناهَى إليكم، ثم فَعَل القومُ بعثمانَ ما قد علمتم وعَلِم الناس كلّهم، وهذا عمر يقول في قصّة الزُّبير بن العوّام لمّا استأذنَه في الغَزْو: ها إنّي ممسِكٌ بباب هذا الشّعب أن يتفرّق أصحابُ محمّد في الناس فيضلّوهم، وزعم أنه وأبو بكر كانا يقولان: إنّ عليًّا والعبّاس في قصّة الميراث زَعَماهما كاذِبَيْن ظالمَيْن فاجرَيْن(٢)، وما رأينا عليًّا والعبّاس اعتَذَرا ولا تَنَصّلا، ولا نَقَل أحدٌ من أصحاب الحديث ذلك، ولا رأينا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله أنكرُوا عليهما ما حكاه عمرُ عنهما، ونسبَه إليهما، ولا أنكروا أيضاً على عمر قوله في أصحاب

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

(٢) كما في الصحيح الترمذي وغيره أنظره في رقم ٣٨٢١، وجامع البيان للطبري: ٢٨/ ٥٠.

رسولِ الله ﷺ: إنّهم يريدون إضلالَ النّاس ويَهِمون به، ولا أنكَروا على عثمانَ دَوْسَ بطن عمّار، ولا كَسْر ضِلَع ابنِ مسعود، ولا على عمّار وابن مسعود ما تلقّيا به عثمان، كإنكار العامّة اليومَ الخوض في حديث الصحابة، ولا اعتقدت الصحابة في أنفسها ما يعتقده العامّة فيها، اللهمّ إلا أن يَزْعموا أنّهم أعرَف بحقّ القوم منهم. وهذا عليٌّ وفاطمة والعبّاس ما زالوا على كلمةٍ واحدة يكذّبون الرواية: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَث»، ويقولون: إنّها مختلَقة.

قالوا: وكيف كان النّبي ﷺ يُعرِّف هذا الحكم غيرَنا ويكتُمه عنّا ونحن الوَرَثة، ونحن أولَى الناسِ بأن يُؤدَّى هذا الحكم إليه، وهذا عمرُ بنُ الخطّاب يَشهَد لأهل الشّورى أنّهم النّفَر الذين تُوفّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ثمّ يأمر بضَرْب أعناقهم إن أخّروا فصل حال الإمامة، هذا بعد أن ثَلَبهم، وقال في حقّهم ما لو سمِعَتْه العامّة اليومَ من قائل لوضعتْ ثوبَه في عنقِه سَحْبا إلى السلطان، ثمّ شهِدتْ عليه بالرَّفْض واستحلّت دمَه، فإن كان الطّعن على بعض الصّحابة رفضا فعُمر بن الخطّاب أرفَض الناس وإمام الرّوافض كلّهم. ثمّ ما شاع واشتَهر من قول عمَر: كان بَيعةُ أبي بكر فَلْتة، وَقَى الله شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، وهذا طعنٌ في العَقْد، وقَدْح في البَيْعة الأصليّة.

ثم ما نقل عنه مِن ذِكر أبي بكر في صَلاته، وقوله عن عبد الرحمن ابنه: دُوَيبّة سوء ولهوَ خيرٌ من أبيه. ثم عمر القائل في سعد بن عُبادة، وهو رئيس الأنصار وسيّدُها: اقتلوا سعداً، قَتَل الله سَعْداً، اقتُلوه فإنّه منافق. وقد شَتَم أبا هريرة وطَعَن في روايته، وشَتَم خالدَ بنَ الوليد وطَعَن في دِينه، وحَكَم بفِسْقه وبِوُجوب قتله، وخوّن عمرو بن العاص ومعاويةَ بن أبي سُفْيان ونسبهما إلى سرقةِ مال الفَيْء واقتطاعه، وكان سريعاً إلى المَساءة، كثيرَ الجبْه والشّتْم والسّبّ لكلّ أحد، وقلّ أن يكون في الصّحابةِ من سَلِم من معرّة لسانه أو يدِه، ولذلك أبغَضوه وملّوا أيّامه مع كثرة الفُتوح فيها، فهلاّ احترم عمرُ الصّحابة كما تحترمهم العامّة! إمّا أن يكون عمر مخطئاً، وإمّا أن تكون العامّة على الخطأ! فإن قالوا: عمرُ ما شتَمَ ولا ضَرَبَ، ولا أساء إلّا إلى عاصٍ مستحقٍّ لذلك، قيل لهم: فكأنّا نحن نقول: إنّا نريد أن نبرأ أو نعاديَ من لا يستحقّ البراءة والمعاداة! كلاّ ما قلنا هذا، ولا يقول هذا مسلم ولا عاقل.

وإنّما غرضنا الّذي إليه نجري بكلامنا هذا أن نوضّح أنّ الصّحابة قومٌ من الناس لهم ما لِلناس، وعليهم ما عليهم، مَن أساء منهم ذَمَمْناه، ومن أحسَنَ منهم حَمِدناه، وليس لهم على غيرِهم من المسلمين كبيرُ فَضْل إلّا بمشاهدة الرسول ومعاصرتِه لا غير، بل ربّما كانت ذنوبُهم أفحَش من ذنوب غيرهم، لأنهم شاهَدوا الأعلامَ والمعجِزات، فقرُبت اعتقاداتُهم من الضرورة، ونحن لم نشاهدْ ذلك، فكانت عقائدُنا مَحْض النّظر والفكر، وبعرضيَّة الشُّبَه والشّكوك، فمعاصِينا أخفّ لأنّا أعذَر.

ثم نعود إلى ما كنّا فيه فنقول: وهذه عائشة أمّ المؤمنين، خرجت بقميص رسول الله ﷺ فقالت للناس: هذا قميصُ رسول الله لم يَبْلَ، وعثمانُ قد أبلَى سنّته، ثم تقول: اقتُلوا نَعْثَلا، قَتَل الله نَعْثَلا، ثم لم ترض بذلك حتّى قالت: أشهد أنّ عثمانَ جيفةٌ على الصّراط غداً. فمن الناس من يقول: روَتْ في ذلك خبراً، ومن النّاس من يقول: هو موقوفٌ عليها، وبدون هذا لو قاله إنسان اليوم يكون عند العامّة زنْدِيقاً. ثمّ قد حصر عثمان، حصرتْه أعيانُ الصحابة، فما كان أحدٌ يُنْكِر ذلك، ولا يُعظِمه ولا يَسعَى في إزالته، وإنما أنكَروا على من أنكر على المحاصِرين له، وهو رجلٌ كما علمتم من وجوهِ أصحاب رسولِ الله ﷺ، ثمّ من أشرافهم، ثم هو أقرب إليه من أبي بكر وعمر، وهو مع ذلك إمامُ المسلمين، والمختارُ منهم للخلافة، وللإمام حقّ على رعيّته عظيم، فإنِ كان القومُ قد أصابوا فإذَنْ ليست الصحابةُ في الموضع الّذي وضعتْها به العامّة، وإن كانوا ما أصابوا فهذا هو الّذي نقول، من أنّ الخطأ جائزٌ على آحاد الصّحابة، كما يجوز على آحادِنا اليومَ. ولَسْنا نَقدَح في الإجماع، ولا ندّعي إجماعاً حقيقيًا على قَتْل عثمان، وإنما نقول: إنّ كثيراً من المسلمين فَعَلوا ذلك والخَصْم يسلّم أنّ ذلك كان خطأً ومعصيةً، فقد سَلَّم أنّ الصحابيّ يجوز أن يُخطىءَ ويَعصِي، وهو المطلوب.

وهذا المُغيرة بن شُعْبة وهو من الصحابة، ادُّعِي عليه الزنى، وشهد عليه قومٌ بذلك، فلم يُنكر ذلك عمر، ولا قال: هذا محال وباطل لأنّ هذا صحابيّ من صحابة رسول الله ﷺ لا يجوز عليه الزنى. وهلاّ أنكر عمرُ على الشهود وقال لهم: ويَحكم هلاّ تغافلتم عنه لمّا رأيتموه يَفعَل ذلك، فإنّ الله تعالى قد أوجَب الإمساكَ عنْ مساوىء أصحاب رسول الله ﷺ، وأوجَب السترَ عليهم! وهلا تركتموه لرسول الله ﷺ في قوله: «دَعُوا لي أصحابي»[(1)]! ما رأينا عمر إلّا قد انتصَب لسماعِ الدّعوى، وإقامة الشّهادة، وأقبَل يقول للمغيرة: يا مغيرة، ذهب رُبْعك، يا مغيرة، ذَهَب نصفُك، يا مغيرة، ذَهَب ثلاثة أرباعك، حتى اضطرب الرابع، فجُلِد الثلاثة. وهلاّ قال المغيرة لعمَر: كيف تسمع فيّ قول هؤلاء، ولَيْسوا من الصّحابة، وأنا من الصحابة، ورسول الله ﷺ قد قال: «أصحابي كالنّجوم، بأيّهم اقتَديتم اهتديتم»[(2)]! ما رأيناه قال ذلك، بل استسلَم لحُكم الله تعالى. وهاهنا مَن هو أمثَل من المغيرة وأفضَل، قدامة بن مَظْعون، لمّا شَرب الخمر في أيّام عُمَر، فأقام عليه الحدّ، وهو رجلٌ من عِلْية الصحابة ومِن أهل بَدْر، والمشهود لهم بالجنّة، فلم يردَّ عمرُ الشهادة، ولا دَرَأ عنه الحدَّ لعلّةِ أنه بَدْرِيّ، ولا قال: قد نَهى رسولُ الله ﷺ عن ذِكر مساوِىء الصّحابة. وقد ضرب عمرُ أيضاً ابْنَه حدًّا فمات، وكان ممّن عاصَر رسولَ الله ﷺ ولم تَمْنَعه معاصَرَته له من إقامة الحدّ عليه.

وهذا عليٌّ عليه السلام يقول: ما حدّثني أحدٌ بحديثٍ عن رسول الله ﷺ إلّا استحلَفْتُه عليه،

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

أليس هذا اتّهاماً لهم بالكَذب! وما استثنى أحداً من المسلمين إلا أبا بكر على ما وَرَد في الخبر، وقد صرّح غيرَ مرّة بتكذيب أبي هريرة، وقال: لا أحد أكذَب من هذا الدَّوْسي على رسول الله ﷺ. وقال أبو بكر في مرضِه الّذي مات فيه: وَدِدْتُ أنّي لم أكشِفْ بيتَ فاطمة ولو كان أغلِق على حرب، فندم والنّدم لا يكون إلّا عن ذَنْب.

ثم ينبغي للعاقل أن يفكّر في تأخّر عليّ ﷺ عن بَيْعة أبي بكر بستة أشهر إلى أن ماتت فاطمةُ، فإن كان مصيباً فأبو بكر على الخطأ في انتصابه في الخلافة، وإن كان أبو بكر مصيباً فعليّ على الخطأ في تأخره عن البَيْعة وحضور المسجد، ثم قال أبو بكر في مرض موته أيضاً للصّحابة: فلمّا استخلفتُ عليكم خيرَكم في نفسي - يعني عُمَر - فكلُّكم وَرِمَ لذلك أنفُه يريد أن يكون الأمر له، لمّا رأيتم الدنيا قد جاءت، أما والله لتَتخذُنَّ ستائرَ الدِّيباج ونَضائد الحرير. أليس هذا طَعْناً في الصحابة، وتصريحاً بأنه قد نسبَهم إلى الحسد لعمَر، لما نصّ عليه بالعهد! ولقد قال له طلحة لمّا ذكر عمر للأمر: ماذا تقول لربّك إذا سألك عن عباده، وقد ولّيتَ عليهم فظًّا غليظاً! فقال أبو بكر: أجلسوني أجلسوني، بالله تخوّفني! إذا سألني قلتُ: ولّيت عليهم خيرَ أهلك، ثم شتمه بكلام كثير منقول، فهل قول طلحة إلا طعنٌ في عمَر، وهل قول أبي بكر إلّا طعنٌ في طلحة!

ثم الذي كان بين أبيّ بن كعب وعبدِ اللّه بن مسعود من السِّباب حتى نفى كلّ واحد منهما الآخر عن أبيه وكلمةُ أبيّ بن كعب مشهورة منقولة: ما زالت هذه الأمّة مكبوبةً على وجهها منذ فقدوا نبيَّهم، وقوله: ألا هلك أهلُ العقيدة، والله ما آسَى عَليهم إنما آسَى على من يضلّون من الناس(١).

ثم قولُ عبد الرحمن بن عوف: ما كنت أرى أن أعيش حتى يقول لي عثمان: يا منافق، وقوله: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما ولّيت عثمان شِسْع نعلي، وقوله: اللهم إن عثمان قد أَبَى أن يقيم كتابك فافعلْ به وافعل(٢).

وقال عثمانُ لعليّ ﷺ في كلامٍ دارَ بينهما: أبو بكر وعمرُ خيرٌ منك، فقال عليّ: كذبت، أنا خيرٌ منك ومنهما، عبدتُ الله قبلهما، وعبَدْته بعدَهما(٣).

وروى سُفيانُ بن عُيَينة عن عمرو بن دينار، قال: كنت عند عروةَ بن الزبير، فتذاكَرْنا كم أقام النبيُّ بمكّة بعد الوَحْي؟ فقال عروة: أقام عشراً، فقلت: كان ابنُ عبّاس يقول: ثلاث عشرة،

---

(١) أنظر مواقف الشيعة: ٢/ ٢٦٨.
(٢) أنظر كتاب الأربعين للشيرازي: ٣٢٧.
(٣) المصدر السابق: ٣٢٨.

فقال: كذب ابنُ عباس. وقال ابنُ عباس: المُتْعة حَلال، فقال له جُبَير بنُ مُطعِم: كان عمرُ ينهى عنها، فقال يا عُديّ نفسه، منْ هاهنا ضللتم، أُحدِّثكم عن رسول الله ﷺ، وتحدّثني عن عمر!

وجاء في الخبر عن عليٍّ عليه السلام، لولا ما فَعَل عمرُ بنُ الخطّاب في المُتْعة ما زَنَى إلا شقيّ، وقيل: ما زَنَى إلا شفًا، أي قليلاً[1].

فأمّا سبّ بعضهم بعضاً وقَدْح بعضهم في بعض في المسائل الفقهيّة فأكثرُ مِن أن يُحصَى، مِثلُ قول ابن عباس وهو يردّ على زيد مذهبه القوْل في الفرائض: إن شاء - أو قال: من شاء - باهَلْته إن الذي أحصى رَمْل عالج عَدَداً أعدَل من أن يَجْعل في مال نِصْفاً ونصفاً وثلثاً، هذان النِّصفان قد ذَهبا بالمال، فأين موضعُ الثلث!

ومِثل قول أبيّ بن كعب في القرآن: لقد قرأتُ القرآن وزَيْدٌ هذا غلام ذو ذُؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في المكتب[2].

وقال عليٌّ عليه السلام في أمّهات الأولاد وهو على المِنبر: كان رأيي ورأى عمرَ ألّا يُبَعنَ، وأنا أرى الآن بَيعهنّ، فقام إليه عبيدة السّلمانيّ، فقال: رأيُك في الجماعة أحبُّ إلينا من رأيك في الفُرْقة.

وكان أبو بكر يرى التّسوية في قَسْم الغنائم، وخالفه عمر وأنكر فعله.

وأنكرتْ عائشة على أبي سلمة بن عبد الرحمن خلافه على ابن عباس في عدّة المتوفّى عنها زوجُها وهي حامل، وقالت: فَرّوج يصقع مع الدِّيَكة[3].

وأنكرت الصحابة على ابن عباس قوله في الصّرف، وسفّهوا رأيه حتى قيل: إنه تابَ من ذلك عند موته.

واختلفوا في حدِّ شارب الخمر حتى خطّأ بعضهم بعضاً.

وروَى بعض الصّحابة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الشؤم في ثلاثة: المرأة والدّار، والفَرَس»[4]، فأنكرتْ عائشة ذلك، وكذّبت الراوي وقالت: إنه إنما قال ﷺ ذلك حكايةً عن غيره.

---

(١) كنز العمال: ١٦/ ٥٢٢ ح ٤٥٧٢٨.

(٢) كتاب الأربعين للشيرازي: ٣٢٨.

(٣) المستصفى للغزالي: ١٤٦.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما يذكر من شآم الفرس (٢٨٥٨)، ومسلم كتاب: السلام، باب: الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٢٢٢٥).

وروى بعض الصّحابة عنه ﷺ أنه قال: «التاجرُ فاجرٌ»[١]، فأنكرتْ عائشةُ ذلك، وكذّبت الراوي وقالت: إنما قاله ﷺ في تاجر دلّس[٢].

وأنكَر قومٌ من الأنصار روايةَ أبي بَكر: «الأئمّة من قريش»[٣]، ونَسَبوه إلى افتعال هذه الكلمة.

وكان أبو بكر يقضِي بالقضاء فينقضه عليه أصاغِرُ الصّحابة كبِلال وصُهَيب ونحوهما. قد رُوِيَ ذلك في عدّة قضايا.

وقيل لابن عبّاس: إنّ عبدَ الله بن الزبير يَزعم أنّ موسى صاحبَ الخَضِر ليس مُوسَى بني إسرائيل، فقال: كذَب عدوُّ الله! أخبرَني أبيّ بنُ كعب، قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ وذَكَر كذا، بكلامٍ يدلّ على أنّ موسى صاحبَ الخَضِر هو موسى بني إسرائيل[٤].

وباع معاويةُ أوانيَ ذَهَب وفِضّة بأكثرَ من وزنها، فقال له أبو الدّرداء: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَنهَى عن ذلك، فقال معاوية: أمّا أنا فلا أرَى به بأساً، فقال أبو الدّرداء: مَن عَذِيري من معاوية! أخبِره عن الرّسول ﷺ، وهو يُخبِرني عن رأيِه! والله لا أساكنُك بأرضٍ أبداً.

وطَعن ابنُ عبّاس في أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدُكم من نَوْمه فلا يُدخِلنّ يدَه في الإناء حتّى يتوضّأ»[٥]، وقال: فما نَصْنَع بالمِهْراس!

وقال عليّ عليه السلام لعُمَر وقد أفتاه الصحابة في مسألة وأجمَعوا عليها: إن كانوا راقَبوك فقد غَشُّوك، وإن كان هذا جهدُ رأيهم فقد أخطؤوا.

وقال ابن عبّاس: ألا يتّقي الله زيدُ بنُ ثابت، يجعل ابن الابن ابناً، ولا يجعل أب الأب أباً!

وقالت عائشة: أخبروا زيدَ بنَ أرقَم أنه قد أحبَط جهادَه مع رسول الله ﷺ.

وأنكرَت الصحابة على أبي موسى قوله: إنّ النوم لا يَنقُض الوضوء، ونسبتْه إلى الغَفْلة وقلّة التحصيل، وكذلك أنكرت على أبي طلحة الأنصاريّ قوله: إن أكْلَ البَرَد لا يُفطّر الصائم، وهَزِئتْ به ونَسَبته إلى الجهل.

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٤٤٨).

(٢) ذكره الحافظ المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٢١٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٦٩٦٢).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى (٣٤٠١)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضائل الخضر (٢٣٨٠)، لكن فيهما ليس عبد الله بن الزبير وإنما هو رجل يدعى على نوف البكالي ولم أجده من إنكار عبد الله بن الزبير.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب الاستجمار وتراً (١٦٢)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الإيتار في الاستنثار والاستجمار (٢٣٨).

وسمع عمرُ عبدَ الله بنَ مسعود وأبيّ بن كعب يختلفان في صلاة الرجل في الثّوب الواحد، فصَعِد المنبر وقال: إذا اختلف اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ فعَن أيّ فُتْياكم يصدر المسلمون! لا أسمَع رجلين يختلفان بعد مُقامي هذا إلّا فعلتُ وصَنعتُ.

وقال جرير بنُ كُلَيب: رأيتُ عمَر يَنهى عن المُتعة، وعليّ عليه السلام يَأمرُ بها، فقلت: إنّ بينكما لشرًّا، فقال عليّ عليه السلام: ليس بيننا إلّا الخير، ولكن خيرُنا أتبَعُنا لهذا الدِّين.

قال هذا المتكلّم: وكيف يصحُّ أن يقول رسولُ الله ﷺ: «أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتدَيتم اهتدَيتم»[(١)]، لا شبهةَ أنّ هذا يُوجب أن يكون أهلُ الشام في صفّين على هُدَى، وأن يكون أهلُ العراق أيضاً على هُدًى، وأن يكون قاتل عمّار بن ياسر مهتدياً، وقد صحّ الخبرُ الصحيحُ أنه قال له: «تقتُلك الفئة الباغية»[(٢)]، وقال في القرآن: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[(٣)]، فدلّ على أنّها ما دامت موصوفة بالمقام على البَغْي، مُفارِقة لأمر الله، ومَن يفارق أمر الله لا يكون مهتدياً.

وكان يجب أن يكون بُسرُ بن أبي أرطَاة الّذي ذَبح ولَديْ عُبيد الله بن عبّاس الصغيرين مُهتدياً، لأنّ بُسْراً من الصحابة أيضاً، وكان يجب أن يكون عَمرو بنُ العاص ومعاوية اللّذان كانَا يلعَنان عليًّا أدبارَ الصلاة ولديه مهتديين، وقد كان في الصحابة من يزنِي ومن يشرب الخمرَ كأبي مِحْجَن الثّقفي، ومن يرتدّ عن الإسلام كطليحة بن خُوَيلد، فيجب أن يكون كلّ مَن اقتدى بهؤلاء في أفعالهم مُهدياً.

قال: وإنّما هذا من موضوعاتِ متعصِّبةِ الأمويّة، فإن لهم مَن يَنصرهم بلسانه، وبوَضْعِه الأحاديث إذا عَجز عن نصرهم بالسيف.

وكذا القولُ في الحديث الآخر: وهو قوله: «القرْن الذي أنا فيه»[(٤)]، وممّا يدلّ على بطلانِه أنّ القرْن الذي جاء بعده بخمسين سنةً شرُّ قرون الدُّنيا، وهو أحد القُرُون الّتي ذَكَرها في النّص، وكان ذلك القَرْن هو القَرْن الّذي قُتِل فيه الحُسين، وأُوقع بالمدينة، وحُوصرتْ مَكّة، ونُقِضت الكَعْبة، وشَرِبت خلفاؤه والقائمُون مَقَامه والمنتصِبون في مَنصِب النّبوّة الخمُور، وارتَكَبوا الفُجُور، كما جرى ليزيدَ بن معاوية وليزيد بن عاتكة وللوَليد بن يزيد، وأُرِيقت الدّماء الحرام،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٦).

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٤) تقدم تخريجه.

وقُتِل المسلمون، وسُبيَ الحريم، واستُعبد أبناء المهاجرين والأنصار، ونُقِش على أيديهم كما يُنقَش على أيدي الرُّوم، وذلك في خلافةِ عبدِ الملك وإمرةِ الحجّاج. وإذا تأمّلتَ كتبَ التواريخ وجدت الخمسين الثانيةَ شرًّا كلّها لا خيرَ فيها، ولا في رؤسائها وأمرائها، والناسُ برؤسائهم وأمرائهم، والقرن خَمْسون سنةً، فكيف يصحّ هذا الخبر.

قال: فأمّا ما ورد في القرآن من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(1). وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾(2).

وقول النبيّ ﷺ: «إنّ الله اطّلع على أهلِ بَدْر»(3)، إن كان الخبرُ صحيحاً فكلّه مشروط بسلامةِ العاقبة، ولا يجوز أن يخبر الحكيم مكلّفاً غير معصوم بأنّه لا عقاب عليه، فليفعل ما شاء.

قال هذا المتكلّم: ومَن أنصَف وتأمّل أحوالَ الصّحابة وجَدَهم مِثلنا، يجوز عليهم ما يجوز علينا، ولا فرق بيننا وبينهم إلّا بالصّحبة لا غير، فإنّ لها منزلةً وشَرَفاً، ولكن لا إلى حدٍّ يمتنع على كلّ من رأى الرسولَ أو صحبَه يوماً أو شهراً أو أكثرَ من ذلك أن يخطىء ويَزِلّ، ولو كان هذا صحيحاً ما احتاجت عائشةُ إلى نزول براءتها من السّماء، بل كان رسولُ الله ﷺ من أوّل يومِ يعلم كَذِب أهل الإفك، لأنّها زوجتُه، وصُحبتُها له آكَدُ من صُحبة غيرِها. وصَفْوان بن المعطّل أيضاً كان من الصّحابة، فكان ينبغي ألّا يَضيق صدرُ رسولِ الله ﷺ، ولا يَحمِل ذلك الهمّ والغمّ الشديدَين اللّذَين حمَلهما ويقول: صَفْوان من الصّحابة، وعائشة من الصّحابة، والمعصيةُ عليهما ممتنعة.

وأمثالُ هذا كثير، وأكثر من الكثير، لمن أراد أن يَستقرىءَ أحوالَ القوم، وقد كان التابعونَ يَسلُكون بالصحابة هذا المسْلَك، ويقولون في العُصاة منهم مِثلَ هذا القول، وإنما اتخذهم العامّة أرباباً بعد ذلك.

قال: ومَن الّذي يجترىء على القول بأنّ أصحابَ محمّد لا تجوز البراءةُ من أحدٍ منهم وإن أساء وَعصى بعدَ قول الله تعالى للذي شرّفوا برؤيته: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(4)، بعد قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(5) وبعد قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(6)، إلا من لا فهمَ له ولا نظرَ معه، ولا تمييزَ عنده.

---

(1) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(2) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(3) تقدم تخريجه.
(4) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(5) سورة الزمر، الآية: ١٣.
(6) سورة صَ، الآية: ٢٦.

قال: ومَنْ أحَبّ أن ينظر إلى اختلاف الصحابة، وطعن بعضهم في بعض وردّ بعضهم على بعض، وما ردّ به التابعون عليهم واعترضوا به أقوالهم، واختلاف التابعين أيضاً فيما بينهم، وقدح بعضهم في بعض فلينظرْ في كتاب النَّظّام، قال الجاحظ: كان النظّام أشدَّ الناس إنكاراً على الرافضة، لطعنهم على الصحابة، حتى إذا ذَكَر الفُتْيا وتنقُّل الصحابةِ فيها، وقضاياهم بالأمور المختلفة، وقول من استعمل الرأي في دين الله، انتظم مطاعن الرافضة وغيرها، وزاد عليها، وقال في الصحابة أضعاف قولها.

قال: وقال بعض رؤساء المعتزلة: غَلَطُ أبي حنيفة في الأحكام عظيم، لأنه أضل خَلْقاً وغلطُ حمّاد أعظمُ من غَلط أبي حنيفة، لأنّ حماداً أصلُ أبي حنيفة الذي منه تفرّع، وغَلط إبراهيم أغلظ وأعظَم من غَلط حمّاد، لأنه أصلُ حماد وغلَط علقمة والأسود أعظم من غلط إبراهيم، لأنهما أصله الذي عليه اعتمد، وغلط ابن مسعود أعظمُ مِن غلط هؤلاء جميعاً، لأنه أول من بَدَر إلى وَضْع الأديان برأيه، وهو الذي قال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمنّي.

قال: واستأذن أصحابُ الحديث على ثمامة بخُراسان حيث كان مع الرَّشيدِ بنِ المهديّ، فسألوه كتابه الذي صنفه على أبي حنيفة في اجتهادِ الرأي، فقال: لستُ على أبي حنيفة كتبتُ ذلك الكتاب، وإنما كتبته على علقمة والأسود وعبد اللّه بن مسعود لأنهم الذين قالوا بالرأي قبل أبي حنيفة.

قال: وكان بعض المعتزلة أيضاً إذا ذكر ابن عباس استصغره وقال: صاحبُ الذؤابة يقول في دين الله برأيه.

وذكر الجاحظ في كتابه المعروف «بكتاب التوحيد» أنّ أبا هريرة ليس بثقة في الرواية عن رسول الله ﷺ، قال: ولم يكن عليٌّ عليه السلام يوثّقه في الرّواية، بل يتهمه، ويقدح فيه، وكذلك عمر وعائشة.

وكان الجاحظ يفسّق عمرَ بن عبد العزيز ويستهزىء به ويكفّره، وعمر بن العزيز وإن لم يكن من الصحابة فأكثرُ العامة يَرَى له من الفَضْل ما يراه لواحدٍ من الصّحابة.

وكيف يجوز أن نحكم حُكْماً جَزْماً أنّ كل واحد من الصحابة عَدْل، ومن جملة الصحابة الحكم بنُ أبي العاص! وكفاك به عدوًّا مُبغضاً لرسول الله ﷺ! ومن الصحابة الوليدُ بنُ عُقْبة الفاسقُ بنصّ الكتاب، ومنهم حبيب بن مسلَمة الذي فَعَل ما فعل بالمسلمين في دَوْلة معاوية، وبُسْر بن أبي أرطاة عدوّ الله وعدوّ رسوله، وفي الصحابة كثيرٌ من المنافقين لا يَعرِفهم الناس. وقال كثيرٌ من المسلمين: مات رسول الله ﷺ ولم يُعرِّفه الله سبحانه كلَّ المنافقين بأعيانهم، وإنما كان يعرف قوماً منهم، ولم يُعلم بهم أحداً إلا حذيفة فيما زعموا، فكيف يجوز أن نحكم

حكماً جَزْماً أن كلّ واحد ممّن صَحِب رسول الله أو رآه أو عاصَرَه عَدْل مأمون، لا يقع منه خطأ ولا معصية، ومن الذي يمكنه أن يتحجّر واسعاً كهذا التحجّر، أو يحكم هذا الحكم!

قال: والعجب من الحشويّة وأصحاب الحديث إذ يجادلون على معاصي الأنبياء، ويثبتون أنهم عصَوا الله تعالى، وينكرون على من ينكر ذلك، ويطعنون فيه، ويقولون: قَدَريّ معتزلي، وربما قالوا: مُلحِد مخالِف لنص الكتاب، وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يُجادِل في هذا الباب، فتارة يقولون: إنّ يوسف قعد من امرأة العزيز مَقْعد الرّجل من المرأة، وتارةً يقولون: إن داود قتل أوريا لينكح امرأته، وتارةً يقولون: إن رسول الله كان كافراً ضالاً قبل النّبوة، وربما ذكروا زينب بنت جَحش وقصّة الفِداء يوم بدر.

فأما قَدحُهم في آدم عليه السلام، وإثباتُهم معصيته ومناظرتهم مَن يذكر ذلك فهو دأبُهم ودَيْدَنُهم، فإذا تكلّم واحد في عمرو بن العاص أو في معاوية وأمثالِهما ونَسَبهم إلى المعصية وفِعْل القبيح، احمرّت وجوهُهم، وطالت أعناقُهم، وتخازَرتْ أعينُهم، وقالوا: مبتدِع رافضيّ، يسبّ الصّحابة، ويَشتمُ السّلَف، فإن قالوا: إنّما اتّبعْنا في ذِكر معاصي الأنبياء نصوصَ الكتاب، قيل لهم: فاتّبعوا في البراءة من جميع العُصاة نصوصَ الكتاب، فإنه تعالى قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(١)، وقال: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾(٢)، وقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾(٣).

ثمّ يسألون عن بيعة عليّ عليه السلام: هل هيَ صحيحة لازمة لكلّ الناس؟ فلا بدّ مِن «بَلَى»، فيقال لهم: فإذا خَرَج على الإمام الحقّ خارجٌ أليسَ يَجب على المسلمين قتالُه حتّى يعودَ إلى الطاعة؟ فهل يكون هذا القتال إلّا البراءة الّتي نَذكُرها لأنه لا فرق بين الأمرين، وإنّما برئنا منهم لأنّا لسنا في زَمانهم، فيُمكننا أن نقاتلَ بأيدينا، فقُصارَى أمرِنا الآن أن نبرأ منهم ونَلعنَهم، وليكون ذلك عوضاً عن القتال الّذي لا سبيلَ لنا إليه.

قال هذا المتكلّم: على أنّ النّظّام وأصحابَه ذَهَبوا إلى أنّه لا حُجّة في الإجماع، وأنّه يجوز أن تجتمع الأمّة على الخطأ والمعصية، وعلى الفِسْق بل على الرِّدّة، وله كتابٌ موضوع في الإجماع يَطعَن فيه في أدلّة الفقهاء، ويقول: إنّها ألفاظ غيرُ صريحة في كون الإجماع حجّة، نحو قوله: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(٤) وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾(٥) وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٦) سورة النساء، الآية: ١١٥.

وأما الخبر الذي صورته: «لا تجتمع أمّتي على الخطأ»[1]، فخبرُ واحد، وأمثَلُ دليل للفقهاء قولهم: إنّ الهمم المختلفة، والآراء المتباينة، إذا كان أربابُها كثيرة عظيمة، فإنّه يستحيل اجتماعُهم على الخطأ، وهذا باطل باليهودِ والنّصارى وغيرِهم من فِرَق الضلال.

هذه خلاصةُ ما كان النّقيب أبو جعفر، عَلّقه بخَطّه من الجزء الّذي أقرأناه.

ونحن نقول: أمّا إجماع المسلمين فحجّة، ولسنا نرتضي ما ذَكَره عنّا من أنّه أمثَل دليل لنا أنّ الهِمَم المختلفة، والآراء المتباينة، يستحيل أن تتّفق على غير الصّواب، ومن نَظَر في كُتُبنا الأصوليّة علم وثاقّة أدلّتنا على صحّة الإجماع وكونه صواباً، وحجّة تحريم مخالفته، وقد تكلّمتُ في اعتبار الذّريعة للمُرتَضى على ما طَعَن به المُرتضَى في أدلّة الإجماع.

وأما ما ذَكَره من الهجوم على دارِ فاطمَة وجَمع الحَطَب لتحريقها فهو خبرُ واحدٍ غير موثوق به، ولا معوّل عليه في حقّ الصّحابة، بل ولا في حقّ أحد من المسلمين ممن ظهرت عدالتُه.

وأما عائشة والزبير وطلحة فمذهبُنا أنّهم أخطؤوا ثم تابوا وأنهم من أهل الجنّة، وأن علياً عليه السلام شهدَ لهم بالجنة بعد حَرْب الجَمَل.

وأما طعن الصحابة بعضهم في بعض، فإن الخلاف الذي كان بينهم في مسائل الاجتهاد لا يوجب إثماً، لأن كل مجتهد مُصيب، وهذا أمرٌ مذكور في كُتُب أصول الفِقْه وما كان من الخلاف خَارجاً عن ذلك فالكثيرُ من الأخبار الواردة فيه غيرُ موثوقٍ بها وما جاء من جهة صحيحةٍ نظر فيه ورجح جانب أحد الصحابيّين على قَدْر منزلته في الإسلام كما يُروَى عن عُمَر وأبي هريرة.

فأمّا عليّ عليه السلام فإنّه عندنا بمنزلة الرّسول صلى الله عليه وسلم في تصويب قوله، والاحتجاج بِفعله، ووجوب طاعته، ومتى صحّ عنه أنّه قد برىء من أحد من النّاس برئْنا منه كائناً مَن كان، ولكنّ الشأن في تصحيح ما يُروَى عنه عليه السلام، فقد أكثر الكذب عليه، وولّدت العصبيّة أحاديثَ لا أصل لها.

فأمّا براءته عليه السلام من المغيرة وعَمرو بن العاص ومعاوية، فهو عندنا معلوم جارٍ مَجرَى الأخبار المتواتِرة، فلذلك لا يتولأهم أصحابُنا، ولا يُثنُون عليهم، وهم عند المعتزِلة في مَقامِ غيرِ محمود، وحاشَ لله أن يكون عليه السلام ذَكَرَ مَن سَلَف من شيوخ المهاجرين إلّا بالجميل والذِّكر

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٨٢)، بلفظ: «ضلالة» بدل «الخطأ».

الحَسَن بمُوجب ما تقتضيه رِئاسته في الدِّين، وإخلاصُه في طاعةِ ربِّ العالمين، ومَنْ أحبَّ تتبُّع ما رُوِي عنه ممّا يُوهم في الظّاهر خلافَ ذلك فلْيراجع هذا الكتاب، أعني شَرْح نهج البلاغة، فإنا لم نَتْرك موضعاً يُوهم خلافَ مذهبنا إلّا وأوضحْناه وفسّرناه على وجهٍ يُوافِق الحقّ، وبالله التوفيق.

اخبار عمار بن ياسر ونسبه

فأما عمّار بنُ ياسر رحمه الله، فنحنُ نذكر نسَبه وطَرَفاً من حالِه ممّا ذَكَرَه ابنُ عبد البرّ في كتاب الاستيعاب، قال أبو عمر بنُ عبدِ البَرّ رحمه الله.

هو عمّار بنُ ياسر بنِ عامرِ بنِ مالك بن كنانةَ بن قيس بن حصين بن لَوذ بن ثَعلبة بن عَوف بن حارثةَ بن عامر بن نام بن عنس - بالنون - بنِ مالك بن أُدد العَنْسي المَذْحِجيّ، يكنَى أبا اليَقْظان، حليفٌ لبني مخزوم، كذا قال ابن شهاب وغيره

وقال موسى بن عقبة: وممّن شهد بدْراً عمّار بن ياسر حليفٌ لبني مخزوم بنِ يقَظَة.

وقال الواقديّ وطائفةٌ من أهل العلم: إنّ ياسراً والد عمّار بن ياسر عربيّ قَحْطانيّ من عَنس، من مَذْحج، إلّا أن ابنه عمّاراً مولىً لبني مخزوم، لأنّ أباه ياسراً تزوّج أمَةً لبعضِ بني مخزوم فأولَدَها عمّاراً، وذلك أنّ ياسراً قَدِم مكّة مع أخوَين له يقال لهما: الحارث ومالك في طَلَب أخٍ لهم رابع، فرجع الحارث ومالكٌ إلى اليَمَن، وأقامَ ياسرٌ بمكّة، فحالَفَ أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، فزوّجه أبو حذيفة أمةً له يقال لها سُمَيّة بنت خياط، فولدتْ له عمّاراً فأعتقَه أبو حذيفة، فصار ولاؤه لبني مخزوم، وللحِلْف والوَلاء الّذي بين بني مَخْزوم وعمّار بن ياسر كان اجتماع بني مخزوم إلى عثمان حين نال من عمّار غِلمانُ عثمانَ ما نالوا من الضَرب، حتّى انفَتَق له فَتْق في بَطْنه وكَسَروا ضِلَعاً من أضلاعه، فاجتمعتْ بنو مخزوم، وقالوا: والله لئن مات لا قَتلنا به أحداً غير عثمان.

قال أبو عمَر: وأسلمَ عمّار وعبد اللّه أخوه وياسر أبوهما وسُمَيّة أمُّهما، وكان إسلامُهم قديماً في أوّل الإسلام فعُذِّبوا في الله عذاباً عظيماً، وكان رسولُ الله ﷺ يمرُّ بهم وهمْ يعذّبون فيقول: «صبراً يا آلَ ياسِر، فإن مَوعِدَكم الجنّة»[1]، ويقول لهم أيضاً: «صَبْراً يا آلَ ياسر، اللّهم اغفرْ لآل ياسر، وقد فعلت»[2].

قال أبو عمر: ولم يزل عمّار مع أبي حُذَيفة بن المغيرة حتّى مات وجاء الله بالإسلام.

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ١٦٢).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٤١)، وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٤٤٣)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٤٩).

فأمّا سُمَيّة فقتَلها أبو جهل، طعنها بحَرْبة في قُبُلها فماتت، وكانت من الخَيِّرات الفاضلات وهي أوّل شهيدةٍ في الإسلام، وقد كانت قريشٌ أخذتْ ياسراً وسُمَيّة وابنَيهما، وبلالاً وخَبّاباً وصُهَيباً فألبَسوهم أدراعَ الحديد، وصَهَروهم في الشّمس حتّى بلغ الجَهدُ منهم كلَّ مَبلَغ، فأعطوهم ما سألوا من الكفر، وسبِّ النبيِّ ﷺ، ثم جاء إلى كلّ واحد منهم قومُه بأنطاعِ الأدَم فيها الماء فألقَوهم فيها، ثمّ حَمَلوا بجوانبها، فلمّا كان العشيُّ جاء أبو جهل فجعل يَشتُم سُمَيّة ويَرفث، ثمّ وَجَأها بحَرْبة في قُبُلها فقتَلها، فهيَ أوّلُ من استُشهد في الإسلام، فقال عمّار للنّبيّ ﷺ: يا رسولَ الله بلغ العذاب من أمّي كلَّ مبلغ، فقال: «صبراً يا أبا اليَقْظان، اللّهمّ لا تُعذّب أحداً من آل ياسر بالنّار»[1]، قال أبو عمر: وفيهم أُنزِل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾[2].

قال: وهاجَر عمّار إلى أرض الحَبَشة وصلّى القِبْلَتَين، وشَهِد بدراً والمَشاهدَ كلَّها وأبلَى بلاءً حسناً، ثم شَهِد اليمامة، فأبلى فيها أيضاً، ويومئذٍ قُطِعتْ أذنه.

قال: وذَكَر الواقديّ عن عبد اللّه بنِ نافع، عن أبيه، عن عبد اللّه بنِ عمر، قال: رأيتُ عمّارَ بن ياسر يومَ اليَمامة على صَخْرة وقد أشرَف يصيح: يا معشرَ المسلمين، أمِنَ الجنّة تفرُّون؟ أنا عمّار بن ياسر، هَلُمّوا إليّ، وأنا أنظر إلى أُذُنه قد قطعتْ، فهي تذَبذَب وهو يقاتِل أشدّ القِتال.

قال أبو عمر: وكان عمّار طويلاً أشهَلَ، بعيدَ ما بين المَنكبين، قال: وقد قيل في صفته: كان آدمَ طُوالاً مضطرباً، أشهَل العينين، بعيد ما بين المَنكبين، رجلاً لا يغيّر شيبَه.

قال: وكان عمّار يقول: أنا تِرْبُ رسولِ الله ﷺ، لم يكن أحدٌ أقرب إليه سِنًّا منّي.

قال: وقُتِل عمّار وهو ابنُ ثلاثٍ وتسعين سنةً، والخبرُ المرفوعُ مشهور في حَقّه: «تقتلُك الفئةُ الباغية»[3]، وهو من دلائل نبوّة رسول الله ﷺ، لأنّه إخبارٌ عن غَيْب.

وقال رسول الله ﷺ في عمّار: «مُلِئ إيماناً إلى مُشاشِه»[4]، ويُروَى: «إلى أخمص قَدَمَيه»[5].

وفضائلُ عمّار كثيرة، وقد تقدم القولُ في ذِكر عمّار وأخبارِه، وما ورد في حقّه.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر (٤/ ١٨٦٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٤٨)، مختصراً.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه النسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: تفاضل أهل الإيمان (٥٠٠٧)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل عمار بن ياسر ١٤٧.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١١٣٧).

- ٤١٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: ما أحْسَنَ تَوَاضُعَ الأغْنِياءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِما عِنْدَ الله، وَأحسَنُ مِنْهُ تِيهُ الفُقَرَاءِ عَلَى الأغْنِياءِ اتكالاً عَلَى الله سُبْحَانَهُ.

الشرح: قد تقدّم شرح مِثل هذه الكلمة مراراً.

وقال الشاعر:

قنعتُ فأعتقتُ نفسي ولنْ ... أملّك ذا ثروةٍ رِقَّهَا
ونزّهتُها عن سؤال الرّجالْ ... ومِنّةِ من لا يَرى حَقَّهَا
وإنّ القناعة كنزُ اللّبيب ... إذا ارتقتْ فتقت رتقَهَا
سيَبعثُ رِزْقَ الشّفاهِ الغِراثِ ... وخمْصِ البطونِ الّذي شقَّهَا
فما فارقَتْ مُهجةٌ جِسمَها ... لعَمْرُك أو وُفِّيَتْ رِزقَهَا
مواعيدُ ربّك مصدوقةٌ ... إذا غيرها فَقَدتْ صِدقَها

- ٤١٥ -

الأصل: وقال عليه السلام: ما اسْتَوْدَعَ الله امْرأ عقْلاً إلّا لِيَسْتَنْقِذَهُ بِهِ يَوْماً مَا.

الشرح: لا بدّ أن يكون للباريء تعالى في إيداع العَقْل قلبَ زيد مَثلاً غَرَض، ولا غَرَض إلا أن يستدلّ به على ما فيه نجاتُه وخلاصُه، وذلك هو التكليف، فإنْ قصّر في النظر وجَهِل وأخطأ الصّواب فلا بدّ أن يُنقذه عقلُه مِن وَرْطة مِن وَرَطات الدنيا، وليس يخلو أحدٌ عن ذلك أصلاً، لأن كلّ عاقل لا بدّ أن يتخلّص من مَضرّةٍ سبيلُها أن تُنال بإعمال فِكرتِه وعقله في الخلاص منها، فالحاصل أنّ العقل إمّا أن ينقذ الإنقاذ الدّيني، وهو الفلاح والنّجاح على الحقيقة، أو يُنقذ من بعضِ مَهالكِ الدّنيا وآفاتها، وعلى كلّ حال فقد صَحّ قولُ أمير المؤمنين عليه السلام، وقد رُويتْ هذه الكلمة مرفوعةً[1]، ورُويتْ: «إلا استنقذه به يوماً ما».

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٢٧٩).

وعنه ﷺ: «العقل نورٌ في القَلب يُفرَق به بين الحقّ والباطل»[1].

وعن أنَس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرّجل يكون حَسَن العقل كثيرَ الذنوب، فقال: ما من بشَر إلّا وله ذنوب وخطايا يَقترفها، فمن كانت سجيّتهُ العَقل، وغَريزَته اليقين، لم تضرَّه ذنوبُه، قيل: كيف ذلك يا رسولَ الله؟ قال: كلّما أخطأ لم يَلبثْ أن يتَدارَكَ ذلك بتوبةٍ وندامةٍ على ما فرط منه، فيمحو ذُنوبه، ويَبقَى له فضل يدخُل به الجنّة[2].

بعض ما قيل في مدح العقل

وقد تقدّم من قولنا في العقل وما ذُكر فيه ما فيه كفاية، ونحن نذكر هاهنا شيئاً آخر: كان يقال: العاقل يُروِّي ثم يَرْوِي ويَخبُر ثم يُخبِر.

وقال عبدُ اللّهُ بن المعتز: ما أبيَنَ وجوهَ الخير والشّر في مِرآة العقل!

لقمان: يا بنيّ، شاوِرْ مَن جَرّب الأمور فإنّه يعطيكَ من رأيه ما قام عليه بالغلاء وتأخذه أنتَ بالمجّان.

أردشير بن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحَسَب إلى الأدب، والسرورُ إلى الأمْن، والقَرابة إلى المودّة، والعقل إلى التّجربة.

الإسكندر: لا تحتقر الرأيَ الجزيلَ من الحقير، فإنّ الدُّرّة لا يُستهان بها لِهوان غائِصها.

مَسلَمة بنُ عبد الملك: ما ابتَدأتُ أمراً قطُّ بحَزْم فرجعتُ على نفسي بلائمة، وإن كانت العاقبة عليّ، ولا أضعتُ الحزم فسُررْت وإن كانت العاقبة لي.

وَصَف رجلٌ عضدَ الدّولة بن بُويه، فقال: لو رأيتَه لرأيتَ رجلاً له وجهٌ فيه ألفُ عَيْن، وفمٌ فيه ألفُ لسان، وصدرٌ فيه ألفُ قَلْب.

أثنَى قومٌ من الصّحابة على رجل عند رسول الله ﷺ بالصّلاة والعبادة وخصال الخَيْر حتى بالَغوا، فقال ﷺ: «كيف عقلُه؟» قالوا: يا رسولَ الله نخبِرك باجتهاده في العبادة وضروب الخَيْر، وتَسألُ عن عَقْله! فقال: «إنّ الأحمق ليصيبُ بحُمْقه أعظم ممّا يصيبُه الفاجر بفجوره، وإنما ترتفع العِباد غَداً في دَرَجاتهم، ويَنالُون من الزُّلفى من رَبّهم على قَدْر عُقولهم»[3].

الرَّيْحانيّ: العَقْل مَلِك، والخِصال رعيّته، فإذا ضَعُف عن القيام عليها، وَصَل الخَلَل إليها. وسَمِع هذا الكلامَ أعرابيّ فقال: هذا كلامٌ يقْطُر عَسَلُه.

---

(١) أنظر نهج السعادة: ٨/ ١٨٦، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٠٣٨.

(٢) أخرجه الحارث في «مسنده» (٨١٨).

(٣) أخرج بنحوه الحارث في «مسنده» (٨١٤)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٣٥٧).

قال مَعَنُ بنُ زائدة: ما رأيتُ قَفَا رجل إلّا عرفتُ عقله، قيل: فإن رأيتَ وجهَه؟ قال: ذا كتابٌ يُقرأ.

بعض الفلاسفة: عقلُ الغَريزة مُسلمٌ إلى عَقْلِ التجربة.

بعضُهم: كلّ شيء إذا كُثر رَخُص إلّا العقل، فإنّه إذا كُثر غلا.

قالوا في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[1]، أي: من كان عاقلاً.

ومن كلامهم: العاقل بخشونة العَيْش مع العقلاء آنس منه بِلين العيش مع السُّفهاء.

أعرابيّ: لو صُوّر العقلُ أظلمَتْ معه الشّمس، ولو صُوِّر الحُمق لأضاء معه اللّيل.

قيل لحكيم: مَتَى عَقَلْتَ؟ قال: حين وُلِدتُ، فأنكرُوا ذلك، فقال: أمّا أنا فقد بكَيت حين جُعْت، وطلبتُ الثّدْيَ حين احتجْتُ، وسَكَتُّ حين أُعطِيت، يريد أنّ من عَرَف مقادِيرَ حاجتِه فهو عاقل.

المأمون: إذا أنكرتَ مِن عقلِك شيئاً فاقدَحْه بعاقِل.

بُزُرجُمِهْر: العاقل الحازم إذا أشكَل عليه الرأيُ بمنزلة من أضلَّ لؤلؤةً فجَمَع ما حولَ مسقطها من التُّراب، ثم التَمَسَها حتّى وَجَدها، وكذلك العاقلُ يَجمَع وجوهَ الرّأي في الأمر المُشكِل، ثم يَضرِب بعضَها في بعض حتّى يَستخلِص الرأي الأصوَب.

كان يقال: هجينٌ عاقلٌ خيرٌ من هِجان جاهِل.

كان بعضهم إذا استُشير قال لمشاوِرِه: أنظرني حتّى أصقُلَ عقلي بنَوْمة.

إذا نزلت المقادير، نزلت التدابير. من نَظَر في المَغَابّ، ظَفر بالمحابّ. من استدّت عزائمِه اشتدّت دَعائمه. الرأيُ السّديد، أجْدى من الأيْد الشّديد.

بعضُهم:

وما ألف مَطْرُور السِّنان مشدّد ... يُعَارِض يَوم الرّوع رَأياً مسدَّداً

أبو الطَّيِّب:

الرأيُ قبل شَجاعةِ الشّجعان ... هو أوّلٌ وهيَ المحلّ الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ ... بَلغتْ مِن العَلياء كلَّ مكانِ

ولربّما طَعَن الفتَى أقرانَه ... بالرأي قبل تطاعُن الأقرانِ

لولا العقولُ لكان أدْنَى ضَيْغَم ... أدنى إلى شرَفٍ من الإنسانِ

ولمَا تفاضَلَت النفوسُ ودَبّرتْ ... أيدي الكُماة عَواليَ المُرّانِ

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٠.

ذَكر المأمونُ وَلَدَ عليٍّ عليه السلام، فقال: خُصّوا بتدبير الآخرة، وحُرِموا تدبيرَ الدنيا.

كان يقال: إذا كان الهوى مقهوراً تحت يَدِ العقل، والعَقْل مسلّط عليه، صُرفتْ مَساوِىء صاحبه إلى المحاسن، فعُدّت بلادتُه حلماً، وحِدّته ذَكاء، وحَذَره بلاغة، وعِيُّه صَمْتاً، وجُبْنه حَذَراً، وإسرافُه جُوداً.

وذكر هذا الكلام عند بعضهم فقال: هذه خِصِّيصة الحظّ نقلها مرتِّب هذا الكلام إلى العقل.

سمعَ محمد بن يَزداد كاتبُ المأمون قولَ الشاعر:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ ... فإنّ فسادَ الرأي أن تتهرّدا

فأضاف إليه:

وإن كنت ذا عزمٍ فأنفِذه عاجلاً ... فإنّ فساد العَزْم أن يتفنّدا

- ٤١٦ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَنْ صارَعَ الحَقَّ صَرَعَهُ.

الشرح: هذا مِثْلُ قوله في موضع آخر: مَنْ أبدى صفحته للحقّ هلك، ونحو هذا قولُ الطائيّ:

ومَن قامَر الأيّام عن ثمَراتها ... فأحْجِ بها أن تَنجلي وَلها القمْرُ

- ٤١٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: الْقَلْبُ مُصْحَفُ البَصَر.

الشرح: هذا مِثْلُ قولِ الشاعر:

تخبّرني العينان ما القلبُ كاتمٌ ... وما جنّ بالبَغْضاء والنَّظر الشّزْرِ

يقول عليه السلام: كما أنّ الإنسان إذا نظر في المصحَف قرأ ما فيه، كذلك إذا أبصر الإنسانُ صاحبَه فإنه يَرَى قلبه بوساطة رؤية وجهه، ثم يعلم ما في قلبه من حُبٍّ وبُغْض وغيرهما، كما يعلم برؤية الخطّ الذي في المصحف ما يدلّ الخطّ عليه.

وقال الشاعر:

إنّ العيونَ لَتُبدِي في تَقلُّبها ما في الضّمائر من وُدٍّ ومِنْ حَنَقِ

– ٤١٨ –

الأصل: وقال عليه السلام: **التُّقى رَئيسُ الأخلاقِ.**

الشرح: يعني رئيس الأخلاق الدينيّة، لأنّ الأخلاق الحميدةَ كالجود والشجاعة والحلم والعفّة وغير ذلك، لو قَدَّرْنا انتفاءَ التكاليف العقلية والشرعيّة، لم يكن التُّقى رئيساً لها، وإنما رياسة التُّقى لها مع ثُبوت التكليف، لا سيما الشرعيّ. والتّقى في الشّرع هو الوَرَع والخوْفُ من الله، وإذا حصل حصلت الطاعات كلها، وانتفت القبائح كلها، فصار الإنسان معصوماً، وتلك طبقة عالية، وهي أشرف من جميع الطّبقات التي يُمدح بها الإنسان، نحو قولنا: جَوادٌ أو شُجاع أو نحوهما، لأنّهما طبقة ينتقل الإنسانُ منها إلى الجنّة ودار الثواب الدائم، وهذه مزيّة عظيمةٌ يَفضُل بها على سائر طبقات الأخلاق.

– ٤١٩ –

الأصل: وقالَ له عليه السلام: **لا تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ، وبَلاغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ.**

الشرح: يقول: لا شُبهةَ أنّ الله تعالى هو الّذي أنطقك، وسدّد لفظَك، وعلّمك البيان كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[(١)]، فقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ ذَرَب لسانِه وفصاحةَ منطِقه على من أنطقَه وأقدرَه على العبادة، وقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ بلاغة قوله على من سدّد قولَه، وجعَلَه بليغاً حسَنَ التعبير عن المعاني الّتي في نفسه، وهذا كمن يُنعِم على إنسانٍ بسيفٍ فإنّه يَقبُح منه أن يَقتله بذلك السّيف ظُلماً قبحاً زائداً على ما لَوْ قَتَله بغير ذلك السّيف، وما أحسَن قول المتنبّي في سَيف الدولة:

(١) سورة الرحمٰن، الآيتان: ٣، ٤.

ولمّا كَسَا كعباً ثياباً طَغوْا بها رمَى كلَّ ثوب من سِنان بخارقِ
وما يُوجِع الحِرْمانُ من كَفِّ حازمٍ كما يُوجِع الحِرمانُ من كفِّ رازِقِ

– ٤٢٠ –

الأصل: وقال عليه السلام : كَفَاكَ أَدَباً لِنَفْسِكَ ٱجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ.

الشرح: قد قال عليه السلام هذا اللفظ أو نحوَه مراراً، وقد تكلّمنا نحنُ عليه، وذكرْنا نظائرَ له كثيرة نثراً ونَظماً.

وكَتَب بعضُ الكُتّاب إلى بعض الملوك في حالٍ ٱقتضَتْ ذلك:

ما عَلَى ذا افترَقْنا بِشَبْذَانَ إذْ كُنّا ولا هكذا عَهِدْنا الإخاءَ
تَضرب الناسَ بالمهنَّدة البِيـ ـضِ على غدرِهم وتَنسَى الوَفَاءَ

– ٤٢١ –

الأصل: وقالَ عليه السلام يعزّي قوماً: منْ صبَر صبْرَ الأحْرارِ، وإلاّ سَلا سُلُوَّ الأغْمارِ.

وفي خَبَرٍ آخَرَ أنَّهُ عليه السلام قالَ لِلأشعَثِ بْنِ قيسٍ مُعَزِّياً عن ابْنٍ لَهُ: إنْ صَبَرْتَ صَبْرَ الأكارِمِ، وإلاّ سلَوْتَ سلوّ البَهائِمِ.

الشرح: أخذ هذا المعنى أبو تمّام بل حكاه فقال:

وقال عليٌّ في التّعازي لأشعثٍ وخافَ عليه بعضَ تلك المآثِم
أتصبرُ للبَلوى عزاءً وحِسْبةً فتؤجَر أم تسلو سُلُوَّ البهائم!

– ٤٢٢ –

الأصل: وقالَ عليه السلام في صِفةِ الدُّنْيا: الدُّنْيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إنَّ الله سُبْحَانَهُ لَمْ يرْضَهَا ثَوَاباً لأوْليائِهِ، ولا عِقاباً لأعْدائِهِ.

الشرح: قد تقدّم لنا كلام طويل في ذم الدنيا.

ومن الكلام المستحسَن قولُه: «تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرّ»، والكلمة الثانيةُ أحسن وأجمل.

وقرأتُ في بعض الآثار أن عيسى عليه السلام مرّ بقريةٍ وإذا أهلها مَوْتَى في الطّرُق والأفنية، فقال للتلامذة: إنّ هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافَنوا، فقالوا يا سيّدَنا: وَدِدْنا أنا عَلِمْنا خبرَهم، فسأل الله تعالى، فقال له: إذا كان الليلُ فنادِهم يجيبوك، فلما كان اللّيلُ أشرَف على نَشَزٍ ثمّ ناداهم، فأجابه مجيب، فقال: ما حالُكم، وما قصّتُكم؟ فقال: بِتْنا في عافية، وأصبَحْنا في الهاوية، قال: وكيف ذلك؟ قال: لحبّنا الدنيا، قال: كيف كان حبكم لها؟ قال: حبّ الصبيّ لأمه، إذا أقبلتْ فَرِحَ بها، وإذا أدبرتْ حَزِن عليها وبَكَى، قال: فما بالُ أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم ملجَمون بلُجُم من نارٍ بأيدي ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد، قال: فكيف أجبتَني أنتَ مِن بينهم؟ قال: لأني كنتُ فيهم، ولم أكن منهم، فلمّا نزل بهم العذابُ أصابني معهم، فأنا معلّق على شَفِير جهنّم لا أدرِي أنجو منها أم أكَبْكب فيها؟ فقال المسِيح لتلامذته: لأكْل خُبز الشّعير بالملح الجَريشِ ولبْس المُسُوح والنّوم على المزابل وسِباخِ الأرض في حرّ الصيف، كثيرٌ مع العافية مِن عذاب الآخرة.

- ٤٢٣ -

الأصل: وإِنّ أَهْلَ الدُّنْيا كَرَكْبٍ، بَيْنا هُمْ حَلُّوا إِذْ صاحَ بِهِمْ سائِقُهُمْ فارْتَحَلُوا.

الشرح: رُوِي: «بينَا هُم حُلُول»، وبينا هي بَيْن نفسها، ووزنها «فَعْلى»، أُشبِعت فَتحةُ النون فصارت ألفاً، ثمّ قالوا: «بينما» فزادوا «ما»، والمعنى واحد، تقول: بينَا نحن نفعل كذا جاء زيد، أي بين أوقاتِ فِعلِنا كذا جاءَ زيدٌ، والجملُ قد يضافُ إليها أسماءُ الزمان نحو قولهم: «أتيتُك زَمَن الحَجّاج أمير»، ثمّ حذفوا المضافَ الّذي هو أوقات، وَولي الظّرف الذي هو بين الجملة الّتي أقيمتْ مَقام المحذوف.

وكان الأصمعيّ يخفِض بعدَ «بينا» إذا صَلَح في موضعه «بَين»، ويُنشِد قول أبي ذُؤيب بالكسْر:

بَيْنا تَعَنُّقِه الكُماة ورَوْغِهِ يوماً أُتِيحَ له جَرِيءٌ سَلْفَعُ

وغيرُه يَرْفَع ما بعد «بَيْنا» و«بينما» على الابتداء والخبر، فأمّا إذْ وإذَا فإنّ أكثر أهل العربية يمنعون من مَجيئهما بعد بَيْنا وبينما، ومنهم من يُجيزه، وعليه جاء كلامُ أمير المؤمنين، وأنشدوا:

بينما الناسُ على عَلْيائِها ... إذ هوَوْا في هُوَّةٍ منها فَغاروا

وقالت الحُرَقة بنتُ النُّعمان بن المنذر:

وبَيْنا نسوسُ النّاسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحنُ فيهمْ سُوقةٌ نتنصَّفُ

وقال الشاعر:

استَقدِرِ اللهَ خيراً وارضَيَنّ به ... فبينما العُسْر إذا دارتْ مَياسِيرُ

وبَينما المرءُ في الأحياءِ مُغْتبِطٌ ... إذ صارَ في اللّحْدِ تَعفُوه الأعاصِيرُ

وممّا جاءَ في وصف الدّنيا ممّا يناسب كلامَ أمير المؤمنين قولُ أبي العَتاهية:

إنّ داراً نحن فيها لدارٌ ... ليس فيها لمقيم قَرارُ

كم وكمْ قد حلَّها من أناسٍ ... ذَهبَ اللّيلُ بهمْ والنّهارُ

فهُمُ الرَّكْب قد أصابوا مَناخاً ... فاستراحوا ساعةً ثم ساروا

وكذا الدّنيا على ما رَأيْنا ... يَذهَب الناسُ وتخلُو الدّيارُ

- ٤٢٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لابنِهِ الحسن عليه السلام:

يَا بُنَيَّ، لا تُخلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيا فَإنَّكَ تُخلِّفُهُ لِأحَدِ رَجُلَيْنِ: إمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيه بِطَاعَةِ الله فسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، وَإمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ الله فشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، فَكُنْتَ عوْناً لَهُ على مَعْصِيَتِهِ، وَلَيْسَ أحَدُ هَذَيْنِ حَقِيقاً أنْ تُؤثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ.

ويُرْوَى هذَا الكلامُ على وجهٍ آخرَ، وهو:

أمَّا بَعْدُ، فَإنَّ الَّذِي فِي يَدَيْكَ مِنَ الدُّنْيا قَدْ كَانَ لَهُ أهْلٌ قَبْلَكَ، وَهُوَ صَائِرٌ إلَى أهْلٍ بَعْدَكَ، وَإنَّمَا أنْتَ جَامِعٌ لأحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطاعَةِ الله فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، أوْ رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِمَعْصِيَةِ الله فَشَقِيَ بمَا جَمَعْتَ لَهُ، وَلَيْسَ أحَدُ هَذَيْنِ أهْلاً أنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ، أوْ تَحْمِلَ لَهُ على ظَهْرِكَ، فَارْجُ لِمَنْ مَضَى رَحْمَةَ الله، وَلِمَنْ بَقِي رِزْقَ الله تَعَالَى.

الشرح: رُوِي: «فإنّكَ لا تُخلّفه إلّا لأحدِ رجلين»، وهذا الفصل نَهيٌ عن الادّخار، وقد سَبَق لنا فيه كلامٌ مُقنع.

وخلاصةُ هذا الفَصْلِ أنّك إنْ خلّفت مالاً، فإمّا أن تخلّفه لمن يَعمل فيه بطاعة الله، أو لِمن يَعمَل فيه بمعصيته، فالأوّل يَسعَد بما شَقيتَ به أنتَ، والثاني يكون مُعاناً منك على المَعْصية بما تركتَه له من المال، وكلا الأمرينِ مذموم، وإنّما قال له: «فارْجُ لمن مضى رحمة الله، ولمن بَقيَ رزقَ الله»، لأنه قال في أوّل الكلام: «قد كان لهذا المال أهلٌ قَبْلَك، وهو صائرٌ إلى أهلِ بعدك».

والكلامُ في ذَمّ الادّخار والجمعِ كثيرٌ، وللشّعراء فيه مذاهبُ واسعة ومَعانٍ حَسَنة.

وقال بعضهم:

يا جامعاً مانعاً والدّهرُ يَرمُقُه ... مدبِّراً أيَّ باب عنه يُغلِقُهُ
وناسِياً كيف تأتِيه مَنِيّتُه ... أغادِياً أم بها يَسرِي فتَطرُقه
جمعتَ مالاً فقل لي هل جَمعتَ له ... يا جامعَ المال أيّاماً تُفرِّقُهُ
المالُ عندَك مخزونٌ لوَارِثِه ... ما المالُ مالُكَ إلّا يَوْمَ تُنفِقُهُ
أرْفِه ببالِ فتًى يَغدو على ثقةٍ ... أنَّ الذي قَسَم الأرزاقَ يَرزُقُهُ
فالعِرْض منه مَصُونٌ لا يُدنِّسُه ... والوجهُ منه جديد ليس يُخلِقُه
إنّ القناعةَ من يَحلُلْ بساحَتِها ... لم يَلْقَ في ظِلّها همًّا يؤرِّقُه

— ٤٢٥ —

الأصل: وقالَ عليه السلام لقائلٍ قالَ بحضرَتِهِ أستغفرُ الله: ثَكِلَتْكَ أُمُّك! أتَدرِي مَا الاستِغْفَارُ؟ إِنَّ للاستِغْفَارِ دَرَجَةَ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُها النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبداً، وَالثَّالِثُ أَنْ تُؤدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، وَالرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَها فَتُؤدِّيَ حَقَّهَا، والخامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، السَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كما أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ الله.

الشرح: قد رُوِي: «إنَّ الاستغفارَ درجةُ العلّيين»، فيكون على تقدير حَذف مضاف، أي أنّ دَرجة الاستغفار درجة العِلّيّين، وعلى الرواية الأولى يكون على تقدير حَذْف مضاف، أي أن لصاحب الاستغفار درجة العلّيين. وهو هاهنا جمعٌ على «فِعّيل» كضلّيل وخِمّير، تقول: هذا رجلٌ

عليّ، أي كثيرُ العلوّ، ومنه العلّية للغُرْفة على إحدى اللّغتين، ولا يجوز أن يفسَّر بما فَسّر به الراونديّ من قوله: إنه اسمُ السماء السابعة، ونحو قوله: «هو سِدْرة المنتهى»، ونحو قوله: «هو موضعٌ تحت قائمةِ العَرْش اليمنى»، لأنه لو كان كذلك لكان عَلَما، فلم تدخُله اللّام. كما لا يقال: «الْجَهنّم»، وكذلك أيضاً لا يجوز تفسيرُه بما فسّره الراونديّ أيضاً، قال: العليّين، جمع عليّ: الأمكنة في السماء، لأنه لو كان كذلك لم يُجمع بالنون لأنها تختصّ بمن يَعقل، وتصلح أن تكون الوجوه الأولى تفسيراً لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[1].

قوله: «نَبَت على السُّحت»، أي على الحرام، يقال: سُحْت، بالتسكين، وسُحُت بالضمّ، وأسحَت الرجلُ في تجارتِه، أي اكتَسب السُّحْت.

في ماهية التوبة وشروطها

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع كلاماً مختصراً مما يقوله أصحابُنا في التوبة، فإنّ كلام أميرِ المؤمنين هو الأصل الذي أخَذَ منه أصحابُنا مَقالتَهم، والذي يقولونه في التوبة، فقد أتى على جوامِعه عليه السلام في هذا الفصل على اختصاره.

قال أصحابنا: الكلام في التوبة يقع من وجوه: منها الكلامُ في ماهية التوبة والكلام في إسقاطِها الذّمّ والعقاب، والكلام في أنه يجب علينا فِعلُها، والكلام في شُرُطها.

أما ماهيّة التوبة فهي النّدم والعَزْم، لأنّ التوبة هي الإنابة والرّجوع، وليس يمكن أن يرجع الإنسانُ عمّا فعله إلا بالنّدم عليه، والعزم على تَرْك معاودته، وما يتوب الإنسان منه، إمّا أن يكون فعلاً قبيحاً، وإما أن يكون إخلالاً بواجب، فالتوبة من الفعلِ القبيح هي أن يَندَم عليه، ويَعزِم ألّا يعود إلى مِثله، وعَزمُه على ذلك هو كراهيته لفِعله، والتوبةُ من الإخلال بالواجب هي أن يَندَم على إخلاله بالواجب ويَعزم على أداء الواجب فيما بعد.

فأما القول في أن التوبة تُسقِط العذاب فعندنا أن العقل يقتضي قُبح العقاب بعد التوبة، وخالف أكثرُ المرجئة في ذلك من الإمامية وغيرهم، واحتجّ أصحابُنا بقُبح عقوبة المسيء إلينا بعد ندمِه واعتذارِه وتنصُّله، والعلم بصدقه والعلم بأنّه عازمٌ على ألّا يعود.

فأما القول في وجوب التوبة على العُصاة، فلا ريب أنّ الشرع يوجب ذلك، فأمّا العقل فالقول فيه أنه لا يخلو المكلَّف إما أن يَعلم أن معصيته كبيرة، أو يعلم أنها صغيرة، أو يجوز فيها كلا الأمرين، فإن عَلم كونها كبيرة وَجب عليه في العقول التوبة منها، لأن التوبة مُزِيلة لضَرَر الكبيرة، وإزالة المضارّ واجبة في العقول، وإن جوّز كونها كبيرة وجوّز كونها صغيرة،

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٨.

لزمه أيضاً في العقل التوبة منها، لأنه يأمن بالتوبة من مَضَرّة مخوفة، وفعل ما يؤمن من المضارّ المخوفة واجب، وإن علم أنّ معصيته صغيرة، وذلك كمعاصي الأنبياء، وكمن عصى ثمّ علم بإخبار نبيّ أنّ معصيته صغيرة محبطة، فقد قال الشيخ أبو عليّ: إنّ التوبة منها واجبة في العقول، لأنه إن لم يتب كان مُصِرًّا والإصرار قبيح.

وقال الشيخ أبو هاشم: لا تجب التوبة منها في العقل بالشرع، لأنّ فيها مصلحة يعلمها الله تعالى، قال: إنه يجوز أن يخلو الإنسان من التوبة عن الذنب، ومن الإصرار عليه، لأنّ الإصرار عليه هو العزم على مُعاوَدة مِثله، والتوبة منه أن يَكره معاودة مثله مع الندم على ما مضى، ويجوز أن يخلوَ الإنسانُ من العَزْم على الشيء، ومن كراهته.

ومال شيخنا أبو الحسين رحمه الله إلى وجوب التوبة هاهنا عَقْلاً، لدليلٍ غيرِ دليل أبي عليّ رحمه الله.

فأما القولُ في صفات التَّوبة وشروطها فإنها على ضربين:

أحدُهما: يعمّ كلّ توبة، والآخر يختلف بحَسَب اختلاف ما يتاب منه، فالأول هو النّدم والعَزْم على ترك المعاوَدة.

وأما الضرب الثاني، فهو أنّ ما يَتُوب منه المكلَّف إما أن يكون فِعْلاً أو إخلالاً بواجب، فإن كان فعلاً قبيحاً وَجَب عند الشيخ أبي هاشم رحمه الله أن يندم عليه، لأنه فعل قبيح، وأن يكره مُعاوَدة مثله لأنه قبيح، وإن كان إخلالاً بواجب وَجَب عليه عنده أن يَندم عليه، لأنه إخلالٌ بواجب، وأن يعزم على فعل مِثلِ ما أَخَلَّ به لأنه واجب، فإن نَدِم خوف النار فقط، أو شوقاً إلى الجنة فقط، أو لأنّ القبيح الذي فعله يضرّ ببدنه كانت توبته صحيحة، وإن ندم على القبيح لقُبْحِهِ ولخوف النار، وكان لو انفرد قبحه ندِم عليه، فإنّ توبته تكون صحيحةً، وإن كان لو انفرد القبحُ لم يَندَم عليه، فإنه لا تكون تَوبتُه صحيحةً عنده، والخلاف فيه مع الشيخ أبي عليّ وغيره من الشيوخ رحمهم الله، وإنما اختار أبو هاشم هذا القول لأنّ التوبة تَجرِي مَجرَى الاعتذار بيننا، ومعلوم أن الواحد منّا لو أساء إلى غيره ثمّ نَدِم على إساءته إليه واعتذر منها خوفاً من معاقبته له عليها، أو من معاقبة السلطان حتى لو أمن العقوبة، لما اعتذر ولا نَدِم، بل كان يُواصِل الإساءة، فإنه لا يسقط ذمُّه، فكذلك التّوبة خوف النار لا لِقُبح الفعل.

وقد نقل قاضي القُضاة هذا المذهب عن أمير المؤمنين عليه السلام والحسن البَصْريّ وعليّ بن موسى الرِّضا والقاسم بن إبراهيم الزَّينبيّ.

قال أصحابُنا: وللتوبة شروط أُخَرُ تَختلِف بحَسَب اختلاف المعاصي، وذلك أنّ ما يتوب منه المكلّف، إما أن يكون فيه لآدميّ حَقٌّ أو لا حقَّ فيه لآدميّ، فما ليس للآدميّ فيه حقّ فنحو تَرْك الصّلاة، فإنّه لا يجب فيه إلا النّدم والعَزْم على ما قدّمنا وما لآدميّ فيه حقٌّ على ضربين:

أحدُهما أن يكون جنايةً عليه في نفسِه أو أعضائه أو مالِه أو دِينِهِ، والآخَر ألا يكون جِنايةً عليه في شيء من ذلك، فما كان جنايةً عليه في نفسِه أو أعضائهِ أو مالِهِ، فالواجبُ فيه النَّدَم والعَزْم، وأن يَشرعِ في تسليم بدل ما أتْلَف، فإن لم يتمكّن من ذلك لِفقرٍ أو غيره عَزَم على ذلك إذا تمكّن منه، فإنْ مات قبلَ التمكّن لم يكن من أهلِ العِقاب، وإن جَنَى عليه في دينه بأن يكون قد أضلَّه بشُبْهة استَزَلّه بها، فالواجبُ عليه مع النَّدم العَزْم والاجتهاد في حَلِّ شبهتِهِ من نفسِه، فإن لم يتمكّن من الاجتماع به عزم على ذلك إذا تمكّن، فإنْ ماتَ قبلَ التمكن، أو تمكن منه واجتَهَد في حلّ الشبهة فلم تَنحَلّ من نفس ذلك الضالّ، فلا عقابَ عليه، لأنه قد استفْرَغ جهدَه، فإن كانت المعصية غيرَ جناية نحو أن يَغتَابه أو يَسمَع غيبتَه فإنه يَلزَمه النَّدم والعَزْم، ولا يلزَمه أن يستحلَّه أو يعتذرَ إليه، لأنه ليس يلزمه أرْشٌ لمن اغتابه فيستحلّه، ليَسقُط عنه الأرْشُ، ولا غَمَّه فيزيل غمّه بالاعتذار، وفي ذكر الغِيبَة له ليستحِلّه فيزيل غمّه منها إدخالُ غمٍّ عليه، فلم يَجُزْ ذلك، فإن كان قد أسمَع المغتابَ غيبَته فذلك جِنايةٌ عليه، لأنّه قد أوصَل إليه مَضرّة الغمّ، فيَلزَمه إزالة ذلك بالاعتذار.

– ٤٢٦ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: الحِلْمُ عَشِيرَةٌ.

الشرح: كان يقال: الحلم جنودٌ مجنَّدة لا أرزاقَ لها.

وقال عليه السلام: وجدتُ الاحتمالَ أنصرَ لي من الرّجال. وقال الشاعر:

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللئيمِ تكرُّماً ... أضَرُّ له من شَتْمِهِ حينَ يشتمِ

وكان يقال: مَن غَرَس شجرة الحِلْم، اجتَنَى ثَمرَة السِّلْم.

وقد تقدّم من القول في الحِلْم ما فيه كفاية.

– ٤٢٧ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ! مَكْتُومُ الأَجَلِ، مَكْنُونُ العِلَلِ، مَحفُوظُ العَمَلِ، تُؤلِمُهُ البَقَّةُ، وتَقتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وتُنْتِنُهُ العَرْقَةُ.

الشرح: قد تقدّم هاهنا خبر المبتدأ عليه، والتقدير: «ٱبنُ آدم مِسكين»، ثمّ بيّن مَسْكَنته من أين هي؟ فقال: إنّها من سِتّة أوجُه: أجلُه مكتوم لا يَدرِي مَتَى يُختَرَم، وعِلَلُه باطنة لا يدرِي بها حتّى تَهيجَ عليه، وعَملُه محفوظ، ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[1]، وقَرْص البَقّة يؤلمُه، والشَّرْقة بالماء تَقتُله، وإذا عَرِق أنتنَتْه العَرْقة الواحدة وغيّرتْ رِيحَه، فمن هو على هذه الصِّفات فهو مسكين لا محالةَ، لا ينبغي أن يأمَن ولا أن يَفْخَر.

- ٤٢٨ -

الأصل: وَيُرْوى انهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ جالساً في أصحابِهِ إذ مرَّتْ بهمْ امرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَرَمَقَها القوْمُ بأبصارِهم، فقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الفُحُولِ طَوَامِحُ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هِبَابِهَا، فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلامِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَامْرَأَتِهِ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ: قَاتَلَهُ الله كَافِراً، مَا أَفْقَهَهُ!

قالَ: فَوَثَبَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رُوَيْداً، إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ.

الشرح: تقول: هَبَّ الفَحْل والتَّيسَ يهِبّ بالكَسْر هَبِيباً أو هباباً، إذا هَاجَ للضِّراب أو للسِّفاد، والهباب أيضاً: صَوتٌ، والتَّيسُ إذا هبّ فهو مِهْباب، وقد هَبْهبتُه، أي دعوتُه ليَنزُوَ فتهبهب، أي: تَزعْزَع.

وسَألني صديقُنا عليُّ بن البِطْريق عن هذه القِصّة فقال: ما بالُه عَفَا عن الخارجيّ وقد طَعَن فيه بالكفر، وأنكَر على الأشعث قوله: «هذه عليكَ لا لَك»، فقال: ما يُدْريك عليكَ لعنةُ الله ما عليّ مما لي! حائك ابن حائك، منافق ابن كافر! وما وَاجَهَه به الخارجيّ أفظَع ممّا واجَهَه الأشعث! فقلتُ: لا أدري.

قال: لأنّ كلّ صاحب فضيلة يعظُم عليه أن يُطعَن في فضيلته تلك، ويُدَّعَى عليه أنّه فيها ناقص، وكان عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيت العلم، فلمّا طعن فيه الأشعث طعن بأنّك لا تَدْري ما عليك ممّا لك، فشَقّ ذلك عليه، وامتَعَض منه، وَجَبَهه ولَعَنَه، وأمّا الخارجي فلم يَطعَن في عِلمه، بل أثبته

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

له، واعتَرَف به، وتعجّب منه، فقال: «قَاتَله الله كافراً ما أفقَهَه!»، فاغتَفَر له لفظةَ «كافر» بما اعترف له به من علوّ طَبَقته في الفِقْه، ولم يَخشُن عليه خُشونته على الأشعث، وكان قد مَرَن على سَماعِ قول الخوارج: أنت كافر، وقد كفرتَ، يَعنُون التّحكيم، فلم يَحفِل بتلك اللّفظة ونَهى أصحابَه عن قتلِه محافظة ورعايةً له على ما مَدَحه به.

– ٤٢٩ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: كفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ، مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ.

الشرح: يقول عليه السلام: كفَى الإنسان من عِقْله ما يَفرِقُ به بين الغيّ والرّشاد، وبين الحقّ من العقائد والباطل، فإنّه بذلك يتمّ تكليفُه، ولا حاجةَ في التّكليف، والفَرْق بين الغَيّ والرُّشد إلى زيادة على ذلك، نحو التجارب الّتي تُفِيده الحَزْم التامّ، ومعرفة أحوالِ الدّنيا وَأهلِها، وأيضاً لا حاجةَ له إلى أن يكون عندَه من الفِطْنة الثّاقبة والذّكاء التّام ما يَستنبِط به دقائقَ الكلام في الحِكْمة والهَنْدسة والعلوم الغامِضَة، فإنّ ذلك كلّه فَضْل مستغنًى عنه، فإنْ حُصّل للإنسان فقد كَمُل، وإن لم يُحصَّل للإنسان فقد كَفَاه في تكليفه ونجاتِه من مَعاطِب العِصْيان ما يَفرِق به بين الغَيّ والرّشاد، وهو حصول العلوم البديهية في القَلْب، وما جَرَى مجراها من علوم العادات، وما يذكره أصحابُنا في باب التكليف.

– ٤٣٠ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: افْعَلُوا الخَيْرَ، وَلا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ، وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ وَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الخَيْرِ مِنِّي، فَيَكُونَ وَاللهِ كَذَلِكَ.

الشرح: القليلُ من الخير خيرٌ مِنْ عدَم الخيرِ أصلاً.

قال عليه السلام: لا يقولَنّ أحدُكم إنّ فلاناً أولَى بفِعْل الخَيْر منّي، فيكون والله كذلك، مثالُه قوم مُوسِرون في محلّة واحدة، قَصَد واحداً منهم سائلٌ فرَدّه، وقال له: اذهبْ إلى فلان، فهو أولَى بأن يتصدّق عليك منّي، فإنّ هذه الكلمة تقال دائماً، نَهَى عليه السلام عن قولِها وقال: «فيكونَ والله

كذلك»، أي أنّ الله تعالى يوفّق ذلك الشخص الّذي أحيلَ ذلك السائلُ عليه، ويُيسّر الصّدَقة عليه، ويُقوّي دواعيَه إليها، فيَفعَلها فتكون كلمة ذلك الإنسان الأوّل قد صادفتْ قَدَراً وقَضاءً، ووَقع الأمر بمُوجِبها.

- ٤٣١ -

الأصل: إنَّ لِلْخيرِ وَللشَّرِّ أَهْلاً، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ.

الشرح: يقول عليه السلام: إنْ عَنَّ لك بابٌ من أبواب الخير وتركتَه، فسوف يَكفيكَه بعضُ الناس ممّن جَعَله الله تعالى أهلاً للخير وإسداءِ المعروفِ إلى الناس، وإنْ عنّ لك بابٌ من أبواب الشرّ فتركْتَه، فسوفَ يَكفيكَه بعضُ الناس ممن جعلتْهم أنفسُهم وسوءُ اختيارهم أهلاً للشرّ وأذى الناس، فاخترْ لنفسك أيّما أحبّ إليك، أن تَحظَى بالمَحمَدة والثواب، وتَفعل ما إن تركتَه فَعَلَه غيرُك وحَظِي بحَمْده وثوابه، أو أن تَترُكه! وأيّما أحبّ إليك: أن تَشقَى بالذمّ عاجلاً، والعقابِ آجلاً، وتفعل ما إن تركْته كَفاكَه غيرُك، وبلغتَ غرضك منه على يدِ غيرِك، أو أن تفعله ولا ريبَ أنّ العاقلَ يختارُ فعلَ الخير وترك الشرّ إذا أفْكر حقّ الفِكْر فيما قد أوضحْناه.

- ٤٣٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصْلَحَ الله عَلانِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ، كَفَاهُ الله أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله، أَحْسَنَ الله مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس.

الشرح: لا ريبَ أنّ الأعمال الظاهرة تَبَعٌ للأعمال الباطنة، فمَن صَلَح باطنُه صَلَح ظاهرُه وبالعكس، وذلك لأنّ القلبَ أميرٌ مسلَّطٌ على الجوارح، والرعيّة تَتْبَع أميرَها ولا ريبَ أنّ من عَمِل لدينهِ كفاهُ الله أمرَ دُنْياه، وقد شَهِد بذلك الكتابُ العَزِيزُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

ولهذا أيضاً عِلّة ظاهرة، وذاك أنّ من عَمِل لله سبحانه وللدّين فإنه لا يخفى حالُه في أكثر الأمر عن الناس، ولا شبهة أنّ الناس إذا حَسُنتْ عقيدتُهم في إنسان وعَلِموا مَتانَة دينه بَوّبوا له إلى الدّنيا أبواباً لا يَحتاجُ أن يتكلّفها، ولا يَتعَب فيها، فيأتيه رزقُه من غيرِ كُلْفة ولا كَدّ، ولا ريبَ أنّ من أحسَن فيما بينَه وبين الله أحسَنَ الله ما بينه وبين الناس، وذلك لأنّ القلوبَ بالضّرورة تميلُ إليه وتحبّه، وذلك لأنّه إذا كان مُحسِناً بينَه وبين الناس عَفَّ عن أموالِ الناس ودِمائِهم وأعراضِهم، وَترَك الدخولَ فيما لا يَعنيه، ولا شبهةَ أنّ من كان بهذه الصّفة فإنه يحسن ما بينَه وبين الناس.

- ٤٣٣ -

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ.

الشرح: لمّا جعل الله الحِلْم غِطاءً، والعَقل حُساماً، أمرَه أن يَستُر خَلَل خُلُقه بذلك الغِطاء وأن يُقاتِل هَواهُ بذلك الحُسام، وقد سبق القولُ في الحلم والعَقْل.

- ٤٣٤ -

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إنَّ لله عِباداً يَخْتَصُّهُمْ بالنِّعَم لمَنَافِعِ العِبَادِ، فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوها نَزَعَهَا مِنْهُمْ، ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ.

الشرح: قد ذكرْنا هذا المعنى فيما تقدّم، وقد قالت الشعراءُ فيه فأكثَروا، وقريبٌ من ذلك قولُ الشاعر:

وبالنّاس عاشَ الناسُ قِدْماً ولم يَزَلْ ... من النـاسِ مَرْغـوبٌ إليـه ورَاغِـبُ

وأشدّ تصريحاً بالمعنى قول الشاعر:

لـم يُـعطِـك اللهُ ما أعـطـاكَ من نِـعَـمٍ ... إلاّ لـتُـوسِـعَ مـن يَـرْجـوكَ إحـسـانَـا
فـإنْ مَـنَـعـت فـأخـلِـقْ أن تُـصـادِفـهـا ... تـطـيـر عـنـكَ زرافـاتٍ ووِحْـدانَـا

- ٤٣٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : لا يَنبَغِي لِلعَبْدِ أنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْن : العافِيَةِ والْغِنَى ، بَيْنَا تَرَاهُ مُعافًى إذْ سقِمَ وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنيًّا إذ افْتَقَرَ.

الشرح: قد تقدَّم القولُ في هذا المعنى.

وقال الشاعر:

وبينما المرءُ في الأحياءِ مُغْتَبِط إذ صارَ في اللّحْدِ تَسْفِيهِ الأعاصيرُ

وقال آخرُ:

لا يَغُرَّنْك عشاءٌ ساكنٌ قد يُوافِي بالمنِيّاتِ السَّحَرْ

وقال عُبيدُ الله بنُ طاهر:

وإذا ما أعارَك الدهرُ شيئاً فهُوَ لا بدّ آخِذٌ ما أعارَا

آخر:

يَغُرُّ الفَتَى مَرُّ الليالي سَليمةً وهُنّ به عمّا قَليلٍ عَواثِرُ

وقال آخر:

ورُبَ غَنِيٍّ عظيم الثَّراءِ أمسَى مُقِلًا عَديماً فَقيرَا
وكم باتَ مِنْ مُترَفٍ في القُصور فعُوّض في الصّبح عنها القُبورَا

- ٤٣٦ -

الأصل: وقال عليه السلام : مَنْ شَكا الحاجَةَ إلَى مُؤمِنٍ فَكأنَّما شَكاهَا إلى الله ، ومَنْ شَكاها إلى كافرٍ فَكأنَّما شَكَا الله.

الشرح: قد تقدَّم القولُ في شَكوَى الحالِ وكراهيتها ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام يدلُّ على أنه لا يَكرَه شَكوَى الحالِ إلى المؤمن ، ويَكرَهها إلى غير المؤمن ، وهذا مذهبٌ دِينيٌّ غيرُ المذهب العُرْفيّ.

وأكثر مذاهِبه ومقاصده عليه السلام في كلمه يَنْحو فيها نحوَ الدِّين والوَرَع والإسلام، وكأنّه يَجعَل الشكوى إلى المؤمن كالشكوى إلى الخالق سبحانه، لأنه لا يشكو إلى المؤمن إلّا وقد خَلَتْ شكْواه من التسخُّط والتأفّف، ولا يشكُو إلى الكافر إلّا وقد شابَ شَكْواه بالاستزادة والتَّضجُّر، فافترقَت الحالُ في الموضعين.

فأمّا المذهب المشهورُ في العُرْف والعادة فاستهْجانُ الشّكوى على الإطلاق لأنّها دليلٌ على ضَعْف النفس وخذْلانها، وقلّة الصّبر على حوادث الدّهر، وذلك عندَهم غيرُ محمود.

- ٤٣٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام في بعضِ الأعيادِ: إنَّما هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ الله صِيامَهُ، وشَكَرَ قِيامَهُ، وكُلُّ يَوْمٍ لا نَعْصِي الله فيهِ فَهُوَ يَوْمُ عِيدٍ.

الشرح: المعنَى ظاهرٌ، وقد نَقَله بعضُ المُحدثين إلى الغزَل فقال:

قالوا أتَى العِيدُ قلتُ أهلاً ... إنْ جاءَ بالوَصْلِ فهوَ عِيدُ
مَنْ ظَفِرتْ بالمنى يداهُ ... فكلّ أيامِهِ سُعودُ

ورأيتُ بعضَ الصُّوفيّة وقد سَمع هٰذين البيتين من مُغَنٍّ حاذقٍ، فطَرِب وصَفّق وأخذَهما لمعنًى عندَه.

وقد قال بعضُ المحدثين في هذا المعنى أيضاً:

قالوا أتى العِيدُ والأيامُ مشرقةٌ ... وأنتَ تبكِي وكل الناسِ مَسرُورُ
فقلتُ إنْ واصَلَ الأحبابُ كان لنا ... عيداً وإلا فهذا اليومُ عاشُورُ

- ٤٣٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: إنَّ أعْظَمَ الحَسَرَاتِ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مالاً في غَيْرِ طاعةِ الله، فَوَرَّثَهُ رَجُلاً فأنْفَقَهُ في طاعَةِ الله سُبْحانَهُ فَدَخَلَ بِهِ الجَنَّةَ، ودَخَلَ الأوّلُ بِهِ النَّارَ.

الشرح: كان يقال لعمر بن عبد العزيز بن مروان: السعيد ابن الشقيّ، وذلك أنّ عبدَ العزيز بن مروان مَلَكَ ضِياعاً كثيرة بمصر والشام والعراق والمدينة من غير طاعة الله، بل بسلطان أخيه عبد الملك، وبولاية عبد العزيز نفسه مصر وغيرها، ثمّ تركها لابنه عمر، فكان يُنْفِقُها في طاعة الله سبحانه وفي وجوه البرّ والقُربات، إلى أن أفضَت الخلافةُ إليه، فلما أفضت إليه أخرَج سِجِلّات عبد الملك بها لعبد العزيز فمزّقها بمَحضَر من الناس، وقال: هذه كُتِبتْ من غير أصل شرعيّ، وقد أعدتُها إلى بيت المال.

- ٤٣٩ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : إنَّ أَخسَرَ النَّاس صَفْقَةً، وَأَخْيَبَهُمْ سَعْياً، رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ آمَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ المقَادِيرُ على إرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَى الآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ.

الشرح: هذه صورةُ أكثر الناس، وذلك لأنّ أكثرهم يَكُدّ بدنَه ونفسَه في بلوغِ الآمال الدنيويّة، والقليل منهم من تساعِده المقاديرُ على إرادته، وإن ساعدَتْه على شيء منها بقِيَ في نفسه مالا يَبْلغه، كما قيل:

نَروحُ ونَغدُو لحاجاتنا ... وحاجَةُ من عاش لا تَنْقضِي

تَموتُ مع المرءِ حاجاتُه ... وتَبْقى له حاجَةٌ ما بقِي

فأكثرُهم إذَنْ يَخرُج من الدنيا بحَسْرته، ويُقدِم على الآخرة بتَبِعته، لأنّ تلك الآمال التي كانت الحركة والسعيُ فيها ليستْ متعلقةً بأمور الدّين والآخرة، لا جَرَم أنها تبعات وعُقوبات، ونسأل الله عَفوَه.

- ٤٤٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : الرِّزْقُ رِزْقَانِ: طَالِبٌ وَمَطْلُوبٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ المَوْتُ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْهَا، وَمَنْ طَلَبَ الآخرةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِي مِنْهَا رِزْقَهُ.

الشرح: هذا تحريضٌ على طلب الآخرة، ووَعْد لمن طَلَبها بأنه سيُكفى طلب الدنيا، وإنّ الدنيا ستَطلُبُه حتى يستوفيَ رزقَه منها.

وقد قيل: مَثَل الدّنيا مَثَل ظِلّك، كلّما طلبتَه بَعُد عنك، فإن أدبَرْتَ عنه تَبِعَك.

- ٤٤١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: إنَّ أَوْلياءَ الله هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلى باطِنِ الدُّنيَا إذا نَظَرَ النَّاسُ إلى ظاهِرِها، واشْتَغَلُوا بآجِلِها إِذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعاجِلِها، فَأَماتُوا مِنْها ما خَشُوا أَنْ يُميتَهُمْ وتَرَكُوا مِنْها ما عَلِمُوا أَنَّهُ سيَتْرُكُهُمْ، وَرَأَوا اسْتِكْثارَ غَيْرِهِم مِنْها اسْتِقْلالاً، وَدَرَكَهُمْ لَهَا فَواتاً، أَعداءٌ لما سالَمَ النَّاسُ، وسَلْمٌ لِمَنْ عادَى النَّاسُ، بِهِمْ عُلِمَ الكِتابُ، وبِهِ عَلِمُوا، وَبِهِمْ قَامَ كتابُ الله تعالى، وَبِهِ قَامُوا، لا يَرَوْنَ مَرْجُوّاً فَوْقَ ما يَرْجُونَ، ولا مَخُوفاً فَوْقَ مَا يَخافُونَ.

الشرح: هذا يَصلُح ان تَجعله الإماميّة شرح حال الأئمّة المعصومين على مذاهبهم، لقَولِهِ: فوقَ ما يَرْجون، بهم عُلم الكتاب، وبه عَلِموا، وأما نحن فنجعله شرح حالِ العلماء العارفين وهم أولياءُ الله الذين ذكرهم عليه السلام لما نظر الناسُ إلى ظاهر الدنيا وزُخرُفها من المناكح والملابس والشّهوات الحِسّية، نظروا هُمْ إلى باطن الدنيا، فاشتغلوا بالعلوم والمعارف والعبادة والزهد في المَلاذّ الجُسْمانيّة، فأماتُوا من شَهَواتِهم وقُواهم المذمومة كقوّة الغَضب وقوّة الحسد ما خافوا أن يُميتَهم، وتَركُوا من الدنيا اقتناءَ الأموال لعلمهم أنها ستترُكهم، وأنه لا يمكن دوامُ الصُّحْبة معها، فكان استِكثارُ الناس من تلك الصفات استقلالاً عندهم، وبلوغ الناس لها فَوْتاً أيضاً عندهم، فهم خَصْم لما سالمه الناس مِن الشهوات، وسِلم لما عاداه الناس من العُلوم والعبادات، وبهم عُلم الكتاب، لأنه لولاهم لما عُرِف تأويل الآيات المتشابهات، ولأخذَها الناسُ على ظواهرها فضلّوا وبالكتاب عُلموا، لأن الكتابَ دلّ عليهم، ونبّه الناس على مواضعهم، نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١).

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٣).

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٩.

ونحو ذلك من الآيات التي تنادي عليهم، وتخطُب بفَضْلهم، وبهم قام الكتاب لأنهم قرّروا البَراهين على صِدْقه وصحة وروده من الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ولولاهم لم يَقُم على ذلك دَلالة للعوامّ، وبالكتاب قاموا، أي باتباع أوامر الكتاب وآدابه قاموا، لأنه لولا تأدُّبهم بآداب القرآن، وامتثالهم أوامرَه، لما أغنى عنهم عِلمُهم شيئاً، بل كان وَبالُه عليهم، ثم قال: إنهم لا يَرَوْن مَرْجُوًّا فوق ما يَرْجون، ولا مَخُوفاً فوق ما يخافون، وكيف لا يكونون كذلك ومَرْجُوُّهم مجاوَرة الله تعالى في حظائر قُدْسه، وهل فوق هذا مَرْجُوّ لراجٍ، ومخوفهم سخط الله عليهم وإبعادُهم عن جَنَابه، وهل فوق هذا مخوفٌ لخائف.

– ٤٤٢ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: اُذْكُروا انقِطَاعَ اللَّذَّاتِ، وبَقاءَ التَّبِعاتِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في نحو هذا مراراً، وقال الشاعر:

تفنى اللّذاذةُ ممن نال بُغْيَتَهُ ... من الحرام، ويَبقَى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقب سُوءٍ في مَغَبّتها ... لا خير في لذّة من بعدها النّارُ

وراوَدَ رجل امرأة عن نفسها، فقالت له: إن امرأً يبيع جنّةً عرضُها السماوات والأرض بمقدار إصبَعين لجاهلٌ بالمساحَة، فاستحيا ورَجَع.

– ٤٤٣ –

الأصل: وقال عليه السلام: أُخْبُرْ تَقْلَهْ.

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ الله تَعالَى: ومن النَّاسِ مَنْ يرْوِي هذا لرسولِ الله صلى الله عليه وآله، وَمِمَّا يُقَوّي أنَّهُ مِنْ كلام أميرِ المؤمنين عليه السلام ما حَكاهُ ثَعلب قالَ: حدَّثنا ابن الأعرابي قالَ: قال المأمون: لولا أن عَليًّا عليه السلام قالَ: أُخْبُرْ تَقْلِه، لقلت أنا: اِقْلَهْ تَخْبُرْ.

الشرح: المعنى اختَبِر الناسَ وَجرّبهم تُبغِضهم، فإن التجربةَ تكشف لك مساوِيهم وسوءِ أخلاقهم، فَضربَ مَثلاً لمن يُظَنّ به الخيرُ وليس هناك، فأمّا قول المأمون: لولا أنّ عليًّا

قاله لقُلتُ: اقْلَهْ تَخْبُر، فليس المراد حقيقة القِلَى، وهو البُغْض بل المراد الهَجْر والقطيعة، يقول: قاطِعْ أخاك مجرّباً له هل يَبقَى على عَهدِك أم يَنقُضه ويحوّله عنك.

ومن كلام عُتبَة بن أبي سُفْيان: طيّروا الدّم في وجوه الشّباب، فإن حَلُموا وأحسَنوا الجواب فهم هم، وإلا فلا تَطمعوا فيهم، يقول: أغضِبوهم لأن الغضبان يَحمرّ وجهه، فإن ثبتوا لذلك الكلام المُغضِب وحَلُموا وأجابوا جوابَ الحليم العاقل، فهم ممن يُعقَد عليه الخِنصَر ويُرْجَى فلاحُه، وإن سَفِهُوا وشَتَموا ولم يَثبتُوا لذلك الكلام فلا رجاءَ لفلاحِهم. ومن المعنى الأوّل قولُ أبي العَلاء:

جرّبتُ دهرِي وأهلِيه فما تَركتْ ... ليَ التجاربُ في وُدِّ امرِئٍ غَرَضَا

وقال آخر:

وكنتُ أرى أنّ التجارِبَ عُدَّةٌ ... فخانَتْ ثِقاتُ الناسِ حتّى التجارِبُ

وقال عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

رأيتُ فُضَيْلاً كان شيئاً ملفَّفاً ... فأبرزَه التّمحيصُ[1] حتّى بدَا لِيَا

آخر:

عَتَبتُ على سَلْمٍ فلمّا فَقدْتُه ... وجرّبْتُ أقواماً رَجَعْتُ إلى سَلْمِ

مِثْله:

ذَمَمْتُك أوَّلاً حتّى إذا مَا ... بلَوْتُ سواكَ عَاد الذَمُّ حَمْدا

ولم أحْمَدْك من خَيْرٍ ولكن ... وَجَدتُ سِواكَ شرًّا منك جِدّا

فعُدْتُ إليكَ مُضْطرًّا ذَليلاً ... لأنّي لم أجِدْ مِنْ ذاك بُدّا

كمجهودٍ تَحامَى أكلَ مَيْتٍ ... فلمّا اضطُرّ عادَ إليه شدّا

الذي يتعلّق به غَرضُنا من الأبيات هو البَيْت الأوّل، وذكرنا سائرَها لحُسْنِها.

– ٤٤٤ –

الأصل: **وقالَ عليه السلام: ما كانَ الله عزّ وجل لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بابَ الشُّكْرِ، ويُغْلِقَ عَنْهُ بابَ الزِّيادَةِ، ولا لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ باب الدُّعاءِ، ويُغْلِقَ عَنْهُ باب الإجابَةِ، ولا لِيَفْتَحَ عَلَيْهِ بابَ التَّوْبَةِ، ويُغْلِقَ عَنْهُ بابَ المَغْفِرَةِ.**

(١) التمحيص: الابتلاء والاختبار. القاموس مادة (محص).

الشرح: قد تقدّم القولُ في الشّكر واقتضائِه الزيادة واقتضاء الدّعاء الإجابَة، والتّوبة: المغفرة، على وجهِ الاستقصاء في الجَميع.

- ٤٤٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: أوْلَى النَّاسِ بالْكَرَمِ مَن عَرَّقَتْ فِيهِ الكِرَامُ.

الشرح: اعرَقت وعَرَّقت في هذا المَوْضع بمعنًى، اي ضربتْ عروقُه في الكَرَم، اي: له سَلَف وآباءٌ كرامٌ. وقال المبرّد: أنشدني أبو محلم السّعديّ:

إنّا سألنا قومَنا فخيارُهم ... من كان أفضَلهم أبوهُ الأفضَلُ
أعطى الّذي أعطَى أبوه قبلَه ... وتبخّلتْ أبناءُ من يَتَبَخّلُ

قال: وأنشَدَني أيضاً في المعنى:

لَطَلْحَةُ بن خُثَيْم حين تَسألُهُ ... أندَى وأكْرمُ من فِند بنِ هَطّالِ
وبيتُ طلحةَ في عزٍّ ومَكرُمةٍ ... وبيتِ فِنْدٍ إلى رِبْقٍ وأحمالِ
ألا فتى من بني ذُبْيان يَحمِلني ... وليس يَحمِلني إلا ابنُ حَمّال
فقُلتُ طلحة أولَى من عَمَدْتُ له ... وجئتُ أمشي إليه مَشْيَ مُخْتال
مُستيقناً أن حَبْلِي سوف يُعْلِقُهُ ... في رأس ذَيّالة أو رأسِ ذَيّالِ

وقال آخر:

عندَ المُلوك مَضرّةٌ وَمنافعٌ ... وأرَى البَرامِكَ لا تَضُرُّ وتَنفَعُ
إنّ العُروقَ إذا استَسَرّ بها الثّرَى ... أثْرَى النَّباتُ بها وطابَ المزرَعُ
وإذا جهلتَ من امرىءٍ أعراقَه ... وقديمَه فانظر إلى ما يَصْنَعُ

وقال آخر:

إنّ السَّريَّ إذا سرَى فبِنَفْسِه ... وابنُ السّرِيّ إذا سَرَى أسرَاهُمَا

وقال البُحتريّ:

وأرى النّجابَة لا يكون تمامُها ... لنَجيبِ قومٍ ليسَ بابن نجيبِ

- ٤٤٦ -

الأصل: وسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَيُّما أَفْضَلُ العَدْلُ أَوِ الجُودُ؟ فَقالَ:
الْعَدْلُ يَضَعُ الأُمُورَ مَواضِعَها، والْجَودُ يُخْرِجُها مِنْ جِهَتِهَا، والْعَدْلُ سائِسٌ عامٌّ، والْجُودُ عارِضٌ خاصٌّ، فالعَدْلُ أَشْرَفُهما وأفْضَلُهما.

الشرح: هذا كلامٌ شريفٌ جليلُ القَدْر، فضَّل عليه السلام العَدْل بأمرين:
أحدُهما: أن العدل وضعُ الأمور مواضعَها، وهكذا العَدالة في الاصطلاح الحُكْميّ، لأنها المَرْتَبة المتوسطة بين طَرَفي الإفراط والتفريط، والجُود يُخرِج الأمر من موضِعه، والمراد بالجُود هاهنا هو الجود العُرْفيّ، وهو بَذْل المُقتَنَيات للغير، لا الجود الحقيقيّ، لأنّ الجُوْد الحقيقيّ ليس يُخرِج الأمر من جهته، نحو جود البارِىء تعالى.
والوجه الثاني: أنّ العدل سائسٌ عامّ في جميع الأمور الدّينيّة والدنْيويّة، وبه نظام العالَم وقِوام الوجود، وأمّا الجود فأمرٌ عارِضٌ خاصّ، ليس عموم نفعه كعموم نفع العَدْل.

- ٤٤٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

الشرح: هذه من ألفاظه الشريفة الّتي لا نظيرَ لها، وقد تقدّم ذكرها وذكرُ ما يُناسبها. وكان يقال: مَن جَهِل شيئاً عَاداه.

وقال الشاعر:

جهلتَ أمراً فأبديْتَ النّكيرَ له ... والجاهلُون لأهْلِ العلم أعداءُ

وقيل لأفلاطون: لِمَ يُبغض الجاهلُ العالِمَ، ولا يُبْغِضُ العالمُ الجاهلَ؟ فقال: لأنّ الجاهلَ يَستشعِر النّقص في نفسِه، ويظنّ أنّ العالم يَحتقِره، ويَزْدَرِيه فيُبغِضه، والعالمِ لا نَقْص عنده ولا يَظُنّ أنّ الجاهلَ يَحتقِره، فليس عندَه سببٌ لبُغْض الجاهِل.

- ٤٤٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ القُرْآن، قالَ الله سُبْحَانَهُ : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(١) ، ومَنْ لَمْ يَأْسَ عَلى المَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بالآتي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذين المعنَيين بما فيه كفاية.

- ٤٤٩ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : الوِلايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ.

الشرح: أي: تعرف الرجالُ بها كما تُعرَف الخيل بالمضمار، وهو المَوضع أو المُدّة الّتي تُضمَّر فيها الخيل، فمِن الوُلاة مَن يظهَر منه أخلاقٌ حميدة، ومنهم من يظهَر منه أخلاقٌ ذميمة. وقال الشاعر:

سكراتٌ خمسٌ إذا مُنِيَ المر ... ءُ بها صارَ عُرضةً للزّمانِ
سَكْرةُ المَالِ والحداثة والعِشـ ... ـقِ وسكرُ الشّراب والسّلطانِ

وقال آخر:

يابنَ وَهْبٍ والمرءُ في دَوْلة السلـ ... ـطانِ أعمَى ما دامَ يُدعَى أمِيرا
فإذا زَالتِ الولايةُ عَنْهُ ... واستَوَى بالرّجال عادَ بَصيرا

وقال البُحتريّ:

وتاه سَعيدٌ أن أعِيرَ رياسَةً ... وقُلِّد أمراً كان دونَ رِجالِهِ
وضاقَ على حقّي بعَقْب اتّساعِه ... فأوسَعْتُه عذراً لِضِيق احتمالِه
فأدبَرَ عنّي عند إقبال حَظّه ... وغيّر حالِي عندَه حُسنُ حالِه
فليتَ أبا عثمانَ أمسَك تِيهَه ... كإمساكِه عند الحقوقِ بمالِه

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

- ٤٥٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ!

الشرح: هذه الكلمةُ قد سبقتْ، وتكلّمنا عليها، وما أحسنَ قولَ المَعرّي:

مـا قَـضَـى الـحـاجـاتِ إلّا شِـمِـلٌ　　نـومُـه فـوقَ فِـراشٍ مـن نـمـالْ

وقال الرّضيّ رحمه الله:

عـلـيـهـا أخـامِـسُ مِـثـلُ الـصّـقـورِ　　طُـوال الـرجـاءِ جِـسـام الأرَبْ

وكـلّ فـتًـى حـظُّ أجـفـانِـه　　مـن الـنـوم مَـضـمَـضـةٌ يُـسْـتـلـبْ

فـبـيْـنـا يـقـال كَـرَى جَـفْـنـه　　بـقِـطْـعٍ مـن الـلّـيـل إذ قـيـل هَـبْ

- ٤٥١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : لَيْسَ بَلَدٌ بأحَقّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ البِلادِ ما حَمَلَكَ.

الشرح: هذا المعنى قد قيل كثيراً، ومن ذلك قولُ الشاعر:

لا يَـصْـدِفـنّـكَ عـن أمـرٍ تُـحـاوِلُـهُ　　فِـراقُ أهـلٍ وأحـبـابٍ وجـيـرانِ

تـلـقَـى بـكـلّ ديـارٍ مـا حـلـلـتَ بـهـا　　أهـلاً بـأهـلٍ وأوطـانـاً بـأوطـانِ

وقال شَيْخي أبو جعفر يحيى بن أبي زَيْد نقيبُ البَصْرة:

أنْـسَـيْـتـنـي بـلـدِي وأرضَ عـشـيـرتـي　　ونـزلـتُ مِـنْ نُـعـمـاكَ أكـرمَ مَـنـزِلِ

واخـذتُ فـيـك مـدائِـحـي فـكـأنـهـا　　فـي آل شَـمّـاسٍ مـدائـحُ جَـرْوَلِ

أبو عُبادة البُحتُريّ:

فـي نـعـمـةٍ أوطـنْـتُـهـا وأقـمـتُ فـي　　أكـنـافِـهـا فـكـأنـنـي فـي مَـنْـبِـجِ

ومَنْبج، هي مدينة البحتريّ.

أبو تمّام:

كـلُّ شِـعْـبٍ كـنـتـم بـه آلَ وَهْـبٍ　　فـهـو شِـعْـبـى وشِـعْـب كـلّ أديـبِ

إنّ قـلـبـي لـكـمْ لـكـا لـكـبـدِ الـحــ ـرّى وقَـلـبـي لـغـيـركُـمْ كـالـقُـلـوبِ

وقد ذهب كثيرٌ من الناس إلى غير هذا المذهب، فجعلوا بعض البلاد أحقَّ بالإنسان من بعض، وهو الوطن الأوّل ومَسقِط الرّأس، قال الشاعر:

أحَـبُّ بـلاد الله مـا بـيـن مَـنْـبِـجٍ إلـيّ وسَـلـمـى أن يَـصُـوب سَـحـابُـهـا
بـلادٌ بـهـا نِـيـطـتْ عـلـيَّ تـمـائـمي وأوّل أرض مَـسّ جِـلْـدِي تُـرَابُـهـا

وكان يقال: مَيْلُك إلى مولدِك مِن كَرَم مَحتِدك.

وقال ابنُ عبّاس: لو قَنع الناسُ بأرزاقهم قناعَتهم بأوطانهم، لما اشتكى أحدٌ الرّزق.

وكان يقال: كما أنّ لحاضِنتِك حقّ لَبَنِها فلِأرْضك حُرْمة وَطَنِها.

وكانت العربُ تقول: حِماكَ أحمَى لك، وأهلُك أحْفى بك.

وقال الشاعرُ:

وكُـنّـا أَلِـفْـنـاهـا ولـم تَـكُ مـألَـفـا وقد يُؤْلَف الشيءُ الذي ليس بالحَسَنْ
كما تُؤلَف الأرضُ الّتي لم يَطِبْ بها هَـواءٌ ولا مـاءٌ ولـكـنـهـا وَطَـنْ

أعرابيّ:

رمْلةٌ حضَنتْني أحشاؤها، وأرضعَتْني أحساؤها.

كانت العرب إذا سافرتْ حملتْ معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحَه، وتَطرحُه في الماء إذا شربتْه، وكذلك كانت فلاسِفةُ يونانَ تَفعل.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

نـسـيرُ عـلـى عـلـمٍ بكُـنْـه مَـسِـيـرنـا بـعُـفْـةٍ زاد فـي بـطـونِ الـمَـزاوِدِ
ولا بـدّ فـي أسـفـارِنـا مـن قـبـيـصـةٍ من التّرب نُسقاها لـحبّ الـموالِدِ

وقالت الهند: حُرمة بلدِك عليك كحرمةِ أبويك، كان غِذاؤك منهما وأنت جنين وكان غذاؤهما منك.

ومن الكلام القديم: لولا الوطنُ وحبُّه لخرُب بلد السَّوْء.

ابن الرُّوميّ:

وحَـبّـبَ أوطـانَ الـرّجـال إلـيـهـمُ مـآربُ قَـضّـاهـا الـشـبابُ هُـنـالـكـا
إذا ذَكَـروا أوطـانَـهـمْ ذَكَّـرَتْـهـمُ عُـهـودَ الـصِّـبـا فـيـهـا فـحنُّوا لـذالـكـا

- ٤٥٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام وقَدْ جاءَهُ نَعْيُ الأشْتَرِ رَحِمَهُ الله: مالِكٌ، ومالِكٌ؟ والله لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكانَ فِنْداً، أَوْ كانَ حَجَراً لكانَ صَلْداً لا يَرْتَقِيهِ الحافِرُ، ولا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ.

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ الله تعالى: الْفِنْدُ: المُنْفَرِدُ مِنَ الْجِبالِ.

الشرح: يقال: إنّ الرّضيّ خَتم كتاب نَهج البلاغة بهذا الفصل، وكُتبتْ به نُسَخٌ متعدّدة ثمّ زاد عليه إلىَ أن وَفى الزّيادات التي نذكرها فيما بعد.

وقد تقدّم ذكرُ الأشتر، وإنما قال: لو كان جبَلاً لكان فِنْداً، لأن الفند قِطعةُ الجَبل طُولاً، وليس الفِنْد القِطعةَ من الجبل كيفما كانت، ولذلك قال: لا يرتقيه الحافر، لأنّ القطعة المأخوذة من الجَبَل طُولاً في دِقّة لاسبيل للحافر إلى صعودِها، ولو أُخِذت عَرْضاً لأمكَنَ صُعُودها.

ثم وَصَف تلك القطعَة بالعلوّ العظيم، فقال: ولا يوفي عليه الطائر، أي لا يصعد عليه، يقال: أوفى فلانٌ على الجَبل: أشرَف.

- ٤٥٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: قَليلٌ مَدُومٌ عَليهِ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.

الشرح: هذا كلامٌ يُخاطِب به أهل العبادات والصلاة، قال: قليلٌ من النوافل يدومُ المرءُ عليه خيرٌ له من كثير منها يَملّه ويترُكه.

والجيّد النادر في هذا قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ هذا الدّين متين، فأوْغِلْ فيه برِفْق، فإنّ المَنبتّ لا أرضاً قَطع، ولا ظَهْراً أبْقى»[1].

وكان يقال: كلّ كثير مملول. وقالوا: كلّ كثير عدوٌّ للطبيعة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٨)، و«شعب الإيمان» (٣٨٨٥)، والشهاب في «مسنده» (١١٤٧)، وابن المبارك في «الزهد» (١١٧٨)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٩٠٠).

وقال الشاعر:

إنّي كَثُرتُ عليه في زيارتِه ... فملّ والشيءُ مملولٌ إذا كَثُرا
ورابَني منه أنّي لا أزالُ أرَى ... في طَرفه قِصراً عنّي إذا نَظَرا

- ٤٥٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: إذا كَانَ في رَجُلٍ خَلّةٌ رَائِعَةٌ، فانتَظِروا مِنْهُ أخَوَاتِهَا.

الشرح: مثال ذلك إنسان مَستور الحال عنا رأيْناه وقد صدرتْ عنه حركةٌ تَروعُك وتُعجِبك. إما لحُسنها أو لقُبْحها، مثل أن يتصدّق بشيء له وَقْع ومقدار من مالِه، أو ينكر منكراً عجز غيرُه عن إنكاره أو يَسرِق أو يَزنيَ، فينبغي أن يُنتظر ويُترقّب منه أخَوات ما وَقَع منه، وذلك لأنّ العقل والطبيعة الّتي فيه المحرِّكة له إلى فعل تلك الحركة، لا بدّ أن تحرّكه إلى فِعْل ما يُناسِبها، لأنّها ما دعتْه إلى فِعل تلك الحركة لخصوصيّة تلك الحركة، بل لما فيها من المعنى المقتضِي وقوعَها، وهذا يتعدّى إلى غيرها ممّا يجانسها، ولذلك لا تَرَى أحداً قد اطّلعتَ من حالِه يوماً على أنّه قد شَرِب الخمر إلّا وسوف تَطلّع فيما بعدُ منه على أنّه يشرَبُها، وبالعكس في الأمور الحَسنة لا تَرى أحداً قد صَدَر عنه فِعلٌ من أفعال الخير والمروءة إلّا وستَرَاه فيما بعدُ فاعلاً نظيره أو ما يقارِبُه.

وشتَمَ بعضُ سفهاء البَصْرة الأحنفَ شَتْماً قبيحاً فحلَم عنه، فقيل له في ذلك، فقال: دعُوه فإني قد قتلتُه بالحلم عنه، وسيقتُل نفسَه بجراءته، فلمّا كان بعدَ أيّام جاء ذلك السفيهُ فشَتَم زياداً، وهو أميرُ البَصْرة حينئذٍ، وظَنّ أنه كالأحنف، فأمر به فقُطِع لسانه ويَدُه.

- ٤٥٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لِغَالِبِ بْنِ صَعْصَعَةَ أبي الفَرَزْدَق في كلام دارَ بينهما: ما فَعَلَتْ إبِلُكَ الكَثِيرَةُ؟ قالَ: ذَعْذَعَتْها الحُقُوقُ يا أميرَ المؤمنينَ، فقالَ عليه السلام: ذَلِكَ أحْمَدُ سُبُلِها.

الشرح: ذعذَعَتْها بالذال المعجمة مكرّرة: فرّقتْها، ذَعْذَعْتُه فتذعذَع، وذَعْذَعةُ السرّ: إذاعتُه. والذَّعاذِع: الفِرَق المتفرِّقة، الواحدةَ ذعذَعة، وربما قالوا: تفرّقوا ذَعاذِع.

دخل غالبُ بنُ صعصعةَ بن ناجية بن عقال المجاشِعيّ على أمير المؤمنين عليه السلام أيّام خلافته، وغالبٌ شيخٌ كبير، ومعه ابنُه همّام الفَرَزْدق وهو غلام يومئذٍ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : مَن الشيخ؟ قال: أنا غالبُ بنُ صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: ما فعلتْ إبلُك؟ قال: ذعْذَعَتْها الحقوق، وأذهبَتْها الحَملات والنوائب، قال: ذاك أحمد سُبُلِها، مَن هذا الغلامُ مَعَك؟ قال: هذا ابني، قال: ما اسمُه؟ قال همّام، وقد روّيْتُه الشِّعرَ يا أمير المؤمنين وكلامَ العَرَب، ويوشِك أن يكون شاعراً مُجيداً، فقال: لو أقرأتَه القرآنَ فهو خيرٌ له، فكان الفرزدقُ بعدُ يَروي هذا الحديث ويقول: ما زالتْ كلمتُه في نفسي حتّى قيّد نفسه بقَيْد وآلَى ألّا يَفُكّه حتى يَحفَظ القرآنَ، فما فكّه حتّى حَفِظه.

- ٤٥٦ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : مَنِ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ارْتَطَمَ في الرِّبا.

الشرح: يقول: تَجَر فلانٌ واتّجر فهو تاجر، والجمع تَجْر، مِثل صاحِب وصَحْب، والتِّجارة والتَّجْر بمعنًى واحد، إذا أخذْتَهما مصدَرَيْن لـ «تَجَر»، وأرض مَتْجَرةٌ، يُتّجر فيها.

وارتَطم فلانٌ في الوَحْل والأمر إذا ارْتَبَكَ فيه ولم يَقدِر على الخروج منه، وإنّما قال عليه السلام ذلك لأنّ مسائلَ الرِّبا مُشتَبِهة بمسائل البَيْع، ولا يَفْرق بينهما إلّا الفقيه، حتّى إنَّ العُظماءَ من الفقهاء قد اشتَبَه عليهم الأمرُ فيها فاختلفوا فيها أشدَّ اختلاف، كبَيْع لحم البقر بالغنم متفاضلاً، هل يجوز أم لا؟ وكذلكَ لَبَن البقر بلَبَن الغَنَم، وجلود البَقَر بجلود الغَنَم، فقال أبو حنيفة: اللحوم والألبان والجلودُ أجناسٌ مختلفة، فيجوز بيعُ بعضها ببعض متفاضِلاً، نظراً إلى أنّ أصولها أجناسٌ مختلفة، والشافعيّ لا يُجِيزُ ذلك ويقول: هو رباً، وكذلك القول في مُدّي عَجْوة ودرهم بمُدّ عَجوة. وكذلك بَيْع الرّطَب بالتّمر متساوِياً كَيْلا، كلّ ذلك يقول الشافعي: إنّه رِباً، وأبو حنيفة يُخرِجه عن كونه رِباً، ومسائلُ هذا الباب كثيرة.

- ٤٥٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : منْ عظَّمَ صِغارَ المصائِبِ، ابْتَلاهُ الله بِكِبارِها.

الشرح: إنّما كان كذلك لأنّه يشكو الله ويَتسخّط قضاءه، ويَجْحد النّعمة في التّخفيف عنه، ويدّعي فيما ليس بمُجحِف به من حَوَادِث الدّهر أنّه مُجحِف، ويتألّم بين الناس، لذلك أكثَر ممّا تقتضيه نَكْبتُه، ومَن فَعلَ ذلك استَوْجَبَ السُّخْطَ من الله تعالى، وابتُلِيَ بالكثير من النّكبة، وإنما الواجب على من وقع في أمر يَشُق عليه، ويتألّم منه ويَنال من نفسه، أو من مالِه نَيْلاً ما، أن يَحمَد الله تعالى على ذلك، ويقول: لعلّه قد دَفَع بهذا عنّي ما هو أعظَم منه، ولئن كان قد ذهب من مالي جزءٌ فلقد بقيَ أجزاءٌ كثيرة.

وقال عروةُ بنُ الزّبير لمّا وقَعت الأكَلة في رِجْله فقطعها ومات ابْنُه: اللهمّ إنّك أخذتَ عُضواً وتَركْت أعضاء، وأخذتَ ابناً وتركت أبناء، فلْيَهْنِك، لئن كنتَ أخذْتَ لقد أبقَيت، ولئن كنتَ ابتَلَيْت لقد عافَيْت.

– ٤٥٨ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، هانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ.

الشرح: قد تقدّم مِثْلُ هذا المعنى مِراراً، ومن الكلام المشهور بين العامّة: قبّح الله امرأ تَغْلِب شَهْوَته على نَخْوَته.

والجيّد النادر في هذا قولُ الشاعر:

فإنّك إنّ أعطيْتَ بطنَك سُؤْلَه ... وفَرْجَك نالا مُنتهَى الذَّمِّ أجمَعا

– ٤٥٩ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: ما مَزَح امْرُؤٌ مَزْحَةً، إلّا مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةً.

الشرح: قد تقدّم القولُ في المزاح. وكان يقال: خيرُ المزاحِ لا يُنال، وشرّه لا يُستقَالُ. وقيل: إنّما سُمّيَ المِزاحُ مِزاحاً لأنه أُزِيح عن الحقّ.

- ٤٦٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: زُهْدُكَ في رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، ورَغْبَتُك في زاهِدٍ فِيك ذُلُّ نَفْسٍ.

الشرح: أي نقصانُ حظٍّ لك، وذلك لأنّه ليس مِن حقّ مَن رَغِب فيك أن تَزهَد فيه لأنّ الإحسان لا يُكافَأ بالإساءة، وللقصد حُرْمة، وللآمل ذمام، ومن طَلَب مودّتك فقد قَصَدك وأمّلك، فلا يجوزُ رفضُه واطّراحُهُ والزّهدُ فيه، وإذا زَهدتَ فيه فذلك لنُقصانِ حَظّك لا لنُقْصان حَظّه، فأمّا رَغْبَتُك في زاهِدٍ فيك فمذَلّة، لأنّك تطرح نَفْسَك لمن لا يعبأ بك، وهذا ذُلٌّ وصغار.

وقال العباسُ بنُ الأحنَف في نسِيبه، وكان جيّدَ النَّسِيب:

مـا زلـتُ أزهَـد فـي مـودّة راغِـبٍ ... حـتّـى ابـتُـليـتُ بـرَغْـبـةٍ فـي زَاهـدِ
هـٰذا هـو الـدّاءُ الّـذي ضَـاقـت بـه ... حِـيَـلُ الـطّـبِـيب وطَـال يـأسُ الـعَـائِـد

أي: ما زلتُ عزيزاً حتّى أذلّني الحبّ.

- ٤٦١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَا زَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً منّا أهْلَ الْبَيْتِ حَتّى نشأ ابْنُهُ الْمَشْؤُومُ عَبْدُ الله.

الشرح: ذكر هذا الكلامَ أبو عُمَر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب» عن أميرِ المؤمنين عليه السلام في عبدِ اللّه بن الزبير، إلا أنّه لم يَذكُر لفظة المشؤوم.

عبد الله بن الزبير: نسبه وبعض أخباره

ونحن نَذكُر ما ذكره ابن عبد البرّ في ترجمة عبد اللّه بن الزبير، فإنّ هذا المُصنِّف يَذكُر جُمَل أحوالِ الرّجل دون تفاصِيلها، ثمّ نذكر تفصيل أحواله من مواضعَ أخرى.

قال أبو عمَرَ رحمه الله: يُكنى عبدُ اللّه بن الزبير أبا بكر، وقال بعضُهم: أبا بكير، ذكر ذلك أبو أحمد الحاكم الحافظ في كتابه في الكُنَى. والجمهور من أهل السِّيَر وأهلِ الأثَر على أنّ كُنيتَه أبو بكر، وله كنيةٌ أخرى أبو خُبَيْب بابنه خُبَيب وكان أسَن ولدِه، وخُبَيب هو صاحبُ عمر بنِ عبدِ العزيز الّذي مات من ضَرْبه إذ كان والياً على المدينة للوليد، وكان الوليدُ أمَره بضَرْبه فمات من أذيّة ذلك فوَداه عمرُ بعدُ.

قال أبو عمر: وسمّاه رسول الله ﷺ باسم جدّه، وكَنّاه بكُنْية جدّه عبدِ اللّه أبي بكر، وهاجرتْ أمُّه أسماءُ من مكّة إلى المدينة وهي حاملٌ به، فوَلَدته في سنة اثنَتين من الهجرة لعِشرين شَهْراً من التاريخ، وقيل: وُلد في السّنة الأولى، وهو أوّل مولود ولد في الإسلام من المهاجرين بعد الهجْرة.

ورَوَى هشامُ بنُ عروة عن أسماء قالت: حملتُ بعبدِ اللّه بمكّة، فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ فأتيتُ المدينة فنزلتُ بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيتُ رسولَ الله ﷺ فوضعتُه في حِجره، فدعا بتَمرةٍ فمَضَغها ثم تَفَل في فيه، فكان أوّل شيء دَخَل جوفَه ريقُ رسولِ الله ﷺ، ثمّ حنّكه بالتّمرة، ثم دعا له وبارك عليه[١]، وهو أوّل مولود وُلِد في الإسلام للمهاجِرين بالمدينة، قال: ففَرِحوا به فرحاً شديداً، وذلك أنّهم قد كان قيل لهم: إنّ اليهود قد سَحَرَتْكم فلا يُولد لكم.

قال أبو عمر: وشَهِد عبدُ اللّه الجَمَل مع أبيه وخالتِه، وكان شَهماً ذَكراً ذا أنَفة، وكان له لَسَنٌ وفَصاحة وكان أطلسَ لا لِحيةَ له ولا شَعرَ في وجهه، وكان كثيرَ الصّلاة، كثيرَ الصّيام، شديدَ البأس، كريمَ الجدّات والأمّهات والخالات، إلّا أنه كان فيه خلال لا يَصلُح معها للخلافة، فإنّه كان بخيلاً ضَيّق العَطَن سيّىء الخُلُق حَسُوداً، كثيرَ الخلاف، أخرَج محمّدَ بنَ الحنفيّة من مكّة والمدينة، ونَفَى عبدَ اللّه بنَ عبّاس إلى الطائف.

وقال عليٌّ عليه السلام في أمرِه: ما زال الزبيرُ يُعَدُّ منّا أهلَ البيت حتّى نشأ ابنُه عبدُ اللّه[٢]. قال أبو عمر: وبُويع له بالخلافة سنةَ أربع وستّين في قول أبي مَعشر.

وقال المَدائِنيّ: بُويع له بالخلافة سنَة خمسٍ وستّين.

وكان قبلَ ذلك لا يدْعَى باسم الخِلافة، وكانت بَيْعته بعد موتِ معاوية بن يزيدَ بن معاوية، على طاعتِه أهل الحِجاز واليمن والعراق وخُراسانَ، وحَجّ بالناس ثمانِيَ حِجَج، وقُتل في أيام عبدِ الملك بن مَرْوَان يوم الثّلاثاءِ لثلاث عشرة بقين من جُمَادى الأولى، وقيل: من جُمادَى الآخرة سنة ثلاثٍ وسبعين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنةً، وصُلب بمكّة بعد قَتله، وكان الحجّاج قد ابتدأ بحصاره من أوّل ليلة من ذي الحِجّة سنَة اثنتين وسبعين، وحَجّ الحجّاج بالناسِ في ذلك العام، ووَقَف بعَرَفة وعليه درْع ومِغْفَر، ولم يَطُوفوا بالبَيْتِ في تلك السنة. فحاصَره ستّة أشهر وسبعةَ عشرَ يوماً إلى أن قَتَله.

قال أبو عمر: فرَوَى هشامُ بنُ عروة عن أبيه، قال: لمّا كان قبلَ قَتْل عبد اللّه بعشرةِ أيّام

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: هجرة النبي ﷺ إلى المدينة (٣٩٠٩)، ومسلم، كتاب: الآداب، باب: استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى الصالح (٢١٤٦).
(٢) تاريخ دمشق: ١٨/ ٤٠٤.

دخَل على أمّه أسمَاء بنت أبي بكر وهي شاكية، فقال: كيف تَجدِينَك يا أمّه؟ قالت: ما أجِدُني إلّا شاكية، فقال لها: إنّ في الموت لراحة، فقالت: لعلّك تمنّيتَه لي، وما أحِبُّ أن أموتَ حتى يأتيَ عليَّ إحدَى حالتَيك، إمّا قُتِلتَ فأحتَسِبَك، وإما ظَفِرتَ بعدوّك فقرّت عَيْني.

قال عروة: فالتفتَ عبدُ اللّه إليّ وضَحِك، فلمّا كان اليوم الّذي قُتِل فيه دَخَل عليها في المسجد، فقالت: يا بُنيّ لا تقبل منهم خُطّة تَخاف فيها على نفسك الذُّلّ [مخافة القتل]، فوالله لَضَرْبَةُ سيفٍ في عِزٍّ خيرٌ من ضربةِ سَوطٍ في مَذَلّة، قال: فخرج عبدُ اللّه وقد نُصِب له مِصراعٌ عند الكعبة، فكان يكون تحتَه، فأتاه رجلٌ من قريش فقال له: ألا نَفتَح لك بابَ الكعبة فتدخلها؟ فقال: والله لو وَجَدوكم تحتَ أستارِ الكعبة لَقتَلوكم عن آخِركم، وهل حُرمةُ البيتِ إلّا كحرمة الحرَم! ثم أنشد:

ولستُ بمُبتاعِ الحياةِ بسُبّةٍ ولا مُرْتقٍ مِن خَشيةِ الموت سُلّما

ثمّ شدّ عليه أصحابُ الحجاج، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أهلُ مِصر، فقال لأصحابه: اكسروا أغمَادَ سيوفِكم، واحملوا معي، فإنني في الرّعيل الأول، ففعلوا، ثمّ حَمَل عليهم وحَمَلوا عليه، فكان يضرب بسَيفين، فلَحِق رجلاً فضرَبه فقَطع يدَه، وانهزموا وجعل يضربُهم حتى أخرجهم من باب المسجد، وجعل رجلٌ منهم أسوَد يَسبّه، فقال له: اصبر يابن حام، ثم حمل عليه فصَرَعه، ثم دخل عليه أهلُ حِمْص من باب بني شَيْبة فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أهلُ حِمْص، فشَدّ عليهم وجَعَل يضرِبهم بسيفه حتى أخرَجهم من المسجد، ثم انصرَف وهو يقول:

لو كان قِرْني واحداً أرْدَيْتُه أورَدْتُه الموتَ وقد ذَكّيْتُه

ثمّ دخل عليه أهلُ الأرْدُنّ من باب آخر، فقال: مَن هؤلاء؟ قيل: أهلُ الأرْدُنّ، فجعل يضرِبهم بِسَيْفه حتى أخرجَهم من المسجد، ثمّ انصرَف وهو يقول:

لا عهد لي بغارةٍ مِثل السَّيلْ لا يَنجلي قَتامُها حتّى اللّيلْ

فأقبَل عليه حَجَر من ناحية الصَّفَا فأصابه بين عَينَيه، فنكّس رأسَه وهو يقول:

ولَسْنَا على الأعقاب تَدمَى كُلومُنا ولكنْ على أقدامِنا تَقطُر الدّمَا

أنشدَه متمثّلاً، وحَمَاه مَوْلَيان له، فكان أحدهما يرتجز فيقول:

العبدُ يَحمِي ربَّه ويَحتَمي

قال: ثمّ اجتمعوا عليه، فلم يزالوا يضربونه ويضرِبُهم حتى قتلوه ومولَيَيْه جميعاً، فلمّا قُتِل كبّر أهلُ الشام، فقال عبد اللّه بن عمر: المكبِّرون يومَ وُلد خَيرٌ من المكبِّرين يوم قُتل.

قال أبو عمر: وقال يعلى بنُ حَرْملة: دخلتُ مكّة بعدما قُتِل عبدُ اللّه بنُ الزّبير بثلاثةِ أيام، فإذا هو مصلوب، فجاءت أمّه أسماءُ، وكانت امرأةً عجوزاً طويلة مكفوفة البَصَر تقاد، فقالت

للحجّاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فقال لها: المنافق؟! قالت: والله ما كان مُنافقاً، ولكنه كان صَوّاماً قَوّاماً بَرًّا، قال: انصرفي فإنك عجوز قد خَرِفْتِ. قالت: لا والله ما خَرِفْتُ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرجُ من ثقيف كذَّاب ومبير»[1]، أمّا الكَذّاب فقد رأيناه - تعني المختار - وأما المُبير فأنت.

قال أبو عمر: ورَوَى سعيد بنُ عامر الخرّاز عن ابن أبي مُليكة، قال: كنت الآذن لمن بشّر أسماء بنزول ابنها عبد الله من الخشبة، فدعتْ بمرْكن وشبٍّ يمانٍ، فأمرتْني بغسْله، فكنا لا نتناول منه عُضْواً إلّا جاء معنا، فكنا نغسل العضوء ونَدعه في أكفانه ونتناول العضو الذي يليه فنغسله، ثم نضعه في أكفانه، حتى فرغْنا منه، ثمّ قامت فصلّت عليه، وقد كانت تقول: اللّهم لا تمتْني حتى تَقِرّ عيني بجثّته، فلما دفنته لم يأت عليها جمعة حتى ماتت.

قال أبو عمر: وقد كان عُروة بنُ الزبير رَحَلَ إلى عبد الملك، فرَغِب إليه في إنزال عبد الله من الخَشبة، فأسعَفه بذلك، فأنزل.

قال أبو عمر: وقال عليّ بن مجاهد: قُتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلاً، إنّ منهم لَمَنْ سالَ دمُه في جوف الكعبة.

قال أبو عمر: ورَوَى عيسى عن أبي القاسم، عن مالك بن أنس، قال: كان ابن الزبير أفضل من مَرْوان وأولَى بالأمر منه ومن أبيه، قال وقد رَوَى عليّ بنُ المَدائنيّ، عن سُفيان بن عُيينة، أن عامر بن عبد الله بن الزبير مكث بعد قتل أبيه حَوْلاً لا يسأل الله لنفسه شيئاً إلا الدعاء لأبيه.

قال أبو عمر: ورَوَى إسماعيل بن عليّة، عن أبي سُفْيان بن العَلاء، عن ابن أبي عَتِيق، قال: قالت عائشةُ: إذا مرّ ابنُ عمَر فأرُونيه، فلما مَرّ قالوا: هذا ابنُ عمر فقالت: يا أبا عبد الرحمن، ما مَنَعك أن تَنهاني عن مَسيري، قال: رأيت رجلاً قد غَلَب عليكِ، ورأيتُكِ لا تُخالفينه - يعني عبد الله بن الزبير - فقالت: أما إنك لو نَهَيتني ما خرجتُ.

فأما الزّبير بنُ بكار فإنه ذكر في كتابِ «أنساب قريش» من أخبار عبد الله وأحواله جُملة طويلة نحن نختصرها، ونذكر اللُّباب منها، مع أنه قد أطنب في ذكر فضائله والثناء عليه، وهو معذورٌ في ذلك، فإنه لا يلامُ الرجلُ على حُبِّ قومه، والزّبير بن بكار أحدُ أولاد عبد الله بن الزبير، فهو أحقّ بتقريظه وتأبينه.

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في ثقيف، ثقيف كذاب (٢٢٢٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٤٧٨).

قال الزبير بنُ بكار: أمّه أسماء ذاتُ النِّطاقين ابنةُ أبي بكر الصِّديق، وإنما سُمّيتْ ذاتَ النِّطاقين لأنّ رسول الله ﷺ لما تجهز مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر لم يكن لسفرتِهما شِناق، فشقَّت أسماءُ نِطاقها فَشَنَقَتْها به، فقال لها رسول الله ﷺ: «قد أبدَلك الله تعالى بنطاقِك هذا نطاقَيْن في الجنة»[1]. فسُمّيتْ ذاتَ النِّطاقين. قال: وقد رَوَى محمد بن الضحاك: عن أبيه أن أهل الشام كانوا وهم يُقاتلون عبد اللّه بمكة يَصِيحون: يابن ذات النِّطاقين، يظنونه عَيباً، فيقول ابنها: والإله، ثمّ يقول: إني وإياكم لكما قال أبو ذؤيب:

وعـيّـرنـي الـواشُـونَ أنّـي أحِـبُّـهَـا ... وتـلـكَ شَـكـاةٌ ظـاهـرٌ عـنـكَ عـارُهـا

فـإنْ أعـتَـذِرْ عـنـهـا فـإنّـي مـكـذَّبٌ ... وإنْ تَـعـتـذِر يُـردَدْ عـلـيـك اعـتِـذارُهـا

ثمّ يُقبِل على ابن أبي عتيق - وهو عبدُ اللّه بن محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر - فيقول: ألا تسمعُ يابنَ أبي عَتيق

قال الزبير: وزعموا أنّ عبد اللّه بن الزبير لمّا وُلِد أُتِيَ به رسولَ الله ﷺ، فنَظَر في وجهِه وقال: «أهو هو؟ ليَمنعَنّ البيتَ أو لَيموتَنّ دونه»[2].

وقال العُقَيليّ في ذلك:

بَـرٌّ تَـبـيَّـنَ مـا قـال الـرسـولُ لـه ... وذو صَـلاةٍ بـضـاحِـي وجـهـه عَـلَـمُ

حَـمـامـة مـن حَـمـامِ الـبـيـت قَـاطِـنَـة ... لا تَـتْـبـع الـنـاسَ إن جارُوا وإن ظَلَـمـوا

قال: وقد رَوَى نافعُ بن ثابت، عن محمّد بن كَعْب القُرَظيّ، أنّ رسولَ الله ﷺ دخل على أسماءَ حينَ وُلِد عبدُ اللّه فقال: أهو هو؟ فتركتْ أسماء رَضاعَه، فقيل لرسول الله ﷺ: إنّ أسماءَ تَركتْ رَضاعَ عَبدِ اللّه لمّا سمعتْ كَلِمتك؟ فقال لها: «أرْضِعيه ولو بماءِ عَيْنَيْك، كَبْش بين ذِئابٍ عليها ثِيابٌ، ليَمنعنّ الحَرَم أو ليَموتَنّ دونَه»[3].

قال: وحدّثني عَمّي مُصعَب بنُ عبد اللّه، قال: كان عبدُ اللّه بنُ الزبير يقول: هاجرتْ بي أمّي في بَطْنها، فما أصابها شيءٌ من نَصَب أو مَخمصة إلا وقد أصابني.

قال: وقالت عائشةُ: يا رسولُ الله، ألا تكْنيني؟ فقال: «تكَنّي باسْمِ ابنِ أُختِك عبد اللّه»[4]، فكانت تُكنَى أمّ عبدِ اللّه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، حمل الزاد في الغزو (٢٩٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٠٩٨).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٧٢٣٣) ونسبه لابن عساكر.

(٤) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٧٧٧٥).

قال: وروى هِندُ بن القاسم، عن عامر بنِ عبد اللّه بنِ الزّبير، عن أبيه، قال: احتجَم رسولُ الله ﷺ، ثمّ دَفَع إليّ دمه، فقال: اذهب به فوَارِه حيث لا يَراه أحد، فذهبتُ به فشرِبْته، فلمَّا رجعتُ قال: ما صنعت؟ قلتُ: جعلتُه في مكان أظنّ أنّه أخفَى مكانٍ عن الناس، فقال: فلعلك شربته؟ فقلتُ: نعم[1].

قال: وقال وَهْب بنُ كَيْسان: أوّلُ من صَفّ رِجْليه في الصّلاة عبدُ اللّه بن الزبير فاقتدَى به كثيرٌ من العباد، وكان مجتهداً.

قال: وخَطَب الحجّاج بعد قَتْله زجلة بنت مَنْظور بن زَبّان بن سَيّار الفَزاريّة، وهي أمّ هاشم بنِ عبدِ اللّه بنِ الزّبير، فقلعت ثَنِيّتها وردّته، وقالت: ماذا يريدُ إلى ذَلْفاء ثَكْلَى حرَّى! وقالت:

أبـعـد عـائـذِ بـيـتِ الله تـخـطُـبُـنـي ... جَـهلاً جَـهلتَ وَغِـبّ الـجـهـل مَـذْمومُ

فـاذهـبْ إلـيـك فـإنّـي غـيـرُ نـاكـحـةٍ ... بعدَ ابن أسماء ما استَنَّ الـدَّيامِيمُ

مَـن يَـجعـلُ الـعَـيْـر مُـصفَرًّا جَـحافِلُه ... مِـثْـل الـجَـواد وَفَـضـل الله مَـقْـسـومُ!

قال: وحدّثني عبدُ الملك بنُ عبد العزيز، عن خاله يوسف بنِ الماجشون، قال: قسمَ عبدُ اللّه بن الزّبير الدهرَ على ثلاث ليال: فليلةٌ هو قائم حتّى الصّباح، وليلة هو راكع حتّى الصباح، وليلة هو ساجد حتّى الصباح.

قال: وحدّثنا سليمان بنُ حَرْب بإسنادٍ ذَكَره ورَفَعه إلى مُسلِم المَكّي، قال: رَكَع عبدُ اللّه بنُ الزبير يوماً ركعةً، فقرأتُ البقرة وآلَ عمران والنّساء والمائدةَ، وما رَفَع رأسَه.

قال: وقد حَدّث من لا أُحصيه كثرةً من أصحابنا، أنّ عبدَ اللّه كان يواصِل الصّوم سَبْعاً، يصومُ يومَ الجمعة فلا يُفطِر إلّا يومَ الجمعة الآخر، ويَصُوم بالمدينة فلا يُفطِر إلا بمكّة، ويصوم بمكّة فلا يفطِر إلّا بالمدينة.

قال: وقال عبد الملك بنُ عبد العزيز: وكان أوّل ما يُفطِر عليه إذا أفطَرَ لبَن لَقْحة بسَمْن بَقَر، قال الزبير: وزادَ غيرُه: وَصبِر.

قال: وحدّثني يعقوب بنُ محمّد بن عيسى بإسنادٍ رَفَعه إلى عُرْوة بن الزّبير، قال: لم يكن أحدٌ أحَبَّ إلى عائشةَ بعد رسولِ الله ﷺ وبعد أبي بكر من عبدِ اللّه بن الزّبير.

قال: وحدّثني يعقوبُ بنُ محمّد بإسنادٍ يرفعه إلى عبدِ الرحمن بنِ القاسم، عن أبيه قال: ما كان أحدٌ أعلم بالمناسِك من ابن الزبير.

قال: وحدّثني مُصعب بنُ عثمان، قال: أوصتْ عائشةُ إلى عبدِ اللّه بن الزبير وأوصَى إليه

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٣٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣٠).

حكيمُ بنُ حِزام وعبدُ اللّه بن عامر بن كُرَيْز والأسوَدُ بن أبي البَخْتَرِيّ وشَيبة بنُ عثمان والأسوَد بنُ عوف.

قال الزبير: وحدّث عمرُ بنُ قيس، عن أمّه قالت: دخلتُ على عبد اللّه بنِ الزّبير بيتَه، فإذا هو قائمٌ يصلّي، فسقطتْ حيّة من البيت على ابنه هاشم بنِ عبد اللّه فتطوّقتْ على بطنِه وهو نائمٌ، فصاحَ أهلُ البيت: الحيّة الحيّة! ولم يَزالُوا بها حتّى قَتَلوها وعبدُ اللّه قائمٌ يصلّي ما التفت ولا عَجِل، ثمّ فَرَغ من صلاته بعد ما قُتِلت الحيّة فقال: ما بالكم؟ فقالت أمّ هاشم: إي رَحِمَكَ الله، أرأيتَ إنْ كُنّا هُنّا عليك أيهون عليك ابنُك! قال: وَيْحَكِ! وما كانت التِفاتةٌ لو ٱلتَفَتُّها مُبْقِيَةً من صَلاتي.

قال الزبير: وعَبدُ اللّه أوّلُ من كَسا الكعبةَ الدِّيباج، وإن كان يُطَيِّبها حتّى يجِد ريحَها مَن دَخَل الحَرَم. قال: ولم تكن كِسْوة الكَعبة من قَبْله إلّا المسُوح والأنْطاع، فلمّا جرّد المهديّ بنُ المنصور الكَعْبة، كان فيما نَزَع عنها كِسْوة مِن ديباج مكتوب عليها: لعبد اللّه أبي بكر أمير المؤمنين. قال: وحدّثني يحيى بنُ مَعين بإسناد رَفَعه إلى هشام بن عروة، أنّ عبدَ اللّه بنَ الزبير أخِذ من بين القتلى يومَ الجمل وبه بِضعٌ وأربعون طَعْنةً وضَرْبة. قال الزبير: واعتلّت عائشةُ مَرّة، فدخل عليها بنو أُختِها أسماء: عبدُ اللّه وعروةُ والمنذر، قال عروة: فسألناها عن حالِها، فشكَتْ إلينا نَهْكَة[1] من عِلّتها فعزّاها عبدُ اللّه عن ذلك، فأجابتْه بنحو قولها، فعادَ لها بالكلام، فعادت له بالجواب، فصَمتَ وبَكى، قال عروة: فما رأينا مُتحاوِرَيْن من خَلْق الله أبلغَ منهما. قال: ثم رفعت رأسَها تَنظر إلى وجهه، فأُبْهِتَتْ لبكائه، فبَكَت ثمّ قالت: ما أحَقَّني منك يا بُنَيّ، ما أرَى. فلم أعلم بعدَ رسولِ الله ﷺ وبعد أبوَيّ أحداً أنزِل عندي مَنزِلتَك، قال عروة: وما سمعتُ عائشةَ وأمّي أسماءَ تَدْعوان لأحدٍ من الخَلق دعاءَهما لعبدِ اللّه، قال: وقال موسى بن عقبة: أقْرَأني عامرُ بنُ عبد اللّه بن الزبير وصيّةَ عبدِ اللّه بنِ مسعود إلى الزّبير بن العوّام وإلى عبد اللّه بنِ الزّبير من بعده، وإنّهما في وصيّتي في حِلّ وبِلّ.

قال: ورَوَى أبو الحسن المدائنيّ، عن أبي إسحاقَ التميميّ، أنّ معاويةَ سَمع رجلاً يُنشِد:

ابنُ رَقاشٍ ماجِدٌ سَمَيْدَعُ[2] ... يَأبَى فيُعطِي عن يدٍ أو يَمنَعُ

فقال: ذلك عبدُ اللّه بنُ الزبير: وكان عبدُ اللّه من جُمْلة النّفر الّذين أمرَهم عثمان بنُ عفّان أن يَنسَخوا القرآن في المصاحِف.

قال: وحدّثنا محمّد بنُ حسن، عن نَوْفل بن عُمارة، قال: سُئل سعيدُ بن المسيِّب عن

(١) نهكة: نهكته الحمى نهكاً ونهكة: جهدته وأضنته ونقصت من لحمه. اللسان، مادة (نهك).
(٢) السميدع: السيد الكريم الشريف السخي الموطأ الأكناف. اللسان، مادة (سمدع).

خُطباءِ قُرَيش في الجاهليّة، فقال: الأسود بن المطّلب بن أسَد، وسُهَيل بن عمرو. وسُئِل عن خُطبائهم في الإسلام، فقال: معاوية وابنُه، وسعيدُ بن العاص وابنُه، وعبد اللّه بن الزبير.

قال: وحدّثنا إبراهيمُ بنُ المنذِر، عن عثمانَ بن طَلْحة، قال: كان عبدُ اللّه بنُ الزبير لا يُنازَع في ثلاثٍ: شجاعة، وعِبادة، وبلاغة.

قال الزبير: وقال هشام بنُ عُرْوة: رأيتُ عبدَ اللّه أيّامَ حِصاره والحَجَر مِن المَنْجَنيق يَهوِي حتّى أقولَ: كاد يأخذ بلِحْيَتِه، فقال له أبي: أيَابن أمٍّ، والله إنْ كادَ ليأخذُ بِلحْيَتِك، فقال عبدُ اللّه: دَعْني يابنَ أمّ، فوالله ما هي إلا هَنَةٌ حتّى كأنّ الإنسانَ لم يكن، فيقول أبي وهو يُقبِل علينا بوجهه: والله ما أخشَى عليك إلّا من تلك الهنَة.

قال الزبير: فذكَر هشامٌ، قال: والله لقد رأيتُهُ يُرْمَى بالمنجَنيق فلا يَلتفِت ولا يُرعَد صَوتُهُ، وربّما مَرّت الشّظيّة منه قريباً من نَحْره.

وقال الزّبير: وحدّثنا ابنُ الماجِشون، عن ابن أبي مُليكة عن أبيه قال: كنتُ أطوفُ بالبَيْت مع عُمَر بنِ عبد العزيز، فلمّا بلغتُ الملتزم تخلّفتُ عندَه أدعو ثم لحِقْت عمر، فقال لي: ما خلّفك؟ قال: كنتُ أدعو في مَوْضع رأيتُ عبدَ اللّه بنَ الزبير فيه يَدْعو، فقال: ما تَتْرك تَحنُّناتِك على ابنِ الزبير أبَداً! فقلتُ: والله ما رأيْت أحداً أشدّ جِلْداً عن لَحْم، ولَحْماً على عَظْم من ابن الزبير، ولا رأيتُ أحداً أثبتَ قائماً، ولا أحسَنَ مصلّياً من ابنِ الزبير، ولقد رأيتُ حَجَراً من المنجَنيق جاءه فأصابَ شُرْفةً من المَسجد، فمرّت قُذاذَةٌ مِنْها بين لِحْيتِه وحَلقه، فلم يَزُل من مُقامه، ولا عرفنا ذلك في صَوْته، فقال عمر: لا إلٰه إلّا الله، لَجاد ما وصَفْت!

قال الزُّبير: وسمعتُ إسماعيل بنَ يعقوبَ التّيميَّ يحدِّث، قال: قال عمر بنُ عبد العزيز لابن أبي مُلَيكة: صفْ لنا عبدَ اللّه بن الزبير، فإنّه ترَمْرَمَ على أصحابِنا فتَغَشْمَروا عليه، فقال: عن أيِّ حاليه تَسأل؟ أعن دِينِه، أم عن دُنياه؟ فقال: عن كُلٍّ، قال: والله ما رأيتُ جِلْداً قطّ رُكّب على لَحْم ولا لحماً على عَصَب، ولا عَصَباً على عَظْم، مِثْل جِلْده على لحمِه ولا مثل لحمه على عَصَبِه، ولا مثل عصبه على عَظْمِه، ولا رأيتُ نَفْساً ركّبت بين جنبين مثل نفسٍ له ركّبتْ بين جَنْبين، ولقد قام يوماً إلى الصّلاة، فمرّ به حَجرٌ من حجارة المَنْجنيق، بِلَبِنَةٍ مطبوخة من شُرُفات المسجدِ، فمرّت بين لَحْيَيْه وصدرِه، فوالله ما خَشع لها بصرُه، ولا قطَع لها قراءتَه، ولا رَكع دونَ الركوع الّذي كان يركع، ولقد كان إذا دَخَل في الصلاة خَرَج من كلّ شيء إليها، ولقد كانَ يركع في الصلاة فيَقَع الرَّخَم على ظهرِه ويسجُد فكأنه مطروح.

قال الزّبير: وحدّث هشامُ بنُ عُروَة، قال: سمعتُ عمّي، يقول: ما أبالي إذا وجدتُ ثلاثمائة يَصبِرون صَبْري، لو أجلَب عليَّ أهلُ الأرض.

قال الزبير: وقَسَم عبدُ اللّه بن الزبير ثُلُث مالِه وهو حيّ، وكان أبوه الزّبير قد أوصَى أيضاً بثُلُث مالِه. قال: وابنُ الزبير أحد الرّهط الخمسة الّذين وَقَع اتّفاق أبي موسى الأشعريّ وعمرو بن العاص على إحضارِهم، والاستشارة بهم في يوم التّحكيم وهم: عبدُ اللّه بن الزبير، وعبدُ اللّه بن عمرو، وأبو الجَهْم بن حُذَيفة، وجُبَير بن مُطْعِم، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

قال الزبير: وعبدُ اللّه هو الّذي صَلّى بالناس بالبَصْرة لمّا ظَهَر طَلْحة والزّبير على عثمانَ بن حَنيف بأمرٍ منهما له. قال: وأعطَت عائشةُ من بَشّرُها بأنّ عبد اللّه لم يُقتَل يومَ الجمل عَشرةَ آلافِ درهم.

قلتُ: الّذي يَغلِب على ظنّي أنّ ذلك كان يوم إفريقيَة، لأنّها يوم الجمل كانت في شُغْل بنفسِها عن عَبدِ اللّه وغيره.

قال الزبير: وحدّثني عليُّ بنُ صالح مرفوعاً أنّ رسولَ الله ﷺ كلَّم في صِبْيَة تَرَعْرَعوا، منهم عبدُ اللّه بنُ جعفر، وعبدُ اللّه بن الزبير، وعُمَر بن أبي سَلَمة، فقيل: يا رَسُول الله، لو بايعتَهم فتصيبَهم برَكَتُك، ويكونَ لهم ذِكرا! فأتِيَ بهم فكأنهم تكَعْكَعوا حين جيءَ بهم إليه، واقتحم ابنُ الزبير، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: إنه ابنُ أبيه، وبايَعَهم[1].

قال: وسُئِل رأسُ الجالوتِ: ما عندكم من الفَراسة في الصِّبيان؟ فقال: ما عندنا فيهم شيء، لأنهم يُخلَقون خَلْقاً مِنْ بعد خَلْق، غير أنّا نرمُقُهم، فإنْ سَمِعنا منهم من يقول في لعبه: من يكون معي؟ رأيناها همة وخبء صدق فيه، وإن سمعناه يقول: مع مَن أكون؟ كرهْناها منه. قال: فكان أوّل شيء سُمِع من عبدِ اللّه بنِ الزبير أنه كان ذاتَ يومٍ يَلعَب مع الصّبيان، فمرّ رجلٌ، فصاح عليهم، ففرُّوا منه، ومَشَى ابنُ الزبير القَهْقَرى، ثم قال: يا صِبيان! اجعَلوني أميرَكم، وشُدّوا بنا عليه. قال: ومرّ به عمرُ بنُ الخطّاب وهو مع الصّبيان، ففرّوا ووَقَف، فقال لِمَ لَمْ تفرّ مع أصحابك؟ فقال: لم أجرِم فأخافَك، ولم تكن الطّريق ضَيّقةً فأُوسّعَ عليك!

ورَوى الزّبير بنُ بكّار، أنّ عبدَ اللّه بن سَعْد بن أبي سَرْح غزا إفريقيّة في خلافة عثمان، فقَتَل عبدُ اللّه بنُ الزبير جِرجيرَ أميرَ جَيْش الرُّوم، فقال ابنُ أبي سَرْح: إنّي موجّه بشيراً إلى أمير المؤمنين بما فتح علينا، وأنتَ أوْلَى مَن هاهنا، فانطَلِقْ إلى أمير المؤمنين فأخبره الخَبَر، قال عبدُ اللّه: فلمّا قدمتُ على عثمان أخبرتُه بفَتْح الله وصُنْعه ونصرِه، ووصَفْتُ له أمرَنا كيف كان، فلمّا فَرغْت من كلامي قال: هل تستطيعُ أن تؤدّيَ هذا إلى الناس؟ قلت: وما يَمنَعني من ذلك!

---

(١) أخرجه العسقلاني في «الإصابة» (٤/ ٩٢)، في ترجمة عبد الله بن الزبير، برقم (٤٦٨٤)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٢٣٤)، في حوادث سنة ثلاث وسبعين.

قال: فاخرج إلى النّاس فأخبِرْهم قال عبد اللّه: فخرجتُ حتّى جئتُ المنبر فاستقبَلْتُ الناسَ، فتلقّاني وجهُ أبي، فدخَلَتْني له هَيْبة عَرَفها أبي في وَجْهي، فقَبَض قبضةً من حَصْباءَ، وجَمعَ وجهَه في وجهي وهمّ أن يحصِبَني فأحْزَمْتُ، فتكلّمتُ.

فزَعموا أنّ الزبير لما فَرَغ عبدُ اللّه من كلامه قال: والله لكأنّي أسمَع كلامَ أبي بكر الصّدّيق: من أراد أن يتزوّج امرأةً فلينظرْ إلى أبيها وأخيها فإنّها تأتيه بأحدِهما.

قال الزّبير: ويُلقَّب عبدُ اللّه بعائذِ البيت، لاستعاذتِه به.

قال: وحدّثني عمّي مُصعب بنُ عبد اللّه، قال: إنّ الذي دعا عبدَ اللّه إلى التعوّذ بالبَيْت شيءٌ سَمِعه من أبيه حين سار من مكّة إلى البَصْرة، فإنّ الزبير التفتَ إلى الكعبة بعد أنْ وَدّع ووجّه يريدُ الرّكوب، فأقبَلَ على ابنِه عبدِ اللّه، وقال: تالله ما رأيتُ مِثلَها لطالب رَغْبةٍ أو خائِف رَهْبة.

ورَوَى الزّبير بنُ بَكّار، قال: كان سبب تعوّذ ابن الزّبير بالكعبة أنّه كان يمشي بعد عَتَمةٍ في بَعْض شوارع المدينة، إذ لقِي عبد اللّه بن سَعْد بن أبي سَرْح متلثّماً لا يَبدُو منه إلّا عَيْناه. قال: فأخذتُ بيَدِه وقلتُ: ابنُ أبي سَرْح! كيف كنتَ بَعدي؟ وكيفَ تركتَ أميرَ المؤمنين؟ يعني معاويةَ - وقد كان ابنُ أبي سَرْح عندَه بالشام - فلم يكلّمني، فقلت: ما لك؟ أمات أمير المؤمنين؟ فلم يكلمني، فتركتُه وقد أثبتّ معرفتَه، ثمّ خرجتُ حتّى لقيتُ الحسينَ بنَ عليّ رضي الله عنه، فأخبرتُه خَبره، وقلتُ: ستأتيك رُسُل الوَليد، وكان الأميرُ عَلَى المدينة الوليدَ بن عُتْبة بن أبي سُفْيان، فانظر ما أنتَ صانع! واعلم أنّ رَواحِلي في الدّار مُعَدّة، والمَوْعِد بيني وبَيْنك أن تغفل عنّا عيونهم، ثمّ فارقته فلم ألبثْ أن أتاني رسولُ الوَليد، فجئتُه فوجدتُ الحسينَ عندَه، ووجدتُ عنده مَروان بنَ الحَكَم، فنَعَى إليّ معاوية، فاسترجعت فأقبَل عليّ، وقال: هلمّ إلى بَيْعة يزيدَ، فقد كتب إلينا يأمُرُنا أن نأخذَها عليك! فقلت: إنّي قد علمتُ أنّ في نفسه عليّ شيئاً لِتَركي بَيعَتَه في حياة أبيه، وإن بايعتُ له على هذه الحال توهّمَ أنّي مُكرَه على البَيْعة، فلم يَقَعْ منه ذلك بحيث أريد، ولكن أصبِح ويَجتمع الناس، ويكون ذلك علانيةً إن شاء الله، فنَظَر الوليد إلى مروان فقال مَرْوان: هو الّذي قلتُ لك، إنْ يخرج لم تَرَه. فأحببتُ أنْ أُلقيَ بيني وبينَ مَرْوان شَرًّا نتشاغَل به، فقلتُ له: وما أنتَ وذاكَ يابنَ الزّرقاء! فقال لي، وقلتُ له، حتّى تواثَبْنا، فتناصيْتُ أنا وهو، وقام الوليدُ فحجَز بينَنا، فقال مروان: أتحجُز بيننا بنَفْسك، وتَدع أن تأمر أعوانَك! فقال: قد أرَى ما تُريد، ولكن لا أتولّى ذلك منه والله أبداً، اذْهب يابنَ الزّبير حيثُ شِئتَ، قال: فأخذتُ بيَدِ الحُسَين، وخرجنا من الباب حتّى صِرْنا إلى المَسْجِد، وأنا أقول:

ولا تحسبنّي يا مُسافر شَحْمةً   تَعجّلها من جانب القِدْرِ جائعُ

فلما دخل المسجدَ افترَقَ هو والحُسين، وعَمَد كلّ واحد منهما إلى مُصلاّه يُصلّي فيه،

وجَعلت الرسلُ تَختلِف إليهما، يَسمَع وَقْع أقدَامِهم في الحَصْباء حتّى هَدأ عنهما الحِسّ، ثمّ انصرَفا إلى منازِلهما، فأتى ابن الزبير رواحله، فقعَد عليها، وخرج من أدبارِ دارِه، ووافاه الحسينُ بنُ عليّ، فخرجَا جميعاً من لَيْلَتهم، وسَلكوا طريقَ الفُرْع حتّى مرُّوا بالجَثْجاثة وبها جعفر بنُ الزبير قد ازدَرَعها، وغُمِزَ عليهم بعيرٌ من إبلهم فانتَهَوْا إلى جعفر، فلما رآهم قال: مات معاويةُ؟ فقال عبدُ الله: نَعَم، انطَلِقْ معنا وأعطنا أحدَ جَمَلَيْك - وكانَ يَنضَح على جَملين له - فقال جعفر متمثّلاً:

إخــوتِـــي لا تَــبــعَـــدوا أبَـــداً وبَــلَـــى واللهِ قـــد بَـــعُـــدُوا

فقال عبدُ الله - وتطيّر منها: بفيك التّراب! فخرجوا جميعاً حتّى قَدِموا مَكّة، قال الزبير: فأمّا الحُسين عليه السلام فإنّه خرج من مكّة يومَ التَّرْوِية يَطلُب الكوفة والعراق، وقد كان قال لعبد الله بنِ الزبير: قد أتَتْني بَيْعةُ أربَعين ألفاً يَحلِفون لي بالطلاق والعتاق من أهل العراق، فقال: أتخرُج إلى قومٍ قَتَلوا أباك وخَذَلوا أخاك!

قال: وبعضُ الناس يَزْعم أن عبدَ الله بنَ عباس هو الّذي قال للحُسين ذلك.

قال الزّبير: وقال هشام بنُ عُروة: كان أوّل ما أفصَح به عمّي عبد الله وهو صغير: السّيف، فكان لا يَضعُه مِن فيه، وكان أبوه الزبير إذا سَمِع منه ذلك يقول: أما والله ليكوننّ لكَ منه يومٌ ويوم وأيام!.

فأما خبرُ مقتَل عبد الله بن الزّبير فنحن نوردُه من تاريخ أبي جعفر محمد بن جَرير الطبريّ رحمه الله. قال أبو جعفر: حَصَر الحجّاجُ عبدَ الله بنَ الزبير ثمانيَة أشهر، فرَوَى إسحاق بنُ يحيى عن يوسفَ بن ماهك، قال: رأيتُ مَنجنيق أهلِ الشام يُرمَى به، فرَعَدتِ السماءُ وبَرَقتْ، وعلا صوتُ الرّعد على صَوْت المَنجنيق، فأعظَمَ أهلُ الشام ما سَمِعوه، فأمسَكوا أيديَهم، فرَفَع الحجّاج بِرْكة قبائِه، فَغَرَزها في منطقته، ورَفَع حَجَر المَنجَنيق فوَضَعه فيه، ثم قال: ارموا، ورَمَى معهم، قال: ثمّ أصبحوا فجاءت صاعقةٌ يتبَعها أُخرى، فقتلتْ من أصحاب الحجّاج اثنيْ عشرَ رجلاً، فأنكر أهلُ الشّام، فقال الحجّاج: يا أهلَ الشام، لا تُنكروا هذا، فإنّي ابنُ تِهامة، هذه صَواعقُ تِهامَة، هذا الفتحُ قد حَضَر فأبشِروا، فإنّ القوم يُصيبُهم مِثل ما أصابَكم، فصعقت من الغَد فأصيبَ من أصحاب ابن الزبير عدّة ما أصاب الحَجّاج، فقال الحجّاج: ألا ترون أنهم يُصابُون وأنتم على الطّاعة، وهم على خلاف الطاعة! فلم تزلْ الحربُ بين ابنِ الزّبير والحجّاج حتّى تفرّق عامّة أصحاب ابن الزبير عنه، وخرج عامّة أهلِ مَكّة إلى الحجّاج في الأمان.

قال: ورَوَى إسحاق بنُ عبيد الله، عن المُنذِر بن الجَهْم الأسلَمِيّ، قال: رأيتُ ابنَ الزّبير، وقد خَذلَه من معه خِذْلاناً شديداً، وجَعلوا يَخرجون إلى الحجّاج، خرج إليه منهم نحو عشرة

آلاف، وذكر أنّه كان ممّن فارَقَه، وخرج إلى الحجاج ابناه: خُبَيب وحمزة، فأخذا من الحجاج لأنفسهما أماناً. قال أبو جعفر: فروى محمد بن عمر، عن ابن أبي الزنّاد، عن مَخْرمة بن سَلْمَان الواليّ، قال: دخل عبدُ الله بن الزبير على أمّه حين رَأى من النّاس ما رأى من خِذْلانه، فقال: يا أمّه، خَذَلني النّاس حتى وَلَدِي وأهلي، ولم يَبقَ معي إلّا اليسير ممّن ليس عندَه من الدّفع أكثر من صَبْر ساعة، والقوم يُعطونَني ما أردتُ من الدّنيا. فما رأيُكِ؟ فقالت: أنت يا بُنيّ أعلَم بنفسك، إن كنتَ تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له، فقد قُتِل عليه أصحابُك، ولا تُمكّن من رقَبتِك يتلعّب بك غِلمانُ بني أميّة، وإن كنتَ إنّما أردتَ الدُّنيا فبئس العبدُ أنتَ! أهلكتَ نفسك وأهلكتَ من قُتِل معك، وإن قلتَ: قد كنتُ على حقّ فلما وَهَن أصحابي وَهَنْتُ وضعفت، فليس هذا فِعلُ الأحرار ولا أهل الدّين، وكم خُلُودك في الدنيا! القَتْل أحسن، فدنا ابنُ الزبير فقبّل رأسَها، وقال: هذا والله رأيي الذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا، وما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياةَ فيها، ولم يَدْعُني إلى الخروج إلّا الغَضَب لله أن تُستَحَلَّ محارمُه، ولكنّي أحببتُ أن أعلم رأيَكِ، فزِدْتني بصيرةً مع بصيرتي. فانظُري يا أمّه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يَشتدّ حُزنك، وسَلّمي لأمرِ الله، فإنّ ابنَك لم يتعمّد إتيان مُنكَر، ولا عَمَلاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حُكْم، ولم يغدِر في أمان، ولم يتعمّد ظُلمَ مُسلِم ولا مُعاهِد، ولم يَبلُغني ظلمٌ عن عُمّالي فرضيتُ به بل أنكرتُه، ولم يكن شيءٌ آثرَ عندي من رِضَا ربي. اللهمّ إني لا أقول هذا تزكيةً منّي لنفسي، أنتَ أعلمُ بي، ولكنّني أقوله تعزيةً لأمّي لتسلوَ عنّي. فقالت أمّه: إني لأرْجو من الله أن يكون عَزائي فيك حَسَناً إنْ تَقدّمْتَني، فلا أخرُج من الدنيا حتى أنظرَ إلى ما يصيرُ أمرُك، فقال: جزاك الله يا أمّه خيراً! فلا تَدَعي الدُّعاء لِي قبلُ وبعد، قالت: لا أدعُه أبداً، فمن قُتِل على باطل فقد قتِلتَ على حقّ. ثم قالت: اللهمّ ارحمْ طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النّحيب والظّمأ في هَواجِر المدينة ومكّة، وبرّه بأبيه وبي! اللهم إني قد سَلّمته لأمرِك فيه، ورضيت بما قضيتَ، فأثِبْني في عبدِ الله ثوابَ الصّابرين الشاكرين.

قال أبو جعفر: وَرَوَى محمّد بن عمَر، عن موسى بن يعقوب بن عبد اللّه، عن عمّه، قال: دخل ابنُ الزبير على أمّه وعليه الدّرع والمِغفَر[1]، فوَقَف فسلّم، ثمّ دنا فتناول يدَها فقبّلها، فقالت: هذا وَداع فلا تَبْعد، فقال: نَعَم، إنّي جئت مودِّعاً، إني لأَرَى أنّ هذا اليومَ آخرُ يوم من الدنيا يمرّ بي، واعلمي يا أمّه أني إن قُتلتُ فإنما أنا لحمٌ لا يَضرُّه ما صُنِع به، فقالت: صدقتَ يا بُنيّ، أتمم على بَصيرَتِك، ولا تُمكّن ابنَ أبي عَقِيل منك، وادنُ مني أودِّعك، فدنا منها فقبّلها وعانقها، فقالت حيث مسّت الدّرع: ما هذا صَنيعُ مَن يريدُ ما تريدُ! فقال: ما لبستُها إلا لأشدّ منكِ، فقالت: إنها لا تشدّ مني، فَنَزَعها، ثمّ أخرَج كميّه وشدّ أسفَل قميصه، وعَمد إلى جبّةِ خزٍّ

---

(١) المغفر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح. القاموس، مادة (غفر).

تحت القميص، فأدخَل أسفلَها في المِنطقة، فقالت أمه: شَمِّر ثيابَك، فشمَّرها، ثم انصرف وهو يقول:

إنّـي إذا أعــرِف يــومِـي أصـبِـرْ إذ بـعـضُـهـم يَـعـرِف ثـم يُـنـكِـرْ

فسمعت العجوز قوله، فقالت: تصبر والله، ولم لا تصبر وأبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب!

قال وَرَوَى محمد بن عمر عن ثَوْر بن يزيدَ عن رجل من أهل حمْص قال: شهدتهُ والله ذلك اليوم ونحن خمسمائة من أهلِ حمْص، فدَخَل من باب المسجد لا يدخُل منه غيرنا، وهو يَشدّ علينا ونحن مُنهزمون وهو يرتجز:

إنــي إذا أعــرِف يــومــي أصـبِـرْ وإنــمــا يَـعـرِف يَـوْمَـيْـه الـحُـرْ

وبـعـضُـهـمْ يَـعـرِف ثـمّ يُـنْـكِـرْ

فأقول: أنت والله الحرّ الشريف، فلقد رأيتُه يقف بالأبطح، لا يدنو منه أحدٌ حتّى ظننّا أنهُ لا يقتل. قال ورَوَى مُصعَب بنُ ثابت، عن نافع مولَى بني أسَد، قال: رأيتُ الأبوابَ قد شُحِنتْ بأهل الشام، وجَعَلوا على كلّ باب قائداً ورجالاً وأهل بلد، فكان لأهل حِمصَ الباب الّذي يواجه بابَ الكعبة، ولأهلِ دمشق باب بني شَيْبة، ولأهل الأرْدُنّ بابُ الصّفا، ولأهلِ فِلسْطين باب بني جُمَح، ولأهلِ قِنّسرِينَ بابُ بني سَهْم، وكان الحجاج وطارِقُ بن عمرو في ناحية الأبطح إلى المَرْوة، فمرة يحمِل ابنُ الزُّبير في هذه الناحية، ولكأنه أسَد في أجمّة[1] ما يُقدِم عليه الرّجال، فيَعدُو في أثر الرجال وهم على الباب حتّى يُخرجَهم، ثم يصِيح إلى عبد اللّه بن صَفوان، يا أبا صَفوان، وَيْلُ أمّه فتحاً لو كان له رجال! ثم يقول:

لـو كـان قِـرْنـي واحـداً كُـفِـيـتُـه

فيقول عبدُ اللّه بن صَفوان: إي والله وألفاً.

قال أبو جعفر: فلمّا كان يوم الثلاثاء، صبيحة سبع عشرةَ من جُمادى الأولى سَنة ثلاث وسَبْعين، وقد أخذ الحجّاج على ابن الزّبير بالأبواب، باتَ ابنُ الزّبير تلك الليلة يصلّي عامّة الليل، ثم احتَبى بحمائِل سيفِه، فأغفَى ثم انتبَه بالفَجْر، فقال: أذِّنْ يا سعد، فأذن عند المَقام، وتوضّأ ابنُ الزبير ورَكع ركعَتي الفَجْر، ثم تقدَّم وأقام المؤذّن، فصلّى ابنُ الزبير بأصحابه فقرأ «ن والقَلَم» حَرْفاً حرفاً ثمّ سلّم، ثمّ قام، فحَمِد الله وأثنَى عليه ثم قال: اكشفوا وجوهَكم حتى أنظرَ، وعليها المَغافِر والعَمائم، فكَشَفوا وجوهَهم، فقال: يا آل الزّبير، لو طِبْتم لي نَفْساً عن أنفسكم كنّا أهلَ بيت مِن العرب اصطُلِمْنا، لم تُصِبنا مَذَلّة، ولم نقرّ على ضَيْم. أمّا بعد يا آل

(١) الأجمة الشجر الكثير الملتف. القاموس، مادة (أجم).

الزبير، لا يُرعْكم وَقعُ السّيوف، فإني لم أحضر مَوْطناً قطّ ارتُثِثْتُ فيهِ بين القَتْلى، وما أجد من دواء جراحها أشدّ ممّا أجِد من ألم وَقْعها. صونوا سيوفَكم كما تصونون وجوهكم. لا أعلم امرأ كَسَر سيفَه واستَبقى نفسَه. فإنّ الرّجل إذا ذهبَ سلاحُه فهو كامرأة أعزَل. غضّوا أبصاركم عن البارقة، وليَشغل كلُّ امرىءٍ قرنه، ولا يُلهِيَنّكم السّؤالُ عنّي، ولا تقولُنّ: أين عبدُ الله بن الزّبير؟ ألا من كان سائلاً عنّي فإنّي في الرَّعيل الأوّل، ثمّ قال:

أبَى لابنِ سَلْمى أنّه غيرُ خالدٍ   يُلاقِي المَنايا أيّ وجهٍ تيَمَّما
فلستُ بمُبتاعِ الحياةِ بسُبّةٍ[1]   ولا مُرتَقٍ من خشيةِ الموت سُلّما

ثمّ قال: احملوا على بركة الله، ثمّ حَمَل حتّى بلغ بهم إلى الحَجُون، فرُمِيَ بحَجَر، فأصاب وجهَه، فأرعِشَ ودَمِيَ وجههُ، فلمّا وجد سُخونة الدّم تسيلُ على وجهه ولحيته قال:

ولَسْنا على الأعقاب تَدْمَى كُلومُنا   ولكنْ على أقدامِنا تَقطُر الدِّمَا

قال: وتَقاوَوا عليه، وصاحتْ مولاةٌ له مجنونة: واأمير المُؤمِنيناه! وقد كان هَوَى، ورأته حين هَوَى فأشارتْ لهم إليه، فقُتِل وإنّ عليه لثيابَ خَزٍّ، وجاء الخبرُ إلى الحجّاج، فسَجَد وسار هو وطارقُ بنُ عمرو، فوَقَفا عليه، فقال طارق: ما وَلَدتِ النّساءُ أذكَرَ مِن هذا، فقال الحجاج: أتمدَح من يُخالِف طاعة أمير المؤمنين! فقال طارق: هو أعذَرُ لنا، ولولا هذا ما كان لنا عُذْرٌ، إنّا مُحاصِروه وهو في غير خَنْدق ولا حِصْن ولا مَنَعة منذُ ثمانيةِ أشهُر يَنتصِف منّا، بل يفضُل علينا في كلّ ما التقينا نحن وهو، قال: فبلغ كلامُهما عبد الملك، فصوّب طارقاً.

قال: وبَعث الحجّاجُ برأس ابن الزبير ورأس عبد بن صَفْوان ورأس عمَارة بن عَمْرو بن حزم إلى المدينة، فنصبت الثلاثة بها، ثمّ حملتْ إلى عبد الملك.

ونحن الآن نذكُر بقية أخبارِ عبد الله بن الزبير ملتقطةً من مواضع متفرقة:

رئِيَ عبدُ الله بنُ الزبير في أيام معاوية واقفاً بباب ميّةَ مولاة معاوية، فقيل له: يا أبا بكر، مِثلُك يَقِف بباب هذه! فقال: إذا أعْيَتكم الأمورُ مِن رُؤوسها فخذوها من أذْنابها.

ذكر معاويةُ لعبد الله بن الزبير يزيد ابنه، وأراد منه البَيْعة له، فقال ابنُ الزبير: أنا أنادِيك ولا أناجيك، إن أخاكَ مَنْ صَدَقك، فانظر قبل أن تقدم، وتفكّر قبل أن تَنْدَم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكّر قبل التندّم، فضَحِك معاويةُ وقال: تعلّمتَ يا أبا بكرٍ الشّجاعة عند الكِبَر.

كان عبدُ الله بنُ الزبير شديد البُخل، كان يُطعِم جندَه تمراً، ويأمُرهم بالحرْب، فإذا فَرّوا مِن وَقع السيوف لامَهم وقال لهم: أكَلتم تَمْري، وعصيْتم أمري فقال بعضهم:

---

(١) السبة: العار. القاموس، مادة (سبب).

ألــم تــرَ عــبــد الله - والله غــالــبٌ   على أمره - يبغي الخلافَة بالتَّمْرِ

وكسَر بعضُ جنده خمسة أرماح في صدور أصحاب الحجّاج، وكلّما كسَرَ رُمْحاً أعطاه رُمحاً، فشَقَ عليه ذلك، وقال: خمسة أرماح! لا يَحتمِل بيتُ مال المسلمين هذا.

قال: وجاءه أعرابيّ سائلٌ فَردّه، فقال له: لقد أحرَقَت الرَّمْضاء[1] قَدميّ، فقال: بُلْ عليهما يبردان.

جَمَع عبد اللّه بنُ الزبير محمد بن الحنفيّة وعبد الله بن عباس في سبعة عشر رجلاً من بني هاشم، منهم الحسن بنُ الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وحصَرَهم في شِعْب بمكة يُعرَف بشعب عارِم، وقال: لا تمضي الجمعة حتى تُبايعوا إليّ أو أضرب أعناقَكم، أو أحرّقكم بالنار، ثم نهض إليهم قبل الجمعة يريد إحراقهم بالنار، فالتزمه ابن مِسْوَر بن مخرمة الزهريّ، وناشده الله أن يؤخّرهم إلى يوم الجمعة، فلمّا كان يوم الجمعة دعا محمد بن الحنفيّة بغَسولٍ وثياب بيضٍ، فاغتسل وتلبّس وتحنّط، لا يَشُكُّ في القتل، وقد بعث المختار بن أبي عُبيد من الكوفة أبا عبدِ اللّه الجَدَليّ في أربعة آلاف، فلما نزلوا ذات عِرْق، تعجّل منهم سبعون على رواحلهم حتى وافَوْا مكة صبيحة الجمعة يُنادُون: يا محمّد، يا محمّد! وقد شَهَروا السلاح حتى وافَوْا شِعْبَ عارِم، فاستخلصوا محمَّد بن الحنفيّة ومن كان معه، وبعث محمد بنُ الحنفيّة الحسن بنَ الحسن يُنادِي: من كان يَرَى أن لله عليه حَقًّا فليشِمْ سَيْفَه، فلا حاجة لي بأمر الناس، إنْ أُعطِيتُها عَفْواً قَبِلتُها، وإن كَرِهوا لم نَبْتَزَّهم أمرَهم.

وفي شِعب عارم وحصار ابن الحنفيّة فيه يقول كثيّرُ بنُ عبدِ الرحمن:

ومن يَرَ هذا الشيخ بالخَيْف مِن مِنًى   مِنَ الـنـاس يَـعـلـم أنـه غـيـرُ ظـالِـمِ
سَمِيّ الـنَّـبـيّ الـمصطفى وابنُ عمِّه   وحَــمّــالُ أثــقــالٍ وفَــكّــاك غــارِمِ
تـخـبِّـر مـن لاقـيـتَ أنّـك عـائـذٌ   بل العائذُ المحبوسُ في سِجْن عارِمِ

وَرَوَى المَدائنيّ، قال: لما أخرَج ابنُ الزبير عبدَ اللّه بن عباس من مكة إلى الطائف مَرّ بنَعمان، فنزل فصلّى ركعتين، ثم رفعَ يَدَيْهِ يدعو، فقال: اللّهمّ إنك تعلم أنه لم يكنْ بلدٌ أحَبّ إليّ من أن أعبُدَك فيه من البلد الحرام، وأنني لا أحبّ أن تقبض رُوحي إلّا فيه، وأنّ الزبير أخرَجني منه، ليكون الأقوَى في سلطانه. اللّهمّ فأوْهِن كيدَه، واجْعل دائرة السَّوْء عليه. فلمّا دنا من الطّائف تلقاه أهلها، فقالوا: مرحباً بابن عَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم! أنتَ والله أحبُّ إلينا وأكرم علينا ممّن أخرجك، هذه مَنازِلنا تخيّرها، فانزلْ منها حيث أحببت، فنزل مَنزلاً، فكان

---

(١) الرمضاء: الأرض الشديدة الحرارة. القاموس، مادة (رمض).

يَجلس إليه أهلُ الطّائف بعد الفجر وبعد العَصْر، فيتكلّم بينهم، كان يحمد الله ويذكُر النبيّ ﷺ والخلفاءَ بعده، ويقول: ذهبوا فلم يَدَعوا أمثالهم ولا أشباههم ولا مَن يُدانيهم، ولكنْ بقي أقوامٌ يطلبُون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبَسون جلود الضّأن، تحتَها قلوبُ الذّئاب والنُّمور، لِيَظُنَّ الناسُ أنهم من الزاهدين في الدنيا، يُراؤُونَ الناس بأعمالهم، ويُسْخِطون الله بسرائرهم، فادعوا الله أن يقضيَ لهذه الأمة بالخير والإحسان، فيولّي أمرها خيارَها وأبرارَها، ويُهلك فُجّارها وأشرارها، ارفعوا أيديَكم إلى ربّكم وسلُوه ذلك، فيفعلون.

فبلغ ذلك ابن الزبير، فكتب إليه:

أما بعد، فقد بلغني أنك تجلس بالطّائف العَصْرَيْن فتُفْتيهم بالجهل، تَعِيب أهلَ العَقْل والعِلْم، وإنّ حِلْمي عليك، واستدامتي فَيْئك جَرّاك عليّ، فاكفُفْ - لا أبا لغَيْرك - مِنْ غَرْبك، وارْبَعْ على ظَلْعِك، واعقل إن كان لك مَعْقول، وأكْرم نفسك فإنك إن تهِنْها تجدها على الناس أعظم هَوَاناً، ألم تسمع قول الشاعر:

فنفسَك أكرِمْها فإنّك إن تَهُنْ عليكَ فلنْ تلقى لها - الدهرَ - مُكْرِمَا

وإنّي أقسم بالله لئن لم تنته عمّا بلغني عنك لتجدَنَّ جانبي خَشِناً، ولتجدنّني إلى ما يَرْدَعُك عنّي عجِلاً، فَرَ رأيك، فإن أشفى بك شقاؤك على الرَّدى فلا تُلم إلا نفسك.

فكتب إليه ابنُ عباس: أما بعد، فقد بلغني كتابُك، قلت: إنّي أفتي الناس بالجهْل، وإنما يُفتي بالجهْل مَن لم يعرف مِن العلم شيئاً، وقد آتاني الله مِن العلم ما لم يؤتِك. وذكرت أنّ حِلمك عني، واستدامَتَك فَيْئي جَرّآني عليك، ثمّ قلت: أكْفُفْ مِن غَرْبك، واربَعْ على ظَلْعك، وضربت ليَ الأمثال، أحاديث الضّبع، متى رَأيتني لعُرامِك هائباً، ومن حَدّك ناكِلاً! وقلت: لئن لم تكفف لتجدنّ جانبي خَشِناً، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا أرعى عليك إن أرْعَيت! فوالله أنتهي عن قول الحق، وصفة أهل العدل والفضل، وذمّ الأخسَرِين أعمالاً، الذين ضَلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهُم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً، والسّلام.

قَدِم معاوية المدينة راجعاً من حَجّة حَجّها، فكثّر الناسُ عليه في حوائجَهم، فقال صاحِب إبله: قَدِّم إبلك لَيْلاً حتى أرتحل، ففعل ذلك، وسار ولم يعلم بأمره إلّا عبد الله بنُ الزبير، فإنه ركب فَرَسه وقَفَا أثره، ومعاوية نائم في هَوْدجه، فجعل يسير إلى جانبه، فانتبه معاويةُ، وقد سمع وَقْع حافر الفَرَس، فقال: من صاحب الفرس؟ قال: أنا أبو خُبيْب، لو قد قتلتك منذ الليلة! يُمازحه، فقال معاوية: كلاّ لستَ من قَتلة الملوك، إنما يصيد كلُّ طائر قَدْرَه. فقال ابنُ الزبير: إليّ تقول هذا، وقد وقفتُ في الصّفّ بإزاء عليّ بن أبي طالب، وهو مَن تعلم! فقال معاوية: لا جَرم! إنه قَتَلك وأباك بيسرى يدَيْه، وبقيتْ يدُه اليمنى فارغة يطلب مَنْ يقتله بها.

فقال ابن الزبير: أما والله ما كان ذاك إلّا في نَصْر عثمان فلم نُجْزَ به، فقال معاوية: خَلٍّ هذا عنك، فوالله لولا شدّة بُغْضِك ابن أبي طالب لجَرَرْت برِجْل عثمان مع الضَّبع. فقال ابن الزبير: أما والله ما كان ذاك إلّا في نَصْر عثمان فلم نُجْزَ به، فقال معاوية: خَلٍّ هذا عنك، فوالله لولا شدّة بُغْضِك ابن أبي طالب لجرَرْت برِجْل عثمان مع الضَّبع. فقال ابن الزبير: أفَعَلْتَها يا معاوية! أما إنّا قد أعطَيْناك عَهْداً، ونحنُ وافون لك به ما دمتَ حيًّا، ولكن ليعلمنّ مَنْ بعدك، فقال معاوية: أما والله ما أخافُك إلّا على نفسك، ولكأني بك وأنت مشدودٌ مَرْبوط في الأنشوطة، وأنت تقول: ليت أبا عبد الرحمن كان حيًّا، وليتني كنتُ حياً يومئذ، فأحلُّك حلًّا رفيقاً، ولبئس المُطلق والمعتق والمَسْنون عليه أنت يومئذ!

دَخل عبدُ اللّه بنُ الزبير على معاوية وعندَه عمرو بنُ العاص، فتكلم عَمرو - وأشار إلى ابن الزبير - فقال: هذا والله يا أميرَ المؤمنين الّذي غَرَّته أناتُك، وأبْطَره حِلْمك، فهو يَنْزُو في نَشطتِهِ نَزْوَ العير في حبالتِهِ[1]، كلّما قَمصتْه الغُلَواءُ[2] والشِّرّة سكّنت الأنشوطةُ منه النّفرة، وأَحرِبه أن يؤول إلى القِلّة أو الذِّلّة، فقال ابنُ الزبير: أما والله يابنَ العاص، لولا أنّ الإيمان ألزمنا بالوَفاء، والطاعةِ للخُلَفاء - فنحن لا نريد بذلك بَدَلاً، ولا عنه حِوَلاً - لكان لنا وله ولك شأن، ولو وَكَلَه القضاءُ إلى رأيك، ومَشُورة نُظَرائك لَدَافَعْناه بمَنكِب لا تئوده المُزَاحَمَة، ولقاذَفْناه بحَجَر لا تَنْكَؤه المُراجَمَة، فقال معاوية: أما والله يابنَ الزّبير لولا إيثارِي الأناةَ على العَجَل، والصَّفْحَ على العُقوبة، وأنّي كما قال الأوّل:

أجامِلُ أقواماً حَياءً وقد أرَى ... قُلوبَهُم تَغْلي عليَّ مِراضُها

إذاً لَقَرَنْتُك إلى ساريةٍ من سوَارِي الحَرَم تُسكّن بها غُلَوَاءَكَ، وينقَطِع عندَهَا طَمعُك، وتَنقُص من أَمَلك، ما لَعلّك قد لَوَيْتَه فشزرته، وفتَلْته فأبرَمْته. وايمُ الله إنّك من ذلك لَعلَى شَرف جُرُف بَعيدِ الهُوّة، فكن على نفسِك ولها، فما توبِق ولا تنقذ غيرَها، فشأنَك وإيّاها.

قطع عبدُ اللّه بن الزّبير في الخُطبة ذِكْرَ رسول الله ﷺ وآله جمعاً كثيرة، فاستعظم الناسُ ذلك، فقال: إني لا أرغَب عن ذِكره، ولكنّ له أُهَيْل سوءٍ إذا ذكرتُه أتلعوا أعناقَهم، فأنا أحِبّ أن أكْبِتهم.

لمّا كاشف عبدُ اللّه بنُ الزبير بني هاشم وأظهَر بُغضَهم وعابهم، وهمّ بما همّ به في أمرهم، ولَم يذكُر رسولَ الله ﷺ في خُطبةٍ، لا يومَ الجُمعة ولا غيرها، عاتَبه على ذلك قومٌ من

(١) الحبالة: الانطلاق. القاموس، مادة (حبل).

(٢) الغلواء: أول الشباب وسرعته. اللسان، مادة (غلو).

خاصّته، وتَشاءموا بذلك منه، وخافوا عاقبتَه، فقل: والله ما تركتُ ذلك عَلانيةً إلّا وأنا أقولُه سِرًّا وأكثر منه، لكِنّي رأيتُ بني هاشم إذا سمِعوا ذِكرَه اشرَأَبّوا واحمّرت ألوانُهم، وطالتْ رقابُهم، والله ما كنتُ لآتي لهم سُروراً وأنا أقدر عليه، والله لقد هَممتُ أن أحظر لهم حظيرةً ثم أضرِمها عليهم ناراً، فإني لا أقتلُ منهمْ إلّا آثماً كَفّاراً سَحّاراً، لا أنماهم الله ولا بارَك عليهم، بيت سَوء لا أوّل لهم ولا آخِر، والله ما ترك نبيّ الله فيهمْ خيراً، استفرَغ نبيّ الله صدْقهم فهمْ أكذَب الناس.

فقام إليه محمّد بنُ سعد بنِ أبي وقّاص فقال: وفَقك الله يا أمير المؤمنين! أنا أوّل مَن أعانك في أمرهم، فقام عبدُ اللّه بنُ صَفوَان بن أميّة الجُمحيُّ، فقال: والله ما قلتَ صواباً، ولا هممتَ برُشْد، أرَهْط رسول الله ﷺ تَعيب، وإياهم تَقتُل، والعرب حَوْلك! والله لو قتلتَ عِدّتهم أهل بيت من التّرك مُسلِمين ما سوّغه الله لك، والله لو لم يَنصُرْهم النّاس منْك لنَصَرهم الله بنَصْره. فقال: اجْلس أبا صَفْوان فلستَ بناموس.

فَبَلَغ الخبرُ عبدَ اللّه بن العبّاس، فخرج مُغضَباً ومعه ابنُه حتى أتى المسجد، فَقَصد قَصْد المنبَر فَحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ ثمّ قال: أيها الناس، إن ابن الزّبير يزعُم أن لا أوّل لرسول الله ﷺ ولا آخِر، فيَا عَجباً كلَّ العَجَبِ لافترائه ولكَذِبه! والله إن أوّل من أخَذَ الإيلافَ وَحَمَى عِيرَات قريش لهَاشم، وإن أوّل من سقى بمكّة عَذباً، وجعَل بابَ الكعبة ذَهَباً لعَبدُ المطّلب، والله لقد نشأتْ ناشئتُنا مع ناشئَةِ قُرَيش، وإنْ كنّا لقَالَتهم إذا قالوا، وخُطباءَهم إذا خَطَبوا، وما عُدَّ مَجد كمجدِ أوّلنا، ولا كان في قُرَيْشٍ مجدٌ لِغَيْرنا، لأنّها في كفر ماحِق، ودِينٍ فاسق، وضلّة وضلالة، في عَشْوَاء عَمْياء، حتّى اختارَ الله تعالى لها نُوراً، وبَعث لها سِراجاً، فانتَجبه طيباً من طيّبين، لا يَسُبّه بمسبّة، ولا يَبْغِي عليه غائلة، فكان أحدنا وولدَنا، عمّنا وابنَ عمّنا. ثمّ إنّ أسبقَ السابقين إليه منّا ابنُ عمّنا، ثم تلاه في السَّبق، أهلُنا ولحمتنا واحداً بعد واحد.

ثمّ إنّا لخير الناس بعدَه وأكرَمُهم أدباً، وأشرَفُهم حَسَباً، وأقربهم منه رَحماً.

واعَجَباً كلّ العَجَب لابن الزبير! يعيبُ بني هاشم، وإنما شَرُف هو وأبوه وجدُّه بمُصاهَرتِهم، أما والله إنّه لمسلوبُ قريش، ومتى كان العوّام بن خُوَيلد يطمَع في صفيّة بنت عبد المطلب! قيل للبَغْل: مَن أبوك يا بَغْل؟ فقال: خالي الفَرَس. ثمّ نزل[1].

خطب ابنُ الزبير بمكّة على المِنبر، وابن عباس جالسٌ مع النّاس تحتَ المِنبر، فقال: إنّ

(١) أنظر مواقف الشيعة: ١/ ١٩٥.

هاهنا رَجُلاً قد أعمَى الله قلبَه كما أعمَى بَصرَه، يَزعُم أن مُتْعة النّساء حلالٌ من الله ورَسولِه، ويُفتي في القَمْلة والنَّمْلة، وقد أحتَمَل بيتَ مال البَصْرة بالأمس، وتَرَكَ المسلمين بها يَرتَضخون النَّوَى، وكيف ألومُه في ذلك، وقد قاتَلَ أمَّ المؤمنين وحَوَارِيَّ رسول الله ﷺ، ومن وقاه بيَدِه!

فقال ابنُ عباس لقائده سعد بن جُبير بن هشام مولَى بني أسَد بن خُزيمة: استقبِل بي وجهَ ابنِ الزبير، وارفَعْ من صَدْري، وكان ابنُ عباس قد كُفَّ بَصرُه فاستقبل به قائدُه وجهَ ابنِ الزبير، وأقام قامَته فحَسَر عن ذِرَاعَيْه، ثم قال يابنَ الزّبير:

قـد أنـصَـفَ الـقـارةَ مَـن راماهـا إنّـا إذا مـا فِـئـةٌ نَـلـقَـاهـا

نـردّ أولاهـا عـلـى أخـراهَـا حـتـى تَـصـيـرَ حَـرَضـاً دَعْـواهَـا

يابنَ الزّبير، أما العَمَى فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(١)، وأمّا فُتْيايَ في القَمْلة والنّملة، فإنّ فيها حُكْمين لا تعلَمها أنتَ ولا أصحابك. وأما حَمْلي المال فإنه كان مالاً جَبَيْناه فأعطَيْنا كلَّ ذي حقٍّ حقه، وبقيتْ بقيّةٌ هي دونَ حَقّنا في كتاب الله فأخذْناها بحَقّنا. وأما المُتْعة فسَلْ أمّكَ أسماء إذا نزلت عن بُرْدَي عوْسَجة. وأما قتالُنا أمّ المؤمنين فبنا سمّيتْ أمّ المؤمنين لا بك ولا بأبيك، فانطَلَق أبوك وخالك إلى حِجاب مدّه الله عليها، فهَتَكاه عنها، ثم اتخذاها فتنة يقاتِلان دُونَها، وصانا حلائلهما في بُيوتهما، فما أنصفا الله ولا محمّداً من أنفسِهما أن أبرَزَا زوجة نبيّه وصانا حلائلهما. وأما قتالنا إيّاكم فإنّا لقِينا زَحْفا، فإن كنّا كُفّاراً فقد كَفَرتم بفِرارِكم منّا، وإن كنّا مؤمنين فقد كفَرتم بقتالِكم إيّانا، وايمُ الله لولا مكانُ صَفِيّة فيكم، ومكانُ خديجة فينا، لما تركت لبني أسد بن عبدِ العُزّى عَظْماً إلّا كَسَرْتُه.

فلما عادَ ابنُ الزبير إلى أمّه سألَها عن بُرْدَيْ عَوْسجة، فقالت: ألم أنْهَك عن ابن عباس وعن بني هاشم! فإنّهم كُعُمُ الجوابِ إذا بُدِهوا، فقال: بلى، وعصيْتُكِ.

فقالت: يا بُنَيّ، احذرْ هذا الأعمَى الّذي ما أطاقتْه الإنس والجِنّ، واعلمْ أنّ عندَه فضائحَ قريش ومَخازيَها بأسرِها، فإيّاك وإيّاه آخر الدهر، فقال: أيمنُ بنُ خريم بنِ فاتِك الأسديّ:

يـابـن الـزّبـيـرِ لـقـد لاقَـيْـتَ بـائـقـةً مِنَ البوائقِ فالطُفْ لُطْفَ مُحْتالِ

لاقَـيْـتَـه هـاشـمـيًّـا طابَ مَـنـبـتُـه في مَغرِسَيْه كريمَ العَمّ والخالِ

ما زال يـقـرَع عـنـكَ الـعَـظْـم مقتدرا على الجواب بصَوْت مُسمع عالِ

حتى رأيتك مِثلَ الكَلْب مُنجَحِراً خَلفَ الغَبيط وكنتَ الباذِخَ العالِي(٢)

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) الغَبيط: الرَّحْل: اللسان، مادة (غبط).

إن ابنَ عباسٍ المعروف حِكْمَته ... خيرُ الأنام له حالٌ مِن الحالِ
عيّرته المُتْعة المَتْبوع سُنّتها ... وبالقتال وقد عيّرت بالمالِ
لمّا رَمَاك على رِسْلٍ بأسْهُمِه ... جَرَت عليك بسَيْفِ الحالِ والبالِ
فاحتزّ مِقوَلك الأعلى بشَفْرَتِهِ ... حَزًّا وَحِيًّا بلا قِيلٍ ولا قالِ
واعلمْ بأنك إن عاوَدْتَ غَيْبَته ... عادتْ عليكَ مَخازٍ ذات أذيالِ

ورَوَى عثمانُ بنُ طلحةَ العَبْدَرِيّ، قال: شهدتُ مِن ابنِ عباس رحمه الله مَشهداً ما سمِعْتُه من رجلٍ من قريش، كان يُوضَع إلى جانب سَريرِ مَرْوان بن الحَكَم - وهو يومئذ أميرُ المدينة - سريرٌ آخرُ أصغر من سريره، فيَجلِس عليه عبدُ اللّه بنُ عباس إذا دخل، وتُوضَع الوَسائد فيما سِوَى ذلك، فأذِن مروانُ يوماً للناس، وإذا سريرٌ آخر قد أُحدِث تِجاه سَرير مَرْوان، فأقبل ابنُ عباس فجلس على سريره، وجاء عبدُ اللّه بنُ الزّبير فجلس على السرير المُحدَث، وسَكت مروانُ والقوم، فإذا يَدُ ابنِ الزبير تتحرّك فعلم أنه يريدُ أن يَنطِق، ثمّ نَطَق فقال: إنّ ناساً يزعمون أنّ بَيْعةَ أبي بكر كانت غَلَطاً وفَلْتة ومغالَبة، ألا إنّ شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا، ويزعمون أنه لولا ما وَقَع لكان الأمرُ لهم وفيهم، والله ما كان من أصحاب محمد ﷺ أحدٌ أثبتَ إيماناً، ولا أعظَمَ سابقةً من أبي بكر، فمَنْ قال غيرَ ذلك فعليه لعنة الله! فأين هم حين عَقَد أبو بكر لعمَر، فلم يَكُن إلا ما قال، ثمّ ألقى عمرُ حظَّهم في حُظوظ، وجدَّهم في جُدود، فقسّمت تلك الحظوظ، فأخّر الله سَهْمَهم، وأدحض جدَّهم، ووَلّيَ الأمر عليهم من كان أحقّ به منهم، فخرجوا عليه خروجَ اللّصوص على التّاجر خارجاً من القرية، فأصابوا منه غِرَّة فقتلوه، ثم قَتَلهم الله به قِتْلة، وصاروا مطرُودين تحتَ بُطون الكَواكب.

فقال ابنُ عبّاس: على رِسْلك أيها القائل في أبي بكر وعُمَر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحدٌ منهما شيئاً إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا، وما أنكَرْنا تقدّم من تقدّم لعَيْب عِبْناه عليه، ولو تقدم صاحبُنا لكانَ أهلاً وفوقَ الأهْل، ولولا أنّك إنما تَذكُر حَظّ غيرك وشَرف امرىءٍ سواك لكلّمتك، ولكن ما أنتَ وما لا حظّ لك فيه! اقتَصِر على حَظّك، ودَعْ تَيْماً لِتَيْم، وعَدِيًّا لعَدِيّ، وأُميّة لأميّة، ولو كلّمني تَيميٌّ أو عَدَويٌّ أو أُمَويٌّ لكلّمته وأخبرتُه خبرَ حاضرٍ عن حاضر، لا خبرَ غائبٍ عن غائب، ولكن ما أنت، وما ليس عليك! فإن يكن في أسدِ بنِ عبدِ العُزّى شيء فهو لك، أما والله لنحنُ أقرَب بك عهداً، وأبيَض عندك يداً، وأوفر عندك نِعْمة ممّن أمسَيت، تَظُنّ أنّك تصول به علينا، وما أخلَق ثوبُ صفية بعدا! والله المستعان على ما تَصِفون.

أوصَى معاويةُ يزيدَ ابنه لمّا عَقَد له الخلافة بعدَه، فقال: إنّي لا أخاف عليك إلّا ممّن

أوصيك بحفظ قرابتِه ورِعاية حق رَحمه، منَ القلوبُ إليه مائلة، والأهواءُ نحوَه جانحة، والأعيُن إليه طامحة، وهو الحُسين بنُ عليّ، فاقسِمْ له نصيباً من حِلْمك، واخصُصْه بقِسْط وافرِ من مالِك، ومَتِّعه بروحِ الحياةِ، وأبلغ له كلّ ما أحَبّ في أيّامك، فأمّا مَن عداه فثلاثة: وهم عبدُ الله بنُ عمر رجلٌ قد وقذتْه العِبادة، فليس يريدُ الدنيا إلا أن تجيئه طائعةً لا تراقُ فيها محجمةُ دَم، وعبدُ الرحمن بنُ أبي بكر، رجل هِقْلٌ لا يحمل ثِقْلاً، ولا يستطيع نهوضاً، وليس بذي هِمّة ولا شَرَف ولا أعوان، وعبدُ الله بنُ الزبير وهو الذئب الماكر، والثّعلب الخاتِر، فوجِّه إليه جِدَّك وعَزْمَك ونَكيرك ومكرك، واصرِفْ إليه سَطوتك، ولا تثِقْ إليه في حال، فإنه كالثّعلب، راغَ بالخَتْل عند الإرهاق، واللّيث صالَ بالجَراءة عند الإطلاق، وأما ما بعدَ هؤلاء فإنّي قد وطّأت لك الأمَم، وذلّلت لك أعناقَ المنابِر، وكفَيْتُك مَن قَرُب منك، ومَن بَعُد عنك: فكن للنّاس كما كان أبوكَ لهم يكونوا لك كما كانوا لأبيك.

خَطَب عبدُ الله بن الزبير أيام يزيد بن معاوية فقال في خطبته: يزيد القُرود، يزيد الفُهود، يزيد الخمور، يزيد الفُجور! أما والله لقد بلغني أنه لا يزال مخموراً يخطُب النّاس وهو طافِحٌ في سُكره. فبَلَغَ ذلك يزيدَ بنَ معاوية، فما أمسَى ليلتَه حتّى جهّز جيش الحَرّة، وهو عشرون ألفاً، وجلس والشُّموعُ بين يديه، وعليه ثيابٌ مُعصفَرة، والجنود تُعرَض عليه ليلاً، فلما أصبح خرج فأبصَر الجيش، ورأى تَعبِيَتَه فقال:

أبلغْ أبا بكرٍ إذا الجيشُ انبَرى ... وأخَذَ القومُ عَلَى وادي القُرَى
عِشرِين ألفاً بين كَهْلٍ وفَتَى ... أَجَمْعَ سَكْرانَ مِن القوم تَرَى
أم جَمْع ليثٍ دونه ليثُ الشرَى

لمّا خرج الحسينُ عليه السلام من مكّة إلى العراق ضرَب عبد الله بنُ عباس بيَدِه على منكب ابنِ الزّبير، وقال:

يَا لَكِ من قُبَّرةٍ بمَعْمَرِ ... خلا لَكِ الجوُّ فبِيضِي واصْفِرِي[1]
ونَقِّرِي ما شِئْتِ أن تُنَقِّرِي ... هذا الحسينُ سائرٌ فأبْشِرِي

خلا الجوُّ والله لك يابن الزبير! وسار الحسين إلى العراق، فقال ابنُ الزبير: يابن عباس، والله ما تَرَوْن هذا الأمر إلّا لكم، ولا ترون إلّا أنكم أحق به من جميع الناس، فقال ابنُ عباس:

---

(١) القُبَّرة: طائر. القاموس، مادة (قبر).

إنما يرى مَن كان في شكّ، ونحن من ذلك على يَقِين ولكن أَخْبِرْني عن نفسك، بماذا تَرُوم هذا الأمر؟ قال: بِشرَفي، قال: وبماذا شَرُفْتَ إن كان لك شرَف؟ فإنما هو بنا، فنحن أشرَف منك، لأنّ شرفَك مِنّا. وعلَتْ أصواتُهما، فقال غلام من آل الزبير: دَعْنا منك يابن عباس، فوالله لا تُحبُّونَنا يا بني هاشم ولا نُحبكم أبداً، فلَطَمه عبدُ الله بن الزبير بيده وقال: أتتكلّم وأنا حاضر! فقال ابنُ عبّاس: لم ضربت الغلامَ، والله أحقُّ: بالضَرب منهُ مَن مَزَق ومَرَق، قال: ومَن هو؟ قال: أنت.

قال: واعترض بينهما رجالٌ من قُريش فأسكتوهما.

دخل عبدُ الله بنُ الزبير على معاوية، فقال: اسمع أبياتاً قلتها عاتبتُك فيها، قال: هاتِ، فأنشَده:

لَعمرِيَ ما أدْري وإنّي لأوْجَلُ ... على أيِّنا تَغدو المنية أوّلُ
وإني أخوك الدّائمُ العَهْدِ لم أزَلْ ... إن أعياكَ خَصْمٌ او نبَا بكَ مَنزلُ
أحارِبُ من حارَبتَ مِن ذي عداوةٍ ... وأحبس يوماً إن حُبِسْت فأعقِلُ
وإن سؤتني يوماً صَفَحتُ إلى غدٍ ... ليعقب يومٌ منك آخر مُقبلُ
ستقطَع في الدّنيا - إذا ما قَطَعتني - ... يمينَك، فانظر أيَّ كفٍّ تبدَّلُ!
إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجدْتَه ... على طَرَف الهِجْران إن كان يعقِلُ
ويركَب حدَّ السيفِ مِن أن تضيمَه ... إذا لم يكن عن شفرةِ السّيف مَعدِلُ
وكنتُ إذا ما صاحبٌ مَلَّ صحبتي ... وبدّل شرًّا بالذي كنتُ أفعَلُ
قلبْتُ له ظَهرَ المِجَنّ ولم أقِمْ ... على الضَّيم إلّا رَيثما أتحَوّلُ
وفي الناس إن رَثّتْ حِبالُك واصِلٌ ... وفي الأرض عن دارِ القِلَى متحوَّلُ(١)
إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيءِ لم تكَدْ ... إليه بوَجْهٍ آخر الدهرِ تقبلُ

فقال معاوية: لقد شعَرتَ بعدي يا أبا خُبَيب! وبينما هما في ذلك دخل معنُ بن أوْس المُزَنيّ، فقال له معاوية: إيهٍ! هَلْ أحدثْتَ بعدنا شيئاً؟ قال: نعم، قال: قل، فأنشد هذه الأبيات، فعجب معاويةُ وقال لابن الزبير: ألم تنشدْها لنَفسك آنفاً! فقال: أنا سوّيت المعاني، وهو ألّف الألفاظ ونَظَمها، وهو بعدُ ظِئْري، فما قال من شيء فهو لي - وكان ابن الزّبير مسترضعاً في مُزَيْنة - فقال معاوية: وكَذِباً يا أبا خبيب! فقام عبدُ الله فخرج.

---

(١) القِلى: البغض. اللسان، مادة (قلو).

وقال الشعبيّ: فقد رأيت عجباً بفناء الكَعبة أنا وعبد اللّه بن الزبير وعبدُ الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، فقام القوم بعد ما فَرَغوا من حديثهم، فقالوا: ليَقُمْ كلُّ واحد منكم، فليأخذْ بالرُّكْن اليمانيّ، ثم يَسأل الله تعالى حاجته، فقام عبد اللّه بن الزبير فالْتَزَم الرُّكْن وقال: اللّهم إنك عظيمٌ تُرجَى لكلّ عظيم، أسألك بحُرمة وجهك وحُرمة عَرْشك وحرمة بيتك هذا، ألّا تخرجَني من الدنيا حتى ألِيَ الحجاز، ويسلِّم عليَّ بالخلافة، وجاء فجلس.

فقام أخوه مصعب فالْتَزَم الرّكْن وقال: اللّهمّ ربَّ كلِّ شيء، وإليك مصيرُ كلّ شيء، أسألك بقُدرتك على كل شيء، ألّا تُميتَني حتى ألِيَ العراق، وأتزوّج سُكينة بنت الحسين بن عليّ، ثمّ جاء فجلس.

فقام عبد الملك فالْتَزَم الركن وقال: اللّهمّ ربّ السماوات السَّبْع، والأرض ذات النبت والقَفْر، أسألك بما سألك به المطيعون لأمرك، وأسألك بحق وجهك، وبحقّك على جميع خلقك، ألّا تميتَني حتى ألِيَ شرق الأرض وغربَها، لا يُنازِعني أحد إلّا ظَهَرتُ عليه، ثم جاء فجلس.

فقام عبد اللّه بنُ عمرَ فأخذ بالرّكن وقال: يا رحمٰن يا رحيم، أسألك برحمتك الّتي سبقتْ غَضبك، وبقدرتِك على جميع خلقِك، ألّا تميتَني حتى توجِبَ لي الرّحمة.

قال الشّعبيّ: فوالله ما خرجتُ من الدّنيا حتى بلغ كلّ من الثّلاثة ما سأل، وأخلِقْ بعبدِ اللّه بن عمر أن تجاب دعوتُه، وأن يكون من أهل الرّحمة.

قال الحجّاج في خطبته يوم دخل الكوفة: هذا أدبُ ابن نهية، أما والله لأؤدِّبنّكم غيرَ هذا الأدب.

قال ابن ماكولا في كتاب الإكمال: «يعني مُصعب بن الزبير وعبد اللّه أخاه، وهي نهية بنتُ سعيد بن سهم بن هُصَيْصٍ، وهي أمّ ولد أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ»، وهذا من المواضع الغامضة.

ورَوى الزبير بن بكّار في كتاب أنساب قريش قال: قَدِم وفدٌ من العراق على عبد اللّه بن الزبير، فأتوه في المسجد الحرام، فسلّموا عليه، فسألهم عن مصعب أخيه وعن سيرته فيهم، فأثنَوْا عليه، وقالوا: خيراً، وذلك في يوم جمعةٍ، فصلّى عبد اللّه بالناس الجمعة، ثمّ صَعِد المنبر، فحمِد الله ثم تمثّل:

قد جَرَّبوني ثمّ جَرَّبوني   من غَلْوَتَيْنِ ومِن المِئِين
حتى إذا شابُوا وشَيَّبوني   خلَّوْا عِناني ثمّ سَيَّبوني

أيّها الناس، إني قد سألتُ هذا الوفد من أهل العراق عن عاملهم مصعب بن الزبير فأحسنوا الثناء عليه، وذكروا عنه ما أحبّ، ألا إن مصعباً اطّبَى القلوب حتى لا تعدل به، والأهواءَ حتى لا

تَحُول عنه، واستمال الألسُن بثنائها، والقلوب بنصائحها، والأنفس بمحبّتها وهو المحبوب في خاصّته، المأمونُ في عامّته، بما أطلق الله به لسانه من الخير وبَسَط به يديه من البذل، ثم نزل.

وروى الزّبير قال: لما جاء عبد اللّه بن الزّبير نعيُ المصعب صَعِد المنبرَ فقال: الحمدُ لله الّذي له الخَلْق والأمر، يؤتي المُلْك من يشاء، ويَنزع المُلك ممّن يشاء، ويُعزّ من يشاء، ويُذلّ من يشاء، ألا وإنّه لم يُذْلِل الله من كان الحقّ معه ولو كان فَرْداً، ولم يُعَزِّز الله وليَّ الشّيطان وحِزْبه وإن كان الأنام كلُّهم معه، ألا وإنه قد أتانا من العراق خبرٌ أحزَنَنا وأفرَحَنا، أتانا قتلُ المصعب رحمه الله، فأمّا الذي أحزَنَنا فإنّ لفِراق الحميم لَذْعة يَجِدها حميمُه عند المصيبة، ثم يَرْعَوِي بعدَها ذو الرأي إلى جميل الصبر وكرمِ العزاء، وأما الذي أفرَحَنا فإنّ قتله كان عن شهَادة، وأنّ الله تعالى جعل ذلك لنَا ولَه ذخِيرة. ألا إنّ أهلَ العراق، أهل الغَدْر والنّفاق، أسلَموه وباعوه بأقلّ الثمن، فإن يُقتَل المصعب فإنا لله وإنّا إليه راجعون! ما نموت جَبْحاً كما يموت بنو العاص، ما نموتُ إلّا قتْلاً، قعصاً بالرّماح، وموتاً تَحتَ ظِلال السّيوف، ألا إنّما الدنيا عاريّة من الملِك الأعلى الّذي لا يزول سلطانُه ولا يَبيد، فإنْ تُقبِل الدّنيا عليّ لا آخذْها أخذَ الأشِر البطر، وإن تُدْبر عنّي لا أبكي عليها بكاءَ الخَرِفِ المهتَر، وإن يَهلِك المُصعَب فإنّ في آل الزبير لخَلفاً. ثم نزل.

وروى الزّبير بن بكّار قال: خَطب عبدُ اللّه بنُ الزّبير بعد أن جاءه مَقتَل المُصعب، فَحمِد الله، وأثنى عليه ثمّ قال: لئن أُصِبتُ بمصعب فلقد أصِبت بإمامي عثمان، فعظمت مصيبته، ثم أحسن الله وأجمَل، ولئن أُصِبت بمُصعَب فلقد أصبت بأبي الزّبير، فعظمت مُصيبتُه، فظننتُ أنّي لا أُجيزها، ثم أحسَن الله وسلّم، واستمرّت مريرتي، وهلْ كان مُصعَب إلّا فتًى من فِتْياني! ثم غلبَه البكاء فسالتْ دموعُه وقال: كان والله سَرِيًّا مَرِيًّا، ثم قال:

هـمُ دَفَعوا الدّنيا على حين أعرَضت كـرامـاً وسَـنُّـوا لـلـكِـرَام الـتـأسِّـيَـا

ورَوَى أبو العباس في الكامل أنّ عروة لمّا صُلِبَ عبدُ اللّه جاء إلى عبدِ الملك فوَقَف ببابه، وقال للحاجب: أعْلِم أميرَ المؤمنين أنّ أبا عبدِ اللّه بالباب، فدخل الحاجب فقال: رجلٌ يقول قولاً عظيماً. قال: وما هو؟ فتهيَّب، فقال: قل. قال: رجلٌ يقول: قلْ لأميرِ المؤمنين: أبو عبد اللّه بالباب، فقال عبد الملك: قلْ لعرْوةَ يدخُل، فدخل فقال: تأمُر بإنزال جِيفةِ أبي بكر فإنّ النساءَ يَجزعْن، فأمَر بإنزاله. قال: وقد كان كَتَب الحجّاجُ إلى عبدِ الملك يقول: إنّ خزائن عبدِ اللّه عند عُرْوة، فمرْه فليُسلِّمها، فدَفَع عبدُ الملك إلى عروة، وظنّ أنه يتغيّر، فلم يَحفِل بذلك كأنه ما قرأه، فكَتَب عبدُ الملك إلى الحجّاجِ ألا يَعرض لعُروة.

ومن الكلام المشهور في بُخل عبدِ اللّه بن الزّبير الكلام الّذي يُحكَى أنّ أعرابيًا أتاه يَستَحمِله، فقال: قد نَقَبَ خُفّ راحِلَتي فاحمِلني إني قطعتُ الهواجِر إليك عليها، فقال له: ارْقَعْها بِسبْت، واخصفْها بهُلب، وأنجدْ بها، وسِرْ بها البردين فقال: إنما أتيتُك مستحملاً، لم آتِك مستوصِفاً، لعن الله ناقةً حملَتني إليك، قال: إنَّ وراكبها.

وهذا الأعرابي هو فَضالة بن شريك، فهجاه فقال:

أرَى الحاجاتِ عند أبي خُبَيْبٍ ... نَكِدْن ولا أُمَيَّةَ بالبلادِ

من الأعياصِ أو مِن آلِ حَرْبٍ ... أغرّ كغُرَّة الفرَس الجوادِ

دخل عبدُ اللّه بنُ الزّبير على معاويةَ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تدعَنّ مروانَ يرمي جماهيرَ قُريش بمَشاقِصِه[1]، ويَضرِب صَفاتَهم بمعوَله. أما والله، إنه لولا مكانُك لكان أخفّ على رِقابنا من فَراشَة، وأقلّ في أنفسِنا من خُشاشة، وايمُ الله لئِن مَلَك أعِنّة خيْل تَنقادُ له لتركبنّ منه طبقاً تخافه.

فقال معاوية: إنْ يطلبْ مَرْوان هذا الأمر فقد طَمِع فيه مَن هُوَ دونه، وإنْ يَترُكْه يتركْه لمن فوقَه، وما أراكم بمنتهِين حتى يَبعثَ الله عليكم من لا يَعطِف عليكم بقَرابة، ولا يَذْكركم عند مُلِّمة، يَسومكم خَسْفاً، ويَسُوقُكم عَسْفاً.

فقال ابن الزبير: إذنْ والله يطلق عقال الحرْبِ بكتائب تَمُور كرِجْل الجراد، تتبع غِطْريفاً من قُرَيش لم تكن أمُّه راعيةَ ثلّة.

فقال معاوية: أنا ابن هِنْد، أطلقتُ عقال الحرْب، فأكلْت ذِرْوة السَّنام، وشرِبتُ عُنْفُوان المكرَع وليس للآكل بعدي إلا الفَلْذة، ولا للشارب إلا الرنق. فسكت ابنُ الزبير.

قَدِم عبد اللّه بنُ الزّبير على معاوية وافداً، فرحّب به وأدناه حتّى أجلسَه على سريره، ثم قال: حاجَتَك أبا خُبَيْب! فسأله أشياء، ثم قال له: سَلْ غيرَ ما سألتَ، قال: نعم، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فيئهم، وتَحفظ وصيَّةَ نبيّ الله فيهم، تقبَل من مُحسِنهم، وتتجاوَز عن مُسيئِهم.

فقال معاوية: هَيْهاتَ هَيْهات، لا والله ما تأمن النّعجةُ الذّئب وقد أكَل ألْيَتها.

فقال ابنُ الزّبير: مَهْلاً يا معاوية، فإنّ الشاةَ لتدرّ للحالب وإنّ المُدْية في يده، وإنّ الرجل الأريبَ ليُصانع ولدَه الّذي خرجَ من صُلْبه، وما تدور الرحَى إلّا بقُطْبها، ولا تَصلُح القَوسُ إلّا بمَعْجِسها.

---

(١) المشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. اللسان، مادة (شقص).

فقال: يا أبا خُبَيب، لقد أجررتَ الطرُوقة قَبل هِباب الفَحْل هيهات، وهي لا تصطكّ لحبائها اصطكاكَ القروم السوامي.

فقال ابنُ الزبير: العَطَن بعد العَلّ، والعلّ بعد النَّهَل، ولا بدّ للرّحاء من الثّفال ثمّ نهض ابنُ الزبير.

فلما كان العِشاء أخذتْ قُريش مجالسَها، وخرج معاويةُ على بني أميّة فوَجدَ عمرو بنَ العاص فيهم، فقال: ويَحكُم يا بني أميّة! أفيكم من يَكْفيني ابنَ الزبير؟ فقال عمرو: أنا أكْفيكَه يا أميرَ المؤمنين، قال: ما أظنُّك تفعَل؟ قال: بلى والله لأربُدَنّ وجهَه، ولأخرِسَنّ لسانه، ولأردَنّه ألينَ من خمِيلة.

فقال: دونَك، فاعْرِض له إذا دخَل. فدخل ابنُ الزبير - وكان قد بَلغه كلامُ معاوية وعمرو - فجلس نصب عيْني عمرو، فتحدّثوا ساعةً ثمّ قال عمرو:

وإني لنارٌ ما يطاقُ اصطِلاؤها ... لدَيَّ كلامٌ مُعضِلٌ مُتفاقِمُ

فأطرَق ابنُ الزبير ساعةً ينكُتُ في الأرض، ثمّ رفع رأسه وقال:

وإنّي لبَحْرٌ ما يُسامَى عُبابُه ... مَتَى يَلْق بَحرِي حرَّ نارِك يَخمُد

فقال عمرو: والله يابن الزّبير إنك ما علمت لمتجلببٌ جلابيبَ الفتنة، متأزّر بوصائل التّيه، تتَعاطَى الذُرَا الشاهقة، والمَعاليَ الباسقة. وما أنت من قريش في لباب جوهرها ولا مؤنق حَسبها!

فقال ابن الزبير: أما ما ذكرتَ من تعاطيّ الذرا فإنّه طالَ بي إليها وسما ما لا يَطُول بك مِثلُه: أنفٌ حِميٌّ، وقَلْبٌ ذكِيّ، وصارمٌ مَشرَفيّ، في تَلِيدٍ فارع، وطريفٍ مانِع، إذ قعد بك انتفاخ سَحرك، ووَجِيبُ قَلبِك. وأمّا ما ذكرت من أني لستُ من قريش في لُباب جَوْهرِها، ومؤنِق حَسَبها، فقد حضرَتْني وإياك الأكْفاء العالِمون بي وبك، فاجعلْهم بيني وبينَك.

فقال القوم: قد أنصفَك يا عمرو، قال: قد فعلت.

فقال ابن الزبير: أما إذ أمكنَني الله منك فلأربُدَنّ وجهَك، ولأخرسنّ لسانَك ولترجعنّ في هذه الليلة، وكأن الّذي بين مَنكِبَيك مشدود إلى عُروقِ أخدَعَيْك، ثمّ قال: أقسمتُ عليكم يا معاشرَ قريش، أنا أفضلُ في دين الإسلام أم عمرو؟ فقالوا: اللهمّ أنت، قال: فأبي أفضلُ أم أبوه؟ قالوا: أبوك حواريّ رسولِ الله ﷺ وابنُ عمّته، قال: فأمي أفضلُ أمْ أمُه، قالوا: أمّك أسماءُ بنتُ أبي بكر الصِّدّيق، وذاتُ النِّطاقَين، قال: فعمّتي أفضلُ أم عمّته؟ قالوا: عمّتُك سَلْمى ابنة العَوّام صاحبةُ رسول الله ﷺ أفضلُ من عمّته، قال: فخالتي أفضلُ أم خالته؟ قالوا: خالتك عائشةُ أمُّ المؤمنين، قال: فجدتي أفضلُ أم جدّته، قالوا: جدّتك صفيّة بنتُ

عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، قال: فجدي أفضلُ أمْ جَدُّه؟ قالوا: جدُّك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله ﷺ، فقال:

قَضَت الغَطارفُ من قُريش بيننا فاصبر لفَضْل خِصامِها وقضائِها
وإذا جَرَيْتَ فلا تَجارِ مبرِّزا بذّ الجياد على احتفال جِرائها

أما والله يابن العاص، لو أن الذي أمَرَك بهذا واجهني بمِثْله لقصَرْت إليه مِن سامي بصرِه، ولتركته يتلجْلَج لسانه، وتضطَرِم النار في جوفه، ولقد استعان منك بغير وافٍ ولجأ إلى غيرِ كافٍ، ثمّ قام فخرج.

وذكر المسعوديّ في كتاب مُرُوج الذهب أنّ الحجّاج لما حاصر ابن الزبير لم يزل يزحَف حتى مَلَك الجبل المعروف بأبي قُبَيْس، وقد كان بيدِ ابن الزبير، فكتَب بذلك إلى عبد الملك، فلما قرأ كتابه كبّر وكبّر من كان في دارِه حتى اتّصل التكبير بأهل السّوق، فكبَّروا، وسأل الناسُ ما الخبر؟ فقيل لهم: إن الحجاج حاصَرَ ابنَ الزبير بمكة، وظفر بأبي قُبَيْس، فقال الناس: لا نرضى حتى يُحمَل أبو خُبَيْب إلينا مكبّلاً على رأسِه بُرْنُس، راكبَ جملٍ، يُطاف به في الأسواق، تراه العيون.

وذكر المسعوديُّ أنّ عمة عبدِ الملك كانت تَحت عروة بن الزّبير، وأنّ عبد الملك كتب إلى الحجّاج يأمُره بالكفّ عن عُرْوة، وذلك قبل أن يقتل عبدُ اللّه وألاّ يسوءَه إذا ظَفِر بأخيه في ماله ولا في نفسِه، قال: فلما اشتدّ الحصار على عبد اللّه خرج عُرْوة إلى الحجّاج فأخَذ لعبد اللّه أماناً ورَجَع إليه، فقال: هذا عمرو بنُ عثمان، وخالدُ بنُ عبدِ اللّه بن خالد بن أسيد، وهما فَتَيا بني أميّة يُعطيانك أمان عبدِ الملك ابن عمّهما على ما أحدثْتَ أنتَ ومن معك، وأن تنزل أيّ البلادِ شئت، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقُه، فأبَى عبدُ اللّه قبول ذلك، ونهَتْه أُمّه وقالت: لا تَموتَنّ إلّا كَريماً، فقال لها: إني أخاف إنْ قُتِلتُ أن أُصلَبَ أو يمثّل بي، فقالت: إنّ الشاة بعد الذَّبح لا تُحِسّ بالسَّلْخ.

وروى المسعوديُّ أنّ عبد اللّه بن الزّبير بعد موت يزيد بن معاوية طَلَب مَن يؤمِّره على الكوفة، وقد كان أهلها أحَبّوا أن يليَهم غير بني أمية، فقال له المختار بنُ أبي عُبَيد: اطلُبْ رجلاً له رفْق وعلم بما يأتي، وتدبُّرٌ قوله إياها يستخرجُ لك منها جنداً تغلب به أهل الشام، فقال: أنت لها، فبعثه إلى الكوفة، فأتاها وأخرج ابن مطيع مِنها، وابتنَى لنفسه داراً، وأنفق

عليها مالاً جليلاً، وسأل عبد الله بن الزّبير أن يحتسب له به من مال العِراق، فلم يفعل، فخلعه وجَحَد بَيْعَته، ودعا إلى الطالبيّين.

قال المسعوديّ: وأظهَر عبدُ الله بنُ الزبير الزّهدَ في الدّنيا، وملازمةَ العبادة، مع الحِرْص على الخلافة وشَبْرِ بَطْنه، فقال: إنما بَطْني شبْر، فما عَسَى أن يَسَع ذلك الشِّبْر! وظَهر عنه شُحٌّ عظيم على سائرِ الناس، ففي ذلك يقول أبو حمزة مولى آل الزّبير:

إن المـوالـي أمـسـتْ وهـي عـاتِـبـةٌ على الخَليفةِ تَشكُو الجوعَ والحَرَبَا
مـاذا عـلـيـنـا ومـاذا كـان يـرزؤنـا أيّ الـمـلـوك عـلـى مـا حـولـنـا غـلـبـا!

وقال فيه أيضاً:

لـو كـان بـطـنَـك شـبْـراً قـد شَـبعتَ وقـد فـضَـلْـتَ فَـضْـلاً كـثـيـراً لـلـمـسـاكـيـن
مـا زلـتَ فـي سُـورةِ الأعـراف تَـدرُسـهـا حـتـى فـؤاديَ مِـثـل الـخَـزّ فـي الـلّـيـنِ

وقال فيه شاعرٌ أيضاً، لمّا كانت الحرب بينَه وبين الحُصَين بن نُمير قبل أن يموتَ يزيدُ بنُ معاوية:

فـيـا راكـبـاً إمّـا عَـرَضْـتَ فـبَـلِّـغـنْ كـبـيـر بَـنـي الـعَـوّام إنْ قـيـلَ مَـن تَـعْـنـي
تُـخـبِّـر مَـنْ لاقـيـتَ أنـك عـائـذٌ وتُـكـثِـرُ قَـتـلَـى بـيـن زَمـزمَ والـرُّكـنِ

وقال الضَّحّاكُ بن فَيْروز الدَّيْلميّ:

تـخـبِّـرنـا أنْ سـوفَ تَـكـفِـيـكَ قَـبـضـةٌ وبَـطـنُـكَ شِـبْـر أو أقـلُّ مـن الـشِّـبْـر
وأنـتَ إذا مـا نِـلـتَ شـيـئـاً قَـضَـمْـتَـه كـمـا قَـضَـمَـتْ نارُ الغَضَا حَطَب السِّدرِ
فـلـو كـنـتَ تَـجـزِي أو تُـثـيـبُ بِـنـعـمـةٍ قـريـبـاً لـرَدّتْـك الـعُـطـوفُ عـلـى عَـمـرو.

قال: هو عَمرو بنُ الزّبير أخوه، ضَرَبَه عبدُ الله حتى مات وكان مبايِناً له.

كان يزيدُ بنُ معاويةَ قد وَلّى الوليد بنَ عُتْبةَ بن أبي سُفْيان المدينةَ، فسَرّح الوليد منها جَيْشاً إلى مكة لحرب عبدِ الله بنِ الزبير، عليه عَمرو بنُ الزبير، فلمّا تصافّ القومُ انهزَم رجالُ عَمرٍو وأسلموه، فظَفِر به عبدُ الله، فأقامَه للنّاس بباب المسجد مجرَّداً، ولم يَزَل يَضرِبه بالسِّياطِ حتى مات.

وقد رأيتُ في غيرِ كتابِ المسعوديّ، أنّ عبدَ الله وَجد عَمراً عند بعض زَوْجاته، وله في ذلك خبرٌ لا أحِبُّ أن أذكُره.

قال المسعوديّ: ثم إنّ عبدَ الله بنَ الزبير حَبَس الحسنَ بن محمد بن الحنفيّة في حَبْس

مظلم، وأراد قتله، فأعمل الحيلَة حتى تَخلَّص من السِّجن، وتَعسَّف الطريقَ على الجبال، حتى أتى مِنَى، وبها أبوه محمّد بنُ الحنفيّة.

ثم إنّ عبد اللّه جمعَ بني هاشم كلَّهم في سجن عارِم، وأراد أن يُحرِقهم بالنار، وجعل في فم الشِّعب حَطَباً كثيراً، فأرسل المختارُ أبا عبد اللّه الجَدَليَّ في أربعةِ آلافٍ، فقال أبو عبدِ اللّه لأصحابه: وَيْحَكم! إنْ بلغ ابنَ الزبير الخبرُ عَجَّل على بني هاشم فأتى عليهم، فانتدب هو نفسُه في ثمانمائةِ فارس جريدةً، فما شَعَر بهم ابن الزبير إلّا والرايات تَخفُق بمكة، فَقصد قَصْد الشِّعب، فأخرَج الهاشميِّين منه، ونادَى بِشعارِ محمد بن الحنفيَّة، وسمّاه المهديّ، وهرَب ابنُ الزبير، فلاذَ بأستار الكَعْبة، فنهاهم محمد بنُ الحنفيّة عن طلبه وعن الحَرْب، وقال: لا أريد الخلافة إلا إن طلبنيَ الناس كلُّهم، واتفقوا عليّ كلهم، ولا حاجة لي في الحرب.

قال المسعوديّ: وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه عبدَ اللّه في حَصْر بني هاشم في الشِّعب، وجمعِهِ الحَطَب ليُحرِقهم ويقول: إنّما أراد بذلك ألّا تنتشِر الكلمة، ولا يختلفَ المسلمون، وأن يدخلوا في الطّاعة، فتكونَ الكلمةُ واحدة، كما فَعَل عمرُ بنُ الخطّاب ببني هاشم لمّا تأخروا عن بيعة أبي بكر، فإنه أحضَر الحَطَب ليُحرّق عليهم الدار.

قال المسعوديّ: وخطب ابنُ الزّبير يومَ قَدِم أبو عبدِ اللّه الجَدَليّ قبل قدومِه بساعتين، فقال: إنّ هذا الغلامَ محمّد بنَ الحنفيّة قد أَبَى بيْعتي، والمَوْعِد بيني وبينَه أن تَغرُب الشّمس، ثمّ أُضرِمَ عليه مكانَه ناراً، فجاء إنسانٌ إلى محمّد فأخبَره بذلك، فقال: سَيمْنَعه منّي حجابٌ قويّ، فجعل ذلك الرجلُ يَنظُر إلى الشّمس، ويَرقُب غَيْبُوبَتِها لينظرَ ما يصنع ابنُ الزّبير، فلمّا كادت تَغرُب حاسَت خيل أبي عبد اللّه الجَدَليّ دِيارَ مكّة وجعلتْ تَمعَج بين الصَّفا والمَرْوَة، وجاء أبو عبد اللّه الجَدَليّ بنَفْسه، فوَقَف على فَم الشِّعب، واستَخرَج محمّداً، ونادَى بشِعاره، واستأذَنَه في قَتْل ابن الزبير، فكَرِه ذلك ولم يأذَنْ فيه، وخرج من مكّة فأقام بشِعب رضْوَى حتّى مات.

ورَوَى المسعوديُّ عن سَعِيد بنِ جُبير، أنّ ابنَ عبّاس دخل على ابن الزبير فقال له ابنُ الزبير: إلامَ تؤنّبني وتعنِّفني! قال ابنُ عبّاس: إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بئس المرءُ المُسلِم يَشبَع ويَجوعُ جارُه!»[1]، وأنتَ ذلك الرّجل، فقال ابنُ الزّبير: والله إنّي لأكْتُم بُغضَكم أهلَ هذا البيت منذُ أربعين سنةً. وتَشاجَرا، فخَرَجَ ابنُ عبّاسٍ من مكّة، [خوفاً على نفسه]، فأقام بالطّائف حتّى مات.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٣٧)، بلفظ: «ليس المسلم. . .» والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٢٨) بلفظ: «المسلم الذي يشبع ويجوع جاره ليس بمؤمن».

ورَوى أبو الفرَج الأصفهانيّ قال: أتى فَضَالة بن شَرِيك الوالبيّ ثمّ الأسديّ من بني أسَد بن خُزَيمة عبدَ الله بنَ الزُّبير فقال: نَفِدتْ نَفقتي، ونَقِبَتْ ناقَتي، فقال: أحضرْنيها، فأحضرَها، فقال: أقبِلْ بها، أدبِرْ بها، ففعَل، فقال: ارْقَعْها بسِبْت، واخصِفْها بهُلْب، وأنجِد بها يَبرُد خُفّها، وسِر البَرْدَيْن تصحّ. فقال فضالة: إني أتيتُك مستحمِلاً، ولم آتِكَ مستوصِفاً، فلَعَن الله ناقةً حَمَلتْني إليكَ! فقال: إنّ وراكبَها، فقال فضالة:

أقـول لِـغـلْـمـةٍ شُـدُّوا رِكـابـي ... أجـاوزُ بـطـنَ مـكّـةَ فـي سَـوادِ
فـمـالـي حـيـنَ أقـطـعُ ذاتَ عِـرْقٍ ... إلـى ابـنِ الـكـاهِـلـيّـة مـن مَـعَـادِ
سـيُـبـعِـد بـيـنـنـا نَـصُّ الـمَـطـايـا ... وتَـعـلـيـقُ الأداوَى والـمَـزادِ
وكـلّ مـبـغّـد قـد أعـلـمـتـه ... مَـنـاسِـمُـهُـنَّ طـلاّع الـنِّـجـادِ
أرَى الـحـاجـاتِ عـنـد أبـي خُـبَـيْـبٍ ... نُـكِـدْن ولا أمـيّـةَ بـالـبِـلادِ
مـن الأعـيـاصِ أو مِـن آلِ حَـرْبٍ ... أغـرّ كـغُـرّة الـفَـرَس الـجَـوادِ

قال: ابنُ الكاهليّة هو عبدُ الله بن الزّبير، والكاهليّة هذه هي أمُّ خُوَيْلد بن أسَد بن عبدِ العُزّى، واسمُها زُهْرة بنت عمرو بن خَنْثر بن رُوَيْنة بن هِلال، من بني كاهِل بن أسد بن خزيمة - قال: فقال عبدُ الله بنُ الزّبير لمّا بَلغه الشّعر: عَلِم أنّها شرُّ أمّهاتي فعَيَّرني بها، وهي خيرُ عمّاتِه.

ورَوَى أبو الفرَج قال: كانت صفيّة بنتُ أبي عبيد بن مَسْعود الثّقَفيّ تحتَ عبدِ الله بن عُمَر بن الخطّاب فمَشَى ابن الزّبير إليها، فذَكَر لها أنّ خروجَه كان غَضباً لله عزّ وجلّ ولِرَسوله ﷺ وللمهاجرِين والأنصار من أثرَة مُعاوية وابنه بالفَيْء، وسألَها مسألة زَوْجها عبد الله بنِ عمَر أن يبايعَه، فلمّا قدّمَت له عشاءَه ذكرتْ له أمرَ ابن الزبير وعِبادتَه واجتهادَه، وأثنَتْ عليه، وقالت: إنه ليَدْعو إلى طاعةِ الله عزّ وجلّ، وأكثَرت القولَ في ذلك، فقال لهَا: وَيْحكِ! أما رأيتِ البَغَلات الشُّهْب الّتي كان يَحُجّ معاويةُ عليها، وتقدم إلينا من الشّام؟ قالت: بلى، قال: والله ما يريدُ ابنُ الزّبير بعبادَتِه غيرَهنّ!

- ٤٦٢ -

الأصل: وقال عليه السلام: ما لابْنِ آدَمَ والْفَخْرُ! أوَّلُهُ نُطْفَةٌ، وآخِرهُ جِيفَةٌ. لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، ولا يَدْفَعُ حَتْفَهُ.

الشرح: قد تقدّم كلامُنا في الفَخر، وذكَرْنا الشِّعرَ الّذي أُخِذَ من هذا الكلام، وهو قولُ القائل:

مـا بـالُ مَـن أوّلُـه نُـطـفـةٌ وجـيـفـةٌ آخِـرُه يـفـخَـرُ
يُـصـبِح مـا يَـملِـك تـقـديمَ مـا يَـرجُـو ولا تـأخيـرَ مـا يَـحـذَرُ!

بعض ما قيل في الفخر وقبحه

وقال بعضُ الحكماء: الفخر هو المُباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان، وذلك نهايةُ الحُمق لمن نَظَر بعَيْن عقلِه، وانحسَرَ عنه قِناع جهله، فأعراض الدُّنيا عاريَّة مستَرَدّة، لا يؤمَن في كلّ ساعة أن تُرتَجع، والمُباهِي بها مُباهٍ بما في غير ذاتِه.

وقد قال لبعض مَن فخرَ بثروَته ووَفره: إن افتخرتَ بفرَسِك فالحسْن والفراهة له دونَك، وإن افتخرتَ بثيابك وآلاتِك فالجمال لهما دُونَك، وإن افتخرتَ بآبائِك وسَلفِك فالفضْلُ فيهم لا فيك، ولو تكلّمتْ هذه الأشياء لقالَتْ لك: هذه محاسنُنا فما مَحاسِنُك!

وأيضاً فإن الأعراض الدنيويّة كما قيل: سحابةُ صَيْف عن قليلٍ تقَشَّع، وظلٌّ زائل عن قريبٍ يَضمحِلّ، كما قال الشاعر:

إنـمـا الـدّنـيـا كـرُؤيـا فـرّحَـتْ مَـن رآهـا سـاعـةً ثـم انـقَـضَـتْ

بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[1].

وإذا كان لا بدّ من الفَخر فليفخَر الإنسانُ بعلمه وبشَريف خُلُقه، وإذا أعجبَك من الدّنيا شيءٌ فاذكرْ فناءَك وبقاءه، أو بقاءَك وفناءه، أو فناءَكما جميعاً، وإذا راقَك ما هُوَ لك فانظرْ إلى قُرْب خُروجه من يَدِك، وبُعد رجوعِه إليك، وطُول حسابك عليه وقد ذَمّ الله الفخُور فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].

– ٤٦٣ –

الأصل: الْغِنَى والْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى الله تعالى.

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

الشرح: أي لا يُعَدّ الغنيّ غنيًا في الحقيقة إلا من حَصَل له ثوابُ الآخرة الّذي لا يَنقطع أبداً، ولا يعدّ الفقير فقيراً إلا مَنْ لم يَحصُل له ذلك، فإنه لا يزال شقياً معذَّباً، وذاك هو الفَقْر بالحقيقة.

فأمّا غِنَى الدنيا وفَقْرُها فأمران عَرَضيّان، زوالهما سريع، وانقضاؤهما وَشِيك. وإطلاق هاتَيْن اللفظتين على مُسمّاهما الدّنيويّ على سبيلِ المجاز عند أربابِ الطريقة، أعني العارفين.

- ٤٦٤ -

الأصل: وسُئِلَ عَنْ أشْعَرِ الشُّعَراءِ، فقال عليه السلام: إنَّ الْقَوْمَ لَيَجْرُوا في حَلَبَةٍ تُعْرَفُ الْغايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِها، فإنْ كانَ ولا بُدَّ فالمَلِكُ الضِّلِّيلُ. قال: يُرِيدُ امْرَأَ الْقَيْس.

مع علي بن أبي طالب عليه السلام حول أشعر الشعراء

الشرح: قرأتُ في أمالي ابن دُرَيد، قال: أخبَرنا الجُرْمُوزيّ، عن ابنِ المهلّبيّ، عن ابن الكلبيّ، عن شدّاد بن إبراهيم، عن عبيدِ الله بن الحَسن العَنْبريّ، عن ابن عرادة، قال: كان عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام يُعشّي الناسَ في شَهْر رَمضان باللّحم ولا يتعشّى معهم، فإذا فَرَغوا خَطَبهم ووعَظَهم، فأفاضوا ليلةً في الشُّعراء وهم على عَشائِهم، فلمّا فَرَغوا خَطَبهم عليه السلام وقال في خُطبته: اعلموا أنّ مِلاك أمركم الدِّين، وعِصْمَتكم التّقوى، وزينَتكم الأدب، وحُصون أعراضكم الحِلْم، ثم قال: قل يا أبا الأسود: فِيم كُنتمْ تفيضون فيه؟ أي الشّعراء أشعَر؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين الّذي يقول:

ولـقـد أغـتـدي يُـدافِـع رُكْـنـي ... أعـوجـيٌّ ذو مَـيْـعَـةٍ إضـرِيـجُ
مِـخْـلَـطٌ مِـزْيَـلٌ مِـعَـنٌّ مِـفَـنٌّ ... مـنـفـح مِـطْـرَح سَـبُـوحٌ خَـروجُ

يعني أبا دُواد الإياديّ، فقال عليه السلام: ليس به، قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ فقال: لو رُفعتْ للقوم غايةٌ فجرَوْا إليها معاً عَلِمْنا مَن السابقُ منهم، ولكنْ إنْ يكن فالذي لم يَقُل عن رَغْبة ولا رَهْبة. قيل: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هو المَلِك الضِّلّيل ذو القُروح، قيل: امرؤ القيس يا أمير المؤمنين؟ قال: هو. قيل: فأخبِرْنا عن ليلة القَدْر؟ قال: ما أخلو من أن أكون أعلمها فأستُر علمها، ولستُ أشُكّ أنّ الله إنما يَستُرها عنكم نظراً لكم، لأنه لو أعلمكُموها عملتم فيها وتركتم غيرها، وأرجو أن لا تُخطِئَكم إن شاء الله، انهَضوا رَحِمَكم الله.

وقال ابن دُرَيد لما فرَغ من الخبر: إضرِيج: ينبثق في عَدْوِه، وقيل واسعُ الصَّدْر ومنفح:

يُخرج الصَّيد من مَواضِعه، ومِطرَح: يطرح ببَصَره. وخَروج: سابقٌ. والغاية بالغين المعجمة: الرّاية، قال الشاعر:

وإذا غــايــةُ مــجــدٍ رُفــعــتْ ... نَـهَـض الـصّـلـت إلـيـهـا فـحَـواهـا

ويروى قولُ الشّماخ:

إذا مــا رايــةٌ رُفــعــتْ لــمــجــدٍ ... تــلــقّــاهــا عَــرابــةُ بــالــيَــمــيــنِ

بالغَيْن، والرّاء أكثر. فأما البيت الأوّل فبالغين لا غير، أنشده الخليل في عَرُوضه، وفي حديثٍ طويلٍ في الصحيح: «فيأتونكم تحت ثمانين غايةً، تحت كلِّ غاية اثنا عشر ألفاً»[1].

والمَيْعة: أوّل جَرْي الفَرَس، وقيل: الجرْي بعدَ الجرْي.

اختلاف العلماء في تفضيل بعض الشعراء على بعض

وأنا أذكرُ في هذا المَوْضع ما اختلف فيه العلماء من تَفْضيل بعض الشعراء على بعض، وأبتدىء في ذلك بما ذَكَره أبو الفرج عليُّ بن الحسين الأصفَهاني في كتاب الأغاني.

قال أبو الفَرَج: الثلاثة المقدَّمون على الشّعراء: امرؤ القيس، وزُهير، والنابغة، لا اختلاف في أنّهم مقدَّمون على الشعراء كلِّهم، وإنما اختُلِف في تقديم بعض الثلاثة على بعض.

قال: فأخبرني أبو خليفة، عن محمّد بن سلاّم، عن أبي قبيس، عن عكرمة بن جَرير، عن أبيه، قال: شاعرُ أهل الجاهليّة زهير.

قال: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجَوْهريّ، قال: حدثني عمرُ بنُ شبّة، عن هارون بن عمر، عن أيوب بن سُوَيد، عن يحيى بن زِياد، عن عمر بن عبد الله اللّيثيّ، قال: قال عمرُ بنُ الخطاب ليلةً في مسيره إلى الجابية: أين عبدُ الله بنُ عبّاس؟ فأُتي به، فشَكا إليه تخلُّف عليّ بن أبي طالب عليه السلام عنه. قال ابن عبّاس: فقلتُ له: أو لم يعتذِر إليك؟ قال: بلى، قلت: فهو ما اعتذر به. قال: ثم أنشأ يحدِّثني فقال: إن أوّل من راثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إن قومَكم كَرِهوا أن يَجمعوا لكم الخلافة والنبوّة. قال أبو الفَرَج: ثمّ ذكر قصّة طويلةً ليستْ من هذا الباب، فكرهتُ ذكرها ثمّ قال: يابن عبّاس، هل تروي لشاعر الشّعراء؟ قلت: ومَن هو؟ قال: وَيْحَك! شاعرُ الشعراء، الذي يقول:

فـلـو أنّ حَـمْـداً يُـخْـلِـدُ الـنّـاس خُـلِّـدوا ... ولـكـنّ حَـمْـد الـنّـاس لـيـس بـمـخـلِـدِ

فقلتُ: ذاك زُهَير، فقال: ذاك شاعرُ الشّعراء، قلتُ: وبِم كان شاعرَ الشّعراء؟ قال: إنه كان لا يُعاظِل الكلام، ويتجنّب وحشيَّه، ولا يمدَح أحداً إلّا بما فيه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجزية، باب: ما يحذر من الغدر (٣١٧٦)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: أشراط الساعة (٤٠٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٦٣٨٥).

قال أبو الفرج: وأخبرني أبو خليفة قال: قال ابن سلاّم: وأخبرني عمرُ بنُ موسى الجمحيّ، عن أخيه قدامة بن موسى - وكان من أهلِ العِلم - أنه كان يقدِّم زُهَيراً، قال: فقلتُ له: أيُّ شعره كان أعجب إليه؟ فقال: الذي يقول فيه:

قد جَعَل المُبتَغُون الخيرَ في هَرِمٍ   والسائلون إلى أبوابه طرقَا

قال ابن سَلاّم: وأخبَرني أبو قيس العَنْبَريّ - ولم أرَ بَدَوِيًّا يفي به - عن عكرمة ابن جرير، قال: قلت لأبي: يا أبت، مَن أشعر الناس؟ قال: أعَن أهل الجاهلية تسألني، أم عن أهل الإسلام؟ قال: قلتُ: ما أردت إلا الإسلام، فإذا كنتَ قد ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلِها، فقال: زُهير أشعرُ أهلِها، قلت: فالإسلام؟ قال: الفرزدق نَبْعة الشِّعر، قلت: فالأخطل، قال: يُجيدُ مَدح الملوك، ويصيب وصف الخمر، قلت: فما تركت لنفسِك؟ قال: إني نَحرْت الشِّعر نَحْراً.

قال: وأخبَرَني الحسن بن عليّ قال: أخبرنا الحارثُ بن محمد عن المدائنيّ، عن عيسى بن يزيد، قال: سأل معاويةُ الأحنف عن أشعَر الشعراء؟ فقال: زُهَير، قال: وكيف ذاك؟ قال: ألقى على المادِحين فضول الكلام، وأخذ خالصَه وصفوته، قال: مِثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

وما يكُ من خيرٍ أتَوْه فإنما   تَوارَثه آباءُ آبائِهم قَبْلُ
وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ   وتُغرس إلّا في مَنابتها النّخلُ![1]

قال: وأخبرني أحمدُ بنُ عبد العزيز، قال: حدّثنا عمرُ بنُ شبّة، قال: حدثنا عبد الله بن عمرو القيْسيّ قال: حدثنا خارجة بنُ عبد الله بن أبي سفيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: خرجتُ مع عمر في أول غزاة غزاها، فقال لي ليلة: يابن عباس، أنشدْني لشاعر الشعراء، قلتُ: مَن هو؟ قال: ابن أبي سلمى. قلتُ: ولم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يَتْبَع حُوشيَّ الكلام، ولا يُعاظِل[2] في مَنطِقه، ولا يقول إلا ما يعرِف، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، أليس هو الذي يقول:

إذا ابتدَرَتْ قيسُ بنُ عَيلانَ غايةً   إلى المجد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ
سَبَقْتُ إليها كلَّ طَلْقٍ مبرّز   سَبُوق إلى الغايات غير مُزَنَّدِ

قال: أي لا يحتاج إلى أن يجلد الفرس بالسَّوْط.

كفعل جَواد يسبق الخيل عَفْوُه السـ   ـراع وإن يَجهَد ويَجهَدْنَ يَبْعُدِ
فلو كان حمداً يخلد الناس لم تَمُتْ   ولكنّ حمد النّاس ليس بمُخلِدِ

---

(١) الخطي: الرماح من نبات أرض العرب. اللسان، مادة (خطط).
(٢) عاظل القافية عظالاً: ضمن. القاموس، مادة (عظل).

أنشدني له، فأنشدته حتى بَرَق الفَجْر، فقال: حسبُك الآن، اقرأ القرآن. قلت: ما أقرأ؟ قال: الواقعة، فقرأتها، ونزَل فأذّن وصَلّى.

وقال محمد بن سلام في كتاب «طبقات الشعراء»: دخل الحطيئة على سعيد بن العاص متنكّراً، فلما قام الناسُ وبقي الخواصّ أراد الحاجبُ أن يقيمَه، فأبى أن يقوم، فقال سعيد: دعْه، وتذاكروا أيام العرب وأشعارها، فلما أسهبوا قال الحطيئة: ما صنعتم شيئاً، فقال سعيد: فهل عندك علْم من ذلك؟ قال: نعم، قال: فمن أشعرُ العَرَب؟ قال: الذي يقول:

قد جَعَل المُبْتَغون الخير في هَرِمٍ ... والسائلون إلى أبوابه طُرقا

قال: ثمّ من؟ قال: الذي يقول:

فإنك شمسٌ والمُلوك كواكبٌ ... إذا طَلَعت لم يَبدُ منهنّ كوكَبُ

يعني زُهَيراً، ثمّ النابغة، ثمّ قال: وحسْبك بي إذا وضعتُ إحدى رجليّ على الأخرى، ثم عوَيْت في إثر القوافي كما يعوي الفَصِيل في أَثَرِ أمه! قال: فمن أنت؟ قال: أنا الحطيئة، فرحّب به سعيد، وأمر له بألف دينار.

قال: وقال من احتج لزهير: كان أحْسَنَهم شعراً، وأبعَدَهم من سُخْف، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليلٍ من المنطق، وأشدَّهم مبالغة في المدح، وأبعدهم تكلّفاً وعجرفيّة وأكثرهم حكمة ومَثَلاً سائراً في شِعْره.

وقد روى ابن عبّاس عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضلُ شُعَرائكم القائل ومَن مَن»، يعني زهيراً، وذلك في قصيدته التي أوّلها: «أمِنْ أمّ أوْفى» يقول فيها:

ومَن يكُ ذا فَضلٍ فيَبْخلْ بفضله ... على قومِه يُستغنَ عنه ويُذْمَمِ
ومن لم يَذُدْ عن حَوضِه بسلاحِه ... يُهدَّمْ، ومن لا يَظلِم الناس يُظلَم
ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَه ... ولو نال أسباب السَّماءِ بسُلَّم
ومَن يجعل المعروف من دُون عِرْضِه ... يَفِرْهُ ومن لا يَتّق الشَّتْمَ يُشتَم

فأما القول في النّابغة الذّبيانيّ فإن أبا الفَرَج الأصفهاني قال في كتاب الأغاني: كُنْيَة النابغة أبو أمامة، واسمهُ زِياد بن معاوية، ولُقِّب بالنابغة لقَوْله:

فقد نَبغَتْ لهم مِنّا شؤون

وهو أحدُ الأشراف الّذين غَضّ الشعر منهم، وهو من الطبقة الأولى المقدّمين على سائر الشعراء.

أخبَرني أحمد بنُ عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نَصْر قالا: حدّثنا عمرُ بنُ شبّة، قال:

حدّثني أبو نعيم، قال: شريكٌ عن مُجالد، عن الشَّعْبي، عن رِبْعيّ بن حِراش، قال: قال لنا عمر: يا معشرَ غَطَفان، مَن الّذي يقول:

أتـيـتُـك عـاريـاً خَـلَـقـاً ثـيـابـي عـلـى خوفٍ تُـظَـنُّ بِـيَ الـظـنـونُ

قلنا: النابغة، قال: ذاك أشعرُ شُعرائكم.

قلتُ: قولُه: أشعَر شُعرائكم»، لا يدلّ على أنّه أشعَر العرب، لأنّه جعلَه أشعر شعراء غَطَفان، فليس كقوله في زُهير شاعرُ الشّعراء، ولكنّ أبا الفرج قد رَوَى بعد هذا خبراً آخرَ صريحاً في أنّ النابغة عند عمر أشعرُ العَرَب. قال: حدّثني أحمدُ وحبيب، عن عمرَ بنِ شَبّة، قال: حدّثنا عبيد بن جنّاد، قال: حدّثنا مَعْن بنُ عبد الرحمن، عن عيسى بن عبد الرحمن السُّلَميّ، عن جدّه، عن الشّعبيّ قال: قال عمر يوماً: مَن أشعَر الشعراء؟ فقيل له: أنتَ أعلم يا أميرَ المؤمنين، قال: من الذي يقول:

إلاّ سـلـيـمـانَ إذ قـال الـمـلـيـكُ لـه قُمْ في البريّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ

وخيّـس الـجـنّ إنـي قـد أذنـتُ لـهـم يَبْنـون تـدْمُـرَ بـالـصُّـفّـاح والـعَـمَـدِ

قالوا: النابغة، قال: فمن الّذي يقول:

أتـيـتُـك عـاريـاً خَـلَـقـاً ثِـيـابـي عـلـى خَـوْف تُـظَـنّ بـيَ الـظُّـنـونُ

قالوا: النابغة، قال: فمن الّذي يقول:

حَـلَـفـتُ فـلـم أتـرُكْ لـنـفـسِـك رِيـبـةً ولـيـس وراءَ الـلّـه لـلـمـرءِ مَـذهَـبُ

لـئـن كـنـتَ قـد بُـلِّـغـتَ عـنّـي خِـيـانـةً لَـمُـبـلِـغُـك الـواشـي أغَـشُّ وأكـذَبُ

قالوا: النّابغة، قال: فهو أشعَر العرب.

قال: وأخبَرني أحمدُ، قال: حدّثنا عمر، قال: حدّثني عليُّ بنُ محمّد المَدائنيّ قال: قام رجل إلى ابن عبّاس، فقال له: أيُّ النّاس أشعَر؟ قال: قال أخبِرْه يا أبا الأسْوَد، فقال أبو الأسود: الّذي يقول:

فـإنّـك كـالـلّـيـلِ الّـذي هـو مُـدرِكـي وإن خلـتُ أنّ الـمُـنـتـأى عـنْـكَ واسـعُ

يعني النابغة.

قال أبو الفرج: وأخبرني أحمدُ وحبيب، عن عمرَ عن أبي بكر العُلَيْميّ، عن الأصمعيّ، قال: كان يُضرَب للنّابغة قُبّةُ أدَم بسُوقِ عُكاظ فتأتيه الشّعراء فتَعرِض عليه أشعارَها، فأنشده مرّة الأعشى، ثم حسّان بنُ ثابت، ثُمّ قوم من الشعراء، ثم جاءت الخنساء فأنشدَتْه:

وإنّ صَـخْـراً لـتـأتـمّ الـهُـداةُ بـه كـأنّـه عَـلَـم فـي رأسِـه نـارُ

فقال: لولا أنّ أبا بَصير - يَعنِي الأعشى - أنشَدَني آنفاً لقلتُ: إنّك أشعرُ الإنس والجِنّ.

فقام حسّان بنُ ثابت فقال: أنا والله أشعَر منها ومنك ومن أبيك، فقال له النابغة: يابنَ أخي، أنت لا تُحسِن أن تقول:

فإنّك كالليل الّذي هو مُدرِكي   وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ في حِبالٍ مَتينةٍ   تَمُدُّ بها أيدٍ إليكَ نَوازعُ

قال: فخَنَس حسّان لقوله.

قال: وأخبَرَني أحمد وحبيب، عن عمرَ، عن الأصمعيّ، عن أبي عمرو بنِ العلاء قال: حدّثني رجل سمّاه أبو عمرو وأنسِيتُه، قال: بينما نحن نسيرُ بين أنْقاء من الأرض، فتذاكَرْنا الشّعر، فإذا رَاكب أَطَيْلِس يقول: أشعَر الناس زيادُ بنُ معاوية، ثمّ تملّس فلم نَرَه.

قال: وأخبَرَني أحمدُ بنُ عبد العزيز، عن عمر بنِ شَبّة، عن الأصمعيّ، قال: سمعتُ أبا عمرو بنَ العَلاء يقول: ما ينبغي لزُهير إلّا أن يكون أجيراً للنابغة.

قال أبو الفرج: وأخبَرَنا أحمدُ عن عمر، قال: قال عمرو بن المنتشِر المُراديّ: وفَدْنا على عبدِ الملك بنِ مَرْوان، فدخَلْنا عليه، فقام رجل فاْعتَذَر من أمر وحَلَف عليه، فقال له عبدُ الملك: ما كنتَ حَرِيًا أن تَفعل ولا تَعتذِر، ثم أقبَل على أهل الشام فقال: أيّكم يَروِي اعتذارَ النابغةِ إلى النُّعمان في قوله:

حلفتُ فلم أتركْ لِنفسِكَ رِيبةً   وليس وراءَ اللّه للمرءِ مَذهَبُ

فلم يجدْ فيهم من يَرْويه، فأقبَل عليّ وقال: أترويه؟ قلتُ: نعم، فأنشدتُه القصيدةَ كلَّها، فقال: هذا أشعَر العرب.

قال: وأخبَرَني أحمدُ وحبيب عن عُمَر، عن مُعاويةَ بن بكر الباهليّ، قال: قلتُ لحمّاد الراوية: لم قَدّمت النابغة؟ قال: لاكتفائكَ بالبَيْت الواحد مِن شِعره، لا بل بِنصف البيت، لا بل برُبْع البيت، مِثل قوله:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسكَ ريبةً   وليسَ وراءَ اللّه للمرءِ مَذهَبُ
ولستَ بمُستَبْقٍ أخاً لا تَلُمّه   على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

رُبْع البَيْت يُغنيك عن غيرِه، فلو تمثّلْتَ به لم تحتجْ إلى غيره.

قال: وأخبَرَني أحمدُ بنُ عبد العزيز، عن عمَر بنِ شَبّة، عن هارون بن عبدِ اللّه الزُّبيريّ، قال: حدّثني شيخٌ يُكنَى أبا داود، عن الشعبيّ، قال: دخلتُ على عبدِ الملك وعندَه الأخطَل وأنا لا أعرِفه، وذلك أوّل يوم وَفَدتُ فيه من العراق على عبدِ الملك، فقلتُ حينَ دخلتُ: عامر بن شَراحيل الشَّعْبيّ يا أميرَ المؤمنين، فقال: على علمٍ ما أذِنّا لك، فقلتُ: هذه واحدة على وافد أهلِ العراق - يعني أنه أخطأ - قال: ثمّ إنّ عبدَ الملك سألَ الأخطلَ: مَن أشعَرُ

الناس؟ فقال: أنا، فعجلتُ وقُلتُ لعبد الملك: مَن هذا يا أمير المؤمنين؟ فتبسّم، وقال: الأخطل، فقلتُ في نفسي: اثنتان على وافدِ أهلِ العراق، فقلتُ له: أشعَر منكَ الّذي يقول:

هــذا غـلامٌ حَـسَـنٌ وجـهُـه   مُستقبل الخيرِ سريعُ التّمامْ
لـلحارثِ الأكبرِ والحارثِ الـ   أصغَر فالأعرج خيرُ الأنامْ
ثم لعمرو ولعمرو وقد   أسرَع في الخَيْرات منه أمامْ

قال: هي أمامةُ أمُّ عمرو الأصغر بن المنذر بن امرىء القَيْس بن النّعمان ابن الشقيقة:

خمسةُ آباءٍ هُمُ ما هُمُ   أفضلُ مَن يَشرَب صَوْبَ الغَمامْ

والشّعر للنابغة، فالتفت إليّ الأخطل فقال: إنّ أمير المؤمنين إنّما سألَني عن أشعَر أهلِ زمانه، ولو سألَني عن أشعَر أهل الجاهليّة كنتُ حريًّا أن أقول كما قلتَ أو شبيهاً به، فقلتُ في نفسي: ثلاثٌ على وافِد أهلِ العراق.

قال أبو الفَرَج: وقد وجدتُ هذا الخبرَ أتمَّ مِن هذه الرّواية، ذكَرَه أحمدُ بنُ الحارث الخرّاز في كتابه، عن المدائنيّ، عن عبدِ الملك بن مُسلِم، قال: كَتَب عبدُ الملك بنُ مَرْوانَ إلى الحجّاج: إنّه ليس شيءٌ من لذّة الدنيا إلّا وقد أصبتُ منه، ولم يَبقَ عندي شيءٌ ألذّ من مُناقَلة الإخوان الحديثَ، وقِبَلَكَ عامرٌ الشعبيّ فابعثْ به إليّ، فدعا الحجّاج الشّعبيّ، فجهّزه وبَعثَ به إليه، وقرّظه وأطراه في كتابه، فخرج الشعبيُّ حتى إذا كان بباب عبدِ الملك قال للحاجب: استأذِن لي، قال: مَن أنت؟ قال: أنا عامرٌ الشّعْبيّ قال: يرحَمُك الله، قال: ثمّ نهض فأجلَسَني على كرسيّه، فلم يلْبَثْ أن خرج إليّ فقال: ادخُل يَرحَمك الله، فدخلتُ، فإذا عبد الملك جالسٌ على كرسيّ، وبين يديه رجلٌ أبيضُ الرأس واللحية، جالسٌ على كرسيّ، فسلمت، فردّ عليّ السلام، فأومأ إليّ بقَضِيبه، فجلستُ عن يساره، ثمّ أقبل على ذلك الإنسان الّذي بين يديه فقال له: مَن أشعر الناس؟ فقال: أنا يا أميرَ المؤمنين، قال الشّعبيّ: فأظلَم ما بيني وبينَ عبدِ الملك، فلم أصبر أن قلتُ: ومَن هذا الذي يَزْعم أنه أشعَر الناس يا أمير المؤمنين! فعَجِب عبدُ الملك من عَجَلتي قبل أن يسألني عن حالي، فقال: هذا الأخطل، فقلتُ: يا أخطَل، أشعَرُ والله منكَ الّذي يقول:

هــذا غـلامٌ حَـسَـنٌ وَجْـهُـهُ   مستقبِل الخَيْر سريعُ التّمامْ

الأبيات...

قال: فاستحسَنَها عبدُ الملك، ثم ردّدتُها عليه حتى حفِظَها، فقال الأخطل: مَن هذا يا أميرَ المؤمنين؟ قال: هذا الشَّعبيّ، فقال: والجيلون ما استعذت بالله من شرّ إلا من هذا - أي والإنجيل - صَدَق والله يا أميرَ المؤمنين، النابغةُ أشعَر مني، قال الشّعبيّ: فأقبَل عبدُ الملك حينئذٍ عليّ فقال: كيف أنتَ يا شَعبيّ؟ قلتُ: بخير يا أمير المؤمنين، فلا زلتَ به ثم ذهبتُ

لأصنَع معاذيرَ لما كان من خلافي مع ابن الأشعث على الحجّاج: فقال: مَهْ إنا لا نحتاج إلى هذا المَنطِق، ولا تراه منّا في قولٍ ولا فِعل حتى تفارقَنا، ثمّ أقبَل عليّ فقال: ما تقول في النابغة؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين، قد فضّله عمرُ بنُ الخطاب في غيرِ مَوْطنٍ على جميع الشُّعراء، ثم أنشدْتُه الشِّعرَ الّذي كان عمرُ يُعجَب به من شِعْره، وقد تقدم ذكرُه. قال: فأقبَل عبدُ الملك على الأخطل فقال له: أتُحِبّ أنّ لك قِياضاً بشِعْرك شِعْر أحدٍ من العرب، أم تحب أنّك قلتَه؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين إلا أني وَدِدْتُ أني كنتُ قلتُ أبياتاً قالَها رجلٌ منّا، ثم أنشدَه قولَ القَطاميّ:

إنّا مُحَيُّوك فاْسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ ... وإنْ بَلِيتَ وإن طالَتْ بكَ الطِّيَلُ
ليس الجديد به تَبْقى بشاشَتُه ... إلا قليلاً ولا ذو خُلّة يَصِلُ
والعَيْشُ لا عيشَ إلا ما تَقَرُّ به ... عَيْن ولا حالَ إلا سوف تَنتقِلُ
إنْ ترجِعي من أبي عثمان مُنجِحةً ... فقد يَهُون على المستنجِح العَمَل
والناسُ مَن يَلْقَ خيراً قائلُون له ... ما يَشتهي ولأُمّ المُخطىءِ الهَبَلُ
قد يُدرِكُ المتأنّي بعضَ حاجتِه ... وقد يكون مع المستعجِل الزَّلَلُ

قال الشعبيّ: فقلتُ: قد قال القَطاميّ أفضلَ من هذا، قال: وما قال؟ قلتُ: قال:

طَرقتْ جَنوبُ رحالَنا من مَطْرَقِ ... ما كنتُ أحسَبها قريب المُعنَقِ

إلى آخِرِها، فقال عبدُ الملك: ثكِلَت القَطاميّ أُمُّه! هذا والله الشِّعر، قال: فالتَفَت إليّ الأخطلُ فقال: يا شعبيُّ، إن لك فُنُوناً في الأحاديث، وإنما لي فنٌّ واحد فإن رأيتَ ألا تَحمِلني على أكتافِ قومِك فأدَعُهم حَرَضاً! فقلتُ: لا أعرض لك في شيء من الشِّعْر أبداً، فأقِلْني هذه المرّة، فقال: مَن يتكفّل بك؟ قلتُ: أميرُ المؤمنين، فقال عبد الملك: هو عَلَيّ أنّه لا يَعرِض لك أبداً، ثم قال عبدُ الملِك: يا شَعْبِيّ، أيّ نساء الجاهليّة أشعَر؟ قلتُ: الخَنْساء؟ قال: ولم فَضّلْتَها على غيرِها؟ قلتُ: لقولها:

وقائلةٍ والنَّعْش قد فاتَ خَطْوَها ... لِتُدرِكه: يا لَهفَ نَفْسي على صَخْرِ
ألا هَبِلَتْ أمُّ الّذين غَدَوْا به ... إلى القَبْر، ماذا يَحمِلون إلى القَبْر!

فقال عبدُ الملك: أشعَر منها والله الّتي تقول:

مُهَفْهَفٌ أهضَم الكَشْحَينِ منخرِقٌ ... عنه القميصُ بسَيْر الليلِ مُحتقِرُ
ألا يأمَن الدّهر ممساهُ ومصبَحَه ... من كلّ أوْبٍ وإن لم يَغْزُ يُنْتَظَرُ

قال: ثمّ تبسّم عبدُ الملك وقال: لا يشقّنّ عليك يا شَعبيّ، فإنّما أعلَمْتُك هذا لأنّه بَلَغني أنّ أهلَ العراق يتطاولون على أهل الشام، ويقولون: إن كان غَلَبونا على الدّولة فلم يَغلِبونا على العِلم والرِّواية، وأهل الشام أعلَم بِعِلْم أهلِ العراق من أهلِ العراق، ثم ردّد عليّ أبيات لَيْلى

حتّى حفِظْتُها، ثمّ لم أزل عنده أوّلَ داخل وآخِر خارج، فكنتُ كذلك سنينَ، وجعَلَني في ألفين من العَطاء، وجعَلَ عشرين رجلاً من ولدي وأهل بَيْتي في ألف ألفٍ، ثمّ بَعَثَني إلى أخيه عبدِ العزيز بمصرَ، وكتب إليه: يا أخي، قد بعثتُ إليك بالشَّعْبي، فانظرْ هل رأيتَ قطّ مِثلَه!

قال أبو الفَرَج الأصبهانيّ في ترجمة أَوْس بنِ حَجَر: إنّ أبا عبيدة قال: كان أوسُ شاعرَ مُضَر حتّى أسقَطَه النابغة، وقد ذَكَر الأصمعيّ أنّه سمعَ أبا عمرو بن العلاء يقول: كان أوسُ بنُ حَجَر فحلَ العرب، فلما نشأ النابغةُ طأطأ منه.

وقال محمّد بنُ سَلاّم في كتاب «طَبَقات الشّعراء»: وقال من احتجّ للنابغة: كان أحسَنهم دِيباجة شعر، وأكثَرَهم رَوْنق كلام، وأجزَلَهم بيتاً، كأن شعره كلام ليس بتكلّف، والمَنطِق على المتكلّم أوسَع منه على الشّاعر، لأنّ الشاعر يحتاج إلى البناء والعَروض والقَوافي، والمتكلّم مطلَق، يتخيّر الكلامَ كيف شاء، قالوا: والنابغة نَبَغ بالشِّعر بعد أن احتَنَك، وهَلَك قبل أن يهتِر.

قلتُ: وكان أبو جعفر يحيى بن محمّد بن أبي زيد العَلَويّ البَصْريّ يُفضِّل النابغة، واستقرَأني يوماً وبيَدِي ديوانُ النّابغة قصيدتَه الّتي يَمدَح بها النّعمان بنَ المُنذِر، ويَذكُر مرضَه، ويَعتذر إليه ممّا كان اتُّهم به، وقذَفَه به أعداؤه، وأوّلها:

كتَمتُكَ لَيْلاً بالجَمومين ساهراً ... وهَمَّيْن: هَمّا مستكنّا وظاهِرا
أحاديث نفسٍ تَشتكِي ما يَريبُها ... ووِرْد همومٍ لو يَجِدْن مَصادِرا
تُكلّفني أن يُغْفِلَ الدهرُ هَمّها ... وهل وجدتُ قبلي على الدّهر ناصرا

يقول: هذه النفس تكلّفني ألّا يحدث لها الدهر همًّا ولا حُزناً، وذلك ممّا لم يستطِعْه أحدٌ قبلي.

ألم ترَ خيرَ النّاس أصبَحَ نعشُه ... على فِتيةٍ قد جاوَزَ الحيَّ سائِرًا!

كان الملكُ منهم إذا مَرِض حُمِل على نعش وطِيف به على أكتاف الرجال بين الحِيرَة والخَوَرْنَق والنَّجَف، ينزّهونه.

ونحن لدَيْه نسألُ اللّهَ خُلْدَه ... يردّ لنا ملكاً وللأرضِ عامرًا
ونحن نُرجّي الخيرَ إنْ فاز قِدْحنا ... ونَرْهَبُ قِدْح الدّهر إن جاء قامِرا
لك الخير إن وارتْ بك الأرض واحِداً ... وأصبَحَ جدُّ الناس بعدَك عاثرا
ورُدّت مَطايا الراغِبين، وعُرّيَتْ ... جِيادُكَ لا يُحفِي لها الدّهرُ حافِرًا
رأيتكَ ترْعاني بعينٍ بصيرةٍ ... وتَبْعثُ حُرّاساً عليّ وناظِرًا
وذلك مِنْ قول أتاك أقولُه ... ومِنْ دَسِّ أعداءٍ إليكَ المآبِرا
فآليتُ لا آتيكَ إن كنت مُجرِماً ... ولا أبتغِي جاراً سِواكَ مُجاوِرًا

أي لا آتيكَ حتّى يَثبتَ أنّي غيرُ مُجرم.

فـأهـلِـي فِـداءٌ لامـرىءٍ إن أتـيـتُـه ... تَـقـبَّـلَ مـعـروفـي وسَـدَّ الـمـفـاقِـرَا
سـاربـطُ كَـلْـبـي أنْ يـريـبَـك نَـبـحُـه ... وإن كـنـتُ أرعَـى مُـسـحُـلانَ وحـامِـرَا

أي سأمْسِك لساني عن هجائك وإن كنتُ بالشام في هَذين الواديَين البعيدَين عنك.

وحَـلّـت بـيُـوتِـي فـي يَـفـاعٍ مـمـنّـعٍ ... تَـخـال بـه راعِـي الـحَـمـولـةِ طـائِـرا
تَـزِلّ الـوعُـولُ الـعُـصْـم عـن قَـذَفـاتـه ... ويُـضـحِـي ذُراه بـالـسّـحـاب كـوافِـرَا
حِـذاراً عـلـى ألّا تـنـال مـقـادَتـي ... ولا نِـسْـوَتـي حـتّـى يَـمُـتْـنَ حَـرائـرَا

يقول: أنا لا أهْجرك وإن كنت من المَنَعة والعِصْمة على هذه الصفة.

أقـولُ وقـد شَـطّـت بـيَ الـدَّار عـنـكُـمُ ... إذا مـا لَـقـيـت مـن مَـعَـدٍّ مُـسـافِـرا
ألا أبـلـغ الـنّـعـمـانَ حـيـثُ لـقـيـتَـه ... فـأهـدَى لـه الـلّـهُ الـغُـيـوثَ الـبَـوَاكِـرا
وأصـبـحـه فُـلـجـاً ولا زال كَـعْـبُـه ... على كلّ مَن عادَى من الناس ظاهِرا
وربُّ عـلـيـهِ الـلّـهُ أحـسَـن صُـنْـعـه ... وكـان عـلـى كُـلِّ الـمُـعـادِيـن نـاصِـرَا

فجعل أبو جعفر رحمه الله يهتزّ ويَطرَب، ثم قال: والله لو مُزِجتْ هذه القصيدة بشِعر البحتريّ لكادت تمتزج لسهُولَتها وسلامةِ ألفاظها، وما عليها من الدِّيباجة والرّوْنق. من يقول: إنّ امرأ القيس وزهيراً أشعَرُ من هذا! هَلُمُّوا فلْيُحاكموني.

فأمّا امرُؤ القيس بنُ حُجْر، فقال محمّد بنُ سلاّم الجُمَحيُّ في كتاب «طبقات الشّعراء»: أخبَرَني يونسُ بن حَبيب أنّ علماءَ البَصرة كانوا يقدِّمونه على الشّعراء كلِّهم، وأنّ أهل الكوفة كانوا يقدِّمون الأعشى، وأنّ أهل الحِجاز والبادية يقدِّمون زُهَيراً والنّابغة.

قال ابنُ سلاّم: فالطبقة الأولَى إذَنْ أربعة. قال: وأخبَرَني شُعيب بن صَخْرٍ، عن هارون بن إبراهيم، قال: سمعتُ قائلاً يقول للفرزدق: مَن أشعَر الناس يا أبا فراس؟ فقال: ذو القرُوح، يعني امرأ القَيْس، قال: حين يقول ماذا؟ قال حين يقول:

وَقـاهـمْ جَـدُّهـم بِـبَـنـي أبـيـهـمْ ... وبـالأشـقَـيْـن مـا كـان الـعِـقـابُ

قال: وأخبَرَني أبَان بن عثمان البَجَليّ، قال: مرّ لَبيد بالكوفة في بني نَهْد، فأتبعوه رسول يسأله: من أشعَر الناس؟ فقال: الملِكُ الضِّليل. فأعادوه إليه، فقال: ثمّ مَن؟ فقال: الغلامُ القتيل - يعني طَرَفة بنَ العَبْد - وقال غيرُ أبان: قال: ثمّ ابن العشْرين، قال: ثمَّ مَن؟ قال: الشيخُ أبو عُقَيل يَعني نَفْسَه.

قال ابنُ سلاّم: واحتجّ لامرىء القيس من يقدِّمه فقال: إنّه ليس قال ما لم يقولوه، ولكنّه سَبَق العَرَبَ إلى أشياءَ ابتدعها استحسنَتْها العرب، فاتّبعه فيها الشعراء، منها استيقاف صَحْبه،

والبُكاءُ في الدِّيار، ورقَّةُ النَّسيب، وقربُ المأخذ، وتشبيهُ النِّساء بالظِّباء وبالبيْض، وتَشبيهُ الخَيْل بالعِقْبان والعِصيّ، وقَيّد الأوابِد، وأجاد في النَّسيب، وفصَل بين النَّسيب وبين المعنَى، وكان أحسنَ الطَّبقة تشبيهاً.

قال: وحدّثني معلِّم لبني داودَ بن عليّ، قال: بينا أنا أسيرُ في البادية إذا أنا برجلٍ على ظَلِيم قد زَمّه وخَطَمَه وهو يقول:

هـل يَـبْـلُـغَـنَّـهـمْ إلـى الـصَّـبـاحِ   هَـقْـلٌ كـأنّ رأسَـه جـمـاحُ[1]

قال: فما زال يَذْهب به ظَليمُهُ وَيَجيءُ حتى أنست به وعَلِمتُ أنه ليس بإنسيّ فقلت: يا هذا، من أشعَر العرب؟ فقال: الّذي يقول:

أغـرَّكِ مـنِّـي أنّ حُـبَّـكِ قـاتِـلـي   وأنّـك مَـهْـمـا تأمـرِي الـقـلـب يَـفْـعـلِ

يعني امرأ القَيْس، قلت: ثمّ مَن؟ قال: الّذي يقول:

ويَـبْـرُد بَـرْد رِداءِ الـعَـرُو   سِ بـالـصَّـيـف رقْـرَقْـتَ فـيـه الـعـبـيـرَا
ويَـسـخُـن لـيـلَـة لا يَـسْـتـطـيـعُ   نُـبـاحـاً بـهـا الـكَـلـب إلا هَـريـرَا[2]

ثمّ ذَهب به ظَليمة فلم أرَه.

قال: وحدّث عَوانةُ، عن الحسن أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لحسان بن ثابت: من «أشعَر العَرَب؟» قال: الزُّرقُ العُيون من بين قَيْس، قال: لستُ أسألك عن القبيلة، إنما أسألك عن رَجُل واحدٍ، فقال حسّان: يا رسول الله، إنّ مَثَل الشعراء والشِّعرِ كمثَل ناقةٍ نُحِرَت، فجاء امرؤ القَيْس بنُ حُجْر فأخَذَ سَنامَها وأطايبها، ثمّ جاء المتجاوِران من الأوْس والخَزْرج فأخذا ما والَى ذلك منها، ثم جَعَلت العربُ تمزِّعها حتى إذا بقي الفَرْث والدَّمُ جاء عمرو بنُ تميم والنمر بنُ قاسط فأخذاه، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها خاملٌ يوم القيامة، معه لواء الشُّعراء إلى النار»[3].

فأمّا الأعشى فقد احتجّ أصحابه لتفضيله بأنه كان أكثرهم عَرُوضاً، وأذهَبهم في فُنون الشعر، وأكثَرهم قصيدة طويلة جيّدة، وأكثرهم مَدْحاً وهِجاءً، وكان أوّل من سأل بشِعْره، وإن لم يكن له بَيْتٌ نادِر على أفْواه الناس كأبياتِ أصحابه الثلاثة.

---

(١) الهقل: الفتي من النعام. اللسان، مادة (هقل).
(٢) هرير الكلب: صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد. القادموس، مادة (هرر).
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٩٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣١٥٩).

وقد سُئِل خَلَف الأحمرُ: من أشعر الناس؟ فقال: ما ينتهي إلى واحدٍ يُجمَع عليه كما لا يُنتهى إلى واحدٍ هو أشجَع الناس، ولا أخطب الناس، ولا أجمل الناس، فقيل له: يا أبا مُحرِز فأيهم أعجب إليك؟ فقال: الأعشى كان أجمَعَهم.

قال ابنُ سلاّم: وكان أبو الخطاب الأخفش مستهتراً به يقدّمه، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: مَثَله مَثَل البازي يضرِب كبير الطير وصغيره. ويقول: نظيره في الإسلام جَرير، ونظيرُ النابغة الأخطل، ونظير زُهير الفرزدق.

فأما قولُ أمير المؤمنين عليه السلام «المَلك الضّلّيل» فإنما سُمّي امرُؤ القيس ضِلّيلاً لما يُعلن به في شِعره من الفِسْق، والضّلّيل: الكثير الضلال، كالشِّرّيب، والخِمّير، والسِّكير، والفِسّيق، للكثير الشُرْب وإدمان الخَمر والسُكر والفِسْق، فمن ذلك قولُه:

فمِثلِك حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعاً ... فألهَيْتُها عن ذي تَمائمَ مُحْوِلِ
إذا ما بَكَى من خَلْفِها انصرَفَتْ له ... بِشِقٍّ وتَحتِي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

وقوله:

سَمَوتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها ... سموّ حَبَابِ الماءِ حالاً على حالِ
فقالتْ لحاكَ اللّهُ إنك فاضِحِي ... ألستَ تَرَى السُّمارَ والناس أحْوالي(1)
فقلتُ لها تالله أبرَحُ قاعداً ... ولو قَطَّعوا رأسِي لدَيْكِ وأوْصالي
فلما تنَازَعْنا الحديث وأسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذي شماريخَ مَيَّالِ
فصِرْنا إلى الحُسْنى ورَقَّ كلامُنا ... ورُضْتُ فذَلّتْ صَعبةً أيّ إذلالِ
حلفتُ لها باللّهِ حَلْفَةَ فاجِرٍ ... لناموا فما إن من حديثٍ ولا صَالي
فأصبحتُ مَعْشوقاً وأصبح بَعلها ... عليه القَتامُ كاسِفَ الوجهِ والبَالِ(2)

وقولُه في اللّامية الأولى:

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها ... تمتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ
تخطّيتُ أبواباً إليها ومَعشَراً ... عليّ حِراصاً لو يُسِرّون مَقتلي
فجئتُ وقد نَضّت لنَوْم ثيابَها ... لدى السِّتْر إلا لِبسةَ المتفَضّل
فقالت يمينَ الله ما لَكَ حِيلةٌ ... وما إن أرَى عَنْك الغواية تَنْجلي

---

(١) لحاه الله: لعنه وقبحه. اللسان، مادة (لحو).

(٢) القتام: الغبار. القاموس، مادة (قتم).

فقمتُ بها أمشي تَجرُّ وراءَنا ... على إثْرنا أذيال مِرْطٍ مُرَجَّلِ(١)
فلما أجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحَى ... بنا بطْنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقِل
هَصَرْتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتمايلتْ ... عليّ هضيم الكَشْح رَيّا المُخلخَل(٢)

وقوله:

فبتُّ أكابِد لَيلَ التمّا ... م والقلبُ مِن خَشْيَةٍ مقشعرّ
فلمّا دنوتُ تَسَدَّيْتُها ... فثَوْباً نَسيتُ وثوباً أجُرّ
ولم يَرَنا كالِئٌ كاشحٌ ... ولم يَبْدُ مِنّا لدى البيت سِرّ
وقد رابني قولها: يا هَنا ... هُ وَيْحكَ ألحقتَ شرًّا بشَرّا

وقوله:

تقولُ وقد جَرّدتُها من ثيابها ... كما رُعْتَ مكحول المدامِع أتْلَعا
لعَمْرُك لو شيءٌ أتانا رسولُه ... سِواك ولكنْ لم نَجِدْ لك مَدْفعا
فبتْنا نَصُدّ الوحش عنّا كأنّنا ... قتيلان لم يعلم لنا الناسُ مَصرَعا
تَجافَى عن المأثور بَيْني وبَيْنَهَا ... وتُدْنى عليّ السابريَّ المُضلَّعا

وفي شعر امرىء القيس مِن هذا الفَنّ كثير، فمن أرادَه فليَطْلُبه من مجموع شعرِه.

- ٤٦٥ -

الأصل: وقال عليه السلام: أَلا حُرٌّ يَدَعُ هَذِهِ اللُّمَاظَةَ لأَهْلِهَا! إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ، فَلا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا.

الشرح: اللُّماظة بفَتح اللّام: ما تَبقَّى في الفم من الطّعام، قال يصِفُ الدنيا:

لُماظةُ أيامٍ كأحلام نائم

ولَمَظ الرجل يَلمُظ بالضمّ لَمْظاً، إذا تتبّع بلسانِه بقيّة الطعام في فمه وأخرَج لسانه فمَسح به شفَتيه، وكذلك التَّلمُّظ، يقال: تلمّظت الحيّة إذا أخرجتْ لِسانَها كما يتلمّظ الآكل.

وقال: «ألا حُرٌّ»، مبتدأ، وخبرُه مَحذوف أي في الوجود. وألا حرفٌ، قال:

(١) المِرْط: كساء من صوف أو خزّ أو كتّان. اللسان، مادة (مرط).
(٢) هصرتُ: جذبتُ. اللسان، مادة (هصر). فَوْدَا الرأس: جانباه. اللسان، مادة (فود).

ألا رجـــلٌ جَـــزاه الله خَـــيـــراً   يَـدُلّ عـلـى مُـحَـصّـلـةٍ تـبـيـتُ

ثم قال: إنه ليس لأنفسِكم ثمنٌ إلّا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها، من الناس من يبيعُ نفسه بالدراهم والدّنانير، ومن النّاس من يبيع نفسه بأحقر الأشياء وأهونها، ويتبع هواهُ فيَهلك، وهؤلاء في الحقيقة أحمقُ الناس، إلا أنه قَدْ رِين على القُلوب، فغطّتها الذنوب، وأظلمت الأنفس بالجهْل وسوء العادة، وطال الأمد أيضاً على القلوب فَقَسَتْ، ولو أفكر الإنسانُ حَقّ الفِكْر لما باع نفسه إلّا بالجنّة لا غير.

– ٤٦٦ –

الأصل: وقال عليه السلام: مَنْهُومان لا يَشْبَعانِ: طالِبُ عِلْمٍ وطالِبُ دُنْيا.

الشرح: تقول: نَهِم فلانٌ بكذاً فهو مَنْهوم، أي مُولع به، وهذِه الكلمة مَرْوِيّة عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «مَنْهومان لا يَشبَعان: منهومٌ بالمالِ، ومنهومٌ بالْعلم»[1]. والنَّهَم بالفَتْح: إفراطُ الشَّهْوة في الطّعام، تقول منه: نَهِمْتُ إلى الطّعام بكسرِ الهاء أنْهَمُ فأنَا نَهِم، وكان في القرآن آيةٌ أنزلت ثمّ رفِعَت: «لو كان لا بن آدَم واديَانِ من ذَهبٍ لابتغَى لهما ثالثاً، ولا يَملأُ عينَ ابنِ آدم إلّا التراب، ويتوبُ الله عَلَى مَنْ تاب»[2]. فأمّا طالبُ العلْم العاشِقُ له، فإنّه لا يَشبَع منه أبداً، وكلّما استكثَر مِنه زادَ عِشْقَهُ له، وتَهالُكه عليه. مات أبو عثمانَ الجاحظُ والكتابُ على صَدْره.

وكان شيخُنا أبو عليّ رحمه الله في النَّزعِ وهو يُملِي على ابنِه أبي هاشم مسائلَ في عِلْم الكلام. وكان القاضي أحمدُ بنُ أبي دُواد يأخذُ الكتابَ في خُفِّه وهو راكب، فإذا جلَسَ في دارِ الخليفة اشتغَل بالنّظر فيه إلى أن يَجلِس الخليفة، ويَدْخُل إليه. وقيل: ما فارقَ ابنُ أبي دُواد الكتابَ قَط إلّا في الخَلاء. وأعرف أنا في زَماننا مَن مَكَث نحو خمسِ سنينَ لا يَنامُ إلّا وقتَ السّحَر صَيْفاً وشتاءً مُكِبًا على كتابٍ صنّفه، وكانت وسادتُه الّتي يَنامُ عليها الكتاب.

(١) أخرجه الدارمي، كتاب: المقدمة، باب: في فضل العلم والعالم (٣٣١).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٦)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٨).

- ٤٦٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : علامةُ الإيمان أنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ، عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ، وألاّ يَكُونَ في حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عِلْمِكَ، وأنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ في حَدِيثِ غَيْرِكَ.

الشرح: قد أخَذ المعنَى الأوّل القائلُ:

عـلـيـكَ بـالـصِّـدْق ولَـو أنّـه أحْـرَقَـك الـصِّـدْقُ بـنـارِ الـوَعِـيـدْ

ويَنبغِي أن يكونَ هذا الحُكم مقيّداً لا مطلقاً، لأنه إذا أضرّ الصِّدْق ضَرَراً عظيماً يؤدِّي إلى تَلَف النَّفْس أوْ إلى قَطع بعضِ الأعضاء لم يَجُزْ فَعلُه صَريحاً، ووجَبتْ المعَاريضُ حينئذٍ.

فإن قلتَ: فالمعَارِيض صِدْق أيضاً، فالكَلامُ على إطلاقه! قلتُ: هي صِدْق في ذاتها، ولكنّ مُستعمِلَها لم يَصدُق فيما سُئِل عنه، ولا كَذَب أيضاً، لأنه لم يُخبِر عنه، وإنّما أخبرَ عَنْ شيء آخَرَ وهي المَعَارِيض، والتّارك للخَبَر لا يكون صادقاً ولا كاذباً، فوَجَب أن يقيِّد إطلاقُ الخَبَر بما إذا كان الضَّرَر غيرَ عظيم، وكانت نتيجةُ الصِّدق أعظَم نفْعاً من تلك المَضَرّة.

قال عليه السلام : «وأن يكونَ في حديثِك فَضْل عن عِلمك»، متَى زاد مَنطِق الرجل على عِلْمِه فقد لغَا وظَهَر نقصُه، والفاضلُ من كان عِلمُه أكثرَ من مَنطِقه. قوله: «وأن تَتقي الله في حديثِ غيرك»، أي في نَقْلِه وروايتِه فَتَرْوِيه كما سَمِعْتَه من غير تحريف.

- ٤٦٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : يَغْلِبُ المِقْدَارُ على التَّقْدِير، حَتَّى تكونَ الآفَةُ في التَّدْبير.

قال: وقد مضى هذَا المَعْنَى فيما تقَدم بروَايةٍ تُخالف بعض هذه الألْفاظ.

الشرح: قد تقدَّم هذا المعنى، وهو كثيرٌ جداً، ومن جيّده قول الشاعر:

لـعَـمْـرُك مـا لامَ ابنُ أخـطـبَ نَـفْـسَـه ولـكـنـه مـن يَـخْـذُل الـلّـهُ يُـخـذَلِ

لـجاهـدَ حتى تَبلُغَ الـنفس عُـذْرَها وقَـلْـقَـل يـبـقـى الـعِـزّ كـلّ مُـقَـلْـقَـلِ

وقال أبو تمام:

ورَكْـبٍ كـأطـراف الأسِـنّـة عَـرَّسُـوا على مِثلها واللّيل تَـسْـطو غَـياهِـبُهْ

لأمرٍ عليهمْ أن تَتِمَّ صُدورُه ... وليس عليهمْ أن تتمَّ عواقِبُهْ

وقال آخر:

فإنْ بَين حيطاناً عليه فإنّما ... أولئك عُقالاتُه لا مَعاقلهْ

- ٤٦٩ -

الأصل: وقال عليه السلام: الحِلْمُ والأناةُ تَوْءمَانِ، يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الهِمَّة.

الشرح: قد تقدّم هذا المعنى وشرحه مراراً.

وقال ابن هانيء:

وكلّ أناة في المواطِن سؤدُدٌ ... ولا كأناةٍ من تدبُّر مُحكَمِ

ومَن يتبيَّن أن للسَّيفِ مَوضِعاً ... مِنَ الصَّفحِ يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمِ

وقال أربابُ المعاني: علّمنا الله تعالى فضيلةَ الأناة بما حكاه عن سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(١).

وكان يقال: الأناة حِصْن السلامة، والعَجلة مفتاحُ الندامة.

وكان يقال: التأنّي مع الخَيْبة، خيرٌ من التهوُّر مع النّجاح.

وقال الشاعر:

الرِّفقُ يُمْنٌ والأناةُ سَعادةٌ ... فتأنَّ في أمْرٍ تُلاقِ نَجاحَا

وقال مَن كره الأناةَ وذمّها: لو كانت الأناة محمودةً والعَجلة مذمومةً، لمَا قال موسى لربّه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾(٢).

وأنشدوا:

عَيبُ الأناةِ وإنْ سَرَّتْ عَواقِبُها ... أن لا خُلودَ وأن ليسَ الفَتى حَجَرا

وقال آخر:

كم من مضيّعِ فرصةٍ قد أمكَنَتْ ... لغدٍ وليسَ له غدٌ بمُواتِي

حتى إذا فاتتْ وفات طِلابُها ... ذهبتْ عليها نفسُه حَسَراتِ

(١) سورة النمل، الآية: ٢٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٨٤.

- ٤٧٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: الغِيبةُ جُهْدُ العاجزِ.

الشرح: قد تقدّم كلامُنا في الغِيبة مُستقصًى.

وقيل للأحنف: مَنْ أشرَف الناس؟ قال: مَن إذَا حَضَر هابُوه، وإذا غاب اغتابوه.

وقال الشاعر:

ويَغتابُني مَن لو كَفاني اغتيابَهُ ... لكنتُ له العينَ البصيرةَ والأذُنَا

وعندي من الأشياءِ ما لَو ذكرتُها إذا قَرَعَ ... المُغتاب من نَدَمٍ سِنّا

وقد نظمتُ أنا كلمةَ الأحنف فقلتُ:

أكُلُ عِرْضي إنْ غِبتُ ذَمًّا فإن أبـ ... ـتُ فمدحٌ ورَغبةٌ وسُجودُ

هكذا يَفعَل الجَبانُ: شُجاعٌ ... حين يَخلو، وفي الوَغى رِعْدِيدُ

لك مِنّي حالانِ: في عَيْنِك الجَنّـ ... ـةُ حُسْناً وفي الفؤادِ وَقودُ

- ٤٧١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: رُبَّ مَفْتُونٍ بحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ.

الشرح: طالمَا فُتِن الناسُ بثَناءِ النّاس عليهم، فيقصّر العالم في اكتساب العلم اتّكالاً على ثَناءِ النّاس عليه، ويقصّر العابدُ في العِبادة اتّكالاً على ثَناءِ الناسِ عليه، ويقول كلّ واحد منهما: إنّما أردتُ ما اشتَهَرْتُ به للصّيت، وقد حَصَل، فلِمَاذا أتكلّف الزّيادة، وأعاني التّعب! وأيضاً فإنّ ثَناء النّاس على الإنسان يَقتضي اعتراء العُجْب له، وإعجاب المرءِ بنَفْسه مُهلِك.

واعلمْ أنّ الرّضيّ رحمه الله قَطَع كتابَ نَهج البلاغة على هذا الفَصْل، وهكذا وجدتُ النُّسخة بخَطّه وقال: «هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قَطْع المُنتزَع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: حامِدِين لله سبحانَه على ما مَنَّ به من توفيقِنا لِضمّ ما انتشَرَ من أطرافه وتقريب ما بَعُد من أقطاره، مقرِّرِين العزمَ كما شرطْنا أوّلاً على تفضيل أوراقٍ من البياض في آخِر كلّ باب من

الأبواب، لتكون لاقتناص الشارِد، واستِلْحاقِ الوارد، وما عَساه أن يَظْهَرَ لنا بعد الغُموض، ويقع إلينا بعد الشّذوذ، وما توفيقُنا إلا بالله، عليه توكّلنا، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل، نعمَ المولَى ونعمَ النّصير».

ثم وجَدْنا نسخاً كثيرةً فيها زيادات بعد هذا الكلام، قيل: إنها وُجِدَتْ في نسخةٍ كتبتْ في حَياةِ الرَّضيّ رحمه الله وقُرئَت عليه فأمضاها، وأذِن في إلحاقها بالكِتاب ونحن نذكرها.

— ٤٧٢ —

الأصل: وقالَ عليه السلام: الدُّنْيا خُلِقَتْ لِغَيْرِها، ولَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِها.

الشرح: قال أبو العلاء المَعَرّيّ مع ما كان يُرمَى به في هذا المعنى ما يُطابِق إرادةَ أمير المؤمنين عليه السلام بِلَفْظه هذا:

خُلِقَ النـاسُ لـلـبَـقـاءِ فـضَـلَّـتْ ... أمّـةٌ يـحـسَـبـونَـهـمْ لـلـنَّـفـادِ
إنّـمـا يُـنـقَـلـون مـن دارِ أعـمـا ... لِ إلـى دارِ شِـقْـوةٍ أو رَشـادِ

— ٤٧٣ —

الأصل: وقالَ عليه السلام: إنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ، وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيما بَيْنَهُمْ ثُمَّ لو كَادَتْهُمُ الضِّباعُ لَغَلَبَتْهُمْ.

قَالَ الرضيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَهَذَا مِنْ أَفْصَحِ الكلامِ وَأَغْرَبِهِ، وَالمِرْوَدُ ها هنا مِفْعَلٌ مِنَ الإِرْوَادِ، وَهُوَ الإمهالُ وَالإِنْظَارُ، فَكَأَنَّهُ عليه السلام شَبَّهَ المُهْلَةَ الَّتي هم فيها بالمِضْمارِ الَّذي يجْرُون فيه إلى الغاية، فإذا بلغوا مُنْقَطَعَها انْتَقَضَ نِظامُهُمْ بعدَها.

الشرح: هذا إخبارٌ عن غَيْب صريح، لأن بني أميّة لم يزل مُلكُهم منتظماً لمّا لم يكن بينهم اختلاف، وإنّما كانت حروبُهم مع غيرهم كحَرْب معاوية في صِفّين، وحرب يزيدَ أهلَ المدينة، وابن الزبير بمكة، وحرب مروانَ الضحّاك، وحَرْب عبد الملك بنَ الأشعث وابنَ الزبير، وحرب يزيد ابنه بني المهلّب، وحرب هشام زيدَ بن عليّ، فلمّا ولي الوليد بن يزيد وخرج عليه ابنُ

عمّه يزيد بن الوليد وقتَلَه، اختلفتْ بنو أميّة فيما بينهما، وجاء الوعدُ - وصَدَق من وعد به - فإنّه منذ قتل الوليد دَعَت دعاة بني العبّاس بخُراسان، وأقْبَل مروانُ بنُ محمّد من الجزيرة يَطلُب الخلافة، فخلع إبراهيم بن الوليد، وقَتَل قوماً من بني أميّة، واضطرَب أمرُ الملك وانتَشَر، وأقبلت الدولةُ الهاشميّة ونَمَتْ، وزال مُلك بني أميّة، وكان زَوال مُلكهم على يد أبي مُسلِم، وكان في بدايته أضعفَ خَلْق الله وأعظَمهم فَقْراً ومَسكَنة، وفي ذلك، تَصديقُ قوله عليه السلام: «ثمّ لو كادَتهمْ الضِّباع لَغَلَبَتهم».

- ٤٧٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام في مدْحِ الأنصارِ: هُمْ وَاللّهِ ربَّوا الإسْلامَ كَمَا يُرَبَّى الْفَلُوُّ مَعَ غَنَائِهِمْ بأَيْدِيهِمُ السِّبَاطِ، وأَلْسِنَتِهِمُ السِّلاطِ.

الشرح: الفَلُوّ: المُهْر.

ويُروَى: «بأيديهم البِساط»، أي الباسِطة، والأولى جَمْع سَبْط يَعني السّماح، وقد يقال للحاذق بالطّعن: إنّه لسَبْط اليَدَين، يريدُ الثّقافة. وألسنتهم السّلاط، يعني الفَصيحة.

وقد تقدّم القولُ في مَدْح الأنصار، ولو لم يكن إلا قولُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيهم: «إنّكم لتَكثُرون عند الفَزَع، وتَقِلّون عند الطّمَع»[1]، ولو لم يكنْ إلّا ما قاله لعامر بنِ الطُّفَيل فيهم لمّا قال له: «لأغزُوَنّك في كذا وكذا من الخَيْل»[2] يتوعّده، فقال عليه السلام: «يكفي الله ذلك وأبناء قَيْلة»، لكان فخراً لهم وهذا عظيمٌ جدًّا وفوق العَظِيم، ولا ريبَ أنّهم الّذين أيّد الله بهم الدّين، وأظهَرَ بهم الإسلام بعد خَفائِه، ولولاهم لعَجَز المهاجرون عن حَرْب قريش والعرب، وعن حِمايةِ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله، ولولا مَدينتهم لم يكن للإسلام ظَهْر يَلْجَؤون عليه، ويكْفِيهم فَخْراً يومُ حَمْراء الأسد، يوم خرجَ بهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى قريش بعد انكسار أصحابِه، وقتلِ مَن قُتل منهم، وخرجوا نحوَ القوم والجراحُ فيهم فاشية، ودماؤهم تَسيل، وإنّهم مع ذلك كالأُسْد الغِراث تَتواثَب على فَرائِسها، وكم لهم من يوم أغرّ محجَّل! وقالت الأنصار: لولا عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام في المهاجِرين لأبَيْنا لأنفُسنا أن يُذكَر المهاجرون مَعَنا، أو أن يُقرَنوا بنا، ولكنْ رُبَّ واحدٍ كألف، بل كألُوف.

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٢٠٥).

(٢) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٨٧).

وقد تقدَّم ذكرُ الشِّعر المَنسوب إلى الوزير المغربيّ وما طعن به القادر بالله الخليفة العبّاسيّ في دِينه بطريقه، وكان الوزيرُ المغربيّ يتبرّأ منه ويَجحَده، وقيل: إنه وُجدت مسوّدَة بخطّه فرفعتْ إلى القادر بالله.

وممّا وُجِد بخطّه أيضاً - وكان شديدَ العَصَبيّة للأنصار ولقَحْطانَ قاطِبةً، على عَدنانَ، وكان يتَمِي إلى الأزد، أزْد شَنُوءة - قوله:

إنّ الّـذي أرسَـى دعـائـمَ أحـمَـدٍ ... وعَـلا بـدَعْـوَتِـه عـلـى كِـيـوَانِ

أبـنـاء قَـيْـلَـة وارثـو شَـرَف الـعُـلا ... وعَـراعِـر الأقـيـالِ مِـن قَـحْـطـانِ[1]

بـسُـيـوفـهـم يـومَ الـوَغَـى وأكـفِّـهـمْ ... ضَـرَبَـتْ مَـصـاعـب مُـلْـكِـه بـجِـرانِ

لـولا مَـصـارِعُـهـم وصِـدْقُ قِـراعِـهـم ... خَـرّت عُـروشُ الـدِّيـن لـلأذْقـانِ

فـلـيـشـكـرَنّ مـحـمّـدٌ أسـيـافَ مَـن ... لـولاه كـانَ كـخـالِـدِ بـنِ سِـنـانِ

وهذا إفراطٌ قَبيح، ولفظٌ شنيع، والواجب أن يصانَ قدرُ النّبوّة عنه، وخصوصاً البَيْت الأخير، فإنّه قد أساء فيه الأدَب، وقال ما لا يجوز قولُه، وخالدُ بنُ سِنان كان من بَني عَبْس بن بَغِيض: من قَيْس عَيْلان، ادّعى النبوّة، وقيل: إنّه كانت تَظهَر عليه آياتٌ ومُعجِزات، ثمّ مات وانقَرَض دِينُه ودثرتْ دَعْوَته، ولم يَبقَ إلّا اسمُه، وليس يَعرفه كلّ الناس، بل البعض منهم.

- ٤٧٥ -

الأصل: وقال عليه السلام: العَيْنُ وِكاءُ السّته.

قالَ الرَّضيُّ رَحمهُ الله تعالى: وهذِهِ مِنَ الاسْتِعارَاتِ العَجِيبَةِ، كأنَّهُ شَبَّهَ السَّتَهَ بالْوِعاءِ، والْعَيْنَ بالوِكاءِ، فَإذَا أُطْلِقَ الوِكَاءُ لَمْ يَنْضَبِطِ الوِعاءُ. وهذَا الْقَوْلُ في الأشْهرِ الأظْهَرِ مِنْ كلامِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، وقَدْ رَواهُ قَوْمٌ لأمِيرِ الْمُؤمِنِين عَلَيْهِ السلامُ، وذَكَرَ ذَلِكَ الْمُبَرِّدُ في الكتابِ الْمُقْتَضَبِ في باب اللَّفظِ المعرُوفِ.

قال الرَّضيّ: وقَدْ تَكَلَّمْنا على هَذِهِ الاسْتعارَةِ في كِتابِنا الْمَوْسُومِ بِمَجازات الآثارِ النبوِيّةِ.

(١) العَراعر: السادات والأشراف. اللسان، مادة (عرر).

الشرح: المعروف أنّ هذا من كلام رسول الله ﷺ، ذكَرَه المحدّثون في كُتبِهم وأصحابُ غَرِيب الحديث في تصانيفهم، وأهلُ الأدب في تفسير هذه اللّفظة في مجموعاتهم اللّغوية، ولعل المبرّد اشتبَه عليه فنَسَبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، والرواية بلَفْظ التثنية: «العَيْنان وِكاءُ السَّتَهِ»(١)، والسَّتَهُ: الأسْتُ.

وقد جاء في تمامِ الخَبَر في بعض الرّوايات: «فإذا نامت العَيْنان استطلَق الوِكاء». والوكاء: رِباطُ القِرْبة، فجعل العَيْنين وِكاء - والمُرَادُ اليَقَظة - للسَّته كالوِكاء للقِرْبة، ومنه الحديث في اللُّقَطة: «احفَظ عِفاصَها ووِكاءَها، وعرّفها سنةً، فإن جاء صاحِبُها وإلا فشأنَك بها»، والعِفاص: السِّداد، والوكاء: السّداد، وهذه من الكِنايات اللطيفة.

بعض ما ورد في الكنايات وبعض الشواهد عليها

وقد كنّا قدمنا قطعةً صالحةً من الكنايات المستحسَنة، ووعَدْنا أن نعاوِدَ ذكر طرف منها، وهذا الموضعُ موضعه، فمن الكناية عن الحدث الخارج - وهو الذي كَنَى عنه أميرُ المؤمنين عليه السلام، أو رسول الله ﷺ الكناية التي ذكرها يحيى بن زياد في شعره، قيل: إنّ يحيى بن زياد ومطيعَ بن إياس وحمّاداً الرّاوية جلسوا على شِرْبٍ لهم، ومعهم رجلٌ منهم، فانحلّ وكاؤه، فاستحيا وخَرَج، ولم يَعُدْ إليهم، فكَتَب إليه يحيى بنُ زياد.

أمِنْ قَلوصٍ غَدَتْ لم يُؤذِهَا أحَدٌ ... إلاّ تَذَكُّرُها بالرَّمْلِ أوْطانَا

خانَ العِقالُ لها فانبَتَّ إذْ نفَرَتْ ... وإنما الذنبُ فيها للّذي خانا

مَنحتَنا مِنْك هِجراناً ومَقْلِيَةً ... ولم تَزُرْنا كما قَدْ كنت تَغْشانا

خفّضْ عليك فما في الناس ذُو إبل ... إلاّ وأيْنقه يَشرُدن أحيَانا

وليس هذا الكتابُ أهلاً أن يضمّن حكاية سخيفةً أو نادرة خليعة، فنذكر فيه ما جاء في هذا المعنى، وإنما جرّأنا على ذكر هذه الحكاية خاصّة كنايةُ أمير المؤمنين عليه السلام أو رسولِ الله ﷺ عنها، ولكنا نذكر كنايات كثيرة في غير هذا المعنى مستحسَنة، ينتفِع القارىءُ بالوُقوف عليها.

يقال: فلانٌ من قوم موسى، إذا كان مَلولاً، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾(٢).

---

(١) أخرجه الدارمي، كتاب: الطهارة، باب: الوضوء من النوم (٧٢٢)، وأحمد في «مسنده» (١٦٤٣٧)، بلفظ «وكاء السه»، وبلفظ: «السنة» أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (١/ ١٣٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦١.

قال الشاعر:

فيا مَنْ ليس يَكفِيه صَديقٌ ... ولا ألفا صَديقٍ كلَّ عامِ

أظنّك مِنْ بقايا قوم مُوسى ... فهمْ لا يَصبرون على طعامِ

وقال العبّاس بنُ الأحنف:

كتبتْ تَلومُ وتستريثُ زِيارتي ... وتقولُ: لست لنا كعَهْدِ العَاهِدِ

فأجبتُها ودُموعُ عَيْنَي سُجَّمٌ ... تَجرِي على الخدَّين غير جَوامِدِ

يا فَوزُ لم أهْجُرْكُمُ لمِلالَةٍ ... عرَضَتْ ولا لمقالِ واشٍ حاسدِ

لكنّني جَرّبتُكم فوجَدْتكمْ ... لا تَصبِرونَ على طعامٍ واحدِ

ويقولون للجارية الحَسْناء: قد أبقَتْ من رِضوان، قال الشاعر:

جَسّت العُودَ بالبَنانِ الحِسانِ ... وتثنّت كأنّها غُصْنُ بانِ

فسَجَدْنا لها جميعاً وقلنا ... إذ شجَتْنا بالحسن والإحْسانِ

حاشَ للّهِ أن تكوني من الإنـ ... ـسِ ولكنْ أبَقْتِ مِنْ رِضوان

ويقولون للمكْشوف الأمر الواضح الحال: ابن جَلا، وهو كنايةٌ عن الصُبْح ومنه ما تمثل به الحجّاج:

أنا ابنُ جَلا وطَلاّع الثّنايا ... مَتَى أضَع العِمامةَ تَعرفوني

ومنه قول القلاخ بن حَزْن:

أنا القُلاخُ بنُ القُلاخ ابن جَلا

ومنه قولُهم: فلان قائدُ الجَمَل لأنّه لا يَخفَى لعظم الجَمَل وكِبَر جثّته، وفي المَثَل: ما استَتَر مَن قاد جَمَلاً. وقالوا: كَفَى برُغائها نِداءً، ومِثْلُ هذا قولُهم: ما يومُ حَليمة بسِرّ يقال: ذلك في الأمر المَشْهور الذي لا يُسْتَر، ويومُ حَليمة يوم التقَى المنذرُ الأكبرُ والحارثُ الغَسّانيّ الأكبر، وهو أشهر أيّام العَرَب، يقال: إنه ارتَفَع من العَجَاج ما ظَهرتْ معه الكواكبُ نهاراً، وحليمة: اسمُ امرأةٍ أضيفَ اليومُ إليها، لأنّها أخرَجَتْ إلى المعركة مَراكنَ الطِّيب، فكانتْ تُطيِّب بها الدّاخلين إلى القِتال، فقاتلوا حتّى تفانَوْا.

ويقولون في الكِنايَةِ عن الشّيخ الضعيف: قائدُ الحِمار، وإشارةً إلى ما أنشَدَه الأصمعيّ:

آتي النّدِيَّ فلا يُقرَّب مَجلِسي ... وأقودُ للشّرَفِ الرّفيعِ حِمارِي

أي أقُوده من الكِبَر إلى مَوْضع مرتفع لأركَبه لضَعْفي. ومثلُ ذلك كِنايتُهم عن الشّيخ الضعيف بالعَاجِن، لأنّه إذا قام عَجَن في الأرض بكفّيه، قال الشاعر:

فأصبحتَ كُنْتِيّاً وأصبَحْتَ عاجناً ... وشَرُّ خِصالِ المرءِ كنتُ وعاجنُ

قالوا: الكُنْتِيُّ الذي يقول كنتُ أفعَل كذا، وكنتُ أركَب الخيل، يتذكّر ما مضَى من زمانِه، ولا يكونُ ذلك إلّا عند الهَرَم أو الفَقْر والعَجْز.

ومِثله قولُهم للشيخ: راكع، قال لَبيد:

أخبِّر أخبارَ القُرونِ الّتي مَضَتْ ... أدبُّ كأنّي كلّما قمتُ راكِعُ

والرّكوع: هو التّطأطُؤ والانحناء بعد الاعتدال والاستواء، ويقال للإنسان إذا انتقَل من الثّروة إلى الفَقْر: قد رَكَع، قال:

لا تُهينَ الفقيرَ عَلَّكَ أنْ تَرْ ... كعَ يَوماً والدَّهرُ قد رَفَعَهْ

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ارفَعْ ضَعيفَكَ لا يَحِرْ بِكَ ضَعْفُه ... يوماً فتُدرِكه الحوادثُ قد نَمَا

يَجزِيك أو يُثْنِي عليكَ وإنّ مَنْ ... يُثني عليكَ بما فَعَلْتَ فقد جَزَى

ومِثله أيضاً:

وأكْرِمْ كريماً إنْ أتاكَ لحاجةٍ ... لعاقبةٍ إنّ العِضَاهَ تروّحُ

تروّح الشّجر: إذا انفَطَر بالنَّبت، يقول: إن كان فقيراً فقد يَستغني، كما أنّ الشّجر الّذي لا وَرَق عليه سيَكْتَسي وَرقاً، ويقال: رَكع الرجل، أي سَقَط.

وقال الشاعر:

خرقٌ إذا رَكَع المَطِيُّ من الوَجَى ... لم يطْوِ دونَ رفيقِه ذا المِزْوَدِ

حتّى يؤوب به قليلاً فضْلُه ... حَمِد الرّفيقُ نَداكَ أو لم يَحمَدِ

وكما يشبّهون الشيخ بالرّاكع فيكْنُون به عنه، كذلك يقولون: يَحْجِل في قَيْده لتقارُب خَطْوِه، قال أبو الطَّمَحان القَيْنيّ:

حَنَتْنِي حانياتُ الدَّهر حتّى ... كأنّي خاتِلٌ أدنُو لصَيْدِ

قريب الخَطْو يَحسَب مَن رآنِي ... - ولستُ مُقيَّداً - أنّي بقَيْدِ

ونحو هذا قولُهم للكبير: بَدَتْ له الأرنب، وذلك أنّ من يَختِل الأرنبَ ليَصِيدَها يَتمايَل في مِشيَته، وأنشَد ابن الأعرابيّ في النّوادر:

وطالتْ بيَ الأيّام حتّى كأنّني ... من الكِبَر العالِي بَدَت ليَ أرْنَبُ

ونحوه يقولون للكبير: قِيدَ بفلانٍ البَعير، أي لا قوّة ليدِه على أن يُصرِّف البعيرَ تَحتَه على حَسَب إرادته، فيَقودُه قائدٌ يَحمِله حيثُ يريد.

ومن أمثالهم: لقد كنتُ وما يقادُ بيَ البعير: يضرَب لمن كان ذا قُوّة وعَزْم، ثم عَجز وفَتَر.

ومن الكنايات عن شَيْب العَنْفَقَة قولُهم: قد عَضّ على صُوفِه.

ويَكْنُون عن المرأة التي كَبِر سنُها فيقولون: امرأةٌ قد جَمَعت الثِّياب، أي تَلبَس القِناعَ والخِمار والإزار، وليست كالفَتاة الّتي تَلبَس ثوباًواحداً.

ويقولون لمن يَخضِب: يسوِّد وجه النَّذِير، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[1]: إنه الشَّيب. وقال الشاعر:

وقـائـلـةٍ لـيَ اخـضِـبْ فـالـغَـوانِـي ... تَـطـيَّـرُ مِـنْ مُـلاحـظَـة الـقَـتِـيـرِ
فـقـلـت لـهـا الـمَـشـيـبُ نَـذيـرُ مَـوْتـى ... ولـسـتُ مـسـوِّداً وجـهَ الـنَّـذِيـرِ

وزاحمَ شابٌّ شيخاً في طريق فقال الشابّ: كم ثمن القَوس؟ يعيِّره بانحناء الظَّهر، فقال الشيخ: يابنَ أخي: إن طَال بكَ عُمْرٌ فسوفَ تَشْتَرِيها بلا ثمن.

وأنشد لابن خلَف:

تعيِّرني وخطَ المَشيبِ بعارِضِي ... ولولا الحجُولُ البُلْق لم تُعرَف الدُّهْمُ
حَنَى الشَّيبُ ظَهرِي فاستَمرّت مَريرتي ... ولولا انحناءُ القوسِ لم يَنفُذ السّهْمُ

ويقولون لمن رشا القاضي أو غيره: صَبَّ في قِندِيله زَيْتاً، وأنشد:

وعـنـد قُـضـاتـنـا خـبـثٌ ومَـكْـرٌ ... وزَرْعٌ حـيـن تَـسْـقِـيـه يُـسـنـبِـلْ
إذا مـا صُـبَّ فـي الـقِـنْـديـل زَيْـتٌ ... تـحـوّلـت الـقـضـيّـة لـلـمُـقَـنـدِلْ

وكان أبو صالح كاتبُ الرّشيدِ يُنسب إلى أخذ الرّشا، وكان كاتب أمّ جعفر. وهو سعدانُ بنُ يحيى كذلك، فقال لها الرّشيد يوماً: أما سمعتِ ما قيل في كاتِبك؟ قالت: ما هو؟ فأنشَدَها:

صَـبّ فـي قِـنـدِيـل سَـعْـدَا ... نَ مـع الـتـسْـلِـيـم زَيْـتـا
وقـنـاديـل بَـنـيـه ... قـبـل أن تـخـفَـى الـكُـمَـيْـتَـا

قالت: فما قيل في كاتِبك أشنَع، وأنشدَتْه:

قِـنـديـلُ سَـعْـدَانَ عـلا ضـوءَهُ ... فَـرْخٌ لـقِـنـديـلِ أبـي صـالِـح
تَـراهُ فـي مَـجـلِـسِـه أحـوَصـاً ... مِـنْ لـمـحِـه لـلـدِّرهـم الـلائـح

ويقولون: لمن طَلَّق ثلاثاً: قد نَحَرَها بمثلثه.

ويقولون أيضاً: أعطاها نِصف السُّنة.

ويقولون لمن يفْخَر بآبائه: هو عِظاميّ، ولمَن يَفخر بنفسِه هو عِصَاميّ، إشارةٌ إلى قول النّابغة في عِصامِ بن سَهْل حاجب النّعمان:

نـفـسُ عِـصـامٍ سَـوّدتْ عِـصـامَـا ... وعَـلّـمـتـه الـكَـرَّ والإقْـدامَـا
وجَـعَـلْـتـه مَـلِـكـاً هُـمـامَـا

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

وأشار بالعِظاميّ إلى فَخْره بالأموات من آبائِهِ ورَهْطه، وقال الشاعر:

إذا ما الحَيُّ عاشَ بِعَظْمِ ميْتٍ   فذاكَ العَظْم حيٌّ وهو مَيْتُ

ونحو هذا أنّ عبد الله بنَ زياد بنِ ظَبيان التَّميميّ دَخل على أبيه وهو يَجُود بنَفْسه فقال: ألا أوصي بك الأميرَ؟ فقال: إذا لم يكن للحَيّ إلّا وصيّة الميّت فالحيّ هو الميّت، ويقال: إن عطاءَ بن أبي سُفْيان قال ليزيدَ بن معاوية: أغنِني عن غَيْرِك، قال:

حَسْبُك ما أغنَاك به معاوية، قال: فهو إذَن الحيُّ وأنتَ الميّت، ومثلُ قولهم: عِظاميّ، قولهم: خارجيّ، أي يَفخَر بغيرِ أوليّة كانت له، قال: كثيّر لعبد العزيز:

أبا مَرْوانَ لستَ بخارجيٍّ   وليس قديمُ مَجْدك بانتحالِ

ويَكنُون عن العَزيز وعن الذَّليل أيضاً فيقولون: بَيْضة البَلَد، فمن يقولها للمَدْح يذهَب إلى أنّ البَيْضة هي الحَوْزة والحِمَى، يقولون: فلانٌ يَحمِي بَيْضَته، أي يَحمِي حَوْزَته وجماعَته، ومن يقولُها للذّم يعني أنّ الواحدةَ من بَيْض النّعام إذا فسدتْ تَركها أبواها في البَلد وذَهَبَا عنها، قال الشاعر في المدح:

لكنّ قائله من لا كِفاءَ له   من كان يُدعَى أبُوه بَيْضَة البَلَدِ

وقال الآخر في الذّمّ:

تَأبَى قُضاعةُ لم تَعْرِفْ لكمْ نَسَباً   وأبنا نِزارٍ فأنتمْ بَيْضةُ البَلَدِ

ويقولون للشيء الّذي يكون في الدهر مرّة واحدة: هو بَيْضة الدِّيك، قال بشّار:

يا أطيبَ الناس ريقاً غير مختَبرٍ   إلاّ شهادة أطرافِ المَساويكِ

قد زُرْتِنا زَوْرَة في الدّهر واحدةً   ثَنّي ولا تَجعَلِيها بَيْضَةَ الدِّيكِ

ويَكنُون عن الثَّقيل بالقَذَى في الشّراب، قال الأخطَل يَذكُر الخَمرَ والاجتماع عليها:

وليسَ قَذاها بالّذي قد يَضيرُها   ولا بذُبابٍ نَزْعُه أيسَر الأمْرِ

ولكنْ قَذاهَا كلّ جِلْف مكلّفٍ   أتتْنا به الأيّامُ من حيثُ لا نَدرِي

فَذاك القَذَى وابنُ القَذَى وأخو القَذَى   فإنّ له من زائرٍ آخر الدّهرِ

ويَكنُون أيضاً عنه بقدح اللُّبْلاب، قال الشاعر:

يا ثَقيلاً زادَ في الثّقْـ   ـل على كلّ ثَقيلِ

أنتَ عندِي قَدَح اللُّبـ   ـلابِ في كَفّ العَليلِ

ويَكنُون عنه أيضاً بالقَدَح الأوّل، لأنّ القَدَح الأوّل من الخَمْر تكرَهه الطّبيعة وما بعدَه فدُونه لاعتياده، قال الشاعر:

وأثقَل من حضين بادِياً   وأبغَض من قَدَح أوّلِ

ويَكنُون عنه بالكانُون، قال الحُطَيئة يهجو أمّه:

تَـنَـحَّـيْ فـاقـعُـدِي عَـنّـي بـعـيـداً أراحَ الـلّـهُ مِـنـكِ الـعـالَـمِـيـنَـا

أغِـرْبـالاً إذا اسْـتُـودِعْـتِ سِـرًّا وكـانـونـاً عـلـى الـمـتـحـدِّثـيـنـا!

قالوا: وأصلُه مِنْ كَنَنْت أي سَتَرْت، فكأنّه إذا دَخَل على قوم وهم في حديثٍ سَتَروه عنه، وقيل: بل المُراد شِدّة بَرْده.

ويَكنُون عن الثَّقيل أيضاً برحَا البِزْر، قال الشاعر:

وأثـقَـل مـن رَحـا بَـزْرٍ عَـلـيْـنـا كـأنّـكَ مِـن بـقـايـا قـومِ عـادِ

ويقولون لمن يَحمَدون جِوارَه: جارُه جارُ أبي دُوَادٍ، وهو كَعب بنُ مامةَ الإياديّ، كان إذا جاوَرَه رجلٌ فمات وَدَاه، وإن هَلَك عليه شاة أو بعيرٌ أخلَف عليه، فجاوَرَه أبو دواد الإياديّ، فأحسن إليه، فضُرِب به المَثَل.

ومثلُه قولُهم: هو جليسُ قَعْقاعِ بنِ شَوْر، وكان قد قَدِم إلى معاويةَ فدَخَل عليه، والمجلس غاصٌّ بأهلِه ليس فيه مَقعَد، فقام له رجل من القوم وأجلَسَه مكانه، فلم يَبرَح القعقاعُ من ذلك الموضع يكلّم معاويةَ ومعاويةُ يُخاطِبه حتى أمَر له بمائة ألفِ دِرْهم، فأحضِرَت إليه، فجُعلتْ إلى جانبه، فلمّا قام قال للرجل القائمِ له مِن مكانه: ضُمَّها إليك، فهي لكَ بقيامِك لنا عن مجلِسك، فقيل فيه:

وكـنـتُ جـلـيـسَ قَـعْـقـاعِ بـن شَـوْرٍ ولا يَـشـقَـى بـقـعـقـاعٍ جَـلـيـسُ

ضَـحـوكُ الـسِّـنّ إنْ نَـطَـقـوا بـخَـيْـرٍ وعـنـد الـشّـرّ مِـطْـرَاقٌ عَـبُـوسُ

أخَذ قَوله: «ولا يَشقَى بقَعْقاعٍ جليسُ» من قول النبي ﷺ: «هم القومُ لا يَشقَى بهم جَليسُهم»[1].

ويَكنُون عن السَّمين من الرّجال بقولهم: هو جار الأمير وضيفُ الأمير، وأصلُه أنّ الغَضْبان بنَ القبعثَرى كان محبوساً في سِجْن الحجّاج، فدعا به يوماً فكلّمه، فقال له في جملة خطابه: إنّك لسَمين يا غَضْبان، فقال: القيد والرّتعة، والخَفْض والدَّعَة، ومَن يكنْ ضيفَ الأمير يَسمَن.

ويَكني الفلاسفةُ عن السَّمين بأنه يُعَرّض سور حَبسه، وذلك أنّ أفلاطُونَ رأى رجلاً سميناً، فقال: يا هذا، ما أكثرَ عِنايَتَك بتَعريض سور حَبْسِك!

ونظر أعرابيٌّ إلى رجل جيّد الكِدْنة[2]، فقال: أرَى عليك قَطيفةً مُحكَمَةً. قال: نعم، ذاكَ عنوانُ نعمة الله عِندي.

(١) مسند أحمد: ٢/ ٢٥٢.

(٢) جيد الكدنة: سميناً غليظاً. اللسان، مادة (كدن).

ويقولون للكذّاب: هو قموصُ الحَنْجَرة، وأيضاً هو زَلُوق الكَبِد، وأيضاً لا يُوثق بسَيْل بلقِعِه. وأيضاً أسيرُ الهِنْد لأنه يدّعي أنه ابنُ المَلِك، وإن كان من أولادِ السِّفْلَة.

ويُكنى عنه أيضاً بالشيخ الغريب، لأنّه يُحِبّ أن يتزوّج في الغُرْبة فيَدَّعي أنه ابنُ خمسين سنةً، وهو ابنُ خمسٍ وسَبْعين.

ويقولون: هو فاختةُ البَلَد، من قول الشاعر:

أكـذبُ مـن فـاخـتـةٍ ... تـصـيـحُ فـوقَ الـكَـرَبِ
والـطَّـلْـعُ لـم يَـبْـدُ لـهـا: ... هـذا أوانُ الـرُّطـبِ

وقال آخر في المعنى:

حـديـثُ أبـي حـازِمٍ كـلّـه ... كـقَـوْل الـفَـواخِـت: جـاءَ الـرُّطَـبْ
وهُـنّ وإن كـنّ يُـشْـبِـهْـنَـه ... فـلـسْـنَ يُـدانِـيـنَـه فـي الـكَـذِبْ

ويَكنون عن النّمام بالزّجاج، لأنه يشِفّ على ما تحتَه، قال الشاعر:

أنـمُّ بـمـا اسـتـودعـتُـه مـن زُجاجـةٍ ... يُرَى الـشـيءُ فيها ظاهراً وهو باطِنُ

ويَكنُون عنه بالنَّسيم، مِن قولِ الآخر:

وإنّـك كـلّـمـا اسـتُـودِعْـتَ سِـرًّا ... أنـمُّ مـن الـنَّـسـيم عـلـى الـرِّيـاضِ

ويقولون: إنه لصُبْح، وإنه لطِيب، كله في النّمام. ويقولون: ما زال يفتِل له في الذِّرْوة والغارِب حتى أسمَحتْ قَرُونته، وهي النفسُ، والذِّرْوة: أعلى السَّنام، والغارب: مقدمه.

ويقولون في الكِناية عن الجاهل: ما يَدرِي أيَّ طَرَفيه أطوَل، قالوا: ذكَرَهُ ولِسانُه.

وقالوا: هل نَسَبُ أبيه أفضلُ أمْ نَسبُ أمّه؟

ومِثلُه: لا يَعرِف قطانه من لطانه، أي لا يعرف جَبْهته مما بين وَرِكَيه.

وقالوا: الحِدّة كُنْية الجَهْل، والاقتصاد كنية البُخْل، والاستقصاء كُنْية الظُّلْم.

وقالوا للجائع: عَضَّه الصَّفَر، وعضَّه شُجاع البَطْن.

وقال الهُذَليّ:

أَرُدُّ شُـجـاعَ الـبَـطْـن قـد تـعـلـمِـيـنَـه ... وأُوثِـر غَـرْثَـي مِـن عِـيـالِـكِ بـالـطُّـعْـمِ
مَـخـافـةَ أن أحْـيـا بِـرَغْـم وذِلّـةٍ ... ولـلـمَـوْتُ خيرٌ من حَياةٍ عـلـى رَغْـمِ

ويقولون: زوّدَه زادَ الضَّبّ، أي لَم يزوِّدْه شيئاً، لأنّ الضّبّ لا يشرَب الماء، وإنما يتغذّى بالرّيح والنَّسيم، ويَأكُل القليل من عُشْب الأرض.

وقال ابن المعتزّ:

يقول أكلنا لحمَ جَذيٍ وبطّة ... وعَشْرَ دجاجاتٍ شِواء بألبانِ
وقد كَذَبَ المَلعونُ ما كان زادُه ... سِوَى زاد ضبٌّ يَبلع الرِّيحَ عَطْشان

وقال أبو الطَّيّب:

لقد لَعِبَ البَيْنُ المُشِتُّ بها وَبي ... وزوَّدني في السَّيْر ما زَوّد الضَّبّا

ويقولون للمختلِفين من الناس: هم كنَعَم الصّدَقة، وهم كبَعْر الكَبْش، قال عمرو بن لجأ:

وشِعْر كبَعْر الكَبْش ألّفَ بَيْنَه ... لسانٌ دَعِيٌّ في القَرِيض دَخِيلُ

وذلك لأنّ بعرَ الكبش يقعُ متفرّقاً.

وقال بعضُ الشعراء لشاعر آخر: أنا أشعر منك لأني أقولُ البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمّه. فأما قولُ جرير في ذي الرمّة: إنّ شعره بعرِظِباء ونقط عَروس، فقد فسره الأصمعيّ فقال: يريد أنّ شعره حُلْوٌ أول ما تَسمَعه، فإذا كُرِّر إنشادُه ضَعُف، لأنّ أبعَار الظّباء أول ما تشمّ توجد لها رائحةُ ما أكلتْ من الجَثْجاث والشِّيح. والقَيْصوم، فإذا أدَمْتَ شمّها عُدِمَتْ تلك الرائحة، ونقط العَروس إذا غَسلتها ذهبتْ.

ويقولون أيضاً للمختلفين: أخياف، والخَيَف: سَوادُ إحدى العَيْنين وزرق الأخرى.

ويقولون فيهم أيضاً: أولادُ عَلاّت كالإخْوَة لأمّهاتٍ شَتّى، والعَلّة: الضَّرّة.

ويقولون فيهم: خبزُ كُتّاب، لأنه يكون مختلفاً، قال شاعرٌ يهجو الحجّاجَ بنَ يوسف:

أيَنْسَى كليبٌ زَمانَ الهُزالِ ... وتعليمه سُورة الكَوْثرِ
رغيفٌ له فَلْكة ما تُرَى ... وآخَر كالقَمَر الأزهَرِ

ومثله:

أما رأيت بني سَلْم وجُوههم ... كأنّها خبزُ كُتّابٍ وبَقّالِ

ويقال للمتساوين في الرداءة: كأسْنان الحِمار، قال الشاعر:

سواءٌ كأسْنان الحِمارِ فلا تَرَى ... لذِي شَيْبةٍ منهمْ على ناشىءٍ فَضْلا

وقال آخر:

شبابُهُم وشِيبُهم سواءٌ ... فهمْ في اللؤم أسنانُ الحِمارِ

وأنشد المبرّد في الكامل لأعرابي يصف قوماً من طيّىء بالتساوي في الرّداءة:

ولما أن رأيتُ بَني جُوَينٍ ... جُلوساً ليس بينهُم جَليسُ
يَئِسْت من الذي أقبَلْت أبغى ... لديهمْ، إنني رجلٌ يَئُوسُ
إذا ما قلتُ أيّهمُ لأيّ ... تَشابَهت المناكِب والرّؤوسُ

قال: فقوله: ليسَ بينهُم جَليسُ» هِجاء قبيح، يقول: لا ينتجع الناس معروفهم، فليس بينهم

غيرهم. ويقولون في المتساوِيَين في الرَّداءة أيضاً: هما كحِمارَي العبَاديّ، قيل له: أيُّ حِمارَيْك شرّ؟ قال: هذا ثمّ هذا. ويقال في التّساوِي في الشّرّ والخير: هم كأسْنان المُشْط، ويقال: وَقعا كركبتي البعير، وكرِجْلي النَّعامة.

وقال ابنُ الأعرابيّ: كلّ طائر إذا كُسِرَتْ إحدى رِجْليه تَحامَل على الأخرى إلا النعام فإنه متى كُسرتْ إحدى رِجليه جثم، فلذلك قال الشاعر يذكُر أخاه:

وإنـي وإيـاه كـرِجـلـيْ نَـعـامـةٍ ... عـلـى مـا بِـنَـا مـن ذي غِـنًـى وفَـقـيـرِ

وقال أبو سُفيانَ بنُ حَرْب لعامر بن الطّفيل وعَلْقمة بن عُلاثة وقد تنافَرا إليه: أنتما كرُكْبَتَي البعير، فلم ينفّر واحداً منهما، فقالا: فأيّنا اليُمنى؟ فقال: كلُّ منكما يُمنَى.

وسأل الحجّاج رجلاً عن أولاد المهلّب: أيُّهم أفضل؟ فقال: هم كالحلْقة الواحدة.

وسُئِل ابنُ دُرَيد عن المبرّد وثعلب، فأثنى عليهما، فقيل: فابن قُتيبة؟ قال: رَبْوة بين جَبَلين، أي خَمَل ذِكْرُه بنباهتهما.

ويُكنى عن الموت بالقطع عن المنجّمين، وعن السّعاية بالنصيحة عند العمال، وعن الجماع بالوَطْء عند الفُقهاء، وعن السُّكر بطِيب النَّفْس عند النُّدَماء، وعن السّؤال بالزوّار عند الأجْواد، وعن الصَّدقة بما أفاءَ الله عند الصُّوفية.

ويقال للمتكلِّف بمصالح الناس: إنه وصيّ آدم على وَلدِه، وقد قال شاعرٌ في هذا الباب:

فـكـأنّ آدمَ عـنـد قـرب وفـاتِـه ... أوصـاكَ وهـو يـجـودُ بـالـحَـوْبـاءِ
بـبـنـيـه أنْ تـرعـاهُـمُ فَـرَعَـيْـتَـهـمْ ... وكَـفَـيْـتَ آدم عَـيْـلـةَ الأبْـنـاءِ

ويقولون: فلانٌ خليفةُ الخَضِر إذا كان كثيرَ السَّفرِ، قال أبو تمام:

خليفة الخضر مَنْ يَربَع على وَطَنٍ ... أو بَـلـدةٍ فـظُـهـور الـعِـيـس أوْطـانِـي
بَـغـدادُ أهْـلـي وبـالـشـام الـهـوَى وأنـا ... بـالـرَّقّـتَـيـن وبـالـفُـسْـطـاط إخـوانـي
ومـا أظنُّ الـنَّـوى تـرضـى بـمـا صَـنَـعتْ ... حـتـى تُـبـلِّـغَ بـي أقـصـى خُـراسـانِ

ويقولون للشيء المختار المنتخَب: هو ثمرة الغُراب لأنه ينتقي خيرَ الثمر.

ويقولون: سَمْنُ فلانٍ في أدِيمه، كناية عمّن لا يُنتَفع به، أي ما خَرج منه يرجع إليه، وأصلُه أنّ نِحْياً من السَّمْن انشقّ في ظَرْف من الدَّقيق، فقيل ذلك، قال الشاعر:

تَـرحَّـلْ فـمـا بـبـغـدادُ دارَ إقـامـةٍ ... ولا عـنـد مَـن أضـحَـى بـبـغـدادَ طـائِـلُ
مـحـلّ مُـلـوك سَـمْـنُـهـمْ فـي أدِيـمـهـمْ ... وكـلُّـهُـم مِـن حِـلْـيَـةِ الـمـجـدِ عـاطِـلُ
فلا غروَ أن شَلَّتْ يدُ المجدِ والعُلى ... وقَـلَّ سـمـاحٌ مِـن رجـالٍ ونـائِـلُ
إذا غَـضْـغَـض الـبـحرُ الـغـطـامِـطُ مـاءه ... فـلـيـس عـجـيـبـاً أن تَـغِـيـض الـجـداوِل

ويقولون لمن لا يَفي بالعَهْد: فلان لا يَحفَظ أول المائدة، لأنّ أوّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾(١).

ويقولون لمن كان حَسَن اللّباس ولا طائلَ عنده: هو مِشْجَب، والمِشْجَب: خَشبة القَصّار الّتي يَطرَح الثّياب عليها، قال ابن الحجّاج:

لـي سـادةٌ طـائـر الـسـرور بـهـمْ ... يَـطْـرُده الـيـأسُ بـالـمـقـالِـيـعِ
مَـشـاجِـبٌ لـلـثّـيـاب كـلّـهـمُ ... وهـذه عـادةُ الـمَـشـاقِـيـع
جـائـزتـي عـنـدهُـمُ إذا سَـمِـعـوا ... شِـعْـريَ: هـذا كـلامُ مَـطْـبـوعِ
وإنـهـم يَـضـحَـكـون إنْ ضَـحـكـوا ... مِـنّـي وأبـكـي أنـا مِـن الـجُـوع

وقال آخر:

إذا لـبِـسوا دُكْنَ الـخـروز وخُـضْـرَهـا ... وراحوا فقد راحتْ عليك المَشاجِبُ

ورُوِي أنّ كَيْسانَ غلامَ أبي عُبَيدة وَفَد على بعض البَرامكة فلم يُعطِه شيئاً، فلما وافى البَصْرة قيل له: كيف وجدته؟ قال: وجدتُه مِشجَباً من حيث ما أتيتُه وَجدْتُه.

ويكنون عن الطُّفَيْليّ فيقولون: هو ذبابٌ، لأنه يقع في القُدور، قال الشاعر:

أتـيـتُـك زائـراً لِـقـضـاءِ حَـقٍّ ... فـحـال الـسّـتـرُ دُونَـك والـحـجـابُ
ولـسـتُ بـواقـعٍ فـي قِـدْرِ قـومٍ ... وإن كَـرِهـوا كـمـا يَـقَـع الـذُّبـابُ

وقال آخر:

وأنـتَ أخـو الـسّـلام وكـيـف أنـتـمْ ... ولـسـت أخـا الـمـلـمّـاتِ الـشّـدادِ
وأطـفـل حـيـن يُـجـفَـى مِـن ذُبـابٍ ... وألـزم حـيـن يُـدْعَـى مِـن قُـرادِ

ويكنون عن الجَرَب بحَبّ الشّباب، قال الوزير المهلبيّ:

يـا صُـروف الـدهـرِ حَـسْـبـي ... أيّ ذنـب كـان ذَنْـبـي!
عِـلّـة خَـصّـتْ وعَـمّـتْ ... فـي حـبـيـبٍ ومُـحـبّ
دبّ فـي كَـفّـيـه يـا مَـن ... حُـبُّـهُ دَبَّ بـقَـلْـب
فـهـو يـشـكـو حـرَّ حَـبٍّ ... وشَـكـاتِـي حَـرّ حُـبّ

ويكنون عن القصير القامة بأبي زبيبة، وعن الطويل بخيط باطل. وكانت كُنْية مروان بن الحكم لأنه كان طويلاً مضطرباً، قال فيه الشاعر:

لحا اللّه قوماً أمّرُوا خَيْط باطلٍ ... على الناس يُعْطي من يَشاءُ ويمنَعُ

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

وفي خيط باطلٍ قولان: أحدهما أنه الهباء الذي يدخل من ضَوء الشَمس في الكُوّة من البيت، وتسمّيه العامّة غَزْلَ الشَّمْس، والثاني أنه الخيْط الذي يَخرُج من فَم العَنْكَبوت، وتسمّيه العامّة مُخَاط الشّيطان.

وتقول العرب للملقوّ: لَطِيمُ الشيطان.

وكان لقبُ عَمْرو بن سعيد الأشدق، لأنّه كان مَلْقوّاً.

وقال بعضهم لآخر: ما حَدَث؟ قال: قَتَل عبد الملك عمْراً، فقال: قتل أبو الذبان لَطِيم الشَّيطان، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

ويقولون للحزين المهموم: يَعُدّ الحصى، ويَخُطّ في الأرض، ويَقُتّ اليَرْمَع، قال المجنون:

عشيّةَ ما لي حِيلةٌ غيرَ أنّني ... بِلقْط الحَصَى والخطّ في الدار مُولَعُ
أخُطّ وأمْحو كلّ ما قد خطَطْتُه ... بدَمْعِيَ والغِرْبان حَوْلِيَ وُقّعُ

وهذا كالنّادم يَقْرَع السِّنّ، والبخيل يَنْكُت الأرض ببَنانه، أو بعُودٍ عند الردّ، قال الشاعر:

عَبيدُ إخوانِهِمْ حتى إذا رَكِبوا ... يوم الكَريهةِ فالآسادُ في الأجَمِ
يُرضُون في العُسْر والإيسارِ سائِلَهمْ ... لا يَقرَعون على الأسْنانِ مِن نَدَمِ

وقال آخر في نَكْت الأرض بالعِيدان:

قومٌ إذا نزل الغريب بدارِهمْ ... تَركُوه رَبَّ صَواهِلٍ وقِيانِ
لا يَنْكُتون الأرض عند سؤالِهمْ ... لتطلّب العَلاّت بالعِيدانِ

ويقولون للفارغ: فؤادُ أمّ موسى.

ويقولون للمُثْرِي من المال: مُنْقرس، وذلك أنَّ عِلّة النِّقْرِس أكثر ما تَعترِي أهل الثّروة والتنعّم.

حَكى المبرّد، قال: كان الحِرْمازِيّ في ناحية عمرو بن مَسْعدة، وكان يُجْرِي عليه، فخرج عمرُو بن مسعدة إلى الشام، وتخلّف الحِرْمازِيّ ببغدادَ، فأصابه النِّقْرس، فقال:

أقامَ بأرضِ الشّام فاختلّ جانبي ... ومَطلَبه بالشام غير قريبِ
ولا سيما من مُفْلِسٍ حِلْف نِقرِسٍ ... أما نِقرِسٌ في مُفلِسٍ بِعَجيبِ!

وقال بعضهم يهجو ابن زَيدان الكاتب:

تَواضَع النِّقرسُ حتى لقد ... صار إلى رِجلِ ابنِ زَيْدانِ
عِلّةُ إنسانٍ ولكنها ... قد وُجِدَتْ في غير إنسانِ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.

ويقولون للمترَف: رقيقُ النَّعْل، وأصله قولُ النابغة:

رِقاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهمْ يُحيَّوْن بالرَّيْحان يومَ السَّباسِب

يعني أنهم ملوكٌ، والملِك لا يخصِف نعله وإنما يخصف نعله من يمشي. وقوله: «طيّب حُجُزاتهم»، أي هم أعِفّاء الفروج، أي يشدّون حُجُزاتهم على عِفّة. وكذلك قولهم: فلانٌ مُسمَط النِّعال، أي نعلُه طبقة واحدة غير مَخصوف، قال المَرّار بنِ سَعيد الفقْعَسيّ:

وجَدْتُ بني خفاجةَ في عَقيلٍ كِرامَ الناسِ مُسمَطةَ النِّعالِ

وقريبٌ من هذا قولُ النَّجاشيّ:

ولا يأكلُ الكلبُ السَّروقُ نِعالنا ولا ينتَقِي المُخَّ الذي في الجماجِمِ

يريد أن نعالهم سِبْت، والسِّبْت: جلودُ البقر المدبوغة بالقَرَظ، ولا تقرَبها الكلاب، وإنما تأكل الكلابُ غيرَ المدبوغ، لأنه إذا أصابه المَطَر دسَّمه فصار زَهِماً.

ويقولون للسّيّد: لا يطأ على قَدَم، أي هو يَتقدّم الناسَ ولا يتْبع أحداً فيَطأ على قَدَمه.

ويقولون: قد اخضرّت نِعالهم، أي صاروا في خِصْب وسَعة، قال الشاعر:

يَتَّايَهون إذا اخضرّتْ نِعالُهُم وفي الحفيظةِ أبْرامٌ مَضاجِيرُ

وإذا دَعَوا على إنسان بالزَّمانة قالوا: خَلع الله نعليْه، لأنّ المُقعد لا يَحتاجُ إلى نَعْل.

ويقولون: أطفأ الله نورَه، كنايةٌ عن العَمَى وعن المَوْت أيضاً، لأنّ من يموت فقد طَفِئتْ نارُه.

ويقولون: سقاهُ الله دَم جَوْفه، دُعاءٌ عليه بأن يَقتُل ولدَه، ويُضطَرَّ إلى أخذِ دِيتهِ إبلاً فيَشرَب ألبانَها.

ويقولون: رماه الله بليلةٍ لا أختَ لها، أي ليلة موته، لأنّ ليلَة المَوْت لا أختَ لها.

ويقولون: وَقَعوا في سَلا جَمَل، أي في داهية لا يُرى مِثلُها، لأنّ الجَمل لا سَلا له، وإنما السَّلا للناقة، وهي الجُلَيْدة التي تكون ملفوفةً على وَلَدها.

ويقولون: صارُوا في حُوَلاء ناقَة، إذ صاروا في خِصْب.

وكانوا إذا وَصَفوا الأرض بالخِصْب قالوا: كأنّها حُوَلاء ناقة.

ويقولون لأبناء الملوك والرؤساء ومن يَجري مَجراهُم: جُفاة المَحَزّ، قال الشاعر:

جُفاةُ المَحَزّ لا يُصيبون مِفْصَلاً ولا يأكُلون اللَّحم إلا تَخذُّمَا

يقول: هم ملوكٌ، وأشباهُ المُلوك لا حِذْقَ لهم بنَحْر الإبل والغَنَم ولا يَعرِفون التّجليد والسَّلْخ، ولهم من يتولّى ذلك عنهم، وإذا لم يَحضُرهم من يَجزُر الجَزور تكلّفوا هُمْ ذلك بأنفسِهم، فلم يُحسِنوا حزَّ المِفصَل كما يَفعَله الجَزّار، وقوله:

ولا يأكُلون اللَّحمَ إلا تَخذُّما

أي ليس بهم شَرَه فإذا أكلوا اللّحمَ تخذَّموا قليلاً قليلاً، والخَذْم: القَطْع، وأنشد الجاحظ في مِثلِه:

وصُلْعُ الرّؤوسِ عِظامُ البطونِ جُفاةُ المَحَزّ غِلاظُ القِصَرْ

لأنّ ذلك كلّه أمارات الملوك، وقريبٌ من ذلك قوله:

ليس براعِي إبلٍ ولا غَنَمْ ولا بجَزّارٍ على ظهرِ وضَمْ

ويقولون: فلانٌ أملَس، يكنُون عمّن لا خَير فيه ولا شرّ، أي لا يثبُت فيه حمدٌ ولا ذمّ.

ويقولون: مِلْحُه على رُكبَتِه، أي هو سيّء الخُلُق، يُغضِبه أدنى شيء، قال:

لا تَلُمْها إنّها من عُصبةٍ مِلحُها موضوعةٌ فوقَ الرُّكَبْ

ويقولون: كنايةً عن مَجوسيّ: هو ممّن يخُطّ على النّمل، والنّمل جمع نَمْلة، وهي قَرْحة بالإنسان، كانت العربُ تَزعم أنّ المجوسيّ إذا كان من أختِه وخَطّ عليها بَرَأت، قال الشاعر:

ولا عيبَ فينا غيرَ عِرقٍ لِمعشَرٍ كِرامٍ وأنّا لا نَخُطُّ على النَّمْلِ

ويقولون للصبيّ: قد قُطِفتْ ثمرته، أي خُتِن. وقال عُمارة بنُ عقيل بنِ بلالِ بن جَرير:

ما زال عِصيانُنا للّه يرذُلنا حتّى دُفِعنا إلى يَحيَى ودِينارِ

إلا عُلَيْجَيْن لم تُقطَف ثِمارُهما قد طالَما سَجَدَ للشّمس والنار

ويقولون: قِدْر حليمة، أي لا غَلَيانَ فيها.

ويقولون لمن يصلّي صلاةً مختصَرة: هو راجزُ الصّلاة.

وقال أعرابيٌّ لرجل رآه يصلّي صلاةً خفيفة: صلاتُك هذه رَجَز.

ويقولون: فلانٌ عفيفُ الشَّفَة، أي قليلُ السّؤال، وفلانٌ خفيفُ الشفة، كثيرُ السؤال.

وتكنى العَرب عن المتيقّظ بالقُطاميّ، وهو الصَّقْر:

ويَكنُون عن الشّدّة والمَشَقّة بعَرَق القِرْبة، يقولون: لقيتُ من فلانٍ عَرَقَ القِرْبَة، أي العَرَق الّذي يَحدُث بك من حَمْلها وثقلها، وذلك لأنّ أشدّ العمل كان عندهم السَّقْي وما ناسَبَه من معالجة الإبل.

وتكنِي العَرب عن الحَشَرات وهَوامّ الأرض بجُنودِ سَعْد، يَعنُون سعدَ الأخبية، وذلك لأنّه إذا طَلَع انتشرتْ في ظاهِر الأرض، وخرج منها ما كان مستتِراً في باطنها، قال الشاعر:

قد جاء سعدٌ مُنذِراً بحرِّهِ مُوعِدَةً جُنودُه بشَرِّهِ

ويَكنِي قومٌ عن السائلين على الأبواب بحُفّاظ سورة يوسف عليه السلام، لأنهم يعتَنون بحِفْظها دونَ غيرها، وقال عُمارة يَهجُو محمّد بنَ وُهَيب:

تَشَبّهتَ بالأعراب أهلِ التَعجْرُفِ فدَلَّ على ما قلتَ قُبحُ التكلُّفِ

لسانٌ عِراقيٌّ إذا ما صَرَفْتَه ... إلى لغةِ الأعراب لم يتصرَّفِ
ولم تَنْسَ ما قد كان بالأمس حاكَه ... أبوكَ وعُودُ الجَفِّ لم يتقصَّفِ
لئن كنتَ للأشعار والنحوِ حافظاً ... لقد كان من حُفّاظ سورة يوسفِ

ويَكْنُون عن اللَّقيط بتربيةِ القاضي، وعن الرَّقيب بثاني الحَبِيب، لأنه يُرَى معه أبداً، قال ابنُ الرّومي:

مَوْقِفٌ للرَّقيب لا أنساهُ ... لستُ أختارُه ولا آباهُ
مرحباً بالرّقيب من غير وَعْدٍ ... جاء يَجْلو عليَّ مَن أهْواهُ
لا أُحِبُّ الرقيبَ إلّا لأنّي ... لا أرَى من أُحِبّ حتّى أراهُ

ويَكْنُون عن الوَجْه المَليح بحُجَّة المُذنِب، إشارة إلى قول الشاعر:

قد وجدْنا غفلةً من رَقيبِ ... فسَرَقْنا نظرةً مِن حَبيبِ
ورأينا ثَمّ وَجْهاً مَليحاً ... فوَجَدْنا حُجّةً للذّنوبِ

ويَكْنُون عن الجاهل ذي النِّعمة بحُجّة الزّنادقة، قال ابنُ الروميّ:

مَهْلاً أبا الصَّقْر فكم طائرٍ ... خَرَّ صريعاً بعد تَحْليقِ
لا قُدِّسَتْ نُعمَى تَسَرْبَلْتَها ... كم حُجّةٍ فيها لِزِنْديقِ!

وقال ابنُ بَسام في أبي الصَّقْر أيضاً:

يا حُجّةَ اللّه في الأرزاقِ والقِسَمِ ... وعبرةً لأولي الألباب والفهمِ
تراكَ أصبحتَ في نَعماءِ سابغة ... إلاّ وربُّك غَضْبانٌ على النِّعَمِ

فهذا ضد ذلك المقصد، لأنّ ذاكَ جَعلَه حُجّةً على الزَّنْدَقةِ، وهذا جَعلَه حجّة على قُدْرة البارىء سبحانه على عجائِب الأمور وغرائِبها، وأن النِّعم لا قَدْر لها عندَه سبحانه، حيث جَعَلَها عند أبي الصّقر مع دناءَة منزلته. وقال ابن الرّوميّ:

وقَيْنةٍ أبرَدُ من ثَلْجَةْ ... تَبيتُ منها النفسُ في ضَجّةْ
كأنها من نتنها صَخّةٌ ... لكنّها في اللّون أُتْرُجّةْ
تفاوتتْ خِلْقتُها فاغتدَتْ ... لكلّ مَنْ عُطِّل مُحْتَجّةْ

وقد يُشابه ذلك قولَ أبي عليّ البَصير في ابن سعدان:

يابنَ سَعدانَ أجْلَحَ الرِّزْقُ في أمْـ ... ـرِكَ واستحسن القبيح بمَرّةْ
نلتَ ما لم تكن تَمَنّى إذا ما ... أسرفت غايةُ الأمانيّ عشرةْ
ليس فيما أظنّ إلّا لكَيْلا ... يُنكِر المُنكِرون لِلّه قُدْرَةْ

وللمفجّع في قريب منه:

إن كنتُ خُنتُكم المودّة غادِراً ... أو حُلْتُ عن سَنَن المحبّ الوامِقِ

فمُسِخْت في قُبْح ابنِ طَلْحة إنّه ... ما دلّ قطّ على كمال الخالِق

ويقولون: عَرَض فلانٌ عليّ الحاجة عَرْضاً سابِرياً، أي خفيفاً من غير استقصاء، تشبيهاً له بالثّوب السّابِريّ، والدِّرْع السابريّة، وهي الخفيفة.

ويُحكَى أن مرتدّاً مَرَّ على قوم يأكلون وهو راكبُ حِماراً، فقالوا: انزل إلينا، فقال: هذا عَرْضٌ سابِرِيّ، فقالوا: انزل يابن الفاعِلة. وهذا ظَرْفٌ ولَبَاقة.

ويقولون في ذلك: وعدٌ سابِرِيّ، أي لا يُقرَن به وَفاء، وأصلُ السابِريّ، اللّطيف الرّقق.

وقال المبرِّد: سألتُ الجاحِظَ: من أشعَر المولَّدين؟ فقال: القائل:

كأنّ ثِيابَه أطْلَعـ ... ـن من أزراره قَمرَا

يزيدُك وجهُه حُسْناً ... إذا ما زِدْتَه نَظَرا

بعَينٍ خالَط التفتـ ... ـيرُ في أجفانِها الحَوَرا

ووجهٍ سابِرِيٍّ لو ... تَصوَّبَ ماؤه قَطَرا

يعني العبّاسَ بنَ الأحنف.

وتقول العرب في معنى قولِ المحدّثين: عَرض عليه كذا عَرْضاً سابِرِيًّا: عَرَض عليه عَرْضَ عالّة، أي عَرْض الماء على النّعم العالّة الّتي قد شَرِبتْ شُرْباً بعدَ شُرْب، وهو العَلَل، لأنّها تُعرَض على الماء عَرْضاً خفيفاً لا تبالغ فيه.

ومن الكنايات الحسنة قولُ أعرابية قالت لقيس بن سعد بن عُبادة: أشكو إليك قِلّة الجِرْذان في بيتي، فاستَحسَن منها ذلك، وقال لأكثرنّها، املؤوا لها بَيتَها خُبْزاً وتَمْراً وسَمْناً وأقِطاً ودَقيقاً.

وشبيهٌ بذلك ما رُوي أنّ بعض الرؤساءِ سايَرَه صاحبٌ له على بِرْذَون مَهْزول، فقال له: ما أشدَّ هُزالَ دابّتك! فقال: يدُها مع أيْدِينا، ففطن لذلك ووَصَله.

وقريبٌ منه ما حُكِيَ أنّ المنصور قال لإنسان: ما مالُك؟ قال ما أَصونُ به وَجْهي، ولا أعودُ به على صَدِيقي، فقال: لقد تلطّفْتَ في المسألة، وأمَر له بصِلَة.

وجاء أعرابيٌ إلى أبي العبّاس ثَعْلب وعنده أصحابُه، فقال له: ما أراد القائلُ بقوله:

الحمدُ لله الوَهُوب المَنّانْ ... صارَ الشريد في رؤوس القُضْبانْ

فأقبَل ثَعلَب على أهل المجلس فقال: أجيبوه، فلم يكن عندهم جواب، وقال له نِفْطَوَيْه: الجواب منكَ يا سيّدي أحسَن، فقال: على أنّكم لا تَعلَمونه! قالوا: لا نَعلَمه، فقال الأعرابيّ،

قد سمعتُ ما قال القوم، فقال: ولا أنتَ أعزّكَ الله تَعلَمه، فقال ثعلب: أرادَ أن السُّنْبل قد أفرَك، قال: صدقتَ فأينَ حقّ الفائدة؟ فأشار إليهم ثعلَب، فبرُّوه، فقام قائلاً: بوركتَ من ثعلب، ما أعظَم برَكَتك!.

ويَكنُون عن الشَّيْب بغُبار العَسْكر، وبرغُوَة الشّباب، قال الشاعر:

قالت أرَى شَيباً براسِك، قلتُ لا ... هذا غبارٌ من غُبار العَسْكرِ

وقال آخَر - وسمّاه غُبارَ وقائِع الدّهر:

غَضِبت ظَلُوم وأزمعتْ هَجرِي ... وصَبَتْ ضمائرُها إلى الغَدْرِ

قالت أرَى شَيْباً فقلت لها: ... هذا غُبارُ وقائِع الدَّهرِ

ويقولون للسّحاب: فَحْل الأرض.

وقالوا: القلم أحدُ اللّسانَين، ورداءَة الخَلْط أحدُ الزَّمانتين.

قال: وقال الجاحظ: رأيت رجلاً أعمَى يقول في الشّوارع وهو يَسأل: ارحموا ذَا الزَّمانتَين، قلتُ: وما هما؟ قال: أنا أعمى وصَوْتي قَبِيح. وقد أشارَ شاعرٌ إلى هذا فقال:

اثنانِ إذا عُدَّا ... حقيقٌ بِهِمَا المَوْتُ

فقيرٌ مالَه زُهْدٌ ... وأعمَى ما لَه صَوْتُ

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إيّاكم وخَضراء الدِّمَن»، فلما سُئِل عنها قال: «المرأةُ الحَسْناء في المَنبِت السّوء»[1].

وقال عليه السلام في صُلحِ قومٍ من العرب: «إنّ بيننا وبينهم عَيْبة مكفوفة»، أي لا نكشفَ ما بيْنَنا وبينهم من ضِغْن وحِقْد ودَم.

وقال عليه السلام: «الأنصارُ كَرِشي وعَيْبتي»، أي موضعُ سِرّي. وَكَرِشي: جَماعَتي.

ويقال: جاءَ فلانٌ رَبِذ العِنان، أي مُنهزماً.

وجاءَ ينفض مِذْرَوَيه، أي يتوعّد من غيرِ حقيقة.

وجاء يَنظُر عن شِماله، أي مُنهزِماً.

وتقول: فلانٌ عندي بالشّمال، أي منزلَتُه خَسِيسة. وفلانٌ عندي باليَمين، أي بالمنزلة العُلْيا، قال أبو نُوَاس:

أقولُ لناقتي إذ بَلّغتْني ... لقد أصبحتِ عندِي باليَمينِ

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٥٣٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٥٧)، وابن حجر في «التلخيص الحبير» (١٤٨١).

فلم أجعلكِ لِلغِرْبانِ نَهْباً ولم أُقلِ اشرَقي بدَم الوَتين
حَرُمتِ على الأزِمّة والوَلايا وأعلاقِ الرّحالة والوَضِين

وقال ابن مَيّادة:

أبيني أفي يُمْنَى يَدَيكِ جَعَلتِني فأفرَح أم صيّرتني في شِمالِكِ!

وتقول العرب: التَقَى الثريّان في الأمْرَين يأتلِفان ويتّفقان، أو الرّجلين، قال أبو عبيدة: والثرَى: التّراب النّديّ في بطن الوادي، فإذا جاء المطر وسَحّ في بَطْن الوادي حتَّى يَلتقي نَداه والنّدى الّذي في بطن الوادي يقال: الْتَقى الثريّان.

ويقولون: هم في خيرٍ لا يُطَيِّر غُرابُه، يريدون أنّهم في خيرٍ كثير وخِصْب عَظيم فيَقَع الغراب فلا يُنفَّر لكثرة الخِصْب.

وكذلك أمرٌ لا يُنادى وليدُه، أي أمرٌ عظيم يُنادى فيه الكبارُ دونَ الصّغار.

وقيل: المرادُ أنّ المرأة تَشتغِل عن وليدِها فلا تنادِيه لِعَظم الخَطْب، ومن هذا قولُ الشّاعر يصِف حَرْباً عظيمة:

إذا خَرِسَ الفَحْلُ وَسْط الحجُورِ وصاحَ الكِلابُ وعَقّ الوَلَدْ

يريد أنّ الفحل إذا عاين الجيشَ، والبارقةَ لم يلتفتْ لَفْت الحُجور ولم يَصهَل، وتَنبح الكلابُ أربابَها، لأنّها لا تَعرفهم للبسهم الحديد، وتَذهَل المرأةُ عن ولَدِها رعباً، فجعل ذلك عُقوقاً.

ويقولون: أصبحَ فلانٌ على قَرْن أعفَر، وهو الظَّبْي إذا أرادوا أصْبَح على خَطَر، وذلك لأنّ قَرْن الظَبي ليس يَصلُح مكاناً، فمن كان عليه فهو على خَطَر قال امرؤ القَيْس:

ولا مِثْل يومٍ بالعظالَى قَطعتُه كأنّي وأصحابي على قَرْن أعفَرا

وقال أبو العَلاء المَعَريّ:

كأنّني فوقَ رَوْق الظَّبْي من حَذَر

وأنشَدَ ابنُ دريد في هذا المعنى:

وما خيرُ عَيْشٍ لا يزال كأنّه محلّة يَعْسوبِ برأسِ سِنانِ

يَعني من القلق وأنّه غيرُ مطمئنّ.

ويقولون: به داءُ الظَّبْي، أي لا داءَ به، لأنّ الظَبي صحيحٌ لا يزال، والمَرَض قلّ أن يَعتريَه.

ويقولون للمتلوّن المختلف الأحوال: ظلّ الذّئب، لأنّه لا يزل مرّةً هكذا ومرّة هكذا.

ويقولون: به داءُ الذِّئب، أي الجُوع.

وعهدُ فلان عهدُ الغُراب، يَعنُون أنّه غادر، قالوا: لأنّ كلّ طائر يألَفُ أنثاه إلّا الغراب، فإنّه إذا باضَتْ الأنثى تَرَكَها وصار إلى غيرِها.

ويقولون: ذهب سَمْعَ الأرض وبصَرَها، أي حيثُ لا يُدرَى أين هو!

وتقولون: ألقَى عصاه، إذا أقامَ واستقرّ، قال الشاعر:

فألقتْ عَصَاها واستقرَّ بها النَّوَى ... كما قَرّ عَيْناً بالإيابِ المُسافِرُ

ووقَع القضيبُ من يَدِ الحجّاج وهو يَخطُب، فتطيّر بذلك حتّى بانَ في وَجْهه، فقام إليه رجلٌ فقال: إنّه ليس ما سَبَق وهْم الأميرِ إليه، ولكنّه قولُ القائل، وأنشدَه البيت، فسُرِّيَ عنه.

ويقال للمختلِفين: طارت عَصاهمْ شِقَقاً.

ويقال: فلانٌ منقطِع القَبَال، أي لا رَأيَ له.

وفلان عريضُ البِطان، أي كثيرُ الثروة.

وفلانٌ رخيُّ اللبّ، أي في سَعَة.

وفلانٌ واقعُ الطائر، أي ساكنٌ.

وفلانٌ شديدُ الكاهل، أي مَنِيع الجانبِ.

وفلانٌ يَنظُر في أعقابِ نَجْم مُغرّب، أي هو نادِم آيس، قال الشاعر:

فأصبحتُ من ليلَى الغَداة كناظرٍ ... مع الصّبحِ في أعقابِ نجمِ مغرِّبِ

وسُقِط في يدِه، أي أيقَن بالهَلَكة.

وقد ردَدْتُ يدَه إلى فيه، أي منعتُه من الكلام.

وبنو فلان يدٌ على بني فلان، أي مجتمِعون.

وأعطاه كذا عن ظَهْر يد، أي ابتداءً لا عن مُكافأة.

ويقولون: جاء فلانٌ ناشراً أذُنَيه، أي جاء طامِعاً.

ويقال: هذه فرسٌ غيرُ محلِفة، أي لا تحوج صاحبَها إلى أن يَحلِف أنها كريمة، قال:

كُمَيتٌ غيرُ مُحلِفَةٍ ولكنْ ... كلَوْنِ الصِّرف عُلَّ به الأدِيمُ

وتقول: حَلَبَ فلانٌ الدهر أشطُرَه، أي مَرّت عليه ضُروبه خيرُه وشَرُّه.

وقَرع فلانٌ لأمرٍ ظُنبوبَه، أي جدّ فيه واجتهد.

وتقول: أبدَى الشرّ نواجِذَه، أي ظهر.

وقد كَشفت الحربُ عن ساقِها، وكشرتْ عن نابها.

وتقول: استَنْوَق الجَمَلُ، يقال ذلك للرّجل يكون في حديث ينتقل إلى غيره يَخلِطه به.

وتقول لمن يهون بعد عِزّ: اسْتَأتَن العَيْر.

وتقول للضّعيف يقوَى: اسْتَنْسر البُغاث.

ويقولون: شرابٌ بأنقُع، أي مُعاود للأمور، وقال الحجاج: يا أهل العِراق، إنكم شَرّابون بأنقع، أي معتادون الخير والشرّ. والأنقع: جمع نَقْع، وهو ما استُنقِع من الغُدْران، وأصلُه في الطائر الحِذر يَرِدُ المناقِع في الفَلوات حيث لا يبلُغه قانِص، ولا ينصب له شَرَك.

خبر عن امرئ القيس

ونختم هذا الفصل في الكنايات بحكاية رواها أبو الفرج عليّ بنُ الحسين الأصبهاني، قال أبو الفرج: أخبَرَني محمد بنُ القاسم الأنباريّ، قال: حدثني ابنُ عمّي، قال: حدثنا أحمد بن عبد اللّه، عن الهيْثَم بن عَدِيّ. قال: وحدثني عمّي، قال: حدثنا محمد بن سعد الكرانيّ، قال: حدّثنا العُمَريّ، عن الهيْثم بنِ عَدِيّ، عن مجالِد بن سعيد، عن عبد الملك بن عمير، قال: قَدِم علينا عمرُ بن هُبَيرة الكوفة أميراً على العِراق، فأرسَلَ إلى عشرةٍ من وجوهِ أهل الكوفة أنا أحدُهم، فَسِرْنا عنده، فقال: ليُحدّثني كلّ رجل منكم أحدوثةً وابدأ أنت يا أبا عمرو، فقلت: أصلح الله الأمير! أحديث حَقّ أم حديث باطل؟ قال: بل حديث حَقّ. فقلتُ: إنّ امرأ القيْسِ كان آلَى ألِيّةً ألّا يتزوّج امرأةً حتى يسألها عن ثمانيةٍ وأربعةٍ واثنتين، فجعل يَخْطُب النّساء، فإذا سألهنّ عن هذا قلن: أربعة عشر، فبينا هو يسيرُ في جوف الليل إذا هو برجل يَحمِل ابنةً صغيرة له كأنها البَدْر لتمّه، فأعجبتْه، فقال لها: يا جارية، ما ثمانية، وأربعة، واثنتان؟ فقالت: أما ثمانية فأطْباء الكلبة، وأما أربعة: فأخلافُ الناقة، وأما اثنتان فثَدْيا المرأة، فخطبها إلى أبيها، فزَوّجه إياها وشَرَطتْ عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وعلى أن يَسُوق إليها مائةً من الإبل، وعشرة أعبد، وعَشْر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك، ثم بعث عبداً إلى المرأة، وأهدى إليها معه نِحياً من سَمْن ونِحياً من عَسَل وحُلّة من عَصْب، فنزل العَبْد على بعض الماء، ونَشَر الحلّة فلبِسها فتعلقتْ بسَمُرة فانشقّت، وفَتح النِّحيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا، ثم قَدِم على المرأة وأهلُها خُلُوف فسألَها عن أبيها وأمّها وأخيها، ودفع إليها هديتَها، فقالت: أعْلِمْ مولاك أنّ أبي ذهب يقرِّب بعيداً، ويبعِّد قريباً، وأن أمّي ذهبت تشُقّ النفس نَفْسَين، وأنّ أخي ذَهَب يُراعي الشمس، وأنّ سماءَكم انشقّت، وأن وعاءَيْكم نضبا.

فقدِم الغلام على مولاه، فأخبَرَه فقال: أما قولها: إنّ أبي ذهب يُقرِّب بعيداً، ويبعِّد قريباً، فإنّ أباها ذهب يُحالف قوماً على قومه، وأمّا قولها: إن أمي ذهبتْ تَشُقّ النفس نفسين، فإن أمّها ذهبتْ تَقْبَل امرأةً نُفَساء. وأمّا قولها: إنّ أخي ذَهَب يُراعي الشمس، فإن أخاها في سَرْح له يَرْعاه، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروحَ به، وأما قولها: إن سماءكم انشقّتْ، فإن البُرْد الذي بعثت به انشقّ، وأما قولها إنّ وعاءَيْكم نَضَبا فإن النّحْيَين اللّذين بعثت بهما نَقَصا، فاصْدُقْني. فقال: يا مولاي، إني نزلتُ بماءٍ مِن مياهِ العَرَب، فسألوني عن نَسَبي فأخبرتهم أني ابن عمّك،

ونشرتُ الحُلّة ولبستُها وتجمّلت بها، فتعلقتْ بسمُرة فانشقَّت، وفتحتُ النّحْيين فأطعمتُ منهما أهل الماء، فقال: أَوْلَى لكَ! ثمّ ساق مائةً من الإبل، وخرج نحوها ومعه العَبْد يسقي الإبل، فعَجَز، فأعانه امرؤ القيس، فرمى به العبد في البئر، وخرج حتى أتَى إلى أهل الجارية بالإبل، فأخبرَهم أنه زَوْجُها، فقيل لها: قد جاء زوجُكِ، فقالت: والله ما أدْرِي أزَوْجي هو أم لا! ولكن انحَرُوا له جَزُوراً وأطعِمُوه من كرشِها وذنبها، ففعلوا، فأكل ما أطعموه، فقالت: اسقوه لَبَناً حازراً وهو الحامضُ - فسَقَوْه فشرب، فقالت: افرشوا له عند الفَرْث والدم، فَفَرَشوا له، فنام فلما أصبحت أرسلت إليه: إني أريدُ أن أسألَك، فقال لها: سَلِي عمّا بَدا لَكِ، فقالت: مِمّ تختلج شفتاكَ؟ قال: مِنْ تقبِيلي إيّاك، فقالت: مِمّ يَختلج كَشْحاك، قال: لالتزامي إياك، قالت: فممّ يختلج فَخِذاك؟ قال: لتورّكي إيّاك، فقالت عليكم العبد فَشُدُّوا أيديَكم به، ففعلوا.

قال: ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرَجَع إلى حَيِّه وساق مائةً من الإبل، وأقبل إلى امرأتِه فقيل لها: قد جاء زَوْجك، فقالت: والله ما أدري أزَوجي هو أم لا! ولكن انحروا له جَزُوراً، وأطعِمُوه من كَرِشها وذَنبها، ففعلوا، فلما أتَوْه بذلك قال: وأين الكبد والسَّنام والمَلْحاء، وأبى أن يأكل، فقالت اسقوه لَبَناً حازِراً، فأُتي به، فأبى أن يشربه، وقال: فأين الضَّرِيب والرَّثيئة؟ فقالت: افرشوا له عند الفَرْث والدم، ففرشوا له، فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي عند التلعة الحمراء، واضربوا لي عليها خِباءً، ثم أرسلت إليه: هلمّ شَريطتي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها أنْ سَلِي عمّا شِئتِ، فقالت: مم تختلِج شَفَتاك؟ فقال: لِشُربي المُشَعشعات، قالت: فمم يختلج كَشحاك؟ قال: للبسي الحِبَرات. قالت: فممّ تختلج فخذاك؟ قال: لرَكْضي المُطهّمات، فقالت: هذا زَوْجي لعمري، فعليكم به. فأهديَتْ إليه الجارية.

فقال ابن هُبيرة: حَسبكم، فلا خير في الحديث سائر الليلة بعد حديث أبي عمرو، ولن يأتِيَنا أحدٌ منكم بأعجب منه، فانصرَفْنا وأمَرَ لي بجائزة.

- ٤٧٦ -

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ في كلامٍ لهُ: ووَلِيَهُمْ والٍ فأقامَ واستَقامَ، حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ.

الشرح: الجِران: مقدَّم العُنُق، وهذا الوالي هو عمرُ بنُ الخَطاب.

وهذا الكلامُ من خُطْبةٍ خَطبها في أيّام خلافته طويلةٍ، يذكر فيها قُرْبه من النبيّ صلى الله عليه وآله واختصاصه له، وإفضاءَه بأسراره إليه، حتى قال فيها:

فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم، فقارَبَ وسَدّد حَسَب استطاعته على ضعْفٍ وَحدّ كانا فيه، وليهم بعده وَالٍ، فأقامَ واستقامَ حتى ضَرَب الدِّينُ بِجرانه، على عَسْف وعَجْرَفيّة كانا فيه، ثمّ اختلفوا ثالثاً لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً، غَلَب عليه أهلُه فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدةُ البعير المخْطوم، فلم يزل الأمرُ بينه وبين الناس يَبعُد تارة ويقرُب أخرى حتى نزَوْا عليه فَقتَلوه، ثم جاؤوا بي مَدَبّ الدَّبا، يريدون بَيْعتي.

وتمام الخطبة معروف، فليطلب من الكُتُب الموضوعة لهذا الفن.

- ٤٧٧ -

الأصل: وقال عليه السلام: يأتِي على النَّاس زَمانٌ عَضُوضٌ، يَعَضُّ المُوسِرُ فيهِ على ما في يَدَيْهِ، ولَمْ يُؤْمَر بِذَلِكَ، قال اللَّهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(١)، يَنْهَدُ فِيهِ الأَشْرَارُ، ويُسْتَذَلُّ الأَخْيارُ، ويُبايِعُ المُضْطَرُّونَ، وقَدْ نَهى رسولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ بَيْعِ المُضْطَرِّينَ.

الشرح: زمانٌ عَضُوض، أي كلِبٌ على النّاس، كانه يَعَضهم، وفَعول للمبالَغة، كالنَّفور العَقوق، ويجوز أن يكون من قولهم بئرٌ عَضُوض، أي بعيدةُ القَعْر ضَيّقة، وما كانت البئر عَضُوضاً، فاعضّت كقَوْلهم: ما كانت جَرُوراً فأجرّت، وهي كالعَضوض.

وعَضّ فلانٌ على ما في يده أي بَخِل وأمسك.

وينهد فيه الأشرار، ينهضون إلى الولايات والرِّياسات، وترتفع أقدارُهم في الدنيا. ويُستَذَلّ فيه أهْل الخيْر والدِّين، ويكون فيه بَيْعٌ على وجه الاضطرار والإلجاء، كمن يبعث ضَيْعَته، وهو ذليل ضعيف، من ربِّ ضَيْعةٍ مجاورة لها ذي ثَرْوة وعِزّ وجاه فيلجِئه بمَنعه الماء واستذلاله الأكرةَ والوكيل إلى أن يبيعها عليه، وذلك منهيٌّ عنه، لأنه حرامٌ مَحْض.

- ٤٧٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلان: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وباهِتٌ مُفْتَرٍ.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: وهذَا مِثلُ قوْلِه عليه السلام: يَهْلِكُ فِيَّ اثْنان: مُحِبٌّ غالٍ، ومُبْغِضٌ قالٍ.

الشرح: قد تقدّم شرْحُ مِثلِ هذا الكلام، وخلاصة هذا القول: أن الهالك فيه المفرِط والمفرِّط، أما المُفرِط فالغُلاة، ومن قال بتكفير أعيان الصّحابة ونِفاقِهم أو فِسْقهم، وأما المفرِّط فمن استنقص به عليه السلام أو أبغَضَه أو حارَبَه أو أضمَر له غِلاً، ولهذا كان أصحابُنا أصحاب النّجاة والخلاص والفَوْز في هذه المسألة، لأنهم سَلَكوا طريقةً مقتصدة، قالوا: هو أفضل الخَلْق في الآخرة، وأعلاهُم منزلةً في الجنّة، وأفضلُ الخَلق في الدنيا، وأكثرهم خصائص ومزايًا ومناقب، وكلّ من عاداه أو حاربه أو أبغَضَه فإنه عدوٌّ لله سبحانه وخالدٌ في النار مع الكفّارِ والمنافقين، إلا أن يكون ممن قد ثبتتْ توبتُه، ومات على تولّيه وحُبِّه.

فأما الأفاضلُ مِن المهاجرين والأنصار الذين وَلُوا الإمامَة قبله فلو أنّه أنكر إمامَتهم وغضب عليهم، وسخط فعلهم، فضلاً عن أن يُشهِر عليهم السيف، أو يدعو إلى نفسه، لقُلْنا: إنهم من الهالكين، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه قد ثبَت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «حربُك حَرْبي، وسَلْمك سَلْمي»[1]، وأنه قال: «اللهم والِ مَن ولاه، وعاد من عاداه»[2]، وقال له: «لا يُحبُّك إلّا مُؤمن، وَلا يبغضك إلّا مُنافِق»[3]، ولكنا رأيناه رضيَ إمامَتَهم وبايعهم وصلى خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم، فلم يكن لنا أن نتعدّى فعله، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه، ألا ترى أنه لما برىء من معاوية برئْنا منه، ولمّا لَعَنه لعنّاه، ولمّا حَكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصّحابة كعَمْرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم!

والحاصل أنا لم نَجْعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله إلّا رتبة النبوّة، وأعطيناه كلّ ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه، ولم نَطعَن في أكابر الصحابة الذين لم يصحّ عندنا أنه طعن فيهم، وعامَلْناهم بما عامَلَهم عليه السلام به.

---

(١) ينابيع المودة: ١/ ١٧٢ - ٢٥٣، والشيعة في الفريقين: ٣٩ - ٤١ - ٢٠٥.
(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٣١)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٧٠) والطبراني في «الكبير» (٤٩٦٩).
(٣) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٧٨)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٨)، وأحمد في «مسنده» (٧٣٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٢٤). والترمذي في «المناقب» (٣٧٣٦)، والحميدي في «مسنده» (٥٨).

في التفضيل بين الصحابة

والقول بالتفضيل قولٌ قديم، قد قال به كثيرٌ من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة عمّار، والمِقْداد، وأبو ذَرّ، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأبيّ بنُ كعْب، وحذيفة، وبُرَيدة، وأبو أيّوب، وسهل بن حُنَيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيْثم بن التّيهان، وخزيمة بن ثابت، وأبو الطُّفيل عامر بن واثلة: والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وبنو هاشم كافةً، وبنو المطلب كافةً.

وكان الزبيرُ من القائلين به في بدء الأمر، ثم رجع، وكان من بني أميّة قومٌ يقولون بذلك، منهم خالدُ بنُ سعيد بن العاص، ومنهم عمرُ بنُ عبد العزيز.

وأنا أذكر ها هنا الخبر المرويَّ المشهور عن عُمَر، وهو من رِواية ابن الكلبيّ، قال: بينا عمر بن عبد العزيز جالساً في مجلسه، دخل حاجِبُه ومعه امرأةٌ أدْماء طويلةٌ حَسَنَة الجسم والقامة، ورجُلان متعلّقان بها، ومعهم كتابٌ من مَيْمونِ بن مِهران إلى عمر، فدفعوا إليه الكتاب، ففضّه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى أمير المؤمنين عمر بنِ عبد العزيز، من ميمون بنِ مِهْرَان، سلامٌ عليكَ ورحمةُ الله وبركاته، أمّا بعد، فإنه وَرَدَ علينا أمرٌ ضاقَتْ به الصّدور، وعجزتْ عنه الأوْساع، وهربْنا بأنفسِنا عنه، ووَكَلْناه إلى عالِمِه، لقولِ الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾(1)، وهذه المرأة والرّجلان أحدهما زَوْجها والآخر أبوها، وإنّ أباها يا أميرَ المؤمنين زَعَم أنّ زوجَها حَلَف بطلاقها أنّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه، وأنّه يَزعُم أن ابنَته طلقتْ منه، وأنه لا يجوز له في دِينِه أن يتّخذه صِهْراً، وهو يَعلَم أنّها حرامٌ عليه كأمّه. وإنّ الزَّوْج يقول له: كذبتَ وأثِمْتَ، لقد بَرّ قَسَمي، وصدَقتْ مقالَتِي، وإنّها امرأتي على رَغْم أنفِك، وغَيْظ قلبِك، فأجتَمعوا إليّ يختصِمون في ذلك، فسألتُ الرجلَ عن يَمينِه، فقال: نعم، قد كان ذلك، وقد حلفتُ بطَلاقِها أنّ عليًّا خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآله، عرَفه من عَرَفه، وأنكَرَه من أنكرَه، فليَغْضَب من غَضِب، وليَرْضَ من رَضِي، وتَسامعَ الناسُ بذلك، فاجتَمعوا له، وإن كانت الألسنُ مجتمِعةً فالقلوب شَتَّى، وقد علمتَ يا أميرَ المؤمنين اختلافَ النّاس في أهوائهم، وتسرّعهم إلى ما فيه الفِتْنة، فأحجَمْنا عن الحُكم لتَحكُم بما أراكَ الله. وإنهما تعلّقَا بها، وأقسَم أبوها ألا يَدَعَها معه، وأقسَم زَوْجُها ألّا يفارقَها ولو ضُرِبتْ عُنقُها إلّا

---

(1) سورة النساء، الآية: ٨٣.

أن يحكُم عليه بذلك حاكم لا يَستطيع مُخالَفته والامتناعَ منه، فرفعناهمْ إليك يا أمير المؤمنين، أحسن الله توفيقَك وأرْشَدَك!. وكَتَب في أسفلِ الكتاب:

إذا مـا الـمُـشـكِـلاتُ وردْن يَـومـاً ... فـحـارَتْ فـي تـأمُّـلِـهـا الـعُـيـونُ
وضـاقَ الـقـومُ ذَرْعـاً عـن نـبـاهَـا ... فـأنـتَ لـهـا أبـا حـفـصٍ أمـيـنُ
لأنـك قـد حَـوَيْـتَ الـعِـلـمَ طُـرًّا ... وأحـكَـمَـكَ الـتـجـارِبُ والـشُّـؤونُ
وخَـلَّـفـكَ الإلـٰه عـلـى الـرّعـايَـا ... فَـحـظّـك فـيـهـمُ الـحَـظّ الـثّـمـيـنُ

قال: فجمعَ عمرُ بنُ عبدُ العزيز بني هاشم وبني أميّة وأفخاذ قُرَيش، ثم قال لأبي المرأة: ما تقول أيّها الشيخ؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا الرجلُ زوّجْتُه ابنتي، وجهّزْتُها إليه بأحسَن ما يجهَّز به مِثْلُها، حتى إذا أمّلت خيرَه، ورجوتُ صلاحَه، حلَف بطلاقها كاذِباً، ثم أراد الإقامةَ معها، فقال له عمر: يا شيخ، لعلّه لم يُطلّق امرأتَه، فكيفَ حَلَف؟ قال الشيخ: سبحانَ الله! الذي حَلَفَ عليه لأبيَنُ حِنثاً وأوضَح كذباً من أن يَختَلِج في صدري منه شكّ، مع سِنّي وعِلْمي، لأنّه زعم أنّ عليًّا خيرُ هذه الأمّة وإلّا فامرأتُه طالق ثلاثاً. فقال للزّوج: ما تقول؟ أهكذا حَلَفتَ؟ قال: نعم، فقيل: إنّه لمّا قال: نَعَم، كادَ المجلسُ يَرْتَجُّ بأهلِهِ، وبنو أميّةَ يَنظُرُون إليه شَزْراً، إلّا أنّهم لم ينطِقوا بشيءٍ، كلٌّ ينظرُ إلى وجهِ عمر.

فأكبَّ عمر مَلِيًّا يَنكُتُ الأرضَ بيَدِه والقومُ صامِتون ينظُرُونَ ما يَقُولُه، ثمّ رفع رأسَه، وقال:

إذَا وَلِـيَ الـحـكـومـةَ بـيـنَ قـومٍ ... أصـاب الـحَـقَّ والـتـمـسَ الـسَّـدَادَا
ومـا خـيـرُ الإمـامِ إذا تـعَـدَّى ... خـلافَ الـحَـقِّ واجْـتَـنَـبَ الـرَّشـادا

ثم قال للقوم: ما تقولونَ في يَمينِ هذا الرجل؟ فسَكَتُوا، فقال: سبحان الله! قولُوا: فقال رجلٌ من بني أميّة: هذا حُكْم في فرْج، ولسْنا نجترىءُ على القَوْل فيه، وأنتَ عالمٌ بالقولِ، مؤتمنٌ لهم وعليهم، قُلْ ما عندك، فإنّ القول ما لم يكن يُحِقّ باطلاً ويُبطِلُ حقًّا جائزٌ عليّ في مجلسي.

قال: لا أقولُ شيئاً، فالتفَتَ إلى رجلٍ من بني هاشم من وَلد عقيل بن أبي طالب، فقال له: ما تقول فيما حَلَفَ به هذا الرجل يا عَقيليّ؟ فاغتَنَمها، فقال: يا أمير المؤمنين، إن جعلتُ قَوْلي حُكماً، أو حُكْمي جائزاً قلتُ، وإن لم يكن ذلك فالسّكوت أوسَع لي، وأبقَى للمودّة، قال: قل وقولُك حُكم، وحُكْمكَ ماض.

فلما سَمِع ذلك بنو أميّة قالوا: ما أنصفتَنا أميرَ المؤمنين إذ جعلتَ الحُكم إلى غيرنا، ونحن من لُحمَتك وأولي رَحِمِك! فقال عمر: اسكتُوا، أعجزاً ولُؤماً! عرضتُ ذلك عليكم آنِفاً فما انتَدبتم له. قالوا: لأنّك لم تُعطِنا ما أعطيتَ العَقيليّ، ولا حكّمتنا كما حكّمتَه، فقال عمر: إن كانَ أصابَ وأخطأتُم، وحَزَم وعَجَزتم، وأبصَر وعَميتم، فما ذَنْب عمَر، لا أبا لكم! أتدرون ما

مَثَلكم؟ قالوا: لا نَدْرِي، قال: لكنّ العقيليّ يَدْرِي، ثم قال: ما تقول يا رجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، كما قال الأوّل:

دُعِيتم إلى أمرٍ فلما عَجَزْتُم ... تَناوَلَه مَن لا يُداخِلُه عَجْزُ
فلمّا رأيتمْ ذاكَ أبدتْ نُفوسُكُمْ ... نِداماً وهل يُغني من القدر الحذْر!

فقال عمر: أحسنت وأصبْتَ، فقل ما سألتُك عنه. قال: يا أمير المؤمنين، بَرّ قَسَمهُ، ولم تَطلُق امرأتُه، قال: وأنّى علمتَ ذاك؟ قال: نشدتُكَ الله يا أمير المؤمنين، ألم تعلمْ أنّ رسولَ الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام وهوَ عندَها في بَيْتها عائدٌ لها: «يا بُنَيّة، ما عِلّتُك؟» قالت: الوَعَك يا أبَتاه - وكان عليٌّ غائباً في بعض حَوائج النبيّ ﷺ - فقال لها: «أتشتَهين شَيْئاً؟» قالت: نَعم أشتَهي عِنَباً، وأنا أعلَم أنّه عَزيز، وليس وَقْت عِنَب، فقال ﷺ: «إن الله قادرٌ على أن يجيئنا به»، ثمّ قال: «اللهمّ ائتنا به مع أفضل أمّتي عندَك منزلةً»، فطَرَق عليٌّ الباب، ودَخَل ومعه مِكْتَل قد ألقَى عليه طرف ردائه، فقال له النبيّ ﷺ: «ما هذا يا عليُّ؟» قال: عِنَبٌ التمستُه لفاطمةَ، فقال: «الله أكبر الله أكبر، اللهمّ كما سررْتني بأن خَصصتَ عليًّا بدَعْوَتي فاجعلْ فيه شفاءَ بنيّتي»، ثم قال: «كُلي على اسم الله يا بُنيّة»، فأكَلَت، وما خَرَج رسول الله ﷺ حتّى استقلّت وبَرَأَتْ[1]، فقال عمر: صدقتَ وبرَرْتَ، أشهَدُ لقد سمعتُه ووعيتُه، يا رجل، خذ بِيَد امرأتِك فإن عَرَض لك أبوها فاهشِمْ أنفَه. ثم قال: يا بَني عبدِ مناف، والله ما نَجهل ما يَعلم غيرُنا، ولا بنا عمًى في ديننا، ولكنّا كما قال الأوّل:

تَصيّدتِ الدنيا رجالاً بفَخِّها ... فلم يدركوا خيراً بل استَقبحُوا الشّرّا
وأعماهُمُ حُبُّ الغنَى وأصَمَّهُمْ ... فلم يُدرِكوا إلّا الخسارةَ والوزرَا

قيل: فكأنما ألْقَم بني أميّة حَجَراً، ومضى الرجل بامرأتِه.

وكتب عُمر إلى ميمونَ بن مِهْرانَ: عليك سلامٌ، فإنّي أحمَد إليك الله الّذي لا إلٰه إلّا هو، أمّا بعد، فإني قد فهمتُ كتابَك، ووَرَدَ الرّجلان والمرأة، وقد صَدّق الله يَمينَ الزّوج، وأبرَّ قَسَمَه، وأثبته على نِكاحه، فاستيقنْ ذلك، واعملْ عليه، والسّلام عليكَ ورحمةُ الله وبركاته.

فأما مَن قال بتفضِيله على النّاس كافّةً من التابعين فَخَلْقٌ كثير كأُوَيْس القَرَنِيّ وزَيْد بن صُوحان، وصَعْصعة أخيه، وجُندُب الخير، وعُبيدة السَّلْمانيّ وغيرهم ممّن لا يُحصَى كثرةً، ولم تكن لفظةُ الشّيعة تُعرف في ذلك العَصْر إلا لمن قال بتفضيله، ولم تكن مقالةُ الإماميّة ومَنْ نَحا نحوَها من الطّاعِنين في إمامةِ السّلف مشهورة حينئذٍ على هذا النحو من الاشتهار، فكان القائلون بالتفضيل هم المسمَّوْن الشّيعة، وجميعُ ما وَردَ من الآثار والأخبار في فضل الشّيعة

---

(١) أنظر كتاب الأربعين للشيرازي: ٥٠٠، ومواقف الشيعة: ١/ ٦١.

وأنهم مَوْعودُون بالجنّة، فهؤلاء هم المعنيّون به دون غيرِهم، ولذلك قال أصحابُنا المعتزلة في كُتُبِهم وتصانيفهم: نحن الشيعةَ حقًّا. فهذا القولُ هو أقرَبُ إلى السّلامة وأشبَهُ بالحقّ من القَوْلين المقتَسِمَيْنِ طرفَي الإفراط والتّفريط إن شاء الله(١).

- ٤٧٩ -

الأصل: وسُئلَ عن التوْحيدِ والعَدْلِ، فقالَ: التَّوْحِيدُ ألّا تَتَوَهَّمَهُ، والْعَدْلُ ألّا تَتَّهِمَهُ.

الشرح: هذان الرّكنان هما رُكْنا علم الكلام، وهما شِعارُ أصحابنا المعتزلة، لنَفْيِهم المعانيَ القديمة التي يُثبِتها الأشعريّ وأصحابُه، ولتنزيههم الباريء سبحانه عن فِعل القَبيح.

ومعنى قوله: «ألاّ تتوهّمه» أي ألا تتوهّمهُ جسْماً أو صورةً أو في جهةٍ مخصوصة، أو مالئاً لكلّ الجِهات كما ذَهَب إليه قومٌ، أو نُوراً من الأنوار، أو قوّة ساريةً في جميع العَالم، كما قالَه قومٌ، أو مِنْ جنس الأعْرَاض الّتي تَحُلّ الحال أو تَحُل المَحَلّ، وليس بعَرَض كما قاله النّصارى وغُلاة الشّيعة، أو تحلّه المعاني والأعراض، فمتى تُوُهّم على شيء مِنْ هذا فقد خُولف التوحيد، وذلك لأنّ كل جِسْم أو عَرَض أو حالٌ في مَحَلّ أو محلّ الحالّ، أو مختص بجهة، لا بدّ أن يكون منقسِماً في ذاته، لا سيّما على قول مَنْ نَفَى الجزاء مطلقاً، وكلّ منقسم فليس بواحد، وقد ثبتَ أنّه واحد. وأضاف أصحابُنا إلى التّوحيد نَفي المعاني القديمة، ونَفي ثانٍ في الإلهية، ونفيَ الرؤية، ونفي كونه مشتهياً أو نافِراً أو ملتَذّاً أو آلِماً أو عالِماً بِعلم مُحْدَث، أو قادراً بقُدْرة محدثة، أو حَيًّا بحياةٍ محدَثة، أو نفي كونه عالماً بالمستقبَلات أبداً، أو نفي كونِه عالماً بكلّ معلوم أو قادراً على كلّ الأجناس وغير ذلك من مسائل عِلم الكلام التي يُدخِلها أصحابنا في الركن الأوّل، وهو التوحيد.

وأما الركن الثاني فهو ألّا تتّهمه، أي لا تتّهمه في أنه أجْبَرك على القبيح، ويعاقبك عليه، حاشَاه من ذلك! ولا تتّهمه في أنه مَكّن الكَذّابين من المعجزات، فأضلّ بهم الناس، ولا تتهمه في أنه كلّفك ما لا تُطِيقه، وغير ذلك مِن مسائل العَدْل الّتي يَذكُرها أصحابُنا مفصّلةً في كتُبِهم كالعِوض عن الألم، فإنه لا بدّ منه، والثواب على فِعل الواجبِ فإنه لا بدّ منه، وصِدْق وعدِه ووعيدِه، فإنه لا بدّ منه. وجملة الأمر أنّ مذهبَ أصحابِنا في العَدْل والتوحيد مأخوذٌ عن أمير المؤمنين. وهذا المواضعُ من المَوضِع الّتي قد صَرّح فيها بمذهبِ أصحابِنا بعَيْنه، وفي فَرْش كلامِه من هذا النَّمط ما لا يُحصَى.

- ٤٨٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : في دعاءٍ استَسْقى بِهِ: اللّهُمْ اسْقِنا ذُلُلَ السَّحَائِبِ دُونَ صِعابِها.

قالَ الرَّضيّ رَحمهُ الله تعالى: وهذَا مِنَ الْكَلامِ الْعَجِيبِ الفصاحةِ، وذَلكَ أنهُ عليه السلام شَبّهَ السُّحُبَ ذَوَاتِ الرُّعُودِ والبَوَارِقِ، والرِّياحِ والصَّوَاعِقِ، بالإِبِلِ الصِّعابِ الَّتِي تَقْمُصُ بِرِحَالِهَا، وَتَتَوَقَّصُ بِرُكبانِها، وشَبَّهَ السَّحَائبَ الخالِيَةَ مِنْ تِلْكَ الزوَابعِ بالإبِلِ الذُّلُلِ الَّتِي تُحْتَلَبُ طَيِّعَةً، وتُقْتَعَدُ مُسْمِحَةً.

الشرح: قد كَفَانا الرضيُّ - رحمه الله - بشرْحه هذه الكلمةَ مَؤونَةَ الخَوْض في تفسيرها.

- ٤٨١ -

الأصل: وقيلَ لَهُ عليه السلام : لَوْ غَيَّرْتَ شَيْبَكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فقال: الْخِضَابُ زِينَةٌ، ونَحْنُ قَوْمٌ في مُصِيبَةٍ بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله.

بعض ما قيل من الشعر في الشيب والخضاب

الشرح: قد تقدّم لنا في الخِضاب قولٌ كافٍ، وأنا أستملِح قولَ الصّابي فيه:

خضابٌ تقاسَمْناه بيني وبينَها ... ولكنّ شأني فيه خالَفَ شانَها
فيا قُبْحَه إذْ حَلَّ مِنّي بمَفرِقي ... ويا حُسْنَه إذ حَلَّ منها بَنانَها
وسُحْقاً له عن لِمّتي حينَ شانَها ... وأهلاً به في كَفِّها حيث زانَها

وقال أبو تمّام:

لَعِب الشَّيبُ بالمَفارِق بل جـ ... ـدَّ فأبكَى تُماضِراً ولَعُوبَا
خَضَبتْ خَدّها إلى لؤلؤِ العِقْـ ... ـد دماً أنْ رأتْ شَوَاتي خَضِيبَا
كلّ داءٍ يُرجَى الدّواء له ... إلّا الفَظِيعَين: مَيْتة ومَشيبَا
يا نسيبَ الثّغام ذَنبك أبقَى ... حَسَناتي عند الحِسان ذُنوبَا
ولئن عِبْنَ ما رأَينَ لقد أنـ ... ـكَرْنَ مستنكَراً وعِبْنَ مَعيبَا

لو رأى اللّهُ أنّ في الشَّيب فَضلاً جاورتْه الأبرَارُ في الخُلْد شيبَا

وقال:

فإن يكن المشيبُ طَغَى علينا وأوْدَى بالبَشاشةِ والشَّبابِ

فإنّي لستُ أدفعُه بشَيْءٍ يكون عليه أثقلَ من خِضاب

أردتُ بأنّ ذَاك وذا عذابٌ فسلّطت العذابَ على العَذابِ

ابنُ الرُّوميّ:

لم أخضِب الشَّيبَ للغَوانِي أبغِي به عندَهم وِدادَا

لكنْ خضِابي على شَبابٍ لبستُ مِن بَعده حِدادَا

ومن مختارِ ما جاءَ من الشّعر في الشَّيب وإن لم يكن فيه ذِكر الخِضاب قولُ أبي تمّام:

نَسَجَ المَشيبُ له لفاعاً مُغدِفا يَقَقاً فقَنَّع مِذْرَوَيْه ونَصَّفَا

نَظَر الزمانُ إليه قطَّع دونَه نَظَر الشَّقيق تَحَسُّراً وتلهُّفا

ما اسوَدّ حتّى ابيضّ كالكرم الّذي لم يَبْدُ حتّى جيءَ كيْما يقطفَا

لما تفرّقت الخُطوبُ سَوادَها ببَياضِها عَبثت به فتفوّفا

ما كان يَخطر قبل ذا في فِكْرِه للبَذْر قبلَ تمامِه أن يُكسَفا

وقال أيضاً:

غدَا الهَمُّ مختطًّا بفَوْدَيّ خِطّةً طريقُ الرّدَى منها إلى المَوت مَهْيَعُ

هو الزَّور يُجْفَى، والمُعاشرُ يُجْتَوَى وذُو الإلْف يُقْلَى، والجديدُ يُرَقَّعُ

له مَنظَر في العَيْن أبيضُ ناصعٌ ولكنّه في القلب أسوَدُ أسفَعُ

ونحن نُرَجِّيه على الكُرْه والرِّضَا وأنْفُ الفَتَى من وجهِه وهو أجْدعُ

وقال أيضاً:

شُعلةٌ في المَفارِق استَوْدَعَتْني في صَميم الأحشاء ثُكْلاً صَمِيما

تَستثيرُ الهمومَ ما اكتنّ منها صُعُداً وهي تَستثيرُ الهُمومَا

غُرة مُرَّةٌ ألا إنّما كنـ ـت أغرّ أيّام كنتُ بَهيما

دقّةٌ في الحياةِ تُدعَى جَلالاً مِثل ما سُمّيَ اللَّدِيغُ سَلِيما

حـلّـمْـتـنـي زعـمْـتُـمْ وأرانـي ... قبلَ هذا التّحلِيم كنتُ حَلِيما

وقال الصّابي وذَكَر الخِضاب:

خضبتُ مَشِيبي للتّعلُّق بالصِّبا ... وأوهَمْتُ مَن أهواهُ أنيَ لم أشِبْ
فلمّا ادّعى منّي العِذارُ شبيبةً ... إذا صَلعِي قد صاحَ من فَوقه كَذَبْ
فكَم طُرّةٍ طارَتْ ودانَتْ ذوائبٌ ... وكم وَجْنةٍ حالَتْ وماءٍ بها نَضَبْ
شواهدُ بالتزوير يَخوِينَ رَبَّها ... فهِجرانُه عند الأحِبّة قد وَجَبْ

البحتريّ:

بانَ الشّبابُ فلا عَيْنٌ ولا أثَرٌ ... إلاّ بقيّةُ بُرْدٍ منه أسمالِ
قد كِدْت أخرِجه عن مُنتهَى عَدَدِي ... ياساً وأسقِطُه إذْ فات مِن بالِي
شُوء العَواقِب يأسٌ قبلَه أمَلٌ ... وأعضَلُ الداءِ نِكْس بعد إبْلالِ
والمرءُ طاعة أيّام تُنقّلُه ... تَنَقُّلَ الظلّ من حالٍ إلى حالِ

- ٤٨٢ -

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما المُجاهِدُ الشهيدُ في سَبِيلِ الله بِأعْظَمَ أجْراً مِمنْ قَدَرَ فَعَفّ، لَكَادَ العَفِيفُ أنْ يكُونَ مَلَكاً مِن الملائِكَةِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في العِفّة، وهي ضُرُوب: عِفّة اليد، وعِفّة اللسان، وعِفّة الفرْج، وهي العُظْمَى، وقد جاء في الحديث المرفوع: «مَن عَشِق فكَتَم وعَفّ وصَبَر فماتَ ماتَ شهيداً ودخَل الجنّة»[1].

وفي حكمةِ سليمانَ بن داود: إن الغالبَ لِهوَاه أشدّ من الّذي يَفتَح المدينة وحدَه.

(١) ذكره ملا علي القاري في كتابه «الأسرار في الأخبار الموضوعة» (٥٠٨)، وذكره البغدادي في «تاريخه» (١١/ ٢٩٦)، وذكره أبو عبد الله الرزرعي في كتابه «نقد المنقول» (٢٢٤) وقال موضوع على رسول الله ﷺ.

نزل خارجيٌّ على بعض إخوانه منهمْ مستتِراً من الحَجّاج، فشَخَص المنزولُ عليه لبعضِ حاجاته وقال لزوجته: يا ظَمياءُ، أوصيكِ بضَيْفي هذا خيراً - وكانتْ من أحسَنِ الناس - فلمّا عاد بعدَ شهر قال لها: كيف كان ضيفُكِ؟ قالت: ما أشغَلَه بالعَمَى عن كلّ شيء، وكان الضَّيف أطبَقَ جَفْنَيه فلم يَنظُر إلى المرأة ولا إلى منزلها إلى أن عاد زوجُها.

وقال الشاعر:

إن أكـنْ طـامِـحَ الـلّـحـاظِ فـإنّـي والّـذي يَـمـلِـكُ الـقـلـوبَ عَـفِـيـفُ

خرجت امرأةٌ من صالحاتِ نساءِ قريش إلى بابها لتغلِقَه، ورأسُها مكشوف، فرآها رجلٌ أجنبيّ فرجعتْ وحلقتْ شعرَها، وكانت من أحسَنِ النّساء شَعْراً، فقيل لها في ذلك، قالت: ما كنتُ لأدَعَ على رأسِي شَعْراً رآه من ليسَ لي بمَحرَم.

كان ابنُ سِيرِينَ يقول: ما غَشِيتُ امرأةً قطّ في يَقَظَةٍ ولا نَوْم غيرَ أمّ عبدِ اللّه وإنّي لأرَى المرأةَ في المَنام وأعلم أنها لا تَحِلّ لي فأصرف بَصَري عنها.

وقال بعضهم:

وإنّـي لـعـفّ عـن فُـكـاهـةِ جـارَتِـي وإنّـي لـمَـشـنـوءٌ إلـيّ اغـتـيـابُـهـا

إذا غـابَ عَـنْـهَـا بـعـلُـهـا لـم أكُـنْ لـهـا صَـدِيـقـاً ولـم تـأنَـسْ إلـيّ كِـلابُـهـا

ولـم أكُ طَـلاّبـاً أحـاديـثَ سِـرِّهـا ولا عـالِـمـاً مـن أيّ حَـوْك ثـيـابُـهـا

دخلتْ بُثينةُ على عبدِ الملك بن مَرْوانَ، فقال: ما أرَى فيك يا بُثَيْنة شيئاً ممّا كان يَلهَج به جَميل! فقالت: إنه كان يَرْنُو إليّ بعَيْنين ليستَا في رَأسِك يا أميرَ المؤمنين، قال: فكيف صادفتِه في عِفّته؟ قالت: كما وَصَفَ نفسَه إذ قال:

لا والّـذي تَـسـجُـد الـجِـبـاهُ لـه مـا لـي بـمـا ضَـمّ ثـوبُـهـا خَـبَـرُ

ولا بـفِـيـهـا ولا هَـمَـمْـتُ بـه مـا كـانَ إلّا الـحـديـثُ والـنّـظَـرُ

وقال أبو سَهْل الساعديّ: دخلت على جَميل في مرض مَوْته، فقال: يا أبا سَهْل، رجلٌ يَلقَى الله ولم يَسفِكْ دماً حراماً، ولم يَشرَبْ خمراً، ولم يأتِ فاحشةً، أترجو له الجنّة؟ قلتُ: إي والله فمن هوَ؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك، فذَكَرتُ له بُثَيْنَة، فقال: إنّي لفِي آخر يومٍ من أيّام الدنيا، وأوّل يومٍ من أيّام الآخرة، لا نالَتْني شفاعة محمّد إنْ كنتُ حدّثتُ نفسي بريبةٍ مَعَها أو مع غيرِها قطّ.

قال الشاعر:

قـالـتْ وقـلـتُ تَـرَفَّـقِـي فـصِـلِـي حَـبْـلَ امـرىءٍ بـوِصـالـكـمْ صَـبِّ

صـادِقْ إذاً بَـعْـلـي فـقـلـتُ لـهـا الـغـدرُ شـيءٌ لـيـسَ مـن شَـعْـبِـي

ثِنْتانِ لا أصْبو لِوَصْلِهِما عِرْسُ الصدّيق وجارَة الجَنْبِ
أمّا الصديقُ فلستُ خائِنَهُ والجارُ أوْصاني به رَبّي

يقال: إنّ امرأةً ذات جمالٍ دَعتْ عبد اللّه بن عبد المطّلب إلى نفسها لما كانت تَرَى على وجهه من النُّور، فأبى وقال:

أمّا الحرامُ فالمماتُ دُونَهُ والحلّ لا حلّ فأستبينَهُ
فكيف بالأمرِ الذي تَبْغينهُ يَحمِي الكريمُ عِرْضَه ودِينَهُ

راوَدَ توبةُ بنُ الحمِّير ليلى الأخيليّة مرةً عن نفسها، فاشمأزّت منه وقالت:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها فليس إليها ما حَيِيتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وخَليلُ

ابنُ مَيّادة:

موانِعُ لا يُعطين حَبّةَ خَرْدلٍ وهنّ زَوانٍ في الحديث أوانسُ
ويَكرَهن أن يَسمعن في اللّهوِ رِيبةً كما كرِهتْ صوتَ اللِّجام الشّوامِسُ

آخر:

بيضٌ أوانسُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ كظِباء مَكّةَ صيدُهنّ حَرامُ
يُحسَبْن من لين الكلامِ زَوانياً ويصدُّهنّ عن الخنا الإسلامُ

في الحديث المرفوع: «لا تكوننّ حديدَ النّظر إلى ما ليس لك، فإنه لا يَزْني فَرْجُك ما حَفِظْتَ عَيْنَيك، وإن استطعت ألاّ تنظرُ إلى ثوب المرأة التي لا تَحلّ لك فافعل ولن تستطيع ذلك إلّا بإذن الله»(١).

كان ابن المولى الشاعر المدنيّ موصوفاً بالعفّة وطيب الإزار، فأنشد عبد الملك شعراً له من جُمْلته:

وأبكي فلا لَيْلَى بكتْ من صَبابةٍ لباكٍ ولا لَيلى لذي البَذل تبذُلُ
وأخنع بالعُتبَى إذا كنتُ مُذْنِباً وإن أذنبتْ كنتُ الذي أتنَصّلُ

فقال عبدُ الملك: مَن ليلى هذه؟ إن كانت حرّة لأزَوّجنكها، وإن كنت أمةً لأشترينّها لك بالغة ما بلغتْ، فقال: كلاّ يا أمير المؤمنين، ما كنت لأصَعّر وجه حُرٍّ أبداً في حُرَّته ولا في أمَتِه، وما ليلى التي أنِست بها إلا قَوْسي هذه سمّيتها ليلى لأنّ الشاعر لا بد له من النَّسيب.

ابن الملوّح المجنون:

كأن على أنيابها الخمر مَجّهُ بماءِ النّدَى من آخِر الليل غابِقُ

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: ٣/ ١٨١.

وما ذُقتُه إلا بعَيني تفرُّساً ... كما شِيم من أعلى السَّحابة بارِقُ

هذا مثل بيت الحماسة:

بأعذبَ مِنْ فيها وما ذُقتُ طَعْمَه ... ولكنني فيما تَرَى العينُ فارِسُ

شاعر:

ما إن دعاني الهوَى لفاحِشَةٍ ... إلا نهاني الحياءُ والكَرَمُ

ولا إلى مَحْرمٍ مددتُ يَدِي ... ولا مَشَت بي لريبةٍ قَدَمُ

العباس بنُ الأحْنَف:

أتأذَنون لصبٍّ في زيارتِكُمْ ... فعندَكم شَهَوات السَّمْع والبَصَرِ

لا يُضمِرُ السُّوء إن طال الجلوس به ... عفُّ الضمير ولكنْ فاسقُ النَّظَرِ

قال بعضهم: رأيتُ امرأةً مستقبلة البيت في المَوْسم، وهي في غاية الضرِّ والنّحافة رافعةً يديها تدعو، فقلتُ لها: هل لكِ من حاجة؟ قالت: حاجتي أن تُنادِيَ في الموقف بقولي:

تزوَّدَ كلُّ الناس زاداً يُقيمُهُمْ ... ومالِيَ زادٌ والسّلام على نَفْسي

ففعلت، وإذا أنا بفَتى مَنْهوك، فقال: أنا الزاد، فمضيتُ به إليها، فما زادوا على النظر والبكاء، ثمّ قالت له: انصرف مُصاحَباً، فقلت: ما علمت أن التقاء كما يُقتصر فيه على هذا، فقالت: امسِكْ يا فتى، أما علمت أن ركوب العار ودُخول النار شديد.

قال بعضهم:

كم قد ظَفِرتُ بمن أهوَى فيَمنَعُني ... منهُ الحَياءُ وخوفُ الله والحَذَرُ

وكم خَلَوْتُ بمن أهوَى فيُقْنعُني ... منه الفُكاهةُ والتّحديثُ والنَّظَرُ

أهوى المِلاحَ وأهوَى أن أجالِسَهمْ ... وليس لي في حَرامٍ منهمُ وَطَرُ

كذلك الحُبّ لا إتْيانُ معصيةٍ ... لا خَير في لذّةٍ من بعدِها سَقَرُ

قال محمّد بن عبدِ اللّه بنِ طاهر لبنيه: اعشقُوا تَظرُفوا، وعِفُّوا تشرُفوا.

وَصَف أعرابيٌّ امرأةً طَرَقَها، فقال: ما زالَ القمرُ يُرينيها فلمّا غاب أرتنيه، فقيل: فما كان بينكما؟ قال: ما أقربَ ما أحلّ الله ممّا حرّم، إشارة في غير باسٍ، ودنوٌّ مِن غير مساس، ولا وَجَع أشدّ من الذّنوب.

كثيِّر عَزّة:

وإنّي لأرضَى منكِ يا عَزّ بالّذي ... لو أبصَرَه الواشي لَقرّت بلابلُهْ

بِلا وبألاّ أستطيعَ وبالمُنَى ... وبالوَعْد حتّى يسأمَ الوعدَ آمِلُهْ

وبالنّظرة العَجْلَى وبالحَوْل يَنقضِي ... أواخِرُه لا نلتقِي وأوائِلُهْ

وقال بعضُ الظُّرَفاء: كان أربابُ الهَوَى يسرّون فيما مضى، ويقنَعون بأن يَمضُغ أحدُهم لباناً قد مَضغَتْه محبوبتُه، أو يَسْتاك بسواكِها، ويرَوْن ذاك عظيماً، واليومَ يطلُب أحدهم الخَلْوة وإرخاء السُّتور، كأنّه قد أشهَد على نكاحِها أبا سعيدٍ وأبا هُريرة.

وقال أحمد بنُ أبي عثمان الكاتب:

وإنّي لَيُرضِيني المرورُ ببابِها ... وأقنَعُ منها بالوَعِيد وبالزَّجْرِ

قال يوسف بن الماجِشون: أنشَدْتُ محمّد بن المنكدِر قول وَضّاح اليَمن:

إذا قلتُ هاتِي نَوّليني تبسّمتْ ... وقالت معاذَ اللّه مِنْ فِعْلِ ما حَرُمْ

فما نَوّلتْ حتّى تضرّعْتُ حَوْلها ... وعرّفْتُها ما رَخّص اللّه في اللَّمَمْ

فَضحِك وقال: إنْ كان وَضّاحٌ لَفَقِيهاً في نفسِه.

قال آخر:

فقالتْ بحَقّ اللّهِ إلا أتيتَنا ... إذا كان لَونُ الّليل لونَ الطَّيالِسِ

فجئتُ وما في القومِ يقْظان غيرُها ... وقد نامَ عنها كلُّ والٍ وحارِسِ

فبِتْنا مَبِيتاً طيّباً نستلذّه ... جميعاً ولم أمدُدْ لها كَفَّ لامِسِ

مرّت امرأة حَسْناءُ بقَوْم من بني نُمَير مجتَمعين في نادٍ لهم، فرَمقُوها بأبصارهم، وقال قائل منهم: ما أكمَلَها لولا أنّها رَسْحاء! فالتَفَتتْ إليهم، وقالت: والله يا بَني نمير، ما أطَعْتم الله ولا الشاعر، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾(١).

وقال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّك من نُمَيرٍ ... فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلابا

فأخجلَتْهم. وقال أبو صَخْر الهُذَليُّ من شِعْر الحماسة:

لَلَيلةٌ منها تَعُود لنا ... من غير ما رَفَثٍ ولا إثْمِ

أشهَى إلى نفسِي ولو برحتْ ... ممّا ملكتُ ومِنْ بني سَهْم

آخَر:

وما نلتُ منها مَحْرَماً غير أنّني ... أقبّل بسّاماً من الثّغر أفلَجا

والثُمُ فَاها آخِذاً بقُرُونِها ... وأترُك حاجاتِ النُّفوس تَحرُّجا

وأعفُّ من هذا الشّعر قولُ عبدِ بني الحَسْحاسِ على فِسْقه:

لعمرُ أبيها ما صَبَوْتُ ولا صَبَتْ ... إليَّ وإنّي من صِباً لَحلِيمُ

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

سِوَى قُبلةٍ أستغفِر اللّه ذَنْبها سأطعِم مسْكِيناً لها وأصُومُ

وقال آخَر:

ومجدُولةٍ جَدْلَ العَناقِ كأنما سَنَا البَرْق في داجِي الظَّلام ابتسامُها
ضربتُ لها الميعادَ ليستْ بكنّةٍ ولا جارةٍ يُخشَى عليّ ذِمامُها
فلمّا التقَيْنا قالت الحُكْم فاحتَكَمْ سوى خِلّةٍ هَيهاتَ منكَ مرَامُها
فقلتُ مَعاذَ اللّه أن أركب التي تَبيدُ ويَبْقَى في المَعادِ أثامُها

قولُه: «ليست بكَنّة * ولا جارةٍ يُخشَى عليّ ذِمامُها»، مأخوذٌ من قول قيس بن الخَطِيم:

ومثلكِ قد أحبَبْتُ ليستْ بكَنَّةٍ ولا جارة ولا حَليلة صاحبِ

وهذا الشاعر قد زاد عليه بقوله: «ولا حليلة صاحب».

وأنشد ابن مَنْدُوَيه لبعضهم:

أنا زانِي اللِّسانِ والطَّرْفِ إلاّ أنّ قلبي يَعافُ ذاكَ ويأبَى
لا يَراني الإلهُ أشْرَب إلاّ كلُّ ما حَلَّ شُربُه لي وطابَا

آخَر:

نَلهُو بهنّ كذا من غيرِ فاحشةٍ لهوَ الصِّيامِ بتُفّاح البَساتِينِ

بشّار بنُ بُرْد:

قالوا حرامٌ تَلاقِينا فقلتُ لهمْ ما فِي التزامِ ولا في قُبْلةٍ حَرَجُ
مَن راقَب الناسَ لم يَظفَر بحاجَتِه وفازَ بالطيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

البيت الآخَر مِثْلُ قولِ القائل:

مَن راقبَ الناسَ ماتَ هَمّا وفازَ باللّذّة الجَسُورُ

أبو الطيّب المتنبّي:

وتَرَى الفتوّة والمروّة والأبوّة فيّ كُلُّ مليحة ضَرّاتِها
هنّ الثلاث المانِعاتِي لَذّتي في خَلْوَتي لا الخوفُ مِنْ تَبِعاتها
إنّي على شَغَفي بما في خَمْرِها لأعفُّ عمّا في سَراويلاتِها

كان الصاحبُ رحمه الله يَستهجِن قولَه: «عمّا في سَراوِيلاتِها»، ويقول: إن كثيراً من العُهر أحسَن من هذه العِفّة، ومعنى البيت الأوّل أن هذهِ الخِلالَ الثلاث تَراهُنّ المِلاح ضَرائرَ لهنّ لأنّهن يمنَعْنه عن الخَلْوَة بالمِلاح والتمتّع بهنّ. ثم قال: إنّ هذه الخلالَ هي الّتي تَمنَعه لا الخوفُ من تَبِعاتها، وقال قوم: هذا تَهاونٌ بالدِّين، ونوعٌ من الإلحاد. وعندي أنّ هذا مَذهبُ

للشّعراء معروف، لا يُريدون به التَهاوُنَ بالدِّين، بل المبالغةَ في وَصْف سجَاياهُم وأخلاقِهم بالطّهارة، وأنّهم يَتركُون القَبيح لأنّه قبيح، لا لورُود الشَّرْع به، وخوف العِقاب منه. ويُمكِن أيضاً أن يريدَ بِتَبِعاتها تبعات الدّنيا، أي لا أخاف من قوم هذه المحبوبة الّتي أَنِسْتُ بها، ولا أشفِق من حَرْبهم وكيدِهِم، فأمّا عفّة اليد وعفّة اللّسان فهما بابٌ آخَر. وقد ذكرْنا طَرفاً صالحاً من ذلك في الأجزاء المتقدّمة عند ذكرِنا الوَرَع.

وفي الحديث المرفوع: «لا يَبلُغ العبدُ أن يكون من المتّقين حتّى يترُك ما لا بأسَ به حذراً لما به البَأس»[1].

وقال أبو بكر في مرض موتِه: إنا منذُ وَلينا أمرَ المسلمين لم نأخذْ لهم دِرْهماً ولا ديناراً، وأكَلْنا من جَرِيش[2] الطّعام، ولبسْنا من خَشِن الثّياب، وليس عندَنا من فَيْء المسلمين إلّا هذا النّاضح، وهذا العبد الحَبَشيّ، وهذه القطيفة، فإذا قُبِضْتُ فادفعوا ذلك إلى عُمرَ ليجعَلَه في بيتِ مالِ المسلمين، فلما ماتَ حُمِل ذلك إلى عمرَ، فبَكَى كثيراً ثم قال: رحِم الله أبا بكر، لقد أتعَبَ مَن بَعدَه!

قال سليمان بنُ داود: يا بني إسرائيل، أوصِيكم بأمْرَيْن أفلَح مَن فَعَلَهما: لا تُدخِلوا أجوافَكم إلّا الطّيِّب، ولا تُخرِجوا مِن أفواهِكم إلّا الطّيّب.

وقال بعضُ الحكماء: إذا شئتَ أن تَعرِف ربَّك معرفةً يقينيّة فاجعلْ بينَكَ وبين المحارم حائطاً من حديد، فسوفَ يَفتَح عليك أبواب مَعرِفته.

وممّا يُحكَى من وَرَع حسّان بن أبي سِنان أنّ غلاماً له كتب إليه من الأهواز: إن قَصبَ السكّر أصابتْه السَّنة آفة فابتعْ ما قَدَرْتَ عليه من السّكّر، فإنّك تجد له ربْحاً كثيراً فيما بعد، فابتاع، وطُلِبَ منه ما ابتاعَه بعد قليلٍ بربح ثلاثينَ ألف درهم، فاستقالَ البَيْع من صاحبه، وقال: إنه لَم يَعلَم ما كنتُ أعلم حين اشتريتُه منه، فقال البائع: قد علمتُ الآن مقدارَ الرِّبح، وقد طَيّبتُه لك وأحلَلْتُك، فلم يطمئنّ قلبُه، وما زال حتّى ردّه عليه.

يقال: إنّ غَنَم الغارة اختلَطَتْ بغَنَم أهلِ الكوفة، فتورّع أبو حنيفة أن يأكُلَ اللّحمَ، وسَأل كم تَعيشُ الشّاة؟ قالوا: سبعَ سنين، فترك أكْلَ لَحم الغَنَم سبعَ سِنين.

ويقال: إنّ المنصورَ حمل إليهِ بَدْرةً فَرَمَى بها إلى زاوِية البيت، فلمّا مات جاء بها ابنُه

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب: ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٤٥١). وابن ماجه في «الزهد»، باب الورع والتقوى (٤٢١٥). والحاكم في «مستدركه» (٧٨٩٨)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (٥/ ٣٣٥).

(٢) الجريش: دقيق فيه غِلَظ. اللسان، مادة (جرش).

حمّاد بن أبي حنيفة إلى أبي الحسن بن أبي قحطبة، وقال: إنّ أبي أوْصاني أن أردَّ هذه عليك، وقال: إنّها كانت عندي كالوَدِيعة، فاصرِفْها فيما أمَرَك الله به، فقال أبو الحَسَن: رَحِم الله أبا حَنيفة! لقد شَحّ بدِينه إذ سَخَتْ به نفوسُ أقْوام.

وقال سُفْيانُ الثوريّ: انظر دِرْهمك من أين هُوَ، وَصَلّ في الصّفّ الأخير.

جابر، سمعتُ النّبيّ ﷺ يقول لكَعْب بن عُجْرة: «لا يَدخُل الجنّة لحمٌ نَبتَ من السُّحت، النّار أَوْلَى به»(١).

الحَسَن: لو وجدتُ رَغِيفاً من حَلالٍ لأحْرَقْتُه ثم سحَقْتُه ثم جَعَلْتُه ذَروراً، ثم دَاوَيْتُ به المَرْضَى.

عائشة، قالت: يا رسول الله، مَن المؤمن؟ قال: من إذا أصبَح نَظَر إلى رغيفَيْه كيف يَكتَسِبُهما، قالت: يا رسول الله، أمَا إنّهم لو كُلِّفوا ذلك لتكلّفوه، فقال لها: إنهم قد كُلِّفوه، ولكنهم يَعسِفون الدّنيا عَسْفاً.

حُذَيفة بن اليَمان يَرفَعه: إنّ قوماً يَجيئون يومَ القيامة ولهمْ من الحَسَنات كأمثالِ الجِبال، فيجعَلها الله هَباءً مَنْثوراً، ثمّ يُؤمر بهم إلى النّار، فقيل: خَلِّهم لنا يا رسول الله، قال: إنّهم كانوا يُصلُّون ويَصُومون ويأخذون أهْبَةً من اللّيل، ولكنهم كانوا إذا عُرِض عليهم الحرامُ وَثَبوا عليه.

- ٤٨٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: **الْقَناعَةُ مالٌ لا يَنْفَدُ.**

قال: وقدْ رَوَى بَعْضُهُم هَذَا الكلامَ عَن رَسُولِ الله ﷺ.

الشرح: قد تَقدَّم القولُ في هذا المعنى، وقد تكرّرتْ هذه اللّفظة بذاتِها في كلامِه عليه السلام.

ومن جَيّد القولِ في القناعة قولُ الغَزّيّ:

أنا كالثُّعْبانِ جِلْدِي مَلْبِسي ... لستُ محتاجاً إلى ثوبِ الجمَالِ
فالخُمولُ العِزّ واليأسُ الغِنَى ... والقُنوعُ المُلْك، هذا ما بَدا لي

وقال أيضاً:

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة، باب: ما ذكر في فضل الصلاة (٦١٤)، وأحمد في «مسنده» (١٤٠٣٢)، واللفظ له. والدارمي في الرقاق، باب: في أكل السحت (٢٧٧٦).

لا تعجَبنّ لمن يهوَى ويَصعَد في دُنياه فالخَلق في أرجوحةِ القَدَرِ
واقنعْ بما قَلّ فالأوْشالُ صافيةٌ ولجّة البَحْرِ لا تخلو من الكَدَرِ

- ٤٨٤ -

الأصل: وقال عليه السلام لزيادِ بْنِ أَبِيهِ وقَد استخلفهُ لعبدِ اللّه بنِ العبّاسِ على فارِسَ وأعمالِها، في كلامٍ طوِيلٍ كانَ بَيْنَهُمَا نَهَاهُ فيهِ عنْ تَقْدِيم الخَرَاجِ:

اسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ، واحْذَرِ الْعَسْفَ والْحَيْفَ، فإِنَّ العَسْفَ يَعُودُ بالجَلاءِ، والحيفَ يَدْعُو إلى السَّيْفِ.

الشرح: قد سَبَقَ الكلامُ في العَدْل والجَوْر.

وكانت عادة أهلِ فارس في أيّام عثمانَ أن يطلُب الوالي منهم خراجَ أملاكِهم قبل بَيْع الثّمار على وَجْه الاستِسْلاف، أو لأنّهم كانوا يظنّون أن أوّل السّنة القَمَريّة هو مُبتدأ وجُوبِ الخرَاج حَمْلاً للخرَاج التابع لسَنَة الشّمس على الحُقوق الهلاليّة التابعة لسَنَة القَمَر، كأجْرةِ العَقار، وجَوالِي أهلِ الذّمّة، فكان ذلك يُجحف بالنّاس ويدعو إلى عَسْفِهم وحَيْفِهم.

وقد غلط في هذا المعنى جماعةٌ من الملوك في كثير من الأعصار، ولم يَعلَموا فَرْقَ ما بين السّنَتين، ثم تنبّه له قومٌ من أذكياء الناس فكَبَسوا وجعلوا السنينَ واحدةً، ثم أهملَ الناس الكَبْس، وانفرَج ما بين السّنَة القمريّة والسّنة الخراجيّة التي هي سَنَة الشمس انفراجاً كثيراً.

واستقصاءُ القول في ذلك لا يليقُ بهذا الموضع، لأنّه خارجٌ عنِ فنّ الأدب الّذي هو موضوعُ كِتابِنا هذا.

- ٤٨٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: أَشَدُّ الذُّنُوبِ ما اسْتَخَفَّ بها صاحِبها.

الشرح: عُظْمُ المصيبةِ على حَسَب نِعْمة العاصي، ولهذا كان لَطْم الولد وجهَ الوَالدِ كبيراً ليس كلَطْمة وجه غيرِ الوَالد.

ولمّا كان الباريء تعالى أعظَمَ المُنعِمين، بل لا نِعمةَ إلّا وهي في الحَقيقة مِن نِعَمه، ومنسوبة إليه، كانت مخالَفَته ومعصِيتَه عظمة جدًا، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعصِيَه في أمرٍ وإن كان قليلاً في ظَنّه، ثم يستقلّه ويستهين به، ويُظهِر الاستخفافَ وقلّة الاحتفال بمواقَعته، فإنّه يكون قد جَمَع إلى المعصية معصيةً أخرى، وهي الاستخفاف بقَدْر تلك المعصية الّتي لو أمعَن النَّظَر لَعلم أنّها عظيمة، ينبغي له لو كان رشيداً أن يَبكِيَ عليها الدَّمَ فَضلاً عن الدَّمع، فلهذا قال عليه السلام: «أشدّ الذنوب ما استَخَفَّ بها صاحِبها».

- ٤٨٦ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَا أَخَذَ الله عَلَى أَهْلِ الجَهْلِ أنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أنْ يُعَلِّمُوا.

الشرح: تعليمُ العِلْم فرضُ كفايةٍ، وفي الخَبَرِ المرفوعِ «من عَلِم عِلْماً وكَتَمه ألجمه الله يومَ القيامة بلِجامٍ من نار»(١).

ورَوَى معاذُ بنُ جَبَل عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «تعلّموا العِلمَ فإنّ تعلُّمه خشية الله، ودِراستَه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلَبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قُرْبة، لأنّه مَعالِم الحلال والحرام، وبيانُ سبيلِ الجنّة، والمؤنس في الوحشة، والمحدّث في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السّرّاء، والمُعين على الضرّاء، والزّين عند الإخلاء، والسلاح على الأعداء»(٢).

ورُئيَ واصل بن عطاء يكتب من صبيّ حديثاً، فقيل له: مثلك يكتب من هذا! فقال: أما إني أحفَظُ له منه، ولكني أردت أن أذيقه كأس الرياسة، ليدعوَه ذلك إلى الازدياد من العلم.

وقال الخليل: العلوم أقفال، والسؤالات مفاتيحها.

(١) أخرجه أبو داود في العلم، باب: كراهية منع العلم (٣٦٥٨) من حديث أبي هريرة وابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه (٢٦٥)، من حديث أبي سعيد الخدري وأحمد في «مسنده» (٨٣٢٨)، من حديث أبي هريرة واللفظ له.

(٢) ذكره الإمام السيوطي في كتابه «تدريب الراوي» (١/ ١٦٥) وقال أخرجه ابن عبد البر في كتابه: العم وقال: حديث حسن جداً ولكن ليس له إسناد قوي، فأراد بالحسن حسن اللفظ، لأنه من رواية موسى البلقاوي وهو كذاب نسب إلى الوضع عن عبد الرحيم العمي وهو متروك.

وقال بعضهم: كان أهل العلم يضنّون بعلمهم عن أهل الدنيا فيرغبون فيه ويبذلون لهم دنياهم، واليوم قد بذل أهل العلم علمهم لأهل الدنيا فزهدوا فيه وضنّوا عنهم بدنياهم.

وقال بعضهم: ابذل علمك لمن يطلبه، وادع إليه من لا يطلبه، وإلا كان مَثَلك كمن أُهْديت له فاكهة فلم يَطعَمْها ولم يُطعِمْها حتى فسدتْ.

- ٤٨٧ -

الأصل: وقال عليه السلام: شَرُّ الإخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَهُ.

الشرح: إنما كان كذلك لأنّ الإخاء الصادق بينهما يوجب الانبساط، وترك التكلف، فإذا احتيج إلى التكلّف له فقد دلّ ذلك على أن ليس هناك إخاء صادق، ومن ليس بأخٍ صادق فهو من شرّ الإخوان.

وروى ابن ناقيا في كتاب «ملح الممالحة»، قال: دخل الحسن بن سَهل على المأمون، فقال له: كيف علمك بالمروءة؟ قال: ما أعلم ما يريد أمير المؤمنين فأجيبَه؟ قال: عليك بعمرو بن مسعدة، قال: فوافيتُ عمراً وفي داره صنّاع، وهو جالس على آجُرّة ينظر إليهم، فقلت: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تعلّمني المروءة، فدعا بآجرّة فأجلسني عليها، وتحدّثنا ملياً، وقد امتلأتُ غيظاً من تقصيره بي، ثم قال: يا غلام عندك شيء يؤكل؟ فقال: نَعَم، فقدّم طبَقاً لطيفاً، عليه رغيفان وثلاث سكرّجات، في إحداهنّ خَلّ، وفي الأخرى مرىء، وفي الأخرى مِلح، فأكلْنا، وجاء الفرّاش فوضّأنا، ثم قال: إذا شئت! فنهضت متحفّظاً، ولم أودّعه، فقال لي: إن رأيتَ أن تعود إليّ في يوم مثله! فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرى، فلما كان في اليوم الذي وعدني فيه لُقياه سرت إليه فاستؤذِن لي عليه، فتلقّاني على باب الدار، فعانقني، وقبّل بين عينيّ، وقدّمني أمامه، ومشى خلفي حتى أقعدني في الدّست، وجلَس بين يديّ، وقد فرِشت الدار، وزُيِّنَت بأنواع الزينة، وأقبل يحدّثني ويتنادر معي إلى أن حضر وقت الطعام، فأمر فقدّمت أطباق الفاكهة، فأصبنا منها، ونصبت الموائد، فقدم عليها أنواع الأطعمة من حارّها وبارِدها، وحلوها وحامضها، ثم قال: أيّ الشراب أعجب إليك؟ فاقترحت عليه، وحضر الوصائف للخدمة، فلما أردت الانصراف حَمَل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفُرش وكِسوة، وقدم إلى البساط فرس بمركب ثقيل، فركبته وأمر من بحضرته من الغلمان الرّوم والوصائف حتى سعوْا بين يديّ، وقال: عليك وأمر من بحضرته من الغلمان الرّوم والوصائف

حتى سعوْا بين يديّ، وقال: عليك بهم فهم لك. ثم قال: إذا زارك أخوك فلا تتكلّف له، واقتصر على ما يحضرك، وإذا دعوته فاحتفل به واحتشد، ولا تدعَنّ ممكناً، كفعلنا إيّاك عند زيارتك إيّانا، وفعلنا يوم دعوناك.

– ٤٨٨ –

الأصل: وقالَ عليه السلام في كلامٍ له: إذَا احْتَشَمَ المُؤمِنُ أخاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ.

الشرح: ليس يعني أن الاحتشام عِلّة الفرقة بل هو دلالة وأمارة على الفرقة، لأنه لو لم يَحْدُث عنه ما يقتضي الاحتشام لانبسط على عادته الأولى، فالانقباض أمارة المباينة.

هذا آخر ما دَوّنه الرَّضيّ أبو الحسن رحمه الله من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة»، قد أتينا على شرحِه بمعونةِ الله تعالى.

ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرضيّ مما نسبه قوم إليه، فبعضهُ مشهور عنه، وبعضه ليس بذلك المشهور، لكنه قد روى عنه، وعُزيَ إليه، وبعضه من كلام غيره من الحكماء، ولكنه كالنّظير لكلامه، والمضارع لحكمته، ولما كان ذلك متضمناً فنوناً من الحكمة نافعة، رأينا ألّا نُخْليَ هذا الكتاب عنهُ، لأنّه كالتكملة والتّتمّة لكتاب «نهج البلاغة».

وربما وقع في بعضه تكرار يسير شذّ عن أذهاننا التنبّه له، لطول الكتاب وتباعد أطرافه، وقد عددنا ذلك كلمة كلمة، فوجدناه ألف كلمة.

فإن اعترضنا معترض قال: فإذا كنتم قد أقررتم بأنّ بعضها ليس بكلام له، فلماذا ذكرتموه، وهل ذلك إلا نوع من التطويل!

أجبناه وقلنا: لو كان هذا الاعتراضُ لازماً لوجب ألّا نذكر شيئاً من الأشباه والنظائر لكلامه، فالعذر هاهنا هو العذر هناك، وهو أنّ الغرض بالكتاب الأدب والحكمة، فإذا وجدنا ما يناسب كلامه عليه السلام، وينصبّ في قالبه ويحتذي حذوَه، ويتقبّل منهاجَه، ذكَرناه على قاعدتنا في ذكر النّظير عند الخوض في شرح نظيره.

وهذا حِينُ الشروع فيها خاليةً عن الشرح لجلائها ووضوحها، وإنّ أكثرها قد سبقت نظائره وأمثاله، وبالله التوفيق.

الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

١ - كان كثيراً ما يقول إذا فرغ من صلاة الليل: أشهد أن السماوات والأرض وما بينهما آيات تدلّ عليك، وشواهد تشهد بما إليه دعوتَ. كلّ ما يؤدّي عنك الحجّة ويشهد لك بالرّبوبيّة، موسوم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك. علوتَ بها عن خَلْقِك، فأوصلتَ إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر، وكفاها رجْم الاحتجاج، فهي مع معرفتها بك، وولهِها إليك، شاهدة بأنّك لا تأخذكَ الأوهام، ولا تدركُك العقول ولا الأبصار. أعوذ بك أنْ أشير بقلبٍ أو لسان أو يدٍ إلى غيرك، لا إلٰه إلا أنتَ، واحداً أحداً، فرداً صَمَداً، ونحن لك مسلِمُون.

٢ - إلٰهي، كفاني فخراً أن تكون لي ربًّا، وكفاني عزًّا أن أكون لك عبداً، أنت كما أريد، فاجعلني كما تريد.

٣ - ما خاف امرؤ عَدَل في حكمِه، وأطعم من قُوتِه، وذَخر من دنياه لآخرته.

٤ - أفضِلْ على مَنْ شِئْتَ تكنْ أميرَه، واستَغْنِ عمَّن شئتَ تكنْ نظيرَه، واحتجْ إلى مَنْ شئت تكن أسيرَه.

٥ - لولا ضعفُ اليَقين ما كان لنا أن نشكوَ محنةً يسيرةً نرجو في العاجل سرعةَ زوالِها، وفي الآجل عظيمَ ثوابها، بين أضعاف نِعَمٍ لو اجتمع أهلُ السماوات والأرضِ على إحصائها ما وفوْا بها فضلاً عن القيام بشكرها.

٦ - من علاماتِ المأمون على دينِ الله بعدَ الإقرار والعمل، الحزمُ في أمره، والصّدق في قوله، والعدل في حكمِه، والشفقة على رعيّته، لا تخرجه القدْرة إلى خُرْق، ولا اللّين إلى ضَعْف، ولا تمنعه العزّة من كرم عفو، ولا يدعوه العفْو إلى إضاعة حقّ، ولا يدخله الإعطاء في سَرَف، ولا يتخطّى به القصْد إلى بُخل، ولا تأخذه نِعَمُ الله ببطرٍ.

٧ - الفِسْق نجاسةٌ في الهمّة، وكلَبٌ في الطّبيعة.

٨ - قلوب الجهال تستفزّها الأطماع، وترتهن بالأماني، وتتعلق بالخدائع. وكثرة الصمت زِمام اللسان، وحسْم الفطنة، وإماطة الخاطر، وعذاب الحسّ.

٩ - عَداوة الضّعفاءِ للأقوياءِ، والسفهاءِ للحلماءِ والأشرار للأخيارِ، طبعٌ لا يُستطاع تغييرُه.

١٠ - العقل في القلب، والرّحمة في الكبِدِ، والتنفُّس في الرّئةِ.

١١ - إذا أراد الله بعبدٍ خيراً حال بينه وبين شهوته، وحجز بينه وبين قلبِه، وإذا أراد به شرًّا وكلَه إلى نفسه.

١٢ - الصَّبْر مطيّة لا تكبُو، والقناعة سيف لا ينبو.

١٣ - رحم اللهُ عبداً اتقى رَبَّهُ، وناصح نفسه، وقدَّم توبته، وغلب شهوته، فإنّ أجلَه مستورٌ عنه، وأمَلَهُ خادع له، والشيطان مُوَكَّلٌ بِهِ.

١٤ - مَرَّ بمقبرة فقال: السلام عليكم يا أهل الديار الموحِشَةِ، والمحالّ المقفرةِ، من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا فَرَط، ونحن لكم تَبَعٌ نزوركم عمّا قليل، ونلحق بكم بعد زمان قصير. اللهُمَّ اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنّا وعنهم الحمد لله الذي جعل الأرض كِفاتاً، أحياءً وأمواتاً. والحمد لله الذي منها خَلَقَنَا، وعليها مُمْشانا، وفيها معاشنا، وإليها يُعيدنا. طوبَى لمن ذكر المعاد، وقنع بالكفاف، وأعدّ للحساب!

١٥ - إنكم مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، ومضمَّنُون أجداثاً، وكائنون رُفاتاً، ومبعوثون أفراداً، ومدينون حسابا. فرحِم الله امرأً اقترف فاعترف، ووجِل فعقل، وحاذر فبادر، وعُمِّر فاعتبر، وحُذِّر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى، وتأهّب للمعاد، واستظهر بالزّاد، ليوم رحيله، ووجه سبيله ولحال حاجته، وموطن فاقته، فقدّم أمامه لدار مقامه، فمهّدُوا لأنفسكم على سلامة الأبدان وفسحة الأعمار. فهل ينتظر أهلُ غضارة الشباب إلّا حوانيَ الهرم، وأهلُ بضاضة الصّحة إلّا نوازل السّقم، وأهل مدة البقاء إلا مفاجأة الفناء واقتراب الفوت، ومشارفة الانتقال، وإشفاء الزوال، وحَفْز الأنين ورشْح الجبين، وامتداد العِرْنين، وعَلَز القلق، وقَيْظ الرَّمَق وشدّة المضَض، وغَصص الجرَض.

١٦ - ثلاث منجيات: خشية الله في السرّ والعَلانية، والقَصْد في الفقر والغنى، والعَدْل في الغضب والرضا.

١٧ - إياكم والفُحش، فإنّ الله لا يحبّ الفُحش، وإيّاكم والشّحّ، فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم، هو الذي سفك دماء الرّجال، وهو الذي قطّع أرحامها، فاجتنبوه.

١٨ - إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، وعلمٍ كان علّمه الناس فانتفعوا به، وولدٍ صالح يدعو له.

١٩ - إذا فعلتَ كلَّ شيءٍ فكن كمن لم يفعل شيئاً.

٢٠ - سأله رجل، فقال: بماذا أسوء عدوّي؟ فقال: بأن تكون على غاية الفضائل، لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فارهٌ، أو كلب صَيُود، فهو لأن تُذكَر بالجميل وينسب إليك أشدّ مساءةً.

٢١ - إذا قُذِفت بشيء فلا تتهاونْ به وإن كان كذباً، بل تحرّزْ من طرقِ القذف جُهدَكَ، فإنَّ القول وإن لم يثبت يوجب ريبةً وشكاً.

٢٢ - عدم الأدبِ سببُ كلِّ شرٍّ.

٢٣ - الجهل بالفضائل عِدْل الموتِ.

٢٤ - ما أصعب على من استعبدتْهُ الشّهوات أن يكون فاضلاً!

٢٥ - مَنْ لم يقهر حَسَدَهُ كانْ جَسَدُهُ قبراً لِنَفْسِهِ.

٢٦ - احمَد من يغلظ عليك ويعظك، لا من يزكّيك ويتملّقك.

٢٧ - اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصِف، ولا تخْتَر أن تكون غالباً وأنت ظالم.

٢٨ - لا تهضمنّ محاسنك بالفَخْر والتكبّر.

٢٩ - لا تنفكّ المدنية من شرّ، حتى يجتمع مع قوّة السلطان قوّة دينه وقوة حِكمته.

٣٠ - إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُحْمَد فلا يظهر منك حرصٌ على الحَمْدِ.

٣١ - مَن كَثُر همّهُ سقم بدنه، ومَنْ ساء خُلُقه عَذّب نفسه، ومن لاحَى الرّجال سقطت مروءته، وذهبت كرامته، وأفضل إيمانِ العبْدِ أن يعلم أنّ الله معه حيث كان.

٣٢ - كُنْ ورِعاً تكن مِنْ أعبدِ الناس، وارْضَ بما قَسَم الله لك تكن من أغنى الناس، وأحسنْ جوارَ مَنْ جاورك تكن مسلماً، ولا تكثرنّ الضِحك، فإنّ كثرته تميت القلب، وأخرس لسانك، واجلس في بيتك، وابكِ على خطيئتك.

٣٣ - إنَّ الرَّجُل لَيُحَرم الرّزق بالذنب يصيبُه، ولا يردّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ، ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعمّا عمل فيما علم!

٣٤ - في التجارب علم مستأنف، والاعتبار يفيدك الرشاد، وكفاك أدباً لنفسك ما كرهتَه من غيرك، وعليك لأخيك مثل الذي عليه لك.

٣٥ - الغضب يُثير كامن الحِقْد، ومَنْ عرف الأيام لم يُغفل الاستعداد، ومَنْ أمسك عن الفضول عدّلت رأيَه العقول.

٣٦ - اسكت واستر تسلم. وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرّفق!

٣٧ - أكبرُ الفخر ألّا تفخر.

٣٨ - ما أصعب اكتساب الفضائل وأيسر إتلافها!

٣٩ - لا تنازع جاهلاً، ولا تشايع مائقاً[1]، ولا تعاد مسلّطاً.

---

(١) لا تشايع: لا تشارك. اللسان، مادة (شيع). المائق: الأحمق الغبي. للسان، مادة (موق).

٤٠ - الموت راحة للشيخ الفاني من العمل، وللشابّ السقيم من السُّقم، وللغلام الناشىء من استقبال الكدّ والجمع لغيره، ولمن ركبه الدَّيْن لغرمائه، وللمطلوب بالوَتر، وهو في جملة الأمر أمنيّة كلّ ملهوف مجهود.

٤١ - ما كنتَ كاتمه عدوَّك من سرٍّ، فلا تطلعنّ عليه صديقك. واعرف قدرك يَستعلِ أمرُك، وكفى ما مضى مخبراً عمّا بقي!

٤٢ - لا تَعِدَنّ عِدَةً تحقّرها قلّةُ الثّقة بنفسك، ولا يغرنّك المرتَقى السّهل إذا كان المنحدَر وَعْراً.

٤٣ - اتّق العواقِب عالماً بأنّ للأعمال جزاءً وأجراً، واحذر تبعات الأمور بتقديم الحزم فيها.

٤٤ - مَن استَرْشَد غير العقل أخطأ منهاج الرّأي، ومَن أخطأته وجوه المطالب خذلته الحِيَل، ومن أخلّ بالصبر أخلّ به حسنُ العاقبة، فإنّ الصبر قوّة من قوى العقل، وبقدر موادّ العقل وقوّتها يَقوَى الصبر.

٤٥ - الخطأ في إعطاء من لا يبتغي ومنع من يبتغي واحد.

٤٦ - العِشْقُ مَرَضٌ ليس فيه أجْرٌ ولا عِوَض.

٤٧ - أعظم الخطايا عند الله اللّسان الكذوب، وقائل كلمة الزّور ومن يمدّ بحبلها في الإثم سواء.

٤٨ - الخصومة تمحق الدّين.

٤٩ - الجهاد ثلاثة: جهاد باليد، وجهاد باللسان، وجهاد بالقلب، فأوّل ما يغلب عليه من الجهاد يدك ثم لسانك، ثم يصير إلى القلب، فإن كان لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً نُكِس فجعل أعلاه أسفله.

٥٠ - ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكرها بقلبه إلّا استوجب المزيد عليها قبل ظهورها على لسانه.

٥١ - الحاجةُ مسألة، والدُّعاء زيادة، والحمدُ شكرٌ، والنَّدم توبة.

٥٢ - لِن واحلُم تنبُل، ولا تكُنْ معجِباً فتمقَت وتُمتهن.

٥٣ - ما لي أرَى النّاس إذا قُرِّب إليهم الطعام ليلاً تكلّفوا إنارة المصابيح ليبصروا ما يدخِلون بطونهم، ولا يهتمون بغذاء النّفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعِلْم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقاداتهم وأعمالهم.

٥٤ - الفقر هو أصْل حسنِ سياسة النّاس، وذلك أنه إذا كان من حُسن السياسة أن يكون بعض الناس يسوس، وبعضهم يُساس، وكان مَنْ يُساس لا يستقيم أن يُساس من غير أن يكون فقيراً محتاجاً، فقد تبيّن أنّ الفقر هو السبب الذي به يقوم حسن السياسة.

٥٥ - لا تتكلّم بين يدي أحدٍ من النّاس دون أن تسمع كلامه، وتقيس ما في نفسك من العلم إلى ما في نفسه، فإن وجدت ما في نفسه أكثر، فحينئذٍ ينبغي لك أن ترُوم زيادة الشيء الذي به يفضل على ما عندك.

٥٦ - إذا كان اللّسان آلة لترجمة ما يخطِر في النفس، فليس ينبغي أن تستعمله فيما لم يخطر فيها.

٥٧ - إذا كان الآباء هم السبب في الحياة، فمعلّمو الحكمة والدين هم السبب في جودتها.

٥٨ - وشكا إليه رجلٌ تعذُّرَ الرّزق، فقال: مه، لا تجاهدِ الرّزق جهاد المغالب، ولا تتّكِلْ على القَدَر اتّكال المستسلم، فإنّ ابتغاء الفضل من السّنّة، والإجمال في الطّلب من العفّة، وليست العِفّة دافعةً رزقاً، ولا الحرصُ جالباً فضلاً، لأن الرّزق مقسوم، وفي شدّة الحرص اكتساب المآثم.

٥٩ - إذا استغنيت عن شيء فدعْه وخذ ما أنت محتاج إليه.

٦٠ - العمر أقصر من أن تعلّم كلّ ما يحسُن بك علمه، فتعلّم الأهمّ فالأهمّ.

٦١ - مَنْ رَضِيَ بما قُسِم له استراح قلبُه وبدنه.

٦٢ - أبعد ما يكون العبدُ من الله إذا كان هَمُّه بطنُه وفَرَجُه.

٦٣ - ليس في الحواسّ الظاهرة شيء أشرفُ من العَيْن لا تُعطوها سؤلها، فيشغلكم عن ذكر الله.

٦٤ - ارحموا ضعفاءكم فالرّحمة لهم سببُ رحمةِ الله لكم.

٦٥ - إزالة الجِبال أسهلُ من إزالة دولة قد أقبلتْ، فاستعينوا بالله واصبروا، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء.

٦٦ - قال له عثمان في كلام تلاحَيا فيه حتى جرى ذكرُ أبي بكر وعمر: أبو بكر وعمر خيرٌ منك، فقال: أنا خيرٌ منك ومنهما، عبدْتُ الله قبلهما، وعبدته بعدهما.

٦٧ - أوثق سُلّم يُتَسلّق عليه إلى الله تعالى أن يكون خيراً.

٦٨ - ليس المُوسِر مَنْ كان يساره باقياً عنده زماناً يسيراً، وكان يمكن أن يغتصبه غيره منه، ولا يبقى بعد موته له، لكن اليَسار على الحقيقة هو الباقي دائماً عند مالكه، ولا يمكن أن يؤخذ منه، ويبقى له بعد موته، وذلك هو الحكمة.

٦٩ - الشّرف اعتقاد المِنن في أعناق الرّجال.

٧٠ - يضرّ الناس أنفسَهم في ثلاثة أشياء: الإفراط في الأكل اتّكالاً على الصحّة، وتكلّف حمل ما لا يطاق اتّكالاً على القوة، والتفريط في العمل اتكالاً على القَدَر.

٧١ - أحزمُ النّاس مَن ملك جِدُّه هزله، وقهر رأيه هواهُ، وأعرب عن ضميرِه فعلُه، ولم يخدعْه رضاه عن حظّه، ولا غضبه عن كيده.

٧٢ - مَنْ لم يُصْلِح خلائقَه، لم ينفع النّاسَ تأديبُه.

٧٣ - من اتّبع هواه ضلّ، ومن حاد ساد، وخمود الذكر أجْمَل من نميم الذّكْر.

٧٤ - لهب الشّوْق أخفُّ محملاً من مقاساة الملالة.

٧٥ - بالرّفق تُنال الحاجة، وبِحُسْنِ التأنّي تسهل المطالب.

٧٦ - عزيمة الصّبر تُطفِيءُ نارَ الهوى، ونفي العجب يؤمن به كيد الحسّاد.

٧٧ - ما شيء أحقُّ بطولِ سِجْنٍ من لسان.

٧٨ - لا نَذْرَ في معصيةٍ، ولا يمينَ في قطيعةٍ.

٧٩ - لكلّ شيء ثمرة، وثمرة المعروف تعجيل السَّرَاح.

٨٠ - إيّاكم والكسل، فإنّه من كسل لم يؤدّ لله حقًّا.

٨١ - احسبوا كلامكم من أعمالكم، وأقلّوه إلّا في الخير.

٨٢ - أحسِنُوا صحبةَ النّعم فإنّها تزول، وتشهد على صاحبها بما عمل فيها.

٨٣ - أكثِروا ذكرَ الموتِ، ويوم خروجكم من قبوركم، ويوم وقوفكم بين يدي الله عزّ وجلّ، يهُن عليكم المصاب.

٨٤ - بحسَب مجاهدة النّفوس وردِّها عن شهواتها ومنعها عن مصافحة لذّاتها ومنع ما أدّت إليه العيون الطامحة من لحظاتِها - تكون المثوبات والعقوبات، والحازم مَنْ ملك هواه، فكان بملكِه له قاهراً، ولما قَدَحت الأفكار من سوء الظّنون زاجراً، فمتى لم تُرَدّ النّفس عن ذلك هجم عليها الفكر بمطالبة ما شُغِفت به، فعند ذلك تأنس بالآراء الفاسدة، والأطماع الكاذبة، والأماني المتلاشية، وكما أنّ البَصر إذا اعتلّ رأى أشباحاً وخيالات لا حقيقة لها، كذلك النّفس إذا اعتلّت بحبّ الشهوات وانطوت على قبيح الإرادات، رأت الآراء الكاذبة، فإلى الله سبحانه نرغب في إصلاح ما فسد من قلوبنا، وبه نستعين على إرشاد نفوسِنا، فإن القلُوب بيد يُصرّفها كيف شاء.

٨٥ - لا تؤاخينّ الفاجر، فإنه يُزيِّن لك فعلَه، ويودّ لو أنّك مثله، ويحسّن لك أقبح

خصاله، ومدخلُه ومخرجُه من عندك شينٌ وعار ونقص، ولا الأحمق فإنّه يجهَد لك نفسه ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فضرَّك، خيرٌ لك من نطقه، وبعده خير لك من قربه، وموته خير لك من حياته، ولا الكذّاب فإنّه لا ينفعك معه شيء، ينقل حديثك، وينقل الحديث إليك، حتى إنه ليحدّث بالصّدق فلا يصدّق.

٨٦ - ما استَقصَى كريم قطّ، قال تعالى في وصف نبيه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾(١).

٨٧ - ربّ كلمةٍ يخترعها حليم مخافة ما هو شرٌّ منها، وكفى بالحلم ناصراً.

٨٨ - مَنْ جمع ستّ خصال لم يَدَع للجنّة مطلباً، ولا عن النار مهرباً: مَنْ عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحقّ فاتبعه، وعرف الباطل فاتّقاه، وعرف الدّنيا فرفَضها، وعرف الآخرة فطلَبها.

٨٩ - مَن استحيا مِنَ النّاس ولم يستحي من نفسه فليس لنفسِه عند نفسه قدْر.

٩٠ - غايةُ الأدب أنْ يستحِيَ الإنسان من نفسِه.

٩١ - البلاغة النَّصر بالحُجّة، والمعرفة بمواضع الفُرصة، ومن البَصر بالحجّة أن تَدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقة، وكانت الكناية أبلغ في الدّرك وأحقّ بالظفر.

٩٢ - إيَّاك والشّهوات، وليكن مما تستعين به على كَفّها علمك بأنها ملهية لعقلك، مهجّنة لرأيك، شائنة لغرضك، شاغلة لك عن معاظِم أمورك، مشتدّةٌ بها التّبعة عليك في آخرتك. إنما الشّهوات لعب، فإذا حضر اللّعبُ غاب الجِدّ، ولن يقام الدّين وتصلحَ الدّنيا إلا بالجِدّ، فإذا نازعتْك نفسك إلى اللّهو واللذات، فاعلم أنها قد نزعتْ بك إلى شرّ منزَع، وأرادت بك أفضح الفضوح، فغالبْها مغالبة ذلك، وامتنع منها امتناع ذلك، ولْيكن مرجعُك منها إلى الحقّ، فإنك مهما تتركْ من الحق لا تتركْه إلا إلى الباطل، ومهما تدَعْ من الصواب لا تَدَعْه إلا إلى الخطأ، فلا تداهننّ هواك في اليسير فيطمع منك في الكثير.

وليس شيء ممّا أوتيت فاضلاً عمّا يصلحك، وليس لِعُمْرك وإن طال فضل عمّا ينوبك من الحقّ اللازم لك، ولا بمالك وإن كثر فضل عمّا يجب عليك فيه، ولا بقوّتك وإن تمّتْ فضلٌ عن أداء حقّ الله عليك، ولا برأيك وإن حَزُمَ فضل عمّا لا تُعْذَرُ بالخطأ فيه، فليمنعنّك علمُك بذلك مِنْ أن تطيل لك عمراً في غير نفع، أو تضيِّعَ لك مالاً في غير حقّ، أو أن تصرف لك قوة في غير عِبادة، أو تعدّل لك رأياً في غير رشد.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٣.

فالحفظَ الحفظَ لما أوتيتَ، فإنّ بك إلى صغيرِ ما أوتيتَ الكثيرَ منه أشدُّ الحاجة.

وعليك بما أضعته منه أشدُّ الرزيّة، ولا سيما العمر الذي كل مَنفَذٍ سواه مستخلَف. وكلّ ذاهب بعده مرتجع.

فإن كنت شاغلاً نفسك بلذّة فلتكن لذتك في محادثة العلماء ودرس كتبهم، فإنّه ليس سرورك بالشّهوات بالغاً منك مبلغاً إلا وإكبابك على ذلك، ونظرُك فهي بالغةُ منك، غير أنّ ذلك يجمَعُ إلى عاجل السُّرور تمامَ السّعادة، وخلافُ ذلك يجمع إلى عاجل الغَيّ وخامةَ العاقبة، وقديماً قيل: أسعدُ النّاس أدركُهم لهواه إذا كان هواه في رشده، فإذا كان هواه في غير رشده. فقد شقِيَ بما أدرك منه. وقديماً قيل: عوّدْ نفسَك الجميلَ، فباعتيادك إيّاه يعود لذيذاً.

٩٣ - وُكِّلَ ثلاثٌ بثلاث: الرزق بالحمق، والحرمان بالعقل، والبلاء بالمنطق، ليعلمَ ابنُ آدم أنْ ليسَ له منَ الأمر شيء.

٩٤ - ثلاثةٌ إن لم تظْلمهم ظلمُوك: عبدُك، وزوجتُك، وابنك. وقد روينا هذه الكلمة لعُمر فيما تقدم.

٩٥ - للمنافقين علاماتٌ يعرفون بها: تحِيَّتهُم لعنة، وطعامهم تُهْمة، وغنيمتهم غلول، لا يعرفون المساجد إلّا هَجْراً، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْراً، مستكبرون لا يألفون ولا يُؤلَفون، خُشبٌ بالليل صُخُب بالنهار.

٩٦ - الْحَسَدَ حُزْن لازمٌ، وعَقْلٌ هائم، ونَفَسٌ دَائم، والنّعمة على المحسودِ نعمة، وهي على الحاسدِ نِقْمَة.

٩٧ - يا حَمَلة العلم، أتحملونه! فإنّما العِلْم لمن عَلِم ثم عَمِل، ووافَق عملُه علمَه، وسيكون أقوامٌ يحملون العِلْم، لا يجاوز تراقيَهم، تخالف سريرتُهم علانيتَهم، ويخالف عملُهم عِلْمَهم، يقعدون حَلَقاً فيباهي بعضُهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيرِه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله سبحانه.

٩٨ - تعلَّموا العلم صِغَاراً تسودُوا به كباراً، تعلّموا العلم ولو لغير الله، فإنه سيصير لله. العلم ذَكَرٌ لا يحبّه إلا ذُكْرٌ من الرجال.

٩٩ - ليس شيءٌ أحسن من عَقْل زانَه علم، ومِنْ عِلْم زانه حِلْم، ومن حِلْم زانه صِدْق، ومن صدق زانه رفق، ومن رفق تقوى. إنّ مِلاك العقلِ ومكارم الأخلاق صونُ العِرْض، والجزاء بالفرض، والأخذ بالفضل، والوفاء بالعَهد، والإنجاز للوعد. ومَنْ حاول أمراً بالمعصية كان أقربَ إلى ما يخاف، وأبعد مما يرجو.

١٠٠ - إذَا جَرت المقاديرُ بالمكارِه سبقت الآفة إلى العَقْل فحيَّرته، وأطلقت الألسن بما فيه تلف الأنفس.

١٠١ - لا تصحبوا الأشرار فإنّهم يمنّون عليكم بالسّلامة مِنْهم.

١٠٢ - لا تقسِروا أولادكم على آدابكُم، فإنّهم مَخْلوقُون لزمانٍ غير زمانكم.

١٠٣ - لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويدَه، فإنَّ النّاس لا يسألون في كمْ فَرَغ من العمل، إنما يَسْألُون عن جودةِ صنعته.

١٠٤ - ليس كلُّ ذي عين يُبْصِر، ولا كلّ ذي أُذُنٍ يَسْمَع، فتصدَّقُوا على أولي العقول الزَّمِنة، والألباب الحائرة، بالعلوم التي هي أفضل صدَقاتِكم، ثم تَلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1].

١٠٥ - مَنْ أتَتْ عليه الأربعُون من السِّنين قيل له: خذْ حذرَك من حلُول المقدور فإنَّكَ غير معذورٍ، وليس أبناء الأربعين بأحقَّ بالحَذر من أبناءِ العشرين، فإنَّ طالبَهما واحِدٌ، وليس عن الطلب براقدٍ، وهو الموت، فاعمل لما أمامَك من الهَوْل، ودع عنك زخرفَ القول.

١٠٦ - سُئِل عن القَدَر فقال: أُقصر أم أُطِيل؟ قيل: فقال: بل تُقْصِر، جلّ الله أن يُريدَ الفحشاء، وعزّ عن أن يكون له في المُلْك إلا ما يشاء.

١٠٧ - مَنْ علِم أنه يفارق الأحْباب، ويسكُن التُّراب، ويواجِهُ الحِساب، ويستغني عمّا ترك، ويفتقر إلى ما قدّم، كان حريًّا بقِصَر الأمل، وطول العمل.

١٠٨ - المؤمن لا تختِلُه كَثْرة المصائِب، وتَواتُر النَّوائِب عن التَّسلِيم لربِّه والرِّضا بقضائه، كالحمامة التي تُؤخذ فراخها من وكْرها ثم تعُود إليه.

١٠٩ - ما مَاتَ مَنْ أحْيَا عِلماً، ولا افْتَقرَ مَنْ مَلَك فَهماً.

١١٠ - العِلْم صِبْغ النفس، وليس يفوق صِبْغ الشيْء حتى يَنْظُف من كل دنَس.

١١١ - اعلم أنّ الذي مدحَك بما ليس فيك، إنما هو مخاطِب غيرَك، وثوابُه وجزاؤهُ قد سقطا عنك.

١١٢ - إحسانك إلى الحرِّ يُحَرِّكُهُ على المكافأةِ، وإحسانُك إلى النَّذْلِ يَبْعَثُهُ على مُعاوَدَة المَسْألَة.

١١٣ - الأشرار يتتبَّعُون مساوِىء الناس، ويتركون محاسنهم، كما يتتبّع الذُّبابُ المواضعَ الفاسدَة.

١١٤ - موت الرّؤساءِ أسهل من رياسة السِّفِلَة.

١١٥ - ينبغي لمن وَلِيَ أمرَ قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيَّته، وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظِلِّ العُود قبلَ أن يستقيم ذَلِكَ العُود.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

١١٦ - إذا قويَ الوالي في عمله حَرَّكَتْهُ ولايته على حسب ما هو مركوز في طبْعه من الخير والشرّ.

١١٧ - ينبغي للوالي أن يعمل بخصالٍ ثلاث: تأخيرِ العقوبة مِنهُ في سلطان الغضب، والأناةِ فيما يرتئيه من رأي، وتعجيل مكافأة المحسن بالإحسانِ، فإنّ في تأخير العقوبة إمكانَ العفوِ، وفي تعجيل المكافأةِ بالإحسان طاعةَ الرعيّة، وفي الأناة انفساحَ الرأي وحَمْدَ العاقبة وَوضُوحَ الصواب.

١١٨ - من حقّ العالم على المتعلّم ألّا يُكْثِرَ عليه السؤالَ، ولا يُعَنِّتَهُ في الجواب، ولا يُلِحّ عليه إذا كسل، ولا يُفْشيَ له سرًّا، ولا يغتابَ عنده أحداً، ولا يطلبَ عثْرَتَهُ، فإذا زلّ تأنّيتَ أوْبَتهُ، وقَبِلْتَ معذرته، وأنْ تُعَظّمَهُ وتُوَقِّرَهُ ما حَفِظَ أمرَ الله وعظّمه، وألاّ تجلس أمامَه، وإن كانت له حاجةٌ سبقت غيرَك إلى خدمته فيها. ولا تضجرنّ من صحبتهِ، فإنما هُو بمنزلةِ النّخْلة يُنتظَر متى يسقط عليك منها منفعةٌ. وخُصّه بالتّحية، واحفظ شاهَده وغائبه، وليكن ذلك كُلّه لله عزَّ وجلّ، فإنَّ العالِم أفضلُ من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله. وإذا مات العالم ثُلِمَ في الإسلام ثُلْمةٌ لا يسدُّها إلّا خَلَفٌ منه. وطالبُ العلمِ تُشَيِّعهُ الملائكة حتى يرجع.

١١٩ - وَصُولٌ مُعْدِمٌ خيرٌ من جافٍ مُكْثِرٍ، ومن أرادَ أنْ ينظر ماله عند الله فلينظر ما لله عنده.

١٢٠ - لقد سبق إلى جنّات عدن أقوامٌ ما كانوا أكْثَرَ الناسِ صلاةً ولا صياماً ولا حجًّا ولا اعتماراً، ولكن عَقَلُوا عن الله أمرَه فحسنت طاعتهُم، وصحّ ورَعهمُ وكَمُلَ يقينُهُم، ففاقوا غيرهم بالحُظْوَةِ وَرَفيعِ المنزلَة.

١٢١ - ما من عَبْدٍ إلّا ومعه ملَك يقيه ما لم يُقَدَّرْ له، فإذا جاءَ القَدَرُ خلاّهُ وإياهُ.

١٢٢ - إنّ الله سبحانه أدّب نَبِيَّهُ ﷺ بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]، فلما علم أنه قد تأدّب، قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، فلما استحكم له من رسوله ما أحبّ قالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[3].

١٢٣ - كنت أنا والعبّاس وعمر نتذاكر المعروفَ، فقلت أنا: خير المعروفِ سَتْرُهُ، وقال العباسُ: خيرُهُ تصغيرُهُ، وقال عمر: خيرُهُ تعجيلهُ، فخرج علينا رسول الله، فقال: فيم أنتم؟ فذكرنا له، فقال: خيرُهُ أن يكونَ هٰذا كلّه فيه.

١٢٤ - العفوُ يفسد من اللئيم بقَدْرِ ما يصلح من الكريم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩. (٢) سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

١٢٥ - إذا خَبُثَ الزّمانُ كَسَدَتِ الفضائلُ وضَرَّتْ، ونَفَقَتِ الرّذائلُ ونفعتْ، وكانَ خوفُ الموسرِ أشدَّ من خوف المعسرِ.

١٢٦ - انظرْ إلى المُتَنَصّح إليك، فإن دخل منْ حَيْثُ يُضارُّ الناسَ فلا تقبل نصيحته وتَحَرَّزْ منه، وَإن دَخَل من حيث العَدْلُ والصلاح فاقبلها منه.

١٢٧ - أعداءُ الرَّجل قد يكوْنُون أنفعَ منْ إخوَانه، لأنهمْ يهدونَ إليه عيوبه فيتجنّبها ويخاف شماتتهمْ به فيضبط نعمته ويتحرَّزُ من زوالها بغاية طوقه.

١٢٨ - المِرآةُ التي ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هي النّاس، لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم، ومساويه من أعدائه فيهم.

١٢٩ - انظرْ وجهكَ كلّ وقت في المِرآةِ، فإن كان حسناً فاستقبح أن تضيف إليه فعلاً قبيحاً وتشينه به، وإن كان قبيحاً فاستقبح أن تَجمع بين قُبحيْن.

١٣٠ - موقع الصواب من الجُهّال مثل موقع الخطأ من العلماءِ.

١٣١ - ذَكِّ قَلبك بالأدَب كما تُذَكّي النار بالحطب.

١٣٢ - كفر النعمة لؤمٌ، وصحبة الجاهل شؤمٌ.

١٣٣ - عاديت من ماريت.

١٣٤ - لا تصرمْ أخاك على ارتياب، ولا تقطعه دون استعتاب.

١٣٥ - خير المقال ما صدّقه الفعال.

١٣٦ - إذا لم ترزَقْ غِنًى فلا تُحْرَمَنَّ تقوى.

١٣٧ - مَنْ عرَفَ الدنيا لم يحزن للبلوى.

١٣٨ - دَعِ الكذِبَ تَكَرُّماً إن لم تَدَعْهُ تأثُّماً.

١٣٩ - الدُّنيا طوَّاحة طَرَّاحةٌ فضّاحَةٌ، آسِيَةٌ جَرّاحَةٌ.

١٤٠ - الدنْيَا جَمّةُ المصائب، مُرَّةُ المشارب، لا تُمَتّع صاحباً بصاحب.

١٤١ - المعتذر من غير ذنب، يوجب على نفسه الذنب.

١٤٢ - من كسل لم يُؤدِّ حقًّا.

١٤٣ - كثرة الجدال تورثُ الشكَّ.

١٤٤ - خير القلوب أوعاها.

١٤٥ - الحياءُ لباس سابغٌ، وحجابٌ مانعٌ، وسِترٌ من المساوىء وَاقٍ، وحليفٌ للدِّين،

وموجبٌ للمحبّة، وعَيْنٌ كالئة تَذُودُ عنِ الفسادِ، وتنهى عن الفحشاء. والعجلة في الأمور مَكْسَبَةٌ للمذلّةِ، وزِمامٌ لِلنَّدامَةِ، وسَلْبٌ للمُرُوءةَ، وشَيْنٌ لِلْحِجَى، ودَليلٌ على ضَعْفِ العقِيدَةِ.

١٤٦ - إذا بلغ المرْءُ من الدُّنيا فوق قدْره تَنَكَّرتْ للناس أخلاقُهُ.

١٤٧ - لا تصحب الشّرِّيرَ فإنّ طبعك يَسْرِق من طبعه شرًّا وأنت لا تعلم.

١٤٨ - موتُ الصالح راحة لنفسه، وموت الطالح راحة للناس.

١٤٩ - ينبغي للعاقل أنْ يتذكّر عند حلاوة الغذاءِ مرارة الدواءِ.

١٥٠ - إن حَسَدَكَ أخٌ من إخوانك على فضيلة ظهرَت منك فسعى في مكروهك فلا تقابله بمثل ما كافحك به، فتعذِر نفسه في الإساءَة إليك، وَتشرع له طريقاً إلى ما يُحِبُّهُ فيك، لكن اجتَهِدْ في التَّزَيُّدِ من تلك الفضيلة التي حَسَدك عليها، فإنك تسوءُهُ من غير أن تُوجدَه حجةً عليك.

١٥١ - إذا أردت أن تعرف طبع الرَّجل فاسْتَشِرْهُ، فإنك تقف من مشورته على عدله وجَوْرِهِ، وخَيْره وشَرِّهِ.

١٥٢ - يَجبُ عَلَيْكَ أن تُشْفِقَ على وَلدكَ أكثر من إشفاقه عليك.

١٥٣ - زمان الجائر من السلاطين والولاة أقْصَرُ من زمان العادلِ، لأنّ الجائر مفسِد، والعادلَ مصلح، وإفساد الشيءِ أسْرع من إصلاحه.

١٥٤ - إذا خدمتَ رئيساً فلا تَلْبَسْ مثلَ ثوبه، ولا تركب مثل مَرْكوبه، ولا تستخدم كخدمِهِ، فعساك تسلم منه.

١٥٥ - لا تُحدِّثْ بالعلم السفهاءَ فيُكَذِّبوك، ولا الجهال فَيَسْتَثْقِلُوكَ، ولكن حَدِّثْ بهِ منْ يَتَلَقّاهُ من أهله بقبولٍ وفَهمٍ يفهم عنكَ ما تَقول، ويكتم عليك ما يسمع، فإن لعلمِك عليك حقًّا، كما أنّ عليكَ في مالك حقًّا: بَذْلُهُ لمستحقه، ومنْعهُ عنْ غير مستحقِّه.

١٥٦ - اليقين فوق الإيمان، والصبر فوقَ الْيقينِ، ومن أفرط رَجاؤه غلبت الأماني على قلبه واستعبدَتْهُ.

١٥٧ - إيَّاكَ وصاحب السوءِ، فإنَّهُ كالسيف المسلول يروق منْظَرهُ، ويقبح أثرُهُ.

١٥٨ - يابن آدم، احْذرِ الموْت في هذه الدَّارِ قبل أن تصِيرَ إلى دَارٍ تتمنّى الموتَ فيها فلا تجدُهُ.

١٥٩ - منْ أخطأه سهم المنيّةِ قيَّدهُ الهَرَمُ.

١٦٠ - منْ سَمِعَ بفاحِشةٍ فأبْدَاها كان كَمَنْ أتاها.

١٦١ - العاقل من اتّهمَ رأيَهُ ولَمْ يثِقْ بِما سَوَّلَتْهُ له نفْسُهُ.

١٦٢ - مَنْ سامح نفسه فيما يحبّ أتعبها فيما لا يحبّ.

١٦٣ - كفى ما مضى مُخْبِراً عمّا بَقِيَ، وكفى عِبَراً لِذَوي الألباب ما جَرَّبُوا.

١٦٤ - أمرٌ لا تَدْرِي متى يغْشاكَ، ما يَمنعك أن تستعدَّ له قبل أن يفجأك!

١٦٥ - ليس في البرْق الخاطف مُسْتَمْتَع لمن يخوض في الظلمة.

١٦٦ - إذا أعْجَبَك ما يَتَواصَفُهُ النَّاسُ مِنْ مَحاسِنِكَ، فانْظُرْ فيما بطن من مَساوِئكَ، ولتَكُنْ معْرفَتُك بنَفْسِكَ أوثَقَ عِنْدَكَ مِنْ مَدْحِ المادِحِينَ لك.

١٦٧ - مَنْ مدحك بما ليس فِيكَ من الجميل وهُو رَاضٍ عنك ذَمَّك بما لَيْسَ فِيكَ مِنَ القَبِيح وَهُوَ ساخِطٌ عَلَيْكَ.

١٦٨ - إذا تَشَبَّه صاحِبُ الرياءِ بالمُخْلِصِين في الهيْئة كانَ مثْلَ الوَارِمِ الّذِي يوهمُ النّاسَ أنّهُ سَمِينٌ، فَيَظُنُّ النّاس ذلِكَ فِيهِ وَهُو يستر ما يَلْقىٰ مِنَ الألَمِ التّابع لِلوَرَمِ.

١٦٩ - إذا قويَتْ نَفْس الإنْسانِ انْقَطَع إلى الرَّأي، وَإذ ضعفتْ انقطعَ إلى البَخْتِ.

١٧٠ - الرغبة إلى الكريم تُحَرِّكُهُ على البذلِ، وإلى الخسِيسِ تَغْرِيهِ بالمَنْعِ.

١٧١ - خيارُ النّاسِ يَتَرَفَّعُون عنْ ذِكْر مَعايِبِ النّاسِ، ويتهمُون المُخْبِرَ بِها، ويأثرُونَ الفَضائل، ويَتَعَصّبُونَ لِأهْلِها، ويستعرضُونَ مآثِرَ الرُّؤساءِ، وإفضالَهُمْ عليهم، ويُطالِبُون أنفسهمْ بالمكافأةِ عَليها وَحُسْنِ الرِّعايةِ لَها.

١٧٢ - لِكلِّ شيءٍ قُوتٌ، وأنتم قوتُ الهوامِّ، ومَن مشى على ظهر الأرضِ فإنّ مصيرَهُ إلى بطنها.

١٧٣ - منْ كرم المرْءِ بكاؤُهُ على ما مضىٰ مِنْ زَمانِهِ، وحنينُهُ إلى أوْطانه، وحفظُهُ قديمَ إخوانِهِ.

١٧٤ - وَمنْ دُعائِهِ: اللّهُمّ إنْ كنّا قد قصّرْنا عن بُلوغِ طاعتِك فقدْ تمسكْنا مِنَ طاعتكَ بأحبِّها إليْكَ، لا إلهَ إلّا أنْت جاءَتْ بالحقِّ مِنْ عِنْدَكِ.

١٧٥ - أصابَتِ الدُّنيا منْ أمِنَها وأصابَ الدُّنْيا من حَذِرَها.

١٧٦ - ووَقَفَ على قَوْمٍ أُصِيبُوا بمصيبةٍ، فقال: إنْ تَجْزَعُوا فَحَقَّ الرَّحِم بلغتُمْ، وإنْ تَصْبِرُوا فَحَقَّ الله أدّيتم.

١٧٧ - مَكارمُ الأخلاقِ عَشْرُ خِصالٍ: السَّخاءُ، والحياءُ، والصِّدْقُ، وأداءُ الأمانةِ، والتَّواضعُ، والغَيْرةُ، والشجاعةُ، والحلمُ، والصَّبرُ، والشكرُ.

١٧٨ - منْ أداءِ الأمانَةِ المكافأةُ على الصَّنِيعةِ لأنها كالوَدِيعةِ عِنْدَكَ.

١٧٩ - الخيِّرُ النَّفْسِ تكُونُ الحرَكَةُ في الخيْرِ عَلَيْهِ سَهلةً مُتيسرةً، والحرَكَةُ في الإِضْرَارِ عَسرةً بَطيئَةً، والشِّرِّيرُ بالضدِّ منْ ذلكَ.

١٨٠ - البُخَلاءُ مِنَ النَّاسِ يَكُونُ تغافلهمْ عنْ عظيم الجرْمِ أسْهَل عليهمْ منَ المكافأةِ على يَسِير الإحْسان.

١٨١ - مثلُ الإنسانِ الحصيف مثلُ الجسمِ الصلْبِ الكثِيف، يَسْخُنُ بطيئاً، وتبرُدُ تلْكَ السُّخونَةُ بأطْوَلَ مِنْ ذَلكَ الزَّمانِ.

١٨٢ - ثلاثةٌ يُرْحمُونَ: عاقِلٌ يجري عليْه حُكمُ جاهلٍ، وضعيفٌ في يدِ ظالِم قويٍّ، وكَريمُ قَوْمٍ احتاجَ إلى لئيم.

١٨٣ - منْ صحبَ السلطانَ وجبَ أنْ يكُونَ معهُ كرَاكبِ البحْرِ، إنْ سلِم بجسْمه منَ الغَرَق لمْ يسلم بقلبه منَ الفَرَق.

١٨٤ - لا تقبلنَّ في استعمالٍ عمَّا لكَ وأمرائكَ شفاعَةً إلَّا شفاعةَ الكفايةِ والأمانةِ.

١٨٥ - إذا استشارَكَ عدوُّك فجرِّدْ لهُ النصيحةَ، لأنه باستشارتك قَدْ خَرَجَ منْ عدواتك ودخل في مودّتكَ.

١٨٦ - الْعدلُ صورةٌ واحدةٌ، والجوْرُ صورٌ كثيرةٌ، ولهذا سهلَ ارتكابُ الجَوْر وصعبَ تحرِّي العدلِ، وهما يشبهانِ الإِصابَةَ في الرِّمايةِ والخطأ فيها، وإن الإصابةَ تحتاجُ إلى ارْتياضٍ وتعهّدٍ، والخطأ لا يحتاجُ إلى شيْءٍ منْ ذلكَ.

١٨٧ - لا يُخْطِئُ المخلصُ في الدعاءِ إحْدَى ثلاث: ذنبٌ يغفرُ، أو خيرٌ يُعجّلُ، أو شرٌّ يؤجلُ.

١٨٨ - لا ينتصفُ ثلاثةٌ من ثلاثةٍ: بَرٌّ من فاجرٍ، وعاقلٌ من جاهلٍ، وكريمُ من لئيم.

١٨٩ - أشرف الملوكِ منْ لم يخالطهُ البطرُ. ولمْ يَحُلْ عن الحقِّ، وأغْنى الأغْنياءِ من لَمْ يكُنْ للحرْص أسيراً، وخيْرُ الأصدقاءِ منْ لم يكنْ على إخوانِه مستصعباً، وخيرُ الأخلاق أعونها على التُّقَى والوَرَع.

١٩٠ - أربع القليل منهنّ كثير: النار، والعداوة، والمرض، والفقر.

١٩١ - أربعة من الشقاءِ: جارُ السوءِ، وولد السوءِ، وامْرأةُ السوءِ، والمنزلُ الضيِّقُ.

١٩٢ - أربعة تدعو إلى الجنّةِ: كتمان المصيبةِ، وَكِتمانُ الصدقةِ، وبرُّ الولدينِ، والإكثار من قول لا إله إلّا الله.

١٩٣ - لا تصحبِ الجاهلَ، فإنَّ فيه خصالاً، فاعرفوه بها، يغضب من غير غضب، ويتكلّم في غير نفعٍ، ويُعطي في غير موضعِ الإعطاء، ولا يعرف صديقه من عدوِّه، ويفشي سرّه إلى كلِّ أحدٍ.

١٩٤ - إيّاك ومواقفَ الاعتذارِ، فَرُبَّ عذرٍ أثبت الحجّة على صاحبه وإن كان بريئاً.

١٩٥ - الصراطُ ميدانٌ يكثُرُ فيه العثارُ، فالسالم ناجٍ، والعاثرُ هالكٌ.

١٩٦ - لا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلا أولو الفضل.

١٩٧ - إنّ لله عباداً في الأرض كأنما رأوا أهلَ الجنةِ في جنّتهم وأهلَ النار في نارهم: اليقين وأنواره لامعةٌ على وجوههم. قلوبهم محزونة، وشرورُهم مأمونةٌ، وأنفسهم عفيفةٌ، وحوائجهم خفيفةٌ، صبروا أياماً قليلةً لراحةٍ طويلة، أما الليل فصافُّون أقدامَهم، تجري دموعهم على خدودهم، يَجْأرون إلى الله سبحانه بأدعيتهم، قد حلا في أفواههم، وحلا في قلوبهم طعمُ مناجاته ولذيذ الخلوة به، قد أقسم الله على نفسه بجلال عزته ليُورثنّهم المقام الأعلى في مقعد صدق عنده، وأما نهارهم فحلماء علماء، بررة، أتقياء، كالقِداح ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بالقوم من مرضٍ، أوْ يقول: قد خُولطوا: ولعمري لقد خالطهم أمر عظيم جليل.

١٩٨ - عاتبه عثمان فأكثر وهو ساكت، فقال: ما لك لا تقولُ! قال: إن قلت لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحبّ.

١٩٩ - بُليتُ في حربِ الجمل بأشدّ الخلقِ شجاعةً، وأكثرِ الخلقِ ثروةً وبذلاً، وأعظِم الخلق في الخلق طاعةً، وأوفى الخلق كيداً وتكثُّراً، بُليتُ بالزبير، لم يردَّ وجهه قطّ، وبيعلى بن منيّة يحمل المال على الإبل الكثيرة ويعطي كلّ رجل ثلاثين ديناراً وفرساً على أنْ يقاتلني، وبعائشةَ ما قالت قطّ بيدها هكذا إلا واتّبعها الناس، وبطلحة لا يدرَكُ غورهِ، ولا يُطال مكره.

٢٠٠ - بعث عثمان بن حُنيف إلى طلحة والزبير، فعاد فقال: يا أميرَ المؤمنين، جئتك بالخيبةِ، فقال: كَلّاً! أصبت خيراً وأُجرت، ثم قال: إن من العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ، أما والله إنهما ليعلمان أني لستُ بدون واحدٍ منهما، اللهم عليك بهما.

٢٠١ - الرِّزق مقسومٌ، والأيامُ دُوَلٌ، والناسُ شرَعٌ سواءٌ، آدم أبوهم، وحوّاء أمهم.

٢٠٢ - قوتُ الأجسام الغذاءُ، وقوت العقول الحكمة، فمتى فقدَ واحد منهما قوّته بار واضمحلّ.

٢٠٣ - الصبر على مشقة العباد يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر.

٢٠٤ - الرُّوحُ حياة البدن والعقل حياة الروح.

٢٠٥ - حقيق بالإنسان أن يخشى الله بالغيب، ويحرس نفسه من العيب، ويزداد خيراً مع الشّيب.

٢٠٦ - أفضلُ الوُلاة من بقيَ بالعدل ذكره، واستمده من يأتي بعده.

٢٠٧ - قدّم العدل على البطش تظفر بالمحبّة، ولا تستعمل الفعل حيث ينجعُ القول.

٢٠٨ - البخيلُ يسخو من عِرضه بمقدار ما يبخل به من ماله، والسخيُّ يبخل من عِرضه بمقدار ما يسخو به من ماله.

٢٠٩ - فُضِّلَ العقلُ على الهوى، لأنّ العقل يُمَلِّكُكَ الزمان، والهوَى يستعبدك للزّمان.

٢١٠ - كُلُّ ما حملت عليه الحُرَّ احتمله، ورآه زيادة في شرفه، إلا ما حطه جزءاً من حريته، فإنه يأباه ولا يجيب إليه.

٢١١ - إذا منعكَ اللئيمُ البِرّ مع إعظامه حقك، كان أحسن من بذل السخيّ لك إياه مع الاستخفاف بك.

٢١٢ - الملكُ كالنهر العظيم، تستمدُّ منه الجداول، فإنْ كان عذباً عذُبتْ، وإنْ كان ملْحاً مَلحتْ.

٢١٣ - الفرق بين السخاءِ والتبذيرِ أنّ السخيّ يسمح بها يعرف مقداره ومقدار الرغبة فيه إليه، ويضعه بحيث يحسن وضعه، وتزكو عارفته، والمُبذر يسمح بما لا يوازنُ به رغبة الراغب، ولا حقّ القاصد، ولا مقدار ما أولى، ويستفزُّه لذلك خطرةٌ من خطراته، والتصدّي لإطراء مُطْرٍ له بينهما بونٌ بعيد.

٢١٤ - لا تُلاجُ الغضبان، فإنّك تقلقه باللّجاج، ولا تردّه إلى الصواب.

٢١٥ - لا تفرح بسقطة غيرك، فإنك لا تدري ما تتصرّف الأيام بك!

٢١٦ - قليل العلم إذا وقر في القلب كالطَّلِّ يصيب الأرض المطمئنّة فتعشب.

٢١٧ - مثلُ المؤمنِ الذي يقرأُ القرآن كمثل الأتْرُجّةِ ريحُها طيّب، وطعمُها طيّب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيّب وطعمها مُرٌّ، ومثل الفاجِر الذي لا يقرأ القرآن مثلُ الحنظلة طعمها مُرٌّ ولا ريح لها.

٢١٨ - المؤمن إذا نظر اعتبر، وإذا سكتَ تفكَّرَ، وإذا تكلم ذكَّرَ، وإذا استغنى شكر، وإذا أصابته شدّة صبر، فهو قريب الرّضا، بعيد السخط، يرضيه عن الله اليسير، ولا يسخطه البلاء الكثير، قوّته لا تبلغ به، ونيَّته تبلغ، مغموسة في الخير يدهُ، ينوي كثيراً منَ الخيرِ، ويعملُ بطائفةٍ منهُ، ويتلهفُ على ما فاته منَ الخيرِ كيف لم يعمل بِهِ!

والمنافقُ إذا نظرَ لها، وإذا سكتَ سهَا، وإذا تكلَّمَ لغا، وإذا أصابهُ شِدّةٌ شكا، فهوَ قريبُ السخطِ بعيدُ الرِّضا، يُسْخطه على الله اليسيرُ، ولا يُرْضِيهِ الكثيرُ، قُوَّتُه تبلُغُ، ونِيَّتُهُ لا تبلُغُ، مغموسَةٌ في الشرِّ يدُهُ، ينوي كثيراً من الشَّرِّ، ويعملُ بطائفةٍ منه فيتلهفُ على ما فاتَهُ منَ الشَّرِّ كيفَ لم يأمُرْ بِهِ، وكيفَ لم يعملْ به!

على لِسانِ المؤمنِ نورٌ يسطعُ، وعلى لِسانِ المنافقِ شيطانٌ ينطِقُ.

٢١٩ - سوءُ الظنِّ يَدوِي القلوبَ، ويَتَّهِمُ المأمونَ، ويوحِشُ المستأنسَ، ويُغَيِّرُ مودَّةَ الإخوانِ.

٢٢٠ - إذا لم يكن في الدُّنيا إلا محتاجٌ فأغنىٰ الناسِ أقنعُهمْ بما رُزِق.

٢٢١ - قيل لَهُ: إنّ دِرْعَكَ صدرٌ لا ظَهْرَ لها، إنَّا نخاف أنْ تُؤْتَى منْ قِبَلَ ظَهْرِكِ، فقالَ: إذا وَلَّيْتُ فلا وَاءَلْتُ.

٢٢٢ - أشدُّ الأشياءِ الإنسانُ، لأنّ أشدّها - فيما يُرَى - الجَبَلُ، والحديد ينحتُ الجبل، والنَّار تأكل الحديدَ، والماءُ يُطْفي النَّارَ، والسحاب يَحْمِل الماءَ، والرِّيحُ يُفرِّقُ السحابَ، والإنسانُ يتَّقي منَ الرِّيحِ.

٢٢٣ - إنَّما الناسُ في نَفسٍ معدودٍ، وأمَلٍ ممدودٍ، وأجَلٍ محدودٍ، فلا بُدَّ لِلأجلِ أنْ يتناهى، ولِلنَّفَسِ أنْ يُحصَى، وَلِلأَمَل أنْ يَنْقضِيَ، ثم قرَأَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾[1].

٢٢٤ - اللَّهُمَّ لا تجعل الدُّنيا لي سِجْناً، ولا فراقَها عَلَيَّ حُزْناً، أعوذُ بِكَ منْ دُنْيا تحرِمُني الآخرةَ، ومِنْ أمَلٍ يحرمُني العملَ، ومِنْ حياةٍ تحْرِمُني خيرَ المماتِ.

٢٢٥ - تَعَطَّرُوا بالاستغفارِ لا تفضحكُمْ رائحةُ الذنوبِ.

٢٢٦ - لِلنَّكباتِ غاياتٌ تنتهي إليها، ودَواؤها الصبرُ عَنْها وتَرْكُ الحيلَةِ في إزالتِها، فإنَّ الحيلةَ في إزالتها قَبْلَ انْقِضاءِ مدّتها سببٌ لزيادَتها.

٢٢٧ - لا يَرْضى عنك الحاسِدُ حتى يموت أحدكما.

٢٢٨ - لا يكُون الرَّجلُ سيِّدَ قومِه حتى لا يُبالي أي ثَوْبَيْهِ لَبس!

٢٢٩ - كتب إلى عامِلٍ له: اعمل بالحق ليومٍ لا يقْضَى فيه إلا بالحقِّ.

٢٣٠ - نظر إلى رجلٍ يغتابُ آخَرَ عِند ابنه الحسن، فقال: يا بنيَّ نزِّه سمعك عنه، فإنه نظر إلى أخبث ما في وعائهِ فأفرغهُ في وعائك.

---

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

٢٣١ - احذروا الكلامَ في مجالس الخوف، فإنَّ الخوفَ يُذْهلُ العقل الذي منه نستمد، ويشغلُهُ بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي نَرُوم نُصرته. واحذر الغضب ممن يحمِلُكَ عليه، فإنهُ مميتٌ للخواطِر، مانعٌ مِن التثبُّت. واحذر مَن تبغِضُه فإن بغضك له يدعوك إلى الضجرِ به، وقليلُ الغَضَب كثير في أذَى النفس والعقل، والضجرُ مضيِّقٌ لِلصَّدر، مُضعفٌ لِقُوَى العقل، واحْذرِ المحافل التي لا إنْصاف لأهلها في التسوية بينك وبين خصمك في الإقبال والاستماع، ولا أدب لهمْ يمنعهم من جَوْرِ الحُكم لك وعليك. واحذر حين تظهرُ العصبية لخصمك بالاعْتراض عَليك وتشييد قَوْله وحجته، فإنّ ذَلك يهيجُ العصبيّة، والاعتراضُ على هذا الوجه يخلِق الكلام، ويُذْهِبُ بهجة المعاني. واحذر كلام من لا يفهمُ عنك فإنه يُضْجِرك، واحذر استصْغار الخصم فإنه يمنع من التحفُّظِ، ورُبَّ صغير غلب كبيراً!

٢٣٢ - لا تقبلِ الرياسةَ على أهلِ مدينتكَ، فإنهم لا يستقيمونَ لكَ إلا بما تخرج به من شرطِ الرئيس الفاضل.

٢٣٣ - لا تهزأ بخطأ غيرك، فإن المنطق لا يملكهُ، وأقْلِلْ من الخطأ الَّذِي أنت فيه بقدرِ الصبرِ، واجْعل العقل والحقَّ إمامَيك تَنَل البغية بِهما.

٢٣٤ - الرَّأي يُريك غاية الأمر مَبدأهُ.

٢٣٥ - الخيِّرُ من الناس مَن قدر على أن يُصَرِّف نفسه كما يشاءُ ويدفعها عن الشُّرُورِ، والشرِّير من لم يكن كذلك.

٢٣٦ - السُّلْطان الفاضل هو الذي يَحْرُس الفَضائل، ويجود بها لمن دونه، ويرعاها من خاصّته وعامته، حتى تكثر في أيّامه، ويتحسن بها من لم تكن فيه.

٢٣٧ - لِلْكَرِيم رباطان: أحدُهما الرعاية لصديقه وذوي الحرمَة به، والآخر الوفاءُ لمن ألزمه الفضل ما يجب له عليه.

٢٣٨ - إذا تحرَّكتْ صورة الشَّرِّ ولم تظهر ولّدت الفَزَع، فإذا ظهرت وَلّدت الألم، وإذا تَحرّكت صورة الخير ولم تظهر وَلدت الفرج، فإذا ظهرت وَلّدَت اللّذة.

٢٣٩ - الفرقُ بين الاقتصادِ والبُخل، أنّ الاقتصادَ تمسُّك الإنسان بما في يدِه خوفاً على حريَّتِهِ وجاهه من المسألة، فهو يضع الشيء موضعه، ويصبر عمّا لا تدعو ضرورَةٌ إليه، ويصل صغير برِّه بعظيم بِشْره، ولا يستكثر من المودات خوفاً من فرط الإجْحاف به، والبخيل لا يكافىءُ على ما يسدَى إليه، ويمنع أيْضاً اليَسِير من استحَقَّ الكثير، ويصبر لصغير ما يجري عليه على كثيرٍ من الذِّلة.

٢٤٠ - لا تحتقرِنّ صغيراً يمكن أن يكبر، ولا قليلاً يمكن أنْ يكثر.

٢٤١ - ما زلتُ مظلوماً مُنذ قَبض الله نبيهُ حتى يوم الناس هذا، ولقد كنت أظلم قبل ظهور الإسلام، ولقد كان أخي عَقِيلٌ يذْنبُ أخي جعْفَر فيضربُني.

٢٤٢ - لو كُسِرتْ لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراةِ بتوراتهم، وبينَ أهلِ الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهلِ الفرقان بفرقانهم، حتى تُزْهِر تِلْك القضايا إلى الله عَزّ وجَلَّ وتقول: يا رب، إن عليًا قضى بين خلقك بقضائك.

٢٤٣ - مَرَّ بدارٍ بالْكوفة في مُراد تبنَى فوقعت مِنها شَظِيَّةٌ على صَلْعَتِهِ فأدمتها، فقال: ما يومي من مُرادٍ بواحِدٍ! اللّهُمّ لا ترفَعها، قالوا: فوالله لقدْ رأينا تلك الدار بين الدور كالشاة الجمّاءِ بين الغنم ذوات القُرُون.

٢٤٤ - أقتلُ الأشياء لعدوك ألّا تُعَرِّفَهُ أنك اتخذته عدوًا.

٢٤٥ - الخِيَرَةُ في ترْكِ الطِّيَرَةِ.

٢٤٦ - قيل له في بعض الحروب: إن جالت الخيلُ أين نطلُبُك؟ قال: حيْثُ تركتموني.

٢٤٧ - شَفيعُ المُذْنب إقراره، وتوْبتهُ اعْتِذَاره.

٢٤٨ - قصمَ ظهري رجلان: جاهل متنسّكٌ وعالمٌ متهتّكٌ.

٢٤٩ - ألا أخبركم بذات نفسي! أما الحسن ففتًى من الفتيان، وصاحبُ جفنةٍ وخوان، ولَوْ التقت حلْقتا البِطان لم يغن عنكم في الحرب غناءَ عُصْفورٍ، وأمّا عبدُ اللّهِ بن جعفر فصاحبُ لهو وظلّ باطل، وأمّا أنا والحُسيْنُ فنحن منكم وأنتم منا.

٢٥٠ - قال في المنبَرِيَةِ: صار ثُمُنُها تُسْعاً على البَدِيهة وهذا من العجائب.

٢٥١ - جاء الأشعَثُ إليه وهو على المنبرِ، فجعل يتخطّى رِقاب النّاس حتى قَرُبَ مِنه ثمَّ قال: يا أمِيرَ المُؤمنين، غلبتنا هذه الحمراءُ على قُرْبِكَ - يعني العجم - فركض المنبر بِرِجله، حتى قال صَعْصَعةُ بنُ صُوحان: ما لنا ولِلأشعث! ليقولَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام اليوم في العربِ قولاً لا يزالُ يُذْكرُ، فقال عليه السلام: مَنْ يعذرُني من هؤلاء الضياطرة[1]! يتمرَّغُ أحدهم على فراشه تمرُّغ الحمار، ويَهْجُر قوماً للذكر، أفتَأمُرونني أن أطردهم! ما كنت لِأطردهم فأكون من الجاهلين! أما والذي فلق الحبّة، وبَرَأ النّسَمة، ليضربُنّكُمْ على الدين عَوْداً كما ضربْتُمُوهم عليه بَدْءاً.

٢٥٢ - كان إذا رأى ابْنَ مُلْجَمٍ يقول: أُرِيدُ حَيَاتَهُ... البيت، فيقالُ لهُ: فاقْتُله، فيقولُ: كيف أقتلُ قاتلي!

---

(١) الضياطرة: الضّخام الذين لا غَنَاء عندهم، والواحد ضيطار. اللسان، مادة (ضطر).

٢٥٣ - إلٰهي ما قدر ذُنوبٍ أُقابلُ بها كرَمك، وما قَدْرُ عِبادةٍ أقابل بها نِعمك! وإني لأرجو أن تَسْتغرق ذُنوبي في كرمِك، كما استغرقتَ أعمالي في نِعَمك.

٢٥٤ - إذا غضب الكريمُ فألِنْ له الكلام، وإذا غضب اللئيمُ فخذ له العصا.

٢٥٥ - غضب العاقل في فعلِهِ، وغضب الجاهل في قولِهِ.

٢٥٦ - رأى رَجلاً يُحدِّث مُنكر الحديث، فقال: يا هذا، أنصف أذُنيك مِن فمك، فإنما جعل الأذنان اثنتين، والفم واحداً، لتسمع أكثر ممَّا تقول.

٢٥٧ - إيَّاك وكثرة الاعتذار، فإن الكذب كثيراً ما يُخالِطُ المعاذير.

٢٥٨ - اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على مَنْ شكرك.

٢٥٩ - سلْ مَسْأَلَةَ الحمقى واحفظ حفظ الأكياس.

٢٦٠ - مرُوا الأحداثَ بالمراءِ والجِدَال، والكهُولَ بالفكرِ، والشيوخَ بالصمْتِ.

٢٦١ - عوِّدْ نفسكَ الصبْر على جليس السوءِ، فليْسَ يكادُ يخطئكَ.

٢٦٢ - يا بنيَّ إنّ الشّرّ تارِكُكَ إنْ تركْتَهُ.

٢٦٣ - لا تطلبوا الحاجَة إلى ثلاثة: إلى الكَذُوبِ، فإنهُ يقرِّبُها وإن كانت بعيدةً، ولا إلى أحمقَ، فإنه يريدُ أن ينفعك فيضرُّك، ولا إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجةٌ، فإنهُ يجعلُ حاجتكَ وقايةً لحاجتهِ.

٢٦٤ - إياكَ وصدرَ المجلسِ فإنهُ مَجلسُ قُلْعةٍ.

٢٦٥ - احذرُوا صوْلة الكريمِ إذا جاع، وصوْلة اللّئيم إذَا شبعَ.

٢٦٦ - سرُّكَ دمكَ فلا تُجْرينّه إلّا في أوْدَاجك.

٢٦٧ - وسُئل عنِ الفرق بين الغمِّ والخوْفِ، فقال: الخوفُ مجاهدةُ الأمرِ المخوفِ قبل وُقُوعِهِ، والغمُّ ما يلحقُ الإنسانَ من وقوعهِ.

٢٦٨ - المعْروف كنْز فانظرْ عند من تودعهُ.

٢٦٩ - إذا أرْسِلت لبعْر فلا تأْت بتمرٍ فيؤكلُ تمرُك وتعنف على خلافك.

٢٧٠ - إذا وقع في يدِك يومُ السُّرُورِ فلا تخلّه فإنّك إذا وقعت في يدِ يومِ الغم لمْ يُخلّك.

٢٧١ - إذا أردتَ أنْ تصادقَ رجلاً فانظرْ، من عدوُّه؟

٢٧٢ - الانقباضُ من النَّاس مكْسبةٌ للعداوَةِ، والانبساطُ مجلبةٌ لقرين السوءِ، فكن بيْن المنقبض والمسترْسل، فإن خيْر الأمور أوساطها.

٢٧٣ - أنا عبد اللّه، وأخو رسولِ الله، لا يقولها بعْدِي إلّا كذّابٌ.

٢٧٤ - أخذ رسول الله ﷺ بيدِي فهزّها، وقالَ: ما أوّلُ نعمةٍ أنعمَ الله بها عَليك؟ قلتُ: أنْ خلقني حيًّا، وأقْدرَني، وأكمل حواسّي ومشاعري وقوَاي، قال: ثم ماذا؟ قلتُ: أن جعلني ذَكراً، ولم يَجعلني أنثى، قالَ والثّالثةُ: قلت: أن هداني للإسلام، قال: والرابعة؟ قلت: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(١).

٢٧٥ - اللهم إني أسألكَ إخباتَ المخبتين، وإخلاص الموقنين، ومرافقة الأبرار، والعزيمةَ في كلِّ برٍّ، والسلامة منْ كلِّ إثم، والفوْز بالجنَّةِ، والنجاةَ من النارِ.

٢٧٦ - لما ضربه ابن ملجم وأوْصى ابنيه بما أوصاهما قالَ لابن الحنفيّة: هل فهمت ما أوصيتُ به أخويك؟ قال: نعمْ، قال: فإني أوصيكَ بمثله وبتوقيرِ أخويك، واتباع أمرهما، وألاّ تبرم أمراً دونهما، ثم قال لهما: أوصيكما بهِ فإنهُ شقيقكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبّه فأحِبّاهُ.

٢٧٧ - أمّا هذا الأعور - يعني الأشعث - فإن الله لم يرفعْ شَرَفاً إلّا حسده، ولا أظهَر فضلاً إلا عابهُ وهوَ يُمنّي نفسَهُ ويخدعها، يخافُ ويرجو، فهُوَ بينهما لا يثقُ بواحِدٍ منهما، وقَدْ منَّ الله عليه بأن جعلَهُ جباناً، ولو كانَ شجاعاً لقتلهُ الحقُّ، وأمّا هذا الأكثفُ عندَ الجاهليّةِ - يعني جَريرَ بن عبد اللّه البَجَليّ - فهو يرى كلَّ أحَدٍ دونَهُ، ويستصغرُ كُلَّ أحَدٍ ويحتقرُهُ، قد مُلِيءَ ناراً، وهُوَ مع ذلك يطلبُ رئاسَةً، ويَرُومُ إمارةً، وهذا الأعورُ يُغْويه ويُطْغيه، إن حدَّثَهُ كَذَبَهُ، وإن قامَ دُونَهُ نَكصَ عنهُ، فهما كالشيطانِ إذ قالَ للإنسانِ: اكفُرْ فلمّا كَفَرَ قالَ إنّي بَرِيءٌ منكَ إنّي أخافُ الله رَبَّ العالمينَ.

٢٧٨ - بُلُوغُ أعْلَى المنازِلِ بِغيرِ استحقاقٍ منْ أكبرِ أسبابِ الهلَكةِ.

٢٧٩ - الكلمةُ إذا خرجتْ منَ القلبِ وقعتْ في القلبِ، وإذا خَرَجَتْ منَ اللسانِ لم تجاوِزِ الآذانَ.

٢٨٠ - الكرمُ حسنُ الفِطْنةِ، واللؤمُ سوءُ التّغافُلِ.

٢٨١ - أسْوأُ النّاسِ حالاً من اتَّسَعَتْ معرفته، وبَعُدَتْ هِمّتُهُ، وضاقَتْ قُدْرَتُهُ.

٢٨٢ - أمران لا ينفكّان مِن الكَذِب: كثْرَةُ المواعيدِ، وشِدَّةُ الاعتذارِ.

٢٨٣ - عادَةُ النَّوْكى الجلوسُ فوق القدْر، والمجيءُ في غيرِ الوقت.

٢٨٤ - العافيةُ المُلْكُ الخفيُّ.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

٢٨٥ - سوءُ حمْلِ الغِنَى يورثُ مقتاً، وسوءُ حمل الفاقَةِ يضع شرفاً.

٢٨٦ - لا ينبغي لأحدٍ أن يدَعَ الحزمَ لظفرٍ ناله عاجزٌ، ولا يسامح نفسه في التفريطِ لنكبةٍ دخلتْ على حازِمٍ.

٢٨٧ - ليس مِن حسنِ التوكل أن يقالَ العاثِرُ عثرَةً، ثم يركبها ثانية.

٢٨٨ - سوءُ القالةِ في الإنسان إذا كان كذباً نظيرُ الموتِ لفسادِ دنياه، فإن كان صدْقاً فأشدُّ مِنَ الموتِ لفسادِ آخرتِهِ.

٢٨٩ - ترضى الكرامُ بالكلامِ، وتُصادُ اللِّئامُ بالمالِ، وتُسْتصلَحُ السّفلةُ بالهوانِ.

٢٩٠ - لا يزالُ المرءُ مستمرًا ما لم يعثرْ، فإذا عثَرَ مرَّةً لَجَّ بِهِ العِثار ولو كان في جَدَدٍ.

٢٩١ - المتواضع كالوهْدَةِ يجتمعُ فيها قَطْرُها وقَطْرُ غيرها، والمُتَكَبِّرُ كالرَّبْوَةِ لا يقرُّ عليها قطرُها، ولا قطرُ غيرِها.

٢٩٢ - لا يصبرُ على الحربِ ويَصْدُقُ في اللقاءِ إلا ثلاثةٌ: مستبصِرٌ في دِينٍ، أو غيْرَانُ على حُرْمَةٍ، أو ممتعِضٌ من ذُلٍّ.

٢٩٣ - مجاوزتك ما يكفيك فَقْرٌ لا منتهى لهُ.

٢٩٤ - قيل له: أيّ الأمورِ أعْجَلُ عقوبةً، وأسرع لصاحِبها صرْعةً؟ فقال: ظلم مَنْ لا ناصِرَ له إلّا الله، ومجازاةُ النِّعَمِ بالتَّقْصِيرِ، واستطالَةُ الغَنيّ على الفقيرِ.

٢٩٥ - الجِماعُ للمِحَنِ جَمَّاعٌ، وللخيراتِ منّاعٌ، حياءٌ يرتفعُ، وعوراتٌ تجتمعُ، أشبه شيءٍ بالجُنُونِ، ولذلك حُجِبَ عنِ العيونِ، نتيجتُهُ ولَدٌ فَتُونٌ، إن عاشَ كدَّ، وإن ماتَ هدَّ.

٢٩٦ - ما شيءٌ أهْونَ مِنْ ورعٍ، وإذا رابكَ أمرٌ فَدَعْهُ.

٢٩٧ - إذا أتى عَلَيَّ يومٌ لا أزدادُ فيه عملاً يقرِّبُني إلى الله، فلا بورِكَ لي في طلوع شمسِ ذلك اليومِ.

٢٩٨ - أشرف الأشياءِ العلمُ، والله تعالى عالِمٌ يُحِبُّ كل عالِمٍ.

٢٩٩ - ليْتَ شعْري أيَّ شيءٍ أدركَ منْ فاتهُ العلمُ! بل أيّ شيءٍ فات من أدْرك العلْم!

٣٠٠ - لا يسودُ الرجل حتّى لا يُبالي في أيّ ثوبيه ظهرَ.

٣٠١ - سمع رجلاً يدعُو لصاحبه، فقال: لا أراك الله مكرُوهاً، فقال: إنما دعوْتَ لهُ بالموْت، لأنّ منْ عاشَ في الدُّنيا لا بُدَّ أن يرَى المكْروهَ.

٣٠٢ - من صفةِ العاقل ألّا يَتَحدّث بما يُسْتطاعُ تكْذيبهُ فيه.

٣٠٣ - السعيدُ منْ وُعظ بغيرِهِ، والشقيّ من اتَّعظ به غيرُه.

٣٠٤ - ذو الهِمّة وإنْ حطّ نفسَه يأبى إلّا علوًّا، كالشعلة مَن النَّار يخفيها صاحبها، وتأبى إلّا ارتفاعاً.

٣٠٥ - الدَّينُ غلّ الله في أرْضهِ، إذا أراد أن يُذِلّ عبداً جعلَه في عنقِهِ.

٣٠٦ - العاقل إذا تكلم بكلمة أتبعها حكْمةً ومثلاً، والأحمقُ إذا تكلم بكلمةٍ أتبعها حَلِفاً.

٣٠٧ - الحركةُ لقاح الجدِّ العظيمِ.

٣٠٨ - ثلاثةٌ لا يُستحى من الختْم عليْها: المالُ لنفي التهْمةِ، والجوهرُ لنفاسته، والدواءُ للاحتياطِ مِن العدوِّ.

٣٠٩ - إذا أيسرت فكلُّ الرجال رجالك، وإذا أعسرتَ أنكرك أهلك.

٣١٠ - من الحكمة جعل المَال في أيْدِي الجهال، فإنَّهُ لو خُصَّ به العقلاءُ لمات الجهالُ جُوعاً، ولكنهُ جُعلَ في أيدي الجهّالِ، ثم استنزلهمْ عنه العقلاءُ بلطفهم وفطنتهم.

٣١١ - ما ردَّ أحدٌ أحداً عن حاجة إلّا وتبيَّنَ العزُّ في قفاه، والذلُّ في وجههِ.

٣١٢ - ابتداءُ الصنيعة نافلةٌ، وربُّها فريضةٌ.

٣١٣ - الحاسدُ المبطنُ للحسدِ كالنحلِ يمجُّ الدَّوَاءَ، ويبطنُ الداءَ.

٣١٤ - الحاسدُ يرى زوَال نعمتِكَ نعمةً عليْهِ.

٣١٥ - التَّواضع إحْدى مصايد الشرف.

٣١٦ - تواضعُ الرَّجُل في مرتبتِه ذَبٌّ للشماتةِ عنهُ عِندَ سقْطتهِ.

٣١٧ - رُبَّ صلَفٍ أدَّى إلى تلَف.

٣١٨ - سوءُ الخلقِ يُعْدِي، وذاكَ أنهُ يدْعُو صاحبك إلى أن يقابلكَ بمثْلِهِ.

٣١٩ - المروءة التَّامة مُبايَنةُ العامَّةِ.

٣٢٠ - أسوأ ما في الكرِيم أن يمنعك نداهُ، وأحسنُ ما في اللّئيم أنْ يكفَّ عنك أذاهُ.

٣٢١ - السفلةُ إذا تعلمُوا تكبّرُوا، وإذا تموّلُوا اسْتطالُوا، والعِلْيةُ إذا تعلّمُوا تواضعوا، وإذا افتقروا صالُوا.

٣٢٢ - ثلاثٌ لا يُسْتصلَحُ فسادُهُنَّ بحيلةٍ أصْلاً: العداوةُ بيْنَ الأقاربِ، وتحاسدُ الأكْفاءِ، وركاكةُ المُلُوكِ.

٣٢٣ - السخيُّ شُجاعُ القلب، والبخيلُ شُجاعُ الوجهِ.

٣٢٤ - العزلة توفِّر العرضَ وتستُر الفاقةَ، وترفعُ ثقل المكافأةِ.

٣٢٥ - ما احتنكَ أحدٌ قطُّ إلا أحبّ الخلوةَ والعزلة.

٣٢٦ - خيرُ الناس من لمْ تجرِّبهُ.

٣٢٧ - الكريم لا يلينُ على قسرٍ، ولا يَقْسُو على يسرٍ.

٣٢٨ - المرأةُ إذا أحبتك آذتك، وإذا أبغضتك خانتك وربما قتلتكَ، فحُبُّها أذى، وبغضها داءٌ بلا دَوَاءٍ.

٣٢٩ - المرأةُ تكتمُ الحبّ أربعين سنةً، ولا تكتمُ البغض ساعةً وَاحِدةً.

٣٣٠ - المُمتحنُ كالمختنق، كلَّما ازْداد اضطراباً ازداد اختناقاً.

٣٣١ - كلُّ ما لا ينتقلُ بانتقالك مِنْ مالك فهو كفيل بك.

٣٣٢ - أجلُّ ما يَنزلُ مِن السماء التوْفيقُ، وأجلُّ ما يصعدُ مِنَ الأرْض الإخلاصُ.

٣٣٣ - اثنان يهونُ عليهما كلُّ شيءٍ: عالمٌ عرَف العواقب، وجاهل يجهلُ ما هو فيهِ.

٣٣٤ - شرٌّ من الموْتِ ما إذا نزلَ تمنّيتَ بنزولهِ الموتَ، وخيْرٌ من الحياةِ ما إذا فقدته أبغضتَ لفقْدِه الحياةَ.

٣٣٥ - ما وَضعَ أحدٌ يدَهُ في طعامِ أحدٍ إلا ذلّ له.

٣٣٦ - المرأةُ كالنعل يلبسها الرجلُ إذا شاءَ، لا إذا شاءَتْ.

٣٣٧ - أبصرُ الناس لعوَار النَّاس المِعورُ.

٣٣٨ - العجبُ ممنْ يخافُ عقوبة السلطان وهي منقطعةٌ، ولا يخافُ عقوبة الدَّيان وهي دائمة.

٣٣٩ - من عرف نفسَهُ فقد عرف ربّه.

٣٤٠ - من عجز عن معْرفةِ نفسهِ فهو عن معرفة خالقهِ أعجزُ.

٣٤١ - لو تكاشفتُمْ لما تدافنتُمْ.

٣٤٢ - شيطان كلّ إنسانٍ نفسهُ.

٣٤٣ - إنْ لمْ تعلمْ منْ أينَ جِئت، لمْ تَعْلَمْ إلى أيْن تذهبُ!

٣٤٤ - غايةُ كلّ مُتعمِّقٍ في معرفَةِ الخالقِ سبحانهُ الاعترافُ بالقصورِ عن إدراكها.

٣٤٥ - الكمالُ في خمس: ألّا يعيبَ الرجلُ أحداً بعيبٍ فيهِ مثلهُ حتَّى يصلِحَ ذَلكَ الْعَيْب مِنْ نفسهِ، فإنهُ لا يفرغُ منْ إصلاحِ عيْبٍ من عُيوبهِ حتَّى يهجم على آخرَ فتشغله عُيوبهُ عن عُيوب النَّاس، وألاّ يطلقَ لسانه ويدهُ حتَّى يعلم أفِي طاعةٍ ذلك أمْ في معصيةٍ، وألاّ يلتمسَ مِن النَّاسِ

إلّا ما يعطيهمْ منْ نفسهِ مثلَهُ، وأنْ يَسلَم منَ النّاسِ باستشعارِ مُداراتهمْ وتوفيتهمْ حُقوقهمْ، وأن يُنفقَ الفضلَ منْ ماله، ويمسكَ الفضل منْ قولهِ.

٣٤٦ - صَدِيق البخيل مَن لم يُجَرِّبْهُ.

٣٤٧ - من الخيط الضعيف يُفْتَل الحبل الحَصيف، ومن مقدحةٍ صغيرةٍ تحترق مدينةٌ كبيرةٌ، ومن لَبِنَةٍ لَبِنَةٍ تُبنى قريةٌ حصينةٌ.

٣٤٨ - مُحِبُّ الدراهِمِ مَعذُورٌ وإن أدنَتْهُ من الدُّنْيا، لأنها صانتهُ عن أبناءِ الدُّنيا.

٣٤٩ - عجباً لمن قيل فيهِ الخيرُ وليس فيه كيف يَفْرَح! وعجباً لمن قِيل فيه الشرُّ وليْسَ فيه كيف يغضبُ!

٣٥٠ - ثلاث مُوبقاتٌ: الكِبْرُ فإنه حطَّ إبليس عن مَرْتبتِهِ، والحِرْصُ فإنه أخرج آدم من الجنّةِ، والحسَدُ فإنّهُ دعا ابن آدم إلى قَتْلِ أخِيهِ.

٣٥١ - الفِطامُ عن الحُطام شَدِيدٌ.

٣٥٢ - إذا أقبلَتِ الدُّنيا أقبلت على حِمارٍ قَطوفٍ، وإذا أدْبَرَتْ أدبرَتْ على البُراقِ.

٣٥٣ - أصاب مُتأمِّلٌ أو كاد، وأخطأ مستعجلٌ أو كاد.

٣٥٤ - سِتّةٌ لا تُخْطِئُهُمْ الكآبةُ: فَقيرٌ حديث عهدٍ بِغِنًى، ومُكْثِرٌ يخاف على ماله، وطالِبُ مرتبةٍ فَوْق قدرهِ، والحسودُ، والحقودُ، ومخالِطُ أهل الأدب وليس بأدِيبٍ.

٣٥٥ - طَلَبْتُ الراحة لنفسي فلم أجد شيئاً أروح من تَرْك ما لا يعنيني، وتوحَّشت في القفرِ البَلْقعِ فلم أرَ وَحْشةً أشدّ من قرين السوء، وشهدت الزُّحوف ولقِيتُ الأقران، فلم أر قِرناً أغلب من المرأةِ، ونظرت إلى كلِّ ما يُذِلُّ العزيز ويكسِرُهُ، فلم أرَ شيئاً أذَلَّ لهُ ولا أكسر من الفاقة.

٣٥٦ - أوّل رأي العاقل آخِرُ رأي الجاهل.

٣٥٧ - المُسْترشِد مُوَقًّى، والمُحْتَرِسُ مُلَقًّى.

٣٥٨ - الحُرُّ عبدٌ ما طَمِع، والعبدُ حُرٌّ ما قَنَعَ.

٣٥٩ - ما أحْسَنَ حُسْنَ الظنِّ إلا أنّ فيهِ العَجْزَ، وما أقبَحَ سوءَ الظّنِّ إلّا أنّ فيه الحزْمَ!

٣٦٠ - ما الحيلَةُ فيما أعْني إلا الكفُّ عنه، ولا الرّأي فيما يُنال إلا اليأسُ منه.

٣٦١ - الأحمقُ إذا حُدِّث ذَهل، وإذا حَدَّث عُجِل، وإذا حُمِل على القبيح فعل.

٣٦٢ - إثبات الحُجَّةِ على الجاهل سهلٌ، ولكن إقرارُهُ بها صعبٌ.

٣٦٣ - كما تُعْرف أواني الفَخّار بامْتِحانِها بأصواتها فيعلَمُ الصَّحيح مِنها من المكْسورِ، كذلك يُمْتحنُ الإنسان بمنطِقِهِ فيعرفُ ما عِندَهُ.

٣٦٤ - احتمال الفقرِ أحْسَنُ من احتمال الذُّلّ، لأنّ الصبر على الفقر قناعَةٌ، والصبر على الذل ضراعَةٌ.

٣٦٥ - الدنيا حمقاءُ لا تميلُ إلا إلى أشباهها.

٣٦٦ - السفرُ ميزانُ الأخلاق.

٣٦٧ - العقل مَلِكٌ والخصالُ رعيّتُهُ، فإذا ضعف عن القيام عليها وَصل الخَلَلُ إليها.

٣٦٨ - الكَذَّابُ يُخيف نفسه وهو آمِنٌ.

٣٦٩ - لولا ثلاث لم يُسْلل سَيفٌ: سِلكٌ أدقُّ من سِلك، ووَجهٌ أصْبَحُ من وجْهٍ، ولُقْمَةٌ أسْوَغُ من لُقمةٍ.

٣٧٠ - قد يَحْسُن الامتنانُ بالنعمةِ وذلك عند كُفْرانِها، ولولا أن بني إسْرائيل كفرُوا النِّعْمة لما قال الله لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[1].

٣٧١ - إذا تناهَى الغَمُّ انقطَعَ الدمْعُ.

٣٧٢ - إذا وُلِّيَ صديقك ولايَةً فأصَبْتَه على العُشْرِ مِن صَدَاقَتِهِ فَلَيْسَ بصاحبِ سُوءٍ.

٣٧٣ - أعْجَبُ الأشياءِ بديهةُ أمْنٍ وَرَدَتْ في مَقامِ خَوفٍ.

٣٧٤ - الحرصُ مَحْرمَةٌ والجبنُ مقتَلةٌ، وإلا فانظر فيمن رأيت وسمعت: أمَنْ قُتِلَ في الحربِ مُقبلاً أكثَرُ، أم مَن قُتل مُدْبراً! وانظر: أمَن يَطلُب بالإجمال والتكَرُّم أحقُّ أن تسخو نَفْسُكَ لَهُ أمْ مَن يطْلُبُ بالشرَهِ والحِرْص!

٣٧٥ - إذا كان العقل تسعة أجزاء احتاج إلى جُزْءٍ من جهل ليُقْدِم به صاحبه على الأمور، فإنّ العاقل أبداً متوانٍ مترقب متخوّف.

٣٧٦ - عملُ الرَّجلِ بما يعلمُ أنه خطأ هَوًى، والهوَى آفةُ العفافِ، وتَرْكُ العملِ بما يعلمُ أنه صوابٌ تهاوُنٌ، والتهاوُنُ آفةُ الدينِ، وإقدامُه على ما لا يدري أصوابٌ هو أم خطأ لجاجٌ واللجاج آفةُ العقل.

٣٧٧ - ضعفُ العقل أمانٌ منَ الغمّ.

٣٧٨ - لا ينبغي للعاقلِ أنْ يمدحَ امرأةً حتى تموتَ، ولا طعاماً حتى يستمرئه، ولا صديقاً حتى يستقرضهُ، وليس مِنْ حُسْنِ الجِوارِ تَرْكُ الأذى، ولكن حُسْنُ الجِوارِ الصبرُ على الأذى.

٣٧٩ - لا يتأدبُ العبدُ بالكلامِ إذا وثقَ بأنه لا يُضرَبُ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٢.

٣٨٠ - الفَرْقُ بين المؤمنِ والكافِرِ الصلاةُ، فمن تركها وادّعى الإيمان كذَّبه فِعْلُهُ، وكان عليه شاهدٌ مِنْ نَفْسِهِ.

٣٨١ - منْ خاف الله خافه كل شيء.

٣٨٢ - منَ النقصِ أن يكونُ شفيعُكَ شيئاً خارجاً عن ذاتِكَ وصفاتِكَ.

٣٨٣ - ويلي على العبدِ اللئيم، عبد بني ربيعةَ! نزع به عِرْقُ الشِّرك العبشِميّ إلى مساءتي، وتذكُّرُ دَمِ الوليدِ وعتبةَ وشيبةَ أَوْلَى له، والله ليرَيَنّي في موقِفٍ يسوءُهُ ثم لا يجدُ هناكَ فُلاناً وفلاناً - يعني سالماً مَوْلَى حُذَيْفَةَ.

٣٨٤ - أنا قاتِلُ الأقرَان، ومُجَدِّلُ الشجْعانِ، أنا الذي فقأْتُ عينَ الشِّرْكِ، وثَلَلْتُ عرشَهُ، غيرَ مُمْتَنٍّ على الله بجِهادي، ولا مُدِلٌّ إليه بطاعتي، ولكن أُحدِّثُ بنعمة ربِّي.

٣٨٥ - الصَّوْمُ عبادةٌ بين العبدِ وخالقِهِ، لا يَطّلِعُ عليها غيرُه، وكذلك لا يجازي عنها غيْرُه.

٣٨٦ - طوبى لِمَن شغله عَيْبُهُ عن عيوب الناس! طوبى لِمَنْ لا يعرفُ الناسَ ولا يعرِفُهُ الناسُ! طوبَى لمن كان حيًّا كميّتٍ، وموجوداً كمعْدُومٍ، قد كفى جاره خَيرَهُ وشَرَّهُ، لا يسألُ عنِ الناس، ولا يسألُ الناسُ عنه.

٣٨٧ - ما السيفُ الصارمُ في كفّ الشجاعِ بأعَزّ له من الصِّدْقِ.

٣٨٨ - لا يكن فَقْرُكَ كُفراً، وغناك طغياناً.

٣٨٩ - ثمرةُ القناعةِ الرَّاحةُ، وثمرةُ التَّواضُع المحبّة.

٣٩٠ - الكريمُ يلينُ إذا استُعطِفَ، واللئيمُ يقسو إذا لُوطِفَ.

٣٩١ - أنْكَى لِعَدُوِّك ألّا تُرِيَهُ أنك اتَّخَذْته عدوًّا.

٣٩٢ - عذابانِ لا يأْبَهُ الناسُ لهما: السفرُ البعيدُ، والبناءُ الكثير.

٣٩٣ - ثلاثة يُؤْثرون المالَ على أنفسهم: تاجر البحر، وصاحب السلطان، والمُرْتَشِي في الحكمِ.

٣٩٤ - أعْجَزُ الناسِ مَنْ قَصَّرَ في طلب الصديق، وأعْجَزُ منه منْ وَجَدَهُ فَضَيَّعَهُ.

٣٩٥ - أشدُّ المشاقّ وعدُ كذَّابٍ لِحَرِيصٍ.

٣٩٦ - العادات قاهِرَاتٌ، فمن اعتاد شيئاً في سرّه وخلوته فضحهُ في جَهْرِهِ وعلانيته.

٣٩٧ - الأخ البارّ مغِيضُ الأسرار.

٣٩٨ - عدمُ المعرفة بالكتابة زمانةٌ خَفِيّةٌ.

٣٩٩ - قديمُ الحُرْمَةِ وحديثُ التَّوْبَةِ يمحقانِ ما بينهما من الإساءةِ.

٤٠٠ - ركوبُ الخيلِ عِزٌّ، ورُكُوبُ البراذينِ لذّةٌ، ورُكوبُ البغالِ مَهْرَمَةٌ، ورُكوبُ الحميرِ مَذَلّةٌ.

٤٠١ - العقلُ يظهرُ بالمعاملة، وشِيَمُ الرِّجالِ تُعْرَفُ بالولايةِ.

٤٠٢ - قال له قائلٌ: علِّمْني الحلم، فقال: هوَ الذُّلُّ، فاصطبرْ عليه إنِ استطعتَ.

٤٠٣ - قلتمْ: إنّ فلاناً أفادَ مالاً عظيماً، فهلْ أفادَ أيّاماً يُنفقُهُ فيها!

٤٠٤ - عيادةُ النَّوْكَى أشدُّ على المريضِ منْ وَجَعِهِ.

٤٠٥ - المريضُ يعادُ، والصحيحُ يُزَارُ.

٤٠٦ - الشيءُ الذي لا يحسُنُ أنْ يقالَ وإن كان حقًّا، مدحُ الإنسانِ نفسَهُ.

٤٠٧ - الشيءُ الذي لا يُسْتغنَى عنه بحالٍ من الأحوالِ التوفيقُ.

٤٠٨ - أوْسعُ ما يكونُ الكريمُ مغفرةً، إذا ضاقَتْ بالذنبِ المعذِرَةُ.

٤٠٩ - سترُ ما عاينتَ أحسنُ منْ إشاعَةِ ما ظننْتَ.

٤١٠ - التّكبُّرُ على المتكبّرينَ هوَ التواضُعُ بعينه.

٤١١ - إذا رفعْتَ أحداً فوق قدرِهِ فتوقعْ منهُ أن يحطَّ منكَ بقدرِ ما رفعْتَ منه.

٤١٢ - إساءةُ المحسنِ أن يمنعك جدْواهُ، وإحسانُ المُسيءِ أن يكفَّ عنكَ أذاهُ.

٤١٣ - اللهمّ إني أستعديكَ على قريش، فإنهمْ أضمَرُوا لِرَسُولِكَ ﷺ ضروباً منَ الشَّرِّ والغدرِ، فعجزوا عنها، وحُلْتَ بينهم وبينها، فكانتِ الوجْبةُ بي، والدّائرةُ عليَّ. اللهمّ احفَظْ حسناً وحسيناً، ولا تمكن فجرةَ قريشٍ منهما ما دمتُ حيًّا، فإذا توفَّيتَني فأنتَ الرَّقيبُ عليهمْ، وأنتَ على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ.

٤١٤ - قال له قائلٌ: يا أميرَ المؤمنينَ، أرأيت لو كان رسولُ الله ﷺ تركَ ولداً ذكراً قد بلغَ الحُلمَ، وآنسَ منه الرشدَ، أكانَتِ العربُ تسلِّم إليه أمرها؟ قال: لا، بل كانتْ تقتُلُه إن لم يفعلْ ما فعلْتُ، إنّ العربَ كَرِهَتْ أمر محمّدٍ ﷺ وحسدتهُ على ما آتاهُ الله منْ فضلِهِ، واستطالت أيّامَهُ حتى قذفَتْ زوجَتهُ، ونَفَّرَتْ به ناقتهُ، مع عظيم إحسانه إليها، وجسيمِ مِنَنِهِ عندها، وأجمعتْ مُذْ كان حيًّا على صرفِ الأمرِ عن أهلِ بيتِهِ بعد موتِه، ولولا أنّ قريشاً جعلَتِ اسمه ذريعةً إلى الرِّياسةِ، وسُلَّماً إلى العزِّ والإمرةِ، لما عبدت الله بعدَ موتِهِ يوماً واحداً، ولارْتَدَّتْ في حافرتها، وعادَ قارِحُها جَذَعاً، وبازِلُها بَكْراً، ثم فتحَ الله عليها الفُتوحَ، فأثرتْ بعد الفاقةِ، وتموّلتْ بعدَ الجُهْدِ والمخمصةِ، فحُسنَ في عيونِها منَ الإسلامِ ما كان سَمِجاً[1]،

(١) أي قبيحاً. القاموس، مادة (سمج).

وثبت في قلوب كثير منها من الذّين ما كان مضطرباً، وقالت: لولا أنّه حقٌّ لما كان كذا، ثم نسبتْ تلكَ الفتوحَ إلى آراءِ وُلاتها، وحُسْنِ تدبيرِ الأمراءِ القائمينَ بها، فتأكّدَ عندَ الناسِ نباهةُ قومٍ وخمولُ آخرين، فكُنّا نحنُ ممّنْ خَمل ذكرُهُ، وخبتْ نارُ، وانقطعَ صوتُه وصيتُهُ، حتى أكلَ الدّهرُ علينا وشربَ، ومضتِ السّنُونَ والأحقابُ بما فيها، وماتَ كثير ممن يُعرَف، ونشأ كثيرٌ ممنْ لا يُعرَفُ. وما عسى أنْ يكونَ الولدُ لو كان! إنّ رسولَ الله ﷺ لم يُقرّبْني بما تعلمونهُ منَ القُرْبِ للنسبِ واللُّحْمَةِ، بل للجهادِ والنصيحةِ، أفتراهُ لو كان لهُ ولدٌ هل كان يفعلُ ما فعلْتُ! وكذاكَ لم يكنْ يقرّبُ ما قرّبت، ثم لم يكنْ عندَ قريش والعربِ سبباً لِلْحُظْوَةِ والمنزلةِ، بل للحرمانِ والجفوَةِ. اللهمّ إنّكَ تعلمُ أنّي لم أُرِدِ الإمرةَ، ولا علوَّ الملك والرياسة، وإنّما أردْت القيامَ بحدودكَ، والأداءَ لشرعكَ، ووضعَ الأمورِ في مواضعها، وتوفيرَ الحُقُوقِ على أهلها، والمُضِيَّ على منهاجِ نبيِّكَ، وإرشادَ الضّالّ إلى أنوارِ هدايتكَ.

٤١٥ - البرُّ ما سكنَتْ إليهِ نفسُكَ، واطمأنّ إليه قلبُكَ، والإثمُ ما جال في نفسك وتردَّدَ في صدرِك.

٤١٦ - الزكاةُ نقصٌ في الصورةِ، وزيادةٌ في المعنى.

٤١٧ - ليس الصومُ الإمساك عن المَأكَلِ والمشربِ، الصومُ الإمساك عنْ كلّ ما يكرَهُهُ الله سبحانَهُ.

٤١٨ - إذا كان الرّاعي ذِئباً، فالشّاةُ منْ يحفظُها!

٤١٩ - كلّ شيءٍ يعصيكَ إذا أغضبْتَهُ إلّا الدُّنيا، فإنها تُطيعُكَ إذا أغضبْتَها.

٤٢٠ - رُبَّ مغبوطٍ بنعمةٍ هيَ داؤُهُ، ومَرْحومٍ منْ سقم هو شفاؤُهُ.

٤٢١ - إذا أرادَ الله أنْ يسلّطَ على عبدٍ عدوًّا لا يرحمه سلط عليهِ حاسداً.

٤٢٢ - شربُ الدّواءِ للجسدِ كالصابونِ للثّوْب، يُنقّيهِ ولكن يُخْلِقه.

٤٢٣ - الحسد خُلقٌ دنيءٌ، ومنْ دناءَتِهِ أنه موكّلٌ بالأقربِ فالأقرب.

٤٢٤ - لو كانَ أحدٌ مكتفياً منَ العلمِ لاكتفى نبيُّ الله موسى، وقد سمعتم قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1].

٤٢٥ - أستغفرُ الله ممّا أملك، وأستصلحه فيما لا أملك.

٤٢٦ - إذا قعدتَ وأنتَ صغيرٌ حيث تجِبُ، قعدْتَ وأنتَ كبيرٌ حيث تكْرَه.

٤٢٧ - الولد العاقُّ كالإصبع الزائدةِ، إنْ تُركتْ شانت، وإنْ قطعتْ آلَمَتْ.

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

٤٢٨ - خرجَ العزّ والغِنَى يجولانِ فلقِيا القناعةَ فاستقرّ.

٤٢٩ - الصديق نسيبُ الرُّوح، والأخُ نسيبُ الجسم.

٤٣٠ - جِزْيةُ المؤمن كِرَاءُ منزله، وعذابُهُ سوءُ خُلُقِ زوجته.

٤٣١ - الوَعْدُ وجهٌ والإنجازُ محاسنُهُ.

٤٣٢ - أنعمُ النَّاس عيشاً منْ عاشَ في عيشهِ غيرُهُ.

٤٣٣ - لا تشاتمنَّ أحداً، ولا تَرُدَّنَّ سائِلاً، إمَّا هو كريمٌ تَسُدُّ خَلَّته، أو لئيمٌ تشتري عِرضك منه.

٤٣٤ - النَّمام سهم قاتِلٌ.

٤٣٥ - ثلاثةُ أشياءَ لا دوام لها: المال في يَدِ المُبذِّر، وسحابة الصيف، وغضب العاشق.

٤٣٦ - الزَّاهد في الدِّينار والدِّرهم أعزُّ منَ الدينار والدرهم.

٤٣٧ - ربَّ حربٍ أحيِيَت بلفظةٍ، وربَّ وُدٍّ غُرِس بلحظة.

٤٣٨ - إذا تزوَّج الرَّجل فقد ركب البحر، فإن ولِدَ له فقد كُسِرَ به.

٤٣٩ - صلاحُ كلِّ ذي نعمةٍ في خلاف ما فسد عليه.

٤٤٠ - أنعم الناس عيشةً مَن تحلّى بالعفاف، ورضيَ بالكفافِ، وتَجاوَزَ ما يُخاف إلى ما لا يخافُ.

٤٤١ - التَّواضع نعمةٌ لا يفطنُ لها الحاسد.

٤٤٢ - ينبغي للعاقل أن يمنع معروفه الجاهل واللئيم والسفيه، أما الجاهلُ فلا يعرف المعروف ولا يشكر عليه، وأما اللئيم فأرضٌ سِبخة لا تنبِتُ، وأما السفيهُ فيقولُ: إنما أعطاني فَرَقاً من لساني.

٤٤٣ - خير العيش ما لا يُطغيك، ولا يلهيك.

٤٤٤ - ما ضرب الله العباد بسوط أوْجعَ من الفقر.

٤٤٥ - إذا أراد الله أن يزيل عَنْ عبدٍ نعمة كان أول ما يغيِّرُ منه عَقْلُهُ.

٤٤٦ - خيرُ الدُّنيا والآخِرَةِ في خَصْلتين: الغِنَى والتُّقى، وشَرُّ الدُّنيا والآخرة في خصلتين: الفَقْرِ والفُجُورِ.

٤٤٧ - ثمانية إذا أُهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الآتي طعاماً لم يُدْعَ إليه، والمُتأمِّرُ على ربِّ البيت في بيتهِ، وطالب المعروف من غير أهله، والداخل بين اثنين لم يدخلاه، والمستخِفُّ بالسلطان، والجالس مجلساً ليس له بأهلٍ، والمقبلُ بحديثه على مَن لا يسمعهُ، ومن جرَّب المجرَّب.

٤٤٨ - أنفسُ الأعلاق عقلٌ قُرن إليهِ حَظٌّ.

٤٤٩ - اللطافَةُ في الحاجة أجدى من الوسيلة.

٤٥٠ - احتمال نَخْوَةِ الشرف أشدُّ من احتمال بطرِ الغنى، وذلّةُ الفقرِ مانعةٌ من الصبرِ، كما أن عزّ الغنى مانعٌ من كرم الإنصاف، إلا لمن كانَ في غريزته فضْلُ قُوَّة، وأعراقٌ تنازعه إلى بُعد الهمة.

٤٥١ - أبعد الناس سفراً مَن كان في طلب صديقٍ يَرْضاه.

٤٥٢ - استشارَةُ الأعداءِ من باب الخِذْلانِ.

٤٥٣ - الجاهلُ يُعْرَفُ بِستِّ خِصال: الغضب من غير شيء، والكلامِ في غير نفعٍ، والعطيّةِ في غير موضعها، وألاّ يعرف صديقَهُ من عدوّه، وإفشاء السِّرّ، والثقةِ بكلِّ أحدٍ.

٤٥٤ - سوءُ العادَةِ كمينٌ لا يُؤْمَنُ.

٤٥٥ - العادةُ طَبيعةٌ ثانيةٌ غالبةٌ.

٤٥٦ - التجَنّي وافِدُ القَطيعةِ.

٤٥٧ - صديقكَ مَن نَهاك، وعدوّك من أغراك.

٤٥٨ - يا عَجَباً من غفلةِ الحسادِ عن سلامَةِ الأجْساد!

٤٥٩ - من سعادةِ المرْءِ أن يَطُول عمرهُ، ويرى في أعدائه ما يسرّهُ.

٤٦٠ - الضّغائن تورَثُ كما تورث الأموالِ.

٤٦١ - رُبّ عزيزٍ أذَلّهُ خُرْقُهُ، وذَليلٍ أعزّهُ خُلُقُهُ.

٤٦٢ - لا يصلحُ اللئيمُ لأحدٍ، ولا يستقيمُ إلا من فرَقٍ أو حاجةٍ، فإذا استغنى أو ذهب خوفُهُ عاد إليه جوهرهُ.

٤٦٣ - ثلاثةٌ في المجلس وليسوا فيه: الحاقنُ، والضَّيِّقُ الخفّ، والسّيّءُ الظنّ بأهلِهِ.

٤٦٤ - وسُئِلَ: ما أبقى الأشياء في نفوس الناس؟ فقال: أمّا في أنفس العُلماء فالنَّدامَةُ على الذنوب، وأما في نفوس السفهاءِ فالحقدُ.

٤٦٥ - إذا انقضى مُلكُ قوم خُيِّبُوا في آرائهم.

٤٦٦ - الضعيفُ المحترس من العدوّ القوي أقربُ إلى السلامَةِ مِن القَوي المُغترّ بالعَدُوّ الضعيفِ.

٤٦٧ - الحزْنُ سوء اسْتكانةٍ، والغضَبُ لُؤْمُ قُدْرَةٍ.

٤٦٨ - كلُّ ما يؤكلُ يُنْتِنُ، وكلُّ ما يوهَبُ يأْرَجُ.

٤٦٩ - الطَّرَش في الكرام، والهوَج في الطِّوال، والكيْس في القصار، والنُّبْلُ في الرَّبْعة، وحسن الخلُق في الحُول، والكِبْر في العُور، والبَهْت في العميان، والذكاء في الخُرْس.

٤٧٠ - ألأم النَّاس مَن سعى بإنسان ضعيف إلى سُلطان جائر.

٤٧١ - أعسر الحِيَل تَصْوير الباطل في صورة الحقّ عند العاقل المُمَيِّز.

٤٧٢ - الغَدْر ذلٌّ حاضِر، والغِيبَةُ لُؤم باطن.

٤٧٣ - القلب الفارغ يبحث عن السوءِ واليد الفارغة تنازع إلى الإثم.

٤٧٤ - لا كثير مع إسْرافٍ، ولا قليل مع احتراف، ولا ذنب مع اعتراف.

٤٧٥ - المُتَعَبِّدُ على غير فِقهٍ كحمارِ الرحا يدور ولا يبرح.

٤٧٦ - المحرومُ منْ طالَ نصبُهُ، وكان لغيرِه مكسبهُ.

٤٧٧ - في الاعتبار غنًى عنِ الاختبار.

٤٧٨ - غيظ البخيلِ على الجوادِ أعجبُ من بخلهِ.

٤٧٩ - أذلُّ الناس مُعتذرٌ إلى اللئيم.

٤٨٠ - أشجعُ الناس أثبتهمْ عقلاً في بداهةِ الخوْف.

٤٨١ - المعتذرُ منتصرٌ، والمعاتبُ مُغاضبٌ.

٤٨٢ - المُروءةُ بلا مالٍ كالأسدِ الذي يُهابُ ولم يفترسْ، وكالسيْف الذي يخافُ وهو مغمدٌ، والمالُ بلا مُرُوءَةٍ كالكلب الذي يجتنبُ عقراً ولم يعقرْ.

٤٨٣ - عليكم بالأدب، فإن كُنتمْ مُلوكاً برزتمْ، وإن كُنتم وَسطاً فقتمْ، وإن أعوزتْكم المعيشةُ عشتم بأدبكم.

٤٨٤ - الملوك حُكّامٌ على الناس، والعلماءُ حُكامٌ على الملوكِ.

٤٨٥ - لا ينبغي للعاقِل أن يكُون إلّا في إحْدى منزلتيْن: إمّا في الغاية القصوى مِن مطالبِ الدُّنيا، وإمّا في الغايةِ القصوى من الترْك لهَا.

٤٨٦ - من أفضل أعمال البرِّ الجودُ في العسْرِ، والصدقُ في الغضبِ، والعفوُ عنْد القدْرَةِ.

٤٨٧ - إن الله أنعم على العبادِ بقدْرِ قدْرتهِ، وكلفهمْ من الشكْرِ بقدْر قدْرتهمْ.

٤٨٨ - العيشُ في ثلاث: صديقٌ لا يعدُّ عليكَ في أيام صداقتكَ ما يرضى به أيامُ عَداوتكَ، وَزوْجةٌ تسرُّكَ إذا دخلتَ عليها وتحفظ غيبكَ إذا غبتَ عنها، وغلامٌ يأتي على ما في نفسك كأنهُ قد علمَ ما تريد.

٤٨٩ - تحتاجُ القرابةُ إلى مودَّةٍ ولا تحتاج المودة إلى قرابة.

٤٩٠ - الصابرُ على مخالطةِ الأشرارِ وصحبتهمْ، كراكبِ البحرِ إنْ سلمَ بِبَدَنِهِ منَ التلفِ، لم يسلم بقلبه من الحذَر.

٤٩١ - لأخيك عليكَ إذا حزبه أمرٌ أن تشير عليهِ بالرَّأي ما أطاعكَ، وتبذلَ لهُ النصرَ إذا عصاكَ.

٤٩٢ - الغِيبةُ ربيعُ اللئام.

٤٩٣ - أطولُ الناس نصَباً الحريصُ إذا طمع، والحقودُ إذا مُنع.

٤٩٤ - الشريف دُونَ حقِّه يُقتَل ويعطِي نافلةً فوْق الحقّ عليهِ.

٤٩٥ - اجعل عمرَك كنفقةٍ دُفعتْ إليكَ، فكما لا تحبُّ أنْ يذهبَ ما تنفقُ ضياعاً، فلا تذهب عمركَ ضياعاً.

٤٩٦ - منْ أظهر شكْركَ فِيما لم تأتِ إليه، فاحْذر أنْ يكفركَ فِيما أسديْتَ إليه.

٤٩٧ - لا تستعنْ في حاجتكَ بمن هُو للمطلوبِ إليه أنصحُ منهُ لك.

٤٩٨ - لا يؤْمِنَنَّك من شرِّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جَوارٌ، فإنَّ أخوفَ ما تكونُ لحريق النارِ أقربُ ما تكونُ إليها.

٤٩٩ - كنْ في الحرْص على تفقُّدِ عيوبِك كعدوِّكَ.

٥٠٠ - عليك بسوءِ الظنّ، فإنْ أصاب فالحزْم وإلا فالسلامةُ.

٥٠١ - رضا الناسِ غايةٌ لا تدركُ، فتحرَّ الخيْر بجهدِكَ، ولا تبال بسخط من يرضيه الباطلُ.

٥٠٢ - لا تماكِسْ في البيع والشراء، فما يضيعُ من عرضِك أكثرُ مما تنالُ من عَرَضِكَ.

٥٠٣ - الدَّينُ رِقٌّ فلا تبذلْ رِقَّكَ لِمَنْ لا يعرفُ حقَّك.

٥٠٤ - احذرْ كلَّ الحذر أنِ يخدعَك الشَّيطان فيمثّل لَكَ التواني في صُورَةِ التَّوَكُّل، ويورثْك الهوينَى بالإحالة على القَدَرِ، فإن الله أمَر بالتوكّلِ عِند انقطاع الحيَلِ، وبالتسليم للقضاءِ بعد الإعذار، فقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1]، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2]، وقال النبيّ ﷺ: «اعْقِلْها وتوكل»[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧١. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب: منه (٢٥١٧).

٥٠٥ – لا تصحب في السفر غَنيًا، فإنّكَ إنْ ساوَيْتَهُ في الإنفاق أضرَّ بِكَ، وإنْ تَفَضَّلَ عَلَيْكَ اسْتَذَلَّكَ.

٥٠٦ – إذا سألت كريماً حاجَةً فَدَعْهُ يُفَكِّرُ، فإنه لا يفكر إلا في خيرٍ، وإذا سألتَ لئيماً حاجَةً فغافِصْهُ فإنه إذا فكّر عادَ إلى طَبْعِهِ.

٥٠٧ – ما أقبح بالصَّبيح الوجْهِ أنْ يكون جاهِلاً! كدَارٍ حسنةِ البناء وساكنها شَرٌّ، وكجنة يعمرها بُومٌ، أو صِرْمَةٍ يحرسها ذِئْبٌ.

٥٠٨ – قبيح بذي العقل أنْ يكون بهيمةً وقد أمكنه أن يكون إنساناً، وقد أمكنهُ أن يكون ملَكاً، وأن يرضى لنفسه بقُنْيَةٍ[1] مُعارةٍ وحياةٍ مُسْتَرَدّةٍ، وله أن يتخذ قُنْيَةً مُخَلَّدَةً وحياة مُؤبَّدَة.

٥٠٩ – الذي يَستحِقُّ اسْم السَّعادة على الحقيقة سعادة الآخرة، وهي أربعة أنواع: بقاءٌ بلا فناءٍ، وعلم بلا جهلٍ، وقُدْرة بلا عجزٍ، وغنًى بلا فقرٍ.

٥١٠ – ما خابَ مَن اسْتخارَ.

٥١١ – الدَّيّنُ قد كَشف عن غِطاءِ قلبه، يَرَى مطْلوبَه قد طبَّق الخافقين فلا يقعُ بَصَرُهُ على شيءٍ إلّا رَآهُ فيه.

٥١٢ – من غَرَس النّخل أكلَ الرُّطب، ومَن غرس الصّفْصاف والعُلّيْق عدِم ثمرتهُ، وذَهَبَتْ ضياعاً خدمته.

٥١٣ – إذا أردْت العلم والخير فانفض عن يدك أداة الجهل والشرّ، فإنّ الصائغ لا يتهيأُ له الصِّياغَةُ إلّا إذا ألقى أداةَ الفلاحَة عَن يده.

٥١٤ – الصبر مِفتاحُ الفَرَج.

٥١٥ – غاية كلِّ مُتعمِّقٍ في علمنا أن يجهل.

٥١٦ – ستعرف الحال على حقيقتها، ولكن حيثُ لا تستطيع أن تذاكر أحداً بها.

٥١٧ – السعادة التامّة بالعلم، والسعادة الناقصة بالزهد، والعبادةُ من غير علمٍ ولا زهادة تعب الجسد.

٥١٨ – الآمال مطايا، وربما حَسِرتْ، ونَقِبَتْ أخفافُها.

٥١٩ – حبُّ الرياسةِ شاغلٌ عن حبِّ الله سبحانه.

٥٢٠ – يا أبا عبيدة، طال عليك العهدُ فنسيت، أم نافَسْت فأنسيت؟ لقد سمعتَها ووعيتَها فَهلاً رعيتَها!

---

(١) القنية: الكِسبة، أي ما اكتسب. القاموس، مادة (قني).

٥٢١ - قال لَمَّا سمعتُ خطبة عمرَ بالمدينة التي شرح فيها قصة السقيفةِ: معذرةً وربِّ الكعبة، ولكن بعد ماذا! هيهات علقت مَعالِقها، وصَرَّ الجُنْدُب.

٥٢٢ - أوَّلُ مَنْ جَرَّأ الناسَ علينا سعدُ بنُ عبادة، فتح باباً ولَجَهُ غيرُهُ، وأضرمَ ناراً كان لَهبُها عليه، وضوءُها لِأعدائه.

٥٢٣ - ما لنا ولِقُريش! يخْضِمون الدنيا باسمنا، ويطَؤون على رِقابنا، فيالله ولِلعجب! ما اسمٍ جليلٍ لِمُسَمًّى ذَليلٍ!

٥٢٤ - الخيرُ كُلُّهُ في السيفِ، وما قام هذا الدِّينُ إلّا بالسيف، أتعلمون ما معنى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[1]؟ هذا هو السيفُ.

٥٢٥ - لم يفُتْ مَن لم يَمُتْ.

٥٢٦ - مَن فسدت بِطانَتُهُ كان كمن غَصَّ بالماء، فإنه لو غَصَّ بغَيْرِه لَأساغ الماءُ غُصّتَهُ.

٥٢٧ - مَن ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ المِرَاءَ.

٥٢٨ - مَن أيْقَظ فِتْنةً فهو آكلُها.

٥٢٩ - مَن أثرى كَرُم على أهْله، وَمَن أملق هان على وَلَدِهِ.

٥٣٠ - مَن أمّل أحداً هابَهُ، ومَن جهل شيئاً عابَهُ.

٥٣١ - أسْوأُ الناس حالاً مَن لا يثِقُ بأحد لِسُوءِ ظنّه، ولا يثِقُ بِهِ أحدٌ لِسُوءِ أثرِهِ.

٥٣٢ - أحَبُّ النَّاس إليك مَن كثُرَتْ أيادِيه عندك، فإن لم يكن فمن كثرت أياديك عِندهُ.

٥٣٣ - من طال صمتُهُ اجْتَلب من الهيبةِ ما ينفعُهُ، ومن الْوَحشةِ ما لا يَضُرُّهُ.

٥٣٤ - مَن زَاد عقلُه نقص حَظُّهُ، وما جعل الله لأحدٍ عقلاً وافراً إلّا احْتَسَبَ بِهِ عليه من رِزْقِه.

٥٣٥ - مَن عمل بالْعَدْل فيمَنْ دُونه، رُزِق العدْل ممَّنْ فوقه.

٥٣٦ - مَن طَلَبَ عِزًّا بِظُلْمٍ وباطلٍ أوْرَثَهُ الله ذلاً بإنْصاف وحقٍّ.

٥٣٧ - من وَطِئتْهُ الأعيُنُ، وطِئتْهُ الأرجُل.

٥٣٨ - ينادِي مُنادٍ يَوْم القِيامَةِ: مَن كان لهُ أجْرٌ على الله فليقُمْ، فيَقُوم العافون عن الناس، ثم تلا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2].

٥٣٩ - اصْحَب الناس بأيِّ خُلُقٍ شِئْتَ يَصْحَبُوك بمثلِهِ.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

٥٤٠ - كأنك بالدُّنيا لم تكُنْ، وكأنك بالآخرةِ لم تَزَل.

٥٤١ - قال لِمَرِيضٍ أَبَلَّ مِن مَرَضِهِ: إن الله ذكرك فاذْكُرْهُ، وأقالَكَ فاشْكُرْهُ.

٥٤٢ - الدَّار دار مَن لا دار لهُ، وبها يفرحُ مَن لا عقل لهُ، فأَنْزِلوها مَنْزِلَتَها.

٥٤٣ - لا تَسْتَصْغِرَنَّ أمْر عَدُوِّك إذا حارَبْتَهُ، فإنك إن ظفرت به لم تُحْمَدْ، وإن ظفر بك لم تُعْذَرْ، والضَّعيفُ المحترِس من العدوِّ القَوِي أقرَبُ إلى السلامَةِ مِن القوي المُغْتَرِّ بالضعيف.

٥٤٤ - لا تَصْحب مَن تحتاج إلى أن تكْتمهُ ما يعرف الله مِنك.

٥٤٥ - لا تسأل غير الله، فإنه إن أعْطاك أغناك.

٥٤٦ - الصَّاحبُ كالرُّقْعةِ في الثَّوْبِ، فاتخِذْهُ مُشاكِلاً.

٥٤٧ - إياك وَكثرةَ الإخوان، فإنه لا يُؤْذِيك إلا مَن يعرِفُكَ.

٥٤٨ - دَعِ اليمين لله إجْلالاً، ولِلنَّاس إجمالاً.

٥٤٩ - العادَات قاهِراتٌ، فَمَنِ اعْتادَ شَيئاً في سِرِّهِ فَضَحَهُ في عَلانِيَتِهِ.

٥٥٠ - إذا كان لك صَديقٌ ولم تحمد إخاءهُ ومودّتَهُ فلا تُظْهِرْ ذلِكَ للناس، فإنما هو بِمنزِلةِ السَّيف الكليل في مَنْزِل الرَّجُلِ، يُرْهِبُ بِهِ عَدُوَّهُ، ولا يَعْلَمُ العَدُوُّ أصارِمٌ هو أم كليلٌ!

٥٥١ - دَعِ الذنوب قبل أن تَدَعَك.

٥٥٢ - إذا نزل بِكَ مَكروهٌ فانظرْ، فإن كان لك حيلةٌ فلا تَعجز، وإن لم يكُن فيهِ حيلة فلا تجزع.

٥٥٣ - تَعَلَّموا العِلْمَ، فإنهُ زَيْنٌ للغنِيِّ وعونٌ للفقير، ولستُ أقولُ إنَّهُ يَطْلبُ بهِ، ولكن يدعُوهُ إلى القناعَةِ.

٥٥٤ - لا تَرضَيَنَّ قَوْلَ أحدٍ حَتَّى تَرْضى فعلَهُ، ولا تَرْضَ فِعْله حَتى تَرْضى عقله، ولا تَرْض عقله حتى تَرْضى حياءَهُ، فإن الإنسان مَطبوعٌ على كرمٍ ولُؤْمٍ، فإن قَوِي الحياءُ عندهُ قويَ الكرمُ، وإن ضَعُفَ الحياءُ قَوِي اللُّؤْمُ.

٥٥٥ - تَعَلَّمُوا العِلْمَ وإن لَمْ تنالوا بهِ حظًّا، فَلأَن يُذَمّ الزَّمان لَكُم أحْسَن من أن يُذَمّ بِكُمْ.

٥٥٦ - اجعل سِرّكَ إلى واحد، ومشوَرَتَك إلى ألف.

٥٥٧ - إن الله خلق النِّساءَ من عِيٍّ وعَوْرَةٍ، فَدَاوُوا عِيَّهُنَّ بالسكوت، واسْتُرُوا العَوْرَة بالبُيُوتِ.

٥٥٨ - لا تَعِدَنّ عِدَة لا تثق من نَفسِك بإنجازِها، ولا يَغُرَّنَّك المُرْتَقى السهلُ إذا كان المنْحَدَرُ وَعْراً. واعلم أن لِلأعمال جَزاءً فاتّقِ العواقِب، وأنَّ لِلأُمُورِ بَغتاتٍ فَكُنْ على حَذَرٍ.

٥٥٩ - لا تجاهِدِ الطَّلب جهاد المُغالب، ولا تتّكِلْ على القَدَر اتّكالَ المُسْتَسْلم، فإنّ ابْتغاءَ الفَضْل مِن السُّنَّةِ، والإجمال في الطلب من العِفَّةِ، وليست العِفَّةُ برافعةٍ رِزْقاً، ولا الحرص بجالبٍ فضلاً.

٥٦٠ - مَن لَمْ تستقم لهُ نفْسُهُ، فلا يَلُومَنَّ من لَمْ يَسْتَقِم له.

٥٦١ - من رُجِي الرِّزْقُ لديه صُرِفت أعْناقُ الرِّجال إليه.

٥٦٢ - من انتجَعَكَ مُؤمِّلاً فقد أسْلَفَكَ حُسْن الظنّ.

٥٦٣ - إذا شئت أنْ تُطاعَ فاسْأَلْ ما يُسْتَطاعُ.

٥٦٤ - من أعذر كمن أنجح.

٥٦٥ - مَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ كثُرَ في القيامة غمُّه.

٥٦٦ - من أجمل في الطَّلَب أتاهُ رِزْقُهُ من حَيْثُ لا يحتَسِبُ.

٥٦٧ - مَن ركِب العَجَلة لم يأمن الكبْوَة.

٥٦٨ - مَن لم يثقْ لم يُوثَقْ بهِ.

٥٦٩ - مَن أفاده الدهرُ أفادَ مِنهُ.

٥٧٠ - مَنْ أكْثرَ ذِكْرَ الضَّغائِنِ اكْتَسَبَ العَدَاوَةَ.

٥٧١ - منْ لم يَحْمدْ صاحِبَهُ على حسنِ النّيّةِ لم يحمدْهُ على حسنِ الصنيعة.

٥٧٢ - تأمّلْ ما تتحدّث بهِ، فإنما تُمْلي على كاتبيكَ صَحِيفةً يُوصِلانها إلى ربكَ، فانظرْ على منْ تملِي، وإلى منْ تكتبُ.

٥٧٣ - أقم الرَّغبة إليكَ مقّام الحرْمةِ بك، وعظِّمْ نفسكَ عن التعظُّمِ، وتطوّل ولا تتطاوَلْ.

٥٧٤ - عامِلوا الأحْرارَ بالكرامةِ المحضَة، والأوساط بالرغبة والرَّهْبة، والسَّفلَة بالهوانِ.

٥٧٥ - كنْ للعدُوّ المكاتِم أشدَّ حذراً مِنْك للعدُوّ المبارزِ.

٥٧٦ - احْفظْ شَيْئكَ ممّنْ تَسْتَحْيِي أنْ تسألهُ عنْ مثلِ ذلك الشيءِ إذا ضاعَ لَكَ.

٥٧٧ - إذا كُنتَ في مجلسٍ ولم تكن المحدِّث ولا المحدَّث فقمْ.

٥٧٨ - لا تَسْتصْغرَنَّ حدَثاً من قريش، ولا صَغِيراً من الكُتّاب، ولا صعلوكاً من الفُرسانِ. ولا تصادقَنَّ ذمّياً ولا خَصِيًا ولا مؤنثاً، فلا ثبات لمودّاتهمْ.

٥٧٩ - لا تُدْخِلْ في مشورتكَ بخيلاً فيقصّرَ بفعلِك، ولا جبَاناً فيخوّفَكَ ما لا تخافُ، ولا حريصاً فيعدَك ما لا يُرْجَى، فإنّ الجبنَ والبُخْل والحرْص طبيعة وَاحدةٌ، يجمعها سُوءُ الظنّ بالله تعالى.

٥٨٠ - لا تكن مِمَّنْ تغلبهُ نفسهُ على ما يظنُّ، ولا يغلبُها على ما يَستيْقِنُ.

٥٨١ - اعصِ هوَاكَ والنساءَ وافعلْ ما بدَا لكَ.

٥٨٢ - ما كُنتَ كاتمهُ منْ عدوّكَ فلا تظْهرْ عليهِ صديقَكَ.

٥٨٣ - كلْ من الطعام ما تشتهي، والْبَس من الثّياب ما يَشتهي الناسُ.

٥٨٤ - ولتكن داركَ أوّلَ ما يُبْتاعُ وآخِرَ ما يُباعُ.

٥٨٥ - منْ كانَ في يدِهِ شيءٌ من رِزق الله سبحانهُ فليصلِحْهُ، فإنَّكُمْ في زَمان إذا احتاجَ المرْءُ فيهِ إلى النَّاسِ كان أوّلَ ما يبذلُهُ لهمْ دينُهُ.

٥٨٦ - ابذلْ لصديقكَ مالكَ، ولمعرفتكَ رفْدَكَ ومحضَرَكَ، وللعامّةِ بِشرَكَ وتحنُّنكَ، ولعدُوّكَ عذلَكَ وإنصافكَ، واضْنُنْ بدِينكَ وعِرْضِك عن كلّ أحد.

٥٨٧ - جالس العقلاءَ أعداءً كانوا أوْ أصدقاءَ، فإن العقل يقع على العقل.

٥٨٨ - كُنْ في الحرب بحيلَتكَ أوثقَ منك بشدّتك، وبِحذَرِك أفرَحَ منكَ بنجدَتِك، فإن الحَرْبَ حرْبُ المُتَهَوِّرِ، وغنيمةُ المتحَذِّرِ.

٥٨٩ - النّعمُ وحشيَّةٌ فقيّدُوها بالمعْرُوفِ.

٥٩٠ - إذا أخطأتْكَ الصنيعةُ إلى منْ يَتّقي الله فاصنعها إلى من يتّقي العارَ.

٥٩١ - لا تشتَغلْ بالرزْق المضمونِ عن العملِ المفروضِ.

٥٩٢ - إذا أكرمكَ الناسُ لمالٍ أو سُلطانٍ فلا يُعْجِبنَّكَ ذاكَ، فإنّ زوال الكرامَةِ بزَوالِهما، ولكنْ ليُعجبك إنْ أكرمَكَ الناسُ لدينٍ أو أدبٍ.

٥٩٣ - يَنبغي لمنْ لم يكْرِمْ وجهه عنْ مسألتكَ أنْ تُكرمَ وَجْهكَ عن رَدّهِ.

٥٩٤ - إيّاكَ ومشاوَرَةَ النّساءِ، فإنّ رَأيَهُنَّ إلى أفْنٍ[(١)]، وعزْمَهُنَّ إلى وَهَنٍ، واكْفُفْ من أبصارِهِنَّ بحجابكَ إيّاهُنَّ، فإنّ شدَّةِ الحجابِ خيرٌ لكَ منَ الارتياب، وليْسَ خُروجُهُنَّ بأشدَّ عليك منْ دخولِ منْ لا تَثقُ به عليْهِنَّ، وإن اسْتطعْتَ ألّا يعْرِفْن غيركَ فافعلْ، ولا تمكّن امْرأةً منَ الأمْرِ ما جاوز نفْسها، فإنَّ ذلكَ أنعمُ لِبالِها، وأرخى لحالِها، وإنما المرْأةُ رَيْحانةٌ وليْسَتْ بقهْرَمانةٍ[(٢)]، فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تُعطها أن تَشفَعَ لِغيْرِها، ولا تُطِل الخَلْوَةَ مَعَهُنَّ فيملَلْنَكَ وتملُّهُنَّ، واستبْقِ من نفسكَ بقيّةً، فإن إمْساكَكَ عنهُنّ وهُنَّ يرِدْنكَ ذلكَ باقتدارٍ، خيرٌ من

(١) الأفن: النقص. اللسان، مادة (أفن).

(٢) القهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شؤونه، معرب، المعجم الوسيط، مادة (قهرم).

أن يهجُمْنَ منكَ على انكسارٍ. وإيّاكَ والتَّغايُرَ في غيرِ مَوْضِعِ الغَيْرَةِ، فإنَّ ذلكَ يدعو الصَّحيحةَ منهُنَّ إلى السُّقمِ.

٥٩٥ - إذا أَرَدتَ أن تَختمَ على كتاب، فأَعِدِ النَّظرَ فيهِ، فإنَّما تختمُ على عقْلكَ.

٥٩٦ - إنّ يَوماً أَسكَرَ الكِبارَ وَشَيَّبَ الصِّغارَ لشديدٌ.

٥٩٧ - كمْ منْ مُبَرَّدٍ لهُ المَاءُ والحميمُ يُغْلَى لهُ.

٥٩٨ - الصلاةُ صابونُ الخطايا.

٥٩٩ - إنَّ امْرَأً عَرَفَ حقيقَةَ الأمْرِ، وزَهِدَ فيهِ لأحمقُ، وإنّ امْرَأً جهلَ حقيقَةَ الأمْرِ معَ وُضُوحِهِ لجاهِلٌ.

٦٠٠ - إذا قالَ أحدكم: والله، فلينظُرْ ما يضيفُ إليها.

٦٠١ - رَأيُكَ لا يتَّسِعُ لِكلِّ شيءٍ، ففَرِّغْهُ للمهمِّ منْ أُمُورِكَ، ومالُكَ لا يُغنِي النَّاسَ كلَّهُمْ فاخصُصْ به أهْلَ الحقِّ، وكرامتُكَ لا تطيقُ بذْلها في العامَّةِ، فَتَوَخَّ بها أهلَ الفضلِ، وليلُكَ ونهارُكَ لا يَستوْعِبانِ حَوائجكَ، فأَحْسنِ القِسْمةَ بَيْنَ عملِكَ ودَعَتك.

٦٠٢ - أَحْيِ المعْروفَ بإماتتِهِ.

٦٠٣ - اصحبُوا منْ يذْكُرُ إحْسانكُمْ إليهِ، وَينسى أياديَهُ عندكم.

٦٠٤ - جاهِدُوا أهواءَكم كما تجاهِدُونَ أعداءَكم.

٦٠٥ - إذا رغبْتَ في المكارمِ فاجتنب المحارمَ.

٦٠٦ - لا تثقَنَّ كلّ الثقةِ بأخِيكَ، فإن سُرْعةَ الاسْترْسالِ لا تقالُ.

٦٠٧ - انتقم من الحرص بالقناعةِ، كما تنتقم من العدوّ بالقِصاصِ.

٦٠٨ - إذا قصُرَتْ يدُكَ عن المكافأةِ، فليطلْ لسانُكَ بالشكرِ.

٦٠٩ - منْ لمْ ينشطْ لحدِيثِكَ فارْفعْ عنهُ مُؤْنةَ الاستماع منك.

٦١٠ - الزمانُ ذُو ألوانٍ، ومنْ يصْحَبِ الزّمانَ يَرَ الهوانَ.

٦١١ - لا تزْهَدَنّ في معرُوف، فإنّ الدَّهْر ذو صُرُوف، كم من راغبٍ أصبح مرْغوباً إليْهِ، ومتبوعٍ أمْسى تابعاً.

٦١٢ - إن غُلبتَ يوْماً على المالِ فلا تُغلَبَنَّ على الحيلة على كلِّ حالٍ.

٦١٣ - كُنْ أحسنَ ما تكونُ في الظاهِرِ حالاً أقلَّ ما تكون في الباطنِ مالاً.

٦١٤ - لا تكونَنَّ المحدِّثَ منْ لا يَسمعُ منهُ، والدَّاخلَ في سِرِّ اثنينِ لم يُدْخِلاهُ فيهِ، ولا

الآتيَ وليمةً لم يُدْعَ إليها، ولا الجالِسَ في مجلِسٍ لا يستحقُّهُ، ولا طالِبَ الفضلِ مِنْ أيدي اللّئامِ، ولا المتحمّقَ في الدّالّةِ، ولا المتعرِّضَ للخيرِ منْ عندِ العدُوِّ.

٦١٥ - اطبعِ الطّينَ ما دامَ رطباً، واغرِسِ العودَ ما دَامَ لَدْناً.

٦١٦ - خَفِ الله حتى كأنّكَ لمْ تُطِعْهُ، وارْجُ الله حتى كأنّكَ لم تعصِهِ.

٦١٧ - لا تبلُغْ في سلامِكَ على الإخوانِ حدَّ النّفاقِ، ولا تقصُرْهُمْ عنْ درجةِ الاستحقاقِ.

٦١٨ - انْصَحْ لكلِّ مستَشِيرٍ، ولا تستَشِرْ إلّا النّاصحَ اللّبيبَ.

٦١٩ - ما أقبحَ بِكَ أن ينادَى غداً: يا أهلَ خطيئةِ كذا، فتقومَ معهم، ثم ينادي ثانياً: يا أهلَ خطيئةِ كذا، فتقومَ معهمْ. ما أراكَ يا مسكينُ إلّا تقومُ معَ أهلِ كُلِّ خطيئةٍ!

٦٢٠ - ما أصابَ أحدٌ ذنباً ليلاً إلّا أصبحَ وعليهِ مَذَلّتُهُ.

٦٢١ - الاستغفارُ يحُتُّ الذنوبَ حَتَّ الورق، ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

٦٢٢ - أيُّها المُستكثِرُ منَ الذُّنوبِ، إنّ أباكَ أُخرِجَ منَ الجنّةِ بذنْبٍ واحدٍ.

٦٢٣ - إذا عصى الرَّبَّ منْ يعرفُهُ سلّطَ عليه منْ لا يعرفُهُ.

٦٢٤ - لقاءُ أهلِ الخيرِ عمارةُ القلوبِ.

٦٢٥ - أنا منْ رسولِ الله ﷺ كالعَضُدِ مِنَ المِنْكَبِ، وكالذِّراعِ منَ العَضُدِ، وكالكَفِّ منَ الذراعِ، ربّاني صغيراً، وآخاني كبيراً، ولقدْ عَلِمْتُمْ أني كانَ لي منهُ مجلِسُ سِرٍّ لا يطّلِعُ عليه غيري، وأنّهُ أوْصى إليَّ دونَ أصحابِهِ وأهلِ بيتِهِ، ولأقولنَّ ما لم أقُلْهُ لأحد قبلَ هذا اليوم، سألتُهُ مَرّةً أن يدعُوَ لي بالمغفرة فقال: أفعلُ، ثم قامَ فصلّى، فلمّا رفعَ يدهُ لِلدُّعاءِ استمعْتُ عليه، فإذا هو قائلٌ: اللّهمّ بحقِّ عليٍّ عندكَ اغفِرْ لعليٍّ، فقلتُ: يا رسولَ الله، ما هذا؟ فقال: أوَاحِدٌ أكرمُ منكَ عليهِ فأستَشْفِعَ بِهِ إليه!

٦٢٦ - والله ما قلعتُ بابَ خَيْبَرَ، ودَكْدَكْتُ حِصْنَ يهودٍ بقُوّةٍ جسْمانيّةٍ بل بقُوّةٍ إلٰهيّةٍ.

٦٢٧ - يابنَ عَوْفٍ، كيفَ رأيتَ صنيعَكَ مَع عُثمانَ! رُبَّ واثِقٍ خَجِلَ، ومَنْ لم يتوخَّ بعملِهِ وجْهَ الله عادَ مادِحُهُ منَ الناسِ له ذامًّا.

٦٢٨ - لو رأيْتَ ما في ميزانِكَ لختمْتَ على لسانِكَ.

٦٢٩ - ليس الحلمُ ما كان حالَ الرِّضا، بل الحلمُ ما كان حالَ الغضبِ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٠.

٦٣٠ - ليس شيءٌ أقطعَ لظهرِ إبليس منْ قولهِ: «لا إلهَ إلا الله»، كلمةِ التَّقوَى.

٦٣١ - لا تحملوا ذنوبَكمْ وخَطاياكم على الله، وتَذَرُوا أنفسَكمْ والشَّيْطانَ.

٦٣٢ - إنّ أخوَفَ ما أخاف على هذه الأمَّةِ منَ الدَّجّالِ، أئِمَّةٌ مُضِلُّونَ وهُمْ رُؤساءُ أهلِ البِدَعِ.

٦٣٣ - إذا زلَلْتَ فارجعْ، وإذا ندمتَ فأقلعْ، وإذا أسأت فاندمْ، وإذا مننْتَ فاكتُمْ، وإذا منعتَ فأجمِلْ، ومنْ يُسْلِفِ المعروفَ يكنْ رِبْحُهُ الحمدَ.

٦٣٤ - استشرْ عدوَّك تَجربةً لتعلمَ مقدارَ عداوتِهِ.

٦٣٥ - لا تطلُبَنَّ منْ نفسكَ العامَ ما وعدتْكَ عاماً أوَّلَ.

٦٣٦ - أطولُ الناس عُمُراً منْ كثُرَ علمُهُ، فَتَأَدَّبَ به مَنْ بعدهُ، أو كَثُرَ معروفُهُ فشرُفَ به عِقِبُهُ.

٦٣٧ - استهينوا بالموت فإنّ مرارتَه في خوفِهِ.

٦٣٨ - لا دينَ لمنْ لا نِيّةَ لهُ، ولا مالَ لمنْ لا تدبيرَ لهُ، ولا عيشَ لِمَنْ لا رِفْقَ لهُ.

٦٣٩ - مَنِ اشتغلَ بتفقُّدِ اللّفْظةِ، وطلبِ السَّجعَةِ، نسيَ الحُجّةَ.

٦٤٠ - الدُّنيا مطيّةُ المؤمنِ، عليها يرتحل إلى رَبِّهِ، فأصلحوا مطاياكُمْ تُبلِّغكمْ إلى رَبّكمْ.

٦٤١ - من رأى أنهُ مسيءٌ فهو محسنٌ، ومن رأى أنهُ محسنٌ فهو مسيءٌ.

٦٤٢ - سيّئةٌ تسوءُكَ خيرٌ منْ حسنةٍ تعجبُكَ.

٦٤٣ - اطلبوا الحاجاتِ بعزّةِ الأنفُسِ، فإنّ بيدِ الله قضاءَها.

٦٤٤ - عَذِّبْ حُسّادَكَ بالإحسان إليهمْ.

٦٤٥ - إظهارُ الفاقةِ من خمولِ الهمّةِ.

٦٤٦ - يا عالِمُ، قد قامَ عليكَ حُجّةُ العِلْمِ، فاستيقِظْ من رقدتِكَ.

٦٤٧ - الرِّفقُ يفُلُّ حدَّ المخالفةِ.

٦٤٨ - أرْجَحُ الناسِ عقلاً، وأكملهمْ فضلاً، منْ صحب أيّامَهُ بالموادعةِ وإخوانه بالمسالمةِ، وقَبِلَ من الزّمانِ عفوَهُ.

٦٤٩ - الوُجوهُ إذا كثُرَ تقابُلُها، اعتصَرَ بعضُها ماءَ بَعض.

٦٥٠ - أداءُ الأمانَةِ مِفْتاحُ الرِّزْق.

٦٥١ - حَصّن عِلْمَكَ منَ العُجب، ووقارَك من الكبْر، وعطاءَكَ منَ السَّرَفِ، وصرامتكَ منَ

العجلةِ، وعقوبتكَ من الإفراطِ، وعَفْوكَ من تعطيلِ الحدودِ، وصَمْتَكَ منَ العِيّ، واستماعَكَ مِنْ سُوءِ الفَهْم، واستئناسَك من البَذاءِ، وخَلَواتِك مِنَ الإضاعةِ، وغَراماتِك مِنَ اللّجاجة ورَوَغَانِكَ منَ الاستسلامِ، وحَذَراتِكَ منَ الجُبْن.

٦٥٢ - لا تجدُ للموتورِ المحقودِ أماناً مِنْ أذاهُ أوْثقَ من البعد عنه، والاحتراسِ منه.

٦٥٣ - احذرْ من أصحابك ومخالطيكَ الكثيرَ المسألة، الخشنَ البَحْثِ، اللّطيفَ الاستدراج، الذي يحفَظُ أوّلَ كلامَكَ على آخرِهِ، ويَعتبرُ ما أخرْتَ بما قَدَّمْتَ، ولا تُظْهرنّ له المخافة فيرى أنك قد تحرَّزْتَ وتحَفَّظْتَ. واعلم أن من يقظةِ الفِطنةِ إظهارَ الغفلةِ معَ شدَّةِ الحَذَر، فخالِطْ هذا مخالطةَ الآمِنِ، وتحفّظ منهُ تحفّظ الخائفِ، فإنَّ البَحْثَ يُظهرُ الخفيَّ ويُبْدي المستورَ الكامنَ.

٦٥٤ - من سَرَّهُ الغِنى بلا سلطان، والكثرةُ بلا عشيرةٍ، فليخرجْ من ذُلّ معصيةِ الله إلى عزّ طاعتِه، فإنّهُ واجدٌ ذلكَ كله.

٦٥٥ - الشيْبُ إعذارُ الموتِ.

٦٥٦ - منْ ساسَ نفسهُ بالصبرِ على جهْلِ النّاسِ صَلَحَ أنْ يكونَ سائساً.

٦٥٧ - لله تعالى كلَّ لحظةٍ ثلاثةُ عساكرَ: فعسكرٌ ينزِلُ من الأصلابِ إلى الأرحامِ، وعسكرٌ ينزِلُ منَ الأرحامِ إلى الأرضِ، وعسكر يرتحلُ من الدُّنيا إلى الآخرة.

٦٥٨ - اللّهُمّ ارحمني رحمةَ الغفرانِ، إنْ لَمْ ترحمني رحمةَ الرضا.

٦٥٩ - إلٰهي كيفَ لا يحسُنُ منّي الظّنُّ وقدْ حسُنَ منكَ المنُّ! إلٰهي إنْ عاملتنا بعدْلِكَ لَمْ يبقَ لنا حسنةٌ، وإنْ أنلْتنا فضلكَ لَمْ يبقَ لنا سيّئةٌ.

٦٦٠ - العلمُ سُلطانٌ، منْ وجدهُ صالَ به، ومنْ لم يجدْهُ صيلَ عليه.

٦٦١ - يابنَ آدمَ إنّما أنتَ أيّامٌ مجموعةٌ، فإذا مضى يومٌ مضى بعضُكَ.

٦٦٢ - حيثُ تكونُ الحكمةُ تكونُ خشيةُ الله، وحيثُ تكونُ خشيتُهُ تكونُ رحمته.

٦٦٣ - اللّهُمّ إني أرَى لدَيَّ منْ فضلكَ ما لمْ أسألكَ، فعلمت أنَّ لديكَ من الرحمة ما لا أعلم، فصغرتْ قيمةُ مطلبي فيما عاينت، وقصرتْ غايةُ أملي عندَما رجوت، فإنْ ألحفت في سُؤالي فَلِفاقتي إلى ما عندك، وإن قصَّرْتُ في دعائي فبما عَوَّدْتَ من ابتدائك.

٦٦٤ - منْ كانَ همّتهُ ما يدْخُلُ جوْفهُ كانت قيمتُهُ ما يخرج منهُ.

٦٦٥ - يقولُ الله تعالى: يابْنَ آدَمَ، لم أخلقكَ لأربح عليكَ، إنما خَلَقْتُك لِتَرْبَحَ عليَّ، فاتّخِذْني بدلاً من كلِّ شيء فإني ناصر لك من كل شيء.

٦٦٦ - الرَّجاءُ للخالقِ سُبحانه أقوى منَ الخوْفِ، لأنك تخافهُ لذنبك، وترجوه لجودِهِ، فالخوف لك والرَّجاءُ لهُ.

٦٦٧ - أسألُك بعزَّةِ الوحْدانيّةِ، وكرَمِ الإلٰهيَّة، ألّا تقطعَ عَنّي بِرَّكَ بَعْدَ مماتي، كما لم تزلْ ترَاني أيَّامَ حياتي، أنْتَ الَّذِي تجيبُ مَنْ دعاكَ، ولا تخيبُ منْ رَجاكَ، ضلَّ منْ يدعُو إلّا إيَّاكَ، فإنك لا تحْجُبُ من أتاكَ، وتُفْضِلُ على منْ عصاكَ، ولا يفوتُك من ناوَاك، ولا يُعْجِزُك منْ عادَاك، كلٌّ في قُدْرتك، وكلٌّ يأكلُ رِزقكَ.

٦٦٨ - لا تطلبنَّ إلى أحدٍ حاجةً ليلاً، فإنّ الحياءَ في العينينِ.

٦٦٩ - منِ ازْدَاد علماً فليحذرْ منْ توكيدِ الحجَّةِ عليْهِ.

٦٧٠ - العاقلُ ينَافسُ الصالِحينَ ليلحقَ بهمْ، ويحبُّهُمْ ليشارِكَهُمْ بمحبتهِ، وإن قَصَّر عنْ مِثْلِ عملهمْ، والجاهِلُ يذمُّ الدُّنيا ولا يَسخو بإخراج أقلِّها، يمدحُ الجُودَ، ويبخلُ بالبَذل، يتمنَّى التوْبة بطولِ الأمَلِ، ولا يُعجلُها لخوْفِ حُلولِ الأجلِ، يرْجُو ثوابَ عملٍ لم يعملْ به، ويفرُّ من الناسِ ليطلبَ، ويخفي شخصهُ لِيشتَهِرَ، ويذمُّ نفسه ليمدَحَ، وينهى عن مدْحِهِ وهو يحبُّ ألّا ينتهي من الثناءِ عليه.

٦٧١ - الأنسُ بالعلمِ من نبْل الهمَّةِ.

٦٧٢ - اللّهمَّ كما صُنت وَجهي عن السُّجودِ لغيْرك، فصُنْ وجهي عن مسألة غيرك.

٦٧٣ - من الناسِ منْ ينقصكَ إذا زِدتهُ، ويهُونُ عليكَ إذا خاصَمتهُ، ليسَ لرضاهُ موْضعٌ تعرفهُ، ولا لسخطِه مكانٌ تحذَرُهُ، فإذا لقِيت أولئكَ فابذلْ لهم موْضعَ الموَدَّةِ العامَّةِ، واحْرِمهمْ موْضعَ الخاصَّةِ، ليكُونَ ما بذلْت لهمْ منْ ذلك حائلاً دونَ شرِّهمْ، وما حَرَمْتهمْ منْ هذا قاطعاً لحرْمتهم.

٦٧٤ - مَن شَبع عُوقب في الحالِ ثلاث عُقوباتٍ: يُلْقَى الغطاءُ على قَلْبِهِ، والنُّعاس على عينِهِ، والكسلُ على بَدَنِه.

٦٧٥ - ذَمُّ العُقَلاء أشَدُّ من عُقُوبة السلطانِ.

٦٧٦ - يقطعُ البليغَ عن المسألة أمْرانِ: ذُلُّ الطَّلب، وخَوْفُ الرَدِّ.

٦٧٧ - المؤمِن محدَّثٌ.

٦٧٨ - قلّ أن ينطق لِسانُ الدَّعْوى إلا ويُخْرِسه كِعامُ الامتحان.

٦٧٩ - انظر ما عندك فلا تَضَعْهُ إلا في حَقّه، وما عند غيرك فلا تأخُذْهُ إلا بحقِهِ.

٦٨٠ - إذا صافاك عَدُوُّك رِياءً مِنه فَتَلَقَّ ذَلك بأوْكد مودَّةٍ، فإنه إن ألِف ذَلك واعتادَهُ خَلُصَت لك مَودَّتهُ.

٦٨١ - لا تألَف المسألة فيألفك المَنعُ.

٦٨٢ - لا تسأل الحوائجَ غيْر أهْلها، ولا تسألها في غيْرِ حينِها، ولا تسألْ ما لسْتَ لهُ مُستحقًّا فتكونَ للحرْمانِ مُستوجِباً.

٦٨٣ - إذا غشّكَ صديقكَ فاجْعَلْهُ معَ عدوّكَ.

٦٨٤ - لا تعدَّنَّ منْ إخوانكَ منْ آخاكَ في أيّام مقْدرتكَ للمقْدُرة، واعلم أنه ينتقلُ عنكَ في أحْوالٍ ثلاثٍ: يَكُونُ صديقاً يوْمَ حاجته إليْك، ومُعرِضاً يوْم غناهُ عنكَ، وعدُوًّا يومَ حاجتكَ إليْهِ.

٦٨٥ - لا تُسرَّنَّ بكثْرَةِ الإخوَان ما لمْ يَكُونُوا أخْياراً، فإنَّ الإخوانَ بمنزلةِ النَّار الَّتي قَليلها متاعٌ، وكثيرُها بوَارٌ.

٦٨٦ - كفاكَ خيانةً أنْ تَكُونَ أميناً للْخَونةِ.

٦٨٧ - لا تحقرنّ شيئاً من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيته سرّك مكانه، ولا تحقرنّ شيئاً من الشرّ وإن صغر، فإنك إذا رأيته ساءَكَ مكانه.

٦٨٨ - يابن آدم، ليْس بِكَ غَناءٌ عنْ نصيبكَ مِن الدُّنْيا، وأنْتَ إلى نصيبك منَ الآخرةِ أفقرُ.

٦٨٩ - معصيةُ العالم إذا خفِيَتْ لمْ تضرَّ إلّا صاحبها، وإذا ظهرتْ ضرّتْ صاحبها والعامّةَ.

٦٩٠ - يجبُ على العاقل أنْ يَكُونَ بما أحْيا عقْلَهُ من الحكْمةِ أكْلَفَ منْهُ بما أحيا جسمَهُ مِنَ الغِذاءِ.

٦٩١ - أعسرُ العيُوبِ صلاحاً العُجْبُ واللّجاجة.

٦٩٢ - لِكلِّ نعمةٍ مِفتاحٌ ومغْلاقٌ، فمفْتاحُها الصبرُ، ومغْلاقُها الكسلُ.

٦٩٣ - الحزْنُ والغضبُ أميرَانِ تابِعانِ لوقُوع الأمْرِ بخلافِ ما تُحِب، إلّا أن المكرُوهَ إذَا أتاك ممَّنْ فوقكَ نَتَجَ عليكَ حُزْناً، وإن أتاكَ ممَّن دونك نَتج عليكَ غَضَباً.

٦٩٤ - أولُ المعروفِ مُستخَفٌّ، وآخرهُ مُستثقلٌ، تكادُ أوائله تكُونُ لِلهوَى دُونَ الرَّأي، وَأواخرُهُ للرَّأي دُونَ الهوَى، ولذلك قيلَ: ربُّ الصنيعةِ أشدُّ من الابْتداءِ بها.

٦٩٥ - لا تدعُ الله أنْ يُغنيكَ عنِ النَّاسِ فإن حاجات الناسِ بعضهمْ إلى بَعْض مُتصلةٌ كاتصالِ الأعْضاءِ فمتى يستغْني المرْءُ عن يدِهِ أوْ رِجلُه! ولكن ادْعُ الله أنْ يُغنيَكَ عنْ شِرارِهِمْ.

٦٩٦ - احترسْ مِنْ ذِكرِ العلمِ عند منْ لا يرْغبُ فيهِ، ومِنْ ذِكر قديمِ الشَّرَف عِند منْ لا قَديم لهُ، فإنّ ذلكَ ممَّا يحقدُهُما عليكَ.

٦٩٧ - يَنبغي لِذوي القَرَابات أن يَتزاوَرُوا ولا يَتجاوَرُوا.

٦٩٨ - لاتواخ شاعِراً فإنهُ يَمْدحُكَ بثمن، ويَهْجُوكَ مجّاناً.

٦٩٩ - لا تُنزِلْ حوَائجكَ بجيِّدِ اللّسانِ، ولا بمتَسَرِّعٍ إلى الضمانِ.

٧٠٠ - كلُّ شيءٍ طلبتَهُ في وقتِهِ فقدْ فات وقتهُ.

٧٠١ - إذا شككْتَ في مودة إنسان فاسْألْ قلبكَ عنه.

٧٠٢ - العقلُ لم يجْنِ على صاحبِهِ قطُّ، والعلمُ مِنْ غيرِ عقلٍ يَجْني على صاحبِهِ.

٧٠٣ - يابن آدمَ، هلْ تنتظرُ إلّا هَرَماً حائلاً، أوْ مرضاً شاغِلاً، أوْ موْتاً نازِلاً!

٧٠٤ - ابنك يأكلُكَ صَغيراً ويَرِثُك كبيراً، وابنتكَ تأكلُ مِنْ وِعائكَ، وترثُ مِنْ أعْدائكَ، وابن عمك عدوُّكَ وعدوُّ عدوِّكَ، وزَوْجتك إذا قلْتَ لها قُومي قامَتْ.

٧٠٥ - إذا ظفرْتُمْ فأكْرِمُوا الغَلَبَةَ، وعليكمْ بالتغافُلِ فإنهُ فعلُ الكرَام، وإيّاكُمْ والمنَّ فإنهُ مَهْدمةٌ للصنيعةِ، منبهةٌ للضغِينةِ.

٧٠٦ - منْ لمْ يرْجُ إلّا ما يستوْجِبُه أدْرَكَ حاجَتُه.

٧٠٧ - بلغَ منْ خَدع النّاسِ، أن جعلُوا شكرَ الموْتى تجارةً عِندَ الأحْياءِ، والثناءَ على الغائبِ اسْتَمالة للشاهِدِ.

٧٠٨ - من احْتاج إليكَ ثقُلَ عليكَ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الخيرُ أصْلحَهُ الشرُّ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الطالي أصلحهُ الكاوِي.

٧٠٩ - منْ أكثرَ منْ شيءٍ عُرِف بهِ، ومِنْ زَنى زُني بهِ، ومنْ طَلَب عظيماً خاطَرَ بعظمَتِه، ومنْ أحبَّ أنْ يصرِمَ أخاهُ فليُقْرِضْهُ ثم ليتقاضهُ، ومن أحبّك لشيءٍ ملّكَ عنْدَ انقضائِه، ومن عُرِفَ بالحكْمةِ لاحظتْه العُيُونُ بالوقارِ.

٧١٠ - منْ بلغَ السّبعينَ اشْتكى مِنْ غيرِ عِلّةٍ.

٧١١ - في المالِ ثلاثُ خِصالٍ مَذْمُومةٌ: إمّا أنْ يُكتَسَبَ مِنْ غيرِ حِلِّهِ، أوْ يَمْنَعَ إنفاقهُ في حقِّهِ، أوْ يُشغلَ بإصلاحِهِ عنْ عِبادَةِ الله تعالى.

٧١٢ - يُباعدك مِنْ غضبِ الله ألّا تغضبَ.

٧١٣ - لا تستبدلنَّ بأخٍ لَكَ قَدِيم أخاً مُستفَاداً ما استقامَ لَكَ، فإنكَ إنْ فعلْتَ فقدْ غيَّرتَ، وإن غيّرتَ تغيّرَتْ نعمُ الله عليْكَ.

٧١٤ - أشدُّ مِنَ البَلاءِ شماتةُ الأعْداءِ.

٧١٥ - لَيْسَ يَزْني فَرْجُكَ إنْ غَضَضتَ طرْفكَ.

٧١٦ - كما ترَكَ لكُمُ المُلُوكُ الحِكْمَةَ والعِلْمَ فاتركُوا لهمُ الدُّنيا.

٧١٧ - الهديَّةُ تفقأ عيْن الحكيم.

٧١٨ - ليكُنْ أصْدِقاؤك كثيراً، واجْعلْ سرَّكَ منهمْ إلى واحدٍ.

٧١٩ - يا عَبيدَ الدُّنيا، كَيْفَ تُخالِفُ فُرُوعُكُمْ أصولَكُمْ، وعُقولُكُمْ أهوَاءَكُمْ، قوْلُكُمْ شفاءٌ يُبْرِىءُ الدَّاءَ، وعملكم داءٌ لا يقبلُ الدَّوَاءَ، ولَسْتُمْ كالكَرْمةِ الَّتي حسنَ ورقُها، وطابَ ثمرُها، وسهُل مُرْتقاها، ولكِنَّكُمْ كالشجرَةِ الَّتي قَلَّ ورقُها، وكَثُر شوْكُها، وخُبثَ ثمرُها، وصعُبَ مرْتقَاها. جَعَلْتُمْ العلم تحت أقْدَامِكُمْ، والدُّنيا فوْق رؤوسِكُمْ، فالعلمُ عندكُمْ مُذالٌ ممتهنٌ، والدُّنيا لا يُستطاعُ تناولها، فقدْ مَنَعتُم كُلَّ أحَدٍ منَ الوُصُول إليها، فلا أحْرارٌ كرامٌ أنتُمْ، ولا عبِيدٌ أتقياءُ. ويْحكُم يا أُجَراء السُّوءِ! أمَّا الأجْرَ فتأخُذُونَ، وأمَّا العملَ فلا تعْملُون، إن عملتمْ فللعمل تُفسدُون، وسوْف تَلْقَوْن ما تفعلُون، يُوشكُ ربُّ العملِ أنْ ينظُر في عملِه الَّذِي أفْسَدْتُمْ، وفي أجْرِه الَّذِي أخذْتُم. يا غرماءَ السُّوءِ، تبدؤون بالهديَّة قبلَ قضاءِ الدَّين، تتطوَّعُون بالنَّوافلِ ولا تُؤدُّون الفرائضَ، إن رَبَّ الدَّيْنِ لا يرْضى بالهديَةِ حتَّى يُقْضى دَينهُ.

٧٢٠ - الدُّنيا مزْرَعةُ إبْليس، وأهلُها أكَرةٌ حرَّاثون لهُ فيها.

٧٢١ - واعجبًا ممَّنْ يَعملُ للدُّنْيَا وَهُوَ يرزَقُ فيها بغيْر عمل، ولا يعملُ للآخرَةِ وهوَ لا يرْزقُ فيها إلَّا بالعملِ!

٧٢٢ - لا تُجالسُوا إلَّا من يذكِّرُكُمُ الله رؤيتهُ، ويزيدُ في عملكمْ منطقه، ويرغِّبكُمْ في الآخِرةِ عملُه.

٧٢٣ - كثرةُ الطعامِ تميتُ القلبَ كما تميتُ كثرةُ الماء الزَّرْعَ.

٧٢٤ - ضربُ الوَالِدِ الولَدَ كالسَّمادِ للزرع.

٧٢٥ - إذا أردْتَ أن تصادِق رجلاً فأغضبْهُ، فإن أنصفك في غضبِهِ وإلَّا فدعهُ.

٧٢٦ - إذ أتيْتَ مجلِسَ قوم فارمهمْ بِسَهْمِ الإسلامِ، ثمَّ اجلِسْ - يعني السَّلامَ - فإنْ أفاضوا في ذكرِ الله فأجِلْ سهمَكَ معَ سِهامهم، وإنْ أفاضوا في غيرِهِ فخلِّهمْ وانهضْ.

٧٢٧ - الأوْطار تكسِبُ الأوزارَ، فارفُضْ وطَرَكَ، واغْضُضْ بصرَكَ.

٧٢٨ - إذا قعدْت عندَ سُلطانٍ فليكنْ بينَكَ وبينهُ مقعدُ رجلٍ، فلعلَّهُ أنْ يأتيَهُ منْ هو آثرُ عنده منك، فيريدُ أنْ تتنحَّى عن مجلِسكَ، فيكونُ ذلكَ نقصاً عليك وشَيْناً.

٧٢٩ - ارحمِ الفقراءَ لقلَّةِ صبرهم، والأغنياءَ لقلَّةِ شُكْرهم، وارحمِ الجميع لِطُول غفلتِهِمْ.

٧٣٠ - العالِمُ مصباحُ الله في الأرضِ، فمنْ أرادَ الله به خيراً اقتبسَ منه.

٧٣١ - لا يهونَنَّ عليك مِنْ قُبْحِ منظرُهُ ورثّ لباسُهُ، فإنَّ الله تعالى ينظُرُ إلى القلوبِ ويُجازِي بالأعمالِ.

٧٣٢ - مَنْ كَذَبَ ذَهَبَ بماءِ وجهِهِ، ومنْ ساءَ خُلُقُهُ كثُرَ غَمُّه، ونقْلُ الصخورِ مِنْ مواضعها أهْوَنُ مِنْ تفهيمِ مَن لا يفهمُ.

٧٣٣ - كنتُ في أيّامِ رَسُولِ الله ﷺ كجزءٍ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، ينظُرُ إليَّ الناسُ كما يُنظَرُ إلى الكواكِبِ في أُفق السماءِ، ثم غضَّ الدّهْرُ منّي، فقُرِنَ بي فلانٌ وفلانٌ، ثم قُرِنْتُ بخمسةٍ أمثلُهُمْ عثمانُ، فقلتُ: واذَفْراهُ! ثم لم يَرْضَ الدهرُ لي بذلِكَ، حتى أرذلني، فجعلني نظيراً لابْنِ هِنْدٍ وابْنِ النابِغَةِ! لقد استنّت الفصالُ حتى القَرْعى.

٧٣٤ - أما والّذِي فلقَ الحبّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إنّه لَعَهْدُ النّبِيّ الأميّ إليَّ أنَّ الأمّةَ ستغدِرُ بك مِنْ بعدي.

٧٣٥ - لامَتْهُ فاطمةُ على قُعُودِهِ وأطالت تعنيفهُ، وهو ساكتٌ حتى أذّنَ المُؤذّنُ، فلما بلغَ إلى قوله: «أشهدُ أنّ مُحَمَّداً رسولُ الله»، قالَ لها: أتُحبّينَ أنْ تَزُولَ هذهِ الدعوةُ منَ الدُّنيا؟ قالت: لا، قالَ: فهُوَ ما أقولُ لَكِ.

٧٣٦ - قالَ لِيَ رَسُولُ الله ﷺ: «إن اجتمعوا عليكَ فاصنعْ ما أمرتُكَ، وإلّا فألْصِقْ كَلْكَلَكَ بالأرضِ، فلما تفرّقوا عَنّي جررْتُ على المكْرُوهِ ذيلي، وأغضيْتُ على القَذَى جفني، وألصقْتُ بالأرضِ كَلْكَلِي».

٧٣٧ - الدُّنيا حُلْمٌ والآخرةُ يقظةٌ، ونحنُ بينَهُما أضغاثُ أحلامٍ.

٧٣٨ - لَمّا عرَفَ أهلُ النقص حالَهُمْ عندَ أهلِ الكمالِ، استعانوا بالكبْرِ ليُعَظِّمَ صغيراً، ويرفعَ حقيراً، وليسَ بفاعلٍ.

٧٣٩ - لو تميّزَتِ الأشياء كانَ الكَذِبُ مع الجُبْنِ، والصِّدقُ مع الشجاعَةِ، والرَّاحةُ مع اليَأسِ، والتّعَبُ مع الطمعِ، والحرمانُ مع الحرصِ، والذُّلُّ مع الدَّيْنِ.

٧٤٠ - المعروفُ غُلٌّ لا يَفُكُّه إلّا شكرٌ أو مكافأةٌ.

٧٤١ - كثرةُ مال الميّتِ تسلّي ورثتَهُ عنه.

٧٤٢ - منْ كَرُمتْ عليهِ نفْسُهُ هانَ عليه مالُهُ.

٧٤٣ - من كَثُرَ مُزَاحُهُ لم يسلَمْ منَ استخفافٍ به، أو حقدٍ عليه.

٧٤٤ - كثرةُ الدَّيْنِ تضطرُّ الصادقَ إلى الكذبِ والواعدَ إلى الإخلافِ.

٧٤٥ - عارُ النَّصيحةِ يكدِّرُ لَذّتها.

٧٤٦ - أوّلُ الغَضبِ جنونٌ، وآخِرُهُ ندمٌ.

٧٤٧ - انفرِدْ بسرّكَ ولا تودعهُ حازماً فيزلّ، ولا جاهِلاً فيخونَ.

٧٤٨ - لا تقطعْ أخاكَ إلّا بعدَ عجزِ الحيلَةِ عن استصلاحِهِ، ولا تُتبعه بعدَ القطيعةِ وقيعةً فيه، فتَسُدَّ طريقَهُ عنِ الرُّجوع إليك، ولعلَّ التجارِبَ أنْ تردَّهُ عليك وتُصْلحَهُ لكَ.

٧٤٩ - منْ أحسَّ بضعف حيلتِهِ عن الاكتسابِ بخلَ.

٧٥٠ - الجاهلُ صغيرٌ وإنْ كانَ شيخاً، والعالِمُ كبيرٌ وإنْ كان حَدَثاً.

٧٥١ - الميّتُ يَقِلُّ الحسدُ له، ويكْثُرُ الكذبُ عليهِ.

٧٥٢ - إذا نزلَتْ بك النعمةُ فاجعلْ قِراها الشكْرَ.

٧٥٣ - الحِرْصُ ينقُصُ من قدرِ الإنسانِ ولا يزيدُ في حَظِّهِ.

٧٥٤ - الفرصةُ سريعةُ الفوتِ بطيئةُ العوْدِ.

٧٥٥ - أبخَلُ الناسِ بمالِه أجودهم بعِرْضه.

٧٥٦ - لا تتبعِ الذنبَ العقوبة واجعلْ بينهما وقتاً للاعتذارِ.

٧٥٧ - اذكُرْ عندَ الظلمِ عدلَ الله فيكَ، وعندَ القدرةِ قدرةَ الله عليك.

٧٥٨ - لا يحملنَّكَ الحَنَقُ على اقترافِ الإثمِ فتَشفيَ غيظك وتسقم دينك.

٧٥٩ - المُلْكُ بالدِّين يبقى والدِّينُ بالملكِ يقوَى.

٧٦٠ - كأنّ الحاسدَ إنَّما خلقَ ليغتاظَ.

٧٦١ - عقلُ الكاتبِ في قلمِه.

٧٦٢ - اقتصِرْ منْ شهوةٍ خالفت عقلكَ بالخلافِ عليها.

٧٦٣ - اللهُمَّ صُنْ وجهي باليسارِ، ولا تبذلْ جاهي بالإقتارِ، فأسترزقَ طالبي رزقِكَ، واستعطفَ شِرَارَ خلقك، وأبْتَلَى بحمد منْ أعطاني، وأفتتِنَ بذمِّ من منعني، وأنتَ منْ وراءِ ذلكَ وليُّ الإعطاءِ والمنعِ، إنّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

٧٦٤ - كلُّ حقدٍ حقدتْهُ قريشٌ على رسول الله ﷺ أظهرتْهُ فيَّ وستُظهِرُهُ في ولدي من بعدي، ما لِيَ ولقريشٍ! إنما وتَرْتُهُمْ بأمرِ الله وأمرِ رَسُولِهِ، أفهذا جزاءُ مَنْ أطاعَ الله ورَسُولَهُ إن كانوا مسلمينَ!

٧٦٥ - عجباً لسعدٍ وابْنِ عمر! يزعمانِ أني أحاربُ على الدُّنيا، أفكانَ رَسُولُ الله ﷺ يحاربُ على الدنيا! فإنْ زعما أنّ رَسُولَ الله ﷺ حاربَ لتكسير الأصنامِ، وعبادةِ الرَّحمنِ، فإنما حاربْتُ لدفعِ الضلالِ والنَّهْيِ عنِ الفحشاءِ والفساد، أفمثلي يُزَنُّ بحبِّ الدُّنيا! والله لو تمثّلَتْ لِي بَشَراً سويّاً لضربتُها بالسيف.

٧٦٦ - اللهُمَّ أنتَ خلقتني كما شئتَ، فارحمني كيف شِئتَ، ووفِّقني لطاعتك، حتى تكونَ ثقتي كلّها بكَ، وخَوْفي كله منكَ.

٧٦٧ - لا تَسُبَّنَّ إبليسَ في العلانِيَةِ وأنت صديقُهُ في السِّرِّ.

٧٦٨ - منْ لم يأخذْ أُهْبَةَ الصلاةِ قبلَ وقتها فما وقّرَها.

٧٦٩ - لا تطمعْ في كلِّ ما تسمعُ.

٧٧٠ - منْ عاتَبَ ووبَّخَ فقد استوفَى حقَّهُ.

٧٧١ - الجودُ الذي يستطاعُ أن يُتناوَل به كلُّ أحدٍ، هوَ أن ينوَى الخيرُ لكلِّ أحدٍ.

٧٧٢ - منْ صحبَ السلطانَ بالصحّةِ والنصيحةِ كان أكثرَ عدوًّا مِمَّنْ صحبَهُ بالغشِّ والخيانةِ.

٧٧٣ - منْ عابَ سَفِلةً فقد رفعهُ، ومن عابَ كريماً فقد وضعَ نفسهُ.

٧٧٤ - الموالى ينصرونَ، وبنو العمِّ يحسدونَ.

٧٧٥ - الصدقُ عزٌّ، والكَذِبُ مذلّةٌ، ومنْ عرفَ بالصدقِ جازَ كذبُهُ، ومَن عرفَ بالكذبِ لم يجز صدقُهُ.

٧٧٦ - إذا سمعْتَ الكلمة تُؤذيكَ فطأْطِىءْ لها فإنّها تتخطّاكَ.

٧٧٧ - نحنُ نريدُ ألّا نموتَ حتى نتوبَ، ونحنُ لا نتوبُ حتى نموتَ.

٧٧٨ - أنزِلِ الصديقَ منزلةَ العدُوِّ في رفعِ المؤنةِ عنهُ، وأنْزِلِ العدُوَّ منزلةَ الصديقِ في تحمُّلِ المؤنة لهُ.

٧٧٩ - أوّلُ عقوبةِ الكاذب أنَّ صدقَهُ يُرَدُّ عليه.

٧٨٠ - الأدبُ عندَ الأحمقِ كالماءِ العذبِ في أصولِ الحنظلِ، كلما ازداد رِيًّا ازداد مرارةً.

٧٨١ - إيّاكم وحميَّةَ الأوغادِ، فإنَّهُمْ يروْنَ العفو ضيْماً.

٧٨٢ - الكريمُ لا يستقصي في مُحاقَّةِ المعتذرِ، خوفاً أن يجزي من لا يجدُ مخرجاً من ذنْبِهِ.

٧٨٣ - العفوُ عن المقرِّ لا عن المُصِرِّ.

٧٨٤ - ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقرَ الناسُ إليه.

٧٨٥ - منْ جادَ بمالِهِ فقد جادَ بنفسِهِ، فإن لم يكنْ جادَ بها بعينها فقد جادَ بِقِوامِها.

٧٨٦ - الدَّينُ ميسمُ الكرامِ، وطالما وُقِّرَ الكرامُ بالدَّين!

٧٨٧ - الماضي قبلكَ هوَ الباقي بعدَكَ، والتَّهْنئةُ بآجل الثوابِ أوْلَى منَ التّعزيَةِ بعاجِلِ المُصابِ.

٧٨٨ - مِمَّا تكتسبُ به المحبةُ أن تكونَ عالماً كجاهلٍ، وواعظاً كموعوظٍ.

٧٨٩ - لا تحمدنَّ الصبيَّ إذا كان سخيًّا، فإنَّهُ لا يعرفُ فضيلةَ السخاءِ، وإنَّما يعطي ما في يده ضعفاً.

٧٩٠ - خيرُ الإخوان من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْ في المودَّة، وإن احتجتَ إليه لم ينقُصْكَ منها.

٧٩١ - عَجَباً للسلطانِ، كيفَ يُحْسِنُ، وهو إذا أساءَ وجدَ من يزكِّيهِ ويمدحُهُ!

٧٩٢ - إذا صادقْتَ إنساناً وجبَ عليكَ أن تكونَ صديقَ صديقِهِ، وليسَ يجبُ عليكَ أن تكونَ عدوَّ عدُوِّهِ، لأنَّ هذا إنما يجِبُ على خادِمِهِ وليسَ يجبُ على مُماثِلٍ له.

٧٩٣ - ليس تكملُ فضيلة الرَّجُلِ حتَّى يكونَ صديقاً لمتعادِيَيْنِ.

٧٩٤ - منْ سَعادَةِ الحدِثِ ألَّا يتمّ لهُ فضيلةٌ في رَذيلةٍ.

٧٩٥ - إذا مُنِعْتَ منْ شيءٍ قدِ التمسْتَهُ، فلْيكنْ غيظُك منه على نفسِك في المسألةِ أكثَر منْ غظيكَ على منْ منعكَ.

٧٩٦ - الأسْخياء يشمتونَ بالبُخلاء عند الموْت، والبخلاءُ يَشمتونَ بالأسْخياءِ عند الفقرِ.

٧٩٧ - ليسَ يضبطُ العددَ الكثير منْ لا يضبطُ نفسهُ الواحدَةَ.

٧٩٨ - إذا أحسَنَ أحدٌ منْ أصحابك فلا تخرُجْ إليهِ بغاية برِّكَ، ولكن اترُكْ منهُ شيئاً تزيدُهُ إيَّاهُ عندَ تبيُّنك منهُ الزِّيادةَ في نصيحتِهِ.

٧٩٩ - الوُقوعُ في المكرُوهِ أسهلُ منْ تَوَقُّع المكرُوهِ.

٨٠٠ - الحسُودُ ظالِمٌ، ضعفتْ يدُهُ عن انتزاع ما حسدكَ عليه، فلمَّا قصُرَ عليك بعثَ إليكَ تأسُّفهُ.

٨٠١ - أعمُّ الأشياءِ نَفْعاً موتُ الأشرارِ.

٨٠٢ - الشيءُ المعزِّي للناسِ عنْ مَصائبهمْ عِلمُ العُلماءِ أنها نفعاءُ اضرارِيةٌ وتأسِّي العامَّةِ بعضها ببعضٍ.

٨٠٣ - العقلُ الإصابةُ بالظنِّ ومعْرفةُ ما لم يكنْ بما كانَ.

٨٠٤ - يا عَجَباً للناسِ قد مكَّنَهم الله من الاقتداءَ به، فيدَعُون ذلكَ إلى الاقتداءِ بالبهائم!

٨٠٥ - سلُوا القلوبَ عنِ المودات، فإنها شُهودٌ لا تقبلُ الرِّشا.

٨٠٦ - إنما يحزَنُ الحسدةُ أبداً لأنهمْ لا يحزنون لِما ينزلُ بهمْ منَ الشرِّ فقط، بلْ ولما ينالُ الناس منَ الخيْرِ.

٨٠٧ - العشقُ جهدٌ عارضٌ صادفَ قلباً فارغاً.

٨٠٨ - تُعرَفُ خساسةُ المَرءِ بكثرةِ كلامِهِ فِيما لا يَعْنيهِ، وإخبارِهِ عمَّا لا يُسْأَلُ عنهُ.

٨٠٩ - لا تؤخِّرْ إنالةَ المحْتاجِ إلى غدٍ، فإنَّك لا تعرفُ ما يعرِض في غدٍ.

٨١٠ - إنْ تتعَبْ في البرِّ، فإنِ التعب يَزُولُ والبرَّ يبْقى.

٨١١ - أجْهلُ الجهالِ منْ عثرَ بحجرٍ مرتيْنِ.

٨١٢ - كفاكَ مُوبِّخاً على الكذبِ عِلمُكَ بأنَّك كاذِبٌ، وكفاك ناهِياً عنه خوْفُكَ مِنْ تكذيبك حالَ إخبارِكَ.

٨١٣ - العالمُ يَعرفُ الجاهِل لأنهُ كان جاهلاً، والجاهلُ لا يَعرفُ العالمَ لأنهُ لم يكن عالِماً.

٨١٤ - لا تتَّكلوا على البَختِ فرُبما لم يكنْ وربما كان وزالَ، ولا على الحسَبِ فطالما كان بلاءً على أهْله، يقالُ للنَّاقِص: هذا ابن فلانٍ الفاضلِ، فيتضاعفُ غمهُ وعارُهُ، ولكنْ عليكم بالعلمْ والأدبِ، فإنَّ العالم يُكرَمُ وإنْ لمْ يتسبْ، ويكرم وإن كان فقيراً، ويكرمُ وإن كان حدِثاً.

٨١٥ - خيرُ ما عُوشرَ به الملكُ قلةُ الخلافِ وتخفيفُ المؤنة، وأصعبُ الأشياءِ على الإنسَان أنْ يعرفَ نفسه، وأن يكتم سرَّهُ.

٨١٦ - العدلُ أفضلُ منَ الشجاعةِ، لأنَّ الناسَ لو استعملوا العدلَ عموماً في جميعهم لاستغنوا عن الشجاعةِ.

٨١٧ - أولى الأشياءِ أن يتعلَّمها الأحْداثُ الأشياءُ التي إذا صاروا رجالاً احتاجُوا إليها.

٨١٨ - لا ترغبْ في اقتناءِ الأموالِ، وكيفَ ترغبُ فيما ينالُ بالبخت لا بالاستحقاقِ، ويأمر البخلُ والشرَهُ بحفظه والجود والزهدُ بإخراجِه!

٨١٩ - إذا عاتبت الحدَث فاترك لهُ موضعاً من ذنبه، لئلاً يحملهُ الإخراجُ على المكابرةِ.

٨٢٠ - ما انتقم الإنسانُ منْ عدوِّهِ بأعظم من أن يزداد من الفضائلِ.

٨٢١ - إنما لم تجتمع الحكمةُ والمالُ، لعزّةِ وجُود الكمالِ.

٨٢٢ - يَمنعُ الجاهلَ أن يجدَ ألم الحمق المستقرّ في قلبِه ما يمنع السكرانَ أنْ يجد مسَّ الشوْكة في يدِه.

٨٢٣ - القُنية مخدومةٌ، ومن خدمَ غير نفسِه فليس بحرٍّ.

٨٢٤ - لا تطلبِ الحياةَ لتأكلَ، بل اطلُبِ الأكل لتحيا.

٨٢٥ - إذا رأتِ العامّةُ منازلَ الخاصّةِ من السلطانِ حسدتها عليْها، وتمنّتْ أمثالها، فإذا رأتْ مصارعها بدا لها.

٨٢٦ - الشيءُ الذي لا يستغني عنهُ أحدٌ هوَ التوْفيق.

٨٢٧ - ليْسَ ينبغي أن يقعَ التصديقُ إلا بما يصحُّ، ولا العملُ إلا بما يحِلُّ، ولا الابتداءُ إلا بما تحسنُ فيهِ العاقبةُ.

٨٢٨ - الوحدةُ خيرٌ مِن رفيقِ السوءِ.

٨٢٩ - لكل شيءٍ صناعةٌ، وحسنُ الاختبارِ صناعةُ العقلِ.

٨٣٠ - من حَسِدَكَ لم يشكرْكَ على إحسانك إليهِ.

٨٣١ - البغيُ آخرُ مدّةِ الملوكِ.

٨٣٢ - لأنْ يكون الحرُّ عبداً لعبيده خيرٌ من أن يكون عبداً لشهواتِهِ.

٨٣٣ - من أمْضى يومه في غيرِ حقٍّ قضاهُ، أو فرضٍ أدّاهُ، أوْ مجدٍ بناهُ، أو حَمْدٍ حصَّلَهُ، أو خيرٍ أسَّسهُ، أو علم اقتبسهُ، فقد عقَّ يوْمَهُ.

٨٣٤ - أرسلَ إليهِ عمرو بن العاص يعيبُه بأشياءَ، منها أنّهُ يسمِّي حَسَناً وحُسَيْناً: ولدي رَسُولِ الله ﷺ فقالَ لِرَسُولِهِ: قل للشّانىء[1] ابن الشّانىء، لو لم يكونا ولَدَيْه لكانَ أبترَ، كما زعمه أبوك!

٨٣٥ - قالَ معاوية لما قُتِلَ عمارٌ واضطربَ أهلُ الشام لرواية عمرو بن العاص كانت لهم: «تقتُلُه الفئةُ الباغيةُ»: إنّما قتله منْ أخرجهُ إلى الحرب وعرَّضَه للقتل، فقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: فرسولُ الله ﷺ إذَنْ قاتِلُ حمزةَ!

٨٣٦ - هذا يدي - يعني محمّد بن الحنفيّة - وهذان عينايَ - يعني حَسَناً وحُسَيْناً - وما زَال الإنسانُ يَذُبُّ بِيَدِهِ عنْ عينيْهِ، قالها لمنْ قال له: إنَّكَ تُعَرِّضُ محمَّداً للقتل، وتقْذِفُ به في نحور الأعداءِ دونَ أخَوَيه.

٨٣٧ - شكَرْتَ الواهب، وبُورِكَ لك في الموهوب، ورُزِقْتَ خيرهُ وبِرَّهُ، خذْ إليكَ أبا الأملاك، قالها لعبد الله بن العباس لما وُلِدَ ابْنُهُ عليُّ بن عبد الله.

٨٣٨ - ما يَسُرُّني أني كُفِيتُ أمرَ الدُّنيا كلَّه، لأني أكرهُ عادةَ العجزِ.

٨٣٩ - اجتماعُ المالِ عندَ الأسخياءِ أحدُ الخِصْبَيْنِ، واجتماعُ المالِ عندَ البخلاءَ أحدُ الجَدْبَيْنِ.

---

(١) الشانىء: المبغض. القاموس، مادة (شنأ).

٨٤٠ - منْ عَمِلَ عَمَلَ أبيه كُفِيَ نصفَ التَّعَبِ.

٨٤١ - المُصطَنِعُ إلى اللّئيمِ كمنْ طَوَّقَ الخِنزيرَ تِبْراً، وقَرَّطَ الكلبَ دُرًّا، وألبسَ الحمارَ وَشْياً، وألقم الأفعى شهداً.

٨٤٢ - الحازِم إذا أشكلَ عليهِ الرَّأي بمنزلة منْ أضل لُؤْلُؤةً، فجمعَ ما حوْلَ مسقطها مِنَ الترابِ ثم التمسها حتى وجدها، ولذلك الحازِمُ يجمعُ وُجوهَ الرَّأي في الأمر المشكل، ثم يضربُ بعضه ببعضٍ حتى يخلُصَ إليهِ الصَّوابُ.

٨٤٣ - الأشرَافُ يعاقَبون بالهِجْرانِ لا بالحرمان.

٨٤٤ - الشُّحُّ أضَرُّ على الإنسانِ مِن الفَقْرِ، لأن الفقير إذا وجد اتّسع، والشحيح لا يتّسِعُ وإن وَجَد.

٨٤٥ - أحَبُّ الناس إلى العاقل أن يكون عاقلاً عَدُوُّهُ، لأنهُ إذا كان عاقِلاً كان مِنْه في عافيةٍ.

٨٤٦ - عليك بِمَجالسةِ أصحابِ التّجارِبِ، فإنها تُقَوَّمُ عليهم بأغلى الغلاءِ، وتأخذها مِنهم بأرْخَص الرُّخص.

٨٤٧ - مَن لم يحمَدْكَ على حُسْنِ النّيَّةِ لم يَشْكُرْكَ على جَميل العَطِيَّةِ.

٨٤٨ - لا تنكحوا النساءَ لِحُسنهنَّ، فعسى حُسْنُهُنَّ أن يُرْدِيَهنَّ، ولا لِأمْوالهنَّ فعسى أمْوالُهنَّ أن تُطْغِيَهُنَّ، وانكِحُوهُنَّ على الدِّين، ولأمَةٌ سوْداءُ خَرْماءُ ذَاتُ دِين أفْضَلُ.

٨٤٩ - أفْضَلُ العبادَةِ الإمْساك عن المعصيةِ، والوُقوفُ عِنْد الشُّبْهَةِ.

٨٥٠ - ذَمُّ الرَّجل نفسه في العلانية مَدْحٌ لها في السِّرِّ.

٨٥١ - مَن عَدِم فَضِيلة الصدق في منطقِهِ فَقَدْ فُجِعَ بأكْرَم أخلاقِهِ.

٨٥٢ - ليس يضُرُّك أنْ تَرَى صدِيقك عنْدَ عدُوِّك، فإنهُ إن لم يَنْفعك لم يَضُرّكَ.

٨٥٣ - قَلَّ أن تَرَى أحداً تكبَّرَ على مَن دُونه إلا وبذلك المِقدارِ يجودُ بالذُّلِّ لمَنْ فوْقَهُ.

٨٥٤ - مَن عَظُمَتْ عَلَيْهِ مُصيبةٌ فلْيذْكُرِ المَوْتَ، فإنها تَهُونُ عَلَيْهِ، ومَنْ ضاق بِهِ أمْرٌ فلْيَذْكُرِ القبر فإنه يتّسعُ.

٨٥٥ - خيْرُ الشِّعْرِ ما كان مَثَلاً، وَخَيْرُ الأمْثالِ ما لم يَكن شِعْراً.

٨٥٦ - الْق الناس عِند حاجتهم إليك بالبشر والتواضُعِ، فإن نابَتك نائِبَةٌ، وحالَتْ بك حالٌ لَقِيتَهُمْ، وقَدْ أمِنت ذِلّةَ التّنصُّل إليهم والتواضع.

٨٥٧ - إن الله يحبُّ أن يُعفَى عن زَلّةِ السَّرِيِّ.

٨٥٨ - من طال لِسانُهُ وحَسُن بَيانُهُ، فليترك التَّحدث بغرائِبِ ما سمع، فإنّ الحسد لِحُسن ما يظهرُ منهُ يحمِلُ أكثَرَ الناس على تكذِيبه، ومَن عرَفَ أسرَارَ الأمورِ الإلْهية فلْيَتْرُكِ الخوض فيها، وإلّا حملتهم المنافسةُ على تكْفيرِهِ.

٨٥٩ - لَيْسَ كلُّ مَكتومٍ يَسُوغ إظهارُهُ لك، ولا كلُّ مَعْلُومٍ يَجوزُ أن تُعَلِّمَهُ غَيْرك.

٨٦٠ - ليسَ يفهَمُ كلامَكَ منْ كان كلامُهُ لك أحبَّ إليه مِنَ الاستماعِ منك، ولا يعلَمُ نصيحَتَكَ مَنْ غلَبَ هواهُ على رَأيِكَ، ولا يسلِّمُ لكَ منِ اعتقَدَ أنّه أتمُّ معرفةً بما أشرتَ عليهِ به منكَ.

٨٦١ - خَفِ الضعيفَ إذا كان تحتَ راية الإنصاف أكثرَ منْ خوفِك القويّ تحت راية الجورِ، فإنّ النَصْر يأتيهِ من حيثُ لا يشعر، وجُرحُه لا يندملُ.

٨٦٢ - إخافةُ العبيد والتضييقُ عليهمْ يزيد في عبوديّتهم وصيانتِهِمْ، وإظهارُ الثقةِ بهم يكسِبُهُمْ أنفةً وجبريّة.

٨٦٣ - أضرُّ الأشياءِ عليك أن تُعْلم رئيسك أنّكَ أعرفُ بالرّياسة منه.

٨٦٤ - عداوةُ العاقلينَ أشدُّ العداواتِ وأنكاها، فإنها لا تقع إلا بعد الإعذار والإنذار، وبعد أن يئس إصلاح ما بينهما.

٨٦٥ - لا تخْدِمَنّ رئيساً كنتَ تعرفُهُ بالخُمُولِ، وسمَتْ به الحالُ، ويعرفُ منك أنّكَ تعرفُ قديمهُ، فإنَّهُ وإن سُرَّ بمكانكَ مِنْ خدمَتِهِ، إلا أنه يعلَمُ العينَ التي تراه بها، فينقبِضُ عنك بحسب ذلك.

٨٦٦ - إذا احتجتَ إلى المشورة في أمرٍ قد طَرَأ عليك فاستَبْدِهِ ببداية الشُّبّان، فإنهم أحدّ أذهاناً وأسرَعُ حَدْساً، ثم رُدَّهُ بعدَ ذلك إلى رأي الكُهولِ والشيوخِ ليستعقِبُوهُ، ويُحْسِنُوا الاختيارَ له، فإنّ تجربتهم أكثرُ.

٨٦٧ - الإنسانُ في سعيه وتصرفاته كالعائِمِ في اللّجّةِ، فهو يكافِحُ الجرية في إدباره، ويجري معها في إقبالهِ.

٨٦٨ - ينبغي للعاقلِ أن يستعملَ فيما يَلتمِسهُ الرفقَ، ومُجانبةَ الهذَرِ، فإن العَلَقَةَ تأخذ بهدوئها مِنَ الدّمِ ما لا تأخذهُ البَعوضةُ باضطرابها وفرطِ صِياحِها.

٨٦٩ - أقوى ما يكونُ التصنُّعُ في أوائِلِهِ، وأقوى ما يكونُ التطبُّعُ في أواخرِهِ.

٨٧٠ - غاية المُروءة أنْ يستحيي الإنسانُ من نفسِهِ، وذلكَ أنّهُ ليسَ العِلّةُ في الحياءِ مِنَ الشيخ كِبَرَ سِنِّهِ ولا بياضَ لِحْيَتِه، وإنما عِلّةُ الحياء منهُ عقلُه، فينبغي إن كان هذا الجَوْهَر فينا أنْ نستحييَ منهُ ولا نُحضرَه قبيحاً.

٨٧١ - مَنْ ساس رعِيّةً حَرُمَ عليه السُّكرُ عَقلاً، لأنَّهُ قبيحٌ أنْ يحتاجَ الحارسُ إلى مَنْ يحرسُهُ.

٨٧٢ - لا تبتاعنَّ مملوكاً قويَّ الشهْوَةِ، فإنَّ له مولًى غيرك، ولا غَضُوباً فإنَّهُ يُؤذِيك في أستخدامِكَ له، ولا قَوِيّ الرَّأي فإنَّهُ يستعمِلُ الحيلَةَ عليك، لكن اطلُبْ منَ العبيدِ مَنْ كانَ قَوِيَّ الجِسْمِ حَسنَ الطَّاعَةِ، شديدَ الحياءِ.

٨٧٣ - لا تُعادوا الدُّولَ المُقبلةَ، وتُشرِبوا قلوبَكم بُغْضَها، فتُدبِرُوا بإقبالها.

٨٧٤ - الغَرِيبُ كالفرسِ الذي زايل شِرْبَهُ، وفارقَ أرضهُ، فهو ذاوٍ لا يتّقِدُ وذابِلٌ لا يُثمرُ.

٨٧٥ - السفرُ قطعةٌ منَ العذابِ، والرَّفيقُ السوءُ قطعةٌ منَ النَّارِ.

٨٧٦ - كلُّ خُلُقٍ من الأخلاقِ فإنَّه يكسُدُ عندَ قومٍ مِنَ الناسِ إلّا الأمانَة فإنها نافِقَةٌ عندَ أصنافِ الناسِ، يُفضَّل بها من كانت فيه، حتى إن الآنِيَّة إن لم تُنَشِّفْ وبَقِيَ ما يودَعُ فيها على حاله لم ينقُصْ - كانت أكثَر ثناءً مِنْ غيرها مِما يرشَحُ أو يُنشِّفُ.

٨٧٧ - اصْبِرْ على سلطانِكَ في حاجاتِكَ، فلستَ أكبرَ شغلهِ، ولا بك قِوامُ أمرِهِ.

٨٧٨ - قُوَّة الاستشعارِ مِنْ ضعفِ اليقينِ.

٨٧٩ - إذا أحسسْتَ منْ رأيكَ بإكدادٍ، ومِنْ تصوُّرِكَ بفسادٍ، فاتّهِمْ نفسك بمجالستِكَ لعامّيِّ الطبعِ، أو لِسَيِّءِ الفكْرِ، وتدارَكْ إصلاحَ مزاجِ تخيُّلكَ بمكاثرةِ أهلِ الحكمةِ، ومجالسةِ ذوي السدَاد، فإن مفاوضتهُمْ تريحُ الرَّأيَ المكدودَ، وتردُّ ضالّةَ الصوابِ المفقودِ.

٨٨٠ - منْ جلسَ في ظلِّ الملقِ[1]، لم يستقرَّ به موضعُه، لكثرةِ تنقُّلِهِ وتصرُّفِه معَ الطباعِ، وعرفَهُ النَّاسُ بالخديعَةِ.

٨٨١ - كثيرٌ من الحاجاتِ تُقضَى بَرَماً لا كرَماً.

٨٨٢ - أصحابُ السلطان في المَثلِ كقومٍ رقوا جبلاً ثم سقطوا منهُ، فأقربُهُمْ إلى الهَلَكَةِ والتَّلَفِ أبعدهمْ كان في المرتقَى.

٨٨٣ - لا تَضَعْ سِرَّكَ عندَ منْ لا سِرَّ له عندكَ.

٨٨٤ - سَعَةُ الأخلاقِ كِيمياء الأرزاق.

٨٨٥ - العلمُ أفضلُ الكُنُوزِ وأجملُها، خفيفُ المحمَلِ، عظيمُ الجدوى، في الملأ جمالٌ، وفي الوحدةِ أُنسٌ.

---

(١) المَلَق: الودّ واللطف الشديد، وقيل: الترفق والمداراة. اللسان، مادة (ملق).

٨٨٦ - السِّبابُ مُزَاحُ النَّوْكَى[1]، ولا بأسَ بالمفاكهةِ، يُرَوِّحُ بها الإنسانُ عنْ نفسهِ، ويخْرُجُ عنْ حدِّ العُبُوسِ.

٨٨٧ - ثلاثةُ أشياءَ تدلُّ على عقولِ أربابِها: الهَدِيَّةُ، والرَّسُولُ، والكتابُ.

٨٨٨ - التعزيةُ بعدَ ثلاثٍ تجديدٌ للمصيبة، والتهنئةُ بعدَ ثلاثٍ استخفافٌ بالمودَّةِ.

٨٨٩ - أنتَ مخيَّرٌ في الإحسانِ إلى منْ تحسنُ إليهِ، ومرتَهَنٌ بدوامِ الإحسانِ إلى منْ أحسنْتَ إليهِ، لأنَكَ إنْ قطعتهُ فقدْ أهدرتهُ، وإنْ أهدرته فلمَ فعلْتَهُ!

٨٩٠ - الناس مِن خوف الذُّلّ في ذُلّ.

٨٩١ - إذا كانَ الإيجازُ كافياً كان الإكثارُ عِيًّا، وإذا كان الإيجازُ مقصِّراً كان الإكثارُ واجباً.

٨٩٢ - بئسَ الزّادُ إلى المَعادِ، العُدوانُ على العِبادِ.

٨٩٣ - الخلقُ عِيالُ الله، وأحبُّ النَّاس إلى الله أشفقهم على عيالِهِ.

٨٩٤ - تحريكُ الساكنِ أسهلُ منْ تسكينَ المتحرِّك.

٨٩٥ - العاقلُ بخشونةِ العيشِ معَ العُقلاءِ، آنسُ منه بلينِ العيش مع السُّفهَاءِ.

٨٩٦ - الانقباضُ بينَ المنبسطين ثِقلٌ، والانبساطُ بينَ المنقبضين سخفٌ.

٨٩٧ - السخاءُ والجودُ بالطعامِ لا بالمالِ، ومنْ وهبَ ألفاً وشَحَّ بصحفةِ طعامٍ فليسَ بجوَادٍ.

٨٩٨ - إنْ بقيتَ لم يبقَ الهمُّ.

٨٩٩ - لا يقومُ عزُّ الغضبِ بذلَّةِ الاعتذارِ.

٩٠٠ - الشفيعُ جناحُ الطالبِ.

٩٠١ - الأملُ رفيقٌ مُؤنِسٌ، إنْ لم يبلّغْكَ فقدِ استمتَعْتَ به.

٩٠٢ - إعادةُ الاعتذار تذكيرٌ بالذَّنْبِ.

٩٠٣ - الصبرُ في العواقِبِ شافٍ أو مريحٌ.

٩٠٤ - من طالَ عمرُهُ، رأى في أعدائهِ ما يسرُّهُ.

٩٠٥ - لا نعمةَ في الدُّنيا أعظمُ منْ طولِ العمر، وصحّةِ الجسدِ.

٩٠٦ - الناسُ رجلان: إمّا مُؤجّلُ لفقدِ أحبابهِ، أو معجّلٌ بفقدِ نفسِه.

---

(١) النّوكى: الحمقى، مفرده: أنوك، اللسان، مادة (نوك).

٩٠٧ - العقلُ غريزةٌ تربّيها التّجارِبُ.

٩٠٨ - النُّصْحُ بينَ الملأ تقريعٌ.

٩٠٩ - لا تُنكِحْ خاطبَ سِرِّكَ.

٩١٠ - منْ زادَ أدبُهُ على عقلِهِ كان كالرّاعي الضعيفِ معَ الغنمِ الكثير.

٩١١ - الدّارُ الضّيّقةُ العمى الأصغرُ.

٩١٢ - النّمّام جسرُ الشرّ.

٩١٣ - لا تَشِن وجهَ العفو بالتقريع.

٩١٤ - كثرة النصح تهجم بك على كثرة الظِّنَّةِ.

٩١٥ - لكلّ ساقطة لاقطة.

٩١٦ - ستساق إلى ما أنت لاقٍ.

٩١٧ - عاداك من لاحاك.

٩١٨ - جَدّك لا كدّك.

٩١٩ - تذكر قبل الورْدِ الصدَرَ، والحذر لا يغني من القدر، والصبر منْ أسباب الظفر.

٩٢٠ - عارُ النساءِ باقٍ يلحق الأبناءَ بعد الآباءِ.

٩٢١ - أعجل العقوبةِ عقوبةُ البغي والغدرِ واليمينِ الكاذبة، ومنْ إذا تُضُرِّعَ إليهِ وسُئِلَ العفو لم يغفر.

٩٢٢ - لا تردّ بأس العدُوّ القويّ وغضبه بمثل الخضوعِ والذُّلّ، كسلامة الحشيش منَ الريح العاصف بانثنائه معها كيْفَما مالت.

٩٢٣ - قارِبْ عدوّك بعض المقاربةِ تنلْ حاجتك، ولا تُفْرط في مقارَبته فتذلّ نفسك وناصرك، وتأمّل حال الخشبة المنصوبة في الشمس التي إنْ أمَلتها زاد ظلها، وإنْ أفرطت في الإمالة نقص الظلّ.

٩٢٤ - إذا زال المحسود عَلَيْهِ علمت أنّ الحاسد كان يَحْسُدُ على غير شيء.

٩٢٥ - العجز نائم، والحزم يقظان.

٩٢٦ - من تجرّأ لَكَ تجرّأ عَليك.

٩٢٧ - ما عفا عن الذنب مَن قرَّع بِهِ.

٩٢٨ - عبد الشهوة أذلُّ من عبد الرِّقّ.

٩٢٩ - لَيْسَ ينبغي للعاقل أنْ يطلب طاعة غيره، وطاعةُ نفسه عَلَيْهِ مُمْتَنِعَةٌ.

٩٣٠ - الناسُ رَجلان: واجدٌ لا يكتفي، وطالب لا يجد.

٩٣١ - كُلّما كثر خُزّان الأسرار، زادت ضياعاً.

٩٣٢ - كثرة الآراءِ مفسدة، كالقِدْرِ لا تطيب إذ كثر طَبَّاخُوها.

٩٣٣ - مَن اشتاق خَدَمَ، ومَن خدم اتَّصَل، ومَن اتّصل وصل، ومَن وَصَل عَرَف.

٩٣٤ - عَجَباً لِمنْ يخرُج إلى البساتين للفُرْجَةِ على القُدْرَة، وَهَلاً شَغَلَتهُ رُؤيَةُ القادِرِ عَن رُؤيَةِ القُدْرَةِ!

٩٣٥ - كلُّ الناسِ أُمِروا بأنْ يَقُولُوا: لا إلـه إلا الله، إلا رسولَ الله، فإنَّهُ رُفِعَ قَدْرُهُ عَن ذَلك، وقيل لَهُ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1]، فأُمِرَ بالعلْمِ لا بالقَوْلِ.

٩٣٦ - كُلُّ مُصطنع عارفةٍ فإنَّما يصنع إلى نفسه، فلا تلتمس مِن غيرك شكر ما أتَيْتَه إلى نفسك وتمَّمت به لذَّتَكَ، ووقيْتَ بِهِ عِرْضَكَ.

٩٣٧ - ولَدُك رَيحانَتُك سَبْعاً، وخادِمُك سَبْعاً، ثمّ هُوَ عَدُوّك أو صديقك.

٩٣٨ - مَن قَبِل معرُوفَكَ فَقَدْ باعَكَ مُرُوءَتَهُ.

٩٣٩ - إلى الله أشكو بلادَة الأمين ويقظة الخائنِ.

٩٤٠ - مَن أكثر المشورة لم يَعْدَم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذِراً.

٩٤١ - من كثر حقده قَلَّ عتابُهُ.

٩٤٢ - الحازمُ مَن لـم يَشغَلْهُ البَطرُ بالنعْمَةِ عَن العمل للعاقِبَةِ، والهَمُّ بالحادِثَةِ عن الحيلةِ لدفْعها.

٩٤٣ - كلَّما حَسُنتْ نِعْمَةُ الجاهِل ازْدَادَ قُبْحاً فيها.

٩٤٤ - مَن قَبِلَ عَطاءَكَ فقدْ أعانك على الكرمِ، ولولا مَن يَقْبلُ الجودَ لم يكُنْ مَن يَجُودُ.

٩٤٥ - إخوانُ السوءِ كشجرةِ النار، يُحْرق بعضها بعضاً.

٩٤٦ - زلة العالمِ كانكسار السفينةِ تغرق ويَغْرَقُ معها خلق.

٩٤٧ - أهْوَنُ الأعْدَاءِ كَيْداً أظهرهم لِعَدَاوَتِه.

٩٤٨ - أبْقِ لِرِضاك مِنْ غَضَبِك، وإذا طِرْتَ فَقَعْ قَرِيباً.

٩٤٩ - لا تَلْتَبِسْ بالسُّلْطانِ في وقْتِ اضْطِرابَ الأُمُورِ عَلَيْهِ، فإنَّ البَحْر لا يَكادُ يسلمُ صاحِبُهُ في حالِ سُكُونِهِ، فكيف يسلم مَع اختلاف رياحِهِ واضطِرابِ أمْواجِهِ!

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.

٩٥٠ - إذا خُلّي عِنان العقل، ولم يحبس على هوى نفسٍ، أو عادةِ دينٍ، أو عصبيّةٍ لسلف، ورد بصاحِبه على النجاة.

٩٥١ - إذا زادك المُلك تأنيساً فزده إجلالاً.

٩٥٢ - مَن تكلّف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه.

٩٥٣ - قليلٌ يُترَقّى مِنه إلى كثيرٍ خَيرٌ مِن كثيرٍ ينحطُّ عَنْهُ إلى قليل.

٩٥٤ - جَنّبوا مَوتاكم في مدافِنِهم جار السُّوءِ، فإنّ الجارَ الصالح يَنْفَعُ في الآخِرةِ كما ينفعُ في الدُّنيا.

٩٥٥ - زُر القُبورَ تَذْكر بها الآخرة، وغسِّل الموتى يتحرَّك قلبك، فإنّ الجسد الخاوي عظةٌ بليغةٌ، وصلّ على الجنائزِ لعلّهُ يُحْزِنكَ، فإنّ الحزِين قَرِيبٌ منَ الله.

٩٥٦ - الموتُ خيرٌ لِلْمُؤمِنِ والكافِرِ، أمّا المؤمنُ فيتعجّل لهُ النعيم، وأمّا الكافرُ فيقلُّ عذابهُ، وآيةُ ذلك من كتاب الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾[1]، ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾[2].

٩٥٧ - جَزعُك في مُصيبَةِ صديقك أحْسَنُ مِنْ صَبْرِك، وصبْرُك في مُصيبتِكَ أحْسَنُ من جَزَعِك.

٩٥٨ - مَنْ خافَ إساءَتكَ اعتقد مَساءَتَكَ، ومَن رهِبَ صَوْلَتَكَ ناصَبَ دَوْلَتك.

٩٥٩ - من فَعَلَ ما شاءَ لَقِيَ ما شاءَ.

٩٦٠ - يَسُرُّني مِن القُرْآنِ كلِمَةٌ أرْجُوها لـمِنْ أسْرَفَ على نَفْسِه ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[3] فَجَعَلَ الرَّحْمَةَ عُموماً والعَذَابَ خُصُوصاً.

٩٦١ - الاسْتِئثارُ يُوجِبُ الحسد، والحَسَدُ يوجب البِغْضَةَ، والبِغضةُ تُوجِب الاخْتِلافَ، والاختلافُ يوجب الفرقَةَ، والفرقةُ توجب الضَّعْفَ، والضّعفُ يوجب الذُّلَّ، والذُّلُّ يوجب زَوال الدَّولةِ، وذهاب النِّعْمَةِ.

٩٦٢ - لا يكاد يَصحّ رُؤيا الكذّابِ، لأنه يخبرُ في اليقظة بما لم يَكُن، فأخرِ بِهِ أن يرى في المنام ما لا يكون.

٩٦٣ - يُفسِدك الظّنُّ على صَديقٍ قَدْ أصلحك اليقين لهُ.

٩٦٤ - لا تكادُ الظُّنون تزدحم عل أمرٍ مستور إلا كشفته.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٨.　(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

٩٦٥ – المشورة رَاحةٌ لَكَ وتعبٌ على غَيْرِك.

٩٦٦ – حقُّ كلّ سرٍّ أن يصان، وأحقُّ الأسرار بالصيانة سرُّك مع مولاك، وسِرُّهُ مَعَك، واعلم أنَّ مَن فَضَح فُضِح، ومَن باح فَلِدَمِهِ أباح.

٩٦٧ – يا مَنْ ألَمَّ بجناب الجلال، احفظ ما عرفت، واكتم ما استودعت، واعلم أنك قَدْ رشحت لأمْرٍ فافطن له، ولا ترض لِنَفْسِك أن تكون خائِناً، فمن يُؤدِّ الأمانة فيما استودِع، أخلَقُ الناس بِسِمة الخيانةِ، وأجدرُ الناسِ بالإبعادِ والإهانة!

٩٦٨ – لا تعامل العامّةَ فيما أنعم به عليك من العلم، كما تعامل الخاصّةَ، واعلم أن الله سبحانه رجالاً أوْدَعَهُمْ أسراراً خفيَّةً، ومَنَعَهُمْ عن إشاعتها، واذكرْ قَوْلَ العَبْدِ الصالح لموسى وقد قال له: هل أتَّبِعُك على أن تعلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً. قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تَصْبِرُ على ما لَمْ تُحِطْ به خبراً!

٩٦٩ – لكلِّ دارٍ بابٌ، وباب دار الآخرة الموت.

٩٧٠ – إن لك فِيمن مضى من آبائك وإخوانك لعبرةً، وإن ملك الموت دخل على داودَ النبيّ، فقال: مَنْ أنت؟ قال: مَن لا يهابُ الملوك، ولا تمنعُ منه القصور، ولا يَقْبَلُ الرّشا، قالَ: فإذَنْ أنت ملك الموت جئت، ولم أستعِدّ بعد! فقال: فأين فلان جارُك، أين فلان نسيبك؟ قال: ماتُوا، قال: ألم يكن لك في هؤلاء عبرة لتستعدَّ!

٩٧١ – ما أخسر صفقة الملوك إلّا مَن عصم الله، باعوا الآخرة بِنَوْمَةٍ.

٩٧٢ – إن هذا الموت قد أفسد على الناس نعيم الدنيا، فما لكم لا تلتمسون نعيماً لا موت بعده!

٩٧٣ – انظر العمل الذي يسرّك أنْ يأتيَك الموت وأنت عليه فافعله الآن، فلستَ تأمَنُ أن تموت الآن.

٩٧٤ – لا تَسْتَبْطِىءُ القيامةَ فتَسْكن إلى طول المدّة الآتية عليك بعد المَوْت، فإنك لا تُفرِق بعد عودِك بين ألفِ سنةٍ وبين ساعةٍ واحدةٍ، ثمّ قرأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[1] الآية.

٩٧٥ – لا بدَّ لك من رَفيقٍ في قَبرك، فاجعله حَسن الوجه طيب الريح، وهو العمل الصالح.

٩٧٦ – رُبَّ مُرْتاحٍ إلى بلد وهو لا يدري أن حمامه في ذلك البلد.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٥.

٩٧٧ - الموت قانص يُصبِي ولا يشوِي.

٩٧٨ - ما من يَوْمٍ إلا يتصفح ملك الموت فيه وجوه الخلائق، فمن رآه على معصيةٍ أو لهوٍ، أو رَآهُ ضاحكاً فرحاً، قال لهُ يا مسكين: ما أغفلك عمَّا يُرَادُ بك! اعمل ما شِئت، فإن لي فيك غمرة أقطع بها وتينَك.

٩٧٩ - إذا وُضع الميِّتُ في قَبْره اعتورَتْه نيرانٌ أربعُ، فتجيءُ الصلاة فتطْفىءُ واحدَةً، ويجيءُ الصومُ فيطفىءُ واحدةً، وتجيءُ الصدقَةُ فتطْفِيءُ واحدةً، ويجيءُ العِلم فيطْفِيءُ الرَّابعةَ، ويقول: لو أدركتهنَّ لأطفأتهنَّ كلّهنَّ، فقرَّ عيناً فأنا معك، ولن ترى بُؤْساً.

٩٨٠ - استجيروا بالله تعالى، واستخيروه في أموركم، فإنه لا يُسلِم مستجيراً، ولا يَحرم مُستخيراً.

٩٨١ - ألأ أدلُّكم على ثمرة الجنة! لا إلٰه إلا الله بشرط الإخلاص.

٩٨٢ - مِنْ شَرف هذِه الكلمة وهي الحمدُ لله. أنّ الله تَعالى جعلها فاتحةَ كتابه، وجعلها خاتمةَ دَعْوى أهل جنتِه، فقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

٩٨٣ - ذَاكِرُ الله في الغافلين كالشجرةِ الخضراء في وَسط الهشيم، وكالدَّارِ العامرةِ بين الرُّبوع الخربةِ.

٩٨٤ - أفضلُ الأعمال أن تموتَ ولسانُكَ رطبٌ بذكْر الله سبحانُه.

٩٨٥ - الذِّكر ذِكرانِ: أحدُهما ذكر الله وتحميدُه، فما أحسنَه وأعظم أجرهُ! والثاني ذكر الله عندما حرَّم الله وهو أفضلُ من الأوّل!

٩٨٦ - ما أضيقَ الطريق على من لمْ يكُن الحقُّ تعالى دَليله، وما أوحشها على منْ لم يكن أنيسَهُ! ومن اعتزّ بغير عزِّ الله ذلَّ، ومن تكثّر بغير الله قلَّ.

٩٨٧ - اللهمَّ إن فههتُ عن مسألتي، أو عمهتُ عن طلبتي، فدُلَّني على مصالحي، وخذْ بناصيتي إلى مراشِدي. اللهمَّ احملني على عفوك، ولا تحملني على عذلكَ.

٩٨٨ - مُخّ الإيمان التقْوى والورعُ، وهما من أفعال القلوبِ، وأحسنُ أفعال الجوارح ألّا تزال مالِئاً فاكَ بذكرِ الله سبحانه.

٩٨٩ - اللهمّ فرّغني لما خلقتني لهُ، ولا تشغلْني بما تكفَلْت لي به، ولا تَحْرِمني وأنا أسألُك، ولا تعذِّبني وأنا أستغفرك.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠.

٩٩٠ - سُبحان من ندعوهُ لحظِّنا فيسرعُ! ويدْعونا لحظِّنا فنبطىءُ! خيْرُه إلينا نازلٌ، وشرُّنا إليه صاعدٌ، وهو مالكٌ قادِرٌ.

٩٩١ - اللهمّ إنا نعوذُ بك منْ بَياتِ غفلة وصباح ندامةٍ.

٩٩٢ - اللهمّ إني أستغفرك لما تبت منهُ إليك ثمّ عذت فيهِ، وأستغفركَ لما وَعدْتُك من نفسي ثمّ أخلفتك، وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها عليَّ فتقوّيتُ بها على مَعْصِيَتِكَ.

٩٩٣ - اللهمّ إني أعوذُ بكَ أنْ أقولَ حقًّا ليس فيه رضاكَ ألتمسُ به أحداً سِواكَ، وأعوذُ بك أن أتزيّن للناسِ بشيءٍ يشينني عندَك، وأعوذُ بك أنْ أكونَ عبرةً لأحدٍ منْ خلقك، وأعوذُ بك أن يكون أحدٌ منْ خلقك أسعد بما علَّمْتني مِنّي.

٩٩٤ - يا من ليسَ إلا هوَ، يا من لا يعلمُ ما هو إلّا هو، اعف عنّي.

٩٩٥ - اللهمّ إن الآمال مَنوطةٌ بكرمك، فلا تقطعْ علائقها بسخطك. اللهم إني أبرأ من الحوْل والقوّة إلّا بك، وأدْرأ بنفسي عن التوكل على غيرِكَ.

٩٩٦ - اللهم صلِّ على محمّدٍ وآل محمّدٍ، كلما ذكرهُ الذاكرونَ، وصلِّ على محمّدٍ وآلِ محمّدٍ كلما غَفَلَ عن ذِكرهِ الغافلون. اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمدٍ عَدَدَ كلماتك، وعددَ معلوماتك، صلاةً لا نهاية لها، ولا غايةَ لأمَدِها.

٩٩٧ - سبحانَ الواحِد الذي ليس غيرُه، سبحان الدائم الذي لا نفاد لهُ، سبحانَ القديم الذي لا ابتداءَ لهُ، سبحانَ الغنيّ عن كلِّ شيء ولا شيءَ من الأشياء يغني عنه!

٩٩٨ - يا الله يا رحمنُ يا رَحيمُ يا حَيُّ يا قيُّومُ يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلالِ والإكرامِ اعفُ عَنّي.

وهذا حِين انتهاءِ قولنا في شَرح نهج البلاغة، ولم ندركْ ما أدركناهُ منهُ بقوّتنا وحوْلنا، فإنّا عاجزون عمّا هو دُونهُ، ولقد شرعْنا فيه وإنّهُ لفي أنفسنا كالطَّوْدِ[1] الأمْلَسِ تَزِلُّ الوُعولُ العُصْمُ عن قَذَفاتِهِ، بل كالفلك الأطلسِ لا تبلُغُ الأوهامُ والعُقولُ إلى حدودِ غاياته، فما زالتْ معونةُ الله سبحانهُ وتعالى تُسَهِّلُ لنا حَزنَه، وتذلِّلُ لنا صعبَهُ، حتّى أصحَبَ أبيّهُ، وأطاعَ عَصيّهُ، وفُتِحَتْ علينا - بحُسن النيّة وإخلاص الطَّويّةِ - في تصنيفهِ أبوابُ البركات، وتيسَّرَتْ علينا مطالب الخيراتِ، حتّى لقد كان الكلامُ ينثالُ علينا انثيالاً، ويُواتينا بَديهَةً وارتجالاً، فَتمّ تصنيفُهُ في مدّةٍ قدرها أربعُ سنينَ وثمانية أشهرٍ، وأوّلها غرّة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة. وآخرُها سَلْخ صفر من سنة تسعٍ وأربعين وستمائة، وهو مقدار مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وما كان

(١) الطَّود: الجبل. القاموس، مادة (طود).

في الظنّ والتقدير أنّ الفراغَ منهُ يقعُ في أقلّ من عشرِ سنينَ، إلّا أنّ الألطاف الإلهيَّة والعنايَة السماوية، شملتنا بارتفاع العوائقِ، وانتفاء الصَّوارفِ، وشحذَتْ بصيرتنا فيه، وأرهفتْ همَّتنا في تشييدِ مبانيهِ، وتنضيدِ ألفاظه ومعانيه.

وكان لسعادة المجلس المؤلَويّ المُؤيّدِي الوزيريّ أجرى الله بالخير أقلامهُ، وأمضى في طُلَى[1] الأعداء حُسامهُ في المعونة عليه أوفَرُ قِسطٍ، وأوفى نصيب وحظٍ، إذ كان مصنوعاً لِخِزانتهِ، ومَوْسُوماً بِسِمَتِهِ، ولأنَّ همتهُ أعلاها الله ما زالت تتقاضى عندهُ بإتمامِه، وتحثُّهُ على إنجازه وإبرامِه، وناهِيك بها من همةٍ راضَتِ الصَّعب الجامِح، وخَفَّفَتِ العِبءَ الفادحَ، ويَسَّرَت الأمر العسير، وقطعَت المَدَى الطَّويل في الزّمن القصير.

وقد استعملتُ في كثيرٍ من فُصوله فيما يتعلَّق بكلام المُتكلمين. والحُكماءِ خاصة ألفاظ القوم، مع علمي بأنّ العربية لا تُجيزُها، نحو قولهمُ: المحسوسات، وقولهمْ: الكلُّ والبَعْضُ، وقولَهم: الصفاتُ الذاتِيَّةُ، وقولهم: الجُسْمانياتُ، وقولهم: أمَّا أوّلاً فالحال كذا، ونحو ذلك مما لا يخفى عمَّنْ له أدنى أنْسٍ بالأدبِ، ولكنَّا استهجَنَّا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتِهم، فمن كلّمَ قوماً كلّمهم باصطلاحِهم، ومَن دخل ظَفارِ حَمَّرَ.

والنسخةُ التي بُنِيَ هذا الشرحُ على نصِّها أتمُّ نسخةٍ وجدنَّا بنهج البلاغةِ، فإنها مشتملةٌ على زياداتٍ تخلو عنها أكثرُ النسخ.

وأنا أستغفرُ الله العظيم من كلّ ذنب يُبْعِدُ من رحمتِهِ، ومن كل خاطرٍ يدْعُو إلى الخروج عن طاعتِه، وأستَشفعُ إليه بمن أنصبْتُ جسدِي، وأسهرْتُ عيني، وأعملت فكري، واستغرَقْتُ طائفَةً من عمُري، في شرح كلامِهِ، والتَّقرُّبِ إلى الله بتعظيمِ منزلته ومقامِه، أن يعتق رقبتي من النَّارِ، وألاّ يبتليني في الدُّنيا ببلاءٍ تَعْجَزُ عنه قُوَّتي، وتَضعفُ عنه طاقَتِي، وأن يصون وجْهي عن المخلوقين، ويَكُفَّ عَنّي عادِيَة الظالمين، إنه سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وحَسْبُنا الله وحدهُ وصلواتُهُ على سينا محمَّدٍ النَّبيِّ وآلِهِ وسلامُه.

آخر الجُزءِ العشرين تمَّ الكتاب

(١) الطُلى: الأعناق. اللسان، مادة (طلي).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الجزء التاسع عشر

الجزء العشرون

شرح

نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الكتاب العربي
بغداد

الفهارس العامة

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
خليوي: ٠٣/٩٤١١١١ - ٠٣/١٦٥١٢٥ - تلفاكس: ٧٢٦٤٠٨
http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com

دار الكتاب العربي
بغداد - شارع المتنبي
تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥

الفهارس العامة

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهارس العامة

فهرس الجزء الأول

فهرس الجزء الثاني

فهرس الجزء الثالث

فهرس الجزء الرابع

فهرس الجزء الخامس

فهرس الجزء السادس

الجزء السابع

فهرس الجزء الثامن

فهرس الجزء التاسع

فهرس الجزء العاشر

فهرس الجزء الحادي عشر

فهرس الجزء الثاني عشر

فهرس الجزء الثالث عشر

فهرس الجزء الرابع عشر

فهرس الجزء الخامس عشر

فهرس الجزء السادس عشر

فهرس الجزء السابع عشر

فهرس الجزء الثامن عشر

فهرس الجزء التاسع عشر

فهرس الجزء العشرون

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الآيات القرآنية

فهرس أطراف الحديث

حرف الألف

أمرتُكم به، ولا أعلم من عمل يقرّبكم إلى النار إلاّ وقد نهيتُكم عنه، وإنّه قد نَفَث الرُّوح الأمين في رُوعي أنّه لن تموت نفس حتى تستوفيَ أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها، فاتّقوا الله ربّكم، وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملنّكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربّكم، فإنه لا يُقْدر على ما عنده إلا بطاعته، قد بيّن لكم الحلال والحرام، غير أنّ بينهما شُبَهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلاّ مَنْ عصم، فمن تركها حفظ عِرْضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالرّاعي إلى جنب الحِمَى أوشك أن يقع فيه ويفعله، وليس مَلِك إلاّ وله حمًى، ألاَ وإنّ حمى الله محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرّأس من الجسد، إذا اشتكى تداعَى إليه سائر جسده. والسلام عليكم» ١٤/ ٣٦٠

«أيها الناس، تجهّزوا فقد ضَرَب فيكم بُوق الرحيل، وابرُزوا فقد قربت لكم نوق التحويل، ودَعُوا التمسّك بخُدَعِ الأباطيل، والركون إلى التسويف والتعليل، فقد سمعتم ما كرّر الله عليكم من قِصص أبناء القُرى، وما وعظكم به من مصارع مَنْ سَلَف من الورى، مما لا يعترض لذوي البصائر فيه شكّ ولا مِرًا، وأنتم معرِضون عنه إعراضَكم عمّا يُختَلق ويفترَى، حتى كأنّ ما تعلمون منه أضغاثُ أحلام الكَرى، وأيدي المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العُرَا، وهجمت بكم على هول مطلعٍ كريه القِرى، فالقهقرى رحمكم الله عن حبائل العطب القهقرى! واقطعوا مفاوِزَ الهلكات بمواصلة السُّرى، وقفوا على أحداث المنزلين من شَناخيب الذُّرَا، المنجلين بوازع أمّ حَبْوْ كَرى، المشغولين بما عليهم من الموت جرى، واكشفوا عن الوجوه المنعمة أطباق الثرى، تجدوا ما بقي منها عِبْرَة لمن يرى. فرحِم الله امرأً رحم نفسه فبكاها، وجعل منها إليها مشتكاها! قبل أن تعلق به خطاطيف المنون، وتصدق فيه أراجيف الظنون، وتَشْرَقَ عليه بمائها مُقَل العيون، ويلحق بمن دَثَر من القرون، قبل أن يبدوَ على المناكب محمولاً، ويغدوَ إلى محلّ المصائب منقولاً، ويكونَ عن الواجب مسؤولاً، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولاً. هناك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، وتقطع الأسباب، وتذهب الأحساب، ويمنع الإعتاب، ويجمع من حَقّ عليه العقاب، ومَنْ وجب له الثواب، فيضرب بينهم بسُورٍ له باب، باطنه

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء